

# الإمام الميرزا محمد

## [مقدمة المؤلف]

### [خطبة الكتاب]

يقول العبد الفقير ، الدليل المضطرّ الحقيّر ، مَنْ هو من صالح الأعمال<sup>١</sup>  
عَرِيّ : أحمدُ بن محمد الشهير بالمقَرِّي ، المغربي المالكي الأشعريّ ، أصلح  
الله تعالى حاله ، وجعل في مَرَضَاتِهِ حِلَّةً وتَرَحَّالَهُ ، ومحا بغَيْثِ الطاعة والرضوان  
أحماله ، وأنجَحَ ببلوغ آماله انتحاه وانتحاله<sup>٢</sup> :

أحمدُ من عَرَفَ من حُلَى الأمصار وعُلَى الأعيان ، على تداول الأعصار  
وتطاوُل الأحيان ، ما فيه ذكرى لأولي الأبصار وإرشادٌ إلى معرفة الديان ،  
واعتبارٌ بأخبار رَاعٍ وصفُها أو راق . وشرفَ مَنْ صَرَفَ المطامح والمطامع ،  
إلى تفصيل ما أفاد لسانُ الدين من كَلِمٍ جوامع ، وتحصيل ما أجاد من حِكَمٍ  
بوالغ سَحْبُ بلاغتها هَوَامِع ، واقتناء ذخائر المهتمدين التي تشنقتُ بدُرِّرها  
اللواميع الآذانُ والمسامع ، من كل منحطٍ عن رتبة البراعة أو راق . حتى توج

١ ط : العمل .

٢ لم ترد هذه الفاتحة في ج ك .

الخطيبُ المجيدُ رؤوس المنابر بفرائد الكلام ، وحلّى الكاتبُ الأديبُ المجيدُ صدورَ المزابر من فوائد الأعلام ، وكحلّ الحكيمُ الطيبُ الأريبُ المفيدُ من إتمد المحابر بمرآود الأقلام عيونَ أوراق .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له الذي ابتداء الخلق من غير مثال وبرآ ، وقسمّ العباد إلى حاضر وبادٍ وظاهر وخامل وقاصر وكامل تشير إليه بالأنامل أيدي الكبرآ ، وأبدى في اختلاف ذواتهم وأعراضهم وتباين أدواتهم وأغراضهم وتغاير ألسنتهم وأمكتهم وأزمنتهم وألوانهم وأكوانهم ومناصبهم ومتناسبهم عبرا ، وجعل الدنيا لمن أتيج صغراً أو كبرا ، ولبس منهم مسوحاً أو حبراً ، وأخلد إلى الأرض أو صعد منبرا ، جسراً إلى الآخرة ومعبراً ، وحكم - وهو الفاعل المختار - على الجميع بالموت فكان لمبتداهم خبراً ، فيها له من داء أعياء كلّ معالج أو راقٍ .

فسبحانه من إله انفرّد بوجوب القدم والبقا ، واختص بفضله من شاء فارتهى ، وعمّ تعالى ذوي السعادة والشقا ، بالخلووث والفنا ، وأذاق من فراق الدنيا كلّ من فيها بلائنا<sup>١</sup> ، ممّن وفقّ فنفي عن جفنه وسنا ، أو خذل فجرّ في ميدان الاغترار رسنا ، وزين له عياداً بالله سوء عمله فراه حسنا، طعم شعوب<sup>٢</sup> المرّ الجحّي ، فلم يغن منه عن ذوي الغنى والغنا ، وأهل السناء والسنا ، من استظفروا به من أرباب الصّوارم والقنا ، وأصحاب النظم والنثر والجدال والفخر والمدح والثنا ، فأولئك ألقوا السلاح مُدعّين ، مستبصرين موقنين ، إذ جاء الحقُّ وزهقَ الباطل وولّى الامترآ ، وهؤلاء تركوا الاصطلاح مُعلمين<sup>٣</sup> ، عالمين أنهم لم يكونوا في التمويه مُحسنين ، وكيف لا وقد اضمحلّ

١ الثنا - بكر التاء وضمها - إعادة الشيء مرتين ، أو الرجوع فيه . وفي ق ك ج : ثنيا .

٢ طعم : مفعول به للفعل « أذاق » . وشعوب : اسم للنية .

٣ ط : معلمين .

الغرور والاجترأ ، وذهب والله الجور<sup>١</sup> والافتراء ، وبَدَّلَ مَذْقُ الإطراء  
بصدق الإطراق<sup>٢</sup> .

وأشكره جلّ وعلا على أن علّم بالقلم ما لم نعلم ، ونبّه بآثاره الدالة على  
اقتداره إلى سلوك الطريقِ الأقوم ، الواضحِ المَعْلَم ، وأرشد من أشرق فكره  
وأصا ، إلى التفويض لأحكام القضا ، ومن ذا يردُّ ما أمضى أو ينقض ما أبرم ،  
والتسليمُ على كل حال أسلم ، وأمرَ جلّ اسمه بالتدبر في أنباء من مضى ،  
والنظر في عواقب أحوال<sup>٣</sup> الذين زال أمرهم وانقضى ، من صنوف الأمم ،  
ووبّخ من دجا قلبه بالإعراض عن ذلك وأظلم ، وشتان ما بين اللاهي والمتذكر ،  
والساهي والمتفكر ، والناجي والهالك والمتحيّر ، والداجي الخالك والمشرق  
النير ، وما يستوي الظلُّ والحُرور ، والحزنُ والسرور ، والظلماتُ والنور ،  
ذو البهجة والإشراق .

وأصلّي أزكى الصلاة والسلام ، هَدِيَّةً لحضرة سيد الأنام ، ولبينة التمام ،  
مَنْ زُوِيَتْ<sup>٤</sup> له من الأرضِ المغاربُ والمشارق ، وتم به نظام أنبياء الله ورسله  
العظام ، وأزاح نوره الضلالَ والظلام ، حتى أضاءت بوسمه المساجد وازدانت  
باسمه المهارق<sup>٥</sup> . وألقى الموفقُ الموافقُ لدعوته بيد الاستسلام ، وذلك شأنُ  
ذوي العقول الراجحة والأحلام ، غيرَ خائفٍ من عتَبٍ ولا مترقبٍ لمَلَامٍ ،  
فأمن من الطوارئ والطوارق ، وتمت كلمة الإسلام الذي اتضح بُرهانه لذي  
بصر وبصيرة لا يحتاج إلى زيادة الإعلام ، وعلت سيوفُ توحيد الملك العلام ،

١ ط ق ج : الزور .

٢ مذك الإطراء : الثناء الكاذب . الإطراق : السكوت .

٣ أحوال : سقطت من ق .

٤ زويت الأرض : جمعت وطويت ، وفي الحديث « إن الله تعالى زوى لي الأرض فأريت مشارقتها  
ومغارها » .

٥ المهارق : الصحف .

من المعاندِ المُفارقِ المُفارقِ<sup>١</sup> ، وخضبتُها بختاء النجيج الرقراق . النبيّ الأميّ الأمين ، الداعي جميع العالمين ، إلى سلوك منهاجٍ ما له من هاجٍ ، ذي أضواء شوارق ، سيد الرسل الغرّ الميامين ، ملجأ الأمة جعلنا الله ممّن نجا باللّجاء إليه آمين ، الذي أنزل عليه القرآن ، هُدًى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان ، وانشقّ له الزبرقان<sup>٢</sup> ، ونبع الماء من بين أصابعه زيادة في الإيقان ، وسلّمت عليه الأحجار ، وانقادت لأمره الأشجار ، متفتيةً ظلّاله الشريفة وخطّت في الأرض أسطراً مُبدّعة الإبتقان ، إلى غير ذلك من معجزاته الخوارق ، فهو صاحب الدعوة الجامعة ، والبراهين اللامعة ، والأدلة التي سقت الشجرة الطيبة غيوثها النافعة ، الصيّبة الهامية الهامعة ، الصادقة البوارق ، فأثمرت النجاة والفوز والفلاح وأورقت بالهدى أحسن إبراق . أسنى رسولٍ بُعث إلى الأرض ، وأعظمهم جلالته ، وأكثرهم تابعاً في الطول منها والعرض ، ولم لا وقد ظهر به الحقُّ لمن أمّه مُسترشداً وجلا له ، وأسمى من جاء بتبيين السنّة والفرض ، وأعمّهم دلالة ، منقذ البرايا في الدُّنيا ويوم العرض ، الآخذ بمُجزهم عن النار والضلالة ، الداعي إلى تقديم الخير وحسن القرض ، الحريص على هداية الخلق المبلّغ لهم أحكام الحق من غير ضجر ولا ملالة ، ذو الفضل العظيم الذي لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان ، والمجد الصميم الثابت الأصول الباسق الأفتان ، المنتقى من محدّد معدّ بن عدنان ، المنتخب من خير عنصُر وأطهر سلالة ، شفيعنا وملاذنا وعصمتنا ومعاذنا وثمالنا ، الذي نجحت به آمالنا ، وزكت به أقوالنا وأعمالنا ، ووسيلتنا الكبرى ، وعمدتنا العظمى في الأولى والأخرى ، وكثرنا الذي أعددناه لإزاحة الغيوم ذُخراً ، وغيثنا وغوثنا وسيدنا ونبيّنا ومولانا محمّد الطيب المنابت والأعراق .

١ المفارق : جمع مفرق وهو الرأس ، وهو مفعول به للفعل « علت » .

٢ الزبرقان : القمر .

صلى الله وسلم عليه ، ووجه وفود التعظيم إليه ، من مُفردٍ في جماله  
صار لجمع الأنبياء تماماً ، وقدّ في كماله تقدّم في حضرة التقديس التي أسست  
على التشريف أعظم تأسيس فصلتي<sup>١</sup> بالمرسلين إماماً ، وصدرٍ تحلّى بجميل  
الأوصاف ، كالوفاء والعفاف ، والصدق والإنصاف ، فزكا في أعماله ،  
وبلّغ الراحي منتهى آماله ، ولم يُخلفِ وعداً ولم يخفِر ذماماً ، وسيدٍ  
كُسيّ حُلل العِصمة ، من كل مخالفة وذنب ووِصمة ، فلم يصرف لغير  
طاعة مولاه ، الذي أولاه من التفضيل ما أولاه ، اهتبالاً واهتماماً .

وعلى آله وعترته ، الفائزين بأثرته ، أنصار الدين ، والمهاجرين المهتدين ،  
وأشباعه وذريته ، الطالعين نجومياً في سماء شهرته ، وأتباعهم القائمين بحقوق  
نُصرته ، أرباب العقل الرصين ، الفاتحين بسيوف دعوته أبواب المعقل  
الحصين ، حتى بلغت أحكام ملته ، وأعلامُ بعثته ، منْ بالأندلس والصين ،  
فضلاً عن الشام والعراق .

ورضي الله تعالى عن علماء أمته المصنفين في جميع العلوم والفنون ، وعظماء  
سنته الموفين للطلاب بالآراب المحققين لهم الظنون ، وحكماء شِرْعته  
المتبصرين بحدوث من مرّت عليه الأيام والشهور وكرّت عليه الآناء والدهور  
والأعوام والسنون ، المتدبرين في عواقب منْ كان بهذه البسيطة من السكان  
المتذكّرين على قدر الإمكان بمن طَحّنته رِحا المنون ، من أملاكِ العصور الخالية  
ومُلاكِ القصور العالية وذوي الأحوال التي هي بسلوك الاختلاف حَالِيّة ، من  
بصير وأعمى وفقير وذو نَعْمى ومُختال تَرَدَّى بكبريائه ، ومُختال على ما  
بأيدي الناس بسُمعته وريائه ، وعافل أحسن العمل ، وغافل افتتن بالأمل ،  
وكارعٍ في حياض الشريعة ، وراتع برياض الآداب المريعة ، وذو ورَعٍ  
سَدَّ عما رابه الذريعة ، وأخي طمع في أن يدرك آرابه من الدنيا الوشيكة

الزوال السريعة ، ومقتبس من نبراس الرواية ، وملتبس بأدناس الغواية ،  
 وشاعر هام في كل واد ، وقال ما لم يفعل فكان للغاوين من الرواد ، وجاهل  
 عمَرَ الخراب ، وخُدع بالسرّاب ، عن أعذب الشراب ، ومحقق علم أنّه  
 إذا جاء القَدَر عميَ البصر ممّن كان أَحَدَرَ من غُرّاب ، وموفق تيقن أنّ  
 غيرَ الله فان وكل الذي فوق السراب تُراب<sup>١</sup> ، ومن متخلق متجرّد  
 تَصَوَّف<sup>٢</sup> ، ومُتعلق متفرد تشوّق إلى ما فيه رضا الرب وتشوّف ، ونَاهِ  
 ذكّر بأيام الله وَوَعَظَ وَخَوَّفَ ، ولاه اغتر بالباطل ، فهو بالحق  
 ماطل ، وطالما أَحْرَهُ وَسَوَّفَ ، وأبعد الانتجاع ، ثم أوى من باطنه  
 إلى بيت قَعِيدَتُهُ لِكَاعِ<sup>٣</sup> ، نفسٍ أمارَة بعدما طوّف ، ومن مادح  
 نظم الآلاء نظم اللآل ، وكادح طَمَسَ لآلاء العزّ بظلمة ذلّ السؤال ،  
 فجعل القصائد مصاديد ، والرسائل وسائل ، والمقطّعات مُرَقَّعات<sup>٤</sup> ، قال أمره  
 إلى ما آل ، ومن مُخْبِرٍ بما سمع ورأى ، حين اغترب عن مكانه ونأى ، أو أقام  
 في أوطانه فبلغ ما قدر ووَأَى<sup>٥</sup> ، ومن مُجَازِفٍ لا يفرّقُ بين الغثّ والسمين  
 والإمرار والإحلاء ، وعارفٍ ثقةٍ أمينٍ نَظَمَ دُرّ الصدفِ الثمين في أسلاك  
 الكتابة والإملاء ، وعاشقٍ خنساءٍ فكره ذات الصدّار ، من الشجون والشعار ،  
 تبكي على صَخْرٍ قلبِ المحبوب ، وتذكره كلّما طلعت شمس أو كان للصبّا

١ يشير إلى قول المتنبي :

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

٢ متخلق : لايس أخلاق الثياب ، وهو ذو خلق . ومتجرد : عريان ، أو قد جرد نفسه للعبادة .

٣ من قول الحطيئة :

أطوف ما أطوف ثم أوي إلى بيت قعيدته لكاع

والقعيدة اللكاع هنا : نفسه الأمارَة بالسوء .

٤ المرقات : ملابس المتصوفة ، والمعنى أنه جعل مقطعاته الشعرية وسيلة للتصيد كمرقات المتصوفة .

٥ وأى : وعد وضمن بعزم .

هُبُوبٌ ١ ، فتأتي بما يُظفي وَقودَ الجوى المشبوب من بحار الأشعار ، ويلي شوقه العفيفة عن العار ، تَرَفُّلٌ في ثوب من التصبّر مُعَار ، وقيس تَوَقُّفه من ثوب السلوِّ عار ، قد تولَّه واشتاق خصوصاً عند انتشاق البشام والعرار ٢ ، وقلقَ لما أرقَ فلم يقرَّ به قرار ، فاعتراه ما يراه وألف البكاء بحكم الاضطراب ، ولَبِيسَ ثياب النحول والاصفرار ، وأسيرَ لما هزمتْ جيوشُ صبره وأزمتِ الفرار ، فتحير مما شجاه وسأل النجاة من أسر الفراق .

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُو ظَ فلا عتابَ ولا ملامَةَ  
 أَعْمَى وَأَعشى ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وزرقاءَ اليمامة ٣  
 وَمُسَدَّدٌ أَوْ جَائِرٌ أَوْ حَائِرٌ يَشكو ظلامَةَ ٤  
 لَوَلا استقامةٌ مَنْ هدا ه لَمَّا تَبَيَّنَتِ العلامَةَ  
 ومجاورُ العرَرِ المخي فِ لَهُ اليشارةُ بالسلامة  
 وأخو الحجى في سائرِ الأ أنفاسِ مُرتقبٌ حِمامَةَ  
 وكما مَضَى مَنْ قَبْلَهُ يَمْضِي ولم يقضِ الترامَةَ  
 والجاهلُ المغرُّ مَنْ لم يجعلِ التقوى اغتِنامَةَ  
 فليرفضِ العصيانَ مَنْ يَحشى مِنَ اللَّهِ انتقامَةَ

١ أم هنا بإشارات إلى الحنساء التي لبست صداراً على أخيها صخر فلم تنزعه حتى ماتت ، وكانت تقول في شعرها :

« يذكرني طلوع الشمس صخرأ »

٢ فيه إشارات إلى قيس وليل ، واشتداد الشوق عندما يبب التسييم حاملا معه رائحة البشام والعرار وهما نباتان طيبا الرائحة من نبات نجد .

٣ أي أن الناس متفاوتون في حظوظهم فمنهم - من حيث الإبصار - الأعمى والأعشى والحاد البصر الذي يشبه زرقاء اليمامة ، وهي مضرب المثل في ذلك ، وقصة رؤية الجيش الذي غزا اليمامة من مسيرة أيام مشهورة . وفي ق ط ج : أعشى وأعمى .

٤ مسدد : حسن التوجه . الجائر : الحائد عن القصد . الحائر : الذي لا هو مسدد ولا جائر .

وليعتبرُ بسواهُ مَنْ لصلاحه صرَفَ اهتمامه  
 فالعيشُ في الدنيا الدنية غيرُ مرجو الإدامة  
 مَنْ أرضعتهُ ثديها في سُرعَةٍ تبدأ فطامة  
 مَنْ عَزَّ جانبُهُ بها تنوي على الفورِ اهتمامه  
 وإذا نظرتِ فأينَ مَنْ منَعتهُ أو منَحَتِ مرامه  
 ومَنْ الذي وهبته وصَ حَبلاً فلم يَخشِ انصرامه  
 ومَنْ الذي مدَّتْ له سَرَّتْهُ مخفيةُ الدَّامة<sup>١</sup>  
 كم واحدٍ غرَّتْهُ إذْ يَعْلَمُ فلم يملكِ قيامه  
 قعدتْ به من حيثُ لم كانتْ بها ذاتِ استهامه<sup>٢</sup>  
 أين الذين قلوبُهُم ظلَّ السيادة والزَّعامه  
 أين الملوكِ ذوو الرياسة والسياسة والصَّرامه  
 وبنو أمية حينَ جمَّ عَصْرُهُم لهمُ فثامه  
 وتمسكنا ممَّن يحا ول نقضَ ما شاعوا انبرامه  
 وتعشقوا لما بدأ لهمُ مُحياً الأرضِ شامه<sup>٣</sup>  
 وتأملوا وجهَ البسيطة فانشنوا يهون شامه<sup>٤</sup>  
 حتى تقلَّصَ ظلُّهم وأراهمُ الدهرُ اخترامه  
 أين الخلائفُ منِ بني العباسِ والبرِّ والقسامه<sup>٥</sup>

١ ق : مخفرة ذمامه .

٢ الاستهامه : مصدر « استهام » بمعنى هام ، أي شغف .

٣ أي أنهم عشقوا وجه الأرض لما تبدي لهم شامة جذابة .

٤ شامه : ديار الشام . والبيت سقط من ق ط .

٥ القسامه معان : فمها اليمين ، ورجل بر اليمين : لا يبحث بها ، والقسامه أيضاً : الهدنة بين المسلمين وأعدائهم ، والبر القسامه : يشير إلى العباس عم الرسول وله مواقف في الوفاء المذكورة في كتب السيرة ؛ وبه استسقى عمر بن الخطاب لما قطع الناس ، ويمكن أن يكون معنى =



أَيْنَ الرَشِيدُ وَأَهْلُهُ  
ووزِيرُهُ يَحْيَى وَجَعَدُ  
وَالْفَضْلُ مُدَّثِي مَنْ يَقُو  
أَمْ أَيْنَ عَنْتَرَةُ الشَّجَا  
وَالزَّاعِمُونَ بِجَهْلِهِمْ  
وَالْمَكْرُونُ مِنَ الْمَجْرُ  
أَيْنَ الْغَرِيضُ وَمَعْبَدُ  
أَيْنَ الْأُتَى هَامُوا بِسَعْدُ  
وَبَكَوْا لْفَرْطِ جَوَاهِمُ  
وَتَتَبَعُوا آثَارَ مَنْ  
وَتَعَلَّلُوا ، وَالشُّوقُ يَغْلُ  
أَضَى النَّوَى قَيْسًا فَقَا  
وَعَوَى هَوَى غَيْلَانَ مُذْ  
أَيْنَ الْأَكَاسِرُ وَالْقِيَا  
أَيْنَ الَّذِي الْهَرْمَانِ مِنْ

وَبَنُوهُ أَصْحَابُ الشَّهَامَةِ  
فَمَرُّ ابْنِهِ الرَّائِي احْتِشَامَةٌ  
لُ مَنْ يَلُومُ عَلَى النَّدَى مَهْ  
عُ وَذُو الْجَدَا كَعَبُ بْنُ مَامَةَ  
أَنَّ الْقُبُورَ صَدَى وَهَامَةٌ  
نِ إِذَا شَكَا الْفَكْرُ اغْتِمَامَةٌ  
أَوْ أَشْعَبُ وَأَبُو دُلَامَةَ  
دَى أَوْ بَثِينَةَ أَوْ أَمَامَةَ  
وَاللَّيْلُ قَدْ أَرَخَى ظَلَامَةَ  
عَشِقُوا بَيْنَجْدٍ أَوْ تِهَامَةَ  
بُ ، بِالْأَرَاكِ وَالْبِشَامَةَ  
سَى لِأَعْبَا أَغْرَى غَرَامَةَ  
أَبْدَى بِمَيْتِهِ هِيَامَةَ  
صِرَّةُ الْمُجَلِّونَ الْغَمَامَةَ  
بُنْيَانِهِ الْحَاكِي اعْتَرَامَةَ

= « برالقمامة » هو هذا نفسه ، أي استخلف به مستقيماً فبر .

١ كعب بن مائة الإيادي : مضرب المثل في الإيثار ، لأنه آثر صاحبه النعمي بالماء ومات هو ظمأً ( انظر السمت : ٨٤٠ وفصل المقال : ٢٧٨ ) .

٢ يشير إلى قول بعض الجاهليين :

نجبرنا ابن كبشة أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام

٣ غيلان بن عقبة المري ، هو ذو الرمة الشاعر ، صاحب مية .

٤ المجلون الغمامة : الكاشفون الغمام أي الكربات .

٥ ضمن في هذا البيت قول المتنبي :

أين الذي الهرمان من بنيانه ما يومه ما قومه ما المصرع

أمْ أَيْنَ غُمْدَانٌ وَسِيْفٌ  
 أَيْنَ الْخَوْرَنْقُ وَالسَّيْفُ  
 وَمَدَائِنُ الْإِسْكَنْدَرِ  
 أَيْنَ الْحُصُونُ وَمَنْ يَصُو  
 أَيْنَ الْمَرَائِبُ وَالْمَوَا  
 أَيْنَ الْعَاكِرُ وَاللِّسَا  
 وَسَقَاتُهَا الْمُتَلَاعِبُو  
 مِنْ كُلِّ أَهِيْفَةٍ يَزْدَرِي  
 ذِي غُرَّةٍ لِأَلَاؤِهَا  
 فَالشمسُ فِي أَزْرَارِهِ  
 يُصْنِي الْقُلُوبَ إِذَا رَمَى  
 وَيُرِيقُ حُسْنًا إِنْ رَنَّا  
 أَنِّي لَهَا ثَغْرٌ حَلَا  
 أَنِّي لَهَا وَجْهٌ يَشْبُ  
 أَسْتَفْغِرُ اللَّهَ لِلْغُ  
 بَلْ أَيْنَ أَرْبَابُ الْعُلُو  
 وَذُؤُوبُ الْوِزَارَةِ وَالْحِجَا  
 كَالْأَمَةِ سَكَنُوا بِأَنْزِ  
 هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا الَّتِي  
 لَا سِيْمَا غُرْنَابَةٌ الِ  
 وَهِيَ الَّتِي دُعِيَتْ دِمَشْقُ

فٌ وَالْوَفُودُ بِهِ أَمَامَةٌ ١  
 رُ وَمَنْ شَقَىٰ بِهِمَا أَوَامَةٌ ٢  
 لِأَنَّهَا أَعْلَىٰ دِعَامَةٌ  
 نٌ بِهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ حُطَامَةٌ  
 كُبُ وَالْعَصَابُ وَالْعِمَامَةٌ  
 كُرُ وَالنَّدَامَىٰ فِي الْمُدَامَةِ  
 نَ بَلْبٌ مَنْ أَعْطَوْهُ جَامَةً  
 بِالْغُصْنِ إِنْ يَهْزُرُ قَوَامَةٌ  
 تَمْحُو عَنْ النَّادِي ظَلَامَةٌ  
 وَالْبَدْرُ فِي يَدِهِ قَلَامَةٌ  
 عَنْ قَوْسِ حَاجِبِهِ سِهَامَةٌ  
 وَيَفُوقُ آرَامًا بِيرَامَةٌ  
 ذَوْقًا لِمَنْ رَامَ التَّثَامَةَ  
 بِقَلْبِ مُبْصَرِهِ ضِرَامَةٌ  
 وَلَا يَرَىٰ الشَّرْعَ اعْتِيَامَةٌ  
 مِ أَوْلُو التَّصَدُّرِ وَالْإِمَامَةَ  
 بِيَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْعِلَامَةَ  
 لِدَلْسٍ فَلَمْ يَشْكُوا سَامَةَ  
 قَدْ أَذْكَرَتْ دَارَ الْمُقَامَةَ  
 خِرَاءُ رَائِقَةُ الْوَسَامَةَ  
 قَ وَحَسْبُهَا هَذَا فَخَامَةٌ

١ غمدان : قصر باليمن . وسيف : هو ابن ذي يزن ، ولما اعتل العرش وفدت عليه الوفود لهبته  
 وكان فيها وفد قريش .

٢ الأوام : العطش .

تزلزل أهلها بها  
وأنت جيوش الشام من  
فسلوا بها عن جلق  
وبدا لهم وجه المنى  
وتبواؤها حضرة  
بروائها وبماها  
ورياضها المهترئة ال  
وبمريجها النضر الذي  
وقصورها الزهر التي  
يا ليت شعري أين من  
وأتيح في حمرائها  
أين الوزير ابن الخطيب  
فلكم أبان العدل في  
ولكم أجار عداً وكم  
راعت صروف الدهر دو  
حتى ثوى إثر التوى  
من زارها في أرض فا  
إذ نبهته لكل شد  
هذا لسان الدين أس  
ومحا عبارته فمن  
فكانه ما أمسك ال

إذ أظهر الكفر انهزامة  
باب نفي الفتح انبهامة  
إذ أشبهتها في الضخامة  
وأراهم الثغر ابتسامه  
تبري من المضي سقامة  
وهوائها النافي الوخامة  
أعطاف من شدو الحمامه  
قد زين الله ارتسامه  
يأبى بها الحسن انقسامه  
أمضى بها الملك احتكامه  
عزاً به زان اتسامه  
ب بها فما أحلى كلامه  
أرجائها وبها أقامة  
أجرى ندى والى انسجامه  
لته وما راعت ذمامه  
في حفرة نثرت نظامه<sup>١</sup>  
س أذهبت شجواً منامه<sup>٢</sup>  
ل شتت الموت الثمامه  
كته وأسكنه رجمه  
حياه لم يردد سلامه  
قلم المطاع ولا حسامه

١ التوى : الهلاك .

٢ قبر لسان الدين بمدينة فاس عند باب المحروق منها .

وكأنته لم يعلم مت	ن مطهم بارى النعامه
وكأنته لم يرق غا	رب الاعتزاز ولا ستامه
وكأنته لم يحل وج	ها حاز من بشر تمامه
وكأنته ما جال في	أمر ولا نهى وسامه
وكأنته ما نال من	ملك حباه ولا احترامه <sup>١</sup>
وكأنته لم يلتق في	يده لتدبير زمامه
مذ فارق الدنيا وقد	وض عن منازلها خيامه
أمتى بقبر مفرداً	والترب قد جمعت عظامه
من بعد ثنية الوزا	رة جاده صوب الغمامه <sup>٢</sup>
لم يبق إلا ذكره	كالزهر مفتر الكمامه
والعمر مثل الضيف أو	كالطيف ليس له إقامة
والموت حتم ثم به	د الموت أهوال القيامة
والناس مجزون عن	أعمال ميل واستقامة
فدوو السعادة يضحكو	ن وغيرهم يبكي ندامه
والله يفعل فيهم	ما شاء ذلاً أو كرامه
ويشقق المختار في	هم حين يبعثه مقامه
وعليه خير صلاته	مع صحبه تلو سلامه
والتابعين ومن بدأ	برق الرشاد له فشامه
ما فاز بالرضوان عب	د كانت الحسنى ختامه

والله سبحانه المسؤول في الفوز والنجاة كراماً منه وحلماً ، فبيده الخير لا إله إلا هو العليّ الكبير ، العليم الخبير ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء من مخلوقاته على الشمول والاستغراق .

١ حياه : أي حياه وهو العطاء .

٢ ثنية الوزارة : أي ذو الوزارتين وهو لقب لسان الدين .

[حنين إلى الوطن]

أماً بعدَ حمد الله مالك الملك ، والصلاة على رسوله المنجّي من الهلك ،  
والرضا عن آله وصحبه الذين تجلّت بأنوارهم الظلم الحنك ، وعن العلماء  
الأعلام ، الخائضين بحار الكلام ، المستوين من البلاغة على القلنك - فيقول  
العبد الحقير ، المذنب الذي هو إلى رحمة ربّه الغنيّ فقير<sup>١</sup> ، المقصّر المتبريء  
من الحول والقوّة ، المتمسك بأذيال الخدمة للسنة والنبوّة ، وذلك بفضل الله  
أمان وبراءة ، الضعيفُ الفاني ، الخطّاء<sup>٢</sup> الجاني ، من هو من لباس التقوى عريّ ،  
أحمد بن محمّد بن أحمد الشهير بالمقريّ ، المغربي المالكي الأشعري<sup>٣</sup> ، التلمسانيّ  
الموليد والمنشأ والقراءة ، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة ، أصلح الله أحواله  
الباطنة والظاهرة ، وجعله من ذوي الأوصاف الزكية<sup>٤</sup> والخلال الطاهرة ، وسدّد  
في كل قصد أنحائه وآراءه ، ووفّقه بمنه وكرمه للأعمال الصالحة ، والطاعات  
الناجحة الراجحة ، والمتاجر المغبوظة الراجحة ، والمساعي الغادية بالخير الراضحة ،  
ووقاه ما بين يده ووراءه ، وكفاه مكر الكائد واقتراءه ، وجدّال الحاسد  
المستأسد وميراءه ، وجعل فيما يرضيه سوّمه وشراءه ، أمين :

إنّه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقّب أو ردّ ، ولا محيد  
عما شاءه سواء كرهه ذلك المرء أو ردّ ، برحلي من بلادي ، ونقّلتني عن  
حلّ طارفي وتيلادي ، بقطر المغرب الأقصى ، الذي تمت محاسنه لولا أنّ  
سماسيرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصا ، وطما به بحر الأهوال فاستعملت  
شعراء العيث في كامل روثقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووقصا :

١ في ج ق ط : رحمة الغني فقير .

٢ ق : المخطيء .

٣ في ط ق : المالكي المغربي .

٤ في ج ق ط : الزاكية .

قُطِرُ كَانَ نَسِيمَهُ نَفَحَاتُ كَافُورٍ وَمِسْكَ  
وَكَانَ زَهْرَ رِيَاضِهِ دُرٌّ هَوَى مِنْ نَظْمِ سِلْكَ

وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف ، تاركاً المنصب  
والأهل والوطن والإلف :

بَلَدٌ طَابَ لِي بِهِ الْأَنْسُ حِيناً وَصِفَا الْعَوْدُ فِيهِ وَالْإِبْدَاءُ  
فَسَقَتْ عَهْدَهُ الْعِهَادُ وَرَوَّتْ مِنْهُ تِلْكَ النُّوَادِي الْأَنْدَاءُ

وما عسى أن أذكر في إقليم ، تعيينَ حجةِ فضلهِ التسليم :

أَضْوَاؤُهُ طَبِيقُ الْمَيِّ ، وَهَوَاؤُهُ يَشْتَاقُهُ الْوَهَّانُ فِي الْأَسْحَارِ  
وَالطَّبِيعُ مَعْتَدِلٌ فَقُلْ مَا شِئْتَهُ فِي الظِّلِّ وَالْأَزْهَارِ وَالْأَنْهَارِ

محل فتح الكمام ، ومسقط الرأس وقطع التمام :

بِهِ كَانَ الشَّابُّ اللَّدْنُ غَضًّا وَدَهْرِي كُلَّهُ زَمَنَ الرَّبِيعِ  
فَفَرَّقَ بَيْنَنَا زَمَنٌ خَوْونٌ لَهُ شَغَفٌ بِتَفْرِيقِ الْجَمِيعِ

لم أنس تلك النواصم ، التي أيامها للعمر مَوَاسِمُ ، وثغورها بالسرور بواسم ،  
فصرت أشير إليها وقد زُمت للرحيل القُلُصُّ الرِوَاسِمُ :

وَلَنَا بِهَاتِيكَ الدِّيَارِ مَوَاسِمٌ كَانَتْ تُقَامُ لَطِييْهَا الْأَسْوَاقُ  
فَأَبَانَتَا عَنْهَا الزَّمَانُ بِسُرْعَةٍ وَغَدَتْ تُعَلَّلُنَا بِهَا الْأَشْوَاقُ

وأنشد قولَ غِيْلَانَ :

أَمْنَزِلْتِي مَيِّ سَلَامٌ عَلَيْكَمَا هَلِ الْأَزْمُنُ الْأَلَامِي مَضِيْنَ رَوَاجِعُ

١ هو ذو الرمة الذي تقدمت إليه الإشارة ، والبيت في ديوانه : ٣٣٢ .

وأتمثل في تلك الحدائق التي حمائها سواجم ، بقول من جفونهُ من  
الهوى غير هواجم :

تَشْدُو بِعِيدَانِ الرِّيَاضِ حَمَائِمُ      شَدَّوْ القِيَانِ عَزَفْنَ بالأَعْوَادِ  
مَادَ النِّسِيمُ بِقُضْبِهَا فتمَايَلَتْ      مُهْتَرَّةَ الأَعْطَافِ والأَجْيَادِ  
هَذي تودِعُ تلكَ توديعَ التي      قَدِ آذَنْتَ مِنْهَا بوشَكَ بِعَادِ  
وَاسْتَعْبَرَتْ لفرَاقِهَا عَيْنُ النَّدَى      فابْتَلَّ مِزْرُ عِطْفِهَا المِيَادِ

وأحدق النظر إلى رَوْضٍ ، لإنسان العين من فراقه في بحر الدموع سَبَّح  
وخصَّوص :

رَوْضٌ بِهِ أَشْيَاءٌ لِي سَتَ فِي سِوَاهِ تَوَلَّفُ  
فَمِنَ الهَزَّارِ تَرْتُمُ      وَمِنَ القَبْضِيبِ تَقَطُّفُ  
وَمِنَ النِّسِيمِ تَلطُّفُ      وَمِنَ العُذَيْرِ تَعَطُّفُ

وألتفت كالمستريب ، والحيُّ إذ ذاك قريب ، وحديث العهد ليس بمنكر  
ولا غريب :

أهذا ولما تَمَضَّ لِلبَّيْنِ سَاعَةٌ      فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ شُهُورُ  
والآثار لائحة ، والشمال غادية بأذكي رائحة ١ :

أرَى آثارَهُمْ فَأَذُوبُ شَوْقًا      وَأَسْكُبُ مِنْ تَذَكُّرِهِمْ دُمُوعِي  
وَأَسْأَلُ مَنْ قَضَى بِفِرَاقِ حَبِي      يَمُنُّ عَلَيَّ مِنْهُمْ بِالرَّجُوعِ

والنفس متعللة ببعض الأنس ، والمشاهدُ الجميلة لم تُنس :

تِلْكَ العُهُودُ بِشِدِّهَا مِخْتِومَةٌ      عِنْدِي كَمَا هِيَ عَقْدُهَا لَمْ يُحْلَلْ

١ ك : غادية ورائحة .

غير أن الرّحيل ، عن الرّبع المُحيل ، فُصِّلَ به بين الشائق والمشوق وحيل :

وقفتنا برّبعِ الحِبِّ والحِبِّ راحلٍ      نحاولُ رُجْعَاهُ لَنَا وَيُحَاوِلُ  
وَأَلْقَتْ دَمُوعُ الْعَيْنِ فِيهِ مَسَائِلًا      لها عن عِبَارَاتِ الْغَرَامِ دَلَائِلُ  
وبالشفح منها كم سَقَيْتُ لِبَانِهَا      فَمَيْلَتُهُ وَالسَّفْحُ لِلْبَانِ مَائِلُ  
إِذَا نَسَمَةُ الْأَحْبَابِ مِنْهَا تَنَسَمَتْ      تَطِيبُ بِهَا أَسْحَارُنَا وَالْأَصَائِلُ  
تُشِيرُ شَجُونِي سَاجِعَاتُ غَصُونِهَا      فَمِنْهَا عَلَى الْحَالِيْنَ هَاجَتْ بِلَابِلُ  
مِرَابِعُ الْأَقْيَامِ مَرَاتِعُ لَدَّتِي      مَطَالَعُ أَقْمَارِي بِهَا وَالْمَنَازِلُ

فحيّاها الله من منازل ذاتِ أقمارٍ سائِرةٍ فيها ، ومنازِهَ لا يُحصي  
الواصفُ محاسنها وأمداحَ أهلها ولا يستوفيهما :

حلّوا عقودَ اصطباري عندما رحلوا      وفي الخمائلِ حلّوا مثلَ أمطارِ  
إنّ المنازلَ قدْ كانتْ منازِهَ إذ      باتوا بها وهي أوطاني وأوطاري

ورعى الله منّ بان ، وشاق حتى الرّند والبان :

باتوا لعيني أقماراً تقلّهم      لُدْنُ الْغَصُونِ فَلَمَّا آنسوا بانوا  
عهودهم لست أنساها ، وكيف وقد      رَمَى لِبِنِي عَنْهَا الرّندُ والبانُ

وفي مثل هذا الموطن تذوب القلوب الرقاق ، كما قال حائر قصبِ السبّوقِ  
بالاستحقاق ، الأديبُ الأندلسي الشهير بابن الزّقاق<sup>٢</sup> :

وقفتُ على الرّبوعِ ولي حنينٌ لساكنهنَّ ليس إلى الرّبوعِ

١ ك : مرابع ليل في .

٢ ابن الزقاق علي بن عطية (حدود ٥٣٠) ابن أخت الشاعر الأندلسي أبي إسحاق ابن خفاجة ،

وترجمته في التكملة : ١٨٤٤ والذيل والتكملة ٥ : ٢٦٥ والمطرب : ١٠١ والفوات ٢ :

١٢٥ والمغرب ٢ : ٢٢٣ ، والبيتان في ديوانه : ١٩٨ .



ولو أني حننتُ إلى مغاني أحبائي حننتُ على ضلوعي

وكما قال بعض من له في هذه الفجاج مسير :

دخولك من باب الهوى إن أردتهُ سيرٌ ، ولكن الخروجَ عسيرٌ

وأين من له صفاة لا يطمع الدهر القوي في نحتها ، وجنات دنيوية  
لا تجري أنهارُ الفراق من نحتها :

فستقى رضيعَ النبت من ذلك الحمى بحياً تلور على الربى كاساته  
سفعٌ سفحتُ عليه دمعي في ثرى كالمسك ضاع من الفتاة فتاته

ولم أزل بعد انفصالي عن الغرب بقصد الشرق ، واتصافي<sup>١</sup> في أثر ذلك  
الجمع بالفرق :

أحينُ إذا خلوتُ إلى زمان تقضى لي بأفنية الربوع  
وأذكرُ طيبَ أيام تولتُ لنا ففتييض من أسفِ دموعي

وأتوق وقد اتسع من البعد الحرقُ ، وخصوصاً إذا شدا صادقٌ أو أومض  
برق ، إلى ديار لا يعلمها اختيار :

وأربعُ أحبابٍ إذا ما ذكرتها بكيتُ ، وقد يبكيك ما أنت ذا كبرُ  
بطاحٌ وأدواحٌ يروقك حسنها بكلّ خليجٍ نمنته الأزاهيرُ  
فما هو إلاّ فضةٌ في زبرجدٍ تساقطَ فيه اللؤلؤُ المتناثرُ  
بحيثُ الصبا والتربُّ والماءُ والهوى عيرٌ وكافورٌ وراحٌ وعاطرُ  
وما جنةُ الدنيا سوى ما وصفتهُ وما ضمّ منه الحسنُ نجدٌ وحاجيرُ  
بيلادي التي أهلي بها وأحبيتي وقلبي وروحي<sup>٢</sup> والمنى والخواطرُ

١ ك : واتصالي .

٢ ك : وروحي وقلبي .

تذكرني أنجادها وهادها  
 إذ العيشُ صافٍ والزمانُ مساعدٌ  
 بحيثُ ليالينا كغضِّ شبابنا  
 لياليَ كانتُ للشبيبةِ دولةً  
 سلامٌ على تلك العهودِ فإنها  
 عهداً مضت لي وهي خضرتُ نواصرُ  
 فلا العيشُ مملولٌ ولا الدهرُ جائرُ  
 وأيامنا سلكٌ ونحنُ جواهرُ  
 بها ملكُ اللذاتِ ناهٍ وأميرُ  
 مواردُ أفراحٍ تلتها مصادرُ

وأذكر تلك الأيام ، التي مرت كالأحلام ، فأتمثل بقول بعض الأكاير  
 الأعلام :

يا ديارَ السرورِ لا زالَ يبكي  
 ربَّ عيشٍ صحبتهُ فيكِ غَضٌّ  
 في ليلٍ كآتهنَّ أمانِ  
 وكأنَّ الأوقاتَ فيكِ كؤوسِ  
 زمنٌ مُسعِدٌ وإلفٌ وصُولُ  
 فيكِ إذ تضحكُ الرياضُ غمامُ  
 وعيونُ الفراقِ عتاً نيامُ  
 في زمانٍ كآتهُ أحلامُ  
 دائراتٌ وأنسهنَّ مُدامُ  
 ومُنَى تستلذُّها الأوهامُ

وبقول الحائك الأمي ، عندما يكثر شجنوي وغمي :

لم أنسَ أياماً مضتَ ولياليا  
 إذ نحنُ لا نخشى الرقيبَ ولم نخفُ  
 والعيشُ غَضٌّ والحواسدُ نَوْمُ  
 في روضةٍ أبدتُ ثغورَ زهورها  
 مدَّ الربيعُ على الخمائلِ نورهُ  
 تبدو الأفاحي مثلَ ثغري أشنبِ  
 وعيونُ نرجسها كأعينِ عادةٍ  
 وكذلك المنثورُ منشورٌ بها  
 والطيرُ تصدحُ في فروعِ فنونها  
 سلقتُ وعيشاً بالصريمِ نصرماً  
 صرَّفَ الزمانِ ولا نطيعُ اللؤماً  
 عتاً وعينِ البينِ قد كحلتُ عمي  
 لما بكى فيها الغمامُ تبسماً  
 فيها فأصبحَ كالخيامِ مخيماً  
 أضحي المحبُّ بهِ كثيراً مغرماً  
 ترنُّو فرمي باللواظِ أسهما  
 لما رأى وردَ الحدودِ منظماً  
 سحراً فتوقظُ بالهديلِ النوماً

وأميل ، إلى بلاد محيّاها جميل<sup>١</sup> :

كساها الحيا بُردَ الشباب فإنّها  
ذكرتُ بها عهدَ الصبا فكأنّما  
ليالي لا ألوي على رُشدٍ ناصحٍ  
أنالُ سُهادي من عيونِ نواعسٍ  
وليلٍ لنا بالسّدّ بين معاطفٍ  
تمرُّ إلينا ثمّ عنا<sup>٢</sup> كأنّها  
وبيتنا ولا واشٍ نخافُ كأنّما  
حللنا مكانَ السرِّ من صدرِ كاتمٍ

وأهفو إلى قصور ذات بهجة ، وصرّوح توضح معالمها للرائد نهجته :

ورياضٍ تختالُ منها غصونٌ  
فكأنّ الأدواحَ فيها غوّانٌ  
وكانّ الأطيّارَ فيها قيانٌ  
وكانّ الأزهارَ في حومة الرو  
في بُرودٍ من زهرها وعقودٍ  
تتبارى زهواً بحسن القُدود  
تتغنى في كل عودٍ بعود  
ضِ سيوفٍ تُسلُّ تحت بُنود

وأصبو إلى بطّاحٍ وأدواح ، تروّح النفوس والأرواح<sup>٣</sup> :

سقيّاً لها من بطّاحٍ خنزٍ ودوّحٍ زهرٍ بها مُطيلٌ  
إذ لا ترى غيرَ وجهِ شمسٍ أطلّ فيه عذارُ ظيلٌ

وأناهٍ جارية ، وأزهارٍ نوّاسمها سارية ، وأربُعٍ وملاعب ، تزريح

١ هذه الأبيات للشاعر الأندلسي محمد بن عمار (انظر أشعاره : ٢١٠ ملحقة بدراسة الدكتور

صلاح خالص ، وراجع أيضاً الوافي ٤ : ٢٣٢ ووفيات الأعيان ٤ : ٥٤) .

٢ الديوان : تسر إلينا ثمّ عنا .

٣ البيتان لابن خفاجة (ديوانه : ١٤٠) وفيه : بطّاح أنس .

عن مبصرها المتاعب<sup>١</sup> :

تلك المنازلُ والملا عبُ لا أراها الله محلاً  
أوطنتُها زمنَ الصباُ وجعلتُ فيها لي محلاً  
حيثُ التفتُ رأيتُ ما ء سائحاً ورأيتُ ظلاً  
والنهرُ يفصلُ بينَ زه رِ الروض في الشطّينِ فصلاً  
كبساطِ وشي جردتُ أيدي القيونِ عليه نصلاً

وإلى منازل ، يستغزُ حسنُها الرائقُ الجادّ والهازل ، ويشفي منظرها عليلاً ،  
ويكفي مخبرُها للمستفهم دليلاً :

وجنانِ ألفتُها حينَ غنتُ حولها الورقُ بُكرةً وأصيلاً  
نهرها مسرعاً جرى وتمشتُ في رُبها الصبا قليلاً قليلاً

وأتمثل إن ذكرتُ حال وداعي ، بقول الشاعر الأديب الوداعي<sup>٢</sup> :

الغربُ خيرٌ وعند ساكنه فالشرقُ من نيريهِ عندهمُ  
أمانةٌ أو جبتُ تقدّمه يودعُ دينارهُ ودرهمهُ

وبقول غيره ، إشارةً لفضل الغرب وخيره :

أشواق للغربِ وأصبو إلى معاهدٍ فيه وعصيرِ الصبا  
يا صاحبتي نجواي والليلُ قد أرخى جلايبَ الدجى واختبا  
لا تعجبا من ناظرٍ ساهرٍ باتَ يراعي أنجماً غيباً  
القلبُ في آثارها طائرٌ لما رآها تقصدُ المغرباً

١ الأبيات لأبي فراس الحمداني (ديوانه ٢ : ٢٢٧) .  
٢ هو علي بن المظفر ، علاء الدين الوداعي ( - ٧١٦ ) من أهل الإسكندرية ، أقام بدمشق . (انظر الدرر الكامنة ٣ : ١٣٠ والفوات ٢ : ١٧٣) .

وأهيم كلما حَلَكْتُ من غيران أرضي بمكان ، وقد صير السائق جدي  
 السير معمولاً لـ « ما انفك » كما جعله خير آل « كان » ، بقول قاضي  
 القضاة العالم الكبير الشمس ابن خلّكان<sup>١</sup> :

أيُّ ليلٍ على المحبّ أطالهُ  
 يزجرُ العيسَ طاوياً يقطعُ المه  
 أيها السائقُ المجدُّ ترفقْ  
 وأنخها هنيهةً وأرحها  
 لا تطلِّ سيرها العنيفَ فقد برّ  
 وارثُ للنازحِ الذي إن رأى ربّه  
 يسألُ الرّبَّ عن ظباءِ المصلّي  
 ومُحالٌ من المُحيلِ جوابٌ  
 هذه سنّةُ المحبّين ييكو  
 يا ديارَ الأحبابِ لا زالتِ الأء  
 وتمشّي النسيمُ وهوَ عليلٌ  
 أين عيش مضي لنا فيك؟ ما أم  
 حيث وجهُ الزمانِ طلقَ نصيرٌ  
 ولنا فيك طيبُ أوقاتِ أنسٍ

وأردّد قولَ الذي سحر الألباب ، منادياً من له من الأحباب :

أحبابنا لو لقيتم في إقامتكم  
 لأصبحَ البحرُ من أنفاسكم يَبَساً  
 من الصباية ما لاقيتُ في الظعنِ  
 والبرُّ من أدمعي ينشقُّ بالسفنِ

١ هو أحمد بن محمد بن خلّكان الإربلي الشافعي ( - ٦٨١ ) صاحب كتاب وفيات الأعيان، والأبيات

من قصيدة أوردتها ابن شاعر في القوات ١ : ١٠٤ .

٢ القوات : الأدمع ، وهو أصوب .

وقوله :

وما تغيرتُ عن ذلك الودادِ ، ولا  
درسي غرامي بكم دهري أكررهُ  
حالتُ بي الحالُ في عهدي وميثاقِي  
وقد تفقّهتُ في وجدي وأشواقِي

وقول المجد بن شمس الخلافة<sup>١</sup> ، معلماً أنه لا يريد ببدل معهده وخلافه :

يا زمانَ الهوى عَلَيكَ السلامُ  
أيُّ عيشٍ قطعته فيك لو دا  
وعلَيَّ السلوُ عَنكَ حرامُ  
م وهل يُرْتَجَى لظلِّ دوامُ  
كنتَ حلماً والعيشُ فيك خيالاً  
وسريعاً ما تنقضي الأحلامُ  
لهفَ نفسي على ليالٍ تَقَضَّتْ  
سلبتي بُرودها الأيَّامُ  
فَطَمَّتْني الأقدارُ عنها وليداً  
وشديداً على الوليدِ الفِطامُ  
لا تلمني على البكاءِ عَلَيْها  
مَنْ بَكَى شَجْوَهُ فليس يَلامُ

وقول أبي طاهر الخطيب الموصلي :

حَيٌّ نَجداً عَنِّي وَمَنْ حَلَّ نَجداً  
واقر عني السلامَ آرامَ ذاكِ الـ  
أربُعاً هِجَنَ لي غراماً ووَجداً  
شعْبِ والأجرعَ الحَصيبَ الفرداً<sup>٢</sup>  
وابنكِ عَنِّي حَتَّى تُرْتَحَ بالوج  
د أراكا بِهِ وباناً ورتداً  
فلكم وقفةٌ أَطَلْتُ<sup>٣</sup> على الضا  
ل بدمعِ أذاعِ سَري وأبدي  
تُ لآلي للدمعِ مِثني ووحداً  
آه والهفتي على طيبِ عيشِ  
كنتُ قَطَعْتُهُ وصالاً ووداً

١ مجد الملك جعفر بن محمد (شمس الخلافة) (٦٢٢ - ) ، شاعر مصري ؛ انظر ترجمته في وفيات

الأعيان (١ : ٣١٣) .

٢ ك : المدي .

٣ ق ط ج : ظلت .

وَيْدُ الْمَكْرَمَاتِ بِالْجُودِ تَنْدَى  
فَأَوْصَرَفُ الزَّمَانَ يَزْدَادُ بَعْدًا  
لِوَعَيْنِ الرَّقِيبِ إِذْ ذَاكَ رَمَدًا  
رَقِيقَةً وَجَازَتْ حَدَّ حَدًّا  
خِلْسَةً لِي بِيخْلِهِ وَاسْتَرَدًّا

وقول بعضهم :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ ، إِنَّهَا  
لِيَالِي لَمْ تَحْذَرِ حُزُونََ قَطِيعَةٍ  
فَقَدِ صَرَّتْ أَرْضِي مِنْ نَوَاحِي جَنَابِهَا

وقول الجرجاني <sup>١</sup> :

لِلْمُحِبِّينَ مِنْ حِذَارِ الْفِرَاقِ  
فَإِذَا مَا اسْتَقَلَّتِ الْعَيْسُ لِلْبَيْتِ  
اسْتَهَلَّتْ عَلَى الْخُدُودِ انْحِدَارًا  
كَمْ مَحَبِّ يَرَى التَّجَلُّدَ دِينًا  
أَزْدَاهَا نُورِي فَأَعْرَبَ بِالْوَجْدِ  
وَانْحِدَارُ الدَّمُوعِ فِي مَوْقِفِ الْبَيْتِ  
هَوْنٌ الْخُطْبَ لَسْتَ أَوَّلَ صَبِّ

وقول الخطيب الحصكفي الشافعي <sup>٢</sup> :

١ لعله القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة بين المتنبئ وخصومه (انظر ترجمته في اليتيمة ٤ : ٣ ووفيات الأعيان ٢ : ٤٤٠) .

٢ الخطيب الحصكفي هو يحيى بن سلامة بن الحسين ، معين الدين ( - ٥٥٣ ) أحد شعراء الخريدة (ج ٢ : ٤٧١ من قسم الشام ووفيات الأعيان ٥ : ٢٥١ ومعجم الأدباء ٢٠ : ١٨ والمتنظم ١٠ : ١٨٣ وطبقات السبكي ٤ : ٣٢٢) .

سارُوا وأكبادنا جرحَى وأعيننا  
تَشكو بواطننا من بعدهم حرقاً  
كأنهم فوق أكوارِ المطيِّ وقد  
درارىء الزهر في الأبراجِ زاهرةٌ  
يا موحشي الدار مذ بانوا كما أنستُ  
إن غبتُم لم تغيبوا عن ضمائرنا  
قَرَحَى وأنفسنا سكرَى من القلقِ  
لكن ظواهرنا تشكو من الغرقِ  
سارتْ مقطرةٌ في حالِك الغسقِ  
تسيرُ في الفلك الجاري على نسقِ  
بقربهم لا خلكتُ من صيبِ غَدَقِ  
وإن حضرتمُ حملناكم على الخدقِ

وما أحسن قول بعضهم في هذا المعنى ، الذي كررنا ذكره وبه ألمعنا :

سلامٌ على أهلِ الودادِ وعهدهم  
رحلنا فشرقتنا وراحوا فغربوا  
إذ الأنسُ رَوْضٌ والسرورُ فنونُ  
ففاضتْ لروعاتِ الفراقِ عيونُ  
وكم أنشدتُ وليالي النوى عاتمةً ، قول الأندلسي ابن خاتمة ١ :

أيامنا بالحمى ما كان أحلاكِ  
لا تُنكري وقفِي ذلاًّ بمغناكِ  
كم بتُّ أراعاهُ إجلالاً وأرعاكِ  
يا دارُ لولا أحبائي ولولاكِ  
لما وقفتُ وقوفَ الهائمِ الباكي

فهل لهم عطفةٌ من بعد دلتهم  
أهاً لقلبي على تبديدِ شملهم  
تالله ما تسمحُ الدنيا بمثلهم  
ما كان أحلاكِ يا أيامَ وصلهم

ويا ليالي الرضا ما كان أضواكِ  
يا بلدر تيمّ تناءتُ عنهُ أربُعنا  
ويا ليالي الرضا ما كان أضواكِ  
لما وقفتُ وقوفَ الهائمِ الباكي  
ولم تنزلْ تحتويهِ الدهرَ أضلعنا  
ما للنوى بضروبِ البين تُوجعنا  
إذا تذكّرتُ دهرأ كان يجمعنا  
تفطّرتُ كبدي شوقاً لمراكِ

١ ابن خاتمة : أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري الأندلسي ( - ٧٧٠ هـ ) شاعر  
من أهل المرية ، ومن معاصري لسان الدين ( انظر ترجمته في الإحاطة ١ : ١١٤ والكتيبة الكامنة  
٢٣٩ ونيل الابتهاج : ٥١ ومسالك الأبصار ١١ : ٥٠٢ ) .



أحبابَ أنفسنا كم ذا النوى وكم - ويا معاهدَ نَجْوَانَا بذِي سَلَمٍ -  
 تالله ما شُبْتُ دمعاً للأسي بدمٍ - ولا لثمتُ ترابَ الأرضِ من كرمٍ -  
 إلا مراعاةً خِلٍ ظلَّ يرعاكِ  
 علَّ التعلُّلَ يُدني منهمُ وعسى فيعمرُ القربُ ما بالبين قد درسا  
 كم ذا أنادي بربعٍ بالنوى طُمِيسا - يا قلبُ صبراً فإن الصبرَ عاد أسي  
 ويا منازلَ سلمى أين سلّمكِ -

وقول بعض من اشتد به الهيام ، فخطب جبرته مادحاً ليالي القرب وذاماً  
 تقلب الأيَّام :

أيامُ أنسي قد كانتَ بقربكمُ بيضاً ، فحين نأيتم أصبحتُ سودا  
 ذمتُ عيشي مذ فارقتُ أرضكمُ من بعد ما كان مغبوطاً ومحسودا  
 وقول صاحب مصارع العشاق<sup>١</sup> ، وقد شاقه من الهوى ما شاق :

بانوا فادمعُ مقلي<sup>٢</sup> وجدأ عليهم تستهلُّ  
 وحداً بهم حادي الفرا قِ عن المنازلِ فاستقلُّوا  
 قل للذين ترحلُّوا عن ناظري والقلبَ حكِّوا  
 ما ضرَّهم لو أهلوا من ماء وصلهمُ وعلِّوا

وقوله حين زحزحته يد الفراق ، عن أوطان العراق<sup>٣</sup> :

قد قلتُ والعبرَاتُ تَسُّ فمَحُّها على الخدِّ المآقي

١ صاحب كتاب مصارع العشاق هو أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج ( - ٥٥٠ )

( ابن خلكان ١ : ٣٠٩ ) والأبيات التالية مثبتة في كتابه ١ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٣٠٩ .

٢ مصارع العشاق : بان الخليط فادمي .

٣ هذا موهوم أن الأبيات لصاحب مصارع العشاق ، ولكنها وردت في كتابه ( ١ : ٢٣٧ ) يروها

القالي عن ابن الأنباري عن ثعلب ، وهي بهذا السند في أمالي القالي ١ : ١٦٤ .

حينَ انحدرتُ إلى الجزيه رةٍ وانقطعتُ عن العراقِ  
وتخبّطتُ أيدي الرفا ق مَهامِه البيد الرقاقِ  
يا بؤسَ مَنْ سَلَّ الزما نُ عَلَيْهِ سيفاً للفراقِ

وقوله أيضاً ١ :

يا منزلَ الحميّ بذات النّقا هل سلكوةٌ؟ هيهات! لاسلوةٌ  
سَقَاكَ دمعٌ مذ نأوا ما رقا قد بَلَغَ السيلُ الزُّبى وارتقى  
وأنت يا يومَ النَّوى عاجلاً أدالَ منكَ اللهُ يومَ اللقا

وقولي موثقاً للثالث ٢ ، وقد تغير لي فيمن تغير حارث ٣ :

لم أنسَ مَعَهْدَنَا والشملُ مجتمعٌ والعيشُ غُضٌّ وروضُ الأَنسِ معطارُ  
فها أنا بَعْدَ بَعْدٍ عنه في قلقٍ وقد نَبَتَ بيَ أرجاءُ وأقطارُ  
تمضي الليالي وأشواقِي مُجَدِّدَةٌ وما انقضتُ لي من الأحبابِ أوطارُ

وكلما مررتُ بمراى يروق ، لمعت لي مِن ناحية المغنى بالمتى بُروق ،  
فتذكرتُ قول بعضِ مَنْ له على غير من يهوى طروق :

ما نظرتُ غيبي سواك منظرأ مُسْتَحْسَنًا إلا عرضتَ دونهُ  
وما تمنيتُ لقاء غائبٍ إلا سألتُ الله أن تكونهُ

وربما رُمّتُ انتحائي مذهب السلوِّ وانتحالي، خلال أحوال إقامتي وانتحالي،  
فلم ينتقل عن تلك الصفات حالي، وأنتى وجييدي بقلائد البتات حالي :

١ هذه الأبيات للسراج صاحب مصارع العشاق ( ١ : ٢١٥ ) ولم يذكر الثاني والثالث منها .

٢ يعني للبيت الثالث ، وهو دليل على أن البيت مضمن وليس للمقري .

٣ يشير إلى قول إبراهيم بن العباس الصولي ( وليس في ديوانه ، وربما نسب لغيره ) :

تغير لي فيمن تغير حارث وكم من أخ قد غيرته الحوادث

والشوقُ أعظمُ أن يحيطَ بوصفه قلمٌ وأن يطوى عليه كتابُ  
والله ما أنا منصفٌ إن كان لي عيشٌ يطيبٌ وجيرتي غيَابُ

وكيف ولآماتي صبّ ، ولأتواقي زيادة إذا سرى نسيم أو هبّ :

شربتُ حميماً البينِ صِرْفاً ، وطالما جلوتُ مُحَيّاً الوصلِ وهو وسيمٌ  
فميعادُ دمعي أن تنوحَ حمامةٌ وميقاتُ شوقي أن يهبَّ نسيمٌ

فإن لاح سنا بارق شافني ، أو ترنم شادٍ حدا بي إلى الهيام وساقني ، أو رنا  
ظي فلاةٍ راغبي وراقني :

ولأتي ليضئني سنا كلّ بارقٍ وكلُّ حمامٍ في الأراكِ ينوحُ  
وأرتاعُ من ظي الفلاةِ إذا رنا وأرتاحُ للتذكاري وهو ستوحُ  
ولم يكُ ذاك الأمرُ من حيثُ ذاته ولكنْ لمعنى في الحبيبِ يلوحُ

ولا أستطيع الإعراب عن أمري العجيب ، لما بي من النوى المذهل  
والجوى المدهش والوجيب :

ولا تسألوا عما أجنّ فليس لي لسانٌ يؤدّي ما الغرامُ يقولُ  
يطارحني البرقُ الأحاديثَ كلما أضاء كأنّ البرقَ منه رسولُ  
وما بالُ خفّاقِ النسيمِ يُميلني هل الريحُ راحٌ والشمالُ شمولُ

إذ دموع شؤوني عند الذكرى لا ترّقا ، وجفوني ليس لها عن الأرق مرّقي ،  
وشجوني تنمو إذا صدحت بفننها ورّقا :

رُبَّ ورّقاء في الدياجي تُنادي إلّفها في غصونها الميآده  
فتثيرُ الهوى بلحنٍ عجيبٍ يشهدُ السمعُ أنها عوآده  
كلّما رجعتُ توجعتُ حزناً فكأنّا في وجدنا نتبآده

فيا لها من ذات طَوْقٍ ، مثيرة لكامن شوق ، جالبة له من يمين وشمال -  
وفوق :

ذَكَرْتَنِي الْوَرَقَاءُ أَيَّامَ أَنْسِ سَالَفَاتٍ فَبْتُ أَذْرِي الدَّمُوعَا  
وَوَصَلْتُ السَّهَادَ شَوْقًا لِحَبِّي وَغَرَامًا وَقَدْ هَجَرْتُ الْهَجُوعَا  
كَيْفَ يَخْلُو قَلْبِي مِنَ الذِّكْرِ يَوْمًا وَعَلَى حُبِّهِمْ حَنِيتُ الضَّلُوعَا  
كَلَّمَا أَوْلَعَ الْعَذُولُ بَعْتَنِي فِي هَوَاهُمْ يَزْدَادُ قَلْبِي وَلُوعَا

وربما أتخيل قول من قال إنها بالحزن بائحة ، وعلى فقد الإلف نائحة ،  
فأنشد قول خليل ، وهو بالحب مُدْنَفٌ وعليل :

رُبَّ حَمَامَةٍ فِي الدَّوْحِ بَاتَتْ تُجِيدُ النَّوْحَ فَنَاءً بَعْدَ فَنٍّ  
أَقَاسِمُهَا الْهَوَى مَهْمَا اجْتَمَعْنَا فَمِنْهَا النَّوْحُ وَالْعَبْرَاتُ مِني

ولا غرو إن ظهر سر بائح ، فباكٍ مثلي من الشجو نائح :

فَرَجَعْتُ بَعْدَ فِرَاقِ أَيَّامِ الْهَوَى أَصْفُ الصَّبَابَةِ لِلْمَحَبِّ الْمَوْلَعِ  
دَامِي الْجَفُونَ إِذَا الْحَمَامَةُ غَرَّدَتْ مِنْ فَوْقِ خُوطِ الْبَانَةِ الْمَتَرَعْرِعِ  
أَسْقِي الدِّيَارَ - وَقَدْ تَبَاعَدَ أَهْلُهَا عَنْهَا - عَزَّالِي الدَّمُوعِ الْهَمِّعِ  
وَنَوَاعِبُ الْأَطْلَالِ لَيْسَ يُجِيبُنِي مَا بَيْنَهُنَّ سِوَى الصَّدَى بِتَوَجُّعِ  
وَهَوَاتِفُ فَوْقَ الْغَصُونِ يُجِيبُنِي مِنْهُنَّ تَغْرِيدُ الْحَمَامِ السُّجَّعِ  
نَاحَتْ عَلَى عَدَبِ الْفُرُوعِ وَالْفُهَا مِنيهَا بِمَرَأَى فَوْقَهَا وَبِمَسْمَعِ  
مَا فَارَقْتُ الْفَأَّ كَمَا فَارَقْتُهُ كَلَاءً وَلَا أَجْرَتْ سِوَاكَبِ أَدْمُعِي

على أوانٍ عيونُ سعوده رَوَانٌ ، وزمان معمر بأمانٍ وأمان ،  
وآمال دَوَانٌ ، وتهانٍ ما بين بِكْرٍ وَعَوَانٌ ، وفي عذر من طال ليلُهُ فاضطرب  
فيه لولوعه ، وسكن جَوَاهُ بجوانحه وضلوعه :

إن طال ليلى بعدهم فلطوله      عذُرٌ ، وذلك لما أقاسي منهم  
لم تَسرَّ فيه نجومه لَكِنها      وقفت لتسمع ما أحدث عنهم

فأرتقي ، الزائد في جُرقي ، أظهر المكنونَ وأبان ، ووَجدي بمن نأى وبان ،  
لم يُجدِ فيه تعلُّلٌ برنْدٍ وبان ١ :

تَنبَّهِي يا عَدَبَاتِ الرَّندِ      كم ذا الكرى ؟ هَبْ نَسِيمُ نُجْدِ  
فَلَسْتُ مِثْلِي فِي جَوَى أَوْ أَرْقِ      وحرقة من فرقة أو صد  
عوفيت مما حلَّ بي من جيرة      في الغرب لم يرثوا لفرط وجدي  
أعللُ القلبَ بيانِ رامةٍ ٢      وهل ينوبُ غصنٌ عنَّ قد  
بانوا فلا معنى السرور بعدهم      معنى ، ولا عهدُ الرضا بعهدِ  
أها من البعدِ ومن لم يدْرِهِ      لم يشجهُ تأوْهي للبعدِ

وفي شغل من أبكته الربوع والطلول ، وذهبت برهته من زمانه بين الترحل  
والحلول ، فركب من الأخطار الصعب والدلول ، وحافظ على العهود ولم  
يسلك سبيل الغادر الملول :

سقاها الحيا من أربعٍ وطلولٍ      حكّت دتقي من بعدهم ونحولي  
ضمنت لها أجفانَ عينٍ قريحةٍ      من الدمعِ مدِّرَارِ الشؤونِ همولِ

ومن الغريب ، الذي ينكره غير الأريب ، أن الحادي إن سرَّ القلب بكشف  
رين ، فقد تسبب في اجتماع أمرين متنافيين متنافرين :

ترنمَ حادٍ بالصريمِ فشاقي      إلى ذكر من باتت ضلوعي تضمه ٣

١ من قصيدة لأبي النثائم ابن المعلم الواسطي ( - ٥٩٢ ) وكان شاعراً رقيق الشعر وبينه وبين سبط  
ابن التعاويذي مهاجاة ( انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤ : ٩٨ والوافي ٤ : ١٦٥ وفي الثاني  
بعض أبيات القصيدة ) .

٢ ك : بيان عنهم .

فَسَرَّ وَسَاءَ النَّفْسَ شَجَوًّا فَرَبَّمَا      كَلَفْتُ بِهِ مِنْ حَيْثُ صِرْتُ أُذْمُهُ  
وَارْتَجَلْتُ حِينَ مَلَلْتُ مِنْ طَوْلِ السَّرَى ، مَضْمَنًا ذَكَرَ مَا أَرُومَ لَهُ تَيَسَّرًا ،  
وَقَدْ أَكْثَرَ الرَّفَاقَ عِنْدَ رُؤْيَا مَا لَمْ يَأْلُفُوهُ مِنَ الْآفَاقِ تَلَهُّفًا وَتَحَسُّرًا :

قَلْتُ لَمَّا طَالَ النَّوَى عَنِ بِلَادِي      وَلِأَهْلِ النَّوَى جَوَى وَعَوِيلُ  
هَلْ أَرَى لِلْفِرَاقِ آخِرَ عَهْدٍ      إِنْ عُمِّرَ الْفِرَاقُ عَمْرٌ طَوِيلُ  
ثُمَّ قَلْتُ مَضْمَنًا :

لَا تَلْمُ فِي ذِكْرِ أَحْبَابٍ نَأَوَا      لَا تَلْمُ مَنْ أَضْعَفَ الشُّوقُ قُوَاهُ  
إِنْ يَوْمًا جَامِعًا شَمَلِي بِهِمْ      ذَاكَ عِيدِي ، لَيْسَ لِي عِيدٌ سِوَاهُ  
ثُمَّ قَلْتُ مَضْمَنًا أَيْضًا :

لَكَ اللَّهُ مِنْ صَبِّ أَضْرَّ بِهِ النَّوَى      وَلَيْسَ لَهُ غَيْرَ الْلِقَاءِ طَيِّبُ  
وَإِنَّ صَبَاحًا نَلْتَقِي بِمَسَائِهِ      صَبَاحٌ إِلَى قَلْبِي الْمَشُوقِ حَبِيبُ  
ثُمَّ عَدْتُ إِلَى التَّصَبُّرِ ، بَعْدَ إِعْمَانِ النَّظَرِ وَالتَّدْبِيرِ :

وَإِنِّي لِأَدْرِي أَنَّ فِي الصَّبْرِ رَاحَةً      وَلَكِنْ إِنْفَاقِي عَلَى الصَّبْرِ مِنْ عَمْرِي  
فَلَا تُطْفِئِ نَارَ الشُّوقِ بِالشُّوقِ طَالِبًا      سَلُوهَا ، فَإِنَّ الْجَمْرَ يُسْعَرُ بِالْجَمْرِ

ثُمَّ سَلَكْتُ مَنَهْجَ التَّفْوِيضِ وَالتَّسْلِيمِ ، مَنَشِدًا قَوْلَ ابْنِ قَطْرَالِ الْمَغْرِبِيِّ  
فِي مَقَامِ النَّصْحِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَوَجَّهْتُ الْقَصْدَ إِلَى سَكَانِ الضَّمِيرِ بِذَلِكَ التَّكْلِيمِ :  
إِنَّ أَيَّامَ الرِّضَا مَعْدُودَةٌ      وَالرِّضَا أَجْمَلُ شَيْءٍ بِالْعَبِيدِ

١ ابن قطرال المغربي : عد ابن عبد الملك من اسمه أبو الحسن بن قطرال في شيوخ الرعيبي ( ٥ : ٣٢٤ )  
ولكن الرعيبي لم يذكره في معجم شيوخه ، وإنما ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة : ١٣٨ وابن  
الأبار في التكملة ( رقم : ١٩١١ ) وهذا المترجم به أندلسي لا مغربي إلا أنه ولي القضاء بسبته  
وفاس وتوفي بمراكش عام ٥٦١ .

لا تَظَنُّوا لِيَ عِنكُمْ سَلْوَةً  
راجِعوا أَنْفُسَكُمْ تَسْتَيْقِنوا  
ما على شوقِي إليكم من مزيدِ  
أنتكم في الوقتِ أَقْصَى ما أريدُ  
إنَّ يوماً يَجْمَعُ اللهُ بكم  
فيه شَمْلِي ذاكَ عِندي يومَ عِيدِ

وقول بعض مَنْ ندم على البعد عن المعاهد ، وأمَل العَوْدَ - والعودُ  
أحمد - إلى المشاهد ، وغفر للدهر ذنبه إن عاد ، وتلهف أن لم يعامله بغير الإبعاد :

لئن عادَ جَمْعُ الشَّمْلِ في ذلك الحمى  
وإن لَمْ يَعدْ مَنَيْتُ نَفْسِي بَعودَةً  
غَفَرْتُ لدهري كلَّ ذنبٍ تقدِّمًا  
وماذا عسى تجدي الأمانِي وَقَلِّمًا  
يحقُّ لقلبي أن يذوبَ صِبابَةً  
وللعين أن تُجْري مدامعها دَمًا  
على زمنٍ ماضٍ بِهِمْ قَدْ قَطَعْتُهُ  
لبستُ به ثوبَ المسرَّةِ مُعَلِّمًا

وقول آخر يخاطب أحبابه ، ويذكر فَوَاصِلَ بَحرِ النوى الطويلِ وأسبابه :

أعيدكمُ من لَوَعِي وشُجُونِي  
وَبَرَحِ أَسَى لَمْ يَبْقَ في بَقِيَّةِ  
ونارِ جَوَى تُذَكِّي بَما شُؤُونِي  
سوى حَرَكَاتِ تارةٍ وسكونِ  
أرى القلبَ أَضحى بعد طارقةِ الأَسَى  
أسيرَ صِباباتِ رهينَ شُجونِ  
وكيفَ سبيلَ القُربِ مِنكمُ ودونكمُ  
رمالُ زَرُودِ والأجارِ عُدُونِي ؟  
سلِّوا مَضْجَعِي هل قَرَّ من بعد بَعْدكمُ  
وهل عرفتَ طعمَ الرُّقادِ جُفُونِي  
سَهْرُنَا بِنَعْمانٍ ، ونَمْتُمُ بِبابلٍ ،  
فيا لَعِينِ ما وَفَّتْ لَعِينِ

وفي بعض الأحيان ، أسلَى بقول بعض الأندلسيين الأعيان :

لا تَكَثِرْ بِفراقِ أوطانِ الصِّبا  
فالدُّرُّ يَنْظَمُ عِنْدَ فِقدِ بَجارِهِ  
فَعَسَى تَنالُ بِغيرهنَّ سَعُودًا  
بِجَميلِ أَجِيادِ الحِسانِ عَقودًا  
وقول غيره :

فَعَسَى اللَّيالي أن تَمَنَّا بِنَظْمِنَا  
عِقدًا كما كُنَّا عَليه وأَكْمَلَا

فلربما نُثِرَ الجُمَانُ تعمُّدًا ليعاد أحسنَ في النظام وأجملاً  
وأرغب لمن أطال ذيول الغربة أن يقلّصها ، وأطلب ممن أجال النفوس في  
سيول الكربة أن يخلّصها :

ففلتقي وعَوَادِي الدهرِ غَافِلَةً عَمَّا نرُومُ وَعِقدُ البينِ مَحَلُولُ  
والدارُ آتيةٌ ، والشملُ مجتمِعٌ ، والطيرُ صادحةٌ ، والروضُ مطلولُ

وأضرع إليه - سبحانه - في تيسير العود إلى أوطاني ، ومعهدني الذي  
مطايا العز أوطاني ، وأن يلحقني بذلك الأفق الذي خيره موفور ، وحق من  
فيه معروف لا منكر ولا مكفور :

إذا ظفرتُ من الدنيا بقربهم فكلُّ ذنب جناهُ الدهرُ مغفورُ

وكأني بعاتب يقول : ما هذا التطويل ؟ فأقول له : جوابي قول ابن أبي  
الإصبع الذي عليه التعويل :

أكثرتَ عدّتي كأنتي كنتُ أولَ من بكى على مسكّنٍ أو حنّ للسكّنِ  
لا تلحَ إنَّ منَ الإيمانِ عند ذوي ال إيمان منّا حنينَ النفس للوطنِ

على أنتي أقول : اللهم يسّر لي ما فيه الخيرة لي بالمشارك أو بالمغارب ،  
وجُد لي من فضلك حيث حللت بجميع ما فيه رضاك من المآرب ، بجاه نبينا  
وشفيعنا المبعوث رحمة للأحمر والأسود والأعاجم والأعارب ، عليه أفضل  
صلاةٍ وأزكى سلام ، وعلى آله وأصحابه الأعلام ، والتابعين لهم بإحسان ما ذرَّ  
شارق وتعاقبَ طالع وغارب .

\* \* \*



## [ركوب البحر وبلوغ مصر]

ثمَّ جدَّ بنا السير في البر أَيْاماً ، ونأينا عن الأوطان التي أطيننا في الحديث  
حُبّاً لها وهَيْاماً ، وكنتا عن تفاعيل وصلها<sup>١</sup> نياماً ، إلى أن ركبنا البحر ، وحللنا  
منه بين السَّحَرِ والنَّحْرِ ، وشاهدنا من أهواله ، وتنافي أحواله ، ما لا يعبر عنه ،  
ولا يُبلِّغ له كُنْه<sup>٢</sup> :

البحرُ صَعَبُ المرامِ جدّاً لا جُعِلَتْ حاجتي إليه  
أليسَ ماءً ونحن طينٌ فما عسى صَبْرُنَا عليه

فكم استقبلتنا أمواجه بوجوهٍ بَوَاسِرٍ ، وطارت إلينا من شِرَاعِهِ عِقْبَانٌ  
كواسر ، قد أزعمجتها أكفُّ الرِّيحِ من وَكْرِهَا ، كما نبهت اللجج من سكرها ،  
فلم تبق شيئاً من قوتها ومكْرِهَا ، فسمعنا للجبال صغيراً ، وللرياح دَوِيّاً عظيماً  
وزفيراً ، وتيقننا أننا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مُجِيراً وخفيراً ، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ  
الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَآ ﴾ (الإسراء : ٦٧) وأيسنا من الحياه ،  
لصوت تلك العواصف والمياه ، فلا حياءَ الله ذلك الهول المزعج ولا بيّاه ، والموج  
يصفقُ لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب  
أو شرب ، فيبتعد ويقرب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ،  
فتخال الجوّ يأخذ بنواصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها ، حتى كاد سطح الأرض  
يُكشَفُ من خلالها ، وعنان السَّحْبِ يخطف في استقلالها ، وقد أشرفت النفوسُ  
على التلف من خَوْفِهَا واعتلالها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت  
الظنون ، وتراءت في صورها المَنُونُ ، والشِّراع في قراع مع جيوش الأمواج ،

١ ك : فضلها .

٢ البيتان من شعر ابن رشيقي (ديوانه : ٢١٢) وهما في معاهد التنصيص ٢ : ٢٥ ونهاية الأرب

١ : ٢٥٥ و طراز المجالس : ٢٢٠ وديوان ابن حمديس : ٥٣٣ ورحلة ابن جبير : ٣١٩ .

التي أمدت منها الأفواج بالأفواج ، ونحن قُعود ، كدُودٍ على عود ، ما بين  
فُرَادَى وَأَزْوَاج ، وقد نَبَتَ بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفُرقِ  
أُستنتنا ، وتوهَّمتنا أنه ليس في الوجود ، أغوار ولا نجوم ، إلا السماء والماء  
وذلك السفين ، ومَن في قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدو ، في الرواح  
والغدو ، لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمر الله سبحانه من فيها وأذهب  
بفتحها عن المسلمين الكُرب ، لا سيَّما مالطة الملعونة ، التي يتحقق من خلص  
من معرفتها أنه أمدت بتأييدٍ إلهيٍّ ومعونة ، فقد اعترضت في لهوات البحر الشامي  
شَجَا ، وقلَّ من ركبه فأفلت من كيدها ونجا ، فزادنا ذلك الحذر ، الذي لم  
يُبقي ولم يندَر ، على ما وصفناه من هَوول البحر قلقاً ، وأجرينا إذ ذاك في مِيدان  
الإلقاء باليد إلى التهلكة طلقاً ، وتشتت أفكارنا فرقاً ، وذبتنا أسى وندماً  
وفرَقاً ، إذ البحر وحده لا كميَّ يقارعه ، ولا قويَّ يصارعه ، ولا شكل  
يُضارعه ، ولا يؤمن على حالٍ ، ولا يُفرق بين عاطلٍ وحالٍ ، ولا بين أعزل  
وشاكٍ ، ومتباكٍ وباكٍ :

ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهَا أَمَانٌ الْبَحْرُ وَالسَّلْطَانُ وَالزَّمَانُ

فكيف وقد انضمَّ إليه خوفُ العدو الغادر الخائن ، والكافر الخائن ، إلى أن  
قضى الله بالنجاة وكلُّ ما أراد فهو الكائن ، وإن نَهَى عنه وأخطأ المائن ،  
فرأينا البر وكأننا قبلُ لم نَرَهُ ، وشفيت به أعيننا من المره<sup>٢</sup> ، وحصل بعد الشدة  
الفرج ، وشممنا من السلامة أطيب الأراج ، فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها  
النقاب ، يقلُّ شُكراً لها صومُ الأحقاب وعِتقُ الرقاب ، جعلنا الله بآياته  
معتبرين ، وعلى طاعته مصطبرين ؛ ولم نخلُ في البر من مُعانة خطوب ، ومدارة  
وجوه للمتاعب ذات تجهُّم وقطوب ، فكم جُبنا منه مهامه فيجاً ، ومسحنا

١ ك : كل حال .

٢ المره : فساد العين لترك التكمل .

بالخطأ منها أثيراً وضحياً ، وفلينا الفجاج ، وقرأنا من الطرق خطوطاً ذات  
استقامة واعوجاج ، وقلوب الرفقة من الفرقة في اضطراب وارتجاج ، وربما  
عميت على المجتهد الأدلة التي يحصل بها على المذهب الاحتجاج ، فرى  
الأنفاس تعثر في زفرة الأشواق ، والأجسام قد زرت عليها من التعب الأطواق ،  
هذا والليل بصفحة البدر مرتاب ، وقد شدت رجال وأقتاب ، وزمت  
ركاب وزفعت أحداج ، وقريت من الدعة بمدية النصب أوداج ، وتساوى  
في السير نهار مشرق وليل مقمر أو داج ، وأديم التأويب والإسَاد ، وحمل  
الغربة قد أثقل وآد ، ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ،  
وجوب فياف مجاهل ، يضل فيها القطا عن المناهل ، إلى مصر المحروسة  
فشفينا برؤيتها من الأوجاع ، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التي تعجز عن  
وصفها القوافي والأسجاع ، وتمثلنا في بدائعها التي لا نستوفيناها ، بقول ابن  
ناهض فيها :

شاطيء مصر جنة ما مثلها في بلد  
لا سيما مذ زخرقت بنيلها المطرد  
وللرياح فوقه سوايغ من زرد  
مسرودة ما مسها داودها بمببرد  
سائلة وهو بها يرعد عاري الجسد  
والفلك كالأفلاك بي ن حادر ومصعد

١ ابن ناهض : تنصرف هذه التسمية إلى اثنين أحدهما هو بدر الدين محمد بن ناهض الحلبي ( - ٧٣١ )  
والثاني محمد بن ناهض شمس الدين الحلبي ( - ٨٤١ ) وهذا الثاني سكن القاهرة ومات فيها  
ولعله صاحب الشعر ، ( انظر الدرر الكامنة ٤ : ٢٧٢ في ترجمة الأول والضوء اللامع ١٠ :  
٦٧ في ترجمة الثاني ) . وقد وردت هذه الأبيات في رحلة ابن بطوطة ( ١ : ٣٦ ) وهي منسوبة  
هناك لمن لقبه « ناصر الدين » ابن ناهض .

وبقول آخر :

انظر إلى النيل الذي      ظَهَرَتْ به آياتُ رَبِّي  
فَكَانَتْ في فَيْضِهِ      دَمْعِي وفي الخفقانِ قَلْبِي

وبقول أبي المكارم ابن الخطير المعروف بابن مَمَاتِي في جزيرتها<sup>١</sup> :

جزيرة مصر، لا عدتكَ مَسْرَةَ      ولا زالتِ اللذاتُ فيكَ اتصالتها  
فكم فيكَ من شمسٍ على غُصْنِ قامة      يَمِيت ويحيي هَجْرُها ووَصالُها  
مغانيكِ فوق النيل أضحت هِوَادِجاً      ومختلفاتُ الموجِ فيكَ حِبَالُها  
ومن أعجبِ الأشياءِ أنكَ جَنَّةٌ      تُمددُ على أهلِ الضلالِ ظلالُها

لعله أراد بأهل الضلال اليهود والنصارى المستولين إذ ذاك على الدولة .  
وتذكرت في مصر قولَ القاضي الفاضل<sup>٢</sup> :

بالله قُلْ للنيل عني إنني      لم أشفِ من ماء الفُراتِ غليلاً  
وسلِ الفؤاد فإنه لي شاهدٌ      إن كان طرفي بالبكاءِ بجيلاً  
يا قلبُ كم خَلَفْتَ ثمَّ بَشِيئَةً      وأظنُّ صبرك أن يكونَ جميلاً

- ١ أبو المكارم الخطير الأسمد بن الخطير المعروف بابن مَمَاتِي (-٦٠٦) كان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، حظياً عند القاضي الفاضل (راجع ترجمته في الحريدة ١ : ١٠٠ قسم مصر ، ومعجم الأدباء ٦ : ١٠٠ ووفيات الأعيان ١ : ١٨٧) .
- ٢ القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني (-٥٩٦) كاتب صلاح الدين وصاحب الطريقة الفاضلية في الإنشاء (راجع ترجمته في الحريدة ١ : ٣٥ قسم مصر ووفيات الأعيان ٢ : ٢٣٣ وطبقات السبكي ٤ : ٢٥٣ وأخباره في الكتب التاريخية المتصلة بالفترة الصلاحية ، مثل مفرج الكروب والروضتين وغيرهما) . والأبيات في ديوانه : ٩١ وهي في مطالع البدور ٢ : ٢٩٢ ووفيات الأعيان ١ : ٢٨٥ وتاريخ ابن الوردي ٢ : ١١٦ وابن بطوطة : ٨٦ .

وقول أحمد بن فضل الله العمري<sup>١</sup> :

لمصرَ فضلٌ باهرٌ  
في سَفْحِ رَوْضٍ يَلْتَقِي  
بِعَيْشِهَا الرَّغْدِ النَّضِيرُ  
ماء الحياةِ والخضر<sup>٢</sup>

وقول آخر :

كَأَنَّ النِّيلَ ذُو فَهْمٍ وَلُبٍّ  
فِيَأْتِي حِينَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ  
لَمَّا يَبْدُو لِعَيْنِ النَّاسِ مِنْهُ  
وَيَمْضِي حِينَ يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ

وقول آخر :

وَلِلَّهِ مَجْرَى النِّيلِ مِنْهُ إِذَا الصَّبَا  
بِشَطِّ يَهْزُ السَّمْهَرِيَّةَ ذُبْلًا  
أَرْتْنَا بِهِ مِنْ مَرَّهَا عَسْكَرًا مَجْرًا  
وَمَوْجٌ يَهْزُ الْبَيْضَ هِنْدِيَّةً بْتُرًا  
حَكَى مَاءَهُ لَوْنًا وَلَمْ يَحْكِهِ مَرًّا  
إِذَا مَدَّ حَاكِيَ الْوَرْدِ لَوْنًا، وَإِنْ صَفَا

وقول آخر :

وَأَهَا هَذَا النِّيلُ ؛ أَيُّ عَجِيْبَةٍ  
يَلْقَى الثَّرَى فِي الْمَاءِ وَهُوَ مُسَلِّمٌ  
بِكُرٍّ بِمَثَلِ حَدِيثِهَا لَا يُسْمَعُ  
حَتَّى إِذَا مَا مَالَ عَادَ يُوَدِّعُ  
أَبْدَأُ يَزِيدُ كَمَا يَزِيدُ وَيَرْجِعُ  
مُسْتَقْبَلٌ مِثْلَ الْمَلَالِ فَدَهْرَهُ

وقول ابن النقيب<sup>٣</sup> :

١ أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري شهاب الدين (٧٤٩ - ) صاحب مسالك الأبصار ( انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١ : ٣٣١ والنجوم الزاهرة ١٠ : ٣٣٤ ) والبيتان في حلبة الكميت :

٢٦٢ .

٢ رواية البيت في حلبة الكميت :

في كل يوم يلتقي ماء الحياة والخضر

٣ هو الحسن بن شاور ناصر الدين ابن النقيب (٦٨٧ - ) أحد شعراء مصر المشهورين بالتورية وأكثر شعره مقطعات ( الفوات ١ : ٢٣٢ ) ؛ والبيتان في الفوات ١ : ٢٣٤ .

الصَّبُّ من بعدهم مُفْرَدٌ ودَمَعُهُ النيلُ وتعليقُهُ  
وخذَهُ لما بكاهمُ دَمًا مقياسُهُ ، والدمعُ تخليقُهُ

وقول الصفدي<sup>١</sup> :

سَقِيًا لمصر وما حَوَتْ من أنسِها وأناسِها  
ومحاسِنِ في مَقْسِها تَبَدُّو وفي مِقياسِها  
ومَسْرَةَ كاساتِها تُجَلِّي على أكياسِها  
وسطورِ قرطِ خَطِّها الـ باري على قرطاسِها  
ودُمَى كَنائِها ، ولا تَنسَى ظِباءَ كِناسِها  
ولطافةِ بِجَلالَةِ تَبَدُّو على جُلَّاسِها  
ونَواسِمِ كُلِّ المُنَى للنفسِ في أنفاسِها  
ومراكبِ لعبتِ بها الـ أمواجُ في وَسْواسِها

وقول ابن جابر الأندلسي<sup>٢</sup> :

ما زلتُ أُسْنِدُ من محاسِنِ أرضِها خيراً صحيحاً ليس بالمقطوعِ  
كم مُرْسَلٍ من نيلِها ومُسْتَسَلٍ ومُدَبَّحٍ من هَضْبِها المرفوعِ<sup>٣</sup>

١ خليل بن أيبك الصفدي ( - ٧٦٤ ) صاحب الوافي بالوفيات وأعيان العصر ونكت الهميان والتذكرة الصفدية والغيث المسجم وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة ( انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢ : ٨٧ وطبقات الشافعية ٦ : ٩٤ ) وشعره منشور في مؤلفاته .

٢ ابن جابر : محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الأعمى ( - ٧٨٠ ) صاحب بديعية العميان هاجر مع صاحبه الرعيبي إلى بلاد الشام ، وله شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطي . ( انظر الدرر الكامنة ٣ : ٣٣٩ ونكت الهميان : ٢٤٤ والوافي ٢ : ١٥٧ وبغية الوعاة : ١٤ وغاية النهاية ٢ : ٦٠ ) وسيورد المقرئ له ترجمة في النسخ .

٣ جمع في هذا البيت ألفاظاً من مصطلح الحديث .

وقول إبراهيم بن عبدون :

والنيلُ بينَ الجانينِ كأنما  
يأتيكَ من كدرِ الزواجرِ مدَّةُ  
فكانَ ضوءَ البدرِ في تمويجه  
وكانَ نورَ السُّرجِ من جَنبانه  
مثلُ الرياضِ مُفتقاً أنوارهُ  
تبدُّو لعينِ مُشبَّه وممثلِ  
صدَّتْ بصفحتهِ صفيحةُ صَيْقِلِ  
بمَسِّكَ من مائهِ ومُصنَدَلِ  
برقُ تموجِ في سحابِ مُسْبَلِ  
زُهرُ الكواكبِ تحت ليلِ أَلِيلِ

وقول ابن الصَّاحِب :

فَرِحَ الأَنامُ بنيلِهِم  
وتبرَّكوا بشروقِهِ  
إذ صارَ أحمرَ كالشقيقِ  
فكانَهُ وادي العقيقِ

وقول آخر :

أحمرَ للنيلِ خَدَّ  
وقدْ ترنمتُ فيهِ  
حتَّى غدا كالشقيقِ  
إذ صارَ وادي العقيقِ

\* \* \*

[زيارة مكة والمدينة]

ثمَّ شمرتُ عن ساعدِ العزمِ بعد الإقامةِ بمصرِ مدَّةٍ قليلةٍ ، إلى المهمِّ الأعظمِ  
والمقصدِ الأكبرِ الذي هو سرُّ المطالبِ الجليلةِ ، وهو رؤيةُ الحرمينِ الشريفينِ ،  
والعَلَمينِ المنيفينِ ، زادهما اللهُ تنويهاً ، وبلغَ النفوسَ ببركةِ من شرفاً به مآربِ  
لم تزل تنويهاً ؛ فسافرتُ في البحرِ إلى الحجازِ ، راجياً من الله سبحانه في الأجرِ  
الانتجازِ ، إلى أن بلغتُ جدةً ، بعد مكابدةِ خطوبِ اتخذتُ لها من الصبرِ عُدَّةً ،  
فحين حصلَ القُربُ ، واكتحلتُ العينِ بإئتمد تلك التُّربِ ، ترنمتُ بقول من

قال ، محرّضاً على الوخد والإرقال :

بدا لك الحقّ فاقطعْ ظهرَ بَيْداءِ      واهجرْ مقلّةَ أحبابِ وأعداءِ  
واقصِدْ على عزيمةِ أرضِ الحجازِ تجدْ      بُعداً عن السُّخْطِ في نزلِ الأوداءِ  
وقلْ إذا نلتَ من أمّ القُرى أرباباً      وهوَ الوصولُ بإسرارٍ وإبداءِ  
يا مَكّةَ اللهِ قد مكنتِ لي حرماً      مؤمناً لستُ أشكُو فيه من داءِ  
فمُنْذُ رأى النازحُ المسكينُ مسكنه      في قطركِ الرحبُ لم يُنكَبْ بأرزاءِ  
شوقُ الفؤادِ إلى مغناكِ مُتّصلٌ      شوقُ الرياضِ إلى طلِّ وأنداءِ

ثمّ أنشدت ، عندما بدت أعلام البيت الحرام ، قولَ بعض من غلب عليه الشوق والغرام ، وقد بلغ من أمانيه الموجبة بشائره وتهانيه المرام :

وافى الحجيجُ إلى البيتِ العتيقِ وقد      سجّأ الدُّجى فرأوا نوراً به بَرَخاً  
عجّوا عجيّجاً وقالوا : الله أكبرُ ما      للجوّ مؤتليقاً بالنورِ قد صُبِغاً  
قال الدليلُ : ألا هاتوا بشارتكمُ      فمنّ نوى كعُبةَ الرحمنِ قد بلغاً  
نادوا على العيسِ بالأشواقِ وانتحبوا      وحنّ كلُّ فؤادٍ نحوها وصغاً  
وكلُّ من ذمّ فعلاً نالَ محمداً      في مكّةَ ومحا ما قدّ جتى وبغى

ولما وقع بصري على البيت الشريف كدتُ أعيب عن الوجود ، واستشعرتُ قول العارف بالله الشبلي<sup>١</sup> لما وفد إلى حضرة الجود :

قلتُ للقلبِ إذ تراءى لعيني      رَسْمُ دارٍ لهم فهاجَ اشتياقي  
هذه دارُهُمُ وأنتَ مُحِبٌّ      ما احتباسُ الدموعِ في الآماقي

١ الشبلي : أبو بكر دلف بن جحدر صاحب الجنيد (- ٣٣٤) ناسك عمل للعباسيين ثم تزهد وسلك طريق التصوف (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢ : ٣٩ وحلية الأولياء ١٠ : ٣٦٦). وقد أورد البلوي في تاج المفرق (٩٣ ظ) ثلاثة من أبيات الشبلي دون نسبة .



والمغاني للصبِّ فيها معاني فهني تَدْعَى مصارعَ العُشاقِ  
حُلَّ عَقْدَ الدُموعِ وَأَحْلُلُ رُبَاها وَأَهْجُرُ الصبرَ وَأَرْعَ حَقَّ الفراقِ

ثمَّ أكملت العُمرة ، ودَعوت الله أن أكون ممَّنِ عَمَرَ بطاعةِ ربِّه عمره ،  
وذلك أوائل ذي القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنيَّة ، وأقيمت  
هنالك منتظراً وقت الحجِّ الشريف ، ومتفياً ذلك الظلَّ الوَريف ، ومقتطفاً ثمار  
القُرْبِ الجنيَّة ، إلى أن جاء الأوان ، فأحرمتُ بالحجِّ من غير تَوَّان ، وحين  
حللتُ ممَّا به أحرمت ، نويت الإقامة هنالك وأبرمت ، فحال من دون ذلك  
حائل ، وكنت حَرِيّاً بأن أنشد قول القائل :

هذي أباطحُ مكَّة حولي وما جمعتُ مَشَاعِرُها من الحُرْمَاتِ  
أدعُو بها لبيكَ تلبيةَ امرئٍ يَرَجُو الخلاصَ بها من الأَزْمَاتِ  
نِلْتُ المنيَ بيمينِي لأني لم أخَفُ بالخيفِ من ذَنْبِ أحالِ سَمَاتِي  
وعرَفْتُ في عَرَقاتِ أني ناشِقٌ للعقوِ عَرَفاً عاطرِ النَّسَمَاتِ

وأن أتمثل في المطاف ، إذ حفَّتني الألطف ، بقول من رَبَّعُه بالتقوى  
مَشِيد ، البغدادي الشهير بابن رشيد :

على رَبَّعِهِمُ اللهُ بيتٌ مُباركٌ إليه قلوبُ الناسِ تَهْوِي وتَهْوَاهُ  
يَطُوفُ به الجاني فيُغفر ذَنْبَهُ ويسقطُ عنه جُرْمَهُ وخطاياهُ  
وكم لذةٍ أو فرحةٍ لَطَوَّافَهُ فله ما أحلى الطوافَ وأهناهُ

ثمَّ قصدنا بعد قضاء تلك الأوطار ، لطيبة الشريفة التي لها الفضلُ على  
الأقطار ، واستشعرت قول من أنشد وطيرُ عزمه عن أوكاره قد طار :

حمِدْتُ مرَّادي إذ بلغتُ مرَّادي بأمِّ القُرى مُسْتَمْسِكاً بعمادي  
ومذ رويَّت من ماء زمزم غلَّتِي فلستُ بِمحتاجٍ لماءِ ثِمادِ

فله سبحانه الحمد على نعمه التي جلت ، ومنته التي نزلت بها النفوس مواطن  
التشريف وحلت :

من يَهْدِهِ الرحمنُ خَيْرَ هدايةٍ      يَحُلُّ بِمَكَّةِ كَيْ يَتَّحِ المقصدا  
وإذا قضى من حَجِّه الفرضَ اثني      يشفي برؤية طيبة داءَ الصَّدَى

وكان حظي في هذه الحال تذكُّر قول بعض الوشَّاحين من الأندلسيين الذين  
كان لهم ارتحال إلى تلك المعاهد الطاهرة ، والمشاهد الزاهرة ، التي تُشدُّ إليها  
الرحال :

يا مَنْ لِعَبْدٍ به افتقارُ      إلى أيادٍ لهُ جِسَامُ  
فضلكَ مُدُنٍ لخيرِ مُدُنٍ      حلَّ بها سَيِّدُ الأَنَامِ  
لَمْ يَهْفُ قَلْبِي لِحَبِّ لَيْلِي      ولا سَعَادٍ ولا الرِّبَابِ  
لاقى شُجُونًا ونالَ وَيْلًا      مَنْ هَامَ في ذلكَ الجَنَابِ  
بَلْ مالَ مِنِّي الفؤادُ مَيْلًا      لِمَنْ لَهُ الحُبُّ لا يعابُ  
قَلْبِي واللهِ مستطارُ      مذ حلَّ في بيته الحرامُ  
ذا الحجرِ والركنِ خيرِ ركنِ      وزَمَزَمَ الخيرِ والمَقَامِ  
ذابتُ قلوبُ المطيِّ عِشْقًا      ورَكَّبِيها وأَسْتَوَى المرادُ  
إلى حبيبِ القلوبِ حقًّا      الحَيِّ والمَيْتِ والجمادِ  
إلى الذي لَيْسَ فيه بِشَقِي      مَنْ حُبُّه داخلُ الفؤادِ  
شكَّوْا وقد طالتِ السفارُ      همُ ومَطَايَاهُمُ السَّقَامُ  
فَهَيَّ قِيسِي منَ الثَّني      والقومُ من فوقها سَهامُ  
ولَسْتُ من سَكَرَتِي مفيقا      حتَّى أرى حجرةَ الرسولِ  
فإنَّ يُسَهِّلَ لي الطريقًا      فذاك أَقصى مُنَى وَسُؤلِ

متى ترى عيني العقيقا      ويقرح القلب بالوصول  
 كم قلت والصبر مستعار      للركب إذ غادروا المنام  
 ونسمة الشوق حركتي      وزاد بي الوجد والغرام  
 قوموا فقد طال ذا الجلوس      وبادروا زورة الحبيب  
 تاقّت إلى طيبة النفوس      لا عيش من دونها يطيب  
 لا حبدا دونها الغروس      والماء والشادن الرّيب  
 وحبدا الرمل والقفار      والعرب في تلکم الخيام  
 وأم غيلان<sup>١</sup> ظلّنتني      والأيك والأثل والثمام  
 يا طيبة حزت كلّ طيب      بسيد فيك ذي حلول  
 نداء مستضعف غريب      في غرّ أمداحه يقول  
 وهو من السامع المجيب      لمدحه يسأل القبول  
 أنت الغنى لي فلا افتقار      وأنت عزّي فلا أضام  
 مستمسك منك حسن ظني      بعروة ما لها انفصام  
 بسيد العالمين أجمع      بأحمد المجتبي الرسول  
 ومن هو الشافع المشفع      في موقف المحشر المهول  
 إذ لا كلام هناك يُسمع      للغير والناس في ذهول  
 إذ السماء لها انقطار      والشهب مثورة النظام  
 كذا الجبال اثنت كعهن      سريعة المرّ كالقمام  
 يا أول الرّسل في الفضيله      وإن تأخرت في الزّمن

١ أم غيلان : شجر السر .

شفاعةً نلتَ معَ وسيلةً      فمن يُضاهي عَلاكَ مَنْ  
عَلتَ بكَ الرُّتبةُ الجليلهُ      وَطِبتَ في السَّرِّ والعَلَنُ

فأنتَ من خيرهم خيار      فمن يُضاهيكَ في المقامِ  
والرُّسلُ نالتَ بكَ التمني      وأنتَ بدرٌ لهمُ تمامُ

الوَجْدُ قد قرَّ في فؤادي      فما لِصَبْرٍ بِهِ قرارُ  
ولاعِجي صاعدُ اتقادِ      ودمعُ عيني له انهمارُ  
وها أنا جئتُ من بلادِي      لطيبهٍ أبتغي الجوارُ

فحببنا تلکمُ الديارُ      والمصطفى مسكةُ الختامِ  
عليه أزمي الصلاةِ مني      وصحبه الغرِّ، والسلامُ

وقول أبي جعفر الرعيي الغرناطي<sup>١</sup> - رحمه الله تعالى - وهو من التشريع<sup>٢</sup>  
أحدِ أنواعِ البديع :

يا راحلاً يعني زيارةً طيبةً      نلتَ المنى : بزيارة الأختيارِ  
حتيَّ العقيقِ إذا وصلتَ وصيفٌ لنا      وادي مني : يا طيبَ الأخبارِ  
وإذا وقفتَ لدى المعرفِ داعياً      زال العنا : وظفرت بالأوطارِ

ولما منَّ الله تعالى علينا بالحلول في المشاهد التي قام الدين بها وظهر ، والمعاهد  
التي بان الحقُّ فيها واشتهر ، والمواطن التي هزم الله تعالى حزب الشيطان فيها

١ أبو جعفر الرعيي الغرناطي ، أحمد بن يوسف بن مالك ( - ٧٧٩ ) صاحب ابن جابر ورفيقه  
في الرحلة إلى المشرق ، وقد شرح بديعية رفيقه ابن جابر ( انظر الدرر الكامنة ١ : ٣٤٠ وبغية  
الوعاء : ١٧٦ وغاية النهاية ١ : ١٥١ وسيترجم له المعري في النفع ) .

٢ التشريع : بناء التصيدة على قافيتين .

وقهر ، ونُصرت الثبوة وعُضدت ، وقُطعت غصون الكفر وحُصِدت ، ورُصِّت  
قواعد التوحيد ونُضدت ، وقرت العيون ، وقُضيت الديون ، أنشد لسان الحال ،  
قول بعض من جیده بمحاسن طيبة حال :

يا مَنْ به طيبةٌ طابت حلّى وعلّى      ومنْ بتشريفه قد شرفَ العَرَبُ  
يا أحمدُ المصطفى قد جئتُ من بلدٍ      قاصٍ ولي خلدٌ قاصٍ ولي أربُ  
وقد دهنتي ذنوبٌ قلتُ إذ عظمتُ      لله منها وطهَ المرتجي الهربُ

ونسينا بمشاهدة ذلك الجنب ما كنا فيه ، وسبقَ الدمعُ الذي لا يعارضُ  
الفرحَ ولا ينافيه :

أيها المغرمُ المشوقُ هنيئاً      ما أنالوكَ منْ لذيدِ التلاقي  
قلْ لعينيكَ تَهْمِلانِ سروراً      طالما أسعداكَ يومَ الفراقِ  
واجمعِ الوجدَ والسرورَ ابتهاجاً      وجميعَ الأشجانِ والأشواقِ  
وأمرِ العينَ أن تفيضَ انهمالاً      وتوآلي بدمعها المهرّاقِ  
هذه دارهمْ وأنتَ محبٌ      ما بقاء الدموعِ في الآماقِ

وملنا عن الأكوار ، وتملنا من عرّف تلك الأنجاد والأغوار ، وتملنا من  
هاتيك الأنوار ، وتخلينا عن الأغيار ، وتخلينا بحلّي الأخيار ، وكيف لا وطيبة  
مركز للزوار :

إذا لم تطب في طيبة عند طيب      به طيبة طابت فأين تطيبُ  
وإن لم يُجيب في أرضها ربنا الدعا      ففي أي أرضٍ للدعاء يجيبُ  
أيا ساكني أكتاف طيبة كلكم      إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

١ انظر البيت الثاني من أبيات الشيلي التي تقدمت ص : ٤٠ .

وما أحسن قول عالم الأندلس المالكي اللبيب ، عبد الملك السُّلَمي المشهور  
 بابن حبيب<sup>١</sup> :

لله درُّ عصابة صاحبها  
 ومهامه قد جُبَّتْها ومفاوز  
 حتى أتينا القبرَ قبرَ محمدٍ  
 خيرُ البريةِ والنبيِّ المصطفى  
 لما وقفتُ بقربه لسلامه  
 ورأيتُ حُجْرتهُ وموضعهُ الذي  
 مع روضةٍ قد قال فيها : إنها  
 وبمَنْزِلِ الأَنْصارِ وَسَطُ قبايِهِمْ  
 وبطبيةٍ طابوا ونالوا رحمةً  
 وبقبرِ حَمْزةَ والصحابَةِ حوله  
 سَقِيًّا لتلك معاهدًا شاهدتُها  
 لا زلتُ زوارًا لقبرِ نبيِّنا  
 صلَّى الإله على النبيِّ المصطفى  
 وعلى ضجيعيه السلامُ مردِّدًا  
 نحو المدينةِ تقطعُ القلَّواتِ  
 ما زلتُ أذكرُها بطولِ حياتي  
 خصَّ الإلهُ محمدًا بصلاةٍ<sup>٢</sup>  
 هادي الوريِّ لطرائقِ الجنَّاتِ<sup>٣</sup>  
 جادتُ دموعي واكِفَ العَبْرَاتِ  
 قد كان يدعو فيه في الخَلَّواتِ  
 مُشْتَقَّةً من رَوْضَةِ الجنَّاتِ  
 بيتُ الهدايةِ كاشفُ الغَمَرَاتِ  
 مغنى الكتابِ ومحكم الآياتِ  
 فاضتُ دموعُ العينِ مُنْهَمِرَاتِ  
 وشهدتُها بالخطوِ واللحظاتِ  
 ومدينةِ زهراءِ بالبركاتِ  
 هادي البريةِ كاشفِ الكُرْبَاتِ  
 ما لاح نورُ الحقِّ في الظُّلَمَاتِ

١ عبد الملك بن حبيب السلمي (- ٢٣٨ أو ٢٣٩) فقيه الأندلس ومؤلف « الواضحة » في الحديث  
 والمسائل على أبواب الفقه (انظر ترجمته في الجفوة : ٢٦٣ والمطوح : ٣٦ والمغرب ٢ : ٩٦  
 وابن الفرسي ١ : ٣١٢ وابن عَدَّاري ٢ : ١٦٤ والديباج المذهب : ١٥٤ وتذكرة الحفاظ :  
 ٥٣٧ ، وإنباء الرواة ٢ : ٢٠٦ وشذرات الذهب ٢ : ٩٠ ولسان الميزان ٤ : ٥٩ وبغية  
 الوعاة : ٣١٢ وسيترجم له المغربي في الراحلين من الأندلس رقم : ١) .

٢ ك : بصلات .

٣ ك : لطرائق لنجاة .

وقول كمال الدين ناظرِ قوص<sup>١</sup> :

أنيخ ، هذه والحمد لله يثربُ  
فعمّرُ بهذا التُّربِ وجَهكَ ، إنه  
وقبّلُ ربوعاً حولها قد تشرّفتُ  
وسكّنُ فواداً لم يزلُ باشتياقه  
وكفكفُ دموعاً طالما قد سفّحتها  
فبشراكَ قد نلتَ الذي كنتَ تطلبُ  
أحقُّ به من كلِّ طيبٍ وأطيبُ  
بمن جاورتُ ، والشئُ بالشئِ يجبُّ  
إليها على جمرِ الغصا يتقلبُ  
وبردُ جوى نيرانه تلهبُ

وقول الرّعيني الفرناطي :

هذه روضة الرسولِ فدعني  
لا تلُمني على انسكابِ دموعي  
أبذلُ الدمعَ في الصعيدِ السعيدِ  
إنما صنّتها لهذا الصعيدِ

ولما سلّمتُ على سيد الأنام ، عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ،  
ذُبتُ حياءً وخجلاً ، لما أنا عليه من ارتكاب ما يقتضي وجلاً ، غير أنني توسّلتُ  
بجاهه صلى الله عليه وسلم في أن أكون ممن وضح له وجه الصفح وجلاً :

إليكَ أفرُّ من زلّلي  
وكان مزارُ قبركَ بال  
فوقى الله ما طمّحتُ  
فخذُ بيدَي غريقٍ في  
فِرَارَ الخائفِ الخجلِ<sup>٢</sup>  
مدينةٍ منتهى أمني  
له نفسي بلا خللِ  
بحارِ القولِ والعملِ

١ اسمه أحمد بن عبد القوي بن عبدالله بن شداد الربيعي ، كمال الدين ( - ٦٨٦ ) ، ناظر قوص ورئيسها في زمنه ، بنى قبة على الضريح النبوي ، وكان له مشاركة في الأدب ؛ والأبيات مع ترجمته في الطالع السعيد : ٤١ - ٤٤ والمنهل الصافي : ١ : ٣١٨ والدرر الكامنة : ١ : ١٩٣ والنجوم الزاهرة : ٩ : ٢١٤ والفوات : ١ : ٨٨ وشذرات الذهب : ٦ : ٢١ ومخطوطة الوافي ( الورقة ٧٢ من الجزء السابع ) .

٢ ك : الوجلي .

وَهَبْ لِي مِنْكَ عَارِفَةً      تُعَرِّفُ مَا تَتَنَكَّرُ لِي  
 وَتَهْدِينِي إِلَى رَشْدِي      وَتَمْنَعُنِي مِنَ الزَّلَلِ  
 وَتَحْمِلُنِي عَلَى سَنَنِ      يُؤْمِنُنِي مِنَ الْوَجَلِ  
 فَأَنْتِ دَلِيلٌ مَنْ عَمِيَتْ      عَلَيْهِ مَسَالِكُ السُّبُلِ  
 وَإِنَّكَ شَافِعٌ بَرٌّ      وَمَوْتَلْنَا مِنَ الْوَهْلِ  
 وَإِنَّكَ خَيْرٌ مُبْتَعَثٍ      وَإِنَّكَ خَاتَمُ الرُّسُلِ  
 فَيَا أَزْكَى الْوَرَى شَرْفًا      وَشَافِيهِمْ مِنَ الْعِلَلِ  
 وَيَا أُنْدَى الْأَنَامِ يَدَا      وَأَكْرَمَ نَاصِرِي وَوَلِي  
 نِدَاءٍ مَقْصُرٍ وَجِلٍ      بِثُوبِ الْفَقْرِ مُشْتَمِلِ  
 عَلَى جَدِّوَاكَ مَعْتَمِدِي      فَأَنْقِذْنِي مِنَ الدَّخْلِ  
 وَالْحَقْفِي بِجَنَاتِ      لَدَى دَرَجَاتِهَا الْأُولِ  
 بِصَدِيقِي وَفَارُوقِي      وَعِثْمَانَ الرَّضَى وَعَلِي  
 فَأَنْتِ مَلَاذُ مَعْتَصِمِي      وَأَنْتِ عِمَادُ مُتَكَلِّمِي  
 عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ جَدًّا      لِي فِي الْعَدَوَاتِ وَالْأُصُلِ

ومذ شمنا<sup>٢</sup> من أراج تلك الأرجاء الذاكية ، واستضأنا بسرج تلك  
 الأضواء الزاكية ، ظهر من الشوق ما سگان بقطن ، ولم يخطر ببالنا مسكن ولا  
 وطن ، ويا سعادة من أقام بتلك البقاع الشريفة وقطن :

مَرَّ النَّسِيمُ بِرَبْعِهِمْ فَتَلَذَّذَا<sup>٣</sup>      حَتَّى كَأَنَّ النَّشْرَ صَارَ لَهُ غِذَا  
 فَصَحَّاحًا وَصَحَّاحًا وَصَاحَ لَا أَشْكُو أَذَى      قَلِّ لِلصَّبَا مَاذَا حَمَلَتْ مِنَ الشَّدَا  
 أَمْسِسَتْ طَيِّبًا أَمْ عَلَكَ عَيْرُ

١ ق : الوجل .

٢ ومذ شمنا : سقط من ج .

٣ ج : متلذذاً .



يا أيها الهادي الذي من وسمه قصد الحبيب وأن يلم برسمه  
هذي منازلُه فززم باسمه بأبي الذي لم تدو زهرة جسمه  
لكنه غض الجمال نصير

لله شوق قد تجاوز حده أوفى على الصبر المشيد فهده  
يا ناشق الكافور لا تعدده طوبى لشتاق يعفر حده  
في روضة الهادي إليه يشير

فهناك يبذل في التوسل وسعه ويصيخ نحو خطيب طيبة سمعه  
ويريق فوق حصي المصلى دمنه ويرى معالم من يحب وربعه  
ومحمد للعالمين بشير

صلى عليه الله خير صلاته وجبا معاليه جليل صلاته  
ماحن ذو الأشواق في حالاته وأتى مغانيه على علاته  
فأتيح حسن الختم وهو قوير

ووقفنا بباب طلب الآمال خاشعين، وتوسلنا إلى الله بذلك المقام العلي خاضعين،  
وغبطناً قوماً سكنوا هنالك فكانوا لخلودهم متى شاءوا على تلك الأعتاب  
واضعين :

أكرم بعبد نحو طيبة مسندا متوسل مستشفع مرشد  
يفلي الفلاة لها بعزم أيدى وافى إلى قبر النبي محمد  
ولربعه الأسمى يروح ويغتدي

أزجَاهُ صَادِقُ حَبِيبِ الْمُتَمَكِّنِ وَحَدَاهُ سَاقِتُ عَزْمِهِ الْمُتَعَبِنِ  
فَحَكِي لَدَى شَجْوِ حَمَامِ الْأَغْصَنِ هَزْجاً يَرْدُّ فِيهِ صَوْتُ مَلْحَنِ  
وَيَمُدُّ لِلْإِطْرَابِ صَوْتِ الْمُنْشَدِ

وَيَقُولُ جِثُّ بَعْزَمَةٍ نَزَاعَةٍ وَنَهَضْتُ وَالدُّنْيَا تَمْرُ كَسَاعَةٍ  
لِمَحَلِّ أَحْمَدَ قَائِلًا بِإِذَاعَةٍ هَذَا النَّبِيُّ الْمُرْتَجَى لَشَفَاعَةٍ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ

هَذَا الرَّؤُوفُ بِجَارِهِ وَتَزِيلِهِ هَذَا سِرَاجُ اللَّهِ فِي تَزِيلِهِ  
هَذَا الَّذِي لَا رَيْبَ فِي تَفْضِيلِهِ هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ وَأَبْنُ خَلِيلِهِ  
هَذَا ابْنُ بَانِي الْبَيْتِ أَوَّلِ مَسْجِدِ

هَذَا الَّذِي اصْطَفَتِ النَّبُوَّةُ خَيْمَتَهُ هَذَا الَّذِي اعْتَمَدَ الْهُدَى تَقْدِيمَتَهُ  
هَذَا الَّذِي نُسِقِيَ غَدَاً تَسْنِيمَتَهُ هَذَا الَّذِي جَبْرَيْلُ كَانَ خَدِيمَتَهُ  
فِي حَضْرَةِ التَّشْرِيفِ أَرْكَمَى مَصْعَدِ

هَذَا الَّذِي شَهِدَ الْوُجُودُ بِخَصَّتِهِ بِمِزْيَةِ التَّفْضِيلِ مِنْ مَخْتَصِهِ  
وَأَبَانَتِهِ مِنْ وَحْيِهِ فِي نَصَّتِهِ هَذَا الَّذِي ارْتَفَعَ الْبِرَاقُ بِشَخْصِهِ  
فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ أَشْرَفَ مَشْهَدِ

هَذَا الَّذِي غَدَتِ الطُّلُولُ حَدِيقَتَهُ بِجِوَارِهِ وَغَدَتِ تَرَوْقُ أَنْبِقَتَهُ  
هَذَا الْمَكْمَلُ خَلِيقَتَهُ وَخَلِيقَتَهُ هَذَا الَّذِي سَمِعَ النَّدَاءَ حَقِيقَتَهُ  
وَدَنَا وَلَمْ يَكُ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُبْعَدِ

فَهَنَّاكَ كَمْ رُسُلٍ بِهِ تَتَوَسَّلُ وَعَلَى حِمَاهُ لَدَى الْمَعَادِ يُعَوَّلُ  
يَا أَرْحَمَ الرَّحْمَاءِ أَنْتَ الْمَوْئِلُ يَا خَاتَمَ الْإِسْرَائِلِ أَنْتَ الْأَوَّلُ  
فَتَرَقَّ فِي أَعْلَى الْمَكَارِمِ وَاصْعَدِ

الله رَقَعَ فِي سُرَاهُ مَنَارَهُ وَأَبَانَ فِي السَّبْعِ الْعَلَا أَنْوَارَهُ  
فَقَعَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ آثَارَهُ وَأَرَاهُ جَنَّتَهُ هُنَاكَ وَنَارَهُ  
فمُؤَبَّدٌ وَمُخَلَّدٌ لِمُخَلَّدِ

كَمْ ذَادَ مِنْ وَجَلٍ وَجَلَّتِي ظُلْمَةٌ وَامْتَنَ بِالرَّحْمَى وَمَتَّنَ حُرْمَةً  
لَمَّا دَجَا أَفْتَى الضَّلَالَةِ ذُهْمَةً بَعَثَ إِلَاهَهُ بِهِ لِيَرْحَمَ أُمَّةً  
لَوْلَاهُ كَانَتْ بِالضَّلَالَةِ تَرْتَدِي

حَازَ الشُّفُوفَ فَكَلَّ خَلْقِي دُونَهُ فَالغَيْثُ يَسْأَلُ إِذْ يَسِيلُ يَمِينَهُ  
وَالشَّمْسُ تُسْتَهْدِي الشُّرُوقَ جَبِينَهُ وَاللَّهُ فَضَّلَهُ وَأَظْهَرَ دِينَهُ  
وَوَفَى لَنَا فِيهِ بِصَدَقِ الْمَوْعِدِ

نُطْقِي يُغَادِي ذِكْرَهُ وَيُرَاوِحُ وَبِهِ يَنَافِجُ مِسْكَةً وَيَنَافِجُ  
تُعْيِي اللِّسَانَ مَحَامِدٌ وَمَمَادِحُ طُوبَى لِمَنْ قَدَ عَاشَ وَهَوَى يُكَافِحُ  
عَنهُ يَنَاضِلُ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ

هُوَ صَفْوَةُ الْعَرَبِ الْأُولَى أَحْسَابُهُمْ أَسْيَافُهُمْ قُرْنَتْ بِهَا أَسْبَابُهُمْ  
فَهُمْ لُبَابُ الْمَجْدِ وَهُوَ لُبَابُهُمْ مِنْ آلِ بَيْتِ لَمْ تَزَلْ أَسَابُهُمْ  
تُنْبِي لَهُمْ عَنِ طَيْبِ عُنْصُرِ مَوْلَدِ

شَرَفُ النُّبُوَّةِ قَدْ رَسَا فِي أَهْلِهَا وَسَمَا عَلَى الزُّهْرِ الْعَلَا بِمَحَلَّتِهَا  
سَاقِ السُّوَابِقِ لِلْفَخَارِ بِرُسُلِهَا نَطَقَ الْكِتَابُ كَمَا عَلِمْتَ بِفَضْلِهَا  
وَقَضَى بِهِ نَصُّ الْحَدِيثِ الْمُسْتَدِ

فَوْقَ السَّمَاءِ تَوَطَّنَتْ وَتَوَطَّدَتْ وَتَفَرَّدَتْ بِالْمُصْطَفَى وَتَوَحَّدَتْ  
فِي الْخُلَاصَةِ صُفِّيَتْ فَتَجَرَّدَتْ مِنْ مَعْدِنٍ فِيهِ الرِّسَالَةُ قَدْ بَدَّتْ  
مِنْ عَصْرِ آدَمَنا لِعَصْرِ مُحَمَّدِ

طالوا فلم يُبقوا لمجد مَصْعِداً . صالوا ففي أيمانهم حَتَفُ العِدا  
سالوا فهُمْ لعُفاتهم غَيِثُ الجِدا . أهلُ السقايةِ والرِفاةِ والندى  
والكعبةِ البيتِ الحرامِ المقصدِ

المطعمونَ وقد طوى المريّ الطوى . الناهضون إذا الصريخُ لهم نوى  
العاطفونَ إذا الطريقُ بهم ثوى . أهلُ السدانةِ والحجابهِ والنوا  
أهلُ المقامِ وزمزمِ والمسجدِ

المصلحونَ إذا الجموعُ تخاذعتْ ؛ المنجحونُ إذا المساعي دافعت  
الدافعونَ إذا الأعادي قارعتْ . المؤثرونَ إذا السنونَ تتابعت  
وَقَدَّ الحُجيجُ بنيلِ كلِّ تَفَقُّدِ

لا يقربُ الخطبُ الملمُ منيعَهُمُ . لا يطرقُ الكربُ المخيفُ قريعتَهُمُ .  
واللهُ شَرَّفَ بالنبيِّ جميعَهُمُ . مَنْ نالَ رتبَتَهُمُ وحازَ صنيعَهُمُ .  
نالَ الشُّفوفَ وحازَ معنى السُّودِ .

حلُّوا من الطودِ الأشمَ بمنعةٍ . في خيرٍ مُعْتَصِمٍ وأسمى رِفعةٍ .  
فهمُ بمنةٍ أمنيهِ في هَجعةٍ . اللهُ خَصَّصَهُمُ بأشرفِ بَقعةٍ .  
محجوجةٌ محفوفةٌ بالأسعدِ .

لما أتيتُ لرامَةَ أصلِ السُّرى . من بعدِ قصدي مكةَ أمَّ القرى  
أنشدتُ جهراً فيه أنثرَ جوهرها . وإليها يا خيرَ مَنْ وطىءَ الثرى  
عذراءُ تُزري بالعداري الحُردي

١ ق : طابوا .

٢ ك : سئلوا .

٣ ك : أم ؛ ج : الحما ؛ ط : المهسي .

٤ ق ج ط : تخادعت . وتخاذعت : تفرقت .

٥ ق : محجوبة .

كلُّ الحسانِ لحسنها قد أدهشا ما مثلها في تربها شادٍ نشأ  
سَفَرَتْ بعزمٍ ما أجدّ وأطيشا نشأتُ بطيِّ القلبِ وارتوتِ الحشا  
زهراءَ مَنْ يرها يهليلَّ ويسجدِ

أمتك تشأى في مداها الألسنا وتُري إجادتها المجيدَ المحسنا  
تغلو ولا تشي العنانَ عن الشنا وأتلك تمرحُ كالقضبِ إذا انثى  
مترنحاً بين الغُصون الميِّدِ

قد أعملتُ في المدحِ ثاقبَ ذهنها ترجو الحلولَ لدى قرارةِ أمنها  
وعسى إذا غُدَيْتَ بتربةِ عدنِها يجلو لك الإحسانُ بارعَ حُسنها  
والحسنُ يجلوها وإن لم تُنشدِ

مدحي لخيرِ العالمين عقيدتي ومطيبي بل طيبي ونشيدتي  
ونيجتي وهدى اليقين مفيدتي ولئن مدحتُ محمداً بقصيدتي  
فلقد مدحتُ قصيدتي بمحمدِ

يا خيرَ خلقِ الله دعوةَ حائِرٍ يشكو إليك صُروفَ دهرٍ جائرٍ  
واللهُ يعلمُ في هواك سرائري وهو الذي أرجو لعفوِ جرائري  
متوسلاً بجنابك المتأطدِ

لولا حقوقُ عيَّنتُ بمغاربِ لمكثتُ عندك كي تتاحَ مآربي  
ويكونَ في الزرقاءِ عذبُ مشاربي حتى أحلّي من ثراكِ ترائبي  
وأنالَ دقناً في بقيعِ الغرقدِ

وعليكَ من ربِّ حبّاك صلّاته وسلامه وهباته وصلّاته  
ما أمّ بابكَ مَنْ هدته فلاته لعلاك حتى زحزحتَ علاته  
فأنيحَ حُسنِ الختمِ دونَ تردّدِ

ثم ودَّعته صلى الله عليه وسلم والقلبُ من فراقه سقيم ، ووقعت من البعد عن  
تلك المعاهد في المُقْعِدِ المُقِيمِ ، وأنا أرجو أن يكون شكل منطقي غير عقيم ،  
وأن أحشَرَ في زُمْرَةِ مَنْ سَلَكَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١ :

يا شفيعَ العصاةِ أنتَ رجائي      كيف يَحْشَى الرجاءَ عندك خَيْبَةً  
وإذا كنتَ حاضراً بفؤادي      غيبةُ الجسمِ عنك ليستَ بغيبةً  
ليس بالعيشِ في البلادِ انتفاعٌ      أطيبُ العيشِ ما يكونَ بطيِّبَةً

\* \* \*

### [ زيارة بيت المقدس ]

ثم عدتُ إلى مصر ، وقد زال عني ببركته صلى الله عليه وسلم الإضر ، وذلك  
في محرم سنة ١٠٢٩ ، ثم قصدت زيارة بيت المقدس في شهر ربيع من هذا العام ،  
وقد شملتني بفضل الله جوائز الإنعام ، وتذكرت عند مشاهدة تلك المسالك  
الصعبة ، قولَ حافظ الحفظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله تعالى - وهو ممّا  
زادني في هذه الزيارة رغبة :

إلى البيتِ المقدّسِ جئتُ أرجو      جنانَ الخلدِ نزلًا من كريمٍ  
قطعتنا في مسافته عِقَاباً      وما بعدَ العقابِ سوى النعيمِ

فلما دخلتُ المسجد الأقصى ، وأبصرتُ بدائمه التي لا تُستَقْصَى ، بهرّني  
جماله الذي تجلّى الله به عليه ، وسألت عن محل المعراج الشريف فأرشدت إليه ،  
وشاهدت محلاً أمّ فيه صلى الله عليه وسلم الرسل الكرام الهداة ، وكان حقّي أن  
أنشد هنالك ما قاله بعضُ الموفقين وهو ممّا ينبغي أن ترمزم به الحُدَاة :

١ الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٥ .

إن كنتَ تسألُ أينَ قدَّ  
 فأصيخُ إلى آياتِهِ  
 أكْرَمُ بعبدِ سَلَمَتِ  
 في حَضْرَةِ الْقُدُسِ وا  
 صَفَوْا وَصَلَّوْا خَلْفَهُ  
 لِلشُّهْبِ نَوْرٌ بَيْنُ  
 سَلِكِ النُّبُوَّةِ باهْرُ  
 هَذَا الْكِتَابِ دَلَالَةٌ  
 شَهَدَتْ لَهُ مِنْ بَعْدِ عَجْ  
 خَيْرُ الْوَرَى وَأَجْلُ آ  
 فَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّ الْوَرَى  
 رُ مُحَمَّدٍ بَيْنَ الْأَنَامِ  
 تَنْظَرُ بِرَبِّكَ فِي الْأَوَامِ  
 تَقْدِيمَهُ الرَّسُلُ الْكِرَامِ  
 فَأَهَا بَعِزِّ واحْتِرَامِ  
 إِنَّ الْجَمَاعَةَ بِالْإِمَامِ  
 وَالْفَضْلُ الْقَمَرِ التَّمَامِ  
 وَبِأَحْمَدٍ خْتِمَ النِّظَامِ  
 تَبْقَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامِ  
 زِيَّ أَلْسِنُ اللَّذِّ الْخِصَامِ  
 يَاتُ لَهُ خَيْرُ الْكَلَامِ  
 أَزَكَى صَلَاةٍ مَعَ سَلَامِ

وربما يقول من يقف على سرِّ هذه الأمداح النبوية : إلى متى وهذا  
 الميدان تكلُّ فيه فرسان البديهة والرؤية ؟ فأنشده في الجواب ، قول بعض من  
 أم نهج الصواب :

لَأَدِيمَنَّ مَدِيحَ الْمُصْطَفَى فِعْلَ مَنْ فِي اللَّهِ قَوَى طَمَعَهُ  
 فَعَسَى أَنْعَمُ فِي الدُّنْيَا بِهِ وَعَسَى يَحْشُرُنِي اللَّهُ مَعَهُ

وإذا كان القريضُ في بعض الأحيان كذباً صراحاً ، والموفقُ مَنْ تركه  
 والحالة هذه رغبةً عنه وله أطراحاً ، فخيره ما كان حقاً وهو مدح الله ورسوله ،  
 وبذلك يحصل للعبد منتهى سؤله :

ليس كلُّ القريض يقبله السمُّ عُ وتُصْنَعِي لذكره الأفهامُ  
 إن بعضاً من القريض هراءٌ ليس شيئاً ، وبعضه أحكامُ

١ ق : إن بعض القريض تلقاه هزماً ؛ ك : ما كان هزماً ؛ ط : ينشأ هراء .

وأجلُّ الكلامِ ما كان في مد  
طَيِّبَ العَرَفِ دائِمَ الذِكرِ لا تَأ  
مثل زَهْرٍ قد شَقَّ عنه كِمامٌ  
ليس تَحْصِي صفاتُ أَحْمَدَ بالعدِّ  
ولَو أَنَّ البِجارَ حَبْرٌ وما في ال  
فطويلُ المَدِيحِ فِيهِ قَصرٌ  
ولسانُ البليغِ للعِبي يُنمى  
كيف يُحْصى مَدِيحُ مولَى عليه ال  
وله المعجزاتُ والآيُ تبدو  
فمن المعجزاتِ أنْ سارَ ليلاً  
راكباً للبراقِ حتى أتى القُد  
فاستَووا خَلْقَه صَفوفاً وقالوا  
فعلية من ربِّه صلواتٌ

ح شَفِيعِ الورى عَلَيهِ السَّلَامُ  
في الليالي عليه والأيامُ  
أو كسك قد فُضَّ عنه خِتَامُ  
كما لَمْ تُحِطْ بها الأوهامُ  
أرض من كلِّ نابتِ أَقلامُ  
وحُسامُ ماضٍ لديه كَهَامُ  
وكذا صَيَّبُ الفصيحِ جَهَامُ  
لهُ أنى وذكرُهُ مُستدامُ  
لا يَغطِّي وجوههنَّ لِشَامُ  
وجميعُ الأنامِ فِيهِ نيامُ  
سَ وفيه رُسلُ الإلهِ الكرامُ  
صلِّ يا أَحْمَدُ فَأنتَ الإمامُ  
زاكياتٌ مع صَحبهِ وسلامُ

• • •

### [ عود إلى مصر ثم إلى القدس ]

ثم رجعت إلى القاهرة ، وكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة ، فدخلت لهذا التاريخ الذي هو عام تسعة وثلاثين<sup>٢</sup> وألف مكة خمس مرات ، وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرات ، وأملت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة ، والله يجعل أيام العمر بالعود إليها مديدة ، ووفدت على طيبة المعظمة ميمماً مناهجها السديدة ، سبع مرار ، وأطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار ، واستضأت

١ ق ك ط : به .

٢ هامش ط : كذا في الأصل والصواب عشرين ليوافق ما تقدم له .



بتلك الأنوار ، وألّفتُ بحضرة صلى الله عليه وسلم بعض ما من الله به عليّ في ذلك الجوار ، وأملتُ الحديث النبوي بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع ، ونلت بذلك وغيره - والله المنة - ما لم يكن لي فيه مطمّح ولا مطمع ، ثم أبتُ إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور ، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور ، وكان عوّدي من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة<sup>١</sup> ، فتحرّكت همّي أوائلَ رجب هذه السنة للعود للبيت المقدس ، وتجديد العهد بالمحلّ الذي هو على التقوى مؤسس ، فوصلتُ أواسط رجب ، وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين يوماً بدا لي فيها بفضل الله وجهُ الرشد وما احتجب ، وألقيت عدةَ دروسٍ بالأقصى والصخرة المنيفة ، وزرتُ مقام الخليل ومن معه من الأنبياء ذوي المقامات الشريفة ، وكنتُ حقيقاً بأن أنشد قول ابن مطروح<sup>٢</sup> ، في ذلك المقام الذي فضّله معروف وأمره مشروح :

خليل الله قد جئتكَ نرجو	شفاعتكَ التي ليست تُردُّ
أنلنا دعوةً واشفعُ تُشفعُ	إلى من لا يخيبُ لديه قصدُ
وقلْ يا ربّ أضيافُ ووقدُ	لهمُ بمحمّد صيلةً وعهدُ
أتوا يستغفرونك من ذنوبِ	عِظامٍ لا تُعدُّ ولا تُحدُّ
إذا وزنتَ بيدِ بلّ أو شمامِ	رجحن ودونها رضوى وأحدُ
ولكن لا يضيقُ العفو عنهم	وكيف يضيقُ وهو لهم مُعدُّ
وقد سألوا رضاك على لساني	إلهي ما أجيبُ <sup>٣</sup> وما أردُّ
فيا مولاهم عطفاً عليهم	فهمُ جمعُ أتوك وأنت فردُ

\* \* \*

١ هامش ق : فيه ما فيه من المغايرة بين التاريخين ، فانظر .  
 ٢ هو جمال الدين يحيى بن عيسى ( - ٦٤٩ ) شاعر مصري خدم الصالح أيوب وديوانه مطبوع ( انظر وفيات الأعيان ٥ : ٣٠٢ والنجوم انزاهرة ٧ : ٢٧ ) .  
 ٣ ق ج : أجيب .

[ الرحلة إلى دمشق ]

ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كمنار موسى الكليم ، علي نبينا  
وعليهم وعلى سائر المرسلين والأنبياء أجمعين أفضل الصلاة والتسليم ، ثم حَدَثَ  
لي منتصف شعبان ، عزم على الرحلة إلى المدينة التي ظهر فضلها وبان ، دِمَشْقُ  
الشام ، ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام ، والأدواح المتنوعة ، والأرواح  
المتنوعة ، حيث المشاهدُ المكرّمة ، والمعاهدُ المحترمة ، والغُوطَةُ الغنّاء  
والحديقة ، والمكارمُ التي يُباري فيها المرء شانه وصديقه ، والأظلالُ الوريقة  
والأفنان الوريقة ، والزهر الذي تخاله مَبَسِمًا والندى ريقه ، والقُضبانُ المُلْدُ ،  
التي تشوق رائيتها لحنّة الخلد :

بِحِثُ الرِوضِ وَصَاحُ الثنايا أنيقُ الحسنِ مَصْقُولُ الأديمِ

وهي المدينة المستوية على الطباع ، المعمورة البقاع ، بالفضل والرباع :

تَزِيدُ على مرّ الزمانِ طُلاوةً دِمَشْقُ التي راقَت بِجُلُو المشارِبِ  
لها في أقاليم البلادِ مشارقٌ مُنَزَّهةٌ أقمارها عن مغاربِ

ودخلتها أواخر شعبان المذكور ، وحمِدَتِ الرحلةُ إليها وجعلها اللهُ من  
السعي المشكور :

وجدتُ بها ما يملأ العينَ قُرّةً وَيُسلي عن الأوطانِ كلَّ غريبِ

وشاهدت بعض مغانيها الحسنة ، ومبانيها المستحسنّة :

نزلنا بها ننوي المقامَ ثلاثةَ فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

ورأينا من محاسنها ما لا يستوفيه من تأنقٍ في الخطاب ، وأطال في الوصف

وأطاب ، وإن ملأ من البلاغة الوطاب ، كما قلت ١ :

محاسنُ الشامِ أجلى من أن تسام ٢ بجد  
لولا حمى الشرع قلنا ولم نقف عند حد :  
كأنهـا معجزاتٌ مقرونةٌ بالتحدي

فالجامعُ الجامع للبدائع يبهـر الفـيـكـر ، والغـوطة المنوطة بالحسن تسحر الألباب  
لا سيما إذا حيأها النسيم وابتكر :

أحبُّ الحمى من أجل من سكن الحمى حديثٌ حديثٌ في الهوى وقديمٌ  
فلهـ مرآها الجميلُ الجليل ، وبيوتها التي لم تخرج عن عروضِ الخليل ،  
ومغيرها الذي هو على فضلها وفضل أهلها أدلُّ دليل ، ومنظرها الذي ينقلب  
البصرُ عن بهجته وهو كليل :

والروضُ قد راق العيونَ بحلّةٍ قد حاكها بسحابه آذارُ  
وعلى غصونِ الدّوحِ خضُرُ غلائلٍ والزهرُ في أكمامه أزرارُ

فكم لها من حسن ظاهر وكامن ، كما قلت موطنًا للبيت الثامن :

أما دِمَشقُ فخررة ٣  
هي بهجةُ الدُّنيا التي  
لله منها الصالحية  
والغوطةُ الغناء حية  
والنهرُ صافٍ والنسيب

لعبتُ بألبابِ الخلائق  
منها بديعُ الحسنِ فائق  
ةُ فاخرتُ بدوي الحقائق  
تُ بالورود وبالشقائق  
مُ اللدنُ للأشواقِ سائق

١ الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٦ .

٢ خلاصة الأثر : تقاس ؛ ك : تحاط .

٣ ك : فجنة .

والطيرُ بالعيدانِ أب دتُ في الغنا أحلى الطرائقُ  
ولآلىءِ الأزهارِ حلدتُ جيدَ غُصْنٍ فهو رائقُ  
ومرآودُ الأمطارِ قد كُحِلتْ بها حدقُ الحدائقِ  
لا زال مغناها مصو نأ آمناً كلَّ البوائقِ

وكما قلت مرتجلاً أيضاً مضمناً الرابع والخامس :

دمشقُ راقيةٌ رؤاءٌ وبهجةٌ وغَضارةٌ  
فيها نسيمٌ عليلٌ صحَّ فوافتُ بشاره  
وغُوطَةٌ كعروسٍ تزهى بأعجبِ شارة  
يا حُسْنها من رياضٍ مثل النَّصارِ نَضارة  
كالزهرِ زهراً وعنهما عَرَفُ العبيرِ عِبارة  
والجامعُ الفردُ منها أعلى الإلهُ مناره  
وحاصلُ القولِ فيها لمن أرادَ اختصاره  
تذكيرُها من رآها عدناً وحسني إشارة  
دامتُ تفوقُ سواها إنآلةٌ وإنارة

وكما ارتجلت فيها أيضاً ١ :

قال لي ما تقولُ في الشامِ حَبيرُ  
قلتُ ماذا أقولُ في وصفِ قُطْرِ  
كلِّما لاحَ بارقُ الحسنِ شامةُ  
هُوَ في وَجْنةِ المحاسنِ شامةُ  
وقلت أيضاً :

قال لي صفِ دمشقَ مولىَ رئيسُ  
قلتُ كلَّ اللسانِ في وصفِ قُطْرِ  
جَمَلِ اللهِ خَلْقَهُ واحتشامةُ  
هُوَ في وَجْنةِ البسيطةِ شامةُ

١ أبيات المقرئ هذه في خلاصة الأثر ( ١ : ٣٠٦ ) .

وقلت أيضاً :

وإذا وصفت محاسن الدنيا فلا تبدأ بغير دمشق فيها أولاً  
بلدٌ إذا أرسلت طرفك نحوه لم تلق إلا جنةً أو جَدَ ولا  
ذا وصف بعض صفاته<sup>١</sup> وهي التي تُعي البليغ<sup>٢</sup> وإن أجاد وطوَّلا

والغاية<sup>٣</sup> في هذا الباب ، من الوصف لبعض محاسنها الفاتنة الألباب ، قول أبي  
الوَحْشِ سَبْعٍ<sup>٤</sup> بن خلف الأَسدي يصف أرضها المشرقة ، ورياضها المورقة ،  
ونسيمها العليل ، وزهرها الندي<sup>٥</sup> البليل<sup>٦</sup> :

سقى دمشق الشام غيثٌ مُمرعٌ من مُستهلّ ديمةٍ دقاقِها  
مدينةٌ ليس يَضَاهي حُسْنُها في سائرِ الدنيا ولا آفاقِها  
تودُّ زوراءَ العراقِ أنّها تُعزّي إليها لا إلى عِراقِها  
فأرضها مثلُ السماءِ بهجةٌ وزهرها كالزُّهرِ في إشراقِها  
نسيمٌ رِيّاً روضِها متى سرى فكّ أخا الهمومِ من وثاقِها<sup>٧</sup>  
قدّ رِبَعَ الربيعُ في ربوعها وسيقتِ الدنيا إلى أسواقِها  
لا تسأمُ العيونُ والأنوفُ من رؤيتها يوماً ولا انتشاقِها

١ ك : صفاتها .

٢ ك : بيا البليغ .

٣ ق : والغاية القصوى .

٤ في جميع النسخ : سبي .

٥ الندي : سقطت من ك .

٦ هذه الأبيات من قصيدة في الحريرة (قسم الشام ١ : ٢٤٨) منسوبة لفتيان بن علي الشاغوري

ووردت في رحلة ابن بطوطة ١ : ٨٦ لسج بن خلف وهو الأديب أبو الوحش أحد شعراء

الحريرة (قسم الشام ١ : ٢٤٢) .

٧ سقط البيت من ق .

وقول شمس الدين الأسدي الطيبي :

إذا ذُكِرَتْ بَقَاعُ الأَرْضِ يوماً فَقُلْ سَقِيًّا لَجِلْتِـنَا ثُمَّ رَعِيْنَا  
وَقُلْ فِي وَصْفِهَا لَآ فِي سِوَاهَا : بِهَا مَا شَتَّ مِنْ دِينِ وَدُنْيَا

وكان لسان الدين ذا الوزارتين بن الخطيب ، عتانا بقوله المصيب :

بلدٌ تحفٌ بهِ الرِياضُ كأنه وجهٌ جميلٌ والرِياضُ عِذارُه  
وكانتْما واديهِ مِعْصَمٌ غادَةٌ ومن الجُسُورِ المحْكَماتِ سِوارُه

وكنت قبل رحلتي إليها ، والوفادة<sup>١</sup> عليها ، كثيراً ما أسمع عن أهلها زاد الله في ارتقائهم ، ما يشوقني إلى رؤيتها ولقائهم ، ويُنشِئني على البعد أريج الأدب الفائق من تلقائهم ، حتى لقيتُ بمكة المعظّمة ، أوحده كبرائها الذين فرائدهم بلبّة الدهر منظمّة ؛ عين الأعيان ، وصدر أرباب التفسير بها والبيان ؛ صاحبُ القلم الذي طبّق الكلي والمفاصل ، والفتاوى التي حكمها بين الحق والباطل فاصل ، والتأليف التي وصفها بالإجادة من باب تحصيل الحاصل ؛ وارثُ العلم عن غير كلاله ؛ ذو الحسب المشرق بدرّه في سماء الجلالة ؛ صاحب المعارف التي زانت خلاله ، وساجب أذبال العوّارف التي أبانت على<sup>٢</sup> فضله دلالة ، مفتي السلطان في تلك الأوطان ، على مذهب الإمام النعمان ، مولانا الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام عماد الدين<sup>٣</sup> ، لا زال سالكاً سبيل المهتدين ؛ فكان جمّل الله به عصرًا وأوانًا ، لقضية هذا القياس عنوانًا ، فلما حلت بدارهم ، ورأيت ما أذهلني من سبقهم للفضل وبدارهم ، صدّق الخبرُ الخبرُ ، وتمثلت

١ ك : ووفادتي .

٢ ك : عن .

٣ هو عبد الرحمن العمادي الدمشقي ( - ١٠٥١ ) . ( انظر خلاصة الأثر ٢ : ٣٨٠ - ٣٨٩ )

٤ الخبر : سقطت من ك .

فيهم بقول بعض من غَبَرَ :

أَلْتِ بِنَا أَوْصَافَهُمْ فَاثْتَلَا الْفِضَا      عَيْبِرَآ وَأَضْحَى نُوْرُهُ مِثَالِقَا  
وَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْ سَمَاعِ حَدِيثِهِمْ      بِلَاغَا فَصَحَّ النُّقْلُ إِذْ حَصَلَ اللَّقَا  
وَقَابِلُونِي أَسْمَاهُمْ اللهُ بِالْإِحْتِفَالِ وَالْإِحْتِفَاءِ ، وَعَرَفَنِي بِدَيْعٍ بِرَّهْمٍ فَنَ  
الْإِكْتِفَاءِ :

غَمَرْتَنِي الْمَكَارِمُ الْغُرَّ مِنْهُمْ      وَتَوَالَّتْ عَلَيَّ مِنْهَا فَنُونُ  
شَرَطْتُ لِإِحْسَانِهِمْ تَحَقُّقَ عِنْدِي      لَيْتَ شِعْرِي الْجَزَاءُ كَيْفَ يَكُونُ  
وَقَابِلُونِي بِالْقَبُولِ مُغْضِينَ عَنِ جَهْلِي <sup>١</sup> :

وَمَا زَالَ بِي إِحْسَانُهُمْ وَجَمِيلُهُمْ      وَبِرَّهْمٌ حَتَّى حَسَبْتَهُمْ أَهْلِي  
بَلِ الْأَوْلَى أَنْ أَمْتَلَّ فِيهِمْ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا الْمَقُولِ فِي آلِ الْمَهْلَبِ ، وَهُوَ قَوْلُ  
بَعْضِ مَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ بِرَّقُ قَصْدَهُمْ غَيْرَ خُلَّبٍ ، فِي زَمَنِ بِهِ تَقَلَّبَ <sup>٢</sup> :

وَلَمَّا نَزَلْنَا فِي ظِلَالِ بَيْوتِهِمْ      أَمِنَّا وَنَلْنَا الْخِصْبَ فِي زَمَنِ مَحَلِّ <sup>٣</sup>  
وَلَوْ لَمْ يَزِدْ إِحْسَانُهُمْ وَجَمِيلُهُمْ      عَلَى الْبِرِّ مِنْ أَهْلِي حَسَبْتَهُمْ أَهْلِي  
لَا سِيَّما الْمَوْلَى الَّذِي أَمْدَاحُهُ تُحَلِّي أَجْيَادَ الطَّرُوسِ الْعَاطِلَةَ ، وَسَمَاحُهُ  
يُخَجِّلُ أَنْوَاءَ الْغَيْوِثِ الْهَاطِلَةَ ، صَدْرُ الْأَكَابِرِ الْأَعَاظِمِ ، الْحَاضِرُ قَصَبِ السَّبْقِ  
فِي مَيْدَانِ الْإِجَادَةِ بِشَهَادَةِ كُلِّ نَاثِرٍ وَنَاظِمٍ ، الصِّدِيقُ الَّذِي بُوْدَهُ أَغْتَبَطُ ،

١ أحد بيتين حساسين ، والأول منهما (المرزوقي ١ : ٣٠٣) :

نزلت على آل المهلب شاتياً غريباً عن الأوطان في زمن محل

٢ البيتان للقاضي الرشيد أحمد بن علي الأسواني (انظر الوافي ٧ الورقة ١٠٧) .

٣ ك : المحل .

والصدوق الذي بأسباب عهده أرتبط ، الأوحد الذي ضربت البراعة رواقها  
 بناديه ، والماجد الذي لم يزل بديعُ البلاغة من كَتَبَ بناديه ، السريُّ الخائر من  
 الخلال ما أبان تفضيله ، التوذعيُّ الذي لم تزل أوصافه تحكم له بالسؤدد وتقضي  
 له ، والحقُّ أبلج لا يحتاج إلى زيادة برآهين ، الأجلُّ المولى أحمد أفندي بن  
 شاهين<sup>١</sup> ، لا زالت العزة مُقيمةً بيواديه ، ولا برحتْ حضرته جامعةً لبواطن  
 الفخر وبيوآديه ، والسعدُ يراوحُ مقامه ويغاديه ، والمجدُ يترنمُ بذكره خاديه ،  
 فكم له أسماء الله ولغيره من أعيان دمشق لديٍّ من أباد ، يعجز عن الإبانة عنها  
 لو أراد وصفها قسَّ إباد ، ولو تعرضتْ لأسمائهم وحُلامهم ، أدام الله تعالى  
 سعودهم<sup>٢</sup> وعُلامهم ، لضاق عن ذلك هذا النطاق ، وكان من شبهه التكليف  
 بما لا يطاق ، فليت شعري بأيِّ أسلوب ، أؤدي بعضَ حقهم المطلوب ؟ أم بأيِّ  
 لسان ، أنفي على مزآياهم الحسان ؟ وما عسى أن أقول في قوم نسقوا الفضائلَ  
 ولاءً ، وتعاطوا أكوابَ المحامد ولاءً<sup>٣</sup> ؟ وسحبوا من المجد مطارف وملاء ،  
 وحازوا المكارم ، وبدؤوا الموادِدَ والمُصارِمَ ، سؤدداً وعلاء :

فَمَا رِياضُ زَهْرِ الرَّبِيعِ إِذَا بَدَتْ فِي وَشْيِهَا الْبَدِيعِ  
 ضاحِكَةٌ عَنْ شَتَبِ الْأَقاحِ عِنْدَ سُفُورِ طَلْعَةِ الصَّبَاحِ  
 غَنَى بِهَا مُطَوِّقُ الْحَمَامِ وَصَافِحَتُهَا رَاحَةُ الْغَمَامِ  
 وَبَاكَرَتُهَا نَسْمَةٌ مِنَ الصَّبَا فَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا عَهْدُ الصَّبَا  
 نَصَارَةٌ وَرَوْنَقًا وَبَهْجَةً تُفْدَى بِكُلِّ نَاطِرٍ وَمُهْجَةٍ

١ أصل والده من جزيرة قبرس وتلمذ أحمد على عبد الرحمن العمادي وغيره وهو إلى شهرته بالشعر  
 كاتب مترسل وكان يدرس بالحقنمية ولما ورد المقري دمشق أنزله فيها ، وبينهما مطارحات  
 ومراسلات ستأتي في الباب الخامس ؛ توفي سنة ١٠٥٣ (انظر خلاصة الأثر ١ : ٢٠) .

٢ ك : سؤددهم .

٣ ك : ملاء .



أطيب من ثنائهم عبيراً بين الورى ، وأسألُ به خبيراً  
دامت معاليهم على طول الزمن يروى حديث الفضل عنها عن حسن  
وثابت وقرة وسعد وأسعفوا بنيل كل وعد  
فهم الذين نوهوا بقدري الخامل ، وظنوا مع نقصي أن بحر معرفتي وافر  
كامل ، حسبما اقتضاه طبعهم العالي :

فلو شريت بعُمري ساعة ذهبت من عيشتي معهم ما كان بالغالي  
فمتعين حقه لا يتترك ، وحبهم لا يخالط بغيره ولا يشرك ، وإن  
أطلت الوصف فالغاية في ذلك لا تدرك :

يزداد في مسمعي ترداد ذكرهم طيباً ويحسن في عيني مكرره  
وإذا كان المديح الصادق لا يزيدهم رفعة قدر ، فهم كما قال الأعرابي الذي  
ضلت ناقته في مدح البدر ، والبليغ وذو الحصر في ذلك سيان ، والحق  
أبلج ، والباطل لجلج ، وليس الخبر كالعيان :

هب الروض لا يثني على الغيث نشره أحسبه تخفى مآثره الحسنى  
وقد تذكرت بلادي النائية ، بذلك المرأى الشامي الذي يبهر رائيه ، فما شئت  
من أنهار ذات انسجام ، أترع بها من جريال الأنس جام ، وأزهار متوجة  
للأدواح ، مروحة للنفوس بعاطر الأرواح ، وحدائق تعشي أنوارها الأحداق ،  
وعيانها للخبر عنها مصداق وأي مصداق :

١ يشير إلى قول الأعرابي للقر :

ماذا أقول وقولي فيك ذو حصر  
وقد كفيته التفصيل والجملا  
إن قلت لا زلت مرفوعاً فأنت كذا  
أو قلت زانك ربي فهو قد فعلا

فَهِىَ الَّتِي ضَحِكَ الْبَهَارُ صِبَاحَهَا      وَبَكَتْ عَشِيَّتَهَا عَيُونَ الزَّرْجِسِ  
وَإِخْضَرَ جَانِبُ نَهْرِهَا فَكَأَنَّهُ      سَيْفٌ يُسَلُّ وَغَمْدُهُ مِنْ سُنْدُسٍ

وجنان ، أفنانها في الحُسن ذوات افتنان :

صَافِحَتَهَا الرِّيحُ فَاعْتَنَقَ السَّرُّ      وَوَمَلَتْ طِيَوَالَهُ لِلْقِصَارِ  
لَائِدٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ كَقَوْمٍ      فِي عِتَابٍ مُكْرَرٍ وَاعْتِدَارِ

ويطاح راق سناها ، وكمل حُسنها وتناهى ، كما قلت مضمناً في ذلك  
المنحى ، لقول بعض من نال في البلاغة مناً ومنحاً :

دِمَشْقٌ لَا يُقَاسُ بِهَا سِوَاهَا      وَيَمْتَنِعُ الْقِيَاسُ مَعَ التَّصْوِصِ  
حَلَاهَا رَاقَتِ الْأَبْصَارَ حُسْنًا      عَلَى حَكْمِ الْعُمُومِ أَوِ الْخُصُوصِ  
بِسَاطٍ زَمْرَدٍ نَثَرَتْ عَلَيْهِ      مِنَ الْيَاقُوتِ أَلْوَانِ الْفُصُوصِ

ولله درُّ القائل ، في وصف تلك الفضائل <sup>١</sup> :

إِنْ تَكُنْ جَنَّةُ الْخُلُودِ بِأَرْضٍ      فِدِمَشْقٍ ، وَلَا يَكُونُ سِوَاهَا  
أَوْ تَكُنْ فِي السَّمَاءِ فَهِيَ عَلَيْهَا      قَدْ أَمَدَّتْ هَوَاءَهَا وَهَوَاهَا  
بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ      فَاعْتَنِمِهَا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا

وعند رؤيتي لتلك الأقطار ، الجليلة الأوصاف العظيمة الأخطار ، تفاءلتُ  
بالعود إلى أوطان لي بها أوطار ، إذ التشابه بينهما قريب في الأنهار والأزهار ،  
ذات العرف المعطار ، وزادت هذه بالتقديس الذي همعت عليها منه الأمطار ،  
وتمثلت بقول الأصفهاني ، وإن غيرتُ يسيراً منه لما أسفرت وجوه التهانى <sup>٢</sup> :

١ انظر رحلة ابن بطوطة : ٨٤ .

٢ بعض هذا الشعر ورد في قصة رواها الحميدي في الجذوة : ٦٨ .

لَمَّا وَرَدْتُ الصَّالِحِيَّةَ      هِجْرَةَ حَيْثُ مُجْتَمَعُ الرَّفَاقِ  
 وَشِمْتُ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ      م نَسِيمَ أَنْفَاسِ الْعِرَاقِ  
 أَيْقَنْتُ لِي وَلِمَنْ أَحَدٌ      بُ يُجْمَعُ شَمْلٌ وَاتِّفَاقِ  
 وَضَحَكْتُ مِنْ فَرَحِ اللَّقَا      ه كَمَا بَكَيْتُ مِنَ الْفِرَاقِ  
 لَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا نَجْوَى      شَمُّ أَرْمَنِ السَّفَرِ الْبَوَاقِ  
 حَتَّى يَطُولَ حَدِيثُنَا      بِصِفَاتِ مَا كُنَّا نَلَاقِ

وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية مولعاً بالوطن لا سواه ، فصار القلب  
 بعد ذلك مقسماً بهواه :

وَلِي بِالْحِمَى أَهْلٌ وَبِالشَّعْبِ جَبْرَةٌ      وَفِي حَاجِرِ خَيْلٍ وَفِي الْمَنْحَى صَحْبٌ  
 تَقَسَّمَ ذَا الْقَلْبِ الْمَتِيمُ بَيْنَهُمْ      سَأَلْتُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ يُقَسَّمُ الْقَلْبُ

فيا لك من صبّ مُراعٍ للذمام ، منقادٍ لشوقه بزمام ، يخيلُ له أنه سمع  
 صوتَ قيان ، بقول الأول :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً      وَبِالشَّامِ أَخْرَى كَيْفَ يَلْتَمِيَانِ

وفردٍ تعددت جموعه ، ووشئت ، بما أكتت ضلوعه ، دموعه ،  
 فأنشد وقد تحير ، ما بدل فيه من عظم ما به وغير :

كُنْتُ شَأْنَ الْهَوَى يَوْمَ النَّوَى فَوَشَى      بِسَرِّهِ مِنْ جُفُونِي أَيُّ نَمَامِ  
 كَانَتْ لِيَالِيَّ بَيْضاً فِي دَنُوهِمْ      فَلَا تَسَلْ بَعْدَهُمْ عَنْ حَالِ أَيْتَامِي  
 ضَنْبِي وَجَدّاً بِهِمُ وَالنَّاسُ تُحْسِبُ بِي      سَقِماً فَأَبْنَهُمْ حَالِي عِنْدَ لُوَامِي  
 وَلَيْسَ أَصْلُ ضَنْبِي جَسْمِي النَّحِيلِ سِوَى      فَرَطِ اشْتِيَاقِي لِأَهْلِ الْغَرْبِ وَالشَّامِ

الأصل : لما وردنا القادسية ، وغيره المؤلف ليوافق ما أراد من مدح دمشق . وكذلك غير في البيت  
 التالي « وشمت من أرض الحجاز » .

وحصل التحير ، حيث لم يمكن الجمع ولا الخلو عند التخير ، كما قال ابن  
دقيق العيد<sup>١</sup> ، في مثل هذا الغرض البعيد<sup>٢</sup> :

إذا كنتُ في نَجْدٍ وطيب نعيمه      تذكّرتُ أهلي باللّوى فمُحسّرٍ  
وإن كنتُ فيهم زِدْتُ شوقاً وِلْوَعَةً      إلى ساكني نَجْدٍ وعيل تصبّري  
فقد طال ما بين الفريقين موقفي      فمن لي بنجْدٍ بين أهلي ومعشري

وبالجملة فالاعتراف بالحق فريضة ، ومحاسن الشام وأهله طويلة عريضة ،  
ورياضه بالمفاخر والكمالات أريضة ، وهو مقرّ الأولياء والأنبياء ، ولا يجهل  
فضله إلاّ الأعمار الأغبياء ، الذين قلوبهم مريضة :

أتى يرى الشمس خفّاش يلاحظها      والشمس تبهر أبصار الخفافيش  
ولله درّ من قال في مثل هذا من الأرضياء :

وهبني قلتُ إن<sup>٣</sup> الصبح ليلٌ      أبعمتي العالمون عن الضياء

وقال آخر فيمن عن الحق ينفر :

إذا لم يكن للمرء عينٌ بصيرةٌ      فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفرٌ

وحسب الفاضل الليبي ، أن يروي قول البدر بن حبيب<sup>٤</sup> :

١ هو محمد بن علي بن مطيع القشيري المشهور بابن دقيق العيد (- ٧٠٢) كان عالماً فقيهاً (راجع  
ترجمته في الطالع السعيد : ٢٢٩ ومسالك الأبصار : ٣ : ٤٣٣ وطبقات السبكي ٦ : ٢ وتذكرة  
الحفاظ : ١٤٨١) .

٢ لم ترد الأبيات في مجموعة شعره الملحقة بدراسة الأستاذ علي صافي حسين عنه .

٣ ك : هذا .

٤ هو بدر الدين الحسن بن حبيب الحلبي (- ٧٧٩) ولد في دمشق وانتقل إلى حلب ثم إلى مصر ،  
ثم عاد ينتقل في بلاد الشام وله عدة مؤلفات (الدرر الكامنة ٢ : ٢٩) .

عَرَّجَ إِذَا مَا شِئْتَ بَرَقَ الشَّامُ      وَحَيَّ أَهْلَ الحَيِّ وَأَقْرَبَ السَّلَامُ  
 وَأَنْزَلَ بِإِقْلِيمِ جَزِيلِ الحَيَا      بَارَكَ فِيهِ اللهُ رَبُّ الأَنَامِ  
 العِزُّ والنَّصْرُ لَدَيْهِ ، وَمَا      لِعُرْوَةِ الإِسْلَامِ عَنْهُ انْفِصَامُ  
 مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهُ كَمْ قَدْ حَوَى      رُكْنًا بِمِرَاةٍ يَطِيبُ المَقَامُ  
 وَهُوَ مَقَرُّ الأنْبِيَاءِ الأُولَى      والأَصْفِيَاءِ الأَتَقِيَاءِ الكِرَامِ  
 كَمْ مِنْ شَهِيدٍ فِي حِمَاهُ وَكَمْ      مِنْ عَالِمٍ فَرَدِي وَكَمْ مِنْ إِمَامِ

ولذلك اعتنت الجهادية بتخليد أخباره في الدواوين ، وابتنت الأساتذة بيوت  
 افتخاره المنيفة الأواوين ، وتناقلت أنبائه البديعة ألسن الراوين ، وهامت  
 بأماكنه المريعة هداة الشريعة فضلاً عن الشعراء الغاوين ، ومع ذلك فهم في  
 التعبير عن عجائبه غير متساوين ، أولاً يرى أنهم يأتون من مقولهم ، على قدر  
 رأيهم وعقولهم ، ولم يبلغ جمع منهم ما كانوا له ناوين :

على قدرِكَ الصَّهْبَاءِ تَوَلِيكَ نَشْوَةَ      بِهَا سِيءَ أَعْدَاكَ وَسُرَّ صِحَابُ  
 وَلَوْ أَنَّهَا تُعْطِيكَ مِنْهَا بِقَدْرِهَا      لَضَاقَتْ بِكَ الأَكْوَانُ وَهِيَ رَحَابُ

\* \* \*

[ ابن شاهين يقترح على المؤلف تأليف كتاب عن لسان الدين ]

وكننا في خلال الإقامة بدمشق المحوطة ، وأثناء التأمل في محاسن الجامع  
 والمنازل والقصور والعمارة ، كثيراً ما ننظم في سلك المذاكرة درر الأخبار  
 الملقوطة ، ونفضياً من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالس مغبوطة ،  
 نتجاذب فيها أهداب الآداب ، ونشرب من سلسال الاسترسال ونتهادى  
 لباب الألباب ، ونمدّ بساط الانبساط ونسدل أطناب الإطناب ، ونقضي  
 أوطار الأقطار ، ونستدعي أعلام الأعلام ، فينجرُّ بنا الكلام والحديث شجون ،  
 وبالتفنن يبلغ المستفيون ما يرجون ، إلى ذكر البلاد الأندلسية ، ووصف

رياضها السندسية ، التي هي بالحسن مننوعة ، وقضاياها الموجهة التي لا يستوفيتها المنطق مع أنها ضرورية وممكنة ومشروطة ، والفطر السليمة ، والأفهام المستقيمة ، بتسليم براهينها قاضية لا سيما إن كانت بالإنصاف مربوطة ، فصيرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني ، من الفيض الرحماني ، وأسرُد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني ، صبَّ الله عليه شأبيب رحماه وبلغه من رضوانه الأمانى ، ما تُثيره المناسبة وتقتضيه ، وتميل إليه الطباع السليمة وترتضيه ، من النظم الجزل ، في الجدل والمزل ، والإنشاء ، الذي يدهش به ذاكيره الألباب إن شاء ، وتصرفه في فنون البلاغة حالتي الولاية والعزل ، إذ هو - أعني لسان الدين - فارسُ النظم والنثر في ذلك العصر ، والمنفردُ بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر ، وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله أيدي الهُصُر ، ونثره تزري صورته بالخريدة ودُميَّة القصر .

فلمَّا تكرَّر ذلك غيرَ مرَّةٍ على أسماعهم ، لهجُوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم ، وعلقت بقلوبهم ، وأضحى منتهى مطلوبهم ، ومُنِيَّة آمالمهم وأطماعهم ، وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونه ، ويعترفون ببراعته ويستحسنونه ، ويستشقون من أزهاره كلَّ ذاك ، فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك ، وهو الماجد المذكور ، ذو السعي المشكور ، أن أتصدَّى للتعريف بلسان الدين في مُصنَّف يُعرب عن بعض أحواله وأنبائه ، وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ، ومفاخره التي قلَّد بها جيدُ الزمان ولبَّته ، ومآثره التي أرحَّج بها مسرى الشمال وهبَّته ، وبعض ما له من النثر والنظام ، والمؤلفات الكبار العظام ، الرائقة للأبصار ، الفاتحة على كلام كثير من أهل الأمصار ، السائرة مسير القمر والشمس ، المعقودة

عليها الخناصر<sup>١</sup> بل الخمس ، كيما يكون ذلك لهذه الأغراض مُشيعا ، ويخلع على مطالعه بهذه البلاد الشرقية من أغراضه البديعة ومنازعه وشيعا .

• • •

[ اعتذار المؤلف عن تليته للمطلب ]

فأجبتُه أسْمى الله قدره<sup>٢</sup> الكبير ، وأدام عَرَفَ فضائله المُزري بالعنبر والعبير ، بأن هذا الغرض غير سهل ، ولست عليمَ الله له بأهل ، من جهات عديدة ، أولها قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة ، إذ لا يوقني بهذا الغرض إلا الماهرُ بطرق المعارف السديدة ، وثانيها عدمُ تيسرِ الكتب المستعان بها على هذا المرام لأنِّي خَلَفْتُهَا بالمغرب ، وأكثرها في المشرق كعَنْقَاء مُغْرَب ، وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربية ، الجالبة للفكر غالباً الكُرْبَة ، وتقسمُ البال ، بين شغل عائق وبلبال ، وأنتى يطيق ، سلوكَ هذا المضيق ، مَنْ اکتَحَلت جفونه بالسهاد ، وتَبَّتْ جنوبه عن المهاد ، وسدَّدَ نحوه الأسفُ سَهْمَهُ ، وشغلُ باله ووهمه ، وبث في قلبه تبريحاً ، وعناء لم يجد منه إلا أن يَلْطُفَ اللهُ تَسْرِيحاً ، فما شام بارقةَ أملٍ إلا في النادر ، ولا وردَ منهلَ صفاء إلا وكدَّره مَكْرُ غادر ، وقد كثر الخفاء ، وبترَحَ بلا شك الخفاء ، واستَوْخَمَتِ المواردُ والمصادر ، والقلبُ مكْلوم ، واللبُّ<sup>٣</sup> غير مَلُوم ، إذا كان على تَلْفِيحِ ما يليقُ غيرَ قادر ، ولا مؤنس إلا شاكي دهر بلسان صريح ، أو باكي قاصمةٍ ظَهَرَ بِجَحْفَنٍ قَرِيح ، أو مُناضِل في معرَكِ العجز طريح ، أو فاضل دُفْنٍ من الحمول في ضريح ، إذ رمته سهام الأوهام الصوائب ، وعَضَّتْ منه إبهام

١ ك : المقنود . . . بالخناصر .

٢ ك : غاية .

٣ ك : وذو اللب .

الإبهام بنايها النوى والنواب ، فقلوبه من تقلباتِ أحواله ذواب ، وكم شابت  
من أمثاله بصروف الدهر وأهواله ذواب :

على أنها الأيام قد صيرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب<sup>١</sup>  
وأدمع أحجارها ، تسلط فجارها ، فكم من عدو منهم في ثياب صديق ،  
وحسود لظنره إلى نعم الله على عباده تحديق ، لا تخدعه المداراة ، ولا تردعه  
المماراة ، يتبع العترات ، ويقنع بألم البثرات ، ويتبسم ، وقلبه من الغل يتقسم ،  
ويتودد ، ومكايده تتجدد فتتعدد :

لا ترم من ماذق الود خيراً فبعيد من السراب الشراب<sup>١</sup>  
رونت كالحباب يعلو على الما ولكن تحت الحباب الحباب<sup>٢</sup>  
عظمت في النفاق السنة القوم وفي الألسن العذاب العذاب<sup>٣</sup>

والصديق الصدوق في هذا الزمن قليل ، وقد ألف بعض العلماء « شفاء  
الغليل » ، في ذم الصاحب والخليل<sup>٢</sup> . وهو غير محمول على الإطلاق ، وإن  
قال به بعض من رهنته من أبناء عصره ذو إغلاق :

أبناء دهرك فالفهم مثل العدا بسلاحكا  
لا تغرر بتبسم فالسيف يقتل ضاحكا

وداء الحسد أعيا الأول والآخر ، وقد عظم الأمر في هذا الأوان وكثر  
المزري<sup>٣</sup> والساخر ، مع أن أسواق الدفاتر كاسدة ، وأمزجة المحابر فاسدة :

١ البيت لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي .

٢ هذا الكتاب من تأليف علي بن ظافر الأزدي مؤلف كتاب « بدائع اليدان » وغيره من الكتب ،  
وقد ساه في كشف الظنون « شفاء الغليل » بالعين المهملة ، وقال إن السيوطي اختصره وساه  
« الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب » ؛ وقد نشر المختصر بدشق ( ١٣٦٨ ) .

٣ ك : المزري .



والدهرُ دهرُ الجاهلي نَ وأمرُ أهلِ العلمِ فاترُ  
لا سوقُ أكسدُ فيه من سوقِ المحابرِ والدفاترُ

فالمنسوبُ للعلمِ في هذا الزمنِ زَمين ، وهو بأن ينشد قول الأول قَمين :

لأيِّ وميضِ بارقةِ أشيمٍ ومرعى الفضلِ عندهم هشيمُ

وليت شعري علامَ يُحسدُ من أبدلَ الاغترابُ شارته ، وأضعف  
الاضطرابُ إشارته ، وأهلُ<sup>٢</sup> بالدموعِ أنوائه ، وقتلَ أضواءه ، وكثرَ علله  
وأدواءه ، وغيرَ عند التأمّلِ رُوّاءه ، وثنى عن المأمولِ عِنّاه ، وأرهفَ  
بالحمولِ سِنّاه ، حتى قدحَ الذكرُ حَنّاه ، وملاً الفكرُ جأشه وجنّاه ، فهو  
في ميدانِ التزوحِ مستبق ، ومن راحةِ التعبِ مصطبِح ومغتبق :

له أنةُ المشتاقِ في كلِّ ساعةٍ تمرُّ وما للثاكلاتِ من الحزنِ  
ومن مرسلاتِ الدمعِ واقعةُ الأسي ومن عادياتِ البينِ قارعةُ السنِّ

تثير الذكري منه كوامنَ الشجون ، وتدير عليه جامَ الهيام ولو كان بين  
الصفا والحجون :

وتحت ضلوعِ المُستهامِ كآبةٍ يخافُ على الأحشاء منها التفطراً  
ولو أن أحشاء تبوحُ بما حوت لتمتلنَّ الأرضُ كتباً وأسطراً

وشتان ما بين الاقترابِ والاعتراب ، والسكونِ في الركونِ والنبو عنها  
والاضطراب ، فذاك تسهلُ غالباً فيه الأغراض والمآرب ، وهذا تتعقر فيه  
المقاصدُ وتتكدّرُ المشارب :

١ ك ط : ورعي .

٢ ك : وانهل .

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجزٍ ولكن أرى تحصيلها بالدنية  
وإن طاوعتني رقة الحال مرةً أبت فعلها أخلاقُ نفسِ أبيّة

وكما قلتُ ، عندما صرت إلى الاغتراب وألت :

تركتُ رسومَ عزِّي في بلادي وصيرتُ بمصرَ منسيَّ الرسومِ  
ورضتُ النفسَ بالتجريدُ هُنداً وقلتُ لها عن العلياء صومي  
مخافةً أن أرى بالحرصِ ممن يكونُ زمانهُ أحدَ الحصومِ

وكما قال بعض الأكابر ، من أهل الزمان الغابر :

لا عارَ إن عطيتَ يدَي من الغني صان اللثيمُ ، وصنت وجهي ، ماله  
أبكي لهم ضافني متأوباً لا تُنكروا شيئاً ألم بمصرقي  
كم سابقٍ في الخيل غير مُحجّلٍ إن الدموعَ قرى الهوم النزل  
دوني ، فلم يبذل ولم أبتدل عجلًا كأن سنه سلة منصل  
فلقد دُفعتُ إلى الهوم تنوبي منها ثلاثُ شدائد جُمعن لي  
أسفٌ على ماضي الزمان ، وحريرةٌ في الحال منه ، ووحشةُ المستقبل  
ما إن وصلتُ إلى زمانٍ آخرٍ إلا بكيتُ على الزمانِ الأولِ  
لله عهدٌ بالحمى لم أنسه أيام أعصي في الصباية عذلي

ويرحم الله ابن قلاقس الإسكندري<sup>١</sup> ، إذ قال في معنى التمني المصلي :

١ ابن قلاقس الإسكندري : هو نصر الله بن عبد الله بن علي الأزهري ( - ٥٦٧ ) كان كثير الرحلة ، دخل صقلية في حكم النورمانيين ثم توجه إلى اليمن وتوفي في عيذاب ، وكان مختصاً بالسلفي كثير المدائح فيه ( انظر ترجمته في الحريرة ١ : ١٤٥ ومجمع الأدباء ١٩ : ٢٢٦ ووفيات الأعيان ٥ : ٢١ ومسالك الأبحار ١٢ : ٢٣ ) وقد نشر خليل مطران ديوانه وهذا المنشور لا يمثل إلا جانباً يسيراً من شعره . والأبيات التالية غير موجودة في هذا الديوان .

لعلّ زماني بالعُدَيْبِ يَعُودُ      فيقربُ قربٌ أو يصدّ صدودُ  
وأبصر كُثباناً وهزّ رَوَافِدُ      عليهنّ أغصانٌ وهنّ قُدودُ  
وأقطف وَرْدَ الخدّ وهو مُضْرَجٌ      وأجني أقاح الثغْرِ وهو برودُ  
وأدني ذراعي للعِناقِ ذريعةٌ      فتسهي عن الإفراط فيه هُودُ  
ويتسري إليّ البدرُ وهو مُمنَعٌ      ويغدو إليّ الظبيُّ وهو شرودُ  
ونكرع في شكوى الفراقِ كأننا      فوارطُ هيمٍ راقهنّ ورودُ  
وأكبر مقدارَ الهوى عن كبيرةٍ      وأحمي عَقَافِي دونهُ وأذودُ

وفرق ما بين الجوهرِ والعَرَضِ ، والصحةِ البيّنةِ والمرضِ ، والدُرِّ  
والخصيِّ ، والحسامِ والعصا . والرجوعُ إلى التفويضِ للأقدارِ ، في أمورِ هذه  
الدارِ ، الكثيرةِ الأقدارِ ، هو المطلوبُ ، والرجوعُ من الله سبحانه جَبْرُ  
القلوبِ :

يا ربّ نفسٍ همومي      واكشِفْ كُرُوبِي جميعا  
فقدتُ رجوتُ كريماً      وقد دعوتُ سَمِيعا

\* \* \*

[ إصرار ابن شاهين على رأيه ]

ولم يجعل لي المذكور - حفظه الله - فسحةً ولا مندوحةً ، بعد هذه الأعدارِ  
المحمودة في الصدقِ الممدوحة ، ولسانُ حالي وقالي ، يشتان عجزِي عن أداءِ  
هذا الحقِّ بشهادة من هو وادٌّ وقالي ، إذ مَنْ كان بصفةٍ ، غير متمكنةٍ ممّا  
تكون به متصفهً ، واتسم بنعوتٍ مختلفةٍ ، وارتسم في غير ذوي الأحوالِ  
المؤتلفةٍ ، كيف يحير في التصنيفِ جواباً ، أو ينتحي من التأليفِ صواباً ؟ ومَنْ  
جفّته هامٍ هاملٍ ، وقصوره عامٌ شاملٌ ، كيف يقبضُ بالأناملِ ، على ماءِ  
البحرِ الوافرِ الكاملِ ؟ ومَنْ لبس من العيِّ ملاءه ، لا يعبرُ عمّن طبّق مفاصل

الكلام وكُلاه ، وقصرت ألسن البلغاء عن علاه ، وزانت صدور الدواوين  
 حُلاه ، وجمع خللاً حساناً ، وكان للدين لساناً ، وزاحت مفاخره بالمناكب  
 الكواكب ، وازدانت بمرآه النوادي والمواكب ، ونفحات الأزهار من آدابه ،  
 وتسمات الأسحار عطر أذياله وأهدابه ، والسحر من كتابته ، والسحر  
 من كنيته ، وروح النسيم من تعريضه ، والنثرة من نثره ، والشعري من  
 شعره وقريضه ، وحلُّ المجد لباسه ، وأنوار العلم اقتباسه :

له ذهنٌ يغوصُ ببَحْرِ علمٍ فيأتي منهُ بالدرِّ التنظيمِ  
 معانيه الرياضُ ، لأجلِ هذا سرت أفاضهُ مثل النسيمِ

ومباهيه النجوم ، ومُضاهيه الغيث السَّجوم ، إلى آباء يحسدهم البدر  
 والشمس ، وإباء لو كان للمشرقي لما تحيَّفه لَمَس ، وشرف لا مدعى ولا  
 مُنتحل ، وهمة لو نالها البدر لاستخذي له زُحل ، وبراعة أرفقت سنان قلمه ،  
 وبراعة سارت أمراؤها تحت علكمه ، فكم فتح بفره أقالها ، ووسم بذهنه  
 الثاقب أغقالها ، وسبك معانيها في قالب قلبه لإبريزاً ، ورقم بيان لسانه برود  
 إحسانه بلفظه البديع تطريزاً ، فرُفِع في ميدان الإجادة لرواؤه ، وأتيح من  
 أنهار البراعة العذبة إرواؤه ، ونال سبقاً وتبريزاً :

وما زمنُ الشباب وأنت تجري مع الأجاب في لهوٍ وطيبِ  
 ووصلٍ من حبيبٍ بعد هجرٍ بأحلى من كلام ابن الخطيبِ

فقصائده أرخصت جواهر البحور ، المنظومة قلائد للبات<sup>٢</sup> والنحور ،  
 من حسان العقائل الحور :

١ ك : القمر .

٢ ك : في قلائد اللبات .

مَعَانِ وَأَلْفَاظٌ تَنْظَمُ مِنْهُمَا عَقُودٌ لآلٍ فِي نُحُورِ الشَّمَائِلِ  
وَزَهْرٌ كَلَامٌ كَالْحَدَائِقِ نَسْجُهُ غَنِينَا بِهِ عَنِ حُسْنِ زَهْرِ الْحَمَائِلِ

وكلماته غدت للإبداع إقليداً ، وجمعت طريفاً من البلاغة وتليداً :

كسُونِ عَبِيداً ثِيَابَ الْعَبِيدِ وَأَضْحَى لَيْدٌ لَدَيْهَا بَلِيداً

ومقطعاته ألدُّ في الأسماع ، من مُطْرِبِ السَّمَاعِ ، وأبهى في الأحداق  
والتواظر ، من الحدائق ذوات الأغصان المُلْدِ التَّوَاضِرِ ، يعترف بفضلها من  
انتحل الإنصاف ديناً ، وانتحل الأوصاف فاختر العدل منها خديناً :

رَقِيقَاتِ الْمَقَاتِعِ مُحْكَمَاتٍ لَوْ أَنَّ الشَّعْرَ يُلْبَسُ لَارْتَدِينَا

ورسائله كَنَقَطِ العروس اللائحة في البياض ، أو كَوَشْيِ الربيع أو قِطْعِ  
الرياض ، برزت أغصانها الحالية وتبرجت ، وتضوّعت أفنانها العالية وتآرّجت ،  
وقد ألبسها القطر زهراً ، وقجّر خلالها نهراً ، فأخذت زخرفها وازيّنت ،  
ولاحت محاسنها غير محتجة وتينت ، فبهرت من لها قابل ، أستغفر الله لا بل :

هِيَ الْحَدِيقَةُ إِلَّا أَنْ صَيَّبَهَا صَوْبُ النَّهْيِ وَجَنَّاها زَهْرَةَ الْكَلِمِ

وقوافيه ، ريشتُ بها قوادمُ الإلتقان وخوافيه ، نبالُ مُجَارِيهَا تَسْتَدَثِّرُ  
الْحَصْرَ ، وباعُ مُبَارِيهَا يَسْتَشْعِرُ الْقِصْرَ :

خَطَّهَا رَوْضَةً ، وَأَلْفَاظَهَا الْأَزَّ هَارُ يَضْحَكُنَّ ، وَالْمَعَانِي ثِمَارُ

تُبْدِي لِمَبْرَهَا وَتُثْرِي ، مَا قَالَ أَبُو عِبَادَةَ الْبُحْتَرِيُّ<sup>١</sup> :

وكلامٌ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ النَّارُ ضِرٌّ فِي رَوْقِ الرَّبِيعِ الْجَدِيدِ

١ الأبيات في ديوانه ١ : ٦٣٧ .

مُشْرِقٌ فِي جَوَانِبِ السَّمْعِ مَا يَخُ  
 لَمَقَهُ عَوْدُهُ عَلَى الْمُسْتَعِيدِ  
 وَمَعَانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا الْقَوَافِي هَجَنْتُ مَا لَجَرُولٍ مِنْ نَشِيدِ  
 حُزْنٍ مُسْتَعْمَلِ الْكَلَامِ اخْتِيَاراً وَتَجَنَّبَنِ ظَلْمَةَ التَّعْقِيدِ

بل هي أجلُّ ممَّا وصف عند التحقيق ، وإمعان النظر الصحيح والتدقيق :

أَبْنُ زَهْرٍ الرِّيَاضِ وَهُوَ إِذَا مَا طَالَ عَهْدُهُ بِالْغَيْثِ عَادَ هَشِيمًا  
 مِنْ قَوَافٍ كَانَتْهَا الْأَنْجُمُ الزُّهْمُ رُ سَنَاهَا زَانَ الظَّلَامِ الْبَهِيمَا

وفاهيك بمن أطلعت العلوم على جلائلها ودقائقها ، وأرته الفنون ما شاء من  
 يانعات حدائقها ، وحيته<sup>٢</sup> الحكيم الرياضية بأزهارها وشقائقها ، وأرضعته  
 الوزارة من ثديتها ، وحلت به الإمارة صدر نديتها ، وجعلته المرجوع  
 إليه في تمييز جيد الأمور ورديتها ، ففرس في أرض الرياسة من نخل السياسة  
 ووديتها<sup>٣</sup> ، وأعلى علم العدل وأغمد سيف الانتقام ، ودفع تين الفتنة  
 الذي فغرفاه<sup>٤</sup> للانتقام ، والعهد إذ ذاك قريب ، في وطن الأندلس الغريب ،  
 باختلال الحال ، وتوالي الإحمال ، والتجري على قتل الملوك ، والتجري لقطع  
 الطرق ومنع السلوك ، حيث أهواء المارقين ذات أفراق ، وضلع الصادقين  
 في قلتي واحترق ، وأيدي الإحن باطشة ، وسيوف المحن إلى الدماء عاطشة ،  
 وعرش الحماية مثلول ، وصارم الكفاية مملول ، ونطاق الرعاية محلول ،  
 ودم الوقاية مثلول<sup>٥</sup> ، وجيب النصيحة مملول ، والتنور السلطاني بنار اختلاف  
 الكلمة ملتهب ، والعدو ينتهز الفرصة ويسلب<sup>٥</sup> الأنفس والأموال ويتهب ،

١ ديوانه : هجنت شمر جرول وليد .

٢ ك ج : وحيته .

٣ الودي : فسيل النخل وصغاره .

٤ ك : ونطاق الرعاية مثلول .

٥ ك : ويستلب .

وليس له في غير قطع شأفة المسلمين ابتغاء ، وإن عَقَدَ المهادنة في بعض الأحيان فهو يُسِرُّ حَسْوَاً في ارتغاء ، وكلابُ الباطل في دماء أهل الحق والفة ، والله سبحانه وتعالى في خَلْقِهِ إرادة نافذة وحكمة بالغة ، فرقع لسان الدين ثوب الأندلس ورفاه ، وأرغم - رحمه الله - الكفر الذي فغر فاه ، وشمر عن ساعد اجتهاده ، وحض باللسان وباليد على دفاعه وجهاده ، حتى لاحت للنصر بَوَارِقُ ، وأمنت بالحزم الطوارىء والطوارق ، ثم ضرب الدهرُ ضَرْبَانَهُ ، وأحرق الحاسدُ بنار أحقادهِ أنضَرَ بَانَهُ ، وأظهر ما في قلبه على لسان الدين وأبانه ، وتقرب الوشاة ، وهم ممن كان يخدمه ويغشاه ، إلى سلطانه الذي كان عِزَّةَ أوطانه الذي كان يأمنه ولا يخشاه ، حتى فسَدَ عليه ضميرُهُ ، وتكدر - ومن يَسْمَعُ يَخَلُّ - نَمِيرُهُ ، فأحسَّ بظاهر التغير ، وصار في الباطن من أهل التحير ، وأجال قِداح آرائه ، والتفت إلى جهة العدو من ورائه ، ففر مشمراً عن ذَيْلِهِ ، في لُمَّةٍ من خيله ، إلى أسد العرين ، سلطان بني مَرِين ، وكان إذ ذاك يَتَلِمُّنَسان ، وهو من أهل العلم والعدل والإحسان ، فاهتر لمقدمه ، ولقيه بخاصته وخدمه ، وأكرم مثنواه ، وجعله صاحب نَجْوَاه ، ثم أدرك السلطان الحِمَام ، وكسَفَ بدره وقت التمام ، فرجع لسان الدين إلى فاس ، واستنشق بها أطيَبَ الأنفاس ، وكثرت بعد ذلك الأهوال ، وتغيرت بسببه بين رؤساء العدو والأندلس الأحوال ، فما نجا من مكر العدا ولا سلم ، وآل أمره من الاغتيال وما نَقَعَ الاحتيالُ إلى ما علم ، على يد بعض أعدائه ، الذين كانوا يتربصون الدوائر لإردائه ، فأصبح كأمس الزاهب ، وصارت أمواله وضياعه عُرْضَةً للنهاب ، وغصَّ بذلك من كان من أودِيَّائِهِ ، وأخذ الله ثاره ، من بعض من حرك عليه المكر وأثاره ، وتسبب في هلاكه ، حتى انتثرت جواهر أسلاكه ، ومات بدائه . فالعيون إلى هذا الوقت على لسان الدين باكية ، ونفوسُ

الأكابر وغيرهم مما فعل به شاكية ، والألسنة والأقلام لمقاماته في الإسلام حاكية .

فَمَنْ كان بهذه السمات وأكثرَ منها موصوفاً ، لا يَقْدِر مثلي على تخبير التعبير عنه وَيَخْشَى أن تكون فكرته كخرقاء نقضت قُطناً أو صوفاً .

\* \* \*

[ اعتراف المقرئ إجابة ابن شاهين إلى مطلبه ]

ثم إنني لما تكرر عليّ في هذا الغرض الإلحاح ، ولم تُقْبَلْ أعذارِي التي زَندُها شَحَاح ، عَزمْتُ على الإجابة لما للمذكور عليّ من الحقوق ، وكيف أقابل برّه حفظه الله بالعقوق ، وهو الذي يروِي من أحاديث الفضل الحسان والصحاح ، فوَعَدْتُهُ بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزّية ، وأزمت السير عن دمشق المعروفة المزّية ، وألبسني السفر منها من الخلع زيّه ، ورحلنا عن تلك الأرجاء المتألّفة ، والقلوبُ بها وبمن فيها متعلقة :

حللنا دياراً للغرام سرتَ بها	إلينا صبا نجد بطيب نسيم
وبان ردى الأشجان لما تجاذبت	أكفّ المني فيها رداء نعيم
فما أنشبتنا العيس أن قدفت بنا	إلى فرقة والعهد غير قديم
فإن نك ودعنا الديار وأهلها	فما عهد نجد عندنا بدميم

\* \* \*



[ وداع الشام ]

فخرج معنا - أسماء الله - مع جملة من الأعيان إلى دَارِيَا ، المضاهية  
لدارينَ في رِيَاها وحبّدا رِيَا ، فألفيناها ١ :

رِيَا من الأنداء طَيِّبَةً لها القَدْرُ الخليلُ  
تُهْدِي لنا أَرْجَاؤَها أَرْجَاً من الزَّهرِ البليلُ  
وبها الغُصُونُ تَمَايَلَتْ مَيْلَ الخليلِ على الخليلِ

ووصلنا عند الظهيرة ، وسرَّحنا العيونَ في بدائعها ٢ الشهيرة :

مَنْزِلٌ كالرَّبِيعِ حَلَّتْ عليه حالياتُ السَّحابِ عِقْدَ النِّطَاقِ  
يُمْتَعُ العينَ من طرائقِ حُسْنٍ تَتَجافى بها عن الإطراقِ  
وقلنا بها ، لما نزلنا بجانبها ٣ :

وبيتنا والسرورُ لنا نَدِيمٌ وماءُ عيونِهِ الصَّافي مُدَامُ  
يُسَايرُهُ التَّسِيمُ إذا تَغَنَّتْ حَمائمُهُ وَيَسْقِيهِ الغَمَامُ

فيا لك من ليلة أُرْبَتَ في طيب النفع ، على ليلة الشريف الرضي بالسَّفْحِ ٤ :

ونحنُ في رَوْضَةٍ مَفُوقَةٍ قد وُشِيَّتْ بالغمائمِ الوَكُفِ  
نُغْفِي على زَهْرَها فيوقظنا وَهنا هديرُ الحَمائمِ المَهْتَفِ

١ ق : فألفيتها .

٢ ك : محاسنها .

٣ ق ك : بجانبها .

٤ يشير إلى قول الشريف الرضي :

يا ليلة السفح أاعدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم

ودَوَّحُهَا من نَدَاهُ فِي وُشْحٍ      ومن لآلِي الأَزْهَارِ فِي شُنْفٍ  
والغُصْنُ من فَوْقِهِ حَمَامَتِهِ      كَأَنَّهَا هَمَزَةٌ عَلَى أَلْفٍ

وما أقرب قول الوزير ابن عمار ، من وصف ذلك المضمار ، الجامع للأقمار<sup>١</sup> :

بِأَ لَيْلَةٍ بَتْنَا بِهَا      فِي ظِلِّ أَكْنافِ النَّعِيمِ  
مِنَ فَوْقِ أَكْمامِ الرِّبَا      ضِ وَتَحْتَ أَذْيَالِ النَّسِيمِ

وناهيك بِمَحَلِّ قَرُبٍ من دمشق الغراء ، فخلعت عليه حلل الحُبُورِ  
والسَّرَاءِ ، وأمدته بضياؤها ، وأودعته بَرَقَ حَيَاها وماء حياثها ، فصار ناضراً  
الدَّوَّحاتِ ، عاطر الغَدَّواتِ والرَّوَّحاتِ ، مونيَقَ الأنفاسِ والنفحاتِ ، مُشْرِقَ  
الأسيرةِ والصفحاتِ ، هذا والقلوب من الفراق في قَلَّتْ ، ولسانُ الحال ينشد :

وَبِي عَلاَقَةٍ وَجَدِ لَيْسَ يَعْلَمُهَا      إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ  
ويحث على انتهاز فرصة اللقاء إذ هي غنيمة ، ويذكر بقول من قال وأكفُّ  
الدهر موقظة ومُنِيمة<sup>٢</sup> :

تَمَتَّعَ بِالرُّقَادِ عَلَى شِمَالٍ      فَسَوَّفَ يَطُولُ نَوْمُكَ بِالْيَمِينِ  
وَمَتَّعَ مِنْ يُحِبِّكَ بِاجْتِمَاعٍ      فَأَنْتَ مِنَ الْفِرَاقِ عَلَى يَقِينِ

ثم حضر بعد تلك الليلة موقف الوداع ، والكل ما بين واجم وباك وداع ،  
فتمثلت بقول مَنْ قَلْبُهُ لفراق الأحباب في انصداع :

وَدَعَتْهُمْ وَدُمُوعِي      عَلَى الْخُدُودِ غِزَارُ  
فاسْتَكْرُوا دَمْعَ عَيْنِي      لَمَّا اسْتَقَلُّوا وَسَارُوا

١ لم يرد البيتان في ديوانه الملحق بدراسة الدكتور خالص .  
٢ البيتان من شعر ابن الخياط شاعر صقلية قبل الفتح النورماني ( انظر : الشعر الصقلي في المغرب  
لابن سعيد ) .

وقول آخر :

يا وَحْشَةً من جيرة مُذْ نأوا  
حكمتْ دموعي البحرَ من بُعدِهِم  
علوُّ قدرِي في الهوى انْحَطَا  
لما رأَتْ مترلُهُمْ شَطَا<sup>١</sup>

وحقّ لي أن أتمثل في ذلك بقول الغزالي<sup>٢</sup> :

لا تَسَلْتَنِي عَمَّا جَنَاهُ الْفِرَاقُ  
أين صَبْرِي أم كيف أملكُ دَمْعِي  
والمَطَايَا بِالظَّاعِنِينَ تُسَاقُ  
سُنَّةٌ قَبْلُ سَنَتِهَا الْعُشَاقُ  
لَ بَعِظَنِي نَسِيمُهُ الْخَفَاقُ  
مَاشِقِينَ الْقُدُودُ وَالْأَحْدَاقُ  
ثُمَّ شَنَّتْ غَارَاتِهَا الْأَشْوَاقُ  
وَأَعِدُّ لِي ذَكَرَ الْغُؤْيِرِ فَكَمْ مَا  
فِي سَبِيلِ الْغَرَامِ مَا فَعَلْتُ بِالْ  
يَوْمَ وَلَّتْ طَلَائِعُ الصَّبْرِ مِنَّا

ويقول غيره :

كُنَّا جَمِيعاً وَالِدَارُ تَجْمَعُنَا  
وَالْيَوْمَ صَارَ الْوَدَاعُ يَجْعَلُنَا  
مِثْلَ حُرُوفِ الْجَمِيعِ مُلْتَصِقَةً  
مِثْلَ حُرُوفِ الْوَدَاعِ مَفْرِقَةً

وقول آخر :

حِينَ هَمَّ الْحَبِيبُ بِالتَّوَدِيعِ  
لَمْ يَذُوقُوا طَعْمَ الْفِرَاقِ وَلَا مَا  
عَيَّرُونِي أَنِّي سَفَحْتُ دُمُوعِي  
أَحْرَقْتُ لَوْعَةَ الْأَسَى مِنْ ضُلُوعِي

١ في كلمة « شط » تورية فهي تعني الشاطئ لمائلة البحر ، وهي بمعنى « بعد » .  
٢ الغزالي : شهاب الدين أحمد بن عبد الملك أبو العباس ( - ٧١٠ ) كان تاجراً بالقاهرة أديباً  
ظريفاً يجمع بين القصيد والموشح ، وله ديوان مخطوط ( دار الكتب رقم ٤٧٩ ، ٥٥٩ أدب )  
انظر ترجمته في المنهل الصافي ١ : ٣٤٠ وقد اضطرب الاسم في النسخ ففي ق : الاعزالي ، وفي  
ط : الفزاري ، وفي ج : أن أتمثل في ذلك المزار .

كيف لا أسفحُ الدموع على ربِّهِ  
هَبْكَ أَنِّي كَتَمْتُ حَالِي أَتَخْفَى  
إِنَّمَا يُعْرِفُ الْغَرَامُ بَمَنْ لَا  
عِ حَوَى خَيْرَ سَاكِنٍ وَجُمُوعِ  
زَفَرَاتُ الْمَتِيمِ الْمَصْدُوعِ  
حَ عَلَيْهِ الْغَرَامُ بَيْنَ الرَّبُوعِ

وقول من قال :

أقولُ لَهُ عِنْدَ تَوَدِّيهِ  
لئن قَعَدَتْ عَنكَ أَجْسَادُنَا  
وَكُلُّ بِعَبْرَتِهِ مُبْلِسُ  
لقد سافرتُ مَعَكَ الْآنْفُسُ

وقول الصابي<sup>١</sup> :

ولمَّا حَضَرْتُ لَتَوَدِّيهِ  
عَكَسْتُ لَهُ بَيْتَ شَعْرٍ مَضَى  
لئن سافرتُ عَنكَ أَجْسَادُنَا  
وَطَرَفُ النَّوَى نَحُونَا أَشْوَسُ  
يَلِيقُ بِهِ الْحَالُ إِذْ يُعْكَسُ  
لقد قَعَدَتْ مَعَكَ الْآنْفُسُ

وقول المهذب بن أسعد الموصلي<sup>٢</sup> :

دَعَنِي وَمَا شَاءَ التَّفَرُّقُ وَالْأَسَى  
لَا قَلْبَ لِي فَأَعْيِ الْمَلَامَ فَإِنِّي  
هَلْ يَعلَمُ الْمُتَحَمِّلُونَ لِنُجْعَةٍ  
كَمْ غَادَرُوا حَرَضًا وَكَمْ لوداعِهِمْ  
وَالسَّقْمُ آيَةٌ مَا أُجِنُّ مِنَ الْجَوَى  
وَاقْصِدْ بِلَوْمِكَ مِنْ يَطْبِعُكَ أَوْ يَعي  
أودَعْتَهُ بِالْأَمْسِ عِنْدَ مُودَعِي  
أَنَّ الْمَنَازِلَ أَخْصَبَتْ مِنْ أَدْمُعِي  
بَيْنَ الْجَوَانِحِ مِنْ غَرَامٍ مُودَعِ  
وَالدَمْعُ بَيِّنَةٌ عَلَى مَا أَدْعِي

١ الصابي هو إبراهيم بن هلال بن هارون الكاتب المترسل المشهور في القرن الرابع . راجع ترجمته

في وفيات الأعيان ١ : ٣٤ ومعجم الأدباء ٢ : ٩٤ واليتمية ٢ : ٢٤٢ .

٢ المهذب بن أسعد الموصلي : أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى ، ابن الدهان الموصلي ،

قصد مصر ومدح الصالح بن رزيك ، ثم تولى التدريس بمصر . انظر ترجمته في الخريدة - القسم

الشمسي - ٢ : ٢٧٩ ومصادر أخرى في الحاشية ؛ والأبيات من قصيدة له أوردها أبو شامة في

الروضتين ٢ : ١٦ ، ٢٩ .

وقول الكمال التَّنُوخي :

كم ليلة قد بثها أرعى السُّها  
قَضَيْتُهَا ما بين نومٍ نافرٍ  
لم أنسَ أيامَ السَّرورِ وطيبها  
والروضُ قد أبدى بدائعِ نوره  
والماءُ يَبْدُو كالصَّوارمِ سارياً  
والطيرُ بين مُسَجِّعٍ ومُرَجِّعٍ  
جزعاً لفرقتِهِمُ بمقلَّةِ أرمَدِ  
وزفيرِ مَهْجُورِ وقلبِ مُكَمَدِ  
بين السَّديرِ وبين بُرْقَةِ تَهْمَدِ  
مِنَ أزرقٍ ومُفضَّضٍ ومورَدِ  
فيعيدُه مرَّةً الصَّبَا كالمبرَدِ  
ومُعَرِّدٍ ومُعَدِّدٍ ومُرَدِّدِ

وقول القاضي بهاء الدين السنجاري<sup>٢</sup> :

أحبابنا ما لي على بُعدِ المدى  
لله أوقاتُ الوصالِ ومنظَرٌ  
أنتى يطيقُ أخو الهوى كتمانهُ  
ما بعدَ مفترقِ الرِكابِ نصيرٌ  
يا سَعِدُ ساعِدٍ بالبكاءِ أخا هوى  
جلدٌ ومنَ بعدَ النوى يتجلدُ  
نَصيرٌ وغُصنُ الوصلِ غُصنُ أملدُ  
والخدُّ بالدمعِ المصونِ مُخدَدُ  
عمنَ أحبُّ فهل خليلٌ يُسَعِدُ ؟  
يومَ الوداعِ بكى عليه الحسدُ

وقول ابن الأثير :

لم أنسَ ليلةً ودَّعوا  
والدمعُ من فرطِ الأسى  
صَبَّأً وساروا بالحُمولِ  
يجري فيعثرُ بالذيولِ

وقول الأَرَجاني<sup>٣</sup> :

١ ق ج : بين الصرير ؛ ط : بين الصريم .  
٢ بهاء الدين أسعد بن يحيى بن موسى السنجاري ( - ٦٢٢ ) فقيه غلب عليه الشعر . ( انظر ترجمته  
في وفيات الأعيان ١ : ١٩٣ ) .  
٣ الأَرَجاني : أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الملقب ناصح الدين ( - ٥٤٤ ) ، من شعراء  
الخريدة ، كان قاضياً بتستر وعسكر مكرم ، وقال ابن خلكان : له شعر رائق في نهاية الحسن . =

ولمّا وَقَفْنَا للوداعِ عَشِيَّةً      وطَرَفِي وقلبي هَامِعٌ وَخَفُوقُ  
بَكَيْتُ فَأُضْحَكْتُ الوُشَاةُ شِمَاتَةً      كَأَنِّي سَحَابٌ وَالوُشَاةُ بُرُوقُ

وقول ابن نباتة السعدي ١ :

ولمّا وَقَفْنَا للوداعِ عَشِيَّةً      ولمْ يبقَ إِلا شامِتٌ وَغِيُورُ  
وقفنا فمن باكٍ يُكفِّفُ دَمْعَهُ      وملترمٌ قلباً يَكَادُ يَطِيرُ

وقول بعضهم :

لَمَّا حَدَا الحادي بترحالهمْ      هَبَّجَ أَشْوَاقِي وَأشْجَانِي  
وَرَأحَ يَثْنِي القلبِ عن غيرهم      فَهَوَّ لَهُمْ حَادِي وَلِي ثَانِي

وقول الصفدي :

لَمَّا اعْتَنَقْنَا لوداعِ النوى      وكَدْتُ من حرِّ الجوى أُحْرَقُ  
رَأَيْتُ قلبي سارٍ قُدَّامَهُمْ      وأدمعي تجري ولا تَلْحَقُ

وقوله أيضاً :

تَذَكَّرْتُ عَيْشاً مَرَّ حُلُوءاً بكم فهل      لأَيامنا تلك الذواهبِ واهبُ ؟  
وما انصرفتُ آمالُ نفسي لغيركم      ولا أنا عن هذي الرغائبِ غائبُ  
سأصبرُ كرهاً في الهوى غيرَ طائع      لعلَّ زماني بالحبائبِ آيبُ

= (راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ١٢٤ وطبقات السبكي ٤ : ٥١ وشذرات الذهب ٤ : ١٣٧) .

١ هو أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباتة (٤٠٥ - ) من شعراء البيتمة (٢ : ٣٨٠) وانظر له ترجمة في وفيات الأعيان ٢ : ٣٦٢) ؛ وهذان البيتان سقطا من ق ط ج .

وقول ابن نباتة المصري<sup>١</sup> :

في كَتَفِ الله وفي حِفْظِهِ      مَسْرَاكَ وَالْعَوْدُ بِعِزْمٍ صَرِيحُ  
لو جازَ أن تسلكَ أجفَانَنَا      كُنَّا فرشنا كلَّ جَفْنٍ قَرِيحُ  
لكنها بالبُعدِ مُعْتَلَّةٌ      وأنتَ لا تسلكُ إلا الصَّحِيحُ

وقول الحافظ أبي الحسن علي بن الفضل<sup>٢</sup> :

عجبتُ لنفسي بَعْدَهُم ما بقاؤها      ولم أحظَّ من لُقيَاهمُ بِمُرَادِي  
لعمركَ ما فارقتُهُم مُنذُ ودَّعوا      ولكنما فارقتُ طيبَ رقادِي  
وقد منَعوا مني زيارةَ طيْفِهِم      وكيف يزورُ الطيفُ حلفَ سُهَادِي؟  
وأعجب ما في الأمرِ شوقي لإيهِمُ      وهُمُ في سوادِي<sup>٣</sup> ناظري وفؤادي

وقوله رحمه الله تعالى :

رعى الله أيامَ المُقامِ بِرَوْضَةٍ      تروحُ عَلَيْنَا بالسُرورِ وتغتدي  
كَأنَّ الشَّقِيقَ الغَصَّ بينَ بطاحِها      نجومُ عقيقٍ في سماءِ زَبَرَجَدِ

وقول القاضي الرشيد الأسواني<sup>٤</sup> :

١ ابن نباتة المصري : محمد بن محمد بن محمد ، أبو بكر جمال الدين ( - ٧٦٨ ) شاعر مرسلي ،  
وله شرح مفيد على رسالة ابن زيدون الهزلية ( ترجمته في الدرر ٤ : ٢١٦ والنجوم الزاهرة  
١١ : ٩٥ وطبقات الشافعية ٦ : ٣١ ) ، وديوانه مطبوع . ولفظة « المصري » لم ترد إلا في ك .  
٢ أبو الحسن علي بن الفضل ( - ٦٢٧ ) فقيه شاعر أندلسي من معاصري ابن سعيد ، وكان أهله  
أعيان أوريولة ، وهو من أصحاب التوشيح . ( انظر اختصار القدح : ١٠٨ والمغرب ٢ :  
٢٨٦ ) . وفي ط ج : ابن المفضل .

٣ ق : سويدا .

٤ القاضي الرشيد الأسواني : أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير ، كان عالماً شاعراً حاول أن يدعو =

رَحَلُوا فَلَا خَلَّتِ الْمَنَازِلُ مِنْهُمْ  
 وَسَرَّوْا وَقَدَّ كَتَمُوا الْغَدَاةَ مَسِيرَهُمْ  
 وَتَبَدَّلُوا أَرْضَ الْعَقِيقِ عَنِ الْحَمَى  
 نَزَلُوا الْعُدَيْبَ وَإِنَّمَا هُوَ مَهْجَتِي  
 مَا ضَرَّهُمْ لَوْ وَدَّعُوا مَنْ أَوْدَعُوا  
 هُمْ فِي الْحَشَانِ أَعْرَقُوا أَوْ أَيْمَنُوا  
 وَأَوَّأُوا فَلَا سَلَّتِ الْجَوَانِحُ عَنْهُمْ  
 وَضِيَاءُ نَوْرِ الشَّمْسِ مَا لَا يُكْتَمُ  
 رَوَتْ جَفُونِي أَيَّ أَرْضٍ يَمَّمُوا  
 رَحَلُوا وَفِي قَلْبِ الْمَتِيمِ حَيْمُوا  
 نَارَ الْغَرَامِ وَسَلَّمُوا مِنْ أَسَلَمُوا  
 أَوْ أَشَامُوا أَوْ أَنْجَدُوا أَوْ أَنْهَمُوا

وقول الشاعر أبي طاهر الأصفهاني ، المعروف بالوثابي ١ :

أَشَاعُوا فَقَالُوا وَقَفَّةٌ وَوَدَاعُ  
 فَقَلْتُ وَدَاعٌ لَا أَطِيقُ عِيَانَهُ  
 وَلَمْ يَمْلِكِ الْكُتْمَانَ قَلْبٌ مَلِكْتَهُ  
 وَزُمْتُ مَطَايَا لِلرَّحِيلِ سِرَاعُ  
 كَفَانِي مِنَ الْبَيْنِ الْمُشْتِ سَمَاعُ  
 وَعِنْدَ النَّوَى سِرُّ الْكُتُومِ مُدَاعُ

وقول أبي المجد قاضي ماردين :

رَعَى اللَّهُ رَبْعًا أَنْتُمْ فِيهِ أَهْلُهُ  
 وَلَا زَالَ مَخْضَرَّ الْجَوَانِبِ مُتْرَعِ الْا  
 لَنْ قَدَّرَ اللَّهُ اللَّقَاءَ وَأَيْنَعَتْ  
 وَإِنْ حَكَمْتُ أَيْدِي الزَّمَانِ بَعْسِرَةَ  
 وَجَادَ عَلَيْهِ هَاطِلٌ وَهَتُونُ  
 حِيَاضٍ وَفِيهِ لِلنَّعِيمِ فُنُونُ  
 غَصُونُ التَّدَانِي فَالْبِعَادُ يَهُونُ  
 فَكَمْ قُضِيَتْ لِلْمَعْسِرِينَ دِيُونُ

وقول آخر :

= لنفسه باليمن ثم قتل سنة ٥٦٣ . ( ترجمته في الخريدة - قنم مصر - ١ : ٢٠٠ ووفيات الأعيان  
 رقم ٦٤ والطالع السعيد : ٥٢ ومعجم الأدباء ٤ : ٥١ وترجم له الصغدني في الوافي) والأبيات  
 من قصيدة وردت في معجم الأدباء ٤ : ٦٢ - ٦٣ .

١ هو إسماعيل بن محمد بن أحمد الوثابي الأصفهاني الأديب ، له شعر حسن ونظم رائع ، روى عن  
 أبي عمرو بن منده وغيره وتوفي سنة ٥٣٢ ( الباب ٣ : ٢٦٢ ) وفي ج : المعروف بالوشاء ،  
 وفي ك : بالوثابي .



غَيْبِمَ فَمَا لِي فِي التَّصَبَّرِ مَطْمَعٌ  
عَظُمَ الْجَوَى وَاشْتَدَّتِ الْأَشْوَاقُ  
لَا الدَّارُ بَعْدَكُمْ كَمَا كَانَتْ وَلَا  
ذَاكَ الْبَهَاءُ بِهَا وَلَا الْإِشْرَاقُ  
أَشْتَاقُكُمْ ، وَكَذَا الْمَحَبُّ إِذَا نَأَى  
عَنْهُ أَحَبَّهُ قَلْبُهُ يَشْتَاقُ

وقول أبي الحسن الهمداني ١ :

وَيَوْمَ تَوَلَّتِ الْأَطْعَانُ عَنَّا  
وَقَوْضَ حَاضِرٌ وَأَرَنَّ بَادِي  
مَدَدَتْ إِلَى الْوَدَاعِ يَدًا وَأُخْرَى  
حَبَسَتْ بِهَا الْحَيَاةَ عَلَى فُؤَادِي

وقول ابن الصائغ ٢ :

قَدْ أودَعُوا الْقَلْبَ لَمَّا وَدَّعُوا حُرْقًا  
فَظِلٌّ فِي اللَّيْلِ مِثْلَ النَّجْمِ حَيْرَانَا  
رَأَوْدَتُهُ يَسْتَعِيرُ الصَّبْرَ بَعْدَهُمْ  
فَقَالَ : إِنِّي اسْتَعْرْتُ الْيَوْمَ نَيْرَانَا

وقول الصلبر بن الأدمي مكثفياً ٣ :

يَوْمَ تَوَدَّعِي لِأَحْبَابِي غَدَا  
ذَكَرْتُ مِيَّ شَاغِلِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ  
فَرَنْتُ نَحْوِي وَقَالَتْ : يَا تَرَى  
أَنْتَ حَيٌّ فِي هَوَانَا ؟ قُلْتَ : مَيَّ ٤

وقول غيره :

وَلِي فُؤَادٌ مَدَّ نَأَى شَخْصُهُمْ  
ظِلٌّ كَثِيْبًا مُدْنَقًا مَوْجَعًا  
وَمُقَلَّةٌ مَهْمَا تَذَكَّرْتُهُمْ  
تَذَرِفُ دَمْعًا أَرْبَعًا أَرْبَعًا

١ ك : الهمداني .

٢ ينصرف الاسم إلى غير واحد ، وأظن المعنى هنا هو محمد بن حسن الجذامي ( حوالي ٧٢٢ ) وهو شاعر مؤلف توفي بدمشق . ( انظر الدرر الكامنة ٣ : ٤١٩ والفوات ٢ : ٣٨٠ والوافي ٢ : ٣٦١ )

٣ صدر الدين علي بن محمد بن محمد أبو الحسن الأدمي ( ٨١٦ - ) شاعر مترسل ، كان قاضياً بدمشق ( الضرع اللامع ٥ : ٣٢٨ ) .

٤ مي : ميت ، وهذا هو الاكتفاء ببعض الكلمة ؛ وفي ج : فدنت .

وليس لي من حيلةٍ كلِّما  
أسألُ من أَلَفَ ما بَيَّنَّنَا  
لحَّتْ بيَ الأشواقُ إلا الدُّعا  
وقدَرَّ الفُرقةَ أن يجمعا

وقول الرُّعَيْتِي الغرناطي :

محاسنُ رُبَعٍ قد مَحاهنَّ ما جرى  
تناقضَ حالي مذ شَجاني فراقُهُمْ  
من الدمعِ لَمَّا قِيلَ قد رَحَلَ الرِّكْبُ  
فمِنَ أضلعي نارٌ ومن أدمعي سَكْبُ  
وفي معناه قوله أيضاً ١ :

- وقائلة : ما هذه الدُّرُورُ التي  
فقلت لها : هذا الذي قد حَسَا به  
تُساقطها عيناك سِمَطَيْنِ سَمَطَيْنِ  
أبو مُضَرٍّ أذني تُساقطُ من عيني

وقول الزُّمخشري :

لم يُبْكِنِي إلا حديثُ فراقِهِمْ  
هو ذلك الدُّرُّ الذي أودعْتُمُ  
لَمَّا أُسِرَّ به إليَّ مُودَعِي  
في مسمعي أجريتهُ من مَدَمَعِي

وقول الزُّعْجاري :

قد بعثتُهُمْ قَلْبِي يومَ بَيَّنَّنِيهِمْ  
ولمَّ أجِدْ من بعدها لِرَدِّهِ  
بنظرة التوديعِ وهو يحترقُ  
وجنْهاً وكان الرَدُّ لو لم ينفترقُ

وقول بعض الأندلسيين :

ساروا فودَّعهم طرْفِي وأودَّعَهُمْ  
همُ الشَّموسُ ففِي عَيْتِي إذا طَلَعوا  
قلبي فما بَعُدُوا عني ولا قَرَّبُوا  
في القادمين وفي قلبي إذا غَرَّبُوا

١ هذا عكس ما أورده ابن خلكان ( ٤ : ٢٥٨ ) ، فهذان البيتان نسبهما للزُّمخشري ، ونسب البيتين  
بعدهما للقاضي الأرجاني . وقد سقط البيتان الأولان من ط ج ق .

وقلت أنا مضمناً بديهية :

لا كان يومُ فراقٍ  
فكم أذلّ نفوساً  
ساق الشجونَ إلينا  
يا من يعزُّ علينا<sup>١</sup>

وقلت أيضاً مضمناً :

سلا أحيته من لم يدب كدأ  
يا من يعزُّ علينا أن نفارقتهم<sup>٢</sup>  
وإن نأى الجسيم كرهاً عن منازلكم<sup>٣</sup>  
وما نسينا جهوداً للهوى كرمت<sup>٤</sup>  
وأظلمت بالتوى أرجاء مقصدنا  
يوم الوداع وإن أجرى الدموع دماً  
من بعدكم هدّ ركن الصبر وانهدما  
فالقلب ثاوبها لم يصحب القدماً  
نعم قرعنا عليها سننا ندماً  
وصار وجدان ألف غيركم عدماً<sup>٥</sup>

وقلت أيضاً مضمناً :

لم أنس بالشام أنسا شئتُ بارقهُ  
لهفي لعيش قضينا في مشاهدنا  
جادت معاهدة أنواء نيسان  
ما بين حُسن من الدنيا وإحسان

وقلت كذلك :

يا جيرة بانوا وأبقوا حسرة  
كم قلت إذ ودعْتُهُم والأنس لا  
يا موقف التوديع إن مدامعي  
تجري دموعي بعدهم وفق القضا  
يُنسى وعهدُ ودادهم لن يُرقضا  
فُضتْ وفاضتْ في ثرى ذاك الفضا

وكم<sup>٦</sup> تفاعلتُ بقول الأول ، مع علمي بأن على الله المعول :

١ ضمن قول المتنبي :

يا من يعز علينا أن نفارقتهم  
وجداننا كل شيء بعدكم عدم

٢ ج : وقد ؛ وتكررت «وكم» في ط .

إذا رأيتَ الوداعَ فاصْبِرْ ولا يَهْمَنَّكَ البعادُ  
وانتظرِ العودَ عن قريبٍ فإنَّ قلبَ الوداعِ عادُوا

وضاقت بي الرَّحاب ، حين<sup>١</sup> مفارقة أعيان الصَّحاب<sup>٢</sup> ، وكاثرت دموعي  
من بينهم السحاب ، وزنَّد التذکر يقدح الأسف فيهبج الانتحاب ، وقد  
تمثلنا إذ ذاك والجوانح من الجوى في التهاب ، وذخائر الصبر ذات انتهاب ،  
يقول بعض من مزَّق البعدُ منه الإهاب<sup>٣</sup> :

ولما نزلنا منزلاً طلَّه الندى أنيقاً وبُستاناً من النورِ حالياً  
أجدتُ لنا طيبُ المكانِ وحُسْنُهُ منى فتمنَّينا فكانوا الأمانياً  
وقد طُفَّت في شرقِ البلادِ وغربِها وسيرتُ خيلي بينها وركابياً  
فلم أرَ منها مثلَ بغدادٍ منزلاً ولم أرَ فيها مثلَ دجلةَ وادياً  
ولا مثلَ أهلِها أرقَّ شمائلاً وأعذبَ ألفاظاً وأحلى معانياً

ويقول من تأسَّف على مغاني النداني ، وهو أبو الحجاج الأندلسي الداني<sup>٤</sup> :

أبى الله إلا أن أفارق منزلاً يطالعني وجهُ المني فيه سافراً  
كانَّ على الأيامِ حين غَشِيَتْهُ يمينا فلمَّ أحلُّهُ ° إلا مسافراً

١ ك : عند .

٢ ك : أعيان الأحاب والصحاب .

٣ البيتان الأولان من هذه المقطوعة في حماسة أبي تمام لأبي بكر بن عبد الرحمن الزهري (أو عبد  
الرحمن الزهري كما عند المرزوقي : ١٣٢٢) ويبدو أن المغربي قد خلطهما بأبيات لشاعر آخر .  
وقد سقط الأول منهما من ق ج ط .

٤ أبو الحجاج يوسف بن عبد الله بن أيوب الفهري من أهل دانية ، سكن بلنسية وولي بها الأحكام  
وتوفي سنة (٥٩٢) ؛ وترجمته والبيتان في المقتضب من تحفة القادم : ٧٨ .

٥ المقتضب : فما أعشاه .

وتخيلنا أن إقامتنا بدمشق وقاها الله كل صَرْفٍ ، ما كانت إلا خَطْرَةٌ  
طيف مُلَمَّ أو لمحة طَرْفٍ :

وَقَفْنَا سَاعَةً ثُمَّ ارْتَحَلْنَا وَمَا يُغْنِي الْمَشُوقَ وَقُوفُ سَاعَةٍ؟  
كَأَنَّ الشَّمْلَ لَمْ يَكُ فِي اجْتِمَاعٍ إِذَا مَا شَتَّتَ الْبَيْنُ اجْتِمَاعَهُ

وطالما عللت النفس بالعود إليها ثم إلى بقاعي ، منشداً قول الأديب الشهير بابن  
الفقاعي<sup>١</sup> :

مَتَى عَابَنْتَ عَيْنَايَ أَعْلَامَ حَاجِرٍ جَعَلْتُ مَوَاطِي الْعَيْسِ فَوْقَ حَاجِرِي  
وَإِنْ لَاحَ مِنْ أَرْضِ الْعَوَاصِمِ بَارِقٌ رَجَعْتُ بِأَحْشَاءِ صَوَادٍ صَوَادِرِ  
سَقَى اللَّهُ هَاتِيكَ الْمَوَاطِينَ وَالرُّبَى مَوَاطِيرَ أَجْفَانِ هَوَامٍ هَوَامِيرِ  
وَحَيًّا الْحَيَا مِنْ سَاكِنِي الْحَيِّ أَوْجُهًا سَقَرْنَ بِأَنْوَارِ زَوَاهِ زَوَاهِيرِ  
بِحَيْثُ زَمَانُ الْوَصْلِ غَضٌّ وَرَوْضُهُ أَرِيضٌ بِأَزْهَارِ بَوَاهِ بَوَاهِيرِ  
وَحَيْثُ جَفُونُ الْحَاسِدِينَ غَضِيضَةٌ رَمَقْنَ بِأَمَاقٍ سَوَاهِ سَوَاهِيرِ

ثمَّ حاولت خاطري الكليل ، فيما يشفي بعض الغليل ، فقال على طريق  
التضمين ، وقد غلب عليه الشوق والتخمين :

بِأَبِي مَنْ أُوْدَعُوا مَذَّوْدَعُوا قَلْبِي الشُّوقَ وَلِلْعَيْسِ ذَمِيلُ  
جَيْرَةٌ غُرٌّ كِرَامٌ خَيْرَةٌ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُمْ يُبْدُو جَمِيلُ  
وَعَلَى الْجُمَّلَةِ مَا لِي غَيْرُهُمْ لَوْ أَرَادُوا أَنْ يَمْلُتُوا أَوْ يَمِيلُوا

ثمَّ قلت وقد سدّد التناهي إليَّ نَبَلُهُ ، موطناً للبيت الثالث كما في الأبيات قبله :

١ هو محمد بن غازي الموصلي (٦٢٩ - ) شاعر دمشقي ينسب إلى الفقاع وهو نوع من الشراب  
(انظر الدارس ٢ : ٨٥ والوافي ٤ : ٣٠٦) .

يا دَمَشْقاً حَيَّاكَ غَيْثٌ غَزِيرٌ      ووقاكِ الإلهُ ممّا بَضِيرٌ  
حُسْنُكَ الْفَرْدُ وَالْبِدَائِعُ جَمْعٌ      متناهٍ فِيهِ فَعَزَّ النَّظِيرُ  
أينَ أَيْماننا بِظِلِّكَ وَالشَّمْسُ      لُ جَمِيعٌ ، وَالعَيْشُ غَضُّ نَضِيرُ

ثم أكررت الالتفات عن اليمين وعن الشمال ، وقد شبهت البيداء والشوق  
ببديل الكل والاشتمال ، وتنسبت من نواحي تلك الأرجاء أربع الشمال ،  
وضمنت في المعنى قول بعض من ثنى الحب عطفه وأمال :

تنسبت أرواحاً سرّت من ديار من      بهمٍ كان جمعُ الشَّمْلِ لمحّةِ حالمِ  
وجاوبت من يلحى على ذاك جاهلاً      بقولٍ لبيبٍ بالعواقبِ عالمِ  
وما أنشق الأرواح إلا لأنها      تمرُّ على تلك الرُّبى والمعالمِ  
وما أحسن قول الآخر :

سرّت من نواحي الشام لي نسمة الصبا      وقد أصبحت حَسرى من السير ظالعة<sup>١</sup>  
ومن عرقٍ مَبْلُولةِ الجَيْبِ بالندى      ومن تعَبِ أنفاسها مُتّابعة<sup>٢</sup>  
وقلت أنا :

حَمِدْتُ وَحَقَّ اللهُ لِلشَّامِ رِحْلَةَ      أتاحت لعيني اجتلاءً مُحْيَاةً  
وَبَعْدَ التَّنَائِي صرْتُ أرتاحُ للصِّبَا      لأنَّ الصِّبَا تَسْرِي بِعاطِرِ رِيَاةً  
فلله عهدٌ قد أتاح بِجِلْتِي      سروراً فحيّاها<sup>٢</sup> الإلهُ وحيّاها<sup>١</sup>

واستحضرت عند جد السير ، قول صفوان بن إدريس المرسي ذكره الله

تعالى بالخير :

١ ق ط : هالمة .

٢ ك : فعياء .

أَيْنَ أَيَامُنَا اللّوَايَ تَقَضَّتْ إِذْ زَجَرْنَا لِلْوَصْلِ أَيْمَنَ طَيْرُ  
ثُمَّ قَوْلٌ غَيْرُهُ مِنْ حَنٍّ وَأَنَّ ، وَقَلِقَ قَلْبُهُ وَمَا اطمأنَّ :

أَحِينُ إِلَى مَشَاهِدِ أَنْسٍ لِأَفِي وَعَهْدِي مِنْ زِيَارَتِهِ قَرِيبُ  
وَكُنْتُ أَظُنُّ قَرَبَ الْعَهْدِ يُطْفِي هَيْبَ الشُّوقِ فَازْدَادَ الْهَيْبُ

وربما تجللت مغالطاً ، متعللاً بقول من كان لإلغته مخالطاً :  
حَضَرَتْ فَكُنْتُ فِي بَصْرِي مُقْبِئاً وَغَبَيْتَ فَكُنْتُ فِي وَسْطِ الْفُؤَادِ  
وَمَا شَطَّتْ بِنَا دَارٌ وَلَكِنْ نُقِلْتُ مِنَ السَّوَادِ إِلَى السَّوَادِ

وقول غيره :

وَكِنْ كَمَا شِئْتَ مِنْ قُرْبٍ وَمِنْ بُعْدٍ فَالْقَلْبُ يَرَعَاكَ إِنْ لَمْ يَرَعَكَ الْبَصْرُ

ويقول الوداعي :

يَا عَاذِلِي فِي وَحْدَتِي بَعْدَهُمْ وَأَنْ رَبَّعِي مَا بِهِ مِنْ جَلِيسٍ  
وَكَيْفَ يَشْكُو وَحْدَةً مَنْ لَهُ دَمْعٌ حَمِيمٌ وَأَيْنُ أَنْيسٍ

ثم رددت هذه الطريقة ، بقول بعض من لم يُبْلِعْهُ السُّلُوُ رِيْقَهُ :

لَا رَعَى اللَّهُ عَزْمَةً ضَمَنْتَ لِي سَلْوَةَ الْقَلْبِ وَالتَّصْبِرَ عَنْهُمْ  
مَا وَقَّتْ غَيْرَ سَاعَةٍ ثُمَّ عَادَتْ مِثْلَ قَلْبِي تَقُولُ لَا بُدَّ مِنْهُمْ

ويقول ابن آجروم<sup>١</sup> ، في مثل هذا الغرض المَرُومِ :

يَا غَائِبًا كَانَ أَنْسِي رَهْنَ طَلْعَتِهِ كَيْفَ اصْطَبَارِي وَقَدْ كَابَدْتُ بَيْنَهُمَا

١ المشهور بهذا الاسم هو محمد بن محمد بن داود الصنهاجي (٧٢٣ - ) وهو نحوي وله في النحو مؤلف سمي «الاجرومية» . (بغية الوعاة : ١٠٢) .

دعواي أنك في قلبي يُعارضها شوقي إليك ، فكيف الجمعُ بينهما  
ثم جدّ بي السير إلى مصر واستمرّ ، فتذكرت قول الصفدي وقد اشتدّ  
بالرمل الحرّ :

أقولُ وَحَرُّ الرَّمْلِ قَدْ زَادَ وَقَدُهُ  
وما لي إلى شَمِّ النسيمِ سَبِيلُ  
أظنُّ نسيمَ الجوّ قَد ماتَ وانقَضَى  
فَعَهْدِي بِهِ فِي الشَّامِ وَهُوَ عَلِيلُ

وقول ابن الخياط<sup>١</sup> :

قَصَدْتُ مِصرًا مِنْ رَبِّي جَلِقِي  
بِهَمَّةٍ تَجْرِي بِتَجْرِي  
فَلَمْ أَرَ الطَّرَّةَ حَتَّى جَرَّتْ  
دَمُوعٌ عَيْنِي بِالْمُرِّيْبِ<sup>٢</sup>

وحين وصلت مصر لم أنس عهد الشام المرعي ، وأنشدت قول الشهاب  
الحنبلي الزرعي<sup>٣</sup> :

أَحْبَبْنَا وَاللَّهِ مَذْغِبُ عَنكُمْ  
سُهُادِي سَمِيرِي وَالْمَدَامُ مِدْرَارُ  
وَاللَّهِ مَا اخْتَرْتُ الْفِرَاقَ ، وَإِنَّهُ  
بِرَعْمِي ، وَلِي فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ أَعْدَارُ  
إِذَا شَامَ بَرِّقَ الشَّامِ طَرْفِي تَتَابَعَتْ  
سَحَابُ جَفْتِي وَالْفُوَادُ بِهِ نَارُ  
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَعُودَنَّ شَمْلُنَا  
جَمِيعًا وَتَحْوِينَا رُبُوعٌ وَأَقْطَارُ ؟

١ سيورد المؤلف هذين البيتين في الباب الخامس عند الحديث عن دمشق وما قيل فيها من شعر ، وقد بين هناك أنهما لمحمد بن يوسف بن عبد الله الخياط معاصر الصفدي (توفي سنة ٧٥٦) ، وهو الملقب بالصفدع ، ووصفه الصفدي بأنه كان طويل النفس في الشعر ، وكان أميل إلى الهجاء .  
(انظر الدرر الكامنة ٤ : ٣٠٠ والبدر الطالع ٢ : ٢٨٦) .

٢ ط ق : بالمزريب .

٣ لعل المعنى هنا شهاب الدين أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي المتوفى سنة ٧١٩ (ذيل ابن رجب ٢ : ٤٧١) .



وقول ابن عَنِين ١ :

دمشقُ بنا شوقٌ إليك مَبْرَحٌ  
بلادُ بها الحَصَباءُ دُرٌّ ، وتُرْبُها  
وإن لِحَ واشٍ أو ألحَّ عَدُولُ  
عَبِيرٌ ، وأنفاسُ الرياحِ شمولُ  
وصحَّ نسيمُ الروضِ وهوَ عليلُ  
تسلسلَ منها ماؤها وهوَ مطلقُ

وقول آخر :

نَفْسِي الفِداءُ لأنسٍ كنتُ أعهدُه  
وجيرةٌ كان لي إلفٌ بوصلهمُ  
بِالشامِ خلقتُهم ثمَّ انصرفتُ إلى  
كانوا نعيمَ فؤادي والحياةَ لهُ  
وطيبَ عيشٍ تَقَضَى كُلُّه كَرَمُ  
والأنسُ أفضلُ ما بالوصلِ يُغْتَنَمُ  
سِوَاهُمُ فاعتراني بَعْدَهُمُ أَلَمُ  
والآنَ كلُّ وجودٍ بعدهمَ عَدَمُ

فإن أنشد لسان الحال ، فيما اقتضاه معنى البعد عنها والارتحال :

يا غائباً قد كنتُ أحسبُ قلبه  
إن كان صدك نيلُ مصرٍ عنهمُ  
بِيسوى دمشقَ وأهلها لا يعلَقُ  
لا غرَّوْ فهو لنا العدوُّ الأزرقُ

أتيتُ في جِوابه ، بقول بعض من برَّح الجوى به :

لله دهرٌ جمَعنا شَمْلَ لذتِه  
مَرَّتْ لِياليه والأيامُ في خُلْسِ  
كأنما سَلَبتُه كَفُّ مَسْرِقِ  
مِنَ النِّعيمِ إلى ذاكِ مِنَ الحُرْقِ  
لي في الجِوى والنوى والشجِو والأرقِ  
رقَّ العَدُولُ لِحالي بعدها ورثي

١ ابن عَنِين : أبو المحاسن محمد بن نصر الدين الأنصاري الملقب شرف الدين ( - ٦٣٠ ) كوفي الأصل ، دمشقي المولد ، شاعر مجيد هجاء نفاه السلطان صلاح الدين من دمشق بسبب وقوعه في الناس فتنتقل في البلاد وبلغ الهند ؛ نشر ديوانه بتحقيق الأستاذ خليل مردم ( دمشق : ١٩٤٦ ) .

وبالجملة فتلك الأيام من مواسم العمر محسوبة ، والسعود إلى طوالها منسوبة :

وكانت في دِمَشقَ لنا ليالٍ سَرَقْنَاهنَّ من رَبِّبِ الزَّمانِ  
جعلنَاهنَّ تاريخَ اللَّيالي وعُنْوانَ المِسرَّةِ والأمانِ

وهي مغاني التهاني التي ما نسيناها ، وأمانى زماني التي نعمتُ بطور سيناها ،  
عليها وعلى وطني مقصورة ، والقلبُ في المعنى مقيمٌ بهما وإن كان في غيرهما  
بالصورة ، والأشواقُ إليهما قضاياها مُوجَّهةٌ وإن كانت غيرَ محصورة :

ولله عهدٌ قد تقضى فإن يعدُّ فإنني عن الأيام أعفُو وأصفحُ  
بقلي من ذكراه ما لئس ينقضي ومن بُرَحاءِ الشوق ما ليس يبرحُ  
إذا مسحتْ كفتي الدموعَ تسترأُ بدتْ زفرةٌ بين الجوانحِ تقدحُ  
فإن جمعتْ شَملي اللَّيالي بقر بهم فإن جمعَ غيلانٍ وميٍّ وصيدحُ  
على أنها الأيامُ جدٌ مزارحها وربُّ مجدٍ في الأذى وهو يمزحُ

وكثيراً ما يلهج اللسان بقول من قال :

وما تفضِّلُ الأوقاتُ أخرى لذاتها ولكنَّ أوقاتَ الحِسانِ حِسانُ

ويردد قول من شوقه متجلد :

سقى معهدَ الأحبابِ نافعٌ صيبٌ من المزنِ عن مغنائه ليس يريمُ  
وإن لم أكن من ساكنيه فإنه يحلُّ به خيلٌ عليَّ كريمُ

وينشد من يلوم ، قولَ مَنْ في حشاهِ ولَّه وفي قلبه كلُّوم :

قد أصبحَ آخرُ الهوى أولهُ فالعاذلُ في هواك ما لي وله  
بالله عليكَ خلٌّ ما أولهُ وارحمَ دنيئاً لدى حشاهُ وله

• • •

١ ط ج : نافع .

[ شروع في التصنيف بمصر ]

وقد امتدّ بنا الكلام ، وربما يجعله اللاحي ذريعة لزيادة الملام ، فلنرجع إلى ما كنا بصددّه ، من إجابة المولى الشاهيني ، أمدّه الله سبحانه بمدده ، فأقول ، مستمدّاً من واهب العقول :

إنّني شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلوب ، وكتبتُ منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلكت في ترتيبه أحسن أسلوب ، وعرضت في سؤقه كلّ نفيس غريب من الغزب إلى الشرق مجلوب ، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى ، وتعرف الأفكار أنّه غير مُجتوى ، ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واستوى ، فأخّرتّه تأخير الغريم ، لدين الكريم ، وصدتني أعراض ، عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض ، وأضربتُ برهة عمّاً له من منّحي ، لاختلاف أحوال الدهر نفعاً ودفعاً ومنعاً ومنحاً ، ومرقتُ عن هدف الإصابة نبال ، وطرقت في سدّف ليالي الكتابة أمور لم تكن تخطر ببال .

• • •

[ رسالة من ابن شاهين نخبه على المضي في التأليف ]

فجاءتني من المولى المذكور آنفاً ، رسالة دلّت على أنّه لم يكن عن انتجاز الوعد متجانفاً ، فعُدت لقضاء الوطر مستقبلاً . وللجملة مستأنفاً ، وحداني خطابه الجسيم للإتمام وساقني ، وراقني كتابه الكريم لهاتيك الأيام وشاقني ، وذكرني تلك الليالي التي لم أنسها ، وحركني لهاتيك المعاهد التي لم أزل أذكر أنسها :

الإلف لا يصبر عن إلفه إلاّ كما يطرف بالعين  
وقد صبرنا عنهم مُدّةً ما هكذا شأن المحبّين

فيا له من كتاب أعرب عن ودِّ صميم ، وذكر بعهدٍ غير ذميم ،  
وود طيب العرف والشميم ، ينجل ابن المعتر لبلاغته وابن المعز تميم :

ولم ترَ عَيْنَايَ منْ قبله كتاباً حَوَى بعضَ ما قد حَوَى  
كَأَنَّ المِبَاسِمَ مِمَاتِهِ ولاماته الصُّدْعُ لَمَّا التَوَى  
وأعِينُهُ بعيونِ الحِسانِ تُغَازِلُنَا عندَ ذِكرِ الهَوَى  
كتابٌ ذَكَرْنَا بِالْفَاظِهِ عهوداً زَكَتْ بِالْحَمَى واللَوَى

فكأنه الروض المطرد الأنهار ، والدوْح المدبج الأزهار :

رأينا به رَوْضاً تدبجُ وشيهُ إذا جاد من تلك الأيادي غمامُ  
به أَلِفَاتٌ كالفصون وقد علا عَلَيْهَا من الهَمَزِ المِطْلَ حَمَامُ

وقد سقيت بأنهار البراعة السَّلْسَالَة ، حدائق حَلَّتْ بها غانية تلك الرسالة ،  
لتشفي صَبَّهَا بالزيارة ، وتشرف بدنوِّها دياره :

زارت الصَّبَّ في ليالٍ من البُعْدِ د فلَمَّا دنت رأى الصبح يَلْمَحُ  
قلدتُ بالعِقيانِ جيدَ بَيَانٍ ليس فيه للفتح من بعد مطمَحُ<sup>٣</sup>

فشفت النفس من آلامها ، وأحييت ميت الهوى مذحيَّتُ ؛ بعذب كلامها :

كلامٌ كالجواهر حين يَبْدُو وكالنَّدِّ المعنبر إذ يَفُوحُ  
له في ظاهر الألفاظ جسمٌ ولكنَّ المعاني فيه رُوحُ

١ ك : كتاب كريم .

٢ ك : كميون .

٣ يشير إلى الفتح بن خاقان وكتابه : قلائد العقيان ومطمح الأنفس .

٤ مذحيَّت : سقطت من ط .

فصيرت لي ذلك الكتاب سميماً ، ووردت من السرور مَشْرَعاً نَميراً ،  
وتمثلت بقول بعض من أخلص في الود ضميراً :

يا مفرداً أهدي إليّ كتابهُ      جُملاً يَحَارُ الذهنُ في أثنائها  
كالدرّ أشرق في سُمُوط عقوده      والزهرِ والأنوارِ غبَّ سماؤها  
فأفادني جدلاً وبالي كاسدٌ      وأجار نفسي من جوى بُرحائها  
وحسبت أيام الشباب رجعت لي      فلبستُ حلّيَ جماها وبهائها  
لا يعلمُ الإخوانُ منكَ محاسناً      كلُّ المفاخرِ قطرةٌ من مائها

فأكرم به من كتاب جاء من السريِّ العليِّ ، والماجد الأخ الوليِّ ١ :

فضضتُ ختامهُ فتبيّنتُ لي      معانيه عن الخبرِ الجليِّ ٢  
وكان ألدَّ في عيني وأندى      على كيدي من الزهرِ الجنيِّ  
وضمنَ صدره ما لم تضمّنْ      صدورُ الغانياتِ من الحليِّ

وأعرب عن اعتمادٍ متمادٍ ، وودادٍ مزدادٍ ، وأطاب حين أطال ، وأدّى  
دينَ الفصاحة دون مطال ، واشتمل من فُصول العبارة على أحسن من الحدق  
المراض ٣ ، وأتى من أصول البراعة ببراہين ابن شاهين التي لا خُلفَ فيها ولا  
افتراض ٤ ، وروينا من غيث أنامله الهتُون ، وروينا عنه مسند أحمد حسن  
الأسانيد والمتون ، وحثنا على العود والرجوع ، وكان أجدى من الماء الزلال  
لذي ظمأ والمشتهى من الطعام لذي سَغَب وجوع :

١ الأبيات لأبي تمام من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب (ديوانه : ٣٠٧ ط . بيروت ١٨٨٧) .

٢ الديوان : فتبلجت لي .

٣ ج : واشتمل من أحسن العبارة على أفضل . . . المرض .

٤ ج : لا اختلاف .

٥ ك : اعتراض .

وأشهى في القلوب من الأمانى ، وأحلى في العيون من الهجوعِ

وجلا بنوره ظلام استيحاشي ، وحشر إليّ أشتات المسرات دون أن  
يحاشي ، ووجدني في مكابدة شغوب ، وأشغال أشربت القلب الكسل والغوب ،  
وحيرت الخواطر ، وصيرت سُحْبَ الأقلام غير مَوَاطِر ، فزحزح غني الغموم  
وسلاّتي ، وأولاني - شكر الله صنيعه - من المسرات ما أولاني :

حديثه أو حديثٌ عنه يُطْرِبني هذا إذا غاب أو هذا إذا حَضَرَ  
كلاهما حَسَنٌ عندي أَسْرٌ به لكنّ أحلاهما ما وافق النَّظَرَ

وقال آخر ١ :

لستُ مُسْتَأْنَساً بشيء إذا غبت سوى ذكرك الذي لا يَغِيبُ  
أنتَ دون الجلامس عندي وإن كذبت بعيداً فالأنسُ منك قريبُ

وَضَمَنْتُ فيه لما ورد مع جملة كتب من تلك الناحية ، وأنوار أهلها ذوي

الفضائل الشهيرة أظهرُ من شمس الظهرية في السماء الصاحية ٢ :

قلتُ لما أتت من الشام كُتِبُ من أجلاء نورهم يتألقُ  
مرحّباً مرحّباً وأهلاً وسهلاً بعيونٍ رأت محاسن جلتُ

وقلت أيضاً :

قلتُ لما وافت من الشام كُتِبُ والليالي تُتِيحُ قرباً وبُعداً  
مرحّباً مرحّباً وأهلاً وسهلاً بعيونٍ رأت محاسن سَعْدِي

• • •

١ سقط البيتان من ق ط ج .

٢ سقط البيتان من ج .

[ مقتطفات من رسالة ابن شاهين ]

وكان من فصول الكتاب الوارد ، من المولى<sup>١</sup> الشاهيني الذي اقتنص بفضله كلَّ شارد ، ما نصّه : « ومما استخلص قلبي من يَدَيَّ تَرَحي ، وجدّد سُروري ونبّه فرحي ، حديثُ الكتاب وما حديثُ الكتاب ، حديثُ نسخ مجلاوته مرّارة العتاب ، وأنساني حرارة المصاب ، في الأنسال والأعقاب ، وقضى به من حق لسان الدين ، دينه الذي تبرع به غريم مَلِيٍّ من البلاغة وهو غير مدين ، حتى كأتني يا سيدي بهذه البشرى ، أحرزت سوارِي كسرى ، وكان في مسمعي كل حرف إليها منسوب ، قميص يوسف في أجفان يعقوب ، وحتى كدت أهجر أهلي وبيتي ، وأسرجُ لاستقبال هذه البشرى أشهبي وكُمبتي ، وحتى إنني حاربت نومي وقومي ، وعزمت على أن أرحل ناقي في وقفي ويومي ، وإن ذلك التغليس والتهجير ، في جنب ما بُشّرت به لحقير ، وإن موقعها لدى هذا العبد الحقير لخطير . وقد كنت سألت شيخي حين ورد دمشق الشام ، واشتمَّ منها العرّار والبشام ، وشرفني فعرّفي ، وشاهدني فعاهدني ، على أن يجري ما دار بيننا لدى المجاورة ، من المسامرة والمحاورة ، في دياجة ذلك الكتاب ، الذي فتن العقول خبره وسحر الألباب ، وما قصّدت إلا أن يجري اسمي على قلمه ، ويرقم رسمي في مطاوي تحزيره ورقمه ، ويكون ذكري مختلطاً بذكره ، كما أن سيرِّي مرتبطٌ في المحبة بسره ، فرأيت شيخي لم يتصدّ في أثناء هذه البشرى ، لما يُفهمني بالذكرى ، لأنظر النجاح في الأخرى ، ولم يساعدني على ذلك الملتمس ، وحبّس عِنانَ القلم فاحتبس ، فانكسرت سورة سروري بفتوري ، وتبين لنفسي عن بلوغ ذلك الأمل تخلّفي وقصوري » انتهى .

ثم قال بعد كلام<sup>٢</sup> لم نذكره لعدم تعلقه بهذا الغرض ، ما صورته :

١ المولى : سقطت من ق .

٢ ك : كلام طويل .

« وحسبت أن سيدي وحاشاه ، نسيَ مَنْ ليس ينسَاهُ ، وظننت به الظنون ،  
 لأمر تكون أو لا تكون ، وهل يكره شيخي<sup>١</sup> أن يهدى الدنيا في طبق ؟  
 ثمَّ الأخرى على ذلك النسق ، ولا شك أن خطّه هو الروضة الغنّاء ، لا بئسَ  
 جنة المأوى ، فطوبى لنفسي إن جنيت ثمرته طوبى ، ولعمْرُ شيخي إنّي بذلك  
 بلخير ، وإنّي كنت أملك به الخورنق والسدير « انتهى ما يتعلق بالمطلوب<sup>٢</sup> من  
 ذلك الرقيم ، الذي شكل منطقه غير عقيم ، سلك الله تعالى بي وبمن وجهه  
 الصراط المستقيم .

وأتى في المكتوب بأنواع من البلاغة ، مما تركت ذكره هنا لعدم تعلّقه  
 بهذا الأمر الخاص الذي يبسر لكارع<sup>٣</sup> الأدب مسأغه ، وختمه بقصيدة نفيسة من  
 نظمه يستنجز فيها ذلك الوعد ، وأشهد أنه قد حاز فيها قصبَ السبق والمجد ،  
 وما قلت إلا بالذي علمتُ سعدُ ، وهذه صورتها :

يا سيِّداً أفديهِ بالأكثرِ	من أصغِرِ العالم والأكبرِ
ويا وحيداً قلَّ قولي له	عُطارد أنتَ مع المشتري
ويا مجيداً ليسَ عندي لهُ	إلاّ مقالُ المادحِ المُكثِرِ
أقسمتُ بالبيت العتيق الذي	حجّتُ إليه الناسُ والمشعرِ
ما للعلا والعلم إلا أبو الـ	عبّاسِ شيخي أحمدُ المقرّي
ذاك الذي آثرني منه بالـ	علم الذي للغيرِ لمْ يؤثرِ
وخصّني منه بأشياء لمْ	يفزُ بها غيري ولمْ يعثرِ
فرحنتُ عبداً ذا وفاء لهُ	معرفةً بالرقِّ لا أمّثري

١ ك : سيدي وشيخي .

٢ ك : بالغرض .

٣ ق : لكاره ؛ ج ط : لكاره .

٤ عجز بيت الحطيفة ، وصدوره : وتملّني أبناء سعد عليهم .



أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ مَعْشَرِي  
كَانَ سَمِيرَ الْقَلْبِ لِلْمَحْضَرِ  
مَوَلَى لِسَانِ الدِّينِ ذَاكَ السَّرِيِّ  
بَلْ أَوْحَدُ الْأَدْهْرِ وَالْأَعْصَرِ  
عَنْهُ مَزَايَا بَعْدُ لَمْ تُحْصَرِ  
إِلَى مَعَالِيهِ وَلَا يَجْتَرِي  
مِنْ خَيْرٍ عَنِّ فَضْلُهُ مُسْفِرِ  
مَخْبِرُهُ يُرْبِي عَلَى الْمَنْظَرِ  
مَنْظَرُهُ يُرْبِي عَلَى الْمَخْبِرِ  
لَا حَتَّ عَيُونُ الرِّشَاءِ الْأَحْوَرِ  
لَا حَ عِذَارُ الشَّادِنِ الْقَمَرِ  
مَا بَيْنَهَا يَنْسَابُ كَالْكُوْثِرِ  
يَلُوحُ طَاوِي الْكَشْحِ أَوْ جُوْذَرِ  
أَغْنَتْ عَنِ الْأَبْيَضِ وَالْأَسْمِرِ  
يُرْوِي اللَّغْيَ عَنِ لَفْظِكَ الْجَوْهَرِيِّ  
وَيَنْظِمُ الْجَوْهَرَ بِالْعَنْبَرِ  
عَنْ ذِكْرِكَ الْمَأْنُوسِ لَمْ يَفْتَرِ  
يَزْدَانُ مَغْبُوطاً إِلَى الْمَحْشَرِ  
كَتَبْتُهُ نَحْوِكَ فِي دَفْتَرِي  
ذَاكِرَ عَبْدِ الْوَلُوفَا أَجْدَرِ  
عَلَى جَوَادٍ كَانَ لِلْبَحْرِيِّ

فِيَا أَبَا الْعَبَّاسِ يَا مَنْ غَدَا  
وَمَنْ إِذَا مَا غَابَ عَنِ نَاطِرِي  
هَاتِ أَفِيدُ فِي سَيْدِي عَنِ عَلَا  
ذَاكَ الْوَحِيدُ الْفَدُّ فِي عَصْرِهِ  
ذَاكَ الَّذِي أَخْبَرَنِي سَيْدِي  
ذَاكَ الَّذِي الْعَيُّوقُ لَا يَعْطَلِي  
مَا قَدْ وَعَدْتِ الْعَبْدُ فِي جَمْعِهِ  
بِحَطِّكَ الْوَضَّاحِ وَهَوَى الَّذِي  
وَالشَّيْءُ لَا يُرْجَى إِذَا مَا غَدَا  
نَقَشُ عَلَى طِرْسٍ بِيَاضٍ كَمَا  
وَأَسْطَرُّ قَدْ سُلِّسَتْ مِثْلَمَا  
وَنَزَهَةُ الْأَنْفَسِ مَعْنَى غَدَا  
عَدْبٌ رَقِيقٌ مِثْلُ ظَبْيِي غَدَا  
آثَارُ أَقْلَامِكَ وَهِيَ الَّتِي  
يَرَاعُكَ الْجَامِعُ رَاوِي غَدَا  
يَنْتَرُ مِسْكَ تَارَةً نَاطِماً  
هَذَا ابْنُ شَاهِينَ الْقَسِيِّ أَحْمَدُ  
فَاجْعَلْ لَهُ ذِكْرًا كَرِيمًا بِهِ  
وَإِذْكَرْ بُوَيْتَاتِي<sup>٢</sup> وَكُلَّ الَّذِي  
أَنْتَ جَدِيرٌ بِمُدْبِحِي فَكُنْ  
وَهَاكُمَا سَيَّارَةً أَعْنَقْتُ

١ ك : الأخر .

٢ ك : بيوتاتي .

طِرْفِ كَرِيمٍ سَابِقِ صَافِنِ      مُطَهَّمِ ذِي أَدَبٍ أَوْفَرِ  
 وَرِثْتَهُ مِنْهُ وَلَكِنَّمَا      مِنْ شَاعِرٍ وَافِيٍّ إِلَى أَشْعَرِ  
 مَا لِلْفَتَى الطَّائِي شَوْطُ امْرِئٍ      يَصْطَادُ نَسْرَ الْجَوِّ بِالْمِنْسَرِ  
 وَأَسْلَمَ لِعَبْدٍ لَا يَرَى سَيِّدًا      سَوَى الَّذِي فِي ثَوْبِكَ الْأَطْهَرِ  
 فِي كَرَمِ الْعَنْصَرِ فَرْدًا غَدَا      طَبَعُكَ فَاشْكُرْ كَرَمَ الْعَنْصَرِ  
 مَا حَنَّ مَشْتَاقٌ أَخُو صَبْوَةٍ      إِلَى خَلِيلٍ فِي الْهَوَى مُفَكِّرِ  
 . انتهت .

[ تهم المؤلف لاستئناف التصنيف ]

فلما وصلني هذا الخطاب ، الذي ملأ من الفصاحة الوطاب ، وحلا في عيني  
 وقلبي وطاب<sup>١</sup> ، تحركت دواعي الوجد ، لذلك المجد ، الذي ولعت به ولوع  
 ابن المدينة بصبا نجد ، وأثار من الهيام والأوار ، ما يزيد على ما حصل للفرزدق  
 لما فارق النوار ، وتضاعف الشوق إلى تلك الأنجاد والأغوار ، مُنْشِداً قول  
 الأول : « لعل أبي المغوار »<sup>٢</sup> ، وتذكرت والذكرى شجون وأطوار ، تلك  
 الأضواء والأنوار ، المشرقة بقطر أزهر بالمحاسن ، وجرى نهره غير آسن ،  
 فلم يذم فيه الجوار :

وإنَّ اصْطِبَارِي عَنْ مَعَاهِدِ جَلْتِي      غَرِيبٌ فَمَا أَجْفَى الْفِرَاقَ وَأَجْفَانِي  
 سَقَى اللَّهُ أَرْضًا لَوْ ظَفَرْتُ بِتَرْبِهَا      كَحَلْتُ بِهَا مِنْ شِدَّةِ الشُّوقِ أَجْفَانِي  
 وحصل التصميم ، على التكميل للتأليف والتميم ، رَعِيًا لهذا الوليِّ الحميم ،

١ وحلا . . . وطاب : مقطعت من ق ط ج .

٢ من قول كعب بن سعد الغنوي :

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة      لعل أبي المغوار منك قريب

أفاض الله تعالى عليه غيث البر العميم ، وأبقى ظل عزه ممدودا ، وخلق<sup>١</sup> سؤدده مودودا ، وأناله من الخيرات ما ليس محصوراً ولا معدودا ، وجمعني وإيَّاه ، وأطلع لي بشر مَحْيَاه ، وأنشقي عَرَف اجتماعه ورِيَّاه ، وكيف لا أستديم أمدَ بَقْيَاه ، وأعتقد البشائر في لقياه ، وأسقي غروس الود بسُقْيَاه ، وهو الصدر الذي أصفى لي الوداد ، والركن الذي لي بثبوتِه اعتداد<sup>٢</sup> :

فَعَلَيْهِ مِنْ مُصْنَفِي هَوَاهُ نَجْمَةٌ كَالْمِسْكِ لَمَّا فُضَّ عَنْهُ خَتَامُ  
تَتَرَى بِسَاحَتِهِ السَّنِيَّةَ مَا دَعَتْ فَوْقَ الْغُصُونِ هَدْيَلَهُنَّ حَمَامُ

ودامت فضائله ظاهرة كالشمس ، محروسة بالسبع المثاني معوذة بالخمس :

ولا انفك ما يَرَجُوهُ أَقْرَبَ مِنْ غَدٍ وَلَا زَالَ مَا يَخْشَاهُ أَبْعَدَ مِنْ أَمْسٍ

وبقي من العناية في حرم أمين ، أمين .

ولما حصل لي كمال الاعتباط ، بما دل على صحة حال الارتباط ، نشرت<sup>٣</sup> بساط الانبساط ، وحدثت لي قوة النشاط ، وانقضت عني سحائب الكسل وانجابت ، وناديتُ فكري فلبت مع ضعفها وأجابت ، فافتدحت من القريحة زَنَدًا كَانَ شَحَاحًا ، وجمعت من مُقَيَّدَاتِي حَسَانًا وَصَحَاحًا ، وكنت كتبت شَطْرَهُ ، ومَلَأْتُ بِمَا تَيْسَرُ هَامِشَهُ وَسَطْرَهُ ، وِرْقَمْتُ مِنْ أَنْبَاءِ لِسَانِ الدِّينِ ابْنَ الْخَطِيبِ حُلَلًا لَا تُخْلِقُ جَدَّتْهَا الْأَعْصُرُ ، وسَلَكْتُ مِنَ التَّعْرِيفِ بِهِ رَحْمَةَ اللَّهِ مَهَامِيَهَ تَكَلُّفًا فِيهَا وَاسْعَاتُ الْخَطَا وَتَقْصُرُ . فحدت لي بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة ومن كان يعضد بها الإسلام وينصر ، وبعض مفاخرها الباسقة ، ومآثر أهلها المتناسقة ، لأن كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر ، وجئت

١ ك : وحل .

٢ ك : اعتماد واعتداد .

٣ ك : نشر .

من النظم والنثر بنبذة توضح للطالب سبله ، وتُظهر علمه ونبله ، وتُترَعُ محاسنه من راح المذاكرة وإنائه ، حتى يرى إثثار هذا المصنّف وإدناؤه<sup>١</sup> ، وكنت في المغرب وظلالُ الشباب ضافية ، وسماء الأفكار من قَزَعِ الأكدار صافية ، معتنياً بالفحص عن أبناء<sup>٢</sup> الأندلس ، وأخبار أهلها التي تشرح لها الصدور والأنفس ، وما لهم من السبق في ميدان العلوم ، والتقدّم في جهاد العدو الظلوم ، ومحاسن بلادهم ، ومواطن جدالهم وجلادهم ، حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الأفاضل الأخير ، وانتقيت جواهر ، فرائدُها للعقول بَوَاهِر ، واقتطفت أزاهر ، أنجمها في أفق المحاضرة زواهر ، وحصّلت فوائد بواطن وظواهر ، طالما كانت أعين الألباء لئيلها سواهر ، وجمعت من ذلك كَلِمًا عالية ، لو خاطب بها الداعي صُمّ الجلامد لانبجس حجرها ، وحكماً غالية ، لو عامل بها الأيام ربيع متجرها ، وأسجاعاً تهتر لها الأعطاف ، ومواعظ يعمل بمقتضاها من حفّت به الألفاف ، وقوافي موفورة القوادم والخوافي ، يُثني عليها مَنْ سلم من الغباوة والصمم ، ويعترف ببراعتها من لا يعتريه اللّم ، وطالما أعرض الجاهل الغمّر بوجهه عن مثلها وأشاح ، وأنصت لها الحسبُ لإنصات السّوار بحرّس الحلي ونغمّ الوشاح ، وفرح إن ظفر بشيء منها فرح الصائد بالقنيص ، والساري العاري ذي البطن الحميص ، بالزاد والقميص ، وتركتُ الجميع بالمغرب ، ولم أستصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويُعرب ، إلا نَزَرًا يسيراً علق بحفظي ، وحلّيتُ بجواهره جيدُ لفظي ، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظي ، ولو حضرني الآن ما خلّفته ، ممّا جمعت في ذلك الغرض وألّفته ، لقرّرت به عيون وسُرّت ألباب ، إذ هو والله الغاية في هذا الباب ، ولكن المرء ابنُ وقته وساعته ، وكلُّ يُنفق على قدر وسعته

١ ك : وترع كأس محاسنه . . . حتى يرى حسن هذا التأليف أبناء هذا التصنيف وأدباؤه .

٢ ك : أبناء أبناء .

واستطاعته ، وعذر مثلي باد ، للمنصفين من العباد ، إن قصرت فيما تبصرت ، أو تخلفت في الذي تكلفت ، أو أضعت تحرير ما وضعت ، والتقتُ نديّ التفسير ورصعتُ ، أو أطعتُ داعي التواني فتأخرتُ عن سبق وانقطعتُ ، ﴿ إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ﴾<sup>١</sup> ، ومن كانت بضاعته مزجاة ، فهو عن الإنصاف بمنجاة ، إذ أتى بالمقدور ، وتبرأ من الدعوى في الورد والصدور ، وعين الرضا عن كل عيب كليلية ، والسلامة من الملامة متعذرة أو قليلة ، وقد قال إمامنا مالكٌ صاحب المناقب الجليلية : « كل كلام يؤخذ منه ويرد إلاّ كلام صاحب هذا القبر » صلى الله عليه وسلم أزكى صلاة وأتم سلام وشفى بجاهه من الآلام قلوبنا العليلية ، وجعلنا ممن كان اتباعُ سنته رائدهً ودليله ، آمين .

والحمد لله الذي يسّر لي هذا القدر ، مع ضيق الصدر ، وقلة بضاعتي ، وكثرة إضاعتي ، فإن حمده جل جلاله تتصوّع به المطالب طيباً ، وتقضى ببركته<sup>٢</sup> المآرب فيرقى صاحبها على منبر القبول خطيباً ، وتعذب به المشارب فتنبتُ في أرض القرطاس ، من زاكي الغراس ، ما يروق منظرأً نضيراً ويورق غصناً رطيباً ، وقد أتيت من المقال ، بما يُقِرُّ إن شاء الله تعالى عينَ وامق ويرغم أنفَ قال ، وإن كنتُ ممن هو في ثوب العمي رافل ، وعن نسبه للقصور غير غافل ، وممن جعل النفس هدفاً<sup>٣</sup> ، وصير مكان الدرّ صدفاً ، إذ لسانُ الدين بن الخطيب إمام هذه الفنون ، المحقق لذوي الآمال الظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درّها المكنون ، وله اليدُ الطولى في العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الراققة التي تزيح وحشة الأتقس بليناسها :

١ سورة هود : ٨٨ .

٢ ج : ٤ .

٣ يريد قولهم : « من ألف فقد استهدف » .

نَاهِيكَ مِنْ فَرْدٍ أَعْرَأَ مَمْدَحٍ  
 بِهِرَ الْأَنَامِ رِيَاةً وَسِيَاةً  
 وَأَتَى بِكُلِّ بَدِيعَةٍ فِي نَوْعِهَا  
 مَا شِئْتَ مِنْ شَعْرِ أَرْقٍ مِنَ الصَّبَا  
 وَبَدِيعِ قِرطَاسٍ تَوْشِيحَ مَتْنِهِ  
 بِهَجِّ كَأَنَّ الْحَسَنَ حَلَّ أَدِيمَهُ  
 وَكَأَنَّمَا سَالَ الْعِذَارُ عَلَيْهِ أَوْ  
 يَخْتَالُ بَيْنَ مُوَصَّلٍ وَمُفَصَّلٍ  
 كَالْبُرْدِ فِي تَوْشِيحِهِ ، وَالسَّلَكِ فِي  
 قَدِّ قَيْدِ الْأَبْصَارِ وَالْأَفْكَارِ مِنْ  
 مَا فِيهِ مَعْرُزُ إصْبَعٍ إِلَّا وَفِيهِ  
 وَلِكُلِّ جِزْءٍ حِكْمَةٌ أَوْ مُلْحَظَةٌ  
 أَوْلَيْسَ مِثْلِي قَاصِرًا عَنْ وَصْفِهِ  
 رَحْبِ الذَّرَا حُرِّ الْكَلَامِ مُحَمَّدٍ  
 وَجَلَالَةٍ فِي الْمَتَمِّ وَالْقَعْدُودِ  
 لَمْ تُخْتَرَعْ وَغَرِيبَةٍ لَمْ تُعْهَدِ  
 وَكِتَابَةِ أَزْهَى مِنَ الزَّهْرِ النَّدِيِّ  
 بِمُنْمَنَمٍ مِنْ رَقْمِهِ وَمَنْجَدٍ  
 فَكْسَاهُ رِيْعَانَ الشَّبَابِ الْأَغْيَدِ  
 خَطَّتَهُ أَيْدِي الْغَايَاتِ بِإِعْمَدِ  
 وَمُطَرِّزٍ وَمُنْتَظَمٍ وَمُنْضَدٍ  
 تَرْصِيعِهِ ، وَالْوَشْيِ نُمُقَ بِالْيَدِ  
 أَلْفَاظِهِ بِمُتَقَفٍ وَمُقَيَّدِ  
 نَتِيجَةِ لِمَفْرَعٍ وَمَوْلَدِ  
 أَوْ بَدْعَةٍ لِمَرْسَلٍ وَمُقَصَّدِ  
 وَالْحَقُّ نَوْرٌ وَاضِحٌ لِمَهْتَدِي

وكما قلت وقد عجزت عن أداء الواجب وحاولت المسنون ، وفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده ليس بممنوع ولا ممنون :

لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ الْعِبَارَاتِ تُوفِي  
 وَأَنَا عَاجِزٌ عَنِ الْبَعْضِ مِنْهَا  
 وَهُوَ يُدْعَى لِسَانَ دِينٍ وَنَاهِي  
 فَبَأَيِّ الْحَلِيِّ أَحْلَى عَلَا مِنْ  
 وَعَلَى الْفَرَضِ مَا الَّذِي أَنْتَحِي مِنْ  
 الْحِفْظِ قَدْ ارْتَوَى مِنْ مَعِينِ  
 وَاجِبَ ابْنِ الْخَطِيبِ مِمَّا أَرُومُ  
 لِقُصُورِي وَمَا الْعَيْبِيُّ مَكُومُ  
 لَكَ افْتِخَارًا بِهِ تَتِمُّ الرُّسُومُ  
 نَالَ فَضْلًا رَوْتَهُ عَرَبٌ وَرُومُ  
 هُ لُدَى الْوَصْفِ أَنْ يَخْصُ الْعُمُومُ  
 لَصَوَابٍ عَلَيْهِ كُلُّ يَوْمٍ

١ ك : والمحتد .

٢ وقع قبل البيتين السابقين ، في ك .

أم لفهمٍ يستخرج الدرَّ غَوْصاً  
 أم لفكرٍ مؤلَّفٍ في فنون  
 أم لنظمٍ كأنه جَوْهرُ السَّدِّ  
 تنباهي به الصُّدورُ حَلِيّاً  
 أم لنثرٍ وافٍ بِسِحْرِ بيانٍ  
 وأظلتُهُ للبديعِ سَمَاءُ  
 فاستزادت منه النفوسُ رَشاداً  
 أم لخطِّ مُتَمَنِّمٍ فاقَ حُسناً  
 أو كزهرٍ في بَهجةِ ورُوءاءِ  
 والغصونِ الأَقلامُ، والطرُسُ رَوْضُ  
 تلك سِتِّ أعجزنَ وصفي فإتني  
 من بحارٍ يَخشى بها من يعومُ  
 عِدَّةٌ ما به تُداوى الكَلُومُ  
 لك غَلا قَدْرُهُ على من يسومُ  
 وتروقُ العيونُ منه نجومُ  
 فهو كالرُّوحِ والمعاني جُسومُ  
 تتلالا في جانبيها العُلُومُ  
 واسترانتَ منه النُهي والحُلُومُ  
 مثلَ وشي تلوحُ منه الرُّقُومُ  
 وأريجُ به تُزاحُ الغُومُ  
 ناضِرٌ، والمدادُ غَيْثُ سَجُومُ  
 بسِوَاها ممّا يجلّ أقومُ

ولم يكن جمعي - علم الله - هذا التأليف لرفد أستهديه ، أو عرّض نائل  
 أستجديه ، بل لحقّ ودّ أؤديه ، ودَيْن وعد أقدمه وأبديه ، ووقوف عند حد  
 لا يجوز تعديّه ، وتلبية داعٍ أحييه وأفديه :

إنَّ مَنْ يَرجو نوالاً ونَدَى  
 فلقد كانَ على غيرِ الهدى  
 ويرجى منهم الرزقَ فهل  
 أنخلتي قَصْدَ ربِّ مالِكِ  
 ما لنا من مخلصٍ نأتي به  
 سيّدِ الخلقِ العمادِ المرتجى  
 فعليه صلواتٌ تتحي

من بني الدنيا لئو حظّ غيبين  
 من يسويهم بربّ العالمين  
 خالق الكلِّ فقيرٌ أو ضنين  
 ونرى للخلق جهلاً قاصدين  
 غير جاهِ المصطفى الهادي الأمين  
 للملّمات شفيح المذنبين  
 حضرة حلّ بها في كل حين

والرضى من بعدُ عن أربعة هم بحق أمراء المؤمنين  
 فيمينا إن من يهواهم ليكون من أصحاب اليمين  
 وسط جنات تحييه بها أنسات قاصرات الطرف عين  
 بقوارير لجين شربه وأباريق وكأس من معين  
 والذي شرفهم بمنحنا حبهم والكون معهم أجمعين .

فدونك أيها الناظر في هذا الكتاب ، المتجاني عن مذهب النقد والعتاب ، كلمات  
 سوانح ، اختلست مع اشتعال الجوانح ، وتضاد الأمور الموانع والموانح ،  
 وألفاظاً بوارح اقتنصت بين أشغال الجوارح ، وطرفاً أسمت الطرف في  
 مرعاها وكانت هملاً غير سوارح ، ونحفاً يحصل بها لناظره الإمتاع ،  
 ولا يعدّها من سقط المتاع المتاع ، ويلهج بها المرتاح ويستأنس المستوحش  
 المرتاع .

. . .

### [ منهج الكتاب ]

وبعد أن خمنت تمام<sup>١</sup> هذا التصنيف ، وأمعت النظر فيما يحصل به التقريط  
 لسامعه والتشنيف ، قسمته قسمين ، وكل منهما مستقل بالمطلوب فيصح أن  
 يسمياً باسمين :

القسم الأول - فيما يتعلّق بالأندلس من الأخبار المترعة الأكواب ، والأنباء  
 المنتحية صوب الصواب ، الرافلة من الإفادة في سوانح الأثواب ، وفيه بحسب  
 القصد والاقتصار ، وتحرّي الوسط في بعض المواضع دون الاختصار ، ثمانية  
 من الأبواب :

١ ق : خنت تمام ؛ ج : خنت تمام .



الباب الأول : في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها  
ووفور خيرها وكماها واستوائها ، واشتمالها على كثير من  
المحاسن<sup>١</sup> واحتوائها ، وكرم نباتها الذي سقته سماء البركات من  
جنباتها بنافع أنوائها ، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور ،  
وتعداد كثير مما لها من البلدان والكبور ، المستمدة من أضوائها .

الباب الثاني : في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد ، وفتحها على يد  
موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، وصيرورتها ميداناً  
لسبق الجياد ، ومحط رحال الأرياء والارتياح ، وما يتبع ذلك  
من خبر حصل بازديانه ازدياد<sup>٢</sup> ، ونيل وصل إليه اعتياد<sup>٣</sup>  
وتقرر بمثله اعتياد .

الباب الثالث : في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي العماد ،  
والقهر للعدو في الرواح والغدو والتحرك للهدو البالغ غاية الآماد ،  
وإعمال أهلها للجهاد ، بالجد والاجتهاد ، في الجبال والوهاد ،  
بالأسنة المشرعة والسيوف المستكة من الأعماد .

الباب الرابع : في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة ،  
وجامعها الأموي ذي البدائع الباهية الباهرة ، والإمراع بحضرتي  
الملك : الزهراء الناصرية والعامرية الزاهرة ، ووصف جملة من  
متنزهات تلك الأقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهرة ،  
وما يجر إليه شجون الحديث من أمور تقضي بحسن إيرادها  
القرائح الوقادة والأفكار الماهرة .

الباب الخامس : في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق

١ ك : المنافع والمحاسن .

٢ ك : زياد .

الذاكية العرّار والبشام ، ومدّح جماعة من أولئك الأعلام ،  
ذوي الألباب الراجحة والأحلام ، لشامة وجنّة الأرض  
دمشق الشام ، وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها وأرباب  
بيانها ذوي السؤدد والاحتشام ، ومُخاطباتهم للمؤلف الفقير  
حين حلّها عام سبعة وثلاثين وألف وشاهد برق فضلها المبين  
وشام .

الباب السادس : في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق ،  
المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المشرق ، والأكابر  
الذين حلّوا منها بحلوهم فيها الجيد والمفروق ، وافتخروا برؤية  
قُطْرِها المونق على المُشْتَم والمُعْرَق .

الباب السابع : في نبذة ممّا منّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقّد  
الأذهان ، وبدّ لهم في اكتساب المعارف والمعالج ما عزّأ أو هان ،  
وحوزهم في ميدان البراعة من قصب السبق خصّل الرهان ،  
وجملة من أجوبتهم الدالة على لودعيتهم ، وأوصافهم المؤذنة  
بالمعيتهم ، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح  
برهان .

الباب الثامن : في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه  
الكيد إليها ، وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره ، واستعماله  
في أمرها حيل فكره ، حتى استولى - دمره الله - عليها ،  
ومحا منها التوحيد واسمّه ، وكتب على مشاهدتها ومعاهدها  
وسمّه ، وقرر مذهب التثليث والرأي الجبيث لديها ، واستغاثه  
منّ بها بالنظم والنثر ، أهل ذلك العصر ، من سائر الأقطار ،  
حين تعذرت بحصارها ، مع قلة حُماتها وأنصارها ، المآرب  
والأوطار ، وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها ، أعاد

الله تعالى إليها كلمة الإسلام ، وأقام فيها شريعة سيد الأنام ،  
عليه أفضل الصلاة والسلام ، ورفع يد الكفر عنها وعمّا  
حوالها ، آمين .

ولم أخلّ باباً في هذا القسم من كلام لسان الدين بن الخطيب وإن قلّ ،  
مع أن القسم الثاني بذلك كما ستقف عليه قد استقلّ ، وهذا آخر ما تعلق بالقسم  
الأول ، وعلى الله سبحانه المتكّل والمعول .

القسم الثاني - في التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، وذكر أنبائه التي  
يرُوق سماعها ويتأرج نَفْحُها وَيَطِيبُ ، وما يُناسِبُها من أحوال العلماء  
الأفراد ، والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجونُ الكلام والاستطراد ، وفيه أيضاً  
من الأبواب ثمانية ، موصلة إلى جنّات أدبٍ قُطُوفُها دانية ، وكل غصن منها  
رطيب :

الباب الأول : في أولية لسان الدين وذكر أسلافه ، الذين ورث عنهم  
المجدَ وارتضع دَرّاً أخلافه ، وما يناسب ذلك مما لا يذهب  
المنصفُ إلى خلافه .

الباب الثاني : في نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ، ومُساعِدة الدهر له ثم  
قلبه له ظهرَ المِجَنِّ على عادته ، في مُصافاته ، ومنافاته ،  
وارتباكه ، في شباكه ، وما لقي من إحسن الحاسد ، ذي المذهب  
الفاسد ، وعمن الكايد المستأسد وآفاته ، وذكر قصوره وأمواله ،  
وغير ذلك من أحواله ، في تقلباته عندما قابله الزمان بأهواله ،  
في بدئه وإعادته إلى وفاته .

الباب الثالث : في ذكر مشايخه الجِلَّة ، هُدَاة الناس ونجوم المِلَّة ، وما يتصل

بذلك من الأخبار الشافية لليلة ، والمواظب المنجية من الأهواء  
المُضِلَّة ، والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة .

الباب الرابع : في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية ، وثناء  
غير واحد من أهل عصره عليه ، وصرف القاصدين وجوه  
التأميل إليه ، واجتلائهم أنوار رياسته الجليلة<sup>١</sup> .

الباب الخامس : في إيراد جملة من نشره الذي عبق أريج البلاغة من نفعاته ،  
ونظمه الذي تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته ، وما يتصل  
به<sup>٢</sup> من بعض أرجالهِ ومُوشحاتهِ ، ومناسبات رائقة من  
فنون الأدب ومُصطلحاتهِ .

الباب السادس : في مُصنَّفاته في الفنون ، ومؤلفاته المحققة للواقف عليها  
الآمال والظنون ، وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المتون .

الباب السابع : في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، المستدلِّين به على المنهاج ،  
المتلقين أنواع العلوم منه ، والمقتبسِين أنوار الفهوم من سراجهِ  
الوهَّاج .

الباب الثامن : في ذكر أولاده الرافلين في حُللِ الجلالة ، المقتضين<sup>٣</sup> أوصافهِ  
الحميدة وخِلالهِ ، الوارثين العلم والحلم والرياسة والمجد  
عن غير كلاله ، ووصيته لهم الجامعة لأداب الدين والدنيا ،  
المشتملة على النصائح الكافية ، والحِكَمِ الشافية ، من كل مَرَضٍ  
بلاشُنيًا ، المنقذة من أنواع الضلالة ، وما يتبع ذلك من المناسبات  
القوية ، والأمداح النبوية ، التي لها على حسن الختام أظهر  
دلالة .

١ ق ج ط : الجليلة .

٢ ك : بذلك .

٣ ج : الموافقين .

وقد كنت أولاً سمّيته بـ «عزّرف الطيّب» ، في التعريف بالوزير ابن الخطيب» ، ثم وسمته حين ألحقت أخبار الأندلس به بـ «نفتح الطيب» ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب .  
وله بالشام تعلّق من وجوه عديدة ، هادية متأملها<sup>١</sup> إلى الطرق السديدة :  
أولها : أن الداعي لتأليفه أهل الشام — أبقى الله مآثرهم وجعلها على مرّ الزمانٍ مديدة .

ثانيها : أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذوو الشوكة<sup>٢</sup> الحديدية .  
ثالثها : أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطناً مستأنفاً وحضرة جديدة .  
ورابعها : أن غرناطة نزل بها أهل دمشق ، وسمّوها باسمها لشيء بها في القصر والنهر ، والدوّح والزهر ، والغوطة الفيحاء ، وهذه مناسبة قوية العرى شديدة .

• • •

#### [ خاتمة المقدمة ]

هذا ، وإنّي أسأل ممن<sup>٣</sup> وقف عليه ، أن ينظر بعين الإغضاء إليه ، كما أطلب ممن كان السبب في تصنيفه ، والداعي إلى تأليفه وترصيفه ، استناداً لركن الثقة ، واعتماداً على الود والميعة ، أن يصفح عمّا فيه من قصور ويسمح ، ويلاحظه بعين الرضى الكليلية ويسمح ، إذ ركبتُ شكل منطقته والأشجان غالبية ، وقضية الغربية ، موجبة للكربة ، ولبعض الآمال سالبة ، وهو — وإن لم يُوفِّ

١ ك : لتأمله ؛ ق ط : متأمله .

٢ ك : ذوو النجدة والشوكة .

٣ ط : من .

بكل الغرض - فلا يخلو من فائدة ، وقد يُستدلُّ على الجوهر بالعرض ، فإن  
أدبتُ المفترض وذاك المرآم الذي أرتضيه ، ويوجب الود ويقتضيه :

وإلا فحسبي أن بذلتُ به جهدي وأنفقت من وُجدي على قدر ما عندي  
وقد توهمت أنني لم أسبق إلى مثله في بابهِ ، إذ لم أقف له على نظيرٍ أتعلق  
بأسبابه ، ورجوتُ أن يكون هديّةً مستملحةً مستعذبةً ، وطرفةً مقبولةً  
مستغربةً :

هَدَيْتِي تَقْصُرُ عَنِ هِمَّتِي وَهَمِّي أَكْثَرُ مِنْ مَالِي  
وَخَالِصُ الْوَدِّ وَمَحْضُ الْإِخَاءِ أَكْثَرُ مَا يَهْدِيهِ أَمْثَالِي

وأوردت فيه من نظم وإنشاء ، ما يكفي المقتصرَ عليه إن شاء ، ومن أخبار  
ملوك ورؤساء ، وطبقات من أحسن أو أساء ، ما فيه اعتبار للمأمل ، وادّكار  
للراحل المتحمّل ، وزينة للذاكر المتجمل ، وتنكيث على أهل البطر ، وتبكيث  
لمن خرج من دنياه ولم يقض من الطاعة الوطر :

أَرَى أَوْلَادَ آدَمَ أَبْطَرْتَهُمْ حَظوظَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا الدَّيْنِيَّةِ  
فَلَيْمَ بَطِرُوا وَأَوْلَهُمْ مَنِّي إِذَا تُسَبَّوْا وَأَخْرَهُمْ مَنِّيَّةِ

وفيه إيقاظ لمثلي من سنّة الفقلة ، وحثٌّ على عدم الاغترار بالمهلة ، وتنبيه  
للإبس برّد الشباب القشيب ، أنه لا بدّ من حادث الموت قبل أو بعد المشيب :

لِللَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَعَظٍ وَنَاصِحٍ مِنْهَاجُهُ وَاضِحٌ  
كُلُّ أَمْرٍ يَعْجِبُهُ شَأْنُهُ وَحَادِثُ الدَّهْرِ لَهُ فَاضِحٌ

١ جمع فيه بيتي أبي نواس :

لِللَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَعَظٍ وَنَاصِحٍ لَوْ خَطَى النَّاصِحُ  
يَأْبَى الْفَتَى إِلَّا اتِّبَاعَ الْهَوَى وَمَنْجَ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحٌ

فَكَمْ بِكَ عَلَى عَصْرِ الشَّبَابِ ، وَشَاكَ لِفِرَاقِ عَهْدِ الصَّبَا وَالْأَحْبَابِ ،  
أَنَسَاهُ طَارِقُ الزَّمَانِ سُلَيْمَى وَالرَّبَابِ :

مَضَى عَصْرُ الشَّبَابِ كَلَمَحِ بَرْقٍ وَعَصْرُ الشَّيْبِ بِالْأَكْدَارِ شَيْبَا  
وَمَا أَعَدَدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ زَادًا لِيَوْمٍ يَجْعَلُ الْوُلْدَانَ شَيْبَا

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ الْأَعْلَامِ :

مَضَى مَا مَضَى مِنْ حُلُوِّ عَيْشٍ وَمُرَّةٍ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَأَضْغَاثِ أَحْلَامٍ  
وَقَوْلٍ مِنْ أَرْشَدِ سَفِيهَا :

إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ مَتَاعٌ فَالْجَهْلُ الْجَهْلُ مِنَ يَصْطَفِيهَا  
مَا مَضَى فَاتٍ وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ وَلَكِ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

وَفِي مَعْنَاهُ لِغَيْرِهِ :

دُنْيَاكَ شَيْثَانٌ فَانظُرْ مَا ذَانِكَ الشَّيْثَانِ  
مَا فَاتَ مِنْهَا فَحَلُمٌ وَمَا بَقِيَ فَأَمَانِي

وَمَا أَحْكَمَ قَوْلَ ابْنِ حِطَّانٍ ، مَعَ وَقُوعِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ فِي أَشْطَانٍ ١ :

يَأْسَفُ الْمَرْءُ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْ لُبَانَاتٍ إِذَا لَمْ يَقْضِهَا  
وَتَرَاهُ ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرًا بِالَّتِي أَمْضَى كَأَنْ لَمْ يُمَضِّهَا  
لِإِنِّهَا عِنْدِي كَأَحْلَامِ الْكَرَى لِقُرْبِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضِهَا

وَلِغَيْرِهِ :

وَاللَّهُ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا تَبَقَّى عَلَيْنَا وَيَأْتِي رِزْقُهَا رَغْدًا  
مَا كَانَ مِنْ حَقِّ حُرٍّ أَنْ يَذُلَّ لَهَا فَكَيْفَ وَهِيَ مَتَاعٌ يَضْمَحَلُّ غَدًا

١ انظر مجموعة شعر الخوارج : ١٩ (القطعة : ٣٣) .

ولآخر :

لا حَظَّ في الدُّنيا المُسْتَبْصِرِ  
يَلْمَحُهَا بِالْفِكْرَةِ الباصِرَةِ  
إن كدَّرت مَشْرَبَهُ مَلَّهَا  
وإن صَفَّتْ كدَّرت الآخِرَةَ

ويعجبي قولُ الوزير ابن المغربي<sup>١</sup> :

إِنِّي أَبْثُكُ مِنْ حَدِيٍّ  
فَارَقْتُ مَوْضِعَ مَرَقَدِي  
قُلِّ لِي فَأَوْلُ لَيْلَةٍ  
لِلْقَبْرِ كَيْفَ تُرَى أَكُونُ  
ثِي وَالْحَدِيثُ لَهُ شُجُونُ  
لَيْلًا ففَارَقَنِي السُّكُونُ  
لِلْقَبْرِ كَيْفَ تُرَى أَكُونُ

وقول ماميه<sup>٢</sup> :

تَأْمَلْ فِي الوُجُودِ بَعَيْنَ فِكْرِي  
تَرَ الدُّنْيَا الدُّنْيَةَ كَالْحَيَالِ  
وَمَنْ فِيهَا جَمِيعًا سَوْفَ يَفْتِي  
وَيَبْتَقِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

وقول بعض العارفين :

اسْتَعِدِّي يَا نَفْسُ لِلْمَوْتِ وَاسْعِي  
لنَجَاةٍ فَالْحَازِمُ المُسْتَعِدُّ  
قَدْ تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْحَيِّ  
خُلُودٌ وَمَا مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ  
إِنَّمَا أَنْتِ مُسْتَعِيرَةٌ مَا مَسَوُ  
ف تَرُدِّينَ وَالْعَوَارِي تَرُدُّ  
أَنْتِ تَسْهِينِ وَالْحَوَادِثُ لَا تَسْهِي  
هُوَ وَتَلْهِينِ وَالْمَنَايَا تَجِدُّ

١ هو أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين المغربي ( - ٤١٨ ) ، شارك في الفتن السياسية في عصره ، وبينه وبين المرعي مراسلة وإليه وجه المرعي رسالة المنبح ( وفيات الأعيان ١ : ٤٢٨ والشذرات ٣ : ٣٠١ ) والأبيات في ابن خلكان : ٤٣٠ .

٢ هو المعروف بماميه الرومي واسمه محمد بن أحمد بن عبد الله ( - ٩٨٨ ) ولد في الاسطانة ونشأ بدمشق ، وكان من اليتكجيرية ، وله ديوان شعر ( شذرات الذهب ٨ : ٤١٣ ) . وفي ج : وقول أمية .



أَيُّ مَلِكٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَيُّ حَظٍّ لِمَرِيءٍ حَظُّهُ مِنَ الْأَرْضِ لِحَدِّ  
لَا تَرْجِي الْبَقَاءَ فِي مَعْدِنِ الْمَوْتِ وَدَارِ حَتُوفِهَا لَكَ وَرَدُّ  
كَيْفَ يَرْجُو أَمْرًا لِدَاذَةِ أَيِّ مِ عَلَيْهِ الْأَنْفَاسُ فِيهَا تُعَدُّ

وَأَسْأَلُ مِنْ مُبْلِغِ السَّائِلِينَ مَا يَرْجُونَ : أَنْ يَصْفَحَ عَنِ زَلَّاتِي وَيَسَاعِنِي  
فِيمَا أوردت في هذا الكتاب من الهزل والمجون ، الذي جرَّت المناسبة إليه  
والحديثُ شجون ، وما القصدُ منه إلا ترويح قلوب الذين يسوقون عيسَ الأسمارِ  
ويزجون ، وفيما أوردت من المواعظ والنصائح ، وحكايات الأولياء الذين  
طيبُ زهرِ مناقبهم فائح ، والتوسلُ بمحاسن الأمداح النبوية أن يستر بفضلِه سبحانه  
القبائح ، ويرينا وجهَ القبول بلا اكتتام ، ويمنحنا الزُّلفَى وحسنَ الختام :

وَمَنْ يَتَوَسَّلُ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ شَفِيعِ الْبَرَايَا السَّيِّدِ السِّنْدِ الْأَسْنَى  
فَذَاكَ جَدِيرٌ أَنْ يُكْفَرَ ذَنْبَهُ وَيَمْنَحَ نَيْلَ الْقَصْدِ وَالْحَمِّ بِالْحَسَنِ

وهذا أوانُ الشروع ، في الأصول من هذا الكتاب والفروع ، وعلى الله  
سبحانه أعتد ، ومن معونته أستمد .



## القِسْمُ الأوَّلُ

فيما يتعلّق بالأندلس من الأخبار المترجمة الأكوّاب ،  
والأنباء المتّحية صَوَّبَ الصواب ، الرافلة من  
الإفادّة في سَوَائِغِ الأثواب ، وفيه  
- بحسب القصد والاختصار ، وتحريّ  
التوسط في بعض المواضع دون  
الاختصار - ثمانية  
من الأبواب



## الباب الاول

في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها ، واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها ، وكرم بفقعتها التي سقتهما سماء البركات بنافع أنوائها ، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكُور ، المستمدة من أضوائها

فأقول :

بحسن الأندلس لا تُستوفى بعبارة ، ومجاري فضلها لا يشق غُبارها ، وأنتى تجارَى وهي الحائِرة قَصَبَ السَّبِق ، في أقطار الغرب والشرق .

° ° °

[ مقدمات عامة في مزايا الأندلس ]

قال ابن سعيد : إنما سميت بأندلس بن طوبال<sup>١</sup> بن يافث بن نوح ، لأنه نزلها ، كما أن أخاه سبب بن يافث نزل العُدوة المقابلة لها ، وإليه تُنسب سببته . قال : وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربي ، لأنهم إما عرب أو متعربون ، انتهى .

وقال ابن غالب<sup>٢</sup> : إنه أندلس بن يافث ، والله تعالى أعلم .  
وقال الوزير لسان الدين بن الخطيب - رحمه الله تعالى - في بعض كلام له

١ ط : بالأندلس ؛ ج : بن طوفان .  
٢ هو محمد بن أيوب بن غالب صاحب كتاب « فرحة الأنفس » الذي ينقل عنه المقرئ في مواضع ، وقد بقيت من الكتاب قطعة نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات ١ : ٢٧٢ - ٣١٠ ؛ وعبارته المنقولة تقع على الصفحة ٢٨١ .

أجرى فيه ذكر البلاد الأندلسية ، أعادها الله تعالى للإسلام ببركة المصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ما نصّه : خَصَّ اللهُ تعالى بلاد الأندلس من الرِّيعِ وغَدَقَ السَّقْيَا ، ولذاذة الأَقْوَات ، وقرّامة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العُمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وبيضاض ألوان الإنسان ، ونُبُل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطبايع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام التمدن والاعتماد ، بما حرّمهُ الكثيرُ من الأقطار ممّا سواها ، انتهى .

قال أبو عامر السالمي<sup>٢</sup> ، في كتابه المسمى بـ «درر القلائد وغرر الفوائد» : الأندلس من الإقليم الشامي ، وهو خير الأقاليم ، وأعلها هواء وتراباً ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء وحيواناً ونباتاً ، وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوسطها ، انتهى .

قال أبو عبيد البكري<sup>٣</sup> : الأندلس شامية في طبيها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدانية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة ، وكان من ملوكهم الذين أثاروا الآثار بالأندلس هرقلس ، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس وصنم جليقية ، والأثر في مدينة طرْكُونَة الذي لا نظير له .

• • •

١ ك : وفنون .

٢ أبو عامر السالمي (ق ك ط ج : السلمي) محمد بن أحمد بن عامر : كان أديباً تاريخياً حافظاً ، صنف في الحديث والآداب والتواريخ مصنفات كثيرة مفيدة وكتابه «درر القلائد وغرر الفوائد» في أخبار الأندلس وأمراتها وطبقات علمائها وشعرائها ، وقف منه ابن عبد الملك على السفرين الأول والثاني . (انظر ترجمته في التكملة : ٤٩٥ ، والذيل والتكملة ، الورقة ٣ من مخطوطة المتحف البريطاني) .

٣ انظر هذا النص في الروض المعطار : ٣ ، والمستقى من فرحة الأنفس : ٢٨١ مع بعض اختلاف .

٤ طرْكُونَة (Tarragona) : مدينة على ساحل البحر الشامي بينها وبين لاردة خمسون ميلاً .

## [ مساحتها وأبعادها ]

قال المسعودي<sup>١</sup> : بلاد الأندلس تكون مسيرة<sup>٢</sup> عمائرها ومدنها نحو شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة ، انتهى باختصار .  
 ونحوه لابن اليسع<sup>٢</sup> إذ قال : طولها من أربونة إلى أشبونة<sup>٣</sup> وهو قطع ستين يوماً للفارس المجدد ، وانتقد بأمرين : أحدهما أنه يقتضي أن أربونة داخلية في جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثاني أن قوله : « ستين يوماً للفارس المجدد » إعياء وإفراط ، وقد قال جماعة : إنها شهر ونصف .

قال ابن سعيد : وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجدد ، والصحيح ما نص عليه الشريف<sup>٤</sup> من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجاري<sup>٥</sup> ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حساباً بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنيتف قليل .  
 قال الحجاري في موضع من كتابه : إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميل ونيتف ؛ انتهى .

وبالجملة فالمراد التقريب من غير مشاحجة ، كما قاله ابن سعيد ، وأطال في ذلك ، ثم قال بعد كلام : ومسافة الحاجز الذي بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلاً ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق ، ولقلته سميت

- ١ راجع مروج الذهب ١ : ١٦٢ .  
 ٢ ابن اليسع : اليسع بن عيسى بن اليسع أبو يحيى صاحب كتاب المغرب في آداب المغرب كتبه بمصر للسلطان صلاح الدين الأيوبي ( راجع المغرب ٢ : ٨٨ والهاشية ) .  
 ٣ أربونة ( Narbonne ) آخر ما استولى عليه العرب من جهة الساحل الأندلسي الشرقي ، وأشبونة هي التي تسمى اليوم لشبونة ( Lisbon ) أو ليسبوا عاصمة البرتغال .  
 ٤ يعني الشريف الإدريسي مؤلف كتاب « نزهة المشتاق » لرجار ، ملك صقلية .  
 ٥ صاحب كتاب « المسهب في فضائل المغرب » ألفه لبني سعيد ، وهو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم وعمل أساس كتابه ألف المغرب . ( انظر ترجمته في المغرب ٢ : ٣٥ ) .

جزيرة وإلا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة ،  
وعرضُ جزيرة الأندلس في مَوسَطتها<sup>١</sup> عند طَلَيْطَلَة ستة عشر يوماً . وانتفقوا  
على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا في الركن الذي في الشرق والجنوب  
في حيز أربونة<sup>٢</sup> ، فمن قال إنه في أربونة وإن هذه المدينة تقابلها مدينة  
بُرذيل<sup>٣</sup> التي في الركن الشرقي الشمالي أحمدُ بن محمد الرازي وابنُ حَيَّان ،  
وفي كلام غيرهما أنه في جهة أربونة ، وحقق الأمر الشريف ، وهو أعرف  
بتلك الجهة لترده في الأسفار برّاً وبحراً إليها وتفرّغه لهذا الفن .

قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح  
ما ذهب إليه الشريف ، وأن أربونة وبرشليونة<sup>٤</sup> غير داخلتين في أرض الأندلس ،  
وأن الركن الموني على بحر الزقاق بالمشرق بين برشليونة وطركونة في موضع  
يُعرف بوادي رنلقاطو<sup>٥</sup> ، وهناك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس والأرض  
الكبيرة ذات الألسن<sup>٦</sup> الكثيرة ، وفي هذا المكان جبل البرت الفاصل في الحاجز  
المذكور وفيه الأبواب التي فتحتها ملك اليونانيين بالحديد والنار والحل ، ولم  
يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق في البر . وذكر الشريف أن  
هذه الأبواب يقع في مقابلتها في بحر الزقاق البحر الذي بين جزيرتي مَيُورقة<sup>٧</sup>  
ومَنُورقة<sup>٧</sup> ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية ، ومسافة هذا

١ ك : موسطها ؛ ج : متوسطها .

٢ برذيل : مدينة في بلاد جليقية وتقع على نهر جرونة ، ( الروض المطار : ٤١ ) .

٣ برشلونة ( Barcelona ) : مدينة بينها وبين طركونة خمسون ميلا وهي إلى الشمال منها .

٤ ق ط : زنلقطو ، ك : زنلقطو ؛ ويرى محقق الجزء الأول من الطبعة الأوروبية أن الصواب رنلقاطو

( Rubricatus ) .

٥ ج : أرض الأندلس .

٦ ج : الأنساب .

٧ ميورقة ( Majorca ) ومَنورقة ( وربما كتبت دون واو « منرقة » ) ( Minorca ) أكبر

جزيرتين في مجموعة جزائر البليار في البحر المتوسط ، وكانتا في عصر ملوك الطوائف تحت

حكم مجاهد العامري .



الجبل الحاجز بين الركن الجنوبي والركن الشمالي أربعون ميلاً .

قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة بُرْدِيل ، وهي من مدن الإفرنجية مطلة على البحر المحيط في شمالي الأندلس ، قال : ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن إلى الشمال في بلاد الفرنجة ، ولهم به جزائر كثيرة . وذكر أن الركن الشمالي<sup>٢</sup> عند شنت ياقوه<sup>٣</sup> من ساحل الجلالقة في شمال الأندلس الغربي<sup>٤</sup> ، حيث تبتدىء جزيرة بريطانيا الكبيرة فيتصوّر هنالك بحر داخل بين أرضين ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة بُرْدِيل .

وذكر الشريف أن عند شنت ياقوه<sup>٥</sup> في هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنماً مطلاً مشبهاً بصنم قادس .

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغر<sup>٦</sup> حيث صنم قادس ، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط ماراً مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل البرت المذكور ، انتهى ؛ والكلام في مثل هذا طويل الذيل . قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي<sup>٧</sup> : بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب ، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصبُ

١ ك : ودوكرا من .

٢ ج : الباقي .

٣ شنت ياقوه ، ويقال فيها شنت ياقوب (Santiago de Compostela) في أقصى الشمال الغربي من شبه جزيرة أيبيرية بمنطقة جليقية ، وفيها كنيسة مقدسة يحجون إليها .

٤ الغربي : زيادة من ق ط .

٥ ق : بابت ياقوة ؛ ج ط : بليانت ياقوه (ياقوه) .

٦ ق ل ط ج : الأذن ؛ وهذا هو ما لا يزال يسمى « الطرف الأغر » (Trafalgar) ، وقد ذكره ابن حوقل باسم الجبل الأغر .

٧ أحمد بن محمد بن موسى الرازي : من كبار المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين في الفترة الأموية وهو جد عيسى الرازي الذي يعتمد ابن حيان في المقتبس ؛ (انظر الجلوة : ٩٧ ومجلة المعهد : : ٢٥٢ - ٢٥٥ من المجلد ٧ - ٨) .

الجناب ، مُنْبَجِس بالأُنْهَارِ الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السُّموم ، معتدل الهواء والجوِّ والنسيم ، ربيعه وخريفه ومَشْتَاه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وَسَطَةٌ من الحال ، لا يتولد في أحدها فَضْلٌ<sup>٢</sup> يتولد منه فيما يتلوه انتقاص ، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة ، أمّا الساحل منه ونواحيه فيادر بباكوره ، وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره ، فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كل الأحيان ، وفواكهه على الجملة غير معلومة في كل أوان ؛ وله خواصّ في كرم النبات يوافق في بعضها أرضَ الهند المخصوصة بجواهر الانبات<sup>٣</sup> : منها أن المحلب - وهو المقدم في الأفاويه والفضّل في أنواع الأشنان - لا ينبت بشيء من الأرض إلا بالهند والأندلس ؛ وللأندلس المدن الحصينة ، والمعقل المنيع ، والقلاع الحريزة ، والمصانع الجليلة ، ولها البر والبحر ، والسهل والوعر ، وشكلها مثلث ، وهي معتمدة على ثلاثة أركان : الأول هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس ، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامي الآخذ بقبلي الأندلس ، والركن الثاني هو بشرقي الأندلس بين مدينة نَرْبُونَةَ<sup>٤</sup> ومدينة بُرْذِيلَ<sup>٥</sup> مما بأيدي الفرنجة اليوم بإزاء جزيرتي مَيُورقة ومَنُورقة بمجاورة من البحرين : البحر المحيط والبحر المتوسط ، وبينهما البر الذي يُعرف بالأبواب ، وهو المدخل إلى بلد<sup>٥</sup> الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجية ، ومسافته بين البحرين مسيرة يومين ، ومدينة نَرْبُونَةَ<sup>٦</sup> تقابل البحر المحيط ، والركن الثالث منها هو ما بين الجوف<sup>٧</sup> والغرب من حيز جليقية ، حيث الجبل الموفي على البحر ، وفيها الصنم

١ ك : الأنهار .

٢ ق ك ج : فصل .

٣ ك : بكرم النبات وجواهره .

٤ نربونة : أربونة (Narbonne) . وفي ق ط ك : ربونة .

٥ ك : بلاد .

٧ ق : الجنوب .

٦ ق ك ط ج : ربونة .

العالي المشبه بصم قانس ، وهو الطالع على بلد برطانية .

قال : والأندلس أندلسان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربي ، وأندلس شرقي ، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي ، ويُمطر بالرياح الغربية ، ومبتدأ<sup>١</sup> هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمريّة<sup>٢</sup> طالماً إلى حوز أغريطة المجاورة لطليطلة مائلاً إلى الغرب ومُجاوراً للبحر المتوسط الموازي لقرطاجنة الخلفاء التي من بلد لورقة<sup>٣</sup> ، والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى ، وتجري<sup>٤</sup> أوديته إلى الشرق ، وأمطاره بالرياح الشرقية ، وهو من حدّ جبل البشكنس<sup>٥</sup> ، هابطاً مع وادي إبره<sup>٦</sup> إلى بلد شنت مريّة<sup>٧</sup> ، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط ، وفي القبلة منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام ، وهو البحر المسمّى ببحر تيران<sup>٨</sup> ، ومعناه الذي يشق دائرة الأرض ، ويسمى البحر الكبير ، انتهى .

قال أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام<sup>٩</sup> : بلد الأندلس

١ ج : ومنتهى .

٢ شنتمريّة ( وتكتب أيضاً : شنت مريّة ) : يعرف هذا الاسم مدينتان شنتمريّة الغرب ( Santa Maria de Algarve ) وتسمى اليوم ( Faro ) وهي بالبرتغال والثانية شنتمريّة الشرق وهي السهيلة ( Albarracin ) الأولى وهي المقصودة هنا .

٣ قرطاجنة الخلفاء ( Carthagenna ) ( وكتبها في الروض المطار وطبعة ليدن : الخلفاء ) وهي فرضة مدينة مرسية . أما لورقة ( Lorca ) فهي من منطقة تدمير ، وقد تفتح راؤها .

٤ ق ط : ومجري . ه ك : البشكنش .

٦ إبره ( Ebro ) نهر ينبع من جبال كتنبورية ويشرق فيصب في البحر المتوسط ، ومن أشهر المدن عليه سرقطة وطرطوشة .

٧ المراد هنا شنتمريّة الشرق .

٨ تيران ( Terran ) = اختصار لكلمة ( Medi — Terran ) أو ( Mare Terrhenum ) أي يتوسط الأرض .

٩ ابن النظام : ترجم له ابن الأبار في التكملة : ٧٨٨ ولم يزد على قوله : « كان أديباً أخبارياً تاريخياً يحكي عنه ابن حيان في كتابه ، وهو من أهل قرطبة » .

عند علماء أهله أندلسان : فالأندلس الشرقي منه ما صَبَّتْ أوديته إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق ، وذلك ما بين مدينة تَدْمِير<sup>١</sup> إلى سَرَقِسطة ، والأندلس الغربي ما صَبَّتْ أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل ذلك<sup>٢</sup> الحدّ إلى ساحل المغرب ، فالشرقي منهما يُمَطَّرُ بالرياح الشرقية ، ويصلح عليها ، والغربي يُمَطَّرُ بالرياح الغربية وبها صلاحه ، وجباله هابطة إلى الغرب جَبَلًا بعد جبل . وإتّما قسمته الأوائل جزئين لاختلافهما في حال أمطارهما ، وذلك أنه مهما استحكمت الرياح الغربية كثر مطر الأندلس الغربي وقَحِطَ الأندلس الشرقي ، ومتى استحكمت الرياح الشرقية مُطِرَ<sup>٣</sup> الأندلس الشرقي وقَحِطَ الغربي ؛ وأودية هذا القسم تجري من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال . وجبال الأندلس الغربي تمتدّ إلى الشرق جبلاً بعد جبل تقطع من الجوف إلى القبلة ، والأودية التي تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها إلى القبلة وبعضها إلى الشرق ، وتنصبُّ كلّها إلى البحر المتوسط للأندلس<sup>٤</sup> القاطع إلى الشام ، وهو البحر الرومي ، وما كان من بلاد جوفي الأندلس من بلاد جَلِيقِيّة وما يليها فإن أوديته تنصبُّ إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف . وصفة الأندلس<sup>٥</sup> شكل مَرَكَن على مثال الشكل المثلث : ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس ، وركنها الثاني في بلد جَلِيقِيّة حيث الصنم المشبه صنم قادس مقابل جزيرة برطانية ، وركنها الثالث بين مدينة نُرْبُونَة ومدينة بُرْذِيل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البَحْرُ المحيط من البحر الشامي المتوسط ، فيكادان يجتمعان في ذلك الموضع ،

١ ط ق : جزيرة تدمير . . .

٢ ك : أسفل من ذلك .

٣ ك : كثر مطر .

٤ ك : المحيط بالأندلس .

٥ راجع هذا النص عند ابن عذاري ٢ : ١ ( ط . بيروت ) . والبكري : الورقة ٢١٩ .

فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما في الحقيقة ، لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب ، منه المدخلُ إلى الأرض الكبيرة التي يقال لها الأبواب ، ومن قبَله يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألسن المختلفة .

\* \* \*

### [ الأمم التي استوطنت الأندلس ]

قال ١ : وأول مَنْ سكن الأندلس ٢ على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون ٣ من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يُعرفون بالأندلس ٤ - معجمة الشين - بهم سُمِّي المكان ، فغرب فيما بعد بالسين غير المعجمة ، كانوا الذين عمَّروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهرًا ، على دين التمجس والإهمال والإفساد في الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم ، فحبس المطر عنهم ، ووالى القحطَ عليهم ، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها ، وغارت عيونها ، ويبست أنهارها ، وبادت أشجارها ، فهلك أكثرهم ، وفرَّ مَنْ قدر على الفرار منهم ، فأقفر الأندلس منهم ، وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة ٥ ، وذلك من حدِّ بلد الفرنجة إلى حدِّ بحر الغرب الأخضر ، وكان عدَّة ما عمرتها هذه الأمة البائدة مائة عام وبضع عشرة سنة . ثمَّ ابتعث الله لعمارتها الأفارقة ، فدخل إليها بعد إقفارها تلك المدة الطويلة قومٌ منهم أجلاهمُ ملك إفريقية

١ هذا يدل على أن النقل متصل عن ابن النظام ، ولكن ما جاء في هذه الفقرة لا يخرج في مجمله عما نقله الحميري عن الرازي (الروض : ٤ - ٥) إلا أن النص فيه مختصر . وانظر أيضاً ابن

عذاري ٢ : ١ .

٢ ك : بالأندلس .

٣ ط : نقلته الأخبار .

٤ عند البكري « الأندليش » و « الأندالش » أي (Vandali) .

٥ وبضع . . . سنة : سقطت من ق ط ج .

تخففاً منهم لإحمال توالى على أهل مملكته ، وتردد عليهم حتى كاد يفنيهم ، فحمل منهم خلقاً في السفن مع قائد من قبيله يدعى أبطريقس فأرسلوا بريف الأندلس الغربي ، واحتلوا بجزيرة قادمس ، فأصابوا الأندلس قد أمطرت وأخصبت ، فجرت أنهارها ، وانفجرت عيونها ، وحييت أشجارها ، فترلوا الأندلس مغتبتين ، وسكنوها معتمرين ، وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا في عمارة الأرض ما بين الساحل الذي أرسلوا فيه بغربها إلى بلد الإفرنجية من شريقها ، ونصبوا من أنفسهم ملوكاً عليهم ضبطوا أمرهم وتوالوا على إقامة دولتهم ، وهم - مع ذلك - على ديانة من قبلهم من الجاهلية ، وكانت دار مملكتهم طالقة الحراب اليوم من أرض إشبيلية اخترعها ملوكهم وسكنوها ، فاتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاماً إلى أن أهلكهم الله تعالى ، ونسخهم بعجم رومة ، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة في مدتهم تلك أحد عشر ملكاً . ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم إشبان بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية ، وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فأحيل بلسان العجم ، وقيل : بل كان مولده بأصبهان فغلب اسمها عليه ، وهو الذي بنى إشبيلية ، وكان إشبانية اسماً خالصاً لبلد إشبيلية الذي كان يتزله إشبان<sup>٢</sup> هذا ، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله ، فالعجم إلى الآن يسمونه إشبانية لأنار إشبان هذا فيه ، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا ، وكان غزاً الأفارقة عندما سلطه الله عليهم في جموعه ، ففض عساكرهم ، وأثنخ فيهم ، ونزل عليهم بقاعدتهم طالقة وقد تحصنوا فيها منه ، فابتنى عليهم مدينة إشبيلية اليوم ، واتصل حصره وقاتله لهم حتى فتحها

١ ق : إلى اشبان .

٢ لفظة إسبانيا ( Hispania ) أقدم اسم أطلق على شبه الجزيرة الأيبيرية ، وبعضهم يرده إلى أصل فينيقي معناه « ساحل الأرانب البرية » ثم قيل إن ذلك نسبة إلى اشبان ( Sphan ) وتحرفت الكلمة إلى أصبهان ، ومن صيغ الاسم أيضاً ( Hispalia ) وعرب إلى إشبيلية .

الله عليه ، وغلبيهم<sup>١</sup> ، واستوت له مملكة الأندلس بأمرها ، ودان له من<sup>٢</sup> فيها ، فهدم مدينة طالقة ، ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة إشبيلية ، فاستم بناءها ، واتخذها دار مملكته ، واستغلظ سلطانه في الأرض ، وكثرت جموعه ، فعلا وعظم عتوه ، ثم غزا إيليا - وهي القدس الشريف<sup>٣</sup> - من إشبيلية بعد سنتين من ملكه ، خرج إليها في السفن فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة ألف ، واسترق مائة ألف ، وانتقل<sup>٤</sup> رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس ، وقهر الأعداء ، واشتد سلطانه . انتهى .

وذكر بعض المؤرخين<sup>٥</sup> أن الغرائب التي أصيبت في مغامم الأندلس أيام فتحها ككائبة سليمان عليه الصلاة والسلام التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقلييلة الدر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر إنما كانت مما صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس ، إذ حضر فتحها مع بختنصر ، وكان اسم ذلك الملك بريان ، وفي سهمه وقع ذلك ومثله مما كانت الجن تأتي به نبي الله سليمان ، على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء<sup>٥</sup> الصلاة والسلام . انتهى .

وقال غير واحد من المؤرخين : كان أهل المغرب الأقصى يضرون بأهل الأندلس ، لاتصال الأرض ، ويلتقون منهم الجهد الجهد في كل وقت ، إلى أن اجتاز بهم الإسكندر ، فشكوا حالهم إليه ، فأحضر المهندسين ، وحضر إلى الزقاق ، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي ، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشيء يسير ، فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر

١ وغلبيهم : سقطت من ق ج ط .

٢ وهي . . . الشريف : سقطت من ق ج .

٣ ك : ونقل .

٤ انظر تضة النص عن الرازي في الروض المطار : ٥ وابن عذاري ٢ : ٢ - ٣ .

٥ ق : الأنبياء والمرسلين .

الشامي ، ونقلها من الحضيض إلى الأعلى ، ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الأندلس من الأرض ، فحُفرت حتى ظهرت الجبال السفلية ، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناء محكماً وجعل طوله اثني عشر ميلاً ، وهي المسافة التي كانت بين البحرين ، وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طنجة ، وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال ، فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم ، وأطلق فَمَ الماء بين الرصيفين ، فدخل في البحر الشامي ، ثم فاض ماؤه فأغرق مدناً كثيرة ، وأهلك أمماً عظيمة كانت على الشطين ، وطفأ الماء على الرصيفين إحدى عشرة قامة ، فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهوراً بيناً مستقيماً على خط واحد ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، وأما الرصيف الذي <sup>١</sup> من جهة العُدوة فإن الماء حمله في صدره ، واحتفر ما خلفه من الأرض اثني عشر ميلاً ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسبته وطنجة ، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء ، وبين سبته والجزيرة الخضراء عرض البحر . انتهى ملخصاً ، وقد تكرر بعضه مع ما جلبناه ، والعذر بين لارتباط الكلام بعضه ببعض .

\* \* \*

### [ موقع الأندلس من الأقاليم ]

وقال ابن سعيد : ذكر الشريف أن لا حظاً لأرض الأندلس في الإقليم الثالث ، قال : ويمر بجزيرة الأندلس من الأقاليم الرابع<sup>٢</sup> على ساحلها الجنوبي وما قاربه من قرطبة وإشبيلية ومرسية وبلنسية ، ثم يمر على جزيرة صقلية وعلى ما في سميتها من الجزائر ، والشمس مدبرة له .

١ الذي : سقطت من ق ط ج .

٢ ك : الإقليم الرابع .



والإقليم الخامس يمر على طليطلة وسرقسطة وما في سمتهما إلى بلاد أرغون التي في جنوبها برشلونة. ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبرته الزهرة .

والسادس يمر على ساحل الأندلس الشمالي الذي على البحر المحيط وما قاربه وبعض البلاد الداخلة في قشتالة وبرتغال وما في سمتهما ، وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ، ومدبره عطارد .

ويعر الإقليم السابع في البحر المحيط الذي في شمالي الأندلس إلى جزيرة انقلطرة<sup>١</sup> وغيرها من الجزائر وما في سمتهما من بلاد الصقالبة وبرجان . قال البيهقي : وفيه تقع جزيرة تولى وجزيرتا أجيال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة<sup>٢</sup> في الشمال والبلغار ، ومدبره القمر ، انتهى .

وقال بعض العلماء : إن النصارى حرموا الجنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا بستاناً متصلاً من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية ، وعندهم عموم شاه بلوط والبندق والجوز والفسق وغير ذلك مما يكون أكثر وأمكن في الأقاليم الباردة ، والتمر عندهم معدوم ، وكذا الموز وقصب السكر ، وربما يكون شيء من ذلك في الساحل ، لأن هواء البحر يدفئ ، انتهى .

\* \* \*

[ رجع إلى الأمم التي استوطنتها ]

قال ابن حيان في المقتبس<sup>٣</sup> : ذكر رواية العجم أن الخضر عليه السلام وقف بإشبان<sup>٤</sup> المذكور وهو يحرث الأرض بفدُن له أيام حرثته ، فقال له :

١ ك ق ط : انقلطرة ؛ ج : القنطرة ، ويبدو أن « أنقلطرة » هي الصورة الشائعة للاسم .

٢ الداخلة : سقطت من ك .

٣ انظر الروض المطار : ه .

٤ ك : على اشبان .

يا إشبان ، إنك لذو شان ، وسوف يحظيك زمان ، ويعليك سلطان ، فإذا أنت غلبت على إيليا فارتق بذرية الأنبياء ، فقال له إشبان : أساخر<sup>١</sup> رحمك الله ؟ أتى يكون هذا مني وأنا ضعيف ممتهن حقيير فقير ليس مثلي ينال السلطان ؟ فقال له : قد قدر ذلك فيك من قدر في عصاك اليابسة ما تراه ، فنظر إشبان إلى عصاه ، فإذا بها قد أورقت ، فريع لما رأى من الآية ، وذهب الخضر عنه ، وقد وقع الكلام بحلده ، ووقرت في نفسه الثقة بكونه ، فترك الامتهان من وقته ، وداخل الناس ، وصحب أهل البأس منهم ، وسما به جدّه فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيماً ، وكان منه ما كان . ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله ، وكان ملكه كلّه عشرين سنة ، وتمادى ملك الإشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً .

ثم دخل على هؤلاء الإشبانيين<sup>٢</sup> من عجم رومة أمة يدعون البشولقات<sup>٣</sup> ، وملكهم طلوش<sup>٤</sup> بن بيطه ، وذلك زمن بعث المسيح بن مريم عليه السلام ، أتوا الأندلس من قبيل رومة ، وكانوا يملكون إفرنجة معها ، ويبعثون عمالم إليها ، فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة ماردة<sup>٥</sup> ، واستولوا على مملكة الأندلس ، واتصل ملكهم بها مدة إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً .

ثم دخل على هؤلاء البشولقات أمة القوط مع ملك لهم ، فغلبوا على الأندلس ، واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة ، وتفردوا بسلطانهم ، واتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم ، وأقروا بها سرير ملكهم ، فبقي بإشبيلية عكّم الإشبانيين ورياسة أوليتهم .

وقد كان عيسى المسيح<sup>٥</sup> عليه السلام ، بعث الخوآريين في الأرض يدعون

١ ك : أساخر بي .

٢ ط ق ج : الإشبان .

٣ في الروض : البشونقات ، وفي ابن عذاري : البشولقات ؛ وفي ط : البشونقات .

٤ ج : طلوش .

٥ ق : عيسى بن مريم ؛ ج : المسيح عيسى .

الخلق إلى ديانتهم ، فاختلف الناس عليهم ، وقتلوا بعضهم ، واستجاب لهم كثير منهم ، وكان من أسرعهم لإجابة لمن جاءه من هؤلاء<sup>١</sup> الحواريين خشندهش<sup>٢</sup> ملك القوط ، فتنصر ، ودعا قومه إلى النصرانية ، وكان من صميم أعاضهم وخير من تنصر من ملوكهم ، وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم أحد له منه حكماً ، ولا أرشداً رايماً ، ولا أحسن سيرة ، ولا أجود تدبيراً ، فكان الذي أصل النصرانية في مملكته ، ومضى أهلها على سنته إلى اليوم ، وحكموا بها ، والإنجيليات في المصاحف<sup>٣</sup> الأربعة التي يختلفون فيها من انتساخه وجمعه وتثقيفه ، فتناسقت ملوك القوط بالأندلس بعده إلى أن غلبتهم العرب عليها ، وأظهر الله تعالى دين الإسلام على جميع الأديان .

فوقع في تواريخ العجم القديمة أن عدة ملوك هؤلاء القوط بالأندلس من عهد أتناووينوس الذي ملك في السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصري لمضي أربعمائة وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم إلى عهد لُدْرِيْقٍ آخرهم الذي ملك في السنة التاسعة والأربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر ، وهو الذي دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط ، ستة وثلاثون ملكاً ، وأن مدة أيام ملكهم<sup>٤</sup> بالأندلس ثلاثمائة واثنان وأربعون سنة ، انتهى .

وقال جماعة : إن القوط غير البشتولقات ، وإن البشتولقات من عجم رومة ، وإنهم جعلوا دار ملكهم ماردة ، واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً ، ثم دخل عليهم القوط ، واتخذوا طَلَسِيْطَلَّةَ دار مملكة ، ثم ذكر تنصر ملكهم خشندهش مثل ما تقدم ، ثم ذكر أن عدة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكاً .

١ هؤلاء : سقطت من ق .

٢ الروض المطار : دخشوش ، وفي بعض أصوله « خنشوش » ؛ وفي ابن عذاري : وخشندهش .

٣ الروض : والمصاحف .

٤ ق : مدة ملكهم .

وذكر الرازي أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح ، وقيل غير ذلك ، انتهى .

• • •

### [ مناخها وخيراتها ]

وقال<sup>١</sup> الرازي في موضع آخر نحو ما تقدم وزيادة ، ونصّه : أن الأندلس في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة<sup>٢</sup> التي هي رُبْع معمور الدنيا فهي موسطة من البلدان ، كريمة البقعة ، بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مخصبة القاعة ، منبجسة العيون الشّرار ، منفجرة بالأهوار<sup>٣</sup> الغزار ، قليلة الهوامّ ذوات السموم ، معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قَبْظُها زيادة منكرة تضر بالأبدان وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسّط من الحال ، وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم ، لأن الساحل ونواحيه يبادر بباكوره ، كما أن الثغر وجهاته والجبال التي يخصّها برد الهواء وكثافة الجوّ تستأخر بما فيها من ذلك ، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان ، فمادة الخيرات فيها متصلة كلّ أوان . ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجليد المقدم على أجناسه في الطيب والصبر على النار ، وبها شجر المحلب المعدود في الأفاويه المقدم في أنواع الأشنان كثير واسع ، وقد زعموا أنّه لا يكون إلا بالهند وبها فقط ، ولها خواص نباتية يكثر تعدادها ، انتهى .

وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال<sup>٤</sup> : يوجد في ناحية دلّاية من إقليم

١ ك : وذكر .

٢ زاد بعد لفظة السبعة في ك : التي تقدم ذكرها .

٣ ك : الأهوار .

٤ ورد كثير من هذا النص في كتاب عنوانه « ذكر بلاد الأندلس » لمؤلف مجهول ، وهو بالجزانة العامة بالرباط رقم ( ج : ٨٥ ) وسنعارض به النص الذي جاء في النسخ متخذين رمزه ( مخطوط الرباط ) والنص يشغل الصفحات ٧ - ١٠ ؛ وانظر أيضاً الإحاطة ١ : ١٠٤ - ١٠٥ فهناك تشابه بين النصين .

البشرة<sup>١</sup> عود الألسنجوج ، لا يفوقه العود الهندي ذكاء وعطر رائحة ، وقد سبق منه إلى خيران الصقلي صاحب المريّة<sup>٢</sup> ، وأن أصل منبته كان بين أحجار هنالك ، وبأكشونبة<sup>٣</sup> جبل<sup>٤</sup> كثيراً ما يتضوع ، ريحُه ريح العود الذكي إذا أرسلت فيه النار ، ويبحر شدونة<sup>٥</sup> يوجد العنبر الطيب الغربي ، وفي جبل مننت ليون<sup>٦</sup> المحلب ، ويوجد بالأندلس القسط الطيب ، والسنبل الطيب ، والجنطيانة تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق ، وهو عقار رفيع<sup>٧</sup> ، والمر الطيب بقلعة أيوب<sup>٨</sup> ، وأطيب كهرباء الأرض<sup>٩</sup> بشذونة ، درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة ، وأطيب القرمز قرمز الأندلس ، وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولبلّة وشذونة وبلتسية ، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق ، وبناحية

- ١ دلابة (Dalias) : من عمل المريّة ؛ والبشرة أو البشرات أو البشارت (Alpujarras) هي منطقة جبال سيرانفادا ، وفي مخطوط الرباط « من كورة تدمير » والتحديد واحد وإن اختلفت التسمية ، فتدمير هو الاسم القديم لكورة مرسية (Murcia) .
- ٢ خيران الصقلي من أوائل الفتيان الذين أعلنوا استقلالهم بعد انهيار الدولة الأموية بالأندلس على أثر الفتنة البربرية (٣٩٩) واتخذ المريّة مركزاً له . راجع أعمال الأعلام : ٢١٠ - ٢١٥ .
- ٣ أكشونبة - بالباء الموحدة بعد النون - (Ocsonoba) (كتبت في ك ق ط أكشونبة حيثما وقعت) : مدينة وكورة تتصل بأحواز الإشبونة وتحتل الركن الغربي الجنوبي من شبه الجزيرة ، ولها عدة حصون وأقاليم وأشهر مدنها شلب .
- ٤ مخطوط الرباط : يعرف بجبل الخفة (أو الخنة) .
- ٥ شذونة (Medina Sidonia) : كورة متصلة بكورة مورور ، زلها جند فلسطين من العرب ، وهي في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة إلى الشمال الغربي من الجزيرة الخضراء .
- ٦ مخطوط الرباط : منتلون (Mentleon) وتتمة النص : المحلب الذي لا يعدل به غيره .
- ٧ القسط (أو القسطس) عود هندي وعربي يتداوى به ، والهندي غليظ أسود مر المذاق والعربي أبيض خفيف قوي الرائحة ؛ والسنبل هو سنبل الطيب ويسمى أيضاً : المصافير ، وقال ابن الحشاش : والرومي منه غير محقق بالمغرب . والجنطيانة - ويكتب بالألف بدل الهاء - نبات لا يوجد بالمغرب إلا بجمال غرناطة . وفي مخطوط الرباط : وهو عقار رفيع يوجد بلبلّة ؛ وزاد فيه : « والبرباريس العجيب يوجد بنواحي المنتلون » .
- ٨ قلعة أيوب (Caltayud) وهي بقرب مدينة سالم وبينها وبين دروكة ثمانية عشر ميلاً .
- ٩ كهرباء الأرض : مادة صمغية توجد عند سواحل البحر بالأندلس ، وخاصة عند أصول الدوم ، والنوع الأندلسي منها أصغر وأصلب من المشرقي ، وتدخل في تحضير بعض أنواع الأدوية .

لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد ، وقد يوجد في غيرها ، وعلى مقربة من حصن لورقة<sup>١</sup> من عمل قرطبة معدن البلور ، وقد يوجد بجبل شحيران وهو شرقي ييره ، والحجر البجادي<sup>٢</sup> يوجد بناحية مدينة الأشبونة في جبل هنالك يتلأأ فيه ليلاً كالسراج ، والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن منت ميور<sup>٣</sup> من كورة مالقة إلا أنه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره ، ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية بجانة<sup>٤</sup> في خندق يعرف بقرية ناشرة<sup>٥</sup> أشكالاً مختلفة كأنه مصبوغ ، حسن اللون ، صبور على النار ، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تدمير ، وحجر الشاذنة بجبال قرطبة كثير ، ويستعمل في ذلك التذهيب<sup>٦</sup> ، وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت<sup>٧</sup> ، وهو أنفع شيء للحصاة ، وحجر المرقشيثا<sup>٨</sup> الذهبية في جبال أبدة<sup>٩</sup> لا نظير لها في الدنيا ، ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها ، والمغنيسيا بالأندلس كثير ، وكذلك حجر الطلق<sup>١٠</sup> ، ويوجد حجر اللؤلؤ بمسدينة برشلونة إلا أنه جامد اللون ، ويوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المرية<sup>١١</sup> ،

١ ك : حفرة لورقة .

٢ ك : حجر النجادي ، ط : النجاد ، وفي دوزي : البجادي . وفي الجماهر : البيجاني .

٣ مخلوط الرباط : متيور .

٤ بجانة : مدينة كانت من أهم قرى أرش اليمن أي الإقليم الذي نزل عليه بنو سراج القضاة وكانوا يأخذون أرشه ، وهي قريبة من المرية بينهما ستة أميال ، وقال ابن سعيّد : محدثة بنيت في عهد بني أمية .

٥ مخلوط الرباط : في خندق بغربي قرية ناشر ، وأظنه أصوب .

٦ الشاذنة : حجر يستعمل في مداواة العين وخشونة الأجفان ، أما التذهيب فلم يلح لي معناها .

٧ حصن البونت (Alpuente) : شمال غربي بلنسية .

٨ المرقشيثا من المعادن الكبريتية (وتصحفت الكلمة في الأصول) .

٩ أبدة (Ubeda) : إلى الشمال الشرقي من بياسة ، بينهما سبعة أميال .

١٠ حجر الطلق : حجر يراق يتحلل إذا دق إلى طاقات صغار دقاق ويشبه الشب اليماني ، وإذا ألقى في النار لم يحترق ، ولذلك كانوا يطلون به المواضع التي قد تصيبها النار لكي لا تحترق .

١١ المرية (Almeria) : مدينة بنيت أيام عبد الرحمن الناصر ، وازدهرت في أيام المرابطين واشتهر فيها الرخاء ، وتقع على الساحل الشرقي إلى الجنوب الشرقي من بجانة .

أقل<sup>١</sup> ما لُقِّط منه في أقل من شهر نحو ثمانين ربعاً ، ومعادن الذهب بنهر لاردة يُجمع منه كثير ، ويجمع أيضاً في ساحل الأشبونة ، ومعادن الفضة في الأندلس كثيرة في كورة تدمير وجبال حمّة بجانة<sup>٢</sup> ، وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل ، وبأكشونة معدن القصدير لا نظير له يشبه الفضة ، وله معادن بناحية إفرنجة وليون ، ومعادن الزئبق في جبل البرانس ، ومن هنالك يتجهز به إلى الآفاق ، ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة ، ومعادن التوتيا الطبية بساحل البيرة بقرية تسمى بطرنة<sup>٣</sup> ، وهي أركى توتيا وأقواها في صبح النحاس ، وبجبال قرطبة توتيا ، وليست كالبطرية ، ومعادن الكحل المشبه بالأصفهاني بناحية مدينة طرطوشة<sup>٤</sup> يحمل منها إلى جميع البلاد ، ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى ، وما ذكرت هنا وإن تكرّر بعضه مع ما سبق أو يأتي فهو لجمع النظائر ، وما لم نذكره أكثر ، والله تعالى أعلم .

ومن خواص طليطلة : أن حنطتها لا تتغير ولا تتسوس على طول السنين ، يتوارثها الخلف عن السلف ، وزعفران طليطلة هو الذي يعم البلاد ويتجهز به الرفاق إلى الآفاق ، وكذلك الصبح السماوي ، انتهى .

وقال المسعودي في « مروج الذهب » بعد كلام ما نصّه : والعنبر كثير ببحر الأندلس ، يجهز إلى مصر وغيرها ، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال

١ أقل : سقطت من ج ط ك .

٢ جاء في الروض المطار : وبشرقي بجانة على ثلاثة أميال جبل شامخ فيه معادن غريبة وفيه الحمة العجيبة الشأن . . . الخ .

٣ البيرة ( Elvira ) كورة نزلها جند دمشق ، وكانت مدينة البيرة قريبة من غرناطة ، بينهما ستة أميال ؛ أما بطرنة فقد عدها ابن سعيد من قرى بلنسية ( المغرب ٢ : ٣٥٥ ) .

٤ طرطوشة ( Tortosa ) من مدن الثغر الأعلى ينسب إليها أبو الوليد الطرطوشي زليل الإسكندرية وصاحب « سراج الملوك » .

له شترين<sup>١</sup> وشدونة ، تبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهباً ، والأوقية بالبغدادي وتباع بمصر أوقيته بعشرة دنانير<sup>٢</sup> ، وهو غير جيد ، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء . وبالأندلس معدن عظيم للفضة ، ومعدن للزئبق ليس بالجيد يجهز إلى سائر بلاد<sup>٣</sup> الإسلام والكفر ، وكذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل . وأصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر ، والزعفران ، وكلها تُحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلا الزعفران والعنبر ، انتهى ، وهو وإن تكرر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة ، والله تعالى أعلم .

وذكر البعض أن في بعض بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة وهي : الرصاص من زحل ، والقصدير الأبيض من المشتري ، والحديد من قسم المريخ ، والذهب من قسم الشمس ، والنحاس من الزهرة ، والزئبق من عطارد ، والفضة من القمر .

\* \* \*

### [ الأندلسيون والأمم المجاورة ]

وذكر الكاتب إبراهيم بن القاسم القروي المعروف بالرقيق<sup>٥</sup> بلد

١ شترين ( Santarem ) مدينة معدودة في كورة باجة من منطقة الغرب أي البرتغال وتبعد ٦٧ كيلومتراً عن الاشبونة شمالاً .

٢ ك : بمشرين ديناراً .

٣ بلاد : سقطت من ط ق .

٤ بمض : سقطت من ك .

٥ الرقيق ، إبراهيم بن القاسم القروي : نسبة إلى القيروان ؛ مؤرخ أديب تولى الكتابة في الدولة الصنهاجية ، ثم رحل إلى مصر ٣٨٨ هـ من زيري بن باديس إلى الحاكم ، وقد أثنى عليه ابن خلدون في مقدمته بقوله : « مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلد » ( انظر الأعلام للزركلي ١ : ٥١ والمصادر في الحاشية ) .



الأندلس ، فقال : أهله أصحاب جهاد متصل يجاربون من أهل الشرك المحيطين بهم أمة يُدعون الجلالة يُتأخمون حوزهم ما بين غرب إلى شرق ، قوم لهم شدة ولهم جمال وحسن وجوه ، فأكثر رقيقتهم الموصوفين بالجمال والفراة منهم ليس بينهم وبينهم دَرَبٌ ، فالجرب متصلة بينهم ، ما لم تقع هدنة ؛ ويجاربون بالأفق الشرقي أمة يقال لهم الفرنجة هم أشد عليهم من جميع من يجاربونه من عدوهم ، إذ كانوا خلقاً عظيماً في بلاد كثيرة واسعة جليلة متصلة العمارة أهلة تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الخليقيين وأشدّ بأساً وأحدّ شوكة وأعظم أمداداً<sup>١</sup> ، وهذه الأمة يجاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة فيَسْبُوتهم ويبيعون رقيقتهم بأرض الأندلس ، فلهم هنالك<sup>٢</sup> كثرة ، وتخصيهم للفرنجة يهودُ ذمتهم الذين بأرضهم ، وفي ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خِصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد ، وقد تعلم الحِصاء قومٌ من المسلمين هناك ، فصاروا يخصون ويستحلّون المُثَلَّة .

\* \* \*

[ بحر المجاز ]

قال ابن سعيد : ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربي بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما<sup>٣</sup> زعموا ثمانية عشر ميلاً ، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سبّنة ، وهناك كانت القنطرة التي يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبرَ عليها من بر الأندلس إلى بر العدو ،

١ قارن هذا بقول ابن حوقل في الفرنجة : « غير أن الذي يلي المسلمين منهم ضعيفة شوكتهم ، قليلة عدتهم وعدتهم . . . والجلالة أحسن وأصدق محاسن وأقل طاعة وأشدّ بأساً وقوة وبسالة » .  
(صورة الأرض : ١٠٦) .

٢ ط : بذلك ؛ ج : لذلك .

٣ كما : زيادة من ك .

ويُعرف هذا الموضع بالزقاق ، وهو صعب المنجاز لأنه مجمع البحرين لا تزال الأمواج تتناول فيه والماء يدور ، وطول هذا الزقاق الذي عرضه ثمانية عشر ميلاً مضاعف ذلك إلى ميناء سبّنة ، ومن هناك يأخذ البحر في الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومُنْتَهَاهُ مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزائر . قال بعضهم : إنها ثمان وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة<sup>١</sup> وغيرهما ، انتهى ، وبعضه بالمعنى . وقال بعضهم<sup>٢</sup> عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سبّنة ، ما صورته : ثم يتسع كلما امتد حتى يصير إلى ما لا ذرع له ولا نهاية .

• • •

[ نبذة عن خراجها ]

وقال بعضهم : وكان مبلغ خراج الأندلس الذي كان يؤدي إلى ملوك بني أمية قديماً ثلاثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة قوانين ، وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم ، فكانوا يُعْطُونَ جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار ، وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤون أهليهم مائة ألف دينار ، ويدخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار ، انتهى .

وذكر غيره أن الجباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ألف ألف دينار في السنة ، وكانت قبل ذلك<sup>٣</sup> لا تزيد على ستمائة ألف ، حكاه ابن سعيد ، وقال : إن الأندلس مسيرة شهر مدن وعمائر .

• • •

١ ق ط ج : وجزيرة مالطة .

٢ ق ط : وقال غيره .

٣ ذلك : زيادة في ك .

[ خبر ابن خلدون عن الأمم التي استوطنتها ]

وقال قاضي القضاة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير ، ما صورته <sup>١</sup> :  
كان هذا القطر الأندلسي من العُدوة الشمالية من عُدوتي البحر الرومي  
وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الأندلوش ، وتسكنه أمم من إفرنجة  
المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة ، وكان القُوطُ قد تملكوه وغلبوا على أهله  
لمئين من السنين قبل الإسلام ، بعد جروب كانت لهم مع اللطيين حاصروا فيها  
رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط إلى الأندلس ، فصاروا إليها  
وملكوها . ولما أخذ الروم والبطينيون بملة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب  
من أمم الفرنجة والقُوطِ عليها فدانوا بها ، وكان ملوك <sup>٢</sup> القوط يتزلون طليطلة ،  
وكانت دار ملكهم ، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة وإشبيلية وماردة ، وأقاموا  
كذلك نحواً من أربعمئة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح ، وكان ملكهم لذلك  
العهد يسمى لُدْرِيْق ، وهو سِمَة للموكلهم ، كما هو جرجير <sup>٣</sup> سِمَة للموكل صقلية ،  
انتهى .

\* \* \*

[ شيء عن غرناطة وأعمالها ]

ومن أشهر بلاد الأندلس غرناطة ، وقيل : إن الصواب أغرناطة  
— بالهمز — ومعناه بلغتهم الرُّمَّانة ، وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها .  
وقال الشقندي <sup>٤</sup> : أما غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح

١ انظر العبر ٤ : ١١٦ - ١١٧ .

٢ ملوك : سقطت من ق .

٣ جرجير : ( Gregorius ) ؛ وفيك : كما أن جرجير .

٤ الشقندي أبو الوليد اسماعيل بن محمد ( - ٦٢٩ ) صاحب كتاب الطرف ورسالة مشهورة في  
تفضيل الأندلس على بر العدة ، عارض بها أبا يحيى زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن ، وقد  
احتفظ بها المقرئ في الفتح في الباب السابع من القسم الأول ، وهذا النص منها مأخوذ على سبيل =

الأبصار ، ومطمح الأنفس ، ولم تخلُ من أشرف أمثال ، وعلماء أكابر ،  
وشعراء أفاضل ، انتهى ؛ ولو لم يكن لها إلا ما خصَّها الله تعالى به من المَرَج  
الطويل العريض ونهر شَنِيل لكفاها .

وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته : وما لمصر تفخر بنيها وألف منه  
في شَنِيلها ؟ يعني أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف ، فقولنا شَنِيل إذا  
اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل ، انتهى ؛ وفيها قيل :

غَرَناطَة ما لها نَظيرٌ ما مصرٌ ما الشام ما العراق ؟  
ما هي إلا العروسُ تُجلى وتلك من جُمَّلةِ الصِّداقِ

وتسمى كورة إلبيرة التي منها غَرَناطَة ، دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها  
عند الفتح ، وقيل : إنما سُميت بذلك لشبهها بدمشق في غَزارة الأنهار ، وكثرة  
الأشجار ، حكاها صاحب مناهج الفكر<sup>٢</sup> ، قال : ولما استولى الفرنج على معظم  
بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها فصارت المصِر المقصود ، والمعقل الذي تَنصُوي  
إليه العساكر والجنود . وبشَقَّها نهر عليه قناطر يُجازُ عليها ، وفي قبليها  
جبل شَلير<sup>٣</sup> ، وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفاً وشتاء ، وفيه سائر النبات  
الهندي ، لكن ليس فيه خصائصه ، انتهى .

ومن أعمال غرناطَة قطر لَوْشَة<sup>٤</sup> ، وبها معدن للفضة جيد ، ومنها ، أعني  
لَوْشَة ، أصل لسان الدين بن الخطيب . وهذا القطر ضخم ينضاف إليه من الحصون

- = الاختصار . ( انظر ترجمة الشقندي في المغرب ١ : ٢١٣ ) .
- ١ شَنِيل ( أو سنجيل ) هو نهر غرناطَة ، كما سيأتي بعد سطور ، وهو يصب في نهر الوادي الكبير .
  - ٢ سنعرف به فيما يلي ص : ١٥٩ .
  - ٣ شَلير أو جبل الثلج هو ما يسمى سير انقادا ، وشَلير من اللاتينية ( Solaris ) أي الشمس ، لانعكاس أشعة الشمس على ثلوجه ، أما سير انقادا فتعني الجبال الثلجية .
  - ٤ لَوْشَة ( Loja ) على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً إلى الغرب من غرناطَة .

والقرى كثير ، وقاعدته لَوْشَة ، بينها وبين غرناطة مرحلة ، وهي ذات أنهار<sup>١</sup>  
وأشجار ، وهي على نهر غرناطة الشهير بشَيْبِل .

ومن أعمال غرناطة الكبار عمل باغُه<sup>٢</sup> ، والعامه يقولون بيغُه ، وإذا  
نسبوا إليه قالوا بيني ، وقاعدته باغه طيبة الزرع ، كثيرة الثمار ، غزيرة المياه ،  
ويجود فيها الزعفران .

ومن أعمال غرناطة وادي آش<sup>٣</sup> ، ويقال : وادي الأشات . وهي مدينة  
جلييلة قد أهدقت بها البساتين والأنهار ، وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر ،  
وفيها يقول أبو الحسن بن نزار<sup>٤</sup> :

وادي الأشات يبيحُ وجدي كلما      أذكرتُ ما قضتُ بك النعماء  
لله ظلكَ والمجيرُ مُسلطُ      قد بردتَ لفحاته الأنداء  
والشمسُ ترغبُ أن تفوزَ بلحظة      منه فطرفُ طرفها الأفياء  
والنهرُ يبسمُ بالحباب كأنه      سلخُ نصته حية رقشاء  
فلذاك تحذره الغصونُ فميلها      أبدأ على جنباته إيماء

ومن أعمال وادي آش حصن جليانة ، وهو كبير يُضاهي المدن ، وبه  
التفاح الجلياني الذي خص الله به ذلك الموضع<sup>٥</sup> ، يتجمع عظم الحجم وكرم  
الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء ، وبين الحصن المذكور ووادي

١ أنهار : سقطت من ج .

٢ باغُه ( Priego ) بلدة تقع إلى الشمال من لوشة في ولاية جيان .

٣ وادي آش ( أو وادي الأشات Guadix ) تقع على نهر ينحدر من جبل شلير عند السفح الشمالي  
لجبل الثلج ( سيرانقادا ) ، قريباً من غرناطة على بعد ٥٣ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي منها .

٤ سترجم له المقرئ ، وله موشحة في المغرب ٢ : ١٤٧ ، ويقول فيه ابن سعيد : حبيب وادي  
آش ( ٢ : ٢٦٤ ) .

٥ ك : أفضت .

٦ المغرب ٢ : ١٤٨ خصه ( أي حصن جليانة Juliana ) الله بالتفاح الذي يضرب به المثل في  
الأندلس ؛ وذكر ابن سعيد أن بني البراق كانوا أعيان هذا الحصن .

آش اثنا عشر ميلاً .

ومن غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القسطل ، وهما عظيमतان جدّاً إحداهما بسند وادي آش<sup>١</sup> والأخرى ببشرة غرناطة ، في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب ، وهذا أمر مشهور قاله أبو عبد الله بن جزّي وغيره . وكانت إلبيرة هي المدينة قبل غرناطة ، فلما بنى الصنهاجي<sup>٢</sup> مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس إليها ، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بعده .

\* \* \*

[ شهرة سرقسطة وبرجة ومالقة وأشبونة ]

وذكر غير واحد<sup>٣</sup> أن في كورة سرقسطة الملح الأندراني الأبيض الصافي الأملس الخالص ، وليس في الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح . قال : وسرقسطة بناها قيصر ملك رومة الذي تؤرخ من مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبيتنا وعليه وعلى سائر الأنبياء<sup>٤</sup> الصلاة والسلام ، وتفسير اسمها قصر السيد ، لأنه اختار ذلك المكان بالأندلس . وقيل : إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر جليق بسرقسطة فاستعذبه ، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه ، وسأل عن اسمه ، فقيل : جليق ، ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبّهها بغوطة جليق الشام ، وقيل : لأنها من بناء الإسكندر ، والله أعلم .

وبمدينة برجة<sup>٥</sup> - وهي من أعمال المرية - معدن الرصاص ، وهي على واد مبهج يُعرف بوادي عذراء ، وهو محقق بالأزهار والأشجار ، وتسمى

١ هذا السند يسمى اليوم ( Marquizado del Zenete ) .

٢ يعني حبوس بن ماكسن الصنهاجي ، عندما استقل بالأمر بعيد سقوط الدولة الأموية .

٣ انظر مثلاً المتقى من فرحة الأنفس : ٢٨٨ ، والروض : ٩٧ .

٤ وعلى . . . الأنبياء : سقطت من ق ط ج .

٥ برجة : ( Berja ) تقع غربي المرية على مقربة من ساحل البحر .

برجة : « بهجة » لهجة منظرها ، وفيها يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني ،  
رحمه الله تعالى ١ :

رياضٌ تعشقها سندس      توشت معافطها بالزهر  
مدامعها فوق خدي ربي      لها نضرة فنتت من نظر  
وكلُّ مكان بها جنة      وكلُّ طريق إليها سقر

وفيها أيضاً قوله :

حطَّ الرحالَ ببرجة      وارْتَدَّ لنفسك بهجة  
في قلعة كسلاح      ودوحة مثل لجة  
فحصنُها لك أمنٌ      وروضُها لك فرجة  
كلُّ البلادِ سواها      كعمرة وهي حجة

وبالقة التين الذي يضرب المثل بحسنه ، ويُجلب حتى للهند والصين ،  
وقيل : إنه ليس في الدنيا مثله ، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي  
المالقي حسبما أنشده غير واحد منهم ابن سعيد ٢ :

مالقة حبيبت يا تينها      الفلُّكُ من أجلك ياتينها  
نمى طيبى عنه في عيتي      ما لطيبى عن حياتي نمى

وذيل عليه الإمام الخطيب أبو محمد عبد الوهاب المنشي بقوله :

وحِمْصٌ لا تَنسَ لها تينها      واذكر مع التين زياتينها

١ أبو الفضل جعفر بن شرف هو ابن الشاعر القيرواني أبي عبد الله ابن شرف المهاجر إلى الأندلس ،  
وقد ولد في برجة وقيل بل دخل به أبوه الأندلس صغيراً ، ( ترجمته في الذخيرة ٣ : ٢٧٦  
والقلائد : ٢٥٢ والصلة : ١٣١ والمغرب ٢ : ٢٣٠ ) .  
٢ في الروض : ١٧٩ أن الطلبة خرجوا للقاء أبي محمد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري لما  
ولي القضاء بمالقة ، فأنشدهم هذين البيتين ، وانظر رحلة ابن بطوطة : ٦٦٩ حيث نسجما  
للخطيب أبي محمد عبد الوهاب بن علي المالقي ، أما ابن عبد الملك فهو مؤلف الذيل والتكملة .

وفي بعض النسخ :

لا تنسَ لاشبيليةَ تينها<sup>١</sup> واذكر مع التين زياتينها

وهو نحو الأول ، لأن حمص هي إشبيلية ، لتزول أهل حمص من المشرق بها ، حسبما سذكروه .

ونسب ابن جزّي في ترتيبه لرحلة ابن بطّوطة البيتين الأولين للخطيب أبي محمد عبد الوهاب المالقي ، والتذييل لقاضي الجماعة أبي عبد الله بن عبد الملك ، فالله أعلم .

وقال ابن بطوطة<sup>٢</sup> : وبما لقة يصنع الفخّار المذهب العجيب ، ويُجلب منها إلى أقاصي البلاد ، ومسجدها كبير الساحة ، شهير البركة<sup>٣</sup> ، وصحنه لا نظير له في الحسن ، وفيه أشجار النارج البديعة ، انتهى .

وقال قبله<sup>٤</sup> : إن مالقة إحدى قواعد الأندلس ، وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه ، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرتال بدرهم صغير ، ورُمانها المرسيّ الياقوتي لا نظير له في الدنيا ، وأما التين واللوز فيُجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب ، انتهى .

وبكورة أشبونة المتصلة بشنترين معدن التبر ، وفيها عسل يجعل في كيس كتان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر ، ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبهه إلا الشحري .

\* \* \*

١ ق ج ط : ولا تنس تين إشبيلية .

٢ الرحلة : ٦٧٠ .

٣ ك : كثير البركة شهرها .

٤ الرحلة : ٦٦٩ .



## [ نبذة عن قرطبة وشهرتها ]

ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة - أعادها الله تعالى للإسلام -  
وبها الجامع المشهور ، والقنطرة المعروفة بالجسر .  
وقد ذكر ابن حيّان أنّه بنى على أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ،  
ونصه ، وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الأكبر الذي  
ما يُعرف في الدنيا مثله ، انتهى .  
وفيها يقول بعض علماء الأندلس<sup>١</sup> :

بأربعٍ فاقتِ الأمصارَ قرطُبةٌ<sup>٢</sup> منهنّ قنطرةُ الوادي ، وجامعُها  
هاتان ثنتان ، والزهراءُ ثالثة ، والعلمُ أعظمُ شيء ، وهُو رابعُها

وقال الحجاري في « المسهب » : كانت قرطبة في الدولة الروانية قبة  
الإسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقرّ سرير الخلافة الروانية ، وفيها تمحضت  
خلاصة القبائل المديّة واليمانية ، وإليها كانت الرّحلة في الرواية إذ كانت  
مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهي من الأندلس بمتزلة الرأس من الجسد ،  
ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنفٌ بديباج المروج مطرز بالأزهار ، تصدّح  
في جنباته الأطيّار ، وتنعر النواعير ويبسم الثّوار ، وقرطاهها الزاهرة والزهراء ،  
حاضرتنا الملك وأفقا النعماء والسراء . وإن كان قد أحنى عليها الزمان ، وغير  
بهجة أوجهها الحسان ، فتلك عادته وسلّ الخوّرتيّ والسّديرَ وغُمدان ،  
وقد أعذر بإنذاره إذ لم يزل ينادي بصرُوفه : لا أمان لا أمان ، وقد قال الشاعر :

وما زلتُ أسمعُ أنَ الملو ك تَبني على قدر أخطارها  
انتهى .

١ سيورد المقرئ البيتين في الباب الرابع وينسبهما إلى أبي محمد بن عطية المحاربي .

وقال السلطان يعقوب المنصور<sup>١</sup> ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي لأحد رؤساء أجنادها : ما تقول في قرطبة ؟ فخطبه علي ما يقتضيه كلامُ عامة الأندلس بقوله : جوفُها شِمَام ، وغربُها قُمَام ، وقبلتها مُدَام ، والجنَّة هي والسلام .

يعني بالشِّمَام جبال الورد ، ويعني بالقمام ما يؤكل إشارة إلى محرث الكنباينة<sup>٢</sup> ، ويعني بالمدام النهر .

ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي<sup>٣</sup> : ما عندك في قرطبة ؟ قال له : ما كان لي أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها ، فقال السلطان : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرةً مملكتهم لعلّ بصيرة ، الديار المنفسحة الكثيرة<sup>٤</sup> ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة المشيدة ، والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج الناضر ، والمحرث العظيم ، والشعراء الكافية ، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها ، قال : فقلت : ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول .

قال ابن سعيد : ولأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سِمة العلم والملك متوارثة فيهم ، إلا أن عامتها أكثر الناس فضولاً ، وأشدّهم تشغيلاً ، ويضرب

١ السلطان يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥) من أعظم خلفاء الموحدين ، كان جواداً شجاعاً كريماً عالماً . (انظر له ترجمة في وفيات الأعيان ٦ : ٤ وروض القرطاس : ١٦٠ ط . فاس) وأخباره في المعجب والبيان المغرب وغيرهما من المصادر التاريخية) .

٢ الكنباينة : قال فيها ياقوت : ناحية بالأندلس قرب قرطبة ، وهذا تعريف قاصر ، فإن الكنباينة هي الأراضي السهلة الزراعية أينما كانت ، وقد ذكر ابن الخطيب الكنباينة في الحديث عن غرناطة (١ : ١٠٢) وأصلها من الكلمة اللاتينية (Campania) أي الحقل أو المحرث كما يسميها الأندلسيون ، وتكتب أحياناً بالقاف . (انظر ملحق دوزي : قنباينة) .

٣ السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠) ثاني خلفاء الموحدين ؛ أما موسى بن سعيد فهو والد علي صاحب المغرب ، كان شغوفاً بالتاريخ وولي للموحدين بعض الأعمال وتوفي بالإسكندرية (٥٧٣) . راجع المغرب ٢ : ١٧٠ .

٤ ك : الكبيرة .

بهم المثل ما بين أهل<sup>١</sup> الأندلس في القيام على الملوك ، والتشجيع على الولاة ،  
وقلة الرضا بأمورهم ، حتى إن السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل  
له لما انفصل عن ولايتها : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال : مثل الحمل ،  
إن خفت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته صاح ، ما ندري أين رضاهم فنقصده ،  
ولا أين سخطهم فنجتنبه ، وما سلط الله عليهم حجّاج الفتنة حتى كان عامتها  
شراً من عامة العراق ، وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية ، وإنّي  
إن كلّفت العود إليها لقائل : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، انتهى .

وقال أبو الفضل التيفاشي : جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور  
يعقوب بين الفقيه أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر ، فقال ابن رشد  
لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية  
فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة  
فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية ، قال : وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً ، انتهى .

وحكى الإمام ابن بشكّو<sup>٢</sup> عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة  
طلّسطة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي ، قال : فسألنا : من أين ؟  
فقلنا : من قرطبة ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال :  
اقربا إليّ أشمّ نسيم قرطبة ، فقربنا منه ، فشمّ رأسي وقبله ، وقال لي : اكتب :

أقرطبةُ الغراء هل لي أوبةٌ إليك ؟ وهل يدنو لنا ذلك العهدُ  
سقى الجانب الغربيّ منك غمامة وقعقع في ساحات دوحاتك الرعدُ  
لياليك أسحارٌ ، وأرضك روضةٌ ، وتربك في استنشاقتها عنبرٌ ورْدُ

وكتب الرئيس الكاتب أبو بكر بن القبطرنة للعالم أبي الحسين بن سراج بقوله<sup>٢</sup> :

١ أهل : زيادة من ك .

٢ أبو بكر بن القبطرنة ( ويكتب أيضاً القبطورنة ) أحد ثلاثة إخوة يعرفون ببني القبطورنة ، والاسم  
من ( Cap-torno ) ( أي الرأس المستدير ) وأبو بكر منهم هو عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز =

يا سيدي وأبي هوى وجلالة  
 عرج بقرطبة إذا بلغتها  
 وإذا سعدت بنظرة من وجهه  
 واذكر له شوقي وشكري مجملًا  
 بتحية تهدي إليه كأنما  
 ورَسُولُ وُدِّي إن طلبتُ رسولاً  
 بأبي الحسين وناده تمويلاً  
 أهد السلامَ لكفه تقبيلًا  
 ولو استطعتُ شرحتهُ تفصيلاً  
 جرّتُ على زهر الرياض ذُيولاً

وفي باب اليهود بقرطبة يقول أبو عامر بن شهيد ٢ :

لقد أطلعوا عند باب اليهود  
 تراه اليهودُ على بابها  
 د بديراً أبي الحسن أن يكسفا  
 أميراً فتحسبه يوسفًا

واستبحوا قولهم « باب اليهود » فقالوا « باب الهدى » ، وسنذكر قرطبة  
 والزهراء والزاهرة ومسجدها في الباب المنفرد بها إن شاء الله تعالى ، وكذلك  
 القنطرة .

\* \* \*

### [ إشبيلية وإقليمها ]

ومن أعظم مدن الأندلس إشبيلية — قال الشقندي : من محاسنها اعتدال

= البطليوسي كان كاتباً للمتوكل ابن الألفس صاحب بطليوس (وتوفي سنة ٥٢٠ هـ) وقد ترجم  
 له ولأخويه ابن بسم (الذخيرة القسم الثاني : ٢٨٩) والمغرب ١ : ٣٦٧ والقلائد : ١٤٨  
 والمطرب : ١٨٦ والإحاطة ١ : ٥٢٨ ، وسيرد له ذكر في النفع ؛ وهذه الأبيات الواردة هنا  
 في الذخيرة : ٢٩٣ والقلائد ١٥٢ . أما أبو الحسين بن سراج فهو سراج بن عبد الملك  
 ابن سراج كان والده من علماء اللغة في عصره ، ونشأ ابنه كذلك بقرطبة . (انظر ترجمته في  
 الذخيرة ١ - ٢ : ٣١٩ والقلائد : ١١٦ والمغرب ١ : ١١٦ والديباج المذهب : ١٢٦ وبغية  
 الرواة : ٢٥١) .

١ ناده تمويلاً : قل له « يا مولاي » .

٢ أبو عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك ( - ٤٢٦ ) من أكابر الشعراء بعيد الفتنة القرطبية وصاحب  
 التوايح والزوايح ، انظر دراسة عنه في تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة : ٢١٥  
 والمصادر المذكورة هناك ؛ وقد جمع ديوانه الأستاذ شارل بلا ؛ والبيتان في ديوانه : ١٠٠ .

الهواء ، وحسن المباني ، ونهرها الأعظم الذي يصعد المدّ فيه اثنين وسبعين ميلاً  
ثم يحسر ، وفيه يقول ابن سَفَرٍ<sup>١</sup> :

شَقَّ النَّسِيمُ عَلَيْهِ جَيْبَ قَمِيصِهِ فَانْسَابَ مِنْ شَطِيئِهِ يَطْلُبُ ثَارَهُ  
فَتَضَاحَكْتُ وَرُقُّ الْحَمَامِ بَدَوْحَهَا هَزُءًا فُضْمًا مِنَ الْحَيَاءِ لِزَارِهِ

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيهما رأيت أحسن ؟ أهدان أم إشبيلية ؟  
فقال بعد تفضيل إشبيلية : شَرَفُهَا غَابَةٌ بِلَا أَسَدٍ ، وَنَهْرُهَا نَيْلٌ بِلَا تَمْسَاحٍ ، انْتَهَى .  
ويقال : إن الذي بنى إشبيلية اسمه يوليش<sup>٢</sup> ، وإنه أول من سُمِّيَ قيصر ،  
وإنه لما دخل الأندلس أعجب بساحاتها وطيب أرضها وجبلها المعروف بالَشَرَفِ<sup>٣</sup>  
فردم على النهر الأعظم مكاناً ، وأقام فيه المدينة ، وأحرق عليها بأسوار من صخر  
صلد ، وبنى في وسط المدينة قصبين بديعتي الشأن تُعرفان بالأخوين ، وجعلها  
أمّ قواعد الأندلس ، واشتق لها اسماً من رومية ، ومن اسمه ، فسمّاها رومية  
يوليش ، انتهى .

وقد تقدّم شيء من هذا .

وكان الأوّلون من ملوك الأعاجم يتداولون بسكناهم أربعة<sup>٤</sup> من بلاد  
الأندلس : إشبيلية ، وقَرْطُبَة ، وقَرْمُونَة<sup>٥</sup> ، وطَلَيْطَلَة ، ويقسمون  
أزمانهم على الكَيْنُونَة بها .

١ ابن سفر : أبو عبد الله محمد بن سفر الأديب (ويكتب اسمه أيضاً بالصاد) وهو من ناحية  
الرية وسكن إشبيلية ، وسيترجم له المغربي . (انظر تحفة القادم : ١٠١ والوافي ٣ : ١١٤  
والمغرب ٢ : ٢١٢) . وبيته في التحفة . وفي ج : ابن سعيد .

٢ ق ك ط : تولىس ، ج : يولوس ؛ وهو يوليس قيصر (Julius Caesar) .

٣ سيأتي وصف « شرف إشبيلية » في النصوص التالية ، وانظر أيضاً الروض المطار : ١٩ .

٤ ك : أربعة بلاد .

٥ قرمونة (Carmona) مدينة إلى الشمال الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٥ كيلومتراً وكانت كورة  
واسعة تضم عدة مدن وحصون . (راجع الروض المطار : ١٥٨) .

وأما شَرْفٌ إشبيلية فهو شريف البقعة ، كريم التربة ، دائم الخضرة ،  
فرسخ في فرسخ طولاً وعرضاً ، لا تكاد تُشْمِس فيه بقعة لانتفاج زيتونه .  
واعلم أن إشبيلية لها كُورٌ جلييلة ، ومدن كثيرة ، وحصون شريفة ، وهي  
من الكُورِ المجندة ، نزلها جند حمص ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق .  
وانتهت جباية إشبيلية أيام الحكم بن هشام إلى خمسة وثلاثين ألف دينارٍ  
ومائة دينار .

وفي إقليم طالقة من أقاليم إشبيلية وُجدت صورة جارية من مرمر معها  
صبي ، وكأن حية تريده ، لم يُسمع في الأخبار ولا رُئي في الآثار صورة أبدع  
منها ، جعلت في بعض الحمامات وتعشّقها جماعة من العوام<sup>٢</sup> .  
وفي كورة ماردة<sup>٣</sup> حصنٌ شنت أفرج في غاية الارتفاع ، لا يعلوه طائر البتة  
لا نسر ولا غيره .

ومن عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش<sup>٤</sup> ، فإن  
طول كل جاتزة<sup>٥</sup> منه مائة شبر وأحد عشر شبراً ، وهي مربعة منحوتة مستوية  
الأطراف .

وقال بعض من وصف إشبيلية<sup>٦</sup> : إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير  
المعروف بنهر قرطبة ، وعليه جسر مربوط بالسفن ، وبها أسواق قائمة ،  
وتجارات رابحة ، وأهلها ذوو أموال عظيمة ، وأكثر متاجرهم الزيت ، وهو

١ إلى : سقطت من ق ط ج ، وكتب فيها « خمسة وثلاثون » .

٢ انظر الروض المطار : ١٢٢ في وصف طالقة ، ونصاً تفصيلاً عن الصورة المذكورة : ١٢٣ .

٣ ماردة : مدينة كبيرة بينها وبين بطليوس عشرون ميلاً ، قال الرازي : كانت قاعدة الأندلس  
وقرارة الملك ، بنيت في زمن قيصر اكتيبيان (Octavian) وهي على نهر آنة ، وفي عملها  
كثير من المدن ، وكان لها من القرى والحصون ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية كلها متصلة بعضها  
ببعض بالبروسات والأشجار والزيتون والنب (مخطوط الرباط : ٤٨) .

٤ اقليش : (Ucles) قاعدة كورة شنترية .

٥ الجاتزة : الخشبة التي تجمل خشب البيت ، أي الدعامة ، وفي اللسان « الجاتز » دون تاء التأنيث .

٦ انظر الروض المطار : ١٩ ومخطوط الرباط : ٥٣ .

يشتمل على كثير من إقليم الشَّرَف ، وإقليم الشرف على تل عالٍ من تراب أحمر مسافته أربعون ميلاً في مثلها ، يمشي بها السائر في ظل الزيتون والتين ، ولها - فيما ذكر بعض الناس - قُرَى كثيرة ، وكل قرية عامرة بالأسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق .

وقال صاحب مناهج الفكر<sup>٢</sup> ، عند ذكر إشبيلية : وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا ، وبأهلها يُضرب المثل في الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ، ويعينهم على ذلك واديها الفرج ، ونادياها البهج ، وهذا الوادي يأتيها من قرطبة ، ويجزر في كل يوم ، ولها جبل الشَّرَف ، وهو تراب أحمر طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلاً ، وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلاً ، يشتمل على مائتين وعشرين قرية ، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت ، انتهى .

• • •

### [ شهرة باجة وجبل طارق ]

ولكورة باجة<sup>٣</sup> من الكور الغربية التي كانت من أعمال إشبيلية أيام بني عباد خاصية في دباغة الأديم وصناعة الكتان ، وفيها معدن فضة ، وبها ولد المعتمد بن عباد ، وهي متصلة بكورة ماردة .

ولجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نصير ،

١ ك : به .

٢ هنالك كتاب باسم « مناهج الفكر ومناهج العبر » لمحمد بن عبد الله الأنصاري ، عاد فذكره حاجي خليفة باسم « مناهج الفكر » وقال إن الاسم الصحيح بالنون ، ومؤلفه جمال الدين محمد ابن إبراهيم الطواط (٧١٨-) ويقول الأستاذ خير الدين الزركلي إنه في الكيمياء والطبيعة وهو في ستة مجلدات ، قلت : وقد اطلعت على المجلدين الثالث والرابع منه بالخزانة العامة بالرباط وهما يشملان النبات والحيوان (وفي ك : مناهج الفكر) .

٣ باجة (Beja) في البرتغال وتقع على بعد ١٤٠ كيلومتراً جنوب شرقي الإشبونة وكانت تضم كورة واسعة .

إذ كان أول ما حل به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح ، ولذا شهير  
بجبل الفتح ، وهو مقابل الجزيرة الخضراء ، وقد تجوّن<sup>١</sup> البحر هنالك مستديراً  
حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء ، وفيه يقول مطرف  
شاعر غرناطة<sup>٢</sup> :

وأقوّدَ قد ألقى على البحر مَتنَهُ فأصبحَ عن قوْدِ الجبالِ بمعزِلِ<sup>٣</sup>  
يُعَرِّضُ نحو الأفقِ وجهاً كأنما تراقِبُ عيناه كواكبَ منزلِ

وإذا أقبل عليه المسافرون من جهة سبّته في البحر بان كأنه سرج ، قال  
أبو الحسن علي<sup>٤</sup> بن موسى بن سعيد : أقبلت عليه مرة مع والدي فنظرنا إليه  
على تلك الصفة ، فقال والدي<sup>٥</sup> : أجز :

انظر إلى جبل الفتّح ركباً متنّ لُجّ

فقلت :

وقد تفتّح مثل الـ أفنانِ في شكلِ سرج

وأما جزيرة طريف فليست بجزيرة ، وإنما سميت بذلك الجزيرة التي  
أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء ، وطريف المنسوبة إليه بربري<sup>٦</sup> من موالي  
موسى بن نصير ، ويقال : إن موسى بعثه قبل طارق في أربعمئة رجل ، فتزل  
بهذه الجزيرة في رمضان سنة إحدى وتسعين ، وبعده دخل طارق ، والله أعلم .

\* \* \*

- ١ ك : تجوف ؛ ق : تجوز ؛ ج : تجور .
- ٢ هو أبو الحسن مطرف بن مطرف ( - ٦٠٩ ) من أهل غرناطة ، قتل في وقعة « العقاب » . ( انظر المغرب ٢ : ١٢٠ وتحفة القادِم : ٩٨ والرايات : ٥٩ ) .
- ٣ الأقوّد : الطويل على الأرض ، وجمعه : قوّد ، وقد عني به الجبل .
- ٤ علي : سقطت من ق .
- ٥ والدي : سقطت من ق .



## [ كورة طليطلة وما تشهر به ]

ومن أعظم كور الأندلس كورة طُلَيْطَلَة<sup>١</sup> ، وهي من متوسط الأندلس ، وكانت دار مملكة بني ذي النون من ملوك الطوائف ، وكان ابتداء ملكهم صدرَ المائة الخامسة ، وسماها قيصر بلسانه بزليطة<sup>٢</sup> ، وتأويل ذلك : أنت فارح ، فعربتها العرب وقالت : طليطلة ، وكانوا يسمونها وجهاتها في دولة بني أمية بالثغر الأدنى ، ويسمون سَرَ قُسْطَة وجهاتها بالثغر الأعلى ، وتسمى طليطلة مدينة الأملاك لأنها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون إنساناً ، ودخلها سليمان بن داود ، عليهما السلام ، وعيسى بن مريم ، وذو القرنين ، وفيها وجد طارق مائدة سليمان ، وكانت من ذخائر اشبان ملك الروم الذي بنى لإشبيلية ، أخذها من بيت المقدس كما مر ، وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ، وقيل : إنها كانت من زمرد أخضر ، ويقال : إنها الآن برومة ، والله أعلم بذلك .

ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة<sup>٣</sup> ، منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، وإيوان ممتلئ من أواني الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل : إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماهم لوسعه ، وقد قيل : إن أواني المائدة من الذهب وصحافها من اليشم والجزع ، وذكروا فيها غير هذا ممّا لا يكاد يصدقه الناظر فيه .

وبطليطلة بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مريعة ،

١ طليطلة : ( Toledo ) كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طارق ، وهي مشرفة على ما يليها من الأندلس إلى الجنوب ، وكانت من أولى المدن التي انتزعت من يد العرب إذ استولى عليها الفوثن السادس عام ٤٧٨ وجر ذلك إلى معركة الزلاقة .

٢ تصحفت الكلمة هنا ؛ وصورتها الصحيحة «توليطة» وفي الروض المطار «تولاظو» قال : ومعناه : فرح ساكنوها ، وفي هذا إشارة إلى الأصل اللاتيني : ( Tu ledo ) بمعنى «أنت فارح» ، وفي ك ط وردت : بزليطة - برليطلة .

٣ قارن بما ورد في الروض المطار : ١٣١ .

وضياع بديعة ، وقلاع منيعة ، وبالجملة فمحاسنها كثيرة ، ولعلنا نلِمُّ ببعض  
متنزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وطليطلة قاعدة ملك القوطيين ، وهي مُطِلَّةٌ على نهر تاجه ، وعليه كانت  
القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قَوْسٍ واحدٍ تكنفه  
فرجتان<sup>١</sup> من كل جانب ، وطولُ القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعاً ،  
وخربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم ، واحتال في هدمها ،  
وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس<sup>٢</sup> :

أضحتْ طُلَيْطَلَةٌ مُعْطَلَةٌ      من أهلها في قبضة الصقر  
تُرَكَّتْ بلا أهلٍ توهلتها      مهجورة الأكثاف كالقبر  
ما كان يُبْقِي الله قنطرةً      نُصِبَتْ لحمل كتاب الكفر

وسياتي بعض أخبار طليطلة .

\* \* \*

[ مدينة المرية وما تشتهر به ]

ومن مشهور مدن الأندلس المَرِيَّةُ ، وهي على ساحل البحر ، ولها القلعة  
المنيعة المعروفة بقلعة خيران ، بناها عبد الرحمن الناصر ، وعظمت في دولة  
المنصور بن أبي عامر ، وولى عليها مولاة خيران ، فنُسبت القلعة إليه ، وبها  
من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد ، وفيها دار الصناعة ، وتشتمل  
كُورَتُها على معدن الحديد والرخام ، ومن أبوابها باب العُقَابِ عليه صورة

١ ك : فرجتان .

٢ عباس بن فرناس التاكرني حكيم الأندلس ، بربري الأصل من موالي بني أمية ، كان صاحب  
اختراعات وتوليدات ( توفي ٢٧٤ ) ، انظر ترجمته في الجذوة ٣٠٠ وبقية الملتص ( رقم :  
١٢٤٧ ) والمغرب ١ : ٣٣٣ . وله أخبار في المقتبس ( تحقيق مكِّي ) ؛ والأبيات فيه ص

٣٠٦ - ٣٠٧

عُقَاب من حجر قديم عجيب المنظر .

وقال بعضهم <sup>١</sup> : كان بالمريّة لنسج طُرُزُ الخزير ثمانمائة نَوَل ، وللحُكَلِ  
النفيسة والديباج الفاخر ألف نَوَل ، وللأسقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية  
كذلك ، وللأصفهانية مثل ذلك ، وللعنابي والمعاجر المدهشة والستور المكلفة .  
ويُصنَعُ بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف . وفاكهة  
المرية يقصر عنها الوصف حُسناً ، وساحلها أفضلُ السواحل ، وبها قصور الملوك  
القديمة الغربية العجيبة ، وقد ألف فيها أبو جعفر ابن خاتمة تاريخاً حافلاً سَمَّاهُ  
بـ « مزية المرية ، على غيرها من البلاد الأندلسية » <sup>٢</sup> في مجلد ضخم تركته من  
جملة كتبي بالمغرب ، والله سبحانه المسؤول في جمع الشمل ، فله الأمر من  
بعدُ ومن قَبْل .

ووادي المرية طوله أربعون ميلاً في مثلها كلها بساتين بهجة ، وجنات  
نضرة ، وأنهار مطردة ، وطيور مغردة .

قال بعضهم : ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالاً من أهل المرية ، ولا  
أعظم متاجر وذخائر ، وكان بها من الحمامات والقنادق نحو الألف ، وهي بين  
الجلين بينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبته المشهورة بالحصانة ،  
وعلى الآخر رَبَضُهَا ، والسور محيط بالمدينة والربض ، وغربيها رَبَضٌ لها آخر  
يسمى ربض الخوض ذو فنادق وحمامات وخنادق وصناعات ، وقد استدار بها  
من كل جهة حصون مرتفعة ، وأحجار أولية ، وكأنا غُربلت أرضها من  
التراب ، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار ، انتهى .

\* \* \*

١ انظر جانباً من هذه المعلومات في الروض المطار : ١٨٤ والمتقى من فرحة الأنفس : ٢٨٣ .  
٢ ذكره ابن الخطيب في الإحاطة ١ : ٩١ وصاحب نيل الأبتهاج : ٥١ والسخاوي ، ويبدو أنه  
من الكتب التي لا تزال مفقودة .

## [ شنرة وخواصها ]

وقال ابن اليسع ، عند ذكره مدينة شنرة<sup>١</sup> : إن من خواصها أن القمح والشعير يُزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوماً من زراعته ، وإن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر ، قال لي أبو عبد الله الباكوري ، وكان ثقة : أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلاً من أهل شنرة أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يُقلُّ الحاملُ على رأسه غيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار ، وذكر الرجل<sup>٢</sup> أن المعتاد عندهم أقل من هذا ، فإذا أرادوا أن يجيء بهذا العظم<sup>٣</sup> قطعوا أصلها وأبقوا منه عشرًا أو أقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب ، انتهى .

\* \* \*

## [ شنش وسهيل وتدمير ]

وبحصن شنش<sup>٤</sup> على مرحلة من المربة التوت الكثير ، وفيها الحرير والقرمز ، ويُعرف واديهما بوادي طبرنش .  
وبغربي مالقة عملُ سهيل ، وهو عمل عظيم كثير الضياع ، وفيه جبل سهيل لا يرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه .  
ومن كور الأندلس الشرقية تدمير ، وتسمى مصر أيضاً<sup>٥</sup> لكثرة شبهها بها ، لأن لها أرضاً يسبح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة ، ثم ينضب عنها ، فتزرع كما تزرع أرض مصر ، وصارت القصبه بعد تدمير مُرسية ، وتسمى البستان ، لكثرة جناها المحيطة بها ، ولها نهر يصب في قبليها .

\* \* \*

١ شنرة ( Centra ) في البرتغال من مدائن الأشبونة ( لشبونة ) إلى الشمال الشرقي منها ، على نهر تاجه ، وقد ردد السلفي الحديث عن تفاحها ( تراجم وأخبار أندلسية : ٤٠ ) .  
٢ زاد بعده في ك : بحضرة ابن عباد .  
٣ زاد في ك : وهذا القدر .  
٤ المغرب ٢ : ٢٢٥ .  
٥ أيضاً : زيادة من ك .

## [ أقاليم الأندلس وكور كل إقليم ]

واعلم أن جزيرة الأندلس - أعادها الله للإسلام - مشتملة على موسطة وشرق ، وغرب :

فالموسطة فيها من القواعد المصرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متسعة : قرطبة ، وطليلة ، وجيان ، وغرناطة ، والمريّة ، ومالقة ؛ فمن أعمال قرطبة إستجة<sup>١</sup> وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور وأسطبة وبيانة واليسانة والقصير<sup>٢</sup> وغيرها ، ومن أعمال طليلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة وغيرها<sup>٣</sup> ، ومن أعمال جيان أبدة<sup>٤</sup> وبياسة وقسطلة وغيرها<sup>٥</sup> ، ومن أعمال غرناطة وادي آش والمنكب<sup>٦</sup> ولوشة وغيرها ،

١ هذه التقسيمات هي التي أوردها ابن سعيد أيضاً في المغرب ولم يسقط المغربي منها سوى « كزنة ومراد » وسيمود إلى ذكرها في الباب الرابع ، وإلى تبيان المسافات بينها وبين قرطبة ؛ وللتعريف بها أقول : استجة (Ucija) على بعد ٥٦ ميلا جنوب قرطبة ؛ وبلكونة (Balcuna) مركز كورة باسمها وكانت في زمن ابن سعيد أهلة بالسكان ؛ وقبرة (Cabra) مركز كورة وتقع على بعد ثلاثين ميلا جنوب شرقي قرطبة ؛ ورندة (Ronda) من مدن تاكرنا على نهر ينسب إليها يصب في نهر لكة ؛ وغافق (Gafic) بغرب حصن بطروش ؛ والمدور (Almodavar) بينه وبين قرطبة ستة عشر ميلا ؛ واسطبة (أو استبة) (Estepa) بينها وبين قرطبة ستة وثلاثون ميلا ؛ وبيانة (Baena) إلى الشمال من قبرة ؛ واليسانة (Lucana) بينها وبين قرطبة أربعون ميلا وكانت تسمى مدينة اليهود لكثرتهم بها ؛ والقصير (Al-Kosair) وهي كورة بينها وبين قرطبة ثمانية عشر ميلا ، وكان أهم أعمالها في زمن ابن سعيد هو حصن القصير في شرقي قرطبة على النهر .

٢ طلمنكة : (Salamanca) مدينة يثغر الأندلس بينها وبين وادي الحجارة عشرون ميلا بنيت زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (الروض المعمار) .

٣ جيان : (Jaen) على بعد ٩٧ كيلومتراً شمالي غرناطة ؛ وبياسة (Beaza) بينها وبين جيان عشرون ميلا ، وتطل على النهر الكبير ، استولى عليها الروم سنة ٦٢٣ هـ ؛ وقسطلة (Calzalilla) تبعد نحو عشرين ميلا إلى الشمال من جيان .

٤ المنكب : (Al-Munecar) كان حصناً قوياً ، وهو اليوم فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز مطريل في مديرية غرناطة .

ومن أعمال المرية أندرش<sup>١</sup> وغيرها ، ومن أعمال مالقة بلش والحامة<sup>٢</sup> وغيرهما ، وبلش من الفواكه ما بمالقة ، وبالحامة العين الحارة على ضفة واديها .  
 وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد : مرسية ، وبلنسية ، ودانية ،  
 والسهلة ، والثغر الأعلى ؛ فمن أعمال مرسية أوريولة والقنت ولورقة وغير  
 ذلك<sup>٣</sup> ، ومن أعمال بلنسية شاطبة ويضرب بحسنها المثل ويعمل بها الورق  
 الذي لا نظير له وجزيرة شقر وغير ذلك<sup>٤</sup> ، وأما دانية فهي شهيرة ولها أعمال ،  
 وأما السهلة<sup>٥</sup> فإنها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة ولذا عدّها بعضهم من كور  
 الثغر الأعلى ولها مدن وحصون ، ومن أعمال الثغر الأعلى : سرقسطة وهي أم  
 ذلك الثغر ، وكورة لاردة ، وقلعة رباح<sup>٦</sup> ، وتسمى بالبيضاء ، وكورة تطيلة ،  
 ومدينتها طرسونة ، وكورة وشقة<sup>٧</sup> ، ومدينتها تمريط ، وكورة مدينة سالم ، وكورة  
 قلعة أيوب ، ومدينتها مكيانة<sup>٨</sup> ، وكورة برطانية<sup>٩</sup> ، وكورة باروشة .

١ أندرش : ( Andarax ) من أعمال المرية على نهر باسمها .

٢ بلش : ( Velez Malaga ) ؛ والحامة ( Alahama ) .

٣ مرسية : ( Murcia ) اختطت سنة ٢١٦ هـ ، فخلفت تدمير وأصبحت الكورة تسمى كلها  
 باسمها وكانت القاعدة قبلها أوريولة ( Orihuela ) ؛ أما القنت ( أو لقنت ) فكانت مدينة

من كورة تدمير وقيل في وصفها : مدينة صغيرة وهي اليوم عاصمة مديرية بحرية تسمى باسمها  
 تقع جنوبي مديرية بلنسية وشرقي مديرتي البسيط ومرسية ، وتمتد من أكبر موانئ الساحل الشرقي .

٤ بلنسية : ( Valencia ) من أكبر مدن الساحل الشرقي ازدهاراً في العصور الإسلامية ، إلى الشمال

من دانية على شاطئ البحر ؛ وكانت تسمى مدينة التراب ؛ وحصن شاطبة ( Sativa ) إلى الشمال

من لقنت ؛ وأما جزيرة شقر ( Jucar ) فهي مدينة على جزيرة في مصب نهر شقر ( وادي

شقر ) وتسمى اليوم Al-cira وهي في مديرية بلنسية .

٥ السهلة تسمى أيضاً شنتيرية الشرق ( سهلة بني رزين - Santa Maria de Albarracin ) وهي

من كبار معاقل كورة شنتيرية ( Santaver ) وتمتد من كورة سرقسطة الجنوبية حتى كورتي

وادي الحجارة وطليلة .

٦ قلعة رباح : مدينة تابعة لطليلة وموضعها يسمى اليوم ( Castillo de Caltarava la Vieja )

٧ وشقة : ( Huesca ) من كور الثغر الأعلى ، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلاً وتقع إلى

الشمال الشرقي منها .

٨ ق ك : بليانة .

٩ ق ك ج : برطانية ؛ ط : برطانية .

وأما غرب الأندلس ففيه : إشبيلية ، وماردة ، وأشبونة ، وشلب ؛ فمن أعمال إشبيلية شريش والخضراء ولبلة وغيرها ، ومن أعمال ماردة بطليوس ويابرة وغيرها ، ومن أعمال أشبونة شنترين وغيرها ، ومن أعمال شلب شنت مربة<sup>١</sup> وغيرها .

\* \* \*

### [ الجزر البحرية ]

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة قادس ، وهي من أعمال إشبيلية ، وقال ابن سعيد : لأنها من كورة شريش ، ولا منافاة لأن شريشاً من أعمال إشبيلية كما مر ، قال : وببدا صنم قادس مفتاح ، ولما ثار بقادس ابن أخت القائد أبي عبد الله بن ميمون - وهو علي بن عيسى قائد البحر بها - ظن أن تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيئاً<sup>٢</sup> ، انتهى .

وهي - أعني جزيرة قادس - في البحر المحيط ؛ وفي المحيط الجزائر الخالدات السبع ، وهي غربي مدينة سلا تلوح للناظر في اليوم الصاحي الخالي الجو من الأبخرة الغليظة ، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين ، تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها . وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات ، وفيها من المدن والقُرى ما لا يحصى ، ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس على دين النصارى : أولها جزيرة برطانية ، وهي بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الأندلس ، ولا جبال فيها ، ولا عيون ، وإنما يشربون من ماء المطر ، ويزرعون عليه .

قال ابن سعيد : وفيه جزيرة شلطي<sup>٣</sup> ، وهي آهلة وفيها مدينة ، وبحرها

١ ق ك ط : شنت رية ؛ ج : شنتونية .

٢ انظر الروض المطار : ١٤٧ .

٣ شلطي<sup>٣</sup> : ( Saltes ) جزيرة تقع على مقربة من شلب ، وكانت في عصر ملوك الطوائف من أملاك البكرين أسرة العالم اللغوي الجغرافي أبي عبيد البكري ؛ وهي اليوم من مديرية ولبة . ( وفي النسخ : شلطي<sup>٣</sup> ) .

كثير السمك ، ومنها يُحمل مُملَّحاً إلى إشبيلية ، وهي من كورة لَبَلَّةٓ مضافة إلى عمل أُونبَةَ ، انتهى .

• • •

### [ قرطاجنة وخواصها ]

وقال بعضهم ، لما أجرى ذكر قرطاجنة من بلاد الأندلس : إن الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمطررة واحدة ، وبها أقواس من الحجارة المقربصة<sup>٢</sup> ، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة ، ومن أعجب بنائها الدواميس<sup>٣</sup> ، وهي أربعة وعشرون على صف واحد من حجارة مقربصة ، طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة في عرض ستين خطوة ، وارتفاع كل واحد أكثر<sup>٤</sup> من مائتي ذراع ، بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض في العلو الشاهق بهندسة عجيبة وإحكام بديع ، انتهى .

قلت : أظن هذا غلطاً ؛ فإن قرطاجنة التي بهذه الصفة قرطاجنة إفريقية<sup>٥</sup> ، لا قرطاجنة الأندلس ، والله أعلم .

وقال صاحب مناهج الفكر ، عندما ذكر قرطاجنة : وهي على البحر الرومي مدينة قديمة بقي منها آثار ، لها فحص طوله ستة أيام وعرضه يومان

- ١ لبلّة ( Niebla ) كانت قاعدة كورة تسمى باسمها وهي على بعد خمسين كيلومتراً غربي إشبيلية وتتبع مديرية ولبّة ( Huelva ) .
- ٢ مقربصة أو مقربسة بمعنى محكمة الأساس ؛ يقال قريص البيت : قاس طوله وعرضه ليساوي بين كل حائط وما يقابله .
- ٣ الدواميس هنا : بمعنى الأحواض أو ما يشبه « الهواويس » ، جمع داموس ، وقد تستعمل بمعنى « السجن » ومنه الديماس .
- ٤ ج ط ق : أطول .
- ٥ انظر جغرافية البكري - المغرب في ذكر بلاد إفريقية : ٤٤ ففيه وصف لقرطاجنة إفريقية يؤكد أن المقرري على صواب .



معمور بالقري ، انتهى .

وذكر قبل ذلك في لورقة أن بناحيها يوجد حجر اللازورد .  
وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا مَيُورقة ومَنُورقة ،  
وبينهما خمسون ميلاً ، وجزيرة مَيُورقة مسافة يوم ، بها مدينة حسنة ، وتدخلها  
ساقية جارية على الدوام ، وفيها يقول ابن اللبّانة<sup>١</sup> :

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الْحَمَامَةُ طَوْقَهَا      وَكَسَاهُ حُلَّةَ رِيشِ الطَّاوُوسِ<sup>٢</sup>  
فَكَانَتْهَا الْأَنْهَارُ فِيهِ مُدَامَةً      وَكَانَ سَاحَاتِ الدِّيَارِ كُؤُوسِ<sup>٣</sup>

وقال يخاطب ملكها<sup>٣</sup> ذلك الوقت :

وَعَمَرْتُ<sup>٤</sup> بِالْإِحْسَانِ أَرْضَ مَيُورِقَةٍ      وَبَنَيْتَ مَا لَمْ يَبْنِهِ الْإِسْكَندَرُ<sup>٥</sup>

وجزيرة يابسة .

واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ، ولو تُتَّبِعَ لكان تأليفاً مستقلاً ،  
وما أحسن قول ابن خفاجة<sup>٥</sup> :

١ ابن اللبّانة : أبو بكر محمد بن عيسى شاعر دولة المعتد وصاحب المراني فيه ومؤلف كتاب  
سقيط الدرر ولقيط الزهر في شعر ابن عباد ، توفي سنة ٥٠٧ بميورقة وسيرد ذكره في النفع  
كثيراً . ( راجع ترجمته في المغرب ٢ : ٤٠٩ والمعجب : ٢٠٨ والقلائد : ٢٤٥ والوافي :  
٤ : ٢٩٧ والذخيرة ( القسم الثالث ٢٠٩ ) والمطرب : ١٧٨ وفوات الوفيات ٢ : ٥١٤  
والتكملة : ٤١٠ وله موشحات في دار الطراز .

٢ البيتان في « المقتطفات » : ٤٠ وينسب البيتان لابن قلاص الإسكندري ، قالهما في مدينة مسينة  
بصقلية حين زارها ، وهما في ديوانه : ٥٦ وكذلك ينسب لابن حمديس ( ديوانه : ٥٥٣ )  
حسبما ورد في مسالك الألبصار ، ونسبها صاحب المغرب ( ٢ : ٤٦٦ ) لابن اللبّانة .

٣ كان صاحب ميورقة في زمن ابن اللبّانة هو مبشر بن سليمان الملقب ناصر الدولة .

٤ ق ج : وعمرت .

٥ أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة شاعر الطليعة الأكبر ، توفي سنة ٥٣٣ ؛ نشر ديوانه بتحقيق  
الدكتور السيد مصطفى غازي ( الإسكندرية ١٩٦٠ ) وفي ص : ٤٣٧ ثبت جامع للمصادر التي  
ترجمت لابن خفاجة أو أوردت ذكره وشعره ؛ وهذه الأبيات في الديوان : ١٣٦ .

إنَّ للجنَّةِ بالأندلسِ مُجْتَلَى حُسْنٍ وريّاً نَقَسِ  
فَسْنَا صُبْحَتِهَا مِنْ شَنْبٍ وَدُجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسِ  
وَإِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ صَبّاً صَحَتْ وَاشْتَوَى إِلَى الأندلسِ

وقال بعضهم في طليطلة :

زادت طليطلة على ما حدّثوا بِلَدِّهِ عَلَيْهِ نَضْرَةٌ وَنَعِيمٌ  
الله زَيْنَهُ فَوْشَحَ خَصْرَهُ نَهْرُ المَجْرَةِ والغصونُ نَجْمٌ

\* \* \*

[ رسالة أبي البحر في تغاير مدن الأندلس ]

ولا حرج إن أوردنا هنا ما خاطب به أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، فإنه مناسب ، ونصه<sup>١</sup> : مولاي ، أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه ، كما ضم على حبك أحناءهم وأحناءه ، ووصل لك ما شئت من اليمن والأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان ، فإنك الملك الهمام ، والقمر التمام ، أيامك غرر وحجول ، وفرندُ بهائها في صفحات الدهر يحول ، أليست الرعية برود التامين ، فتنافست فيك من نفيس ثمين ، وتلقّت دعوات خلندك لها باليمين ، فكم للناس ، من أمن بك وليناس ، وللأيام ، من لوعة فيك وهيام ، وللأقطار ، من لبانات لديك وأوطار ، وللبلاد ، من قراع لها على تملكك لها وجلاد ، يتمنون شخصك الكريم على الله ويقرحون ، ويغتنقون في رياض ذكرك العاطر بمدام حبك ويصطبحون ، كل حزب بما لديهم قرحون ﴿ (الروم : ٢٢) محبة من الله ألقاها لك حتى على الجماد ، ونصراً

١ وردت هذه الرسالة في أوراق مخطوطة رقم ٤٢١ بالاسكوريال ، وهي مقتطفات لعلها من نصح الطيب ويحال عليها بلفظة « المقتطفات » .

مؤزرًا تنطق<sup>١</sup> به ألسنة السيوف على أفواه الأعماد ، ومن أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها ، ومن طوى حسن نية ختم الله له بالجميل إعادتها وإبداءها ، ومن قدم صالحًا فلا بد أن يوازيه ، ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه<sup>٢</sup> . ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار ، وطال بها الوقوف على حبك والاعتصار ، كلها يُفصح قولاً ، ويقول : أنا أحقّ وأولى ، ويُصيخ إلى إجابة دعوته ويُصغي ، ويتلو إذا بُشّر بك ﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾ (الكهف : ٦٤) ، تنمّرت حمصُ غيظاً ، وكادت تفيظ فيظاً ، وقالت : ما لهم يزيدون وينقصون ، ويطمعون ويحرصون ﴿ إن يتبعون إلا الظنّ وإن هم إلا يخرصون ﴾ (يونس : ٦٦) . لي<sup>٣</sup> السهم الأسد ، والساعد الأشدّ ، والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمدّ ، أنا مصر الأندلس والنيل نهري ، وسما<sup>٤</sup> التانس والنجوم زهري ، إن تجاريم في ذلك الشرف ، فحسي أن أفيض في ذكر الشرف<sup>٥</sup> ، وإن تبجحت<sup>٦</sup> بأشرف اللبوس ، فأني إزار اشتمتموه كشتبوس<sup>٧</sup> ، لي ما شئت من أبنية رحاب ، وروض يستغني بنضرته عن السحاب ، قد ملأت زهراتي وهادأ ونجادا ، وتوشح سيف نهري بجدائقي نجادا ، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحقّ ، ﴿ الآن حصحص الحق ﴾ (يوسف : ٥١) .

فنظرها قرطبة شزراً ، وقالت : لقد كثرت نزرًا ، وبدرت في الصخر

١ ج : أنطق .

٢ من قول الخطبة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

٣ ك : ألم .

٤ ك : وسائي .

٥ ق ج : ذكر .

٦ يعني ما يسمى « شرف إشبيلية » ؛ راجع ص : ١٥٨ - ١٥٩

٧ ك : تبجحت .

٨ ط : كشتبوس . ج : كشوش .

الأصم بزرا ، كلام العدى ضرب من الهذيان <sup>١</sup> ، وأنتى للإيضاح والبيان ، متى استحال المستقبح مستحسناً ، ومن أودع أجفان المهجور وسناً ﴿ أفمن زين له سوء عماله فراه حسناً ﴾ (فاطر : ٨) . يا عجباً للمراكز تقدم على الأسته ، وللأنفار تفضل على الأعتة ، إن ادعيت سبعا ، فما عند الله خير وأبقى : لي البيت المطهر الشريف ، والاسم الذي ضرب عليه رواقه التعريف ، في بقيعي محل الرجال الأفاضل ، فليرغم أنف المناضل ، وفي جامعي مشاهد ليلة القدر ، فحسبي من نباهة القدر ، فما لأحد أن يستأثر علي بهذا السيد الأعلى ، ولا أرتضي <sup>٢</sup> له أن يوطىء غير ترابي نعلا ، فأقروا لي بالأبوة ، وانقادوا على حكم البنوة ، ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة ﴾ (النحل : ٩٢) وكفوا عن تباريكم ﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ (البقرة : ٥٤) .

فقال غرناطة : لي المعقل الذي يمتنع ساكنه <sup>٣</sup> من النجوم ، ولا تجري إلا تحته جياذ الغيم ، السجوم ، فلا يلحقني من معاند ضرر ولا حيف ، ولا يهتدي إلي خيال طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولاً وفعلاً ، فقد أفلح اليوم من استعلى ، لي بطاح تقلدت من جداولها أسلاكاً ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكاً ، ومياه تسيل على أعطاني كأدمع العشاق ، وبرد نسيم يرد ذمماً .  
المستجير بالانتشاق ، فحسنتي لا يطمع فيه ولا يحتال ، فدعوني فكل ذات ذيل تحتال ، فأنا أولى بهذا السيد الأعدل ، وما لي به من عوض ولا بدل ، ولم لا يعطف علي عيان مجده ويثني ، وإن أنشد يوماً فلإياي يعني <sup>٤</sup> :

١ من قول المتنبي يمدح كافوراً :

كلام العدا ضرب من الهذيان والله سر في علاك وإنما

٢ ك : أرضي .

٣ المقتطفات : يمنع صاحبه .

٤ ط : دماء .

٥ ك : الغيث .

٦ من شعر يعض الأعراب ، وقبله :

أحب بلاد الله ما بين منيع إلي وسلمي أن يصوب صحابها

بلادِ بِهَا عَقَّةُ الشَّبَابِ تَمَامِي وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسَّ جَلْدِي تَرَابُهَا

فَمَا لَكُمْ تَعْتَرُونَ لِفَخْرِي وَتَنْتَمُونَ ، وَتَتَأَخَّرُونَ فِي مِيدَانِي وَتَتَقَدِّمُونَ ، تَبْرَأُوا  
إِلَيَّ مِمَّا تَزْعُمُونَ ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة : ٤١) .  
فَقَالَتْ مَالِقَةُ : أَتُرَكُونِي بَيْنَكُمْ هَمَلًا ، وَلَمْ تَعْطُونِي فِي سَيِّدِنَا أَمَلًا ، وَلِمَ  
وَلِي الْبَحْرُ الْعِجَاجُ ، وَالسَّبِيلُ الْفِجَاجُ<sup>١</sup> ، وَالجَنَّاتُ الْأَيْبَرَةُ ، وَالْفَاكِهَةُ الْكَثِيرَةُ ؛  
لَدَيَّ مِنَ الْبَهْجَةِ مَا تَسْتَغْنِي بِهِ الْحَمَامُ عَنِ الْهَدْيِيلِ ، وَلَا تَجْنَحُ الْأَنْفُسُ الرِّقَاقَ  
الْحَوَاشِي إِلَى تَعْوِضِ عَنْهُ وَلَا تَبْدِيلِ ، فَمَا لِي لَا أُعْطَى فِي نَادِيكُمْ كَلَامًا ، وَلَا  
أُنْشَرُ فِي جَيْشِ فِخَارِكُمْ أَعْلَامًا ؟

فَكَانَ الْأَمْصَارُ نَظَرْتَهَا أَزْدَرَاءَ ، فَلَمْ تَرَ لِحَدِيثِهَا فِي مِيدَانِ الذِّكْرِ لِإِجْرَاءِ ،  
لَأَنَّهَا مَوْطِنٌ لَا يَحِلُّ مِنْهُ بَطَائِلُ ، وَنَظَنَ الْبِلَادُ تَأَوَّلَتْ فِيهَا قَوْلَ الْقَائِلِ :

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِيَابَتِهِ السُّكُوتُ

فَقَالَتْ مَرْسِيَّةُ : أَمَامِي تَتَعَاطَوْنَ الْفَخْرَ ، وَبِحَضْرَةِ الدَّرِّ تُنْفِقُونَ الصَّخْرَ ؟  
إِنْ عُدَّتْ الْمَفَاخِرُ ، فَلِي مِنْهَا الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ، أَيْنَ أَوْشَأَلِكُمْ مِنْ بَحْرِي ،  
وَخَرَزُكُمْ مِنْ لَوْلُو نَحْرِي ، وَجَعَجَعَتُكُمْ مِنْ نَفَثَاتِ سِحْرِي ؟ فَمِنَ الرُّوْحِ  
النَّضِيرِ ، وَالْمَرَأَى الَّذِي مَالَهُ مِنْ نَظِيرِ ، وَزَنْقَاتِي<sup>٢</sup> الَّتِي سَارَ مَثَلُهَا فِي الْآفَاقِ ،  
وَتَبْرِقُ وَجْهَهُ جَمَاهُلًا بِغُرَّةِ الْإِصْفَاقِ ، فَمِنْ دَوَّحَاتِ ، كَمَ لَهَا مِنْ بَكُورِ  
وَرَوَّحَاتِ ، وَمِنْ أَرْجَاءِ ، إِلَيْهَا تُمَدُّ أَيْدِي الرِّجَاءِ ، فَأَبْنَائِي فِيهَا<sup>٣</sup> فِي الْجَنَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ  
مُودِعُونَ ، يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا بِأَخْذُونَ وَيَدَّعُونَ ، وَلَهُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُهُمْ<sup>٤</sup>  
وَلَهُمْ فِيهَا مَا يَدَّعُونَ . فَانْقَادُوا لِأَمْرِي ، وَحَازَرُوا اصْطِلَاءَ جَمْرِي ، وَخَلَّتُوا

١ في نسخة بهامش ك : والسيل الثجاج .

٢ الزنقات من متفرجات مرسية . ( انظر المغرب ٢ : ٢٤٦ ) .

٣ ط ك : فيه .

بيني وبين سيدنا أبي زيد ، وإلا ضربتكم ضرب زيد<sup>١</sup> ، فأنا أولاكم بهذا الملك  
المستأثر بالتعظيم ﴿ وما يُلَقَّأها إلاّ ذو حظٍ عظيم ﴾ (نصت : ٣٥) .  
فقلت بِلنْسِيَّة : فيمَ الجِدال والقِرَاع ؟ وعلّامَ الاستهام والاقتراع ؟  
واللامَ التعريض والتصریح ؟ وتحت الرَغْوَة اللبُّ الصريح<sup>٢</sup> ، أنا أحوزه من  
دونكم ، فأحمدوا نارِي تحرُّكمم وهدونكم ، فلي المحاسن الشائخة الأعلام ،  
والجنات التي تُلقي إليها الآفاق بِدَ الاستسلام ، وبِرُصافي وجِسري أعارض  
مدينة السلام<sup>٣</sup> ، فأجمعوا على الانقياد لي والسلام ، وإلاّ فَعَصُوا بنا ، واقْرَعُوا  
أسنانا ، فأنا حيث لا تدركون وأنتي ، ومولانا لا يَهْلِكُنَا بما فعل السفهاء منّا .  
فعند ذلك ارتمت جَمْرَة قُدُمير بالشرار ، واستدت<sup>٤</sup> أسهمها لنحور  
الشرار ، وقالت : عِشْ رَجَبًا ، تَرَّ عَجَبًا ، أَبَعَدَ العصيان والعقوق ، تهيين  
لرُتَبِ ذوي الحقوق ؟ هذه سماء الفخر فمن ضمك أن تعرجي ، ليس بعُشك  
قادر جي<sup>٥</sup> ، لك الوَصْبُ والحَبْلُ ﴿ آلاَنَ وقد عَصَيْتِ قَبْلُ ﴾ (يونس : ٩١) ،  
أيتها الصانعة الفاعلة ، من أدأك أن تُطِرِّي وما أنت ناعلة<sup>٦</sup> ؟ ما الذي  
يُجْدِيك الروضُ والزهرُ ؟ أم ما يفيدك الجدول والنهر ؟ وهل يُصلح  
العطَّارُ ما أفسد الدهرُ<sup>٧</sup> ؟ هل أنتِ إلاّ مَحَطُّ رحل النفاق ، ومترل<sup>٨</sup> ما

١ إشارة إلى قول النحويين : « ضرب زيد عمراً » .

٢ هذا من أمثالهم ؛ أي أن الظاهر لا يحجب الحقيقة .

٣ تشتهر بلنسية برصافتها وجمرها ، وكذلك بنداك كما في قول علي بن الجهم : « عيون المها بين الرصافة  
والبحر » .

٤ ط ق ج : واشتدت .

٥ من أمثالهم ؛ أي ليس هذا من الأمر الذي لك فيه حق فدعيه . (انظر فصل المقال : ٣١٩) .

٦ ك : أدراك أن تضربي وما أنت فاعلة ؛ ق ك ط ج دوزي : أن تضربي ؛ ج : فاعلة . وكله  
خطأ في الجميع ، وصوابه من المثل « أطري فإنك ناعلة » أي غذي طرر الوادي وهي نواحيه .  
(فصل المقال : ١٤٧ وفهرسته) .

٧ من قول الشاعر في عجزوز :

تروح إلى المطار تبني صلاحها      وهل يصلح المطار ما أفسد الدهر

لِسُوقِ الْخِصْبِ فِيهِ مِنْ نِفَاقٍ ؟ ذَرَاكَ لَا يَكْتَحِلُ الطَّرْفُ فِيهِ بِهَجُوعٍ ، وَقِرَاكَ  
لَا يُسْنَمْنَ وَلَا يَغْنِي مِنْ جُوعٍ ، فَلِإِمَامٍ تَبْرُزُ الْإِمَاءُ فِي مَنْصَةِ الْعَقَائِلِ ؟ وَلَكِنْ  
اذكري قول القائل<sup>١</sup> :

بَلَنْسِيَةٌ بَيْنِي عَنِ الْقَلْبِ سَلْوَةٌ      فَإِنَّكَ رَوْضٌ لَا أَحِنَّ لِرَهْرِكِ  
وَكَيْفَ يَجِبُ الْمَرْءُ دَاراً تَقَسَّمَتْ      عَلَى صَارِمِي جُوعٍ وَفَتْنَةِ مُشْرِكِ  
بَيْدَ أَنْتِي أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُوقِدَ مِنْ تَوْفِيقِكَ مَا خَمَدَ ، وَيُسِيلَ مِنْ  
تَسْدِيدِكَ مَا جَمَدَ ، وَلَا يُطِيلَ عَلَيْكَ فِي الْجَهَالَةِ الْأَمْدَ ، وَإِيَّاهُ سُبْحَانَهُ نَسْأَلُ  
أَنْ يَرُدَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا إِلَى أَفْضَلِ عَوَائِدِهِ ، وَيَجْعَلَ مَصَائِبَ أَعْدَائِهِ مِنْ فَوَائِدِهِ ،  
وَيَمَكِّنْ حُسَامَهُ مِنْ رِقَابِ الْمَشْغِيِّينَ ، وَيُبْقِيَهُ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ،  
وَيَصِلْ لَهُ تَأْيِيداً وَتَأْيِيداً ، وَيُمَهِّدَ لَهُ الْأَيَّامَ حَتَّى تَكُونَ الْأَحْرَارَ لِعَبِيدِهِ<sup>٢</sup>  
عَبِيداً ، وَيَعِدْ عَلَى الدُّنْيَا بِسَاطِ سَعْدِهِ ، وَيَهَبَهُ مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ :

آمِينَ آمِينَ لَا أَرْضَى بِوَاحِدَةٍ حَتَّى أَضِيفَ إِلَيْهَا أَلْفَ آمِينَا  
ثم السلام الذي يتأتى عباقاً ونشراً ، ويتألق روثقاً وبشراً ، على  
حضرتهم العلية ، ومطالع أنوارهم الجلية<sup>٣</sup> ، ورحمة الله تعالى وبركاته ،  
انتهى .

[ عود إلى ذكر غرناطة ]

ولما ألمَّ الرحالة ابن بطوطة في رحلته بدخوله لبلاد الأندلس — أعادها

١ سينسهما المقرئ ص : ١٨٠ لابن عياش (وهما له في زاد المسافر : ٩٤) وفي ياقوت (بلنسية) :

أنهما لابن حريق .

٢ ط ق والمقتطفات : لعميده عبداً .

٣ ك : السنية الجلية .

٤ ك : بدخوله بلاد .

الله تعالى للإسلام - قال<sup>١</sup> : فوصلتُ إلى بلاد الأندلس - حرسها الله تعالى - حيث الأجر موفور للساكن ، والثواب منخور للمقيم والظاعن ، إلى أن قال عند ذكره<sup>٢</sup> غرناطة ما نصّه : قاعدة بلاد الأندلس ، وعروس مدنها ، وخارجها لا نظير له في الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلاً ، يخترقه نهر شينيل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة ، والبساتين<sup>٣</sup> والجنّات والرياضات والقصور ، والكرُوم مُحَدِّقة بها من كل جهة ، ومن عجيب مواضعها عينُ الدمع ، وهو جبل فيه الرياضات والبساتين ، لا مثل له بسواها ، انتهى .

وقال الشقندي : غرناطة دمشقُ بلاد الأندلس ، ومَسْرَحُ الأبصار ، ومَطْمَحُ الأنفس ، ولم تخلُ من أشرفِ أمائلٍ ، وعلماءِ أكابرٍ ، وشعراءِ أفاضلٍ ، ولو لم يكن بها إلا ما خصّها الله تعالى به من كونها قد نَبَغَ فيها النساءُ الشواعرُ كَتَرَهُنَّ القلعيةُ ، والرَّكُونِيَّةُ ، وغيرهما ، وناهيك بهما في الظرف والأدب ، انتهى .

ولبعضهم يتشوق إلى غرناطة فيما ذكر بعض المؤرخين ، والصواب أن الأبيات قيلت في قرطبة كما مرّ ، والله أعلم :

أغرناطةُ الغراء هل لي أوبةٌ إليك ؟ وهل يدنو لنا ذلك العهدُ ؟  
سقى الجانبَ الغربيَّ منك غمامٌ<sup>٦</sup> وقع في ساحات روضتك الرعدُ  
لياليك أسحارٌ ، وأرضك جنةٌ ، وتربك في استنشاقها عنبرٌ ورْدُ

وقال ابن الرعيّتي :

١ رحلة ابن بطوطة : ٦٦٥ ، ٦٧٠ .

٢ ق : عند ذكر .

٣ لك : والبساتين الجليّة ؛ وسقطت اللفظتان من ج .

٤ سيجي التمرّيف بهما وبكثير من شواعر الأندلس في النسخ .

٥ انظر ص : ١٥٥ فيما تقدم .

٦ لك : غمامة .



رَعَى اللهُ بِالْحَمَاءِ عَيْشًا قَطَعْتُهُ ذَهَبْتُ بِهِ لِلْأَنْسِ ، وَاللَّيْلُ قَدْ ذَهَبَ  
تَرَى الْأَرْضَ مِنْهَا فِضَّةً فَإِذَا اكْتَسَسَتْ بِشَمْسِ الضُّحَى عَادَتْ سَيِّكْتُهَا ذَهَبٌ

وهو القائل :

لَا تَظَنُّوا أَنَّ شَوْقِي خَمْدًا بَعْدَكُمْ أَوْ أَنَّ دَمْعِي جَمْدًا  
كَيْفَ أَسْلُو عَنْ أَنْاسٍ مِثْلَهُمْ قَلَّ أَنْ تُبْصِرَ عَيْنِي أَحَدًا

وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه  
شيء بها ، وبشقتها نهر حدره ، وبُطِّلٌ عليها الجبل المسمى بشلير الذي لا  
يزول الثلج عنه شتاءً وصيفاً ، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد ، وفي  
أعلاه الأزهار الكثيرة ، وأجناسُ الأفوايه الرفيعة ، ونزل بها أهلُ دمشق لما  
جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور ، وقرى غرناطة - فيما ذكر بعض  
المؤرخين - مائتان وسبعون قرية .

وقال ابن جزّي مرتب رحلة ابن بطوطة ، بعد ذكره كلامه ، ما نصه :  
قال ابن جزّي<sup>١</sup> : لولا خشية أن أنسب إلى العصبية لأطلت القول في وصف  
غرناطة ، فقد وجدت مكانه ، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول  
فيه ، والله درُ شيخنا أبي بكر ابن محمد بن شبرين السبتي<sup>٢</sup> نزيل غرناطة حيث  
يقول :

رَعَى اللهُ مِنْ غَرْنَاطَةَ مُتَبَوِّأً يَسْرُ حَزِينًا أَوْ يُجِيرُ طَرِيدًا  
تَبَرَّمَ مِنْهَا صَاحِبِي عِنْدَمَا رَأَى مَسَارِحَهَا بِاللَّجْجِ عُدُنَ جَلِيدًا

١ رحلة ابن بطوطة : ٦٧٠ .

٢ ابن شبرين (وورد خطأ : شبرين وفي ج : بشرين) هو محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين  
(٧٤٧ - ) ولد بسبته وأهله من إشبيلية أصلاً ، كان تاريخياً شاعراً كاتباً ، وهو من شيوخ  
لسان الدين . (انظر الإحاطة ٢ : ١٧٤ - ١٨٢) . وأبياته في الإحاطة (١ : ١٠٤ تحقيق  
عنان) .

هي الشَّخْرُ صان الله مَنْ أَهَلَّتْ بِهِ . وما خَيْرُ نَعْرِ لا يكون بَرُوداً ١٩

وقال ابن سعيد عندما أجرى ذكر قرية نارجة - وهي قرية كبيرة تضاهي المدن ، قد أحدثت بها البساتين ، ولها نهر يفن الناظرين ، وهي من أعمال مالقة - : إنه اجتاز مرة عليها مع والده أبي عمران موسى ، وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم ، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيماً ، وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب ، وسألوا : بمَ يُعرف ذلك الموضع ؟ فقالوا : الطراز . فقال والدي : اسم طابقَ مسماه ، ولفظ وافق معناه ،

وقَدْ وَجَدْتَمَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ . فَإِنْ وَجَدْتَمَ لِسَاناً قَائِلاً فَقُلْ

- |              |                              |
|--------------|------------------------------|
| ثم قال أجز : | بنارجة حيث الطراز المنم      |
| فقلت :       | أقيم فوق نهر نغره يتبسم      |
| فقال :       | وسمعتك نحو الهانقات فإنها    |
| فقلت :       | لما أبصرت من بهجة تترتم      |
| فقال :       | أيا جنة الفردوس لست بأدم     |
| فقلت :       | فلا يك حظي من جناك التندم    |
| فقال :       | يعز علينا أن نزورك مثل ما    |
| فقلت :       | يزور خيال من سليمانم مسلم    |
| فقال :       | فلو أنني أعطى الخيار لما عدت |
| فقلت :       | محللك لي عين بمرآك تنعم      |
| فقال :       | بحيث الصبا والطل من نقاتها   |

فقلت : وَقَتَ لَسَعِ رَوْضَ فِيهِ لِلنَّهْرِ أَرْقَمُ

فقال : فَوَا أَسْقِي إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي عَوْدَةَ

فقلت : فَكُنْ مَالِكًا إِنِّي عَلَيْكَ مُتَمِّمٌ

فقال : فَأَحْسَبُ هَذَا آخِرَ الْعَهْدِ بَيْنَنَا

فقلت : وَقَدْ يَلْحَظُ الرَّحْمَنُ شَوْقِي فَيَرْحَمُ

فقال : سَلَامٌ سَلَامٌ لَا يَزَالُ مُرَدِّدًا

فقلت : عَلَيْكَ وَلَا زَالَتْ بَكَ السُّحْبُ تَسْجُمُ

\* \* \*

[ بلنسية وبعض قراها ]

وقال ابن سعيد<sup>١</sup>: إن كورة بلنسية من شرق الأندلس تبت الزعفران<sup>٢</sup> ، وتُعرف بمدينة التراب ، وبها كثرة تسمى الأزرة<sup>٣</sup> في قدر حبة العنب ، قد جمع مع حلاوة المطعم<sup>٤</sup> ذكاء الرائحة ، إذا دخل داراً عُرف بريجه ، ويقال : إن ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد بالأندلس ، وبها منازة<sup>٥</sup> ومسرح ، ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومثنية ابن أبي عامر .

وقال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرناطي من أبيات فيها :

هي الفِرْدَوْسُ في الدنيا جَمالاً لساكنيها وكارهيها<sup>٦</sup> البَعُوضُ

وقال بعضهم فيها<sup>٧</sup> :

١ انظر جانباً من هذا الوصف في المغرب ٢ : ٢٩٧ - ٢٩٨ .

٢ ك : يبت بها الزعفران .

٣ دوزي : الأزرة . وفي التعليقات محاولة للربط بينها وبين لفظة ( azeroia ) المشتقة من الزمرور .

٤ ك : الطعم . ه : منارة .

٦ دوزي : مكارهها ، ولعل فيه إشارة إلى الحديث « حفت الجنة بالمكاره » .

٧ سيرد البيتان في الباب السابع من هذا الكتاب .

وَذَاذَ عَنِّي غَمُوزِي      ضَاقَتْ بِلَنْسِيَةِ بِي  
عَلَى غِنَاءِ الْبَعُوضِ      رَقِصُ الْبِرَاغِيثِ فِيهَا

وفيه لابن الزقاق البلنسي<sup>١</sup> :

بِلَنْسِيَةٍ - إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا      فِي آيَاتِهَا - أَسْنَى الْبِلَادِ  
وَأَعْظَمَ شَاهِدِي مِنْهَا عَلَيْهَا      وَأَنَّ جَمَالَهَا لِلْعَيْنِ بَادِي  
كَسَاهَا رَبُّهَا دِيْبَاجَ حُسْنٍ      لَهُ عِلْمَانِ مِنْ بَحْرِ وَوَادِي

وقال ابن سعيد أيضاً : أنشدني والذي قال : أنشدني مروان بن عبد الله  
ابن عبد العزيز ملك بلنسية<sup>٢</sup> لنفسه بمراكش قوله<sup>٣</sup> :

كَأَنَّ بِلَنْسِيَةَ كَاعِبٌ      وَمَلْبَسُهَا سُنْدُسٌ أَخْضَرُ  
إِذَا جِثَّتْهَا سَرَتْ نَفْسَهَا      بِأَكَامِيهَا فَهِيَ لَا تَظْهَرُ

وأما قول أبي عبد الله بن عياش « بلنسية بيني - البيتين » وقد سبقا<sup>٤</sup> ، فقال  
ابن سعيد : إن ذلك حيث صارت ثغراً يُصَابِحُهَا الْعُدُوّ وَيَمَاسِيهَا ، انتهى .  
وقال أبو الحسن بن حريق يجاوب ابن عياش<sup>٥</sup> :

بِلَنْسِيَةٍ قَرَارَةٌ كُلِّ حُسْنٍ      حَدِيثٌ صَحَّ فِي شَرْقٍ وَعَرْبٍ

١ ديوان ابن الزقاق : ١٣٩ وانظر التخريجات للمقطوعة : ٣١ .  
٢ ولي بلنسية في آخر عهد المرابطيين حتى قام عليه جند بلنسية سنة ٥٣٩ وبايعوا لابن عياض ملك  
مرسية ، فانتقل إلى ميورقة ومنها إلى مراكش ، وقد أطنب والد ابن سعيد في مدحه ( المغرب )  
٢ : ٣٠٠ - ٣٠١ ) .  
٣ البيتان في ياقوت : ( بلنسية ) .  
٤ انظر ما تقدم ص : ١٧٥ .  
٥ أبو الحسن علي بن حريق ( - ٦٢٢ ) من شعراء زاد المسافر ؛ ترجمته في التكملة ٢ : ٦٧٩  
( كوديرة ) وزاد المسافر : ٢٢ وسرد له ذكر كثير في الفتح ، وانظر مقصورة حازم  
١ : ١٤٢ وقد وردت آياته في زاد المسافر : ٩٤ وياقوت : ( بلنسية ) .

فإن قالوا محلّ غلاء سعيرٍ      ومَسْقَطُ دِيمَتِي طَعْنٍ وَضَرْبٍ  
فَقُلْ هِيَ جَنَّةٌ حُفَّتْ رُبَاهَا      بمكروهيّنٍ من جوعٍ وحرَبٍ  
وقال الرّصافي في رُصافتها<sup>١</sup> :

ولا كالرُصافة مِن مَنزِلٍ      سَقَتَهُ السَّحَابُ صَوَّبَ الْوَلِيَّ  
أَحِنُّ إِلَيْهَا وَمَنْ لِي بِهَا      وَأَيْنَ السَّرِيٍّ مِنَ الْمَوْصِلِيَّ

وقال ابن سعيد : وبرُصافة بِلَنَسِيَّةَ مناظر وبساتين ومياه ، ولا نعلم في الأندلس ما يسمى بهذا الاسم إلا هذه ورُصافة قُرطبة ، انتهى .  
ومن أعمال بِلَنَسِيَّةَ قرية المَنصَفِ التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفي وقبره كان بسببته يزار ، رحمه الله تعالى ، ومن نظمه<sup>٢</sup> :

قالت لي النَّفْسُ أَنَاكَ الردي      وَأَنْتَ فِي بَحْرِ الْخَطَايَا مُقِيمٌ  
فما ادَّخَرْتَ الزاد، قلت : اقصري      هل يُحْمَلُ الزادُ لدارِ الْكَرِيمِ

ومن عمل بِلَنَسِيَّةَ قرية بَطْرَنَةَ ، وهي التي كانت فيها الواقعة المشهورة للنصارى على المسلمين ، وفيها يقول أبو إسحاق بن معلّى الطرسوني<sup>٣</sup> :

لَبِسُوا الْحديدَ إِلَى الْوَعْيِ وَلَبِسْتُمْ      حُلَّ الْحَرِيرِ عَلَيْكُمْ أَلْوَانَا  
ما كان أَقْبَحَهُمْ وَأَحْسَنَكُمْ بِهَا      لو لم يَكُنْ ببطْرَنَةَ ما كانا

ومن عمل بِلَنَسِيَّةَ متبطة التي نُسب إليها جماعة من العلماء والأدباء .

١ ديوان الرصافي : ١٢٤ نقلًا عن النفع .

٢ انظر المغرب ٢ : ٣٥٤ وسيرجم في النفع لأبي الهجاج المنصفي .

٣ إبراهيم بن معلّى (ق ك : يعلى ؛ ط : علي الطرسوني) الطرسوني شاعر اشتهر بمدح المقتدر بن هود ، وطرسونة بلدة من مدن الثغر (ترجم له في الذخيرة ، القسم الثالث : ٢٦٤ والمغرب ٢ : ٤٥٧) وبيته في الذخيرة : ٢٦٩ قالهما يصف خروج أهل بلنسية للقاء العدو في غير ثياب الحرب ، وتدعى هذه بوقمة بطرنة عام ٤٥٥ وقد فصل ابن عذارى فيها القول ٣ : ٢٥٢ .

ومن عمل بِلَنْسِيَّةَ مدينة أُنْدَةَ التي في جَبَلها معدنُ الحديد ، وأما  
رُنْدَةَ - بالراء - فهي في متوسط الأندلس ، ولها حصن يُعرف بأُنْدَةَ أيضاً .

• • •

[ مفرجات إشبيلية ]

وفي إشبيلية - أعادها الله - من المفرجات والمنتزهات كثير ، ومن ذلك  
مدينة طَرِيَانَةَ ، فإنَّها من مدن إشبيلية ومنتزهاتها ، وكذلك تَيْطَلُ<sup>١</sup> ، فقد ذكر  
ابن سعيد جزيرة تَيْطَلُ<sup>١</sup> في المفرجات .

• • •

[ موسى بن سعيد يآي فراق الأندلس ]

وقال أبو عمران موسى بن سعيد في جوابه لأبي يحيى صاحب سَبْتَةَ لما  
استوزره مستنصر بني عبد المؤمن ، وكتب إلى المذكور برغبه في النقلة عن الأندلس  
إلى مَرَاكَشَ ، ما نصُّه محلِّ الحاجة منه : وأما ما ذكر سيدي من التخيير بين  
ترك الأندلس وبين الوصول إلى حضرة مراکش ، فكفى الفهمَ العالِي من الإشارة  
قولُ القائل :

والعزَّ محمودٌ ومَلْتَمَسٌ<sup>١</sup> وألذُّهُ ما نيلُ<sup>٢</sup> في الوَطَنِ

إذا نلت بك السماء في تلك الحضرة ، فعلى مَنْ أَسودُ فيها ؟ ومن ذا  
أضاهي بها ؟

لا رَقَّتْ بي هِمَّةٌ إن لم أكن فيك قد أملتُ فوق<sup>٣</sup> الأمل

وبعد هذا ، فكيف أفارق الأندلس وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا بما

١ ط ق ج : قبطل - في الموضمين -

٢ ك : ما كان .

٣ ك : كل .

حبّأها الله به من اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثافة الأفياء ، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قرّة عين وقرّار نفس :

هي الأرضُ لا وِرْدٌ لديها مُكَدَّرٌ ولا ظِلٌّ مقصور ولا رَوْضٌ مجذب

أفق صقيل ، وبساط مُدَبَّج ، وماء سائح ، وطائر مترنم لليل ، وكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة ؟ فيا سَمَوَالِ الوفاء ، ويا حاتم السماح ، ويا جَدِيمة الصفاء ، كَمَلْ لمن أَمَلِكَ النعمة بتركه في موطنه ، غير مكدر لحاطره بالتحرك من معدنه ، ملتفتاً إلى قول القائل<sup>١</sup> :

وسَوَّلَتْ لي نَفْسِي أنْ أَفَارِقَهَا      والماء في المِزْنِ أَصْفَى منه في الغُدُرِ

فإن أغناه اهتمام مؤتمله عن ارتياد المراد ، وبلغه دون أن يشد قَتَباً ولا أن يُنْضِي عَيْساً غاية المراد ، أنشد ناجح المرغوب ، بالغ المطلوب :

ولَيْسَ الذي يَتَّبِعُ الوَبْلَ رائداً      كَمَنْ جاءه في داره رائدُ الوَبْلِ

وربّ قائل إذا سمع هذا التبسط على الأمانى : ما له تشطّط ، وعدل عن سبيل التأدب وتبسط ؟ ولا جواب عندي إلا قول القائل :

فَهذِهِ خُطَّةٌ ما زِلْتُ أَرْقُبُهَا      فاليومَ أَبْسُطُ آمالي وَأَحْتَكُمُ

وما لي لا أنشد ما قاله المتنبي في سيف الدولة<sup>٢</sup> :

وَمَنْ كُنْتُ بِمَحْرَأِهِ يا عَلِيَّ      لم يَقْبَلِ الدُرَّ إِلَّا كِبَاراً

انتهى المقصود منه .

• • •

١ هذا البيت من شعر الأعمى التطيلي يقوله في إزماعه مفارقة إشبيلية . (انظر ديوانه : ٤٩) .

٢ شرح الواحدي : ٥١٣ .

[ شريش وعجينتها ]

وقال الحجاري : إن مدينة شريش<sup>١</sup> بنت إشبيلية ، وواديها ابن واديها ، ما أشبه سعدى بسعيد ، وهي مدينة جليلة ضخمة الأسواق ، لأهلها همم ، وظرف في اللباس ، وإظهار الرفاهية ، وتخلق بالآداب ، ولا تكاد ترى بها إلا عاشقاً ومعشوقاً ، ولها من الفواكه ما يعم ويفضل ، ومما اختلفت به إحسان الصنعة في المجينات ، وطيبُ جنبها يعين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس : من دخل شريش ولم يأكل بها المجينات فهو محروم ، انتهى .  
(والمجينات : نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها ، وتقلي بالزيت الطيب)<sup>٢</sup> .

[ شلب وكورة أكشونة ]

وفي شلب<sup>٣</sup> يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو<sup>٤</sup> بن مالك بن سيدمير :

أشجاكَ النسيمُ حين يتهبُّ      أم ستنى البرقِ إذ يحبُّ ويخبُّ  
أم هتوفُ على الأراكة تشدُّ      أم هتونُ من الغمامة مسكبُّ  
كلُّ هذالكَ للصبابةِ داعٍ      أيُّ صبِّ دموعه لا تصبُّ  
أنا لولا النسيمُ والبرقُ والورُ      في وصوبُ الغمام ما كنتُ أصبو  
ذكرتني شلباً وهيهات مني      بعدما استحکم التباعدُ شلبُ

وتسمى أعمال شلب كورة أكشونة ، وهي متصلة بكورة أشبونة ، وهي - أعني أكشونة - قاعدة جليلة ، لها مدن ومعامل ، ودار ملكها قاعدة شلب ،

١ شريش (Jerez) إلى الجنوب الشرقي من بطليوس ، وتشتهر اليوم بنبيذها .

٢ المجينات ... الطيب : سقطت من ق ط ج .

٣ شلب (Silves) قاعدة كورة أكشونة ، وهي في البرتغال الحالية .

٤ في ج : أبو عمر ؛ والأبيات في «المقتطفات» : ٤٣ .



وبينها وبين قرطبة سبعة أيام ، ولما صارت لبني عبد المؤمن ملوك مراکش أضافوها إلى كورة إشبيلية ، وتفتخر شلب بكون ذي الوزارتين ابن عمّار منها<sup>١</sup> ،  
سأحه الله .

ومنها القائد أبو مروان عبد الملك بن بدران ، وربما قيل « ابن بدرون »<sup>٢</sup>  
الأديب المشهور ، شارح قصيدة ابن عبّدُون التي أولها<sup>٣</sup> :

الدَّهْرُ يَنْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثْمِرِ      فَمَا الْبِكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد الشرقية ، ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله :

العِشْقُ لَدَتُهُ التَّعْنِيقُ وَالْقَبْلُ      كَمَا مُنْعَصُهُ التَّرِيبُ وَالْعَدْلُ  
يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُقْضَى وَصَالِكُمْ      لَوْلَا الْمُنَى لَمْ يَكُنْ ذَا الْعَمْرِ يُتَصَلُّ

ومنها نحوي زمانه وعلامته أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي<sup>٤</sup> ،  
فإن شلباً بيّضته ، ومنها كانت حركته ونهضته ، كما في الذخيرة ، وهو القائل :

إِذَا سَأَلُونِي عَنْ حَالِي      وَحَاوَلْتَ عُدْرَ أَفْلَمِ يُمْكِنُ  
أَقُولُ : بِخَيْرٍ ، وَلَكِنَّهُ      كَلَامٌ يَدُورُ عَلَى الْأَلْسِنِ  
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ      وَيَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ

• • •

١ ابن عمار من شبنوس وهي قرية صغيرة من قرى شلب ، راجع ترجمة ابن عمار في المغرب  
٢ : ٣٨٩ والحاشية .

٢ ق : ابن زيدون - في الموضعين - وهو خطأ واضح .

٣ أبو مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الشلبي ، كان كاتباً بليغاً من أهل البناية  
النامة بالأدب تاريخياً ، توفي ببلده بعد سنة ٦٠٨ ( ترجمته في الذيل والتكلمة ٥ : ٢١ والتكلمة  
رقم : ١٧٢٧ والتحفة : ١٠٨ وشرحه لقصيدة ابن بدرون هو « كمامة الزهر وصدقة العور »  
نشره دوزي بليدن عام ١٨٦٠ ثم نشر بمصر سنة ١٣٤٠ ، أما ابن عبدون فهو شاعر بني الأطلس  
الذي رثاهم هذه القصيدة وهو من يابرة . ( انظر المغرب ١ : ٣٧٤ والحاشية في مصادر ترجمته ) .

٤ ابن السيد البطليوسي ( - ٥٢١ ) نسب إلى بطليوس لأنه لازمها كثيراً . انظر ترجمته في المغرب  
١ : ٣٨٥ والحاشية ؛ وأبياته التالية في المغرب ١ : ٣٨٦ .

[ أشعار في بطليوس وشاطبة وبرجة ]

وقال الوزير أبو عمرو بن الفلاس<sup>١</sup> يمدح بَطْلَيْوَسَ بقوله :

بطليوسُ لا أنساك ما اتصل البعدُ      فله غورٌ في جنابك أو نجدُ  
ولله دوحاتٌ تحفكِ بينها      تفجرَ واديا كما شققَ البردُ

وبنو الفلاس من أعيان حضرة بَطْلَيْوَسَ ، وأبو عمرو المذكور أشهرهم ،  
وهو من رجال الذخيرة والمسهب ، رحمه الله تعالى .  
وفي شاطبة يقول بعضهم<sup>٢</sup> :

نعم ملقى الرّحلِ شاطبةٌ      لفتى طالت به الرّحلُ  
بلدةٌ أوقاتها سحرٌ      وصبا في ذيله بكللُ  
وتسيمٌ عرفه أرجُ      ورياضٌ غصنها ثميلُ  
ووجوهٌ كلها غررٌ      وكلامٌ كله مثلُ

وفي برجة يقول بعضهم :

إذا جئت برجةً مستوفزاً      فخذني في المقام وخلّ السفرُ  
فكلُّ مكانٍ بها جنةٌ      وكلُّ طريقٍ إليها سقرُ

وقد تقدّم هذان البيتان<sup>٣</sup> .

• • •

[ رسالة لسان الدين في تفضيل الجهاد على الحج ]

واعلم أنه لو لم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد

١ المغرب ١ : ٣٦٣ وانظر ترجمة ابن الفلاس في الذخيرة (القسم الثالث : ١٣٩) وفي ك: الفلاس ،

٢ بمض هذه الأبيات في «المقتطفات» : ٤٣ .

٣ انظر ص : ١٥١ فيما تقدم ، والبيت الأول لم يرد هناك .

لكان كافياً ، وبرحم الله لسان الدين بن الخطيب حيث كتب على لسان سلطانه  
 إلى بعض العلماء العاملين ما فيه إشارة إلى بعض ذلك ، ما نصّه : من أمير المسلمين  
 فلان ، إلى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا ، وصَلَّ الله له سعادةً تجذبه ، وعنايةً  
 إليه تقربه ، وقبولاً منه يدعوه إلى خير ما عند الله ويندبه ، سلام كريم عليكم  
 ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله المرشد المنيب ، السميع المجيب ، معوّد  
 اللطف الخفي والصنع العجيب ، المتكفل بإنجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب ،  
 والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذي القدر الرفيع والعز المنيع  
 والجناب الرحيب ، الذي به نرجو ظهور عبدة الله على عبدة الصليب ،  
 ونستظهر منه على العدو بالحبيب ، ونعدّه عدتنا لليوم العصيب ، والرضا عن  
 آله وصحبه الذين فازوا من مشاهدته بأوفى النصيب ، ورموا إلى هدف مرضاته  
 بالسهم المصيب ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم عملاً صالحاً  
 يحتم الجهاد صحائف بره ، وتمحض لأن تكون كلمة الله هي العليا جوامع  
 أمره ، وجعلكم ممن تنهى في الأرض التي فتح فيها أبواب الجنة حصّة عمره -  
 من حمراء غرناطة - حرسها الله تعالى - ولطف الله هامي السحاب ، وصنعه  
 رائق الجناب ، والله يصل لنا ولكم ما عوّد من صلة لطفه عند انبئات الأسباب ،  
 وإلى هذا أيها المولى<sup>٢</sup> الذي هو بركة المغرب المشار إليه بالبنان ، وواحد في رفعة  
 الشان ، المؤثر ما عند الله على الزخرف الفتان ، المتقلل من المتاع الفان ،  
 المستشرف إلى مقام العرفان ، من درج الإسلام والإيمان والإحسان ، فإننا لما  
 نؤثره من بركم الذي نعدّه من الأمر الأكيد ، ونضمره من ودكم الذي نحلّه<sup>٣</sup>  
 محل الكثر العتيد ، وفتنسه من دعائكم التماس العدة والعديد ، لا نزال نسأل

١ ك : مدة .

٢ ق ج : الولي .

٣ ق ج : محله .

عن أحوالكم التي ترقّت في أطوار السعادة ، ووصلت جناب الحقّ بهجر العادة ، وألقت إلى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمقادة ، فنسّر بما هيا الله تعالى لكم من القبول ، وبلّغكم من المأمول ، وأهملكم من الكلّف بالقرب إليه والوصول ، والفوز بما لديه والحصول . وعندما رد الله تعالى علينا ملكنا الرد الجميل ، وأنالنا فضله الجزيل ، وكان لعثارنا المُقيل ، خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا ، ومحلّكم من حسن اعتقادنا ، ووجّهنا إلى وجهة دعائكم وجّه اعتقادنا ، والله ينفعنا بجميل الظن في دينكم المتين ، وفضلكم المين ، ويجمع الشمّل بكم في الجهاد عن الدين . وتعرفنا الآن ممّن له بأنابكم اعتناء ، وعلى جلالكم حمدٌ وثناء ، ولجناب ودّكم اعتزاء وانتماء ، بتجاول عزمكم بين حجّ مبرور ترغّبون من أجره في ازدياد ، وتجددون العهد منه بأليف اعتياد ، وبين رباط في سبيل الله وجهاد ، وتوثير مهادين ربّي أثره عند الله ووهاد ، يُحشّرُ يوم القيامة شهداؤها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، والله أصدقُ القائلين الصادقين ، حيث لا غارة لغير عدوّ الإسلام تُتقى ، إلاّ لابتغاء ما لدى الله تُرتقى ، حيث رحمة الله قد فتحت أبوابها ، وحورُ الجنان قد زينت أترابها ، دار العرب الذين قرّعوا باب الفتح ، وفازوا بجزيل المنع ، وخلدوا الآثار ، وأرغموا الكفار ، وأقالوا العِثار ، وأخذوا الثار ، وأمنوا من لفتح جهنم بما علا على وجوههم من ذلك الغبار ، فكتبنا إليكم هذا نقوي بصيرتكم على جهة الجهاد من العزميين ، ونهيب بكم إلى إحدى الحسنين ، والصبحُ غير خافٍ على ذي عينتين ، والفضلُ ظاهر لإحدى المتزلّين ، فإنكم إذا حججتم أعدتم فرضاً أديتموه ، وفضلاً ارتدّ يتّموه ، فائدتهُ عليكم مقصورة ، وقضيته فيكم محصورة ، وإذا أقمتم الجهاد جلبتم إلى

١ القائلين : سقطت من ط ج ق .

٢ ك : فإنكم إن .

حسنا تكم عملاً غريباً ، واستأنقتم سعياً من الله قريباً ، وتعدت المنفعة إلى  
 ألوف من النفوس ، المستشعرة لباس البؤس ، ولو كان الجهاد بحيث يخفى  
 عليكم فضله لأطنبنا ، وأعنت الاستدلال أرسلنا ، هذا لو قدمتم على هذا الوطن  
 وفضلكم غفل من الاشتهار ، ومن به لا يوجب لكم ترفيع المقدار ، فكيف  
 وفضلكم أشهر من محيا النهار ، ولقاؤكم أشهى الآمال وآثر الأوطار ، فإن  
 قوي عزمكم والله يقويه ، ويعيننا من بركم على ما ننويه ، فالبلاد بلادكم ،  
 وما فيها طريفكم وتلادكم ، وكهولها إخوانكم ، وأحداها أولادكم ، ونرجو  
 أن تجدوا لذكركم الله في رباها حلاوة زائدة ، ولا تعدموا من روح الله فيها  
 فائدة ، وتكيف أنفسكم فيها تكييفات تقصر عنها خلوات السلوك ، إلى ملك  
 الملوك ، حتى تغبطوا بفضل الله الذي يوليكم ، وتروا أثر رحمته فيكم ،  
 وتختلفوا فخر هذا الانقطاع إلى الله في قبيلكم وبنيتكم ، وتختتموا العمر الطيب  
 بالجهاد الذي يعلّمكم ، ومن الله تعالى يدينكم ، فنبهكم الغربي صلوات الله عليه  
 وسلامه نبي الرحمة والملاحم ، ومُعَمِّل الصوارم ، وبيجاد الفرنج ختم  
 عمل جهاده والأعمال بالخواتم ، هذا على بعد بلادهم من بلاده ، وأنتم أحق  
 الناس باقتضاء جهاده ، والاستباق إلى آماده ، هذا ما عندنا حثناكم عليه ، وندبناكم  
 إليه ، وأنتم في إثارة هذا الجوار ، ومقارضة ما عندنا بقدمكم على بلادنا من  
 الاستبشار ، بحسب ما يخلق عنكم من بيده مقادة الاختيار ، وتصريف الليل  
 والنهار ، وتقليب القلوب وإجالة الأفكار ، وإذا تعارضت الحظوظ فما عند  
 الله خير للأبرار ، والدار الآخرة دار القرار ، وخير الأعمال عمل أوصل إلى  
 الجنة وباعد من النار ، ولتعلموا أن نفوس أهل الكشف والاطلاع ، بهذه  
 الأرجاء والأصقاع ، قد اتفقت أخبارها ، واتحدت أسرارها ، على البشارة  
 بفتح قرب أوانه ، وأظل زمانه ، فارجو الله أن تكونوا ممن يحضر مدعاه ،

١ الرحمة : سقطت من ق ط ج .

ويكرم فيه مَسْعَاهُ ، ويسلف فيه العمل الذي يشكره الله ويرعاه ، والسلام  
الكريم يَخْصُكُمْ ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

• • •

[ تشبيه الأندلس بالعقاب ]

ولما دخل الأندلس أميرُ المسلمين عليّ ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين  
اللمتوني ملك المغرب والأندلس ، وأمعن النظر فيها ، وتأمل وصفها وحالها ،  
قال : إنها تُشبه عقاباً مَخَالِبُهُ طُلَيْطَلَةٌ ، وصدْرُه قلعة رِبَاح ، ورأسه جِيَان ،  
ومنقاره غَرْنَاطَةٌ ، وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط  
إلى المشرق ، في خبر طويل لم يحضرني الآن ، إذ تركته مع كُتُبِي بالمغرب ، جمعي  
الله بها على أحسن الأحوال .

• • •

[ المخزومي الأعمى ونزهون الغرناطية ]

ومع كون أهل الأندلس سُبَّاقَ حَلْبَةِ الجهاد ، مُهْطَعِينَ إلى داعيه من  
الجبال والوهاد ، فكان لهم في الترفّ والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف  
المهْجَاءِ محلٌّ وثير المهاد ، وسيأتي في الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره  
ما يشفي ويكفي ، ولكن سنح لي أن أذكر هنا حكاية أبي بكر المخزومي المهْجَاءِ  
المشهور الذي قال فيه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة<sup>١</sup> : إنّه كان أعمى شديد  
الشر ، معروفاً بالهْجَاءِ ، مسلطاً على الأعراض ، سريع الجواب ، ذكي الذهن ،  
فطناً للمعاريض ، سابقاً في ميدان الهْجَاءِ ، فإذا مدح ضعف شعره . والحكاية هي  
ما حكاه أبو الحسن ابن سعيد في الطالع السعيد ، إذ قال حكاية عن أبيه فيما أظن :  
قدم المذكورُ - يعني المخزومي - على غَرْنَاطَةِ أيامَ ولاية أبي بكر ابن سعيد ،

١ . الإحاطة ١ : ٤٣٢ - ٤٣٥ .

ونزل قريباً مني ، وكنت أسمع به بنار صاعقة يُرسلها الله على مَنْ يشاء من عباده ،  
ثم رأيت أن أبدأه بالتأنيس والإحسان ، فاستدعيته بهذه الأبيات :

يا ثانياً للمعري	في حُسْنِ نَظْمٍ وَتَبَرٍ
وَفَرَطِ ظَرْفٍ وَتُبْلٍ	وَعَوُصِ فَهْمٍ وَفِكْرٍ
صِلْ ثُمَّ وَأَصِلْ حَفِيّاً	بِكُلِّ بَرٍّ وَشُكْرٍ
وَلَيْسَ إِلاَّ حَدِيثٌ	كَمَا وَهِيَ عَقْدُ دُرٍّ
وَشَادِنٌ يَتَغَنَّى	عَلَى رَبَابٍ وَزَمْرٍ
وَمَا يُسَامِحُ فِيهِ إِلاَّ	خَفُورٌ مِنْ كَأْسِ خَمْرٍ
وَبَيْنَنَا عَهْدٌ خَلْفٌ	لِيَأْسِرَ حَلْفَ كَفْرِ
نَعْمَ فَجَدَدَهُ عَهْداً	بَطِيبِ سَكْرٍ <sup>٢</sup> وَيَسْرِ
وَالكَأْسُ مِثْلُ رِضَاعٍ	وَمَنْ كَثَلِكَ يَدْرِي

ووجه له الوزير أبو بكر<sup>٣</sup> ابن سعيد عبداً صغيراً قاده ، فلما استقر  
به المجلس ، وأفعمته روائح الندى والعود والأزهار ، وهزت عطفه الأوتار ، قال :

دارُ السَّعِيدِيّ ذِي أُمِّ دَارِ رِضْوَانِ	مَا تَشْتَهِي النَّفْسُ فِيهَا حَاضِرٌ دَانِي
سَقَتْ أِبَارِيقَهَا لِلنَّدَى سَحْبُ نَدَى	تُحْدِي بِرَعْدِ لَأُوتَارٍ وَعِيدَانِ <sup>٤</sup>
وَالْبَرْقُ مِنْ كُلِّ دَنْ سَاكِبٌ مَطْرَأً	يُجِيا بِهِ مَيْتُ أَفْكَارٍ وَأَشْجَانِ
هَذَا النَّعِيمُ الَّذِي كُنَّا نُحَدِّثُهُ	وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلاَّ بِأَذَانِ

فقال له أبو بكر ابن سعيد : وإلى الآن لا سبيل له إلاّ بأذان ؟ فقال : حتى

١ ق والإحاطة : بكل شكر وبر .

٢ في النسخ : شكر . دوزي : فقم نجدده .

٣ أبو بكر : سقطت من ق .

٤ ق ط ج : وألحان .

يبعث الله ولد زني كلما أنشدت هذه الأبيات قال : إن قائلها أعمى ، فقال : أما أنا فما أنطق بحرف ، فقال : من صمت نجا . وكانت نزهون بنت القلاعي حاضرة فقالت : وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجمر ندى وغناء وشراب ، فتعجب من تأتبه وتشبهه بنعيم الجنة ، وتقول : ما كان يعلم إلا بالسمع ، ولا يبلغ إليه بالعيان ؟ ولكن من يجيء من حصن المدور ، وينشأ بين تيوس وبقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم ؟ فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى ، فقالت له : ذبحة ، فقال : من هذه الفاضلة ؟ فقالت : عجوز مقام أمك ، فقال : كذبت ، ما هذا صوت عجوز ، إنما هذه نعمة قحبة محترقة تشم روائح منها على فرسخ ، فقال له أبو بكر : يا أستاذ ، هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأدبية ، فقال : سمعت بها ، لا أسمعها الله خيراً ، ولا أراها إلا أيراً . فقالت له : يا شيع سوء تناقضت ، وأي خير للمرأة مثل ما ذكرت ؟ ففكر ساعة ثم قال :

على وجه نزهون من الحسن مسحة  
قواصِدُ نزهون توارِكُ غيرها  
وإن كان قد أَمسى من الضوء عارياً  
ومن قَصَدَ البحر استقل السواقيما

فأملت فكرها ثم قالت :

قُلْ للوَضِيعِ مَقَالاً	بُتُّلى إلى حين يُحْشَرُ
مِنَ المَدَوَّرِ أَنْشِدْ	تَ وَالْحَرَا مِنْهُ أَعْطَرُ
حَيْثُ البَدَاوَةُ أَمْسَتْ	فِي مَشْبِئِهَا تَتَبَخَّرُ
لِلدَّائِكِ أَمْسَيْتَ صَبَاً	بِكُلِّ شَيْءٍ مُدَوَّرُ
خُلِفْتُ أَعْمَى وَلَكِنْ	تَهِيمُ فِي كُلِّ أَعْوَرُ
جَازَيْتُ شِعْراً بِشِعْرِ	فَقُلْ لِعَمْرِي مَنَ أَشْعَرُ

١ الأعمى : سقطت من ك .



إن كنتُ في الخلق أنثى فإنَّ شعري مُذكرٌ

فقال لها اسمعي :

ألا قلّ لنزهونة ما لها تجرُّ من التيه أذيالها  
ولو أبصرت فيثشة شمّرت - كما عودتني - سربالها

فحلف أبو بكر ابن سعيد أن لا يزيد أحدهما على الآخر في هجوه كلمة ، فقال المخزومي : أكونُ هجاءُ الأندلس وأكفُّ عنها دون شيء ؟ فقال : أنا أشترى منك عرضها فاطلب ، فقال : بالعبد الذي أرسلته فقادني إلى منزلك ، فإنه لين اليد رقيق المشي ، فقال أبو بكر : لولا كونه صغيراً كنت أبلغك به مرادك ، وأهبه لك ، ففهم قصده وقال : أصبر عليه حتى يكبر ، ولو كان كبيراً ما آثرني به على نفسك ! فضحك أبو بكر ، وقال : إن لم تهجُ نظماً هجوت نثراً ، فقال : أيها الوزير لا تبديل لخلق الله . وانفصل المخزومي بالعبد بعدما أصلح الوزير بينه وبين نزهون ، انتهى .

وفي كتاب « الدر المنضد ، في وفيات أعيان أمة محمد » تأليف الأمير صارم الدين إبراهيم بن دُقماق<sup>١</sup> ، قال أبو القاسم بن خلف : كان - يعني المخزومي المذكور - حياً بعد الأربعين وخمسمائة ، انتهى .

\* \* \*

[ قصة استطراذية ]

ونقلت من كتاب « قطب السرور »<sup>٢</sup> لابن الرقيق المغربي ، ما ملخصه<sup>٣</sup> :

- ١ إبراهيم بن محمد بن أيدير بن دُقماق القاهري صارم الدين ( - ٨٠٩ ) مؤرخ مصر ، كان مكثرأ من التأليف في التاريخ ، وهو صاحب كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » في تاريخ مصر ( الضوء اللامع ١ : ١٤٥ ) ؛ وفي ك : الإمام صارم الدين .
- ٢ قطب السرور في وصف الأنبياء والخمور . ( انظر تكملة بروكلمان ١ : ٢٥٢ ومنه جزء بخرانة الزباط ) .
- ٣ ورد النص في « المقتطفات » : ٤٣ وما بعدها .

وممن أدركته وعاشرته عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب ، وذكرته هنا لأنه ملحق بالأمرء المتقدمين غير خارج منهم ولا مقصر عنهم ، بل كان واحدا عصره في الغناء الرائع ، والأدب الرائع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الأنيق ، ورقة الطبع ، وإصابة النادر ، والتشبيه المصيب ، والبديهة التي لا يُلحَقُ فيها ؛ مع شرف النفس ، وعلوِّ الهمة ، وكان قد قطع عمره ، وأفتى دهره ، في اللهو واللعب ، والفكاهة والطرب ، وكان أعلم الناس بضرب العود ، واختلاف طرائقه ، وصنعة اللحون ، وكثيراً ما يقول المعاني اللطيفة في الأبيات الحسنة ، ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة ، اختراعاً منه وحيداً ، وكانت له في ذلك قريحة وطبع ، وكان إذا لم يزره أحد من إخوانه أحضر مائدته وشرابه عشرة من أهل بيته ، منهم ولده وعبد الله ابن أخيه وبعض غلمانه ، وكلهم يُغَنِّي فيجيد ، فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعود ويغني لنفسه ولهم ، وكان بشارة الزامر الذي يزمر عليه من حذّاق زمرة المشرق ؛ وكان بعيداً الهمة سَمْحاً بما يجد ، تُغَلُّ عليه ضياعه كل عام أموالاً جلييلة ، فلا تحولُ السنةُ حتى ينفدَ جميعُ ذلك ويستسلف غيره ، فكان لا يطرأ من المشرق مُغَنٍّ إلا سأل من يقصد بهذا الشأن ، فيدل عليه ، فمن وصلته منهم استقبله بصنوف البر والإكرام ، وكساه وخلطه بنفسه ولم يدعه إلى أحد من الناس ، فلا يزال معه في صبوح وغبوق ، وهو مُجدِّد له كل يوم كرامة ، حتى يأخذ جميع ما معه من صوتٍ مُطْرِبٍ أو حكاية نادرة .

وجلس يوماً وقد زاره رجلان من إخوانه ، وحضر أقرباؤه ، فطعموا وشربوا وأخذوا في الغناء ، فارتجَّ المجلس ، إذ دخل عليه بعض غلمانه فقال : بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ، ذكر أنه ضيف ، فأمر بإدخاله ، فإذا رجل أسمر سِنَاط<sup>١</sup> ، رث الهيئة ، فسلم عليه ، قال : أين بلد الرجل ؟

١ سِنَاط : ليس في عارضيه شعر .

قال : البصرة ، فرحب به ، وأمره بالجلوس ، فجلس مع الغلمان في صُفَّة ،  
 وأتى بطعام فأكل وسقي أقداحاً ، ودار الغناء في المجلس ، حتى انتهى إلى  
 آخرهم ، فلما سكتوا اندفع يغني بصوت نديّ وطبع حسن :

ألا يا دارُ ما الهجرُ لسُكَّانِكِ مِن شاني  
 سَقِيَتِ الغيثَ من دارِ وإن هَيَّجَتِ أشجاني  
 ولو شئتُ لما استسقيتُ ت غيثاً غيرَ أجفاني  
 بنقسي حلَّ أهْلُوكِ وإن بانُوا بِسُلُولاني  
 وما الدَّهْرُ بِمأمونٍ على تشيتِ خِلاّتي

فطرب عبد الوهاب وصاح ، وتبين الخذق في إشارته ، والطيب في طبعه ،  
 وقال : يا غلام ، خذ بيده إلى الحمام ، وعجل عليّ به ، فأدخل الحمام ، ونظف ،  
 ثم دعا عبد الوهاب بجلعة من ثيابه فألقيت عليه ، ورفعها فأجلسه عن يساره ،  
 وأقبل عليه وبسطه ، فغنى له :

قومي امزجي التبر باللّجينِ واحتَملي الرطل باليدَيْنِ  
 واغتمني غفلةً اللبالي فرُبّما أيقظتُ لِحِينِ  
 فقدَ لعمري أقرّ منا هلالُ شوالٍ كلَّ عَيْنِ  
 ذاتُ الخلاخيلِ أبصرتهُ كَنِصْفِ خَلْخالها اللّجيني

فطرب وشرب ، واستزاده ، فغنّاه :

مَنْ لي على رَعْمِ الحسودِ بقهوةٍ بَكْرِي رَبِيبَةٍ حانة عَدْرَاءِ  
 مَوْجٍ من الذهبِ المذابِ تَضْمُهُ كَأْسُ كَفِشْرِ الدَّرَةِ البَيْضَاءِ  
 والنجمُ في أفقِ السماءِ كأنه عَيْنُ تَخَالَسُ غَفْلَةَ الرُقْبَاءِ

فشرب عبد الوهاب ثم قال : زدني ، فغنّاه :

وَأَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ عَيْتِي بِمَائِهَا وَعَلَّمْتَهَا بِالْهَجْرِ أَنْ تَهْجُرَ الْغُمُضَا  
وَأَغْرَقْتَهَا بِالْدمْعِ حَتَّى جُفُونُهَا لَيْسُنْكَرٌ مِنْ فَقْدِ الْكُرَى بَعْضُهَا بَعْضَا

فمرَّ يوم من أحسن الأيام وأطيبها ، ووصله وأحسن إليه ، ولم يزل عنده  
مُفْرَبًا مكرَّمًا ، وكان خليعًا ماجنًا مشتهرًا بالنبيذ ، فخلَّاهُ وما أحبَّ ، ثمَّ  
وصف له الأندلس وطيبها ، وكثرة خمورها ، فمضى إليها ومات بها ، وعلى  
نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارئ يطرأ من المشرق ، ولو ذكرتهم لطال بهم  
الكتاب ، انتهى .

وغرضي من إيراد هذه الحكاية هنا كونه وصف للمشرقي الأندلس وطيبها ،  
وذلك أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، والله المستول في حسن المتاب .

\* \* \*

#### [ قصر باديس بغرناطة ]

ورأيت في بعض كتب تاريخ الأندلس في ترجمة السلطان باديس الصنهاجي  
صاحب غرناطة ، ما نصّه : وهو الذي أكمل ترتيب قصبة مالقة ، وكان أفرس  
الناس وأنبأهم ، ذا مروءة ونجدة ، وقصره بغرناطة ليس ببلاد الإسلام  
والكفر مثله ، فيما قيل ، انتهى .

وهذا القصر هو الذي عناه لسان الدين بن الخطيب في قصيدته السنية المذكورة  
في الباب الخامس من القسم الثاني من هذا الكتاب ، فلترجع ثمة .

\* \* \*

#### [ سرقسطة وخواصها ]

وذكر غير واحد من المحدثين والمؤرخين أن مدينة سرقسطة لا يدخلها  
الثعبان من قبل نفسه ، وإذا أدخله أحد لم يتحرك ، ونظيرُ هذا المعنى في بعض  
الحيوانات بالنسبة إلى بعض البلاد كثير ، وذلك برصد أو طليسم ، وقد استطرد  
بعض علماء أصول الدين ذلك عندما تكلموا على السحر حسبما قرّر في محله ،

والله أعلم .

هكذا رأيت في كلام بعض علماء المشاركة ، والذي رأته لبعض مؤرخي المغرب في سرقسطة<sup>١</sup> أنها لا تدخلها عقرب ولا حية إلا ماتت من ساعتها ، ويؤتى بالحيات والعقارب إليها حية فبنفس ما تدخل إلى جوف البلد تموت ، قال : ولا يتسوس فيها شيء من الطعام ولا يعفن ، ويوجد فيها القمح من مائة سنة ، والعب المعلق من ستة أعوام ، والتين والخوخ وحب الملوك والتفاح والإجاص اليابسة من أربعة أعوام ، والفلو والحمص من عشرين سنة ، ولا يسوس فيها خشب ولا ثوب صوفاً كان أو حريراً أو كتاناً ، وليس في بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها ، ولا أطيب طعاماً ، ولا أكبر جرمماً ، والبساتين مُحَدَّقة بها من كل ناحية ثمانية أميال ، ولها أعمال كثيرة : مدن وحصون وقرى مسافة أربعين ميلاً ، وهي تضاهي مدن العراق في كثرة الأشجار والأنهار ، وبالجملة فأمرها عظيم ، وقد أسلفنا ذكرها .

\* \* \*

[ السمور بالأندلس ]

واعلم أن بأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا ما لا يوجد مجموعهُ غالباً في غيرها ، فمن ذلك ما ذكره الحجاري في المسهب : أن السمور الذي يُعمل من وبّره الفراء الرفيعة يُوجد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ، ويُجلب إلى سرقسطة ويُصنع بها . ولما ذكر ابن غالب وبّره السمور الذي يُصنع بقرطبة قال : هذا السمور المذكور هنا لم أتحقق ما هو ، ولا ما عني به ، إن كان هو نباتاً عندهم أو وبر الدابة المعروفة ، فإن كانت الدابة المعروفة فهي دابة تكون في البحر ، وتخرج إلى البر ، وعندها قوة مَيِّزٍ . وقال حامد بن سمجون الطبيب صاحب كتاب الأدوية

١ انظر مخطوطة الرباط : ٦٢ .

المفردة<sup>١</sup> : هو حيوان يكون في بحر الروم ، ولا يحتاج منه إلا إلى خُصّاه ، فيخرج الحيوان من البحر في البر ، فيؤخذ وتقطع خُصّاه ، ويطلق ، فربّما عرض للقنّاصين مرّة أخرى<sup>٢</sup> ، فإذا أحسّ بهم وخشي أن لا يفوتهم استلقى على ظهره وقرّج بين فخذيه ليُرى موضع خُصّيه خالياً ، فإذا رآه القنّاصون كذلك تركوه ، قال ابن غالب : ويسمى هذا الحيوان أيضاً الجندبادستر<sup>٣</sup> ، والدواء الذي يُصنّع من خُصّيه من الأدوية الرقيقة ، ومنافعه كثيرة ، وخاصيته في العلال الباردة ، وهو حارّ يابس في الدرجة الرابعة .

\* \* \*

### [ فراء القنلية ]

والقنلية<sup>٤</sup> حيوان أدق من الأرنب وأطيب في الطعام وأحسن وبراً ، وكثيراً ما تُلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا توجد في برّ البربر إلا ما جُلب منها إلى سبّنة فتشأ في جوانبها ، قال ابن سعيد : وقد جُلبت في هذه المدّة إلى تونس حضرة إفريقية .

\* \* \*

### [ سائر حيواناتها وطورها ]

ويكون بالأندلس من الغزال والأيل وحمار الوحش وبقّره وغير ذلك ممّا يوجد في غيرها كثير<sup>٥</sup> ، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة ، ولا الفيل والزرافة

١ أبو بكر حامد بن سمجون (- ٣٩٢) طبيب أندلسي ، متميز في قوى الأدوية المفردة وكتابه فيها كان مشهوراً بالجودة وقد بالغ فيه وأجهد نفسه في تأليفه ، وقد كتبه المنصور بن أبي عامر . (انظر ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥١ - ٥٢) .  
٢ ق : ثانية .

٣ الجندبادستر : حيوان كههيئة الكلب ويسمى القنذر ، ويسمى السمور أيضاً ، وهو على هيئة الثعلب أحمر اللون وذنبه طويل (الدميري ١ : ٢٤٣ ونخبة الدهر : ١٤٧) .

٤ شبه بالأرنب ويسمى بالإيطالية (Coniglio) . وفي ط : القنلية .

٥ ك : مما لا يوجد . . . كثيراً .

وغير ذلك مما يكون في أقاليم الحرارة ، ولها سَبْعُ يُعرف باللَّب أكبر بقليل من الذئب في نهاية من الصِّحَّة ، وقد يفترس الرجل إذا كان جائعاً .  
وبغالُ الأندلس فارهة ، وخيلُها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدو في خيل البرّ الجنوبيّ .  
ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر ، ودوابّ بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض .  
قال ابن سعيد : عاينتُ من ذلك العجب ، والمسافرون في البحر يخافون منها لثلاث تغلب المراكب ، فيقطعون الكلام ، ولها نَفْخٌ بالماء من فيها يقوم في الجو إذا ارتفع مفرط .

\* \* \*

### [ أنواع الأفاويه فيها ]

وقال ابن سعيد : قال المسعودي في « مروج الذهب » : في الأندلس من أنواع الأفاويه خمسة وعشرون صنفاً : منها السنبل ، والقرنفل ، والصندل ، والقرفة ، وقصب الذريرة ، وغير ذلك .  
وذكر ابن غالب أن المسعودي قال : أصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر ، والزعفران ، وكلها من أرض الهند ، إلا الزعفران والعنبر ، فإنهما موجودان في أرض الأندلس ، ويوجد العنبر في أرض الشَّحْر .  
قال ابن سعيد : وقد تكلموا في أصل العنبر<sup>٢</sup> ، فذكر بعضهم أنه عيون تنبع في قعر البحر يصير منها ما تبلعه الدواب وتقذفه . قال الحجاري : ومنهم من قال : إنه نبات في قعر البحر .  
وقد تقدم قول الرازي إن المحلب — وهو المقدم في الأفاويه ، والمفضل في

١ هو ما يسمى بالإسبانية (Lobo) وباللاتينية (Lupus) ، وقد أطلق الامم علماء على كثير من الرجال المترجم بهم في كتب التراجم الأندلسية .

٢ انظر مختلف الأفاويل في أصل العنبر في ابن البيطار ٣ : ١٣٤ .

أنواع الأشنان - لا يوجد في شيء من الأرض إلا بالهند والأندلس .  
قال ابن سعيد : وفي الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أطلقت فيها فاحت  
بروائح العود وما أشبهه ، وفي جبل شلير أفاويه هندية .

\* \* \*

### [ ثمارها وفواكهها ]

قال : وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعدُ بلاد الله بكثرتها ،  
ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز ، المعدومان<sup>١</sup> في الأقاليم الباردة ، ولا  
يعدم منها إلا التمر ، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقلُّ ، كالتين  
القوطي<sup>٢</sup> والتين الشعري<sup>٣</sup> بإشبيلية .

قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم ترَ عيني ولم أذق لهما منذ خرجت من  
الأندلس ما يفضلهما ، وكذلك التين المالتقي<sup>٤</sup> والزبيب المنكبي<sup>٥</sup> والزبيب العسلي<sup>٦</sup>  
والرمان السفري<sup>٣</sup> والخوخ والجوز واللوز ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

\* \* \*

### [ معادنها وأحجارها وقرمزها ]

وقد ذكر ابن سعيد أيضاً أن الأرض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة ،  
وأنتها في الأندلس التي هي بعض تلك الأرض ، وأعظم معدن للذهب بالأندلس  
في جهة شنتت ياقوه قاعدة الجلالة على البحر المحيط ، وفي جهة قرطبة الفضة  
والزئبق ، والنحاس في شمال الأندلس كثير ، والصُّفر الذي يكاد يشبه الذهب ،  
وغير ذلك من المعادن المتفرقة في أماكنها .

١ ك : ويوجدان .

٢ ك : السفري .

٣ الرمان السفري : حدث الحفني (قضاة قرطبة) : ٣٢ كيف دخل الأندلس ، وقال إن الذي  
زرعه رجل اسمه « سفر » ، وهذا الرمان يعرف بالإسبانية باسم ( Zafari ) وسيحدث عنه  
المقري بتفصيل في الباب الرابع .



والعينُ التي يخرج منها الزجاج في لبلة مشهورة ، وهو كثير مفضل في البلاد  
منسوب ، وبجبل طليطلة جبل الطَّفَل الذي يجهز إلى البلاد ، ويفضل على كل  
طَفَل بالمشرق والمغرب .

وبالأندلس عدة مقاطع للرخام ، وذكر الرازي أن يجبل قُرْطُبَة مقاطع  
الرخام الأبيض الناصع<sup>١</sup> والحمري ، وفي ناشرة مقطوع عجيب للعمد ،  
وبياغه من مملكة غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة مؤشاة في حمرة وصقرة ،  
وغير ذلك من المقاطع التي بالأندلس من الرخام الحالك والمجزع .  
وحصى المريّة يُحمل إلى البلاد فإنه كالدر في رونقه ، وله ألوان عجيبة ،  
ومن عادتهم أن يضعوه في كيزان الماء .

وفي الأندلس من الأمان التي تنزل من السماء القرمز الذي ينزل على شجر  
البلوط فيجمعه الناس من الشعرا ويصبغون به ، فيخرج منه اللون الأحمر  
الذي لا تفوقه حمرة .

#### [ مصنوعاتها ]

قال ابن سعيد : وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل ، وللمتعصين  
لها في ذلك كلام كثير ، فقد اختلفت المريّة ومالقة<sup>٢</sup> ومرسية بالوشي<sup>٢</sup> المذهب  
الذي يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً ، وفي تننالة من عمل  
مُرسية تعمل البُسْط التي يُغال في ثمنها بالمشرق ، ويصنع في غرناطة وبسطة  
من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يُعرف بالملبد المخم ذو الألوان  
العجيبة ، ويصنع في مُرسية من الأسيرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات  
الصفير والحديد من السكاكين والأمقاص الذهبية وغير ذلك من آلات العروس

١ ك : الناصع اللون .

٢ ك : بالوشي .

والجنديّ ما يبهر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها .  
ويُصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاجُ الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب ، ويصنع  
بالأندلس نوع من المفضّص<sup>١</sup> المعروف في المشرق بالفُسَيْفَسَاء ونوع بسيط به  
قاعات ديارهم يُعرف بالزُلَيْجِي<sup>٢</sup> يشبه المفضّص ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه  
مقام الرخام الملون الذي يصرّفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذروان<sup>٣</sup> ،  
وما يجري مجراه .

\* \* \*

### [ الأسلحة ]

وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم<sup>٣</sup> والدروع  
والمغافر فأكثر هم أهل الأندلس - فيما حكى ابن سعيد - كانت مصروفة  
إلى هذا الشأن ، ويصنع منها في بلاد الكفر ما يبهر العقول ، قال : والسيوف  
البرذليات مشهورة بالجوذة ، وبرذيل : آخر بلاد الأندلس<sup>٤</sup> من جهة الشمال  
والمشرق ، والفولاذ الذي بإشبيلية إليه النهاية ، وفي إشبيلية من دقائق الصنائع  
ما يطول ذكره .

\* \* \*

### [ الآثار الأولية بالأندلس ]

وقد أفرد ابن غالب في « فرحة الأنفس » للآثار الأولية التي بالأندلس من  
كتابه مكاناً ، فقال : منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحي<sup>١</sup>  
التي بيطركونة على وزن لطيف وتديبر محكم حتى طحنت به ، وذلك من  
أعجب ما صنع . ومن ذلك ما صنعه الأول أيضاً من جلب الماء في البحر المحيط

١ ك : المفضض .

٢ هو ما يسمى بالإسبانية : (Azulejo) ؛ وفي ق : بالزلنجي ، وهو خطأ .

٣ ج : واللجم .

٤ ق ط ج : آخر الأندلس .

إلى جزيرة قادس من العين التي في إقليم الأصنام ، جلبوه في جوف البحر في الصخر المجوّف ذكراً في أنثى وشقّوا به الجبال ، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنّوا له قناطر على حنايا ، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجّعوا إلى البنيان المذكور ، فإذا صادف سبخة بني له رصيف وأجري عليه ، هكذا إلى أن انتهى به إلى البحر ، ثمّ دخل به في البحر ، وأخرج في جزيرة قادس ، والبنيان الذي عليه الماء في البحر ظاهر بيّن ، قال ابن سعيد : إلى وقتنا هذا .

ومنها الرصيف المشهور بالأندلس<sup>١</sup> ، قال في بعض أخبار رومية : إنّه لما ولي يوليش المعروف بجاشر ، وابتدأ بتدريج الأرض وتكسيها ، كان ابتداءه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب ، ثمّ بدأ بفرش المبلّطة<sup>٢</sup> ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرقي قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار ، ثمّ ابتدأها من باب القنطرة قبليّ قرطبة إلى شقنّدة إلى إسّنجة إلى قرمونة إلى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية ، وذكر أنّه أراد تسقيها في بعض الأماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ، ثمّ توقع أن يكون ذلك فساداً في الأرض وتغييراً للطرق<sup>٣</sup> عند انتشار اللصوص وأهل الشرّ فيها في المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هي عليه . وذكر في هذه الآثار صنم قادس الذي ليس له نظير إلا الصنم الذي بطرف جليقية ، وذكر قنطرة طليطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب مرّبيطر .

قال ابن سعيد : وفي الأندلس عجائب ، منها الشجرة التي لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذكرتها ، فإن خبرها عندهم شائع متواتر ، وقد رأيت من

١ ومنها . . . بالأندلس : سقطت من ق .

٢ ك : المبلّطة .

٣ ق : للطريق .

يَشْهَدُ بِخَبْرِهَا وَرُؤْيَيْهَا ، وَهِيَ جَمٌّ غَفِيرٌ ، وَهِيَ شَجَرَةٌ زَيْتُونٌ تَصْنَعُ الْوَرَقَ  
وَالنَّوْرَ وَالثَّمْرَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَعْلُومٍ عِنْدَهُمْ مِنْ أَيَّامِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ .

وَمِنَ الْعَجَائِبِ السَّارِيَةِ الَّتِي بِغَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ، مَا يَزْعَمُ الْجُمْهُورُ أَنَّ أَهْلَ ذَلِكَ  
الْمَكَانِ إِذَا أَحْبَبُوا الْمَطَرَ أَقَامُوهَا فَيَمْطُرُ اللَّهُ جَهَنَّمَ .

وَمِنْهَا صَنْمٌ قَادِسٌ ، طَوَّلَ مَا كَانَ قَائِمًا كَانَ يَمْنَعُ الرِّيحَ أَنْ تَهَبَّ فِي الْبَحْرِ  
الْمُحِيطِ فَلَا تَسْتَطِيعُ الْمَرَاقِبُ الْكِبَارُ عَلَى الْجُرِيِّ فِيهِ ، فَلَمَّا هُدِمَ فِي أَوَّلِ دَوْلَةِ بَنِي  
عَبْدِ الْمُؤْمِنِ صَارَتْ السَّفِينُ تَجْرِي فِيهِ .

وَبِكُورَةِ قَبْرَةِ مَعَارَةَ ذَكَرَهَا الرَّازِي وَحَكِيَ أَنَّهُ يُقَالُ : إِنَّهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ  
الرِّيحِ لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرٌ .

وَذَكَرَ الرَّازِي أَنَّ فِي جِهَةِ قَلْعَةٍ وَرَدَ جَبَلًا فِيهِ شَقٌّ فِي صَخْرَةٍ دَاخِلَ كَهْفٍ  
فِيهِ فَأَسُّ حَدِيدٍ مُتَعَلِّقٌ مِنَ الشَّقِّ الَّذِي فِي الصَّخْرَةِ ، تَرَاهُ الْعَيُونَ وَتَلْمَسُهُ الْيَدُ ،  
وَمَنْ رَامَ إِخْرَاجَهُ لَمْ يَطِقْ ذَلِكَ ، وَإِذَا رَفَعْتَهُ الْيَدُ ارْتَفَعَ وَغَابَ فِي شَقِّ الصَّخْرَةِ  
ثُمَّ يَعُودُ إِلَى حَالَتِهِ .

وَأَمَّا مَا أوردَهُ ابْنُ بَشْكُوَالٍ<sup>٢</sup> مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ فِي شَأْنِ فَضْلِ الْأَنْدَلُسِ  
وَالْمَغْرِبِ فَقَدْ ذَكَرَهَا ابْنُ سَعِيدٍ فِي كِتَابِهِ الْمَغْرِبِ ، وَلَمْ أَذْكَرْهَا أَنَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ  
بِحَقِيقَةِ أَمْرِهَا ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ بَشْكُوَالٍ مِنْ أَنَّ فَتْحَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ إِنَّمَا يَكُونُ  
مِنْ قِبَلِ الْأَنْدَلُسِ ، قَالَ : وَذَكَرَهُ سَيْفٌ<sup>٣</sup> عَنْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ  
— وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصَحَّةِ ذَلِكَ — وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ رُومِيَّةَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَالَ سَيْفٌ : وَذَلِكَ أَنَّ عَثْمَانَ نَدَبَ جَيْشًا مِنَ الْقَيْرَوَانِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَكَتَبَ  
لَهُمْ : أَمَا بَعْدَ ، فَإِنَّ فَتْحَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الْأَنْدَلُسِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ

١ سقطت « ما » من ك .

٢ ما ينقله المقرئ عن ابن بشكوال إنما هو من كتاب له في تاريخ الأندلس لم يصلنا ، وقد وردت  
هذه الأحاديث في مخطوطة الرباط : ١٠ .

٣ يعني الإخباري « سيف بن عمر » أحد الرواة الذين اعتمدتهم الطبري .

فتحتموها كنتم الشركاء في الأجر ، والسلام ، انتهى .  
قلت : عهدة هذه الأمور على ناقلها ، وأنا بريء من عهدها ، وإن ذكرها  
ابن بَشْكُوَال وصاحب المُعَرَّب وغير واحد فإنها عندي لا أصل لها ، وأيَّ  
وقت بعثَ عثمان إلى الأندلس ؟ مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمانَ الوليد ،  
وإنما ذكرت هذا للتنبية عليه ، لا غير ، والله أعلم .

\* \* \*

[ وصف ابن سعيد للأندلس ]

قال ابن سعيد : وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أهدقت بها البحار ،  
فأكثرت فيها الخِصْب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرتَ من مدينة إلى مدينة  
لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة .  
ومما اختصت به أن قرأها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها ،  
لثلاثي العيون عنها ، فهي كما قال الوزير ابن الحمارة فيها :

لأحْتُ قُراها بين خُضرة أيكها كالدَّرِّ بين زَبَرَجَدٍ مَكْنُونِ

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين  
بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها ، وفي الأندلس جهات تقرب فيها  
المدينة العظيمة المصرة من مثلها ، والمثال في ذلك أنك إذا توجهت من إشبيلية  
فعلَى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شَرِيش ، وهي في نهاية من الحضارة  
والتضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة ، وهذا كثير  
في الأندلس ، ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسور من أجل الاستعداد للعدو ،  
فحصل لها بذلك التشييد والترتين ، وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيف

١ محمد بن الحمارة الفرناطي أبو عامر ، تلميذ ابن باجة ، كان بارعاً في علم الألحان وصناعة الأعود  
( ترجمته في بغية الملتبس ص : ٥١٧ والمغرب ٢ : ١٢٠ ) وسيدكره المقرئ باسم « أبو الحسين  
علي بن الحمارة » ، فله شخص آخر .

على عشرين سنة لامتناع معاقليها ، ودُرْبَة أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب ، وكثرة ما تنخزن الغلة في مطاميرها ، فمنها ما يطول صبره عليها نحواً من مائة سنة . قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن ، وإن كان العدو قد نَقَصَهَا من أطرافها ، وشارك في أواسطها ففي البقية منعة عظيمة ، فأرض بقي فيها مثل إشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة المصّرة الرجاء فيها قويّ بحول الله وقوته ، انتهى .

قلت : قد خاب ذلك الرجاء ، وصارت تلك الأرجاء للكفر معرّجاً ، ونسأل الله تعالى الذي جعل اللهمّ فرجاً ، وللضيق مخرجاً ، أن يعيد إليها كلمة الإسلام حتى يَسْتَنْشِقَ أهلُه منه فيها أرجاً ، آمين .

• • •

### [ بلنا طليطة ]

ومن غرائب الأندلس : البيلتان<sup>١</sup> اللتان بطليطة ، صنعهما عبدُ الرحمن<sup>٢</sup> لما سمع بخبر الطلّسم الذي بمدينة أرين من أرض الهند ، وقد ذكره المسعودي ، وأنه يدور بإصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطة في بيت مجوّف في جوف النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين ، ومن عجبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أن أوّل انهلال الهلال يخرج فيهما يسيرُ ماء ، فإذا أصبح كان فيهما [ ربع ]<sup>٣</sup> سبعهما من الماء ، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال ، فيكون

١ البيلة : حوض النافورة ، وترادفها في الاستعمال أحياناً لفظة « خصّة » وهي بالإسبانية والإيطالية

( Pila ) ، وخبر البيلتين ووصفهما مذكور بتفصيل في مخطوطة الرباط : ٣٨ .

٢ يعني أبا القاسم عبد الرحمن الزرقال ، كما جاء في مخطوطة الرباط .

٣ زيادة لازمة عن مخطوطة الرباط سقطت من النسخ .

فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر ، فإذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نَقَصَتَا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع [ حتى يتم القمر واحداً وعشرين يوماً فينقص منهما نصفهما ولا يزال كذلك ينقص في كل يوم وليلة نصف سبع ]<sup>١</sup> فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء ، وإذا تكلف أحد<sup>٢</sup> حين تنقصان أن يملأهما وجكَبَ لهما الماء ابتلعنا ذلك من حينها حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما في تلك الساعة ، وكذا لو تكلف عند امتلائهما إفراغهما ولم يَبْقَ فيهما شيئاً ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين . وهما أعجب من طَلَسَمَ الهند ، لأن ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار ، وأما هاتان فليستا في مكان الاعتدال ، ولم تزالا في بيت واحد حتى ملك النصارى - دَمَرَهُمَ اللهُ - طَلَيْطَلَةَ ، فأراد الفُنُشُّ أن يعلم حركاتهما ، فأمر أن تُقْلَعَ الواحدة منهما لينظر من أين يأتي إليها الماء ، وكيف الحركة فيهما ، فقلعت ، فبطلت حركتهما ، وذلك سنة ٥٢٨ . وقيل : إن سبب فسادهما حنين اليهودي<sup>٢</sup> الذي جكَبَ حَمَامَ الأندلس كلها إلى طليطلة في يوم واحد ، وذلك سنة ٥٢٧ ، وهو الذي أعلم الفُنُشُّ أن ولده<sup>٣</sup> سيدخل قرطبة ويملكها ، فأراد أن يكشف حركة البيئتين ، فقال له : أيها الملك ، أنا أقلعهما وأردُّهُمَا أحسن مما كانتا ، وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتَحْسِرَانِ في الليل ، فلما قلعت لم يقدر على ردها ، وقيل : إنّه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت ، ولم تزال الأخرى تعطي حركتها ، والله أعلم بحقيقة الحال .

\* \* \*

١ سقطت من ك و ط وهي مثبتة في دوزي ومخطوطة الرباط وق وج .  
 ٢ سماه في مخطوطة الرباط : حنين بن ربوة اليهودي المنجم .  
 ٣ مخطوطة الرباط : أن حفيده .

[ عود إلى ذكر إشبيلية ]

وقال بعضهم في إشبيلية : إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ، ومدينة الأدب والبهو والطرب ، وهي على ضفة النهر الكبير ، عظيمة الشأن ، طيبة المكان ، لها البر المديد ، والبحر الساكن ، والوادي العظيم ، وهي قريبة من البحر المحيط ، إلى أن قال : ولو لم يكن لها من الشرف إلا موضع الشرف المقابل لها المطل عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتد فراسخ في فراسخ لكفى<sup>١</sup> ، وبها منارة في جامعها بناها يعقوب المنصور ، ليس في بلاد الإسلام أعظم بناء منها . وعسل الشرف يبقى حيناً لا يترمل ولا يتبدل ، وكذلك الزيت والتين .

وقال ابن مفلح<sup>٢</sup> : إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس ، لأن تاجها الشرف ، وفي عنقها سمط النهر الأعظم ، وليس في الأرض أتم حسناً من هذا النهر ، يضيأها دجلة والفرات والنيل ، تسير القوارب فيه للترهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار ، وتغريد الأطياف ، أربعة وعشرين ميلاً ، ويتعاطى الناس السرج من جانبيه عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة ، وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى . وبالجملة فهي قد حازت البر والبحر ، والزرع والضرع ، وكثرة الثمار من كل جنس ، وقصب السكر ، ويجمع منها القرمز الذي هو أجل من اللك<sup>٣</sup> الهندي ، وزيتونها يخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة ، ثم يُعْتَصَر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو ظري ، انتهى ملخصاً . ولما ذكر ابن اليسع الأندلس قال : لا يتروّد فيها أحد ماء حيث سلك ، لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مدائن ، ومن

١ لكفى : سقطت من ط ج ق ، اكتفاء ، وفي دوزي : لكفاها .

٢ لعله المؤرخ إبراهيم بن محمد بن مفلح ( - ٨٨٤ ) قاضي دمشق ( الضوء اللامع ١ : ١٥٢ ) .

٣ قد تقدم ذكر القرمز وأنه نوع من المن الذي يجمع عن الشجر ، أما اللك فإنه مادة شبيهة به تدخل

في تركيب الأدوية ( ابن البيطار ٤ : ١١٠ ) .



المعاقل والقَرَى ما لا يحصى ، وهي بطاح خُضِر ، وقصور بيض . انتهى .

\* \* \*

[ مقارنة ابن سعيد بين الأندلس وسواها ]

قال ابن سعيد : وأنا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطُفْتُ في بر العُدوة ، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبّنة ، ثم طُفْتُ في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والقُسْطاط ، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلب وما بينهما - لم أر ما يُشبههُ رَوْتُق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ، وفي حماة مَسْجِدٌ أندلسية ، ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع ، إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن ، وبعض أماكن في تونس ، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسحُ شوارعَ وأبسطُ وأبدع ، ومباني حلب داخلة فيما يُستحسن ، لأنها من حجارة صلبة ، وفي وضعها وترتيبها إتقان ، انتهى .

\* \* \*

[ أشعار في وصف الأندلس ]

ومن أحسن ما جاء من النظم في الأندلس قولُ ابن سفر المريني ، والإحسانُ له عادة :

في أرض أندلسٍ تُلْتذُّ نَعْماءُ      ولا يفارقُ فيها القلبَ سراءُ  
وليس في غيرها بالعيشِ مُتَفَعٌّ      ولا تقومُ بحقّ الأُنسِ صِهْباءُ  
وأين يُعَدَّلُ عن أرضٍ تحضُّ بها      على المُدّامةِ أمواهٌ وأفْياءُ  
وكيف لا يبهجُ الأبصارَ رُوَيْتُها      وكلُّ روضٍ بها في الوشيِّ صنْعاءُ  
أنهارها فضةٌ ، والمسكُ تُرْبَتُها      والخزُّ رَوْضَتُها ، والدرُّ حصْباءُ

وللهواء بها لطفٌ يوقُّ به  
 ليس النسيمُ الذي يَهْفُو بها سَحَرًا  
 وإنما أَرَجُ النَّدَى اسْتِنَارَ بها  
 وأين يَبْلُغُ مِنْهَا ما أَصَنَّفُهُ  
 قد مُيِّزَت من جهات الأرض حين بدت  
 دارتُ عليها نِطاقًا أبحرُ خَفَقَتُ  
 لذلك يَبْسِمُ فيها الزَّهْرُ من طَرَبٍ  
 فيها خَلَعَتُ عِذارِي ما بها عِوَضُ

ولله دَرٌّ ابن خفاجة حيث يقول :

إن للجنة بالأندلسِ  
 فسنأ صبحتنا من شنبِ  
 فإذا ما هبتِ الرياحُ صبا  
 صحتُ واشوقني إلى الأندلسِ  
 مُجتلى مرأى وريتا نفسِ  
 ودجى ظلمتها من لعسِ

وقد تقدمت هذه الأبيات ١ .

قال ابن سعيد : قال ابن خفاجة هذه الأبيات وهو بالمغرب الأقصى في برِّ  
 العُدوة ، ومترله في شرق الأندلس بجزيرة شقر .

\* \* \*

[ رغاء الأندلس كما يصفه ابن حوقل ]

وقال ابن سعيد في المغرب ما نصّه : قواعد من كتاب « الشهب الثاقبة ، في  
 الإنصاف بين المشاركة والمغاربة » ٢ أول ما تقدم الكلام على قاعدة السلطنة

١ انظر ص : ١٧٠ من هذا الكتاب .

٢ لم يصلنا هذا الجزء من المغرب ، ولكن العمري أورد منه فقرات كثيرة في مسالك الأبصار الجزء  
 الثالث ، القسم الأول ، قال : والمناظرة بين المشرق والمغرب تحتل كتاباً وقد صنفته بالشام  
 لضرورة دعت إلى ذلك من شدة إنحاء المشاركة على المغاربة من كل جهة . . . وسُميت الكتاب =

بالأندلس ، فنقول : إنها مع ما بأيدي عبّاد الصّليب منها أعظم سلطنة كثرت ممالكها ، وتشعبت في وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها ، وندعُ كلامنا في هذا الشأن ، وننقل ما قاله ابن حوقل النصيبي في كتابه لما دخلها في مدة خلافة بني مروان بها في المائة الرابعة ، وذلك أنه لما وصفها قال <sup>١</sup> : وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة ، طولها دون الشهر في عرض نيّف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية والشجر والتمر ، والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والحصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هي به من أسباب رَغَد العيش وسَعَتِهِ وكَثْرَتِهِ ، يملك ذلك منهم مَهِينُهُمْ وأرباب صنائعهم لقلّة مؤنتهم وصلاح معاشهم وبلادهم . ثم أخذ في عظم سلطانها ووصف وفور جباياته وعظم مرآفته ، وقال في أثناء ذلك : ومما يُدَلُّ بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدراهم والدنانير دَخَلُهَا في كل سنة مائتا ألف دينار ، وصَرَفُ الدينار سبعة عشر درهماً ، هذا إلى صدقات البلد وجباياته ، وخراجاته وأعشاره وضمائنه والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك . وذكر ابن بشكّو أن جباية الأندلس بلغت في مدّة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً ، ثم <sup>٢</sup> من السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار .

ثم قال ابن حوقل : ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على مَنْ هي في يده مع صخر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبُعْدَهُمْ من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، وميراس الأنجاد والأبطال ، مع علم أمير المؤمنين بمحلّها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها .

• • •

= « الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشاركة والمغاربة » (الورقة : ١٠٤) .  
 ١ صورة الأرض : ١٠٤ ، وفي النص بعض اختلاف عما أثبتته ابن سبيد .  
 ٢ ثم : سقطت من ك .

[ ردّ ابن سعيد على بعض كلام ابن حوقل ]

قال علي بن سعيد مكمل هذا الكتاب : لم أر بدأ من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى ، ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة ، وليت شعري إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بأرائهم وعقولهم مع مُراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ ومن الذين حمّوها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب ؟ وإتني لأعجب منه إذ كان في زمان قد ذكفت فيه عبّاد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العيث في بلاد الإسلام ، حيث الجمهور والقبّة العظمى ، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب ، وما أدراك ، وفعلوا فيها ما فعلوا ، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة ، إلى غير ذلك ممّا هو مسطور في كتب التواريخ ، ومن أعظم ذلك وأشدّه أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الإسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم ، فيسبّون ويأسرون ، فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك ، وقد يستعين به بعضهم على بعض ، فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يُطبّ ، وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره ، وذلك موجود في تاريخ ابن حيّان وغيره ، وإنّما كانت الفتنة بعد ذلك : الأعلامُ بيّنة ، والطريق واضح .

فلنرجع إلى ما نحن بسبيله :

[ ابن سعيد يقدم سرداً لتطوّر التاريخ الأندلسي ]

كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها

١ كتب : سقطت من ق ط ج .

من سلاطين إفريقية ، واختلافُ الولاةِ داعٍ إلى الاضطراب ، وعدم تأثر  
الأحوال وتربية الضخامة في الدولة ، ولما صارت الأندلس لبني أمية وتوارثوا  
ممالكها وانقاد إليهم كل أبي فيها وأطاعهم كل عَصِيّ عظمت الدولة بالأندلس ،  
وكبرت الهمم وترتبت<sup>١</sup> الأحوال ، وترتبت القواعد ، وكانوا صَدْرًا من دولتهم  
يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف ، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة ، وملكوا من برّ  
العدوة ما ضخمت به دولتهم ، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة ، وتمكن الناموس  
من قلوب العالم ، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور ، وتعظيم العلماء ، والعمل  
بأقوالهم ، وإحضارهم في مجالسهم واستشارتهم ، ولهم حكايات في تاريخ  
ابن حيان : منها ما هو مذكور من توجه الحُكْم على خليفتهم أو على ابنه  
أو أحد حاشيته المختصين ، وأنهم كانوا في نهاية من الانقياد للحق<sup>٢</sup> لهم أو  
عليهم ، وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة . ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما  
تهتك أمرهم ، ثم اضمحل ، وكانت ألقابُ الأول منهم الأمراء أبناء الخلائف ،  
ثم الخلفاء أمراء المؤمنين ، إلى أن وقعت الفتنة بحسدٍ بعضهم لبعض ، وابتغاء  
الخلافة من غير وجهها الذي رتب عليه ، فاستبدت ملوك الممالك الأندلسية  
ببلادها ، وسمُّوا بملوك الطوائف واستبدوا<sup>٣</sup> ، وكان فيهم من خَطَب للخلفاء  
المروانيين وإن لم يبق لهم خلافة ، ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع  
على إمامتهم ، وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك ، حتى في الألقاب ،  
قال أمرهم إلى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء ، وترفعوا إلى طبقات السلطنة العظمى ،  
وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفه والضخامة التي تتوزع على ملوك شتى  
فتكفيهم ، وتنهض بهم للمباهاة . ولأجل توثبهم على النعوت العباسية ، قال  
ابن رشيقي القيرواني<sup>٤</sup> :

١ ق ج : وترتيب .

٢ ك : إلى الحق .

٣ واستبدوا : سقطت من ك .

٤ ديوان ابن رشيقي : ٥٩ ، وهما في وفيات الأعيان ٤ : ٥٢ لابن عمار الأندلسي .

مما يزهدني في أرض أندلسٍ      تلقبُ معتضدٍ فيها ومُعْتَمِدِ  
ألقابُ مملكةٍ في غير مَوْضِعِهَا      كاهراً يحكي انتفاخاً صَوْلَةَ الأسدِ

وكان عبّاد بن محمد بن عبّاد قد تلقب بالمعتضد ، واقتفى سيرة المعتضد العباسي أمير المؤمنين ، وتلقب ابنه محمد بن عبّاد بالمعتمد ، وكانت لبني عبّاد مملكة إشبيلية ثم انضاف إليها غيرها .

وكان خلفاء بني أمية يظهرون للناس في الأحيان على أبهة الخلافة ، وقانون لهم في ذلك معروف ، إلى أن كانت الفتنة ، فازدرت العيون ذلك الناموس ، واستخفت به .

وقد كان بنو حمّود من ولد إدريس المكلّوي الذين توثّبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاضمون ، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس ، وكانوا إذا حضرهم منشد لمُدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب ، والحاجب واقف عند الستر يجاب بما يقول له الخليفة ، ولما حضر ابن مقان الأشبوني أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمّودي الذي خطب له بالخلافة في مالقة ، وأنشده قصيدته المشهورة التونية التي منها قوله <sup>١</sup> :

وكانَّ الشَّمْسَ لَمَّا أَشْرَقَتْ      فانشتَ عنها عيونُ الناظرينُ  
وجهُ إدريس بن يحيى بن علي      بن حمّود أمير المؤمنين

وبلغ فيها إلى قوله :

انظُرُونَا نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ      إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

رفع الخليفة الستر بنفسه ، وقال : انظر كيف شئت ، وانبسط مع الشاعر ، وأحسن إليه .

١ عبد الرحمن بن مقان الأشبوني القبادي أبو زيد من شعراء الذخيرة (القسم الثاني : ٣٠١ ، وانظر المغرب ١ : ٤١٣ والهاشية في مصادر ترجمته) .

ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسّطون للخاصّة وكثير من العامة ، ويُظهرون مداراة<sup>١</sup> الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ، ويجب أن يشهر عنه ذلك عند مُباريه في الرياسة .

ومذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام الجماعة ، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ، ومَرّتوا على ذلك ، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد ، وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقييح المنافسة والطمع ، إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه ، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنة ، والثوار في المعامل تثور<sup>٢</sup> ، وتروم الكثرة ، إلى أن ثار ابن هود ، وتلقّب بالمتوكل ، ووجد قلباً<sup>٣</sup> منحرفاً عن دولة بر العدو ، مهياً للاستبداد ، فملكها بأيسر محاولة ، مع الجهل المفرط وضعف الرأي ، وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة ، يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم ويأدرهم بالسؤال . وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان ، فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء ، وكان كما قيل :

أمرٌ يضحكُ السفهاء منها ويبكي من عواقبها الحليمُ

قال ذلك إلى تَلَف القواعد العظيمة ، وتملّك الأمصار الجلييلة ، وخروجها من يد الإسلام .

والضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان أو جواداً يبرع الأجواد تهافتوا في نُصْرته ، ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة ، آل الأمر إلى ما يؤول إليه ، وبعد أن يكون الملك في مملكة

١ ق ج ط : لمدارة .

٢ ط ق : تنزو .

٣ ك : القلوب .

قد تُورث وتداولت ، ويكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفسٍ للأجناد ومراعاة ، قدّموه ملكاً في حصن من الحصون ، ورَفَضُوا عيالهم وأولادهم — إن كان لهم ذلك — بكرسيّ الملك ، ولم يزلوا في جهاد وإتلافِ أنفسٍ حتى يظفر صاحبهم بِطَلَبَتِهِ . وأهلُ المشرق أصوبُ رأياً منهم في مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نِصابه ، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحلّ الأوضاع .

ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه : لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس تمخّضت عن رجل من حصن يقال له أَرْجُونَة ، ويُعرف الرجل بابن الأحمر ، كان يكثر مُغاورة العدو من حصنه ، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة ، إلى أن سار اسمُه في الأندلس ، وآل ذلك إلى أن قدّمه أهلُ حصنه على أنفسهم ، ثم نهض فملك قرطبة العظمى ، وملك إشبيلية ، وقتل ملكها الباجي ، وملك جِيَّانَ أَحصَنَ بلد بالأندلس وأجلّه قدراً في الامتناع ، وملك غرناطة ومالقة ، وسَمَّوه بأمر المسلمين ، فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه .

[ ابن سعيد يصف الخطط الأندلسية : ١ - الوزارة ]

وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يُعيّنهم صاحبُ الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصّهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسمّيه بالحاجب ، وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومه لذلك ، إلى أن كانت ملوك الطوائف ، فكان الملكُ منهم — لعظم اسم الحاجب في الدولة المرؤانية ، وأنه كان نائباً عن خليفتهم — يسمّى بالحاجب ، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوَس فيه وظُفر به ، وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريحهم . وصار

١ ك : طار .



اسم الوزارة عامّاً لكل من يُجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يُعرف بذى الوزارتين ، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب ، وقد لا يكون كذلك ، بل عالماً بأمر الملك خاصة .

#### [ ٢ - الكتابة ]

وأما الكتابة فهي على ضربين : أعلاهما : كاتب الرسائل ، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب ، وبهذه السّمة يخطه<sup>١</sup> من يعظمه في رسالة . وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السّمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه . والكاتب الآخر كاتب الزمام ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ، ولا يكون بالأندلس وبرّ العُدوة لا نصرانياً ولا يهودياً البتّة ، إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوههم .

#### [ ٣ - الخراج ]

وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير ، وأكثر أتباعاً وأصحاباً وأجدى منفعةً ، فالإيه تميلُ الأعناق ، ونحوه تمد الأكف ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار ، ومع هذا إن تأثلت حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب نُكِب وصُودر ، وهذا راجع إلى تقلب الأحوال وكيفية السلطان .

#### [ ٤ - القضاء ]

وأما خُطة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بأمر الدين ، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حَضَرَ بين يدي القاضي ، هذا

١ ك : يخصه .

وضعها في زمان بني أمية ، ومن سلك مسلكهم ، ولا سبيل أن يتسمى بهذه السّمة إلاّ مَنْ هو والٍ للحكم الشرعي في مدينة جليلة ، وإن كانت صغيرة فلا يُطلق على حاكمها إلاّ مسدّد ، خاصة ، وقاضي القضاة يقال له : قاضي القضاة ، وقاضي الجماعة .

#### [ ٥ - خطة الشرطة ]

وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن ، معروفة بهذه السّمة ، ويُعرف صاحبها في السن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن يجب<sup>١</sup> عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلاّ في حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذي يحدّ على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرّر عليها رضا القاضي ، وكانت<sup>٢</sup> خطة القاضي أوفر وأتقى عندهم من ذلك .

#### [ ٦ - الحسبة ]

وأما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفيطن ، وكان صاحبها قاض ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان ، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثمن ، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبي الصغير أو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان ، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر<sup>٣</sup> أو دون<sup>٣</sup> ما حدّ له المحتسب في

١ ك : وجب .

٢ ق : وكان .

٣ ق ودوزي : أن يبيع بدون .

الورقة ، ولا يكاد تخفى خيائته ، فإن المحتسب يدسّ عليه صبيّاً أو جارية بيتاع أحدهما منه ، ثم يختبر الوزن المحتسب ، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقي ، وإن كثر ذلك منه ولم يتقبّ بعد الضرب والتجريس<sup>١</sup> في الأسواق نفي من البلد . ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها<sup>٢</sup> ويتدارسونها كما تدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل في جميع المتاعاات وتضرع إلى ما يطول ذكره .

[ ٧ - خطة الطواف بالليل ]

وأما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب أرباع في المشرق فإنهم يُعرفون في الأندلس بالدرّابين ، لأن بلاد الأندلس لها دُروب بأغلاق تُغلق بعد العتمّة ، ولكل زقاق بائث فيه ، له سراج معلّق وكلب يسهر وسلاح معدّ ، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرّهم ، وإغياهم<sup>٣</sup> في أمور التلصص ، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة ، ويفتحوا الأغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك ، ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع « دار فلان دُخلت البارحة » و « فلان ذبحه للصوص على فراشه » وهذا يرجع الكثير منه والتقليل إلى شدة الوالي وليته ، ومع إفراطه في الشدة وكون سيفه يقطر دماً فإن ذلك لا يعدم ، وقد آل الحالُ عندهم إلى أن قتلوا على عنقودٍ سرقة شخص من كرمّ وما أشبه ذلك ، فلم ينته اللصوص .

[ الأندلسيون والتشريع ]

وأما قواعد أهل الأندلس في ديانتهم فإنها تختلف بحسب الأوقات والنظر

١ التجريس : الفضح والتشهير .

٢ يتداولونها : سقطت من ق ط ج .

٣ ك : وإغياهم .

إلى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود ، وإنكار التهاون بتعطيلها ،  
وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يلج السلطانُ  
في شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعأون بخيله ورجله  
حتى يخرجه من بلدهم ، وهنا كثير في أخبارهم . وأما الرجم بالحجر للقضاة  
والولاة للأعمال إذا لم يتعدوا فكل يوم .

\* \* \*

### [ الأندلسيون والتصوف ]

وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدرّوزة<sup>١</sup> التي تُكسِلُ  
عن الكد وتخرج<sup>٢</sup> الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية<sup>٣</sup> ، وإذا  
رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبّوه وأهانوه ، فضلاً عن  
أن يتصدقوا عليه ، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر .

\* \* \*

### [ الأندلسيون والعلوم والآداب ]

وأما حالُ أهل الأندلس في فنون العلوم ، فتحقيقُ الإنصاف في شأنهم في هذا  
الباب أنهم أحرصُ الناس على التميز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن  
يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالماً على الناس ، لأن هذا عندهم  
في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ويحال عليه ،  
ويتنبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم في جوار أو ابتياح حاجة ، وما أشبه  
ذلك . ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدّارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرعون  
جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرعون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريأ ،

١ ك : الدورة ؛ والدروزة من الفارسية « دروزة » أي الكدية والشحد .

٢ ك : وتخرج .

٣ ك : النهاية .

٤ ق : العلم .

فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه ، وينفق من عنده حتى يعلم ، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ، فإنه كلما قيل « فلان يقرأ الفلسفة » أو « يشتغل بالتنجيم » أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زلّ في شبهة رجّموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقريباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري ، والله أعلم .

وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رقيقة ، وللفقه رونق ووجاهة ، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم . وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إن المثلثين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه ، وهي الآن بالمغرب بمرتلة القاضي بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات . وعلم الأصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة ، حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جودةً ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو - بحيث لا تخفى عليه الدقائق - فليس عندهم بمستحق للتميز ، ولا سالم من الأزدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غربت تصانيفه

١ العامة : سقطت من ك .

وشرقت وهو يُقْرَىء درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه ؛  
والخاصُّ منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يَجْرِي على قوانين النحو استقلوه  
واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والمخاطبات بالرسائل .  
وعلمُ الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبلُ  
علم عندهم ، وبه يُتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ، ومَن لا يكون فيه  
أدب من علمائهم فهو غُفْلٌ مستقل .

والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم  
وظائف ، والمجيدون منهم يُنشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ،  
ويوقع لهم بالصلوات على أقدارهم ، إلا أن يخل الوقت ويغلب الجهل في حين  
مآ ، ولكن هذا الغالب . وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه  
يَعظُم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العُجْب ، عادةً قد جُبِلوا عليها .

• • •

### [ الزبي الأندلسي في السلم والحرب ]

وأما زبيُّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لا سيما في شرق  
الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو  
بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ، ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر  
عالم بمُرْسِيَّة ، حضرة السلطان في ذلك الأوان ، وإليه الإشارة ، وقد خُطب  
له بالملك في تلك الجهة ، وهو حاسرُ الرأس ، وشيْبُهُ قد غلب على سواد شعره .  
وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعممة في شرق منها أو في غرب ،  
وابنُ هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيت في جميع أحواله ببلاد الأندلس  
وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده ، وكثيراً

١ عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيسي ، أبو بكر مرسي سرقسطي الأصل ، كان زاهداً  
عابداً ناشراً للعلم حتى امتحن برياسة بلده فلم محمد سيرته ، قتل سنة ٦٣٦ . ( ترجمته في الذيل  
والتكلمة ٥ : ١٤٤ وفي الحاشية ثبت بالمصادر ) .

• ما يترياً سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم ، فسلحهم كسلحهم ، وأقيبتهم من الإشكرلاط<sup>١</sup> وغيره كأقيبتهم ، وكذلك أعلامهم وسروجهم .  
 ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطن ، ولا يعرفون الدبابيس ، ولا قسيّ العرب ، بل يعدون قسيّ الإفرنج للمحاصرات في البلاد ، أو تكون للرجالة عند المصاففة للحرب ، وقليلاً<sup>٢</sup> ما تصبر الخيل عليهم أو تمهلهم لأن يوتروها ، ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظمون ، وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً ، والصفر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل إلى يهودي<sup>٣</sup> أن يتعمم البتة ، والذؤابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدّلونها من تحت الأذن اليسرى . وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس ، وإن رأوا في رأس مشرقى داخل إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك في تفصيل الثياب .

[ تدبير الأندلسيين ومروءتهم ]

وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه ، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها .

وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل ، ولهم مروءات على عادة بلادهم ، لو فطن لها حاتم

١ الاشكرلاط ، ويقال أيضاً الاشكيلاط (écarlate) نوع من الجوخ ، قرمزي أحمر .

٢ ك : وكثيراً .

٣ ك : ليهودي .

لفضّل دقائقتها على عظامه ؛ ولقد اجترت مع والدي على قرية من قرأها ،  
وقد نال منا البرد والمطر أشدّ النَّيل ، فأوينا إليها ، وكنا على حالٍ ترقّبٍ من  
السلطان وخلوّ من الرفاهية ، فترلنا في بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة  
مقدمة ، فقال لنا : إن كان عندكم ما اشترى لكم فحماً تسخنون به فإنّي أمضي  
في حوائجكم ، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشترى به فحماً ،  
فأضرم ناراً ، فجاء ابنٌ له صغير ليصطلي ، فضربه ، فقال له والدي : لم ضربته ؟  
فقال : يتعلّم استغنام مال الناس والضجّر للبرد من الصغر ، ثم لما جاء النوم  
قال لابنه : أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدّها على ثيابه ، فدفع كساءه إليّ ،  
ولما قمنا عند الصباح وجدتُ الصبيّ متنبهاً وبدّه في الكساء ، فقلت ذلك  
لوالدي ، فقال : هذه مروعات أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم ، أعطاك الكساء  
وفضلك على نفسه ، ثم أفكّر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص ،  
فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها وهو نائم ، وعلى هذا  
الشيء الحقيّر فقس<sup>٢</sup> الشيء الجليل ؛ انتهى كلام ابن سعيد في « المغرب »  
باختصار يسير .

\* \* \*

### [ منهج كتاب المغرب لابن سعيد ]

ولله درّه ، فإنّه أبدع في هذا الكتاب ما شاء ، وقسمه إلى أقسام ، منها :  
كتاب « وشي الطرس ، في حلّ جزيرة الأندلس » وهو ينقسم إلى أربعة  
كتب :

الكتاب الأول : كتاب « حلّي الغرس ، في حلّ غرب الأندلس » .  
الكتاب الثاني : كتاب « الشفاه اللّعس ، في حلّ موسطة الأندلس » .

١ ك : أموال .

٢ ق : قس .



الكتاب الثالث : كتاب « الأندلس في حلى شرق الأندلس » .  
الكتاب الرابع : كتاب « لحظات المريب ، في ذكر ما حماه من الأندلس  
عُباد الصليب » .

والقسم الثاني كتاب « الألبان المسلمية ، في حلى جزيرة صقلية » وهو أيضاً  
ذو أنواع .

والقسم الثالث كتاب « الغاية الأخيرة ، في حلى الأرض الكبيرة » وهو أيضاً  
ذو أقسام ، وصور - رحمه الله تعالى - أجزاء الأندلس في كتاب « وشي  
الطرس » وقال أيضاً : إن كلاً من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب  
في قدر المساحة بعضه من بعض ، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ، ليصدق  
التلث في القسمة ، وهذا دون ما بقي بأيدي النصارى .

وقدم - رحمه الله - كتاب « حلي العرس ، في حلى غرب الأندلس » لكون  
قرطبة قطب الخلافة المروانية وإشبيلية التي ما في الأندلس أجمل منها فيه ،  
وقسمه إلى سبعة كتب<sup>١</sup> ، كل كتاب منها يحتوي على مملكة منحازة عن  
الأخرى :

- الكتاب الأول : كتاب « الحلة المذهبة ، في حلى مملكة قرطبة » .
- الكتاب الثاني : كتاب « الذهبية الأصيلية ، في حلى المملكة الإشبيلية » .
- الكتاب الثالث : كتاب « خدع المألقة ، في حلى مملكة مالقة »<sup>٢</sup> .
- الكتاب الرابع : كتاب « الفردوس ، في حلى مملكة بطليوس » .
- الكتاب الخامس : كتاب « الحلب ، في حلى مملكة شلب » .
- الكتاب السادس : كتاب « الديباجة ، في حلى مملكة باجة » .
- الكتاب السابع : كتاب « الرياض المصونة ، في حلى مملكة أشبونة » وقد

١ راجع المغرب ١ : ٣٤ .

٢ جاء هذا الكتاب « ساباً » حسب ترتيب المغرب المطبوع .

ذكر - رحمه الله تعالى - في كل قسم ما يليق به ، وصور أجزاءه على ما ينبغي ،  
فالله يجازيه خيراً ؛ والكلام في الأندلس طويل عريض .

\* \* \*

### [ خاتمة في نبذة جغرافية ]

وقال بعض المؤرخين : طول الأندلس ثلاثون يوماً ، وعرضها تسعة  
أيام ، ويشقها أربعون نهراً كباراً<sup>١</sup> ، وبها من العيون والحمامات والمعادن  
ما لا يحصى ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد من ثلثمائة  
من المتوسطة ، وفيها من الحصون والقُرى والبروج ما لا يحصى كثرة ، حتى  
قيل : إن عدد القُرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية ، وليس في  
معمور الأرض صُقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعاً من يومه إلا بالأندلس ،  
ومن برَكتها أن المسافر لا يسير<sup>٢</sup> فيها فرسخين دون ماء أصلاً ، وحيثما سار  
من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والشعاري<sup>٣</sup> والأودية ورؤوس الجبال  
ليبع الخبز والقواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة .  
وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يوماً طولاً في  
ثمانية عشر يوماً عرضاً ، وهو مخالف لما سبق .

وقال ابن سيده : أخذت الأندلسُ في عرض الإقليمين الخامس والسادس  
من البحر الشامي في الجنوب إلى البحر المحيط في الشمال ، وبها من الجبال سبعة  
وثمانون جبلاً ، انتهى .

\* \* \*

### [ مقطعات في مدح الأندلس ]

ولبعضهم :

لله أندلسٌ وما جمعتُ بها من كل ما ضمت لها الأهواء

١ كباراً : سقطت من ق .

٢ ك : لا يسافر .

٣ ك : والصحاري .

وكأنتما تلك البقاعُ سماء  
ولعت به الأفياء والأنداء

فكأنتما تلك الديار كواكب  
وبكل قُطر جدول في جنة

وقال غيره :

ولا يُفارق فيها القلبَ سرَاءً  
ولا تقومُ بحقِّ الماءِ صَهْبَاءً  
على الشهادة أزواج وأبناء  
على المدامة أفياء وأنداء<sup>٢</sup>  
وكل أرض بها في الوشي صِنْعَاءُ  
والخز رَوْضَتَهَا، والدُرُّ حَصْبَاءُ  
من لا يرقُّ ، وتبَدُّ منه أهواء  
ولا انتشار لآلي الظلِّ أنداء  
في ماء وَرَدٍ فطابت منه أرجاء  
وكيف يحوي الذي حازته إحصاء  
فريدةً ، وتولَّى ميسرَها الماء  
وَجَدًّا بها إذ تبدَّتْ وهى حسناء<sup>٣</sup>  
والطيرُ يشدو ، وللأغصان إصغاء  
فهي الرياض وكل الأرض صحراء

في أرض أندلسٍ تُلْتَنَدُ نَعْمَاءُ  
وليس في غيرها بالعيش مُسْتَفَعٌ  
وَأَيْنَ يُعْدَلُ عَنْ أرضٍ تحضُّ بها  
وَأَيْنَ يُعْدَلُ عَنْ أرضٍ تحثُّ بها  
وكيف لا تُبْهِجُ الأبصارَ رُؤْيَتُهَا  
أنهارها فضة ، والمسك تُرْبَتُهَا  
وللهواء بها لطف يرقُّ به  
ليس النسيم الذي يهفو بها سَحَرًا  
وإنما أَرَجُ النَّدَا استنثار بها  
وَأَيْنَ يبلغ منها ما أُصْنَفُهُ  
قد ميزت من جهات الأرض ثم بدت  
دارت عليها نطاقاً أبحرُ حَفَقَتِ  
لذلك يبسمُ فيها الزهرُ من طربِ  
فيها خلعتُ عذارى ما بها عوض

وقد تقدمت هذه القصيدة<sup>٤</sup> .

وقال آخر :

حبذا أندلس من بلد  
لم تنزل تنتج لي كل سرور

١ ك : الأندلس .

٢ ك : أمواه وأفياء .

٣ هذا البيت وأربعة قبله سقطت من ق ط ج .

٤ انظر ص : ٢٠٩ - ٢١٠ في ما تقدم .

طائر شاذٍ ، وظلٌّ وارفٌ ومياهٌ سائحات وقُصُورٌ

وقال آخر :

يا حسن أندلس وما جُمِعَتْ لنا  
تلك الجزيرة لست أنسى حُسْنَهَا  
نَسَجَ الرَّبِيعُ نَبَاتَهَا مِنْ سُنْدُسٍ  
وغدا النَّسِيمُ بِهَا عَلِيلاً هَائِماً  
يا حُسْنَهَا وَالطَّلَّ يَنْثُرُ فَوْقَهَا  
وسواعِدُ الْأَنْهَارِ قَدْ مَدَّتْ إِلَى  
وَتَجَاوَبَتْ فِيهَا شَوَادِي طَبِيرِهَا  
ما زُرْتُهَا إِلَّا وَحَيَاتِي بِهَا  
من بعدها ما أعجبتني بلدة

فيها من الأوطار والأوطان  
بتعاقب الأحيان والأزمان  
موشيةً ببدايع الألوان  
برُبُوعِهَا وتلاطمَ الْبَحْرَانِ  
دُرراً خِلالَ الْوَرْدِ وَالرَّيْحَانِ  
نُدَمَائِهَا بِشَقَاتِي النَّعْمَانِ  
والتفت الأغصانُ بالأغصانِ  
حدقُ الْبَهَارِ وَأَنْعَمُ السُّوسَانِ  
مع ما حلتُ به من البلدانِ

[ من خصائص الأندلس ]

وحكى بعضهم أن بالجامع من مدينة أفليش بلاطاً فيه جوائز منشورة مربعة  
مستوية الأطراف ، طول الجائزة منها مائة شبر وأحد عشر شبراً .  
وفي الأندلس جبل من شرب من مائه كثر عليه الاحتلام ، من غير إرادة  
ولا تفكر ، وفيها غير ذلك مما يطول ذكره ، والله أعلم .  
ولنمسيك العينان في هذا الباب ، فإن بحر الأندلس طويل مديد ، وربما  
كررنا الكلام لارتباط بعضه ببعض ، أو لنقل صاحبه المروي عنه ، أو لاختلاف  
مآ ، أو غير ذلك من غرض سيدي .

## الباب الثاني

في إلقاء الأندلس للمسلمين بالقياد ، وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، وصيرورتها ميداناً لسبق الجياد ، وعطّ رحل الارتباء<sup>١</sup> والارتباد ، وما يتبع ذلك من خير حصل بازديانه ازدياد ، ونيل وصل إليه اعتياد وتقرر بمثله اعتياد

اعلم أنه لما قضى الله سبحانه بتحقيق قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا ، وَسَيَلُغُ مَلِكٌ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » وقع الخلاف بين لُدْرِيْقَ مَلِكِ الْقُوطِ وبين ملك سبّته الذي على مجاز الرّفاق ، فكان ما يُذكر من فتح الأندلس على يد طارق وطريف ومولاهما الأمير موسى ابن نصير ، رحم الله الجميع .

[ أخبار الفتح حسب مختلف الروايات ]

وذكر الحجاري وابن حبان وغيرهما أن أول من دخل جزيرة الأندلس من المسلمين برسم الجهاد طريف البربري مولى موسى بن نصير الذي تُنسب إليه جزيرة طريف التي على المجاز ، غزاها بمَعُونَةِ صاحب سبّته يُلْيَانِ النُصْرَانِي ، لحقده على لُدْرِيْقَ صاحب الأندلس ، وكان في مائة فارس وأربعمائة راجل ، جاز البحر في أربعة مراكب ، في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ، وانصرف

١ في جميع الأصول : الارتباء ، والصواب ما أثبتته ، والارتباء : هو تقديم الربيثة أي الطليعة وهو موافق للارتباد .

بغنيمة جلييلة ، فعقد موسى بن نُصَيْرُ صاحبُ المغرب لمولاه طارق بن زياد على الأندلس ، ووجهه مع يُلَيَّان صاحب سبَّته ، انتهى .

وسياي في أمر طريف وغيره ما يخالف هذا السياق <sup>١</sup> ، وهي أقوال .

وقال ابن حيَّان : إن أول أسباب فتح الأندلس كان أن ولَّى الوليدُ بن عبد الملك موسى بن نُصَيْرَ مولى عمِّه عبد العزيز على إفريقية وما خَلَفَهَا سنة ثمان وثمانين فخرج في نفر قليل من المُطَوَّعة ، فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثاً ، وفعل ذلك في إفريقية ، وجعل على مقدمته مولاه طارقاً ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم ، حتى بلغ مدينة طَنْجَة ، وهي قصبه بلادهم وأم مدائنهم ، فحصرها حتى فتحها ، وأسلم أهلها ، ولم تكن فُتحت قبله ، وقيل : بل فُتحت ثم استغلقت .

وذكر ابن حيَّان أيضاً استصعاب سبَّته على موسى بتدبير صاحبها الداهية الشجاع يُلَيَّان النصراني ، وأنه في أثناء ذلك وقع بينه وبين لُدْرِيْق صاحب الأندلس ، ثم سرد ما يأتي ذكره .

وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله : وحديثُ الفتح ، وما منَّ الله به على الإسلام من المنح ، وأخبار ما أفاء الله من الخير ، على موسى بن نُصَيْرَ ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ، مملول قُصَّاصٍ وأوراق ، وحديث أفول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ، وعظُم امتشاش ، وآلة معلقة في دكان قَشَّاش ، انتهى .

وقال في المغرب : طارق بن زياد من إفريقية .

وقال ابن بَشْكُوَال : إنَّه طارق بن عمرو ، فتح جزيرة الأندلس ودوَّخها ، وإليه يُنسب جبل طارق الذي يعرفه العامة بجبل الفتح ، في قبلة الجزيرة الخضراء ، ورحل مع سيِّده بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره ، انتهى .

١ ك : الانسياق .

وقال أيضاً : إن طارقاً كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتّبه . وأما المعارف السلطانية فيكفيه ولاية سلطنة الأندلس وما فتح فيها من البلاد إلى أن وصل سيده موسى بن نصير .

ومن تاريخ ابن بشكُوال : احتل طارق بالجل المنسوب إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين في اثني عشر ألفاً غير اثني عشر رجلاً من البربر ، ولم يكن فيهم من العرب إلا شيء يسير ، وإنه لما ركب البحر رأى وهو نائم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتكلموا القسي ، فيقول له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يا طارق ، تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه . فهب من نومه مستبشراً ، وبشّر أصحابه ، وثابت نفسه ببشراه ، ولم يشك في الظفر ، فخرج من الجبل ، واقتحم بسيط البلد شاتاً للغارة ، وأصاب عجوزاً من أهل الجزيرة فقالت له في بعض قولها : إنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا فيغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضخم الهامة . فأنت كذلك ، ومنها أن في كتفه اليسرى شامة عليها شععر ، فإن كانت فيك فأنت هو ، فكشف ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت ، فاستبشر بذلك ومن معه .

ومن تاريخ ابن حيان : لما حرّض يُلَيانُ النصرانيُّ صاحبُ سبّته ، للأمر الذي وقع بينه وبين صاحب الأندلس ، موسى بن نصير على غزو الأندلس جهز لها مولاة طارقاً المذكور في سبعة آلاف من المسلمين ، جلّهم من البربر ، في أربع سفن ، وحط بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ، ولم تزل المراكب تعود حتى توافي جميع أصحابه عنده بالجبل ، قال : ووقع على لُدْرِيْق صاحب الأندلس الخبر ، وأن يُلَيانُ السبب فيه ، وكان يومئذ غازياً في جهة البُشْكَنْس ، فبادر في جموعه وهم نحو مائة ألف ذوي عَدَدٍ وعُدَّةٍ ،

١ ك : عدة وعدد .

وكتب طارق إلى موسى بأنه قد زحف إليه<sup>١</sup> لُدْرِيْق بما لا طاقة له به ، وكان عمل من السفن عدّة ، فجهّز له فيها خمسة آلاف من المسلمين ، فكمّلوا بمن تقدّم اثني عشر ألفاً ، ومعهم يُلْيَانُ صاحبُ سَبْتَةَ في حَشْدِه يدلّتهم على العوْرات ، ويتجسّس لهم الأخبار ، وأقبل نحوهم لُدْرِيْق ومعه خيار العجم وأملاكها وفرسانها ، وقلوبهم عليه ، فتلاقوا فيما بينهم ، وقالوا : إن هذا الخبيث غلب على سلطاننا ، وليس من بيت الملك ، وإنّما كان من أتباعنا ، ولسنا نعدم من سيرته خبالاً واضطراباً ، وهؤلاء القوم الذين طرّقوا لا حاجة لهم في إبطان بلدنا ، وإنّما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنّا ، فهلمّ فلننهزم بآبن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم ، فلعلهم يكفوننا أمره ، فإذا هم انصرفوا عنّا أقعدنا في ملكنا من يستحقّه ، فأجمعوا على ذلك ، انتهى .

وقال ابن خلدون<sup>٢</sup> - بعد ذكره أن القوطيين كان لهم ملك الأندلس ، وأن ملكهم لعهد الفتح يسمّى لُدْرِيْق - ما نصّه : « وكانت لهم خطوة وراء البحر في هذه العدوّة الجنوبية خطوّها من قرّضة المجاز بطنّجة ، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر ، واستعبدهم ، وكان ملك البرابرة بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمّى يُلْيَان ، فكان يديّن بطاعتهم وملتتهم ، وموسى بن نصير أمير المغرب<sup>٣</sup> إذ ذاك عامل على إفريقية من قبيل الوليد بن عبد الملك ، ومترئّه بالقيسروان ، وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ، ودوّخ أقطاره ، وأثخن<sup>٤</sup> في جبال طنّجة هذه حتى وصل خليج الرّفاق ، واستنزل يُلْيَان لطاعة الإسلام ، وخلف مولاه طارق بن زياد الليثي والياً بطنّجة ، وكان يُلْيَان يتقم على لُدْرِيْق ملك القوط لعهد بالأندلس فعلةً فعلها زعموا

١ ك : زحف عليه .

٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١١٧ .

٣ ابن خلدون وق : أمير العرب .

٤ ابن خلدون : وأوغل .



بأبته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارتهم ، فغضب لذلك ، وأجاز إلى لدريق ، وأخذ ابنته منه ، ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط ودلهم على عورة<sup>١</sup> فيهم أمكنت طارقاً فيها الفرصة فانتزها لوقته ، وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب ، واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف ، فصيروهم عسكريين : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح ، فسمي جبل طارق به ، والآخر على طريف بن مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف ، فسمي به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن ، وبلغ الخبر إلى لُدْرِيْقَ فنهض إليهم يجرُّ أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفاً ، وزحفوا إليه ، فالتقوا بفحص شريش ، فهزمه الله ونقلهم أموال أهل الكفر ورقابهم ، وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم ، فحركته الغيرة ، وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، واستخلف على القيروان ولده عبد الله ، وخرج معه حبيب بن أبي عبيدة<sup>٢</sup> الفهري ، ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخّم من وجوه العرب الموالي<sup>٣</sup> وعُرّقاء البربر ، ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز إلى الأندلس ، وتلقاه طارق فانقاد واتبع ، وأتمّ موسى الفتح ، وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف ، وصنم قادس في الغرب ، ودوخ أقطارها ، وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دروبه ودروب الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً

١ ابن خلدون : غرة .

٢ كذا في دوزي ؛ وفي ق : حبيب بن سعيدة ؛ وفي ك : حبيب بن منددة ؛ وفي ط : بن بندة ؛ وفي ج :

ميدة ؛ وفي ابن خلدون : حسين بن أبي عبد الله المهدي الفهري .

٣ ج ودوزي : والموالي .

لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة ، ونمي الخبر إلى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسر إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع<sup>١</sup> ، وكتب له بذلك عهده ، فقتل ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها ، وأنزل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوّها<sup>٢</sup> ، وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة ، واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين ، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهور ، يقال : إن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي ، وولّى على إفريقية ابنه عبد الله ، وقدم على سليمان بن عبد الملك فسخطه ونكبه ، وثارَت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لستين من ولايته ، وكان خيراً فاضلاً ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة ، وولي من بعده أيوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، فولّى عليها ستة أشهر ، ثم تابعت ولاة العرب على الأندلس : تارة من قبل الخليفة ، وتارة من قبل عامله بالقيروان ، وأثخنوا في أمم الكفر ، وافتتحوا برشلونة من جهة المشرق ، وحصون قشتالة وبسائطها من جهة الجوف ، وانقضت أمم القوط ، وأررز<sup>٣</sup> الجلالة ومن بقي من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب فتحصنوا بها ، وأجازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلّوا البسائط وراءها ، وتوغّلوا في بلاد الفرنجة ، وعصفت ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة ، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجد للعدو بعض الكثرة ، فرجع الإفرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد برشلونة لعهد ثمانين

١ ابن خلدون : إن لم يرجع هو .

٢ ابن خلدون : لغزوها وجهاد أعدائها .

٣ ك : وأوى ؛ وأرز بمعنى لجأ وأوى .

سنة من لدن فتحها ، واستمر الأمر على ذلك » .

« وكان محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك - لما بلغه مهلكُ عبد العزيز بن موسى بن نصير - بعث إلى الأندلس الحرَّ بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فقدم الأندلس ، وعزَّل أيوبَ بن حبيب ، وولي ستين وثمانية أشهر » .

« ثمَّ بعث عمرُ بن عبد العزيز على الأندلس السَّمْحَ بن مالك الخولاني على رأس المائة من الهجرة ، وأمره أن يخمس أرض الأندلس ، فخمسها وبني قنطرة قرطبة ، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة سنة ثنتين ومائة ، فقدم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي إلى أن قدم عَنبَسَةَ بن سَحِيم الكلابي من قبَل يزيد بن أبي مسلم عامل إفريقية ، فقدمها في صفر سنة ثلاث ومائة ، فاستقام أمر الأندلس ، وغزا الفرنجة ، وتوغَّل في بلادهم ، واستشهد سنة سبع ومائة لأربع سنين وأربعة أشهر » .

« ثمَّ تابعت ولاةُ الأندلس من قبَل أمراء إفريقية : فكان أولهم يحيى بن سلمة الكلابي ، أنفذه بِشْرُ بن صَفْوَان الكلابي والي إفريقية ، لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عَنبَسَةَ ، فقدمها آخر سنة سبع ، وأقام في ولايتها ستين ونصفاً ، ولم يغزُ ، وقدم إليها عثمان بن أبي نعدة الخثعمي<sup>١</sup> والياً من قبل عبدة بن عبد الرحمن السَّلْمِي صاحب إفريقية ، وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص القيسي فوافها سنة عشر ، وعزَّل قريباً يقال : لسنة من ولايته ، واختلف : هل تقدّمه عثمان أو هو تقدّم عثمان ؛ ثمَّ ولي بعده الهيثم بن عبيد الكلابي من قبل عبدة بن عبد الرحمن أيضاً ، قدم في المحرم سنة إحدى عشرة ، وغزا أرض مقوشة<sup>٢</sup> فافتتحها وتوفي سنة ثلاث عشرة ومائة لستين من ولايته ، وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعي ، فولي شهرين ، ثمَّ قدم عبد الرحمن بن

١ اللخمي في جميع النسخ .

٢ كذا في الأصول وابن خلدون ، ويبدو أن صوابه : « منوسة » كما في دوزي .

عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجية ، وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة ، في موضع يُعرف ببلاط الشهداء ، وبه عُرِفَت الغزوة ، وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر ، ثم وليَ عبدُ الملك بن قَطَنَ الفِهْرِي ، وقدم في رمضان سنة أربع عشرة فولِي ستين - وقال الواقدي : أربع سنين - وكان ظلوماً جائراً في حكومته ، وغزا أرض البُسْكُنْس سنة خمس عشرة ومائة ، فأوقع بهم وغنم ، ثم عَزَلَ في رمضان سنة ست عشرة ، وولي عُقْبَةَ بن الحجاج السَّلُولِي من قبل عُبَيْدِ اللهِ بن الحبحاب ، فأقام خمس سنين محمودَ السيرة مجاهداً مظفراً ، حتى بلغ سكنى المسلمين أربوثة ، وصار رباطهم على نهر رودنة<sup>١</sup> ، ثم وثب عليه عبد الملك بن قَطَنَ الفِهْرِي سنة إحدى وعشرين ، فخلعه وقتله ، ويقال : أخرجه من الأندلس وولي مكانه إلى أن دخل بلجُ بن بشر بأهل الشام سنة أربع وعشرين ، فغلب عليه ، وولي الأندلس سنة أو نحوها .

« وقال الرازي : ثار أهل الأندلس بأمرهم عُقْبَةَ في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قَطَنَ ولايته الثانية ، فكانت ولاية عقبه ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفي بقرشونة<sup>٢</sup> في صفر سنة ثلاث وعشرين ، واستقام الأمر لعبد الملك ، ثم دخل بلجُ بن بشر القشيري بجند الشام ناجياً من وقعة كلثوم بن عياض مع البربر بملوية<sup>٣</sup> ، فثار على عبد الملك ، وقتله وهو ابن سبعين سنة ، واستوثق له الأمر بعد مقتل عبد الملك ، وانحاز الفهريون إلى جانب ، فامتنعوا عليه ، وكاشفوه ، واجتمع إليهم مَنْ أنكر فعلته بابن قَطَنَ ، وقام بأمرهم قَطَنَ وأمّية ابنا عبد الملك بن قَطَنَ ،

١ في الأصول (حيثما وقع) وابن خلدون : ردونة ، والتصويب عن دوزي .

٢ ك : بقرمونة وفي ق : بقرشونة .

٣ يريد انتصار البربر على العرب عند بليدة بقدورة (أو نقدورة) على مقربة من تاهرت ، وكان العرب بقيادة كلثوم بن عياض القشيري .

والتقوا فكانت الدائرة على الفهريين وهلك بئسج من الجراح التي نالته في حربهم ،  
 وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أو نحوها من إمارته ، ثم ولي ثعلبة بن سلامة  
 الجُدامي ، وغلب على إمارة الأندلس بعد مهلك بلج ، وانحاز عنه الفهريون فلم  
 يطيعوه ، وولي سنتين أظهر فيهما العدل ودانت له الأندلس عشرة أشهر ، إلى أن  
 نالت به العصية في يمانيته ، ففسد أمره ، وهاجت الفتنة ، وقدم أبو الخطار  
 حُسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ، ركب إليها  
 البحر من تونس سنة خمس وعشرين ، فدان له أهل الأندلس وأقبل إليه ثعلبة  
 وابن أبي نسعة وابنا عبد الملك ، فلقبهم وأحسن إليهم ، واستقام أمره ، وكان  
 شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم ، وكثُر أهل الشام عنده ، ولم تحملهم قرطبة ،  
 ففرقهم في البلاد ، وأنزل أهل دمشق لإبيرة لشبهها بها ، وسماها دمشق ، وأنزل  
 أهل حمص إشبيلية ، وسماها حمص ، وأهل قنسرين جيان ، وسماها قنسرين ،  
 وأهل الأردن رية ومالقة<sup>١</sup> ، وسماها الأردن ، وأهل فلسطين شدونة -  
 وهي شريش - وسماها فلسطين ، وأهل مصر تدمير ، وسماها مصر ،  
 وقتل ثعلبة إلى المشرق ، ولحق بمروان بن محمد ، وحضر حروبه ، وكان أبو  
 الخطار أعرابياً عصيباً أفرط عند ولايته في التعصب لقومه من اليمانية ، وتحامل  
 على المضرية ، وأسخط قيساً ، وأمر في بعض الأيام بالصميل بن حاتم كبير  
 القيسية - وكان من طوابع بلج ، وهو الصميل بن حاتم بن شمير بن ذي الجوشن  
 ورأس على المضرية - فأقيم من مجلسه ، وتقنع ، فقال له بعض الحجاب وهو  
 خارج من القصر : أقم عمامتك يا أبا الجوشن ، فقال : إن كان لي قوم  
 فسيقمونها ، فسار الصميل بن حاتم أميرهم يومئذ وزعيمهم ، وألب عليه  
 قومه ، واستعان بالمنحرفين عنه من اليمانية ، فخلع أبو الخطار سنة ثمان وعشرين  
 لأربع مئتين وتسعة أشهر من ولايته ، وقدم مكانه ثوابة بن سلامة الجُدامي ،

١ دوزي : وهي مالقة .

وهاجت الحرب المشهورة ، وخطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية ، فكتب إلى ثوابة بعهدة على الأندلس مُنْسَلَخَ رجب سنة تسع وعشرين ، فضبط الأندلس ، وقام بأمره الصَّمِيل ، واجتمع عليه الفريقان ، وهلك لسنة من ولايته ، ووقع الخلاف بإفريقية والثالث أمر بني أمية بالمشرق ، وشغلوا عن قاصية الثغور بكثرة الخوارج ، وعظم أمر المسوِّدة فبقي أهل الأندلس فَوْضَى ، ونصبوا للأحكام خاصَّة عبد الرحمن بن كثير ، ثمَّ اتفق جندُ الأندلس على اقتسام الإمارة بين المضرية واليمانية وإدالتهما بين الجندين سنةً لكل دولة ، وقدم المضريَّةُ على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي سنة تسع وعشرين ، واستتم سنةً ولايته بقرطبة دار الإمارة ، ثم وافته اليمانية لميعاد إدالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفقهم ، فبيتهم يوسف بمكان نزولهم في شَقْنُدَةَ من قرى قُرْطُبة بممالة من الصَّمِيل بن حاتم والقيسية وسائر المضريَّة ، فاستلحموهم ، وثار أبو الخطار فقاتله الصَّمِيل وهزمه وقتله سنة تسع وعشرين ، واستبدَّ يوسف بما وراء البحر من عُدْوَةِ الأندلس ، وغلب اليمانية على أمرهم ، فاستكانوا لغلبيته ، وتربَّصوا الدوائر إلى أن جاء عبدُ الرحمن الداخل . وكان يوسف ولَّى الصَّمِيل سَرَقُسْطَةَ ، فلما ظهر أمرُ المسوِّدة بالمشرق ثار الحُبَابُ الزهري بالأندلس داعياً لهم ، وحاصر الصَّمِيلَ بِسَرَقُسْطَةَ ، واستمد يوسف ، فلم يمده رجاء هلاكه لما كان يغضُّ به ، وأمدته القيسية ، فأفرج عنه الحُبَابُ ، وفارق الصَّمِيل سَرَقُسْطَةَ فملكها الحباب ، وولى يوسف الصَّمِيل على طليطلة إلى أن كان من عبد الرحمن الداخل ما كان . انتهى كلام وليِّ الدين بن خلدون ببعض اختصار .

وقال بعضُ المؤرخين<sup>١</sup> : إن عبد الله بن مَرْوَانَ أخا عبد الملك كان والياً على مصر وإفريقية ، فبعث إليه ابنُ أخيه الوليدُ الخليفةُ يأمره بإرسال موسى

١ انظر ابن خلكان : ٤ : ٤٠٢ .

ابن نُصَيْرٍ إلى إفريقية ، وذلك سنة سبع وثمانين للهجرة<sup>١</sup> ، فامتثل أمره في ذلك .  
وقال الحميدي في « جذوة المقتبس »<sup>٢</sup> : إن موسى بن نُصَيْرٍ ولي إفريقية  
والمغرب سنة سبع وسبعين فقدمها ومعه جماعة من الجند ، فبلغه أن بأطراف البلاد  
مَنْ هو خارج عن الطاعة ، فوجه ولده عبد الله ، فأتاه بمائة ألف رأس من  
السيابا ، ثم ولده مروان إلى جهة أخرى ، فأتاه بمائة ألف رأس ، وقال الليث بن  
سَعْدٍ : بلغ الخمس ستين ألف رأس ، وقال الصّدفي : لم يُسمع في الإسلام  
بمثل سبَايا موسى بن نُصَيْرٍ ، ووجد أكثر مدن إفريقية خاليةً لاختلاف أيدي  
البربر عليها ، وكانت البلاد في قَحَطٍ شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة  
وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ، وفرق  
بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والصراخ والضجيج ، وأقام على ذلك إلى  
مُنْتَصَفِ النهار ، ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك ،  
فقبل له : ألا تدعو لأمر المؤمنين ؟ فقال : هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى ،  
فسقوا حتى رَوُوا ثم خرج مُوسَى غازياً ، وتبع البربر ، وقتل فيهم قتلاً  
ذريعاً ، وسبى سبباً عظيماً ، وسار حتى انتهى إلى السّوس الأدنى لا يُدافعه  
أحد ، فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا ، وبَدَلُوا له الطاعة فقبل  
منهم ، وولّى عليهم والياً ، واستعمل على طَنْجَة وأعمالها مولاة طارق بن زياد  
البربري ، ويقال : إنّه من الصّدْفِ ، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر  
بالأسلحة والعدّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى  
عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليُعَلِّمُوا البربر القرآن وفرائض الإسلام ، ورجع  
إلى إفريقية ، ولم يبقَ بالبلاد مَنْ يُنَازِعُه من البربر ولا من الروم ، ولما استقرت  
له القواعد كتب إلى طارق وهو بطَنْجَة يأمره بغزو بلاد الأندلس ، فغزاها في  
اثني عشر ألفاً من البربر خلا اثني عشر رجلاً ، وصعد على الجبل المنسوب إليه

١ ابن خلكان : تسع وثمانين .

٢ نقل ابن خلكان هذا النص ، وفي الجذوة : ٣١٧ أنه وليها سنة تسع وسبعين .

يوم الاثنين خامس رجب سنة اثنتين وتسعين ، وذكر عن طارق أنه كان قائماً في المركب وقت التعدية ، فرأى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ، هكذا ذكر ابن بشكُوال .

وقيل : إن موسى ندم على تأخره ، وعلم أن طارقاً إن فتح شيئاً نُسب الفتح إليه دونه ، فأخذ في جمع العساكر ، وولّى على القيروان ابنه عبد الله ، وتبع طارقاً فلم يدركه إلا بعد الفتح . وقال بعض العلماء : إن موسى بن نصير كان عاقلاً شجاعاً كريماً تقياً لله تعالى ، ولم يهزم له قط جيش ، وكان والده نصير كان على جيوش معاوية ، ومنزلته لديه مكينة ، ولما خرج معاوية لصفين لم يخرج معه ، فقال له : ما منعك من الخروج معي ولي عندك يدٌ لم تكافني عليها ؟ فقال : لم يمكني أن أشكرك بكفري من هو أولى بشكري منك ، فقال : من هو ؟ فقال : الله عز وجل ، فأطرق ملياً ثم قال : أستغفر الله ، ورضي عنه .

رجع إلى حديث طارق - قال بعض المؤرخين<sup>١</sup> : « كان لُذْرِيْقُ ملك الأندلس استخلف عليها شخصاً يقال له تَدْمِير ، وإليه تُنسب تَدْمِيرُ بالأندلس ، فلما نزل طارق من الجبل كتب تَدْمِيرُ إلى لُذْرِيْق : إنّه قد نزل بأرضنا قومٌ لا ندري أمين السماء هم أم من الأرض ، فلما بلغ لُذْرِيْق ذلك - وكان قصد بعض الجهات البعيدة لغزو له في بعض أعدائه - رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس ، ومعه العَجَل تحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين ، وعليه مظلة مكللة بالدرّ والياقوت والزبرجد . فلما بلغ طارقاً دنوّه قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ، ورغّبهم ثم قال : أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيّع

١ ابن خلكان : على حرس .

٢ عود إلى النقل عن ابن خلكان بشيء من التصرف ، وانظر الإمامة والسياسة (ملحق ابن القوطية : ١٣٧) .



من الأيام ، في مأذبة اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم ، وتعوّضت القلوب من رغبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنني لم أجد ركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطوة أرخص متاع فيها النفوس [إلا وأنا] أبداً بنفسي ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ، استمتعتم بالأرفه الألد طويلاً ، فلا ترفعوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفى من حظي ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان ، والحلّل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة صهاراً وأختاناً ، ثقةً منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجادة الأبطال والفرسان ، ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليّ إنجازكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين ، واعلموا أنني أولّ جيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنتي عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلك بعدة فقد كفيتمكم أمره ، ولم يُعوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلك قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزمي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا همّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخذلون .

« فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لذريق وأصحابه وما

١ زيادة من ابن خلكان .

وعدهم من الخير الجزيل انبسطت نفوسهم ، وتحققت آمالهم ، وهبت رياح النصر عليهم ، وقالوا له : قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمنا عليه ، فاحضر إليه فإننا معك وبين يديك ، فركب وأصحابه فباتوا ليلتهم في حرّس إلى الصبح ، فلما أصبح الفريقان تكتبوا وعبّوا جيوشهم ، وحمل لُدْرِيْقُ وهو على سريرته ؛ وقد حمل على رأسه رواقٌ ديباج يظلمه ، وهو مُقبل في غابة من البنود والأعلام ، وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق في أصحابه عليهم الزرّدُ ، من فوق رؤوسهم العمام البيضاء ، وبأيديهم القسيّ العربية ، وقد تقلّدوا السيوف ، واعتقلوا الرماح ، فلما نظر إليهم لُدْرِيْقُ حلف وقال : إن هذه الصور هي التي رأيناها بيت الحكمة ببلدنا ، فداخلك منهنم الرعبُ ، فلما رأى طارق لُدْرِيْقُ قال : هذا طاغية القوم ، فحمل وحمل أصحابه معه ، ففترقت المقاتلة من بين يدي لُدْرِيْقُ ، فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه ، فقتله على سريرته ، فلما رأى أصحابه مصرعَ صاحبهم اقتحم الجيشان ، وكان النصر للمسلمين ، ولم تقف هزيمة العدو على موضع ، بل كانوا يسلمون بلدًا ببلدًا ومعقلًا معقلًا » .

« ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبّر الجزيرة بمن معه ، ولحق بمولاه طارق ، فقال له : يا طارق ، إنّه لن يجازيك الوليدُ بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس ، فاستبّحه هنيئاً مريئاً ، فقال له طارق : أيتها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي ، يعني البحر الشمالي الذي تحت بنات نعش ، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ إلى جليقية وهي ساحل البحر المحيط » ، انتهى .

وقال الحافظ الحميدي في كتابه « جذوة المقتبس » ٢ : « إن موسى بن نصير

١ ابن خلكان : يبيحك .

٢ انظر هذا النص في الجذوة - ترجمة طارق بن زياد : ٢٣٠ وقد نقله ابن خلكان أيضاً .

نَقَمَ عَلَى مَوْلَاهُ طَارِقٍ إِذْ غَزَا بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، وَهَمَّ بِقَتْلِهِ ، ثُمَّ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْوَلِيدِ بِإِطْلَاقِهِ ، فَأَطْلَقَهُ وَخَرَجَ مَعَهُ إِلَى الشَّامِ « انتهى .

\* \* \*

[ خبر بيت الحكمة بالأندلس ]

« وقولُ لُدْرِيْقٍ : إن هذه الصور هي التي رأيناها في بيت الحكمة إلخ »  
أشار به إلى بيت حكمة اليونان ، وكان من خبره<sup>١</sup> - فيما حكى بعض علماء التاريخ - أن اليونان ، وهم الطائفة المشهورة بالحكم ، كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر ، فلما ظهرت الفرس ، واستولت على البلاد ، وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك ، انتقلَ اليونان إلى جزيرة الأندلس ، لكونها طرفاً في آخر العمارة ، ولم يكن لها ذكر إذ ذاك ، ولا مَلَكَهَا أَحَدٌ من الملوك المعتمدة ولم تكن عامرة ، وكان أولَ من عمَّرَ فيها واختطَّها أندلسُ بن يافث بن نوح عليه السلام ، فسميت باسمه ، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة منها عندهم على شكل طائر رأسه المشرق ، والجنوب والشمال رجلاه ، وما بينهما بطنه ، والمغربُ ذَنَبُهُ ، وكانوا يزدرونَ المغربَ لنسبته إلى أحسن أجزاء الطير . وكانت اليونان لا ترى فتناً الأمم بالحروب لما فيها من الأضرار والاشتغال عن العلوم التي كان الاشتغال بها عندهم من أهم الأمور ، فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس إلى الأندلس ، فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها ، فشقوا الأنهار ، وبنوا المعامل ، وغرسوا الجنات والكروم ، وشيّدوا الأمصار ، وملؤوها حرثاً ونسلاً وبنيناً ، فعظمت وطابت ، حتى قال قائلهم لما رأى بتهجتها : إن الطائر الذي صوّرت هذه العمارة على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاووساً معظمُ جماله في ذنبه .

وحكي أن الرشيد هرون - رحمه الله - لما حضر بين يديه بعض أهل

١ عاد إلى النقل عن ابن خلكان ٤ : ٤٠٦ .

المغرب قال الرشيد : يقال : إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب ، فقال الرجل : صدقوا يا أمير المؤمنين ، وإنه طاووس ، فضحك أمير المؤمنين الرشيد ، وتعجب من سرعة جواب الرجل وانتصاره لقطره .

رجع - قال : « فاغبتب اليونان بالأندلس أتم اغتباط ، واتخذوا دار الحكمة والملك بها طليستظة لأنها أوسط البلاد ، وكان أهم الأمور عندهم تحصينها عمّن يتصل به خبرها من الأمم ، فنظروا فإذا هو أنه لا يحسداهم على رعد العيش إلا أرباب الشظف والشقاء والتعب ، وهم يومئذ طافتان : العرب ، والبربر ، فخافوهم على جزيرتهم العامرة ، فعزموا على أن يتخذوا للذين الجحنيين من الناس طليستما ، فرصدوا لذلك أرسادا ، ولما كان البربر بالقرب منهم وليس [بينهم] سوى تعديّة البحر ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع ، خارجة عن الأوضاع ، ازدادوا منهم نفورا ، وكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة ، حتى ثبت ذلك في طبائعهم ، وصار بعضه مركبا في غرائزهم ، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم ، فلم تجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا ، وبالعكس ، إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس ، لوجود بعض الأشياء عندهم وفقدتها ببلاد البربر . »

« وكان بنواحي غرب الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها « قادس » وكانت له ابنة في غاية الجمال ، فتسامع بها ملوك الأندلس ، وكانت الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدين ملك ، فخطبوا ، وخشي أبوها إن زوجها من واحد أسخط الباقين ، فتحير ، وأحضر ابنته ، وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكورهم وإناثهم ، ولذا قيل : إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض : أدمغة اليونان ، وأيدي أهل الصين ، وألسنة العرب ؛ فقال لها : يا بنية ، إنني أصبحت على حيرة في أمرك ممّن يخطبك

١ يعني ابن خلكان .

من الملوك ، وما أرضيت واحداً إلا أسخطت الباقيين ، فقالت له : اجعل الأمر إليّ تخلصاً ، فقال : وما تقترحين ؟ فقالت : أن يكون ملكاً حكيماً ، فقال : نعم ما اخترته لنفسك . فكتب في أجوبة الملوك الخطّاب ، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم ، فلماً وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيماً ، وكان في الملوك الخاطبين حكيماً ، فكتب كل واحد منهما : أنا الملك الحكيم ، فلماً وقف على كتابيهما قال لها : يا بنية ، بقي الأمر على إشكال ، وهذان ملكان حكيماً ، أيّهما أرضيت أسخطت الآخر ، فقالت : سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتي به ، فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمسْتُ كنت زوجته ، قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟ قالت : إننا ساكنون بهذه الجزيرة ، ومحتاجون إلى أرحبيّ تدور بها ، وإنني مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجاري إليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يتخذ لي طليئاً نحصن به جزيرة الأندلس من البربر ، فاستظرف أبوها ذلك ، وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته ، فأجاباه إلى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد منهما في عمل ما أسند إليه من ذلك .

« فأما صاحب الرّحبيّ فإنه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة تصدّ بعضها إلى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبّنة ، وسدّ الفرج التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة ، وآثاره باقية إلى اليوم في الزقاق الذي بين سبّنة والجزيرة الخضراء — وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبرَ عليها الناس من سبّنة إلى الجزيرة ، والله أعلم أي القولين أصح ، غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثاني — فلماً تمّ تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب الماء العذب من جبل عالٍ في البر الكبير وسلّطه من ساقية محكمة وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية .

« وأما صاحب الطليئ فإنّه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله ،

غير أنه عمل أمره ، وأحكمه ، وابتنى بنياناً مربعاً من حجر أبيض على ساحل البحر في رملٍ عالٍ حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صَوَّرَ من النحاس الأحمر والحديد المصقَّى المخلوطين بأحكام الخلط صورة رجلٍ بربري ، وله لحية ، وفي رأسه ذؤابة من شعر جَعَدَ قائمة في رأسه لجمودتها ، وهو متأبط بصورة كساء قد جَمَعَ طرفيه على يده اليسرى بالطف تصوير وأحكمه ، في رجله نَعْلٌ ، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف<sup>١</sup> بمقدار رجله فقط ، وهو شاهق في الهواء ، طولُه نَيْفَ عن ستين أو سبعين ذراعاً ، وهو محدود<sup>٢</sup> الأعلى ، إلى أن ينتهي ما سَعَتَهُ قدرُ ذراع ، وقد مدَّ يده اليمنى بفتح قُفْلٍ قابضاً<sup>٣</sup> عليه مشيراً إلى البحر كأنه يقول : لا عبور ، وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهه أنه لم يَرَقَطُ ساكناً ولا كانت تجري فيه قَطُّ سفينة بربر حتى سقط المفتاح من يده . وكان الملكان اللذان عملا الرُّحِيِّ والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل ، إذ بالسَّبْقِ يستحق زواج المرأة ، وكان صاحب الرُّحِيِّ فرغ أولاً لكنَّه أخفى أمره عن صاحب الطلسم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم ، لتحظى المرأة بالرُّحِيِّ والطلسم ، فلما علم باليوم الذي يَقْرُغُ صاحبُ الطلسم في آخره أجرى الماء في الجزيرة من أوله وأدار الرُّحِيِّ ، واشتهر ذلك ، فاتصل الخبرُ بصاحب الطلسم وهو في أعلى القبة يَصْقُلُ وجهه ، وكان الطلسم مذنباً ، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتاً ، وحصل صاحب الرُّحِيِّ على المرأة والرُّحِيِّ والطلسم ، وكان مَنْ تقدم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر للسبب الذي قدمنا ذكره ، فاتفقوا وجعلوا الطلسمات في أوقات

١ ابن خلكان : مستدق .

٢ ك : محدودب .

٣ في الأصول : قابض .

٤ في الأصول : إلا .

اختاروا أرسادها ، وأودعوا تلك الطلّسّمات تابوتاً من الرخام ، وتركوه في بيت بطليّطة ، وركبوا على ذلك الباب قفلاً تأكيداً لحفظ ذلك البيت ، فاستمر أمرهم على ذلك <sup>١</sup> .

« ولما حان وقت انقراض دَوْلَة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها ، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوكهم من تاريخ عمل الطلّسّمات بطليّطة ، وكان لُدْرِيْقُ المذكور آنفاً هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم ، فلما اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأي منهم : قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً شيئاً ، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه ، لأنه لم يُعْمَلْ عبثاً ، فقالوا : أيها الملك ، صدقتَ ، إنه لم يُصنع عبثاً ، ولم يُقفل سُدّي ، والرأي والمصلحة أن تلقي أنت أيضاً عليه قفلاً أسوةً بمن تقدمك من الملوك ، وكان آباؤك وأجدادك لم يُهْمِلُوا هذا فلا تهمله ، وسر سيرهم ، فقال لهم : إن نفسي تُنازعي إلى فتحه ، ولا بد لي منه ، فقالوا له : إن كنت تظن أن فيه مالاً فقدّره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ، ولا تُحدِث علينا بفتحه حادثاً لا نعرف عاقبته ؛ فأصرَّ على ذلك ، وكان رجلاً مهيباً ، فلم يقدرُوا على مراجعته ، وأمر بفتح الأقفال ، وكان على كل قفل مفتاحه معلقاً ، فلما فتح الباب لم يرَ في البيت شيئاً إلاّ مائدة عظيمة من ذهب وفضة مُكَلَّلَة بالجوهر ، وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ورأى في البيت ذلك التابوت ، وعليه قفل ، ومفتاحه مُعلّق ، ففتحه ، فلم يجد فيه سوى رِقّ ، وفي جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب ، وعليهم الفِراء ، وهم مُعَمَّمُونَ على ذوائب جُعْدٍ ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوف المحلاة ، معتقلون الرماح ، فأمر بنشر ذلك الرِقّ ، فإذا فيه : متى فُتِحَ هذا البيت وهذا

١ ابن خلكان : وركبوا على ذلك البيت باباً وأقفلوه ، وتقصدوا إلى كل من ملك منهم بعد صاحبه أن يلقي على ذلك الباب قفلاً . . . الخ .

التابوت المقلان بالحكمة دخلَ القومُ الذين صَوَّرَهُم في التابوت إلى جزيرة الأندلس ، وذَهَبَ ملكٌ مَنَ فيها من أيديهم ، وبطلت حكمتهم ، فلَمَّا سمع لُدْرِيْق ما في الرِّقّ ندم على ما فعل ، وتحقق انقراضَ دَوْلَتِهِم ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جَهَّزَهُ ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس « انتهى » .

فهذا هو بيت الحكمة الذي أشار إليه لُدْرِيْق ، والله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك كله .

على أن في هذا السياق مخالفةً لما سنذكره عن بعض ثقات مؤرخي الأندلس وغيرهم في شأن المائدة وغيرها ، وما ذكر في هذه القصة من جلب الماء من برِّ العُدوة إلخ . فيه بُعْدٌ عندي ، لأن بلاد الأندلس أكثر بلاد الله مياهاً وأنهاراً ، فأننى تحتاج إلى جلب الماء إليها من العُدوة الأخرى ؟ إلا أن يقال : إن المرأة أرادت تعجيزَ الرجل بذلك ، أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الأمر الغريب ، وعِلْمُ الله من وراء ذلك كله ، وفوق كل ذي علم عليم ، ومنتهى العلم إلى الله الحكيم .

\* \* \*

[ عود إلى أخبار الفتح ]

وقال ابن حيان في « المقتبس » : « ذكروا أن لُدْرِيْق لم يكن من أبناء الملوك ، ولا بصحيح النسب في القوط ، وأنه إنما نال الملك من طريق الغصب والتسور عندما مات إغطشة<sup>٢</sup> الملك الذي كان قبله ، وكان أثيراً لديه ، مكيناً ، فاستصغر أولاده لمكانه ، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه ، فانتزع الملك من أولاد إغطشة واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دبّروا عليه - فيما ذكر - عندما لقي

١ انتهى النقل عن ابن خلكان .

٢ ك : غطشة .



رجال العرب المقتحمين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الرقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير طماعة منهم في أن يودي ويخلص إليهم ملك أبيهم ، فالتقوا بموضع يدعى وادي لكّة من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلي مكان عبورهم ، وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الأول ستة اثنتين وتسعين من الهجرة ، فانهزم القوط أعظم هزيمة ، وقتل ملكهم لذاريق ، وغلبت العرب على الأندلس ، فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب ، ومصداق موعده نبيهم ، صلى الله عليه وسلم ، الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوحي الله تعالى إليه أنجزه لهم بفتح الأندلس ، والله القوة .

قال : « وقام بأمر العرب بالأندلس منذ فتحت الأمراء المرسلون منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالمشرق طوآل دولة بني أمية ، رضي الله تعالى عنهم ، إلى أن طرأ إليها فلثهم عند غلبة بني العباس عليهم ، وذلك عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ، فملكها وأعاد إليها الدولة الأموية التي أورثها عقبه حقبه ، فكانت عدة هؤلاء الأمراء من لدن أولهم طارق بن زياد إلى آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري عشرين عاملاً ، وعدة سنيهم بالششمي خمس وأربعون سنة ، وبالقمري سبع وأربعون سنة غير أشهر » انتهى .

وقال في موضع آخر ، نقلاً عن الرازي : « وافتتحت الأندلس في أيام الوليد ابن عبد الملك ، فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت في ظهور الملة الحنيفية ، وكان عمر بن عبد العزيز - رضوان الله عليه - مهتماً بها ، معتنياً بشأنها ، وقد حوّلها عن نظر والي إفريقية وجرد إليها عاملاً من قبله اختاره لها ، دلالة على معنيته بها ، ووقعت المقاسم فيها عن أمره وبفضل رأيه » انتهى .

• • •

[ ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائي وغيره ]

وفي الكتاب الخزائي وغيره سياقة فتح الأندلس على أمّ الوجوه ، فلنذكر ملخصه ، قالوا : استعمل أمير المؤمنين الوليدُ بن عبد الملك - رحمه الله تعالى - موسى بن نصير مولى عمّه عبد العزيز بن مروان ، ويقال : بل هو بكرى ، وذلك أن أباه نصيراً أصله من علّوج أصابهم خالدُ بن الوليد - رضي الله عنه - في عين التمر ، فادعوا أنهم رهّن ، وأنهم من بكر بن وائل ، فصار نصير وصيفاً لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، فمن هذا يختلف فيه ، وقيل : إنّه لخُمي ؛ وعقد له على إفريقية وما خلفها في سنة ثمان وثمانين ، فخرج إلى ذلك الوجه في نفر قليل من المطوّعة ، فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثاً ، وأتى إفريقية عمله ، فأخرج من أهلها معه ذوي القوة والجلد ، وصير على مقدمته طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويقتضّ جموعهم ، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، حتى بلغ طنجة ، وهي قسبة ملك البربر وأمّ مدائنهم ، فحصرها حتى افتتحها - وقيل : إنها لم تكن افتتحت قبله ، وقيل : افتتحت ثم ارتجعت - فأسلم أهلها ، وخطها قيرواناً للمسلمين . ثم ساروا إلى مدائن على شطّ البحر فيها عمالٌ لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن سبتة ، وعليها عالج يسمى يُلّيان ، قاتله موسى فألفاه في نجدة وقوة وعدة فلم يُطيقه ، فرجع إلى مدينة طنجة فأقام بمن معه ، وأخذ في الغارات على ما حولهم والتضييق عليهم ، والسفنُ تختلف إليهم بالميرة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطةشة ، فهم يدبّون عن حريمهم ذباً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة ، إلى أن هلك غيطةشة ملك الأندلس ، وترك أولاداً لم يرضهم أهلها للملك ، فاضطرب جبل أهل الأندلس ، ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لُدريق مجرب شجاع بطل ، ليس من بيت أهل الملك ، إلا

١ أهل : سقطت من ق .

أنه من قوادهم وفرسانهم ، فولتوه أمرهم ، وكانت ظليطة دار الملك بالأندلس حينئذ ، وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الأيام ، عليه عيدة من الأقفال يلزمه قوم من ثقات القوط ، قد وكلوا به لثلاث يفتح ، وقد عهد الأول في ذلك إلى الآخر ، فكلما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكلون بالبيت فأخذوا منه قفلاً وصيروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل من تقدمه ، فلما قعد لثلاث يفتح ، وكان متهماً يقظاً ذا فكر ، أتاه الحراس يسألونه أن يقفل على الباب ، فقال لهم : لا أفعل أو أعلم ما فيه ، ولا بد لي من فتحه ، فقالوا له : أيها الملك ، إنه لم يفعل هذا أحد ممن قبلك ، وتناهوا عن فتحه ، فلم يلتفت إليهم ، ومشى إلى البيت ، فأعظمت ذلك العجم وضرع إليه أكابره في الكف فلم يفعل ، وظن أنه بيت مال ، ففض الأقفال عنه ودخل ، فأصابه فارغاً لا شيء فيه ، إلا تابوتاً عليه قفل ، فأمر بفتحه بحسب أن مضمونه يقنعه نفاسة ، فألفاه أيضاً فارغاً ليس فيه إلا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العرب متقلدي السيوف منكمبي القسي رافعي الرايات على الرماح ، وفي أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية ، فقرئت فإذا فيها : إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فإن هذه الأمة المصورة في هذه الشقة تدخل الأندلس ، فتغلب عليها وتملكها ، فوجم لثلاث يفتح وندم على ما فعل ، وعظم غمّه وغم العجم بذلك ، وأمر برده الأقفال وإقرار الحرس على حالهم ، وأخذ في تدبير الملك ، وذهل عما أنزبه .

وقد كان من سير أكابر العجم بالأندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم إلى بلاد الملك الأكبر بطليطة ليصيروا في خدمته ، ويتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضاً استلاقاً لأبائهم ، وحمل صدقاتهم ، وتولت تجهيز إناهم إلى أزواجهن . فانفق أن فعل ذلك يلبان عامل لثلاث يفتح على سبته ، وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس ، وأهلها على النصرانية ، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه ، فلما

صارت عند لُدْرِيْقٍ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَيْهَا فَأَعْجَبَتْهُ وَأَحْبَبَهَا حُبًّا شَدِيدًا ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتَضَّهَا ، فاحتالت حتى أعلمت أباهَا بذلك سرًّا ، بمكاتبة خفية ، فأحفظه شأنها جدًّا ، واشتدَّت حميتُه ، وقال : ودينِ المسيح لأزليْنَّ سلطانَه ١ ، ولأحضرِنَّ تحت قدميه ، فكان امتعاضُه من فاحشة ابنته هو السبِّ في فتح الأندلس بالذي سبق من قَدَرِ الله تعالى .

ثم إن يُلْيَانَ ركبَ بحرَ الزُّفَاقِ من سبْتِه في أصعب الأوقات في يَنيرٍ ٢ قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل إلى طَلَيْطَلَةَ نحو الملك لُدْرِيْقٍ ، فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت ، وسأله عمَّا لديه ٣ ولم جاء في مثل وقته ؟ فذكر خيرًا ، واعتلَّ بذكر زوجته ، وشدة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده ، وتمنيها لقاءها قبل الموت ، وإلحاحها عليه في إحضارها ، وأنه أحبُّ إسعافها ، ورجا بلوغها أمنيتهَا منه ، وسأل الملك إخراجها إليه ، وتعجيلَ إطلاقه للمبادرة بها ، ففعل ، وأجاز الجارية ، وتوثقَ منها بالكتمان عليه ، وأفضل على أبيها ، فانقلب عنه . وذكروا أنه لما ودَّعَه قال له لُدْرِيْقٍ : إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشَّدَانِقَاتِ ٤ التي لم تترنَّ تُطْرَفْنَا بها فإنها آثر جوارحنا لدينا ، فقال له : أيُّهَا الملك ، وحقَّ المسيح لئن بقيتُ لأدخِلَنَّ عليكِ شُدَانِقَاتٍ ما دخل عليكِ مثلها قط - عرض له بالذي أضمره من السعي في إدخال رجال العرب عليه وهو لا يَفْطِنُ - فلم ينتهنه يُلْيَانَ عندما استقرَّ بسببته عملُه أن تهيأَ للمسير نحو موسى بن نُصَيْرِ الأَمِيرِ ، فمضى نحوه بإفريقية ، وكلمه في غزو الأندلس ، ووصف له حُسْنَهَا وفضلها ، وما جمعت من أسبابِ المنافع ، وأنواع المرافق ،

١ ك : ملكه وسلطانَه .

٢ « يَنير » اسم الشهر : ( Enero ) = كانون الثاني ، وفي ك : صَبر ، وصنبر : تعني شدة البرد .

٣ زاد في ك : وما جاء فيه .

٤ الشَّدَانِقَات : الصقور .

٥ ك : أشنات .

وطيب المزارع ، وكثرة الثمار ، وشرارة المياه وعنوبتها ، وهون عليه مع ذلك حال رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلّة الغناء ، فشوق موسى إلى ما هناك ، وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه يُلَيان ، فعاقده على الانحراف إلى المسلمين ، واستظهر عليه بأن سامة مُكاشفة أهل ملته من الأندلس المشركين والاستخراج إليهم بالدخول إليها وشنّ الغارة فيها ، ففعل يُلَيان ذلك ، وجمع جمعاً من أهل عمله ، فدخل بهم في مركبين وحلّ بساحل الجزيرة الخضراء ، فأغار وقتل وسبي وغنم ، وأقام بها أياماً ، ثمّ رجع بمن معه سالمين ، وشاع الخبر عند المسلمين ، فأنسوا بيُلَيان واطمأنوا إليه ، وكان ذلك عقب سنة تسعين ، فكتب موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه إليه يُلَيان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب إليه الوليد : أن خضنها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تُتفرّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فراجعه أنه ليس ببَحْر زَخّار ، وإنّما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، فكتب إليه : وإن كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زُرعة في أربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم في أربعة مراكب ، فترل بجزيرة تُقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ، ويقال لها اليوم « جزيرة طريف » لتزوله بها ، وأقام بها أياماً حتى تمام<sup>٢</sup> إليه أصحابه ، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سببياً لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسناً ، ومالاً جسيماً ، وأمتعة ، وذلك في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ، فلمّا رأى الناس ذلك تسرّعوا إلى اللدخول ، وقيل : دخل طريف في ألف رجل ، فأصاب غنائم وسببياً ، ودخل بعده أبو زُرعة شيخ من البرابرة ، وليس بطريف ، في ألف رجل منهم أيضاً فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرّقوا عنها ، فصرّموا عامتها بالنار ،

١ ج : وغزارة .

٢ ك : التام .

وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظمة ، وأصابوا سبياً يسيراً ، وقتلوا  
وانصرفوا سالمين .

وقال الرازي : هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافري ، الاسم طبق الكنية .  
قالوا : ثم عاود يُلَيان القلوم على موسى بن نُصَيْر محرّكاً في الاقتحام على  
أهل الأندلس ، وخبره بما كان منه ومن طريف وأبي زُرعة ، وما نالوه من  
أهلها ، وبأشروه من طيبها ، فحمد الله على ذلك ، واستجدَّ عزماً في إقحام  
المسلمين فيها ، فدعا مولى له كان على مُقَدِّمته يسمّى طارق بن زياد بن عبد  
الله فارسياً همدانياً - وقيل : إنّه ليس بمولى لموسى ، وإنّما هو رجل من  
صدف ، وقيل : مولى لهم ، وقد كان بعض عقبه بالأندلس ينكرون ولاء موسى  
إنكاراً شديداً ، وقيل : إنّه بربري من نَفْزَة - فعقد له موسى ، وبعثه في  
سبعة آلاف من المسلمين جُلُّهُم البربر والموالي ، وليس فيهم عرب إلا قليل ،  
ووجّه معه يُلَيان ، فهياً له يُلَيان المراكب ، فركب في أربع سفن لا صناعة  
له غيرها ، وخطَّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم سبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ،  
في شهر أغسطس<sup>١</sup> ، ثم صرف المراكب إلى من خلفه من أصحابه ، فركب من  
بقي من الناس ، ولم تزل السفائن تختلف إليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل ،  
وقيل : حلَّ طارق بجبله يوم الاثنين لحمس خلون من رجب من السنة في اثني عشر  
ألفاً غير ستة عشر رجلاً من البرابرة<sup>٢</sup> ، ولم يكن فيهم من العرب إلا يسير ،  
أجازهم يُلَيان إلى ساحل الأندلس في مراكب التجار من حيث لم يُعلم بهم ،  
أولاً<sup>٣</sup> ، وركب أميرهم طارق آخرهم .

قيل<sup>٣</sup> : وأصاب طارق عجوزاً من أهل الجزيرة ، فقالت له في بعض قولها :  
إنّه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل إلى بلادهم هذا ،

١ ك : أغسطس .

٢ ق : البربر .

٣ انظر ما تقدم ص : ٢٣١ .

ويغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضخم الهامة ، فأنت كذلك ، ومنها أن في كتفه الأيسر شامة عليها شعر ، فإن كانت بك هذه العلامة فأنت هو ، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرته العجوز ، فاستبشر بذلك هو ومن معه .

وذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب فرأى في منامه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الأربعة أصحابه عليهم السلام يمشون على الماء حتى مرّوا به ، فبشّره النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين ، والوفاء بالعهد . وقيل : إنّه لما ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتكبّوا القسي ، فيقول له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يا طارق ، تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدّامه ، فهبّ من نومه مستبشراً ، وبشّره أصحابه ، وثابت إليه نفسه ثقةً ببشّراه ، فقويّت نفسه ، ولم يشكّ في الظفر ، فخرج من البلد ، واقتحم بسيط البلاد شائناً للغارة .

قالوا : ووقع على لُدْرِيْقِ الْمَلِكِ خَيْرُ اقْتِحَامِ الْعَرَبِ سَاحِلَ الْأَنْدَلُسِ ، وتوالي غاراتهم على بلد الجزيرة ، وأن يُلَيَّانِ السَّبَبَ فِيهَا ، وكان يومئذ غائباً بأَرْضِ بَنْبَلُونَةَ فِي غَزَاةٍ لَهُ إِلَى الْبُشْكَنْسِ لِأَمْرٍ كَانَ اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ بِنَاحِيَتِهِمْ ، فعظم عليه ، وفهم الأمر الذي منه أُنِي ، وأقبل مبادراً الْفَتْقِ فِي جَمُوعِهِ ، حتى احتل بمدينة قَرْطُبَةَ مِنَ الْمَوْسَطَةِ ، ونزل القصر المدعوّ بها بِيَلَاطِ لُدْرِيْقِ الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ ، وليس لأنّه بناه أو اخترعه — وهو بناء منّ تقدمه من الملوك اتخذوه لمتزلهم في قرطبة إذا أتوها — إلا أن العرب لما غلبوا لُدْرِيْقَ وَهَذَا الْقَصْرَ مِنْ مَوَاتِنِهِ نَسَبُوهُ إِلَيْهِ ، إذ لم يعرفوا مَنْ بَنَاهُ . ويزعم العجم أن الذي بناه ملك منهم كان ساكناً بمحصن المدور أسفل قرطبة ، وخرج يوماً يتصيد حتى

انتهى إلى مكان قُرْطُبة ، وهي يومئذ خراب ، وكان في موضع قصرها غَيْضَةٌ  
عُلَيْقٍ ملتفة أشبَّهة ، فأرسل الملك بازيًا له يكرم عليه على حَجَلَة عَنَّت له من  
ناحية الكُدَيْة<sup>١</sup> المنسوبة بعد إلى أبي عبدة<sup>٢</sup> ، فَتَخَبَّتْ في ذلك العُلَيْقِ ،  
ولجَّ البازي في الانقضاض عليها ، فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه  
بالحَرْجَة ، فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه ضَيًّا منه به ، ففُطِعت ، وبدا له تحتها  
أساسُ قصر عظيم راقه رَصَّهُ ، وقد كان ذا همة ، فأمر بالكشف عنه ، وتقصي  
حدوده طولاً وعرضاً ، وتتبع أسَّه وأصله ، فوجده مبنياً من وجه الماء بصمِّ  
الحجارة فوق زَرْجُونٍ وُضِعَ بينها وبين الماء بأحكام صناعة ، فقال : هذا أثر  
ملك كريم ، وأنا أولى من جَدِّدَه ، فأمر بإعادته إلى هيأته ، واتخاذَه منزلاً من  
منازل راحاته ، فكان إذا طاف بعمله أو مضى في مُتَّصِفِيهِ نزل فيه ، وصار  
السبب في بناء قرطبة إلى جنبه ، ونزول<sup>٣</sup> الناس فيها ، وتوارث الملوك قصرها من  
بعد ، ونزله لُدْرِيْق في زحفه إلى العرب أياماً ، والحشود من أعماله تتوافى  
إليه ، ثم مضى نحو كورة شدونة يبغى لقاءهم في حشوده الكثيرة .

وقيل : إن آخر ملوك الأندلس الذين تَلَسَّتْهم العربُ غَيْطِشَة ، وإنه هلك عن  
أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للملك ، فضبطت أُمَّهُم عليهم ملك والدهم  
بطُلَيْطَلَة ، وانحرف لُدْرِيْق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم ، فصار  
بقرُطُبة ، فلما اقتحم طارق الأندلس نذر إليه لُدْرِيْق واستنفر إليه أجناد أهل  
الأندلس ، وكتب إلى أولاد غَيْطِشَة - وقد ترعرعوا ، وركبوا الخيل ، واتخذوا  
الرجال - يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم من القعود  
عنه ، ويحضهم على أن يكونوا على عدوهم بدأً واحدة ، فلم يجلبوا بدأً ،  
وحشَدوا ، وقدموا عليه بقرُطُبة ، فنزلوا أكناف قرية شَقْسَدَة بعددوة

١ الكدية : الأرض المرتفعة .

٢ ك ق ج : عبدة .

٣ ك : ونزل .



نهرها قبالة القصر ، ولم يطمئنتوا إلى الدخول على لُدْرِيْقٍ أخذاً بالحزم ، إلى أن استتبَّ جهاز لُدْرِيْقٍ وخرج ، فانضموا إليه ، ومضوا معه وهم مُرْصِلُونَ لمكروهه . والأصح - والله أعلم - ما سبق أن مُلْكَ القوط اجتمع للُدْرِيْقِ ، واختلف في اسمه فقيل : رُدْرِيْقٍ - بالراء أوله - وقيل : باللام لُدْرِيْقٍ وهو الأشهر ، وقيل : إن أصله من أصبهان ويسمى الإشبان ، والله أعلم <sup>١</sup> .

قالوا : وعسكر لُدْرِيْقٍ في نحو مائة ألف ذوي عِدَدٍ وعُدَّةٍ ، فكتب طارق إلى موسى يستمده ويعرفه أنه فتح الجزيرة الخضراء فَرَضَةَ الأندلس ، ومثلك المجاز إليها ، واستولى على أعمالها إلى البحيرة ، وأن لُدْرِيْقٍ زحف إليه بما لا قبيل له به ، إلا أن يشاء الله ، وكان موسى منذ وجه طارقاً لوجهه ، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عِدَّةٌ كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مَدَدًا كملت بهم عدة مَنْ معه اثني عشر ألفاً أقوياء على المغام ، حِرَاصاً على اللقاء ، ومعهم يُلْيَانُ المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله يدُهم على العَوْرَاتِ ، ويتجسس لهم الأخبار ، وأقبل نحوهم لُدْرِيْقٍ في جموع العجم ، وملوكها وفرسانها ، فتلاقوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض : إن هذا ابن الحبيثة قد غلب على سلطاننا ، وليس من أهله ، وإنما كان من أتباعنا ، فلنا نعلم من سيرته خبالاً في أمرنا ، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا ، وإنما مرَادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنا ، فهلم فلننهزم بابن الحبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا إياه ، فإذا انصرفوا عنا أقعدنا في ملكنا من يستحقه ، فأجمعوا على ذلك ، والقضاء يُبْرَم ما ارتأوه .

وكان لُدْرِيْقٍ ولّى ميمته أحد ابني غيطشة ، وميسرته الآخر ، فكانا

١ وقيل ... أعلم : هذه الجملة موجودة في جميع الأصول وهي قلقة ولا تلتزم مع ما تقدم من حديث عن إشبان .

رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة ، وأداهما إلى ذلك طمع رجوع ملك والدهما إليهما .

وقيل : لما تقابل الجيشان أجمع أولادُ غيطشة على الغدر بلُدْرِيْق ، وأرسلوا إلى طارق يُعلمونه أن لُدْرِيْق كان تابعاً وخادماً لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنهم غير تاركِي حقهم لديه ، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلم إليهم إذا ظفر ضياع والدهم بالأندلس كلها ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة ، وهي التي سميت بعد ذلك صفايا الملوك ، فأجابهم إلى ذلك ، وعاقدهم عليه ، فالتقى الفريقان من الغد ، فانحاز الأولاد إلى طارق ، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح ، وكان الالتقاء على وادي لكّة من كورة شدونة ، فهزم الله الطاغية لُدْرِيْق وجموعه ، ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له ، ورمى لُدْرِيْق نفسه في وادي لكّة وقد أثقلته السلاح<sup>١</sup> ، فلم يُعلم له خبر ولم يوجد .

وقيل : نزل طارق بالمسلمين قريباً من عسكر لُدْرِيْق منسليخ شهر رمضان سنة ٩٢ ، فوجه لُدْرِيْق عِلْجاً من أصحابه قد عرّف نجدته ووثق بآسه ليشرق على عسكر طارق فيحزّر عددهم ويعاين هيئاتهم ومراكبهم ، فأقبل ذلك العليج حتى طلع على العسكر ، ثم شدّ في وجوه من استشفه من المسلمين ، فوثبوا إليه ، فوئى منصرفاً راكضاً ، وفانهم بسبق فرسه ، فقال العليج للُدْرِيْق : أتتلك الصور التي كشف لك عنها التابوت ، فعخذ على نفسك ، فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرّقوا مراكبهم إباساً لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا في السهل موطنين أنفستهم على الثبات ، إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب ، فرعب وتضاعف جزعه ، والتقى العسكران بالبحيرة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، إلى أن انهزمت ميمنة لُدْرِيْق وميسرته ،

١ ك : الجراح .

انهزم بهما أبناء غيطشة ، وثبت القلبُ بعدهما قليلاً وفيه لُذريق ، فعَدَّر<sup>١</sup> أهله بشيء من قتال ، ثم انهزموا ولُذريقُ أمامهم ، فاستمرت هزيمتهم ، وأذرع المسلمون القتل فيهم ، وخفي أثر لذريق فلا يدرى أمره ، إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب الذي فقده وهو راكبه ، وعليه سَرَج له من ذهب مُكَلَّل بالياقوت والزبرجد ، ووجدوا أحد خفيه وكان من ذهب مُكَلَّل بالدرّ والياقوت<sup>٢</sup> ، وقد ساخ الفرسُ في طين وحمأة ، وغرق العليج ، فثبت أحد خفيه في الطين فأخذ ، وخفي الآخر ، وغاب شخص العليج ولم يوجد حياً ولا ميتاً ، والله أعلم بشأنه .

وقال الرازي : كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لحمس خَلَوْنٍ من شوال بعد تنمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقُتِلَ منهم خلق عظيم<sup>٣</sup> ، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهرٍ طويل ملبسة لتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يحلُّ قَدْرُهُ ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجلونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس ، فجمع طارق القيء وخمسه ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع ، وتسامع الناسُ من أهل برّ العُدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهلُ الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال ، ثم أقبل

١ : ك ط ودوزي : فعدر . وعذر : دفع عن نفسه اللوم بفعل كأنه تقصير ؛ وسقط من ج : فعدر . . . . . وخفي أثر لذريق .  
٢ زاد في ك : والزبرجد .  
٣ ك : خلق كبير عظيم .  
٤ ج : الغنائم .

طارق حتى نزل بأهل مدينة شدونة ، فامتنعوا عليه ، فشد الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرهم ، فتهيأ له فتحها عنوة ، فحاز منها غنائم ، ثم مضى منها إلى مورور<sup>١</sup> ، ثم عطف إلى قرمونة فمر بعينه المنسوبة إليه ، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، ثم نازل أهل إستجة وهم في قوة ومعهم فلّ عسكر لُدريق ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلاج صاحبها ، وكان مغترأ سبىء التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشفّه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية ، وخلص سبيله ، فوفى بما عاهد عليه ، وقذف الله الرعب في قلوب الكفرة لما رأوا طارقاً يُوغل في البلاد ، وكانوا يحسبونه راغباً في المغنم عاملاً على القفول ، فسقط في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعامل ، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة ، قيل : وكان من إرهاب طارق لنصارى الأندلس وحيله أن تقدم إلى أصحابه في تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسراهم وطبخها في القدور ، يرونهم أنهم يأكلونها ، فجعل من انطلق من الأسرى يحدثون من وراءهم بذلك فتمتلىء منه قلوبهم رعباً ويُجفِلُون فراراً ، قالوا : وقال يُلَيِّنَان لطارق : قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد ليضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد ، واعمد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولي رأيهم ، ففرق طارق جيوشه من إستجة ، فبعث مغنياً الرومي مولى الوليد بن

١ ك : ملور ؛ ومورور : ( Moron ) كورة متصلة بأحواز قرمونة .

عبد الملك إلى قَرْطُبَة ، وكانت من أعظم مدائنهم ، في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم ، ولم يبق فيهم راجلٌ ، وفضّلت عنهم الخيلُ ، وبعث جيشاً آخر إلى مالقةَ ، وآخر إلى غرناطة مدينة إلبيرة ، وسار هو في معظم الناس إلى كورة جِيَّان يريد طَلَيْطَلَة ، وقد قيل : إن الذي سار لقَرْطُبَة طارق بنفسه ، لا مغيث ، قالوا : فكمنوا بعدوة نهر شَقْنُودَة في غَيْضَة أَرْزٍ شامخة ، وأرسلت الأدلاء فأمسكوا راعيَ غنمٍ فسئل عن قرطبة فقال : رحل عنها عظماء أهلها إلى طَلَيْطَلَة ، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس<sup>١</sup> من حُماتهم مع ضعفاء أهلها ، وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عالٍ فوق أرضها إلا أنه فيه ثَغْرَة ووصفها لهم<sup>٢</sup> ، فلما أجنّهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برداً ذأخفى دققة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قَرْطُبَة ليلاً ، وقد أغفل حرسُ المدينة احتراسَ السور ، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد ، فرجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل<sup>٣</sup> ، وراموا التعلّق بالسور فلم يجدوا متعلقاً ، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها ، فأراهم إياها ، فإذا بها غير متسهلة التسنّم ، إلا أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلّق بها ، فصعد رجل من أشداء المسلمين في أعلاها ، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها ، وأعان بعضُ الناس بعضاً حتى كثروا على السور ، وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفرًا منهم ، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوةً ، فصمد إلى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه ، وقد بلغ الملك دخولهم

١ فارس : سقطت من ق ط ج .  
٢ لهم : سقطت من ط ج ق .  
٣ أو أقل : سقطت من دوزي .

المدينة فبادر بالفرار عن البلاط في أصحابه ، وهم زهاء أربعمائة ، وخرج إلى  
كنيسة بغيري المدينة ، وتحصن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في  
سَفْح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينة وما حولها ؛ وقال مَنْ  
ذهب إلى أن طارقاً لم يحضر فتح قرطبة وأن فاتحها مغيث : إنه كتب إلى طارق  
بالفتح ، وأقام على محاصرة العِلج بالكنيسة ثلاثة أشهر ، حتى ضاق من ذلك  
وطال عليه ، فتقدم إلى أسود من عبيده اسمه رَبَاح ، وكان ذا بأس ونبجدة ،  
بالكمون في جنان إلى جانب الكنيسة ملتفة الأشجار ، لعله أن يظفر له بعلج  
يقف به على خبير القوم ، ففعل ، ودعاه ضعف عقله إلى أن صعِد في بعض  
تلك الأشجار ، وذلك أيام الثمر ، ليجني ما يأكله ، فبصر به أهل الكنيسة ،  
وشدوا عليه ، فأخذوه فملكوه<sup>١</sup> ، وهم في ذلك هائبون له منكرون لخلقه ،  
إذ لم يكونوا عابوا أسود قبله ، فاجتمعوا عليه ، وكثر لخطهم وتعجبهم من خلقه ،  
وحسبوا أنه مصوغ أو مطلي ببعض الأشياء التي تُسود ، فجردوه وسط  
جماعتهم ، وأدنوه إلى القناة التي منها كان يأتيهم الماء ، وأخذوا في غسله  
وتدليكه بالحبال الحُرش ، حتى أدموه وأعنتوه ، فاستغاثهم ، وأشار  
إلى أن الذي به خِلقة من بارئهم ، عز وجل ، ففهموا إشارته<sup>٢</sup> ، وكفوا عن  
غسله<sup>٣</sup> واشتد فرعهم منه ، ومكث في إسارهم سبعة أيام لا يتركون التجمع  
عليه والنظر إليه إلى أن يسر الله له الخلاص ليلاً ، ففر وأتى الأمير مغيثاً فخبّره  
بشأنه وعرفه بالذي اطلع عليه من موضع<sup>٤</sup> الماء الذي يتتابونه ، ومن أي  
ناحية يأتيهم ، فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة في الجهة التي أشار إليها الأسود  
حتى أصابوها ، فقطعوها عن جريتها إلى الكنيسة ، وسدوا منافذها ، فأيقنوا

١ دوزي : وملكوه .

٢ ق ط ج : ففهموا عنه .

٣ ك : وكفوا عنه وعن غسله .

٤ ك : اطلع عليه من شأنهم وموضع .

بالهلاك حينئذ ، فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية ، فأبوا عليه ، فأوقد النار عليهم حتى أحرقتهم فسميت كنيسة الحرقى ، والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء ؛ غير أن العليج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند إيقان الهلاك ، ففر عنهم وحده ، وقد استغفلهم ورام اللحاق ببطليظة ، فمني<sup>١</sup> خبره إلى مغيث ، فبادر الركض خلفه وحده ، فلحقه بقرب قرية تطليزة<sup>٢</sup> هارباً وحده ، وتمتعه فرس<sup>٣</sup> أصفر ذريع الخطو ، وحرك مغيث خلفه ، فالنفت العليج ودّهش لما رأى مغيثاً قد رهقه ، وزاد في حثّ فرسه فقصر به ، فسقط عن الفرس واندقت عنقه ، فقع على ترسه مستأسراً قد هاضته السقطة ، فقبض عليه مغيث ، وسلبه سلاحه ، وحبس عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد ، ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره ، لأن بعضهم استأمن وبعضهم هرب إلى جليقية . وفي رواية أن مغيثاً استنزل أهل الكنيسة بعد أسره للكهم ، فضرب أعناقهم جميعاً ، فمن أجل ذلك عرفت بكنيسة الأسرى وأن مغيثاً جمع يهود قرطبة فضمهم إلى مدينتها استنامة<sup>٤</sup> إليهم ، دون النصارى ، للعداوة بينهم ، وأنه اختار القصر لنفسه ، والمدينة لأصحابه .

وأما من<sup>٥</sup> وجّه إلى مالقة ففتحوها ، ولجأ علوجها إلى جبال هناك ممتنعة ، ثم<sup>٦</sup> لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى البيرة ، فحاصروا مدينتها غرناطة ، فافتتحوها<sup>٧</sup> عنوة ، وضموا اليهود إلى قسبة غرناطة ، وصار ذلك لهم سنة متبعة<sup>٨</sup> في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القسبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضي معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجلوا يهوداً وقرؤا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح ، ثم صنعوا عند فتح كورة رية التي منها مالقة مثل ذلك .

١ ك : فيبلغ

٢ كذا في ك ط ج ، ولعلها : طليزة .

٣ ك : فاتتحوها .

٤ متبعة : سقطت من ك .

ومضى الجيش إلى تدمير ، وتدمير : اسم العلاج صاحبها ، سميت به ،  
واسم قصبتهأ أريولة ، ولها شأن في المنعة ، وكان ملكها علجاً داهية ، وقتلتهم  
مضحياً<sup>١</sup> ، ثم استمرت عليه الخزيمة في فحوصها ، فبلغ السيف في أهلها مبلغاً  
عظيماً أفنى أكثرهم ولجأ العالج إلى أريولة في يسير من أصحابه لا يُغنون شيئاً ،  
فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال  
متشبهات بالرجال ، وتصدر قدامهن في بقية أصحابه يُغالط المسلمين في قوته  
على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مِرَاسَه لكثرة مَنْ عاينوه على السور ،  
وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل إليه ، ونكّر زيه ، فترل إليهم بأمان على  
أنه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم ، فلما تم<sup>٢</sup>  
له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه ، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه ، وأخذهم  
بالوفاء بعهدِه ، وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرية ، فندموا  
على الذي أعطوه من الأمان ، واسترجحوه فيما احتال به ، ومضوا على الوفاء  
له ، وكان الوفاء عادتهم ، فسلمت كورة تدمير من معرّة المسلمين بتدبير  
تدمير ، وصارت كلها صلحاً ليس فيها عنوة ، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح ،  
وخلفوا بقصبة البلد رجالاً منهم ، ومضى معظمهم<sup>٣</sup> إلى أميرهم لفتح طليطلة .  
قال ابن حبان : وانتهى طارق إلى طليطلة دار مملكة القوط ، فألفاها  
خالية قد فر أهلها عنها<sup>٤</sup> ولجأوا إلى مدينة بها خلف الجبل ، فضم اليهود إلى  
طليطلة ، وخلف بها رجالاً من أصحابه<sup>٥</sup> ، ومضى خلف مَنْ فر من أهل  
طليطلة فسلك إلى وادي ° الحجارة ، ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمي به

١ ق ك ط ج ودوزي : مضحياً ، واللفظة تحتاج تصويباً ، واقترح مراجع ط . ليدن أن تقرأ  
« مضحياً » بمعنى « في وقت الضحى » .

٢ ق ط ج : المعظم .

٣ ك : عنها أهلها .

٤ من أصحابه : سقطت من ق .

٥ ك : فسلك وادي .



بعد ، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل ، وهي المنسوبة لسليمان بن داود عليهما السلام ، وهي خضراء من زَبْرَجْدَة<sup>١</sup> حافاتها منها وأرجلها ، وكان لها ثلاثمائة وخمسة وستون رجلاً ، فأحرزها عنده ، ثم مضى إلى المدينة التي تحصنوا بها خلف الجبل ، فأصاب بها حلياً ومالاً ، ورجع ولم يتجاوزها إلى طَلَيْطَلَة سنة ثلاث وتسعين . وقيل : لأنه لم يرجع ، بل اقتحم أرض جَلَيْقِيَة واخترقها حتى انتهى إلى مدينة اسْتُرْقَة ، فدوخ الجهة ، وانصرف إلى طَلَيْطَلَة ، والله أعلم . وقيل : إن طارقاً دخل الأندلس بغير أمر مولاه موسى بن نُصَيْر ، فالله أعلم . قال بعضهم : وكانت إقامته في الفتوح وتدوين البلاد إلى أن وصل سيده موسى ابن نُصَيْر سنة ، وكان ما سيذكر .

وأشد في « المسهب » وابنُ اليسع في « المعرب » لطارق من قصيدة قالها في الفتح :

ركبته سقيناً بالمجاز مُقْبِرًا      عسى أن يكون الله مناً قد اشترى  
نفوساً وأمواًلاً وأهلاً      إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسراً  
ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسنا      إذا نحن أدر كنا الذي كان أجدرنا

قال ابن سعيد : وهذه الأبيات مما يُكتب لمراعاة قائلها ومكانته ، لا لعلوّ طبقتها<sup>٢</sup> ، انتهى .

وأما أولاد غبطة فإنهم لما صاروا إلى طارق بالأمان ، وكانوا سبب الفتح حسيماً تقدم ، قالوا لطارق<sup>٣</sup> : أنت أمير نفسك أم فوقك أمير ؟ فقال : بل على رأسي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم ، فاستأذنه بالحقاق بموسى بن نُصَيْر بإفريقية ليؤكد سيهم به ، وسأله الكتاب إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهده ، ففعل ، وساروا نحو موسى فتنكّوه في انحداره إلى الأندلس بالقرب<sup>٤</sup>

١ ك : زبرجد .

٢ ق ط ج ودوزي : لعلو طبخته .

٣ انظر ابن القوطية : ٢٩ - ٣٠ .

٤ في ق « بالمعرب » وفي بعض الأصول « بالمغرب » ولعل الصواب « بالقرب » وهو ما ثبت في ك ط .

من بلاد البربر وعرفوه بشأنهم ، ووقف على ما خاطبه به طارق في ذمتهم وسابقتهم ، فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق ، وكتب إليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم ، فلما وصلوا إلى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم ، وعقد لكل واحد منهم سجلاً ، وجعل لهم أن لا يقوموا لدخول عليهم ، فقدموا الأندلس ، وحازوا ضياع والدهم أجمع ، واقتسموها على موافقة منهم ، فصار منها لكبيرهم ألمند<sup>١</sup> ألف ضيعة في غرب الأندلس ، فسكن من أجلها إشبيلية مقرباً منها ، وصار لأرطباش<sup>٢</sup> ألف ضيعة ، وهو تلوه في السن ، وضياعه في موسطة الأندلس ، فسكن من أجلها قرطبة ، وصار لثالثهم وقلة<sup>٣</sup> ألف ضيعة في شرقي الأندلس وجهة الثغر ، فسكن من أجلها مدينة طليطلة ، فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية ، إلى أن هلك ألمند كبيرهم ، وتخلّف ابنته سارة المعروفة بالقوطية وابنين صغيرين ، فبسط يده أرطباش على ضياعهم ، وضمها إلى ضياعه ، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، فأنشأت سارة بنت ألمند مركباً بإشبيلية حصيناً كامل العدة ، وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق ، فأهت خبرها ، وشكت ظلامتها من عمّها واستعدت عليه ، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها وأخويه<sup>٤</sup> على الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فأوصلها هشام إلى نفسه ، وأعجبه صورتها<sup>٥</sup> وحزمها ،

١ ألمند : (Olmundo) .

٢ أرطباش ويكتب أحياناً «أرطبان» وهو أردبست بن غيطشة : (Ardabast) .

٣ دوزي : رمله على أنها تعريب (Romulus) وكذلك هي عند ابن القوطية ولكن يبدو أن الصواب

«وقله» وهو تعريب أخيليا : (Aquila) .

٤ ك : وخلف .

٥ ك : وتديه عليها .

٦ ق ك ط ج : وإخوته .

٧ صورتها : ليست كذلك في النسخ وإنما وردت في ق ط : ضررها ، وفي أصول أخرى :

ضررها ، صرمها ؛ ولعل الأخيرة أصوب بمعنى «الحزم» .

وكتب إلى حَنْظَلَةَ بن صَفْوَانَ عامله بإفريقية بإلصافها من عمِّها أَرطَباش وإمضائها وأخويها<sup>١</sup> على سُنَّة الميراث فيما كان في يد والدها ممَّا قاسم فيه أخويه ، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمِّه ، فمَّ لها ذلك ، وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مُزَاحِم<sup>٢</sup> ، فابتنى بها بالشام ، ثم قدم بها إلى الأندلس ، وقام لها في دفاع عمِّها أَرطَباش عن ضياعها ، فنال بها نعمة عظيمة ، ووُلِدَ له منها ولداه إبراهيم وإسحاق فأدركا الشرف المؤثَّل والرياسة بإشبيلية ، وشهرا ونسَلهما بالنسبة إلى أمهما سارة القوطية . وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأث عنده حفيدة عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعدد إلى الأندلس ، وعرفها ، فتوسَّلت بذلك<sup>٣</sup> إليه لما ملك الأندلس ووفدت إليه ، فاعترف بذمِّها وأكرمها ، وأذن لها في الدخول إلى قصره متى جاءت إلى قرطبة فيجدد تكرمها ولا يحجب عباله منها ، وتوفِّي زوجها عيسى<sup>٤</sup> في السنة التي ملك فيها عبدُ الرحمن الأندلس ، فزوَّجها عبد الرحمن من عمير بن سعيد .

وكان لها ولأبيها ألمند وعمِّها أَرطَباش في صدر الدولة العربية بالأندلس أخبارٌ ملوكية : فمنها ما حكاه النقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكي<sup>٥</sup> أنه قصد أَرطَباشَ يوماً إلى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصَّمِيل وابن الطَّفِيل وأبو عبيدة وغيرهم ، فأجلسهم على الكراسي ، وبالغ في تكريمهم ، ودخل على أثرهم ميمون العابد جد بني حَزْم ، وكان في عداد الشاميين ، إلاَّ أنه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وورعه ، فلما بصَّر به أَرطَباش قام إليه دونهم إعظاماً ، ورقاه إلى كرسيه الذي كان يجلس عليه ، وكان مُلبَّساً صفائح الذهب ، وجذبه

١ ق ل ط : وإخوتها .

٢ عيسى بن مزاحم : من نوالي عمر بن عبد العزيز ؛ انظر ترجمة ابن القوطية في ابن خلكان ٤ :

٤ - ٦ وفيه خبر سارة القوطية في إيجاز .

٣ بذلك : سقطت من ك .

٤ عيسى : سقطت من ق .

٥ انظر هذا الخبر في ابن القوطية : ٦١ .

ليجلسه مكانه ، فامتنع عليه ميمون ، وقعد على الأرض ، فقعد أرطباش معه عليها ، وأقبل عليه قبلهم ، فقال له : يا سيدي ، ما الذي جاء بك إلى مثلي ؟ فقال له : ما تسمعه ، إنا قدمنا إلى هذا البلد غُرَاةً نحسب أن مقامنا فيه لا يَطُولُ ، فلم نستعدّ للمقام ولا كَثَرْنَا من العدة ، ثمّ حدثنا بعدنا على موالينا وفي أجنادنا ما قد أيسّنا معه من الرجوع إلى أوطاننا ، وقد وسّع الله عليك ، فأحب أن تدفع إلي ضياعاً من ضياعك أعتمرها بيدي ، وأؤدي إليك الحق منها وأخذ الفضل لي طيباً أتعيش منه ، فقال : لا أرضى لك بالمساهمة ، بل أهبّ لك هبة مسوغة ، ثمّ دعا بوكيل له فقال له : سلّم إليه المتجشراً الذي لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك ، وادفع إليه الضيعة التي بجيآن ، فنسلّم ميمون الضيعتين وورثهما ولده ، وإليهم نُسبت قلعة حزم ، فشكره ميمون وأثنى عليه ، وقام عنه . وقد أنف الصّميل من قيامه إليه ، فأقبل على أرطباش وقال له : كنت أظنك أرجح وزناً ، أدخلُ عليك وأنا سيدُ العرب بالأندلس في أصحابي هؤلاء ، وهم سادة الموالي ، فلا تزيدنا من الكرامة على الإقعاد على أعوادك هذه ، ويدخل هذا الصُّعلوك فتصير من إكرامه إلى حيث صرت ؟ فقال له : يا أبا جوشن ، إن أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يرُهِفْكَ ولو كان لم تنكر عليّ ما فعلته ، إنكم أكرمكم الله إنّما تكرمُونَ لدنياكم وسلطانكم ، وهذا إنّما أكرمه الله تعالى ؛ فقد روينا عن المسيح ، عليه السلام ، أنّه قال : من أكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه ، فكأنّما ألقمه حجراً . وكان الصّميل أميّاً ، فلذلك عرض به ، فقال له القوم : دعنا من هذا ، وانظر فيما قصدنا له ، فحاجتنا حاجة الرجل الذي قصدك فأكرمه ، فانظر في شأننا ، فقال له : أنتم ملوك الناس ، وليس يرضيكم إلاّ الكثير ، وها أنا أهب لكم مائة ضيعة تقسمونها عشراً عشراً ، وكتب لهم بها ، وأمر وكلاءه بتسليمها

١ ك : وحدثت ، وفي بقية الأصول : ثم حدثت .

٢ المتجر : المرعى .

إليهم ، فكان القوم يرونها من أطيب أملاكهم ، انتهى .

قال ابن حبان وغيره : ولما بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد وما أتيح له من الفتوح حسده ، وتنبأ للمسير إلى الأندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم ، وقيل : إنهم كانوا ثمانية عشر ألفاً ، وقيل : أكثر ، فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وتنكب الجبل الذي حمله طارق ، ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنت لأسلك طريق طارق ، ولا أفقر أثره ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يُلَيان : نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه ، وذلك على مدائن هي أعظم خطراً وأعظم خطباً وأوسع غنماً<sup>٢</sup> من مدائنه ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى ، فملء سروراً . وكان شغوف طارق قد غمته ، فساروا به في جانب ساحل شدونة ، فافتتحها عنوة ، وألقوا بأيديهم إليه ، ثم سار إلى مدينة قرمونة ، وليس بالأندلس أحصن منها ، ولا أبعد على من يرؤمها بحصار أو قتال ، فدخلها بجيلة توجهت بأصحاب يُلَيان ، دخلوا إليهم كأنهم فلأل وطرقهم موسى بجيلة ليلاً ففتحوا لهم الباب ، وأوقعوا بالأحراس ، فملك المدينة . ومضى موسى إلى إشبيلية جارتها فحاصرها ، وهي أعظم مدائن الأندلس شأناً ، وأعجبها بنياناً ، وأكثرها آثاراً ، وكانت دار الملك<sup>٣</sup> قبل القوطيين ، فلما غلب القوطيون على ملك الأندلس حولوا السلطان إلى طليطلة ، وبقي رؤساء الدين فيها أعني إشبيلية ، فامتنعت أشهراً على موسى ، ثم فتحها الله عليه ، فهرب العلوج عنها إلى مدينة باجة ، فضم موسى يهودها إلى القصبية ، وختلف بها رجالاً ، ومضى من إشبيلية إلى

١ ك : نسلك .

٢ بعض الأصول : هي أوسع خطراً وأعظم خطباً . . . الخ ؛ وقد سقطت « أعظم خطراً » من ق

ط ؛ وفي ج : هي أعظم وأوسع غنماً .

٣ ق ك : الملكة .

لَقُنْتُ<sup>١</sup> إلى مدينة ماردة ، وكانت أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر ، وهي ذات عزٍّ ومَنَعَةٍ ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جلييلة القدر فائقة الوصف ، فحاصرها أيضاً ، وكان في أهلها مَنَعَةٌ شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات ، وآذوهم ، وعمل موسى دَبَابَةَ دَبِّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلمّا قلعوا الصخر أفضّوا بعده إلى العمل المدعو بلسان العجم ألاشه ماشه<sup>٢</sup> ، فنبَتَ عنه معاولهم وعدنهم ، وثار بهم العدو على غفلة ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمي ذلك الموضع برج الشهداء ، ثم دعا القوم إلى السلم ، فترسل إليه في تقريره قوم من أمثالهم أعطاهم الأمان واحتال في توهيمهم في نفسه ، فدخلوا عليه أوّل يوم ، فإذا هو أبيض الرأس واللحية كما نَصَلَ خضابه ، فلم يتفق لهم معه أمر ، وعاودوه قبل الفطر بيوم ، فإذا به قد قَتْنَا لحيته بالحناء فجاءت كضرام عَرَفِج ، فعجبوا من ذلك ، وعاودوه يوم الفطر ، فإذا هو قد سوّدَ لحيته ، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : إننا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاءوا ، ويتصورون في كل صورة أحبوا ؛ كان ملكهم شيخاً فقد صار شاباً ، والرأي أن تقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنا به طاقة ، فأذعنوا عند ذلك ، وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين<sup>٣</sup> ، ثم فتحوا له المدينة

١ في ك ط : القنت والتصحيح عن دوزي ، وهي تقابل ( Fuente de Cantos ) إذ لا يمكن أن تكون هي «لقنت» في جنوب الشاطئ الغربي من الجزيرة وقرأها بعض الباحثين لا كانتوس ، وهي تعني «عين كانتوس» .

٢ ألاشه ماشه : ( Argamasa ) أي الإسمنت ، كما أثبت ذلك في حواشي ط . ليدن ؛ وفي معجم بيدرو دالكالا أن ( Laxmāx = Argamasa ) .

٣ في هذا النص اضطراب إذ يبدو أن شروط الصلح على هذا النحو لا يمكن أن يقبل بها أهل ماردة ؛ وقد جاء في أخبار مجموعة : ١٨ « فصالحوه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها له » وإذا قرأت « لها » بدل « له » كان هذا النص أصوب ، فيما أرى .

يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها . ثم إن عجم إشبيلية انتقضوا على المسلمين ، واجتمعوا من مدينتي باجة ولبلة إليهم ، فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً ، وأتى فلهم الأمير موسى وهو بماردة فلما أن فتحها وجه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إليهم ففتح إشبيلية وقتل أهلها ، ونهض إلى لبلة ففتحها ، واستقامت الأمور فيما هنالك ، وعلا الإسلام ، وأقام عبد العزيز<sup>١</sup> بإشبيلية ، وتوجه الأمير موسى من ماردة في عقب شوال من العام المؤرخ يريد طليطلة ، وبلغ طارقاً خبره ، فاستقبله في وجوه الناس ، فلقه في موضع من كورة طليطلة ؛ وقيل : إن موسى تقدم من ماردة فدخل جليقية من فج نُسب إليه ، فخرقها حتى وافى طارق بن زياد صاحب مقدمته بمدينة استرقة ، فغض منه علانية ، وأظهر ما بنفسه عليه من حقد ، والله أعلم ؛ وقيل : لما وقعت عينه عليه نزل إليه إعظاماً له ، فقَتَّعه موسى بالسوط ، ووبَّخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه . وساروا إلى طليطلة ، فطالبه موسى بأداء ما عنده من مال الفياء وذخائر الملوك ، واستعجله بالمائدة ، فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلاً وخبأه عنده ، فسأله موسى عنه ، فقال : لا علم لي به ، وهكذا أصبتها ، فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمل ، ولم يقدر على أحسن منه ، فأخل بها .

وقال ابن الفرضي<sup>٢</sup> : موسى بن نصير صاحب فتح الأندلس لخمِّي يكنى أبا عبد الرحمن ، يروي عن تميم الداري ، وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصبي . وقيل : غزا موسى بن نصير في المحرم سنة ثلاث وتسعين ، فأتى طنجة ، ثم عبر إلى الأندلس ، فأدأخها ، لا يأتي على مدينة إلا فتحها ونزل أهلها على حكمه ، ثم سار إلى قرطبة ، ثم قفل عن الأندلس سنة أربع وتسعين ، فأتى إفريقية ، وسار عنها سنة خمس وتسعين إلى الشام يؤم الوليد بن عبد الملك يجرُّ الدنيا بما

١ ق : عبد العزيز بن موسى .

٢ ابن الفرضي ٢ : ١٤٤ وفيه : « يقال : مول لحم » ، وهو عجيب .

احتلمه من غنائم الأندلس من الأموال والأمتعة يحملها على العجل والظَّهْر ،  
ومعه ثلاثون ألف رأسٍ من السبي ، فلم يلبث أن هلك الوليدُ بن عبد الملك<sup>١</sup>  
وولي سليمان ، فنكب موسى نكباً أداه إلى المتربة ، فهلك في نكبه تلك بوادي  
القرى سنة سبع وتسعين .

قال ابن حيان : وهذه المائدة المنورة باسمها المنسوبة إلى سليمان النبي عليه  
الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة المعجم ، وإنما أصلها أن المعجم في أيام  
ملكهم كان أهل الحسنة منهم إذا مات أحدُهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا  
اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهاها  
من الذهب والفضة ، تحمل الشماسة والقُسُوس فوقها مصاحف الأناجيل  
إذا أبرزت في أيام المناسك ، ويضعونها<sup>٢</sup> على المذابح في الأعياد للمباهاة بزيتها ،  
فكانت تلك المائدة بطليطلة ممّا صنع<sup>٣</sup> في هذه السبيل ، وتأنقت الأملاك في  
تفخيمها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأوّل ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من  
تلك الآلات ، وطار الذكر مطاره عنها ، وكانت مَصُوغَة من خالص الذهب ،  
مُرَصَّعة بفاخر الدرّ والياقوت والزمرد ، لم تر الأعين مثلها ، وبولغ في تفخيمها  
من أجل دار المملكة ، وأنه لا ينبغي أن تكون بموضع آله جمال أو متاعُ مباحةٍ  
إلا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة ، فأصابها  
المسلمون هناك ، وطار النبا الفخم عنها . وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل  
الذي فعله من غيرته على ما تهبّأ له ومطالبته له بتسليم ما في يده إليه ، فاستظهر  
بانتراع رجلٍ من أرجل هذه المائدة خبأه عنده ، فكان من فلكجه به على  
موسى علوه عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر في جهادهما ما هو مشهور ،  
انتهى .

١ ابن عبد الملك : سقطت من ق ج ط .

٢ ق ودوزي : ويضعونها .

٣ ط : صنع .



وقال بعض المؤرخين<sup>١</sup> : إن المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة ، وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد ، وكلها مكلّلة بالجوهر ، انتهى .

وما ذكره ابن حيّان من أن الذي نكب موسى بن نصير هو سليمان بن عبد الملك صواب ، وأمّا ما حكاه ابن خلدّكان من أن المنكب<sup>٢</sup> له الوليد فليس بصحيح ، والله أعلم .

رجع إلى كلام ابن حيّان - قالوا : ثمّ إن موسى اصطلع مع طارق ، وأظهر الرضى عنه ، وأقرّه على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى ، وافتتح سرّ قسطة وأعمالها ، وأوغل في البلاد ، وطارق أمامه لا يمرّان بموضع إلاّ فتح عليهما ، وغنمهما الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلاّ بطلب الصلح<sup>٣</sup> ، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ، ويكمل ابتدائه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه ، فلما صفا القطر كلّه وطامن نفوس منّ أقام على سلمه ، ووطناً لأقدام المسلمين في الحلول به ، أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين إلى إفرنجية ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا ، حتى انتهوا إلى وادي رُودنة<sup>٤</sup> ، فكان أقصى أثر العرب ومتهى موطنهم من أرض العجم . وقد دوّخت بعوث طارق وسراياه بلد إفرنجية فملكّت مدينتي برشليونة وأربونة

١ ابن خلكان ٤ : ٤١١ .

٢ جزء ٤ : ٤١٢ ، وليس هناك كلمة « المنكب » وإنما قال ابن خلكان : « ويقال إن الوليد كان قد نقم عليه أمراً فلما وصل ، وهو بدمشق ، أقامه في الشمس يوماً كاملاً في يوم صائف حتى خر مغشياً عليه » وعندني أن المنكب تصحيف لكلمة « الميكت » .

٣ ط : صلح .

٤ في الأصول : ردونة ، وهي تقابل نهر الرون ، ويشك المؤرخون في أن يكون موسى قد تغلغل في هذه المناطق .

وصخرة أبنيون<sup>١</sup> وحصن لودون<sup>٢</sup> على وادي رُودنة ، فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدآ ، وذكر أن مسافة ما بين قَرْطُبة وأربونة من بلاد إفرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً ، وقيل : ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً ، ولما أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قارلُ<sup>٣</sup> ملكُ الإفرنجية بالأرض الكبيرة ، وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم في جمع عظيم ، فلما انتهى إلى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه ، وأقبل حتى انتهى إلى صخرة أبنيون ، فلم يجد بها أحداً ، وقد عسكر المسلمون قُدَّامه فيما بين الأجلل المجاورة لمدينة أربونة ، وهم بحال غيرة لا عيُون لهم ولا طلائع ، فما شعروا حتى أحاط بهم علو الله قارله ، فاقتطعهم عن اللجمل إلى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب ، فقاتلوا قتالاً شديداً استشهد فيه جماعة منهم ، وحَمَلَ جمهورُهم على صفوفه حتى اخترقوها ، ودخلوا المدينة ، ولاذوا بحصانها ، فنازلهم بها أياماً أصيب له فيها رجال ، وتعذر عليه المقام ، وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين ، فزال عنهم راحلاً إلى بلده ، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي رُودنة شكَّها بالرجال فصيرَها ثغراً بين بلده والمسلمين ، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس .

وقال الحِجاري في المسهب : إن موسى بن نُصير نصره الله نصرأ ما عليه مزيد ، وأجفَلت ملوك النصارى بين يديه ، حتى خرج على باب الأندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قارله ، وهذه سِمةُ للمكهم ، فقالت له : ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العُدَّة والعدَدَ بجمعهم القليل ،

١ ابنيون : ( Avinionum ) ، إلى الشمال من آرل على نهر الرون .

٢ لودون : ( Leon ) .

٣ Carlus = Charle

وقلة عدتهم ، وكونهم لا دروع لهم ، فقال لهم ما معناه : الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خراجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم في إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض<sup>١</sup> ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر ، قال : فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمُضَرِّيَّة واليمانية ، وصار بعضُ المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء ، انتهى .

وقيل : إن موسى بن نُصَيْرٍ أخرج ابنه عبد الأعلى إلى تدميرَ ففتحها ، وإلى غرناطة ومالقة وكورة ربة ففتح الكل ، وقيل : إنه لما حاصر مالقة - وكان ملكها ضعيفَ الرأي قليلَ التحفظ - كان يخرج إلى جنان له بجانب المدينة طلباً للراحة من غمة الحصار من غير نصب عيْنٍ وتقديم طليعة ، وعرف عبد الأعلى بأمره ، فأكن له في جنّبات الخنة التي كان يتتأها قوماً من وجوه فرسانه ذوي رأي وحزم ، أرسدوا له ليلاً فظفروا به وملكوه ، فأخذ المسلمون المدينة<sup>٢</sup> عنوة ، وملأوا أيديهم غنيمة .

وقيل : كانت نفس موسى بن نُصَيْرٍ في ذلك كله تتزعج<sup>٣</sup> إلى دخول دار الكفر جليقية ، فبينما هو يعمل في ذلك ويعد له إذ أتاه مغيثُ الروميُّ رسولُ الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس<sup>٤</sup> والإضراب عن اللوغول فيها ، ويأخذه بالقول إليه ، فساء ذلك ، وقطع به عن إرادته ؛ إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته ذلك غير جليقية ، فكان شديد الحرص

١ الصواب : على بعض .

٢ ك : البلد .

٣ ق : فازعج .

٤ عن الأندلس : سقطت من ق .

على اقتحامها ، فلاطف موسى مغنياً رسول الخليفة ، وسأله إنظاره إلى أن يُنفذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أياً ما ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل ، ومشى معه حتى بلغ المفازة ، فافتتح حصن بارو<sup>١</sup> وحصن لُك<sup>٢</sup> ، فأقام هناك ، وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي<sup>٣</sup> على البحر الأخضر ، فلم تبق كنيسة إلا هُدمت ، ولا ناقوس إلا كُسر ، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلِّما مرَّ قوم منهم بموضع استحسَنوه حَطَّوْا به ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس ، وخُذِل الشرك ، وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوة الأمل إذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليدُ مُغنياً لما استبطأ موسى في القفول ، وكتب إليه يوبخه ، ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله إزعاجه ، فانقلع<sup>٤</sup> حينئذ من مدينة لُك بجليقية ، وخرج على الفج المعروف بفج موسى<sup>٥</sup> ، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومضياً جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول ، وأقام من أثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها ، وقفل معهم الرسولان مغيب وأبو نصر حتى احتلوا بإشبيلية ، فاستخلف موسى ابنته عبد العزيز على إمارة الأندلس ، وأقره بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر نظراً لقربه من مكان<sup>٦</sup> المجاز ،

١ دوزي : بازو ؛ وقد اختار هذه القراءة لتقابل (Viseu) الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أوبورتو . ويرى بعض المؤرخين أن وصول موسى إليها حيث كان ، في وقت قصير ، أمر عسير جداً ، ولذا قدروا أن تكون بارو في منطقة بلد الوليد أي البلدة المسماة (Villabaruz) ويكون الاسم « باروز » .

٢ لك : هي (Lucus Asturum) وتسمى اليوم : (Maria de Lugo) .

٣ صخرة بلاي : (Pena de Pelayo) وهي أقصى نقطة من أشتريس على المحيط الأطلسي (البحر الأخضر) .

٤ ق : فانخلع ، وسقطت « حينئذ » بعدها .

٥ فج موسى : (Valmusa) (أي وادي موسى) .

٦ ك : مكاره .

وركب موسى البحر إلى المشرق بندي حجة سنة خمس وتسعين وطارق معه ، وكان مقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله ستين وأربعة أشهر ، وحمل موسى الغنائم والسبي ، وهو ثلاثون ألف رأس والمائة منسوهاً بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يُقدَّر قدره ، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاتته ، أسيفاً على ما لحقه من الإزعاج ، وكان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلد إفريقية ، ويفتح الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتخذ مُخترقته بتلك الأرض طريقاً مهيباً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً ، وقيل : إنه أوغل في أرض إفريقية حتى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار ، فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالقر كتابة عربية <sup>٢</sup> قرئت ، فإذا هي : يا بني إسماعيل ، انتهم فارجعوا ، فهاله ذلك ، وقال : ما كُتِبَ هذا إلاً لمعنى كبير ، فشاوَر أصحابه في الإعراض عنه وجَوَّازه إلى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأخذ برأي جمهورهم ، وانصرف بالناس ، وقد أشرفوا على قطع البلاد وتَقَصَّى الغاية .

وحكى الرازي : أن موسى خرج من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على إفريقية أسنّ ولده عبد الله بن موسى ، وكان موسى في عشرة آلاف ، قال : وكان عبد الملك بن مروان هو الذي أغزى موسى المغرب في خلافته ، ففتِح له في أهله البرابرة فتوح كبار ، حتى لقد بعث إلى عبد الملك في الخمس بعشرين ألف سبيّة ، ثم أَرَدَهَا بعشرين ألفاً أخرى ، كل ذلك من البربر ، فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك .  
وزعم ابن حبيب <sup>٣</sup> : أنه دخل الأندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة ، وهو

١ ك : بلاد .

٢ كذا في جميع الأصول .

٣ سيأتي الحديث عن التابعين الذين دخلوا الأندلس في أول الباب السادس .

المنيذر ، قال : ودخلها من التابعين ثلاثة : موسى الأمير ، وعلي بن رباح اللخمي ، وحيوة بن رجاء التميمي ، وقيل : إن ثالثهم إنما هو حنّس بن عبد الله الصنعاني ، صنعاء الشام ، وإنّهم قفلوا عنها بقول موسى ، وأهل سرقسطة يزعمون أن حنّس مات عندهم ولم يقفل للمشرق ، وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه ، فالله أعلم .

وقيل : إن التابعين أربعة . بأبي عبد الرحمن الحلبّي الأنصاري ، واسمه عبد الله بن يزيد ، والله أعلم ، وحنّسهم بعضهم بحيان<sup>١</sup> بن أبي جبلة مولى بني عبد الدار وكان في ديوان مصر ، فبعث به عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها ، وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر ، وحدث عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره ، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، وانتهى معه إلى حصن من حصون العدويقال له قرّشونة ، وقيل : بل قفل إلى إفريقية<sup>٢</sup> فتوفي بها بعد العشرين ومائة .

وقال بعضهم : إن بين قرّشونة هذه وبين برشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً ، وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة شنت مرية ، وقد حكى ابن حيان أن فيها سبع سوارٍ من فضة خالصة لم يرّ الراؤون مثلها لا يحيط الإنسان بدراعه على واحدة منها مع طول مفترط .

وحنّس الصنعاني المذكور تابعي<sup>٣</sup> جليل ، كان مع علي رضي الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد قتله ، فصار عداؤه في المصريين ، وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه ، وكفى الأندلس شراً دخوله لها . وعلي بن رباح بصري تابعي ، يكنى أبا عبد الله ، وهو لخمّي ، وولد عام اليرموك سنة خمس عشرة ، قال ابن معين : أهل مصر يقولونه بفتح العين ،

١ في جميع الأصول : بحيان (حيشا وقع) ؛ وأثبتته ابن حجر (التبصير ١ : ٢٧٨) بالباء الموحدة .

٢ وقيل . . . إفريقية : سقطت من ك .

٣ تابعي : سقطت من ق ، وهو سهو .

وأهل العراق يقولونه بضمها ، وروى الليثُ عن ابنه موسى بن عليّ ، وكانت لعليّ بن رباح عند عبد العزيز بن مَرْوان مكانة ، وهو الذي زفّ ابنته أم البنين لزوجها الوليد ، ثمّ عتب عليه عبد العزيز فأغراه لإفريقية .

وأما المنبذر الصحابي فلم ينسبه ابن حبيب ، وذكره ابن عبد البر في الصحابة<sup>١</sup> وقال : إنّه المنبذر الإفريقي ، وروى عنه أبو عبد الرحمن الحُبلي ، قال : حدثنا المنبذر الإفريقي<sup>٢</sup> ، وكان سكن إفريقية ، وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، أنّه سمعه صلى الله عليه وسلّم يقول : « من قال : رضيت بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلّم نبياً ، فأنا الزعيم له ، فلا تخدّنْ بيده ، فلا تدخلنّه الجنة » ورواه عنه ابن عبد البر بسنده إليه ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في حق المنبذر مزيدُ بيان<sup>٣</sup> .

ولما قتلَ موسى بن نُصير إلى المشرق وأصحابه سأل مغيثاً أن يسلم إليه العليج صاحب قرطبة الذي كان في إساره ، فامتنع عليه ، وقال : لا يؤديه للخليفة سواي ، وكان يُدلُّ بولائه من الوليد ، فهجم عليه موسى فانتزعه منه ، فقيل له : إن سرت به حياً معك ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فاضطغنها عليه مغيث ، وصار إلنبأ مع طارق الساعي عليه ، واستخلف موسى على طنجة وما يليها من المغرب ابنه الآخر عبد الملك ، وقد كان - كما مرّ - استخلف بإفريقية أكبر أولاده عبد الله ، فصار جميعُ الأندلس والمغرب بيد أولاده ؛ وابنه عبد الله الذي خلفه بإفريقية هو الفاتح لجزيرة ميسورقة . وسار موسى فورد الشام ، واختلف الناس : هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده ؟ فمن يقول بالثاني قال : قدم على سليمان حين استخلف ، وكان منحرفاً عنه ، فسبق إليه طارق ومغيث بالشكية

١ انظر الاستيعاب : ١٤٨٥ .

٢ وروى . . . . الإفريقي : سقطت سهواً من ق .

٣ يعني في أول الباب السادس .

منه ، ورَمِيَاهُ بِالْحَيَاةِ ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعليج صاحب قرطبة ، وقال له : إنّه قد غلّ جوهراً عظيماً القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله ، فلما وافى سليمان وجده ضغيماً عليه ، فأغظ له ، واستقبله بالتأنيب والتوبيخ ، فاعتذر له ببعض العذر ، وسأله عن المائدة ، فأحضرها ، فقال له : زعم طارق أنّه الذي أصابها دونك ، قال : لا ، وما رأها قطّ إلا عندي ، فقال طارق : فليسأله أمير المؤمنين عن الرّجل التي تنقصها ، فسأله ، فقال : هكذا أصبتها ، وعوضتها رجلاً صنعتها لها ، فحول طارق يده إلى قبائه فأخرج الرّجل ، فعلم سليمان صدقه وكذب موسى ، فحقّق جميع ما رمي به عنده ، وعزله عن جميع أعماله ، وأقصاه وحبسه ، وأمر بتقصي حسابيه ، فأغرمه غرمًا عظيماً كشفه فيه ، حتى اضطره إلى أن سأل العرب معنوتته ، فيقال : إن لخمًا حملت عنه في أعطينها تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل : حملة سليمان غرم مائتي ألف ، فأدى مائة ألف ، وعجز ، فاستجار بيزيد بن المهلب أثير سليمان ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه إيّاه ، إلا أنّه عزل ابنه عبد الله عن إفريقية .

وقال الرازي : إن الذي أزعج موسى عن الأندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنانه وثناه قافلاً ، وقفل معه من أحبّ المشرق ، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها ، فأقاموا فيها .

• • •

[ نهاية موسى وابنه عبد العزيز ]

وذهب جماعة من أهل التاريخ إلى أن موسى إنّما قدم على الوليد ، وأن سليمان وليّ العهد لما سمع بقرب موسى بن نصير من دمشق - وكان الوليد مريضاً - كتب - أي سليمان - إلى موسى يأمره بالتريص ، وجاء أن يموت الوليد قبل قتل موسى فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم



الكثيرة التي ما رثي ولا سُمِعَ مثلها ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ، فأبى موسى من ذلك ، ومنعه دينُهُ منه ، وجدَّ في السيرِ حتى قدم والوليدُ حيًّا ، فسَلَّم له الأحماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يمكث الوليد إلاَّ يسيراً بعد قدوم موسى ، وتوفي ، واستخلف سليمان ، فحقدَ عليه وأهانهُ ، وأمر بإقامته في الشمس حتى كاد يهلك ، وأغرَمه أموالاً عظيمة ، ودسَّ إلى أهل الأندلس بقتل ابنه الذي استخلفه على الأندلس ، وهو عبد العزيز بن موسى ، وكان تولى الأندلس بعد قُصُول أبيه عنها باستخلافه إِيَّاه كما سبق ، فضبط سلطانها ، وضمَّ نَشْرَهَا ، وسدَّ ثغورها ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة ممَّا كان قد بقي على أبيه موسى منها ، وكان من خير الولاة ، إلاَّ أن مدته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم إِيَّاه عقب سنة خمس وتسعين في خلافة سليمان الموقِّع بأبيه موسى لأشياء نَقَمُواها عليه<sup>٢</sup> : منها<sup>٣</sup> زعموا تزوُّجَه لزوجة لُدْرِيْق المكناة أم عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز ، فحظيَّتْ عنده . ويقال : إنهُ سكن بها في كنيسة بلاشيبيلية ، وإنها قالت له : لمَ لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للُدْرِيْق - زوجها الأول - أهل مملكته ؟ فقال لها : إن هذا حرام في ديننا ، فلم تقنع منه بذلك ، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك ممَّا يزرِّي بقدره عندها ، فاتخذ باباً صغيراً قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه ، فينحتون ، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له ، فرضيت بذلك ، فنسِي الخبر إلى الجند ، مع ما انضم إلى ذلك من دسيسة سليمان لهم في قتله ، فقتلوه ، ساعه الله تعالى .

وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا في الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التي

١ ط : وأجد السير ؛ ج : وجد السير ؛ دوزي : وأغد السير .  
٢ انظر أخبار مجموعة : ٢٠ وابن القوطية : ٣٧ وتاريخ ابن عبد الحكم : ٢٨٥ .  
٣ منها : سقطت من ك .

هي « ارجعوا يا بني إسماعيل إلخ » ما معناه : وإن سألتكم لم ترجعون فاعلموا  
أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض ، انتهى .

قال ابن حبان : وليحيى بن حكيم الشاعر المعروف بالفزّال في فتح  
الأندلس ، أرجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها نظماً<sup>١</sup> ، وتفصيل  
الوقائع بين المسلمين وأهلها ، وعداد الأمراء عليها وأسماءهم ، فأجاد وتقصّى ،  
وهي بأيدي الناس موجودة ، انتهى .

وقد عرفت بما سبق تفصيل ما أجمله ابن خلدون<sup>٢</sup> ، والروايات في فتح الأندلس  
مختلفة ، وقد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية ، وأشرنا إلى بعض  
الاختلاف في ذلك ، ولو بسطنا العبارة في الفتح لكان وحده في مجلد أو أكثر .

\* \* \*

[ عبد الرحمن الداخل ]

وعلم مما ألعنا به من كلام ابن خلدون السابق ذكر الولاية للأندلس من  
لُدُن الفتح ، وهم من قبل بني مروان بالمشرق المنفردين بإمامة المسلمين أجمعين  
قبل تفرقهم ، إلى أن انقرضت دولتهم العظيمة التي هي ألف شهر ، فاقطع  
الأندلس عن بني العباس الدائلين على بني مروان الناسخين لهم قتلُ المروانيين  
عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، واقتعدوا دار مملكة  
مستقلة لنفسه ولأعقابه ، وجمع بها شمل بني أمية ومواليهم ، وأورشها بنيه  
حِقْبَةَ من الدهر ، بعد أن قاسى في ذلك خُطوباً ، واجتمع عليه ثم على ذريته  
من بعده أهل الأندلس أجمعون رضّى بهم دون بني العباس ، بعد أن حاول بنو  
العباس ملكها بأن وآتوا بعض رؤساء العرب ، وأمروهم بالقيام على عبد الرحمن  
والدعاء للعباسيين القاطعين جُرثومة دولة بني مروان ، فلم يتيسر ذلك ، وظفر

١ ق : فنظم فيها ذكر السبب في غزوها .

٢ انظر ص : ٢٣٢ - ٢٣٨ من هذا الكتاب .

عبد الرحمن بمن نصب له الحرب في ذلك ، وقتل منهم آلافاً ، وذلك في مدة المنصور كما سياتي إن شاء الله تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل في موضع آخر ، وسنذكر قريباً ولاية الأندلس من حين الفتح إلى إمارة الداخل ، وإن سبق في كلام ابن خلدون .

\* \* \*

[ مزيد بيان في نهاية موسى وشيء من شخصيته ]

وقال بعضهم : كانت ولادة موسى بن نصير في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة تسع عشرة من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأجل السلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، انتهى .

وقال الحجاري في « المسهب » : يحكى أن موسى بن نصير ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وطلب منه أن يكلمه في أن يخفف عنه ؛ فقال له يزيد : أريد أن أسألك فأصغِ إليّ ؛ قال : سل عما بدا لك ، فقال له : لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس ، وأعرفهم بمكايد الحروب ومداورة الدنيا ، فقل لي : كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار ، وتيقنت بُعد المرام واستصعابه ، واستخلصت بلاداً أنت افترعتها<sup>١</sup> ، واستملكك رجالاً لا يعرفون غير خيرك وشرك ، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك ، ثم إنك علمت أن سليمان ولي عهد ، وأنه المولى بعد أخيه ، وقد أشرف أخوه على الهلاك لا محالة ، وبعد ذلك خالفته ، وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحقدت مالكك ومملوكك — قال : يعني سليمان وطارقاً — وما رضى هذا الرجل عنك إلاّ بعيد ، ولكن لا ألو جهداً ، فقال موسى : يا ابن الكرام ، ليس هذا وقت

١ ك : اخترعتها .

تعديد ، أما سمعت « إذا جاء الحين ، غطى العين »<sup>١</sup>؟ فقال : ما قصدت بما قلت لك تعديداً ولا تبكيتاً ، وإنما قصدت تليقح العقل ، وتنبيه الرأي ، وأن<sup>٢</sup> أرى ما عندك ؛ فقال موسى : أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بُعد ، ويقع في الفخ وهو بمرأى عينه ؟ ثم كلم فيه سليمان ، فكان من جوابه « إنّه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الظهور ، وانقياد الجمهور ، والتحكّم في الأموال والأبشار ، على ما لا يحويه إلا السيف ، ولكن قد وهبت لك دمه ، وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يردّ ما غلّ من مال الله . قال : وآلت حاله إلى أن كان يُطاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتك به نفسه ، وفي تلك الحال مات ، وهو من أفقر الناس وأذلهم ، بوادي القُرَى ، سائلاً من كان نازلاً به .

وقال أحد غلمانه ممّن وفي له في حال الفقر والحمول : لقد رأيتنا نطوف مع الأمير موسى بن نُصَير على أحياء العرب ، فواحد يجيبنا<sup>٣</sup> ، وآخر يحتجب عنّا ، ولربما دفع إلينا على جهة الرحمة الدرهم والدرهمين ، فيفرح بذلك الأمير ليدفعه إلى الموكلين به ، فيخففون عنه من العذاب ، ولقد رأيتنا أيام الفتوح العظام بالأندلس نأخذ السلوك<sup>٤</sup> من قصور النصارى ، فنفضل منها ما يكون من الذهب وغير ذلك ونرمي به ، ولا نأخذ إلا الدرّ الفاخر ، فسبحان الذي بيده العزّ والذل والغنى والفقر .

قال : وكان له مولى قد وفي له وصبر عليه إلى أن ضاق ذرّعه بامتداد الحال ، فعزم على أن يُسلّمه وهو بوادي القُرَى في أسوأ حال ، وشعّر بذلك موسى ، فخضع للمولى المذكور ، وقال له : يا فلان ، أتسلمني في هذه الحالة ؟

١ ك : غطى على .

٢ ط : وأنا .

٣ ق ط : يجيبنا .

٤ ك : السلوب .

فقال له المولى ، من شدة ما كان فيه من الضجر : قد أسلمك خالقك ومالكك الذي هو أرحم الراحمين ، فدمعت عيناه ، وجعل يرفعهما إلى السماء خاضعاً مهيناً بشفتيه ، فما سمرت تلك الليلة إلاّ عن قبض روحه ، رحمة الله عليه ، فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يُترحم عليه ، وإنّ فعل سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه نائباً عنه<sup>١</sup> بالأندلس وقد جيء به من أقصى المغرب بين يديه من وصماته التي تُعدّ عليه طول الدهر ، لا جرّم أنّ الله تعالى لم يمتعه بعده بملكه وشبابه .

وذكر ابن حيّان<sup>٢</sup> أن موسى كان عربياً فصيحاً . وقد سبق من مراجعة يزيد بن المهلب ما يدل على بلاغته ، ويكفي منها ما ذكره ابن حيّان أنّه كتب إلى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الأندلس وغنائمها «إنّها ليست الفتوح ، ولكنها الحشر»<sup>٣</sup> .

وقال الحنجاري : إن منازعة جرت بينه وبين عبد الله بن يزيد بن أسيد بمحضّر عبد الملك بن مروان أبحاثه إلى أن قال شعراً منه :

جارت غير سؤومٍ في مطاولةٍ لو نازع الحفل لم يتزع إلى حصري

وتقدم ما ذكره غير واحد كابن حيّان أن موسى مولى عبد العزيز بن مروان ، وكذا ذكر الحنجاري أنّه<sup>٤</sup> تجهز مع أم البنين بنت عبد العزيز حين ابنتى بها الوليد ابن عبد الملك ، فكانت تُسَمِّي مكانته عند الوليد إلى أن بلغ ما بلغ . وأشهر من كان في صحبة موسى بن نصير من مواله طارق المشهور بالفتوح العظيمة ، وطريف ، وقد جرى ذكرهما في كتابنا هذا بما اقتضاه الاختصار .

١ ق : عنه نائباً .

٢ ق : وقال غيره ؛ طج : وقيل .

٣ انظر تاريخ ابن عبد الحكم : ٢٨١ .

٤ أنه : سقطت من ك .

وقال ابن سعيد ، بعد ذكره الخلاف في <sup>١</sup> موسى هل هو لحمي صريح أو بالولاء ، أو بربري ، أو مولى لعبد العزيز بن مروان ، ما صورته : وكان في عقبه نباهة في السلطنة ، وليّ ابنه عبد العزيز سلطنة الأندلس ، وعبد الملك سلطنة المغرب الأقصى ، وعبد الله سلطنة إفريقية ، وذكر الحجاري <sup>٢</sup> أن أصله من وادي القرى بالحجاز ، وأنه خدم بني مروان بدمشق ، وتنبه شأنه ، فصرّفوه في ممالكهم إلى أن وليّ إفريقية وما وراءها من المغرب في زمن الوليد بن عبد الملك ، فدوّخ أقاصي المغرب ، ودخل الأندلس من جبل موسى المنسوب إليه المجاور لسبتة ، ودوّخ بلاد الأندلس ، ثمّ أوفده الوليد إلى الشام ، فوافق مرضه ثمّ موته وخلافة أخيه سليمان ، فعذبه واستصفى أمواله ، وآل أمره إلى أن وجهه إلى قومه بوادي القرى لعلهم يعطفون عليه ويؤدون عنه ، فمات بها ، وقد نصّ ابن بشكّوآل على أنه مات بوادي القرى .

أمّا معارفه السلطانية فيكفيه ولاية ما خلف مصر إلى البحر المحيط بين بربر البربر والأندلس .

وأما الأدبية فقد جاءت عنه بلاغة في النثر والنظم تدخّله - مع نزارتها - في أصحاب در الكلام . وذكر ابن بشكّوآل أنه من التابعين الذين رووا الحديث ، وأن روايته عن تميم الداريّ ، وذكره في كتب الأئمة من المصنفين أنبه وأوعب من أن يخصّص بذكره واحد منهم ، وهو غرة التواريخ الأندلسية ، وذكره إلى الآن جديد في ألسن الخاصة والعامة من أهلها .

ومن مُسْنَبِ الحجاري : كان قد جمع - رحمه الله - من خلال الخير ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيد ، والذكر الشهير المخلد ، الذي لا يبليه الليل والنهار ، ولا يُعَفِّي جديده بلى الأعصار ، إلا أنه كان يغلب عليه ما لا يكاد رئيس يسلم منه ، وهو الحقد والحسد ، والمنافسة لا تخلو

١ ك : في أن .

٢ ق : قال بعضهم ؛ ط ج : وقيل .

من ذلك ، وأنشد بعض الرؤساء :

وليس رئيسُ القومِ منْ يحْمِلُ الحقدَا

فقلبه الرئيس وقال « من يترك الحقدَا » ثم قال : إن السيد إذا ترك إضمار الخير والشر والمجازاة عليهما اجترىء عليه ، ونُسب للضعف والغفلة ، وهل رأيت صفقةً أحسر من غفلة<sup>١</sup> رئيس أحقده غيره فنسي ذلك أو تناساه ، وعدوه لا يغفل عنه ، وحاسده لا ينفعه عنده إلاّ الراحة منه ، وهو في وادٍ آخر عنه ، والله درُّ القاتل :

وَوَضِعُ الندى في مَوْضِعِ السيفِ بالعُلا مُضِرّاً ، كَوْضِعِ السيفِ في موضعِ الندى

ولكن الأصوب أن يكون الرأي ميزاناً : لا يزن الوافي لناقص ، ولا يزن الناقص لوافٍ ، ويدبر أمره على ما يقتضيه الزمان ، ويقدر فيه حُسن العاقبة .  
ونص ابن بَشْكُوَال على أن موسى بن نُصَيْر مات بوادي القُرَى سنة سبع وتسعين ، وأغزى<sup>٢</sup> الأندلس سنة إحدى وتسعين ، ودخلها سنة ثلاث وتسعين ، وقفل عنها إلى الوليد بن عبد الملك بالغنائم سنة أربع وتسعين ، وذكر أن ولايته على الأندلس بالباشرة - مذ دخلها إلى حين خروجه منها - سنة واحدة ، ومكث فيها مولاه طارق سنة ، انتهى . وقد تقدم شيء من ذلك<sup>٣</sup> .

\* \* \*

[ عود إلى ذكر التابعين في الأندلس ]

وذكر ابن بَشْكُوَال أيضاً أن ابن حبيب قال عن ربيعة : غلّ الناسُ كلّهم يوم فتح الأندلس ، إلا أربعة نفر فقط كانوا من التابعين : حنش الصنعاني ،

١ ق : صفقة .

٢ ك : وغزا .

٣ وقد ... ذلك : سقطت من ق .

وأبو عبد الرحمن الحُبَيْبِيّ ، وابن شِمَاسَةَ ، وعياض بن عقبة ، انتهى .  
قال ابن سعيد : وممن دخل الأندلس من غير هؤلاء الأربعة من التابعين  
علي بن رَبَاح اللخمي ، وموسى بن نُصَيْر فاتح الأندلس ، وحيثان بن أبي  
جبلة القرشي مولاهم ، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي صاحب الأندلس المذكور  
في سلاطينها ، ومحمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، وزيد بن قاصد السكسكي ،  
والمغيرة بن أبي بردة الكناني ، وعبد الله بن المغيرة الكناني ، وحيثوة بن رجاء  
التميمي ، وعبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، ومنصور بن  
خزيمة ، وعلي بن عثمان بن خطاب .

وذكر ابن حبيب أن عدة من دخل الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف  
نحو عشرين رجلاً . وفي كتاب ابن بشكُوال أنه دخل الأندلس من التابعين  
ثمانية وعشرون رجلاً ، وهم أسسوا قبلة المسجد الجامع بقُرطُبة ، وسمى  
الحجاري في المُسَهَب هؤلاء المتقدمين .

وذكر ابن سعيد أنه لم يتحقق المواضع التي تخصص بهؤلاء التابعين من بلاد  
الأندلس ، مع جزمه بأنهم دخلوا الأندلس وكانوا<sup>١</sup> بها ، وسيأتي ذكر التابعين  
الداخليين الأندلس بما هو أشمل من هذا ، وقد تقدم غُلولُ من عدا التابعين من  
الغنائم .

\* \* \*

### [ مغام الأندلس ]

وقال الليث بن سعد ، بعد ذكره أن طارِقاً أصاب بالأندلس مغام كثيرة  
من الذهب والفضة<sup>٢</sup> : إن كانت الطنْفِيسَةُ لتُوجد منسوجة بقضبان الذهب ،  
وتُنظَّم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وكان البربر ربما وجدها  
فلا يستطيعون حملها حتى يأتوا بالفأس فيضربوا به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها

١ ك : وسكنوا .

٢ النص في تاريخ ابن عبد الحكم : ٢٨١ .



والآخر النصف الآخر لنفسه ، ويسير معهم جماعة والناسُ مشتغلون بغير ذلك .  
وعن يحيى بن سعيد : لما افتتحت الأندلس أصاب الناسُ فيها غنائم ،  
ففلوا منها غلولاً كثيراً حملوه في المراكب وركبوا البحر ، فسمعوا منادياً يقول :  
اللهم غرق بهم ، وتقلدوا المصاحف ، فما نشبوا أن أصابتهم ريح عاصف ،  
وضربت المراكب بعضها بعضاً حتى تكسرت ، وغرق بهم ، وأهل مصر ينكرون  
ذلك ، ويقولون : أهل الأندلس ليس هم الذين غرقوا ، وإنما هم أهل سردانية ،  
فالله أعلم بحقيقة الحال .

ورأيت في بعض كتب التاريخ<sup>١</sup> أنه وُجد في طليطلة حين فتحت من  
الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر  
مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكي ، ووجد  
فيها من الدر والياقوت أكيال ، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ،  
ومائدة سليمان ، وكانت - فيما يُذكر - من زمردة خضراء ، وزعم بعض  
العجم أنها لم تكن لسليمان ، وإنما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهلُ الحسنة  
في دينهم إذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنايس ، فإذا اجتمع عندهم مال  
له قدرٌ صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة ، والكراسي من الذهب والفضة ،  
تحمل الشماسة والقُسوسُ فوقها الأناجيل في أيام المناسك ، ويضعونها في الأعياد  
للمباهاة ، فكانت تلك المائدة بطليطلة ممّا صُنِع في هذا السيل ، وتأنق الملوك  
في تحسينها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ  
من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كلَّ مطار ، وكانت مصوغة من الذهب  
الخالص مرصعةً بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، وقيل : إنها من زبرجدة  
خضراء حافاتها وأرجلها منها ، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلاً ، وكانت  
توضع في كنيسة طليطلة ، فأصابها طارق ، انتهى .

١ تقدم ما هو شبيه بذلك ، انظر ص : ٢٧٢ من هذا الكتاب ؛ وفي ك : ورأيت لبعض أهل التاريخ .

وقد ذكرنا فيما مرّ عن ابن حيّان ما فيه نظير هذا ، وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها ما فيه بعض تخالف ، وما ذلك إلّا لأنّا نقل كلام المؤرخين ، وإن خالف بعضهم بعضاً ، ومرادنا تكثير الفائدة ، وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار ، وإن حصل الخلاف في صفتها وجنسها وعدد أرجلها ، وهي من أجلّ ما غنم بالأندلس ، على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوّعة الأجناس التي ذكرها إلى الآن شائع بين الناس .

### [ استيطان العرب في الأندلس ]

واعلم أنّه لما استقرّ قدم أهل الإسلام بالأندلس وتامّ فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان .  
فأمّا العدنانيون فمنهم حنيدف ومنهم قريش ، وأمّا بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الأنفس : بالأندلس منهم جماعة كلّهم من ولد إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، ومن هؤلاء بنو حمّود ملوك الأندلس بعد انتشار سلك بني أمية<sup>١</sup> ، وأمّا بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس ، قال ابن سعيد : ويُعرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين ، وإنّما عمّوا نسبتهم إلى أمية في الآخر لما انحرف الناس عنهم ، وذكروا أفعالهم في الحسين رضي الله عنه ، وأمّا بنو زهرة فهم<sup>٢</sup> بإشبيلية أعيان متميزون ، وأمّا المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومي الأعمى الشاعر المشهور من أهل حصن المدور ، ومنهم الوزير الفاضل في النظم والفتوى أبو بكر بن زيدون والوالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بني عبّاد . وقال ابن غالب : وفي الأندلس من ينسب إلى جُمح ، وإلى بني عبد الدار ، وكثير من قريش المعروفون بالفهريين من بني مُحارب

١ انظر جمهرة ابن حزم : ٥٠ - ٥١ في أنساب الحموديين .

٢ في بعض الأصول : فمنهم .

ابن فيهر ، وهم من قريش الظواهر ، ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الأندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، وبنو الجند الأعيان العلماء . ومن بني الحارث بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهري سلطان الأندلس الذي غلبه عليها عبد الرحمن الأموي الداخل ، وجد يوسف عقبه بن نافع الفهري صاحب الفتوح بإفريقية ، قال ابن حزم : ولهم بالأندلس عدد وثروة . وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلتهم في طليطلة وأعمالها ، وهم ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة ، وقد ذكرناه في محله . وأما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فذكر ابن غالب أن متزهم بجهة أريثولة من كورة تدمير . وأما تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر فذكر ابن غالب أيضاً أنهم خلق كثير بالأندلس ، ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية . وأما ضبة بن أد بن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس ، فهؤلاء خندف من العدنانية .

وأما قيس عيلان بن إلياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومنهم من ينتسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس ، كعبد الملك بن حبيب السلمي الفقيه صاحب الإمام مالك رضي الله عنه ، وكالقاضي أبي حفص بن عمر قاضي قرطبة . ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة ، قال ابن غالب : وهم بإشبيلية خلق كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن ، قال ابن غالب : ولهم منزل بجوفي بلنسية على ثلاثة أميال منها ، وإشبيلية وغيرها منهم خلق كثير ، ومنهم بنو حزم ، وهم بيت غير البيت الذي منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهري ، وهو فارسي الأصل . ومنهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن ، وذكر ابن غالب أن منهم بغيرناطة كثيراً ، كبنو جودي ، وقد رأس بعض بني جودي . ومنهم من ينتسب إلى سلول امرأة نسب إليها بنوها ، وأبوهم مرة بن صعصعة

ابن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى نُمَيْرِ بن عامر ابن صعصعة ، قال ابن غالب : وهم بغيرناطة كثير . ومنهم من ينتسب إلى قُشَيْرِ بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ومنهم بلج بن بشر صاحب الأندلس وآله ، وبنو رَشِيق . ومنهم من ينتسب إلى فزارة بن ذُبْيَانِ بن بَغِيضِ بن رَيْثِ بن غَطَفَانَ بن سعد بن قيس عيلان . ومنهم من ينتسب إلى أَشْجَعِ بن رَيْثِ بن غطفان ، ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعي سلطان الأندلس . وفي تقيف اختلاف ، فمنهم من قال : إنها قيسية ، وإن ثقيفاً هو قَسِيٌّ بن منبه بن بكر بن هوازن ، ومنهم بالأندلس جماعة ، وإليهم ينتسب الحُرُّ بن عبد الرحمن الثقفي صاحب الأندلس ، وقيل : إنها من بقايا ثمود ؛ انتهى قيس عيلان وجميع مضر .

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، قال في فرحة الأنفس : إن إقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجوفيّ مدينة وادي آش ، انتهى ؛ والأشهر بالنسبة إلى أسد أبداً بنو أسد بن خزيمية بن مدركة بن إلياس ابن مضر . ومنهم من ينتسب إلى مُحَارِبِ بن عمرو بن وداعة بن لُكَيْزِ بن أَفْصَى بن دُعْمِي بن جَدِيلَةَ بن أسد بن ربيعة ، قال ابن غالب في فرحة الأنفس : ومنهم بنو عطية أعيان غمرناطة . ومنهم من ينتسب إلى النَّمِرِ بن قاسط بن هِنَبِ بن أَفْصَى بن دُعْمِي بن جَدِيلَةَ بن أسد ، كني عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عُمَرِ بن عبد البر . ومنهم من ينتسب إلى تَغْلِبِ بن وائل بن قاسط بن هِنَبِ ، كني حمّدين أعيان قُرْطُبَةَ ، ومنهم من ينتسب إلى بكر ابن وائل ، كالبكرين أصحاب أونية وشلطيّش الذين منهم أبو عبّيد البكري صاحب التصانيف ؛ انتهت ربيعة .

١ في الأصول : بكير .

وأما إِيَادُ بنِ نِزَارٍ ، وقد يقال : إنّه ابن معد ، والصحيح الأول ، فينتسب إليهم بنو زُهْرَ المشهورون بإشيبيلية وغيرهم<sup>١</sup> ؛ انتهت العدنانية ، وهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام .

واختلف في القحطانية : هل هم من ولد إسماعيل أو من ولد هود ، على ما هو معروف ، وظاهر صنيع البخاري الأول ، والأكثر على خلافه ، والقحطانية هم المعروفون باليمانية ، وكثيراً ما يقع بينهم وبين المُضَرِّيَّة وسائر العدنانية الحروب بالأندلس ، كما كان يقع بالمشرق ، وهم الأكثر بالأندلس ، والملك فيهم أرسخ ، إلا ما كان من خلفاء بني أمية ، فإن القرشية قد متهم على الفرقتين ، واسم الخلافة لهم بالمشرق ، وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشيبتهم وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتراء ، وقدم القواد على الأجناد ، فيكون في جند القائد الواحد فرّق من كل قبيل ، فانحسرت مادة الفن والاعتراء بالأندلس ، إلا ما جاءت على غير هذه الجهة .

قال ابن حزم : جماع أنساب اليمن من جذمين : كهلان وحيمير [ ابني سبأ ] بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشذ ابن سام بن نوح ، وقيل : قحطان بن الهميسع بن تيهان بن نبت بن إسماعيل ، وقيل قحطان بن هود بن عبد الله بن رباح بن حارث بن عاد بن عوص<sup>٢</sup> بن إرم بن سام ، والخلف في ذلك مشهور . فمنهم كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان ، ومنهم الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، وإليهم ينتسب محمد بن هانيء الشاعر المشهور الإلبيري ، وهو من بني المهلب ؛ ومن الأزد من ينتسب إلى غسان ، وهم بنو مازن بن الأزد ، وغسان : ماء شربوا منه ، وذكر ابن غالب أن منهم بني القليبي من أعيان

١ قال ابن حزم (الجمهرة : ٣٢٧) إن دار إياد بالأندلس هي قرمونة ولبلة .

٢ في الأصول : عوص .

غَرْنَاطَة ، وكثير منهم بصالحَة قريةٍ على طريق مالقةَ ؛ ومن الأزْد من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجُم الغفير بالأندلس .

قال ابن سعيد : والعجب أنك تعدّم هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة ، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلاّ شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأوس .

قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طُلَيْطَلَة ، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها ، انتهى .

ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المشهور بالموشحات ، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطين غرناطة الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزراءهم ، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين ، واستولى العدو على الجزيرة جميعاً كما يُذكر .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخي الخزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عكّ بن عدنان بن هزان بن الأزْد ، وقد يقال : عك بن عدنان - بالنون - فيكون أحامعد بن عدنان ، وليس بصحيح ؛ قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبي الحِصَال الكاتب ، وأكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق .<sup>٢</sup> ومن كهلان من ينتسب إلى همدان ، وهو أوسيلة بن مالك بن زيد بن

١ من الأنصار الذين ذكر ابن حزم مواطنهم : بنو ربيع بن محمد بن ربيع من الأوس كانوا بقرطبة يتولون الأهرام (٢٣٣) وبنو عثيم بن سفيان برية (٣٤٧) وبقرطبة ، وكانوا يحملون الألوية خلفاء بني مروان (٣٤٨) ، وكان من ولد عبادة بن الصامت قوم يسكنون بالمدينة عندنا بباب المطارين بقرطبة يعرفون ببني هارون (٣٥٤) ومن ولد مالك الأغر بنو حبيب وبنو قطنين البيازون الساكنون بقرية اختيانية من قبرة (٣٦٣) ومن ولد النعمان بن بشير قوم بقرية شوش الأنصار من إشبيلية (٣٦٤ - ٣٦٥) ولسميد بن سعد عقب بالأندلس بقرية يقال لها قربلان من عمل سرسطة (٣٦٥) .

٢ قال ابن حزم : ودارهم (أي غافق) بالأندلس معروفة باسمهم في الجوف في شمال قرطبة ؛ منهم =

أوسلة بن الحيار بن مالك بن زيد بن كهلان<sup>١</sup> ، ومترل همدان مشهور على ستة أميال من غرناطة ، ومنهم أصحاب غرناطة بنو أضحى<sup>٢</sup> . ومن كهلان من ينتسب إلى مذحج ، ومذحج : اسم أكمة حمراء باليمن ، وقيل : اسم أم مالك وطية ابني أدد بن زيد بن كهلان ، قال ابن غالب : بنو سراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مذحج . ومترل طية بقبلي مرسية . ومنهم من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أدد ، وحصن مراد بين إشبيلية وقرطبة مشهور ، قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقاً كثيراً . ومنهم من ينتسب إلى عئس بن مالك بن أدد ، ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب « المغرب » وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غرناطة . ومن مذحج من ينتسب إلى زبيد ، قال ابن غالب : وهو منبته بن سعد العشيبة بن مالك بن أدد . ومن كهلان من ينتسب إلى مرة بن أدد بن زيد بن كهلان ، قال ابن غالب : منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة . ومنهم من ينتسب إلى عاملة ، وهي امرأة من قضاة ولدت للحارث ابن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد ، فنسب ولدها منه إليها ، قال ابن غالب : منهم بنو سمالك القضاة من أهل غرناطة ، وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقيل : هم من قضاة . ومن كهلان خولان بن عمرو بن الحارث بن مرة ، وقلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية ، ومنهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة . ومنهم من ينتسب إلى المعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة ، ومنهم المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس . ومنهم من ينتسب إلى لخم بن عدي بن الحارث بن مرة ، منهم

= بنو أسلم . . . ومنهم كان أمير الأندلس عبد الرحمن [ النافقي ] . . . وله عقب قد عمل بمرنيانة النافقين ، بقرب إشبيلية على النهر الأكبر ( ٢٢٩ ) .  
١ ثبت في طبعة لندن تصويهاً : وهو أوسلة بن ربيعة بن الحيار . . . الخ . وما ثبت هنا أقرب إلى نص عجلة المبتلي ( ص ١٢٣ ) .  
٢ قال ابن حزم : ودار همدان بالأندلس البيرة ( ٣٩٧ ) وهناك قرية همدان إلى الجنوب من غرناطة ، ( الإحاطة ١ : ١١٨ ) .

بنو عبّاد أصحاب إشبيلية وغيرها ، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ، ومنهم بنو الباجي أعيان إشبيلية ، وبنو وافر الأعيان . ومنهم من ينتسب إلى جندام مثل ثوابة بن سلامة صاحب الأندلس ، وبنو هود ملوك شرقي الأندلس ، ومنهم المتوكل بن هود الذي صحت له سلطنة الأندلس بعد الموحدين ، ومنهم بنو مردّ نيش أصحاب شرقي الأندلس ، قال ابن غالب : وكان لجندام جزء من قلعة ربّاح ، واسم جندام عامر ، واسم لحم مالك ، وهما ابنا عدي . ومن كهلان من ينتسب إلى كيندة ، وهو ثور بن عفير بن عدي [ بن الحارث ] ابن مرة بن أدد ، ومنهم يوسف بن هرون الرمادي الشاعر . ومنهم من ينتسب إلى تجيب وهي امرأة أشرس بن السكون بن أشرس بن كندة . ومن كهلان من ينتسب إلى خثعم بن أنمار بن اراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، ومنهم عثمان بن أبي نسيعة سلطان الأندلس ، وقد قيل : أنمار بن نزار بن معد بن عدنان ؛ انتهت كهلان .

وأما حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمنهم من ينتسب إلى ذي رعين ، قال ابن غالب : وذو رعين هم ولد عمرو بن حمير في بعض الأقوال ، وقيل : هو من ولد سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهمة بن حمير ، قال : ومنهم أبو عبد الله الحنّاط الأعمى الشاعر<sup>١</sup> ، قال الحازمي<sup>٢</sup> في كتاب النسب<sup>٣</sup> واسم ذي رعين يريم<sup>٤</sup> بن زيد بن سهل ، ووصل

١ سمرق به في موضعه ؛ قال ابن حزم (٤٣٤) : ودار رعين بالأندلس الفحص المنسوب إليهم برية .

٢ هو الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمداني ( - ٥٨٤ ) راجع ترجمته في ابن خلكان : ٣ : ٤٢١ وطبقات السبكي : ٤ : ١١٩ وهو صاحب كتاب «عجالة المبتدي وفضالة المنتهي» في النسب ؛ حققه الأستاذ عبد الله كنون (القاهرة : ١٩٦٥) .

٣ انظر عجالة المبتدي : ٦٦ .

٤ يريم : كذا هو في دوزي والمجالة ، وفي المخطوطات : عريم .



النسب ، ومنهم من ينتسب إلى ذي أصْبَح ، قال ابن حزم<sup>١</sup> : هو ذو أصْبَح ابن مالك بن زيد من ولد سبأ الأصغر بن زيد بن مهمل بن عمرو بن قيس ، ووصل النسب ، وذكر الحازمي<sup>٢</sup> أن ذا أصْبَح من كهْلان ، وأخبر أن منهم مالك بن أنس الإمام ، والمشهور أنهم من حِمير ، والأصْبَحيون من أعيان قُرْطبة ، ومنهم من ينتسب إلى يَحْضَب ، قال ابن حزم : إنَّه أخو ذي أصْبَح وهم كثير بقلعة بني سعيد ، وقد تُعرف من أجلهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يَحْضَب ، ومنهم من ينتسب إلى هوزن<sup>٣</sup> بن عَوْف بن عبد شمس بن وائل بن الغوث ، قال ابن غالب : ومترلم بشرف إشبيلية<sup>٤</sup> ، والهوزنيون من أعيان إشبيلية . ومنهم من ينتسب إلى قُضَاعَة بن مالك بن حِمير ، وقد قيل : إنَّه قضاعة بن معد بن عدنان ، وليس بمرضي ، ومن قُضَاعَة من ينتسب إلى مَهْرَة كالوزير أبي بكر ابن عمار الذي وُتِب على ملك مُرسية ، وهو مَهْرَة بن حيدان<sup>٥</sup> بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، ومنهم من ينتسب إلى خُشَيْن بن نمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، ومنهم من ينتسب إلى تَنْوُخ ، قال ابن غالب : وهو ابن مالك بن فهم بن نمر بن وبرة بن تغلب ، قال الحازمي<sup>٦</sup> : تَنْوُخ هو مالك بن فهم بن تَيْم الله بن أسد بن وبرة . ومنهم من ينتسب إلى بلكي بن عمرو ابن الحاف بن قُضَاعَة ، ومنهم البلكويون بإشبيلية<sup>٧</sup> . ومنهم من ينتسب إلى جُهَيْنَة بن سود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قُضَاعَة ، قال ابن غالب :

١ انظر الجمهرة : ٤٣٥ .

٢ عجالة الميمني : ١٧ .

٣ ط ودوزي : هوزن ، وهو خطأ .

٤ قال ابن حزم ( ٤٣٤ ) : ودار بني هوزن بالأندلس القريتان المذكورتان هما بإشبيلية .

٥ ط : حدان .

٦ عجالة الميمني : ٣٣ .

٧ حدد ابن حزم ( ٤٤٢ ) منازل بلي بقوله : ودار بلي بالأندلس الموضع المعروف باسمهم بشمال

قرطبة ، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ، لا يحسنون الكلام بالطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم

ورجالهم . . . وكانت لهم دار أخرى بكورة مورور أيضاً .

وبقرطبة منهم جماعة . ومنهم من ينتسب إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان كني أبي عبدة الذين منهم بنو جهور ملوك قرطبة ووزراؤها . ومنهم من ينتسب إلى عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن سود بن عمرو بن الحاف بن قضاة ، ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عذرة<sup>١</sup> .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى حضرموت ، منهم الحضرميون بمرسية وغرناطة وإشبيلية وبطليوس وقرطبة ، قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس ، وفيه خلاف ، قيل : إن حضرموت هو ابن قحطان ، وقيل : هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان - بالجيم - بن قطن بن العريب بن الغرر<sup>٢</sup> بن نبت بن أيمن بن الهاميس ابن حمير ، كذا نسق النسب الحازمي<sup>٣</sup> .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سلامان ، ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذكر في محله .

• • •

### [ ثبت بأسماء الأمراء ]

وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بني أمية ، وإن تقدم ويأتي ذكر جملة منهم بما هو أممّا هنا ؛ فنقول : طارق بن زياد مولى موسى بن نصير .

ثم الأمير موسى بن نصير ، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة .

ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وسريه إشبيلية .

ثم أيوب بن حبيب اللخمي ، وسريه قرطبة ، وكل من يأتي بعده فسريه

١ قال ابن حزم (٤٥٠) ودار بني عذرة بالأندلس : دلالة ، وبجيان منهم ، وبالشفر منهم بنو فوارتش ، ولهم عدد بقرسطة .

٢ عجاله المبتدي : الغرر .

٣ انظر عجاله المبتدي : ٤٩ .

قرطبة أو الزهراء والزهرة بجانبها إلى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينه عليه .

- ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي .
- ثم السَّمْح بن مالك الخَوْلاني .
- ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي .
- ثم عَنبَسَةُ بن سُهَيْم الكلابي .
- ثم عُدْرَةُ بن عبد الله الفِهْرِي .
- ثم يَحْيَى بن سلمة الكلابي .
- ثم عثمان بن أبي نِسْعَةَ الخَثْعَمِي .
- ثم حذيفة بن الأحوص القيسي .
- ثم الهيثم بن عدي<sup>٢</sup> الكلابي .
- ثم محمد بن عبد الله الأشجعي .
- ثم عبد الملك بن قَطَن الفِهْرِي .
- ثم بلج بن بشر بن عياض القُشَيْرِي .
- ثم ثعلبة بن سلامة العاملي .
- ثم أبو الخطار [ حُسام ] بن ضرار الكلابي .
- ثم ثوابة بن سلامة الجُدَامِي .
- ثم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي .

وهنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير مُوارثة ، أفراداً ، عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد ، ولم يتعدوا في السَّمة لفظ الأمير .

قال ابن حبان : مدتهم منذ تاريخ الفتح من<sup>٣</sup> لُدْرِيق سلطان الأندلس النصراني - وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين - إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي ، وتغلب عبد الرحمن بن معاوية

٢ في الأصول : عيد .

١ دوزي : عزرة .

٣ ق ط ج : في .

المرواني على سرير الملك قرطبة - وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة  
سنة ثمان وثلاثين ومائة - ست وأربعون سنة وخمسة أيام ، انتهى .

\* \* \*

### [ حكام بني أمية ]

- ثم كانت دولة بني أمية :
- أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .
- ثم ابنه هشام الرضى .
- ثم ابنه الحكم بن هشام .
- ثم ابنه عبد الرحمن الأوسط .
- ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن .
- ثم ابنه المنذر بن محمد .
- ثم أخوه عبد الله بن محمد .
- ثم ابن ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله .
- ثم ابنه الحكم المستنصر ، وكرسيهما الزهراء .
- ثم هشام بن الحكم ، وفي أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبي عامر الزاهرة .
- ثم المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ، وهو أول خلفاء الفتنة ،  
وهُدمت في أيامه الزهراء والزاهرة ، وعاد السرير إلى قرطبة .
- ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر .

\* \* \*

### [ الحمدويون ]

- ثم تخلت دولة بني حمّود العلويين :
- وأولهم الناصر علي بن حمّود العكوي الحسيني الإدريسي .

١ ط : ثم المؤيد .

ثمّ أخوه المأمون القاسم بن حمود .  
ثمّ المعتلي يحيى بن الناصر علي بن حمود .

\* \* \*

[ بقية بني أمية ]

ثمّ كانت دولة بني أمية الثانية :  
وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر .  
ثمّ المستكني محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر .  
ثمّ المعتد<sup>١</sup> هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وهو آخر خلفاء الجماعة  
بالأندلس ، وحين خلع أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية .

\* \* \*

[ ملوك الطوائف ومن بعدهم ]

واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور في قرطبة ، وابن عبّاد بإشبيلية ،  
وغيرهما ، ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد ، إلى أن ملكها يوسف بن  
تاشفين الملقب من برّ العُدوة ، وفتك في ملوك الطوائف ، وبعد ذلك ما خلصت  
له ولا لولده علي بن يوسف ، لأن بني هود نازعوه في شرقها بالثغر ، إلى أن  
جاءت دولة عبد المؤمن وبنيه ، فما صفت لعبد المؤمن بمحمد بن مرّد نيش الذي  
كان ينازعه في شرق الأندلس ، ثمّ صفت ليوسف بن عبد المؤمن بموت ابن  
مرّد نيش ، ثمّ لمن بعده من بنيه ، وحضرتهم مرّا أكش ، وكانت ولائهم تتردّد  
على الأندلس وممالكها ، ولم يولوا على جميعها شخصاً واحداً لعظم ممالكها ،  
إلى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بني هود ملوك سرقسطة  
وجهاتها ، فملك معظم الأندلس بحيث يُطلق عليه اسم السلطان ، ولم ينازعه فيها  
إلاّ زيّان بن مرّد نيش في بلنسية من شرق الأندلس ، وابن هلالة في طبرية<sup>٢</sup>

١ ط : المعتد .

٢ ط : طبرزة .

من غرب الأندلس ، ثم كثرت عليه الحوارج قريب موته ، ولما قتله وزيره ابن الرميمي بالريّة زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر . وكان أهل غرب الأندلس في المائة السابعة يحطبون لصاحب إفريقية السلطان أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، ثم تقلّصت تلك الظلال ، ودخل الجزيرة الانحلال ، إلى أن استولى عليها حزب الضلال ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وقد ذكرت في هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الأندلس ممّا يصلح للمذاكرة ، وربما سرّحت طرف القلم في بعضهم .

وبنو جهّور المشار إليهم قريباً كانوا وزرّاء الأمويين ، ثمّ إنّه لما انتثر سلك الخلافة استبدّ بقُرطبة الوزير أبو الحزم بن جهّور من غير أن يتعدى اسم الوزارة .

• • •

[ جهّور بن محمد بن جهور ]

قال في «المطمح»<sup>١</sup>: الوزيرُ الأجلُ جهّور بن محمد بن جهور، [وبنو جهور] أهل بيت وزارة ، اشتهروا كاشتهار ابن هُبيرة في فزارة ، وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات ، وأنجدهم في الملمات ، ركب مُتُون الفتون فَرَأَصَهَا ، ووقع في بحور المحن فحَاضَهَا ، منبسط غير منكمش ، لا طائشُ اللسان ولا رَعش ، وقد كان وزرّ في الدولة العامرية فشرّفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما انقرضت وعاقَتِ الفتنُ واعترضت ، تميز عن التدبير مُدَّتْهَا ، وخطى لخلافه أعباء الخلافة وشدتها ، وجعل يُقبَل مع أولئك الوزراء ويُدبّر ، وينهل<sup>٢</sup> الأمر معهم ويُدبّر ، غير مظهر للانفراد<sup>٣</sup> ، ولا متصرف<sup>٤</sup> في ميدان ذلك الطراد ، إلى أن بلغت الفتنة مداها ، وسوّغت ما شاءت ردّآها ، وذهب من كان يتخذ<sup>٥</sup> في

٢ ك : ويدر .

١ انظر المطمح : ١٤ .

٣ ط : إلى انفراد

٤ المطمح : ولا مقصر .

٥ ط ج : يجد .

الرياسة ويخبُّ ، ويسعى في الفتنة ويديب ، ولما ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الإقبال ، راسلَ أهلَ التقوى مستمدّاً بهم ، ومعتمداً على بعضهم ، تحيلاً<sup>١</sup> منه وتمويها ، وتداهياً على أهل الخلافة وذويها ، وعرض عليهم تقديم المعتدّ هشام ، وأومض منه لأهل قُرطبة برق خُلب<sup>٢</sup> يشام ، بعد سرعة التياشها ، وتعجيل انتكاشها ، فأجابوا إلى الإجابة ، وأجابوا إلى استرعائه الوزارة والحجابه<sup>٣</sup> ، وتوجهوا مع ذلك الإمام ، وألّوا بقرطبة أحسن إلمام ، فدخلوها بعد فتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة ، والبلد مقفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير حتى جبد<sup>٤</sup> واضطرب أمره فخلع ، واختطف من الملك وانتزع ، وانقضت<sup>٥</sup> الدولة الأموية ، وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قُرطبة عند ذلك أبو الحزَم ، ودبرها<sup>٦</sup> بالجد والعزم ، وصَبَطَها صَبْطاً آمناً خائفاً ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلا له الجوّ فطار ، واقتضى<sup>٧</sup> اللبانات والأوطار ، فعادت له قُرطبة إلى أكمل حالتها ، وانجلي به نورُ جلالتها ، ولم تزل به مُشرقة ، وغصونُ الآمال فيها مُورقة ، إلى أن توفي سنة ٤٣٥ فانتقل الأمر إلى ابنه أبي الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ، وكان لأبي الحزَم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال ، وعدم فيها المِثال ، وقد أثبت من شعره ما هو لائق ، وفي سماء الحسن رائق ، وذلك قوله في تفضيل الورد<sup>٨</sup> :

١ في المطمح : تحيلاً .

٢ المطمح : خلاية .

٣ دوزي : فأجابوا إلى دعائه ، وأجابوا إلى استرعائه .

٤ ك : حيد ؛ ط : جيد ؛ ج : جهد .

٥ ك : وانقضت .

٦ ك : ودبر أمرها .

٧ ك : وقضى .

٨ تابع المقرئ هنا خطأ الفتح في المطمح ، وقد نبه ابن الأبار في الحلة ( ١ : ٢٥٠ ) على هذا الخطأ ، قال : أنشد أبو نصر الفتح بن عبيد الله الإشبيلي في كتاب « مطمح الأنفس ومرح التانس في محاسن أهل المغرب والأندلس » من تأليفه أكثر هذه الأبيات والتي قبلها ، ونسبها لأبي الحزَم =

الوردُ أحسنُ ما رأت عيني وأذ  
 خصعت نواويرُ الرِّياضِ لحسنه  
 وإذا تبدى الوردُ<sup>١</sup> في أغصانه  
 وإذا أتى وقدُ الربيعُ مبشراً  
 ليس المبشّرُ كالمبشّرِ باسمه  
 وإذا تعرّى الوردُ من أوراقه  
 كى ما سقى ماءً السحاب الجائِدُ  
 فتذلت تنقاد وهي شوارِدُ  
 يزهُو فذا مَيّتٌ وهذا حاسِدُ  
 بطلوع وفدته فنعم الوافِدُ  
 خبرٌ عليه من النبوة شاهدُ  
 بقيت عوارِفُه فهنَّ خوالِدُ

انتهى المقصود منه .

وكانه عارض بهذه الأبيات في تفضيل الورد قول ابن الرومي في تفضيل  
 الرجس عليه من قصيدة :

للرجس الفضلُ الميّنُ وإن أبى أبٍ وحاد عن الحقيقة حائِدُ

وهي مشهورة .

وردت على ابن الرومي بعضهم بقوله :

يا من يُشبّه نرجساً بنواظر دُعجٍ تنبّه إن فهمك فاسِدُ

الخ وهي أيضاً مشهورة .

\* \* \*

[ انقراض حال الأندلس ]

رجع إلى ما كنا فيه - وكانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح وما بعده وقائع  
 في الكفّار شقت الصدور من أمراضها ، ووفت النفوس بأغراضها ، واستولت  
 على ما كان ملّة الكفر من جواهرها وأعراضها ، ثم وقع الاختلاف ، بعد ذلك

= جهور بن محمد بن جهور رئيس قرطبة المتأخر غلطاً منه ووهماً لا يخفاء به وإنما هي لجدّه جهور  
 ابن عبيد الله [ بن أبي عبدة الوزير ] . قلت : انظر ترجمة جهور أبي الحزم في الحلة ٢ : ٣٠ .  
 ١ . في الأصول : النصن .



الائتلاف ، فعَصَفَتْ رِيحُ العَدُوِّ والحروب سِجَال ، وأَعْنِي العِلاجُ حِكماء  
الرجال ، فصار أهل الأندلس يتذكرون موسى بن نُصَيْرٍ وطارقاً ، وَمَنْ بعدهما  
من ملوك الأندلس الذين رَاعَتِ العَدُوُّ الكافر منهم طوارق .

[ رسائل أبي المطرف بن عميرة ]

وما أحسن ما أعرب الإمام الكاتبُ القاضي أبو المطرف بن عميرة<sup>٢</sup> ، عمّاً  
يشمل هذا المعنى وغيره في كتابٍ بَعَثَ به إلى الشيخ أبي جعفر بن أمية ، حين  
حلَّ الرُّزءَ ببِلْتَنَسِيَّةِ ، وهو<sup>٣</sup> :

أما لكَ مِنْ بادي الصَّبابةِ من بُدِّ	ألا أيُّها القلبُ المِصرِّحُ بالوَجْدِ
له لَوْعَةُ الصَّادي ورَوْعَةُ ذِي الصَّدِّ	وهل من سَلُوْا يَرتجِي لِمَتِيْمِ
صروفُ اللَّيالي أن يعودَ إلى نَجْدِ	يُحْنُ إلى نَجْدِ ، وهيهات حَرَمْتِ
عَدَتْ غَيْرُ الأيامِ عن ذلك الوِرْدِ	فيا جَبَلِ الرِّبانِ لا رِيَّ بَعْدَ ما
خُلُوِيَّ عن أهلِ يَضَافِ إلى الوَدِّ	ويا أهلَ وُدِّي والحوادثُ تَقْتَضِي
فإنَّا نراها كلَّ حينٍ إلى الرَدِّ	ألا متعة يوماً بَعاريَةِ المُنَى
بأحناثنا ؛ كالنَّارِ مُضْمَرَةَ الوَقْدِ	أمنَ بعد رُزءٍ في بِلْتَنَسِيَّةِ ثوى
تطاعنُ فيهم بالثِقَفَةِ المُلْدِ	يُرَجِّي أناسٌ جُنَّةً من مصائبِ

١ كذا السجع ، وحقه أن يكون « وطارقاً » .

٢ أبو المطرف بن عميرة : أحمد بن عبد الله المخزومي ، سترجم له المقري ، وانظر ترجمته  
أيضاً في الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، ولسان الميزان وتحفة القادم : ١٤٥  
والوافي ٧ الورقة : ٦٤ والغبريني : ١٧٨ والإعلام بمن حل مراکش ١ : ٣٥٤ ،  
وللأستاذ محمد بن شريفة رسالة جامعة في حياته وآثاره (الرباط : ١٩٦٥) . ورسائله في مجلدين ،  
وبعض رسائله في صبح الأعشى ورحلة التجاني ورحلة العياشي وشرح المقصورة والروض المعطار  
والذيل والتكملة ج ٥ « ترجمة الرعي » .

٣ المختطفات ( الورقة : ٨٠ ) وورد بعضها في الروض المعطار : ٥٠ - ٥١ .

٤ ط : بأحناثنا ؛ ج : بأحناثنا .

الآليت شعري هل لها من مطالع معاد إلى ما كان فيها من السعد  
وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم فصاروا إلى الإخراج من جنة الخلد

مرحباً بالسحابة ، وما أعارت أفقي من الإضاءة ، ورددت تسحر النهي ،  
وتسحب ذيلاً على السها ، وتهز من المسرة أعطافاً ، وترد من نجوم المجرة نطاقاً ،  
عامت من الظلمة في موجهها ، ثم غلبت الشهب على أوجها ، قلب العقب يجب ،  
وسهيل بداره يحتجب ، والطرف غضيب ، وجناح الطائر مهيب ، وصاحب  
الأخبية يقرض ، والذابح عن ذبيحته يعرض<sup>١</sup> ، ورامح السماكين تحونه السلاح ،  
وواقع النسر ين يود<sup>٢</sup> أن يخفيه الصباح ، بلاغة تفتن كل لبيب ، وترعى  
روض كل أديب ، وتغض على رغم العدو من حبيب ، إن من البيان لسحراً ،  
ويا أيها الجواد وجدناك بحرأ ، أدريت ، أي برّي بريت ، وبأي قمر  
اهتديت ، ليلة سريت ، افتتحت بأبياتك الحسان ، ونظمتها نظم الجمان ،  
فعودت ستتها<sup>٣</sup> بالسيب ، وعرفت منها براعة ذلك الطبع ، ثم نثرت ،  
على القرطاس [من] شذور المنشور ، بل من جواهر النحور ، ما استوقف النظائر ،  
وبهزج اللجين والنضار ، ورأيتك استمددت ولك الباع الأمد ، وأعرت  
محاسنك والعارية ترد ، وجئت بالرائية<sup>٤</sup> تروق أربعتها ، وتخرس بها قعقة  
الأشعار وجعجعتها ، فأدت من حسنها ما يسر ، واجتمع لمن روى القطعتين  
ما نظم فيها وهو الدر . وأجريت<sup>٥</sup> خبر الحادثة التي محقت بدر التمام ،  
وذهبت بنضارة الأيام ، فيا من حضر يوم البطشة ، وعزّي في أنسه بعد تلك

١ يريد سعد الأخبية وسعد الذابح .

٢ ك : يود لو أنه .

٣ ق ط ك : سنتها ؛ ج : سيتها ، والتصويب عن دوزي ؛ وستها : ستة أبياتها ، والسيب :  
السيب المثاني .

٤ هذه الكلمة مضطربة في الأصول ما عدا ط ؛ والرائية : القصيدة الرائية ، وفي ك : اللأمة .  
وفي ق : الراية ، وفي ج : بدلالة .

٥ من هنا ورد في الروض المطار حتى قوله : « لقد طال الأسي عليهم والأسف » .

الوحشة ، أحقاً أنه دُكَّتِ الأرض ، ونزف المعين والبرُض ، وصَوَّح روض  
المنى ، وصَرَخَ الخطب وما كُنَى ؟ أبينُ لي كيف فقدت رَجَاحَةَ الأحلام ،  
وعقدت مَنَاحَةَ الإسلام ، وجاء اليوم العَسِير ، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر؟  
حلم ما نرى ؟ بل ما رأى ذا حالم ، طوفان يقال عنده لا عاصم ، مَنْ يُنْصِفْنَا من  
الزمان الظالم ؟ الله بما يلقي الفؤاد عالم ؛ بالله أيّ نحو تنحو ، ومَسْطُور تُشْبِث  
وتمحو ، وقد حذف الأصلي والزائد ، وذهبت الصَّلَة والعائد ، وباب التعجب  
طال ، وحالُ البائس لا تخشى الانتقال ، وذهبت علامة الرفع ، وفُقدت سلامة  
الجمع ، والمعتلّ أعدى الصحيح ، والمثلثُ أَرْدَى الفصيح ، وامتنعت العجمةُ  
من الصَّرْف ، وأمنت زيادتها من الحذف ، ومالت قواعدُ الملتة ، وصرنا إلى  
جمع القلّة ، وللشرك صيال وتَخَمُّط ، ولقرنه في شركه تَجَبُّط ، وقد عاد  
الدين إلى غُرْبته<sup>١</sup> ، وشَرِقَ الإسلام بكربته ، كأن لم يسمع بنصر ابن نُصَيْر ،  
وطَرِقَ طارق بكل خير ، ونهَشَت حنش<sup>٢</sup> وكيف أعيّت الرُقَى ، وأدالت بليل  
السليم يوم الملتقى ، ولم تخبر عن المروانية وصوائفها ، وفقى مَعَاْفِر<sup>٣</sup> وتعفيره  
للأوثان وطوائفها ، لله ذلك السلف ، لقد طال الأسى عليهم والأسف ، وبقي  
الحكّم العدل ، والربُّ الذي قولُهُ الفَصْل ، وبيده الفضل ، ربنا أمرت فعصينا ،  
ونهيّت فما انتهينا ، وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا ، أنت العليم بما أعلننا وما  
أخفيْنَا ، والمحيط بما لم نأتِ وما أتينا ، لو أننا فيك أحببنا وقَلَبْنَا ، لم تُرْنَا من  
الفُرْقَة ما رأينا ، ولم تُسَلِّطْ عدوك وعدونا علينا ، لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا  
بما جنينا ، وأكرم من أن لا تهب حقوقك لدينا .

وأشرت أيها الأخ الكريم إلى استراحة إليّ ، وتنسم بما لديّ ، لتبرد - كما  
زعمت - حَرَّ نَفْسٍ ، وتقدح زناد قَبَسٍ ، وهيهات صلِّد الزند ، وذوَى العرّار

١ إشارة إلى الحديث : « بدى الإسلام غريباً وسيعود غريباً . . . » .

٢ يريد « حنش الصنعاني » الذي تقدم ذكره .

٣ فقي معافر هو المنصور بن أبي عامر .

والرند ، وأقشع الشؤبوب ، وركد ما كان يظن به الهبوب ، فالقلم دفين لا يحشر ،  
وميت لا ينشر ، والطبع قد نكص القهقرى ، وقل منزله أن يدعى له النقرى ،  
فها هو لا يملك مبيتاً ، ولا يجد لقلمه تبيتاً ، وأنت - أبقاك الله عز وجل -  
بمقتبل الآداب ، طائر مبيعة الشباب ، وأين سنّ السمّ من سن الانحطاط ،  
ووقت الكسل من وقت النشاط ، وقد راجعتك لا داخلاً في حلتك ، بل قاضياً  
حق رغبتك ، والله تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقياً ، وبجنته الطاعة متوقياً ،  
ولهاء الأنفس مستقبلاً ومتلقياً ، بمنته ، والسلام ، انتهى .

وكتب رحمه الله<sup>٢</sup> إلى سلطان إفريقية الوارث ملك بني عبد المؤمن بتلك  
النواحي ، المستولي على البلدان والضواحي ، وقد كان لأهل الأندلس أمل في  
أخذه بثأرهم ، وضم انتشارهم ، ما صورته :

شاقه غيب الخيال الوارد	بارق هاج غرام الهاجد
صدقا وعد <sup>٣</sup> التلاقي ثم ما	طرقا إلا بخلف الواعد
وكلا الزورين من طيف ومن	وافد تحت الدياجي وارد
لم يكن بعد السرى مستمتع	فيه للرأي ولا للرائد
وشديد بث قلب هائم	يشنكيه عند ربيع هامد
بالأمير المرتضى عز الهدى	وثى عطف الملى الواجد
وبه أصحاب ما كان يرى	حاملاً أنف الأبي الشارد
إنما الفخر لمولانا أبي	زكرياء بن عبد الواحد
ملك لولا حلاه العر لم	يجر بالحمد لسان الحامد <sup>٥</sup>

١ في الأصول : هيمة .

٢ أورد ستة من الأبيات في المقتطفات : ( الورقة : ٨٢ ) .

٣ في الأصول : صدق وعد ؛ صدق الوعد ؛ صدى عند .

٤ ط : أيها .

٥ هذا البيت والذي بعده سقطا من ط .

وَلَوْ أَنَّ الْعَذَابَ أَبَدَى رَغْبَةً  
 فضله مثل سنا الشمس، وهل  
 قَهَرَ الْبَغْيَ بِجِدِّ صَادِعٍ  
 إِنَّمَا آلُ أَبِي حَقِصٍ هُدَى  
 قعدوا فوق النجوم الزهر عن  
 وعن الإسلام ذادوا عندما  
 أَيُّ فَخْرٍ عُمَيْرِيٍّ الْمُنْتَمَى  
 ما الفُتُوحُ الْغُرِّ إِلَّا لَهُمْ  
 فِي مُحْيَاً لَاحِقٍ مِنْ سَابِقِ  
 وَلِيَحْيِي رَاجِحُ الْحِلْمِ الَّذِي  
 عَقِدُ أَحْسَابِهِمْ تَمَّ بِهِ  
 أَيُّهَا الْجَامِعُ مَا قَدْ أَحْرَزُوا  
 هذه الأمة قد أوسعتها  
 لَمْ تَنْزَلْ مِنْكَ بِخَيْرٍ طَارِفٍ  
 وَلَهُمْ مِنْكَ لِيَوْمٍ حَاضِرٍ  
 أَرشِدَ اللهُ لِأَوَّلَى نَظَرِ  
 وَتَوَلَّاهُ بِتَوْفِيقِ الْأَلَى  
 وَهُوَ فِي اللهِ أَوْفَى كَافِلِ  
 عنه لم يشف غليل الوارد  
 لسنا الشمس يرى من جاحد  
 ما تعداه وجد صاعد  
 للورى من غائب أو شاهد  
 همم نبهن عزم القاعد  
 فل طول العهد غرب الذائد  
 ورتوه ماجداً عن ماجد  
 بين ماضى بادىء أو عائد  
 وعلى المولود سيما الوالد  
 ترك الطود بعظفي مائد  
 مثل ما تم حساب العائد  
 جمع من همته في الزائد  
 نظراً يكلاً ليل الراقد  
 ريشه تال قدامى تالد  
 وغد رأي البصير الناقد  
 بالورى رأي الإمام الراشد  
 سعدوا من عاقد أو عاهد  
 بالذي يبقى وأكفى عاصد

نصّر الله تعالى مولانا وأبده ، وشدّ ملكه وشيده ، وأبقى للفضل أيامه ،  
 وللفضل أحكامه ؛ وأظفر بأعناق الأشقياء حسامه ؛ ووفر من اتساق النعم والآلاء  
 حظوظه وأقسامه ؛ والحمد لله ثمّ الحمد لله على أن جعل به حرّم الأمة أمناً ،  
 ووهج الفتنة ساكناً ، وأبواب الصلة والمعروف لا تعرّف إلاّ واصلاً أو آذناً ،  
 وتلافى فلّ الإسلام منه بيفيئاته التي منها ينتظرون الكر ، وبها يؤعدون الفتح

الأعز والنصر الأغر ؛ فهم بين جِدَّةٍ قبضوها ، وعِدَّةٍ رضوها ، وارتقاب  
 للفتح أكبر همهم منه دَرَكَ الثار ، وانتصاف لأهل الجَنَّةِ من أهل النار ، فأما  
 الأوطان فقد أسَلَّتْهُمْ عنها جهة تُنْبِتُ العز فيما تنبت ، وتنفي من الضيم ما تلك  
 تشبته ، وما ذكر الساخط ، على المحل الساقط ، منازلَ عادت على مبانيها أطلاقاً ،  
 ومغانيها محالاً ، وللعبد حالٌ يُستقبل بها من النظر الكريم - أدامه الله تعالى -  
 ما أعينُ الآمالُ إليه صُور ، ورجاء الجميع عليه مقصور ، انتهى .

والغاية في هذا الباب ما كتب به - رحمه الله - من جملة كتاب لبعض  
 ذوي الألباب ، ونصُّ محل الحاجة منه : نخصُّ الجهةَ البعيدة الصَّيِّتِ والاسم ،  
 الشهيرة العمل والعلم ، دُرَّةً تاجنا ، وضوءً سراجنا ، ونكتة احتجاجنا ، أبقاها  
 الله تعالى في أعيننا متَّاراً ، ولأندلسنا فخاراً ، على أنه وإن بقيت المُفَاخر ،  
 فقد أودى المُفَاخر ، وإن أضاء الطالع ، فقد دَجَّتِ المطالع ، وغلب عليها  
 عُدَاةٌ زووا عنها وجوهنا ، وأروا فيها مكروهنا ، حتى إنِّي أتيت بشعر فيه  
 استسقاء للديار ، على عادة الأشعار ، فقلت :

زِدْنَا على النَّائِنِ عَن أوطانهم	وإن اشتركتنا في الصَّبَابَةِ والجَوَى
إنَّا وجدناهم قد استسقوا لها	من بعد أن شطَّت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا	مع حبِّها الشَّرْكَ الذي فيها ثوى
حَسَنَاء طاعتها استقامت بعدنا	لعدوتنا ، أفيستقيم لها الهوى ؟

انتهى .

قلت : وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات في معناها ، العالية في مبناها ،  
 فإن فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى - دمرهم الله - على تلك الديار ، وثبوت  
 قَدَمِهِم فيها على طَبِيقٍ ما حصل لهم فيه اختيار ، مع إدماج حبِّه لها الذي لا يُشكُّ  
 فيه ولا يُرتاب ، واشتمالها على المحاسن التي هي بغية الرائد ونُجْعَةِ المتتاب ،  
 ولكل أجل كتاب ، وإذا نفذ سهم المقلور فلا عتاب .

ومما يستولي على الخواطر ، ويروي رياض الأفكار بسحب بلاغته المواطر ،  
قوله - رحمه الله تعالى - يخاطب أبا الحسن الرعيني سنة ١٦٣٤ :

يا صاحبي والدهر - لولا كرامة -  
أمنازعي أنت الحديث ؟ فإنه  
ومروض مرعى مناي فنبتة  
طال اعتباري بالزمان ، وإنما  
مَجفُو حظ لا ينادى ثم لا  
وأرى إمالته تلوم وقصره  
وعلام أدعو والجواب كأنما  
لم ألق إلا مقعداً ، غير الأسي  
وشرابي الهمة المعتق خالصاً  
غارات أيامي علي خوارج  
ولواعج يحتاج صالي حرها  
ولقد أقول لصاحب هو بالذي  
لا يأس من روح الإله وإن قست

منه على حفظ الذمام - ذميم  
ما فيه لا لغو ولا تأثيم  
من طول إخلاف الغيوم هشيم  
دأء الزمان كما علمت قديم  
ينفك عنه الحذف والترخيم  
فعلام بلغني المد والتفخيم  
فيه بنص قد أتى التحريم  
فلدي منه مقعد ومقيم  
فمتى يساعدي عليه نديم  
قعدتها في طبعه التحكيم  
أمرأ به قد خص إبراهيم  
أدركت من علم الزمان عليهم  
يوماً قلوب الخلق فهو رحيم

ويهزني ، ويستفزني ، ما كتبه - رحمه الله تعالى - من رسالة :

كتبته إلى سيدي وهو السيد حقيقة ، وأخي وقد كتب الدهر بذلك وثيقة ،  
أبقى الله تعالى جلاله محروساً ، وربيع وفائه لا يخشى دُروساً ، من رباط الفتح  
وأنا بحقه عليهم ، وعلى عهده مقيم ، وشأني توقيه له وتعظيم ، وحب فيه خالص  
كريم ، ووصلني خطابه الخطير المبرور ، فكنت به كالصائم رأى الهلال ،

١ هو علي بن محمد بن علي بن الفخار أبو الحسن الرعيني (٥٩٢ - ٦٦٦) راجع ترجمته في الذيل  
والتكملة ٥ : ٣٢٣ ومقدمة كتابه « برنامج شيوخ الرعيني » تحقيق الأستاذ إبراهيم شيوخ (دمشق  
١٩٦٢) والأبيات في الذيل : ٣٦٣ .

والهائم عين الماء الزلال، علق ليس يوازيه علق، وسحر لكنه حلال طلق،  
ونظم لذكر الطائي طوي، وصنعة لم يرها ولم يروها راو ولا راو، رميت ابن  
الرومي بالحمول، وبشّرت اسم بشار من الفحول، وحكمت بأن النمري  
في نَمِرة الهوانِ مُدرج، والسري عن سِراوة الإحسان مُخرَج، فأما  
النثر فصهيل لا يجاوبه الرُغاء، وطراز لا يحسنه البلغاء، ونقذ تزييف معه  
النقود، ومدى تنقطع دونه الضمّر القود، غادر الصابيّ وصباه غير ذات  
هبوب، والصاحب وهو من العجز مع شرّ مصحوب، والميكاليّ وميكاله  
مرفوض، والحريريّ وحريره في سوق الكساد معروض، فأما بحر رئيس  
أرجان، فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان، وأبقاه في ضحضاح، بل تركه  
يمشي بأدرج ضاح، فمن ذا يُجاري فارسَ الصفّين وإمام الصنّفين؟ أبلغ من  
خط بقلم، وأشهر من نار على علم، وماذا يقال في أنامل تطرز بها الصحف،  
وخمائل تفخر بها الروضة الأثف، واسم في شرق البلاد وغربها ظاهر، ووسم  
بالكتابة والنجاة لم يكن لبني وهب وآل طاهر، فالزمان يأثّر، ما ينثر، ويعظم،  
ما ينظّم، ولو أن الأزمنة قبله عمرت المحاضر بكلّ ناجم، ونشرت المقابر عن  
الصنوبري وكشاجم، وجاءت بالكتاب من كلّ جيل، والشعراء رعيلاً بعد  
رعيّل، لطال هذا العصر بواحدة آلافتها، وأنسى بخلفه أسلافتها، انتهى.

وكتب - رحمه الله تعالى - إلى صاحبين له في معنى ما ألقناه به آنفاً، ما

صورته :

تحيّة منكما أتتني طابت كما طاب مرسلها  
ويا لها أذكرت عهداً قلبي والله ما سلاها  
حللتما في البلاد أرضاً ريح صباها عني سلاها  
لم يصب قلبي إلى سواها يوماً ولم يسأل عن سلاها

كتابي أيها الأخوان اللذان بודהما أقول، وعن عهدهما لا أحول - أنزلكما



الله تعالى خير منزل ، وجعلكما من النوائب والشوائب بمعزِل - من رباط الفتح  
ولبّي قديماً ملكتما رِقّه ، وقلبي تعلماً وتعلماً عرفتما صدقه ، كيف حالكما  
من سَقَر طويتما خبره ، حين تجشمتما غرّره ؟ وكيف سَخَتْ نفوسكما بأَم  
الحصون ، وذات الظلال والعيون ؟ تربة الآباء ، ومترلة الجمَحِين النَجباء ،  
حتى صرمتما جبلتها ، وهجرتما حزنّها وسهّلتها ، وخضمتما غُبْرَ الفِجَاج ،  
وخَضِرَ الأمواج ؟ ما ذاك إلا لتغلب الحادِث النُّكْر ، وتألّب المعشر الغُدُر ،  
ومن أجل الداهية النكاد<sup>١</sup> ، والحادثة الشنيعة على البلاد ، أزعجتكم حين أزعجتنا ،  
وأخرجتكم كما أخرجتنا ، وطوّحت بنا طوائحها ، واجتاحت ثمرنا وشجرنا  
جوائحها ، فشكراً لله تعالى على قضائه ، وتضرعاً فيما نرفعه من دعائه ، وهنيئاً  
لنا ولكم معشر الشُرَداء ، المنطوين من الشجن على شرّ داء<sup>٢</sup> ، ذلك الطوود الذي  
إليه أويئتما ، وفي ظلّه ثويئتما ، وعن رأيه تريان ، وبسعيه تسعيان ، فوجهه  
المبارك لا يعدم رأيه نجحاً ، ولا يعدو لصبحه إذا دجا ليلُهم صبحاً ، انتهى .

\* \* \*

### [تعريف بأبي المطرف]

وكان أبو المطرف بن عميرة المذكور كما قال فيه بعض علماء المغرب :  
قلوة البلغاء ، وعمدة العلماء ، وصدر الجليّة الفضلاء ، وهو أحمد بن عبد الله  
ابن عميرة المخزومي ؛ ونكته البلاغة التي قد أحرزها وأودعها ، وشمسها التي  
أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها ، مبدع البدائع التي لم يحظ<sup>٣</sup> بها قبله إنسان ،  
ولا ينطق عن تلاوتها لسان ؛ إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة ، وروية بلور  
العلم فصيحة ، ذلك له صعب الكلام ، وصدقت رؤياه حين وُضِعَ سيدُ المرسلين

١ كذا في الأصول ؛ ويقال أيضاً « داهية ناد » .

٢ ط : شر الداء .

٣ ك : يحظ .

صلى الله عليه وسلم وهو الذي أوتي جوامع الكلم<sup>١</sup> في يديه الأقدام ، وأصل سلقه من جزيرة سُقَر ، وولد بمدينة بكننسية ، وروى عن أبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع بن سالم وابن نوح والشلوبيني النحوي وابن عات وابن حوط الله ، وغيرهم من الحفاظ ، وأجازه من أهل المشرق جماعة ، وكان شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث ، وأخذه عن مشايخ أهله ، ثم تفنن في العلوم ، ونظر في المعقولات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع براءة عُدَّة فيها من مجيدي النظم ، فأما الكتابة فهو فارسها الذي لا يُجارى ، وصاحب عينها الذي لا يُبارى ، وله وعظ على طريقة ابن الجوزي ، ورسائل خاطب بها الملوك وغيرهم من الموحدين والحفصيين ، وله تأليف في كائنة مَيُورقة وتغلب الروم عليها<sup>٢</sup> نحا في الخبر عنها منحه الإمام الأصبهاني في الفتح القدسي ، وله كتاب تعقب فيه على الفخر الرازي في كتاب «المعالم» ، وله كتاب ردّ به على كمال الدين الأنصاري في كتابه المسمّى «بالتبيان» ، في علم البيان ، المطلع على إعجاز القرآن<sup>٣</sup> وسمّاه «بالتنبيهات» ، على ما في البيان من التموهيات ، وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة<sup>٤</sup> ، وغير ذلك .

ورد - رحمه الله - حضرة الإمامة مرّاً كُشِّصحة أمير المؤمنين الرشيد حين قُفوله من مدينة سلا ، واستكتبه مدّة سيرة ، ثم صرفه عن الكتابة ، وقلده قضاء هيلانة ، ثم نقله إلى قضاء سلا ، ثم نقله السعيد إلى قضاء مكناسة الزيتون ، ثم قصد سبتة ، وأخذ ماله في قافلة في فتنة بني مرّين ، ثم توجه إلى بلاد إفريقية ، ووصف حاله في رسالة خاطب بها ابن السلطان أبي زكريا الحفصي ، وهو أبو زكريا ابن السلطان أبي زكريا ، وكان صاحب بجاية لأبيه ، ولم يزل - رحمه الله تعالى - مذ فارق الأندلس متطلعاً لسكنى إفريقية ، معمور القلب بسكناها ، ولما

١ ط : الكلام .

٢ يعني عام ٦٢٧ هـ .

٣ يريد كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » وقد نشرت قطعة منه (بيروت - ١٩٦٤) .

قدم تونس مال إلى صُحْبَةِ الصالحين والزّهَاد وأهل الخير بُرْهَةً من الزمان ، ثم استَقْضِي بالأُرْبُس<sup>١</sup> من إفريقية ، ثم بقابس مدة طويلة ، ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفْصِي ، وأحضره مجالس أنسه ، وداخله مداخلة شديدة ، حتى تغلّب على أكثر أمره .

ومولده بجزائر شَقْرَ في شهر رمضان المعظم سنة ٥٨٠ ، وتوفي ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذي الحجة سنة ٦٥٨ ، ألخفه الله رضوانه ، وجدد عليه غفرانه .

وقال ابن الأبار في « تحفة القادم »<sup>٢</sup> في حق أبي المطرف المذكور : فائدة هذه المائة ، والواحدُ يَبْقَى بالفئة ، الذي اعترف باتحاده الجميع ، واتصف بالإبداع فمادّا يتصف به البديع ، ومعاذ الله أن أحابيه بالتقديم ، لما له من حق التعليم ، كيف وسبّقه الأشهر ، ونطقه الياقوت والجوهر ، تحلت به الصحائف والمهارق ، وما تحلت عنه المغارب والمشارق ، فحسبي أن أجهد في أوصافه ، ثم أشهد بعدم إنصافه ، هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره ، وتناوب المشور والمنظوم على شكره ؛ ثم أورد له جملة منها قوله :

وأجلتُ فكري في وشاحك فائتي	شوقاً إليك يَجول في جَوَالِ
أنصفتُ غُصْنَ البانِ إذ لم تدعه	لتأوُدٍ معَ عطفك الميَالِ
ورحمتُ دُرَّ العقد حين وضعته	متوارياً عن ثغرك المتلالي
كيف اللقاء وفعلُ وعَدك سِينُهُ	أبدأً تخلصُهُ للاستقبالِ
وكما قومك نارُهُم ووقيدُها	للطارقين أسنّة وعوَالِ

وله مما يكتب على قوس قوله :

ما أتاد مُعتَقَلُ القنا إلاّ لأن يَحكي تَأطرَ قامتي العَوْجاءِ

١ ط : بالأبرس .

٢ انظر المقتضب من التحفة : ١٤٥ والوافي (ترجمة أبي المطرف ٧ الورقة : ٦٤) .

تَحْنُو الضلوع على القلوب وإنّي ضلّع ثوى فيها بأعضل داء  
وله وقد أهدى ورّداً :

خذها إليك أبا عبد الإله فقد جاءتك مثل خلود زانها الحصر  
أتتك تحكي سجايا منك قد عدبت لكن تغير هذا دونه الغير  
إن شئت منها بروق الغيث لامة فسوف يأتيك من ماء لها مطر

قال : وكتب إلي مع تحفة أهداها مكافئاً عن مثلها :

يا واحد الأدب الذي قد زانه بمناب جعلته فارس مقبه  
بالفضل في الهبة ابتدأت فإن تعير طرف القبول لما وهبت ختمت به

قال : وله ارتجالاً بقصر الإمارة من بلنسية وأنا حاضر في صبيحة بعض  
الجمع ، وقد حُجم صاحب لنا من أهل النظم والنثر ، وأحسن إلى الحجام  
المخصوص ٢ :

أرى من جاء بالموسى موسى وراحة ذي القريض تعود صفراً  
فهذا مخفق إن قص شعراً وهذا منجج إن قص شعراً  
وله أيضاً :

هو ما علمت من الأمير ، فما الذي تزداد منه وفيه لا يرتاب ؟  
لا تتقي الأجناد في أيامه فقراً ، ولا يترجو الغنى الكتاب

وله بعد انفصاله من بلنسية عن وحشة في ذي القعدة سنة ٦٢٨ :

أسير بأرجاء الرجاء ، وإنما حديث طريقي طارق الحدّان

١ ك : منصبه .

٢ ك : بالخصوص .

وأحضر نفسي إن تقدمت خيفةً  
 أترك حظي للحضيض وقد سرى  
 وأخبطُ في ليل الحوادث بعدما  
 فيحني لآمالي حياة مُعادة  
 وقالوا : اقترح إنَّ الأمانى منهما  
 فقلت : إذا ناجاهما بقضيتي  
 وله أيضاً :

سلب الكرى من مقلتي فلم يجيء  
 أهفو ارتياحاً للتسيم إذا سرى  
 منه على نأي خيال يطرقُ  
 إنَّ الغريقَ بما يرى يتعلقُ  
 انتهى ما لحص من « تحفة القادم » في ذكر ابن عميرة أبي المطرف .

\* \* \*

### [ رسالة لآبي المطرف ]

ومما كتب أبو المطرف - رحمه الله - وفي أثنائه إشارة إلى الكفار الغالين  
 على بلاد الأندلس ، ما نصه :

ألا إنَّ شخصينا على القطع واحد  
 وجاحدُ هذا للضرورة جاحد  
 فإن لم تصدق ما نطقتُ بصدقه  
 فإنك لي لاحٍ وللودِّ لاحد  
 ومعاذ الله ، عزّ وجلّ ، أن تلحاني ، أو تمنع أنفك ريحَ ربحاني ، وكيف  
 تصدّ عني بوجهك ، أو تشخذ لي غرَبَ نجهك<sup>١</sup> ، وأنا على غيبك أمين ،  
 ولشمالك يمين ، ولكم دعوتَ بي فأجبتُ ، واستغنيتَ عني فحجبت ، وأردت  
 الاستبداد فما استطعت ، ونعت<sup>٢</sup> الوداد فما أحسنت النعت ، وإنما تُحمد

١ النجى : الردع والانتهاز .

٢ ج : وأنفت .

فَرَاهَةُ الْأَعْوَجِيَّ إِنْ جَرَى ، وَتَذَكُرُ فَضِيلَةَ ابْنِ السَّرِيِّ إِذَا سَرَى ، فَأَمَّا  
الِاقْتِصَارُ عَلَى عَظْمِ بَادٍ ، وَالِانْتِظَارُ لِعَيْنِ عَدَمَتِ السَّوَادِ ، فَخَطَأٌ مِنَ الْقَائِلِ ،  
وَخَطْلٌ عِنْدَ الْعَاقِلِ ، وَاللَّهُ دَرُ أَحْيِكَ مِنْ مَغْمُضِ طَرْفِ التَّطَرْفِ ، قَارِئُ أَدَبِ  
الصَّحْبَةِ عَلَى السَّبْعَةِ الْأَحْرَفِ ، كَرَعَ فِي أَعَزِّ مَوْرِدٍ ، وَتَوَاضَعُ فِي شَرَفِ مَوْلِدٍ ،  
وَسَمَّا بِنَفْسِهِ عَنِ أَنْ يَسْتَخْفَهُ نَسَبُ يَرْفَعُهُ ، وَحَسَبُ مَا مَنَّا أَحَدٌ يَدْفَعُهُ ، وَكَذَلِكَ  
الْكِرَامُ يَرُونَ عَلَيْهِمْ حَقًّا ، وَيَتَوَقَّوْنَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْكَبِيرِ مُوقِيٍّ ، وَلِعَهْدِي  
بِهِ وَظِلُّ الثَّرْوَةِ بَارِدٌ ١ ، وَشَيْطَانُ الشَّيْبَةِ مَارِدٌ ، وَبِشْرِهِ فِي الْمَلَمَاتِ يَرْفَعُ ، وَقَدَمُهُ  
إِلَى الْحَاجَاتِ تَخِيفٌ ، يَصُونُ عِرْضَهُ بِمَالِهِ ، وَيَخْفِي صَدَقَةَ يَمِينِهِ عَنِ شِمَالِهِ ،  
وَيَقْسَمُ جِسْمَهُ فِي جُسُومٍ ٢ ، وَيَقُومُ بِالْحَقُوقِ غَيْرَ مَلُولٍ وَلَا مَلُومٍ ، تِلْكَ الْمَكَارِمُ  
لَا قَعْبَانَ ٣ ، وَمَا تَسْتَوِي الْبَدَنَةُ الْمَهِيضَةُ مَعَ غَيْرِهَا فِي الْقُرْبَانِ ، وَعَرَضْتُ بِذِكْرِ  
الْعَصْرِ الْخَالِي ، وَالْقَصْرِ الْعَالِي ، وَظِلٌّ مِنْ فَنِّ وَرَيْقٍ ، وَعَيْشٌ مَعَ أَكْرَمِ فَرِيقٍ ،  
وَمَا تَذَكُرُ مِنْ زَمَنِ تَوَلَّيْتُ ، وَعَهْدٍ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ تَأَلَّى ، فَارْقَانَهُ أَحْسَنُ مَا كَانَ ،  
وَوَدَعْنَا بِهِ الْأَطْيَبِينَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ ، فَعَفَّتِ الرِّسُومُ ، وَأَفْلَكَتْ تِلْكَ النُّجُومُ ،  
وَرَمَتْنَا عَنِ قَوْسِهَا الرُّومَ ، ثُمَّ خَلَفْتَنَا فِي الْمَغَانِي ، وَقَسَمْتَنَا بَيْنَ الْأَسِيرِ وَالْعَانِي ،  
فَأَوْدَى الْقُلُّ وَالْكَثْرُ ، وَاشْتَفَى مِنَ الْإِسْلَامِ الْكُفْرُ ، فَكَمْ كَأْسٌ أَنْسَ أَرْقَانَهُ ،  
وَمَنْزَلُ فَرْقَةَ الْأَبَدِ فَارْقَانَهُ ، وَذَكَرْتَ اجْتِيَازَكَ بَيْنَ الْعَلَمِينَ ٤ ، وَقَطَعْتَ مَتْنَ  
الْيَمِّ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَنْتَ أَنْتَقَلْتَ مِنْ ذَوَاتِ الْأَلْوَابِ ، إِلَى عِنْدَابَاتِ الْأَدْوَابِ ،  
وَمِنْ مَتَهَافَتِ الشَّرَاعِ ، إِلَى مَنَابِتِ الْيَرَاعِ ، وَمِنْ سَكْنَى بَيْتِ السَّكَّانِ ، إِلَى مَنْزَلِ  
بِهِ الْفَلَاحِ وَالْمَلَّاحِ يَشْرَكَانَ ، حَيْثُ اجْتَمَعَ الضَّبُّ وَالنُّونُ ، وَأَيُّعُ التِّينِ وَالزَّيْتُونُ ،

١ ج : وارد .

٢ من قول عروة بن الورد :

أقسم جسدي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

٣ من قول أمية بن أبي الصلت :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

٤ ج : العالمين .

وظللت الساحات ، وذُكِّت الثمار المباحات ، فلا تُشْرِقنا يا أُصَيْل ، ولأمّ  
تلك الأرض الوَيْل ، انتهى .  
ووصل هذا الكلام بالأبيات التي تقدّمت قريباً ، وهي قوله « زدنا على  
النائبين عن أوطانهم إلخ » .

\* \* \*

### [ رسالة أخرى لأبي المطرف ]

وكتب رحمه الله عن أهل شاطِبَةَ أيام كان قاضياً بها ، مهنتاً أمير المسلمين  
ابن هُود المستولي على الأندلس آخر دولة الموحّدين بوصول الكتاب العباسي  
الكرّيم إليه من بغداد بولاية الأندلس ، إذ كان ابن هُود حين ثار على الموحّدين  
يدعو إلى الخليفة العباسي الذي كان أكثر الملوك في ذلك الزمان يَدِينون بطاعته ،  
بما نصّه بعد الصدر :

أما بعد ، فكتبَ العبيدُ - كتب الله تعالى للمقام العلي المجاهدي المتوكلي  
سعادة لا تبلغ أمداً إلا تخطته ؛ ويدأ علوها أثبتته أيدي الأقدار وخطته - من شاطبة  
وبركاتُ الأمر المجاهدي المتوكلي ، والعهد الوثاقي المعتصمي ، تنسكب كالطر ،  
وتنسحب على البشر ، وتقضي بعادة النصر والظفر ، وسعادة الورد والصدّر ،  
والحمد لله ، وعند العبيد من أداء فروض الحِدَم ، والقيام بحقوق النعم ، ما  
عُقِدت عليه ضمائرهم ، وسمت إليه نواظرهم ، واشترك فيه بادِيبهم وحاضرهم ،  
فجناب أملهم فسيح ، وتَجَرُّ خدمتهم ربيع ، وحديث طاعتهم حَسَن صحيح ،  
وبسنا النظر العلي اهتداؤهم ، وفي الباب الكريم رجاؤهم ، وبصدق العبودية  
اعتزازهم وإليها اعتراؤهم ، والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية ، ويحملهم  
على المناهج السوية ، ووصل الكتاب الكريم متحلياً برِواء الحق ، ناطقاً بلسان  
الصدق ، واصفاً من التشريف والفخار المنيف ، ما صدر عن إمام الخلق ، فلا

١ ك : ومتجر .

بيان أعجب من ذلك البيان ، ولا يوم كذلك اليوم تبدى نظره للعيان ، أو تأدى خيره في أخبار الزمان ، نثرت فيه الخلع العباسية في أعلى الصور ، وبرز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه في ذيل الحصر ، ويهدي سواده سواد القلب والبصر ، فيا لمشهدا ما أعجب ما كان ، ومرآها الذي راع الكفر وراق الإيمان ، وأشبه يومه بالأندلس يوم خرجت الرايات السود من خراسان ، وكفى بهذا فخاراً لا يحتاج ثابته مثبتاً ، أن باشرت برُداً باشر البدن الذي طاب حياً وميتاً ، فهو علو في الإسناد ولا نظير له في العوالي ، وفخار ضلت عن مثله العصور الخوالي ، وجلت بهجته أن تُخلقَ جدتها الأيام والليالي ، ودل الكتاب العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد ، والسمة من سيف أمير المؤمنين بما لا يدخل في جنس ذوات الأعماد ، وخير الأوصاف ما صدقه الموصوف ، وللكريم النسب نسبة يباهي بها الدين وتزهى السيوف :

فإن نحن سميناك خِلنا سيوفنا من التيه في أعمادها تبسم

ومما أفاده الكتاب المبهج بطيب أنبائه ، نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى آبائه ، فإنها تضمنت صفة الله ، عز وجل ، من صفات الكمال ، ودلت على مذهب أهل السنة في خلق الله ، عز وجل ، الأعمال ، وأشعرتنا معشر العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهدي التوكلي - أحسن الله تعالى إليه - حين تولّى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فإنه لما شايعه بعزيمة مساعدة ، ونية في مشاريع الصفاء والإخلاص واردة ، ألهم زيادة في العلامة شاركت الإمامة في صفة واحدة ، فهذه كرامة في العلامة ، هي علامة الكرامة ، وهبة من مواهب الكشف يجدها من امتثل قوله ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ (هود : ١١٢) فكان من أهل الاستقامة ، وتضمن الكتاب الكريم بيعة أهل جيان وما معها ، وإن هذه البشائر وما تبعها ، لفروع عن هذا الأصل الصحيح ، وأقيسة عن هذا النص الصريح ، فأدلة

١ دوزي : يباي .



الخلافة قد استقلت ، وشبهة الخلاف قد بطلت واضمحلت ، والحمد لله على أن منّحَ جزيل النعماء ، وشرح باليقين صدور الأولياء ، وشرّف هذه الأمة بإمامة نجل الأئمة الخلفاء ، وابن عمّ سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، والعبيد يهتنون بهذه النعم ، التي لا يستقلُّ بذكرها قلم ، ولا يُقطع عَلم من وصفها إلا بدا عَلم ، وبهم من الأشواق إلى مشاهدة المعالم السنيّة ، ولتشم اليمين الطاهرة العليّة ، ما أكده دنو الدار ، وجدّده ما تجدد للمقام العالي المتوكلي من نعم الله تعالى الجليلة المقدار ، والشاهدة له بإسعاد الأيام وإسعاف الأقدار ، فلو أمكنهم الإقدام لأقدموا ، ولو وجدوا رُخصة في المسير لعزموا ، وهم يستلمون البساط الأشرفي توهماً ومنّ أملهم أنهم في الحقيقة قد استلموا ، انتهى .

وبه تعلم أن الدولة العباسية خُطب لها ببلاد الأندلس — أعادها الله للإسلام — ولا يخفّك أن ما جلتبناه من ذلك وغيره مناسب للمقام ، فلا انتقاد ولا ملام .

\* \* \*

[ رسالة للسان الدين إلى أحمد بن قلاوون ]

وقد رأيت أن أذكر هنا مخاطبة صدرت من الغني بالله صاحب الأندلس إلى السلطان المنصور أحمد ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من إنشاء الوزير الكبير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله ، لما اشتملت عليه من أحوال الأندلس ، ونصّها : الأبواب التي تُفتّح لنصرها أبواب السماء ، وتُسْتَدَرّ من آفاقها سحاب النعماء ، وتجلي بأنوار سعدها دياجي الظلماء ، وتعرّف نكرة البلاد والعباد بالانتساب إلى محبتها والانتماء ، على اختلاف العروض وتباين الحدود وتعدّد الأسماء ، ويُجْتَرأ من صلّات صلّاتها عند الموانع من كمال حالات صفاتها بالإيماء ، وتحمل لها التحيّة ذوات الدُسُر والألواح طاعنة نحر الصباح على كتد الماء ، أبواب السلطان الكبير ، الجليل الشهير ، الطاهر الظاهر ، الأوحد الأسعد ، الأصعد الأمجد ، الأعلى العادل ، العالم الفاضل الكامل ، سلطان الإسلام والمسلمين ،

عماد الدنيا والدين ، رافع ظلال العدل على العالمين ، جمال الإسلام ، علم الأعلام ، فخر الليالي والأيتام ، ملك البرين والبحرين ، إمام الحرمين ، مؤتمل<sup>١</sup> الأمصار والأقطار ، عاصب تاج الفخار ، هازم الفرنج والترك والتتار ، الملك المنصور ابن الأمير الرفيع الجادة ، الكريم الولادة ، الطاهر الظاهر ، الكبير الشهير ، المعظم المجدد الأسمى ، الموقر الأعلى ، فخر الجلالة ، سيف الملة ، تاج الإمارة ، عز الإسلام ، مستظل الأنام ، قمر الميدان ، أسد الحرب العوان ، المقدس المطهر ، الأمير أحمد ابن والد السلاطين ، ومالك المسلمين ، وسيف خلافة الله على العالمين ، وولي المؤمنين ، سلطان الجهاد والحج ، ومقيم رسم العجّ والثجّ ، محيي معالم الدين ، قانع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، ناصر السنة ، محيي الملة ، ملك البرين والبحرين ، سلطان الحرمين ، الملك العادل ، العالم العامل ، المنصور المؤيد المعان المرفع المعظم الميجل المؤمل ، المجاهد المرابط الغازي<sup>٢</sup> المجدد المكمل ، المطهر الكبير الشهير ، المقدس الملك الناصر أبي عبد الله محمد بن قلاوون الصالحى ، جعل الله فسْطاط دعوته معموداً بعمود الصبح ، وحركات عزمه مبنية على الفتح ، ومجمل سعادته غنيباً عن الشرح ، وحياد أوصافه متبارية في ميدان المدح ، وزناد رأيه<sup>٣</sup> وارية على القدح ، من موجب حقه وجوب الشعائر الخمس ، المرحب لأجل أفقه الشرقي بوفادة الشمس ، المجدد في اليوم حكم ما تقرر بين السلف رحمهم الله بالأمس ، أمير المسلمين بالأندلس عبد الله الغني بالله الغالب به محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر : سلام كريم كما زحفت راية الصبح تقدمها طلائع مبشرات الرياح ، يفاوح أرجه زهير<sup>٤</sup> الأدواح ، ويحاسن طرر الوجوه الملاح ، ينخص أبو تكم التي

١ ك : مؤمن .

٢ ك : الغازي .

٣ ط ودوزي : آرائه .

٤ دوزي : زهر .

رتب العز فصولها ، وعضدت نصوص النصر نصولها ، ورحمة الله تعالى وبركاته .  
 أمّا بعد حمد الله الذي جعله فاتحة القرآن ، وخاتمة دعاء أهل الجنان ،  
 وشكره على ما أولى من مواهب الإحسان ، حمداً وشكراً يستخدمان من الإنسان ،  
 ملكتي القلب واللسان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله زهرة  
 كمامة الأكوان ، وسيد ولد آدم على اختلاف اللغات والألوان ، الذي أذل  
 بعزة الله أنوف الطغيان<sup>١</sup> ، وغطى بسديته الحق على الأديان ، وزويت له  
 الأرض فرأى ملك أمته يبلغ ما زوي له فكان الخبر وفق العيان ، والرضا عمّن  
 له من الأصحاب والأحباب والأعمام والأخوال والإخوان ، صلاةً يجدها  
 الجديان ، ويُمليها الملوان ، وتتراحم على تربته المقدسة مع الأحيان ، ما سجت  
 طيور البراعة من أعواد البراعة على الأفنان ، والتفتت عيون المعاني ما بين أجفان  
 البيان ، والدعاء لأبوابكم الشريفة جعل الله تعالى عصمته تقيم بها وظيفتي الحجابة  
 والاستئذان ، وضرب بدعوتها التي هي لذة الإقامة والأذان على الآذان ، واستخدم  
 بروج الفلك الدوار في أمرها العزيز استخدام<sup>٢</sup> الأنصار والأعوان ، حتى يُعلم  
 ما في المدافعة عن حماها مخالب السرحان ، وفي الإشادة بعلمها كفتي الميزان ،  
 ويهدي لها من الزهرة كورة الميدان ، ومن الهلال عوض الصولجان ، وأبقى في  
 عواملها ضمير الأمر والشان ، إلى يوم تغنو وجوه الملوك إلى الملك الديان ،  
 فإننا كتبناه إلى تلك الأبواب كتب الله لعبتها النصر الداخلة ، كما أخرج بمكارمها  
 السحب الباخلة ، وجعل مقارق مناصلها المختضبة من نسيج عداها غير ناصلة<sup>٣</sup> ،  
 وقرن بكل سبب من أضدادها فاصلة ، من دار ملك الإسلام بالأندلس حمراء  
 غرناطة - وصل الله سبحانه عادة الدفاع عن أرجائها ، وشدّ بأيدي اليقين عُرى  
 أمليها في الله ورجائها - حيث المصاف المعقود ، وثن النفوس المنقود ، ونار

١ ك : الذي أذل بعزة الله نفوس أهل الطغيان .

٢ استخدام : سقطت من ق ط ج ودوزي .

٣ ق ط ج ودوزي : الناصلة .

الحرب ذات الوَقُود ؛ حيث الأفق قد تردَّى بالقَتَام وتعمَّم ، والسيف قد تجرد وتيمَّم ، وغُبار الجهاد يقول : أنا الأمان من دخان جهنم ؛ حيث الإسلام من عدوه كالشامة من جلد البعير ، والتمررة من أوسق العير ؛ حيث المَصَارِع تتراحم الحورُ على شهدائها ، والأبطال يعلو بالتكبير مسمعاً نداؤها ، حيث الوجوه الضاحكة المستبشرة قد زيتها الكلوم بدمائها ، وإن هذا القطر الذي مهدت لسياستنا<sup>٢</sup> أكوار مطَّاياه ، وجُعلت بيدنا - والمنَّة لله - عِيَاب عَطَاياه ، قطر مستقل بنفسه ، مُرَبِّ يومه في البرِّ على أمسه ، زكيَّ المنابت عذب المشارب ، متمم المآمل مكمل المآرب ، فاره الحيوان ، معتدل السحن والألوان ، وسيطة في الأقاليم السبعة ، شاهدة لله بإحكام الصنعة ، أما خيله ففارهة ، وإلى الرِّكض شارهة ، وأما سيوفه فلمواطن الغمود كارهة ، وأما أسلُّه فمتداركة الخطف ، وأما عوامله فبيئنة الخذف ، وأما نباله فمحذورة القذف ، إلا أن الإسلام به في سَفَطٍ مع الحيات<sup>٣</sup> ، وذريعة للمنيات الوحيات ، وهدَف للنبال ، وأكلة للشبال ، تطوهم الغارات المتعاقبة ، وتحيفهم<sup>٤</sup> الحدود المصاقبة ، وتجوُّس<sup>٥</sup> خلاهم العيون المراقبة ، وتريب من أشكال مخططهم إلا أن يتفضل الله بحسن العاقبة ، فليس إلا الصبر ، والضرب والهبر<sup>٥</sup> ، والهمز والنبر ، والمقابلة والجر ، وقد حال البحر بينهم وبين إخوان ملَّتهم ، وأساءة علَّتهم ، يقومون بهذا الفرض ، عن أهل الأرض ، ويقرضون ملكَ يوم العرض ، أحسن القرض ، فلولا بُعد المدى ، وغُول الردي ، ولتَغَطُّ العدا ، وما عدا ممَّا بدا ، لسمعتم تكبير الحملات ، وزئير تلك الفلَّات ، ودويِّ الحوافر ، وصليل السيوف من فوق المغافر ، وصرَّاخ الثكالي ، وارتفاع الأدعية إلى الله تعالى ، ولو ارتفع قيد<sup>٦</sup> المكان ، وهو للأولياء مثلكم من حيز الإمكان ، لمقلم مقل الأسنَّة الزُّرق ، حالة

١ دوزي : مستمع .

٢ إشارة إلى قول الشاعر : كيف الحياة مع الحيات في سَفَط .

٣ ك : وتحيفهم .

٤ ق : بند ؛ ك : هذا ؛ ج : نبذ ؛ ط ودوزي : نبذ .

من أطراف قَصَب الرماح محالَّ الورق ، وأبصرتم القنا الخطار قد عاد أخلة ،  
والسيوف قد صارت فوق بدور الخوذِ أهلة ، وعقود الشهادة عند قاضي السعادة  
مستقلة ، وكان كما تحصره علومكم الشريفة حلق سور الفتح ، وآخر دلاء ذلك  
المنح <sup>١</sup> ، عُرِض على الفاروق فاحتاط ، وأغرى به من بعده فاشتاظ ، وسرحت  
خيل ابن أبي سرح ، في خبر يدعو إلى شرح ، حتى إذا ولدُ مروان تقلدوا  
كُرَّتْهَا التي هَوَتْ ، وخَضَمُوا <sup>٢</sup> ما أنضجت ورثة الحق وشوت ، ويدهم على  
الأمر احتوت ، وفازت منه بما نوت ، نفل ولائده الوليد ، وجلب له الطريف  
والتليد ، وطرقت خيل طارق ، وضافت عن أخباره المهارق ، وجلت الفائدة ،  
وظهر على الذخيرة التي منها المائدة ، ثم استرسل المَهَبُّ ، ونصر الربُّ ، ويكثر  
الطير حين ينتثر الحَبُّ <sup>٣</sup> ، وصرفتُ أشرافُ الشامُ أعينَتَّها إلى التماس خيره ،  
وطارت بأجنحة العزائم تيمناً بطيِّره ، وقصدته الطلائع صحبة بلجج بن بشر  
وغيره ، ففتحت الأقفال ، ونفلت الأنفال ، ونجح الفال ، ووُسمت الأغفال ،  
وافتتحت البلاد الشهيرة ، وانتقيت العذارى الحيرة ، واقتنيت الذخيرة ، وتجاوز  
الإسلام الدروب وتخطى ، وخضد الأُرطى ، وأركب وأمطى ، واستوثق  
واستوطا ، وتشاءب وتمطى ، حتى تعددت مراحل البريد ، وسخنت عين  
الشیطان المرید ، واستوسق للإسلام ملكٌ ضَخْمُ السُرَادِق ، مرهوب البوارق ،  
رفيع العمَد ، بعيد الأمد ، تشهد بذلك الآثار والأخبار ، والوقائع الكبار ،  
والأوراق والأسطار <sup>٤</sup> ، وهل يخفى النهار ؟ ولكل هُبوب رُكود ، والدهر  
حَسُود لمن يَسُود ، فراجعت الفرنج كَرَّتْهَا ، واستدركت معرَّتْهَا ، فلوَمَّت  
جوارحها وحلَّقَتْ ، وأومضت بوارقها وتألقت ، وتشبثت وتعلقت ، وأرسلت

١ ك : وآخر ولاء ذلك المنح .

٢ الخضم : التناول بجميع الفم ، أما القضم فهو بمقدم الفم .

٣ من قول بشار :

يسقط الطير حيث ينتثر الح ب وتغشى منازل الكرماء

٤ ك : والأوداق والأمطار .

الأعنة وأطلقت ، وراجعت العقائل التي طَلَقَتْ ، حتى لم يبق من الكتاب إلا الحاشية ، ولا من الليل إلا الناشئة ، وسقطت الغاشية ، وأخذت الفئة المتلاشية ، وتقلصت الظلال الفاشية ، إلا أن الله تدارك بقوم رُجِحَ من سَلَفنا أثبتوا في مستنقع الموت<sup>١</sup> أقدامهم ، وأخلصوا لله بأسهم وإقدامهم ، ووصلوا سيوفهم الباترة<sup>٢</sup> بحُطاهم ، وأعطاهم منشور العز من أعطاهم ، حين تعين الدين وتميز ، واشتد بالمدافعة وتميز ، وعادت الحروب سيجالاً ، وعلم الروم أن الله رجالات ، وقد أوفد جدتنا - رضي الله عنه - على أبواب سلفكم من وقائعهم في العيدو كل مُبَشِّرة ، ووجودية منتشرة ، ضحكت لها ثغور الثغور ، وسرت بها في الأعطاف حُمياً السرور ، وكانت المراجعة عنها شفاء للصدور ، وتمائم في الدور<sup>٣</sup> ، وخفراً في وجوه البسور ، فإن ذمام الإسلام موصول ، وفروعه تجمعها في الله أصول ، وما أقرب الحزن ممن داره صول<sup>٤</sup> ، والملة - والمنة لله - واحدة ، والنفوس لا منكرة للحق ولا جاحدة ، والأقدار معروفة ، والآمال إلى ما يوصل إلى الله مصروفة ، فإذا لم يكن الاستدعاء ، أمكن الدعاء ، والخواطر فعالة ، والكل على الله عالة ، والدين غريب والغريب يحن إلى أهله ، والمرء كثير بأخيه على بُعد محله .

انتهى المقصود من المخاطبة مما يتعلق بهذا الباب ، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب ° .

١ ك : الحرب ؛ وهو من قول أبي تمام :

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لما من تحت أخمصك الحشر

٢ ك : البارقة .

٣ ك : في درر النحور .

٤ من قول الحماسي :

ما أقدر الله أن يذني على شحط من داره الحزن من داره صول

٥ وإليه . . . والمآب : سقطت من ك .

## الباب الثالث

في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي العماد ، والقَهْر للعدو  
في الرواح والغدو والتحرك والهدو والارتياح البالغ غاية الآماد ، وإعمال  
أهلها للجهاد ، بالجد والاجتهاد ، في الجبال والوهاد ، بالأسنة المشرعة  
والسيوف المستلثة من الأعماد

أقول : قدّمنا في الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين ، وفتحهم  
الأندلس ، وما حصل لهم من سلطان بها إلى مجيء الداخل ، فتقررت القواعد  
السلطانية ، وعلت الكلمة الإيمانية ، كما نسرده هنا إن شاء الله تعالى .  
وذكر غير واحد - منهم ابن حزم<sup>١</sup> - أن دولة بني أمية بالأندلس كانت  
أنبلّ دول الإسلام ، وأنكأها في العدو ، وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد  
عليه ، كما سترى بعضه .

\* \* \*

[ عبد الرحمن الداخل ]

وأصل هذه الدولة - كما قال ابن خلدون<sup>٢</sup> وغير واحد - أن بني أمية لما  
نزل بهم بالمشرق ما نزل ، وغلبهم بنو العباس على الخلافة ، وأزالوهم عن  
كرسيها ، وقتل عبد الله بن علي مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أخيراً  
خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وتبّع بني مروان بالقتل ، فطلبوا بطن الأرض

١ راجع ابن عذاري ٢ : ٥٨ .

٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٢٠ وسيورد المقرئ ترجمة مسببة لعبد الرحمن في الباب السادس .

من بعد ظهرها ، وكان ممّن أفلت منهم عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وكان قومه يتحيتون له ملكاً بالمغرب ، ويرون فيه علامات لذلك يأترونها عن مَسْلَمَةَ بن عبد الملك<sup>١</sup> ، وكان هو قد سمعها منه مشاهدة ، فكان يحدث نفسه بذلك ، فخلص إلى المغرب ، ونزل على أخواله نَفْزَةَ من برابرة طرابلس ، وشعر به عبدُ الرحمن بن حبيب ، وكان قد قتل ابني الوليد ابن يزيد بن عبد الملك لما دخلا إفريقية ، فلاحق بمَغِيلَةَ ، وقيل : بمكناسة ، وقيل : يقوم من زناة ، فأحسنوا قبوله ، واطمأن فيهم ، ثم لحق بمَكْلِبَةَ ، وبعث بَدْرًا مولاه إلى مَن بالأندلس من موالي المروانيين وأشياعهم ، فاجتمع بهم وبشوا له في الأندلس دعوة ، ونشروا له ذكراً ، ووافق قدومه ما كان من الإحن بين اليمينية والمضرية فأصفت اليمينية على أمره لكون الأمر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفهري وصاحبه الصمّيل ، ورجع بدر مولاه إليه بالخبر ، فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة في خلافة أبي جعفر المنصور ، ونزل بساحل المنكب ، وأتاه قوم من أهل إشبيلية فبايعوه ، ثم انتقل إلى كورة رية فبايعه عاملها عيسى ابن مساور ، ثم إلى شدونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ، ثم إلى مورور فبايعه ابن الصباح ، ونهّد إلى قرطبة فاجتمعت إليه اليمينية ، ونمي خبره إلى والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وكان غازياً بجليقية ، فانفضّ عسكره ، ورجع إلى قرطبة ، وأشار عليه وزيره الصمّيل بن حاتم بالتلطّف له ، والمكربه ، لكونه صغير السن ، حديث عهد بنعمة ، فلم يتم ما أراده<sup>٢</sup> ، وارتحل عبدُ الرحمن من المنكب ، فاحتلّ بمالقّة فبايعه جندها ، ثم برنودة<sup>٣</sup> ، ثم بشرش كذلك ، ثم بإشبيلية ، فتوافت إليه جنود الأمصار ، وتسايلت المضرية إليه ، حتى إذا لم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن غيرُ الفهرية والقيسية

١ سيورد المقرئ من بعد طرفاً من هذه الأخبار عن مسلمة .

٢ ابن خلدون : فلم يتم له مراده .

٣ زاد ابن خلدون : فبايعه جندها .



لمكان الصَّمِيل منه زَحَفَ حينئذُ عبدُ الرحمن الداخل ، وناجزهم الحرب بظاهر قُرْطُبَة ، فأنكشف يوسف ، ونجا<sup>١</sup> إلى غرناطة فتحصن بها ، واتبعه الأمير عبدُ الرحمن فنازله ، ثم رغب إليه يوسف في الصلح ، فعقد له على أن يسكن قُرْطُبَة ، ثم أقفله معه ، ثم نقض يوسف عهده ، وخرج سنة إحدى وأربعين ومائة<sup>٢</sup> ، ولحق بطليطلة ، واجتمع إليه زهاء عشرين ألفاً من البربر ، وقدم الأمير عبدُ الرحمن للقائه عبدَ الملك بن عمر المرواني ، وكان وقدّ عليه من المشرق ، وكان أبوه عمر بن مروان بن الحكم في كفالة أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر ، فلما دخلت المسوودة أرضَ مصر خرج عبد الملك يؤمُّ الأندلس في عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة ، حتى نزل على عبد الرحمن سنة أربعين ، فعقد له على إشبيلية<sup>٣</sup> ، ولابنه عمر بن عبد الملك على موزور ، وسار يوسف إليهما ، وخرجا إليه ولفياه ، وتناجز الفريقان ، فكانت الدائرة على يوسف ، وأبعد المفراً ، واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة ، واحتز رأسه ، وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن ، فاستقام أمره ، واستقر بقُرْطُبَة ، وثبت قدمه في الملك ، وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ، ومات قبل تمامه ، وبنى مساجد ، ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق ، وكان يدعو للمنصور ، ثم قطع دعوته ، ومهدّ الدولة بالأندلس ، وأثّل بها الملك العظيم لبني مروان والسلطان العزيز ، وجدّد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، واستلحم الثوّار عليه على كثرتهم في النواحي ، وقطع دعوة آل العباس من منابر الأندلس ، وسدّ المذاهب منهم دونها ، وهلك سنة ثنتين وسبعين ومائة ، وكان يُعرف بعبد الرحمن الداخل ، لأنه أول داخل من ملوك بني مروان إلى الأندلس ، وكان أبو جعفر المنصور يُسميه « صقّر قريش »<sup>٣</sup>

١ كذا في ط وقد تقرأ « ولبأ » في بقية الأصول .

٢ انظر ابن عذارى ٢ : ٧٣ في تفصيل الخبر عن نهاية يوسف الفهري .

٣ ابن خلدون : صقر بني أمية .

لما رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل<sup>١</sup> ، وما ركب إليها من الأخطار ، وأنه نهّد  
 إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار ، فغلب أهلها على أمرهم ،  
 وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ، ومضاء عزم حتى انقاد له الأمر ، وجرى  
 على اختياره ، وأورثه عقبه ، وكان يسمّى بالأمير ، وعليه جرى بنوه من بعده ،  
 فلم يدع أحد منهم بأمر المؤمنين تأديباً مع الخلافة بمقر الإسلام ومُنْتَدَى  
 العرب ، حتى كان من عقبه عبدُ الرحمن الناصر ، وهو ثامن بني أمية بالأندلس ،  
 فتسمّى بأمر المؤمنين على ما سنذكره ، لما رأى من ضعف خلفاء بني العباس بعد  
 الثلاثمائة ، وغلبة الأعاجم عليهم ، وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم ، وتوارث  
 التلقب بأمر المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحداً بعد واحد .

قال ابن خلدون<sup>٢</sup> : وكان لبني عبد الرحمن الداخل بالعدوة الأندلسية مُلك  
 ضخم ودولة متسعة اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة ، وعندما شغل المسلمون بعبد  
 الرحمن وتمهيد أمره قوي أمرُ الجلالقة ، واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة بن  
 أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها ، وملكها من أيديهم ،  
 فملك مدينة لُكَّ وبرتقال وسمورة وشلمنقة وقشتالة وشقوبية<sup>٣</sup> ، وصارت  
 للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة ، ثم استعادوها بعده  
 فيما استعادوه من بلاد الأندلس ، واستولوا على جميعها حسبما يُذكر ، والله  
 سبحانه الأمر ؛ انتهى .

وخطب عبد الرحمن قارله<sup>٤</sup> ملكَ الإفرنج ، وكان من طُغاة الإفرنج ،  
 بعد أن تمرّسَ به مدة ، فأصابه صُلبُ المكسير ، تامَّ الرجولية ، فمال معه إلى

١ ابن خلدون : لما رأى ما فعل بالأندلس .

٢ كذا في ج ، والنقل عن ابن خلدون ما يزال مستمراً ؛ وفي ق : قال ابن سعيد ؛ وفي ك : قال  
 ابن حيان ؛ وفي ط بياض .

٣ شقوبية : ( Segovia ) .

٤ قارله : سقطت من ط ؛ وفي ج : فارله .

المدارة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تم المصاهرة .  
قال ابن حيّان<sup>١</sup> : ألقى<sup>٢</sup> الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غُفلاً من حلية  
الملك عاطلاً ، فأرَهَفَ أهلها بالطاعة السلطانية ، وحتّكهم بالسيرة الملوكية ،  
وأخذهم بالآداب فأكسبهم عمّا قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ  
فدوّن الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الأثوية ،  
وجنّد الأجناد ، ورفع العِماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آتته ، وأخذ  
للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحَدِّروا جانبه ، وتحمّوا  
حوَزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقلَّ له الأمر فيها . فلذلك  
ما ظلَّ عدوه أبو جعفر المنصور - بصدق حسبه - وبُعْد غمّوره ،  
وسعة إحاطته - يسترجع عبد الرحمن كثيراً ، ويعتد له بنفسه ، ويكثر ذكره ،  
ويقول : لا تعجبوا لامتناد أمرنا مع طول مِرَاسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر  
ففي قریش الأحوذِيّ الفذ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونسبه ، وتسليه  
عن جميع ذلك ببعده مرّقي همته ، ومضاء عزيمته ، حتى قدّف نفسه في بلج  
المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية<sup>٣</sup>  
الجنّد ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمّع بعضهم ببعض بقوة حيلته ،  
واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصبهم ، وذلك له  
أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكاً على قطمته<sup>٤</sup> ، قاهراً لأعدائه ، حامياً  
لذماره ، مانعاً لحوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك هو الفتي كلُّ  
الفتي لا يكذب مادحه . وجعل ابن حيّان من النوادر العجيبة موافقة عبد  
الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصرامة ، والاجتراء

١ هكذا في ك ؛ والكلام متصل في ج ؛ وفي ط بياض ؛ وفي ق : وقال في المطبع .

٢ ك : لما ألقى . . . أرهف .

٣ ط : عصبية .

٤ ك : قطمته .

على الكباثر والقساوة ، وأنَّ أم كل واحد منهما بربرية .  
 وكان الداخِل يقعد للعامّة ، ويسمع منهم ، وينظر بنفسه فيما بينهم ،  
 ويتوصل إليه من أرادَه من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه  
 دون مشقة ، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه مَنْ أدرك وقت طعامه ،  
 ومَنْ وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه .

وفي كتاب ابن زيدون<sup>١</sup> أنّه كان أصهَب ، خفيف العارضين ، بوجهه  
 خالٌ ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، له ضفيران ، أعور أخشم ، والأخشم :  
 الذي لا يشم ، وكان يلقب « بصقر قريش » لكونه تغرّب وقطع البر والبحر ،  
 وأقام ملكاً قد أدبر وحده .

ولما ذكر الحجاري أنّه أعور قال : ما أنشد فيه إلا قول امرئ القيس<sup>٢</sup> :

لكن عَوِيرَ وَقَى بدمته لا عَوْرَ شأنه ولا قِصْرُ

وقال ابن خلدون<sup>٣</sup> : « وفي سنة ست وأربعين سار العلاء بن مُغيث اليحصبي  
 من إفريقية إلى الأندلس ، ونزل بباجّة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور ،  
 واجتمع إليه خلق ، فسار عبد الرحمن إليه ولقيه بنو آحي إشبيلية ، فقاتله أياماً ،  
 ثم انهزم العلاء ، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه ، وبعث عبد الرحمن برؤوس  
 كثير منهم إلى القيروان ومكّة ، فألقيت في أسواقها سرّاً ، ومعها اللواء الأسود ،  
 وكتاب المنصور للعلاء<sup>٤</sup> » ، فارتاع المنصور لذلك وقال : ما هذا إلا شيطان ،  
 والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر ، أو كلاماً هذا معناه ، وقد مرّ ذكر ذلك .

١ هو كتاب « التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس » لأبي الوليد ابن زيدون ( ولعله لابنه أبي بكر )  
 جملة على مثال « كتاب التبيين في خلفاء المشرق » للمسعودي ، ذكره ابن سعيد في تذييله على رسالة  
 ابن حزم في فضل الأندلس .

٢ ديوان امرئ القيس : ١٣٣ وعوير هو العوير بن شحنة من بني عوف ، مدحه بالوفاء .

٣ تاريخ ابن خلدون : ٤ : ١٢٢ وانظر ابن عذاري : ٢ : ٧٧ وابن القرطبية : ٥٧ .

٤ هنا ينتهي النقل عن ابن خلدون .

وكرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل ، ونافسوه ملكه ، ولقي منهم خطوباً عظيمة ، وكانت العاقبة له ، واستراب في آخر أمره بالعرب ، لكثرة مَنْ قام عليه منهم ، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم ، واتخاذ الموالي ، ثم غزا بلاد الإفرنج والبشكنس ومن وراءهم ، ورجع بالظفر ، وكان في نيته أن يجدد دولة بني مروان بالمشرق ، فمات دون ذلك الأمل ، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة ، ومات سنة اثنتين وسبعين ، وقيل : إحدى وسبعين ومائة ، في خلافة الرشيد ، وأمّه أم ولد بربرية اسمها راح ، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة ، بدير حنا من أرض دمشق ، وقيل : بالعلياء من تدمر ، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثمانى عشرة عن إحدى وعشرين سنة ، وكفله وإخوته جدّهم هشام ، وذهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس ، وأقطعها إياها ، ووجه حيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى ، وقيل : إنّه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة : بدر مولى أبيه ، وأبو شجاع ، وزباد ، وعمرو ، وقيل : إن بدرأ لحقه ولم يخرج معه ، فآله أعلم ، وخلف من الولد عشرين ، منهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث .

وحكى غير واحد أنّه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصداً الأندلس نزل بمغيلة ، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ، ويكنى أبا قرّة ، فاستتر عنده وقتاً ، ولحق به بدر مولى أبيه بجوهرٍ وذهب أنفذته أخته إليه ، فلما دخل الأندلس واستتب أمره به سار إليه أبو قرّة وانسوس البربري ، فأحسن إليه ، وحظي عنده ، وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه ، فقال لها عبد الرحمن مداعباً حين استظلت بظله في الأندلس : لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات على ما كان بي من الخوف ، وسعطني<sup>١</sup> بأنتن من ريح الجليف ، فكان جوابها له مسرعة : بل ذلك

١ ك : وسعطني .

كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزَعَكَ ، فاستظرف جوابها ،  
وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك ، وهذا من آفات المزاح .  
ومن محاسنه أنه أدار السور بقرطبة ، رحمه الله تعالى .

[ هشام بن عبد الرحمن ]

وتولى الملك بعده ابنه هشام بعهد منه إليه ، وأمه أم ولد اسمها حُلُل ١ ،  
وأفضى إليه الملك وهو بماردة وال عليها ، وكان أبوه يوليه في حباه ويرشحه  
للأمر ، وكان الداخِل كثيرًا ما يسأل عن ابنه سليمان وهشام ، فيذكر له أن  
هشامًا إذا حضر مجلسًا امتلأ أدبًا وتاريخًا وذكرًا لأُمور الحرب ومواقف الأبطال ،  
وما أشبه ذلك ، وإذا حضر سليمان مجلسًا امتلأ سخفًا وهذيانًا ، فيكبر هشام في  
عينه بمقدار ما يصغر سليمان ٢ ، وقال يوماً لهشام : لمن هذا الشعر :

وتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا ٣  
سماحة ذا ، وبرّ ذا ، ووفاء ذا ، ونائل ذا ، إذا صحا وإذا سكر

فقال له : يا سيدي لامرئ القيس ملك كندة ، وكأنته قاله في الأمير أعزّه  
الله ؛ فضمه إليه استحسانًا بما سمع منه ، وأمر له بإحسان كثير ، وزاد في عينه .  
ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين ، فقال : لعلهما  
لأحد أجلاف العرب ، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب ٤ ؟ فأطرق عبد  
الرحمن ، وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية .

ولما ولي هشام ٤ أشخص المنجم المعروف بالضبي من وطنه الجزيرة الخضراء

١ ابن عذاري : جمال ؛ والحميدي : حوراء .

٢ انظر الحلة السيرة ١ : ٤٢ .

٣ ط : أقوال بنفشاء العرب .

٤ ابن القوطية : ٦٤ والمقتطفات ( الورقة : ٨٢ ) .

إلى قُرْطُبَة ، وكان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه  
 حذقاً وإصابة ، فلما أتاه خلا به وقال له : يا ضبي ، لست أشك أنه قد عناك  
 من أمرنا إذ بلغك ما لم يدع تجديد<sup>١</sup> النظر فيه ، فأشددك الله إلا ما نبأتنا بما ظهر  
 لك فيه ، فلجّج وقال : أعفني أيها الأمير ، فإنني ألمت به ، ولم أحقق النظر  
 فيه لجلالته في نفسي ، فقال له : قد أجلتك لذلك ، فتفرغ للنظر فيما بقي عليك  
 منه ، ثم أحضره بعد أيام ، فقال : إن الذي سألتك عنه جدّ منّي ، مع أنني  
 والله ما أتق بحقيقته ، إذ كان من غيب الله الذي استأثر به ، ولكنني أحب أن  
 أسمع ما عندك فيه ، فأنفس طلعة ، وألزمه الصلّة أو العقوبة ، فقال : اعلم  
 أيها الأمير أنه<sup>٢</sup> سوف يستقر ملكك ، سعيداً جدّك ، قاهراً لمن عاداك ، إلا أن  
 مدتك فيه فيما دل عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها ، فأطرق ساعة ثم  
 رفع رأسه وقال : يا ضبي ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك ، والله  
 لو أن هذه المدّة كانت في سجدة لله تغالى لقلّت طاعة له ، ووصله وخلع  
 عليه ، وزهد في الدنيا ، والترم أفعال البر<sup>٣</sup> .

ومن حكاياته في الجود<sup>٤</sup> أنه كان قاعداً لراحته في عليّة على النهر في حياة  
 والده ، فنظر إلى رجل من قدماء صنائعه من أهل جيّان قد أقبل يوضع السير  
 في الهاجرة ، فأنكر ذلك ، وقدر شراً وقع به من قِبَل أخيه سليمان ، وكان والياً  
 على جيّان ، فأمر بإدخاله عليه ، فقال له : مهيم يا كناني ، فلأمر ما جئت ، وما  
 أحسبك إلا مزعجاً لشيء دهمك<sup>٥</sup> ، فقال : نعم يا سيدي ، قتلت رجلاً من  
 قومي رجلاً خطأ ، فحملت الدية على العاقلة ، فأخذ بها من كنانة عامة ، وحمل<sup>٦</sup>

١ ك : لم ندع تجديد . ٢ أنه : سقطت من ق ط ج .

٣ ك : ولزم أفعال الخير والبر .

٤ أخبار مجموعة : ١٢١ - ١٢٤ ، وابن عذاري ٢ : ٩٩ ( ٦٧ ط . ليدن ) .

٥ في ط بياض موضع « مهيم » و « جئت » وفي أخبار مجموعة : ما خبرك يا كناني ، فلا أحسبك  
 إلا قد همك أمر .

٦ أخبار مجموعة وابن عذاري : وحيف .

عليّ من بينهم خاصّة ، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك ، فمد هشام يده إلى جارية كانت وراء السر ، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها ، وقال له : دونك هذا العقد يا كناني ، وشراؤه عليّ ثلاثة آلاف دينار ، فلا تُخَدِّعَنَّ عنه ، وبعه ، وأدّ عن نفسك وعن قومك ، ولا تمكن الرجل من اهتضامك ، فقال : يا سيدي ، لم آتكَ مستجدياً ولا لضيق المال عمّا حملته ، ولكنّي لما اعتمدت بظلم صُراح أحببت أن يظهر عليّ عزّ نصرك ، وأثر ذبّك وامتعاضك<sup>١</sup> ، فأتمجّد بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك ، فقال هشام : فما وجه ذلك ؟ فقال : أن تكتب إلى أخيك في الإمساك عنيّ ، والقيام بذمتك لي ، فقال : أمسك العقد ، وركب من حينه إلى والده الداخل ، واستأذن عليه في وقت أنكره ، فانزعج ، وقال : ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلاّ أمر مقلق ، ائذنوا له ، فلما دخل سلّم عليه ، ومثّل قائماً بين يديه ، فقال له : اجلس يا هشام ، فقال : أصلح الله الأمير سيدي ، وكيف جلوسي بهمّ وذل مزعج ، وحقّ لمن قام مقامي أن لا يجلس إلا مطمئنّاً ، ولن يقعدني إلا طيب نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي ، وإلا رجعتُ على عقبي ، فقال له : حاش لك من انقلابك خائباً ، فاقعد مُجاباً مُشَفَّعاً ، فجلس ، فقال له أبوه : فما الحدث المقلق ؟ فأعلمه ، فأمر بحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال ، فسُرّ هشام وأطب في الشكر ، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكناني . ولما دخل الكناني لوداع هشام قال له : يا سيدي قد تجاوزتُ بك حدّ الأُمْنِيّة ، وبلغت غاية النصر ، وقد أغنى الله عن العقد المبدول بين يدي العناية الكريمة ، فتعيده إلى صاحبه ، فأبى من ذلك ، وقال : لا سبيل إلى رجوعه إلينا .

وكان هشام يذهب بسيرته مذهبَ عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم

١ أخبار مجموعة : وأثر عنايتك .



من ثقافته إلى الكُور<sup>١</sup> فيسألون الناس عن سير عُمّاله ، ويخبرونه بحقائقها ،  
فإذا انتهى إليه حَيْفٌ من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم  
يستعمله بعد .

ولمّا وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال<sup>٢</sup> : ليت أن الله تعالى  
زين مؤسماً بمثل هذا<sup>٣</sup> .

وفي أيامه فتحت أربونة الشهيرة<sup>٤</sup> ، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية  
من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها  
إلى باب قصره بقُرطبة ، وبنى منه المسجد الذي قدّام باب الجنان ، وفضلت منه  
فضلة بقيت مكومة .

وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً ، ثم كانت الدائرة له .  
وقصد إلى بلاد الحرب غازياً ، وقصد ألبّة والقلاع ، فلقى العدو وظفر  
بهم ، وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين<sup>٥</sup> . وبعث العساكر إلى جليقية مع  
يوسف بن بخت<sup>٦</sup> فلقى ملكها برمند<sup>٧</sup> ، وهزمه ، وأثنخ في العدو .

وفي سنة ست وسبعين<sup>٨</sup> بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث  
لغزاة العدو ، فبلغ ألبّة والقلاع ، فأثنخ في نواحيها ، ثم بعث في العساكر سنة  
سبع وسبعين إلى أربونة وجرندة<sup>٩</sup> فأثنخ فيها ، ووطىء أرض برطانية ، وتوغل

١ ابن عذاري ٢ : ٩٨ ( ٦٦ ط . ليدن ) .

٢ أخبار مجموعة : ١٢٠ وابن القوطية : ٦٥ .

٣ ق : ان الله تعالى زين . . . وأخبار مجموعة : وددت أن الله ؛ وسقطت « ليت أن » أو ما  
يقابلها من ط . وفي ك : نسأل الله أن يزين . . .

٤ كان ذلك عام ١٧٧ .

٥ في ابن عذاري : سنة ١٧٦ .

٦ هكذا في البيان المغرب : ٩٥ وفي ط ق : بن نجبة ؛ وفي ك ج : ابن نجبة .

٧ ك : ابن منده ، اقرأ « ابرمنده » وفي البيان : برمود = ( Vermudo ) .

٨ انظر ابن عذاري ٢ : ٩٥ ( ٦٤ ط . ليدن ) .

٩ جرندة : ( Gerona ) إلى الشمال الشرقي من برشلونة .

عبدُ الملك في بلاد الكفار وهزمهم ، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبه والقلاع سنة ثمان وسبعين ، ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية ، فانتهى إلى استرقة<sup>١</sup> ، فجمع له ملك الجلائقة واستمد بملك البشكنس ، ثم خام عن اللقاء ، ورجع أدراجه ، واتبه عبدُ الملك ، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى ، فالتقوا بعبد الملك ، وأثخنوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين . ومن محاسنه أنه جدّد القنطرة التي يُضرب بها المثل بقرطبة كما سبق ، وكان بناها السّمح الخولاني عاملُ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فأحكم هشام بناءها إلى الغاية ، وقال يوماً لأجد وزرائه<sup>٢</sup> : ما يقول أهل قرطبة ؟ فقال : يقولون : ما بناها الأمير إلا ليمضي عليها إلى صيده وقتنّصه ، فألى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها ، فلم يمرّ عليها بعدُ ، ووفى بما حلف عليه . ومن محاسنه<sup>٣</sup> أيضاً إكمال بناء الجامع بقرطبة ، وكان أبوه شرع فيه ؛ ومن محاسنه أنه أخرج المصدّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنة ، رحمه الله . ثم توفّي سنة ثمانين ومائة ، لسبع سنين وتسعة أشهر من إمارته ، وقيل : لثمان - وكان من أهل الخير والصلاح ، كثير الغزو والجهاد - وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر ، ووُلد في شوال سنة ١٣٩<sup>٤</sup> .

[ الحكم بن هشام ]

وولي بعده ابنه الحكم<sup>٥</sup> بعهدٍ منه إليه ، فاستكثر من الماليك ، وارتبط

١ استرقة أو اشتركة : ( Astorga ) من منطقة جليقية إلى الغرب في اتجاه الشمال من مدينة لبلّة ( Niebla ) .

٢ ابن عذاري ٢ : ٦٦ ( ط . ليدن ) .

٣ هذا النص متأخر في أصول النصح عن قوله : « ثم توفّي ... الخ » فاصل خبر الوفاة إلى جزئين ، يبدأ الثاني منهما بقوله « وعمره ... » ولهذا الاضطراب أبحث لنفسي إعادة ترتيبه .

٤ في الأصول : ١٣٧ . ٥ ابن خلدون ٤ : ١٢٥ .

الخليل ، واستفحل ملكه ، وباشر الأمور بنفسه ، وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتتم العدو الكافر الفرصة في بلاد المسلمين ، وقصدوا<sup>١</sup> برشيلونة فملكوها سنة خمس وثمانين ، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها ، وبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مُغيث<sup>٢</sup> إلى بلاد الجلالقة ، فأثنوا فيها ، وخالفهم العدو إلى المضائق ، فرجع على التعبية ، وظفر بهم ، وخرج إلى بلاد الإسلام ظافراً .

وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرَبَضِ<sup>٣</sup> من قُرْطُبَة لِأَنَّهُ في صدر ولايته كان قد انهمك في لَدَاتِهِ ، فاجتمع أهلُ العلم والورع بقُرْطُبَة ، مثل يحيى ابن يحيى الليثي<sup>٤</sup> صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما ، فناروا به ، وخلعوه ، وبايعوا بعض قرابته ، وكانوا بالرَبَضِ الغربي من قُرْطُبَة ، وكان محلّة متصلة<sup>٥</sup> بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ، ولحقوا بفاس من أرض العدو ، وبالإسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها ، فرحف إليهم عبدُ الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد ، وغلبهم ، وأجازهم إلى جزيرة أقریطش ، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدّة .

١ في الأصول : وقصد .

٢ الصواب : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث .

٣ أنظر تفصيل الخبر عن هيج أهل الريض أو لاسنة ١٨٩ وثنائياً سنة ٢٠٢ في ابن عذاري ٢ : ١٠٦ ،

١١٣ وابن القوطية : ٧٢- والحلة السیراء ١ : ٤٤ وأوجز ابن خلدون الخبر عن وقمتهم ٤ : ١٢٦ .

٤ يحيى بن يحيى الليثي : مصمودي سمع من مالك وعاد إلى الأندلس يعلم كثير وأصبح يفتي فيها برأي

مالك (توفي سنة ٢٣٣ أو ٢٣٤) راجع ترجمته في ابن القرضي ٢ : ١٧٦ والجدوة : ٣٥٩

وبغية المتسرقم : ١٤٩٧ وابن خلكان ٥ : ١٩٤ ؛ وسيرجم له المقرئ في الراجلين إلى المشرق

رقم : ٢ .

٥ راجع ترجمة طالوت بن عبد الجبار في الذيل والتكملة ٤ : ١٤٩ وابن القوطية : ٧٥ - ٧٧

والتكملة : ٣٤٥ .

٦ في الأصول : محله متصلاً ، والتصويب عن ابن خلدون .

وكانت في أيام الحكم حروب وفتن مع الثوّار المخالفين له من أهل طليطلة وغيرهم .

وفي سنة ثنتين وتسعين<sup>١</sup> جمع لُدْرِيْقُ<sup>٢</sup> بن قارلُهُ<sup>٣</sup> ملك الفرنج جموعه ، وسار إلى حصار طَرَسُونَةَ<sup>٤</sup> ، فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر ، فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً .

ولما كثر عَيْتُ الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين<sup>٥</sup> ، فافتتح الثغور والحصون ، وخرّب النواحي ، وأتخّن في القتل والسبي والنهب ، وعاد إلى قَرْطُبَةَ ظافراً .

وفي سنة مائتين<sup>٥</sup> بعث العساكر مع ابن مُغِيث إلى بلاد الفرنج فخرّب وهدم عدّة حصون ، وأقبل عليه أليط<sup>٦</sup> ملك الجلالقة في جموع عظيمة ، وتنازلوا على نهر ، واقتتلوا عليه أياماً ، ونال المسلمون منهم أعظم النّيل ، وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة ، ثم كثرت الأمطار ، ومدّ النهر ، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين .

وهو أوّل من جنّد الأجناد ، واتخذ العدة ، وكان أفحل<sup>٧</sup> بني أمية بالأندلس ، وأشدّهم إقداماً ونجدة ، وكان يشبهه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء ، وكان يؤثّر فقيهه زياد بن عبد الرحمن<sup>٨</sup> ، وحضر يوماً عنده ، وقد غضب فيه على خادم له لإيصاله

١ ابن عذاري ٢ : ١٠٨ وتاريخ الحملة ١٩٣ .

٢ هكذا في الأصول ودوزي ولعل الأصوب لدويق - بالواو - وهو تعريب (Ludovico) .

٣ البيان المغرب : طرطوشة .

٤ أثبت دوزي سنة ١٩٤ ولا خلاف فإن الغزو اتصل بين عامي ١٩٤ - ١٩٦ كما ورد عند ابن عذاري .

٥ ابن عذاري ٢ : ١١٢ .

٦ أليط : وردت في الأصول ، ولم يرد الاسم في ابن عذاري وأسقطه دوزي .

٧ هذه العبارة إلى قوله « وقمع الأعداء » في المغرب ١ : ٣٨ .

٨ زياد بن عبد الرحمن الملقب بشبطون (١٩٩ أو ٢٠٤) قيل إنه أول من أدخل الأندلس فقه مالك =

إليه كتاباً كره وصوله ، فأمر بقطع يده ، فقال له زياد : أصلح الله الأمير ، فإن مالك بن أنس حدثني في خبر رفعه أن « مَنْ كَظَمَ غِيظاً يَقْدِرَ عَلَى إِنْفَاذِهِ مَلَأَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْنًا وَإِيمَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، فأمر أن يمسك عن الخادم ، ويعفى عنه ، فسكن غضبه ، وقال : الله إن مالكا حدثك بهذا ؟ فقال زياد : الله إن مالكا حدثني بهذا<sup>١</sup> .

وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة<sup>٢</sup> ، فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات ، وفي ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيري فيه<sup>٣</sup> :

نَكِدَ الزَّمَانَ فَأَمَنْتُ أَيَّامَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَعِضَرِهِ عُسْرُ  
ظَلَعَ الزَّمَانُ بِأَزْمَةٍ فَجَلَّ لَهُ تِلْكَ الْكُرْبِيهَةَ جُودُهُ الْغَمْرُ

وكان نقش خاتمه « بالله يثق الحكم ويعتصم » .

وذكور ولده عشرون ، وإناهم عشرون ، وأمه جارية اسمها زخرف .  
وكان أسمر ، طوالاً ، أشم ، نحيفاً .  
ومدة ملكه ست وعشرون سنة ، ساعه الله .

وقال غير واحد : إنه أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبتة ، واستعد<sup>٤</sup>  
بالماليك حتى بلغوا خمسة آلاف : منهم ثلاثة آلاف فارس ، وألفا راجل .  
ثم توفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من  
ولايته ، ومولده سنة ١٥٤ .

وقال ابن خلدون وغير واحد<sup>٥</sup> : إنه أول من جند بالأندلس الأجناد

= وكانوا قبله على مذهب الأوزاعي (الجنوة : ٢٠٣) .

١ انظر المقتطفات (الورقة : ٨٣) .

٢ يذكر ابن عذاري أنها كانت سنة ١٩٩ .

٣ عباس بن ناصح الجزيري ، ثقفي بالولاء ، رحل إلى المشرق غير مرة ، وكان شاعراً كثير الملح  
للأمير الحكم ، ثم ولي قضاء الجزيرة الخضراء وشذونة (راجع ترجمته في ابن الفرضي ١ : ٣٤٠  
وطبقات الزبيدي : ٢٨٤ والمغرب ١ : ٣٢٤ وبغية الوعاة ٢ : ٢٨) .

٤ انظر ابن خلدون ٤ : ١٢٧ والمغرب ١ : ٣٩ .

والمرتقة ، وجمع الأسلحة والعُدَد ، واستكْر من الخدم والحواشي والحشم ،  
وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ الممالك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ،  
وحكى في عدتهم ما تقدم ، ثم قال : وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ،  
وكان يباشر الأمور بنفسه ، ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين ، وهو الذي وطأ  
الملك لعقبه بالأندلس ، انتهى .

وكان له - فيما حكى غير واحد - ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر  
بقبلي قصره يجمعها داران . وهو القائل لما قتل أهل الربض وهدم ديارهم  
وحرثها :

رأبتُ صُدُوعَ الأرضِ بالسيفِ راقما      وقدماً لأمتُ الشعبَ مذ كنتُ يافِعا  
فسائلُ ثغوري هل بها اليومَ ثُغرةٌ      أبادرُها مستنضيَ السيفِ دارعا  
تُنَبِّيكُ أني لم أكن في قِراعِهِم      بوان ، وقدماً كنتُ بالسيفِ قارعا  
وهل زدت أن وفيتهم صاعَ قرضهم      فوافوا منايا قُدْرَتِ ومصارعا  
فهذي بلادي ، إتي قد تركتها      مهاداً ، ولم أترك عليها منازعا

وقال ابن حزم في حقه<sup>٢</sup> : إنه كان من المُجاهرين بالمعاصي ، السافكين  
للدماء ، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء . وقال غيره<sup>٣</sup> إنه تنصل أخيراً ،  
وتاب ، سامحه الله .

ومن نظمه قوله متغزلاً<sup>٤</sup> :

قُضِبُ من البانِ ماستَ فوقَ كُثبانِ      ولَّيْنِ عَتِي وقد أزمعنَ هِجراني

١ الأبيات في ابن عذاري ٢ : ١٠٧ وأخبار مجموعة : ١٣٢ والحلة ١ : ٤٧ ومخطوط الرباط :

١٠٧ والمغرب ١ : ٤٤ .

٢ ورد هذا في نقط العروس : ٧٣ (نشر الدكتور ضيف) وانظر المغرب ١ : ٤٤ ومخطوط

الرباط : ١٠٦ .

٣ ك : غير واحد .

٤ انظر الحلة ١ : ٥٠ ومخطوط الرباط : ١٠٦ .

ومنها :

من لي بمقتضيات الروح من بدني بخصيتي في الهوى عزّي وسلطاني  
وقيل : إنّه كان يمسك أولاد الناس ويخصيهم ، ونقلت عنه أمور ، ولعلّه  
تاب منها كما قدّمنا ، والله أعلم بحقيقة أمره .

ومن بديع أخبار الحكم<sup>١</sup> أن العباس الشاعر توجه إلى الشَّعْر ، فلما نزل  
بوادي الحجارة سمع امرأة تقول : واغوثاه بك يا حكم ، لقد أهملتنا حتى  
كليب العدو علينا ، فأيمنا وأيمنا ، فسألها عن شأنها ، فقالت : كنت مُقبلة  
من البادية في رُفقة ، فخرجت علينا خيل عدو ، فقتلت وأسرت ، فصنع قصيدته  
التي أولها :

تملكتُ في وادي الحجارة مُسَهراً أراعي نجوماً ما يُردنَ تغوراً<sup>٢</sup>  
إليك أبا العاصي نصبتُ مطيبي تسيرو بهم سارياً ومهَجراً  
تداركُ نساء العالمين بنصرة فإنك أحرى أن تغيثَ وتنصراً

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ، ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة  
باسمه ، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد ، فخرج بعد ثلاث إلى وادي  
الحجارة ومعه الشاعر ، وسأل عن الخيل التي أغارت من أي أرض العدو كانت ،  
فأعلم بذلك ، فغزا تلك الناحية وأثخن فيها ، وفتح الحصون ، وخرب الديار ،  
وقتل عدداً كثيراً ، وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من  
أسر له أحد في تلك البلاد ، فأحضر ، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها ،  
وقال للعباس : سلها : هل أغاثها الحكم ؟ فقالت المرأة ، وكانت نبيلة : والله لقد  
شفى الصدور ، وأنكى العدو ، وأغاث الملهوف ، فأغاثه الله ، وأعزّ نصره ؛

١ ورد هذا الخبر نصاً في مخطوط الرباط ١٠٧ - ١٠٨ وفي المقتطفات الورقة : ٨٣ .

٢ في الأصول ودوزي : تغيرا .

فارتاح لقلوبها ، وبدا السرور في وجهه وقال :

أَلَمْ تَرَى يَا عَبَّاسُ أَنِّي أَجَبْتُهَا عَلَى الْبُعْدِ أَفْتَادُ الْخَمِيسَ الْمُظْفَرَا  
فَأَدْرَكْتُ أَوْطَاراً وَبَرَدْتُ غَلَّةً وَتَقَسْتُ مَكْرُوباً وَأَغْنَيْتُ مُعْسِراً

فقال عباس : نعم ، جزاك الله خيراً عن المسلمين ، وقبّل يده .  
ومما عيبَ به أنه قتل الفقيه أبا زكريا يحيى بن مُضَرَّ القَيْسِي ، وكان  
قُدُوةً في الدين والورع ، سمع من سُفْيَانِ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، وروى عنه مالك  
وقال : حدثنا يحيى بن مضر عن سفیان الثوري أن الطلح المنضود هو الموز ،  
وكان قتل المذكور مع جماعة من العلماء وغيرهم .

\* \* \*

[ عبد الرحمن بن الحكم ]

وقام بأمره<sup>١</sup> من بعده ابنه عبد الرحمن ، بعهد منه إليه ، ثم لأخيه المغيرة  
بعده ، فغزا عبدُ الرحمن لأول ولايته إلى جليقيةَ وأبعد ، وأطال المغيب ،  
وأنخن في أمم النصرانية هنالك ، ورجع .

وقدم عليه سنة ست ومائتين زرياب المغني من العراق<sup>٢</sup> ، وهو مولى المهدي  
ومتعلم لإبراهيم الموصلي ، واسمه علي بن نافع ، فركب بنفسه لتلقيه ، على ما  
حكاه ابن خلدون ، وبالغ في إكرامه ، وأقام عنده بخير حال ، وأورث  
صناعة الغناء بالأندلس وخلف أولاداً فخلّفه كبيرهم عبدُ الرحمن في صناعته  
وحظوته .

وفي سنة ثمان<sup>٣</sup> أغزى حاجبهُ عبدَ الكريم بن عبد الواحد إلى ألبّة

١ سياق الأخبار التاريخية عن عهد عبد الرحمن بن الحكم جار وفق ما أورده ابن خلدون ٤ : ١٢٧ -

١٣٠ مع حذف ، ويظل التقل مستمراً حتى قوله « واحتجب عن العامة » .

٢ ستأتي أخبار زرياب في موضعها مفصلة .

٣ ابن عذاري ٢ : ١٢٣ ، قلت : وسياق تاريخ المارك من بعد يختلف عما أورده ابن خلدون .



والقلاع ، فخرّب كثيراً من البلاد وانتسفها ، وفتح كثيراً من حصونهم ،  
وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف ظافراً .

وفي سنة أربع وعشرين بعث قريبه عبيد الله بن البَلَنْسِي في العساكر لغزو  
ألبّة والقلاع ، فسار ولقي العدو فهزمهم وأكثر القتل والسبي ، ثم خرج لُدْرِيْق  
ملك الجلائقة ، وأغار على مدينة سالم<sup>١</sup> بالثغر ، فسار إليه فرتون بن موسى ،  
وقاتله ، فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو والأسر ، ثم سار إلى الحصن الذي  
بناه أهل ألبّة بالثغر نكاية للمسلمين ، فافتتحه وهدمه ، ثم سار عبدُ الرحمن  
في الجيوش إلى بلاد جليقية ، فدوّخها وافتتح عدّة حصون منها ، وجال في  
أرضهم ، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم .

وفي ستة ست وعشرين بعث عبدُ الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة ،  
وانتهوا إلى أرض بَرِبْطَانِيَّة ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل  
تُطِيلَةَ<sup>٢</sup> ، ولقيهم العدو ، فصبر حتى هزم الله عدوهم ، وكان لموسى في هذه  
الغزاة مقام محمود .

وفي سنة تسع وعشرين بعث ابنه محمداً بالعساكر ، وتقدم إلى بَنَبْلُونَةَ<sup>٣</sup> ،  
فأوقع بالمشركين عندها ، وقتل غرسية صاحبها ، وهو من أكبر ملوك النصارى .  
وفي أيامه ظهر المجوس<sup>٤</sup> ، ودخلوا إشبيلية ، فأرسل إليهم عبدُ الرحمن  
العساكر مع القواد من قُرْطُبَةَ ، فتزل المجوس من مراكبهم ، وقاتلهم المسلمون ،

١ مدينة سالم ( Medinacelli ) كانت من أعظم مدن الثغر الأوسط وبينها وبين وادي الحجارة  
خمسون ميلا ، وكانت أولا عاصمة هذا الثغر ثم حلت محلها طليطلة .

٢ تطيلة ( Tudela ) من مدن الثغر الأعلى إلى الشمال الغربي من سرقسطة .

٣ بنبلونة ( Pamplona ) عند المداخل الغربية من جبال البرت ، وتقع في سهل ريوخه  
( Rioja ) وهي من أوائل المناطق التي استقلت عن الحكم الإسلامي .

٤ المجوس أو الأردمانيون ( Nordmani ) ( النورمان = Norsemen ) كانوا يغيرون على  
الأندلس من المنافذ النهرية ؛ وقد سبّاهم العرب المجوس لأنهم كانوا يشعلون النيران كثيراً فظن  
العرب أنهم يبدونها ؛ انظر ابن عذاري ٢ : ١٣٠ في غارتهم سنة ٢٣٠ هـ .

فهزموهم بعد مقام صعب ، ثم جاءت العساكر مددًا من قُرطُبة فقاتلهم المجوس ، فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها ، ورحل المجوس إلى شدُّونة فأقاموا عليها يومين ، وغنموا بعض الشيء ، ووصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشبيلية فأقلع المجوس إلى لبلة ، وأغاروا وسبوا ، ثم إلى باجة ثم أشبونة ، ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشبونة ، وسكنت البلاد ، وذلك سنة ثلاثين ، وتقدّم عبدُ الرحمن بإصلاح ما خربوه من البلاد ، وأكثف حاميتها .

وفي سنة إحدى وثلاثين<sup>١</sup> بعث العساكر إلى جليقية فلدّخوها ، وحاصروا مدينة ليون ورمّوها بالمجانق ، وهرب أهلها عنها وتركوها ، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها ، وأرادوا هدم سورها فلم يقدرُوا عليه ، لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً ، فشكّموا فيه ثلثة ورجعوا .

ثم أغزى عبدُ الرحمن حاجبه عبدَ الكريم في العساكر إلى بلاد برشلونة ، فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة فلدّخها قتلاً وأسراً وسبياً ، وحاصر مدينتها العظمى جرندة ، وعاث في نواحيها ، وقتل . وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم توفلس<sup>٢</sup> بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمونُ والمعتمض حتى إنّه ذكرهما له في كتابه له وعبرَ عنهما بابني مرّاجل وماردة ، فكافأه الأمير عبدُ الرحمن عن الهدية ، وبعث إليه يحيى الغزال<sup>٣</sup> من كبار أهل الدولة ، وكان مشهوراً في الشعر والحكمة ، فأحكم

١ ابن عذاري ٢ : ١٢٢ .

٢ توفلس : (Theophilus) .

٣ سيرجم له المقرئ ؛ وهنا يذكر المقرئ نقلاً عن ابن خلدون خبر سفارته إلى القسطنطينية ، وأطنب ابن دحية في تفصيل سفارته إلى بلاد المجوس ، ولعل تعاقب النصين هو منشأ الوهم حول هذه السفارة . راجع المطرب : ١٢٥ - ١٤١ ( وانظر ترجمة الغزال في الجفوة : ٣٥١ ، وبنيّة المتلّس رقم : ١٤٦٧ ، والمغرب ٢ : ٥٧ ودراسي عنه في تاريخ الأدب الأندلسي : ١١١ ) =

بينهما الوُصلة ، وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعته من بني العباس .  
ويُعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط ، لأن الأول عبدُ الرحمن الداخل ،  
والثالث عبد الرحمن الناصر .

ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، بربيع الآخر ،  
لإحدى وثلاثين سنة من إمارته ؛ ومولده بِطَلَيْطَلَة في شعبان سنة ست وسبعين  
ومائة .

وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة ، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون ،  
وكثرَت الأموال عنده ، واتخذ القصور والمنتزهات ، وجلب إليها المياه من الجبال ،  
وجعل لقصّره مصنعاً اتخذه الناس شريعة ، وأقام الجسور ، وبُنيت في أيامه  
الجوامع بكور الأندلس ، وزاد في جامع قرطبة رواقين ، ومات قبل أن  
يستتمه<sup>١</sup> ، فأتمه ابنه محمد بعده ، وبني بالأندلس جوامع كثيرة ، ورتب رسوم  
المملكة ، واحتجب عن العامة .

وعدد ولده مائة وخمسون من الذكور ، وخمسون من الإناث<sup>٢</sup> ، ونقش  
خاتمه « عابد الرحمن بقضاء الله راض » وفي ذلك قيل<sup>٣</sup> :

خاتمٌ للملكِ أضحى حُكْمُهُ في الناس ماضي  
عابدُ الرحمن فيه بقضاء الله راضي

= وقد كتب عن سفارته عدة دراسات آخرها كتاب :

(The Poet And The Spae-Wife, by W. E. D. Allen ; London, 1960) .

١ قال ابن حيان في المقتبس ( نسخة القرويين : ١٤٠ ) نقلا عن الرازي : وزاد الأمير عبد الرحمن  
ابن الحكم الزيادة الأولى الظاهرة من قبلته للداخل إليه . . . ؛ وقد كانت أهواء المسجد تسعة  
أهواء زاد عليها عبد الرحمن هوين من كل جانبيه فكلها أحد عشر بهواً ؛ وكان الشروع في هذه  
الزيادة سنة ٢٣٤ . . . وقال ابن القوطية : مات الأمير عبد الرحمن وقد بقي عليه في هذه الزيادة  
بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة أتمها الأمير ابنه محمد الوالي في مكانه . ( وانظر ابن القوطية : ٨٤ ) .

٢ ابن عذاري ٢ : ١٢٢ أن الذكور ٤٥ والبنات ٤٢ وجاء ابن سعيد ( المغرب ١ : ٤٥ ) بأرقام  
أخرى نقلا عن ابن حزم .

٣ انظر ابن عذاري ٢ : ١٢٢ ومخطوطة الرباط : ١١٣ .

وهو أول من أحدث هذا النقش ، وبقي وراثته لمن بعده من ولده .  
قال ابن سعيد<sup>١</sup> : وفي أيامه انتهى مالُ الجباية إلى ألف ألف دينار في السنة ،  
وكان قبلُ لا يزيد على ستمائة ألف ، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع ما يخالف  
هذا فليراجع ، والله أعلم .

ومن توقيعاته<sup>٢</sup> : من لم يعرف وجهَ طلبه ، فالحرمانُ أولى به .  
ومن شعر عبد الرحمن المذكور قوله :

وَلَقَدْ تَعَارَضُ أَوْجُهُ لِأوامر فيقودُها التوفيقُ نحو صوابها  
والشيخُ إن يحوِ النهى بتجارِب فشاب رأَى القوم عند شبابها  
وفي زيادته في جامع قرطبة يقول ابن المثنى<sup>٣</sup> رحمه الله تعالى :

بَنَيْتَ لَهِ خَيْرَ بَيْتٍ      يَخْرَسُ عَنْ وَصْفِهِ الْأَنامُ  
حَجَّ إِلَيْهِ بِكُلِّ أَوْبٍ      كَأَنَّهُ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ  
كَأَنَّ مِحْرَابَهُ إِذَا مَا      حُفَّ بِهِ الرِّكْنُ وَالْمَقَامُ

وقال آخر<sup>٤</sup> :

بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ لَمْ يَكُ مِثْلَهُ      وَلَا مِثْلَهُ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ مَسْجِدُ  
سِوَى مَا ابْتَنَى الرَّحْمَنُ وَالْمَسْجِدَ الَّذِي      بَنَاهُ نَبِيُّ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدُ  
لَهُ عُمْدٌ حُمْرٌ وَخَضِرٌ كَأَنَّمَا      تَلُوْحُ يَوَاقِيْتُ بِهَا وَزَبْرَجِدُ  
أَلَا يَا أَمِينَ اللَّهِ ، لَا زَلَّتْ سَالِمًا      وَلَا زَلَّتْ فِي كُلِّ الْأُمُورِ تَسَدُّدُ  
فِي لَيْسَتْنَا نَقْدِيكَ مِنْ كُلِّ حَادِثٍ      وَأَنْتَكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ تَحْلُدُ

١ المغرب ١ : ٤٦ .

٢ المغرب ١ : ٤٦ وأخبار مجموعة : ١٣٩ والمقتبس (تحقيق مكِّي) : ٨٩ .

٣ هو عثمان بن المثنى النحوي ، هاجر إلى المشرق ولقي أبا تمام وروى عنه شعره (انظر طبقات  
الزبيدي : ٢٨٨ وابن الفرضي ١ : ٣٤٦) وهذا الشعر لابن المثنى ورد في مخطوطة الرباط : ١١٦ .

٤ مخطوطة الرباط : ١١٦ .

وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته طَرُوب<sup>١</sup> ، وكلف بها كلفاً شديداً ، وهي التي بنى عليها الباب ببِدْر المال حين تجنّت عليه ، وأعطاهها حلياً قيمته مائة ألف دينار ، فقيل له : إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك ، فقال : إن لابسه أنفـس منه خطراً ، وأرفع قدراً ، وأكرم جوهراً ، وأشرف عنصراً ، وفيها يقول :

إذا ما بدت لي شمسُ النّها      رِ طالعةٌ ذكّرتني طَرُوبا  
أنا ابن الميامين من غالبٍ      أشبُّ حرُوباً وأطفي حرُوبا  
وخرج غازياً إلى جليقية فطالت      غيبته فكتب إليها :

عدائي عنك مزارُ العدا      وقودي إليهم سهاماً مُصيبا  
فكم قد تخطيتُ من سبَسبٍ      ولاقيتُ بعدَ دُرُوبٍ دُرُوبا  
ألاقي بوجهي سُومُ الهَجِيرِ      إذ كاد منه الحصى أن يدُوبا  
تدارك بي الله دين الهدى      فأحييتهُ وأمت الصليبا  
وسرت إلى الشرك في جحفلٍ      ملأتُ الحزون به والسّهوبا

وساق بعض المؤرخين قصة طَرُوب هذه بقوله : إن السلطان المذكور أغضبها فهجرته ، وصدت عنه ، وأبت أن تأتيه ، ولزمت مقصورتها ، فاشتد قلقه لهجرها ، وضاق ذرعُه من شوقها ، وجهد أن يرضاها بكل وجه فأعياه ذلك ، فأرسل من خِصيانه من يُكرها على الوصول إليه ، فأغلقت باب مجلسها في وجوههم ، وآلت أن لا تخرج إليهم طائفة ، ولو انتهى الأمر إلى القتل ، فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها ، واستأذنوه في كسر الباب عليها ، فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببِدْر الدراهم ، ففعلوا ، وبتوا عليها بالبِدْر ، وأقبل حتى وقف بالباب وكلّمها مسترضياً راعباً في المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب ،

١ راجع أخباره مع طروب وشمره فيها في المغرب ١ : ٤٦ وابن عذاري ٢ : ١٣٧ والحلة السيرة ١ : ١١٤ وابن القوطية ٨٢ - ٨٣ والمقتطفات ( الورقة : ٨٣ - ٨٤ ) .

فأجابت وفتحت الباب ، فأنهالت البِدَر في بيتها ، فأكبت على رِجله تقبّلها ، وحازت المال ، وكانت تبرم الأمور مع نصر الحصيّ فلا يردُّ شيئاً ممّا تبرمه . وأحبّ أخرى اسمها مدثرة فأعتقها وتزوجها ، وأخرى كذلك اسمها الشفاء ، وأمّا جاريتها قلم فكانت أديبة ، حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضرّوب الأدب . وكان مولعاً بالسماع ، مؤثراً له على جميع لذاته ، وله أخبار كثيرة ، رحمه الله .

\* \* \*

[ محمد بن عبد الرحمن ]

ولمّا مات وليّ ابنه محمد<sup>١</sup> ، فبعث لأوّل ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب تظيلة<sup>٢</sup> ، فعاث في نواحي ألبّة والقلاع ، وفتح بعض حصونها ، ورجع ، وبعث عساكر أخرى إلى نواحي برّشِلُونَة وما وراءها ، فعاثوا فيها وفتحوا حصوناً من برّشِلُونَة ورجعوا .

ولما استمدّ أهلُ طَلَيْطَلَة المخالفون<sup>٣</sup> من أهل بلاد الأمير محمد عليه بملكي جليقية والبشكنس لقيهم الأمير محمد على وادي سَلَيْطَة<sup>٤</sup> ، وقد أكن لهم ، فأوقع بهم ، وبلغت عدّة القتلى من أهل طَلَيْطَلَة والمشرّكين عشرين ألفاً . وفي سنة خمس وأربعين ظهرت مراكبُ المجوس<sup>٥</sup> ، وعاثوا في الأندلس ،

١ يتبع المقرئ في سياق الأحداث ونصها ما أورده ابن خلدون ٤ : ١٣٠ - ١٣٢ . وقارن بما في المقتبس (تحقيق مكّي) : ٢٩٢ وما بعدها .

٢ ك ق : طليطلة ، وهو خطأ ، والتصويب عن ابن خلدون و ط .

٣ ثار أهل طليطلة أول ما تولى الإمارة ( ٢٣٨ ) فأخرج إليهم في العام التالي ابنه الحكيم ثم خرج إليهم بنفسه في العام بعده فاستعانوا بصاحب جليقية ( ٢٤٠ ) . انظر ابن عذاري وتفصيل الأخبار عن تمرد طليطلة في حكم الأمير محمد ٢ : ١٤٢ وما بعدها .

٤ ابن خلدون وابن عذاري : وادي سليط : ( Auzalete ) وهو نهر يصب في التاجه جنوبي طليطلة ، وأثبتنا ما في الأصول .

٥ انظر تفصيل هذا الغزو في المقتبس (تحقيق مكّي) : ٣٠٧ - ٣٠٩ .

فلقبهم مراكبُ الأمير محمد ، فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين ، واستشهد جماعة من المسلمين .

وفي سنة سبع وأربعين<sup>١</sup> أغزى محمد إلى نواحي بَنبُلُوثة ، وصاحبها حينئذ غَرَسِيَّةُ بن وثقه<sup>٢</sup> ، وكان يظاهر أردون<sup>٣</sup> بن أذفنش ، فعاث في نواحي بَنبُلُوثة ، ورجع وقد دَوَّخها وفتح كثيراً من حصونها ، وأسر فرتونَ ابنَ صاحبها ، فبقي أسيراً بقرطبةَ عشرين سنة .

ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر في العساكر إلى نواحي ألبّة والقلاع فعاثوا فيها ، وجمع لُدَرِيقُ للقائهم ، فلقبهم وانهمز ، وأثنى المسلمون في المشركين بالقتل والأسر ، فكان فتحاً لا كفاء له .

ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلالقة ، فأثنى وخرب . وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب ، وفي السنة التي بعدها إلى بلاد بَنبُلُوثة فدَوَّخها ورجع . وفي سنة ثمان وستين أغزاه أيضاً إلى دار الحرب ، فعاث في نواحيها وفتح حصوناً .

وفي أيام الأمير محمد خربت ماردة وهدمت ولم يبق لها أثر . وذكر بعضهم أنه رأى بالمشرق هذه الأبيات قبل أن تخرب ماردة بأعوام ، ولم يعلم قائلها ، وذلك سنة ٢٥٤ :

وَيْلٌ لِمَارِدَةَ الَّتِي مَرَدَتْ      وَتَكَبَّرَتْ عَنْ عُدْوَةِ النَّهْرِ  
كَانَتْ تَرَى لِهَمٍّ بِهَا زَهْرٌ      فَخَلَّتْ مِنَ الزَّهْرَاتِ كَالْقَفْرِ  
فَالْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْحُ حِينَ غَزَا      بِجَمِيعِهِمْ مِنْ صَاحِبِ الْأَمْرِ

١ ابن عذاري : وفي سنة ٢٤٦ .

٢ (García) ابن (Inigo) ؛ وفي ق ك ط ج : وبقة .

٣ في الأصول أردن ؛ والاسم (Ordano) .

ثم توفي الأمير محمد في شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، لخمس  
وثلاثين سنة من إمارته ، ومولده سنة سبع ومائتين .

\* \* \*

[ المنذر بن محمد ]

وولي بعده ابنه المنذر<sup>١</sup> ، ولم تطل مدته ، وأقام في الملك ستين إلا نصف  
شهر ، وتوفي منتصف صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، وفيه قيل :  
بالمنذر بن محمد صلحت بلاد الأندلس

\* \* \*

[ عبد الله بن محمد ]

ثم ولي أخوه عبد الله ، قال ابن خلدون<sup>٢</sup> : كان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة  
ألف دينار : مائة ألف للجيوش ، ومائة ألف للنفقة في النواصب وما يعرض ،  
ومائة ألف ذخيرة ووفرأ ، فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحي الأندلس  
بالتواري والمتغلبين في تلك السنين ، وقل الخراج ، انتهى .  
ومن نظم الأمير عبد الله قوله<sup>٣</sup> :

يا مُهْجَةَ المِشْتاقِ ما أوجَعَكَ      ويا أُسِيرَ الحُبِّ ما أخصَعَكَ  
ويا رَسُولَ العَيْنِ من لَحْظِها      بالردِّ والتبليغِ ما أَسْرَعَكَ  
تذهبُ بالسُرِّ فتأتي بهِ      في مَجْلِسٍ يخفي على من معَكَ  
كم حاجةٍ أُنْجِزَتْ لإبرازِها      تباركَ الرحمنُ ما أطوَعَكَ

١ أوجز المقرئ في أخبار هذا الأمير فراجع ابن خلدون ٤ : ١٣٢ والمغرب ١ : ٥٣ وابن القوطية :  
١١٩ وأخبار مجموعة : ١٤٩ ومخطوطة الرباط : ١٢٤ .  
٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٣٣ وراجع المصادر السابقة في ولاية عبد الله وأخياره ؛ وقد بقي جزء  
من المقتبس خاص بعمد هذا الأمير ، نشره ملشور أنطونية ( باريس ١٩٣٧ ) .  
٣ ابن عذاري ٢ : ٢٣٢ والحلة ١ : ١٢١ .



وهذه الأبيات عنوان فضله ، وبراعة استهلال نبله .  
 وكان الوزراء يُطالعون بأرائهم الخليفةَ في بطاقة ، فطالعه وزيره النَّضْر بن  
 سَلَمَة<sup>١</sup> برأيه في أمر في ورقة ، فلما وقف عليها لم يعجبه ذلك الرأي ، فكتب<sup>٢</sup> :

أَنْتَ يَا نَضْرُ أَبِيدَهُ لَيْسَ تُرْجَى لِفَائِدَهُ  
 إِنَّمَا أَنْتَ عُدَّةٌ لِكَنْيِفٍ وَمَائِدَهُ

وتوفي الأمير عبد الله سنة ثلاثمائة ، ومدة ملكه نحو من خمس وعشرين سنة .

\* \* \*

[ عبد الرحمن الناصر ]

وولي حافِدُهُ<sup>٣</sup> عبد الرحمن الناصر<sup>٤</sup> ابن ابنه محمد قتيل أخيه المُطَرَف ،  
 وكانت ولايته من الغريب ، لأنه كان شاباً ، وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون ،  
 فتصدى إليها واحتازها دونهم ، ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين ، مضطربة  
 بنيران المتغلبين ، فأطفأ تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له  
 الأندلس في سائر جهاتها بعد نيّف وعشرين سنة من أيامه ، ودامت أيامه  
 نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بتلك الناحية ، وهو أول من تسمى  
 منهم بالأندلس بأمر المؤمنين ، عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبدت  
 موالى الترك على بني العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع  
 عشرة وثلاثمائة<sup>٥</sup> فتلقب بألقاب الخلافة ، وكان كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار  
 الحرب ، إلى أن هُزم عام الخندق سنة ثلاث وعشرين<sup>٥</sup> ، ومحصّ الله فيها

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٢٨ استقضاء الأمير عبد الله بقرطبة ثم استوزره (توفي سنة ٣٠٢) .

٢ ابن عذاري ٢ : ٢٣١ والحلة ١ : ١٢٢ .

٣ انظر ابن خلدون ٤ : ١٣٧ .

٤ الصواب سنة ٣٢٠ .

٥ اقرأ : سنة ٣٢٧ .

المسلمين ، فقعده عن الغزو بنفسه وصار يردّد الصّوائف في كل سنة ، فأوطأ  
عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطؤوه قبلُ في أيّام سلفه ، ومدّت إليه أمم  
النصرانية من وراء الدروب يدّ الإذعان ، وأوفدوا عليه رُسُلهم وهداياهم من  
رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعنّ في مرضاته ،  
ووصل إلى سدّته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات  
قَشْتَالَة وبَنبُلُونَة وما يُنسب إليها من الثغور الجوفية ، فقبلوا يده ، والتمسوا  
رضاه ، واحتقبوا جوائزه ، وامتطّوا مراكبه ، ثم سما إلى ملك العُدوة فتناول  
سبّئَة - قفل الفُرْصَة ١ - من أيدي أهلها سنة سبع عشرة وثلاثمائة ٢ ، وأطاعه بنو  
إدريس أمراء العُدوة وملوك زَنَاطَة والبربر ، وأجاز إليه الكثير منهم كما يُعلم  
من أخباره ، وبدأ أمره أولَ ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا ، انتهى كلام  
ابن خلدون .

وفيه يقول ابن عبد ربّه صاحبُ العقد يوم تولّى الملك ٣ :

بدا الهلالُ جَدِيداً      والملكُ غَضُّ جَدِيدُ  
يا نِعْمَةَ الله زَيْدِي      إن كان فيك مَزِيدُ  
إن كان للصَّومِ فِطْرُ      فأنتَ للدهرِ عَيْدُ

وأراد بأول الأبيات أنّه وليّ مستهلّ ربيع الأول كما علّم .  
وما أشار إليه ابنُ خلدون في غزوة الخندق فضلّه المسعودي فقال ٤ ، بعد أن  
أجرى ذكر مخالفة أمية بن إسحاق على الناصر ودخوله أرض النصارى ودلالته  
إياهم على عَوْرَات المسلمين ، ما ملخصه : وغزا عبدُ الرحمن صاحب الأندلس

١ قفل الفرصة : مضطربة في النسخ فهي في ق : قفل الفرصة ؛ وفي ك : ونقل الفرصة ؛ وفي  
ط : نقل الفرصة ؛ ج : فغل الفرصة ، وسقطت من طبعة بولاق من تاريخ ابن خلدون .  
٢ كذلك عند ابن خلدون ؛ وعند ابن عذاري : ( ٣١٩ ) .  
٣ ورد منها بيتان في ابن عذاري ٢ : ٢٣٦ والمغرب ١ : ١٧٧ .  
٤ مروج الذهب ٢ : ٣٧ .

سمورة دار الجلالقة ، وكان عبدُ الرحمن في مائة ألف أو يزيدون ، وكانت  
الوقعة بينه وبين رُدْمير<sup>١</sup> ملكِ الجلالقة في شوال سنة ٣٢٧ بعد الكسوف الذي  
كان في هذا الشهر بثلاثة أيّام ، فكانت للمسلمين عليهم ، ثم تابوا بعد أن  
حوصروا وأبجثوا إلى المدينة ، فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندقَ خمسين  
ألفاً ، وقيل : إن الذي منع رُدْمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن إسحاق ،  
وخوفه الكمين ، ورغبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعدّة  
والخزائن ، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ، ثمّ إن أمية استأمن بعد ذلك  
إلى عبد الرحمن وتخلّص من رُدْمير ، وقبله عبد الرحمن أحسنَ قبول . وقد  
كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عدّة من قوّاده إلى الجلالقة ،  
فكانت لهم بهم عدّة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعفُ ما قُتل من المسلمين  
في الوقعة الأولى ، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية ، ورُدْمير ملك الجلالقة  
إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢ ، انتهى .

وقال في موضع آخر ما ملخصه<sup>٢</sup> : إن عبد الرحمن غزا في أزيد من مائة  
ألف من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهي مدينة سمورة ، وعليها  
سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السالفة ، وبين الأسوار  
فصلان وخنادق ومياه واسعة ، وافتتح منها سورين ، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين  
فقتلوا منهم ممّن أدركه الإحصاء وممّن عُرِف أربعين ألفاً ، وقيل : خمسين  
ألفاً ، وكانت للجلالقة والبُشكنس على المسلمين ، انتهى كلام السعودي .  
رجع إلى أخبار الناصر - فنقول : إن الناصر - رحمه الله - كان له نظم ،  
ومما نسب إليه بعضهم قوله :

لا يضُرُّ الصغِيرَ حَدِيثَانُ سَنَ      إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي سَعُودِ الصَّغِيرِ

١ رُدْمير = (Ramiro)

٢ ط ج ق ودوزي : وهو سنة ٣٣٦ ؛ وما هنا موافق لما في المروج ، وفي ك : ٣٢٩ .

٣ المروج ١ : ١٦٢ .

كم مقيمٍ فازتْ يدها بغنمٍ لم تتكلمه بالركض كفٍ مُغيرٍ  
هكذا ألفتُ البيتين منسويين إليه بخط بعض الأكابر ، ثم كتب بأثره ما  
نصه : الصحيح أنهما لغيره ، والله أعلم ، انتهى .

\* \* \*

[ هدية ابن شهيد للناصر ]

وكان الناصر - رحمه الله - قد استحجب موسى بن محمد بن حُدَيْر ،  
واستوزر عبدَ الملك بن جَهْور ، وأحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد ، وأهدى  
له ابنُ شُهَيْدٍ هديته المشهورة المتعددة الأصناف ، وقد ذكرها ابن حيَّان وابن  
خلدون<sup>١</sup> وغيرهما من المؤرخين ، قال ابن خلدون : وهي ممَّا يدل على ضخامة  
الدولة الأموية ، واتساع أحوالها ؛ وكان ذلك<sup>٢</sup> سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ،  
لثمان خلون من شهر جمادى الأولى ، وهي هدية عظيمة الشأن ، اشتهر ذكرها  
إلى الآن ، واتفق على أنه لم يهادَ أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، وقد أعجبت  
الناصر وأهل مملكته جميعاً ، وأقروا أن نفساً لم تسمح بإخراج مثلها ضربةً  
عن يدها ، وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها  
استحسنها الناس وكتبوها ، وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصاً ، وأسمى  
مترلته على سائر الوزراء جميعاً ، وأضعف له رزق الوزارة ، وبلغه ثمانين ألف  
دينار أندلسية ، وبلغ مصروفه إلى ألف دينار ، وثني له العظمة لثنيته له الرزق ،  
فسمَّاه « ذا الوزارتين » لذلك ، وكان أول من تسمى بذلك بالأندلس امتثالاً  
لامم صاعد بن مَحْلد وزير بني العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه في البيت ،  
وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق أول التسمية ، فعظم مقداره في الدولة جداً .

١ ابن خلدون ٤ : ١٣٨ .

٢ أورد المقرئ الحديث عن هذه الهدية مفصلاً أيضاً في أزهار الرياض ٢ : ٢٦١ إلا أنه لم يمزج بين  
روايي ابن خلدون وابن الفرضي بل اكتفى بالثانية .

وتفسير هديته المذكورة على ما ثبت في كتاب ابن خلدون على ما يفسر :  
خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل من التبر ، ومصارفة  
خمس وأربعون ألف دينار من سبائك الفضة في مائتي بدرية ، واقتصر ابن الفرضي  
على خمسمائة ألف دينار فقط ؛ واثنا عشر رطلاً من العود الهندي الذي يتخم  
عليه كالشمع ، ومائة وثمانون رطلاً من العود المتخير ، ومائة رطل من العود  
الشبه المنتقى ، هكذا ذكره ابن خلدون .

وقال ابن الفرضي مستنداً إلى الكتاب الذي وجهه ابن شهيد مع الهدية : إن  
العود الغالي من ذلك أربعمائة رطل ، منها في قطعة واحدة مائة وثمانون رطلاً .  
وقال ابن خلدون : ومائة أوقية من المسك الذكي المفضل في جنسه ، انتهى .  
وقال ابن الفرضي ، نقلاً عن الكتاب المصحوب مع الهدية : إن المسك مائتا  
أوقية ، واثنتا عشرة أوقية . ومن العنبر الأشهب الباقي على خلقته بغير صناعة  
خمسمائة أوقية ، منها قطعة عجيبة ململمة الشكل وزن مائة أوقية ، هكذا في  
تاريخ ابن خلدون .

وفي ابن الفرضي أن الكل مائة أوقية ، وأن هذه القطعة أربعون أوقية .  
ومن الكافور المرتفع النقي الذكي ثلاثمائة أوقية .  
قال ابن خلدون : ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المخم المرقوم بالذهب  
كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع ، وعشرة أفرية<sup>١</sup> من عالي جلود  
الفنسك الخراسانية .

وخالفه ابن الفرضي<sup>٢</sup> ، إذ قال : ومن أنواع الثياب ثلاثون شقة خنج<sup>٣</sup>  
خاصية للباسه بيضاء وملونة ، وخمس ظهائر شعبية<sup>٤</sup> خاصة له ، وعشر فراء من

١ أفرية : جمع فروة .

٢ الفقرة من قوله « وخالفه . . . أدري » كلها سقطت من ق .

٣ خنج لعلها من الفارسية « خنك » بمعنى حرير أبيض ، وهي كذلك في ك ط .

٤ الشعبية : نوع من الأقمشة .

عالي الفنك منها سبعة بيض خراسانية وثلاث ملوثة ، وستة مطارف عراقية  
خاصية له ، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته ، ومائة ملحفة زهرية لرقاده .  
ولم يذكر ابن خلدون ذلك ، وابنُ الفرضي أعرف ، لا سيما وقد استند إلى  
كتاب المهدي ، وصاحبُ البيت أدري .

قال ابن خلدون : وعشرة قناطير شدّ فيها مائة جلد سمّور ، وقاله ابن  
الفرضي أيضاً ، وزاد ابن خلدون : وستة من السراذقات العراقية ، وثمانية  
وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخليل من الحرير والذهب ، ثم قالاً معاً :  
وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول ، وألف رطل من لون الحرير المنتقى  
للاستغزال ، وزاد ابن خلدون : وثلاثون شقة من الفيون لسروج الهبات ، وزاد  
ابن الفرضي في الحرير المذكور : قيل : إنّه قبضه منه صاحب الطراز ولم يأت  
به مع الهدية ، وإنّما دفعه لصاحب الطراز ، وأثبتته في الدفتر ، قالوا : وثلاثون  
بساطاً من الصوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعاً ، وقال  
ابن خلدون : منتقاة مختلفة الألوان ، قالوا : ومائة قطعة مُصلّيات من وجوه الفرش  
المختلفة ، زاد ابن الفرضي : الصناعات من جنس البُسُط ، قالوا : وخمسة عشر  
نخاً<sup>٢</sup> من عمل الخز المقطوع شطرها ، قال ابن الفرضي : وسائرهما من جنس  
البُسُط الوجوه ، قال ابن خلدون : ومن السلاح والعدّة ثمانمائة من التجليف  
المزينة أيام البروز والمواكب ، وقال ابن الفرضي : مائة تجفاف بأبدع الصناعات  
وأغربها وأكملها ، قالوا : وألف تُرُس سلطانية ، ومائة ألف سهم ، زاد ابن  
خلدون : من النبال البارعة الصنعة ، قال ابن خلدون : ومن الظهر خمسة عشر  
فرساً من الخيل العِراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة التّعوت ، وقال ابن  
الفرضي : ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العِراب المتخيرة لركابه خمسة  
عشر فرساً ، وخمس من عرض هذه الخيل مُسرّجة مُلجّمة لركاب الخلافة

١ كذا وردت هذه اللفظة في ق ك وللمها : « البريون » وهو سندس .

٢ في ق ك : نوخاً ؛ والنخ : بساط طويل طوله أكثر من عرضه .

مجالسُ سروجها خز عراقي ، وثمانون فرساً مما يصلح للوصفاء والحشم ، وقال ابن خلدون : مائة فرس من الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات ، وقال ابن الفرضي : وخمسة أبغل عالية الركاب ، وقال ابن خلدون : وعشرون من بغال الركاب مُسرجة ملجئة لمراكب الخلافة مجالسُ سروجها خز جعفري عراقي ، قالوا : ومن الرقيق أربعون وصيفاً وعشرون جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم ، وقال ابن خلدون في الجواري : متخيرات بكسوتهم وزيتتهم ، وقال ابن خلدون : ومن سائر الأصناف قرية تغلُّ آلافاً من أمداد الزرع ، ومن الصخر للبنيان ما أنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار ، وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصلبه<sup>١</sup> وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار ، انتهى .

وقال ابن الفرضي نقلاً عن كتاب ابن شهيد المصحوب مع الهدية عندما ذكر الرقيق ما صورته : وكان قد أمرني<sup>٢</sup> - أيدهُ الله - بابتياعهم من مال الأخماس ، فابتعتهم من نعمته عندي ، وصيرتهم من بعثي ، ومع ذلك عشر قناطير سكر طبرزد لا سُحاق فيه .

وفي آخر الكتاب : ولما علمت تطلُّع مولاي - أيده الله تعالى - إلى قرية كذا بالقنباية<sup>٣</sup> المنقطعة الغرس في شرقها ، وترداده - أيده الله تعالى - لذكرها لم أهنأ بعيث حتى أعملت الحيلة في ابتياعها بأحوازها ، وأكثبت وكيله ابن بقية الوثيقة فيها باسمه ، وضممتها إلى ضياعه ، وكذلك صنعت في قرية شيرة من نظر جيان عندما اتصل بي من وصفه لها وتطلُّعه إليها ، فما زلت أتصدى لسرته بها حتى ابتعتها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها ، واحتاز ذلك

١ ط ك : وأصيله .

٢ ك : قد أرى .

٣ قد مر التعريف بالقنباية ، وهي تدل على الحقول ، وإن كانت تطلق علماً على كثير من المواضع بالأندلس أهمها البساط الواقعة إلى جنوب قرطبة في حوض الوادي الكبير .

كله الوكيل<sup>١</sup> ابن بقية ، وصار في يده له أبقاه الله سبحانه ، وأرجو أنه سيرفع فيها في هذه السنة آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى . ولما علمت نافذ عزمه - أبقاه الله تعالى - في البنيان ، وكلفه به ، وفكرت في عدد الأماكن التي تطلع نفسه الكريمة إلى تخليد آثاره في بنيانها - مد الله تعالى في عمره ، وأوفى بها على أقصى أمله - علمت أن أسه وقوامه الصخر والاستكثار منه ، فأثارت لي همتي ونصيحتي حيلة حيلة أحكمها سعدك وجدك اللذان يبغثان ما لا يتوهم عليه ، حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدد ما كان يقوم على يدي عبدك ابن عاصم في عشرين عاماً ، وينتهي تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين ألفاً أعجل شأنه في عام ، سوى التوفير العظيم الذي يبديه العيان قبلاً إن شاء الله تعالى ، وكذلك ما تاب إليّ في أمر الخشب لهذه المنية المكرمة ، فإن ابن خليل عبدك المجتهد الدؤوب انتهى في تحصيل عدد ما تحتاج إليه إلى ثلاثمائة ألف عود ونيّف على عشرين ألف عود ، على أنه لا يدخل منه في السنة إلاّ نحو الألفي عود ، ففتح لي سعدك رأياً أقيم له بتمامه جميع هذا الخشب العام على كماله بورود الجليلة<sup>١</sup> لوقتها ، وقيمه على الرخص ما بين الخمسين ألفاً والستين ألفاً ، انتهى .

\* \* \*

[ عود إلى أخبار الناصر ]

ومن غريب ما يحكى<sup>٢</sup> عن أمير المؤمنين الناصر المذكور أنه أراد الفصد ، فقعده بالبّهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيب الآلة وجسّ يد الناصر ، فبينما هو إذ أطل زُرُور فصعد على إناء ذهب بالمجلس ، وأنشد :

أيّها الفاصدُ رفقاً بأمر المؤمنيننا

١ الجليلة : كذا جاءت في ق ك ، فإن لم تكن تعني « الخشب المجلوب » فلا أدري دلالتها بدقة .

٢ انظر أزهار الرياض ٢ : ٢٦٥ .



إنما تفصد عِرْقاً فيه مَحْيَا العالمينا

وجعل يكرّر ذلك المرّة بعد المرة ، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف ، وسرّ به غاية السرور ، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزُرُور ، فذكر له أن السيدة الكبرى مَرَجَانة أم ولده وليّ عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك ، وأعدته لذلك الأمر ، فوهب لها ما ينيّف على ثلاثين ألف دينار .

وذكر ابنُ بَسَّام<sup>١</sup> أن أبا عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك الوزير أهدي غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه ، فلمحه الناصر فقال لابن شهيد : أتى لك هذا ؟ قال : هو من عند الله ، فقال له الناصر : تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر ، فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام ، وقال : يا بني كن مع جملة ما بعثت به ، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي ، وكتب معه هذين البيتين<sup>٢</sup> :

أمولاي هذا البدرُ سار لأفقيكم<sup>٣</sup> ولألفقن<sup>٤</sup> أولى بالبدور من الأرض  
أرضيكم<sup>٥</sup> بالنفس وهي نفيسة<sup>٦</sup> ولم أرَ قبلي من<sup>٧</sup> بمهجته يرُضي

فحسن ذلك عند الناصر ، وأتحفه بمال جزيل ، وتمكنت عنده مكانته ، ثم إنّه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا ، فخاف أن ينهَى<sup>٨</sup> ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصّة الغلام ، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى ، وبعثها معها ، وكتب له :

أمولاي هذي الشمسُ والبدرُ أولاً<sup>٩</sup> تقدّم<sup>١٠</sup> كيما يلتقي القمران<sup>١١</sup>

١ انظر مطالع البدور ١ : ٢٤٠ والمقتطفات (الورقة : ٨٤) .

٢ في الأصول : هذه الأبيات .

٣ ك : ينتهي .

قِرَانٌ لِعَمْرِي بالسعادة قد أتى فدمٌ منهما في كوثر وجنانِ  
فما لهما والله في الحُسن ثالثٌ وما لك في مُلك البرية ثاني

فتضاعفت مكانته عنده .

ثمَّ إنَّ أحدَ الوشاة رفع للملك أنه بقي في نفسه من الغلام حرارة ، وأنه لا يزال يذكره حين تُحرَّكه الشَّمول ، ويقرع السن على تعذر الوصول ، فقال للواشي : لا تحرك به لسانك ، وإلاَّ طار رأسك ، وأعمل الناصر حيلة في أن كتب على لسان الغلام رقعة منها : « يا مولاي ، تعلم أنك كنت لي على انفراد ، ولم أزل معك في نعيم ، وإتني وإن كنت عند الخليفة مشارك في المنزلة ، محاذر ما يبدو من سطوة الملك ، فتحيل في استدعائي منه » ، وبَعَثَهَا مع غلام صغير السن ، وأوصاه أن يقول : من عند فلان ، وإن الملك لم يكلمه قط ، إن سأله عن ذلك ، فلماً وقف أبو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم علم من سؤاله ما كان في نفسه من الغلام ، وما تكلم به في مجالس المدام ، فكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفاً :

أمن بعد إحكام التجاربِ يُبتغى لديَّ سقوطُ الطير<sup>١</sup> في غابة الأسد  
وما أنا ممن يغلب الحبُّ قلبه ولا جاهل ما يدعيه أولو الحَسَدِ  
فإن كنت رُوحِي قد وهبتك طائعاً وكيف يُردُّ الروحُ إن فارق الحَسَدُ

فلماً وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ، ولم يَعدْ إلى استماع  
واشٍ به .

ودخل عليه بعد ذلك فقال له : كيف خلصت من الشَّرِك ؟ فقال : لأن  
عقلي بالهوى غير مشترك ، فأنعم عليه ، وزادت محبته عنده ، وممن ذكر هذه  
الحكاية صاحب « مطالع البذور ، في منازل السرور »<sup>٢</sup> .

١ المطالع : سقوط العير ؛ وهو أقرب إلى الصواب .

٢ هو علاء الدين علي بن عبد الله الغزولي .

وأخبار الناصر طويلة جداً ، وقد مُنِحَ الظفر على الثور ، واستترهم من معاقلم ، حتى صفا له الوقت ، وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء ، فمن غزواته أنه غزا سنة ثمان وثلاثمائة إلى جليقية وملكها أردون بن أذفونش ، فاستنجد بالبشكنس والإفرنجية وظاهر شانجة<sup>١</sup> بن غرسية صاحب بنبلوثة أمير البشكنس ، فهزمهم ، ووطيء بلادهم ، ودوخ أرضهم ، وفتح معاقلم ، وخرّب حصونهم ، ثم غزا بنبلوثة سنة ثني عشرة ، ودخل دار الحرب ، ودوخ البساط ، وفتح المعقل ، وخرّب الحصون ، وأفسد العمائر ، وجال فيها ، وتوغل في قاصيتها ، والعدو يحاذيه في الجبال والأوعار ، ولم يظفر منه بشيء ، ثم بعد مدة ظفر ببعض الثور عليه ، وكان استمدّ بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبّة ، وفتح ثلاثين من حصونهم ، وبلغه انتفاض طوطة<sup>٢</sup> ملكة البشكنس فغزاها في بنبلوثة ودوخ أرضها واستباحها ، ورجع إلى قرطبة ، ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين إلى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون ، وقعد بعدها عن الغزو بنفسه ، وصار يردد البعوث والصوائف إلى الجهاد ، وبعث جيوشه إلى المغرب فملك سبّته وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب ، وطار صيته وانتشر ذكره كما سبق . ولما هلك غرسية بن شانجة ملك البشكنس قام بأمرهم بعده أمه<sup>٣</sup> طوطة ، وكفلت ولده ، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين ، فغزا الناصر بلادها ، وخرّب نواحي بنبلوثة وردد عليها كما مرّ الغزوات ، وكان قبل ذلك سنة ثنتين وعشرين غزا إلى وخشمة<sup>٤</sup> ،

١ شانجة : ( Sancho ) ملك البشكنس أي منطقة نبره ( Navarra ) ، وفي ك : شانجة بن فرويلة ؛

وفي ط : شنجة .

٢ طوطة ( Teoda ) وفي تاريخ برونسال ( ٢ : ٧٣ ) ( Toda ) .

٣ ابن خلدون : أخته .

٤ وخشمة : ( Osma ) وفي ك : خشمة .

ثم رحل إلى بَسْبَلُونَةَ ، فجاءته طوطة بطاعتها وعقد لابنها غَرْسِيَةَ على بنبلوثة ، ثم عدل إلى أَلْبَسَةَ وبسائطها فلوّخها وخرب حصونها ، ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ رُذْمِيرُ بن أردون ، فخام عن لقاءه ، ودخل وَخْشَمَةَ ، فنازله للناصر فيها ، وهدم بُرْغُش<sup>١</sup> وكثيراً من معاقلمهم ، وهزمهم مراراً ، ورجع ، ثم كانت بعدها غزوة الخندق السابقة ، وهابته أمم النصرانية .

\* \* \*

### [ الوفود على بلاط الناصر ]

ثم وفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب قسطنطينية وهديته - وهو يومئذ قسطنطين - واحتفل الناصر لقدمهم في يوم مشهود ، قال ابن خلدون<sup>٢</sup> : ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شِكَّة ، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وجُمِّلَ السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقراجة ، ورُتِبَ الوزراء والخدمة في مواقفهم ، ودخل الرسلُ فهاهم ما رأوه ، وقُربوا حتى أدَّوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ، ويعظّموا من أمر الإسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازة ، وذلة عدوه ، فاستعدُّوا لذلك ، ثم بهرهم هَوَلُ المجلس فوجموا ، وشرعوا في القول فأرتجح عليهم ، وكان فيهم أبو علي القالي وافدُ العراق ، كان في جملة الحكم ولي العهد وندبته لذلك استثناراً بفخره<sup>٣</sup> ، فلمّا وجموا كلهم قام مُنذِرُ بن سعيد البكّوطي من غير استعداد ولا رويّة وما تقدّم له أحد بشيء من ذلك ، فخطب واستحضر<sup>٤</sup> وجكّلي في ذلك المقصد ، وأنشد

١ برغش : (Burgos) إحدى مدن الحدود الشمالية ، وانظر شرحاً لغزوات الناصر في تاريخ بروفنسال ٤ : ٣٣ - ٧٨ .

٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٢ وأزهار الرياض ٢ : ٢٥٨ وابن عذاري ٢ : ٣١٩ .

٣ ك : فجز ؛ وفي ق وابن خلدون : لفخره ؛ وفي ج : لمجزه .

٤ ج ك : واستحضر .

شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض<sup>١</sup> ، ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب به الناصر ، وولاه القضاء بعدها ، وأصبح من رجالات العالم<sup>٢</sup> ، وأخباره مشهورة ، وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حبان وغيره . ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل<sup>٣</sup> بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الإجابة ، ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رسل قسطنطين .

ثم جاء رسول من ملك الصقالبة - وهو يومئذ هوتو<sup>٤</sup> - ورسول آخر من ملك الألمان ، ورسول آخر من ملك الإفرنجية وراء البرت - وهو يومئذ أوقه<sup>٥</sup> - ورسول آخر من ملك الإفرنجية بقاصية المشرق - وهو يومئذ كلدة<sup>٦</sup> - واحتفل الناصر لقدمهم ، وبعث مع رسول الصقالبة ريبعاً الأسقف إلى ملكهم هوتو ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين جاء رسول أردون يطلب السلم ، ففقد له ، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال فرذلند قومس قشتيلية في عهده ، فأذن له في ذلك ، وأدخل في عهده ، وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة<sup>٧</sup> ثم انتقض عليه أهل جليقية ، وتولى كبيرهم قومس قشتيلية فرذلند المذكور ، ومال إلى أردون بن رذمير ، وكان غرسية بن شانجة حافظاً لطوطة ملكة البشكنس ، فامتعضت لحافدها غرسية ، ووفدت على الناصر سنة

١ ط : العرض .

٢ ج : العالم .

٣ ابن خلدون : هشام بن كليب الطائليق .

٤ هوتو : (Otton) وفي نسخ النسخ المخطوط في رسم الاسم بين : هوتو في ق ج ؛ وذوقوة في ك ؛ وذواقو ؛ وذوفو في غيرهما .

٥ ق ك ط : أوقه ، ج : أرمه ، والصواب ما أثبتناه إذ يقابل : (Hugo) وهو (Hugues d'Arles) مركز بروفانس .

٦ (Guido) وهو ابن أدلبرت مركز تسكانية .

٧ فرويلة : (Fruela) .

سبع وأربعين مُلقية بنفسها في عقْد السلم لها ولولدها شانجة بن رذمير الملك ، وإعانة حافدها غَرْسِيَّة بن شانجة على ملكه ، ونصره من عدوّه ، وجاء الملكان معها ، فاحتفل الناصر لقدمهم ، وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غَرْسِيَّةَ ملك جليقية فردّ عليه ملكه ، وخلع الجلالقة طاعة أردون إليه ، وبعث إلى الناصر يشكره على فعلته ، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك ، وبما ارتكبه فردلند قومس قَشْتِيَّة في نكته ووثوبه ، ويعيره بذلك عند الأمم ، ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك ، ولما وصل رسول كلدة ملك الإفرنجية بالشرق كما تقدّم وصل معه رسول ملك بَرَشِلُونَة وطَرَكُونَة راغباً في الصلح ، فأجابه الناصر ، ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب ؛ انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

ولنفصل بعض ما أجمله فنقول : ذكر ابن حَيَّان وغيرُ واحد أن ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورقعة الشأن ، وهادتهُ الروم ، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبقى أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجية والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى ، فإنه هاداه ، ورغب في مؤادعته ، وكان وصول أرساله في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، وتقدّم في كلام ابن خلدون أنها ست وثلاثون ، فإله أعلم أيهما أصح ، وتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يُتلقوا أعظم تلقٍ وأفخمه ، وأحسن قبولٍ وأكرمهم ، وأخرج إلى لقائهم ببجانة يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق ، فلمّا صاروا بأقرب المحلات من قَرْطُبَة خرج إلى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبية ، فتلقوهم قائداً بعد قائد ، وكل اختصاصهم بعد ذلك ، بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الحصين ياسراً وتاماً ، إبلاغاً في الاحتفال بهم ، فلقياهم بعد القواد ،

فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر وإكرامه ، لأن الفتيان حينئذ  
 هم عظماء الدولة ، لأنهم أصحاب الحلوة مع الناصر وحرمه ويدهم القصر  
 السلطاني ، وأنزلوا بمنية ولي العهد الحكم المنسوبة إلى نصر بعدوة قرطبة في  
 الربض ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ومن ملابسة الناس طراً ،  
 ورتب لحجابهم رجال تخيروا من الموالي ووجوه الحشم فصيروا على باب قصر  
 هذه المنية ستة عشر رجلاً لأربع دول ، لكل دولة أربع منهم ، ورحل الناصر  
 لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه ، فقعد  
 لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة في  
 بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً ، وقعد عن يمينه ولي العهد من بينه الحكم  
 ثم عبيد الله ثم عبد العزيز أبو الأصبح ثم مروان ، وقعد عن يساره المنذر ثم عبد  
 الجبار ثم سليمان ، وتحلف عبد الملك لأته كان عليلاً لم يطق الحضور ، وحضر  
 الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء  
 الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صحن الدار أجمع بعناق البسط  
 وكرائم الدرائك<sup>٢</sup> ، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفع الستور ،  
 فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ،  
 ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون ، وهو  
 في رق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي<sup>٣</sup> ، وداخل الكتاب  
 مندرجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي  
 أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه  
 الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ،  
 وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين

١ ك : نصير ، وهو خطأ .

٢ الدرائك : البسط .

٣ في الأصول : الاغريقي .

الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج ، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه : قسطنطين ورومانس<sup>١</sup> المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم ، وفي سطر آخر : العظيم الاستحقاق المفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه ؛ ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكر جلاله مقعده وعظيم سلطانه ، وتصف ما تهباً من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ولي عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، ويقدمه أمام نشيد الشعراء ، فأمر الحكم صنيعة الفقيه محمد بن عبد البر الكسباني<sup>٢</sup> بالتأهب لذلك ، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدي الخليفة ، وكان يدعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره ؛ وحضر المجلس السلطاني ، فلما قام يحاول التكلّم بما رأى هاله وبهره هولُ المقام وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظه ، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب الأماشي والنوادر ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة : قم فارقع هذا الوهي ، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم — هكذا ذكر ابن حبان وغيره وكلام ابن خلدون السابق يقتضي أن القالي هو المأمور بالكلام أولاً والمُعد لذلك ، ونحوه في المظمح ، والخطب سهل — ثم انقطع القول بالقالي ، فوقف ساكناً مفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، وقال في المظمح<sup>٣</sup> : إن أبا علي القالي انقطع ، وبُهِت وما وصل إلا قطع ، ووقف ساكناً مفكراً ، لا ناسياً ولا متذكراً ، فلما رأى ذلك مُنذر بن سعيد — وكان ممّن حضر في زمرة الفقهاء — قام من

١ ق ك ط ج : ورومانين .

٢ في ج : الكسباني ؛ وفي ط ق ودوزي كما أثبتته ، وكذلك ورد في لب الباب ؛ وفي أزهار الرياض و ك ٢ : ٢٧٣ : الكسباني .

٣ المظمح : ٣٨ .



ذاته ، بدرجة من مِرْقَاته ، فوصل افتتاح أبي علي لأوّل خطبته بكلام عجيب ، ونادى في الإحسان من ذلك المقام كلّ مجيب ، يسحّه سحاً كأنّما كان يحفظه قبل ذلك بمدة ، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو عليّ البغدادي ، فقال ١ : أمّا بعد حمد الله والثناء عليه ، والتعداد لآلائه ، والشكر لنعمائه ، والصلاة والسلام على محمد صفيّه وخاتم أنبيائه ، فإن لكلّ حادثة مقاماً ، ولكلّ مقام مقال ، وليس بعد الحقّ إلا الضلال ، وإنّي قد قمت في مقام كريم ، بين يدي ملك عظيم ، فأصغوا إليّ معشر الملأ بأسماعكم ، والفتنوا ٢ عني بأفئدتكم ، إن من الحقّ أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وإنّ الجليل تعالى في سمائه ، وتقدّس بصفاته وأسمائه ، أمر كلمه موسى ، صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكرّ قومه بأيّام الله ، جلّ وعزّ ، عندهم ، وفيه وفي رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، أسوة حسنة ، وإنّي أذكركم بأيّام الله عندكم ٣ ، وتلافيه لكم بخلافه أمير المؤمنين التي لمتّ شعثكم ٤ ، وأمنتّ سربكم ، ورفعت فرّقكم ٥ ، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم ، ومستضعفين فقوّاكم ، ومُستدّلين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سُراديقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعلُ النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء ، أنشدكم ٦ الله معاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكه فحقنّها ، والسبلُ مخوفةً فأمنّها ، والأموال منتهبةً فأحرزها وحصنّها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرّها ، وثغور المسلمين مهتزمةً فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع

١ نص الخطبة في أزهار الرياض ٢ : ٢٧٣ والمرقبة العليا : ٦٦ والمطح : ٣٨ .

٢ ك : واتقنوا ؛ ط : والفتنوا ؛ ق : والفتنوا ؛ وأثبتنا ما في ج والمطح .

٣ المطح : وأنا أذكركم نعم الله تعالى عليكم . ٤ لمت شعثكم : سقطت من المطح .

٥ ك : قوتكم ؛ وفي ق ط : فوقكم ؛ وفي المطح : خوفكم .

٦ المطح : ناشدكم .

كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم بدأ على صدوركم ، بعد أن كان بأمسكم بينكم ، ناشدكم<sup>١</sup> الله ألم تكن خلافته قفلاً الفتنه بعد انطلاقتها من عقابها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ، حتى باشره بالقوة<sup>٢</sup> والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية<sup>٣</sup> صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة<sup>٤</sup> نافذة ثاقبة ، وريح هابئة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجدّ ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملاً للتصّب ، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنه عند حدتها ، ولم يبق لها غارب إلا جبهته ، ولا نجم لأهلها قرن إلا جذه ، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلغ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات<sup>٥</sup> ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقيسين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ، لأخذ جبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية ، دليلها قائم ، وجفنها غير نائم ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الآية (النور: ٥٥) وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ،

١ ك : فأنشدكم .

٢ بالقوة : زيادة من ك .

٣ المطح : خالصة .

٤ ثابتة : زيادة من ك والمطح .

٥ المطح : فقد فتح الله تعالى عليكم أبواب البركات وتواترت عليكم أسباب الفتوحات .

ولكل نبي مستقر ولكل أجل كتاب ، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه  
 المزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بيمن خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة  
 والستاد ، وأهمه بخالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ، أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم  
 بالآ ، وأعزهم قرآراً ، وأمنعهم داراً ، وأكثرهم جمعاً ، وأجملهم صنماً ، لا  
 تهاجون ولا تدادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على  
 صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتككم وابن عم نبيكم ،  
 صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يداً<sup>١</sup> من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ،  
 ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وقد  
 علمتم أن في التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقن  
 الدماء ، وصلاح الخاصة والداهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتوفى  
 العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سد الله الخلل ،  
 وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرآر ،  
 واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى  
 يقول ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ الآية (النساء : ٥٩) ،  
 وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف  
 الملحدين ، الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملاكم<sup>٢</sup> ، الآخذين في مخاذلة  
 دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه  
 وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين ،  
 مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين .

• • •

١ المطح : يده .

٢ المطح : ملتكم ؛ وملاكم مخففة من ملاكم .

[ ترجمة منذر بن سعيد البلوطي عن المغرب ]

وساق ابنُ سعيد في « المغرب » هذه الحكاية فقال ما صورته<sup>١</sup> : منذر بن سعيد البلوطي ، قاضي الجماعة بقرطبة ، خطيبٌ مصتق ، وله كتب مؤلفة في القرآن والسنة والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ، شاعر بليغ ، وُلد ستة خمس وستين ومائتين<sup>٢</sup> ، وأولُ سببه في التعلق بعبد الرحمن الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره ، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، لذكر جلالته مقعده ، ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة ، ورمي ملوك الأمم بسهام بأسه ونجدته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ووليَّ عهده بإعداد مَنْ يقوم لذلك من الخطباء ، ويقدمه أمام إنشاد الشعراء ، فتقدم الحكم إلى أبي عليّ البغدادي ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة ، أن يقوم ، فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع ، وبُهِت فما وصل ولا قطع ، ووقف ساكناً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذرُ بن سعيدٍ قام قائماً بدرجة من مِرْقاة أبي عليّ ، ووصل افتتاحه بكلام عجيب يَهَرُّ العقول جزالةً ، وملأ الأسماع جلالته ، ثم ذكر الخطبة كما سبق ، وقال بعد إيرادها ما صورته : فصلب العليج وغلِب على قلبه ، وقال : هذا كبير القوم ، أو كبش القوم ، وخرج الناس يتحدثون عن حُسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدَّهم تعجباً منه ، وأقبل على ابنه الحكم - ولم يكن يُشَبَّت معرفته - فسأله عنه ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطي ، فقال : والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أحرني الله بعدُ لأُرفَعَنَّ من ذكره ، فَضَعُ يدك يا حكم عليه ، واستخلصه ، وذكرني بشأنه ، فما للصنيعة مذَهَبَ عنه ، ثم ولاه الصلاة والخطابة في المسجد

١ لم ترد ترجمة لمندر بن سعيد في المغرب المطبوع .

٢ صوابه : ٢٧٣ .

الجامع بالزهران ، ثم توفي محمد بن عيسى<sup>١</sup> القاضي فولاًه قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهران .  
ومن شعره في هذه الواقعة قوله<sup>٢</sup> :

مقال كحدّ السيف وسَطَ المحافلِ  
بقلبٍ ذكيٍّ ترتمي جنباته<sup>٣</sup>  
فما دَحَضَتْ رجلي ولازلَ مقولي  
وقد حدقتُ حولي عيونٌ إخالها  
لخير إمام كان أو هو كائن  
ترى الناسَ أفواجاً يؤمّون بابيه  
وفودٌ ملوكِ الرومِ وسَطَ فنائه  
فعرشٌ سالماً أقصى حياة مؤملاً<sup>٤</sup>  
ستملكها ما بين شرقٍ ومغرب  
فرقتُ به ما بين حقّ وباطلِ  
كبارق رعدٍ عند رَعَشِ الأناملِ  
ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازلِ  
كمثل سهامٍ أثبتت في المقاتلِ  
لمقتبيلٍ أو في العصور الأوائلِ  
وكلُّهم ما بين راجٍ وآمِلِ  
مخافة بأسٍ أو رجاءٍ لنائلِ  
فأنت غياثُ كلِّ حافٍ وناعلِ  
إلى درب قسطنطين أو أرض بابلِ

انتهى كلام ابن سعيد ، وهو يؤيد كلام ابن خلدون أن المأمور بالخطبة هو القالي .

وذكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه<sup>٥</sup> : لقد أحسن ما شاء ، فلئن كان حَبَّرَ خطبته هذه وأعدّها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهي فإنته

١ الصواب : محمد بن أبي عيسى ؛ وهو محمد بن عبد الله بن أبي عيسى الذي ظل قاضياً للجماعة حتى سنة ٣٣٩ ( انظر ترجمته في الجذوة : ٦٩ وبقية الملتصق رقم : ٢١٨ وابن الفرضي ٢ : ٦١ والخشي : ١٧٢ والمرقبة العليا : ٥٩ ، وسيترجم له المقرئ في الراحلين رقم : ٣ ) .  
٢ المطمح : ٤٠ .  
٣ ك : جمراته .  
٤ ك : رجاء الكل .  
٥ أزهار الرياض ٢ : ٢٧٦ .

لَيَسِّدِعُ مِنْ قُدْرَتِهِ وَاحْتِيَاطِهِ ، وَلَكِنْ كَانَ أَنَّى بَهَا عَلَى الْبِدِيهَةِ لَوْقَتِهِ فَإِنَّهُ لِأَعْجَبُ  
وَأَغْرَبُ .

قال ابن سعيد : ولما فرغ منذر من خطبته أنشد<sup>١</sup> :

هذا المقام<sup>٢</sup> الذي ما عابه فنَدُّ لكنَّ قائله أزرى به البلدُ  
لو كُنْتُ فِيهِمْ غريباً كنت مُطَرِّفاً لكنني منهمُ فاغتالي التكدُّ

ويروى بدل هذا الشطر :

ولا دهاني لهم بغيٌ ولا حسدُ  
لولا الخلافة أبقي الله حرمتها ما كنتُ أَرْضَى<sup>٣</sup> بأرض ما بها أحدُ

قلت : كأنه عرَّضَ بأبي علي القالي ، وتقديمهم إياه في هذا المقام ، والله أعلم .  
ومن نظم منذر بن سعيد قوله :

الموتُ حَوْضٌ\* وكلِّنا نَرِدُ لم يَنْجُ مِمَّا يَخَافُهُ أَحَدُ  
فلا تكن مُغْرَمًا بِرِزْقِ غَدٍ فليست تَدْرِي بما يجيء غَدُ  
وخذُ من الدهر ما أتاك به ويسلم الروحُ منك والجسدُ  
والخيرُ والشرُّ لا تُدْعُهُ فما في الناس إلا التشنيعُ والحسدُ

وله وقد آذاه شخص فخطبه بالكُنيَّة ، فقيل له : أيؤذيك وأنت تخاطبه  
بالكنية ؟ فقال :

لا تعجبوا من أني كنيته من بعد ما قد سبنا وأذانا  
فإن الله قد كنى أبا لب وما كناه إلا خزيَّةً وهواناً

• • •

١ الجنوة : ٣٢٦

٢ الجنوة : المقال .

٣ الجنوة : أبقى .

[ ترجمة مندر في المطمح ]

وقال في المطمح<sup>١</sup> : مندر بن سعيد البلوطي ، آية حركة وسكون ، وبركة لم تكن معدة ولا تكون ، وآية سفاهة في تحلّم ، وجهامة ورع في طي تبسم . إذا جدّ وجدّ<sup>٢</sup> ، وإذا هزل نزل ، وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرّقب . ولا اكتسب إثمًا ولا احتقّب ، ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن . وناهيك من عدل أظهر ، ومن فضل أشهر ، ومن جور قبض ، ومن حق رفع ومن باطل خفض ، وكان مهيباً صليماً صارماً غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم ، واستمر في القضاء إلى أن مات الناصر لدين الله ثم ولي ابنه الحكم فأقره ، وفي خلافته استعفى مراراً فما أعفى . وتوفي بعد ذلك لم يحفظ عنه<sup>٣</sup> مدة ولايته قضية جور ، ولا عدت عليه في حكومته زلة ، وكان غزير العلم ، كثير الأدب ، متكلماً بالحق ، متيناً بالصدق ، له كتب مؤلفة في السنة والقرآن والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ، وكان خطيباً بليغاً وشاعراً محسناً ، وُلد عند ولاية المنذر بن محمد<sup>٤</sup> ، وتوفي سنة ٣٥٥ ، ومن شعره في الزهد قوله :

كم تصابى وقد علاك المشيبُ	وتعمى عمداً وأنت الليبُ؟
كيف تلهو وقد أتاك نذيرٌ	أن سيأتي الحمامُ منك قريبُ؟
يا سفيهاً قد حان منه رحيلٌ	بعد ذلك الرحيلِ يومٌ عصيبُ
إنّ للموت سكرةً فارتقبها	لا يداوي إذا أتتك طيبُ
كم توأنى حتى تصير رهيناً	ثمّ تأتيك دعوةٌ فتجيبُ

١ المطمح : ٣٧ .

٢ المطمح : تجرد .

٣ المطمح : تحفظ عليه .

٤ زاد في المطمح ستة ثلاث وسبعين ومائتين (وفي طبعة الجوانب : ثلاث وعشرين ، وهو خطأ) .

بأمور المعاد أنت عليم<sup>١</sup> فاعملن<sup>٢</sup> جاهداً له يا أريب<sup>١</sup>  
وتذكرن يوماً تحاسب فيه إن من يدكر فسوف يُنيب<sup>١</sup>  
ليس من ساعة من الدهر إلا للمنايا بها عليك رقيب<sup>١</sup>

ولعلنا نذكر شيئاً من أحوال مندر في غير هذا الموضع .

رجع لأخبار الناصر لدين الله - حكي<sup>٢</sup> أنه لما أعذر لأولاد ابنه أبي مروان  
عبيد الله اتخذ لذلك صنيعاً عظيماً بقصر الزهراء لم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته  
وأمر أن يُنذر لشهوده الفقهاء المشاورون ومن يليهم من العلماء والعدول ووجوه  
الناس ، فتخلف من بينهم المشاور أبو إبراهيم ، وافتقد مكانه لارتفاع منزلته ،  
فسأل في ذلك الخليفة الناصر ، إذ أبو إبراهيم من أكابر علماء المالكية الذين  
عليهم المدار ، ووجد الناصر بسبب ذلك على أبي إبراهيم ، وأمر ابنه ولي<sup>١</sup>  
العهد الحكم بالكتاب إليه ، والتفنيده له ، فكتب إليه الحكم رقعةً نسختها :  
« بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك ، وسندك ورعاك ، لما امتحن  
أمير المؤمنين مولاي وسيدي - أبقاه الله - الأولياء الذين يستعد بهم وجدك  
متقدماً في الولاية ، متأخراً عن الصلة ، على أنه قد أنذرك - أبقاه الله -  
خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده ، لا أعدمه الله توالي المسرة ،  
ثم أنذرت من قبل إبلاغاً في التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف  
ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه ،  
فأعيت عليك عنك الحجّة ، فعرفني - أكرمك الله - ما العذر الذي أوجب  
توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذي سرّ به ورغب المشاركة فيه ،  
لنعرّفه - أبقاه الله - بذلك ، فتسكن نفسه العزيرة إليه إن شاء الله تعالى . » فأجابه  
أبو إبراهيم : « سلام على الأمير سيدي ورحمة الله ، قرأت - أبقى الله الأمير

١ في الأصول ما عدا ج : ريب .

٢ أزهار الرياض ٢ : ٢٨٢ .



سيدي - هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفي لنفسي ، إنما كان لأمر المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه ، لعلمي بمذهبه ، وسكوني إلى تقواه ، واقتضائه لأثر سلكه الطيب رضوان الله عليهم ، فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتنونها بما يشينها ، ولا بما يغيض منها ويترك إلى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ، ويتربنون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ، ولعلمي بمذهبه توقفت ، إن شاء الله تعالى . فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبي إبراهيم إسحاق أعجبه ، واستحسن اعتذاره ، وزال ما بنفسه عليه .

وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور معظماً عند الناصر وابنه الحكم ، وحقق لهما أن يعظماه ؛ وقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرج قال <sup>١</sup> : كنت أختلف إلى الفقيه أبي إبراهيم - رحمه الله تعالى - فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية ، فإني لعنده في بعض الأيام في مجلسه بالمسجد المنسوب لأبي عثمان الذي كان يصلي به قرب داره بجوفي قصر قرطبة ، ومجلسه حافل بجماعة الطلبة ، وذلك بين الصلاتين ، إذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل ، جاء من عند الخليفة الحكم ، فوقف وسلم ، وقال له : يا فقيه ، أجب أمير المؤمنين أبقاه الله ، فإن الأمر خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ، وقد أمرت بإعجالك ، فالله الله ، فقال له : سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين ، ولا عجلة ، فارجع إليه وعرفه وفقه الله غني أنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى معي طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يقيدونه غني ، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته ، فذلك أؤكد من مسيري إليه الساعة ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إلي من هؤلاء المحتسبين في ذات الله الساعين لمرضاته مشيت إليه إن شاء الله تعالى . ثم أقبل على

شأنه ، ومضى الخصي يهين متضاجراً من توقفه ، فلم يك إلا ريشماً أدى جوابه ، وانصرف سريعاً ساكن الطيش ، فقال له : يا فقيه ، أنهيتُ قولك على نصّه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين ، وأمتهم بك ، وإذا أنت أوعبت<sup>١</sup> فامض إليه راشداً إن شاء الله تعالى ، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضي شغلك وتمضي معي ، فقال له : حسن جميل ، ولكني أضعف عن المشي إلى باب السدّة ، ويصعب عليّ ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعضائي ، وباب الصناعة الذي يقرب إليّ من أبواب القصر المكرّم أحوطٌ وأقرب وأرفق بي ، فإن رأى أمير المؤمنين - أيده الله تعالى - أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هوّن عليّ المشي ، وودّع جسمي ، وأحب أن تعود وتُنهي إليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك تعود إليّ فإنّي أراك في سديداً ، فكن على الخير معيّنًا . ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت ، وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ، ومنه خرجت إليك ، وأمرت بملازمتك مذكراً بالنهوض عند فراغك ، وقال : افعل راشداً ؛ وجلس الخصي جانباً حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه كأفسح<sup>٢</sup> ما جرت به عادته غير مترعج ولا قلق ، فلما انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثم مضى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على ذلك الباب ، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه . قال ابن مفرّج : ولقد تعمّدنا في تلك العشيّة إثر قيامنا عن الشيخ أبي إبراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدبّر<sup>٣</sup> القصر لنرى تجشّم الخليفة له ، فوجدناه كما وصف الخصي مفتوحاً<sup>٤</sup> ، وقد حفّه الخدم والأعوان مترعجين ما بين

١ ك : أوعبت .

٢ ك : بأكمل وأنسح .

٣ في الأصول : بدير .

٤ ك : مفتوحاً كما وصف .

كنّاس وفرّاش متأهّبين لانتظار أبي إبراهيم ، فاشتدّ عجبنا لذلك ، وطال تحدّثنا عنه ، انتهى . فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك معهم <sup>١</sup> ، قدس الله تلك الأرواح .

ثم توفي الناصر لدين الله ثاني - أو ثالث - شهر رمضان ، من عام خمسين وثلاثمائة ، أعظم ما كان سلطانه ، وأعز ما كان الإسلام بملكه .

قال ابن خلدون : خلف الناصر في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات ، انتهى .

وقال غير واحد <sup>٢</sup> : إنّه كان يقسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدّخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقريّ خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وأمّا أخماس الغنائم العظيمة فلا يُحصّيتها ديوان .

وحكي <sup>٣</sup> أنّه وجد بخط الناصر - رحمه الله - أيام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا ، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الأحوال لأولياتها ، هذا الخليفة الناصر حلف السعود ، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ، ملكها خمسين سنة وستة - أو سبعة - أشهر وثلاثة أيّام ، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً ، فسبحان ذي العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو .

ومما يُنسب للناصر من الشعر ، وقيل : لابنه الحكيم ، قوله <sup>٤</sup> :

١ ك : مع العلماء .

٢ المغرب ١ : ١٧٩ وأزهار الرياض ٢ : ٢٧١ .

٣ المغرب ١ : ١٧٧ وأزهار الرياض ٢ : ٢٨٢ .

٤ المغرب ١ : ١٧٩ .

ما كُلُّ شَيْءٍ فَقَدْتُ إِلَّا عَوْضِيَّ اللَّهَ مِنْهُ شَيْئًا  
 إِنِّي إِذَا مَا مَنَعْتُ خَيْرِي تَبَاعَدَ الْخَيْرُ مِنْ يَدَيَا  
 مَنْ كَانَ لِي نِعْمَةٌ عَلَيْهِ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ عَلَيَا

[ ترجمة أحمد بن عبد الملك بن شهيد ]

ومما زين الله به دولة الناصر وزراؤه الذين من جملتهم ابن شهيد ،  
 قال في المطمح<sup>١</sup> : أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد ، مفخر الإمامة ،  
 وزهر تلك الكمامة ، وحاجب<sup>٢</sup> الناصر عبد الرحمن ، وحامل<sup>٣</sup> الوزارتين على  
 سُمُوهُما في ذلك الزمان ، استقل<sup>٤</sup> بالوزارة على ثقلها ، وتصرف فيها كيف  
 شاء على حدّ نظرها والتفات مقلّيها ، فظهر على أولئك الوزراء ، واشتهر مع  
 كثرة النظراء ، وكانت إمارة عبد الرحمن أسعد إمارة ، بعد عنها كل نفس  
 بالسوء إمارة ، فلم يطرقها صرْف ، ولم يرمقها محنور بطرف ، ففرع الناس  
 فيها هضاب الأمانى ورباها ، ورتعت ظباؤها في ظلال ظباها ، وهو أسد على  
 برائته رابض ، وبطل<sup>٥</sup> أبداً على قائم سيفه قابض ، يروع الروم طيفه ، ويجوس  
 خلال تلك الديار خوفه ، ويروى بل يحسم كل آونة سيفه ، وابن شهيد ينتج  
 الآراء ويلقحها ، وينقذ تلك الأنحاء وينقحها ، والدولة مشتملة بغناها ،  
 متجملة بسنائه ، وكرمه منتشر على الآمال ، ويكسو الأولياء بذلك الإجمال ،  
 وكان له أدب تزخر لجججه ، وتبهر حججه ، وشعره رقيق لا ينقد ، ويكاد  
 من اللطافة يعقد ، فمن ذلك قوله :

تري البدرَ منها طالماً فكأنما يجول وشاحها على لؤلؤ رطب

١ المطمح : ٩ والمقطعات (الورقة ٨٥ - ٨٦) وانظر ترجمة الوزير ابن شهيد أيضاً في الحلة  
 ١ : ٢٣٧ وجذوة المقتبس : ١٢٣ (وبغية الملتبس رقم : ٤٣٩) ، وسقطت ترجمته من  
 المغرب المطبوع .  
 ٢ ك : وصاحب .

بعيدة مَهْوَى القُرْطِ مَحْطَفَةِ الحِشَا      ومُفْعَمَةَ الخَلْخَالِ مُفْعَمَةَ ١ القَلْبِ  
 من اللآءِ لم يَرَحَلْنَ فوق رِوَا حِلِّ      ولا سِرْنَ يَوْمًا فِي رِكَابِ وَلَا رِكْبِ  
 ولا أُبْرِزْتَهُنَّ المَدَامُ لِنَشْوَةِ      وشدو كما تشدو القِيَانُ عَلَى الشَّرْبِ

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور متولي الأمر معه ، ومشاركه  
 في التدبير إذا حضر مجتمعه ، منافسة ، لم تفصل لهما بها مداخلة ولا ملابسة ،  
 وكلاهما يتربصُ بصاحبه دائرة السوء ، ويغص به غصص الأثق بالنوء ،  
 فاجتاز يوماً على رَبَضِهِ ، ومال إلى زيارته ولم تكن من غَرَضِهِ ، فلما استأمر  
 عليه ، تأخر خروج الإذن إليه ، ففتى عِنَانَهُ حَنَّاقاً من حِجَابِهِ ، وضجراً  
 من حُجَابِهِ ، وكتب إليه مُعْرَضاً ، وكان يلقب بالحمار :

أَتِيْنَاكَ لَا عَنَ حَاجَةٍ عَرَضْتِ لَنَا      إِلَيْكَ وَلَا قَلْبٍ إِلَيْكَ مَشُوقِ  
 وَلَكِنَّا زَرْنَا بِفَضْلِ حُلُومِنَا      جَمَارًا تَوَلَّى بَرْنَا بِعُقُوقِ ٢

فراجعه ابن جهور يغض منه ، بما كان يشيع عنه ، بأن جدّه أبا هشام ، كان  
 بَيْطَارًا بالشام ، بقوله :

حَجَبْنَاكَ لَمَّا زَرْنَا غَيْرَ تَائِقِ      بِقَلْبِ عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ  
 وَمَا كَانَ بَيْطَارُ الشَّامِ بِمَوْضِعِ      يُبَاشِرُ فِيهِ بَرْنَا بِخَلِيقِ

ومن شعره قوله يتغزل :

حَلَفْتُ بِمَنْ رَمَى فَأَصَابَ قَلْبِي      وَقَلْبَهُ عَلَى جَمْرِ الصُّدُودِ  
 لَقَدْ أَوْدَى تَذَكُّرُهُ بِقَلْبِي      وَلَسْتُ أَشْكُ أَنْ النَّفْسُ تُوْدِي

١ ط ق : مقمعة .

٢ في ق ك :

ولكننا زرنا بفضل حلومنا فكيف تلاقي برنا بعقوق  
 والتصحيح عن الحميدي والحلة السراء .

فَقِيدٌ وَهُوَ موجودٌ بِقَلْبِي فَوَاعَجَبًا لموجودٍ فقيدي

وقد تقدم الكلام على هدية ابن شهيد وبعض أخباره ، رحمة الله عليه .

\* \* \*

[ الحكم المستنصر ]

ولما توفي الناصر لدين الله<sup>١</sup> تولى الخلافة بعده وليُّ عهده الحكمُ المستنصر بالله فجرى على رَسْمِهِ ، ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه ، وولي حجابته جعفر المصحفي . وأهدى له يوم ولايته هدية كان فيها من الأصناف ما ذكره ابن حيان في « المقتبس » وهي : مائة مملوك من الإفرنج ناشئة<sup>٢</sup> على خيول صافنة كاملو الشبكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراس والقلائس الهندية ، وثلاثمائة ونيف وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة خشبية<sup>٣</sup> من بيضات الفرنجة من غير الخشب<sup>٤</sup> يسمونها الطشطانة<sup>٥</sup> ، وثلاثمائة حرية إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية<sup>٦</sup> ، وعشرة جواشن فضة مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس ، انتهى . قال ابن خلدون<sup>٧</sup> : ولأول وفاة الناصر طمع الجلائقة في الثغور ، فغزا الحكم المستنصر بنفسه ، واقتحم بلد فرذلند بن ختشلب<sup>٨</sup> ، فنزل شنته<sup>٩</sup>

١ سياق الخبر حسبما ورد في ابن خلدون ٤ : ١٤٤ .

٢ ك : ناشبة .

٣ ق : ك : وخمسون هندية خشبية .

٤ كذا ولعلها : « من غير الخشب » .

٥ ابن خلدون : الطاشانة ؛ والطشطانة ( Tistina ) كلمة مشتقة من البروفنسالية ( Testa ) ( أي الرأس Tête ) وتكتب أيضاً طشتانية وتعني « الخوذة » .

٦ ابن خلدون : سلطانية الجنس .

٧ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٤ والكلام متصل بما قبله في النقل عنه .

٨ فرذلند ( Fernando = Ferdinand ) ؛ غند شلب ( جنثالك ) ( Gonzalo ) .

٩ شنت اشتبين ( وفي ق ك ط قدمت الباء الموحدة على الياء ) ( San Esteban ) وبها يسمى غير موضع بالأندلس ، ولكن المعنى هنا المدينة القريبة من وشقة ( Huesca ) .

وفتحها عتوة واستباحها ، وقفل ، فبادروا إلى عقد السلم معه وانقبضوا عمّا كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاة بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالة ، ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلد فرزلند ودوخها ، وكان شانجة<sup>١</sup> بن رذمير ملك البشكنس قد انتقض ، فأغزاه الحكم التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر ، وجاء ملك الجلالة لنصره ، فهزمهم ، وامتنعوا بقورية<sup>٢</sup> ، وعاثوا في نواحيها ، وقفل ، ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي إلى بلاد برشلونة ، فعاثت العساكر في نواحيها ، وأغزى هديل بن هاشم ومولاة غالباً إلى بلاد القومس ، فعاثا فيها ، وقفلا ، وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية ، وكان من أعظمها فتح قلهر<sup>٣</sup> من بلاد البشكنس على يد غالب ، فعمرها الحكم ، واعتنى بها ، ثم فتح قطوبية<sup>٤</sup> على يد قائد وشقة وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث وفي بسيطها من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي ما لا يحصى .

وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبنة ، ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون ، فابتنى حصن غرماج<sup>٥</sup> ، ودوخ بلادهم ، وانصرف .

وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير ، وأفسدوا بسائط أشبونة وناشبهم الناس القتال ، فرجعوا إلى مراكبهم ، وأخرج الحكم

١ ق ج ك ط : شنجة .

٢ قورية (Coria) من مدن كورة ماردة وكانت تعرف قبل فتح العرب باسم (Caurium) .

٣ في ك : قلمرية (Coimbra) من مدن البرتغال إلى الغرب من قورية قريباً من الساحل . أما قلهر (Calahorra = Calagurri) فهي حسب التقسيمات القديمة من قسم طركونة ومن قواعد منطقة نبره (نافار) .

٤ كذا في ق ك ج ط وعند دوزي ، ولعل الصواب : قطريه (Yerba) .

٥ غرماج (Gormaz) ؛ وانظر أخباراً عما حدث لهذا الحصن في المقتبس : ٢٣٤ ط . بيروت) .

القوَّاد لاحتِراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رُماحس بتعجيل حركة الأسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل .

ثمَّ كانت وفادة أردون بن أذفونش ملك الجَلالِقة ، وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن رذمير - وهو ابن عمِّه ، وهو الملك<sup>١</sup> من قبَل أردون - وحمل النصرانية على طاعته ، واستظهر أردون بصهره فرذلدن قومس قشتيلة ، توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر ، فبادر إلى الوفاة على الحكم مستجيراً به ، فاحتفل لقدمومه ، وعبَّى العساكر ليوم وفادته ، وكان يوماً مشهوداً وصفه ابن حيَّان كما وصف أيام الوفادات قبله ، ووصل إلى الحكم ، وأجلسه ، ووعد بالنصر من عدوِّه ، وخلع عليه ، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه ، وعاقده على موالاته الإسلام ، ومقاطعة فرذلدن القومس ، وأعطى على ذلك صَفَقَةً يمينه . ورهن ولده غَرَسِيَّة ، ودفعت الصَّلَّات والحُمْلان له ولأصحابه ، وانصرف معه وُجوه نصارى الذمَّة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ، ويقبضوا رهنه .

وعند ذلك بعث ابن عمِّه شانجةُ بن رذمير ببيعته وطاعته مع قواميس أهل جليقية وسَمَّوْرَة وأساقفتهم ، يرغب في قبوله ، ويمتَّ بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

ثمَّ بعث ملكا برَثِلونَة وطَرَكوتَة وغيرُهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه ، وبعثا بهدية ، وهي : عشرون صبيّاً من الحصيان الصقلية ، وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أدْرَاعٍ صقلية ، ومائتا سيف فرنجية ، فتقبل الهدية وعقد لهم على أن يَهْدِمُوا

١ ق : الملك .



الحصون التي تضرُّ بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم ، وأن يندروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين .

ثم وصلت رسلُ غرسية بن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الأساقفة والقواميس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف وأظهر المكر ، فقعدهم الحكم ، فاغتنبوا ورجعوا .

ثم وفدت على الحكم أم لُدَريق بن بلاشك القومس<sup>١</sup> بالغرب من جليقية ، وهو القومس الأكبر ، فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته ، واحتفل لقدمها في يوم مشهود مشهور ، فوصلت وأسغت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالاً تقسمه بين وفدها ، دون ما وصلت به هي ، وحملت على بغلة فارهة بسرج ولحام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع ، فعاودتها بالصلوات لسفرها ، وانطلقت .

ثم أوطأ عساكره أرضَ العُدوة من المغرب الأقصى والأوسط ، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة ، فبثوها في أعمالهم ، وخطبوا بها على منابرهم ، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ، ووفد عليه من بني خزر وبني أبي العافية ، فأجزل صلتهم ، وأكرم وفادتهم ، وأحسن مُنصرَفهم ، واستنزل بني إدريس من ملكهم بالعدوة في ناحية الرّيف ، وأجازهم البحر إلى قرطبة ، ثم جلاهم إلى الإسكندرية .

وكان مُحِبّاً للعلوم ، مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ، قال أبو محمد بن حزم<sup>٢</sup> : أخبرني تليد الخصي<sup>٣</sup> — وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان — أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة عشرون ورقة<sup>٤</sup> ، ليس فيها

١ لدریق بن بلاشك (أو بلاشك) (Rodrigo Velasques) وأمه هي : (Oneca) .

٢ انظر الجمهرة : ١٠٠ وابن خلدون : ٤ : ١٤٦ .

٣ الجمهرة : خمسون ورقة .

إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير ، وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليها بضائمه من كل قطر . ووفد على أبيه<sup>١</sup> أبو عليّ القالي صاحبُ كتاب « الأمالي » من بغداد فأكرم مَثَواه ، وحَسُنَتْ منزلته عنده ، وأورث أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه ؛ وكان يبعث في الكتب<sup>٢</sup> إلى الأقطار رجالاً من التجار ، ويرسل<sup>٣</sup> إليهم الأموال لشراؤها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه ، وبعث في كتاب « الأغاني » إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ، وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق ، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك . وجمع بداره الخذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يُذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء ، ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجبُ واضح من موالى المنصور بن أبي عامر ، ونُهيب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عتوة ، انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

ولنيسط الكلام على الحكم فنقول<sup>٤</sup> : إن الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثاني يوم وفاة أبيه يوم الخميس ، وقام بأعباء الملك أتم قيام ، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ، ودعا الناس إلى بيعته ، واستقبل من يومه النظر في تمهيد سلطانه ، وتقييف مملكته ، وضبط قصوره ، وترتيب أجناده ، وأول ما أخذ

١ ك : قال أبو محمد بن خلدون ولما وفد . . . أكرم . . .

٢ ك : في شراء الكتب .

٣ ج : ويسدي ؛ ط ق : ويسري .

٤ انظر أزهار الرياض ٢ : ٢٨٦ والنص متفق مع النسخ حتى آخر قصيدة المرادي ص : ٣٩٤ .

البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر ، كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم ، وتكفلوا بأخذها على مَنْ وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم ، وأوصل إلى نفسه في الليل دون هؤلاء الأكابر من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء ، فبايعوه ، فلما كملت بيعة أهل القصر تقدم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض إلى أخيه شقيقه أبي مروان عبيد الله المتخلف بأن يكرمه الحضور للبيعة دون معذرة ، وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حنيد بالنهوض أيضاً إلى أبي الأصبح عبد العزيز شقيقه الثاني ، فمضى إليهما كل واحد منهما في قَطِيع من الجند ، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء ، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال في الخيل لإتيان غيرهما من الإخوة ، وكانوا يومئذ ثمانية ، فوافي جميعهم الزهراء في الليل ، فنزلوا في مراتبهم بفصلان<sup>١</sup> دار الملك ، وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التي في السطح المرّد ، فأول مَنْ وصل إليه الإخوة فبايعوه ، وأنصتوا لصحيفة البيعة ، والتمروا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها ، ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوانهم ، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة ، وقعد الإخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله ، إلا عيسى بن فطيس فإنه كان قائماً يأخذ البيعة على الناس ، وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة ، فاصطف في المجلس الذي قعد فيه أكابرُ الفتيان يميناً وشمالاً إلى آخر البهو كل منهم على قدره في المترلة ، عليهم الظهائر البيض شعار الحزن ، قد تقلدوا فوقها السيوف ، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء ، عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية ، صفين منتظمين في السطح ، وفي الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض ، بأيديهم السيوف ، يتصل بهم مَنْ دونهم من طبقات

١ الفصلان والفصل : جمع فصيل ، ويقابل (Porticus) باللاتينية ، وهو الرحبة عند مدخل البيت ، وتكون الفصلان فيما يبدو على شكل رحاب وصحون متوالية تحدها هيئة الأعمدة .

الخصيان الصقالية ، ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيّهم وجعابهم ، ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالية صفوف العبيد الفحول شاكين في الأسلحة الرائقة والعدّة الكاملة ، وقامت التعبئة في دار الجند والترتيب من رجالة العبيد عليهم الجواشن والأقبية البيض ، وعلى رؤوسهم البيضات الصقيلة<sup>١</sup> ، وبأيديهم التّراس الملوّنة والأسلحة المزينة ، انتظموا صفين إلى آخر الفُصل ، وعلى باب السدّة الأعظم البوابون وأعاونُهُم ، ومن خارج باب السدّة فرسان العبيد إلى باب الأقباء ، واتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة ، موكباً إثر موكب ، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء ، فلما تمت البيعة أُذِنَ للناس بالانفضاض ، إلا الإخوة والوزراء وأهل الخدمة فإنهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتُمل جسد الناصر - رحمه الله - إلى قصر قُرطبة للدفن هنالك في تربة الخلفاء .

وفي ذي الحجّة من سنة خمسين تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب ، من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها ، فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضّر جميع الوزراء والقاضي مُنذر ابن سعيد والملاّ ، فأخذت عليهم البيعة ، ووُقعت الشهادات في نسخها .

\* \* \*

[وفود أردون على المستنصر]

وفي آخر صفر من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله مَوْلِيَيْه محمّداً وزياداً ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقّي غالب الناصري صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولة المتملك على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمّه المملّك قبله شانجة بن رذمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير

١ ك : الصقلية ؛ وفي بعض النسخ : الصقلية .

طالب إذن ولا مستظهر بعهد ، وذلك عندما بلغه اعتزامُ الحكمِ المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو إليه ، وأخذهُ في التأهب له ، فاحتال في تأميل المستنصر بالله والارتقاء عليه ، وخرج قبل أمانٍ يُعقَد له أو ذِمّة تعصمه في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه ، تكتفهم غالب الناصري الذي خرجوا إليه ، فجاء به نحو مولاة الحكم ، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ، ثم تحرّكا بهم ثاني يوم نزولهم إلى قُرطُبة ، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشاماً المصحفي في جيش عظيم كامل التعبئة ، وتقدّموا إلى باب قُرطُبة ، فمروا بباب قصرها ، فلما انتهى أردون إلى ما بين باب السّدة وباب الجنان سأل عن مكان رمسِ الناصر لدين الله فأشير إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ، ودعا ، ثم ردّ قلنسوته إلى رأسه . وأمر المستنصر بإنزال أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدّم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك إلى الغاية ، وتوسّع له في الكرامة ولأصحابه ، فأقام بها الخميس والجمعة ، فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظرائهم صفّاً في المجلس فيهم القاضي منذر بن سعيد والحكام والفقهاء ، فأتى محمد بن القاسم بن طُمُنُس<sup>١</sup> بالملك أردون وأصحابه وعالي لبوسه<sup>٢</sup> ثوبٌ ديباجيٌّ روميٌّ أبيض وبلّيُوَال<sup>٣</sup> من جنسه وفي لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة

١ محمد بن قاسم بن طملس : كان يشغل في أيام المستنصر منصب الوزير صاحب الحشم ، وقد قتل في حروب العدو أول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بفحص مهران (المقتبس : ٩٦ ط . بيروت).

٢ ق : لباسه .

٣ لعلها من اللفظة (Pluvial) ، أو (Palio) (فتقرأ : بليون) ، وفي ق : ويلبوال ؛ ج :

يلنوَال ؛ ك : بليون .

بجوهر ، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويصرونه ،  
فيهم وليد بن خيزران<sup>١</sup> قاضي النصارى بقَرْطُبة وعبيد الله بن قاسم مُطْران  
طَلَيْطلة<sup>٢</sup> وغيرهما ، فدخل بين صفتي الترتيب يُقَلِّب الطرف في نظم  
الصفوف ، ويُجِيل الفكر في كثرتها وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها ، فراعهم ما  
أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأمّلوا ناكسي رؤوسهم غاضبين من أجنابهم  
قد سُكِّرت أبصارهم حتى وصلوا إلى باب الأقباء أوّل باب قصر الزهراء ، فترجل  
جميعاً من كان خرج إلى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم ،  
حتى انتهوا إلى باب السُدَّة ، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الأقدام ،  
فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكباً مع محمد بن طُمُنُس ، فأنزل في  
بُرْطُل<sup>٣</sup> البهو الأوسط من الأبهاء القبليّة التي بدار الجند على كرسي مرتفع مكسو  
الأوصال بالفضّة ، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوّه ومناوئته شانجة بن رُدْمير  
الوافد على الناصر لدين الله - رحمه الله تعالى - فقعد أردون على الكرسي ، وقعد  
أصحابه بين يديه ، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ،  
فتقدم بمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقي  
الذي فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع بُرُئُسه ، وبقي حاسراً  
إعظماً لما بان له من الدنو إلى السرير ، واستنّهض فمضى بين الصفيين المرتبين  
في ساحة السطح ، إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو ، فلما قابل السرير

١ كذا في ق ج ط ودوزي ؛ وهو مضطرب في النسخ فهو : خيزان ؛ خيزون (في ك) ؛ خيرون ؛  
ولعل الأخيرة « خيرون » هي الصواب ؛ وهذا القاضي فيما يبدو هو الذي أعان على ترجمة  
كتاب هرويشوش حين أهداه إمبراطور القسطنطينية إلى الناصر ( ابن خلدون ٢ : ٨٨ ) وفي  
أحداث سنة ٣٦٠ من المقتبس أن قاضي النصارى بقرطبة كان اسمه « أصبغ بن نبيل » ( ص :  
١٤٦ ، ٦٤ ) .

٢ ساء في المقتبس ( ٤٧ ) مطران إشبيلية ، وكان المستنصر يعتمد عليه في الترجمة وفي مرافقة  
الوفود وشؤون السفارات .

٣ البرطل : يقابل بالإسبانية ( Portal ) أي المدخل .

خَرَ ساجداً سُويعَةً ، ثم استوى قائماً ، ثم نهض خطوات ، وعاد إلى السجود ،  
ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى إلى يده فناوله إياها وكرَّ  
راكعاً مقهقراً على عقبه إلى وسادِ ديباجٍ مُثقل بالذهب ، جعل له هناك ،  
ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ، فجلس عليه ، والبهرُ قد علاه .  
وأنهض خلفه من استندني من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممثلين في تكرير الخنوع  
وناوهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم ،  
ووصل بوصولهم وليدُ بن خيزران قاضي النصارى بقُرْطُبة ، فكان الترجمان  
عن الملك أردون ذلك اليوم ، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون إثر عوده أمامه  
وقتاَ كيما يُفْرِخَ رَوْعُهُ ، فلما رأى أن قد خُفِّضَ عليه افتتح تكليمه فقال :  
ليسرك إقبالك ويغبطك تأميك ، فلدينا لك من حسن رأينا ورَحْبَ قبولنا فوق ما قد  
طلبته ، فلما ترجم له كلامه إياه تطلت وجه أردون ، وانخط عن مرتبه ، فقبل  
البساط ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين مولاي ، المتورك على فضله ، القاصد إلى  
مجده ، المحكم في نفسه ورجاله ، فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته  
رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ، ونصيحة خالصة ، فقال له الخليفة : أنت  
عندنا بمحلٍّ مَنْ يستحق حسن رأينا ، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك  
على أهل ميلتك ما يغبطك ، وتتعرف به فضل جنوحك إلينا ، واستظلالك بظل  
سلطاننا ، فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة ، وابتهل داعياً ، وقال :  
إن شانجة ابن عمي تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني ، فكان من إعزازه  
إياه ما يكون من مثله من أعظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم ،  
وكان قصده قصداً مضطراً قد شتأته رعيته ، وأنكرت سيرته ، واختارني  
لمكانه من غير سعي مني علم الله ذلك ، ولا دعاء إليه ، فخلعته وأخرجته عن  
ملكه مضطراً مضطهداً ، فتطول عليه - رحمه الله - بأن صرّفه إلى ملكه ،

١ في الأصول : يفرج .

وقوى سلطانه ، وأعز نصره ، ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي أسديت إليه ، وقصر في أداء المفروض عليه وحقه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعده ، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، من قرارة سلطاني وموضع أحكامي ، مُحَكِّمًا له في نفسي ورجالي ومعالي ومن تحويه من رعيتي ، فستان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة ، فقال الخليفة : قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من إقراضنا إيتاك على الخصوصية شأنه ، ويرانادف من إحساننا إليك أضعاف ما كان من أبنينا - رضي الله تعالى عنه - إلى نذك ، وإن كان له فضلُ التقدّم بالجروح إلينا والتصدد إلى سلطاننا ، فليس ذلك ممّا يؤخره عنه ، ولا ينقصك ممّا أنلناك ، وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك ، ونشدّ أواخسيّ ملكك ونملكك جميع من انحاش إليك من أمتك<sup>١</sup> ونعقدك بذلك كتاباً يكون بيدك نقرّ به حدّ ما بينك وبين ابن عمك ، ونقبضه عن كل ما يصرّفه من البلاد إلى يدك ، وسيرانادف عليك من إفضالنا<sup>٢</sup> فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل .

فكرّر أردون الخضوع ، وأسهب في الشكر ، وقام للانصراف مقهقراً لا يولّي الخليفة ظهره ، وقد تكفنه الفتيان<sup>٣</sup> ، فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح ، وقد علاه البهز وأذهله الرّوع ، من هول ما باشره وجمالة ما غايته من فخامة الخليفة وبهاء العزة ، فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه انحطّ ساجداً إعظاماً له ، ثم تقدّم الفتيان به إلى البهو الذي بجوّفي هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب ، وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام إليه ، وخضع له<sup>٤</sup> ، وأوماً إلى تقبيل يده ،

١ من أمتك : سقطت من ك .

٢ ق : إحساننا .

٣ زاد بعدها في ق : من جملة الفتيان .

٤ ك : وخضع له .



فقبضها الحاجبُ عنه ، وانحنى إليه فعانقه ، وجلس معه ، فغَبَطَه ، ووعدته من إنجاز عِدَات الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر فصبَّت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة ، وكانت دُرَاعَة منسوجة بالذهب ، وبرنساء مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجواهر والياقوت ملأت عين العليج تجلّة ، فخرّ ساجداً وأعلن بالدعاء ، ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فأكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخرّ جميعهم خانعين شاكرين ، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقُدِّم لركابه في أوّل البهو الأوسط فرسٌ من عتاق خيل الركاب عليه سرّج حلي ولحام حلي مفرغ ، وانصرف مع ابن طُمْلُس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أعدَّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ، واستقر أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش .

واستشعر الناس من مسرّة هذا اليوم وعزّة الإسلام فيه ما أفاضوا في التبجّح به والتحدث عنه أياماً ، وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان ، وإنشادات لأشعار محكمة مِتان ، يطول القول في اختيارها ، فمن ذلك قولُ عبد الملك بن سعيد المرادي من قصيدة حيث يقول<sup>١</sup> :

ملك الخليفة آية الإقبال	وسعوده موصولة بتوالي <sup>٢</sup>
والمسلمون بعزّة وبرفعة	والمشركون بدلّة وسفال
ألقتْ بأيديها الأعاجمُ نحوه	متوقعين لصولة الرئبال
هذا أميرهم أتاه آخذاً	منه أو اصير ذمة وحيبال
متواضِعاً لجلاله متخشعاً	متبرّعاً لما يبرع بقتال
سينال بالتأميل للملك الرضى	عزّاً يعمُ عِداهُ بالإذلال

١ ك : خاضعين .

٢ منها أربعة أبيات في البيان المغرب ١ : ٢٣٥ ( ط . ليدن ) .

٣ في الأصول : بنوال .

لا يوم أعظم للوُلاة مَسْرَةَ  
من يوم أردونَ الذي إقباله  
ملك الأعاجم كلها ابنُ ملوكها  
إن كان جاء ضرورةً فلقد أتى  
فالحمدُ لله المُنيلِ إماننا  
هُوَ يومُ حَشْرِ الناسِ إلاّ أنْهم  
أضحى القضاء مُفَعِّمًا بِجيوشه  
لا يَهْتدي الساري لليلِ قتامه  
وكان أجسام الكُماة تَسْرَبَلتْ  
وكانما العقبانُ عَقبانُ الفلا  
وكانَ منتصبَ القنا مُهْتَرَةً  
وكانما قَبْلُ التجافيفِ اكْتَسَتْ

وأشدُّه غيظًا على الأقبالِ  
أملُ المدى وَهَيَاةِ الإقبالِ  
والي الرُعاةِ وللأعاجمِ والي  
عَنْ عَزِّ مملكةِ وطَوْعِ رجالِ  
حظَّ الملوِكِ بِقَدْرِهِ المتعالي  
لم يُسألُوا فيه عن الأعمالِ  
والأفقِ أَقْتَمَ أَغْبَرَ السَّرْبَالِ  
إلا بَضْوَهُ صَوَارِمِ وَعَوَالِي  
مذ عُرِيَتْ عَنْهُ جَسُومُ صِلالِ  
مُنْقَضَةٌ لَتَحْطُفِ الضُّلالِ  
أشْطانُ نازِحَةٌ بِعِيدَةٍ جالِ  
ناراً توهجها<sup>٣</sup> بلا إشعالِ

### [ عود إلى سيرة الحكم ]

وقال بعض المؤرخين في حق الحكم المستنصر عن فتاه تليد صاحب خزانته العلمية فيما حدث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم : إن عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط ، انتهى ، وقد قدمناه عن ابن خلدون<sup>٤</sup> ، ونقله ابن الأبار في التكملة<sup>٥</sup> .

وقال بعض المؤرخين في حق الحكم : إنّه كان حسن السيرة ، مكرماً للقادمين

١ في نسخة : مغيماً .

٢ النازحة : البئر البعيدة الفور ؛ الحال والحول : صفحة البئر .

٣ ك : تزججها .

٤ ص : ٣٨٥ فيما سبق .

٥ لم أجده في التكملة المطبوعة ، وهو في الحلة السيراد ١ : ٢٠٣ وانظر المقتطفات ( الورقة : ٨٦ ) .

عليه ، جمع من الكتب ما لا يُحدِّد ولا يوصف كثرة وبقاسة ، حتى قيل : إنها كانت أربعمئة ألف مجلد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها ، وكان عالماً نبيهاً صافي السريرة ، وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دُحيم ومحمد ابن عبد السلام الخُشْتِي وزكريا بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء . وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ودق نظره ، وجمت استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذياً نسيجاً وحده ، وكان ثقة فيما ينقله ، بهذا وصفه ابن الأبار وبأضعافه ، وقال : عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكرهما وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن<sup>١</sup> .  
ومما ينسب إليه من النظم قوله<sup>٢</sup> :

إلى الله أشكو من شمائلٍ مُتَرَفٍ<sup>٣</sup>      عَلَيَّ ظَلُومٍ لا يَدِينُ بما دَنْتُ  
نأتُ عنه داري فاستزاد صُدُودَهُ      ولانِي على وَجْدِي القديم كما كُنْتُ  
ولو كُنْتُ أدري أن شوقِي بالغُ      من الوجدِ ما بلغته لم أكنُ بنتُ  
وقوله<sup>٤</sup> :

عجبتُ وقد ودَّعْتُها كيف لم أمتُ      وكَيْفَ انشَنَّتْ بعد الوداعِ يدي معي  
فيا مقلتي العَبْرَى عَلَيْها اسْكُبِي دماً      ويا كَيْبِدي الحَرَّى عَلَيْها تقطعي

١ بمض هذا النص موجود في الحلة السراء .

٢ المغرب ١ : ١٨١ والمقطعات (الورقة : ٨٦) .

٣ ك : مسرف .

٤ انظر الحلة السراء ١ : ٢٠٣ والمغرب ١ : ١٨٢ .

وتوفي - رحمه الله تعالى - بقصر قرطبة ثاني صفر سنة ست وستين  
وثلاثمائة ، لست عشرة سنة من خلافته ، وكان أصابه الفالج ، فلزم الفراش  
إلى أن هلك - رحمه الله تعالى - وكان قد شدد في إبطال الخمر في مملكته  
تشديداً عظيماً .

[ خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور بن أبي عامر ]

وولي بعده ابنه هشام صغيراً سنه تسع سنين ، ولا ينافيه قول ابن خلدون :  
« قد ناهز الحلم » وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر ، ونقله من  
خطبة القضاء إلى وزارته ، وفوض إليه أموره ، فاستقل .  
قال ابن خلدون <sup>١</sup> : وترقت حال ابن أبي عامر عند الحكم ، فلما توفي  
الحكم وبويع هشام ولقب المؤيد بعد أن قتل ليلثذ المغيرة أخو الحكم المرشح  
لأموره تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بممالة من جعفر بن عثمان المصحفي  
حاجب أبيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ومن خصيان القصر يومئذ  
ورؤسائهم فاتق وجؤذر ، فقتل ابن أبي عامر المغيرة بممالة من ذكر ، وتمت  
البيعة لهشام ، ثم سما لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السن ،  
وثاب له رأي في الاستبداد ، فمكر بأهل الدولة ، وضرب بين رجالها ، وقتل  
بعضاً ببعض ، وكان من رجال اليمينية من معافر ، دخل جدّه عبد الملك مع  
طارق ، وكان عظيماً في قومه ، وكان له في الفتح أثر ، وعظم ابن أبي عامر  
هذا ، وغلب على المؤيد ، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام  
يُسَلَّمون وينصرفون ، وأرضح للجند في العطاء ، وأعلى مراتب العلماء ،  
وقمّع أهل البدع ، وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين ،  
ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطّهم عن

١ ابن خلدون ٤ : ١٤٧ .

مراتبهم ، وقتل بعضاً ببعض ، كل ذلك عن [ أمر ] هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصلهم وفرق جمعهم ، وأول ما بدأ بالصقالبة الحصيان الخدام بالقصر ، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم ، فنكبهم وأخرجهم من القصر ، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون ، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم ، وبالغ في خدمته والتنصيح له ، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة ، ثم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة وقائد الشيعة ممدوح ابن هانيء بالفائية المشهورة وغيرها<sup>٢</sup> ، وهو النازع إلى الحكم أول الدولة بمن<sup>٣</sup> كان معه من زناة والبربر ، ثم قتل جعفرأ بمالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم ، ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند ، فاستدعى أهل العُدوة من رجال زناة والبرابرة فرتب منهم جنداً ، واصطنع أولياء ، وعرف عُرّقاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم ، فتغلب على هشام وحجره ، واستولى على الدولة ، وملاً الدنيا وهو في جوف بيته ، من تعظيم الخلافة ، والخضوع لها ، ورد الأمور إليها ، وترديد الغزو والجهاد ، وقدم رجال البرابرة وزناة ، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم ، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر ، وبسى لنفسه مدينة لتزله سماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ، وقعد على سرير الملك ، وأمر أن يُحياً بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على

١ زيادة لازمة .

٢ يعني ابن هانيء الأندلسي شاعر العبيديين ، ومطلع قصيدته الفائية :  
أيلتنا إذ أرسلت وارداً وحفاً      وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شفاً

٣ في الأصول : ومن .

المنابر وكتب اسمه في السكة والطرز ، وأغفل ديوانه مما سوى ذلك ؛ وجتد البرابرة والممالك ، واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة ، وقهر من تطاول إليها من العلية ، فظفر من ذلك بما أراد ، وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا ستاً وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية ، ولا قُلَّ له جيش ، وما أصيب له بعث ، وما هلكت له سرية ، وأجاز عساكره إلى العُدوة ، وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض ، فاستوثق له ملك المغرب ، وأحببت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه ، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر ، ولما سخط زيري بن عطية ملكهم لما بلغه ما بلغه من إعلانه بالتبيل منه والغص من منصبه والتأقف لِحَجْر الخليفة هشام أوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين ، ونزل بفاس وملكها ، وعقد للملك زناتة على ممالك المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها ، وشرّد زيري بن عطية إلى تاهرت ، فأبعد المقر ، وهلك في مفره ذلك ، ثم قفل عبد الملك إلى قُرطبة ، واستعمل واضحاً على المغرب ، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً ، وأشدّ استيلاء ، سنة أربع وتسعين وثلاثمائة<sup>١</sup> ، بمدينة سالم مُنصَرَفَه من بعض غزواته ، ودُفن هنالك ، وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه ، انتهى كلام ابن خلدون ، وبعضه بالمعنى وزيادة يسيرة .  
ولا بأس أن نزيد عليه فنقول : مما حُكي أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراهُ  
تالله لا يأتي الزمانُ بمثله أبداً ، ولا يحمي الثغورَ سِواهُ

وعن شجاع مولى المستعين بن هود : لما توجهتُ إلى أذفونش وجدته في

١ الصواب : سنة ٣٩٢ .

٢ الحلة السيرة ١ : ٢٧٣ .

مدينة سالم ، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره ، وامرأته متكئة إلى جانبه ، فقال لي : يا شجاع ، أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين ، وجلست على قبر ملكهم ؟ قال : فحملتني الغيرة أن قلت له : لو تنفّس صاحبُ هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه ، ولا استقر بك قرار ، فهم بي ، فحالت امرأته بيني وبينه ، وقالت له : صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا ؟ وهذا تلخيص ترجمة المنصور من كلام ابن سعيد<sup>١</sup> ، قال رحمه الله :

ترجمة الملك الأعظم المنصور أبي عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ابن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، المتعافري ، من قرية تَرْكَش<sup>٢</sup> ، وعبد الملك جدّه هو الوافد على الأندلس مع طارق في أوّل الداخلين من العرب ، وأمّا المنصور فقد ذكره ابنُ حَيَّان في كتابه المخصوص بالدولة العامرية ، والفتح في المطمح ، والحجاري في المسهب ، والشَّقْنُدي في الطرف ، وذكر الجميع أن أصله من قرية تَرْكَش ، وأنته رحل إلى قَرْطُبَة ، وتأدب بها ، ثم اقتعد دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يَعينُ له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان ، إلى أن طلبت السيدة صُبْح أم المؤيد من يكتب عنها ، ففرقها به مَنْ كان يأنس إليه بالجلوس من فتیان القصر ، فترقى إلى أن كتب عنها ، فاستحسنته ونسبت عليه الحكم ورغبت في تشريفه بالخدمة ، فولّاه قضاء بعض المواضع ، فظهرت منه نجابة ، فترقى إلى الزكاة والمواريث بإشْبِيلِيَّة وتمكّن في قلب السيدة بما استمالها به من التّحف والخدمة ما لم يتمكّن لغيره ولم يقصر - مع ذلك - في خدمة المصحفيّ الحاجب ، إلى أن توفّي الحكم وولي ابنه هشام المؤيد ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فجاشت الروم ، فجهز المصحفيّ ابن أبي عامر لدفاعهم ، فنصره الله عليهم ، وتمكّن حبه من قلوب الناس .

١ راجع المغرب ١ : ٣٩٤ والنص عند المقرئ مختلف عما ورد في كتاب ابن سعيد ، ولم يقل المقرئ إنه ينقل عن المغرب ؛ وانظر المقتطفات ( الورقة : ٨٦ - ٨٧ ) .

٢ كذا هنا ، وفي المغرب : « كرتش » وفي المعجب : طرش من أعمال الجزيرة الخضراء .

وكان جواداً عاقلاً ذكياً ، استعان بالمصحفيّ علي الصّقالبة ، ثم بغالب علي المصحفيّ ، وكان غالب صاحب مدينة سالم - وتزوج ابن أبي عامر ابنته أسماء ، وكان أعظم عُرُس بالأندلس - ثم بجعفر بن علي الأندلسي ممدوح ابن هانيء علي غالب ، ثم بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التّجيبّي علي جعفر ، وله في الحزْم والكَيْد والجلْد ما أفرد له ابن حيّان تأليفاً ، وعدّدُ غزواته المنشأة من قرطبة نيف وخمسون غزوة ، ولم تُهزَم له راية ، وقبره بمدينة سالم في أقصى شرق الأندلس .

ومن شعره<sup>١</sup> :

رَمَيْتُ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ عَظِيمَةٍ      وَخَاطَرْتُ وَالْحَرُّ الْكَرِيمُ يَخَاطِرُ  
وَمَا صَاحِبِي إِلَّا جَنَانٌ مُشَيِّعٌ      وَأَسْمَرُ خَطِيٌّ وَأَبْيَضُ بَاتِرُ  
فَسُدْتُ بِنَفْسِي أَهْلَ كُلِّ سِيَادَةٍ      وَفَاخَرْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَنْ أَفَاخِرُ  
وَمَا شِدْتُ بِنِيَانًا وَلَكِنْ زِيَادَةٍ      عَلَي مَا بَنَى عَبْدُ الْمَلِكِ وَعَامِرُ  
رَفَعْنَا الْمَعَالِي بِالْعَوَالِي حَدِيثَةً<sup>٢</sup>      وَأَوْرَثْنَاهَا فِي الْقَدِيمِ مَعَاوِرُ

وجوده مع صاعد البغدادي اللغوي مشهور .

وصدر عن بعض غزواته فكتب إليه عبدُ الملك بن شهيد<sup>٣</sup> ، وكان قد تخلف عنه :

أَنَا شَيْخٌ وَالشَّيْخُ يَهْوَى الصَّبَايَا      يَا بِنَفْسِي أَقِيكَ كُلَّ الرَّزَايَا  
وَرَسُولَ الْإِلَهِ أَسْهَمَ فِي الْفِي      لَمْ يَخِبْ فِيهِ الْمَطَايَا

فبعث إليه بثلاث جوارٍ من أجمل السبي ، وكتب معهنّ ، وكانت واحدة أجملهنّ ، قوله :

١ الخلة ١ : ٢٧٤ وابن عذاري ٢ : ٤٠٩ .

٢ في الأصول : مثلها .

٣ الذخيرة ٤ : ١٨ والخلة ١ : ٢٧٦ .



قد بَعَثْنَا بِهَا كَشَمْسِ النَّهَارِ فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَهَا أَبْكَارِ  
 وَامْتَحَنَّا بَعْدَرَةَ الْبَكْرِ إِنْ كُنَتْ تُرْجِي بُوَادِرَ الْإِعْذَارِ  
 فَاجْتَهَدُ وَابْتَدِرْ فَإِنَّكَ شَيْخٌ قَدْ جَلَّ لَيْلَهُ بِيَاضُ النَّهَارِ  
 صَانِكَ اللَّهُ مِنْ كَلَالِكَ فِيهَا فَمَنْ الْعَارِ كَلَةَ الْمِسْمَارِ

فافتضهنّ من ليلته ، وكتب له بكرة :

قد فَضَّضْنَا خِتَامَ ذَاكَ السَّوَارِ وَاصْطَبَعْنَا مِنَ النَّجِيعِ الْجَارِي  
 وَصَبَرْنَا عَلَى دِفَاعٍ وَحَرْبٍ فَلَعِبْنَا بِالْدَّرِّ أَوْ بِالْدَّرَارِي<sup>٣</sup>  
 وَقَضَى الشَّيْخُ مَا قَضَى بِحُسَامٍ ذِي مَضَاءٍ عَضْبِ الظُّبَا بَتَّارِ  
 فَاصْطَبَعَهُ فَلَيْسَ يَجْزِيكَ كُفْرًا وَاتَّخِذْهُ فَحْلًا عَلَى الْكِفَّارِ

وقدّم بعض التجار<sup>٤</sup> ومعه كيس فيه ياقوت نفيس ، فتجرّد ليسبح في  
 النهر ، وترك الكيس ، وكان أحمر ، على ثيابه ، فرفعته حدأة في محالبها ،  
 فجرى تابعا لها وقد ذهل ، فتغلّلت في البساتين ، وانقطعت عن عينه ، فرجع  
 متحيراً ، فشكا ذلك إلى بعض من يأنس به ، فقال له : صف حالك لابن أبي  
 عامر ، فتلطّف في وصف ذلك بين يديه ، فقال : نظرت إن شاء الله تعالى في  
 شأنك ، وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين ، ويسأل خدّامها عمّن ظهر  
 عليه تبديل حال ، فأخبروه أن شخصاً ينقل الزبل اشترى حماراً ، وظهر من  
 حاله ما لم يكن قبل ذلك ، فأمر بمجيئه ، فلما وقعت عينه عليه قال له : أحضر  
 الكيس الأحمر ، فتملك الرعب قلبه وارتعش ، وقال : دعني آتي به من منزلي ،  
 فوكل به من حملة إلى منزله وجاء بالكيس ، وقد نقص منه ما لا يقدر في

١ الحلة : واثد .

٢ الحلة : خفي الليل عن بياض النهار .

٣ اختلفت روايته في كل من الذخيرة والحلة .

٤ انظر القصة في ابن عذاري ٢ : ٤٣٥ مع اختلاف في التفصيلات .

مُسْرَةً صاحبه ، فجبّه ، ودفعه إلى صاحبه ، فقال : والله لأحدثنّ في مشارق  
الأرض ومغاريها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور ويُنصف منها ، والتفت  
ابنُ أبي عامر إلى الزبال فقال له : لو أتيت به أغنيك ، لكن تخرج كفافاً لا عقاباً  
ولا ثواباً .

وتوفي رحمه الله في غزاته للإفرنج بـصفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ،  
وحُمِل في سريره على أعناق الرجال ، وعسكره يحفّ به وبين يديه ، إلى أن  
وصل إلى مدينة سالم .

ودامت دولته ستاً وعشرين سنة ، غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة واحدة  
في الشتاء وأخرى في الصيف ، انتهى كلام ابن سعيد ، وفي بعضه مخالفة لبعض  
كلام ابن خلدون

#### [ الحاجب المصفي عن المطمح ]

وقال الفتح في « المطمح » في حق المصفي الحاجب جعفر بن عثمان  
المصفي ، ما صورته<sup>١</sup> : تجرّد للعليا ، وتمرد في طلب الدنيا ، حتى بلغ المني ،  
وتسوّغ ذلك الجحّي ، ووصل إلى المنتهى ، وحصل على ما اشتهى ، دون  
مجد تفرّع من دوحته ، ولا فخر نشأ بين مغداه وروحته ، فسمّا دون سابقة ،  
ورمى إلى رتبة لم تكن لنفسه<sup>٢</sup> مطابقة ، فبلغ بنفسه ، ونزع عن جنسه ، ولم  
يزل يستقل ويضطلع<sup>٣</sup> ، وينتقل من مطلع إلى مطلع ، حتى التاح في أفق الخلافة ،  
وارتاح إليها بعطفه<sup>٤</sup> كنشوان السلاقة ، واستوزره المستنصر ، وعنه كان  
يسمع وبه يبصر ، وحجّب الإمام ، وأسكب برأيه ذلك الغمام ، فأدرك لذلك

١ المطمح : ٤ - ٨ ونقل ابن عذاري بعض هذه الترجمة ٢ : ٣٧٩ وصدرها بقوله : قال ابن  
بسام .

٢ المطمح : لبنيته .

٣ ك : يستقل ويطلع .

٤ في الأصول : إليه مظلمها .

ما أدرك ، ونصب لأمانيه الحباثل والشرك ، فاقننى اقتناء مدخِر ، وأزرى  
 بمن سواه وسخر ، واستعطفه ابنُ أبي عامر ونجمه غائر لم يَلُح ، وسره مكتوم لم  
 يبح ، فما عطف ، ولا جنّى من روضة دنياه ولا قطف ، وأقام في تدبير  
 الأندلس ما أقام وبرهانه مستقيم ، ومن الفن عقيم ، وهو يجري من السعد  
 في ميدان رَحْب ، ويكرع من العزّ في مشرب عذب ، ويقض ختام  
 السرور ، وينهض بملك على لبتيه مزور ، وكان له أدبٌ بارع ، وخاطر  
 إلى نظم القريض<sup>١</sup> مسارع ، فمن محاسنه التي بعثها إيناس دهره وإسعاده ،  
 وقاله حين ألهته سلّماه وسُعاده ، قوله :

لَعَيْنِيكَ فِي قَلْبِي عَلَيَّ عِيونُ<sup>٢</sup>      وَبَيْنَ ضُلُوعِي لِلشُّجُونِ فُنُونُ  
 نَصِيبي مِنَ الدُّنْيَا هَوَاكُ ،      وَإِنَّهُ غِذَائِي ، وَلَسَكِنِّي عَلَيْهِ ضَنِينُ

وستأتي هذه الترجمة من المطمح الصغير إن شاء الله تعالى بما فيه بعض زيادة  
 ونقصان في الباب الرابع .

\* \* \*

### [ ترجمة ابن أبي عامر في المطمح ]

وقال في المطمح في حق ابن أبي عامر<sup>٣</sup> : إنه تمرّس ببلاد الشرك أعظم  
 تمرّس ، ومحا من طواغيتها كلَّ تعجرف وتغطرّس ، وغادرهم صرعى  
 البقاع ، وتركهم أذلّ من وتدٍ بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدّد إلى  
 أكبادهم سهام الفجائع ، وأغصّ بالحمام أرواحهم ، ونغصّ بتلك الآلام  
 بكورهم ورواحهم ، ومن أوضح الأمور هنالك ، وأفصح الأخبار في ذلك ، أن  
 أحد رسله كان كثير الانتياب ، لذلك الجناب ، فسار في بعض مسيراته إلى غرسيّة

١ هذه رواية المطمح ، وفي المقرئ : البديع .

٢ في الأصول : شجون .

٣ قد ذكر المقرئ المطمح الصغير ؛ وهناك مطمح متوسط وآخر كبير ؛ و ترجمة ابن أبي عامر هذه

غير موجودة في المطمح الذي بين أيدينا ، وقد وردت في ابن عذاري ٢ : ٤٤٤ .

صاحب البُشْكَنْس فوالى في إكرامه ، وتناهى في برّه واحترامه ، فطالت مدّته فلا متنزّه إلا مرّ عليه متفرّجاً ، ولا منزل إلاّ سار عليه مُعَرَّجاً ، فحلّ في ذلك ، أكثر الكنائس هنالك ، فيينا هو يَجُول في ساحتها ، ويُجِيل العَيْنَ في مساحتها ، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر ، قويمة على طول الكسر ، فكلمته ، وعرفته بنفسها وأعلمته ، وقالت له : أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بئوسها ، ويتمتع بلبّوس العافية وقد نضت لبّوسها ، وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة ، وبكل ذل وصغار ملبسة ، وناشدته الله في إنهاء قصتها ، وإبراء غُصَّتْها ، واستحلفتها بأغلظ الأيمان ، وأخذت عليه في ذلك أوكد موثيق الرحمن ، فلما وصل إلى المنصور عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه ، وهو مُصنَّع إليه حتى تمّ كلامه ، فلما فرغ قال له المنصور : هل وقفت هناك على أمر أنكرته ، أم لم تقف على غير ما ذكرته ؟ فأعلمه بقصّة المرأة وما خرجت عنه إليه ، وبالمواريث التي أخذت عليه ، فعتبته ولامه ، على أن لم يبدأ بها كلامه ، ثم أخذ للجهاد من قوّه ، وعرض منّ من الأجناد في نجده وغوّره ، وأصبح غازياً على سرّجه ، مُباهياً مروان يوم مرّجه ، حتى وافى ابن شاذبة في جمعه ، فأخذت مهابته ببصره وسمّعه ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجليّة ، ويحلف له بأعظم أليّة ، أنّه ما جتّى ذنباً ، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنباً ، فعنف أرساله وقال لهم : كان قد عاقدني أن لا يبتقى ببلاده مأسورة ولا مأسور ، ولو حملته في حواصلها النُسُور ، وقد بلغني بعدُ بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة ، ووالله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها ، فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها ، وأقسم أنّه ما أبصرهن ولا سمع بهنّ وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها ، قد بالغ في هدمها ، تحقيقاً لقوّله ، وتضرع إليه في الأخذ فيه بطوّله ، فاستحيا منه ، وصرف الجيش عنه ، وأوصل المرأة إلى نفسه ، وألحف توحّشها بأنسه ، وغير من حالها ، وعاد بسواكب نُعماه على جدّها وإمحالها ، وحملها إلى قومها ، وكحلها بما كان شردّ من نومها ، انتهى .

وقال في المطمح أيضاً في حقّه ما نصّه ١ : فردّ نابه على مَنْ تقدّمه ،  
 وصرّفهُ واستخدمه ، فإنّه كان أمضاهم سِناناً ، وأذكاهم جَناناً ، وأتمهم  
 جَلالاً ، وأعظمهم استقلالاً ، قال أمره إلى ما آل ، وأوهم العقول بذلك  
 المال ، فإنّه كان آية الله في اتفاق سَعده ، وقربه من الملك بعد بُعده ، بهر  
 برفعة القَدْر ، واستظهر بالأناة وسعة الصَدْر ، وتحرك فلاحَ نجمُ الهدوِّ ،  
 وتملّك فما خَفَقَ بأرضه لواءِ عدوِّ ، بعد خمول كابد منه غَصَصاً وشرّاقاً ،  
 وتعذر مأمول طارد فيه سَهراً وأرقاً ، حتى أنجز له الموعود ، وفرّ نحسه أمام  
 تلك السعود ، فقام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إناقة ، وساس الأمور  
 أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانظمت له الممالك ، واتضح  
 به المسالك ، وانتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليمَن كلُّ فريق ، وملك  
 الأندلس بضعاً وعشرين حِجّة ، لم تُدحض لسعادتها حُجّة ، ولم تزخر لمكروه  
 بها لِحّة ، لبست فيه البهاء والإشراق ، وتنفست عن مثل أنفاس العِراق ، وكانت  
 أيامه أحمدَ أيام ، وسهام بأسه أسدّ سهام ، غزا الروم شاتياً وصائفاً ، ومضى  
 فيما يروم زاجراً وعائفاً ، فما مرّ له غير سَنيع ، ولا فاز إلا بالعلّي لا بالمنيح ،  
 فأوغل في تلك الشعاب ، وتغلغل حتى راع ليث الغاب ، ومشى تحت ألويته صيدُ  
 القبائل ، واستجرت في ظلّها بيض الطُّبا وسُمُر النوايل ، وهو يقتضي الأرواح  
 بغير سَوْم ، ويتضي الصفاح على كل رَوْم ، ويتلف من لا ينساق للخلافة  
 وينقاد ، ويخطف منهم كلُّ كوكب وقّاد ، حتى استبد وانفرد ، وأنس إليه  
 من الطاعة ما نفر وشرد ، وانتظمت له الأندلس بالعدوّة ، واجتمعت في  
 ملكه اجتماع قريش بدار النَّدوّة ، ومع هذا لم يخلع اسمَ الحجابة ، ولم يدع  
 السمعَ لخليفته والإجابة ، ظاهرٌ يخالفه الباطن ، واسم تنافره مواقع الحكم  
 والمواطن ، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر ، وأخمل بهم أولئك الأعلام

١ ابن عذاري ٢ : ٤٠٧ ( ٢٧٣ ط . ليدن ) .

الأكابر ، فإنه قاومهم بأضدادهم ، واستكثر من أعدادهم ، حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور ، الذي أعاد أكثر الأندلس قفراً يَبَاباً ، وملأها وحشاً وذناباً ، وأعراها من الأمان ، برهته من الزمان ، وعلى هذه الهيئة فهو وابنه المظفر كانا آخر سعد الأندلس ، وحدد السرور بها والتأنس ، وغزواته فيها شائعة الأثر ، رائعة كالسيف ذي الأثر ، وحسبه وافر ، ونسبه معافر ، ولذا قال يفتخر « رميت بنفسي ... الأبيات » وزاد هنا بعد قوله « أبيض باتر » بيتاً ، وهو :

وإني لرجاء الجيوش إلى الوغى أسودٌ تلاقيها أسودٌ خوادِرُ

وكانت أمه تيمية ، فحاز الشرف بطرفيه ، والتحف بمطرقية ، ولذا قال القسطلي فيه <sup>١</sup> :

تلاقت عليه من تميم ويعرب شُموسٌ تلالا في العُلا وبدورُ  
من الحميريين الذين أكفهم سحائبُ تهمني بالندي وبحورُ

وتصرف قبل ولايته في شتى الولايات ، وجاء من التحدث بمنتهى أمره بآيات ، حتى صح زجره ، وجاء بصُبحه فجره ، تؤثر عنه في ذلك أخبار . فيها عجب واعتبار ، وكان أديباً محسناً ، وعالماً متفتناً ، فمن ذلك قوله يمّني نفسه بملك مصر والحجاز ، ويستدعي صدور تلك الأعجاز <sup>٢</sup> :

منع العين أن تذوق المناما حُبها أن ترى الصفا والمقاما  
لي ديون بالشرق عند أناسٍ قد أحلّوا بالمشعرين الحرّاما  
إن قضوها نالوا الأمانى ، وإلا جعلوا دونها رقاباً وهاما

١ القسطلي أبو عمر ابن دراج ؛ انظر ديوانه : ٣٠١ .  
٢ الحلة ١ : ٢٧٥ ، والبيان المغرب ٢ : ٢٧٥ ( ط . ليدن ) .

عن قريب ترى خيولَ هشام يبلغ النَّيلَ خَطَّوْها والشَّامَا  
انتهى ما نقلته من المطمح .

[ أخيار في سيرة المنصور ]

وفي المنصور المذكور أيضاً قال بعض مؤرخي المغرب<sup>١</sup> ، مازجاً كلامه  
ببعض كلام الفتح ، بعد ذكر استعانته ببعض الناس على بعض ، وذكر قتله لجعفر  
ابن عليّ ، فقال بعده ما صورته : ثم انفرّد بنفسه وصار ينادي صُرُوفَ الدهر  
هل من مبارز ، فلمّا لم يجده حصل الدهر على حكمه ، فانقاد له وساعده ، فاستقام  
أمره منفرداً بمملكة لا سلكَ له فيها ، ومن أوضح الدلائل على سعده أنّه  
لم يُنكَب قطّ في حرب شهدها ، وما توجهت عليه هزيمة ، وما انصرف عن  
موطن إلاّ قاهراً غالباً ، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء  
وواجه من الأمم ، وإنّما لخاصّة ما أحسب أحداً من الملوك الإسلامية شاركه فيها ،  
ومن أعظم ما أُعِين به مع قوّة سعده وتمكّن جده سعةُ جوده ، وكثرة بذله ،  
فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان ، وأوّل ما اتكأ على أرائك الملوك وارتفق ،  
وانتشر عليه لواء السعد وحقّق ، حظ صاحبه المصحفيّ ، وأثار له كامن  
حقده الخفيّ ، حتى أصاره للهُمُوم لبيساً ، وفي غيابات السجن حبيساً ، فكتب  
إليه يستعطفه بقوله<sup>٢</sup> :

هَبَّيْ أُسَاتُ فَأَيْنَ الْعَفْوُ وَالكَرَمُ إِذْ قَادَنِي نَحْوَكَ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ  
يَا خَيْرَ مَنْ مَدَّتِ الْإَيْدِي إِلَيْهِ أَمَا تَرْنِي لَشَيْخٍ رَمَاهُ عِنْدَكَ الْقَلَمُ

١ البيان المغرب ٢ : ٤٢٧ وبمضه في أعمال الأعلام : ٧٧ .  
٢ قال ابن الأبار (الحلّة ١ : ٢٦٥) هذه الأبيات متنازعة ينسبها إلى المصحفي جماعة ، وقد وجدتها  
منسوبة إلى أبي عمر ابن دراج القسطلي ، وذكر أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق في تاريخه  
أنها لكاتب إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ؛ قلت انظر البيان المغرب ١ : ١٦١ واسم الكاتب  
هذا محمد بن حيون ويعرف بابن البريدي .

بالغْتِ فِي السَّخَطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مَقْتَدِرٍ    إِنْ الْمَلُوكَ إِذَا مَا اسْتُرْجِمُوا رَحِمُوا  
فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلَّا حَنْقًا وَحَقْدًا ، وَمَا أَفَادَتَهُ الْأَبْيَاتُ إِلَّا تَضْرَمًا وَوَقْدًا ،  
فِرَاجِعُهُ بِمَا أَيَّاسُهُ ، وَأَرَاهُ مَرْمَسَهُ ، وَأَطْبِقُ عَلَيْهِ مَحْبَسَهُ ، وَضَيْقُ تَرَوْحِهِ مِنْ  
الْمَحْنَةِ وَتَنْفُسِهِ :

الآن يا جاهلاً زلت بك القدمُ    تبغي التكرمَ لما فاتك الكرمُ  
أغريت بي ملكاً لولا تثبتُهُ    ما جاز لي عندهُ نطقٌ ولا كلمُ  
فأيأسُ من العيشِ إذ قد صيرت في طبقٍ    إِنْ الْمَلُوكَ إِذَا مَا اسْتَقَمُوا نَقَمُوا  
نَفْسِي إِذَا سَخِطْتُ لَيْسَتْ بِرَاضِيَةٍ    وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ  
وكان من أخباره الداخلة في أبواب البر والقربة ببيانُ المسجد الجامع ، إلى  
أن قال ١ :

ومن ذلك بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الأعظم ، ابتداءً ببناءها المنصور سنة  
ثمان وسبعين وثلاثمائة ، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وسبعين ، وانتهت  
النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار ، فعظمت بها المنفعة ، وصارت  
صدرأ في مناقبه الجليلة ، وكانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن  
للقنطرة عدولٌ عنها ، فأمر المنصور أمناه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم ،  
فساوموه بالقطعة ، وعرفوه وجه الحاجة إليها وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه  
فيها ، فرماهم الشيخ بالعرض الأقصى عنده فيما ظنه أنها لا تخرج ٢ عنه بأقل  
من عشرة دنانير ذهباً كانت عنده أقصى الأمانة ، وشرطها صحاحاً ، فاغتم  
الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن ، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ،  
فضحك من جهالته ، وأنف من غيبه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ،

١ البيان المغرب ٢ : ٤٣٠ ، والنقل مستمر حتى بله النقل عن كتاب « الأزهار المشورة » .

٢ البيان : ألا تخرج .



وتُدفع له صحاحاً كما قال ، فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً ، فكاد أن يخرج من عقله ، وأن يُجَنَّ عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلاً في شكر المنصور ، وصارت قصته خبراً سائراً .

ومن ذلك أيضاً بناء قنطرة على نهر إَسْتِجَةَ ، وهو نهر سَنَيْل ، وتجمها لها أعظم مؤنة ، وسهل الطريق الوَعْرَةَ والشعاب الصعبة .

ومن ذلك أيضاً أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره يَدْرُس فيه ، ويتبرك به .

ومن قوّة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدمُ يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازلها ، حتى اجتمع له منه صُرّة ضخمة ، عهد بتصويره في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ، توقعاً لحلّول مَنِيَّتِهِ ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزّل بناته ، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك .

وكان مُتَسَمّاً بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ، وخوفه من ربّه ، وكثرة جهاده ، وإذا ذكّر بالله ذكر ، وإذا خُوف من عقابه ازدجر ، ولم يزل متنزهاً عن كل ما يفتن به الملوك سوى الخمر ، لكنّه أقلع عنها قبل موته بستين<sup>١</sup> ، وكان عدله في الخاصة والعامة وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضروباً به المثل .

ومن عدله أنه وقف عليه رجل من العامة بمجلسه ، فنادى : يا ناصر الحق ، إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك ، وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة ، وكان له فضلٌ محلّ عنده ، ثمّ قال : وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت ، فقال له المنصور : أو عبد الرحمن بن فطيس بهذا العجز والمهانة ، وكنتأ

١ ق ط ج : بستين .

نظنته أمضى من ذلك ؟ اذكر مظلمتك يا هذا ، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير تَصَفِّ ، فقال المنصور : ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ؛ ثم نظر إلى الصَّقْلِي وقد ذُهِل عقله ، فقال له : ادفع الدرقة إلى فلان ، وانزل صاغراً ، وسأوِ خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضجك ، ففعل ، ومثل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به : خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سَجْنٍ أو غيره ، ففعل ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكرراً ، فقال له المنصور : قد انتصفت أنت ، اذهب لسيلك ، وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمتزلي ، فتناول الصَّقْلِي بأنواع من المذلة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك <sup>١</sup> قصة فتاه الكبير المعروف بالبورقي <sup>٢</sup> مع التاجر المغربي ، فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتي المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور ، وإليه أمر داره وحرمه ، فدافع الحاكم ، وظن أن جأه يمنع من إحلافه ، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلماً من الفتي ، فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور ، وقبض نعمته منه ونفاه .

ومن ذلك <sup>٣</sup> قصة محمد فصّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه ، فإن المنصور احتاجه يوماً إلى الفَصْد ، وكان كثير التعهد له ، فأنفذ رسوله إلى محمد ، فألفاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن زرب ؛ لِحَيْفٍ ظهر منه على امرأته قدر أن سيّله من الخدمة يَحْمِيه من العقوبة ، فلماً عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ

١ البيان المغرب ٢ : ٤٣٣ .

٢ البيان : بالمبورقي .

٣ المصدر نفسه ، وصدرها بقوله : ومن دهائه .

٤ محمد بن يبيتي بن زرب ( المرقية العليا : ٧٧ - ٨٢ ) .

من عمله عنده ، ثم يرده إلى محبسه ، ففعل ذلك على ما رسمه ، وذهب الفاصدُ إلى شكوى ما ناله ، فقطع عليه المنصور ، وقال له : يا محمد ، إنَّه القاضي ، وهو في عدِّله ، ولو أخذني الحق ما أظقت الامتناع منه ، عدُّ إلى محبسك أو اعترف بالحق فهو الذي يطلقك ، فانكسر الحاجم ، وزالت عنه ريح العناية ، وبلغت قصته للقاضي ، فصالحه مع زوجته ، وزاد القاضي شدةً في أحكامه . وقال ابن حيَّان<sup>١</sup> : إنَّه كان جالساً في بعض الليالي ، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر ، فلما بأحد الفرسان وقال له : انهض الآن إلى فجع طليارش وأقم فيه فأول خاطر يخاطر عليك سقته إليّ ، قال : فنهض الفارس وبقي في الفجع في البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه ، إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرَم على حمار له ، ومعه آلة الخطب ، فقال له الفارس : إلى أين تريد يا شيخ ؟ فقال : وراء حطب ، فقال الفارس في نفسه : هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطباً ، فما عسى أن يريد المنصور منه ؟ قال : فتركته ، فسار عني قليلاً ، ثم فكرت في قول المنصور ، وخفت سَطوْته ، فنهضت إلى الشيخ وقلت له : ارجع إلى مولانا المنصور ، فقال له : وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي ؟ سألتك بالله أن تتركني لطلب معيشتي ، فقال له الفارس : لا أفعل ، ثمَّ قدم به على المنصور ، ومثله بين يديه وهو جالس لم يتَّسَمَ ليلته تلك ، فقال المنصور للصقالبة : فتشوه ، ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً ، فقال : فتشوا برذعة حماره ، فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليُقبَلوا ويضربوا في إحدى النَّواحي الموطومة<sup>٢</sup> ، فلما انبلج الصبح أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة ، فضُربت أعناقهم ، وضُربت رقبة الشيخ معهم .

١ المصدر نفسه : ٤٣٤ .

٢ في ج : المرطومة ؛ والموطومة (قراءة ق ط ك) لعلها الأرض التي كثر فيها الوطم وهو نبات يشبه الازخري ، وذلك تأويل بعيد ، وأقدر أن تكون مصحفة عن «الموصوفة» أي التي وصفت في الكتاب .

ثم ذكر هذا المؤرخ<sup>١</sup> قصة الجوهرى التي قدمنا نقلها من مغرب ابن سعيد ،  
ولكننا رأينا إعادتها بلفظ هذا المؤرخ ، لأنه أتم مساقاً إذ قال عطفاً على دهائه :  
ومن ذلك قصة الجوهرى التاجر ، وذلك أن رجلاً جوهرياً من تجار المشرق  
قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من  
ذلك ما استحسنة ، ودفع إلى التاجر الجوهرى صرته ، وكانت قطعة يمانية ، فأخذ  
التاجر في انصرافه طريق الرملة على شطّ النهر ، فلما توسطها واليوم قانظ  
وعرقه منصبٌ دَعَتَه نفسه إلى التبرّد في النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصرة<sup>٢</sup>  
على الشط ، فمرت حداة فاخترت الصرة تحسبها لحماً ، وصاعدت في  
الأفق بها ذاهبة ، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عينُ التاجر ، فقامت قيامته ،  
وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة ، فأسرّ الحزن في نفسه ، ولحقه لأجل ذلك  
علة اضطرب فيها ، وحضر الدفع إلى التجار فحضر الرجل لذلك بنفسه ،  
فاستبان للمنصور ما بالرجل<sup>٣</sup> من المهانة والكآبة ، وفقد ما كان عنده من النشاط  
وشدة العارضة ، فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له : هلاً أتيت  
إلينا بحيدتان وقوع الأمر فكنتا نستظهر على الحيلة ، فهل هُديت إلى الناحية  
التي أخذ الطائر إليها؟ قال : مرّ مشرقاً على سمّت هذا الجبل الذي يلي قصرك ،  
يعني الرملة ، فدعا المنصور شُرْطِيَه الخاص به ، فقال له : جئني بمشيخة  
أهل الرملة الساعة ، فمضى وجاء بهم سريعاً ، فأمرهم بالبحث عمّن غير  
حال الإقلال منهم سريعاً ، وانتقل عن الإضاعة دون تدريج ، فتناظروا في  
ذلك ثم قالوا : يا مولانا ما نعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده  
بأيديهم ويتناولون السبّ بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابة ،  
واكتسى هو وولده كسوة متوسطة ، فأمر بإحضاره من الغد ، وأمر التاجر

١ البيان المغرب ٢ : ٤٣٥ ؛ وانظر ص : ٤٠١ فيما سبق .

٢ بمض النسخ : وترك الصرة .

٣ بمض النسخ : ما نال الرجل .

بالغدو<sup>١</sup> إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور ، فاستدناه والتاجر حاضر ، وقال له : سبب ضاع منا وسقط إليك ، ما فعلت به ؟ قال : هوذا يا مولاي ، وضرب بيده إلى حُجْزَة سَرَآويله فأخرج الصُّرة بعينها ، فصاح التاجر طَرَبًا ، وكاد يطير فرحاً ، فقال له المنصور : صِف لي حديثها ، فقال : بَيْنَا أنا أعمل في جناني تحت نخلة إذ سقطت أمامي ، فأخذتها وراقني منظرها ، فقلت : إن الطائر اختلسها من قَصْرِكَ لقرب الجوار ، فاحترزت بها ، ودعنتي فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً كانت معها مصرورة ، وقلت : أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها ، فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر : خذ صُرتك وانظرها واصدقني عن عددها ، ففعل وقال : وحقَّ رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتها له ، فقال المنصور : نحن أولى بذلك منك ولا نُنْغِصُ<sup>١</sup> عليك فرحك ، ولولا جَمْعُه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه ، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره ، وللجنَّان بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن فساد ما وقع بيده ، وقال : لو بدَّأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء ، قال : فأخذ التاجر في الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه وقال : والله لأبشَّنَّ في الأقطار عظيم ملكك ، ولأبشَّنَّ<sup>٢</sup> أنك تملك طير أعمالك كما تملك إنسها ، فلا تعتمص منك ولا تمتنع ، ولا تؤذي جارك ، فضحك المنصور وقال : اقصد في قولك يغفر الله لك ، فعجب الناس من تلطُّف المنصور في أمره وحيلته في تفریح كمرته . ثم حكى هذا المؤرخ<sup>٣</sup> غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية ، وأعظم مشاهد النصرى الكائنة ببلاد الأندلس ، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت

١ ق ط : ننقص .

٢ ق ط : ولأبشَّن .

٣ البيان المغرب ٢ : ٤٣٩ وهذه بداية ج ، فأما في ق ك فقد بدأ بقوله « ومن ذلك » ذلك خطأ لأن القصة ليست من قصص الدهاء التي مرت أمثلتها . وفي ط بياض .

كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة المثل الأعلى ، فيها يحلفون ، وإليها يحجّون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المَـزُورَ فيها قبر ياقب الحواري أحد الاثني عشر ، وكان أخصّهم بعيسى ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهم يسمّونه أخاه للزومه إِيّاه ، وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقُفاً ببيت المقدس فجعل يستقري الأَرْضين داعياً لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية ، ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رِمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره ، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها ولا الوصول إليها ، لصعوبة مدخلها ، وخشونة مكانها ، وبُعد شقَّتتها ، فخرج المنصور إليها من قُرْطُبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة قُورِية ، فلماً وصل إلى مدينة غليسية وافاه عددٌ عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم ، وعلى أتم احتفالهم ، فصاروا في عسكر المسلمين ، وركبوا في المِغَاوَرَةَ سبيلهم ، وكان المنصور تقدّم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس<sup>١</sup> من ساحل غرب الأندلس ، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة والعُدَد والأسلحة استظهاراً على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دُويره<sup>٢</sup> ، فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه ، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسراً بقرب الحصن الذي هنالك ، ووجّه<sup>٣</sup> المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند ، فتوسّعوا في التزود منه إلى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شنت ياقب<sup>٤</sup> ، فقطع أرضين متباعدة الأقطار ،

١ قصر أبي دانس (Alcacer do Sal) مرسى الأسطول ، على ساحل البرتغال جنوبي الأشبونة (لشبونة) .

٢ نهر دويره (Duero = Duoro) يصب عند بورتو في المحيط الأطلسي .

٣ دوزي : ووزع ؛ لمطابقة المعنى نقلا عن البيان المغرب .

وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدّها البحر الأخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جلييلة من بلاد فرطارش<sup>١</sup> وما يتصل بها ، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق ، لم يهتد الأدلاء إلى سواه ، فقدّم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر ، وعبروا بعده وادي منيه<sup>٢</sup> ، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين أريضة ، وانتهت مغيرتهم إلى دير قسطان<sup>٣</sup> وبسيط بلبنو<sup>٤</sup> على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلاية<sup>٥</sup> ، وغنموه ، وعبروا سباحة إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي ، فسبّوا من فيها ممن لجأ إليها ، وانتهى العسكر إلى جبل مراسية<sup>٦</sup> المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط ، فتخلّلوا أقطاره ، واستخرجوا من كان فيه ، وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء إليهما ، ثم نهر أيلة<sup>٧</sup> ، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة<sup>٨</sup> ، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل ، يقصد نساكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما ، فغادره المسلمون قاعاً ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها ، وعقّوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه ، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيماً

١ البيان المغرب : فطارش .

٢ منيه = منيو أو منهو ( Minho = Rio Mino ) .

٣ بعض النسخ : قسان .

٤ البيان المغرب : بلبنوط ، وفي نسخة : بلبنوا .

٥ شنت بلاية : ( San Pelayo ) .

٦ مراسية ( Morrazo ) .

٧ أيلة ( Ulla ) .

٨ زاد في البيان : منها بسيط أونبة وقرجطة ودير شنت برية .

كأن لم تَغْنَنَ بالأمس ، وانتسفت بعوْثُه بعد ذلك سائرَ البساط ، وانتهت الجيوش إلى جزيرة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ، ولا وطئها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مَجَال ، ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقُبَ وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله ، فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن أردون ليستقره عائثاً ومفسداً ، حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره ، فأمر بالكف عنها ، ومرَّ مجتازاً حتى خرج إلى حصن بليقية<sup>١</sup> من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم وصرْفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح من بليقية ، وكان مبلغ ما كساه في غزّاته هذه للملوك الروم ولن حَسُنَ غَنَاؤُه من المسلمين ألفين ومائتين وخمساً وثمانين شُقَّةً من صنوف الخز الطرازي ، وأحدأً وعشرين كساء من صوف البحر ، وكساعين عنبرين ، وأحد عشر سقلاطوناً ، وخمس عشرة مريشاً ، وسبعة أنماط ديباج ، وثوبي ديباج رومي ، وفَرَوِيّ فَنَك ، ووافى جميع العسكر قرطبة غانماً ، وعظمت النعمة والمنّة على المسلمين ، ولم يجد المنصور بشنت ياقُبَ إلاّ شيخاً من الرهبان جالساً على القبر ، فسأله عن مقامه ، فقال : أونسُ يعقوبَ ، فأمر بالكف عنه .

قال<sup>٢</sup> : وحدّث شعلة قال : قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علّة العصب ، فقال : يا شعلة ، الملك لا ينام إذا نامت الرعيّة ، ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة ؛ انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

\* \* \*

١ ابن عذاري : مليقه ، ولعلها ليقه = لاميجو (Lamego) .

٢ ليس هذا الخبر في البيان المغرب وإنما هو في أعمال الأعلام : ٧٦ .



## [ أخبار المنصور من كتاب الأزهار الماثورة ]

وقد رأيت أن أذكر هنا أخباراً ، نقلتها من كتاب « الأزهار الماثورة » ،  
في الأخبار الماثورة <sup>١</sup> .

قال في الزهرة التاسعة والعشرين : تقدم إلى المنصور وانرمار بن أبي بكر  
البرزالي أحد جند المغاربة ، وقد جلس للعرض والتميز ، والميدان غاص بالناس ،  
فقال له بكلام يضحك الثكلى : يا مولاي ، ما لي ولك ، أسكنتني فإني في الفحص ،  
فقال : وما ذلك يا وانرمار ؟ وأين دارك الواسعة الأقطار ؟ فقال : أخرجني  
عنها والله نعمتكم ، أعطيتني من الضياع ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ  
بيوتي وأخرجني عنها ، وأنا بربري مجوع حديث عهد بالبؤس ، أتراني أبعث  
القمح عني ؟ ليس ذلك من رأيي . فتطلق المنصور وقال : لله درك من فذة عيسى ،  
لعيك في شكر النعمة أبلغ عندنا ، وآخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متريد  
وبليغ متفنن ؛ وأقبل المنصور على من حوله من أهل الأندلس فقال : يا أصحابنا ،  
هكذا فلتشكر الأيادي وتستدام النعم <sup>٢</sup> ، لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم ،  
والتشكي المبرح ؛ وأمر له بأفضل المنازل الحالية .

وفي الموافية ثلاثين ما نصه : أصبح المنصور صبيحة أحد ، وكان يوم  
راحة الخدمة الذي أعفوا فيه من قصد الخدمة ، في مطر وابل غب أيام مثله ،  
فقال : هذا يوم لا عهد بمثله ، ولا حيلة للمواظين لقصدنا في مكابדתه ، فليت  
شعري هل شد أحد منهم عن التقدير فأغرب في البكور ؟ أخرج وتأمل ، يقوله  
لحاجبه ، فخرج وعاد إليه ضاحكاً ، وقال : يا مولاي ، على الباب ثلاثة من  
البرابرة : أبو الناس ابن صالح واثان معه ، وهم بحال من الليل إنما توصف  
بالمشاهدة ، فقال : أوصلهم إلي وعجل ، فدخلوا عليه في حال الملاح بلا

١ لم أهد إلى مؤلفه ، وأرجح أنه ابن سعيد ، وأنه « كتاب الزهرات » الذي ينقل عنه ابن هذيل في  
كتابه « عين الأدب والسياسة » وينسبه لابن سعيد .

٢ ق ج ط ودوزي : واستديموا النعم .

ونَدَاوَةٌ ، فضحك إليهم وأدنى مجلسهم ، وقال : خبروني كيف جنتم ؟ وعلى أي حال وصلتم ؟ وقد استكان كل ذي روح في كتفه ، ولاذ كل طائرٍ بوكْرهه ، فقال له أبو الناس بكلامه : يا مولانا ، ليس كل التجار قعد عن سوقه ، وإذا عُدَّ التجار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر بإدراكها باليدِ ومن غير رؤوس الأموال ، وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذبلون في قصدها ثيابهم ، ونحن نأتيك على خيالك ، ونذيلُ على صهواتها ملابسك ، ونجعل الفضلَ في قصدك مضموناً إذا جعله أولئك طمعاً ورجاء ، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذا ؟ فضحك المنصور ودعا بالكُسا والصلّات ، فدُفعت لهم ، وانصرفوا مسرورين بغلوتهم .

وفي الزهرة الرابعة والأربعين ما نصّه : كان بقُرْطُبَة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتي من أهل الأدب قد رَقَّتْ حاله في الطلب ، فتعلّق بكتاب العمل ، واختلف إلى الخزانة مدة ، حتى قلّده بعض الأعمال ، فاستهلك كثيراً من المال ، فلما ضمَّ إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار ، فرجع خبره إلى المنصور ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له : يا فاسق ، ما الذي جرّأك على مال السلطان تنتهبه ؟ فقال : قضاء غلب الرأي ، وفقر أفسد الأمانة ، فقال المنصور : والله لأجعلنك نكالاً لغيرك ، ليحضر كِبَلٌ وحدّاد ، فأحضرا ، فكبّل الفتي وقال : احملوه إلى السجن ، وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :

أَوَاهُ أَوَاهُ وَكَمْ ذَا أَرَى أَكْثِرُ مِنْ تَذْكَارِ أَوَاهِ  
مَا لِمَرِيءٍ حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ لِلَّهِ

فقال المنصور : ردوه ، فلما رُدَّ قال : أتمثلت أم قلت ؟ قال : بل قلت ، فقال : حلّوا عنه كبّله ، فلما حلَّ عنه أنشأ يقول :

١ ك : تكرار .

أَمَا تَرَى عَقْوَ أَبِي عَامِرٍ لَا بُدَّ أَنْ تَتَّبِعَهُ مِنْهُ  
كَذَلِكَ اللَّهُ إِذَا مَا عَقَا عَنْ عَيْدِهِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ

فأمر بإطلاقه ، وسوّغه ذلك المال ، وأبرأه من التبعة فيه .  
وفي الخامسة والأربعين : عُرِضَ عَلَى الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ اسْمُ أَحَدِ خَدَمِهِ  
فِي جُمْلَةٍ مَنْ طَالَ سَجْنُهُ ، وَكَانَ شَدِيدَ الْحَقْدِ عَلَيْهِ ، فَوَقَعَ عَلَى اسْمِهِ بِأَنْ لَا  
سَبِيلَ إِلَى إِطْلَاقِهِ حَتَّى يَلْحُقَ بِأَمِّهِ الْهَاقِيَةِ ، وَعُرِفَ الرَّجُلُ بِتَوَقُّعِهِ ، فَاعْتَمَ  
وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي الدُّعَاءِ وَالْمُنَاجَاةِ ، فَأَرَقَ الْمَنْصُورُ إِثْرَ ذَلِكَ ، وَاسْتَدْعَى النَّوْمَ  
فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَأْتِيهِ عِنْدَ تَنْوِيمِهِ آتٍ كَرِيهُ الشَّخْصِ عَنيفٍ الْأَخْذِ يَأْمُرُهُ  
بِإِطْلَاقِ الرَّجُلِ ، وَيَتَوَعَّدُهُ عَلَى حِسْبِهِ ، فَاسْتَدْفَعُ شَأْنَهُ مَرَاراً إِلَى أَنْ عَلِمَ أَنَّهُ  
نَذِيرٌ مِنْ رَبِّهِ ، فَانْقَادَ لِأَمْرِهِ ، وَدَعَا بِالذَّوَابِ فِي مَرْقَدِهِ فَكُتِبَ بِإِطْلَاقِهِ ، وَقَالَ فِي  
كِتَابِهِ : هَذَا طَلِيقُ اللَّهِ عَلَى رِغْمِ أَنْفِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، وَتَحَدَّثَ النَّاسُ زَمَاناً بِمَا  
كَانَ مِنْهُ .

وفي الثامنة والأربعين<sup>٢</sup> ما نصّه : انْتَهَتْ هَيْبَةُ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ  
وَضَبَطَهُ لِلجَنْدِ وَاسْتِخْدَامِ ذُكُورِ الرِّجَالِ وَقُوَّامِ الْمَلِكِ إِلَى غَايَةِ لَمْ يَصِلْهَا مَلِكٌ  
قَبْلَهُ ، فَكَانَتْ مَوَاقِفُهُمْ فِي الْمِيدَانِ عَلَى لِحْتِفَالِهِ مِثْلًا فِي الْإِطْرَاقِ ، حَتَّى إِنْ لِحْتِفَالِ  
لِتَمَثَّلَ إِطْرَاقُ فِرْسَانِهَا فَلَا تُكْثِرُ الصَّهِيلَ وَالْحَمْحَمَةَ ، وَلَقَدْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى  
بَارِقَةِ سَيْفٍ قَدْ سَلَّهَ بَعْضُ الْجُنْدِ بِأَقْصَى الْمِيدَانِ لَهْزَلٍ أَوْ جَدٍّ بِحَيْثُ ظَنَّ أَنَّ لِحْتِفَالِ  
الْمَنْصُورِ لَا يَنَالُهُ ، فَقَالَ : عَلِيٌّ بِشَاهِرِ السَّيْفِ ، فَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ لَوْقَتَهُ ، فَقَالَ :  
مَا حَمَلَكِ عَلَى أَنْ شَهَرْتَ سَيْفَكَ فِي مَكَانٍ لَا يُشْهَرُ فِيهِ إِلَّا عَنِّي إِذْنًا ؟ فَقَالَ :  
إِنِّي أَشْرْتُ بِهَ إِلَى صَاحِبِي مُغْتَمِدًا فَزَلِقَ مِنْ غَمْدِهِ ، فَقَالَ : إِنْ مِثْلَ هَذَا لَا  
يَسُوغُ بِاللُّدْعَى ، وَأَمْرٌ بِهِ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ بِسَيْفِهِ ، وَطِيفَ بِرَأْسِهِ ، وَنُودِيَ عَلَيْهِ  
بِذَنْبِهِ ؟ انْتَهَى .

١ ك : فاعتم . واعتم .  
٢ ك : وفي السادسة والأربعين .

وحكى غير واحد أن المنصور كان به داء في رجله ، واحتاج إلى الكي فامر الذي يكويه بذلك وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر وينهى ويفري الفري في أموره ، ورجله تكوى والناس لا يشعرون ، حتى شمتوا رائحة الجلد واللحم ، فتعجبوا من ذلك وهو غير مكثر .

وأخباره - رحمه الله تعالى - تحتل مجلدات ، فلنمسك العنان ، على أننا ذكرنا في الباب الرابع والسادس من هذا الكتاب جملة من أخباره ، رحمه الله تعالى ، فلترجع إلى آخره .

[ عود إلى النقل عن المطمح ]

وقال الفتح في المطمح ٢ : وكان مما أعين به المنصور على المصحفي ميل الوزراء إليه ، وإيثارهم له عليه ، وسعيهم في ترقيه ، وأخذهم بالعصية فيه ، فإنها وإن لم تكن حمية أعرابية ، فقد كانت سلفية سلطانية ، يقتفي القوم فيها سبيل سلفهم ، ويمنعون بها ابتذال شرفهم ، غادروها سيرة ، وخلّفوها عادة أثيرة ، تشاح الخلف فيها تشاح أهل الديانة ، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة ، ورأوا أن أحداً لا يلحق فيها غاية ، ولا يتعاقد لها راية<sup>٣</sup> ، فلما اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه ، ووّضعه من أثرته حيث وّضعه ، وهو تزيع بينهم ونايع<sup>٤</sup> فيهم ، حسدوه وذمّوه ، وخصّوه بالمطالبة وعمّوه ، وكان أسرع صنف الطائفة من أعالي الوزراء وأعظم الدولة إلى مهاودة المنصور

١ ك : وفي السابعة والأربعين ؛ ق : وفيه ؛ وفي ط بياض .

٢ بياض في ط ؛ وفي ك : وفي الثامنة والأربعين ؛ وفي ج : قال في المطمح ؛ والنص في المطمح :

٧ وفي البيان المغرب ٢ : ٤٠٥ ( ٢ : ٢٧١ ط . ليدن ) .

٣ ابن عذاري : لا يدرك . . . ولا يلحق . ق : ولا يناقد ؛ ط : ولا يناقد .

٤ دوزي : وتابع ؛ ج : ونايع .

عليه ، والانحراف عنه إليه ، آلُ أبي عبدة وآل شهيد وآل فطيس من الخلفاء وأصحاب الردافة<sup>١</sup> ، من أولي الشرف والإنافة<sup>٢</sup> ، وكانوا في الوقت أزمة الملك وقوام الخدمة ، ومصايح الأمة ، وأغبر الخلق على جاه وحرمة ، فأحفظوا محمد بن أبي عامر مشايعة ، ولبعض أسبابه الجامعة متابعة ، وشادوا بناءه ، وقادوا إلى عنصره ستاءه ، حتى بلغ الأمل ، والتحف بمناه واكتحل<sup>٣</sup> ، وعند الثام هذه الأمور لابن أبي عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة ، وأيقن بالنكبة ، وزوال الحال وانتقال الرتبة ، وكفّ عن اعتراض محمد وشركته في التدبير ، وانقبض الناس من الرواح إليه والتبكير ، واثالوا على ابن أبي عامر ، فخف موكبه ، وغار من سماء العز كوكبه ، وتوالى عليه سعي ابن أبي عامر وطلبه ، إلى أن صار يغدو إلى قرطبة ويروح وليس بيده من الحجابة إلا اسمها ، وابن أبي عامر مشتمل على رسمها ، حتى مجاه ، وهتك ظله<sup>٤</sup> وأضحاه ، قال [محمد]<sup>٥</sup> : رأيت يساق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلاً فأقبل يدرم ، وجوارحه باللواعج تضطرم ، وواثق الضاغيط ينهره ، والزمع يقهره ، والبهر والسن قد هاضاه<sup>٦</sup> ، وقصراً خطاه ، فسمعتة يقول : رقفاً بي فستدرك ما تحبه وتشتهيه ، وترى ما كنت ترتجيه ، ويا ليت أن الموت يباع فأغلي<sup>٧</sup> سومه ، حتى يردّه من أطال عليه حومه ، ثم قال<sup>٨</sup> :

لا تأمنن من الزمانِ تقلباً إنَّ الزمانَ بأهله يتقلبُ

١ ق ط ج : الردانة .

٢ ق ط ج : والأمانة .

٣ المطمح : والتحف يمينه يمناه واشتمل .

٤ المطمح : ظلاله .

٥ زيادة من المطمح .

٦ المطمح : والزعم والبهر قد هاضاه .

٧ دوزي : فأغلي الله .

٨ انظر أيضاً الحلة ١ : ٢٦٧ .

ولقد أُراني والليوثُ تخافني فأخافني من بعدِ ذاك الثعلبُ  
حَسْبُ الكَريمِ مذلَّةٌ ومهانةٌ أن لا يزال إلى لثيمٍ يطلبُ

فلما بلغ المجلس جلس في آخره دون أن يسلم على أحد ، أو يوميء إليه  
بعين أو يد ، فلما أخذ مجلسه تسرع إليه الوزير محمد بن حفص بن جابر فعنفه  
واستجفاه<sup>١</sup> ، وأنكر عليه ترك السلام وجفاه ، وجعفر معرض عنه ، إلى أن كثر  
القول منه ، فقال له : يا هذا ، جهلت المبرة فاستجهلت معلمها<sup>٢</sup> ، وكفرت  
النعم<sup>٣</sup> فقصدت بالأذى ولم ترهب مقدمها ، ولو أتيت نكرا ، لكان غيرك  
أدرى ، وقد وقعت في أمر ما أظنك تخلص منه ، ولا يسعك السكوت عنه ،  
ونسيت الأيادي الجميلة ، والمبرات الجليلة ، فلما سمع محمد بن حفص ذلك من  
قوله قال : هذا البهت بعينه ، وأي أياديك الغر التي مننت بها ، وعيشت  
أداء واجبها ؟ أيد كذا أم يد كذا ؟ وعدد أشياء أنكراها منه أيام إمارته ،  
وتصرف الدهر طوع إشارته ، فقال جعفر : هذا ما لا يعرف ، والحق الذي  
لا يرد ولا يصرف ، دفعي<sup>٤</sup> القطع عن يمينك ، وتبليغي لك إلى مناك ، فأصر  
محمد بن حفص على الجحد ، فقال جعفر : أنشد الله من له علم بما أذكره ،  
إلا اعترف به فلا ينكره ، وأنا أخرج إلى السكوت ، ولا تحجب دعوتي فيه  
عن الملكوت ، فقال الوزير أحمد بن عباس<sup>٥</sup> : قد كان بعض ما ذكرته يا أبا  
الحسن ، وغير هذا أولى بك ، وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك ، فقال :  
أخرجني الرجل فتكلمت ، وأحوجني إلى ما به أعلمت ، فأقبل الوزير ابن  
جهنور على محمد بن حفص وقال : أسأت إلى الحاجب ، وأوجبت عليه غير

١ ق ط ج : واستجفاه .

٢ المطمح والبيان : عالمها .

٣ المطمح : وكفرت اليد .

٤ ق ط ج : رفعي .

٥ البيان المغرب : أحمد بن عياش .

الواجب ، أو ما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لأنه إن فعل  
 ألزمهم الرد لقوله تعالى ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا  
 أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (النساء : ٨٦) فإن فعلوا لطف بهم من إنكار السلطان ما يخشى  
 ويخاف ، لأنه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف ، وإن تركوا الرد أسخطوا  
 الله ، فصار الإمساك أحسن ، ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن ؛ فانكسر  
 ابن حفص ، وخجل مما أتى به من النقص .  
 وبلغه أن قوماً توجهوا له ، وتفجعوا مما وصله ، فكتب إليهم :

أحِنُّ إلى أنفاسِكُمْ فَأَظْنَهَا بَوَاعِثِ أَنْفَاسِ الْحَيَاةِ إِلَى نَفْسِي  
 وَإِنَّ زَمَانًا صَرْتُ فِيهِ مُقَيِّدًا<sup>١</sup> لِأَثْقَلِ مِنْ رَضْوَى وَأَضْيَقُ مِنْ رَمْسِ  
 انتهى ما ترجم به المنصور بن أبي عامر .

#### [ عبد الملك المظفر الحاجب ]

ولنرجع<sup>٢</sup> فنقول : ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر  
 أبو مروان فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو ، وكانت أيامه أعياداً دامت  
 مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع ، تشبيهاً بسابع العروس ، ولم يزل مثل  
 اسمه مظفراً إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في المحرم ، وقيل : سنة  
 ثمان وتسعين .

وكتابه المعز بن زيري ملك مغرلوة بعد أن استرجع فاساً والمغرب إثر  
 موت أبيه ، فكتب له العهد على المغرب ، واثارت الطوائف في ممالكهم ،  
 وتحركت الجلالقة لاسترجاع معانقهم وحصونهم .

١ نسخة : مفنداً .

٢ انتهى . . . ولنرجع : سقط من بعض النسخ ؛ وفي ق : انتهى كلام ابن أبي عامر فنقول .  
 وسقطت لفظة « كلام » من ط ج .

قال ابن خلدون<sup>١</sup> : ثمّ قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وقيل : بالمأمون ، وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام ، والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه ، ثمّ ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة ، فطلب من هشام المؤيد أن يولية عهده ، فأجابته ، وأحضر لذلك الملامن أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ، فكان يوماً مشهوداً ، فكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن بُرد بما نصّه<sup>٢</sup> : « هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامّة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصّة ، وأعطى به صفة يمينه ببيعة تامّة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمته ما جعل الله إليه من الإمامة ، وعصّب به من أمر المؤمنين ، وانقضى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يُصرف ، وخشي إن هجم مخنوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه ، وملجأ تعطف عليه ، أن يكون يلقي ربه تبارك وتعالى مُفَرَّطاً ساهياً عن أداء الحق إليها ، وتقصّي عند ذلك من احياء قريش وغيرها من يستحق أن يسند هذا الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن يستوجه يدينه وأمانته ، وهدّيه وصيانه ، بعد اطراح الهوى ، والتحرّي للحق ، والتزلف<sup>٣</sup> إلى الله جل جلاله بما يرضيه ، وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، فلم يجد أحداً أجدراً أن يولية عهده ، ويفوض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه وكرم خيمه

١ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٨ ؛ وسقطت عبارة « قال ابن خلدون » من ط ج ؛ وفي ج : ولما هلك المظفر قام . . . الخ .

٢ انظر هذا العهد أيضاً في أعمال الأعلام : ٩١ والبيان المغرب ٣ : ٤٤ ، وابن برد كاتب العهد هو أحمد بن برد أبو حفص الوزير المعروف بابن برد الأكبر تمييزاً له عن حفيده ابن برد الأصغر ، وكان الجد رئيساً مقدماً في الدولة العامرية توفي سنة ٤١٨ ( جذوة المقتبس : ١١١ ) .

٣ ك : والزلفى .



وشرف مرتبته وعلو منصبه ، مع ثقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الحبيب ، أبي المطرف<sup>١</sup> عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد ابن أبي عامر ، وفقه الله ؛ إذ كان أمير المؤمنين - أيده الله تعالى - قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ، فرآه مُسارعاً في الخيرات ، سابقاً في الحلبات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرور أن يبلغ من سبُل البر مداه ، ويحوي من خلال الخير ما حواه ؛ مع أن أمير المؤمنين - أيده الله - بما طالع من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، يرى أن يكون ولي عهد القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختيار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معدلاً ، خرج إليه من تدبير الأمور في حياته ، وفوض إليه الخلافة بعد وفاته ، طائعاً راضياً مجتهداً ، وأهضى أمير المؤمنين هذا وأجزره ، وأنجزه وأفضله ، ولم يشترط فيه مشنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء به في سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه ، وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه ، وذمة نفسه ، أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول<sup>٢</sup> ، وأشهد الله على ذلك والملائكة ، وكفى بالله شهيداً ، وأشهد [ من أوقع اسمه في هذا ]<sup>٣</sup> وهو جائر الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي هذه المأمون أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى ، وقبوله ما قلده ، وإلزامه نفسه ما ألزمه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم ، وتسمى

١ في الأصول : أبي المظفر .

٢ أعمال الأعلام : ولا يتأول .

٣ ساقطة من أصول النسخ ، مثبتة في أعمال الأعلام .

بعدها بولي العهد<sup>١</sup> .

ونقم عليه أهل الدولة ذلك<sup>٢</sup> ، فكان فيه حتفه ، وانقراض دولته ودولة قومه ، وكان أسرع الناس كراهةً لذلك الأمويين والقرشيين ، فغصّوا بأمره ، وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضربة إلى اليمينية ، فاجتمعوا لشأنهم ، وتمشّت من بعض إلى بعض رجالهم ، وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ببلاد الجلالقة في غزاة من صوائفه ، ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، وخلعوا هشاماً المؤيد .

\* \* \*

[ بيعة المهدي بالله ]

وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء ، ولقبوه المهدي بالله ، وطار الخبر إلى عبد الرحمن الحاجب ابن المنصور بمكانه من الثغر ، فانفضّ جمعه ، وقفل إلى الحضرة مُدلاً بمكانه ، زعيماً بنفسه ، حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الناس من الجند ووجوه البربر ، ولحقوا بقرطبة ، وبايعوا المهدي القائم بالأمر ، وأغرّوه بعبد الرحمن الحاجب ، لكونه ماجناً مستهتراً غير صالح للأمر ، فاعترضه منهم من قبض عليه ، واحترّ رأسه ، وحمله إلى المهدي وإلى الجماعة . وذهبت دولة العامريين كأن لم تكن ، والله عاقبة الأمور .

وفي المهدي يقول بعضهم :

قَدْ قَامَ مَهْدِيْنَا وَلَكِنْ بِمِلَّةِ الْفَسَقِ وَالْمُجُونِ

١ في أعمال الأعلام والبيان المغرب : وهذا الكتاب نسختان ، أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد ابن عبد الله بن ذكوان ويليه من الوزراء خاصة أسماء تسعة وعشرين رجلاً ، يليه أسماء مائة وثمانين رجلاً من أصحاب الشرطة وسائر أهل الخدمة .

٢ لا يزال النقل في هذه الفقرة والتي تليها مستمراً عن ابن خلدون .

وشاركَ الناسَ في حريمِ لولاه ما زال بالمصونِ  
منْ كان من قبل ذا أجمأ فاليومَ قد صار ذا قرونِ

[خبر الفتنة البربرية] <sup>١</sup>

وكان رؤساء البربر <sup>٢</sup> وزناة لحقوا بالمهدي لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن وانتقاض أمره ، وكانت الأموية تعتدّ عليهم ما كان من مظاهرهم العامرين ، وتنسب تغلب المنصور وبنيه <sup>٣</sup> على الدولة إليهم ، فسخطهم القلوب ، وخزرتهم العيون ، ولولا ما لهم من العصية لاستأصلهم الناس ، ولغطت <sup>٤</sup> السنة الدهماء من أهل المدينة بكراتهم ، وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلحوا ، وردّ بعض رؤسائهم في بعض الأيام من باب القصر ، فانتهبت العامة دُورهم ، وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم ، فاعتذر [إليهم] <sup>٥</sup> وقتل من اتهم من العامة في أمرهم ، وهو مع ذلك مظهر لبغضهم ، مجاهر بسوء النناء عليهم ، وبلغهم أنه يريد الفتك بهم ، فتمشت رجالاتهم ، وأسروا نجواهم ، واشتوروا في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، وفشا في الخاصة حديثهم ، فعوجلوا عن مرامهم ذلك ، وأغرى بهم السواد الأعظم ، فثاروا بهم ، وأزعجواهم عن المدينة ، وتقبض على هشام وأخيه أبي بكر ، وأحضرا بين يدي المهدي ، فضرب أعناقهما .

١- تفصيل الخبر عن هذه الفتنة عند ابن عذاري ٣ : ٥٠ - ١١٩ وفي أعمال الأعلام : ١٠٤ - ١٢٨

والذخيرة ١ / ١ : ٢٤ - ٤٠ .

٢ انظر تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٥٠ .

٣ ك : وغيره .

٤ ط : ولغظت .

٥ إليهم : سقطت من ق ط ج ك .

ولحق سليمانُ ابن أخيهما الحكم بجنود البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قُرْطُبة وتوامروا ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ، ونهضوا به إلى ثغر طَلَيْطَلَة ، فاستجاش بابن أذفونش ، ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة ، وبرز إليه المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة ، فكانت الدائرة عليهم ، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفاً ، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم ، ودخل المستعينُ قرطبة ختام المائة الرابعة . ولحق المهدي بطليطلة . واستجاش<sup>١</sup> بابن أذفونش ثانية ، فنهض معه إلى قرطبة ، وهزم المستعين والبرابرة بعقبَة البقر<sup>٢</sup> من ظاهر قُرْطُبة ، ودخل قرطبة - أعني المهدي - وملكها ، وخرج المستعينُ مع البربر ، وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يُبْقُون على أحد ، ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدي ومعه ابن أذفونش لاتباعهم ، فكروا عليهم ، فانهزم المهدي وابن أذفونش ومن معه من المسلمين والنصارى ، واتبعهم المستعين إلى قرطبة ، فأخرج المهدي هشاماً المؤيد للناس ، وبايع له ، وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك ينفعه ، وهيات ، وحاصرهم المستعينُ والبربر ، فخشي أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم ، فأغروا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهدي وأن الفتنة إنما جاءت من قبله ، وتولى كِبَر ذلك واضح العامري ، فقتلوا المهدي ، واجتمع الكافة على المؤيد ، وقام واضحٌ بحجابته ، واستمر الحصار ، ولم يغن عن أهل قُرْطُبة ما فعلوه شيئاً ، إلى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة ، وعُدمت المرافق ، وجهدهم الحصار ، وبعث المستعين إلى أهل [ ابن ] أذفونش يستقدمهم<sup>٣</sup> لمظاهرة ، فبعث إليهم هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك ، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قَشْتَالَة التي كان المنصور

١ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٥١ .

٢ عقبَة البقر (El-Vacar) على عشرين كيلومتراً شمالي قرطبة .

٣ ق : يستقدم ؛ ج : يستلهم .

افتتحها<sup>١</sup> ، فسكن عن مظاهرتهم عزم<sup>٢</sup> أذفونش ، ولم يزل الأمر حتى دخل  
المستعين<sup>٣</sup> قرطبة ومن معه من البربر عتوة سنة ثلاث وأربعمائة ، وقتل هشام  
سرّاً ، ولحق بيوتات قرطبة معرة في نساتهم وأبنائهم .

وظن المستعين<sup>٤</sup> أن قد استحکم أمره ، وتوثبت<sup>٥</sup> البرابرة والبيد على الأعمال ،  
فولوا المدن العظيمة ، وتقلدوا البلاد<sup>٦</sup> الواسعة ، مثل باديس بن حبّوس في  
غرناطة ، والبرزالي في قرمونة ، واليفرني في رندة ، وخزرون<sup>٧</sup> في شريش ،  
وافترق شمل الجماعة بالأندلس ، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل  
الدولة ، مثل ابن عبّاد بإشبيلية ، وابن الأفطس ببطنية ، وابن ذي النون  
بطلية ، وابن أبي عامر ببكنسية ، وابن هود بسرقة ، ومجاهد العامري  
بدانية والجزائر . . . . وكان ماثلاً لبني حمّود يهجو سليمان المستعين :

لا رحيم الله سليمانكم فإنه ضدّ سليمان  
ذاك به غلت شياطينها وحلّ هذا كلّ شيطان  
فباسمه ساحت على أرضنا لهلك سكان وأوطان

وكان من أعظم الأسباب في فساد دولة المستعين أنه قال هذه الأبيات  
مستريحاً بها إلى خواصّه ، وهي قوله :

حلفت بمن صلّي وصام وكبّر  
وأبصر دين الله تحيا رسومه  
لأغمدها فيمن طغى وتجبّرا<sup>٨</sup>  
فبدّل ما قد لاح منها<sup>٩</sup> وغيرا

١ ابن خلدون : اقتحمها .

٢ لا يزال النقل عن ابن خلدون مستراً .

٣ ق : وترتبت .

٤ بعض النسخ : الأعمال .

٥ ق ج ط ك : وهرزون .

٦ بياض في ط ، وفي ك : قال ابن خلدون . وفي ق : وقال الشاعر .

٧ ق : وتكبّرا .

٨ ك : كان منه .

فَوَاعِجَا مِنْ عَبْشَمِيٍّ مَمْلَكٍ      بِرَغْمِ الْعَوَالِي وَالْمَعَالِي تَبْرَبْرَا  
 فَلَوْ أَنْ أَمْرِي بِالْخِيَارِ نَبَذْتُهُمْ      وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْفِ حُكْمًا مَحْرَرَا  
 فِيمَا حَيَاةٍ تُسْتَلَدُّ بِفَقْدِهِمْ      وَإِمَا حِنَامٌ لَا نَرَى فِيهِ مَا زَرَى

وقد سلك هذا المسلك المرتضى المرواني فقال :

قَدْ بَلَغَ الْبَرَبْرُ فِينَا بِنَا      مَا أَفْسَدَ الْأَحْوَالَ وَالنِّظْمَا  
 كَالسَّهْمِ لِلطَّائِرِ لَوْلَا الَّذِي      فِيهِ مِنَ الرَّيْشِ لِمَا أَضْمَى  
 قَوْمُوا بِنَا فِي شَأْنِهِمْ قَوْمَةٌ      تُزِيلُ عَنَّا الْعَارَ وَالرَّغْمَا  
 إِمَّا بِهَا نَمْلِكُ ، أَوْ لَا نَرَى      مَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ بِهِ أَعْمَى

وكان علي بن حمّود الحسني وأخوه قاسم من عقب إدريس ملك فاس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العدوّة إلى الأندلس ، فدعوا لأنفسهم ، واعصوب عليهم البربر ، فملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة ، وقتلوا المستعين ، ومحووا ملك بني أمية ، واتصل ذلك في خلفٍ منهم سبع سنين ، ثم رجع الملك إلى بني أمية .

وكان المستعين المذكور أديباً بليغاً ، ومن شعره يعارض هرون الرشيد في قوله ١ :

ملك الثلاث الأنسات عناني

الأبيات - قوله :

عَجِبًا يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي      وَأَهَابُ سِحْرًا فَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ  
 وَأَقَارِعُ الْأَهْوَالِ لَا مُتَّهَبًا      مِنْهَا سِوَى الْإِعْرَاضِ وَالْهَجْرَانِ  
 وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثٌ كَالدُّمَى      زُهِرُ الْوُجُوهِ نَوَاعِمُ الْأَبْدَانِ

١ الذخيرة ١ / ١ : ٣٣ والبيان المغرب ٣ : ١١٨ والحلة ٢ : ٨ - ٩ والجدوة : ٢٠ - ٢١ .

٢ ك : لفظ .

ككواكب الظلماء لُحْنٌ لناظري  
 حَاكَمْتُ فِيهِنَّ السُّلُوَ إِلَى الرِّضَى<sup>١</sup>  
 هَذَا الْهَلَالُ ، وَتَلَّكَ بِنْتُ الْمُشْتَرِي  
 فَأُبْحَنَ مِنْ قَلْبِي الْحَمَى وَتَرْكَنِي  
 لَا تَعْذِلُوا مَلِكًا تَذَلُّلٌ فِي الْهَوَى  
 مَا ضَرَّ أَنْتِي عِبْدُهُنَّ صَبَابَةٌ  
 إِنْ لَمْ أُطِيعَ فِيهِنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى  
 مِنْ فَوْقِ أَغْصَانٍ عَلَى كُثْبَانٍ  
 قَفَضِي بِسُلْطَانٍ عَلَى سُلْطَانِي  
 حُسْنًا ، وَهَذَا أُخْتُ غُضْنِ الْبَانِ  
 فِي عِزِّ مَلِكِي كَالْأَسِيرِ الْعَانِي  
 ذُلُّ الْهَوَى عِزٌّ وَمَلِكٌ ثَانِي  
 وَبَنُو الزَّمَانِ وَهُنَّ مِنْ عِبْدَانِي  
 كَلَّفَا بَنِي فُلَسْتُ مِنْ مَرَّوَانِ

\* \* \*

[ بنو حمود ]<sup>٢</sup>

وولي الأمر بعده علي<sup>٣</sup> بن حمود الحسني ، تلقب بالناصر ، وخرج عليه العبيد وبعض المغاربة ، وبايعوا المرتضى أخا المهدي ، ثم اغتيل المرتضى ، واستقام الملك لعلي بن حمود نحو عامين ، إلى أن قتله صقالبته بالحمام سنة ثمان وأربعمائة ، فولي مكانه أخوه القاسم ، وتلقب بالمأمون ، ونازعه الأمر بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابن أخيه ، وكان على سبته ، فأجاز إلى الأندلس سنة عشر ، واحتل بمالقة وكان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما ، فبعثه إلى سبته ، ثم زحف يحيى إلى قرطبة فملكها سنة ثني عشرة وأربعمائة ، وتلقب المعتلي ، وفر عمه المأمون إلى إشبيلية وبايع له القاضي ابن عباد ، واستجاش بعض البرابرة ، ثم رجع إلى قرطبة سنة ثلاث عشرة وملكها ، ثم لحق المعتلي بمكانه من مالقة ، وتغلب على الجزيرة الخضراء وتغلب أخوه إدريس على طنجة من وراء البحر ، وكان المأمون يعتدُّها حصناً لنفسه ، وفيها ذخائره ،

١ ك : الهوى ؛ دوزي : الصبا .

٢ انظر جذوة المقتبس ٢١ - ٢٤ في الحموديين .

٣ وولي . . . علي : موضعها بياض في ط ؛ وفي ج : ولما ملك علي . . . الخ . وفي ق : ثم إن ابن حمود . . . الخ .

فلما بلغه الخبر اضطرب ، وثار عليه أهل قرطبة ، ونقضوا طاعته ، ومخرج فحاصروهم فدافعوه ، ولحق بإشبيلية فمنعوه ، وكان بها ابنه فأخرجوه إليه ، وضبطوا بلدهم ، واستبدَّ ابنُ عباد بملكها ، ولحق المأمون بشريش ، ورجع عنه البربر إلى يحيى المعتلي ابن أخيه ، فبايعوه سنة خمس عشرة ، وزحف إلى عمه المأمون فتغلب عليه ولم يزل عنده أسيراً وعند أخيه إدريس بمالقة إلى أن هلك بمحبسه سنة سبع وعشرين ، وقيل : إنه خُنق كما سيأتي ، واستقل المعتلي بالأمر ، واعتقل ابني عمه القاسم .

وكان المستكفي من الأمويين استولى على قرطبة في هذه المدة عندما أخرج أهلها العلوية ، ثم خلع أهل قرطبة المستكفي الأموي سنة ست عشرة ، وصاروا إلى طاعة المعتلي ، واستعمل عليهم ابن عطاف من قبيلة ، ثم نقضوا سنة سبع عشرة ، وصرفوا عاملهم ، وبايعوا للمعتد الأموي أخي المرتضى ، وبقي المعتلي يردّد لحصارهم العساكر إلى أن انفقت الكلمة على إسلام الحصون والمدائن له ، فعلا سلطانه ، واشتدّ أمره إلى أن هلك سنة تسع وعشرين ، اغتاله أصحابه بدسياسة ابن عبّاد الثائر بإشبيلية ، فاستدعى أصحابه أخاه إدريس ابن علي [ بن حمود ] من سبّنة وملّكوه ، ولقبوه المتأيّد ، وبايعته رُنْدَة وأعمالها والمريّة والجزيرة الخضراء ، وبعث عساكره لحرب أبي القاسم إسماعيل ابن عبّاد والد المعتضد بن عباد ، فجاءوه برأسه بعد حروب ، وهلك ليومين بعد ذلك سنة إحدى وثلاثين ، وبويع ابنه يحيى ، ولم يتم له أمر ، وبويع حسن المستنصر بن المعتلي ، وفر يحيى إلى قمارش<sup>٢</sup> فهلك بها سنة أربع وثلاثين ، ويقال : إنّه قتله نجا ، وهلك حسن مسموماً بيد ابنة عمه إدريس ، تأرت منه بأخيها ، وكان إدريس بن يحيى المعتلي معتقلاً بمالقة فأخرج بعد خطوب وبويع بها ، فأطاعته غرناطة وقدمونة ، ولقب العالي ، وهو المدوح بالقصيدة

١ في الأصول : بي .

٢ قمارش (Comares)



المشهورة بالمغرب التي قالها فيه أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا القبيداني<sup>١</sup>  
الأشبوني من شعراء الذخيرة ، وهي :

ذَرَقْتُ عَيْنَكَ بِالماءِ <sup>٢</sup> المَعِينِ	الْبِرْقِ لائِحٍ مِنْ أُنْدَرِينَ
كَمَخَارِقِ بَأْيَدِي اللَّاعِبِينَ	لَعِبْتُ أَسْيَافَهُ عَارِيَةً
وَلِقَلْبِي زَفَرَاتٌ وَأَنِينٌ	وَلِصَوْتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وَحَنِينٌ
وَيْكَ لَا أَسْمَعُ <sup>٣</sup> قَوْلَ العَاذِلِينَ	وَأَنَاجِي فِي الدُّجَى عَاذِلَتِي
إِنَّ هَـذَيْنِ لَدِينِ العَاشِقِينَ	عَبَّرْتَنِي بِسَقَامِ وَضَنِّي
فَاسْقِنِيهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ الأَذِينِ	قَدْ بَدَأَ لِي وَضَحُ الصُّبْحِ المَبِينِ
لَبِثْتُ فِي دَتِّهَا بِضِعِّ سِنِينَ	إِسْقِنِيهَا مِزَّةً مَشْمُولَةً
دُرّاً عَامَتَ فَعَادَتِ كَالْبُرِينِ	نَشَرَ المَرْجُ عَلَى مَقْرِقِهَا
يَتَهَادَوْنَ رِياحِينَ المَجُونِ <sup>٤</sup>	مَعَ فِتْيَانِ كَرَامِ نُجُبِ
نَوَّرَ الوَرْدُ بِهِ وَاليَاسَمِينَ	شَرَبُوا الرِّاحَ عَلَى خَدِّ رَشَاً
سَبَّحَ الشَّعْرَ عَلَى عَاجِ الجَبِينِ	وَجَلَّتْ آيَاتُهُ <sup>٥</sup> عَامِدَةً
ضَمَّةَ اللّامِ عَلَى عَطْفَةِ نونِ	لَوَتْ الصُّدْغَ عَلَى حَاجِبِهِ
وَتَرَى لَيْلًا عَلَى صُبْحِ مَبِينِ	فَتَرَى غَصْنَاً عَلَى دِعْصِ نَقَاً
بَأَبَارِقِ وَكأسِ مِنْ مَعِينِ	وَسَيُسْقَوْنَ إِذَا مَا شَرَبُوا

١ تصحفت هذه اللفظة في النسخ فهي القنذاني في ق ط ك ؛ والقنذاني في ج ؛ والغيداني ؛ والقبيداني ؛  
والقبيداني ؛ وقد أثبتها محقق المغرب « القبيداني » ( ١ : ٤١٣ ) فالحرف الأخير منها قاف على  
التأكيد إذ يوافق سجع ابن سعيد « كتاب حديقة الأحداق في حلى قرية القبيداني » ؛ وهي من قرى  
أشبونة ويقول ابن بسام إن القبيداني ( ؟ ) من ساحل شنرة ، وقصيدة ابن مقانا ورد قسم منها  
في المغرب ؛ وفي الذخيرة ( القسم الثاني ، الورقة : ٣٠٣ ) .

٢ ق ج : بالدمع .

٣ الذخيرة : لا أقبل .

٤ بعد هذا البيت في الذخيرة :

وعليم زاجر من حلمهم

٥ اقرأ : رجلت داياته ، وهي رواية المغرب .

وَمَصَابِيحُ الدُّجَى قَدْ طُفَّتْ  
 وَكَأَنَّ الظِّلَّ مِسْكٌ فِي الثَّرَى  
 وَالنَّدَى يَقَطُرُ مِنْ نَرَجِسِهِ  
 وَالثَّرِيَا قَدْ هَوَتْ مِنْ أَفْقِهَا  
 وَانْبَرَى جَنحُ الدُّجَى عَنْ صُبْحِهِ  
 وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمَّا أَشْرَقَتْ  
 وَجَهُ إِدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ  
 مَلِكٌ ذُو هَيْبَةٍ لَكِنَّهُ  
 خَطَّ بِالْمِسْكِ عَلَى أَبْوَابِهِ :  
 فَإِذَا مَا رُفِعَتْ رَايَاتُهُ  
 وَإِذَا أَشْكَلَ خَطْبُ مُعْضِلٍ  
 فَيَسُرُّهُ يَسَارُ الْمُعْسِرِينَ  
 يَا بَنِي أَحْمَدَ يَا خَيْرَ الْوَرَى  
 نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ فَاحْتَبِي  
 خَلِقُوا مِنْ مَاءِ عَدْلٍ وَتَقَيَّ  
 انظُرُونَا نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ

وقيل : إنه أنشده إياها من وراء حجاب اقتفاءً لطريقة خلفاء بني العباس ،  
 فلما بلغ إلى قوله :

انظُرُونَا نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ  
 أمر حاجبه أن يرفع الحجاب ، وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب ،

١ الذخيرة : قد علت في .

٢ بعده في الذخيرة :

وينادي الجود في آفاقه يموا قصر أمير المؤمنين

٣ صدر البيت سقط من ج ط .

وأمر له بإحسان جزيل<sup>١</sup> ، فكان هذا من أنبل ما يُحكى عنه .  
وخُلِعَ العالِي سنةَ ثمانٍ وثلاثين ، وولي ابنُ عمِّه محمد بن إدريس بن  
علي ، وتلقَّب بالمهدي ، وتوفي سنة أربع وأربعين .

وبويع إدريس بن يحيى بن إدريس ، ولقَّب الموفق ، ولم يخطب له بالخلافة  
وزحف إليه العالِي إدريس المخلوع المدوح بالقصيدة السابقة ، وكان بقمارش ،  
فدخل عليه مالقة<sup>٢</sup> ، وأطلق أيدي عبيده عليها لحقه عليهم ، ففرَّ كثير منهم ،  
وتوفي العالِي سنة ست أو سبع وأربعين .

وبويع محمد بن إدريس ، ولقَّب المستعلي ، ثم سار إليه باديس بن حبّوس  
سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، فتغلَّب على مالقة ، وسار محمد إلى المريّة  
مخلوعاً ، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مملكة [ فأجاز إليهم ]<sup>٣</sup> وباعوه سنة ست  
 وخمسين ، وتوفي سنة ستين .

وكان محمد بن القاسم بن حمّود لما اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة أربع  
عشرة فرَّ من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها ، وتلقَّب بالمعتصم ،  
إلى أن هلك سنة أربعين ، ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواصل ، إلى أن هلك سنة  
خمسين ، وصارت الجزيرة للمعتضد بن عبّاد ، ومالقة لابن حبّوس مزاحماً  
لابن عبّاد .

وانقرضت دولة الأشراف الحمّوديين من الأندلس ، بعد أن كانوا  
يبدِّعون الخلافة .

\* \* \*

[ خلافة المستظهر ]<sup>٣</sup>

وأما قرطبة فإن أهلها لما قطعوا دعوة الحمّوديين بعد سبع سنين من ملكهم

١ في نسخة : بمال جزيل .

٢ زيادة من ابن خلدون وفي ق ط ج : إلى مليلة وجارت .

٣ انظر الحلة السراء ٢ : ١٢ .

وزحف إليهم القاسم بن حمّود في البربر ، فهزّمهم أهل قرطبة ، ثم اجتمعوا  
 واففقوا على ردّ الأمر لبني أمية ، واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن  
 عبد الجبار أخا المهدي ، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ،  
 ولقبوه المستظهر وقاموا بأمره ، ومن شعره قوله<sup>١</sup> :

طال عُمُرُ الليلِ عندي      مذ<sup>٢</sup> تولّعتَ بصدّي  
 يا غزالاً نقض العهـد      ولم يُوفِ بوعدِ  
 أنسيتَ العهدَ إذ به      نا على مفرشِ وِردِ  
 واجتمعنا في وشاحٍ      وانتظّمنا نظمَ عقدِ  
 ونجومُ الليلِ تحكي      ذهباً في لازوردِ

قال الحِجاري : لو قال « لؤلؤاً في لازوردٍ » لكان أحسن تشبيهاً ، وأنشد  
 مثلاً :

إنّا عصابتك الألى      كنا نكابد ما تكابدُ  
 هذا أوانٌ بلوغنا<sup>٣</sup> الـ      نَعْنى وإنجازِ المواعدِ

وكان حسان بن أبي عبدة<sup>٤</sup> من وزراء المستظهر ، ولما أكثر المستظهر دونه  
 الاستبداد كتب إليه بقوله<sup>٥</sup> :

إذا غِبتُ لم أحضِرْ ، وإن جئتُ لم أسلُ      فسيان مني مشهدٌ ومغيبُ

١ الخلة ٢ : ١٦ .

٢ ك : . قد .

٣ ج ط ق : بلوغ أواننا .

٤ حسان بن مالك بن أبي عبدة الوزير من الأئمة في الأدب واللغة ، ألف للمصور كتاباً في الأسمار  
 ووزر للمستظهر ، وتوفي قبل سنة ٤٢٠ (الجدوة : ١٨٣ والبغية رقم : ٦٦٢ والمطلع :

( ٢٦ ) .

٥ البيتان في المصادر السابقة .

فَأَصْبَحْتُ تَيْمِيًّا ، وما كنتُ قبلها لَيْتِيْمًا ، ولكنَّ الشَّيْءَ نَسِيبُ  
يشير إلى قول الأول :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ  
ولا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودٌ  
وعاتبه أيضاً بقوله :

إذا كان مثلي لا يُجَازِي بِصَبْرِهِ  
وكم مَشْهَدٌ حَارَبْتُ فِيهِ عَدُوَّكُمْ  
أُحْوِضُ إِلَى أَعْدَائِكُمْ لُجَجَ الْوَعْيِ  
وقَدْ نَامَ عَنْهُمْ كُلُّ مُسْتَبْطِنِ الْحِشَا  
فَمَا بَالُ هَذَا الْأَمْرِ أَصْبَحَ ضَائِعًا  
فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يَجَازِي عَلَى الصَّبْرِ  
وَأَمَلْتُ فِي حَرْبِي لَهُ رَاحَةَ الدَّهْرِ  
وَأَسْرِي إِلَيْهِمْ حَيْثُ لَا أَحَدٌ يَسْرِي  
أَكُولُ إِلَى الْمُنْسَى نَوْمًا إِلَى الظُّهْرِ  
وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ تَحْكُمُ فِي الْأَمْرِ

وسياتي إن شاء الله تعالى من كلام الوزير المذكور ما يدل على عظيم قدره ،  
وهناك نذكر تحلية الفتح له .

#### [ بيعة المستكفي والمعتد ]

ثمَّ نَارَ عَلَيْهِ لَشَهْرَيْنِ مِنْ خِلاَفَتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَمِيرِ  
الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ ، فَاتَّبَعَهُ الْغَوَاغَاءُ ، وَفَتَكَ بِالْمَسْتَظْهَرِ ، وَتَلَقَّبَ بِالْمَسْتَكَفِيِّ ،  
وَاسْتَقَلَّ بِأَمْرِ قَرْطُبَةَ ، وَهُوَ وَالِدُ الْأَدِيبَةِ الشَّهِيرَةِ وَالْأَدَةِ ، وَلَعَلَّنَا نَلْمُ بَعْضَ  
أَخْبَارِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا بَعْدَ ، وَكَانَ أَبُوهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَتْلَهُ الْمَنْصُورُ بْنُ  
أَبِي عَامِرٍ لَسَعِيهِ فِي الْخِلاَفِ ٢ .

ثمَّ بَعْدَ سِتَّةِ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ بَيْعَةِ الْمَسْتَكَفِيِّ رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَى الْمَعْتَلِيِّ بِحَيْبِ بْنِ  
عَلِيِّ بْنِ حَمَّودٍ سِتَّةَ عَشْرَةَ ، وَخَلَعَ أَهْلُ قَرْطُبَةَ الْمَسْتَكَفِيَّ ، وَوَلِيَ عَلَيْهِمُ

١ ق : بيار ، ط ج : بيجاز .  
٢ ك : الخلافة .

المعتلي من قبله ، وفرَّ المستكفي إلى ناحية الثغر ، ومات في مَفْرَه ، ثم بدا لأهل قُرْطُبَة فدخلوا المعتلي بن حَمُود سنة سبع عشرة ، وبايع الوزير أبو محمد جَهْوَر ابن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخي المرتضى ، وكان بالثغر في لارِدَة عند ابن هُود ، وذلك سنة ثماني عشرة ، وتلقب المعتد بالله ، وأقام متردداً في الثغر ثلاثة أعوام ، واشتدت الفتن بين رؤساء الطوائف ، واتفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقُرْطُبَة ، فاستقدمه ابن جَهْوَر والجماعة ، ونزلها آخر سنة عشرين ، وأقام بها يسيراً ، ثم خلعه الجند سنة ثنتين وعشرين ، وفرَّ إلى لارِدَة فهلك بها سنة ثمان وعشرين .

[ انقضاء الأموية وظهور ملوك الطوائف ]

وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلافة ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ، واقتسموا خُطَّتْها ، وتغلب بعض على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع إليهم البحر ملك العُدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني ، فخلعهم وأخلى منهم الأرض .

[ ملوك الطوائف ]

[ ١ - بنو عباد وبنو جهور ]

فمن أشهرهم بنو عباد ملوك إشبيلية وغرب الأندلس الذين منهم المعتمد ابن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق ، وفي الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كافٍ شافٍ .

ومنهم بنو جَهَنور ، كانوا بقرطبة في صورة الوزارة ، حتى استولى عليهم المعتمد بن عباد ، وأخذ قرطبة ، وجعل عليها ولده ، ثم كانت له وعليه حروب وخطوب ، وفرق أبناءه على قواعد الملك ، وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعَلَّتْ يدهُ على من كان هنالك من ملوك الطوائف ، مثل ابن حبّوس<sup>١</sup> بقرنطة ، وابن الأفضس ببطليوس ، وابن صُمّاح بالمرية ، وغيرهم ، فكانوا يخطبون سلّمه ، ويغنون<sup>٢</sup> في مرضاته ، وكلهم يُدّآرون الطاغية ويتقون بالجزية ، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين ، واستفحل ملكه ، فتعلقت آمال الأندلس بإعانتة ، وضايقهم الطاغية في طلب الجزية ، فقتل المعتمد اليهودي الذي جاء في طلب الجزية للطاغية ، بسبب كلمة آسّقه بها ، ثم أجاز البحر صريحاً إلى يوسف بن تاشفين ، فأجاز معه البحر ، والتقوا مع الطاغية في الزلاّقة ، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى ، ونصر الله تعالى الإسلام نصراً لا كفاء له ، حتى قال بعض المؤرخين : إنّه كان عدد النصارى ثلاثمائة ألف ، ولم ينج منهم إلاّ القليل ، وصبر فيها المعتمد صبر الكرام ، وكان قد أعطى يوسف بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكن من الجواز متى شاء ، ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف بن تاشفين رفع الكوس والظلمات عنهم ، فتقدّم بذلك إلى ملوك الطوائف ، فأجابوه بالامثال ، حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم ، وهو خلال ذلك يُردّد عساكره للجهاد ، ثمّ أجاز إليهم وخلع جميعهم ، ونازلت عساكره جميع بلادهم ، واستولى على قرطبة وإشبيلية وبطليوس وقرنطة وغيرها ، وصار المعتمد بن عباد كبير ملوك الأندلس في قبضته أسيراً بعد حروب ، ونقله إلى أغمات قرب مراکش سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، واعتقله هنالك إلى أن مات سنة ثمان وثمانين ، وسنم بما قاله الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه حين زار قبره .

١ في الأصول : ابن باديس .

٢ ويغنون : سقطت من ق ؛ وفي ج ط : ويغنون .

وللمعتمد هذا أخبار مأثورة خصوصاً مع زوجته أم أولاده الرميكية الملقبة  
 باعتماد ، وقد روي أنها رأت ذات يوم بإشبيلية نساء البادية يبعن اللبن  
 في القرب وهنّ رافعات عن سوقهنّ في الطين ، فقالت له : أشتهي أن أفعل  
 أنا وجواريّ مثل هؤلاء النساء ، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء  
 الورد ، وصيّر الجميع طيناً في القصر ، وجعل لها قرباً وحبالاً من إبريسم ،  
 وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين ، فيقال : إنّه لما خلّع وكانت  
 تتكلم معه مرّة فجرى بينهما ما يجري بين الزوجين ، فقالت له : والله ما  
 رأيت منك خيراً ، فقال لها : ولا يوم الطين ؟ تذكيراً لها بهذا اليوم الذي  
 أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، فاستحيت وسكتت .  
 ومن أعظم ملوك الطوائف غير من تقدم بنو رزيّن أصحاب السهلة ،  
 وبنو الفهري أصحاب البونت ، وتغلب عليهما أخيراً يوسف بن تاشفين .

## [ ٢ - بنو ذي النون بطليطة ]

ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجحوتي ،  
 وكانت لهم دولة كبيرة ، وبلغوا في البذخ والترف إلى الغاية ، ولهم الإعدار  
 المشهور الذي يقال له « الإعدار الذئثوني » وبه يضرب المثل عند أهل المغرب ،  
 وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق ، والمأمون من بني ذي النون  
 هو صاحب ذلك ، وهو الذي عظم بين ملوك الطوائف سلطانه ، وكان بينه  
 وبين الطاغية مواقف مشهورة ، وغلب على قرطبة ، وملكها من يد ابن عبّاد  
 المعتمد ، وقتل ابنه أبا عمرو ، وغلب أيضاً على بلنسية وأخذها من يد بني  
 ابن أبي عامر .

١ منك : سقطت من ق ط ج .

٢ ك : وولي بعده غير من تقدم ، وسقط ما يقابله من ط ؛ وفي ج : ومن ملوك . . . الخ ؛

وسقطت « غير من تقدم » من ك .



وفي أيام حافد المأمون - وهو القادر بن ذي النون - كان الطاغية ابن أذفونش قد استفحل أمره ، لما خلا الجو من مكان الدولة الخلافية ، وخف ما كان على كاهله من إصر العرب ، فاكسح البساط ، وضايق ابن ذي النون ، حتى أخذ من يده طليطلة ، فخرج له عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما سبق ، وشرط عليه أن يظاھره على أهل بكنسية ، فقبل شرطه ، وتسلمها [ ابن ] الفونش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .  
ومن أعظم ملوك الأندلس الموالي العامريون<sup>١</sup> مثل خيران وزهير وأشباههما .  
وأخبار الجميع تطول .

\* \* \*

[ بنو هود بسرقسطة ]

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود ملوك سرقسطة وما إليها ، ومن أشهرهم المقتدر بالله ، وابنه يوسف المؤمن ، وكان المؤمن قائماً على العلوم<sup>٢</sup> الرياضية ، وله فيها تأليف ، ومنها كتاب الاستكمال<sup>٣</sup> والمناظر ؛ وولي بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طليطلة ، وعلى يده كانت وقعة وشقة - زحف سنة تسع وثمانين في آلاف لا تحصى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وشقة ، وكان محاصراً لها ، فلقبه الطاغية وهزمه ، وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف ، وهلك هو شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة ، بظاهر سرقسطة في زحف الطاغية إليها ، وولي ابنه عبد الملك عماد الدولة ، وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ثنتي عشرة ، وتولى ابنه سيف الدولة ، وبالغ في النكاية بالطاغية ، ثم اتفق معه ، وانتقل بحشمه إلى طليطلة ، فكان فيها حمامه .  
ومن شعر المقتدر بن هود قوله رحمه الله في مبانیه :

١ ك : ثم زحف على الموالي العامريين ؛ مع اتصال النص بما قبله .

٢ ق ك : الأمور ؛ والتصويب عن ابن خلدون .

٣ ابن خلدون : الاستهلال .

قَصَرَ السَّرورَ ومَجَلَسَ الذَّهَبِ      بَكمَا بَلَغَتْ نَهايَةَ الأربِ  
لو لَمْ يَحْزُ مَلِكِي خِلافَكمَا      كَانَتْ لَدَيَّ كَفايَةَ الطَلَبِ

\* \* \*

[ بنو الألفس ببطليوس ]

ومن مشاهير ملوك الطوائف<sup>١</sup> بنو الألفس أصحاب بطليوس وما إليها ،  
والمظفر منهم هو صاحب التأليف المسمى بالمظفري في نحو الخمسين مجلداً ،  
والمتوكل منهم قُتل على يد جيش يوسف بن تاشفين ، وفيه قال ابن عبدون  
قصيدته المشهورة :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعدَ العَينِ بالأثرِ      فَمَا البِكاءُ عَلى الأشْباحِ والصُّورِ

وهي من غرر القصائد<sup>٢</sup> .

\* \* \*

[ الممتنون ثم الموحدون ]

فلما استولى<sup>٣</sup> لمتونة على بلاد الأندلس<sup>٤</sup> وأزالوا ملوك الطوائف  
منها ، وبقيت عمالهم تردّد إليها وبنوهم حتى فشلت ريجهم ، وهبت ريج  
الموحدين ، أعني عبد المؤمن بن عليّ وبنيه ، فحاربوا لمتونة ، واستولوا  
على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة ، ثمّ أجازوا البحر إلى الأندلس ،  
وملكوا أكثر بلاد الأندلس ، وملك بنو مردنيش شرق الأندلس ، وملخص  
ذلك أن الأندلس كان ملكها مجموعاً للمتونة بعد خلعهم ملوك الطوائف ،  
فلما اشتغل لمتونة في العُدوة بحرب الموحدين اضطربت عليهم الأندلس ،

١ سقطت كلمة « الطوائف » من ط ج ق ك .

٢ ك : القصائد الأندلسية .

٣ ج : أخذ . . . الأندلس .

٤ فلما استولى . . . الأندلس : سقطت هذه الجملة من ك .

وعادت إلى الفرقة بعض الشيء ، ثم خلس أكثرها لعبد المؤمن وبنيه بعد حروب منها ما حصل بين عبد المؤمن وبين ابن مردنيس وقائده ابن همشك<sup>١</sup> بفحص غرناطة ، وقد استعان ابن مردنيس بالنصارى على الموحدين ، فهزمهم عبد المؤمن ، وقتلهم أبرح قتل ، واستخلص غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة من يد ابن مردنيس .

\* \* \*

### [ غزوة الأرك ]

وولي الأمر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف ، وأجاز إلى الأندلس ، وكانت له مواقف في جهاد العدو ، وولي بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت ، وكانت له في النصارى بالأندلس نكاية كبيرة ، ومن أعظمها غزوة الأرك التي تضاهاى وقعة الزلاقة أو تزيد ، والأرك : موضع بنواحي بطليوس ، وكانت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره ، وكان عدة من قتل من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وعدة الأسارى ثلاثين ألفاً ، وعدة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة ، والخيل ثمانين ألفاً ، والبغال مائة ألف ، والحمير أربعمائة ألف ، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم ، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى ، وبيع الأسير بدرهم ، والسيف بنصف درهم ، والفرس بخمسة دراهم ، والحمار بدرهم ، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ، ونجا الفتنش ملك النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صلبه ، وآلى أن لا ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرساً ولا دابة ، حتى يأخذ بالثأر ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعد ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه إلى طليطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها ، ولم

١ ق ك ط : همشكه .

يبقى إلا فتحها ، فخرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه وبكسين بين يديه ، وسألته إبقاء البلد عليهن ، فرقّ لهنّ ومنّ عليهن بها ، ووهب لهنّ من الأموال والجواهر ما جلّ ، وردّهنّ مكرّماً ، وعفا بعد القدرة ، وعاد إلى قرطبة ، فأقام شهراً يقسم الغنائم ، وجاءته رسّلة الفنش يطلب الصلح ، فصالحه ، وأمنّ الناس مدّته ، وفيه يقول بعض شعراء عصره :

أهلٌ بأنّ يُسعى إليه ويرتجى      ويزار من أقصى البلاد على الرجا  
منّ قد غدا بالمكرّمات مقلّداً      وموشحاً ومختماً ومُتوجّجا  
عمرت مقامات الملوك بذكره      وتعطرت منه الرياح تارّجا

\* \* \*

#### [ بين صلاح الدين ويعقوب الموحي ]

وهو الذي<sup>١</sup> أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمس الدين<sup>٢</sup> بن منقذ يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدّسة<sup>٣</sup> ، ولم يخاطبه بأمر

١ هذه رواية ج ؛ وفي ق : ولما تغلبت الفرنج على الساحل أرسل السلطان ؛ وفي ط : أرسل الخ ؛ وفي ك : ولما أرسل ...

٢ في الروضتين : شمس الدولة ؛ واسمه عبد الكريم ( انظر مقدمة ابن خلدون : ٦٣١ ) .  
٣ لدينا من الكتب التي أرسلها صلاح الدين للخليفة الموحي المنصور كتاب تاريخه سنة ٥٨٥ من إنشاء الفاضل ، وفيه يستجيشه على الفرنج أثناء قتاله معهم حول عكا ( صبح الأعشى ٦ : ٥٢٦ - ٥٣٠ ) يلقبه فيه بأمر المؤمنين ، يتلوه كتاب ثان في ٢٧ شعبان سنة ٥٨٦ بقلم الفاضل أيضاً إلى شمس الدين بن منقذ ( الروضتين ٢ : ١٧٠ ) يطلب فيه المعاونة بإرسال قطع من الأسطول المغربي أثناء حصار الفرنج لعكا ، ويحتوي التعليمات الموجه بها شمس الدين ، ثم خطاب مرسل إلى المنصور ( الروضتين ٢ : ١٧١ ) وهو الذي يشير إليه المقرئ وبدايته « من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب » ( وتاريخه شعبان سنة ٥٨٦ ) ؛ وهناك كتاب للقاضي الفاضل رفعه إلى صلاح الدين ( الروضتين ٢ : ١٧٤ ) وهو يحاول فيه أن يقنع صلاح الدين بقبول صيغة « من الفقير إلى الله تعالى » ويستقبح أن يكتب « الخادم » ؛ ومن رأي الفاضل أن لا تتم المكاتبة لأن الجواب عنها يستغرق سنتين وفي هذه المدة « فما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسي الظن بالله » . وأثناء مقام ابن منقذ في المغرب أرسل إليه كتاب يشرح فيه أخبار القتال حول عكا ( الروضتين ٢ : ١٨٨ ) .

المؤمنين ، فلم يُجِبْهِ إلى ما طلبه ، وكل ذلك في سنة ٥٨٧ ، ومدحه ابن منقذ بقوله من قصيدة :

سأشكُرُ بَحْرًا ذَا عُبَابٍ قَطَعْتَهُ      إلى بحر جُودٍ ما لأخراه سَاحِلُ  
إلى مَعْدِنِ التَّقْوَى إلى كَعْبَةِ النَّدى      إلى مَنْ سَمَتَ بِالذِّكْرِ مِنَ الْأَوَائِلِ  
إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تَزَلْ      إلى بابِكَ المأمولِ تَزْجِي الرِّوَاحِلِ  
قَطَعْتَ إِلَيْكَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ مُوقِنًا      بَأَنَّ نَدَاكَ الْغَمْرَ بِالنَّجْحِ كَافِلِ  
وَحَزْتُ بِقَصْدِكَ الْعُلَا فَبَلَّغْتُهَا      وَأَدْنَى عَطَايَاكَ الْعُلَا وَالْفَوَاضِلِ  
فَلَا زَلْتَ لِلْعَلِيَاءِ وَالْجُودِ بَانِيًا      تَبْلَغُكَ الْأَمَالُ مَا أَنْتَ آمِلِ

وعدها أربعون بيتاً ، فأعطاه بكل بيت ألفاً ، وقال له : إنما أعطيناك لفضلك وليبتك .

وكان عنوان الكتاب الذي أرسله صلاح الدين « إلى أمير المسلمين » وفي أوله « الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب » وبعده من إنشاء الفاضل « الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفة من استعمر الأرض ، وأغنى من أهلها من سأل القرض ، وأجزى من أجرى على يده النافلة والقرض ، وزين سماء الملة بدراري الدراري التي بعضها من بعض » وهو كتاب طويل سأله فيه أن يقطع عنه مادة البحر ، واستنجد على الإفرنج إذ كانت له اليد عليهم ، وعاد ابن منقذ من هذه الرسالة سنة ٥٨٨ بغير فائدة ، وبعث معه هدية حقيرة ، وأما ابن منقذ فإنه أحسن إليه وأغناه ، لا لأجل صلاح الدين ، بل لبيته وفضله كما مر ، وما وقع من يعقوب في صلاح الدين إنما هو لأجل أنه لم يوقه حقه في الخطاب .

\* \* \*

[الموحدون والأندلس]

رجع<sup>١</sup> : ولما استفحل أمر الموحدين بالأندلس استعملوا القَرَابة على الأندلس

١ في ق : رجع إلى أخبار يعقوب ؛ والنص متابع لما ورد عند ابن خلدون ٤ : ١٦٦ .

وكانوا يُسمّونهم السادة ، واقتسموا ولاياتها بينهم ، ولهم مواقف في جهاد العدوّ المذكورة ، وكان صاحب الأمر بمراكش يأتي الأندلس للجهاد ، وهزم يعقوب المنصور كما سبق قريباً بالأرك ابن أذفونش ملك الجلالقة الهزيمة الشنعاء .

\* \* \*

### [ العقاب والوثايا أمر الموحدين ]

وأجاز ابنه الناصر الوالي بعده البحر إلى الأندلس من المغرب سنة تسع وستمائة ومعه من الجنود ما لا يحصى ، حتى حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنّه اجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل ، فمحض الله المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب ، واستشهد منهم عدّة ، وكانت سبب ضعف المغرب والأندلس ، أمّا المغرب فيخلاء كثير من قرّاه وأقطاره ، وأمّا الأندلس فيطلب العدو عليها ، لأنّه لما التاث أمر الموحدين بعد الناصر ابن المنصور انتزى السادة بنواحي الأندلس كل في عمله ، وضعف ملكهم بمراكش ، فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض ، وإسلام حصون المسلمين إليه في ذلك ، فمشت رجالات الأندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الأموية ، وأجمعوا على إخراجهم ، فثاروا بهم حين واحد وأخرجوهم ، وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي الثائر بالأندلس وابن مرّد تيش وثوار آخرون .

\* \* \*

### [ ابن هود ومناقبه ابن الأحمر ]

قال ابن خلدون<sup>١</sup> : ثم خرج على ابن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، وتلقب محمد هذا بالشيخ ، فعجّابه الحبل ، وكانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه ، انتهى .

١ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٦٧ .

وكان ابن هود يحطب للعباسي صاحب بغداد ، ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروبٌ وخطوبٌ إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكل ، فضايقه الفنش والبرشلوني فبعث بالطاعة لابن الأحمر ، فبعث إليه ابن أشقيلولة ، وتسلم مُرْسِيَّةَ منه ، وخطب لابن الأحمر بها ، ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر ، فأوقع به النصارى في طريقه ، ثم رجع الواثق إلى مُرْسِيَّةِ ثالثة ، فلم يزل إلى أن ملكها العدو من يده سنة ثمان وستين وستمائة ، وعوّضه عنها حصناً يسمى يُسْر ، وهو من عملها ، فبقي فيه إلى أن هلك . وانقرضت دولة ابن هود ، والله وارثُ الأرضِ ومنَّ عليها .

\* \* \*

#### [ دولة بني الأحمر ]

ولنذكر ملوك بني الأحمر<sup>١</sup> إجمالاً لأن لسان الدين وزير أحدهم ، ولأنهم آخر ملوك الأندلس ، ومن يدهم استولى النصارى على جميعها كما سنذكره . قال ابن خلدون<sup>٢</sup> : أصلهم من أَرْجُونَةَ من حصون قُرْطُبَةَ ، ولهم فيها سَلَفٌ من أبناء الجند ، ويُعرفون ببني نصر ، ويتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدّين محمد بن يوسف بن نصر ، ويُعرف بالشيخ ، وأخوه إسماعيل وكانت له وجهة في ناحيتهم .

ولما فشلت ريج الموحدّين ، وانتزى الثوار بالأندلس ، وأعطى السادة حصونها للطاغية ، استقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمُرْسِيَّةِ بدعوة العباسية ، وتغلب على شرق الأندلس أجمع ، فتصدى الشيخ هذا للثورة وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة ، ودعا لأبي زكرياء صاحب إفريقية ، وأطاعته جيّان وشريش سنة ثلاثين بعدها ، واستظهر على أمره بقرابته من

١ في ك : رجع إلى ذكر دولة أولاد الأحمر ؛ وسقطت لفظة « ملوك » من ج .

٢ ابن خلدون ٤ : ١٧٠ .

بني نصر وأصهاره بني أشقيلولة ، ثم بايع لبني هُود سنة إحدى وثلاثين ، عندما بلغه خطاب الخليفة من بغداد ، ثم ثار بإشيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود عنها ورجوعه إلى مُرسية ، فداخله محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوجه ابنته ، فأطاعه ، ودخل إشيلية سنة اثنتين وثلاثين ، ثم فتنك بابن الباجي فقتله ، وتناول البطش<sup>١</sup> به علي بن أشقيلولة ، ثم راجع أهل إشيلية بعدها بشهر دعوة ابن هُود ، وأخرج ابن الأحمر ، ثم تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمدخلة أهلها<sup>٢</sup> حين ثار ابن أبي خالد بدعوته فيها ، ووصلته بيعتها وهو بجيآن ، فقدم إليها علي بن أشقيلولة ، ثم جاء على أثره ، ونزلها ، وابتنى بها حصن الحمراء لتزوله ، ثم تغلب على مالقة ، ثم تناول المريّة من يد ابن الرميحي وزير ابن هُود الناصر بها سنة ثلاث وأربعين ، ثم بايعه أهل لُورقة سنة ثلاث وستين ، وكان ابن الأحمر أول أمره وصل يده بالطاغية استظهاراً على أمره ، فعضده وأعطاه ابن هُود ثلاثين حصناً في كَفَّ غرّبه بسبب ابن الأحمر ، وليعينه على ملك قرطبة ، فتسلمها ، ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، أعادها الله ، ثم نازل إشيلية سنة ست وأربعين وابن الأحمر معه ، ثم دخلها صلحاً ، وملك أعمالها ، ثم ملك مُرسية سنة خمس وستين ، ولم يزل الطاغية يقطع ممالك المسلمين كورة كورة<sup>٣</sup> وثغراً ثغراً إلى أن لجأ المسلمون إلى سيف البحر ما بين رُنْدَة من الغرب وإلبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق ، وفي قدر مرحلة أو دونها في العرض ما بين البحر والجوف ، ثم سخط ابن الأحمر وطمع في الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنت عليه ، وتلاحق بالأندلس الغزاة من بني مرّين وغيرهم ، وعقد ملك المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة

١ ابن خلدون : الفتنك .

٢ كذلك في ابن خلدون وبمض الأصول ؛ وفي ك : بمداجاة أهلها .

٣ ابن خلدون : ألبأ المسلمين .



آلاف منهم ، فأجازوا في حدود الستين وستمائة ، وتقبَّل ابن الأحمر لإجازهم ، ودفع بهم في نَحْر عدوّه ، ورجعوا ، ثم تناسلوا إليه بعد ذلك ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وولي بعده ابنه محمد الفقيه ، وأوصاه باستصراخ بني مَرين ، ملوك المغرب بعد الموحدين ، إن طرّقه أمر أن يعتضد بهم ، فأجاز الفقيه إلى يعقوب بن عبد الحقّ سلطان فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين ، فأجاب صريحه ، وأرسل ابنه وعساكره معه ، ثمّ أجاز على أثره وتسلّم الجزيرة الخضراء من نائر كان بها وجعلها ركاباً لجهاده ، ونزل إليه ابنُ الأحمر عن طريف وما إليها من الحصون ، وهزم هو وابنُ الأحمر زعيمَ النصرانية دنته<sup>١</sup> وفرق جمعه ، وأوقع بجموع الطاغية من كل جهة ، وبثّ سراياه وبُعوثه في أرض النصرانية ، ثم خاف ابنُ الأحمر على ملكه ، وصالح الطاغية ثمّ عاد ، انتهى كلام ابن خلدون ملخصاً .

وثبتت قدم عقب ابن الأحمر بالأندلس ، واستولوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل الجزيرة وطريف ورُنْدَة التي كانت بيد بني مَرين .

\* \* \*

[ بين دون بطره وأبي الوليد ابن الأحمر ]

وبعد مدة ألبّ ملوكُ النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غرناطة ، وجاءها الطاغية دون بِطْرُه<sup>٢</sup> في جيش لا يُحصَى ومعه خمسة وعشرون ملكاً ، وكان من خبر هذه الواقعة أن الإفرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بِطْرُه إلى طَلَيْطَلَة ، ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا ، وسجد له ، وتضرّع ، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس ، وأكد عزمه ، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها ، وعزموا على الاستنجاد بالمريني أبي سعيد

١ دنته = (Don Nuno) .

٢ دون بطره = (Don Pedro) .

صاحب فاس ، وأنفذوا إليه رُسلًا ، فلم ينجع ذلك الدواء ، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو اللِّجَأُ إلى الله تعالى ، وأخلصوا النِّيات ، وأقبل الإفرنج في جموع لا تحصى ، فقتل ناصر مَنْ لا ناصر له سِواه بهزم أمم النصرانية ، وقتل طاغيتهم دون بَطْرُهُ ومن معه ، وكان نصرًا عزيزاً ويوماً مشهوداً .

وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصن البلاد والثغور ، فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء ، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردِّهم ، وجهز الأساطيل والرجال ، فلما رأوا ذلك طلبوا إلى طَلَيْطَلَة ، وعزموا على استئصال بلاد المسلمين وتأهبوا لذلك غاية الأبهة ، ووصلت الأتقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات في المراكب ، ووصل العدو إلى غرناطة ، وامتألت الأرض بهم ، فتقدم السلطان إلى شيخ الغزاة الشيخ العالم أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء المريني بالخروج إلى لقاءهم بأبجد المسلمين وشجعانهم ، فخرج إليهم يوم الخميس الموفي عشرين لربيع الأول . ولما كانت ليلة الأحد أغارت سرية من العدو على ضيعة من المسلمين ، فخرجت إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة ، فقطعوهم عن الجيش ، وفرت تلك السرية أمامهم إلى جهة سلطانهم ، فتبعهم المسلمون إلى الصبح ، فاستأصلوهم ، وكان هذا أول النصر .

ولما كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين ، فلما شاهدتهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم في تلك الجيوش العظيمة ، فركبوا وحملوا بجملتهم عليهم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وأخذتهم السيوف ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام ، وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال ، وأخذ الأسرى ، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب - فيما قيل - ثلاثة وأربعون قنطاراً ، ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ، ومن السِّي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك

بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية ، وكان من جملة الأسرى<sup>١</sup> امرأة الطاغية وأولاده ، فبدلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فيما حكى بعض المؤرخين ، فلم يقبل المسلمون ذلك ، وزادت عدّة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً ، ويقال : إنّه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد ، لعدم معرفتهم بالطريق ، وأمّا الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون ، وقتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم ، واستمر البيع في الأسرى والأسباب والدواب ستة أشهر ، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد .

ومن العجب أنّه لم يُقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً ، وقيل : عشرة أنفس ، وقيل : كان عسكر الإسلام نحو ألف وخمسمائة فارس ، والرّجاله نحواً من أربعة آلاف راجل ، وقيل دون ذلك .

وكانت الغنيمة تفوت الوصف ، وسُلخ الطاغية دون بيطرّه وحُشي جلده قطعاً ، وعلّق على باب غرناطة ، وبقي مغلّقاً سنوات ؛ وطلبت النصراري الهدنة ، فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذي كان من أعمال سلطان فاس والمغرب ، وهو جبل طارق ، ولم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن المريني صاحب فاس والمغرب ، بعد أن أنفق عليه الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه ، وضيقوا به ، إلى أن استرجعوه ليد المسلمين ، واهمّ بنائه وتحصينه ، وأنفق عليه أحمال مال في بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ومخازنه ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برّاً وبحراً ، فصبر المسلمون ، وخيب الله سعي الكافرين ، فأراد السلطان المذكور أن يحصّن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدوّ في منازلته ، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه إحاطة

١ ك : الأسارى .

الهالة بالهلال ، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفاً وعشرين سنة ، وحاصره  
السلطان أبو الحسن ستة أشهر ، وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان ، ولما  
أجاز السلطان أبو الحسن المذكور إلى الأندلس ، واجتمع عليه ابن الأحمر ،  
وقاتلهم الطاغية ، هزمهم في وقعة طريف ، واستولى على الجزيرة الخضراء ،  
حتى قيض الله من بني الأحمر الغني بالله محمداً الذي كان لسان الدين بن الخطيب  
وزيره ، فاسترجعها وجملته بلاد كجيان وغيرها .

وكانت له في الجهاد مواقف مشهورة ، وامتد ملكه واشتد حتى محا دولة  
سلاطين فاس ممّا وراء البحر ، وملك جبل الفتح ، ونصر الله الإسلام على  
يده ، كما ستقف عليه في بعض مكاتبات لسان الدين - رحمه الله - في مواضع  
من هذا الكتاب ، وسعدُ هذا الغني بالله من العجائب .

وبقي ملك الأندلس في عقبه إلى أن أخذ ما بقي من الأندلس العدو الكافر  
واستولى على حضرة الملك غرناطة أعادها الله للإسلام ، كما بين إن شاء الله ،  
وخلت جزيرة الأندلس من أهل الإسلام ، وأبدلت من النور بالظلام ، حسبما  
اقتضته الأقدار النافذة والأحكام<sup>١</sup> ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو  
خير الوارثين .

\* \* \*

### [ شيخ الغزاة أيام بني الأحمر ]

قال ابن خلدون<sup>٢</sup> : واتفق بنو الأحمر سلاطين غرناطة أن يجعلوا مشيخة  
الغزاة لواحد يكون من أقارب بني مَرين سلاطين المغرب ، لأنهم أول من  
ولي الأندلس عند استيلاء بني عمهم على ملك المغرب لما بينهم من المنافسة ،

١ سقطت من ق ط ج .  
٢ في ق : قلت وكان بنو الأحمر (دون ذكر لابن خلدون) . وفي ج : ولقد كان بنو  
الأحمر ... يجعلون .

وكان لهؤلاء في الجهاد مواقف مشهورة ، وسأذكر لك ما كتب على قبر شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء لتستدل عند ذلك على ما ذكرناه : « بحمد الله تعالى ، هذا قبر شيخ الحماة ، وصدر الأبطال الكُماة ، واحد الجلالة ، ليث الإقدام والبسالة ، علم الأعلام ، حامي دمار الإسلام ، صاحب الكتائب المنصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازي المسطورة ، وإمام الصفوف ، القائم بباب « الجنة تحت ظلال السيوف » ، سيف الجهاد ، وقاصم الأعداء ، وأسد الآساد ، العالي هميم ، الثابت القدم ، الهمام المجاهد الأرضي ، البطل الباسل الأُمصي ، المقدس ، المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير ، الأصيل الشهير ، المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق ، كان عمره ثمانياً وثمانين سنة أنفقها ما بين راحة في سبيل الله وغدوة ، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنين وثلاثين غزوة ، وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة الرب ، محتسباً في إدارة الحرب ، ماضي الغزائم في جهاد الكفار ، مُصادماً بين جموعهم تدفق التيارات ، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ، ما سار ذكره في الأقطار ، أشهر من المثل السيار ، حتى توفي رحمه الله وغُبار الجهاد طيُّ أثوابه ، وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه ، فمات على ما عاش عليه ، وفي ملحمة الجهاد قبضه الله تعالى إليه ، واستأثر به سعيداً مرتضى ، وسيفه على رأس ملك الروم مُنتضى ، مقدمة قبول وإسعاد ، ونتيجة جهاد وجلاد ، ودليلاً على نيته الصالحة ، وتجارته الراجحة ، فارتجت الأندلس لبُعده ، أتمخه الله تعالى رحمة من عنده ، توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من عام ثلاثين وسبعمائة » انتهى .

ومنها ما كتب به لسانُ الدين بن الخطيب - رحمه الله - في تولية علي ابن بدر الدين مشيخة الغزاة ما نصه : « هذا شيخ الغزاة الذي فتح على الإسلام

١ ك : منها ما كتب ؛ وفي ط بياض . وفي ج : فلنذكر منها .

أبواب السراء ، وراق طرازاً مذهباً على عاتق الدولة الغراء ، وأعمل عوَّامل  
الجهاد ، في طاعة ربِّ العباد ، شارعةً لأهل الكفر والعناد ، من باب الأعمال  
والإغراء ، أمر به فلان صدر صدور أودَّاته ، وحسامه المشهور على أعدائه ،  
ووليّه الذي خبر صدق وفائه ، وجلّى في مِضمار الخلوص له مُغَبِّراً في وجوه  
أكفائه ، شيخ شيوخ المجاهدين ، وقائد كتائبه المنصورة إلى غزْو الكافرين  
المعتدين ، وعِثْرته التي يُدَافِع بها عن الدين ، وسابق وُدّه المبرِّز في  
الميادين ، الشيخ الأجلّ « إلى آخر ما وصفه به ممّا ضاق الوقت عن مثله ،  
والله وليُّ التوفيق .

②

## الباب الرابع

في ذكر قُرْطُبة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة ، وجامعها الأموي  
ذي البدائع الباهية الباهرة ، والإمام بحضرتي الملك الناصرية الزهراء  
والعامرية الزاهرة ، ووصف جملة من منزهات تلك الأقطار ومصانعها ذات  
المحاسن الباطنة والظاهرة ، وما يجرّ إليه شُجُون الحديث من أمور تقضي  
بِحُسْن إيرادها القرائح الوقادة والأفكار الماهرة

[ نقول في وصف قرطبة ]

قال ابن سعيد ، رحمه الله : مملكة قُرْطُبة في الإقليم الرابع ، وإيالته  
للشمس ، وفي هذه المملكة معدن الفضة الخالصة في قرية كَرْتَش ، ومعدن  
الزئبق والزنجفر في بلد بسطاسة<sup>١</sup> ، ولأجزائها خواص<sup>٢</sup> مذكورة في متفرقاتها ،  
وأرضها أرض كريمة للنبات<sup>٣</sup> ، انتهى .

وقدم ، رحمه الله ، في المغرب الكلام عليها على سائر أقطار الأندلس وقال :  
إنما قدمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الأندلسية لكون سلاطين الأندلس  
الأول اتخذوها سريراً لسلطنة الأندلس ، ولم يعدلوا عن حضرته قرطبة ، ثم  
سلاطين بني أمية وخلفاؤهم لم يعدلوا عن هذه المملكة ، وتقلّبوا منها في  
ثلاثة أقطاب<sup>٣</sup> أداروا فيها خلافتهم : قرطبة ، والزهراء ، والزاهرة ، وإنما

١ ج : والزنجفور ... بسطاسة .

٢ ك : كريمة النبات .

٣ ك : أقطار .

اتخذوها لهذا الشأن لما رأوها لذلك أهلاً ، وقُرطبة أعظم علماً وأكثر فضلاً  
بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها .  
ثم قسم ابن سعيد كتاب « الحلة المذهبة ، في حلى ممالك قُرطبة » بالنظر  
إلى الكور إلى أحد عشر كتاباً :

- الكتاب الأول كتاب « الحلة الذهبية ، في حلى الكورة القرطبية » .
  - الكتاب الثاني كتاب « الدرر المصونة ، في حلى كورة بلكونة » .
  - الكتاب الثالث كتاب « محادثة السمير<sup>١</sup> ، في حلى كورة القصير » .
  - الكتاب الرابع كتاب « الوشي المصوّر ، في حلى كورة المدور » .
  - الكتاب الخامس كتاب « نيل المراد ، في حلى كورة مراد » .
  - الكتاب السادس كتاب « المزنّة ، في حلى كورة كزنة » .
  - الكتاب السابع كتاب « الدر النافق ، في حلى كورة غافق » .
  - الكتاب الثامن كتاب « النفحة الأرجة ، في حلى كورة إستنجة » .
  - الكتاب التاسع كتاب « الكواكب الدرّية ، في حلى الكورة القبرية » .
  - الكتاب العاشر كتاب « رقة المحبة ، في حلى كورة إستبة » .
  - الكتاب الحادي عشر كتاب « السوسانة ، في حلى كورة اليُسّانة » انتهى .
- ثم قال ، رحمه الله تعالى : إن العمارة اتّصلت في مباني قُرطبة والزهره  
والزاهرة ، بحيث إنّه كان يُمشى فيها لضوء السّرج المتصلة<sup>٢</sup> عشرة أميال  
حسبما ذكره الشّقنّدي في رسالته ، ثم قال : ولكل مدينة من مدن قُرطبة  
وأعمالها ذكر مختص به ، ثم ذكر المسافات التي بين ممالك قُرطبة المذكورة  
فقال : بين المدور وقُرطبة ستة عشر ميلاً ، وبين قُرطبة ومرّاد خمسة  
وعشرون ميلاً ، وبين قُرطبة والقصير ثمانية عشر ميلاً ، وبين قرطبة وغافق  
مرحلتان ، وبين قرطبة وإستبة ستة وثلاثون ميلاً ، وبين قُرطبة وبلكونة

١ ك : السير .

٢ ق ط : السراج ؛ ك : الممتدة .



مرحلتان ، وبين قُرْطُبة واليُسَانة أربعون ميلاً ، وبين قرطبة وقبرة ثلاثون ميلاً ، وبين قرطبة وبيَانة مرحلتان ، وبين قرطبة وإسْتِجَة ثلاثون ميلاً ، وكورة رُنْدَة كانت في القديم من عمل قُرْطُبة ، ثم ضارت من مملكة إشبيلية ، وهي أقرب وأدخل في المملكة الإشبيلية ، انتهى .  
 ثم قَسَمَ رحمه الله تعالى كتاب « الحلة الذهبية ، في حلى الكورة القرطبية » إلى خمسة كتب :

الكتاب الأول كتاب « النغم المطربة ، في حلى حضرة قُرْطُبة » .  
 الكتاب الثاني كتاب « الصبيحة الغراء ، في حلى حضرة الزهراء » .  
 الكتاب الثالث كتاب « البدائع الباهرة ، في حلى حضرة الزاهرة » .  
 الكتاب الرابع كتاب « الوردة ، في حلى مدينة شقنودة » .  
 الكتاب الخامس كتاب « الجرعة السيغة<sup>١</sup> ، في حلى كورة<sup>٢</sup> ورزعة » .  
 وقال ، رحمه الله تعالى ، في كتاب « النغم المطربة ، في حلى حضرة قرطبة » :  
 إن حضرة قرطبة إحدى عرائس مملكتها ، وفي اصطلاح الكتاب أن للعرّوس الكاملة الزينة منصّة ، وهي مختصّة بما يتعلّق بذكر المدينة في نفسها ، وتاجاً ، وهو مختصّ بالإيالة السلطانية ، وسلكاً ، وهو مختصّ بأصحاب دُرر الكلام من النُّثَار والنظّام ، وحلّة ، وهي مختصّة بأعلام العلماء المصنّفين الذين ليس لهم نظم ولا نثر ، ولا يجب إهمال تراجمهم ، وأهداباً ، وهي مختصّة بأصحاب فنون الهزل وما ينحو منحاه ، انتهى .

ثم فصل ، رحمه الله تعالى ، ذلك كله بما تعدّدت منه الأجزاء ، وقد لحصت منه هنا بعض ما ذكر ، ثم أردفته بكلام غيره ، فأقول<sup>٣</sup> : قال في كتاب أجار<sup>٤</sup> :

١ ج : المسوغة .

٢ ق ط : قرية .

٣ ق : فقلت ذكر ابن خلدون في كتاب أجار ؛ وهو وهم كما ترى .

٤ كتاب أجار هو زهرة المشتاق المعروف بجغرافية الإدريسي ، وأجار هو رجار ( Rujjiero ) . =

إن قُرْطَبَةَ - بالطاء المعجمة - ومعناه أُجِر ساكنها<sup>١</sup> ، يعني عربت بالطاء ،  
ثم قال : ودَوَّرُ مدينة قُرْطَبَةَ ثلاثون ألف ذراع ، انتهى .

وقال غيره : إن تكسيرها ومساحتها التي دار السور عليها دون الأرباض  
طولاً من القبلة إلى الجوف ألف وستمائة ذراع ، واتصلت<sup>٢</sup> العمارة بها أيام  
بني أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً ، وذلك من الأميال أربعة وعشرون  
في الطول ، وفي العرض ستة ، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول  
ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير ، وليس في الأندلس وادٍ يُسمّى باسم  
عربي غيره . ولم تزل قُرْطَبَةَ في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة أربعمائة ،  
فانحطت ، واستولى عليها الخرابُ بكثرة الفتن إلى أن كانت الطامة الكبرى  
عليها بأخذ العدو الكافر لها ثالث عشري شوال سنة ستمائة وثلاث وثلاثين<sup>٣</sup> .

ثم قال هذا القائل : ودَوَّرُ قرطبة أعني المسور منها دون الأرباض ثلاثة  
وثلاثون ألف ذراع ، ودَوَّرُ قصر إمارتها ألف ذراع ومائة ذراع ، انتهى .  
وعدد أرباضها واحد وعشرون ، في كل ربض منها من المساجد والأسواق  
والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره ، وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف  
قرية ، في كل واحدة منبر وفقه مقلّص<sup>٤</sup> ؛ تكون الفتى في الأحكام والشرائع  
له ، وكان لا يجعل القالص<sup>٤</sup> عندهم على رأسه إلا من حفظ الموطأ ، وقيل :  
من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وحفظ المدونة ،  
وكان هؤلاء المقلّصون المجاورون لقُرْطَبَةَ يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة  
بقرطبة ، ويستلمون عليه ، ويطالعونه بأحوال بلدهم . انتهى .

= ( روجر Roger ) الذي ألف له الإدريسي الكتاب ، وهو أحد ملوك صقلية النورمانيين ،  
حسباً مر .

١ الروض المعمار : ١٥٦ وقيل معناه « القلوب المختلفة » .

٢ من هنا حتى آخر الفقرة في مخطوط الرباط : ٢٤ ، ويبدو أن النقل عن ابن حيان .

٣ ك : في ثاني وعشرين شوال سنة ٦٢٣ .

٤ مقلّص - بالصاد والسين - الذي يلبس قلنسوة ؛ وانظر النص في مخطوط الرباط : ٢٧ .

قال : وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر إلى ثلاثة آلاف ألف دينار ،  
بالإنصاف ، وقد ذكرنا في موضع آخر ما فيه مخالفة لهذا ، فالله أعلم .  
وما أحسن قول بعضهم ٢ :

دَعَّ عَنْكَ حَضْرَةَ بَغْدَادٍ وَبَهْجَتَهَا      وَلَا تُعْظَمُ بِلَادَ الْفَرَسِ وَالصِّينِ  
فَمَا عَلَى الْأَرْضِ قَطْرٌ مِثْلُ قُرْطُبَةَ      وَمَا مَشَى فَوْقَهَا مِثْلُ ابْنِ حَمْدَانَ

وقال بعضهم ٣ : قُرْطُبَةُ قَاعِدَةُ الْأَنْدَلُسِ وَدَارُ الْمَلِكِ الَّتِي يُجْبَى لَهَا ثَمَرَاتُ  
كُلِّ جِهَةٍ وَخَيْرَاتُ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَاسْطَةُ بَيْنَ الْكُورِ ، مَوْفِيَةٌ عَلَى النَّهْرِ ، زَاهِرَةٌ  
مُشْرِقَةٌ ، أَحْدَقَتْ بِهَا الْمُنَى فَحَسَنَ مَرَاةَا ، وَطَابَ جَنَانُهَا .  
وفي كتاب « فرحة الأندلس » لابن غالب : أَمَا قُرْطُبَةُ فَإِنَّهُ اسْمٌ يَنْحَوُّ  
إِلَى لَفْظِ الْيُونَانِيِّينَ ، وَتَأْوِيلُهُ الْقُلُوبِ الْمَشْكُوكَةِ .

- وقال أبو عبيد البكري ٤ : إِنَّهَا فِي لَفْظِ الْقَوَاطِ بِالظَّاءِ الْمَعْجَمَةِ .  
وقال الحِجَارِيُّ : الضَّبْطُ فِيهَا بِإِهْمَالِ الطَّاءِ وَضَمِّهَا ، وَقَدْ يَكْسِرُهَا  
الْمَشْرِقِيُّونَ ٥ فِي الضَّبْطِ ، كَمَا يَعْجَمُهَا آخَرُونَ . انْتَهَى .

وقال بعض العلماء ٦ : أَمَا قُرْطُبَةُ فَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَنْدَلُسِ ، وَقُطْبُهَا وَقَطْرُهَا  
الْأَعْظَمُ ، وَأَمَّ مَدَائِنُهَا وَمَسَاكِنُهَا ، وَمُسْتَقَرُّ الْخُلَفَاءِ ، وَدَارُ الْمَمْلُوكَةِ فِي النُّصْرَانِيَّةِ  
وَالْإِسْلَامِ ، وَمَدِينَةُ الْعِلْمِ ، وَمَقَرُّ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، نَزَلَهَا جُمْلَةٌ مِنَ التَّابِعِينَ

١ مخطوط الرباط : ٢٧ .

٢ المصدر السابق : ٣٥ .

٣ هو أحمد الرازي كما في المنتقى من فرحة الأنفس : ٢٩٥ ؛ وفي ق : وقال غيره ، وسقطت  
الفظتان من ط ؛ وفي ج : وفي كتاب الرازي .

٤ انظر مخطوطة المسالك : ٢١٨ ( رقم : ٤٨٨ ق بالخزانة العامة بالرباط ) .

٥ ط ج : المشرقون .

٦ مخطوط الرباط : ٢٢ .

٧ ك : ومستقر .

وتابعي<sup>١</sup> التابعين ، ويقال : نزلها بعض من الصحابة<sup>٢</sup> ، وفيه كلام .  
وهي مدينة عظيمة أزلية من بُنيان الأوائل ، طيبة الماء والهواء ، أهدت  
بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب ، وبها  
المَحْرَثُ العظيمُ الذي ليس في بلاد الأندلس مثله<sup>٣</sup> ولا أعظم منه بركة .  
وقال الرازي : قرطبة أم المدائن ، وسُرَّة الأندلس ، وقرارة الملك في  
القديم والحديث والجاهلية والإسلام ، ونهرها أعظم أنهار الأندلس ، وبها القنطرة  
التي هي إحدى غرائب الأرض في الصنعة والإحكام ، والجامع الذي ليس في  
بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه .  
وقال ابن حوقل<sup>٤</sup> : هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها  
عندي شبيه في كثرة أهل ، وسعة محل<sup>٥</sup> ، وفُسْحَة أسواق ، ونظافة محال<sup>٦</sup> ،  
وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق ، ويزعم قوم من أهلها أنها كأحد  
جانبي بغداد ، وإن لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولا حقة به ،  
وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال<sup>٧</sup> حسنة ، وفيها كان سلاطينهم  
قديماً ، ودورهم داخل سورها المحيط بها ، وأكثر أبواب القصر السلطاني من  
البلد وجنوب قرطبة على نهرها .  
قال : وقُرْطبة هذه بائمة عن مساكن أرباضها ظاهرة ودُرْتُ بها في غير  
يوم في قدر ساعة وقد قطعت الشمس خمس عشرة درجة ماشياً .  
وقال الحجاري<sup>٨</sup> : وكانت قرطبة في الدولة المرّوانية قبة الإسلام ،

١ ق ج ط : وتابع .

٢ مخطوط الرباط : نزلها - فيما نقل - رجل من الصحابة .

٣ ك : الذي ليس له في بلاد الأندلس نظير .

٤ في ك : وقال بعضهم ؛ وفي ق : وقال ابن سعيد رحمه الله في المغرب ؛ وفي ط : وقال الرازي ؛

وفي ج : وفي كتاب ابن حوقل والنص منقول عن ابن حوقل ، انظر صورة الأرض : ١٠٧ -

١٠٨ مع اختلاف في بعض النص .

٥ في ج : وفي المسهب ؛ وفي ق : وقال الفتح في المطمح ؛ وفي ط : قال ابن سعيد .

ومجتمَع علماء الأنام<sup>١</sup> ، بها استقر سرير الخلافة الروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ، إذ كانت مَرَكز الكرماء ، ومَعَدِن العلماء ، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ، ويُباري فيها أصحابُ الكتب أصحابَ الكتابب ، ولم تبرح ساحاتها مَجَرَّ عوالٍ ومجرى سوابق ، ومحطَّ مَعالٍ وحِمى حقائق ، وهي من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، والزور من الأسد ، ولها الداخلُ الفسيح ، والخارجُ الذي يمتع البصر بامتداده فلا يزال مستريحاً وهو من تردّد النظر طليح .

وقال الحجاري<sup>٢</sup> : حضرة قرطبة منذ استفتحت<sup>٣</sup> الجزيرة هي كانت منتهى الغاية ، ومركز الولاية ، وأمّ القرى ، وقرارة أولي الفضل والثقى ، ووطن أولي العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر دُرر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة ، وصنّفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبرز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب ، لأنواع العلم والأدب . انتهى .

قال الإمام عليّ بن سعيد<sup>٤</sup> : أخبرني والذي أن السلطان الأعظم أبا يعقوب ابن عبد المؤمن قال لوالده محمد بن عبد الملك بن سعيد : ما عندك في قرطبة ؟ قال : فقلت له : ما كان لي أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها ، فقال السلطان : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلى بصيرة :

١ ك : ومجتمع أعلام الأنام الأعلام .

٢ في ق : وقال أيضاً ؛ وفي ط بياض ؛ وفي ج : وقال في الذخيرة .

٣ ك : افتتحت .

٤ انظر ما تقدم في هذا الكتاب ص : ١٥٤

الديار الكثيرة المنفسحة ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة ، والنهر الجاري ،  
والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحراث العظيم ، والشعراء الكافية ،  
والتوسط بين شرق الأندلس وغربها ، قال : فقلت : ما أبقى لي أمير المؤمنين  
ما أقول .

ثم قال ابن سعيد : ومن كلام والذي في شأنها : هي من أحسن بلاد الأندلس  
مباني ، وأوسعها مسالك ، وأبرعها ظاهراً وباطناً ، وتفضل إشبيلية بسلامتها  
في فصل الشتاء من كثرة الطين ، ولأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سميحة<sup>١</sup>  
العلم متوارثة فيهم ، إلا أن عامتها أكثر الناس فضولاً ، وأشدهم تشنيعاً وتشغيلاً ،  
ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشجيع على الولاية  
وقلة الرضى بأمرهم ، حتى إن السيد أبا يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن  
لما انفصل عن ولايتها قيل له : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال : مثل الحمل  
إن خففت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته به صاح ، ما ندري أين رضاهم  
فنقصده ، ولا أين سخطهم فنتجنبه<sup>٢</sup> ، وما سلط الله عليهم حججاج الفتنة حتى  
كان عامتها شرراً من عامة العراق ، وإن العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندي  
ولاية ، وإنتي إن كُلت العود إليها لقائل : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .  
قال والذي : ومن محاسنها ظرف اللباس ، والتظاهر بالدين ، والمواظبة  
على الصلاة ، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم ، وكسر أواني الخمر حيثما وقع  
عين أحد من أهلها عليها ، والتستر بأنواع المنكرات ، والتفاخر بأصالة البيت  
وبالجندي وبالعلم ، وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأشد الناس اعتناء  
بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى إن الرئيس  
منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب ،  
وينتخب فيها ليس إلا<sup>٣</sup> لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني

١ ط : سعة .

٢ ك ط : فنتجنبه .

ليس هو عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظهر به .  
قال الحضرمي : أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب  
فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتفسير مليح <sup>١</sup> ،  
ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إليّ المتادي بالزيادة  
عليّ ، إلى أن بلغ فوق حدّه ، فقلت له : يا هذا ، أرني من يزيد في هذا  
الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياضة ،  
فدنوت منه ، وقلت له : أعز الله سيّدنا الفقيه ، إن كان لك غرض في هذا  
الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه ؛ قال : فقال لي : لست  
بفقيه ، ولا أدري ما فيه ، ولكنّي أقمت خزائن كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل  
بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيت حسن الخط  
جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من  
الرزق فهو كثير ؛ قال الحضرمي : فأخرجني ، وحملني على أن قلت له :  
نعم لا يكون الرزق كثيراً إلاّ عند مثلك ، يعطى الجوز من لا عنده <sup>٢</sup> أسنان ،  
وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به ، يكون الرزق عندي  
قليلاً ، وتحوّل قلّة ما بيدي بيبي وبينه .

قال ابن سعيد : وجرّت مناظرة بين يدي منصور بني عبد المؤمن بين الفقيه  
العالم أبي الوليد بن رُشد والرئيس أبي بكر بن زُهر ، فقال ابن رشد لابن زهر  
في كلامه : ما أدري ما تقول ، غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه  
حُمِلت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرّب بقرطبة فأريد بيع  
تركته حُمِلت إلى إشبيلية .

ولما ذكر ابن بشكّوال قصر قرطبة قال <sup>٣</sup> : هو قصر أولي تداولته ملوك

١ ك : بخط فصيح وتفسير مليح ؛ والتفسير : التجليد .

٢ ك : من لاله .

٣ ك : وسئل ابن بشكّوال عن قصر قرطبة فقال .

الأمم من لدن عهد موسى النبي ، صلى الله على نبيّنا وعليه وسلّم ، وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثمّ للروم والقوط والأمم السالفة ما يُعجز الوصف ، ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان - منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها - في قصرها البدائع الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة ، والرياض المونقة<sup>١</sup> ، وأجرّوا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتموتوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر المكرّم<sup>٢</sup> ، وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنّوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صوراً مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصحاريح الغربية في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة .

قال : وفي هذا القصر القِصَابُ العالية السمو ، المنيفة العلو ، التي لم يرَ الراؤون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها .  
قال : ومن قصوره المشهورة ، وبساتينه المعروفة : الكامل ، والمجدد ، وقصر الحائر ، والروضة ، والزاهر ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيح ، وقصر السرور ، والتاج ، والبديع .

قال : ومن أبوابه التي فتحها الله لنصر المظلومين ، وغيث المهوفين ، والحكم بالحق ، الباب الذي عليه السطح المشرف الذي لا نظير له في الدنيا ، وعلى هذا الباب باب حديد ، وفيه حلقٌ لاطون<sup>٣</sup> قد أثبتت في قواعدها ، وقد صورت صورة إنسان فتح فمه ، وهي حلق باب مدينة أريوننة من بلد الإفرنج ، وكان الأمير محمد قد افتتحها ، فجلب حلقها إلى هذا الباب ، وله باب قبلي أيضاً ، وهو المعروف بباب الجنان ، وقُدّام هذين البابين المذكورين على الرصيف

١ ك : الأنيقة .

٢ ك : الكرم ، ق : الكرم .

٣ لاطون (وبالاسبانية Laton) : الأصفر من الصفر (النحاس) .



المشرف على النهر الأعظم مسجداً مشهوراً بالفضل كان الأمير هشام الرضى يستعمل الحكم في المظالم فيهما ابتغاء ثواب الله الجزيل ، وله باب ثالث يُعرف بباب الوادي ، وله باب بشماليته يُعرف بباب قورِيّة ، وله باب رابع يدعى بباب الجامع ، وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع على السباط ، وعدد أبواباً بعد هذا طمست أيام فتنة المهدي ابن عبد الجبار<sup>١</sup> .

وذكر ابن بَشْكُوَال رحمه الله أن أبواب قرطبة سبعة أبواب<sup>٢</sup> : باب القنطرة إلى جهة القبلة ويُعرف بباب الوادي وبباب الجزيرة الخضراء وهو على النهر ، وباب الحديد ويُعرف بباب سَرَقُسْطَة ، وباب ابن عبد الجبار وهو باب طَلَيْطَلَة ، وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرُصَف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادم إلى قَرْمُونَة إلى قَرطُبة إلى سَرَقُسْطَة إلى طَرَكُونَة إلى أَرْبُونَة مارة في الأرض الكبيرة ، ثم باب طَلَيْبيرة وهو أيضاً باب لِيُون ، ثم باب عامر القرشي وقدّامه المقبرة المنسوبة إليه ، ثم باب الجوز<sup>٣</sup> ويُعرف بباب بَطَلَيْسُوس ، ثم باب العطارين ، وهو باب إشبيلية ، انتهى .  
وذكر أيضاً<sup>٤</sup> أن عدد أرباض قَرطُبة عند انتهائها في التوسيع<sup>٥</sup> والعمارة واحد وعشرون رِبضاً ، منها القبلية بعدوّة النهر : رِبض شقنّدة ، وربض مُنِيّة عَجَب ، وأما الغربية فتسعة : رِبض حوانيت الريحان<sup>٦</sup> ، وربض الرقاقين ، وربض مسجد الكهف ، وربض بلاط مُغيث ، وربض مسجد الشفاء ، وربض

١ عدها في مخطوطة الرباط على النحو التالي : باب السدة وباب الحنان وباب العدل وباب الصناعة

وباب الملك وباب السباط (انظر الورقة : ٢٥) .

٢ انظر مخطوطة الرباط في عد أبواب قرطبة : ٢٤ .

٣ مخطوطة الرباط : باب الجوزة .

٤ ذكر أرباض قرطبة في مخطوطة الرباط : ٢٥ .

٥ ك : التوسع .

٦ مخطوطة الرباط : رِبض الريحاني ؛ وفي ق ط : الريحاني .

حَمَامَ الإلبيري<sup>١</sup> ، وريـض مسـجد المسـرور ، وريـض مسـجد الرّوضة<sup>٢</sup> ،  
 وريـض السـجن القـديم ، وأمّا الشـماليـة فثـلاثـة : رـيـض باب الـيـهود ، وريـض  
 مسـجد أم سلـمة ، وريـض الرّصـافة ، وأمّا الشـرقية فسـبعة : رـيـض شـبـلار ،  
 وريـض فرن بريل<sup>٣</sup> ، وريـض البـرج<sup>٤</sup> ، وريـض مـنية عبد الله ، وريـض  
 مـنية المـغيرة ، وريـض الزاهـرة ، وريـض المـدينة العتيـقة<sup>٥</sup> .

قال : ووسط هذه الأرباض قسبة قرطبة التي تختص بالسور دونها ، وكانت  
 هذه الأرباض دون سور ، فلما كانت أيام الفتنة صنّع لها خندق يدور بجميعها  
 وحائط مانع . وذكر ابن غالب أنّه كان دورُ هذا الحائط أربعة عشر ميلاً<sup>٦</sup> ،  
 وشقنّدة معدودة في المدينة لأنها مدينة قديمة كانت مسورة .

#### [ منزهات قرطبة ]

قال ابن سعيد في « المغرب » : ولذكر الآن من منزهات قرطبة ومعاهدها  
 المذكورة في الألسن نظماً ونثراً ما انتهى إليه الضبط ، من غير تغلغل في غير  
 المشهور منها والأهمّ ، ونوشتي ذلك بجميع ما يحضرنى من مختار النظم في قرطبة ،  
 وما يحتوي عليه نطاقها المذكور .

فأول ما نذكر من المنزهات منزه الخلفاء المروانية ، وهو قصر الرّصافة ؛  
 قال والدي<sup>٧</sup> رحمه الله : كان ممّا ابتناه عبد الرحمن بن معاوية في أول أيامه  
 لنزّهه وسكناه أكثر أوقاته : مـنية الرّصـافة التي اتخذها بشمال قرطبة

١ ج ومخطوط الرباط : ريبض الأبورى .

٢ ق : وريـض الرّمضة .

٣ مخطوطة الرباط : فرن بلي .

٤ مخطوطة الرباط : ريبض الفرج .

٥ في مخطوط الرباط : « ريبط العدوة » ومقط من العدد هناك ريبض مسجد أم سلمة .

٦ في ك : أربعة وعشرين ميلاً .

٧ ج : قال ابن حيان .

منحرفة إلى الغرب ، فاتخذ بها قصراً حسناً ، ودحا جناناً واسعة ، ونقل إليها غرائب الغُرُوس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسقمر رسولاه إلى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة ، حتى نمت بيمن الجدد وحسن التربية في المدة القريبة أشجاراً مُعْتَمَةً أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها . قال : وسماها باسم رُصافة جدّه هشام بأرض الشام الأثيرة لديه ، وامثله في اختيار رصافته هذه <sup>١</sup> ، وكلفه بها وكثرة تردده عليها ، وسكناه أكثر أوقاته بها ، فطار <sup>٢</sup> لها الذكر في أيامه ، واتصل من بعده في إيثارها . قال : وكلّهم فضّلها ، وزاد في عمارتها ، وانبرى وُصّاف الشعراء لها ، فتناعوا <sup>٣</sup> في ذلك فيما هو إلى الآن ماثور <sup>٤</sup> عنهم ، مستجاد منهم .

قال ابن سعيد : والرّمّان السّفري الذي فاض على أرجاء الأندلس ، وصاروا لا يفضلون عليه سواه ، أصله من هذه الرُصافة . وقد ذكر ابن حبان شأنه ، وأفرد له فصلاً <sup>٥</sup> ، فقال : إنّه الموصوف بالفضيلة ، المقدم على أجناس الرّمّان بعدوبة الطعم ، ورقّة العجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة ، وكان رسوله إلى الشام في توصيل أخته <sup>٦</sup> منها إلى الأندلس قد جلب طرائف منها من رُمّان الرصافة المنسوبة إلى هشام ، قال : فعرضه عبدُ الرحمن على خواص رجاله مُباهياً به ، وكان فيمن حضره منهم سفر بن عبيد الكلاعي من جند الأردن ، ويقال : هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول الله صلى الله عليه وسلّم في غزواته ، قال : وهم يحملون الألوية بين يدي الخلفاء من بني

١ ك : وليله في اختياره هذه .

٢ ك : طار .

٣ في ك : فتناعوا .

٤ ك : مشهور ماثور .

٥ ج : وأفرد فضله .

٦ في ك : أخته .

أمية ، فأعطاه من ذلك الرمان جزءاً فَرَّاقَهُ حُسْنُهُ وَخُبْرُهُ ، فسار به إلى قرية  
بكورة رَيْتَه ، فعالج عَجْمَهُ واحْتَالَ لغيره وغذائه وتنقيه حتى طلع شجراً  
أمر وأينع ، فترع إلى عِرْقِهِ ، وأغرب في حسنه ، فجاء به عمّاً قليل إلى عبد  
الرحمن ، فإذا هو أشبه شيء بذلك الرصافي ، فسأله الأمير عنه ، فعرفه وجهه  
حيلته ، فاستبرع استنباطه ، واستنبل همته ، وشكر صنعه ، وأجزل صلته ،  
واغترس منه بمئنة الرصافة وبغيرها من جناته ، فانتشر نوعه ، واستوسع  
الناسُ في غِرَاسِهِ ، ولزمه النسب إليه ، فصار يُعرف إلى الآن بالرمان السَّقْرِي .  
قال : وقد وصف هذا الرمان أحمد بن فرج<sup>١</sup> الشاعر في أبيات كتب  
بها إلى بعض مَنْ أهداه له ، فقال :

ولايسّة صدفاً أحمرًا	أنتك وقد ملئت جوهرا
كأنك فاتح حُقّ لطيف	تضمن مرجانه الأحمرا
حبوباً كمثل لثات الحبيب	رُضاباً إذا شئت أو منظرًا
وللسفر تُعزى وما سافرت	فتشكو النوى أو تقاسي السرى
بلى فارقت أيكها ناعماً	رطيباً وأغصانها نُضراً
وجاءتك مُعتاضةً إذ أنتك	بأكرم من عودها عُنُصراً
بعود ترى فيه ماء الندى	ويورق من قبل أن يُثمرا
هدية من لو غدت نفسه	هديته ظنه قصراً

وقال ابن سعيد : وأخبرني والدي قال : أخبرني الوشاح المبرز المحسن أبو  
الحسن المريني<sup>٢</sup> قال : بينما أنا أشرب مع ندماني بلزاء الرُصافة ، إذا بإنسان

١ هو ابن فرج صاحب كتاب الخدائق ، الذي ألفه للحكم المستنصر ، من شعراء عصر الخلافة  
الأموية ، جرى عليه أيام الحكم ما أدى إلى سجنه وتوفي حوالي ٣٦٦ هـ ؛ ( انظر ترجمته في الخزانة  
٩٧ وبقية الملتبس رقم : ٣٣١ ومجمع الأدباء ٤ : ٢٣٦ والصلة ١١ ، ومسالك الأبصار ١١ :  
١٩٥ والمغرب ٢ : ٥٦ والمطبع ٧٩ والرواق ج ٨ .الزورقة : ٣٤ وله أشعار في اليثيمة ) .  
٢ هو علي بن المريني أبو الحسن ، شاعر وشاح توفي في مدة منصور بني عبد المؤمن وكان كثير التجول =

رث الهيئة ، مَجْفُوءًا الطلعة ، قد جاء فجلس معنا ، فقلنا له : ما هذا الإقدام  
على الجلوس معنا دون سابق معرفة ؟ فقال : لا تعجلوا علي ، ثم فكر قليلاً  
ورفع رأسه فأنشدنا :

استقنيتها إزاء قصر الرُصافهٗ      واعتبر في مآل أمر الخلافهٗ  
وانظر الأفق كيف بُدِّل أرضاً      كي يطيل اللبيب فيه اعترافهٗ  
ويترى أن كل ما هو فيه      من نعيمٍ وعزٍّ أمرٍ سخافهٗ  
كلُّ شيء رأيتَه غير شيء      ما خلا لذة الهوى والسلافهٗ

قال المريبي : فقبلت رأسه ، وقلت له : بالله من تكون ؟ فقال : قاسم بن  
عَبَّود الرياحي ، الذي يزعم الناس أنه موسوس أحق ، قال : فقلت له :  
ما هذا شعر أحق ، وإن العقلاء لتعجز عنه ، فبالله إلا ما تمت مسرتنا بمؤانستك  
ومنادمتك ومناشدة طُرف أشعارك ، فنادم وأنشد ، وما زلنا معه في طيبة  
عيش إلى أن ودعناه وهو يتلاطم مع الحيطان سُكراً ، ويقول : اللهم غُفراً .  
انتهى ٢ .

= (المغرب ٢ : ٢١٣) وسيورد المقرئ له موشحة في سد قرطبة ، وفي المغرب موشحة تنازع  
نسبها هو واليكي (٢ : ٢١٨) .

١ ج : مجلو .

٢ زاد بعد هذه الكلمة في نسخة (ج) : « فائدة : قال الذهبي في المشتبه : والرصافة مواضع منها  
رصافة بناها هشام بن عبد الملك بقرب الرقة ورصافة بغداد - محلة كبيرة جداً أنشأها المنصور  
لابنه المهدي وتلقب بمسك المهدي ، منها أئمة ، ورصافة البصرة قرية منها شيخان روي ؛ ورصافة  
قرطبة بليدة أنشأها عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، سماها باسم رصافة جده هشام خرج منها فضلاء ؛  
ورصافة الكوفة صغيرة ، ورصافة نيسابور قرية ، ورصافة الأنبار بناها السفاح ، ورصافة بليدة  
بإفريقية ، والرصافة قلعة أحدثها الإسماعيلية بالشام . انتهى باختصار . قال في القاموس ، في  
فصل الراء باب الفاء : والرصافة ككناسة بلد بالشام منه أبو منيع عبد الله بن أبي زياد وابن ابنه  
الحجاج ، ومحلة ببغداد منها محمد بن بكار بن جعفر بن محمد بن علي ، وبلد بالبصرة منها محمد بن  
عبد الله بن سيفون ، وقرية بواسط منها عبد المجيد وقرية بنيسابور وبالكوفة وبلد بإفريقية  
وقرية للإسماعيلية ، وعمي الرصافة موضع بالحجاز ، انتهى . رجع إلى قرطبة ؛ قال ابن  
سعيد . . . الخ » .

قال : ومن أبدع قصورا خارج قرطبة قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن ، وهو على متن النهر الأعظم ، تحمله أقواس ، وقيل للسيد : كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة ؟ فقال : علمت أنهم لا يذكرون والياً بعد عزّله ولا له عندهم قدر ، لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية ، فأحبيت أن يبقى لي في بلادهم أثر أذكر به على رغمهم .

قال ابن سعيد : وأخبرني والدي أن ناهض بن إدريس<sup>٢</sup> شاعر وادي آش في عصره أنشده لنفسه في هذا القصر :

ألا حبذا القصرُ الذي ارتفعت به      على الماء من تحت الحجارة أقواسُ  
هو المصنَعُ الأعلى الذي أَيْفَ الترى      ورقَعَهُ عَنْ لثْمِهِ المجدُ والباسُ  
فأركبَ متنَ النَّهْرِ عزّاً ورفعةً      وفي موضع الأقدام لا يوجد الراسُ  
فلا زالَ معمورَ الجَنابِ وبابه      بغصٍّ وحثِّ أْفَقِهِ الدهرَ أعراسُ

وقال الفتح في قلائده ، لما ذكر الوزير ابن عمّار<sup>٣</sup> : وتنزه بالدمشق بقرطبة ، وهو قصر شيده بنو أمية بالصُّفّاح والعمد ، وجري في إتقانه إلى غير أمد ، وأبدع بناؤه ، ونمّقت ساحاته وفناؤه ، واتخذوه ميدان مراحهم ، ومضمار أفراحهم ، وحكوا به قصرهم بالمشرق ، وأطلعوه كالكوكب المشرق ، وأنشد فيه لابن عمّار :

كلُّ قصرٍ بعدَ الدمشقِ يُذَمُّ      فيه طابَ الجنى ولدَ المِشمِ  
منظَرٌ رائقٌ ، وماءٌ نَميرٌ      وثرى عاطرٌ ، وقصرٌ أشمٌ  
بيتٌ فيه والليلُ والفجرُ عِندي      عتبرٌ أشهبٌ وميسكٌ أحْمِ

١ ق : ومن المنزهات قصور خارج قرطبة ؛ ط : ومن أعظم قصور . . .

٢ ناهض بن إدريس : من مداح ناصر بني عبد المؤمن ( المغرب ٢ : ١٤٥ ) . .

٣ قلائد العقيان : ٨٤ .

وهي منسوبة للحاجب أبي عثمان جعفر بن عثمان المصحفي .  
 وذكر الحِجَارِي فِي « المسهب » أن الرئيس أبا بكر محمد بن أحمد بن جعفر  
 المصحفي ، اجتاز بالمنية المصحفية التي كانت لجدّه أيام حجابته للخليفة الحكم  
 المستنصر ، فاستعبر حين تذكر ما آل إليه حال جده مع المنصور بن أبي عامر ،  
 واستيلاءه على ملكه وأملاكه ، فقال :

قف قليلاً بالمصحفية واندب      مُقَلَّةً أَصْبَحَتْ بِلَا إِنْسَانِ  
 وأسألنّها عن جعفر وسطاه      ونداه في سالف الأزمان  
 جعفر مثل جعفرٍ حكم الدهر      رُ عَلَيْهِ بَعْسْرَةٌ وَهَوَانِ  
 ولكم حذر الردي فصمنا      لا أمانٌ لصاحب السلطان  
 بينما يعتلي غدا خافضاً من      هُ اكْتَسَابُ كَكْفَةِ الْمِيزَانِ ١

ومنية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر المثلّم ٢ ملك قرطبة .  
 قال ابن سعيد : أخبرني والذي عن أبيه قال : خرج معي إلى هذه المنية  
 في زمان فتح الثوّار أبو بكر بن بقّي الشاعر ٣ المشهور ، فجلسنا تحت سطر  
 من أشجار اللوز قد نورّت ، فقال ابن بقّي :

سَطْرٌ مِنَ اللُّوزِ فِي البُسْتَانِ قَابِلَتِي      مَا زَادَ شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ وَلَا نَقْصًا  
 كأنما كلُّ غصنٍ كمْ جارياً      إِذَا النِّسِيمُ فَتَى أَعْطَافَهُ رَقْصًا

- ١ ك : انتساب ؛ ج : اكتساب .  
 ٢ الزبير بن عمر من ولاية المثلثين (المرابطين) على قرطبة ؛ وقد عده في مفاخر البربر (٨٢)  
 من ولاية غرناطة ولكن ابن سعيد (٢ : ١٢٧) يسميه صاحب قرطبة ، وهو مهجو الشاعر المعروف  
 بالأبيض .  
 ٣ أبو بكر يحيى بن بقي الطليطلي من كبار الشعراء الوشاحين في عصر المرابطين توفي سنة ٥٤٠  
 (انظر ترجمته في الذخيرة القسم الثاني : ٢٤٤ والفلاحة : ٢٧٩ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢١  
 والتكملة : ٢٠٤٢ ووفيات الأعيان ٥ : ٢٤٨ ومسالك الأبحار ٢١ : ٢٨٠ والمغرب ٢ : ١٩  
 وله موشحات في دار الطراز وفي مخطوطة جيش التوشيح لسان الدين) .

ثم قال شعراً منه :

عجبت لمن أبقي على خمر دنه غداة رأى لوز الحديقة نوراً

ولا أذكر بقية الأبيات ، قال جدي : ثم اجتمعت به بعد ذلك بغيرناطة ،  
فذكرته باجماعه في منية الزبير ، فتهتد وفكر ساعة وقال : اكتبوا عني ،  
فكتبنا :

سقى الله بستان الزبير ، ودام في مجاريه سيل التهر ما غنت الورق  
فكائن لنا من نعمة في جنابه كبرته الخضراء طالعها طلق  
هو الموضع الزاهي على كل موضع أما ظله ضاف أما ماؤه دقق  
أهيم به في حالة القرب والنوى وحق له مني التذكر والعشق  
ومن ذلك التهر الخفوق فؤاده بقلبي ما غيبت عن وجهه خفق

قال : فقلت له : جمع الله بينك وبينه على الحالة التي تشتهي ، قال : ذلك  
لك ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : تدفع لي هذا السيف الذي تقلدت به أتزود  
به إليه ، وأنفق الباقي فيه على ما تعلم ، قال : فقلت له : هذا سيف شرفي  
به السلطان أبو زكرياء ابن غانية ، وما لعطائه سبيل ، ولكن أعطيك قيمته ،  
فخرج وأتى بشخص يعرف قيمة السيوف ، فقدّره وجعل يقول : إنّه سيف  
السلطان ابن غانية ، ليعظم قدره في عينه فيزيد في قيمته ، ثم قبض ما قدر به ،  
وأنشد ارتجالاً :

أطال الله عمر فتى سعيد وبقاه ورقته السعود  
غدا لي جوده سبباً لعودي إلى وطني فها أنا ذا أعود  
والثم كفه شكراً ويتلوا طريق أي نعماه النشيد

١ ك ج ط : ذراه مسيل .



حياتي من ذخائره بسيف به لم يبق للأحزان جيد

والقصر الفارسي من القصور المقصودة للتزاهة بخارج قرطبة ، وقد ذكره الوزير أبو الوليد ابن زيدون في قصيد ضمنته من منتزهات قرطبة ما تقف عليه ، وكان قد فر من قرطبة أيام بني جهور ، فحضره في فراره عيد ذكره بأعياد وطنه ومعاهده الأنسية مع ولادة التي كان يهاها ويتغزل فيها ، فقال :

خليتي لا فطر يسر ولا أضحي فما حال من أسمى مشوقاً كما أضحي

وستأتي هذه القصيدة في هذا الباب ، كما ستأتي قصيدة أبي القاسم ابن هشام القرطبي التي أوتها :

يا هبة باكرت من نحو دارين

وفيها كثير من منتزهات قرطبة .

قال ابن سعيد : كان والدي كثيراً ما يأمرني بقراءتها عليه ، ويقول : والله لقد أنبأت عن فضل لهذا الرجل ، قال : وكان أبو يحيى الحضرمي يحفظها ، ويزين بها مجالسه ، ويحلف أن لا ينشدها بمحضر جاهل لا يفهم ، أو حاسد لا ينصف في الاهتزاز لها ، وإنه بلحدير بذلك ، وإنها لمن كنوز الأدب .

ثم قال : والمرج النصير المذكور بها هو مرج الخز ، أخبرني والدي أنه حضر في زمان الصبا بهذا المرج على راحة ، ومعه الرئيس الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبي جعفر الوقشي<sup>٢</sup> والمسني<sup>٣</sup> ابن دريدة<sup>٣</sup> المشهور بخفة الروح ، قال : فسبحت أمامنا إوز ، وجعلت ترح وتثر ما عليها من الماء فوق المرج ،

١ ديوان ابن زيدون : ١٥٨ .

٢ أبو الحسين الوقشي ، سيذكره صاحب النسخ ، وكان ذا صوت بديع عارفاً بالألحان ؛ وقد مر ذكره في المغرب ( ١ : ٢٢٠ ) في مجلس مع والد ابن سعيد .

٣ في بعض النسخ : الحسن ؛ وفي نسخة : دويذة ؛ وقد ذكره ابن سعيد في المغرب ٢ : ١٨١ وأورد بعض نوادره ؛ وهو قلعي أي ينسب إلى قلعة بني سعيد ؛ وفي ج : ودريده .

والمرج قد أحدق به الوادي ، والشمسُ قد مالت عليه للغروب ، فقال لي أبو الحسين : بالله صِفْ يومنا وحسِّنْ هذا المنظر ، فقلت : لا أصفه أو تصفه أنت ، فقال : ولك مني ذلك ، فأفكر كلُّ منّا على انفراد بعدما ذكرنا ما نصف نثراً ، فقال أبو الحسين الوقشي :

لله يوم بِمِرْجِ الخَزِّ طابَ لَنَا  
وللإوزِ عَلى أَرْجائِهِ لَعِبٌ  
والشمسُ تُجْحُ نحوَ البينِ مائِلَةٌ  
والكَأْسُ جائِلَةٌ باللبِّ حائِرَةٌ  
فيه النعيمُ بِحيثِ الروضِ والنهَرُ  
إذا جرتْ بُدِّدَتْ ما بيننا الدُرُورُ  
كَأنَّ عاشقها في الغربِ يَنتظرُ  
وكلُّنا غفلاتِ الدهرِ نبتدُرُ

قال : فقلت :

ألا حَبَّذَا يَوْمٌ ظَفَرْنَا بِطِيبِهِ  
وقدمَ مَرِحَتِ فيه الإوزِ ، وأرسلتِ  
ومُدَّ به للشمسِ فَهَوَ كَأَنَّهُ  
أدرنا عليه أَكُوساً بعثتْ به  
غدونا إِلَيْهِ صامتينِ سَكِينَةٍ  
بأكنافِ مِرْجِ الخَزِّ والنهْرِ يَبْسِمُ  
على سُنْدُوسٍ دُرّاً به يَتَنظَّمُ  
لثامٌ لها مُلَقَى من النورِ معصمُ  
من الأَنسِ مَيْتاً عاد وهو يُكَلِّمُ  
فَرُحْنَا وكلُّ بالهوى يَتَرنَّمُ

فأظهر كلَّ منّا لصاحبه استحسان ما قال تنشيطاً وتميماً للمسرة ، ثم قلنا للمسن : ما عندك أنت ما تعارض<sup>٢</sup> به هاتين القطعتين ؟ قال : بهذا ، ورفع رجله وحببَ حَبِقَةَ فرقعت<sup>٣</sup> منها أرجاؤه ، فقال له أبو الحسين : ما هذا يا شيخ السوء ؟ فقال : الطلاقُ له لازمٌ إن لم تكن أوزن من شعركما ، وأطيب رائحة ، وأغنَّ صوتاً ، وأطرب معنى ، فضحكنا منه أشدَّ ضحكك ، وجعلنا نهتر غاية

١ ق : في حسن .

٢ ق ط ج : بما تعارض .

٣ ق ط ج : فرقمت .

٤ ك : يلزمه .

الاهتزاز لموقع نادرته ، فقال : والدليل على ذلك أنكم طربتم لما جئت به أكثر مما طربتم من شعركم .

ثم قال ابن سعيد : ومن منتهات قرطبة المشهورة فحص السراق ، مقصود للفرجة ، يسرح<sup>١</sup> فيه البصر ، وتبتهج فيه النفس ، أخبرني والذي عن أخيه أبي جعفر بن عبد الملك بن سعيد قال : خرجت مع الشريف الأصم القرطبي إلى بسط الجزيرة الخضراء - وقد تديج بالأنوار<sup>٢</sup> - فلما جركنا حسن المكان ، وتشوقنا إلى الأركان<sup>٣</sup> ، قال الشريف : لقد ذكرني هذا البسيط بسط فحص السراق ، فقلت له : فهل ثار في خاطرك<sup>٤</sup> نظم فيه ؟ قال : نعم ، ثم أنشد :

ألا فدَعَوْا ذكر العُدَيْبِ وبارقِ      ولا تسأموا من ذكرِ فحصِ السَّرَاقِ  
مجرُّ ذبولِ السُّكْرِ من كلِّ مُتَرَفٍ      ومجرى الكؤوسِ المَرعاتِ السَّوابِقِ  
قَصْرَتْ عليه اللَّحْظُ ما دُمْتُ حاضِراً      وفِكْرِي في غَيْبِ لمرآه شائِقِي  
أيا طيبَ أَيامِ تَقَضَّتْ بروضةِ      على ملحِ غُدْرانِ وشمِّ جدائِقِي  
إذا غَرَّدَتْ<sup>٥</sup> فيها حَمائمُ دَوْحِها      تخيلتُها الكُتَّابَ بينَ المَهارِقِ  
وما باختيارِ الطَّرَفِ فارقتُ حُسْنِها      ولكن بكيدِ من زمانِ مُناقِقِ

قال أبو جعفر : فلما سمعت هذا الشعر لم أتمالك من الاستعبار ، وحررتني ذلك إلى أن قلت في حور<sup>٦</sup> مؤمل سيد منتهات غرناطة ، ولم يذكر هنا ما قاله فيه ، وذكره في موضع آخر لم يحضرني الآن حتى أورده هنا ، والله أعلم .  
ومن منتهات قرطبة السُّدُّ ، قال ابن سعيد : أخبرني والذي أن الشاعر

١ ق : ليسرح .

٢ ك : بالأنوار .

٣ لعل الصواب : الأوطان .

٤ ك : خاطركم .

٥ ق : رددت ؛ طج : وردت .

٦ بعض النسخ : حوز .

المبرز أبا شهاب المالقي<sup>١</sup> أنشده لنفسه واصفاً يوم راحة بهذا السد :

ويوم لنا بالسّد لو رُدَّ عيشه      بعيشة أيام الزّمان رددناه  
بكرنا له والشمسُ في خدر شرفها      إلى أن أجابت إذ دعا الغرب دعواه  
قطعناه شدواً واغتراباً ونشوة      ورجعَ حديثٍ لو رقى الميتَ أحياءُ  
على مثله من منزّه تبتغى المني      فله ما أحلى وأبدع مرآه  
شدتنا به الأرحا وألقت نثارها      علينا فأصغينا له وقبلناه  
لئن بانَ إننا بالأنين لفقدته      وبالدمع في إثر الفراق<sup>٢</sup> حكيناه

وأنشدني والدي موشحة لأبي الحسن المريني معاصره وصاحبه يذكر فيها هذا السد ، وهي<sup>٣</sup> :

في نعمة العود والسّلافه<sup>٥</sup>      والروض والنهر والنديم<sup>٦</sup>  
أطال من لامني خلافة<sup>٧</sup>      فظلّ في نصحه مليم<sup>٨</sup>

دعّتي على منهج التصابي      ما قام لي العذرُ بالشّباب  
ولا تطّل في المني عتابي      فلستُ أصغي إلى عتاب  
لا ترّج ردي إلى صواب<sup>٩</sup>      والكأسُ تفرّ عن حباب

والغصنُ يبدي لنا انعطافه<sup>١٠</sup>      إذا هفا فوقه النسيم<sup>١١</sup>  
والروضُ أهدى لنا قِطافه<sup>١٢</sup>      واختال في برده الرقيم<sup>١٣</sup>

١ أبو شهاب المالقي : من شعراء المائة السابعة ، صحبه والد ابن سعيد أيام الشباب ووصفه بأنه كان خليع العذار في شرب العقار (المغرب ١ : ٤٣٧) .

٢ ق : الغرام .

٣ استعمل في ك كلمتي « مطلع » و « دور » للدلالة على الفقل وعلى كل غصن من أغصان الموشحة .

٤ ك : إلى جواب ؛ ق : إلى الجواب .

يا حَبِّدَا عَهْدِي الْقَدِيمُ  
رِيمٌ عَنِ الْوَصْلِ لَا يَرِيمُ  
ما تمَّ إِلَّا بِهِ النِّعِيمُ  
ومن به همتُ مُسْعِدِي  
مُوَلِّعٌ بِالتَّوَدُّدِ  
طوعاً على رِغْمِ حُسْدِي

مُعْتَدِلُ الْقَدِّ ذُو نَحَافَةٍ  
ورام طرفي به انتصافه  
أَسْقَمِي طَرْفُهُ السَّقِيمُ  
فخذت في خده الكليمُ

غَضُّ الصَّبَا عَاطِرُ الْمَقْبَلِ  
ظَامِي الْحَشَامِ مَفْعَمُ الْمَخْلُخْلِ  
لكل من رَامَهُ تَوَصَّلْ  
أحلى من الأَمْنِ والأَمْلِ  
حَلُو اللَّمَى سَاحِرُ الْمَقْلِ  
لم يَخْشَ رَدًّا بَمَا فَعَلَ

أَشْكُو فَيْبُدِي لِي اعْتِرَافَهُ  
لا أَعْدَمُ الدَّهْرُ فِيهِ رَافَهُ  
إن حَادَ عَنِ نَهْجِهِ الْقَوِيمُ  
فحقَّ لي فِيهِ أَنْ أَهْمِمُ

لله عَصْرٌ لَنَا تَقْضَى  
أرى ادِّكَارِي إِلَيْهِ فَرَضَا  
فكم خَلَعْنَا عَلَيْهِ غَمَضَا  
بِالسَّدِّ وَالْمَنْبَرِ الْبَهِيحِ  
وَشَوْقِهِ دَائِمًا يَبْهِيحُ  
وَالصَّبَا مَسْرُحٌ أَرِيحُ

وَرِدُّ أَطَالِ الْمُنَى ارْتِشَافَهُ  
لله ما أَسْرَعَ انْحِرَافَهُ  
حتى انْقَضَى شَرِبُهُ الْكَرِيمِ  
وهكذا الدَّهْرُ لَا يَدِيمُ

يا مَنْ يَحِثُّ الْمَطِيَّ غَرَبَا  
وانثربها إن سَفَحَتْ غَرَبَا  
واسمع إلى من أقام صَبَا  
عَرَّجَ عَلَى حَضْرَةِ الْمَلُوكِ  
من مَدْمَعِ عَاطِلِ سَلُوكِ  
واحكِ صِدَاحَهُ لَأَفْضُ فُوكِ

بَلَّغْ سَلامِي قَصرَ الرُّصافَةِ ۚ وَذَكَرُوا عَهديَ القَدِيمِ  
وَحيَ عَنِّي دارَ الخِلافَةِ ۚ وَقَفْ بِها وَقِفَةَ الغَرِيمِ

قال ابن سعيد : والمنبر المذكور في هذه الموشحة من منبرها قرطبة ،  
والسدُّ هو الأرحا التي ذكرها في زجله قاسم بن عبود الرياحي ، رَوَيْتُهُ عَنْ  
والذي عن قائله ، وهو ٢ :

بِاللهِ أَيَّنَ نَصيبِ ۚ مِنْ لَسِّ لِي فِيهِ نَصيبِ  
مُحِبُّوباً مُخالِفِ ۚ وَمَعُورِ رَقيبِ

حِينَ نَقَصَدُ مَكانَ ۚ يَقُومُ فِي المَقامِ  
وَيُخَلِّ عَليْنَا بِرَدِّ السَّلامِ  
أَدْخَلْتِ يا قَلْبِي ۚ رُوحَكَ فِي زِحامِ ٣

سَلامَتِكَ عِندي ۚ هِيَ شَيِّ عَجيبِ  
وَكَيفَ بِاللهِ يَسَلِّمُ ۚ مَنْ هُوَ فِي لَهِيبِ

بِاللهِ يا حَبيبِي ۚ اتَرَكَ ذَا النِّقارِ  
وَاعْمَلْ أَنْ نَظيبُوا ۚ فِي هَذا النِّهارِ  
وَاخْرَجْ مَعِي لِلوادي ۚ لِشَرِبِ العُقارِ

نُتِمَّ نِهارِنا ۚ فِي لَدَهْ ۚ وَطيبِ  
فِي الأرحا وَإِلا ۚ فِي المَرَجِ الخِصيبِ

١ ك : وذكره ؛ والصواب قراءته حسب النطق الدارج « وذكروا » ، وهي قراءة ق .

٢ استعمل أيضاً في ك في تقسيم هذا الزجل لفظي مطلع ودور .

٣ ج : الزحام .

أَوْ عِنْدَ النَّوَاعِرِ <sup>١</sup>	وَالرُّوَضِ الشَّرِيقِ <sup>٢</sup>
أَوْ قَصْرَ الرِّصَافَةِ <sup>٣</sup>	أَوْ وَادِيَ الْعَقِيقِ
رَحِيقِ <sup>٤</sup> وَاللَّهِ دُونَكَ	هُوَ عِنْدِي الْحَرِيقِ
وَفِي حُبِّكَ أَمْسَيْتُ	فِي أَهْلِي غَرِيبُ
وَمَا الْمَوْتُ عِنْدِي	إِلَّا حِينَ تَغِيبُ
أَتَكَلُّ عَلَى اللَّهِ	وَكُنْ فَظُّ جَسُورُ
وَإِنْ رَيْتَ فُضُولِي	وَقَلَّ لِي تَمُورُ
كَمَشَّ عَنِّي وَجْهَكَ	فَإِنْ رَأَى نَفُورُ
يَهْرَبُ عَنكَ خَائِفُ	وَيَبْقَى مُرِيبُ
وَأَمْسِرَ أَنْتَ مُوقِرُ	كَأَنَّكَ خَطِيبُ
مَا أَعْجَبَ حَدِيثِي	إِشْ هَذَا الْجُنُونِ
نَطْلَبُ وَنُدَبِّرُ	أَمْرًا لَا يَكُونُ
وَكَمْ ذَا نُهُونِ	شَيْئًا لَا يَهُونُ
وَإِشْ مَقْدَارَ مَا نَصْبِرُ	لِبُعْدِ الْحَيِّبِ
رَبِّ اجْتَمِعْ مَعُو	عَاجِلًا قَرِيبُ

١ ج : النواير .  
٢ ج : الرشيق .  
٣ ك ط : حرق ؛ ج : حرق .  
٤ ك : عني .

## [ نهرها وقنطرتها ]

قال ابن سعيد : وأما نهر قرطبة فإنه يصغر عن عظمه عند إشبيلية ، بحيث صنع عليه قنطرة من حجارة لا يتأتى مثلها في نهر إشبيلية ، ومنبعه من جهة شقورة<sup>١</sup> يمر النصف منه إلى مرسية<sup>٢</sup> مشرقاً والنصف إلى قرطبة وإشبيلية مغرباً .

ولما ذكر الرازي قرطبة قال : « ونهرها الساكن في جريه ، اللين في انصبابه ، الذي تؤمن مغبة ضرره في حمله » . وقال هذا لأنه يعظم عند إشبيلية ، فإذا حان حمله في أيام الأمطار أشفت إشبيلية على الغرق ، وتوقع أهلها الهلاك . والقنطرة التي على هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها ، أقواسها سبع عشرة قوساً ، وبانيها - على ما ذكره ابن حيان وغيره - السَّمح ابن مالك الخولاني صاحب الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وشيئدها بنو أمية بعد ذلك وحسنوها ، قال ابن حيان : قيل : إنه قد كانت في هذا المكان قنطرة من بنيان الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتي سنة أثمرت فيها الأزمان بمكابدة المدود حتى سقطت حناياها ، ومحت أعاليها ، وبقيت أرجلها وأسافلها ، وعليها بنى السَّمح في سنة إحدى ومائة ، انتهى .

وقال في مناهج الفكر : إن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا ، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي ، وطولها ثمانمائة ذراع<sup>٢</sup> ، وعرضها عشرون باعاً ، وارتفاعها ستون ذراعاً ، وعدد حناياها ثمانين عشرة حنينة ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً ، انتهى .

١ شقورة : ( Segura de la Sierra ) مدينة كانت من عمل حيان ، وينسب إليها نهر شقورة

وهو نهر مرسية .

٢ ق : باع .



## رجع إلى قرطبة

ذكر ابن حبان والرازي والحجاري أن أكتيبان<sup>١</sup> - ثاني قياصرة الروم الذي ملك أكثر الدنيا وصفح نهر رومية بالصفر ، فأرخت الروم من ذلك العهد ، وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة - أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس ، فبُنيت في مدته قرطبة وإشبيلية وماردة وسرقسطة ، وانفرد الحجاري بأن أكتيبان المذكور وجه أربعة من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحد منهم مدينة في الجهة التي ولاه عليها ، وسمّاها باسمه ، وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك ، وغير الحجاري جعل أسماء هذه المدن مشتقة مما تقتضيه أوضاعها كما مر ؛ وذكروا أنه قد تداولت على قرطبة ولاة الروم الأخيرة الذين هم بنو عيصو بن إسحاق بن إبراهيم ، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، إلى أن انتزعها من أيديهم القوط من ولد يافث المتغلبون على الأندلس ، إلى أن أخذها منهم المسلمون . ولم تكن في الجاهلية سريراً لسلطنة الأندلس ، بل كرسياً لخاص مملكتها ، وسعدت في الإسلام ، فصارت سريراً للسلطنة العظمى الشاملة ، وقطباً للخلافة المروانية ، وصارت إشبيلية وطليطلة تبعاً لها ، بعدما كان الأمر بالعكس ، والله يفعل ما يشاء ، بيده الملك والتدبير ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا هو العلي الكبير .

وقال صاحب «نشق الأزهار»<sup>٢</sup> عندما تعرض لذكر قرطبة : هي مدينة مشهورة ، دار خلافة ، وأهلها أعيان ناس في العلم والفضل ، وبها جامع ليس في الإسلام مثله ، انتهى .

١ ق : اكتيبان ؛ ك : الثبان ؛ والصواب ما أثبتناه فهو (Octavian) المعروف باسم اكتافيرس - قيصر .

٢ أظن المراد هنا هو «نشق الأزهار في عجائب الأقطار» لابن إياس الحنفي المتوفى سنة ٩٣٠ .

## [ الفتنة البربرية والنزاع بين الحموديين والأمويين ]

ومن الأسباب في سلب محاسن قرطبة عيّن البربر بها في دخولهم مع سليمان المستعين الأموي حين استولى على قرطبة في دولته التي افتتحت بالقهر وسفك الدماء ، وكان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان عليّ بن حمود من بني علي بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - وجدّه إدريس هرب من هرون الرشيد إلى البربر ، فبربر ولده ، وبني ابنه إدريس مدينة فاس ، وكان المؤيد هشام يشتغل بالملاحم ، ووقف على أن دولة بني أمية تنقرض بالأندلس على يد علوي أول اسمه عين ، فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة ومحوّ كثيراً من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود ، وبلغ هشاماً المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه فدرس إليه أن الدولة صائرة إليك ، وقال له : إن خاطري يحدّثني أن هذا الرجل يقتلني ، يعني سليمان ، فإن فعل فخذ بثأري ، وكان هذا الأمر هو الذي قوّى نفس ابن حمود على طلب الإمامة ، وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد ، فكان المؤيد أحد من أخذ بثأره بعد موته .

وتولّى بعد ذلك علي بن حمود<sup>١</sup> ، وبويع بقرطبة في قصرها في اليوم الذي قُتل فيه سليمان المستعين<sup>٢</sup> ، وأخذ الناس بالإرهاب والسطوة ، وأذلّ رؤوس البربر ، وبرقت للعدل في أيامه بارقة خلب لم تكد تقيد حتى خبّت ، وجلس للمظالم ، وقدمت له جماعة من البربر في إجرام فضرب رقابهم ، وأهلهم وعشائرهم ينظرون ، وخرج يوماً على باب عامر فالتقى فارساً من البربر وأمامه حمل عنب ، فاستوقفه وقال له : من أين لك هذا ؟ فقال : أخذته كما يأخذ الناس ، فأمر بضرب عنقه ، ووضع رأسه وسط الحمل ، وطيف به في البلد ،

١ انظر تفصيل الخبر عن ولاية علي بن حمود في الذخيرة ١/١ : ٧٩ نقلاً عن ابن حبان ، وهذا

الذي أورده المقرئ تلخيص لما جاء هناك .

٢ وبويع . . . المستعين : سقطت هذه العبارة من ق .

واستمر على هذا مع أهل قرطبة في أحسن عشرة نحو ثمانية أشهر ، حتى بلغه قيام الأندلسيين بالمرتضى الرواني في شرق الأندلس ، فتغير عما كان عليه ، وعزم على إخلاء قرطبة وإبادة أهلها ، فلا يعود لأئمتهم بها سلطان آخر الدهر ، وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله ، وانتزع الإسلام من أهل قرطبة<sup>١</sup> ، وهدم المنازل ، واستهان بالأكابر ، ووضع المغارم ، وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال ، فلما غرموه سرحهم ، فلما جيء إليهم بدوابهم ليركبوها أمر من أخذ الدواب ، وتركهم يتزلون إلى منازلهم على أرجلهم ، وكان منهم أبو الحزم الذي ملك قرطبة بعد وصارت دولته بوراثه ولده معدودة في دول الطوائف ، فانجمعت عن عليّ النفوس ، وتوالى عليه الدعاء ، فقتله صبيان أغمار من صقالبة بني مروان في الحمّام ، وكان قتله غرة ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة ، وكان الصقالبة ثلاثة فهربوا واختفوا في أماكن يعرفونها ، وصح عند الناس موته ، ففرحوا ، وكانت مدته كما مر نحو عامين ، وحققها بعض فقال : أحد وعشرون شهراً وستة أيام .

وكان الناصر علي بن حمّود - على عجمته ، وبعده من الفضائل - يصغي إلى الأمداح ، ويثيب عليها ، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي ، ومن شعرائه المختصين به ابن الحنّاط القرطبي<sup>٢</sup> ، ومن شعره قوله<sup>٣</sup> :

راحت تذكرُ بالنسيم الراحا      وطُفَاء تكسر للجُنُوح جناحا  
أخفى مسالكها الظلامُ فأوقدت      من برقها كي تهندي مصباحا

١ ك : وانتزع أهل قرطبة .

٢ ابن الحنّاط (وفي ق ك طاج : الحياط) : محمد بن سليمان بن الحنّاط الرعيبي القرطبي الأعمى ، كان أبوه يبيع الحنطة بقرطبة ، ثم تعهد ابنه بنو ذكوان بالتعليم واتصل بدولة بني حمود ومدح أمراءها وتوفي سنة ٤٣٧ ( انظر الذخيرة ١/١ : ٣٨٣ والجدوة : ٥٣ وبنية الملئس رقم : ١٢٤ والمغرب ١ : ١٢١ والصلة : ٦٤٠ والتكملة : ٣٨٧ .

٣ الذخيرة ١/١ : ٣٩٠ .

وعبادة بن ماء السماء ، وكان معروفاً بالثشيع ، وفيه يقول من قصيدة :

أبوكم عليٌّ كان بالشرق بدءاً ما ورثتم ، وذا بالغرب أيضاً سميّة  
فصلُّوا عليه أجمعون وسلّموا له الأمر إذ ولاه فيكم وليّة

ومدحه ابنُ درّاج القسطليّ بقوله ١ :

لعلك يا شمسُ عند الأصيلِ شجيت لشجو الغريب الذليلِ  
فكوني شفيعي لابن الشفيح وكوني رسولي لابن الرسولِ

وكان أخوه القاسم بن حمّود أكبر منه بعشر سنين ، وأمهما واحدة ، وهي علوية ، ولما قُتل الناصر كان القاسم والياً على إشبيلية ، وكان يحيى بن علي والياً على سبّنة ، فاختلفت أهواء البربر ٢ ، فمال أكثرهم إلى القاسم لكونه غُنيّاً أولاً ، وقُدّم عليه أخوه الأصغر ، وكونه قريباً من قرطبة ، وبينهم وبين يحيى البحر ، فلما وصلت رُسُلهم إلى القاسم لم يُظهر فرحاً بالإمامة ، وخاف أن تكون حيلةً من أخيه عليه ، فتنهقر إلى أن اتضح له الحق ، فركب إلى قرطبة ، وبويج فيها بعد ستة أيّام من قتل أخيه ، وأحسن السيرة ، وأحسن من البربر الميل إلى يحيى ابن أخيه عليّ صاحب سبّنة ، فتهاكف في اقتناء السودان ، وابتاع منهم كثيراً ، وقوّدهم على أعماله ، فأنتفت البرابر من ذلك ، وانحرفوا عنه . وفي سنة تسع وأربعمائة ٣ قام عليه بشرق الأندلس المرتضى عبدُ الرحمن من أعقاب الناصر ، لأن أهل الأندلس صعب عليهم ملك بني حمّود العلويين بسبب البرابر ، فأرادوا رجوع الإمامة إلى بني مروان ، واجتمع له أكثر ملوك الطوائف ، وكان معه حين أقبل لقرطبة مُنذر التجيبيُّ صاحب سرقسطة

١ ديوان ابن دراج : ٧٥ .

٢ ك : فاختلف هؤلاء البربر ؛ ج : فاختلف أحوال . . .

٣ انظر تفصيل هذه الأحداث في ابن عذاري ٣ : ١٢٥ .

وخَيْرَان العامري الصَّقْلِي صاحب المَرِيَّة ، وانضاف إليهم جمعٌ من الفرنج ، وتأهَّب القاسم والبرابرة للقائهم ، فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نيَّة منذر وخَيْرَان على المرتضى ، وقالوا : أرانا في الأوَّل وجهاً ليس بالوجه الذي نراه حين اجتمع إليه الجَم الغفير ، وهذا ماكر غير صافي النيَّة ، فكتب خيران إلى ابن زيري الصَّنْهَاجِي المتغلب على غَرْنَاطَة - وهو داهية البربر - وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خَدَلَّ عن نصرته الموالي العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور ، فأصغى ابن زيري إلى ذلك ، وكتب المرتضى إلى ابن زيري يدعوهُ لطاعته ، فقلب الكتاب ، وكتب في ظهره ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ - السورة ﴾ (السورة : ١٠٩) فأرسل إليه كتاباً ثانياً يقول فيه : قد جئتكَ بجميع أبطال الأندلس وبالفرنج ، فماذا تصنع ؟ وختم الكتاب بهذا البيت :

إِنْ كُنْتَ مِنَّا أَبْشَرُ بِخَيْرٍ أَوْ لَا فَأَيُّقِنُ بِكُلِّ شَرٍّ

فأمر الكاتب أن يحوَّل الكتاب ويكتب في ظهره ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ - السورة ﴾ (السورة : ١٠٢) فازداد حنقه ، وحمله الغيظ إلى أن ترك السير إلى حضرة الإمامة قُرْطُبِيَّة ، وعدل إلى محاربتة ، وهو يرى أنه يَصْطَلِمُه في ساعة من نهار ، ودامت الحرب أياماً ، وأرسل ابنُ زيري إلى خَيْرَان يستنجزه وعده ، فأجابه : إنَّما توقفتَ حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو كنَّا ببواطنتنا معه ، ما ثبتَ جمعك لنا ، ونحن ننهزم عنه ونَحْذُلُه في غد . ولما كان من الغد رأى أعلام خَيْرَان وأعلام منذر وأصحاب الثغور قد ولتْ عنه ، فسَقَطَ في يد المرتضى ، وثبت حتى كادوا يأخذونه ، واستعمرَ القتل ، وصُرع كثير من أصحابه ، فلما خاف القبض عليه ولَّى ، فوضع عليه خيران عيوناً فلحقوه بقرب وادي آش وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه ، فهجموا عليه ، فقتلوه وجاؤوا برأسه إلى المَرِيَّة ، وقد حل بها خيران ومنذر ،

فتحدث الناس أنهما اصطبحا<sup>١</sup> عليه سروراً بهلاكه .  
وبعد هذه الواقعة أذعن أهل الأندلس للبرابرة ، ولم يجتمع لهم بعدها جمع  
ينهضون به إليهم ، وضرب القاسمُ بن حمّود سراقَ المرتضى على نهر  
قُرْطُبة ، وغشيه خلق من النظارة وقلوبهم تنقطع حسرات ، وأنشد عبادة  
ابن ماء السماء قصيدته التي أولها<sup>٢</sup> :

لَكَ الْخَيْرُ خَيْرَانُ مَضَى لِسَيْلِهِ وَأَصْبَحَ أَمْرُ اللَّهِ فِي ابْنِ رَسُولِهِ

وتمكّنت<sup>٣</sup> أمور القاسم ، وولّى وعزل ، وقال وفعل ، إلى أن كشف وجهه  
في خلع طاعته ابنُ أخيه يحيى بن علي ، وكتب من سبّته إلى أكابر البرابر  
بقرطبة : إن عمي أخذ ميراثي من أبي ، ثم إنّه قدّمَ في ولاياتكم التي أخذتموها  
بسيوفكم العبيد والسودان ، وأنا أطلب ميراثي ، وأولّيكم مناصبكم ، وأجعل  
العبيد والسودان كما هم عند الناس ، فأجابوه إلى ذلك ، فجمع ما عنده من  
المراكب وأعانه أخوه إدريس صاحبُ مالقة ، فجاز البحر بجمع وافر ،  
وحصل بمالقة مع أخيه ، وكتب له خيران صاحبُ المريّة مذكراً بما أسلفه في  
إعانة أبيه ، وأكد المودة فقال له أخوه إدريس : إن خيران رجل خدّاع ،  
فقال يحيى : ونحن منخدعون فيما لا يضرنا ، ثم إن يحيى أقبل إلى قُرْطُبة  
وائقاً بأن البرابر معه ، ففرّ القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصه ليلة  
السبت ٢٨ من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ ، وحلّ يحيى بقُرْطُبة ، فبايعه  
البرابر والسودان وأهل البلد يوم السبت مُستَهل جمادى الآخرة ، وكان يحيى  
من النجباء ، وأمه فاطمية ، وإنّما كانت آفته العُجب واصطناع السّفلة ،

١ ك : اصطبحا .

٢ ابن عذاري ٣ : ١٣٠ دون نسبة ، وفي الذخيرة ١/١ : ٣٩٦ أن القصيدة لابن الحناط قالها  
في أبي القاسم بن حمود يصف خيران الصقلبي وقتل المرتضى المرواني .

٣ ق ط : ومشت ؛ ج : وتمت .

٤ ك : ٤١٣ .

واشتط أكابر البرابر عليه ، وطلبوا ما وعدهم من إسقاط مراتب السودان ،  
 فبذل لهم ذلك ، فلم يقنعوا منه ، وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة ويفرغ بيت  
 المال ، وفر السودان إلى عمته بإشيلية ، ومن البرابر ومن جند الأندلس من  
 احتجب عنهم يحيى وتكبر عليهم ، ولم يعل إليه ملوك الطوائف ، وبقي منهم  
 كثير على الخطبة لعمته القاسم ، إلى أن اختلت الحال بحضرة قرطبة ، وأيقن  
 يحيى أنه متى أقام بها قبض عليه ، وكان قد ولى على سببته أخاه إدريس ،  
 وبلغه أن أهل مالقة خاطبوا خيبران وكتبوه ، فطمع خيران فيها ، وفرَّ  
 يحيى في خواصه تحت الليل إلى مالقة ، ولما بلغ القاسم فراره ركب من إشيلية  
 إلى قرطبة ، فخطب له بها يوم الثلاثاء لاثني عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة  
 سنة ٤١٣ ، ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة ، ووقع الاختلاف ،  
 وكان هوى السودان معه ، وهوى كثير من البرابر مع يحيى ، وهوى أهل  
 قرطبة مع قائم من بني أمية يشيعون ذكره ولا يظهر ، وكثر الإرجاف بذلك ،  
 ووقع الطلب على بني أمية فتفرقوا في البلاد ، ودخلوا في أعمار الناس ،  
 وأخفوا زيتهم ، ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة ، وتكاثر البلديون ،  
 وأخرجوا القاسم وبرابره فضرب خيمة بغربها ، وقتلهم مدة خمسين يوماً  
 قتالاً شديداً ، وبني القرطبيون أبواب مدينتهم ، وقتلوا القاسم من الأسوار  
 إلى أن طال عليهم الحصار ، فهدموا باباً من الأبواب وخرجوا خرجة رجل  
 واحد وصبروا ، فمَنَحهم الله تعالى الظفر ، وفر السودان مع القاسم إلى  
 إشيلية ، وفرَّ البرابرة إلى يحيى وهو بمالقة ، وكان فرار القاسم من ظاهر  
 قرطبة يوم الخميس لثني عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٤١٤ .

وكان ابنه محمد بن القاسم والياً على إشيلية ، وثقته المدبر لأمره محمد بن  
 زيري من أكابر البرابرة ، وقاضيه محمد بن عباد ، فعمل القاضي لنفسه ، وهو

١ في قك : وصفروا ؛ وفي بعض النسخ : وظفروا .

جد المعتمد بن عباد ، وأطمع ابن زيري في التملك ، فأغلق الأبواب في وجه مصطنعه وحاربه ، فقتل من البرابر والسودان خلق كثير ، وابن عباد يضحك على الجميع ، فيئس القاسم ، وقنع أن يُخْرَجوا إليه ابنة وأصحابه ويسير عنهم ، فأخرجوهم إليه ، فسار بهم إلى شَرِيش . وعندما استقرَّ بها وصل إليه يحيى ابن أخيه من مالقةَ ومعه جمع عظيم وحاصره في المدينة عشرين يوماً كانت فيها حروب صعبا ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمته وإسلام أهل شَرِيش له ، وفرَّ سودانه ، وحصل القاسم وابنه في يد يحيى ، وكان قد أقسم أنه إن حصل في يده ليقْتلته ، ولا يتركه حتى يلي الإمامة بقرطبة مرة ثانية ، فرأى التربص في قتله حتى يرى رأيه فيه ، فحدث عنه بعض أصحابه أنه حمله ب قيد إلى مالقةَ ، وحبسه عنده ، وكان كلما سكر وأراد قتله رغبه ندماءؤه في الإبقاء عليه لأنه لا قدرة له على الخلاص ، وكان كلما نام رأى والده علياً في النوم ينهاه عن قتله ، ويقول له : أخي أكبر مني ، وكان محسناً إلي في صغري ومُسْلِماً لي عند إمارتي ، الله الله فيه ، وامتلت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقاً بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه ، لأنه كان قد حبسه في حصن من حصون مالقةَ ، فَنَمِيَ إليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن في القيام والعصيان فقال : أوبقي في رأسه حديثاً بعد هذا العمر ؟ فقتله سنة ٤٢٧ ، وبقي أهل قرطبة بعد فرار القاسم عنها نيفاً عن شهرين يَروُن رأبهم فيمن يبائعونه بالإمامة .

ولما كان يوم الثلاثاء<sup>١</sup> نصف شهر رمضان سنة ٤١٤ أُحْضِرَ المستظهر وسليمان بن المرتضى وأموي آخر معه ، فبايعا المستظهر ، وقبلاً يده بعدما كان قد كُتِبَ عَقْدُ<sup>٣</sup> البيعة باسم سليمان بن المرتضى على ما ارتضاه الأماثل ،

١ ق : حدث .

٢ قارن هذا بما في الذخيرة ١/١ : ٣٥ - ٣٦ .

٣ ك : قبل البيعة .



فبُشِّرَ اسمه ، وكتب اسم المستظهر وركب إلى القصر ، وحمل معه ابني عمته المذكورين فحبسهما ، وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب ، كأبي عامر ابن شهيد المنهك<sup>١</sup> في بطالته ، وأبي محمد ابن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقاله ، وابن عمته عبد الوهاب بن حزم الغزلي المترف في حالته ، فأحقد بذلك مشايخ الوزراء والأكابر ، وبادر المستظهر باصطناع البرابر ، وأكرم مثواهم ، وأحسن مأواهم ، واشتغل مع ابن شهيد وابني حزم بالمباحثة في الآداب ، ونظم الشعر والتمسك بتلك الأهداب ، والناس في ذلك الوقت أجهل ما يكون ، وكان جماعة من أهل الشر في السجون يتعين أن لا يخرج منهم إنسان ، فأخرج منهم شخصاً يقال له أبو عمران ، وقد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم إخراجه ، فأخرجه وخالفه في ذلك ، ولم يقبل النصيحة ، وفعل ما أداه إلى الفضيحة ، فسعى القوم الذين خرجوا من الحبوس ، على إفساد دولته وإبدال فرجه باليوس ، لما اشتغل عنهم بالأدباء والشعراء حسبما اقتضاه رأيه المعكوس ، فسعموا في خلعه مع البرابر ، وقتل في ذي القعدة من السنة التي بويج فيها وصار كأمس الدابر ، بعد سبعة وأربعين يوماً من يوم بويج بالخلافة ، وإذا أراد الله أمراً فلا يقدر أحد أن يأتي خلافه ، وعمره ثلاث وعشرون سنة كانتها سنة .

ومن شعر المستظهر المذكور ، وهو من القريض المدوح صاحبه بالبلاغة المشكور<sup>٢</sup> :

طال عمرُ اللَّيْلِ عندي      مُدٌ تولَّعتَ بِبِصْدَيِ  
يا غَزَالاً نَقَضَ العَهْدَ      دَـ وَلَمْ يوفِ بِوَعْدِ  
أَسَيِّتَ العَهْدَ إِذْ بَيَّتْ      نا على مَفْرَشِ وَرْدِ

١ ق ط : المنهك ؛ ج : التمهك .

٢ مرت هذه الأبيات ص : ٤٣٦ .

واعْتَنَقْنَا فِي وِشَاحٍ وَأَنْتَظَمْنَا نَظْمَ عَقْدٍ  
وَنَجُومِ اللَّيْلِ تَسْرِي ذَهَباً فِي لَازِوَرْدٍ

وكتب إليه شاعر في طرسٍ مكشوط :

وَالطَّرْسُ مَبْشُورٌ وَفِيهِ بَشَارَةٌ      بَيْتًا لِلْإِمَامِ الْفَاضِلِ الْمُسْتَظْهِرِ  
مَلِكِ أَعَادِ الْعَيْشَ غَضًّا مُلْكُهُ      وَكَذَا يَكُونُ بِهِ طَوَالَ الْأَعْصُرِ

فأجزل صلته ، وكتب في ظهر الورقة :

قَبَلْنَا الْعُدْرَ فِي بَشْرِ الْكِتَابِ      لَمَّا أَحْكَمْتَ فِي فَضْلِ الْخَطَابِ

وقد قدمنا في الباب الثالث شيئاً من هذه الأخبار ، وما حصل بعد ذلك بقرطبة إلى أن تولّى الأمر ابنُ جَهْورٍ في صورة الوزارة ، ثم ابنه ، إلى أن أخذ قرطبة منه المعتمد بن عباد ، حسبما ذُكر في أخباره .

ثم آل الأمر بعد ذلك كله إلى استيلاء ملوك العُدوة من الملتئمين والموحدين ، على قرطبة ، إلى أن تسلّمها النصارى ، أعادها الله تعالى للإسلام ، كما يُذكر في الباب الثامن .

وقال صاحب «مناهج الفكر» في ذكر قرطبة ، ما ملخصه : فأما ما اشتمل عليه غرب الجزيرة ، من البلاد الخطيرة ، فمنها قرطبة ، وكانت مقر الملك ، ودار الإمارة ، وأمّ ما عداها من البلاد ، منذ افتتحها المسلمون سنة ٩٢ زمن الوليد بن عبد الملك إلى أن خرجت عن أيديهم ، وتنقلت في أيدي ملوك المسلمين إلى أن وصلت إلى الناصر عبد الرحمن ، فبنى في تجاهها مدينة سماها الزهراء ، يجري بينهما نهر عظيم ، انتهى .

[ استطراد في وصف المباني العامرة ]

واعلم أن المباني دالة على عظيم قدر بانيتها ، كما ذكرناه في كلام الناصر

الذي طابت له من الزهراء مجانيها ، ولم يزل البلغاء يصفون المباني ، بأحسن الألفاظ والمعاني ، ورأينا أن نذكر هنا بعض ذلك ، زيادة في توسيع المسالك ، فمن ذلك قول ابن حمديس الصقلي<sup>١</sup> يصف داراً<sup>٢</sup> بناها المعتمد على الله<sup>٣</sup> :

ويا حَبَّذا دار قَضَى اللهُ أَنها  
مُقَدَّسَةٌ لو أن مُوسَى كَلِمَهُ  
وما هِيَ إلا حُطَّةُ المَلِكِ الَّذِي  
إذا فُتِحَتْ أبوابُها خِلَتْ أَنها  
وقد نَقَلْتِ صُنَاعُها من صِفاته  
فمن صَدْرِهِ رَجَباً ومن نورِهِ سَناً  
فأَعَلَّتْ به في رُتَبَةِ المَلِكِ نادياً  
نَسِيتُ به إيوانَ كَسْرَى لِأَتِي  
كَأَنَّ سَليمانَ بنِ داودَ لَمْ تُبِحْ  
تَرَى الشَّمْسَ فيه لِقَةً تَسْتَمِدُّها  
لها حَرَكَاتٌ أُودِعَتْ في سَكُونِها  
ولَمَّا عَشِينا مِنْ تَوَقَّدِ نورِها

يُجَدِّدُ فيها كُلَّ عِزٍّ ولا يَبْئَلُ  
مَشَى قُدُماً في أرضِها خَلَعَ النِّعْلَ  
يَخْطُ إليه كُلُّ ذِي أَمَلٍ رَجُلًا  
تَقولُ بِرَحِيبٍ لِدَاخِلِها أهلاً  
إليها أَفانِياً فَأَحْسَنَتِ النِّقْلَ  
ومن صِيتِهِ فرعاً ومن حِلْمِهِ أَصْلاً  
وَقَلَّ لَه فوق السَّمَاكِينِ أن يُعْلَى  
أَراه لَه مَوْلَى من الحِسنِ لا مِثْلاً  
مَخافَتِهِ لِلجِنِّ في صُنْعِهِ مَهْلاً  
أَكْفُ أَقامَتِ من تصاوِيرِها شَكْلاً  
فما تَبِعَتْ في نَقْلِها يَدُ رَجُلًا  
تَحِذُنَا سَناءُ في نَوَاطِرِنا كَحِلا

وقال من أخرى يصف داراً بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية<sup>٥</sup> :

١ أبو بكر عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي ، هاجر من بلده إلى الأندلس وأصبح من مداح المعتمد بن عباد ، إلى أن عزل عن ملكه ( ٤٨٤ ) فغادر الأندلس إلى المغرب وظل متنقلاً يمدح ملوكها إلى أن توفي سنة ٥٢٧ هـ ( انظر مقدمة ديوانه ، ط . صادر - بيروت ١٩٦٠ ) .

٢ ك : في دار ؛ ق : يمدح داراً .

٣ المقتطفات ( الورقة : ٢٩ ) وديوان ابن حمديس : ٣٧٨ .

٤ رواية الديوان :

ويا حبذا دار يد الله مسحت عليها بتجديد البقاء فما تبلى

٥ المقتطفات ( الورقة : ٣٠ ) وديوان ابن حمديس : ٥٤٥ نقلا عن النسخ ونهاية الأرب ومطالع البدور .

أَضْحَى بِمَجْدِكَ بَيْتَهُ مَعْمُورًا  
 أَعْمَى لَعَادَ إِلَى الْمَقَامِ بَصِيرًا  
 فَيَكَادُ يُحَدِّثُ لِلْعِظَامِ ٢ نَشُورًا  
 وَمَا فِيقَاقَ خَوْرَنَقًا وَسَدِيرًا  
 مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَدَّ كُورًا  
 رَفَعُوا الْبِنَاءَ وَأَحْكَمُوا التَّدْبِيرًا  
 لِلْمُوكِهِمْ شَبَهًا لَهُ وَنَظِيرًا  
 غُرْفًا رَفَعْتَ بِنَاءَهَا وَقُصُورًا  
 وَرَجَوًا بِذَلِكَ جَنَّةً وَحَرِيرًا  
 حَسَنَاتُهُمْ لِدُنُوبِهِمْ تَكْفِيرًا  
 حَصَرَ الْبُيُوتَ فَأَطْلَعَ الْمَنصُورًا  
 ثُمَّ انشَيْتُ بِنَاطِرِي مَحْضُورًا  
 لَمَّا رَأَيْتُ الْمَلِكَ فِيهِ كَبِيرًا  
 جَعَلْتَ تَرْحَبُ بِالْعُفَاةِ صَرِيرًا  
 فَغَرَّتْ بِهَا أَفْوَاهُهَا تَكْثِيرًا ٤  
 مَنْ لَمْ يَكُنْ بِدُخُولِهِ مَأْمُورًا  
 فِيهِ فَتَكَبُّوا عَنْ مَدَاهِ قُصُورًا  
 فُرُشَ الْمَهَا وَتَوَشَّحَ الْكَافُورًا  
 مَسْكًَا تَضَوَّعَ نَشْرُهُ وَعَيْبِيرًا  
 صُبْحًا عَلَى غَسَقِ الظَّلَامِ مُنِيرًا

اعْمُرْ بِقَصْرِ الْمَلِكِ نَادِيكَ الَّذِي  
 قَصُرَ لَوْ أَنَّكَ قَدْ كَحَلَّتْ بِنُورِهِ  
 وَاشْتَقَّ مِنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ نَسِيمُهُ  
 نُسِي الصَّبِيحِ مَعَ الْمَلِيحِ ٣ بِذِكْرِهِ  
 وَلَوْ أَنَّ بِالْإِيوَانِ قُوبِلَ حُسْنُهُ  
 أُعِيَتْ مِصَانِعُهُ عَلَى الْفُرْسِ الْأَلِيِّ  
 وَمَضَتْ عَلَى الرُّومِ الدَّهُورُ وَمَا بَنَوْا  
 أَذْكَرْتَنَا الْفِرْدَوْسَ حِينَ أَرَيْتَنَا  
 فَالْمَحْسُونِ تَزِيدُوا أَعْمَالَهُمْ  
 وَالْمَذْنُوبِينَ هُدُوا الصِّرَاطَ وَكَفِّرْتِ  
 فَلَكَ ٥ مِنَ الْأَفْلَاقِ إِلَّا أَنَّهُ  
 أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَنظَرٍ  
 وَظَنَنْتُ أَنِّي حَالِمٌ فِي جَنَّةٍ  
 وَإِذَا الْوَلَائِدُ فَتَحَّتْ أَبْوَابَهُ  
 عَضَّتْ عَلَى حَلْقَاتِهِنَّ ضِرَاعَهُ  
 فَكَأَنَّهَا لَبَدَتْ لِتَهْصِرَ عِنْدَهَا  
 تَجْرِي الْخُوطَاطِرُ مُطْلَقَاتٍ أَعْنَتَهُ  
 بِمُرْخَمِ السَّاحَاتِ تَحْسِبُ أَنَّهُ  
 وَمُحْصَبٍ بِالْدَّرِّ تَحْسِبُ تَرْبَتَهُ  
 تَسْتَخْلِفُ الْأَبْصَارَ مِنْهُ إِذَا أَتَى ٥

٢ ك : بالعظام .

٤ ك : تكثيرا .

١ ك : الجنان .

٢ ك : الفصبح .

٥ ق ج ط : تستخلف الاصبح منه إذا انقضى .

٦ ق ج ط : غسق .

ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها المياه ، وتفنن  
فذكر أسوداً على حافاتها قاذفة بالمياه أيضاً ، فقال ١ :

وضراعهم سكنت عرين رياسة  
فكانت غشى النصارُ جسمها  
أسدٌ كأن سكونها متحرك  
وتذكرت فتكاتها فكانت  
وتخالها والشمس تجلو لونها  
فكانت سكت سيوف جداول  
وكانت نسج التسيم لمانه  
وبديعة الثمرات تعبر نحوها  
شجيرة ذهبية نزعن إلى  
قد صولجت أغصانها فكانت  
وكانت تأبى لواقع ٣ طيرها  
من كل واقعة ترى منقارها  
خرس تعد من الفصاح فإن شدت  
وكانت في كل غصن فضة  
وتريك في الصهريج موقع قطرها  
ضحكت محاسنه إليك كأنت  
ومصقح الأبواب تبرا نظروا  
تبدو مسامير النصار كما علت

تركت خريبر الماء فيه زئيرا  
وأذاب في أفواها البلورا  
في النفس لو وجدت هناك مثيرا  
أفعت على أدبارها لتثورا  
نارا وألسنها اللواحيس نورا  
ذابت بلا نار فعدن غديرا  
درعا فقدد سردها تقديرا  
عيناي بحر عجائب مسجورا  
سحر يؤثر في النهى تأثيرا  
قنصت بين ٢ من الفضاء طورا  
أن تستقل بنهضها وتطيرا  
ماء كسلسال اللجين نميرا  
جعلت تغرد بالمياه صفيرا  
لانت فأرسل خيطها مجرورا  
فوق الزبرجد لؤلؤا متثورا  
جعلت لها زهر النجوم ثغورا  
بالنقش فوق شكوله ٤ تنظيرا  
تلك اليهود من الحسان صدورا ٥

١ المقتطفات ( الورقة : ٣٠ ) وديوان ابن حديس : ٥٤٧ .

٢ ق ج ط : قد صوبت . . . قبضت بين .

٤ ق ج ط : بين شكوله .

٥ ق ك ج ط : من الجنان صدورا .

خَلَعَتْ عَلَيْهِ غِلَاثًا وَرُسِيَّةً<sup>١</sup>      شَمْسٌ تَرِدُ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسِيرًا  
 وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى غَرَائِبِ سَقْفِهِ      أَبْصَرْتَ رَوْضًا فِي السَّمَاءِ نَضِيرًا  
 وَعَجِبْتَ مِنْ خُطَافِ عَسْجَدِهِ الَّتِي      حَامَتُ لَتَبْتِي فِي ذُرَاهُ وَكُورًا  
 وَضَعْتَ بِهِ صُنَاعَهُ<sup>٢</sup> أَقْلَامَهَا      فَأَرْتِكَ كُلَّ طَرِيدَةٍ تَصْوِيرًا  
 وَكَأَنَّمَا لِلشَّمْسِ فِيهِ لَيْقَةٌ      مَشَقُّوا بِهَا التَّرْوِيقَ وَالتَّشْجِيرًا  
 وَكَأَنَّمَا بِاللَّازُورِدِ<sup>٣</sup> مَخْرَمٌ      بِالْخَطِّ فِي وَرَقِ السَّمَاءِ سَطُورًا  
 وَكَأَنَّمَا وَشَوْا عَلَيْهِ مَلَاءَةٌ      تَرَكُّوا مَكَانَ وِشَاحِهَا مَقْصُورًا

ثم مدح المنصور بعد ذلك ، وختم القصيدة بقوله :

يَا مَالِكَ الْأَرْضِ الَّذِي أَضْحَى لَهُ      مَلِكُ السَّمَاءِ عَلَى الْعُدَاةِ نَصِيرًا  
 كَمْ مِنْ قُصُورٍ لِلْمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ      وَاسْتَوْجَبَتْ بِقُصُورِكَ التَّأْخِيرًا  
 فَعَمَّرْتَهَا وَمَلَكَتْ كُلَّ رِيَاةٍ      مِنْهَا وَدَمَّرْتَ الْعِدَا تَدْمِيرًا

قلت : لم أر لهذه القصيدة من نظير ، في معناها اليبانع التضمير ، ولفظها العذب التميم ، الذي شمر فيه قائلها عن ساعد الإجازة أي تشمير ، غير أن فيها عندي عيباً واحداً ، وهو ختمها بلفظ التدمير ، وعلى كل حال فالحسن والإحسان ، يُقَادَانِ فِي أَرْسَانِ ، لعبد الجبار بن حمديس المذكور ذي المقاصد الحسنان ، وخصوصاً في وصف المباني والبرك ، فما أبقى لسواه في ذلك حسناً ولا تترك .

ومن ذلك قوله في وصف بركة تجري إليها المياه من شاذروان من أفواه

١ ق : موشية .

٢ ك : صناعها .

٣ ك : اللازورد فيه .

٤ ق : لقصورك .

طيور وزرافات وأسود ، وكل ذلك في قصر أطنب في وصفه في قصيدة طويلة<sup>١</sup> :

والماء مِنْهُ سَبَائِكُ<sup>٢</sup> فضيَّةٌ  
وكانتْما سيفٌ هناك مُشَطَّبٌ  
كم شاخصٍ فيه يُطِيلُ تَعَجُّباً  
عَجَباً لها تَسْقِي الرِّياضَ يَنابِعاً  
خُصَّتْ بِطائِرةٍ على فَنَنِ لها  
قُسُّ الطيورِ الخاشعاتِ بلاغَةً  
فإذا أُتِيحَ لها الكلامُ تَكَلَّمَتْ  
وكانَ صانِعها استبدَّ بِصَنعَةٍ  
أوقَتَ على حَوْضٍ لها فكَانَتِها  
فكانتْها ظنَّتْ حلاوةَ مائِها  
وَزَرافَةٌ في الجوفِ من أنبويها  
مركوزة كالرمحِ حيثُ ترى له  
وكانتْما تَرْمِي السماءَ بِبُندُقٍ  
لو عاد ذلك الماءُ نَفْطاً أحرقت  
في بَركةٍ قامت على حافاتها  
نزعت إلى ظلمِ النفوسِ نفوسُها  
وكانَ بَرْدُ الماءِ مِنْها مُطْفِئٌ  
وكانتْما الحياتُ من أفواهاها  
وكانتْما الحيتانُ إذ لم تَعْشِها

ذابتْ على دَوَّحاتٍ شاذِرَوانِ  
ألقتهُ يومَ الحربِ كَفُّ جَبانِ  
من دَوَّحَةٍ نبتتْ من العقيانِ  
نبتتْ من الثمراتِ والأغصانِ  
حَسُنَتْ فَأفردَ حُسْنُها من ثاني  
وفصاحةٍ من مَنطِقٍ وبيانِ  
بِخَريرِ ماءِ دائِمِ الهَمَلانِ  
فخَرَّ الجِمامُ بِها على الحيوانِ  
منها على العَجَبِ العُجابِ رَوَّانِ  
شهداً فذاقتهُ بكلِّ لسانِ  
ماءِ يُريكِ الجَحرِيَّ في الطيرانِ  
من طعنه الخلقِ انعطافِ سنانِ  
مُسْتَنبِطٍ من لؤلؤِ وجُمانِ  
في الجِوِّ مِنْهُ قَميصٌ كلِّ عَنانِ  
أَسَدٌ تذلُّ لِعِزَّةِ السلطانِ  
فلذلك انتزعتْ من الأبدانِ  
ناراً مُضَرِّمةً من العدوانِ  
يَطْرَحُنَ أَنفُسَهُنَّ في الغُدرانِ  
أخذتْ من المنصورِ عقدَ أمانِ

١ المقتطفات (الورقة : ٣٢) وديوان ابن حمديس : ٤٩٥ ، ونهاية الأرب .

٢ ك : من فضة .

٣ ك : درجات .

٤ ق ج ط : بنيت .

وهاتان القصيدتان لابن حمديس - كما في المناهج - مع طولهما تملان على الإبداع الذي ابتكره ، والاختراع الذي ما ولج سمع أحد من الفضلاء إلا شكره<sup>١</sup> .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي<sup>٢</sup> يصف قصراً بمصر يسمى « منزل العز » بناه حسن بن علي [ بن يحيى ] بن تميم بن المعز العبدي<sup>٣</sup> :

منزل العز كاسمه معناه	لا عدا العز من به سماه
منزل ودت المنازل في أء	لى ذراه لو صيرت إياه
فأجل فيه لحظة عينك تبصر	أي حستن دون القصور حواه
سال في سقفه النضار ولكن	جمدت في قراره الأمواه
وبأرجائه مجال طراد	ليس تنهك من وعى خيلاه
تبصر الفارس المدجج فيه	ليس تدمى من الطعان قتاه
وترى النابل الموصل للتر	ع بعيداً من قرنيه مرماه
وصفواً من الوحوش وطير ال	جو كل مستحسن مرآه
سكنات تحالها حركات	واختلاف كأنه إشباه

١ زاد في ك : لما أسكره .

٢ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز : ولد بدانية سنة ٤٦٠ ثم رحل إلى الإسكندرية أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أبي تميم معد ، وسجن بمصر مدة ، ثم عاد إلى المغرب فاتصل بيحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي ؛ وتوفي سنة (٥٢٩) وكان أبو الصلت طبيباً شاعراً ومن مؤلفاته كتاب الحديقة ، والرسالة المصرية (وقد نشرت هذه بتحقيق عبد السلام هارون في سلسلة نواذر المخطوطات ، القاهرة ١٩٥١) . انظر ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٢ ومجمع الأدباء ٧ : ٥٢ وتحفة القادم ص : ٣ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٠ وتاريخ الحكماء ٨٠ : والمغرب ١ :

٢٥٦

٣ كلمة العبدي هنا مضللة لأن « حسن بن علي بن تميم بن المعز » أحد سلاطين بني زيري بالقيروان وكان المعز عبدياً بالنسبة أي يدين للعبديين ولكنه تنكر لهم سنة ٤٤١ وعاد إلى مذهب أهل السنة ؛ وحسن لا يبني قصراً بمصر ، ولا بد من أن يكون المقرئ قد وهم فذكر قصراً بناه أحد العبديين بمصر أو بناه حسن بالمهدية . أما الشاعر تميم بن المعز العبدي فكان عقيماً (الحلقة ١ : ٢٩١) .



كُنْحِيَا الحبيبَ حرفاً بجرفٍ  
 وَرَدُّهُ وَجَتَاهُ ، نرجسه الفة  
 وكان الكافور والمسك في الطيب  
 منظرٌ يبعثُ السرورَ ومرأى  
 ما تعدى صفاته إذ حكاه  
 ان عيانه ، آسه عارضاه  
 ب وفي اللون صبحه ومساه  
 يذكر المرء طيب عصر صباه

وقال أبو الصلت أمية الأندلسي  
 ابن المعز العبدي :

لله مجلسك المنيفُ قباهُ  
 موفٍ على حُبكِ المجرّة تلتقي  
 تتقابلُ الأنوارُ من جنباته  
 عطفت حناياه دوينَ سماءه  
 واستشرفت عمُد الرخام وظهورت  
 فهوأوه من كلِّ قدِّ أهيفِ  
 فللك نحيبٍ فيه كلُّ منجمِ  
 فبدا لللحظ العين أحسنَ منظرِ  
 فاطلعُ به قمرأ إذا ما أطلعت  
 فالناس أجمعُ دونَ قدرك رتبة  
 بموطدٍ فوق السّمك<sup>٢</sup> مؤسسِ  
 فيه الجوّاري بالجوّاري الكُنسِ  
 فالليلُ فيه كالنهار المشمسِ  
 عطفَ الأهلةَ والحواجب والقيسِ  
 بأجلٍ من زهر الربيع وأنفسِ  
 وقراره من كلِّ حدِّ أمّلسِ  
 وأقرّ بالتقصير كلُّ مهتدسِ  
 وغدا لطيب العيش خير<sup>٣</sup> معرّسِ  
 شمس الحدور عليك شمس الأكوّسِ  
 والأرض أجمع دون هذا المجلسِ

ويُعجبي قول أبي الصلت أمية المذكور يصف حال زيادة النيل ونقصانه :

ولله مَجْرَى النيل منها إذا الصبا  
 إذا زاد يحكي الورد لَوْنًا وإن صفا  
 أرتنا به من مرّها عَسْكَراً مَجْراً  
 حكى مائه لَوْنًا ولم يعلّه نشراً<sup>٤</sup>

١ تحفة القادم : يحيى بن تميم .

٢ ق ج ط : السماء .

٣ ك : ولم يحكه مرا .

٤ ك : طيب .

وقال رحمه الله تعالى يصف الرصد الذي بظاهر مصر :

يا نَزْهَةَ الرصد اللاتي قَدِ اشْتَمَلَتْ من كلِّ شيء حلا في جانب الوادي<sup>١</sup>  
فذا غَدِيرٌ ، وذا رَوْضٌ ، وذا جَبَلٌ والضبُّ والتونُّ والملاحُ والحادي

وهو مأخوذ من قول الأول يصف قصر أنس بالبصرة<sup>٢</sup> :

زُرُّ وادي القصر ، نعم القصرُ والوادي لا بُدَّ من زورةٍ من غيرِ ميعادِ  
زُرُّهُ فليس له نِدٌّ يُشاكلهُ من منزلٍ حاضرٍ إن شئت أو بادي  
تلقى به السفنَ والظلمانَ حاضرةً والضبُّ والنونَ والملاحَ والحادي

وقال رحمه الله تعالى يذكر الهرمين<sup>٣</sup> :

بعيشك هل أبصرت أحسنَ منظرًا على طول ما عابنت من هرمتي مِصرِ  
أنافا بأعنان السماء ، وأشرفا على الجوِّ إشرافَ السماءِ أو النسْرِ  
وقدَ وافيا نَشْرًا مِنَ الأرضِ عاليًا كأنهُما ثديانِ<sup>٤</sup> قاما على صدرِ

وستأتي ترجمته إن شاء الله تعالى في الباب الخامس .

وعلى ذكر الأنهار والبرك فما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف بركة

عليها عدة فوارات<sup>٥</sup> :

غَضِبَتْ مجاريها فأظنُّها غَيِظُها ما في حشاها من حَفِيٍّ مُضْمَرِ

١ ق ط : النادي .

٢ الشعر لابن أبي عيينة المهلبى كما في الأغاني ٢٠ : ٣٧ ( دار الثقافة ) ومعجم البلدان ( قصر عيسى ) مع بعض اختلاف في الرواية .

٣ الأبيات في مسالك الأبصار ١ : ٢٣٧ وبدائع البدائه : ١٣٦ ( ط . بولاق ) .

٤ ك : بأكناف .

٥ ك : على النسْرِ .

٦ ك : نهدان .

٧ المقطفات ( الورقة : ٣٣ ) .

وكانَ نَبَعَ الماءِ من جَنبائِها والعينُ تَنظُرُ منه أحسنَ منظرٍ  
قُضِبُ من البلّورِ أثمرَ فرَعُها لَمّا انتهت باللؤلؤِ المتحدِّرِ

وقال ابن صارة الأندلسي<sup>١</sup> يصف ماء بالركة والصفاء<sup>٢</sup> :

والنهرُ قد رَقَّتْ غِلالَةٌ خَصَره وعليه من صِبغِ الأصيلِ طِرارُ  
تترقُّقُ الأمواجِ فيه كأنَّها عكَنُ الحُصورِ تهزها الأعجازُ

وما أحسن قول بعض الأدباء ولم يحضرنى الآن اسمه<sup>٣</sup> :

والنهرُ مكسوٌّ غِلالَةٌ فضَّةٌ فإذا جرى سيلًا فتوبَ نُصارٍ  
وإذا استقام رأيتَ صفحةً مُنصَّلٍ وإذا استدار رأيتَ عطفَ سِوارٍ

وقال ابن حمديس المغربي يصف نهراً بالصفاء<sup>٤</sup> :

ومُطَرِدِ الأمواجِ يَصقُلُ متته صَباً أعلنتُ للعينِ ما في ضميرِه  
جريحٍ بأطرافِ الحصى كلِّما جرى عليها شكا أو جاعهُ بَحْريرِه

وهذا النهج متسع ، ولم نطل السير في هذه المهامه ، وإتّما ذكرنا بعض  
كلام المغاربة ليتنبه به مُنتَقصهم من سِنّة أو هامه ، ولأن في أمرها عبرة لمن  
عقل ، إذا أصداً مرآة حسنها ولطالما كان لمتنها صَقَل .

١ ابن صارة الأندلسي : أبو محمد عبد الله بن صارة الشنتريني (ويكتب أيضاً : سارة بالسين)  
سكن إشبيلية وتعيش فيها بالوراقة وتيجول في بلاد الأندلس مادحاً (توفي سنة ٥١٧) . انظر  
ترجمته في الذخيرة ، القسم الثالث : ٣٢٣ والمغرب ١ : ٤١٩ والقلائد : ٢٦٠ والتكملة :  
٨١٦ ومسالك الألبصار ١١ : ٣٨٣ وأخبار وتراجم أندلسية : ١٥ ؛ وهذه الأبيات في المقتطفات  
(الورقة : ٣٣) .

٢ زاد في ك : يجري على الصفا .

٣ المقتطفات (الورقة : ٣٣) .

٤ ديوان ابن حمديس : ١٨٦ والمقتطفات (الورقة : ٣٣) .

[ البكاء على محراب العمران ]

وقد وقفت على كلام لصاحب المناهج في هذا المعنى فأحببت ذكره ملخصاً ، وهو : ونُلحِقُ بذكر المنازل التي راق منظرها ، وفاق مخبرها ، وارتفع بناؤها ، واتسع فناؤها ، طَرَفاً من الكلام على ما عفاه الدهرُ من رسومها ، ومحا من محاسن صُورِ كانت أرواحاً لجسومها .

وصف أعرابي محلة قوم ارتحلوا عنها فقال نثراً : ارتحلت عنها ربّات الحدور ، وأقامت بها أنفسي القدور ، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياحُ آثارهم ، وذهبت بأبدانهم وأبقت أخبارهم ، والعهدُ قريب ، واللقاء بعيد .

وقال عمر بن أبي ربيعة فأحسن<sup>١</sup> :

يا دارُ أمسي دارساً رسُمُها      وحشاً قفاراً ما بيها أهيلُ  
قد جرتِ الرياحُ بها ذيلُها      واستنّ في أطلالها الوابلُ

ومن كلام الفتح بن خاقان ، في قلائد العقيان ، يذكر آل عبّاد من فصل أكثر فيه التفجع ، وأطال به التوجع<sup>٢</sup> : والغصون<sup>٣</sup> تختال في أدواحها ، والأزاهر يُحْيِي مِيتَ الصبابةِ شَدَا أرواحها<sup>٤</sup> ، وأطيّارُ الرياض<sup>٥</sup> قد أشرفت عليهم<sup>٦</sup> كشكالي يتنحّن على خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهي بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار منها غراب ناعب ، وقد تحت الحوادث ضياءها ، وقلّصت ظلّالها وأفياها ، ولطالما أشرفت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من

١ ديوان عمر : ٣٠١ .

٢ قلائد العقيان : ١٠ .

٣ ق ل ج ط : والقصور .

٤ القلائد : وتنثني في أكف أرواحها .

٥ القلائد : وآثار الديار .

٦ قد أشرفت عليهم : زيادة من القلائد .

شَدَّاهُمْ وَأَرْجَتِ ١ ، أَيَّامَ نَزَلُوا خِلَالَهَا ، وَتَفِيَّأُوا ظِلَالَهَا ، وَعَمَرُوا حَدَائِقَهَا  
 وَجَنَّاتِهَا ، وَنَبَّهُوا الْأَمَالَ مِنْ سِنَانِهَا ، وَرَاعُوا اللَّيْثَ فِي آجَامِهَا ، وَأَخْجَلُوا  
 الْغَيُوثَ عِنْدَ انْسِجَامِهَا ، فَأَصْبَحَتْ وَهِيَ بِالْتِدَاعِي ٢ تَلْفَعُ وَاعْتِجَارُ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ  
 آثَارِهَا إِلَّا نُوْى وَأَحْجَارُ ، قَدْ هَوَّتْ قِيَابُهَا ، وَهَرِمَ شَبَابُهَا ، وَقَدْ يَلِينُ  
 الْحَدِيدُ ، وَيَبْتَلَى عَلَى طِيَّةِ الْحَدِيدِ .

وقال أبو صخر القُرْطُبِي يذكر ذلك من أبيات ينعامهم بها :

ديار عَلَيَّهَا مِنْ بَشَاشَةِ أَهْلِهَا      بقايا تَسُرُّ النَّفْسَ أَنْسَاً وَمَنْظَرَا  
 رُبُوعِ كَسَاها الْمُرْنُ مِنْ خِلَعِ الْحَيَا      بُرُوداً وَحَلَاها مِنَ النُّورِ جَوْهَرَا  
 تَسُرُّكَ طَوْرًا ثُمَّ تُشْجِيكَ تَارَةً      فترتاحُ تَأْنِيساً وَتَشْجِي تَذْكَرَا

ومن كلام أبي الحسن القاشاني يصف نادي رئيس خلا من ازدحام الملا ،  
 وَعَوَّضَهُ الزَّمَانُ مِنْ تَوَاصُلِ أَحِبَّابِهِ هَجْراً وَقَلِي : « قد كان منزله مألّف  
 الأضياف ، ومأنس الأشراف ، ومُنْتَجِعَ الرِّكَبِ ، وَمَقْصِدَ الْوَفْدِ ،  
 فاستبدل بالأنس وحشة ، وبالضياف ظلّمة ، واعتاض من تراحم المواكب ،  
 تِلَاطُماً التَّوَادِبِ ، ومن ضجيج النداء والصَّهِيلِ ، عَجِيجَ الْبِكَاءِ وَالْعَوِيلِ » .  
 ومن رسالة لابن الأثير الجزري يصف دمنّة دار ٣ لعبت بها أيدي الزمن ،  
 وفرقت بين المسكن والسكن : « كانت مقاصير جنّة ، فأصبحت وهي ملاعبُ  
 جنّة ، وقد عميت أخبار قُطَّانِهَا ، وآثار أوطانِهَا ، حتى شابهت إحداها في  
 الحَقَاءِ ، الأخرى في العَقَاءِ ، وكنت أظن أنّها لا تُسْقَى بعدهم بغمام ، ولا  
 يُرْفَعُ عنها جِلْبَابُ ظلام ، غير أن السحاب بكاهم فأجرى بها هوامع دموعه ،  
 واللّيل شقّ عليهم جيوبه فظهر الصباحُ من خلال صُدُوعه » .

١ ك : وتأرجت .

٢ بالتداعي : زيادة من القلائد .

٣ دار : سقطت من ك .

وقد لمح في بعض كلامه قول الشريف<sup>١</sup> من أبيات يصف فيها ما كان في  
الحيرة من منازل النعمان بن المنذر<sup>٢</sup> :

ما زلتُ أطرقُ المنازلَ باللّوى  
بالحيرةِ البيضاءِ حيثُ تقابلتُ  
شهدتُ بفضلِ الرَّافعينَ قبابها  
ما يتفعُ الماضينَ أن بقيتُ لهم  
حتى نزلتُ منازلَ التّعمانِ  
شمَّ العِمادَ عريضةَ الأعطانِ  
وبينَ بالبنيانِ فضلُ الباني  
خططُ معمرةً بعمرِ فاني

يقول فيها :

ولقد رأيتُ بديراً هندی منزلاً  
يغضني كستمعِ الهوانِ تغيبتُ  
بالي العالمِ أطرقتُ شرفاتهُ  
أمقاصرَ الغزلانِ غيركِ البلى  
وملاعبِ الإنسِ الجميعِ طوى الردى  
ألمأ من الضراءِ والحيدانِ  
أنصارهُ وخلا من الأعوانِ  
إطراقِ منجذبِ القرينةِ عاني  
حتى غدوتِ مَرايضَ الغزلانِ  
منهمُ فصرتِ ملاعبَ الحنانِ

ومنها :

ميسكيةُ النفحاتِ محسبُ تربها  
وكانتِ نسيَ التجارِ لطيمةً  
ماء كجيبِ الدرعِ يصفله الصبا  
زفرَ الزمانُ عليهمُ ففترقوا  
برُدِ الخليجِ معطرَ الأردنِ  
جرتِ الرياحُ بها على الصبيانِ<sup>٣</sup>  
وفي بدوحتِه النسيمُ الواني  
وجلّوا عن الأوطارِ والأوطانِ

١ يعني الشريف الرضي .

٢ ديوان الشريف ٢ : ٤٦٨ .

٣ ق ك والديوان : المقيان .

٤ الديوان : وثقا يدرجه .

وقال أبو إسحاق الصابي ، وتواردَ مع الشريف الرضي في المعنى والقافية ،  
يصف قصر رَوْحٍ بالبصرة<sup>١</sup> :

أحبب إلي بقصر رَوْحٍ منزلاً  
سورٌ علا وتمنعت شرفاته  
وكانما يشكو إلى زوَّاره  
وكانما يبدي لهم من نفسه  
شهدتُ بِنَيْتِهِ بفضل الباني  
فكانَ إحداهنَّ هَضْبُ أبانٍ  
بَيْنَ الخليطِ وفرقةَ الجيرانِ  
إطراقَ محزونِ الحشا حرَّانِ

ولأحمد بن فرج الإلبيري من أبيات :

سألتَ بها فَمَا رَدَّتْ جَوَاباً  
ومِن سَفَه سؤَالِكِ رَسْمَ دَارٍ  
فإن تَكُ أَصْبَحْتَ قَفْرًا خَلَاءَ  
فَقِدْمًا قَد نَعِمْتَ قَرِيرَ عَيْنٍ  
عليك ، وكيف تخبرك الطلولُ ؟  
مَضَى لعقائِهِ زَمَنٌ طَوِيلٌ  
لَعَيْنِكَ في مَغَانِيهَا هُمُولٌ  
بها وبربعها الرشأ الكحيل

وقال أبو عبد الله بن الحناط<sup>٢</sup> الأندلسي الأعمى :

لَو كُنْتَ تَعَلَّمُ ما بالقلب من نارٍ  
يا دارِ علْوَةٍ قد هيجت لي شَجْنًا  
كم بتُ فيكِ على اللذاتِ مُعْتَكِفًا  
كأنه راهبٌ في المِسْحِ مُلْتَحِفٌ  
لَمْ تَوْقِدِ النَّارَ بالهندي والغارِ  
وزدتني حُرْقًا ، حُيِّيتِ من دارِ  
والليلُ مُدْرَعٌ ثوبًا من القارِ  
شدهُ المجدُّ له وَسَطًا بزُّنارِ  
يدير فيه كؤوسَ الراحِ ذو حَوَرٍ

ولا مزيد في التفجع على الديار ، والتوجع للدمن والآثار ، على قول  
البحري من قصيدة يرثي بها المتوكل<sup>٤</sup> :

١ أبيات الصابي في البيتية ٢ : ٢٦٩ .

٢ في الأصول : ابن الخياط .

٣ ك : من لفظه .

٤ ديوان البحري : ١٠٤٥ (القصيدة رقم : ٤١٣) .

محلّ على القاطولِ أخلّقَ دائِرُهُ  
 كأن الصِّبا توفي نذورا إذا انبرت  
 وربّ زمان ناعمٍ ثمّ عهدُهُ  
 تغير حُسنُ الجعفريِّ وأنسُهُ  
 تحملَ عنه ساكنوه فُجاءة  
 إذا نحن زُرناه أجددَ لنا الأسي  
 ولم أنس وحش القصر إذ ريع سِرُّهُ  
 وإذ صيبح فيه بالرحيل فهتكت  
 وأوحشهُ<sup>٣</sup> حتى كأن لم يكن به  
 كأن لم تبتْ فيه الخلافة طَلْفَةٌ  
 ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها  
 فأين الحجابُ الصعب حيث تمتعت  
 وأين عميدُ الناس في كل توبة

وعلى قول أبي إسحاق بن خفاجة الأندلسي<sup>٦</sup> :

ومُرْتَبَعٍ حَطَطْتُ الرّحل فِيهِ  
 تَحْرَمَ حُسْنُ مَنْظَرِهِ مَلِكٌ  
 بِمَيْتِ الظِّلِّ والماءِ القَرّاحُ  
 تَحْرَمَ مُلْكُهُ القَدْرُ المُتّاحُ  
 فِجْرِيَّةُ ماء جَدْوَلِهِ بكاء  
 عَلَيْهِ ، وَشَدْوُ طائِرِهِ نُواجُ

وهذا النوع من البكاء على الدمن ، والتأسف على ما فعلت بها أيدي الزمن ،

١ القاطول : نهر كان في موضع سامرا قبل عمرائها ؛ وفي ق ك ج ط : تغادره .  
 ٢ الجعفري : قصر للمتوكل .  
 ٣ الديوان : ووحشته .  
 ٤ ق ط ج : لم يقم .  
 ٥ ق ك : تبين .  
 ٦ ديوان ابن خفاجة : ١٣٧ ، يقولها في صفة مصنع جميل خلغ سلطانه .



كثير جداً ، لا يعرف الباحث عنه له حدّاً ، وذلك لشدة ولُوع النفوس بذكر أحبائها ، وحنينها إلى أماكنها التي هي مواطن أطرابها ، ولهذا اقتصرنا على هذه النبذة القليلة ، وجعلناها نُغْبَةً<sup>١</sup> يشفي المشوقُ بها غليله ، وقد كره بعض العقلاء التأسف على الديار لعلمهم أنّه لا يُجْدِي ، ولا يدفع عادية الدهر الخؤون ولا يُعْدِي ، ونهوا عنه لما فيه من تجديد المصاب ، المجرّع لصاحبه المصاب والأوصاب .

قال أبو عمر بن عبد البر :

عفتِ المنازل غير أرْسُمِ دِمْنَةٍ حَيَّتُهَا من دِمْنَةٍ ورُسُومِ  
 كم ذا الوقوف ولم تَقِفْ في منسكٍ كم ذا الطواف ولم تطفُ بحريمِ  
 فكَلِ الديار إلى الجنائب والصَّبَا ودَعِ القِفَار إلى الصدى والبوم

انتهى كلامه رحمه الله تعالى بأكثر لفظه مع بعض اختصار .

رجع إلى قرطبة - فنقول :

[ رسائل لسان الدين ]

وقد ألمّ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى بذكر قرطبة وبعض أوصافها في كتاب له كتبه على لسان سلطانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرناه بجملة في الباب الخامس من القسم الثاني فليراجع ثمة ، ونص محلّ الحاجة منه هنا : ثم كان الغزو إلى أم البلاد ، ومثوى الطارف والتلاد ، قرطبة ، وما قرطبة ؟ المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل ، والكرسي<sup>٢</sup> الذي بعصاه رُعي الحمل ، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والحمل<sup>٢</sup> ، والأفق الذي هو لشمس الخلافة العبّسّمية الحمل ، فخيم الإسلام

١ ك : نبعة ؛ هامش ج : بلغة .

٢ ك : والمصر والمعمور الذي . . . إلخ .

في عقوتها<sup>١</sup> المستباحة ، وأجاز نهرها المعبي على<sup>٢</sup> السباحة ، وعمّ<sup>٣</sup> دوحها الأشبّ بواراً ، وأدار المحلات بسورها سواراً ، وأخذ بمُخَنَّقها حصاراً ، وأعمل النصر بشجرة أصلها اجتناء ما شاء واهتصاراً ، وجدّل من أبطالها من لم يرضَ انجحاراً ، فأعمل إلى المسلمين إصحاراً ، حتى قرع بعض جهاتها غلاباً جهاراً ، ورفعت الأعلام إعلماً بعزّ الإسلام وإظهاراً ، فلولا استهلال الغوادي ، وأن أتى الوادي ، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادي ، ولقضى تَفَثَه العاكفُ والبادي . انتهى .

وممّا كتب به لسان الدين - رحمه الله تعالى - في وصف هذه الغزوة لسلطان بني مرّين على لسان صاحب الأندلس ، ما صورته : المقامُ الذي نُطالعه بأخبار الجهاد ، ونُهّدي إليه عواليّ العواليّ صحيحة الإسناد ، ونبشره بأخبار الفتح البعيد الآماد ، ونسأل الله تعالى له تواليّ الإسعاف ودوام الإسعاد والإمداد<sup>٣</sup> ، ونرتقب من صنّع الله تعالى على يديه تكييفاً يخرق حجاب المعتاد ، وامتعاضاً يُطلّع بأفاق البلاد نجومَ غرر الجياد ، ويفتح أبواب الفتوح بأقاليد السيوف الحِداد ، وينبئ عن مكارم منّ سلف من الآباء الكرام والأجداد ، مقامُ محلّ أحنينا الذي نستفتح له بالفتح والظهور ، ونهّدي إلى مجده لما نعلم من فضل نيّته وحسن قصده لطائف السرور ، ونستظهر بملكه المؤيد المؤمل ومجده المشهور ، ونتوعد منهما العدوّ بالحبيب المذخُور والولي المنصور ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى عالي القدر ، قرير العين منشرح الصدر ، ولا زال حديث فخره سائراً مسير الشمس والبدر ، عَظَمَ سلطانه الخليقَ بالتعظيم ، الواثقُ منه بالذخْر الكريم ، المثني على

١ ك : في عقوتها ؛ ق ط : بمقرتها ، والعقوة - بالواو - : الساحة .

٢ ك : المعني عن .

٣ ك : توالي الأسمار والأمداد ؛ وسقطت « الأمداد » من ط ج .

٤ المؤيد : زيادة في ك .

مجده الصَّمِيمَ وفضله العميم ، أميرُ المسلمين عبد الله الغني بالله محمد ابن أمير  
 المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر :  
 سلام كريم ، برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة  
 الله وبركاته . أما بعد حمد الله ربّ العباد ، ومُنْهَمِ الرِشَادِ ، ومُكَيِّفِ الإِسْعَافِ  
 والإِسْعَادِ ، الولي النصير الذي نُلْقِي إلى التوكّلِ عليه مقاليدَ الاعتمادِ ، ونمد  
 لى لإنجاده أيديَ الاعتدادِ ، ونرفع إليه أكفَّ الاستمدادِ ، ونُخْلِصُ لوجهه  
 الكريمِ عملَ الجهادِ ، فتتعرّف عوارف الفضل المزدادِ ، ونجتني ثمار النصر من  
 أغصان القنا الميَّادِ ، ونجتلي وجوه الصنع الوَسِيمِ أبهر من وجه الصباح البادِ ،  
 ونظفر بالنعيم العاجل في الدنيا والنعيم الآجل يوم قيام الأشهادِ ، ونَتَقَيِّبُ  
 ظلال الجنة من تحت أوراق السيوف الحِدادِ ، والصَّلَاة على سيّدنا ومولانا  
 محمد رسوله النبيّ الهادِ ، رسول المَلْحَمَةِ المؤيِّدِ<sup>٢</sup> بالملائكة الشدادِ ، ونبيّ  
 الرحمة الهامية العِهادِ ، أكرم الخلق بين الرائح والغادِ ، ذي اللواء المعقود  
 والحوّض المورود والشفاعة في يوم التنادِ ، الذي يجاهه نجدع أنوف الآساد  
 يوم الجِلَادِ ، وببركته ننال أقصى الأمل والمرادِ ، وفي مَرَضَاتِهِ نصلُ أسبابَ  
 الودادِ ، فنعود بالتجّر الرابع من مَرَضَاتِهِ ربّ العبادِ ، ونستولي من ميدان  
 السعادة المعادة على الآمادِ ، والرضى عن آله وصحبه وأنصاره وحزبه الكرماء  
 الأجمادِ ، دعائم الدين من بَعْدِهِ وهُدَاة العبادِ ، أنجاد الأنجادِ وآساد الآسادِ ،  
 الذين ظاهروه في حياته بالحلوم الراجحة الأطوادِ ، والبَسَالَةِ التي لا تُنالُ بالعُدَدِ  
 في سبيل الله والأعدادِ ، حتى بَوَّأُوا الإسلام في القواعد الشهيرة والبلاذِ ، وأرغموا  
 أنوفَ أهل الجحد والإلحادِ ، فأصبح الدينُ رفيعَ العمادِ ، منصور العساكر  
 والأجنادِ ، مستصحب العزّ في الإصدار والإيرادِ ، والدعاء لمقامكم الأعلى بالسعد  
 الذي يُغْنِي عن اختيار الطوالع وتقويم الميلادِ ، والنصر الذي تُشْرِقُ أنباؤه في

١ ك : انجاده وامداده .

٢ ط : المؤيدة .

جَنَحَ لَيْلَ الْمَدَادِ ، وَالصَّنْعَ الَّذِي تُشْرَعُ لَهُ أَبْوَابُ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ ، مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاظَةٍ حَرَسَهَا اللَّهُ وَالْيَسْرَ وَثِيقَ الْمِهَادِ<sup>١</sup> ، وَالخَيْرَ وَاضِحَ الْأَشْهَادِ ، وَالْحَمْدَ لِلَّهِ فِي الْمَبْدِ وَالْمَعَادِ ، وَالشُّكْرَ لَهُ عَلَى آيَاتِهِ الْمُتَّصِلَةِ التَّرْدَادِ ، وَمَقَامِكُمُ الذَّخِرَ الْكَافِيَ الْعِتَادِ ، وَالْمَرْدَدَ الْمُتَكَفَّلَ بِالْإِنْجَادِ ، وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللَّهُ سَعْدَكُمْ ، وَحَرَسَ مَجْدَكُمْ ، وَوَالَى نَصْرَكُمْ وَعَضَّدَكُمْ<sup>٢</sup> وَبَلَّغَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْعَمِيمِ أَمْلَكُمْ وَقَصَّدَكُمْ ، فَإِنَّا نَوَثِّرُ تَعْرِيفَكُمْ بِتَأْفَهُ الْمَتَزِيدَاتِ<sup>٣</sup> ، وَنُوْرِدُ عَلَيْكُمْ أَشْتَاتَ<sup>٤</sup> الْأَحْوَالِ الْمُتَجَدِّدَاتِ ، إِقَامَةً لِرِسْمِ الْخُلُوصِ فِي التَّعْرِيفِ بِمَا قَلَّ ، وَمُوْدَةَ خَالِصَةِ فِي اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ التَّعْرِيفُ بِمَا تَهْتَزُّ مِنْابِرُ الْإِسْلَامِ ارْتِيَاحًا لَوْرُودِهِ ، وَتَنْشُرِحَ الصَّدُورَ مِنْهُ لِمَوَاقِعِ فَضْلِ اللَّهِ وَجُودِهِ ، وَالْمَكِيْفَاتِ الْبَدِيعَةِ الصِّفَاتِ فِي وَجُودِهِ ، وَهُوَ أَنَّنَا قَدَّمْنَا إِعْلَامَكُمْ بِمَا نَوَيْنَاهُ مِنْ غَزْوِ مَدِينَةِ قَرْطُبَةَ أُمَّ الْبِلَادِ الْكَافِرَةِ ، وَمَقَرِّ الْحَامِيَةِ الْمَشْهُودَةِ<sup>٥</sup> وَالخَيْرَاتِ الْوَافِرَةِ ، وَالْقَطْرَ الَّذِي عَهْدُهُ بِالْإِسْلَامِ مُتَقَادِمٌ ، وَالرُّكْنَ الَّذِي لَا يُتَوَقَّعُ صَدْمَةٌ صَادِمٌ ، وَقَدْ اشْتَمَلَ سُورُهَا مِنْ زَعْمَاءِ مِلَّةِ الصَّلِيبِ عَلَى كُلِّ رَيْسٍ بِئِيسٍ<sup>٦</sup> ، وَهَزْبَرٍ خَيْسٍ<sup>٧</sup> ، وَذِي مَكْرٍ وَتَلْبِيسٍ ، وَمَنْ لَهُ سِمَةٌ تَذْبِيعُ مَكَانِهِ وَتَشْبِيعُهُ ، وَأَتْبَاعَ عَلَى الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهَةِ طَبِيعَهُ ، فَاسْتَدْعَيْنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَقْصَايِ الْبِلَادِ ، وَأَذَعْنَا فِي الْجِهَاتِ نَفِيرَ الْجِهَادِ ، وَتَقَدَّمْنَا إِلَى النَّاسِ بِسَعَةِ الْأَزْوَادِ ، وَأَعْطَيْنَا الْحَرَكَةَ الَّتِي تَخْلَفُ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا وَرَاءَهُمْ جَمْهُورَ الْكُفْرِ مِنَ الْأَقْطَارِ وَالْأَعْدَادِ حَقَّقْنَا مِنَ الْاسْتِعْدَادِ ، وَأَفْضْنَا<sup>٨</sup> الْعَطَاءَ وَالِاسْتِلْحَاقَ وَالِاسْتِرْكَابَ فِي أَهْلِ الْغَنَاءِ

١ ك : قد وطأ المهاد .

٢ زاد في ك : وعددكم وعددكم .

٣ ق : المستزيدات . ؛ ق : بعد الشتات .

٥ ق : الشميرة .

٦ بئيس : سقطت من ق .

٧ ق ودوزي : خميس ؛ والخيس : الغيل .

٨ ك : وأقصينا .

وأبطال الجلال ، فحشر الخلق في صعيد ، وأخذوا الأهبة والزينة في عيد سعيد ،  
وشمل الاستدعاء كل قريب وبعيد عن وعد ووعد ، ورحلنا وفضل الله شامل ،  
والتوكل عليه كاف كافل ، وخيمنا بظاهر الحضرة حتى استوفى الناس  
آرابهم ، واستكملوا أسرابهم ، ودُسنا منهم بلاد النصارى بجموع كثراها  
الله وله الحمد وأنامها ، وأبعد في التماس ما عنده من الأجر مُنتماها ، وعندما  
حلتنا قاشرة<sup>١</sup> وجدنا السلطان دُونُ بيطرُه مؤمل نصرنا وإنجادنا ، ومستعيد حفظه  
من لواحق<sup>٢</sup> جهادنا ، ومقتضي دين كدحه بإعانتنا إياه وإنجادنا ، قد نزل  
بظاهرها في محلات ممن استقر على دعوته ، وتمسك بطاعته ، وشمله حكم  
جماعته ، فكان لقاؤنا إياه على حال أقرت عيون المسلمين ، وثكفلت بإعزاز  
الدين ، ومجملها يغني عن التعيين ، والشرح والتبيين ، ورأى هو ومن معه من  
وفور جيش الله ما هالهم ، وأشك في حال اليقظة خيالهم ، من جموع تسد  
الفضا، وأبطال تقارع أسود الغضا ، وكتائب منصوره ، ورايات منشورة ،  
وأمم محشورة ، تفضل عن مرأى العين ، وتردي العدو في مهاوي الحين ،  
فاعترفوا بما لم يكن في حسابهم ، واعتبر في عزة الله سبحانه أولو ألبابهم ،  
وإذا كثر الله تعالى العدد نما وزكا ، وإذا أراح العليل ما اعتذر غاز ولا شكا ،  
وسالت من الغد الأباطح بالأعراف ، وسمت الهوادي إلى الاستشراف ، وأخذ  
الترتيب حقّه من المواسط الجهادية والأطراف ، وأحكمت التعبئة التي لا ترى  
العين فيها خفلا ، ولا يجد الاعتبار<sup>٣</sup> عندها دخلا ، وكان التزول على فرسخ  
من عُدوة النهر الأعظم من خارج المدينة أنجز الله تعالى وعدّ دمارها ، وأعادها  
إلى عهدتها في الإسلام وشعارها ، ومحا ظلام الكفر من آفاقها بلمة الإسلام وأنوارها ،  
وقد برزت من حاميتها شوكة سايغة الدروع ، وافرة الجموع ، واستجنت

١ قاشرة : ذكر باقوت أنها من أحواز لبلة ؛ وفي اللحة البدرية : قشرة ؛ وفي ق ج : ناشرة .

٢ ك : مواقع .

٣ ق ط ج ودوزي : الاختيار ، وصوابها « الاختيار » .

من أسوار القنطرة العظمى بحمى لا يُخْفَر ، وأخذ أعقابها من الحُماة والكمأة  
العدَدَ الأوفر ، فبادر لإيهم سرعانُ خيل المسلمين فصدَّقوهم الدفاع والقيراع ،  
والمِصال والمِصاع ، وخالطوهم هتيراً بالسيوف ، ومباكرة بالحتُوف ،  
فركوهم حصيداً ، وأذاقوهم وبلاً شديداً ، وجدَّلوها منهم جملة وافرة ،  
وأمة كافرة ، وملكوا بعض تلك الأسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقة ،  
وظهرت عليها عزماتهم الصادقة ، واقتحم المسلمون الوادي سبْحاً<sup>١</sup> في غمِّره ،  
واستهانةً في سبيل الله بأمره ، وخالطوا حامية العدو في ضفته فاقتلعوها ،  
وتعلقوا بأوائل الأسوار ففزعوها ، فلو كنا في ذلك اليوم على عزم من القتال ،  
وتيسير الآلات وترتيب الرجال ، لدُخِل البلد ، ومُلك الأهل والولد ، لكن  
أجار الكفار من الليل كافر ، وقد هلك منهم عدد وافر ، ورجع المسلمون  
إلى محلاتهم ونصر الله سافر ، والعزم ظافر ، ومن الغد خُصنا البحر الذي جعلنا  
العزم فيه سفيناً ، والتوكل على الله للبلاغ ضمينا ، ونزلنا من ضفته القُصوى<sup>٢</sup>  
منزلاً عزيزاً مكينا ، بحيث يجاور سورها طُنُب القباب ، وتصيب دورها من  
بين المخيمات<sup>٣</sup> بوارق النشاب ، وبرزت حاميتها على متعددات الأبواب ،  
مقيمة أسواق الطعان والضراب ، فأبت بصفقة الحُسْر والتباب ، ولما شرعنا  
في قتالها ، ورتبنا أشتات النكايات لنكالها ، وإن كنا لم نُبَق على مُطالوة  
نزالها ، أنزل الله المطر الذي قدّم بعِيادة العَهْد ، وساوى النجد من طوفانه  
الوهد ، وعظم به الجهد ، ووقع الإبقاء على السلاح ، والكف بالضرورة  
عن الكفاح ، وبلغ المقام عليها ، والأخذ بمُختقها والثواء لديها ، خمسة  
أيام لم تخل فيها الأسوار من اقتراع ، ولا الأبواب من دفاع عليها وقيراع ،  
وأنفذت مقاتل السناثر أنقاباً ، وارتقب الفتح الموعود ارتقاباً ، وفشت في

١ في الأصول : سيما .

٢ ك : من ضفة القوي العزيز ؛ ج ق ط : ضفة القوي .

٣ ك : الخيمات .

أهلها الجراح والعَيْثُ الصُّراح ، وساءهم المساء بعزة الله والصباح<sup>١</sup> ، ولولا عائق المطر لكان الإجهاز والاستفتاح ، والله بعدها الفتحاح ، وصُرِفَت الوجوه إلى تخريب العُمُران ، وتسليط النيران ، وعَقَر الأشجار ، وتعفية الآثار ، وأتى منها العَقَاء على المصّر الشهير في الأمصار ، وتركت زروعها المائحة عِبْرَة لأولي الأبصار<sup>٢</sup> ، ورحلنا عنها وقد ألبسها الدخان حداداً ، ونكس من طغاتها أجياداً ، فاعتادت الذلّ اعتياداً ، وألفت الهون قياداً ، وكادت أن تستباح عَنوة لولا أن الله تعالى جعل لها ميعاداً ، وأتى القتل من أبطالها ، ومشاهير رجالها ، ممّن يبارز ويناطح ، ويماسي بالناس ويُصابح ، على عدد جمّ أخبرت سِيماهم المشهورة بأسمائهم ، ونبتت علاماتها على نيهائهم ، وظهر إقدام المسلمين في المعرّكات<sup>٣</sup> ، وبرزهم<sup>٤</sup> بالحدود المشتركة ، وتنفيلهم الأسلاب ، وقوّدهم الخيلَ المسومة قوّد الغلاب ، وكان القُفُول ، وقد شمل الأمن والقبول ، وحصل الجهاد المقبول ، وراع الكفرَ العزّ الذي يهول ، والإقدام الذي شهدت به الرماح والخيول ، وخاض المسلمون من زرع الطرق التي ركبوها ، والمنازل التي استباحوها وانتهبوها ، بحوراً بعدد منها الساحل ، وفلاحة مُدركة تتعدد فيها المراحل ، فصيروها صرِيماً ، وسلّطوا عليها النار غريماً ، وحتّوا بظاهر حصن أندُوجر<sup>٥</sup> وقد أصبح مألّف أذمار غير أوشاب ، ووكر طيوراً نشاب ، فلمّا بلونا مِرأسه صعباً ، وأبراجه ملثت حرساً شديداً وشهباً ، ضننّا بالنفوس أن تفيض دون افتتاحه ، فسلّطنا العَقَاء على

١ وفشت . . . . والصباح : سقطت العبارة من ق .

٢ ك ط : عبّرة للأبصار .

٣ ق : على المعرّكات .

٤ ق ط ودوزي : وبذرهم ؛ ج : ونذرهم .

٥ أندوجر (Andujar) (أندوثر عند ياقوت) حصن قريب من قرطبة إلى شمال شرقها على

نهر الوادي الكبير . وفي ك : أندجر .

٦ ك : طير ؛ ج : طور .

ساحه ، وأغرينا الغازات باستيعاب ما بأحوازه واكتساحه ، وسلطنا النار على حُرُونِهِ وبِطَاحِهِ ، وألصقنا بالرغام ذوائبَ أدواحه ، وانصرفنا بفضل الله والمناجلُ دامية ، والأجورُ نامية ، وقد وطننا المواطء التي كانت على الملوك قبلنا بَسْلاً ، ولم نترك بها حرثاً يرفد ولا نسلاً ، ولا ضرعاً يرسل رسلاً ، والحمد لله الذي يتم النعيم بحمده ، ونسأله صلة النصر<sup>١</sup> فما النصرُ إلا من عنده ؛ عرفناكم بهذه الكيفيات<sup>٢</sup> ، الكريمة الصفات ، والصنائع الروائع التي بَعُدَ العهدُ بمثلها في هذه الأوقات ، علماً بأنّها لديكم من أحسن الهديات الوُدَيَات ، ولما نعلمه لديكم من حسن النيّات وكرم الطّويّات ، فإنكم سُلالة الجهاد المقبول ، والرّفدُ المبذول ، ووعد النصر المفعول ، ونرجو الله ، عزّ وجلّ ، أن ينتقل خيالكم للمعاهد الجهاديّة ، إلى المعانيّة في نصر الملة المحمديّة ، وأن يجمع الله بكم كلمة الإسلام ، على عبّدة الأضنام ، ويتم النعمة على الأنام ، وودّنا لكم - ما علمتم - يزيد على ممرّ الأيّام ، والله يجعله في ذاته لكم متصل الدوام ، مُبَلِّغاً إلى دار السلام ، وهو سبحانه يَصِلُ سَعْدُكُمْ ، ويحرس مجدكم ، ويضاعف الآلاء عندكم ، والسلام الكريم يَخْصُكُمْ<sup>٣</sup> ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

ومن هذا المنحَى ما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى عن سلطانه ، ونصّه : المقامُ الذي أحاديثُ سعادته لا تُمَلُّ على الإعادة والتكرار ، وسبيل مَجَادته الشهيرة أوضح من شمس الظهيرة عند الاستظهار ، وأخبارُ صنائع الله للملكه ، ونظمُ فرائد الآمال في سلكه ، تخلدها أقلامُ الأقدار ، بمداد الليل في قرطاس النّهار ، وترسّمها بتذهيب الإسفار في صفحاتُ الأعمار ، وتجعلها هَجِيرَى حملاء الأسفار ، وحُدادة القطار في مسالك الأقطار ، مقامُ

١ ك : حلة النصر .

٢ ق ط ودوزي : المكيفات .

٣ ك : يصحبكم .

٤ ق : صحائف .



حل أختنا الذي نلذ عادة هنائه مع الإعادة ، ونلتقى أنباء علائمه بالإذاعة والإشادة ،  
 ونُطَرِّزُ بأعلام ثنائه صحائف المَجَادَةِ ، ونشكر الله أن وهب لنا من أخوته  
 المضافة إلى المحبة والودادة ، ما يرجح في ميزان الاعتبار أخوة الولادة ، وعرفنا  
 بِيَمْنٍ ولايته عوارف السعادة ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان  
 الكذا أبقاه الله تعالى في أعلام الملك السعيد ، بَيْتِ القَصِيدِ ، ووُسْطَى القِلَادَةِ ،  
 ومجلى الكمال الذي تبارى بميدان بأسه وجوده جنسا الإبادة والإفادة ، ولا زالت  
 آماله القاصية تتال طَوْعاً<sup>١</sup> الإرادة ، ويمن نَقِيبَتِهِ يجمع من أشتات الفتوح  
 والعز المنوح بين الحسنى وزيادة<sup>٢</sup> ، مُعْظَمُ سلطانه العالي ، المثني على مجده  
 المرفوع إسناده في عوالي المعالي ، المسرور بما يسنيه الله له من الصنع المتوالي ،  
 والفتح المقدم والثالي ، أمير المسلمين عبد الله الغني بالله محمد ابن أمير المسلمين  
 أبي الحجّاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر ، أَيْدِ الله أمره ،  
 وأسعد عصره<sup>٣</sup> : سلام كريم يتأرجح في الآفاق شذا طيبه ، وتُسْمَعُ في ذِرْوَةِ  
 الودّ بلاغة خطيبه ، ويتضمّن نوره سواد المداد ، هند مُرْأَسَةَ الوداد ، فيكاد  
 يذهب بعبُوسه المجهول وتقطيبه ، ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله  
 فاتح الأبواب بمقاليد الأسباب ، مهما استصعبت ، وميسّر الأمور بمحكم  
 المقلدور إذا أجهدت الحِجْلُ وأنعت ، مُخْمِدِ نيران الفتن ما التهبّت ،  
 وجامع كلمة الإسلام وقد تصدّعت وتَشَعَّبَت ، ومُسْكِنِ رَجْفَانِ<sup>٤</sup> الأرض  
 بعدما اضطربت ، ومُحْيِيهَا بعهاد الرحمة مهما اهتزت وربّت ، اللطيف  
 الخبير الذي قدرت حكمته الأمور ورتبت ، منهي كل نفس إلى ما خطّت  
 الأقلام عليها وكتبت ، ونفت وأوجبت وشاعت وأبت ، ومُجَازِيهَا يوم العرض

١ ق : طول .

٢ ك طح : والزيادة .

٣ ك : نصره .

٤ ق : رجفات .

بما كسبت<sup>١</sup> ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله هازم الأحزاب لما تألفت وتآلبت<sup>٢</sup> ، وجالب الحنف إليها عندما أجلبت<sup>٣</sup> ، رسول الملحمة إذا الليوث وثبتت<sup>٤</sup> ، ونبي الرحمة التي هيأت النجاة وسببت<sup>٥</sup> ، وأبلغت النفوس المطمئنة من السعادة ما طلبت ، ومدّوي القلوب المريضة وقد انتكبت وانقلبت ، بلطائفه التي راضت وهذبت<sup>٦</sup> ، وقادت إلى الجنة العليا واستجلبت ، وأدت عن الله وأدبت<sup>٧</sup> ، الذي بجاهه نستكشف الغمائم إذا طنبت<sup>٨</sup> ، ونستوكف النعماء إذا أخلفت البروق وكذبت<sup>٩</sup> ، ونتحاب في طاعته ابتغاء الوسيلة إلى شفاعته فنقول وجبت حسبما ثبت<sup>١٠</sup> ، والرضى عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه التي استحقت المزية المرضية واستوجبت ، لما انتمت إلى كماله وانتسبت ، وببذل نفوسها في الله ومرضاته تقربت ، وإلى نصرته في حياته انتدبت ، والمناصل قد رويت من دماء الأعداء واختضبت<sup>١١</sup> ، وخلفته في أمته بعد مماته بالهمم التي عن صدق اليقين أعربت ، فتداعت لمجاهدة الكفار وانتدبت ، وأبعدت المغار وأدربت ، حتى بلغ ملك أمته أقاصي البلاد التي نبتت<sup>١٢</sup> ، فكسرت الصلْب التي نُصبت<sup>١٣</sup> ، ونقلت<sup>١٤</sup> التيجان التي عُصبت<sup>١٥</sup> ، ما همت السحب وانسجت ، وطلعت الشمس وغربت ، والدعاء لمثابرتكم العليا بالنصر العزيز كلما جهزت الكتاب وتكتبت<sup>١٦</sup> ، والفتح المبين كلما ركنت عقائل القواعد إذا خُطبت<sup>١٧</sup> ، والصنائع التي مهما حدقت فيها العيون تعجبت<sup>١٨</sup> ، أو جالت في لطائفها الأفكار استطابت مذاق الشكر واستعدت<sup>١٩</sup> ، حتى تنجز لكم مواعيد النصر فقد اقتربت ، فإننا كتبنا إليكم كتب الله لكم أغيا ما سألت الألسن السائلة واستوعبت<sup>٢٠</sup> ، من

١ ق : بما اكتسبت .

٢ ك ط : أطنبت .

٣ ق : ثبتت .

٤ ك : وأخصبت ، وفي الماش : نسخة « واختضبت » . ط : وأخصبت .

٥ ق : لجهاد .

٦ ك : ونعلت ؛ ج ط : ونقلت .

حَمْرَاءُ غِرْنَاطَةَ حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَى وَجُنُودُ اللهِ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَنِعْمَتِهِ قَدْ غَلَبَتْ ،  
 وَفَتَحَتْ وَسَلَبَتْ ، وَأَسْوَدُ جِهَادِهِ قَدْ أَرَدَتْ الْأَعْدَاءَ بَعْدَمَا كَلَبَتْ ، وَمِرَاعِي  
 الْأَمَالِ قَدْ أَخْضَبَتْ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَجْلُو وَجْهَ الرُّضِيِّ بَعْدَمَا احْتَجَبَتْ ،  
 وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ الْمَزِيدِ فَكَلَّمَا اسْتَقْبَلَهَا الْأَمَلُ رَحَّبَتْ ، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ شُكْرًا يُقَيِّدُ  
 سُورِدَ النِّعَمِ مِمَّا أَبَقَتْ وَمَا هَرَبَتْ ، وَإِلَى هَذَا - وَصَلَّ اللهُ لِمَقَامِكُمْ أَسْبَابَ الظُّهُورِ  
 وَالْإِعْتِلَاءِ ، وَعَرَفَكُمْ عَوَارِفَ الْأَلَاءِ عَلَى الْوَلَاءِ - فَإِنَّا لَمَّا وَرَدَ عَلَيْنَا كِتَابُكُمْ  
 الْبِرُّ الْوَفَادَةَ ، الْجَمُّ الْإِفَادَةَ ، الْجَامِعَ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالزِّيَادَةَ ، جَالِي غَرَّةِ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ  
 مِنْ ثَنَائِ السَّعَادَةِ ، وَوَاهِبِ الْمَنْزَنِ الْمُنَاحَةِ وَوَاصِفِ النِّعَمِ الْمَعَادَةِ ، فَوَقَفْنَا<sup>١</sup>  
 مِنْ رَقَمِهِ الْمُنشُورِ عَلَى تَحْفِ سَنِيَّةٍ ، وَأَمَانِي هَنِيَّةٍ ، وَقِطَافِ النَّصْرِ جَنِيَّةٍ ،  
 ضَمِنَتْ سَكُونَ الْبِلَادِ وَقَرَارَهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ الْفِتْنَ وَأَوَارَهَا وَأَخْمَدَ نَارَهَا ،  
 وَنَضَحَ عَنْ وَجْهِ الْإِسْلَامِ عَارَهَا ، وَجَمَعَ الْأَهْوَاءَ عَلَى مَنْ هُوِيَتْ السَّعَادَةُ بَعْدَ  
 أَنْ أَجْهَدَ اخْتِيَارَهَا ، فَأَصْبَحَ الشَّتِيْتِ مَجْتَمَعًا ، وَجَنَحَ الْجَنَاحِ مَرْتَفَعًا ، وَالجَبَلِ  
 الْمَخَالَفِ خَاشِعًا مُتَّصِدَةً ، وَأَصْحَبَ<sup>٢</sup> فِي الْقِيَادِ مَنْ كَانَ مُتَمَنِّعًا<sup>٣</sup> ، فَاسْتَوْثِقَتْ  
 الطَّاعَةُ ، وَتَبَجَّحَتْ السَّنَةُ وَالْجَمَاعَةُ ، وَارْتَفَعَتْ الشَّنَاعَةُ ، وَتَمَسَّكَتِ الْبِلَادُ  
 الْمَكْرَهَةَ بِأَذْيَالِ وَلِيَّتِهَا لَمَّا رَأَتْهُ ، وَعَادَتْ الْأَجْيَادُ الْعَاطِلَةَ إِلَى حَلِيِّهَا بَعْدَمَا أَنْكَرَتْهُ ،  
 أَجَلْنَا جِيَادَ الْأَقْلَامِ فِي مَلْعَبِ الْهِنَاءِ وَمَيْدَانِهِ ، لِأَوَّلِ أَوْقَاتِ إِمْكَانِهِ عَلَى بُعْدِ  
 مَكَانِهِ ، وَأَجْهَدْنَا عِبَارَةَ الْكَلَامِ فِي إِجْلَالِ هَذَا الصَّنْعِ وَتَعْظِيمِ شَأْنِهِ ، وَأَغْرَيْنَا  
 الثَّنَاءَ بِشَيْمٍ مَجْدِكُمْ فِي شَرْحِهِ لَنَا وَبَيَانِهِ ، رَأَيْنَا أَنْ لَا نَكِيلَ ذَلِكَ إِلَى الْبِرَّاعِ ،  
 وَنَفْرَدَهُ فِيهِ بِالْاجْتِمَاعِ ، وَمَا يَتَعَاطَاهُ مِنْ مَنَّةِ النَّرَاعِ ، وَأَنْ نَشُدُّ بِرِدِّهِ  
 مِنَ الْمَشَافَهَةِ أَرْزَرَهُ ، وَنَعْضُدَ بِمَعِينِ مِنَ اللِّسَانِ أَمْرَهُ ، فَعِيْنَا لَذَلِكَ مِنْ يَفْسَرٍ مِنْهُ  
 الْمَجْمَلِ ، وَيَمَهِّدُ الْمَقْصِدَ الْمُعْمَلِ ، حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَ أَغْرَاضِ الْبِرِّ ، وَالْعَلَنِ مِنْهُ

١ ك : فأوقفنا ؛ ق : فوافقنا .

٢ ق : وأوضحت ؛ ط ج : وأضحت .

٣ ق ط : مستمنعاً ؛ دوزي : ممتنعاً .

والسر ، وقيم شتى الأدلة على الوداد المستقر ، ووجهنا في غرض الرسالة به إليكم ، واخترنا لشرحه بين يديكم ، خطيب الوفود ، وبركة المشايخ في هذا المقام المحمود ، الشيخ الجليل الشهير الكبير الصالح الفاضل أبا البركات ابن الحاج<sup>١</sup> - وصل الله حفظه ؛ وأجزل من الحمد واللفظ حفظه ؛ - وهو البطل الذي لا يُعلم الإجمالة في الميدان ، ولا يبصر بوظائف ذلك الشأن ، ومُرَادنا منه أن يطيل ويطيب ، ويجيل في وصف محاسنكم اللسان الرطيب ، ويقرر ما عندنا لمقامكم من التشجيع الذي قام على الحب المتوارث أساسه ، واطرد حكمه وأنتج قياسه ، وليجعل تلو مقصد الهناء ، بمجلسكم الباهر السناء ، الصارف إلى الجهاد في سبيل الله والفناء ، وجه التهمم والاعتناء ، على مر الآناء ، ما تجدد لدينا من الأبناء في جهاد الأعداء ، وإن كان رسولكم - أعزه الله تعالى - قد شارك في السرى والسير ويؤمن الطير ، وأغنى في الحكاية عن الغير ، فلا سرف في الخير ، وهو أننا لما انصرفنا من منازلة قرطبة نظراً للحشود التي نفذت معدات أزوادها ، وشابت بهشيم الغلثة المستغلة<sup>٢</sup> مفارق بلادها ، وإشفاقاً لفساد أوقاتنا ، بفوات أوقاتها ، رحلنا عنها وقد انطوبنا من إعفاء أكثر<sup>٣</sup> تلك الزروع ، المائلة الفروع ، المائلة الروع ، على هم مُمض ، وأسف للمضاجع مُمض<sup>٤</sup> ، إذ كان عاذل المطر يكف السنة النار عن المبالغة في نهابها ، وحلاق إهابها ، ونفض أغوارها ، ونهب شوارها ، وإذاعة أسرارها ، وهي البحور المتلاطمة ، إذا حطمتها الرياح الحاطمة ، واللُّججُ الزاخرة ، إذا حركتها

١ أبو البركات ابن الحاج : محمد بن محمد بن إبراهيم ابن الحاج البلقيعي السلمي ( توفي ٧٧٣ أو ٧٧١ ) أحد شيوخ لسان الدين ؛ سيرجم له المقري وانظر الكتبية الكامنة : ١٢٧ والإحاطة ٢ : ١٠١ والمرقبة العليا : ١٦٤ والديباج ١٦٤ والتعريف بابن خلدون : ٦١ وغاية النهاية ٢ : ٢٣٥ .  
٢ ق : المستقبل .  
٣ أكثر : سقطت من ق .  
٤ ق ك : مفض .

السوافي الماخرة ، تود العيون أن تتحدى حدودها القاصية فلا تطيق ، والركائب الراكضة أن تُشرف على غايتها فيفضل عن مراحلها الطريق ، قد جللها الربيع أرزاقاً تغص بها الخزائن والأطباق ، وحبوباً مفضلة لا يرزوها الإنفاد والإنفاق ، ولو اعتصبت<sup>١</sup> على انتسافها الآفاق ، فَخَفَقْنَا في سبيل الله لتعقيب غزو تلك الأنظار المخالفة ، بمحق الصائفة ، وإحانة<sup>٢</sup> تلك الطائفة ، بكلوم المجاعة الجائفة<sup>٣</sup> ، خفوفاً لم نقتنع فيه بالاستنابة ، حرصاً على استئصال الصبابة ، وأعفينا الرحل من اتصال الكد ، وقابلنا قبولهم على استصحابنا فيها بالرد ، وأطللنا على قرطبة بمحلاتنا ننسف جبال النعم<sup>٤</sup> ، نَسْفًا ، ونعم<sup>٥</sup> الأرض زلزلاً وخَسْفًا ، ونستقري مواقع البذر إحراقاً<sup>٥</sup> ، ونخترق أجوابها المختلفة بحبّ الحصيد اختراقاً ، ونسلط عليها من شرر النار أمثال<sup>٦</sup> الجمالات الصُّقر مدَّتْ من الشُّواطئ أعناقاً ، ونوسع القرى الواسعة قتلاً واسترقاقاً ، وندير على مستديرها أكواس الحُتُوف دهاقاً ، وأخذت النيران وادبها الأعظم من كلا جانبيه حتى كأن القيون<sup>٧</sup> أحمت سبيكته فاستحالت ، وأذابت صفيحته فسالت ، وأت الكفار سماؤهم بالدخان المين ، وصارت الشمس من بعد سفورها وعموم نورها منقبة الحيّا معصبة الجبين ، وخضنا أحشاء الفرنتيرة<sup>٨</sup> نَعْمُ أشتات النَعْم انتسافاً ، وأقوات أهلها إتلافاً ، وآمال سكانها إخلافاً ، وقد بُهتُوا لبرعة الرجوع ، ودُهِشُوا

١ هذه اللقطة مصحفة في الأصول ، فهي : اعتصت في ج ؛ وفي ق ك ط : اعتضت .

٢ ق ك ج : واعانة ؛ وفي ط : لمحق الصائفة .

٣ ق ك ط ج ودوزي : المجاع الجائفة .

٤ في ك : الجبال ؛ وفي ق : جليل النعم ؛ ج : جبال النعم .

٥ ك : احتراقاً .

٦ ط : أثقال .

٧ ق ك : العيون .

٨ تصحفت هذه الكلمة على عدة وجوه ؛ فهي الفرنتيرة في ق والفريرة في ك . . . والفرنيرة في

ط ج والصواب الفرنتيرة ( La Frontera ) .

لوقوع الجوع ، وتسبب تخريب الربوع ، فمن المنكر البعيد ، أن يتأذى بعدُ  
عمرانها المعهود ، وقد اصطلم الزرع واجتث العود ، وصار إلى العدم منها  
الوجود ، ورأوا من عزائم الإسلام خوارق تشدُّ عن نطاق العوائد ، وعجائب  
تسريب فيها عين المشاهد ، إذ اشتمل هذا العام ، المتعرّف فيه من الله تعالى  
الإنعام ، على غزوات أربع دمرت فيها القواعد الشهيرة تدميراً ، وعلا فوق  
مراقبها الأذانُ عزيزاً جهيراً ، وضويقت كراسيُ الملك تضييقاً كبيراً ،  
وأذيقت وبالاً مُبيراً ، ورياحُ الإدالة إن شاء الله تعالى تستأنف هبوباً ، وبأساً  
مَشْبُوباً ، والثقة بالله قد ملأت نفوساً مؤمنة وقلوباً ، والله سبحانه المسؤول  
أن يوزعَ شكر هذه النعم التي أثقلت الأكتاد ، وأبهظت الطوق المعتاد ،  
وأبهجت المشيم<sup>٢</sup> والمرتاد ، فبالشكر يستدر مزيدها<sup>٣</sup> ، ويتوالى تجديدها ، وقطعنا  
في بُحْبُوحَة تلك العمالة المستبحرة العمارة ، والفلج المغني وصفها عن الشرح  
والعبارة ، مراحلَ ختمنا بالتعريج على حزب<sup>٤</sup> جِيَانِ حربها ، ففللنا ثانية غربها ،  
وجددنا كربها ، واستوعبنا حرقها وخربها ، ونظمنا البلاد في سلك البلاء ،  
وحشّنا في أنجادها وأغوارها ركائب الاستيلاء ، فلم نترك بها ملقَط طير ،  
فضلاً عن معاف عير ، ولا أسارنا لفلها المحروب بلالة خبير ، وقفلنا وقد  
تركنا بلاد النصارى التي منها لكيادنا المدد ، والعدّة والعدد ، وفيها الخصام  
واللّد ، قد لبست الحداد حريقاً ، وسلكت إلى الخلاء والجللاء طريقاً ، ولم  
نترك بها مضغة تحالط ريقاً ، ولا نعمة تصون من الفراق فريقاً ، وما كانت تلك  
النعم لولا أن أعان الله تعالى من عنصرَي النار والهواء بجنود كونه الواسع ،  
وملرکه البعيد الشاسع ، لتتولى الأيدي البشرية تغريبها ولا ترزأ كثيرها ، ولا

١ ق : غرائب .

٢ ك : المشيم .

٣ ك ق ط ج : فريدها .

٤ ق : خرب ؛ ك : حرب .

لتمتاح بالاغتراف غدِيرها ، بل لله القدرة جميعاً ، فقدرته لا تتحامي ريباً ،  
ولا حمى مريباً منيعاً ، وعدنا والعود في مثلها أحمد ، وقد بعد في شفاء النفوس  
الأمد ، ونُسَخ بالسرور الكمد ، ورُفِعَت من عز الإسلام العمَد ، والحمد لله  
حمد الشاكرين ، ومنه نلتمس عادة النصر على أعدائه فهو خير الناصرين ،  
عرفناكم به ليُسِر دينكم المتين ، ومجدكم الذي راق منه الجبين ، والله يصل  
سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويبلغكم أملككم من فضله ، وقصدكم بمنه  
وطوله ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

رجع إلى ما كنا بسيله من أخبار قرطبة الجليلة الوصف ، وذكر  
جامعها البديع الإتيان والرصف ، فنقول :

قد شاع وذاع على ألسنة الجُم الغفير من الناس في هذه البلاد المشرقية  
وغيرها أن في جامع قرطبة ثلاثمائة ونحو ستين طاقاً ، على عدد أيام السنة ، وأن  
الشمس تدخل كل يوم من طاق ، إلى أن يتم الدور ثم تعود ، وهذا شيء لم  
أقف عليه في كلام المؤرخين من أهل المغرب والأندلس ، ولو كان كما شاع  
لذكروه وتعرضوا له ، لأنه من أعجب ما يُسَطَّر ، مع أنهم ذكروا ما هو  
دونه ، فالله أعلم بحقيقة الحال في ذلك<sup>١</sup> ، وستأتي في الباب السابع رسالة  
الشَّقْنُدي الطويلة وفيها من محاسن قرطبة وسائر بلاد الأندلس الطم والرّم ،  
وقد ذكرنا في الباب الأول جملة من محاسن قرطبة ، فأغنى ذلك عن إعادتها  
هنا ، على أن رسالة الشَّقْنُدي تكرر فيها بعض ما ذكرناه ، لأننا لم نرد أن  
نخل منها بحرف ، فأتيناها بلفظها ، وإن تكرر بعض ما فيها مع بعض ما أسلفناه ،  
والعذر واضح للمنصف المُغْضي ، والله نسأل سلوك السبيل الذي يُرضي ،  
بمنه وكرمه .

١ في ذلك : سقطت من ق .

وقال صاحب « نشق الأزهار » : إن في جامع قرطبة تتوراً من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وفيه أشياء غريبة ، من الصنائع العجيبة ، يعجز عن وصفها الواصفون ، قيل : أحكم عمله في سبع سنين ، وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث <sup>١</sup> صورة غراب نوح عليه الصلاة والسلام ، الثلاثة خلقها الله تعالى ولم يصنعها صانع ، انتهى .

قلت : لم أر أحداً من محققي المؤرخين للأندلس وثقاتهم ذكر هذا ، على قلة اطلاعي ، وهو عندي بعيد ، لأنه لو كان لذكره الأئمة .

وقد حكى القاضي <sup>٢</sup> عياض في الشفاء أشياء وجد عليها اسم نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر هذا ، ويستبعد أن يكون بجامع قرطبة ولا يذكره ، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب : ن دور قرطبة أربعة عشر ميلاً ، وعرضها ميلان ، وهي على النهر الكبير وعيه جسران ، وبها الجامع الكبير الإسلامي ، وبها الكنيسة المعظمة بين النصاي ، وبهذه المدينة معدن الفضة ومعدن الشاذنج <sup>٣</sup> ، وهو حجر من شأنه أن يقطع الدم ؛ وكان يجلب منها البغال التي تباع كل واحدة منها بخمسائة دينا من حسنها وعلوها الزائد ، انتهى .

### رجع إلى أخبار البنيان :

ولا خفاء أنه يدل على عظيم قدر بانيه ، ولذلك قال أمير المؤمنين الناصر المرواني باني الزهراء رحمه الله تعالى حسبما نسبهما له بعض العلماء وبعض ينسبهما لغيره ، وسيأتيان في ترجمة نور الدين بن سعيد علي منسويين :

١ ط : وعلى الأرض ؛ ق ج : وعلى الآخر .  
 ٢ القاضي : سقطت من ك ط ج .  
 ٣ الشاذنج والشاذنة : يسمونه حجر الدم ، ويستعمل لدمل القروح ، وتعمل منه شيفات لأمراض العين .



همُّ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها من بَعْدِهِم فبِألسِنِ البُنَيانِ  
إن البناء إذا تعاظَمَ قَدْرُهُ أضحى يدلّ على عظيمِ الشانِ

وتذكرت هنا قصيدة قالها بعض الشاميين ، وهو الأديب الفاضل الشيخ  
أسد بن معين الدين ، ممّا يُكتب على أبراج دار الحسيب النسيب ، الشهير  
البيت ، الكبير الحمي والميت ، القاضي عبد الرحمن بن الفرُفور الدمشقي ،  
وضمّنها بيئي الناصر المذكورين :

زُرْ مَجْلِساً أضحى أعزّ مكانِ ومحلّ أهل العلم والعرفانِ  
المجدُ حيم في ذرى أبراجه والسعدُ عيدُ البابِ طولَ زمانِ  
كالخلد مرفوع البناء ، وأرضُهُ مفروشة بالسدرِ والعقيانِ  
بيت به فخر البيوت لأنّه بيت القصيد ومنزل الضيفانِ  
مغنى فسح فيه معنى مُفصح عن قدر بانيه بغير لسانِ  
قد قال بعض ذوي الفضائل قبلنا قولاً بديعاً واضح التبيانِ  
همُّ الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبِألسِنِ البنيانِ  
إن البناء إذا تعاظَمَ قدره أضحى يدلّ على عظيمِ الشانِ  
قد شاده من ساد أهل زمانه بالأصل والإفضال والرُجحانِ  
ورث السيادة كابرّاً عن كابر وسما برفعته على كيوانِ  
قاضي القضاة ومفخر العصر الذي قد جاء فيه سابق الأقرانِ  
في العلم بحرّ لا يُنالَ قرارُهُ في الحكم مثل مهتدِ وسينانِ  
يروي عطاءً عن يديه قد اقتضى آثار آباء ذوي إحسانِ  
لا زال يبقى شائداً بيت العُلا وعدوّه في الوهن والتقصانِ  
يا أيّها المولى الذي يجري مع الإق بال والإسعاد طلقَ عِنانِ ٢

١ أبراج : سقطت من ط .

٢ ق : طول زمان .

دُمُ شامخَ المِقْدَارِ مرتفعِ البنا      والناسُ تحتَ رضاك كالغلمان  
متمتعاً ببنيك سادات الورى      في عِزِّ ربِّ دائمِ السلطانِ  
ما رجَعَ القُمرِيُّ في تغريده      في الروضِ فوقِ منايرِ الأغصانِ

وكان القاضي عبد الرحمن بن فرفور المذكور عالي الهمة ، تضيق يده عما يريد ، فلذلك كان كثيراً ما ييئث شكواه في الطروس والدفاتر ، ويعتب على الزمان الذي أخنى على أهل الأدب وقطع آمالهم بحُسامه الباتر ، ويرحم الله القائل :

هذا زمان دريهمي لا غيره      قدحِ الدفاتر للزمان الفاتر

فمن نظم المذكور وقد أبطأ بجزء استعاره من بعض إخوانه ، فكتب إليه معتذراً ، وأدمج شكوى الزمان الذي كان من شماتة الأعداء به حذراً :

أبطأتُ في ذا الجزء يا سيدي      كتابة من جورِ دهرٍ بغيضٍ  
صابرتَه فالجسمُ مني لقيتُ      تجلُّداً والقلبُ مني مريضٍ  
فإذ أبى إلا تلافِي وقد      أحلَّتي منه محلَّ النقيضِ  
واقْتادني قسراً إلى مَصْرَعٍ      قدرقَ منه اللحم والعظم هِيضِ  
سَلَمْتُ للأقدارِ مستسرِعاً      لبابِ مؤلَّى ذي عطاء عريضِ  
جُمُومٌ صبر كنت أسطو به      على روايا الدهرِ بالهمِّ غِيضِ  
فلا تلم يا صاحٍ من بعد ذا      إذا تمثلت بـ « حالِ الجريضِ »

ورأيت بخطه رحمه الله تعالى ممّا نسبه جده القطب الحيصري الحافظ لإبراهيم بن نصر الحموي ثم المصري المعروف بابن الفقيه :

يا زماناً كلّمنا حا      ولتُ امرأ يتَمَنعُ  
إن تعصبتَ فإني      باصطباري أتَقَنعُ

وهذه تورية بديعة للغاية في التعصب والتقنع ، مع حلاوة النظم وجودة السبك وخفة الوزن ، والله سبحانه يروّح تلك الأرواح في الجنان ، ويعاملنا وإيّاهم بمحض الفضل والامتنان ، ويكفيننا شجون دهر جرى بنا طلق العنان .

رجع إلى ما كتبنا فيه : وكنت وقفت في كلام بعض العلماء على أن البيتين السابقين المنسوبين إلى أمير المؤمنين الناصر المرواني - رحمه الله تعالى - قالهما في الزهراء التي بناها ، وسيأتي ذكرها قريباً .

وقال الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي في «المسامرات» : قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والنوحش ، وبناؤها عجيب في بلاد الأندلس ، وهي قرية من قرطبة ، أبياتاً تذكّر العاقل ، وتنبّه الغافل ، وهي :

ديارٌ بأكناف الملاعب تلمعُ	وما إن بها من ساكنٍ وهي بلقعُ
ينوحُ عليها الطيرُ من كل جانب	فَيَصْنُتُ أحياناً وحيناً يَرْجِعُ
فخاطبت منها طائراً متفرداً	له شجنٌ في القلب وهو مُرَوِّعُ
فقلت : على ماذا تنوح وتشتكي ؟	فقال : على دهرٍ مضى ليس يرجعُ

ثم قال : وأخبرني بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر ماتت له سُرّيّة ، وتركت مالاً كثيراً ، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد ، فشكر الله تعالى على ذلك ، فقالت له جاريتته الزهراء - وكان يحبها حباً شديداً - : اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي ، وتكون خاصة لي ، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل ، وشمال قرطبة ، وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثة أميال أو نحو ذلك ، وأتقن بناءها ، وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستترها ومسكناً للزهراء

١ ق : متفرداً .

وحاشية أرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب ، فلما قعدت الزهراء في مجلسها نظرت إلى بياض المدينة وحسنتها في حجر ذلك الجبل الأسود ، فقالت : يا سيدي ، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي ؟ فأمر بزوال ذلك الجبل ، فقال بعض جلسائه : أعيد أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشينُ العقل سماعه ، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حضراً ولا قطعاً ، ولا يزيله إلا مَنْ خلقه ، فأمر بقطع شجره وغرسه تيناً ولوزاً ، ولم يكن منظر أحسن منها ، ولا سيّما في زمان الإزهار وتفتح الأشجار<sup>١</sup> ، وهي بين الجبل والسهل ، انتهى ببعض اختصار .

[ وصف ابن خلّكان للزهراء ]

وقال ابن خلّكان<sup>٢</sup> في ترجمة المعتمد بن عباد ما صورته<sup>٣</sup> : الزهراء - بفتح الزاي وسكون الهاء وفتح الراء ، وبعدها همزة ممدودة - [ سراية ] وهي من عجائب أبنية الدنيا ، وأنشأها أبو المظفر<sup>٤</sup> عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقّب بالناصر ، أحد ملوك بني أمية بالأندلس ، بالقرب من قرطبة ، في أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلاث ميل ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع ، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع ، وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية ، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب ؛ وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثاً : فثلث للجند ، وثلث مدخر ، وثلث ينفقه على عمارة الزهراء ، وكانت جباية الأندلس خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف

١ ق : وتفتح الأزهار .

٢ في ج : وقال ابن خلّدون .

٣ وفيات الأعيان ٤ : ١١٧ .

٤ كذا في الأصول وابن خلّكان ، والصواب : أبو المطرف .

وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص<sup>١</sup> سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار ، وهي من أهول ما بناه الإنس ، وأجله خطراً ، وأعظمه شأناً ، ذكر ذلك كله ابن بشكّو<sup>٢</sup> في تاريخ الأندلس ، انتهى كلامه .  
 وحكى في المطمح<sup>٣</sup> أن الوزير الكبير الشهير أبا الحزم بن جهّور قال وقد وقف على قصور الأمويين التي تقوّضت أبنيتها ، وعوّضت من أنيسها بالوحوش<sup>٤</sup> أفنيتها :

قلتُ يوماً لدار قوم تفانوا : أين سكّانك العزاز عليّنا ؟  
 فأجابت : هنا أقاموا قليلاً ، ثم ساروا ، ولست أعلم أينما

وفيه أن أبا عامر بن شهيد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرورٍ واثناس ، وقرع النواقيس يبيع سمعه ، ويرق الحميا يسرع<sup>٥</sup> لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح ، متوشحاً بالزنانير أبداع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل اطراح :  
 لا يعمدون إلى ماء بآنيةٍ إلا اغترافاً من الغدران بالراح

وأقام بينهم يعملها حمياً ، كأنما يرشف من كأسها شفة لَميا ، وهي تنفح له بأطيب عَرَف ، كلما رشفها أعذب رشف ، ثم ارتجل ، بعدما ارتجل ، فقال :

ولربّ حانٍ قد شَمِمتُ بديّره خمر الصبا مزجت بصرف عصيره  
 في فنية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعاً لكبيره

١ ك : المستخلصة ؛ ج ق ط : ومن السوق المستخلص .

٢ انظر المطمح : ١٥ .

٣ ك : بالوحش .

٤ المطمح : ١٨ .

٥ ق ط : يسرج .

والقَسُّ مِمَّا شَاءَ طَوْلَ مَقَامِنَا يَدْعُو بَعْوَدَ حَوْلِنَا بِزَبُورِهِ  
يُهْدِي لَنَا بِالرَّاحِ كُلَّ مُصَفَّرٍ كَالْحِشْفِ خَفْرَهُ التَّمَاخُ خَفِيرَهُ  
يَتَنَاوَلُ الظُّرْفَاءَ فِيهِ وَشُرْبُهُمْ لِسَلَافِهِ ، وَالْأَكْلُ مِنْ خَنْزِيرِهِ

رجع إلى بناء<sup>١</sup> الزهراء :

قال بعض من أَرَخَ الأندلس : كان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة ، وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الأجر والصخر غير المعدل ، انتهى ، وسيأتي في الزهراء<sup>٢</sup> مزيد كلام .

وقال ابن حبان<sup>٣</sup> : ابتدأ الناصر بناء الزهراء أول يوم من محرم سنة ٣٢٥ ، وجعل طولها من هرق إلى غرب ألفين وسبعمائة ذراع ، وتكسيها تسعمائة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع ، كذا نقله بعضهم ، وللنظر فيه مجال ، قال : وكان يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزمه [من النفقة]<sup>٤</sup> على قطعها ونقلها ومؤونة حملها<sup>٥</sup> ، وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية ، والمجزع من رية ، والوردي والأخضر من إفريقية من إسفاقس وقرطاجنة ، والحوض المنقوش المذهب من الشام ، وقيل : من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتمائيل<sup>٦</sup> على صور الإنسان ، وليس له قيمة ، ولما جلبه أحمد<sup>٧</sup>

١ ك : أنباء .

٢ ق : الزاهرة .

٣ انظر مخطوط الرباط : ١٣٥ .

٤ قارن بما جاء في أزهار الرياض ٢ : ٢٧٠ .

٥ زيادة من مخطوط الرباط .

٦ مخطوط الرباط : سوقها .

٧ ك : وتمائيل وصور .

٨ ساء في مخطوط الرباط : أحمد بن حزم الفيلسوف .

الفيلسوف - وقيل غيره - أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً ، وبني في قصرها المجلس المسمّى بقصر الخلافة ، وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه<sup>١</sup> الصافي لونه المتلونة أجناسه ، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت في وسطه اليتيمة التي أمحف الناصر بها أليون<sup>٢</sup> ملك القسطنطينية ، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة ، وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سواري من الرخام الملون والبتور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر<sup>٣</sup> المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يفتزع أحداً من أهل مجلسه أوماً إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ، ما دام الزئبق يتحرك ، وقيل : إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس ، وقيل : كان ثابتاً على صفة<sup>٤</sup> هذا الصهريج ، وهذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام ، وإنما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم ، وكان بناء الزهراء في غاية الإتقان والحسن ، وبها من المرمر والعُمد كثير ، وأجرى فيها المياه ، وأحدق بها البساتين ، وفيها يقول الشاعر السميسر<sup>٤</sup> :

وَقَفَّتْ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا      مُعْتَبِرًا      أَنْدُبُ أَشْتَاتَا  
فَقَلْتُ : يَا زَهْرَا أَلَا فَارُجِعِي      قَالَتْ : وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا؟

١ في جرمه : سقطت من ك .

٢ ق ط ج : في سلك .

٣ ج ط : ضفة .

٤ مخطوط الرباط : ١٣٧ .

فلم أزل أبكي وأبكي بها هيهات يُغني الدمعُ هيهاتا  
كأنما آثار من قد مضى نوادبٌ يندبن أموانا

انتهى كلام هذا المؤرخ ملخصاً ، وسيأتي ما يوافق جُلّه ، ويخالف قُلّه ،  
والله سبحانه يعلم الأمر كلّه ، فإنه ربّما ينظر المتأمل هذا الكتاب فيجد في  
بعض الأخبار تخالفاً ، فيحمل ذلك على الغلط ، وليس كذلك ، وإنّما السبب  
الحامل لذلك جلبُ كلام الناس بعباراتهم ، والناقد البصير لا يخفاه مثل هذا ،  
وربّما يقع التكرار ، وذلك من أجل ما ذكر ، والله أعلم .

[ قصور بني ذي النون ]

وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم  
الذي شاده ملك طليطلة المأمون ابن ذي النون بها<sup>١</sup> ، وذلك أنه أتقنه إلى  
الغاية ، وأنفق عليه أموالاً طائلة ، وصنع في وسطه بحيرة ، وصنع في وسط  
البحيرة قبة من زجاج ملوّن منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة  
بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً  
بها ويتصل بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج في غلالة ممّا سكب<sup>٢</sup> خلف  
الزجاج لا يفتّر من الحرّ ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا  
يصله ، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب ، وبينما هو فيها  
مع جواريه<sup>٣</sup> ذات ليلة إذ سمع منشدًا ينشد :

أبني بناء الخالدين ، وإنّما بقاؤك<sup>٤</sup> فيها لو علمت قليل  
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كلّ يوم يقتضيه رحيل<sup>٥</sup>

١ الذخيرة ٤ : ١٠٢ وما بعدها .

٢ ق ط ج : من ماء سكب .

٣ ق : وجواريه .

٤ ك : لقامك .



فنعص عليه حاله ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أظن أن الأجل قد قرب<sup>١</sup> ، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفي ، ولم يجلس في تلك القبة بعدها ، وذلك سنة ٤٦٧ ، تجاوز الله تعالى عنه ، هكذا حكاه بعض مؤرخي المغرب . وقد ذكر في غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون<sup>٢</sup> شارح العبدونية فليراجع .

وتذكرت هنا قول أبي محمد المصري<sup>٣</sup> في صفة قصر طليطلة :

قَصْرٌ يَقْصِرُ عَنْ مَدَاهُ الْفَرْقَدُ      عَدُبَتْ مَصَادِرُهُ وَطَابَ الْمَوْرِدُ  
نَشَرَ الصَّبَاحُ عَلَيْهِ ثَوْبَ مَكَارِمِ      فَعَلَيْهِ الْوَيْبَةُ السَّعَادَةُ تُعَقِّدُ  
وَكَأْتُمَا الْمَأْمُونُ فِي أَرْجَائِهِ      بَدْرُ تَمَامِ قَابِلَتَيْهِ أَسْعُدُ  
وَكَأْتُمَا الْأَفْدَاحُ فِي رَاحَاتِهِ      دُرٌّ جَمَادُ ذَابَ فِيهِ الْعَسَجَدُ

وله في صفة البركة والقبة عليها :

شَمْسِيَّةُ الْأَنْسَابِ بِدْرِيَّةُ      يَحَارُ فِي تَشْبِيهِهَا الْخَاطِرُ  
كَأْتُمَا الْمَأْمُونُ بِدْرِ الدُّجَى      وَهِيَ عَلَيْهِ الْفَلَكَ الدَّائِرُ

\* \* \*

### [ أشعار ورسائل للأندلسيين في وصف المجالس ]

وكان ملوك الأندلس في غاية الاحتفال بالمجالس والقصور ، وللوزير الجزيري<sup>٤</sup> - رحمه الله تعالى - في وصف مجلس المنصور بن أبي عامر ما

١ ق : أظن الأجل قرب .

٢ ق : ابن زيدون - وهو خطأ -

٣ الذخيرة ٤ : ١٠٩ .

٤ الوزير الجزيري : أبو مروان عبد الملك بن إدريس أحد كتاب الدولة العمانية وكان حينئذ على الشرطة للمنصور ، سخط عليه المنصور فسجنه وله القصيدة الرائية المشهورة في السجن ، ثم كتب بعده للمظفر فلما قتل صهره عيسى بن سعيد بن القطاع تغير المظفر على أبي مروان فسجنه في برج من طرطوشة وقتله (٣٩٤) هنالك . (ترجمته في الحدوة : ٢٦١ وبغية الملتمس رقم : ١١٥٨ =

يشهد لذلك ، وهو قوله <sup>١</sup> :

وتوسّطتها لجة في قعرها  
تنساب من فكّي هزبر إن يكن  
صاغوه من ندّ وخلّقت صفحي  
للياسمين تطلّع في عرشه  
ونضائد من نرجس وبنفسج  
ترنو بسحر عيونها وتكاد من  
وعلى يمينك سوسنات أطلعت  
فكأنما هي في اختلاف رقومها  
في مجلس جمع السرور لأهله  
حازت بدولته المغارب عزة <sup>٣</sup>

بنت السّلاحف ما تزال تُنفق  
ثبّت الجنان فإن فاه أخرق  
هادبه محض الدرّ فهو مطوق <sup>٢</sup>  
مثل المليك عراه زهو مطرق  
وجنيّ خيريّ وورد يعبق  
طرب إليك بلا لسان تنطق  
زهر الربيع فهنّ حسناً تشرق  
رايات نصرك يوم بأسك تخفق  
ملك إذا جمعت قتاه يفرق  
فغدا ليحسدها عليه المشرق

ومن هذه القصيدة :

أما الغمام فشهد لك أنّه  
وافى الصنيع فحين تمّ تمامه  
وأظنه يحكيك جوداً إذ رأى  
لا شك صنوك أو أخوك الأوثق  
في الصّحو أنشأ ودقه يتدفق  
في اليوم بحرك زاخراً يتفهق

وكان السبب في هذه الأبيات أن المنصور صنع في ذلك الأوان صنيعاً لتطهير  
ابنه عبد الرحمن ، وكان عام قحط ، فارتفع السعر بقرطبة ، وبلغ ربع الدقيق

= والمغرب ٢ : ٣٢١ واعتاب الكتاب : ١٩٣ والخيرة ٤ : ٣١ والمطبخ : ١٣ والصلة : ٣٥٠

وله شعر في الشيمة والتشبيات والبديع .

١ المقتطفات ( الورقة : ٢٣ ) .

٢ المقتطفات : فيه مطبق ؛ وفي ك : فهو مخلق .

٣ ك : رفعة .

٤ ق : بل أخوك .

إلى دينارين ، فجلا الناس من قرطبة ، فلما كان يوم ذلك الصنيع نشأت في السماء سحابة عمّت الأفق ، ثم أتى المطر الوايل ، فاستبشر الناس ، وسُرَّ المنصور بن أبي عامر فقال الجزيري بديهة<sup>١</sup> : أما الغمام إلخ . وهو القائل على لسان نرجس العامرية<sup>٢</sup> :

حَيْتَكَ يَا قَمَرَ الْعُلَا وَالْمَجْلِسِ أَزْكِي تَحِيَّتَهَا عَيْونُ النَّرْجَسِ  
 زهر تريك بِحُسْنِهَا<sup>٣</sup> وبلونها زُهر النجوم الجاريات الكُنُوسِ  
 مُلْكَنَ أَفْتَدَى النَّدَامَى كُلَّمَا دَارَتْ بِمَجْلِسِهِمْ مَدَارَ الْأَكْوَسِ  
 مَلِكُ الْهُمامِ الْعَامِرِيِّ مُحَمَّدٍ لِلْمَكْرَمَاتِ وَلِلنَّهْيِ وَالْأَنْفَسِ

قال ابن بسام<sup>٤</sup> : ومن شعر الجزيري ما اندرج له أثناء نثره<sup>٥</sup> الذي ملح فيه مخاطبته للمنصور على السنة أسماء كرائمه بزهر رياضه ، فمن ذلك عن بهار العامرية :

حَدَقُ الْحَسَانِ تُقِرُّ لِي وَتَغَارُ وَتَضِلُّ فِي صِفَتِي النَّهْيِ وَتَحَارُ  
 طَلَعْتُ عَلَى قُضْبِي عَيْونُ كَتَامِي<sup>٦</sup> مِثْلَ الْعَيْونِ تَحْفَهَا الْأَشْفَارُ  
 وَأَخْصُ شَيْءٌ بِي إِذَا شَبَّهْتَنِي دَرٌّ تَنْطَلِقُ سَلْكُهَا دِينَارُ  
 أَهْدَى لَهُ قُضْبَ الزَّمْرَدِ سَاقُهُ وَجَاهُ أَنْفَسِ عَطْرِهِ الْمَطَارُ  
 أَنَا نَرْجَسٌ حَقًّا بَهْرَتْ عَقُولُهُمْ بَبْدِيعِ تَرْكِيبِي فَقَبِيلِ بَهَارُ

ومن أخرى عن بفسح العامرية<sup>٦</sup> : إذا تدافعت الحصوم - أيد الله مولانا

١ الذخيرة ٤ : ٣٢ والبيدع : ١١٥ - ١١٦ والمقتطفات : ٣٣ .

٢ البيدع : بشكلها .

٣ الذخيرة ٤ : ٣٣ والبيدع : ٩٩ والمقتطفات : ٣٣ .

٤ ك : مدحه .

٥ في الأصول : تمانمي ، والتصويب عن البيدع .

٦ الذخيرة ٤ : ٣٣ والبيدع : ٧٨ - ٧٩ والمقتطفات : ٣٣ - ٣٤ .

المنصور - في مذاهبها ، وتنافرت في مفاخرها ، فإنه <sup>١</sup> مفرعها ، وهو المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائه على المفاخر بأسرها ، وعلمه بسرّها وجهرها ، وقد ذهب البهار والرجس في وصف محاسنهما ، والفخر بمشابهتهما ، كل مذهب ، وما منها إلا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلقنا ، وأعذب من الغمام الذي يسقينا ، وإن كانا قد تشبّها في شعرهما ببعض ما في العالم من جواهر الأرض ومصابيح السماء وهي من الموات الصامت ، فإنّي أتشبه بأحسن ما زين الله به الإنسان وهو الحيوان الناطق ، مع أنّي أعطر منهما عطراً ، وأحمد خبراً ، وأكرم إمتاعاً شاهداً وغائباً وبانعاً وذابلاً ، وكلاهما لا يمتنع ، إلا ريشما بينع <sup>٢</sup> ، ثم إذا ذبل تستكره النفوس <sup>٣</sup> شمته ، وتستدفع الأكف ضمته ، وأنا أمتع يابساً ورطباً ، وتدخري الملوك في خزائنها ، وسائر الأطباء ، وأصرف في منافع الأعضاء ، فإن فخرا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساق ، فلا غرو أن الوشي ضعيف ، والهوى لطيف ، والمسك خفيف ، وليس المجد يدرك بالصراع ، وقد أودعت أيّد الله مولانا قوافي الشعر من وصف مشابهي ما أودعاه ، وحضرت بنفسي لثلاثاً أغيب عن حضرتهما ، فقديماً فضل الحاضر وإن كان مفضولاً ، ولذا قالوا : ألد الطعام ما حضر لوقته ، وأشعر الناس من أنت في شعره ، فلمولايّا أتم الحكم في أن يفصل بحكمه العدل ، وأقول :

شهدت لثوّار البنفسج السنّ من لونه الأحوى ومن إيناعه °

- 
- ١ البديع : فاليك ، وكذلك جرى الضمير في سائر الرسالة للخطاب ، وفي التنصين اختلافات كثيرة ، نشير إلى بعضها .  
٢ البديع : وكلاهما لا يمتنع إلا ريشما يبدو للعيون ويسلم من الذبول .  
٣ البديع : ثم تستكره الأنوف .  
٤ البديع : فإن هذه الحال من الاستمتاع بي رطباً وادخاري في خزائن الملوك جافاً .  
٥ ق ط ج : ومن أتباعه .

لمشابه الشعر الأعمّ أعاره الـ  
ولربّما جمع النجيع من الطلي  
فحكاه غير مخالف في لونه  
ملك جهلنا قبله سُبُل العُلا  
في سيفه قِصرٌ لطول نِجاده  
ذو همة كالبرق في إسراره  
تلقى الزمان له مطيعاً سامعاً  
قمرُ المنيرُ المطلق نور شعاعه  
من صارم المنصور يوم قِراعِهِ  
لا في روائحه وطيب طباعِهِ  
حتى وضحنَ بنهجه وشراعِهِ  
وتمام ساعده وفُسحة باعِهِ  
وعزيمة كالحين في إيقاعِهِ  
وترى الملوك الشُّمّ من أتباعِهِ

وما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف حديقة<sup>٢</sup> :

وحديقة مخضرة أثوابها  
نادمتُ فيها فتية صفحاتهم  
والجدول الفضي يضحك ماؤه  
وإذا تجعد بالنسيم حسبته  
وتناثرت نقتط على حافاته  
وتدحرجت<sup>٣</sup> للناظرين كأنها  
في قُضبها للطير كل مغرد  
مثل البذور تُنير بين الأسعد  
فكأنه في العين صَفحُ مهند  
لما تراه مشيهاً للمبرد  
كالعقد بين جمع ومُبدّد  
دُرٌّ نثيرٌ في بساط زبرجد

وكان بحمام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل  
الأندلس بقوله :

ودُمية مرمر تزهى بجيد  
لها ولدٌ ولم تعرف حليلاً  
ونعلم أنها حَجَرٌ، ولكن  
تتأهى في التورّد والبياض  
ولا ألت بأوجاع المخاض  
تُتَمِّنا بألحاظٍ مِراض

١ البديع : جف .

٢ وردت الأبيات في المقتطفات (الورقة : ٢٤) .

٣ ق ط : وترجرت ؛ وفي ج ؛ : وترخرفت .

وكان بسرْقُسطة في القصر المسمى<sup>١</sup> بدار السرور ، مجلس الذهب أحد  
قصور المقتدر بن هود وفيه يقول ذو الوزارتين بن غُنْدَشَلْب<sup>٢</sup> يهجو وزيراً  
كان<sup>٣</sup> ينبز بتحقوق :

صَجَّ من تحقون بيتُ الذهبِ ودِعا مماً به وأحرَبِي  
رَبَّ طهرتني فقد دتسني عارُ تحقونَ الموفى الذنبِ

وكتب بعض كبراء الأندلس إلى إخوانه<sup>٤</sup> : « كتابي هذا من وادي الزيتون ،  
ونحن فيه مختلفون<sup>٥</sup> ، ببقعة اكتست من السندس الأخضر ، وتحلت بأنواع  
الزهر ، وتحالبت بأنهار تتخللها ، وأشجار تُظللها ، تحجب أدواحها الشمس  
لالتفافها ، وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها ، وما شتم من محاسن تروق وتعجب ،  
وأطياب تتجاوب بألحان تلهي وتطرب ، في مثلها يعود الزمان كله صيباً ،  
وتجري الحياة على الأمل والمنى ، وأنا فيها - أبقاكم الله سبحانه - بحال من  
طاب غذاؤه ، وحسن استمراؤه ، وصحا من جنون العقار ، واستراح من  
مضض<sup>٦</sup> الخمار ، وزايلته وساوسه ، وخلصت من الخباط هواجسه » ؛ ثم  
ذكر كلاماً من هذا النمط في وصف الخمار والدعاء إلى العقار .

١ ق : الذي يسمى .

٢ ك : عيد شلب - وهو خطأ -

٣ كان : سقطت من ق .

٤ هذه الرسالة للكاتب أبي المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ، كان كاتباً عند  
المقتدر بن هود فاستوحش منه ولحق بالمتعمد بن عباد فرحب به وسفر بينه وبين المتوكل ابن  
الأنطس ، ثم اختلف مع ابن عمار فهرب إلى المتوكل في بطليوس وكانت نهايته أن قتل ببطليوس  
(راجع ترجمته في الذخيرة - القسم الثالث : ٨٢ وهذه القطعة من رسالته فيها ص : ٩٣ ؛  
والقتلاذ : ١٠٦ والمغرب ٢ : ٤٤٥ ومسالك الأبيصار ٨ : ٢٢١) .

٥ كذا في ق ك ولعله : مختلفون ، وفي ط ج : محتلون ، وهو صواب .

٦ الذخيرة : فضول .

فراجعه أبو الفضل بن حسداي برقعة قال في صدرها<sup>١</sup> : « إلى سيدنا<sup>٢</sup> الذي ألزمتنا بامتنانه الشكر ، وكبيرنا الذي علّمنا ببيانه السحر ، وعميدنا الذي عقّدنا بحرمه والنخل<sup>٣</sup> ، ورمانا بدائه وانسل<sup>٤</sup> ، أبقاك الله تعالى لتوبة نصوح تمرّها ، ويمين غموس تبرّها ، ورّد أبقاك الله تعالى كتابك الذي أنفذته من معرّسك بوادي الزيتون ، ووقفنا على ما لقنت في أوصافه من حجة المفتون ، وإعجابك بالتفاف شجره ودوحاته ، واهتزازك بلطيف بآآكره وروّحاته ، وغرورك<sup>٥</sup> به وهو حوّ تلاعه ، مورودة هضابه وأجراعُه ، وكل المشارب ما خلاه ذميم<sup>٦</sup> ، وماؤه الدهر خصير والمياه حميم ، وتلك عادة تلوّثك ، وسجّية تحضرمك<sup>٧</sup> ، وشاكلة ملاك وسأمك ، وأشعر الناس عندك من أنت في شعره ، وأحب البلاد إليك ما أنت في عقّره ، فأين منك بساتين جلتق وجنانه ، ورياضه الموقّعة وخُلجانه ، وقبابه البيض في حدائقه الخضر ، وجوّه العطر في جنبابه النضر<sup>٨</sup> ، وما تَضُمّه<sup>٩</sup> حيطانه ، وتمجّه أنجاده<sup>١٠</sup> وغيطانه ، من أمهات الراح التي طلّقتها<sup>١١</sup> بزَعَمك ، وموادّ<sup>١١</sup> الشّمول التي

١ الرسالة في الذخيرة (القسم الثالث) : ٩٤ وأبو الفضل بن حسداي : هو حسداي بن يوسف بن حسداي الإسرائيلي أحد كتاب عصر الطوائف ، الذخيرة (القسم الثالث) : ١٥٣ والقلائد : ١٨٣ والمغرب ٢ : ٤٤١ والمغرب : ١٩٦ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٦ .

٢ ق ج : يا سيدنا .

٣ ق ك ط : بحرمة الخل ؛ ج : بحرمة الخل .

٤ ق ج ودوزي : ومرورك ؛ ك : وسرورك .

٥ إشارة إلى قول الشاعر :

اقرأ على الوشل السلام وقل له - كل المشارب مذ هجرت ذميم

٦ ق ط : تحضرمك ؛ وفي ج ط ق ودوزي : وشجّية .

٧ دوزي وق : ووجوه العطر في جنبانه النضر ؛ ج : وجون العطر في جنبانه النضر .

٨ دوزي : وما تَضُمّه .

٩ الذخيرة : وتحتوي عليه نجاده .

١٠ ق : هجرتها .

١١ ك : ومورد ؛ ج : وموارد .

طلّقتها برغمك ، وهيهات فوالله ما فارقتك تلك الأجارعُ والمجاني ، ولا شأقتك تلك المنازل والمغاني ، إلا تذكّراً لما لدينا من طيب المعاهد ، وحينياً إلى ما عندنا من جميل المشاهد ، وأين من المشتاق عتقاء مغرب » ثم ذكر كلاماً في جواب ما مرّ من الخمار لم يتعلّق لي به غرض .

وما أحلى ما كتب به أبو إسحاق بن خفاجة من رسالة في ذكر منتره <sup>١</sup> :  
ولما أكبّ الغمام إكباباً ، لم أجد منه إغنياً ، واتصل المطر اتصالاً ، لم ألف منه انفصلاً ، أذن الله تعالى للصّحو أن يُطلع صَفْحته ، وينشر صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ، كما طوى السجلُ الكتاب ، وطفقت السماء تلخع جلبابها ، والشمس تحطّ <sup>٢</sup> نقابها ، وتطلّعت <sup>٣</sup> الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلّت ، وقد تحلّت ، ذهبت في لُمة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضاً ، ونطوي للتفرّج أرضاً ، فلا ندفع إلا إلى غدير ، نيمر ، قد استدارت منه في كل قرارة سماء ، سحائبها غمّاء ، وانساب في كل تلعة حباب ، جلدهُ حباب ، فتردّنا بتلك الأباطح ، نتهادى تهادي أغصانها ، ونتضحك تضحك أفعوانها ، وللنسيم ، أثناء ذلك المنظر الوسيم ، تراسلُ مشي ، على بساط وشي ، فإذا مر بغدير نسجه درعاً ، وأحكمه صنعاً ، وإن عثر بجدول شطبّ منه نصلاً ، وأخلصه صقلاً ، فلا ترى إلا بطاحاً ، مملوءة سلاحاً ، كأنما انهزمت هنالك كتاب فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف مسلول .

ومن فصل منها : فاحتلنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان ، سنْدُسية رواق الأوراق ، وما زلنا نتحف منها ببرد ظلّ ظليل ، ونشتمل عليه برداء

١ انظر هذه الرسالة في الذخيرة (القسم الثالث) : ١٧٣ وديوان ابن خفاجة : ٣١٧ والمقتطفات (الورقة : ٢٢) .

٢ ك : تميّط .

٣ ك : وطلعة .



نسيم عليل ، ونجبل الطرف في نهر صقيل ، صافي لُجَيْنِ الماء ، كأنه مَجْرَّةُ السماء ، مؤتلق جوهر الحباب ، كأنه من ثغور الأحاب ، وقد حَضَرْنَا مُسْمِعٌ يجري مع النفوس لطافة فهو يعلم غرضها وهوآها ، ويغني لها مقترحها ومُنَاهَا ، فصيح لسان النقر ، يشفي من الوقر ، كأنه كاتب حاسب ، تمشق يمناه ، وتعقد يسراه :

يحرك حين يشدو ساكناتٍ وتنبعث الطبايعُ للسكون

وكانت بين أبي إسحاق وبعض إخوانه مقاطعة ، فاتفق أن ولي ذلك الصديق حصناً ، فخاطبه أبو إسحاق برقعة ، منها<sup>١</sup> : أطال الله بقاء سيدي النبيهة أوصافه التزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة إمارته الكريمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يَرْمِي للجزم ، واعتلت واو يغزو لموضع الضم ، كتبت عن ودِّ قديم هو الحال ، لم يلحقها انتقال ، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله الاعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعدد من الحروف الجازمة ، وأنا أستنهض طولك إلى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل ، وتعدية فعل الفَصْل ، وعدولك عن باب ألف القطع ، إلى باب الوصل والجمع ، حتى يسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ، ويدخل الانتقال حال الصمت ، فلا تتخيل أعزك الله أن رَسَمَ إخائك عندي ذُو حَسَا<sup>٢</sup> قد دَرَسَ عَقَاء ، ولا أن صدري دارُ مية أمسى من ودك خلاء<sup>٣</sup> ، وإنما أنا فعلٌ إذا تُنِّيَ ظهر من ضمير ودّه ما بطن ، وبداهته ما كمن ، وهنيئاً أعزك الله أن فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعه تغيير ، وأن فعل سيفك ماضٍ ما به للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف ، تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف ،

١ الذخيرة : ١٧٦ والديوان : ٣٢٦ والمقتطفات : ٢٣ .

٢ إشارة إلى قول النابغة : « عفا ذو حساً من فرتنا فالقوارع » وفي ك : دوحه قد درس .

٣ إشارة أخرى إلى قول النابغة في وصف دار مية : « أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا » .

و درس حروف العطف ، وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك ، وتوجب بعد النفي ما سلف من قُرْبِكَ<sup>١</sup> ، وتدع ألف الألفة أن تكون بعدُ من حروف اللين ، وترفع بالإضافة بيننا وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرك ومعتل الإخاء أن يصح ، وكتابي هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الأولى صفة ، وتصير هذه النكرة معرفة ، فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبيل ، ومنك اشتقاق اسم السؤدد والفضل ، وإنك وإن تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرأ ، وعدوك وإن تكبر كالكُمَيْت لم يقع إلا مُصَغَّرأ ، وللأيتام علل تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتخفض ، فلا دخلَ عروضك قبض ، ولا غاقبَ رفعك خفض ، ولا زلت مرتبطاً بالفضل شرطك وجزاؤك ، جارياً على الرفع سروك الكريم وسناؤك ، حتى يُخفَض الفعل ، وتبنى على الكسر قبيلُ ، إن شاء الله .

وكتب رحمه الله تعالى يستدعي عودَ غناء<sup>٢</sup> : انتظم من إخوانك - أعزك الله تعالى - عقد شرب يتساقون في ودك ، ويتعاطون ريحانة شكرك وحمدك ، وما منهم إلا شره المسامع إلى رنة حمامة ناد ، لا حمامة بطن واد ، والطبول لك في صلتها بجماد ناطق قد استعار من بنان لساناً ، وصار لضمير صاحبه ترجماناً ، وهو على الإساءة والإحسان لا ينفك من إيقاع به ، من غير إيجاع له ، فإن هفا عركت أذنه وأدب ، وإن تأتي<sup>٣</sup> واستوى بُعيج بطنه وضرب ، لا زلت منتظم الجدل ، ملتئم الأمل ، انتهى .

\* \* \*

### [ قصيدة لابن خفاجة ]

ومن نظمه رحمه الله تعالى يتنمَّع ويتوجع<sup>٤</sup> :

- ١ ك : عيدك ؛ ق : عتبك .  
 ٢ الذخيرة : ١٧٤ والديوان : ٣١٩ .  
 ٣ ك : تأتي ؛ ج : تأتي .  
 ٤ الذخيرة : ١٨١ والديوان : ٢١٧ وفيها يرثي الوزير أبا محمد بن ربيعة إثر وفاة جملة من إخوانه .

شَرَابُ الْأَمَانِي لَوْ عَلِمْتَ سَرَابُ  
وَهَلْ مُهْجَةَ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَرِيدَةٌ  
يَجِبُ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ  
وَكَيْفَ يَغْبِضُ الدَّمْعُ أَوْ يَبْرُدُ الْحَشَا  
أَقْلَبُ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ لَيْلَةٍ  
كَأَنِّي، وَقَدْ طَارَ الصَّبَاحُ، حَمَامَةٌ  
دَعَا بِهِمْ دَاعِي الرَّدَى فَكَأَنَّمَا  
فَهَا هُمْ وَسَلِمَ الدَّهْرُ حَرْبَ كَأَنَّمَا  
هَجُودٌ وَلَا غَيْرَ التَّرَابِ حَشِيَّةٌ  
وَلَسْتُ بِنَاسِ صَاحِبًا مِنْ رِبِيعَةٍ  
وَمَا شَجَانِي أَنْ قَضَى حَتْفَ أَنْفِهِ  
وَأَنَا تَجَارِينَا ثَلَاثِينَ حِجَّةً  
كَأَنَّ لَمْ نَبْتَ فِي مَتَرِ الْقَصْفِ لَيْلَةٍ  
إِذَا قَامَ مَتَا قَائِمٌ هَزَّ عَطْفَهُ  
وَلَمَّا تَرَاءَتْ لِلْمَشِيبِ بَرِّيْقَةَ  
نَهَضْنَا بِأَعْبَاءِ اللَّيَالِي جَزَالَةً  
فِيَا طَاعِنًا قَدْ حَطَّ مِنْ سَاحَةِ الْبَلِي  
كَفَى حَزَنًا أَنْ لَمْ يَزِرْنِي عَلَى النَّوَى  
وَأَنِّي إِذَا يَمَمْتُ قَبْرَكَ زَائِرًا  
وَلَوْ أَنَّ حَيًّا كَانَ حَاوِرَ مَيْتًا  
وَأَعْرَبَ عَمَّا عِنْدَهُ مِنْ جَلِيَّةٍ

وَعُتْبَى اللَّيَالِي لَوْ عَرَفْتَ عِتَابُ  
يَحُومُ عَلَيْهَا لِلْحِمَامِ عِقَابُ  
مَطَايَا إِلَى دَارِ الْبَلِي وَرَكَابُ  
وَقَدْ بَادَ أَقْرَانُ وَفَاتَ شَبَابُ  
وَقَدْ حُطَّ عَنْ وَجْهِ الصَّبَاحِ نِقَابُ  
يَمُدُّ جَنَاحِيهِ عَلَيَّ غِرَابُ  
تَبَارَتْ بِهِمْ خَيْلٌ هُنَاكَ عِرَابُ  
جَثَا بِهِمْ<sup>١</sup> طَعْنُ لَهُمْ وَضْرَابُ  
بَلْجَبُ وَلَا غَيْرَ الْقُبُورِ قِبَابُ  
إِذَا نَسِيَتْ رَسْمَ الْوَفَاءِ صَحَابُ  
وَمَا انْدَقَّ رَمْحٌ دُونَهُ وَكِعَابُ<sup>٢</sup>  
فَفَاتَ<sup>٣</sup> سَبَاقًا وَالْحِمَامِ قِصَابُ  
نَجِيبُ بِهَا دَاعِي الصَّبَا وَنَجَابُ  
شَبَابُ أَرْقَنَاهُ بِهَا وَشَرَابُ  
وَأَقْشَعُ مِنْ ظِلِّ الشَّبَابِ سَحَابُ  
وَأُرْسَتْ بِنَا فِي النَّائِبَاتِ هِضَابُ  
بِمَنْزِلٍ بَيْنَ لَيْسَ عَنْهُ مَسَابُ  
رَسُولٌ وَلَمْ يَنْفِذْ إِلَيْكَ كِتَابُ  
وَقَفْتُ وَدُونِي لِلتَّرَابِ حَجَابُ  
لَطَالَ كَلَامُ بَيْنِنَا وَخَطَابُ  
فَأَقْشَعُ عَنْ شَمْسٍ هُنَاكَ ضَبَابُ

٢ الذخيرة والديوان : وذباب .

١ ك : بينهم .

٣ أصول المقرئ : حقبة ، فمات .

## [ عود إلى عمران قرطبة ]

وقد أبعدا عمّا كنّا بصدده من ذكر قرطبة أعادها الله للإسلام ، فنقول :  
قال بعض من أرخ الأندلس :  
انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل إلى أربعمئة وتسعين مسجداً ،  
ثم زادت بعد ذلك كثيراً كما يأتي ذكره .

وقال بعضهم<sup>١</sup> : كانت قرطبة قاعدة الأندلس ، وأم المدائن ، وقرارة  
الملك ، وكان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلاثمئة ، وكانت عدة الدور في القصر  
الكبير أربعمئة دار ونيقاً وثلاثين ، وكانت عدة دور الرعايا والسواد بها  
الواجب على أهلها المبيت في السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، حاشا  
دور الوزراء وأكابر الناس والبياض .

ورأيت في بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لَمَسْتُونَة والموحدين ، قال :  
وكانت ديار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار وثلاثمئة دار ، انتهى .  
وعدد أرباضها ثمانية وعشرون ، وقيل : واحد وعشرون ، ومبلغ المساجد  
بها ثلاثة آلاف وثمانمئة وسبعة وثلاثون مسجداً ، وعدد الحمامات المبرزة للناس  
سبعمئة حمام ، وقيل : ثلاثمئة حمام .

وقال ابن حيان : إن عدة المساجد عند تهايتها في مدة ابن أبي عامر ألف  
وستمئة مسجد ، والحمامات تسعمئة حمام<sup>٢</sup> .

وفي بعض التواريخ القديمة : كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف  
مسجد وثمانمئة وسبعة وسبعون مسجداً - منها بشقنودة ثمانية عشر مسجداً -  
وتسعمئة حمام وأحد عشر حماماً ، ومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية  
خصوصاً ، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها ، هكذا نقله

١ انظر أزهار الرياض ٢ : ٢٧٢ .

٢ دوزي : ستمئة حمام .

في المغرب ، وهو أعلم بما يأتي ويَدَّر ، رحمه الله تعالى .

وقال بعض المؤرخين — بعد ذكره نحو ما تقدم<sup>١</sup> — : ووسط الأرباض قبة قرطبة التي تحيط<sup>٢</sup> بالسور دونها ، وأمّا اليتيمة التي كانت في المجلس البديع فإنّها كانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية ، انتهى .

ونحوه لابن الفَرّاضي وغير واحد ، لكن خالفهم صاحب « المسالك والممالك »<sup>٣</sup> فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وأحد وسبعون مسجداً ، وهو بعيد ، وقال قبله<sup>٤</sup> : إن دَوْرَ قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع ، وتفسيرها باللسان القوطي القلوب المختلفة ، وهي بالقوطية بالطاء المشالة ، وقيل : إن معنى قرطبة أجر فاسكنها<sup>٥</sup> ، قال : وبقرطبة أقاليم كثيرة وكُورٌ جليلة ، وكانت جبايتها في أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين ديناراً ، وسبق ما يخالف هذا ، ومن القمح أربعة آلاف مدي وستمائة مدي ، ومن الشعير سبعة آلاف مدي وستمائة مدي وسبعة وأربعين مدياً .

وقال بعض العلماء : أحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر فكان مائتي ألف دار وثلاثة عشر ألف دار وسبعاً وسبعين داراً ، وهذه دور الرعيّة ، وأمّا دور الأكابر والوزراء والكتّاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار ، سوى مصاري الكراء والحمامات والخانات ، وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون ، ولما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة غيرت رسوم ذلك العمران ، ومحيّت آثار تلك

١ أزهار الرياض ٢ : ٢٧٢ .

٢ ق ط ج : تختص .

٣ مخطوطة المسالك والممالك ( الورقة : ٢٢٠ ) .

٤ المصدر السابق ( الورقة : ٢١٩ ) .

٥ قد مر أنه « أجر ساكنها » وفي نسخة الروض المعطار : « آخر فاسكنها » .

٦ المصاري : جمع مصرية وهي غرفة علوية منفصلة ، تكرر أو تجعل للخدم .

القرى والبلدان ، انتهى ملخصاً . وسيأتي في رسالة الشقندي ما هو أشمل من هذا .

### [ قصيدة القرطبي والمنتزهات ]

ولما رقت حال أبي القاسم عامر بن هشام القرطبي<sup>١</sup> بقرطبة وزين له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدين مراكش قال وذكر المنتزهات القرطبية :

يا هبةً باكرت من نحو دارين  
سرت على صفحات النهر ناشرة  
ردت إلى جسدي روح الحياة وما  
لولا تنسّمها من نشر أرضكم  
مرت على عقدات الرمل حاملة  
عرفت من عرفه ما لست أجهله<sup>٢</sup>  
نزوت من طرب لما هفا سحرأ  
خلت الشمال شمولاً إذ سكرت بها  
أهدت إلي أريجاً من شمائلكم  
وخلت من طمع أن اللقاء على  
فظلت أليم من تعظيم حقاكم  
مسارح كم بها سرحت من كمد  
بين المصلى إلى وادي العقيق وما  
إلى الرصافة فالمرج النضير فوا

وافت إلي على بعد تحيبي  
جناحها بين خيري ونسرين  
خلت النسيم إذا ما مت بحيني  
ما أصبحت من أليم الوجد تبيرني  
من سرّكم خبراً بالوحي يشفيني  
لما تنسم في تلك الميادين  
وظل ينشروني طوراً ويطنوني  
سكراً بما لست أرجوه يمني  
فقلت : قربني من كان يقصيني  
إثر النسيم وأضحى الشوق يحدوني  
مجرّ أذيالها والوجد يغريني  
قلبي وطرفي ولا سلوان يشيني  
يزال مثل اسمه مذ بان يبكي  
دي الدير فالعطف من بطحاء عبدون

١ شاعر وشاح مترسل مشهور بالبطالة صلحت حاله بأخرة وأقبل على النكاح (توفي سنة ٦٢٢) -

انظر التكملة رقم : ١٩٤٤ والمغرب ١ : ٧٥ .

٢ ك : ما كنت أجهله .

لبابِ عبدِ سَقْتِهِ السَّحْبُ وَاِبْلَاهَا  
 لَا بَاعِدَ اللهُ عَنِّي عَن مَنَازِهِهِ  
 حَاشَا لَهَا مِن مَّجَلَّاتٍ مُفَارِقَةٍ  
 أَيْنَ الْمَسِيرُ وَرِزْقُ اللهِ أَدْرِكُهُ  
 يَا مَنْ يَزِينُ لِي التَّرْحَالَ عَن بِلَدِي  
 وَأَيْنَ يَعْدِلُ عَن أَرْجَاءِ قُرْطُبَةَ  
 قَطْرًا فَسِيحٌ وَنَهْرٌ مَا بِهِ كَدْرٌ  
 يَا لَيْتَ لِي عَمْرَ نُوْحٍ فِي إِقَامَتِهَا  
 كِلَاهُمَا كُنْتُ أَفْنِيهِ عَلَى نَشْوَا  
 وَإِنَّمَا أَسْقِي أَتِي أَهِيْمُ بِهَا  
 أَرَى بَعِيْنِي مَا لَا تَسْتَطِيْعُ بِدِي  
 وَأُنْكَدُ النَّاسَ عَيْشًا مَّنْ تَكُونُ لَهُ  
 يَغْضُ طَرْفُ النَّصَابِي حِينَ تَسْبَهُتُهُ  
 قَالُوا: الْكَفَافُ مُقِيمٌ قُلْتُ: ذَاكَ لِمَنْ  
 وَلَا يُسْتَلْبِلُهُ هَبُّ الصَّبَا سَحْرًا  
 وَلَا يَهِيْمُ بِتَفَاحِ الْخُدُودِ وَرَمًا  
 لَا تُجْتَنِّي رَاحَةٌ إِلَّا عَلَى تَعَبٍ  
 وَصَاحِبُ الْعَقْلِ فِي الدُّنْيَا أَخُو كَدْرِ  
 يَا أَمْرِي أَنْ أَحْتِ الْعَيْسَ عَن وَطَنِي  
 نَصَحْتُ لَكِنَّ لِي قَلْبًا يَنَازِعُنِي  
 لِأَلْزَمَنْ وَطَنِي طَوْرًا تَطَاوَعُنِي

فلم يزل بكؤوس الأوس يسفيني  
 ولا يقرب لها أبواب جيسرون  
 من شيتق دونها في القرب محزون  
 من دون جهدي وتأميل يعنيني  
 كم ذا تحاول نسلاً عند عنين  
 من شاء يظفر بالدنيا وبالدين  
 حقت بشطيه ألفا البساتين  
 وأن مالي فيه كثر قارون  
 ت الراح نهبا ووصل الخرد العين<sup>٢</sup>  
 وأن حظي منها حظ مغبون  
 له وقد حازه من قدره دوني  
 نفس الملوك وحالات المساكين  
 قضبان نعمان في كئيبان يبيرين  
 لا يستخف إلى بيت الزراجين  
 ولا يلطفه عرف الرياحين  
 ن الصدور<sup>٣</sup> وترجع التلاحين  
 ولا تنال العلا إلا من الهون  
 وإنما الصفو فيها للمجانين  
 لما رأى الرزق فيه ليس يرصيني  
 فلو ترحلت عنه حله دوني  
 قود الأمانى وطورا فيه تعصيني

١ ق ط : مجلات .  
 ٢ ك : الحور والعين .  
 ٣ دوزي : النهود .

مدللاً بينَ عرفاني وأضربُ عن  
 هذا يقول غريبٌ ساقه طمعٌ  
 إليك عني آمالي فبعُدك يهـ  
 يا لحظَ كلِّ غزالٍ لست أملكه  
 ويا مُدامَةَ دَيْرٍ لا أَلِمُ بهِ  
 لأصبرنَّ على ما كانَ من كَدَرٍ  
 سَير لأرضٍ بها منَ لَيسَ يَدُرني  
 وذلكَ حينَ أريه البرَّ يحفوني  
 لديني وقربُكِ يَطُغيني ويغويني  
 يدنو وما لي حالٌ منه تُدنيني  
 لولاكُما كان ما أعطيتُ يكفيني  
 لمن عطاياه بينَ الكافِ والتونِ

وتسمى هذه القصيدة عند أهل الأندلس « كثر الأدب » وقد أشرنا في  
 الباب الأول إلى كثير مما يتعلق بقرطبة ، أعادها الله تعالى إلى الإسلام ، فأغنى  
 عن إعادته ، وإن كان ذكره هنا أنسب ، لأن ما تقدم إتما هو في ذكرها مع  
 غيرها من بلاد الأندلس ، وهذا الباب لها بالاستقلال .

وأشده أبو العاصي غالب بن أمية الموروري<sup>٢</sup> لما جلس على نهر قرطبة  
 بإزاء الربض ملتفتاً إلى القصر ، بديهة<sup>٤</sup> :

يا قَصْرُ كَم [قَد] حَوَيْتَ مِنْ نَعْمٍ عَادَتْ لَقَى فِي عَوَارِضِ السَّككِ  
 يا قَصْرُ كَم [قَد] حَوَيْتَ مِنْ مَلِكٍ دَارَتْ عَلَيْهِ دَوَائِرُ الْفَلَكِ  
 ابْقَ بِمَا شِئْتَ كُلُّ مَتَّخِذٍ يَعُودُ يَوْمًا بِحَالٍ مُتْرَكٍ

وقال القاضي أبو الفضل عياض عند ارتحاله عن قرطبة<sup>٧</sup> :

- ١ ق ك ط ج : الفصل . ٢ ق ك ط ج : الفصل .
- ٣ غالب بن أمية بن غالب الموروري ( ويترجم له أيضاً تحت أمية بن غالب ) من شعراء القرن الرابع  
 سكن قرطبة . ( انظر ترجمته في التكملة رقم : ١٩٥٥ والجدوة : ٣٠٥ وبغية الملتبس رقم :  
 ١٢٧٥ ) والأبيات الواردة له مذكورة في هذه المصادر .
- ٤ حولت الأبيات حسب رواية النفع إلى الوزن الكامل المرفل ، ولكنها جاءت مع أبيات أخرى في  
 الجدوة والبغية على وزن المنسرح فلذلك عدلنا بها إلى ذلك الوزن .
- ٥ أصول النفع : بعوارض .
- ٦ أصول النفع : ما شئت فابق فكل متخذ يوماً يعود .
- ٧ وردت الأبيات في ترجمة القاضي عياض في القلائد : ٢٢٢-٢٢٦ وانظر أزهار الرياض ٣ : ١٨ .



أقول وقد جدّ ارتحالي وغرّدتُ  
وقد غمضتُ من كثرة الدَّمعِ مُقلتي  
ولم يَبْقَ إلا وَقْفَةٌ يَسْتَحْتِهَا  
رعى الله جيراناً بقرطبة العُلا  
وحياً زماناً بيّنهم قد ألفتُهُ  
أخواننا بالله فيها تذكروا  
غدوتُ بهم من برهم واحتفائهم  
حُداتي وزُمتُ للفراق ركائبي  
وصارت هواء من فوادي ترائبي  
وداعي للأحباب لا للحبائبِ  
وجاد رُباها بالعهاد السواكبِ  
طليقَ المحيا مُستلانَ الجوانبِ  
مودةً جارٍ أو مودةً صاحبِ  
كأني في أهلي وبين أقاربي

\* \* \*

[ عود إلى مسجد قرطبة ]

وأما مسجد قرطبة فشهرته تغني عن كثرة الكلام فيه ، ولكن نذكر من أوصافه ونشر من أحواله ما لا بدّ منه ، فنقول :

قال بعض المؤرخين : ليس في بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناءً وأتقن صنعة ، وكلّما اجتمعت منه أربع سواري كان رأسها واحداً ، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله ، انتهى .

وكان الذي ابتداءً بنيان<sup>١</sup> هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ، ولم يكمل في زمانه ، وكله ابنه هشام ، ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه ، حتى صار المثل مضروباً به ، والذي ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء .

وقال بعض المؤرخين : إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم<sup>٢</sup> بنى القصر بقرطبة ، وبنى المسجد الجامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى بقرطبة الرصافة تشبيهاً برصافة جده هشام بدمشق .

١ ك : بناء .

٢ وعظم : زيادة في ك .

وقال بعض<sup>١</sup> : إنه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار ، واشترى موضعه إذ كان كنيسة بمائة ألف دينار ، فإله تعالى أعلم .

وقال بعض<sup>١</sup> في ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته : إنه لما تمهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد الكور ، ثم ابنتى مدينة الرصافة متزهاً له ، واتخذ بها قصراً حسناً ، وجنائاً واسعة ، نقل إليها غرائب الفراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار ، انتهى .

وكانت أخته أم الأصمغ ترسل إليه من الشام بالغرائب ، مثل الرمان العجيب الذي أرسلته إليه من دمشق الشام كما مرّ ، وسيأتي كلام ابن سعيد بما هو أمّ من هذا .

ولما ذكر ابن بشكّو<sup>٢</sup> زيادة المنصور بن أبي عامر في جامع قرطبة قال<sup>٣</sup> :  
ومن أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامرية علاج النصارى مُصَفِّدِينَ  
في الحديد من أرض قَشْتَالَة وغيرها ، وهم كانوا يتصرفون في البنيان عوضاً  
من رجالة المسلمين ، إذ لا لَشْرِك وعزة للإسلام ، ولما عزم على زيادته هذه  
جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه ، فكان يُؤْتَى بصاحب المنزل  
فيقول له : إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتاعها<sup>٣</sup> لجماعة المسلمين من  
ما لهم ومن فيئتهم لأزبدها في جامعهم وموضع صلاتهم ، فشَطَطَ واطلب ما  
شئت ، فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له ، وأن تشتري له بعد ذلك  
دار عوضاً منها ، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة ، فقالت :  
لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة ، فقال : تُبْتَاع لها دار بنخلة ، ولو ذهب فيها

١ ك : وقال بمض المؤرخين .

٢ قارن بما ورد في مخطوط الرباط : ٣٠ .

٣ ك : أريد أن أبتاعها .

بيت المال ، فاشترت لها دار بنخلة ، وبولغ في الثمن ؛ وحكى ذلك ابن حبان أيضاً .

وقيل : إن إنفاق الحكم في زيادة الجامع كان مائة ألف وواحد وستين ألف دينار ونيقاً ، وكله من الأخماس .

وقال صاحب كتاب « مجموع المفقوق » : وكان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة إلى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسة وعشرين ذراعاً ، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمسة أذرع ، ثم زاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة أذرع ، فكمل الطول ثلاثمائة ذراع وثلاثين ذراعاً ، وزاد محمد بن أبي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعاً ، فم العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعاً ، وكان عدد بلاطاته أحد عشر بلاطاً ، عرض أوسطها ستة عشر ذراعاً ، وعرض كل واحد من اللذين يليانه غرباً واللذين يليانه شرقاً أربعة عشر ذراعاً ، وعرض كل واحد من الستة الباقية أحد عشر ذراعاً ، وزاد ابن أبي عامر فيه ثمانية عشر كل واحد عشرة أذرع ، وكان العمل في زيادة المنصور ستين ونصفاً ، وخدم فيه بنفسه ، وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة ذراع وثمانية وعشرون ذراعاً ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة ذراع وخمسة أذرع ، وعرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع ، فتكسیره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعاً ، وعدد أبوابه تسعة : ثلاثة في صحنه غرباً وشرقاً وجوفاً ، وأربعة في بلاطاته : اثنان شرقيان واثنان غربيان ، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان ، وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عموداً رخاماً كلها ، وباب مقصورة الجامع ذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء ، وثريات المقصورة فضة محضه ، وارتفاع الصومعة اليوم - وهي من بناء عبد الرحمن ابن محمد - ثلاثة وسبعون ذراعاً إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن ،

وفي رأس هذه القبة تفافيح<sup>١</sup> ذهب وفضة ، ودور كل تفاعحة ثلاثة أشبار ونصف ، فاثنتان من التفافيح ذهب لإبريز ، وواحدة فضة ، وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هُنِدت بأبداع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزجاج ، وهي إحدى غرائب الأرض .

وكان بالجامع المذكور<sup>٢</sup> في بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه الذي خَطّه بيده ، وعليه حلية ذهب مكلّلة بالدر والياقوت ، وعليه أغشية الديباج ، وهو على كرسيّ العود الرطب بمسامير الذهب .

### رجع إلى المنارة :

وارتفاعُ المنارة إلى مكان الأذان أربعة وخمسون ذراعاً ، وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمانية عشر ذراعاً ، انتهى بحروفه . وفيه بعض مخالفة لما ذكره ابن الفرضي وبعضهم ، إذ قال في ترجمة المنصور بن أبي عامر ما صورته<sup>٣</sup> : وكان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البرّ والقربة ببيانُ المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ، وذلك أنه لما زاد الناس بقُرطبة وانجلب إليها قبائلُ البربر من العُدوة وإفريقية ، وتناهى حالها في الجلالة ، ضاقت الأرباض وغيرها ، وضاق المسجد الجامع عن حملِ الناس ، فشرع المنصور في الزيادة بشرقيه حيث تمكنّ الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة ، فبدأ ابنُ أبي عامر هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولاً من أول المسجد إلى آخره ، وقصد ابنُ أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في

١ تسمى في مخطوطة الرباط : «رمانات» .

٢ انظر مخطوط الرباط : ٣٣ ؛ والروض المطار : ١٥٥ .

٣ النص في ابن عذاري ٢ : ٤٢٨ .

٤ ق ودوزي : الخير والبر .

الإلتقان والوثاقة ، دون الزخرقة ، ولم يقصّر - مع هذا - عن سائر الزيادات  
جودة ، ما عدا زيادة الحكم . وأوّل ما عمله ابن أبي عامر تطيب نفوس  
أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن ،  
وصنع في صحنه الحبّ العظيم قدره ، الواسع فناؤه ، وهو - أعني ابن أبي  
عامر - هو الذي رتب إحراق الشمع بالجامع زيادة للزيت<sup>١</sup> ، فتطابق بذلك  
النوران ، وكان عدد سواري الجامع الحاملة لسماثه واللاصقة بمبانيه وقبابه  
ومتاراه بين كبيرة وصغيرة ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية ،  
وقيل : أكثر ، وعدد ثريّات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون  
ثرياً ، وعدد الكؤوس سبعة آلاف كأس وأربعمائة كأس وخمسة وعشرون  
كأساً ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤوس ، وزنة مشاكي الرصاص  
للكؤوس المذكورة عشرة أرباع<sup>٢</sup> أو نحوها ، وزنة ما يحتاج إليه من الكتان  
للفتائل في كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار ، وجميع ما يحتاج إليه الجامع  
من الزيت في السنة خمسمائة ربيع أو نحوها ، يُصرف منه في رمضان خاصة نحو  
نصف العدد ، ومما كان يختصّ برمضان المعظم ثلاثة قناطير من الشمع  
وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لإقامة الشمع المذكور ، والكبيرة من  
الشمع التي تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلاً ،  
يحترق بعضها بطول الشهر ، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة ، وكان عدد من  
يخدم الجامع المذكور بقرطبة في دولة ابن أبي عامر ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين  
وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين  
شخصاً<sup>٣</sup> ، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أواقٍ من العنبر الأشهب وثمانين  
أواقٍ من العود الرطب ، انتهى .

١ ابن عذاري : للرسم .

٢ ابن عذاري : عشرة أرباع القنطار .

٣ مخطوطة الرباط : ثلاثمائة رجل ، وهو يوافق ما سيأتي من نقل عن ابن سعيد .

وقال بعض المؤرخين : كان للجامع كل ليلة جمعة<sup>١</sup> رطل عود ، وربع رطل عنبر ، يتبخر به ، انتهى .

وقال ابن سعيد ، نقلاً عن ابن بشكُوال : طول جامع قرطبة الأعظم الذي هو بداخل مدينتها من القبلة إلى الجوف ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً ، الصحنُ المكشوف عنه ثمانون ذراعاً ، وغير ذلك مُقَرَّمَد ، وعرضه من الغرب إلى الشرق مائتان وخمسون ذراعاً ، وعدد أبوابه عند اكتمالها بالشمال التي زادها المنصور بن أبي عامر بعد هذا تسعة عشر بهواً ، وتسمى البلاطات ، وعدد أبوابه الكبار والصغار واحد وعشرون باباً : في الجانب الغربي تسعة أبواب ، منها واحد كبير للنساء يشرع إلى مقاصيرهن ، وفي الجهة الشرقية تسعة أبواب ، منها للدخول الرجال ثمانية أبواب ، وفي الجهة الشمالية ثلاثة أبواب ، منها للدخول الرجال بابان كبيران وباب للدخول النساء إلى مقاصيرهن<sup>٢</sup> ، وليس لهذا الجامع في القبلي سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة في قبلته متصل بالساباط المفضي إلى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة ، وجميع هذه الأبواب مُلبَّسة بالنحاس الأصفر بأعرب صنعة ، وعدد سواربي هذا المسجد الجامع الحاملة لسماته والمصققة<sup>٢</sup> بمبانيه وقبابه ومناره وغير ذلك من أعماله بين كبار وصغار ألف وأربعمائة سارية وتسع سوار ، منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة سارية .

وذكر المقصورة البديعة التي صنعها الحكم المستنصر في هذا الجامع فقال :  
إنه خطر بها على خمسة بلاطات من الزيادة الحكيمية ، وأطلق حفافها على الستة الباقية : ثلاثة من كل جهة ، فصار طولها من الشرق إلى الغرب خمسة وسبعين ذراعاً ، وعرضها من جدار الحشب إلى سور المسجد بالقبلة اثنين

١ ق : كل جمعة .

٢ في ط : والمتصقة ؛ ج : والملاصقة .

وعشرين ذراعاً ، وارتفاعها في السماء إلى حدّ شرفاتها ثمانية أذرع ، وارتفاع كل شرفة ثلاثة أشبار ، وهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبه النقش شارعة إلى الجامع شرقيّ وغربيّ وشماليّ ، ثم قال : وذرعُ المحراب في الطول من القبلة إلى الجوف ثمانية أذرع ونصف ، وعرضه من الشرق إلى الغرب سبعة أذرع ونصف ، وارتفاع قبوه في السماء ثلاثة عشر ذراعاً ونصف ، والمنبر إلى جنبه مؤلف من أكارم الخشب ما بين آبنوس وصندل ونبغ وبقم وشوحط وما أشبه ذلك ، ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم وثلث درهم<sup>١</sup> وقيل غير ذلك ، وعدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه الله .

وذكر أن عدد ثريّات الجامع التي تُسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصّة - سوى ما منها على الأبواب - مائتان وأربع وعشرون ثريّاً ، جميعها من لاطون مختلفة الصنعة ، منها أربع ثريّات كبار معلقة في البلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلقة في القبة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة ، فيها من السُّرُج - فيما زعموا - ألف وأربعة وخمسون<sup>٢</sup> ، تستوقد هذه الثريات الضخام في العشر الأخير من شهر رمضان ، تسقى كل ثريّاً منها سبعة أرباع في الليلة ، وكان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح في هذا المسجد في السنة أيام تمام وقوده في مدّة ابن أبي عامر مكتملة بالزيادة المنسوبة ألف ربيع ، منها في شهر رمضان سبعمائة وخمسون ربيعاً ، قال : وفي بعض التواريخ القديمة كان عدد القوامة بالمسجد الجامع بقرطبة في زمن الخلفاء وفي زمن ابن أبي عامر ثلاثمائة ، انتهى . وفيه مخالفة لبعض ما تقدّم .

وذكر بعضهم الزيت - ولكن قوله أولى بالاتباع ، لنقله عن ابن بشكوال ،

١ وثلاث درهم : سقطت من ك .

٢ في ك : ألف وأربعمائة وأربعة وخمسون .

ولمعرفة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكثر من غيره ، والله سبحانه أعلم -  
 فقال : ألف ربيع وثلاثون ربعاً ، منها في رمضان خمسمائة ربيع ، وفي الثريات  
 التي من الفضة - وهي ثلاث - اثنان وسبعون رطلاً ، لكل واحدة ثمانية عشر  
 في ليلة وقَدها . وقال في المنبر : إنّه مركب من ستة وثلاثين ألف وصل ،  
 قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضّة ، وسمرت بمسامير الذهب والفضّة ،  
 وفي بعضها نفيس الأحجار ، واتصل العمل فيه تسعة ، ثم قال : ودور الثريا  
 العظيمة خمسون شبراً ، وتحتوي على ألف كأس وأربعة وثمانين ، كلّها مؤشاة  
 بالذهب ، إلى غير ذلك من الغرائب .

\* \* \*

#### [ وصف جامع قرطبة لابن صاحب الصلاة ]

وكتب الفقيه الكاتب أبو محمد إبراهيم ابن صاحب الصلاة الونبسي يصف  
 جامع قرطبة بما نصّه<sup>١</sup> : عمر الله سبحانه بشمول السعادة رسمك ، ووفر من  
 جزيل الكرامة قسّمك ، ولا بَرِحَتْ سحائب الإنعام تهمي عليك ثرّة ،  
 وأنامل الأيام تهدي إليك كلّ مَسْرّة ، لئن كان أعزّك الله طريق الوداد بيننا  
 عامراً ، وسبيل الاتحاد<sup>٢</sup> غامراً ، لوجب أن نفص ختمه ، ونرفض كتمه ،  
 لا سيّما فيما يُدرُّ أخلاف الفضائل ، ويهز أعطاف الشمائل ، وإنّي شخصت  
 إلى حضرة قرطبة - حرسها الله تعالى - منشرح الصدر ، لحضور ليلة القدر ،  
 والجامع - قدس الله تعالى بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه - قد كسي  
 ببردة الازدهاء ، وجُلي في معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول في سنان ، أو أشرُّ<sup>٣</sup>  
 في أسنان ، وكأنّما ضُربت على سمائه كِلل ، أو خلُعت على أرجائه حُلل ،  
 وكأن الشمس قد خلّفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهاراً

١ وردت هذه الرسالة في المقتطفات ( الورقة : ٣٥ - ٣٧ ) .

٢ ك : وسبيل المحبة ؛ وفي ط بياض موضع « الاتحاد » .



قد أحدق به ليل ، كما أحدق برَبْوَةِ سَيل ، ليل دامس ، ونهار شامس ، وللدُّبَالِ  
 تَأَلَّقَ كَنَضْنُضَةِ الحَيَاتِ ، أو إشارة السَّبَابَاتِ فِي التَّحِيَّاتِ ، قد أترعت من  
 السليط كؤوسها ، ووُصِلت بِمَحَاجِنِ الحَديدِ رُؤوسها ، ونيطت بسلاسل  
 كالجذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة ، عَصَبت بِهَا تَفَاحَ مِنَ الصُّفْرِ ، كَاللَّفَاحِ  
 الصُّفْرِ : بولغ في صقلها وجلاتها ، حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنها  
 جُلِّيت بِاللَّهَبِ ، وَأَشْرَبت مَاءَ الذَّهَبِ ، إن سَامَتَهَا طَوِلاً رَأَيْتَ مِنْهَا سِبَائِكَ  
 عَسْجِدٍ ، أو قَلَانِدَ زَبْرَجِدٍ ، وإن جِثَّتَهَا عَرْضاً رَأَيْتَ مِنْهَا أَفَلَكَاً وَلَكِنَّهَا  
 غَيْرَ دَائِرَةٍ ، وَنَجْمَوماً وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ بِسَائِرَةٍ ، تَعَلَّقَ تَعَلَّقَ القَرَطِ مِنَ الذُّفْرَى ،  
 وَتَبَسَّطَ شَعَاعَهَا بِسَطِّ الأَدِيمِ حِينَ يُفْرَى ، وَالشَّمْعَ قَدْ رُفِعَتْ عَلَى المَنَارِ رَفَعِ  
 البُودِ ، وَعُرِضَتْ عَلَيْهَا عَرْضَ الجُنُودِ ، لِيَجْتَلِيَ طَلَاقَةُ رَوَائِهَا القَرِيبِ وَالبَعِيدِ ،  
 وَيَسْتَوِي فِي هَدَايَةِ ضِيَائِهَا الشَّقِيِّ وَالسَّعِيدِ ، وَقَدْ قَوِيلَ مِنْهَا مُبَيَّضٌ بِمَحْمَرٍّ ،  
 وَعُورُضٌ مَحْضَرٌّ بِمُصْفَرٍّ ، تَضْحَكُ بِبِكَائِهَا وَتَبْكِي بِضَحْكِهَا ، وَتَهْلِكُ بِحَيَاتِهَا  
 وَتَحْيِي بِهَلِكِهَا ، وَالطَّيْبُ تَفْغَمُ أَفْوَاحَهُ ، وَتَتَنَسَّمُ أَرْوَاحَهُ ، وَقَتَارُ الأَلَنْجُوجِ  
 وَالنَّدَى ، يَسْتَرْجِعُ مِنَ رَوْحِ الحَيَاةِ مَا نَدَى ، وَكَلَّمَا تَصَاعَدَ وَهُوَ مُحَاصِرٌ ، أَطَالَ مِنَ  
 العَمْرِ مَا كَانَ تَقَاصِرٌ ، فِي صَفُوفِ ٢ مَجَامِرٍ ، كَكَعُوبِ مُقَامَرٍ ، وَظُهُورِ القَبَابِ  
 مَوْئِلَةٍ ، وَبَطُونِهَا مَهْلِلَةٍ ، كَأَنَّهَا تَبْجَانُ ، رُصِّعَ فِيهَا يَاقُوتٌ وَمَرْجَانٌ ، قَدْ قُوسَ  
 مَحْرَابِهَا أَحْكَمَ تَقْوِيَسٍ ، وَوُشِمَ بِمِثْلِ رِيَشِ الطَّوَاوِيَسِ ، حَتَّى كَأَنَّه بِالمَجْرَةِ  
 مُقَرَّطَقٌ ، وَبِقُوسِ قَرْحٍ مُمَنْطَقٌ ، وَكَأَنَّ اللَازُورِدَ حَوْلَ وَشُومِهِ ، وَبَيْنَ  
 رَسُومِهِ ، نُتِفَ مِنْ قَوَادِمِ الحَمَامِ ، أَوْ كَسَفَ مِنَ ظَلَّلِ الغَمَامِ ، وَالنَّاسُ أَخْيَافٌ  
 فِي دَوَاعِيهِمْ ، وَأَوْزَاعٌ فِي أَغْرَاضِهِمْ وَمَرَامِيهِمْ ، بَيْنَ رُكْعٍ وَسُجْدٍ ، وَأَبْقَاطِ  
 وَهُجْدٍ ، وَمَزْدَحَمٍ عَلَى الرِّقَابِ يَتَخَطَّأُهَا ، وَمَقْتَحَمٍ عَلَى الظُّهُورِ يَتَمَطَّأُهَا ،

١ ك : أتيتها .

٢ ق : الحياة ما هو مزجوج وأقيمت في صفوف ( وهو مضطرب ناقص ) .

كأنهم بردٌ خلال قَطْرٍ ، أو حروف في عرض<sup>١</sup> سطر ، حتى إذا قرعت  
 أسماعهم روعةً التسليم ، تبادروا بالتكليم ، وتجادبوا بالأثواب ، وتساقوا  
 بالأكواب ، كأنهم حضور طال عليهم غياب ، أو سَفَرٌ أتبع لهم إياب ،  
 وصَفِيكٌ مع إخوان صِدْقٍ ، تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودْقِ ، في مكان  
 كوكُرِ العصفور ، أستغفر الله أو ككِناس اليعفور ، كأن إقليدس قد  
 قسم بيننا مساحته بالموازين ، وارتبطنا فيه ارتباط البيادق بالفرازين ، حتى صار  
 عقدنا لا يُحَلّ ، وحدُّنا لا يُقَلّ ، بحيث نسمع سور التزليل كيف تُتلى ،  
 ونطلع صور التفصيل<sup>٢</sup> كيف تجلى ، والقومة حوالينا يجهدون في دفع الضرر ،  
 ويعمدون إلى قرع العُمُدِ بالدَّرر ، فإذا سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين ،  
 وسرت نحوهم<sup>٣</sup> سُرَى القين ، توهموا أنها إلى أعطافهم واصلة ، وفي أقحافهم  
 حاصلة ، ففروا بين الأساطين ، كما نفرُّ من النجوم الشياطين ، كأنما ضربهم  
 أبو جهنم<sup>٤</sup> بعصاه ، أو حصبهم عمير بن ضابئ<sup>٥</sup> بحصاه ، فأكرم بها مساعٍ  
 تشوق إلى جنة الخلد ، ويهون في السعي إليها إنفاق الطوارف والتلذذ ، تعظيماً  
 لشعائر الله ، وتنبهاً لكل ساهٍ ولاه ، حكمة تشهد لله تعالى بالربوبية ، وطاعة  
 تذلل لها كل نفس أبيّة ، فلم أرَ ، أدام الله سبحانه عزك ، منظرأ منها أبهى ،  
 ولا مخبرأ أشهى ، وإذا لم تتأمله عياناً ، فتخيّله بياناً ، وإن كان حظ منطقي  
 من الكلام ، حظ السفيح<sup>٦</sup> من الأزلام ، لكن ما بيننا من مودة أكدنا وسائلها ،  
 وأذمة تقلدنا حمائلها ، يوجب قبول إتحافى سميناً وغيثاً ، ولبس إلطافى جديداً

١ ق ودوزي : عروض ، وما ثبت هنا في نسخة ك ط ج .

٢ ق ط : التفضيل .

٣ دوزي : بدهم .

٤ فيه إشارة إلى ما قاله الرسول (ص) في أبي جهنم العدوي من أنه لا يرفع عصاه عن أهله .

٥ عمير بن ضابئ البرجمي عن حسب الحجاج حين جلس على منبر الكوفة .

٦ السفيح : قح لا نصيب له في الميسر ، وكذلك المنج .

ورثاً ، لا زلت لزناد النبل مُورياً ، وإلى آمام الفضل مجرباً ، والتحية العبيقة  
الرياً ، المشرقة المحيّا ، عليك ما طلع قمر ، وأينع ثمر ، ورحمة الله تعالى  
وبركاته ، انتهى .

\* \* \*

### [ تمام الحديث في متعلقات الجامع ]

وذكر ابن بشكُوال أن الحكم المستنصر هدّم الميضأة القديمة التي كانت  
ببناء الجامع ، يستقى لها الماء من بئر السانية ، وبنى موضعها أربع ميضآت في كل  
جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي منها ثنتان كبيرى للرجال وصغرى للنساء ،  
أجرى في جميعها الماء في قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة إلى أن صبت ماءها في  
أحواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار ، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى  
سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية ،  
أجراها هنالك إلى ثلاث جواب من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير<sup>١</sup>  
بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير ، وألقاه الرخامون<sup>٢</sup> هنالك ، واحتفروا  
أجوافها بمناقيرهم في المدّة الطويلة حتى استوت في صورها البديعة لأعين  
الناس ، فخفض ذلك من ثقلها ، وأمكن من إهابها إلى أماكن نصبها بأكناف  
المسجد الجامع ، وأمد الله تعالى على ذلك بمعونه ، فتهيأ حمل الواحدة منها  
فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فللك موثقة بالحديد  
المتقف محفوفة بوثاق الحبال قرن لجرّها سبعون دابة من أشد الدواب ، وسهلت  
قدامها الطرق والمسالك ، وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه  
الصفة في مدة اثني عشر يوماً ، فنصبت في الأقباء المعقودة لها ، قال : وابنتي  
المستنصر في غربي الجامع دار الصدقة ، واتخذها معهداً لتفريق صدقاته المتوالية ،

١ في ط : المنسير ؛ ق : النسير ؛ ج : المنتسين .

٢ ك : الرخاميون .

وابتني للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير الغربي ، انتهى .

\* \* \*

### [ عمل أهل قرطبة حجة في الفقه ]

واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجةً بالمغرب ، حتى إنهم يقولون في الأحكام : هذا مما جرى به عمل قرطبة ، وفي هذه المسألة نزاع كثير ، ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه من ذلك ، قال الإمام ابن عرفة<sup>١</sup> رحمه الله تعالى : في اشتراط الإمام على القاضي الحكم بمذهب معين - وإن خالف معتقد المشترط اجتهاداً وتقليداً - ثلاثة أقوال : الصحة للباقي ، ولعمل أهل قرطبة ، ولظاهر شرط سحنون على مذهب مَنْ ولاه الحكم بمذهب أهل المدينة ؛ قال المازري : مع احتمال كون الرجل مجتهداً . الثاني : البطلان ، للطروشبي ، إذ قال في شرط أهل قرطبة : هذا جهل عظيم . الثالث : تصح التولية ويبطل<sup>٢</sup> الشرط ، تخريباً على أحد الأقوال في الشرط الفاسد في البيع للمازري عن بعض الناس ، انتهى مختصراً .

قال ابن غازي : إن ابن عرفة نسب للطروشبي البطلان مطلقاً ، وابن شاس إنمّا نسب له التفصيل ، انتهى .

ولمّا ذكر مولاي الجد الإمام قاضي القضاة بفاس سيدي أبو عبد الله المقرئ التلمساني<sup>٣</sup> في كتابه « القواعد » شرط أهل قرطبة المذكور ، قال بعده ما نصّه :

١ هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي ( ٧١٦ - ٨٠٣ ) تلميذ قاضي الجماعة بتونس محمد ابن عبد السلام ، وأحد الفقهاء المشهورين بها ، وله مختصر فقهه ومؤلفات أخرى في مذهب مالك تشهد بتقدمه وإمامته ( انظر ترجمته في نيل الابتهاج : ٢٨١ والديباج : ٣٣٧ والنصوء اللامع ٩ : ٢٤٠ وغاية النهاية ٢ : ٢٤٣ ) .

٢ ك : ويذهب .

٣ جد المؤلف هذا هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرئ التلمساني الذي تولى قضاء فاس أيام السلطان أبي عنان المريني ، وكان آية في غزارة الحفظ ومادة العلم ( انظر ترجمته في المرقبة العليا : ١٦٩ والتعويف بابن خلدون : ٥٩ والإحاطة ٢ : ١٣٦ ونيل الابتهاج : ١٤٩ وسيرتجم له المقرئ ) .

وعلى هذا الشرط ترتب إيجاب<sup>١</sup> عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل إلى المغرب ،  
فبينما نحن ننازع الناس في عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل  
بها من علماء الأمة كعلي وابن مسعود ومن كان معهما :

ليس التَّكْحَلُ في العينين كالكَحَلِ

سنح لنا بعض الجُمُود ، ومعدن التقليد<sup>٢</sup> :

الله أَخْرَعَ مُدَّتِي فَتَأَخَّرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَائِبًا

يا لله وللمسلمين ، ذهبت قرطبة وأهلها ، ولم يبرح من الناس جهلها ،  
ما ذاك إلا لأن الشيطان يسعى في محو الحق فينسيه ، والباطل لا زال يلقنه  
ويلقيه ، ألا ترى خصال الجاهلية كالنباحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل  
والكهانة والنجوم والخط والتشاؤم وما أشبه ذلك ، وأسماءها كالعتمة ويثرب ،  
وكذا التنابز بالألقاب وغيره مما نهي عنه وحذر منه ، كيف لم تزُل من أهلها ،  
وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً ،  
بل يجعلون العادات القديمة أسساً ، وكذلك محبة الشعر والتلحين<sup>٣</sup> والنسب وما انخرط  
في هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع  
وستين سنة لا نحفظه إلا قولاً ، ولا نعمله إلا كلاماً ، انتهى .

وقال الحافظ ابن غازي - بعد ذكر كلام مولاي الجلد - ما نصّه : وحدثني  
ثقة ممن لقيت أنّه لما قدم مدينة فاس العلامة أبو يحيى الشريف التلمساني وتصدى  
لإقراء التفسير بالبلد الجديد وأمر السلطان أبو سعيد المريني الحفيد أعيان الفقهاء

١ إيجاب : سقطت من ك .

٢ كذا وردت هذه العبارة ، واقترح فليشر أن تقرأ « سنح لنا بغض المجهود ومودة التقليد » وهو  
تخريج بعيد .

٣ ط : والتأخير .

بمحضور مجلسه كان ممّا ألقاه إليهم مترع المقرّي<sup>١</sup> هذا ، فبالغوا في إنكاره ،  
ورأوا أنّه لا معدل عمّا عول عليه زعماء الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق  
كالميتي من اعتماد عمل أهل قرطبة ومنّ في معناهم ، انتهى .

### [ رجع إلى وصف قرطبة ومسجدها ]

وقال بعض المؤرخين - حين ذكر قرطبة - ما ملخصه : هي قاعدة بلاد  
الأندلس ، ودار الخلافة الإسلاميّة ، وهي مدينة عظيمة ، وأهلها أعيان البلاد  
وسرّاة الناس ، في حسن المآكل والمشرب<sup>٢</sup> والملابس والمراكب ، وعلو الهمم ،  
وبها أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وأجلاد الغزاة ، وأنجاد الحروب ،  
وهي في تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور عظيم  
حصين حاجز ، وكل مدينة مستقلّة بنفسها ، وفيها ما يكفي أهلها من الحمامات  
والأسواق والصناعات ، وطول قرطبة ثلاثة أميال في عرض ميل واحد ، وهي في  
سفح جبل مطل عليها ، وفي مدينتها الثالثة وهي الوسطى القنطرة<sup>٣</sup> والجامع<sup>٤</sup> الذي  
ليس في معمور الأرض مثله وطوله مائة ذراع في عرض ثمانين ، وفيه من السواري  
الكبار ألف سارية ، وفيه مائة وثلاث عشرة ثريباً للوقود أكبرها تحمل ألف  
مصباح ، وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه ، وبقبلته صناعات  
تدهش العقول ، وعلى فرجة<sup>٥</sup> المحراب سبع قسيّ قائمة على عمد طول كل  
قوس فوق القامة قد تحير الروم والمسلمون في حسن وضعها ، وفي عِضادتي  
المحراب أربعة أعمدة : اثنان أخضران واثنان لآزورديان ، ليس لها قيمة لنفاستها ،  
وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا<sup>٦</sup> مثله في حسن صنعته ، وخشبه

١ ك : مشرع المقرّي .

٢ والمشارب : زيادة من ك .

٣ ق ودوزي : فرخة ؛ ط : فرضة .

٤ أنفس منه ولا : زيادة من ك .

ساج وآبنوس وبتّم<sup>١</sup> وعود قاقلى ، ويذكر في تاريخ بني أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صنّاع لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي<sup>٢</sup> ، فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً<sup>٣</sup> ، وفي الجامع حاصل<sup>٤</sup> كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده ، وبهذا الجامع مصحف يقال : إنّه عثمانى ، وللجامع عشرون باباً مصفحات بالنحاس الأندلسي محرّمة تخريماً عجيباً بديعاً يعجز البشر ويبههم ، وفي كل باب حلقة في نهاية الصنعة والحكمة ، وبه الصومعة العجيبة التي ارتفاعها مائة ذراع بالمكنى المعروف بالرشاشي<sup>٥</sup> ، وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته ، وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ، والجميع حلقة ربانية ، وأما القنطرة التي بقرطبة فهي بديعة الصنعة ، عجيبة المرأى ، فاقت قناطر الدنيا حسناً<sup>٦</sup> ، وعدد قسيّتها سبع عشرة قوساً ، سعة كل قوس منها خمسون شبراً وبين كل قوسين خمسون شبراً ، وبالجملة فمحاسن قرطبة أعظم من أن يحيط بها وصف ، انتهى ملخصاً . وهو وإن تكرّر بعضه مع ما قدمته<sup>٦</sup> فلا يخلو من فائدة زائدة ، والله الموفق . وما ذكره في طول المسجد وعرضه مخالف لما مرّ ، ويمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك ، كما أشار إليه هو في أمر الصومعة ، وكذا ما ذكره في

١ وبتّم : زيادة من ك .

٢ يقال إن الدنانير المحمدية منسوبة إلى محمد بن الناصر الموحد وفي الأوقية الواحدة ٢٣ درهماً ، وهناك دنانير محمدية تنسب إلى محمدية العراق وأخرى إلى مدينة المحمدية بالمغرب ( انظر الدوحة المشتبكة : ٨٩ والهاشية رقم : ٥ ) .

٣ الحاصل : المخزن أو المستودع .

٤ الرشاشي : ذراع ينسب إلى الرشاش الذي جرى التكسير بذراعه أي اتخذ طوله وحدة لقياس الأطوال والمساحات . ( انظر طبقات الزبيدي : ٢٨٤ وابن القرضي : ١ : ١٩٦ ) .

٥ ق : عدداً .

٦ ج : مع ما تقدم .

عدد السواري ، إلا أن يقال : ما تقدم باعتبار الصغار والكبار ، وهذا العدد الذي ذكره هنا إنما هو للكبار فقط ، كما صرح به ، والله تعالى أعلم .  
وأما الثريات فقد خالف في عددها ما تقدم ، مع أن المتقدم هو قول ثقات مؤرخي الأندلس ، ونحن جكسبنا النقل من مواضعه ، وإن اختلفت طرقه ومضموناته .

وقال في المغرب - عند تعرضه لذكر جامع قرطبة - ما نصّه : اعتمدت فيما أنقله<sup>١</sup> في هذا الفصل على كتاب ابن بشكّوَال ، فقد اعنى بهذا الشأن أتم اعتناء ، وأغنى عن الاستطلاع إلى كلام غيره : عن الرازي أنه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالده بن الوليد عن رأي عمر رضي الله تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيسهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمونها بشت بنجنت ، وابتنوا في ذلك الشطر مسجداً جامعاً ، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى ، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقنع المسلمون بما في أيديهم ، إلى أن كثروا ، وتزيدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب ، فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها ، حتى كان الناس ينالون في الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقفيها ، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفيها من الأرض ، ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس ، واستولى على إمارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، وتمدنت به ، فنظر في أمر الجامع ، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه ، فأحضر أعظم النصارى ،

١ ك : نقله .



وسامهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليُدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجدل بهم أن يباحوا ببناء كنيستهم<sup>١</sup> التي هُدِمَت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلَّوا للمسلمين عن هذا الشرط الذي طولبوا به ، فم الأمر على ذلك ، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة ، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة إلى تفسير<sup>٢</sup> الزيادة فيه ، وإنما الحاجة في وصفه بكماله . وفي بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوي<sup>٣</sup> من قصيدة :

وَأُنْفَقَ فِي دِينِ الْإِلَهِ وَوَجْهِهِ      ثَمَانِينَ أَلْفًا مِنْ لُجَيْنٍ وَعَسْجِدِ  
تَوَزَّعَهَا فِي مَسْجِدِ أَسَى التَّقَى      وَمَنْهَجَهُ دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ  
تَرَى الذَّهَبَ النَّارِيَّ فَوْقَ سَمُوكِهِ      يَلُوحُ كَبْرُقُ الْعَارِضِ الْمُتَوَقِّدِ

قال : وكمل سنة سبعين ومائة ؛ ثم ذكر زيادة ابنه هشام الرضى وما جدده فيه ، وأنه بناه من خمُسِ فيءِ أربونة ، ثم زيادة ابنه عبد الرحمن الأوسط لما تزايد الناس ، قال : وهلك قبل أن يُتم الزخرفة ، فأتمها ولده محمد بن عبد الرحمن<sup>٤</sup> ، ثم رمَّ المنذر بن محمد ما وهى منه ، وذكر ما جدده خليفتهم الناصر ونقضه للصومعة الأولى وبنائه للصومعة العظيمة ، قال : ولما ولي الحكم المستنصر بن الناصر - وقد اتسع نطاق قرطبة ، وكثر أهلها ، وتبين الضيق في جامعها - لم يقدم شيئاً على النظر في الزيادة ، فبلغ الجهد ، وزاد الزيادة العظمى ، قال : وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار في حدِّ يحسر<sup>٥</sup> الوصف عنه ، وذكر حضوره لمشاورة العلماء في تحريف القبلة إلى نحو المشرق ، حسبما فعله

١ ق ط : كنائسهم .

٢ ق : في تفسير .

٣ ق ودوزي : البلوي . والأبيات في مخطوطة الرباط : ٩٥ . مصدره بقوله : قال بعضهم .

٤ لما تزايد ... عبد الرحمن : سقطت من ق - وهو سهو واضح -

٥ ك : يقصر .

والدهُ الناصر في قبلة جامع الزهراء ، لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة إلى نحو الغرب ، فقال له الفقيه أبو إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، إنّه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم ، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت ، متأسين بأول مَنْ نصبها من التابعين كوسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهما ، رحمهم الله تعالى ؛ وإنّما فَصَلَ مَنْ فَضَلَ بالاتباع ، وهلك من هلك بالابتداع ، فأخذ الخليفة برأيه ، وقال : نعمَ ما قلت ، وإنّما مذهبنا الاتباع .

قال ابن بشكّوَال : ونقلت من خط أمير المؤمنين المستنصر أن النفقة في هذه الزيادة وما اتصل بها انتهت إلى مائتي ألف دينار وأحد وستين ألف دينار وخمسمائة دينار وسبعة وثلاثين ديناراً ودرهمين ونصف .

ثم ذكر الصومعة نقلاً عن ابن بشكّوَال فقال : أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الأولى سنة ١٣٤٠ وأقام هذه الصومعة البديعة ، فحضر في أساسها حتى بلغ الماء مدّة من ثلاثة وأربعين يوماً ، ولما كملت ركب الناصر إليها من مدينة الزهراء وصعد في الصّومعة من أحد درجتيها ، ونزل من الثاني ، ثم خرج الناصر وصلى ركعتين في المقصورة ، وانصرف ، قال : وكانت الأولى ذات مطّلع واحد ، فصير لهذه مطّلعين ، فصَلَ بينهما البناء ، فلا يلتقي الراقون فيها إلاّ بأعلاها ، تزيد مراقي كل مطّلع منها على مائةٍ سبعاً .

قال : وخبر هذه الصومعة مشهور في الأندلس<sup>٢</sup> ، وليس في مساجد المسلمين صومعة تعلّها .

قال ابن سعيد : قال ابن بشكّوَال هذا لأنّه لم ير صومعة مراکش ولا صومعة إشبيلية اللتين بناهما المنصور من بني عبد المؤمن ، فهما أعظم وأطول ، لأنّه ذكر أن طول صومعة قرطبة إلى مكان موقف المؤذن أربعة وخمسون ذراعاً

١ ق : ٣٣٠ .

٢ ك ط ج : في الأرض .

ولم أعلى الرمانة الأخيرة بأعلى الزجاج ثلاثة وسبعون ذراعاً ، وعرضها في كل  
 تربيع منها ثمانية عشر ذراعاً ، وذلك اثنان وسبعون ذراعاً ، قال ابن سعيد : وطول  
 صومعة مراکش مائة وعشرة أذرع . وذكر أن صومعة قرطبة بضخام الحجارة  
 المقطعة <sup>١</sup> منجّدة غاية التنجيد ، وفي أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها  
 زمانات ملصقة في السفود البارز في أعلاها من النحاس : الثنتان منها ذهب لإبريز ،  
 والثالثة منها وسطي بينهما من فضة لكسير ، وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة  
 فوقها رمانة ذهب صغيرة في طرف الزجاج البارز بأعلى الجوّ ، وكان تمام هذه  
 الصومعة في ثلاثة عشر شهراً .

وذكر ابن بشكّو <sup>٢</sup> في رواية أن موضع الجامع الأعظم بقُرطُبة كان  
 حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم وغيرها ، فلما قدم سليمان بن  
 داود صلى الله عليهما ودخل قرطبة قال للجن : اَرْدُمُوا هذا الموضع وعدّلوا  
 مكانه ، فسيكون فيه بيت يُعبد الله فيه ، ففعلوا ما أمرهم به ، وبني فيه بعد  
 ذلك الجامع المذكور ، قال : ومن فضائله أن الدارات المائلة في تزاويق سمائه  
 مكتوبة كلّها بالذکر والدعاء إلى غيره بأحكام صنّعة ، انتهى .

وذكر مصحف عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه الذي كان في جامع  
 قرطبة وصار إلى بني عبد المؤمن فقال : هو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن  
 عفّان رضي الله تعالى عنه ، ممّا خطّه بيمينه ، وله عند أهل الأندلس شأن  
 عظيم ، انتهى . وسنذكر فيه زيادة على هذا .

\* \* \*

### [الزهراء]

وأما الزهراء فهي مدينة الملك التي اخترعها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر

١ في ق : القطيمة ، وفي ك : الفطيمة ، وفي ج : المنقطمة .

٢ انظر مخطوط الرباط : ٢٨ والسند فيه « قال صاحب التاريخ - عفا الله عنه - ذكر ابن عتاب  
 عن عبيد الله الزهراوي عن شيوخه . . . إلخ » .

لدين الله ، وقد تقدّم ذكره ، وهي من المدن الجليلية العظيمة القدر ، قال ابن  
 الفرضي وغيره : كان يعمل<sup>١</sup> في جامعها حين شرع فيه من حدّاق الفحلّة  
 كلّ يوم ألف نسمة منها ثلاثمائة بنّاء ومائتا نجّار وخمسمائة من الأجراء وسائر  
 الصنائع ، فاستمّ بنيانه وإتقانه في مدّة من ثمانية وأربعين يوماً ، وجاء في غاية  
 الإتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة ، وطوله من القبلة إلى الجوف - حاشا  
 المقصورة - ثلاثون ذراعاً ، وعرض البهو الأوسط من أبعائه من الشرق إلى  
 الغرب ثلاثة عشر ذراعاً ، وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر  
 ذراعاً ، وطول صحّنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاثة وأربعون ذراعاً ،  
 وعرضه من الشرق إلى الغرب واحد وأربعون ذراعاً ، وجميعه مفروش بالرخام  
 الحمري ، وفي وسطه فتّارة يجري فيها الماء ، فطول هذا المسجد أجمع من  
 القبلة إلى الجوف - سوى المحراب - سبعة وتسعون ذراعاً ، وعرضه من الشرق  
 إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً ، وطول صومعته في الهواء أربعون ذراعاً ،  
 وعرضها عشرة أذرع في مثلها .

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد ، فصنع في نهاية من  
 الحسن ، ووضع في مكانه منه ، وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة ، وكان  
 وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخميس لسبع بقين  
 من شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

قال<sup>٢</sup> : وفي صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغربية الصنعة التي جرى<sup>٣</sup>  
 فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناغورة غربي قرطبة ، في المناهر  
 المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة  
 إلى بركة عظيمة ، عليها أسدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يُشاهد

١ قارن بما في أزهار الرياض ٢ : ٢٦٥ - ٢٦٦ .

٢ المصدر السابق ٢ : ٢٦٦ ، وسقطت كلمة « قال » من ق ط ج ومطبوعة ليدن .

٣ ك : التي أجزاها وجرى .

أبهى منه فيما صَوَّرَ الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب لإبريز ، وعيناه جوهرتان  
لهما وَمِيزٌ شديد ، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجه في تلك البركة  
مِنْ فِيهِ ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبته ، فتسقى من  
مُجَاجِه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجناباته ، ويمدّ  
النهر الأعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب  
فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر ، لبُعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ،  
وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوّب من أعاليها ،  
وكانت مدّة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل إلى أن وصلت - أعني القناة -  
إلى هذه البركة أربعة عشر شهراً ، وكان انطلاق الماء في هذه البركة الانطلاق  
الذي اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة ، وكانت للناصر  
في هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها على عامة أهل مملكته ،  
ووصل المهندسين والقوَّام بالعمل بصِلات حسنة جزيلة<sup>٢</sup> .

وأما مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة إلى  
آخر دولة الناصر وابنه الحكم ، وذلك نحو من أربعين سنة .  
ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أوّل جماعة صلّيت  
فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان ، وكان الإمام القاضي  
أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى ، ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة ،  
وأوّل خطيب<sup>٣</sup> به القاضي المذكور .

ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على  
أنّه لم يُسَنَّ مثله في الإسلام البتّة ، وما دخل إليه قطُّ أحد من سائر البلاد النائية  
والنحل المختلفة من ملك وارسول وافد وتاجر جهيد ، وفي هذه الطبقات

١ ك : ويص أي تلاقؤ - وهو صواب أيضاً -

٢ ك : حسنة جليلة جزيلة .

٣ ك : وأوّل من خطب .

من الناس تكون المعرفة والفتنة ، إلا وكلهم قطع آتة لم يَرَ له شبيهاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنّه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه ، والتحدث عنه ، والأخبار عن هذا تتسع جداً ، والأدلة عليه تكثُر ، ولو لم يكن فيه إلاّ السطح المرْدُ المُشْرِفُ على الروضة المِبَاهِي بمجلس الذهب والقبّة وعجيب ما تضمّنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المُستَشْرِفِ وبراعة الملبس والحلّة ما بين مرمر مَسْنُونٍ وذهب موضون<sup>١</sup> وعمدٍ كأنّما أفرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياضٍ وتماثيلٍ عجيبية الأشخاص لا تهدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها ، فسبحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلّة كيما يُبري الغافلين عنه من عباده مثالا<sup>٢</sup> لما أعدّه لأهل السعادة في دار المقامة التي لا يتسلّط عليها الفناء ، ولا تحتاج إلى الرّم ، لا إله إلاّ هو المنفرد بالكرم .

وذكر المؤرخ أبو مروان ابن حيّان<sup>٢</sup> صاحب الشرطة أن مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ، ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة ، ونيف هو ثنتا عشرة على ثلاثمائة سارية<sup>٣</sup> ، قال : منها ما جُلب من مدينة رومة ، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينيّة ، وأن مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموّه ، والله سبحانه أعلم فإنّها كانت من أهول ما بناه الإنس ، وأجلّه خطراً ، وأعظمه شأنًا ، انتهى .

قلت : فسّر بعضهم ذلك النيف في كلامه بثلاث عشرة ، والله أعلم .

١ ك : مصون .

٢ أزهار الرياض ٢ : ٢٦٨ .

٣ أزهار الرياض : وفسر بعضهم هذا النيف بثلاث عشرة ؛ وفي ك : ونيف على ثلاثمائة هو ست عشرة .

وقال بعض من أرخ الأندلس<sup>١</sup> : كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى ، ودُخِلتْهم من اللحم في كل يوم - حاشا أنواع الطير والحوت - ثلاثة عشر ألف رطل ، وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار ، وخدم الخِدْمَة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة ، انتهى .

وقيل : إن عدد الفتيان<sup>٢</sup> الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون ، وجعل بعض<sup>٣</sup> مكان الخمسين سبعة وثمانين .

وقال آخر : ستة آلاف صقلبي وسبعة وثمانون ، والمرتب من الخبز لحيثان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم ، وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم ، انتهى .

ثم قال الأول : وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل ، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك ، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحياتان ، انتهى .

وقال ابن حبان<sup>٣</sup> : ألفت بخط ابن دحون الفقيه ، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بنيان<sup>٤</sup> الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت<sup>٥</sup> المنجور المعدل ستة آلاف صخرة ، سوى الصخر المصرف في التبليط ، فإنه لم يدخل في هذا العدد ، وكان يخدم في الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل ، وقيل أكثر ، منها أربعمائة زوامل الناصر لدين الله ، ومن دواب الأكرياء<sup>٦</sup> الراتبة للخدمة ألف بغل ، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر ، يجب لها في الشهر

١ أزهار الرياض : وقال بعض المؤرخين .

٢ ك : عدد الصبيان .

٣ أزهار الرياض ٢ : ٢٦٩ .

٤ ك : بعمارة .

٥ المنحوت : سقطت من ط ج ق .

٦ ك : الأكرية .

ثلاثة آلاف مثقال ، وكان يرد الزهراء من الجيار<sup>١</sup> والحصص في كل ثالث من الأيام ألف ومائة حمل ، وكان فيها حمّامان : واحد للقصر ، وثان للعامّة .

وذكر بعض أهل الخدمّة في الزهراء أنّه قدر النفقة فيها في كل عام بثلاثمائة ألف دينار مدة خمسة وعشرين عاماً التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها ، لأنّه توفي سنة خمسين ، فحصل جميع الإنفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال .

قال<sup>٢</sup> : وجلب إليها الرخام من قرطاجنة وإفريقية وتونس ، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين<sup>٣</sup> وحسن وعلي بن جعفر<sup>٤</sup> الإسكندراني ، وكان الناصر يَصِلُهُم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير ، انتهى .

وقال بعض ثقات المؤرخين : إنّه كان يَصِلُهُم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بشمانية دنانير سجلماسية<sup>٥</sup> ، قيل<sup>٦</sup> : وكان عدد السواري المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية ، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية ، وسائرهما من مقاطع الأندلس طرّكونة وغيرها ، فالرخام المجزّع من ريّة ، والأبيض من غيرها ، والوردي والأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقُس ، وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء ، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتمثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام ، وقيل : من القسطنطينية ، مع ربيع الأسقف

١ ك ج : الجير .

٢ أزهار الرياض ٢ : ٢٧٠ .

٣ ط : البيان .

٤ أزهار الرياض : وحسن ومحمد ابنا جعفر الإسكندراني . وفي ك : وحسن بن محمد وعلي بن جعفر .

٥ سجلماسية : زيادة من ج وأزهار الرياض .

٦ في ق : قال ؛ وسقطت من ج ، وموضهما بياض في ط .



أيضاً ، وقالوا : إنّه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله ، وحُمل من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر ، ونصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي ممّا عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحِدأة ونسراً ، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهاها ، وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم ، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره ، وكان يخيز في أيامه في كل يوم برسْم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة ، وقيل : أكثر ، إلى غير ذلك ممّا يطول تتبعه .

قال ٢ : وكان الناصر كما قدمنا قسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكُور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وأمّا أخماس الغنائم العظيمة ٣ فلا يحصيها ديوان .

وقد سبق هذا كله ، وإنّما كرّرت له لقول بعضهم إثر حكايته له ، ما صورته : وقيل : إن مبلغ تحصيل النفقة في بناء الزهراء مائة مدي من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة ، وقيل : إن مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مدياً وسبعة أفضرة من الدراهم المذكورة . واتصل ببيان الزهراء أيام الناصر خمساً وعشرين سنة شطر خلافته ، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلّها ، وكانت خمسة عشر عاماً وأشهرأ ، فسبحان الباقي بعد فناء الخلق ، لا إله إلاّ هو ، انتهى .

\* \* \*

١ هذه ثلاثة عشر تمثالا وقد ذكر أنها اثنا عشر ، وفي أزهار الرياض عد منها أحد عشر ثم قال : والثاني عشر لم يحضرن في اسمه الآن ؛ وذلك أنه لم يذكر الهدأة والنسر .

٢ قال : سقطت من ك ج ط .

٣ في ق أخماس العظيمة ؛ ط : أخماس الغنائم ؛ ك : أخماس الغنيمة .

[ بين الناصر ومنذر بن سعيد في شأن المباني ]

وقال ابن أصبغ الهمداني<sup>١</sup> والفتح في المطمح<sup>٢</sup> : كان الناصر كليلاً بعمارة الأرض ، وإقامة معالمها ، وانبساط أمرها<sup>٣</sup> ، واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتحليل الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة ، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابنتى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره ، الذائع خبره ، المنتشر في الأرض أثره ، واستفرغ وسعه<sup>٤</sup> في تنميقها ، وإتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذته ثلاث جمع متواليات ، فأراد القاضي منذر أن يعض منه بما يتناوله من الموعدة بفصل الخطاب والحكمة والتذكر بالإنابة والرجوع ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى : ﴿ أَتَيْبُنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ - إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : فَلَا تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ (الشراء : ١٢٨) ثم وصله بقوله : فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، وهي دار القرار ، ومكان الجزاء ، ومضى في ذم تشييد البنيان ، والاستغراق في زخرفته ، والإسراف في الإنفاق عليه ، بكلام جزل ، وقول فصل ، قال الحاكمي : فجرى فيه طلقاً ، وانتزع فيه قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ أَهْمَسَ بُنْيَانَهُ - إِنْ آخِرَ آيَةِ ﴾ (التوبة : ١٠٩) وأتى بما يُشاكل المعنى من التخويف بالموت ، والتحذير من فجأته ، والدعاء إلى الزهد في هذه الدار الفانية ، والحض على اعتزالها ، والرفض لها ، والندب إلى الإعراض عنها ، والإقصار عن طلب اللذات ، ونهي النفس عن اتباع هواها ، فأسهب في ذلك كله ، وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ، حتى أذكر مَنْ حضره من الناس

١ في ك : ابن البديع الهمداني ؛ وفي ق : ابن حيان الهمداني . وسيذكره في الكتاب الخامس باسم « ابن أصبغ الهمداني » وكذلك ورد في ج وأزهار الرياض ٢ : ٢٧٧ والمرقبة العليا : ٦٩ .  
٢ انظر المطمح : ٤٠ والمرقبة العليا : ٦٩ وأزهار الرياض ٢ : ٢٧٨ - ٢٧٩ .  
٣ دوزي : وانبساط مياها ؛ وفي المطمح : وتكثير مياها .  
٤ ك : جهده .

وَحَشَعُوا وَرَقُوا وَاعْتَرَفُوا<sup>١</sup> وَبَكَوا وَضَجُوا وَدَعُوا وَأَعْلَنُوا التَّضَرُّعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي التَّوْبَةِ وَالِابْتِهَالِ فِي الْمَغْفِرَةِ ، وَأَخَذَ خَلِيفَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِأَوْفَرِ حِظِّ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِهِ ، فَبَكَى وَنَدِمَ عَلَى مَا سَلَفَ لَهُ مِنْ فِرْطِهِ ، وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ وَجِدَ عَلَى مَنْذَرٍ لَغْلَظٍ مَا قَرَّعَهُ بِهِ<sup>٢</sup> ، فَشَكَا ذَلِكَ لَوْلَدِهِ الْحَكَمَ بَعْدَ انْصِرَافِ مَنْذَرٍ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ تَعَمَّدَنِي مُنْذِرٌ بِخُطْبَتِهِ ، وَمَا عَنَى بِهَا غَيْرِي ، فَأَسْرَفَ عَلَيَّ<sup>٣</sup> ، وَأَفْرَطَ فِي تَقْرِيعِي<sup>٤</sup> ، وَلَمْ يَحْسِنِ السِّيَاسَةَ فِي وَعْظِي ، فَزَعَزَعَ قَلْبِي ، وَكَادَ بَعْصَاهُ يَقْرَعُنِي ، وَاسْتِشْطَاطُ غِيْظًا عَلَيْهِ فَأَقْسَمُ أَنْ لَا يَصِلِي خَلْفَهُ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ خَاصَّةً ، فَجَعَلَ يَلْتَزِمُ صَلَاتَهَا وَرَاءَ أَحْمَدَ بْنِ مَطْرُوفٍ صَاحِبِ الصَّلَاةِ بِقَرْطَبَةَ ، وَيُجَانِبُ الصَّلَاةَ بِالزُّهْرَاءِ ، وَقَالَ لَهُ الْحَكَمُ : فَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنْ عَزَلٍ مَنْذَرٍ عَنِ الصَّلَاةِ بِكَ وَالِاسْتِبْدَالَ بِغَيْرِهِ مِنْهُ إِذْ كَرِهْتَهُ ؟ فَزَجَرَهُ وَانْتَهَرَهُ ، وَقَالَ لَهُ : أَمِثَلُ مَنْذَرٍ بِنِ سَعِيدٍ فِي فَضْلِهِ وَخَيْرِهِ وَعِلْمِهِ - لَا أُمَّ لَكَ - يُعْزَلُ لِإِرْضَاءِ نَفْسِ نَاكِبَةٍ عَنِ الرَّشْدِ ، سَالِكَةِ غَيْرِ الْقَصْدِ ؟ هَذَا مَا لَا يَكُونُ ، وَإِنِّي لِأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا أَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ شَفِيعًا مِثْلَ مَنْذَرٍ فِي وَرَعِهِ وَصِدْقِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَحْرَجَنِي ، فَأَقْسَمْتُ ، وَلَوْ دَدْتُ أَنِّي أَجِدُ سَبِيلًا إِلَى كَفَّارَةِ يَمِينِي بِمَلِكِي ، بَلْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ حَيَاتَهُ وَحَيَاتِنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَمَا أَظُنُّنَا نَعْتَاضُ مِنْهُ أَبَدًا<sup>٥</sup> . وَقِيلَ : إِنْ الْحَكَمُ اعْتَذَرَ عَمَّا قَالَ مَنْذَرٌ ، وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ ، وَمَا أَرَادَ إِلَّا خَيْرًا ، وَلَوْ رَأَى مَا أَنْفَقْتَ وَحَسَنَ تِلْكَ الْبِنْيَةَ لَعَذَرَكَ ، فَأَمَرَ حَيْثُذَ النَّاصِرَ بِالْقُصُورِ فُقِّرْشَتْ ، وَفُقِّرْشَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ بِأَصْنَافِ فُرْشِ الدِّيْبَاجِ ، وَأَمَرَ بِالْأَطْعَمَةِ ، وَقَدْ أَحْضَرَ الْعُلَمَاءَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ<sup>٥</sup> وَغَصَّ بِهِمُ الْمَجْلِسَ ، فَدَخَلَ مَنْذَرٌ فِي آخِرِهِمْ ،

١ ج : واعتبروا .

٢ ك ط ج : تفرعه به .

٣ زاد في ك : وتفزيمي .

٤ هنا انقطع النقل عن المطمح .

٥ وغيرهم من الأمراء : سقطت من ك ج ، وفي ط بياض .

فأوماً إليه الناصر أن يقعد بقربه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنما يقعد الرجل  
 حيث انتهى به المجلس ، ولا يتخطى الرقاب ، فجلس في آخر الناس وعليه  
 ثياب رثة ، ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلاماً من كلام المنذر يأتي قريباً .  
 وقطع الناس آخر مدة الناصر ، فأمر القاضي منذر المذكور بالبروز إلى الاستسقاء  
 بالناس ، فتأهب لذلك ، وصام بين يديه أياماً ثلاثة تنفلاً وإجابة ورهبة ، واجتمع  
 له الناس في مصلى الربض بقرطبة بارزين إلى الله تعالى في جمع عظيم ، وصعد  
 الخليفة الناصر في أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشarf الناس ، ويشاركهم  
 في الخروج إلى الله تعالى والصراعة له ، فأبطأ القاضي حتى اجتمع الناس وغصت  
 بهم ساحة المصلى ، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً مخبئاً متخشعاً ، وقام  
 ليخطب ، فلما رأى بيداراً الناس إلى ارتقائه ، واستكانتهم من خيفة الله ،  
 وإخباتهم له ، وابتهاهم إليه - رقت نفسه ، وغلبته عيناه ، فاستعبر وبكى  
 حيناً ، ثم افتتح خطبته بأن قال : يا أيها الناس ، سلام عليكم ، ثم سكت  
 ووقف شبه الحصر ، ولم يك من عاداته ، فنظر الناس بعضهم إلى بعض لا يدرون  
 ما عراه ولا ما أراد بقوله ، ثم اندفع تالياً قوله تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى  
 نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، إِلَى قَوْلِهِ : رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام : ٥٤) ثم قال : استغفروا  
 ربكم إنه كان غفاراً ، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، وتزلفوا بالأعمال  
 الصالحة لديه ، قال الحاكبي : فضج الناس بالبكاء ، وجأروا بالدعاء ، ومضى  
 على تمام خطبته ، ففرغ النفوس بوعظه ، وانبعث الإخلاص بتذكيره ، فلم  
 ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر ، روى الثرى ، وطرد المحل ،  
 وسكن الأزل ، والله لطيف بعباده . وكان لمنذر في خطب الاستسقاء افتتاح  
 عجيب ، ومنه أن قال يوماً - وقد سرح طرفه في ملائ الناس عندما شخصوا

١ عاد النقل عن المطح ، وانظر كذلك المرقبة العليا وأزهار الرياض .

٢ ج : تبادر .

إليه بأبصارهم ، فهتف بهم كالمنادي - : يا أيها الناس ، وكررها عليهم مشيراً  
 بيده في نواحيهم ﴿ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ . . . إِنْ بَعَزَيْزٌ ﴾ ( فاطر : ١٥ )  
 فاشتدَّ وجَدُّ الناس ، وانطلقت أعينهم بالبكاء ، ومضى في خطبته .  
 وقيل ١ : إن الخليفة الناصر طلبه مرّة ٢ للاستسقاء ، واشتدَّ عزمه ٣ عليه ،  
 فتسابق الناس للمصلّي ، فقال للرسول - وكان من خواص الناس - : ليت  
 شعري ، ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا ؟ فقال له : ما رأينا قطُّ أخشع منه في  
 يومنا هذا ، إنّه متبذحائر منفرد بنفسه ، لابس أحسّ ٤ الثياب ، مفترش التراب ،  
 وقد رمَدَ به على رأسه وعلى لحيته ، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول : هذه  
 ناصيتي بيدك ، أتراك تعذب بي الرعيّة وأنت أحكم الحاكمين لن يفوتك  
 شيء مني ، قال الحاكي : فتهلّل وجه القاضي منذر عندما سمع قوله ، وقال :  
 يا غلام احمل المطر معك فقد أذن الله تعالى بالسقيّيا ، إذا خشع جبار الأرض  
 فقد رحم جبار السماء ، وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيّيا ٥ .  
 وكان منذر شديد الصلابة ٦ في أحكامه ، والمهابة في أفضيته ، وقوة الحكومة ٧  
 والقيام بالحق في جميع ما يجري على يده ، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم  
 فمن دونه .

وقال ابن الحسن النّباهي ، وأصله في المطمح وغيره ٨ : ومن أخبار منذر  
 المحفوظة له مع الخليفة الناصر في إنكاره عليه الإسراف في البناء ، أن الناصر كان

١ ق : ومنه . وفي ط بياض ؛ ج : وذكر أن .

٢ ك : خرج مرة ؛ ج : حركة مرة .

٣ ك : وأسرع عزمه ؛ ج : ووطن عزمه .

٤ ج : أخشن .

٥ إذا . . . السقيّيا : سقط من ج .

٦ المطمح : من ذوي الصلابة .

٧ ق ط ودوزي : الخلوة .

٨ الرقبة العليا : ٧١ والروض المطار : ١٤٠ - ١٤١

اتخذ لسطح القبية المصغرة الاسم للخصوصية التي كانت ماثلة على الصرح المراد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد [مغشاة] <sup>١</sup> ذهباً وفضة أنفق عليها مالا جسيماً ، وقمرمد سقفاً به ، وجعل سقفاً صفراء فاقعة ، إلى بيضاء ناصعة ، تستلب الأبصار بأشعة نورها ، وجلس فيها إثر تمامها يوماً لأهل مملكته ، فقال لقربته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة : هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ، وإنك لأوحد في شأنك كله ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ، ولا انتهى إلينا خبره ، فأبهجه قولهم وسره ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد وهو ناكس الرأس <sup>٢</sup> ، فلما أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه ، فأقبل دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما أتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين ، حتى يتزلزل منازل الكافرين ، قال : فانفعل عبد الرحمن لقوله ، وقال له : انظر ما تقول ، وكيف أنزلني منزلتهم ؟ قال : نعم ، أليس الله تعالى يقول ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً - الآية ﴾ (الزخرف : ٢٢) فوجم الخليفة ، وأطرق مسلياً ودموعه تتساقط خشوعاً لله تعالى ، قال الحاكي <sup>٣</sup> : ثم أقبل على منذر وقال له : جازاك الله يا قاضي عتاً وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجل جزائه ، وكثر في الناس أمثالك ، فالذي قلت هو الحق ، وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بتقويض سقف القبية ، وأعاد قمرمداً تراباً على صفة غيرها ، انتهى ما حكاه ابن الحسن النباهي .

١ زيادة من المرقبة العليا . وفي ط ج ق : قراميد ذهب . . . الخ .  
٢ المرقبة العليا : واحماً ناكس الرأس . وفي ك ط : واحماً - وذلك تصحيفه -  
٣ قال الحاكي : سقطت من ك .

ولنذكر هذه الحكاية وغيرها ، وإن خالف السياق ما سبق ، وهذا منقول من كلام الحِجَارِي فِي « المسهب في أخبار المغرب » فإنه آتمُّ فائدة ، إذ قال رحمه الله : دخل منذر بن سعيد يوماً على الناصر باني الزهراء ، وهو مكب على الاشتغال بالبنيان ، فوعظه ، فأنشده عبد الرحمن الناصر ١ :

هِمَمُ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا      مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِالْسُنِّ الْبِنْيَانِ  
أَوْ مَا تَرَى الْهَرَمَيْنِ قَدْ بَقِيََا وَكَمْ      مَلِكٍ مَعَاهُ جَوَادِثُ الْأَزْمَانِ  
إِنَّ الْبِنْيَانَ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُهُ      أَضْحَى يَدَلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ

قال : فما أدري أهذا شعره أم تمثل به ؟ فإن كان شعره فقد بلغ فيه إلى غاية الإحسان ، وإن كان تمثل به فقد استحققه بالتمثل به في هذا المكان ، وكان منذر يكثر تعنيته<sup>٢</sup> على البنيان ، ودخل عليه مرة وهو في قبة قد جعل قرمدها من ذهب وفضة ، واحتفل فيها احتفالاً ظن أن أحداً من الملوك لم يصل إليه ، فقام خطيباً والمجلس قد غصَّ بأرباب الدولة ، فتلا قوله تعالى ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ - الآية ﴿ وأتبعها بما يليق بذلك ، فوجم الملك ، وأظهر الكآبة ، ولم يسعه إلا الاحتمال لمندرج بن سعيد لعظم قدره في علمه ودينه .

وحضر معه يوماً في الزهراء ، فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس فأنشد الناصر قصيدة منها<sup>٣</sup> :

سِيْهَدُ مَا أَبْقَيْتَ أَنْتَ لَمْ تَكُنْ      مُضِيْعًا وَقَدْ مَكَّنْتَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا  
فَبِالْحَامِغِ الْمَعْمُورِ لِلْعِلْمِ وَالتَّقَى      وَبِالزَّهْرَةِ الزَّهْرَاءِ لِلْمُلْكِ وَالْعِلْيَا

١ انظر المغرب ١ : ١٧٤ .

٢ ك : تعنيته .

٣ المغرب ١ : ١٧٤ .

فاهترّ الناصر ، وابتهج ، وأطرق منذر بن سعيد ساعة ، ثم قام منشداً :

يا باني الزهراء مُستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل  
لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تدبيل

فقال الناصر : إذا هبّ عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع  
يا أبا الحكم لا تدبيل إن شاء الله تعالى ، فقال منذر : اللهم اشهد أنّي قد بثت  
ما عندي ولم آلُ نصْحاً ، انتهى .

ولقد صدق القاضي منذر رحمه الله تعالى فيما قال ، فإنّها ذبلت بعد ذلك في  
الفتنة ، وقَلِب ما كان فيها من مِئْحة مِئْحة ، وذلك عندما وليّ الحجابة عبد  
الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الملقب بشنجول<sup>١</sup> ، وتصرف في الدولة مثل  
ما تصرف أخوه المظفر وأبوهما المنصور ، فأساء التدبير ، ولم يميز بين القبيل  
والدبير ، ففسد إلى المؤيد هشام بن الحكم من خَوْفه منه حتى ولاه عهده كما  
بيّننا نص العهد فيما سبق ، فأطبق الخاصة والعامة على بغضه ، وإضمار السوء  
له ، وذلك سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، فعند ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن  
عبد الجبار بن الناصر سنة تسع وتسعين وتلقب بالمهدي وخلع المؤيد وحبسه ،  
وأسلمت الجيوش شنجول فأخذ وأسر وقتل .

قال ابن الرقيق : ومن أعجب ما روي أنّه من نصف نهار يوم الثلاثاء  
لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فُتحت قرطبة ،  
وهُدّمت الزهراء ، وخلع خليفة وهو المؤيد ، وولي خليفة وهو المهدي ، وزالت  
دولة بني عامر العظيمة ، وقتل وزيرهم محمد بن عَسْقَلاجة<sup>٢</sup> ، وأقيمت جيوش  
من العامة ، ونُكّب خلق من الوزراء وولي الوزارة آخرون ، وكان ذلك كلّهُ  
على يد عشرة رجال فحّامين وجزارين وزبالين ، وهم جند المهدي هذا ، انتهى .

١ شنجول أي شانجة الصغير ؛ وكان شانجة (Sancho) اسم خاله .

٢ ك : علاجه .



وقد تقدم بعض الكلام على المهدي هذا ، وهو الذي قيل فيه لما قام على  
الدولة<sup>١</sup> :

قد قام مهديُّنا ولكن بعلّة<sup>٢</sup> الفِسْقِ والمُجُونِ  
وشاركَ الناسَ في حريمِ لولاه ما زال بالمصُونِ  
مَنْ كان من قبلِ ذا أجماً فاليومَ قد صار ذا قُرُونِ

ومن شعر المهدي هذا وقد حيّاه في مجلس شرايه غلام<sup>٣</sup> بقضيب آس :

أهديتَ شبهَ قوامك الميَّاسِ غُصْنًا رَطِيبًا ناعماً من آسِ  
وكأنّما يحكّيكَ في حرّ كانه وكأنّما تحكيه في الأنفاسِ

وقد ذكرنا فيما سبق في الفصل الثالث خبر المهدي هذا وقتله<sup>٣</sup> . ولقد  
كان قيامه مشتملاً على الدين والدنيا ، فإنه فاتحُ أبواب الفتنة بالأندلس وماحي  
معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتثر السلك ، وكثر الرؤساء ، وتطاول العدو  
إليها ، وأخذها شيئاً فشيئاً حتى محّا اسم الإسلام منها ، أعادها الله تعالى .

[ حديث ابن خلدون عن الزهراء ]

وقد ألمّ الولي ابن خلدون في تاريخه بذكر الزهراء في جملة مباني الناصر ،  
فقال ما نصّه<sup>٤</sup> : ولما استفتح ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد القصور والمباني ،  
وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد احتفلوا<sup>٥</sup>  
في ذلك وبنوا قصورهم على أكمل الإتقان والضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر

١ انظر ما سبق ص : ٤٢٦ .

٢ ق ج : بألة .

٣ يريد الباب الثالث ؛ انظر ما سبق ص : ٤٢٨ .

٤ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٤ .

٥ ابن خلدون : قد اختلفوا ، وكذلك في ق .

والبهو والكامل والمنيف ، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسمّاه « دار الروضة » ، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ في بناء المنتزهات ، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور ، وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعاد مسافة ، ثم اختط مدينة الزهراء ، واتخذها لنزله ، وكرسيّاً للملكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عفى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلمة بالشباك ، واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلي للزينة وغير ذلك من المهن ، وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس ، انتهى .

\* \* \*

### [ الزاهرة ]

وأما الزاهرة فهي من مباني المنصور محمد بن أبي عامر . قال ابن خلدون أثناء كلامه على المنصور ما صورته<sup>١</sup> : وابنتي لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ، ونقل إليها جزءاً من الأموال والأسلحة ، انتهى . وقال غيره ، وأظنه صاحب المطمح<sup>٢</sup> : وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة أمر المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة ، وذلك عندما استفحل<sup>٣</sup> أمره ، واتقد جمره ، وظهر استبداده ، وكثر حسّاده وأنداده<sup>٤</sup> ، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان ، وخشي أن يقع في أشطان ، فتوثق لنفسه ، وكشف

١ ابن خلدون ٤ : ١٤٨ .

٢ لم يرد هذا النص في المطمح ، وإنما هو في البيان المغرب لابن عذاري ٢ : ٤١٠ - ٤١٥ ( ٢٧٧ ط . ليدن ) .

٣ ك : تكامل واستفحل .

٤ ك : وأضداده وأنداده .

له ما ستر عنه في أمسه ، من الاعتزاز عليه ، ورفع الاستناد إليه ، وسما إلى ما سمّت إليه الملوك من اختراع قصر يتزل فيه ، ويحله بأهله وذويه ، ويضم إليه رياسته ، ويتم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتياه وغلمانه ، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة ، الموصوفة بالقصور الباهرة ، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، ونسّق فيها كل اقتدار معجز ونظم ، وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرخة ، وحشد الصناع والفعلّة ، وجلب إليها الآلات الحليّة ، وسرّبلكها بهاءً يردُّ الأعين ككيلة ، وتوسع في اختطاطها ، وتولّع بانتشارها في البسيطة وانبساطها ، وبالع في رفع أسوارها ، وثابر على تسوية أنجاده وأغوارها ، فاستعت هذه المدينة في المدة القريبة ، وصار بناؤها من الأنباء الغربية ، وبني معظمها في عامين .

وفي سنة سبعين وثلاثمائة انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته ، فقبواها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل في داخلها الأهراء ، وأطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور ، وجليات القصور ، واتخلوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازه المشيدة ، وقامت بها الأسواق ، وكثرت فيها الأرفاق ، وتنافس الناس بالتزول بأكتافها ، والحلول بأطرافها ، للدينون من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو في البناء حوله ، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكثرت بمحوزتها العمارة ، واستقرت في محبوبتها الإمارة ، وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافي ، وصير ذلك هو الرسم العافي ، ورتب فيها جلوس وزرائه ، ورؤوس أمرائه ، وندب إليها كل ذي خطة بخطته ، ونصب ببابها كرسيّ شرطته ، وأجلس عليها والياً على رسم كرسي الخليفة ، وفي صفة تلك المرتبة المنيفة ، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعُدوة

١ ك : من الأبنية .

بأن تُحْمَل إلى مدينته تلك أموالُ الجبايات ، ويقصدها أصحاب الولايات ،  
ويتنابها طلابُ الحوائج ، وحتدّر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج ،  
فاقتضيت إليها اللبانات والأوطار ، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار ، وتم  
لمحمد بن أبي عامر ما أراد ، وانتظم بلبنة أمانيه المراد ، وعطل قصر الخليفة  
من جميعه ، وصيّره بمعزل من سامعه ومُطيعه ، وسدّ باب قصره عليه ،  
وجدّ في خبر ألاّ يصل إليه ، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ،  
وييسط فيه النهي والأمر ، ويُشرف منه على كل داخل ، ويمنع ما يخرج من  
الدواخل ، ورتب عليه الحُرّاس والبوابين ، والسّمّار والمتابين ، يلازمون  
حراسة مَنْ فيه ليلاً ونهاراً ، ويراقبون حركاتهم سرّاً وجهاراً ، وقد حَجَرَ  
على الخليفة كل تدبير ، ومنعه من تملك قبيل أو دبير ، وأقام الخليفة هشام  
مهجور الفناء ، معجوز الغناء ، خفيّ الذكر ، عليل الفكر ، مسدود الباب ،  
محجوب الشخص عن الأحياب ، لا يراه خاص ولا عام ، ولا يُخاف منه  
بأس ولا يرجى منه إنعام ، ولا يُعهد فيه إلا الاسم السلطاني في السّكة والدعوة ،  
وقد نسخة ولبس أبهته ، وطمس بهجته ، وأغنى الناس عنه ، وأزال أطماعهم  
منه ، وصيرهم لا يعرفونه ، وأمرهم أنهم لا يذكرونه ، واشتدّ ملك محمد بن  
أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسّع مع الأيام في تشييد<sup>٣</sup> بنيتها حتى كملت  
أحسن كمال ، وجاءته في نهاية الجمال ، نقاوة بناء ، وسعة فناء ، واعتدال  
هواء رقّ أديمه ، وصقالة جوّ اعتل<sup>٤</sup> نسيمه ، ونضرة بستان ، وبهجة للنفوس  
فيها افتنان ، وفيها يقول صاعد اللغوي :

يا أيّها الملكُ المنصُورُ من يمنِ والمُبْتَنِي نَسباً غيرَ الذي انتسبا

١ ك : دار .

٢ أنهم : زيادة من ق ط .

٣ ق : تجديد .

٤ ق : اعتدل .

بغزوة<sup>١</sup> في قلوب الشرك رائعة  
 أما ترى العين تجري فوق مرميها  
 أجريتها فطما الزاهي بجريتها  
 تخال فيه جنود الماء رافلة<sup>٢</sup>  
 تحفها من فنون الأيك زاهرة  
 بديعة الملك ما ينفك ناظرها  
 لا يحسن الدهر أن ينشي لها مثلاً<sup>٣</sup>  
 بين المنيا تناغي السمير والقضبا  
 هوى فتجري على أحفافها الطربا<sup>٤</sup>  
 كما طموت فسدت العجم والعربا  
 مستلثمات تريك الدرع واليكبا  
 قد أورقت فضة إذ أورقت<sup>٥</sup> ذها  
 يتلو على السمع منها آية عجباً  
 ولو تعنت فيها نفسه طلباً

ودخل عليه ابن أبي الحباب في بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرة ،  
 والروض قد فتحت أنواره ، وتوشحت أنجاده وأغواره ، وتصرف فيها الدهر  
 متواضعاً ، ووقف بها السعد خاضعاً ، فقال :

لا يوم كالיום في أيامك الأول  
 بالعامرية ذات الماء والظلكل  
 هواؤها في جميع الدهر معتدل  
 طيباً وإن حل فصل غير معتدل  
 ما إن يبالي الذي يحتل ساحتها  
 بالسعد أن لا تحل الشمس بالحتمل

وما زالت هذه المدينة راقية ، والسعود بلبتها متناسقة ، ترأوحها  
 الفتوح وتغاديا ، وتجلب إليها منكسة أعاديا ، لا تزحف عنها راية إلا

١ ط : بغرة .

٢ البيان : على احسانها الطربا ؛ وفي ق : الرطبا ؛ ج : أخفافها .

٣ البيان : أثمرت .

٤ البيان : عمرو بن أبي الحباب ؛ وهو خطأ ؛ وأظن أن ابن أبي الحباب هو أحمد بن عبد العزيز بن  
 أبي الحباب النحوي ( - ٤٠٠ ) أحد تلامذة القاضي ( الصلة : ٢٥ ) وقد ترجم له الحميدي في  
 موضعين مرة باسمه مرة بكنيته « أبو المطرف » ( ١١١ ، ٣٧٧ ) وكناه في الأولى بأبي عمر  
 ولعل هذا موضع اللبس والاضطراب بتسميته « عمرو » في البيان ؛ وفي الترجمة الثانية أورد  
 الحميدي شعره في المنية العامرة .

٥ ك : المنية .

إلى فتح ، ولا يصدر عنها تدبير إلاّ إلى نُجُح ، إلى أن حان يومها العصيب ،  
وقِيئُص لها من المكروه أوفر<sup>١</sup> نصيب ، فتولت فقيدة ، وخلت من بهجتها  
كلّ عقيدة ، انتهى .

وقد حكى الحميدي في « جنوة المقتبس<sup>٢</sup> » هذه الحكاية الواقعة لابن أبي  
الحياب بزيادة ، فقال - بعد أن ذكر هذه المُنْية العامرية التي إلى جانب الزهراء -  
إن أبا المطرف بن أبي الحباب الشاعر دخل إلى المنصور في هذه المنية ، فوقف  
على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد تفتحتا وواحدة لم تفتح ، فقال :

لا يَوْمَ كالْيَوْمِ في أيامنا الأوّلِ	بالعامرية ذاتِ الماءِ والظّلّلِ <sup>٣</sup>
هواؤها في جميعِ الدهرِ معتدلٌ	طيباً ، وإن حلّ فصلٌ غيرِ معتدلِ
ما إن يُبالي الذي يحتلُّ ساحتها	بالسعدِ ألاّ تحلّ الشمسُ في الحملِ
كأنما غرست في ساعة وبدا الـ	سوسانٌ من حينه فيها على عجلِ
أبدت ثلاثاً من السوسانِ مائلةً	أعناقهنّ من الإعياءِ والكسلِ
فبعضُ نورها للبعضِ مُنتفح	والبعضُ مغلقٌ عنهنّ في شغلِ
كأنها راحةٌ ضمت أناملها	من بعد ما ملئت من جودك الخِضِلِ
وأختها بسطت منها أناملها	ترجُو نَداك كما عودتها فصلِ

وقد ذكر ابن سعيد<sup>٤</sup> أن ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر  
وعنده صاعد اللغوي البغدادي ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من  
أبيات :

فالعامريّة تزهى على جميعِ المتباني

١ ق ج ط : وافر .

٢ انظر الجنوة : ٣٧٧ (ويفيه الملتبس رقم : ١٥٤٥) .

٣ ق : والقلل .

٤ لم يرد هذا النص في مطبوعة المغرب ؛ وانظر المقتطفات : ٣٤ - ٣٥ .

وأنت فيها كسيِّفٍ قد حلَّ في غُمدانٍ<sup>١</sup>

فقام صاعد ، وكان مناقضاً له ، فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ،  
ومكن سلطانه ؛ هذا الشعر الذي قاله<sup>٢</sup> قد أعدّه وروى<sup>٣</sup> فيه أقدرُ أن أقول أحسن  
منه ارتجالاً ، فقال له المنصور : قل ليظهر صدقُ دعواك ، فجعل يقول من  
غير فكرة طويلة<sup>٤</sup> :

يا أيُّها الحاجبُ المُعَدُّ      تلي علي كيوان  
ومنْ به قد تناهى      فخارُ كلِّ يمانٍ<sup>٥</sup>  
العالمية أضحتُ      كجنة الرضوانِ  
فريدة لفريدٍ      ما بين أهل الزمانِ

ثمَّ مر في الشعر إلى أن قال في وصفها :

انظر إلى النهر فيها      ينساب كالثعبانِ  
والطيرُ يحطبُ شكراً      على ذرِّ الأغصانِ  
والقضبُ تلتفُّ سكرأً      بميسِّ القُضبانِ  
والروضُ يفتُرُ زهواً      عن مبيِّمِ الأقحوانِ  
والترجسُ الغضُّ يترنو      بوجنة النعمانِ  
وراحةُ الريحِ تمتا      ر نفحة الرياحِ  
قدُمُ مدى الدهر فيها      في غبطةِ وأمانِ

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف : ما لك فائدة في مناقضة

١ يعني سيف بن ذي يزن وقصره « غمدان » باليمن .

٢ قاله : سقطت من ك .

٣ ك : و تروى .

٤ ك : كثيرة .

٥ ق : في الحسن كل يمان .

مَنْ هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؟ فقال ابن العريف : إنما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك ، فقال له صاعد : فيخرج من هذا أن قلة إحسانه لك أسكتتك وبعثت عليك المأخذ ، فضحك المنصور وقال : غير هذه المنازعة أليق بأدبكما .

قلت : وقد ذكر مؤرخو الأندلس منى كثيرة بها : منها منية الناعورة السابقة ، ومنية العامرية هذه ، ومنية السرور ، ومنية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر الملقب ملك قرطبة .

قال أبو الحسن بن سعيد<sup>١</sup> : أخبرني أبي عن أبيه قال : خرج معي إلى هذه المنية في زمان فتح نوار اللوز أبو بكر بن بَقِيّ الشاعر المشهور ، فجلسنا تحت سطر لوز قد نور ، فقال ابن بَقِيّ :

سَطْرٌ من اللوز في البُسْتان قابِلَتِي ما زاد شيء على شيء ولا نَقَصَا  
كأنتما كلَّ غُصْنٍ كَمْ جارِيَة إذا النَّسِيمُ ثَنَى أعطافه رَقَصَا  
ثم قال :

عجبتُ لمن أبقي على خمر دَنَهٍ غَدَاة رأى لَوَزَ الحديقة نَوْرَا

وذكر بعض مؤرخي الأندلس أن المنصور بن أبي عامر كان يزرع كل سنة ألف مدي من الشعير قصيلاً لدوابه الخاصة به ، وأنه كان إذا قدم من غزوة من غزواته لا يحلُّ عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وما عاش ، وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره ، قال : وكان له دخالة<sup>٢</sup> كل يوم اثني عشر ألف رطل من اللحم ، حاشا الصيد والطيور

١ انظر هذا فيما تقدم ص : ٤٧١  
٢ في المعاجم : الدخل فقط بمعنى الحاصل ، ويبدو أن الأندلسيين استعملوا لفظة «دخالة» ليعنوا القسط أو النصيب أو الحصّة .



والحيتان ، وكان يصنع في كل عام اثني عشر ألف تُرْسٍ عامرية لقصر الزاهرة  
والزهراء ، قال : وابنتي على طريق المباهاة والفخامة مدينة الزاهرة<sup>١</sup> ذات القصور  
والمتزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة ، انتهى .

\* \* \*

[ المنصور وابن شهيد ]

ومن المطمح<sup>٢</sup> : أن المنصور لما فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة وأبعد فيها  
الإيغال ، وغال فيها من عظماء الروم من غال ، وحل<sup>٣</sup> من أرضهم ما لم يُطرق ،  
وراع منهم ما لم يُرعَ قطُّ ولم يُقرق<sup>٤</sup> ، وصدر صدراً سما به على كل حسناء  
عقيلة ، وجلا به كل صفحة للحسن صقيلة ، ودخل قرطبة دخولاً لم يُعهد ،  
وشهد له فيها يوم مثله لم يُشهد ، وكان ابن شهيد متخلفاً عن هذه الغزوة  
لنقرس عداه عاتده ، وحده متجعجعه ورائده ، وابن شهيد هذا أحد حجاب<sup>٥</sup>  
الناصر ، وله على ابن أبي عامر أباد محكمة الأواصر ، وهو الذي نهض به  
أول انبعاثه ، وشفى أمره زمن التياث ، وخاصم المصحفي عنه بلسان من الحماية  
ألد ، وتوخاه بإحسان قلده من الرعاية ما قلده ، وأسمى رتبته ، وحلّى  
بإعظام جيده ولبته<sup>٤</sup> ، وكان كثيراً ما يُتخفه ، ويصّله ويُلطفه ، فلما  
صدر المنصور من غزوته هذه وقفل ، نسي متاحفته وغفل<sup>٥</sup> ، فكتب إليه  
ابن شهيد :

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا      يا بينفسي أفيك كل الرزايا  
ورسولُ الإله أسهم في الفيء      لمن لم يُخب فيه المطايا

١ ك : العامرية .

٢ لم يرد هذا النص في المطبع المطبوع .

٣ ط : أصحاب .

٤ ق : وحل بأعظم جاه جيده ولبته . والعبارة في ط دون لفظة « جيده » .

٥ ق : أو غفل .

فاجعلني - فديت - أشكر معرو فكّ وابتعث بها عذاب الثنايا  
فبعث إليه بعقيلة من عقائل الروم يكفها ثلاث جوارٍ ، كأنهن نجومٌ سوارٍ ،  
وكتب إليه :

قد بعثنا بها كشمس النهارِ في ثلاث من المها أباكارِ  
فاتتدُ واجتهدُ فإنك شيخِ سلخ الليل عن بياض النهارِ  
صانك الله عن كلالك فيها فمن العار كلة المسارِ

فكتب إليه ابن شهيد :

قد فضضنا ختامَ ذاك السوارِ واصطبغنا من النجيج الجاري  
ونعمننا في ظلّ أنعم ليلٍ وهوننا بالبدر ثم الدراري  
وقضى الشيخ ما قضى بحسامِ ذي مضاء عضب الظبي بتارِ  
فاصطنعه فليس يجزيك كُفراً واتخذهُ سيفاً على الكفارِ

وقد قدمنا هذه الحكاية في أخبار المنصور من الباب الثالث<sup>١</sup> ، ولكننا أعدناها  
هنا بلفظ المطمح لما فيه من العذوبة والفائدة الزائدة .

\* \* \*

[ ترجمة الجزيري من المطمح ]

وممن كان في أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان  
عبدُ الملك بن إدريس الخولاني ، قال في المطمح<sup>٢</sup> : علّم من أعلام الزمان<sup>٣</sup> ،  
وعين من أعيان البيان ، باهرُ الفصاحة ، طاهرُ الجنب والساحة ، تولى

١ انظر ما سبق ص : ٤٠٠ - ٤٠١ .

٢ المطمح : ١٣ .

٣ ك : علم من الأعلام فريد الزمان .

التحجير أيام المنصور والإنشاء ، وأشعر بدولته الأفراح والانتشاء ، وليس العزة ضافية البرود<sup>١</sup> ، وورد بها النعمة صافية الورود ، وامتنى من جواد التوجيه ، أعتق من لاحق والوجيه<sup>٢</sup> ، وتمادى طلقه ، ولا أحد يلحقه ، إلى أيام المظفر فمشى على سنته ، وتمادى السعد يترنم على فنته ، إلى أن قتل المظفر صهره عيسى بن القطاع ، صاحب دولته وأميرها المطاع ، وكان أبو مروان قديم الاصطناع له والانتفاع ، فاتهم معه ، وكاد أن يذوق حيمامه ومصرعه<sup>٣</sup> ، إلا أن إحسانه شفع ، وبيانه نفع ودفع<sup>٤</sup> ، فحط عن تلك الرتب ، وحمل إلى طرطوشة على القتب ، فبقي هنالك معتقلاً في برج من أبراجها نائي المنتهى<sup>٥</sup> ، كأنما يناجي السها ، قد بعد ساكنه عن الأنيس ، وقعد من النجم بمنزلة الجليس ، تمر الطيور دونه ولا تجوزه ، ويرى منه الثرى ولا يكاد يجوزه ، فبقي فيه دهرأ لا يرتقي إليه راق ، ولا يرجى لبثه راق ، إلى أن أخرج منه إلى ثراه ، واستراح مما عراه ، فمن بديع نظمه قوله يصف المعتقل<sup>٦</sup> ، الذي فيه اعتقل :

ياوي إليه كل أعور ناعق<sup>٧</sup> وتهب فيه كل ربح صرصر  
ويكاد من يرتقى إليه مرة من عمره يشكو انقطاع الأبهتر

ودخل ليلة على المنصور<sup>٨</sup> والمنصور قد اتكا وارتفق ، ونحلي بمجلسه ذلك الأفق ، والدنيا بمجلسه ذلك مسوقة ، وأحاديث الأمانى به منسوقة ، فأمره

١ ك : وليس العزة مدة ضافية البرود .

٢ لاحق والوجيه : فحلان من فحول الخيل .

٣ المطمح : أن يذوق الحمام فيصرعه .

٤ ق ودوزي : وبيانه منع ودفع ؛ وفي نسخة المطمح « صنع » وهو مصحف .

٥ المطمح : فات المنتهى .

٦ ك : المعتقل .

٧ المطمح : ناعب .

٨ على المنصور : سقطت من ق .

بالتزول<sup>١</sup> فنزل في جملة الأصحاب ، والقمر يظهر ويختجب في السحاب ،  
والأفق يبدو به أغر<sup>٢</sup> ثم يعود مبهماً ، والليل يترأى منه أشقر ثم يعود أدهماً ،  
وأبو مروان قد انتشى ، وجال في ميدان الأنس ومشى ، وبرد<sup>٣</sup> خاطره قد  
دبجه السرور ووشى ، فأقلقه ذلك المغيب والالتياح ، وأنطقه ذلك السرور  
والارتياح ، فقال :

أرى بدر السماء يلوح حيناً فيبدو ثم يلتحف السحابا  
وذلك أنه لما تبدى وأبصر وجهك استحياً فغابا  
مقال لو نمي عندي إليه لراجعي بذا حقاً جوابا

وله في مدة اعتقاله ، وتردده في قبليه<sup>٤</sup> وقاله :

شحط المزار فلا مزار ، ونافرت عيني المهجوع فلا خيال<sup>١</sup> يعترني  
أزرى بصبري وهو مشدود العرى<sup>٢</sup> وألان عودي وهو صلب المكسر  
وطوى سروري كله وتلذذي بالعيش طي صحيفة لم تنشر  
ها إنما ألقى الحبيب توهماً بضمير تذكاري وعين تذكري  
عجبا لقلبي يوم راعتني النوى ودنا وداعي كيف لم يتفطر

رجع إلى المنصور :

وكان المنصور إذا أراد أمراً مهماً شاور أرباب الدولة الأكابر من  
خدام الدولة الأموية ، فيشرون عليه بالوجه الذي عرفوه وجرت الدولة  
الأموية عليه ، فيخالفهم إلى المنهج الذي ابتدعه ، فيقبضون في أنفسهم

١ ك : بالتزول عنده .

٢ في رواية من أصول المطح : في قيده وعقاله ؛ وهذه الأبيات من رائيته المشهورة عند الأندلسيين  
وفيها نصائح وحكم لابنه ( انظر فهرست ابن خير : ٤١٠ ) .

٣ ك : القوى .

٤ ك : ودنا وداع .

بالهلاك في الطريق الذي سلكه ، والمهيع الذي اخترعه ، فتُسفر العاقبة عن السلامة  
 التامة التي اقتضاها سَعْدُهُ ، فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرهما .  
 وقيل له مرة : إن فلاناً مشؤوم فلا تستخدمه ، فقال : أفّ لسعد لا يغطي  
 على شؤمه ، فاستخدمه ، ولم ينله من شؤمه الذي جرت به العادة شيء .  
 وحكي عنه أنه كان في قصره بالزاهرة<sup>١</sup> ، فتأمل محاسنه ، ونظر إلى مياهه  
 المطردة ، وأنصت لأطياره المغردة ، وملاً عينه من الذي حواه من حسن وجمال ،  
 والتفت في الزاهرة من اليمين إلى الشمال ، فانحدرت دموعه ، وتجهم وقال :  
 وبها<sup>٢</sup> لك يا زاهرة ، فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن  
 قريب ؟ فقال له بعض خاصته : ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قط ؟  
 وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال به ؟ فقال : والله لآرون  
 ما قلت ، وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت ، وبرسومها قد غُيرت ، وبمبانيها  
 قد هُدمت ونُحيت ، وبخزائنها قد نُهبت ، وبساحاتها قد أُضمرت بنار الفتنة  
 وألُهبت ، قال الخاكي : فلم يكن إلا أن توفي المنصور وتولى المظفر ولم تطل  
 مدته ، فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول<sup>٣</sup> ، فقام عليه المهدي  
 والعامّة ، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة ، وانقرضت دولة آل عامر ،  
 ولم يبقَ منهم أمر :

كأن لم يكن بين الحَجُوجِون إلى الصفا أنيس<sup>٤</sup> ولم يَسْمُرُ بمكة سامر<sup>٥</sup>  
 بلى نحنُ كُنّا أهلها فأبادنا صروفُ الليالي والجلودُ العوايرُ<sup>٦</sup>

وخربت الزاهرة ، وذهبت<sup>٥</sup> كأس الدابر ، وخلت منها اللسوت الملوكية

١ ك : الذي بالزاهرة .

٢ ك : . ويل .

٣ ك ج : بسنجور ؛ ط : بسنجول .

٤ سقط هذا البيت من ق .

٥ ك : ومضت .

والمنابر ، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر ، والسلاح ، وتلاشى أمرها فلم يُرَجَّ لفسادها صلاح ، وصارت قاعاً صَفْصَفاً ، وأديلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفاء .

ويروى أن بعض أولياء ذلك الزمان مر بها ، ونظر إلى مصانعها السامية الفائقة ، ومبانيها العالية الرائقة ، فقال : يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك في كل دار . قال الحاكي : فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح إلا أيام يسيرة حتى نهبت ذخائرها ، وعمَّ بالخراب سائرها ، فلم تبقَ دار في الأندلس إلا ودخلها من فيها حصّة كثيرة أو قليلة ، وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذي همّته مع ربه جليّة .

ولقد حكى أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية ، فسبحان من لا يزول سلطانه ولا ينتضي ملكه لا إله إلا هو .  
وتذكرت هنا ما رآه في المنام بعض أهل المغرب بالليلّة التي انقرض فيها ملك الموحدّين أن شخصاً ينشده :

مُلْكُ بني مؤمن تولّى      وكان فوق السّمَاك سمكه  
فاعتبروا وانظروا وقولوا :      سبحان من لا يبید ملكه

لا إله إلا هو .

وكان المهدي القائم على العامريين ماجناً فاتكاً ، وقال - وقد حيّاه في مجلس شرايه غلام بقضيب آس<sup>١</sup> :

أهديت شِبّهَ قوامك الميَّاسِ      غصناً رطيباً ناعماً من آسِ  
وكأنّما يحكيك في حركاته      وكأنّما تحكيه في الأنفاسِ  
وكان المنصور بن أبي عامر حين تغلب على ملك الأمويين غير مكترث بمثل

١ انظر ص : ٥٧٧ .

المهدي المذكور ، فسلطه الله تعالى على كل ما أسسه المنصور حتى هدمه ، وأخر كل ما قدّمه ، ولم ينفع في ذلك احتياط ولا حزم ، ولا راداً للقضاء المبرم الجزم :

والله يحكم ما يشاء فلا تكن متعرضاً

\* \* \*

[ طرف من أخبار المنصور ]

وقد قدمنا شيئاً من أخبار المنصور ، ولا بأس أن نُلِمَّ هنا ببعضها وإن حصل منه نوع تكرار في نبذة منها لارتباط الكلام ببعضه ببعض .  
قال بعض المحققين من المؤرخين : حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولي الحجابة ، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنساً ، وعلى جواربه مثل ذلك ، فلا يُعرف منهن ، ويأمر من ينحّي الناس من طريقه ، حتى ينتهي المؤيد إلى موضع تنزهه ، ثم يعود ، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة في بعض الأيام لغرض له ، كما ألعنا به فيما سبق ، وكان المنصور إذا سافر وكلّ بالمؤيد من يفعل معه ذلك ، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بني أمية من الأندلس ، وأخذ مع ذلك في قتل من يخشى منه من بني أمية خوفاً أن يثوروا به ، ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد ، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ، ثم فرق باقيهم في البلاد ، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد ، وربما سكن بعضهم البادية ، وترك مجلس الأبهة وناديه ، حتى قال بعض من يتقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة :

أبتي أمية أين أقمار الدجى منكم ؟ وأين نجومها والكوكب ؟  
غابت أسود منكم عن غايبها فلذلك حاز الملك هذا الثعلب

مع أن للمنصور مفاخر بتدّ بها الأوائل والأواخر ، من المثابرة على جهاد

العدو ، وتكرار الذهاب بنفسه في الرواح والغدو ، وله مع المصحفي وغيره أخبار مرت ويأتي بعضها ، ولا بأس أن نلخص ترجمة المصحفي فنقول :

[ ترجمة المصحفي من المطمح ]

قال الفتح في المطمح <sup>١</sup> : الحاجب جعفر المصحفي - تجرد للعليا ، وتمرد في طلب الدنيا ، حتى بلغ المني ، وتوسّع ذلك الجنّي ، فسمّا دون سابقة ، وارتمى إلى رتبة لم تكن لبنيته <sup>٢</sup> بمطابقة ، فالتاح في أفياء الخلافة ، وارتاح إليها بعطفه كنشوان السّلاقة ، واستوزره المستنصر ، وعنه كان يسمع وبه كان <sup>٣</sup> يبصر ، فأدرك بذلك ما أدرك ، ونصب لأمانيه الحبائل والشرك ، واقتنى وادّخر ، وأزرى بمن سواه وسخر ، واستعطفه المنصور بن أبي عامر ونجمه بعد غائر لم يلح ، وسره مكتوم لم يبح ، فما عطف ، ولا جتى من روضة دنياه ولا قطف ، فأقام في تدبير الأندلس ما أقام والأندلس متغيرة ، والأذهان في تكيف سعده متحيرة ، فناهيك من ذكر خلد ، ومن فخر تقلد ، ومن صعب راض ، وجتاح فتنه هاض ، ولم يزل بنجاد تلك الخلافة معتقلا ، وفي مطالعها منتقلا ، إلى أن توفي الحكم ، فانتقض عقده المحكم ، وانبرت إليه النوائب ، وتسددت إليه من الخطوب <sup>٤</sup> سهام صوائب ، واتصل إلى المنصور ذلك الأمر ، واختص به كما مال بيزيد أخوه الغمر ، وأناف في تلك الخلافة كما شَبَّ قبل اليوم عن طوقه عمرو ، وانتدب للمصحفي بصدر كان أوغرّه ، وساء وصغرّه ، فاقتص من تلك الإساءة ، وأغص حلقه بأي مساءة <sup>٥</sup> ،

٢ ك : بيته ؛ ق : إلى بيته .

١ انظر المطمح ٤ - ٨ .

٣ كان : سقطت من ك .

٤ ج ط : وزرى .

٥ من الخطوب : زيادة من المطمح .

٦ ق ك : بأي أشاءة .



فأخمله ونكبه ، وأرجله عما كان الدهرُ أركبه ، وأهب جوارحه <sup>١</sup> حزنًا ، ونهب له مدّخرًا ومُختزنًا ، ودمر عليه ما كان حاط ، وأحاط به من مكرهه ما أحاط ، وغبر سنين في مهوى تلك النكبة ، وجوى <sup>٢</sup> تلك الكربة ، ينقله المنصور معه في غزواته ، ويعتقله بين ضيق المطيق وهواته ، إلى أن تكوّرت شمسُه ، وفاظت بين أثناء المحن نفسه ، ومن بديع ما حفظ له في نكبته ، قوله يستريح من كربته :

صَبَرْتُ عَلَى الْأَيَّامِ لَمَّا تَوَلَّتْ      وَأَلَزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ  
فَوَا عَجَبًا لِلْقَلْبِ كَيْفَ اعْتَرَفَهُ      وَلِلنَّفْسِ بَعْدَ الْعِزِّ كَيْفَ اسْتَدَلَّتْ  
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى      فَإِنْ طَمَعَتْ تَأَقَّتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ  
وَكَانَتْ عَلَى الْأَيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةً      فَلَمَّا رَأَتْ صَبْرِي عَلَى الذَّلِّ ذَلَّتْ  
فَقُلْتُ لَهَا : يَا نَفْسُ مَوْتِي كَرِيمَةٌ      فَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا لَنَا نَمًّا وَوَلَّتْ

وكان له أدبٌ بارع ، وخاطر إلى نظم القريض يُسارع <sup>٣</sup> ، فمن محاسن إنشاده <sup>٤</sup> ، التي بعثها إيناسُ دهره بإسعاده ، قوله :

لعينيك في قلبي عَليَّ عيونُ      وبيِّنَ ضلوعي للشجون فنونُ  
لئن كان جسمي مخلقاً في يدِ الهوى      فحبك عندي في الفؤاد مَصُونُ

وله وقد أصبح عاكفاً على حُمَيَّاه ، هاتفاً بإجابة دنياه ، مرتشفاً نغر الأتس متنسماً رِيَّاه ، والمملك يغازله بطرف كليل ، والسعدُ قد عقد عليه منه إكليل ، يصف لون مُدامِه ، وما تعرف له منها دون ندامِه :

١ دوزي : جوارحه .

٢ ق ك ط : وجراء ؛ ج : وجزاء .

٣ دوزي : مسارع .

٤ ك : نظامه وإنشاده .

صَفْرَاءُ تَطْرُقُ فِي الزَّجَاجِ فَإِنْ سَرَتْ فِي الْجِسْمِ دَبَّتْ مِثْلَ صَيْلٍ لَادِغٍ  
خَفِيَّتْ عَلَى شُرَابِهَا فَكَأَنَّمَا يَجِدُونَ رِيًّا مِنْ إِيَاءِ فَارِغٍ

ومن شعره الذي قاله في السَّفَرِ جَلَّ مِشْبَهًا ، وغدا به لناثم البديع مُنْبَهًا ،  
قوله يصف سفرجلة ، ويقال إنّه ارتجله :

وَمُصْفَرَّةٌ تَحْتَالُ فِي ثُوبِ نَرْجِسٍ      وَتَعْبِقُ عَنْ مِسْكِ ذَكِيِّ التَّنْفَسِ  
لَهَا رِيحٌ مَحْبُوبٌ وَقَسْوَةٌ قَلْبِهِ      وَلَوْ نُحِبُّ حَلَّةَ السَّقَمِ مُكْتَسِي  
فَصُفْرَتَهَا مِنْ صُفْرَتِي مُسْتَعَارَةٌ      وَأَنْفَاسُهَا فِي الطَّيِّبِ أَنْفَاسُ مُؤْنِسِي  
وَكَانَ لَهَا ثُوبٌ مِنَ الزَّغَبِ أَغْبَرِ      عَلَى جِسْمِ مُصْفَرٍّ مِنَ التَّبَرِ أَمْلَسِ  
فَلَمَّا اسْتَمَّتْ فِي الْقَضِيْبِ شَبَابَهَا      وَحَاكَتْ لَهَا الْأُورَاقُ أَثْوَابَ سُنْدُسِ  
مَدَدَتْ يَدِي بِاللَّطْفِ أَبْغَى اجْتِنَاءَهَا      لِأَجْعَلَهَا رِيْحَانِي وَسَطَّ مَجْلِسِي  
فَبَزَّتْ يَدِي غَضْبًا لَهَا ثُوبَ جِسْمِهَا      وَأَعْرَيْتُهَا بِاللَّطْفِ مِنْ كُلِّ مَلْبَسِ  
وَلَمَّا تَعَرَّتْ فِي يَدِي مِنْ بُرُودِهَا      وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا فِي غِلَالَةِ نَرْجِسِ  
ذَكَرْتُ لَهَا مِنْ لَا أَبُوحُ بِذِكْرِهِ      فَأَذْبَلَهَا فِي الْكَفِّ حَرُّ التَّنْفَسِ

وله وقد أعاده المنصور إلى المُطْبِقِ ، والشجون تُسْرِعُ إِلَيْهِ وَتَسْبِقُ ،  
معزياً لنفسه<sup>١</sup> ، ومجترياً بإسعاد<sup>٢</sup> أمسه :

أَجَازِي الزَّمَانَ عَلَى حَالِهِ      مُجَازَاةً نَفْسِي لِأَنْفَاسِهَا  
إِذَا نَفَسٌ صَاعِدٌ شَقَّهَا      تَوَارَتْ بِهِ دُونَ جُلَاسِهَا  
وَإِنْ عَكَفَتْ نَكْبَةً لِلزَّمَانِ      عَطَفْتُ بِنَفْسِي<sup>٣</sup> عَلَى رَاسِهَا

وممّا حَفِظَ لَهُ فِي اسْتِعْطَافِهِ ، وَاسْتَنْزَالِهِ لِلْمَنْصُورِ وَاسْتِطَافِهِ ، قَوْلُهُ :

١ ق : لنفسه بنفسه .

٢ المطمح : بأخبار .

٣ المطمح وق ط : عطفت بصلدي ؛ دوزي وج : بصدري .

عَفَا اللهُ عَنْكَ ، أَلَا رَحْمَةً  
لَنْ جَلَّ ذَنْبٌ وَلَمْ أَعْتَمِدْهُ  
أَلَمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طَوْرَهُ  
وَمَوْتَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى  
وَمُفْسِدًا أَمْرٍ تَسْلَفِيَّتَهُ  
فَعَادَ فَاصْلَحَ مَا أَفْسَدَا  
أَقْلَيْتِي أَقَالِكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ  
تَجُودُ بِعَفْوِكَ أَنْ أَبْعَدَا

عود وانعطاف إلى أخبار المنصور بن أبي عامر رحمه الله تعالى ، وجازاه عن جهاده أفضل الجزاء بمجته وكرمه وفضله وطوله ، فنقول :

وكان له في كل غزوة من غزواته المنيفة على الحسين مفاخر من المفاخر الإسلامية ، فمنها أن بعض الأجناد نسي رايته مَرَكُوزَةً على جبل بقرب إحدى مدائن الروم ، فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر ، وهذا بلا خفاء مما يفتخر به أهل التوحيد على التثليث ، لأنهم لما أشرب قلوبهم خوف شِرْذِمَةِ المنصور وحزبه ، وعلم كل من ملوكهم أنه لا طاقة له بحربه ، لجأوا إلى الفِرَار والتحصن بالمعاقل والقلاع ، ولم يحصل منهم غير الإشراف من بُعد والاطلاع .

ومن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنه مرَّ بين جبَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ في طريق عرض بريدًا بوسط بلاد الإفرنج ، فلما جاوز ذلك المحل - وهو أخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يميناً وشمالاً - لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه ، حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا مَنْ وراءهم ، وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبلين ، وكان الوقت شتاء ، فلما رأى ما فعلوه رجع واختار منزلاً من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر ، وتقدم ببناء الدور والمنازل ، ويجمع آلات الحرث ونحوها ، وبث سراياه فسببت

١ ك : أهل التثليث .

٢ عرض بريد : سقطت من ط .

وغنمت ، فاسترقَّ الصَّغار ، وضرب أعناق الكبار ، وألقى جُثثهم حتى  
سدَّ بها المدخل الذي من جهته ، وصارت سَرَاياه تخرج فلا تجد إلا بلدًا خرابًا ،  
فلمَّا طال البلاء على العدو أرسلوا إليه في طلب الصلح ، وأن يخرج بغير أسرى  
ولا غنائم ، فامتنع من ذلك ، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج  
بغنائمه وأسراه ، فأجابهم : إن أصحابي أبوا أن يخرجوا ، وقالوا : إنَّا لا نكاد  
نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى ، فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة ،  
فإذا غزونا عُدْنَا ، فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرر عليهم أن يحملوا  
على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي ، وأن يُمدَّوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده ،  
وأن يُنَحَّوْا جِيْفَ القتلى عن طريقه بأنفسهم ، ففعلوا ذلك كله ، وانصرف .  
ولعمري إن هذا لعزٌّ ما وراءه مطمح ، ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله  
ويَسْمَح ، خصوصاً إزالتهم جِيْفَ قتلاهم من الطريق ، وغصصهم في شرب  
ذلك بالريق .

ومن مآثره التي هي في جبين عَصْرِهِ غُرَّةٌ ، ولعين دهره قُرَّةٌ ، أنه  
لما خَتَنَ أولاده خَتَنَ معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ، ومن أولاد  
الضعفاء عدد لا ينحصر<sup>١</sup> ، فبلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار ، خمسمائة ألف  
دينار ، وهذه مكرمة مُخَلَّدَةٌ ، ومنَّةٌ مُقَلَّدَةٌ ، فالله سبحانه يجازيه عن  
ذلك أفضل الجزاء ، ويجعل للمسلمين في فقد مثله أحسن العزاء .  
ومن مناقبه التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظن<sup>٢</sup> ، أن أكثر جنده  
من سببِيهِ على ما حققه بعضُ المؤرخين ، وذلك غاية المنح من الله والمنّ .  
ومن أخباره الدالة على إقبال أمره وخيبة عدوه وإدباره ، أنه ما عاد قطُّ  
من غزوةٍ إلا استعدَّ لأخرى ، ولم تُهْزَمَ له قطُّ راية مع كثرة غزواته شاتية  
وصائفة وكفاه ذلك فخرًا .

١ ك : لا يحصر .

٢ كذا في ق ك ط ج ، وفي مطبوعة ليدن : في غابر الزمن .

ومنها أنه لقيته - وقد عاد من بعض غزواته - امرأة نَقَمَتْ عليه بلوغ  
 مناه وشهواته ، وقالت له : يا منصور ، استمع ندائي ، فأنت في طيب عيشك  
 وأنا في بكائي ، فسألها عن مصيبتها التي عمّتها وغمّتها ، فذكرت له أن لها  
 ابناً أسيراً في بلادٍ سمّتها ، وأنها لا يهنأ عيشها لفقدته ، ولا يجبو ضميرها قلقها  
 من وفّده ، وأنشد لسان حالها ذلك الملك العلي :

أيا وَيَحَ الشَّجِيّ مِـنَ الخَلِيّ<sup>٢</sup>

فرحب المنصور بها ، وأظهر الرقة بسببها ، وخرج من القابلة إلى تلك  
 المدينة التي فيها ابنها وجاسَ أقطارها وتخلّلتها ، حتى دَوَّخها إذ أناخ عليها  
 بكلكله وذلتها ، وأعراها من حُماتها وبنود الإسلام المنصورة ظلّلتها ،  
 وخلّص جميعَ من فيها من الأسرى ، وجلبت عواملُه إلى قلوب الكفرة  
 كسّرا ، وانقلبت عيون الأعداء حسّرى ، وتلا لسانُ حال المرأة ﴿ فَإِنَّ مَعَ  
 العُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح : ٦٠٥) .  
 فهكذا تكون الهمة السلطانية ، والنخوة الإيمانية ، فالله سبحانه يروّح تلك  
 الأرواح في الجنان ، ويرقي درجاتها ويعاملها بمحض الفضل والامتنان .

\* \* \*

[ رسالة ابن عبد البر إلى المنصور الصغير ]

وقد تذكرت هنا والحديث شجون ، وفي ذكر المناسبات<sup>٣</sup> يَبْلُغُ الطلابُ  
 ما يَرْجُونَ ، كتاباً كتبه الأديب الكاتبُ أبو محمد ابن الإمام الحافظ محدث

١ وغمّتها : سقطت من ق ط ج .

٢ شطر بيت لأبي تمام وتماه :

وبالي الربع من إحدى بلي

٣ ك : وبذكر المناسبة .

الأندلس أبي عمر بن عبد البر التميمي<sup>١</sup> ، إلى المنصور بن أبي عامر ، وهو من ذرية المنصور الكبير الذي كنا نتحدث في أخباره ، يمت إليه بسلفه ومعاملتهم لمن تقدم من آبائه بتعظيم قدره وإكباره ، وهو<sup>٢</sup> : عَمَرُ اللَّهِ بَيْقَاءَ مَوْلَايَ<sup>٣</sup> ذِي السَّابِقَيْنِ بِهَجَّةٍ أَوْطَانِهِ ، وَمَلَكَهُ عَنَانَ زَمَانِهِ ، وَمَدَّ عَلَيْهِ ظِلَالِ أَمَانِهِ ، إِنِّي ، أَبْقَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ ، وَالسَّيِّدِ الزَّعِيمِ ، لِمَا أَضَاءَتْ لِي أَهْلِيَّةُ مَفَاخِرِكُمْ فِي سَمَاءِ الْفَخَارِ ، وَأَشْرَقَتْ شُمُوسُ مَكَارِمِكُمْ عَلَى مَفَارِقِ الْأَحْرَارِ ، وَأَبْصُرَتْ شِمَائِلُكَ الزُّهْرَ تَهْدِي إِلَيْكَ مِنَ الْهَمِّ كَامِنَهَا<sup>٤</sup> ، وَمَحَاسِنُكَ الْغُرَّ تَوْقِظُ لَكَ مِنَ الْأَمَالِ نَائِمَهَا<sup>٥</sup> ، تَيْقِنْتُ أَنَّ بِحَقِّ انْقَادَاتِكَ الْقُلُوبُ بِأَعْيُنِهَا ، وَتَهَادَتْ إِلَيْكَ النُّفُوسُ بِأَزْمَتِهَا ، فَالَيْتُ أَنْ لَا أَلْمُ إِلَّا بِحِمَاكَ ، وَلَا أَحْطُ رَحْلًا إِلَّا بِفِنَاكَ<sup>٦</sup> ، عَلِمًا بِأَنَّكَ نَثْرَةُ الْفَخْرِ ، وَغُرَّةُ الدَّهْرِ ، فَتَيَمَّمْتُ سَارِبًا فِي سَاطِعِ نُورِكَ ، مَتِيمًا بِيَمْنِ طَائِرِكَ ، مُحَقِّقًا لِلرِّيحِ<sup>٧</sup> ، مَوْقِنًا بِالْفَلَجِ وَالنَّجْحِ ، حَتَّى حَلَلْتُ فِي دَوْحَةِ الْمَجْدِ ، وَأَنْخَتُ بِدَوْلَةِ السَّعْدِ ، وَاسْتَشَعَرْتُ لِبَسَةِ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ ، وَجَعَلْتُ أَنْظِمُ مِنْ جَوَاهِرِ الْكَلَامِ ، مَا يُرَبِّي عَلَى جَوَاهِرِ النَّظَامِ ، وَأَنْشُرُ مِنْ عَطْرِ الثَّنَاءِ ، مَا يَزْرِي بِالرُّوْضَةِ الْغَنَاءِ ، وَحَاشَا لِلْفَهْمِ<sup>٨</sup> أَنْ يَعْطَلَ لَيْلِي مِنْ أَقْمَارِكَ ،

١ أبو محمد ابن عبد البر كاتب من كتاب عصر ملوك الطوائف البارزين اتصل بخدمة عباد صاحب إشبيلية ، فضايق به ابن زيدون ذرعاً ، ما اضطر ابن عبد البر إلى مفارقة الدولة العبادية والالتحاق بالعامرين أصحاب دانية وغيرهم ( انظر ترجمته في الذخيرة - القسم الثالث : ٣٩ والقلائد :

( ١٨١ )

٢ انظر هذه الرسالة في الذخيرة : ٥٣ مع حذف في مواضع ؛ والمقتطفات ( الورقة : ٣٧ ) .

٣ ك : سيدي .

٤ الذخيرة : أيد الله .

٥ الذخيرة : مفاخره ، والضمير في سائر الرسالة للغائب .

٦ الذخيرة : تثير من الهمم كامنها . ك : من الهمم محامدها .

٧ هذه رواية الذخيرة ؛ وفي ك : رواقدها ، وفي ق ط ج : راقدها .

٨ الذخيرة : إلا بحماه . . . في ذراه .

٩ الذخيرة : بأمل متحقق للريح .

١٠ الذخيرة : للفضل .

أو يخلي أفقي من أنوارك ، فأراني منخرطاً في غير سلكه ، ومنحطاً إلى غير ملكه ، لا جرم أنه من استضاء بالهلال ، غني عن الذُّبال ، ومن استنار بالصباح ، ألقى<sup>١</sup> سنا الصباح ، وتالله ما هزت<sup>٢</sup> آمالي ذوائبها إلى سواك ، ولا خدّت أوطاري ركائبها إلى مين<sup>٣</sup> عداك ، ليكون في أثر الوسمي في الماحل ، وعلي جمال الحلي على العاطل ، لسيادتك السنية ، ورياستك الأولية ، التي يقصُر عنها لسان إفصاحي<sup>٤</sup> ، ويعنيا في بعضها بياني وإيضاحي<sup>٥</sup> ، فالقراطيس عند بث مناقبك تفتني ، والأقلام في رسم مآثرك تحفني ، وما أملُّ المجدب ، في حياة المخصب ، ولا جدلُ المذنب ، يرضى المعتب ، كأملِي في التعزُّز بحوزتك ، والتجمل بجملتك ، والترفع بخدمتك ، فالسعيد من نشأ في دولتك ، وظهر في أمتك ، واستضاء بعزتك ، لقد فاز بالسبق من لحظته عين رعايتك ، وكنفته حوزة حمايتك ، فأنت الذي أمنت بعدله نواب الأيام ، وقويت بسلطانه دعائم الإسلام ، تحتال بك المعالي اختيال العروس ، وتخضع لجلالك أعزة النفوس ، سابقة أشهر من الفجر ، وفطنة أنور من البدر ، وهمة أنفذ من الدهر :

لقد فاز من أضحى بكم متمسكاً  
سلكت سبيل الفخر<sup>٨</sup> خلقاً مركباً  
فأنتم لواء الدين لا زال قيماً  
بأرائكم في ظلّمة الخطب يهتدى  
يشدّ على<sup>٧</sup> تأميل عزكم يدا  
وغيرك لا يأتيه إلا تجلداً

١ الذخيرة : ألقى .

٢ الذخيرة : مدت .

٣ الذخيرة : عن وصفها إفصاحي .

٤ ويعنيا . . . إفصاحي : لم يرد في الذخيرة .

٥ الذخيرة : وكنفه حرز .

٦ الذخيرة : أبعاد .

٧ الذخيرة : يمد إلى .

٨ الذخيرة : الفضل .

لِيَهْنِكُمْ مَجْدٌ تَلِيدٌ بَنَيْتُمْ أَغَارَ سَنَاهِ فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَلِدَا

ومثله أبقاه الله سبحانه يستثمر إيراقيه ، فيثمر جنّاه ، ويستمطر إيراقيه ،  
فيمطر حياه ، لا سيما وإنّي نشأة حَفَّها إحسان أولئك الطاهرين ، وألفها  
إنعام أكابرك الأخيار الطيبين ، وجدير بقبولك وإقبالك ، وبرك وإجمالك ،  
من أصله ثابت في أهل محبتكم ، وفرعه نابت في خاصتكم ٢ :

وما رَغَبْتِي فِي عَسْجِدِ اسْتَفِيدُهُ      ولكنها في مَفْخَرِ اسْتَجِدُهُ  
فكُلُّ نَوَالٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَاتِنٌ      فلحظة طَرْفٍ مِنْكَ عِنْدِي نِدُهُ  
فكُنْ فِي اصْطِنَاعِي مَحْسَبًا كَمَجْرِبِ      يَبِينُ لَكَ تَقْرِيبُ الْجَوَادِ وَشَدُّهُ  
إِذَا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ السِّيفِ فَابْلُهُ      فإمّا تُنَافِيهِ وَإمّا تُعِدُّهُ  
وَمَا الصَّارِمُ الْهِنْدِيُّ إِلَّا كغَيْرِهِ      إِذَا لَمْ يُفَارِقْهُ النِّجَادُ وَغِمْدُهُ

ولا غرو ٣ أن يتطول مولاي بغرس الصنعة في أزكى الترب ، ووضع الهناء  
مكان النقب ، والله سبحانه يبقي مولاي آخذاً بزمام الفخر ، ناهضاً بأعباء البر ،  
مالكاً لأعنة الدهر ، وصنع الله سبحانه لسيدي أتم الصنع وأجمله ، وأفضله  
وأكمله ، بمنه لاربّ سواه ، انتهى .

رجع إلى أخبار المنصور الكبير محمد بن أبي عامر ، رحمه الله :

وكتنا قد ذكرنا أنه قبض على الوزير الحاجب المصحفي مع أنه كان أحد  
أتباعه .

١ الأخيار : زيادة من ك .

٢ هذه الأبيات من قصيدة للمتنبّي يمدح بها كافوراً ومظلمها :  
أود من الأيام ما لا توده      وأشكو إليها بيننا وهي جنده

٣ ك : ولا بأس .

٤ ق ط : مكان النوب ؛ وأصله من المثل : « يضع الهناء مواضع النقب » ، والهناء :  
القطران ، والنقب : الحرب ؛ يعني يضع الشيء موضعه مسدداً مصيباً .



قال صاحب كتاب « روضة الأزهار ، وبهجة النفوس ونزهة الأبصار »<sup>١</sup> :  
ولما أمر المنصور بن أبي عامر بسجن الصحفي بالمطابق في الزهراء ودع أهله  
وودعوه وداع الفرقة ، وقال لهم : لستم ترونني بعدها حياً ، فقد أتى وقت  
لإجابة الدعوة ، وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة ، وذلك أنني أشركت<sup>٢</sup> في  
سجن رجل في عهد الناصر ، وما أطلقته إلا برؤيا رأيتها بأن قيل لي : أطلق  
فلاناً فقد أجيبت فيك دعوته ، فأطلقته وأحضرتة وسألته عن دعوته علي ، فقال :  
دعوت علي من<sup>٣</sup> شارك في أمري أن يميتة الله في أضيق السجون ، فقلت<sup>٣</sup> : إنها  
قد أجيبت ، فإني كنت ممن شارك في أمره ، وندمت حين لا ينفع الندم ،  
فيروي أنه كتب للمنصور بن أبي عامر بهذه الأبيات<sup>٤</sup> :

هَبْنِي أَسَأْتُ فَأَيْنَ الْعَفْوُ وَالكَرَمُ      إِذْ قَادَنِي نَحْوَكُ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ  
يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ الْأَيْدِي إِلَيْهِ أَمَا      تَرُنِّي لِشَيْخِ نَعَاهُ عِنْدَكَ الْقَلَمُ  
بَالِغَتْ فِي السُّخْطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ      إِنْ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتَرْحِمُوا رَحِمُوا  
فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيري :

يَا جَاهِلًا بَعْدَمَا زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمُ      تَبَغْيِي التَّكْرُمُ لَمَّا فَاتَكَ الْكَرَمُ  
نَدِمْتَ إِذْ لَمْ تَعُدْ مِثِّي بِطَائِلَةٍ      وَقَلَّمَا يَنْفَعُ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ  
نَفْسِي إِذَا جَمَحَتْ لَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ      وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ

فبقي في المطبق حتى مات ، نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم ، انتهى .  
وقد ذكر بعضهم في هذه الأبيات زيادة حسبما ذكرناه في غير هذا المحل ،  
فإن هذه الأبيات للمنصور ، وهذا المؤرخ مصرح بأنها لعبد الملك الجزيري ،

١ لم أتعرف إلى مؤلف هذا الكتاب ، ولكن النص منقول عن ابن حيان في الذخيرة ٤ : ٥٠ .  
٢ كذا في الأصول ، وفي مطبوعة ليدن : شاركت ، وفي الذخيرة : أسرفت .  
٣ الذخيرة : فعلمت .  
٤ انظر ما تقدم ص : ٤٠٧ - ٤٠٨ والذخيرة ٤ : ٥١ .

وقد يقال : لا منافاة بينهما ، فإن المنصور أجاب بالأبيات ، وهل هو قائلها أم لا ؟ الأمر أعم<sup>١</sup> ؛ فبين هنا ، والله أعلم .

وقال بعض مؤرخي المغرب<sup>٢</sup> : إن الحاجب المصحفي حصل له في هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله ، حتى إنّه كتب إلى المنصور ابن أبي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلماً لأولاده ، فقال المنصور بدهائه وحذقه : إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدري عند الناس ، لأنّهم طالما رأوني بدهليزه خادماً ومسلماً<sup>٣</sup> ، فكيف يروونه الآن في دهليزي معلماً !؟ وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه في غزواته ، حتى إنّه حكى بعضهم أنّه رأى الحاجب المصحفي في ليلة نَهَى المنصور فيها الناس عن إيقاد النيران تعمية على العدو الكافر ، وهو ينفخ فحماً في كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه ، أو كما قال ، فسبحان مدبّر الدول ، لا إله إلاّ هو ، فإن هذا المصحفي بلغ من الجلالة والعظمة والتحكّم في الدولة المديدة أمراً لا مزيد عليه ، والله وارث الأرض ومنّ عليها وهو خير الوارثين .

ولقد ذكر بعض العلماء<sup>٤</sup> المغاربة أن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصة المنصور بن أبي عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي . ولم يزل أعداء المنصور بن أبي عامر يتربصون به الدوائر ، فغلب سعدّه الذي هو المثل السائر ، وربما همس بعض الشعراء بهجوه وهجو الدولة جميعاً إذ قال<sup>٥</sup> :

اقتربَ الوعدُ وحان الهلاكُ      وكُلُّ ما تحنّره قد أتاكُ  
خليفة يَلعبُ في مَكْتَبِ      وأمه حَبْلِي وقاضِ بناكُ

١ يقترح فليشر أن تقرأ « الأمر أعمى » أي مبهم غامض .

٢ قارن بما أورده ابن عذاري ٢ : ٣٩٩ - ٤٠٠ .

٣ ج : ومعلماً .

٤ ك : بعض علماء .

٥ ابن عذاري ٢ : ٤١٨ .

يعني بالخليفة هشاماً المؤيد لكونه كان صغيراً ، وأمه صبح البشكنسية كان الأعداء يتهمون بها المنصور ، وذلك بهتان وزور ، وأفظع منه رميهم القاضي بالفجور ، والله عالم بسرائر الأمور ، ونعوذ بالله من ألسنة الشعراء الذين لا يراعون إلاّ ولا ذمة ، ويطلقون ألسنتهم في العلماء والأئمة ، ومن كان حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب<sup>١</sup> ، جدير بأن لا يدرك ما يؤمل ويتطلب ، لأنه يعترض على الله سبحانه في أحكامه ، نعوذ بالله من شرّ أنفسنا ومن شرّ كل ذي شرّ ، بجاه نبينا عليه أزكى صلوات الله وأفضل سلامه .

وقد قدمنا أن المنصور بن أبي عامر كان أولاً يخدم جعفر بن عثمان المصحفي مدبر مملكة هشام المؤيد ، ويريه النصيحة ، وأنه ما زال يستجلب القلوب بجوده وحسن خلقه ، والمصحفي ينفرها ببخله وسوء خلقه ، إلى أن كان من أمره ما كان ، فاستولى على الحجابة ، وسجن المصحفي ، وفي ذلك يقول المصحفي<sup>٢</sup> :

غَرَسْتُ قَضِيئاً خَلَيْتُهُ عُوْدَ كَرَمَةٍ      وَكُنْتُ عَلَيْهِ فِي الْحَوَادِثِ قِيَّماً  
وَأَكْرَمُهُ دَهْرِي فَيَزِدَادُ خُبَيْتُهُ      وَلَوْ كَانَ مِنْ أَصْلِ كَرِيمٍ تَكْرَمًا

ولما يش المصحفي من عفو المنصور قال<sup>٣</sup> :

لِي مُدَّةٌ لَا بَدَّ أَبْلُغُهَا      فَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُهَا مَتُّ  
لَوْ قَابَلْتَنِي الْأُسْدُ ضَارِيَةً      وَالْمَوْتُ لَمْ يَقْرِبْ ، لَمَا خِفْتُ  
فَانظُرْ إِلَيَّ وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ      فِي مِثْلِ حَالِكَ أَمْسٍ قَدْ كُنْتُ  
وَمِنْ أَحْسَنِ مَا تَعَمَى بِهِ نَفْسَهُ قَوْلُهُ حَسْبَمَا تَقْدِيمٌ<sup>٤</sup> :

١ أخذه من قول الشاعر :

وأظلم أهل الأرض من كان حاسداً      لمن بات في نعمائه يتقلب

٢ الذخيرة ٤ : ٥٢ .

٣ الحلة السيراء ١ : ٢٦٧ والذخيرة ٤ : ٥١ .

٤ الحلة : لم يقدر ؛ الذخيرة : لم يدن .      ٥ انظر ما سبق ص : ٥٩٣ .

صبرتُ على الأيامِ حتى تولتُ  
فوا عَجَبًا للقلبِ كيف اعترافهُ  
وما النَّفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتي  
وكانتُ على الأيامِ نفسي عَزِيزَةً  
فَقُلْتُ لها يا نفسُ موتي كريمةٌ  
وألزمتُ نفسي صَبْرَها فاستمرَّتِ  
وللنفسِ بعدَ العِزِّ كيف استدلَّتِ  
فإن طَمَعَتْ تَأقتُ وإلا تَسَلَّتِ  
فلما رأَت صَبْرِي على الذلِّ ذَلَّتِ  
فقد كانتِ الدنيا لنا ثم وَلَّتِ

وأُشِدُّ له الفتح في المَطْمَحِ ، ونسبهما غيره لأحمد بن الفرج صاحب  
الحدائق<sup>١</sup> :

كَلَمْتَنِي قُلْتُ دُرٌّ سَقِيطٌ  
فَأَمَلْتُ عَقْدَهَا هَلْ تَنَائِرُ  
فَأَزْدَاهَا تَبَسُّمٌ فَأَرْتَنِي  
نَظْمَ دُرٍّ مِنَ التَّبَسُّمِ آخِرُ

وله كما مرَّ<sup>٢</sup> :

صَفراءُ تُطْرِقُ في الزَّجَاجِ ، فإن سَرَّتْ  
خَفِيَّتْ عَلى شُرَّابِها فَكَأَنَّمَا  
في الجِسمِ دَبَّتْ مِثْلَ صِيلٍ لادِغِ  
يَجِدُونَ رِيًّا مِنْ إِياءِ فارِغِ

وله :

يا ذا الذي أودَعَتِي سِرَّهُ  
لم أَجِرْهِ بَعْدَكَ في خَاطِرِي  
لا تَرَجُ أنْ تَسْمَعَهُ مِنِّي  
كَأنَّهُ ما مَرَّ في أُذُنِي

وأُشِدُّ له صاحب بدائع التَّشْبِيباتِ<sup>٣</sup> :

سَأَلْتُ نِجْمَ اللَّيْلِ هَلْ يَنْقِضِي الدُّجَى  
فَخَطَّتْ جِواباً بِالثَّرِيَّا كَخَطِّ لا

١ الحلة : ٢٦٠ والتشبيبات واليتمية ومسالك الأبصار ، ولكن لم يوردهما صاحب المَطْمَحِ .

٢ الحلة والتشبيبات واليتمية ؛ وقد مرَّ ص : ٥٩٤ .

٣ لعل المعنى هنا كتاب الفرائد في التشبيه لابن أبي الحسين القرطبي ، والأبيات في الحلة : ٢٥٩ والتشبيبات لابن الكفاني .

وَكُنْتُ أَرَى أَنِّي بِأَخِيرِ لَيْلَتِي فَأَطْرُقُ حَتَّى خَلَيْتُهُ عَادَ أَوْلَا  
وَمَا عَنِّي هَوَى سَامِرَتَهَا ، غَيْرَ أَنِّي أَنَا فِسْهُا الْمَجْرَى إِلَى طَرْقِ الْعَلَا

[ المصحف العثماني بقرطبة ]

رجع : وكان كما تقدم بقرطبة المصحف العثماني ، وهو متداول بين أهل الأندلس ، قالوا ثم آل أمره إلى الموحدين ، ثم إلى بني مَرِين ، قال الخطيب ابن مرزوق في كتابه « المسند الصحيح الحسن »<sup>٢</sup> ما ملخصه : وكان السلطان أبو الحسن لا يسافر<sup>٣</sup> إلا ومعه المصحف الكريم العثماني ، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم ، ومقام كبير ، وكيف لا ؟ قال ابن بَشْكُوَال : أخرج هذا المصحف من قرطبة وغرَّبَ منها وكان يجامعها الأعظم ، ليلة السبت حادي عشر شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره ، وهذا أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان رضي الله تعالى عنه إلى الأمصار : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام . وما قيل إن فيه دم عثمان هو بعيد ، وإن يكن أحدها فلعله الشامي ، قاله ابن عبد الملك . قال أبو القاسم التجيبي السبتي : أما الشامي فهو باقٍ بمقصورة جامع بني أمية بدمشق المحروسة ، وعايته هناك سنة ٦٥٧ ، كما عاينت المكي بقبة اليهودية ، وهي قبة التراب ، قلت<sup>٤</sup> : عاينتهما مع الذي بالمدينة سنة ٧٣٥ وقرأت فيها ، قال النخعي : لعله الكوفي أو البصري . وأقول : اخترت الذي بالمدينة والذي

١ ق ط ج ودوزي : وهو متواتر عند .

٢ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني الأصل (- بعد ٧٨٠) من أكابر رجالات الدولة المرينية ، وسيترجم له المقرئ ترجمة طويلة وانظر الديباج المذهب : ٣٠٥ ونيل الابتهاج : ٢٦٧ وتاريخ ابن خلدون ٧ : ٣١٢ والتعريف بابن خلدون : ٤٩ ؛ وكتابه هذا في مناقب السلطان العظيم أبي الحسن المريني .

٣ ك : يسافر موضعاً .

٤ هذا تعليق ابن مرزوق .

نقل من الأندلس فألفيت خَطَّهما سواء ، وما توهموا أنه خطّه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخطّ عثمان واحداً منها ، وإنما جمع عليها بعضاً من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدني ، ونص ما على ظهره : هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي ، وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضي الله تعالى عنه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم على كتب المصحف ، انتهى .

واعنى به عبد المؤمن بن علي ، ولم يزل الموحدون يحملونه في أسفارهم متبركين به ، إلى أن حمله المعتضد ، وهو السعيد علي بن المأمون أبي العلاء إدريس ابن المنصور ، حين توجه لتلمسان آخر سنة ٦٤٥ ، فقتل قريباً من تلمسان ، وقُدِّمَ ابنه إبراهيم ، ثم قُتل ، ووقع النهب في الخزائن ، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ، ونهب المصحف ولم يُعلم مستقره ، وقيل : لأنه في خزانة ملوك تلمسان ، قلت : لم يزل هذا المصحف في الخزانة إلى أن افتتحها إمامنا أبو الحسن أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧ ، فظفر به وحصل عنده إلى أن أصيب في وقعة طريف ٢ ، وحصل في بلاد برتقال ، وأعمل الحيلة في استخلاصه ، ووصل إلى فاس سنة ٧٤٥ على يد أحد تجار أزموور ، واستمر بقاؤه في الخزانة ؛ انتهى باختصار .

واعنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء ، كما ذكره ابن رُشيد في رحلته ، ولا بأس أن أذكر كلامه بجملة ، والرسالة في شأن المصحف لما فيها من الفائدة ، ونص محل الحاجة منه : أنشدني الخطيب أبو محمد بن بُرطُلُة من لفظه وكتبته من خطه ، قال : أنشدني الشيخُ الفقيهُ القاضي أبو القاسم عبد الرحمن ابن كاتب الخلافة أبي عبد الله بن عياش لأبيه رحمهم الله تعالى ممّا نظمه ، وقد أمر أمير

١ جماعة من : سقطت من ق .  
٢ كانت وقعة طريف سنة ٧٤١ وفيها غلب أبو الحسن المريني ، وعاد إلى المغرب مفلولاً صابراً محتسباً يروم الكرة ويرتقب الطائفة (اللمحة البدرية : ٩٣) .

المؤمنين المنصور بتحلية المصحف :

ونفَلتَه من كل ملك ذخيرَة  
فإن ورثَ الأملَكَ شَرْقاً ومَغْرِباً  
وكيف يفوتُ النصرُ جيشاً جعلته  
وأبستَه الياقوتَ والدُرَّ حليّةً  
كأنهمُ كانوا بِرِسمِ مكاسبه  
فكم قد أخلّوا جاهلين بواجبه  
أمام قنائه في الوغى وقواضيه  
وغيرك قد رواه من دم صاحبه

وعلى ذكر هذا المصحف الكريم فلنذكر كيفية الأمر في وصوله إلى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وما أبدى في ذلك من الأمور الغريبة التي لم يُسمع بمثها في سالف الدهر ، حسبما أطرفنا به الوزير الأجلُّ أبو زكرياء يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طُفَيْلِ القيسي حفظه الله تعالى وشكره ، ممّا استفاده وأفاده لنا ممّا لم نسمع به قبل ، عن كتاب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طُفَيْلِ المذكور ، ممّا تضمنه من وصف قصّة المصحف ، فقال : وصل إليهم أدام الله سبحانه أيديهم قمرا الأندلس النيران ، وأميرها المتخيران ، السيدان الأجلان أبو سعيد وأبو يعقوب أيدهما الله ، وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، وهو الإمام الذي لم يختلف فيه مختلف ، وما زال ينقله خليف عن سلف ، قد حفظ شخصه على كثرة المتناولين ، وذخّره الله لخليفته المخصوص بمن سخر لخدمته من المتداولين ، وله من غرائب الأبناء ومتقدم الإشعار بما آل إليه أمره من الإيما ما ملكت به الطروس ، وتحفظه من أهل الأندلس الرائس والمرؤوس ، فتلقني عند وصوله بالإجلال والإعظام ، وبودر إليه بما يجب من التبجيل والإكرام ، وعكف عليه أطول العكوف والتزم أشدّ الالتزام ، وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لأولي الألباب ، وبلاغ في الإغراب والإعجاب ، وذلك أن سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين ، أدام الله له عوائد النصر والتمكين ، كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره الكريم ، وحرّكته إليه دواعي خلقه العظيم ،

وتراءى مع نفسه المطمئنة المرضية ، وسجاياه الحسنة الرضية ، في معنى اجتلابه من مدينة قُرْطُبَة محل مَثْوَاه القديم ، ووطنه الموصل بحرمته للتقديم ، فتوقع أن يتأذى أهلُ ذلك القطر بفراقه ، ويستوحشوا لفقدان إضاءته في ألقهم وإشراقه ، فتوقف عن ذلك لما جُبِل عليه من رحمته وإشفاقه ، فأوصله الله إليه تحفة سنية ، وهدية هنية ، وتحية من عنده مباركة زكية ، دون أن يكدرها من البشر اكتساب ، أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب ، بل أوقع الله سبحانه وتعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله إلى مستحقه ، والتبرع به إلى القائم إلى الله تعالى بحقه ، ما اطلع بالمشاهدة والتواتر على صحته وصدقه ، وعضدت مخايل برفقه سواكبٌ ودّقه ، وكان ذلك من كرامات سيّدنا ومولانا الخليفة معبوداً ، وإلى أمره الذي هو أمر الله مردوداً ، وجمع<sup>١</sup> عند ذلك بحضرة مراکش — حرسها الله تعالى — سائر الأبناء الكرام ، والسادة الأعلام ، بدور الآفاق ، وكواكب الإشراق ، وأهل الاستئصال للمقامات الرفيعة وذو<sup>٢</sup> الاستحقاق ، فانظم عند ذلك هذا القصيد مشيراً إلى اجتماع هذه الدراري الزاهرة ، والثمام خطوطها على مركز الدائرة ، ووصول المتقدم ذكره ، المشهور في جميع المعمور أمره<sup>٣</sup> ، وهو هذا :

دَرَارِيٌّ مِّنْ نُّورِ الْهُدَى تَتَوَقَّدُ      مَطَالِعُهَا فَوْقَ الْمَجْرَةِ أَسْعُدُ  
وَأَنْهَارُ جُودٍ كُلَّمَا أَمْسَكَ الْحَيَا      يَمُدُّ بِهَا طَائِمِي الْغَوَارِبِ مُزِيدُ  
وَأَسَادُ حَرْبٍ غَابُهَا شَجَرُ الْقَنَا      وَلَا لَبْدَةٌ إِلَّا الْعَجَاجُ الْمُنْبَدُّ  
مَسَاعِيرٍ فِي الْهَيْجَا مَسَارِيحٍ لِلنَّدَى      بِأَيْدِيهِمْ يُحْمَى الْهَجِيرُ وَيَبْرُدُ

١ ق : وأجمع .

٢ وذو : سقطت من ك .

٣ ق ط ج : منه .

٤ ك : ولا لب .

٥ ك : مساعير .



تَشُبُّ بِهِم نَارَانِ لِلْحَرْبِ وَالْقِرَى  
وَيَسْتَمْطِرُونَ الْبَرْقَ وَالْبَرْقُ عِنْدَهُمْ  
إِذَا عَنَّ سَجَفَ السَّارِيَاتِ مِضَاوُهَا  
وَيَسْتَرشِدُونَ النُّجُومَ وَالنُّجُومُ عِنْدَهُمْ  
تَزَاحِمُ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ كَأَنَّمَا  
تَتَخَازَرُ أَلْحَاطُ الْكَوَاكِبِ دُونَهَا  
أَلَمْ تَرَهَا فِي الْأَفْقِ خَافِقَةَ الْحَشَا  
وَلَيْسَ أَحْمَرًا الْفَجْرِ مِنْ أَثَرِ السَّنَا  
وَمَا انبَسَطَتْ كَفِّ الثُّرَيَّا فِدَا فَعَتُ  
وَحَطَّ سُهَيْلًا ذُعْرُهُ عَنْ سَمِيهِ  
وَلَمَّا رَأَى نَسْرًا وَقُوعَ أَلِيْفِهِ  
مَوَاقِعُ أَمْرِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ  
أَهَابَ بِأَقْصَى الْخَافِقِينَ فَنظَّمَتْ  
وَأَضْفَى عَلَى الدُّنْيَا مَلَائِسَ رَحْمَةٍ  
وَأَخْضَلَ أَرْجَاءَ الرَّبِّيِّ فَكَأَنَّمَا  
فَمَنْ طَرَبَ مَا أَصْبَحَ الْبَرْقُ بِاسْمًا  
وَعَنَّتِي عَلَى أَفْنَانِ كُلِّ أَرَاكَةِ  
وَكَبَّرَ ذُو نَطْقٍ وَسَبَّحَ صَامِتًا  
وَأَبْرَزَ لِلْأَذْهَانِ مَا كَانَ غَائِبًا  
سَلَامٌ عَلَى الْمَهْدِيِّ ، أَمَّا قِضَاؤُهُ  
إِمَامَ الْوَرَى عَمَّ الْبَسِيطَةَ عَدْلُهُ  
بَصِيرٌ رَأَى الدُّنْيَا بَعِيْنٍ جَلِيَّةٍ  
وَلَمَّا مَضَى وَالْأَمْرُ لِلَّهِ وَحْدَهُ  
تَرَدَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رِدَاءَهُ

وَيَجْرِي بِهِمْ سَيْلَانِ جَيْشٍ وَعَسَجَدُ  
سَيْوْفٌ عَلَى أَفْقِ الْعُدَاةِ تُجْرَدُ  
فَمَاذَا الَّذِي يُغْنِي الْحَلِيدُ الْمَسْرَدُ  
نُصُولٌ إِلَى حَبِّ الْقُلُوبِ تُسَدُّ  
عَوَامِلُهَا فِي الْأَفْقِ صَرْحٌ مَمْرَدُ  
وَيَفْرَقُ مِنْهَا الْمِرْزَمَانِ وَفِرْقَدُ  
كَمَا تَطْرَفُ الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ يَزَادُ  
وَلَكِنَّهُ ذَلِكَ النَّجِيْعُ الْمَوْرَدُ  
وَلَكِنَّهَا فِي الْحَرْبِ شِلْوٌ مُقَدَّدُ  
فَأَضْحَى عَلَى أَفْقِ الْبَسِيطَةِ يُرْعَدُ  
تَطَايِرَ مِنْ خَوْفٍ فَمَا زَالَ يَجْهَدُ  
يَكَادُ لَهَا رَأْسُ الثُّرَى يَتَمَيَّدُ  
وَهَيَّبَ جَمْعَ الْمُخْفِقِينَ فَبُدِّدُوا  
نُضَارَتُهَا فِي كُلِّ حِينٍ تَجْدَدُ  
عَلَيْهَا مِنَ النَّبْتِ النُّضِيرِ زَبْرَجَدُ  
وَمَنْ فَرَحَ مَا أَضْحَتْ الْمِزْنَ تُرْعَدُ  
غَذَاهَا حَيَاةَ النُّعْمَى حَمَامٌ مُعْرَدُ  
وَكَادَ بِهِ الْمَعْدُومُ يَحْيَا وَيُوجَدُ  
فَسِيَانِ فِيهَا مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدُ  
فَحْتَمٌ ، وَأَمَّا أَمْرُهُ فَمُؤَكَّدُ  
عَلَى حِينٍ وَجْهَهُ الْأَرْضُ بِالْجُورِ أُرِيدُ  
فَلَمْ يُغْنِهِ إِلَّا الْمَقَامُ الْمَجْدُ  
وَبُلِّغَ مَأْمُولٌ وَأُنْجِزَ مَوْعَدُ  
وَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَالنَّاسُ هُجْدُ

بعزْمَة شَيْحَانِ الْفُؤَادِ مُصَمَّمِ  
مَشِيئَتِهِ مَا شَاءَهُ اللهُ ، إِنَّهُ  
كُتَابُهُ مَشْفُوعَةٌ بِمَلَائِكَةٍ  
وَمَا ذَاكَ إِلَّا نِيَّةٌ خَلَصَتْ لَهُ  
إِذَا خَطَبَتْ رَايَاتُهُ وَسَطَ مَحْفَلِ  
وَإِنْ نَطَقَتْ بِالْفَصْلِ فِيهِمْ سِيُوفُهُ  
مُعِيدُ عُلُومِ الدِّينِ بَعْدَ ارْتِفَاعِهَا  
وَبَاسِطُ أَنْوَارِ الْهِدَايَةِ فِي الْوَرَى  
وَقَدْ كَانَ ضَوْءَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا  
فَمَا زَالَ يَجْلُو عَنْ مَطَالِعِهَا الصِّدَا  
جَزَى اللهُ عَنْ هَذَا الْأَنَامِ خَلِيفَةً  
وَحَيَاهُ مَا دَامَتْ مُحَاسِنُ ذِكْرِهِ  
بِمُصْحَفِ عُثْمَانَ الشَّهِيدِ وَجَمَعِهِ  
تَحَامَتُهُ أَيْدِي الرُّومِ بَعْدَ انْتِسَافِهِ  
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَمْرَسَ صَارِخُ  
وَجَاءَ وَلِيُّ النَّارِ يَرْغَبُ نَصْرَهُ  
رَأَى أَثَرَ الْمَسْفُوحِ فِي صَفْحَاتِهِ  
وَشَبَّهَهُ بِالْبَدْرِ وَقَتَ خُسُوفِهِ  
زَمَانَ ارْتِفَاعِ الْعِلْمِ كَانَ خُسُوفِهِ  
أَتَتْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْوَكَّةُ  
سَيُوفُ بَنِي عِيلَانَ قَامَتْ شَهِيرَةٌ  
وَطَافَتْ بَيْتَ اللهِ فَاشْتَدَّ شَوْقُهُ  
وَحَجَّ إِلَيْكَ الزَّكْنَ وَالْمَرْوُ وَالصَّفَا

يَقُومُ بِهِ أَقْصَى الْوُجُودِ وَيَقْعُدُ  
إِذَا هُمْ فَالْحَكْمُ الْإِلَهِيُّ يُسْعِدُ  
تُرَادِفُهَا فِي كُلِّ حَالٍ وَتُرْفَدُ  
فَلَيْسَ لَهُ فِيهَا سِوَى اللهِ مَقْصِدُ  
تَرَى قِيمَ الْأَعْدَاءِ فِي التُّرْبِ تَسْجُدُ  
أَقْرَبَ بِأَمْرِ اللهِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ  
وَمُبْدِي عُلُومٍ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَعْهَدُ  
وَقَدْ ضَمَّ قَرَصَ الشَّمْسِ فِي الْغَرْبِ مَلْحَدُ  
يُغَانُ بِأَكْثَانِ الضَّلَالِ وَيُغْمَدُ  
وَيُبْرِزُهَا بِيضَاءِ وَالْجَوْهُ أَسْوَدُ  
بِهِ شَرَبُوا مَاءَ الْحَيَاةِ فَخَلَدُوا  
عَلَى مَدْرَجِ الْأَيَّامِ تُتْلَى وَتُنشَدُ  
تَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقَّ بِالْحَقِّ يُعْضَدُ  
وَقَدْ كَادَ لَوْلَا سَعْدُهُ يَتَبَدَّدُ  
بِدَعْوَتِهِ الْعَلْيَا فَصِينَ الْمِدَدُ  
فَلْيَاهُ مِنْهُ عَزْمُهُ الْمُتَجَرَّدُ  
فَقَامَ لِأَخْذِ النَّارِ مِنْهُ مُؤَيَّدُ  
فَللَّهِ تَشْبِيهُهُ لَهُ الشَّرْعُ يَشْهَدُ  
وَقَدْ عَادَ بِالْمَهْدِيِّ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ  
مِنَ الْحَرَمِ الْأَقْصَى لِأَمْرِكَ تَمْهَدُ  
لِدَعْوَتِكَ الْعَلْيَاءِ تَهْدِي وَتُرْشِدُ  
إِلَيْكَ وَلَسْبَى مِنْهُ حِجْرٌ وَمَسْجِدُ  
فَأَنْتَ لِدَاكِ الْحَجَّ حَجَّ وَمَقْصِدُ

مَشَاعِرُهَا الْأَجْسَامُ وَالرُّوحُ أَمْرُكُمْ  
 فَلِلَّهِ حَاجٌ وَاعْتِمَارٌ وَزُورَةٌ  
 وَلِلَّهِ سَبْعُ نَيِّرَاتٍ تَقَارَنَتْ  
 إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِنَاءَكَ عَصْمَةٌ  
 فِدْمٌ لِلوَرَى غَيْثًا وَعِزًّا وَرَحْمَةً  
 وَزَادَتْ بِكَ الْأَعْيَادُ حُسْنًا وَبِهَجَّةٍ  
 وَلَا زَلَّتْ لِلْأَيَّامِ تُبْلِي جَدِيدَهَا  
 وَمِنْكُمْ لَهَا يَرْضَى الْبِقَاءُ الْمَخْلَدُ  
 أَتَنَّا وَلَمْ يَبْرَحْكَ بِالْغَرْبِ مَشْهُدُ  
 بِهَا فِئَةٌ الْإِسْلَامِ تُحْمَى<sup>٢</sup> وَتَسْعَدُ  
 فَمَاذَا الَّذِي يَرْجُو الْقَصِيَّ الْمُبْعَدُ  
 فَقَرُبُكَ فِي الدَّارَيْنِ مُنْجٍ وَمُسْعَدُ  
 كَأَنَّكَ لِلْأَعْيَادِ زِيٌّ مَجْدَدُ  
 وَعَمْرُكَ فِي رِبْعَانِهِ لَيْسَ يَنْفَدُ

ثم إنهم أدام الله سبحانه تأييدهم ، ووصل سعودهم ، لما أرادوا من المبالغة  
 في تعظيم المصحف المذكور ، واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من  
 التوقير والتعزير<sup>٣</sup> ، شرعوا في انتخاب كسوته ، وأخذوا في اختيار حليته ،  
 وتأنقوا في استعمال أحفظته ، وبالغوا في استجادة أصونته ، فحشروا له الصُّنَاعَ  
 المتقنين والمهرة المتفنين<sup>٤</sup> ، ممن كان بحضرتهم العلية ، أو سائر بلادهم  
 القريبة والقصية ، فاجتمع لذلك حدائق كل صناعة ، ومهرة كل طائفة من  
 المهندسين والصواعين والنظاميين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين  
 والزواقين والرسميين والمجلدين وعرفاء البنائين ، ولم يبق من يوصف ببراعة ،  
 أو يُنسب إلى الحدق في صناعة ، إلا أحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنى من  
 معانيه ، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة ، وأشكال مبتدعة ،  
 وضممتوها من غرائب الحركات ، وخفي إمداد الأسباب للمسيبات ، ما بلغوا فيه  
 منتهى طاقتهم ، واستفرغوا فيه جهن قوتهم ، والهمة العلية أدام الله سموها

١ ك : المقام .

٢ ك : تحيا .

٣ ق ط ج : والتعزير .

٤ والمهرة المتفنين : سقطت من ك .

٥ ك : وسائر .

تترقى فوق معارجهم ، وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء مواجهم ، وتنيف على ما ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم ، فسلكوا من عمل هذه الأمثلة كل شِعْب ، ورأبوا من منتشرها كل شِعْب ، وأشرفوا عند تحقيقها وإبراز دقيقتها على كل صَعْب ، فكانت منهم وقفة كادت لها النفس تياس عن مَطْلَبِهَا ، والخواطر تكرر راجعةً عن خفيّ مذهبها ، حتى أطلع الله خليفته في خلقه ، وأمينه المرتضى لإقامة حقّه ، على وجه انقادت فيه تلك الحركات بعد اعتياصها ، وتخلصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها ، ألقوا ذلك - أيدهم الله بنصره ، وأمدهم بمعونته ويُسره - إلى المهندسين والصنّاع فقبلوه أحسن القَبُول ، وتصوروه بأذهانهم فأروه على مطابقة المأمول ، فوقفهم حسنُ تنبيهه ممّا جهلوه على طَوْرٍ غريب من موجبات التعظيم ، وعلموا أن الفضل لله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم - وسيأتي بعد هذا إشارة إلى تفصيل تلك الحركات المستغرّبة ، والأشكال المونقة المعجبة ، إن شاء الله تعالى - ؛ ممّا صنّع للمصحف العظيم من الأصونة الغريبة ، والأحفظة العجيبة ، أنّه كُسي كَلّه بصيوان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه ، لا يشبه بعضها بعضاً ، قد أُجري فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يُعهد له في العصر الأول مثال ، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال ، وله مفاصل تجتمع إليها أجزاءه وتلتئم ، وتتناسق عندها عجائبه وتتنظم ، قد أسلست للتحرك أعطافها ، وأحكم إنشاؤها على البغية وانعطافها ، ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدرّ وعظيم الزمرد ما لم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس في أفرادها ، وتتوارثه على مرور الزمن وترّداده ، وتظنّ العزّ الأعمس ، والملك الأنفس ، في ادخاره وإعداده ، وتسمي الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه في صنفه واتحاده ، فانتظم عليه منها ما شاكله زهر الكواكب في تلالؤه

واتقاده ، وأشبهه الروض المزخرف غبَّ سماء أقلعت عن إمداده ، وأتى هذا  
 الصَّوَانُ الموصوف رائق المنظر ، آخذاً بمجامع القلب والبصر ، مستولياً بصُورته  
 الغربية على جميع الصُّور ، يدهش العقول بهاء ، ويحير الألباب رُواء ، ويكاد  
 يُعشي الناظر تألقاً وضياءً ، فحين تمتَّ خصاله ، واستركبت أوصاله ، وحن  
 ارتباطه بالمصحف العظيم واتصاله ، رَأوا - أدام الله تأييدهم ، وأعلى كلمتهم -  
 مما رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات ، والإشراف على جميع الثنيات ، أن  
 يُتَلَطَّف في وجه يكون به هذا الصَّوَان المذكور طوراً متصلاً ، وطوراً منفصلاً ،  
 ويتأتى به للمصحف الشريف العظيم أن يبرز تارة للخصوص متبدلاً ، وتارة  
 للعموم متجملاً ، إذ معارج الناس في الاستبصار تختلف ، وكلُّ له مقام إليه  
 ينتهي وعنده يقف ، فعمل فيه على شاكلة هذا المقصد ، وتلطف في تميم هذا  
 الغرض المعتمد ، وكسي المصحف العزيز بصِوان لطيف من السندس الأخضر ،  
 ذي حلية خفيفة تلازمه في المغيب والمحضر ، ورتب ترتيباً يتأتى معه أن يكسى  
 بالصَّوَان الأكبر ، فيلثم به التماماً يغطي على العين من هذا الأثر ، وكل ذلك  
 كله على أجمل الصفات وأحسنها ، وأبدع المذاهب وأتقنها ، وصنع له محمل  
 غريب الصنعة ، بديع الشكل والصيغة ، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الإدراك ،  
 ويشد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك ، مُغَشَّى كله  
 بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع ، في قطع من الآبنوس والحشب  
 الرفيع ، لم تُعمل قطُّ في زمان من الأزمان ، ولا انتهت قطُّ إلى أسره نوافذ  
 الأذهان ، مُدار بصنعة قد أُجريت في صفائح الذهب ، وامتدت امتدادَ ذوائب  
 الشُّهب ، وصنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند الانتقال ، ويشاركه في أكثر  
 الأحوال ، مرصع مثل ترصيعه الغريب ، ومُشاكل له في جودة التقسيم وحسن  
 الترتيب ، وصنع لذلك كله تابوت يحتوي عليه احتواء المشكاة على أنوارها .

ط : متولياً .

والصدور على محفوظ أفكارها ، مكعب الشكل سامٍ في الطول ، حسن الحملية والتفصيل ، بالغ ما شاء من التتميم في أوصاله والتكميل ، جارٍ مجرى المحمل في التزيين والتجميل ، وله في أحد غواربه بابٌ ركبت عليه دفتان قد أحكم إرتاجهما ، ويسر بعد الإبهام انفراجهما ، ولافتتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسي من تلقائه وتركب المحمل عليه ، ما دبرت الحركات الهندسيّة ، وتلقيت تلك التنبهات القدسية ، وانتظمت العجائب المعنويّة والحسيّة ، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسيّة ، وذلك أن بأسفل هاتين الدفتين فيصلاً فيه موضع قد أعيد له مفتاح لطيف يدخل فيه ، فإذا أدخل ذلك المفتاح فيه وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين إلى داخل الدفتين من تلقائهما ، وخرج الكرسي من ذاته بما عليه إلى أقصى غايته ، وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته يأتي بها من مؤخر الكرسي زحفاً إلى مقدمه ، فإذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه انغلق البابُ برجوع الدفتين إلى موضعهما من تلقائهما دون أن يمسهما أحد ، وترتبت هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر ، فإذا أدير المفتاح إلى خلف الجهة التي أدير إليها أولاً انفتح الباب وأخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي إلى مؤخره ، فإذا عاد كلٌّ إلى مكانه انسدَّ البابُ بالدفتين أيضاً من تلقائه ، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح ، كالذي كان في حال خروجه ، وصحّت هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومُسببات غائبة عن الحس في باطن الكرسي ، وهي ممّا يدقُّ وصفها ، ويصعب ذكرها ، أظهرتها بركاتُ هذا الأمر السعيد ، وتنبهات سيّدنا ومولانا الخليفة ، أدام الله تعالى أمرهم وأعزّ نصرهم .

وفي خلال الاشتغال بهذه الأعمال التي هي غرر الدهر ، وفرائد العمر ، أمروا - أدام الله تعالى تأييدهم - ببناء المسجد الجامع بمحضرة مراکش - حرسها

الله تعالى - فبدىء ببنيانه<sup>١</sup> وتأسيس قبلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور ، على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع ، وأفسح المساحة ، وأبعد البناء والتجارة . وفيه من شمسيات الزجاج وحركات<sup>٢</sup> المنبر والمقصورة ما لو عمل في السنين العديدة لاستغرب تمامه ، فكيف في هذا الأمر اليسير الذي لم يتخيل أحد من الصنّاع أن يتم فيه فضلاً عن بنائه ؟ وصلت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور ، ونهضوا - أدام الله سبحانه تأييدهم - عقب ذلك لزيارة البقعة المكرمة ، والروضة العظمة ، بمدينة تينملل<sup>٣</sup> أدام الله رفعتها ، فأقاموا بها بقية شعبان المكرم ، وأكثر شهر رمضان المعظم ، وحملوا في صحبتهم المصحف العزيز ومعه مصحف الإمام المهديّ المعلوم رضي الله تعالى عنه في الثابوت الموصوف ، إذ كان قد صنّع له غرفة في أعلاه ، وأحكمت فيه إحكاماً كل به معناه ، واجتمع في مشكاته فعاد النور إلى مبتداه ، وختم القرآن العزيز في مسجد الإمام المعلوم ختمات كادت لا تحصى لكثرتها ، وهنا انتهى ما وجدناه من هذا المكتوب . ثم قال ابن رُشيد - بعد إيراد ما تقدّم - ما صورته : نجزت الرسالة في المصحف العظيم ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى محل الحاجة منه .

\* \* \*

[ شعر في قرطبة ]

وما أحسن قول الشيخ الإمام أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية<sup>٤</sup> يستودع أهل قرطبة :

١ ك : بينائه . ط : فبدأ بنيانه .

٢ ك : ودرجات .

٣ تينملل : المدينة التي دفن فيها المهدي ابن تومرت .

٤ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي ( - ٥٤٢ ) من أهل غرناطة كان واسع المعرفة قوي الأدب متفناً في العلوم ( الصلة : ٣٦٧ والقلائد : ٢٠٨ وسيترجم له المقري ) .

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ أَهْلَ قَرْطُبَةَ حَيْثُ عَهَدْتُ<sup>١</sup> الْحَيَاءَ وَالْكَرَمًا  
وَالْجَامِعَ الْأَعْظَمَ الْعَتِيقَ وَلَا زَالَ مَدَى الدَّهْرِ مَأْمَنًا حَرَمًا

وقال أبو الربيع ابن سالم<sup>٢</sup> : حدثني بذلك أبو الحسن عبد الرحمن بن ربيع  
الأشعري<sup>٣</sup> قال : أنشدني أبو محمد بن عطية لنفسه ، فذكرهما بعد أن قال :  
إنه لما أزمع القاضي أبو محمد بن عطية الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع  
وأنشد<sup>٤</sup> البيتين ، انتهى .

وقال ابن عطية أيضاً رحمه الله تعالى<sup>٥</sup> :

بَارِبِعِ فَاقَتِ الْأَمْصَارَ قَرْطُبَةَ<sup>٦</sup> وَهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وَجَامِعُهَا  
هَاتَانِ ثَنَانٌ ، وَالزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ ، وَالْعِلْمُ أَكْبَرُ شَيْءٍ وَهُوَ رَابِعُهَا  
وقد تقدم إنشادنا لهذين البيتين من غير نسبة لأحد<sup>٦</sup>.

\* \* \*

### [ أبو المغيرة والجرارية ]

ومما يدخل في أخبار الزاهرة من غير ما قدمناه ما حكاه عن نفسه الوزير<sup>٧</sup>

١ ك : وجدت .

٢ أبو الربيع ابن سالم : سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي ( - ٦٣٤ ) من أجل شيوخ  
الأندلس علماء وتالياً وأولي الحزم والجرارة والإقدام ، استشهد بمركة أنيشة صابراً محتسباً .  
( راجع ترجمته في الذيل والتكملة ٤ : ٨٣ والتكملة رقم : ١٩٩١ والمرقبة إلعيا : ١١٩  
وبرنامج الرعيبي : ٦٦ وتحفة القادم : ١٢٩ وإعتاب الكتاب : ٢٤٩ والديباج : ١٢٢ وتذكرة  
الحفاظ : ١٤١٧ وسيترجم المقرري له في النفع ) .

٣ عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري من أهل قرطبة يعرف بابن أبي له برنامج  
شيوخ أخذه عنه أبو الربيع ابن سالم وعنه أخذه تلميذه ابن الأبار ، ولي القضاء باستجة وكان شيخاً  
جليلاً معتنياً بصناعة الحديث ، توفي بغرب العدو صادراً عن مراکش سنة ٥٨٥ ( التكملة رقم :  
١٦١٩ ) .

٤ ك : وأنشدني .

٥ انظر البيتين في ترجمة ابن ربيع الأشعري في التكملة .

٦ انظر ما تقدم ص : ١٥٣ .



الكاتب أبو المغيرة بن حزم قال : نادمت يوماً المنصور بن أبي عامر في منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير ، وهي جامعة بين روضة وغدير ، فلما تضمخ النهار بزعفران العشي ، ورفرف غراب الليل الدجوجي ، وأسبل الليل جُنْحَه ، وتقلد السمك رُمْحَه ، وهمّ النسر بالطيران ، وعام في الأفق زورق الزبرقان ، أوقدنا مصابيح الراح ، واشتملنا ملاء الارتياح ، وللدجن فوقنا رواق مضروب ، فغتننا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب<sup>١</sup> :

قدم الليلُ عند سَيْرِ النهارِ      وبدا البدرُ مثل نصف سوارِ<sup>٢</sup>  
فكأنَّ النهارَ صَفْحَةٌ خَدٌّ      وكأنَّ الظلامَ خَطٌّ عِذارِ  
وكانَّ الكؤوسَ جامدُ ماءً      وكانَّ المدامَ ذائبُ نارِ  
نظري قد جئني عليَّ ذنوباً      كيف مما جنته عيني اعتذاري؟  
يا لقومي تعجبوا من غزال      جائر في محبتي وهو جاري  
ليت لو كان لي إليه سبيلٌ      فأقضي من حبه<sup>٣</sup> أوطاري

قال : فلما أكملت الغناء ، أحسست بالمعنى ، فقلت :

كيف كيف الوصول للأقمارِ      بين سُمُرِ القنا وبيض الشفّارِ  
لو علمنا بأن حُبِّكَ حقٌّ      لطلبنا الحياةَ منك بثارِ  
وإذا ما الكرامُ همّوا بشيء      خاطروا بالنفوس في الأخطارِ

قال : فعند ذلك بادر المنصور لحسامه ، وغلظ في كلامه ، وقال لها : قولي واصدقي إلى مَنْ تشيرين ، بهذا الشوق والحنين ؟ فقالت الجارية : إن كان الكذب أنجى ، فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت إلا نظرة ، ولدت في

١ زاد في ك : وقالت .

٢ ك : السوار .

٣ ك : من الهوى .

القلب فكرة ، فتكلم الحب على لساني ، وبرح الشوق بكتماني ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المعذرة ؛ ثم بكت فكأن دمعها دُرٌّ تناثر من عقد ، أو طَلٌّ تساقط من ورد ، وأنشدت :

أذنبتُ ذنباً عظيماً فكيفَ منهُ اعتداري ؟  
واللهُ قدَرَهَ هذا ولمْ يكنْ باختيارِي  
والعفوُ أحسنُ شيءٍ يكونُ عندَ اقتدارِ

قال : فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب إليّ ، وسلّ سيف السخط عليّ ، فقلت : أيدك الله تعالى ، إنما كانت هفوةً جرّها الفكر ، وصبوةً أيدها النظر ، وليس للمرء إلا ما قدر له ، لا ما اختاره وأمله . فأطرق المنصور قليلاً ثم عفا وصفح ، وتجاوز عتاً وسمح ، وخلّى سبيلي ، فسكن وجيب قلبي وغلبي ، ووهب الجارية لي فبتنا بأنعم ليلة ، وسحبنا فيها للصبا ذيله ، فلما شمر الليل غداً أثره ، وسلّ الصباح بواتره ، وتجاوبت الأطيّار بضروب الألحان ، في أعالي الأغصان ، انصرفت بالجارية إلى منزلي ، وتكامل سروري .

\* \* \*

### [ المأمون والجارية ]

قال بعضهم : ذكرتني حكاية أبي المغيرة هذه حكاية قرأتها في النوادر<sup>١</sup> لأبي علي القالي البغدادي حدّث في الظرف حدّوها ، وزهت في الإغراب زهوها ، وهي ما أسنده عن منصور البرمكي أنّه كانت للرشيد جارية غلامية وكان المأمون يميل إليها ، وهو إذ ذاك أمرّد ، فوقفت تصبّ على يد الرشيد من لإبريق معها ، والمأمون [ جالس ] خلف الرشيد ، فأشار إليها [ كأنّه ] يقبلها ، فأنكرت ذلك بعينها ، وأبطأت في الصب على قدر نظرها للمأمون وإشارتها إليه ، فقال

١ انظر القصة في أمالي القالي ١ : ٢٢٢ وما بين محققين زيادة منه .

الرشيد : ما هذا ؟ ضعي الإبريق من يدك ، ففعلت ، فقال : والله لئن لم تصدقيني لأقتلنك ، فقالت : يا سيدي ، أشار إليّ [ عبد الله ] كأنه يقبلني ، فأنكرت ذلك عليه ، فالتفت إلى المأمون فنظر إليه كأنه ميت لما داخله من الجزع والحجل ، فرحمه وضممه إليه ، وقال : يا عبد الله ، أتجبهها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : هي لك فاخلُ بها في تلك القبة ، ففعل ، ثم قال له : هل قلت في هذا الأمر شيئاً ؟ فقال : نعم يا سيدي ، ثم أنشد :

ظبيٌ كَتَبْتُ بِطَرْفِي من الضمير إليه  
 قبَلْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ فاعتلَّ من شَفَتَيْهِ  
 وردَّ أَخْبَثُ رَدًّا بالكسْرِ من حاجبيه  
 فما بَرِحْتُ مَكَانِي حتى قَدَرْتُ عليه

وفي هذا المعنى يقول بعض البلغاء : اللَحْظُ ، يُعْرَبُ عن اللفظ ، وقال آخر : رب كناية تعني عن إيضاح ، ورب لفظ يدل على ضمير ، ونظمه الشاعر فقال :

جَعَلْنَا عِلَامَاتِ المودَّةِ بَيْنَنَا دَقَاتِقَ لَحْظٍ هُنَّ أَمْضَى مِنَ السَّحْرِ  
 فَأَعْرَفْنَا مِنْهَا الوصلَ فِي لِينِ لَحْظِهَا وَأَعْرَفْنَا مِنْهَا الهجرَ بالنظرِ الشَّرِّ

وفي هذا قال بعض الحكماء : العين باب القلب ، فما في القلب ظَهَرَ في العين ، وقال الشاعر :

العينُ تُبْدي الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بُغْضٍ إذا كانا  
 فالعينُ تنطق والأفواه صامتة حتى تَرى من ضمير القلب تبيانا

\* \* \*

[ ترجمة أبي المغيرة من المطمح ]

وأبو المغيرة ابن حَزَم قال في حقه في المطمح ما نصّه<sup>١</sup> : الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهّاب بن حزم ، وبنو حزم فتية علم وأدب ، وثنية مجند وحسب ، وأبو المغيرة هذا في الكتابة أوحده ، لا يُنعت ولا يُجد ، وهو فارس المضمار ، حامي ذلك الذمار ، وبطل الرعيل ، وأسد ذلك الغيل ، نسق المعجزات ، وسبق في العضلات الموجزات ، إذا كتب وشئ المهارق ودبج ، وركب من بحر البلاغة الشبج ، وكان هو وأبو عامر ابن شهيد خليلي صفاء ، وحليفي وفاء ، لا ينفصلان في رواح<sup>٢</sup> ولا مقيل ، ولا يفترقان كمالك وعقيل<sup>٣</sup> ، وكانا بقرطبة رافعي ألوية الصبوة ، وعامري أندية السلوة ، إلى أن اتخذ أبو عامر في حباله الردى وعلق ، وغدا رهنة فيها قد غلق<sup>٤</sup> ، فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان ، واسترد من سبقه ما فاته منذ زمان ، فلم تذكر له مع أبي عامر حسنة ، ولا سرت له فقرة مستحسنة ، لتعذر ذلك وامتناعه ، بشقوف أبي عامر وامتداد باعه ، وأما شعر أبي المغيرة فمرتبط بنثره ، ومختلط زهره بدره<sup>٥</sup> ، وقد أثبت له منها فنوناً ، تجن بها الأفهام جنوناً ، فمن ذلك قوله :

ظعننت وفي أحداجها من شكّلها عين فضحن بحسنهن العينا

١ المطمح : ٢٢ ؛ قلت وانظر ترجمة أبي المغيرة عبد الوهّاب بن أحمد بن حزم في الذخيرة ١/١ : ١١٠ والصلة : ٣٧٤ والمغرب ١ : ٣٥٧ والجدوة : ٢٧٣ وبغية الملتبس رقم : ١١١٠ ؛ وتوفي أبو المغيرة بطليطلة ٤٣٨ .

٢ ق ك ط ج : رواد .  
٣ مالك وعقيل : نديما جذيمة بن الأبرش ويضرب بهما المثل في عدم الافتراق ، قال أبو خراش الهذلي :

الم تلمي أن قد تفرق قبلنا خليلا صفاء مالك وعقيل

٤ المطمح : أخذ .

٥ ك : وغلق .

٦ المطمح : ومختلط بزهره .

ما أنصفتَ في جنب توضيحٍ إذ قرئتَ ضيفَ الودادِ بلابلاً وشُجُوناً  
أضحى الغرامُ قطينَ ربعِ فؤادهِ إذ لم يجدِ بالرقمتينِ قطيناً  
وله :

لما رأيتُ الهلالَ مُنطويّاً في غرةِ الفجرِ قارنَ الزُهْرَةَ  
شبهتهُ والعيانُ يشهدُ لي بصَوْلجانِ أوفى<sup>٢</sup> لضرِبِ كُرَّةِ

\* \* \*

[ ترجمة ابن شهيد من المطمح ]

وأبو عامر ابن شهيد المذكور قال في حقه ما صورته<sup>٣</sup> :  
الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي ، عالم بأقسام  
البلاغة ومعانيها ، حائر قصب السبق فيها ، لا يشبهه أحد من أهل زمانه ، ولا  
ينسق ما نسق من دُرِّ البيان وجُمانه ، توغل في شعاب البلاغة وطُرُقها ، وأخذ  
على مُتعاطيها ما بين مغربها ومشرقها ، لا يُقاومه عمرو بن بحر ، ولا تراه  
يغترف إلا من بحر ، مع انطباع ، مشى في طريقه بأمد باع ، وله الحسب  
المشهور ، والمكان الذي لم يعد له للظهور ، وهو من ولد الوضاح ، المتقلد تلك  
المفاخر والأوضاع ، صاحب الضحك<sup>٤</sup> يوم المريج ، وراكب ذلك الهرج ،  
وأبو عامر حفيده هذا من ذلك النسب ، وتبع لا يُراش إلا من ذلك الغرب<sup>٥</sup> ،  
وقد أثبت له ما هو بالسحر لاحق ، ولنور المحاسن ماحق ، فمن ذلك قوله<sup>٦</sup> :

١ ق : بالرقمتين .

٢ في الأصول : انشى ، وأثبتنا ما في الجنوة .

٣ المطمح : ١٩ .

٤ ك : الظهور .

٥ ق ك ط ج : والضحاك صاحب .

٦ ق ط ج : مع ذلك الغرب ؛ ك : من ذلك الزغب .

٧ ديوانه : ١٦٤ .

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا نَابَتْهُ مَخْمَصَةٌ  
أَبْدَىٰ إِلَى النَّاسِ رِيًّا وَهُوَ ظَمْآنُ  
يَحْتَنِ الضَّلُوعَ عَلَىٰ مِثْلِ اللَّظَىٰ حُرْفًا  
وَالْوَجْهَ غَمْرًا بِمَاءِ الْبِشْرِ رِيًّا<sup>١</sup>

وهو مأخوذ من قول الرضى<sup>٢</sup> :

مَا إِنْ رَأَيْتَ كَمَعَشَرَ صَبَرُوا  
عِزًّا عَلَى الْأَزَلَاتِ وَالْأَزْمِ  
بَسَطُوا الْوَجُوهَ وَبَيْنَ أَضْلَعِهِمْ  
حَرًّا الْجَنَوَىٰ وَمَأْمِ الْكَلْمِ

وله أيضاً<sup>٣</sup> :

كَلِفْتُ بِالْحَبِّ حَتَّىٰ لَوْ دَنَا أَجَلِي  
لَمَا وَجَدْتُ لَطْعَمِ الْمَوْتِ مِنْ أَلْمِ  
كَلَا النَّدى وَالهُوى قِدْمًا وَلَعْتُ بِهِ  
وَيْلِي مِنَ الْحَبِّ أَوْ وَيْلِي مِنَ الْكِرْمِ

وأخبرني الوزير أبو الحسين<sup>٤</sup> بن سراج - وهو بمنزل ابن شهيد - وكان من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرابه ، ولا نغيب عن بابه<sup>٥</sup> ، وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، ولا يُخلّيه من نثر درره وأزهاره ، فقعده في ليلة ٢٧ من رمضان في لمة من إخوانه ، وأئمة سلوانه ، وقد حَفَّوا به ليقطفوا نَحْبَ أدبه ، وهو يخلط لهم الجِدَّ بهزل ، ولا يفرط في انبساط مشتهر ولا انقباض جزل ، وإذا يجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواربها ، من يسترها ويواربها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، وتبتغي منزلاً لاستغفار

١ ق ط ج : ملان .

٢ ديوان الرضى ٢ : ٤٢٢ مع اختلاف في بعض الرواية .

٣ ديوان ابن شهيد : ١٤٨ .

٤ ق ك ج ط : أبو الحسن .

٥ في طبعة ليدن أن في أصول المطمح هنا : « أن منزل أبي عامر بن شهيد كان منتلى الأعيان ومسرى البيان ، وكان كل شاعر أو كاتب منه بين صلة أو راتب ، وكانوا يحضرون مجلس شرابه ولا ينفصلون ساعة عن بابه » وهذه العبارة غير موجودة في المطمح المطبوع .

ذنبها ، وهي منتقبة ، خائفة ممن يرقبها مترقبة ، وأمامها طفل لها كأنه غصن  
 أس ، أو ظبي يمرح في كناس ، فلماً وقعت عينها على أبي عامر ولت سريعة ،  
 وتولت مروعة ، خيفة أن يشب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلماً نظرها ،  
 قال قولاً فضحها به وشهرها <sup>١</sup> :

دعاها إلى الله بالخير داعي	وناظرة تحت طي القناع
لوصل التبتل والانقطاع	سعت خفية تبتغي منزلاً
تراعي <sup>٢</sup> غزلاً بروض اليقاع <sup>٣</sup>	فجاءت تهادى كمثل الرؤوم
فحل الربيع بتلك اليقاع	وجالت بموضعنا جولة
فحلت بوادٍ كثير السباع	أتتنا تبختر في مشيها
فناديت يا هذه <sup>٥</sup> لا تراعي	وريعت حذاراً على طفلها
وتفرع منه كمامة <sup>٦</sup> المصاع	غزالك تفرق منه اللبث
على الأرض خط كظهر الشجاع	فولت وللمسك في ذيلها

انتهى المقصود منه .

[ استيلاء المعتمد على قوطبة ]

رجع : ومما ينخرط في سلك أخبار الزهراء ما حكاها الفتح في ترجمة المعتمد  
 ابن عباد إذ قال <sup>٧</sup> : وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسين <sup>٨</sup> بن سراج أنه حضر مع

١ انظر الديوان : ٩٤ وبدائع البدائع ٢ : ١٠٨ .

٢ دوزي : تناغي .

٣ ق ط ج : اليقاع .

٤ البدائع : بأكنافه .

٥ البدائع : فقلت أيا هذه .

٦ البدائع : وتهرب منه أسود .

٧ قلائد العقيان : ١٠ .

٨ القلائد وق ط ج : أبو الحسن ؛ وفي ك : أحمد بن سراج .

الوزراء والكتاب بالزهراء في يوم قد غفَلَ عنه الدهر فلم يَرْمُقْهُ بطَرْفٍ ،  
 ولم يَطْرُقْهُ بَصْرَفٍ ، أَرَخَتْ به المسراتُ عَهْدَهَا ، وأبرزت له الأمانى  
 خدّها ١ ، وأرشفَتْ فيه لماها ، وأباحَتْ للزائرين حِمَاها ، وما زالوا يتقلون من  
 قصر إلى قصر ، ويتبدلون الغصون بجنَى وهَصْرٍ ، ويتوقّلون ٢ في تلك  
 العُرُفات ، ويتعاطون الكؤوسَ بين تلك الشُرُفات ، حتى استقروا بالروض  
 من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطاراً ، وأوقروا ٣ بالاعتبار قطاراً ، فحلّوا  
 منها في درانك ربيع مَفُوقَةَ بالأزهار ، مطرزة بالجداول والأنهار ، والغصونُ  
 تختال في أدواحها ، وتثنى في أكفِّ أرواحها ، وآثارُ الديار قد أشرفت عليهم  
 كئكالي يَنحُنْ على خرابها ، وانقراض أطرابها ٤ ، والوهي بمشيدها لاعب ،  
 وعلى كل جدارٍ غرابٌ ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلّالها  
 وأفياءها ، وطالما أشرفت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شداهم وأرِجَتْ ٥ ،  
 أيام نزلوا خلالها ، وتنفياً وظلالها ، وعمروا حدائقها وجنّاتها ، ونبّهوا  
 الآمال من سنّاتها ، وراعوا الليوث في آجامها ، وأخجلّوا الغيوث عند  
 انسجامها ٦ ، فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا  
 نُويٌّ وأحجار ، قد وهت قبابُها ، وهرمَ شبابُها ، وقد يلين الحديد ،  
 ويبلى على طيه الحديد ، فبينما هم يتعاطونها صغاراً وكباراً ، ويُدِيرونها  
 أنساً واعتباراً ، إذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة مكتوب ٧ فيها :

حَسَدَ القَصْرِ فيكم الزهراءَ ولَعَمْرِي وعمركم ما أساءَ

١ ك : خدّها ونهدّها .

٢ ك : ويتنقلون .

٣ دوزي : ووقروا . وفي ك ق ط ج : ووقروا .

٤ ك : آترابها وأطرابها .

٥ ك : وتأرجت .

٦ ك : في انسجامها .

٧ مكتوب : سقطت من ك ؛ ط : فيها مكتوب .



قد طَلَعْتُمْ بِهَا شَمُوساً صَبَاحاً فَاطْلَعُوا عِنْدَنَا بُدُوراً مَسَاءً

فساروا إلى قصر البستان بباب العطارين فألفوا مجلساً قد حار فيه الوصف ، واحتشد فيه اللهو والقصف ، وتوقدت نجومُ مدامه ، وتأودت قدودُ خُدّامه ، وأرْبَى على الخَوَزَنقِ والسَدِيرِ ، وأبدى صفحةَ البدر من أزرار المُدِيرِ ، فأقاموا ليلتهم ما عَرَاهُمُ نومٌ ، ولا عداهم عن طيب اللذات سَومٌ ، وكانت قرطبة منتهى أمله ، وكان رَومٌ أمرها أشهى عمله ، وما زال يخطبها بمُداخلة أهليها ، ومُواصله واليها ، إذ لم يكن في منازلها قائد ، ولم يكن لها إلاّ حَيْلٌ ومكائد ، لاستمساكهم بدَعْوَةِ خلفائها ، وأنقمتهم من طُمُوسِ رسومِ الخلافةِ وعقائنها ، وحين اتفق له تملكُها ، وأطلعه فلُكها ، وحصل في قطب دائرتها<sup>٢</sup> ، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها ، قال<sup>٣</sup> :

مَنْ لِلْمَلُوكِ بَشَاوِ الْأَصِيدِ الْبَطْلِ ؟ هِيَهَاتَ جَاءَتْكُمْ مُهَدِيَّةٌ الدُّوَلِ  
خَطَبْتِ قَرْطِبَةَ الْحَسَاءِ إِذْ مَنَعَتْ مَنْ جَاءَ يَخْطُبُهَا بِالْبَيْضِ وَالْأَسْلِ  
وَكَمْ غَدَتْ عَاطِلًا حَتَّى عَرَضْتُ لَهَا فَأُصْبَحَتْ فِي سَرِيِّ الْحَلِيِّ وَالْحَلْلِ  
عَرَسُ الْمَلُوكِ لَنَا فِي قَصْرِهَا عَرُسٌ كُلُّ الْمَلُوكِ بِهَا فِي مَأْتَمِ الْوَجْلِ  
فِرَاقِبُوا عَنْ قَرِيبٍ لَا أَبَا لَكُمْ هُجُومَ لَيْثٍ بَدْرِعِ الْبَأْسِ مُشْتَمِلِ

ولما انتظمت في سلكه ، واتسمت بملكه ، أعطى ابنه الظافر زمامها ، وولاه نقضها وإبرامها ، فأفاض فيها نداءه ، وزاد على أمده ومداه ، وجمّلها بكثرة حبيائه ، واستقل بأعبائها على فتائه<sup>٤</sup> ، ولم يزل فيها أمراً وناهياً ، غافلاً عن المكر ساهياً ، حُسنَ ظنِّ بأهلها اعتقده ، واغتراراً بهم ما رواه ولا انتقده ،

١ القلائد : ما طرقتهم .

٢ ط ق ج : دارتها .

٣ ديوان المعتد : ٦٥ .

٤ القلائد : واشتغل بأعبائها عن فتائه .

وهيئات كم من ملك كَفَّنُوهُ في دماثه ، ودفنوه بذمائه ، وكم من عرشٍ  
 ثلّوه<sup>١</sup> ، وكم من عزيز ملك أذلّوه ، إلى أن ثار فيها ابن عكاشة ليلاً ، وجرَّ  
 إليها حرباً وويلاً ، فبرز الظافر منفرداً عن كُمامته ، عارياً من حُمامته ، وسيفه  
 في يمينه ، وهاديه في الظلماء نور جبينه ، فإنه كان غلاماً كما بلله<sup>٢</sup> الشباب  
 بأندائه ، وأحفه الحُسْنُ بردائه ، فدافعهم أكثر ليلة ، وقد منع منه تلاحق  
 رجله وخيِّله ، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لَمَا ، ولا استقل منها<sup>٣</sup> ولا  
 سعى ، فتُرك ملتحفاً بالظلماء ، تحت نجوم السماء<sup>٤</sup> ، معترراً في وسط الحمى<sup>٥</sup> ،  
 تحرسه الكواكب ، بعد المواكب ، ويستزه الحِنْدِسُ ، بعد السندس ، فمرَّ بمصرعه  
 سَحَرًا أحد أئمة الجامع المغلسين ، فرآه وقد ذهب ما كان عليه ومضى ، وهو  
 أعزى من الحسام المنتصى ، فخلع رداءه عن منكبيه ونضاه ، وستره به سترًا  
 أقنع المجد به وأرضاه ، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيفة ، ولا يعرف فتشكر له  
 يده الرفيعة ، فكان المعتمد إذا تذكر صرَّعته ، وسعَّر الحزن لوعته ، رفع  
 بالعويل نداءه ، وأنشد :

ولم أدْرِ مَنْ ألقى عليه رداءه<sup>٦</sup>

ولمَّا كان من الغد حَزَّ رأسه ورُفِعَ على سن رمح وهو يشرق كَنَارِ على  
 علم ، ويرشق نفس كل ناظر بألم ، فلَمَّا رَمَقَتْهُ الأَبْصَارُ ، وتحققته الحماة  
 والأنصار ، رَمَوْا أسلحتهم ، وسَوَّوْا للفرار أجنتهم ، فمنهم من اختار فراره  
 وجلاه ، ومنهم من أتت به إلى حَيِّنه رجلاه ، وشغل المعتمد عن رثائه بطلب

١ ط : فلوه .

٢ ك : قد بلله .

٣ ك : استقال منها ؛ ق : انتقل منها .

٤ ق ك ط : في الظلما ؛ ج : ملتفماً في الظلما .

٥ تحت نجوم السما : ساقطة من القلائد .

٦ ك : وسط أكما ؛ ط : الجما .

٧ صدر بيت لأبي خراش الهذلي ، وعجزه : « عل أنه قد سل عن ماجد محض » .

ثاره ، وتَصُبُّ الحبائِلَ لوقوع ابن عكاشة وعثاره ، وعدل عن تأيينه ، إلى البحث عن مفرقه وجبينه ، فلم تحفظ له فيه قافية ، ولا كلمة للوعته شافية ، إلاّ إشارته إليه في تأيين أخويه ، المأمون والراضي المقتولين في أول النائرة ، والفتنة النائرة ، انتهى .

[ ذكر المنتزهات في سياق التراجم ]

وقد رأيت أن أزيد على ما تقدم - ممّا قصدت جلكه في هذا الموضع - نبذة من كلام الفتح في ذكر مُنتزَهِاتِ قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس ، ووصف مجالس الأُنس التي كانت بها ممّا تشرح له الأنفس ، ووقع ذكر غير قرطبة والزهراء لهما تبعاً ، ولا يخلو ذلك من عبرة بحال مَنْ جَعَلَ في اللّهُو مَصِيفاً ومُرْتَبِعاً ، ثم طواه الدهر طَيِّ السَّجَل ، ومحا آثاره التي كانت تسمو وتجلّ ، وما قصدنا عليم الله غير الاعتبار ، بهذه الأخبار ، لا الحث على الحرام ، وتسهيل القصد إليه والمرام ، والأعمال بالنيات ، والله سبحانه كفيلاً بفضله وكرمه ببلوغ الأمنيات ، وتعويضنا عن هذه النعم الفانيات ، بالنعم الباقيات السنيّات .

[ ١ - من ترجمة ابن زيلون في القلائد ]

قال الفتح رحمه الله تعالى في ترجمة الوزير أبي الوليد بن زيلون ، ما صورته<sup>٢</sup> : وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسين<sup>٣</sup> بن سراج رحمه الله تعالى أنّه في وقت فراره أضجى ، غداة الأضحى ، وقد ثار به الوجد بمن كان يألفه والغرام ، وتراءت لعينيه تلك الظباء الأوانس والآرام ، وقد كان الفطر وافاه ،

١ كانت : سقطت من ق ط ج .

٢ القلائد : ٧٢ .

٣ ق ك ج : أبو الحسن .

والشقاء قد استولى على رسم عافيته حتى عفاه<sup>١</sup> ، فلما عاده منهما ما عاد ، وأعياه ذلك النكد المعاد ، استراح إلى ذكر عهده الحسن ، وأراح جفونه المسهدة بتوهم ذلك الوسن ، وذكر معاهد كان يخرج إليها في العيد ، ويتفرج بها مع أولئك العيد ، فقال<sup>٢</sup> :

فما حالُ من أمسى مشوقاً كما أضحي  
أخصُّ بمحوض الهوى ذلك السقحا  
دواعي بثِّ تعقُبِ الأسفِ البرحا  
لقلبي لا يألُو زنادِ الأسي قدحا  
فأقبلَ في فرط الولوع به نُصحا  
نزالَ عتابٍ كان آخره الفتحا  
سفيرُ خضوعٍ بيننا أكَّد الصلحا  
فإن لم يكنْ ميعادُه العيد فالفِصحا  
مُعاطاةَ ندمانٍ إذا شئتَ أو سبحا  
قواريرُ خضُرٍ خللتها مُردتُ صرحا  
أجَلتُ المُعلَى في الأمانِي بها قدحا  
تَقَصَّى تنائِها مدامعُه نَزحا  
فخلنا العشايا الجونَ أثناءها صبحا  
فقبَّتْها فالكوكبَ الجونَ؛ فالسطحا  
إذا عزَّ أن يصدَى الفقى فيه أو يضحى

خَلِيلِي لا فِطْرٌ يَسْرُ ولا أضحي  
لئن شاقني شرق العُقاب فلم أزل  
وما انفكَّ جوفِي الرُصافة مُشعِري  
ويَهْتاجُ قَصْرُ الفارِسيِّ صباةً  
وليس ذميماً عهد مجلسِ ناصح  
كأني لم أشهدْ لدى عَيْنِ شَهِدَة  
وقائعُ جانِها التجني فإنْ مَشَى  
وأيامَ وصلٍ بالعقيقِ اقتضيتُه  
وأصالِ هوى في مُسناةِ مالك  
لدى راكِدِ تُصبيك من صفحاتِه  
مَعاهدُ لَدَاتِ وأوطانُ صبوةٍ  
ألا هلْ إلى الزهراءِ أوبَةُ نازِحِ  
مَقاصيرُ<sup>٣</sup> مَلِكِ أشرقتْ جنباتِها  
يمثلُ قُرطِيبَها لي الوهمُ جمرَة  
محلَّ ارتياحٍ يذكرُ الخلدَ طيبه

١ في الأصول : أعفاه .

٢ انظر ديوان ابن زيدون : ١٥٨

٣ في الأصول : مقاصر .

٤ القلائد : الرحب .

هناك الجِمامُ الزُّرْقُ تَنَدَى حِفَافُهَا      ظلالٌ عَهِدَتْ الدَّهْرَ فِيهَا فَتَى سَمَحَا  
 تَعَوَّضْتُ ١ مِنْ شَدْوِ الْقِيَانِ خِلَالِهَا      صَدَى فِلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الْكَرَى صُبْحَا  
 وَمِنْ حَمَلِي الْكَأْسِ الْمَقْدَى مُدِيرُهَا      تَقَحَّمْ أَهْوَالَ حَمَلْتُ لَهَا الرَّمْحَا  
 أَجَلٌ إِنْ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ بَيْطَةِ ٢      لِأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِي بَأَنَّةٍ فَالْبَطْحَا

وهذه معاهد بني أمية قطعوا بها لياليَ وأياماً ، وظلّت فيها الحوادث عنهم  
 نياماً ، فهاموا بشرق العُقَاب ، وشامُوا به برقاً يَبْدُو من نِقَاب ، ونعموا  
 بِجَوْفِي الرُّصَافَةِ ، وطعموا عيشاً تولى الدهر جلاءه وزِفَافه ، وأبعدوا نصح الناصح ،  
 وحمدوا أنس مجلس ناصح ، وعمّوا بالزهراء ، وصمّوا عن نبي صاحب  
 الزوراء ، حتى رحلهم الموت عنها وقوَّضهم ، وعوَّضهم منها ما عوَّضهم ،  
 فصاروا أحاديث وأنباء ، ولم يتزودوا منها إلاّ حَنُوطاً وكِباء ، وغدّت تلك  
 المعاهدُ تصافحها أيدي الغيّر ، وتناوحها نعبات الطير ، وراحت بعد الزينة  
 سُدى ، وأمست مسرحاً لليوم وملعباً للصدى ، يُسْمَعُ للجنّ بها عزيف ،  
 ويُضْرَعُ فيها البطلُ الباسلُ والنزيف ، وكذا الدنيا أعمالها خراب ، وآمالها ٣  
 آلٌ وسرّاب ، أهلكت أصحاب الأخدود ، وأذهبت ما كان بمأرب من  
 حيازات وحدود ، انتهى .

وقال الفتح بعد كلام ما صورته ٤ : ولما عَصَّتْهُ نابُ الاعتقال ، ورضتْهُ  
 تلك النُوبُ النُقَال ، وعوَّضُ بِخِشَانَةِ العيش من اللين ، وكابد قَسْوَةَ خَطْبُ  
 لا تَلِين ، تذكّر عهد عيشه الرقيق ، ومرّحه بين الرُّصَافَةِ والعقيق ، وحنّ إلى سعدٍ  
 زُرَّتْ عليه جيوبُهُ ، واستهدى نسيمَ عيشٍ طاب له هُبوبه ، وتأسى بمن

١ ط : تعرضت .

٢ ق ك ج : نيطه ؛ ط : ليطه .

٣ ك ط : وآمالها .

٤ القلائد : ٧٧ .

باتت له النوايب بمرصاد ، ورمته بسهام ذات إقصاد [ وضم من عهد الأحص إلى ذات الإصاد ]<sup>١</sup> فقال<sup>٢</sup> :

الموى في طلوع تلك النجوم      والمنى في هبوب ذلك التسيم  
 سرنا عيشنا الرقيق الحواشي      لو يلوم السرور للمستديم  
 وطراً ما انقضى إلى أن تقضى      زمن ما ذمامه بالذميم  
 أيها المؤذي بظلم الليالي      ليس يومي بواحد من ظلوم  
 ما ترى البدر إن تأملت والشمس      س هما يكسفان دون النجوم  
 وهو الدهر ليس ينفك ينحو      بالمصاب العظيم نحو العظيم

وقال الفتح أيضاً في شأن ابن زيدون ، ما صورته<sup>٣</sup> :

ولما تعذر انفكاكه<sup>٤</sup> ، وعقر فرقه وسماكه ، وعادته الأوهام والفكر ،  
 وخانه من أبي الحزم الصارم<sup>٥</sup> الذكر ، قال يصف ما بين مسراته وكروبه ،  
 ويذكر بعد طلوع أمه<sup>٥</sup> من غروبه ، ويبكي لما هو فيه من التعذير ، ويعذر  
 أبا الحزم وليس له غيره من عذير ، ويتعزى بإخفاء الدهر على الأحرار ،  
 وإلحاحه على التمام بالسرار ، ويخاطب ولادة بوقاه عهده ، ويقيم لها  
 البراهين على أرقه وسهده<sup>٧</sup> :

١ ما بين معقنين زيادة ليست في ق ك ؛ والذي ضم في الأحص وذات الأصاد هم بنو مرة أولاً ثم  
 ثاروا بقتل كليب .

٢ ديوان ابن زيدون : ٢٧٨ .

٣ القلائد : ٧٦ .

٤ القلائد : فكاهه .

٥ ك : سعده .

٦ ك : باخناه .

٧ القلائد : ٧٧ وديوان ابن زيدون : ٢٥٠ .

ما جالَ بَعْدَكَ لَحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ  
 وَلَا اسْتَطَلَّتْ ذِمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسْفِ  
 فِي نَشْوَةِ مَنْ شَبَابِ الْوَصْلِ<sup>١</sup> مُوهِمَةٍ  
 يَا لَيْتَ ذَاكَ السَّوَادِ الْجَوْنَ مُتَّصِلِ  
 يَا لِلرَّزَايَا لَقَدْ شَافَهُتُ مَنَّهُلَهَا  
 لَا يَهْنَأُ الشَّامَتِ الْمُرْتَاحِ خَاطِرُهُ  
 هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ  
 إِنْ طَالَ فِي السَّجْنِ إِيْدَاعِي فَلَا عَجَبِ  
 وَإِنْ يُثَبِّطُ<sup>٢</sup> أَبَا الْحَزْمِ الرِّضَى قَدَرِ  
 مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأْنِيهِ<sup>٣</sup> عَلَى ثِقَةٍ

وله يتغزل ، ويعاتب من يستعطفه ويتنزل<sup>٤</sup> :

يَا مُسْتَخْفَاً بِعَاشِقِيهِ      وَمُسْتَغِيثاً لِنَاصِحِيهِ  
 وَمَنْ أَطَاعَ الْوَشَاةَ فِينَا      حَتَّى أَطْعَمْنَا السُّلُوءَ فِيهِ  
 الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَرَانِي      تَكْذِيبَ مَا كُنْتُ تَدْعِيهِ  
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهْزَمَ التَّسْلِي      وَيَغْلِبَ الشُّوقُ مَا يَلِيهِ

وما أحسن قول ابن زيلون المذكور في قصيدته النونية الشهيرة :

١ الذخيرة والفلاحة : سنات الدهر .  
 ٢ ك : من تدانیه ؛ الديوان : تأنيه .  
 ٣ الديوان : ١٩٠ .

غِيظُ العدا من تساقينا الهوى فَدَعَوْا بأنْ نغصَّ فقال الدهرُ آمينا

\* \* \*

[ موشحة ابن الوكيل ]

ومن أغرب<sup>٢</sup> ما وقفتُ عليه موشحة لابن الوكيل دخل فيها على أعجاز  
نونية ابن زيدون ، وهي :

غدا مُنادِينا مُحَكِّمًا فينا يَقْضِي عَلَيْنَا الأسي لولا تأسينا

بَحْرُ الهوى يُغْرِقُ مَنْ فِيهِ جَهْدَهُ عامٌ  
ونارُهُ تُحْرِقُ مَنْ هَمٌّ أَوْ قَدْ هَامٌ  
ورُبُّما يُقْلِقُ فَتَى عَلَيْهِ نامٌ

قد غَيَّرَ الأَجسامَ وصيَّرَ الأَيامَ سُوداً وَكانتْ بِكُمْ بيضاً لياينا

يا صاحِبَ النَّجوى قِفْ واسْتَمِعْ مِنِّي  
إياكَ أَنْ تَهوى إِنَّ الهوى يُضني  
لا تَقْرَبِ البَلوى اسْمِعْ وقلْ عَنِّي

بِحارِهِ مرَّةً خَضُّنا على غِرِّهِ حيناً فقامَ بها للنَّعي ناعينا

مَنْ هَامَ بِالغَيْدِ لاقى بِهِمَ هَمًّا  
بَذَلْتُ مَجْهُودِي لأَحْـوَرِ أَلْمى  
يَهُمُّ بِالْجُودِ وَرَدَّ ما هَمًّا

١ ك : غص .

٢ ق : ومن غريب .



وعندما قدّ جاد بالوصلِ أو قد كاد أضحى التناهي بديلاً من تدايننا

بِحَقِّ مَا بَيْنِي  
أَقْرَرْتُكُمْ عَيْتِي  
فَالعَيْنُ بِالْبَيْنِ  
وَبَيْنَكُمْ إِلَّا  
فَتَجْمَعُوا الشَّمْلَا  
بِفَقْدِكُمْ أَبْلَى

جديداً ما قد كان بالأهل والإخوان ومورد اللّهُ صافٍ من تصافينا

يَا جِيرَةً بَانَتْ  
لِعَهْدِهِ خَانَتْ  
مَا هَكَذَا كَانَتْ  
عَنْ مُغْرَمٍ صَبَّ  
مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبِ  
عَوَائِدُ العُربِ

لا تحسبوا البُعْدَا يُغَيِّرُ العَهْدَا إذ طالما غيرَ النَّأْيُ المَحْبِينَا

يَا نَازِلًا بِالْبَانَ  
وَالنَّمْلِ وَالْفِرْقَانِ  
وَسُورَةَ الرَّحْمَنِ  
بِالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ  
وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ  
وَالنَّحْلِ وَالْحَجْرِ

هل حل في الأديان أن يقتل الظمآن من كان صرفَ الهوى والود يسقيننا

يَا سَائِلَ القَطْرِ  
مِنْ سَاكِنِي بَدْرِ  
عَسَى صَبَاً تَسْرِي  
عَرَجَ عَلَيِ الوَادِي  
وَقِفْ بِهِم نَادِي  
لِمَغْرَمٍ صَادِي

إن شئت تحيينا بلغ تحيينا من لو على البُعْدِ حياً كان يحيينا

وَأَقْتِ لَنَا أَيَّامَ  
وَكَانَ لِي أَعْوَامَ  
كَأَنَّهَا أَعْوَامَ  
كَأَنَّهَا أَيَّامَ

تَمُرُّ كالأحلام بالوصلِ لي لَوَ دام  
والكأسُ مُتَرَعَةٌ حُثَّتْ مُشَعَّشَةً فِينَا الشَّمُولُ وَغَتَانَا مُعْتَيْنَا

[ ٢ - من ترجمة بني القبطورة ]

رجع إلى ما يتعلق بقرطبة : قال الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْتَة ، يخاطب  
الوزير أبا الحسين بن سراج ، ويذكر لمةً من إخوانه بقرطبة <sup>١</sup> :

يا سيدي وأبي هوى وجلالة	ورسول وُدِّي إن طلبت رسولا
عرج بقرطبة ولذذ إن جئها <sup>٢</sup>	بأبي الحسين وناده تمويلا <sup>٣</sup>
فإذا سعدت بنظرة من وجهه	فاهد السلام لكفه تقيلا
واذكر له شكري وشوقي مجملًا	ولو استطعت شرحته <sup>٤</sup> تفصيلا
بتحية تُهدى إليه كأنما	جرت على زهر الرياض ذُيُولًا
وأشم منها المصحفي على النوى	نفساً ينسي السوسن المبلولا
وإلى أبي مروان منه نَفْحَةٌ	تُهدى له نور الرُبي مطلُولًا
وإذا لقيت الأخطبي فسقته	من صفو وُدِّي قرقفًا وشمُولًا
وأبو علي سق <sup>٥</sup> منها ربعة	مسكًا بماء غمامة محلولا
واذكر لهم زماناً يهب نسيمة	أصلًا كنفث الرقيقات عليلا
مولتي ومولي نعمة وكرامة	وأنا إخاء مخلصاً وخليلا

١ مر بعض هذه الأبيات فيما تقدم ص : ١٥٦ وانظر القلائد : ١٥٢ .

٢ ق ط ج : إن أنت بلنتها .

٣ ك : تمويلا ؛ والتحويل : أن تقول « يا مولاي » .

٤ ك : سردته .

٥ القلائد : وأبا علي بل .

بالخَيْرِ ما عبست هناك غمامة إلا تضحك إذخيراً وجليلاً  
يوماً وليلاً كان ذلك كله سحراً وهذا بُكرةٌ وأصيلاً  
لا أدركت تلك الأهلَةَ دهرَها نقصاً ولا تلك النجومُ أفولاً

قال أبو نصر : الخير الذي ذكره هنا هو حَيْرَ الزَّجَالِي خارج باب اليهود  
بقرطبة الذي يقول فيه أبو عامر بن شهيد :

لقد أطلَعوا عند باب اليهود شمساً أبيض الحسنُ أن تكسفا  
تراهُ اليهودُ على بابها أميراً فتَحَسَّبَهُ يوسُفا

وهذا الخَيْرُ من أبداع المواضع وأجملها ، وأتمها حسناً وأكملها ، صحنه  
مرمر صافي البياض ، يخترقه جدول كالحية التضناض ، به جابية ، كل بلحة  
بها كابية ، قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزرتَ بهما جوانبه  
وأرجاؤه ، والروض قد اعتدلت أسطاره ، وابتسمت من كرائمها أزهاره ،  
ومنع الشمس أن ترمق ثراه ، وتعطر النسيم بهوبه عليه ومسّراه ، شهدت  
له ليالي وآياماً كأنما تصورت من لمحات الأحباب ، أو قدّدت من صفحات  
أيام الشباب ، وكانت لأبي عامر بن شهيد به فرج وراحات ، أعطاه فيها الدهر  
ما شاء ، ووالى عليه الصحو والانتشاء ، وكان هو وصاحب الروض المدفون  
بإزائه أليف صبوة ، وحليفي نشوة ، عكفا فيه على جريالهما ، وتصرفا بين  
زهُومهما واختيالهما ، حتى رداهما الردى ، وعداهما الحِمَام عن ذلك المدى ،  
فتجاورا في الممات ، تجاورهما في الحياة ، وتقلصت عنهما وارفات تلك الفيتات ،  
وإلى ذلك العهد أشار ابن شهيد وبه عرض ، وبشوقه صحح وما مرض ،  
حيث يقول عند موته يخاطب أبا مروان صاحبه وأمر أن يُدْفَنَ بإزائه ويكتب

١ القلائد : ١٥٣ وديوان ابن شهيد : ١٠٠ ؛ وقد مرا في الكتاب ص : ١٥٦ .

على قبره<sup>١</sup> :

يا صاحبي قم فقد أطلنا  
فقال لي : لئن تقوم منها  
تذكرُ كم ليلةٍ نعِمنا  
وكم سرورٍ همى علينا  
كلُّ كأن لم يكن تقضى<sup>٢</sup>  
حصَّلهُ كاتب حفيظ  
يا ويلنا إن تنكبتنا  
يا ربَّ عفواً فأنت مولى  
أنحن طول المدى هُجودُ؟  
ما دام من فوقنا الصَّعيد  
في ظلها والزمان عيّد  
سحابةً ثرةً تجود؟  
وشؤمه حاضر عتيّد  
وضمّةٌ صادق شهيد  
رحمةٌ من بطشه شديد  
قصرَ في أمرِك العبيد

انتهى .

ثم قال بعد كلام<sup>٣</sup> : وركب أبو الحسن ابن القَبْطُرْنَة إلى سوق الدواب  
بقرطبة ومعه أبو الحسين ابن سراج ، فنظر إلى أبي الحكم ابن حزم غلاماً كما  
عقّ تمامه ، وهو يروق كأنه زهر فارق كمامه ، فسأل أبا الحسين ابن سراج  
أن يقول فيه ، فأرتج عليه ، فثنى عنان القول إليه ، فقال :

رأى صاحبي عمراً فكلّف وصفه وحمّلتني من ذلك ما ليس في الطوقِ  
فقلت له : عمرو كعمرو ، فقال لي : صدقت ولكن ذلك شبّ على الطوقِ<sup>٤</sup>

وكان بنو القَبْطُرْنَة بالأندلس أشهرَ من نار على علم ، وقد تصرفوا في  
البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة ، والفضائل المشكورة ، ولذا قال أبو

١ القلائد : ١٥٣ والديوان : ٤٦ والنخيرة ١ / ١ : ٢٨٧ .

٢ ك : فخيرهُ مسرعاً تقضى .

٣ القلائد : ١٥٥ .

٤ ق ط ج : ذا أشب على الطوق .

نصر في حقهم ما صورته <sup>١</sup> :

هم للمجد كالآثافي ، وما منهم إلاّ موفور القوادم والحوافي ، إن ظهروا ،  
زَهَرُوا ، وإن تجمَعُوا ، تَضَوَّعُوا ، وإن نطقوا ، صدقوا ، ماؤهم صفو ،  
وكل واحد منهم لصاحبه كُفُو ، أنارت بهم نجومُ المعالي وشموسُها ، ودانت  
لهم أرواحُها ونفوسُها ، ولهم النظام الصافي الزجاجية ، المضمحل العجاجة ،  
انتهى .

ثم قال <sup>٢</sup> : وبات منهم أبو محمد مع أخويه في أيام صباه ، واستطابة <sup>٣</sup> جنُوب  
الشَّباب وصباه ، بالنية المسماة بالبديع ، وهو روض كان المتوكل يكلّف  
بموافاته ، ويتهج بحسن صفاته ، ويقطف رباحينه وزهره ، ويوقف عليه  
لأغفاهُ وسهره ، ويستفزه الطرب متى ذكره ، وينتهر فرصَ الأنس فيه  
رَوّحاته وبُكره ، ويدبر حُميَّاه على ضفة نهره ، ويخلع سره فيه لطاعة جهره ،  
ومعه أخواه فطاردوا اللذات حتى أنصوَّها ، ولبسوا برود السرور وما نضوَّها ،  
حتى صرعتهم العُفار ، وطلحتهم تلك الأوقار ، فلما همّ رداء الفجر أن  
يندَى ، وجين الصبح أن يتبدَى ، قام الوزير أبو محمد فقال :

يا شقيقي وافى الصباحُ بوجهي      سترَ الليلَ نوره وبهاؤه  
فاضطبيحْ واغتم مسرّةَ يومٍ      لستَ تدري بما يجيء مساؤه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال <sup>٤</sup> :

يا أخي قمْ ترّ النسيمَ عليلا      باكرِ الرّوضَ والمدامَ شمولاً  
لا تنمْ واغتم مسرّةَ يومٍ      إنّ تحتَ الترابِ نوماً طويلاً

١ القلائد : ١٤٨ .

٢ القلائد : ١٥١ .

٣ القلائد : واستطابته .

٤ القلائد : ١٥١ والمغرب ١ : ٣٦٧ .

في رياضٍ تعانقُ الزهرُ فيها مثل ما عانق الخليلُ الخليلاً<sup>١</sup>

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن ، وقد هبَّ من غفلة الوسن<sup>٢</sup> ، فقال :

يا صاحبي ذرّاً لومي ومعتبتي قم نصطحُ خمرةً من خير ما ذخرنا  
وبادراً غفلة الأيام واغتنمنا فاليومَ خمرٌ ويبْدُو في غدٍ خبرٌ<sup>٣</sup>

وساق صاحبُ البدائع هذه القصة فقال<sup>٤</sup> : وذكر الفتح ما هذا معناه أنه خرج الوزراء بنو القبطرنة إلى المنية المسماة بالبديع ، وهو روض قد اخضرت مسارحُ نباته ، واخضلت مساري هباته ، ودَمَعَت بالطلّ عيونُ أزهاره ، وذاب على زبرجده بتلور أنهاره ، وتجمعت فيه المحاسن المتفرقة ، وأضحت مُقلّ الحوادث عنه مطرقة ، فخيولُ النسيم تركض في ميادينه فلا تكبُّو ، ونُصولُ السواقي تحسم أدواء الشجر فلا تنبو ، والزروع قد نقبت وجه الثرى ، وحجبت الأرض عن العيون فما تبصّر ولا تُرى ، وكان المتوكل بن الألفس يعدّه غاية الأرب ، ويُعدّه شهداً للطرب ، ومدفعاً للكرب ، فباتوا فيه ليلتهم يديرون لمع لُتب يتمنون فيه الخلود ، ويتحسّون ذوب ذهب لا يُصهر به ما في بطونهم والخلود ، حتى تركتهم ابنة الخابية ، كأنهم أعجازُ نخل خاوية ، فلما هزم رومي الصباح زنجي الظلام ، ونادى الديكُ حيّ على المُدام ، انتبه

١ ك : الخليل خليلاً .

٢ القلالد : وقد ذهب عن عقله الوسن .

٣ هو من قول بشار :

اليوم هم ويبدو في غد خبر .

وأصله من قول امرئ القيس : اليوم خمر وغداً أمر .

٤ البدائع ٢ : ١٤٠ .

٥ البدائع : تصول لحم .

٦ البدائع : منبهة .

كبيرهم أبو محمد مستعجلاً ، وأنشد مرتجلاً « يا شقيقي . . . الخ » فانتبه أخوه أبو بكر لصوته ، وتخوف لذهاب ذلك الوقت وفوته ، وأنه أخاها أبا الحسن وهو يرتجل « يا أخي قم تر النسيم . . . الخ » فانتبه أخوه لكلامه ، دافعاً لذة منامه للذة قيامه ، وارتجل « يا صاحبي ذرّاً . . . الخ » انتهى .

قال الفتح<sup>١</sup> : ولما أمر المعتمد بن عباد أبا بكر بن القبطرنة السابق الذكر مع الوزير أبي الحسين ابن سراج بقاء ذي الوزارتين أبي الحسن ابن اليسع القائد<sup>٢</sup> والمشي إليه ، والتزول عليه ، تنويهاً لمقدمه<sup>٣</sup> ، وتنبيهاً على حظوته لديه وتقدمه ، فصارا إلى بابه ، فوجدها مقفراً من حجابها ، فاستغرباً خلوة من خول ، وظن كل واحد منهما وتأول ، ثم أجمعا على قرع الباب ، ورفع ذلك الارتباب ، فخرج وهو دهش ، وأشار إليهما بالتحية بيده ترتعش ، وأنزلهما خجلاً ، ومشى بين أيديهما عجباً ، وأشار إلى شخص فتوارى بالحجاب ، وبارى الريح سرعة في الاحتجاب ، فقعدا ومقلة الحشف ، ترمق من خلال السجف ، فانصرفا عنه ، وعزماً أن يكتبا إليه بما فهما منه ، فكتبنا إليه :

سَمِعْنَا خَشْفَةَ الْحِشْفِ	وَشِمْنَا طَرْفَةَ الطَّرْفِ
وَصَدَقْنَا وَلَمْ نَقْطَعْ	وَكذَبْنَا وَلَمْ نَنْفِ
وَأَغْضَيْنَا لِإِجْلَالِ	كَعَنْ أَكْرَمَةِ الطَّرْفِ
وَلَمْ تُنْصِفْ وَقَدْ جِئْنَا	لَكَمَا نَنْهَضُ مِنْ ضَعْفِ
وَكَانَ الْحُكْمُ <sup>٤</sup> أَنْ تَحْمِدَ	لِأَوْ تُرْدِفَ فِي الرَّدْفِ

١ انظر القلائد : ١٦٨ .

٢ أهله بنو اليسع كانوا أعيان حصن قولية من عمل بسطة ، وكان الأمير أبو الحسن يتولى مرسية للمعتمد بن عباد فنار عليه أهلها وخلصوه ، ووصفه الفتح بأنه كان صاحب بطالة وراحة ( انظر ترجمته في القلائد : ١٦٧ والمغرب ٢ : ٨٧ والحلّة السيرة ٢ : ١٧٢ ) .

٣ ك : بمقدمه .

٤ دوزي : الحق .

فراجعهما في الحين<sup>١</sup> بقطعة منها :

أيا أسفني على حالٍ سُلِبْتُ<sup>٢</sup> بها من الظرفِ  
ويا لهفي على جهلي بصنفي<sup>٣</sup> كان من صنفي<sup>٤</sup>

انتهى . ولأهل الأندلس في مغاني الأئس الحسان ، ما لا يفي به لسان .

\* \* \*

[ ٣ - من ترجمة ابن حسداي ]

وقال الفتح في ترجمة الوزير أبي الفضل بن حسداي ، بعد كلام ، ما صورته<sup>٤</sup> : فمنها هذه القطعة التي أطلعَها نيرةً ، وترك الألباب بها متحيرة ، في يوم كان عند المقتدر بالله مع عليّة ، قد اتخذوا المجد حليّة ، والأملُ قد سَفَرَ لهم عن مُحيّاه ، وعبق لهم عن ربيّاه ، فصافحه الكل منهم وحيّاه ، وشمس الراح ، دائرة على فلك الراح ، والملك ينشر فضله ، وينثر وابله وطلّته ، يُسْدي العلاء ، ويهب الغنى والغناء ، فصَدَحَت الغواني ، وأفصحت المثلث والمثاني ، بما استنزل من مرقب الوقار ، وسرى في النفوس مسرى العقار :

توريدُ خَدَكَ للأحداق لَدَاتُ عليه من عَثْبِ الأصداغ لاماتُ  
نيرانُ هجرِكَ للعُشاق نارُ لَظِي لَكِنَّ وَصَلِكَ إن واصلتَ جناتُ  
كأنما الراحُ والراحاتُ تحمّلها بدورُ تيمٍ وأيدي الشربِ هالاتُ  
حُشاشة ما تركنا الماءَ يَقتلها إلا لتَحيا بها منا حُشاشاتُ

١ في نسخة : فراجعهما أبو الحسن .

٢ دوزي : سلّت .

٣ في ق ط : ينصف كان من نصف ؛ ج : لضيف كان من ضيف .

٤ القلائد : ١٨٣ .



قد كان في كأسها من قبلها ثقلٌ  
عَهْدٌ لِيُسْبِي تَقَاضَتُهُ الْأَمَانَاتُ  
يُدْفِي التَّوَهُّمُ لِلْمَشْتَاقِ مُنْتَزِحاً  
تُقْضَى عِدَاتٌ إِذَا هَبَّ الْكُرَى ، وَإِذَا  
زُورٌ يَعْثَلُ قَلْبُ الْمُسْتَهَامِ بِهِ  
لَعَلَّ عَثَبَ اللَّيَالِي أَنْ يَعُودَ إِلَى  
حَتَّى تَفُوزَ بِمَا جَادَ الْخِيَالُ بِهِ

فَخَفَّ إِذْ مُلِئَتْ مِنْهَا الرُّجَاجَاتُ  
بَانَتْ وَمَا قُضِيَتْ مِنْهَا لِبَانَاتُ  
مِنَ الْأُمُورِ ، وَفِي الْأَوْهَامِ رَاحَاتُ  
هَبَّ النَّسِيمُ فَقَدْ تَهْدَى نَجِيَّاتُ  
دَهْرًا ، وَقَدْ بَقِيَتْ فِي النَّفْسِ حَاجَاتُ  
عُنْتِي فَتُبَلِّغْ أَوْطَارَ وَلَدَاتُ  
فَرُبَّمَا صَدَقَتْ تِلْكَ الْمَنَامَاتُ

ولما أعرس المستعين بالله<sup>٢</sup> بنت الوزير الأجل<sup>٣</sup> أبي بكر بن عبد العزيز<sup>٤</sup>  
احتفل أبوه المؤمن في ذلك احتفالاً شهراً ، وأبدع فيه إبداعاً راق من حضره  
وبهتره ، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة ، والأدوات المخترعة ، ما بهتر  
الألباب ، وقطع دون معرفتها الأسباب ، واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس ،  
من دان وقاص ، ومطيع وعاص ، فأتوه مسرعين ، وليوه متبرعين ، وكان  
مدير تلك الآراء ومُدبّرَها ، ومنشئ مخاطباتها ومُجَبّرَها ، الوزير الكاتب  
أبو الفضل ، وصدرت عنه في ذلك الوقت كتب ظهر لإعجازها ، وبهر اقتضائها  
وإيجازها ، فمن ذلك ما خاطب به صاحب المظالم أبا عبد الرحمن بن طاهر<sup>٤</sup> :

- ١ القلائد : عاد .  
٢ المستعين بالله : أحمد بن محمد بن سليمان بن هود ، تولى الحكم بعد أبيه المؤمن محمد بن المقنن  
أحمد سنة ٤٧٨ وظل في الحكم حتى سنة ٥٠١ ، ولم يكن من زعه يوسف بن تاشفين عن الحكم  
من أمراء الطوائف .  
٣ أبو بكر بن عبد العزيز كان وزيراً ببلنسية للمظفر عبد الملك بن المنصور عبد العزيز بن الناصر  
العامري ( انظر ترجمته في القلائد : ١٦٣ وأعمال الأعلام : ٢٠٢ ) .  
٤ أبو عبد الرحمن بن طاهر ، محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر : قام بأمر مرسية حيناً حتى ثار  
عليه أهلها واستفتاوا بالعميد بن عياد فأرسل إليه ابن حمار فأخذها منه وعندئذ انحاز ابن طاهر إلى  
بلنسية وظل فيها حتى توفي سنة ٥٠٧ هـ . ( انظر ترجمته في القلائد : ٥٦ والخيرة - القمم  
الثالث : ٨ والمغرب ٢ : ٢٤٧ وأعمال الأعلام : ٢٠١ ) . وفي طج : أبا عبد الله ابن طاهر .

محلُّكَ أعزَّكَ اللهُ<sup>١</sup> في طيِّ الجوانح ثابتٌ وإن نرحت الدار ، وعيانتك في أحناء الضلوع بادٍ وإن شحطَ المزار ، فالنفس فائزة منك بتمثُّلِ الخاطر بأوفر الحظ ، والعين نازعة إلى أن تمتع من لقائك بظفر اللحظ ، فلا عائدة أسبغُ برِّداً ، ولا موهبة أسوغُ ورداً ، من تفضلك بالخفوف<sup>٢</sup> إلى مانسٍ يَمِّ بمشاهدتك الثامه ، ويتصل بمحاضرتك انتظامه ، ولك فضل الإجمال ، بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال ، وأنا أعزَّكَ اللهُ على شرفِ سُوددك حاكم ، وعلى مشرعِ سنائك حاتم ، وحسبي ما تتحققه من نزاعي وتشوئي ، وتتيقنه من تطلعي وتنوئي ، وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة ، واعترض الاقتراح باستحباب<sup>٣</sup> الصلة ، وأنت وصلَّ اللهُ سعْدَكَ بسماحة شيمك ، وبارع كرمك ، تُنشئ للمؤانسة عهداً ، وتُوري بالمكارمة زئداً ، وتقتضي بالمشاركة شكراً حافلاً وحمداً ، لا زلت مهناً بالسعود المقبلة ، مُسوِّغاً اجتلاء غررِ الأمانى المتهللة ، بمنه ، انتهى .

ثم قال بعد هذا بيسير ، ما نصه<sup>٤</sup> : وركب المستعين بالله يوماً نهرَ سرقسطة يريد طرادَ لذته ، وارتباد نزهته ، وافتقاد أحد حصونه المنتظمة بلببته ، واجتمع له من أصحابه ، من اختصه لاستصحابه ، وفيهم أبو الفضل مشاهداً لانفراجهم ، سالكاً لمنهاجهم ، والمستعين قد أحضر من آلات إيناسه ، وأظهر من أنواع ذلك وأجناسه ، ما راقَ مَنْ حضر ، وفاق حسنه الروض الأنضر ، والزوارق قد حفَّت به ، والتفت بجوانبه ، ونبغات الأوتار تحبس السائر عن عدوه ، وتخرس الطائر المُفصِّح بشدوه ، السمك تثيرها المكاييد ، وتغوص إليها المصايد ، فتبرز منها للعين ، قُضبان درٍ أو سبائك لُجَين ، والراح لا

١ ق : نصرك الله .

٢ ك : بالحقوق .

٣ القلائد : الانزاح بارتقاب .

٤ القلائد : ١٨٥ .

يطمس لها لمع ، ولا يبخص منها بصر ولا سمع ، والدهرُ قد غضت صروفه ،  
واقص من نكره معروفة ، فقال :

لله يَوْمٌ أنيقٌ واضحُ الغررِ  
كأتما الدهرُ لما ساءَ أعتَبنا  
نسيرُ في زورقِ حفّ السفينُ به  
مدَّ الشراعُ بهِ نَشراً على ملكِ  
هو الإمامُ الهمامُ المستعينُ حوى  
تحوي السفينةُ منهُ آيةً عجياً  
تُصاد من قَعْرِهِ النينانُ مُصعدةُ  
وللتدامي بهِ عَبٌّ ومُرْتَشَفٌ  
والشربُ في مدحِ مولىِ اخلقه زهرٌ  
مُفَضَّضٌ مُذْهَبُ الآصالِ والبُكرِ  
فيه بعُتْبِي وأبدي صَفْحَ مُعْتَدِرِ  
من جانبيه بمنظومٍ ومُنْتَشِرِ  
بَدَّ الأوائلَ في أيامهِ الأخرِ  
علياء مؤتمنٍ عن هَدْيِ مُقْتَدِرِ  
بحرٌ تجمَعُ حتى صارَ في نهرِ  
صيداً كما ظفرَ الغواصُ بالدُرِّ  
كالريقِ يَعْدُبُ في وِرْدٍ وفي صدرِ  
يَذْكو وغرَّتْهُ أبيضُ من القمرِ

[ ٤ - من ترجمة ابن السيد ]

وقال في ترجمة العلامة الكبير ، الأستاذ أبي محمد عبد الله بن السيد  
البطليوسي شارح أدب الكتاب<sup>٢</sup> وسقط الزند وغيرهما ، ما صورته<sup>٣</sup> : أخبرني  
أنه حضر مع المأمون بن ذي النون في مجلس الناعورة بالمنية التي تطمح إليها  
المنى ، ومرآها هو المقترح والتمنى ، والمأمون قد احتبى ، وأفاض الحبا ،  
والمجلسُ يروق كالشمس في أفقه ، والبدر [ كالتاج ]<sup>٤</sup> في مفرقه ، والنور  
عبيق ، وعلى ماء النهر مُصْطَبِحٌ ومُغْتَبِقٌ ، والدولاب يثنُ كناقاة إثر الحوار ،  
أو ككشكى من حرِّ الأوار ، والجو قد عنبرته أنواؤه ، والروض قد رشته

١ القلائد : في ود مولى .

٢ ك : أدب الكاتب .

٣ القلائد : ١٩٣ .

٤ زيادة من القلائد .

أنداؤه ، والأُسْدُ قد فَعَّرَتْ أفواهاها ، ومجت أمواهاها ، فقال :

يا مَنْظَرًا إنْ نَظَرْتُ بِهِجَّتَهُ      أَذْكَرَني حُسْنَ جَنَّةِ الخُلْدِ  
تُرْبَةٌ مُسْكٌ ، وَجَوْ عَنَبْرَةٌ ،      وَغَيْمٌ نَدٌّ ، وَطَشٌ ما وَرَدِ  
والماء كاللأَزْوَرْدِ قد نَظَمَتْ      فِيهِ اللَّالِي فَواعِرُ الأَسَدِ  
كأنما جائلُ الحِبابِ به      يَلْعَبُ في جانِبِهِ بالزَرْدِ  
تَرَاهُ يَزْهُووا إذا يَجْلُ بهِ الـ      مَأْمُونُ زَهْوِ الفَتاةِ بالعَقْدِ  
تَخالهِ إنْ بَدَا بِهِ قَمَرًا      تِمًّا بَدَا في مَطالِعِ السَّعْدِ<sup>١</sup>  
كأنما أَلْبَسَتْ حَدائِقَهُ      ما حازَ من شِيمَةٍ وَمِنْ مَجْدِ  
كأنما جادها فَرَوَضَها      بوايِلِ مِنْ بِمِينِهِ رَعْدِ  
لا زَالَ في رِفْعَةٍ<sup>٢</sup> مُضاعِفَةٍ      مَتَمَّ الرِّفْدِ وَارِي الرِّندِ

وقال في وصف هذا المجلس بعينه ، في الكتاب الذي أفرده لترجمة ابن  
السِّيد ، ما صورته<sup>٤</sup> : فمن ذلك أَنه حضر مع القادر بالله بن ذي النون بمجلس  
الناعورة بطُلَيْطَلَةَ في المنية المتناهية البهاء والإشراق ، المباهية لزوراء العراق ،  
التي ينفج شدآها العَطِير ، ويكاد من الغَضارة يُمَطِر ، والقادر بالله رحمه  
الله قد التحف الوَقارَ وارْتداه ، وحكَّم العُقارَ في جوده وتداه ، والمجلسُ  
يشرق كالشمس في الحمل ، ومن حواه<sup>٥</sup> يبتهج كالنفس عند منال الأمل ، والزهر  
عبيق ، وعلى ماء النهر مُصْطَبِخٍ ومغْتَبِقٍ ، والدولابُ يثنُّ كناقاة إثر حُوار ،  
إلى آخر ما سبق .

١ ط ج : يزهي .

٢ قبل هذا البيت في القلائد : « ومنها » .

٣ ق ط ج : في عزة .

٤ هذا التأليف الذي أفرده الفتح لابن السيد أورده المغربي بجملة في أزهار الرياض ٢ : ١٠٣ والنص

الوارد هنا ثابت في الأزهار ص : ١٠٧ .

٥ ط : حماء .

وقال ابن ظافر<sup>١</sup> في وصف هذا المجلس حاذياً حذو الفتح ، ما صورته :  
 حضر الأستاذ أبو محمد ابن السيد عند المأمون ابن ذي النون في بعض منتهاته ،  
 في وقت<sup>٢</sup> طاب نعيمه ، وسرت بالسعود نجومه ، والروض قد أجاد وشيه  
 راقمه ، والماء قد جرت بين الأعشاب أراقمه ، وثم بركة مملوءة ، كأنها  
 مرآة مجلوة ، قد اتخذت سباع الصفر بشاطئها غاباً ، ومجت بها من سائغ الماء  
 لعباً ، فكأنها آساد عيّن ، أدلعت السنة من لجين ، وهي لا تزال تقذف  
 الماء ولا تقتر ، وتنظم لآلي الحجاب بعدما تنثر ، فأمره بوصف ذلك الموضع ،  
 الذي تخد<sup>٣</sup> إليه ركائب القلوب وتوضع ، فقال بديها « يا منظرأ . . . الخ » ،  
 انتهى .

ثم قال الفتح في هذا التصنيف بعد كلام في المذكور ، ما نصه : وما أبدع  
 قوله في وصف الراح ، والحض على النبد للهموم والاطراح ، بمعاطة كاسها ،  
 وموالة إيناسها<sup>٤</sup> ، ومعاقرة دنانها ، واهتصار ثمار الفتوة وأفنانها<sup>٥</sup> ، والإعراض  
 عن الأيام وأنكادها ، والجري في ميدان الصبوة إلى أبعد آماها :

سَلَّ الْمُؤْمَ إِذَا نَبَا زَمَنَ . بِمِدَامَةٍ - صَفْرَاءَ كَالذَّهَبِ  
 مُرَجَّتْ فَمَنْ دَرَّ عَلَى ذَهَبٍ طَافَ وَمَنْ حَبَبَ عَلَى لَهَبٍ  
 وَكَأَنَّ سَاقِيهَا يُثِيرُ شَدَاً مِسْكَ لَدَى الْأَقْوَامِ مُنْتَهَبٍ

ولله هو فقد ندب إلى المنسوب ، وذهب إلى مداواة القلوب من الندوب ،  
 وإبرائها من الآلام ، وإهدائها كل تحيّة وسلام ، وإبهاجها بأصال وبكر ،  
 وعلاجها من هموم وفكر ، في زمن حلي عاظمه ، وجلي في أحسن الصور

١ في ك ق ط ج : وقال الفضل ؛ وصوابه ما أثبت ، فهذا النص في بدائع البدائ ٢ : ٤٠ .

٢ البدائع : يوم .

٣ البدائع : تحب .

٤ أزهار الرياض : بمعاطة كؤوسها ، وموالة تأنيبها .

٥ ك : من أفنانها .

باطله ، ونفقت مُحالاته ، وطبقت أرضه وسماؤه استحالاته ، فليته كأسد ،  
وذئبه مُستأسد ، وحفائه تنمراً ، وبغائه قد استنسر ، فلا استراحة إلا في مُعاطاةِ  
حُميّا ، ومواخاةِ وسيمِ المحيّا ، وقد كان ابنِ عمارِ ذهابِ مذهبه ، وقضضه  
بالإبداعِ وذهبه ، حين دخل سرقُسطةَ ورأى غباوةَ أهلها ، وتكاثفَ جهلها ،  
وشاهد منهم من لا يعلم معنى ولا فصلاً ، وواصل من لا يعرف قطعاً ولا  
وصلاً ، فأقبل على راحه يتعاطاها ، وعكف عليها ما تعدّاها ولا تخطاها ،  
حتى بلغه أنهم تقموا مُعاقرة العُقار ، وجالت ألسنتهم في توبيخه مجالَ ذي  
الفقار ، فقال :

نقمتُ عليّ الرَّاحَ أدمنُ شربها      وقلتم فتى راحٍ وليس فتى مجدٍ  
ومن ذا الذي قادَ الجيادَ إلى الوغى      سيوايَ ومن أعطى كثيراً ولم يكندِ ؟  
فديتكمُ لم تفهموا السرَّ ، إنمّا      قلّيتكمُ جهدي فأبعدتكم جهدي

ودعي ابن السيد ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأُنس والطرب ، وقرع فيه  
السرورُ نبعه بالغرب ، ولاحت نجوم أكواسه ، وفاح نسيم رنّده وآسه ،  
وأبدت صدور أباريقه أسرارها ، وضمت عليه المجالس أزرارها ، والراح  
يديرها أهيف أوطف ، والأمانى تُجنّي وتُقطف ، فقال :

يا رَبِّ لَيْلٍ قَدْ هتَكَتَ حجابَهُ      بمدامةٍ وقّادة كالكوكبِ  
يَسْمَعِي بِهَا أَحْوَى الجُفُونِ كأنّها      من خدّه ورّضاب فيه الأشنّبِ  
بدرانٍ بدرٌ قَدْ أمنتَ غروبِهِ      يَسْمَعِي بِبِدرِ جانح للمغربِ  
فإذا نَعِمْتَ بِرَشْفِ بدرِ غاربِ      فانعم برشفة طالعٍ لم يغربِ

١ ق ك ط ج ودوزي : وأصفائه تنسر ، وفي أزهار الرياض : وأحفاشه ، وكل ذلك خطأ ؛  
والحفاش تحدث عنه الجاحظ في الحيوان ( ٤ : ١٤٧ ) فقال : « وفي البادية حية يقال لها الحفاش...  
ولها وعيد منكر ونفخ وإظهار للصولة وليس وراء ذلك شيء . »

حتى ترى زهرَ النجوم كأنها حولَ المجرّة رَبْرَبٌ في مشربِ  
والليلُ مُنْحَقِرًا يطيرُ غرابه والصبحُ يطرده بِيَازٍ أشهبِ

ثم قال الفتح ، بعد كلام كثير ، ما صورته ٢ : ودخل - يعني ابن السيد -  
سَرَ قُسْطَةَ أيام المستعين وهي جنة الدنيا ، وفتنة المحيا ، ومنتهى الوصف ،  
وموقف السرور والقصف ، ملك نعيم البشاشة ، كثير المشاشة ، وملك أبهجُ  
الفناء ، أريجُ الأرجاء ، يروق المجتلي ، ويفوق النجم المعتلي ، وحضرة مناسبة  
الماء ، منجابه السماء ، يبسم زهرها ، وينساب نهرها ، وتفتح خمائلها ،  
وتتضوع صباها وشمائلها ، والحوادث لا تعترضها ، والكوارث لا تقرضها ٣ ،  
ونازلها من عرس إلى موسم ، وآملها متصل بالأمانى ومُتَمِّم ، فتزل منها في مثل  
الخورنق والسدير ، وتصرف فيها بين روضة وغدير ، فلم يخف على المستعين  
احتلاله ٤ ، ولم تخف لديه خلاله ، فذكره معلماً به ومعرفاً ، وأحضره مُنَوِّهاً  
به ومشرقاً ، وقد كان فرّ من ابن رزّين ، فرار السرور من نفس الخزين ،  
وخلص من اعتقاله ، خلوص السيف من صقاله ، فقال بمدحه ٥ :

هُمُ سَلْبُونِي حَسَنُ صَبْرِي إِذْ بَانُوا      بِأَقْمَارِ أَطْوَاقِ مَطَانِعُهَا بَانَ  
لَنْ غَادِرُونِي بِاللَّوِي إِنْ مَهَجْتِي      مَسَايِرَةَ أَطْعَانَتِهِمْ حَيْثَمَا كَانُوا  
سَقَى عَهْدَهُمْ بِالْحَيْفِ عَهْدُ غَمَائِمِ      يَنَازِعُهَا نَهْرٌ مِنَ الدَّمْعِ هَتَانُ  
أَحْبَابِنَا هَلْ ذَلِكَ الْعَهْدُ رَاجِعٌ      وَهَلْ لِي عَنكُمْ آخِرَ الدَّهْرِ سُلْوَانُ  
وَلِي مَقْلَةٌ عَبْرَتِي وَبَيْنَ جَوَانِحِي      فَوَادٌ إِلَى لُقْيَاكُمْ الدَّهْرَ حَنَانُ  
تَنَكَّرَتِ الدُّنْيَا لَنَا بَعْدَ بَعْدِ كَمْ      وَحَفَّتْ بَنَا مِنْ مَعْضِلِ الْخَطْبِ أَلْوَانُ

١ ك : منفجر .

٢ أزهار الرياض ٣ : ١٠٩ .

٣ ك : تقرضها .

٤ الأزهار : احتلاله ؛ ج : اجلاله .

٥ انظر القلائد أيضاً : ١٩٩ .

أناخت بنا في أرض شنتمريّة  
وشمنا بروفاً للمواعيد أتعبت  
فسرنا وما نلوي على متعذر  
ولا زاد إلا ما انتشته من الصبا  
رحلنا سوام الحمد<sup>٢</sup> عنها لغيرها  
إلى ملك حاباه بالمجد يوسف  
إلى مستعين بالإله مؤيد ،  
جفتنا بلا جرم كأن مودة<sup>٣</sup>  
ولولم تفتد مناسوى الشعر وحده  
فكيف ولم يجعل بها الشعر مكسباً  
ولانحن ممن يرتضى الشعر خطّة  
ومن أوهمته غير ذاك ظنونه  
خليلي من يُعدي علي زمن له  
وهل ريء من قبلي غريق مدامع  
وهل طرفت عين لمجد ولم يكن  
بوجه ابن هود كلما عرض الورى  
فتى المجد في برديه بدر وضيعم  
من النفر الشم الذين أكفهم  
ليوث شرى ما زال منهم لدى الوغى  
وهل فوق ما قد شاد مقتدر لهم  
ألا ليس فخر في الورى غير فخرهم

هو اجس ظن خان والظن حوان  
نواظرنا دهرأ ولم يههم تهتان<sup>١</sup>  
إذا وطن أقصاك آوتك أوطان  
أنوف وخازته من الماء أجان  
فلا ماؤها صدأ ولا النبت سعدان<sup>٣</sup>  
وشاد له البيت الرفيع سليمان  
له النصر حزب والمقادير أعوان  
ننى نحونا منها الأعتة شتان  
لحق لنا بر عليه وإحسان  
فيوجب للمكدي جفاً وحرمان  
وإن قصرت عن شأونا فيه أعيان  
قسم مجال للمقال وميدان  
إذا ما قضى حيف علي وعدوان  
يفيض بعينه الحيا وهو حران  
لها مقلة من آل هود وإنسان  
صحيفة إقبال لها البشر عنوان  
وبجر وقدس ذو الهضاب وثلان  
غيوث ولكن الخواطر نيران  
هزبر بيمناه من السمير شعبان  
ومؤمن بالله لقيه إيمان  
وإلا فإن الفخر زور وبهتان

١ ك والأزهار : هتان .

٢ ك : الحمر ؛ ط : الحمر .

٣ إشارة إلى المثل : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان .



فيا مُستعيناً مُستعاناً<sup>١</sup> لمن نبا به وطن يوماً وعَضَّتْهُ أزمانُ  
كسوتك من نظمي قلادة مَفْخَرِ يباهي بها جيدُ الزمانِ<sup>٢</sup> ويزدانُ  
وإن قَصُرَتْ عَمَّا لبست فربّما تجاور<sup>٣</sup> در<sup>٤</sup> في النظامِ ومَرَّجانُ  
معانٍ حكت غنج الحسان كَأَنِّي بهن حبيب أو بَطَلِيوسُ<sup>٥</sup> بغداد  
إذا غرست كَفَاكَ غرس مكارم بأرضي أَجَنَّتْكَ الثنا منه أغصانُ

وقال في وصف مجلس<sup>٤</sup> لأبي عيسى ابن لبون<sup>٥</sup> أحضر إليه ابن السيد منوهاً بقدره ، ما صورته<sup>٦</sup> : وأحضره<sup>٧</sup> إلى مجلس نام عنه الدهر وغفل ، وقام لفرط أنسه واحتفل ، قد يانت صُرُوفه ، ودنت من الزائر قطوفه ، وقال : هلم بنا إلى الاجتماع بمدهبك ، والاستمتاع بماشته ببراعة<sup>٨</sup> أدبك ، فأقاموا يُعْمِلُونَ كاسهم ، ويصلون إيناسهم ، وباتوا ليلهم<sup>٩</sup> ما طرقتهم نوم ، ولا عَدَاهُم عن طيب اللذات سَوَم .

ثم قال بعد كلام كثير<sup>٩</sup> : وحضر ابن السيد عند عبد الرحمن الظافر بن ذي النون مجلساً رَفَعَتْ فِيهِ الْمَنَى لَوَاءَهَا ، وَخَلَعَتْ عَلَيْهِ<sup>١٠</sup> أَضْوَاءَهَا ، وَزَقَّتْ

١ ك : مستعاناً .

٢ ك : جيد المعاني ؛ ط والأزهار : جيد المعالي .

٣ ط : تجاوز .

٤ ط ج ق : في وصفه مجلساً .

٥ أبو عيسى ابن لبون : هو لبون بن عبد العزيز بن لبون من أصحاب القادر بن ذي النون ، رأس بمربيط من أعمال بلنسية ثم تحلّى عنها لأبي مروان بن رزين ، وكان ممدوداً في الأجواد موصوفاً بتجويد القريض ( انظر ترجمته في الحلة ٢ : ١٦٧ والقلائد : ٩٩ والمغرب ٢ : ٣٧٦ والذخيرة - القسم الثالث : ٢٣ ) .

٦ أزهار الرياض ٣ : ١٢١ .

٧ ك : من براعة .

٨ ك : ليلتهم .

٩ أزهار الرياض ٣ : ١٢٧ .

١٠ زاد في الأزهار : الشمس .

إليه المسرات أبكارها ، وفارقت إليه الطير أوكارها ، فقال يصفه :

[ ومجلس جمّ الملاهي أزهرًا  
لم ترّ عيني مثله ولا ترّى  
إذا تردّى وشبه المصورًا  
ونسج قرقوب ونسج تُسترا<sup>١</sup>  
كأنما الإبريقُ حين قرقرًا  
وحشيةً ظلّت تناغي جُؤذرا<sup>٢</sup>  
كأنما معجّ عقيقًا أحمرًا  
أو عابد الرحمن يومًا ذكرا  
الظافر الملك الذي منّ ظفرا  
لو أن كسرى راءه أو قيصرًا  
تُبدي سماء الملك منه قمرا  
يا أيها المنضي المطايا بالسرى  
يا أيها المنضي المطايا بالسرى

\* \* \*

[ ٥ - من ترجمة ابن العطار ]

وقال الفتح في ترجمة الأديب أبي القاسم ابن العطار ، ما صورته<sup>٣</sup> :  
هو أحد أدباء إشبيلية ونحاتها ، العامرين لأرجاء المعارف وساحاتها ، لولا  
مواصلة راحاته ، وتعطيل بُكره وروحاته ، وموالاته للفرج ، ومغالاته  
في عرف الأنس أو أرج<sup>٤</sup> ، لا يُعرجُ إلا على ضفة نهر ، ولا يلهج<sup>٥</sup> إلا بقطعة

١ زيادة من أزهار الرياض .

٢ تستر : مدينة بخوزستان ، وقرقوب : قرية من أصاها .

٣ القلائد : ٢٨٤ ( قلت : وانظر ترجمة أبي القاسم ابن العطار في المغرب ١ : ٢٥٤ ) .

٤ ك : عرف الأنس والأرج .

٥ ك : ولا يبتج .

زهر ، ولا يحفل بلام ، ولا ينتقل<sup>١</sup> إلا في طاعة غلام ، ناهيك من رجل مخلوع  
العنان في ميدان الصبابة ، مُغرم بالحسان غرام يزيد بحبابة ، لا تراه إلا في  
ذمة انهماك ، ولا تلقاه إلا في لمة انهماك ، رافعاً لرايات الهوى ، فارعاً لثنيات  
الجوى ، لا يقفِر فؤاده من كلف ، ولا يبيت إلا رهن تلف ، أكثر خلق  
الله تعالى علاقة ، وأحضرهم لمشهد خلاقة<sup>٢</sup> ، مع جزالة تحرك السكون ،  
وتضحك الطير في الوكون ، وقد أثبت له ما يرتجله<sup>٣</sup> في أوقات أنسه وساعاته ،  
وينفث<sup>٤</sup> به أثناء زفراته ولوعاته ، فمن ذلك ما قاله في يوم ركب فيه النهر  
على عادات انكشافه ، وارتضاعه لثغور اللذات وارتشافه<sup>٥</sup> :

عبرنا سماء النهر والجو مشرق<sup>١</sup> وليس لنا إلا الحباب نجوم<sup>٢</sup>  
وقد ألبسته الأيك برد ظلالها وللشمس في تلك البرود رقوم<sup>٣</sup>

وله فيه :

مررنا بشاطي النهر بين حدائق<sup>١</sup> بها حدق الأزهار تستوقف الحدق<sup>٢</sup>  
وقد نسجت كف النسيم مفاضة<sup>٣</sup> عليه وما غير الحباب لها حلق<sup>٤</sup>

وله :

هبت الريح بالعشي فحاكت<sup>١</sup> زرداً للغدير ناهيك جنة<sup>٢</sup>  
وانجلى البدر بعد هدء فصاغت<sup>٣</sup> كفه للقتال منه أسية<sup>٤</sup>

١ القلائد : ينتقل عن المدام ، وفي ق ج ط : لم يحفل بلام ولم ينتقل إلا . . . إلخ .  
٢ ج : خلاقة ؛ وقد أثبتنا دوري في ملحق المعاجم « خلاقة » عن القلائد ، وقال : كأنها تعني  
(Réunion de debauchés) .

٣ هذه رواية ق ج ط والقلائد ؛ وفي ك : بما ارتجله .

٤ هذه رواية ج ط ق والقلائد ؛ وفي ك : ونفت .

٥ انظرهما أيضاً في المغرب ١ : ٢٥٤ .

٦ ق ط ج : بعد هذا فحاكت .

وقوله ١ :

لله بهجةٌ منزهةٌ ضربتَ بهِ فوقَ الغديرِ رواقها الأنشامُ  
فمعَ الأصيلِ النهرُ درعٌ سابغٌ ومعَ الضحى يلتاحُ منه حُسامُ

وله :

ما كالعشيّة في رواءِ جمالها وبُلُوغِ نَفْسِي مُنتَهَى آمالها  
ما شئتُ شمسَ الأرضِ مُشرقةً السنا والشمسُ قد شدتْ مَطِيَّ رحالها  
في حَيْثُ تَنسَابُ المِياهُ أراقماً وتُعِيرُكَ الأفياءُ بَرْدَ ظلالها

وله :

لله حُسنٌ حديقه بَسَطتْ لنا منها النفوسَ سِوالفُ ومَعاطِفُ  
تُخْتالُ في حُللِ الربيعِ وحلبيهِ وَمِنَ الربيعِ قلائدٌ ومَطارِفُ

[ ٦ - من ترجمة ابن عمار ]

وقال الفتح في ترجمة ابن عمار ٢ : أخبرني ذو الوزارتين الأجلّ أبو المطرف  
ابن عبد العزيز أنه حضر معه عند المؤمن في يوم جادت فيه السماء بهطلها ،  
وأبتعت وببها بطلتها ، وأعقب ٣ رعداًها برقها ، وانسكب دراكاً ودقها ،  
والأزهار قد تجلت من كامها ، وتحلت بدر غمامها ، والأشجار قد جلي  
صداها ، وتوشحت بندأها ، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد ، تدبرها  
أناملُ تكاد من اللطافة تُعقّد ، إذا بفتى من فتیان المؤمن أخرس لا يُفصح ،

١ هذه الأبيات متقدمة في القلائد على القطعتين اللتين قبلها ، وانظر المغرب ١ : ٢٥٤ .

٢ القلائد : ٨٥ .

٣ ق ج ط : وارقب .

ومستعجم لا يبين ولا يوضح ، متمرّ تَمَرَّ اللَّيْثُ ، متمرّ كالبطل الفارس عند الغَيْثِ ١ ، وقد أفاض على نفسه دِرْعاً ، تضيق بها الأستة ذِرْعاً ، وهو يريد استشارة المؤمن في التوجه ٢ إلى موضع بعثته إليه ووجهه ، وكلُّ من صده عنه نهره ونجّهه ، حتى وصل إلى مكان انقراذه ، ووقف بإزاء سواده ٣ ، فلماً وقعت عينُ ابنِ عمّار عليه ، أشار بيده إليه ، وقربّه واستدناه ، وضمّه إليه كأنّه تَبَنّاه ، وحدث ٤ أن يخلع عنه ذلك الغدير ، وأن يكون هو الساقى والمُدِير ، فأمره المؤمن بخلعه ، وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه ، وقام يسقي على حكمه ورسمه ، فلماً دبت فيه الحميا ، وشبت غرامه بهجة ٥ ذلك المحيا ، واستنزله سورة العُقار ، من مرّب الوقار ، قال :

وهويتهُ يسقي المدام كأنه  
متأرجح الحركات تندى ربحه  
يسعى بكأس في أنامل سوسن  
يا حامل سيف الطويل نجاده  
إبتاك بادرة الوغى من فارس  
جهم وإن حسر اللثام ٥ فإنما  
يطغى ويلعب في دلال عذاره  
سلم فقد قصف القنا غصن النقا  
عنا بكاسيك ، قد كفتنا مقلة

قمر ٦ يدور بكوكب في مجلس  
كالغصن هزته الصبا بتنفس  
ويدير أخرى من محاجر نرجس  
ومضرف الفرس القصير المحبس  
خشن القناع على عذار أمليس  
كشف ٦ الظلام عن النهار المشمس  
كالمهر يمرح في اللجام المجرس  
وسطا بليث الغاب ظبي المكنيس  
حوراء قائمة بسكر المجلس ٧

١ القلائد : متمرّ تشمر البطل الباسل عند الغيث .

٢ القلائد : في الخروج .

٣ ق ج ط : اساده .

٤ هذه رواية القلائد : وحد ؛ وفيك : وجد ؛ وفي ق ط ج : وأشار .

٥ دوزي : القناع ؛ ج : حدر اللثام .

٦ بعض أصول القلائد : رفع .

٧ بعض أصول القلائد : الأنفيس .

وأورد هذه القصة صاحبُ البدائع بقوله<sup>١</sup> : حضر أبو المطرف ابن عبد العزيز عند المؤمن بن هود في يوم أجرى الجوُّ فيه أشقرَ برِّقهِ ، ورمى بنَبَلٍ<sup>٢</sup> ودَقَه ، وتحملت<sup>٣</sup> الرياحُ فيه أوقار السحاب على أعناقها ، وتمايلت قاماتُ الأغصان في الحُللِ الخضر من أوراقها<sup>٤</sup> ، والرياحُ قد أشرفت نجومُها في بروج الراح ، وحاكت شمسُها شمسَ الأفق فتلفتت بغيوم الأقداح ، ومُدِيرُها قد ذاب ظرْفاً فكاد يسيل من إهابه ، وأخجل خَدَّها حسناً فتظلل بعرق حَبَابِه ، إذا بقى من فتیان المؤمن قد أقبل متدرِّعاً كالبدر اجتَابَ سحاباً ، والحر قد اكتست حباباً<sup>٥</sup> ، وقد جاء يريد استشارة المؤمن في الخروج إلى موضع كان عَوَّل فيه عليه ، وأمره أن يتوجَّه إليه ، فحين لمحهُ ابنُ عمار والسكر قد استحوذ على لبِّه ، وبثَّ سراياه في ضواحي قلبه<sup>٦</sup> ، جدَّ في أن يستخرج تلك الدرَّة من ماء ذلك الدَّلَّاص ، وأن يجلِّي عنه سَهْكَه كما يُجلِّي الخبثُ عن الخِلاص ، وأن يكون هو الساقِ<sup>٧</sup> ، فأمره المؤمن بقبول أمره وامتناله ، واحتذاء مثاله ، فحين ظهرت تلك الشمس من حُجُبِها ، ورُميت شياطين النفوس من كُمَيْت المدام بشُهْبِها ، ارتجل ابنُ عمار « وهويته ... إلخ » إلا أنَّه قال إثر قوله :

١ انظر بدائع البدائه ٢ : ١٣٣ وسيرد هذا النص في الباب السابع من النفع .

٢ البدائع : ببندق .

٣ البدائع : وحملت .

٤ زاد في البدائع والباب السابع : والأزهار قد تفتحت عيونها والكمائم قد ظهر مكنونها ، والأشجار قد انصقلت بالقطر ( بمداوس القطر ) ؛ ونشرت ما يفوق ألوان البز ، وبثت ما يعلو أرواح المطر .

٥ بعدها في البدائع والباب السابع : والطاوس انقلب حباباً ، فهو ملك حسناً إلا أنه جسد ، وغزال ليناً إلا أنه ( في هيئة ) الأسد .

٦ بعدها في البدائع والباب السابع : فأشار إليه وقربه واستبدع ذلك اللباس واستغربه وجد ...

٧ في البدائع والباب السابع : وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه ، ويكون هو الساقِ على عادته القديمة ورسه .

إِيَّاكَ بَادِرَةَ الْوَعْيِ مِنْ فَارِس

ما صورته :

يضع السنان على العذار الأملس

ولابن عمار الرائية المشهورة في مدح المعتضد عباد والد المعتمد ، وهي<sup>١</sup> :  
أدرِ المدامة<sup>٢</sup> فالنسيمُ قد انبرى  
والصبحُ قد أهدى لنا كافورة<sup>٣</sup>  
والروض كالחסنا كساه زهره<sup>٤</sup>  
أو كالغلام زها بورد خدوده  
روض كأن النهر فيه معصم<sup>٥</sup>  
وتهزه ريح الصبا فتخاله<sup>٦</sup>  
عباد المخضر نائل كفه  
ملك إذا ازدحم الملك بمورد<sup>٧</sup>  
أندى على الأكباد من قطر الندى  
يختار إذ يهب الخريدة كاعبا<sup>٨</sup>  
قد أح زند المجد لا ينفك من  
لا خلقت أقرأ من شفار حسامه  
أيقنت أنتي من ذراه بجنة  
وعلمت حقا أن ربي مخصب<sup>٩</sup>  
من لا توازنه الجبال إذا احتبي  
ماض وصدور الرمح يكهم والطبا

والنجم قد صرف العنان عن السرى  
لما استرد الليل منا العنبرا  
وشيا وقتله نداء جوهر  
خجلا وتاه بأسهين معدرا  
صاف أطل على رداء أخضرا  
سيف ابن عباد يبدد عسكرا  
والجو قد ليس الرداء الأغبرا  
وتحاه لا يردون حتى يصدرا  
وأذ في الأجنان من سنة الكرى  
والطرف أجرد والحسام مجوهر  
نار الوعى إلا إلى نار القرى  
إن كنت شبهت المواكب أسطرا  
لما سقاني من نداء الكوثر  
لما سألت<sup>٣</sup> به الغمام المظبرا  
من لا تسابقه الرياح إذا جرى  
تنبو وأيدي الخيل تعثر في الثرى

١ انظر القلائد : ٩٦ ومحمد بن عمار لصلاح خالص ص : ١٨٩ ولم تورد منها ج إلا بضعة

أبيات وسائرهما بياض .

٢ ج : الزجاجية .

٣ القلائد : أسال .

قاد الكئاب كالكواكب فوقهم  
 من كل أبيض قد تقلد أبيضاً  
 ملك يروك خلقه أو خلقه  
 أقسمت باسم الفضل حتى شمته  
 وجهلت معنى الجود حتى زرته  
 فاح الثرى متعظراً بشنائه  
 وتوجت بالزهر صلح هضابه  
 هصرت يدي غصن الغي من كفته  
 حسبي على الصنع الذي أولاه أن  
 يا أيتها الملك الذي حاز الملا  
 السيف أفصح من زياد خطبة  
 ما زلت تغني من عنا لك راجياً  
 حتى حلت من الرياضة محجراً  
 شقيت بسيفك أمة لم تعتد  
 أثرت رُمحك من رؤوس ملوكهم  
 وصيغت درعك من دماء كمامهم  
 وإليكها كالروض زارته الصبا  
 نمتها وشياً بذكرك مذهباً  
 من ذا ينافخي وذكرك مندال  
 فلئن وجدت نسيم مدحي عاطراً

من لأهمم مثل السحاب كنهوراً  
 غضباً وأسر قد تقلد أسمراً  
 كالروض يحسن منظرأ أو مخبرأ  
 فرأيت في بردتية مصوراً  
 قرأت في راحتية مفسراً  
 حتى حسبتنا كل ترب عنبرأ  
 حتى ظنتنا كل هضب قيصراً  
 وجات به روض السرور منوراً  
 أسعى بجدة أو أموت فأعدراً  
 وحباه منه بمثل حمدي أنورا  
 في الحرب إن كانت يمينك منبرا  
 نيلاً وتغني من عنا وتجبيراً  
 رجباً وضمت منك طرفاً أحورا  
 إلا اليهود وإن تسمت بربرأ  
 لما رأيت الغصن يعشق ثمرا  
 لما علمت الحسن يلبس أحمرأ  
 وحنا عليه الطل حتى نورأ  
 وفتقتها مسكاً بجمدك أذفرا  
 أوردته من نار فكري مجمراً  
 فلقد وجدت نسيم برك أعطرا



[ ٧ - من ترجمة ابن وهبون ]

وقال في ترجمة عبد الجليل بن وهبُون المُرسي<sup>١</sup> : ركب بإشيلية زورقاً في نهرها الذي لا تدانيه الصَّراة ، ولا يضاهيه الفُرات ، في ليلة تنقبت بظلمتها<sup>٢</sup> ، ولم يبدُ وَضَحٌ في دُهُمتها ، وبين أيديهم شمعتان قد انعكس شعاعهما في اللجَّة ، وزاد في تلك البهجة ، فقال :

كأتما الشمعتان إذ سمّتا      خدّاً غلامٍ مُحسّن الغيّدِ  
وفي حشا النهر من شعاعهما      طريقُ نارِ الهوى إلى كبدي

وكان معه غلام البكري<sup>٣</sup> معاطياً للراح ، وجارياً في ميدان ذلك المراح ، فلما جاء عبد الجليل بما جاء ، وحلّتي<sup>٤</sup> للإبداع الجوانب والأرجاء ، حسده على ذلك الارتجال ، وقال بين البطء والاستعجال :

عَجِبَ بِمَنْظَرِ لَيْلَةٍ لِيَاءِ      تُجَنِّي بِهَا اللَّذَاتُ فَوْقَ الْمَاءِ  
فِي زورقٍ يَزْهُو بِغُرَّةِ أَغْيَدٍ      يَخْتَالُ مِثْلَ الْبَانَةِ الْغَيْنَاءِ  
قَرَّتْ يَدَاهُ الشَّمْعَتَيْنِ بِوَجْهِهِ      كَالْبَدْرِ بَيْنَ النَّسْرِ وَالْجُوزَاءِ  
وَالتَّاحَ تَحْتَ الْمَاءِ ضَوْءُ جَبِينِهِ      كَالْبَرْقِ يَخْفِقُ فِي غَمَامِ سَمَاءِ

[ ٨ - من ترجمة ابن طاهر ]

وقال الفتح رحمه الله<sup>٥</sup> : دعيت يوماً إلى منية المنصور بن أبي عامر ببلنسية ،

١ القلائد : ٢٤٢ .

٢ ق ج ط ك : في ظلمتها .

٣ هو أبو الحسن حكيم بن محمد غلام أبي عبيد البكري ( انظر ترجمته في الذخيرة - القمم الثاني - ٢٢٠ والقلائد : ٢٩٠ وبنية الملتبس ص : ٢٦٥ والمسالك ١١ : ٣٨١ والمغرب ١ : ٣٤٨ ) .

٤ ق ط ج : وحل .

٥ القلائد : ٦٨ .

وهي منتهى الجمال ، ومزهى الصبأ والشمال ، على وهي بنائها ، وسكني<sup>١</sup>  
 الحوادث برهة بفنائها<sup>٢</sup> ، فوافيتها والصبح قد ألبسها قميصه ، والحسن قد شرح  
 بها عويصه ، وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه ، وتوشحت بالأزر  
 الذهبية<sup>٣</sup> أثوابه ، يخترقه جدول كالحسام المسلول ، وينساب فيه انسياب الأيم  
 في الطلول ، وضمفاته بالأدواح محفوفة ، والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة ،  
 وفيه يقول علي<sup>٤</sup> بن أحمد أحد شعرائها ، وقد حلته مع طائفة من وزرائها :

قم سقني ، والرياضُ لابسَةٌ      وشياً من النور حاكه القطرُ  
 في مجلسٍ كالسماءِ لاحٍ بهِ      من وجهٍ من قد هويتُهُ بدرُ  
 والشمس قد عصفرت غلائلُها      والأرض تندى ثيابها الخضراً  
 والنهرُ مثلُ المجرِّ حفَّ بهِ      من الندامى كواكبُ زهرُ

فحللت ذلك المجلس وفيه<sup>٥</sup> أخذان ، كأنهم الولدان ، وهم في عيش لَدَن ،  
 كأنهم في جنة<sup>٦</sup> عَدَن ، فأنخت لديهم ركائبي وعقلتها ، وتقلدت بهم رغائبي  
 واعتقلتها ، وأقمنا نتنعم بحسنه طولَ ذلك اليوم ، ووافى الليل فذُدنا عن  
 الجفون طروق النوم ، وظللنا بليلة كأن الصبح منها مقدود ، والأغصان تيمس  
 كأنها قُلود ، والمجرة تترأى نهراً ، والكواكب تحالها في الجوزهرأ ،  
 والثرياً كأنها راحة تشير ، وعطارد لنا بالطرب بشير ، فلما كان من الغد وافيت  
 الرئيس أبا عبد الرحمن زائراً ، فأفضنا في الحديث إلى أن أفضى بنا إلى ذكر

١ القلائد : وسكون .

٢ القلائد : في فنائها .

٣ القلائد : المذبة .

٤ ك والقلائد : فاسقني .

٥ تأخر هذا البيت عن الذي يليه في القلائد .

٦ ق : وفيهم .

٧ ق : جنات .

مترهنا بالأمس ، وما لقينا فيه من الأانس ، فقال لي : ما بهجة موضع قد بان  
 قَطينه وذهب ، وسلب الزمان بهجته وانتهب ، وباد فلم يبق إلا رسمه ، ومحاه  
 الحدثان فما كاد يلوح وسمه <sup>١</sup> ، عهدي به عندما فرغ من تشييده ، وتُنوحي  
 في تنسيقه وتنضيده ، وقد استدعاني إليه المنصور في يوم <sup>٢</sup> حلَّت فيه الشمس  
 برج شرفها ، واكتست <sup>٣</sup> الأرض بزخرفها ، فحللت به والدوخ تميم معاطفه ،  
 والتَّورُ ينجله قاطفه ، والمدام تطلع به وتغرب ، وقد حلَّ به قَحَطان ويَعْرُبُ ،  
 وبين يدي المنصور مائة بْغلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع ، ولا يحل  
 غير الفؤاد من مَرَبَع ، وهم يديرون رحيقاً ، خلتها في كأسها دُرّاً أو عقيقاً ،  
 فأقمنا والشَّهْبُ تغازلنا ، وكأن الأفلاك منازلنا ، ووهب المنصور في ذلك اليوم  
 ما يزيد على عشرين ألفاً من صِلَاتٍ متصلات ، وأقطع ضياعاً ، ثم توجع لذلك  
 العهد ، وأفصح بما بين ضلوعه من الوجد ، وقال :

سَقِيّاً لِمَتْرَةَ اللّوِي وَكثيبيها إذ لا أرى زمناً كأزماني بها

\* \* \*

[ ٩ - من رسالة للفتح ]

وما أحسن ما كتب به الفتح إلى بعض الملوك يصف نزهة ببعض منترهات  
 الأندلس الموقفة ، ويذكر استضاءته فيها بشموس المسرة المشرقة ، وهو :  
 أطال الله سبحانه بقاء ناصر الدولة ، ومحبي الملة ، الذي حَسُنَ بَلقياه  
 العيش ، وتزين بمحياه الجيش ، وراق باسمه الملك ، وجرت بسعده الفلك ،  
 وأثار به الليل الدامس ، ولاح له الأثر الطامس ، وجرى الدهر لسطوته خائفاً ،  
 وغدا السعد بعقوته طائفاً ، والزمان ببرود عليها ملتحف ، ولثغور نَداه

١ ق : إلا وسمه .

٢ ك : وقت .

٣ ك : واكتست فيه .

مرتشف ، ولا زال للمجد يتملكه ، والسعد يحمله فلكه ، أما وقد وافقتني أيامه  
أيده الله سبحانه وفاقاً ، ورأيت للبيان عنده نفاقاً ، فلا بد أن أرسل كتابه أفواجاً ،  
وأفيض من بجره أمواجاً ، وأصف ما شاهدته من اقتداره ، وعابته من حسن  
إيراده وإصداره ، بمقال أفصح من شكوى المحزون ، وأملح من رياض  
الحزون ، وقد كنت ، أيده الله تعالى ، كلفاً بالدول وبهائها ، لهجاً بالبلوغ إلى  
انتهائها ، لأجد دولة أرتضيها ، وحظوة علياء أقتضيها ، فكلُّ مُلِكٍ فاوضته سرّاً  
وجهرّاً ، وكلُّ مُلِكٍ قلبته بطناً وظهراً ، والنفس تصدُّ عنه صدود الجبان عن  
الحرب ، والملائكة الكرام عن الشرب ، إلى أن حصَلتُ لديه ، ووصلت بين  
يديه ، فقلت : الآن أمكن من راحِ البغية الانتشاء ، وتمثلت ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ  
الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُونَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾  
(فاطر : ٣٤) وما زلتُ أسايره حيث سار ، وآخذ اليمين تارة وتارة اليسار ، وكل  
ناحية تُسفر لي عن خدّ روض أزهر ، وعِذار نبتٍ أخضر ، وتبسم عن ثغر  
حباب ، في نهر كالحباب ، وترقّل من الربيع في ملابس سندسيات ، وتُهدي  
إلينا نوافح مسكيات ، وتُرهمي من بهجتها بأحسن منظر ، وتتيه بجلباب أبتنع  
من بُردِ الشباب الأنضر ، فجلنا فيها يميناً وشمالاً ، واستخبرنا عن أسرارها  
صبّاً وشمالاً ، ثم مال بنا ، أيده الله تعالى ، عن هذه المسارح السنيّة ، والمنازل  
البيهيّة ، إلى إحدى ضياعه الحالية ، وبقاعه العالية ، فحللناها والأيمُ قد  
عَرِي من جلبابه ، واليوم قد اكتهل بعد شبابه ، فترلنا في قصور يقصر عنها  
جعْفَرِيُّ جعفر<sup>٢</sup> ، وقصور بني الأصفر ، تهدي من لبّاتها بُرداً محبّراً ، وتُبدي  
من شدّها مسكاً وعنبراً ، وقد لاحت من جوانبها نجومُ أكواس لو رآها أبو  
نواس لجلعها شعاره ، ووقف على نعتها أشعاره ، ولم يتخذ سواها نُجعة ،  
ولا نبّه خَمّاره بعد هجعة ، فتعاطيناها والسعد لنا خادم ، وما غير السرور

١ هذه رواية ق ك ج ط ؛ وفي دوزي : الأخضر .

٢ يعني جعفرأ المتوكل وقصره المسمى بالجعفري .

علينا قادم ، وخلود سقاتها قد اكتسبت من سناها ، وقدودهم تتهيل علينا  
 بجناها ، ونحن بين سكر وصحو ، وإثبات لها ومحو ، وإصاححة إلى بسم وزير ،  
 والتفاتة إلى ملك ووزير ، إلى أن ولّى النهار فحيّانا ، وأقبل الليل المميت فأحيانا ،  
 فوصلنا بلهؤ وقصف ، وعيش يتجاوز كل وصف ، فكأن يومنا مقيم ، أو  
 كأن ليلنا من الظلام عقيم ؛ ولما سلّ الفجر حسامه ، وأبدى لعبوس الليل  
 ابتسامه ، وجاء يخال اختيالاً ، ويمحو من بقايا الليل نيالاً ، قمنا نتنادب للمسير ،  
 وكلّنا في يد النشوة أسير ، فسِرنا والملكُ الأجلُ يقدّمنا ، والأيام تخدمنا ، فلا  
 زالت الأيام به زاهية ، وعن سواه لاهية ، ما عمر وكرأ عقاب ، وكان للشهور  
 غرر وأعقاب ، انتهى .

\* \* \*

[ ١٠ - من ترجمة الراضي ]

وقال الفتح في ترجمة الراضي بالله أبي خالد يزيد بن المعتمد بن عباد بعد  
 كلام ما صورته<sup>١</sup> : وأخبرني المعتز<sup>٢</sup> بالله أن أباه المعتمد وجّهه - يعني أخاه  
 الراضي - إلى شلب والياً ، وكانت ملعب شبابه ، ومألّف أحبابه ، التي عمر  
 نجودها غلاماً ، وتذكر عهودها أحلاماً ، وفيها يقول يخاطب ابن عمار وقد  
 توجه إليها :

ألا حيّ أوطاني بشلب أبا بكرٍ وسلهنّ هل عهد الوصال كما أدري  
 وسلّم على قصر الشراحيب من فتى له أبدأ شوق إلى ذلك القصر

وقصر الشراحيب هذا متناه في البهاء والإشراق ، مباح لزوراء العراق ،  
 ركضت فيه جياد راحاته ، وأومضت برُوق أمانيه في ساحاته ، وجرى الدهر  
 مطيعاً بين بكره وروحاته ، أيام لم تحلّ عنه تائمه ، ولا خلت من أزاهير

١ القلائد : ٣٢ .

٢ القلائد وقط : المعتد ؛ ك ج : المعتمد .

الشباب كئامه ، وكان يعتدُّها مُشْتَهَى<sup>١</sup> آماله ، ومنتهى أعماله ، إلى بهجة جنّياتها ، وطيب نفحاتها وهياتها ، والتفاف حمائلها ، وتقلدها بنهرها مكان حمائلها ، وفيها يقول ابن اللبّانة :

أما عَلِمَ المَعْتَرَى<sup>٢</sup> بالله أنني بحضرتّه في جنّة شقّها نهرٌ  
وما هو نهر أعشَبَ النبتُ حوله ولكنّه سيفٌ حمائله خضُرٌ

فلما صدر عنها وقد حسنت آثاره في تدبيرها ، وانسدلت رعايته على صغيرها وكبيرها ، نزل المعتمد عليه مشرفاً لأوبته ، ومعرفاً بسُمُو قدره لديه وربته ، وأقام يومه عنده مستريحاً ، وجرى في ميدان الأُنس بطلاً مُشِيحاً ، وكان واجداً على الراضي فَجَلَّت الحميا أفقه ، ومحت غيظه عليه وحنقه ، وصورته له عين حنوه ، وذكرته بَعده فجنح إلى دنوه ، وبين ما استدعى وأوفى ، مالت بالمُعْتَمَد نَشوته وأغفى ، فألفاه صريعاً في منتداه ، طريحاً في منتهى مداه ، فأقام تجاهه ، يرتقب انتباهه ، وفي أثناء ذلك صنع شعراً أتقنه وجوّده ، فلما استيقظ أنشده :

ألان تَعُودُ حَيَاةُ الأَمَلِ وَيَدْنُو شِفاءُ فؤادِ مُعَلِّ  
ويُورِقُ للعزِّ غُصْنُ ذَوَى وَيَطْلُعُ للسَّعدِ نِجْمٌ أَفْلُ  
فقد وَعَدْتَنِي سَحَابُ الرضا بوابِلِها حينَ جادت بِطَلِّ  
أيا مَلِكاً أمرُهُ نَافِذٌ فَمَنْ شَأْنُ أَعزَّ وَمَنْ شَأْنُ أَدَلِّ  
دَعَوْتَ فَطارَ بِقَلْبِي السُّرورُ وإلِيك ، وإن كانَ مِنْكَ الوَجَلُ  
كما يَسْتَطيرُكَ حُبُّ الوَغى إليها وفيها الطُّبّا والأَسَلُ  
فلا غَرَوُ إن كانَ مِنْكَ اغْتِفارٌ وإن كانَ مِنّا جَميعاً زَلُّ

١ في القلائد : مجنى ؛ وفي دوزي : عيا .

٢ في الأصول : المعتد .

فمثلك - وهو الذي لم نَجِدْه عاداً<sup>١</sup> بلْجُم على من جَهِلٍ

\* \* \*

[ ١١ - من ترجمة المتوكل ]

وقال في ترجمة المتوكل على الله ابن الأَفطس ، ما صورته<sup>٢</sup> : وأخبرني  
الوزير أبو محمد بن عبدون ، أن الجذبَ توالى بحضرته<sup>٣</sup> حتى جَعَتْ مَذَانِبُهَا ،  
وَاغْبَرَتْ جَوَانِبُهَا ، وغرد المكاء في غير رَوْضِهِ ، وخاض اليباسُ بالناسِ ،  
أعظم خَوْضِهِ ، وأبدت الخمائلُ عبوسَهَا ، وشكت الأرضُ للسماءِ بوسَهَا ،  
فأقلع المتوكلُ عن الشرب واللَّهْوِ ، ونزَعَ ملابسَ الخِيَلِ والرَّهْوِ ، وأظهر  
الخشوعَ ، وأكثر السجود والركوعَ ، إلى أن غَيِمَ الجَوْ ، وانسجم النَوّ ،  
وصاب الغمام ، وترنمتُ الحمام ، وسَقَرَتِ الأنوارُ ، وزَهَتِ النجومُ  
والأغوارُ ، واتفق أن وصل أبو يوسف المُغَنِّي والأرضُ قد لبست زخارفها ،  
ورقَمَ الغمامُ مَطَارِفَهَا ، وتديجتُ<sup>٤</sup> الغيطان والرُّبَى ، وأرَجَتِ نَفَحاتِ  
الصَّبَا ، والمتوكل ما فُضَّ لتوبته خِتَاماً ، ولا نفُضَ عَن قلبه منها قِتَاماً<sup>٥</sup> ،  
فكتب إليه :

أَلَمْ أَبُ يَوْسُفَ وَالْمَطَرَ      فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يُنْتَظَرُ  
وَلَسْتُ بِأَبِ وَأَنْتَ الشَّهِيدُ      حُضُورَ نَدِيكَ فَيَمُنُ حُضْرُ  
وَلَا مَطْلَعِي وَسَطَ تِلْكَ السَّمَاءِ      بَيْنَ النُّجُومِ وَبَيْنَ الْقَمَرِ

١ القلائد : لم يزل يمود .

٢ القلائد : ٤٣ .

٣ ك : أن الأرض توالى عليها الجذب بحضرته .

٤ القلائد : وغنت .

٥ في الأصول : الأزهار .

٦ هذه رواية القلائد ، وفي ق ك ط ج : وتزوجت .

٧ ك : ولا قوض . . . خياماً .

وركضي فيها جِادَ المَدَامِ مَحْثُوثةً بِسِيَاطِ الوَتَرِ

فبعث إليه مركوباً ، وكتب معه :

بَعَثْتُ إِلَيْكَ جَنَاحاً فَطِيرُ عَلَى خَفِيَّةٍ مِّنْ عِيُونِ البَشَرِ  
عَلَى ذُلُلٍ<sup>١</sup> مِنْ نِتَاجِ البُرُوقِ وَفِي ظَلَلٍ مِّنْ نَّسِيجِ الشَّجَرِ  
فحسبي ممّن نأى مَن دَنَا وَمَنْ غَابَ كَانَ فِداً مِّنْ حَضَرِ

فوصل القصبَةَ<sup>٢</sup> المطلّة على البطحاء ، المزرية بمنازل الرّوحاء ، فأقام منها حيث قال عديُّ بن زيد يصف مصنعا<sup>٣</sup> :

فِي قِبابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ حَوَّلَها الزَّيْتونُ قَدَ يَنعَا

ومرّ<sup>٤</sup> لهم من السرور يوم<sup>٥</sup> ما مر لذي رعين ، ولا تصور قبل عيونهم لعين .  
وأخبرني أنه سايره إلى شنترين قاصية أرض الإسلام ، السامية الذرا والأعلام ،  
التي لا يروّعها صرّف ، ولا يفرّعها طرف ، لأنها متوعرة المراقي ،  
مُعقّرة<sup>٥</sup> للراقي ، متمكّنة الرّواصي والقواعد ، من<sup>٦</sup> ضفة نهر استدار بها  
استدارة القلب بالساعد ، قد أطلّت على خمائلها ، إطلال العروس من  
منصّتها ، واقتطعت من الجوّ أكثر من حصّتها ، فمروا بالنبش<sup>٧</sup> قطرٍ سالت  
به جداوله ، واختالت فيه خمائله ، فما يجول الطّرف منه إلاّ في حديقة ،

١ ك : على فلك .

٢ القلائد : فوصل إلى القصبه ؛ وفي ك : فوصل القبة .

٣ البيت في اللسان ( دسكر ) منسوباً للأخطل ؛ والدسكرة : بناء كالقصر حوله بيوت اللهو والشراب .

٤ القلائد : ومضى .

٥ القلائد : معثرة .

٦ القلائد : على .

٧ في الأصول : بأنفس ؛ وألبش - كما في القلائد ودوزي - هي ( Elvas ) وتقع إلى الغرب

من بطليوس ( Badajos )



أو بُقْعَة أُنَيْقَة ، فتلقّاهم ابنُ مقانا قاضي حَضْرته وأنزلهم عنده ، وأورى لهم بالمبرّة زَنْدَه ، وقدم لهم طعاماً ، واعتقد قبوله منّاً وإنعاماً ، وعندما طعموا قعد القاضي بباب المجلس رقيباً لا يبرح ، وعينُ المتوكل حياءً منه لا تجول ولا تمرح ، فخرج أبو محمد وقد أبرمه بثقله ، وحرّمه راحة رواحه ومقيله ، فلقى ابن خَيْرُونٍ منتظراً له ، وقد أعد لخلوله منزله ، فسار إلى مجلس قد ابتسمت ثغور نُوّاره ، وخجلت خلود ورده من زُوّاره ، وأبدت صدورُ أباريقه أسرارها ، وضمت عليه المحاسن أضرارها ، ولما حضر له وقتُ الأُنسِ وحينه ، وأرجت له رياحينه ، وجهَ مَنْ يَرْقُبُ المتوكل حتى يقوم جليسه ، ويزول موحشه لا أنيسه ، فأقام رسوله وهو بمكانه لا يبريمه ، قد لازمه كأنه غريمه ، فما انفصل ، حتى ظن أن عارض الليل قد نصل ، فلمّا علم أبو محمد بانفصاله بعث إلى المتوكل قطع راح<sup>١</sup> وطبق ورد ، وكتب معهما :

إليكما فاجتليها منيرةً وقد خبا حتى الشهابُ الثاقبُ  
واقفةً بالباب لم يؤذن لها إلا وقد كاد يتامُ الحاجبُ  
فبعضها من المخافِ جامدٍ وبعضها من الحياءِ ذائبُ

فقبلها منه ، رحمه الله تعالى وعفا عنه ، وكتب إليه :

قد وصلت تلك التي زففتها بكرةً وقد شابت لها ذوائبُ  
فهبّ حتى نستردّ ذاهباً من أنسنا إن استردّ ذاهبُ

فركب إليه ، ونقل معه ما كان بالمجلس بين يديه ، وباتا ليلتهما لا يريمان السهر ، ولا يشيمان برقاً إلا الكاس والزهر .

ثم قال بعد كلام<sup>٢</sup> : وأخبرني الوزير الفقيه أبو أيوب بن أبي أمية أنه مرّ

١ القلائد : بقطع خمر ؛ والقطع - بلغة الأندلسيين - الزجاجاة .

٢ القلائد : ٤٦ .

في بعض أيامه برّوض مُفترّ المباسم ، مُعطرّ الرياح النواسم ، قد صَقَلَ الربيعُ  
 حَوْدَانَهُ ، وأنطق بلبله وورّشانه<sup>١</sup> ، وألحف غصونه بروداً مخضرةً ، وجعل  
 إشراقه للشمس ضرةً ، وأزاهيره تتيه على الكواكب ، وتختال في خِلَعِ الغمام  
 السواكب ، فارتاح إلى الكون به بقيّة نهاره ، والتنعم بينفَسَجِهِ وبهارة ، فلما  
 حصل من أنسِهِ في وسط المدى ، عمَدَ إلى ورقة كُرْنَبٍ قد بللها الندى ،  
 وكتب فيها بطرف غصن ، يستدعي الوزير أبا طالب ابن غانم ، أحد ندمائه ،  
 ونجوم سمائه :

أقبلُ أبا طالبٍ إلينا وَقَعَ وقوعَ الندى عَلَيْنَا  
 فنحنُ عقدٌ بغيرِ وَسْطِي ما لَمْ تَكُنْ حاضرًا لدينا

[ ١٢ - من ترجمة المعتصم بن صمّاح ]

وقال في ترجمة المعتصم بن صمّاح ، ما صورته<sup>٢</sup> : وأخبرني الوزير أبو  
 خالد بن بَشْتَعِيرٍ<sup>٣</sup> أنه حضر مجلسه بالصمّاحية في يوم غيم وفيه أعيان الوزراء ،  
 ونُبُهَاءُ الشعراء ، فقعده على موضع يتداخل الماء فيه ، ويلتوي<sup>٤</sup> في نواحيه ،  
 والمعتصم منشرح النفس ، مجتمع الأنس ، فقال :

أَنْظُرْ إِلَى حُسْنِ هَذَا الْمَاءِ فِي صَبَبِهِ كَأَنَّهُ أَرْقَمٌ قَدَّ جَدًّا فِي هَرَبِهِ  
 فاستبدعوه ، وتيمّوه به وأولّعوه ، فأسكب عليهم شآبيب نداه ، وأغرب  
 بما ظهر من بَشَرِهِ وأبداه .

١ الورشان : طائر مفرد يشبه الحمام .

٢ القلائد : ٤٨ .

٣ تصحفت هذه الكلمة كثيراً في الأصول ، وفي نسخة بهامش لك : يستعير ، وعند دوزي : يشتعير .

٤ القلائد : ويتلوى .

ثم قال بعد كلام<sup>١</sup> : وخرج إلى بَرْجَة ودَلَايَة وهما نظران<sup>٢</sup> لم يَجُلْ في مثلهما ناظر ، ولم تَدْعِ حَسَنَهُمَا الحُدُودُ النواضر ، غصونٌ تُشَنِّيها الرياح ، ومياه لها انسياح ، وحدائق تهدي الأرج والعرف ، ومنازل<sup>٣</sup> تبهجُ النفس وتمتع الطرف ، فأقام فيها أياماً يتدرج في مسارحها ، ويتصرف في منازرها ، وكانت نزهة أربّت على نزهة هشام بدير الرُصافة ، وأنافت عليها أي إنافة .

[ ١٣ - من ترجمة ابن رزين ]

وقال في ترجمة ابن رزين ، ما ملخصه<sup>٤</sup> : أخبرني الوزير أبو عامر [ ابن سنون ]<sup>٥</sup> أنه اصطبح يوماً والجو مسماكي العوارف ، لازوردِي المطارف ، والروض أنيقة لساته ، رقيقة هباته ، والنور مبتل ، والنسيم معتل ، ومعه قومه ، وقد راقهم يومه ، وصلاته تصافح معتفيهم ، ومبراته تشافه مؤافهم ، والراح تشعشع ، وماء الأماني ينشع ، فكتب إلى ابن عمّار وهو ضيفه :

ضمانٌ على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت في ودّي مسرّاً ومعلنًا  
فلو تسأل الأيام : من هو مفرد بوّد ابن عمّار ؟ لقلت لها : أنا  
فإن حالت الأيام بيّتي وبينه فكيف يطيب العيش أو يحسن الغنا<sup>٦</sup>

فلما وصلت الرقعة إليه تأخر عن الوصول ، واعتذر بعذر مختل المعاني

١ القلائد : ٥١ .

٢ ك : منظران .

٣ ك : ومنازه .

٤ القلائد : ٥١ .

٥ زيادة من القلائد .

٦ دوزي : مسكي .

٧ ك : أو يحصل المنى .

والفُصُول ، فقال أحد الحاضرين : إنني لأعجب من قعود ابن عمار ، عن هذا المضمار ، مع ميّله إلى السّماع ، وكلفه بمثل هذا الاجتماع ، فقال ذو الرياستين : إن الجواب تعذر ، فلذا اعتذر ، لأنه يُعاني قوله ويُعَلِّله ، ويُرَوِّيه ولا يرتجله ، ويقوله في المدة الممتدة ، فرأى أن الوصول بلا جواب إجحال لأدبه ، وإخلال لمنازله في الشعر ورُتبه ، فلما كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب ، وهو :

هَصَرْتُ لِيَ الْآمَالَ طَيِّبَةَ الْجَنَى	وَسَوَّغْتَنِي الْأَحْوَالَ مُقْبِلَةَ الدُّنَى
وَالْبَسْتَنِي النَّعْمَا أَغْضَّ مِنَ النَّدَى	وَأَجْمَلَ مِنِّي وَشَنِي الرَّبِيعِ وَأَحْسَنَا
وَكَمْ لَيْلَةً أَحْظَيْتَنِي بِحَضُورِهَا	فَبِتُّ سَمِيرًا لِلسَّنَاءِ وَلِلسَّنَا
أَعْلَلُّ نَفْسِي بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا	وَأُذْنِي وَكَفِّي بِالْغِنَاءِ وَبِالْغِنَى
سَاقِرْنَ بِالتَّمْوِيلِ ذَكَرَكَ كَلَّمَا	تَعَاوَرَتِ الْأَسْمَاءُ غَيْرَكَ وَالْكُنَى
لَأَوْسَعْتَنِي قَوْلًا وَطَوَّلًا كِلَاهُمَا	يُطَوِّقُ أَعْنَاقًا وَيُخْرِسُ أَلْسِنَا
وَشَرَفْتَنِي مِنْ قِطْعَةِ الرُّوضِ بِالنِّي	تَنَاطَرَ فِيهَا الطَّبِيعُ وَرَدًّا وَسَوَسْنَا
تَرَوْقُ بِجَيْدِ الْمَلِكِ عَقْدًا مَرَّصَعًا	وَتَزْهَوُ عَلَى عِطْفِيهِ بَرْدًا مَزِينًا
قَدُمُ هَكَذَا يَا فَارِسَ الدَّسْتِ وَالْوَعَى	لِتَطْعَنَ طَوْرًا بِالكَلَامِ وَبِالْقَنَا

وأخبرني الوزير [الكاتب أبو جعفر] <sup>٢</sup> ابن سعدون أنه اصطح <sup>٣</sup> يوماً بحضرته وللرذاذ رش ، وللربيع على وجه الأرض فرش ، وقد صقل الغمام الأزهار حتى أذهب نَمَشَهَا ، وسقاها فأرؤى عطشها ، فكتب إليه :

فَدَيْنَاكَ لَا يَسْطِيعُكَ النِّظْمُ وَالنُّرُ فَأنتَ مَلِكُ الْأَرْضِ ، وَاتَّصَلُ الْأَمْرُ

- ١ ق ط ج : وشياً معيناً .  
٢ زيادة من القلائد .  
٣ ق ط : أصبح .  
٤ القلائد : وانفصل .

مَرَيْنَا نَدَاكَ الْغَمْرُ فَانْهَلْ صَيْبًا      كَمَا سَكَبَتْ وَطَفَاءُ أَوْ سَكَبَ الْبَحْرُ<sup>١</sup>  
وَجَاءَ الرَّبِيعُ الطَّلَقُ يَبْدِي غَضَارَةً      فَحَيْتَكَ مِنْهُ الشَّمْسُ وَالرُّوْحُ وَالنَّهْرُ

إلى أن قال<sup>٢</sup> : ثم وجهه فيه إلى روضة قد أرجت نفعاتها ، وتدبجت ساحاتها ،  
وتفتحت كرائمها ، وأفصحت حمامها<sup>٣</sup> ، وجردت جداولها كالبواتر ،  
ورمقت أزهارها كالعيون الفواتر<sup>٤</sup> ، وأقاموا يُعْمِلُونَ أَكْوَأَسَهُمْ<sup>٥</sup> ، ويشتملون  
إيناسهم ، فقال ذو الرياستين<sup>٦</sup> :

وَرَوْضٍ كَسَاهِ الطَّلُّ وَشَيْئاً مَجْدِداً      فَأُضْحِي مُقِيمًا لِلنَّفُوسِ وَمُقْعِداً  
إِذَا صَافَحَتْهُ الرِّيحُ خَلَّتْ غَصُونَهُ      رَوَاقِصَ فِي خَضِرٍ مِنَ الْقُضْبِ مَيِّداً  
إِذَا مَا انْسَكَبَ الْمَاءُ عَايَنْتَ خَلْتَهُ      وَقَدْ كَسَرْتَهُ رَاحَةَ الرِّيحِ مَبْرِداً  
وَإِنْ سَكَنْتَ عَنْهُ حَسِبْتَ صَفَاءَهُ      حُسَاماً صَقِيلاً صَافِي الْمَنِّ جَرِّداً  
وَعَنْتَ بِهِ وَرُقُ الْحَمَائِمِ بَيْنَنَا      غِنَاءً يُنَسِّيكَ الْغَرِيضَ وَمَعْبِداً  
فَلَا تَجْفُونَ الدَّهْرَ مَا دَامَ مَسْعِداً      وَمُدَّةً إِلَى مَا قَدْ حَبَاكَ بِهِ يداً  
وَخِذْهَا مُدَاماً مِنْ غَزَالِ كَأَنَّهُ      إِذَا مَا سَقَى بَدْرٌ تَحْمَلُ فَرَقِداً

إلى أن قال<sup>٨</sup> : وأخبرني الوزير [ أبو عامر ]<sup>٩</sup> ابن سنون ، أنه كان معه  
في منية العيون ، في يوم مطرّز الأديم ، ومجلس معزز النديم ، والأنس يغازلهم

١ دوزي : أو فتق الزهر ؛ ق ج ط : أو فتق البحر .

٢ القلائد : ٥٣ .

٣ القلائد : كامها . . . حمامها .

٤ القلائد : بعيون فواتر .

٥ القلائد : كأسهم .

٦ انظر أيضاً المغرب ٢ : ٤٢٨ .

٧ دوزي : العصب ؛ وفي القلائد : العصف ، خطأ .

٨ القلائد : ٥٥ .

٩ زيادة من القلائد .

من كل ثنية ، ويواصلهم بكل أمنية ، فسكر أحد الحاضرين سكرًا مثل له ميدان  
الحرب ، وسهّل عليه مستوعر الطعن والضرب ، فقلب مجلس الأنس حرباً  
وقتالاً ، وطلب الطعن وحده والنزال<sup>١</sup> ، فقال ذو الرياستين :

نفس الذليل تعزُّ بالجرّيالِ      فيقاتل الأقرانَ دون قتالِ  
كم من جبان ذي افتخار باطلٍ      بالراح<sup>٢</sup> تحسبه من الأبطالِ  
[ كِبشُ النديّ تحمطاً وعرامةً      وإذا تُشبَّ الحربُ شاةُ نزالِ ]<sup>٣</sup>

[ ١٤ - من ترجمة ابن طاهر ]

وقال في ترجمة ابن طاهر ، ما صورته<sup>٤</sup> : وجئته يوماً وقد وقفت بباب  
الحنش ، فقال لي : من أين ؟ فأعلمته ، ووصفت له ما عاينته من حسنه وتأمّلته ،  
فقال لي : كنت أخرج إليه في أكثر الليالي مع الوزير الأجلّ أبي بكر - يعني ابن  
عبد العزيز - إلى روضته التي ودّت الشمس أن يكون منها طلوعها ، وتحمي  
المسك أن تنضم عليه ضلوعها ، والزمان غلام ، والعيش أحلام ، والدنيا تحية  
وسلام ، والناس قد انتشروا في جوانبه ، وقعدوا على مدّانبه ، وفي ساقبته  
الكبرى دولا ب ينثُ كناقاة إثر حُوار ، أو ككلكي من حرّ الأوار ، وكل مغرم  
يجعل فيه ارتياحه ، بكرته ورّواحه ، ويغازل عليه حبيبه ، ويصرف إليه  
تشبيبه ، فخرجت عليه ليلة والمنتبي الجزيري<sup>٥</sup> واقف وأمامه ظبي آنس ، تهيم

١ من قول المتنبي :

وإذا ما خلا الجبان بأرض      طلب الطعن وحده والنزال

٢ القلائد : بالحر .

٣ سقط هذا البيت من الأصول .

٤ القلائد : ٦٤ .

٥ هو أبو طالب عبد الجبار كان يلقب بالمتنبي ويعرف بالجزيري نسبة إلى جزيرة شقر ( الذخيرة

. ( ٢/١ : ٤٠١ ) .

به المكناس ، وفي أذنيه قرطان ، كأنهما كوكبان ، وهو يتأوّد وتأوّد غصن  
البان ، والمتني يقول :

مَعَشَرَ النَّاسِ بِيَابِ الْحَنْشِ      بَدْرُ تَيْمٍ طَالِعٍ فِي غَبَشِ  
عَلَّقَ الْقُرْطَ عَلَى مِسْمَعِهِ      مَنْ عَلَيْهِ آفَةُ الْعَيْنِ خَشِي

فلما رأني أمسك ، وسبح كأنه قد تنسك .

\* \* \*

[ ١٥ - من ترجمة ابن عمار ]

وقال في ترجمة ابن عمار ، ما صورته<sup>١</sup> : وتزّه بالدمشق بقرطبة ، وهو  
قصر شيده بنو أمية بالصّفّاح والعمد ، وجروا في إتقانه إلى غير أمد ،  
وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحته وفناؤه ، واتخذوه ميّدان مراحهم ، ومضماراً  
لانشراحهم ، وحكوا به قصرهم بالمشرق ، وأطلعوه كالكوكب الثاقب  
المشرق ، فحلّه أبو بكر ابن عمار على أثر بوسه ، وابتسم له دهره بعد عبوسه ،  
والدنيا قد أعطته عفوّها ، وسقته صفوّها ، وبات فيه مع لمة من أتباعه ،  
ومتفئتي رباعه ، وكلهم يحبّه بكاس ، ويفديه بنفسه من كل باس ، فطابت  
له ليلته في مشيده ، وأطربه الأنس ببسيطة ونشيده ، فقال :

كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ الدَّمَشْقِ يُدَمُّ      فِيهِ طَابَ الْجَحَى وَفَاحَ المِشْمُ  
مَنْظَرُ رَائِقٍ ، وَمَاءٌ نَمِيرٌ      وَثَرَى عَاطِرٌ ، وَقَصْرٌ أَشْمُ  
بَيْتٌ فِيهِ وَاللَّيْلُ وَالْفَجْرُ عِنْدِي      عَتَبٌ أَشْهَبُ وَمَسْكٌ أَحْمُ

وعبّر صاحب البدائع عن هذه القصة بقوله<sup>٢</sup> : تزّه ابن عمار بالدمشق  
بقرطبة ، وهو قصر شيده خلفاء بني أمية وزخرفوه ، ودفعوا صرف الدهر

١ القلائد : ٨٤ ، وقد ورد بعض هذا النص من قبل ، انظر ما تقدم ص : ٤٧٠ .

٢ انظر بدائع البدائه ٢ : ١٣١ .

عنه وصرّفوه ، وأجروه على إرادتهم وصرّفوه ، وذهبوا سقّفه وفضّضوها ،  
ورخّموا أرضه وروّضوها ، فبات به والسعد يلحظه بطرفه ، والروض يجييه  
بعرفه ، فلما استنفد كافور الصباح به مسك الغسق ، ورصع أبوس الظلام  
نضار الشفق ، قال مرتجلاً : « كل قصر بعد الدمشق يُدمُّ » . . . إلخ ،  
انتهى .

\* \* \*

[ ١٦ - من ترجمة ابن لبّون ]

وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي عيسى ابن لبّون<sup>١</sup> : أخبرني الوزير  
أبو عامر ابن الطويل أنّه كان بقصر مُربيطر بالمجلس المشرف منها<sup>٢</sup> ، والبطحاء  
قد لبست زخرفها ، ودبج الغمام مطرفها ، وفيها حدائق ترنو عن مُقل  
نرجسها ، وتبثُّ طيب تنفّسها ، والخلنار قد لبس أردية الدماء ، وراع أفئدة  
الندماء ، فقال :

قُم يا نديم أدر عليّ القرقفاً أو ما ترى زهر الرياض مُفوّفاً  
فتخال محبوباً مُدلاًّ وردّها وتظن نرجسها محباً مُدنفاً  
والخلنار دماء قتلى معرك والياسمين حباب ماء قد طمفاً

إلى أن قال<sup>٣</sup> : وشرب مع الوزراء والكتّاب ببطحاء لورقة [ عند أخيه ،  
وابنُ اليسع غائب عنها ]<sup>٤</sup> في عشية تجود بدمائها ، ويصوب عليها دمع سمائها ،  
والبطحاء قد خلّج عليها سندسها ، ودنّرها<sup>٥</sup> نرجسها ، والشمس تنفض على الرّبي  
زعفرانها ، والأنوار تغمض أجفانها ، فكتب إلى ابن اليسع :

١ القلائد : ٩٩ وانظر المغرب ٢ : ٣٧٦ .

٢ ج ق ط : المشرق منها .

٣ القلائد : ١٠٠ والمغرب ٢ : ٣٧٧ .

٤ زيادة من القلائد .

٥ في الأصول : ودرها .



لو كنتَ تشهد يا هذا عشيَّتِنَا والمزنُ تسكُبُ أحياناً وتنحدرُ  
والأرضُ مصفرة بالشمس<sup>١</sup> كاسية أبصرتَ تبرأ عليه الدرُّ ينتثرُ

\* \* \*

[ ١٧ - من ترجمة ابن رُحيم ]

وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي بكر ابن رُحيم ، ما صورته<sup>٢</sup> : ووصل  
هو وابن وضاح<sup>٣</sup> صهر المرتضى ، وابن جمال الخلافة صاحب صقلية ، إلى إحدى  
جَنَاتٍ مُرْسِيَةٍ ، فحلوا منها في قبة فوق جدول مُطَرَّد ، وتحت أدواحٍ طيرُها  
غَرْدٌ ، فأقاموا يتعاطون رحيقهم ، ويعمرون في الموانسة طريقهم ، إذا بالحنَّانِ  
قد وقف عليهم وقال : كان بموضعكم بالأمس صاحب الموضع ومعه شعور  
منشورة ، وخذود غير مستورة ، قد رفعت عنها البراقع ، وما منها نظرة إلا<sup>٤</sup>  
ومعها سهم واقع ، فاستدعى فحماً وكتب في إحدى زوايا القبة :

قَادَنَا وَدُنَّا إِلَيْكَ فَجَنَّا بنفوس تفديك من كل بوسِ  
فَنَزَلْنَا مَنَازِلًا لبدور وحلَّنا مطالعاً لشموسِ

\* \* \*

[ ١٨ - من ترجمة ابن عبدون ]

وقال في ترجمة الوزير الكاتب أبي محمد ابن عبدون ، ما صورته<sup>٥</sup> : حلت  
بيابرة<sup>٥</sup> فأنزلي واليها بقصرها ، ومكّني من جيّ الأمانى وهصرها ، فأقمت

١ القلائد : بالزن .

٢ القلائد : ١١٦ .

٣ في بعض أصول القلائد : وابن صمادح .

٤ القلائد : ١٤٥ .

٥ يابرة ( Evora ) مدينة من كورة باجة أي هي من البرتغال ، تقع على بعد ١١٧ كيلومتراً بالسكة  
الحديدية من الأشبونة ( لشبونة ) ؛ وفي الأصول : حلت يابرة .

ليلي ، أجزُّ على المجرة ذيلي ، وتتطارد في ميدان السرور خيلي ، فلماً كان من الغد باكرني الوزير أبو محمد مسلماً ، ومن تنكبي عنه متألماً ، ثم عطف على القائد عاتباً عليه ، في كوني لديه ، ثم انصرف وقد أخذني من يديه ، فحللت عنده في رجب ، وهمت عليّ من البرّ أطار سحب ، في مجلس كأن الدراري فيه مصفوفة ، أو كأن الشمس إليه مزفوفة ، فلماً حان انصرافي ، وكثر تطلعي إلى مآبي واستشرافي ، ركب معي إلى حديقة نضرة ، مجاورة للحضرة ، فأخذنا عليها أيدي عيسنا ، ونلنا منها ما شئنا من تأيسنا ، فلماً امتطيت عزمي ، وسددت إلى غرض الرحلة سهمي ، أنشدني :

سلام يُناجي منه زهر الرُّبى عَرَفُ      فَلَ سَمِعَ إِلَّا وَدَّ لو أَنَّهُ أَنْفُ  
حَنِينِي إلى تَلِكِ السَّجَايَا فَإِنَّهَا      لَأَثَارُ أَعْيَانِ المَسَاعِي التي أَقْفُو

ثم سرّد القصيدة إلى أن قال : وله رحمه الله تعالى ١ :

سَقَاها الحَيَا مِن مَّعَانِ فِصَاحِ      فَكَمَ لي بها من مَعَانِ فِصَاحِ  
وَحَلَّتِي أَكَالِيلَ تَلِكِ الرُّبَى      وَوَشَّتِي مِعَاطِفَ تَلِكِ البِطَاحِ  
فَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ عَهْدِي بها      وَجَرَّتِي فِيهَا ذِيولَ المِراحِ  
وَنومِي على حَبِرَاتِ الرِّياضِ      يُجاذِبُ بُرْدِي مَرَّ الرِّياحِ  
وَلَمْ أَعْطِ أَمَرَ النُّهْيِ طاعةً      وَلَمْ أَصْغِ سَمْعاً إلى لِحْيِ لَاحِ ٢  
وَلَيْلٍ كَرَجَعَةَ طَرَفِ المُرِيبِ      لَمْ أَدْرِ لَه شَفَقاً مِن صَباحِ

\* \* \*

[ ١٩ - من ترجمة ابن مالك ]

وقال في ترجمة الوزير أبي محمد ابن مالك بعد كلام له فيه وإنشاده بيتيه

١ القلائد : ١٤٦ والمغرب ١ : ٣٧٥ .

٢ ك : سمي إلى قول لاح .

البديعين اللذين هما :

لا تَلْمَنِي بِأَنْ طَرَبْتُ لَشَجْوٍ يَبْعَثُ الْأَنْسَ الْكَرِيمَ طَرُوبُ  
لَيْسَ شَقُّ الْجُيُوبِ حَقًّا عَلَيْنَا إِنَّمَا الشَّانُ أَنْ تُشَقَّ الْقُلُوبُ

ما صورته<sup>٢</sup> : وخرجتُ من إشبيلية مشيعاً لأحد زعماء المرابطين ، فألفيته معه مسيراً له في جملة من شيّعه ، فلما انصرفنا مال بنا إلى مُعَرَّس أمير المسلمين أدام الله تعالى تأييده الذي ينزله عند حلوله إشبيلية<sup>٣</sup> ، وهو مَوْضِعٌ مستبدع ، كأن الحسن فيه مُودَع ، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأرقام ، وروض كما وشتت البرد يدُ راقم ، وزهر يحسد المسك رِيَّاه ، ويتمنى الصبح أن يَسِمَ به مُحَيَّاه ، فقطف غلام وسيم من غلمانهِ نَوْرَةَ ومد يده إليّ وهي في كفه ، فعزم عليّ أن أقول بيتاً في وصفه ، فقلت :

وَبَدْرٍ بَدَا وَالطَّرْفُ مَطْلَعُ حُسْنِهِ      وَفِي كَفِّهِ مِنْ رَائِقِ النَّوْرِ كَوَكَبُ

فقال أبو محمد :

يَرُوحُ لَتَعْدِيبِ النَّقُوسِ وَيَغْتَدِي      وَيَطْلُعُ فِي أَفْقِ الْجَمَالِ وَيَغْرُبُ  
وَيَحْسُدُ مِنْهُ الْغَصْنَ أَيَّ مَهْفَهْفٍ      يَجِيءُ عَلَى مِثْلِ الْكُتَيْبِ وَيَذْهَبُ

\* \* \*

[ ٢٠ - من ترجمة ابن السقاط ]

وقال في ترجمة الوزير أبي القاسم ابن السقاط بعد كلام كثير ، ما صورته<sup>٤</sup> :  
وحملنا الوزير القاضي أبو الحسن ابن أضحى إلى إحدى ضياعه بخارج غرناطة ،

١ القلائد : إنما الحق .

٢ القلائد : ١٧١ .

٣ ك : بإشبيلية .

٤ القلائد : ١٧٤ .

ومعنا الوزيرُ أبو محمد ابن مالك ، وجماعة من أعيان تلك الممالك <sup>١</sup> ، فحللنا  
بضيعة لم ينحتِ المحلُّ أثلاً ، ولم ترمق العيون مثلاً ، وجللنا بها في أكناف ،  
جنات ألفاف ، فما شئت من دَوْحة لَفَاء ، وغصن يَميس كعِطفي هَيْفَاء ،  
وماء ينساب في جداوله ، وزهرٍ يُضَمِّخُ بالمسك راحة متناوله ؛ ولما قضينا من  
تلك الحدائق أرباباً ، وافتضضنا منها أتراباً عُرْباً ، ملنا إلى مَوْضع المقيل ، وزلنا  
عن منازهِ تَزْرِي بمنازه جديمة مع مالك وعقيل ، وعند وصولنا بدا لي من  
أحد الأصحاب تقصيرٌ في المبرّة ، عرض لي منه تكدير لتلك العين <sup>٢</sup> الثرة ،  
فأظهرتُ الثناقلَ أكثرَ ذلك اليوم ، ثم عدلتُ عنهم إلى الاضطجاع والنوم ،  
فما استيقظتُ إلا والسماء قد نُسِخَ صَحْوُهَا ، وغيمَ جَوْهَا ، والغمام  
منهمل ، والثرى من سقياه ثمل ، فبَسَطَني بتحفيته ، وأبهجني ببرِّ له لم يزل  
يتممه ويوفيه ، وأنشدني :

يَوْمٌ تَجْهَمُ فِيهِ الْأَفْقُ وَانْتَرَتْ      مَدَامِيعُ الْغَيْثِ فِي خَدِّ الثَّرَى هَمَلًا  
رَأَى وَجُومَكَ فَارْبَدَّتْ <sup>٣</sup> طَلَاقَتُهُ      مُضَاهِيًا لَكَ فِي الْأَخْلَاقِ مُمْتَنِلًا

\* \* \*

[ ٢١ - من ترجمة ابن أضحى ]

وقال في ترجمة الوزير القاضي أبي الحسن ابن أضحى ، ما نصّه <sup>٤</sup> : وكان  
لصاحب البلد الذي كان يتولّى القضاء به ابنٌ من أحسن الناس صورة ، وكانت  
محاسن الأفعال والأقوال عليه مقصورة ، مع ما شئت من لَسَن ، وصوت حسن ،  
وعَفَاف ، واختلاط بالبهاء <sup>٥</sup> والنفاف ، فحملنا إلى إحدى ضياعه بقرب من

١ القلائد : المسالك .

٢ دوزي : العيون .

٣ ق ك ج ط : فارتدت .

٤ القلائد : ٢١٧ .

٥ دوزي : بالنهء .

حضرة غرناطة فحللنا قرية على ضفة نهر ، أحسن من شاذمهر<sup>١</sup> ، تشقها  
جداول كالصلال ، ولا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال ، ومعنا جملة من  
أعيانها ، فأحضرنا من أنواع الطعام ، وأرانا من فرط الإكرام والإنعام ، ما لا  
يطاق ولا يحد ، ويقصر عن بعضه العد ، وفي أثناء مقامنا بدا لي من ذلك الفتي  
المذكور ما أنكرته فقابلته بكلام أحقده ، وملام اعتقده<sup>٢</sup> ، فلما كان من الغد  
لقيت منه اجتنابه ، ولم أر منه ما عهدته من الإنابة ، فكتبت إليه مداعباً ،  
فراجعي بهذه القطعة :

أنتني أبا نصرٍ نتيجةً خاطرٍ	سريعٍ كرجعِ الطرفِ في الخطراتِ
فأعزبتَ عن وجدٍ كينٍ طويته	بأهيفٍ طاوٍ فاترٍ اللحظاتِ
غزالٍ أحْمُ المقلتين عرفتَه	بخيفٍ مني للحسنِ أو عرفاتِ
رماكٍ فأصمى والقلوبُ رميةً	لكلِّ كحيلِ الطرفِ ذي فتكاتِ
وظنَّ بأن القلبِ منكٍ محصبٌ	فلبأك من عينيه بالجمراتِ
تقرَّبَ بالنسأك في كل منسكٍ	وضحى غداة النحرِ بالمهجاتِ
وكانت له جيانٌ مثنوى فأصبحت	ضلوعك مثنواه بكلِّ فلاةِ
يعزُّ علينا أن تهيم فتنتطوي	كثيباً على الأشجان والزفراتِ
فلو قبِلت للناسِ في الحبِّ فديّةً	فديتناك بالأموال والبشراتِ

\* \* \*

[ ٢٢ - من ترجمة ابن خفاجة ]

وقال في ترجمة أديب الأندلس وشاعرها أبي إسحاق ابن خفاجة بعد كلام ،  
ما صورته<sup>٣</sup> : وقال يندب معاهد الشباب ، ويتفجع لوفاة الإخوان والأحباب ،

١ شاذمهر : موضع نزه بنيسابور .  
٢ ك : بكلام اعتقده وملام أحقده .  
٣ القلائد : ٢٣٦ والديوان : ١٧٧ .

بعقب سَيْلِ أعَاد الديار آثَاراً ، وقضى عليها وهياً وانتثاراً :

ألا عَرَسَ الإخوانُ في ساحة البلي      وما رَفَعُوا غَيْرَ القُبُورِ قِبابا  
فدمعٌ كما سَحَّ الغمامَ ولوَعَةٌ      كما أَضْرَمَتْ رِيحُ الشَّمالِ شِهابا  
إذا استَوَقفتني في الديارِ عَشِيَةٌ      تَلَدَّدَتْ<sup>٢</sup> فِيهَا جَيْتَةٌ وَذَهابا  
أَكْرُءُ بِطَرْفِي في مَعاهدِ فَتِيَةٍ      تُكَلِّتُهُمْ بِبِضِّ الوِجوهِ شِبابا  
فَطالَ وَقُوفِي بَيْنَ وَجَدٍ وَفُرْقَةٍ<sup>٣</sup>      أَنادي رُسوماً لا تُحيرُ جِوابا  
وَأَمْحُو جَميلَ الصَّبْرِ طَوْرًا بَعْبِرَةً      أَخْطُ بِها في صَفْحَتِي كِتابا  
وقد دَرَسْتَ أَجسامَهُمْ وديارَهُمْ      فَلَمَّ أَرَّ إِلَّا أَعْظَمًا وَيابابا  
وَحَسْبِي شَجِواً أَن أَرى الدارَ بَلقَمًا      خِلاءَ وَأَشْلاءَ الصَّدِيقِ تُرابا

ولقد أحلتي بهذه الديار المندوبة وهي كعهدا في جود مَبْنَاها ، وعودة سَنَاها ، في ليلة اكتحلنا ظلامها لإثمداً ، ومحونا بها من نفوسنا كمداً ، ولم يزل ذلك الأنس يبسطه ، والسرور ينشطه ، حتى نشر لي ما طواه ، وبث مكتوم لوعته وجواه ، وأعلمني بلياليه فيها مع أترابه ، وما قضى بها من أطرايه . انتهى ما وقع عليه اختياري من كلام أبي نصر الفتح بن عبيد الله رحمه الله تعالى في وصف بعض منترهات الأندلس البديعة ، ورياضها المونقة المريعة .

\* \* \*

[ ٢٣ - من رسالة للفتح ]

وما أحسن رسالة له مختصرة كتبها مهنتاً بعض ملوك الأندلس بما منحه الله تعالى من التمكين الذي أيده الله به ونصره ، وقد جود أوصافه ، واستطرد منها إلى ذكر الناصر وولده الحكم اللذين عمرا الزهراء والرصافة ، ونصها :

١ ق ك ج ط : ألا عرض .

٢ ق ك ج ط : تلذذت .

٣ القلائد : وزفرة . دوزي : وحرقة .

أدام الله تعالى أيام الأمير للأرض<sup>١</sup> يتملكها ، ويستدير بسعده فلكتها ، وقد استبشر الملك أيدك الله وحق له الاستبشار ، فقد أوماً إليه السعدُ وأشار ، بما اتفق له من توليتك ، وخفقت عليه من ألويتك ، فلقد حُبني منك بملك أمضى من السهم المسدد ، طويل نجاد السيف رَحِب المقلد ، يتقدم حيث يتأخر الذابل ، ويتكرم إذا بخل الوابل ، ويحمي الحمى كربيعة بن مكدم<sup>٢</sup> ، ويسقي الظبا نجيعاً كلون العندم ، فهنيئاً للأندلس فقد استردت عهد خلفائها ، واستجدت رسوم تلك الإمامة بعد عقائنها ، فكأن لم تمت أعاصرها ، ولم يمت حكمها ولا ناصرها ، اللذان عمرا الرصافة والزهرا ، ونكحا عقائل الروم وما بذلا غير المشرفية مهراً ، والله سبحانه أسأله إظهار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك ، حتى يكون عصرك أجمل من عصرهم ، ونصرك أغرب من نصرهم ، بمنه وكرمه وبمنه .

\* \* \*

[ ٢٤ - من ترجمة ابن عطية ]

وقال رحمه الله تعالى في ترجمة الفقيه القاضي الحافظ أبي محمد عبد الحق ابن عطية صاحب التفسير الشهير ، بعد كلام كثير ، ما صورته<sup>٣</sup> : ومررنا في إحدى نزهتنا بمكان مقفر ، وعن المحاسن مسفر ، وفيه بكير نرجس كأنه عيون مراض ، يسيل وسطه ماء راض ، بحيث لا حس إلا للهام ، ولا أنس إلا ما يتعرض للأوهام ، فقال :

نرجس "باكرت" منه روضةً      لذي قطع الدهر فيها وعدب  
حقت الريح بها خمراً حياً      رقص الثبت لها ثم شرب

١ بعض النسخ : للأزمن .

٢ ق : ربيعة بن المكدم .

٣ القلائد : ٢١١ .

فَعَدَا يُسْفِرُ عَنِّ وَجَنَّتِهِ نَوْرُهُ الْغَضُّ وَيَهْتَزُّ طَرَبُ  
 خَلَّتْ لَمَعِ الشَّمْسِ فِي مَشْرِقِهِ هَبًا يَجْمَدُ مِنْهُ فِي هَبِّ  
 وَبَيَاضِ الطَّلِّ فِي صَفْرَتِهِ نَقَطَ الْفِضَّةِ فِي خَطِّ الذَّهَبِ

انتهى .

وسياتي إن شاء الله تعالى كثير من وصف بلاد الأندلس ومنتزهاتها ، وما  
 اشتملت عليه من المحاسن ، في كلام غير واحد ممن يجري ذكره في هذا  
 الكتاب ، وخصوصاً أديب زمانه غير مُدافع ، من اعترف له أهل الشرق ،  
 بالسبق ، وأهل المغرب ، بالإبداع المُعْرَب ، النور أبو الحسن علي بن سعيد  
 العنسي ، فإنه لما دخل مصر اشتاق<sup>١</sup> إلى تلك المواطن الأندلسية الرائقة ،  
 ووصفها بالقصائد والمقطوعات الفائقة ، وقد أسلفنا أيضاً فيما مرَّ من هذا  
 الكتاب بعض ما يتعلق بمحاسن الأندلس ، فليراجع في محله من هذا الكتاب .  
 قلت : وماذا عسى أن نذكر من محاسن قُرْطُبَةَ والزاهرة والزهرا ، أو  
 نصف من محاسن الأندلس التي تبصر بكل موضع منها ظلاً ضافياً ونهراً وزهراً ،  
 ويرحم الله تعالى أديبها المشهور ، الذي اعترف له بالسبق الخاصة والجمهور ،  
 أبا إسحاق ابن خفاجة ، إذ قال<sup>٢</sup> :

يا أهلَ أندلسِ اللهُ دَرُّكُمْ ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ  
 ما جنَّةُ الخلدِ إلا في ديارِكُمْ ولو تخيَّرتُ هذا كنتُ أختارُ  
 لا تحسبوا في غدٍ<sup>٣</sup> أن تدخلوا سقرًا فليس تدخلُ بعدَ الجنَّةِ النارُ

ويروى مكان قوله :

ولو تخيَّرتُ هذا كنتُ أختارُ

١ ك : لما اتصل بمصر ودخلها اشتاق . . . إلخ .

٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٤ .

٣ ك : لا تختشوا بعد ذا .



ما مثاله :

وهذه كنتُ لو خيِّرتُ أختارُ

وكذا رأيتُ بخط الحافظ التَّنَسِي ، والأول رأيته بخط العلامة الوائشِريشي ،  
رحمهما الله تعالى .

وحكي أن الخليليَّ لما قدم من الأندلس رسولاَ إلى سلطان المغرب أبي  
عنان فارس ابن السلطان أبي الحسن المريني أنشد بحضرة السلطان المذكور  
أبيات ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببلاد الأندلس ، فقال السلطان أبو عنان :  
كذب هذا الشاعر - يشير إلى كونه جعلها جنة الخلد ، وأتته لو خيرٍ لاختارها  
على ما في الآخرة - وهذا خروج من رِبْقَةِ الدين ، ولا أقلّ من الكذب والإغراق ،  
وإن جرت عادة الشعراء بذلك الإطلاق ، فقال الخليليُّ : يا مولانا ، بل صدق  
الشاعر ، لأنها موطن جهاد ، ومُقارعة للعدوِّ وجِلاد ، والنبي صلى الله عليه  
وسلم الرؤوف الودود الرحيم العطوف <sup>١</sup> ، يقول : « الجنة تحت ظلال السيوف » ،  
فاستحسن منه هذا الكلام ، ورفع عن قائل الأبيات الملام ، وأجزل صليته ،  
ورفع منزلته . ولعمري إن هذا الجواب ، بلخير بالصواب ، وهكذا ينبغي أن  
تكون رسلُ الملوك في الافتنان ، روح الله تعالى أرواح الجميع في الجنان .

\* \* \*

[ قصائد لابن خفاجة ]

وأبو إسحاق ابن خفاجة كان أوحدَ الناس في وصف الأنهار والأزهار  
والرياض والحياض والرياحين والبساتين ، وقد سبق بعضُ كلامه ، ويأتي  
أيضاً منه بعضُ أثناء الكتاب ، ومن ذلك قوله <sup>٢</sup> :

١ هكذا في ك ؛ وفي ق : الرحيم الرؤوف يقول ...

٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٣٦ .

وَكِيَامَةٌ حَدَرَ الصَّبَاحُ قِنَاعَهَا  
 فِي أَبْطَحٍ رَضَعَتْ ثَعُورُ أَقَاحِهِ  
 نَثَرَتْ بِحِجْرِ الْأَرْضِ فِيهِ يَدُ الصَّبَا  
 وَقَدَّارْتَدَى غُصْنُ النَّقَا، وَتَقَلَّدَتْ  
 فَحَلَلْتُ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةٌ ضَا حَكِ  
 وَالرِّيحُ تَنْفُضُ بُكْرَةَ لَمَ الرُّبَى  
 مُتَقَسِّمِ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مَحَاسِنِ  
 وَأَرَاكَةِ سَجَعِ الْهَدِيلِ بِفِرْعَاهَا  
 هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلِرَبَّمَا  
 وَقوله ١ :

سَقِيًّا لِيَوْمٍ قَدْ أَنْخَتُ بِسَرْحَةٍ  
 سَكْرِي يُغْنِيهَا الْحَمَامُ فَتَنْشِي  
 يَلَهُو فُتْرُفُ لِلشَّيْبَةِ رَايَةً  
 وَالرُّوْضُ وَجْهٌ أَزْهَرُ، وَالظَّلُّ فَر  
 فِي حَيْثُ أَطْرَبْنَا الْحَمَامُ عَشِيَّةً  
 وَاهْتَرَّ عِطْفُ الْغُصْنِ مِنْ طَرَبِ بِنَا  
 فَكَأَنَّهُ وَالْحُسْنُ مُقْتَرِنٌ بِهِ  
 فِي فَتِيَّةٍ تَسْرِي فَيَنْصَدَعُ الدُّجَى  
 كَرْمُؤَا فَلَاعِيْتُ السَّمَاحَةِ خَلْفُ  
 مِنْ كُلِّ أَزْهَرَ لِلنَّعِيمِ بِوَجْهِهِ

وَقَالَ يَمْدَحُ الْأَمِيرَ أَبَا يَحْيَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٢ :

١ ديوانه : ٢٨٩ ؛ وفي ق : وقال .  
 ٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٣ وأبو يحيى هو أبو بكر بن إبراهيم المعروف بابن تيفلويت (٥١٠) =

والصَّبْحُ يَمَسُّحُ عَن جَبِينِ نَهَارِ  
 يَعْشُو إِلَيْهَا مِنْ خِيَالِ طَارِي  
 وَطَوَى السَّرَى أَحْسَنَ بِهِ مِنْ سَارِي  
 يُرْوِي، وَحَيْثُ حَشَايَ مَوْقَدُ نَارِ  
 أَوْرَى بِجَانِحَتَيْهِ زَنْدَ أَوَارِ  
 مِنْ شَيْمِ بَرَقَ أَوْ شَمِيمِ عَرَارِ  
 فَانْهَلْ دَمْعُ الطَّلِّ فَوْقَ صِدَارِ  
 بِمَسَاقِطِ الْأَنْوَاءِ وَالْأَنْوَارِ  
 وَشَيِّ الْحَبَابِ مَعَاطِفُ الْأَنْهَارِ  
 وَارْتَجَّ رِدْفًا مَائِجُ التِّيَّارِ  
 قَدْ قَبِلْتَهُ مَبَاسِمُ النُّوَارِ  
 مَشْبُوبَةٌ وَالْبَرْقُ لَفْحَةُ نَارِ  
 لَعِبًا وَتَلْشِمُ أَوْجُهُ الْأَزْهَارِ  
 خُطْبَاءُ مُفْصِحَةٌ مِنَ الْأَطْيَارِ  
 وَلرَبَّمَا سَفَرُوا عَنِ الْأَقْمَارِ  
 زَنْدُ الْحَفِيزَةِ مِنْهُمْ بِشَرَارِ  
 إِشْرَافِ أَطْوَادِ وَفَيْضِ بَحَارِ  
 كَرَمًا وَمُشْتَمَلِ بَشُوبِ وَقَارِ  
 وَذُؤَابَةِ قَبْرَتِهَا لِعِيدَارِ  
 طَامِي عُبَابِ الْجُودِ رَحْبِ الدَّارِ

سَمَحَ الْخِيَالُ عَلَى النَّوَى بِمَزَارِ  
 فَرَقَعْتُ مِنْ نَارِي لِضَيْفِ طَارِقِ  
 رَكِبَ الدُّجَى أَحْسَنَ بِهِ مِنْ مَرْكَبِ  
 وَأَنَاخَ حَيْثُ دَمُوعُ عَيْنِي مَنَهْلِ  
 وَسَقَى فَارُوَى غُلَّةَ مِينَ نَاهِلِ  
 يَلْكُوِي الضَّلُوعَ مِنَ الْوَلُوعِ لِحَظْرَةِ  
 وَاللَّيْلِ قَدْ نَضَحَ النَّدَى سِرْبَالَهُ  
 مُتْرَقَّبٌ رَسُلَ الرِّيَاحِ عَشِيَّةً  
 وَمَجَرَّ ذَيْلَ غَمَامَةٍ لَبَسَتْ بِهِ  
 خَفَقَتْ ظِلَالُ الْأَيْكِ فِيهِ ذَوَائِبًا  
 وَلَوَى الْقَضِيبُ هُنَاكَ جِيدًا أَتْلَعًا  
 بَاكَرْتُهُ وَالغَيْمُ قِطْعَةُ عَثْبِرِ  
 وَالرِّيْحُ تَلْطُمُ فِيهِ أُرْدَافَ الرَّبِيِّ  
 وَمَتَابِرِ الْأَشْجَارِ قَدْ قَامَتْ بِهَا  
 فِي فِتْيَةٍ جَنَّبُوا الْعَجَاجَةَ لَيْلَةً  
 ثَارَ الْقِتَامُ بِهِمْ دُخَانًا وَارْتَمَى  
 شَاهَدَتْ مِنْ هَيْئَاتِهِمْ وَهِيَاتِهِمْ  
 مِنْ كُلِّ مُنْتَقِبِ بَوْرْدَةٍ خَجَلَةٍ  
 فِي عِمَّةٍ خَلَعَتْ عَلَيْهِ لِلْمَةِ  
 ضَافِي رِدَاءِ الْمَجْدِ طَمَاحِ الْعُلَا

= أحد أمراء المرابطين ، وكان والياً بمدة على سرقسطة وهو عمود الفيلسوف ابن باجة . والشاعر يسأله في هذه القصيدة أن يشكر القائد الأعلى أبا عبد الله ابن عائشة لبره لحق ابن خفاجة من جهته .

١ الناهل : الظمان .

٢ ق ك : مائل .

جَرَّارِ أَذْيَالِ الْمَعَالِي وَالْقَنَا  
طَرِدَ الْقَنِيصَ بِكُلِّ قَيْدٍ طَرِيدَةٍ  
مُتَنَفِّةٍ أَعْطَافُهُ بِجَبِيرَةٍ  
يُرْمَى بِهِ الْأَمَلُ الْقَصِيُّ فَيَنْتَشِي  
وَبِكُلِّ نَائِي الشَّوْطِ أَشْدَقِ أَخْزَرِ  
يَفْتَرُّ عَنِ مِثْلِ النَّصَالِ ٢ ، وَإِنَّمَا  
مُسْتَقْرِبًا أَثَرَ الْقَنِيصِ عَلَى الصَّفَا  
مِنْ كُلِّ مُسْوَدِّ تَلْهَبُ طَرْفَهُ  
وَمُورَسِ السَّرْبَالِ يُخْلَعُ قَدَّهُ  
يَسْتَنُّ فِي سَطْرِ الطَّرِيقِ وَقَدْ عَقَا  
عَطَفَ الضَّمُورُ سَرَاتَهُ فَكَأَنَّهُ  
وَلَرْبَ رَوَّاعٍ هُنَالِكَ أَنْبَطِ  
يَجْرِي عَلَى حَذَرٍ فَيَجْمَعُ بَسْطَهُ  
مَمْتَدَّ حَبْلِ الشَّوِ يَعْسِلُ رَائِعًا  
مُتَرَدِّدٍ يَرْمِي بِهِ خَوْفُ الرَّدَى  
وَلَرْبَ طَيَّارٍ خَفِيفٍ قَدَّ جَرَى  
مِنْ كُلِّ قَاصِرَةِ الْخَطَا مَخَالَةَ  
مَخْضُوبَةِ الْمِنْقَارِ تَحْسَبُ أَنَّهَا  
وَلَوْ اسْتَجَارَتْ مِنْهُمَا بِحَمَى أَبِي  
خَدَمَ الْقَضَاءِ مُرَادَهُ فَكَأَنَّمَا  
وَعَنَا الزَّمَانُ لِأَمْرِهِ فَكَأَنَّمَا  
وَجَلَا الْإِمَارَةَ فِي رَفِيفِ نَضَارَةٍ

١ ك : دره ؛ والمعنى أن ظفره ومنقاره معوجان كحرف «راء» .

٢ ق : النضار .

مِنْهَا وَحَلَّتِي مِعْصَمًا بِسِوَارِ  
 أَيَدِي الْعُقَاةِ وَأَعْيُنَ الزُّوَارِ  
 مَتَنَفَّسٌ عَنْ رَوْضَةِ مِعْطَارِ  
 وَاسْتَلَّ صَارِمَهُ يَدُ الْمِقْدَارِ  
 مَا شَاءَ مِنْ نَارٍ وَمِنْ إِعْصَارِ  
 وَالجَوْ كَاسٍ ، وَالسُّيُوفِ عَوَارِي  
 قِصْدًا وَتَسْبِيحٌ فِي الدَّمِ الْمَوَارِ  
 تُلَوَّى عُرَى مِنْهَا عَلَى أَرْزَارِ  
 فَكَأَنَّهُ صَدَأٌ عَلَى دِينَارِ  
 فِي كَفِّ صَوَالٍ بِهِ سِوَارِ  
 يَوْمًا لَثَارَ وَلَمْ يَنْمَ عَنْ نَارِ  
 تَحْتَ الْعِجَاجِ وَضَحْكَةِ اسْتِبْشَارِ

فِي حَيْثُ وَشَحَّ لَبَّةٌ بِفِلَادَةِ  
 جَذْلَانٍ يَمْلَأُ مِئْخَةَ وَبِشَاشَةِ  
 أَرَجِ النَّدِيِّ بِذِكْرِهِ فَكَأَنَّهُ  
 بَطْلٌ حَوَى الْفَلَكَ الْمَحِيطَ بِسَرَجِهِ  
 بِيَمِينِهِ يَوْمَ الْوَعَى وَشِمَالِهِ  
 وَالسَّمْرِ حُمْرًا<sup>١</sup> ، وَالجِيَادِ عَوَابِسُ  
 وَالْحَيْلِ تُعْثَرُ فِي شَبَاشُوكِ الْقَنَا  
 وَالْبَيْضِ تُحْتَى فِي الطَّلِيِّ فَكَأَنَّمَا  
 وَالنَّقْعُ يُكْسِرُ مِنْ سَنَا شَمْسِ الضُّحَى  
 صَحْبَ الْحَسَامِ النَّصْرُ صُحْبَةَ غِبْطَةِ  
 لَوْ أَنَّهُ أَوْمَى إِلَيْهِ بِنَظْرَةِ  
 وَمَضَى وَقَدْ مَلَكَتْهُ هِرَّةٌ عِزَّةُ

وقال رحمه الله تعالى ٢ :

تَنْدَى وَأَفْلَاكُ الْكُؤُوسِ تُدَارُ  
 نَشْرَتْ عَلَيْهِ نَجْمُهَا الْأَزْهَارُ  
 حَسَنَاءُ شَدَّ بِحَضْرَمَا زُنَارُ  
 تُجَلِّي وَنَوَارُ الْغُصُونِ نَارُ  
 وَتَجَسَّمَتْ نُورًا بِهَا الْأَنْوَارُ  
 فِيهَا وَيَفْتَقُ مِسْكَهَ الْعِطَارُ  
 وَجَهَ الثَّرَى وَاسْتَيْقِظَ النُّوَارُ

وَأَرَاكَةَ ضَرَبَتْ سَمَاءَ فَوْقَنَا  
 حَقَّتْ بِيَدِ وَحْتِهَا مَجْرَةُ جَدُولِ  
 وَكَأَنَّمَا وَكَأَنَّ جَدُولَ مَائِهَا  
 زَفَّ الزَّجَاجُ بِهَا عُرُوسَ مُدَامَةِ  
 فِي رَوْضَةِ جَنَحِ الدَّجِيِّ ظَلُّ بِهَا  
 غَنَاءُ يَنْشُرُ وَشِيَهَ الْبِرَازُ لِي  
 قَامَ الْغِنَاءُ<sup>٣</sup> بِهَا وَقَدْ نَضَحَ النَّدَى

١ ق : والشمس خمر .

٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٥١ .

٣ ج ط : النيار .

٤ ج : الدجى .

والماء في حلي الحباب مقلد زرت عليه جيوها الأشجار

وقال ملترماً ما لا يلزم<sup>١</sup> :

خُذْهَا إِلَيْكَ وَإِنِّهَا لَنَضِيرَةٌ  
حملت وحسبك بهجة من نَفْحَةٍ<sup>٢</sup>  
من كل وارسَةِ القَمِيصِ كَأَنَّمَا  
نَجْمَتْ تَرُوقُ بِهَا نَجُومًا حَسْبَهَا<sup>٣</sup>  
وَأَتْنِكَ تَسْفِرُ عَن وُجُوهِ طَلْقَةٍ  
يَنْدَى بِهَا وَجْهُ النَّدَى وَلرُبَّمَا  
فَاسْتَضْحَكَ وَجْهَ الدَّجَى مَقْطُوعَةٌ

وقال أيضاً<sup>٥</sup> :

وَصَدْرٌ نَادٍ نَظَمْنَا  
فِي مَنَزَلٍ قَدْ سَحَبْنَا  
تَذَكُّرُ بِهِ الشُّهُبُ جَمْرًا  
وَقَدْ تَأَرَّجَ نَوْرٌ  
كَمَا تَنَفَّسَ ثَغْرٌ  
لَهُ الْقَوَافِي عَقْدًا  
بِظَلِّهِ الْعِزُّ بُرْدًا  
وَيَعْبِقُ اللَّيْلُ نَدَاً  
غَضٌّ يُخَالِطُ وَرْدًا  
عَذْبٌ يَقْبَلُ خَدًّا

وقال من قصيدة يصف منترها<sup>٦</sup> :

١ ديوانه : ٧١ .

٢ ق ط ج : نفحة في بهجة .

٣ ق : نجوم حسنها .

٤ ك : هنالك أوجه .

٥ ديوان ابن خفاجة : ٨٠ .

٦ ديوانه : ٣٣٧ .

يا رَبِّ وَضَاحِ الجَيْنِ كَأَتَمَّا  
تُغْرَى بطلعته العيون مهابة  
خُلعت عليه من الصِّباحِ غِلاله  
فكرعتُ من ماء الصِّبا في منهل  
في حيثُ للريح الرِّحاءُ تَنفَسُ  
ولربَّ غَضَّ الجسمِ مدَّ بجوضه  
ولقد أنختُ بشاطئيه يهزني  
وبكيتُ؛ دجلته يُضاحكني بها  
تُجلى من الدنيا عروسُ بَيْننا  
ثم ارتحلتُ وللنهار ذُؤابة  
تَلوِي معاطفي الصبايةُ والصِّبا

وقال ٦ :

مرَّ بنا وهو بدرٌ تمَّ  
بقامةٍ تنثني قضيباً  
يقرأُ والليلُ مُدْهِمٌ  
وربَّ ليلٍ سهرتُ فيه  
حتى إذا الليلُ مالُ سُكْرًا  
يسحبُ من ذيله سحابا  
وغرةٍ تلتظي شهابا  
لنورِ إجلاله كتابا  
أزجرُ من جنحه غرابا  
وشقَّ سرباله وجابا

١ ق ك ج ط : السماء .

٢ بعد هذا البيت في الديوان « ومنها » اعتماداً على الذخيرة .

٣ الديوان : مريخوضه ؛ ج : مرّ .

٤ الديوان : وعبرت . ج : وبكت وحلته .

٥ ق ك ج ط : والنهار .

٦ ديوان ابن خفاجة : ٣٣٨ وهي في الذخيرة أيضاً ، وفي الروايتين اختلافات .

٧ ق ك ج ط : نكابا .

وحام من سُدْفَةَ غُرَابٌ  
 ازْدَدْتُ من لَوْعَتِي خَبَالاً  
 وما خَطَا قَادِمًا فَوَافِي  
 وَبَيْنَ جَفَتِي بَحْرُ شَوْقٍ  
 قد شَبَّ في وَجْهِهِ شُعَاع  
 وَرَوْضَةٌ طَلْقَةٌ حَيَاءُ  
 يَنْجَابُ عن نَوْرِهَا كَمَا  
 باتَ بِهَا مَبْسُومُ الأَقْحِي  
 وَمِنْ خُفُوقِ البروقِ فِيهَا  
 كَأَنَّهَا أَمْسَلُ وِرَادُ  
 طَالَتْ به سَنُهُ ١ فشابا  
 فحثَّ من غُلْتِي شَرَابا  
 حتى انشَى ناكصاً فأبا  
 يَعْبُ في وَجْنَتِي عُبَابا  
 وشبَّ عن قَلْبِي التهايا  
 غَنَاءُ مُخْضَرَّةً جَنَابا  
 يَحُطُّ عن وَجْهِهِ نِقَابا  
 يرشِفُ من طَلَّهَا رُضَابا  
 أَلْوِيَّةٌ حُمِرَتْ خِضَابا  
 تحصرَ قَطَرَ الحيا حِسَابا

وله أيضاً ٢ :

رَحَلْتُ عنكم ولي فؤادُ  
 أَجُودُ فيكم بعلقِ دَمْعٍ  
 يَثُورُ في وَجْنَتِي جِيشاً  
 كَأَنِّي بَعْدَكُمْ شِمَالُ  
 تُنْقِضُ أضلاعَهُ حَنِينا  
 كُنْتُ به قِبَلِكُمْ ضَمِينا  
 وكان في جَفْنِهِ كَمِينا  
 قَدْ فَارَقَتْ مِنْكُمْ يَمِينا

وقال ٣ :

فِيا لَشَجَا صدرُ من الصبرِ فارِغِ  
 وَنَفْسِي إلى جَوِّ الكَنِيسَةِ صَبَّةِ  
 ويا لَقَدَى طَرْفٍ من اللدمِ مِلانِ  
 وقلبٍ إلى أَفْقِ الجَزِيرَةِ حَنَّانِ

١ ق : مدة .

٢ ديوانه : ٣٤٠ والذخيرة ؛ ولفظة أيضاً سقطت من ك ج ط .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٤٥ والذخيرة .

٤ ك : قلب .



تَعَوَّضْتُ مِنْ وَاهاً بآهٍ وَمِنْ هَوَى  
 وَمَا كَلُّ بِيضَاءِ تَرَوْقٍ بِشَحْمَةٍ  
 فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِدَهْرِي عَطْفَةٌ  
 مِيَادِينَ أَوْطَارِي وَلَذَّةٌ لِدَّتِي  
 كَأَنْ لَمْ يَصِلْنِي فِيهِ ظَبْيِي يَقُومُ لِي  
 فَسَقِيًّا لُوَادِهِمْ وَإِنْ كُنْتُ إِنَّمَا  
 فَكَمْ يَوْمٍ لهُوَ قَدْ أَدْرَنَا بِأَفْقِهِ  
 وَلِلْقُضْبِ وَالْأَطْيَارِ مَلْهَى يَجْزِعُهُ ١  
 وَبِالْحَضْرَةِ الْغُرَاءِ غَيْرُ ٢ عَلِقَتْهُ  
 رَقِيقُ الْحَوَاشِي فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهِ  
 أَغَارَ لِحْدَيْهِ عَلَى الْوَرْدِ كَلَّمَا  
 وَهَبْتِي أَجْتِي وَرَدَّ خَدَّ بِنَاطِرِي  
 يُعَلِّقُنِي مِنْهُ بِمَوْعِدِ رَشْفَةٍ  
 حَبِيبَ عَلَيْهِ بِلَحَّةٍ مِنْ صَوَارِمِ  
 تَرَأَى لَنَا فِي مِثْلِ صُورَةِ يَوْسُفِ  
 طَوَى بُرْدَهُ مِنْهَا صَحِيفَةَ فِتْنَةٍ  
 حَبَّتُهُ دِينِي وَمَشَّوَاهُ كَعْبَتِي

وقال أيضاً رحمه الله تعالى ٣ :

وَلَيْلٍ تَعَاطَيْنَا الْمِدَامَ وَبَيِّنَنَا  
 نَعَاوِدُهُ وَالْكَاسُ يَعْبَقُ نَفْسَهُ ٤

بِهُونٍ وَمِنْ إِخْوَانِ صَدَقَ بِخُؤَانِ  
 وَمَا كَلُّ مَرَعَى تَرْتَعِيهِ بِسَعْدَانِ  
 فَتُجْمَعُ أَوْطَارِي عَلَيَّ وَأَوْطَانِي  
 وَمَنْشَأُ تَهْنِئَاتِي وَمَلْعَبُ غَزَلَانِي  
 لِمَاءِ وَصُدُغَاهُ بِرَاحِي وَرِيحَانِي  
 أَيْبَتُ لِدَكَرَاهُ بِغُلَّةِ ظَمَّانِ  
 نَجُومِ كَوْسٍ بَيْنَ أَقْمَارِ نَدْمَانِ  
 فَمَا شَتَّ مِنْ رَقِصٍ عَلَى رَجْعِ أَلْحَانِ  
 فَأَحْبَبْتُ حُبًّا فِيهِ قُضْبَانِ نَعْمَانِ  
 وَمَنْطِقِيهِ مَسَلَى قُلُوبِ وَأَذَانِ  
 بَدَا وَلِعِطْفِيهِ عَلَى غُصْنِ الْبَانِ  
 فَمَنْ أَيْنَ لِي مِنْهُ بِتَفْاحِ لُبْنَانِ  
 خِيَالٌ لَهُ يُغْرِي بِمِطَّلِ وَليَانِ  
 علاها حَبَابٌ مِنْ أَسِنَّةِ مُرَّانِ  
 تَرَأَى لَنَا فِي مِثْلِ مُلْكِ سُلَيْمَانَ  
 قَرَأْنَا لَهَا مِنْ وَجْهِهِ سَطْرَ عُنْوَانِ  
 وَرُؤْيَتُهُ حَجَّيَ وَذَكَرَاهُ قَرَأْتِي

حَدِيثٌ كَمَا هَبَّ النَّسِيمُ عَلَى الْوَرْدِ  
 وَأَطْيَبُ مِنْهَا مَا نَعِيدُ وَمَا نُبْدِي

١ في بعض النسخ : بأفقه .

٢ ق : الفراغ .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٤٨ .

٤ الديوان : تبيع مسكة .

وَنَقَلِي أَفَاحُ الثَّغْرِ أَوْ سَوَسَنُ الطَّلِي  
إِلَى أَنْ سَرَّتْ فِي جِسْمِهِ الْكَاسُ وَالْكَرَى  
فَأَقْبَلْتُ أَسْتَهْدِي لِمَا بَيْنَ أَضْلُعِي  
وَعَايِنْتُهُ قَدْ سَلَّ مِنْ وَشِي بُرْدِهِ  
لِيَانَ مَجَسَّ وَاسْتِقَامَةَ قَامَةٍ  
أَغَازُلُ مِنْهُ الْغَضْنَ فِي مَغْرَسِ النَّقَا  
فَإِنْ لَمْ يَكُنْهَا أَوْ تَكُنْهُ فَإِنَّهُ  
تَسَافِرُ كَلْنَا رَاحَتِي بِجِسْمِهِ  
فَتَهَيَّبْتُ مِنْ كَشْحِيهِ كَفُّ<sup>٢</sup> تَهَامَةٍ

وقال أيضاً<sup>٣</sup> :

طَيْفٌ أَلْمُ لَظِيئَةٌ الْوَعْشَاءُ  
وَشَرِبْتُ مِنْ رَيْقٍ وَمِنْ صَهْبَاءِ  
شَفَقًا هُنَاكَ لِيَوْجَنَةٍ حَمْرَاءِ  
خَرَفَ يَدْبُ عَلَى عَصَا الْجَوَازِ  
وَيَجُرُّ مِنْ طَرْبٍ فَضُولَ رَدَاءِ  
قَدْ غَازَلْتَهَا الشَّمْسُ غَبَّ سَمَاءِ  
كَرَعَتْ عَلَى ظَلْمٍ بِجَدُولِ مَاءِ  
حَدَّرَ النَّدَى خَفَاقَةَ الْأَفْيَاءِ

ورداً لَيْلِ بَاتٍ فِيهِ مُعَانِقِي  
فَجَمَعْتُ بَيْنَ رُضَابِهِ وَشِرَابِهِ  
وَلَثِمْتُ فِي ظِلْمَاءِ لَيْلَةٍ وَفَرِهِ  
وَاللَّيْلِ مُشْمَطُ النَّوَابِ كَبْرَةٍ  
ثُمَّ انْتَهَى وَالصَّبِيحُ يَسْحَبُ فِرْعَةٍ  
تَنْدَى فِيهِ أَفْحُوَانَةٌ أَجْرَعِ  
وَتَمِيسُ فِي أَثْوَابِهِ رِيحَانَةٍ  
نَقَّاحَةٌ الْأَنْفَاسِ إِلَّا أَنَّهَا

١ هذه رواية الذخيرة والديوان ، وفي ق ك ج ط : الضلوع .

٢ ق ك ج ط : كفي .

٣ ديوان ابن خفاجة : ١٥٣ .

٤ في ق ك ط : بطيبة . ج : بطيبة الوعشاء .

٥ ق ج ط : الذؤابة .

فلوئثُ معطَفَها اعتناقاً حسبنا<sup>١</sup> فيه بقطر الدَّمع من أنواء

\* \* \*

[قصيدتان لابن سعيد]

وكان المعتمد بن عباد رحمه الله تعالى كثيراً ما ينتاب وادي الطلح مع  
رُمَيْكَيْته ، وأولي أنسه ومسرته ، وهو وادٍ بشرفِ إشبيلية مُلتَفَ الأشجار ،  
كثير ترنم الأطيَّار ، وفيه يقول نور الدين ابن سعيد :

سائل بوادي الطلح ريح الصِّبا	هل سُخِّرَت لي من زمان الصِّبا
كانت رسولاً فيه ما بيئنا	لنْ نأمنَ الرُّسلَ ولنْ نكتُبا
يا قاتلَ الله أناساً إذا	ما استؤمنوا خانوا فما أعجبا
هلاً رعوأ أنا وثقنا بهم	وما اتخذنا عنهم مذهباً
يا قاتلَ الله الذي لم يتب	من غدرهم من بعد ما جرباً
واليمُّ لا يعرِفُ ما طعمه	إلا الذي وافى لأن يشرباً
دعني من ذكر الوُشاة الألى	لما يزلُ فكري بهم ملهبا
واذكر بوادي الطلح عهداً لنا	لله ما أحلى وما أطيباً
بجانِب العطفِ وقد مالت الـ	أغصانُ والزهرُ بيثُ الصِّبا
والطيرُ مازت بين ألحانها	وليس إلا مُعجِباً مطرباً
وخاني من لا أسميه من	شَحَّ أخافُ الدهر أن يسلباً
قد أترع الكأسَ وحيأ بها	وقلتُ أهلاً بالمتى مَرحبا
أهلاً وسهلاً بالذي شتته	يا بدرَ تمَّ مُهدياً كوكبا
لكنتي آليتُ أسقى بها	أو تُودِعَ عنها ثغرك الأشنبا
فمَجَّ لي في الكأس من ثغره	ما حبَّبَ الشرب وما طيباً

١ الديوان : حسبنا .

٢ دوزي : في زمان .

وقال ها لثمي نَقلاً<sup>١</sup> ولا  
 واقطف بخدي الورد والآس<sup>٢</sup> وال  
 أسعفته غصناً غدا مثيراً  
 قد كنتُ ذا نهيٍ وذا إمرةٍ  
 ولم أصنْ عِرْضِي في حبه  
 حتى إذا ما قال لي حاسدٌ  
 أرسلتُ من شعري سحراً له  
 وقالَ عرفهُ بأنِّي ساحدٌ  
 فزاد في شوقي لهُ وعده  
 أمدُّ طرفي ثم أثنيه من  
 أصدق الوعد وطوراً أرى  
 أتى ومن سخره بعدما  
 قبِلتُ في الترب ولم أستطع  
 هنأتُ ربي إذ غدا هالةً  
 بالله ميلٌ مُعتنقاً لائماً  
 فقال ما ترغِبُ قلتُ اتئد  
 فقال لا مذهب<sup>٣</sup> عن ذكر ما  
 وكانَ ما كان فوالله ما  
 تشم<sup>٤</sup> إلا عرْفِي الأطيبا<sup>٥</sup>  
 نسرين لا تحفيل بزهر الرُّبى  
 ومن جناه ميسه قرباً  
 حتى تبدى فحللتُ الحبا  
 ولم أطع فيه الذي أنبا  
 ترجوه والكوكب أن يغربا  
 يسرُّ المرغَبَ والمطلبا  
 تالُ فما أجنب المكتبا  
 ولم أزل مُقتعداً<sup>٦</sup> مرقبا  
 خوف أخى التنغيص أن يرقبا  
 تكذيبه والحرُّ لَنَ يكذبا  
 أياسُ بطءٌ كاد أن يُغضبا  
 من حصر اللقيا سوى مَرحباً  
 وقلت يا من لم يُضع أشعبا  
 فمال كالغُصن ثنته الصبا  
 أدركتُ إذ كلمتني المرغبا<sup>٥</sup>  
 ترغبه قلتُ إذن مركبا  
 ذكرته دهري أو أغلبا

١ بعض النسخ : الطيبا .

٢ بعض النسخ : الآس والورد .

٣ ق ك ج ط : معتقداً .

٤ ق ج ط : آيس .

٥ في نسخة : المأربا .

٦ ق ك : مرغب .

وستأتي هذه القصيدة بكاملها<sup>١</sup> في جملة من نظم ابن سعيد المذكور<sup>٢</sup>.  
وقال يتشوق إلى إشبيلية ، وهي حمص الأندلس :

أَنَّ الخليجُ وغنّت الورقاءُ هل برّحاً إذ هاجتِ البرّحاءُ  
أنا منكما أولى بحلية عاشقٍ أفنى وما نمتُ بي الصُّعداءُ  
أخشى الوشاةُ فما أفوهُ بلفظةٍ والكنمُ عندَ العاشقينِ عناءُ  
لولا تشوقُ أرضِ حمصٍ ما جرى دمعي ولا شميتُ بي الأعداءُ  
لم أستطعُ كتماً له فكأنتي ما كان لي كنمٌ ولا إخفاءُ  
والبدرُ مهمارام كتماً من سري فيه يئمُّ على سراهُ ضياءُ  
بلدٌ متى يخطرُ له ذكرٌ هفا قلبي وخانَ تصبرٌ وعزاءُ  
من بعده ما الصبحُ يشرق نورهُ عندي ، ولا تبدلُ الظلماءُ  
كم لي به من ذي وفاء لم يخنُ عهدي ، وينمو بالودادِ وفاءُ  
فتراه إما مرّ ذكرى سائلاً<sup>٣</sup> عن حالي إن قلتِ الأبناءُ  
يُسمي ويصبحُ في تذكرُ مدّةٍ يرضى بها الإصباحُ والإساءُ  
مع كل مبدول الوصال ممنعٍ من غيرنا تسمو به الخيلاءُ  
كالظبي ، كالشمس المنيرة ، كالنقا كالغصنِ يثني معطفينه رخاءُ  
يسعى براح كالشهاب ، براحة كالبدر ، والوجهُ المنيرُ ذكاءُ  
ما لان نحو الوصلِ حتى طال منهُ الهجرُ واتصلتْ به البلّواءُ  
خير المحبّة ما تأتت عن قلبي تُدرى ببؤسِ الفاقةِ النّعماءُ  
ما زلتُ أرقي بالقريض جنونهُ حتى استكان ، وكان منهُ إباءُ  
فظهرتُ منهُ بمدّة لو أتتها دامت لدامت لي بها السّراءُ

١ بكاملها : زيادة من نسخة ك .

٢ سيأتي شعر ابن سعيد في الباب الخامس من الكتاب .

٣ ط ج ق : قرى إذا ما مر ذكرى سائل .

صفوً تكدر بالتحرك ، ليته  
إنّ الفراق هو المنيّة ، إنّما  
لولا تذكر لدة طابت لنا  
وجرى النسيم على الخليج معطراً  
ما كابدت نفسي أليم تفكراً  
يا نهر حمص لا عدتكَ مسرةً  
كلّ النفوس تهشّ فيك كأنّما  
وُدّي إليك مع الزمان مُجددٌ  
ولو آتني لم أحيي ذكراً للذي  
ما كنت أطمع في الحياة لو أنّي  
غيري إذا ما بان حان ، وإنّما

ما زال<sup>١</sup> ، لكن لا يرُدُّ قضاء  
أهلُ التوى ماتوا وهم أحياء  
بذراً الجزيرة حيث طاب هواء  
وتبدّدت في الدوحة الأنداء  
ألوى به عن جفني الإغفاء<sup>٢</sup>  
ماء يسيلُ لديك أم صهباء  
جمعتُ عليك شتاتها الأهواء  
ما إن يحولُ تذكرٌ وعناء  
أوليتهُ ما كان فيّ حياء  
أيقنتُ أن لا يُستردّ لقاء  
أبقى حياتي ، حينَ بنيتُ ، رجاء

وسياتي إن شاء الله تعالى لهذا النمط وغيره مزيد أثناء الكتاب ، بحسب ما  
اقتضته المناسبة ، والله تعالى المرجو في حسن المتاب ، وهو سبحانه لا إله إلا هو  
الموفق للصواب<sup>٣</sup> .

## تم المجلد الأول

١ ق ط ج : ليه ما زلت .

٢ ك : الإغضاء .

٣ عند هذا الحد تنتهي النسخة ك ، وفي آخرها : « انتهى السفر الأول من كتاب نوح الطيب . . . الخ » .

## محتويات المجلد الأول

٢٤ - ٥	مقدمة المحقق
٣٢ - ٢٥	نماذج من المخطوطات
١٢١ - ١	مقدمة المؤلف
١	خطبة الكتاب
١٣	حنين إلى الوطن
٣٣	ركوب البحر وبلوغ مصر
٣٩	زيارة مكة والمدينة
٥٤	زيارة بيت المقدس
٥٦	عود إلى مصر ثم إلى القدس
٥٨	الرحلة إلى دمشق
٦٩	ابن شاهين يقترح على المؤلف تأليف كتاب عن لسان الدين
٧١	اعتذار المؤلف عن تليته للمطلب
٧٥	إصرار ابن شاهين على رأيه
٨٠	اعتزام المقرئ إجابته
٨١	وداع الشام
٩٩	شروعه في التصنيف بمصر
٩٩	رسالة من ابن شاهين تحثه على المضي
١٠٣	مقتطفات من رسالة ابن شاهين
١٠٦	تهنئ المؤلف لاستئناف التصنيف
١١٢	منهج الكتاب
١١٧	خاتمة المقدمة

## القسم الأول

فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار . . . [ثمانية أبواب تشمل الأجزاء ١ - ٤]

### الباب الأول

٢٢٨ - ١٢٥	في وصف جزيرة الأندلس
١٢٥	مقدمات عامة في مزايا الأندلس
١٢٧	مساحتها وأبعادها
١٣٣	الأمم التي استوطنت الأندلس
١٣٦	موقع الأندلس من الأقاليم
١٣٧	رجع إلى الأمم التي استوطنتها
١٤٠	مناخها وخيراتها
١٤٤	الأندلسيون والأمم المجاورة
١٤٥	بحر المجاز
١٤٦	نبذة عن خراجها
١٤٧	خبر ابن خلدون عن الأمم التي استوطنتها
١٤٧	شيء عن غرناطة وأعمالها
١٥٠	شهرة سرقسطة وبرجة ومالقة وأشبونة
١٥٣	نبذة عن قرطبة وشهرتها
١٥٦	إشبيلية وإقليمها
١٥٩	شهرة باجة وجبل طارق
١٦١	كورة طليطلة وما تشتهر به
١٦٢	مدينة المرية وما تشتهر به
١٦٤	شنة وخواصها
١٦٤	شنش وسهيل وتدمير



١٦٥	أقاليم الأندلس وكور كل إقليم
١٦٧	الجزر البحرية
١٦٨	قرطاجنة وخواصها
١٧٠	رسالة أبي البحر في تغاير مدن الأندلس
١٧٥	عود إلى ذكر غرناطة
١٧٩	بلنسية وبعض قراها
١٨٢	متفرجات إشبيلية
١٨٢	موسى بن سعيد بأبي فراق الأندلس
١٨٤	شريش ومجبناتها
١٨٤	شلب وكورة أكشونية
١٨٦	أشعار في بطليوس وشاطبة وبرجة
١٨٦	رسالة لسان الدين في تفضيل الجهاد على الحج
١٩٠	تشبيه الأندلس بالعقاب
١٩٠	المخزومي الأعمى ونزهون الغرناطية
١٩٣	قصة من كتاب ابن الرقيق
١٩٦	قصر باديس بقرطاجنة
١٩٦	سرقسطة وخواصها
١٩٧	السمور بالأندلس
١٩٨	فراء القنلية
١٩٨	سائر حيواناتها وطيورها
١٩٩	أنواع الأفاويه فيها
٢٠٠	ثمارها وفواكهها
٢٠٠	معادنها وأحجارها وقرمزها
٢٠١	مصنوعاتها
٢٠٢	الأسلحة
٢٠٢	الآثار الأولية بالأندلس

٢٠٥	وصف ابن سعيد للأندلس
٢٠٦	بيئتنا طليطلة
٢٠٨	عود إلى ذكر إشبيلية
٢٠٩	مقارنة ابن سعيد بين الأندلس وسواها
٢٠٩	أشعار في وصف الأندلس
٢١٠	رغاء الأندلس كما يصفه ابن حوقل <sup>١</sup>
٢١٢	ردّ ابن سعيد على ابن حوقل
٢١٢	ابن سعيد يسرد تاريخ الأندلس
٢١٦	ابن سعيد يصف الخطط الأندلسية
٢١٦	١ - الوزارة
٢١٧	٢ - الكتابة
٢١٧	٣ - الخراج
٢١٧	٤ - القضاء
٢١٨	٥ - خطة الشرطة
٢١٨	٦ - الحسبة
٢١٩	٧ - خطة الطواف بالليل
٢١٩	الأندلسيون والتشريع
٢٢٠	الأندلسيون والتصوف
٢٢٠	الأندلسيون والعلوم والآداب
٢٢٢	الزري الأندلسي
٢٢٣	تدبير الأندلسيين ومروءتهم
٢٢٤	منهج كتاب المغرب
٢٢٦	خاتمة في نبذة جغرافية
٢٢٦	مقطعات في مدح الأندلس
٢٢٨	من خصائص الأندلس

## الباب الثاني

٢٢٦ - ٢٢٩	في فتح الأندلس
٢٢٩	أخبار الفتح حسب مختلف الروايات
٢٤٣	خبر بيت الحكمة بالأندلس
٢٤٨	عود إلى أخبار الفتح
٢٥٠	ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزانة وغيره
٢٨٠	نهاية موسى وابنه عبد العزيز
٢٨٢	عبد الرحمن الداخل
٢٨٣	مزيد بيان في نهاية موسى
٢٨٧	عود إلى ذكر التابعين بالأندلس
٢٨٨	مغائم الأندلس
٢٩٠	استيطان العرب في الأندلس
٢٩٨	ثبت بأسماء الأمراء
٣٠٠	حكّام بني أمية
٣٠٠	الحموديون
٣٠١	بقية بني أمية
٣٠١	ملوك الطوائف ومن بعدهم
٣٠٢	ترجمة جهور بن محمد من المطمح
٣٠٤	انتقاض حال الأندلس
٣٠٥	رسائل أبي المطرف ابن عميرة
٣١٣	تعريف بأبي المطرف
٣١٧	رسالة أخرى لأبي المطرف
٣١٩	رسالة غيرها لأبي المطرف
٣٢١	رسالة لسان الدين إلى ابن قلاوون

## الباب الثالث

٤٥٤ - ٣٢٧

في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي .

٣٢٧	عبد الرحمن الداخل .
٣٣٤	هشام بن عبد الرحمن .
٣٣٨	الحكم بن هشام .
٣٤٤	عبد الرحمن بن الحكم .
٣٥٠	محمد بن عبد الرحمن .
٣٥٢	المنذر بن محمد .
٣٥٢	عبد الله بن محمد .
٣٥٣	عبد الرحمن الناصر .
٣٥٦	هدية ابن شهيد للناصر .
٣٦٠	عود إلى أخبار الناصر .
٣٦٣	غزوات الناصر .
٣٦٤	الوفود على بلاط الناصر .
٣٧٢	ترجمة منذر بن سعيد عن المغرب .
٣٧٥	ترجمة منذر في المطمح .
٣٧٦	رجوع لأخبار الناصر .
٣٨٠	ترجمة الوزير أحمد بن شهيد .
٣٨٢	الحكم المستنصر .
٣٨٨	وفود أردون على المستنصر .
٣٩٤	عود إلى سيرة الحكم .
٣٩٦ ✓	خلاقة هشام بن الحكم وتسلط ابن أبي عامر .
٣٩٩	ترجمة المنصور عن ابن سعيد .
٤٠٢	الحاجب المصحفي عن المطمح .

٤٠٣	ترجمة المنصور في المطمح
٤٠٧	أخبار في سيرة المنصور
٤١٧	أخبار المنصور من كتاب الأزهار المنثورة
٤٢٠	عود إلى النقل عن المطمح
٤٢٣	عبد الملك المظفر
٤٢٤	عبد الرحمن شنجول
٤٢٦	بيعة المهدي بالله
٤٢٧	خبر الفتنة البربرية
٤٢٨	بيعة سليمان المستعين
٤٣١	بنو حمود
٤٣٥	خلافة المستظهر
٤٣٧	بيعة المستكفي والمعتد
٤٣٨	انقضاء الأموية وظهور ملوك الطوائف
٤٣٨	ملوك الطوائف
٤٣٨	١ - بنو عباد وبنو جهور
٤٤٠	٢ - بنو ذي النون بطليطة
٤٤١	٣ - بنو هود بسرقسطة
٤٤٢	٤ - بنو الأفطس ببطليوس
٤٤٢	اللمتونيون ثم الموحدون
٤٤٣	غزوة الأرك
٤٤٤	بين صلاح الدين ويعقوب الموحد
٤٤٥	الموحدون والأندلس
٤٤٦	العقاب والتياث أمر الموحد
٤٤٦	ابن هود ومنافسه ابن الأحمر
٤٤٧	دولة بني الأحمر
٤٤٩	بين دون بطره وأبي الوليد ابن الأحمر
٤٥٢	شيخ الغزاة أيام بني الأحمر

## الباب الرابع

٤٥٥ - ٦٩٤

في ذكر قرطبة والزهراء والزاهرة

٤٥٥	تقول في وصف قرطبة
٤٦٦	منتزهات قرطبة
٤٨٠	نهرها وقنطرتها
٤٨١	رجع إلى قرطبة
٤٨٢	الفتنة البربرية
٤٩٠	استطراد في وصف المباني العامرة
٥٠٠	البكاء على خراب العمران
٥٠٥	رجع إلى قرطبة - رسائل للسان الدين
٥١٩	رجع إلى أخبار قرطبة
٥٢٠	رجع إلى أخبار البنيان
٥٢٣	حديث عن الزهراء
٥٢٤	وصف ابن خلكان للزهراء
٥٢٦	رجع إلى بناء الزهراء
٥٢٨	قصور بني ذي النون
٥٢٩	أشعار ورسائل أندلسية في وصف المجالس
٥٣٨	قصيدة لابن خفاجة
٥٤٠	عود إلى عمران قرطبة
٥٤٢	قصيدة القرطبي والمنتزهات
٥٤٥	عود إلى مسجد قرطبة
٥٤٨	رجع إلى المنارة
٥٥٢	وصف جامع قرطبة لابن صاحب الصلاة
٥٥٥	تمام الحديث في متعلقات الجامع
٥٥٦	عمل أهل قرطبة حجة في الفقه

٥٥٨	رجع إلى وصف قرطبة ومسجدها .
٥٦٣	الزهراء
٥٧٠	بين الناصر ومنذر بن سعيد
٥٧٧	حديث ابن خلدون عن الزهراء
٥٧٨	الزاهرة
٥٨٥	المنصور وابن شهيد
٥٨٦	ترجمة الجزيري من المطمح
٥٨٨	رجع إلى المنصور
٥٩١	طرف من أخبار المنصور .
٥٩٢	ترجمة المصحفي من المطمح
٥٩٥	عود وانعطاف إلى أخبار المنصور .
٥٩٧	رسالة ابن عبد البر إلى المنصور الصغير
٦٠٠	رجع إلى أخبار المنصور الكبير
٦٠٥	المصحف العثماني بقرطبة .
٦١٥	شعر في قرطبة .
٦١٦	أبو المغيرة ابن حزم والجارية
٦١٨	المأمون والجارية
٦٢٠	ترجمة أبي المغيرة من المطمح
٦٢١	ترجمة ابن شهيد من المطمح
٦٢٣	استيلاء المعتمد على قرطبة
٦٢٧	ذكر المنتزهات في سياق التراجم .
٦٢٧	١ - من ترجمة ابن زيدون في القلائد
٦٣٢	[ موشحة ابن الوكيل ]
٦٣٤	٢ - من ترجمة بني القبطورنة
٦٤٠	٣ - من ترجمة ابن حسداي
٦٤٣	٤ - من ترجمة ابن السيد
٦٥٠	٥ - من ترجمة ابن العطار

٦٥٢	.	.	.	.	٦ - من ترجمة ابن عمار
٦٥٧	.	.	.	.	٧ - من ترجمة ابن وهبون
٦٥٧	.	.	.	.	٨ - من ترجمة ابن طاهر
٦٥٩	.	.	.	.	٩ - من رسالة للفتح
٦٦١	.	.	.	.	١٠ - من ترجمة الراضي
٦٦٣	.	.	.	.	١١ - من ترجمة المتوكل
٦٦٦	.	.	.	.	١٢ - من ترجمة المتصم بن صمادح
٦٦٧	.	.	.	.	١٣ - من ترجمة ابن رزين
٦٧٠	.	.	.	.	١٤ - من ترجمة ابن طاهر
٦٧١	.	.	.	.	١٥ - من ترجمة ابن عمار
٦٧٢	.	.	.	.	١٦ - من ترجمة ابن ليون
٦٧٣	.	.	.	.	١٧ - من ترجمة ابن رحيم
٦٧٣	.	.	.	.	١٨ - من ترجمة ابن عبدون
٦٧٤	.	.	.	.	١٩ - من ترجمة ابن مالك
٦٧٥	.	.	.	.	٢٠ - من ترجمة ابن السقاط
٦٧٦	.	.	.	.	٢١ - من ترجمة ابن أضحى
٦٧٧	.	.	.	.	٢٢ - من ترجمة ابن خفاجة
٦٧٨	.	.	.	.	٢٣ - من رسالة للفتح
٦٧٩	.	.	.	.	٢٤ - من ترجمة ابن عطية
٦٨١	.	.	.	.	قصائد لابن خفاجة
٦٩١	.	.	.	.	قصيدتان لابن سعيد
٦٩٥	.	.	.	.	محتويات المجلد الأول



# نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ

غَيْضِ الأَنْدلسِ الرَّطِّيبِ

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد القرني التليساني

حفظه

الدكتور احسان عباس

المجلد الثاني

دار صادر  
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ ۱۹۶۸ م

نفع الطيب

٢



# العلماء والعلماء

## الباب الخامس

في التعريف ببعض مَنْ رَحَلَ من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الزاكية  
العرّار والبشام ، ومدّح جماعة من أولئك الأعلام ، ذوّي العقول  
الراجحة والأحلام ، لشامة وجنّة الأرض دِمَشْقُ الشام ، وما اقتضته  
المناسبة من كلام أعيانها ، وأرباب بيانها ، ذوي السؤدد والاحتشام ،  
ومخاطباتهم للفقير المؤلف حين حلّها سنة ألف وسبع وثلاثين للهجرة ،  
وشاهدَ برق فضلها المبين وشام

اعلم - جعلني الله تعالى وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال - أنّ حَصُرَ  
أهل الارتحال ، لا يمكن بوجه ولا بحال ، ولا يَعْلَمُ ذلك على الإحاطة إلاّ علام  
الغيوب الشديد المحال ، ولو أطلقنا عِنانَ الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء  
الأعلام ، لطلال الكتاب وكثر الكلام ، ولكنّا نذكر منهم لمعاً على وجه التوسط  
من غير إطّباب داع إلى الملل واختصار مؤدّ للملام ، فنقول مستمدين من واهب  
العقول :

١ - منهم عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السُّلَمي<sup>١</sup> : وقد عرف  
به القاضي عياض في المدارك وغير واحد ، ورأيت في بعض التواريخ أن تواليفه

١ قد مرّ التعريف به والإشارة إلى مراجع ترجمته ج ١ : ٤٦ .

بلغت ألفاً ، ومن أشهرها كتاب « الواضحة » في مذهب مالك ، كتاب كبير مفيد ، ولا بن حبيب مذهب في كتب المالكية مسطور ، وهو مشهور عند علماء المشرق ، وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر وصاحب المواهب وغيرهما .

ومن نظمه يخاطب سلطان الأندلس<sup>١</sup> :

لا تَنسَ لا ينسكَ الرحمنُ عاشورا      واذكره لا زلتَ في التاريخ مذكورا  
قالَ النبيُّ صلاةُ اللهِ تَشْمَلُه      قولاً وجدنا عَلَيْهِ الحقَّ والنورا  
فِيمَن يوسَعُ في إنفاقِ موسمه      أن لا يزالَ بذلك العامِ ميسورا  
وهذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى والوزن إذ طال عهدي به ، والله تعالى أعلم .

وقال الفتح في المطمح<sup>٢</sup> : الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي ، أي شرف لأهل الأندلس ومفخر ، وأي بحر بالعلوم يزخر<sup>٣</sup> ، خلدت منه الأندلس فقيهاً عالماً ، أعاد مجاهل جهلها معلماً ، وأقام فيها للعلوم سوقاً<sup>٤</sup> نافقة ، ونشر منها ألوية خافقة ، وجلا عن الأبواب صدأ الكسل ، وشحذها شحذ الصوآرم والأسل ، وتصرف في فنون العلوم ، وعرف كل معلوم ، وسمع بالأندلس وتفقه ، حتى صار أعلم من بها وأفقه ، ولقي أنجب مالك ، وسلك من مناظرتهم أوعر المسالك ، حتى أجمع عليه الاتفاق ، ووقع على تفضيله الإصفاق ، ويقال : إنّه لقي مالكا آخر عمره ، وروى عنه عن سعيد

١ الأبيات في ابن عذاري ٢ : ١٦٥ وهذه روايتها :

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا      واذكره لا زلت في الأخيار مذكورا  
من بات في ليل عاشوراء ذا سعة      يكن بعيشته في الحول محبورا  
فارغب فديتك فيما فيه رغبنا      خير الورى كلهم حياً ومقبورا

٢ المطمح : ٣٦ .

٣ هذه العبارة في المطمح « وأي محمد شيد الإسلام وسحر » وهي شديدة التصحيف ولعل صوابها : وأي مجد شيد للإسلام وسخر .

٤ المطمح : للمعالم ، وفي نسخة : للمعارف ؛ وفي ك : أسواقاً .

ابن المسيَّب أن سليمان بن داود، صلى الله عليهما وسلّم، كان يركب إلى بيت المقدس فيتغدى به، ثم يعود فيتعشى بإصطخّر، وله في الفقه كتاب «الواضحة»، ومن أحاديثه غرائب، قد تحلّت بها للزمان نحوراً وترائب.

وقال محمد بن لبابة<sup>١</sup> : فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك ابن حبيب، وراويها يحيى بن يحيى. وكان عبد الملك قد جمع إلى علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب، وتصرف في فنون الآداب، وكان له شعر يتكلم به متبحراً، ويُرَى ينبوعه بذلك متفجراً، وتوفي بالأندلس في رمضان سنة ٢٣٨ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة بعدما جال في الأرض، وقطع طولها والعرض، وجال في أكنافها، وانتهى إلى أطرافها.

ومن شعره قوله :

قد طاح أمري والذي أبتغي هين على الرحمن في قدرته  
ألف من الحمر وأقليل بها لعالم أربى على بُغيته  
زرياب قد أعطيتها جملة<sup>٢</sup> وحرفتي أشرف من حيرفته

وكتب إلى الزجاجي<sup>٣</sup> رسالة وصلها بهذه الأبيات :

كيف يطيق الشعر من أصبحت حالته اليوم كحال الغرق

١ هو محمد بن عمر بن لبابة أبو عبد الله القرطبي الفقيه مولى عثمان بن عبيد الله بن عثمان، كان مقدماً على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر بالفتيا مشاوراً في أيام الأمير عبد الله مع بعض المشاورين ثم انفرد بالفتيا أول أيام الناصر إلا أنه لم يكن له علم بالحديث ولا ضبط لروايته (توفي سنة ٣١٤) (ابن الفرضي ٢ : ٣٦). والنقل عن ابن لبابة موجود أيضاً في ابن عذاري ٢ : ١٦٥ وابن الفرضي ٢ : ١٧٧.

٢ في أصول المطمح : زرياب قد يأخذها دفعة ؛ وقد سقط هذا البيت من المطمح المطبوع، وانظر الأبيات في الجدوة : ٢٦٥ وطبقات الزبيدي : ٢٨٣ وفيه «قد يأخذها قفلة» وإنباء الرواة .  
٣ في المطمح : وكتب إلى محمد بن سعيد الترحالي، وفي طبقات الزبيدي : محمد بن سعيد الزجاجي، والشعر أيضاً في طبقات الزبيدي وإنباء الرواة .

والشعرُ لا يُسَلِّسُ إلاَّ على فراغِ قلبٍ واتساعِ الخلقِ  
 فافنَعْ بهذا القولِ مِن شاعِرٍ يَرْضَى من الحظِّ بأذني العنقِ  
 فضلكَ قدَّ بانَ عليهِ كما بانَ لأهل الأرضِ ضوءُ الشفقِ  
 أمّا ذمامُ الودِّ مِنِّي لَكُمْ فهو من المحتومِ فيما سبقُ

ولم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من معتلته ، ولا يفرق بين مستقيمه ومُختلته ، وكان غرضه الإجازة ، وأكثر رواياته غير مستجازة ، قال ابن وضاح : قال لإبراهيم بن المنذر : أتى صاحبكم الأندلس - يعني عبد الملك هذا - بغير آرة مملوءة ، فقال لي : هذا علمك ، قلت له : نعم ، ما قرأ عليّ منه حرفاً ولا قرأته عليه . وحكي أنّه قال في دخوله المشرق وحضر مجلس بعض الأكابر فازدراه من رآه :

لا تَنْظُرَنَّ إلى جسمي وقلتهِ وانظُرْ لصَدْرِي وما يحوي من السنِ  
 فَرُبَّ ذِي مَنْظَرٍ من غير مَعْرِفَةٍ ورُبَّ مَنْ تَرْدِيهِ العَيْنُ ذُو فِطْنِ  
 ورُبَّ لَوْلُؤَةٍ في عَيْنِ مَرْبَلَةٍ لم يُلْتَقَ بالِ لها إلاَّ إلى زَمَنِ

انتهى ما في المطمح الصغير .

قلتُ : أمّا ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مُسَلَّم ، وقد نقل عنه غير واحد من جهابذة المحدثين ، نعم لأهل الأندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين ، حتى إن في شفاء عياض أحاديث لم يعرف أهل المشرق النُقَّاد مخرجها ، مع اعترافهم بجمالة حفظ الأندلس الذين نقلوها كبقية ابن مَخْلَد وابن حبيب وغيرهما على ما هو معلوم . وأمّا ما ذكره عنه في الإجازة بما في الغرارة فذلك على مذهب مَنْ يرى الإجازة ، وهو مذهب مستفيض ، واعتراض من اعترض عليه إنّما هو بناء على القول بمنع الإجازة ، فاعلم ذلك ، والله سبحانه الموفق .



٢ - ومن الراحلين من الأندلس الفقيهُ المحدثُ يحيى بن يحيى اللبثي<sup>١</sup> راوي الموطأ عن مالك ، رضي الله تعالى عنه ، ويقال : إن أصله من برابر مَصْمُودَة<sup>٢</sup> . وحُكي<sup>٣</sup> أنه لما ارتحل إلى مالك لازمه ، فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه إذ قال قائل : حضر الفيل ، فخرج أصحاب مالك كلهم ، ولم يخرج يحيى ، فقال له مالك : ما لك لم تخرج وليس الفيل في بلادك ؟ فقال : إنَّما جئت من الأندلس لأنظر إليك ، وأتعلّم من هَدْيِكَ وعلمك ، ولم أكن لأنظر إلى الفيل ، فأعجب به مالك ، وقال : هذا عاقل الأندلس ، ولذلك قيل<sup>٤</sup> : إن يحيى هذا عاقل الأندلس<sup>٥</sup> ، وعيسى بن دينار فقيها ، وعبدُ الملك بن حبيب عالما ، ويقال : إن يحيى راويها ومحدثها ، وتوفي يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤ برجب ، وقبره يُستسقى به بقُرْبُبة ، وقيل : إن وفاته في السنة التي قبلها ، والله تعالى أعلم .

وروايته الموطأ<sup>٦</sup> مشهورة ، حتى إن أهل المشرق الآن يُسندون الموطأ من روايته كثيراً ، مع تعدّد رواة الموطأ ، والله أعلم . وكان يحيى بن يحيى روى الموطأ بقُرْبُبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخميّ المعروف بشبّطون ، وسمع من يحيى بن مُضَرّ القيسبيّ الأندلسي ، ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، فسمع من مالك بن أنس الموطأ غير أبواب في كتاب الاعتكاف ، شكَّ في سماعها ، فأثبت روايته فيها عن زياد ، وذلك ممّا يدلّ على ورّعه . وسمع بمصر من اللَّيْث بن سعد ، وبمكة من سُفْيَان بن عُيَيْنة ، وتفقه

١ قدر التعريف والإشارة إلى مصادر ترجمته ، انظر ج ١ ص : ٣٣٩ .

٢ نسيه : يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس (أو وسلاس) بن شمال بن مغايا وقد ضبط ابن خلكان هذه الأسماء .

٣ النقل عن ابن خلكان ٥ : ١٩٤ .

٤ هذا هو قول محمد بن عمر بن لبابة ، انظر الترجمة السابقة .

٥ ولذلك . . . الأندلس : سقط هذا من ط ق ، واندرج كأنه من كلام مالك .

٦ ق : في الموطأ .

بالمدينين والمصريين كعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم العتقي<sup>١</sup> ، وسمع  
منهما ، وهما من أكابر أصحاب مالك ، بعد انتفاعه بمالك وملازمته له .  
وانتهت إليه الرياسة بالأندلس ، وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار ،  
وتفقه به جماعة لا يُحْصَوْنَ عدداً ، وروى عنه خلق كثير ، وأشهر رواة  
الموطأ وأحسنهم روايةً يحيى المذكور ، وكان - مع أمانته ودينه - مُعْظَماً  
عند الأمراء ، يُكْتَبَى عندهم ، عفيفاً عن الولايات منتزهاً ، جلّت رتبته  
عن القضاء ، وكان أعلى من القضاة قدراً عند ولاة الأمر بالأندلس لزهده في  
القضاء وامتناعه .

قال الحافظ ابن حزم<sup>٢</sup> : مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان :  
مذهب أبي حنيفة ، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من  
أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية ، فكان لا يولي إلا أصحابه والمتسبين  
لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس ، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند  
السلطان مقبول القول في القضاة ، وكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلا  
بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس  
سراع إلى الدنيا ، فأقبلوا على ما يترجون بلوغ أغراضهم به ، على أن يحيى لم  
يكل قضاء قط ، ولا أجاب إليه ، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم ، وداعياً  
إلى قبول رأيه لديهم ، انتهى .

وذكرنا في غير هذا الموضع قولاً آخر في سبب انتشار مذهب مالك  
بالأندلس ، والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر ، انتهى .  
وقال ابن أبي الفيض<sup>٣</sup> : جمع الأمير عبد الرحمن بن الحكم الفقهاء في

١ في ق : العتلي ؛ وسقطت من ط ؛ وقال ابن خلكان ( ٢ : ٣١٢ ) نسبة إلى العتقاء ، جماع من  
القبائل كانوا يقطعون الطريق على من أراد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليهم فأتى بهم  
أسرى فأعتقهم فقبل لهم : العتقاء .

٢ انظر ابن خلكان ٥ : ١٩٥ . ٣ النقل أيضاً عن ابن خلكان .

قصره ، وكان وقع على جارية يجربها في رمضان ، ثم ندم أشدّ ندم ، فسألهم عن التوبة والكفارة ، فقال يحيى : تكفّر بصوم شهرين متتابعين ، فلما بادر يحيى بهذه الفتيا سكت الفقهاء حتى خرجوا ، فقال بعضهم له : لم لم تُفّت بمذهب مالك بالتخيير ؟ فقال : لو فتحنا له هذا الباب سهّل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود .

وقال بعض المالكية : إن يحيى ورى بهذا ، ورأى أنه لم يملك شيئاً إذ هو مستغرق الذمة فلا عتق له ولا إطعام ، فلم يبق إلا الصيام ، انتهى .

ولما انفصل يحيى عن مالك ووصل إلى مصر رأى ابن القاسم يدون سماعه من مالك ، فنشيط للرجوع إلى مالك لسمع منه المسائل التي رأى ابن القاسم يدونها ، فرحل رحلة ثانية ، فألقى مالكا عليلاً ، فأقام عنده إلى أن مات وحضر جنازته ، فعاد إلى ابن القاسم وسمع منه سماعه من مالك ، هكذا ذكره ابن الفرّضي في تاريخه<sup>٢</sup> ، وهو مما يرد الحكاية المشهورة الآن بالمغرب أن يحيى سأل مالكا عن زكاة التين ، فقال له : لا زكاة فيها ، فقال : إنّها تدخر عندنا ، وتدر إن وصل إلى الأندلس أن يرسل مالك سفينة مملوءة تيناً ، فلما وصل أرسلها فإذا مالك قد مات ، انتهى .

قال ابن الفرّضي<sup>٣</sup> : ولما انصرف يحيى إلى الأندلس كان إمام وقته ، وواحد بلاده ، وكان ممن أتهم بالهيج<sup>٤</sup> في وقعة الربض المشهورة ففرّ إلى طليطلة ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أماناً ، وانصرف إلى قرطبة .  
وقيل<sup>٥</sup> : لم يعط أحد من أهل الأندلس منذ دخلها الإسلام ما أعطي يحيى من الحظوة ، وعظم القدر ، وجلالة الذكر .

١ ق ط ج : وإنه لم ير أنه يملك .

٢ ابن الفرّضي ٢ : ١٧٧ وانظر أيضاً ابن خلكان .

٣ المصدر نفسه ، وهو منقول باختصار .

٤ بالهيج : سقطت من ط .

٥ هو قول أحمد بن خالد كما نقله ابن الفرّضي وابن خلكان .

وقال ابن بشكوال<sup>١</sup> : إن يحيى بن يحيى كان مجاب الدعوة ، وإنه أخذ في سمته وهيته ونفسه ومقعدة هيئات مالك .

ويحكى عنه أنه قال<sup>٢</sup> : أخذت بركاب الليث بن سعد ، فأراد غلامه أن يمنعي ، فقال : دعه ، ثم قال لي الليث : خدّمك العليم ؛ فلم تزل بي الأيام حتى رأيت مالكا ، انتهى .

٣ - ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن [ أبي ] عيسى<sup>٣</sup> .

قال في المطمح<sup>٤</sup> : من بني يحيى بن يحيى الليثي ، وهذه ثنية علم وعقل ، وصحة ضبط ونقل ، كان علّم الأندلس ، وعالمها النّدس ، ولي القضاء بقرطبة بعد رحلة رحلها إلى المشرق ، وجمع فيها من الروايات والسماع كل مفرق ، وجال في آفاق ذلك الأفق ، لا يستقرّ في بلد ، ولا يستوطن في جلد ، ثم كرت إلى الأندلس فسمت رتبته ، وتخلّت بالأمامي لبتته ، وتصرف في ولايات أحمد فيها منابه ، واتصلت بسببها بالخليفة أسبابه ، وولاه القضاء بقرطبة فتولاه بسياسة محمودة ، ورياسة في الدين مبرّمة القوى مجهودة ، والترم فيها الصرامة في تنفيذ الحقوق ، والحزامة في إقامة الحدود ، والكشف عن البيئات في السر ، والصدع بالحق في الجهر ، لم يستمليه مخادع ، ولم

١ ليس هذا النقل من الصلة إذ لم يترجم فيها ليحيى وإنما هو من تاريخ ابن بشكوال كما صرح بذلك ابن خلكان ( ص : ١٩٦ ) .

٢ ابن خلكان : ١٩٦ .

٣ ق ط ج : محمد بن عيسى ، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أيوب بن أبي عيسى القاضي عند الثعالبي ( اليتيمة ٢ : ٦٣ ) ومحمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي أبو عبد الله ( عند ابن الفرضي ٢ : ٦١ ) وهو على أية حال من بني يحيى بن يحيى الليثي ، ولي القضاء أيام الأمير عبد الرحمن بن محمد وأدرك عهد الناصر وأصبح قاضي الجماعة بقرطبة عام ٣٢٦ وكان يستعين به في السفارات ، توفي سنة ٣٣٩ . ( انظر أيضاً قضاة قرطبة للخشني : ١٧٢ والمرقبة العليا : ٥٩ والجدوة : ٦٩ وبغية الملتبس رقم : ٢١٨ ) .

٤ مطمح الأنفس : ٤٦ .

٥ المطمح : في مظلومة جلد ؛ والمعنى واحد ، إذ المظلومة هي الأرض ، والجلد : أديمها .

يكده مختل ، ولمَّ يهَبْ ذا حرمة ، ولا داهن ذا مرتبة ، ولا أغضى لأحد من أسباب السلطان<sup>١</sup> وأهله ، حتى تحاموا جانبه ، فلم يجسر أحد منهم عليه ، وكان له نصيب وافر من الأدب ، وحظ من البلاغة إذا نظم وإذا كتب .  
ومن ملح شعره ما قاله عند أوبته عن غربته<sup>٢</sup> :

كأن لم يكن بينك ولم تك فرقة  
كأن لم تورق بالعراقين مقلتي  
ولم أزر الأعراب في جنب أرضهم  
ولم أصطبح بالبيد من قهوة الندى  
إذا كان من بعد الفراق تلاق  
ولم تممر كف الشوق ماء ما في  
بذات اللوى من رامة وبراق  
وكأس سقاها في الأزاهر ساق  
وله أيضاً<sup>٣</sup> :

ماذا أكابد من ورق مغردة  
رددن شجواً شجا قلب الخلي فهل  
ذكرته الزمن الماضي بقرطبة  
هم الصباية لولا هممة شرفت  
على قضيب بذات الجزع مياس  
في عبرة ذرفت في الحب من باس  
بين الأحبة في أمن وإيناس  
فصيرت قلبه كالخندل القاسي

وله أخبار تدل على رقة العراق ، والتغذي بماء تلك الآفاق : فمنها أنه خرج إلى حضور جنازة بمقابر قريش ، ورجل من بني جابر<sup>٤</sup> كان يواخيه له منزل هناك ، فعزم عليه في الميل إليه ، وعلى أخيه فتزلا عليه ، فأحضر لهما طعاماً ، وأمر جارية له بالغناء ، فغنت :

- 
- ١ ك : أرباب .
  - ٢ انظر هذا الشعر أيضاً في الجذوة وبغية الملتمس .
  - ٣ الشعر في الجذوة : ٧٠ .
  - ٤ الجذوة : ويل أم ذكري .
  - ٥ الجذوة : هو .
  - ٦ الجذوة : بني حدير .

طابَتْ بِطِيبِ لِثَاتِكَ الْأَفْدَاحُ      وَزَهَّتْ بِحُمْرَةِ خَدِّكَ التَّفَاحُ  
وَإِذَا الرَّبِيعُ تَنَسَّمَتْ أَرْوَاحُهُ      طابَتْ بِطِيبِ نَسِيمِكَ الْأَرْوَاحُ<sup>١</sup>  
وَإِذَا الْحَنَادِسُ أَلْبَسَتْ ظُلْمَاءَهَا      فَضِيَاءَ وَجْهِكَ فِي الدُّجَى مِصْبَاحُ

فكتبها القاضي في ظهر يده ، وخرج من عنده ، قال يونس بن عبد الله<sup>٢</sup> :  
فلقد رأيتك يكبر للصلاة على الجنائز والأبيات مكتوبة على ظهر كفه .

وكان ، رحمه الله تعالى ، في غاية اللطف ، حكى بعض أصحابه قال<sup>٣</sup> : ركبنا  
معه في موكب حافل من وجوه الناس ، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من  
بعض الأزقة سكران يتمايل ، فلما رأى القاضي هابه وأراد الانصراف فخانته  
رجلاه ، فاستند إلى الحائط وأطرق ، فلما قرب القاضي رفع رأسه وأنشأ يقول :

ألا أيها القاضي الذي عمَّ عدله      فأضحى به بين الأنام فريدا  
قرأت كتاب الله تسعين مرة      فلم أر فيه للشراب حدودا  
فإن شئت جلدأ لي فدؤنك متكبأ      صبورا على ريب الزمان جليدا  
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة      تروح بها في العالمين حميدا  
وإن أنت تختار الحديد فإن لي      لسانا على هجو الزمان حديدا

فلما سمع شعره وميز أدبه أعرض عنه وترك الإنكار عليه ، ومضى لشأنه ؛  
انتهى ملخصاً من المطمح .

ورأيت بخطي في بعض مسوداتي ما صورته<sup>٤</sup> : محمد بن عبد الله بن يحيى  
ابن يحيى اللبثي قاضي الجماعة بقرطبة ، سمع عم أبيه عبيد الله<sup>٥</sup> بن يحيى ومحمد

١ ق ط ج : أدواحه . . . الأدواح .

٢ هو أبو الوليد ابن الصفار قاضي قرطبة ، وهو يروي الحكاية عن أبيه وعنه ابن حزم ، كما في  
الحدوة .

٣ هو كاتبه القاسم بن محمد أيام قضائه بإلبيرة ، انظر المرقبة العليا : ٦١ وفيها الشعر .

٤ هذه هي ترجمته كما أوردها ابن الفرضي ٢ : ٦١ ، مع شيء من إيجاز .

٥ ق ك : سمع من أبيه عبد الله .

ابن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ، ورحل من قرطبة سنة ٣١٢ ، ودخل مصر وحجَّ وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيلي وابن الأعرابي وغيرهم ، وكان حافظاً معنياً بالآثار جامعاً للسُّنن ، متصرفاً في علم الإعراب ومعاني الشعر ، شاعراً مطبوعاً ؛ وشاوره القاضي أحمد بن بَقي ، واستقضاه الناصرُ عبد الرحمن ابن محمد على البيرة وبجَانَة ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبي طالب سنة ٣٢٦ ، وجُمعت له مع القضاء الصلاة ، وكان كثيراً ما يخرج إلى الثغور ويتصرف في إصلاح ما وهى منها ، فاعتلَّ في آخر خرجاته ومات في بعض الحصون المجاورة لطلَيْطَلَة سنة ٢٣٣٧ ، ومولده سنة ٢٨٤ ؛ انتهى وأظن أني نقلته من كتاب ابن الأبار الحافظ ، والله أعلم .

٤ - ومنهم عتيق بن أحمد بن عبد الباقي الأندلسي<sup>٢</sup> ، الدمشقي وفاة ، يكنى أبا بكر : فزبل دمشق ، كان مشهوراً بالصلاح ، وانتفع به جماعة من الفقهاء ، وولد على ما قيل سنة ٥١٦ ، وتوفي سنة ٦١٦ بدمشق ، ودُفِنَ بمقابر الصوفية ، فيكون عمره على هذا مائة سنة ، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته وبركات أمثاله .

٥ - ومنهم أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي الأُبْدِي ، الملقب في البلاد المشرقية ببهان الدين - وأبْدَة ، بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة وفتحها وبعدها ذال معجمة ، بلد بالأندلس - سمع المذكور بمكة وغيرها من البلاد ، وبدمشق من الحافظ ابن طبرزد ، وأم بالصخرة ، وكان فاضلاً صالحاً شاعراً ، توفي سنة ٦٥٦ ، وأخبر عن بعض الأولياء المجاورين ببيت المقدس أنه سمع هاتفاً يقول لما خربت القدس :

١ بعد أبي طالب : سقطت من ابن الفرضي .

٢ ابن الفرضي : سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة .

٣ عتيق بن أحمد بن عبد الباقي : وردت ترجمته في حواشي الذيل والتكملة ( ٥ : ١١٥ ) من تقييدات أبي القاسم التجيبي .

إِنْ يَكُنْ بِالشَّامِ قَتْلَ نَصِيرِي ثُمَّ خُرِبْتُ وَاسْتَمَرَّ هُلُوكِي  
فَلَقَدْتُ أَثْبَتَ الغَدَاةَ خِرَابِي سَمِرَ العَارِ فِي حَيَاةِ المُلُوكِ

هكذا رأيتُه بخط الصفدي « في حياة » ويحتمل أن يكون « في جباه » جمع  
جَبْهَةٍ ، والله أعلم .

٦ - ومنهم القاضي مُنذِر بن سعيد البلوطي<sup>١</sup> ، قاضي الجماعة بقَرْطَبَة ،  
وقد قدمنا جملة من أخباره في الباب الثالث والرابع من هذا القسم ، وكان لا  
يخاف في الله لومة لائم ، ومن مشهور ما جرى له في ذلك قصته في أيتام أخي  
نَجْدَة<sup>٢</sup> ، وحدث بها جماعة من أهل العلم والرواية ، وهي أن الخليفة الناصر  
احتاج إلى شراء دار بقَرْطَبَة لحظيَّة من نساؤه تَكَرَّم عليه ، فوقع استحسانه  
على دار كانت لأولاد زكريا أخي نَجْدَة ، وكانت بقرب النشارين في الرَبَضِ  
الشرقي منفصلة عن دوره ، ويتصل بها حَمَام له غلة واسعة ، وكان أولاد زكريا  
أخي نَجْدَة أيتاماً في حجر القاضي ، فأرسل الخليفة من قومها له بعدد ما طابت  
نفسه ، وأرسل ناساً أمرهم بمداخلة وصي الأيتام في بيعها عليهم ، فذكر  
أنه لا يجوز إلاّ بأمر القاضي ، إذ لم يجز بيع الأصل إلاّ عن رأيه ومشورته ،  
فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر في بيع هذه الدار ، فقال لرسوله : البيع على  
الأيتام لا يصح إلاّ لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الوَهْيُ الشديد ، ومنها الغبطة ،  
فأمّا الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع ، وأمّا الوَهْيُ فليس فيها ، وأمّا  
الغبطة فهذا مكانها ، فإن أعظاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت

١ قد مرت أخبار منذر بن سعيد في هذا الكتاب ١ : ٣٦٨ ، ٥٧٠ (وراجع ترجمته في طبقات  
الزيدي : ٣١٩ والجدوة : ٣٢٦ وبنية الملتصم رقم : ١٣٥٦ وابن الفرضي ٢ : ١٤٢  
والخشي : ١٧٥ والمرقبة العليا : ٦٦ والمطمح : ٣٧ والروض المعطار : ١٤٠ وبنية  
الوعاء : ٣٩٨ وإنباء الرواة : ٣ : ٣٢٥ وأزهار الرياض ٢ : ٢٧٢ ومعجم الأدباء ١٩ : ١٧٤) .  
٢ القصة في المطمح : ٤٣ .



وصيهم بالبيع ، وإلا فلا ، فنقل جوابه إلى الخليفة ، فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً أن يتوخى رغبته<sup>١</sup> فيها ، وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام سورتها ، فأمر وصي الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها ، ففعل ذلك وباع الأنقاض ، فكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان ، فاتصل الخبر به ، فغز عليه خرابها ، وأمر بتوقيف الوصي على ما أحدثه فيها ، فأحال الوصي على القاضي أنه أمره بذلك ، فأرسل عند ذلك للقاضي مُنذِر ، وقال له : أنت أمرت بنقض دار أخي نَجْدَةَ ؟ فقال له : نعم ، فقال : وما دعاك إلى ذلك ؟ قال : أخذت فيها بقول الله تعالى ﴿أَمَّا السَّقِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا ، وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَقِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف : ٧٩) مُقَوِّمٌ لم يقدرها<sup>٢</sup> إلا بكذا ، وبذلك تعلق وهمك ، فقد نَضَّ<sup>٣</sup> في أنقاضها أكثر من ذلك ، وبقيت القاعة والحمام فضلاً ، ونظر الله تعالى للأيتام ، فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما أتى من ذلك ، وقال : نحن أولى من انقاد إلى الحق ، فجزاك الله تعالى عنّا وعن أمانتك خيراً .

قالوا<sup>٤</sup> : وكان على متانته وجزالته حسن الخلق كثير الدُّعَابَةِ ، فربما ساء ظنُّ من لا يعرفه ، حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار له ثورة الأسد الضاري ، فمن ذلك ما حدث به سعيدُ ابنه قال : قعدنا ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم مع أبينا للإفطار بداره البرانية ، فإذا سائل يقول<sup>٥</sup> : أطعمونا من عشايتكم أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة ، هذه الليلة ، ويكثر من ذلك ، فقال القاضي : إن استُجِيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا واحد .

١ ط : رغبهم .

٢ المطح : فمقومك لم يقدرها .

٣ نض : تحصل ، من الناض أي المال العين .

٤ المطح : ٤٤ .

٥ المطح : يا أهل هذه الدار الصالح أهلها .

وحكى عنه قاسم بن أحمد الجهني<sup>١</sup> أنه ركب يوماً لحيازة أرض مُحَبَّسَة في ركبٍ من وجوه الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو إبراهيم اللؤلؤي ونظراؤه ، قال : فسرنا نَقْفُوه وهو أماننا ، وأمامه أمانؤه يحملون خرائطه وذووه عليهم السكينة والوقار ، وكانت القضاة حينئذ لا تراكب ولا تماشي ، فعرض له في بعض الطريق كلاب مع مُسْتَوْحمة ، والكلاب تعلق هَنَها وتدور حولها ، فوقف وصرف وجهه إلينا وقال : ترون يا أصحابنا ما أبرَّ الكلاب بالهن الذي تعلقه وتكرمه ، ونحن لا نفعل ذلك ؛ ثم لوى عنان دابته وقد أضحكنا ، وبقينا متعجبين من هزله .

وحضر<sup>٢</sup> عند الحكم المستنصر بالله يوماً في خلوة له في بستان الزهراء على بِرْكَة ماء طافحة ، وسط روضة نافحة ، في يوم شديد الوَهَج ، وذلك إثر مُنْصَرَفه من صلاة الجمعة ، فشكا إلى الخليفة من وَهَج الحرِّ الجهد ، وبث منه ما تجاوز الحد ، فأمره بخلع ثيابه والتخفيف عن جسمه ، ففعل ولم يُطْفِ ذلك ما به ، فقال له : الصواب أن تنغمس في وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك ، وليس مع الخليفة إلا الحاجب جعفر الخادم الصقلي أمين الخليفة الحكم ، لا رابع لهم ، فكأنه استحيا من ذلك وانقبض عنه وقاراً ، وأقصر عنه إقصاراً ، فأمر الخليفة حاجبه جعفرًا بسبقه إلى النزول في الصهريج ليسهل عليه الأمر فيه ، فبادر جعفر لذلك ، وألقى نفسه في الصهريج ، وكان يحسن السباحة ، فجعل يجول يميناً وشمالاً فلم يسع القاضي إلا إنفاذ أمر الخليفة ، فقام وألقى بنفسه خلف جعفر ، ولاذ بالقعود في دَرَج الصهريج ، وتدرَّج فيه بعض تدرّيج ، ولم ينبسط في السباحة ، وجعفر يمر مُصْعِداً ومصوباً ، فندسه الحكم على القاضي ، وحمله على مساجلته في العوم ، فهو يُعَجِّزه في إخلاده إلى القعود ، ويعابثه

١ المطمح : ٤٤ .

٢ النص في المطمح : ٤٤ والمرقبة العليا : ٧٢ .

بإلقاء الماء عليه ، والإشارة بالحدُّب إليه ، وهو لا ينبعث معه ، ولا يفارق موضعه ، إلى أن كلّمه الحكم وقال له : ما لك لا تساعد الحاجب في فعله وتثقیل<sup>١</sup> صنعه ؟ فمن أجلك نزل ، وبسيك تبدّل ، فقال له : يا سيدي يا أمير المؤمنين ، الحاجب سلمه الله تعالى لا هوجل معه ، وأنا بهذا الهوجل الذي معي يعقلني ويمغني من أن أجول معه مجاله<sup>٢</sup> — يعني أن الحاجب خصي لا هوجل معه ، والهوجل : الدكّر — فاستفرغ الحكم ضحكاً من نادرته ولطيف تعريضه لجعفر ، وخجل جعفر من قوله ، وسبّه سب الأشراف ، وخرجا من الماء ، وأمر لهما الخليفة بخلع ، ووصلهما بصلات سنية تشاكل كل واحد منهما .

وحكي أن الخليفة الحكم قال له يوماً<sup>٣</sup> : لقد بلغني أنك لا تجتهد للأيتام ، وأنتك تقدم لهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم ، فقال : نعم ، وإن أمكنهم نبيك أمهاتهم لم يعضوا عنهن<sup>٤</sup> ، قال : وكيف تقدم مثل هؤلاء ؟ قال : لست أجد غيرهم ولكن أحلني على التؤلؤي وأبي إبراهيم ومثل هؤلاء ، فإن أبوا أجبرتهم بالسوط والسجن ، ثم لا تسمع إلا خيراً .

وقال القاضي منذر<sup>٥</sup> : أتيت وأبو جعفر ابن النحاس في مجلسه بمصر يملي في أخبار الشعراء شعر قيس المجنون حيث يقول :

خليلي هل بالشام عين حزينه      تبكي على نجد لعلّي أعينها  
قد أسلمها الباكون إلا حمامة<sup>٦</sup>      مطوقة باتت وبات قرينها  
تجاوبها أحرى على خيزرانة<sup>٧</sup>      يكاد يدتيها من الأرض لينها

فقلت له : يا أبا جعفر ، ماذا ، أعزك الله تعالى ، باتا يصنعان ؟ فقال لي : وكيف تقول أنت يا أندلسي ؟ فقلت له : بانت وبان قرينها ، فسكت ، وما

١ ق ط : وتثقل .

٢ المطمح : ٤٥ والمرقبة العليا : ٧٣ .

٣ طبقات الزبيدي : ٢٤٠ .

زال يستثقلني بعد ذلك ، حتى منعي كتاب العين ، وكنت ذهبت إلى الانتساخ من نسخته ، فلما قطع بي قيل لي : أين أنت عن أبي العباس ابن ولاد ؟ فقصدته ، فلقيت رجلاً كامل العلم حسن المروعة ، فسألته الكتاب ، فأخرجه إليّ ، ثم ندم أبو جعفر لما بلغه إباحة أبي العباس الكتاب لي ، وعاد إلى ما كنت أعرفه منه . قال : وكان أبو جعفر لثيم النفس ، شديد التقدير على نفسه ، وربما وهبت له العمامة فيقطعها ثلاث عمائم ، وكان يأبى شراء حوائجه بنفسه ، ويتحامل فيها على أهل معرفته ، انتهى . وأبو جعفر هذا يقال : إن تواليفه تزيد على خمسين ، منها شرح عشرة دواوين للعرب ، و«إعزاب القرآن» ، و«معاني القرآن» ، و«شرح أبيات الكتاب» ، وغير ذلك .

رجع - وقال منذر بن سعيد : كتبت إلى أبي علي البغدادي أستعير منه كتاباً من الغريب ، وقلت :

بِحَقِّ رِيْمٍ مُهْفَهَفٍ      وَصُدُّغِهِ الْمُتَعَطَّفِ  
إِبْعَثْ إِلَيَّ بجزء      مِنْ الغَرِيبِ المُصَنَّفِ

ففضى حاجتي ، وأجاب بقوله :

وَحَقِّ دُرِّ تَأَلَّفِ      بِفِيكَ أَيِّ تَأَلَّفِ  
لأبعثنَّ بما قد      حوى الغريب المُصَنَّفِ  
ولو بعثتُ بنفسِي      إليك ما كنت أسرفُ

فرحم الله تعالى تلك الأرواح الطاهرة .

وذكر ابن أصبغ الهمداني عن منذر أنه خطب يوماً ، وأراد التواضع ، فكان من فصول خطبته أن قال <sup>١</sup> : حتى متى أعظ ولا أتعظ ، وأزجر ولا

١. انظر المرقبة العليا : ٦٩ .

أزدجر ، أدل الطريق على المستدلين ، وأبقى مُقْبِماً مع الحائرين ؟ كلاً إن هذا  
هو البلاء المبين ﴿ إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ  
تَشَاءُ ﴾ (الأعراف : ١٥٥) ، اللهم فرغني لما خلقني له ، ولا تشغلني بما  
تكفلت لي به ، ولا تحرمي وأنا أسألك ، ولا تعذبي وأنا أستغفرك ، يا أرحم  
الرحامين .

وسمع منذر بالأندلس<sup>١</sup> من عبيد الله بن يحيى بن يحيى ونظرائه ، ثم رحل  
حاجباً سنة ثمان وثلاثمائة فاجتمع بعده أعلام وظهرت فضائله بالمشرق ، وممن  
سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة محمد بن المنذر النيسابوري ، سمع عليه كتابه  
المؤلف في اختلاف العلماء المسمى « بالإشراف » وروى بمصر كتاب « العين »  
للخليل عن أبي العباس ابن ولاد ، وروى عن أبي جعفر ابن النحاس . وكان  
منذر متفتناً في ضروب العلوم وغلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود  
ابن علي الأصبهاني المعروف بالظاهري ، فكان منذر يؤثر مذهبه ويجمع كتبه  
ويحتج لمقالاته ويأخذ به في نفسه وذويه ، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب  
الإمام مالك وأصحابه ، وهو الذي عليه العمل بالأندلس ، وحمل السلطان أهل  
مملكته عليه ، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد العارضة حاضر  
الجواب عتيده ، ثابت الحجّة ذا شارة<sup>٢</sup> عجيبة ومنظر جميل وخلق حميد  
وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم وإقبال عليهم ، وكان - مع وقاره التام -  
فيه دُعاة مستملحة ، وله نوادر مستحسنة ، وكانت ولايته القضاء بقَرْطبة للناصر  
في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، وليث قاضياً من ذلك التاريخ  
للخليفة الناصر إلى وفاته ، ثم للخليفة الحكم المستنصر إلى أن توفي ، رحمه الله  
تعالى ، عقب ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ، فكانت ولايته لقضاء

١ فيه متابعة لابن الفرضي ٢ : ١٤٢ - ١٤٣ والزبيدي : ٢٤٠ .

٢ ق : إشارة .

الجماعة المعبر عنها في المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عاماً كاملة ، لم يُحفظ عليه فيها جور في قضية ، ولا قسم بغير سويّة ، ولا ميل بهوى ، ولا إصغاء إلى عناية ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ؛ ودُفِنَ بمقبرة قريش بالرّبط الغربي من قرطبة أعادها الله تعالى ، جوفيّ مسجد السيدة الكبرى ، بقرب داره .  
وله ، رحمه الله تعالى ، تواليف مفيدة : منها كتاب «أحكام القرآن» و«الناسخ والمنسوخ» وغير ذلك في الفقه والكلام في الرد على أهل المذاهب ، تغمده الله تعالى برضوانه .

وكتب بعض الأدباء إلى القاضي منذر بقوله :

مسألة جئتكَ مُسْتَفْتِياً عنها ، وأنت العالمُ المستشارُ  
علامَ تحمّرُ وجوهُ الطُّبّا وأوجهُ العشاقِ فيها اصفرارُ

فأجاب منذر بقوله :

احمّرَ وجهُ الطَّيِّبِ إذ لحظهُ سيفٌ على العشاقِ فيه احْوِرارُ  
واصفرَّ وجهُ الصَّبِّ لما نأى والشمسُ تُبقي للمغيبِ اصفرارُ

٧ - وممن رحل إلى المشرق<sup>١</sup> من الأندلس فشهد له بالسبق ، كل أهل المغرب والشرق ، الإمام العلامة أبو القاسم الشاطبي<sup>٢</sup> ، صاحب «حرز الأمان» و«العقيلة» وغيرهما .

١ إلى المشرق : سقطت من ط .

٢ أبو القاسم الشاطبي : القاسم بن فيره - بكسر الفاء وسكون الياء آخر الحروف وتشديد الراء وضما (Ferro) وهذا من لغة الطيبي من أعاجم الأندلس ومعناه الحديد . ترجمته في ابن خلكان ٣ : ٢٣٤ ومجمع الأدباء ١٦ : ٢٩٣ ونكت الهميان : ٢٢٨ وطبقات السبكي ٤ : ٢٩٧ وغاية النهاية ٢ : ٢٠ وفيه نقل ترجمته عن رحلة ابن رشيد وشذرات الذهب ٤ : ٣٠١ وبقية الوعاة : ٣٧٩ والتكملة رقم : ١٩٧٣ والذيل والتكملة ٥ : ٥٤٨ والديباج المذهب :

وهو أبو القاسم<sup>١</sup> ابن فيرّه بن خلف بن أحمد الرُعَيْني الشاطبي المقرئ ،  
 الفقيه الحافظ الضرير أحد العلماء المشهورين والفضلاء المذكورين ، خطب ببلده  
 شاطبية مع صغر سنّه ، ودخل الديار المصريّة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ،  
 وحضر عند الحافظ السلفي وابن برّي وغيرهما ، وولد بشاطبة آخر سنة ثمان  
 وثلاثين وخمسمائة ، وتوفي بالقاهرة يوم الأحد الثامن والعشرين ، وقيل :  
 الثامن عشر ، من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة ، بعد العصر ، ودُفِن من  
 الغد بالتربة الفاضلية بسفح المقطم .

وحكي أن الأمير عز الدين موسك الذي كان والدُ ابن الحاجب حاجباً له  
 بعث إلى الشيخ الشاطبي يدعوه إلى الحضور عنده ، فأمر الشيخ بعض أصحابه  
 أن يكتب إليه :

قُلْ لِلأَمِيرِ مَقَالَةٌ      مِنْ نَاصِحِ فَطِنِ نَبِيهِ  
 إِنَّ الفَقِيهَ إِذَا أتَى      أَبْوَابَكُمُ لا خَيْرَ فِيهِ

ومن نظمه ، رحمه الله تعالى :

خالصتُ أبناءَ الزمانِ فلم أجِدْ      مَنْ لَمْ أَرُمْ<sup>٢</sup> مِنْهُ ارْتِيادِي مَخْلَصِي  
 رَدُّ الشَّبَابِ وَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ      أَهْنِيَا وَأَمْكَنُ مِنْ صَدِيقِ مَخْلَصِي

وكان ، رحمه الله تعالى ، قرأ بشاطبة القراءات ، وأتقنها على النَّفْزي<sup>٣</sup> ، ثم  
 انتقل إلى بِلَنْسِيَةِ فقرأ بها «التيسير» من حفظه على ابن هُدَيْل ، وسمع الحديث منه  
 ومن ابن النعمة وابن سعادة وابن عبد الرحيم وغيرهم ، وارتحل إلى المشرق  
 فاستوطن القاهرة ، واشتهر اسمه وبعُدَ صيته ، وقصده الطلبة من النواحي ،

١ ق : أبو القاسم القاسم .

٢ ق : خالصت . . . من لم أر .

٣ مفهوم كلام ابن عبد الملك أن قراءة الشاطبي على النفزي كانت أيضاً ببلنسية .

وكان إماماً علامة ذكياً كثير الفنون منقطع القرين رأساً في القراءات ، حافظاً للحديث بصيراً بالعربية واسع العلم ، وقد سارت الركبانُ بقصيدته «حز الأمامي» و«عقيلة أتراب الفضائل»<sup>١</sup> اللتين في القراءات والرسم ، وحفظهما خلق لا يُحصىون ، وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وخذاق القراء ، ولقد أوجز وسهّل الصعب .

وممن روى عنه أبو الحسن ابن خيرة ، ووصفه من قوة الحفظ بأمر معجب ، وممن قرأ عليه بالروايات الإمام الشهير محمد بن عمر القُرطبي . وتصدّر الشاطبي ، رحمه الله تعالى ، للإقراء بالمدرسة الفاضلية ، وكان موصوفاً بالزهد والعبادة والانقطاع . وقبره بالقرافة بزّار ، وترجى استجابة الدعاء عنده ، وقد زرته مراراً ، ودعوت الله بما أرجو قبوله . وترك أولاداً : منهم أبو عبد الله محمد ، عاش نحو ثمانين سنة .

وقال السبكي في حق الإمام الشاطبي : إنه كان قويّ الحافظة ، واسع المحفوظ ، كثير الفنون فقيهاً مقرئاً محدثاً نحوياً زاهداً عابداً ناسكاً يتوقد ذكاء ، قال السخاوي<sup>٢</sup> : أقطع أنه كان مكاشفاً ، وأنه سأل الله كتمان حاله ، ما كان أحد يعلم أي شيء هو ، انتهى .

وترجمته واسعة ، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين .

وقال ابن خلكان : ولقد أبدع كل الإبداع<sup>٣</sup> في «حز الأمامي» وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم ، فقلّ من يشتغل بالقراءات إلاّ ويقدم حفظها ومعرفتها ، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات لطيفة ، وما أظنه سبق إلى أسلوبها . وقد روي عنه أنه كان يقول : لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلاّ وينفعه

١ ساهبا ابن عبد الملك : «عقيلة القصائد في أسنى المقاصد» .

٢ هو تلميذه علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب الهمداني السخاوي .

٣ هذا نص ابن خلكان ، وفي ق ط ج : إنه أبدع في حز . إلخ .



الله ، عزّ وجلّ ، لأنّي نظمتها لله تعالى مخلصاً . وكان عالماً بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيراً ، وبحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، مبرزاً فيه ، وكان إذا قرىء عليه صحيحا البخاري ومسلم والموطأ يُصحح النسخ من حفظه ، ويُملي النكت على المواضع المحتاج إليها ، وكان أوحد في علم النحو واللغة ، عارفاً بتعبير الرؤيا ، حسن المقاصد ، مخلصاً فيما يقول ويفعل ، وكان يجتنب فُضُول الكلام ، ولا ينطق في سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه ضرورة ، ولا يجلس للقراءة إلا على طهارة في هيئة حسنة وتخشع واستكانة ، وكان يعتلُّ العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوّه ، وإذا سُئِلَ عن حاله قال : العافية ، لا يزيد على ذلك . وكان كثيراً ما ينشد هذا الغز في النعش ، وهو لأبي زكريا يحيى بن سلامة الخطيب :

أَتَعْرِفُ شَيْئاً فِي السَّمَاءِ نَظِيرُهُ      إِذَا سَارَ صَاحَ النَّاسُ حَيْثُ يَسِيرُ  
فَتَلْقَاهُ مَرْكُوباً وَتَلْقَاهُ رَاكِباً      وَكُلُّ أَمِيرٍ يَعْتَلِيهِ أُسِيرُ  
يَحْضُ عَلَى التَّقْوَى وَيُكْرَهُ قُرْبُهُ      وَتَنْفِرُ مِنْهُ النَّفْسُ وَهُوَ نَذِيرُ  
وَلَمْ يَسْتَرِرْ عَنْ رَغْبَةٍ فِي زِيَارَةٍ      وَلَكِنْ عَلَى رَغْمِ الْمَزُورِ يَزُورُ

وكان يقال عند دخوله إلى مصر : إنّه يحفظ وقرّ بعير من العلوم ، وكان نزيل القاضي الفاضل ، ورتّبهُ بمدرسته بالقاهرة ، وقيل : إن كنيته أبو محمد<sup>٢</sup> حسبما وُجِدَ في بعض إجازاته ، رحمه الله تعالى .

٨ - ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي<sup>٣</sup> .

١ طج ودوزي : بتفسير .  
٢ أكثر المصادر على أن اسمه « القاسم » وأن له كنيتين : أبو القاسم وأبو محمد ، إلا أن أبا بكر ابن مسدي ساء في معجم مشيخته « خلفاً » .  
٣ أبو بكر ابن العربي : ترجمته في ابن خلكان ٣ : ٤٢٣ ، والصلة ٥٥٨ والمرقبة العليا : ١٠٥ =

قال ابن سعيد : هو الإمام العالم القاضي الشهير فخر المغرب <sup>١</sup> ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ، قاضي قضاة كورة إشبيلية ، ذكره الحجاري في المسهب ، طبّق الآفاق بفوائده ، وملاً الشام والعراق بأوابده ، وهو إمام في الأصول والفروع وغير ذلك <sup>٢</sup> . ومن شعره وقد ركب مع أحد أمراء الملثمين ، وكان ذلك الأمير صغيراً ، فهز عليه رُميحاً كان في يده مداعباً ، فقال <sup>٣</sup> :

يَهْزُ عَلَيَّ الرَّمْحَ ظَنِّي مُهْفَهْفٌ      لَعُوبٌ      بِأَبْأَبِ الْبَرِيَّةِ عَابُثُ  
فَلَوْ أَنَّهُ رَمَحَ إِذْنَ لَا تَقْبِيْتُهُ      وَلَكِنَّهُ رَمَحَ      وَثَانٍ وَثَالِثُ

وقوله وقد دخل عليه غلام جميل الصورة في لباس خشن :

لبس الصوف لكي أنكره      وأنا شاجياً قد عبسا  
قلت إيه قد عرفناك وذا      جلُّ سوء لا يعيبُ الفرسا  
كل شيء أنت فيه حسن      لا يُبالي حسنٌ ما لبسا

وزعم بعض أن الأبيات ليست له ، وإنما تمثل بها ، فالله تعالى أعلم .  
وممن عرّف بابن العربي وذكره ابن الإمام في «سمط الجمان» ،

= والديباج المذهب : ٢٨١ وتذكرة الحفاظ : ١٢٩٤ وشذرات الذهب ٤ : ١٤١ (وفيات : ٥٤٦) والمطبع : ٦٢ وأزهار الرياض ٣ : ٦٢ ، ٨٦ - ٩٥ وبنية الملتمس رقم : ١٧٩ والمغرب ١ : ٢٤٩ .

١ ق : العرب ؛ وهو صواب أيضاً لأن ابن العربي «معافري» .

٢ وغير ذلك : سقطت من ط .

٣ في هذه القطعة والثنتين التاليتين يتابع المقرئ ابن سعيد في المغرب ١ : ٢٥٠ .

٤ هو تحوير البيت :

فلو كان سهماً واحداً لاتقيته . . . . . البيت

٥ ط ج : شاجياً .

والشَّقْنَدِي فِي «الطَّرْفِ» ، وَكَانَ قَدْ صَحَّبَ الْمَهْدِي مُحَمَّدَ بْنَ تُوْمَرْتٍ بِالْمَشْرِقِ ١ ، فَأَوْصَى عَلَيْهِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَكَانَ مَكْرَمًا عِنْدَهُ ، وَحَكِي أَنَّهُ كَتَبَ كِتَابًا فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ حُضُرٍ أَنْ يذُرَّ عَلَيْهِ نَشَارَةً ، فَقَالَ : قَفْ ، ثُمَّ فَكَّرَ سَاعَةً ، وَقَالَ : اكْتُبْ ٢ :

لَا تَشْنَهُ بِمَا تَدْرُ عَلَيْهِ فَكْفَاهُ هُبُوبُ هَذَا الْهَوَاءِ  
فَكَانَ الَّذِي تَدْرُ عَلَيْهِ جُدْرِيٌّ بِوَجَنَةٍ حَسَنَاءِ

وَلَقِيَ أَبَا بَكْرَ الطَّرْطُوشِيَّ . وَمَا بَرِحَ مَعْظَمًا إِلَى أَنْ تَوَلَّى خِطَّةَ الْقَضَاءِ ، وَوَافَقَ ذَلِكَ أَنْ أَحْتَاجَ سُوْرَ إِشْبِيلِيَّةٍ إِلَى بِنْيَانِ جِهَةٍ مِنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مَالٌ مَتَوَفَّرٌ ، فَفَرَضَ عَلَى النَّاسِ جُلُودَ ضَحَايَاهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي عِيدِ أَضْحَى ، فَأَحْضَرُوهَا كَارِهِينَ ، ثُمَّ اجْتَمَعَتِ الْعَامَةُ الْعَمِيَاءُ ، وَثَارَتْ عَلَيْهِ وَنَهَبُوا دَارَهُ ، وَخَرَجَ إِلَى قَرْطَبَةَ .

وَكَانَ فِي أَحَدِ أَيَّامِ الْجَمْعِ قَاعِدًا يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ ، فَإِذَا بَغْلَامٌ رُومِيٌّ وَضِيءٌ قَدْ جَاءَ بِمَخْرَقِ الصَّفُوفِ بِشَمْعَةٍ فِي يَدِهِ وَكِتَابٍ مُعْتَقٍ ، فَقَالَ :

وَشَمْعَةٌ تَحْمِلُهَا شَمْعَةٌ يَكَادُ يُخْفِي نَوْرُهَا نَارَهَا  
لَوْلَا نَهَى نَفْسٍ نَهَتْ غِيَّهَا لَقَبَلْتَهُ وَأَتَتْ عَارَهَا

وَلَمَّا سَمِعَهُمَا أَبُو عِمْرَانَ الزَّاهِدُ قَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ ، وَلَكِنَّهُ هَزَمَتْهُ أَرْبِجِيَّةُ الْأَدَبِ وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لَقُلْتُ :

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَخَوْفُ اللَّهِ يَمْنَعُنِي وَأَنْ يَقَالَ صَبَا مُوسَى عَلَى كِبَرِهِ  
إِذَا لَمْتَعْتُ لِحْظِي فِي نَوَاطِرِهِ حَتَّى أَوْقِي جَفُونِي الْحَقَّ مِنْ نَظَرِهِ

١ فِي هَذَا الْقَوْلِ نَظَرٌ ، وَقَدْ سَتَلَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْمَغْرِبِ هَلْ لَقِيَ الْإِمَامَ الْمَهْدِيَّ بْنَ تُوْمَرْتٍ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ، فَقَالَ : لَمْ أَلْقَهُ وَإِنَّمَا سَمِعْتُ بِهِ (الْحَلَلُ الْمَوْشِيَّةُ : ١٢٢ - ١٢٣) .

٢ انْظُرِ الْمَغْرِبَ ١ : ٢٥٠ .

رجع إلى أخبار ابن العربي - فنقول : إنّه سمع بالأندلس أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزني وأبا عبد الله السَّرْقُسْطِي ، وببجاية أبا عبد الله الكلاعي ، وبالمهدية أبا الحسن ابن الحداد الحولاني ، وسمع بالإسكندرية من الأنماطي ، وبمصر من أبي الحسن الحلعي وغيره ، وبدمشق غير واحد كأبي الفتح نصر المقدسي ، وبمكة أبا عبد الله الحسين الطبري وابن طلحة وابن بُنْدَار ، وقرأ الأدب على التبريزي وعمل ، رحمه الله تعالى ، على مدينة إشبيلية سوراً بالحجارة والآجر بالنورة من ماله . وكان - كما في الصلة - [ مقدماً في المعارف كلها ] حريصاً على أدائها ونشرها<sup>١</sup> ، ثاقب الذهن في تمييز الصواب فيها ، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق ، مع حسن المعاشرة ولين الكَتَفِ ، وكثرة الاحتمال وكرم النفس ، وحسن العهد وثبات الود .

وذكره ابن بَشْكُوَال في الصلة وقال فيه : الإمام الحافظ ، ختام علماء الأندلس ، رحل إلى المشرق مع أبيه مستهلاً<sup>٢</sup> ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، ودخل الشام والعراق وبغداد ، وسمع بها من كبار العلماء ، ثم حج في سنة تسع وثمانين ، وعاد إلى بغداد ، ثم صدر منها<sup>٣</sup> .

وقال ابن عساكر : خرج من دمشق راجعاً إلى مقره سنة ٤٩١ ، ولما غَرَبَ صَنَّفَ «عارضة الأحوزي» ولقي بمصر والإسكندرية جملة من العلماء ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين ، وقدم إشبيلية بعلم كثير ، وكان موصوفاً بالفضل والكمال ، وولي القضاء بإشبيلية ، ثم صُرف عنه ، ومولده ليلة يوم الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة ، وتوفي بمغيلة بمقرية<sup>٣</sup> من مدينة فاس ، ودُفِنَ بفاس في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين

١ في أصول النفع : آدابها وسيرها ، والتصحيح عن الصلة وابن خلكان ، والضمير راجع إلى «المعارف» ، واضطرب النقل على المقرئ .

٢ النقل عن الصلة باختصار شديد .

٣ ق : بمقيلة بقرية .

وخمسمائة ؛ انتهى كلام ابن سعيد وغيره ملخصاً .

وما وفي ابن سعيد حافظ الإسلام أبا بكر ابن العربي حقه ، فلنعززه بما حضرنا من التعريف به ، فنقول : إنّه لقي ببغداد الشاشي أبا بكر والإمام أبا حامد الطوسي الغزالي ، ونقل عنه أنّه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم إلاّ الباجي ، أو كلاماً هذا معناه ، وكان من أهل التفنن في العلوم ، متقدماً في المعارف كلّها ، متكلماً على أنواعها ، حريصاً على نشرها ، وقام بأمر القضاء أحمد قيام ، مع الصرامة في الحق ، والقوّة والشدة على الظالمين والرفق بالمساكين ، وقد روي عنه أنّه أمر بثقب أشداق زامرٍ ، ثم صرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثّه ، وقرأ عليه الحافظ ابن بشكّوَال بإشبيلية .

وقال ابن الأبار<sup>١</sup> : إن الإمام الزاهد العابد أبا عبد الله ابن مجاهد الإشبيلي لازم القاضي ابن العربي نحواً من ثلاثة أشهر ، ثم تخلف عنه ، فقبل له في ذلك ، فقال : كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان ، انتهى .  
وذكره ابن الزبير في صلته<sup>٢</sup> ، وقال : إنّه رحل مع أبيه أبي محمد عند انقراض الدولة العبّادية ، وسنه نحو سبعة عشر عاماً ، إلى أن قال : وقيد الحديث ، وضبط ما روى ، واتسع في الرواية ، وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام على أئمة هذا الشأن ، ومات أبوه - رحمه الله تعالى - بالإسكندرية أول سنة ثلاث وتسعين فانصرف حينئذ إلى إشبيلية ، فسكنها ، وشوور فيها وسمع ، ودرّس الفقه والأصول ، وجلس للوعظ والتفسير ، وصنف في غير فن تصانيف مليحة حسنة مفيدة ، وولي القضاء مدّة أوّلها في رجب من سنة ثمان وعشرين ، فنفع الله تعالى به لصراّمته ونفوذ أحكامه ، والتزم<sup>٣</sup> الأمر بالمعروف والنهي عن

١ انظر أيضاً المرقبة العليا : ١٠٦ وأزهار الرياض : ٦٣ .

٢ المصدران السابقان أيضاً .

٣ ط : والتزام .

المنكر ، حتى أُوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله ، فأحسن الصبر على ذلك كله ، ثم صُرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبشّه ، وكان فصيحاً حافظاً أديباً شاعراً كثير الملح مليح المجلس .

ثم قال : قال القاضي عياض - بعد أن وصفه بما ذكرته - : ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناس فيه الكلام ، وطعنوا في حديثه ، وتوفي مُنصَرفه من مراکش من الوجهة التي توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول الموحدّين مدينة إشبيلية ، فحبسوا بمراكش نحو عام ، ثم سرحوا ، فأدرّكته منيته ، وروى عنه خلق كثير ، منهم القاضي عياض وأبو جعفر ابن الباذش وجماعة ، انتهى ملخصاً .

ووقع في عبارة ابن الزبير تبعاً لجماعة أنه دُفن خارج باب الحيسّة بفاس ، والصواب خارج باب المحروق ، كما أشبعت الكلام على ذلك ، في «أزهار الرياض»<sup>١</sup> ، وقد زُرُّتُه مراراً ، وقبره هناك مقصود للزيارة خارج القصبة ، وقد صرح بذلك بعضُ المتقدمين الذين حضروا وفاته ، وقال : إنه دُفن بتربة القائد مظفر خارج القصبة ، وصلى عليه صاحبه أبو الحَكَم ابن حجاج ، رحمه الله تعالى .  
ومن بديع نظمه<sup>٢</sup> :

أَتَتْنِي تُوْنِبِّي بِالْبُكَا فَأَهْلًا بِهَا وَبِتَانِيِبِيهَا  
تَقُولُ وَفِي نَفْسِهَا حَسْرَةٌ : أَتَبَكِّي بَعَيْنِ تَرَانِي بِهَا ؟  
فَقُلْتُ : إِذَا اسْتَحْسَنْتُ غَيْرَكُمْ أَمَرْتُ جَفُونِي بِتَعْذِيبِهَا

وقال ، رحمه الله تعالى : دخل عليّ الأديبُ ابن صارة وبين يديّ نار علاها رماد ، فقلت له : قل في هذه ، فقال :

١ أزهار الرياض ٣ : ٦٥ ، ٨٧ - ٨٨ .

٢ أزهار الرياض ٣ : ٨٨ .

شَابَتْ نَوَاصِي النَّارِ بَعْدَ سَوَادِهَا وَتَسْتَرَّتْ عَنَّا بِثَوْبِ رِمَادٍ

ثم قال لي : أجز ، فقلت :

شَابَتْ كَمَا شَبِينَا وَزَالَ شَبَابُنَا فَكَأَنَّمَا كُنَّا عَلَى مِيعَادٍ

وقد اختلف حذّاق الأدباء في قوله : « ولكنه رمح وثان وثالث » ما هو الثاني والثالث ؟ فقليل : القدّ واللحظ ، وقيل غير ذلك .

ولما ذكر ، رحمه الله تعالى ، في كتابه « قانون التأويل » ركوبه البحر في رحلته من إفريقيا قال <sup>١</sup> : وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله ، ويغرقنا في هَوَلِهِ ، فخرجنا من البحر ، خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب بن سليم ، ونحن من السغب ، على عطب ، ومن العري ، في أقيح زي ، قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئها <sup>٢</sup> ، ودستت الأدهان وبرّها وجلدتها ، فاحترمناها أزرأ ، واشتملناها لفافاً <sup>٣</sup> ، تمجنا الأبصار ، وتخذلنا الأنصار ، فعطف أميرهم علينا فأويننا إليه فأوانا ، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا ، وأكرم مشوانا ، وكسانا بأمر حقير ضعيف ، وفنّ من العلم طريف ، وشرحه أننا لما وقفنا على بابهِ ألفيناه يدير أعواد الشاه <sup>٤</sup> ، فعلّ السامد اللاه ، فدنوت منه في تلك الأطمار ، وسمح لي بياذفته إذ كنت من الصغر في حدّ يُسمح فيه للأعمار ، ووقفت بإزائهم ، أنظر إلى تصرفهم من ورائهم ، إذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في خلّس البطالة ، مع غلبة الصبوة والجهالة ، فقلت للبياذقة : الأمير أعلم من

١ النص في أزهار الرياض ٣ : ٨٩ - ٩١ .

٢ المنية : الجلد أول عهده بالدباغ ، وفي ق ط ج ودوزي : هيئتها ؛ وأظنه أصوب .

٣ الأزهار : لفعماً .

٤ يريد أنه يلعب الشطرنج .

صاحبه ، فلمحوني شَزْرًا ، وعظمتُ في أعينهم بعد أن كنت نَزْرًا ، وتقدّم إلى الأمير مَنْ نَقَلَ إليه الكلام ، فاستدناي فدنوت منه ، وسألني : هل لي بما هم فيه بَصَرٌ ؟ فقلت : لي فيه بعض نظر ، سيبدو لك ويظهر ، حرّك تلك القطعة ، ففعل وعارضه صاحبه ، فأمرته أن يحرك أخرى ، وما زالت الحركات بينهم كذلك تتّرى ، حتى هزمهم الأمير ، وانقطع التدبير ، فقالوا : ما أنت بصغير ، وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابنُ عم الأمير منشداً :

وأحلى الهوى ما شكّ في الوصل ربّه وفي الهجر فهو الدهر يَرَجو ويتقي

فقال : لعن الله أبا الطيّب ، أو يشكُّ الربُّ ؟ فقلت له في الحال : ليس كما ظنّ صاحبك أيها الأمير ، إنّما أراد بالرب ههنا صاحب ، يقول : ألد الهوى ما كان المحبُّ فيه من الوصال ، وبلوغ الغرض من الآمال ، على ريب ، فهو في وقته كلّه على رجاء لما يؤمله ، وثقاة لما يقطع به ، كما قال :

إذا لم يكن في الحبّ سُخْطٌ ولا رِضاً فأين حلاوات الرسائل والكتّاب

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض ، في طرقي الإبرام والانتقاض ، ما حرّك منهم إلى جهتي داعي الانتهاض ، وأقبلوا يتعجبون مني ويسألونني كم سني ، ويستكشفونني عني ، فبقّرتُ لهم حديثي ، وذكرت لهم نجيثي ، وأعلمت الأمير بأن أبي معي فاستدعاه ، وقمنا الثلاثة إلى مسّواه ، فخلع علينا خلعته ، وأسبل علينا أدمعه ، وجاء كل خِوَان ، بأفنان الألوان .

ثم قال بعد المبالغة في وصف ما نالهم من إكرامه : فانظر إلى هذا العليم الذي هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب ، كيف أنقذا من العطب ؟ وهذا الذكر يرشدكم إن عقلم إلى المطلب . وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر . انتهى مختصراً .

والزول : العجب ، ونجيث الخبر : ما ظهر من قبيحه ، يقال : بدا نجيثُ



القوم ، إذا ظهر سرهم الذي كانوا يحقّونه ، قالهما الجوهري .  
 وذكر ، رحمه الله تعالى ، في رحلته عجائب ، منها : أنّه حكى دخوله  
 بدمشق بيوت بعض الأكابر أنّه رأى فيه النهر جائياً إلى موضع جلوسهم ،  
 ثم يعود من ناحية أخرى ، فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام في النهر  
 المقبلِ إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين يدينا ، فلما فرغنا ألقى الخدم  
 الأواني وما معها في النهر الراجع ، فذهب بها الماء إلى ناحية الحرّيم من غير أن  
 يقرب الخدم تلك الناحية ، فعلمت السر ، وإن هذا لعجيب ، انتهى بمعناه .  
 وقال في « قانون التأويل »<sup>١</sup> : ورد علينا دانشمند<sup>٢</sup> - يعني الغزالي -  
 فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية ، معروضاً عن الدنيا ، مُقبلاً  
 على الله تعالى ، فمشينا إليه ، وعرضنا أمنيّتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالتنا  
 التي كنّا ننشد ، وإمامنا الذي به نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه  
 ما كان فوق الصفة ، وتحققنا أن الذي نُقِل إلينا من أن الخبر على الغائب  
 فوق المشاهدة ليس على العموم ، ولو رآه عليّ بن العباس<sup>٣</sup> لما قال :

إذا ما مدّحتَ امرأ غائباً      فلا تغلُّ في مدّحه واقصِدِ  
 فإنّك إنْ تغلُّ تغلُّ الظنُّ      نُ فيه إلى الأمدِ الأبعدِ  
 فيصغُرَ من حيثُ عظّمته      لفضلِ المغيبِ على المشهدِ

وكنت نقلت من المطمح في حقّه ما صورته<sup>٤</sup> : علّم الأعلام الطاهر الأتواب ،  
 الباهر الأبواب<sup>٥</sup> ، الذي أنسى ذكاء إياس ، وترك التقليد للقياس ، وأنتج الفرع

١ أزهار الرياض : ٩١ .

٢ دانشمند : الحكيم العلامة .

٣ أي ابن الرومي .

٤ انظر المطمح : ٦٢ ونقل المقرئ هذا النص في أزهار الرياض : ٩٢ .

٥ ط ق : الباهر الأبواب .

من الأصل ، وغدا في يد الإسلام أمضى من النصل ، سقى الله تعالى به الأندلس بعدما أجدبت من المعارف ، ومد عليها منه الظلّ الوارف ، وكساها روثق نبله ، وسقاها ريثق وبّله ، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدرأ في فلّكها ، وصدرأ في مجلس ملكها ، واصطفاه معتمد بني عبّاد ، اصطفاه المأمون لابن أبي دُواد ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوّاه المراتب المنيفة ، فلما أفقرت حمص من ملكهم وخلّت ، وألقتهم منها وتخلّت ، رحّل به إلى المشرق ، وحلّ فيه محلّ الخائف الفریق ، فجال في أكنافه ، وأجال قِداح الرجاء في استقبال العز واستنافه ، فلم يستردّ ذاهباً ، ولم يجدّ كعتمده باذلاً له وواهباً ، فعاد إلى الرواية والسماع ، وما استفاد من آمال تلك الأطماع ، وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قَضيبٌ ما دَوّح ، وفي روض الشباب زهر ما صَوّح ، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً ، ولازمه سائقاً إليها وحادياً ، حتى استقرت به مجالسه ، واطردت له مقايسه ، فجدّ في طلبه ، واستجد به أبوه متمزق أربه ، ثم أدركه حِمَامُه ، ووارته هناك رِجامه ، وبقي أبو بكر متفرداً ، وللطلب متجرداً ، حتى أصبح في العلم وحيداً ، ولم تجد عنه رياسته مَحيداً ، فكرّ إلى الأندلس فحلّها والنفوسُ إليه مطلّعة ، ولأنبائه متسمعة ، فناهيك من حُظوة لقي ، ومن عزة سقي ، ومن رفعة سما إليها ورقي ، وحسبك من مفاخر قلّدها ، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلّدها ، وقد أثبت من بديع نظمه ما يهز أعطافاً ، وترده الأفهام نطافاً ، فمن ذلك قوله يتشوق إلى بغداد ، ويخاطب فيها أهل الوداد :

أَمِنْكَ سَرَى وَاللَّيْلُ يُخَدَعُ بِالْفَجْرِ خيالٌ حبيبٌ قد حوى قَصَبَ الفَخْرِ؟  
جَلَا ظَلَمَ الظُّلْمَاءَ مَشْرِقُ نَوْرِهِ ولم يَخْبِطِ الظُّلْمَاءَ بِالْأَنْجَمِ الزُّهْرُ

١ يد : سقطت من ق ط ج ، ووردت في المطح .

ولم يَرُضَ بالأرضِ البسيطةِ مُسْحَباً  
وَحَثَّ مَطَايَا قَدَّ مَطَاها بَعزَةٌ  
فصارت ثِقَالاً بِالْحَلَالَةِ فَوْقَهَا  
وَجَرَّتْ عَلَى ذَيْلِ المَجْرَةِ ذَيْلُهَا  
ومرَّتْ عَلَى الجَوْزَاءِ تُوَضِعُ فَوْقَهَا  
وساقتُ<sup>١</sup> أربيعَ الخلدِ من جَنَّةِ العُلا  
فما حَدَرَتْ قَيْساً ولا خَيْلَ عامِرٍ  
سقى اللهُ مِصرأَ والعِراقَ وأهلَهَا  
انتهى .

ومن تآليف الحافظ<sup>٢</sup> أبي بكر ابن العربي المذكور كتاب « القبس في شرح موطأ مالك بن أنس » وكتاب « ترتيب المسالك ، في شرح موطأ مالك » وكتاب « أنوار الفجر » وكتاب « أحكام القرآن » وكتاب « عارضة الأحوذِيّ في شرح الترمذي » - والأحوذِيّ بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح الواو وكسر الدال المعجمة وآخره ياء مشددة - وكتاب « مراقي الزلّف » وكتاب « الخلافيات » وكتاب « نواهي الدواهي » وكتاب « سراج المرّيدين » وكتاب « المشكّلين : مشكل القرآن والسنة » وكتاب « الناسخ والمنسوخ في القرآن » وكتاب « قانون التأويل » وكتاب « النيرين في الصحيحين » وكتاب « سراج المهتدين » وكتاب « الأمد الأقصى ، بأسماء الله الحسنى وصفاته العُلا » وكتاب « في الكلام على مشكل حديث السُّبُحات والحجاب » ، وكتاب « العقد الأكبر للقلب الأصغر » و « تبين الصحيح في تعيين الذبيح » و « تفصيل التفضيل بين

١ لعل الأصوب : وسافت .

٢ عد المقرّي مؤلفات ابن العربي أيضاً في أزهار الرياض ٣ : ٩٤ - ٩٥ وسقط بعض ما ذكره في النسخ .

التحميد والتهليل « ورسالة « الكافي في أن لا دليل على النافي » وكتاب « السبايعات » وكتاب « المسلسلات » وكتاب « المتوسط في معرفة صحّة الاعتقاد والرد على من خالف أهل السنّة من ذوي البدع والإلحاد » وكتاب « شرح غريب الرسالة » وكتاب « الإنصاف في مسائل الخلاف » عشرون مجلداً ، وكتاب « حديث الإفك » وكتاب « شرح حديث جابر في الشفاعة » وكتاب « شرح حديث أم زرع » وكتاب « ستر العورة » وكتاب « المحصول في علم الأصول » وكتاب « أعيان الأعيان » وكتاب « ملجاة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين » وكتاب « ترتيب الرحلة » وفيه من الفوائد ما لا يوصف .

ومن فوائد القاضي أبي بكر ابن العربي رحمه الله تعالى قوله<sup>١</sup> : قال علماء الحديث : ما من رجل يطلب الحديث إلاّ كان على وجهه نَضْرَةٌ ، لقول النبي ، صلّى الله عليه وسلم : « نَضَرَ الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها - الحديث » قال : وهذا دعاء منه عليه الصلاة والسلام لحملة علمه ، ولا بدّ بفضل الله تعالى من نيل بركته ، انتهى .

وإلى هذه النَضْرَةِ أشار أبو العباس العزّزي بقوله :

أهلُ الحديث عصابةُ الحقِّ      فازُوا بدَعْوَةِ سيّد الخلقِ  
فُوجُوهُهُمُ زَهْرٌ مَنْضَرَةٌ      لألأؤها كتألقِ البرقِ  
يا لَيْتَنِي مَعَهُمُ فيدُرِكُنِي      ما أدركوه بها من السَّبِقِ

انتهى .

ولا بأس أن نذكر هنا بعض فوائد الحافظ أبي بكر ابن العربي ، رحمه الله

تعالى :

فمنها قوله في تعريف المحصنات : يقال : أَحَصَنَ الرجلُ فهو مُحَصَّنٌ - بفتح العين في اسم الفاعل - وأسَهَبَ في الكلام فهو مُسَهَّبٌ ، إذا أطال

١ أزهار الرياض : ٩٥ .

البحث فيه ، وألفج فهو مُلْفَج ، إذا كان عديماً ، لا رابع لها ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

ومنها قوله : سمعت الشيخ فخر الإسلام أبا بكر الشاشي وهو ينتصر للمذهب أبي حنيفة في مجلس النظر يقول : يقال في اللغة العربية لا تَقْرَبُ كذا - بفتح الراء - أي لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تَدُنُ من الموضوع ، وهذا الذي قاله صحيح مسموع ، انتهى .

ومنها قوله : شاهدت المائدة بطورزيتا مراراً ، وأكات عليها ليلاً وهاراً ، وذكرت الله سبحانه وتعالى فيها سرّاً وجهاراً ، وكان ارتفاعها أشفّ من القامة بنحو الشبر ، وكان لها درجتان قليلاً وجنوبيّاً ، وكانت صخرة صَؤوداً لا تؤثر فيها المعاول ، وكان الناس يقولون : مسخت صخرة إذ مسخ أربابها قرده وخنازير ، والذي عندي أنّها كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء ، وكل ما حولها حجارة مثلها ، وكان ما حولها محفوظاً بقصور ، وقد نُحِتَتْ في ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها ومجالسها منها ، مقطوعة فيها ، وحناياها في جوانبها ، وبيوت خدمتها قد صُوِّرَتْ من الحجر كما تُصوّر من الطين والخشب ، فإذا دخلت في قصر من قصورها ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة مقدار ثمن درهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض ، وإذا هبّت الريحُ وحثّت تحتها التراب لم يُفتح إلا بعد صب الماء تحتها والإكثار منه حتى يسيل بالتراب ، وينفرج مُنْفَرَجُ الباب ، وقد باربها قومٌ بهذه العلة ، وقد كنت أدخلو فيها كثيراً للدرس ، ولكنني كنت في كل حين أكنس حول الباب ، مخافة ممّا جرى لغيري فيها ، وقد شرحت أمرها في كتاب « ترتيب الرحلة » بأكثر من هذا ، انتهى .

ومنها قوله ، رحمه الله تعالى : تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر

الفهري الطرطوشي في حديث أبي ثعلبة المرفوع : « إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم » فقالوا : بل منهم ، فقال : « بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون عليه أعواناً »<sup>١</sup> ، وتفاوضنا كيف يكون أجر مَنْ يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام ، وعضدوا الدين ، وأقاموا المنار ، وافتتحوا الأمصار ، وحموا البيضة ، ومهدوا الملة ، وقد قال ، صلى الله عليه وسلم ، في الصحيح : « لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّاً أحدهم ولا نصيفه » ، فراجعنا القول ، وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح ، وخلاصته : أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ، ولا يُبدانهم فيها بشئ ، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر مَنْ أخلص إخلاصهم ، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بابٌ عظيم هو ابتداء الدين والإسلام ، وهو أيضاً انتهاؤه ، وقد كان قليلاً في ابتداء الإسلام ، صعب المرام ، لغلبة الكفار على الحق ، وفي آخر الزمان أيضاً يعود كذلك ، لوعد الصادق ، صلى الله عليه وسلم ، بفساد الزمان ، وظهور الفتن ، وغلبة الباطل ، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق ، وركوب مَنْ يأتي سنن من مضى من أهل الكتاب ، كما قال ، صلى الله عليه وسلم : « لتركبن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحرَ ضبٍ خرب لدخلموه »<sup>٢</sup> وقال ، صلى الله عليه وسلم : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ »<sup>٣</sup> فلا بد ، والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق ، أن يرجع الإسلام إلى واحد ، كما بدأ من واحد ، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف

١ الحديث في مجمع الزوائد ٧ : ٢٨٢

٢ رواه الحاكم في المستدرک (الراموز : ٣٤٦) .

٣ انظر مجمع الزوائد ٧ : ٢٧٧ - ٢٧٩

ما كان لمن كان متمكناً منه معاناً عليه بكثرة الدعاء إلى الله تعالى ، وذلك قوله :  
 « لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً » حتى ينقطع ذلك  
 انقطاعاً باتاً لضعف اليقين وقلة الدين ، كما قال ، صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم  
 الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله »<sup>١</sup> يروى برفع الهاء ونصبها ، فالرفع  
 على معنى لا يبقى موحد يذكر الله ، عز وجل ، والنصب على معنى لا يبقى  
 أمر بمعروف ولا ناه عن منكر يقول : أخاف الله ، وحينئذ يتمنى العاقل  
 الموت ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر  
 الرجل فيقول : يا ليتني كنت مكانه »<sup>٢</sup> انتهى .

وأشده رحمه الله تعالى لبعض الصوفية :

امتحنَ اللهُ بذَا خَلْقِهِ ُ فالنارُ والجنَّةُ في قبضتِهِ  
 فهجرُهُ أعظمُ مِن نارهِ ووصلُهُ أطيْبُ من جنَّتِهِ

ومن فوائد ابن العربي رحمه الله تعالى أنه قال : كنت بمجلس الوزير العادل  
 أبي منصور ابن جهمير على رتبة بيناها في كتاب « الرحلة للترغيب في الملة »  
 فقرأ القارئ ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ (الأحزاب : ٤٤) ، وكنت في  
 الصف الثاني من الحلقة بظهر أبي الوفاء علي بن عقيل<sup>٣</sup> إمام الحنبلية بمدينة السلام ،  
 وكان معتزلي الأصول ، فلما سمعت الآية قلت لصاحب لي كان يجلس على

١ مجمع الزوائد ٨ : ١٢ .

٢ صحيح مسلم ٢ : ٣٧٨ وجمع الزوائد ٧ : ٢٨٢ .

٣ علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي الأصولي الواعظ المتكلم (٤٣١ - ٥١٣) درس  
 على أعلام عصره ، وأخذ الكلام على بعض المعتزلة ولذلك نغم عليه الحنابلة وطلبوا أذاه فاختموا  
 والتجأ إلى دار السلطان ، وسمع من الغزالي والجويني وغيرهما من الأعلام ؛ قال السلفي : ما  
 رأيت عينايا مثل الشيخ أبي الوفاء ابن عقيل ، ما كان أحد يقدر أن يتكلم معه لغزارة علمه وحسن  
 إيراده وبلاغة كلامه وقوة حجته ؛ وله في الفقه والأصول استنباطات جيدة ، وخلف عدداً  
 كبيراً من المؤلفات (انظر ذيل ابن رجب ١ : ١٤٢ - ١٦٣) .

يساري : هذه الآية دليل على رؤية الله في الآخرة : فإن العرب لا تقول « لقيت فلاناً » إلا إذا رأته ، فصرف وجهه أبو الوفاء مُسْرِعاً إلينا ، وقال ينتصر لمذهب الاعتزال في أن الله تعالى لا يَرَى في الآخرة : فقد قالَ اللهُ تعالى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ (التوبة : ٧٧) وعندك أن المنافقين لا يرون الله تعالى في الآخرة ، وقد شرحنا وجه الآية في المشكلين ، وتقدير الآية : فأعقبهم هو نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، فيحتمل ضمير يلقونه أن يعود إلى ضمير الفاعل في (أعقبهم) المقدر بقولنا هو ، ويحتمل أن يعود إلى النفاق مجازاً على تقدير الجزاء ، انتهى .

ومنها ما نقله عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما « لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة » فإن قوماً قيل فيهم ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ (التوبة : ١٢٧) وقد أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسي الواعظ، أخبرنا أبو الفضل الجوهري سماعاً منه : كنا في جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله تعالى ، فقال : لا يقل أحدكم انصرفوا فإن الله تعالى قال في قوم ذمهم ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ ولكن قولوا : انقلبوا رحمكم الله ، فإن الله تعالى قال في قوم مدحهم ﴿ فَاَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ ﴾ (آل عمران : ١٧٤) انتهى .

ومنها ، وقد ذكر الخلاف في شاهد يوسف ، ما صورته : فإذا قلنا إنه القميص ، فكان يصح من جهة اللغة أن يخبر عن حاله بتقديم مقاله ، فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال في بعض الأمور ، وقد تُضَيَّفُ العرب الكلام إلى الجمادات بما تخبر عنه بما عليها من الصفات ، ومن أحلاه قول بعضهم : قال الحائط للوتد : لم تشققتي ؟ قال : سل من يدقني ، ما يتركني ورائي<sup>١</sup> ، هذا الذي ورائي ، لكن قوله تعالى بعد ذلك ﴿ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ (يوسف : ٢٦) في

١ ورائي : بمعنى ورايبي .



صفة الشاهد يبطل أن يكون القميص ، وأمّا من قال إنّه ابن عمها أو رجل من أصحاب العزيز فإنّه يحتمل ، لكن قوله ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ يعطي اختصاصها من جهة القرابة ؛ انتهى .

ومنها قوله : إنّه كان بمدينة السلام إمام من الصوفية وأي إمام ، يُعرف بابن عطاء ، فتكلّم يوماً على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته ممّا يُنسب إليه من مكروه ، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال : يا شيخ ، يا سيدنا ، فإذا يوسف همّ وما تمّ ، فقال : نعم ، لأن العناية من ثمّ ، فانظروا إلى حلاوة العالم والمتعلم وفطنة العامي في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه ، ولذا قال علماؤنا الصوفية : إن فائدة قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (يوسف : ٢٢) أن الله تعالى أعطاه العلم والحكمة أيّام غلبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة ؛ انتهى .

ومنها قوله : كنت بمكّة مقيماً في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وكنت أشرب ماء زمزم كثيراً ، وكلّما شربته نويت به العلم والإيمان ، ففتح الله تعالى لي ببركته في المقدار الذي يَسَّرَه لي من العلم ، ونسيت أن أشربه للعمل ، وباليّتي شربته لهما حتى يفتح الله تعالى لي فيهما ، ولم يُقَدَّر فكان صَغُوي<sup>٢</sup> للعلم أكثر منه للعمل ، وأسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق برحمته .

ومنها قوله : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء علي بن عقيل يقول : إنّما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والحرية لأنّه انفصل عن الأب نُطْفَةً لا قيمة له ، ولا مالية فيه ، ولا منفعة ماثورة عليه ، وإنّما اكتسب ما اكتسب بها ومنها ، فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمرّاً في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنّها ملك صاحب

١ ط : نسب .

٢ في ط ق ودوزي : صفوي ؛ ج : صفري .

الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة ، لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذه من البدائع ، انتهى .

ومنها قوله : ومن نوادر أبي الفضل الجوهري ما أخبرنا عنه محمد بن عبد الملك الواعظ وغيره أنه كان يقول : إذا أمسكت علاقة الميزان بالإبهام والسبابة ، وارتفعت سائر الأصابع كان شكلها مقررّاً بقولك « الله » ، فكأنها إشارة منه سبحانه في تيسير الوزن كذلك إلى أن الله سبحانه مطّلع عليك ، فاعدل في وزنك ، انتهى .

ومنها قوله : كان ابن الكازروني يأوي إلى المسجد الأقصى ، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى ، عليه السلام ، فيسمع من الطور ، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته ، إلاّ الإصغاء إليه ، انتهى .

ومنها قوله في تفسير قوله تعالى ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ (نصت : ١٦) قيل : إنها كانت آخر شوال ، من الأربعاء إلى الأربعاء ، والناس يكرهون السفر يوم الأربعاء لأجل هذه الرواية ، حتى إنني لقيت يوماً مع خالي الحسن بن أبي حفص رجلاً من الكتاب ، فودعنا بنية السفر ، فلما فارقنا قال لي خالي : إنك لا تراه أبداً لأنه سافر في يوم الأربعاء لا يتكرر ، وكذلك كان ، مات في سفره ، وهذا ما لا أراه ، لأن يوم الأربعاء يوم عجيب ، بما جاء في الحديث من الخلق فيه والترتيب ، فإن الحديث ثابت بأن الله تعالى خلق يوم السبت التربة ، ويوم الأحد الجبال ، ويوم الاثنين الشجر ، ويوم الثلاثاء المكروه ، ويوم الأربعاء النور ، وروي النون ، وفي غريب الحديث أنه خلق يوم الأربعاء التّقن ، وهو كل شيء تتقن به الأشياء ، يعني المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فالיום الذي خلق فيه المكروه لا يعافه الناس ، واليوم الذي خلق فيه النور أو التّقن يعافونه ، إن هذا هو الجهل المبين . وفي المغازي أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم دعا على الأحزاب من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء بين الظُّهر والعصر ، فاستجيب له ، وهي ساعة فاضلة ، فالآثار الصّحاح تدل على

فضل هذا اليوم ، فكيف يُدعى فيه التحذير والنحس بأحاديث لا أصل لها ،  
وقد صور قوم أياماً من الأشهر الشمسية ادّعوا فيها الكراهية لا يحل لمسلم أن  
ينظر إليها ولا يشغل بالاً بها والله حسبهم ، انتهى .

ومنها : وكان يقرأ معنا برباط أبي سعيد على الإمام دانشمند من بلاد المغرب  
خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ، فربك أعلم به ، ومع طول الصحبة  
عقلني الحياء عن سؤاله ، وبودي اليوم لو كاشفته عن حاله ، انتهى .  
ومن شعر ابن العربي ممّا نسبه له الشيخ أبو حيان قوله <sup>١</sup> :

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ دَرَوَا أَيَّ قَلْبٍ مَلَكُوا  
وفؤادي لو درى أَيَّ شَعْبٍ سَلَكُوا  
أتراهمُ سَلِمُوا أمْ تراهمُ هَلَكُوا  
حار أربابُ الهوى في الهوى وارْتَبَكُوا

ومن فوائده : أخبرني المهرة من السحرة بأرض بابل أنه من كتب  
آخر آية من كل سورة ويعلقها لم يبلغ إليه سحرنا ، قال : هكذا قالوا ، والله تعالى  
أعلم بما نقلوه .

وقال رحمه الله تعالى : حذقت القرآن ابن تسع سنين ثم ثلاثاً لضبط القرآن  
والعربية والحساب ، فبلغت ست عشرة وقد قرأت من الأحرف نحواً من عشرة  
بما يتبعها من إظهار ، وإدغام ونحوه ، وتمرت في العربية والشعر واللغة ،  
ثم رحل بي أبي إلى المشرق ، ثم ذكر تمام رحلته ، رحمه الله تعالى .

٩ - ومنهم أبو بكر محمد بن أبي عامر ابن حجاج ، الغافقي ، الإشبيلي ،  
ومن نظمه بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام :

١ في هامش إحدى النسخ : والصواب أن الأبيات للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي ، رضي الله  
عنه ، وهي في ابتداء ترجمان الأشواق له . قلت : انظر ص : ١١ من الديوان المذكور .

لم يَبْقَ لي سؤْلٌ ولا مَطْلَبٌ      مذ صِرْتُ جاراً لحبيب الحبيب  
 لا أبتغي شيئاً سوى قُرْبِهِ      وها أنا منه قريبٌ قريبٌ  
 مَنْ غاب عن حَضْرَةِ محبوبِهِ      فلستُ عن طيِّبَةِ ممن يغيبُ  
 لا تَسْأَلِ المَغْبُوطَ عن حالِهِ      جارٌ كريمٌ ومحلٌ خصيبُ  
 العيشُ والموتُ هنا طيِّبٌ      بطيِّبَةٍ • لي كلُّ شيءٍ بطيبُ

وممن روى عنه هذه الأبيات الأشرف بن الفاضل .

١٠ - ومنهم الشيخ الأديب الفاضلُ البارِعُ جمالُ الدين أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الخطيب أبي الحسن محمد بن أبي عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن علي ابن ذي النون<sup>١</sup> ، الأنصاري ، المالقي ، من أشياخ أبي حيَّان ، لقيه ببُلْبَيْس من ديار مصر ، قال : وأنشدني لشيخه أبي عبد الله<sup>٢</sup> الاستِجِي من قصيدة :

ما للنَّسيمِ سرى<sup>٣</sup> الأصيلَ عليلاً      أتراه يشكو لَوَعَةً وغليلاً  
 جرَّ الذُّيولَ على ديارِ أحبَّتي      فأتى يجرُّ من السَّقَامِ ذُيولاً

وأنشد ، رحمه الله تعالى ، لرضوان المخزومي :

إن كنتَ يُوسُفَ حُسناً      وكنتُ عبدَ العزيز  
 فإن يوسفَ من قبلي      كان عبدَ العزيز

وأخذ ابنُ ذي النون المذكور عن أبي عبد الله ابن صالح ، وقرأ للشيعة على أبي جعفر الفحام<sup>٤</sup> ، وأبي زيد القُمَارِشي ، وعلى أبي جعفر السَّهْلِي ، وولد ابن

١ في ط: ابن ذنون ؛ وحقها أن تكون ابن ذنون ( كما في ط ) ، وهو الاسم الأصلي الذي يكتب « ذي النون » تعريباً له .

٢ دوزي : عبد الله .

٣ ق : جرى .

٤ دوزي : المعجم ؛ ج : اللحام .

ذي النون سنة ٦١٧ بمالقة ، ومن تواليفه « نفع المسك الأذفر في مدح المنصور ابن المظفر » و « أزهار الحميلة في الآثار الحميلة » و « استطلاع البشير » و « محض اليقين وروض المتقين » .

١١ - ومنهم زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي، المعروف بشبّطون<sup>١</sup>، يكنى أبا عبد الله ، كان فقيه الأندلس على مذهب مالك ، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس ، وكانوا قبله يتفقّهون على مذهب الأوزاعي ، وأراده الأمير هشام على القضاء بقَرْطُبة وعزم عليه ، فهرب ، فقال هشام : ليت الناس كلّهم كزياد حتى أكفى أهل الرغبة في الدنيا ، وأرسل إلى زياد فأمنه حتى رجع إلى داره .

ويحكى أنه لما أَرادَه للقضاء كلمه الوزراء في ذلك عن الأمير ، وعرفوه عزمه عليه ، فقال لهم : أما إن أكرهتموني على القضاء فزوجني فلانة طالق ثلاثاً ، لئن أتاني مُدّع في شيء ممّا في أيديكم لأخرجنّه عنكم ثم أجعلكم مدّعين فيه ؛ فلما سمعوا منه ذلك علموا صدقه ، فتكلّموا عند الأمير في مُعافاته .

سمع من مالك الموطأ ، ويُعرف سماعه بسماع زياد ، وسمع من معاوية ابن صالح ، وكانت ابنة معاوية تحته ، وروى يحيى بن يحيى الليثي عن زياد هذا الموطأ قبل أن يرحل إلى مالك ، ثم رحل فأدرك مالكا فرواه عنه إلاّ أبواباً في كتاب الاعتكاف ، شك في سماعها من مالك ، فأبقى روايته فيها عن زياد عن مالك .

وتوفي سنة أربع ومائتين ، وقيل : سنة ١٩٣ ، وقيل : في التي بعدها ، وقيل : سنة ١٩٩ ، والأول أولى بالقبول ، والله تعالى أعلم .

ورحل في ذلك العصر جماعة من أنظار شبّطون ، كضرغوس بن العباس

١ زياد بن عبد الرحمن اللخمي ، شبطون : ترجمته في الحشني : ١٤ والمرقبة العليا : ١٢ وابن الفرضي ١ : ١٨٢ والجذوة : ٢٠٣ (وبغية الملتبس رقم : ٧٥٢) .

وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممن رحل إلى الحج أيتام هشام ابن عبد الرحمن والد الحكم ، فلما رجعوا وصَفُوا من فضل مالك وَسَعَة علمه وجمالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس ، فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالأندلس ، وكان رائد الجماعة في ذلك شبطون .

وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملًا متقنًا ، فأخذه عنه يحيى بن يحيى كما مر ، وهو إذ ذاك صَدْر في طلاب الفقه ، فأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك ما دام حيًّا ، فرحل سريعًا ، وأخذ يحيى عن زياد هذا الكتاب العشرة المنسوبة إلى يحيى .

ولقي أيضاً عبد الله بن وهب صاحب مالك ، وسمع منه الموطأ<sup>١</sup> ، ولقي أيضاً عبد الله بن نافع المدني صاحب مالك ، وسمع منه ومن الليث بن سعد فقيه مصر ، ومن سفيان بن عيينة بمكة ، وقدم يحيى الأندلس أيام الحكم ، فانتشر به وبزياد وعيسى بن دينار علم مالك بالأندلس ، رضي الله تعالى عن الجميع .

وقد قدمنا الحديث الذي رواه زياد بن عبد الرحمن عن مالك ، فليراجع في الباب الثالث<sup>٢</sup> .

١٢ - ومنهم سوار بن طارق<sup>٣</sup> مولى عبد الرحمن بن معاوية ، قرطبي ، حج ودخل البصرة ، ولقي الأصمعي ونظراءه ، وانصرف إلى الأندلس ، وأدب الحكم ، ومن ولده محمد بن عبد الله بن سوار ، حج أيضاً ، ولقي أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما ، وأدخل الأندلس علماً كثيراً ، رحم الله

١ ق : موطأ .

٢ انظر ما تقدم ١ : ٣٤٠ - ٣٤١ .

٣ سوار بن طارق : ترجمته في طبقات الزبيدي ٢٧٩ ؛ وترجمة ابنه عبد الله في طبقات الزبيدي

٢٨٢ وكذلك حفيده محمد ، وترجم ابن الفرضي ٢ : ٢٦ لحفيده محمد هذا .

تعالى الجميع .

١٣ - ومنهم بقيّ بن مخلد<sup>١</sup> ، الشهير الذكر ، صاحب التأليف التي لم يؤلّف مثلها في الإسلام ، ولقي مائتين وأربعة وثمانين شيخاً ، وكانت له خاصة من الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى ، وستأتي جملة مما يتعلّق ببقيّ بن مخلد في رسالة ابن حزم في الباب السابع ؛ وبقيّ على وزن عليّ ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ؛ وقد عرفّ ببقيّ بن مخلد غير واحد من العلماء كصاحب « النبراس »<sup>٢</sup> وغيره .

١٤ - ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف ، أبو محمد ، البيّاني<sup>٣</sup> - وبيّانه من أعمال قرطبة - وأصل سلكه من موالي الوليد بن عبد الملك ، وسمع المذكور بقرطبة من بقيّ بن مخلد ومحمد بن وضاح ومطرّف بن قيس وأصبغ ابن خليل وابن مسرة وغير واحد ، ورحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك ابن أيمن ومحمد بن زكريا بن عبد الأعلى<sup>٤</sup> سنة أربع وسبعين ومائتين ، فسمع بمكة من محمد بن إسماعيل الصائغ وعلي بن عبد العزيز ، ودخل العراق ، فلقي من أهل الكوفة لإبراهيم بن أبي العنيس قاضيها وإبراهيم بن عبد الله القصار ، وسمع ببغداد من القاضي إسماعيل<sup>٥</sup> وأحمد بن زهير بن حرب وغيرهما كعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل والحارث بن أبي أسامة وكتب عن ابن أبي خيثمة

١ بقي بن مخلد : ترجمته في الجذوة : ١٦٧ (وبغية الملتبس : ٥٨٤) والصلة : ١١٨ وابن

الفرضي ١ : ١٠٧ وتذكرة الحفاظ : ٦٢٩ .

٢ النبراس : من كتب ابن دحية الكلبي ، ولا أدري أهو المقصود هنا أو غيره .

٣ قاسم بن أصبغ : ترجمته في الجذوة : ٣١١ (وبغية الملتبس : ١٢٩٨) وابن الفرضي ١ :

٤٠٦ وتذكرة الحفاظ : ٨٥٣ .

٤ ابن الفرضي : ابن أبي عبد الأعلى .

٥ ابن الفرضي : إسماعيل بن إسحاق قاضي القضاة .

تاريخه<sup>١</sup> ، وسمع من ابن قتيبة كثيراً من كتبه ، وسمع من المبرّد وثعلب وابن  
الجهم في آخرين ، وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العمري ومطلب بن شعيب  
وغيرهما ، وسمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي  
الشاعر ، وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير ، فمال الناس إليه في تاريخ أحمد  
ابن زهير وكتب ابن قتيبة ، وأخذوا ذلك عنه دون صاحبيه ابن أيمن وابن عبد  
الأعلى ، وكان بصيراً بالحديث والرجال ، نبيلاً في النحو والعربية<sup>٢</sup> والشعر ،  
وكان يشاور في الأحكام ، وصنّف على كتاب « السنن » لأبي داود كتاباً في  
الحديث ، وسببه أنه لما قدم العراق سنة ست وسبعين ومائتين مع صاحبه محمد  
ابن أيمن ، فوجدا أبا داود قد مات قبل وصولهما ببسبر ، فلما فاتهما عمل كل  
واحد منهما مصنفاً في السنن على أبواب كتاب أبي داود ، وخرّجا الحديث من  
روايتهما عن شيوخهما وهما مصنفان جليلان ، ثم اختصر قاسم بن أصبغ كتابه  
وسماه « المجتبي » - بالنون - وابتدأ اختصاره في المحرم سنة أربع وعشرين  
وثلاثمائة ، وجعله باسم الحكم المستنصر ، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة  
وتسعون حديثاً في سبعة أجزاء .

ومولده يوم الاثنين عاشر ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائتين ، رحمه  
الله تعالى .

وحكى القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا  
إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (البقرة : ٣٢) أن قاسم بن أصبغ قال : لما رحلت إلى المشرق  
نزلت القيروان ، فأخذت عن بكر بن حماد حديث مُسَدَّد ، فقرأت عليه يوماً  
فيه حديث النبي صلى الله عليه وسلم « أنه قدم عليه قوم من مُضَرَّ مجتابي النمار »  
فقال : إنّما هو مجتابي الثمار ، فقلت : إنّما هو مجتابي النمار ، هكذا قرأته

١ هو أحمد بن زهير نفسه ، الذي ذكره قبل قليل .

٢ ط : والغريب .



على كل من لقيته بالأندلس والعراق ، فقال لي : بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا ؟ أو نحو هذا ، ثم قال لي : قم بنا إلى ذلك [ الشيخ ] لشيخ كان في المسجد ، فإن له بمثل هذا علماً ، فقمنا إليه وسألناه عن ذلك ، فقال : إنَّما هو مجتأبي النمار كما قلتُ ، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم ، والنمار : جمع نَمِرَة ، فقال بكز بن حماد وأخذ بأنْفِهِ : رَغِمَ أنْفِي للحق ، وانصرف ، انتهى .

وهذه الحكاية دالة على عظيم قدر الرجلين ، رحمهما الله تعالى ورضي عنهما ، ونفعنا بهما .

١٥ - ومنهم قاسم بن ثابت ، أبو محمد ، العوفي ، السَّرْقُسْطِي ١ ، رحل مع أبيه فسمع بمصر من أحمد بن شُعَيْب النسائي وأحمد بن عمرو البزار ، وبمكة من عبد الله بن علي بن الجارود ومحمد بن علي الجوهري ، واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه ، فأدخلا إلى الأندلس علماً كثيراً ، ويقال : إنَّهما أوَّل من أدخل كتاب « العَيْن » إلى الأندلس ، وألف قاسم في شرح الحديث كتاباً سمَّاه « الدلائل » ، بلغ فيه الغاية في الإقتان ، ومات قبل إكماله ، فأكماله أبوه ثابت بعده ، وقد روي عن أبي علي البغدادي أنَّه كان يقول : كتبتُ كتاب « الدلائل » ، وما أعلم أنَّه وضع بالأندلس مثله ، وكان قاسم عالماً بالحديث واللغة ٢ ، متقدماً في معرفة الحديث والنحو والشعر ، وكان مع ذلك ورعاً ناسكاً ، وأريد على القضاء بسَّرْقُسْطَة ، فأبى ذلك ، فأراد أبوه إكراهه عليه ، فسأله أن يتركه ينظر في أمره ثلاثاً ، ويستخير الله تعالى ، فمات في هذه الثلاثة الأيام ، فيروون أنَّه دعا لنفسه بالموت ، وكان مجاب

١ قاسم بن ثابت ، ترجمته في الجذوة : ٣١٢ ( وبنية الملتس : ١٣٠٠ ) وابن الفرضي ١ : ٤٠٢ وطبقات الزبيدي : ٣٠٩ ؛ ويتابع المقرئ ما جاء عند ابن الفرضي في هذه الترجمة .

٢ ط : والفقہ .

الدعوة ، توفي سنة ٣٠٢ بِسَرَقُسْطَةَ ، رحمه الله تعالى .

١٦ - ومنهم علم الدين أبو محمد المُرسِيُّ اللُّورقي<sup>١</sup> ، وهو قاسم بن أحمد ابن موفق<sup>٢</sup> بن جعفر ، العلامة المقرئ الأصولي النحوي ، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وقرأ بالروايات قبل الستمائة على أبي جعفر الحصار وأبي عبد الله المُرادِي وأبي عبد الله ابن نوح الغافقي ، وقدم مصر فقرأ بها على أبي الجود غياث بن فارس ، وبدمشق على التاج زيد الكندي ، وسمع ببغداد من أبي محمد ابن الأخضر ، وأخذ العربية عن أبي البقاء ، ولقي الجزولي بالمغرب ، وسأله عن مسألة مشكلة في مقدمته ، فأجابته ، وبرع في العربية وفي علم الكلام والفلسفة ، وكان يقرئ ذلك ويحققه ، وأقرأ بدمشق ودرس ، وشرح «المفصل» في النحو في أربع مجلدات فأجاد وأفاد ، وشرح «الجزولية» و«الشاطبية» ، وكان مليح الشكل ، حسن البزة ، موطأ الأكناف ، قرأ عليه جماعة ، وتوفي سابع رجب سنة ٦٦١ ، وكان معمرًا مشغولًا بأنواع العلوم ، وسمّاه بعضهم أبا القاسم ، والأوّل أصح .

١٧ - ومنهم قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار<sup>٣</sup> ، أبو محمد ، من أهل قَرْطُبَةَ ، وجدّه مولى الوليد بن عبد الملك<sup>٤</sup> ، رحل فسمع بمصر من محمد ابن عبد الله بن عبد الحكم والمزني والبرقي والحارث بن مسكين ويونس بن عبد الأعلى وإبراهيم بن المنذر وغيرهم ، ولزم ابن عبد الحكم للتحقق به وبالمزني ، وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ويميل إلى مذهب

١ قاسم بن أحمد اللورقي : ترجمته في غاية النهاية ٢ : ١٥ وذيل الروضتين : ٢٢٧ .  
٢ قال أبو شامة : بن (أبي) السداد ، وكان هو لا يكتب ابن أبي السداد ويحمل مكانه الموفق وكان أبو السداد كنية الموفق .  
٣ قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار : ترجمته في الجذوة : ٣١٠ (وبغية المنتسب رقم : ١٢٩٣) وابن الفرضي ١ : ٣٩٧ والمقري يتنقل عن ابن الفرضي بشيء من التصرف يسير .  
٤ الجذوة : مولى هشام بن عبد الملك .

الشافعي ، ولما قال له ابنه محمد بن القاسم : يا أبت أوصيني ، قال : أوصيك بكتاب الله ، فلا تنسَ حظك منه ، واقرأ منه كلَّ يوم جزءاً ، واجعل ذلك عليك واجباً ، وإن أردت أن تأخذ من هذا الأمر بحظ ، يعني الفقه ، فعليك برأي الشافعي ، فإنِّي رأيتُه أقلَّ خطأ . قال أبو الوليد ابن الفرّضي : ولم يكن بالأندلس مثله في حسن النظر والبصر بالحجة . وقال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة : ما رأينا أفتقه من قاسم بن محمد ممن دخل الأندلس من أهل الرحلة . وقال أسلم بن عبد العزيز : سمعت عن ابن عبد الحكم أنّه قال : لم يقدم علينا من الأندلس أحد أعلم من قاسم بن محمد ، ولقد عاتبته في حين انصرافه إلى الأندلس ، وقلت له : أقم عندنا فإنك تقتعد ههنا رياسة ويحتاج الناس إليك ، فقال : لا بدّ من الوطن . وقال سعيد بن عثمان<sup>١</sup> : قال لي أحمد ابن صالح الكوفي : قدم علينا من بلادكم رجل يسمى قاسم بن محمد ، فرأيت رجلاً فقيهاً .

وألّف رحمه الله تعالى كتاباً نبيلاً في الرد على ابن مزيّن<sup>٢</sup> وعبد الله بن خالد والعتبي يدل على علمه ، وله كتاب في خبر الواحد . وكان يلي وثائق الأمير محمد طول أيامه . روى عنه ابن لبابة وابن أيمن والأعناقى وابنه محمد بن قاسم في آخرين<sup>٣</sup> . توفي سنة ست - أو سبع ، أو ثمان - وسبعين ومائتين ، رحمه الله تعالى .

١٨ - ومنهم أبو بكر الغساني ، وهو محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود<sup>٤</sup> ، من أهل المرية ، قدم إلى مصر ولقي بها أبا بكر الطرطوشي ، ثم عاد إلى بلده ،

١ هو الأعناقى .

٢ يحيى بن إبراهيم بن مزيّن .

٣ ابن الفرّضي : في جماعة سواهم .

٤ محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود : ترجمته في الصلة : ٥٥٣ ومعجم شيوخ الصديقي : ١٢٦ .

وشوور واستقضي بمُرْسِيَةِ مدة طويلة ، ثم صُرف وسكن مراکش . قال ابن بَشْكُوَال : توفي بمراكش في رجب سنة ٦٣٦ ، وقال أبو جعفر ابن الزبير : إن له « كتاب تفسير القرآن » ، وبيته بيت علم ودين .

١٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن حيّون<sup>١</sup> ، من أهل وادي الحجارة ، قال ابن الفرضي : سمع من ابن وضاح والحسني ونظرائهما بالأندلس ، ورحل إلى المشرق ، فتردد هناك نحواً من خمس عشرة سنة ، وسمع بصنعاء ومكة وبغداد ولقي جماعة من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل : منهم عبد الله ابن أحمد ، وسمع بمصر من الحفاف<sup>٢</sup> النيسابوري وإبراهيم بن موسى وغيرهما ، وبالمصيصة والقيروان ، وكان إماماً في الحديث ، عالماً ، حافظاً للعلل<sup>٣</sup> ، بصيراً بالطرق ، ولم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه ، وهو ضابط متقن ، حسن التوجيه للحديث ، صدوق ، ولم يذهب مذهب مالك . وممن روى عنه ابن أيمن وقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة وأحمد بن سعيد بن حزم ، وقال خالد بن سعيد<sup>٤</sup> : لو كان الصدق إنساناً<sup>٥</sup> لكان ابن حيّون . وكان يُزَنُّ بالشييع لشيء كان يظهر منه في حق معاوية ، رضي الله تعالى عنه ، وكان شاعراً ، وتوفي بقرطبة سنة ٣٠٥ ، ساعه الله تعالى .

٢٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن غالب ، المالقي<sup>٦</sup> ، قال ابن نقطة : سمع بالإسكندرية من أبي الحسن ابن المقدسي ، وكان فاضلاً ،

١ محمد بن إبراهيم بن حيون : ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٢٨ وجذوة المقتبس : ٣٩ (وبقية الملتبس : ٤٣) وتذكرة الحفاظ : ٧٨١ .  
٢ دوزي وق : الحفاظ .  
٣ للعلل : سقطت من ق .  
٤ ابن الفرضي : خالد بن سعد .  
٥ في ط : لساناً .  
٦ محمد بن إبراهيم المالقي : ترجمته في التكملة : ٦٣٨ والذيل والتكملة ٦ : ٣٥ (نسخة باريس) .

رأيت بخطه إجازة بمصر لبعض المصريين في رجب سنة ٦٠٤ ، وسمع بمصر شيئاً من الخِلَعِيَّات ، قال ابن فُرْتُونَ الفاسي في « ذيل تاريخ الأندلس » : روى بمالقة ، ورحل إلى المشرق وحج ، ولقي أبا الحسن علي بن الفضل المقدسي ، وأخذ عنه كتاب « تحقيق الجواب عمّن أُجيز له ما فاته من الكتاب » من تأليفه ، ورجع إلى الأندلس ، ثم نهض إلى مراكش فتوفّي في أقصى بلاد السّوسِ في حدود سنة ٦٤٥ ، رحمه الله تعالى .

٢١ - ومنهم اليَقْطُوري ، وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم مصنف كتاب « إكمال الإكمال » للقاضي عياض على صحيح مسلم ، وكتب على كتاب الشهاب القراني في الأصول ، وسمع الحديث ، وقدم إلى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة ، ثم عاد بعد حجّه ، ومات بمراكش سنة ٧٠٧ ، وقد زرت قبره بها مراراً ، قال الحافظ المقرئ : واليقطوري نسبة إلى يقطورة - بياء آخر الحروف مفتوحة ، وقاف مشددة ، وراء مهملة - بلد بالأندلس ، انتهى .

٢٢ - ومنهم أبو عبد الله الأنصاري ، وهو محمد بن إبراهيم بن موسى ابن عبد السلام<sup>١</sup> ، ويُعرف بابن شق الليل ، من أهل طُلَيْطُلَة ، سمع بمصر أبا الفرج الصوفي وأبا القاسم الطحان الحافظ وأبا محمد ابن النحاس وأبا القاسم ابن ميسرة وأبا الحسن ابن بشر وغيرهم ، وسمع بطليطلة من جماعة ، وحدث عن جماعة من المحدثين كثيرة .

قال ابن بشكوال : وكان فقيهاً عالماً ، وإماماً متكلماً ، حافظاً للفقهِ ، والحديث ، قائماً بهما متقناً لهما ، إلا أنّ المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر

١ محمد بن إبراهيم بن عبد السلام الأنصاري : ترجمته في الصلة : ٥١١ وانظر الفصل لابن حزم

بمعانيه وعلله كان أغلب عليه ، وكان مليح الخط ، جيد الضبط ، من أهل الرواية والدراية والمشاركة في العلوم ، وكان أديباً شاعراً مجيداً لغويّاً دينياً فاضلاً ، كثير التصانيف والكلام على علم الحديث ، حلو الكلام في تأليفه ، وله عناية بأصول الديانات وإظهار الكرامات ، توفي بطليبة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥ ، رحمه الله تعالى .

٢٣ - ومنهم الشيخ الإمام الشهير الكبير الولي العارف بالله تعالى سيدي أبو عبد الله القرشي الهاشمي الأندلسي<sup>١</sup> ، شيخ السالكين ، وإمام العارفين ، وقُدوة المحققين ، قدم مصر بعدما صحب ببلاد المغرب جماعة من أعلام الزهاد ، وكان يقول : صحبت ستمائة شيخ اقتديت منهم بأربعة : الشيخ أبي الربيع ، والشيخ أبي الحسن ابن طريف ، والشيخ أبي زيد القرطبي ، والشيخ أبي العباس الجوزي ، وسلك على يده جماعة : منهم أبو العباس القسطلاني ، فإنه أخذ عنه كلامه وجمعه في جزء . وخرج سيدي أبو عبد الله القرشي من مصر إلى بيت المقدس فأقام به إلى حين وفاته عشية الخميس السادس من ذي الحجة سنة ٥٩٩ عن خمس وخمسين سنة ، ودُفن هنالك ، وقبره ظاهر يُقصد للزيارة زُرته أول قَدَماني على بيت المقدس سنة ١٠٢٨ ، ومن كلامه : من لم يدخل في الأمور بالأدب لم يدرك مطلوبه منها ، وقوله : العاقل يأخذ ما صفا ويدع التكلف ، فإنه تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (يونس : ١٠٧) . وقال : مَنْ لم يراعِ حقوق الإخوان بترك حقوقه حُرِمَ بركة الصحة ، وقال : سمعت الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن طريف يقول : لما حضرت الشيخ أبا الحسن ابن غالب الوفاة قال لأصحابه : اجتمعوا واهلوا سبعين ألف مرة ، واجعلوا ثوابها لي ، فإنه بلغني أنها فداء كل مؤمن من النار ، قال : فعملناها واجتمعنا عليها وجعلنا ثوابها له .

١ محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي : ترجمته في ابن خلكان ٣ : ٤٣٢ والوافي ٢ : ٧٨ .

ثم حكى عن شيخه أبي زيد القرطبي ما حكاه السنوسي عنه في أواخر شرح  
صُغْرَاهُ ، وقد أنكر غير واحد من الحفاظ كابن حجر وغيره كون ما ذكر  
حديثاً ، ولعل هؤلاء أخذوه من جهة الكشف ونحوه ، والله تعالى أعلم .

وقال رحمه الله تعالى : دخلت على الشيخ أبي محمد عبد الله المغاور ، فقال  
لي : أعلمك شيئاً تستعين به ، إذا احتجت لشيء فقل : يا واحد يا أحد يا واحد  
يا جوَاد ، انْفَحْنَا مِنْكَ بِنَفْحَةِ خَيْر ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ، قال : فأنا  
أففق منها منذ سمعتها . وقال رحمه الله تعالى : ما من حال ذُكِرَ فِي رِسَالَةِ  
الْقَشِيرِيِّ إِلَّا وَقَدْ شَاهَدْتَهُ نَفْسِي . وتزوج رحمه الله تعالى بنساء حدثن عنه  
بكرامات ، ومنهنَّ أم القطب القسطلاني ، وحكت أنها خرجت عنه يوماً  
لحاجتها ، ثم عادت فسمعت عنده في طبقته حِسَّ رَجُل ، فتوقفت وافتقدت  
الباب فوجدته مُغْلَقاً ، فلما انقطع الكلام دخلت إليه ، فإذا هو وحده كما  
تركته ، فسألته عن ذلك ، فقال : هو الخضر دخل علي وفي يده حية فقال :  
هذه جثتك بها من أرض نجد ، وفيها شفاء مَرَضِكَ ، فقلت : لا أريد ، اذهب  
أنت وحيثك لا حاجة لي بها . ودخل عليه بعض نساءه يوماً ، فوجدته بصيراً  
نقي الجسم من الجُدَام ، فلما نظرته قال لها : أتريدين أن أبقى لك هكذا ؟ فقالت  
له : يا سيدي كن كيف شئت ، إنَّما مقصودي خدمتك وبركتك . وقيل له ،  
وقد تكاثرت منه رؤية الأشياء وإخباره بها ، مع كونه ضريراً ، عن ذلك ،  
فقال : كلِّي عين ، بأي عضو أردت أن أنظر به نظرت . وقال : هممت أن  
أدعو برفع الغلاء ، فقيل لي : لا تدعُ فما نسمع لأحد منكم في هذا الأمر دعاء ،  
فسافرت إلى الشام ، فلما وصلت إلى بلد الخليل ، عليه السلام ، تلقاني رسول  
[ الله ] الخليل حين ورودي عليه ، فقلت له : يا رسول الله اجعل ضيافتي عندك  
أهل مصر ، فدعا لهم ففرَّج الله عنهم . ومناقبه رحمه الله تعالى وكراماته لا  
يفي بها هذا المختصر ، وإنَّما قصدنا بذكرها البركة وكفارة ما وقع في هذا  
الكتاب من الإحماض ، والله المرجو في العفو .

ومن فوائده ما نقله عن شيخه أبي الربيع المالقي أنه قال له : ألا أعلمك كترًا تنفق منه ولا ينفد ؟ قلت : بلى ، قال قل : « يا الله ، يا أحد ، يا واحد ، يا موجود ، يا جواد ، يا باسط ، يا كريم ، يا وهاب ، يا ذا الطول ، يا غني ، يا مُغني ، يا فتاح ، يا رزاق ، يا عليم ، يا حي ، يا قيوم ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حنان ، يا منان ، انفخي منك بنفحة خير تُغنيني بها عن سواك ﴿ إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ (الأنفال : ١٩) ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ (الفتح : ١) ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ (الصف : ١٣) اللهم يا غني يا حميد ، يا مبدئ يا معيد ، يا ودود<sup>١</sup> يا ذا العرش المجيد ، يا فعّالاً لما يريد ، اكفني بحلالك عن حرامك ، وأغني بفضلك عن سواك ، واحفظني بما حفظت به الذكر وانصرتني بما نصرت به الرسل ، إنك على كل شيء قدير . فمن داوم على قراءته بعد كل صلاة خصوصاً صلاة الجمعة حفظه الله تعالى من كل مَخُوف ، ونصره على أعدائه ، وأغناه ورزقه من حيث لا يحتسب ، ويسّر عليه معيشته ، وقضى عنه دينه ولو كان عليه أمثال الجبال ديناً ، بكرمه وإحسانه ، انتهى . نقله عنه العلامة ابن داود البلسوي الأندلسي ، ومن خطه نقلت ، رحم الله تعالى الجميع ، ونقله الياضي كما ذكر رحمه الله تعالى ، إلا أنه لم يقل فيه « يا ودود » ، وانفقا فيما عدا ذلك ، والله سبحانه أعلم .

وقال ابن خلكان في حقّه : محمد بن أحمد<sup>٢</sup> بن إبراهيم القرشي الهاشمي العبد الصالح الزاهد من أهل الجزيرة الخضراء ، كانت له كرامات ظاهرة ، ورأيت أهل مصر يحكون عنه أشياء خارقة ، ولقيت جماعة ممن صحبه ، وكل منهم قد نمي عليه<sup>٣</sup> من بركته ، وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد

١ يا ودود : مكررة في ق ط .

٢ ابن أحمد : سقطت من دوزي ، وهي ثابتة في ق وابن خلكان .

٣ ط ج ق : قد يفي عليه ، وما أثبتناه في ابن خلكان أيضاً .



من الولايات والمناصب العلية ، وأنها صحت كلها . وكان من السادات الأكابر والطرّاز الأول ، وهو مغربي صحب بالمغرب أعلام الزهاد وانتفع بهم ، فلماً وصل إلى مصر انتفع به مَنْ صحبه أو شاهده ، ثم سافر إلى الشام قاصداً زيارة بيت المقدس ، فأقام بها إلى أن مات ، وصُلِّي عليه بالمسجد الأقصى ، وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وقبره ظاهر للزيارة والتبرك به <sup>١</sup> .

والجزيرة الخضراء في بلاد الأندلس : مدينة تقابل سبّتة من بر العُدوة . ومن جملة وصاياه لأصحابه : سيروا إلى الله تعالى عُرْجاً ومكاسير فإن انتظار الصحة بِطالة ، انتهى ببعض اختصار .

٢٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين القرطبي <sup>٢</sup> ، سمع من قاسم بن أصبغ وغيره ، وقدم مصر فسمع بها من ابن الورد وابن أبي الموت والبارودي <sup>٣</sup> وابن السكّن في آخرين ، وسمع بالرملة وبيت المقدس ، وكان ضابطاً بصيراً بالنحو واللغة فصيحاً بليغاً طويل اللسان ، وليّ الشرطة ببلاد المغرب . توفي سنة ٣٧٢ .

٢٥ - ومنهم أبو بكر محمد بن علي بن خلف التّجيجي الإشبيلي <sup>٤</sup> الحافظ الكاتب ، روى عن ابن الجلد وغيره ، ومر بمصر حاجّاً فلقي بمكة أبا حفص الميانشي وأبا الحسن المكناسي ، ولقي بالإسكندرية السّلفي وابن عوف وغيرهما ، وكان مدرّساً للفقّه ، فقيهاً جليلاً ، متقدماً فيه عارفاً فاضلاً سنيّاً ، توفي بعد امتحان من منصور بني عبد المؤمن سنة ٥٩٦ ، وذلك أنّه وشي به للمنصور

١ به : سقطت من ق ط .

٢ محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين القرطبي : ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٨٥ وعنه ينقل المقرئ باختصار .

٣ ط ودوزي : والبارودي .

٤ ترجمته في التكملة : ٥٥٧ والذيل والتكملة ٦ : الورقة ١٧٩ (نسخة باريس) وأورد له ترجمة مفصلة .

أيام عزم على ترك التقليد والعمل بالحديث<sup>١</sup> .

٢٦ - ومنهم أبو بكر الأندلسي الجياني محمد بن علي بن عبد الله بن محمد ابن ياسر ، الأنصاري ، الجياني<sup>٢</sup> ، سافر من بلده ودخل ديار مصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر ، ولقي أئمتها ، وتفقه ببخارى حتى تمهر في المذهب والخلاف والجدل ، ثم اشتغل بالحديث وسماعه وحفظه وحصل منه كثيراً ، ثم سكن بلخ مدة ، وعاد إلى بغداد ودخلها سنة ٥٥٩ ، وتوجه إلى مكة فحج ورجع إلى الشام واستوطن حلب ، إلى أن توفي بها ، ووقف كتبه ، وكان متديناً صدوقاً حافظاً عالماً بالحديث ، وفيه فضل ، ولد بيجان سنة ٤٩٢ ، ومات بحلب سنة ٥٦٣ .

٢٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي التَّجِيبِي الدهان الغرناطي<sup>٣</sup> ، كان حَسَنَ السَّمْتِ بارع الخط والخطِّ والخُلُقِ والحُلُقِ ، رحل إلى الحج ، وجال في البلاد في حدود سنة ست وستمائة فأخذ بمكة والشام ومصر والإسكندرية عن جماعة كثيرة ، وكان عدلاً<sup>٤</sup> ، فاضلاً على خير ودين ، وكان متحرراً بالتجارة بغيرناطة ، ثم خرج منها آخر عمره فمات بقوص بعدما حج سنة ٦٥٠ ، وصدر من مكة سنة ٦٥٣ فمات قبل منتصف السنة ، رحمه الله تعالى .

٢٨ - ومنهم أبو عمر محمد بن علي بن محمد بن أبي الربيع القرشي العثماني

١ كان المنصور قد حمل الناس على الكتاب والسنة، فمل أهل الظاهر، ورفض الاشتغال بالفروع ، فعرض التجيبي للمحنة بسبب ذلك ، وخلص من التكبة فلزم داره ، وكانت له غرفة مشرفة على الدرب الذي فيه داره يكثر الجلوس فيها ، فخطر للمنصور أن يستدعيه ويؤنسه ، فتوجه إليه الشرطيون ، فرأهم من غرفته تلك وظن أنهم جاءوا لشر فاستطير قلبه ذعراً ، وأصابه شيء كالفالج أقدمه ، وظل كذلك حتى أدركته منيته .

٢ محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني : ترجمته في التكملة : ٥٠٠ .

٣ محمد بن علي التجيبي الدهان : ترجمته في الذيل والتكملة ٦ : ١٩٨ ( نسخة باريس ) .

٤ دوزي : عادلا .

الأندلسي الإشبيلي النحوي ، ولد سنة ٦١٧ بإشبيلية ، وقدم مصر فسمع الكثير بها ، وبدمشق وغيرها ، وكان إماماً عالماً نحويّاً فاضلاً ، كتب عنه أبو محمد الدميّاطي والقطب عبد الكريم ، وناهيك بهما .

٢٩ - ومنهم أبو بكر [ و ] أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي ابن هُدَيْلِ الْبَلَنْسِيِّ<sup>١</sup> ، رحل وسمع من السّلفي ، وحج ، قال أبو الربيع ابن سالم : هو شيخ صدوق متيقّظ ، سمع أباه وأبا الوليد ابن الدباغ وأبا الحسن طارق بن موسى بن يعيش وجماعة ، وأخذ بمكّة سنة ٥٣٩ عن أبي علي الحسن المُقَرِّي ، وقفّل إلى الأندلس سنة ٥٤٦ ، فأخذ عنه بها ، وسمع منه جماعة ، قال ابن الأبار : كان غاية في الصّلاح وأعمال البر والورع ، توفي ببعض قرى بلنسية سنة ٥٨٣<sup>٢</sup> ، ومولده سنة سبع أو تسع عشرة وخمسمائة ، وله حظ من علم التعبير واللغة ، رحمه الله تعالى .

٣٠ - ومنهم أبو عبد الله ، ويقال : أبو سلّمة ، محمد بن علي البيّاسي الغرناطي الأنصاري ناصر الدين ، روى عن الحافظ أبي جعفر<sup>٣</sup> بن الزبير وغيره ، وقدم إلى القاهرة واستوطنها بعد الحج ، حتى مات بها سنة ٧٠٣ ، وكان عارفاً بعلم الحديث وكتب منه كثيراً ، ومال إلى مذهب الظاهرية ، وانتفع به جماعة من طلبة الحديث ، وكان ثقة ، رحمه الله تعالى .

٣١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى بن علي بن الشامي الأندلسي ، الغرناطي ، قدم مصر حاجّاً ، وأقام بمكّة والمدينة ، وكان إماماً فاضلاً عالماً متفتناً<sup>٤</sup> في علوم ما بين فقه وأصول ونحو ولغة وقرآيات ونظم ونثر ، ومع

١ محمد بن علي بن هذيل : ترجمته في التكملة : ٥٤٥ والذيل والتكملة ٦ : ٢٠٠ (نسخة باريس).

٢ التكملة : سنة ٥٨٨ ، وفي ق ط : ٥٣٨ .

٣ ق ودوزي : أبي حفص .

٤ في نسخة : متفتناً .

معرفته بمذهب مالك ينقل كثيراً من مذهب الشافعي ، وسمع الموطناً بتونس  
من أبي محمد ابن هرون القرطبي ، ومولده بقرطبة سنة ٦٧١ ، وتوفي سنة ٧١٥ .

ومن شعره :

إذا كنتُ جاراً للنبيِّ وصحبه      ومكّةُ بيّتُ الله منّي على قُربِ  
فَمَا ضَرَّرَنِي أَنْ فَاتَنِي رَغْدُ عَيْشَةٍ      وَحَسْبِي الَّذِي أُوتِيَتْهُ نِعْمَةٌ حَسْبِي

وقوله :

نزِيلُ الكرامِ عَزِيزُ الجوارِ      وإِنِّي نَزِيلٌ عَلَيْكُمْ وَجَارُ  
حَلَلْتُ ذَرَاكَ وَأَنْتَ الكَرِيمُ      وَمَنْ حَلَّ مَثْوَى كَرِيمٍ يُجَارُ

٣٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمار الكلاعي الميُورقي<sup>١</sup> ، قدم  
مصر ، وروى عن ابن الوليد بها ، وكان عالماً ، وله قصيدة طويلة فيها حكم  
ومواعظ يوصي ابنه بها ، منها قوله :

وطاعة مَنْ إِلَيْهِ الأَمْرُ فَالزَّمْ      وَإِنْ جَارُوا وَكَانُوا مُسْلِمِينَا  
فإِنْ كَفَرُوا ككُفْرِ بَنِي عُبَيْدٍ      فَلَإِ تَسْكُنُ دِيَارَ الكَافِرِينَا

واسم ابنه حسن ، وسمع من المذكور الحافظُ القاضي أبو بكر ابن العربي  
في رحلته سنة ٤٨٥ ، ووصفه بالعلم ، وعمّار : بالراء .

٣٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخّار القوطبي  
الحافظ<sup>٢</sup> ، روى عن [ أبي ] عيسى<sup>٣</sup> اللبّي وابن عون الله وأبي جعفر التميمي

١ محمد بن عمار الكلاعي : ترجمته في التكملة : ٤٠٣ ؛ وقد سقط أكثر هذه الترجمة في ق ولم  
يبق منها إلا ابتداء من قوله « واسم ابنه حسن . . . بالراء » ودخلت في الترجمة السابقة .  
٢ انظر ترجمة ابن الفخار في الصلة : ٤٨٣ وعنه ينقل المقرئ .  
٣ في الأصول : عن عيسى .

وأبي محمد الباجي ، وقدم مصر ، وحج ، وجاور بالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام ، وأفتى بها ، وافتخر بذلك على أصحابه ، وقال : لقد سُورَتْ بمدينة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دار مالك بن أنس ومكان شوره ، ولقي جماعة من العلماء وأخذ عنهم ، وكان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم ، عارفاً بمذاهب الأئمة وأقوال العلماء ، ذاكراً للروايات ، يحفظ « المدونة » و « النوادر » لابن أبي زيد ، ويوردها من صدره دون كتاب .

قال ابن حبان مؤرخ الأندلس : توفي الفقيه المشاور الحافظ المتبحر الرواية الطويل الحجرة في طلب العلم الناسك المتقشف بمدينة بلبنة في ربيع الأول سنة ٤١٧ لعشر خلون من الشهر ، وكان الحفل في جنازته عظيماً ، وعابن الناس فيها آية من ظهور أشباه الخطاطيف بها تجللت الجمع راقية فوق النعش لم تفارق نعشه إلى أن ووري ، فتفرقت ، ومكث مدة بلبنة مطاعاً عظيماً القدر عند السلطان والعامّة .

وذكر جُماهيرُ بن عبد الرحمن حديث الطير ، وكذا ذكر الحسن بن محمد القيسي خبر الطير . قال : وكانت سنة نحو الثمانين سنة ، وكان مجاب الدعوة ، وظهرت في دعوته الإجابة .

وقال أبو عمرو الداني : إن وفاته يوم السبت لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وأربعمائة ، ودُفن يوم الأحد بمدينة بلبنة ، وبلغ نحو ست وسبعين سنة ، وهو آخر الفقهاء الحفاظ الراسخين العالمين بالكتاب والسنة بالأندلس ، رحمه الله تعالى .

٣٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمرو القرطبي<sup>٢</sup> ، سمع علي بن مفرج وغيره من شيوخ قرطبة ، وقدم مصر فأخذ بها عن ابن المهندس وغيره ،

١ ط : المستبحر .

٢ ترجمة ابن عمرو في الصلاة : ٤٦٢ .

وحجَّ ودخل العراق ، وسمع من أبي بكر الأبهري والدارقطني وجماعة ، وعاد إلى الأندلس ، وشُهر بالعلم والمال ، وولي الأحباس بقرطبة ، حدَّث عنه أبو عمر ابن عبد البر وغيره ، ومات في جمادى الآخرة سنة أربعمائة ، رحمه الله تعالى .

٣٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح<sup>١</sup> ، المعافري ، المعروف بالأعشى ، القرطبي ، رحل سنة ١٧٩ فسمع سفيان بن عُيَيْنَةَ ووكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد القطان وعبد الله بن وهب وجماعة ، وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار ، وكان صالحاً عاقلاً سرياً جواداً يذهب إلى مذهب أهل العراق<sup>٢</sup> ، وتوفي سنة ٢٢١ ، ذكره ابن يونس وغيره .

٣٦ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن فُطَيْس الغافقي<sup>٣</sup> ، الإلبيري ، الزاهد ، قال الحميدي في حقه : هو من أهل الحديث والحفظ والقهم والبحث عن الرجال ، وله رحلة سمع فيها من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومن ابن وهب ابن أخي عبد الله بن وهب وغيرهما ، وروى بالأندلس عن جماعة منهم بقِيَّ ابن مَخْلَد وابن وضاح ، وسمع بمكة وغيرها من مائة شيخ ، قال ابن الفَرَضِي : كان شيخاً نبيلاً ، ضابطاً لكتبه ، ثقة في روايته ، صدوقاً في حديثه ، وكانت الرحلة إليه بإلبيرة ، وبها مات في شوال سنة ٣١٩ وهو ابن تسعين سنة ، رحمه الله تعالى .

٣٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيَّار ، القرطبي<sup>٤</sup> ، من موالي بني أمية ، سمع من أبيه ومن بقِيَّ ابن مَخْلَد وغيره ، ورحل سنة ٢٩٤ فسمع بمصر من النسائي ، ومن أحمد بن حماد زغبة ، وسمع بمكة والبصرة والكوفة وبغداد ودمياط والإسكندرية والقَيْرَوان

١ ترجمة ابن نجيح في الجذوة : ٦٩ (وبنية الملتس رقم : ٢١٢) وابن الفرضي ٢ : ٧ .  
٢ ابن الفرضي : وكان يذهب في الأشربة مذهب أهل العراق ، إذ كان علمه عراقياً .  
٣ ترجمته في الجذوة : ٧٨ (وبنية الملتس رقم : ٢٥٢) وابن الفرضي ٢ : ٤٢ .  
٤ ترجمته في الجذوة : ٨٠ (وبنية الملتس رقم : ٢٦٠) وابن الفرضي ٢ : ٤٨ .

من مائة وستين رجلاً ، قال أبو محمد الباجي : لم أدرك بقرطبة أكثر حديثاً منه ، وكان عالماً بالفقه ، متقدماً في علم الوثائق رأساً فيها ، وكان مشاوراً ، سمع من الناس كثيراً ، وكان ثقة صدوقاً ، وغزا سنة ٣٢٧ ، ومات ثالث ذي الحجة منها ، ومولده سنة ٢٦٣ ، وقيل : توفي سنة ٣٢٨<sup>١</sup> ، قاله ابن يونس والحميدي .

٣٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم القرشي الفهري ، عُرِفَ بابن رمان ، الغرناطي ، قرأ على أبي جعفر ابن الزبير بها ، وقدم إلى القاهرة سنة ٧٢٢ ، ومات بالمدينة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام سنة ٧٢٩ .  
ومن شعره قوله :

فُدَيْمٌ حَبَّرُونِي كَيْفَ صَحَّتْ      فَرِيضَةٌ هَالِكٌ مِنْ غَيْرِ مَيْنِ  
لَزِيدِ زَوْجَةٍ وَلَهَا ابْنُ أُمِّ      فَمَاتَتْ عَنْهُمَا لَا غَيْرَ ذِينَ  
فَحَازَ الْبَعْلُ مَا تَرَكْتُهُ إِرْثًا      وَوَلَّى غَيْرَهُ صِفْرَ الْيَدَيْنِ  
وَلَا رِقٌّ فُدَيْتَ عَلَيَّ أُخِيهَا      وَلَيْسَ بِكَافِرٍ يُرْمَى بِشَيْنِ  
وَلَيْسَ مُعَجَّلًا إِرْثًا بِقَتْلِ      مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَ شِقَاوَتَيْنِ

٣٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن لبّ الشاطبي<sup>٢</sup> ، حدث بالقاهرة ، وتوفي قريباً من سنة ٦٤٠ ، وهو أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن ابن الصباغ ، ومن كلامه : اشتغالك بوقتٍ لم يأتِ تضييعٌ للوقت الذي أنت فيه ، ولعمري لقد صدق .

٤٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سُراقَة الشاطبي بن محمد بن إبراهيم ابن الحسين بن سُراقَة<sup>٣</sup> ، محيي الدين ، ويكنى أيضاً أبا القاسم وأبا بكر ،

١ ق : ٣١٨ .

٢ ترجمة محمد بن لب الشاطبي في التكملة : ٦٥٢ .

٣ انظر ترجمته في الوافي ١ : ٢٠٨ وشذرات الذهب ٥ : ٣١٠ (وفيات : ٦٦٢) والنجوم

الزاهرة ٧ : ٢١٦ وذيل الروضتين : ٢٣٠ والفوات ٢ : ٣٠٦ .

الأَنْصَارِيُّ الشَّاطِئِيُّ ، المَالِكِيُّ ، وُلِدَ بِشَاطِئَةِ سَنَةِ ٥٩٢ هـ ، وَسَمِعَ مِنْ أَبِي الْقَاسِمِ ابْنِ بَقِيٍّ ، وَرَحَلَ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ ، فَسَمِعَ بِبَغْدَادٍ مِنَ الشَّيْخِ أَبِي حَفْصِ عَمْرِ السَّهْرَوَرْدِيِّ وَأَبِي طَالِبِ الْقُبَيْطِيِّ وَأَبِي حَفْصِ الدِّينِيِّ وَجَمَاعَةٍ ، وَسَمِعَ بِحَلَبٍ مِنْ ابْنِ شَدَادٍ وَغَيْرِهِ ، وَتَوَلَّى مَشِيخَةَ دَارِ الْحَدِيثِ الْبَهَائِيَّةِ بِحَلَبٍ ، ثُمَّ قَدِمَ مِصْرَ وَتَوَلَّى مَشِيخَةَ دَارِ الْحَدِيثِ الْكَامِلِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ بَعْدَ وَفَاةِ ابْنِ سَهْلِ الْقَصْرِيِّ سَنَةَ ٦٤٢ هـ ، وَبَقِيَ بِهَا إِلَى أَنْ تَوَفِّيَ بِالْقَاهِرَةِ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ ٦٦٢ هـ ، وَدُفِنَ بِسَفْحِ الْمُقَطَّمِ ، وَكَانَ الْجَمْعُ كَبِيرًا ، وَهُوَ أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الْمَشْهُورِينَ بِغَزَارَةِ الْفَضْلِ وَكَثْرَةِ الْعِلْمِ وَالْجَلَالَةِ وَالنَّبْلِ ، وَأَحَدُ الْمَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ ، لَهُ فِي ذَلِكَ إِشَارَاتٌ لَطِيفَةٌ مَعَ الدِّينِ وَالْعَقَافِ وَالْبَشَرِ وَالْوَقَارِ وَالْمَعْرِفَةِ الْجَيِّدَةِ بِمَعَانِي الشَّعْرِ ، وَكَانَ صَالِحَ الْفِكْرَةِ فِي حَلِّ التَّرَاجِمِ ، مَعَ مَا جُبِّلَ عَلَيْهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ ، وَاطَّرَاحِ التَّكْلِيفِ ، وَرَقَّةِ الطَّبَعِ ، وَلَيْنَ الْجَانِبِ .

ومن شعره قوله :

نَصَبْتُ وَمِثْلِي لِلْمَكَارِمِ يَنْصَبُ  
وَحَاوَلْتُ إِحْيَاءَ النُّفُوسِ بِأَسْرِهَا  
وَأَتَعَبْتُ إِنْ لَمْ تَمْنَحِ الْخَلْقَ رَاحَةً  
مُرَادِي شَيْءٌ وَالْمَقَادِيرُ غَيْرُهُ  
وَرُمْتُ شُرُوقَ الشَّمْسِ وَهِيَ تُغْرَبُ  
وَقَدْ غَرَّغَرَتَ يَا بَعْدَ مَا أَنَا أَطْلُبُ  
وَغَيْرِي إِنْ لَمْ تَتَّبِعِ الْخَلْقَ يَتَّبِعُ  
وَمَنْ عَانَدَ الْأَقْدَارَ لَا شَكَّ يُغْلَبُ

وقوله ٢ :

إِلَى كَمْ أُمْنِي النَّفْسَ مَا لَا تَنَالُهُ  
وَقَدْ مَرَّ لِي خَمْسٌ وَعِشْرُونَ حِجَّةً  
وَأَعْلَمُ أَنِّي وَالثَّلَاثُونَ مُدَّتِي  
فِي ذَهَبِ عَمْرِي وَالْأَمَانِي لَا تُقْضَى  
وَلَمْ أَرْضَ فِيهَا عَيْشَتِي فَمَتَى أَرْضِي  
حَرِيٍّ بِمَغَانِي اللَّهِ أَوْ سِعُهَا رَفْضًا

١ في ق ط ج ودوزي : البهادية ، والتصويب عن الوافي .

٢ الأبيات ما عدا الأخير منها في الوافي والقوات .



فماذا عَسَى في هذه الخمس أرتجي ووجدني إلى أوبٍ من العشر قد أفضى

وقال رحمه الله تعالى<sup>١</sup> :

وصاحب كالألزال يَمْحُو صفاؤه الشكَّ باليقين  
لم يُحْصِ إلاَّ الجميلَ مِنِّي كأنه كاتبُ اليمينِ

وهذا عكس قول المنازي :

وصاحب خَلِئْتُهُ خَلِيلًا وما جَرَى غَدْرُهُ بِيَالِي  
لم يُحْصِ إلاَّ القبيحَ مِنِّي كأنه كاتبُ الشمالِ

٤١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الفريشي - بكسر الفاء ،  
وتشديد الراء المهملة ، بعدها شين معجمة - نسبة إلى فريش إحدى مدائن  
قرطبة<sup>٢</sup> . ولد بقرطبة سنة ٥٥٧ ، وقرأ بالروايات على أبي القاسم ابن غالب ،  
وسمع عليه وعلى أبي القاسم ابن بشكوال وغيره ، وسمع بمكة ، وحدث  
بمصر ، وعاد إلى الأندلس فمات بقرطبة سنة ٦٣٣ ، وكان مشهوراً بالصلاح ،  
معروفاً بإجابة الدعاء ، ورعاً ثقة زاهداً فاضلاً ، رحمه الله تعالى .

٤٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن خيرون<sup>٣</sup> ، وقيل : محمد بن  
عمر بن خيرون ، أندلسي ، سكن القيروان ، ورحل إلى المشرق ، وأخذ  
القراءات بمصر عن محمد بن سعيد الأنماطي وغيره كعبيد بن رجاء وأبي الحسن

١ البيتان وبيتا المنازي في الوافي والشذرات والنجوم الزاهرة .

٢ تقع فريش إلى الشمال من قرطبة ، وقال الحميري في تحديدها : بين الجوف والغرب من قرطبة .  
٣ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ١١٢ وجذوة المقتبس : ٥٠ (وبغية المنتسب رقم : ١٠٨) وكنيته  
فيها أبو جعفر ؛ وفي غاية النهاية ٢ : ٢١٧ واسمه محمد بن عمر وكنيته أبو عبد الله . ومن  
مؤلفاته كتاب الابتداء والتمام وكتاب الألفات واللام ، وذكر ابن الجزري أن وفاته كانت  
سنة ست وثلاثمائة ، وعند دوزي وق طح : ٣٥٦ ولعله سهر .

إسماعيل بن يعقوب الأزرق المدني ، ودخل العراق ، وسمع به من أصحاب علي ابن المدني ويحيى بن معين ، وعاد إلى القيروان ، وسمع بها وبقرطبة ، وقدم بقراءة نافع على أهل إفريقية ، وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة ، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلا الخواص ، حتى قدم بها فاجتمع إليه الناس ، ورحل إليه أهل القيروان من الآفاق ، وكان يأخذ أخذاً شديداً على مذهب المشيخة من أصحاب ورش ، وتوفي بشعبان سنة ٣٠٦ ، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً كريم الأخلاق إماماً في القراءات ، مشهوراً بذلك ، ثقة ، مأموناً ، واحد أهل زمانه وأئمتهم في علم القرآن ، رحمه الله تعالى .

٤٣ - ومنهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بُندار ، القيسي ، الأندلسي ، الملقب<sup>١</sup> ، ولد بمالقة سنة ٦٢٥ وسمع الكثير ، وقدم القاهرة حاجاً فسمع بها وبدمشق وكتب بخطه كثيراً ، وكان سريع الكتابة سريع القراءة كثير الفوائد ، ديناً خيراً فاضلاً ، له مشاركة جيدة في عدة علوم ، توفي شاباً بالقاهرة سنة ٦٦٢ ، رحمه الله تعالى .

٤٤ - ومنهم أبو بكر محمد الزُّهري ، المعروف بابن محرز ، البلسني<sup>٢</sup> ، ولد بها سنة ٥٢٩ ، وقدم مصر فسمع ابن الفضل<sup>٣</sup> وغيره ، وروى عنه جماعة ، وكان أحد رجال الكمال علماً وإدراكاً وفصاحة وحفظاً للفقهِ وتفناً في العلوم ومثانة في الأدب ، حافظاً للغة والغريب ، وله شعر رائق ، ودين متين ، وأخذ الناس عنه ببلده وبمُرسِيَّة وإشبيلية ومالقة وغرناطة في اجتيازه عليها ، وبغيرها من البلاد ، وعلا صيته ، وعُرف بالدين والعلم والفضل ، وكان أبو الخطاب

١ ترجمته في الروافي ١ : ٢٠٠ .

٢ هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سليمان أبو بكر الزهري البلسني : انظر ترجمته

في الروافي ١ : ١٩٨ والتكملة : ٦٦٤ .

٣ ط ج : ابن المفضل .

يُثني على علمه ودينه ، توفي ببجاية سنة ٦٥٥ عن سن عالية ، رحمه الله تعالى .

٤٥ - وممن ارتحل<sup>١</sup> من الأندلس إلى المشرق القاضي أبو الوليد الباجي صاحب التصانيف المشهورة<sup>٢</sup> . وقال ابن ماكولا في حقّه : إنّه فقيه متكلم أديب شاعر ، سمع بالعراق ، ودرس الكلام وصنف إلى أن مات ، وكان جليلاً رفيع القدر والخطر .

وقال غير واحد : إنّه ولد سنة ٤٠٣ ، وارتحل سنة ٤٢٦ ، وجاور ثلاثة أعوام ملازماً لأبي ذر الحافظ يخدمه ، ورحل إلى بغداد ودمشق ، ولقي في رحلته غير واحد ، وتفقه بالقاضي أبي الطيب الطبري وغيره .

وقال أبو علي ابن سكرة : ما رأيت مثل أبي الوليد الباجي ، وما رأيت أحداً على هيئته وسَمته وتوقير مجلسه ، ولما كنتُ ببغداد قدم ولده أبو القاسم ، فسرت معه إلى شيخنا قاضي القضاة الشاشي ، فقلت له : أدام الله تعالى عزك ، هذا ابنُ شيخ الأندلس ، فقال : لعلّه ابنُ الباجي ، فقلت : نعم ، فأقبلَ عليه . قال القاضي عياض : وكثرتُ القالةُ في القاضي أبي الوليد لمداخلته الرؤساء ، وولي قضاءً أماكن تصغر عن قدره ، وكان يبعث إلى تلك النواحي خلفاءه ، وربما أتاها المرة ونحوها ، وكان في أول أمره مُقلاً حتى احتاج إلى القصد بشعره ، واستأجر نفسه مدّةً مقامه ببغداد ، فيما سمعته مستفيضاً ، لحراسة دَرْبٍ . وقد جمع ابنه شعره .

قال : ولما قدم الأندلس وجدَ لكلام ابن حزم طلاوة ، إلاّ أنّه كان خارجاً عن المذهب ، ولم يكن بالأندلس مَنْ يشتغل بعلمه ، فقصرت ألسنة الفقهاء عن

١ ق ج : ومن الراحلين ، ط : ومن رحل ، وأثبتنا ما في دوزي .

٢ انظر ترجمة أبي الوليد الباجي سليمان بن خلف في الذخيرة (القسم الثاني : ٣٨) والقلائد : ١٨٨

والصلة : ١٩٧ وبغية المتمس رقم : ٧٧٧ والمغرب ١ : ٤٠٤ ووفيات الأعيان ٢ : ١٤٢

ومعجم الأدباء ١١ : ٢٤٦ والديباج المذهب : ١٢٠ وتذكرة الحفاظ : ١١٧٨ وتهذيب ابن

عساكر ٦ : ٢٤٨ وشدرات الذهب ٣ : ٣٣٤ والمرقبة العليا : ٩٥ .

مُجادلته ، وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل ، وحل بجزيرة  
مَيُورِقَةَ ، فرأس فيها واتبعه أهلها ، فلما قدم أبو الوليد كلموه في ذلك ،  
فدخل إليه ، وناظره وشهر باطله ، وله معه مجالس كثيرة .

ولما تكلم أبو الوليد في حديث الكتابة يوم الحديبية الذي في البخاري قال  
بظاهر لفظه ، فأنكر عليه الفقيه أبو بكر الصائغ وكفره بإجازة الكتّاب على  
الرسول الأُمي ، صلّى الله عليه وسلّم ، وأنه تكذيب للقرآن ، فتكلّم في ذلك  
منّ لم يفهم الكلام ، حتى أثاروا عليه الفتنة وقبحوا عليه عند العامة ما أتى به ،  
وتكلّم به خطباؤهم في الجمع ، وقال شاعرهم :

برثتُ ممن شرى دُنِيّاً بأخْرةٍ      وقال : إن رسولَ الله قد كتّبا

فصنّف أبو الوليد رحمه الله تعالى رسالة بيّن فيها أن ذلك غير قادح في  
المعجزة ، فرجع بها جماعة ؛ إذ ليس منّ عَرَفَ أن يكتب اسمه فقط بخارج  
عن كونه أميّاً لأنّه لا يُسمّى كاتباً ، وجماعة من الملوك قد أدمنوا على كتابة  
العلامة وهم أميون ، والحكم للغالب لا للصور النادرة ، وقد قال عليه الصلاة  
والسلام « إنا أمة أميون » أي : أكثرهم كذلك ، لنور الكتابة في الصحابة ،  
وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ (الحجّة : ٢)  
انتهى ، وبعضه بالمعنى .

وذكر ابنُ بسّام أن أبا الوليد الباجي نشأ وهمته في العلم ، وأنه بدأ بالأدب ،  
فبرز في ميادينه ، وجعل الشعر بضاعته ، فنال به من كل الرغائب ، ثم رحل  
فما حلّ بلداً إلاّ وجده ملآن بذكره ، نشوان من قهوتيّ نظمه ونثره ، فمال  
إلى علم الديانة ، فمشى بمقياس ، وبنى على أساس ، حتى صار كثير من العلماء  
يسمعون منه ، ويرتاحون للأخذ عنه ، ثم كرّ واستقضي في طريقه بحلب ،  
فأقام بها نحواً من عام .

قال : وبلغني عن ابن حزم أنه كان يقول : لو لم يكن لأصحاب المذهب

المالكي بعد عبد الوهاب إلاّ مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم .

وصنف أبو الوليد كتباً كثيرة منها كتاب «التسديد إلى معرفة التوحيد» وكتاب «سنن المنهاج وترتيب الحجاج» وكتاب «إحكام الفصول في أحكام الأصول» وكتاب «التعديل والتجريح لمن خرّج عنه البخاري في الصحيح» وكتاب «شرح الموطأ» وهو نسختان : نسخة سمّاها «الاستيفاء» ، ثم انتقى منها فوائد سمّاها «المنتقى» في سبع مجلدات ، وهو أحسن كتاب ألف في مذهب مالك ، لأنّه شرح فيه أحاديث الموطأ ، وفرّع عليها تفریباً حسناً ، وأفرد منه شيئاً سمّاه «الإيماء» ، وقال بعضهم : إنّه صنف كتاب «المعاني في شرح الموطأ» فجاء عشرين مجلداً عديم النظر ، وكان أيضاً صنف كتاباً كبيراً جامعاً بلغ فيه الغاية سمّاه «الاستيفاء» ، وله كتاب «الإيماء» في الفقه ، خمس مجلدات ، انتهى .

ومن تصانيفه «مختصر المختصر» في مسائل المدونة ، وله كتاب «اختلاف الموطأ» وكتاب «الإشارة في أصول الفقه» وكتاب «الحدود» وكتاب «سنن الصالحين» وكتاب «التفسير» لم يتمّه ، وكتاب «شرح المنهاج» وكتاب «التبيين لسبيل المهتدين» في اختصار فرق الفقهاء ، وكتاب «السراج» في الخلاف ، ولم يتم ، وغير ذلك .

وحجّ الباجي رحمه الله تعالى أربع حجج جاور فيها ثلاثة أعوام ملازماً لأبي ذر عبد بن أحمد الهروي ، وكان يسافر معه للسراوات<sup>١</sup> لأن أبا ذر تزوّج من العرب ، وسكن بها .

\* \* \*

١ السراوات ثلاث : واحدة بين تهامة ونجد وواحدة في بلاد عدوان وثالثة أرض عالية وجبال تشرف على البحر من الغرب وعلى نجد من الشرق .

## [ ترجمة أبي ذر الهروي ]<sup>١</sup>

وأبو ذر المذكور هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري المالكي ، ويعرف بابن السمّاك ، سمع بهرّاة وسرخسّ وبلخ ومرو والبصرة وبغداد ودمشق ومصر ، وجاور بمكة ، وألّف معجماً لشيوخه ، وعمل الصحيح ، وصنف التصانيف ، قال الخطيب : قدم أبو ذرّ بغداد وأنا غائب ، فحدث بها ، ثم حجّ وجاور ، ثم تزوّج في العرب ، وسكن السّروّات ، وكان يبيح كل عام ويحدث ويرجع ، وكان ثقة ضابطاً ديناً ، وقال الحسن بن بقيّ المالقي : حدثني شيخي قال : قيل لأبي ذر : من أين تمذهبت بمذهب مالك ورأي الأشعري مع أنّك هروزي ؟ فقال : قدمت بغداد ، وكنت ماشياً مع الدارقطني ، فلقينا أبا بكر ابن الطيب ، فالتزمه الدارقطني ، وقبّل وجهه وعينيه ، فلمّا افترقنا قلت : من هذا ؟ قال : هذا إمام المسلمين ، والذّاب عن الدين ، القاضي أبو بكر ابن الطيب ، فمن ذلك الوقت تكررت إليه وتمذهبت بمذهبه ، انتهى .

قلت : هذا صريح في أن القاضي أبا بكر الباقلافي مالكي ، وهو الذي جزم به غير واحد ، ولذا ذكره عياض في المدارك في جملة المالكية ، وكذلك شيخ السنّة الإمام أبو الحسن الأشعري مالكي المذهب فيما ذكره غير واحد من الأئمة ، وذكر بعض الشافعية أنّهما شافعيان ، والله تعالى أعلم .  
وقال عبد الغافر في « تاريخ نيسابور » : كان أبو ذرّ زاهداً ، ورعاً ، عالماً ، سخيّاً لا يدخّر شيئاً ، وصار كبير مشيخة الحرم ، مشاراً إليه في التصوف ، خرّج على الصحيح تخريجاً حسناً ، وكان حافظاً ، كثير الشيوخ ، توفي سنة ٤٣٥ ، وقال أبو علي ابن سكرة : توفي عقب شوال سنة ٤٣٤ ، وقال الخطيب : في ذي القعدة من سنة أربع وثلاثين ، رحمه الله تعالى ، وأكثر

١ ترجمة أبي ذر الهروي في تبين كذب المفتري : ٢٥٥ وتذكرة الحفاظ : ١١٠٣ .

نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب إمّا من رواية الباجي عن أبي ذر عبد بن أحمد  
الهروري المذكور ، وإمّا من رواية أبي علي الصّدّفي الشهير المعروف بابن سكرة  
بسند .

وأعلم أن هَرَآة المنسوب إليها الحافظ أبو ذر ليست بهَرَآة التي وراء النهر  
نظيرة بَلَخ ، وإنّما هي هَرَآة بني شيمانة بالحجاز<sup>١</sup> ، وبها كان سكنى أبي  
ذر ، والله أعلم .

### رجع إلى القاضي أبي الوليد الباجي رحمه الله تعالى

ثم إنّه - أعني الباجي - قدم بغداد ، وأقام بها ثلاثة أعوام يُدرّس الفقه ،  
ويقرأ الحديث ، فلقني بها عدّة من العلماء كأبي الطيب الطبري والإمام الشهير  
أبي إسحاق الشيرازي والصيّمري وابن عمّروس المالكي ، وأقام بالموصل  
سنة مع أبي جعفر السّمّاني يأخذ عنه علم الكلام ؛ فبرع في الحديث وعِلّه  
ورجاله ، وفي الفقه وغوامضه وخلافه ، وفي الكلام ومضايقه ، وتدبج مع  
الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي بحيث روى كل واحد منهما عن الآخر ،  
رضي الله تعالى عنهما ونفع بهما . ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة  
بعلم جَمٍّ حَصَلَهُ مع الفقر والتّعفّف .

وممّا يفتخر به أنّه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر ابن عبد البر  
والخطيب أبو بكر ابن ثابت البغدادي ، وناهيك بهما ، وهما أسنّ منه وأكبر ،  
وأبو عبد الله الحميدي ، وعلي بن عبد الله الصقلي ، وأحمد بن علي بن غَزَلُون ،  
وأبو بكر الطرطوشي ، وأبو علي ابن الحسين السبتي ، وأبو بحر سفيان بن العاصي ،

١ لم يذكر أحد أن في الحجاز موضعاً اسمه «هراة» أو قوماً اسمهم بنو شيمانة وإنما أورد ياقوت  
في مادة «شبابة» : سراة بني شبابة من نواحي مكة ينسب إليها أبو جميع عيسى ابن الحافظ أبي  
ذر عبد الله بن أحمد الهروري الشباني ، حدث بهذا الموضوع عن أبيه أبي ذر ، روى عنه أبو الفتيان  
عمر بن أبي الحسن الرّؤاسي ، وكان يحدث سنة نيف وستين وأربعمائة .

وممن روى عنه ابنه أبو القاسم أحمد . وكان لما رجع إلى الأندلس فشا علمه ،  
وتهيأت الدنيا له ، وعظم جاهه ، وأجزلت له الصّلات ، فمات عن مال وافر ،  
وترسل للملوك ، وولي القضاء بعدة مواضع ، رحمه الله تعالى .

وأما ما تقدّم عن القاضي أبي الوليد الباجي من إجراء حديث الكتابة على  
ظاهره فهو قول بعض ، والصوابُ خلافه ، قال القاضي أبو الفضل عياض :  
حدثنا محمد بن علي المعروف بابن الصيقل الشاطبي من لفظه ، قال : حدثني  
أبو الحسن ابن مَفُوز قال : كان أبو محمد ابن أحمد بن الحاج الهواري من أهل  
جزيرة شقر ممن لازم الباجي وتفقه عنده ، وكان يميل إلى مذهب الباجي في  
جواز مباشرة النبي صلى الله عليه وسلم الكتابة بيده في حديث المقاضاة في  
الحديبية على ما جاء في ظاهر بعض رواياته ، ويعجب به ، وكنت أنكر ذلك  
عليه ، فلما كان بعد برّهة أتاني زائراً على عادته ، وأعلمني أن رجلاً من  
إخوانه كان يترى في النوم أنه بالمدينة ، وأنه يدخل المسجد ، فيرى قبر النبي  
صلى الله عليه وسلم أمامه ، فيجد له قشعريرة وهيبة عظيمة ، ثم يراه  
ينشقّ ويميد ولا يستقر ، فيعتربه منه فزع عظيم ، وسألني عن عبارة رؤياه ،  
فقلت : أخشى على صاحب هذا المنام أن يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بغير صفته ، أو ينحله ما ليس له بأصل ، أو لعله يفترى عليه ، فسألني : من أين  
قلت هذا ؟ قلت له : من قول الله تعالى ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾  
— إلى قوله تعالى : وَلَدَأْ ﴿ (مریم : ٩٠) فقال لي : لله درك يا سيدي ، وأقبل  
يقبل رأسي وبين عيني ، ويبكي مرّة ويضحك أخرى ، ثم قال لي : أنا صاحب  
الرؤيا ، واسمع تمامها يشهد لك بصحة تأويلك ، قال : إنّه لما رأيتني في ذلك  
الفرع العظيم كنت أقول : والله ما هذا إلاّ أنتي أقول وأعتقد أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم كتب ، فكنت أبكي وأقول : أنا نائب يا رسول الله ،  
وأكرّر ذلك مراراً ، فأرى القبر قد عاد إلى هيأته أولاً وسكن ، فاستيقظت ،  
ثم قال لي : وأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كتب قطّ حرفاً ،



وعليه ألقى الله تعالى ، فقلت : الحمد لله الذي أراك البرهان ، فاشكرك له كثيراً ، انتهى .

قال ابن الأبار : حدثني بهذه الحكاية أبو الربيع ابن سالم بقراءتي عليه ، عن الكاتب أبي بكر عبد الرحمن بن مغاور قراءةً عليه ، عن القاضي أبي حفص أحمد بن عبد الرحمن بن جحندر عن أبي الحسن طاهر بن مفضوز قال : كان أبو محمد - إلى آخرها ، وهي آتم من هذه ، انتهى .

### رجع إلى الباجي

ذكر أبو العرب عبد الوهاب البقساني بسنده إلى القاضي أبي الوليد الباجي أنه كان يقول ، وقد ذكرت له صحبة السلطان : لولا السلطان لنقلتني الذر من الظل إلى الشمس ، أو ما هذا معناه ، انتهى .

ومن فوائد الباجي أنه حكى أن الطلبة كانوا يتتابون مجلس أبي علي البغدادي ، واتفق أن كان يوماً مطراً ووحل ، فلم يحضر من الطلبة سوى واحد ، فلما رأى الشيخ حرصه على الاشتغال وإتيانه في تلك الحال أنشده ٢ :

دَبَبَتْ لِلْمَجْدِ وَالسَّاعُونَ قَدْ بَلَّغُوا حَدَّ النَّفْسِ وَالنَّفَمُوا دُونَهُ الْأَزْرَا  
وَكَابَدُوا الْمَجْدَ حَتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ وَعَانَقَ الْمَجْدَ مَنْ وَافَى وَمَنْ صَبَّرَا  
لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمَرًا أَنْتَ آكِلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَا

انتهى .

وروى عن القاضي أبي الوليد الباجي رحمه الله تعالى الخطيبُ البغداديُّ قوله رحمه الله تعالى ٣ :

١ ط ج : أبي جعفر .  
٢ انظر القصة والأبيات في الصلة : ٦٢٠ - ٦٢١ ؛ والأبيات في أمالي القاضي ١ : ١١٢ .  
٣ البيتان وردا في أكثر المصادر التي ترجمت للباجي .

إذا كنتُ أعلمُ علمَ اليقينِ بأنَّ جميعَ حياتي كساعتهُ  
فلمِ لا أكونُ ضنيناً بها وأجعلها في صلاحٍ وطاعةٍ

وقد ذكرناهما فيما يأتي قريباً من كلام الفتح ، لكوننا نقلنا كلامه بلفظه ،  
رحمه الله تعالى ، ورضي عنه .

وقال في القلائد في حق الباجي رحمه الله تعالى ، ما صورته : بدرُ العلوم  
اللائح ، وقَطْرُها الغادي الرائح ، وثبيرها الذي لا يُزحم ، ومُنيرها الذي  
ينجلي به ليلها الأسحم ، كان إمام الأندلس الذي تُفتَسبس أنواره ، وتُتَجَع  
نَجودُهُ وأغوارُهُ ، رحل إلى المشرق فعكف على الطلب ساهراً ، وقَطَفَ من  
العلم أزهاراً ، وتفنن في اقتنائه ، وثنى إليه عنانَ اعتنائه ، حتى غدا مملوء  
الوِطاب ، وعاد بِلَحْ طلبه إلى الإرتاب ، فَتَكَرَّ إلى الأندلس بجرأ لا تخاض  
لُجَجُهُ ، وفجرأ لا يُطمس منهجه ، فتهادته الدول ، وتلقته الخيل والحول ،  
وانتقل من مَحَجِرٍ إلى ناظر ، وتبدل من يانع بناضر ، ثم استدعاه المقتدر بالله  
فصار إليه مرتاحاً ، وبدأ بأفقه مُلتاحاً ، وهناك ظهرت تواليفه وأوضاعه ،  
وبدا وخدُهُ في سُبُل العلم وإيضاعه ، وكان المقتدر يباهي بانحياشه إلى سلطانه ،  
وإيثاره لخصرتَه باستيطانه ، ويحتفل فيما يرتبه له ويُجَنِّريه ، وينزله في مكانه  
متى كان يُوافيه ، وكان له نَظْمٌ يوقفه على ذاته ، ولا يصرفه في رَفَثِ القول  
وبدأته<sup>١</sup> .

فمن ذلك قوله في معنى الزهد :

إذا كنتُ أعلمُ علمَ اليقينِ بأنَّ جميعَ حياتي كساعتهُ  
فلمِ لا أكونُ ضنيناً بها وأجعلها في صلاحٍ وطاعةٍ

وله يرثي ابنه وماتا مغربين ، وغربا كوكبين ، وكانا ناظري الدهر ،

١ دوزي : وبذاذاته .

وساحري النظم والنثر :

رعى الله قبرين استكانا ببلدة  
لثين غيباً عن ناظري وتبوءاً  
يقر بعيني أن أزور ثراهما  
وأبكي وأبكي ساكنيها لعلتي  
فما ساعدت ورق الحمام أبا أسى  
ولا استعذبت عيناى بعدهما كرى  
أحين وبني اليأس نفسي عن الأسي

وله يرثي ابنه محمداً :

أحمداً ، إن كنت بعدك صابراً  
وررئت قبلك بالنبي محمد  
فلقد علمت بأنني بك لاحق  
لله ذكر لا يزال بخاطري  
فإذا نظرت فشخصه متخيل  
وبكل أرض لي من أجلك لوعة  
فإذا دعوت سواك حاد عن اسمه  
حكّم الردى ومناهج قد سنّها

صبر السليم لما به لا يسلم  
ولرؤوه أدهى لدي وأعظم  
من بعد ظني أنني متقدم  
متصرف في صبره مستحکم  
وإذا أصخت فصوته مشوهم  
وبكل قبر وقفة وتلوهم  
ودعاه باسمك معول بك مغرم  
لأولي النهى والحزن قبل متمم

انتهى .

ولعمري إنه لم يوف القاضي أبا الوليد الباجي حقه الواجب المفترض ،  
ووددت أنه مدّ النفس في ترجمته بعبارة التي يعترف ببراعتها من سلم

١ انظر أيضاً المغرب ١ : ٤٠٤ .

له ومن اعترض ، فإن ترجمة المذكور مما سطره أفسح مجالاً ، وأفصح رويّة وارتجالاً ، وبالحملة فهو أحد أعلام الأندلس ، وهو سليمان بن خلف ابن سعد بن أيوب بن وارث التّجيبى ، وذكره ابن بَسّام في الذخيرة وابن خلكان وغير واحد ، وأصله من بَطْلَيْوس ، وانتقل جدّه إلى باجة قرب إشبيلية ، وليس هو من باجة القيروان ، ومولده سنة ٤٠٣ ، ورحل سنة ٤٢٦ ، فقدم مصر ، وسمع بها ، وأجرّ نفسه ببغداد لحراسة الدروب ، وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب ، ويعقد الوثائق ، إلى أن فشا علمه ، وتهايت له الدنيا ، وشهرته تغني عن وصفه .

ومن نظمه قوله :

ما طال عهدي بالديار ، وإنّما أنسى معاها أمي وتبلد  
لو كنتُ أنبأتُ الديارَ صبابتي رَقَّ الصفا بفنائها والحمدُ

وله في المعتضد بن عباد والدم المعتمد :

عبادُ استعبدَ البرايا بأنعم تبليغ النعائم  
مدبجهُ ضمّن كلّ قلبٍ حتى تغنت به الحمام

ومن أشهر نظمه قوله :

إذا كنت أعلم - البتين ، وقد سبقا

وممن ذكره أيضاً الحِجاري في المسهب ، وابن بشكّوَال في الصلّة ، وأنه حج أربع حجج ، رحمه الله تعالى ، وتوفي في المربة لإحدى عشرة بقية من رجب ، وقيل : ليلة الخميس تاسع رجب ، وقيل<sup>١</sup> : تاسع عشر صفر ،

١ تاسع رجب ، وقيل : سقطت من دوزي .

سنة أربع وسبعين وأربعمائة .

ومن تواليه «المنتقى في شرح الموطأ» ذهب فيه مذهب الاجتهاد وإيراد الحجج ، وهو مما يدل على تبحره في الفنون ، ولما قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً وجد ملوك الطوائف أجزأاً مفترقة ، فمشى بينهم في الصلح ، وهم يُجِلُّونه في الظاهر ، ويستثقلونه في الباطن ، ويستبدون نزعته ، ولم يقد شيئاً ، فإله تعالى يجازيه عن نيته ، ولما ناظر ابن حزم قال له الباجي : أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت مُعان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائس السوق<sup>١</sup> ، فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرجُ به إلاّ علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة ؛ فأفحمه .

قال عياض : قال لي أصحابه : كان يخرج إلينا للإقراء ، وفي يده أثر المِطْرَقة ، إلى أن فشا علمه ، ونوهت الدنيا به ، وعظم جاهه ، وأجزلت صلاته ، حتى مات عن مال وافر ، وكان يستعمله الأعيان في ترسلهم ، ويقبل جوائزهم ، وولي القضاء بمواضع من الأندلس .

\* \* \*

[ترجمة ابن حزم]<sup>٢</sup>

وابن حزم المذكور هو أبو محمد ابن حزم الظاهري ، قال ابن حبان وغيره : كان ابن حزم صاحب حديث وفقه وجدل ، وله كتب كثيرة في المنطق

١ يريد أنه يسهر على قنديل الدراب وهو الحارس الليلي وسماه «بائس السوق» لأنه يبيت فيه للحراسة .  
٢ ترجمة ابن حزم في الجفوة : ٢٩٠ (والبغية رقم : ١٢٠٤) والصلة : ٣٩٥ وطبقات الأمم : ٨٦ والذخيرة ١/١ : ١٤٠ والمطح : ٥٥ والمغرب ١ : ٣٥٤ والمعجب : ٣٠ وتاريخ الحكماء للقفطي : ١٥٦ وتذكرة الحفاظ ٣ : ٢٤١ ومسالك الأبصار (الجزء الثامن) وغلط شعره بشعر ابن عمه أبي المغيرة ، وفي طرق الحماسة معلومات عنه وكذلك في سائر كتبه ورسائله .

والفلسفة لم يخلُ فيها من غلط ، وكان شافعيّ المذهب ، يُناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صار ظاهريّاً ، فوضع الكتب في هذا المذهب ، وثبت عليه إلى أن مات ، وكان له تعلق بالأدب ، وسنّع عليه الفقهاء ، وطعنوا فيه ، وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه ، وتوفي بالبادية عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة .

وقال صاعد في تاريخه : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسيّر والأخبار ، أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليه نحو أربعمائة مجلد ، نقله عن تاريخ صاعد الحافظ الذهبي .

قال الذهبي : وهو العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح ، الأموي ، مولاهم ، الفارسي الأصل ، الأندلسي القرطبي الظاهري ، صاحبُ المصنفات ، وأول سماعه سنة ٣٩٩ ، وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدةً الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر ، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب .

قال الغزالي رحمه الله تعالى : وجدتُ في أسماء الله تعالى كتاباً لأبي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه ، انتهى باختصار .  
وعلى الجملة فهو نسيجٌ وحدّه ، لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد ، والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد ، سامحه الله تعالى .

وذكر الذهبي أن عمره اثنتان وسبعون سنة ، وهو لا ينافي قول غيره «إنه كان عمره إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر» لأنه ولد رحمه الله تعالى بقرطبة بالجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام

١ يعني بقرية التي منها منبه وهي ببادية لبله ، واسمها منت لثم . وفي ق ط ج : من بلده بلد لبله .

الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان ، سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ، بطالع العقرب ، وتوفي ليومين بقيا من شعبان سنة ٤٥٦ ، وكان كثير المواظبة على التأليف ، ومن جملة تأليفه كتاب « الفِصَل بين أهل الأهواء والتَّحَل » وكتاب « الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد » وكتاب « شرح حديث الموطأ والكلام على مسأله » وكتاب « الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاختصار على أصحابها » وكتاب « التلخيص والتخليص<sup>١</sup> في المسائل النظرية وفروعها التي لا نصَّ عليها في الكتاب والحديث » وكتاب « منتقى الإجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف » وكتاب « الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها » وكتاب « أخلاق النفس » وكتاب « الإيصال إلى فهم كتاب الحِصَال » وكتاب « كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس » انتهى .

وقال ابن سعيد في حق ابن حزم ، ما ملخصه : الوزير العالم الحافظ أبو محمد علي ابن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي ، وشهرته تُعني عن وصفه ، وتوفي منفيًا بقرية من بلد لبلة<sup>٢</sup> ، ووصله من ابن عمه أبي المغيرة رسالة فيها ما أوجب أنْ جاوبه بهذه الرسالة ، وهي : سمعت وأطعت ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ( الأعراف : ١٩٩ ) وأسلمت وانقذت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام : « صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » ورضيت بقول الحكماء : كفاك انتصاراً ممن تعرض لأذاك إعراضك عنه ، وأقول :

تتبع سواي امرأً بيتغي      سيابك إن هواك السبابُ  
فإنني أبيتُ طلابَ السفاه      وصنتُ محليَّ عما يُعابُ

١ والتخليص : سقطت من ق .

وَقُلْ مَا بَدَأَ لَكَ مِنْ بَعْدِ ذَا وَأَكْثَرُ فَإِنَّ سَكُوتِي خِطَابٌ  
وَأَقُولُ :

كفاني بذكرِ الناسِ لي ومآثري وما لكَ فيهم يا ابنَ عمِّي ذاكِرُ  
عدوِّي وأشياعي كثيرٌ كذاك من غدا وهو نَفَاعُ المساعي وضائِرُ  
وإنِّي وإن آذيتني وعَقَقْتَنِي لمحتملٌ ما جاءني منك صابرُ

فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعته : قرأتُ هذه الرقعة العاقبة ، فحين  
استوعبتها أنشدتني :

نَحْنَحَ زَيْدٌ وَسَعَلَ لَمَّا رَأَى وَقَعَ الْأَسْلَ

فأردت قطعها ، وترك المراجعة عنها ، فقالت لي نفسي : قد عرفت مكانها ،  
بالله لا قَطَعْتَهَا إِلَّا يَدَهُ ، فأثبتُ على ظهرها ما يكونُ سبباً إلى صونها ، فقلت :

نَعَقْتُ ولم تدرِ كيف الجوابُ وَأَخْطَأَتْ حَتَّى أَتَاكَ الصَّوَابُ  
وَأَجْرَيْتَ وَحَدَاكَ فِي حَلْبَةِ نَأَتْ عَنْكَ فِيهَا الْجِيَادُ الْعِرَابُ  
وَبَتَّ مِنَ الْجَهْلِ مُسْتَنْبِحاً لغيرِ قِرْيَى فَأَتَتْكَ الذَّنَابُ  
فكيف تَبَيَّنَتْ عُقْبِي الظَّلُومُ إِذَا مَا انْقَضَتْ بِالْحَمِيسِ الْعُقَابُ  
لعمرك ما لي طباعٌ تُدَمُّ وَلَا شِيْمَةٌ يَوْمَ مَجْدٍ تُعَابُ  
أَنْيَلُ الْمَنَى وَالظُّبَا سُخْطٌ وَأَعْطِي الرُّضَى وَالْعَوَالِي غَضَابُ

وَأَقُولُ :

وِغَاصِبِ حَقِّ أَوْبَقَّتَهُ الْمَقَادِرُ يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرَّمْحُ شَاجِرُ  
غدا يستعيرُ الفخرَ من حِيمٍ خِصْمَهُ وَيَجْهَلُ أَنَّ الْحَقَّ أَبْلَجُ ظَاهِرُ

١ هذا البيت متقدم على الذي قبله في ق .

٢ قوله « يذكرنني حاميم » مأخوذ من أبيات للأشتر النخعي قالها عندما قتل محمد بن طلحة وفيها :

يذكرنني حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم



ألم تتعلم يا أبا الظلم أتني  
تذل لي الأملاك حُرَّ نفوسها  
وأبعث في أهل الزمان شوارداً  
فإن أنو في أرض فإتني سائر  
وحسبك أن الأرض عندك خاتم  
ولا لوم عندي في استراحتك التي  
فإتني للحلف الذي مرَّ حافظ  
هتياً لكل ما لديه فإننا

برغمك ناه منذ عشر وأمر  
وأركب ظهر النسر والنسر طائر  
تليتهم وهي الصعاب النوافر  
وإن أنا عن قوم فإتني حاضر  
وأنتك في سطح السلامة عائر  
تنفست عنها والخطوب فواقر  
وللتزعة الأولى بحاميم ذاكر  
عطية من تبلى لديه السراير

ومن شعر أبي محمد ابن حزم يخاطب قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن  
ابن بشر<sup>١</sup> :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة  
ولو أتني من جانب الشرق طالع  
ولي نحو آفاق العراق صبابة  
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم  
فكم قائل أغفلته وهو حاضر  
هنالك يدري أن للبعد قصة  
فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا  
وإن مكاناً ضاق عني لضيق  
وإن رجالاً ضيعوني لضيع

ولكن عيبي أن مطلق الغرب  
لحد على ما ضاع من ذكري النهب  
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب  
فحينئذ يندو التأسف والكرب  
وأطلب ما عنه تجيء به الكتب  
وأن كساد العلم آفته القرب  
له ، ودنو المرء من دارهم ذنب  
على أنه فيح مهامه سهب  
وإن زماناً لم أنل خصبه جدب

١ في الأصول : عبد الرحمن بن بشر والتصويب عن الصلة : ٣١٣ والمرقبة العليا : ٨٧ - ٨٩  
وهو عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر بن غربية قاضي الجماعة بقرطبة يكنى أبا  
المطرف ويعرف بابن الحصار ، ولاء علي بن حمود القضاء في صدر سنة ٤٠٧ فظل في منصبه  
إلى أن عزله المعتد المرواني سنة ٤١٩ وتوفي سنة ٤٢٢ .

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه<sup>١</sup> :

ولكنَّ لي في يوسفٍ خيرَ أسوةٍ  
يقولُ مقالَ الصدِّقِ والحقُّ إنَّني  
وليس على مَنْ بالذي اتَّسى ذنبُ  
حفيظٌ عليمٌ ، ما على صادقٍ عتبُ

وقوله :

لا يشمتنَّ حاسدي إنْ نكبةٌ عرَّضتْ  
ذو الفضلِ كالتبرِ يُلقي تحتَ متربةٍ  
فالدهرُ ليس على حالٍ بمُتَّركِ  
طوراً ، وطوراً يُرى تاجاً على ملكِ

وقوله لما أحرق المعتضد بن عباد كتيبه بإشيلية :

دَعُونِي من إحراقِ رَقٍ وكاغِدِ  
فإن تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا الذي  
وقولوا بعلمٍ كي يرى الناسُ منْ يدري  
تضمَّنه القرطاسُ ، بل هو في صدري  
ويتزل إن أنزلُ ويُدْفنُ في قبري  
حيث استقلتْ ركائبي

وقوله :

لئن أصبحتُ مرتحلًا بشخصي  
ولكن للعِيانِ لطيفُ معنَى  
فقلَّدي عندكم أبدأ مُقيمُ  
لذا سألَ المعاينةَ الكليمُ

وقوله :

وذي عدلٍ فيمن سباني حُسْنُهُ  
أمن أجلِ وجهٍ لاحَ لم ترَ غيره  
بطلُ ملامي في الهوى ويقولُ  
ولم تدرِ كيف الجسمُ أنتِ عليلُ  
فقلتُ له أسرفتَ في اللومِ فاتَّشِدُ  
فمعدني رَدُّ لو أشاه طویلُ  
ألم ترَ أنِّي ظاهريُّ ، وأنَّني  
على ما أرى حتى يقومَ دليلُ

١ في الأصول : ومنها في مدحه لنفسه .

وهو أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن مزيد ،  
القرطبي . قال ابنه أبو رافع الفضل : اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه نحو  
أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة ، انتهى .  
وأبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور بن أبي عامر ،  
وتوفي - كما قال ابن خيان - بذي القعدة سنة اثنتين وأربعمائة ، وكان منشؤه  
ومولده بقرية تُعرف بالزاوية .

وحكي أن الحافظ أبا محمد ابن حزم قصد أبا عامر ابن شهيد في يوم غزير  
المطر والوحل شديد الريح ، فلقيه أبو عامر ، وأعظم قصده على تلك الحال ،  
وقال له : يا سيدي ، مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم ! فأنشده أبو محمد ابن  
حزم بديهاً :

فلو كانت الدنيا دُوَيْنَكَ لَجَّةٌ وفي الجوّ صَعَقٌ دائمٌ وحريقٌ  
لسهّلَ وُدِّي فيك نحوكَ مسلماً ولم يتعذّرَ لي إليك طريقٌ

قال الحافظ ابن حزم<sup>١</sup> : أنشدني الوزير أبي في بعض وصاياه لي :

إذا شئتَ أن تحيّا غنياً فلا تكن على حالةٍ إلا رضيتَ بدونها

وهذا كافٍ في فضل الفرع والأصل ، سامح الله الجميع .  
قال ابن حزم في « طوق الحمامة »<sup>٢</sup> : إنه مرّ يوماً هو وأبو عمر ابن عبد  
البر صاحب « الاستيعاب » بسكة الخطّابين من مدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب  
حسن الوجه ، فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة ، فقال له أبو عمر : لم نرَ  
إلاّ الوجه ، فلعلّ ما سترته الثياب ليس كذلك ، فقال ابن حزم ارتجالاً :

١ انظر الجذوة : ١١٨ في ترجمة أحمد بن سعيد والد الفقيه أبي محمد ابن حزم .

٢ لم يرد هذا في طوق الحمامة .

وذِي عَدَلٍ فِيمَنْ سَبَانِي حُسْنَهُ ...  
الآيات .

ولابن حزم أيضاً قوله :

لا تَلْمِني لأنَّ سَبَقَةَ لِحْظٍ فَاتَ إدراكُها ذَوِي الألبابِ  
يَسْبِقُ الكلبُ وثبَةَ اللَّيْثِ في العَدَّةِ وَ يَعلُو النُّخالُ فوقَ اللَّبابِ  
ولأبي بكر ابن مَفْوَزٍ جزءٌ يردُّ فيه على أبي محمد ابن حزم ، وفيه قال  
معرّضاً :

يا مَنْ تُعاني أُموراً لَنْ تُعانيها خَلَّ العَاني وأعطِ القوسَ بارِئها  
تَرَوِي الأحاديثَ عن كلِّ مُساحِمَةٍ وإِنما لِمُعانيها مَعانيها

وقيل : إنّه خاطب بهما بعض أصحاب ابن حزم .

رجع إلى القاضي أبي الوليد الباجي

ومن نظمه قوله من مرثية :

أحْنُ وَيَثني اليأسُ نَفْسي على الأسي كما اضْطُرَّ مَحْمولٌ على المركبِ الصَّعبِ

ومن جيد نظمه قوله :

أَسرَّوا على اللَّيلِ البهيمِ سُرَّاهِمُ فَنَمَّتْ عَلَيهِمُ في الشَّمالِ شمائلُ  
مَتى نزلوا ثاوِينَ بِالخَيْفِ من مَنى بَدَتْ للهوى بِالْمَأزِمِينَ مَخايِلُ  
فَللهِ ما ضَمَّتْ مَنى وشِعاِبُها وما ضَمَّتْ تلكَ الرُّبى والمَنازلُ  
ولَمَّا التَقَيْنا للجِمارِ وأَبرزتْ أَكْفُ لتَقبيلِ الحَصى وَأَنامِلُ  
أشارتْ إلينا بِالغِرامِ مَحاجِرُ وَبَاحَتْ به مَنّا جُسُومُ نواحِلُ

وقال الباجي أبو الوليد رحمه الله تعالى :

مَضَى زَمَنُ الْمَكَارِمِ وَالْكَرَامِ سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ صَوْبِ الْغَمَامِ  
وَكَانَ الْبِرُّ فِعْلاً دُونَ قَوْلِ فَصَارَ الْبِرُّ نَطْقاً بِالْكَلامِ

وذيلُه بعضهم بقوله :

وَزَالَ النَّطْقُ حَتَّى لَسْتَ تَلْفِي فَتَى يَسْخُو بِرَدِّ السَّلَامِ  
وَزَادَ الْأَمْرُ حَتَّى لَيْسَ إِلَّا سَخِيٌّ بِالْأَذَى أَوْ بِالْمَلَامِ

٤٦ - ومنهم الفقيه العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي<sup>١</sup> صاحب «سراج الملوك» ، ويُعرف بابن أبي رندة<sup>٢</sup> - بالراء المهملة المفتوحة ، وسكون النون - وكفى بسراج الملوك دليلاً على فضله .

ذكره ابن بشكُوَال في الصلة ، وتوفي بالإسكندرية في شعبان ، وقيل : جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة<sup>٣</sup> ، وزرت قبره بالإسكندرية ، وممن أخذ عنه الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي وغيره .

ومن نظم الطرطوشي قوله من رسالة :

أَقْلَبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ تَرَدُّدًا لَعَلِّي أَرَى النَّجْمَ الَّذِي أَنْتَ تَنْظُرُ  
وَأَسْتَعْرِضُ الرُّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ لَعَلِّي بِنَ قَدِّ شَمِّ عَرَفَكَ أَظْفَرُ

١ ترجمة أبي بكر الطرطوشي في الصلة : ٥٤٥ ووفيات الأعيان ٣ : ٣٩٣ وبقية الملتبس رقم : ٢٩٥ والمغرب ٢ : ٤٢٤ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٣١ وشذرات الذهب ٤ : ٦٢ والديباج المنهب : ٢٧٦ وأزهار الرياض ٣ : ١٦٢ .

٢ قال ابن خلكان : هي لفظة فرنجية ، سألت بعض الفرنج عنها فقال معناها : «رد تعال» .  
٣ أثار ابن خلكان شيئاً من الإشكال حول تاريخ وفاة الطرطوشي ، فقد وجد في مشيخة جمعت لبهاء الدين بن شداد أن الطرطوشي أجازته ، وابن شداد ولد سنة ٥٣٩ فكيف يجيزه إذا كان قد توفي سنة ٥٢٠ ؟ (وفي بعض أصول المقرئ أن الطرطوشي توفي سنة ٥٤٠) .

وأستقبلُ الأرواحَ عند هبوبها  
وأمشي وما لي في الطريقِ مآربُ  
والمحُ من ألقاهُ من غيرِ حاجةٍ  
ومن نظمه أيضاً قوله :

يقولون ثكلى ومن لم يدقُ  
لقد جرعتني ليالي الفراقِ  
ومما نُسب إليه ١ :

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلًا  
فأرسلْ بأكهِ جلابيةً  
ودعْ عنك كلَّ رسولٍ سوى  
وكان كثيراً ما ينشد ٢ :

إنَّ لله عباداً فُطِنَا  
فكفروا فيها فلما علموا  
جعلوها لجةً واتخذوا  
طلَّقوا الدنيا وخافوا الفتنَا  
أنها ليستَ لحيِّ وطينَا  
صالحَ الأعمالِ فيها سُنُنَا

وقال رحمه الله تعالى ٣ : كنت ليلة نائماً بالبيت المقدس إذ سمعت في الليل صوتاً حزيناً ينشد :

أخوفٌ ونومٌ ، إنَّ ذا العجيبُ  
أما وجلالِ الله لو كنتَ صادقاً  
ثكلتُكَ من قلبِ فانتَ كذوبُ  
لما كان للإغماضِ فيكَ نصيبُ

١ انظر تحقيق ذلك في ابن خلكان .

٢ جاءت هذه الأبيات منسوبة له في الصلة .

٣ النقل عن ابن خلكان .

قال : فأيقظ النوام ، وأبكى العيون .

وكان رحمه الله تعالى زاهداً ، متورعاً ، متقللاً من الدنيا ، قوالاً للحق .  
وكان يقول : إذا عرض لك أمرٌ دنيا وأخرى ، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك  
أمر الدنيا والأخرى . وله طريقة في الخلاف .

ودخل مرةً على الأفضل ابن أمير الجيوش فوعظه ، وقال له <sup>٢</sup> : إن الأمر  
الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج  
عن يدك بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما حولك من هذه الأمة ، فإن الله ،  
عز وجل ، سائلك عن النقيير والقِطْمير والفتيل ، وأعلم أن الله ، عز وجل ،  
أتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها فسخر له الإنس والجن والشياطين  
والطير والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ،  
ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عز من قائل : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ  
أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (س : ٣٩) فما عدَّ ذلك نعمة كما عدتموها ، ولا  
حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله ، عز وجل ،  
فقال : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (النمل : ٤٠)  
فاتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم .

وكان إلى جانب الأفضل رجل نصراني فأنشده <sup>٣</sup> :

يا ذا الذي طاعته قُرْبَةٌ وحقه مفترضٌ واجبٌ  
إن الذي شرفت من أجله يزعم هذا أنه كاذبٌ

وأشار إلى النصراني ، فأقامه الأفضل من مكانه .

والطَّرطُوشِي - بضم الطاءين - نسبة إلى طَرطُوشة من بلاد الأندلس ،

١ دوزي : أمران .

٢ ورد هذا النص في سراج الملوك : ٦١ مع بعض اختلاف ، وأزهار الرياض ٣ : ١٦٤ .

٣ النقل عن ابن خلكان .

وقد تفتح الطاء الأولى .

وعبر عنه ابن الحاجب في مختصره الفقهي في باب العتق بالأستاذ .  
وكان رحمه الله تعالى صاحب القاضي أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى  
بسر قسطة ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه وأجازه ، وقرأ الفرائض  
والحساب بوطنه ، وقرأ الأدب على أبي محمد ابن حزم بمدينة إشبيلية ، ثم رحل  
إلى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة ، ودخل بغداد والبصرة فتقّه عند أبي  
بكر الشاشي وأبي محمد الجرجاني ، وسمع بالبصرة من أبي علي التستري ،  
وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان راضياً باليسير .

وقال الصفدي في ترجمة الطرطوشي <sup>١</sup> : إن الأفضل ابن أمير الجيوش أنزله  
في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد ، وكان يكرهه ، فلما طال مقامه به  
ضجر ، وقال لخادمه : إلى متى نصبر ؟ اجمع لي المباح ، فجمعه ، وأكله ثلاثة  
أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه : رميته الساعة ، فلما كان من  
الغد ركب الأفضل فقُتِلَ ، وولي بعده المأمون بن البطاحي فأكرم الشيخ إكراماً  
كثيراً ، وله ألف الشيخ «سراج الملوك» ، انتهى .

ومقامه - أعني الطرطوشي - مشهور ، وهذه الحكاية تكفي في ولايته .  
ومن تأليفه «مختصر تفسير الثعالبي» ، و «الكتاب الكبير في مسائل  
الخلاف» ، وكتاب «في تحريم جبن الروم» ، وكتاب «بدع الأمور ومحدثاتها» ،  
وكتاب «شرح رسالة الشيخ ابن أبي زيد» .

وولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة تقريباً ، ولما توفي صلى عليه ولده  
محمد ، ودفن رحمه الله تعالى قبيل الباب الأخضر بإسكندرية ، وزرت قبره  
مراراً ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه ، ونفعنا به .

وكان القاضي عياض ممن استجازه فأجازه ولم يلقه ، وشهرته رضي الله

١ انظر ابن خلكان ٣ : ٣٩٤ .



تعالى عنه تغني عن الإطتاب .

وحكي أنه كتب على « سراج الملوك » الذي أهدها لولي الأمر بمصر :

الناس يُهْدُونَ عَلَى قَدْرِهِمْ لَكُنْتِي أَهْدِي عَلَى قَدْرِي  
يُهْدُونَ مَا بَقِيَ وَأَهْدِي الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْآيَامِ وَالذَّهْرِ

وحكي أنه سمع رضي الله تعالى عنه منشداً ينشد للوأواء :

قَمَرٌ أَتَى مِنْ غَيْرِ وَعَدِ فِي لَيْلَةٍ طَرَقَتْ بِسَعْدِ  
بَاتَ الصَّبَاحَ إِلَى الصَّبَا ح مُعَانِقِي خَدًّا بِخَدِّ  
يَمْتَازَا فِي وَنَاظِرِي مَا شَتَّ مِنْ خَمْرٍ وَشَهْدِ

فقال : أويظن هذا الدمشقي أن أحداً لا يحسن ينظم الكذب غيره ؟ لو

شئنا لكذبنا مثل هذا ؛ ثم أنشد لنفسه يعارضه :

قمر بدأ من غير وعدِ حُفَّتْ شَمَائِلُهُ بِسَعْدِ  
قَبَلَتْهُ وَرَشَقَتْ مَا فِيهِ مِنْ خَمْرٍ وَشَهْدِ  
فَرَشَقَتْ مُزْنَ السَّلْسِيَةِ لِ بَرَنْجَبِيلِ مُسْتَعْدِ  
وَلَمَّتْ فَاهُ مِنَ الْغُرُوبِ بِ إِلَى الصَّبَاحِ الْمُسْتَجِدِ  
وَسَكِرَتْ مِنْ رَشَقِي الْعَقِيَةِ قَ عَلَى أَفَاحِ تَحْتِ رَنْدِ  
فَنَزَعَتْ عَنْ فَمِهِ فَمِي وَوَضَعَتْ خَدًّا فَوْقَ خَدِّ  
وَشَمِمَتْ عَرَفَ نَسِيمِهِ الْبِ جَارِي عَلَى مِسْكِ وَنَدِّ  
وَصَحَوْتُ مِنْ رِيَا الْقَرْنِ فُلٍ بَيْنَ رِيحَانٍ وَوَرْدِ  
وَالدُّ مِنْ وَصَلِي بِهِ شَكْوَاهُ وَجَدًّا مِثْلَ وَجْدِي

ومن نظم الطرطوشي قوله أيضاً :

١ كذا في الأصول ؛ وفي دوزي « يمتار » .

كَانَ لِسَانِي وَالْمُشْكَلَاتِ سَنَا الصَّبْحِ يَنْحَرُّ لَيْلًا بَهِيمًا  
وغيري إن رام ما رُمتهُ خَصِيٌّ يَحَاوِلُ فَرَجًا عَقِيمًا

وقوله أيضاً :

فَاعْمَلْ لِمَعَادِكَ يَا رَجُلٌ فَالْقَوْمُ لِدُنْيَاهُمْ عَمِلُوا  
وَأَذْخِرْ لِمَسِيرِكَ مِنْ زَادٍ فَالْقَوْمُ بِلَا زَادٍ رَحَلُوا

٤٧ - ومنهم محمد بن عبد الجبار الطرطوشي<sup>٢</sup> ، وفد إلى المشرق ،  
وذكره العماد في « الخريدة » وله في الآمدي العلي<sup>٣</sup> بمصر ، وكان يخضب بسواد  
الرمان<sup>٤</sup> ، يخضب بأقبح سواد خضب به<sup>٥</sup> :

اخْلِطِ الْعَفْصَ فِيهِ يَا أَحْوَجَ النَّاسِ إِلَى الْعَفْصِ حِينَ يُعْكَسُ عَفْصُ

٤٨ - ومنهم القاضي الشهير الشهيد أبو علي الصديقي<sup>٦</sup> ، وهو حسين بن  
محمد بن فيره بن حيّون ، ويعرف بابن سكرة<sup>٧</sup> ، وهو من أهل سرقسطة ،  
سكن مرسية ، وروى بسرقسطة عن الباجي وأبي محمد عبد الله بن محمد بن  
إسماعيل وغيرهما ، وسمع ببسنسية من أبي العباس العنبري ، وسمع  
بالمرية من أبي عبد الله محمد بن سعدون القروي وأبي عبد الله ابن المرابط وغيرهما ،

١ ق ط : فالقلب ، وهو سهو ، وفي بعض النسخ : فالناس .

٢ اسمه في نسخة ياريس من الخريدة ( حسبما ذكر في هوامش طبعة ليدن ) : محمود بن عبد الجبار  
الطرطوسي .

٣ ق : الأمد العجلي .

٤ الخريدة : الرماد ، وهو الصواب فيما يبدو .

٥ يخضب . . . يخضب به : وردت في ط ق وسقطت من ج .

٦ في ط : الصيرفي .

٧ دوزي : شكرة بالشين ؛ وانظر ترجمته في الصلة : ١٤٢ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٥٩

وتذكرة الحفاظ : ١٢٥٣ وشذرات الذهب : ١٠٤ وفي أصحابه ألف ابن الأبار « المعجم في

أصحاب القاضي أبي علي الصديقي » ( ط . مدريد ١٨٨٥ ) وقد شهر بابن النراج .

ورحل إلى المشرق أول المحرم من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وحج من عامه ، ولقي بمكة أبا عبد الله الحسن<sup>١</sup> بن علي الطبري وأبا بكر الطرطوشي وغيرهما ، ثم سار إلى البصرة فلقى بها أبا يعلى المالكي وأبا العباس الجرجاني وأبا القاسم ابن شعبة وغيرهم ، وخرج إلى بغداد فسمع بواسط من أبي المعالي محمد بن عبد السلام الأصبهاني وغيره ، ودخل بغداد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، فأطال الإقامة بها خمس سنين كاملة ، وسمع بها من أبي الفضل ابن خَيْرُون مُسْنِدِ بغداد ، ومن أبي الحسين المبارك ابن عبد الجبار الصيرفي ، وطراد الزينبي ، والحميدي ، وغيرهم ، وتفقه عند أبي بكر الشاشي وغيره ، ثم رحل منها سنة سبع وثمانين ، فسمع بدمشق من أبي الفتح نصر المقلمي وأبي الفرج<sup>٢</sup> الأسفراييني وغيرهما ، وسمع بمصر من القاضي أبي الحسن الخليلي وأبي العباس أحمد بن إبراهيم الرازي ، وأجاز له الحبال مُسْنِدِ مصر في وقته ومكثها ، وسمع بالإسكندرية من أبي القاسم الوراق<sup>٣</sup> وشعيب بن سعيد وغيرهما ، ووصل إلى الأندلس في صفر من سنة تسعين<sup>٤</sup> وأربعمائة ، وقصد مُرْسِيَةَ ، فاستوطنها ، وقعد يُحَدِّثُ الناس بجامعها ، ورحل الناس من البلدان إليه ، وكثر سماعهم عليه ، وكان عالماً بالحديث وطرقه ، عارفاً بعلمه ، وأسماء رجاله ونقلته ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، وكتب بخطه علماً كثيراً ، وقبده ، وكان حافظاً لمصنفات الحديث ، قائماً عليها ، ذاكراً لتونها وأسانيدها ورؤاتها ، وكتب منها « صحيح البخاري » في سِفْر ، و« صحيح مسلم » في سِفْر ، وكان قائماً على الكتابين مع مُصَنِّفِ أبي عيسى الترمذي ، وكان فاضلاً دِيناً متواضعاً حلوماً وقوراً عالماً عاملاً ، واستقضى بِمُرْسِيَةَ ، ثم استعفى فأعفى ،

١ الصلة : الحسين .

٢ اسمه : سهل بن بشر .

٣ اسمه : مهدي بن يونس .

٤ ق ط : سبعين ، وهو خطأ نسخي .

وأقبل على نشر العلم وبثّه ١ .

وقد ذكره أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه لدخوله الشام ، قال ٢ : وبعد أن استقرت به النوى ، واستمرت إفادته بما قيّد وروى ، رفعته ملوك أوانه ، وشقّعتّه في مطالب إخوانه ، فأوسعته رعيّاً ، وأحسنّت فيه رأياً ، ومن أبنائهم من جعل يقصده ، لسماع يُسنّده ، وعلى وقاره الذي كان به يُعرف ، ندر له مع بعضهم ما يُستطرف ، وهو أن فتّى يسمي يوسف لازم مجلسه ، معطراً رائحته ومنظفاً مكبّسه ، ثم غاب لمرض قطعه ، أو شغل منعه ، ولما فرغ أو أبلّ ، عاود ذلك النادي المبارك والمحلّ ، وقبل إفضائه إليه ، دلّ طيبه عليه ، فقال الشيخ على سلامته من المجون ، وخلاصه من الفتون : ﴿إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوْسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف : ٩٤) وهي من طُرف نوادره ٣ رحمة الله عليه .

ولما قلّد قضاء مُرسية وعزم عليه صاحب الأمر فيه فرّاً إلى المربة فأقام بها سنة خمس وبعض سنة ست وخمسمائة ، وفي سنة ست قبيل قضاءها على كره إلى أن استخفى آخر سنة سبع في قصّة يطول إيرادها ، وبطول مقامه بالمربة أخذ الناس عنه بها ، فلما كانت وقعة كُتندة ٤ كان ممن حضرها فقُصد فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

وقال القاضي عياض : ولقد حدّثني الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر أنّه قال له : خذ الصحيح ، واذكر أيّ متن شئت منه أذكر لك سنده ، أو أيّ سند شئت أذكر لك متنه ، انتهى .

١ إلى هنا كانت الترجمة نقلا عن الصلة ، مع شيء يسير من الإيجاز .

٢ لم يرد شيء من هذا النص في تهذيب ابن عساكر ، وظني أنه ليس من تاريخ دمشق ، فهو مبني على السجع ، إلا أن يكون ابن عساكر ناقلا له من مصدر آخر .

٣ ط : طرف نوادره ؛ ط : وهي من نوادره .

٤ تكتب أيضاً «قندة» وتقع في حيز دروقة (Doroqa) من عمل سرقطة .

وذكر غير واحد أنه حدث ببغداد بحديث واحد ، والله أعلم ؛ وهو من  
أبناء الستين<sup>١</sup> .

٤٩ - ومنهم ابن أبي روح الحزيري ، ومن شعره لما تغرب بالمشرق قوله :

أَحِنُّ إِلَى الْخَضْرَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ حَنِينٌ مَشُوقٌ لِلْعِنَاقِ وَلِلضَّمِّ  
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ جَسْمِي رَضِيعُهَا وَلَا بُدَّ مِنْ شَوْقِ الرَضِيعِ إِلَى الْأُمِّ

٥٠ - ومنهم العالم أبو حَقِصٍ عمر بن حسن الهوزني<sup>٢</sup> ، الحسيب العالم  
المحدث ، ذكره ابن بسام في « الذخيرة » والحجاري في « المسهب »<sup>٣</sup> ، وسبب  
رحلته للمشرق أنه لما تولى المعتضد بن عبيد خاف منه ، فاستأذنه في الحج سنة  
٤٤٤ ، ورحل إلى مصر ، ثم إلى مكة ، وسمع [ في طريقه كتاب ] صحيح  
البخاري ، وعنه أخذته أهل الأندلس ، ورجع ، وسكن إشبيلية وخدم المعتضد ،  
فقتله [ ومن خاف<sup>٤</sup> من شيء سلط عليه ، وكان قتله يوم الجمعة لإحدى عشرة  
ليلة خلت من ربيع الأول ]<sup>٥</sup> سنة ستين وأربعمائة .  
ومن شعره يُحَرِّضُهُ عَلَى الْجِهَادِ :

أَعْبَادُ جَلَّ الرَّزْءُ وَالْقَوْمُ هُجِّعٌ عَلَى حَالَةٍ مِنْ مِثْلِهَا يُتَوَقَّعُ  
فَلَتَقَّ كِتَابِي مِنْ فَرَاغِكَ سَاعَةً وَإِنْ طَالَ فَالْمَوْصُوفُ لِلطَّوْلِ مَوْضِعُ  
إِذَا لَمْ أَبْثُ الدَاءَ رَبَّ شِكَايَةَ أَضَعْتُ ، وَأَهْلُ اللَّمَامِ الْمَضِيعُ

[ ووصله بنثر ، وهو ] : وما أخطأ السبيل مَنْ أتى البيوت من أبوابها ،

١ هذه الجملة ثبتت في ق ط ، وسقطت من دوزي و ج .

٢ ترجمة الهوزني في الذخيرة ( القسم الثاني : ٣٣ ) والصلة : ٣٨١ والمغرب ١ : ٢٣٤ .

٣ ذكره . . . المسهب : سقطت من ق ط ج .

٤ ما بين معقفين زيادة من الذخيرة .

٥ الذخيرة : ٣٤ - ٣٥ .

ولا أرجأ الدليل من أناط الأمور بأربابها ، ولربّ أمل بين أثناء المحاذير مُدمج ،  
 ومحبوب في طي المكاره مُدرج ، فانتهاز فرصتها فقد بان من غيرك العجز ،  
 وطبّق مفاصلها فقد أمكنك الحزّ ، ولا غرو أن يُستَمطر الغمام في الجذب ،  
 ويُستصحب الحُسام في الحرب .

وله ٢ :

صرح الشرّ فلا يستقلّ إن نهلتُمّ جاءكم بعدُ علّ  
 بدء صقّ الأرض رَشّ وطلّ ورياح ثم غيّم أبلّ  
 خفضوا فالداء رزء أجلّ واغمدوا سيفاً عليكم يسلّ

وابنه أبو القاسم هو الذي كان سبب فساد دولة المعتمد بن عباد بسبب قتل  
 المعتضد والدّه كما مرّ ٣ ؛ [ وبيت بني الهوزني بالأندلس بيت كبير مشهور  
 ومنهم عدّة علماء وكبراء ، رحم الله الجميع ] ٤ .

٥١ - ومنهم أبو عمرو عثمان بن الحسين ٥ ، أخو الحافظ أبي الخطاب ابن  
 دحيّة الآتي ذكره ٦ ، كان أسنّ من أخيه أبي الخطاب ، وكان حافظاً للغة العرب ،  
 قيماً بها ، وعزل الملك الكامل أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التي أنشأها  
 بين القصرين ورتب مكانه أخاه أبا عمرو المذكور ، ولم يزل بها إلى أن توفي

١ ق ط ج : مضاربا .

٢ الذخيرة : ٣٧ .

٣ في دوزي : وبسبب قتل بني عباد لأبي حفص الهوزني المذكور تسبب ابنه أبو القاسم في فساد دولة  
 المعتمد بن عباد ، وحرّض عليه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب حتى أزال ملكه  
 ونثر ملكه وسبب هلكه ، كما ذكرناه في غير هذا الموضع من هذا الكتاب غير مرة ، فليراجعه  
 من أراد في محاله .

٤ زدنا هذه العبارة من دوزي .

٥ ترجمته في شذرات الذهب ٥ : ١٦٨ وذيل الروضتين : ١٦٤ ووفيات الأعيان ٣ : ١٢٣ .

٦ ذكره : سقطت من ق ط ج ، وانظر الترجمة رقم ٥٥ فيما يلي .

سنة ٦٣٤ بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم كأخيه ، وكان موت أبي عمرو بعد  
أبي الخطاب بسنة ، رحمهما الله تعالى .

٥٢ - ومنهم الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم<sup>١</sup> ، من أهل وادي الحِجارة ،  
ويُعرف باشكهادة<sup>٢</sup> ، وارتحل إلى المشرق لما نَبَتْ به حضرة قرطبة عند قلب  
دُوها ، ونحو ملوكها وحوها ، فجال في العراق ، وقامى ألم الفراق ،  
واجتاز بحلب ، وأقام بها مقام غريب لم يَصِفُ له حَلَب ، وقال<sup>٣</sup> :

أين أَقْصَى العَرَبِ من أرض حَلَبِ      أملٌ في العَرَبِ مَوْصُولُ التَّعَبِ  
حنٌّ من شوقٍ إلى أوطانِهِ      مَنْ جَفَاه صَبْرُهُ لما اغْتَرَبِ  
جال في الأرضِ بلحاجاً حائراً      بينَ شوقٍ وعناءٍ ونَصَبِ  
كلُّ مَنْ يلقاهُ لا يَعْرِفُهُ      مُسْتَغْنِياً بينَ عَجْمٍ وَعَرَبِ  
لَهْفَ نَفْسِي أين هاتيك العُلا      واضياعاهُ ويا غَبْنَ الحَسَبِ  
والذي قدْ كان ذُخْراً وبه      أرْتجِي المَالَ وإدراكَ الرُتَبِ  
صار لي أبخَسُ ما أعدَدْتُهُ      بينَ قومٍ ما دَرَوْا طَعْمَ الأَدَبِ  
يا أحبَّاي اسْمَعُوا بَعْضَ الذي      يتلقاهُ الطَّرِيدُ المُعْتَرَبِ  
وليكنْ زَجْراً لكم عن غُرْبَةٍ      يَرْجِعُ الرَأْسُ لديها كالذَنبِ  
واحمِلُوا طَعْناً وضرباً دائماً      فهو عِنْدِي بينَ قَوْمِي كالضَّرَبِ  
ولئنْ قاسَيْتُ ما قاسَيْتُهُ      فبِما أَبْصَرَ الحَظِي من عَجَبِ  
ولقد أخبركم أن التقي      بكمُ حتى تقولوا قد كَذَبِ

١ ترجمته في المغرب ٢ : ٣١ .

٢ في المغرب : اشكهاط ؛ وأعتقد أن هذا هو نفسه الذي ورد في الذخيرة ١/١ : ١٩٥ باسم  
« أبو بكر المعروف باشكهاط » وقد عرضت عليه فصول لأبي عامر ابن شهيد ، فقال فيها :  
فقر حسان إلا أنه عثر عليها ، فكتب إليه ابن شهيد رسالة (الذخيرة ١/١ : ١٩٦) .

٣ بعض هذه القصيدة في المغرب .

واجتاز بدمشق فقال من أبيات رحمه الله تعالى :

دمشقُ جنةُ الدنيا حقيقاً ولكن ليس تصلحُ للغريبِ  
بها قومٌ لهم عددٌ ومجدٌ وصُحبتُهُم تؤول إلى حرُوبِ

ثم إنّه ودع الشرق بلا سلام ، وحلّ بحضرة دانيّة لدى ملكها مجاهد  
العامري في بُحْبُوحة عزّ لا يخشى فيه الملام ، واستقبل الأندلس بخاطر جديد ،  
ونال بها بعدُ من بلوغ الآمال ما ليس له عليه مزيد ، وقال <sup>١</sup> :

وكم قد لقيتُ الجَهْدَ قبل مجاهدٍ      وكم أبصرتُ عيني وكم سمعتُ أذني  
ولاقيتُ من دهري وصرفِ خطوبه      كما جرّتِ النكباءِ في معطفِ الغصنِ  
فلا تسألوني عن فِراقِ جهنم      ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن

وله من كتاب : وحامل كتابي - سلّمه الله تعالى وأعانه - ممّن أخنى  
عليه الزمان ، وأدار عليه وما صحا إلى الآن كؤوس الهوان ، وقد قصدَ علي بعد  
جنايبك الرحيب الحصيب ، قصدَ الحسن محلّ الحصيب ، وبم جناب ابن  
طاهر حبيب ، وإتي لأرجو أن يرجع منك رجوع نصيب عن سليمان <sup>٢</sup> ،  
ويستعين في شكرك بكل لسان ، وأنت عليم بأن الثناء هو الخلف ، وقد قال  
الأول :

أرى الناسَ أحدُوثَةً      فكوني حديثاً حسنً

وأنا القائل :

فلا تزهدن في الخيرِ قد مات حاتمٌ      وأخبارُهُ حتى القيامةِ تُذكرُ

١ انظر هذا الشعر في المغرب .

٢ الحسن بن هانيء أبو نواس أم جناب الحصيب صاحب الخراج بمصر ، وحبيب أبو تمام أم عبد الله  
ابن طاهر ، ونصيب أم سليمان بن عبد الملك .



ومع هذا فهو عليه بقدر ما يحتمل من التكليف هذا الأوان ، عارف وجوه الأعدار غير ذي عَجَلٍ في العتب قبل البيان ، وعند سيدي من التهدي للإيضاء ، ما يحقق فيه جميع الرجاء ، دامت أرجاؤه مؤملة ، ولا برحت نعمه سابقة مكملة .

٥٣ - ومنهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالقي<sup>١</sup> ، وقال بعضهم : إنّه من الجزيرة الخضراء ، له رحلة إلى الديار المصرية ، صنع فيها مقامة يقول فيها :

وفي جنّباتِ الروضِ نهرٌ ودوحةٌ      يروقُكَ منها سُندسٌ ونُضارٌ  
تقولُ وضوءُ البدرِ فيه مغربٌ<sup>٢</sup>      ذراعُ فتاةٍ دارَ فيه سِوارٌ  
ومن شعره :

ما كلُّ إنسانٍ أخٌ منصفٌ      ولا الليالي أبداً تُسعفُ  
فلا تُضعُ إن أمكنتُ فرصةً      واصحبُ من الإخوانِ من ينصفُ  
وانتفُ من الدهرِ ولو ريشةً      فإنما حظك ما تنتفُ

وقوله يرثي السيد أبا عمران ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ملك المغرب والأندلس :

بجيدِ المعالي أيُّ عقدٍ تَبَدَّدَا      وصدري العوالي أيُّ رمحٍ تَقَصَّدَا

١ ترجمته في تحفة القادم : ٩٤ والمغرب ١ : ٤٢٧ والمعجب : ٣٧٥ - ٣٧٨ والوافي رقم : ٢٠٣ وكنيته في التحفة « أبو عمرو » ، وقال إن أبا بكر ابن صقلاب كناه في بعض ما خاطبه به أبا عبد الله ، وكان صديقاً لصاحب المعجب وقال : إن له اتساعاً في صناعة الشعر إلا أنه نحل كثيراً من شعره السيد الأجل أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أيام كتابته له ؛ وقال ابن سعيد : وله رسالة في صقلية ذكر فيها ما جرى له بمصر وحذر فيها من الأسفار لما قاسى فيها .  
٢ في الأصول : مغرباً .

ولما دهت خيلُ الشقيّ فجاءةً<sup>١</sup> وسال العدا بجرأ من الموت مُزبِدا  
شهدت بوجه كالفزالة مشرقاً وإن كان وجه الشمس بالنقع مريدا  
عزائم صدقٍ ليس تصرفُ هكذا إلى الموتِ تسعى أو على الموتِ يُعتدى

وكان السيد أبو عمران المرثي قتلته الميُورقي<sup>١</sup> صاحب فتنة إفريقية في المزيمة  
المشهورة على تاهرت ، وجمع ابن عبد ربه المذكور شعر السيد أبي الربيع ابن  
عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ، وكان ابن عبد ربه المذكور كاتباً  
للسيد أبي الربيع سليمان المذكور ، ولما أنشد لبعض الشعراء<sup>٢</sup> :

حاكتُ يمينَ الرياحِ محكمةً في نَهْرٍ واضحِ الأساريرِ  
فكلّما ضعفتُ بهِ حلقاً قام لها القطرُ بالمساميرِ

أنشد لنفسه<sup>٣</sup> :

بينَ الرياضِ وبينَ الجوِّ معتركٌ بيضٌ من البرقِ أو سمرٌ من السمرِ  
إن أوترت قوسها كف السماء رمت نبلًا من الماء في زغفٍ من الغدرِ  
لأجلِ ذلك إذا هبتُ طلاعتها تدرعَ النهرِ واهترتُ قنا الشجرِ

واجتمع ابن عبد ربه المذكور في رحلته بالسعيد ابن سناء الملك ، وأخذ عنه  
شيئاً من شعره ، ورواه بالمغرب .

١ هذا الميورقي هو يحيى بن غانية ، وكان السيد أبو عمران موسى والياً يومئذ على تلسان ، فاتصل  
كبراه زناة فيها يحيى بن غانية ووصفوا له ما فيه أبو عمران من ضعف وعدم استعداد ، فجاهاه  
ابن غانية وقضى عليه وعلى أكثر من معه واقتحم مدينة تاهرت ونهبها وخرّبها ( سنة ٦٠٥ ) انظر  
ابن خلّون ٦ : ٢٤٩ ، ٢٧٨ .

٢ هذا ما أنشده إياه صديقه عبد الواحد المراكشي ، انظر المصيب : ٣٧٦ .

٣ من الغريب أن هذا الشعر ثابت في ديوان أبي الربيع : ١٤٠ ، بما قد يرجح القول بأن المألقي  
نحل كثيراً من شعره لهذا الأمير .

٥٤ - ومنهم الشاعر الأديب أبو محمد عبد المنعم بن عمر بن حسان ، الملقب<sup>١</sup> ، ومن نظمه في السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قصيدة رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> :

وفي صَهَوَاتِ الْمُقْرَبَاتِ وفي القَنَا حُصُونُ حُمَى لا في هَضَابِ المعَاقِلِ  
ومنها :

ولا ملك يأتي كَيُوسُفَ آخِرًا كما لم يجيء مثل<sup>٣</sup> له في الأوائل

٥٥ - ومنهم الحافظ أبو الخطاب ابن دِحْيَةَ<sup>٣</sup> ، وهو مجد الدين عمر بن الحسن بن علي بن محمد [ بن الجميل ] بن فرح بن خلف ، الظاهري المذهب ، الأندلسي ، كان من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين ، استوطن بجاية في مدة أبي عبد الله ابن يومور ، وروى بها ، وأسمع ، وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة ، حتى صار حُوشِيَّ اللغة عنده مستعملاً غالباً ، ولا يحفظ الإنسان من اللغة حُوشِيَّهَا إلا ذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها ، وكان قصده - والله تعالى أعلم - أن ينفرد بنوع يشتهر به دون غيره ، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق العرب وانفردوا بالطريق الآخر ، ولو سلكوا طريق العرب لكانوا فيه كآحاد الناس ، وكذا الشيخ أبو الخطاب ابن دِحْيَةَ له رسائل ومخاطبات كلها مُغْلَقَات مَقْفَلَات ، وكان - رحمه الله تعالى - إذا كتب اسمه فيما يميزه أو غير ذلك يكتب « ابن دِحْيَةَ ودِحْيَةَ معاً المتشبه به جبريل وجبرائيل » ، ويذكر ما ينسب على ثلاث عشرة لغة مذكورة

١ ترجمته في الفوات ٢ : ٣٥ وابن أبي أصيبعة ٢ : ١٥٧ وكنيته فيهما أبو الفضل والنسبة إلى جليانة (أو جيان) لا إلى مألقة ، وكان مقرباً عند صلاح الدين ، ماهراً في الطب ، وله عشرة دواوين عدها صاحب الفوات وابن أبي أصيبعة .

٢ من قصيدة له ورد بعض أبياتها في الفوات ٢ : ٣٦ .

٣ ترجمة أبي الخطاب ابن دحية في وفيات الأعيان ٣ : ١٢١ والنيريني : ١٥٩ وشدرات الذهب ٥ : ١٦٠ و امرأة الزمان ٢ : ٦٩٨ وذيل الروضتين : ١٦٣ والتكملة رقم : ١٨٢٢ وصلة الصلة : ٧٣ .

في جبريل ، ويقول عند فاطر السموات والأرض ، وهذا فرع انفرد به عمّن  
عداه من أهل العلم .

قال صاحب عنوان الدراية : رأيت له تصنيفاً في رجال الحديث لا بأس  
به ، وارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب ، فرفعوا شأنه ، وقربوا له مكانه ،  
وجمعوا له علماء الحديث ، وحضروا له مجلساً أقرؤا له بالتقدم ، وعرفوا أنه  
من أولي الضبط والإتقان والتفهم ، وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها ،  
فأعاد المتون المحوَّلة ، وعرَّفَ عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه  
من متونها الأصلية ، ومثل هذه الحكاية اتفق لأبي عمر ابن عات في كتاب مسلم  
بمراكش ببيت الطلبة منها .

ومن شعر أبي الخطاب ما كتب به إلى الكامل بن العادل بن أيوب :

ما لي أسائلُ بَرَقَ بَارِقُ عَنَّاكُمْ      من بَعْدَ ما بَعَدَتْ دِيَارِي مِنَّاكُمْ  
فمحلُّكُمْ قَلْبِي وَأَنْتُمْ بِالْحَشَا      لا بِالْعَقِيْقِ وَلَا بِرَامَةِ أَنْتُمْ  
وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْوَفَاءِ بَعْدَكُمْ      يَا مَالِكِينَ ، وَفَيْتُمْ أَوْ خُنْتُمْ

وهي طويلة ، ومنها :

رَفَعَتْ لَهُ الْأَمْلَاكُ مِنْهُ سَجِيَّةً      مَلَكَ السَّمَاءِ الرَّمْحَ وَهُوَ مُحْرَمٌ

ومنها أيضاً :

لذوي النهى والنهم سِرُّ حَكُومَةٍ      قَدْ حَارَ فِيهَا كَاهِنٌ وَمُنَجِّمٌ  
فاقصِدْ مُرَادَكَ حَيْثُ سَرَتْ مُظْفَرًا      وَاللَّهِ يَكْتَلَأُ وَالْكُوكَبُ نُومٌ  
وليَهْنِكَ الشَّهْرُ السَّعِيدُ تَصُومُهُ      وَتَقْوُزُ فِيهِ بِالثَّوَابِ وَتَغْنَمُ  
فَلَأَنْتَ فِي الدُّنْيَا كَلْسِيْلَةٌ قَدْرُهُ      قَدْرًا ، فَقَدْرُكَ فِي الْمُلُوكِ مُعْظَمُ

فأجابه السلطان مكافأةً بنثر ونظم ، فمن النظم :

وهي تجن شوقي للأجارع باللوى  
 مرابع لو أن المربع أنجم  
 رعى الله أياما لها ولو أنها  
 ليالي لا ليلى إذا رمت وصلها  
 وأين اللوى مني وأين الأجارع  
 لكان نجوم الأرض تلك المربع  
 إلي وقد ولت الشباب رواجع  
 يلوح لها من صبح شبي مواقع  
 في جملة أبيات .

ومن النثر : الحمد لله ولي الحمد ، وقف ولده على الأبيات التي حسن  
 شعرها ، وصفا درها ، وليس من البديع أن يقذف البحر درآ ، أو ينظم الخليل  
 شعرا ، وقد أخذت الورقة لأنتزه في معانيها ، وأستفيد بما أودعه فيها ،  
 فالله تعالى لا يخلينا من فوائد فكرته ، وصالح أديته ، والسلام .  
 فأجابه الحافظ أبو الخطاب عن الأبيات بقوله من قصيدة :

شجنتي شواج في الغصون سواج  
 ففاضت هوام للجفون هوامع  
 وأكثر فيها من التغزل ، إلى أن قال :

ولا حاكم أرضاه ببني وبينها  
 يدافع عني الضيم قائم سيفه  
 هو الكامل الأوصاف والملك الذي  
 وبيض أباديه الكريمة في الورى  
 ويوماه يوماه اللذان هما هما  
 وسوى حاكم دهرى له اليوم طائع  
 إذا عز من للضم عني يدافع  
 تشير إليه بالكمال الأصابع  
 فلائد في الأعناق وهي الصنائع  
 إذا جمعت غلب الملوك المجامع  
 ومنها :

فما روضة غنا بها مررت الصبا  
 ونشر شذاها الطيب النشر ذائع

١ ق : أودعته .

٢ ق : جمعت منه .

له من شَدِيّ الزهر بُردٌ مُؤَوَّفٌ  
فراقك منها أخضرُ الثوبِ ناضرٌ  
وأحمرٌ قانٌ للحدودِ مُورَدٌ  
بأحسنَ من توشيحِ مدحي الذي لهُ  
وما ضائعٌ من نشرِ سُكري الذي به  
ولو لم يُقيّدني نَدَاكَ لَكَانَ لي  
فأنت الذي لي والأعادي كثيرة

ومنها :

بقيتَ لعبدٍ جدّه دِحْيَةُ الذي  
وجدّتهُ الزهراء بنتُ محمد  
ولا عدمتُ منك الممالكُ مالِكاً  
ومنك عيُونٌ للمهمّاتِ يُقَطِّطُ  
يُشابهه جبريلٌ له ويُضارعُ  
علّيه السلام الدائم المتتابعُ  
يُقَرِّبُ للآمالِ ما هوَ شاسعُ  
وعنك عيونُ الحادثاتِ هواجعُ

وقال المقرئ في ترجمة الملك الكامل : إنّه كان مشغولاً بسماع الحديث النبوي ، وتقدم عنده أبو الخطاب ابن دِحْيَةَ ، وبنى له دار الحديث الكاملة بين القصرين بالقاهرة ، انتهى .

وقال أبو الخطاب ابن دِحْيَةَ : أنشدني أبو القاسم السهيلي لنفسه ، وذكر أنّه ما سأل الله تعالى بها إلاّ أعطاه :

يا من يرى ما في الضمير ويسمعُ  
يا مَنْ يرجي للشدائدِ كلّها  
أنتَ المعدُّ لكلِّ ما يُتَوَقَّعُ  
يا مَنْ إليه المشتكى والمفرعُ

١ الأبيات في المطبع : ٢٣٤ وأبو القاسم السهيلي هو عبد الرحمن بن عبد الله (توفي ٥٨١) صاحب الروض الأنف ، انظر ترجمته في التكملة رقم : ١٦١٣ والمطرب : ٢٣٠ وأدباء مالقة ، الورقة : ١٢٧ .

يا من خزائن رزقه في قول كُنْ  
 ما لي سوى فقري إليك وسيلة  
 ما لي سوى قرعي لبابك حيلة  
 ومن الذي أدعُو وأهتفُ باسمه  
 حاشا لجودك أن يُقنطَ عاصياً  
 آمننْ فإن الخيرَ عندك أجمعُ  
 فبالافتقارِ إليك فقري أدفعُ  
 فلئن رُدِدْتُ فأيَّ بابٍ أقرعُ  
 إن كان فضلُك عن فقيرك يُمنعُ  
 الفضلُ أجزلُ والمواهبُ أوسعُ

ومن نظم السهيلي رضي الله تعالى عنه ١ :

أسائلُ عن جيرانه من لقيتهُ  
 وما بي إلى جيرانه من صبايةٍ  
 وأعرضُ عن ذكره والحالُ تنطقُ  
 ولكن نفسي ٢ عن صبحٍ ترققُ  
 وله ٣ :

لما أجابَ بلا طمعتُ بوصله  
 وكذا نَعَمَ بنعيمٍ وصلِ آذنتُ  
 إذ حرفُ لا حرفانِ معتقنانِ  
 فتعم ولا في اللفظِ متفقانِ

ولد أبو الخطاب ابن دحية في ذي القعدة سنة سبع - أو ثمان - وأربعين  
 وخمسائة ٥ وتوفي في انفجار الفجر ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول سنة  
 ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم .  
 وتكلم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجار ، وقدره أجلُّ ممَّا ذكروه ،  
 وقد روى رحمه الله تعالى بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق  
 المعجم ، وكل ذلك في طلب الحديث ، وسمع بالأندلس من ابن بشكُو وال ابن

١ أدباء مالقة : ١٢٩ .

٢ أدباء مالقة : قلبي . . . يرقق ؛ وفيه إشارة إلى المثل «أمن صبح ترقق» .

٣ أدباء مالقة : ١٣٠ .

٤ أدباء مالقة : في الحب .

٥ مختلف في عام ولادته ، راجع وفيات الأعيان ؛ وفيه أنه ولد : ٤٤٤ .

زرقون في جمع كبير ، وبيغداد من أبي الفرج ابن الحوزي ، وبأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني «معجم الطبراني» ومن غيره ، وبنيسابور من أبي سعيد ابن الصفار ومنصور بن الفراوي والمؤيد الطوسي ، وحصل الكتب والأصول ، وحدث ، وأفاد ، وكان من أعيان العلماء ، ومشاهير الفضلاء ، مُتَقِنًا لعلم الحديث وما يتعلق به ، عارفاً بالنحو واللغة وآيام العرب وأشعارها .

وصنّف كتباً كثيرة مفيدة جداً ، منها كتاب «التنوير في مولد السراج المنير» صنفه عند قدومه إلى إربل سنة أربع وستمائة ، وهو متوجه إلى خراسان لما رأى ملك إربل مظفر الدين كوكبري معتنياً بعمل المولد النبوي في شهر ربيع الأول كل عام ، مهتماً به غاية الاهتمام ، وكماله وقرأه عليه بنفسه ، وختمه بقصيدة طويلة ، فأجازه بألف دينار ، وصنف أيضاً «العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور» ، و«الآيات البيّنات في ذكر ما في أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات» وكتاب «شرح أسماء النبي صلى الله عليه وسلم» وكتاب «النبراس في أخبار خلفاء بني العباس» وكتاب «الإعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفتين» .

وولي قضاء بلد أصوله دانيّة مرتين ، ثم صرف عن ذلك لسيرة نعت عليه ، فرحل عنها وحدث بتونس سنة ٥٩٥ ، ثم حجّ وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونيسابور ، وعاد إلى مصر ، فاستأدبه العادل لولده الكامل ، وأسكنه القاهرة ، فنال بذلك دنيا عريضة ، ثم زادت حظوته عند الكامل ، وأقبل عليه إقبالا عظيماً وكان يعظمه ويحترمه ، ويعتقد فيه الخير ، ويتبرك به ، حتى كان يسوي له المداس حين يقوم ، وهو بكنسي كما قاله ابن خلّكان وغيره ، وبلكنسية مشهورة بشرق الأندلس .

١ لم يذكر كتاب «المطرب» الذي ألفه ليعرف بالأدباء الأندلسيين والأدب الأندلسي .



٥٦ - ومنهم خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ ، الحافظ ، الأندلسي<sup>١</sup> ، رحل إلى المشرق ، وكان حافظاً فهماً عارفاً بالرجال ، حدث حديث مالك وشعبة وأشياء في الزهد ، وسمع بمصر أبا الحسن ابن الورد البغدادي ومسلم بن الفضل والحسن بن رشيق وجماعة ، وسمع بدمشق علي بن أبي العقب وأبا الميمون ابن راشد وبمكة من بكير الحداد وأبي الحسن الخزاعي والآجري ، وبقرطبة من أحمد بن يحيى بن الشاهد ومحمد بن معاوية ، وتوفي سنة ٣٩٣ .

٥٧ - ومنهم خلف بن سعيد بن عبد الله بن زرارة أبو القاسم ابن المرابط<sup>٢</sup> ، الكلبي ، من ذرية الأبرش الكلبي ، ويعرف بالمبرقع<sup>٣</sup> ، المحتسب ، القرطبي ، رحل إلى المشرق مرتين ، أولاهما سنة ٣٣٢<sup>٤</sup> ، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وسمع أبا سعيد ابن الأعرابي وابن الورد وأبا بكر الآجري ، وروى عنه أبو إسحاق ابن شَنْظِير وأبو جعفر الزهراوي ، وقال ابن شَنْظِير : إنّه توفي في نحو الأربعمائة ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه .

٥٨ - ومنهم سابق فضلاء زمانه ، أبو الصَّلْت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصَّلْت الإشبيلي<sup>٥</sup> .

يقال : إن عمره ستون سنة ، منها عشرون في بلده إشبيلية ، وعشرون في إفريقية عند ملوكها الصنّهاجيين ، وعشرون في مصر محبوساً في خزانة الكتب ، وكان وجّهه صاحب المهديّة إلى ملك مصر فسُجِن بها طول تلك المدة في خزانة الكتب ، فخرج في فنون العلم إماماً ، وأمتنُ علومه الفلسفة والطب والتلحين ،

١ ترجمته في الجذوة : ١٩٥ ( والبنية رقم : ٧١٧ ) وابن الفرضي ١ : ١٦٣ .

٢ ترجمته في النسلة : ١٥٩ .

٣ الصلة : بابن المبرقع .

٤ كذلك هو في الصلة أيضاً ، وفي ط : ٣٣٣ .

٥ قد مرت الإشارة إليه وذكر مصادر ترجمته ، انظر ما سبق ١ : ٤٩٦ وله ترجمة في الخريدة

١/٤ : ٢٢٣ - ٣٤٣ فيها مختارات من أشعاره مرتبة على الحروف .

وله في ذلك توألف تشهد بفضله ومعرفته ، وكان يكنى بالأديب الحكيم ، وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية ؛ قال ابن سعيد : وإليه تُنسب إلى الآن . وذكره العماد في « الخريدة » . وله كتاب « الحديقة » على أسلوب « يتيمة الدهر » للثعالبي ، وتوفي سنة ٥٢٠ ، وقيل : سنة ٥٢٨ ، بالمهدية ، وقيل : مستهل السنة بعدها ، ودفن بها .

وله فيمن اسمه واصل<sup>١</sup> :

يا هاجرَ اسموه عمداً واصلاً « وبضدّها تبينُ الأشياء »  
ألغيتني حتى كأنك واصلٌ وكأنتي من طول هجري الراء

وقوله ، وهو من بدائعه<sup>٢</sup> :

لا غرّو أن سبقت لهماك مدائحي وتدفقت جدواك ملء إنائها  
يُكسى القضيْبُ ولم يحنْ لإثماره وتطوّقُ<sup>٣</sup> الورقاء قبلَ غنائها

وقال في الأفضل<sup>٤</sup> :

تردي بكلّ فتي إذا شهد الوغى نثرَ الرماحَ على الدروبِ كهوبا  
قد لوحتّه يدُ الهواجيرِ فاغتدى مثلَ القنّاةِ قضافةً وشحوبا  
تخذوا القنا أشطانهم واستنبتوا في كلّ قلبٍ بالطعانِ قليباً

ومنها<sup>٥</sup> :

تعطي الذي أعطتكهُ سمرُ القنا أبداً فتغدو سالباً مسلوباً

١ الخريدة : ٢٢٤ .

٢ الخريدة : ٢٢٦ .

٣ ق ط ج ودوزي : وتطلق .

٤ الخريدة : ٢٢٨ .

٥ هذا البيت والذي يليه في الخريدة : ٢٣٠ .

ومنها :

وأنا الغريبُ مكانهُ وبيانهُ فاجعلُ صنيعك في الغريبِ غريبا

وله ١ :

ومهفهفٍ شربتُ<sup>٢</sup> محاسنُ وجهه ما مَجَّهُ في الكاسِ من إبريقه  
ففعالها من مقلتيه ، ولونُها من وجنتيه ، وطعمُها من ريقه

أخذه من ابن حَيَّوس ، وقصر عنه ، في قوله :

ومهفهفٍ يَغْتِي بلحظٍ جفونه عن كاسه الملائى وعن إبريقه  
فِعْلُ المدامِ ولونُها ومذاقُها في مقلتيه ووجنتيه وريقه

ولأبي الصلت فيمن اسمه مُحْسِن :

أيها الظالم المسيء مدى دهره بينا  
ما لهم أخطأوا الصوابَ فسَمَّوكَ محسنا

وله في لابس قرمزية حمراء<sup>٣</sup> :

أقبلَ يَسْعَى أبو الفوارسِ في مرأى عجيبٍ ومنظري أنيق  
أقبلَ في قرمزيةٍ عَجَبٍ قد صبغت لون خده الشرق  
كأنما جيدُه وغرته من دُونِها إذ بدونُ في نسق  
عمودُ فجرٍ من فوقه قمرٌ دارت به قطعةٌ من الشفق

١ ابن خلكان ١ : ٢٢١ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٧ .

٢ في المصدرين السابقين : شركت .

٣ الخريدة : ٣٠٢ .

٤ الخريدة : برزن .

٥ الخريدة : فويقه .

وله في ثقیل<sup>١</sup> :

لي جليسٌ عَجِبْتُ كَيْفَ اسْتَطَاعَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ تُقْلَهُ  
أَنَا أَرْعَاهُ مُكْرَهًا<sup>٢</sup> وَبِقَلْبِي مِنْهُ مَا يُقْلِقُ الْجِبَالَ أَقْلَهُ  
فَهَوَ مِثْلُ الْمَشِيبِ أَكْرَهَ مَرًّا . وَلَكِنْ أَصُونُهُ وَأَجْلُهُ

أخذه من قول أبي الحسن جعفر بن الحاج اللورقي<sup>٣</sup> ، وهما في عصر واحد :

لي صاحبٌ عَمِيتَ عَلَيَّ شُؤُونُهُ حَرَكَاتُهُ مَجْهُولَةٌ وَسُكُونُهُ  
يَرْتَابُ بِالْأَمْرِ الْجَلِيَّ تَوَهَّمَا فإِذَا تَيَقَّنَ نَازَعْتَهُ ظَنُونُهُ  
إِنِّي لِأَهْوَاهُ عَلَيَّ شَرَقِي بِهِ كَالشَّيْبِ تَكْرَهُهُ وَأَنْتَ تَصُونُهُ

وأوصى<sup>٤</sup> أن يكتب على قبره أبو الصلت المذكور مما نظمه قبيل موته<sup>٥</sup> :

سكنتك يا دارَ الفناء مُصَدِّقًا بَأْتِي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ أَصِيرُ  
وَأَعْظَمُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنِّي صَائِرٌ إِلَى عَادِلٍ فِي الْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ  
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْدَهَا وَزَادِي قَلِيلٌ وَالذُّنُوبُ كَثِيرُ  
فإِن أَلِكُ مَحْزِيًّا بِذَنْبِي فَإِنِّي بَشَرٌ عِقَابِ الْمَذْنِبِينَ جَدِيرُ  
وَإِن يَكُ عَفْوٌ ثَمَّ عَنِّي وَرَحْمَةٌ فَمَنْ نَعِيمٌ دَائِمٌ وَسُرُورُ

وله أيضاً<sup>٦</sup> :

١ الخريدة : ٣١٢ .

٢ الخريدة : مكرهًا .

٣ في الأصول ودرزي : الميورقي ، وهو خطأ ؛ فأله من بيوتات لورقة ( المغرب ٢ : ٢٧٧ ) .

٤ ج : وأمر .

٥ الخريدة : ٣٤٢ وابن خلكان ١ : ٢٢٢ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٤ .

٦ الخريدة : ٢٣٦ وابن خلكان ١ : ٢٢٠ والبيتان يفسبان أيضاً لأبي العرب الصقلي .

إذا كان أصلي من تراب فكُلِّها  
ولا بد لي أن أسأل العيس حاجةً  
وقال ١ :

دبَّ العذارُ بجده ثم انثنى  
لا غرو أن خشي الردى في لثمه  
وقد ذكروا أن من خواص ريق  
عَنْ لثْمِ مَبْسَمِهِ الْبِرُودِ الْأَشْنَبِ  
فَالرِّيقُ سُمٌّ قَاتِلٌ لِلْعَقْرَبِ  
الإنسان أنه يقتل العقرب ، وهو مجرب .  
وقال ٢ :

لا تَدْعُنِي وَلْتَدْعُ مَنْ شِئْتَهُ  
فَتَحْنُ أَكَالُونَ لِلْسُّحْتِ فِي  
إِلَيْكَ مِنْ عُجْمٍ وَمَنْ عُرِبِ  
ذِرَاكَ سَمَاعُونَ لِلْكَذْبِ  
وقال ٣ :

لا تسألني عن صنيع جفونها  
لو كنت أملك خدّها للثمته  
أو كنت أهجع لاحتضنت خيالها  
وبثت في الظلّماء كحل جفونها  
وقال مهنتاً بمولود ٤ :

يَلُوحُ فِي الْمَهْدِ عَلَى وَجْهِهِ  
تَجْهَمُ الْبَأْسُ وَبُشْرَى النَّدَى

١ الحريدة : ٢٣٧ .

٢ الحريدة : ٢٣٨ .

٣ الحريدة : ٢٤٧ .

٤ الحريدة : ٢٥٧ .

٥ الحريدة : وبشر .

والشمسُ والبدرُ إذا استجمعا لم يلبثا أن يلبدا فرقدا  
فابقَ له حتى ترى نجلهُ وإن عرا خطبُ فنحنُ الفدا  
قال ابن سعيد : وهذا البيت الأخير من أثقل الشعر يُتطير من سماعه ،  
وتركه أولى .

وقال رحمه الله تعالى في الرصد :

فذا غدِيرُ وذا رَوْضُ وذا جَبَلُ فالضَّبُّ والنُّونُ والملاحُ والحادي

٥٩ - ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول  
السَّرْقُسطي ، ذكره العماد الأصبهاني في « الخريدة »<sup>١</sup> وذكره السمعاني في  
الذيل ، وأنه دخل بغداد في حدود سنة ست عشرة وخمسمائة<sup>٢</sup> .  
ومن شعره<sup>٣</sup> :

أيا شمسُ إنِّي إن أتتكَ مدائحي وهنَّ لآلٍ نُظِمَتْ وقلائدُ  
فلسْتُ بمنَّ يبغي على الشعيرِ رشوةً أبى ذاك لي جدُّ كريمٌ ووالدُ  
وأني من قومٍ قديماً ومُحدَثاً تباعُ عليهم بالألوف القصائدُ

٦٠ - ومنهم الفقيه المقرئ أبو عامر التياري<sup>٤</sup> ، من رجال « الذخيرة »  
رحل إلى المشرق ، وقرأ على أبي جعفر الديباجي كتابه في العروض وسائر  
كتبه ، ولقي شيخ القيروان في العربية ابن القزاز وأديبها الحُصْرِي . وأخبر  
عن نفسه أنه كان بين يديه تلميذ له وسيم ، فمرَّ به أبو جعفر التَّجاني

١ انظر الخريدة ١/٤ : ٣٩٠ ووصفه بأنه من الفقهاء الفضلاء والشعراء النبلاء ، ولما ورد بغداد  
(حدود : ٥١٦) أقام في المدرسة النظامية ، ثم خرج إلى خراسان وسكن بمرور الروذ ، وفي  
الخريدة أنه توفي أيضاً في حدود : ٥١٦ .

٢ في إحدى النسخ : ٥١٠ .

٣ الخريدة : ٣٩١ .

٤ في ق ودوزي : « المتباري » وفي ط ج : المتباري ١٧٢ وفي فهرست الذخيرة « البيماري »  
وترجمته في القسم الثالث : ١٧٢ ، وما أورده المقرئ مأخوذة عن الذخيرة .

بسحاة كتب له فيها وخلأها بين يديه ، وهو قد غلب النوم عليه ، فقال :

يا نائماً متعمداً      إبصار طيف حبيبهِ  
هو جوهراً فائقبهُ إ      ن الطيب في مثقوبهِ  
أو أركبني ظهرهُ      إن لم تقل برُكوبهِ

فلما قرأها علم أنها للتجاني<sup>١</sup> ، فكتب تحتها :

يا طالباً أضحى حجا      بٌ دون ما مَطْلُوبهِ  
لو لم يكن في ذلك إذ      مٌ لم أكن أسخُوبهِ  
إني أغارُ عليه من      أثوابهِ ورقبهِ

وأشد يوماً في حلقة لابن الرومي في خباز :

إن أنس لا أنس خبازاً مررتُ به      يدحو الرقاة وشك الملح بالبصر  
ما بين رؤيتها في كفه كبرة      وبين رؤيتها قوراء كالقمر  
إلا بمقدار ما تنداح دائرة      في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

فقال بعض تلامذته : أما إنه لا يُقدّر على الزيادة على هذا ، فقال :

فكاد يضرط إعجاباً برؤيتها      ومن رأى مثل ما أبصرتُ منه خري

فضحك من حضر وقال : البيت لائق بالقطعة ، لولا ما فيه من ذكر

الرجيع ، فقال :

إن كان بيتي هذا ليس يعجبكم      فعجلوا محوة أو فالعقوه طري

٦١ - ومنهم الأديب الطبيب أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي<sup>٢</sup> ،

١ في نسخة الذخيرة : الجاني ، ولا ريب في أنه مصحف ، ولعل الصواب : « البجاني » .

٢ ترجمة أبي الحجاج يوسف بن عتبة في المغرب ١ : ٢٥٨ واختصار القدح : ١٦١ .

مطبوع في الشعر والتوشيح ، قال ابن سعيد<sup>١</sup> : اجتمعت به في القاهرة مراراً  
بمجلس الأمير جمال الدين أبي الفتح موسى بن يغمور بن جلكدك وفي غيره ،  
وتوفّي في مارستان القاهرة . ومن شعره :

أما الغُرَابُ فإنه سَبَبُ النَّوَى لا رَيْبَ فيه وللنَّوَى أسبابُ  
يَدْعُو الغُرَابُ وَبَعْدَ ذاكِ يَحْيِيهِ جَمَلٌ وَتَعْوِي بَعْدَ ذاكِ ذِقَابُ  
لا تَكْذِبَنَّ فهذه أسبابه لَكِنَّ مِنْهَا بَدَأةٌ وَجَوَابُ

٦٢ - ومنهم الإمام المحدث الحافظ جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف  
ابن موسى ، الأندلسي ، المعروف بابن مُسَدِّي<sup>٢</sup> ، وهو من الأئمة المشهورين  
بالمشرق والمغرب ، قال رحمه الله تعالى : أنشدني رئيس الأندلس وأديبها أبو  
الحسن سهّل بن مالك الأزدي<sup>٣</sup> الغرناطي لنفسه سنة ٦٣٧ في سؤال بداره  
بغرناطة<sup>٤</sup> :

مُنْغَصُ العيش لا يَأْوي إلى دَعَةِ من كان ذا بِلْدٍ أو كان ذا وِلْدٍ  
والسَّاكنُ النَّفسِ مَنْ لم تَرْضَ هَمَّتَهُ سُكْنَى مَكَانٍ ولم يسكنَ إلى أحدٍ

٦٣ - ومنهم الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي

١ يقول ابن سعيد في القدح حين يحكي أخبار المترجم به في مصر : وأخبرني صاحبه بمصر أبو  
الفضل التيفاشي قال : قدم علينا بالقاهرة الطبيب أبو الحجاج ابن عتبة فلم يجد من يقبل عليه إلا  
كهف المغاربة الرئيس السيد جمال الدين بن يغمور . الخ . وقال : وكانت وفاته بالقاهرة  
سنة ٦٣٦ .

٢ ترجمة ابن مسدي في تذكرة الحفاظ : ١٤٤٨ وقال إنه قتل غيلة بمكة سنة ٦٦٣ ؛ وله معجم  
في ٣ مجلدات ، وكان يداخل الزيدية بمكة فولوه خطابة الحرم .

٣ ترجمة سهل بن مالك في برنامج الرعيي : ٥٩ والتكملة رقم : ٢٠٠٧ والذيل والتكملة ٤ : ١٠١  
واختصار القدح : ٦٠ ومسالك الأبصار : ١١ : ٤٨٢ وزاد المسافر رقم : ٢٣ والديباج :  
١٢٥ والمغرب ٢ : ١٠٥ وبنية الوعاة : ٢٦٤ وسيرد له ذكر في مواضع من النفع .

٤ البيتان في الديباج : ١٢٥ والذيل والتكملة : ١٠٤ .



الحميدي<sup>١</sup> ، نسبة لجدّه حُمَيْدُ الأندلسي ، ولد أبوه بقُرطُبَة ، وولد هو بالجزيرة بُلَيْدَة بالأندلس ، قبل العشرين وأربعمائة ، وكان يحمل على الكتف للسمع سنة ٤٢٥ ، فأول ما سمع من الفقيه أبي القاسم أصبغ . قال : وكنت أفصح من يقرأ عليه ؛ وكان قد لقي ابن أبي زيد وقرأ عليه وتفقهه ، وروى عنه رسالته ومختصر المدوّنة ، ورحل سنة ٤٤٨ ، وقدم مصر وسمع بها من الضّرّاب والقُضاعي وغير واحد ، وكان سمع بالأندلس من ابن عبد البر وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنّفاته وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحبته وصار على مذهبه إلاّ أنّه لم يكن يتظاهر به ، وسمع بدمشق وغيرها ، وروى عن الخطيب البغدادي وكتب عنه أكثر مصنّفاته ، وسمع بمكّة من الزنجاني ، وأقام بواسط مدّة بعد خروجه من بغداد ، ثم عاد إلى بغداد واستوطنها وكتب بها كثيراً من الحديث والأدب وسائر الفنون ، وصنّف مصنّفات كثيرة ، وعلق فوائد ، وخرّج تخاريج للخطيب ولغيره ، وروى عنه أبو بكر الخطيب أكثر مصنّفاته وابن ماكولا ، وكان إماماً من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته ، حتى قال بعض الأكابر ممّن لقي الأئمة : لم ترَ عيناى مثل أبي عبد الله الحميدي في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثّه في أهله ، وكان ورعاً ثقة إماماً في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورؤاه ، محققاً في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث ، متبحّراً في علم الأدب والعربية ، ومن تصانيفه كتاب « جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس » وكتاب « تاريخ الإسلام » وكتاب « من ادعى الأمان من أهل الإيمان » وكتاب « الذهب المسبوك في وعظ الملوك » وكتاب « تسهيل السبيل إلى علم الترسيل » وكتاب « مخاطبات الأصدقاء في

١ ترجمة الحميدي في الصلة : ٥٣٠ وتذكرة الحفاظ : ١٢١٨ وشذرات الذهب ٣ : ٣٩٢ وبغية المتلّس رقم : ٢٥٧ ووفيات الأعيان ٣ : ٤١٠ ومواطن من فهرسة ابن خبير .

المكاتبات واللقاء» وكتاب «ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ الجار» وكتاب «النميمة» وكتاب «الأمانى الصادقة» وغير ذلك من المصنفات والأشعار الحسان في المواعظ والأمثال . وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل في الحرّ ويجلس في إجانة ماء يتبرد به ، ومن مشهور مصنفاته كتاب «الجمع بين الصحيحين» .

وذكره الحِجاري في المُسْتَهَب وقال عنه : إنّه طرق ميُورقة بعدما كانت عطلاً<sup>١</sup> من هذا الشأن ، وترك لها فخراً تباري به خواص البلدان ، وهو من علماء أئمة الحديث ، ولازم أبا محمد ابن حزم في الأندلس واستفاد منه ، ورحل إلى بغداد ، وبها ألف كتاب «الجدوة» ، ومن شعره قوله رضي الله تعالى عنه :

أَلِفْتُ النَّوَى حَتَّى أُنْسْتُ بَوَحْشِهَا      وَصَرْتُ بِهَا لَا فِي الصَّبَابَةِ مُوَلِّعَا  
فَلَمْ أَحْصِ كَمْ رَافِقُهُ مِنْ مُرَافِقٍ      وَلَمْ أَحْصِ كَمْ خَيْمَتُ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَا  
وَمِنْ بَعْدِ جَوْبِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا      فَلَا بَدَّ لِي مِنْ أَنْ أُوَافِيَ مَصْرَعَا

وقال رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> :

لِقَاءِ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا      سِوَى الْهَدْيَانِ مِنْ قَبْلِ وَقَالِ  
فَأَقْلِيلُ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا      لِأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ حَالِ

وذكره ابن بَشْكُوَال في «الصَّلَّة» ، وتوفي ببغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى .

قال ابن ماكولا : أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدي ، وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ ، لم أر مثله في عِفَّتِهِ ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم ، وكان أوصى مظفراً ابن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند قبر بشر الحافي ، فخالف وصيته

١ في التجارية : أنه أظهر العلم في طرق ميورقة بعدما كانت عطلاء .

٢ البيتان في وفيات الأعيان .

ودفنه في مقبرة باب أبرز<sup>١</sup> ، فلما كانت مدّة رآه مظفر في النوم كأنه يعاتبه على مخالفته ، فنُقِل في صفر سنة ٤٩١ إلى مقبرة باب حرب ، ودفن عند قبر بشر ، وكان كفه جديداً وبدنه طرياً تفوح منه رائحة الطيب ، ووقف كتبه على أهل العلم ، رحمه الله تعالى .

ومن مناقبه أنّه قال لمن دخل عليه فوجده مكشوف الفخذ : تعديت بعين إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت ، انتهى .  
ومن شعر الحميدي أيضاً قوله :

طريق الزُّهد أفضلُ ما طريقٍ      وتقوى الله تاليسَةُ الحقوقِ  
فَشِقْ باللهِ يكفِكَ ، واستَعِنه      يُعِنِكَ ، ودَعْ بُنَيَاتِ الطَّرِيقِ  
وقوله :

كلامُ الله عزَّ وجلَّ قَوَلِي      وما صحَّت بهِ الآثَارُ ديني  
وما اتفقَ الجميعُ عليه بدءاً      وعوداً فهو عن حقِّ مُبين  
فدَعْ ما صدَّ عن هذي وخذها      تكن منها على عَيْنِ اليقين

٦٤ - ومنهم الكمال أبو العباس أحمد الشريشي<sup>٢</sup> ، وهو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن ، القيسي ، من أهل شريش . روى عن أبي الحسن ابن لبّال وأبي بكر ابن أزهر وأبي عبد الله ابن زَرْقُون وأبي الحسين ابن جبير وغيرهم ، وأقرأ العربية ، وله تواليف أفاد بما حشر فيها : منها « شرح الإيضاح » للفارسي ، و « الجمل » للزجاج ، وله في العروض تواليف ، وجمع مشاهير قصائد العرب ، واختصر « نوادر » أبي علي القالي .

١ ق : باب البرر ؛ ط : باب البر ؛ ج : باب البزر .  
٢ ترجمة الشريشي في التكملة : ١١١ والمنهل الصافي ١ : ٣٥٤ وبنية الوعاة : ١٤٣ وبرنامج الرعيي : ٩٠ والوافي بالوفيات ٧ الورقة : ٧٧ .

قال ابن الأبار : لقيته بدار شيخنا أبي الحسن ابن حريق من بلنسية ، قبل توجهي إلى إشبيلية في سنة ست عشرة وستمائة ، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات ، فسمعت عليه بعضه ، وأجاز لي سائره مع رواياته وتواليفه ، وأخذ عنه أصحابنا ، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية ، انتهى .  
ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوق إلى الشام :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرُ  
بَعْدْتُ عنكم فلا والله بَعْدُكُمْ  
إذا تذكرت أوقاتاً نأت ومضتُ  
كأنني لم أكن بالنيربين ضحى  
والورق تُنشدُ ، والأغصانُ راقصةُ  
والسفنُ أين عشيَّاتي التي سلفتُ  
سقاك يا سفحُ سفحِ الدَّمعِ مُنْهَملاً  
فإن قلبي بنار الشوق يستعمرُ  
ما لذَّ للعين لا نومٌ ولا سهر  
بقربكم كادت الأحشاء تنفطر  
والغيمُ يبكي ومنه يضحك الزهر  
والدوحُ يطربُ بالتصفيق والنهر  
لي منه فهي لعمرى عندي العمر  
وقلَّ ذاك له إن أعوزَ المطرُ

وله رحمه الله تعالى شروح لمقامات الحريري : كبير ، ووسط ، وصغير ،  
وفي الكبير من الآداب ما لا كفاء له <sup>١</sup> ، وكان رحمه الله تعالى مُعْجَباً بالشام .  
وقال ابن الأبار عندما ذكره : إنَّه شرح مقامات الحريري في ثلاث نسخ :  
كبرها الأدبية ، ووسطها اللغوية ، وصغرها المختصرة ، انتهى .  
وتوفي بِشَرِيشَ بلده سنة تسع عشرة وستمائة ، رحمه الله تعالى .

٦٥ - ومنهم أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد ، الأزدي ،  
القرطبي ، الملقَّب بضياء الدين <sup>٢</sup> ، أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم  
القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك .

١ الشرح الكبير هو المطبوع من شروح المقامات .  
٢ ترجمته في وفيات الأعيان ٥ : ٢١٩ وغاية النهاية ٢ : ٣٧٢ .

قال القاضي الشمس ابن خلّكان : إنّه رحل من الأندلس في عُنْفُوَان  
شبابه وقدم مصر فسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي ،  
وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدني المصري وأبا طاهر أحمد بن  
محمد الأصبهاني المعروف بالسَّلَفِي وغيرهم ، ودخل بغداد سنة ٥١٧ هـ ،  
وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي المقرئ المعروف بابن  
بنت الشيخ أبي منصور الخياط ، وسمع عليه كتباً كثيرة منها كتاب سيويه ،  
وقرأ الحديث على أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزار المعروف بقاضي المارستان  
وأبي القاسم ابن الحصين وأبي العز وغيرهم ، وكان ديناً ورعاً عليه وقار وسكينة ،  
وكان ثقة صدوقاً ثبتاً نبيلاً قليل الكلام كثير الخير مفيداً ، أقام بدمشق مدة ،  
واستوطن الموصل ، ورحل منها إلى أصبهان ، ثم عاد إلى الموصل ، وأخذ عنه  
شيوخ ذلك العصر . وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب الذيل ، وقال :  
إنّه اجتمع به بدمشق ، وسمع عنه مشيخة أبي عبد الله الرازي ، وانتخب عليه  
أجزاء ، وسأله عن مولده فقال : ولدت سنة ٤٨٦ في مدينة قرطبة ، ورأيت  
في بعض الكتب أن مولده سنة ٤٨٧ ، والأول أصح ، وكان شيخنا القاضي  
بهاء الدين أبو المحاسن<sup>٢</sup> يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب  
رحمه الله تعالى يفتخر بروايته وقراءته عليه ، وقال : كنّا نقرأ عليه بالموصل ،  
ونأخذ عنه ، وكنّا نرى رجلاً يأتي إليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم ، ثم يمد  
يده إلى الشيخ بشيء ملفوف ، فيأخذه الشيخ من يده ، ولا نعلم ما هو ، ويتركه  
ذلك الرجل ويذهب ، ثم تقفينا ذلك فعلمنا أنّها دجاجة مسمومة كانت تُرسم  
للشيخ في كل يوم ، يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها ، وإذا دخل  
الشيخ إلى منزله تولى طبخها بيده .

١ ابن خلّكان : سبع وعشرين وخمسة .

٢ أبو المحاسن : لم ترد في ق ط ج .

وذكر في كتاب<sup>١</sup> « دلائل الأحكام » أنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة ، آخرها سنة ٥٦٧ .

وكان الشيخ أبو بكر القرطبي المذكور كثيراً ما ينشد مسنداً إلى أبي الخير الكاتب الواسطي :

جَرَى قَلَمُ الْقَضَاءِ بِمَا يَكُونُ فسيَانِ التَّحْرُكُ وَالسَّكُونُ  
جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ وَيُرْزَقُ فِي غَشَاوَتِهِ الْجَنِينُ

وتوفي القرطبي المذكور بالموصل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٧ ، رحمه الله تعالى . انتهى كلام ابن خلكان ببعض اختصار .

٦٦ - ومنهم الوزير أبو عبد الله محمد ، ابن الشيخ الأجلّ أبي الحسن ابن عبد ربه<sup>٢</sup> ، وهو من حفداء صاحب كتاب « العقد » المشهور . حدث الشيخ الأجلّ أبو عبد الله محمد بن علي اليحصبي القرموني رفيقه قال : اصطحبت معه في المركب من المغرب إلى الإسكندرية ، فلما قربنا منها هاج علينا البحر ، وأشفينا على الفرق ، فلاح لنا ونحن على هذه الحال منار الإسكندرية ، فسررنا برؤيته ، وطمعنا في السلامة ، فقال لي : لا بد أن أعمل في المنار شيئاً ، فقلت له : أعلى مثل هذه الحال التي نحن فيها ؟ فقال : نعم ، فقلت : فاصنع ، فأطرق ثم عمل بديهاً :

لله دَرٌّ مَنَارِ اسْكَندريَّةَ كَمْ  
مِنْ شَامِخِ الْأَنْفِ فِي عِرْنَيْنِهِ شَمَمٌ  
يَكْتَسِرُ الْمَوْجُ مِنْهُ جَانِبِي رَجُلٍ  
لَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ مِنْ وَرْدٍ عَلَى سَفْنٍ  
يَسْمُو إِلَيْهِ عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْخَدَقِ  
كَأَنَّهُ بَاهَتْ فِي دَارَةِ الْأَفْقِ  
مُشَمَّرِ الذَّيْلِ لَا يَنْخَسِي مِنَ الْفَرْقِ  
مَا بَيْنَ مِصْطَبِحِهَا وَمَعْتَبِقِ

١ ابن خلكان : في كتابه الذي ساء .

٢ انظر الترجمة رقم : ٥٣ فيما سبق .

للمنشآت الحوارية عند رؤيته كموقع النوم من أجفان ذي أرقٍ  
وتقدمت ترجمة الكاتب أبي عبد الله ابن عبد ربه ، وأظنّه هذا ، فليُتنبّه  
له ، بل أعتقد أنّه هو لا غيره ، والله تعالى أعلم .

٦٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن الصفار ، القرطبي<sup>١</sup> . قال في القدح  
المعلّى : بيتهم<sup>٢</sup> مشهور بقرطبة ، لم يزل يتوارث في العلم والجاه وعلو المرتبة ،  
ونشأ أبو عبد الله هذا حافظاً للآداب<sup>٣</sup> ، إماماً في علم الحساب ، مع أنّه كان  
أعمى مقعداً مشوّه الخلق ، ولكنّه إذا نطق علم كلّ منصف حقّه ، ومن  
عجائبه أنّه سافر على تلك الحالة ، حتى غدت بغداد له هالة . اجتمعت به<sup>٤</sup> بحضرة  
تونس فرأيت بجرّاً زاحراً ، وروضاً ناضراً ، إلا أنّه حاطبٌ ليلٍ ، وساحبٌ  
ذيل ، لا يبالي ما أورده ، ولا يلتفت إلى ما أنشده ، جامعاً بين السمين والغث ،  
حافظاً للمتين والرث ، وكان يُقرىء الأدب بمراكش وفاس وتونس وغيرها .  
ومن مشهور حكاياته أنّه لما قال أبو زيد الفازاري في أبي العلاء المستنصر  
قصيدته التي مطلعها :

الحزمُ والعزمُ منسوبان للعربِ

عارضه بقصيدة<sup>٥</sup> ، ثم قال فيه وفي ابن أخيه يحيى بن الناصر الذي نازعه  
في ذلك الأوان [رداء السلطان]<sup>٦</sup> :

١ انظر القدح المعلّى : ٢٠٣ والمغرب ١ : ١١٧ .

٢ القدح : بيته .

٣ القدح : لفنون الآداب .

٤ زاد في القدح : غير ما مرة .

٥ زاد في القدح : ذم فيها أنصاره .

٦ زيادة من القدح .

وإن يُنازعكَ في المنصور ذو نسب فنَجَلُ نوحٍ ثَوَى في قِمةِ العُطْبِ  
وإن يقلُّ أنا عمُّ فالجوابُ له عمُّ النبيِّ بِلَا شكٍّ أبو هُبِّ

وشاعت القصيدة فبلغت أبا العلاء ، فحرض على قتله ، وسلّمه الله تعالى منه ،  
ومات سنة ٦٣٩ .

ومن شعره قوله ٢ :

لا تحسبِ الناسَ سَوَاءً متى تشابهوا فالناسُ أطوارُ  
وانظرُ إلى الأحجارِ ، في بعضها ماءٌ ، وبعضُ ضمنها نارُ

وقوله :

يا طالعاً في جُفوني وغائباً في ضلوعي  
بالغت في السُّخْطِ ظلماً وما رحمت خُضوعي  
إذا نويّت انقطاعاً فاحسب حساب الرجوع

انتهى باختصار يسير .

٦٨ - ومنهم أبو الوليد ابن الجَنَانِ محمد بن المشرف أبي عمرو ابن  
الكاتب أبي بكر ابن العالم الجليل أبي العلاء ابن الجنان الكِنَانِي الشاطبي ٣ . قال  
ابن سعيد : توارثوا بشاطبة ، مراتب تحسُدُها النجوم الثاقبة ، وأبو الوليد  
أشعرهم ، وقد تجدّد به في أقطار المشرق ، مَفْخَرُهُمْ ، وهو معروف هناك  
بفخر الدين ، ومتصدر في أئمة النحويين ، ومرتب في شعراء الملك الناصر  
صاحب الشام ، ومقطعاته الغرامية قلائدُ أهل الغرام ، صحبته بمصر ودمشق

١ في الأصول : قسمة ، والتصويب عن المغرب .

٢ هذا الشعر والذي يليه وردا في المغرب والقدح ؛ وقد سقطا من نسخة ق .

٣ ترجمته في القدح : ٢٠٦ والمغرب ٢ : ٣٨٣ وبنية الوعاة : ٤٥ والفوات ٢ : ٣٢١ .

٤ القدح : شرق الأندلس .



وحلب ، وجريتُ معه طلق الجموح في ميادين الأدب ، وأنشدني بدمشق ١ :

أنا من سُكْرِ هَواهُمُ ثَمِلٌ      لا أبالي هَجَرُوا أم وَصَلُوا  
فَبِشَعْرِي وَحَدِيثِي فِيهِمْ      زَمَزَمَ الحادي وسار المثلُ  
إِنَّ عِشاقَ الحَمِي تَعْرِفِي      والحَمِي يَعْرِفِي وَالطَّلُ  
رَحَلُوا عَن رَنعِ عيني فلذا      أَدْمُعي عَن مُقَلّي تَرَحَلُ  
ما لَها قَد فارقتْ أوطانها      وهي لَيسَت لِحماهم تَصِلُ  
لا تَظنُّوا أنِّي أسلو فما      مَذهبي عَن حُبِّكم يَنْتَقِلُ

وقوله رحمه الله تعالى ٢ :

بالله يا بانه الوادي إذا خَطَرَتْ      تلك المعاطفُ حيثُ الشيحُ والغارُ  
فَعانِقِيها عَن الصَّبِّ الكَثيرِ فما      على مَعانِقِةِ الأَغصانِ إنكارُ  
وعَرَّفِيها بِأَنّي فيكَ مَكتَبُ      فبعضُ هذا لَها بِالْحَبِّ إخبارُ  
وأنتُمُ جيرةُ الجِرعاءِ مِن إِضْمٍ      لي في حِماكم أَحاديثُ وأَسمارُ  
وأنتُمُ أَنتمُ في كُلِّ آوَنَةٍ      وإِنما حُبُّكم في الكونِ أَطوارُ  
ويا نَسِيماً سَرى تَحَدُّو رِكابِهِ      لي بِالغَويرِ لُباناتُ وَأَوطارُ  
ولهُ ٣ :

يا رَعى اللهُ أَنسنا بَينَ رَوْضِ      حيثُ ماءُ السُرورِ فيه يَجولُ  
تَحسَبُ الزَهرَ عَندَهُ يَتَفنى      وَتَخالُ الغُصُونِ فيه تَميلُ

وله ٤ :

١ الأبيات في القدح المعلق .

٢ القدح : ٢٠٧ .

٣ قالهما في بستان على نهر ثورا أحد أنهار دمشق ، انظر القدح : ٢٠٨ والنوات : ٢٢٤ .

٤ القدح : ٢٠٨ .

هات المدامَ فقد ناح الحمامُ على  
وأعينُ الزهرِ من طولِ البُكا رمدتُ  
والكأسُ حلتها حمراءُ مُذهبةُ  
كم قلتُ للأفقِ لما أن بدا صلَفاً  
إن تِهتَ بالشمسِ يا أفقَ السماءِ فلي  
قُم اسقنيها وثرغُ الصبحِ مبتسمُ  
والسُحُبُ قد لبستُ سودَ الثيابِ وقد

وله ١ :

عَلَيْكَ مِنْ ذَاكَ الْحَمَى يَا رَسُولَ  
بَشْرَى عِلَامَاتِ الرِّضَى وَالْقَبُولِ  
جئتَ وفي عِطْفَيْكَ مِنْهُمْ شَدًّا  
يسكرُ من خمرِ هواه العذولُ

ومنها :

أحبابنا ودّعتمُ ناظري  
حلتم قلبي وهَوَ السذي  
أنا الذي حدثت عني الهوى  
فليزدِ العاذلُ في عدلِهِ  
وأنتمُ بينَ ضلوعي نُزُولُ  
يقولُ في دينِ الهوى بالحلولُ  
بأنتي عن حبكم لا أحولُ  
وليقلِ الواشي لكم ما يقولُ

انتهى كلام النور بن سعيد .

وقال غيره : ولد المذكور بشاطية منتصف شوال سنة ٦١٥ ، ومات  
بدمشق ودفن بسفح قاسيون ، وكان عالماً فاضلاً ، دمث الأخلاق كريم الشمائل ،  
كثير الاحتمال واسع الصدر ، صحب الشيخ كمال الدين بن العديم وولده قاضي

القضاة مجد الدين ، فاجتذبه إليهم ، وصار حنفيّ المذهب ، ودرس بالمدرسة الإقبالية الحنفيّة بدمشق ، وله مشاركة في علوم كثيرة ، وله يد في النظم ، ومنه قوله :

لله قومٌ يعشقون ذوي اللحمي      « لا يسألونَ عن السوادِ المقبلِ »  
وعمهجتني قومٌ وإنّي منهمُ      « جُبِلوا على حبِّ الطرازِ الأولِ »

وله أيضاً :

قُم اسقنيها وليلُ الهمّ منهزمُ      والصبحُ أعلامهُ محمّرةُ العذَبِ  
والسحبُ قد نثرت في الأرض لؤلؤها      تضمّه الشمسُ في ثوبٍ من الذهبِ

وقد تقدم عن ابن سعيد له ما يقارب هذا <sup>١</sup> .

وله - رحمه الله تعالى - في كاتب :

وبي كاتبٌ أضمرتُ في القلبِ حُبّه      مخافةَ حُسّادي عليهِ وعُدّالي  
له صنعةٌ في خطِّ لامٍ عذارهِ      ولكن سها إذ نَقَطَ اللام بالخال

٦٩ - ومنهم أبو محمد القرطبي <sup>٢</sup> ، قال ابن سعيد : لقيته بالقاهرة ، وكأنّه لا خبر عنده من الآخرة ، وقد طال عمره في أكلِ الأغراض ، وفسادِ الأغراض ، وممّا بقي في أذني من شعره قوله :

رَحِمَ اللهُ من لقيتُ قديماً      فلقد كان بي رؤوفاً رحيماً  
أتمنى لقاء حُرٍّ وقد أعُ      وزَ بجنتي كما عدتُ<sup>٣</sup> الكريماً

١ انظر البيهقيين الأخيرين في البائية ص : ١٢٢ .

٢ ترجمته في القدح : ٢١٢ واسمه فيه « أبو المعامد » وقال إنه كان يلقب بأبي بغل ولقب أيضاً ببحر بلبيس لأنه أقام فيها زمناً يكره كل من جاء من الشام أو من سافر إليها .

٣ ق ط ج : علمت .

وتوفّي بالقاهرة سنة ٦٤٣ ، انتهى .

٧٠ - ومنهم علي بن أحمد ، القادسي ، الكنافي<sup>١</sup> ، قال ابن سعيد :  
لقيته بيت المقدس على زي الفقراء ، وحصلت منه هذه الأبيات ، وندمت بعد  
ذلك على ما فات ، وهي :

ذاك العذارُ المطلُّ دمي عليه يُطلُّ  
كأنّما الخدُّ ماءٌ وقد جرى فيه ظلُّ  
عُقودُ صبري عليه مذ حلَّ قلبي تحلُّ  
جرتُ دموعي عليه فقلتُ آسٌ وطلُّ

٧١ - ومنهم أبو عبد الله ابن العطار ، القرطبي<sup>٢</sup> ، قال ابن سعيد : هو  
حلو المنازع ، ظريف المقاطع والمطالع ، مطبوع النوادر ، موصوف بالأديب  
الشاعر ، مازجته بالإسكندرية ، وبهذه الحضرة العلية ، وما زال يدين بالانفراد ،  
والتجول في البلاد ، حتى قضى مناه ، وألقى بهذه المدينة عصاه ، لا يخطر  
الهمُّ له ببال ، ولا يبيت إلاّ على وعد من وصال ، وله حين سمع ما ارتجلته  
في السكين بالإسكندرية حين داعبني باختلاسها القاضي زين القضاة ابن الرّيفي ،  
وقال : ما لي إليه سبيل ، حتى يحضر مصري نبيل :

أيا سارقاً ملكاً مصوناً ولم يجِبْ على يده قطعٌ وفيه نِصابُ  
ستندُبه الأقلامُ عند عثارها ويبيكه إن يعدُّ الصوابَ كتابُ

فقال :

١ ترجمته في القلح : ٢١٣ وقال ابن سعيد : وكان اجتماعي به سنة ثلاث وأربعين ( وستمائة ) ولم  
أسع له خبراً منذ ذلك الحين .  
٢ ترجمته في القلح : ٢١٥ .

أحاجيكَ ما شيء إذا ما سرقتهُ وفيه نصابٌ ليسَ يلزمك القطعُ  
على أن فيه القطعَ والحدُّ ثابتٌ ولا حدٌّ فيه ، هكذا حكمَ الشرعُ

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه «القدح المعلى» فيما أظن .

\* \* \*

### [ رسالة لسان الدين ]

ويعني والله سبحانه وتعالى أعلم بقوله « وبهذه الحضرة العلية » حضرة  
تونس المحروسة<sup>١</sup> ، فإنها كانت محط رحال الأفاضل ، من الأواخر والأوائل ،  
حتى إن قاضي القضاة ابن خلدون أقام بها مدة ، ومنها ارتحل إلى مصر ، وكذلك  
الخطيب الجليل سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق رحمه الله تعالى ، ومنها خاطب  
الوزير لسان الدين بن الخطيب وسلطانه في الشفاعة له عند سلطان المغرب ، فكتب  
لسان الدين عن سلطانه في ذلك ما نصّه : المقام الذي نؤكد إليه ببر سلفه الوداد ،  
ونغري بتخليد فخره وأمره القلّم والمداد ، ونصل به الاستظهار على عدو  
الله تعالى والاعتداد ، ونخطب له من الله بهزّ أعطافه للخير والتوفيق والسداد ،  
والإعانة منه والإمداد ، مقامٌ محلّ أحنينا الذي اشتهر فضله ودينه ، ووضع  
سعدته متألّقةً براهينه ، وحيّاه الصنع الجميل وبيّاه مشرقاً جيّنه ، السلطان  
الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله يرعى الدّم ، ويسلك  
من الفضائل المنهج الأمّم ، ويغلي البضائع النافقة عند الله تعالى ويعلي المهمم ،  
معظم قدره ، وملتزم بره ، الحريص على توفير أجره وتخليد فخره ، فلان .  
أمّا بعد حمد الله تعالى ناصر الإمرة المطاعة ، المحافظة على السنّة والجماعة ،

١ هذا واضح من أن ابن سعيد ألف القدح ليعلم به أبا زكريا ابن الإمام المستنصر بالله الحفصي صاحب تونس .

وحافظها من الإضاعة ، إلى قيام الساعة ، الذي جعل المودّة فيه أنفع الوسائل  
 النّقاة ، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسوله المخصوص بمقام  
 الشفاعة على العموم والإشاعة ، متمم مكارم الأخلاق من الفضل والبذل والحياء  
 والشجاعة ، والرضى عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة ،  
 وزرعوا الخير في العاجلة ففازوا في الآجلة بفائدة تلك الزراعة ، والدعاء لمقامكم  
 الأعلى بصنع يرّوي فيه عن الأشمط الباتر خبير النصر المتواتر لسان البراعة ، وتأييد  
 لا ترضى فيه القنا بمقام القناعة ، فإنّا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لثناكم  
 العاطر بتخليد المفاخر منشور الإذاعة ، في أيدي النواسم الضوّاعة ، من حمراء  
 غرناطة - حرسها الله تعالى - عن خير هامي السحاب ، وبشر مفتّح الأبواب ،  
 وعز للإسلام - ببركة الاعتداد بملككم المنصور الأعلام - مقتبل الشباب ،  
 ويمن ضافي الجلباب ، والحمد لله على تضافر الأيدي في ذاته وتوفّر الأسباب ،  
 وجانبكم الرفيع الأمل للمتتاب ، إذا حدّت الحداة ذوات الأقتاب ، ومطمح  
 الوسائل المطرزة المسائل بتصحيح الود اللّباب ، وإلى هذا وصل الله تعالى ،  
 سوابغ نعمه وآلائه دائمة الانسكاب ، وجعل ما عجل لكم من نعمه كفيّلة  
 بالزلفى وحسن المآب ، وأهلمكم تقييد شواردها بالشكر قولاً وعملاً فالشكر  
 مستدعي المزيد كما وعدّ في الكتاب ، فإن من المنقول الذي اشتهر ، وراق  
 فضله وبهّر ، قوله «اشفعوا توجروا» وما في معناه من المعبر في الخبر ، وتنفيس  
 كربة عن مسلم ، وسماع شكوى من متظلم ، ولولا أن مقامكم السني أغنى ،  
 بلحبنا الكثير من هذا المعنى ، ولما تحقّق ما أنتم عليه من سلوك سبيل والدكم الملك  
 الصالح - قدس الله تربته ، وضاعف قربته - من يمن الظفر ، وسلوك سبيل  
 الخير وإقامة رسوم الدين ، والاهتداء من هديّه بالنور المبين ، خفّ علينا  
 أن نقصدكم بالشفاعات مع الساعات ، ونتجر لكم مع الله بأنفس البضاعات ،  
 فما أثمر من ذلك شكرنا الله تعالى عليه حقيقة وشكرناكم عليه شريعة ، وما  
 تأخر أوسعناكم فيه عذراً يسد ذريعة ، وعلمنا أن الله تعالى لم يأذن في تعجيله ،

وسألناه في تيسيره وتسهيله ، سواء لدينا في ذلك ما عاد ، بإعانة عامة وإمداد ، وساهم في قصد جهاد ، وما لم يَعُدْ علينا خصوصاً وعلى المسلمين عموماً بإعانة ولا إرفاد ، إتما علينا أن نجلب الخير الباقي والأجر الراقي إلى بابكم ، وندلّ عليه كريم جنابكم ، بمقتضى وداد ، صُبَّحه باد ، وجميل ظن في دينكم المتين واعتقاد ، سَلِّم مجمله ومفصله من انتقاد ، وذلك أن الشيخ الخطيب الفقيه الكبير الشهير الصدر الأوحده سلاله الصالحين ، وخطيب والدكم كبير الخلفاء والسلاطين ، ويا لها من مزية دنيا ودين ، أبا عبد الله ابن مرزوق جبرَ الله تعالى على يدكم البرة حاله ، وسنّى من مقامكم السني آماله ، جرى عليه من المحن ، وتباريح الإحن ، ما يعلم كلُّ ذي مروءة وعقل ، واجتهاد ونقل<sup>٢</sup> ، أن ذلك من الجنائيات على والدكم السلطان محسوب ، وإلى معقّاته منسوب ، ولو كانت ذنوبه رَضَوَى وثبيرا ، لاستدعت إلى تعمدها عفواً كبيراً ، رَعياً لذلك الإمام الصالح الذي كَبَّرَ خلفه وأحرم ، وتشهد وسلّم ، وأمن عقب دعائه ، ونصّب كفته لمواهب الله تعالى وآلائه ، وأنصت لخطبته ووعظه ، وأوجب المزية لسعة حفظه وعذوبة لفظه ، فأحبط ذلك من أحبط الأعمال الصالحة ، وعطل المتاجر الراجحة ، وأسفَ الملك المذكورُ بدم ولده ، وإحراق خزائنه وعدده ، وتغيير رسومه وحُدُوده ، وإسخاطه وإسخاط الله معبوده ، إلى أن طهر سيفكم المُلْك من عاره ، وأخذ منه بثاره ، وتقرّب إلى الله وإلى السلف الكريم بمحو آثاره ، والحمد لله على ما خصّه من إثاره ، وتدارك الإسلام بإقالة عثاره ، وإنه خاطبنا الآن من حضرة تونس يقرّر من حاله ما يَقْتُ الفؤاد ، ويوجب الامتعاض له والاجتهاد ، يطلب منّا الإعانة بين يديكم والإنجاد ، ويشكو العيِّلة والأولاد ، والغربة التي أحلته الأقطار النازحة والبلاد ، والحوادث التي سلبته الطارف

١ ق ط ج : ونتائج .

٢ ق ج : وفضل .

والتلاد ، وأن نذكركم بوسيلته ، وضعف حيلته ، فبادرنا لذلك عملاً بالواجب ، وسلوكاً من بره ورعي حقه على السنن اللائح ، وإن كنا نطوقه في أمرنا عند الحادثة علينا تقصيراً ، ولا نشكر إلا الله ولياً ونصيراً ، فحقه علينا أوجب ، فهو الذي لا يُجحد ولا يُحجب ، ولا يلتبس منه المذهب ، وكيف لا يشفع فيمن جعله السلف إلى الله تعالى شافعياً ، وأحله محلاً منياً رافعاً ، إلى وليه الذي جبر ملكه سريعاً ، وصير جنابه بعد المحول مريعاً ، وجدد رسومه تأصيلاً لها وتفريعاً ، ومثلكم من اغتم بره في نصر مظلوم ، وسبر مكلوم ، وإعداء كرم على لوم ، وهي منا ذكرى تنفع ، وحرص على أجر من يشفع ، وإسعاف لمن سأل ما يُعلي من قدركم ويرفع ، وتأدية لحق سلفكم الذي توفرت حقوقه ، وإبلاغ نصيحة دينية إلى مجدكم الذي لا يمنعه عن المجد مانع ولا يعوقه ، ومطلبه في جنب ملككم الكبير حقير ، وهو إلى ما يفتح الله تعالى به على يد صدقتكم فقير ، ومنهلكم الأروى ، وباعكم في الخير أطول وساعدكم أقوى ﴿ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللهُ ﴾ (البقرة : ١٩٧) ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (البقرة : ١٩٧) والله ، عز وجل ، يسلك بكم المسالك التي تخلد بالجميل ذكركم ، وتعظم عند الله أجركم ، فما عند الله خير للأبرار ، والدنيا دار الغرور والآخرة دار القرار ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

والسلطان المخاطب بهذا هو أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني ، وكان ابن مرزوق غالباً على دولة السلطان أبي سالم أخي أبي فارس المذكور ، فقتله الوزير عمر بن عبد الله الفودودي ، وتغلب على الملك ، ونصب أخاً لأبي سالم معتوهاً ، وسجن ابن مرزوق ، ورام قتله ، فخلصه الله تعالى منه ، ثم إن السلطان أبا فارس ثار على الوزير المتغلب وقتله ، واستقل بالملك ، فخطب في شأن ابن مرزوق بما ذكر .



رجع إلى ما كتبنا فيه من ذكر الراحلين من أعلام الأندلسيين إلى البلاد  
المشرقية المحروسة بالله سبحانه وتعالى ، فنقول :

٧٢ - ومنهم أبو الوليد وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر ،  
الأزدي ، القرطبي ، المعروف بابن الفرّاضي ، الحافظ المشهور<sup>١</sup> ، كان فقيهاً  
علماً<sup>٢</sup> عارفاً بعلم الحديث ورجاله ، بارعاً في الأدب وغيره ، وله من التصانيف  
« تاريخ علماء الأندلس » ، وقفت عليه بالمغرب ، وهو بديع في بابه وهو الذي  
ذيل عليه ابن بشكّوالم بكتاب « الصلة » ، وله كتاب حسن في « المؤتلف  
والمختلف » وفي « مشتهه النسبة » ، وكتاب في « أخبار شعراء الأندلس » ، وغير  
ذلك ، ورحل من الأندلس إلى المشرق سنة ٣٨٢ ، فحجّ وسمع من العلماء  
وأخذ منهم وكتب من أماليهم ، وروى عن شيوخ عدّة من أهل المشرق .  
ومن شعره :

أسيرُ الخطايا عندَ بابكَ واقفُ      على وجَلٍ ممّا به أنتَ عارفُ  
يخافُ ذنوباً لم يغيبْ عنك غيبُها      ويرجوكَ فيها فهو راجٍ وخائفُ  
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويَتقى      وما لكَ في فصلِ القضاءِ مُخالفُ  
فيا سيّدي لا تُخزني في صحيفتي      إذا نُشرتَ يومَ الحسابِ الصحائفُ  
وكنْ مؤنسي في ظلمة القبر عندما      يصدُّ ذو القربى ويجفو المؤلفُ  
لئن ضاق عني عقوُك الواسع الذي      أرجي لإسرافي فإنّي لتألفُ

وكان - رحمه الله تعالى - حسنَ الشعر والبلاغة . ومن شعره أيضاً ،

١ انظر ترجمة الحافظ ابن الفرّاضي في الجذوة : ٢٣٧ (وبنية الملتبس رقم : ٨٨٨) والصلة :  
٢٤٦ والمطمح : ٥٧ والذخيرة ٢/١ : ١٣٠ والمغرب ١ : ١٠٣ والمطرب : ١٣٢ ووفيات  
الأعيان ٢ : ٢٩٠ وتذكرة الحفاظ : ١٠٧٦ والديباج المذهب : ١٤٣ وشذرات الذهب ٣ :  
١٦٨ .

٢ هذا النص حتّى بداية النقل عن « المطمح » متابع لما أورده ابن خلكان مع شيء من التصرف .

رحمه الله تعالى :

إن الذي أَصْبَحَتْ طَوْعَ يَمِينِهِ      إن لم يكن قمرًا فليس بدونه  
ذُلِّي له في الحبّ من سلطانه      وسَقَامُ جُسمي من سقامِ جفونه

وله شعر كثير . ومولده في ذي القعدة ليلة الثلاثاء لتسع بقين منه سنة ٣٥١ ، وتولى القضاء بمدينة بلكنسية في دولة محمد المهدي المرواني ، وقتله البربر يوم فتح قرطبة يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة ٤٠٣ ، وبقي في داره ثلاثة أيام ، ودفن متغيراً من غير غسل ولا كفن ولا صلاة ، رحمه الله تعالى . وروي عنه أنه قال : تعلقت بأستار الكعبة ، وسألت الله تعالى الشهادة ، ثم انخرفت وفكرت في هَوْلِ القتل ، فندمت وهممت أن أرجع فأستقبل الله سبحانه وتعالى فاستحييت . وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف : « لا يُكَلِّمُ أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يُكَلِّمُ في سبيله ، إلاّ جاء يوم القيامة وجرحه يَتَعَبُّ دماً اللونُ لونُ الدم والريح ريح المسك » كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك ، قال : ثم قَصَى على أثر ذلك . وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه .

وقد ساق في المطمح حكايته فقال : كان حافظاً عالماً كلفاً بالرواية ، رحل في طلبها ، وتبحر في المعارف بسببها ، مع حظ من الأدب كثير ، واختصاص بنظير منه ونثير ، حجّ وبرع ، في الزهادة والورع ، فتعلّق بأستار الكعبة يسأل الله الشهادة ثم فكّر في القتل ومرارته ، والسيف وحرارته ، فأراد أن يرجع ويستقبل الله تعالى فاستحيا ، وآثر نعيم الآخرة على شقاء الدنيا ، فأصيب في تلك الفتن مكلوماً ، وقتل مظلوماً ، ثم ذكر مثل ما مرّ . وممّا قال في طريقه ، يتشوق إلى فَرِيقِهِ ١ :

١ الشعر في المطمح والجدوة والمغرب .

مَصَّتْ لي شهورٌ منذ غبم ثلاثة<sup>١</sup> وما خِلْتُني أبقي إذا غبمُ شهراً  
وما لي حياةٌ بعدكم أستلذُّها ولو كان هذا لم أكن في الهوى حرّاً  
ولم يُسَلِّني طولُ التناهي عليكم<sup>٢</sup> بلي زادني جداً وجدّ دلي ذكرى  
يمثلكم لي طولُ شوقي إليكم<sup>٣</sup> ويدنيكم حتى أناجيكم سراً  
سأستعَبُ الدهرَ المفرّقَ بيننا وهل نافعي أن صرتُ أستعَبُ الدهراً  
أعللُ نفسي بالمتى في لقاءكم<sup>٤</sup> وأستهلُّ البرَّ الذي جُبْتُ والبحراً  
ويؤنِّسني طيُّ المراحلِ عنكم<sup>٥</sup> أروحُ على أرضٍ وأغدو على أخرى  
وتالله ما فارقتمكم عن قلبي لكم ولكنها الأقدارُ تجري كما تُجرى  
رعتكم من الرحمن عينٌ بصيرة<sup>٦</sup> ولا كشفتُ أيدي النوى عنكم سراً

وقد عرّف به ابن حيان في المقتبس ، وذكر قصة شهادته ، رحمه الله تعالى .

٧٣ - ومنهم الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ، البكري ،  
الشريشي ، المالكي<sup>١</sup> ، ولد بشرّيش سنة ٦٠١ ، ورحل إلى العراق ، فسمع  
به المشايخ كالقطيعي<sup>٢</sup> وابن رَوَزْبَةَ<sup>٣</sup> وابن الكثير وغيرهم ، واشتغل وساد أهل  
زمانه ، واشتهر بين أقرانه ، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية ، ثم انتقل إلى  
القدس الشريف ، فأقام به شيخ الحرم ، ثم جاء إلى دمشق المحروسة بالله ، وتولى  
مشيخة الحديث بترية أم صالح ومشيخة الرباط الناصري ومشيخة المالكية ، وعرض  
عليه القضاء فلم يقبل ، وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب ،  
بالرباط الناصري ، ودفن بسفح قاسيون ، رحمه الله تعالى ، وذلك سنة  
خمس وثمانين وستمائة .

وليس هو بشارح المقامات<sup>٣</sup> ، بل هو غيره ، وقد اشتركا في البلد ، فبسبب

١ ترجمة الشريشي في شذرات الذهب ٥ : ٣٩٢ .

٢ ق ط ج : وابن زروبة .

٣ قد نسب إليه في الشذرات أنه شرح المقامات ، وهو وهم كالذي نبه عليه المقري .

ذلك ربّما يقع في الأذهان الوهم في أمرهما ، وشارح المقامات أحمد وهذا محمد ، وقد ترجمنا صاحب شرح المقامات فيما تقدم من هذا الباب <sup>١</sup> ، فليراجع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

٧٤ - ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلس ، القيسي ، الأندلسي ، البلسنسي <sup>٢</sup> : كان من أهل العلم باللغة والعربية ، مشاراً إليه فيهما ، رحل من الأندلس ، وسكن بمصر واستوطنها ، وقرأ الأدب على أبي العلاء صاعد اللغوي صاحب كتاب « الفصوص » ، وعلى أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن خُرَزَّاذ بن النَجِيرَمي <sup>٣</sup> . ودخل بغداد ، واستفاد وأفاد ، وله شعر حسن ، فمن ذلك قوله :

مريضُ الحُفُونِ بلا علةٍ ولكنَّ قلبي به مُمرَضٌ  
أعان السُّهادَ على مقلتي بفيضِ الدموعِ فما تغمضُ  
وما زارَ شوقاً ولكن أتى يُعرِّضُ لي أنه مُعرِّضُ

وله أشعار كثيرة . وتوفي يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة ٤٢٧ ، وقيل : سنة ٤٢٩ ، بمصر ، وكان استوطنها ، وصلى عليه الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم الحوفي صاحب التفسير في مصلى الصّدّقي ، ودفن عند أبي إسحاق ، رحمه الله تعالى .

ومُغَلِّسٌ : بضم الميم ، وفتح الغين ، وتشديد اللام المكسورة ، وبعدها سين مهملة . وكانت بينه وبين أبي الطاهر إسماعيل بن خلف <sup>٤</sup> صاحب كتاب

١ انظر الترجمة رقم : ٦٤ فيما سبق .

٢ ترجمة ابن المغلس في وفيات الأعيان ٢ : ٣٦٠ وعنه ينقل المقرئ أكثر الترجمة . والجذوة :

٢٦٩ (وبنية الملتبس رقم : ١٠٨٨) والصلة : ٣٥١ .

٣ ق ط ج : يوسف بن خرقان ، والتصويب عن ابن خلكان .

٤ هو إسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران المالكي المقرئ الأندلسي ، أبو طاهر ، استوطن مصر وحدث بها (الصلة : ١٠٥ - ١٠٦) .

« العنوان » معارضات في قصائد . ومن شعر ابن المغلس أيضاً قوله في حمّام :

ومنزل أقوامٍ إذا ما اغتدّوا بهِ تشابه فيهِ وَغَدُهُ ورئيسه  
يُخالطُ فيهِ المرءَ غيرَ خَلِيطِهِ وَيُضحِي عدوُّ المرءِ وهو جليسه<sup>١</sup>  
يفرّجُ كربِي إن تزايدَ كربه ويؤنسُ قلبي أن يُعدَّ أنيسه  
إذا ما أعرتَ الحوضَ ماءً<sup>٢</sup> تكاثرت على مائه أقماره وشموسه

٧٥ - ومنهم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الحكيم الأديب المعروف بالمغربي<sup>٣</sup> ، وهو من أهل المرية ، وانتقل إلى المشرق ، وكان كامل الفضيلة ، وجمع بين الأدب والحكمة ، وله ديوان شعر جيد ، والخلاعة والمجون غالبه عليه ، وذكر العماد في « الخريدة » أنه كان طبيب المارستان المستصحب في معسكر السلطان السلجوقي حيث خيم ، وكان السديد يحيى ابن سعيد المعروف بابن المرخّم الذي صار أفضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي فاصداً وطبيباً في هذا المارستان . وأثنى العماد على أبي الحكم المذكور ، وذكر فضله وما كان عليه ، وأن له كتاباً سمّاه « نهج الوضاعة ، لأولي الخلاعة » ، ثم إن أبا الحكم انتقل إلى الشام ، وسكن دمشق ، وله فيها أخبار ومجاريات<sup>٤</sup> ظريفة تدل على خفة روحه .

قال ابن خلكان : رأيت في ديوانه أن أبا الحسين أحمد بن منير الطرابلسي كان عند الأمراء بني مُنقذ بقلعة شيزر ، وكانوا مقبلين عليه ، وكان بدمشق شاعر يقال له أبو الوحش<sup>٥</sup> ، وكانت فيه دُعابة ، وبينه وبين أبي الحكم المذكور

١ ق : وهو فيه جليسه .

٢ ق ج ط : أعرت الجوّ طرفاً .

٣ ترجمة أبي الحكم المغربي في وفيات الأعيان ٢ : ٣٠٧ (وعنه ينقل المقرئ) وابن أبي أصيبعة ٢ : ١٤٤ - ١٥٥ .

٤ اقرأ أيضاً : ومجاريات .

٥ هو سبيع بن خلف الفقعسي وكانوا يصغرون كنيته فيقولون « وحيش » وقد مرت الإشارة إليه وإلى مصادر ترجمته ، انظر ١ : ٦١ .

مداعبات ، فسأل منه كتاباً إلى ابن منير بالوصية عليه ، فكتب أبو الحكم :

أبا الحسينِ استمعَ مقالَ فتى      عوجِلَ فيما يقولُ فارتجلاً  
هذا أبو الوحشِ جاءَ ممتدحاً      للقومِ فاهناً به إذا وصلاً  
واتلُ عليهم بحسنِ شرحك ما      أنقلهُ من حديثهِ جملاً  
وخبرَ القومِ أنه رجُلٌ      ما أبصرَ الناسُ مثلهُ رجلاً  
تنوبُ عن وصفهِ شمائله      لا يبتغي عاقلٌ به بدلاً  
ومنها :

وهو على خيفةٍ بهِ أبدأ      معترفٌ أنه من الثُقلا  
يَمُتّ بالثلبِ والرعاةِ وال      سُخفٍ ، وأما بغيرِ ذلك فلا  
إن أنتَ فاتحتَهُ لتخبرَ ما      يصنُدُ عنه فتحتَ منه خلا  
فنبههُ إن حلَّ خطةَ الحسفِ وال      هونٍ ورحبُ به إذا رحلاً  
وأسقه السمَّ إن ظفرت بهِ      وامزجَ له من لسانِكَ العسلا

وله أشياء مستملحة ، منها مقصورة هزلية ، ضاهى بها مقصورة ابن دريد ،  
من جملتها :

وكلُّ مملومٍ فلا بدَّ له      من فرقةٍ لو ألزقوه بالغيرِ

وله مرثية في عماد الدين زنكي بن آق سنقر الأتابكي ، شاب فيها الجدلَّ  
بالهزل ، والغالبُ على شعره الانطباع . وتوفي ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة  
سنة ٥٤٩ ، وقيل : في السنة التي قبلها ، بدمشق ، رحمه الله تعالى .  
والقاضي ابن المرخم المذكور هو الذي يقول فيه أبو القاسم هبة الله ابن  
الفضل الشاعر المعروف بابن القطان<sup>١</sup> :

١ ابن القطان من شعراء الحريرة ، كان شاعراً رقيقاً مجوداً غلب عليه الهجاء (توفي ٥٥٨) انظر  
ابن خلكان ٥ : ١٠٤ .

يا ابن المرخَّم صرتَ فينا قاضياً خرفَ الزمانُ تُراهُ أمْ جُنَّ الفلَّكُ  
إن كُنْتَ تحكِّمُ بالنجومِ فربَّما أمّا بشرعِ محمدٍ مِن أين لك ؟

وكان أبو الحكم المذكور فاضلاً في العلوم الحكمية ، متقناً للصناعة الطيبة ،  
حسن النادرة ، كثير المداعبة ، محباً للهو والحلاعة والشراب ، وكان يعرف  
صنعة الموسيقى ويلعب بالعود ، ويجلس في دكان ببيرون للطب ، وسكناه  
باللبادين ، وأتى في ديوانه « نهج الوضاعة » بكل غريب ، يدل على أنه أريب ،  
سأحه الله تعالى وغفر له .

٧٦ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق ، من هو الأحق بالتقديم  
والسبق ، الشهير عند أهل الغرب والشرق ، الحافظ المقرئ الإمام الرباني ،  
أبو عمرو الداني ، عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر ، الأموي<sup>١</sup> ،  
مولاهم ، القرطبي ، صاحب التصانيف التي منها « المقنع » و« التيسير » ، وعرف  
بالداني لسكناه دانية ، وولد سنة ٣٧١ ، وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧ ورحل  
إلى المشرق سنة ٣٩٧ ، فمكث بالقيروان أربعة أشهر ، ودخل مصر في شوالها ،  
فمكث بها سنة ، وحج ، ورجع إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٣٩٩ ، وقرأ  
بالروايات على عبد العزيز بن جعفر الفارسي وغيره بقرطبة ، وعلى أبي الحسن  
ابن غلبون وخلف بن خاقان المصري وأبي الفتح فارس بن أحمد ، وسمع  
من أبي مسلم الكاتب ، وهو أكبر شيخ له ، ومن عبد الرحمن بن عثمان ،  
القشيري ، وحاتم بن عبد الله البزار<sup>٢</sup> ، وغير واحد من أهل مصر وسواها ،  
وسمع من الإمام أبي الحسن القاسبي ، وخلف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب  
والأندلس ، وتلا عليه خلق منهم مفرج الأفقالي وأبو داود ابن نجاج<sup>٣</sup> صاحب

١ ترجمة أبي عمرو الداني في الصلة : ٣٨٥ وغاية النهاية ١ : ٥٠٣ والديباج المذهب : ١٨٨ ومعجم

الأدباء ١٢ : ١٢٥ والجذوة : ٢٨٦ وبنية المنتسب رقم : ١١٨٥ .

٢ ط : البزاز .

٣ ق : حجاج .

«التزليل» في الرسم ، وهو من أشهر تلامذته ، وحدث عنه خلق كثير ، منهم خلف بن إبراهيم الطليطي .

قال أبو محمد عبيد الله الحَجْرِي : ذكر بعض الشيوخ أنه لم يكن في عصر الحافظ أبي عمرو الدَّانِي ولا بعد عصره أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه ، وكان يقول : ما رأيت شيئاً قط إلا كتبه ، ولا كتبه إلا حفظته ، ولا حفظته فنسيته .

قال ابن بَشْكُوَال : كان أبو عمرو أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه ، وجمع في ذلك كله تواليف حسناً ، وله معرفة بالحديث وطرقه وإعرابه<sup>١</sup> وأسماء رجاله ، وكان حسن الخط والضبط ، من أهل الحفظ والذكاء واليقين ، وكان ديناً فاضلاً ورعاً سنياً .  
وقال بعضهم ، وأظنه المتغامي<sup>٢</sup> : كان أبو عمرو مُجَاب الدعوة ، مالكي المذهب .

وقال بعض أهل مكة : إن أبا عمرو الدَّانِي مقرئ متقدم ، وإليه المنتهى في علم القراءات وإتقان القرآن ، والقراء خاضعون لتصانيفه ، واثقون بنقله في القراءات والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك ، وله مائة وعشرون مصنفاً ، وروى عنه بالإجازة رجلاً : أحمد بن محمد بن عبد الله الخَوْلَانِي ، وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن أبي حمزة ، وكانت وفاته رحمه الله تعالى بدانية في نصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

٧٧ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أحمد بن أبي حبيب ، الأندلسي<sup>٣</sup> ، من بيت علم ووزارة ، صرف عمره في طلب العلم ،

١ وإعرابه : سقطت من ج ط ق .

٢ انظر غاية النهاية ١ : ٥٠٤ ، والمغامي هو محمد بن عتيق بن فرج المقرئ الطليطي لقي أبا عمرو الداني وعليه اعتمد .

٣ ترجمة ابن حبيب في التكملة : ٨٣٤ وهو شليبي الأصل ؛ وقد ذكر أنه توفي في جمادى الآخرة =



وكان غزير العلم في الفقه والحديث والأدب وولي القضاء بالأندلس مدة<sup>١</sup> ،  
ثم دخل الإسكندرية ومصر ، وجاور بمكة المشرفة<sup>٢</sup> ، ثم قدم العراق وأقام  
ببغداد مدة<sup>٣</sup> ، ثم وافى خراسان فأقام بنيسابور وبلخ ، وكانت ولادته ببلاد  
الأندلس ، وتوفي بهرارة<sup>٤</sup> في شعبان سنة ٥٤٨ هـ ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

٧٨ - ومنهم أبو العباس أحمد بن علي بن محمد بن علي بن شكر الأندلسي  
المقرئ<sup>٣</sup> ، رحل وأخذ القراءات عن أبي الفضل جعفر الهمداني ، وسمع من  
أبي القاسم ابن عيسى ، وسكن الفيوم ، واختصر « التيسير » وصنّف شرحاً  
للشاطبية ، وتوفي سنة ٦٤٠ هـ ، رحمه الله تعالى .

٧٩ - ومنهم العلامة ذو الفنون علم الدين القاسم بن أحمد المريني ،  
اللورقي ، المقرئ ، النحوي<sup>٥</sup> ، ولد سنة ٦٥٧٥ هـ ، وقرأ القراءات وأحكم  
العربية وبرع فيها ، واجتمع بالجزولي ، وسأله عن مسألة في مقدمته ، وقرأ علم  
الكلام والأصولين<sup>٦</sup> والفلسفة ، وكان خبيراً بهذه العلوم ، مقصوداً بإقراءها ، وولي  
مشيخة قراءة العادلية ، ودرس بالعزيرية نيابة ، وصنّف شرحاً للشاطبية ،  
وشرحاً للمفصل في عدة مجلدات ، وشرح الجزولية ، وغير ذلك ، وكان مليح  
الشكل ، حسن البزّة ، وتوفي سنة ٦٦١ هـ ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه .

٨٠ - ومنهم أبو عبد الله ابن أبي الربيع ، القيسي ، الأندلسي ، الغرناطي ،

= سنة ٥٥١ هـ ؛ وراجع أخبار وتراجم أندلسية : ٥٧ - ٥٨ حيث عرف به السلفي .

١ تولى القضاء تسعة أعوام ثم امتحن بالأمرء لإقامته الحق وإظهاره العدل .

٢ كان ذهابه إلى مكة عام ٥٢٧ هـ .

٣ ترجمته في غاية النهاية ١ : ٨٧ .

٤ غاية النهاية : في حدود الأربعين وستمائة .

٥ هذه الترجمة مكررة ، راجع في ما تقدم الترجمة رقم : ١٦ .

٦ في إحدى النسخ : ٥٨٥ .

٧ ق ودوزي : والأصوليين ؛ ج : والأصول .

قدم مصر سنة ٥١٥ أو بعدها ، فسمع على السلفي ، وبقرائه على جماعة من  
شيوخ مصر ، وكان لديه فقه وأدب ، ثم سافر إلى باب الأبواب ، وكان حياً  
سنة ٥٥٦ .

ومن نظمه يمدح كتاب « الشهاب » :

إن الشهابَ له فَضْلٌ على الكتبِ      بما حوى من كلام المصطفى العربي  
كم ضمَّ من حكمةٍ غَرّاً وموعظةٍ      ومن وعيدٍ ومن وعدٍ ومن أدبٍ  
أمّا القضاعيُّ فالرحمنُ يرحمُهُ      كما حباه من التأليفِ بالعجب

٨١ - ومنهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى ، القرشي ،  
العبدري<sup>١</sup> ، من أهل ميّورقة من بلاد الأندلس ، سكن بغداد ، وسمع بها  
من أبي الفضل ابن خيرون وطبرّاد الزينبي وأبي عبد الله الحميدي وجماعة ،  
ولم يزل يسمع إلى حين وفاته ، وكتب بخطه كثيراً من الكتب والأجزاء ،  
وجمع وخرّج ، وكان صحيح العقل ، معتمد الضبط ، مرجوعاً إليه في الإتيان ،  
وكفاه فخراً وشرفاً أن روى عنه الحافظان أبو طاهر السلفي وأبو الفضل محمد  
ابن ناصر ، وكان فهامة علامة ذا معرفة بالحديث ، متعقفاً مع فقره ، وكان  
يذهب إلى أن المناولة والعرض كالسمع .

وقال السلفي فيه : إنّه من أعيان علماء الإسلام بمدينة السلام ، متصرف في  
فنون من العلم أدباً ونحواً ومعرفة بأنساب العرب والمحدثين ، وكان داودي المذهب  
قرشي النسب ، وقد كتب عني وكتبت عنه وسمعنا معاً كثيراً على شيوخ بغداد ،  
ومولده بقرطبة من مدن الأندلس . وقبل اجتماعي به كنت أسمع إسماعيل  
ابن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان يثني عليه ، فلمّا اجتمعنا وجدته فوق ما  
وصفه ، انتهى .

١ ترجمة ابن سعدون في معجم البلدان : « ميورقة » نقلا عن ابن عساكر . وفي الصلة : ٥٣٤ .

وقال ابن عساكر : كان أحفظ شيخ لقبته ؛ وربّما حكى عنه بعضهم  
كابن عساكر أموراً منكراً ، فالله أعلم . وتوفي في ربيع الآخر سنة ٥٢٤  
ببغداد ، رحمه الله تعالى .

٨٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعدون ، الباجي<sup>١</sup> ، سمع بمصر من  
ابن الورد وابن السكن وابن رشيق ، وبمكة من الآجري ، وكان صالحاً فاضلاً  
زاهداً ورعاً ، حدث ، ومات ببسطليوس فجأة سنة ٣٩٢ ، ومولده سنة ٣٢٢ .

٨٣ - ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون ، التميمي ، الجزيري ، المتعبد ،  
كانت آدابه كثيرة ، وحجّ غير مرّة ، ورابط ببلاد المغرب ، وكان حسن  
الصوت بالقرآن ، سمع بمصر من جماعة وبمكة ، وصحب الفقراء وطاف  
بالشام ، وغزاً غزوات وتعرّض للجهاد وحرّض عليه ، وساح بجبل المقطم ،  
وذكر أنّه صلّى بمصر الضحى اثنتي عشرة ركعة ، ثم نام فرأى النبي صلّى الله  
عليه وسلّم ، فقال : يا رسول الله ، إن مالكا والليث اختلفا في الضحى ،  
فمالك يقول : اثنتا عشرة ركعة ، والليث يقول : ثمان ، فضرب عليه الصلاة  
والسلام بين وركي ابن سعدون وقال : رأي مالك هو الصواب ، ثلاث  
مرّات ، قال : وكان في وركي وجع ، فمن تلك الليلة زال عني . وكان له  
براهين من نور يضيء عليه إذا صلّى ونحوه ، وأنشد :

سَجَنُ اللِّسَانِ هُوَ السَّلَامَةُ لِلْفَتَى مِنْ كُلِّ نَازِلَةٍ لَهَا اسْتِصْصَالٌ  
إِنَّ اللِّسَانَ إِذَا حَلَّتْ عِقَالَهُ أَلْقَاكَ فِي شَتَعَاءَ لَيْسَ تُقَالُ  
توفي سنة ٣٤٤ .

١ كان يسكن حصن مورة من عمل باجة ، ويعرف بابن الزنوني ، وكان رجلاً صالحاً زاهداً ورعاً  
ضعيف الكتاب غير ضابط (ابن الفرضي ٢ : ١٠٧) .

٨٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعد الأعرج ، الطَّلَيْطَلِي الخَطِيب <sup>١</sup> ،  
وقال فيه ابن سعيد : سمع بمصر ابن الورد وابن السكن ، وحدث ، مولده سنة  
٣٠٩ ، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٨٤ .

٨٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن إسحاق بن يوسف ، الأموي ،  
القرطبي <sup>٢</sup> ، وأصله من لَبْلَةَ ، ولكن سكن قرطبة ، وقدم مصر ، وحج ،  
وسمع في طريقه من الشيخ أبي محمد ابن أبي زيد صاحب الرسالة ، وأخذ عن  
القاسبي وعن جماعة من علماء مصر والحجاز ، ومولده سنة ٣٥٢ ، ورحلته  
سنة ٤١٨ .

٨٦ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حسان بن الحكم بن هشام ،  
القرطبي <sup>٣</sup> ، سمع من أبيه ويحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب ، ورحل ، فسمع  
من أشهب بن عبدالعزيز وعبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم ، وعاد إلى  
الأندلس وبها توفي سنة ٢٦٠ ، رحمه الله تعالى .

٨٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سليمان ، المعافري ، الشاطبي <sup>٤</sup> ،  
نزىل الإسكندرية ويعرف بابن أبي الربيع ، أحد أولياء الله تعالى ، شيخ الصالحين ،  
صاحب الكرامات المشهورة ، جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع  
إلى الله تعالى والتخلّي عن الناس والتمسك بطريقة السلف ، قرأ القرآن ببلده  
بالقراءات السبع على أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي وغيره ، وقرأ بدمشق  
على الواسطي ، وسمع عليه الحديث ، ورحل فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ١٠٠ .

٢ ترجمته في الصلة : ٤٨٦ .

٣ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٩ ، والجدوة : ٥٥ ( وبنية الملتمس رقم : ١٣٠ ) .

٤ ترجمته في الذيل والتكملة ٦ : الورقة ٨١ ( نسخة باريس ) ؛ وهو محمد بن سليمان بن محمد بن  
سليمان بن عبد الملك المعافري الحميري الملقب بعلم الدين .

خادم أضياف رسول الله ، صَلَّى الله عليه وسلّم ، بين قبره ومنبره سنة ٦١٧ ، وسمع بدمشق على أبي القاسم ابن صَصْرَى<sup>١</sup> وأبي المعالي ابن خضر وأبي الوفاء ابن عبد الحق وغيرهم ، وانقطع لعبادة الله تعالى في رباط سوار من الإسكندرية بتربة أبي العباس الراسي<sup>٢</sup> ، وتَلَمَّذَ للشاطبي تلميذ الراسي ، وصنّف كتاباً حسنة : منها كتاب « المسلك القريب في ترتيب الغريب » وكتاب « اللمعة الجامعة في العلوم النافعة » في تفسير القرآن العزيز ، وكتاب « شرف المراتب والمنازل في معرفة العالي في القراءات والنازل » وكتاب « المباحث السنينة في شرح الحصريّة » وكتاب « الحرقّة في لباس الحرقّة » وكتاب « المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد » وكتاب « النبذة الجليلة في ألفاظ اصطلاح عليها الصوفية » وكتاب « زهر العريش في تحريم الحشيش » وكتاب « الزهر المضي في مناقب الشاطبي » وكتاب « الأربعين المضية في الأحاديث النبوية » . ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥ ، ووفاته بالإسكندرية في رمضان سنة ٦٧٢ ، ودفن بتربة شيخه<sup>٣</sup> المجاورة لزاويته ، رحمهما الله تعالى ، ونفع بهما .

٨٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن شُرَيْح الرُّعَيْنِي الإشبيلي<sup>٤</sup> ، قدم مصر وسمع بها من ابن نفيس وأبي علي الحسن البغدادي وأبي جعفر النحوي وأبي القاسم ابن الطيب البغدادي الكاتب ، وبمكّة من أبي ذر الهروي . قال ابن بَشْكُوَال : كان من جملة المقرئين وخيارهم ، ثقة في روايته ، وكانت رحلته إلى المشرق سنة ٤٣٣ ، وولد سنة ٣٩٢ ، وتوفي سنة ٤٧٦ ، وعمره أربع وثمانون سنة إلاّ خمسة وخمسين يوماً ، وروى بإشبيلية عن جماعة ،

١ ق ج : مصري ؛ ط : مصري .

٢ ق ج : الراس .

٣ يعني أبا العباس أحمد بن محمد اللخمي المعروف بالراسي .

٤ انظر الصلة : ٥٢٣ وغاية النهاية ٢ : ١٥٣ .

رحمه الله تعالى .

٨٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح الأنصاري ، المالقي . قال السلفي : هو شاب من أهل الأدب له خاطر سمح كان يحضر عندي بالإسكندرية ، كثير السماع للحديث ، وذكر أنه قرأ الأدب على أبي الحسين ابن الطراوة النحوي<sup>١</sup> بالأندلس ، وعلى نظرائه ، وأنشدني لنفسه :

كَمْ ذَا تَقَلَّبْتَنِي النَّوَى وَتَسُوَّقِي      وَإِلَى مَتَى أَشْجَى بِهَا وَأَسَامُ  
أَلِفْتَ رَكَائِي الْفَلَا فَكَأَنَّمَا      لِلْبَيْنِ عَهْدٌ بَيْنَنَا وَذِمَامُ  
يَا وَيْحَ قَلْبِي مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّةٍ      أَبَدًا تُصَدِّعُهُ بِهِ الْأَيَّامُ

٩٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافري الأندلسي المالكي<sup>٢</sup> ، رحل إلى المشرق فسمع بالشام خبيثمة بن سليمان ، وبمكة أبا سعيد ابن الأعرابي ، وببغداد إسماعيل بن محمد الصفار ، وسمع بالمغرب بكر ابن حماد التاهرتي ومحمد بن وضاح وقاسم بن أصبغ ، وبمصر جماعة من أصحاب يونس والمزني . روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال : اجتمعنا به بهمدان ، مات ببخارى سنة ٣٨٣ ، وقيل : سنة ثمان ، وقيل : سنة تسع وسبعين . وقال فيه أبو سعيد الإدريسي : إنّه كان من أفاضل الناس ، ومن ثقاتهم . وقال غنّجار : إنّه كان فقيهاً حافظاً ، جمع تاريخاً لأهل الأندلس . وقال السمعي : فيه : كان فقيهاً حافظاً ، رحل في طلب العلم إلى المشرق والمغرب ، رحمه الله تعالى .

٩١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الخزرجي

١ هو سليمان بن محمد بن الطراوة المالقي النحوي ( ترجمته في تحفة القادم : ١١ والمغرب ٢ : ٢٠٨ وبغية الوعاة : ٢٦٢ وبغية المتصنّص : ٢٩٠ ) .  
٢ ترجمة محمد بن صالح المعافري في ابن الفرضي ٢ : ٩١ والتكملة : ٣٧٢ .

الدَّانِي النُّحَوي<sup>١</sup> ، أخو أبي العباس ابن عيسى ، سمع بدانيّةً من أبي داود المقرئ وغيره ، وقدم دمشق سنة ٥٥٤ حين خرج حاجّاً ، وأقرأ بدمشق النحو مدّة ، ثم خرج إلى بغداد ، وأقام بها إلى أن مات سنة ٦١٩ ، وولد سنة ٥١٢ ، وقدم مصر سنة ٥٧٢ ، وله من المصنّفات كتاب «تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب» ومن كلامه : ليست هيبة الشيخ لشيئه ولا لسنّته ولا لشخصه ، ولكن لكمال عقله ، والعقل هو المهّاب ، ولو رأيت شخصاً جمع جميع الخصال وعَدِمَ العقل لما هبته ، وقال : من جهل شيئاً عابه ، ومن قصر عن شيء هابه .

٩٢ - ومنهم القاضي الشهير محمد بن بشير ، وهو محمد بن سعيد بن بشير ابن شرّاحيل ، المعافري<sup>٢</sup> ، وقيل في آبائه غير ذلك كما يأتي ، ولما أشير على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بتقديم ابن بشير إلى خطّة القضاء بقرطبة وجّه إليه بباجّة ، فأقبل ولا يعلم ما دُعي إليه ، ونزل على صديق له من العبّاد<sup>٣</sup> ، فتحدث في شأن استدعائه ، وقدم أنّه يصرف في الكتابة ، فقال له العابد<sup>٤</sup> : ما أراه بعث فيك إلّا للقضاء ، فإن القاضي بقرطبة مات وهي الآن دون قاضي ، فقال ابن بشير : فأنا أستشيرك في ذلك إن وقع ، فقال : أسألك عن أشياء ثلاثة ، وأعزم عليك أن تصدقني فيها ، ثم أشير بعد ذلك عليك ، فقال : ما هي ؟ فقال : كيف حبّك للأكل الطيب واللباس اللين وركوب الفاره ؟ فقال : والله لا أبالي ما رددتُ به جوعي وسترتُ به عورتِي وحملتُ به

١ ترجمته في بغية الوعاة : ٤٩ نقلًا عن ابن عساكر وابن النجار ؛ وفي الوافي ٣ : ١٦٨ .  
٢ ترجمته في قضاة قرطبة للحشني : ٤٧ والمرقبة العليا : ٤٧ - ٥٣ والذيل والتكملة ٦ : الورقة ٧٧ (مخطوطة باريس) وفيه تفصيل للخلاف في اسمه ونسبه . والتكملة : ٣٥٥ وأغفله ابن الفرضي فلم يترجم له .  
٣ الحشني : فلما صار بسهولة المدور مال إلى صديق له كان بها من العبّاد فنزل عليه .  
٤ سقط من ق ما بين لفظي «العباد» و «العابد» سهواً .

رحلي ، فقال : هذه واحدة ، فكيف حبك للتمتع بالوجوه الحسان والتبطن للكواعب الغيد وما شاكل ذلك من الشهوات ؟ فقال : هذه حال والله ما استشرقت قط إليها ، ولا خطرت ببالي ، ولا اكرثت لفقدها ، فقال : وهذه ثانية ، فكيف حبك لمدح الناس لك وثنائهم عليك ؟ وكيف حبك للولاية وكراهيتك للعزل ؟ فقال : والله ما أبالي في الحق من مدحني وذممي ، وما أسرت للولاية ولا أستوحش للعزل ، فقال : وهذه الثالثة ، اقبل الولاية فلا بأس عليك ، فقدم قرطبة ، فولاه الأمير الحكم القضاء والصلاة .

قال ابن وضاح<sup>١</sup> : أخبرني من كان يرى محمد بن بشير القاضي داخلاً على باب المسجد الجامع يوم الجمعة ، وعليه رداء معصفر ، وفي رجله نعل صرارة ، وله جمّة مفرقة ، ثم يقوم فيخطب ويصلي وهو في هذا الزي ، وبه كان يجلس للقضاء بين الناس ، فإن رام أحد من دينه شيئاً وجده أبعداً من الثريا .

وأناه رجل لا يعرفه ، فلما رأى ما هو فيه من زي الحدّائة من الجمّة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء في يديه ، توقّف وقال : دلوني على القاضي ، فقيل له : ها هو ، وأشار إليه ، فقال : إنّي رجل غريب ، وأراكم تستهزئون بي ، أنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلونني على زامير ، فصحّحوا له أنّه القاضي ، فتقدم إليه واعتذر ، فأدناه وتحدّث معه ، فوجد عنده من العدل والإنصاف فوق ما ظنّه ، فكان يحدث بقصّته معه .

وعوتب في إرسال لمتّه ولبسه الخبز والمعصفر ، فقال : حدّثني مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر - وكان سيّد القراء - كانت له لمة ، وأن هشام بن عروة فقيه هذا البلد - يعني المدينة - كان يلبس المعصفر ، وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخبز .

١ الخشي : ٥٢ .



ولقد سئل يَحْيَى بن يَحْيَى عن لباس العمائم فقال : هي لباس الناس في المشرق ، وعليه كان أمرهم في القديم ، فقليل له : لو لبستها لاتبعك الناس في لباسها ، فقال : قد لبس محمد بن بشير الخز فما تبعه الناس فيه ، وكان ابنُ بشير أهلاً أن يُقْتَدَى به ، فلعلِّي لو لبست العمامة لتركني الناس ولم يتبعوني كما تركوا ابن بشير .

وكان أول<sup>١</sup> ما نظر فيه محمد بن بشير - حين ولي القضاء - التسجيل على الخليفة الحكم في أرْحِي القنطرة إذ قِيمَ عليه فيها وثبت عنده حق المدّعي ، وأعذر إلى الحكم فلم يكن عنده مدفع ، فسجّل فيها ، وأشهد على نفسه ، فما مضت مُدْبِئَةً حتى ابتاعها الحكم ابتاعاً صحيحاً ، فسُرَّ بذلك ، وقال : رحم الله محمد بن بشير ، فلقد أحسن فيما فعل بنا على كره منّا ، كان في أيدينا شيء مشتهر فصححه لنا ، وصار حلالاً طيب الملك<sup>٢</sup> في أعقابنا ، وحكم على ابن فُطَيْسٍ الوزير ، ولم يُعرِّفه بالشهود ، فرفع الوزير ذلك إلى الحكم ، وتظلم من ابن بشير ، فأوماً الحكم إليه أن الوزير ذكر حُكْمَكَ عليه بشهادة قوم لم تعرّفه بهم ، ولا أعذرت إليه فيهم ، وإن أهل العلم يقولون : إن ذلك له ، فكتب إليه ابن بشير : ليس ابن فُطَيْسٍ ممّن يُعرّف بمن شهد عليه ، لأنّه إن لم يجد سبيلاً إلى تجريحهم لم يتخرج عن طلب أذاهم في أنفسهم وأموالهم ، فيدعون الشهادة هم ومن ائتمسّ بهم ، وتضيع أموال الناس .

وأكثر موسى بن سماعة أحدُ خواصّ الأمير الحكم في ابن بشير الشكاية ، وأنّه يجور عليه ، فقال له الحكم : أنا أمتحن قولك الساعة ، فأخرج إليه فوراً ، واستأذن عليه ، فإن أذن لك عزلته ، وصدقت قولك فيه ، وإن لم يأذن لك دون خصمك ازددتُ بصيرة فيه ، فليس هو عندي بجائر<sup>٣</sup> على حال ، وإنّما

١ الخشني : ٤٩ .

٢ في ق ودوزي : المسلك ، وفي الخشني : « وطاب لنا ملكه » .

٣ ق ودوزي : بجائر .

مقصده الحق في كل ما يتصرف فيه ، فخرج يؤم دار ابن بشير ، وقد أمر الحكم مَنْ يثق به من الفتيان الصَّقالبة أن يَقْفُوا أثره ويعلموا ما يكون منه ، فلم يكن إلا رَيْثما بلغ ، ثم انصرف فحكى للحكم أنه لما خرج الأذن إلى موسى وعلم القاضي بمكانه عاد إليه فقال له : إن كانت لك حاجة فاقصد فيها إذا جلس القاضي مجلس القضاء ، فتبسم الحكم ، وقال : قد أعلمته أن ابن بشير صاحبُ حق لا هوادة فيه عنده لأحد .

وولي القضاء مرتين ، فلما عَزِلَ المرّة الأولى انصرف إلى بلده ، وكان بعض إخوانه يعاتبه في صلابته ، ويقول له : أخشى عليك العزْل ، فيقول له : ليته قُدْرٌ ، إن الشقراء - يعني بغلته - تقطع الطريق بي حائفة نحو باجة . فما مضى إلا يسير حتى عتب عليه الأمير في قصة اشتدَّ فيها على بعض خاصته ، فكانت سبباً لعزله ، وانصرف كما تمنى ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى أتى فيه رقاص من قبل الأمير الحكم ، - والرقاص عند المغاربة : هو الساعي عند المشاركة - فعاد إلى قُرطُبة ، وجبَّره على القعود للقضاء الأمير الحكم ، فلاذ منه باليمين بطلاق زوجته وبصدقة ما يملك في سبيل الله تعالى ، إن حكّمَ بين اثنين ، فلم يَعْذِرْه ، وأخرجه من ماله ، وعَوَّضه من طيب ما عنده ، ووهب له جارية من جواربه ، فعاد إلى القضاء ثانية .

ومما يحكى عنه في العدل أن سعيد الخير ابن السلطان عبد الرحمن الداخل وكلَّ عند ابن بشير وكيلاً يخاصم عنه لشيء اضطر إليه ، وكانت بيده فيه وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا ، ولم يكن فيها من الأحياء إلا الأمير الحكم وشاهد آخر مبرز ، فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد ، وضربت على وكيله الآجال في شاهد ثان ، وجدَّ به الخصام ، فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الحكم وأراه شهادته في الوثيقة ، وقد كان كتبها قبل الخلافة في حياة أبيه ، وعرفه مكان

حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفاً من بطلان حقه ، وكان الحكمم يعظم سعيد الخير عمه ، ويلتزم مبرته ، فقال له : يا عمّ ، إنّنا لسنا من أهل الشهادات ، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله ، ونخشى أن توفقنا مع القاضي موقف مخزاة كذا نفديه بملكنا ، فصير في خصامك حيث صيرك الحق إليه ، وعلينا خلكف ما انتقصك ، فأبى عليه ، وقال : سبحان الله ، وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك ؟ وأنت وآلتيه ، وهو حسنة من حسناتك ، وقد لزمك في الديانة أن تشهد لي بما علمته ، ولا تكتمني ما أخذ الله عليك ؛ فقال : بلى ، إن ذلك لمن حقت كما تقول ، ولكنك تدخل علينا به داخله ، فإن أعفيتنا منه فهو أحب إلينا ، وإن اضطرتنا لم يمكننا عقوقك ، فعزم عليه عزم من لم يشك أن قد ظفر بحاجته ، وضايقته الآجال ، فألح عليه ، فأرسل الحكمم عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه ، وخط شهادته بيده في قرطاس ، وختم بخاتمه<sup>١</sup> ، ودفعها إلى الفقيهين وقال لهما : هذه شهادتي بخطي تحت ختمي ، فأدبها إلى القاضي ، فأتياه بها إلى مجلسه وقت قعوده للسمع من الشهود ، فأدبها إليه ، فقال لهما : قد سمعت منكما فقوما راشدين في حفظ الله تعالى ، وجاء وكيل سعيد الخير ، وتقدم إليه مُدلاً واثقاً ، وقال له : أيها القاضي ، قد شهد عندك الأمير — أصلحه الله تعالى — فما تقول ؟ فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه ، ثم قال للوكيل : هذه شهادة لا تعمل عندي ، فجنني بشاهد عدل ، فدُهِس الوكيل ، ومضى إلى سعيد الخير فأعلمه ، فركب من فوره إلى الحكمم ، وقال : ذهب سلطاننا ، وأزيل بهاؤنا ، يجترىء هذا القاضي على ردّ شهادتك ، والله سبحانه قد استخلفك على عباده ، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك ؟ هذا ما لا يجب أن تُحمّل عليه ، وجعل يُعْزِبه بالقاضي ويجرّضه على الإيقاع به ، فقال له الحكمم : وهل شككت أنا في هذا يا عمّ ؟ القاضي رجل صالح والله ،

١ إلى فقيهين . . . بخاتمه : سقط هذا من ق .

لا تأخذه في الله لومة لائم ، فعل ما يجب عليه ويلزمه ، وسدّ دونه باباً كان يصب عليه الدخول منه ، فأحسن الله تعالى جزاءه ؛ فغضب سعيد الخير ، وقال : هذا حسبي منك ، فقال له : نعم ، قد قضيتُ الذي كان لك علي ، ولست والله أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله . ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك قال لمن عاتبه : يا عاجز ، أما تعلم أنه لا بد من الإعذار في الشهادات ، فمن كان يجترئ على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها ؟ ولو لم أعذر لبخستُ المشهود عليه حقه .

وتوفي القاضي محمد بن بشير سنة ١٩٨ قبل الشافعي بست سنين كما يأتي قريباً ، ومحاسنه - رحمه الله تعالى - كثيرة ، وقد استوفى ترجمته بقدر الإمكان القاضي عياض في المدارك ، فليراجعها من أرادها ، فإن عهدي بها في المغرب <sup>١</sup> . وقال بعض من عرف به ، ما نصّه <sup>٢</sup> : القاضي محمد بن بشير بن محمد المعافري ، أصله من جند باجة من عرب مصر ، ولاة الحكم بن هشام قضاء القضاة الذي يعبرون عنه بالمغرب بقضاء الجماعة ، بقرطبة ، بعد المصعب بن عمران ، ثم صرفه وولى مكانه الفرج بن كنانة . وعن ابن حارث ، قال أحمد ابن خالد : طلبَ محمد بن بشير العلم بقرطبة عند شيوخ أهلها حتى أخذ منه بحظ وافر ، ثم كتب لأحد أولاد عبد الملك بن عمر المرواني <sup>٣</sup> لمظلمة نالته على وجه الاعتصام به وتصرف معه تصرفاً لطيفاً ، ثم انقبض عنه ، وخرج حاججاً ، قال ابن الحارث : وكتب محمد بن بشير في حدائمه للقاضي مُصعَب بن عمران ، ثم خرج حاججاً فلقي مالك بن أنس وجالسه وسمع منه ، وطلب العلم أيضاً بمصر ، ثم انصرف فلزم ضيعته في باجة .

١ دوزي : فإن عهدي بها لمغرب ، واستدركها فليشر في تصويباته ؛ وفي ج ط ق : فإن عهدي بها المغرب .

٢ راجع التكملة : ٣٥٥ .

٣ في ق ط ج : عبد الملك بن مروان المرواني ، والتصويب عن الحشي .

وقال ابن حبان : إنه استُقدِم من باجة للقضاء برأي العباس بن عبد الملك .  
 وقال ابن شعبان في الرواة<sup>١</sup> عن مالك من أهل الأندلس : محمد بن بشير بن  
 سَرَافيل ، ويقال شراحيل ، ولي القضاء ، وكان رجلاً صالحاً ، وبعده تَضرب  
 الأمثال ، واستوطن قرطبة ، وتوفي بها سنة ثمان وتسعين ومائة ، انتهى ،  
 وبعضه عن غيره .

ومن شعره قوله :

لستُ من بَابَةِ <sup>٢</sup> أهلِ البَلَدِ	إنما أزرَى بقدري أتّي
لذوي الألبابِ أو ذي حسدِ	ليس منهم غيرُ ذي مقلبيّةِ
يتحامونَ لقاءَ الأسدِ	يتحامونَ لِقائِي مثلاً
وعلى أنفُسِهِم من أحدِ	مطلعي أثقلُ في أعينهمُ
أحدٌ يأخذُ منهم بيدي	لورأوني وَسَطَ بحرٍ لم يكنُ

٩٣ - ومنهم محمد بن عيسى بن دينار ، الغافقي<sup>٣</sup> ، من أهل قرطبة ،  
 كان فقيهاً زاهداً ، وحج وحضر افتتاح إقريطش ، واستوطنها ، قاله الرازي .

٩٤ - ومنهم محمد بن يحيى بن يحيى الليثي<sup>٤</sup> ، خرج حاجاً ، ولقي  
 سَحْنُون بن سعيد بإفريقية ، ولقي بمصر رجلاً من أصحاب مالك فسمع  
 منهم ، وعُرف بالفقه والزهد ، وجاور بمكة ، وتوفي هناك .

٩٥ - ومنهم محمد بن مروان بن خطاب ، المعروف بابن أبي جَمْرَةَ<sup>٥</sup> ،

١ ق ودوزي : في الرواية .

٢ دوزي : لست من باجة ، وصوبه فليشر

٣ ترجمته في التكملة : ٣٥٦ .

٤ ترجمته في التكملة : ٣٥٦ .

٥ ترجمته في التكملة : ٣٥٦ وانظر ترجمة « عميرة بن عبد الرحمن بن مروان » في ابن الفرضي

١ : ٣٧١ .

رحل حاجاً هو وابناه خطاب وعميرة في سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، وسمعوا ثلاثتهم من سَحْنُون بن سعيد المدوّنة بالقيروان ، وأدركوا أصبغ بن الفرج ، وأخذوا عنه .

٩٦ - ومنهم محمد بن أبي عِلَاقَةَ البواب<sup>١</sup> ، من أهل قرطبة ، كانت له رحلة إلى المشرق ، ولقي فيها جماعة من أهل العلم ، وأخذ عن أبي إسحاق الزجاجي ، وعن أبي بكر ابن الأنباري ، وعن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش ، وأبي عبد الله نِفْطَوِيَه ، وغيرهم ، وسمع من الأَخْفَش «الكامل» للمبرّد ، وقال الحكم المستنصر : لم يصح كتاب «الكامل» عندنا من رواية إلا من قبل ابن [أبي] عِلَاقَةَ ، وكان ابن جابر الإشبيلي قد رواه قبل بمصر بمدة ، وما علمت أحداً رواه غيرهما ، وكان ابن الأحمر القرشي<sup>٢</sup> يذكر أنه رواه ، وكان صدوقاً ، ولكن كتابه ضاع ، ولو حضر ضاهي الرجلين المتقدمين .

٩٧ - ومنهم محمد بن حزم بن بكر ، التَّنُوخِي<sup>٣</sup> ، من أهل طَلَيْطَلَّة ، وسكن قرطبة ، يُعْرَف بابن المدني ، سمع من أحمد بن خالد وغيره<sup>٤</sup> ، وصحب محمد بن مسرة الحبلي قديماً ، واختص بمرافقته في طريق الحج ، ولازمه بعد انصرافه ، وكان من أهل الورع والانقباض ، وحكى عن ابن مسرة أنه كان في سكناه المدينة يتبع آثار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال : ودلّه بعض أهل المدينة على دار ماريّة أم إبراهيم سُرِّيَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقصد إليها فإذا دُوَيْرَة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة عرضها وطولها واحد قد شق في وسطها بجائط ، وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقى إلى ذلك الفرش

١ ترجمته في التكملة : ٣٦٢ .

٢ كذا في الأصول ، ولعلها : الفريشي .

٣ ترجمته في التكملة : ٣٦٥ .

٤ بن بكر . . . وغيره : سقط من ق .

على خارج لطيف ، وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الصيف ، قال : فرأيت أبا عبد الله بعدما صلّى في البيتين والسقيفة وفي كل ناحية من نواحي تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره ، فكشفتُه بعد انصرافي وهو ساكن في الجبل عن ذلك ، فقال : هذا البيت الذي تراني فيه بنيته على تلك الحالة<sup>١</sup> في العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان ، انتهى .

٩٨ - ومنهم محمد بن يحيى بن مالك بن يحيى بن عائذ<sup>٢</sup> ، ولد أبي زكريا الراوية ، من أهل طرطوشة ، يكنى أبا بكر ، تأدّب بقرطبة ، وسمع بها من قاسم بن أصبغ ومحمد بن معاوية القرشي وأحمد بن سعيد ومنذر بن سعيد وأبي علي القالي وغيرهم ، وكان حافظاً للنحو واللغة والشعر ، يفوت منّ جراه على حدّائة سنّه ، شاعراً مجيداً مرسلًا بليغاً ، ورحل مع أبيه إلى المشرق سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، فسمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وحمزة الكناني وغيرهم ، وسمع أيضاً بالبصرة وبغداد كثيراً ، وخرج إلى أرض فارس فسمع هناك ، وجمع كتباً عظيمة ، وأقام بها إلى أن توفّي بأصبهان مُعْتَبِطاً مع الستين وثلاثمائة ، ومولده بطرطوشة صدر ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، ذكره ابن حيّان ، رحمه الله تعالى .

٩٩ - ومنهم محمد بن عبّادون الجبلي العددي<sup>٣</sup> من أهل قرطبة ، أدّب بالحساب والهندسة ، ورحل في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، فدخل مصر والبصرة ، وعني بعلم الطب فمهر فيه ، ودبّر في مارستان الفسطاط ، ثم رجع

١ ق ج ط : الحكاية .

٢ ترجمته في التكملة : ٣٦٧ ؛ وفي ق ط ودوزي : « عاين » بدل « عائذ » .

٣ انظر ترجمة محمد بن عبدون الجبلي في التكملة : ٣٦٧ وطبقات ابن جلجل : ١١٥ والذيل والتكملة ٦ : ١٧٢ ( نسخة باريس ) . وابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٦ وطبقات صاعد : ٨١ والوافي

٢ : ٢٠٧ .

إلى الأندلس في سنة ستين وثلاثمائة ، فاتصل بالمستنصر بالله وابنه المؤيد بالله ،  
وله في التفسير تأليف حسن ، رحمه الله تعالى .

١٠٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأزدي الفراء القرطبي <sup>١</sup> ،  
صحاب أبا بكر ابن يحيى بن مجاهد ، واختص به ، ولطف محله منه ، وقرأ عليه  
القرآن ، ورحل صحبته لأداء فريضة الحج ، وكان رجلاً صالحاً كثير التلاوة  
للقرآن والحشوع ، إذا قرأ بكى ورَتَل وبَيِّن في مهل ، ويقول : أبو بكر علمني  
هذه القراءة ، وحكي أنه سرَدَ الصوم اثني عشرة سنة قبل موت ابن مجاهد  
مفطراً كلَّ ليلة وقت الإفطار ، ثم تمادى على ذلك بعد موته مفطراً عقب العشاء  
الآخرة لالتزامه الصلاة من المغرب إليها ، تَزِيداً من الخير ، واجتهاداً في العمل .

١٠١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح ، المعافري ، الأندلسي <sup>٢</sup> ،  
رحل إلى المشرق فسمع خيشمة بن سليمان وأبا سعيد ابن الأعرابي وإسماعيل  
ابن محمد الصفار وبكر بن حمّاد التاهرتي وغيرهم ، روى عنه أبو عبد الله  
الحاكم وقال : اجتمعنا بهمدان سنة إحدى وأربعين ، يعني وثلاثمائة ، فتوجه  
منها إلى أصبهان ، وكان قد سمع في بلاده وبمصر من أصحاب يونس ، وبالجزيرة  
وبالشام وبالجزيرة من أصحاب علي بن حرب ، وببغداد ، وورد نيسابور في  
ذي الحجة سنة إحدى وأربعين فسمع الكثير ، ثم خرج إلى مرو ومنها إلى بخارى  
فتوفي بها في رجب من سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ، وروى عنه أيضاً أبو القاسم  
ابن حبيب النيسابوري وغيرهما ، ذكره ابن عساكر ، وأسند إليه قوله :

وَدَعْتُ قَلْبِي سَاعَةَ التَّوَدُّعِ وَأَطَعْتُ قَلْبِي وَهُوَ غَيْرُ مُطِيعِي  
إِنْ لَمْ أَشَبِّعْهُمْ فَقَدْ شَبَّعْتُهُمْ بِمُشَبِّعِينَ تَنَفَّسِي وَدَمُوعِي

١ ترجمته في التكملة : ٣٦٩ والذيل والتكملة ٦ : ١٤٧ ( نسخة باريس ) .

٢ هذه الترجمة مكررة . انظر الترجمة رقم : ٩٠ في ما تقدم .



وذكره ابن الفَرَّاضي وقال : إنَّه استوطن بُخارى ، وجعل وفاته بها سنة ثمان وسبعين ، والأول قول الحاكم ، وهو أصح .

١٠٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، السَّرْقُسْطِي<sup>١</sup> ، روى عن الباجي وابن عبد البر ، ورحل حاججاً فقدم دمشق وحدث بها عن شيوخه الأندلسيين ، وعن أبي حفص عمر بن أبي القاسم ابن أبي زيد القفصِيِّ ، وذكره ابن عساكر ، وقال : سمع عنه أبو محمد الأقفاني ، وحكى عنه تدليساً ضعّفه به ، وتوفي سنة ٤٧٧ .

١٠٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن بَقَاء ، الأنصاري<sup>٢</sup> ، من بلاد الثغر الشرقي<sup>٣</sup> ، أخذ القراءات عن أبي داود سليمان بن نجاح ، ورحل حاججاً ، فقدم دمشق ، وأقرأ بها القرآن بالسبع ، وأخذ عنه جماعة من أهلها ، وكان شيخاً فاضلاً حافظاً للحكايات ، قليل التكلّف في اللباس ، ذكره ابن عساكر وقال : رأيتُه وسمعتُه ينشد قصيدة يوم خرج الناس للمصلّى للاستسقاء على المنبر ، أولها :

أستغفرُ الله من ذنبي وإن كَبُرًا      وأستقلُّ له شكري وإن كَثُرًا

وكان يسكن في دار الحجارة ، ويُقْرَى بالمسجد الجامع .  
ولد في الثاني والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وتوفي يوم الأربعاء عند صلاة العصر ، ودفن يوم الخميس لصلاة الظهر الثاني من ذي الحجة سنة اثني عشرة وخمسمائة ، ودفن في مقابر الصحابة بالقرب من قبر أبي الدرداء ، رضي الله تعالى عنه ، قال : وشهدت أنا غسله والصلاة عليه

١ ترجمته في التكملة : ٣٩٧ والذيل والتكملة ٦ : ١٩ (نسخة باريس) .

٢ ترجمته في التكملة : ٤١٣ .

٣ من أهل بلخي في الثغر الشرقي .

ودفنه ؛ وذكره السلفي .

١٠٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى ، الأنصاري ، الخزرجي<sup>١</sup> ، من أهل دانية ، سمع كتاب «التقضي» لابن عبد البر ، ولقي أبا الحسن الحصري ثم خرج حاجباً فقدم دمشق سنة أربع وخمسمائة ، وأقام بها مدة يُقرئ العربية ، وكان شديد الوسوسة في الوضوء .

ذكره ابن عساكر وقال : أنشدني أخي أبو الحسين هبة الله بن الحسن الفقيه قال : أنشدنا ابن طاهر الأندلسي بدمشق قال : أنشدني الحصري لنفسه :

يموتُ مَنْ في الأنامِ طُراً من طيبٍ كان أو خبيثٍ  
فمُستريحٌ ومُستراحٌ منه ، كما جاء في الحديثِ

قال : وأنشدني الحصري لنفسه :

لو كان تحت الأرض أو فوق الذرى حرّاً أتيج له<sup>٢</sup> العدو ليؤذى  
فاحذرْ عدوك وهو أهونُ هينٍ إنَّ البعوضةَ أزدتِ النمرودا

١٠٥ - ومنهم محمد بن أبي سعيد الفرج بن عبد الله ، البزاز<sup>٣</sup> ، من أهل سرقسطة ، لقي بدانية الحصري ، وسمع منه بعض منظومه ، ورحل حاجباً فأدبى الفريضة ، ودخل العراق فسمع من جماعة وأجازوا له : منهم ابن خيرون ، والحُمَيْدي ، وأبو زكريا التبريزي ، والمبارك بن عبد الجبار ، وثابت بن بُندار ، وهبة الله بن الأكفاني ، وغيرهم ، ونزل الإسكندرية ، وحدث بها وأخذ الناس عنه ، وتوفي هنالك ، وأنشد للحصري :

١ ترجمته في التكملة : ٤١٩ والذيل والتكملة ٦ : ٨٧ - ٨٨ (نسخة باريس) .

٢ ق : لو كنت ... حرّاً أتيج له ... ؛ وهو مضطرب .

٣ ترجمته في التكملة : ٤٣٣ ؛ وفي ق ودوزي : «البزاز» .

الناسُ كالأرضِ ، ومنها هُمُ من خَشِنِ اللَّمَسِ ومن لَيِّنِ  
صَلْدُ تشكى الرَّجُلُ منه الوَجَى وإِثْمُ يُجْعَلُ في الأَعْيُنِ

وروى عنه ابن الحضرمي وابن جارة ، وغيرهما .

١٠٦ - ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين ، الشهير بالمَيُورَقِي لأن أصله  
منها ، وسكن غَرْنَاطَةَ ، وروى عن أبي علي الصَّدَّاقِي ، ورحل حاجباً فسمع  
بمكة من أبي الفتح عبد الله بن محمد البيضاوي ، وأبي نصر عبد الملك بن أبي  
مسلم النهاوندي ، في شَوَّالِ وذي القعدة من سنة ٥١٧ ، وبالإسكندرية من  
أبي عبد الله الرازي وأبي الحسن ابن مُشَرَّفِ وأبي بكر الطَّرطُوشِي وغيرهم ،  
وعاد إلى الأندلس بعد مدة طويلة فحدث في غير ما بلد لتجوُّله ، وكان فقيهاً  
ظاهرياً ، عارفاً بالحديث وأسماء الرجال ، متقناً لما رواه ، يغلب عليه الزهد  
والصلاح ، روى عنه أبو عبد الله النميري الحافظ ويقول فيه : الأزدي تدليساً ،  
لأن الأنصار من الأزدي ، وأبو بكر ابن رزق وأبو عبد الله ابن عبد الرحيم وابنه  
عبد المنعم وسواهم ، وصار أخيراً إلى بجاية هارباً من صاحب المغرب<sup>٢</sup> حينئذ  
بعد أن حمل إليه هو وأبو العباس ابن العريف وأبو الحكم ابن بَرُّجَانِ ، وحدث  
هنالك ، وسُمع منه في سنة ٥٣٧ ، رحمه الله تعالى .

١٠٧ - ومنهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطَّفَّيْلِ العبيدي  
الإشبيلي<sup>٣</sup> ، ويُعرف بابن عَظِيمَةَ ، أخذ القراءات عن أبي عبد الله السَّرْقَسُطِي

١ ترجمته في التكملة : ٤٤٠ ، والذيل والتكملة ٦ : ٦٣ ( نسخة باريس ) وهو محمد بن الحسين بن  
أحمد بن يحيى بن بشر الأنصاري الخزرجي ، وأسقط ابن الزبير « الحسين » من نسبه وقال في  
بشر « بشير » وكلاهما غلط ، هذا ما حققه ابن عبد الملك وهو ينقل من خطه .

٢ يعني علي بن يوسف بن تاشفين ؛ وقال ابن عبد الملك : إن علياً ضربه بالسوط وسجنه وقتل ثم  
سرحه وعاد إلى الأندلس .

٣ ترجمته في التكملة : ٤٤٥ ، والذيل والتكملة ٦ : ١٤٣ ( نسخة باريس ) .

وروى عن أبي عبد الله الخولاني وأبي عبد الله ابن فرج وأبي علي الغساني وأبي داود المقرئ وأبي جعفر ابن عبد الحق وأبي الوليد ابن طريف ، ورحل حاجباً فروى بمكة عن رزين بن معاوية ، ثم بالإسكندرية عن ابن الحضرمي أبي عبد الله محمد بن منصور وأبي الحسن ابن مُشَرَّف الأنماطي ، وبالمهديّة عن المازري ، وكانت رحلته مع أبي علي منصور بن الخير الأحدب للقاء أبي معشر الطبري ، فبلغهما نعيه بمصر ، فلما قفلاً من حجّتهما قعد منصور يقول : قرأت علي أبي معشر ، واقتصر أبو الحسن في تصدره للإقراء على التحديث عمّن لقي ، فعرف مكانه من الصدق والعدالة ، وولي الصلاة ببلده ، وتقدّم في صناعته ، واشتهر بها ، وتلاه أهل بيته فيها ، فأخذ عنهم الناس ، وله أرجوزة في القراءات السبع ، وأخرى في مخارج الحروف ، وشرح قصيدة الشُّقْرَاطِسي ، وله أيضاً كتاب « الفريدة الحمصيّة ١ في شرح القصيدة الحصريّة » ، وإليه وإلى بنيه بعده كانت الرياسة في هذا الشأن ، ومن جلت الرواة عنه أبو بكر ابن خير ، قرأ عليه « الشهاب » للقضاعي ٢ ، وأجاز له جميع رواياته وتوابعه في رجب سنة ٥٣٦ ، وتوفّي في حدود الأربعين وخمسائة ، وروى عنه أبو الضحّاك الفزاري .

١٠٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عيسى بن هشام ابن جراح الخزرجي ٣ ، من أهل جيّان ، ويُعرف بالبغدادي لطول سكناه لريّاتها ، روى عن أبي علي الغساني ، وأبي محمد ابن عتاب ، ورحل حاجباً ، فلقني أبا الحسن الطبري المعروف بالكّيبّا ، وأبا طالب الزينبي ، وأبا بكر الشاشي ،

١ سماها ابن خير « منح الفريدة الحمصية » - (الفهرسة : ٧٤) .

٢ انظر فهرست ابن خير : ١٨٢ .

٣ ترجمته في التكملة : ٤٧٤ والذيل والتكملة ٥ : ٥٨٢ صنف في مسائل الخلاف تعليقه المشهور في سبعة أسفار ، ومن مصنفاته « أسرار الإيمان » في سفر ؛ درس الفقه بفاس ثم تحول إلى جيان فجلس فيها للوعظ والقصص وخرج من بلده في الفتنة وعاد إلى فاس فنزلها ٥٤٤ وبقي يدرس فيها الفقه ومسائل الخلاف إلى أن توفي .

وغيرهم . وكان فقيهاً مشاوراً ، حدث عنه أبو عبد الله النميري ، وأبو محمد ابن عبيد الله ، وأبو عبد الله ابن حميد ، وأبو القاسم عبد الرحيم بن الملقوم ، وغير واحد ، وتوفي بفاس سنة ٥٤٦ .

١٠٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن ياسر ، الأنصاري الجبلي<sup>١</sup> ، ونزل حلب ، يُكنى أبا بكر ، رحل إلى المشرق ، وأدب الفريضة ، وقدم دمشق قبل العشرين وخمسمائة ، وسكن قنطرة سنان<sup>٢</sup> منها ، وكان يعلم القرآن ، ويردّد إلى أبي عبد الله<sup>٣</sup> نصر الله بن محمد يسمع الحديث منه ، ثم رحل صحبة أبي القاسم ابن عساكر صاحب « تاريخ الشام » إلى بغداد سنة عشرين ، وكان زميله ، فسمع بها معه من هبة الله بن الحصين وغيره ، ثم خرج إلى خراسان فسمع بها من حمزة الحسيني وأبي عبد الله القراوي وأبي القاسم الشّحامي وغيرهم ، وسمع ببسخ جماعة منهم أبو محمد الحسن بن علي الحسيني<sup>٤</sup> وأبو النجم مصباح ابن محمد المسكي وغيرهما ، وبلغ الموصل فأقام بها مدة يُسمع منه ويؤخذ عنه ، ثم انتهى إلى حلب فاستوطنها ، وسلّمت إليه خزانة الكتب النورية ، وأجريت عليه جراية ، وكان فيه عُسْر في الرواية والإعارة معاً ، ووقف كتبه على أصحاب الحديث ، وله عوَال مخرّجة من حديثه ساوى [ بها ] بعض شيوخه البخاريّ ومسلماً وأبا داود والترمذي والنسائي ، روى عنه أبو حفص المياثبي وأبو المنصور مظفر بن سوار اللخمي وأبو محمد عبد الله بن علي بن سويدة وابن أبي السنان وغيرهم .

ذكره ابن عساكر في تاريخه وقال : سمعت منه ، ومات [ بحلب ] في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة على ما بلغني .

١ ترجمته في التكملة : ٥٠٠ .

٢ هكذا في ق ط ج ، وجعل في دوزي « سنتين » ؛ وصوبه فليشر .

٣ التكملة : أبي الفتح .

٤ التكملة : الحسيني .

وقال ابن نقطة : حدثت عن جماعة منهم أبو القاسم سهل بن إبراهيم النيسابوري وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الهمداني ، حدثنا عنه أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الحلبي وأخوه أبو العباس أحمد ، وحكي عن الحسن بن هبة الله بن صصرى أنه توفي بحلب في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة كما تقدم ، وقد بلغ السبعين ، قاله ابن الأبار .

١١٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة<sup>١</sup> ، مرسي سكن شاطبة ، ودار سلفه بكنسية ، سمع أبا علي الصدقي واختص به ، وأكثر عنه ، وإليه صارت دواوينه وأصوله العتاق وأمّهات كتبه الصحاح ، لصهر كان بينهما ، وسمع أيضاً أبا محمد ابن أبي جعفر ، ولازم حضور مجلسه للثقة به ، وحمل ما كان يرويه ، ورحل إلى غرب الأندلس فسمع أبا محمد ابن عتاب وأبا بجر الأسدي وأبا الوليد ابن رشد ، وأبا عبد الله الخولاني ، وأبا عبد الله ابن الحاج ، وأبا بكر العربي وغيرهم ، وكتب إليه أبو عبد الله الخولاني وأبو الوليد ابن طريف وأبو الحسن ابن عفيف وأبو القاسم ابن صواب وأبو محمد ابن السيد وغيرهم ، ثم رحل إلى المشرق سنة عشرين وخمسمائة ، فلقي بالإسكندرية أبا الحجاج ابن نادر الميوري ، وصحبه وسمع منه ، وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام ، وأدى فريضة الحج في سنة إحدى وعشرين ، ولقي بمكة أبا الحسن رزين بن معاوية العبدي إمام المالكية بها ، وأبا محمد ابن صدقة المعروف بابن غزال من أصحاب كريمة المروزيّة فسمع منهما وأخذ عنهما ، وروى عن أبي الحسن علي بن سند بن عياش الغساني ما حمل عن أبي حامد الغزالي من تصانيفه ، ثم انصرف إلى ديار مصر فصحب ابن نادر إلى حين وفاته بالإسكندرية ، ولقي أبا طاهر ابن عوف وأبا عبد الله ابن مسلم القرشي وأبا طاهر السلفي وأبا

١ ترجمة ابن سعادة في التكملة : ٥٠٥ .

زكريا الزناتي وغيرهم ، فأخذ عنهم ، وكان قد كتب إليه منها أبو بكر الطرطوشي وأبو الحسن ابن مُشَرَّف الأماطي ، ولقي في صدره بالمهدية أبا عبد الله المازري فسمع منه بعض كتاب « المعلم » ، وأجاز له باقيه ، وعاد إلى مُرسية في سنة ست وعشرين .

وقد حصل في رحلته علوماً جمة ورواية فسيحة ، وكان عارفاً بالسنن والآثار ، مشاركاً في علم القرآن وتفسيره ، حافظاً للفروع ، بصيراً باللغة والغريب ، ذا حظ من علم الكلام ، ماثلاً إلى التصوف ، مؤثراً له ، أديباً بليغاً خطيباً فصيحاً ، ينشئ الخطب مع الهدني والسمت والوقار والحلم ، جميل الشارة ، محافظاً على التلاوة ، [ بادي ] الحشوع<sup>١</sup> ، راتباً على الصوم ، وولي خطة الشورى بمُرسية مضافة إلى الخطبة بجامعها ، وأخذ في إسماع الحديث وتدريس الفقه ، ثم ولي القضاء بها بعد انقراض دولة المثلثين ، ونقل إلى قضاء شاطبية فاتخذها وطناً ، وكان يسمع الحديث بها وبمُرسية وبلكنسية ، ويقوم الخطب أيام الجمع في جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقباً عليها ، وقد حدث بالمريّة وهناك أبو الحسن ابن موهب وأبو محمد الرشاطي وغيرهما ، وسمع منه أبو الحسن ابن هُدَيل « جامع الترمذي » ، وألف كتابه « شجرة الوهم المترقية إلى ذروة الفهم » ولم يُسبق إلى مثله ، وليس له غيره ، وجمع فهرسة حافلة .

ووصفه غير واحد بالتفّن في العلوم والمعارف ، والرسوخ في الفقه وأصوله ، والمشاركة في علم الحديث والأدب .

وقال ابن عياد في حقّه : إنّه كان صليماً في الأحكام ، مقتضياً للعدل ، حسن الخلق والخلق ، جميل المعاملة ، لين الجانب ، فكّه المجالسة ، ثبّتاً ، حسن الخط ، من أهل الإنقان والضبط . وحكي أنّه كانت عنده أصول حسان

١ ق ط ج ودوزي : على التلاوة بالمشروع .

بخط عمّه ، مع الصحيحين بخط الصّدفي في سفيرين ، قال : ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه في صحتها وإتقانها وجودتها ولا كان فيهم من رزق عند الخاصة والعامة من الخطوة والذكر وجلالة القدر ما رزقه .

وذكره أبو سفيان أيضاً وأبو عمر ابن عات ، ورفعوا جميعاً بذكره .  
وتوفي بشاطبة مصروفاً عن قضائها آخر ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة<sup>١</sup> ودفن أول يوم من سنة ست وستين وخمسمائة ، بالروضة المنسوبة إلى أبي عمر ابن عبد البر ، ومولده في رمضان سنة ٤٩٦ .

١١١- ومنهم محمد بن إبراهيم بن وضاح ، اللخمي<sup>٢</sup> ، من أهل غرناطة ، ونزل جزيرة شقر ، يكنى أبا القاسم ، وأخذ القراءة عن أبي الحسن ابن هذيل وسمع منه كثيراً ، ورحل حاجباً فأدى الفريضة ، وأخذ القراءات بمكة عن أبي علي ابن العرجاء في سنة ست وأربعين وخمسمائة وستة سبع بعدها ، وحج ثلاث حجّات ، ودخل بغداد ، وأقام في رحلته نحواً من تسعة أعوام ، وقفل إلى الأندلس ، فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية ، وأقرأ بها القرآن نحواً من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجراً ، ولا قبيل هديّة ، وولي الصلاة والخطبة بجامعها ، وكان رجلاً صالحاً ، زاهداً يشار إليه بإجابة الدعوة ، معروفاً بالورع والانقباض ، وتوفي في صفر سنة ٥٨٧ .

١١٢- ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ، التجيبي ، نزيل تلمسان<sup>٣</sup> ، من أهل لقنت عمل مُرسية ، وسكن أبوه أوريولة ، رحل إلى

١ هكذا هو تاريخ وفاته في التكملة و ط ج ؛ وعند ق ودوزي أنه توفي ٥٥٥ ودفن أول يوم من سنة ٥٥٦ .

٢ ترجمته في التكملة : ٥٤٤ والذيل والتكملة ٦ : ٣٩ (نسخة باريس) .

٣ ترجمته في التكملة : ٥٨٨ والذيل والتكملة ٦ : ١٣٩ (نسخة باريس) وقد أطنب ابن عبد الملك في ذكره شيوخه والآخذين عنه .



المشرق فأدّى الفريضة ، وأطال الإقامة هنالك ، واستوسع في الرواية ، وكتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة وثلاثين ، من أعيانهم المشرقين أبو طاهر السلفي ، صحبه واختص به وأكثر عنه ، وحكى أنه لما ودّعه في قفوله إلى المغرب سأله عمّا كتب عنه ، فأخبره أنه كتب كثيراً من الأسفار ومئين من الأجزاء ، فسُرَّ بذلك ، وقال له : تكون محدث المغرب إن شاء الله تعالى ، قد حصلت خيراً كثيراً ، قال : ودعا لي بطول العمر حتى يؤخذ عني ما أخذتُ عنه ، وقد جمع في أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفاً مفيداً أكثر فيه من الآثار والحكايات والأخبار ، وقصّل من رحلته ، وله أربعون حديثاً في المواعظ ، وأخرى في الفقر وفضله ، وثالثة في الحب في الله تعالى ، ورابعة في فضل الصلاة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومسللاته في جزء ، وكتاب « فضائل الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان » وكتاب « فضل عشر ذي الحجة » وكتاب « مناقب السبطين » وكتاب « الفوائد الكبرى » مجلد ، و « الفوائد الصغرى » جزء ، وكتاب « الترغيب في الجهاد » خمسون باباً في مجلّد ، وكتاب « المواعظ والرفائق » أربعون مجلساً ، سفران ، وكتاب « مشيخة السلفي » وغير ذلك .

ومولده بِلَقْنَت<sup>١</sup> الصغرى في نحو الأربعين وخمسمائة ، وتوفي سنة عشر وستمائة ، رحمه الله تعالى .

١١٣ - ومنهم الشيخ الأكبر ، ذو المحاسن التي تبّهّر ، سيدي محيي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، الحاتمي<sup>٢</sup> ، من ولد

١ ق ط : بالقنت .

٢ ترجمة ابن عربي الصوفي في التكملة : ٦٥٢ والذيل والتكملة ٦ : ٢٠٢ ( نسخة باريس ) وعنوان الدراية : ٩٧ والوافي ٤ : ١٧٣ - ١٧٨ والقوات ٢ : ٤٧٨ وشذرات الذهب ٥ : ١٩٠ - ٢٠٢ والنجوم الزاهرة ٦ : ٣٣٩ ومرآة الزمان : ٧٣٦ . وراجع طبقات المناوي ولسان =

عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم ، الصوفي الفقيه المشهور الظاهري ، ولد بمُرْسِيَّة يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠ ، قرأ القرآن على أبي بكر ابن خلف بإشبيلية بالسبع وبكتاب الكافي ، وحدثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرُعَيْتِي عن أبيه ، وقرأ أيضاً السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشَّرَاط القرطبي ، وحدثه به عن ابن المؤلف ، وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جَمْرَةَ كتاب « التيسير » للدَّانِي عن أبيه عن المؤلف ، وسمع على ابن زَرْقُون وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم .

وكان انتقاله من مُرْسِيَّة لإشبيلية سنة ٥٦٨ ، فأقام بها إلى سنة ٥٩٨ ، ثم ارتحل إلى المشرق ، وأجازه جماعة منهم الحافظ السلفي وابن عساكر وأبو الفرج ابن الجوزي ، ودخل مصر ، وأقام بالحجاز مدة ، ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم ، ومات بدمشق سنة ٦٣٨<sup>١</sup> ، ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر ، ودفن بسفح قاسيون ، وأنشدني لنفسه مؤرخاً وفاته الشيخ محمد ابن سعد الكلثني سنة ١٠٣٧<sup>٢</sup> ، حفظه الله تعالى :

إنما الخاتمي في الكون فردٌ وهو غوثٌ وسيدٌ وإمامٌ  
كَمَ عُلُومٍ أتى بها من غيوبٍ من بحارِ التوحيدِ يا مُسْتَهَامُ  
إن سألتم متى توفي حميداً قلت أرختُ: مات قطبُ همامُ

وقال ابن الأبار : هو من أهل المَرِيَّة ، وقال ابن النجار : أقام بإشبيلية

= الميزان . وفي كتبه معلومات كثيرة عنه ، وقد كتب الأستاذ آسين بلايوس دراسة لحياته مؤلفاً بين الأخبار التي وردت فيها ( ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوي هذا الكتاب ، القاهرة ١٩٦٥ ) وللأستاذ أبو العلا عفيفي دراسات عنه . ( وراجع بروكلمان ١ : ٥٧١ ) .

١ في ق : ٦٣٧ ، وكذلك قال ابن عبد الملك في الذيل والتكملة .

٢ في نسخة : ١٠٣٨ .

إلى سنة ٥٩٨ هـ ، ثم دخل بلاد المشرق ، وقال ابن الأبار : إنه أخذ عن مشيخة بلده ، ومال إلى الآداب ، وكتب لبعض الولاة ، ثم رحل إلى المشرق حاجاً ، ولم يعد بعدها إلى الأندلس . وقال المنذري : ذكر أنه سمع بقَرْطَبَة من أبي القاسم ابن بَشْكُوَال وجماعة سواه ، وطاف البلاد ، وسكن بلاد الروم مدة ، وجمع مجاميع في الطريقة ، وقال ابن الأبار : إنه لقيه جماعة من العلماء والمتعبدين ، وأخذوا عنه ، وقال غيره : إنه قدم بغداد سنة ٦٠٨ هـ ، وكان يوماً إليه بالفضل والمعرفة ، والغالبُ عليه طرق أهل الحقيقة ، وله قدم في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوف ، ووصفَه غيرُ واحد بالتقدم والمكانة من أهل هذا الشأن بالشام والحجاز ، وله أصحاب وأتباع .

ومن تأليفه مجموع ضمَّته منامات رأى فيها النبيّ صلى الله عليه وسلم وما سمع منه ومنامات قد حدثت بها عمَّن رآه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن النجار : وكان قد صحب الصوفية ، وأرباب القلوب ، وسلك طريق الفقر ، وحيجَّ وجاور ، وكتب في علم القوم ، وفي أخبار مشايخ المغرب وزهادها ، وله أشعار حسنة وكلام مليح ؛ اجتمعت به<sup>١</sup> في دمشق في رحلتي إليها ، وكتبت عنه شيئاً من شعره ، ونِعِمَّ الشيخ هو ، ذكر لي أنه دخل بغداد سنة ٦٠١ هـ ، فأقام بها اثني عشر يوماً ، ثم دخلها ثانياً حاجاً مع الركب سنة ٦٠٨ هـ ، وأنشدني لنفسه :

أيا حائراً<sup>٢</sup> ما بينَ علمٍ وشهوةٍ ليتصلا ، ما بينَ ضدَّينِ من وصلٍ  
ومن لم يكن يستشيقُ الريحَ لم يكن يرى الفضلَ للمسكِ الفتيقِ على الزَّبلِ

وسألته عن مولده فقال : ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمُرُسية من بلاد الأندلس ، انتهى .

١ انظر هذا النص في الوافي ٤ : ١٧٨ نقلا عن ابن النجار .

٢ الوافي : أنا حائر .

وقال ابن مُسَدِي : إنّه كان جميل الجملة والتفصيل ، محصلاً لفنون العلم أخصّ تحصيل ، وله في الأدب الشأو الذي لا يُلْحَق ، والتقدم الذي لا يُسْبَق ، سمع بيلاده من ابن زَرْقُون والحافظ ابن الجلد وأبي الوليد الحضرمي وبسببته من أبي محمد ابن عبد الله ، وقدم عليه إشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجي فسمع منه ، وأبو جعفر ابن مُصَلِّي ، وذكر أنّه لقي عبد الحق الإشبيلي ، وفي ذلك عندي نظر ، انتهى .

قلت : لا نظر في ذلك ، فإن سيدي الشيخ محيي الدين ذكر في إجازته للملك المظفر غازي ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب ما معناه أو نصّه : ومن شيوينا الأندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي ، رحمه الله تعالى ؛ حدثني بجميع مصنفاته في الحديث ، وعين لي من أسماها تلقين المهدي ، والأحكام الكبرى ، والوسطى ، والصغرى ، وكتاب التهجد ، وكتاب العاقبة ، ونظمه ونثره ، وحدثني بكتب الإمام أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم عن أبي الحسن شُريح بن محمد بن شُريح عنه ، انتهى .

وقال : إن الحافظ السُّلْفِي أجاز له ، انتهى . قال بعض الحفاظ : وأحسبها الإجازة العامة .

وكان ظاهريّ المذهب في العبادات ، باطنيّ النظر في الاعتقادات ، وكان دَقْنَه يوم الجمعة بجبل قاسيون ، واتفق أنّه لما أقام ببلاد الروم زكاه ذات يوم الملكُ فقال : هذا تذللُّ له الأسود ، أو كلاماً هذا معناه ، فسُئِلَ عن ذلك ، فقال : خدمت بمكّة بعض الصلحاء ، فقال لي يوماً : الله يُبدِلُ لك أعزَّ خلقه ، وأمر له ملك الروم مرّة بدارٍ تساوي مائة ألف درهم ، فلما نزلها وأقام بها مرّةً به في بعض الأيام سائل ، فقال له : شيء لله ، فقال : ما لي غير هذه الدار ، خذها لك ، فتسلّمها السائل وصارت له .

١ الوافي : هذا بدعوة الأسود ؛ الفوات : تذعر له الأسود .

وقال الذهبي في حقّه : إن له توسّعاً في الكلام ، وذكاء ، وقوّة خاطر ، وحافظة ، وتدقيقاً في التصوّف ، وتواليف جمّة في العرفان ، لولا شطّحه في كلامه وشعره ، ولعلّ ذلك وقع منه حال سكره وغيبته ، فيرجى له الخير ، انتهى .

وقال القطب اليونيني في ذيل « مرآة الزمان » : عن سيدي الشيخ محيي الدين - رضي الله تعالى عنه ونفعنا به - أنّه كان يقول : إنّي أعرف اسم الله الأعظم ، وأعرف الكيمياء ، انتهى .

وقال ابن شوّذكين عنه : إنّه كان يقول : ينبغي للعبد أن يستعمل همّته في الحضور في مناماته ، بحيث يكون حاكماً على خياله يصرفه بعقله نوماً ، كما كان يحكم عليه يقظة ، فإذا حصل للعبد هذا الحضور وصار خلُقاً له وجد ثمرة ذلك في البرزخ وانفع به جدّاً ، فليهمّ العبد بتحصيل هذا القدر ، فإنّه عظيم الفائدة بإذن الله تعالى .

وقال : إن الشيطان ليقنع من الإنسان بأن ينقله من طاعة إلى طاعة ليفسخ عزّمه بذلك .

وقال : ينبغي للسالك أنّه متى حضر له أنّه يعقد على أمرٍ ويعاهد الله تعالى عليه ، أن يترك ذلك الأمر إلى أن يجيء وقته ، فإن يسّر الله تعالى فعله فعلمه ، وإن لم يسّر الله فعله ، يكون مخلصاً من نكث العهد ، ولا يكون متصفاً بنقض الميثاق .

ومن نظم الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى قوله :

بين التدلّل والتدلّل نُقْطَةٌ فيها يتيهُ العالم النّحريرُ  
هي نقطةُ الأكوان إن جاوزتها كنتَ الحكيمَ وعلمك الإكسيرُ  
وقوله أيضاً رحمه الله :

يا دُرّةً بيضاءَ لاهوتيةً قد رُكبتَ صدفاً من الناسوتِ

جهل البسيطة<sup>١</sup> قدرها لشقائهم وتنافسوا في الدرّ والياقوت

وحكى العماد بن النحاس الأطروش<sup>٢</sup> أنه كان في سَفْح جبل قاسيون على مستشف ، وعنده الشيخ محيي الدين ، والغيث والسحاب عليهم ، ودمشق ليس عليها شيء ، قال : فقلت للشيخ : أما ترى هذه الحال ؟ فقال : كنت بمراكش وعندي ابن خروف الشاعر ، يعني أبا الحسن علي بن محمد القرطبي القبيداتي<sup>٣</sup> ، وقد اتفق الحال مثل هذه ، فقلت له مثل هذه المقالة ، فأنشدني :

يطوفُ السحابُ بمراكشٍ طوافَ الحجيجِ بيتِ الحَرَمِ  
يرومُ نَزولاً فلا يستطيعُ لسفكِ الدماءِ وهتكِ الحَرَمِ

وحكى المقرئ في ترجمة سيدي عمر بن الفارض - أفاض الله علينا من أنواره - أن الشيخ محيي الدين بن العربي بعث إلى سيدي عمر يستأذنه في شرح

كتابه التائية ، فقال : كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها ، انتهى . كان ببلاد الأندلس وقال بعض من عرّف به : إنه لما صنّف « الفتوحات المكية » كان مربياً عمره يكتب كل يوم ثلاث كراريس حيث كان ، وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة ، صدمت حسبه فما ادّخر منها شيئاً ، وقيل : إن صاحب حمص رتب له كل يوم مائة درهم ، وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهماً ، فكان يتصدق بالجميع ، واشتغل الناس بمصنّفاته ، ولها ببلاد اليمن والروم صيت عظيم ، وهو من عجائب الزمان ، وكان يقول : أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب .

ومن نظمه :

- ١ دوزي : جهل البرية .  
٢ ط : الأطروش .  
٣ ق ط ج : القبيداتي .

وما رآها بَصْرِي	حقيقتي هَمْتُ بِهَا
قتيلَ ذاك الحَوْرِ	ولوَ رآها لَعْدَا
صِرْتُ بِحُكْمِ النَّظْرِ	فَعِنْدَمَا أَبْصَرْتُهَا
أهيمُ حتَّى السَّحْرِ	فبتُ مسحوراً بِهَا
لو كان يُغني حذري	يا حذري من حذري
جمالُ ذاك الحَفْرِ	والله ما هَمَّيَ
ترعى بذاتِ الحَمْرِ	في حُسْنِهَا من ظبيةٍ
تَسْبِي عَقولَ البَشْرِ	إِذَا رَأَتْ أَوْ عَطَفَتْ
أعرافُ مسكٍ عَطْرِ	كأَنَّمَا أنْفاسُهَا
في النورِ أو كالقَمْرِ	كأَنَّمَا شمسُ الضحَى
نورُ صباحٍ مسفرٍ	إنْ أَسْفَرَتْ أَبْرَزَهَا
سوادُ ذاكِ الشَّعْرِ	أو سَدَلَتْ غَيْبَهَا
خذي فَوادي وذَري	يا قمرًا تحتَ دُجَى
إذ كان حظِّي نظري	عيني لكي أَبْصِرَكم

وقال الحويّبي : قال الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله تعالى عنه : رأيت بعض الفقهاء في النوم في رؤيا طويلة ، فسألني : كيف حالك مع أهلك ؟ فقلت :

إذا رأيت أهل بيتي الكيسَ ممتلئاً  
تبسّمتَ ودنّتَ مِنِّي تمازحني  
وإن رأتهُ خلياً من دراهمه  
تجهمتَ وانثنتَ عني تقابحني

فقال لي : صدقت ، كلنا ذلك الرجل .  
وذكر الإمام العالم بالله تعالى لسان الحقيقة ، وشيخ الطريقة ، صفي الدين

حسين ابن الإمام العلامة جمال الدين أبي الحسن علي ، ابن الإمام مفتي الأنام كمال الدين أبي منصور ظاهر الأزدي الأنصاري رضي الله تعالى عنه ، في رسالته الفريدة المحتوية على مَنْ رَأَى مِنْ سادات مشايخ عصره ، بعد كلام ، ما صورته : ورأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية ، وما وفر له من العلوم الوهية ، ومنزلته شهيرة ، وتصانيفه كثيرة ، وكان غلب عليه التوحيدُ علماً وخلقاً وحالاً ، لا يكثرُ بالوجود ، مقبلاً كان أو معرضاً ، وله علماء أتباع أرباب مَوَاجِد ، وتصانيف ، وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الحرَّار إخاء ورفقة في السياحات ، رضي الله تعالى عنهما ، في الآصال والبكرات ، ومن نظم سيدي الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه قوله :

يا مَنْ يَرَانِي وَلَا أَرَاهُ كَمْ ذَا أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي

قال رحمه الله تعالى : قال لي بعض إخواني لما سمع هذا البيت : كيف تقول : إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟ فقلت له مرتجلاً :

يا مَنْ يَرَانِي مُجْرِمًا وَلَا أَرَاهُ آخِذًا  
كَمْ ذَا أَرَاهُ مُنْعِمًا وَلَا يَرَانِي لَائِذًا

قلتُ : من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى مؤوَّل ، وأنه لا يقصد ظاهره ، وإنما له محامل تليق به ، وكفاك شاهداً هذه الجزئية الواحدة ، فأحسنِ الظنَّ به ولا تنتقد ، بل اعتقد ، وللناس في هذا المعنى كلام كثير ، والتسليم أسلم ، والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم .

ومن النظم المنسوب لمحاسن الشيخ سيدي محيي الدين رضي الله تعالى عنه ، في ضابط ليلة القدر :



وَإِنَّا جَمِيعًا إِن نَّصُمُ يَوْمَ جُمُعَةٍ      فِي تَاسِعِ الْعَشْرِينَ خُذْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ  
 وَإِن كَانَ يَوْمُ السَّبْتِ أَوَّلَ صَوْمِنَا      فَحَادِي وَعَشْرِينَ اعْتَمِدْهُ بِلَا عُسْرِ  
 وَإِن كَانَ صَوْمَ الشَّهْرِ فِي أَحَدٍ فَخُذْ      فِي سَابِعِ الْعَشْرِينَ مَا شِئْتَ فَاسْتَقْرِي  
 وَإِن هَلَّ بِالْإِثْنَيْنِ فَاعْلَمْ بِأَنَّهُ      يُوَاتِيكَ نَيْلُ الْوَجْدِ فِي تَاسِعِ الْعَشْرِ  
 وَيَوْمَ الثَّلَاثَا إِن بَدَا الشَّهْرُ فَاعْتَمِدْ      عَلَى خَامِسِ الْعَشْرِينَ فَاعْمَلْ بِهَا تَدْرِي  
 وَفِي الْأَرْبَعَا إِن هَلَّ يَا مِنْ يَرُومُهَا      فَدُونَكَ فَاطْلُبْ وَصَلْهَا سَابِعَ الْعَشْرِ  
 وَيَوْمَ خَمِيسٍ إِن بَدَا الشَّهْرُ فَاجْتَهِدْ      فِي ثَالِثِ الْعَشْرِينَ تَظْفِرْ بِالنَّصْرِ  
 وَضَابِطُهَا بِالْقَوْلِ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ      تُوَافِيكَ بَعْدَ النَّصْفِ فِي لَيْلَةِ الْوَتْرِ

قلت : لستُ على يقين من نسبة هذا النظم إلى الشيخ رحمه الله تعالى ، فإن  
 نَفَسَهُ أَعْلَى مِنْ هَذَا النِّظْمِ ، وَلَكِنِّي ذَكَرْتَهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَائِدَةِ ، وَلِأَنَّ بَعْضَ  
 النَّاسِ نَسَبَهُ إِلَيْهِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ .

وَمِمَّا نَسَبَهُ إِلَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى غَيْرُ وَاحِدٍ قَوْلُهُ :

قَلْبِي قَطْبِي ، وَقَالِي أَجْفَانِي      سَرِّي خَضْرِي ، وَعَيْنِي عِرْفَانِي  
 رُوحِي هَرُونٌ وَكَلِيمِي مُوسَى      نَفْسِي فِرْعَوْنٌ ، وَالْهَوَى هَامَانِي

وَذَكَرَ بَعْضُ الثَّقَاتِ أَنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ يُكْتَبَانِ لِمَنْ بِهِ الْقَوْلَانِجُ فِي كَفِّهِ  
 وَيَلْحَسُهُمَا ، فَإِنَّهُ يَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ : وَهُوَ مِنَ الْمَجْرِبَاتِ .  
 وَقَدْ تَأَوَّلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَوْلَ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِيمَانِ فِرْعَوْنَ أَنَّ مَرَادَهُ  
 بِفِرْعَوْنَ النَّفْسَ بِدَلِيلِ مَا سَبَقَ ، وَحَكَى فِي ذَلِكَ حِكَايَةَ عَنْ بَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ مِمَّنْ  
 كَانَ يَنْتَصِرُ لِلشَّيْخِ ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

\* \* \*

[ سعد الدين ابن الشيخ محيي الدين ]

ولد للشيخ محيي الدين - رحمه الله تعالى - ابنه محمد المدعو سعد الدين<sup>١</sup> بملطية في رمضان سنة ٦١٨ ، وسمع الحديث ، ودرس ، وقال الشعر الجيد . وله ديوان شعر مشهور ، وتوفي بلمشق سنة ٦٥٦ سنة دخل هولاءكو بغداد وقتل الخليفة المستعصم ، ودفن المذكور عند والده بسفح قاسيون ، وكان قدم القاهرة ، وسكن حلبا ، ومن شعره<sup>٢</sup> :

لَمَّا تَبَدَّى عَارِضَاهُ فِي نَمَطٍ      قِيلَ ظِلَامٌ بِضِيَاءِ اخْتِلَاطٍ  
وَقِيلَ سَطْرُ الْحَسَنِ فِي خَدَّيْهِ خَطٌّ      وَقِيلَ نَمْلٌ فَوْقَ عَاجٍ انْبِطِاطٍ<sup>٣</sup>  
وَقِيلَ مِسْكٌ فَوْقَ وَرْدٍ قَدْ نُقِطَ      وَقَالَ قَوْمٌ : إِنَّهَا اللَّامُ فَقَطْ

\* \* \*

[ حكاية عن ابن جزري ]

قلت : تذكرت بهذا ما قاله الكاتب أبو عبد الله ابن جزري الأندلسي ، كاتب سلطان المغرب أبي عنان حين تنازع الكتاب أرباب الأقاليم والرؤساء أصحاب السيوف في تشبيه العذار ، وقالت كل فرقة : لا نشبهه إلا بما هو مناسب لصنعتنا ، فلما فرغوا قال ابن جزري :

أتى أولو الكتب والسيوف الأولى عزموا      من بعد سلمي على حربي وإسلامي

١ انظر ترجمة سعد الدين بن عربي في فوات الوفيات ٢ : ٣٢٥ والوافي ١ : ١٨٦ وشذرات الذهب ٥ : ٢٨٣ .

٢ انظر الفوات : ٣٢٦ والوافي : ١٨٨ .

٣ الفوات والوافي : قد سقط .

٤ هو محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزري الكلبي ( ٧٢١ - ٧٥٧ ) غرناطي الأصل ، كتب عن السلطان أبي الحجاج يوسف ثم ارتحل ولحق بجناب السلطان أبي عنان ، وهو الذي كتب رحلة ابن بطوطة ورتبها ( انظر ترجمته في الإحاطة ٢ : ١٨٦ والكتيبة الكامنة : ٢٢٣ وأزهار الرياض ٣ : ١٨٩ ونثير فرائد الجمان ، الورقة : ٤ ونثير الجمان الورقة : ٧٨ ) .

بكلّ معنى بديعٍ في العذار على  
فقال ذو الكتب : لا أرضى المحارب في  
وقال ذو الحرب : لا أرضى الكتائب في  
فقلتُ : أجمعُ بينَ المذهبينِ معاً  
ما تقتضي منهمُ أفكارُ أحلامي  
تشبيهُه لا وأنقاسي وأقلامي  
تشبيهُه ومظَلَّاتي وأعلامي  
باللام ، فاستحسنوا التشبيه باللام .

وهذه الغاية التي لا تدرك مع البديهة ولزوم ما لا يلزم .  
رجع - ومن نظم سعد الدين قوله <sup>١</sup> :

سهرى من المحبوب أصبح مُرسلاً  
قال الحبيبُ : بأنَّ ريقِي نافعٌ  
وأراه مُتصِلاً بفيضِ مدامعِ  
فاستمعَ روايةَ مالِكِ عن نافعِ  
ومن نظمه أيضاً قوله :

وقالوا : قصيرٌ شعْرُ مَنْ قد هَوَيْتَهُ  
مُحيَاه شمسٌ قد علَّتْ عُصْنُ قَدِّهِ  
فقلتُ : دَعُونِي لا أرى مِنْهُ مَخْلَصَا  
فلا عَجَبٌ للظلِّ أن يتقلَّصَا  
وقوله <sup>٢</sup> :

وربَّ قاضٍ لنا مليحٍ  
إذا رمانا بسهمٍ لحظِ  
يُعربُ عن منطقٍ لذيذِ  
قلنا له دائمُ النُفوذِ

وقوله <sup>٣</sup> :

لكَ والله منظرٌ  
إنَّ يوماً تكونُ فيه  
قلَّ فيه المُشاركُ  
ليومٌ مباركُ

١ انظر البيتين في الواقي : ١٨٨ .

٢ البيتان في الفوات والواقي .

٣ هما في الفوات من مقطوعة في تسعة أبيات .

ومن نظمه أيضاً ما كتب به إلى أخيه عماد الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ  
الأكبر محيي الدين بن عربي أفاض الله تعالى علينا من فتوحاته ، قوله :

ما للنوى رقةً ترثي لمكتبِ حَرَآنِ في قلبه والدمعُ في حلبِ  
قد أصبحتُ حلبُ ذاتَ العمادِ بكمِ وجِلتُ لِرَمِّ هذا من العجبِ

وتوفي الشيخ عماد الدين بالصالحية سنة ٦٦٧ ، ودفن بسفح قاسيون عند  
والده بتربة القاضي ابن الزكي ، رحم الله تعالى الجميع .  
وابن الزكي أيضاً محيي الدين .

ومن نظم سعد الدين المذكور في وسيم رآه بالزيادة في دمشق :

يا خَلِيلِيَّ في الزيادةِ ظبيُّ سَلَبَتِ مُقَلَّتَاهُ جفني رقادةً  
كيفَ أَرَجُو السُّلُوَ عنه وطرفي ناظرٌ حُسنَ وجهه في الزيادة

وله :

علقتُ صُوفِيّاً كبدِ الدُّجَى لکنهُ في وَصَلِي الزاهدِ  
يَشْهَدُ وَجَدِي بغرّامي له فَدَيْتُ صُوفِيّاً له شَاهِدُ

وله أيضاً :

صوت إلى حَرِيرِي مَلِيحِ تَكَرَّرَ نَحْوَ مَترله مَسِيرِي  
أقولُ له : أَلَا تَرثِي لَصَبَّ عَدِيمِ للمُساعدِ والنصيرِ  
أقام ببابِكُمُ خَمْسِينَ شَهراً فقال : كذا مقاماتُ الحَرِيرِي

وله :

وغزال من اليَهُودِ أَتاني زائراً من كَنيسِهِ أو كَناسِهِ

بَتُّ أَجْبِي الشَّقِيقِ مِنْ وَجْتِيهِ  
وَأَشْمُ الْعَبِيرِ مِنْ أَنْفَاسِهِ  
وَاعْتَنَقْنَا إِذْ لَمْ نَخَفْ مِنْ رَقِيبٍ  
وَأَمِنَّا الْوُشَاةَ مِنْ حُرَّاسِهِ  
مَنْ رَأَى يَظُنُّنِي لِنَحْوِي  
وَاصْفِرَّ أَرِي عِلَامَةَ فَوْقَ رَأْسِهِ

وله :

لِي حَبِيبٌ بِالنَّحْوِ أَصْبَحَ مُغْرَى  
فَهَوَّ مِنِّْي بِمَا أَعَانِيهِ أَدْرَى  
قَلْتُ : مَاذَا تَقُولُ حِينَ تُنَادِي  
يَا حَبِيبِي الْمُضَافَ نَحْوَكَ جَهْرًا  
قَالَ لِي : يَا غِلَامُ ، أَوْ يَا غِلَامِي  
قَلْتُ : لَبَّيْكَ ثُمَّ لَبَّيْكَ عَشْرًا

وله أيضاً :

سَاءَ لَتَّتِي عَنْ لَفْظَةِ لُغَوِيَّةٍ  
فَأَجَبْتُ مَبْتَدَأًا بِغَيْرِ تَفَكُّرٍ  
خَاطَبْتَنِي مَتَبَسِّمًا فَرَأَيْتُهَا  
مِنْ نَظْمِ تَفْرِكٍ فِي صِحَاحِ الْجَوْهَرِي

وله :

وَعَلِمْتُ أَنَّ مِنَ الْحَدِيدِ فُرَادَةً  
لَمَّا انْتَضَى مِنْ مَقْلَتِيهِ مُهِنْدًا  
أَنْسْتُ مِنْ وَجْدِي بِجَانِبِ خَدِّهِ  
نَارًا وَلَكِنْ مَا وَجَدْتُ بِهَا هُدًى

\* \* \*

[رجع إلى الشيخ محيي الدين]

وقال الشيخ محيي الدين - أفاض الله تعالى علينا من أنواره ، وكسانا بعض  
حلل أسرارهِ - إنه بلغني في مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت في أمور  
عظيمة ، فقلت : هذه قد جعلها الله تعالى سبباً لخير وصل إلي فلا كافيتها ،  
وعقدت في نفسي أن أجعل جميع ما اعتمرت في رجب لها ، ففعلت ذلك ، فلما  
كان الموسم استدلت علي رجل غريب ، فسأله الجماعة عن قصده ، فقال : رأيت  
بالينبع في الليلة التي بت فيها كأن آفاً من الإبل أوقارها المسك والعنبر والجوهر ،

فعبجت من كثرتة ، ثم سألت : لمن هو ؟ فقيل : هو لمحمد بن عربي يهديه إلى فلانة ؛ وسمى تلك المرأة ثم قال : وهذا بعض ما تستحق ، قال سيدي ابن عربي : فلما سمعت الرؤيا واسم المرأة ، ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم مني ذلك ، علمت أنه تعريف من جانب الحق ، وفهمت من قوله إن هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها ، فقصدت المرأة وقلت : اصدقيني ، وذكرت لها ما كان من ذلك ، فقالت : كنت قاعدة قبالة البيت ، وأنت تطوف ، فشكرك الجماعة الذين كنت فيهم ، فقلت في نفسي : اللهم إنني أشهدك أنني قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس ، وكنت أصومهما وأتصدق فيهما ، قال : فعلمت أن الذي وصل مني إليها بعض ما تستحق فإنها سبقت بالجميل ، والفضل للمتقدم .

ومن نظم الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى :

يا غاية السؤل والمأمول يا سندي	شوقي إليك شديد لا إلى أحد
ذُبتُ اشتياقاً ووجداً في محبتكم	فأه من طول شوقي آه من كمدني
بدي وضعتُ على قلبي مخافة أن	ينشق صدري لما خانني جلدني
ما زال يرفعها طوراً ويخفضها	حتى وضعت يدي الأخرى تشد يدي

وحكى سبطُ ابن الجوزي عن الشيخ محيي الدين أنه كان يقول : إنه يحفظ الاسم الأعظم ، ويقول : إنه يعرف السيميا بطريق التنزل ، لا بطريق التكسب ، انتهى والله تعالى أعلم ، والتسليم أسلم .

ومن نظم الشيخ محيي الدين قوله :

ما فاز بالتوبة إلا الذي قد تاب قدماً والورى نوم  
فمن يتب أدرك مطلوبة من توبة الناس ولا يعلم

وله ، رحمه الله تعالى ، من المحاسن ما لا يستوفى .

وأُنشدني لنفسه بدمشق صاحبنا الصوفي الشيخ محمد بن سعد الكلشسي -  
حفظه الله تعالى - قوله شيخنا : الحاتمي . . . ( الأبيات ) ١ ؛ وأنشدني لنفسه :

أمولاي محيي الدين أنت الذي بدت علومك في الآفاق كالغيث مُدْ هَمِي  
كشفت معاني كل عِلْمٍ مُكْتَمٍ وأوضحت بالتحقيق ما كان مُبْهَمًا

وبالجملة فهو حجة الله الظاهرة ، وآيته الباهرة ، ولا يلتفت إلى كلام من  
تكلم فيه ، والله درُّ السيوطي الحافظ فإنه أَلَفَ « تنبيه الغبي على تنزيه ابن  
عربي » ومقامُ هذا الشيخ معلوم ، والتعريف به يستدعي طولاً ، وهو أظهر  
من نار<sup>٢</sup> على عِلْمٍ .

وكان بالمغرب يُعرَفُ بابن العربي بالألف واللام ، واصطلاح أهل المشرق  
على ذكره بغير ألف ولام ، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر ابن العربي .  
وقال ابن خاتمة في كتابه « مزية المريّة » ما نصّه : محمد بن علي بن محمد  
الطائي الصوفي ، من أهل إشبيلية ، وأصله من مُرْسِيّة ، يكنى أبا بكر ، ويُعرف  
بابن العربي وبالحاتمي أيضاً ، أخذ عن مشيخة بلده ، ومال إلى الآداب ، وكتب  
لبعض الولاة بالأندلس ، ثم رحل إلى المشرق حاجاً فأدّى الفريضة ، ولم يعد  
بعدها إلى الأندلس ، وسمع الحديث من أبي القاسم الحرستاني ومن غيره ،  
وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن ابن أبي نصر في شوال سنة ٦٠٦ ،  
وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي ، ويقول بها . وبرع في  
علم التصوّف ، وله في ذلك تواليف كثيرة : منها « الجمع والتفصيل في  
حقائق التنزيل » و « الجذوة المقتبسة والخطرة المختلصة » وكتاب « كشف  
المعنى في تفسير الأسماء الحسنى » وكتاب « المعارف الإلهية » وكتاب « الإسرا

١ أثبت في الأصول الأبيات التي مرت ص : ١٦٢ .

٢ ق ط ج ق : من نور ، وصوبت في هامش ج .

إلى المقام الأشرى » وكتاب « مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم » وكتاب « عنقاء مغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب » وكتاب « في فضائل مشيخة عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدي » ، والرسالة الملقبة بـ « مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية » في كتب أخر عديدة ، وقدم على المريّة من مُرْسِيّة مُسْتَهْلَ شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وبها ألّف كتابه الموسوم بـ « مواقع النجوم » ، انتهى .  
ولا يخفاء أن مقام الشيخ عظم بعد انتقاله من المغرب ، وقد ذكر ، رحمه الله تعالى ، في بعض كتبه أن مولده بمُرْسِيّة .

وفي الكتاب المسمى بـ « الاغتباط بمعالجة ابن الخياط » تأليف شيخ الإسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزابادي الصديقي صاحب القاموس ، قدّس الله تعالى روحه ، الذي ألّفه بسبب سؤال سئل فيه عن الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي الطائي قدّس الله سرّه العزيز في كتبه المنسوبة إليه ، ما صورته :

ما تقول السادة العلماء شدّد الله تعالى بهم أزر الدين ، ولمّ بهم شعّات المسلمين ، في الشيخ محيي الدين بن عربي في كتبه المنسوبة إليه كالفقوحات والقصوص ، هل تحلّ قراءتها وإقراؤها ومطالعتها ؟ وهل هي الكتب المسموعة المقرّوة أم لا ؟ أفتونا مأجورين جواباً شافياً لتحوزوا جميل الثواب ، من الله الكريم الوهاب ، والحمد لله وحده .

فأجابه بما صورته : الحمد لله ، اللهم أنطقنا بما فيه رضاك ، الذي أعتقده في حال المسؤول عنه وأدين الله تعالى به ، أنّه كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً ، وإمام الحقيقة حقيقة ورسماً ، ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسماً :

إذا تَعَلَّلَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِي طَرْفٍ مِنْ بَحْرِهِ غَرِقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ  
وهو عباب لا تكدره الدلاء ، وسحاب لا تتقاصر عنه الأنواء ، وكانت



دعوته تخترق السبع الطباق ، وتفرق بركاته فتملاً الآفاق ، وإني أصفه وهو  
يقيناً فوق ما وصفته ، وناطق بما كتبه ، وغالب ظني أنني ما أنصفته :

وما عَلَيَّ إذا ما قلت مُعْتَقِدِي      دع الجَهِولَ يظُنُّ العَدلَ عُدْوانا  
والله والله والله العظيم وَمَنْ      أقامَهُ حُجَّةً للدين بُرْهاناً  
بأنَّ ما قلتُ بعضٌ من مَنابِه      ما زدتُ إلاَّ لعلِّي زدتُ نقصاناً

وأما كتبه ومصنّفاته فإلبحار الزواجر ، التي لجواهرها وكثرتها لا يُعرف  
لها أول ولا آخر ، ما وضع الواضعون مثلها ، وإنّما خصّ الله سبحانه بمعرفة  
قدرها أهلها ، ومن خواص كتبه أن مَنْ واطب على مطالعتها والنظر فيها ،  
وتأمّل ما في مبانيها ، انشرح صدره لحل المشكلات ، وفك المعضلات ، وهذا  
الشأن لا يكون إلا لأنفاس مَنْ خصّه الله تعالى بالعلوم اللدنية الربانية ، ووقفت  
على إجازة كَتَبَهَا للملك المعظم فقال في آخرها : وأجزته أيضاً أن يروي عني  
مصنفاً . ومن جملة ما كذا وكذا ، حتى عد نيفاً وأربعمائة مصنف ، منها  
التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى تفسير سورة الكهف عند قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَناهُ  
مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ (الكهف : ٦٥) وتوفّي ولم يكمل ، وهذا التفسير كتاب عظيم ،  
كل سفر بحر لا ساحل له ، ولا غرو فإنّه صاحب الولاية العظمى ، والصديقية  
الكبرى ، فيما نعتقد وندين الله تعالى به . وثم طائفة ، في الغي حائفة ، يُعْظِمون  
عليه النكير ، وربّما بلغ بهم الجهل إلى حد التكفير ، وما ذاك إلا لقصور  
أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها ، ولم تصل أيديهم لقصّها  
إلى اقتطاف مجانيها :

عَلَيَّ نَحْتُ القَوائِمِ من مَعادِنِها      وما عَلَيَّ إذا لم تفهم البَقَرُ

هذا الذي نعلم ونعتقد ، وندين الله تعالى به في حقه ، والله سبحانه وتعالى  
أعلم ، وصورة استشهاده : كتبه محمد الصديقي الملتجئ إلى حرم الله تعالى ،

عفا الله عنه .

وأما احتجاجه بقول شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام شيخ مشايخ الشافعية فغير صحيح ، بل كذب وزور ، فقد روينا عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائي عن جماعة من المشايخ كلّهم عن خادم الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام أنّه قال : كنّا في مجلس الدرس بين يدي الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ، فجاء في باب الردّة ذكر لفظة الزنديق ، فقال بعضهم : هل هي عربية أو عجميّة ؟ فقال بعض الفضلاء : إنّما هي فارسيّة معرّبة ، أصلها زن دين ، أي على دين المرأة ، وهو الذي يضمّر الكفر ويظهر الإيمان ، فقال بعضهم : مثل من ؟ فقال آخر إلى جانب الشيخ : مثل ابن عربي بدمشق ، فلم ينطق الشيخ ولم يردّ عليه ، قال الخادم : وكنت صائماً ذلك اليوم ، فاتفق أن الشيخ دعاني للإفطار معه ، فحضرت ووجدت منه إقبالاً ولطفاً ، فقلت له : يا سيّدي ، هل تعرف القطب الغوث الفرد في زماننا ؟ فقال : ما لك ولهذا ؟ كلّ ، فعرفت أنّه يعرفه ، فتركت الأكل وقلت له : لوجه الله تعالى عرفني به ، من هو ؟ فتبسّم ، رحمه الله تعالى ، وقال لي : الشيخ محيي الدين بن عربي ، فأطرقت ساكناً متحيراً ، فقال : ما لك ؟ فقلت : يا سيّدي ، قد حرّرت ، قال : لم ؟ قلت : أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال في ابن عربي وأنت ساكت ؟ فقال : آسكت ، ذلك مجلس الفقهاء ، هذا الذي روي لنا بالسند الصحيح عن شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام .

وأما قول غيره من أصحاب الشيخ عزّ الدين فكثير ، كان الشيخ كمال الدين الزمלקاني من أجلّ مشايخ الشام أيضاً يقول : ما أجهل هؤلاء ! ينكرون على الشيخ محيي الدين بن عربي لأجل كلمات وألفاظ وقعت في كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك معانيها ، فليأتوني لأحلّ لهم مشكله ، وأبين لهم مقاصده ، بحيث يظهر لهم الحق ، ويزول عنهم الوهم .

وهذا القطب سعد الدين الحموي سئل عن الشيخ محيي الدين بن عربي لما

رجع من الشام إلى بلاده : كيف وجدت ابن عربي ؟ فقال : وجدته بجرأ زخاراً لا ساحل له .

وهذا الشيخ صلاح الدين الصفدي له كتاب جليل وضعه في تاريخ علماء العالم في مجلدات كثيرة ، وهي موجودة في خزانة السلطان ، تنظر في باب الميم ترجمة محمد بن عربي لتعرف مذاهب أهل العلم الذين بابُ صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية والمواهب الربانية .

وقوله في شيء من الكتب المصنفة كالفصوص وغيره : إنّه صنّفه بأمر من الحضرة الشريفة النبوية ، وأمره بإخراجه إلى الناس ، قال الشيخ محيي الدين الذهبي حافظ الشام : ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلاً ؛ وهو من أعظم المنكرين وأشدّهم على طائفة الصوفية .

ثم إن الشيخ محيي الدين ، رحمه الله تعالى ، كان مسكنه ومظهره بدمشق ، وأخرج هذه العلوم إليهم ، ولم ينكر عليه أحد شيئاً من ذلك ، وكان قاضي القضاة الشافعية في عصره شمس الدين أحمد الخويّي يخدمه خدمة العبيد ، وقاضي القضاة المالكية زوجته بابنته ، وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ .

وأما كراماته ومناقبه فلا تحصرها مجلدات ، وقول المنكرين في حقّ مثله غشّاء وهبّاء لا يُعبأ به ، والحمد لله تعالى ، انتهى ما نقلته من كلام العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعرائي ، رضي الله تعالى عنه .

وقد حكى الشيخ رضي الله تعالى عنه ، عن نفسه في كتبه ما يبهر الألباب ، وكفى بذلك دليلاً على ما منحه الله ، الذي يفتح لمن شاء الباب ، وقد اعتنى بترتبه بصالحية دمشق سلاطين بني عثمان ، نصرهم الله تعالى ، على توالي الأزمان ، وبني عليه السلطانُ المرحومُ سليم خان المدرسة العظيمة ، ورتب له الأوقاف ، وقد زرت قبره وتبركت به مراراً ، ورأيت لوائح الأنوار عليه

١ الصواب : شمس الدين ، فهذا هو لقب الذهبي .

ظاهرة ، ولا يجد منصف مَحِيداً إلى إنكار ما يشاهد عند قبره من الأحوال  
 الباهرة ، وكانت زيارتي له بشعبان ورمضان وأول شوال سنة ١٠٣٧ .  
 وقال في « عنوان الدراية » : إن الشيخ محيي الدين كان يُعرف بالأندلس  
 بابن سُرَاقَة ، وهو فصيح اللسان ، بارع فهم الجنان ، قوي على الإيراد ، كلما  
 طلب الزيادة يزداد ، رحل إلى العُدُوة ، ودخل بِجَايَة في رمضان سنة ٥٩٧ ،  
 وبها لقي أبا عبد الله العربي وجماعةً من الأفاضل ، ولما دخل بِجَايَة في التاريخ  
 المذكور قال : رأيت ليلة أتي نكحت نجوم السماء كلها ، فما بقي منها نجم  
 إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف  
 فنكحتها ، ثم عرضت رؤياي هذه على مَنْ قَصَّهَا على رجل عارف بالرؤيا  
 بصير بها ، وقلت للذي عرضتها عليه : لا تذكرني ، فلما ذكر الرؤيا  
 استعظمها وقال : هذا هو البحر الذي لا يُدْرَك قعره ، صاحب هذه الرؤيا  
 يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا  
 يكون فيه أحد من أهل زمانه ، ثم سكت ساعة وقال : إن كان صاحب هذه  
 الرؤيا في هذه المدينة فهو ذلك الشاب الأندلسي الذي وصل إليها .

ثم قال صاحب العنوان ما ملخصه : إن الشيخ محيي الدين رحل إلى المشرق ،  
 واستقرت به الدار ، وألّف تواليفه ، وفيها ما فيها ، إن قيض الله تعالى مَنْ يسمع  
 ويتأول سهّل المرام ، وإن كان ممن ينظر بالظاهر فالأمر صعب ، وقد  
 نقد عليه أهل الديار المصرية وسعوا في إراقة دمه ، فخلصه الله تعالى على  
 يد الشيخ أبي الحسن البجائي ، فإنه سعى في خلاصه وتأول كلامه ، ولما وصل  
 إليه بعد خلاصه قال له الشيخ ، رحمه الله تعالى : كيف يجبس من حل منه  
 اللاهوت في الناسوت ؟ فقال له : يا سيدي ، تلك شطحات في محل سكر ولا  
 عتب على سكران .

وتوفي الشيخ محيي الدين في نحو الأربعين وستمائة ، وكان يحدث بالإجازة  
 العامة عن السلفي ، رحمه الله تعالى ، انتهى .

ومن موشحات الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه قوله ١ :

سَرَائِرُ الأَعْيَانُ	لاحتْ على الأكوان	لِلنَّاطِرِينَ
وَالعَاشِقُ الغَيْرَانُ	من ذاك في بُحْرَانُ ٢	يُبْئِدِي الأَيْنِ
يَقُولُ والوَجْدُ	أضناه والبُعْدُ ٣	قَدْ حَيْرَهُ
لَمَّا دَنَا البُعْدُ	لَمْ أَدْرِ من بَعْدُ	مَنْ غَيْرَهُ
وهَيْم العَبْدُ	والواحدُ الفَرْدُ	قَدْ حَيْرَهُ
في البَوْحِ والكِتْمَانِ	والسرِّ والإِعْلَانِ	في العالمين
أنا هُوَ اللدِيَانُ	يا عابِدَ الأوثَانِ	أنتَ الضَّئِينِ
كلُّ الهوى صَعْبُ	على الذي يَشْكُو	ذُلَّ الحِجَابِ
يا مَنْ لَهُ قَلْبُ	لَوْ أَنَّهُ يَدُكُو	عِنْدَ الشَّابِ
قَرَّبَهُ الرَّبُّ	لَكِنَّهُ إِفْكُ	فَانوِ المِتَابِ
ونادِ يا رَحْمَنُ	يا برُّ يا مَنَّانُ	إِتي حَزِينِ
أضناني الهِجْرَانِ	ولا حَبِيبِ دَانِ	ولا مُعِينِ
فَنَيْتُ باللهِ	عَمَّا تَرَاهُ العَيْنُ	مِنْ كَوْنِهِ
في مَوْقِفِ الجَاهِ	وصِحْتُ أَيْنَ الأَيْنِ	في بَيْتِهِ
فَقَالَ : يا سَاهِي	عَايَنْتَ قَطِ عَيْنُ	بِعَيْنِيهِ
أما تَرَى غَيْلَانُ	وقيسَ أَوْ مَنْ كانِ	في الغَابِرِينَ
قالوا الهوى سُلْطَانُ	إن حلَّ بِالإنْسَانِ	أفناه دِينُ

١ انظر ديوان ابن عربي : ٨٥ .

٢ في ق ط : في حران ، والتصحيح عن الديوان ؛ ج : في ضجران .

٣ الديوان : والسهد .

كَمْ مَرَّةً قَالَا	أَنَا الَّذِي أَهْوَى	مَنْ هُوَ أَنَا
فَلَا أَرَى حَالَا	وَلَا أَرَى شَكْوَى	إِلَّا الْفَنَاءَ
لَسْتُ كَنْ مَالَا	عَنِ الَّذِي يَهْوَى	بَعْدَ الْجَنَى
وَدَانَ بِالسُّوَانِ	هَذَا هُوَ الْبُهْتَانِ	لِلْعَارِفِينَ
سَلُّوهُمْ مَا كَانَ	عَنْ حَضْرَةِ الرَّحْمَنِ	وَالْآفِكِينَ
دَخَلْتُ فِي بُسْتَانِ	الْأَنْسِ وَالْقُرْبِ	كَمَكْنِسِيهِ
فَقَامَ لِي الرَّيْحَانُ	يَخْتَالُ بِالْعُجْبِ	فِي سُنْدُسِهِ
أَنَا هُوَ يَا إِنْسَانَ	مُطِيبَ الصَّبِّ	فِي مَجْلِسِهِ
جَنَّانِ يَا جَنَّانِ	اجْنِ مِنَ الْبُسْتَانِ	الْيَاسَمِينِ
وَحَلَّلَ الرَّيْحَانَ	بِحَرْمَةِ الرَّحْمَنِ	لِلْعَاشِقِينَ

وقال الإمام الصفي ابن ظافر الأزدي في رسالته<sup>١</sup> : رأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وفر له من العلوم الوهبية ، ومنزلته شهيرة ، وتصانيفه كثيرة ، وكان غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وحالاً ، لا يكثر بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً ، وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف ، وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الحرار إخاء ورفقة في السياحات ، رضي الله تعالى عنهما ، انتهى .

وذكر الإمام سيدي عبد الله بن سعد اليافعي اليميني في « الإرشاد » أنه اجتمع مع الشهاب السهروردي ، فأطرق كل واحد منهما ساعة ، ثم افترقا من غير كلام ، فقيل للشيخ ابن عربي : ما تقول في السهروردي ؟ فقال : مملوء سنة من قرنه إلى قدمه ، وقيل للسهروردي : ما تقول في الشيخ محيي

١ قد تقدم هذا ص : ١٦٨ .

الدين ؟ فقال : بحر الحقائق .

ثم قال اليافعي ما ملخصه : إن بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ ويشرحه ، فلمّا حضرته الوفاة نهى عن مطالعته ، وقال : إنكم لا تفهمون معاني كلامه ، ثم قال اليافعي : وسمعت أن العز بن عبد السلام كان يطعن عليه ويقول : هو زنديق ، فقال له بعض أصحابه : أريد أن تريني القطب ، أو قال وليّاً ، فأشار إلى ابن عربي ، فقال له : فأنت تطعن فيه ، فقال : أصون ظاهر الشرع ، أو كما قال .

وأخبرني بهذه الحكاية غير واحد من ثقات مصر والشام ، ثم قال : وقد مدحه وعظمه طائفة كالنجم الأصبهاني والتاج بن عطاء الله وغيرهما ، وتوقف فيه طائفة ، وطعن فيه آخرون ، وليس الطاعن فيه بأعلم من الخضر عليه السلام ، إذ هو أحد شيوخه ، وله معه اجتماع كثير .

ثم قال : وما يُنسب إلى المشايخ له محامل : الأول أنّه لم تصح نسبته إليهم ، الثاني بعد الصحة يُلتبس له تأويل موافق ، فإن لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمه ، وإنّما يعلمه العارفون ، الثالث : أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة ، والسكران سكرّاً مباحاً غير مؤاخذ ولا مكلف ، انتهى ملخصاً .

وممن ذكر الشيخ محيي الدين الإمام شمس الدين محمد بن مُسدي في معجمه البديع المحتوي على ثلاث مجلدات ، وترجمه ترجمة عظيمة مطولة أذكر منها أنّه قال : إنّه كان ظاهري المذهب في العبادات ، باطني النظر في الاعتقادات ، خاض بحر تلك العبارات ، وتحقق بمُحييّا تلك الإشارات ، وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدّم والإقدام ، ومواقف النهايات في مزالق الأقدام ، ولهذا ما ارتبت في أمره ، والله تعالى أعلم بسرّه ، انتهى .

ونقلت من خط ابن علوان التونسي ، رحمه الله تعالى : وقال الشيخ

محيي الدين :

بالمال يَنْقَادُ كُلُّ صَعْبٍ  
يَحْسِبُهُ عَالَمٌ حَجَاباً  
لولا الذي في النفوسِ مِنْهُ  
لا نَحْسِبُ المَالَ ما تَرَاهُ  
بل هو ما كنت يا بني  
فكن ربَّ العَلا غَنِيّاً  
من عَالَمِ الأَرْضِ والسَّمَاءِ  
لم يعرفوا لذَّةَ العَطَاءِ  
لَمْ يُجِبِ اللهُ في الدَعَاءِ  
من عَسَجَدَ مُشْرِقَ لِرَاءِ  
به غَنِيّاً عَنِ السَّوَاءِ  
وعامِلِ الخَلْقِ بالوَفَاءِ

وقال :

نَبَّهَ عَلَى السَّرِّ وَلَا تُفْشِهِ  
عَلَى الَّذِي يَبِيدُهُ فَاصْبِرْ لَهُ  
فالبَوُحُ بالسَّرِّ له مَقْتُ  
واكْتَمَهُ حَتَّى يَصِلَ الوَقْتُ

وقال :

قد ثابَ غِلْمَانُنَا عَلَيْنَا  
أذْنَا بُنَا صَيَّرَتْ رُؤُوساً  
فما لنا في الوجودِ قَدْرُ  
ما لي على ما أراهُ صَبْرُ  
هذا هوَ الدَّهْرُ يا خَلِيلِي  
فمَنْ يُقَاسِيهِ فهو قَهْرُ

ونظمُ الشَّيْخِ محيي الدين هو البحر الذي لا ساحل له .  
ولنختم ما أوردنا منه بقوله :

يا حَبِئْدا المَسْجِدِ مِنْ مَسْجِدِ  
وَحَبِئْدا طَيِّبَةَ مِنْ بِلْدَةِ  
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مِنْ سَيِّدِ  
قد قَرَنَ اللهُ بِهِ ذِكْرَهُ  
عَشْرُ خَفِيَّاتٍ وَعَشْرُ إِذَا  
فَهَذِهِ عِشْرُونَ مَقْرُونَةٌ  
وَحَبِئْدا الرُّوضَةُ مِنْ مَشْهَدِ  
فِيهَا ضَرِيحُ المِصْطَفَى أَحْمَدِ  
لَوْلَاهُ لَمْ نُنْفَلِحْ وَلَمْ نَهْتَدِ  
فِي كُلِّ يَوْمٍ فَاعتَبِرْ تَرشُدِ  
أَعْلَنَ بالتَّأذِينِ فِي المَسْجِدِ  
بِأَفْضَلِ الذِّكْرِ إِلَى الوَعْدِ



١١٤ - ومنهم الصوفي الشهير أبو الحسن علي الشُّشْتُرِي ، وهو علي

ابن عبد الله النميري<sup>١</sup> ، عروس الفقهاء ، وأمير المتجردين ، وبركة لابسي الحرقه ، وهو من قرية شُشْتُر من عمل وادي آش ، وزقاق الشُّشْتُرِي معلوم بها ، وكان مجوداً للقرآن ، قائماً عليه ، عارفاً بمعانيه ، من أهل العلم والعمل ، جال الآفاق ، ولقي المشايخ ، وحجّ حجّات ، وآثر التجرد والعبادات . وذكره القاضي أبو العباس الغبريني في « عنوان الدراية » فقال : الفقيه الصوفي ، من الطلبة المحصلين ، والفقراء المقطعين ، له علم بالحكمة ومعرفة بطريق الصوفية ، وتقدّم في النظم والنثر على طريقة التحقيق ، وأشعاره وموشحاته وأزجاله الغاية في الانطباع .

أخذ عن القاضي محيي الدين محمد بن إبراهيم بن الحسن بن سُرّاقَة الأنصاري الشاطبي وغيره من أصحاب السُّهْرَوْرْدِي صاحب « عوارف المعارف » واجتمع بالنجم بن إسرائيل الدمشقي سنة ٦٥٠ ، وخدم أبا محمد ابن سبعين ، وتلمذ له ، وكان ابن سبعين دونه في السن ، لكن اشتهر باتباعه ، وعول على ما لديه ، حتى صار يعبر عن نفسه في منظوماته وغيرها بعبد ابن سبعين ، وقال له لما لقيه - يريد المشايخ - : إن كنت تريد الجنة فسر إلى أبي مدين ، وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلم إليّ ، ولما مات أبو محمد انفرد بعده بالرياسة والإمامة على الفقراء المتجردين ، فكان يتبعه في أسفاره ما ينيّف على أربعمائة فقير فيتقسّمهم الترتيب في وظائف خدمته .

صنف كتباً : منها كتاب « العروة الوثقى في بيان السنن وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمل ويعتقده إلى وفاته » وله كتاب « المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية » و « الرسالة القدسيّة في توحيد العامّة والخاصّة » و « المراتب

١ ترجمة أبي الحسن الشُّشْتُرِي في عنوان الدراية : ١٤٠ ؛ وانظر مقدمة ديوانه بتحقيق الدكتور علي سامي النشار ( ط . الإسكندرية ١٩٦٠ ) .

الإيمانيّة والإسلاميّة والإحسانيّة» و «الرسالة العلميّة» وغير ذلك .  
وله ديوان شعر مشهور ، ومن نظمه قوله ، رحمه الله تعالى ١ :

لقد تهتُّ عجباً بالتجردِ والفقرِ  
وجاءتْ لقلبي نَفْحَةٌ قَدُوسِيَّةٌ  
طويتُ بساطَ الكونِ والطيُّ نشره  
وغمضتُ عينَ القلبِ غيرَ مطلقِ  
وصلتُ لمن لم تنفصلِ عنه لحظة  
وما الوصفُ إلاّ دونه غيرَ أنتي  
وذلك مثلُ الصوتِ أيقظُ نائماً  
فقلتُ لهُ الأسماءُ تبغي بيانه

وقال ٢ :

مَنْ لامي لو أنّه قد أبصرا  
وغدا يقولُ لصحبه إن أنتمُ  
شدتْ أمورُ القومِ عن عاداتهم  
ما ذُقْتُهُ أضحى به متحيراً  
أنكرتُم ما بي أتيتُم منكرا  
فلأجل ذلك يقال سحرٌ مفترى

وقال ، وهي من أشهر ما قال ٣ :

أرى طالباً منّا الزيادة لا الحُسنى  
وطالبنا مطلوبنا من وجودنا  
بفكرٍ رمى سَهماً فعدى به عدنا  
نغيبُ به عنّا لدى الصعقِ إن عنّا

وهي طويلة مشهورة بالشرق والغرب ، وقد شرحها شيخ شيوخ شيوخنا

١ ديوان الشثري : ٥١ .

٢ ديوانه : ٤١ .

٣ ديوانه : ٧٢ .

العارف بالله تعالى ، سيدي أحمد زروق ، نفعنا الله تعالى ببركاته . وأشار ابن الخطيب في « الإحاطة » إلى أنها لا تخلو عن شذوذ من جهة اللسان ، وضعف في العربية ، قال : ومع ذلك فهي غريبة المترع ، أشار فيها إلى مراتب الأعلام من أهل هذه الطريقة ، وكأنها مبنية على كلام شيخه الذي خاطبه به عند لقائه حسبما قدمناه ، إذ الحسنى : الجنة ، والزيادة : مقام النظر ، وقوله فيها :

وأظهرَ مِنْهَا الغَافِقِيَّ لَنَا جَنِّيَّ      وكشَفَ عن أطواره الغَيمَ والدَجَنَّا

هو شيخه أبو محمد ابن سبعين لأنه مُرْسِيُّ الأصلِ غَافِقِيَّه .  
ولما وصل الشُّسْتَرِي من الشام إلى ساحل دِمِياط وهو مريض مرض موته نزل قرية بساحل البحر الرومي فقال : ما اسم هذه القرية ؟ فقيل : الطينة ، فقال : حنّتِ الطينة إلى الطينة ، وأوصى أن يُدفن بمقبرة دِمِياط ، إذ الطينة بمفازة ، وأقرب المدن إليها دِمِياط ، فحمله الفقراء على أعناقهم إلى دِمِياط .  
وكانت وفاته يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٦٨ ، فدفن بدِمِياط ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه .

١١٥ - ومنهم سيدي أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي الأندلسي -  
وحرالة : قرية من أعمال مُرْسِيَّة - غير أنه ولد بمراكش ، وأخذ بالأندلس عن أبي الحسن ابن خروف وغير واحد ، ورحل إلى المشرق فأخذ عن أبي عبد الله القرطبي إمام الحرم وغيره ، ولقي جلةً من المشايخ شرقاً وغرباً .  
وهو إمام ورع صالح زاهد ، كان بقية السلف ، وقدوة الخلف ، وقد زهد في الدنيا وتخلّى عنها ، وأقام في تفسير الفاتحة نحواً من ستّة أشهر يُلقني في التعليل قوانين تنتزل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام ، حتى منّ الله تعالى بسبركات ومواهب لا تحصى ، وعلى أحكام تلك القوانين

١ ترجمة أبي الحسن الحرالي في عنوان الدراية : ٨٥ وشذرات الذهب : ٥ : ١٨٩ .

وضع كتابه « مفتاح اللبّ المقفل على فهم القرآن المتزل » وهو ممن جمع العلم والعمل ، وصنّف في كثير من الفنون كالأصلين والمنطق والطبيعيّات والإلهيات ، وكان يُقرىء « النجاة » لابن سينا فينقضه عُرْوَة عُرْوَة ، وكان من أعلم الناس بمذهب مالك ، ولما ظنّ فقهاء عصره أنّه لا يحسن المذهب لاشتغاله بالمعقولات أقرأ « التهذيب » وأبدى فيه الغرائب ، وبين مخالفته للمدوّنة في بعض المواضع ، ووقع بينه وبين الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام شيء ، وطلب عزّ الدين أن يقف على تفسيره ، فلما وقف عليه قال : أين قول مجاهد ؟ أين قول فلان وفلان ؟ وكثر القول في هذا المعنى ، ثم قال : يخرج من بلادنا إلى وطنه - يعني الشام - فلما بلغ كلامه الشيخ قال : هو يخرج وأقيم أنا ، فكان كذلك . وله عدّة مؤلّقات في الفنون ؛ وقال ، رحمه الله تعالى : أقمت ملازماً لمجاهدة النفس سبعة أعوام ، حتى استوى عندي منّ يُعطيني ديناراً ومن يزدريني . وأصبح - رحمه الله تعالى - ذات يوم ولا شيء لأهله يقيمون به أودّهم ، وكانت أم ولده جارية تسمّى كريمة ، وكانت سيّئة الخلق ، فاشتدّت عليه في الطلب ، وقالت له : إن الأصغر لا شيء لهم ، فقال : الآن يأتي من قبل الوكيل ما تنقوت به ، فبينما هم كذلك وإذا بالحمّال يضرب الباب ومعه قمح ، فقال لها : يا كريمة ، ما أعجبتك ، هذا الوكيل بعث بالقمح ، فقالت : ومن يصنعه ؟ فأمر فتصدّق به ، ثم قال لها : يأتيك ما هو أحسن منه ، فانتظرت يسيراً ، وبدأ لها فتكلّمت بما لا يليق ، فبينما هم كذلك ، وإذا بحمّال سميد ، فقال لها : هذا السميد أيسر وأسهل من القمح ، فلم يقنعها ذلك ، فأمر أيضاً بصدّفته ، فلما تصدّق به زادت في المقال ، وإذا برجل على رأسه طعام ، فقال لها : يا كريمة ، قد كُفيت المؤونة ، هذا الوكيل قد علم بحالك .

ومن كراماته أن بعض طلبته اجتمعوا في نزهة ، وأخذوا حلياً من زينة النساء ، فزيّنوا به بعض أصحابهم ، فلما انقضى ذلك واجتمعوا بمجلس الشيخ صار الذي كان في يده الحلي يتحدّث ويشير بيده ، فقال الشيخ : يد يجعل

فيها الحلي لا يشار بها في الميعاد .

ومنها أنه أصاب الناس جَدْبٌ ببجايةَ ، فأرسل إلى داره مَنْ يَسُوقُ ماء إلى الفقراء ، فامتنت كريمة ، ونَهَرَتْ رُسُلَهُ ، فسمع كلامها ، فقال للرسول : قل لها يا كريمة ، والله لأشربنَّ من ماء المطر الساعة ، فرمقَ السماءَ بطرفه ، ودعا الله سبحانه وتعالى ، ورفع يده به ، وشرع المؤذن في الأذان ، ولم يتعم المؤذن أذانه حتى كان المطر كأفواه القرب .

وتوفي ، رحمه الله تعالى ، بحماة من بلاد الشام سنة سبع وثلاثين وستمائة ؛ انتهى ملخصاً من « عنوان الدراية » للغبريني .

ووقع للذهبي في حقه كلام على عادته في الخط على هذه الطائفة ، ثم قال : ورأيت شيخنا المجد التونسي يتغالي في تفسيره ، ورأيت غير واحد معظماً له وقوماً تكلموا في عقيدته ، وكان نازلاً عند قاضي حماة البارزي ؛ وقال لنا شرف الدين البارزي : تزوج بحماة ، وكانت زوجته تشتمه وتؤذيه وهو يتبسم ، وإن رجلاً راهنَ جماعةً على أن يُحرجه ، فقالوا : لا تقدر ، فأتى وهو يعظ وصاح ، وقال له : أنت أبوك كان يهودياً وأسلم ، فنزل من الكرسي ، فاعتقد الرجل أنه غضب وأنه تمَّ له ما رامه حتى وصل إليه فخلع مرطيه عليه ، وأعطاه إياهما ، وقال له : بشرك الله بالخير ، لأنك شهدت لأبي أنه كان مسلماً ، انتهى .

وظاهر كلام الغبريني أن تفسير الخريفي الكامل ، وقال بعض : إنّه لم يكمل ، وهو تفسير حسن ، وعليه نسج البقاعي مناسباته ، وذكر أن الذي وقف عليه منه من أول القرآن إلى قوله في سورة آل عمران ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ (آل عمران : ٣٧) .

١ ق ط ج ودوزي : قرطيه .

وكلام الذهبي في الشيخ يرده كلام الغبريني ، إذ هو أعرف به ، والله تعالى أعلم .

وحكى الغبريني أنه أنشد بين يديه الزجل المشهور<sup>١</sup> :

جَنَانٌ يَا جَنَانَ اجْنُ مِنَ البُسْتَانِ اليَاسْمِينِ  
وَاتْرُكِ الرِّيحَانَ بِحُرْمَةِ الرَّحْمَنِ للعَاشِقِينَ

فسأل بعض عن معناه ، فقال بعض الحاضرين : أراد به العذار ، وقال آخر : إنما أشار إلى دَوَامِ العهد ، لأن الأزهار كلها ينقضي زمانها إلاّ الرِّيحَانَ فإنه دائم ، فاستحسن الشيخ هذا أو وافق عليه .

١١٦ - ومنهم ولي الله العارف به الشيخ الشهيرُ الكرامات ، الكبير [المقامات] <sup>٢</sup> سيدي أبو العباس المرسي ، نفعنا الله تعالى به<sup>٣</sup> . وهو من أكابر الأولياء ، صحب سيدي الشيخ الفَرْدَ القطب الغوث الجامع سيدي أبا الحسن الشاذلي ، أعاد الله تعالى علينا من بركاته ، وخلفه بعده ، وكان قدم من الأندلس من مُرسية ، وقبره بالإسكندرية مشهور بإجابة الدعوات ، وقد زرته مراراً كثيرة ، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله .

وقد عرف به الشيخ العارفُ بالله ابنُ عطاء الله في كتابه «لطائف المنن في مناقب الشيخ سيدي أبي العباس وشيخه سيدي أبي الحسن ، رضي الله تعالى عنهما» .

وقال الصفدي في الوافي : أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد الكبير العارف أبو العباس ، الأنصاري المرسي ، وارث شيخه الشاذلي تصوّفاً ، الأشعري معتقداً ،

١ انظر ما تقدم ص : ١٨٢ .

٢ المقامات : زيادة من ج ليست في ق ط .

٣ ترجمة أبي العباس المرسي في طبقات الشعرا في لطائف المنن لابن عطاء الله ونيل الاتباع : ٦٤

(عل هامش الديباج) والوافي للصفدي ج ٧ الورقة : ١٢٨ .

توفّي بالإسكندرية سنة ٦٨٦ ، ولأهل مصر ولأهل النغر فيه عقيدة كبيرة ، وقد زرته لما كنت بالإسكندرية سنة ٧٣٨ ، قال ابن عَرَّام سبط الشاذلي : ولولا قوة اشتهاره وكراماته لذكرت له ترجمة طويلة ، كان من الشهود بالنغر ، انتهى وكان سيدي أبو العباس يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله تعالى ، حتى إنّه ربّما دخل عليه مطيع فلا يحتفل به ، وربّما دخل عليه عاصٍ فأكرمه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكثر لعمله<sup>١</sup> ناظر لفعله ، وذلك العاصي دخل بكسر معصيته وذلة مخالفته ، وكان شديد الكراهة للوسواس في الصلاة والطهارة ، ويثقل عليه شهود مَنْ كان على صفته ، وذُكر عنده يوماً شخصٌ بأنّه صاحب علم وصلاح ، إلاّ أنّه كثير الوسوسة ، فقال : وأين العلم ؟ العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الأبيض والسواد في الأسود .

وله كلام بديع في تفسير القرآن العزيز : فمن ذلك أنّه قال : قال الله سبحانه وتعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ علم الله عجز خلقه عن حمده ، فحمد نفسه بنفسه في أزله ، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمده بحمده ، فقال ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : الحمد الذي حمد به نفسه بنفسه هو له ، لا ينبغي أن يكون غيره ، فعلى هذا تكون الألف واللام للعهد . وقال في قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : إِيَّاكَ نعبد شريعة ، وإياك نستعين حقيقة ، إياك نعبد إسلام ، وإياك نستعين إحسان ، إِيَّاكَ نعبدُ عبادة ، وإِيَّاكَ نستعين عبودية ، إِيَّاكَ نعبدُ فرق ، وإِيَّاكَ نستعين جمع . وله في هذا المعنى وغيره كلام نفيس يدلُّ على عظيم ما منحه الله سبحانه من العلوم اللدنية . وقال ، رضي الله تعالى عنه ، في قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ : بالتثبیت<sup>٢</sup> فيما هو حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل ؛ وهذا

١ في نسخة : متكبر بعمله ؛ وفي ق : متكثر بعمله .

٢ في نسخة : بالتثبت .

الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره ، وبسطه الشيخ ، رضي الله تعالى عنه ،  
فقال : عمومُ المؤمنين يقولون ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ معناه نسألك  
الثبوت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم التوحيد ،  
وفاتهم درجات الصالحين ، والصالحون يقولون ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾  
معناه نسألك الثبوت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل ، لأنهم حصل لهم  
الصلاح ، وفاتهم درجات الشهداء ، والشهيد يقول ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾  
أي بالثبوت فيما هو حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنه حصلت له  
درجة الشهادة ، وفاته درجة الصديقية ، والصديق كذلك يقول ﴿ اِهْدِنَا  
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إذ حصلت له درجة الصديقية ، وفاته درجة القطب ،  
والقطب كذلك يقول ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فإنه حصلت له رتبة  
القطبانية ، وفاته علم إذا شاء الله تعالى أن يطلع عليه أطلعه . وقال ، رضي الله  
تعالى عنه : الفتوة الإيمان ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا  
بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف : ١٣) وقال ، رضي الله تعالى عنه ، في قوله  
سبحانه وتعالى حاكياً عن الشيطان ﴿ ثُمَّ لَا تَيَسَّنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِن  
خَلْفِهِمْ ... الآية ﴾ (الأعراف : ١٧) ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لأن فوقهم  
التوحيد وتحتهم الإسلام . وقال ، رضي الله تعالى عنه : التقوى في كتاب الله ،  
عز وجل ، على أقسام : تقوى النار ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ ﴾  
(آل عمران : ١٣١) وتقوى اليوم ، قال الله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ  
إِلَى اللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢٨١) وتقوى الربوبية ، قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا  
رَبَّكُم ﴾ (الحج : ١) لقمان (٢٣) وتقوى الألوهية ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (المائدة : ٤٤ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ١١٠)  
وتقوى الإنسية ﴿ وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة : ١٩٧) وقال ، رضي الله تعالى  
عنه ، في قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »  
أي : لا أفنخر بالسيادة ، وإنما الفخر لي بالعبودية لله ، وكان كثيراً ما  
ينشد :



يا عمرو نادِ عبدَ زهراءِ يَعْرِفُهُ السامِعُ والرَّائِي  
لا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عَبَدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

وقال رضي الله تعالى عنه ، في قول سَمْنُونُ المحب :

وليس لي في سواكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فاختبرني

الأولى أن يقول : فكيفما شئت فاعفُ عني إذ طلب العفو أولى من طلب الاختبار . وقال رضي الله تعالى عنه : الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة ، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا . وقال رضي الله تعالى عنه : العارف لا دُنْيَا له ، لأن دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ ، وآخِرَتُهُ لربِّهِ . وقال : الزاهد غريب في الدُنْيَا ، لأن الآخرة وطنه ، والعارف غريب في الآخرة .

قال بعض العارفين : معنى الغربة في كلام الشيخ ، رضي الله تعالى عنه ، أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن قلبه ومُعَشَّشَ رُوحِهِ ، فيكون غريباً في الدُنْيَا ، إذ ليست وطناً لقلبه ، عاين الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونواها ، وفيما شهد من عقوبتها ونكالاتها ، فتغرب في هذه الدار . وأمّا العارف فإنه غريب في الآخرة إذ كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هناك ، فصار غريباً في الآخرة ، لأن سرّه مع الله تعالى ، بلا أين ، فهؤلاء العباد تصير الحضرة مُعَشَّشَ قلوبهم ، إليها يأوون ، وفيها يسكنون ، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق ، أو أرض الحصوص ، فبالإذن والتمكين ، والرسوخ في اليقين ، فلم ينزلوا إلى الحصوص لشهوة ، ولم يصعدوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، بل كانوا في ذلك كله بآداب الله تعالى وآداب رسله وأنبيائه متأدبين ، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين ، رضي الله تعالى عنهم ، ونفعنا بهم . آمين .

١ في بعض النسخ : لأن طلب .

وكلام سيدي الشيخ أبي العباس ، رضي الله تعالى عنه ، بحر لا ساحل له ،  
وكراماته كذلك ، وليُراجَع كتاب تلميذه ابن عطاء الله ، فإن فيه من ذلك ما  
يشفي ويكفي ، وما بقي أكثر .

ومن كراماته ، رضي الله تعالى عنه ، أنه عزم عليه إنسان وقدّم إليه طعاماً  
يختبره به ، فأعرض عنه ولم يأكله ، ثم التفت إلى صاحب الطعام وقال له :  
إن الحارث المحاسبي ، رضي الله تعالى عنه ، كان في إصبعه عرق إذا مدّ يده  
إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه ، وأنا في يدي سبعون عرقاً تتحرك عليّ إذا كان  
مثل ذلك ، فاستغفّر صاحب الطعام ، واعتذر إلى الشيخ ، رضي الله تعالى عنه ،  
ونفعنا به .

١١٧ - ومنهم أبو إسحاق الساحلي ، المعروف بالطويجين<sup>١</sup> - بضم الطاء  
المهملّة ، وفتح الواو ، وسكون الياء التحتيّة ، وكسر الجيم ، وقيل بفتحها - العالم  
المشهور ، والصالح المشكور ، والشاعر المذكور ، من أهل غرناطة من بيت  
صلاح وثروة وأمانة ، وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة ، وكان مع أمانته من  
أهل العلم فقيهاً متفتناً ، وله الباع المديد في الفرائض .

وأبو إسحاق هذا كان في صغره مؤثّقاً بسماط شهود غرناطة ، وارتحل  
عن الأندلس إلى المشرق ، فحجّ ، ثم سار إلى بلاد السودان فاستوطنها ، ونال  
جهاً مكيّناً من سلطانها ، وبها توفي ، رحمه الله تعالى ، انتهى ملخصاً من  
كلام الأمير ابن الأحمر في كتابه « نثر الجمان ، قيمن نظمي وإيآه الزمان » .  
وقال أبو المكارم منديل بن أجرؤم : حدثني من يوثق بقوله أن أبا إسحاق  
الطويجين كانت وفاته يوم الاثنين ٢٧ جمادى الأخيرة سنة ٧٤٧<sup>٢</sup> بتنبؤكثو

١ ترجمة الطويجين في الإحاطة ١ : ٣٣٧ ومسالك الأبصار ١١ : ٥١٦ والكنية الكاملة : ٢٣٥

ونثر فرائد الجمان : الورقة ٥٣ ونثر الجمان : الورقة ٥٨ والاستقصاء ٣ : ٥٢ .

٢ في نسخة : ٧٦٧ .

موضع بالصحراء من عمالة مالي ، رحمه الله تعالى ؛ ثم ضبط الطويحين بكسر الجيم ، قال : وبذلك ضبطه بخطّ يده ، رحمه الله تعالى ، قال : ومن نسبه للساحلي فإنه نسبه لجدّه للأُم ، انتهى .

١١٨ - ومنهم الشيخ الأديب الفاضل المعمّر ضياء الدين أبو الحسن علي ابن محمد بن يوسف بن عفيف ، الخزرجي ، الساعدي<sup>١</sup> ، من أهل غرناطة ، ويشهر بالخزرجي ، مولده ببسطة ، رحل عن الأندلس قديماً واستقرّ أخيراً بالإسكندرية ، وبها لقيه الحافظ ابن رشيد غير مرّة ، وقد أطال في رحلته في ترجمته ، إلى أن قال : وذكره صاحبنا أبو حيان ، وهو أحد من أخذ عنه ولقيه ، فقال : تلا القرآن بالأندلس على أبي الوليد هشام بن واقف المقرئ ، وسمع بها من أبي زيد الفاززي العشرينيات ، وسمع بمكة من شهاب الدين السهروردي صاحب « عوارف المعارف » وتلا بالإسكندرية على أبي القاسم ابن عيسى ، ولا يُعرف له نظم في أحد من العالم إلاّ في مدح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ومن شعره يعارض الحريري :

أهين لأهل<sup>٢</sup> البدعِ      والهجرِ والتصنعِ      ودنّ بتركِ الطمعِ  
ولذ بأهلِ الورعِ  
وعدّ عن كلّ بندي      لم يكثرث بالنبيدِ      والهجّ بغير جهبدِ  
وعالمٍ متّضعِ  
واندبُ زماناً قد سلفُ      ولم تجد منه خلفُ      وابعثْ بأنواع الأسفِ  
رسائلَ التّضرّعِ

١ راجع ترجمة ابن عفيف الخزرجي في رحلة ابن رشيد (القسم الثالث من مخطوطة الاسكوريال، الورقة ٨) .

٢ ابن رشيد : هون بأهل .

وهي طويلة<sup>١</sup> ؛ فلتراجع ترجمته في « ملء العيبة » لابن رشيد ، رحمه الله تعالى .

١١٩ - ومنهم الفقيه الجليل ، العارف النبيل ، الحاذق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ، الشهير بابن سبعين ، العكي ، المرسي ، الأندلسي ، ويلقب من الألقاب المشرقية بقطب الدين<sup>٢</sup> . قال الشيخ المؤرخ ابن عبد الملك : درس العربية والآداب بالأندلس ، ثم انتقل إلى سبّنة ، وانتحل التصوّف ، وعكف برهة على مطالعة كتبه ، والتكلم على معانيها ، فمالت إليه العامة ، ثم رحل إلى المشرق ، وحج حججاً ، وشاع ذكره ، وعظم صيته ، وكثر أشياعه ، وصنف أوضاعاً كثيرة تلقوها منه ، ونقلوها عنه ، ويُرْمى بأمور ، الله تعالى أعلم بها وبحقيقتها ، وكان حسن الأخلاق ، صبوراً على الأذى ، آية في الإيثار ، انتهى .

وقال غير واحد : إن أغراض الناس فيه متباينة ، بعيدة عن الاعتدال ، فمنهم المرهق المكفر ، ومنهم المقلد المعظم الموقر ، وحصل بهذين الطرفين من الشهرة والاعتقاد ، والنفرة والانتقاد ، ما لم يقع لغيره ، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره . ولما ذكر الشريف الغرناطي عنه أنّه كان يكتب عن نفسه ابن ○ يعني الدارة التي هي كالصفر ، وهي في بعض طرق المغاربة في حسابهم سبعون ، وشهر لذلك بابن دارة - ضمن فيه البيت المشهور :

محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

١ قال ابن رشيد : عددها أحد وأربعون بيتاً .  
٢ ترجمة ابن سبعين في عنوان الدراية : ١٣٩ والإحاطة : ٣١٧ (النسخة الخطية) وفيها نقل عن ابن عبد الملك ؛ والقوات ١ : ٥١٦ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٦١ وشذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٣٢ وله ترجمة في المنهل الصافي والوافي (راجع مقدمة رسائله) وقد نشر الدكتور عبد الرحمن بدوي مجموعة من رسائله في سلسلة تراثنا - الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (تاريخ المقدمة : ١٩٥٦) .

حسبما ذكره الشريف في شرح مقصورة حازم ، وقد طال عهدي به ، فليراجعه من ظفر به <sup>١</sup> .

وقال صاحب « درة الأسلاك » في سنة ٦٦٩ ، ما صورته <sup>٢</sup> : وفيها توفي الشيخ قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسي ، صوفي متفلسف ، مترهد متقشف ، يتكلم على طريق أصحابه ، ويدخل البيت ولكن من غير أبوابه ، شاع أمره ، واشتهر ذكره ، وله تصانيف وأتباع ، وأقوال يميل إليها بعض القلوب وتملأها بعض الأسماع ، وكانت وفاته بمكة المشرفة عن نحو خمسين سنة ، تغمده الله تعالى برحمته ، انتهى .

وقال بعض الأعلام في حق ابن سبعين : إنه كان ، رحمه الله تعالى ، عزيز النفس ، قليل التصنع ، يتولى خدمة الكثير من الفقراء والسفارة أصحاب العبادات والدافيس <sup>٣</sup> بنفسه ، ويحفون به في السكك ، ولما توفرت دواعي النقد عليه من الفقهاء كثر عليه التأويل ، ووجهت لألفاظه المعارض ، وفُليت موضوعاته ، وتعاورته الوحشة ، وجرت بينه وبين الكثير من أعلام المشرق والمغرب خطوب يطول ذكرها .

ووقع في رسالة لبعض تلامذة ابن سبعين المذكور ، وأظن اسمه يحيى

١ كتب الفقيه أبو البركات ابن الحاج علي جزء فيه كلام ابن سبعين :

ألا فدعوا ما قال عنكم فإنه محال السيف ما قال ابن دارة أجمعا

وشرح ما أراد أن أصحاب ابن سبعين يعبرون عنه بآين دارة ، لأن شكل سبعين في رسوم الحساب الرومية دارة هكذا ه . . . إلخ ؛ ( انظر شرح المقصورة ١ : ٩٩ ) .

٢ اسمه « درة الأسلاك في دولة الأتراك » لمحمد بن حبيب الحلبي ( - ٧٧٩ ) ابتداء فيه في سنة ٦٤٨ وانتهى إلى آخر سنة ٧٧٨ والتزم رعاية السجع في كلامه ( كشف الظنون ١ : ٧٣٧ ) .

٣ في الأصول : العبادات ، ثم تصحفت الكلمة التالية على صور أخرى مثل « الدنافيس » و « الدقايس » وقد وردت بصورة المفرد في الطالع السعيد : ٤٤ حيث جاء : « إني كنت في طريق عيذاب ومعنا شخص من المغاربة فمات فغسلته فوجدت معه في دفاسه ذهباً . . . إلخ » فاللفظة تشير إلى نوع من الثياب ، ولذا صححت كلمة « العبادات » وجعلتها « العبادات » لكي تتناسب اللفظتان .

ابن أحمد بن سليمان ، وسماها بـ «الوراثه المحمديه والفصول الذاتية» ما صورته : فإن قيل : ما الدليل على أن هذا الرجل الذي هو ابن سبعين هو الوارث المشار إليه ؟ قلنا : عدم النظر ، واحتياج الوقت إليه ، وظهور الكلمة المشار إليها عليه ، ونصيحته لأهل الملة ، ورحمته المطلقة للعالم المطلق ، ومحبتة لأعدائه ، وقصده لراحتهم مع كونهم يقصدون أذاه ، وعقوه عنهم مع قدرته عليهم ، وجذبهم إلى الخير مع كونهم يطلبون هلاكه ، وهذه كلها من علامات الوراثه والتبعية المحضه التي لا يمكن أحداً أن يتصف بها إلا بمجد أزلي وتخصيص إلهي ، وها أنا أصف لك بعض ما خصه الله سبحانه وتعالى به من الأمور التي هي خارقه للعاده ، ونلغي عن الأمور الخفيه التي لا نعلمها ، ونقصد الأمور الظاهرة التي نعلمها ، والتي لا يمكن أحداً أن يستريب فيها إلا من أصمته الله تعالى وأعماه ، ولا يجحدها إلا حسود قد أتعب الله تعالى قلبه وأنساه رشده ، ونعوذ بالله ممن عاند من الله تعالى مساعده ومؤيده ، وهو معه بنصره وعونه ، فما أتعب معانده ، وما أسعد موادده ، وما أكبت مرادده ، فنبداً بذكر ما وعدنا ، فنقول :

أول ما ذكر في شرفه واستحقاقه لما ذكرنا ، كونه خلقه الله تعالى من أشرف البيوت التي في بلاد المغرب ، وهم بنو سبعين ، قرشياً هاشمياً علوياً ، وأبواه وجدوده يشار إليهم ، ويعول في الرئاسة والحسب والتعين عليهم .  
والثاني : كونه من بلاد المغرب ، والنبي عليه السلام قال : « لا يزال أهل المغرب ظاهرين إلى قيام الساعة » وما ظهر من بلاد المغرب رجل أظهر منه ، فهو المشار إليه بالحديث ، ثم نقول : أهل المغرب أهل الحق ، وأحق الناس بالحق وأحق المغرب بالحق علماءه لكونهم القائمين بالقسط ، وأحق علمائه بالحق محققهم وقطبهم الذي يدور الكل عليه ويعول في مسائلهم ونوازهم السهله والعويصة عليه ، فهو حق المغرب ، والمغرب حق الله تعالى ، والملة حق العالم ، فهو المشار إليه بالوراثه ، ثم نقول : أهل المغرب ظاهرون على الحق ،

أي على الدين ، والحق سر الدين ، والمحقق سر الحق ، فالمحقق سر الدين ، فهو المشار إليه بالوراثة . ثم نقول : أهل الله خير العالم ، وأهل الحق هم خير أهل الله ، والمحقق خير أهل الحق ، فالمحقق خير العالم ، فهو المشار إليه . ثم نقول : انظر في بدايته وحفظ القديم له في صغره ، وضبطه له من اللهو واللعب ، وإخراجه من اللذة الطبيعية التي هي في جبلة البشرية ، وتركه للتراسة العرضية المعول عليها عند العالم ، مع كونه وجدها في آبائه ، وهي الآن في إخوته ، وخروجه عن الأهل والوطن الذي قرّنه الحق مع قتل الإنسان نفسه ، وانقطاعه إلى الحق انقطاعاً صحيحاً تعلم تخصيصه وخرقه للعادة ، ثم انظر في تأييده وفتحه من الصغر ، وتأليف كتاب «بدء العارف» وهو ابن خمس عشرة سنة ، وفي جلالة هذا الكتاب وكونه يحتوي على جميع الصنائع العلمية والعملية ، وجميع الأمور السنية والسنية ، تجده خارقاً للعادة ، وفي نشأته في بلاد الأندلس ولم يعلم له كثرة نظر وظهوره فيها بالعلوم التي لم تسمع قط تعلم أنه خارق للعادة ، وفي تواليفه واشتمالها على العلوم كلها ، ثم انفرادها وغرابتها وخصوصيتها بالتحقيق الشاذ عن أفهام الخلق تعلم بأنه مؤيد بروح القدس ، وفي شجاعته وقوة توكله في عزمه ونصره لصنائه وظهور حجته على خصمائه وإقامة حقه وبرهانه وفصاحة كلامه وبيان سلطانه تعلم أن ذلك بقوة إلهية وعناية ربانية ، وفي امتحان أهل المغرب له ، واجتماعهم عليه في كل بلد معتبر للمناظرة ، ويظهر الله تعالى حجته ، ويقمع خصمه ، ويسكب عدوه ، ويعجز معارضه ، ويفتح معترضه ، وفي غير الحق عليه ، وهلاك من تعرض بالأذى إليه — يعلم العاقل المخصوص ، أنه عند الله مخصوص ، وفي خلقه وقهره لقواه النزوعية والغضبية وإسلام قرينه وجلالة قوته الحافظة التي لا تنسى شيئاً والمفكرة التي تتصور الذوات المجردة والمعلومة أسر عين الطيف<sup>١</sup> ،

١ ق : أسرعين ؛ وسقطت لفظة «الطيف» ؛ وفي دوزي : أسرعين الطبق ، وأشار إلى قراءة أخرى وإلى أن العبارة سقطت من بعض النسخ .

وكذلك الذاكرة ، وسرعة ظهوره وانتشار رايته واستجلاب ثنائه في الجهات كلها ، وبالجملة جميع ما ذكرت هو فيه خارق للعادة البشرية ، ومعجز لمعارضه من كل الجهات ، ولولا خوف التطويل لكنت أفصل كل صفة ذكرت فيه بالكلام الصناعي ، ونقيم الأدلة القطعية على تعجيزها ، ولكن أعطيت الأتمودج ، وعرفت أن النبيه يعمن فكره ، ويجد ذلك كما قلته . وبالجملة جميع جزئياته إذا تؤملت توجد خارقة للعادة ، وتشهد لها ماهية الوجود بالتخصيص ، فصحّ أنّه هو المشار إليه ، والمعول في جملة الأمور عليه ، وإنّما أعطيت الأمر المشهور ، وتركت ما يُعلم منه من خرق العوائد في ظهور الطعام والشراب والسمن والتمر وأخذ الدراهم من الكون ، وإخباره عن وقائع قبل وقوعها بسنين كثيرة وظهرت كما أخبر ، فصحّ أنّه هو المذكور ؛ انتهى ما تعلق به الغرض ممّا في الرسالة في شأن الشيخ ابن سبعين .

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين - ومنهم لسان الدين بن الخطيب في « الإحاطة » كما سيأتي قريباً - أن ابن سبعين عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم إليها ، فعظم عليه بذلك الحمل ، وقبحت الأحداث عنه ، انتهى . لكن قال شهاب الدين بن أبي حَجَلَة التلمساني الأديب الشهير ، وهو صاحب كتاب « السكردان » و « ديوان الصباية » و « منطق الطير » و « الاعتراض على العارف بالله تعالى ابن الفارض » ، ما معناه : أخبرني الشيخ الصالح أبو الحسن ابن بُرْعُوش التلمساني شيخ المجاورين بمكّة وكانت له معرفة تامّة بهذا الرجل ، أنّه صدّه عن زيارة رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، أنّه كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة على ساكنها الصلاة والسلام يُهرق منه دم كدم الحيض ، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره ، انتهى . وقال غيره : نعم زار النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، مستخفياً على طريق المشاة ، حدث بذلك أصهاره بمكّة ، انتهى .



وقال لسان الدين<sup>١</sup> : أما شهرته ومحلّه من الإدراك والآراء والأوضاع والأسماء والوقوف على الأقوال والتعمق في الفلسفة والقيام على مذاهب المتكلمين فما يقضى منه العجب .

وقال الشيخ أبو البركات ابن الحاج البَلْفَيْي ، رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> : حدثني بعض أشياخنا من أهل المشرق أن الأمير أبا عبد الله ابن هُودٍ سَلَمَ طاغيةَ النصارى ، فنكث به<sup>٣</sup> ، ولم يَفِ بشرطه ، فاضطره ذلك إلى مخاطبة القسِّ الأعظم برومية ، فوكّل أبا طالب ابن سبعين أخوا أبي محمد عبد الحق بن سبعين في التكلّم عنه ، والاستظهار بين يديه ، قال : فلما بلغ ذلك الشخص رومية<sup>٤</sup> ، وهو بلد لا يصل إليه المسلمون ، ونظر إلى ما بيده ، وسئل عن نفسه ، فأخبر بما ينبغي ، كتّم ذلك القس من دنا منه بكلام معجم تُرجم لأبي طالب بما معناه : اعلموا أن أخوا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه ، انتهى .

وقال غير واحد : إنّه اشتهرت عنه أشياء كثيرة ، الله تعالى أعلم باستحقاقه رتبة ما ادعاه منها : فمنها قوله - فيما زعموا - وقد جرى ذكر الشيخ وليّ الله ، سيدي أبي مَدِين نفعنا الله تعالى ببركاته : « شُعَيْبُ عَبْدُ عَمَلٍ ، ونحن عبيد حضرة » وممّن حكى هذا لسانُ الدين في الإحاطة<sup>٥</sup> . وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه الكبير<sup>٦</sup> في ترجمة السلطان المستنصر بالله تعالى أبي عبد الله محمد ابن السلطان زكريا بن عبد الواحد بن أبي حَقْنَص ملك إفريقية وما إليها : أن أهل مكة بايعوه ، وخطبوا له بعرفّة<sup>٧</sup> ، وأرسلوا له بيعتهم ،

١ انظر الإحاطة : ٣١٩ (المخطوطة) .

٢ المصدر نفسه .

٣ الإحاطة : فنكث عهده .

٤ الإحاطة : القومس .

٥ الإحاطة : فلما بلغ باب ذلك الشخص المذكور برومة .

٦ انظر الإحاطة : ٣١٩ .

٧ الحديث عن خلافة المستنصر الحفصي ورد في ابن خلدون ٦ : ٢٨٠ وما بعدها ، ولكن ليس فيه ذكر لبيعة أهل مكة أو سرد لرسالة ابن سبعين .

وهي من إنشاء ابن سبعين ، وسردها ابن خلدون بجملتها ، وهي طويلة ، وفيها من البلاغة والتلاعب بأطراف الكلام ما لا مطمح وراءه ، غير أنه يشير فيها إلى أن المستنصر هو المهدي المبشّر به في الأحاديث الذي يحشّو المال ولا يعُدّه ، وحمل حديث مسلم وغيره عليه ، وذلك ما لا يخفى ما فيه ، فليراجع كلام ابن خلدون في محله .

ولابن سبعين من رسالة : سلام عليك ورحمة الله ، سلام عليك ثم سلام مناجاتك ، سلام الله ورحمة الله الممتدة على عوالمك كلها ، السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصلى الله عليك كصلاة إبراهيم من حيث شريعتك ، وكصلاة أعز ملائكتك من حيث حقيقتك ، وكصلاته من حيث حقه ورحمانيته ، السلام عليك يا حبيب الله ، السلام عليك يا قياس الكمال ، ومقدمة العلم ، ونتيجة الحمد ، وبرهان المحمود ، ومن إذا نظر الذهن إليه قرأ ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ (سورة ص : ٣٠) السلام عليك يا من هو الشرط في كمال الأولياء ، وأسرار مشروطات الأذكياء الأتقياء ، السلام عليك يا من جاوز في السموات مقام الرسل والأنبياء ، وزادك رفعة واستعلاء على ذوات الملأ الأعلى ، وذكر قوله تعالى ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (الأعلى : ١) .

وقال بعضهم عند إيراد جملة من رسائله التي منها هذه : إنها تشتمل على ما يشهد له بتعظيم النبوة وإيثار الورع ، انتهى .

وقال بعض العلماء الأكابر ، عند تعرضه لترجمة الشيخ ابن سبعين المترجم به ، ما نصه ببعض اختصار : هو أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم ، وتعدد المعارف ، وكثرة التصانيف ، ولد سنة ٦١٤ ، ودرس العربية والأدب بالأندلس ، ونظر في العلوم العقلية ، وأخذ عن أبي إسحاق ابن دهاق ، وبرع في طريقه ، وجال في البلاد ، وقدم القاهرة ، ثم حج واستوطن مكة ، وطار صيته ، وعظم أمره ، وكثر أتباعه ، حتى إنه تَلَمَّذَ له أمير مكة ، فبلغ من التعظيم الغاية ، وله كتاب « الدرج » وكتاب « السفر » وكتاب « الأبوبة اليمنية » وكتاب « الكد »

وكتاب « الإحاطة »<sup>١</sup> ورسائل كثيرة في الأذكار وترتيب السلوك والوصايا  
والمواعظ والغنائم .

ومن شعره<sup>٢</sup> :

كم ذا تُمَوَّهٌ بالشعبيين والعلَمِ  
وكم تعبرُ عن سَلْعٍ وكاظمةٍ  
والأمرُ أوضحُ من نارٍ على عَلَمِ  
وعن زَرُودٍ وجيرانٍ بذِي سَلَمِ  
ظَلَلتَ تَسألُ عن نَجْدٍ وأنتَ بها  
وعن تَهامةٍ ، هذا فَعَلُ متهمِ  
في الحِيِّ حِيٌّ سوى ليلي فتسأله  
عنها؟ سؤَالُكَ وهمٌ جرٌّ للعدمِ

ونشأ ، رحمه الله تعالى ، تَرَفًا مَبْجَلًا في ظلِّ جَاهٍ ونعمةٍ ، لم تفارق معها  
نفسه البأو ، وكان وسيماً ، جميلاً ، ملوكي البزة ، عزيز النفس ، قليل التصنع ،  
وكان آية من الآيات في الإيثار والجلود بما في يده ، رحمه الله تعالى .

وقال في الإحاطة : للناس في أمره اختلاف بين الولاية وضدها<sup>٣</sup> ، ولما وجه  
إلى كلامه سهام الناقدين<sup>٤</sup> قصر أكثرهم عن مداه في الإدراك ، والخوض في تلك  
البحار والاطلاع<sup>٥</sup> ، وساءت منهم في الممازجة له السيرة<sup>٦</sup> ، فانصرفوا عنه  
مكلومين<sup>٧</sup> ، يبذرون عنه في الآفاق من سوء القالة ما لا شيء فوقه ، وجرت  
بينه وبين أعلام المشرق خطوب ، ثم نزل مكة<sup>٨</sup> ، وعاقه الخوف من أمير المدينة

١ ورد هذا الكتاب في « رسائل ابن سبعين » : ١٣٠ - ١٥٠ .

٢ انظر الأبيات في الإحاطة : ٣٢١ .

٣ نص ما ورد في الإحاطة : وأغراض الناس في هذا الرجل متباينة بعيدة عن الاعتدال .

٤ الإحاطة : ولما توفرت دواعي النقد عليه ؛ هذا ما ثبت في حواشي دوزي ، أما في النسخة التي  
اعتمدتها من الإحاطة فقد اضطربت هذه الجملة ؛ والمقري ينقل حاذقاً عبارات كثيرة .

٥ الإحاطة : قصر أكثرهم عن مداه في الإدراك والاطلاع والخوض في تلك الأغراض .

٦ الإحاطة : وساءت منه لهم [ في ] الملاطفة السيرة .

٧ الإحاطة : مكظ مين .

٨ زيادة من الإحاطة .

[ المعظمة ]<sup>١</sup> عن الدخول إليها إلى أن توفي فعظم بذلك الحمل عليه<sup>٢</sup> ، وقبحت الأحذوثة عنه ، ولما وردت على سبته المسائل الصقلية - وكانت جملة من المسائل الحكمية وجهها علماء الروم تبيكياً للمسلمين - انتدب للجواب المقنع عنها ، على فناء من سنه ، وبديهة من فكرته ، رحمه الله تعالى ، انتهى .

وقال بعض من عرف به : إنه من أهل مُرْسِيَّة ، وله علم وحكمة ومعرفة ونباهة وبراعة وفصاحة وبلاغة .

وقال في « عنوان الدراية »<sup>٣</sup> : رحل إلى العُدوة ، وسكن ببجاية مدة ، ولقي من أصحابنا ناساً<sup>٤</sup> ، وأخذوا عنه ، وانتفعوا به في فنون خاصة ، له مشاركة في معقول العلوم ومنقولها ، وله فصاحة لسان ، وطلاقة قلم ، وفهم جنان ، وهو أحد الفضلاء ، وله أتباع كثيرة من الفقراء ومن عامة الناس ، وله موضوعات كثيرة هي موجودة بأيدي أصحابه ، وله فيها ألغاز وإشارات بحروف أبجد ، وله تسميات مخصوصة في كتبه من نوع الرموز ، وله تسميات ظاهرة هي كالأسامي المعهودة ، وله شعر في التحقيق ، وفي مرآتي أهل الطريق ، وكتابته مستحسنة في طريق الأدباء ، وله من الفضل والمزية ملازمته لبيت الله الحرام ، والتزامه الاعتمار على الدوام ، ووجهه مع الحجاج في كل عام ، وهذه مزية لا يُعرف قدرها ولا يُرام ، ولقد مشى به للمغاربة في الحرم الشريف حظ لم يكن لهم في غير مدته ، وكان أهل مكة يعتمدون على أقواله ، ويهتدون بأفعاله .

توفي ، رحمه الله تعالى ، يوم الخميس تاسع شوال ٦٦٩ ، انتهى ببعض اختصار .<sup>٥</sup>

١ زيادة من الإحاطة ؛ وفي دوزي : النبوية .

٢ الإحاطة : فعظم عليه الحمل لأجل ذلك .

٣ عنوان الدراية : ١٣٩ - ١٤٠ وهو أيضاً في الإحاطة : ٣١٨ .

٤ عنوان الدراية : ولقيه من أصحابنا أناس .

٥ كذا قال ، ولم يختصر من النص الذي نقله شيئاً .

وذكر<sup>١</sup>، رحمه الله تعالى، في ترجمة تلميذه الشيخ أبي الحسن الششتري السابق الذكر أن أكثر الطلبة يُرَجِّحونه على شيخه أبي محمد ابن سبعين، وإذا ذكر له هذا يقول: إنما ذلك لعدم اطلاعهم على حال الشيخ وقصور طباعهم. ومن تأليف ابن سبعين «الفتح المشترك».

\* \* \*

[ رجع إلى الششتري ]

ومما حكاه صاحب «عنوان الدراية»<sup>٢</sup> في ترجمة الششتري - ممّا لم نذكره في ترجمته الماضية، ورأينا ذكره هنا تبركاً - أن الششتري كان في بعض أسفاره في البرية، وكان رجل من أصحابه قد أُسِرَ فسمعه الفقراء يقول: إيلنا يا أحمد، فقيل له: مَنْ أحمد الذي ناديت به يا سيدي في هذه البرية؟ فقال لهم: مَنْ تُسْرُونَ به غداً إن شاء الله تعالى. فلما كان من الغد ورد الشيخ وأصحابه ببلدة قابيس، فعند دخولهم إذا بالرجل المأسور، فقال الشيخ للفقراء: هنيئاً لنا باقتحام العقبة، صافحوا أخاكم، المنادى به.

ومن مناقبه - نفع الله تعالى به - أنه لما نزل ببلدة قابيس برباط البحر المعروف [بمسجد] الصهرنج جاءه الشيخ الصالح أبو إسحاق الزرناني<sup>٣</sup> نفع الله تعالى به بجميع أصحابه برسم الزيارة، فوافق وصوله وصول الشيخ الصالح الفاضل الولي أبي عبد الله الصنهاجي - نفع الله تعالى به - مع جملة أصحابه للزيارة، فوجدوا الشيخ أبا الحسن قد خرج إلى موضع بخارج المدينة برسم الحلوة، فجلسوا لانتظاره، فلم يكن إلا قليل إذ أقبل الشيخ على هيئة معتبر متفكر، فلما دخل الرباط سلّم على الواصلين برسم الزيارة، وحيّاً المسجد، وأقبل على الفقراء، وأثر العبّرة على وجنته، فقال: اثتوني بمداد،

١ عنوان الدراية : ١٤١ .

٢ انظر المصدر المذكور : ١٤١ وما بعدها .

٣ في عنوان الدراية : الوركاني ؛ وفي نسخة : الزناني .

فلما أحضر بين يديه تأوّه تأوّه شديداً كاد أن يحرق بنفسه جليسه ، وجعل يكتب في اللوح هذه الآيات ١ :

لا تلتفتُ بالله يا ناظري لأهيفِ كالغصنِ الناظرِ  
يا قلبُ واصرفْ عنك وهنم البقا وخلّ عن سربِ حمى حاجرِ  
ما السربُ والبانُ وما لعلجُ ما الخيفُ ما ظبيُّ بني عامرِ؟  
جمالُ مَنْ سَمِيَتْهُ دائرٌ ما حاجةُ العاقلِ بالدائرِ  
وإنما مطلبهُ في الذي هام الورى في حسنه الباهرِ  
أفاد للشمسِ ستاً كالذي أعارهُ للقمرِ الزاهرِ  
أصبحتُ فيه مغرماً حائراً لله درُّ المغرَمِ الحائرِ

وكانوا يوماً ببلد مالقة ، وكثيراً ما يجود عليه القرآن العزيز ، فقرأ طالب قوله تعالى ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾ (طه : ١٤) فقال معجلاً رضي الله تعالى عنه ، وفهم من الآية ما لم يفهم ، وعلم منها ما لم يعلم ٢ :

انظُرْ للفظ أنا يا مُغرماً فيه من حيث نظرْتنا لعلّ تدريه  
خلّ ادّخارك لا تفخرْ بعارية لا يستعيرُ فقيرٌ من مواليه  
جسومُ أحرفه للسرّ حاملة إن شئت تعرفه جربّ معانيه

ودخل عليه شخص بيجاية من أهلها يُعرّف بأبي الحسن ابن علال ، من أهل الأمانة والديانة ، فوجده يذاكر بعض أهل العلم ، فاستحسن منه إirاده للعلم ، واستعماله لمحاضرة الفهم ، فاعتقد شياخته وتقديمه ، ثم نوى أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين ديناراً شكراً لله تعالى ، ويأتيهم بما كول ، فلما يسر جميع ما أتم به أراد أن يقسمه فيعطيه شطره ويدع الشطر الثاني إلى حين انصراف الشيخ ،

١ ديوانه : ٤٨ .

٢ ديوانه : ٨٠ .

ليكون للفقراء زاداً ، فلما كان في الليل رأى في منامه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومعه أبو بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما ، قال الرجل : فنهضت إليه بسرور رؤية النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقلت : يا رسول الله ادعُ الله تعالى لي ، فالتفت لأبي بكر ، رضي الله تعالى عنه ، وقال : يا أبا بكر ، أعطه ، فإذا به ، رضي الله عنه ، قسمَ رغيفاً كان بيده وأعطاني نصفه ، ثم أفاق الرجل من منامه ، وأخذَه وَجَدٌ من هذه الرؤيا المباركة . فأيقظ أهله ، واستعمل نفسه في العبادة ، فلما كان من الغد سار وأتى الشيخ ببعض الطعام ونصف الدرهم المحتسب بها ، فلما دفعها للشيخ قال له الشيخ : يا علي ، اقرب ، فلما قرب قال له : يا علي ، لو أتيت بالكل لأخذت منه الرغيف بكامله ، انتهى .

١٢٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، الشهير بابن غصن الإشيلي ، من ولد شداد بن أوس الأنصاري ، الجزيري ، نسبة إلى الجزيرة الخضراء ، الإمام ، المقرئ ، الزاهد ، عرض على الأستاذ ابن أبي الربيع الموطأ من حفظه ، وأخذ عنه النحو ، وكان من أولياء الله تعالى الصالحين ، وعباده الناصحين ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، قوَّالاً بالحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، عارفاً بمتون الحديث وأحكامه ، فقيهاً متقناً للمذاهب الأربعة والصحابة والتابعين ، لا يقبل من أحد شيئاً ، مخلصاً لله تعالى ، يتكلم على المنبر على عادة أهل العلم من تعليم المسائل الدينية ، وأقرأ القرآن بمكة مدّة بالقراءات وبالمدينة وبيت المقدس ، وممن قرأ عليه خليل إمام المالكية بالحرم ، والشهاب الطبري إمام الحنفية بالحرم ، وله مصنفات في القراءات : منها « مختصر الكافي » وكتاب « في معجزات النبي » صلى الله عليه وسلم ، ومولده سنة ٦٣١ تخميناً ٢ ،

١ انظر ترجمة ابن غصن في غاية النهاية ٢ : ٤٧ ولم ينسبه إشيليلاً أو جزيرياً وإنما قال فيه : القصري السبي .

٢ في غاية النهاية : ستة ثلاث وخمسين وستمائة .

وتوفي بيت المقدس آخر سنة ١٧٢٣ ، رحمه الله تعالى .

١٢١ - ومنهم الشيخ الفقيه ، الأستاذ النحوي التاريخي اللغوي أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي<sup>٢</sup> يكنى أبا العباس وأبا جعفر ، قرأ بالأندلس على مشايخ من أفضلهم الأستاذ أبو علي عمر الشلّوين ، ثم ارتحل إلى العُدوة وسكن بجاية ، وأقرأ بها مدة ، وارتحل إلى المشرق فحج ، ثم رجع إلى حضرة تونس واتخذها وطناً ، واشتغل بها بالإقراء إلى أن مات . كان يتبسط لإقراء سائر كتب العربية ، وله علم جليل باللغة ، وله تواليف كثيرة : منها<sup>٣</sup> على الجمل و « شرح الفصيح » لثعلب ، ولم يشذ فيه شيء من فصيح كلام العرب .

قال الغبريني ، رحمه الله تعالى : ورأيت له تأليفاً في الأذكار ، وله عقيدة في علم الكلام ، ورأيت له مجموعاً سماه « الإعلام بحدود قواعد الكلام » تكلم فيه على الكلم الثلاث ، الاسم والفعل والحرف ، وله تواليف أخر ، وكان من أساتيد إفريقية في وقته ، وممن أخذ عنه ، واستفيد منه ، انتهى .

وذكر الشيخ أبو الطيب ابن علوان التونسي عن والده أحمد التونسي الشهير بالمصري أن للمذكور تأليفاً سماه « التجنيس » ، وله شرح أبيات الجمل ، سماه « وشي الحلل » رفعه للملك المستنصر الحفصي بتونس ، فدفعه المستنصر للأستاذ أبي الحسن حازم ، وأمره أن يتعقب عليه ما فيه من خلل وجده ، فحكى أبو عبد الله القطان المسفر - وكان يخدم حازماً - قال : كنت يوماً بدار أبي الحسن حازم وبين يديه هذا الكتاب ، فسمعت نقر الباب ، فخرجت فإذا بالفقيه أبي جعفر ، فرجعت وأخبرت أبا الحسن ، فقام مبادراً حتى أدخله وبالع في بره وإكرامه ، فرأى الكتاب بين يديه ، فقال له : يا أبا الحسن ، قال الشاعر :

١ هكذا هو في غاية النهاية أيضاً ؛ وفي إحدى نسخ النسخ : ٧٢٢ .

٢ ترجمته في عنوان الدراية : ٢١٢ وبغية الوعاة : ١٧٦ .

٣ بعد لفظة « منها » بياض في ج بقدر كلمة .



## وعَيْنُ الرضَى عن كلِّ عيبِ كَلِيلَةٍ

فقال له : يا فقيه أبا جعفر ، أنت سيدي وأخي ، ولكن هذا أمر الملك لا يمكن فيه إلا قول الحق ، والعلم لا يحتمل المُدَاهِنَةَ ، فقال له : فأخبرني بما عثرت عليه ، قال له : نعم ، فأظهر له مواضع ، فسَلَّمَهَا أبو جعفر وبَشَّرَهَا وأصلحها بخطه .

وأصل هذا اللَّبْلِي من لَبْلَةٍ بالأندلس<sup>١</sup> ، اجتمع في رحلته للمشرق بالقاضي ابن دقيق العيد ، وكان نحوياً ، فلما دخل عليه اللَّبْلِي قال له القاضي : خَيْرَ مَقْدَمٍ ، ثم سأله بعد حين : بمَ انتصب خير مقدم ؟ فقال له اللَّبْلِي : على المصدر وهو من المصادر التي لا تظهر أفعالها ، وقد ذكره سيبويه ، ثم سرد عليه الباب من سيبويه إلى آخره ، فإنه كان يحفظ أكثره ، فأكرمه القاضي وعظمه .  
ثم قال ابن علوان : وذكر والذي أيضاً ، رحمه الله تعالى ، ومن خطه المبارك نقلت ، أن الأستاذ أبا جعفر اللَّبْلِي المذكور ، رحمه الله تعالى ، قرء عليه يوماً قول امرئ القيس<sup>٢</sup> :

حَيَّ الحَمُولَ بِجَانِبِ العَزَلِ إِذْ لَا يَلَاثِمُ شَكْلُهَا شَكْلِي

فقال لطلبته : ما العامل في هذا الظرف يعني «إذ» ؟ فتنازعا القول ، فقال : حسبكم ، قرء هذا البيت على أستاذنا أبي علي الشَّلَوِيِّين ، فسألنا هذا السؤال ، وكان أبو الحسن ابن عصفور قد برع واستقل وجلس للتدريس ، وكان الشَّلَوِيِّين يَغْضُ منه ، فقال لنا : إذا خرجتم فاسألوا ذلك الجاهل ، يعني ابن عصفور ، فلما خرجنا سرنا إليه بجمعنا ، ودخلنا المسجد ، فرأيناه قد دارت به حلقة كبيرة ، وهو يتكلم بغرائب النحو ، فلم نجسر على سؤاله لهيبته ،

١ دوزي : قرية بالأندلس ، وسقطت «قرية» من ق ط ج .

٢ ديوان امرئ القيس : ٢٣٦ .

وانصرفنا ، ثم جئنا بعدُ على عادتنا لأبي علي ، فنسي حتى قرىء عليه قول النابغة :

فَعَدَّ عَمَّا تَرَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ<sup>١</sup>

فتذكر ، وقال : ما فعلتم في سؤال ابن عصفور ؟ فصدقنا له الحديث ، فأقسم ألاّ يجبرنا ما العامل فيه ، ثم قال اللبني لطلبته : وأنا أقول لكم مثل ذلك ، فانظروا لأنفسكم ، قالوا : فنظرنا فإذا المسألة مسألة فحص ونظر ، كلما حكمنا بحكم صدقتنا عنه قوانين نحوية ، حتى مضت مدة طويلة ، فوفد علينا بتونس المحروسة أحدُ طلبة ابن أبي الربيع ، وكان ابن أبي الربيع هذا ساكناً بسبّنة ، وهو أحد طلبة الشلوين أيضاً ، ومن كبار هذه الطبقة التي نشأت بعده ، قالوا : فتذاكرنا مع هذا الطالب في مسائل نحوية ، فمرت هذه المسألة في قوله تعالى ﴿ إِذْ نَسُوْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ( الشعراء : ٩٨ ) فقال هذا الطالب إن هذا الظرف وقع موقع لام العلة ، فعلمنا أن هذا هو الذي أراد الأستاذ أبو علي ، ثم ناقشنا الطالب وقلنا له : إذا جعلته ظرفاً فلا بد من العامل ، وإذا جعلته واقعاً موقع الحرف كان هذا على شذوذ قول الكوفيين ، والذي يجوز عكسه على مذهب الجميع ، وإنما الأولى أن يقال : إذ حرفٌ معناه التعليل تشترك فيه الأسماء والحروف كما اشتركت في عن ، والله أعلم بغيبه ، انتهى .

١٢٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح القرطبي<sup>٢</sup> ، قال الحافظ المقرئ : وفرح بسكون الراء ، وقال الحافظ عبد الكريم في حقه : إنه كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين الورعين ، الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة ، فيما بين توجه وعبادة وتصنيف ، جمع في تفسير القرآن كتاباً خمسة عشر مجلداً ، وشرح أسماء الله الحسنى في

١ عجز البيت : « وائم الفتود على عيرانة أجد » .

٢ ابن فرح هو صاحب التفسير المشهور بتفسير القرطبي واسمه « جامع أحكام القرآن » ؛ انظر ترجمته في الوافي ٢ : ١٢٢ وطبقات المفسرين : ٢٨ ( وبروكلمان : التكملة ١ : ٧٣٧ ) .

مجلدين ، وله كتاب « التذكرة في أمور الآخرة » في مجلدين<sup>١</sup> ، وشرح «التقصي» ،  
وله تأليف غير ذلك مفيدة ، وكان مطّرح التكلف ، يمشي بثوب واحد ، وعلى  
رأسه طاقية ، سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي صاحب «المفهم  
في شرح مسلم» بعض هذا الشرح ، وحدث عن أبي الحسن علي بن محمد بن  
علي بن حفص اليحصبي ، وعن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري  
وغيرهما ، وتوفي بمنية ابن خصيب ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ ،  
ودفن بها ، رحمه الله تعالى .

وفي تاريخ الكتبي في حقه ما نصه : كان شيخاً فاضلاً ، وله تصانيف  
مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه ، منها «تفسير القرآن» مليح إلى الغاية  
اثنا عشر مجلداً ، انتهى .

وكتب بعض تلامذته على الهامش ما صورته : قد أجحف المصنف في ترجمته  
جلداً ، وكان متفنناً متبحراً في العلم ، انتهى . وكتب بعض يائر هذا الكلام ما  
نصه : قال الذهبي : رحل وكتب وسمع ، وكان يقظاً فهماً حسن الحفظ مليح  
النظم حسن المذاكرة ثقة حافظاً ، انتهى . وكتب آخر إثر ذلك الكلام ما صورته :  
مشاحة شيخنا للمصنف في هذه العبارة ما لها فائدة ، فإن الذهبي قال في تاريخ  
الإسلام : العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرّح الإمام القرطبي  
إمام متفنن ، متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة ، تدل على كثرة اطلاعه  
ووفور عقله وفضله ، ثم ذكر موته ، وقال بعده : وقد سارت بتفسيره العظيم  
الشأن الركبان ، وله «الأسنى في شرح الأسماء الحسنی» و «التذكرة»  
وأشياء تدل على إمامته وذكائه وكثرة اطلاعه ، انتهى . وكتب آخر يائر هذا  
الكلام ما نصه : غفر الله لك ، إذا كان الذهبي ترجمه بما ذكرت ، وهو والله  
فوق ذلك ، فكيف تقول : إن مشاحة شيخك لا فائدة فيها ، وتسيء الأدب معه

١ هو المعروف باسم «التذكرة القرطبية» وله مختصر صنمه الشعرائي وطبع ببولاق سنة ١٣٠٠ .

وتقول إن كلامه لا فائدة فيه ؟ فالله يسر عليك ، انتهى .

١٢٣ - ومنهم أبو القاسم ابن حاضر ، الخزيري ، الخزرجي ، محمد بن أحمد ، من جزيرة شقر ، قدم مصر ، وسكن قوصَ بعدما كان من عدول بلسنسية ، وكان فصيحاً ، عالماً بصناعة التوريق ، وله نظم لم يحضرنى الآن شيء منه ، ومات بالقاهرة سنة تسع وثلاثين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

١٢٤ - ومنهم أبو القاسم التُّجيبِي ، محمد بن أحمد التُّجيبِي<sup>١</sup> ، من أهل بلسنْ ، قرأ على ابن مفرج وابن أبي الأحوص ، ورحل فاستوطن القاهرة ، وكان شيخاً فاضلاً خبيراً ، له أدب وشعر ، منه قوله من أبيات<sup>٢</sup> :

أحوى الجفون له رقيبٌ أحولُ الشيء في إدراكه شيطانِ  
يا ليته ترك الذي أنا مُبْصِرٌ وهو المخيرُ في الغزالِ الثاني

ولد ببلسن سنة ٦٢٣ ، وتوفي بالحسينية خارج القاهرة سلخ المحرم سنة ٦٩٥<sup>٣</sup> وممن روى عنه نحوئُ الزمان أثير الدين أبو حيان وغيره ، رحم الله تعالى الجميع .

١٢٥ - ومنهم أبو بكر الخزرجي ، محمد بن أحمد بن حسن ، وقيل : محمد بن عيسى المالقي المالكي<sup>٤</sup> ، قال الشريف أبو القاسم : إنه كان أحد الزهاد الورعين ، وعباد الله المتقين ، مشغلاً بنفسه ، متخلياً<sup>٥</sup> عما في أيدي الناس ، يأكل من كسب يده ، ولا يقبل لأحد شيئاً ، مع وجْد وعمل وفضل وأدب ،

١ هو محمد بن أحمد بن حسن بن عامر بن أحمد بن محمد بن حسن التجيبِي . انظر ترجمته في الوافي

٢ : ١٤٠ .

٣ البيتان في الوافي .

٤ في ق : ٦٩٩ وفي دوزي : ٦٩٤ .

٥ ترجم له السيوطي في بغية الوعاة : ٨٨ باسم محمد بن عيسى ، وهو ينقل عن البدر السافر .

٥ ق ط ج : مستخلياً .

ولم يكن في زمانه من اجتمع فيه ما اجتمع له .

وقال الحافظ عبد الكريم : إنه دخل إشبيلية ، واشتغل بالعربية على الشلّوبين وقرأ القراءات السبع ، ثم قدم مصر واشتغل بمذهب مالك ، وكان والده نجاراً وكان لا يأكل إلاّ من كسب يده ، يخيّط الثياب ، فازدحم الناس عليه تبركاً به ، فترك ذلك وصار يدق القصدير ويأكل منه ويتصدق بما فضل عنه ، وكان شديد الزهد ، كثير العبادة ، لا يسلم يده إلى أحد ليقبلها ، وجاءه شخص قد زيد عليه في أجره مسكنه ليشفع إلى صاحب الدار أن لا يقبل الزائد ، فمضى إلى صاحب الدار وأعطاه الزائد مدة أشهر ، فعلم بذلك الساكن بعد مدة ، فقال له : يا سيدي ما سألت إلاّ شفاعة ، وأنت تزن عني <sup>١</sup> ، فقال له : رجل له دار يأخذ أجرها يحييها إليه الخزرجي يقطع عليه حقه ؟ والله ما يدفع هذا إلاّ أنا ، فلم يزل يدفع الزائد إلى أن انتقل الساكن إلى غيره ، ومات ليلة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٥١ ، عن خمس وأربعين سنة ، ودفن بالقرافة ، رحمه الله تعالى ، ونفعنا به .

١٢٦ - ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمي <sup>٢</sup> ، مولاهم ، لأن ولاءه لبني العباس من أهل قرطبة ، ولد في شهر رمضان سنة ٣٢٢ بقرطبة ، وسمع بها من وهب بن مسرة ، وخالد بن سعيد <sup>٣</sup> وغيره ، ورحل فحج وأدرك بمصر ابن الورد وابن رشيق وأبا علي ابن السكن ونظراءهم في سنة ٣٤٩ ، وعاد إلى بلده ، وبها مات في شهر رمضان سنة ست وأربعمائة .  
قال ابن بسّكُوَال <sup>٤</sup> : كان رجلاً صالحاً فاضلاً ، من أهل الاجتهاد في العبادة ماثلاً إلى التقشف والزهادة ، قديم الطلب حسن المذهب متبعاً للسنن .

١ دوزي : وأنت تنقد .

٢ ترجمته في الصلة : ٤٧٠ .

٣ الصلة : خالد بن سعد .

٤ لم يرد هذا في الطبعة المصرية من كتاب الصلة .

١٢٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان<sup>١</sup> بن أحمد بن إبراهيم الزهري الأندلسي الإشبيلي<sup>٢</sup> ، ولد بمالقة ، وطاف الأندلس ، وطلب العلم ، وحصل طرفاً صالحاً من علم الأدب ، ودخل مصر قبل التسعين وخمسمائة فسمع الحديث بها ، ودخل الشام وبلاد الجزيرة ، وقدم بغداد سنة ٥٩٠ . وعمره ثلاثون سنة ، وأقام بها مدة ، وسمع من شيوخها كأبي الفرج ابن كليب ونحوه ، وقرأ ونسخ بخطه ، وسافر إلى أصبهان وبلاد الجبل ، وكان فاضلاً حسن المعرفة بالأدب ، يقول الشعر ، وينشئ المقامات ، وصنف كتاب « البيان والتبيين في أنساب المحدثين » ستة أجزاء ، وكتاب « البيان فيما أبهم من الأسماء في القرآن » مجلد ، وكتاب « أقسام البلاغة وأحكام الصناعة »<sup>٣</sup> في مجلدين ، وكتاب « شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي » في خمسة عشر مجلداً ، وكتاب « شرح المقامات » مجلد ، وكتاب « شرح اليميني »<sup>٤</sup> في مجلد ، قال المنذري : توفي شهيداً ، قتله التتار في رجب ؛ وقال ابن النجار : في سابع عشر رجب سنة ٦١٧ ، رحمه الله تعالى .

١٢٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم ، القرطبي ، المقرئ المعروف بالورشي ، نسبة إلى قراءة ورش لاشتهاره بها ، وهو أحد القراء المعروفين . قال الحاكم : هو من الصالحين المذكورين بالتقدم في علم القرآن ، سمع بمصر والشام والحجاز والعراقين والجبل وأصبهان ، وورد نيسابور ، ودخل خراسان فسمع علي بن المرزبان بأصبهان ، وبالأهواز عبد الواحد ابن خلف الجنديسابوري ، وبفارس أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي ،

١ دوزي : سلمان .

٢ ترجمته في بغية الوعاة : ١١ والوافي ٢ : ١٠٤ والنقل عن ابن النجار .

٣ كذلك هو في البغية ، أما في الوافي : وأحكام الفصاحة .

٤ كتاب في التاريخ للمتبي .

وقال ابن النجار : قدم بغداد . وحدث بها . توفي بسجستان في ربيع الأول سنة ٣٩٣ .

١٢٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الباجي . اللخمي<sup>١</sup> ، قال ابن بشكوال : مولده في صفر سنة ٣٥٦ . وسمع عن جده . ورحل إلى المشرق . وقال ابن غلبون في مشيخته : إنه كان من أهل العلم والحديث والرواية والحفظ للمسائل . قائماً بها . واقفاً عليها . قاعداً للشروط . محسناً لها . عارفاً . وبيتهم بيت علم . ونشأ فيهم هو وأبوه وجدته ، وكان جميعهم في الفضل والتقدم على درجاتهم في السن . وعلى منازلهم في السبق ، وكانت رحلته مع أبيه وروايتهما واحدة . وشاركه في السماع والرواية عن جده . وسمع بمصر على أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن حميد بن رزيق المخزومي .

وقال ابن بشكوال : كان من أجلّ الفقهاء عندنا دراية ورواية ، بصيراً بالعقود ، ومتقدماً على أهل الوثائق<sup>٢</sup> ، عارفاً بعللها ، وألف فيها كتاباً حسناً . وكتاباً في السجلات إلى ما جمع فيه من أقوال الشيوخ والمتأخرين ، مع ما كان عليه من الطريقة المثلى ، وتوفية العلم حقه من الوفاء والتصون . توفي في المحرم سنة ٤٣٣ لعشرين بقين منه .

١٣٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز . العُتبي . الأندلسي ، القرطبي ، الفقيه المالكي المشهور ، صاحب العُتبيّة<sup>٣</sup> ، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وغيرهما ، ورحل إلى المشرق فسمع من سَحْنُون وأصبغ بن الفرج وغيرهما . وكان حافظاً للمسائل . جامعاً لها ، عالماً بالنوازل ، وهو الذي جمع المستخرجة من الأسمعة المسموعة غالباً من مالك

١ ترجمته في الصلة : ٤٩٥ .

٢ الصلة : متقدماً في علم الوثائق .

٣ ترجمته في جذوة المقتبس : ٣٦ (وبغية الملتبس رقم : ٩) وابن الفرضي ٢ : ٨ والوافي ٢ : ٣٠ .

ابن أنس ، وتعرف بالعتبية ، وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة ، وكان يؤتى بالمسألة الغريبة الشاذة فإذا سمعها قال : أدخلوها في المستخرجة ، ولذا روي عن ابن وضاح أنه كان يقول : المستخرجة فيها خطأ كثير ، كذا قال ، ولكن الكتاب وقع عليه الاعتماد من أعلام المالكية كابن رشد وغيره . قال ابن يونس : توفي بالأندلس سنة ٢٥٥ .

والعتبي : نسبة إلى عتبة بن أبي سفيان ابن حرب ، وقيل : إلى جد للمذكور يسمى عتبة ، وقيل : إلى ولاء عتبة بن أبي يعيش .

١٣١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافري ، المقرئ ، الفرضي ، الأديب ، ولد بالأندلس سنة ٥٩١ ، ونشأ ببليسية ، وأقام بالإسكندرية ، وقرأ القرآن على أصحاب ابن هُدَيْل ، ونظم قصيدة في القراءات على وزن الشاطبية ، لكن أكثر أبياتاً ، وصرح فيها بأسماء القراء ، ولم يرمز كما فعل الشاطبي ، وكانت له يد في الفرائض والعروض ، مع معرفة القراءات والأدب .

ومن شعره :

إذا ما اشترت بنتاً أباه فعتقها بنفس الشرا شرعاً عليها تأصلاً  
وميراثه إن مات من غير عاصب ومن غير ذي قرصٍ لها قد تأثلاً  
لها النصف بالميراث والنصف بالولا فإن وهبَ ابناً أو شراه تفضلاً  
فأعتق شرعاً ذلك الابن ما لها سوى الثلث ، والثلثان للأخ أصلاً  
وميراثها فيه إذا مات قبلها كميراثها في الأب من قبل يحتلى  
ومولى أبيها ما لها الدهر فيه من ولاء ولا إرث مع الأب فاعتلى

وهذه المسألة ذكر الغزالي في «الوسيط» أنه قضى فيها أربعمائة قاضٍ وغلطوا بصورتها ابنة اشترت أباه فعتق عليها ، ثم اشترى الأب ابناً فعتق عليه ، ثم



اشترى الأب عبداً فأعتقه ، ثم مات الأب ، فورثه الابن والبنات للذكر مثل حظ الأنثيين ، ثم مات العبد المعتق ، فلمن يكون ولاؤه ؟ وفرضها المالكية على غير هذا الوجه وهي مشهورة .

١٣٢ - ومنهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل ، أبو عبد الله الأموي ، الأندلسي ، الطَّلَيْطَلِيُّ ، المعروف بالنقاش ، نزل مصر ، وقعد للإقراء بجامع عمرو بن العاص ، وأخذ عنه جماعة ، وتوفي بمصر سنة ٥٢٩ .

١٣٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي القَبْرِيُّ ، القُرْطُبِيُّ ، المؤدب<sup>١</sup> ، رحل من الأندلس سنة ٣٤٢ ، فسمع بمصر من أبي محمد ابن الورد وأبي قتيبة مسلم بن الفضل البغدادي وغيره ، وكان صالحاً خيراً مؤدباً ، سمع الناس منه كثيراً<sup>٢</sup> ، وتوفي سنة ٣٦٢ .

والقَبْرِيُّ - بفتح القاف ، وسكون الباء الموحدة ، ثم راء مهملة - نسبة إلى قَبْرَةَ بلد بالأندلس بقرب قُرْطُبَةَ بنحو ثلاثين ميلاً .

١٣٤ - ومنهم جمال الدين أبو بكر الوائلي ، محمد بن أحمد بن محمد ابن عبد الله بن سُجْمَانَ<sup>٣</sup> ، الشريشي ، المالكي<sup>٤</sup> ، ولد بشرش سنة ٦٠١ ، ورحل فسمع بالإسكندرية من ابن عماد<sup>٥</sup> الحراني ، ودمشق من مكرم بن أبي الصقر ، وبحلب من أبي البقاء يعيش بن علي النحوي ، وسمع بإربيل وبغداد ، وأقام بالمدرسة الفاضلية من القاهرة مدة يفيد الناسَ فتخرجَ به جماعة ، وولي مشيخة المدرسة بالقدس ، ومشيخة الرباط الناصري بالجبل ، وأقام بدمشق يفتي

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٧٤ .

٢ في ط ق ج : سمع من الناس ، والتصويب عن ابن الفرضي .

٣ ضبطه السيوطي : بضم السين المهملة وسكون الحاء أي «سحمان» .

٤ انظر ترجمته في بنية الرواة : ١٨ .

٥ في الأصول : ابن عمار .

ويدرس ، وكان من العلماء الزهاد كثير العبادة والورع والزهد . أحد الأئمة  
المبرزين المتبحرين في العربية والفقه على مذهب الإمام مالك ، والتفسير . والأصول ،  
وصنّف كتاباً في الاشتقاق ، وشرح ألفية ابن معطي ، وأخذ عنه الناس ، وطلب  
للقضاء بدمشق فامتنع منه زهداً وورعاً ، وبقي المنصب لأجله شاغراً إلى أن مات  
برجب سنة ٦٨٥ ، ودفن بقاسيون .

وسُجّمان : بسين مهملة مضمومة ، ثم جيم ساكنة ، بعدها ميم مفتوحة ،  
ونون .

١٣٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرّج القرطبي ،  
المعروف والده بالقنّثوري<sup>١</sup> ، وكان جد أبيه مفرج صاحب الركاب للحكم بن  
عبد الرحمن الداخل ، وكان أبوه أحمد بن يحيى رجلاً صالحاً ، وولد هو سنة  
٢٣١٥ ، وكان سكناه بقَرْطُبة بقرب عين قنت أوربة ، وسمع بقرطبة من قاسم  
ابن أصبغ كثيراً ، ومن ابن أبي دكّيم والحشي ، ورحل سنة ٣٣٧ فسمع بمكة  
من ابن الأعرابي ، ولزمه حتى مات ، وسمع بها من جماعة غيره ، وسمع  
بجدة ، وبالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام ، ودخل صنعاء وزبيد وعدن  
وسمع بها من جماعة ، وسمع بمصر من البرقي صاحب أحمد البزار ، وسمع  
من السيرافي وجماعة كثيرة ، وسمع بغزّة وعسقلان وطبرية ودمشق وطرابلس  
وبيروت وصيدا والرملة وصور وقيسارية والقلازم والقرما والإسكندرية ،  
فبلغت عدة شيوخه إلى مائتين وثلاثين شيخاً ، وروى عنه أبو عمر الطلمنكي  
وجماعة ، وكتب تاريخ مصر عن مؤلفه أبي سعيد ابن يونس ، وروى عنه ابن  
يونس وهو من أقرانه ، وعاد إلى الأندلس من رحلته سنة ٣٤٥ ، واتصل بالحكم  
المستنصر ، وصارت له عنده مكانة ، وألّف له عدة كتب ، واستقضاه على

١ انظر ترجمته في جذوة المقتبس : ٣٨ (وبغية الملتبس رقم : ١٤) وابن الفرضي ٢ : ٩٣ .  
٢ في أصول النفع : ٣٢٥ ؛ والتصويب عن ابن الفرضي ؛ وقد اتفقت المصادر على أن رحلته سنة  
٣٣٧ ، وهذا يعني أنه رحل وهو ابن اثني عشرة سنة إذا قلنا إنه ولد سنة ٣٢٥ وهو أمر مستبعد .

إِسْتِجَاعَةً ثُمَّ عَلَى الْمَرِيَّةِ ، ومات برجب سنة ١٣٤٨ .  
قال الحميدي : هو محدث ، حافظ جليل . صنف كتباً في فقه الحديث ،  
وفي فقه التابعين : فمنها « فقه الحسن البصري » في سبع مجلدات ، و « فقه  
الزهري » في أجزاء كثيرة . وسمع مسند ابن الفَرَضِي وحديث قاسم بن أصبغ .  
قال ابن الفرضي : وكان عالماً بالحديث . بصيراً برجاله ، صحيح النقل  
حافظاً . جيد الكتابة على كثرة ما جمع .

وقال ابن عفيف في حقه : إنه كان من أعنى الناس بالعلم ، وأحفظهم  
للحديث وأبصرهم بالرجال ، ما رأيت مثله في هذا الفن ، من أوثق المحدثين  
بالأندلس . وأصحهم كتباً ، وأشدهم تعباً لروايته . وأجودهم ضبطاً لكتبه .  
وأكثرهم تصحيحاً لها . لا يدع فيها شبهة ، رحمه الله تعالى .

١٣٦ - ومنهم أبو عبد الله القَيْسِي الوضاحي محمد بن أحمد بن موسى<sup>٢</sup> ،  
رحل من المغرب ، وسمع من السلفي وغيره جملة صالحة ، ثم عاد إلى الأندلس  
بعد الحج ، وسكن المَرِيَّة مدة وبها مات سنة ٥٣٩ ، وقيل : في التي بعدها ،  
وكان من أظرف الناس ، وأحسنهم أدباً ، فقيهاً ، فاضلاً ، ثقة ، ذا فرائد  
جمّة ، عفيفاً ، معتنياً بالعلم .

١٣٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هُذَيْل ،  
العَبْدَرِي ، البَلَسَنَسِي<sup>٣</sup> ، ولد سنة ٥١٩ ، وسمع من أبيه وجماعة ، ورحل  
حاجباً فسمع من السلفي وابن عوف<sup>٤</sup> والحضرمي والتنوخي والعثماني وغيرهم ،

١ ذكر ابن الفرضي أنه توفي ستة ثمانين وثلاثمائة وهذا هو المعقول إذ ان المستنصر لا يستقصيه قبل  
سنة ٣٥٠ وهي السنة التي تولى فيها الحكم .

٢ ترجمة الوضاحي في أخبار وتراجم أندلسية : ١١٥ - ١١٦ .

٣ ترجمة ابن هذيل في الذيل والتكملة : ٢٤ ( نسخة باريس ) وقال فيه مريباطري ، وذكر أنه توفي  
بمربيطر سنة ٥٩٣ وانظر كذلك التكملة : ٥٥٢ وإنما نسب إلى بلنسية لأنه من أيشة وهي من  
ثغور بلنسية .

٤ ق : وابن عون ؛ وهو خطأ .

ورجع بعد الحج إلى الأندلس فحدث ، وكان غاية في الصلاح والورع وأعمال البر ، وله حظ من علم العبارة ، ومشاركة في اللغة ، وكتب بخطه على ضعفه كثيراً ، رحمه الله تعالى .

١٣٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نوح الإشبيلي ، ومولده سنة إحدى وثلاثين وستمائة بإشبيلية ، وجال في بلاد المغرب والمشرق ، وقرأ على الشيوخ الفضلاء ، وحصل كثيراً في علم القرآن والأدب ، وله نظم ونثر ، وكان كثير التلاوة للقرآن ، جيد الأداء له ، وأقام بدمشق حتى مات بها سنة ٦٩٩ ، رحمه الله تعالى .

١٣٩ - ومنهم محمد بن أسباط ، المخزومي ، القرطبي<sup>١</sup> ، روى عن يحيى ابن يحيى ، وقدم مصر فسمع من الحارث بن مسكين ، وكان حافظاً للفقهِ ، عالماً ، توفي سنة ٢٧٩ .

١٤٠ - ومنهم أبو بكر محمد بن إسحاق ، الشهير بابن السليم<sup>٢</sup> ، قاضي الجماعة بقرطبة مولده سنة ٣٠٦ ، روى عن قاسم بن أصبغ وطبقته ، ورحل سنة ٣٣٢ ، فسمع بمكة من ابن الأعرابي ، وبمصر من الزبير بن النحاس وغيرهما ، وعاد إلى الأندلس فأقبل على الزهد ودراسة العلم ، وحدث ، فسمع منه الناس ، وكان حافظاً للفقهِ ، بصيراً بالاختلاف ، حسن الخط والبلاغة متواضعاً ، وتوفي بجمادى الأولى سنة ٣٦٧ .  
وسكّيم بفتح السين مكبراً .

١٤١ - ومنهم موسى بن بهيج المغربي الأندلسي الواعظ الفقيه العالم ،

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ١٣ .

٢ ترجمة القاضي ابن السليم في جذوة المقتبس : ٤٠ (وبغية الملتبس رقم : ٥٧) وابن الفرضي

٢ : ٧٩ والمرقبة العليا : ٧٥ .

من أهل المَرِيَّة ، نزل مصر ، يكنى أبا عمران ، كان من أهل العلم والأدب ، وله في الزهد وغيره أشعار حُمِلت عنه ، وحدث المَرْشَانِي عنه بِمُخَمَّسَةٍ فِي الْحَجِّ وَأَعْمَالِهِ كُلِّهَا ، وَلَقِيَهُ بِمِصْرَ وَقَرَأَهَا عَلَيْهِ .  
ولابن بهيج هذا قوله :

إِنَّمَا دُنْيَاكَ سَاعَةٌ فَاجْعَلِ السَّاعَةَ طَاعَةً  
وَاحْذِرِ التَّقْصِيرَ فِيهَا وَاجْتَهِدْ ، مَا قَدَّرُ سَاعَةٌ  
وَإِذَا أَحْبَبْتَ عَزَاءً فَالْتَمَسْ عَزَاءَ الْقَنَاعَةِ

١٤٢ - ومنهم أبو عمران موسى بن سعادة<sup>١</sup> ، مولى سعيد بن نصر<sup>٢</sup> ، من أهل مَرْسِيَّة<sup>٣</sup> ، سمع صهره أبا علي ابن سُكْرَةَ الصَّدْفِي ، وكانت بنته عند أبي علي ، ولازمه وأكثر عنه ، وروى عن أبي محمد ابن مَفُوزِ الشَّاطِئِي وأبي الحسن ابن شَفِيع ، قرأ عليهما الموطأ ، ورحل ، وحج ، وسمع السنن من الطرطوشي ، وعُني بالرواية ، وانتسخ صحيحي البخاري ومسلم بخطه ، وسمعهما على صهره أبي علي ، وكانا أصليين لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما ، حكى الفقيه أبو محمد عاشر بن محمد أنهما سمعا على أبي علي نحو ستين مرة ، وكتب أيضاً « الغريبين » للهَرَوِي ، وغير ذلك ، وكان أحد الأفاضل الصُّلَحَاءِ ، والأجواد السُّمَحَاءِ ، يؤم الناس في صلاة الفريضة ، ويتولى القيام بمؤن صهره أبي علي وبما يحتاج إليه من دقيق الأشياء وجليلها ، وإليه أوصى عند توجهه إلى غزوة كَتَنَدَةَ الَّتِي فَقَدَ فِيهَا سَنَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وكانت له مشاركة في علم اللغة والأدب ، وقد حدث عنه ابنُ أَخِيهِ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ بْنِ سَعَادَةَ بِكِتَابِ « أَدَبِ الْكِتَابِ » لابن قتيبة ، و« الفصيح » لثعلب .

١ ترجمة موسى بن سعادة في معجم شيوخ الصدفي : ١٨٨ .

٢ كان سعيد بن نصر مولى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر .

٣ أصله من بلنسية ولكنه خرج منها عندما استولى عليها الروم سنة ٤٨٦ فانتقل إلى دانية ثم إلى مرسية .

١٤٣ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن طاهر ، الأزدي <sup>١</sup> ، من أهل وادي آش ، له رحلة إلى المشرق أدى فيها الفريضة ، وسمع بدمشق من أبي طاهر الخشوعي مقامات الحريري وابن عساكر وغيرهما ، ثم قفّل إلى بلده ، انتهى ملخصاً من ابن الأبار .

وحكى الصفدي <sup>٢</sup> أن ابن المستكفي اجتمع بالمتنبي بمصر ، وروى عنه شيئاً من شعره ، ومما روى عنه أنه قال : أنشدني المتنبي لنفسه :

لأعبتُ بالخاتم إنسانةً كمثل بدْرٍ في الدجى الفاحمِ  
وكَلِّمًا حاولتُ أخذي له مِن البنانِ المترفِ الناعمِ  
الْقَتَّةُ فِي فِيهَا فقلتُ : انظروا قد خَبَّتِ الخاتمِ فِي الخاتمِ <sup>٣</sup>

١٤٤ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو عبد الله ابن مالك <sup>٤</sup> ، صاحب التسهيل والألفية ، وهو : جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله ابن مالك الإمام العلامة الأوحى الطائي الجياني المالكي حين كان بالمغرب ، الشافعي حين انتقل إلى المشرق ، النحوي نزير دمشق .

ولد سنة ستمائة أو في التي بعدها ، وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق الحسن بن صباح وأبي الحسن السخاوي وغيرهم ، وأخذ العربية عن غير واحد ، فممن أخذ عنه بجميان أبو المظفر ، وقيل : أبو الحسن ، ثابت بن خيار ، عُرف بابن الطيلسان ، وأبي رزين ابن ثابت بن محمد بن يوسف بن خيار الكلاعي

١ هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ، انظر التكملة : ٨٧٥ وقال ابن الأبار إنه وقف على خطه بالسمع منه والإجازة في ذي القعدة سنة ٥٩٩ .

٢ لا أدري علاقة هذا النص بما قبله . ولعله : وحكى [ عنه ] الصفدي . . .

٣ عند هذا الحد تنتهي نسخة ط وقد جاء في آخرها : « انتهى الجزء الأول من كتاب نفع الطيب . . . الخ ، يتلوه إن شاء الله في أول الثاني : ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو عبد الله ابن مالك . »

٤ ترجمة ابن مالك في الوافي ٣ : ٣٥٩ ولفوات ٢ : ٤٥٢ وغاية النهاية ٢ : ١٨٠ وبتغية الوعاة : ٥٣ .

من أهل لبَّنة ، وأخذ القراءات عن أبي العباس أحمد بن نَوَّار ، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عبد الله ابن مالك المرشاني ، وجالس يعيش وتلميذه ابن عمَّرون وغيره بجلب ، وتصدَّرَ بها لإقراء العربية ، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب ، حتى بلغ فيه الغاية ، وأربى على المتقدمين ، وكان إماماً في القراءات ، وعالمًا بها ، وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية ، وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها .

قال الصفدي : أخبرني أبو الثناء محمود قال : ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهري في اللغة ، قال الصفدي : وهذا أمر مُعْجَز ، لأنه يحتاج إلى معرفة جميع ما في الكتابين <sup>١</sup> ، وأخبرني عنه أنه كان إذا صلَّى في العادلةية - لأنه كان إمام المدرسة - يُشيعه قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان إلى بيته تعظيماً له .

وقد روى عنه الألفية شهابُ الدين محمود المذكور ، ورواها الصفدي خليل عن شهاب الدين محمود قراءة ، ورواها إجازةً عن ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما عنه .

وأما النحو والتصريف <sup>٢</sup> فكان فيهما ابن مالك بجرأ لا يُشَقُّ لُجُّهُ ، وأما اطلاعه على أشعار العرب التي يُسْتَشْهَدُ بها على النحو واللغة فكان أمراً عجيبياً ، وكان الأئمة الأعلام يتحIRON في أمره ، وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية ، لأنه أكثر ما يستشهد بالقرآن ، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث ، وإن لم يكن فيه شيء <sup>٣</sup> عدل إلى أشعار العرب ، هذا مع ما هو عليه من الدين والعبادة وصدق اللهجة ، وكثرة النوافل ، وحسن السمْت ، وكمال العقل ،

١ الوافي : لأنه يريد ينقل الكتابين .

٢ النقل عن الصفدي أيضاً .

٣ دوزي : شاهد .

وأقام بدمشق مدة يصنف ويشغل بالجامع وبالتربة العادلة ، وتخرج به جماعة ، وكان نظم الشعر عليه سهلاً رَجَزُهُ وطَوِيلُهُ وبَسِيطُهُ ، وصنف كتاب « تسهيل الفوائد » ، قال الصفدي<sup>١</sup> : ومدحه سعد الدين محمد بن عربي بأبيات مليحة إلى الغاية ، وهي :

إن الإمام جمالَ الدين جمَّله ربُّ العُلا ولنشر العلم أهلهُ  
أملى كتاباً له يُسمَى « الفوائد » لم يزل مفيداً لذي لبٍّ تأملهُ  
وكلَّ مسألة في النحو يجمَعها إن الفوائد جمع لا نظير لهُ

قال : وفي هذه الأبيات مع حسن التورية فيها ما لا يخلو من إيراد ذكرته في كتابي « فض الختام<sup>٢</sup> » ، انتهى .

قلت : أجب العجيسي عن ذلك بأن الأبيات ليست في التسهيل ، وإنما هي في كتاب له يسمى « الفوائد » وهو الذي لخصه في « التسهيل » ، فقوله في اسم التسهيل « تسهيل الفوائد » معناه تسهيل هذا الكتاب ، وذكر أيضاً أنه مثل التسهيل في القدر على ما ذكره مَنْ وقف عليه ، وقال : وإليه يشير سعد الدين محمد بن عربي بقوله « إن الإمام — إلى آخره » وسعد الدين ابنُ الشيخ محيي الدين صاحب « الفُصُوص » وغيرها .

ثم قال العجيسي : وذكر غير واحد من أصحابنا أن له كتاباً آخر سماه بـ « المقاصد » ، وضمَّنها تسهيله ، فسماه لذلك « تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد » فعلى هذا لا يصح قول الصفدي : إن المدح المذكور في التسهيل ، إلاّ بارتكاب ضرب من التأويل ، انتهى كلام العجيسي .

قلت : وذكر غيره أن قوله في الألفية « مقاصدُ النحو بها محوية » إشارة لكتاب المقاصد ، وتعقب بقوله « محوية » فإنه لو كان كما ذكر لقال محويُّ ،

١ الوافي : ٣٦٠ .

٢ في الأصول ودوزي : فض الختام ؛ والمراد كتابه « فض الختام عن التورية والاستخدام » .



وأجاب بعضهم بأنه من باب الاستخدام ، وفيه تعسف .

رجع - ومن تصانيف ابن مالك « الموصل في نظم المفصل » وقد حل هذا النظم فسماه « سبك المنظوم وفك المختوم » ومن قال « إن اسمه فك المنظوم وسبك المختوم » فقد خالف النقل والعقل ، ومن كتب ابن مالك كتاب « الكافية الشافية » ثلاثة آلاف بيت ، وشرّحها ، و « الخلاصة » وهي مختصر الشافية ، و « إكمال الإعلام بمثلث الكلام » وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم ، و « لامية الأفعال » وشرحها ، و « فَعَلَ وَأَفْعَلَ » ، و « المقدمة الأسدية » وضعها باسم ولده الأسد ، و « عُدَّة اللفظ وعمدة الحافظ » ، و « النظم الأوجز فيما يهمز » ، و « الاعتضاد في الظاء والضاد » مجلد ، و « إعراب مشكل البخاري » ، و « تحفة المودود في المقصور والممدود » وغير ذلك كشرح التسهيل . وروى عنه ولده بدر الدين محمد ، وشمس الدين بن جعوان ، وشمس الدين بن أبي الفتح ، وابن العطار ، وزين الدين أبو بكر المزني ، والشيخ أبو الحسين اليونيني ، وأبو عبد الله الصيرفي ، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ، وشهاب الدين محمود ، وشهاب الدين بن غانم ، وناصر الدين بن شافع ، وخلق كثير سواهم .  
ومن نظمه في الحليّة :

خَيْلُ السَّبَاقِ المَجَلِّي يَقْتَفِيهِ مُصَ لِّ وَالمُسْتَلِّي وَتَالِ قَبْلَ مَرَاتِحِ  
وَعَاطِفٌ وَحَظِيٌّ وَالمُؤَمَّلُ وَالْمَطِيمُ وَالفِسْكَيلُ السُّكَيْتُ يَا صَاحِرِ

وله من هذه الضوابط شيء كثير .

وكان يقول عن الشيخ ابن الحاجب : إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل ، وصاحب المفصل نحوه صُغِيرَات ، وناهيك بمن يقول هذا في حق الزمخشري . وكان الشيخ ركن الدين بن القَوْبَع يقول : إن ابن مالك ما خَلَّى لِنَحْوِ حَرْمَةِ . وحكي عنه أنه كان يوماً في الحَمَام وقد اعتزل في مكان يستعمل فيه الموسى ، فهجم عليه فتى فقال : ما تصنع ؟ فقال : أكنس لك الموضوع للعود ، قال

بعضهم : وهذا مما يُستبعد على دين ابن مالك ، والعُهْدَة على ناقله ، قال  
الصفدي : ولا يستبعد ذلك من لطف النحاة وطباع أهل الأندلس .

وتوفي ابن مالك بدمشق سنة اثنتين وسبعين وستمائة .

وقال بعضهم : من أحسن شعر ابن مالك قوله :

إذا رَمِدَتْ عيني تداوَيْتُ منكمُ      بنظرة حسن أو بسمعِ كلام  
فإن لم أجد ماءً تيممتُ باسمكم      وصليتُ فرضي والديارُ أمامي  
وأخلصتُ تكبيري عن الغيرِ مُعرضاً      وقابلتُ أعلام السوى بسلام  
ولم أر إلاّ نور ذاتك لائحاً      فهل تدعُ الشمسُ امتدادَ ظلام

وقدم - رحمه الله تعالى - القاهرة ، ثم رحل إلى دمشق ، وبها مات كما علم .

وقال الشرف الحصري يرثيه<sup>١</sup> :

يا شتاتَ الأسماءِ والأفعالِ      بعند موتِ ابن مالكِ المفضالِ  
وانحرافِ الحروفِ من بعدِ ضبطِ      منه في الانفصالِ والاتصالِ  
مصدراً كان للعلومِ بإذنِ الـ      له من غيرِ شبهةٍ ومحالِ  
عدمِ النعتِ<sup>٢</sup> والتعطفِ والتو      كيدُ مُستبدلاً من الأبدالِ  
المُ إعتراه أسكنَ منه      حركاتِ كانت بغيرِ اعتلالِ  
يا لها سكتةٌ لهمزِ قضا      أورتتُ طولَ مدةِ الانفصالِ  
رفَعوهُ في نَعشِهِ فانتصينا      نصبَ تمييزِ ، كيفَ سيرُ الجبالِ  
فخَمّوه عندِ الصلاةِ بدلَ      فأملتُ أسرارَهُ للدلالِ  
صَرَفوهُ يا عَظْمَ ما فَعَلوه      وهوَ عدلٌ معرفٌ بالجمالِ  
أدْغَموهُ في التَّربِ من غيرِ مثلِ      سالماً من تغيّرِ الإنتقالِ

١ وردت في الفوات والوافي وبغية الوعاة .

٢ في قج ودوزي : النحو .

وَقَفَّوْا عِنْدَ قَبْرِهِ سَاعَةً الدَّفْنِ وَوَقُوفًا ضَرُورَةً الإِمْتِثَالِ  
 وَمَدَدْنَا الأَكْفَافَ نَطْلُبُ قَصْرًا مَسْكِنًا لِلتَّزِيلِ مِنْ ذِي الجَلَالِ  
 آخِرَ الآيِ مِنْ سَبَابِ الحِظِّ مِنْهُ ١ حِظَّهُ جَاءَ أَوَّلَ الأَنْفَالِ  
 يَا بَيَانَ الإِعْرَابِ ٢ يَا جَامِعَ الإِغْيَاءِ رَابِعًا يَا مُفْهِمًا لِكُلِّ مَقَالِ  
 يَا فَرِيدَ الزَّمَانِ فِي النِّظْمِ وَالنَّثِ رَوَيْ نَقْلَ مُسْتَنْدَاتِ العَوَالِي  
 كَمْ عِلْمٌ بِشَيْئِهَا فِي أَنَاسِ عِلْمُوا مَا بَثَّتْ ٣ عِنْدَ الزَّوَالِ  
 انْتَهَتْ مَلْخَصَةٌ .

قال الصفدي : وما رأيت مرثية في نحوي أحسن منها على طولها ، انتهى .  
 ودفن ابن مالك بسفح قاسيون ، بترية القاضي عز الدين ابن الصائغ ، وقال  
 العجيسي : بترية ابن جعوان . وراثه الشيخ بهاء الدين ابن النحاس بقوله ٤ :

قُلْ لابن مالك أَن جَرَّتْ بِكَ أَدْمَعِي حُمُرًا يُحَاكِهَا التَّجِيعُ القَانِي  
 فَلَقَدْ جَرَحْتَ القَلْبَ حِينَ نُعِيْتُ لِي وَتَدَفَّقَتْ بِدِمَائِهِ أَجْضَانِي  
 لَكِنْ يَهُونَ مَا أُجِينُ مِنَ الأَسَى عِلْمِي بِنُقُلْتِهِ إِلَى رِضْوَانِ  
 فَسَقَى ضَرْبًا ضَمَّهُ صَوْبُ الحَيَا يَهْمِي بِهِ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ

وابن النحاس المذكور أحد تلامذة ابن مالك ، وهو القائل يخاطب رضي  
 الدين الشاطبي الأندلسي ، وقد كلفه أن يشترى له قطراً :

أَيُّهَا الأَوْحِدُ الرِّضِيُّ الَّذِي طَالَ عِلْمُهُ وَطَابَ فِي النَّاسِ نَشْرُهُ  
 أَنْتَ بَحْرٌ لَا غُرُورَ إِنْ نَحْنُ وَافِي نَاكٍ رَاجِعِينَ مِنْ نَدَاكَ القَطْرَا

١ الوافي : حظنا منه .

٢ ج ودوزي : يا لسان الأعراب .

٣ ق ودوزي : ما نثيت .

٤ انظر البغية : ٥٧ .

وابن النحاس المذكور له نظم كثير مشهور بين الناس ، وهو : بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن نصر ، الحلبي الأصل ، المعروف بابن النحاس ، وهو شيخ أبي حيّان ، ولم يأخذ أبو حيّان عن ابن مالك وإن عاصره بنحو ثلاثين سنة . وقال بعض من عرفّ بابن مالك : إنه تصدر بحلب مدة ، وأمّ بالسلطانية ، ثم تحول إلى دمشق ، وتكاثر عليه الطلبة ، وحاز قصبَ السبق ، وصار يُضرب به المثل في دقائق النحو ، وغوامض الصرف ، وغريب اللغات ، وأشعار العرب ، مع الحفظ والذكاء والورع والديانة وحسن السمت والسياسة والتحري لما ينقله والتحرير فيه ، وكان ذا عقل راجح ، حسن الأخلاق مهذباً ، ذا رزّانة وحياة ووقار ، وانتصاب للإفادة ، وصبر على المطالعة الكثيرة ، تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجي وغيره ، وسارت بتصانيفه الرُّكبان ، وخضع لها العلماء الأعيان ، وكان حريصاً على العلم ، حتى إنه حفظ يوم موته ثمانية شواهد .

وقال بعض الحفاظ حين عرفّ بابن مالك : يقال إن عبد الله في نسبه مذكور مرتين متواليتين ، وبعض يقول : مرة واحدة ، وهو الموجود بخطه أول شرحه لعمدته ، وهو الذي اعتمده الصفدي وابن خطيب دارياً محمد بن أحمد بن سليمان الأنصاري ، وعلى كل حال فهو مشهور بجده في المشرق والمغرب .

وحكى بعضهم أن ولادته سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وعليه عوّل شيخ شيوخ شيونخا ابن غازي في قوله :

قد خبّع ابن مالك في خبعا وهو ابن عه كذا وعى من قد وعى<sup>١</sup>

وقيل ، كما تقدم : إن مولده سنة ستمائة أو بعدها بجيآن الحرير مدينة من مدن الأندلس جبر الله كسرهما - وهي مفتوحة الجيم وياؤها مشددة تحتانية - وتصدّر ابن مالك بحمّة مدة ، وانتقد بعضهم على ابن خلكان إسقاطه من تاريخه ،

١ يريد أن مقدار حروف « خبّع » في حساب الجمل يساوي ٦٧٣ وهي سنة وفاته ، وعه = ٧٥

مع كونه كان يعظمه إلى الغاية . وقدّم ، رحمه الله تعالى ، لصاحب دمشق قصة يقول فيها عن نفسه : إنه أعلم الناس بالعربية والحديث ، ويكفيه شرفاً أن من تلامذته الشيخ النووي<sup>١</sup> ، والعلمّ الفارقي ، والشمس البعلي ، والزين المزيّ ، وغيرهم ممن لا يحصى .

وكان ، رحمه الله تعالى ، كثير المطالعة ، سريع المراجعة ، لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه في محله ، وهذه حالة المشايخ الثقات ، والعلماء الأثبات ، ولا يُرى إلا وهو يصلي أو يتلو أو يصنف أو يقرأ ، وكذا كان الشيخ أبو حيّان ، ولكن كان جِدُّه في التصنيف والإقراء .

وحكي أنه توجه يوماً مع أصحابه للفرجة بدمشق ، فلما بلغوا الموضع الذي أرادوه غفّلوا عنه بسويعة ، فطلبوه فلم يجدوه ، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكباً على أوراق .

وأغرب من هذا في اعتنائه بالعلم ما مر أنه حفظ يوم موته عدة أبيات حدّتها بعضهم بثمانية ، وفي عبارة بعض «أو نحوها» لقنه ابنه إياها ، وهذا ممّا يصدق ما قيل : بقدر ما تتعنى ، تنال ما تتمنى ، فجزاه الله خيراً عن هذه المهمة العلية .

وذكر أبو حيّان في الجوازم من تذييله وتكميله ، أنه لم يصحب من له البراعة في علم اللسان ، ولذا تَضَعُفُ استنباطاته وتعقباته على أهل هذا الشأن ، وينفر من المنازعة ، والمباحثة والمراجعة ، قال : وهذا شأن من يقرأ بنفسه ، ويأخذ العلم من الصحف بفهمه ، ولقد طال فَحْصِي وتفقيري عمّن قرأ عليه ، واستند في العلم إليه ، فلم أجد من يذكر لي شيئاً من ذلك ، ولقد جرى يوماً مع صاحبنا تلميذه علم الدين سليمان بن أبي حرب الفارقي الحنفي فقال : ذكر لنا أنه قرأ على ثابت بن خيار من أهل بلده ، جيّان ، وأنه جلس في حلقة

١ ق ج ودوزي : النووي .

الأستاذ أبي علي الشلوين نحواً من ثلاثة عشر يوماً ، وثابت بن خيار ليس من أهل الجلالة والشهرة في هذا الشأن ، وإنما جلالته وشهرته في إقراء القرآن ، هذا حاصل ما ذكره أبو حيّان .

قال بعض المحققين . وهو العلامة يحيى العَجَسِي : وليس ذلك منه بإنصاف ولا يحمل على مثله إلا هوى النفس وسرعة الانحراف ، ففيه المستدّ عنه والمتبع ، شهادة نفي فلا تنفع ولا تُسمع ، ويكفي ما سطر في حقه قوله في أثنائه : نظم في هذا العلم كثيراً ونثر ، وجمع باعتكاف على الاشتغال به ومراجعة الكتب ومطالعة الدواوين العربية وطول السن من هذا العلم غرائب ، وحوث مصنفاته منها نوادر وعجائب ، وإن منها كثيراً استخرجه من أشعار العرب وكتب اللغة إذ هي مرتبة الأكابر النقاد ، وأرباب النظر والاجتهاد ، وقوله في موضع آخر من تذييله « لا يكون تحت السماء أنحي ممن عرّف ما في تسهيله » وقرنه في « بجره » بمصنف سيويه فما ينبغي له أن يغمصه ، ولا أن يحط عليه ، ولا أن يقع فيما وقع فيه ، فإنه ممّا يُجرىء على أمثاله الغبي والنبيه ، والحليم والسفيه ، وما هذا جزاء السلف من الخلف ، والدُرر من الصدف ، والجَيِّد من الحشف ، أو ما ينظر إلى شيخه أبي عبد الله ابن النحاس ، فإنه لا يذكره إلا بأحسن ذكر كما هو أدب خيار الناس ، ومن كلامه في نقله عنه : وهو الثقة فيما ينقل والفاضل حين يقول : وإلى تلميذه أبي البقاء المصري حيث يقول فيه . أعني في أبي حيّان :

هو الأوحدُ الفردُ الذي تمَّ عِلْمُهُ وسار مسيرَ الشمسِ في الشرقِ والغربِ  
ومن غايةِ الإحسانِ مبدأ فضلهِ فلا غرو أن يسمو على العُجمِ والعُربِ

ومن غاية الإحسان ، في هذا الشأن ، التصانيف التي سارت بها الرُكبان .  
في جميع الأوطان ، واعترف بحسنها الحاضر والبادي ، والداني والقاصي ،  
والصديق والعدو ، فتلقاها بالقبول والإذعان ، فسامح الله تعالى أبا حيّان ، فإن

كلامه يحقق قول القائل : كما تدين تدان . ورحم الله تعالى ابن مالك ، فلقد أحيا من العلم رسوماً دارسة ، وبيّن معالم طامسة . وجمع من ذلك ما تفرق ، وحقق ما لم يكن تبيين منه ولا تحقق ، ورحم شيخه ثابت بن الحيار ، فإنه كان من الثقات الأخيار . وهو أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الحيار الكُّلاعي - بضم الكاف على ما كان يضبط بيده فيما حكاه ابن الخطيب في الإحاطة - وأصله من لبلة ، ويُعد في أهل جَيّان ، وتوفي بغرناطة سنة ٦٢٨ .

وكان أبو حَيّان يَغْض من هذا الكتاب ويقول : ما فيه من الضوابط والقواعد حائد عن مَهْجِ الصواب والسداد ، وكثيراً ما يشير إلى ذلك في شرحه المسمى « منهج السالك » ومن غَضَّه منه بالنظم في ملا من الناس من جملتهم شيخه بهاء الدين ابن النحاس والأقسراني يجاريه مقتفياً له ومتأسياً في تسويد القرطاس :

ألفية ابن مالك مطموسة المسالك  
وكم بها مشغل أوقع في المهالك

ولا تغر أنت بهذا الغرر ، فإنه ما كل سحاب أبرد مطر . ولا كل عود أورق ثمر . وقيل معارضة للقوم ، وتنبهاً لهم مما هم فيه من النوم :

ألفية ابن مالك مشرقة المسالك  
وكم بها من مشغل علا على الأرائك

وما أحسن قول ابن الوردي في هذا المعنى :

يا عائباً ألفية ابن مالك وغائباً عن حفظها وفهمها  
أما تراها قد حوت فضائلاً كثيرة فلا تجر في ظلمها  
وازجر لمن جادل من يحفظها برابع وخامس من اسمها

يعني « صه » فإنه عند الاستقلال بمعنى اسكت ، انتهى ملخصاً .

وقال أيضاً عند ذكره مصنفات ابن مالك : وهي كما قيل غزيرة المسائل ، ولكنها على الناظر بعيدة الوسائل ، وهي مع ذلك كثيرة الإفادة ، موسومة بالإجادة ، وليست لمن هو في هذا الفن في درجة ابتدائه ، بل للمتوسط يترقى بها درجة انتهائه ، انتهى .

واعلم أن الألفية مختصرة الكافية كما تقدم ، وكثير من أبياتها فيها بلفظها ، ومتبوعه فيها ابن معطي ، ونظمه أجمع وأوعب ، ونظم ابن معطي أسلس وأعذب ، وذكر الصفدي عن الذهبي أن ابن مالك صنف الألفية لولده تقي الدين محمد المدعو بالأسد ، واعترضه العلامة العجيسي بأن الذي صنفه له عن تحقيق « المقدمة الأسدية » قال : وأما هذه - يعني الألفية - فذكر لي من أثق بقوله أنه صنفها برسم القاضي شرف الدين هبة الله بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس الدين بن إبراهيم بن عفيف الدين بن هبة الله بن مسلم بن هبة الله بن حسان الجهني الحموي الشافعي الشهير بابن البارزي ، ويقال : إن هذه النسبة إلى باب أبرز أحد أبواب بغداد ، ولكن خفض لكثرة دَوْرِهِ على الألسنة ، انتهى مختصراً .

وقال بعض من عرّف بابن مالك : هو مقيم أود ، وقاطع لدّد ، ومزين سماء موّهت الأصائل ديباجتها ، وشعشت البكر زجاجتها ، وجاءت أيامه صافية من الكدر ، ولياليه وما بها شائبة من الكبر ، قد خلّقتها العشي بردعه ، وخلفها الصباح برّبعه ، فكان كل متعين حول مسجده ، وكل عين فاخرة بعسجده ، هذا وزمر الطلاب ، وطلبة الأجلاب ، لا تزال تزجي إليه القِلاص ، وتكثر من سربه الاقتناص ، كان أوحد وقته في علم النحو واللغة مع كثرة الديانة والصلاح ، انتهى .

وقال بعض المغاربة :

لقد مزّقت قلبي سهام جفونها كما مزّق اللخمي مذهب مالك  
وصال على الأوصال بالقد قدّها فأصحت كآيات بتقطع مالك



وقلدت إذ ذاك الهوى لمرادها كتقليد أعلام النحاة ابن مالك  
ومسكتها رقي لرقعة لفظها وإن كنت لا أرضاه ملكاً لمالك  
وناديتها يا منيبي بذل مهجتي ومالي قليل في بديع جمالك

ويعني بقوله « بتقطيع مالك » مالك بن المرحل السبتي ، رحمه الله تعالى .  
ولما سئل ابن مالك عن قول النبي ، صلى الله عليه وسلم : « نعوذ بالله من  
الحوور بعد الكور » هل هو بالراء أو بالنون ؟ أنكر النون ، فقيل له : إن في  
« الغريين » للهروي رواية بالنون ، فرجع عن قوله الأول ، وقال : إنما هو  
بالنون ، انتهى .

وقد ذكر في « المشارق » النون والراء ، فقال : « الحورُ بعد الكورِ »  
بالراء رواه العذري وابن الحذاء ، وللباقين بالنون ، معناه النقصان بعد الزيادة ،  
وقيل : من الشذوذ بعد الجماعة ، وقيل : من الفساد بعد الصلاح ، وقيل :  
من القلة بعد الكثرة ، كارَ عِمَامَتَه إذا لفها على رأسه واجتمعت ، وحرارها  
إذا نَقَصَها فافترقت ، ويقال : حار إذا رجع عن أمر كان عليه ، ووهم  
بعضهم رواية النون ، وقيل : معناها رجع إلى الفساد بعد أن كان على خير ممّا  
رجع إليه ، وقال عياض في موضع آخر بعد : الحور بعد الكور ، كذا للعذري ،  
والكون للفارسي والسجزي وابن ماهان ، وقول عاصم في تفسيره « حار بعدما  
كار » وهي روايته ، ويقال : إن عاصماً وهم فيه ، انتهى .

والسائل لابن مالك عن اللفظة هو ابن خلكان ، لأن ابن الأثير سأل ابن  
خلكان عنها ، فسأل هو ابن مالك ، رحم الله تعالى الجميع .

\* \* \*

[ تعريف بابنه بدر الدين ]

وقد عرف الحافظ الذهبي بابن مالك في تاريخ الإسلام ، وذكر فيه ترجمة  
لولده بدر الدين محمد ، وأنه كان حاد الذهن ، ذكياً ، إماماً في النحو وعلم

المعاني والمنطق ، جيد المشاركة في الفقه والتدريس ، وأنه تصدّر بعد والده للتدريس ، ومات شاباً قبل الكهولة سنة ٦٨٦ ، ومن أجل تصانيفه شرحه على ألفية والده ، وهو كتاب في غاية الإغلاق ، ويقال : إنه نظير الرضي في شرح الكافية ، وللناس عليه حواشٍ كثيرة ، رحمهم الله تعالى أجمعين .

١٤٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر القيسي التدميري<sup>١</sup> ويعرف بالشهيد ، كان عظيم القدر جداً بالأندلس ، بعيد الأثر في الخير والصلاح والعلم والنسك والانتطاق إلى الله تعالى ، وكان من وجوه أهل كورة تدمير ذوي البيوت الرفيعة ، وبرعَ بخصاله المحمودة ، فكان في نفسه فقيهاً ، عالماً ، زاهداً ، خيراً ، ناسكاً ، متبتلاً ، نشأ على الاستقامة والصلاح والاهتداء والدّعة ، طلب العلم في حدثان سنّه ، ورحل إلى قرطبة فرَوَى الحديث وتفقهه وناظر ، وأخذ بحظّ وافر من علم المسألة والجواب ، وكان أكثر علمه وعمله الورع ، والتشدد فيه ، والتحفظ بدينه ومكسبه ، ورسخ في علم السنّة ، ثم ارتحل إلى المشرق ، فمر بمصر حاجتاً ، فأقام بالحرمين ثمانية أعوام يتعيش فيها من عمل يده بالنسخ ، ثم سار إلى العراق ، فلقي أبا بكر الأبهري وأخذ عنه ، وأكثر من لقاء الصالحين وأهل العلم ، ولبس الصوف ، وقنع ، وتورع جداً ، وأعرض عن الشهوات ، وكان إذا ستم من النسخ الذي جعل قوته منه أجر نفسه في الخدمة رياضة لها ، فأصبح عابداً متقشفاً منيباً مخبئاً عالماً عاملاً منقطع القرين ، قد جرت منه دعوات مُجابهة ، وحُفظت له كرامات ظاهرة ، ثم عاد إلى بلدة تدمير سنة ست أو سبع وسبعين وثلاثمائة ، وبها أبوه أبو الحسام طاهر حياً ، فنزل خارج مدينة مُرسِيّة تورعاً عن سُكناها وعن الصلاة في جامعها ، فاتخذ له بيتاً سقفه من حطب السدر يأوي إليه ، واعتمر جنيّة بيده يقات منها ، وصار يغزو مع المنصور محمد بن أبي عامر ، ثم تحول من قريته بعد عامين إلى الثغر ، وواصل

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٩٠ .

الرباط ، ونزل مدينة طَلَبِيرَة ، وكان يدخل منها في السرايا إلى بلد العَدُوِّ فيغزو ويتقوت من سُهْمَانِه ، وَيُعَوِّلُ على فرس له ارتبطه لذلك ، وكان له بأس وشدة وشجاعة وثقافة ، يحدِّثُ عنه فيها بحكايات عجيبة ، إلى أن استشهد مقبلاً غير مدبر . سنة ٣٧٩ ، أو في التي قبلها ، عن اثنتين وأربعين سنة ، وأبوه حي ، رحم الله تعالى الجميع .

١٤٦ - ومنهم أبو عبد الله القَيْجَاطِي محمد بن عبد الحليل بن عبد الله بن جَهْوَورَ ، مولده سنة ٥٩٠ بَقِيَّجَاطَة ، وكتب عنه الحافظ المنذري ، ومن شعره قوله :

إِذَا كُنْتَ تَهْوَى مِنْ نَأَتْ عِنكَ دَارُهُ فَحَسْبُكَ مَا تَلْقَى مِنَ الشَّوْقِ وَالْبُعْدِ  
فِيَا وَيْحَ صَبٍّ قَدْ تَضَرَّمَ نَارُهُ وَوَاَحَرَ قَلْبًا ذَابَ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ

١٤٧ - ومنهم أبو عبد الله - ويقال : أبو حامد - محمد بن عبد الرحيم ، المازنيُّ ، القَيْسِي ، الغرناطيُّ<sup>١</sup> ، ولد سنة ٤٧٣ ، ودخل الإسكندرية سنة ٥٠٨ ، وسمع بها من أبي عبد الله الرازي ، وبمصر من أبي صادق مرشد بن يحيى المديني وأبي الحسن الفراء الموصلي وأبي عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوي وغيرهم ، وحدث بدمشق ، وسمع أيضاً بها وببغداد ، وقدمها سنة ٥٥٦ ، ودخل خراسان ، وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى الشام ، وأقام بحلب سنين ، وسكن دمشق ، وكان يذكر أنه رأى عجائب في بلاد شتى ، ونسبه بعض الناس بسبب ذلك إلى ما لا يليق ، وصنّف في ذلك كتاباً سماه « تحفة الألباب » وكان حافظاً عالماً أديباً ، وتكلم فيه الحافظ ابن عساكر ، وزنّه بالكذب ، وقال ابن النجار : ما علمته إلاّ أميناً .

١ ترجمة أبي حامد الغرناطي في الوافي ٣ : ٢٤٥ نقلا عن ابن النجار ، وفي الترجمة المقطوعتان اللتان أوردهما المقرئ ؛ وكتابه « تحفة الألباب » في العجائب نشره جيراثيل فراند في المجلة الآسيوية سنة ١٩٢٥ .

ومن شعره قوله :

تكتب العلم وتلقي في سَفَطٍ      ثم لا تحفظ؟ لا تُفْلِحُ قَطَ  
إِنَّمَا يُفْلِحُ مَنْ يُحْفَظُهُ      بعد فهمٍ وتوقٍ مِنْ غَلَطٍ

وقوله :

العلم في القلب ليس العلم في الكتبِ      فلا تكن مُعْرِماً باللهو واللعبِ  
فاحفظه وافهمه واعمل كي تفوز به      فالعلم لا يجتنى إلاّ مع التَّعَبِ

توفي بدمشق في صفر سنة ٥٦٥ .

١٤٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ، القرطبي<sup>١</sup> ، من ذرية أبي  
ثعلبة الخُشَنِي صاحب رسول الله ، صَلَّى الله عليه وسلّم ، رحل قبل الأربعين  
ومايتين ، فحج ، وسمع بالبصرة من محمد بن بشار وأبي موسى الزَّمِين ونَصْر  
ابن علي الجَهْضَمِي ، ولقي أبا حاتم السجستاني والعباس بن الفرج الرياشي ،  
وسمع ببغداد من أبي عبيد القاسم بن سلام<sup>٢</sup> ، وبمكة من محمد بن يحيى العدني ،  
وبمصر من سلمة بن شبيب صاحب عبد الرزّاق والبرقي وغيرهما ، وأدخل  
الأندلس علماً كثيراً من الحديث واللغة والشعر ، وكان فصيحاً جَزَل المنطق ،  
صاوماً ، أنوفاً ، منقبضاً عن السلطان ، أرادته على القضاء فأبى ، وقال : لإبائة  
إشفاق لا إبائة عصيان<sup>٣</sup> ، فأعفاه ، وكان ثقة مأموناً ، وتوفي في رمضان سنة  
٢٨٦ عن ثمان وستين سنة ، رحمه الله تعالى .

١ ترجمة الخشني في ابن الفرضي ٢ : ١٦ والجدوة ٦٣ (وبنية الملتمس رقم : ٢٠٢) وتذكرة  
الحفاظ : ٦٤٩ .

٢ يبدو أن هذا وهم من المقرئ ، فقد ذكر ابن الفرضي أن محمد بن عبد السلام دخل بغداد وكتب  
بها كتب أبي عبيد القاسم بن سلام عن محمد بن وهب المسعري تلميذ أبي عبيد ، وهذا ما ذكره  
الحميدي وزاد على ذلك أن من شيوخه محمد بن المغيرة وهو تلميذ آخر لأبي عبيد .

٣ انظر خبر إبائه القضاء في « المرقبة العليا » : ١٣ .

١٤٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج ، القرطبي <sup>١</sup> ،  
 سمع من محمد بن وضاح وأكثر عنه ، وأخذ عن محمد الحُسَينِي وقاسم بن أصبغ  
 ولإبراهيم بن قاسم بن هلال <sup>٢</sup> ، ورحل سنة ٢٧٤ ، فسمع بمصر من المطلب بن  
 شعيب والمقدام <sup>٣</sup> بن داود الرُعَينِي ، وأدرك بالعراق إسماعيل القاضي وعبد الله  
 ابن أحمد بن حنبل .

قال الحميدي : حدث بالمغرب وبالمشرق ، وصنّف السنن ، وممّن روى عنه  
 خالد بن سعيد ، وقال لنا أبو محمد ابن حزم : مُصنّف ابن أيمن مصنف رفيع  
 احتوى من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات ، وتوفي  
 في ذي القعدة سنة ٣٣٠ ، بقرطبة ، رحمه الله تعالى .

١٥٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون اللخمي <sup>٤</sup> ،  
 الرصافي ، القرطبي ، الحداد ، سمع بقرطبة من عبد الله بن يونس وقاسم بن  
 أصبغ ، وحج سنة ٣٣٩ سنة ردّ القرامطة الحجرَ الأسود إلى مكانه ، وسمع  
 بمكة من ابن الأعرابي ، وبمصر من ابن الورد <sup>٥</sup> وأبي علي ابن السكن وعبد الكريم  
 النسائي وغيرهم وسمع بأطرابلس والقيروان من جماعة ، وكان رجلاً صالحاً ،  
 عدلاً ، حدث وكتب عنه الناس ، وعَلّت سنه ، وتوفي بشوال سنة ٣٩٤ ،  
 وولد فيما أظن سنة ٣٠٢ ، وكانت وفاته بقرطبة ، وقد اضطرب في أشياء  
 قرئت عليه ، وممّن أخذ عنه الحافظ أبو عمر ابن عبد البر ، رحم الله تعالى الجميع .

١ ترجمة ابن أيمن في ابن الفرضي ٢ : ٥٢ والجدوة : ٦٣ (وبنية الملتبس رقم : ١٩٧)  
 وتذكرة الحفاظ : ٨٣٦ .

٢ ابن الفرضي : ويحيى بن قاسم بن هلال .

٣ ج : والمقداد .

٤ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ١١٠ والجدوة : ٦٣ (وبنية الملتبس رقم : ١٩٩) وزاد في  
 ك : ابن مروان بعد لفظة « ضيفون » في نسبه .

٥ ق : من أبي الورد .

٦ صالحاً : سقطت من ج .

١٥١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك ، الخزرجي ، السعدي ،  
القرطبي ، روى عن أبي الحسن علي بن هشام ، وروى عنه أبو القاسم ابن  
بشكوال ، وقدم مصر وحدث بها ، وممن سمع منه بها ابن وردان وأبو الرضى  
القيسراتي في آخرين ، واستوطن مصر ، وتوفي سنة ٥٨٨ .

١٥٢ - ومنهم أبو بكر ابن السراج ، النحوي <sup>١</sup> - بتشديد الراء - وهو  
محمد بن عبد الملك بن محمد بن السراج الشنتمري ، أحد أئمة العربية المبرزين  
فيها ، ويكفيه فخراً أنه أستاذ أبي محمد عبد الله بن بري المصري اللغوي النحوي ،  
وحدث عن أبي القاسم عبد الرحمن <sup>٢</sup> بن محمد النفطي <sup>٣</sup> ، وقرأ العربية بالأندلس  
على ابن أبي العافية وابن الأخضر ، وقدم مصر سنة ٥١٥ ، وأقام بها ، وأقرأ  
الناس العربية ، ثم انتقل إلى اليمن ، وروى عنه أبو حفص عمر بن إسماعيل  
وأبو الحسن علي والد الرشيد العطار ، وله تواليف منها « تنبيه الألباب في فضل  
الإعراب » <sup>٤</sup> وكتاب في العروض ، وكتاب « مختصر العمدة » لابن رشيق وتنبيه  
أغلاطه . قال السلفي : كان من أهل الفضل الوافر ، والصلاح الظاهر ، وكانت  
له حلقة في جامع مصر لإقراء النحو ، وكثيراً ما كان يحضر عندي - رحمه الله  
تعالى - مدة مقامي بالفسطاط ، توفي بمصر سنة ٥٤٩ ، وقيل : سنة خمس وأربعين ،  
وقيل : خمسين وخمسمائة ، برمضان ، والأول أثبت .

١٥٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي بن سعيد  
[ العنسي ] ، ويكنى أيضاً أبا القاسم ، الغرناطي ، سمع من الجليّة بمصر  
والإسكندرية ودمشق وبغداد : منهم الحراني أبو عبد الله وأبو محمد عبد الصمد

١ ترجمة السراج في بغية الوعاة : ٦٨ والوافي : ٤ : ٤٦ (وبروكلمان ١ : ٣٧٧) .

٢ البنية : عبد الرحيم .

٣ ج : السقطي .

٤ الوافي : تلقيح الألباب في عوامل الإعراب .

ابن داود بدمشق ، وكتب الحديث [وعني] بالرواية أتم عناية ، وفُقد بأصبهان حين استولى عليها التتار قبل الثلاثين وستمائة .

١٥٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الدفاع<sup>١</sup> ، بالدال المهملة ، وقيل : بالراء ، قرطبي ، سمع عبد الملك بن حبيب ، ورحل فسمع بمصر من الحارث بن مسكين وغيره ، وكان زاهداً فاضلاً ، وتوفي سنة ٢٨١ ، رحمه الله تعالى .

١٥٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عابد ، المتعافري القرطبي<sup>٢</sup> ، ولد بقرطبة سنة ٣٥٨ ، ودخل مصر فسمع من أبي بكر ابن المهندس وأبي بكر البصري ، وروى عن أبي عبد الله ابن مفرج وأبي محمد الأصيلي وجماعة ، ولقي الشيخ أبا محمد ابن أبي زيد في رحلته سنة ٣٨١ فسمع منه رسالته في الفقه وغيرها ، وحج من عامه . ثم عاد من مصر إلى المغرب سنة ٣٨٢ ، وكان معتنياً بالأخبار والآثار ، ثقة فيما رواه ، وعني به ، خيراً ، فاضلاً ، ديناً ، متواضعاً ، متصاوفاً ، مقبلاً على ما يعنيه ، صاحب حظ من الفقه ، وبصير بالمسائل ، ودعي إلى الشورى بقرطبة فأبى ، ومات سنة ٤٣٩ . وعابد جده بالباء الموحدة ، رحم الله تعالى الجميع .

١٥٦ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجد<sup>٣</sup> الأنصاري البلسني ، أخذ القراءات<sup>٤</sup> عن جماعة من أهل بلده ، وخرج حاجاً سنة ٥٧١ ، فجاور بمكة ، وسمع بها وبالإسكندرية من السلقفي ، وعاد إلى بلده

١ ترجمة ابن الدفاع في ابن الفرضي ٢ : ١٤ والجزوة : ٥٨ ( وبنية الملتبس رقم : ١٥٨ ) .

٢ ترجمة ابن عابد في الصلة : ٥٠١ وبنية الملتبس رقم : ١٧٧ .

٣ ترجمته في التكملة : ٥٥٩ وفيه «ابن ماجد» وغاية النهاية ٢ : ١٧٩ وفيه وفي دوزي : ابن هاجر .

٤ ج : القراءة .

سنة ٥٩٦<sup>١</sup> ، وحدث وكان من أهل الصلاح والفضل والورع ، كثير البر ، ومفاداة الأسرى ، ويحترف بالتجارة ، ومولده بعد سنة ٥٣٠<sup>٢</sup> ، ومات سنة ٥٩٨ بمرسية ، رحمه الله تعالى .

١٥٧ - ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خَيْرَةَ ، القرطبي ، المالكي ، الحافظ<sup>٣</sup> ، ولد سنة ٤٧٩<sup>٤</sup> ، وأخذ الفقه عن القاضي أبي الوليد ابن رشد ، والحديث عن ابن عتاب ، وروى الموطأ عن أبي بجر سفيان بن العاص بن سفيان<sup>٥</sup> ، وأخذ الأدب عن أبي الحسين<sup>٦</sup> سراج بن عبد الملك بن سراج الأموي ، وعن مالك بن عبد الله العُتبي ، وخرج من قُرطُبَةَ في الفتنة بعدما درّس بها وانتفع الناس به في فروع الفقه وأصوله ، وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي ، ثم قال : كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية ، ثم سافر إلى مصر بعدما روى عنه السلفي ، وأقام بها مدة ، ثم قال : والله ما مصر والإسكندرية بمتباعدتين ، ثم سافر إلى الصعيد ، وحدث في قُوصَ بالموطأ ، ثم قال : والله ما يصلون إلى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد ، فمضى إلى مكة ، وأقام بها ، ثم قال : وتصل إلى هذه البلاد ولا تحج ؟ ما أنا إلا هربت منه إليه ! ثم دخل اليمن ، فلما رآها قال : هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن ، فتوجه إلى الهند ، فأدركته وفاته بها سنة ٥٥١ ، وقيل : بل مات بزبير من مدن اليمن ، وكان من جِلَّة العلماء الحفاظ مُتَقِنًا مُتَفَنًّا في المعارف كلها جامعاً لها ، كثير الرواية ، واسع المعرفة ، حافل الأدب ، من كبار فقهاء المالكية

١ في التكملة : سنة ٥٧٦ .

٢ دوزي : بعد سنة ٥٢٠ ، والتصويب عن التكملة ونسخة من أصول النفع .

٣ ترجمة ابن خيرة في الصلة : ٥٦٠ وبغية الملتبس رقم : ١٧٨ .

٤ في نسختين : ٤٨٩ وفي دوزي : ٤٢٩ .

٥ ج : صفوان . . . صفوان .

٦ ك : عن مولانا أبي الحسين .



يتصرف في علوم شتى حافظاً للآداب ، عارفاً بشعراء الأندلس ، وكان علمه أوفر من منطقته ، ولم يرزق فصاحة ولا حسن إيراد [ والله أعلم ]<sup>١</sup> .  
قال ابن نقطة : خيرة بكسر الخاء المعجمة وفتح الياء المنقوطة من تحتها باثنتين .

١٥٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل ، السلمي ، المرسي<sup>٢</sup> ، قال ابن النجار : ولد بمُرْسِيَّة سنة ٥٧٠ ، وقال غيره : في التي قبلها ، وخرج من بلاد المغرب سنة ٦٠٧ ، ودخل مصر ، وسار إلى الحجاز ، ودخل مع قافلة الحجاج إلى بغداد ، وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والأصليين بالنظامية ، ثم سافر إلى خراسان ، وسمع بنيسابور وهرارة ومرو ، وعاد إلى بلاد بغداد ، وحدث بكتاب السنن الكبير<sup>٣</sup> للبيهقي عن منصور ابن عبد المنعم الفراوي ، وبكتاب غريب الحديث للخطابي ، وقدم إلى مصر فحدث بالكثير عن جماعة منهم أم المؤيد زينب وأبو الحسن المؤيد الطوسي . وخرج من مصر يريد الشام فمات بين الرِّعْقَةِ والعريش من منازل الرمل في ربيع الأول سنة ٦٥٥ ، ودفن بتل الزعقة ، وكان من الأئمة الفضلاء في جميع فنون العلم من علوم القرآن والحديث والفقه والخلاف والأصليين والنحو واللغة ، وله فهم ثاقب ، وتدقيق في المعاني ، مع النظم والنثر المليح ، وكان زاهداً ، متورعاً ، حسن الطريقة ، متديناً ، كثير العبادة ، فقيهاً ، مجرداً<sup>٤</sup> ، متعففاً ، نزه النفس ، قليل المخالطة<sup>٥</sup> لأوقاته ، طيب الأخلاق ، متودداً ، كريم النفس ،

- ١ ما بين معقفين زيادة من ج .
- ٢ ترجمة ابن أبي الفضل المرسي في الوافي ٣ : ٣٥٤ وبنية الوعاة : ٦٠ ومعجم الأدياء ١٨ : ٢٠٩ ويلقب بشرف الدين ، وله استدراقات على المفصل للزمخشري في سبعين موضعاً ، وله كلام على شعر أبي الطيب ، وقد عد ياقوت له مؤلفات أخرى .
- ٣ ج : السنن الكبرى .
- ٤ ج : متجرداً .
- ٥ ج : قليل المخالطة .

قال ابن النجار : ما رأيت في فنه مثله ، وكان شافعي المذهب ، وله كتاب تفسير القرآن سماه « ري الظمان » كبير جداً ، وكتاب « الصواب الكلية » في النحو ، وتعليق على الموطأ ، وكان مكثراً شيوخاً وسماعاً ، وحدث بالكثير بمصر والشام والعراق والحجاز ، وكانت له كتب في البلاد التي ينتقل إليها بحيث إنه لا يستصحب كتباً في سفره اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه ، وكان كريماً ، قال أبو حيان : أخبرني الشرف الجزائري بتونس أنه كان على رحلة ، وكان ضعيفاً ، فقال له : خذ ما تحت هذه السجادة أو البساط ، فرفعت ذلك ، فوجدت تحته نحواً من أربعين ديناراً ذهباً ، فأخذتها . وقال الجمال اليعقوبي : أنشدني لنفسه بالقاهرة ٢ :

قالوا فلان قد أزال بهاءه      ذاك العذارُ وكان بدراً تمام  
فأجبتهم بل زاد نور بهائه      ولذا تضاغف فيه فرط غرامي  
استقصرت الحاظه فتكاتها      فأتى العذارُ يمدُّها بسهام

ومن شعره قوله ٣ :

من كان يرغب في النجاة فما له      غير اتباع المصطفى فيما أتى  
ذاك السبيل المستقيم ، وغيره      سبيل الغواية والضلالة والردي  
فاتبع كتاب الله والسنن التي      صحت ، فذاك إذا اتبعت هو الهدى  
ودع السؤال بكم وكيف فإنه      باب يجر ذوي البصيرة للعمى  
الدين ما قال النبي وصحبه      والتابعون ومن مناهجهم قفا

١ ذكر الصفدي أنه خلف كتباً عظيمة كانت مودعة بدمشق فرسم السلطان بييها فكانوا يحملون منها كل يوم ثلثاً ( لعله : ثلاثاء ) إلى دار السعادة لأجل الباذرائي فاشترى منها جملة كثيرة وبيعت في سنة ؟ وفي ج ق : في البلاد التي ينتقل إليها .

٢ انظر معجم الأديباء : ٢١٢ .

٣ معجم الأديباء : ٢١٢ .

١٥٩ - ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله البُنْتِي ، الأندلسي ، الأنصاري ، قدم مصر ، وأقام بالقرافة مدة ، وكان شيخاً صالحاً زاهداً فاضلاً ، وتوجه إلى الشام فهلك ، قال الرشيد العطار : كان من فضلاء الأندلسيين ونبهاهم ، ساح في الأرض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة ، وكان يتكلم بالسنة شتى .  
ومن شعره قوله :

إِذَا قَلَّ مِنْكَ السَّعْيُ فَالْعَزْمُ نَاشِدُ      وَكُلُّ مَكَانٍ فِي مَرَاتِكِ وَاحِدُ  
تَوَجَّهُ بِصَدَقٍ وَاتَّقِ الْمَيْنَ وَاقْتَصِدْ      تَجْنُكَ رَهِينَاتِ النِّجَاحِ الْمَقْاصِدُ

والبُنْتِي - بضم الباء ، وسكون النون - نسبة إلى بُنت حصن بالأندلس .  
ويقال « بونت » بزيادة واو .

١٦٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، الخولاني ، الباجي ، ثم الإشبيلي ، المعروف بابن القوق<sup>١</sup> ، سمع بقرطبة من جماعة ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٦٦ . فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز وغيره ، وبمصر من محمد بن عبد الحكم ومن أخيه سعد ، وكان فقيهاً في الرأي . حافظاً له ، عاقداً للشروط ، قال ابن الفرضي : كان رجلاً صالحاً ورعاً ثقة ، وكان خالد بن سعيد قد رحل إليه وسمع منه ، وكان يقول إذا حدث عنه : كان من معادن الصدق ، توفي سنة ٣٠٨ .

١٦١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، اللوشي ، الطبيب ، اشتغل بالطب ، وبرع فيه ، وأقام بمصر مدة ، وبها مات في عَشْرِ السِّتِينَ وستمائة .

١ ترجمة ابن القوق في ابن الفرضي ٢ : ٣٢ ( وفيه : ابن القون وفي بعض الأصول كتب : القوف أو القوق وفي ج : الغرق ) .

١٦٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبدون ، العذري ، القرطبي<sup>١</sup> ،  
رحل سنة ٣٣٧ ، فدخل مصر والبصرة ، وعني بعلم الطب ، ودبر مارستان  
مصر ، ثم رجَعَ إلى الأندلس سنة ٣٦٠ ، واتصل بالحكم المستنصر وابنه المؤيد ،  
وله في التفسير كتاب حسن .

قال صاعد : تمهر في الطب ، ونبل فيه ، وأحكم كثيراً من أصوله ،  
وعانى صنعة المنطق مُعانةً صحيحة ، وكان شيخه فيه أبو سليمان محمد بن محمد  
ابن طاهر بن بهرام السجستاني البغدادي ، وكان قبل أن يتطب مؤدباً للحساب  
والهندسة ، وأخبرني أبو عثمان سعيد الطليطلي ، أنه لم يلتق<sup>٢</sup> في قرطبة مَنْ  
يلحق محمد بن عبدون في صناعة الطب ، ولا يجاريه في ضبطها وحسن دُرْبته  
فيها وإحكامه لغوامضها ، رحمه الله تعالى .

١٦٣ - ومن الراحلين إلى المشرق من أهل الأندلس أبو مروان عبد  
الملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زُهْر<sup>٣</sup> ، الإيادي ، الأندلسي ، صاحب  
البيت الشهير بالأندلس ، رحل المذكور إلى المشرق ، وتطب به زماناً ، وتولى  
رئاسة الطب ببغداد ، ثم بمصر ، ثم القيروان ، ثم استوطن مدينة دانية ، وطار  
ذكره فيها إلى أقطار الأندلس والمغرب ، واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى  
بزَّ أهل زمانه ، ومات في مدينة دانية ، رحمه الله تعالى .

ووالده محمد بن مروان ، كان عالماً بالرأي ، حافظاً للأدب ، فقيهاً حاذقاً  
بالتفوى متقدماً فيها ، متقناً للعلوم ، فاضلاً ، جامعاً للدراية والرواية ، وتوفي  
بطلبيرة سنة ٤٢٢ ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، حدث عنه جماعة من علماء

١ ترجمة ابن عبدون هذه مكررة ، انظر رقم : ٩٨ ومصادر التخريج في الحاشية .

٢ ج : لم يبق .

٣ ترجمة عبد الملك بن زهر في المغرب ٢ : ٢٦٥ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٦ والتكملة رقم :

١٧١٧ والذيل والتكملة ٥ : ١٨ والمطرب : ٢٠٣ .

٤ انظر ترجمة محمد بن مروان بن زهر في الصلة : ٤٨٧ .

الأندلس ، ووصفه بالدين والفضل والجود والبذل ، رحمه الله تعالى .  
وأما أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور فقال ابن دحية فيه <sup>١</sup> : إنه  
كان وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه ، وتوفي  
ممتحناً من نغلة بين كتفيه سنة ٥٢٥ بمدينة قرطبة ، انتهى .  
وكانت بينه وبين الفتح صاحب القلائد عداوة ، ولذلك كتب في شأنه إلى  
أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ما صورته : أطال الله تعالى بقاء الأمير  
الأجلّ سامعاً للنداء ، دافعاً للتطاول والاعتداء ، لم ينظم الله تعالى بلبّتك  
الملك عقداً ، وجعل لك حلاًّ للأمور وعقداً ، وأوطأ لك عقباً ، وأصار من  
الناس لعونك منتظراً ومرتبياً ، إلا أن تكون للبرية حائطاً ، وللعدل فيهم باسطاً ،  
حتى لا يكون فيهم من يضام ، ولا ينال أحدَهم اهتضام ، ولتقصر يد كل  
معتد في الظلام ، وهذا ابن زهر الذي أجررتَه رَسَنًا ، وأوضحت له إلى  
الاستطالة سَنَنًا ، لم يتعد من الإضرار إلا حيث انتهيته ، ولا تهادى على غيّه  
إلا حين لم تنهه أو نهيته ، ولما علم أنك لا تنكر عليه نُكْرًا ، ولا تغير له  
متى ما مكر في عباد الله مَكْرًا ، جرى في ميدان الأذية ملء عنانه ، وسرى  
إلى ما شاء بعدوانه ، ولم يراقب الذي خلقه ، وأمدّ في الحظوة عندك طلقه ،  
وأنت بذلك مرتين عند الله تعالى ، لأنّه مكّنك لثلاث يتمكّن الجور ، ولتسكن  
بك الفلاة والغور ، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق ،  
وأخفق به كلُّ فريق ، وقد علمت أن خالك الباطش الغيور ، يعلم خائنة  
الأعين وما تخفي الصدور ، وما تخفى عليه نجواك ، ولا يستر عنه تقلّبك  
ومشواك ، وستقف بين يدي عدل حاكم ، يأخذ بيد كل مظلوم من ظلم ، قد  
علم كل قضية قضاها ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ، فبم تحجّ  
معي لديه ، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه ؟ أترى ابن زهر ينجيك في ذلك

١ المطرب : ٢٠٣ وانظر التكملة : ٣٣٤ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٤ .

المقام ، أو يحميك من الانتقام ؟ وقد أوضحت لك المحجة ، لتقوم عليك الحجة ،  
والله سبحانه النصير ، وهو بكل خلق بصير لا ربّ غيره ، والسلام ، انتهى .

### [ رسالة للفتح في غريق ]

وقد تذكرت هنا بذكر الفتح ما كتبه وقد مات بعض إخوانه غريقاً :

أتاني ورَحلي بالعراق عشيّةً ورَحلُ المطايا قد قَطَعنَ بنا نجداً  
نعيّ أطار القلبَ عن مُسْتَقَرِّهِ وكنت على قَصْدٍ فأغلطني القَصْدُ

نَعَوًا والله باسق الأخلاق لا يخلف ، ورموا قلبي بسهم أصاب صميمه  
فما أخلف ، لقد سام الردى منه حسناً وجمالاً ووسامة ، وطوى بطيه نجده  
وتهامه ، فعطل منه التديّ والتدى ، وأثكل فيه الهدى والهدى ، كم قتل  
السيوف طول قراعه ، ودل عليه الضيوف موقد ناره بيفاعه ، وكم تشوّف  
إليه السرير والمنبر . وتصرف فيه الثناء المحبّر ، وكم راع البدر ليلة  
إبداره ، وروّع العدو في عُقر داره . وأي فتى غدا له البحر ضريحاً ، وأعدى  
عليه الحين ماء وريحاً ، فبدل من ظلل علّى ومفاخر . بقعر بحر طامي  
اللجج زاخر . وبدل من صهوات الخيل ، بلهوات اللجج والسيل ، غريق  
حكى مقلي في دمعها . وأصاب نفسي في سمعها . ومن حزن لا أستسقي  
له الغمام فما له قبر تجوده ، ولا ثرى تروى به تهايمه ونجوده ، وقد آليت  
أن لا أودع الريح تحية ، ولا يورثني هبوبها أريحية ، فهي التي أثار في  
الموج حنقاً ، ومشت عليه خبباً وعنقاً ، حتى أعادته كالكثبان ، وأودعته  
قضيبي بان ، فيا أسفا لزالل غاض في أجاج ، وللسلسال فاض عليه بحر عجاج ،  
وما كان إلاّ جوهرأ ذهب إلى عنصره ، وصدفاً بان عن عين مبصره ، لقد  
آن للحسام أن يُغمد فلا يُشام ، وللحمام أن تبكيه بكل أراكة وبشام ،  
وللعذارى أن لا يحجبهن الحفر والاحتشام . ينحن في ما ذرت الشمس

إلاّ ضرّاً أو نفع ، ويبكين مَنْ لم يدع فقدته في العيش من مُنتَفِع ، فكم  
نعماً بدنوّه ، ونسماً نسيم الأُنس في رَوَاحه وغدوّه . وأقمنا بروضة مَوْشِيّة ،  
ووقفنا بالمسرات عَشِيّة . وأدربنا ذهباً سائلة . ونظرناها وهي سائلة . لم  
نرم السهر ، ولم نَشِمُ برقاً إلاّ الكأس والزهر . ولو غير الحمام زَحَف إليه  
جيشه ، أو غير البحر رجف به ارتجاجه وطيشه . لفداه من أسرته كلُّ أروع  
إن عاجله المكروه تثبّطه ، أو جاءه الشرّ تأبّطه ، ولكنّها المنايا لا تردّها  
الصّوارم والأسل ، ولا تفوتها ذئاب الغضا العُسل . قد فرقت بين مالك  
وعقيل ، وأشرقت بعدهما جذيمة بالحسام الصّقيل . انتهى .  
وقد عرفنا بالفتح في غير هذا الموضع فليراجع .

رجع إلى بيتي زُهْرٍ ، رحمهم الله تعالى - وأما أبو بكر محمد بن أبي  
مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهراً المذكور ، فهو عين ذلك البيت ، وإن  
كانوا كلهم أعياناً علماء رؤساء حكماء وزراء ، وقد نالوا المراتب العلية .  
وتقدّموا عند الملوك ، ونفذت أوامرهم ، قال الحافظ أبو الخطاب ابن دحية  
في « المطرب من أشعار أهل المغرب » : كان شيخنا الوزير أبو بكر ابن  
زُهْرٍ بمكان من اللغة مكين . ومورد من الطّلب عَدْبٌ معين . وكان يحفظ  
شعر ذي الرّمّة وهو ثلث لغة العرب ، مع الإشراف على جميع أقوال أهل  
الطب ، والمنزلة العلية عند أصحاب المغرب . مع سموّ النسب . وكثرة  
الأموال والتّشبّ . صحبته زماناً طويلاً . واستفدّت منه أدباً جليلاً .  
وأشدد من شعره المشهور قوله ٢ :

وموسّدين على الأكفّ خلدودهم قد غلهم نومُ الصّباح وغالتي

١ أنظر ترجمة ابن زهر الحفيد في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٧ ومجمع الأدباء ١٨ : ٢١٦ والمطرب :  
٢٠٤ والتكملة : ٥٥٥ والذيل والتكملة ٦ : ١٦٠ (نسخة باريس) وله موشحات في دار  
الطراز والمغرب ١ : ٢٦٦ وابن خلكان ٤ : ٦١ .  
٢ الشعر في المطرب وابن خلكان .

ما زلتُ أسقيهم وأشربُ فضلهم حتى سكرتُ ونالهم ما نالني  
والخمرُ تعلم كيف تأخذ ثارها إنني أمّلتُ إناءها فأمالني

ثم قال ابن دحية : وسألته عن مولده ، فقال : ولدت سنة سبع وخمسمائة ،  
قال : وبلغتني وفاته آخر سنة ٥٩٥ ، رحمه الله تعالى ، انتهى .  
وزعم ابن خلكان أن ابن زهر ألمّ في الأبيات المذكورة بقول الرئيس  
أبي غالب عبيد الله بن هبة الله :

عاقرتهم<sup>٢</sup> مشمولةً لو سألت شراً بها ما سميت بعقار  
ذكرت حقايدها القديمة إذ غدت صرعى تداس بأرجل العصار  
لانت لهم حتى انتشوا وتمكنت منهم وصاحت فيهم بالثار

ومن المنسوب إلى أبي بكر ابن زهر قوله في كتاب جالينوس المسمى بحيلة  
البرء ، وهو من أجل كتبهم وأكبرها<sup>٣</sup> :

حيلة البرء صنعة لعليل يترجى الحياة أو لعليله  
فإذا جاءت المنية قالت : حيلة البرء ليس في البرء حيلة

ومن شعره ، رحمه الله تعالى ، يتشوق ولداً له صغيراً بإشبيلية وهو  
بمراكش<sup>٤</sup> :

ولي واجدٌ مثل فرخ القطة صغير تخلفت قلبي لديه  
وأفردتُ عنه فيا وحشتنا لذلك الشخيص وذلك الوجيه<sup>٥</sup>

١ ابن خلكان : عبيد الله بن هبة الله بن صاعد ؛ وفي بعض النسخ : الأصابعي .

٢ ابن خلكان : عقرتهم .

٣ ابن خلكان : ٦٢ .

٤ الشعر في ابن خلكان والمطرب والذليل وابن أبي أصيبعة .

٥ ابن خلكان : نأت عنه داري فيا وحشتنا .



تَشَوَّقَتِي وَتَشَوَّقْتُهُ      فَيَبْكِي عَلَيَّ وَأَبْكِي عَلَيْهِ ١  
وقد تَعَبَ الشوقُ ما بَيْنَنَا      فَمِنْهُ إِلَيَّ وَمَنِّي إِلَيْهِ

وأخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدي أبو القاسم ابن محمد الوزير الغساني الأندلسي الأصل الفاسي المولد والنشأة حكيم حضرة السلطان المنصور بالله الحسيني صاحب المغرب رضي الله تعالى عنه أن ابن زُهْر لما قال هذه الأبيات وسمعتها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والأندلس أواخر المائة السادسة أرسل المهندسين إلى إشبيلية ، وأمرهم أن يختاطوا علماً ببيوت ابن زُهْر وحرارته ثم بينوا مثلها بحضرة مراکش ، ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدة ، وفرشها بمثل فرشها ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال ابن زُهْر وأولاده وحشاشمه وأسبابه إلى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء [ إلى ] ذلك الموضع ، فرآه أشبه شيء بيئته وحرارته ، فاحتار لذلك ، وظن أنه نائم ، وأن ذلك أحلام ، فقبل له : ادخل البيت الذي يشبه بيتك ، فدخله ، فإذا والده الذي تشوق إليه يلعب في البيت ، فحصل له من السرور ما لا [ مزيد عليه ، ولا ] يعبر عنه : هكذا هكذا وإلا فلا لا ٢ .

ومن نظم ابن زُهْر المذكور حيث شاخ وغلب عليه الشيب ٣ :

إِنِّي نَظَرْتُ إِلَى الْمَرَاةِ قَدْ جَلِيَّتْ      فَأَنكَرْتُ مُقَلَّتَايَ كُلَّ مَا رَأَيْتَا  
رَأَيْتُ فِيهَا سُؤْيَحًا لَسْتُ أَعْرِفُهُ      وَكُنْتُ أَعْهَدُهُ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ قَتِي  
فَقُلْتُ : أَيْنَ الَّذِي بِالْأَمْسِ كَانَ هُنَا ؟      مَتَى تَرَحَّلَ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ ؟ مَتَى ؟

١ سقط هذا البيت من ج .

٢ صدر بيت ، وعجزه : طرق الجند غير طرق المزاج .

٣ الأبيات في ابن خلكان وابن أبي أصيبعة .

٤ في رواية : شبيخاً .

فاستضحكت ثم قالت وهي مُعجبة : إن الذي أنكرته مُقلتاك أتى<sup>١</sup>  
كانت سُلَيْمَى تنادي يا أُخَيَّ وَقَدْ صارت سُلَيْمَى تنادي اليوم يا أبنا<sup>٢</sup>

والبيت الأخير ينظر إلى قول الأخطل<sup>٣</sup> :

وإذا دَعَوْتِكَ عَمَّهَنَ فَإِنَّهُ نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ خَبَالًا  
وإذا دَعَوْتِكَ يَا أُخَيَّ فَإِنَّهُ أَدْنَى وَأَقْرَبُ خَلَّةً وَوَصَالًا

وقال ابن دحية في حقه أيضاً<sup>٤</sup> : والذي انفرد به شيخنا وانقادت لتحليته  
طباعه ، وصارت النبهاء فيه من حوَّله وأتباعه ، الموشحات ، وهي زُبْدَةُ الشعر  
ونخبته ، وخلاصة جوهره وصفوته<sup>٥</sup> ، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل  
المغرب على أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق ،  
انتهى .

ومن مشهور موشحات ابن زهر قوله<sup>٦</sup> :

ما للمولاه من سكره لا يفيق

وهذا مطلع موشح يستعمله أهل المغرب إلى الآن ، ويرون أنه من أحسن  
الموشحات .

١ هذه رواية ابن خلكان ، وأما ابن أبي أصيبعة ففيه :

فاستجهلتني وقالت لي وما نطقت قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى  
هون عليك فهذا لا بقاء له أما ترى العشب يفنى بعدما نبنا

٢ ابن أبي أصيبعة :

كان الفواني يقلن يا أخي فقد صار الفواني يقلن اليوم يا أبنا

٣ ديوان الأخطل : ٤٣ .

٤ المطرب : ٢٠٤ .

٥ ج : وخلاصته وصفوته .

٦ أورد ابن سعيد هذه الموشحة عندما تحدث عن متنزهات إشبيلية ، وهي في جملة ما سقط من المغرب .

ومن موشحاته قوله :

سَلَّمَ الأَمْرَ للَقَضَا فهو للنفْسِ أَنْفَعُ

واغْتَمُّ حِينَ أَقْبَلَا  
وَجْهٌ بَدْرٌ تَهَلَّلَا  
لَا تَقُلُّ بِالْمُؤْمِ لَا

كل ما فات وانقضى ليس بالْحَزْنِ يَرْجِعُ

واصْطَبِخْ بَابِنَةَ الكُرُومِ  
من يَدِي شَادِنِ رَحِيمِ  
حِينَ يَفْتَرُّ عَن نَظِيمِ

فيه برقٌ قَدْ أَوْمَضَا وَرَحِيقٌ مُشَعَّشَعُ

أنا أَفْئِدِيهِ مِنْ رَشَا  
أَهْيَفِ القَدِّ وَالْحَشَا  
سُقِّيَ الحَسَنَ فانتَشَى

مُدُّ تَوَلَّى وَأَعْرَضَا ففَوَادِي بَقَطَّعُ

من لَصَبٍ غَدَا مَشُوقِ  
ظَلَّ فِي دَمْعِهِ غَرِيقِ  
حِينَ أَمْوَا حَمَى العَقِيقِ

واستَقَلُّوا بِنَدِي الغَضَا أسْفِي يَوْمِ ودَّعُوا

ما تَرَى حِينَ أَظْعَنَا  
وسَرَى الرِّكْبُ مَوْهِنَا  
واكْتَسَى اللَّيْلُ بالسَّنَا

نورُهُمُ ذَا الَّذِي أَضَا      أَمْ مَعَ الرَّكْبِ يَوْشَعُ  
ورأيت من هذا موشحاً آخر لا أدري هل هو لابن زُهْرٍ أم لا ، وهو هذا :

فُتِقَ الْمَسْكُ بِكَافُورِ الصَّبَاحِ      وَوَشَّتْ بِالرَّوْضِ أَعْرَافُ الرِّيَاحِ

فاسقنيها قبل نورِ الفلقِ  
وغناء الورقِ بين الورقِ  
كاحمرار الشمس عند الشفقِ

نَسَجَ الْمَرْجُ عَلَيْهَا حِينَ لَاحَ      فَلَكَ الْلَهُوُ وَشَمْسُ الْإِصْطِبَاحِ

وغزال سامي بالملقِ  
وبرى جسمي وأذكي حرقي  
أهيف مذ سل سيف الحدقِ

قَصْرَتْ عَنْهُ أَنْابِيْبُ الرَّمَاحِ      وَثِي الدَّعْرُ مَشَاهِيرُ الصَّفَاحِ

صار بالدلّ فؤادي كلفا  
وجفون ساحرات وطفا  
كلما قلت جوى الحب انظفا

أَمْرَضَ الْقَلْبَ بِأَجْفَانٍ صَحَاحِ      وَسَبَى الْعَقْلَ بِجِدِّ وَمَزَاحِ

يوسفِيُّ الْحَسَنِ عَذِبَ الْمُبْتَسِمِ  
قَمْرِيُّ الْوَجْهَ لَيْلِيُّ اللَّمَمِ  
عَنْرِيُّ الْبَأْسِ عَلْوِيُّ الْهَمَمِ

غصبيُّ القَدِّ مهْضومِ الوشاحِ      مادريُّ الوصلِ طائيُّ السباحِ

قَدِّ بِالْقَدِّ فَوَادِي هَيْفَا

وَسَبِي عَقْلِي لَمَّا انْعَطَفَا

لَيْتَهُ بِالْوَصْلِ أَحْيَا دَنْفَا

مُسْتَطَارَ الْعَقْلِ مَقْصُوصِ الْجَنَاحِ      مَا عَلَيْهِ فِي هَوَاهُ مِنْ جُنَاحِ

يَا عَلِي أَنْتَ نُورُ الْمُقَلِّ

جُدُّ بُوَصْلِ مِنْكَ لِي يَا أُمْلِي

كَمْ أَغْنَيْكَ إِذَا مَا لَحْتَ لِي

طَرَقَتْ وَاللَّيْلُ مَمْدُودِ الْجَنَاحِ      مَرْحَبًا بِالشَّمْسِ مِنْ غَيْرِ صَبَاحِ

١٦٤ - ومنهم أبو الحجاج الساحلي ، يوسف بن إبراهيم بن محمد بن قاسم بن علي ، الفهري ، الغرناطي ، قال في الإحاطة : صدر من صدور حملة القرآن على وتيرة الفضلاء و [ سنن ] الصالحين ، حج ولقي الأشياخ بعد أن قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير وطبقته ، ومن نظمه يخاطب الوزير ابن الحكيم ، وقد أصابته حمى تركت على شفته بثوراً :

حاشاك أن تَمْرُضَ حاشاكَا      قَدِ اشْتَكَى قَلْبِي لَشَكْوَاكَا

إِنْ كُنْتَ مَحْمُومًا ضَعِيفَ الْقَوَى      فَإِنِّي أَحْسَدُ حُمَاكَا

مَا رَضِيَتْ حُمَاكَ إِذْ بَاشَرْتَ      جِسْمَكَ حَتَّى قَبَلْتْ فَاكَا

قال أبو الحجاج ، رحمه الله تعالى : وكتب إلي شيخنا محمد بن محمد بن عتيق

١ المعني هنا هو أبو عبد الله ابن الحكيم ذو الوزارتين ، وسيترجم له المقري كما سيرجم لابنه الوزير القائد الكاتب أبي بكر (توفي سنة ٧٥٠) وانظر الكتيبة الكامنة : ١٩٥ .

ابن رشيق في الاستدعاء الذي أجازني فيه ولمن ذكر معي :

أَجَزْتُ لَهُمْ أَبْقَاهُمْ اللهُ كُلَّ مَا  
وَمَا سَمِعْتُ أَذْنَائِي مِنْ كُلِّ عَالَمٍ  
عَلَى شَرْطِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَضَبَطِهِمْ  
كَتَبْتُ لَهُمْ خَطِّي وَإِسْمِي مُحَمَّدٌ  
وَجَدْتِي رَشِيقُ شَاعٍ فِي الْغَرْبِ ذِكْرُهُ  
وَلِي مَوْلِدٌ مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً  
وَبِاللَّهِ تَوْفِيقِي عَلَيْهِ تَوَكَّلِي

رَوَيْتُ عَنِ الْأَشْيَاخِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ  
وَمَا جَادَ مِنْ نَظْمِي وَمَا رَاقَ مِنْ نَثْرِي  
بَرِيءٌ عَنِ التَّصْحِيفِ عَارٍ عَنِ النُّكْرِ  
أَبُو الْقَاسِمِ الْمَكْنِيُّ مَا فِيهِ مِنْ نَكْرِ  
وَفِي الشَّرْقِ أَيْضاً فَادِرٌ إِنْ كُنْتُ لَا تَدْرِي  
ثَمَانٌ عَلَى السِّتِّ الثَّمِينِ ابْتِدَاءَ عَمْرِي  
لَهُ الْحَمْدُ فِي الْحَالَيْنِ فِي الْعَسْرِ وَالْيَسْرِ

ومولد أبي الحجاج المذكور سنة ١٦٦٢ ، وتوفي سنة ٢٧٠٢ ، رحمه الله تعالى ، انتهى باختصار .

١٦٥ - وممن ارتحل من الأندلس إلى المشرق شاعر الأندلس يحيى بن الحكم البكري الجبائي الملقب بالغزال لجماله<sup>٣</sup> ، وهو في المائة الثالثة ، من بني بكر بن وائل .

قال ابن حيان في «المقتبس» : كان الغزال حكيم الأندلس ، وشاعرها ، وعرفاتها ، عمراً أربعاً وتسعين سنة ، ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالأندلس : أولهم عبد الرحمن بن معاوية ، وآخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم .

١ في نسخة : سنة ٦٦٧ .

٢ في نسخة : سنة ٧٥٢ .

٣ انظر ترجمة الغزال في المطرب : ١٣٣ والحدوة : ٣٥١ (وبغية الملتبس رقم : ١٤٦٧) والمغرب ٢ : ٥٧ وأورد ابن دحية خبر رحلة له إلى بلاد الجوس ، وقد شك فيها بروفنسال وذهب إلى أنها كانت إلى القسطنطينية ، راجع تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ص : ١١١ - ١٢٧ وانظر (Lodon, 1960) The Poet and the Spae-Wife by W. Allen

ومن شعره :

أدرکتُ بالمصر ملوکاً أربَعَهُ وخامِساً هذا الذي نحنُ معه

وله على أسلوب ابن أبي حکیمة راشد بن إسحاق الكاتب<sup>١</sup> :

خَرَجَتْ إِلَيْكَ وَثَوْبُهَا مَقْلُوبٌ      وَلَقَلْبُهَا طَرِباً إِلَيْكَ وَجِيبٌ  
وَكَأَنَّهَا فِي الدَّارِ حِينَ تَعَرَّضَتْ      ظِيٌّ تَعَلَّلَ بِالْقَلَا مَرْعُوبٌ  
وَتَبَسَّمَتْ فَأَتَتْكَ حِينَ تَبَسَّمَتْ      يَجْمَانُ دُرّاً لَمْ يَشْنَهُ نَقُوبٌ  
وَدَعَتْكَ دَاعِيَةً الصَّبَا فَنَطَّرَبَتْ      نَفْسٌ إِلَى دَاعِيِ الضَّلَالِ طَرُوبٌ  
حَسَبْتُكَ فِي حَالِ الغَرَامِ كَعَهْدِهَا      فِي الدَّارِ إِذْ غُضِنُ الشَّبَابِ رَطِيبٌ  
وَعَرَفْتُ مَا فِي نَفْسِهَا فَضَمَمْتُهَا      فَتَسَاقَطَتْ بِهَنَانَةٍ رُعُوبٌ  
وَقَبَضْتُ ذَلِكَ الشَّيْءَ قَبْضَةً شَاهِنَ      فَتَزَا إِلَى عَضْنِكَ حَلِيبٌ  
بِيَدِي الشَّمَالِ وَلِلشَّمَالِ لَطَافَةٌ      لَيْسَتْ لِأُخْرَى وَالْأَدِيبِ أَرِيبٌ  
فَأَصَابَ كَفِّي مِنْهُ حِينَ لَمَسْتُهُ      بَلَلٌ كَمَا الْوَرْدِ حِينَ يَسِيبُ  
وَتَحَلَّلْتُ نَفْسِي لِلذَّةِ رَشْحَهُ      حَتَّى خَشِيتُ عَلَى الْفَوَادِ يَدُوبُ  
فَتَقَاعَسَ الْمَلْعُونُ عَنْهُ وَرُبَّمَا      نَادَيْتُهُ خَيْرًا فَلَيْسَ يُجِيبُ  
وَأَبَى فَحَقَّقَ فِي الْإِبَاءِ كَأَنَّهُ      جَانَ يُقَادُ إِلَى الرَّدَى مَكْرُوبُ  
وَتَغَضَّيْتُ جَنَابَتَهُ فَكَأَنَّهُ      كَبِيرٌ تَقَادِمُ عَهْدِهِ مَثْقُوبُ  
حَتَّى إِذَا مَا الصَّبْحُ لَاحَ عَمُودُهُ      قَبَسًا وَحَانَ مِنَ الظَّلَامِ ذُهُوبُ  
سَاءَلْتُهَا خَجَلًا : أَمَا لَكَ حَاجَةٌ      عِنْدِي ؟ فَقَالَتْ : سَاخِرٌ وَحَرُوبُ  
قَالَتْ حَرَّ أَمْكٍ إِذْ أَرَدْتَ وَدَاعِهَا      قَرْنٌ وَفِيهِ عَوَارِضٌ وَشُعُوبُ

١ ابن أبي حکیمة أحد الشعراء المحدثين ، أسرف في وصف عنته وراثته متاعه ، وكان صديقاً لابن الزيات . راجع ترجمته في طبقات ابن المعتز : ٣٨٩ وتخریج ترجماته ص : ٥٢٣ ، وانظر أبيات الغزال هذه في المطرب : ١٤٩ برواية مختلفة .

وذكرها ابن دحية بمخالفة لما سردناه .

قال عتبة التاجر : وجهني الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن إلى المشرق  
وعبد الله بن طاهر أمير مصر من قبيل المأمون ، فلقيته بالعراق ، فسألني عن هذه  
القصيدة هل أحفظها للغزال ؟ قلت : نعم ، فاستنشدنيها ، فأشدته إياها ،  
فسر بها وكتبها ، قال عتبة : ونلت بها حظاً عنده .  
والبهانة : المرأة الطيبة النفس والأرج ، كما في الصحاح ، وقيل : اللينة  
في منطقتها وعملها ، وقيل : الضحّاكة المتهللة ، والرعبوب : السبّطة البيضاء ،  
والسبّطة : الطويلة .

وقال ساعمه الله تعالى :

سألتُ في التَّوَمِ أَبِي آدَمَ  
إِبْنِكَ بِاللَّهِ أَبُو حَازِمٍ ؟  
فَقَالَ لِي : إِنْ كَانَ مِنِّي وَمَنْ  
نَسَلِي فَحَوًّا أُمَّكُمْ طَالِقُ  
فَقَلْتُ وَالْقَلْبُ بِهِ وَامِقُ  
صَلَّى عَلَيْكَ الْمَالِكُ الْخَالِقُ

وقال رضي الله تعالى عنه :

أرى أهلَ اليسارِ إذا تَوَقَّعُوا  
أَبْنَاءَ إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا  
فإن يكن التفاضل في ذراها  
رَضِيَتْ بِنْتَانِ تَأْتَقَ فِي بِنَاءِ  
أَلْمَا يَبْصُرُوا مَا خَرِبْتَهُ الدِّ  
لَعَمْرُ أَيْبِهِمْ لَوْ أَبْصُرُوهُمْ  
وَلَا عَرَفُوا الْعَبِيدَ مِنَ الْمَوَالِي  
وَلَا مَنْ كَانَ يَلْبَسُ ثَوْبَ صَوْفٍ  
بَنَوْا تِلْكَ الْمَقَابِرَ بِالصَّخُورِ  
عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ  
فإن العدل فيها في القُوعورِ  
فَبَالِغٍ فِيهِ تَصْرِيفُ الدَّهْوَرِ  
هُورٍ مِنَ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ  
لَمَّا عُرِفَ الْغَنِيُّ مِنَ الْفَقِيرِ  
وَلَا عَرَفُوا الْإِنَاثَ مِنَ الذَّكَوْرِ  
مَنْ الْبَدَنِ الْمُبَاشِيرِ لِلْحَرِيرِ

ج : تصريف الأمور .



إذا أكل الثرى هذا وهذا فما فضل الكبير على الحفير  
وقال رضي الله تعالى عنه :

لا ، ومن أعمل المطايا<sup>١</sup> إليه ما أرى ههنا من الناس إلا  
أو شبيهاً بالقط<sup>٢</sup> ألقى<sup>٢</sup> بعيني<sup>٢</sup>  
كل من يرتجي إليه نصيباً  
ثعلباً يطلب الدجاج وذيباً  
ه إلى فارة يريد الوثوبا

وقال رضي الله تعالى عنه :

قالت أحيبك قلت كاذبة  
هذا كلام لست أقبله  
سيان قولك ذا وقولك إن  
أو أن تقولي النار باردة  
غرري بذا من ليس ينتقد  
الشيخ ليس يحبه أحد  
الريح نعقدتها فتتعقد  
أو أن تقولي الماء يتقد

وحكى أبو الخطاب ابن دحية في كتاب « المطرب »<sup>٣</sup> أن الغزال أرسل  
إلى بلاد المجوس وقد قارب الخمسين ، وقد وخطه الشيب ، ولكنه كان  
مجمع الأشد ، فسألته زوجة الملك يوماً عن سنه ، فقال مداعباً لها : عشرون  
سنة ، فقالت : وما هذا الشيب ؟ فقال : وما تنكرين من هذا ؟ ألم تري قط  
مهراً ينتج وهو أشهب ؟ فأعجبت بقوله ، فقال في ذلك ، واسم الملكة تود<sup>٤</sup> :

كُلِّفْتَ يَا قَلْبِي هَوًى مَتَعِبَا  
إِنِّي تَعَلَّقْتُ مَجُوسِيَّةً  
أَقْصَى بِلَادِ اللَّهِ فِي حَيْثُ لَا  
غَالِبَتْ مِنْهُ الضَّيِّغَمُ الْأَغْلِيَا  
تَأْبَى لَشَمْسِ الْحَسَنِ أَنْ تَغْرِبَا  
يُلْفِي إِلَيْهِ ذَاهِبٌ مَذْهَبَا

١ ج : المطي .

٢ ج : أوسى .

٣ انظر المطرب : ١٤٤ .

٤ ج والمطرب : نود ؛ ويرى بروفسال أن تود هو اختصار تيودورا Theodora .

يا تود يا رُودَ الشَّبَابِ التي  
يا بأبي الشخصَ الذي لا أرى  
إن قلتُ يوماً إنَّ عيني رأَتْ  
قلتُ : أرى فَوَدَّيْهِ قَد نَوَّرَا  
قلتُ لها : ما باله ؟ إنَّه  
فاستضحكت عجباً بقولي لها

قال : ولما فهمتها الترجمان شعر الغزال ضحكت ، وأمرته بالحضاب ،  
فغدا عليها وقد اختضب وقال ٢ :

بَكَرَتْ تَحْسَنُ لِي سَوَادَ خَضَابِي  
ما الشيبُ عندي والحضابُ لواصفٍ  
إِلَّا كَشَمْسٍ جَلَلَتْ بِضِيَابِ  
تُخْفِي قَلِيلاً ثُمَّ يَفْشَعُهَا الصَّبَا  
فَيَصِيرُ مَا سَتَّرَتْ بِهِ لَذَابِ  
لا تنكري وَضَحَ المِشِيبِ فَإِنَّمَا  
هوَ زَهْرَةُ الأَفْهَامِ والأَلْيَابِ  
فَلَدَيْ مَا تَهْوِينِ مِنْ شَأْنِ الصَّبَا  
وطلاوة الأَخْلَاقِ والآدَابِ

وحكى ابن حيان في «المقتبس» أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم المرواني  
وجّه شاعره الغزال إلى ملك الروم ، فأعجبه حديثه ، وخف على قلبه ،  
وطلب منه أن ينادمه ، فامتنع من ذلك ، واعتذر بتحريم الخمر ، وكان يوماً  
جالساً عنده ، وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها ، وهي كالشمس  
الطالعة حسناً ، فجعل الغزال لا يُسمِل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه وهو  
لاه عن حديثه ، فأنكر ذلك عليه ، وأمر الترجمان بسؤاله ، فقال له : عرفه  
أنتي قد بهرتني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه ، فإني لم أر قط

١ ج : يا حبذا .

٢ المطرب : ١٤٦ .

مثلها ، وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها ، وأنها شوقته إلى الحور العين ،  
 فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حُظوته عنده ، وسُرَّت الملكة بقوله ،  
 وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذي دعا المسلمين إلى الختان ، وتجنُّم  
 المكروه فيه وتغيير خلق الله ، مع خلوه من الفائدة ، فقال للترجمان : عرفها  
 أن فيه أكبر فائدة ، وذلك أن الغصن إذا زُبِرَ قَوِيَّ واشتد وغلظ ، وما  
 دام لا يُفعل به ذلك لا يزال رقيقاً ضعيفاً ، فضحكت وفطنت لتعريضه ، انتهى .

ومن شعر الغزال قوله ١ :

يا راجياً ودَّ الغواني ضلَّةً	وفؤاده كليف بهن مؤكلٌ
إن النساء لكالسروج حقيقةً	فالسرج سرجك ريشما لا تنزلُ
فإذا نزلت فإن غيرك نازلٌ	ذاك المكان وفاعلٌ ما تفعلُ
أو منزلُ المجتازِ أصبحَ غادياً	عنهُ وينزلُ بعدهُ من ينزلُ
أو كالثمارِ مباحةٍ أغصانها	تدثو لأول من يمر فيأكلُ
أعطِ الشبية لا أباك حَقَّها	منها ، فإن نعيمها متحوَّلُ
وإذا سلبت ثيابها لم تنتفع	عند النساء بكل ما تستبدلُ

وقال ٢ :

قال لي يحيى وصيرنا	بين موج كالجبال
وتولتتنا رياحُ	من دبور وشمال
شقت القلعين واب	تت عرى تلك الجبال
وتعطى ملكُ المو	ت إلينا عن حيال
فراينا الموت رأياً الذ	عين حالاً بعد حال

١ المطرب : ١٤٦ .

٢ المطرب : ١٣٩ - ١٤٠ والجدوة : ٣٥٢ .

لم يَكُنْ للقَوْمِ فينا يا رفيقي رأسُ مالٍ

ومنها :

وسَلِّمِي ذاتُ زُهْدٍ في زهيدٍ في وصالٍ  
كلِّما قُلْتُ صِلِيبِي حاسِبَتِي بالخِيارِ  
والكَرَى قد منعته مقلي أُخرى الليلي  
وهي أدرى فلماذا دافَعَتني بمحالٍ  
أترى أنا اقتضينا بعدُ شيئاً من نوالٍ

وله :

من ظنَّ أن الدهرَ ليس يصيبه بالحداثات<sup>١</sup> فإنه مَعْرُورُ  
فالتقَ الزمانَ مَهوناً لخطوبه وانجَرَ حيثُ يجرُّكُ المقدورُ  
وإذا تقلَّبتِ الأمورُ ولم تدُمُ فسواءُ المحزونُ والمسرورُ

وعاش الغزال أربعاً وتسعين سنة ، وتوفي في حدود الحسين والمائتين ،  
سامحه الله تعالى .

وكان الغزال أقذع في هجاء علي بن نافع المعروف بزرياب ، فذكر ذلك  
لعبد الرحمن ، فأمر بنفيه ، فدخل العراق ، وذلك بعد موت أبي نواس بمدة  
يسيرة ، فوجدهم يلهجون بذكره ، ولا يساوون شعر أحد بشعره ، فجلس  
يوماً مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس ، واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم  
حتى وقعوا في ذكر أبي نواس ، فقال لهم : من يحفظ منكم قوله<sup>٢</sup> :

١ ج : بالنائبات .

٢ انظر بعض هذه الأبيات في الجذوة : ٢١٢ ، وهي جميعاً في المطرب : ١٤٨ .

ولما رأيتُ الشَّرْبَ<sup>١</sup> أكْدتُ سِماؤهم  
فلَمَّا أتيتُ الحانَ ناديتُ رَبَّهُ<sup>٢</sup>  
قليلَ هجوعِ العَيْنِ إلا تَعَلَّةً  
فَقُلْتُ أذِقْنِيهَا فَلَمَّا أذاقَهَا  
وَقُلْتُ أَعِرْنِي بِذَلَّةٍ أَسْتَتِرُ بِهَا  
فوالله ما بَرَّتْ يَمِينِي وَلَا وَفَّتْ  
فأَبْتُ إلى صَاحِبِي وَلَمْ أَكُ أَتِيباً  
تَأبَّطْتُ زِقَمِي واحْتَبَسْتُ<sup>٣</sup> عَنائِي  
فَنابَ خَفِيفَ الرُوحِ نَحْوَ نَدائِي  
عَلَى وَجَلِّ مَنِّي وَمِنَ نُظْرَائِي  
طَرَحْتُ عَلَيْهِ رِيْطِي وَرَدَائِي  
بَدَلْتُ لَهُ فِيهَا طَلاقَ نَسَائِي  
لَهُ غَيْرَ أَنِّي ضامِنٌ بوفائِي  
فَكُلُّ يَفْدِيَنِي وَحَقٌّ فِدائِي

فأعجبوا بالشعر ، وذهبوا في مدحهم له ، فلما أفرطوا قال لهم : خفضوا  
عليكم ، فإنه لي ، فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التي أولها :

تداركْتُ في شَرِبِ النَّبِيدِ خَطائِي وفارقتُ فيه شِيمَتِي وحيائِي

فلَمَّا أتمَّ القصيدةَ بالإنشادِ خجلوا ، وافترقوا عنه .

وحكي أن يحيى الغزال أراد أن يعارض سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾  
فلَمَّا رام ذلك أخذته هَيْبَةٌ وحالة لم يعرفها ، فأناب إلى الله ، فعاد إلى حاله .  
وحكي أن عباس بن ناصح الثقفي قاضي الجزيرة الخضراء كان يَفِدُ  
على قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها ، ومرت عليهم قصيدته التي أولها :

لَعَمْرُكَ ما البَلَوَى بَعارٍ ولا العدم إذا المرء لم يعلم تُقَى اللهُ والكرم

حتى انتهى القارئ إلى قوله :

تجافَ عن الدنيا فما لمعجَزٍ ولا عاجزٍ إلا الذي خَطُّ بالقلَمِ

١ الجنوة : وكنت إذا ما الشرب .

٢ الجنوة : واحتضنت ؛ المطرب ؛ واحتسبت .

٣ الجنوة : نهت أهله .

فقال له الغزّال ، وكان في الحلقة ، وهو إذ ذاك حدّثُ نظامٌ متأدّب  
 ذكيّ القريحة : أيها الشيخ ، وما الذي يصنع مُفَعَّلٌ مع فاعلٍ ؟ فقال له : كيف  
 تقول ؟ فقال : كنت أقول : فليس لعاجز ولا حازم ، فقال له عباس : والله  
 يا بني لقد طلبها عمّك فما وجدها .  
 وأنشد يوماً قوله من قصيدة :

بقرتُ بطونَ الشعرِ فاستفْرِغَ الحشا بكفّي حتى أبَ خاويهِ من بقري  
 فقال له بكر بن عيسى الشاعر : أما والله يا أبا العلاء ، لئن كنت بقرت  
 الحشا لقد وسخت يديك بقرته ، وملأتهما بدمه ، وخبّئتَ نفسك  
 بتنته ، وخبّمتَ أنفك بعرفه ، فاستحيا عباس وأفحم عن جوابه .

١٦٦ - ومنهم الشهير بالمغرب والمشارق ، المحلّي بجواهره صدور  
 المهارق ، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي<sup>١</sup> ، متمم كتاب « المغرب  
 في أخبار المغرب » قال فيه : وأنا أعتذر في إيراد ترجمتي هنا بما اعتذر به  
 ابن الإمام في كتاب « سمط الجمان » وبما اعتذر به الحجاري في كتاب « المسهب »  
 وابن القطّاع في « الدرّة الخطيرة » وغيرهم من العلماء .  
 فمن نظمه عندما ورد الديار المصرية :

أصبحتُ أعرّض الوجوه ولا أرى ما بيّنها وجنّها لمن أدريه  
 عوّدي على بدئي ضلالاً بينهم حتى كأنّي من بقايا التيه  
 ويحّ الغريب توحيشتُ الحافظه في عالم ليسوا له بشبيهه  
 إن عاد لي وطني اعترفت بحقه إن التغرّب ضاع عمري فيه

١ ابن سعيد المغربي : ترجمته في المغرب ٢ : ١٧٨ واختصار القدح ص : ١ والفوات ٢ :  
 ١٧٨ والديباج المذهب : ٢٠٨ وتاريخ السلامي : ١٤٥ وبنية الوعاة : ٣٥٧ ومسالك الأبصار  
 : ٨ : ٣٨٢ وله ترجمة مبتورة في الذيل والتكملة ٥ : ٤١١ - ٤١٢ .

وله من قصيدة يمدح ملك إفريقية أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي  
حَفْصٍ :

الأفقُ طَلَقُ والنسيمُ رُخَاءُ      والروضُ وَشْتٌ بِرُودِهِ الأنداءُ  
والنهرُ قد مالتَ عليه غُصُونُهُ      فكأنَّما هوَ مُقْلَةٌ وطُفَاءُ  
وبدا نِثارُ الجلتارِ بصفحه      فكأنَّما هوَ حِيَّةٌ رَقْطَاءُ  
والشمسُ قد رَقَمَتْ طِرَازاً فوقه      فكأنَّما هيَ حِلَّةٌ زَرْقَاءُ  
فأدِرُ كؤوسك كَي يَمَّ لك المني      واسمَعُ إلى ما قالَتِ الورقَاءُ  
تَدْعُوكَ حيَّ على الصَّبُوحِ فلا تم      فعلى المنامِ لدى الصَّبَاحِ عَفَاءُ  
وله أيضاً :

كم جفاني ورُمْتُ أدعو عليه      فتوقَّفتُ ثمَّ ناديتُ قائل  
لا شفى الله لحظةً من سقام      وأراني عذاره وهو سائل

وله من قصيدة كتب بها إلى مالك سبته الموفق أبي العباس أحمد بن أبي  
الفضل السبتي شافعاً لشخص رغب في خدمته :

بالعدل قمت وبالسمح فدينٌ وجدُّ      لا فارتكَّ كفاية وعطاء  
ما كلُّ من طلب السعادة نالها      وطلابٌ ما يبأبى القضاء شقاء  
ومنها :

وقد استطار بأسطري نحو الندى      من أنهضته لشحوك العلياء  
طلب النباهة في ذراك فما له      إلاً لديك تأملٌ ورجاء  
وهو الذي بعد التجارب أحمدت      أحواله وجرى عليه ثناء

١ ج : الشفاعة .

لا يقربُ الدنسَ المريبَ كواصلٍ [قد مارس الحربَ الزبونَ زمانه]  
هجرتُهُ خَوْفًا أن يسانِ الرءاءَ وعلاكَ تقضي أن يسودَ بأفقهَا  
وجرتَ عليه شدة ورخاءُ<sup>١</sup> لا غرو أن يُعَلِّي الشهابَ بهاءَ

وقوله من قصيدة :

ألفَ التغرُّبَ والتوحُّشَ مثل ما ألفَ التوحُّشَ والنفورَ ظباءَ  
حُجَّابِهِ أَلْفُوا التَّجَهُّمَ والخفا فهُمُ لِكُلِّ أَخِي هُدًى أَعْدَاءَ  
مهما يَرُمُ طابُّهُ إِلَيْهِ تَقَرُّبًا بَعُدَّتْ بِذَلِكَ الْبَدْرِ عَنْهُ سَمَاءَ  
لِكُنْتِي مَا زَلْتُ أُخْدَعُ حَاجِبًا وَمُرَاقِبًا حَتَّى أَلَانَ حَبَاءَ  
وَالْأَرْضُ لَمْ تُظْهِرْ حَجَبَ نَبْتِهَا حَتَّى حَبَّتْهَا الدِّيمَةُ الْوُطْفَاءُ<sup>٢</sup>

قيل : وهذا معنى لم يُسمع من غيره ، وقوله في خسوف البدر :

شان الخسوفُ البدرَ بعدَ جَمالِهِ فَكَأَنَّهُ ماءٌ عَلَيْهِ غُشَاءٌ  
أو مثلَ مرآةٍ لِحُودٍ قد قَضَتْ نَظْرًا بِهَا فَعَلَا الْجَلَاءُ غُشَاءَ

وله من قصيدة عتاب يقول فيها :

ولقد كسبتُ بكمُ علاً لكنها صارتُ بأقوالِ الوشاةِ هَبَاءَ  
فغَدَوْتُ ما بينَ الصَّحابةِ أَجْرِبًا كُلُّ يُحاذِرُ مِنِّي الإِعْداءَ  
ولقد أرى أن النجومَ تَقِلُّ لي حُجْبًا وَأَصْغُرُ أن أَحُلَّ سَماءَ  
فليهجروا هجرَ الفَظِيمِ لِدَرِهِ وَيُساعِدُوا الزَّمَنَ الخُنُونِ جَفَاءَ  
فلقد شكوتُ لهمُ إحالةَ ودِّهمِ إِذْ لَمْ أَكُنْ أَرْضِي بِهِمْ خُدَماءَ

١ البيت زيادة من إحدى النسخ .

٢ ورد وحده في المقتطفات ( الورقة : ٩ ) وقدم له بقوله : وله من قصيدة وهو معنى يديع ، ومن الغريب أن البيت وما بعده لاحق بأخبار الغزال .



إِيَّاهُ فَذَكَرَهُمْ أَقْلًا ، وَإِنَّمَا  
لَوْ لَمْ يَكُنْ قَيْنٌ لَمَا فَتَكَتْ ظُبًا  
وَلَوْ أَنِّي أَرْجُو أَرْتِجَاعَكَ لَمْ أُطِيلُ  
لَكِنْ رَأَيْتُكَ لَا تَمِيلُ سَجِيَّةً  
إِنْ لَمْ يَكُنْ عَطْفٌ فَمِنَّمَا بِالنَّوَى

وقوله :

وَلَكُمْ سَرِينَا فِي مَسْتُونِ ضَوَامِرٍ  
مِنْ أَدْهَمِ كَاللَّيْلِ حُجَلٍ بِالضُّحَى  
أَوْ أَشْهَبِ يَحْكِي غَدَائِرَ أَشْيَبِ  
أَوْ أَشْقَرِ قَدْ نَمَّقَتْهُ بِشُعْلَةٍ  
أَوْ أَصْفَرِ قَدْ زَيَّنَتْهُ غِرَّةٌ  
طَارَتْ ، وَلَكِنْ لَا يُهَاضُ جَنَاحُهَا

تَشْنِي أَعْنَتَهَا مِنْ الْخَيْلَاءِ  
فَتُشَقَّ غَرَّتُهُ عَنْ ابْنِ ذُكَاةٍ  
خَلَعَتْ عَلَيْهِ الشُّهْبُ فَضَلَ رِءَاءِ  
كَالزَّجِ نَارٍ بِصَفْحَةِ الصَّهْبَاءِ  
حَتَّى بَدَأَ كَالشَّمْعَةِ الصَّفْرَاءِ  
هَبَّتْ ، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ بِرُخَاءِ

وقوله من أبيات في افتضاض بكر :

وَخَرِيدَةٌ مَا إِنْ رَأَيْتُ مِثْلَهَا  
فَسَأَلْتُهَا سَمِعَ الشُّكَاةَ فَأَفْهَمَتْ  
وَتَبِعْتُهَا وَسَأَلْتُ مِنْهَا قُبْلَةً  
فَنَتَتْ عَلَيَّ قَوَامَهَا بِتَعَانِقِ  
وَوَجَدْتُهَا لَمَّا مَلَكَتُ عِنَانَهَا  
جَاءَتْ إِلَيَّ كَوَرْدَةٍ حَمْرَاءِ<sup>٢</sup>  
وَسَلَبْتُهَا مَا أَحْمَرَّ مِنْهَا صَفْوَهُ

حَيَّتْ مِنَ الْأَحَاظِ بِالْإِيمَاءِ  
أَنَّ الرَّقِيبَ جُهَيْسَةَ الْأَنْبَاءِ  
فِي خَلْوَةٍ مِنْ أَعْيُنِ الرِّقَابِ  
أَحْيَا فُوَادًا مَاتَ بِالْبُرْحَاءِ  
عَدْرَاءِ مِثْلَ الدَّرَّةِ الْعَدْرَاءِ  
فَتَرَكْتُهَا كَعَرَّارَةٍ صَفْرَاءِ  
فَجَرَى مُذَابًا مُنْجِحًا لِرَجَائِي

١ ورد هذا البيت أيضاً وحده في المقتطفات (الورقة : ٩) .

٢ ج : حمرة .

وقوله من أبيات :

أحبابنا عودوا علينا عودةً  
كم ذا أداريكم بنفسي جاهداً  
وأزيد بعداً ما اقتربتُ إليكمُ  
وأجوبُ نحوكمُ المنازلُ جاهداً  
كالبدْرِ أقطعُ منزلاً في منزل  
وقوله من أبيات :

سألتك يا من يُستلانُ فيصعبُ  
أما خدك البدرُ المنيرُ فلمُ غدتُ  
ومنُ يُترصّي بالحياة فيغضبُ  
تحلُّ بهِ ضدَّ القضية عقربُ

وقوله ، وقد داعبه أحدُ الفقهاء وسرق سكينه من حرز :

أيا سارقاً ملُكاً مَصُوناً ولمُ يجبُ  
ستندبه الأقلامُ عند عثارها  
على يدهِ قَطْعُ وفيه نِصَابُ  
ويبيكيه إن بعدُ الصوابُ كتابُ

وقوله في تفاحة عنبر أهديتُ

أنا لونُ الشباب والحالُ أهدبُ  
ملك العالمين نجم بني أيدٍ  
جئتُ ملأى من الثناء عليهِ  
لستُ ممنُ له خطابُ ولكن  
للملك الصالح نجم الدين أيوب :

وقوله من قصيدة :

فالحمدُ لله على ساعة  
وليعدر المولى على أنتي  
قد قرَّبْتني من علا الصاحب  
قد كنتُ من علياه في جانب

كَمَنْ أُنِي نَافِلَةً أَوْلَاً ثُمَّ أُنِي مِنْ بَعْدُ بِالْوَاجِبِ

وقوله من أبيات ١ :

فَإِنْ كُنْتُ فِي أَرْضِ التَّغْرِبِ غَارِباً      فسوف تَرَانِي طَالِعاً فَوْقَ غَارِبِ  
فَصَمَّصَامُ عَمْرٍو حِينَ فَارَقَ كَفَّهُ      رَمَوَهُ وَلَا ذَنْبٌ لِعَجْزِ الْمُضَارِبِ  
وَمَا عِزَّةُ الضَّرْغَامِ إِلَّا عَرِينَهُ      وَمِنْ مَكَّةَ سَادَتْ لُؤْيُ بْنُ غَالِبِ

وقوله في فرس أصفر أغر أكحل الحلية ٢ :

وَأَجْرَدَ تَبِيرِي أَثَرْتُ بِهِ الثَّرِي      وَلِلْفَجْرِ فِي خَصْرِ الظَّلَامِ وَشَاحُ  
لَهُ لَوْنٌ ذِي عِشْقٍ وَحُسْنٌ مُعَشَّقٍ      لِذَلِكَ فِيهِ دَلَّةٌ ٣ وَمَرَّاحُ  
عَجِبْتُ لَهُ وَهُوَ الْأَصِيلُ بِعَرَفِهِ      ظَلَامٌ وَبَيْنَ النَّاطِرِينَ صَبَّاحُ  
يَقِيمُ طَيْرَ اللَّحْظِ وَالْوَحْشِ عِنْدَمَا      يَطِيرُ بِهِ نَحْوَ النِّجَاحِ جِنَّاحُ

وقوله من أبيات :

إِذَا مَا غُرَابُ الْبَيْنِ صَاحَ فَقُلْ لَهُ      تَرَفَّقْ رَمَاكَ اللَّهُ يَا طَيْرُ بِالْبَعْدِ  
لَأَنْتَ عَلَى الْعُشَاقِ أَفْبَحُ مَنْظَرًا      وَأَكْرَهُ فِي الْأَبْصَارِ مِنْ ظِلْمَةِ اللَّحْدِ  
تَصِيحُ بِنُوحٍ ثُمَّ تَعْتَرُ مَاشِيًا      وَتَبْرُزُ فِي ثُوبٍ مِنَ الْحَزَنِ مُسْوَدًا  
مَتَى لَحْتَ صَحَّ الْبَيْنِ وَأَنْقَطَعَ الرَّجَا      كَأَنَّكَ مِنْ وَشَكِ الْفِرَاقِ عَلَى وَعْدِ

وقوله في غلام جميل الصورة أهدى تفاحة :

نَابَ مَا أَهْدَيْتَ عَنْ عَرِّ      فِي وَعَن رِيْقٍ وَخَدِّ

١ المقتطفات (الورقة : ٩) .

٢ المغرب ٢ : ١٧٣ والمقتطفات (الورقة : ٩) .

٣ دوزي : لذة ، وفي ج ق والمقتطفات : ذلة ، والتصويب عن المغرب .

حَبِّدَا تَفَاحَةً قَدْ أَشْبَهَتْ أَوْصَافَ مُهْدِي  
بِتُّ مِنْهَا فِي سُورٍ فَكَأَنَّ قَدْ بَتَّ عِنْدِي

وقوله من قصيدة :

هذا الذي يَهَبُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا  
إِنْ هَزَّهَ الْمَدْحُ فَالْأَمْوَالُ فِي بَدَدٍ  
[ قُفِلَتْ لَمَّا بَدَأَ لِي حُسْنُ مَنْظَرِهِ  
مَتَّعَ لِحَاطِكَ فِي وَجْهِهِ بِلَا ضَرَرٍ

وقوله من أبيات :

لِي جَبْرَةٌ ضَمَّتْ عَلَيَّ وَجَارُوا  
وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنِّي مَعَ جَوْرِهِمْ

وقوله :

أَنَا شَاعِرٌ أَهْوَى التَّخْلِيَّ دُونَ مَا  
لَوْ كُنْتُ ذَا زَوْجٍ لَكُنْتُ مُنْغَصِّصًا  
دَعْنِي أَرْحَ طَوْلَ التَّغْرِبِ خَاطِرِي  
كَمْ قَائِلٍ لِي ضَاعَ شَرْحُ شَبَابِهِ  
إِذْ لَمْ أَزَلْ فِي الْعِلْمِ أَجْهَدُ دَائِمًا  
مَهْمَا أَرُمُ مِنْ دُونَ زَوْجٍ لَمْ أَكُنْ  
وَإِذَا خَرَجْتُ لِفَرْجَةٍ هَنَيْتُهَا

وقوله من قصيدة :

١ زيادة لم ترد في ج ق وودوي .

ما كنتُ أحسبُ أن أضيعُ وأنتُ في الـ  
أنا مثلُ سَهْمٍ سَوْفَ يَرْجِعُ بعدما  
دنياً وأن أُمسيَ غريباً مُعسِراً  
أقصاهُ راميه المَجدُ ليخبراً  
وقوله ساعده الله تعالى :

وافى عَليٌّ لَنَا بِسَيْفٍ  
فقال شَبَّهَ فقلتُ شمس  
والبينُ قد حان والوداعُ  
قد مدَّ من نورها شعاعُ

وقوله من قصيدة في ملك إشبيلية الباجي ، وقد هزم ابن هودا :

لله فُرسانُ غَدَتِ راياتهم  
السَّمَرُ تنقطُ ما تُسَطَّرُ بيضُهم  
مِثْلَ الطيورِ على عِدالكِ تُحَلِّقُ  
والنَّعْ يُتْرَبُ والدماءُ تُحَلِّقُ

وقال ارتجالاً بمحضر زكي الدين بن أبي الإصبع وجمال الدين أبي الحسين  
الجزار المصري الشاعر ونجم الدين بن إسرائيل الدمشقي بظاهر القاهرة ، وقد  
مشى أحدهم على بسيط نرجس :

يا واطيء النرجس ما تستحي  
أن تطأ الأعمى بالارجل

فتهافتوا بهذا البيت ، وراموا إجازته ، فقال ابن أبي الإصبع مجيزاً :

فقلتُ دعني لم أزل مُحَرَّجاً  
على لحاظ الرشيء الأكلحل

وكان أمثل ما حضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غيره ، فقال :

قابلُ جُفوناً بجفونٍ ولا  
تبتذل الأرفع بالأسفل

وقوله في الجزيرة الصالحية بمصر ، وهي الشهيرة الآن بالروضة :

تأملُ الحُسنِ الصالحية إذ بدتْ  
مناظرُها مثلَ النجوم تلالاً

وللقلعة الغراء كالبدر طالعا  
ووافي إليها النبل من بعد غاية  
وعانقها من فرط شوق بحسنها  
جرى قادماً بالسعد فاحتطّ حولها  
تفجّر صدر الماء عنه هلالا  
كما زار مشغوف يروم وصالا  
فمدّ يميناً نحوها وشمالا  
من السعد إلاماً بذلك دالا

وقوله من أبيات في ملك إفريقية وقد جهز ولده الأمير أبا يحيى بعسكر :

وقد أرسلته نحو الأعادي  
كما جرّدت من غمدٍ حساما  
وقوله في قوس :

أنا مثل الهلال في ظلّم النقب  
تقصّر القضب والقنا عن مجالي  
قد كستتها الطيور لما رأتها  
ع سهمي تنقض مثل النجوم  
عند رجمي بها لكلّ رجيم  
كافلات لها برزق عميم  
وقوله من أبيات ١ :

وأشقرّ مثل البرق لونا وسرعة  
قصّدت عليه عارض الجود فأنهمي

ولنذكر ترجمته من الإحاطة ملخصة ، فنقول :

قال لسان الدين ٢ : علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن محمد بن عبد  
الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر بن  
كنانة بن قيس بن الحصين العنسي ، المدبلي ، من أهل قلعة يحضب ،  
غرناطي ، قلعي ، سكن تونس ، أبو الحسن ابن سعيد ، وهذا الرجل وسطي  
عقد بيته ، وعلم أهله ، ودرة قومه ، المصنف ، الأديب ، الرحالة ، الطرفة ،

١ المغرب : ١٧٩ .

٢ الإحاطة ، الورقة : ٣٢٣ .

الأخباري ، العجيب الشأن في التجول في الأقطار ، ومداخله الأعيان والتمتع بالخزائن العلمية ، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية ، أخذ عن أعلام إشبيلية كأبي علي الشلّوبين ، وأبي الحسن الدباج ، وابن عصفور وغيرهم ، وتواليفه كثيرة : منها « المرقصات والمطربات » و« المقتطف من أزاهر الطرف » و« الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد » تاريخ بلده وبيته ، والموضوعان الغريبان المتعددا الأسفار ، وهما « المغرب في حلى المغرب » و« المشرق في حلى المشرق » وغير ذلك مما لم يتصل إلينا ، فلقد حدثني الوزير أبو بكر ابن الحكيم أنه تخلف كتاباً يسمى « المرزومة »<sup>١</sup> يشتمل على وقْرٍ بغير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والأخبارية إلاّ الله تعالى ، وتعاطى نظم الشعر في حد من الشبية يُعجَبُ فيه من مثله ، فيذكر أنه خرج مع أبيه إلى إشبيلية وفي صحبته سهل ابن مالك ، فجعل سهل بن مالك يُباحثه عن نظمه إلى أن أنشده في صفة نهر والنسيم يردده والغصون تميل عليه :

كأنما النهر صفحةٌ كتبت أسطرها ، والنسيم ينشئها  
لما أبانت عن حُسن منظرها مالتْ عليّها الغصون تقرؤها

فطرب وأثني عليه .

ثم ناب عن أبيه في أعمال الجزيرة ، ومازج الأدباء ، ودون كثيراً من نظمه ، ودخل القاهرة ، فصنع له أدباؤها صنيعاً في ظاهرها ، وانتهت بهم الفرجة إلى رَوْضِ<sup>٢</sup> نرجس ، وكان فيهم أبو الحسين الجزار فجعل يدوس النرجس برجله ، فقال أبو الحسن :

يا واطيء النرجس ما تستحي أن تَطَأَ الأَعْيُنَ بالأرجل

١ الإحاطة : المزيد له .

٢ ق : أنوار ، ج : صنف .

فتهافتوا بهذا البيت ، وراموا إجازته ، فقال ابن أبي الإصبع :

فقال دعني لم أزل مُحَنَقًا على لحاظ الرشيء الأَكْحَلِ

وكان أمثل ما حضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غيره ، فقال :

قابل جفوناً بجفونٍ ، ولا تبتذل الأرفع بالأسفل

ثم استدعاه سيف الدين ابن سابق إلى مجلس بِيضَفَةِ النيل مبسوط بالورد ، وقد قامت حوله شمامات نرجس ، فقال في ذلك :

مَنْ فَضَّلَ النرجسَ فهو الذي يرضى بحكم الوردِ إذ يرأسُ  
أما ترى الوردَ غداً قاعداً وقام في خدمته النرجسُ

ووافق ذلك مماليك الترك وقوفاً في الخدمة ، على عادة المشاركة ، فطرب الحاضرون .

ولقي بمصر أيدمر التركي والبهاء زهيراً وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وغيرهم ، ورحل صحبة كمال الدين بن العديم إلى حلب ، فدخل على الناصر صاحب حلب ، فأنشده قصيدة أولها :

جُدُّ لي بما ألقى الخيال من الكرى لا بُدَّ للضيف المليم من القيرى

فقال كمال الدين : هذا رجل عارف ، ورى بمقصوده من أول كلمة ، وهي قصيدة طويلة ، فاستجلسه السلطان ، وسأله عن بلاده ومقصوده برحلته ، وأخبره أنه جمع كتاباً في الحلى البلادية والعلی العبادية المختصة بالمشرق ، وأخبره أنه سماه « المشرق في حلى المشرق » وجمع مثله فسماه « المغرب في حلى المغرب » فقال : نعينك بما عندنا من الخزائن ، ونوصلك إلى ما ليس

١ انظر هذا الخبر في المقتطفات ( الورقة : ٩ ) .



عندنا كخزائن الموصل وبغداد ، وتُصنّف لنا ، فخدم على عادتهم ، وقال :  
أمر مولاي بذلك إنعام وتأنيس ، ثم قال له السلطان مداعباً : إن شعراءنا ملقبون  
بأسماء الطيور ، وقد اخترت لك لقباً يليق بحسن صوتك وإيرادك للشعر ، فإن  
كنت ترضى به ، وإلا لم نعلم به أحداً غيرنا ، وهو البُلْبُل ، فقال : قد رضي  
المملوك يا خوند ، فتبسم السلطان . وقال له أيضاً يداعبه : اختر واحدةً من ثلاث :  
إمّا الضيافة التي ذكرتها أوّل شعرك ، وإمّا جائزة القصيدة ، وإمّا حق الاسم ،  
فقال : يا خوند المملوك ممّا لا يَخْتَنق بعشر لُقَمٍ لأنّه مغربي أكل فكيف  
بثلاث ؟ فطرب السلطان وقال : هذا مغربي ظريف ، ثم أتبعه من الدنانير  
والخلع الملوكية والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف . ولقي بحضرتة عون الدين  
العجمي ، وهو بحر لا تنزفه الدلاء ، والشهاب التلّعْفَرِي ، والتاج ابن شقير ،  
وابن نجيم الموصلِي ، والشرف بن سليمان الإربلي ، وطائفة من بني الصاحب . ثم  
تحول إلى دمشق ، ودخل الموصل وبغداد ، ودخل مجلس السلطان المعظم [ ابن  
الملك الصالح ]<sup>١</sup> بدمشق ، وحضر مجلس خلوته ، وكان ارتحاله إلى بغداد في عقب  
سنة ثمان وأربعين وستمائة في رحلته الأولى إليها ، ثم رحل إلى البصرة ودخل  
أرجان ، وحج ، ثم عاد إلى المغرب ، وقد صنّف في رحلته مجموعاً سماه  
بـ « النفحة المسكية في الرحلة المكية » وكان نزوله بساحل مدينة إقْلِيبيّة<sup>٢</sup>  
من إفريقية في إحدى جمادى سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، واتصل بخدمة  
الأمير أبي عبد الله المستنصر ، فنال الدرجة الرفيعة من حظوته .  
حدثني شيخنا الوزير أبو بكر ابن الحكيم أن المستنصر جفاهُ في آخر عمره  
وقد أسنَّ لِحِجْرَاء خدمة مالية أسندها إليه ، وقد كان بلا منه قبلُ جفوةً أعقبها  
انتشال وعناية ، فكتب إليه بنظم من جملته :

١ ما بين معقنين سقط من ق ج وزاده دوزي من نسخة الإحاطة .

٢ إقْلِيبيّة : حصن قريب من قرطاجنة ، وفي ج : اقلبية .

## لا ترُعني باللقفا ثانية

فرق له ، وعاد إلى حسن النظر إليه ، إلى أن توفي تحت بر وعناية<sup>١</sup> .  
مولده بغرناطة ليلة الفطر سنة عشر وستمائة<sup>٢</sup> ، ووفاته بتونس في حدود  
خمس وثمانين وستمائة ، انتهى باختصار .

وذكرت حكاية إجازة بيته في الرجز وإن تقدمت لاتصال الكلام .  
قلت : قد كنتُ وقفتُ على بعض ديوان شعره المتعدد الأسفار ، ونقلت  
منه قولاً من قصيدة يهنيء ابن عمه الرئيس أبا عبد الله ابن الحسين<sup>٣</sup> بقدمه  
من حركة هَوّارة :

وَقَدْ بَعُدَتْ دَارٌ وَخَانَ حَيِّبُ	أَمَّا وَاجِبٌ أَنْ لَا يَجُولَ وَجَيْبُ
وَدَمَعٌ عَلَى مَنْ لَا يَبْرُقُ صَيْبُ	وَلَيْسَ أَلَيْفٌ غَيْرُ ذَكَرٍ وَحَسْرَةٌ
وَشَوْقٌ كَمَا شَاءَ الْهَوَى وَنَجِيبُ	وَخَفَقُ فَوَادٍ إِنْ هَذَا الْبَرْقُ خَافِقًا
وَعَدْلٌ مُشَوِّقٌ فِي الْبِكَاءِ عَجِيبُ	وَيَعْدِلُنِي مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُ مَا الْهَوَى
وَصَمَوَا وَدَائِي لَيْسَ مِنْهُ طَيْبُ	أَلَا تَعْسَ الْوَأَمُ فِي الْحَبِّ قَدْ عَمُوا
وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي الْمَلَامِ أَجِيبُ	يُرُومُونَ أَنْ يَنْثِي الْمَلَامُ صَبَابِي
وَغَيْرِي ذُو غَدْرِ أَوْانَ يَغِيبُ	وَفَائِي إِذَا مَا غَبْتُ عَنْكُمْ مُجَدِّدُ
لَكُنْتُ لَغَيْرِ ابْنِ الْحُسَيْنِ أُنِيبُ	وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنِّي الْوَفَاءُ سَجِيَّةُ
مُهَلَّبُهُ إِنْ مَارَسْتَهُ حُرُوبُ	سَمَوَالُ هَذَا الْعَصْرِ حَاتِمُ جُودِهِ

١ في الإحاطة حسب مقارنة دوزي : ورعاية ؛ ويبدو أن نسخة الإحاطة التي اعتمدها قد أخلت  
بجوانب كثيرة من أخبار ابن سعيد ؛ أما النسخة التي اعتمدها دوزي فهي أوفى .

٢ كذا في ق ج ، وأثبت دوزي : سنة ٦١٥ اعتماداً على الإحاطة .

٣ ستأتي ترجمته .

٤ في نسخة : غريب .

٥ ق : يشفي الغرام ؛ ج : يفي الغمام .

٦ دوزي : ما مارسته .

فَتَيَّ سَيِّرًا الْأَمْدَاحَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا  
 إِذَا رَقَمَ الْقِرطَاسَ قَلْتَ ابْنَ مُقَلَّةٍ  
 وَإِنْ نَثَرَ الْأَسْجَاعَ قَلْتَ سَمِيَهُ  
 وَمَا أَحْرَزَ الصُّوْلِيُّ آدَابَهُ الَّتِي  
 أَبُو دَلْفٍ مِنْ دُونِهِ وَخَصِيْبُ  
 وَإِنْ نَظَّمِ الْأَشْعَارَ قَلْتَ حَبِيْبُ  
 وَإِنْ سَرَدَ التَّارِيخَ قَلْتَ عَرِيْبُ  
 إِذَا مَا تَلَاهَا لَمْ يُجِبْهُ أَدِيْبُ

ومنها :

وَأَمَّا إِذَا مَا الْحَرْبُ أَحْمَدُ<sup>٢</sup> نَارَهَا  
 فَكَمْ قَارِعَ الْأَبْطَالِ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ  
 وَكَائِنْ لَهُ بِالْغَرْبِ<sup>٤</sup> مِنْ مَوْقِفٍ لَهُ  
 بِمَرَاكِشٍ سَلَّ عَنْهُ تَعَلَّمَ غِنَاءَهُ  
 إِذَا مَا ثَنَى الرِّمْحَ الطَّوِيلَ كَأَنَّهُ  
 وَإِنْ جَرَّهُ أَبْصَرْتَ نَجْمًا مَجْرَرًا  
 يَهِيْمُ بِهِ مَا إِنْ يَزَالُ مُعَانِقًا  
 مُحَمَّدُ ، لَا تُبْدِ الَّذِي أَنْتَ قَادِرٌ  
 نَفُوذُ سَهَامِ الْعَيْنِ أَوْ دَى بِمُضْعَبٍ  
 أَلَا فَهَيْئًا أَنْ رَجَعْتَ لِتُونُسٍ  
 كَوَاكِبُهَا تَبْدُو إِذَا مَا تَرَكْتَهَا  
 إِذَا سُدَّتْ فِي أَرْضٍ فغَيْرِكَ تَابِعٌ  
 فِيهِ تَلَطَّى<sup>٣</sup> مَارِجٌ وَهَيْبُ  
 نَحَاهَا وَكَمْ لُقَّتْ عَلَيْهِ حُرُوبُ  
 حَدِيثٌ إِذَا يُتْلَى تَطِيرُ قُلُوبُ  
 وَقَدْ سَاءَ هَمُّ<sup>٥</sup> يَوْمٌ هُنَاكَ عَصِيْبُ  
 مُدِيرٌ لَغْصَنِ الْخَيْزِرَانِ لِعُوبُ  
 ذُوَابَتُهُ ، مِنْهُ الْكُمَاةُ تَنْوِبُ  
 لَهُ رَاكِعَاتٍ مَا تَحُوزُ كَعُوبُ  
 عَلَيْهِ ، وَخَفَّ عَيْنًا عَلَكَ تَصِيْبُ  
 وَطَاحَ بِهِ بَعْدَ الشُّبُوبِ شَبِيْبُ  
 فَأَطْلَعْتَ شَمْسًا وَالسَّفَارُ<sup>٦</sup> غُرُوبُ  
 وَقَدْ جَعَلْتِ مَهْمًا حَضْرَتَ تَغِيْبُ  
 عَلَكَ ، وَمَهْمًا سَادَ فَهُوَ مَرِيْبُ

١ ج : سرد .

٢ ج : أظهر .

٣ دوزي : تلظ .

٤ ج : في الغرب .

٥ دوزي : ساءه .

٦ ق ج : والشفار .

ومنها :

كفاني أني أستظل بظلكم  
فأصلك أصلي والفروع تباينت  
وحسبي فخرأ أن أقول محمد  
تركت جميع الأقربين لقصده  
رأيت به جنات عدن فلم أبل  
فقبلت كفا لا أعاب بلثما  
وكيف وليس الرأس كالرجل ، فرقت  
ولو كان قدري مثل قدرك في العلا  
ولولا الذي أسمع من مكر حاسد  
لما كنت محتاجاً لقولي أنفاً  
إذا كنت ذا طوع وشكر وغيطة  
لقد كنت معتاداً ببشر فما الذي  
إن رفع السلطان سعبي بقدركم  
فأحسب ذنبي ذنب صحرا ، بدارها  
وحاشاك من جور علي ، وإنما  
صحاب هم الداء الدفين فليتي  
كلامهم شهد ولكن فعلهم  
سأرحل عنهم والتجارب لم تدع

ومن هاب ذاك المجد فهو مهيب  
بعيد على من رامه وقريب  
نسب علي جل منه نصيب  
على حين حانت فتنة وخطوب  
إذا وصلتنا للخلود شعوب  
وأيدي الأيادي لثمن وجوب  
شيات لعمري بيننا وضروب  
لحق بأن يعلو الشباب مشيب  
أتاك بقول وهو فيه كذوب  
تخلت من ذنب وجئت أتوب  
فمن أين لي يا ابن الكرام ذنوب  
تقلدته حتى يزال قطوب  
أحسلاً عن ورد لكم وأخيب  
إلى البر عند الخابرين معيب  
أخاطب من أصفى له فيشوب  
ولم أدن منهم ، للذئاب صحوب  
كسم له بين الضلوع ديب  
بقلمي لهم شيئاً عليه أثيب

١ في نسخة : بقريكم .

٢ ذنب حر : مثل ، وذلك أن لقمان بعد أن قتل زوجته لقيته ابنته صخر فقتلها أيضاً قائلاً  
« وهل أنت إلا امرأة ؟ » دون ذنب جنته ، فضرب بذلك المثل . وفي ج ق ودوزي : صخر

- بالمعجمة -

٣ في نسخة : أصفو .

إذا اغترب الإنسانُ عمّن يسوءهُ  
 فداركُ برأبٍ منك ما قد خرقتهُ  
 ولا تستمعُ قولَ الوشاةِ فإنّما  
 فيا لَيْتَ أنّي لم أكنُ متأديباً  
 وكنْتُ كبعضِ الجاهلينِ محبباً  
 وما إنْ ضربتُ الدهرَ زيداَ بعمره  
 أشكوكُ أم أشكو إليكَ فما عدتُ  
 سأشكرُ ما أولى وأصبر للذي  
 قدّمُ في سُرورٍ ما بقيتُ فإنّني  
 فما هوَ في الإبعادِ عنهُ غريبُ  
 ليحسنَ منّي مشهدُ ومغيبُ  
 عدوّهمُ بينَ الأنامِ نجيبُ  
 ولم يكُ لي أصلٌ هناكَ رسوبُ  
 فما أنا اللهمّ المُلمِّ حبيبُ  
 ولم يكُ لي بينَ الكرامِ ضربُ  
 عدايَ حتّى حانَ منك وثوبُ  
 توالى ، على أنّ الغزاء سليلُ  
 وحقّك مُدبّ الوشاةُ كتيبُ

قال : وكان سبب التغير بيني وبين ابن عمي الرئيس المذكور أن ملك  
 إفريقية استوزر لأشغال الموحدين أبا العلاء<sup>٢</sup> لإدريس بن علي بن أبي العلاء ابن  
 جامع ، فاشتمل عليّ ، وأولاني من البرّ ما قيّدني وأمال قلبي إليه ، مع تأكيد  
 ما بينه وبين ابن عمي من الصّحبة ، فلم يزل ينهضُ بي ، ويرفع أمداحي  
 للملك ، ويوصّل إليه رسائلي ، مُنّبهاً على ذلك مرشحاً ، إلى أن قبض الملكُ  
 على كاتبِ عسكره ، وكان يقرأ بين يديه كتبَ المظالم ، فاحتيج إلى من يتخلّفه  
 في ذلك ، فنبه الوزير عليّ ، وارتهن فيّ ، مع أنّي كنت من كتاب الملك ، فقلدني  
 قراءة المظالم المذكورة ، وسقّر لي الوزيرُ عنده في دار الكاتب المؤخّر ، فأنعم  
 بها ، فوجد الوشاة مكاناً متسعاً للقول ، فقالوا وزوّروا من الأقاويلِ المختلفة ما  
 مال بها حيث مالوا ، وظهر منه مخايل التغير ، فجعلت أداريه وأستعطفه ، فلم  
 ينفع فيه قليل ولا كثير ، إلى أن سعى في تأخير والدي عن الكتّاب للأمير الأسعد  
 أبي يحيى ابن ملك إفريقية ، ثم سعى في تأخيري ، فأخّرت عن الكتابة وعن

١ ق ج : برأي .

٢ ج ق ودوزي : أبا العلاء .

قراءة المظالم ، فانفردت بالكتابة للوزير المذكور ، وفوض إليّ جميع أموره ،  
وأولاني من التأسيس ما أنساني تلك الوحشة ، ومن العز ما أنقذني من تلك الذلة :

فردّ عليّ العيشَ بَعْدَ ذهابِهِ      وآنَسني بعد انفرادي من الأهل  
وقال إذا ما الوبلُ فاتك فاقْتنعْ      بما قد تَسْتَتِي عندك الآن من طلِّ  
ووالله ما نُعمَاه طلٌّ وإنّما      تأدُّبُهُ غيْثٌ يَجُودُ على الكلِّ  
رآني أظْمًا في الهَجيرة ضاحياً      فرقَ وآواني إلى الماء والظلِّ

ولم أزل عنده في أسرّ حال ما لها تكدير إلاّ ما يبلغني من أن ابن عمّي لا  
يزال يسعى في حقي بما أحشى مَعَبَتَهُ ، وخِفْتُ أن يطول ذلك ، فيُسْمَعُ  
منه ، ولا ينفع دفاعُ الوزير المذكور عني ، فرغبتُ له في أن يرفع للملك أنّي  
راغبٌ في السّراح إلى المشرق برسم الحج :

ومن بَلَّه الغيْثُ في بطنِ وادٍ      وباتَ فَلَما يَأْمَنُ السّيولا  
فلم يُسْعِفني في ذلك ، ولا مَتِي على تخوُّفي ، وقلة ثقتي بحمايته ، فرفعت  
له هذه القصيدة :

هل الهجرُ إلا أن يطولَ التجنُّبُ      ويبعدَ مَنْ قد كان منه التقرُّبُ  
وتُقطِعَ رُسلُ بَيْننا ورسائلُ      ويمنعَ لُقيانا نوّى وتجبُّبُ  
ولو أنّي أدري لنفسي زلّةً      جعلتُ لكم عذراً ولم أكُ أعتبُ  
ولكننكم لما ملتم<sup>٢</sup> هجرتمُ      وذنبتمُ في الحبّ من ليس يُذنبُ  
إلى الله أشكو غدركم وملالكم      وقلباً له ذاك التعذبُ يعذبُ  
فلو أنه يُجزيكُمُ بفعالكم<sup>٣</sup>      لكان له عنكم مرادٌ ومدّهَبُ<sup>٣</sup>

١ دوزي : وعن كتابة .

٢ كذا في ق وج ؛ وفي نسخة : ملكم .

٣ دوزي : ومطلب .

ولكن أبي أن لا يمنّ لغيركم  
 فهلاًّ رعيتهم أنه في ذراكم  
 لزمته لما أن رأيتك كاملاً  
 وإني لأخشى أن يطول اشتكاؤه  
 فلم أسع إلا لارتياح وراحة  
 فأنت الذي آويتني ورحمته  
 فما مرّ يوم لا يدبر مصيبة  
 وهبه ثبوتاً لا يحيل أما ترى  
 وهبه له سدّاً فكم أنت حاضر  
 وما إن أرى إلا الفرار مخلّصاً  
 فأنه إلى الأمر العليّ شكيتي  
 ولا تطمعوني في الذي لست نائلاً  
 ألا فلتتمنوا بالسراح فإنه  
 سلوا الكأس عني إذ تدار فإنتي  
 ولا أسمع الألحان حين تهزني  
 فديتكم كم ذا أهون بأرضيكم  
 أبخل عليّ؟ ما سواك يصيخ لي  
 تقلص عني كل ظلٍ ولم أجد  
 أذو طمع في العيش يبقى وحوله  
 أجزني أنجو<sup>٣</sup> بالفرار فإنه

وأن لا يرى عنكم مدى الدهر مذهب  
 غريب، وليس الموت إلاّ التغرب  
 جمالاً وإجمالاً وذاك يجب  
 لمن إن أتى مكرأ فليس يشرب  
 وغيري وقد آواه غيرك يتعب  
 وذو الرحيم الدنيا لناري يحطب  
 عليك، وبالتدبير منك يخيب  
 مجرّ حبال في الحجارة يرسب  
 أحاذر خرفاً منه أن يتسببوا  
 وما راغب في الضيم من عنه يرغب  
 وأن خطوب الدهر نحوي تحطب  
 فلا أنا عرفوب ولا أنا أشعب  
 لراحة من يشقى لديكم وينصب  
 لأتركها همّاً ودمعي أشرب  
 ولو كان نوحاً كنت أصغي وأطرب  
 أهذا جزاء للذي يتغرب  
 فهل لي ممّا كدّر العيش مهرب  
 كما كنت ألقى<sup>١</sup> من أود وأصحاب  
 مدى الدهر أفعى لا تزال<sup>٢</sup> وعقرب  
 وحقك من نعمك عندي يحسب

١ ج ودوزي : أكفي .

٢ ج : لا تزال .

٣ ج ق : أجرني ؛ ق : أنجز .

فلا زلت يا خيرَ الكرام مهناً  
وصانك من قد صُنْتَ في حقهِ دمي  
فَعِيشِي منه الموتُ أشهى وأطيبُ  
وغيرك من ثوبِ المروءةِ يسلبُ

ولم يزل الوزير - لا أزال الله عنه رضاه - يحمي جانبي ، إلى أن أصابني  
فيه العين ، فأصابه الحين ، فقلت في ذلك :

وطيبَ نفسي أنه ماتَ عندما  
ويحكمُ فيه كلُّ من كان حاكماً  
تَنَاهَى ولم يشمتْ به كلُّ حاسدٍ  
عليه وَيُعْطِي الثَّارَ كلُّ معاندٍ

وقلتُ أرثيه :

بَكَتْ لكَ حَتَّى الْهَاطَلَاتُ السَّوَاكِبُ  
فَكَيْفَ بِنِ دَافَعْتَ عَنْهُ وَمَنْ بِهِ  
أَلَا فَانظُرُوا دَمِي فَأَكْثَرُهُ دَمٌ  
وَقُولُوا لِمَنْ قَدْ ظَلَّ يَنْدُبُ بَعْدَهُ  
لِعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ وَافٍ بِذِمَّةِ  
دَعْوَتِكَ يَا مَنْ لَا أَقْوَمُ بِشُكْرِهِ  
أَيَا سَيِّدَا قَدْ جَالَ بَيْتِي وَبَيِّنَتُهُ  
لِمَنْ أَشْتَكِي إِنْ جَارَ بَعْدَكَ ظَالِمٌ  
لِمَنْ أُرْتَجِي عِنْدَ الْأَمِيرِ بِمَنْطِقِي

وهي طويلة ، ومنها قبيل الختم :

وَقَدْ كُنْتُ أَخْتَارُ الرَّحْلَ قَبْلَ أَنْ  
وَلَكِنْ قَضَاءُ اللَّهِ مَنْ ذَا يَرُدُّهُ  
يُصَيِّكَ سَهْمٌ لِلْمَنِيَّةِ صَائِبُ  
فَصَبْرًا فَقَدْ يَرْضَى الزَّمَانَ الْمَغَاضِبُ

١ دوزي : النوائب .

٢ دوزي : اشتكي .



ومنها ، وهو آخرها :

ولمّا لم يَدْرِ أَنّ فِي الصَّبْرِ رَاحَةً      إِذَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ عَلِيّ مَثَالِبُ  
وإن لم يُؤبُ من كنت أرجو انتصاره      عَلَيْكَ فَلطُفَ اللهُ نَحْوِي آيِبُ

قال رحمه الله تعالى : ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتني<sup>١</sup> فيهما وحشة ،  
وأثار لي تذكّر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التي قطعت  
بها العيش غضاً خصباً ، وصحبت بها الزمان غلاماً ولبست الشباب قشياً ،  
فقلت :

هذه مصرُ فأينَ المغربُ ؟      مُذْ نَأَى عَنِي دُمُوعِي تَسْكُبُ  
فأرقتهُ النَّفسُ جهلاً لئِمّا      يُعْرِفُ الشَّيْءُ إِذَا مَا يَذْهَبُ<sup>٢</sup>  
أينَ حِمَصٌ ؟ أينَ أيامي بها ؟      بَعْدَهَا لَمْ أَلْقَ شَيْئاً يُعْجِبُ  
كَمْ تَقَصَّى لِي بِهَا<sup>٣</sup> مِنْ لَذَّةٍ      حَيْثُ لِلنَّهْرِ خَرِيرٌ مُطْرِبُ  
وحمامُ الأيِّكِ تَشْدُو حولنا      وَالمَثَانِي فِي ذَرَاهَا تَصْخَبُ  
أَيُّ عَيْشٍ قَدْ قَطَعْنَاهُ بِهَا      ذَكَرَهُ مِنْ كُلِّ نَعْمَى أَطْيَبُ  
ولكمُ بِالْمَرْجِ لِي مِنْ لَذَّةٍ      بَعْدَهَا مَا العَيْشُ عِنْدِي يَعْذِبُ  
وَالنَّوَاعِيرُ الَّتِي تَذَكَرُهَا      بِالنَّوَى عَنِ مُهْجَتِي لَا تُسَلِّبُ  
ولكمُ فِي شَيْتَبُوسٍ مِنْ مَنَى      قَدْ قَضَيْنَاهُ وَلَا مِنْ يَعْتَبُ  
[ حَيْثُ هَاتِيكَ الشَّرَاجِبُ الَّتِي      كَمْ بِهَا مِنْ حُسْنِ بَدْرِ مُعْصَبُ ]<sup>٤</sup>  
وَعِنَاءٌ كُلُّ ذِي فَقْرٍ لَهُ      سَامِعٌ غَضَباً وَلَا مِنْ يَغْضَبُ  
بِلَدَّةٍ طَابَتْ وَرَبٌّ غَافِرٌ      لِيَتِي مَا زَلْتُ فِيهَا أُذْنُبُ

١ ج : أذكرتني .

٢ سقط هذا البيت من ج .

٣ ق : كم بعيش نالنا ، واضطربت في ج .

٤ البيت زيادة من إحدى النسخ ، ولم يرد في ق ج .

أين حُسنُ النيلِ من نهرِ بها  
 كم به من زورقٍ قد حلّه  
 لذةُ الناظرِ والسمعِ على  
 كم ركبناها فلمْ تجمَحْ بنا  
 طوعنا حيثُ اتجهنا لم نجد  
 قدْ أثارتْ عثيراً يُشبههُ  
 كلما رشنا لها أجنحةً  
 كطيورٍ لم تجدْ ريتاً لها  
 بل على الخضراءِ لا أنفكُ منْ  
 حيثُ للبحرِ زفيرٌ حولها  
 كم قطعنا الليلَ فيها مشرقاً  
 وكانَ البحرَ ثوبٌ أزرقُ  
 وإلى الحورِ حنيني دائماً  
 حيثُ سلَّ النهرُ غضباً وانثنتْ  
 وتشقتْ أعينُ العشاقِ منْ  
 ملعبٌ للهوى مُدْ فارقتُهُ  
 وإلى مالتقةٍ يهوى هوى  
 أينَ أبراجُها قدْ طالما  
 حَفَّتْ الأشجارُ عشقاً حولنا  
 جاءتِ الرياحُ بها ثم انثنتْ

كلُّ نغماتٍ لديه تُطربُ  
 قمرٌ ساقٍ وعودٌ يضربُ  
 شمّ زهرٍ وكؤوسٍ تُشربُ  
 ولكم من جامعٍ إذ يُركبُ  
 تعباً منها إذا ما نتعبُ  
 نشرُ سلكٍ فوقِ بسطٍ يُنهبُ  
 من قلاعٍ ظلمتْ منها تعجبُ  
 فبدأ للعينِ منها مشربُ  
 زفرةٌ في كلِّ حينٍ تلهبُ  
 تبصرُ الأغصانَ منه ترهبُ  
 بحبيبٍ ومُدامٍ يُسكبُ  
 فيه للبدرِ طرازٌ مُذهبُ  
 وعلى شئيلٍ دمعي صيبُ ٢  
 فوقهُ القضبُ وغنى الربربُ  
 حورٍ عينٍ بالمواضي تُحجبُ  
 ما ثنائي نحوَ هوى ملعبُ  
 قلبُ صبِّ بالنوى لا يُقلبُ  
 حتّ كأسِي في ذراها كوكبُ  
 تارةً تنأى وطوراً تقربُ  
 أتراها حدّرتْ من ترّقبُ

١ يعني الجزيرة الخضراء ، وقد قضى ابن سعيد فيها جانباً من حياته إذ كان والده والياً عليها ، وكان هو ينوب عنه أحياناً .

٢ الحور : حور مؤمّل وهو من متزهات غرناطة (المغرب ٢ : ١٠٣) وشئيل هو نهرها ، وقد مر التعريف به في هذا الكتاب .

وعلى مُرْسِيَّةِ أبكي دماً  
معَ شمسٍ طلعتَ في ناظري  
هذه حالي ، وأمّا حالي  
سمعتُ أذني محالاً ، ليتها  
وكذا الشيءُ إذا غاب انتَهَوْا  
ها أنا فيها فريدٌ مُهمَلٌ  
وأرى الأُلحاظَ تنبؤ عندما  
وإذا أحسبُ في الديوان لَمَ  
وأنادى مغربياً ، لِيَتِي  
نَسَبٌ بِشركٍ فيهِ خاملٌ  
أُتراني لَيْسَ لي جدُّ لهُ  
سوفَ أُنثي راجعاً لا غرتي

وقال بقَرْمُونَةَ متشوقاً إلى غَرْنَاطَةَ ١ :

أغثني إذا غنى الحمامُ المطربُ  
وميلٌ مَيْلَةً حَتَّى أَعانقَ أَيْكَةَ  
ولمَ أَرِ مَرَجَاناً ودُرّاً خِلافَهُ  
فديتكَ من غُصْنِ تَحْمَلُهُ نَقاً  
وجنتهُ جَنَاتُ عَدْنٍ وفي لَطْيِ  
ويعدلني العَدَالُ فِيهِ وإنتي  
لقدْ جهلوا ، هل عن حياتي أنثي  
يقولونَ لي قد صار ذكركَ مخلَقاً

بكأسِ بها وَسْوَاسُ فِكْرِي يُنْهَبُ  
وَألْتِمَ ثَغْرًا فِيهِ لِلصَّبِّ مَشْرَبُ  
يُطِيفُ بِهِ وَرَدٌ مِنَ الشَّهْدِ أَعْدَبُ  
تَطَلَعَ أَعْلَاهُ صَبَاحٌ وَغَيْهَبُ  
فؤادي وما لي من ذنوبٍ تعذبُ  
لأعصي عليهِ مَنْ يُلومُ ويعتبُ  
إذا نَمَقُوا أقوالَهُمْ وتألَّبوا  
وأصبحَ كلُّ في هِوَاهُ يُونَّبُ

١ سقط هذا السطر من ج .

وجسْمُكَ مَسْلُوبٌ ، وَمَالِكَ يُنْهَبُ  
 وَفَخْرِي لَا أَرْضِي بِهَا حِينَ يَغْضَبُ  
 بِسِحْرِ بَيَّاتِ الرَّقْمِيِّ لَيْسَ يَذْهَبُ  
 يَخُنُّ مَنْ إِذَا قَرَبْتَهُ يَنْقَرَبُ  
 فَمَا مِنْ رَأْيٍ بَدْرًا بِهَذِينَ يُحْجَبُ ؟  
 يَزُورُ فَلَا يُجِدِي حِمِّي وَتَرَقَّبُ  
 وَذُو الْوَدِّ مَنْ يَحْتَالُ أَوْ يَتَسَبَّبُ  
 لَهُ رَاعِيًا ، وَالرَّعِي لِلصَّبِّ أَوْجِبُ  
 بِهِ وَهُوَ مَنِّي فِي التَّنَعُّمِ أَرْغَبُ  
 كَلَانَا بَلَدَاتِ التَّوَاصِلِ مُعْجَبُ  
 عَلَيَّ أَتَيْتِي مَا زَلْتُ أَثْنِي وَأَطْنِبُ  
 مَتَابِرُ مَا زَالَتْ بِهَا الطَّيْرُ تَخْطُبُ  
 خَلَالَ رِيَاضِ الْأَصِيلِ تَذْهَبُ  
 غَدَتِ تَشْرَبُ الْأَلْبَابَ أَيَّانَ تَشْرَبُ  
 أَزَاهِرُهُ أَيَّانَ فِي الْكَأْسِ تُسْكَبُ  
 تَبَسَّمُ عَنْ دُرِّ لَهَا فَتَقْطَبُ  
 سَرَابًا بِأَفَاقِ الزَّجَاجَةِ يَلْعَبُ  
 إِلَى أَنْ رَأَيْنَا الشَّمْسَ عَنَّا تَغْرَبُ  
 دَرَى قَدَرًا مَا فِي الْكَأْسِ أَقْبَلُ يَعْجَبُ  
 فَلَا كَأْسَ إِلَّا وَهُوَ فِي اللَّيْلِ كَوَكْبُ  
 بَأَنَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ تَدْنُو وَتَغْرَبُ

وَعَرِضُكَ مَبْدُولٌ ، وَعَقْلُكَ تَالِفٌ  
 فَقُلْتُ لَهُمْ عَرِضِي وَعَقْلِي وَالْعُلَا  
 جُنُونٌ أَبَى أَنْ لَا يَلِينُ لِعَازِمِ  
 فَقَالُوا أَلَا قَدْ خَانَ عَهْدَكَ قُلْتُ لَمْ  
 وَكَمْ دُونَهُ مِنْ صَارِمٍ وَمُتَقَفِّ  
 عَلَيَّ أَنَّهُ يَسْتَسْهَلُ الصَّعْبَ عِنْدَمَا  
 وَكَمْ حِيلَةٌ تَبْرَى عَلَى إِثْرِ حَالَةٍ  
 عَلَيَّ أَنَّهُ لَوْ خَانَ عَهْدِي لَمْ أَزَلْ  
 فَأَيْنَ زَمَانٌ لَمْ يَخْنِي سَاعَةً  
 وَلَا فِيهِ مِنْ بَخْلِ وَلَا بِي قَنَاعَةٌ  
 وَيَا رَبَّ يَوْمٍ لَا أَقُومُ بِشُكْرِهِ  
 عَلَى نَهْرِ شَتِيلٍ وَلِلْقَضْبِ حَوْلِنَا  
 وَقَدْ قَرَعَتْ مِنْهُ سَبَائِكُ<sup>٢</sup> فَضَّةً  
 شَرَبْنَا عَلَيْهَا قَهْوَةً ذَهَبِيَّةً  
 كَأَنَّ يَاسْمِينًا وَسَطَ وَرْدٍ تَفْتَحَتْ  
 إِذَا مَا شَرَبْنَاهَا لَنِيْلٍ مَسْرَّةً  
 أَتَتْ دُونَهَا الْأَحْقَابُ حَتَّى تَخَالَهَا  
 نَعِمْنَا بِهَا وَالْيَوْمُ قَدْرَقَ بَرْدُهُ  
 فَقَالُوا أَلَا هَاتُوا السَّرَاحَ فَكُلْ مَنْ  
 وَقَالَ أَلَا تَدْرُونَ مَا فِي كَوْوَسِكُمْ  
 كَوَاكِبُ أَمَسَتْ بَيْنَ شَرْبٍ وَلَمْ تَخْلُ

١ ج : زماناً .

٢ ق : وقد قرعت منه سبائك .

ظللنا عليها عاكفينَ وليلنا  
فلم نثنِ عن دين الصُّبوحِ عاتنا  
صُرعنا فأمسى يحسبُ السكرُ قد قضى  
وكمَّ ليلَةَ في إثر يومٍ وعدَّ لي  
فيا ليتَ ما ولى مُعادٌ نعيمُهُ  
وأَيُّ نعيمٍ عندَ مَنْ يتغرَّبُ  
نهارُ إلى أنْ صاح بالأيكِ مطربُ  
إلى أنْ غدا مَنْ ليس يعرفُ يندبُ  
علينا ، وذاك السكرُ أشهى وأعجبُ  
وعُدَّ لُ مَنْ يُصغي لقولي خيبُ  
عندَ مَنْ يتغرَّبُ

قال : وقلت بإشيلية ذاكراً لوادي الطَّلحِ ، وهو بشرق لإشيلية ملتف الأشجار ، كثير مُترنم الأطيَّار ، وكان المعتمد بن عباد كثيراً ما ينتابه مع رميكيتيه ، وأولي أنسه ومسرته :

سائلٌ بوادي الطَّلحِ ريح الصِّبا  
كانتَ رسولاً فيه ما بيننا  
يا قاتلَ الله أناساً إذا  
هلاً رَعَوْا أنا وثِقنا بهم  
يا قاتلَ الله الذي لم يتب  
واليمُّ لا يعرفُ ما طعمه  
دعني من ذكر الوُشاة الألى  
واذكرُ بوادي الطَّلحِ عهداً لنا  
يجانب العطف وقد مالت الأغ  
والطيرُ مازتَ بينَ ألحانها  
وخانتني مَنْ لا أسميه مِنْ  
قد أترع الكأسَ وحيًا بها  
أهلاً وسهلاً بالذي شِثته  
هل سُخِّرتُ لي في زمان الصِّبا  
لن نأمن الرُّسلَ ولن نكتسبنا  
ما استؤمنوا خانوا ، فما أعجبا  
وما اتخذنا عنهم مذهباً  
من غدرهم من بعد ما جرباً  
إلا الذي وافى لأن يشرباً  
لما يزلُ فكري بهم ملهبا  
لله ما أحلى وما أطيبا  
صانُ والزهرُ بيتُ الصِّبا  
وليسَ إلا مُعجِباً مطرباً  
شُحَّ أخافُ الدهرَ أن يسلبا  
وقلتُ أهلاً بالئني مرحباً  
يا بدرَ تمَّ مُهدياً كوكبا

١ انظر هذه القصيدة فيما تقدم ج ١ ص ٦٩١ وفي روايتها بعض اختلاف ، ليس من الضروري إثباته .

لكنني آليتُ أسقى بها  
فَمَجَّ لي في الكأس من ثغره  
فقال : ها لثمي نُقْلاً ولا  
فاقطفُ بخدي الوردَ والآسَ والـ  
أُسْعِفْتَهُ غصناً غداً مثمراً  
قَدْتُ كنتُ ذا نهيٍ وذا إمرةٍ  
ولم أصنُ عِرْضِي في حُبِّهِ  
حتى إذا ما قال لي حاسدي  
أرسلتُ من شعري سحراً له  
وقالَ عرْفُهُ بأني سَأَحُ  
فزاد في شوقي له وَعَدُهُ  
أمدُّ طرفي ثم أثنيه مِنُ  
أصدق الوعدِ وطوراً أرى  
أتى ومن سَخَّرَهُ بعدما  
قبَلتُ في التربِّ ولم أستطعُ  
هتأتُ ربي إذ غدا هالةٌ  
بالله ميلٌ معتنقاً لاأتماً  
وقالَ : ما ترغِبُ؟ قلتُ : اتندُ  
فقال : لا مرغِبَ عن ذكر ما  
فكان ما كانَ ، فوالله ما

أو تودِعَ عنها ثَغْرَكَ الأُسْبيا  
ما حَبَّ الشربَ وما طيباً  
تَشَمُّ إلاَّ عَرْفِي الأُطيا  
نسرینَ لا تحفلُ بزهرِ الرئی  
ومن جنّاه ميسه قرباً  
حتى تَبَدَّتْ فحللتُ الحبا  
ولم أطيحُ فيه الذي أتبا  
ترجوهُ والكوكبَ أن يغربا  
يسرُّ المرغَبَ والمطلبا  
تالُ فما أجنبُ المكتبا  
ولم أزلُ مُقْتَعِداً مَرَقبا  
خوفِ أخي التنغيصِ أن يرقبا  
تكذيبهُ والحُرُّ لن يكذبا  
أياسُ بطناً كادَ أن يُغضبا  
من حَصَرَ اللُّقيا سوى مرحبا  
وقلتُ : يا مَنْ لم يُضِعْ أشعبا  
فمال كالغصنِ ثننته الصبا  
أدرکتَ إذ کلّمتني المأربا  
ترغبهُ ، قلتُ : إذا مرکبا  
ذکرتُهُ دهري أو أغلبا

قال : وقلت باقتراح الملك الصالح نور الدين صاحب حمص أن أكتب  
بالذهب على تفاعلة عتبر قدمها لابن عمه الملك الصالح ملك الديار المصرية<sup>١</sup> :

١ انظر ما سبق ص : ٢٦٦ .

أنا لَوْنُ الشَّبابِ وَالْحَالِ أَهْدِي      تَ لَمَنْ قَدْ كَسَا الزَّمَانَ شَبَابًا  
 مَلِكِ الْعَالَمِينَ نَجْمِ بَنِي أُرَيْ      وَبَ ، لَازَالَ فِي الْمَعَالِي مَهَابًا  
 جِئْتُ مَلَأَى مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ      مِنْ شُكُورِ إِحْسَانِهِ وَالثَّوَابِ  
 لَسْتُ مَمَّنَ لَهُ خُطَابٌ وَلَكِنْ      قَدْ كَفَانِي أُرَيْجُ عَرَفِي خُطَابًا

قال : ولما أنشد أبو عبد الله ابن الأبار كاتب ملك إفريقية لنفسه :

لِللَّهِ دَوْلَابٌ يَدُورُ كَأَنَّهُ      فَلَكَ وَلَكِنْ مَا ارْتَقَاهُ كَوْكَبٌ  
 هَامَتْ بِهِ الْأَحْدَاقُ لَمَّا نَادَمَتْ      مِنْهُ الْحَدِيقَةُ سَاقِيًا لَا يَشْرَبُ  
 نَصَبَتْهُ فَوْقَ النَّهْرِ أَيْدٍ قَدَّرَتْ      تَرُويحُهُ الْأَرْوَاحُ سَاعَةَ يُنْصَبُ  
 فَكَأَنَّهُ وَهُوَ الطَّلِيْقُ مُقَيَّدٌ      وَكَأَنَّهُ وَهُوَ الْحَبِيْسُ مُسَيَّبٌ  
 لِلْمَاءِ فِيهِ تَصَعَّدُ وَتُجَدَّرُ      كَالْمُزْنِ يَسْتَسْقِي الْبَحَارَ وَيَسْكَبُ

حلف أبو عبد الله ابن أبي الحسين ابن عمي أن يصنع في ذلك شيئاً ، فقال <sup>١</sup> :

وَمُخَيِّتِ الْأَصْلَاعِ <sup>٢</sup> تَحْنُو عَلَى الثَّرَى      وَتَسْقِي نَبَاتَ التَّرْبِ دَرَّ <sup>٣</sup> التَّرَائِبِ  
 تُعَدُّ <sup>٤</sup> مِنَ الْأَفْلَاقِ أَنَّ مِيَاهَهَا      نَجُومٌ لِرَجْمِ الْمُحَلِّ ذَاتُ ذَوَائِبِ  
 وَأَعْجَبُهَا رَقْصُ الْغُصُونِ ذَوَابِلًا <sup>٥</sup>      فَدَارَتْ بِأَمْثَالِ السُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ  
 وَتَحْسِبُهَا وَالرُّوْضَ : سَاقٍ وَقَيْنَةٍ      فَمَا بَرَحَا مَا بَيْنَ شَادٍ وَشَارِبِ  
 وَمَا خَلَّتْهَا تَشْكُو بِتَحْنَانِهَا الصَّدَى      وَمَنْ فَوْقَ <sup>٦</sup> مَتْنِهَا اطَّرَادُ الْمَذَانِبِ

١ انظر هذه الأبيات في المغرب ٢ : ١٦٩ .

٢ المغرب : الأصلاب .

٣ المغرب : دمع .

٤ المغرب : تظن .

٥ المغرب : وأطربها .

٦ المغرب : وما بين .

فَخَذُّ مِنْ مَجَارِيهَا وَدُهُمَّةَ لُونِهَا « بياض العطايا في سواد المطالب ١ »

ثم كلفت في أن أقول في ذلك ، وأنا أعتذر بأن هذين لم يتركا لي ما أقول :

وذا تَحَنِينٍ لَا تَرَالُ مُطِيفَةً  
كَأَنَّ أَلْفًا بَانَ عَنْهَا فَأُصْبِحَتْ  
إِذَا ابْتَسَمَتْ فِيهَا الرِّيَاضُ شِمَاتَةً  
فَكَمْ رَقَصَتْ أَغْصَانُهَا فَرَمَتْ لَهَا  
لَقَدْ سَخَطَتْ مِنْهَا الثُّغُورُ وَأَرْضَتْ أَلَا  
شَرِبْتُ عَلَى تَحْنَانِهَا ذَهَبِيَّةً  
فَهَاجَتْ لِي الْكَأْسُ أَدْكَارَ مَغْضَبٍ  
فَلَا تَدْعُ التَّبْرِيزَ فِي كَثْرَةِ الْهُوَى

قال : وقلت بغرناطة :

بَاكِرِ الْهُوَى وَمَنْ شَاءَ عَتَبَ  
مَا تَوَانِي مَنْ رَأَى الزَّهْرَ زَهَا  
وَشَدَاهُ صَانَهُ حَتَّى اغْتَدَى  
يَا نَسِيمًا عَطَّرَ الْأَرْجَاءَ ، هَلْ  
هُمْ أَعْلَوَهُ وَهُمْ يَشْفُونَهُ  
خَلَعَ الرُّوْضُ عَلَيْهِ زَهْرَهُ  
فَأَبَى إِلَّا شَدَاهُ ٢ فَانْثَى  
لَسْتُ ذَا نُكْرٍ لِأَنَّ يُشْبِهُكُمْ

١ من قول أبي تمام :

وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب

٢ ج : ثناه .



غَالِبَ الْأَغْصَانِ فِي بَدْءِهِ      ثَمَّ لَمَّا زَادَ أَعْطَتْهُ الْغَلْبَ  
 فَبَكَى الظَّلُّ عَلَيْهَا رَحْمَةً      أَوْ بَكَى مِنْ وَعْظِ طَيْرٍ قَدْ خَطَبَ  
 كُلُّ هَذَا قَدْ دَعَانِي لِلَّتِي      مَلَكَتْ رَقْمِي عَلَى مَرِّ الْحِقَبِ  
 قَهْوَةٌ أُبْسِمُ مِنْ عُجْبٍ لَهَا      عِنْدَمَا تَبَسُّمُ عُجْبًا عَنْ حَبِّ  
 حَاكَتِ الْحَمْرَ فَلَمَّا شُعْشَعَتْ      قُلْتُ مَا لِلخَمْرِ بِالمَاءِ التَّهَبِ  
 وَبَدَّتْ مِنْ كَأْسِهَا لِي فَضَّةٌ      مَلَّتْ إِذْ جَمَدَتْ ذَوْبَ الذَّهَبِ  
 سَقْنِيهَا مِنْ يَدَيَّ مِثْبَهَا      بِالَّذِي يَحْوِيهِ طَرْفٌ وَشَنَبِ  
 لَا جَعَلْتُ الدَّهْرَ نُقْلِي غَيْرَ مَا      لَدَّ لِي مِنْ رِيْقِ ثَغْرِ كَالضَّرْبِ  
 لَا جَعَلْتُ الدَّهْرَ رِيحَانِي سِوَى      مَا بِمُخَدَّيْهِ مِنَ الْوَرْدِ انْتِخَبِ  
 لَمْ أَزَلْ أَقْطَعُ دَهْرِي هَكَذَا      وَكَذَا أَقْطَعُ مِنْهُ الْمُرْتَقَبِ  
 حَبْدًا عَيْشٌ قَطَعْنَاهُ لَدَى      مَعْطَفِ الْخَابُورِ مَا فِيهِ نَصَبِ  
 مَعَ مَنْ لَمْ يَدِرْ يَوْمًا مَا الْخَفَا      مَنْ أَرَاكَ الصَّبَّ فِيهِ مِنْ تَعَبِ  
 كُلُّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ حَسَنٌ      لَمْ يُذْقِي فِي الْهَوَى مَرَّ الْغَضَبِ  
 أَيُّ عَيْشٍ سَمِحَ الدَّهْرُ بِهِ      كُلُّ نَعْمَى ذَهَبَتْ لَمَّا ذَهَبِ

قال : ودخلت بتونس مع أبي العباس الغساني حماماً ، فنظرنا إلى غلتمان  
 في نهاية الحسن ونعومة الأبدان ، فقلت مخاطباً له :

دَخَلْتُ حَمَامًا وَقَصْدِي بِهِ      تَعِيمُ جِسْمٍ فَعَدَا لِي عَذَابُ  
 قَلْتُ لَطْفِي فَاعْتَرَضَتْ حُورَهُ      وَقَلْتُ عَدْنٌ فَنَهَانِي التَّهَابُ  
 وَأَنْتَ فِي الْفَضْلِ إِمَامٌ فَكُنْ      فِي الْحُكْمِ مِمَّنْ حَازَ فَصْلَ الْخَطَابِ

فقال :

لَا تَأْمَنِ الْحَمَامَ فِي فَعْلِهِ      فَلَيْسَ مَا يَأْتِيهِ عِنْدِي صَوَابُ

١ ترجم له ابن سعيد في القدح : ١٢ ، وكان كاتب العلامة عند المستنصر الحفصي وبينه وبين  
 ابن سعيد شيء كثير من المطارحات والتملحات نظماً ونثراً .

فما أرى أخذعَ منه ولا أكذبَ إلا أن يكونَ السَّراب  
يُبدي لك الغيدَ كحُورِ الدُّمى ويُلْبِسُ الشيخَ برُودَ الشَّبَاب  
ظُنَّ بِهِ النَّارَ فلا جَنَّةَ للحُسنِ إلا ما حوته الثياب

[ نقول عن ابن سعيد ]

[ ١ - بناء الهودج بروضة مصر ]

ومن فوائده<sup>١</sup> ، أعني ابن سعيد رحمه الله تعالى - في كتابه « المحلى بالأشعار »<sup>٢</sup>  
نقلاً عن القرطبي<sup>٣</sup> - قضيةُ بناء الهودج بروضة مصر ، وهو من منزهات  
الخلفاء الفاطميين العظيمة العجيبة البناء البديعة ، وذلك أنه يقال : إن الباني له الخليفة  
الأمير بأحكام الله<sup>٤</sup> ، للبدوية التي غلب عليه حبها ، بجوار البستان المختار ،  
وكان يتردد إليه كثيراً وقُتل وهو متوجه إليه ، وما زال منزهاً للخلفاء من بعده .  
وقد أكثر الناس في حديث البدوية وابن مِيَّاح من بني عمها ، وما يتعلق  
بذلك من ذكر الأمر ، حتى صارت رواياتهم في هذا الشأن كحديث البطال  
وَألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك ، والاختصار منه أن يقال : إن الأمر قد كان  
بلي بعشق الجوارى العربيات ، وصارت له عيون في البوادي ، فبلغه أن بالصعيد  
جارية من أكمل العرب وأظرفهم ، شاعرة جميلة ، فيقال : إنه تزيا بزى بُدَاة

- ١ ورد هذا الخبر في المقتطفات ، الورقة : ٩ ، والمخطوط ٢ : ٣٧٦ .
- ٢ ذكره أيضاً المقرئ في المخطوط ٢ : ٣٧٦ ولعله يعني كتابه « القدر المجل في التاريخ  
المجل » ، وهو يضم - فيما يبدو - أخباراً تاريخية أخرى عدا التراجم التي وردت في القسم  
الباقى منه المسمى « اختصار القدر » .
- ٣ في قج ودوزي والمقتطفات : « القرطبي » والصواب ما أثبتته ، وهو محمد بن سعد أبو بكر القرطبي ؛  
صنف كتاباً في تاريخ مصر في أيام العاضد وعنه ينقل ابن سعيد في القسم المصري من المغرب  
( انظر ترجمته في المغرب ١ : ٢٦٧ ) .
- ٤ من متأخري الخلفاء الفاطميين ( ٤٩٥ - ٥٢٤ ) قام بأمره أمير الجيوش الأفضل شامشاه ابن  
بدر الجمالي .

الأعراب ، وكان يجول في الأحياء إلى أن انتهى إلى حيها ، وبات هناك ، ونحيل حتى عاينها هناك ، فما ملك صبره ، ورجع إلى مقر ملكه ، وأرسل إلى أهلها يخطبها ، وتزوجها ، فلما وصلت إليه صعبَ عليها مفارقة ما اعتادت ، وأحبت أن تسرح طرفها في الفضاء ، ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة ، فبنى لها البناء المشهور في جزيرة الفُسطاط المعروف بالهودج ، وكان غريب الشكل ، على شط النيل ، وبقيت متعلقة الخاطر ببن عم لها رُبِّيتْ معه ، يُعرف بابن مِيّاح ، فكتبت إليه من قصر الأمر :

يا ابن مِيّاحِ إليك المشتكى      مالكٌ من بعدكم قد ملكا  
كنتُ في حبي طليقاً أمراً      نائلاً ما شئتُ منكم مدركا  
فأنا الآن بقصرٍ مُوصدٍ      لا أرى إلاّ حبيساً<sup>١</sup> ممسكا  
كم تشنينا كأغصانِ اللوى      حيثُ لا نخشى علينا دركا<sup>٢</sup>

فأجابها بقوله :

بنتَ عمي والتي غَدَّيْتُها      بالهوى حتى علا واحتنكا<sup>٣</sup>  
بُحْتُ بالشكوى وعندي ضِعْفُها      لو غدا يَنْفَعُ مِنّا المُشْتكى  
مالكُ<sup>٤</sup> الأمرِ إليه يَشْتكى      هالكٌ ، وهو الذي قد أهلكا

قال : وللناس في طلب ابن مِيّاح واختفائه أخبار تطول .  
وكان من عرب طيء في عصر الآمر طراد بن مهلهل ، فقال وقد بلغته  
هذه الأبيات :

١ ج ودوزي : خيئاً .

٢ سقط من ج .

٣ ق ودوزي : واحتبكا .

٤ ج : ملك .

ألا بلغوا الأمر المصطفى  
 قطعت الألفين عن ألفه  
 مقال طرادٍ ونعم المقال  
 بها سمر الحى حول الرحال  
 كذا كان آباؤك الأكرمون ؟  
 سألتُ قتل لي جواب السؤال

فقال الخليفة الأمر لما بلغته الأبيات : جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله ،  
 فطلب في أحياء العرب فلم يوجد ، فقيل : ما أخسر صقعة طراد ، باع عدة  
 أبيات بثلاثة أبيات .

## [ ٢ - مكين الدولة ابن حديد ]

وكان بالإسكندرية<sup>١</sup> مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد  
 ابن الحسن بن حديد ، له مروءة عظيمة ، ومختلي أفعال البرامكة ، وللشعراء  
 فيه أمداح كثيرة ، ومدحه ظافر الحداد وأمىة أبو الصلت وغيرهما ، وكان  
 له بستان يتفرج فيه ، به جرن كبير من رخام ، وهو قطعة واحدة ينحدر فيه  
 الماء فيبقى كالبركة من كبره ، وكان يجد في نفسه برؤيته<sup>٢</sup> زيادة على أهل  
 التمتع والمباهاة في عصره ، فوشي به للبدوية محبوبة الأمر ، فسألت الأمر في  
 حمل الجرن إليها ، فأرسل إلى ابن حديد في إحضار الجرن ، فلم يجد بداً من  
 حمله من البستان ، فلما صار إلى الأمر أمر بعمله في المودج [ وتركبه هنالك ]<sup>٣</sup> ،  
 فقلق ابن حديد ، وصارت في قلبه حزازة<sup>٤</sup> من أخذ الجرن ، فأخذ يخدم البدوية  
 وجميع من يلود بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد في الكثرة ، حتى قالت  
 البدوية : هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ، ولم يكلفنا قط أمراً نقدر عليه عند

١ هذا الخبر في المقتطفات ( الورقة : ١٠ ) والمرزي ٢ : ٣٧٧ .

٢ المقتطفات : وكان كمن يجد في نفسه برؤيته له .

٣ زيادة من المقتطفات .

٤ ق : حرارة .

الخليفة مولانا ، فلماً قيل له عنها هذا القول قال : ما لي حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها في عزّ غير رَدّ السَّقِيَّة التي قُلِّعت من داري التي بنيتها في أيامهم من نعمتهم<sup>١</sup> تُرَدُّ إلى مكانها ، فتعجبت من ذلك ، وردتها عليه ، فقيل له : قد حضلت في حد أن خَيْرْتِك البدوية في جميع المطالب<sup>٢</sup> ، فنزلت همتك إلى قطعة حجر ، فقال : أنا أعرفُ بنفسِي ، ما كان لها أمل سوى أن لا تُغلب في أخذ ذلك الحجر من مكانه ، وقد بلَّغها الله تعالى أمَلها .

وكان هذا المكين متولي قضاء الإسكندرية ونظرها في أيام الأمر ، وبلغ من علوهمته وعظيم مروءته أن سلطان الملوك حَيَدَرَة أخا الوزير المأمون ابن البطاحي لما قلده الأمر ولاية نجر الإسكندرية سنة سبع عشرة وخمسائة ، وأضاف إليها الأعمال البحرية ، ووصل إلى الثغر - وصف له الطيب دهن الشمع بحضرة القاضي المذكور ، فأمر في الحال بعض غلمانه بالمضي إلى داره لإحضار دهن الشمع ، فما كان أكثر من مسافة الطريق إلّا وقد أحضر حقّاً محتوماً ، فكّ عنه ، فوجد فيه مندبل لطيف مذهب على مراق<sup>٣</sup> بلور فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر : بيت دهن مُمَسِّك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته ، فعندما أحضره الرسولُ تعجب المؤمن والحاضرون من علوهمته ، فعندما شاهد القاضي ذلك بالبحر في شِكر إنعامه ، وحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه ، وكان جواب المؤمن : وقد قبلته منك لا لحاجة إليه ، ولا نظر في قيمته ، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها ، وذكر أن قيمة هذا المُداف وما عليه خمسائة دينار .

فانظر ، رحمك الله تعالى ، إلى مَنْ يكون دهن الشمع عنده في إناء قيمته خمسائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه ، فماذا تكون ثيابه

١ المقتطفات : من يستاني الذي أنشأته من نعمتهم .

٢ المقتطفات : في ما تطلب .

٣ ق : مذاق .

وحلّى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات ؟ وهذا إنما هو حال قاضي الإسكندرية ومن قاضي الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة ؟ ! وما نسبة أعيان الدولة وإن عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة وأبتهتها إلا يسير حقير .

وما زال الخليفة الأمر يتردد إلى الهودج المذكور إلى أن ركب يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة ٥٢٤ يربد الهودج ، وقد كمن له عدة من التزارية<sup>١</sup> على رأس الجسر من ناحية الروضة ، فوثبوا عليه وأثخنوه بالجراحة ، وحُمل في العشاري<sup>٢</sup> إلى اللؤلؤة<sup>٣</sup> ، فمات بها ، وقيل : قبل أن يصل إليه ، وقد خرب هذا الهودج ، وجُهل مكانه من الروضة ، والله عاقبة الأمور ، نقل ذلك كلفه الحافظ المقرئ<sup>٤</sup> ، رحمه الله تعالى .

• • •

[ ٣ - الشهاب التلعفري ]

قال النور ابن سعيد ، ومن خطه نقلت : لما نزلنا بتلّعفر حين خرجنا من سنجار إلى الموصل سألت أحد شيوخنا عن والد شهاب الدين التلعفري ، فقال : أنا أدركته ، وكان كثير التجول ، وأنشدني لنفسه في عيد أدركه في غير بلده :

يبتهجُ الناسُ إذا عيّدوا وعيند سرائهمُ أكدُ  
لأنتي أبصرُ أحبابهم ومُقلتي محبوبها تفقيدُ

- ١ التزارية : هم الذين يرون تسلسل الإمامة في خلفاء الفاطميين حتى تزار بن المستنصر ولا يرون إمامة من بعده ، والتزارية تظن في إمامة المستعلي ، وتضادها الفرقة المستعلية وهي ترى صحة خلافة المستعلي والأمر والحافظ . . . إلخ .
- ٢ العشاري : نوع من السفن .
- ٣ اللؤلؤة : موضع نزاهة الخلفاء الفاطميين وقصورهم ، بناها الخليفة العزيز .
- ٤ انظر الخطط المقرئية ٢ : ٣٤٨ - ٣٥١ .

قال : وخرج ابنه الشهاب أجول منه شخصاً وشعراً ، وصدق فيما قاله .  
وأشاد ابن سعيد للشهاب التلعفري<sup>١</sup> :

لَكَ ثَغْرٌ كُلُّوْهُ فِي عَقِيْقٍ      وَرُضَابٌ كَالشَّهْدِ أَوْ كَالرَّحِيْقِ  
وَجُفُونٌ لَمْ يُمْتَشَقْ سَيْفُهَا إِلَّا      لَا لِمُعْرَى بِقَدِّكَ الْمَشْوِقِ  
تِهَتْ عَجْبًا بِكُلِّ فَنٍّ مِنَ الْحُسْنِ      نِ جَلِيْلٍ وَكُلِّ مَعْنَى دَقِيْقِ  
وَتَفَرَّدَتْ بِالْجَمَالِ الَّذِي خَدَّ      لِأَنَّكَ مُسْتَوْحِشًا بِغَيْرِ رَفِيْقِ  
بِاللِّحَازِ الَّتِي بِهَا لَمْ تَزَلْ تَرَى      شَقُّ قَلْبِي وَبِالْقَوَامِ الرَّشِيْقِ  
لَا تُغَيِّرُ بِالْغَوِيْرِ إِذْ تَتَشَنَّى      فِيهِ أَعْطَافُ كُلِّ غَصْنٍ وَرَبِيْقِ  
وَإِنَّ مَحْمَرًا وَرَدَّ خَدَّيْكَ وَاسْتَرَى      هُوَ وَإِلَّا يَنْشَقُّ قَلْبُ الشَّقِيْقِ

قال ابن سعيد : وحظي الشهاب التلعفري بمآدمة الملوك ، وكونهم يقدمونه ،  
ويُقْبِلُون على شعره ، وعهدي به لا ينشد أحدٌ قبله في مجلس الملك الناصر ،  
على كثرة الشعراء ، وكثرة من يعتني بهم ، ولما جمعتُ للملك الناصر كتاب  
« ملوك الشعر » جعلتُ ملك شعر الشهاب البيت الرابع من المقطوعة المتقدمة ،  
فإنه كان كثيراً ما ينشده وينوه به . والتشفي من ذكر الشهاب ومحاسن شعره  
له مكان بكتاب « الغرة الطالعة في فضلاء المائة السابعة » وهو الآن عند الملك  
المنصور صاحب حماة قد علقتُ سنه ، وما فارقه غرامه ودته ، انتهى .

\* \* \*

١ هو محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة منسوب إلى تل أعفر أو تل يعفر ( ثم تدغم الكلمتان )  
ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ وكان خليعاً محتجاً بالقمار أهلك فيه كل ما ناله من عطاء وكسب ،  
توفي سنة ٦٧٥ هـ وديوانه مطبوع . ( انظر ترجمته في الفوات ٢ : ٥٤٦ والنجوم الزاهرة ٧ :  
٢٥٥ وشذرات الذهب ٥ : ٣٤٩ وتاريخ ابن الفرات ٧ : ٧٦ ومادة « تل أعفر » بمجموع  
البلدان ) .

ولما أجرى ابنُ سعيد في بعض مصنفاته ذكرَ الملك العادل بن أيوب<sup>١</sup> قال ما نصّه : وكان من أعظم السلاطين دهاءً وحزماً ، وكان يُضرب به المثل في إفساد القلوب على أعدائه وإصلاحها له ، ويحكى أنه بشّره شخص بأن أميراً من أمراء الأفضل ابن صلاح الدين فسّد عليه ، فأعطاه مالاّ جزيلاً ، وأرسل مستخفياً إلى المذكور يزيد بصيرة في الانحراف عن الأفضل ، ويَعِدّه بما يفسد الصالح فكيف الفاسد ، قال : وكان يمنع حتى يوصف بالبخل ، ويجود في مواضع الجود حتى يوصف بالسّماح ، وكان صلاح الدين - وهو السلطان - يأخذ برأيه ، وقدّم له أحدُ المصنفين كتاباً مُصَوّراً في مكابد الحروب ومنازلة المدن ، وهو حينئذ على عكّاً محاصراً للفرنج ، فقال له : ما تحتاج إلى هذا الكتاب ومعنا أخونا أبو بكر ، وكان كثير المُداراة والحزم ، ومن حكاياته في ذلك أن أحد الأشياخ من خوّاصّه قال له يوماً ، وهو على سماطه يأكل : يا خُوند ، ما وفيتَ معي ولا رعيت سابق خدمتي ، وكلمه بدآلّة السن وقِدَم الصحبة قبل الملك ، فقال لماليكه : انظروا وسَطه ، فجسّوا الكَمَرانَ ؛ وقال : خذوا الصرة التي فيه ، فوجدوا صُرّةً ، فقال : افتحوها ، ففتحوها فإذا فيها ذرّور ، فقال العادل : كُلْ مِنْ هذا الذرور ، فتوقف ، وعلم أنه مُطَّلِع على أنه سم ، فقال : كيف نَسَبْتَنِي إلى قلة الوفاء ، وأنا منذ سنين أعلم أنك تريد أن تسمني بهذا السم ، وقد جعل لك الملك الفلاني على ذلك عشرة آلاف دينار ، فلا أنا أمكنتك من نفسي ، ولا أشعرتك ، لئلا يكون في ذلك ما لا خفاء به ، وتركتك على

١ هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذي ، ولد سنة ٥٣٩ هـ واشترك في معظم الأعمال الحربية التي قام بها أخوه صلاح الدين ، فأعطاه مصر ثم حلب ثم الشرق والكرك والشويك ، ثم جرت بينه وبين أولاد أخيه خطوط ، فملك دمشق سنة ٥٩٢ هـ ، وملك مصر سنة ٥٩٦ هـ وامتد ملكه على مناطق واسعة وتوفي سنة ٦١٥ هـ ؛ وأخباره مشروحة في تاريخ ابن الأثير ومفرح الكروب ومرآة الزمان وغيرها .



حالك ، وأنا مع هذا لا أُغَيِّر عليك نعمة ، ثم قال : ردوا سمه إلى كَمْرَانِهِ ، لا أبقى الله تعالى عليه إن قدر وأبقى علي ، فجعل يقبّل الأرض ويقول : هكذا والله كان ، وأنا تائب لله تعالى ، ثم إن الشيخ جدّد توبة ، واستأنف أدباً آخر وخدمة أخرى ، وكانت هذه الفعلة إحدى عجائب العادل .

قال : وكان كثير المصانعات حتى إنه يَصُوغ الحلي الذي يصلح لنساء الفرنج ويُوَجِّه في الخفية إليهنّ ، حتى يمسكن أزواجهنّ عن الحركة ، وله في ذلك مع ملوك الإسلام ما يطول ذكره .

ولما خرج ابنُ أخيه المعز إسماعيل بن طغتكين<sup>١</sup> باليمن ، وخطب لنفسه بالخلافة ، وكتب له أن يبایعه ويخطب له في بلاده ، كان في الجماعة مَنْ أشار إلى النظر في توجيهه عسكر له في البر والبحر ، وإنفاق الأموال قبل أن يتفاهم أمره ، فضحك وقال : مَنْ يكون عقله هذا العقل لا يجوج خصمه إلى كبير مؤونة ، أنا أعرف كيف أفسد عليه حاله في بلاده ، فضلاً عن أن يتطرق<sup>٢</sup> فساده لبلادي ، ثم إنه وجّه في السر لأصحاب دَوْلته بالوعد والوعيد وقال لهم : أنتم تعلمون بعقولكم أن هذا لا يسوغ لي ، فكيف يسوغ له ؟ وقد أدخل نفسه في أمر لا يخرج منه إلا بهلاكه ، فاحذروا أن تهلكوا معه ، واتعظوا بالآية ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ ﴾ (هود : ١١٣) وما لهذا عقل يدبر به نفسه ، فكيف يفضل عن تدبير خاصته إليكم ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص : ٨٨) فعندما وَعَتَ أَسْمَاعُهُمْ هذا وتدبروه بعقولهم قبضوا عليه وقتلوه ، وعادت البلاد للعادل ، وقال للمشيرين عليه في أول الأمر بتجهيز العسكر : قد كُفِينَا المؤونة بأيسر شيء من المال ، ولو حاولناه بما أشرتم به لم تقم خزائن ملكنا بالبلوغ إلى غايته .

١ ق : طغتكين ؛ ج : طغركين .

٢ ج : يطرق .

وكان - على ما بلغه من عظمة السلطان ، واتساع الممالك - يحكي ما جرى له في زمان خلوته من ذلك ، ويجب الاستماع لنوادير أنذال العالم ، واشتهر في خدمته مسافر أشهرهم خضير صاحب البستان المشهور عند الربوة بغوطة دمشق ؛ ومن نوادره الحارة معه أنه سمعه يوماً وهو يقول في وضوئه : اللهم حاسبني حساباً يسيراً ، ولا تحاسبني حساباً عسيراً ، فقال له : يا خوندُ على أي شيء يحاسبك حساباً عسيراً ؟ إذا قال لك : أين أموال الخلق التي أخذتها ؟ فقل له : تراها بأمانتها في الكرك ، وكان قد صنع بهذا المعقل الحشرات ، سميت بذلك لأن من رآها ، يتحسر إذا نظرها ، ولا يستطيع على شيء منها بحيلة ، وهي خواب مفروغة من ذهب وفضة تركت بمرأى من الناظرين ليشتهر ذلك في الآفاق . وقال العادل مرة ، وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم ممن ذكر في كتاب « المستجاد في حكايات الأجواد » : إنما هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين ، يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والأكابر للسخاء وتبذير الأموال ، فقال خضير : يا خوند ، ولأي شيء لا يكذبون عليك ؟ قال ابن سعيد : من وقف على حكايات أبي العيشاء مع عبّيد الله بن سليمان يجد مثل هذه الحكاية .

قال ابن سعيد : ووجدت الشهاب القوصي قد ذكر السلطان العادل في كتاب « [ تاج ] المعاجم »<sup>١</sup> وابتدأ الكتاب المذکور بحماسه والثناء عليه وخرّج عنه الحديث النبوي عن الحافظ السلفي ، وتمثل فيه عند وفاته<sup>٢</sup> :

١ في ق ج ودوزي : المعاجم ، واسم الكتاب « تاج المعاجم » كما سيرد بعد قليل ؛ ومؤلفه هو إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي القوصي الملقب بشهاب الدين ، وكنيته أبو الطاهر وأبو العرب وأبو المحامد وأبو الفداء ، نزل دمشق وجمع لنفسه نفعاً في أربع مجلدات وسماه « تابع المعاجم » وذكر فيه من لقيه من المحدّثين ، وتوفي بدمشق ٦٥٣ ( الطالع السعيد ٨١ - ٨٢ ) .

٢ مر البيهقي الثاني والثالث في مقدمة الفتح ج ١ : ١٤ .

ألامُ على بُكائي خيرَ ملكٍ      وقَلَّ لهُ بكائي بالنَّجِيعِ  
به كان الشبابُ جميعَ عُمري      ودَهْرِي كله زمن الربيعِ  
ففرَّقَ بيَّنا زمنٌ خؤونٌ      له شَعَفَ بتفريقِ الجميعِ

قال ابن سعيد : ودفن العادل بالمدرسة العادلية بدمشق ، وكان أنشأها  
للشافعية ، وهي في نهاية الحسن ، وبها خزانة كتب ، فيها تاريخ ابن عساكر ،  
وذيَّل هذا التاريخ وأختصره أبو شامة ، سمعت عليه منه هنالك ما تيسر أيام  
إقامتي بدمشق .

وأولاد العادل ملوك البلاد في صدر هذه المائة السابعة ، منهم الكامل والمعظم  
والأشرف ، وهؤلاء الثلاثة شهرُوا بالفضل وحب الفضلاء وقول الشعراء ،  
انتهى .

\* \* \*

[ ٥ - المرذغاني ]

وقال ابن سعيد ، في ترجمة الرئيس صفى الدين أحمد بن سعد المرذغاني <sup>١</sup> ،  
وهو من بيت وزارة ورياسة بدمشق : إن من شعره قوله :

كيف طابَتْ نفوسُكم بفراقِي      وفراقُ الأحبابِ مُرُّ المَدَاقِ  
لو علمتم بلَوْعَتِي وصَبَابَا      تي ووجندي وزَفَرَتِي واحترَاقِي  
لَرَتَيْتُمْ للمُسْتَهَامِ المَعْنَى      ووفيم بالعَهْدِ والميثاقِ

قال ابن سعيد : وقفت على ذكر هذا الرئيس في كتاب « تاج المعاجم »  
ووجدت صاحبه الشهاب القوصي قد قال : أخبرني بدمشق أنه قد كان عزم  
على السفر منها إلى مصر ، لأمر ضاق به صدره ، فهتف به هاتف في النوم ،  
وأنشده :

١ لم أستطع التثبت من ضبط هذه النسخة ، وفي بعض الأصول : المرذغاني ، والبردغاني .

يا أحمدُ اقنَعْ بالذي أُعْطِيَتْهُ      إنْ كُنْتَ لا تَرْضَى لِنَفْسِكَ ذُلَّهَا  
 ودَعِ التكاثرَ في الغنيِّ لمعاشر      أضحووا على جَمْعِ الدراهمِ وُلَّهَا  
 واعلَمْ بأنَّ اللهَ جلَّ جلالُهُ      لم يخلق الدنيا لأجلِكَ كلَّهَا  
 فانثني عزمه عن الحركة ، ثم بلغ ما أمّله دون سفر .

\* \* \*

### [ ٦ - دفترخوان الدمشقي ]

وقال ابن سعيد ، في ترجمة المنتجب أحمد بن عبد الكريم الدمشقي المعروف بدِفْتَرِخْوَان<sup>١</sup> ، وهو الذي يقرأ الدفاتر بين أيدي الملوك والأكابر<sup>٢</sup> : إنّه كان يقرأ الدفاتر بين يدي العادل بن أيوب ، وكان يكتب له بالأشعار في المواسم والفصول ، فينال من خيره ، وكتب له مرّة وقد أظل الشتاء في دمشق فقال :

مَوَلايَ جاءَ الشتاءُ والكيسُ منها خِلاءُ  
 لا زَالَ يَجْرِي بما تَرَ تَضِي عِلاكَ القِضاءِ  
 وكلُّ كافٍ إِلَيْهِ يُحْتَاجُ فِيهِ التواءُ<sup>٣</sup>

فقال له العادل : هذا الضمير الذي في البيت الأول على ماذا يعود ؟ قال : بحسب مكارم السلطان ، إن شئت على الدراهم ، وإن شئت على الدنانير ! فضحك وقال : هات كيسك ، فأخرج له كيساً يسع قدر مائة دينار ، فملأه

١ ترجمته في الوافي : ٧ الورقة : ٣٧ ولقبه منتجب الدين ؛ وبعد خدمته للعادل وشي به الحساد لديه فخرمه وهجره ، وتوفي دفترخوان سنة ٦١٥ بعد وفاة العادل ، وكان العادل قد رضي عنه قبل وفاته ؛ وقد نقل الصفدي ترجمته عن معجم الشهاب القوصي .  
 ٢ قال الصفدي في تعريف دفترخوان : « هو الذي يتحدث في أمر الكتب المجلدات ويكون أمرها راجعاً إليه ، وهو الذي يقرأ على السلطان فيها ، إما ليلاً وإما نهاراً ، ينادمه بذلك » .  
 ٣ يشير إلى كافات الشتاء : كالكن والكيس والكانون . . . إلخ وقد جمعها ابن سكرة في بيت واحد .

له ، وقال : أظنّه كان مُعَدّاً عندك ، فقال : مثل السلطان مَنْ يكون جوده  
مظنوناً .

وكتب إليه مرّة وقد أملق<sup>١</sup> :

انظر إليّ بعين جُودك مرّةً      فلعلّ محروم المطالب يُرزقُ  
طيرُ الرجاء على علاك<sup>٢</sup> تخلّق      وأظنّه سيعود وهو مخلّقُ

فأعطاه جملة دنائير ، وقال له : اشترِ بهذه ما تخلّق به طير رجائك ، انتهى .

\* \* \*

[ ٧ - الزناطي وابن الربيب ]

وأشُد ابن سعيد رحمه الله تعالى لبعض المغاربة ، وهو أبو الحسن علي بن  
مروان الزناطي<sup>٣</sup> الكاتب :

أنسُ أخي الفضل كتابٌ أتيقُ      أو صاحبٌ يُعنى بوَدِّ وثيقُ  
فإن تُعيرهُ دونَ رهنٍ به      تخسّرهُ أو تخسّرُ وداد الصديق  
وربّما تخسّرُ هذا وذا      فاسمّع رعاك الله نُصحَ الشفيق

قال : وأجابه المخاطب بهذه الأبيات ، وهو ابن الربيب<sup>٤</sup> ، بنثر نصّه :

١ البيتان في الوافي للصفدي .

٢ الوافي : إلى علاك .

٣ كذا في ق ج ودوزي ؛ وفي نسخة : الرباطي .

٤ ابن الربيب : ينصرف هذا الاسم إلى الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب القبرواني صاحب  
الرسالة التي وجهها لأبي المغيرة ابن حزم يذكر له إهمال أهل الأندلس في تقييد أخبارهم ومآثرهم  
(وستأتي في الباب السادس) ؛ وقد ترجم العمري لابن الربيب وسماه الحسين بن محمد (المسالك  
١١ : ٣١٩) وقال فيه : «ولو قرن به البلاذري لعصفت به ريحه النكباء فذري» فدل على  
أنه مؤرخ ؛ ويؤكد هذا ما نقله عن أمموزج ابن رشيقي من أن ابن الربيب «بلغ نهاية من الأدب  
وعلم النسب» ، ولكنني لست أقطع يقيناً بأنه المعني في هذا المقام لأنني لم أستطع تحديد الزمن الذي  
عاش فيه معاصره علي بن مروان .

مثلك يُفِيد تجربة قد نفق عليها عمر ، وضل عن فوالدها غيرَ غُمر ، وقد أنفدتُ رهناً لا يسمح بإخراجه من اليد إلا ليدك ، فنفضل بتوجيه الجزء الأول ، فأنا أعلم أنه عندك مثل ولدك ، قال : فوجهه ومعه بطاقة صغيرة فيها : يا أخي ، إن عرّضت بولدي فكذلك كنت مع والدي وقد توارثنا العقوق كابراً عن كابر ، فكن شاكرآ فإنّي صابر .

ثم قال ابن سعيد : وتفاقم أمر ولده فقَيِّده بقيد حديد وقال فيه :

لي وُلدٌ يا لَيْتَهُ لم يَكُ عندي بِمُخْلِئُ  
يَجْهَدُ في كل الذي يرغمُ وهو يَعْشِقُ  
وإن أكن قَيِّدَتُهُ دمي عَليهِ مُطَلِّقُ

وذكر ابن سعيد أن الكاتب أبا الحسن المذكور كان كثيراً ما يستعير الكتب ، فإذا طُلبت منه فكأنها ما كانت ، فذكر لبعض أصحابه — وهو ابن الربيب المؤرخ — أن عنده نسخة جليظة من تاريخ عَرِيب<sup>١</sup> الذي لخص فيه تاريخ الطبري واستدرك عليه ما هو من شرطه وذيل ما حدث بعده ، فأرسل إليه في استعارتها ، فكتب إليه : يا أخي ، سَدَّدَ اللهُ آراءك ، وجعل عقلك أمامك لا وراءك ، ما يلزمي من كونك مُضَيِّعاً أن أكون كذلك ، والنسخة التي رُمّت إعارتها هي مؤنسي إذا أوحشني الناس ، وكاتم سري إذا خانوني ، فما أعيرها إلا بشيء أعلم أنك تتأذى بفقدته إذا فقد جزء من النسخة ، وأنا الذي أقول :

١ هو عريب بن سعد القرطبي من بيت من الموالي يعرفون ببني التركي ، كان أديباً شامراً تاريخياً ، أضاف إلى تاريخ الطبري بعد أن اختصره « أخبار إفريقية والأندلس » وقد نشر له ملحق بتاريخ الطبري عرف باسم « صلة عريب » ولكنه لا يمثل الإضافة التي قام بضمها إلى تاريخ أبي جعفر ، وله من الكتب كتاب الأنواء ، نشره دوزي باسم « التقويم القرطبي » ، وأورد له الثعالبي شمساً في البيتة ٢ : ٥٢ وهو أحد الذين ذكروهم ابن فرج في كتاب الهدائق ( انظر الذيل والتكملة ٥ : ١٤١ - ١٤٣ ) .

## أنسُ أخِي الفضل كتاب أنيق

إلى آخره .

وأُشَدُّ للكاتب أبي الحسن المذكور :

إِنَّ ذَاكَ الْعِدَارَ قَامَ بِعُدْرِي وَفَشَا فِيهِ لِلْعَوَازِلِ سِرِّي  
مَا رَأَيْنَا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مَسْكَاً صَاغَ مِنْهُ الْإِلَهُ هَالَةً بَدْرِي  
أَيُّ آسٍ مِنْ حَوْلِ جَنَّةٍ وَرَدِي لَيْسَ مِنْهُ آسٌ مَدَى الدَّهْرِ يُبْرِي

ولما اشتد مرضه بين تلمسان وفاس قال هذه الأبيات ، وأوصى أن تُكْتَبَ  
على قبره :

أَلَا رَحِمَ اللهُ حَيًّا دَعَا لَمَيْتٍ قَضَى بِالْفَلَائِحِ نَحْبُهُ  
تَمَرُّ السَّوَافِي عَلَى قَبْرِهِ فَتَهْدِي لِأَحْبَابِهِ تَرْبُهُ  
وَلَيْسَ لَهُ عَمَلٌ يُرْتَجَى وَلَكِنَّهُ يَرْتَجَى رَبَّهُ

رجع إلى نظم ابن سعيد المترجم به ، فنقول :

وقال لما سار المعظم من حصن كيفا ، وآل أمره إلى الملك ، ثم القتل والهلك<sup>١</sup> :

لَيْتَ الْمَعْظَمَ لَمْ يَسِيرْ مِنْ حِصْنِهِ يَوْمًا وَلَا وَافِيَ إِلَى أَمْلَاكِهِ  
إِنَّ الْعُنَاصِرَ<sup>٢</sup> إِذْ رَأَتْهُ مَكْمَلًا حَسَدَتْهُ فَاجْتَمَعَتْ عَلَى إِهْلَاكِهِ

ومما نقلته من ديوانه الذي رتبته على حروف المعجم قوله ، رحمه الله تعالى

— وَقَلْتُ بِالْقَاهِرَةِ عَلَى لِسَانٍ مِنْ كَلْفِي ذَلِكَ :

شَرَفَ الدِّينَ أَبِينَ لِي مَا السَّبَبُ فِي انْقِلَابِ الدَّهْرِ لِي عِنْدَ الْغَضْبِ

١ انظر اختصار القدح : ٨ .

٢ القدح : الطباع .

فَلْتَدُمْ غَضبانَ أَظْفَرَ بالمُني  
لَيْسَ لي في غَيْرِ هذا مِن أرب  
إِنما ظَهَرُكَ عِندي قِبلةٌ  
وَوُضُوئي الدهرَ من ذاك الشَّنبُ

وأستغفر الله من قول الكذب ، قال : وقلت بإشيلية :

قَدَ جاء نصرُ اللهِ والفتحُ  
فَهَنَّتوني بارتجاعِ المني  
يا أورقاُ يا غُصناً يا نَقاً  
يا ظبيةً بالليلِ يا صبحُ  
يصحو جميعُ الناسِ من سكرهم  
ولستُ من سكركمُ أصحو  
بلغتُ فيه غايةً لم يُبينُ  
غايَتها التفسيرُ والشرحُ  
وينصحُ العذالُ ، مِن لي بأن  
يعذلني عن غيِّكِ النصحُ

وقلت بإشيلية :

وَصَحَ الصبحُ فأين القَدَحُ  
ما ترى الليلَ كطُرفِ أدهمِ  
والثرى دبَّجَهُ دُرُّ الندى  
وعلى الأغصانِ منه وُشَحُ  
ومديرُ الراحِ لم يَعُدُ المني  
كلُّ ما يأتي بهِ مُقترحُ  
في بطاحِ المرجِ قد نادمني  
رشاً من سكره يَنْبطحُ  
جعلَ المسواكَ سِيراً للمني  
فَكَانَ قِبَلَ فاهِ قَرْحُ  
كلِّما شئتُ الذي قد شاءه  
فَحَنِي لي كاسَهُ أَفتَحُ  
ما أبالي أن رأني كاشحُ  
أم رأني مِن لَدِيهِ نُصْحُ  
هكذا العيشُ ودعُ عيشِ الذي  
خافَ من نَقْدِ إذا يَفْتَضَحُ

وقلت بشرِيش :

طابَ الشَّرابُ لمعشرِ  
سُلبوا المروءة فاستراحوا



لا يعرفون تستراً  
سكراً عندهم مباح  
متهتكون لدى المنى  
فسادهم فيها صلاح  
ساقبهم متبذلاً  
هل يمنع الماء القراح  
غصن يميل به الصبا  
ردته طوع الراح راح  
طوع الأماني ، كل ما  
يأتي به فهو اقراح  
ما إن نبالي إن بدا  
أن لا يلوح لنا الصباح  
ما زلت أرشف تغره  
وعليه من عضدي وشاح  
والقلب يهفو طائراً  
ولعاً ولا يخشى افتضاح  
ولو آتنا نخشاه كما  
ن لنا من الظلما جناح  
لكننا في عصبه  
ما في تهكهم جناح  
لا ينكرون سوى ثقي  
ل لا يميل به مزاح  
أفى الذي قد جمعو  
ه الكأس والحدق الملاح

وقلت بأركش :

قم هاتها لاح الصباح  
مع فتية ما دأبهم  
جربتهم فوجدتهم  
ما للمنى عنهم براح  
نقر المثاني والمراح  
ن لهم بخلمته استراح  
ما نادوا شخصاً فكا  
بل يعرفون مكانه  
هم يتعبون وضيعهم  
فله إذا شاء اقراح  
ما دام عندهم يراح  
ل وبالرضى منه السراح  
ما إن يملون النز

١ ج : طائماً .

يدعونه بأجل ما  
 حتى إذا ما بان كد  
 فعلى مثلهم يُباح  
 كرهاً فقدتهم فما  
 لله شوقي إن هفت  
 فهناك قلبي طائر  
 يدعى به الحر الصراح  
 رعيشهم منه انتزاح  
 لي المدامع والنواح  
 لي بعد بعدهم ارتياح  
 من نحو أرضهم الرياح  
 لهم ومن شوقي جناح

قال : وقلت بمدينة ابن السليم<sup>١</sup> في وصف كلبٍ صيد أسود في عنقه

بياض :

وأدمم دون حلي ظل حالي  
 يطير وما له ريش ولكن  
 تكل الطير مهما نازعته  
 له الأحاظ مهما جاء سلك  
 كأن ليلاً يقتلده صباح  
 متى يهفو فأربعه جناح  
 وتحسده إذا مرق الرياح  
 ومهما سار فهي له وشاح

قال : وقلت بنيل مصر :

يا نيل مضر أين حمص ونهرها  
 في كل شط للتواظير مسرح  
 وإذا سبحت فلست أسبح خائفاً  
 حيث المناظر أنجم تلتاح  
 تدعو إليه منازح وبطاح  
 ما فيه تيار ولا تماسح

قال : وقلت وقد حضرت مع إخوان لي بموضع يعرف بالسلطانية على نهر

إشيلية وقد مالت الشمس للغروب :

رق الأصيل فواصل الأقداحا واشرب إلى وقت الصباح صباحا

١ مدينة ابن السليم : اسم لمدينة شذونة ، وكان بنو السليم قد استوطنوها بعد خراب قلشانة فسميت باسمهم (الروض المطار : ١٦٢) .

وانظرْ لشمسِ الأفقِ طائرةً وقد  
فاظفرْ بصفوِ الأفقِ قبل غروبها  
متعَ جفونك في الحديقةِ قبل أن  
وقلت بمُرْسِيَةٍ :

أقلقه وجدُهُ فَبَاحَا  
ورام يثني الدموعَ لَمَّا  
يا من جفا فارققنْ عليهِ  
يكابدُ الموتَ كلَّ حينِ  
يتزو إذا ما الرياحُ هَبَّتْ  
يسألها عن ربوعِ حِمصِ  
كم قد بكى للحمامِ كيما  
وزاد تبريحُهُ فَنَاحَا  
جَرَّتْ فزادتْ له جماحا  
مستعبداً لا يرى السراحا  
لو أَنَّهُ ماتَ لاسَراحا  
كَأَنَّهُ يَعشَقُ الرياحا  
لَمَّا نَمَّا عَرَفُهَا وفَاحَا  
يعيرُهُ نحوها جَنَاحَا

قال : وخرجت مرة مع أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي<sup>١</sup> إلى مَرَجِ  
الفضة بنهر إشبيلية فتشاركنا في هذا الشعر<sup>٢</sup> :

غيري يميلُ إلى كلامِ اللاحي  
لا سيما والغصنُ يَزْهُو زهرُهُ  
وقد استطارَ القلبُ ساجعُ أَيْكَةٍ  
ويَمُدُّ راحتهُ لغيرِ الراحِ  
ويُميلُ عطفَ الشاربِ المراتحِ  
من كلِّ ما أشكوهُ ليس بصاحِ .

١ إبراهيم بن سهل من أشهر شعراء الأندلس في عصر الموحدين وهو صديق ابن سعيد وزميله أيام  
الدراسة ، وسيرد جانب من أخباره في مواطن من نفع الطيب . ( انظر ترجمته في المغرب ١ :  
٢٦٤ واختصار القدح : ١٤٠ - ١٤١ والمسالك ١١ : ٤٧٣ وشذرات الذهب ٥ : ٢٤٤ ،  
٢٩٦ والفوات ١ : ٤١ وهو ينقل عن تحفة القادم لابن الأبار ) . وقد نشر ديوانه ( دار  
صادر : ١٩٦٧ ) عن نسخة خطية فيها كثير من شعره الذي لم ينشر من قبل ، وكتبنا دراسة  
في حياته وشعره جعلناها مقدمة للديوان .

٢ انظر الأبيات في اختصار القدح : ٧٦ وديوان ابن سهل : ٩٢ والمسلك السهل : ٢٥٠ .

قَدْ بَانَ عَنَّهُ جَنَاحُهُ عَجَباً لَهُ  
 بَيْنَ الرِّيَاضِ وَقَدْ غَدَا فِي مَأْمٍ  
 الغصنُ يَمْرَحُ تَحْتَهُ وَالنَّهْرُ فِي  
 وَكَأَنَّمَا الأَنْشَامُ فَوْقَ جِنَانِهِ  
 لَا غُرُوبَ أَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ أُسْطُرٌ  
 فَإِذَا تَتَابَعَ مَوْجُهُ لِدِفَاعِهِ  
 مِنْ جَانِحٍ لِلعَجْزِ حِلْفِ جِنَاحِ  
 وَنَخَالِهِ قَدْ ظَلَّ فِي أَفْرَاحِ  
 قَصْفِ تَرْجِيهِ يَدُ الأَرْوَاحِ  
 أَعْلَامُ خَزَرٍ فَوْقَ سُمْرِ رِمَاحِ  
 لَمَّا رَأَتْهُ مُدْرَعاً لِكِفَاحِ  
 مَالَتْ عَلَيْهِ فَظَلَّ حِلْفَ صِيَاحِ

قال : وقلت بمالقمة متشوقاً إلى الجزيرة الخضراء :

يَا نَسِيباً مِنْ نَحْوِ تِلْكَ النُّوَاحِي  
 أَسَقَّتْهَا الغمامُ رِيّاً فَلَاحَتْ  
 أَمْ جَفَّتْهُ فَصَيَّرْتَهُ هَشِيباً  
 يَا زَمَانِي بِالْحَاجِيبَةِ لِأَنِّي  
 آهَ مِمَّا لَقِيتُ بِعَدَدِكَ مِنْ هَذَا  
 أَيْنَ قَوْمٌ أَلْفَيْتُهُمْ فِيكَ لَمَّا  
 تَرَكَوْنِي أُسِيرَ وَجَدِي وَشَوْقِي  
 أَسْلَمُونِي لِلوَيْلِ حَتَّى تَوَلَّوْا  
 أَعْرَضُوا ثُمَّ عَرَضُونِي لِشَوْقِي  
 أَسْهَرُ اللَّيْلِ لَسْتُ أَغْضِي لِصَبْحِي  
 قَدْ بَدَأَ يُظْهِرُ النُّجُومَ حَلِيباً  
 مَسِيلاً سَرَّهُ مُنْعَمَ بِأَلِ  
 أَيُّهَا اللَّيْلُ لَا تَوَمِّلْ خُلُوداً  
 وَيَبْلُغْ الصَّبَاحَ مَشْرِقَ نَوْرِ  
 إِنَّ يَوْمَ الفِرَاقِ بَدَدٌ شَمْلِي  
 حَالِكِ اللَّوْنِ شَبَهُ لَوْنِكَ فَاعْزَبْ  
 كَيْفَ بَالَهُ نَوْرُ تِلْكَ البِطَاحِ  
 فِي رِداءٍ وَمُتَرِّبٍ وَوِشَاحِ  
 تَرَكَتُهُ تَذَرُوه هُوَجُ الرِّيحِ  
 لَسْتُ مِنْ سَكْرِ مَاسُقِيَتْ بِصَاحِي  
 مَ شَوْقِي وَغَرْبِي وَانْتِزَاحِ  
 قَرَّبَ الدَّهْرُ آذِنُوا بِالرَّوَاحِ  
 مَا لَقَّنِي مِنَ الجوى مِنْ سَرَاحِ  
 وَأَصَاحُوا ظُلْماً لِقَوْلِ التُّوَاحِي  
 تَرَكَ القَلْبَ مُتَخَنِّئاً بِجِوَاحِ  
 أَتَرَى النُّومَ ذَاهِباً بِالصَّبَاحِ  
 وَهُوَ مِنْ لِبْسَةِ الصَّبَا فِي بَرَاكِ  
 وَجُفُونِي مِنْ سُهْدِهِ فِي كِفَاحِ  
 عَنِ قَرِيبٍ يَمْحُو ظِلَامَكَ مَاحِ  
 فِيهِ لِلْمُسْتَهَامِ بَدَأَ نِجَاحِ  
 طَائِراً لَيْتَهُ بِغَيْرِ جِنَاحِ  
 عَنِ عِيَانِي يَا شِبَهَ طَيْرِ انْتِزَاحِ

وإذا ما بدا الصباح فما يش  
به إلا لَوْنَ الخلود الملاح  
وقلت بالجزيرة الخضراء :

قد رُفِعَتْ رايةُ الصِّباحِ  
فبادروا للصُّبُوحِ إنِّي  
ولا تيملوا عن رَشْفِ نغري  
وأنت يا مَنْ يرومُ نُصْحِي  
فلمستُ أصغري إلى نصيحِ  
تدعو الندامي للاصْطِباحِ  
قد بعثُ في غيهِ صلاحِي  
وسمعِ شَدْوٍ وشَرْبِ راحِ  
قد يشّ القومُ من فلاحِي  
ما نهضتُ بالكؤوسِ راحِي

قال : وقلت أمدح ملك إفريقية وأهنته بقتل نائر من زناة يدعي أنه  
من نسل يعقوب المنصور :

بَرَّحَ بي مَنْ لَيْسَ عَنْهُ بَرَّاحٌ  
مَنْ صَرَّحَ اللَّعْمُ<sup>١</sup> بِمَجْبِي لَهُ  
ظيُّ عِلْمَتِ الصَّبِيحِ مَذْ صَدَّتِي  
مُورِدُ الخلدِ شَهِيُّ اللَّمِي  
تظنُّهُ مِنْ قَلْبِهِ جَلْمِداً  
لَرِدْفُهُ أَضْعَفُ مِنْ صَبِّهِ  
نشوانُ مِنْ رَيْقَتِهِ عَرَبِدَتْ  
فها أَنبِي خَافِتٌ مِثْلَ ما  
يا قاتلي صِداً أَمَا تَسْتَجِي  
مَنْ ذا الَّذِي يَبْخَلُ في تونسِ  
وأصْبَحَتْ أَرْجاؤُها جَنَّةً  
ومَنْ رَأى قَتْلِي حَلالاً مَبَّاحاً  
وما لِقَلْبِي عَنْ هِوَاهِ سَرَّاحاً  
وكيف لا يُعَدِّمُ وهو الصَّبَّاحِ  
مُنَعَّمُ الرِّدْفِ جَدِيبُ الوِشَّاحِ  
ومِنْهُ لِلْماءِ بِجَفِي انْصِياحِ  
ولم أَزَلْ مِنْ لِحْظِهِ في كَفَّاحِ  
أَجْفانُهُ بِالْمَرْهَفاتِ الصَّفَّاحِ  
أنا أَسِيرٌ مُشْحَنٌ بِالْجِراحِ  
أَنْ تَلْزَمَ البَحْلُ بَأَرْضِ السَّمَّاحِ<sup>٢</sup>  
والمَلْحُ فِيها صارَ عَذِبا قَرَّاحِ  
مُبَيضَّةَ الأَبْراجِ خُضْرَ البَطَّاحِ

١ ق : صرح اللعق ؛ وفي نسخة : صرح القلب .

٢ سقط من ق . وأثبتة دوزي في الحاشية .

لولا ندى يحيى وتدبيره  
لكن يده سحُب كلما  
هذا وقد آمن من حلها  
كم شئتوا من قبل تأميره  
يا سائراً يَرْجُو بلوغ المني  
وحية بالمدح فهو الذي  
بالشرق والغرب غدا ذكره  
ساعده السعد وأضحيت له  
ويسر الله له ملكه  
وكل من كان على غيره  
وكم جموح عندما قام بالأم  
كف بكف للتدي والردى  
حتى لقد أحسب من ساعده  
قولوا ليعقوب فماذا جتى  
قد أصبحنا من فوق جذعين لا  
واسأل عن الداعي الدعي الذي  
أكان من صيره والدأ  
شكراً لسعد لم يدع فرقة  
راموا بلا جاه ولا محند  
زنانة بينكم فملككم  
كفر ما قد منتم آخر  
عهدي به في موكب الملك ما

ما برحت تغبر منها النواح  
حلت بأرض حل فيها النجاج  
وحفا ، من غربة وانتراح  
وحكمت فيهم عوالي الرماح  
باكر ذرا يحيى وقل لا رواح  
يهتز كالهندي حين امتداح  
بعت من حمد وشكر جناح  
آمال لا تجري بغير اقتراح  
من غير أن يشهر فيه السلاح  
ذا منعة أمسى به مستباح  
رأى القهر فخلى الجماح  
بها معان وهي خرس فصاح  
تجري على ما يرتضيه الرياح  
وابن أبي حمزة ماذا استباح  
يؤنسهم غير هبوب الرياح  
حاول أمراً كان عنه انضراح  
بزعمه أمل فيه فلاح  
قد صبر الملك كضرب القيداح  
ما حزت بالحق فكان افتضاح  
عاجلكم نائركم باجتياح  
والخير لن يبرح للشر ماح  
بينكم نشوان من غير راح

يَحْسَبُ أَنَّ الْأَرْضَ مَلِكٌ لَهُ  
 غدا بَعَزَ الْمَلِكُ لَكِنَّهُ  
 جَاءُوا بِهِ يَمْزِحُ فِي عِزِّهِ  
 تَوَقَّعُوا فِي الْقُرْبِ مِنْهُ الرَّدَى :  
 وَأَسْرَعُوا نَحْوَكُ يَبْغُونَ مَا  
 فَغَادَرُوهُ جَانِبًا غَدْرَهُ  
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مَا  
 مِثْلِكَ لَا يَنْفَدُ مَا شَادَهُ  
 لَا زَلَّ فِي عِزِّهِ وَفِي مُكِنَّةٍ  
 وَرُوحَهُ مَلِكٌ لَسُمِّرَ الرِّمَاحُ  
 أَهْوَنُ مَمْلُوكٍ عَلَى الْأَرْضِ رَاحُ  
 وَهُمْ أَزَالُوا عَنْهُ ذَاكَ الرِّمَاحُ  
 مِنْ صَحْبَةِ الْأَجْرِبِ يَخْشَى الصَّحَاحُ  
 عَوَدَتِهِمْ مِنْ عَطْفَةٍ وَالتَّمَاحُ  
 لَطَائِرُ الْبَيْنِ عَلَيْهِ نِيَّاحُ  
 سَنَى لَكَ السَّعْدُ بِرَغْمِ التَّوَّاحُ  
 فَلَسْتَ تَأْتِي الدَّهْرَ إِلَّا صِلَاحُ  
 وَفِي سُرُورٍ دَائِمٍ وَانْفِصَاحُ

قال : وقلت ببنيونش موضع الفرجة بسببته :

اشربْ عَلَى بَنِيونشِ  
 مَعَ فِتْيَةٍ مِثْلِ النُّجُومِ  
 سَاقِيهِمْ مُتَبَدِّلُ  
 كُلُّ يَمْدٍ يَمِينُهُ  
 هَبُّوا عَلَيْهِ كَلِمًا  
 طَوَّعُ الْأَمَانِي كُلِّ مَا  
 عَانَقْتَهُ حَتَّى تَرَكَ  
 بَيْنَ السَّوَانِي وَالبَطَاحِ  
 مِ لِهْمِ إِذَا مَرَّوا جَمَاحِ  
 لَا يَمْنَعُ الْمَاءَ الْقِرَاحِ  
 مَا فِي الَّذِي يَأْتِي جُنَاحِ  
 هَبَّتْ عَلَى الرُّوْضِ الرِّيَاحِ  
 يَأْتِي بِهِ فَهوَ اقْتِرَاحِ  
 تُبَخِّصِرُهُ أَثَرُ الوِشَاحِ

وقلت بإشبيلية :

أَوْجُهُ صُبْحِ أَمِ الصَّبَاحِ  
 وَتَغْرُّهَا أَمِ نَظِيمِ دُرِّ  
 وَقَدُّهَا أَمِ قَوَامِ غِصَنِ  
 وَلَحْظُهَا أَمِ ظَلِي الصَّفَاحِ  
 وَرَيْقُهَا أَمِ سُلَافِ رَاحِ  
 وَعَرَفُهَا أَمِ شَدَا البَطَاحِ

١ ق : لا ينقد ما شاء .

يا حَبْدَا زورةٌ تَأْتَتْ  
فلم أُصدِّقُ بها سروراً  
أما منعتِ السلامَ دهرأً  
قالتُ : ألا فانسَ ما تَقْضِي  
يا حَبْدَاهَا وَقَدْ تَأْتَتْ  
زارتُ ومن نورِها دليلُ  
أخفتُ سُراها فباحَ نَشْرُ  
واقفتُ فأمنى فمي مُداماً  
كأنما بتُ بينَ روضِ  
فبينما الشملُ في انتظامِ  
فغادرتني ، فقلتُ : غَدْرَأُ ؟  
وَلتُ وما خِلتُ مِنُ صباحِ

قال : وقلت بتونس :

لا مَرَحَباً بالتينِ لما بدَا  
مزقُ الجلبابِ بِحُكْمِي ضحى  
وإن تُصَحِّفه فلا حَبْدَا  
يَسْحَبُ من ليلٍ عليه الوشاحُ  
هامةٌ زنجيٌ عليها جراحُ  
ما قد أتى تصحيفه بانتزاحُ

وقلت بالجزيرة الخضراء ، وقد كُلفْتُ ذلك :

غرامي بأقوالِ العِدا كيف يُنْسخُ  
كلامكم لا يدخلُ السمعَ نُصحهُ  
وفي بَدْرٍ تيمٍ قد ذلتُ لحسنهُ  
إذا خاصمونني في هواهُ خَصَمْتُهُم  
وعهدي وقد أحكمتهُ كيف يُفسخُ  
ولكن إذا حرَضتمُ فهوَ يرسخُ  
فمن ذا الذي فيما أتيتُ يوبخُ ؟  
ويغون تنقيصي بذلك فأشمخُ

١ تصحيف « تين » ، « بين » أي فراق وانتزاح .



أرى أن لي فضلاً على كل عاشقٍ  
فما بشرٌ مثل له في جماله  
فقصتنا في الدهر مما يؤرخُ  
ووجدني به في العشق ليس له أخُ

وقلت بالإسكندرية ، وقد تعذر علي الحجُّ عند وصولي إليها سنة تسع  
وثلاثين وستمائة :

قرب المزارُ ولا زمانٌ يُسعدُ  
وارحمةً لميِّمٍ ذي غربةٍ  
قد سار من أقصى المغاربِ قاصداً  
فلكم بحارٍ مع قفارِ جبتُها  
كابدتها عرباً وروماً ، ليتني  
يا سائرينَ ليثربٍ بلغتُم  
أعلمتُم أن طرتُ دون محلها  
يا عاذلي فيما أكابدُ قلَّ في  
لم تلقُ ما لقيتهُ فعذلتني  
لو كنتَ تعلمُ ما أرومُ دنوهُ  
لا طابَ عيشي أو أحلَّ بطيبةٍ  
صلى عليه من براه خيرةً  
يا ليتني بلغتُ لثمَ تراه  
فهنالك لو أعطى مناي محلةً  
عيني شكَّت رمداً وأنت شفاؤها  
يا خيرَ خلقِ الله مهما غبتُ عن  
ما باختيارِ القلبِ يترك جسمهُ  
يا جنةَ الخلدِ التي قد جثتها  
صرمَ التواصلِ ذبُلٌ وصوارمُ

كَمَ ذَا أُقْرَبُ مَا أَرَاهُ يَبْعُدُ  
وَمَعَ التَّغْرِبِ فَاتَهُ مَا يَقْصِدُ  
مَنْ لَدَى فِيهِ مَسِيرُهُ إِذْ يَجْهَدُ  
تَلْقَى بِهَا الصَّمْصَامَ ذُعْرًا يَرْعُدُ  
إِذْ جُرْتُ صَعْبَ صِرَاطِهَا لَا أُطْرِدُ  
قَدْ عَاقَنِي عَنْهَا الزَّمَانُ الْأَنْكَدُ  
سَبَقًا وَهَا أَنَا إِذْ تَدَانِي مُقْعَدُ  
مَا أَبْتَغِيهِ صَبَابَةً وَتَسْهَدُ  
لَا يَعْذِرُ الْمَشْتَاقَ إِلَّا مُكْمَدُ  
مَا كُنْتُ فِي هَذَا الْغَرَامِ تُفْنِدُ  
أَفْقٌ بِهِ خَيْرُ الْأَنَامِ مُحَمَّدُ  
مَنْ خَلَقَهُ فَهُوَ الْجَمِيعُ الْمَفْرَدُ  
فِي زَادِ سَعْدًا مَنْ بِنَعْمَى يَسْعَدُ  
مَنْ دُونَهَا حَلَّ السُّهَى وَالْفَرْقَدُ  
مِنْ دَائِهَا ذَلِكَ الثَّرَى لَا الْإِئْتِدُ  
عَلَيَا مَشَاهِدَهَا فَكَلْبِي بِشَهْدُ  
غَيْرُ الزَّمَانِ لَهُ بِذَلِكَ تَشَهُدُ  
مَنْ دُونَ بَابِكَ لِلْجَحِيمِ تَوَقَّدُ  
مَا لِلْجَلِيدِ عَلَى تَقَحُّمِهَا يَدُ

فلئن حرمت بلوغ ما أملتُهُ  
فلتنعشوا مني الدماء بذكره  
لولاه ما بقيت حياتي ساعة  
ذكرتُ إليه من الثناء سحاب  
من ذا الذي نرجوه لليوم الذي  
يا لهف من وافى هناك وما له  
ما أرنجني عملاً ولكن أرنجني  
ما صح إيمان خلا من حبه  
عن ذكره لا حلتُ عنه لحظة  
يا مادحي بيني ثواباً زائلاً  
لولا رسول الله لم ندر الهدى  
يا رحمة للعالمين بعثت والدت  
أطلعت صباحاً ساطعاً فهديت لا  
لم تخش في مولاك لومة لائم  
ونصرت دين الله غير محاذير  
ولقيت من حرب الأعادي شدة  
آيات لا أحد عليهم عاصد  
فحماك بالغار الذي هو من أد  
ووقاك من سمّ الدراع بلطفه  
والجذع حن إليك والماء انهمي  
والذئب أنطق للذي أضحي به  
وبلبلة الإسرا حباك وسمتي ال  
وحباك بالخلق العظيم ومعجز ال  
وبعثت بالقرآن غير معارض

فلدي ذكري لا تزال تردد  
ما دمت عن تلك المعالم أبعد  
هو لي إذا مت اشتياقاً مولد  
أبدأ على مر الزمان يُجدد  
يقصّي الظماء به ويحسّ المورّد  
من حبه ذخر به يتروّد  
ثقتي به والحسب من يتروّد  
أبلا رياش يستعد مهتد  
ومديحه في كل حفل أسرد  
فتواب مدحي في الجنان أخلد  
وبه غدا نرجو النجاة ونسعد  
يا بجنح الكفر ليل أريد  
إيمان إلا من يحيد ويجنح  
حتى أقر به الكفور الملحد  
ودعوت في الأخرى الألى قد أضعلوا  
لو كابلوها ساعة لتبدوا  
إلا الإله ولم يخن من يعضد  
ل المعجزات وخاب من يترصد  
كيما يغاز بك العدى والحسد  
ما بين خمسك والصحابة شهد  
يهدى إلى سبل النجاج ويرشد  
صديق من أضحي لقولك يسعد  
كلم الذي يهدى به إذ يورد  
فيه وأمنسى من نحاه يعرد

فتوالت الأحقابُ وهو مبرأ  
ولكم بليغ جال فصل خطابه  
زويت لك الأرض التي لا زال  
ونصرت بالرعب الذي لما يزل  
فمى تعرّض طاعن أو حاد عن  
يا من تخيير من ذؤابة هاشم  
لسناك حين بدا بآدم أقبلت  
لم أستطع حصراً لما أعطيته  
ماذا أقول إذا وصفت محمداً  
فعليك يا خير الخلائق كلها

قال : وقلت بإشبيلية :

هل تمنع النهود	ما أبدت الحدود
نعم وكم طعين	يطعنها شهيد
يا ربة المحيا	حقت به السعود
لم تسكر الحميا	بل ريقك البرود
لله يا عدولي	ما تكتم البرود
ما زلت فيه أفنى	والوجد مستزيد
يا هل ترى زماناً	مضى لنا يعود
لدى العروس سقت	جناها العهود
حيث الغصون مالت	كأنها قود
وزهرها نظيم	كأنه عقود

١ العروس : من متزهات إشبيلية .

أعْطَافُهَا تُغْنِي	حَمَامُهَا تُغْنِي
لنهرها بَرُودُ	وبالتسليم شُقَّتْ
وَسُورُهُ بِنُودُ	فروعُهُ سِوْفُ
إلى الورودِ رُودُ	هناكَ كَمْ دَعَتْنِي
يَفْتِي بِهِ الحسودُ	فَلتُ كُلَّ سُوْلُ
ما بَعْدَهُ مُزِيدُ	قَضِيْتُ فِيهِ عِشاً
مَرْتَحاً أَمِيدُ	أَضْحِي بِهِ وَأَمْسِي
كَأَنْتِي الوالِيدُ	كَأَنْتِي يَزِيدُ
يَكُلُّ ما أريدُ	يَجْرِي الزمانُ طَوْعِي
فَالخَلْقُ لي عِيدُ	الحَمْرُ مَلَكْتِي
أَبصَرْتُها تَجُودُ	يَحْنُ لي إِذا ما
فَقَدْتُها فَقِيدُ	فَها أَنَا إِذا ما
العَدْلُ لا يُفِيدُ	يا مَنْ يَلومُ بَغِيّاً
فَلَيْسَ لي وَجُودُ	إِذا عَدِمْتُ كَأَسِي

قال : وقلت بإشبيلية :

والغصنُ من طَرَبٍ بها يَتَأوَدُ	أوما نظرتَ إلى الحمامة تُنشدُ
لَمَّا يَزَلُ بيدِ النسيمِ ييدَدُ	ونثاره ألقاهُ جائرةٌ لها
فشاؤه طولَ الزمانِ يردَدُ	ألقى عليها الطلُّ بُرداً سابغاً
أولى بشكرٍ حينَ تَغْمُرُهُ يدُ	أترى الحمامةَ من محبِّ مخلصٍ
لي الغصنِ حَنَّانُ الهديلِ مفرَدُ	فلاثنينَ عليكَ ما أثنى بأعدُ
بِدُ جهدها ؟ أيانَ بَرَكَ يجهدُ ؟	كم نعمةٍ لي في جنابك ؟ كم أكا

١ ق ج : ألقى جئاته .

وقال :

أرى العين مني تحسدُ الأذنَ كلما  
أحسُّ أنباءَ ولم أرَ صورةً  
فمنَّ على عيني بلفياك إمتي  
جرت مدحةٌ للعلم والفضلِ والمجدِ  
كتحقيقي الأخبارَ عن جنةِ الخلدِ  
أخذتُ لها أمناً بذاك من السُّهدِ

قال : وقلت أمدح ابن عمي وأشكره<sup>١</sup> ، على ما أذكره :

آه مما تكنُ فيك الجوانحُ  
واشتفاءً من العدوِّ بينِ  
يا أتمَّ الأنامِ حسناً أما تم  
يا زمانَ الوصالِ عوداً فلاني  
أين عيشُ العروسِ إذ يططحُ السك  
والأماني تترى ولا أحدٌ ين  
وزمانُ السرورِ سمحٌ مطيعٌ  
ولكم ليلةٌ أتاني بلا طي  
هو ظبيٌ فليس يحتاجُ طيباً  
مثلُ عليا محمدٍ لم تكن كس  
يا كريماً أتى من الجود ما لا  
وعلا كلَّ ذي علاءٍ وأضحى  
قد أتاني إحسانك الغمرُ في إذ  
فاض بحرُ النوالِ منك ولا سا  
حللٌ مثل ما كسوتك في المد

ودموعي على نواك سوافح  
كدر العيش ، أي عيش لنازح  
سن حتى يتم إطرأ مادح  
طوحت بي لما غدرت الطوائح  
رُحبي ما بين تلك الأباطح  
صح إذ لا يصغى إلى قول ناصح  
ورسول الحبيب غادٍ ورائح  
ب ولكن يزري بأذكي الروائح  
قد كفاه عرف من المسك فاتح  
بأ وما لا يكون في الطبع فاضح  
كان يدري فأوجدته المدائح  
نحو ما لا يرومه الناس طامح  
ر سواه فكنت أكل مادح  
حل يبدو ولم أزل فيه سابح  
ح تميم العدا ومال وسابح<sup>٢</sup>

١ دوزي : وأشكره .

٢ ق ج ودوزي : وسائح ؛ والسابح فرس أهده إليه .

أوردَ الوردُ<sup>١</sup> منطقي كلَّ شكرٍ  
لونُ خدِّ الحبيبِ حينَ كسوهُ  
شَفَقَ<sup>٢</sup> سالَ بينَ عينيه صبحُ  
لم أجدُ فيه من جماحٍ ولكي  
لكَ يا ابنَ الحسينِ ذكرٌ جميلٌ  
قد هدى نحوكَ الثناءَ كما يهتُ  
فاعذرِ الناسَ إن أتوا لك أفوا  
ما هدَّتْهم إليك إلا الأمانِي  
قل لذي المفخرِ الحديثِ تأخَّرْ  
أيُّ أصلٍ وأيُّ فرعٍ أقاما  
قد حوتُ مذحجٌ من الفخرِ لما  
أففقُ مجدٌ قد زانه منك بدرٌ  
بدرٌ تيمَّ حَفَّتْ به هالةٌ من  
يا سماكاً بمسكِهِ القلمِ الأء  
رفعَ اللهُ للكتابةِ قدراً  
يا أعزَّ الأنامِ نفساً وأعلا  
أين أعداؤك الذين رعى سي  
أفسدَ الدهرُ حالهم ليُرى حا  
دُمتَ في عزةٍ وسعدٍ مدى الدهرِ

[ أبو عبد الله ابن سعيد ]

وابن عمه المذكور قال في حقه في « المغرب » ما ملخصه ٢ :

١ الورد : الفرس الوردى اللون .  
٢ انظر المغرب ٢ : ١٦٨ ونص المقرئ مختلف كثيراً صاهو في المغرب، وفي هذا تأكيد لاختلافه

إنه الرئيس الأعلى ، ذو الفضائل الجمّة ، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبي الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف بن سعيد ، قال : واجتماع نسبنا مع هذا الرئيس في سعيد بن خلف ، وهو الآن قد اشتمل عليه ملك إفريقية اشتمال المقلّة على إنسانها ، وقدمه في مهماته تقديم الصّعدة لسنانها ، وأقام لنفسه مدينة حذاء حضرة تونس ، واعتزل فيها بعسكر الأندلس الذين صيّرهم الملك المنصور إلى نظره ، وهو كما قال الفتح صاحب القلائد « فقد جاء آخرهم ، فجدد مفاخرهم » ، ومن نظمه وقد نزل على من قدم له مشروباً أسود اللون غليظاً وخروباً وزبيباً أسود وزبيباً كثير الغضون جاءت به عجوز في طبق ، فقال :

ويومَ نزلنا بعبدِ العزيزِ      فلا قدّسَ اللهُ عبدَ العزيزِ  
سقانا شراباً كلونِ الهناءِ      ونقلنا بقرونِ العنوزِ  
وجاءتْ عجوزٌ فأهدتْ لنا      زبيباً كخيلانِ خدِّ العجوزِ

ونزل السلطان أبو يحيى في بعض حركاته لموضع فيه نهر ، وعلى شطّه نورٌ ، فقال الرئيس أبو عبد الله ابن الحسين يصفه أو أميراً بذلك :

ونهر يرفُّ الزهراً في جنباته      ويثني النسيمُ قُضْبَهُ فتأطّرُ  
يسيلُ كما عنّ الصباحُ بأفقه      وإلا كما شيمَ الحسامُ المجرورُ  
عليه ليحيى قبةٌ ، هل سمعتمُ      بقرصةِ شمسٍ حلَّ فيها غضنفرُ؟  
فإن قلتَ هذي قبةٌ لعفاتها      فقلْ ذلك الوادي الذي سال كوثرُ

وقال أبو عمرو أحمد بن مالك بن سيد أمير اللخمي الشابي في ذلك :  
وأرضٍ من الحصباءِ بيضاء قد جرت      جدّاولُ ماءٍ فوقها تتفجّرُ

= نسخ الكتاب ؟ وانظر ترجمة أبي عبد الله ابن سعيد أيضاً في تاريخ ابن خلدون ٦ : ٢٩٤ .  
١ ق ودوزي : النور .

كما سَبَحَتْ تَبْغِي الحَيَاةَ أَرَاقِمُ  
وإلا كما شَقَّتْ سِبَائِكُ فَضَّةً  
على روضةٍ فيها الأَقاحُ المنورُ  
بساطاً على حافاتِهِ الدرُّ يَنْثرُ

وقال أبو علي يونس :

انظرُ إلى منظرٍ يَسْبِكُ مَنظَرُهُ  
وَمُعْجَبٌ مُعْجَبٌ لاشيءٍ بِشِبْهِهِ  
ويزدهيكَ بإذنِ الله مَخْبَرُهُ  
خَرِيرُ ماءٍ نَمِيرٌ ثَمَّ مَنهَرُهُ  
كأنما فَرَشَتْ بالدرِّ صَفْحَتَهُ  
فالماءُ يَنْظُمُهُ طَوْرًا وَيَنْثَرُهُ  
كأنَّ خُلْجَانَهُ قُدَّتْ على قَدَرِ  
بمائها قَسَمٌ يَجْرِي مَفْجَرُهُ  
أحلَّ سِيدُنَا الميمونُ قُبَّتَهُ  
بجوزِهِ فغدا يزدانُ جَعْفَرُهُ

رجع إلى ما كنا فيه من أخبار الرئيس ابن الحسين ، فنقول : رأيت  
بالمغرب آخر كتاب «روح السحر» من نسخة ملوكية كتبت له أبياتاً علق  
بخطي منها الآن ما نصه :

تَمَّ رُوحُ السَّحْرِ نَسْخًا فَآتَى  
لأبي عبدِ الإلهِ المُرْتَقِي  
مُصْحَبًا بِالْيُمْنِ وَالْفَخْرِ البعيدُ  
في ذرِّ المجدِ الرئيسِ ابنِ سعيدِ

ولم أحفظ تمام الأبيات .

وقال أبو الحسن علي بن سعيد : كتبت إليه من أبيات بحضرة تونس وقد  
نقل إليه بعض الحساد ما أوجب تغييره :

وَمِنْ بَعْدِ هَذَا قَدْ أَتَيْتُ بِزَلَّةٍ  
وَعَلِمْتُ حَسْبِي بِالْأُمُورِ فإتني  
أما حَسَنٌ أن لا تَضيقَ بِها صَدْرًا  
وَنَيْتُكُمْ صَلَاحًا عَلَى البِشْرِ والبِشْرِي  
عَهْدَتُكَ تَلْزِي سِرَّ أَمْرِي والجُهْرَا  
كُتِبَتْ وَلَوْ حَرْفًا أَطْبَتَ لِي العُمْرَا  
وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا رِضَاكَ فَإِنْ بِهِ  
فَبُقِّيَتْ كَهْفًا لِلْجَمِيعِ وَمِثْلًا  
ولا زلتَ ما دام الزمانُ لنا سِترًا



فكتب إلي هذه الأبيات ، وكان ممرضاً ، وبعث إلي بما يذكر :

أَكُفُّ الصَّبَا حَفَّتْ جَنَى زَهْرِ الرَّبِيِّ  
بعثت بمثل الزهر في مثل صفحة  
معان لها أعنوا وأعنى بها فكم  
فلو عرّصت للبحر لم يلفظ الدرّاء  
أبا حسن هنت ما قد منحتته  
ودونك بحراً من ودادي تلاطمت  
فإن خطرت في جانب منك هفوة  
يزلُّ الجوادُ عندما يبلغ المدى  
فدعْ ذا وخذها شائبات قرونها  
ولو غادرت أوصافها مردماً  
ألا فاحجبينها عن صديق معمم  
ومن كان ذا حجرٍ ونبلٍ ورقة  
قرنتُ بها صفراء لم تعرف الهوى  
ولا ضمّخت نضخ العبير وإن غدت  
فإن خلتها بنت الظليم أظلتها  
ها نسب بين الثريا أو الثرى  
فشرباً دهاقاً وانتشاقاً ولا ترم  
وله في الخشكلان<sup>١</sup> :

هو الأهلّة لكن  
تدعونه خشكلانا  
تجدد : حبيبك لانا  
فإن تفاءلت صحف

انتهى باختصار .

١ الخشكلان (بالفارسية : خشك نان) نوع من الخبز أو البقساط في شكل هلاي .

وحظي المذكور جداً عند السلطان ملك إفريقية أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص ، ولما مات السلطان المذكور ، وحدت فتنة بموته واختلاف ، ثم استقرت الدولة لابنه الشهير الكبير القدر أبي عبد الله المستنصر ممدوح حازم بالمقصورة ، وقاتل ابن الأبار القضاعي<sup>١</sup> - سخط على الرئيس ابن الحسين المذكور ، وقبض على دياره وأمواله ، وصيره كالمحبوس ، فكتب إليه رقعة يطلب الاجتماع به في مصلحة للدولة ، فأحضره ، وسأله فأخبره بأن أباه صنع داراً عظيمة تحت الأرض ، وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عُدّة وذخيرة لسلطانه ، ولم يترك على وجه الأرض من له علم بهذا الموضوع الذي أودعه نفائس أمواله غيري ، وأوصاني أنه إذا انتقل إلى جوار ربّه ، إذ توقع أن تقع فتنة بين أقاربه ، أنه إذا انقضت سنة واستقر الأمر لأحد من ولدي أو من يتيقن أنه يصلح لأمر المسلمين ، فأطلعهم على هذه الذخائر ، فربما فنيّت الأموال بالفتنة ، فلا يجد القائم بالأمر ما يصلح به الدولة إذا تفرغ للتدبير والسياسة ، ففرح السلطان ، وبادر إلى تلك الدار ، فرأى ما ملأ عينه ، وسرّ قلبه ، وخرج الرئيس ابن الحسين والحليل تجنب أمامه ، وبدر الأموال بين يديه ، وأعادته إلى أحسن أحواله ، وجعله وزيراً لديه ، كما كان أبوه مفوضاً أموره إليه ، وقال السلطان : إن من أوجب شكر الله عليّ أن أفتح المال بأن أؤدي منه للرعيّة الذين نهبت دورهم واحترقت في الفتنة التي كانت بيني وبين أقاربي ما خسروه ، وأمر بالنداء فيهم ، وأحضرهم وكلّ من حاف على شيء قبضه وانصرف .

\* \* \*

[ ذكر المستنصر الحفصي ]

وكان السلطان المستنصر المذكور في بعض متصيداته ، فكتب لأبي عبد الله

١ ستأتي ترجمة حازم وابن الأبار والتعريف بهما ؛ أما مقصورة حازم فمطلما :

لله ما قد هجت يا يوم النوى على فؤادي من تباريح الجوى

وهي التي شرحها الشريف الغرناطي في ما سماه « رفع الحجب المستورة عن عمامن المقصورة » .

الرئيس المذكور يأمره بإحضار الأجناد لأخذ أرزاقهم بقوله :

لِيَحْضُرْ كُلُّ لَيْثٍ ذِي مَنَالٍ      زَكَا فَرَعَا لِإِسْدَاءِ النَّوَالِ  
غَدَاً يَوْمَ الْخَمِيسِ فَمَا شُغِلْنَا      بِأَسْدِ الْوَحْشِ عَنِ أَسْدِ الرِّجَالِ

وحكي أن السلطان المذكور عَرَضَ مرةً أجناده ، وقيل : بل سلّم عليه الموحدون يوم عيد بتونس ، وفيهم شاب مليح وسيم اسمُ جده النعمان ، فسأله السلطانُ عن اسمه ، وأعجبه حسنه ، فحجل واحمر وجهه ، وازداد حسناً ، فقال السلطان هذا المصراع :

كَلِمَتُهُ فَكَلَمْتُ صَفْحَةَ خَدِّهِ

وسأل من الحاضرين الإجازة ، فلم يأتوا بشيء ، فقال السلطان مجيزاً شطره :

فَتَفْتَحَتْ فِيهَا شَقَائِقَ جَدِّهِ

وهذا من البدائع مع ما فيه من التورية والتجنيس .  
وممّا نسبه له أبو حيان بسنده إليه :

مَا لِي عَلَيْكَ سِوَى الدَّمُوعِ مُعِينُ      إِنْ كُنْتَ تَغْدِرُ فِي الْهَوَى وَتَخُونُ  
مَنْ مُسْجِدِي غَيْرُ الدَّمُوعِ وَإِنَّهَا      لِمَغِيثَةٍ مَهْمَا اسْتَعَاثَ حَزِينُ  
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنْ مَا حَمَلْتَنِي      صَعَبٌ وَلَكِنْ فِي رِضَاكَ يَهُونُ

وكان للسلطان المذكور سعد يُضْرَبُ به المثل ، حتى إنّه كتب له صاحب مكّة البيعة من إنشاء ابن سبعين المتصوف ، كما ذكر ذلك ابن خلدون في تاريخه الكبير ، وسرد نصّها ، وهي من الغرائب .

ومن سعده أن الفرنسييس الذي كان أُسِرَ بمصر وجُعِلَ في دار ابن لُقْمَانَ والطواشي صَبِيحٍ يجرسه لما سُرِّحَ جاء من أمم النصرانية لبلاد المسلمين بما لم يجتمع قط مثله ، حتى قيل : إنهم كانوا ألف ألف ، فكتب إليه أهل مصر من

نظم ابن مطروح القصيدة المشهورة التي منها :

قُلْ للفرنسيس إذا جِثَّتْهُ مَقَالَةٌ من ذي لِسَانٍ فَصِيح

إلى أن قال :

دارُ ابْنِ لُقْمَانَ على حَالِهَا وَمِصْرُ مِصْرٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيح

والقصيدة مشهورة فلذلك لم أسردّها ، فصرف الفرنسيس جيوشه إلى تونس ، فكتب إليه بعض أدباء دولة المستنصر :

أفرنسيس ، تونسُ أختُ مصرٍ فتأهَّبْ لما إليه تَصِيرُ  
لك فيها دارُ ابنِ لقمانِ قَبْرٌ وطَواشيكِ مُنْكَرٌ ونَكِيرُ

فقضى الله سبحانه وتعالى أنّه مات في حركته لتونس ، وغنم المستنصر غنيمة ما سمع بمثلها قط ، ويقال : إنّه دس إليه سيفاً مسموماً من سلّته أثر فيه سمّه ، وقتلده رسولاً إليه بعد أن جعل عليه من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره ، وقال للرسول : إن الفرنسيس رجل كثير الطمع ، ولولا ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره ، وإنّه سيرى السيف ، ويكثر النظر إليه ، فإذا رأيته فعل ذلك فانزعه من عنقك وقبّله ، وقل له : هذا هدية مني إليك ، لأن من آدابنا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه وعاودَ النظر إليه بالقصد فلا بد أن يكون له ، ويحرم علينا أن نمسكه ، لأن ما أحبه المولى على العبيد حرام ، وتكراره النظر إليه دليل على حبه له ، ففرح النصراني بذلك ، وأسرع الرسول العود إلى سلطانه ، فسلّ النصرانيّ السيف ، فتمكّن فيه السم بالنظر ، فمات في الحين ، وفرّج الله تعالى عن المسلمين .

رجع إلى أخبار أبي الحسن علي بن سعيد :

قال ابن العديم في تاريخ حلب : أنشدني شرف الدين أبو العباس أحمد بن

يوسف التيفاشي<sup>١</sup> بالقاهرة في أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي يشير إلى كتاب أبي الحسن الذي جمعه في محاسن المغرب وسمّاه « المغرب » :

سَعِدَ الغربُ وازدهى الشرقُ عَجْباً      وابتهاجاً بمَغْرِبِ ابنِ سعيدِ  
طلعتْ شمسُه من الغرْبِ تُجلى      فأقامتْ قِيامَةَ التَّقْيِيدِ  
لم يَدْعُ للمؤرخينَ مقالاً      لا ولا للرواةِ بيتَ نشيدِ  
إنْ تلاه على الحمامِ تَغَتُّ      ما على ذا في حُسْنِهِ من مزيدِ

وأُنشدني أبو العباس التيفاشي لنفسه فيه :

يا طَيِّبَ الأَصْلِ والفرعِ الزكيِّ كما      يبدو جَنِّي ثَمَرَ من أطيِّبِ الشَّجرِ  
ومنْ خَلَّاقَهُ مثلُ التَّسِيمِ إذا      يَهفو على الزَّهرِ حولِ النهرِ في السَّحَرِ  
ومنْ مُحَيَّاهُ واللهُ الشَّهيدُ إذا      يبدو إلى بصري أبعي من القَمَرِ  
أثْقَلتَ ظَهري ببرِّ لا أقومُ بِهِ      لو كنتُ أتَلوهُ قرآناً معَ السَّورِ  
أهديتَ لي الغرْبَ مجموعاً بعالمه      في قابِ قوسينِ بينِ السَّمعِ والبصرِ  
كأنِّي الآنَ قد شاهدتُ أجمَعَهُ      بكلِّ من فيه من بدوٍ ومن حَصَرِ  
نعم ولاقيتُ أهلَ الفضلِ كلَّهُمُ      في مُدَّتِي هذه والأعْصَرِ الأخرِ  
إن كنتُ لم أرهمُ في الصدرِ من عُمري      فقد رددتَ عليَّ الصدرَ من عمري  
وكُنْتُ لي واحداً فيهم جميعهمُ      ما يُعجِزُ اللهُ جمعُ الخلقِ في بشرِ  
جزيتُ أفضلَ ما يجزى به بشرٌ      مفيدَ عمرٍ جديدِ الفضلِ مبتكرِ

١ التيفاشي ( - ٦٥١ ) منسوب إلى تيفاش من قرى قفصة بإفريقية هاجر من بلده إلى القاهرة وتعلم فيها ثم عاد إلى بلده وتولى القضاء فيه ، ورجع إلى المشرق فسلم ماله وكتبه في البحر ، فلجأ إلى صاحب محمد بن محمد بن سعيد بن ندى الجزري الذي عاش ابن سعيد مدة في كنفه ، وألف مستعياً بمكتبة ابن ندى كتابه الكبير « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب » في ٢٤ مجلدة ، وقد اختصره ابن منظور وسماه « سرور النفس بمدارك الحواس الخمس » ويمثل « نثار الأزهار » قطعة منه ، وألف أيضاً كتابين في الجواهر ( الوافي ٨ الورقة : ١٣٣ ) .

ومن نظم أبي الحسن ابن سعيد قوله :

وعَشِيَّةٌ بَلَغَتْ بِنَا أَيْدِي النَّوَى      مِنْهَا مَحَاسِنَ جَامِعَاتٍ لِلنَّخَبِ  
فَحَدَاتِقٌ مَا بَيْنَهُنَّ جَدَاوِلٌ      وَبِلَابِلٌ فَوْقَ الْغُصُونِ لَهَا طَرَبٌ  
وَالنَّخْلُ أَمْثَالُ الْعَرَائِسِ لُبْسُهَا      خَزٌّ وَحَلِيَّتُهَا قَلَانِدٌ مِنْ ذَهَبِ

ومن نظمه رحمه الله تعالى في حلب قوله :

حَادِي الْعَيْسِ كَمْ تُنِيخُ الْمَطَايَا      سُقُ فَرُوحِي مِنْ بَعْدِهِمْ فِي سِيَاقِ  
حَلَبٌ لِنَهَا مَقَرٌّ غَرَامِي      وَمِرَامِي وَقِبْلَةٌ الْأَشْوَاقِ  
لَا خَلَا جَوْسَقٌ وَبَطْيَاسٌ وَالسَّعِ      دَاءٍ مِنْ كُلِّ وَابِلٍ غَيْدَاقِ  
كَمْ بِهَا مَرْتَعٌ لَطَرَفٍ وَقَلْبِ      فِيهِ يُسْقَى الْمُنَى بِكَأْسِ دِهَاقِ  
وَتُغْنِي طَيُورُهُ لَارْتِيَا حِ      وَتَشْنَى غُصُونُهُ لِلْعِنَاقِ  
وَعَلَوْ الشُّهْبَاءُ حَيْثُ اسْتَدَارَتْ      أَنْجُمُ الْأَفْقِ حَوْلَهَا كَالنَّطَاقِ

وقوله أيضاً في حماة :

حَمَى اللَّهُ مِنْ شَطَطِي حِمَاةَ مَنَاظِرًا      وَقَفْتُ عَلَيْهَا السَّمْعَ وَالْفِكْرَ وَالطَّرْفَا  
تُغْنِي حِمَامٌ أَوْ تَمِيلُ خِمَائِلٌ      وَتُزْهِى مَبَانٍ تَمْنَعُ الْوَاصِفَ الْوَصْفَا  
يَلُومُونَ أَنْ أَعْصِي التَّصَوَّنَ وَالنَّهْيَ      بِهَا وَأَطِيعَ الْكَأْسَ وَاللَّهُوَ وَالْقَصْفَا  
إِذَا كَانَ فِيهَا النَّهْرُ عَاصٍ فَكَيْفَ لَا      أَحَاكِيهِ عَصِيَانًا وَأَشْرِبَهَا صِرْفَا  
وَأَشْدُو لَدَى تِلْكَ النُّوَاعِيرِ شَدَّوَهَا      وَأَغْلِبُهَا رَقْصًا وَأَشْبِهُهَا غَرْفَا  
تَنْنٌ وَتُدْرِي دَمْعَهَا فَكَأَنَّهَا      تَهِيمٌ بِرَأَاهَا وَتَسْأَلُهَا الْعَطْفَا

وقوله في وداع ابن عمه وكتب بهما إليه :

وَدَاعٌ كَمَا وَدَعْتَ فَصَلَ رَبِيعِ      يَفْضُ ضُلُوعِي أَوْ يُفَيْضُ دُمُوعِي  
لَنْ قَبِيلٍ فِي بَعْضٍ يُفَارِقُ بَعْضَهُ      فَإِنِّي قَدْ فَارَقْتُ مِنْكَ جَمِيعِي

قال : فأرسل إليَّ إحساناً ، واعتذر ولسان الحال ينشد عنه :

أَحِبُّكَ فِي الْبَتُولِ وَفِي أَبِيهَا وَلَكِنِّي أَحِبُّكَ مِنْ بَعِيدٍ

وقوله ، وقد أفلتَ المركب الذي كان فيه من العدو :

أَنْظِرْ إِلَى مَرَكَبِنَا مُنْقَذاً مِنْ الْعِيدِ مِنْ بَعْدِ إِحْرَازِ

أَفْلَتَ مِنْهُمْ فَغَدَا طَائِراً كَطَائِرٍ أَفْلَتَ مِنْ بَازِي

وقال رحمه الله تعالى لما خرج من حدود إفريقية :

رَفِيقِي جَاوَزْنَا حُدُودَ مَوَاطِنٍ صَحَبْنَا بِهَا الْأَيَّامَ طَلَقاً حَيَّاهَا

وَمَا إِنْ تَرَكْنَاهَا بِالْجَهْلِ بِقَدْرِهَا وَلَكِنْ تَنَّتْ عَنَّا أَعْنَةَ سُقْيَاهَا

فَسَرْنَا نَحْثُ السَّيْرِ عَنْهَا لغيرها إِلَى أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ يَوْمًا بَلْقِيَاهَا

وكان وصوله الإسكندرية في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة

تسع وثلاثين وستمائة .

وقال رحمه الله تعالى : أخذت مع والدي يوماً في اختلاف مذاهب<sup>١</sup> الناس ،

وأهم لا يسلمون لأحد في اختياره ، فقال : متى أردت أن يسلم لك أحد في هذا

التأليف - أعني المغرب - ولا تُعْتَرَضَ أتبع<sup>٢</sup> نفسك باطلاً ، وطلبت غاية لا

تُدْرِكُ ، وأنا أضرب لك مثلاً : يحكى أن رجلاً من عقلاء الناس كان له ولد ،

فقال له يوماً : يا أباي ، ما للناس ينتقدون عليك أشياء وأنت عاقل ؟ ولو سعت

في مجانبها سلمت من نقدهم ، فقال : يا بني ، إنك غير<sup>٣</sup> لم تجرب الأمور ،

وإن رضى الناس غاية لا تدرك ، وأنا أوقفك على حقيقة ذلك ، وكان عنده حمار ،

فقال له : اركب هذا الحمار وأنا أتبعك ماشياً ، فبينما هما كذلك إذ قال رجل :

١ مذاهب : سقطت من دوزي .

٢ ق ج : أتبع .

أنظر ، ما أقلّ هذا الغلام بأدب ، يركب ويمشي أبوه ، وانظر ما أشد تخلف والده لكونه يتركه لهذا ، فقال له : انزل أركب أنا وامش أنت خلفي ، فقال شخص آخر : انظر هذا الشخص ، ما أقله بشفقة ، ركب وترك ابنه يمشي ، فقال له : اركب معي ، فقال شخص : أشقاهما الله تعالى ، انظر كيف ركبا على الحمار ، وكان في واحد منهما كفاية ، فقال له : انزل بنا ، وقدماه وليس عليه راكب ، فقال شخص : لا خفف الله تعالى عنهما ، انظر كيف تركا الحمار فارغاً وجعلا يمشيان خلفه ، فقال : يا بني ، سمعت كلامهم ، وعلمت أن أحداً لا يسلم من اعتراض الناس على أي حالة كان ، انتهى .

\* \* \*

[ مقتبسات من خطبة المغرب ]

وقال في أثناء خطبة المغرب ما نصه : والحمد لله الذي جعل الأدب أفضل ما اكتسب ، وأفضل ما انتخب ، إذ هو ذخّر لا يخاف كساده ، وكثر لا يخشى انتقاصه وإن كثر مرّ تاده ، ولله درّ القائل :

رأيتُ جميعَ الكسبِ يفقدهُ الفتي      وتبقى له أخلاقهُ والتأدّبُ  
إذا حلَّ في أرضٍ أقامَ لنفسه      بآدابه قدرأً به يتكسّبُ  
وأوماً كلُّ نحوهُ ، ولعلّه      إلى غيرِ أهلٍ للنباهةِ ينسّبُ

وقال في أثناء الكلام لبعض المغاربة :

فأثبتتُ في كلِّ المواطنِ همةً      إلى طلبِ العلمِ الذي كان مُطرحُ  
وصيرتُ من قد كان بالنظمِ جاهلاً      يُحاولُه كيما تجودَ لك المدحُ

وقال أيضاً في الخطبة : وبعد ، فهذا كتابُ راحةٍ قد تعبت في جمعه الأسماع والأبصار والأفكار ، وكل عناء سهل إذا أنجح القصد ، وقد بدأ فيه من سنة ثلاثين وخمسمائة ، ومنتهاه إلى غرة سنة إحدى وأربعين وستمائة ، قال : وأول



مَنْ كان السبب في ابتداء هذا الكتاب جدّ والدي عبد الملك بن سعيد ، وهو إذ ذاك صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر ، إلى أن استبدّ بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقصده في سنة ثلاثين وخمسمائة حافظ الأندلس أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن الحجاري وصنف له كتاب « المسهب في غرائب المغرب » في نحو ستة أسفار ، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذي ابتدأه فيه ، وهو سنة ثلاثين وخمسمائة ، ثمّ ثار في خاطر عبد الملك أن يضيف إليه ما أغفله الحجاري ، وتولع بمطالعة ابنه أبو جعفر ومحمد ، وأضافا له ما استفاداه ، ولم يزل يزيد إلى أن استبدّ به محمد ، فاعتنى به أشدّ اعتناء ، ثمّ استبدّ به والدي - وكان أعلمهم بهذا الشأن - وبلغ من اجتهاده في هذا الكتاب أنني أذكره يوماً وقد نوّه به ابن هود وهو ملك الأندلس وولاه الجزيرة الخضراء ، فأعلمه شخص أن عند أحد المنسويين إلى بيت نباهة كرايس من شعر شعرائها ، وأخبار رؤسائها ، الذين تحتوي عليهم دولة بني عبد المؤمن ، فأرسل إليه راغباً في استعارتها ، فأبى ، وقال : عليّ عيب أن لا تخرج عن منزلي ، وقال : إن كانت له حاجة يأتي على رأسه ، وكان جاهلاً ، فلما سمع والذي ضحك وقال : سر معي إليه ، فقلت له : ومن يكون هذا حتى نمشي له على هذه الصورة ؟ فقال : إني لا أمشي له ، ولكن أمشي للفضلاء الذين تضمنت الكرايس أشعارهم وأخبارهم ، أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين في موضع أنفت أن أمشي إليهم ؟ قلت : لا ، قال : فإن الأثر ينوب عن العين ، فمشينا إلى منزل الرجل ، فوالله ما أنصفنا في اللقاء ؛ فلما قضينا منها الغرض صرّفها إليه والدي وشكره ، وقال : هذه فائدة لم أجدّها عند غيرك ، فجزاك الله تعالى خيراً ، ثمّ انفصل وقال : ألم تعلم يا بني أنني سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية ، وإن هذا والله أوّل السعادة ، وعنوان نجاحها .

\* \* \*

### [ قلعة بني سعيد ]

والقلعة التي كان بها بنو سعيد تُعرفُ بهم فيقال لها : قلعة بني سعيد ، وكانت تُعرف قبل بقلعة أسطير ، وهو عين لها ، وقال الملاح في تاريخه : إنها تُعرف بقلعة يَحْضُب ، قبيل من اليمن نزل بها عند فتح الأندلس ، وبها كما مرَّ صنّف الحجاري كتاب « المسهب » لصاحبها عبد الملك بن سعيد .  
وفي بني سعيد يقول الحجاري :

قومٌ لهم في فخرهم شرفُ الحديثِ مع القديمِ  
ورثوا الندى والبأسَ والعلنيا كريماً عن كريمِ  
من كلِّ وضاحٍ بهِ يجلّي دجى الليلِ البهيمِ

\* \* \*

### [ أولية بني سعيد ]

وكان أول من دخل الأندلس<sup>١</sup> من ولد عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه عبدُ الله بن سعد بن عمار ، وقد ذكره ابن حيان في مُقتبسه ، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري صاحب الأندلس آخر دولة بني أمية بالمشرق كتب إليه أن يدافع عبد الرحمن بن معاوية المرواني الداخل للأندلس ، وكان إذ ذاك أميراً على اليمانية من جند دمشق، وإنما ركن إليه في محاربة عبد الرحمن لما بين بني عمار وبين بني أمية من الثأر بسبب قتل عمّار بصيفين على يد عسكر معاوية رضي الله تعالى عنه ، وكان عمار من شيعة علي رضي الله تعالى عنهما .

\* \* \*

١ قارن بما ورد في المغرب ٢ : ١٦١ .

[ شعر لأبي بكر ابن سعيد ]

وقال الحجارى : أنشدنى أبو بكر محمد بن سعيد صاحب أعمال غرناطة  
فى مدة الملتصين لنفسه ، فىما يلىق بجنسه :

إن لم أكن للعلاء أهلاً      بما تراه فمن يكونُ  
وكلُّ ما أبتغيه دونى      ولى على همّتى ديونُ  
ومن يرُمُّ ما يقلُّ عنه      فذاك من فعله جنونُ  
فرعٌ بأفقِ السماء سامٍ      وأصله راسخٌ مكينُ

ومن نظمه قوله أيضاً :

اللهُ يعلمُ أنى      أحبُّ كَسَبَ المعالى  
وإنما أتوانى      عنها لسوء المآلِ  
تحتاجُ للكدِّ والبذلِ      لِ واصطناعِ الرجالِ  
دعْ كلَّ من شاء يسمو      لها بكلِّ احتيالِ  
فحالمهمُ بانعكاسٍ      فيها وحالى وحالى

\* \* \*

[ ترجمة الغساني من المغرب ]

ولما ذكر ابنُ سعيد فى « المغرب »<sup>١</sup> ترجمة الكاتب الرئيس المجيد أبى  
العباس أحمد الغساني كاتب ملك إفريقية قال : بماذا أصفه ؟ ولو أن النجوم  
تصير لى نثراً لما كنت أنصفه ، وكفالك أنى اخترت الفضلاء من البحر المحيط  
إلى حضرة القاهرة ، فما رأيت أحسنَ ولا أفضلَ عشرة منه ، ولما فارقت لم

١ ليس له ترجمة فى المغرب المطبوع ، وقد أشرت من قبل إلى ترجمته فى اختصار القدح : ١٢ .

أشعر إلا برسالته قد وافقتني بالإسكندرية من تونس ، وفيها قصيدة فريدة منها<sup>١</sup> :  
 إليه أبا الحسن استمع شديوي فقد يُصغي الحمام إذا الحمامُ ترتما  
 ثم سرد بعضاً من القصيدة ، وستأتي قريباً إن شاء الله تعالى ، بزيادة على  
 ما ذكر منها في المغرب .

\* \* \*

[ إجازته للتيفاشي رواية المغرب ]

رجع - وجد بخطه رحمه الله تعالى آخر الجزء من كتاب « المغرب » ما  
 نصّه : أجزتُ الشيخَ القاضي الأجلَّ أبا الفضل أحمد ابن الشيخ القاضي أبي  
 يعقوب التيفاشي ، أن يروي عني مُصنَّفِي هذا ، وهو « المغرب في محاسن  
 المغرب » ويُرويه من شاء ثقة بفهمه ، واستقامة إلى علمه ، وكذلك أجزت  
 لفتاه النبيه جمال الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن خطّخ الفارسي الأرموي  
 أن يرويه عني ، ويُرويه من شاء ، وكتبه مصنفه علي بن موسى بن محمد بن  
 عبد الملك بن سعيد في تاريخ الفراغ من نسّخ هذا السّفَر ، انتهى .

\* \* \*

[ شعر لابن سعيد ]

وقال في وسيم من أبناء العجم صحبه في الطريق من حَلَب إلى بغداد فمات ،  
 وكان ظريفاً أديباً<sup>٢</sup> :

هفي على غصنٍ ذوى أفقدته لما استوى  
 ريان من ماء الصبا ومن المدامع ما ارتوى

١ انظر هذه القصيدة في اختصار القدح : ١٩ وجواب ابن سعيد عليها ص : ٥ .

٢ الأبيات في اختصار القدح : ٨ .

لا تعذلوني إن نطقة  
 كم ضلَّ صاحبهُ بسح  
 أنا لا أفيقُ الدهرَ فيه  
 إنَّ الهوى حيّاً وميِّ  
 كم قد نويتُ بهِ التّعير  
 دارَ السلامِ حويتِ مَنْ  
 مجموعُ حُسنٍ قد ثوى  
 في جنَّةٍ وبها ثوى  
 ت الدهرَ فيه عن الهوى  
 ر اللحظِ منه وكم غوى  
 ه من الصبابةِ والجوى  
 تاً لا يزالُ بهِ سوا  
 م فقدَر الله النوى  
 كلَّ المحاسنِ قد حوى  
 في جنَّةٍ وبها ثوى

وولد أبو الحسن علي بن موسى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رمضان عام عشرة وستمائة ، وهو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر ، رضي الله تعالى عنه .

\* \* \*

[ ترجمة والد ابن سعيد من المغرب ]

وقال في « المغرب » لما عرف بوالده الكاتب الشهير أبي عمران موسى ابن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، ما محصَّله<sup>١</sup> : لولا أنه والدي لأطنبت في ذكره ، ووفيته من الوصف حق قَدْرِهِ ، لكن كفاه وصفاً ما أثبتته له في هذه الترجمة ، وما مر له ويمر في أثناء هذا الكتاب ، وكون كل من اشتغل بهذا التأليف نهراً وهو بحر ، واشتهاره في حفظه التاريخ والاعتناء بالأدب في بلاده ، بحيث لا يحتاج إلى تنبيه ولا إطناب ، وله من النظم والنثر ما توضح الأقلام من كثرته ، ويستمد القطر من درته ، ومما شاهدت من عجائبه أنه عاش سبعاً

١ المغرب ٢ : ٩٩ ويشبه أن يكون نص المغرب المطبوع تلخيصاً لهذه الترجمة التي أوردتها المقري .

وستين سنة ولم أره يوماً يخلي مطالعة كتاب أو كَتَب ما يخلده ، حتى إن أيام الأعياد لا يخليها من ذلك ، ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكَتَب ، فقلت له : يا سيدي ، أفي هذا اليوم لا تستريح ؟ فنظر إلي كالمغضَب وقال : أظنك لا تُفْلح أبداً ، أترى الراحة في غير هذا ؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها ، ولوددت أن الله تعالى يُضاعف عمري حتى أتم كتاب « المغرب » على غرضي ؛ قال : فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله لا ألتذُّ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن ، ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه . وكان أولع الناس بالتجول في البلدان ، ومشاهدة الفضلاء ، واستفادة ما يرى وما يسمع ، وفي تولعه بالتقييد والمطالعة للكتب يقول :

يا مَفْنِياً عُمُرَه في الكَأْسِ وَالوَتْرِ	وراعياً في الدُّجَى لِلأَنْجَمِ الزُّهْرِ
يَسْبِكِي حَبِيباً جَفَاهُ أَوْ ينادِمُ مَنْ	يَهْفُو لَدَيْهِ كَغُصْنِ بِاسِمِ الزُّهْرِ
مَنْعَماً بَيْنَ لَدَاتٍ يَمْحَقُهَا	وَلَا يَخْلُدُ مِنْ فِخْرٍ وَلَا سَيْرِ
وعاذلاً لي فيما ظَلَمْتُ أَكْتَبُهُ	يَبْدِي التَّعَجُّبَ مِنْ صَبْرِي وَمِنْ فِكْرِي
يَقُولُ مَا لَكَ قَدَّ أَفْنَيْتَ عُمُرَكَ فِي	حَبْرٍ وَطِرْسٍ عَنِ الأَغْصَانِ وَالْحَبْرِ
وظَلَمْتُ تَسَهَّرُ طَوَلَ اللَّيْلِ فِي تَعَبِ	وَلَا تَبِي أَمَدَ الأَيَّامِ <sup>١</sup> فِي ضَجْرِ
أَقْصِرُ فَإِنِّي أَدْرِي بِالَّذِي طَمَحْتُ	لأَفْقِهِ هَمَّتِي وَاسْأَلْ عَنِ الأَثْرِ <sup>٢</sup>
وَاسْمَعْ لِقَوْلِ الَّذِي تُتَلَّى مَحَاسِنُهُ	مِنْ بَعْدِ مَا صَارَ مِثْلَ التُّرْبِ كَالسُّورِ
«جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم	بَعْدَ المَمَاتِ جَمالُ الكُتُبِ وَالسَّيْرِ»

انتهى .

وولد أبو عمران موسى بن محمد في الخامس من رجب عام ثلاثة وسبعين

١ المغرب : ولا ترى أهد الأيام .

٢ ق : الخبر .

وخمسمائة ، وتوفي بئغر الإسكندرية يوم الاثنين الثامن من شوال عام أربعين وستمائة .

\* \* \*

[ محمد بن عبد الملك بن سعيد ]

وولد أبوه محمد بن عبد الملك صاحب أعمال غرناطة وأعمال إشبيلية عام أربعة عشر وخمسمائة ، وتوفي بشعبان عام تسعة وثمانين وخمسمائة بغرناطة<sup>١</sup> .

وكان محمد بن عبد الملك وزيراً جليلاً ، بعيد الصيت ، عالي الذكر ، رفيع الهمة ، كثير الأموال ، وذكره ابن صاحب الصلاة في كتابه « تاريخ الموحدین »<sup>٢</sup> ونبه على مكانته منهم في الحظوة والأخذ في أمور الناس ، وأثنى عليه ، وذكره السهيلي في « شرح السيرة الشريفة »<sup>٣</sup> حيث ذكر الكتاب الموجه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هيرقل وأن محمد بن عبد الملك عاينه عند أذفونش مكرماً مفتخرأ به ، والقصة مشهورة ؛ ومدحه الرصافي بقصيدة أولها<sup>٤</sup> :

ذهناً يفيضُ وخاطراً متوقداً ماذا عسى يُشئني على علم الندى °

ولما أنشده قصيدته فيه التي أولها<sup>٥</sup> :

لمحلّك الترفيعُ والتعظيمُ ولوجهك التقديسُ والتكريمُ

حكفَ لا يسمعها ، وقال : عليّ إجازتك ، ولكن طباعي لا تحمل مثل

١ انظر المغرب ٢ : ١٦٢ .

٢ يعني كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » ، انظر ص : ٢٥١

٣ هو كتاب « الروض الأنف » .

٤ ديوانه : ٦٢ .

٥ الديوان : أبدأ تفيض . . . دعها تبت قبساً على علم الندى .

٦ الديوان : ١٣١ وفيه أنها في مدح أبي جعفر الوشحي وزير ابن همشك .

هذا ، فقال له الرصافي : ومنْ مثلك يستحق هذا في الوقت غيرك ؟ فقال له :  
دعني من خداعك ، أنا وما أعلمه من قلبي .  
وأُشِد له في « الطالع السعيد »<sup>١</sup> :

فلا تُظْهَرَنَ ما كان في الصِّدْرِ كامناً ولا تَرْكَبَنَّ بالغيظ في مَرْكَبٍ وَعَرِّ  
ولا تَبْحَثَنَّ في عُدْرٍ من جاء تائباً فليس كريباً مَنْ يُباحث في العُدْرِ  
وولي للموحدين أعمالاً كثيرة بمراكش وسلا وإشبيلية وغرناطة ،  
واتصلت ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من شيوخها وأعيانها ، وكتب عليه  
عقد أن في داره من الحلي وأصنافه ما لا يمكن إلاّ في دار الملك ، وأنه إذا  
ركب في صلاة الصبح شوش ...<sup>٢</sup> ونُبّاح الكلاب ، فأمر المنصور بالقبض عليه  
وعلى ابن عمّه صاحب أعمال إفريقية أبي الحسين سنة ٥٩٣ ، ثم رضي عنهما ،  
وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطّه كل ما أخذ له ، فصرفه عليه ، ولم  
ينقص منه شيئاً ، وغرم له ما فات منه ، وهذا ممّا يدل على قوة سَعَد محمد  
ابن عبد الملك المذكور ونباهة قدره ، وحسبُه من الفخر مدحُ أديب الأندلس  
وشاعرها أبي عبد الله الرصافي<sup>٣</sup> له ، وهو ممّن يمدحُ الخلفاء في ذلك العصر ،  
رحمه الله تعالى .

[ عبد الملك بن سعيد ]

وولد أبوه عبد الملك بن سعيد عام ستة وتسعين وأربعمائة ، وتوفي بحضرة

١ البيهقي في المغرب ٢ : ١٦٢ .  
٢ بياض بقدر سطر في ج ق وجاء في هامش إحدى النسخ : « هذا سطر بخط المؤلف رحمه الله ما  
قدرنا على استخراج جبره الله تعالى » .  
٣ أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي ( - ٥٧٢ ) قد جمعنا شعره وقدمنا له بدراسة عن الشاعر ،  
وانظر في ترجمته المغرب ٢ : ٢٩٧ والتكملة : ٥٢٠ والمعجب : ١٣٧ وتحفة القادم :  
١٨٣ وأدباء مالقة ، الورقة : ١٨ .



مراكش عام اثنين وستين وخمسمائة . قال الحجاري : لما مات يحيى بن غانية الملقب ملك الأندلس بحضرة غرناطة ، وكان وزيره ومُدبر دولته عبد الملك بن سعيد ، بادر الفرار لغرناطة عندما سمع بموته إلى قلعته ، وثار بها ، وطلبه خليفة يحيى بن غانية طلحة<sup>١</sup> بن العنبر ، فوجده قد فاته .

وقد قدمنا أن عبد الملك هذا هو السبب في تأليف كتاب « المغرب في أخبار المغرب » ثم تمه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم تمم ما بقي منه ابنه موسى ابن محمد ، ثم أربى على الكل في إتمامه أبو الحسن علي بن موسى الذي قصدناه بالترجمة في هذا الكتاب ، وقد ذكرنا من أحواله جملة كافية .

\* \* \*

[ وصف ابن سعيد لفسطاط ]

ومن فوائده ابن سعيد أبي الحسن ما حكاه عن صاحب كتاب « الكمامم » وهو<sup>٢</sup> : فأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت في القديم متصلة بمباني مدينة عين شمس ، وجاء الإسلام وبها بناء<sup>٣</sup> يُعرف بالقصر حوله مساكن ، وهو الذي عليه نزل عمرو بن العاص ، وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب إليه ، ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ، ونسب المدينة إليه ، فقبل : فسطاط عمرو ، وتداولت عليها بعد ذلك<sup>٤</sup> وألاة مصر ، فاتخذوها سرير السلطنة ، وتضاعفت عمارتها ، فأقبل الناس من كل جانب إليها ، وقصروا أمانهم عليها ، إلى أن رسخت بها دولة بني طولون ، فبنوا إلى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع ، وبها كان مسجد ابن طولون الذي هو الآن إلى جانب القاهرة ، وهي مدينة

١ طلحة : ثبتت في ج وسقطت من ق .

٢ قارن هذا النص بما ورد في المغرب ١ : ١ والخلط المقرئية ٢ : ١٤٦ ، وأما كتاب الكمامم المذكور فإنه للبيهقي .

٣ المغرب : مبنى .

٤ بعد ذلك : سقطت من دوزي .

مستطيلة يمر النيل مع طولها ، وتحطُّ في ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد ، وبها منتزهات ، وهي في الإقليم الثالث ، ولا ينزل فيها مطر إلا في النادر ، وترابها ينتن<sup>١</sup> الأرجل ، وهو قبيح اللون ، تستكدر<sup>٢</sup> منه أرجاؤها ، ويسوء بسببه هواؤها ، ولها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة ، ومبانيها بالقصَب والطوب طبقة على طبقة . ومد بنيت القاهرة ضعفت مدينة القسطنطينية ، وفُترط في الاعتناء بها بعد الإفراط ، وبينهما نحو ميلين ، وأنشدت فيها للشريف العقيلي<sup>٣</sup> :

أحِنُّ إلى القسطنطينية شوقاً وإنِّي لأدعو لها أن لا يحلَّ بها القَطْرُ  
 وهل في الحيا من حاجةٍ لحنابها وفي كل قُطْرٍ من جوانبها نهرٌ  
 تبدت عروساً والمقطمُ تاجها ومن نيلها عقدٌ كما انتظم الدرُّ

وقال عن كتاب أجار<sup>٤</sup> : والقسطنطينية هو قَصَبَة مصر ، والجبل المقطم شرقها ، وهو متصل بجبل الزمرذ ، وقال عن كتاب ابن حوقل<sup>٥</sup> : القسطنطينية مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها ، وهي كبيرة ، ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية العمارة والطيب واللذة ذات رحاب في مجالها ، وأسواق عظام فيها ضيق ،

١ المغرب : تثيره .

٢ المغرب : تستكدر .

٣ هو أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة من شعراء المائة الرابعة ، أكثر شعره في الوصف ولم يكن يمدح ( انظر المغرب ١ : ٢٠٥ قسم مصر والحريدة ٢ : ٦٢ والمسالك ١١ : ١٩٥ ) والأبيات ليست في ديوانه المطبوع .

٤ يعني كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسي الذي ألفه للملك رجار ( ويقال فيه أجار ) : Roger وانظر المغرب ١ : ٢ .

٥ انظر كتاب صورة الأرض : ١٣٧ والنقل عنه باختصار ، ولذا لم نثبت فروق القراءة ؛

والمغرب ١ : ٢ .

٦ ج : وأسواقها .

ومتاجر فخام<sup>١</sup> ، ولها ظاهر أنيق ، وبساتين نضرة ، ومنتزهات على ممر الأيام  
 خضرة ، وفي الفسطاط قبائل وخطط للعرب تُنسب إليها كالكوفة والبصرة ،  
 إلا أنّها أقلُّ من ذلك ، وهي سبخة الأرض ، غير نقية التربة ، وتكون الدار  
 بها سبع طبقات وخمساً وستاً ، وربما يسكن في الدار المائتان من الناس ،  
 ومُعظم بنينهم بالطوب ، وأسفل دورهم غير مسكون ، وبها مسجدان للجمعة ،  
 بنى أحدهما عمرو بن العاص في وسط الفسطاط ، والآخر على الموقف<sup>٢</sup> بناه  
 ابن طولون ، وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلاً في ميل  
 يسكنها جنده ، وتُعرف بالقطائع ، كما بنى بنو الأغلب خارج القيروان رَقادة ،  
 وقد خربت في وقتنا هذا ، وأخلف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة .  
 قال ابن سعيد<sup>٣</sup> : لما استقررتُ بالقاهرة تشوّفت<sup>٤</sup> إلى مُعاينة الفسطاط ،  
 فسار معي إليها أحد أصحاب القرية<sup>٥</sup> ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المُعدّة  
 لركوب مَنْ يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لي بمثلها في بلد ، فركب  
 منها حماراً ، وأشار إليّ أن أركب حماراً آخر ، فأنفستُ من ذلك جرّياً على  
 عادة ما خلفته من بلاد المغرب ، فأخبرني<sup>٦</sup> أنّه غير معيب على أعيان مصر ،  
 وعابنت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت ، وعندما  
 استويتُ ركباً أشار المُكاري إلى الحمار ، فطار بي ، وأثار من الغبار الأسود  
 ما أعمى عينيّ ، ودنس ثيابي ، وعابنت ما كرهته ، ولقطة معرفتي بركوب  
 الحمار وشدة عدّوه على قانون لم أعهدده ، وقلة رفق المُكاري ، وقعت في تلك  
 الظلمة المثارة من ذلك العجاج ، فقلت :

١ كذا في ج ؛ وفي ق : ضخام .

٢ الموقف : بقعة شمال الفسطاط (الانتصار لابن دقماق ؛ ١٠) ؛ وفي ج : والآخر على الآخر .

٣ المغرب ١ : ٥ (قسم مصر) .

٤ كذا في ج والمغرب ؛ وفي ق ودوزي : تشوقت .

٥ المغرب : الغزمة .

٦ المغرب : فأعلمني .

لَقِيتُ بِمِصْرَ أَشَدَّ البَوَارِ رَكُوبَ الحِمَارِ وَكحَلِ الغُبَارِ  
 وَخَلْفِي مُكَارٍ يَفوقُ الرِيَّاحِ لا يَعرِفُ الرَفقَ مَهْمَا اسْتَطَارَ  
 أَنَادِيهِ مَهْلاً فلا يَرَعَوِي إلى أن سَجَدتُ سُجُودَ العنَّارِ  
 وَقَد مَدَّ فَوْقِي رِوَاقَ الثَّرَى وَأَلحَدَ فِيهِ ضِيَاءَ النُّهَارِ

فدفعت إلى المكاري أجرته ، وقلت له : إحسانك أن تركني أمشي على رجلي ، ومشيت إلى أن بلغتها ؛ وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين ، ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرة ، وتأملت أسواراً مثكمة سوداء وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها وهو دون غلقت يفضي إلى خراب معمور بمبانٍ متشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، قد بُنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس التنظيف ، ويغض طرف الطريف ، فسرت وأنا مُعَاين لاستصحاب تلك الحال ، إلى أن صرت في أسواقها الضيقة ، فقايست من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تفي به إلا مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع ، فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت به ضده في جامع إشبيلية وجامع مرآكش ، ثم دخلت إليه فعاينت جامعاً كبيراً قديماً البناء ، غير مزخرف ، ولا مُحْتَقَل في حُصْره التي تدور مع بعض حيطاته ، وتنسب فيه ، وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه مَعْبِراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك ، والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لبحري العادة عندهم بذلك ، وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل ، قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً ، وفضلات ما كلهم مطروحة في صحن الجامع ، وفي زوايا العنكبوت قد عظم

١ المغرب : وما جرى مجرى ذلك .

نسجه في السقف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون في صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمره بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة<sup>١</sup> ، إلا أن مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع إشبيلية مع زخرفته والبستان الذي في صحنه ، ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس<sup>٢</sup> دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضي الله تعالى عنهم في ساحته عند بنائه ، واستحسن ما أبصرته من حلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن ، وسألت عن مواد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجاه والتعب . ثم انفصلنا من هناك إلى ساحل النيل ، فرأيت ساحلاً كدير التربة ، غير نظيف ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سور أبيض ، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلتُ إنني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنني أقول حقاً ، والنيل هنالك ضيق ، لكون الجزيرة التي بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعة قد توسطت الماء ومالت إلى جهة القسطنطينية ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة في ذلك الساحل . وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذي يكون ممتداً من القسطنطينية إلى الجزيرة ، وهو غير طويل ، ومن الجانب الآخر إلى البر الغربي المعروف ببر الجزيرة<sup>٣</sup> جسر آخر من الجزيرة إليه ، وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم في المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احتُرما لحصولهما في حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز أحد على الجسر الذي بين القسطنطينية والجزيرة ركباً احتراماً

١ المغرب : العوام .

٢ ج ق : والحسن .

٣ في ج : ببر الجزيرة .

لموضع السلطان ، وبتنا في ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل ، فقلت <sup>١</sup> :

نَزَلْنَا مِنَ الْفُسْطَاطِ أَحْسَنَ مَنَزَلٍ      بَحَيْثُ امْتَدَادُ النَّيْلِ قَدْ دَارَ كَالْعَقْدِ  
وَقَدْ جُمِعَتْ فِيهِ الْمَرَائِبُ سُحْرَةً      كَسِرْبٍ قَطًّا أَضْحَى يَرِفُّ عَلَى وَرْدِ  
وَأَصْبَحَ يَطْفُو الْمَوْجُ فِيهِ وَيَرْتَمِي      وَيَطْرُبُ أحيانًا وَيَلْعَبُ بِالرَّدِ  
حَلَا مَأْوَهُ كَالرِّيْقِ مَمَّنْ أَحِبَّهُ      فَمَدَّتْ عَلَيْهِ حُلَّةٌ مِنْ حَلِي الْخَدِّ  
وَقَدْ كَانَ مِثْلَ النَّهْرِ مِنْ قَبْلِ مَدِّهِ      فَأَصْبَحَ لَمَّا زَادَهُ الْمَدُّ كَالْوَرْدِ

وقلت هذا لأنني لم أذق في المياه أحلى من مائه ، وإنه يكون قبل المد الذي يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض ، فإذا كان عباب النيل صار أحمر ، وأنشدني علم الدين فخر الترك أيدمر<sup>٢</sup> عتيق وزير الجزيرة في مدح الفسطاط <sup>٣</sup> :

حَبَّبْنَا الْفُسْطَاطَ مِنَ الْوَالِدَةِ      جَنَّبْتُ أَوْلَادَهَا دَارَ الْخَفَا  
يَرِدُ النَّيْلُ إِلَيْهَا كَدِرًا      فَإِذَا مَازَجَ أَهْلِهَا صَفَا  
لَطْفُوا فَلَمَزْنُ لَا تَأْلَفُهُمْ      خَجَلًا لَمَّا رَأَتْهُمُ الْطَفَا

ولم أر في أهل البلاد أطف من أهل الفسطاط ، حتى إنهم أطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ، والحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ، وتحت ذلك من الملتق وقلة المبالاة برعاية قدر الصحة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

وأما ما يرد<sup>٤</sup> على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندراني والبحر الحجازي

١ الأبيات في المقتطفات (الورقة : ٢٨) ، والخطط ٢ : ١٤٨ .  
٢ هو علم الدين أيدمر المحيوي التركي ، راجع ترجمته في فوات الوفيات (١ : ١٤٠) وهو ينقل عن المشرق في حلى المشرق لابن سعيد ، وله ديوان شعر يمثل قسماً من شعره (دار الكتب : ١٩٣١) .  
٣ وردت هذه الأبيات في كتاب الانتصار ٤ : ١٠٩ ، وانظر مقدمة ديوانه ، والمغرب (قسم مصر ١ : ٩) ، والخطط ٢ : ١٤٨ .  
٤ المغرب (قسم مصر) : ١١ .

فإنه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك ، لا بالقاهرة ، ومنها يجهر إلى القاهرة وسائر البلاد .

وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى ، لأن القاهرة بُنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زيّ الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما يُنسج ويصاغ وسائر ما يُعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية ، والحراب في الفسطاط كثير ، والقاهرة أجدُّ وأعمر وأكثر زحمة ، باعتبار انتقال السلطان إليها ، وسكنى الأجناد فيها ، وقد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن ، لمجاورتها للجزيرة الصالحية ، وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر ، انتهى .

قال المقرئزي<sup>٢</sup> : يعني ابن سعيد ما بنى على شفة مصر من جهة النيل ، انتهى . وقال ابن سعيد المذكور في « المغرب من حلى المغرب » ما ملخصه : الروضة أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجزيرة ، وبها مقياس النيل ، وكانت منتزهاً لأهل مصر ، فاخترها الملك الصالح ابن الملك الكامل سريراً لسلطنته ، وبنى فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالي السَّمك لم ترَ عيني أحسن منه ، وفي هذه الجزيرة كان الهودج الذي بناه الخليفة الأمر لزوجته البدوية التي هام في حبها ، والمختار بستان الإخشيد وقصره ، وله ذكر في شعر تميم بن المعز وغيره ، ولشعراء مصر في هذه الجزيرة أشعار ، منها قول أبي الفتح ابن قادوس الدمياطي :

أرى سُرجَ الجزيرة من بَعِيدٍ      كأحداقِ تُغازلُ في المغازلِ  
كأنَّ مَجْرَةَ الجوزاءِ خَطَّتْ      وأثبتتِ المنازلَ في المنازلِ

١ المغرب : بسبب انتقال .

٢ الخطط ٢ : ١٤٩ .

قال : وكنت أبيتُ بعض الليالي بالقسطاط ، فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل مع سور هذه الجزيرة الدرّي اللون ، ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة ، وفي داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همّة بانيتها ، وهو من أعظم السلاطين في البناء ، وأبصرت بهذه الجزيرة إيواناً بلحوسه لم تر عيني مثاله ، ولا يُقدَّر ما أنفق عليه ، وفيه من صحائف الذهب والرخام الآبنوسي والكافوريّ والمجزّع ما يذهل الأفكار ، ويستوقف الأبصار ، ويفضل عما أحاط به السور أرض طويلة في بعضها حاضر<sup>١</sup> حصر فيه أصناف الوحوش التي يتفرج عليها السلطان ، وبعدها مروج تنقطع فيها مياه النيل فتنظر فيها أحسن منظر ، قال : وقد تفرجت كثيراً في طرف<sup>٢</sup> هذه الجزيرة ممّا يلي أثر القسطاط فقطعت به عشيات مُدهّبات ، لم تنزل لأحزان الغربية مُدهّبات ، وإذا زاد النيل فصل برها عن بر القسطاط من جهة خليج القاهرة ، ويبقى موضع الجسر تكون فيه المراكب ، انتهى .

وأورد الصفدي في تذكرته لابن سعيد المذكور في هذه الجزيرة :

انظر إلى سور الجزيرة في الدجى      والبدرُ يلثمُ منه تُغراً أشنباً  
تضاحكُ الأنوارُ في جنباته      فتريكَ فوقَ النيلِ أمراً مُعجبا  
بيّنا تراه مُفضّضاً في جانبٍ      أبصرتَ منه في سواه مُدهّبا  
للهِ مرأى ما رآه ناظري      إلا خلعتُ له المقام تطربا

\* \* \*

[ وصف القاهرة ]

وقال في « المغرب » نقلاً عن بعضهم ما صورته<sup>٣</sup> : وأما مدينة القاهرة ، فهي الحالية الباهرة ، التي تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها ، واتخذوها

١ ق : حاظر . ٢ ق : طرق .

٣ المخطوط ٢ : ١٨٦ - ١٩٠ والنقل عن البيهقي .



قُطِباً لخلافتهم ومركزاً لأرجائها ، فُنسِي الفسْطاط ، وزُهد فيه بعد الاغْتباط ،  
وسميت القاهرة لأنها تَقْهَر من شَدِّ عنها ورام مخالفة أميرها ، انتهى . قال ابن  
سعيد : هذه المدينة اسمها أعظم منها ، وكان ينبغي أن تكون في ترتيها ومبانيها  
على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظمُ خلفاء العَبِيدِيين ، وكان  
سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أوّل الديار المصرية إلى البحر المحيط .

وسارت مَسِيرَ الشمسِ في كلِّ بلدةٍ وهبّتْ هبوبَ الرّيحِ في البرِّ والبحرِ  
لا سيّما وقد عاين مباني أبيه المنصور في المدينة المنصورية إلى جانب القيروان  
وعاين المهديّة مدينة جدّة عبّيد الله المهدي ، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على  
قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهي ناطقة إلى الآن بألسن الآثار ، ولله در القائل :

هِمَمُ الملوِكِ إذا أرادوا ذِكرَها من بَعْدِهِمُ فبالسُنِّ البُنيانِ  
إنَّ البِناءَ إذا تعاضَمَ شأنُهُ أضْحى يدلُّ على عَظِيمِ الشانِ

وتهم من بعده الخلفاء المصريون في الزيادة في تلك القصور ، وقد عاينت  
فيها إيواناً يقولون إنّه بني قدر إيوان كسرى الذي بالمدائن ، وكان يجلس فيها  
خلفاؤهم ولهم على الخليج الذي بين الفسْطاط والقاهرة مَبَانٍ عظيمة جليّة  
الآثار ، وأبصرت في قصورهم حيطاناً عليها طاقات عديدة من الكِلْسِ والجبس  
ذُكر لي أنهم كانوا يجدّون تبييضها في كل سنة ، والمكان المعروف بالقاهرة  
بين القصرين هو من الترتيب السلطاني ، لأن هناك ساحة متّسعة للعسكر  
والمفترّجين ما بين القصرين ، ولو كانت القاهرة كلّها كذلك كانت عظيمة القدر  
كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه إلى أمد ضيق ، وتمرّ  
في ممر كدر حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيلُ مع الرجالة كان  
مما تضيق به الصدور ، وتسخن منه العيون ، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة  
وبين يديه الأمراء ، وهو في موكب جليل ، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل

حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم  
 الازدحام ، وكان في موضع طباخين ، والدخان في وجه الوزير ، وعلى ثيابه ،  
 وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك في جملتهم . وأكثر دُروب القاهرة ضيقة  
 مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد  
 ضَيَّقَتْ مسلك الهواء والضوء بينها ، ولم أرَ في جميع بلاد المغرب أسوأ منها  
 حالاً في ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري ، وتُدْرِكني وحشة  
 عظيمة ، حتى أخرج إلى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشاً  
 لبعدها عن مجرى النيل ، لثلا يصادرها ويأكل ديارها ، وإذا احتاج الإنسان إلى  
 فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهاها بين المباني التي خارج السور إلى  
 موضع يُعرف بالمتَّس ، وجوؤها لا يبرح كدراً بما تنثره الأرض من التراب  
 الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر علي رفاقي من الحُص على العود فيها :

يقولون سافِرٌ إلى القَاهِرَةِ      وما لي بها رَاحَةٌ ظاهِرَةٌ  
 زِحامٌ وضيقٌ وكَرْبٌ وما      تُثيرُ بها أَرْجُلٌ سائِرَةٌ

وعندما يُقْبِلُ المسافر عليها يرى سوراً أسود كدراً ، وجوّاً مغبراً ،  
 فتقبض نفسه ، ويفرُّ أنسه ، وأحسن موضع في ظواهاها للفرجة أرض الطباله ،  
 لا سيّما أرض القرط والكتان ، وقلت :

سقى الله أرضاً كلما زُرَتْ رَوْضُها      كَسَّها وحلَّها بزِينَتِها القُرْطُ  
 تجلَّتْ عَرُوساً والمياه عَقُودُها      وفي كل قطر من جوانبها قرطُ

وفيها خليج لا يزال يضعف بين حضرتها حتى يصير كما قال الرصافي :

ما زالتِ الأمحالُ تأخذه      حتى غدا كدُّ وَايةِ التَّجْمِ

وقلت في نور الكتان على جانبي الخليج :

انظرُ إلى النهرِ والكتانُ يَرْمُقُهُ من جَانِبَيْهِ بِأَجْفَانٍ لَهَا حَدَقُ  
رَأْتُهُ سَيْفًا عَلَيْهِ لِلصَّبَا شُطْبُ فَقَابَلْتَهُ بِأَحْدَاقٍ بِهَا أَرْقُ  
وَأَصْبَحْتَ فِي يَدِ الأرواحِ تَنْسُجُهَا حَتَّى غَدَتَ حَلَقًا مِنْ فَوْقِهَا حَلَقُ  
فَقَمُ فزُرْهَا وَوَجْهَ الأَرْضِ مُصْطَبِحُ أَوْ عِنْدَ صُفْرَتِهِ إِنْ كُنْتَ تَغْتَبِقُ

وأعجني في ظاهرها بركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتُسْرَجُ أصحابُ المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب ، وفي ذلك قيل<sup>١</sup> :

انظرُ إلى بِرْكَةِ الفِيلِ الَّتِي اكْتَنَفَتْ بِهَا المَنَاظِرُ كالأهدابِ لِلبَصْرِ  
كَأَنَّمَا هِيَ والأَبْصَارُ تَرْمُقُهَا كَوَاكِبٌ قَدْ أَدَارُوهَا عَلَى القَمَرِ

ونظرتُ إليها وقد قابلتها الشمس بالغدو فقلت :

انظرُ إلى بركةِ الفيلِ الَّتِي فَجَرَتْ لَهَا الغَزَالَةُ فَجَرًّا مِنْ مَطَالِعِهَا  
وَخَلَّ طَرْفَكَ مَجْنُونًا بِبَهْجَتِهَا بِهَيْمٍ وَجَدًّا وَحُبًّا فِي بَدَائِعِهَا

والفسطاط أكثر أرزاقاً ، وأرخص أسعاراً من القاهرة ، لقرب النيل من الفسطاط ، والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة ، لأنه يبعد عن المدينة ، والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط ، لأنها أجلُّ مدارس ، وأضخم خانات ، وأعظم دياراً لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منها ، فأمر السلطنة كلتها فيها أيسر ، وأكثر ، وبها الطراز وسائر الأشياء التي يتزين بها الرجال والنساء ، إلا أن في هذا الوقت لما اعتنى

١ سقط البيتان من ج .

السلطان ببناء قلعة الجزيرة التي أمام القسطنطينية وصيرها سرير السلطنة عَظُمَت  
عمارة القسطنطينية ، وانتقل إليها كثير من الأمراء ، وضخمت أسواقها ، وبنى  
فيها السلطان أمام الجسر الذي للجزيرة قيسارية عظيمة ، فنقل إليها من القاهرة  
سوق الأجناد التي يُباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك .

إلى أن قال : وهي الآن عظيمة أهلة ، يُجَنَّبُ إليها من الشرق والغرب  
والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملة وتفسيره إلا خالق الكل جلّ وعلا ، وهي  
مستحسنة للفقير الذي لا يخاف طلب زكاة ولا ترسيماً ولا عذاباً ، ولا يطالب  
برفيق له إذا مات ، فيقال له : ترك عندك مالاً ، فربما سجن في شأنه أو ضرب  
أو عصر ، والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرة ، ووجود السماع  
والفرج في ظواهرها ودواخلها ، وقلّة الاعتراض عليه فيما تذهب إليه نفسه ،  
يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة  
أو صحبة مُرَدان وما أشبه ذلك ، بخلاف غيرها من بلاد المغرب ، وسائر الفقراء  
لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول إلا المغاربة ، فذلك وقف عليهم لمعرفة  
بمعانة البحر ، وقد عمّ ذلك من يعرف معانة البحر منهم ومن لا يعرف ،  
وهم في القдом عليها بين حالين : إن كان المغربي غنياً طوّل بالزكاة وضيق  
عليه السعاة ، وإن كان مجرداً فقيراً حُمِلَ إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول .  
وفي القاهرة أزهار كثيرة غير منقطعة الاتصال ، وهذا الشأن في الديار  
المصرية يفضل كثيراً من البلاد ، وفي اجتماع الرجس والورد فيها أقول :

مَنْ فَضَّلَ الرَّجْسَ وَهُوَ الَّذِي يَرْضَى بِحُكْمِ الْوَرْدِ إِذْ يَرَأْسُ  
أَمَا تَرَى الْوَرْدَ غَدًا قَاعِدًا وَقَامَ فِي خِدْمَتِهِ الرَّجْسُ

وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز ، أمّا التفاح والإجاص  
فقليل غال ، وكذلك الخوخ ، وفيها الورد والرجس والنسرین والنيلوفر والبنفسج  
والياسمين والليمون الأخضر والأصفر ، وأمّا العنب والتين فقليل غال ، ولكثرة

ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل ، ومع هذا فشرابه عندهم في غاية الغلاء ، وعامتها يشربون الميزر الأبيض المتخذ من الخنطة ، حتى إن الخنطة يطلع سعرها بسببه ، فينادي المنادي من قبل الوالي بقطعه وكسر أوانيه ، ولا ينكر فيها إظهار أواني الخمر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ، ولا تبرج النساء العواهر ، ولا غير ذلك مما ينكر في غيرها من بلاد المغرب ، وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلي القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك في بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة ، حتى إن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ، وللسرج في جانبه بالليل منظر ، وكثيراً ما يتخرج فيه أهل الستر في الليل ، وفي ذلك أقول :

لا تَرْكَبَنَّ فِي خَلِيجِ مِصْرٍ	إِلَّا إِذَا أُسْدِلَ الظُّلَامُ
فَقَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَلَيْهِ	مِنْ عَالَمٍ كُلُّهُمْ طَعَامُ
صَفْقَانِ لِلْحَرْبِ قَدْ أَطْلَأَ	سِلَاحُ مَا بَيْنَهُمْ كَلَامُ
يَا سَيِّدِي لَا تَسِرْ إِلَيْهِ	إِلَّا إِذَا هَوَّمَ النَّيَامُ
وَاللَّيْلُ سُرٌّ عَلَى التَّصَابِي	عَلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِ لثَامُ
وَالسُّرُجُ قَدْ مُدَّتْ عَلَيْهِ	مِنْهَا دَنَائِرُ لَا تُرَامُ
وَهُوَ قَدْ امْتَدَّ وَالْمَبَانِي	عَلَيْهِ فِي خِدْمَةِ قِيَامُ
لِللَّهِ كَمَّ دَوْحَةٌ جَنَيْنَا	هُنَاكَ أَثْمَارُهَا الْأَثَامُ

قال المقرئ : وفيه تحامل كثير ، انتهى .

ومن نظر بعين الإنصاف علم أن التحامل في نسبة التحامل إليه ، والله

تعالى الموفق .

قال ابن سعيد : ومعاملة الفسطاط والقاهرة بالدرهم المعروفة بالسوداء ،

كل درهم منها ثلاثة من الدرهم الناصري ، وفي المعاملة بها شدة وخسارة في البيع والشراء ، ومحاصمة بين الفريقين ، وكان بها قديماً الفلوس ، فقطعها الملك الكامل ، فبقيت الآن مقطوعة منها .

وهي في الإقليم الثالث ، وهوؤها رديء ، لا سيّما إذا هبّ المَرِسي من جهة القبلة ، وأيضاً فرمَدُ العين فيها كثير ، والمعاش فيها متعذرة نَزْرَة ، لا سيّما أصناف الفضلاء ، وجوامك المدارس قليلة كدرة ، وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى في كتابة الطب والحراج ، والنصارى بها يمتازون بالزّنار في أوساطهم ، واليهود بعمائم صُفر ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة ، ويأكل أهل القاهرة البَطارخ ، ولا تُصنع حلاوة القمح إلا بها وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جَوَارٍ طبابخات أصلُ تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، ولهن في الطبخ صنائع عجيبة ، ورياسة متقدمة ، ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة . انتهى المقصود من هذا الموضوع من كلام أبي الحسن النور بن سعيد رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله :

كَمْ ذَا تُقِيمُ بِمِصْرٍ      مُعَدَّبًا بِذَوِيهَا  
وكيف تَرَجُّوْ نَدَاهُمْ      والسُّحْبُ تَبَخَّلُ فِيهَا

وقال رحمه الله تعالى :

لابن الزبير مكارم أضحّت بها      طيرُ المدائح في البلاد تُغَرِّدُ  
إن قيّدوه وبأَلْغُوا في عَصْرِهِ      فالكرمُ يُعَصِّرُ والجوَادُ يُقَيِّدُ

١٦٦ - ولندكر بعض أخبار والده ، فإنه ممّن رحل إلى المشرق وتوفى بالإسكندرية ، وقد ذكر ابنه أبو الحسن في « المغرب » وغيره من أخباره

١ ق : يمقد .

العجائب ، ولا بأس بأن نلم بشيء من ذلك ، سوى ما تقدم ، فنقول :  
من أخباره أنه لما اجتاز بمالقمة ومشرفها إذ ذاك أبو علي ابن مبقى وجه  
إليه من نقل أسبابه إلى داره وأقبل عليه منشداً :

أَكْذَا يَجُوزُ الْقَطْرُ لَا يَشْتِي عَلَى      أَرْضٍ تَوَالِي جَدْبُهَا مِنْ بَعْدِهِ  
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهَا مَا أَنْبَتَتْ      زَهْرًا وَلَا ثَمَرًا بِمَدَّةِ فَقْدِهِ  
عَرَّجَ عَلَيْهَا سَاعَةً يَا مَنْ لَهُ      حَسَبٌ يَفُوقُ الْعَالَمِينَ بِمَجْدِهِ  
وَأَنْثَرُ عَلَيْهَا مِنْ أَزْهَرِكَ الَّتِي      تَشْفِي الْمَتِيمَ مِنْ لَوَاعِجِ وَجْدِهِ  
وَاللَّهُ مَا ذَاكَرْتُ فَكْرَكَ سَاعَةً      إِلَّا وَأَقْبَسَ خَاطِرِي مِنْ زَنْدِهِ  
قال موسى : فارتجلت للحين :

أَنْتَ الَّذِي تَعْرِفُ كَيْفَ الْعُلَا      وَتَبْتَدِي فِي سُبُلِ الْمَجْدِ  
بَدَأْتَ بِالْفَضْلِ الْمُنِيرِ الَّذِي      أَكْمَلَ بَدْرَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ  
وَاللَّهُ مَا أَبْصَرْتَكُمْ سَاعَةً      إِلَّا بَدَأَ لِي طَالِعُ السَّعْدِ  
وانصرفت معه إلى منزله :

فَلَمْ أَزَلْ فِي كَرَامَةٍ      لَيْسَتْ كَظَلِّ غَمَامَةٍ

ولما كان أبو عمران موسى بن سعيد بالجزيرة الخضراء مُقَدِّمًا على أعمالها  
من قبل ابن هود وصله كتاب من الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن عسكر  
قاضي مالقة مع أحد الأدباء ، منه :

أَفَاتِحُ مَنْ قَلْبِي بَعْلِيَاهُ وَائِقُ      وَإِنْ كَانَتِ الْأَبْصَارُ لَمْ تَنْسَخِ الْوَدَّ  
وَنَقِيتُ بِمَا لِي مِنْ ذِمَامِ تَشِيْعِي      بِأَلِ سَعِيدٍ فَاثْبَغَيْتُ بِهِ السَّعْدَا  
وَبِالْحَبِّ يَدْنُو كُلُّ مَنْ أَقْصَتِ النَّوَى      بَرِغْمِ حِجَابِ النَّوَى بَيْنَنَا مُدًّا

يا سيدي الذي حملني ما أمال أسماعي من الثناء عليه ، أن أهجم على مفاخته

شافعاً في موصلها إليه ، واثقاً بالفرع لعلم الأصل ، مؤملاً للإفضال بتحقيق  
 الفضل ، إن لم تقص باجتماع بيننا الأيتام ، فلا تجزىء من المشافهة بيننا ألسن  
 الأقلام ، ويوحى بعضنا إلى بعض بسور الوداد ، والحمد لله الذي أطلعك في  
 ذلك الأفق بدرأ ، وأدناك من هذه الدار فصرنا لقرب من يرد عنك لا نعدم  
 لك ذكراً ، فكلُّ يثني بالذي علمت سعد ، ويصف من خلالك ما يقضي  
 ذلك المجد ، ولما كان إحسانك يبشر به الصادر والوارد ، ويحرض عليه الغائب  
 والشاهد ، مدّ أمله نحوك موصل هذه المفاتيح ، وليس له وسيلة ولا بضاعة إلا  
 الأدب وهي عند بيتك الكريم راجحة ، وهو من شتت خطوب هذا الزمان شمّله ،  
 وأبانت نوابه صبره وفضله ، وما طمح ببصره إلا إلى أفقك ، ولا وجه رجاء  
 إلا نحو طرقتك ، والرجاء من فضلك أن يعود وقد أثنت حقائبه ، وأعنت من  
 الحمد ركائبه ، دُمت غرة في الزمن البهيم ، مخصوصاً بأفضل التحية والتسليم ،  
 انتهى .

وابن عسكر المذكور عالم بالتاريخ متبحر في العلوم ، وله كتاب في أنساب  
 بني سعيد أصحاب هذه الترجمة ، ومن شعره :

أهواك يا بدرُ وأهوى الذي      يعندلني فيك وأهوى الرقيب  
 والجارَ والدارَ ومن حلّها      وكلّ من مرّ بها من قريب  
 وكلّ مُبدٍ شبّها منكم      وكلّ من يلفظُ باسم الحبيب

\* \* \*

[ وصية ابن سعيد الأب لابنه علي ]

رجع :

قال ابنه علي : لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة أول  
 وصولي إلى الإسكندرية ، رأى أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربية ،



فبقي فيها أياماً إلى أن كتبها عنه ، وهي هذه ، وكفى بها دليلاً على ما اختبر  
وعلم :

أودِعَكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ °  
وما اختياري كان طوعَ النوى  
فلا تُطِلْ حَبْلَ النوى إِنْ تِي  
مَنْ كَانَ مَفْتُونًا بِأَبْنَائِهِ  
فاختصِرِ التوديعَ أَخْذًا ، فما  
واجعَلْ وصَاقِي نُصَبَ عَيْنٍ وَلَا  
خُلَاصَةَ العُمُرِ الَّتِي حُنَّكَتْ  
فَلتتَجَارِبِ أُمُورٌ إِذَا  
فَلَا تَنَمَّ عَن وَعِيهَا سَاعَةً  
وكلُّ ما كابدتهُ فِي النوى  
فليس يُدْرَى أَصْلُ ذِي غُرْبَةٍ  
وكلُّ ما يُفْضِي لِعُدْرٍ فَلَا  
وَلَا تَجَالِسْ مَنْ فَشَا جِهْلُهُ  
وَلَا تَجَادَلْ أَبَدًا حَاسِدًا  
وَامشِ الهُوَيْنَا مُظْهِرًا عِفَّةً  
أَفشِ التَّحِيَّاتِ إِلَى أَهْلِهَا  
وَانبَطِقْ بِحِثِّ العِيِّ مُسْتَقْبِحٌ  
وَلَا تَزَلْ مَجْتَمَعًا طَالِبًا  
وَكَلَّمَا أَبْصَرْتَهَا أَمَكَنْتْ  
وَلَجَّ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ

مُرْتَقِبًا رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ °  
لكنني أجري على بُغْيَتِكَ °  
والله أَشْتاقُ إِلَى طَلْعَتِكَ °  
فإنِّي أَمَعَنْتُ فِي خَبْرَتِكَ °  
لي نَاطِرٌ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِكَ °  
تَبْرَحُ مَدَى الأَيامِ مِنْ فِكْرَتِكَ °  
فِي سَاعَةِ زُقَّتْ إِلَى فِطْنَتِكَ °  
طالَعَتْهَا تَشْحَدُ مِنْ غَفْلَتِكَ °  
فإنَّها عَوْنٌ إِلَى يَقْظَتِكَ °  
إِيَّاكَ أَنْ يَكسِرَ مِنْ هِمَّتِكَ °  
وإنَّما تُعْرَفُ مِنْ شِمَّتِكَ °  
تَجْعَلُهُ فِي العُرْبَةِ مِنْ إِرْبَتِكَ °  
واقْصِدْ لِمَنْ يَرغِبُ فِي صِنْعَتِكَ °  
فإنَّهُ أَدْعَى إِلَى هَيْبَتِكَ °  
وايغِ رَضَى الأَعْيُنِ عَنِ هَيْبَتِكَ °  
وَنَبِهَ النَّاسَ عَلَى رَتْبَتِكَ °  
واصْمِتْ بِحِثِّ الخَيْرِ فِي سَكْتَتِكَ °  
مِنْ دَهْرِكَ الفُرْصَةِ فِي وَثْبَتِكَ °  
ثَبِّ واثِقًا بِاللَّهِ فِي مَكْنَتِكَ °  
واقْصِدْ لَهُ ما عَشْتَ فِي بُكْرَتِكَ °

وابتأس من الود لدى حاسد  
 ووفر الجهد فمن قصده  
 ووف كلاً حقه ولتكن  
 ولا تكن تحقير ذات رتبة  
 وحيثما خيمنت فاقصده إلى  
 وللرزايا وتبسة ما لها  
 ولا تقل أسلم لي وحدثني  
 ولتترن الأحوال وزناً ولا  
 ولتجعل العقل محكاً وخد  
 واعتبر الناس بالفاظهم  
 بعد اختبار منك بقضي بما  
 كم من صديق مظهر نصحه  
 إياك أن تقر به ، إنه  
 واقنع إذا ما لم تجد مطمئناً  
 وانم نمو النبات قد زاره  
 وإن نبا دهر فوطن له  
 فكل ذي أمر له دولة  
 ولا تضيع زمناً ممكناً  
 والشتر مهما استطعت لا تأته  
 ضد ونافسه على خطتك  
 قصدك لا تعتبه في بغضتك  
 تكسر عند الفخر من حديثك  
 فإنه أنفع في غربتك  
 صعبة من ترجوه في نصرتك  
 إلا الذي تذخر من عدتك  
 فقد تقاسي الذل في وحدثك  
 ترجع إلى ما قام في شهوتك  
 كلاً بما يظهر في نقدتك  
 واصحب أخاً يرغب في صحبتك  
 يحسن في الأخدان من خلطتك  
 وفكره وقف على عشرتك  
 عون مع الدهر على كربتك  
 واطمع إذا نفست من عسرتك  
 غب الندى واسم إلى قدرتك  
 جاشك وانظيره إلى مدتك  
 فوف ما أفاك في دولتك  
 تذكاره يذكي لظى حسرتك  
 فإنه حوب على مهجتك

يا بني الذي لا ناصح له مثلي ، ولا منصوح لي مثله : قدمت لك في  
 هذا النظم ما إن أخطرت بخاطرك في كل أوان رجوت لك حسن العاقبة ، إن  
 شاء الله تعالى ، وإن أخف منه للحفظ وأعلق بالفكر وأحق بالتقدم

١ ج : قد قدمت .

قول الأول :

يزينُ الغريبَ إذا ما اغتربَ ثلاثُ فمَنْهَنُ حُسْنُ الأدبِ  
وثانيةٌ حُسْنُ أخلاقِهِ وثالثَةٌ إجتِنابُ الرِّيبِ

وإذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها في الغربة رأيتها جامعة نافعة ، لا يلحقك إن شاء الله تعالى مع استعمالها ندم ، ولا يفارقك بر ولا كرم ، والله درُّ القائل :

يُعدُّ رفيعَ القومِ مَنْ كان عاقلاً وإن لم يكنْ في قَوْمِهِ بحَسِبِ  
إذا حلَّ أرضاً عاش فيها بعقلِهِ وما عاقلٌ في بِلْدَةٍ بغريبِ

وما قصرَ القائل حيث قال :

واصبرْ على خُلُقِ مَنْ تُعاشِرُهُ ودَارِهِ فالليِبُ مَنْ دَارَى  
واتخذِ الناسَ كلَّهُمْ سَكناً ومثَّلِ الأرضَ كُلَّهَا دَاراً

وأصغِرِ يا بني إلى البيت الذي هو يتيمة الدهر ، وسلِّم الكرم والصبر :

ولو أن أوطانَ الديار نَبَتَ بكم لسكنتم الأخلاقَ والآدابا

إذ حُسِنَ الخلقُ أكرمَ نزيل ، والأدبُ أرحبُ منزل ، ولتكن كما قال أحدهم في أديب متغرب : وكان كلما طراً على ملك فكأنه معه ولد ، وإليه قصد ، غير مستريب بدهره ، ولا منكر شيئاً من أمره ، وإذا دعاك قلبك إلى صحبة مَنْ أخذ بمجامع هواه فاجعل التكلف له سلماً ، وهُبْ في روض أخلاقه هبوبَ النسيم ، وحلَّ بطرفه محلَّ الوسن<sup>١</sup> ، وانزل بقلبه نزول المسرة ، حتى يتمكن لك وداده ، ويخلص فيك اعتقاده ، وطهر من الوقوع فيه لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا ترخصْ في جانبه لحسود لك منه ، يريد إبعادك عنه ، لمنفعته ،

١ ج : على الوسن .

أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك ، ومع هذا فلا تغتر بطول صحبتته ، ولا تتمهد بدوام رقدته ، فقد ينبهه الزمان ، ويغير منه القلب واللسان ، ولذا قيل : إذا أحببت فأحجب هوناً ما ، ففي الممكن أن ينقلب الصديق عدوًّا والعدوُّ صديقاً ، وإنّما العاقل مَنْ جعل عقله معياراً ، وكان كالمرأة يلتقى كل وجه بمثاله ، وجعل نصب ناظره قول أبي الطيّب :

ولما صار وُدُّ النَّاسِ خَيْباً جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ

وفي أمثال العامة : من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل ، فاحتذى مثله<sup>١</sup> مَنْ جَرَّبَ ، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبههم من الأقوال ، فإنّها خلاصة عمرهم ، وزُبْدَةُ تجاربهم<sup>٢</sup> ، ولا تتكلّ على عقلك ، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غالباً بتجاربههم يُربحك ، ويقع عليك رخيصةً ، وإن رأيت مَنْ له مروءةٌ وعقل وتجربة فاستفد منه ، ولا تضيع فعله ولا قوله ، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك ، وحثّاً لك واهتداءً ، وإيّاك أن تعمل بهذا البيت في كل موضع :

فألحُرُّ يُخْدَعُ بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ

فقد قال أحدهم : ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمّل ، وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه ، حتّى تندبره ، فإن كان موافقاً لعقلك مصلحاً لحالك قواه ذلك عندك ، وإلاّ فانبذه نَبْدَ النّوَاةِ ، فليس لكل أحد يُتَّبَعُ ، ولا كل شخص يُكَلِّمُ ، ولا الجود ممّا يُعْمَ به ، ولا حسن الظنّ وطيب النفس ممّا يعامل به كل أحد ، والله در القائل :

ومآلي لا أوفي البريّة قِسْطَها على قَدْرٍ ما يُعْطَى وَعَقْلِي مِيزَانُ

١ كذا في ج ق ، وقد يقرأ معطوفاً على « وجعل » ولعل الصواب « فاحتذ أمثلة » .

٢ ق : نخائبهم ؛ ج : تحابهم ؛ دوزي : حياتهم .

وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر ، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفاء ،  
ولا الكفاء بمعاملة الأعلى ، ولا تضع عمرك فيمن يملكك بالمطامع ، ويشنّيك  
عن مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة ، واسمع قول الأول :

وبيع أجلاً منك بالعاجل

وأقلل من زيارة الناس ما استطعت ، ولا تجفهم بالجملة ، ولكن يكون  
ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ولا ضجر ولا جفاء ، ولا تقل أيضاً أقعد في كسر  
بيتي ولا أرى أحداً ، وأستريح من الناس ، فإن ذلك كسل داع إلى الذل  
والمهانة ، وإذا علم عدوّ لك أو صديق منك ذلك عاملاً بحسبه ، فازدراك  
الصديق وجسّر عليك العدو ؛ وإياك أن يغرّك صاحبٌ واحد عن أن تذخر  
غيره للزمان ، وتطيعه في عداوة سواه ، ففي الممكن أن يتغير عليك فتطلب  
إعانة عليه أو استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها ، وكان هو في أوسع حال وأعلى  
رأي بما دبره بحيلته في انقطاعك عن غيره ، فلو اتفق لك أن تصحب من كل  
صناعة وكل رياسة من يكون لك عدوّ لك كان ذلك أولى وأصوب ، وسلّني  
فإنّي خبير ، طال والله ما صحبت الشخص أكثر عمري لا أعتد على سواه ،  
ولا أعتدّ إلاّ إياه ، منخدعاً بسرّابه ، موثوقاً في حباتل خطابه ، إلى أن لا يحصل  
لي منه غير العَصّ على البنان ، وقول : « لو كان ولو كان » ، ولا يحملنك  
أيضاً هذا القول أن تظنّه في كل أحد ، وتعجل المكافأة ، وليكنّ حُسن الظن  
بمقدار ما ، واصبر بقدر ما ، والفطن لا تخفى عليه مخايل الأحوال ، وفي الوجوه  
دلالات وعلامات ، وأصغ إلى القائل :

ليس ذا وجه من يضيف ولا يتهري ولا يدفع الأذى عن حريم

فمن يكن له وجه مثل هذا الوجه فولّ وجهك عنه قبلة ترضاه ، ولتحرص

جهدك على أن لا تصحب أو تخدم إلاَّ ربَّ حشمةً ونعمة ، ومن نشأ في رفاهية  
ومروءة ، فإنَّك تنام معه في مهاد العافية ، وإن الجياد على أعراقها تجري ،  
وأهل الأحساب والمروءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وصمة ،  
وقد قيل في مجلس عبد الملك بن مروان : أشرب مصعب الخمر ؟ فقال عبد  
الملك - وهو عدو له محارب له على الملك - : لو علم مصعب أن الماء يفسد  
مروءته ما شربه .

والفضل ما شهدت به الأعداء

يا بني ، وقد علمت أن الدنيا دار مفارقةٍ وتغير ، وقد قيل : اصحب  
من شئت فإنَّك مفارقه ، فمتى فارقت أحداً فعلى حسنى في القول والفعل ، فإنَّك  
لا تدري هل أنت راجع إليه ، فلذلك قال الأول :

ولما مضى سلمٌ بكيت على سلمٍ

وإياك والبيت السائر<sup>١</sup> :

وكنت إذا حللت بدار قومٍ رحلت بحزبةٍ وتركت عارا

واحرص على ما جمع قول القائل<sup>٢</sup> : ثلاثة تبقي لك الود في صدر أخيك ،  
أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب الأسماء إليه ؛  
واحذر كل ما بيته لك القائل : كلُّ ما تغرسه تجنيه إلاَّ ابن آدم فإنَّك إذا غرسه  
يقلعك ، وقول الآخر : ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن ، وقول الآخر : ابن  
آدم ذئب مع الضعف ، أسد مع القوة . وإياك أن تثبت على صحبة أحد قبل  
أن تطيل اختباره ، فيحكى أن ابن المقفع خطب من الخليل صحبته ، فجاوبه :

١ البيت لجرير (ديوانه : ٢١٦) .

٢ ورد في هيون الأخبار ٣ : ٩ مروياً عن مجاهد .

إن الصّحية رِقٌّ ، ولا أضع رقي في يدك حتى أعرف كيف مَلَكَتْكَ . واستمَلِّ  
من عين من تعاشره ، وتفقد في فلتات الألسن وصفحات الأوجه ، ولا يحملك  
الحياء على السكوت عما يضرك أن لا تبينه ، فإن الكلام سلاح السلم ، وبالآئين  
يُعرف ألم الجرح ، واجعل لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك ، وأكد ما  
أوصيك به أن تطرح الأفكار ، وتسلم للأقدار :

واقبل من الدهر ما أتاك به من قرّ عيناً بعيثه نفعه

إذ الأفكار تجلب الهموم ، وتضاعف الغموم ، وملازمة القُطُوب ، عنوان  
المصائب والخطوب ، يستريب به الصاحب ، ويشمت العدو المجانب ، ولا تضرّ  
بالوساوس إلا نفسك ، لأنك تنصر بها الدهر عليك ، والله درُّ القائل :

إذا ما كنت للأحزان عوناً عليك مع الزمان فمن تلوم  
مع أنه لا يردُّ عليك الفاتت الحزن<sup>١</sup> ، ولا يرعوي بطول عتبك الزمن .  
ولقد شاهدتُ بغيرناطة شخصاً قد ألفتَه الهموم ، وعشقتَه الغموم ، من صغره  
إلى كبره ، لا تراه أبداً خلياً من فكره ، حتى لُقِّبَ بصدر الهم ، ومن أعجب  
ما رأيته منه أنه يتنكد في الشدة ، ولا يتعلل بأن يكون بعدها فرج . ويتنكد  
في الرخاء خوفاً من أن لا يدوم ، وينشد :

توقع زوالاً إذا قيل تمّ<sup>٢</sup>

وينشد<sup>٣</sup> :

وعند التناهي يقصر المتناول

١ من قول المتنبي :

فما يديم سرور ما سررت به ولا يرد عليك الفاتت الحزن

٢ صدر البيت : إذا تم شيء بدا نقصه .

٣ للمعري ، وصدوره : فإن كنت تبني العز فابغ توسطاً .

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب ، ومثل هذا عمره محسور يمر ضياعاً . ومتى رَفَعَكَ الزمان إلى قوم يَدُمُونَ من العلم ما تحسنه حسداً لك ، وقصداً لتصغير قدرك عندك ، وتزهيداً لك فيه ، فلا يحملك ذلك على أن تزهدي في علمك ، وتركن إلى العلم الذي مدحوه ، فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مَشْيُ الحَجَلَةِ فرام أن يتعلمه فصعب عليه ، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه ، فبقي محبل المشي<sup>١</sup> . ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ، ويقول : ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يستراح فيه ، فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبه الحرمان ، واستحقت طلعتة للهوان ، وأبرموا على الناس بالسؤال ، فمقتوهم ، وعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها فاستراحوا إلى الوقوع في الناس ، وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، وتعذير أمورهم . ولا تُزَلْ هذين البيتين من فكرك :

لِئِنْ إِذَا مَا نَلْتَ عَزّاً فَأَخُو الْعَزِّ يَلِينُ  
فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

ولا قول الآخر :

تِهٍ وَارْتَفِعْ إِنْ قِيلَ أَفٌ بَرٍّ وَانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثْرَى  
كَالْغُصْنِ يَسْفَلُ مَا اكْتَسَى ثَمَرًا وَيَعْلُو مَا تَعَرَّى

ولا قول الآخر<sup>٢</sup> :

١ زاد في مطبوعة التجارية بعد هذه اللفظة « كما قيل :

حسد القطا وأراد يمشي مشياً فأصابه ضرب من العقال  
فأضل مشيته وأخطأ مشياً فلذلك سموه أبا المرقال »

وقد سقط هذا من ج ق ودوزي .

٢ البيت لعبيد بن الأبرص ، ديوانه : ٤٩ ونسب لطرفة في ديوانه : ٤٥ .



الخيرُ يبقى وإن طال الزَّمانُ به والشَّرُّ أُخْبِثُ ما أوعيتَ من زادِ

واعتمد في الناس ما قاله القائل ١ :

ومن يَلتقَ خيراً يحمِدِ الناسُ أمرَهُ ومن يَغوَ لا يَعدَمُ على الغيِّ لائماً ٢

وتحفظ بما تضمَّنه قول الآخر ٣ :

ومن دَعَا الناسَ إلى ذمِّه ذمَّوه بالحقِّ وبالباطل

ولله درّ القائل ٤ :

ما كلَّ ما فوقَ البسيطةِ كافياً فإذا اقتنعتَ فكلُّ شيءٍ كافي

والأمثال يضربها لذي اللبِّ الحكيم ٥ ، وذو البصر يمشي على الصراط  
المستقيم ، والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير ، والله سبحانه خليفتي عليك ،  
لا ربَّ سواه .

نجزت الوصية وتكفيك عنواناً على طبقته في النثر .

\* \* \*

١ البيت للمرقش الأصغر من مفضلية له ( ص : ٥٠٣ ) .

٢ زاد بعده في مطبوعة التجارية : وقريب منه قول القائل :

يقدر الصعود يكون الهبوط فإياك والرتب العاليه

وكن في مكان إذا ما سقطت تقوم ورجلاك في عافيه

وقد سقط هذا من ج ق ودوزي ؛ كما أنه غير قريب مما قبله ، ولعله من زيادة بعض

المعلقين .

٣ البيت مما ينسب لكعب بن زهير ؛ انظر نهاية الأرب ٣ : ٦٨ والتمثيل والمحاضرة : ٦٢ .

٤ البيت لأبي فراس الحمداني ، ديوانه ٢ : ٢٥٦ ( تحقيق الدكتور سامي الدهان ) .

٥ من قول يزيد بن الحكم بن أبي العاص يعظ ابنه بدرأ ( حماسة المرزوقي : ١١٩٠ ) :

يا بدر والأمثال يضربها لذي اللب الحكيم

[رسالة ابن سعيد الأب لعبد الواحد الموحي]

وله رسالة<sup>١</sup> كتب بها إلى ملك المغرب أبي محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب ابن عبد المؤمن مهناً له بالخلافة حين بويغ بها بمراكش ، وكان إذ ذاك بإشبيلية ، وكان قبل ذلك كاتباً له ومختصاً به :

الحضرة العلية ، السامية السنية ، الطاهرة القدسية ، حضرة الإمامة ، وجنة دار الإقامة ، مد الله على الإسلام ظلالها ، وأتمى في سماء السعادة تمامها وكماها ، وهنأ المؤمنين باستقبال إمارتها ، وأدام لهم بركة خلافتها ، عبداً أياديا ، وخديم ناديا ، المتوسل بقديم الخدمة ، المتوصل بعميم النعمة وكريم الحرمة ، المتشد بلسان المسرة ، حين أطلع الزمان هذه الغرة<sup>٢</sup> :

أَتَتْهُ الْخِلاَفَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تَجَرُّرُ أَذْيَالِهَا  
فَلَمْ تَكُ تُصَلِّحُ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلِحُ إِلَّا لَهَا

موسى بن محمد بن سعيد لا زال هذا الأمر العلي محموداً سعيداً ، ولا برح يستزيدُ ترقياً وصعوداً :

يا نعمة الله زيدي إن كان فيك مزيد

سلام الله الكريم ، ينحس حضرة الإجلال والتعظيم ، والتقديس والتفخيم ، ورحمته وبركاته ، وبعد حمد الله الذي بلغ الإسلام بهذه الخلافة آماله ، وحلّى بهذه الولاية السعيدة أحواله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم ، الذي دحض الله تعالى بنبوته الكفر وضلاله ، وعلى آله وصحبه الطاهرين الذين سمعوا أقواله ، وامتلأوا أفعاله ، والرضى عن الإمام المهدي المعلوم الذي أفاء الله

١ وردت هذه الرسالة في المقتطفات (الورقة : ١٧) .

٢ البيتان لأبي المتاهية ، انظر ديوانه : ٦١٢ (تحقيق الدكتور شكري فيصل) .

به على الدين الحنيفي ظلاله ، وأذهب عنه طواغيته وضلاله ، والدعاء للمقام العالي  
الكريم ، بالسعد المتوالي والنصر الجسيم ، وكتب العبد وقد ملأت هذه البشرية  
المسرة أفاقه ، ووسعت عليه هذه المرتبة العلية طريقه :

فهذه رتبة " ما زلت أرقبها " فالיום أبسط آمالي وأحتكم

ولا أقنع مني إن اقتصرت على السماء داراً ، والهلل للبشير سواراً ،  
والنجوم عِقداً ، والصبح بندا ، حتى أسرَّ كل أحد بشكله ، وأقابل كل  
شخص بمثله :

ومن خدَم الأَقوام يَرَجُو نوالهم فَإِنِّي لَم أَخْدُمك إِلَّا لِأُخْدَمَا  
وما بعد الخلافة رتبة ، ودون تَبير تنحطُّ كلُّ هَضْبَةٍ ، فالحمد لله ربَّ  
العالمين ، وهنيئاً لعباده المؤمنين ، حيث نظر لهم نظر رحمة ، فأَسبِل عليهم ستر  
هذه النعمة :

ولقد علمتُ بأنَّ ذلك مِعْصَمٌ ما كان يتركُهُ بغيرِ سِوارٍ<sup>٢</sup>

والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، وإلى مَنْ يَشيرُ بآياته ، فله صباح ذلك  
اليوم السعيد وليلته ، لقد سَفَر عن وجه من البَشري أضاءت الآفاق شرقاً  
وغرباً غرته ، ولقد اجتمعت آراء السداد ، حتى أتت الإسلام بالمراد ، فأخذ  
القوس باريها ، وحل بالدار بانيتها ، هنيئاً زادك الرحمن<sup>٣</sup> خيراً ، ولا برحت  
المسرات تسير إليك سِيراً ، وهل يصلح النور إلا للمقَل ، وهل يليق بالحسن  
إلا الحُلل ، فالآن مهَّد الله البرِّين ، وأفاض العدل على العُدوتين ، وقدَّم

١ ق : والنجم .

٢ البيت لأبي تمام من قصيدته في الشامة بمصرع الأفيشين ، ديوانه ٢ : ٢٠٩ .

٣ ج : الإسلام .

للنظر من لا يعزب عن حفظه مكان ، ولا يختصُّ بحفظه إنسان دون إنسان ، خليفة له النفس العُمريّة ، والآراء العُمريّة ، والفراسة الإياسيّة ، ولا ينبئك مثل خبير ، فلقد شاهد العبد ما لا يحصره تفسير ، ولعمري لقد عاد الصباح في إشراق النهار ، ولم يخف عنا ما زاد الدنيا من البهجة<sup>١</sup> والمسارّ ، وشملت الناسَ هذه البشائر ، وعمّت كل باد وحاضر ، وأصاخوا لتاليها لإصاحة المجديين لمرتابهم ، وأهطعوا لها مهتللين ومكبرين إهطاع الناس لأعيادهم ، وأما العبد فقد أخذ بحظه ، حتى خاف أن يغلب السرور على قلبه ولحظه :

ومن فَرَحَ النفس ما يَقتُلُ<sup>٢</sup>

وهذه نعمة يقصر عنها النثر والنظم ، ويحسد عليها الهلال والنجم ، بل يسلمان لما استحقته من المراتب ، ويخضعان إليها خضوع المفترض الواجب ، أقرّ الله بها عيون المسلمين ، وأفاض سحُبها على الناس أجمعين ، وحفظها بعينه التي لا تنام ، ووقف على خدمتها الليالي والأيام .

\* \* \*

[ من شعر أبي عمران ابن سعيد ]

ولما قدم من الأندلس على تونس مدح سلطانها أبا زكريا بقوله :

بُشْرَى وَيُسْرَى قَدْ أَنْارَ الْمُظْلِمُ	نَجْمًا وَقَدْ وَضَحَ الصَّبَاحُ الْمُعْلَمُ
وَرَنْتَ عَيْونَ الْأَمْنِ وَهِيَ قَرِيرَةٌ	وَبَدَتْ ثَغورُ السَّعْدِ وَهِيَ تَبَسُّمُ
فَارْحَلْ لَتونسَ وَاعْتَقِدْ أَعْلَامَ مَنْ	قَوِي الضَّعِيفُ بِهِ وَأَثْرَى المَعْدَمُ
حَيْثُ المَعَالِي وَالْمَعَانِي وَالنَّدَى	وَالفَضْلُ وَالقَوْمُ الَّذِينَ هُمْ هُمْ
أَجْرُوا إِلَى الغَايَاتِ مَلءَ عَنَانَهُمْ	سَبَقًا وَبَدَّ هُمْ الجَوَادُ المَنْعَمُ

١ ق : البهجات .

٢ عجز بيت للمتنبي ، وصدده : فلا تنكرون لها صرعة .

ساد الإمامُ المَلِكُ يحيى سادةُ  
 إنَّ الإمارةَ مُدَّ غدا يفتادُها  
 لله منكَ مُباركٌ ذو فطنة  
 يقظانٌ لا وانٍ ولا متعاسٍ  
 إن صال فالليثُ الهَصُورُ المقدمُ  
 أعلى منارَ الحقِّ حينَ أماله  
 أعلى الإلهُ مكانهُ وزمانهُ  
 أعطى الورى لهمُ القيادَ وسلّموا  
 يقظى وأجفانُ الحوادثِ نوَمُ  
 بزغتُ فأحجمَ عندها منْ يُقدمُ  
 كالدهرِ بيني ما يشاء ويهدمُ  
 أو سال فالغيثُ المغيثُ المثجمُ  
 قومٌ تبرأتِ المنابرُ منهمُ  
 والنصرُ يقدمُ والسعادةُ تخدمُ

وقال يخاطب ملك المغرب مأمون بنى عبد المؤمن ، حين أخذ البيعة لنفسه  
 بإشبيلية ، وكان المذكور بمراكش ولبنى سعيد بهذا الملك اختصاص قديم :

الحزمُ والعزمُ موجودان والنظرُ  
 والنورُ فاض على أرجاء أندلسِ  
 حُثَّ الركابَ إلى هذا الجنبِ فقد  
 واعزمُ كما عزم المأمونُ إذ نَشَرَتْ  
 واليَمْنُ والسعدُ مضمونان والظَفَرُ  
 والزورُ ليس له عينٌ ولا أثرُ  
 ضلّوا فما تنفعُ الآياتُ والنُدُرُ  
 أرضُ العراقِ فزال البؤسُ والضررُ

ولما قدم العادلُ القائمُ بمُرُسية المتولي على مملكة البرّينِ إلى إشبيلية كان  
 في جملة من خرج للقاءه ، ورفع له قصيدة منها :

لقاء بهٍ للبيرِّ والشكرِ مَجْمَعُ  
 لقد يَسَّرَ الرحمنُ صَعَبَ مرامِهِ  
 إلى يومه كَنَّا نَحْبُ ونُوضِعُ  
 فأبصرتُ أضعافَ الذي كنتُ أسمعُ  
 وله أيضاً :

يا مُنْعِمًا قد جاءني بِبرِّه  
 إنَّ أَحَبَّ الخَيْرِ ما جاءني  
 مِنْ غَيْرِ أن أجري له ذكرا  
 عَقُوقاً ، ولمْ أغمُرْ بهِ فكرا

وله في غلام واعظ ، وهو من حسناته :

وشادن ظلّ للوعظ ظ تالياً بين جمع  
متعت طرقي بمرآ ه في خفارة سمعي

وله من أبيات :

ومن عجب أن الليالي تغيّرت ولكنّها ما غيرت منّي العهدا

ومن الفضلاء الذين أدركهم وأخذ عنهم الحافظ أبو بكر ابن الجلد ، وأبو بكر ابن زهر ، وغيرهما ، وحضر حصار طليطلة مع منصور بني عبد المؤمن ، وكتب لملك البرين أبي محمد عبد الواحد ، وكتب أيضاً عن مأمون بني عبد المؤمن ، وكتب أخيراً عن ملك بجاية والغرب الأوسط الأمير أبي يحيى ابن ملك إفريقية ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى أبي الحسن ابن سعيد :

قال رحمه الله تعالى : حضرت ليلة أنس مع كاتب ملك إفريقية أبي العباس أحمد العسّاني ، فاحتاجت الشمعة أن تقط ، فتناول قطعها غلام بينانه ، فقلت :

ورخص البنان تصدّي لأن يقط السراج بمثل العنم

فقال :

ولم يهب النار في لمسه ولا احتاج في قطه للجلم

فقلت :

وما ذاك إلا لسكناه في فوادي على ما حوى من ضرم

فقال :

تعوَّدَ حَسْرَةً لِهَيْبِ بِهِ فليس بِهِ مِنْ أَوَارِ الْم

وأُشِدَّ فِي « الْمَغْرِبِ » لِلغِسَانِي الْمَذْكُورِ فِي خُسُوفِ الْقَمَرِ مِمَّا قَالَ ارْتِجَالًا :

كَأَنَّ الْبَدْرَ لَمَّا أَنْ عَلَاهُ خُسُوفٌ لَمْ يَكُنْ يَعْتَادُ غَيْرَهُ  
سَجَنَجَلٌ غَادَةٌ قَلْبَتَهُ لَمَّا أَرَاهَا شَبِهَا حَسَدًا وَغَيْرَهُ

وخاطبه المذكور برسالة يقول في آخرها : وعند حامل هذه الأحرف -  
سلّمه الله تعالى - كُنْتُ خَبْرِي ، واستيعاب ما قصر عنه قلبي فضاقت بحمله  
أسطُرِّي ، لتعلم ما أجده وأفقدته من تشوقي وتصبري ، وأنتي لا أزال أنشد  
حيث تذكُرِّي وتفكُرِّي :

يَا نَائِبًا قَدْ نَأَى عَنِّي بِمُصْطَبْرِي وَثَاوِيًا فِي سَوَادِ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ  
إِذَا تَنَاسَيْتَ عَهْدًا مِنْ أَخِي ثِقَةً فَاذْكُرْ عَهْدِي فَمَا أَخْلِيكَ مِنْ فِكْرِي  
وَارْدَدَ عَلَيَّ تَحِيَّاتِي بِأَحْسَنِهَا تَرَدُّدٌ عَلَيَّ حَيَاتِي آخِرَ الْعَمْرِ

ولنُتَمَسِّكَ الْعِنَانَ عَنِ الْجُرِيِّ فِي مِيدَانِ أَخْبَارِ ابْنِ سَعِيدٍ ، فَإِنَّهَا لَا يُشَقُّ  
غِبَارَهَا ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : سَمِعْتُ كَثِيرًا مِنَ السَّمَاعِ الْمَشْرِقِيِّ ، فَلَمْ  
يَهْزِنِي مِثْلُ قَوْلِ الشَّرِيفِ الشَّمْسِيِّ الْمَكِّيِّ ١ :

مُقَلٌّ بِالْدمعِ غَرَفِي وَفُوَادٌ طَارَ خَفَقًا  
وَتَجَنُّ وَتَسْنِي شَقَّ جَيْبَ الصَّبْرِ شَقًّا  
يَا ثِقَاتِي خَبْرُونِي عَنْ حَدِيثِ الْيَوْمِ حَقًّا  
أَكْذَا كُلُّ مَحَبِّ فَارِقَ الْأَحْبَابِ يَشْقَى؟  
لَا وَعَيْشٌ قَدْ تَقَضَّى وَغَرَامٌ قَدْ تَبَقَّى  
وَنَعِيمٌ فِي ذَرَاكِمِ قَدْ صَفَا دَهْرًا وَرَقًّا

١ وردت الأبيات في المقتطفات (الورقة : ٢٨) .

ونسيم من حماكم  
 برسالات صبابا  
 وخصون ناعمات  
 ووجوه فضن حسناً  
 لو رضيتم بي عبداً  
 ما رضيت الدهر عتقا  
 حمل الوجد فرقا  
 ت على المشتاق تلتقى  
 بمياه الدن تسقى  
 فملآن الأرض عشقا

وقال : ما سمعتُ ولا وقفت على شيء أبدع من قول الجزار ، وقد تردد  
 إلى جمال الدين بن يغمور رئيس الديار المصرية فلم يُقدّر له الاجتماع به :

أسألُ الله أن يُديمَ لك الع  
 كل يوم أرجو النعيم بَلقيا  
 علم الدهر أنتي أشتكيه  
 إذ نلتقي فعاق اللقاء  
 زَ وَيُبقيك ما أردت البقاء  
 ك فألقى بالبعدِ عنك شقاء

فبعث له بما أصلح حاله من الإحسان ، وكتب في حقّه إلى ولاة الصعيد  
 كُتُباً أغنته مدّة عن شكوى الزمان ، انتهى .

وقال أيضاً : ولم أسمع في وضع الشيء موضعه أحسن من قول المتنبي :  
 وأصبحَ شِعْري مُتْهِماً في مكانه وفي عُنُقِ الحِساءِ يُسْتَحْسَنُ العُقْدُ

ولم أسمع في وضع الشيء غير موضعه أحسن من قول أبي الفرج :

مرّ مدّحي ضائعاً في لؤمِهِ كضياحِ السيفِ في كفّ الجبانِ

ومن تأليف النور بن سعيد كتاب « عِدّة المستنجز وعُقْلَة المستوفز »  
 وذكر فيه أنّه ارتحل من تونس إلى المشرق رحلته الثانية سنة ٦٦٦ ، وأورد في  
 هذا الكتاب غرائب وبدائع ، وذكر فيه أنّه لما دخل الإسكندرية لم يكن عنده



آكد من السؤال عن الملك الناصر ، فأخبر بحاله ، وما جرى له مع التتر حتى قتلوه بعد الأمان ، ثم ساق فيه دخول هولاكو حلب فقال بعد كلام كثير : وارتكب في أهل حلب التتر المرتدون ونصارى الأرمن ما تصم عنه الأسماع ، وكان فيمن قتل بتلك الكائنة البدر بن العديم الذي صدر عنه من الطبقة العالية في الشعر مثل قوله ٢ :

واهاً لعقرب صدغه لو لم تكن للماه تحني  
ولغفل خط عذاره لو بت أعجمه بلثمي

وابن عمه الافتخار بن العديم الذي وقع له مثل قوله :

والغصن فيه الماء مطرد والماء فيه الغصن منعكس

ثم قال ، لما ذكر أحوال الناصر بعد استيلاء التتر على بلاد حلب والشام وما يليهما ، ما نصه : قال من دخل على الملك الناصر وقد نزل بميدان دمشق : قبلت يده ، وجعلت أدعو له ، وأظهر تعزيبته على ما جرى من تلك المصائب العظيمة ، فأضرب عن ذلك ، وقال لي : فيم تنغزل اليوم ؟ ثم أنشدني قوله في مملوك فقده في هذه الكائنة :

والله ما أبكي لملك مضى ولا لحال ظاعن أو مقيم  
وإنما أبكي وقد حق لي لفقدي من كنت به في نعيم  
يطلع بدرأ ينثي بانه يمر فيما رمته كالنسيم  
في خاطري أبصره خاطراً فالتوي مثل التواء السقيم  
يا عاذلي دعني وما حل بي فما سوى الله بحالي عليم  
إن مت من حزن له أسترخ وإن أعيش عشت بهم عظيم

١ ق : الططر .

٢ سقط البيتان من ج .

قال : ثم إنّه سار نحو هولاءكو ، فلما مرّ بحلب ونظر إلى معاهده على غير ما يعهد قال :

مررتُ بجَرَءِ الحِمَى فتلفتتُ لحاظي إلى الدّار التي رحلوا عنها  
ولو كان عندي ألفُ عَيْنٍ وقمتُ في معالمها عمري لما شَبَعْتُ منها

وصنع في نعيمها أشعاراً يغني بها المسمعون ، ثم رحل إلى صحراء يوش في جهة طريق أرمينية ، فوجد هولاءكو هنالك في تلك المروج المشهورة بالخصب ، فأنزله ، وأقام يشرب معه إلى أن وصل الخبر بوقعة عين جالوت على التتر للملك المظفر قطز صاحب مصر سنة ٦٥٨<sup>١</sup> ، فقتلوه ، وخلعوا عظم كتفه ، وجعلوه في أحد الأعلام على عادته في أكتاف الملوك ، انتهى باختصار .

رجع :

١٦٧ - ومن الوافدين من الأندلس إلى المشرق الأديب الحسيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد<sup>٢</sup> ، وكان صعب الخلق ، شديد الأنفة ، جرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه إلى أقصى المشرق ، وفي ذلك يقول ، وكتب به إليهم :

مَنْ لَصَبَ يرعى النجومَ صبابهٌ      ضَيَّعَ السيرُ في الهمومِ شبابهُ  
زدتُ بعداً فزدتُ فيه اقتراباً      بودادي كذاك حُكْمُ القرابه  
متزلي الآن سَمْرُقَنْدُ وبالقلد      هه رِبْعٌ وطئتُ طفلاً تُرابه  
شدّ ما أبعدَ الفراقُ انتراحي      هكذا الليثُ ليس يلدي اغترابه  
لا ولا أرتجي الإيابَ لأمرٍ      إن يكنْ برنجي غريبٌ لإبابه

١ في ق : سنة خمسائة وثمانين ، وسقط التاريخ من ج .

٢ له ترجمة في المغرب ٢ : ١٧٢ .

وكتب لهم من بخارى :

إذا هبَّتْ رِيحُ الْغَرْبِ طَارَتْ      إِلَيْهَا مُهْجَتِي نَحْوَ التَّلَاقِ  
وَأَحْسَبُ مِنْ تَرَكْتُ بِهِ يَلَاقِي      إِذَا هَبَّتْ صَبَاحًا مَا أَلَاقِي  
فِيَا لَيْتَ التَّفَرُّقَ كَانَ عَدْلًا      فَحَمَلَمَ مَا يَطِيقُ مِنْ اشْتِيَاقِي  
وَلَيْتَ الْعَمَرَ لَمْ يَبْرَحْ وَصَالًا      وَلَمْ يُخْتَمَمْ<sup>١</sup> عَلَيْنَا بِالْفِرَاقِ

إذا كان الشوق فوق كل صفة ، فكيف تعبّر عنه الشفة ، لكن العنوان دلالة على بعض ما في الصحيفة ، والحاجب قد ينوب في بعض الأمور مناب الخليفة ، وما ظنكم بمشوق طريح ، في يد الأشواق طليح ، يقطع مسافات الآفاق يتقلب تقلب الأفياء ، ويتلون تلون الحرباء ، حتى كأنه يخبر مساحات الأرض ، ذات الطول والعرض ، ويحجب أهوية الأقاليم السبع ، خارجاً بما أدخله فيه اللجاج عن الشرع ، فكان خليفة الإسكندر ، لكن ما يجيش من هموم الغربة بفكري قائمة مقام الجيش والعسكر ؛ جرت إلى بر العدو من الغرب الأقصى ، فطمحت نفسي إلى مشاهدة الغرب الأوسط فلاقت فيما بينهما من المسافة من المشاق ما لا يحصر<sup>٢</sup> ، ثم تشوقت إلى إفريقية درب بلاد الشرق ، فاستشعرت من هنالك ما بينها وبين بلاد من الفرق ، واختطفت من عيني تلك الطلاوة ، وانترعت من قلبي تلك الخلاوة :

فلله عين لم تر العين مثلها      ولا تلتقي إلا بجنت رِضْوَانِ

ثم نازعتني النفس التواقة إلى الديار المصرية ، فكابدت في البحر ما لا يفي بوصفه إلا المشافهة إلى أن أبصرت منار الإسكندرية ، فيالك من استئناف عمر جديد ، بعد اليأس من الحياة بما لقينا من الهول والتنكيد ، ثم صعدت إلى القاهرة

١ المغرب : يحكم .

٢ ج : يحصى .

قاعدة الديار المصرية ، لمعينة الهرميين وما فيهما من المعالم الأثرية ، وعانيت القاهرة المعزيتة ، وما فيها من الهمم الملوكية ، غير أنني أنكرت مبانها الواهية ، على ما حوت من أولي الهمم العالية ، وكونها حاضرة العسكر الجرار ، وكرسي الملك العظيم المقدار ، وقلت : أصداف فيها جواهر ، وشوك مُحَدِّق بأزاهر ، ثم ركبت النيل وعانيت تماسيحه ، وجُرَّتْ بجر جده وذقت تباريحه ، وقضيت الحج والزيارة ، وملت إلى حاضرة الشام دمشق والنفس بالسوء أمارة ، فهناك بعثت الزيارة بالأوزار ، وآلت تلك التجارة إلى ما حكمت به الأقدار ، إذ هي كما قال أحد من عاينها :

أما دمشقُ فجناتٌ مُعَجَّلَةٌ      للطلابين بها الولدانُ والخورُ

فقلته ما تضمن داخلها من الخور والولدان ، وما زُيِّنَ به خارجها من الأنهار والجنان ، وبالجملية فإنها حمى تتقاصر عن إدراكها أعناقُ الفصاحة ، وتقصر عن مناولتها في ميدان الأوصاف كل راحة ، ولم أزل أسمع عن حلب ، أنها دار الكرم والأدب ، فأردت أن يحظى بصري بما حظي به سمعي ، ورحلتُ إليها وأقيمت جابراً بالذاكرة والمطايبة صدعي ، ثم رحلت إلى الموصل فألقيت مدينة عليها رَوْنَقُ الأندلس ، وفيها لطافة وفي مبانها طلاوة تروح لها الأنفس ، ثم دخلت إلى مقر الخلافة بغداد ، فعانيت من العِظَمِ والضخامة ما لا يفي به الكتب ولو أن البحر مِداد ، ثم تغلغلت في بلاد العجم بلداً بلداً ، غير مقتنع بغاية ولا قاصد أمدأ ، إلى أن حلت ببُخارى قبة الإسلام ، وجمع الأنام ، فألقيت بها عصا التسيار ، وعكفت على طلب العلم واصلاً في اجتهاده سواد الليل وبياض النهار ، انتهى .

وكتب إليهم أيضاً من هذه الرسالة : كتبت وقد حصلتني السعادة ، وحظ

١ الشعر للعقلة الدمشقي ، أبي الندى حسان بن نمر أحد شعراء الحريرة (قسم الشام ١ : ١٧٨ وفي الحاشية ثبت بتخريج ترجمته) والبيت في الحريرة : ٢٠٤ ورحلة ابن بطوطة : ٨٥ .

الأمل والإرادة ، بحضرة بخارى قبة الإسلام .  
 وأجابه أهله من الغرب بكلام من جملته : « وإن كنت قد تحصنت بقبة  
 الإسلام ، فقد تعجلت لنا ولك الفقد قبل وقت الحِمام » . وأتبعوا ذلك بما  
 دعاه لأن خاطبهم بشعر منه :

عَيتِم على حَشي المطيِّ وقلتُمُ  
 تعجَلتَ فقَدًا قبل وقتِ حِمامِ  
 إذا لم يكن حالي مُهمًّا لديكُمُ  
 سواء عليكم رِحَلتي ومقامي

وقُتِل المذكور ببخارى ، حين دخلها التتر ، وهو عمُّ علي بن سعيد الشهير .  
 وكان لعبد الرحمن المذكور أخٌ يسمى يحيى قد عانى الجندیة ، فلما بلغه  
 أن أبا القاسم عبد الرحمن قُتِل ببخارى قال : لا إله إلا الله ، كان أبدأً يُسَفِّهه  
 رأيي في الجندیة ، ويقول : لو اتبعتَ طريق النجاة كما صنعتُ أنا لكان خيراً  
 لك ، فها هو ربُّ قلمٍ قد قُتِل شرقتلة بحيث لا ينتصر وسُلب سلاحه ، وأنا ما زلت  
 أغازي في عبّاد الصليب وأخلص ، فما يقدر أحد يحسن لنفسه عاقبة ، انتهى .  
 قال أبو الحسن علي بن سعيد : ثمَّ إن يحيى المذكور بعد خوِّضه في الحروب  
 صرَّعه في طريقه غلام كان يخدمه ، فذبحه على نَزْرٍ من المال ، أفلتَ به ،  
 فانظر إلى تقلُّب الأحوال كيف يجري في أنواع الأمور لا على تقدير ولا احتياط ،  
 انتهى .

ومن شعر أبي القاسم عبد الرحمن المذكور ما خاطب به نقيب الأشراف  
 ببخارى ، وقد أهدى إليه فاخِئاً مع زوجه :

أيا سيِّد الأشراف لا زلتَ عالياً  
 معالِكَ تَنبُو الدهر عن كلِّ ناعتِ  
 مِن الفضلِ إقبالٌ على ما بعثتهُ  
 لمغناكَ من شادٍ دَعَوَهُ بفاختِ  
 ألا حَبِذاً من فاخِئِ سادِ جنسَهُ  
 وأصبحَ مقروناً بستِ الفواخِئِ

١ ج ق : تحصت .

لئن فاتني منه الأنيسُ فكلّ ما يحلّ إلى عليك ليس بفات

١٦٨ - ومنهم الشيخ الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن عبد الله بن يوسف ابن حمزة ، القرطبي ، الأنصاري ، المعروف بابن العابد ، نزيل رباط الصاحب الصفي بن شُكْر<sup>١</sup> ، قال بعض المشاركة عنه : إنّما سميت الخمر بالمعجوز لأنّها بنتُ ثمانين ، يعني عددَ حدّها ، وأنشد له :

عدلنا فلاناً على فعله ولُمناه في شربه للمعجوز  
فقال : دعوني من أجلها أنالُ أنا وأخي والمعجوز

١٦٩ - ومنهم الشيخ الفاضل المتقن أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف ابن محمد بن يوسف الأنصاري ، الشاطبي الأصل ، البلسنسي المولد في أحد ربيعي سنة إحدى وستمئة ، ولقبه المشاركة برضي الدين<sup>٢</sup> . وتوفي بالقاهرة في جمادى الأولى سنة ٦٨٤ ، رحمه الله تعالى .  
ومن نظمه لما حضر أجله ، وقد أمر خادمه أن ينظف له بيته ، وأن يغلق عليه الباب ويفتقده بعد زمان ، ففعل ذلك ، فلما دخل عليه وجده ميتاً ، وقد كتب في رقعة :

حان الرحيلُ فودّع الدارَ التي ما كان ساكنها بها بمخلد  
واضرعُ إلى الملكِ الجوادِ وقلّ لهُ عبدُ بابِ الجودِ أصبحَ يَجْتَدِي  
لم يرضَ غيرَ اللهِ معبوداً ولا ديناً سوى دينِ النبيِّ محمدٍ  
ومن نظمه أيضاً رحمه الله تعالى :

١ يريد وزير الملك العادل بمصر وهو صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر .  
٢ ترجمة رضي الدين الشاطبي في الوافي ٤ : ١٩٠ وغاية النهاية ٢ : ٢١٣ وبغية الوعاة : ٨٣ وشذرات الذهب ٥ : ٢٨٩ .

أقولُ لنفسي حينَ قابلها الردى فرامتُ فراراً منه يُسرَى إلى يُمنى  
قيرى تحملي بعضَ الذي تكرهينه فقد طالما اعتدتِ الفرارَ إلى الأهنى

أنشده تلميذه أبو حيانَ إمام عصره في اللّغة .

حدث عن ابن المنير وغيره ، واشتغل الناسُ عليه بالقاهرة ، وله تصانيف  
مفيدة ، وسمع من الحافظ أبي الربيع ابن سالم ، وكتب على صحاح الجوهري  
 وغيره حواشي في مجلدات ، وأثنى عليه تلميذه أبو حيان ، رحم الله تعالى الجميع .  
 ومن فوائده قوله : نقلت من خط أبي الوليد ابن خيرة الحافظ القرطبي  
 في فهرست أبي بكر ابن مفلح : قد أدركته بسنّي ولم آخذ عنه واجتمعت به ،  
 أنشدني له أبو القاسم ابن الأبرش يخاطب بعض أكابر أصحاب أبي محمد ابن  
 حزم ، والإشارة لابن حزم الظاهري :

يا من تُعاني أموراً لَنَ تُعانيها خَلَّ التعاني وأعطِ القوس باربها  
 تروى الأحاديث عن كلِّ مسأحة وإنما لمعانيها معانيها

وقد سبق في ترجمة القاضي أبي الوليد الباجي ذكر هذين البيتين عندما  
 أجرينا ذكر ابن حزم<sup>١</sup> ، قال : وإنما قال هذا الشعر في ذكر رواية ادّعت  
 على قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن خالداً قد احتبس أذراعه وأعتده  
 في سبيل الله » وصحح رواية من روى « أعبده » جمع عبد ، وعكّل رواية  
 من روى « أعتده » بالياء مثناة باثنتين من فوق جمع عتد ، وهو الفرس ؛  
 قال ابن خيرة : الإحاطة ممتنعة ، وهذه الرواية قد رواها جماعة من الأثبات  
 والعلماء المحدثين ، فهو إنكار غير معروف ، والله تعالى أعلم .

ومن فوائده ما نقله تلميذه أبو حيان النحوي عنه ، قال : أنشدنا للمقري  
 ونقلته من خطه :

١ انظر ما تقدم ٢ : ٨٤ .

إذا ما شئت معرفةً بما حارَ الورى فيه  
فخذُ خمساً لأربعةٍ ودعُ للثوبِ رافيه

وهو لغز في ورد .

وقال : وأنشدنا لبعضهم :

لا رعى الله عزيمةً ضمنت لي  
ما وقتت غير ساعةٍ ثم عادت  
سألوة الصبرِ والتصبرِ عنه  
مثل قلبي تقول : لا بدَّ منه

قال : وأنشدنا لغيره :

وكان غريبَ الحُسنِ قبلَ التحائه  
فلما التحى صارَ « الغريبَ المصنفاً »<sup>١</sup>  
وأنشدنا لغيره :

طب على الوحدةِ نفساً وارضى بالوحشة أنسا  
ما عليها من يساوي حين يُستخبرُ فلنسا

وقرأ الرضي ببلده على ابن صاحب الصلاة<sup>٢</sup> آخر أصحاب ابن هذيل ،  
وسمع منه كتاب التلخيص للواني<sup>٣</sup> ، وسمع بمصر من ابن المقيّم وجماعة ،  
وروى عنه الحافظ المزني واليونيبي والظاهري وآخرون ، وانتهت إليه معرفة  
اللغة وغريبها ، وكان يقول : أعرف اللغة على قسمين : قسم أعرف معناه  
وشواهده ، وقسم أعرف كيف أنطق به فقط ، رحمه الله تعالى .

١ فيه تورية ، يشير إلى كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام .

٢ اسمه محمد بن أحمد بن صاحب الصلاة .

٣ كذا في ج ق ودوزي ؛ وفي غاية النهاية « للداني » بالذال المهملّة ، ولم يرد كتاب « التلخيص »  
بين كتب أبي عمرو الداني شيخ القراء الأندلسيين في مقدمة المحكم (تحقيق الدكتور عزة حسن ،  
دمشق : ١٩٦٠) .



ومن فوائد الرضي الشاطبي المذكور ما ذكره أبو حيان في البحر قال :  
وهو من غريب ما أنشدنا الإمام الغوي رضي الدين أبو عبد الله محمد بن علي  
ابن يوسف الأنصاري الشاطبي لزيب بنت إسحاق النصراني الرّسعي :

عَدِيّ وَتَيْمٌ لَا أَحَاوِلُ ذَكَرَهُمْ ۚ      بسوء ، ولكنّي محبٌ لهاشمِ  
وما يعتريني في عليّ ورهطه ۚ      إذا ذُكروا في الله لَوْمَةٌ لائِمِ  
يقولون : ما بال أنصاري تحبهم ۚ      وأهلُ النهى من أعربٍ وأعاجِمِ  
فقلتُ لهم : إنّي لأحسبُ حبّهم      سرى في قلوبِ الخلقِ حتّى البهائمِ

ومن نظم الرضي المذكور :

مُنْغَصَّ العيشِ لا يأوي إلى دَعَاةِ      مَنْ كَانَ ذا بِلَدٍ أَوْ كَانَ ذا وِلْدِ  
والساكنُ النفسِ من لم ترضَ هِمَّتَهُ      سُكُنِي بِلَادٍ وَلَمْ يَسْكُنْ إلى أَحَدِ  
وله :

لولا بناي وسيّثاي      لظرتُ شوقاً إلى المماتِ  
لأنّي في جوار قومٍ      بَغَضَتِي قُرْبُهُمْ حَيَاتِي

وقرأ عليه أبو حيان كتاب « التيسير » وأثنى عليه ، ولما توفي أنشد ارتجالاً :

نَعَوَا لي الرضيّ فقلتُ لقد      نُعِي لي شَيْخُ العُلا والأدبِ  
فمَنْ لللغاتِ ومَنْ للثقاتِ      ومَنْ للنحاةِ ومَنْ للنسبِ  
لقد كان للعلمِ بجرّاً فغار      وإنّ غُورَ البحارِ العجِبِ  
فقدّسُ من عالمٍ عامِلِ      أثارَ لشجويّ لما ذهبِ

وتحاكم إلى رضي الدين المذكور الجزّار والسراج الورّاق أيهما أشعر ،  
وأرسل إليه الجزّار شيئاً ، فقال : هذا شعر جزّل ، من نمط شعر العرب ، فبلغ  
ذلك الورّاق ، فأرسل إليه شيئاً فقال : هذا شعر سلكس ، وآخر الأمر قال :

ما أحكم بينكما ، رحمه الله تعالى .  
قلت : رأيتُ بخطّه كتباً كثيرةً بمصر وحواشيَ مفيدة في اللّغة وعلى دواوين  
العرب ، رحمه الله تعالى .

١٧٠ - ومنهم حميد الزاهد ، وهو الأديب الفاضل الزاهد أبو بكر حميد  
ابن أبي محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله ، الأنصاري ،  
القرطبي ، نزيل مالقة<sup>١</sup> . قال الرضي الشاطبي المذكور قريباً : أنشدني حميدٌ  
بالقاهرة لأبيه أبي محمد وقد تأخر شبيههُ مع علوّ سنّه<sup>٢</sup> :

وهلّ نافعِي أن أخطأ الشيبُ مفرقي وقد شابَ أترابي وشابَ لداني  
إذا كانَ خطُّ الشيبِ يوجدُ عنه بتربي فمعناهُ يقومُ بذاتي  
واللّذات : مَنْ وُلد معه في زمان واحد ، انتهى .

وفي ذكرِي أنّه قال هذين البيتين لما قال لهُ القاضي عياض : شيبنا ولم  
تشب .  
وقال الرضي أيضاً : أنشدني حميدٌ لأبيه فيمن يكب في الورق بالمقص ،  
وهو غريب :

وكاتبٍ وشيُّ طرُسِه حيرٌ لم يشها حيرُهُ ولا قلّمهُ  
لكنْ بمقراضِه يُسَمِّمُها نعمة الروض جادهُ رهمهُ  
يُوجدُ بالقطع أحرفاً عدِمَتْ فاعجب لشيء وجوده علمهُ  
والرهم : المطر .

١ حميد هذا هو أحمد - وشهر باسم حميد - ؛ وأبوه عبد الله بن الحسن هو أبو محمد القرطبي  
أحد العلماء الحفاظ ، ترجم له ابن عبد الملك ترجمة ضافية في الذيل والتكملة ٤ : ١٩١  
( وانظر التكملة : ٨٧٩ وتذكرة الحفاظ : ١٣٩٦ ) .  
٢ انظر البيتين والقصة بين أبي محمد القرطبي والقاضي عياض في برنامج الرعيي : ٨٨ والذيل  
والتكملة ٤ : ٢٠٩ - ٢١٠ .

قال : وتوفي حُمَيْد الزاهد هذا بمصر ، قبيل الظهر من يوم الثلاثاء ،  
وَصُلِّيَ عليه خارج مصر بجامع راشدة بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء المذكور ،  
ودفن بسَفْحِ المقطم بتربة الشيخ الفاضل الزاهد أبي بكر محمد الخزرجي الذي  
يدق الرصاص ، حذاء رجليه ، في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين  
وخمسين وستمائة ، ومولده سنة ست وستمائة ؛ انتهى .

١٧١ - ومنهم **اليسعُ بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله**  
**الغافقي**<sup>١</sup> من أهل بَلَنْسِيَّةِ وأصله من جِيَّان ، وسكن المَرِيَّةَ ثم مالقَةَ ،  
يكنى أبا يحيى ، كتب لبعض الأمراء بشرقي الأندلس<sup>٢</sup> ، وله تأليف سماه « المغرب  
في أخبار محاسن أهل المغرب » ، جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب  
بالديار المصرية بعد أن رحل إليها من الأندلس سنة ستين وخمسمائة ، وبها  
توفي يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة خمس وسبعين وخمسمائة ،  
رحمه الله تعالى .

١٧٢ - ومنهم **محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد التجيبي** ، يكنى  
أبا عبد الله ، من أهل إشبيلية<sup>٣</sup> ، تجول في بلاد الأندلس طالباً للعلم ، ثم حج ،  
ولقي الحافظ السلفي وغيره ، واستوطن تلمسان ، وبها توفي في جمادى الأولى  
سنة عشر وستمائة ، وله تواليف كثيرة .

١٧٣ - ومنهم **أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللّخمي** ، الباجي<sup>٤</sup> ،

١ ترجمته في المغرب ٢ : ٨٨ والتكملة رقم : ٢١١٢ وشذرات الذهب ٤ : ٢٥٠ .

٢ في المغرب : وكان بالأندلس يكتب عن المستنصر بن هود .

٣ ترجم له في التكملة : ٥٨٨ ، وقال إنه من أهل لقنت عمل مرسية ، ولم ينسبه إلى إشبيلية ،  
وذكر عدداً كبيراً من مؤلفاته .

٤ ترجمته في التكملة : ٦٣٧ ؛ خرج من وطنه عند مقتل ابن أخيه أبي مروان الباجي على يد ابن  
الأحمر ، ونزل في مرسى عكا ومنها توجه إلى دمشق وحج وزار ثم عاد إلى مصر عن طريق =

من أهل إشبيلية ، ولي القضاء بها وأصله من باجة إفريقية ، دخل المشرق لأداء الفريضة فحج ، وتوفي بمصر بعدما دخل الشام ، في اليوم الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ومولده عام أربعة وستين وخمسمائة ، وكانت رحلته من المغرب أول يوم من المحرم عام أربعة وثلاثين وستمائة .

١٧٤ - ومنهم وليد بن بكر بن مخلد بن زياد العمري<sup>١</sup> من أهل سرقسطة ، يكنى أبا العباس ، له كتاب سماه «الوجازة في صحة القول بالإجازة» وله رحلة لقي فيها ألف شيخ ومحدث وفقهه ، توفي بالدينور سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، يروي عنه أبو ذر الهروي وعبد الغني الحافظ ، وكفاه فخراً بهذين الإمامين العظيمين ، رحم الله تعالى الجميع .

١٧٥ - ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الملك بن عبد الله بن محمد الرعيبي الرندي ، يكنى أبا محمد<sup>٢</sup> ، استوطن مالقة ، ورحل إلى المشرق ، وحج ، ولقي جماعة من العلماء ، وقفل إلى المغرب أواخر عام واحد وثلاثين وستمائة<sup>٣</sup> ، وولي الإمامة بالمسجد الجامع بمالقة ، وبها توفي في ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، ولقب في المشرق برشيد الدين ، وولد في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بقرية من قرى الأندلس يقال لها يلماطين<sup>٤</sup> كورة

= عيذاب ماراً بقنا وقوص ؛ وقد أطنب ابن عبد الملك في خبر رحلته وتقلاته ووفاته (الذيل والتكملة ٥ : ٦٨٧) .

١ ترجمته في الصلة : ٦٠٧. وفيها «ابن أبي زياد» ؛ وكنيته أبو العباس ونسبته العمري ، بالغين المعجمة ؛ إلا أنه ذكر أنه عمري النسبة لكنه دخل إفريقية أيام العبيديين فكان يضع نقطة فوق العين حتى يسلم ؛ وكان يقول إنه إذا عاد إلى الأندلس جعل النقطة ضمة ، غير أنه توفي بالدينور بعيداً عن وطنه ؛ وعنه رويت الأشعار الأندلسية التي ضمها الثعالبي في يتيمة الدهر (انظر اليتيمة ٢ : ٣٦) .

٢ ترجمته في التكملة رقم : ١٩٢٩ وصلة الصلة : ٥١ والذيل والتكملة ٥ : ٤٩٥ .

٣ أقام في رحلته بالشرق نحو عشرين عاماً .

٤ دوزي : يلماطين .

بَشْتَعْيَرٍ ، ذكر ذلك ابن المستوفي في تاريخ إربل .

١٧٦ - ومنهم أبو الربيع سليمان بن أحمد ، النيني<sup>١</sup> ، من أهل الأندلس ،

استوطن المشرق ومدح الملك الكامل ، ومن شعره رحمه الله تعالى قوله :

لولا تحديهِ بآيةِ سحرهِ ما كنتُ ممثلاً شريعةَ أمرهِ  
رَشاً أصدقهُ وكاذبٌ وعدهِ يبُدي لعاشقه أدلّةَ عُدْرِهِ  
ظهرت نُبوّةُ حسنه في فِترةٍ من جفّنهِ وضلالةٍ من شعرهِ

١٧٧ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن يحيى الضبي<sup>٢</sup> ، رحل حاجاً فلقي

ببجايةَ عبد الحق الإشبيلي ، وبالإسكندرية أبا الطاهر ابن عوف ، ولقي غير

واحد في رحلته كالفرنوني<sup>٣</sup> وابن بري<sup>٤</sup> وأبي الثناء الحراني وأبي الحسين

الحديثي<sup>٥</sup> - وللحديثي أحاديث ساوى بها البخاري ومسلماً - ولقي جماعة ممن

شارك السلفي في شيوخه .

١٧٨ - ومنهم أبو الحسين محمد بن أحمد جبّير ، الكناني صاحب

الرحلة<sup>٦</sup> ، وهو من ولد ضمّرة بن بكر بن عبد منّاة بن كنانة ، أندلسي ،

١ ق ودوزي : النيني ؛ وهي غير واضحة الإعجام في ج .

٢ ترجمة الضبي في التكملة : ٩٣ ، وله كنية ثانية هي أبو العباس ، وقد توفي في مرسية عام

٥٩٩ سقط عليه دم .

٣ في دوزي : كالمروبي ، وفي نسخة : كالغذتوري ، وأثبت ما في التكملة .

٤ ج ق ودوزي : وابن بر .

٥ ج ق ودوزي : الحرثي .

٦ انظر ترجمة ابن جبّير في التكملة : ٥٩٨ ، والذيل والتكملة : ٥٩٥ وإرشاد الأريب : ٢ :

١٠٦ ومسالك الأبصار : ٨ ، ٣١١ والمطرب : ١ ، ٨٦ والإحاطة : ٢ ، ١٦٨ والمغرب : ٢ :

٣٨٤ ، وغاية النهاية : ٢ ، ٦٠ والنجوم الزاهرة : ٦ ، ٢٢١ وشذرات الذهب : ٥ ، ٦٠ ؛

وانظر مقدمة الرحلة ففيها نقول عن المقفى ورحلة العبدري وبدائع البدائه ؛ وأورد له ابن

عبد الملك أشعاراً يهاجم فيها الفلسفة في ترجمة أبي الوليد ابن رشد في الجزء السادس .

شاطبي ، بَلَسْتَسِي ، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة  
بِلَسْتَسِيَة ، وقيل في مولده غير ذلك ، وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبي عبد الله  
الأصيلي وأبي الحسن ابن أبي العيش ، وأخذ عنه القراءات ، وعُني بالأدب فبلغ  
الغاية فيه ، وتقدم في صناعة القريض والكتابة .

ومن شعره قوله ، وقد دخل إلى بغداد فاقتطع غصناً نضيراً من أحد بساينها  
فدَوَى في يده :

لا تَعْتَرِبْ عَن وَطَنِ وَاذْكَرْ تَصَارِيفَ النَّوَى  
أما ترى الغصنَ إذا ما فارق الأصلَ ذَوَى

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الصدر الحُجَنْدِي ١ :

يا مَنْ حَوَّاهُ الدِّينُ فِي عَصْرِهِ	صَدْرًا يَجْلُ الْعِلْمُ مِنْهُ فَوَادُ
ماذا يرى سَيِّدَنَا المَرْتَضَى	في زائِرٍ يَخْطُبُ مِنْهُ الوِدادُ
لا يَبْتَغِي مِنْهُ سِوَى أَحْرَفٍ	يَعْتَدُّهَا أَشْرَفَ ذُخْرِ يَفادُ
تَرَسُّمُهَا أَمَلُهُ مِثْلَ مَا	نَمَّقَ زَهْرَ الرُّوضِ كَفَّ العِهادُ
في رِقْعَةٍ كَالصَّبْحِ أَهْدَى لَهَا	يَدَ المَعَالِي مَسْكُ لَيْلِ المِدادِ
إِجْازَةً يُوَرِّثُهَا العِلا	جائِزَةً تَبْقَى وَتَفْنِي البِلا
يَسْتَصْحَبُ الشُّكْرَ خَدِيمًا لَهَا	والشُّكْرُ لِلأَمْجادِ أَسْنَى عِتابِ

فأجابه الصدر الحُجَنْدِي :

لَكَ اللهُ مِنْ خاطِبِ خُلَّتِي	ومن قابِسِ يَجْتَدِي سَقَطَ زَنْدِي
أَجَزْتُ لَهُ ما أَجازُوهُ لي	وما حَدَّثُوهُ وما صَحَّ عِنْدِي
وَكاتِبُ هذِي السَّطُورِ الَّتِي	تَراهُنَّ عَبْدُ اللطيفِ الحُجَنْدِي

١ هو عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الحنجندي أبو القاسم صدر الدين من أهل أصبهان ،  
كان فقيهاً أديباً واعظاً توفي سنة ٥٨٠ هـ (انظر طبقات السبكي ٤ : ٢٦١) .

١٧٩ - ورافقَ ابنَ جبیر في هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القُضاعي ، وأصله من أُنْدَةَ من بِلَنْسِيَّة<sup>١</sup> ، رحل معه فأدّى الفريضة ، وسمعا بدمشق من أبي الطاهر الخشوعي ، وأجاز لهما أبو محمد ابن أبي عَصْرُون وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما ، ودخلا بغداد وتجوّلا مدّة ، ثمّ قَفَلَا جميعاً إلى المغرب ، فسُمِعَ منهما به بعضُ ما كان عندهما . وكان أبو جعفر هذا متحقّقاً بعلم الطب ، وله فيه تقييد مفيد ، مع المشاركة الكاملة في فنون العلم . وكتبَ عن السيد أبي سعيد ابن عبد المؤمن ، وجدّه لأُمّه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية . وتوفّي أبو جعفر هذا بمرآكش سنة ثمان ، أو تسع وتسعين وخمسمائة ، ولم يبلغ الخمسين في سنه ، رحمه الله تعالى .

رجع إلى ابن جبیر :

قال لسان الدين في حقّه : إنّه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة في الآداب ، وله الرحلة المشهورة ، واشتهرت في السلطان الناصر صلاح الدين ابن أيوب له قصيدتان : إحداهما أولها<sup>٢</sup> :

أطلّمتُ على أفقكَ الزّاهرِ      سُعودٌ من الفلكِ الدائرِ

ومنها :

رَفَعْتِ مَغَارِمَ مَكْسِ الحِجَازِ      بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الغَامِرِ  
وَأَمَنْتِ أَكْنَافَ تِلْكَ البِلَادِ      فَهَانَ السَّبِيلُ عَلَى العَابِرِ  
وَسُحِبُ أَيَادِيكَ فَيَاضَةٌ      عَلَى وَارِدٍ وَعَلَى صَادِرِ  
فَكَمْ لَكَ بِالشَّرْقِ مِنْ حَامِدٍ      وَكَمْ لَكَ بِالغَرْبِ مِنْ شَاكِرِ

١ ترجمته في التكملة : ٩٣ ، عنها ينقل المقرئ إلا خبر الكتابة عن السيد أبي سعيد ، وفي الإحاطة والذيل «أبي جعفر ابن حسان» .

٢ انظر القصيدة في الذيل والتكملة : ٥٩٨ ومقدمة الرحلة : ٢٨ .

والأخرى منها في الشكوى من ابن سُكْر الذي كان أخذ المكس من الناس  
في الحجاز<sup>١</sup> :

وما نال الحجازُ بكم صلاحاً وقد نالتهُ مصرٌ والشَّامُ

ومن شعره :

أخلاءَ هذا الزَّمانِ الخؤونِ تَوَالَّتْ عليهمْ حروفُ العِللِ  
قضيتُ التعجَّبَ من بابهمْ فصرتُ أطلعُ بابَ البدلِ

وقوله<sup>٢</sup> :

غريبٌ تذكَّرَ أوطانهُ فهيجَ بالذكرِ أشجانهُ  
يحلُّ عُرَى صبره بالأسى<sup>٣</sup> ويعقدُ بالنجمِ أجفانهُ

وقال رحمه الله تعالى ، لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفاً :

بَدَّتْ لي أعلامُ بيتِ الهدى بمكَّةَ والنورُ بادٍ عليه  
فأحرمتُ شوقاً لهُ بالهوى وأهديتُ قلبي هدياً إليه

وقوله يخاطب مَنْ أهدى إليه مَوْزاً<sup>٤</sup> :

يا مُهدِيَ الموزِ تَبَقَى وميمهُ لكَ فاء  
وزايهُ عن قريبٍ لَمَنْ يُعاديك تاء

١ الذيل والتكملة : ٦١٧ ومطلما :

صلاح الدين أنت له نظام فما يخشى لعروته انفصام  
والقصيدة تحريض صلاح الدين كي يزيل التشيع من المدينة .

٢ المغرب : ٣٨٥ .

٣ المغرب : يحل جواه عقود الغزاء .

٤ الذيل والتكملة : ٦٢٠ .



وقال رحمه الله تعالى :

قد ظَهَرَتْ في عصرنا فرقةٌ ظُهورها شُومٌ على العصرِ  
لا تقندي في الدين إلا بما سنَّ ابن سينا وأبو نصر

وقال :

يا وحشةَ الإسلامِ من فرقةٍ شاغلةٌ أنفُسها بالسِّفَةِ  
قد نَبَذَتْ دينَ الهدى خَلْفها وادَّعَتْ الحكمةَ والفلسفَه

وقال :

صَلَّتْ بأفعالها الشنيعةُ طائفةٌ عن هُدَى الشريعةِ  
لَيْسَتْ ترى فاعلاً حكيماً يفعلُ شيئاً سوى الطبعه

كان انفصاله ، رحمه الله تعالى ، من غرناطة بقصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ هـ ، ووصل الإسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة الحرام من السنة ، فكانت إقامته على متن البحر من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثين يوماً ، ونزل البر الإسكندراني في الحادي والثلاثين ، وحجَّ ، رحمه الله تعالى ، وتجوَّل في البلاد ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها ، وكان ، رحمه الله تعالى ، كما قال ابن الرقيق : من أعلام العلماء العارفين بالله ، كتب في أول أمره عن السيد أبي سعيد ابن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتاباً وهو على شرابه ، فمدَّ يده إليه بكأس ، فأظهر الانقباض ، وقال : يا سيدي ما شربتها قط ، فقال : والله لتشربنَّ منها سبعاً ، فلما رأى الغزيمة شرب سبع أكؤس ، فملاً له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك في حجره ، فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ، ثم رغب إلى السيد ، وأعلمه أنه حلف

بإيمان لا خروج له عنها أنه يحج في تلك السنة ، فأسعفه ، وباع ملكاً له تزود به ، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر .

ومن شعره في جارية تركها بغرناطة<sup>١</sup> :

طولُ اغترابٍ وبرحُ شوقٍ لا صبرَ والله لي عليه  
إليك أشكو الذي ألقى يا خيرَ مَنْ يَشْتَكِي إليه  
ولي بغرناطة حبيبٌ قد غلِقَ الرهنُ في يديه  
ودعته وهو في دلالٍ<sup>٢</sup> يُظهرُ لي بعضَ ما لديه  
فلو ترى طلَّ نرجسيه ينهلُ في وردٍ وجنتيه<sup>٣</sup>  
أبصرتَ دُرّاً على عقيقٍ من دمه فوقَ صفحتيه<sup>٤</sup>

وله رحلة مشهورة بأيدي الناس .

ولما وصل بغداد تذكر بلده ، فقال :

سقى الله بابَ الطاقِ صوبَ غمامةٍ ورداً إلى الأوطانِ كلَّ غريبٍ

وقال في رحلته في حق دمشق<sup>٥</sup> : جنة المشرق ، ومطلع حسنه المونق المشرق ، هي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تحللت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت من موضع<sup>٦</sup> الحسن بمكان مكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه منها إلى ربوة ذات قرار ومعين ، ظل ظليل ، وماء

١ المغرب : ٣٨٤ .

٢ المغرب : بارتماض .

٣ المغرب : صفحتيه .

٤ المغرب : وجنتيه .

٥ الرحلة : ٢٦٠ .

٦ الرحلة : موضوع .

سلسيل ، تنساب مَدَانِه انسيابَ الأرقام بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نَسِيمُهَا العليل ، تبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم هلموا إلى مُعَرَّسٍ للحسن ومَقِيل ، قد سثمت أرضها كثرة الما ، حتى اشتاقت إلى الظما ، فتكاد تناديك بها الصَّمُّ الصلاب ، ﴿ اركضُ برجلِكَ هذا مُغْتَسِلٌ باردٌ وَشَرَابٌ ﴾ (ص : ٤٢) قد أهدقتُ بها البساتينُ إحداق الهالة بالقمر ، واكتفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدَّتْ بشرقيها غُوطَتُهَا الخضراء امتداد البصر ، فكلُّ موقع لحظة يجهاها الأربع نظرتة اليانعة قَيْدُ النظر ، والله صدق القائلين فيها : إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شكَّ فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسامتها وتحاذيها .

قال العلامة ابن جابر الوادي آشي ، بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق ، ما نصّه : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد ، هذا ولم تكن له بها إقامة ، فيعرب عنها بحقيقة علامة ، وما وصف ذهبيّات أصيلها وقد حان من الشمس غروب ، ولا أزمان فصولها المتنوعات ، ولا أوقات سرورها المهنتات ، ولقد أنصف من قال : ألفتها كما تصف الألسن ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، انتهى .

### رجع إلى كلام ابن جبير فنقول :

ثمَّ ذكر في وصف الجامع<sup>١</sup> أنّه من أشهر جوامع الإسلام حسناً ، وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين ، وشهرته المتعارفة في ذلك تغي عن استغراق الوصف فيه ، ومن عجيب شأنه أنّه لا تنسج به العنكبوت ، ولا تدخله ، ولا تُلْمُ به الطير المعروفة بالخطاف . ثمَّ مدَّ النَّفْس في وصف الجامع وما به من العجائب ، ثمَّ قال بعد عدة أوراق ما نصّه<sup>٢</sup> : وعن يمين الخارج من باب

١ الرحلة : ٢٦١ .

٢ الرحلة : ٢٧٠ .

جَيَّرُونِ فِي جِدَارِ الْبِلَاطِ الَّذِي أَمَامَهُ غُرْفَةٌ ، وَلَهَا هَيْئَةٌ طَاقٌ كَبِيرٌ مُسْتَدِيرٌ فِيهِ طَيْقَانُ صُفْرٍ ، وَقَدْ فَتَحَتْ أَبْوَاباً صَغَاراً عَلَى عِدَّةِ سَاعَاتِ النَّهَارِ ، دُبِّرَتْ تَدْبِيرًا هِنْدَسِيًّا ، فَعِنْدَ انْقِضَاءِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ تَسْقُطُ صَنْجَتَانِ مِنَ صُفْرٍ مِنْ فَمِي بَازِيَيْنِ مَصُورَيْنِ مِنَ صُفْرٍ قَائِمَيْنِ عَلَى طَاسَتَيْنِ مِنَ صُفْرٍ تَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، أَحَدُهُمَا تَحْتَ أَوَّلِ بَابٍ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ وَالثَّانِي تَحْتَ آخِرِهَا ، وَالطَّاسَتَانِ مَثْقُوبَتَانِ ، فَعِنْدَ وَقُوعِ الْبُسْدُقَتَيْنِ فِيهِمَا تَعُودَانِ دَاخِلَ الْجِدَارِ إِلَى الْغُرْفَةِ ، وَتَبْصُرُ الْبَازِيَيْنِ بِمَدَّانِ أَعْنَاقِهِمَا بِالْبِنْدُقَتَيْنِ إِلَى الطَّاسَتَيْنِ وَيَقْدِفَانِهِمَا بِسُرْعَةٍ بِتَدْبِيرٍ عَجِيبٍ تَتَخَيَّلُهُ الْأَوْهَامُ سَحْرًا ، وَعِنْدَ وَقُوعِ الْبِنْدُقَتَيْنِ فِي الطَّاسَتَيْنِ يُسْمَعُ لِهَمَا دَوِيٌّ ، وَيَنْغَلِقُ الْبَابُ الَّذِي هُوَ لِتِلْكَ السَّاعَةِ لِلْحَيْنِ بِلَوْحٍ مِنَ الصُّفْرِ ، لَا يَزَالُ كَذَلِكَ عِنْدَ انْقِضَاءِ كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ حَتَّى تَنْغَلِقَ الْأَبْوَابُ كُلَّهَا وَتَنْقُضِي السَّاعَاتُ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى حَالِهَا الْأَوَّلِ ، وَلَهَا بِاللَّيْلِ تَدْبِيرٌ آخَرٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ فِي الْقَوْسِ الْمُنْعَطِفِ عَلَى تِلْكَ الطَّيْقَانِ الْمَذْكُورَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَائِرَةً مِنَ النُّحَاسِ مَحْرَمَةٌ ، وَتَعْتَرِضُ فِي كُلِّ دَائِرَةٍ زَجَاجَةٌ مِنْ دَاخِلِ الْجِدَارِ فِي الْغُرْفَةِ ، مَدْبُرٌ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا خَلْفَ الطَّيْقَانِ الْمَذْكُورَةِ ، وَخَلْفَ الزَّجَاجَةِ مَصْبَاحٌ يَدُورُ بِهِ الْمَاءُ عَلَى تَرْتِيبِ مَقْدَارِ السَّاعَةِ ، فَإِذَا انْقَضَتْ عَمَّ الزَّجَاجَةُ ضَوْءُ الْمَصْبَاحِ ، وَفَاضَ عَلَى الدَّائِرَةِ أَمَامَهَا شِعَاعُهَا فَالَاحَتْ لِلْأَبْصَارِ دَائِرَةٌ مَحْمَرَةٌ ، ثُمَّ انْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْآخَرَى حَتَّى تَنْقُضِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَتَحْمَرُ الدَّوَائِرُ كُلُّهَا ، وَقَدْ وَكَّلَ بِهَا فِي الْغُرْفَةِ مَتَفَقِّدٌ لِحَالِهَا ، دَرَبٌ بِشَأْنِهَا وَانْتَقَالَهَا ، يَعِيدُ فَتَحَ الْأَبْوَابِ وَصَرَفَ الصَّنِيعَ إِلَى مَوْضِعِهَا ، وَهِيَ الَّتِي تَسْمِيهَا النَّاسُ الْمُنْجَاةَ ، انْتَهَى الْمَقْصُودُ مِنْهُ .

قلت : كل ما ذكر رحمه الله تعالى في وصف دمشق الشام وأهلها فهو في نفس الأمر يسير ، ومن ذا يروم عد محاسنها التي إذا رجع البصر فيها انقلب وهو حسير ، وقد أظنبت الناس فيها ، وما بقي أكثر مما ذكره ، وقد دخلتها أواخر شعبان من سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة ، وأقمت بها إلى أوائل شوال من السنة ، وارتحلت عنها إلى مصر وقد تركت القلب فيها رهناً ، وملك هواها

مني فكراً وذهناً ، فكأنتها بلدي التي بها ربيت ، وقراري الذي لي به أهل  
 وبيت ، لأن أهلها عاملوني بما ليس [ لي ] بشكره يدان ، وها أنا إلى هذا التاريخ  
 لا أرتاح لغيرها من البلدان ، ولا يسوقني ذكر أرض بابل ولا بغداد ، فالله  
 سبحانه وتعالى يعطرّ منها بالعافية الأردن .

### [ أشعار في وصف دمشق ]

وقد عنّ لي أن أذكر جملة ممّا قيل فيها من الأمداح الرائقة ، وأسرّد  
 ما خاطبني به أهلها من القصائد الفائقة ، فأقول :  
 قال البدر بن حبيب<sup>١</sup> :

يَمَمُّ دِمَشْقَ وَمَلَّ إِلَى غَرْبِهَا      وَالْمَحَّ مَحَاسِنَ حُسْنِ جَامِعِ يَلْبُغَا  
 مِنْ قَالَ مِنْ حَسَدٍ رَأَيْتُ نَظِيرَهُ      بَيْنَ الْجَوَامِعِ فِي الْبِلَادِ فَقَدْ لَغَا  
 وقال رحمه الله :

لِللَّهِ مَا أَحْلَى مَحَاسِنَ جَلَّتِ      وَجِهَاتِهَا اللَّاتِي تَرُوقُ وَتَعْدُبُ  
 بِيَزِيدِ رِبُوتِهَا الْفِرَاتِ وَجَنَّتِهَا      يَا صَاحِبَ كَمِّ كِتَابِنَا نَحْوُ وَنَلْبُ  
 وقال في كتاب « شنف السامع بوصف الجامع »<sup>٢</sup> :

لِللَّهِ مَا أَجْمَلَ وَصَفَ جَلَّتِ      وَمَا حَوَى جَامِعُهَا الْمُنْفَرِدُ

١ من التعريف بالبدر بن حبيب ، انظر ١ : ٦٨ ؛ وهو الحسن بن عمر بدر الدين الحلبي المتوفى  
 سنة ٧٧٩ ؛ وهذا هو ابنه طاهر بن الحسن بن عمر يعرف أيضاً بابن حبيب (توفي سنة ٨٠٨) وقد  
 ذيل على تاريخ أبيه المسمى « درة الأسلاك » ، وهو صاحب كتاب شنف السامع ؛ وربما كان  
 الأصوب أن يقال فيه « ابن البدر » .

٢ ينقل عن البدر بن حبيب صاحب نزهة الأنام في معان الشام ويسميه « تشنيف المسامع » (انظر ص :  
 ٤٤) ، واسمه في كشف الظنون كما أورده المقري .

قد أطربَ الناسَ بصوتِ صيتهِ وكيف لا يُطربُ وهو معبِدُ  
وقال في ذكر باب الجامع المعروف بالزيادة<sup>١</sup> :

يا راغباً في غيرِ جامعِ جِلتِ هل يستوي الممنوعُ والممنوحُ  
أقصرَ عنّاكَ وفي غلوكَ لا تزدُ إنّ الزيادةَ بابُها مَفْتُوحُ

وقال في منارته المعروفة بالعروس<sup>٢</sup> :

معبدُ الشامِ يجمعُ الناسَ طرّاً وإليه شوقاً تميلُ النفوسُ  
كيف لا يجمعُ الورى وهو بيتُ فيه تُجلى على الدوامِ العروسُ

ومنه في ذكر بانيه الوليد :

تالله ما كانَ الوليدُ عابثاً في صرفه المالَ وبذلِ جهدهِ  
لكنهُ أحرزَ ملكَ معبِدٍ لا ينبغي لأحدٍ من بعدهِ

ومن أبيات في آخره :

بجامعِ جلتِ ربُّ الزعامهُ أقمْ تلقَ العنايهَ والكرامهُ  
ويممُ نحوهُ في كلِّ وقتِ وصلَ به تصلُ دارَ الإقامه  
مُصلّي فيه للرحمن سرٌّ ومثوى للقبولِ بهِ علامه  
محلُّ كَمَلِ الباري حُلاه وبيتُ أبدعَ الباني نظامه  
دمشقٌ لم تزلْ للشامِ وجهاً ومسجدها لوجهِ الشامِ شامه  
وبينَ معابدِ الآفاقِ طرّاً لهُ أمرُ الإمارةِ والإمامه  
أدامَ الله بهجتهُ وأبقى محاسنهُ إلى يومِ القيامه

١ البيتان في نزهة الأنام : ٤٥ .

٢ هما في نزهة الأنام : ٤٥ .

ولم أقف على كل هذا الكتاب المذكور ، بل على بعضه فقط .

ومن قصيدة القاضي المهذب بن الزبير<sup>١</sup> :

بالله يا ريح الشّما      ل إذا اشتملت الرّند<sup>٢</sup> بُردا  
وحملت من عرف<sup>٣</sup> الخزا      مى ما اغتدى للنّد نيدا  
ونسجت ما بين الغصو      ن إذا اعتقن<sup>٤</sup> هوى وودا  
وهزرت عند الصبح من      أعطافها قدّا فقدّا  
ونثرت فوق الماء من<sup>٥</sup>      أجيادها للزهر عيدا  
فملاّت صفحة وجهه      حتّى اكتسى آسا ووزدا  
وكأنما ألقيت في      ٤ منهما صدغاً وخدّا  
مُرّي على برّدى عسا      ه يزيد في مسرّك بردا  
نهر<sup>٥</sup> كنصل السيف تك      سرّ مسنّه الأزهار عمدا  
صقلته أنفاس<sup>٥</sup> النسي      م بمرهنّ فليس يصدا

ومنها :

أحبايتنا ما بالكُسم<sup>٥</sup>      فينا من الأعداء أعدى  
وحياة حبّكم<sup>٥</sup> وحر<sup>٥</sup>      مة وصاكم<sup>٥</sup> ما خنت عهدا

١ هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير ، أبو محمد القاضي المهذب ( - ٥٦١ ) أحد شعراء  
الخريدة ( وانظر معجم الأدباء ٩ : ٤٧ ) ، وبعض أبياته هذه في الخريدة ١ : ٢١٤ ( قسم  
مصر ) . وهي في المقتطفات ( الورقة : ٢٥ ) .

٢ الخريدة : الليل ؛ ق ودوزي : الروح ، وفي الحاشية نقلا عن هامش إحدى النسخ : لعله « الرند » ؛  
ج : الريح .

٣ الخريدة : نشر .

٤ الخريدة : ونسجت في الأشجار بين غصونها .

٥ في بعض الأصول : أصلكم ، وفي إحدى النسخ : عهدكم ، وأثبتنا ما في الخريدة .

وقال الكمال الشريشي<sup>١</sup> :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرٌ  
بعدتُ عنكم فلا والله بعدكمُ  
إذا تذكرتُ أوقاتاً نأتُ ومضتُ  
كأنّتي لم أكنْ بالنيرين<sup>٢</sup> ضحى  
والورقُ تنشدُ والأغصانُ راقصةً  
والسفعُ أين عشيّاتي التي ذهبتُ<sup>٣</sup>  
سفاكاً بالسفعِ سفعُ الدمعِ منهمراً<sup>٤</sup>  
فإنّ قلبي بنار الشوق يستعيرُ  
ما لذّ للعين لا نومٌ ولا سهرُ  
بقربكمُ كادتِ الأحشاء تنفطرُ  
والغيم يبكي ومنه يضحك الزهرُ<sup>٥</sup>  
والدوّحُ يطربُ بالتصفيقِ والنهرُ  
لي فيه فهى لعمرى عندي العُمُرُ  
وقلّ ذاك له إن أعوزَ المطرُ

وحكى ابن سعيد وغيره أن غرناطة تسمى « دمشق الأندلس » لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأندلس ، وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار ، وقد أطلّ عليها جبل الثلج ، وفي ذلك يقول ابن جبّير صاحب الرحلة :

يا دمشق الغرب هاتي كـ لقد زدّت عليها  
تحنك الأنهار تجري وهي تنصب إلهاماً

قال ابن سعيد : أشار ابن جبّير إلى أن غرناطة في مكانٍ مشرفٍ وغوّطتها

- ١ في هامش طبعة ليدن أن هذه الأبيات في « درة الأسلاك » لابن حبيب مخطوطة ليدن رقم ٤٢٥ ص : ٢٦٠ ، ولم أطلع عليها وإنما أثبت الفروق التي وزدت في حاشية الطبعة المذكورة ، وهي كذلك في المقتطفات الورقة : ٢٦ ولكمال الدين الشريشي ترجمة موجزة في القوات ١ : ١٠٩ والشذرات ٦ : ٤٧ .
- ٢ في المقتطفات : بالنيرين .
- ٣ درة الأسلاك : والزهر .
- ٤ درة الأسلاك : سلفت .
- ٥ درة الأسلاك : يا سفع .
- ٦ دوزي : منهل .



تحتها تجري فيها الأنهار ، ودمشق في وَهْدَة تنصبُّ إليها الأنهار ، وقد قال  
الله تعالى في وصف الجنة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ انتهى .  
وقال الشيخ الصفدي في تذكروته : أنشدني المولى الفاضل البارع شمس الدين  
محمد بن يوسف بن عبد الله الحياط بقاعة الجبل من الديار المصرية حرسها الله تعالى  
لنفسه في شعبان المكرم سنة ١٧٣٢ :

قصدت مصرًا من رُبِّي جلتقِ بهمة تجري بتجريبي  
فلم أر الطرَّةَ حتى جرتْ دموع عيني بالمرزيب<sup>١</sup>  
وأنشدني لنفسه أيضاً :

خَلَفْتُ بِالشَّامِ حَبِيبِي وَقَدْ يَمَّتْ مِصرًا لِعِنَّا طَارِقِ  
وَالْأَرْضُ قَدْ طَالَتْ فَلَا تَبْعُدِي بِاللَّهِ يَا مِصرُ عَلَى الْعَاشِقِ<sup>٢</sup>  
وأنشدني لنفسه أيضاً :

يَا أَهْلَ مِصرٍ أَنْتُمْ لِلْعِلا كَوَاكِبُ الْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ  
لَوْ لَمْ تَكُونُوا لِي سَعُودًا لِمَا وَافَيْتُكُمْ أَضْرَبُ فِي الزَّمْلِ  
وذكرته برمته لحسن مغزاه .

وقال الشيخ مجد الدين محمد بن أحمد المعروف بابن الظهير الحنفي  
الإزيلي<sup>٣</sup> :

١ قد مر البيتان وكذلك التعريف بابن الحياط (راجع النفع ١ : ٩٦) .  
٢ في الأصول : بالمرزيبسي ، وقد غيرت في طبعة ليدن فجعلت « بالمرزيبسي » خلافاً لما أثبت  
به من قبل ج ١ ص : ٦٤ من الطبعة المذكورة ، وصححها المعلق في المستدركات إلى « المرزيب »  
وهو الصواب .  
٣ في أمثالنا العامية بفلسطين : « مصر على المشتاق ما هي بعيدة » ، وفي البيت تلميح إلى هذا المثل .  
٤ محمد بن أحمد بن عمر ابن الظهير الإزيلي (٦٧٧) شاعر من فقهاء الحنفية ولد بإربل وتنقل  
في البلاد وكانت وفاته بدمشق ، وهو صاحب مختصر أمثال الشريف الرضي (انظر القوات =

لعلّ سنّا بَرَقَ الحمى يتألقُ  
فلا نارُها تبدو لمرتببٍ ولا  
لعلّ الرياحَ الهوجَ تُدني لنازحِ  
ديارُ قضيّنا العيشَ فيها منعمًا  
سحبنا بها بُردَ الشبابِ وشربنا  
مواطنُ منها السهمُ سهمي وظلّه  
كلا<sup>٣</sup> جانبِيه معلّمٌ متجددٌ  
إذا الشمسُ حلتْ متنه فهو مُذهبٌ  
وإن فرجُ الأوراقِ جادت بنورها  
يُطلُّ عليه قاسيونُ كأنّه  
تسافرُ عنه الشمسُ قبلَ غروبها  
وتصفرُ من قبلِ الأصيلِ كأنّها  
وفي التيربِ الميمونُ للّبّ سالبٌ  
بدائع من صنع القديم ومحدثٌ  
رياض كوشِيّ البرودِ يشفّها<sup>٤</sup>  
فمينُ نرجسٍ يخشى فراقَ فريقه

- = ٢ : ٣٥٦ وذكر أن ديوان شعره في مجلدين وأخطأ في سنة وفاته إذ جعلها ٦٩٧ ؛ والوافي  
٢ : ١٢٣) وقصيدته هذه في الفوات وهي طويلة كثيراً ؛ والأبيات الواردة هنا موجودة في  
المقتطفات الورقة : ٢٦ .  
١ الفوات : مصفى مصفق .  
٢ الفوات : فكلنا نجب . . . ونعنعق .  
٣ في ج ق ودوزي : جلا ، والتصويب عن الفوات .  
٤ الفوات : المرموق .  
٥ الفوات : موقق .  
٦ في المطبوع : كوشي البرود ؛ وفي الفوات : رياض كوشي البرد تزهو بحسنها .

وَمِنْ كُلِّ رِيحَانٍ مُقِيمٍ وَزَائِرٍ  
 كَانَ قَدُودَ السَّرْوِ فِيهِ مَوَاسِمًا  
 إِذَا مَا تَدَلَّتْ لِلشَّقَائِقِ صَدَّهَا  
 وَقَصْرٌ يَكِيلُ الطَّرْفُ عَنْهُ كَأَنَّهُ  
 وَكَمْ جَدُولٌ جَارٍ يُطَارِدُ جَدُولًا  
 وَكَمْ بَرَكَةٌ فِيهَا تُضَاحِكُ بَرَكَةٌ  
 وَكَمْ مَنَزَلٌ يُعْشِي العَيُونَ كَأَنَّمَا  
 وَفِي الرَبْوَةِ الفِيحَاءُ<sup>٣</sup> لِلقَلْبِ جَازِبٌ  
 عَرُوسٌ جَلَاهَا الدَّهْرُ فَوْقَ مَنصَبَةٍ  
 فَهَامَ بِهَا الوَادِي فَفَاضَتْ عَيُونُهُ  
 تَكْفَلُ مِنْ دُونَ الجَدَاوِلِ شُرْبَهَا

وقال أبو تمام في دمشق<sup>٤</sup> :

لَوْلَا حَدَائِقُهَا وَأَنْتِي لَا أَرَى  
 وَأَرَى الزَّمَانَ غَدَا عَلَيْكَ بِوَجْهِهِ  
 قَدْ بَوْرِكَتْ تِلْكَ البَطُونُ وَقَدْ سَمَتْ

وقال البحرّي<sup>٥</sup> :

أَمَّا دِمَشْقُ فَقَدْ أَبَدْتُ مَحَاسِنَهَا      وَقَدْ وَفَى لَكَ مُطَرِّبُهَا بِمَا وَعَدَا

- ١ الفوات : تضاعف رياه الرياح .  
 ٢ الفوات : للماء في الماء يدفق .  
 ٣ الفوات : السماء .  
 ٤ ديوان أبي تمام ٢ : ٢٦٤ .  
 ٥ ديوان البحرّي ٢ : ٧١٠ والأبيات أيضاً في تاريخ دمشق ٢ : ١٧١ ومعجم البلدان مادة « دمشق » والأعلاق الخطيرة (دمشق : ٢٣٥) .

إذا أردت ملأت العين من بلد  
تمشي السحاب على أجالها فِرَقاً  
فلمست تبصر إلا واكفاً خضلاً  
كانت الفهظ ولتى بعد جيسته

وفي دمشق يقول بعضهم :

برزت دمشق لزاكري أوطانها  
لو أن إنساناً عمداً أن يرى  
من كل ناحية بوجه أزهر  
مغنى خلا من نزهة لم يقدر

وقال القيراطي في قصيدته التي أولها :

للصَّبِّ بعدك حالة لا تعجبُ

لله ليلٌ كالتَّهَارِ قطعته  
وركبتُ منه إلى التصابي أدهماً  
أيام لا ماء الحدود يشوبه  
كم في مجال اللهولي من جولة  
وأقمتُ للندماء سوقَ خلاعة  
وذكرتُ في مغنى دمشق معشراً  
لا يسألُ القُصَّادُ عن ناديمه  
قومٌ بحسن صفاتهم وفعلهم

بالوصل لا أخشى به ما يرهبُ  
من قبل أن يبدو لصبح أشهبُ  
كدر العذار ولا عذارى أشيبُ  
أضحت ترقصُ بالسماع وتطربُ  
تجسبي المجون إلى فيه وتجلبُ  
أمُّ الزمان يمثلهم لا تنجبُ  
لكن يدلُّهمُ الثناء الطيبُ  
قد جاء يعتذرُ الزمانُ المذنبُ

١ هو إبراهيم بن عبد الله الطائي برهان الدين القيراطي (٧٨١) ، شاعر قاهري جمع بين الفقه والأدب وتوفي بمكة ، وله ديوان مطبوع ساه « مطلع النيرين » وأبياته في المقتطفات ( الورقة : ٢٧ ) وبعض أبياته في نزهة الأنام : ٥٠ وحلقة الكميت : ٢٧٧ ( وترجمته في الدرر الكامنة ١ : ٣١ وشذرات الذهب ٦ : ٢٩٦ ) .

يا من حَرَانِ القَوادِ وطرفُهُ  
بدمشق أدمعهُ غَدَتُ تَتَحَلَّبُ  
أشتاقُ في وادي دمشق معهداً  
كلُّ الجمالِ إلى حماه يُنْسَبُ  
ما فيه إلا روضةٌ أو جَوْسِقُ  
أو جدولٌ أو بلبِلٌ أو رَبْرَبُ  
وكانَ ذاكَ النهرَ فيه معصمُ  
بيدِ النسيمِ مُنْقَشُ ومكْتَبُ  
وإذا تكَمَّرَ ماؤهُ أَبصرتهُ  
في الحالِ بينَ رياضِهِ يتشعَّبُ  
وشدتُ على العيدانِ ورُقُّ أطربتُ  
بغائثها مَنَ غابَ عنه المُطْرِبُ  
فالورقُ تشدُّ والنسيمُ مشبَّبُ  
والنهرُ يسقي والحدائقُ تشربُ  
وضياعها ضاعَ النسيمُ بها فكم  
أضحى له من بينِ روضِ مطْلِبُ  
وحلتْ بقلبي من عساكرِ جَنَّةِ  
فيها لأربابِ الخِلاعةِ ملعبُ  
ولكم رقصتُ على السماعِ بجنكها  
وغداً بربوتها اللسانُ يشبَّبُ  
فمتى أزورُ معالماً أبوابها  
بسامحها كُتِبَ السّماحُ تُبَوَّبُ

وقال الصّفيّ الحليّ عند نزوله بدمشق مسمطاً لقصيدة السموأل بالحماصة ١ :

قيحٌ بمن ضاقتُ عن الرّزقِ أرضهُ  
وطولُ القلّا رَحَبٌ لديه وعرضهُ  
ولم يُبَلِّ سربالَ الدجى فيه ركضهُ  
إذا المرءُ لم يدنّسْ من اللؤمِ عرضهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ

إذا المرءُ لم يحجبْ عن العينِ نومها  
ويغُلِّ من النفسِ النقيسةَ سَومها  
أضيقَ ولم تأمنْ معاليه لَومها  
وإن هو لم يحملْ على النفسِ ضميمها فليس إلى حُسنِ الثناء سبيلُ

١ ديوان الصّفيّ : ٣٦ ، والمخسة أيضاً في المقتطفات (الورقة : ٢٤) .

رَفَعْنَا عَلَى هَامِ السَّمَاءِ مَحَلَّنَا  
فَلَا مَلِكٌ إِلَّا تَعَشَاهُ ظَلَمْنَا  
لَقَدْ هَابَ جَيْشُ الْأَكْثَرِينَ أَقَلَّنَا  
وَلَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا شَبَابُ تَسَامَى لِلْعُلَا وَكَهُولُ

يُوَازِي الْجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ وَقَارُنَا  
وَتُبْنَى عَلَى هَامِ الْمَجْرَةِ دَارَنَا  
وَيَأْمَنُ مِنْ صَرْفِ الزَّمَانِ جَوَارَنَا  
وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

وَلَمَّا حَلَلْنَا الشَّامَ تَمَّتْ أُمُورُهُ  
لَنَا وَحَبَانَا مَلِكُهُ وَوَزِيرُهُ  
وَبِالنَّبِيرِ الْأَعْلَى الَّذِي عَزَّ طُورُهُ  
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُهُ مَنْ نَجِيحُهُ مَنِعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلٌ

يُرِيكَ الثَّرِيَا مِنْ خِلَالِ شَعَابِهِ  
وَتَحْدَقُ شُهْبُ الْأَفْقِ حَوْلَ هَضَابِهِ  
وَيَقْصُرُ خَطْوُ السُّحْبِ دُونَ ارْتِكَابِهِ  
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ إِلَى النُّجْمِ فَرَعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلٌ

وَقَصِرَ عَلَى الشُّقْرَاءِ قَدْ فَاضَ نَهْرُهُ  
وَفَاقَ عَلَى فَخْرِ الْكَوَاكِبِ فَخْرُهُ  
وَقَدْ شَاعَ مَا بَيْنَ الْبَرِيَّةِ شُكْرُهُ  
هُوَ الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ الَّذِي سَارَ ذَكَرَهُ يَعِزُّ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَيَطُولُ

إذا ما غَضَبْنَا في رضا المجدِ غَضَبَةً  
لندركَ ثأراً أو لنبلغَ رتبةً  
نزيد غداةَ الكرِّ في الموتِ رغبةً

وإنا لَقَوْمٌ لا نرى الموتَ سُبَّةً إذا ما رأته عامراً وسلول

وكتب الشيخ محب الدين الحموي في ترجمة الشيخ<sup>١</sup> إسماعيل النابلسي شيخ  
الإسلام من مصر<sup>٢</sup> :

لواء التّهاني بالمسرةً يَخْفِقُ  
وسعدٌ وإقبالٌ ومجدٌ مخيمٌ  
فيا أيها المولى الذي جلَّ قدرُهُ  
أرى الشامَ مذ فارقتها زال نورها  
إذا غبتَ عنها غابَ عنها جمالُها  
وإن عُدتَ فيها عاد فيها كمالُها  
فيا ساكني وادي دمشقَ مزارُكمُ  
وليس على هذا النوى لي طاقةٌ  
وإني إلى أخبارِكمُ متشوّفٌ  
أودُّ إذا هبَّ النسيمُ لنحوكمُ  
وأصبو لذكراكمُ إذا هبتَ الصبَا

وشمسُ المعالي في سما الفضلِ تُشرقُ  
وأيامٌ عززَ بالوفا تتخلقُ  
ويا أيها الخبرُ اللبيبُ المدققُ  
وثوبُ بهاها والنضارةِ يخلقُ  
ونفسٌ بدونِ الروحِ لا تتحققُ  
وصارَ عليها من بهائكِ رونقُ  
بعيدٌ وبابُ الوصلِ دوني مغلقُ  
فهل من قيودِ البينِ والبعدِ أطلقُ  
وإني إلى لقيائكمُ متشوّقُ  
بأني في أذباله أتعلقُ  
لعلّي من أخباركمُ أتنتقُ

١ ق : ترجمة للشيخ ، وسقطت « في » من ق ج .

٢ هو إسماعيل بن أحمد ابن الحاج إبراهيم النابلسي (٩٣٧ - ٩٩٣) شيخ الإسلام ، وصاحب  
الفتاوى وصدر دمشق في عصره (انظر ترجمته في الكواكب السائرة ٣ : ١٣٠) . وأما  
محب الدين الحموي فهو محمد بن تقي الدين أبي بكر ابن داود بن عبد الرحمن بن عبد الخالق  
المحبي (٩٥١ - ١٠١٦) ، وهو صاحب تزييل الآيات على الشواهد من الأبيات المعروف  
بشواهد الكشاف وغيره من المؤلفات (خلاصة الأثر ٣ : ٣٢٢) .

ونازُ جَوَى من حرّها أنفلتُ  
 إذا مَسَهُ ذيلُ الهوى يشترقُ  
 ولكنّ قلبي بالشّامِ معلقُ  
 غبارِ ثرى أعتابِ وصلٍ بمحقّ  
 وفيها عيونُ الرّجسِ الغضّ تحديقُ  
 وما مَعينِ حولها يتدفّقُ  
 وهل عائدُ ذاكِ النعيمِ المروقُ  
 وفي صحنهِ تلكِ الحلاوةُ تُشرقُ  
 ونورُ مُحَيّا وجههم يتألّقُ  
 وعزّي ومجدي شأوهُ ليس يُلحِقُ

ولي أنة أودتُ بجسمي ولوعةُ  
 فحنوا على المصنّى الذي ثوبُ صبره  
 غربُ بأقصى مصرَ أضحت ديارهُ  
 وقد نسخَ التبريحُ جسمي فهل إلى  
 فيا ليت شعري هل أفوزُ بروضةِ  
 وأنظرُ واديها وآوي لربوةِ  
 ويحلوني العيشُ الذي مرّ صفوهُ  
 وأنظرُ ذاكِ الجامعِ الفردَ مرةً  
 وأصحابنا فيه نجومُ زواهرُ  
 فلا برحوا في نعمةِ وسعادةِ

وقال ابن عنين ١ :

وعليهم لو ساعدوني ٢ بالكرى  
 والله يعلم أن ذلك مُفترى  
 إلا لما نفل العذول ٣ وزورا  
 وأتيت في حبّيك شيئا منكرا  
 يا هاجري ما آن لي أن تغفرا  
 حسبُ الحبّ عقوبةٌ أن يُهجرا  
 لو كان لي في الحبّ أن أنخيرا  
 متواصلُ الأرقام ٤ منقسمُ العرى

ماذا على طيّفِ الأحبة لو سرى  
 جنحوا إلى قولِ الوشاة وأعرضوا  
 يا معرضاً عني بغيرِ جنابةِ  
 هني أسأتُ كما تقولُ وتفترى  
 ما بعدَ بعدك والصدودِ عقوبةُ  
 لا تجمعن عليّ عتبك والنوى  
 عبء الصدودِ أخفُ من عبء النوى  
 فسقى دمشقَ ووادييها والحمى

١ ديوان ابن عنين : ٣ وهي في ملح الملك العادل بن أيوب .

٢ الديوان : ساهوني .

٣ الديوان : رقص الحسود .

٤ الديوان : الأرعاد .



حتى ترى وجهَ الرياضِ بعارضٍ  
 تلكَ المنازلُ لا ملاعبُ عالِجِ  
 أرضٌ إذا مرَّتْ بها رِيحُ الصَّبَا  
 فارقَتْها لا عن رِضاً وهجرْتُها  
 أسعى لرِزقٍ في البلادِ مُشْتَتِ  
 أحوى وفودَ الدَّوْحِ أزهَرَ نيراً  
 ورمالُ كاظمةٍ ولا وادي القرى  
 حمَلتْ على الأغصانِ مسكاً أذفراً  
 لا عن قِلَى ورحلتُ لا متخيِّراً  
 ومن العجائبِ أن يكونَ مقتراً

\* \* \*

[ تعريف بابن عنين ]

وابن عنين المذكور كان هجاء ، وهو صاحب «مقراض الأعراض»  
 تجاوز الله تعالى عنه ، فمن ذلك قوله ٢ :

أرح من نزع ماء البئر يوماً  
 مِر القاضي بوضع يديه فيه  
 فقد أفضى إلى تعبٍ وعي  
 وقد أضحي كراسِ الدَّولعي

يعني أفرع ؛ وسببُ قوله البيتين أن المعظم أمر بنزع ماء بقلعة دمشق ،  
 فأعياهم ذلك .

ومن هجوه قوله ٣ :

شكا شعري إلي وقال تهجو  
 فقلت له تسأل فرُبَّ نجم  
 بمثلي عرضَ ذا الكلبِ اللثيم  
 هوى في إثر شيطانٍ رجيم

وقال فيمن خرج حاجاً فسقط عن الهجين فتخلف :

إذا ما ذمَّ فعلُ النُّوقِ يوماً  
 فإني شاكراً فعلَ النياقِ

١ الديوان : مفرق ، ومن البلية .

٢ ديوانه : ٢٣٥ .

٣ وردت هذه المقطعات في ديوانه : ١٨٨ ، ٢٢٧ ، ٢١٥ ، ٢٣٥ ، ١٧٩ ، ٦٩ .

أرادَ الله بالحُجَّاجِ خيراً فبِطَ عنهم أهلَ النفاقِ

وقال :

وراحلِ سِرْتُ في ركبِ أودَعُهُ      تباركَ اللهُ ما أحلى تلاجِينا  
جئنا إلى بابِهِ لاجينَ نسالُهُ      فليتنا عاقنا موتٌ ولا جينا  
راجينَ نسالُ مَيْتاً لا حراكَ به      مثلَ النصارى إلى الأصنامِ لاجينا

وقال :

وصلتُ منك رقةً أسأمتني      صيرتُ صبري الجميلَ قليلاً  
كنهارِ الصيفِ حرّاً وكرباً      وكليلِ الشتاءِ برّداً وطولاً

وأول «مقراض الأعراض» قوله :

أضالعٌ تنطوي على كَرْبِ      ومقلّةٌ مستهلةٌ الغربِ  
شوقاً إلى ساكني دمشقَ فلا      عدتُ رُباهَا مواطرُ السُحبِ  
مواطنٌ ما دعا توطنها      إلا ولبّي نداءها لبّي

ثمّ ذكر من الهجو ما تصمّ عنه الأذان .

وهو القائل في دمشق :

ألا ليت شعري هل أبيتَ ليلةً      وظلّك يا مقرّي عليّ ظليلُ  
وهل أرينّي بعدما شطتِ النوى      ولي في ذرّاً روضِ هناك مقبيلُ

ومنها :

دمشقُ بنا شوقٌ إليكِ مبرّحٌ      وإن لَجَّ واشٍ أو ألحَّ عنولُ

الديوان : ما أشقى المساكنة

بلادُ بها الحصباءُ دُرٌّ ، وتربُّها عيرٌ ، وأنفاسُ الشَّمالِ شَمُولُ  
تسلسلَ فيها ماؤها وهو مطلقٌ وصحَّ نسيمُ الروضِ وهو عليل

وقد تقدم التمثيل بهذه الأبيات الثلاثة في خطبة هذا الكتاب .

ومن هذه القصيدة :

وكيفَ أخافُ الفقرَ أو أحرَمُ الغنى ورأيتُ ظهيرَ الدينَ فيَّ جميلُ  
منَ القومِ أمّا أحنفُ فمُسْفَهٌ لديهم ، وأمّا حاتمٌ فبخيلُ  
ففي المجدِ أما جارهُ فمَمْنَعٌ عزيزٌ ، وأمّا ضِدّهُ فذليلُ  
وأما عطايا كفه فمباحةٌ حلالٌ<sup>١</sup> ، وأمّا ظلّه فظليلُ

وظهير الدين الممدوح هو طُغْتِكِين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين ،  
وكان ملك اليمن ، وأحسن إلى ابن عنين إحساناً كثيراً وافراً ، وخرج ابن  
عنين من اليمن بمال جم ، وطُغْتِكِين : بضم الطاء المهملة ، وبعدها غين معجمة ،  
ثم تاء مثناة من فوقها مكسورة ، ثم كاف مكسورة أيضاً ، ثم ياء تحتية ، ثم  
نون ، وكان يلقب بالملك العزيز ، ولذلك قال ابن عنين لما رجع من عنده إلى  
مصر أيام العزيز عثمان بن صلاح الدين فألزم أرباب الديوان ابن عنين بدفع  
الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته<sup>٢</sup> :

ما كلُّ من يتَسَمَّى بالعزيزِ له أهلٌ وما كلُّ بَرِّقٍ سَحْبُه غَدَقَه  
بينَ العزيزينِ بَنُونٌ في فعَالهما هذاك يُعطي وهذا يأخذُ الصَّدَقَه<sup>٣</sup>

ومن هجو ابن عنين قوله في فقيهين يلقَّب أحدهما بالبغل والآخر  
بالحاموس<sup>٣</sup> :

١ الديوان : فسوانغ عذاب .

٢ ديوانه : ٢٢٣ .

٣ ديوانه : ٢٠٥ .

البغلُ والجاموسُ في حالَيْهِمَا      قد أصبحا مثلاً لكلِّ مُناظِرِ  
 قعداً عشيّةَ يومنا فتناظرا      هذا بقَرْنِهِ وذا بالخافرِ  
 ما أحكما غيرَ الصياحِ كأنّما      لقنا جدالَ المرتضى بنِ عساكرِ  
 جلفانٍ ما لهما شبيهٌ ثالثٌ      إلا رَقَاعَةٌ مَدْلُوبِهِ الشاعرِ  
 لَمَقْظٌ طويلٌ تحتَ معنَى قاصرِ      كالعقلِ في عبدِ اللطيفِ الناظرِ

رجع إلى دمشق :

وقال العز الموصلي :

إليك حياضَ حماماتِ مصرِ      ولا تتكثري عندي بمِمينِ  
 حياضُ الشامِ أحلى منك ماءً      وأظهرُ وهي دونَ القلّتينِ

وهذان البيتان جوابٌ منه عن قول ابن نباتة ٢ :

أحواضُ ٣ حمامِ الشّامِ      مِ ألا اسمعي لي كلمتينِ  
 لا تذكرِ أحواضَ مصرِ      مرَ فأنتِ دونَ القلّتينِ

وأما قول النّواجي ساعه الله تعالى :

مصرُ قالت : دمشقُ لا      تَفْتَحِرُ قَطُّ باسمِها  
 لو رأَتْ قوسَ روضتي      منه راحَتِ بسهمِها

فهو من باب تفضيل الوطن من حبه ، ومنه قول الوداعي :

روِّ بمصرِ وبسكانِها      شوقي وجدّدْ عهدِي الخالي

١ الديوان : برزا .

٢ ديوان ابن نباتة : ٥٣٧ ، ومطالع البدر ٢ : ١٢ .

٣ الديوان : أجران .

وارو لنا يا سعدُ عن نيلها      حديث صفوان بن عسالِ  
فهو مُرادِي لا «يزيد» ولا      «ثور» وإن رقًا ورقًا لي

ومن ذلك النمط قول الشهاب الحجازي :

قالوا دمشقٌ قد زهتْ لزهرها      فامضِ وشاهدْ جَوَزَهَا ولوزَهَا  
فقلتُ لا أُبدِلُ بلدي بها      ولستُ أرضي زهرها ولَوَزَهَا

وقول الآخر :

قد قالَ وادي جِلْتِ للنيلِ إذ      كسروه أعينُ جبهتي لك تُرْفَعُ  
فأجابَ بحرُ النيلِ لما أن طغى      عندي مقابلُ كلِّ عينٍ لِاصْبِعُ

وقد تذكرت هنا قول بعضهم :

ماذا يفيدُ المعنى      من الأذى المتتابعِ  
بمصرَ ذات الأيادي      ونيلها ذي الأصابعِ

وقد شاع الخلافُ قديمًا وحديثًا في المفاضلة بين مصر والشام ، وقد قال

بعضهم :

في حلبٍ وشامينا      ومصرَ طالَ اللَّغَطُ  
فقلتُ قولَ منصفٍ      خيرُ الأمورِ الوسطُ

\* \* \*

١ زاد في التجارية بعد هذا البيت : وقول الحفاجي قاضي مصر ، وإن لم يكن في دمشق لكن في  
السياق في النظم :

قد فتن العاشقين حين بدا      بطلمة كالهلال أبرزها  
طر له شارب على شفة      كالورد في الآس حين طرزها  
رنا ساقط من قج ودوزي .

[ شعر في ذم دمشق ]

وأما قول بعضهم :

تَجَنَّبَ دِمَشْقَ وَلَا تَأْتَهَا وَإِنْ رَأَيْتَ الْجَامِعَ الْجَامِعُ  
فَسُوقُ الْفُسُوقِ بِهَا قَائِمٌ وَفَجْرُ الْفُجُورِ بِهَا طَالِعُ

فلا يُلصقُ إليه ، ولا يعولُ عليه ، إذ هو مجرد دعوى خالية عن الدليل ،  
وهي من نزعات بعض المهجائين الذين يعتمدون إلى تقييح الحسن الجميل  
[ الجليل ] :

وما زالت الأشراف تُهنجى وتمدح

ولا يقابل ألف مثنى عدل بفاسق يقدح :

وفي تعبٍ من يحسد الشمس نورها ويأملُ أن يأتي لها بضربٍ

وأخفٌ من هذا قول بعض الأندلسيين ، وهو الكاتب أبو بكر محمد بن

قاسم :

دِمَشْقُ جَنَّةُ الدُّنْيَا حَقِيقًا وَلَكِنْ لَيْسَ تَصْلُحُ لِلغَرِيبِ  
بِهَا قَوْمٌ لَهُمْ عَدَدٌ وَمَجْدٌ وَصَحْبَتُهُمْ تَوُولُ إِلَى الْحُرُوبِ  
تَرَى أَنهَارَهُمْ ذَاتَ ابْتِسَامٍ وَأَوْجُهُهُمْ تَوَلَّعُ بِالْقَطُوبِ  
أَقَمْتُ بَدَارَهُمْ سِتِينَ يَوْمًا فَلَمْ أَظْفَرُ بِهَا بِفِتَى أَدِيبِ

والجواب واحد ، ولا يضر الحق الثابت إنكارُ الجاحد ، وأخفٌ من

الجميع قول العارف بالله تعالى سيدي عمر بن الفارض رضي الله تعالى عنه :

جَلِقْتُ جَنَّةً مِنْ تَاهِ وَبَاهِي وَرُبَاهَا أَرَبِي لَوْلَا وَبَاهَا

قَالَ غَالٍ : بَرْدَى كَوَثْرُهَا قَلْتُ : غَالٍ بَرْدَاهَا بَرْدَاهَا

وطني مصرُ وفيها وطّري ولنفسي مُشتهها مُشتهها  
ولعيني غيرها إن سكنتُ يا خليليِّ سلاها ما سلاها

وأخفُّ منه قول ابن عبد الظاهر :

لا تلوموا دمشقَ إن جثتموها فهي قد أوضحتْ لكم ما لديها  
إنها في الوجوهِ تضحكُ بالزَّهْ وتراها بالثلجِ تبصقُ في الح  
يةِ منْ مرَّ في الشتاءِ عليَّها

وقول ابن نُبّانة وهو بالشام يشوق إلى المقياس والنيل<sup>١</sup> :

أرقُّ له بالشام نيلٌ مدامعٍ يُجره ذكُرُ منازلِ المقياسِ  
سقياً لمصرَ منازلًا معمورةً بنجومِ أفاقٍ أو ظباءِ كناسِ  
وطني سهرتُ له وشابتُ لِمَتي ونعمَ على عيني هواه وراسي  
من لي به والحالُ ليس بآيسٍ كدِرٍ وعِطْفُ الدهرِ ليس بقاسي  
والطرفُ يستجلي غزالاً آسأً بالنيلِ لم يعتدُّ على باناسِ

رجع إلى مدح دمشق :

وقال الناصر داود بن المعظم عيسى<sup>٢</sup> :

إذا عاينتُ عينايَ أعلامَ جِلَّتِي وبانَ من القَصْرِ المشيدِ قبأه  
تَيَقَّنْتُ أَنَّ البينَ قَدُ بانَ والنوى نأى شخصهُ والعيش عاد شبابهُ

١ ديوان ابن نُبّانة : ٢٦٤ - ٢٦٥ .

٢ هو صاحب الكرك (٦٠٣ - ٦٥٦) ، تغلب على الشام بعد موت عمه الكامل محمد ، ووقعت له أحداث كثيرة منشورة في كتب التاريخ كالنجوم الزاهرة ومرآة الزمان وغيرها ؛ (انظر ترجمته في الفوات ١ : ٣٨٢ والنجوم ٧ : ٦١ والشذرات ٥ : ٢٧٥) وله قطعة صالحة من شعر ونثر في المقتطفات (الورقة : ٦٢ وما بعدها) ؛ وهذان البيتان في النجوم والفوات والمقتطفات .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

يا راكباً من أعالي الشّام يجذبهُ  
حدّثني عن ربوعٍ طالما قضيتُ  
لدى رياضٍ سقاها المزنُ ديمتهُ  
شَحّ الندى أن يسقيها مُجاجةهُ  
بكتٍ عليها الغواذي وهي ضاحكةُ  
يا حُسنتها حينَ زانتها جواسقُها  
فهي السماءُ اخضراراً في جوانبها  
حدّثني وأنا الظامي إلى نبيّ  
فهو الزلالُ الذي طابتُ مشاربُهُ  
كرّرَ على نازحٍ شَطَّ المزارُ به  
وعلّلَ النفسَ عنهم بالحديثِ بهم

إلى العراقيين إدلاجٌ وإسحارُ  
لنفسٍ فيها لباناتٌ وأوطار  
وزانها زهرٌ غضٌّ ونوار  
فجادها مُفعمُ الشؤبوبِ مدرار  
وراحتِ الریحُ فيها وهي معطار  
وأينعتُ في أعالي اللوحِ أثمار  
كواكبُ زهرٌ تبدو وأقمار  
لا فُضَّ فوقَ فمِنِّي الريّ تمار  
وفارقتُهُ غُشاءاتٌ وأكدار  
حديثك العذب لا شطّت بك الدار  
إنّ الحديثَ عن الأحبابِ أسمار

وهذا الملك الناصر له ترجمة كبيرة ، وهو ممن أدركته الحرفة الأدبية ،  
ومنع حقه بالحمية والعصية ، وأنكرت حقوقه ، وأظهر عقوقه ، حتى قضى  
نُجبه ، ولقي ربه .

رجع :

وقال سيف الدين المشد رحمه الله تعالى :

بُشرى لأهل الهوى عاشوا به سعداً وإن يموتوا فهُمْ مِنْ جَمَلَةِ الشَّهِدَا

١ هو علي بن عمر بن قزل بن جلدك التركماني (٦٠٢ - ٦٥٦) وهو نسيب جمال الدين بن  
يضمور الذي اتصل به ابن سعيد ؛ وكان يتولى شد الدواوين (أي كان رفيقاً للوزير متحدثاً في  
استخلاص الأموال وما في معنى ذلك) وكان ظريفاً طيب العشرة (انظر ترجمته في الفوات  
٢ : ١٢٨ والنجوم الزاهرة ٧ : ٦٤) .



أَنَّ الضَّلَالَةَ فِيهِمْ فِي الْغَرَامِ هُدَى  
عَبَّرَى وَأَنْفَاسُهُمْ تَحْتَ الدُّجَى صُعْدَا  
ظَلُّوا سَكَارَى وَظَنُّوا غَيَّهُمْ رَشَدَا  
كَالْغَصَنِ لَمَّا انْتَهَى وَالْبَدْرِ حِينَ بَدَا  
يَأْوِي إِلَيْهِ فَكَمْ فِي حُبِّهِ شُهَدَا  
وَالغَيْثُ يَنْزِلُ مَنْحَلًّا وَمُنْعَقِدَا  
أَهْدَتْ إِلَى الْغُورِ مِنْ أَزْهَارِهَا مَدَدَا  
«ثُورًا» وَيَعْقِدُ مَحْلُولَ النَّدى «بَرَدَا»

شِعَارُهُمْ رِقَّةُ الشُّكُوى وَمَذْهَبُهُمْ  
عَيُونُهُمْ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ سَاهِرَةٌ  
تَجَرَّعُوا كَأْسَ خَمْرِ الْحَبِّ مُتْرَعَةً  
وَعَاسِلِ الْقَدِّ مَعْسُولِ مُقْبَلَةً  
رَقِيمٌ عَارِضِهِ كَهْفٌ لِعَاشِقِهِ  
نَادِمَتُهُ وَتُغُورُ الْبَرْقِ بِاسْمَةٍ  
كَأَنَّ جَلَّتْ حَيَاةَ اللَّهِ سَاكِنَهَا  
فَاسْتَرْسَلَ الْجَوْدُ مِنْهَا «يَزِيدُ» عَلَى

وقال أيضاً :

وَدَمْعِي عَلَى أَنْهَارِهَا يَتَحَدَّرُ  
وَتَهْتَرُنِي أَعْصَانُهُ وَهَوَّ مِثْرُ  
إِذَا مَا بَدَا مِثْلَ الدَّرَاهِمِ يُنْثَرُ  
فَتَرْهَوُ جَمَالًا عِنْدَ ذَاكَ وَتَرْهَرُ  
وَحَصْبَاءَهُ سَيْفٌ صَقِيلٌ مَجْوَهَرُ  
يَسَامِحُ قَلْبِي فِي هَوَاهُ وَيَعْذَرُ  
وَكَيفَ أُطِيقُ الصَّبْرَ وَالطَّرْفُ أَحْوَرُ  
فَأَنْظَرُ مَعْنَاهُ بِهِ وَهُوَ أَنْضَرُ  
عَلَى أَنَّ مَيْدَانَ الْعَوَارِضِ أَخْضَرُ

فَوَادِي إِلَى بَانَاتِ جَلَّتْ مَائِلُ  
يُرْتَحِنِي لَوْزُ ابْنِ كَلَّابِ مَزْهَرًا  
وَلِنْتِي إِلَى زَهْرِ السَّفْرِجَلِ شَيْقُ  
غِيَاضُ يَفِيضُ الْمَاءُ فِي عَرَصَاتِهَا  
تَرَى بَرَدَى فِيهَا يَجُولُ كَأَنَّهُ  
وَبِي أَحْوَرُ لَاحَ الْعَذَارُ بِخَدِهِ  
يَحَاوِرُنِي فِيهِ عَلَى الصَّبْرِ صَاحِبِي  
إِذَا اشْتَقْتُ وَادِي النِّيرَبَيْنِ لِمَحْتِهِ  
حَوَى الشَّرْفَ الْأَعْلَى مِنَ الْحَسَنِ خَدَّهُ

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

وَإِدِي بِهِ أَهْلُ الْحَبِيبِ نَزُولُ  
وَإِدِي يَفُوحُ الْمَسْكُ مِنْ جَنَابَاتِهِ  
يَشْتَاقُهُ وَيُودُّ لَثْمَ تَرَابِهِ  
حَيَاةَ مَعَاهِدَةٍ الْحَيَا وَالنَّيْلُ  
وَيَصْحُ فِيهِ لِلنَّسِيمِ عَليْلِ  
شَوْقًا وَلَكِنْ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

متقلقلُ الأحشاء مسلوبُ الكرى  
يَصْبِرُ إلى الأثلاثِ من وادي الغضى  
قالوا تبدّلْ ، قلتُ يا أهلَ الهوى  
هل بعدَ قطعِ الأربعينَ مسافةً  
ولقد هفا بي في دمشقَ مهفهفٌ  
يهترُ إن مرَّ التَّسيمُ بقده  
أبدى لنا برداً تبسمُ ثغره  
لزمَ التسلسلَ مدمعي وعدارهُ  
وسقمتُ من سقمِ الجفونِ لأنّها  
لا تعجبوا إن راغني بدوائبِ  
ما صحَّ لي أنَّ الذُّوبةَ حيّةٌ

وقال ناظر الجيش عون الدين بن العجمي<sup>١</sup> :

يا سائقاً يقطعُ البيداءَ معتسفاً  
إن جُرّتْ بالشامِ شمِ تلك البروقِ ولا  
واقصِدْ أعالي قلايه فإنّ بها  
من كلِّ بيضاءِ هيفاءِ القوامِ إذا  
وكلُّ أسمرٍ قد دانَ الجمالُ له  
وربُّ صدغٍ بدا في خدِّ مرسلِهِ

بضامرٍ لم يكنْ في سيره وآني  
تعدّلْ بلَغَتِ المني عن ديرِ مرّانِ  
ما تشتهي النفسُ من حورٍ وولدانِ  
ماست فواخجَلُ<sup>٢</sup> المرّانِ والبانِ  
وكمّلَ الحسنَ فيه فرطُ إحسانِ  
في فترةٍ فتنتُ من سحرِ أجفانِ

١ هو سليمان بن عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن عون الدين بن العجمي الكاتب (٦٠٦ - ٦٥٦). خدم الملك الناصر داود ، وكان كامل الرئاسة لطيف الشائل (انظر ترجمته في الفوات ١ : ٣٥٨ ومعجم الألقاب ٢/٤ : ٩٧٧ وله ترجمة في الوافي والمنهل الصافي).  
والقصيدة التي أوردها المقرئ موجودة في الفوات : ٣٥٩ .  
٢ الفوات : فيا خجلة .

فليْتَ ريقتهُ ورِدِي ووجنتهُ  
 وعُج على دبر متي ثم حي به ال  
 فهت منه لإشارات فهت بها  
 واعبر بدبر حنينا وانتهز فدرص ال  
 واستجل راحاً بها تحيا النفوس إذا  
 حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت  
 كم رحت في الليل أسقيها وأشربها  
 سألتُ توماسَ عمّن كان عاصرها  
 وقال : أخبرني شمعونُ ينقلهُ  
 بأنها سفرت بالطورِ مشرقةً  
 وهي المدامُ التي كانت معتقةً  
 وهي التي عبدتها فارسٌ فكنتي  
 سكرتُ منها فلا صحوً وجدتُ بها  
 وسوف أمنحها أهلاً وأنشده  
 حتى تميل لها أعظافه طرباً

وهذه وإن لم تكن في دمشق على الخصوص فلا تخرج عما نحن بصدده ،  
 والأعمال بالنيات ، وديباجة هذه القصيدة على نسج طائفة من الصوفية ، ومن  
 حاك هذه البرود الشيخ الأكبر رحمه الله تعالى ، وقيل : إنه الشيخ شعبان  
 النحوي .

رجع :

وقال بعضهم :

شوقي يزيدُ وقلبُ الصبِّ ما برداً وبانَ يَاسي منَ المعشوقِ حينَ غدا

وَمَدَّمَعِي قَنَوَاتٌ، وَالْعَدُولُ حَكِي  
عَلَى مُغْنِيَةِ بِالْحُنُكِ جَاوِيهَا  
ثَوْرًا ، يَلُومُ الْفَتَى فِي عَشْقِهِ حَسَدًا  
وَحَلِيهَا مَاتَ فِي خَلْخَالِهَا كَمَا

ولنذكر نبذة مما خوطبتُ به من علماء الشام وأدبائه حفظ الله تعالى  
كأهلهم ، وبلغ آمالهم .

فمن ذلك قول شيخ الإسلام ، مفتي الأنام ، سيدي الشيخ عبد الرحمن  
العمادي الحنفي<sup>١</sup> حفظه الله تعالى ، وكتبه لي بخطه :

شمس الهدى <sup>٢</sup> أطلعتها المغرب	وطار عتقاء بها مغرب
فأشرقت في الشام أنوارها	وليتها في الدهر لا تغرب <sup>٣</sup>
أعني الإمام العالم المقرري	أحمد من يكتب أو يخطب
شهاب علم ثاقب فضله	ينظم عقداً وهو لا ينقب
فرع علوم بالهدى مثمر	وروض فضل بالندى معشب
قد ارتدى ثوب علا وامتطى	غارب مجد فزها المركب
درس غريب كل يوم له	يملى ولكن حفظه أغرب
محاضرات مسكر لفظها	بكأس سمع راحها تشرب
رياض آداب سقاها الحيا	ففاح مسكاً نشرها الأطيب
فضائل عمت وطمت فقد	قصر فيها كل من يطنب
قلوبنا قد جذبت نحوه	والحب من عاداته يجذب
إن بعدت عن غربه شرقنا	فالفضل فينا نسب أقرب

١ قد مر التعريف بعبد الرحمن العمادي ، انظر ١ : ٦٢ .

٢ ج : شمس هدى .

٣ سقط البيت من ج .

٤ ج : نطقها .

كَمْ طَلَبْتُ تَشْرِيفَهُ شَامِنَا  
 قَدْ سَبَقَتْ لِي مَعَهُ صَحْبَةٌ  
 أَخْوَةٌ فِي اللَّهِ مِنْ زَمَزَمِ  
 أَهْلِي ثُمَّ وَدَادًا فَلِي  
 أَهْدَيْتُ ذَا النِّظْمِ امْتِثَالًا لَهُ  
 نَشِطَ قَلْبِي لَطْفُهُ فَانْتَبَهْتُ  
 ضَاءَ دُجَى الْعِلْمِ بِهِ لِلْوَرَى

تحيّة الفقير الداعي ، عبد الرحمن العمادي ، انتهى .

وأجبتّه بما نصّه :

مَا تَبَرُّرُ رَاحٍ كَأَسْهَأِ مُذْهَبُ  
 تُسْتَدْفَعُ الْأَكْدَارُ مِنْ صَفْوِهَا  
 تَسْمَى بِهَا هَيْفَاءُ مِنْ ثَغْرِهَا  
 فَتَانَةُ الْأَعْطَافِ نَقَاتَةٌ  
 فِي رَوْضَةٍ قَدْ كَلَلَتْ بِالنَّدَى  
 بُرُودَهَا بِالنُّورِ قَدْ نُمِنَتْ  
 وَالْمَاءُ يَجْرِي تَحْتَ جَنَاتِهَا  
 وَالظَّلُّ ضَافٍ وَالنَّسِيمُ انْبَرَى  
 وَالطَيْرُ لِلْعِشَاقِ بِالْعُودِ قَدْ  
 أَبْهَى وَلَا أَبْهَجَ فِي مَنْظَرِ  
 مُفْتِي دِمَشْقِ الشَّامِ صَدْرُ الْوَرَى  
 عَلَامَةُ الدَّهْرِ وَلَا مَرِيَّةُ

مَا لِلنُّهَى عَنْ حُسْنِهَا مَذْهَبُ  
 وَتَنْهَلُ الْأَفْرَاحُ أَوْ تَنْهَبُ  
 أَوْ شَعْرُهَا النَّوْرُ أَوْ الْغَيْهَبُ  
 سِحْرًا بِالنَّبَابِ الْوَرَى يَلْعَبُ  
 وَالزَّهْرُ رَأْسَ الْغَضَنِ إِذْ يُعْصَبُ  
 كَالْوَشْيِ مِنْ صِنْعَاءِ بَلِّ أَعْجَبُ  
 وَالنَّارُ مِنْ نَارِنِجْمَا تُلْهَبُ  
 وَالْجَوْ ذَاكِي الْعَرَفِ مُسْتَعْدَبُ  
 غَنَتْ فَهَاجَتْ شَوْقَ مَنْ يَطْرُبُ  
 مِنْ نِظْمِ مَنْ تَقْدِيمُهُ الْأَصْوَبُ  
 مَنْ فِي الْعُلَا تَمَّ بِهِ الْمَطْلَبُ  
 وَمَلَجَأُ الْفَضْلِ وَلَا مَهْرَبُ

أ ج : تشریفه .

الله ما امتاز به من حلى  
 أبدى بها الرحمن في عبده  
 جود بلا من وعلم بلا  
 وبيت مجد مسند ركنه  
 فبرقه الشامي من شامه  
 وما عسى أبدية في مدحه  
 تسابقوا للمجد حتى حووا  
 أعيدهم بالله من شر ما  
 وأسأل الله لهم عزة

بغير من الله لا تكسب  
 مظاهر المنع التي تحسب  
 دعوى به التحقيق يستجلب  
 إلى عماد الدين إذ ينسب  
 نال مراماً والسوى خلّب  
 أو وصف أبناء له أنجبوا  
 سبقاً لما في مثله يرغب  
 يخشني من الأغيار أو يرهب  
 بادية الأضواء لا تحجب

ولما حلت دمشق المحروسة ، وطلبت موضعاً للسكنى يكون قريباً من  
 الجامع الأموي الذي يُعجز البليغ وصفه وإن ملاً طُروسه ، أرسل إليّ أديب الشام  
 فرد الموالى المدرسين صاحب أذيان الفخار<sup>١</sup> المولى أحمد الشاهيني<sup>٢</sup> حفظه الله  
 تعالى بمفتاح المدرسة الحَقْمَقِيَّة ، وكتب لي معه ما نصّه<sup>٣</sup> :

كَنَفُ الْمُقَرِّي شَيْخِي مُقَرِّي  
 كَنَفٌ مِثْلُ صَدْرِهِ فِي اتِّسَاعِ  
 أَيُّ بَدْرِ قَدْ أَطْلَعَ الْغَرْبُ مِنْهُ  
 أَحْمَدُ سَيْدِي وَشَيْخِي وَذُخْرِي

وإليه من الزمان مقري  
 وعلوم كالدرّ في ضمن بحر  
 ملاً الشرق نوره أي بدر؟  
 وسمي وفوق ذلك وفخري<sup>٦</sup>

١ ج : الفخر .

٢ قد مر التمرّيف بأحمد الشاهيني ، انظر ١ : ٦٤ .

٣ الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٤ .

٤ ج ق : شيخ مقري .

٥ خلاصة الأثر : كالبحر .

٦ خلاصة الأثر : وسمي وذاك أشرف فخري .

لو بغير الأقدام يسعى مشوقٌ جثتهُ زائراً على وجه شكري

العبد الحقير المستعين ، المخلص أحمد بن شاهين ، انتهى .

فأجبتُه بقولي ١ :

أيُّ نظمٍ في حُسْنِه حارِ فِكْري  
طائرُ الصَّيْتِ لابنِ شاهينَ يُنمى  
أحمدُ الممتطينِ ذروةَ مجدٍ  
حلَّ مِفْتاحُ فضلهِ بابَ وصلٍ  
يا بديعَ الزمانِ دُمٌ في ازديانٍ  
يا بديعَ الزمانِ دُمٌ في ازديانٍ  
وتحلّى بدوره صدرُ ذكري  
من بروضِ الندى له خيرٌ وكر  
لعوانِ من المعالي وبِكْرِ  
من معاني تعريفه دون نكر  
بالعلا وازديادِ تجنيسِ شكرٍ

وكتب إليّ لما وقف على كتابي « فتح المتعال في مدح المتعال » بما نصّه :

لكاتبه الحقير أحمد بن شاهين الشامي في تقرّظ تأليف سيدي ومولاي وقبلتي  
ومعتقدي شيخ الدنيا والدين ، وبركة الإسلام والمسلمين ، حفظ الله تعالى  
وجوده آمين :

أحمدُ ، فخرأ يا ابنَ شاهينَ سامياً  
بمن راحَ خداماً لتعلِّ محمدٍ  
فإن أنا أخدمُ نعلَهُ فلَطالما  
بتأليفِهِ في وصفِ نعلٍ تَكْرَمَتْ  
ويكفيك فخرأ يا ابنَ شاهينَ أن تُرى  
فقلتُ له طوبى بخدمةِ أحمدٍ  
فلا زالَ يرقى للمعالي مكرماً  
بأحمدَ ذلكَ المقرّي المسدّدِ  
وناهيكِ في العليا بأرْفَعِ سؤدّدِ  
غداً خادماً نعلَ النبيّ الممجّدِ  
كتاباً حوى إجلالَ كلِّ موحدٍ  
خدوماً لخدّامِ لتعلِّ عمّدِ  
فقال كذا طوبى بخدمةِ أحمدٍ  
ويتعلِّ العيوقَ في رَغْمِ فرقدِ

فأجبتُه بقولي :

١ انظر الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٥ .

وأشرف مولى للمعارف يهتدي  
فأتى أجارها بنحو المبرد  
على أنه أعلى مرامي ومقصدي  
بجوا العلا والصدى ضل بفرقد  
وقدرك مرفوع على رغم حسد  
بشام فهم يروون مسند أحمد  
وفكرك يروي في الهدى عن مسدد  
ودمت بتوفيق وعز مخلص

أحمد وصف بالعوارف يرتدي  
نجومك إذ أنت الخليل توقدت  
أتاني نظام منك حير فكري  
فأنت ابن شاهين الذي طار صيته  
فبرك موصول وشانك منكر  
وعند حديث الفضل أسند عالياً  
فوجهك عن بشر ويمناك عن عطاء  
فلا زلت ترقى أوج سعد ورفعة

ولما خاطبته بقولي :

سوانح في وكر البدائع تفرخ  
إذا صرصر البازي فلا ديك يصرخ  
لكان على الطائي بالأنف يشمخ  
لغاز بسبق حكمه ليس ينسخ  
وكتب التهاني عن علاه تورخ

يصيد ابن شاهين بجو بلاغة  
وما كان ديك الجن مدرك نيلها  
ولو جاد فكر البحري بملها  
ولو أن نظم ابن الحسين أتيحها  
فلا زال ملحوظاً بعين عناية

أجابني بما نصه :

أم الطرس أضحي بالعبير يضمخ  
أراها على الجوزاء بالأنف تشمخ  
تزل الرواسي وهي لم تك تنسخ  
لفرط حيائي قد أتني توبخ  
وبيتي وبين المدح في الحق برزخ

أنفاس عيسى ما بروعي ينفخ  
وهذي قواف أم هي الشمس إنتي  
بلى هي نص من وداك محكم  
أتني بمدح مخجل فكأنها  
وهل أنا إلا خادم نعل سيدي

ا ق : بحق .



وما هي إلا غيرةٌ حُزْتُ فخرها  
 فلا درّ درّي وانحرفتُ عن العُلا  
 وحبُّك مهما طال شرقاً ومغرباً  
 وإني وإن أرخنتُ مجدّاً لماجد  
 سميّ ومولاي الذي راح مدحهُ  
 ودمٌ يا نظيرَ البدرِ ترقى بأوجهِ

وكنْتُ يوماً أروم الصعود لموضع عالٍ فوقعت ، وانفكتُ رجلي ،  
 وألت ، فكتب إلي :

لا ألتُ رجلُك يا سيدي  
 ما هي إلا قدّمٌ للعُلا  
 زانتُ دمشقَ الشام في حلّها  
 بانّت عن الأهل لتشريفنا  
 عجبتُ من راسخةٍ في العُلا  
 إني أعافُ المين بين الوري  
 للمقريّ المجتبي أحمدٍ  
 وأحمدُ الله على أنتي  
 فلا أراهُ الله في عمره  
 وصانها الله من الشين  
 لا احتاجُ ذلك النصلُ للقين  
 فلا رأّت فيها سوى الزين  
 لا جمعتُ أينا إلى بين  
 والعلم إذ زاغت من العين  
 ولستُ والله أنا مين  
 دينُ الهوى والمدح كالدين  
 رأيتُهُ حاز الصريقين  
 بيناً يؤدّيه إلى ابن

تمويذاً لمحّب العبد الحقيّر الداعي أحمد بن شاهين ، انتهى .  
 وأهديت إليه حفظه الله تعالى سبحة وخاتماً ، وكتبت إليه ٢ :

يا نجل شاهين الذي أحيا المعالي والمعالم

١ ج : أشرخ ؛ ق : أسرخ ؛ والأشخ : السائل الفرة .

٢ انظر خلاصة الأثر ١ : ٣٠٦ .

يا مَنْ به رِيشتَ من الـ  
 يا مَنْ دمشقُ بطيبِ ما  
 فالنهرُ منها ذو صفاءُ  
 والغصنُ بئني عطْفهُ  
 يا أحمدَ الأوصافِ يا  
 أنتَ الذي طَوَّقْتَنِي  
 فَمَسَى أودِي شُكْرَها  
 والعذْرُ بادٍ إن بعدُ  
 بِنَتِيجَةٍ<sup>١</sup> الذِكرِ الي  
 ويحائِمُ صادٍ<sup>٢</sup> إلى  
 فامدِدْ على جهدِ المة  
 واقبَلْ عَقِبَةَ فِكرِ مَنْ  
 لا زلتَ سابِقَ غَايَةٍ  
 مجدِ الخوافي والقَوادمِ  
 يُبْدِيهِ عَاطِرَةُ النَّوَاسِمِ  
 والزهرُ مُفْتَرٌّ المَباسِمِ<sup>٣</sup>  
 طرباً لتغريدِ الحماشمِ  
 مَنْ حازَ أنواعَ المِكارمِ  
 مِنتاً لها تَعَنُو الأَعاظِمِ  
 والعجزُ لي وصفٌ مُلازمِ  
 تُ إليك من جنسِ الرِثائمِ  
 جاءتْ بتصحيفِ ملائمِ  
 فيضِ الندى من كَفِّ حاتمِ  
 لِرِوَاقِ صَفْحِ ذا دَعائمِ  
 هوَ في بحارِ العِمي عائمِ  
 بينَ الأَعارِبِ والأَعاظِمِ

فأجابني بما صورته<sup>٤</sup> :

يا سيداً شعري لهُ  
 كلاً ، ولا قدري لهُ  
 يا مَنْ رأيتُ عطارداً  
 يا مَنْ بِنَفْحَةِ خُلُقِهِ  
 أضحي يريني مُعْجِزَةً  
 ما إن يقاوي أو يقاومِ  
 يوماً يساوي أو يساومِ  
 مِنْهُ بَدَأَ في شَخْصِ عالمِ  
 وينظمه السامي الملائمِ  
 نِ مِنَ النَّوَاسِمِ والمَباسِمِ

١ ج : البواسم ؛ ق : المناسم .

٢ خلاصة الأثر : تسيحة .

٣ خلاصة الأثر : وبخاتم داع .

٤ انظر خلاصة الأثر ١ : ٣٠٧ .

ما زلتُ أبصرُ مِنْهُمَا  
 بهما زماني حاسداً  
 قلّمي وقلّبي بينَها  
 حبّي لأحمدَ سيدي  
 المقريّ المعتلي  
 ما لي إليه وسيلةٌ  
 قد جاء ما شرفني  
 من خاتمِ كفي به  
 وجعلني لا أحسبُ إلا  
 وبسبحةٍ شبهتها  
 فلتحسد الجوزاء ما  
 هي آلةٌ للذكرِ لا  
 فهواك في قلبي وما  
 ما ذي رثائمُ سيدي  
 لو أنها من جنسِ ما  
 لكنها قد زينتُ  
 يا من يريشُ إذا رمى  
 إن ابنَ شاهينِ حوى  
 هذي نوافلُ يا إما  
 العذرُ عنها مخجلٌ  
 بل أنت فوقَ العذرِ قد  
 لا زالَ دهرُك سيدي  
 يهندي إليك من المرا  
 ما لا يساومُ مثلهُ

حُسْنُ التَعَامِي والتَّعَائِمِ  
 أضحي وبالتغصنِ حاسمِ  
 م في الثناء له وهائمِ  
 شيخِ الوري فرض ملازمِ  
 شرفَ المعالي والمعالمِ  
 إلا هوى في القلب دائمِ  
 بخصوصه دون الأعظمِ  
 ورثت سليمان العرائمِ  
 ميقوق لي في فص خاتمِ  
 بالشهب في أسلاكِ ناظمِ  
 أحرزت من تلك المكارمِ  
 كن ليس ذكراً في الحيازمِ  
 في القلب جلّ عن الرثائمِ  
 بل إنها عندي تائمِ  
 يطوى غدت فوق العمائمِ  
 كفي وأزرت بالخواتمِ  
 نسر السماء بلحظِ حازمِ  
 منك الخوافي والقوادمِ  
 م الدهر ليست بالتوازمِ  
 عبداً لنعلك جدّ خادمِ  
 أصبحت للشعري تُنادمِ  
 يلقاك منه فغرُ باسمِ  
 حم والمكارم والغنائمِ  
 ذو الحظّ في أستي المواسمِ

العبد الحقير الداعي لأستاذه مولاي الأجل<sup>١</sup> بالتمكين، أحمد بن شاهين ،  
حامداً مصلياً مسلماً ، انتهى .

وقال مستجيزاً :

الشيخُ يشربُ ماءً ونحنُ نشربُ قَهْوَه

فقلت :

لأنه ذو قُصُورٍ فغطُّ بالعُذرِ سَهْوَه

ولما أزمعتُ على العُودِ إلى مصر أوائل شهر<sup>١</sup> شوال سنة ١٠٣٧ خاطبني

بقوله - حفظه الله - :

أبدأُ إليكَ تَشَوُّقِي وحنيني  
ولديكَ قلبي لا يزالُ رهينةً  
وعليكَ قد حُبِسْتُ شواردُ مدحتي  
قلبي كقلبك في المحبَّةِ والهوى  
وليتنه بهواك أرفعَ رتبةً  
وأطاعَ أمركَ في الودادِ فلو أشأ  
ما كنتُ أحسبُ قبل طبعك أن أرى  
حتى رأيتُكَ فاستبنتُ بأنه  
ويفيدُ سمعي معجزاً بهرَّ النهي  
يا من غدا يُحيي القلوبَ بلفظه  
أحييتُ بالوحي المبينِ قلوبنا

وإلى جنابك ، ما علمت ، مكوفي  
غَلِقْتُ وتعلمُ ذمَّةَ المرهونِ  
لما رأيتُكَ فوقَ كلِّ قرينِ  
إذ كانَ في الأشواقِ دينكَ ديني  
وغدوتَ تعزلُ عنه كلَّ خدينِ  
منه - وحاشا - سلوةً يعصيني  
يوماً عطاردَ ناطقاً بفنونِ  
يروى أحاديثَ العُلا بشجونِ  
ويُري عيوني آيةَ التكوينِ  
ويردِّدُ الأنفاسَ عن جِبْرينِ  
وحي<sup>٢</sup> ، لعمرُ الله ، جِدُّ مُبينِ

١ شهر : سقطت من ج .

٢ ج : وحل ؛ ق : وجل .

هذي دمشق، لعمرُ خَلْقِكَ، روضةٌ  
قد زارها غيثُ الندى فبهارها  
لو لم تكنُ بدرأً لما أحرزتَ ما  
حققتَ ما قد قيل حينَ حَلَلْتَهَا  
هي عادةٌ حَلَيْتَهَا فترينتُ  
مولايَ أحمدُ يا سليلَ بني العلاءِ  
أغنى وجودك وهو عينُ الدينِ عن  
انظُرُهُ تستغني به عن غيره  
تلقي علومَ الناسِ في أوراقهم  
فبعلمه اعبُرْ كلَّ بحرٍ زاخِرٍ  
وبعلمه ارغبْ عن تحلُّمِ أحنفٍ  
لما رأيتُكَ فاستقمتُ لقلبي  
أفيتُ قطركَ بِمَنِّي فأفادني  
فسقى الحيا للمقريِّ أخي العلاءِ  
بلداً تبيئتُ الهلالَ بأفقه  
لولا هلالُ الغربِ نورَ شرقنا  
يا راحلاً رحلَ الفؤادُ بعزمه  
أستودعُ اللهَ العظيمَ ، وإنتي  
إنتي أودعُ يومَ بينكَ مُهجتي  
وأعودُ من توديعِ وجهكَ عودَةً  
حتى كآنتي قد فقدتُ تائماً  
وتودُّ نَفْسِي أَنها لو حرَّمتُ  
أوشكتُ أَقتلُ بينَ معتركِ الهوى  
ولقدْ وددتُ بأنتي متحملٌ

قَدَّ جادَ طبعكَ دَوَحَهَا بمعينِ  
أضحى يلوحُ بِحُلَّةِ النَّسْرينِ  
قد خُصَّ في الأنوارِ بالتلوينِ  
إنَّ المكانَ مُشرفٌ بمُتَكِينِ  
ما كانَ أَحوجَها إلى التزِينِ  
يا فوقَ مدحي فيك أو تحسِينِ  
عَلَامَةٌ الدنْيَا لسانِ الدينِ  
وإلى العيانِ ارغَبْ عن المظنونِ  
وعلمُهُ في صدرِهِ المشحونِ  
وبفهمه اسبرُ غامضَ المخزونِ  
وبعزمه اصحبْ بأسَ ليثِ عرينِ  
أدعو وأشكرُ وارداتِ شؤني  
فضلَ اليمينِ على اليسارِ يقيني  
بلداً بأقصى الغربِ جدَّ هتونِ  
ورأيتُ مِنْهُ قَرَّةً لعيوني  
بتنا بلبيلِ الحدسِ والتخمينِ  
رفقاً بقلبِ اللوفاءِ ضمِينِ  
مستودعٌ مِنْهُ أَجلٌ أمينِ  
وشيبيني وتصبري وسكوني  
خالطتُ يقيني في الهوى بظنونِ  
تقضي عليَّ بحالهِ المجنونِ  
أبدأُ سكوني للهوى وركوني  
نَفْسِي ومعتركِ الهوى بيمينِي  
تلكَ الخطا بمحاجري وجفوني

كيف السبيلُ إلى الحياةِ ومهجتي  
 ما أنتَ إلا البدرُ لاحَ بأفئتنا  
 وإليكِها يا شيخَ دهري غادةٌ  
 جاءتكِ تعرُّضُ في الودادِ كماها  
 هي بنتُ لحظتكِ التي تؤوي النهي  
 ما الفخرُ في دعوى البديهةِ عندها  
 حسي أبا العباسِ منك إصاحه  
 يا لهفَ نفسي كيف أبلغُ مدحه  
 فلسانُ حبي بالغُ أقصى المدى  
 ما الشعرُ يستوفي حقوقك لي ولو  
 حلقتُ أصطادُ النجومِ ، وإنها  
 فرأيتُ في العيوقِ طبعكِ سيدي  
 قد خفَ شعري من قصورِ طبعي  
 يكفيكِ أحمدُ يا ابنَ شاهينِ بأن  
 وإذا عجزتَ عن الفرائضِ جاهداً  
 هو قبلي فلاغتدي متمسكاً  
 واسلمَ فديتكِ زائراً ومشرفاً  
 وكذلك عمري في هواكِ مُقسَمٌ

وقال حفظه الله تعالى في ذلك :

حنانيكِ إنَّ الدمعَ بالودِ مُعربٌ  
 ورُحماكِ بي لاني قتلُ صبايةٍ  
 ووعدكُ لي بالعودِ إنني مُعللٌ  
 وإنِّي في شرقٍ وأنتِ مُغربٌ  
 بمن هو أوفى في الفؤادِ وأنجبُ  
 به مهجةٌ قد أوشكتُ تتصوبُ

وهبتك قلبي ما حيت ولم أقل  
فلو كنت شيخاً واحداً هدّ صدّه<sup>١</sup>  
وإنّا بحمدِ الله لما خصصتنا  
فرشنا له منّا الحدودَ مواطئاً  
وقلنا دمشق<sup>٢</sup> أنت فيها مُحكّمٌ  
وأنت لها روحٌ ومولى ومفخرٌ  
وفخرأً عظيماً يا ابن شاهينَ إنّه  
فنحنُ ، ونحنُ الناسُ ، خُدّامُ نعله  
وما نقموا منه سوى أنّه امرؤ  
هو الشيخُ شيخُ الدهرِ أحمدُ من غدتْ  
هو المقرّيُّ العالمُ العَلَمُ الذي  
وما هو إلا الشمسُ أزمعَ رحلتهُ  
أو الغيثُ قد وافى فأمرعتِ الشهي  
أو الطائرُ العنقاءُ جاءَ مشرّقاً  
وإنك لِلخَلِ الوفيُّ وإنّه  
وإنك بالتحقيقِ في كلّ حالةٍ  
رعى الله وجهاً رُحنتَ ترغّبُ نحوه  
وحيّاً الحيا أرضاً وطئتَ ترابها  
ولا فارقتَ يوماً علاكَ كلاءةً<sup>٢</sup>  
مدى الدهرِ ما حنتَ جوانحُ واله

« ولكن من الأشياء ما ليس يوهب<sup>١</sup> »  
فكيفَ بشيخٍ لم يكن مثلهُ أبُ  
بزورةٍ ذي ودٍّ دعاهُ التجبّبُ  
وعدنا به شوقاً نجياً ونذهبُ  
وأشرفها ودّوا وجدّوا ورحبوا  
وقد زنتَ شرقاً مثل ما ازدانَ مغربُ  
غدا وكترنا نسرُ السما فيه يرغّبُ  
فلا غرو أن يقلي الغصنُ فسرَّ أكلبُ  
ليأكلُ فيما قدّروه ويشربُ  
دمشقُ ومن فيها بعلياه تخطبُ  
إليه تناهى الفضلُ والمجدُ يُنسبُ  
وإنّا لفي ليلٍ إذا هي تغربُ  
به وانثى والصدرُ بالودِّ معشِبُ  
فأغربَ والعنقاءُ في الطيرِ مُغربُ  
هو الواحدُ المطلوبُ إن عزَّ مطلبُ<sup>٢</sup>  
لأسنى وأنلدى ثمّ أوفى وأغربُ  
وأبيُّ أخي جِدّه له أنتَ ترغّبُ  
فأصبحَ مسكاً وهي بالمجدِ تخببُ  
من الله أنى كنتَ واللهُ أغلبُ  
مشوقٍ فأمسى للحقيقةِ يطربُ

ولمّا قرأ عليّ - أدام الله تعالى عزته ، وحرس حوزته - عقيدتي المسماة

١ للمتنبّي ، وصدره : « ولو جاز أن يجووا علاك وهبتها . »

٢ سقط البيت من ق .

بـ «إضاءة الدجّة في عقائد أهل السنّة» سألتني أن أجيزه فيها وفي غيرها ،  
فكُتبت له بما نصّه :

أحمدُ من أطار في جوِّ العُلا  
وراشَ منهُ للمعالِي أجنحةُ  
وأسكنَ البيانَ من أوكارِ  
فاصطادَ كلَّ شارِدٍ بمخلَبِ  
والصقْرُ لا يُقاسُ بالبُغاثِ  
نشكرُ مَنْ بَلَغَهُ مناهُ  
وننتحي نَهْجَ صلاةِ باديا  
مييناً دلائلَ التوحيدِ  
محمدٍ خيرِ البرايا المنتقى  
صلّى عليه اللهُ مع أصحابه  
ما اعترفَ العبدُ الفقيرُ ذو العدمِ  
وبعدُ ، فالعلومُ والعارفُ  
وروضةِ أزهارها تَصَوَّعَتْ  
وليسَ يحْتَاطُ بها نبيلُ  
فليصرفِ القولَ إلى ما ينفعهُ  
وإنَّ في علمِ أصولِ الدينِ  
لأنَّهُ أصلُ يعمُّ النفعُ  
وكيفَ يعبُدُ الإلهَ مَنْ لا  
فهو الذي لا تُقبَلُ الأعمالُ  
وإنتي كنتُ نظمتُ فيهِ  
سميتها «إضاءة الدجّة»

صيتَ ابنِ شاهينَ الذي زان الحلي  
نالَ بها فضلاً غدا مستمنحةُ  
أفهامه بقتنة الأفكارِ  
أبحاثُهُ ومن يعارضُ يُغلبِ  
والحقُّ ممتازٌ عن الأضغاثِ  
على نواله الذي سنّاهُ  
لخيرِ مَنْ جاء الأنامَ هاديا  
وموضِحاً طرائقَ التسديدِ  
أجلُّ من خافَ الإلهَ واتقى  
وآلهِ الراوينَ عن صحابهِ  
للربِّ باستغنايه وبالقديمِ  
مَنْ أمّها يأوي لظلِّ وارِفِ  
لأنّها أفنانها تنوعتْ  
إذ ذاكَ أمرٌ ما له سبيلُ  
دنياً وفي أوجِ الأجورِ يرفعهُ  
هدىً وخيراً جلَّ عن تبيينِ  
بهِ وكلُّ ما سواهُ فرعُ  
يعرفهُ وعن رشادِ ضلّاهِ  
إلا بهِ وتنجيحِ الآمالِ  
لطالبِ عقيدةٍ تكفيهِ  
وقد رجوتُ أن تكونَ جُنّةً



وبعدَ أن أقرأتها بمصرِ  
 درستها لما دخلتُ الشامَا  
 وكان في المجلسِ جمعٌ وافرٌ  
 منهم فريدُ الدهرِ ذو المعالي  
 أحمدُ مَنْ راحَ لعلمِ واغتدى  
 العالمُ الصدرُ الأجلُ المولى  
 وهو ابنُ شاهينَ وما أدراكا  
 ورامِ مِنْ مثلي بحسنِ الظنِّ  
 فحرتُ في أمرينِ قد تناقضا  
 تركُ الإجابةِ لوصفي بالخطلُ  
 وكمْ فرائضٍ بعجزٍ تسقطُ  
 أو فعلها بحسبِ الإمكانِ  
 منه وما له مِنْ الحقوقِ  
 وبعْدَ ما مرَّ مِنَ التردادِ  
 وسرتُ في طرُقٍ مِنَ التساهلِ  
 مع أنه أهلٌ لأنَّ يجيزا  
 ومن رأى عيبي بعينِ للرّضا  
 فليرو عني كلَّ ما أسمعتهُ  
 مع القصورِ راجياً للأجرِ  
 كهذهِ القصيدةِ السديدهِ  
 كذاك ما ألفتُ في عِمامةِ  
 والفقهِ والحديثِ والنحوِ وفي

ومكّةِ بعضاً من أهلِ العصرِ  
 بجامعِ في الحُسْنِ لا يُسامى  
 من جلةِ بدورهم سوافرُ  
 فخرُ دمشقِ الطيّبُ الفعّالِ  
 وشامِ أنواراً لفهمِ فاهتدى  
 مَنْ وصفهُ الممدوحُ يُعيبُ القولا  
 من بدّ جنسِ العُربِ والأتراكا  
 إجازةٌ فيما رواهُ عني  
 بالنفي والإثباتِ إذ تعارضوا  
 وبالخطأ، والجيدُ مني ذوا عطلِ  
 فكيفَ غيرها وهذا أحوطُ  
 رعيّاً لودٍ محكمِ الأركانِ  
 ولا يُجازي البرَّ بالعقوقِ  
 أسعفتُهُ بمقتضى الودادِ  
 معترفاً بالجهلِ لا التجاهلِ  
 لا أن يُجازَ إذ حوى التبريزا  
 لم يقفُ نهجَ من غدا معترضا  
 لِيأه بالشرطِ وما جمعتهُ  
 مِنْ الفنونِ تَنظّمِها والنثرِ  
 والنعلِ ذاتِ المدحِ العديدهِ  
 من خُصَّ بالإسراءِ والإمامةِ  
 أسرارِ وفنِّ وهو بالقصدِ وفي

وغيرها ممّا به الوهّابُ مَنْ  
 وما أخذتُ في بلادِ المغربِ  
 ولي أسانيدُ إذا سردتها  
 وقد أخذتُ الجامعَ الصحيحًا  
 عمّي سعيدٌ عن سفينٍ وهو عن  
 العسقلاني الشهابِ ابنِ حجرٍ  
 وقد أجزتُهُ بكلِّ مالي  
 على شروطٍ قرّروها كافيه  
 وقال هذا المقرّي الخطّا  
 عامَ ثلاثين وألفٍ بعدها  
 وكانَ ذا في رمضانَ السامي  
 واللهَ نرجو أن يتيحَ الختما  
 بجاهِ خيرِ العالمينَ أحمدًا  
 وآلهِ وصحبهِ ومنْ زكا  
 على فقيرٍ عاجزٍ في غيرِ فنٍ  
 عن كلِّ قَدِّ في العلومِ مُغربٍ  
 طالَتْ وفي كُتبي قد أوردتها  
 وغيرهُ عمّنْ حوى الترجيحًا  
 القلقشندِي عن الواعي السننِ  
 بما له من الرواياتِ اشتهرُ  
 يصحُّ من ذلك بلا احتمالٍ  
 ليست على أفكاره بخافية  
 والعبيُّ عمّ لفظه والخطّا  
 سبعٌ أتمتْ في السنينِ عدّها  
 بحضرةِ السعدِ دمشق الشامِ  
 بالخيرِ كي تُعطى القبولَ حتما  
 صلّى عليه الله ما طال المدى  
 فقالَ منْ حُسنِ الختامِ مدركًا

وتذكرت بهذه الإجازة نظيرتها التي سألتني فيها مولانا عين الأعيان ، مفتي  
 الأنام في مذهب النعمان ، مولانا الشيخ عبد الرحمن العمادي مفتي الشام  
 - حفظه الله تعالى - لأولاده الثلاثة ، وكتب لي أصغرهم سنّاً استدعاءً لذلك :

أحمدٌ من شيدَ بالإسنادِ  
 وعمّ من خصّصَ بالروايةِ  
 وزانَ صدرَ النّبها كلِّ زمنٍ  
 نحمده سبحانه أن عرفّا  
 ونسألُ المزيدَ من صلّاته  
 ملجؤنا المعصومُ أعلى سندِ  
 بيتَ العلومِ الساميِ العمادِ  
 بنورها النافي دجى الغوايةِ  
 بجوهرِ الإجازةِ الغاليِ الثمنِ  
 من الحديثِ ما به قد شرفّا  
 لمن أتيحَ القصدُ من صلّاته  
 لنا برغمِ جاحدٍ مُفسدِ

بابُ الهداياتِ وليس مُرتجَا  
 كلامُهُ الهادي إلى نَهجِ أمنٍ  
 من حبه بكلِّ خيرٍ معلمٍ  
 والمعجزُ المفحمُ أربابَ اللسنِ  
 سائرِ خلقِ الله جلَّ وعلا  
 أزكى صلاةٍ نتَّحيتها معلما  
 آثاره عَن صحَّةٍ وما غوى  
 وليس من يدرِي كمن لا يدرِي  
 مَنوطةٌ بنيلِ علمٍ مُجدي  
 لأنَّه ظلالُهُ ورِيفه  
 لم يكُ عن صوبِ الهدى بمائلٍ  
 أوطانهُ وثوبُ ترحالِ نفضِ  
 موفَّقٍ يرومُ حُسنَ المقلبِ  
 والعزِّ في الإبداءِ والإعادهِ  
 ميممًا بَدَرَ اهتداءِ مشرقا  
 بعدَ بلوغي أشرفِ الديارِ  
 مَسكَنَ من يزدانُ باحتشامِ  
 قلبي سرورا إذ بلغتُ المأملا  
 فضفاضةُ الأثوابِ بالأزهارِ  
 ومدحها يجلُّ عَن تعبيرِ  
 معَ أن مثلي منهم يزدانُ  
 عبدًا غدا تقصيرهُ دليله  
 فضلٌ لهم رَبُّ الوري ارتضاهُ  
 قُرَّةُ عينٍ من رآه واختبرُ

كهفُ الضعيفِ والقوي المرتجى  
 من جاءنا بالجامعِ الصحيحِ من  
 من فضله ما شكَّ فيه مسلمٍ  
 نبينا المرسلُ ذو الخلقِ الحسنِ  
 محمدُ المرفوعُ قدَّره على  
 صلتي عليه ربُّنا وسلِّما  
 مع آله وصحبه ومن روى  
 وبعدُ فالعلمُ عظيمُ القَدْرِ  
 ولم تزلْ همَّةُ أهلِ المجدِ  
 ومنه علمُ السنَّةِ الشريفةِ  
 فمن درى الأخبارَ والشَّمائلِ  
 وكم سَميدعٍ لأجله رَفَضُ  
 وكيف لا وهو أجلُّ ما طَلَبُ  
 لأنَّه وسيلةُ السَّعادةِ  
 وإنِّي لما انتحيتُ المشرقا  
 أَلقيتُ في مصرَ عصا التسيارِ  
 وبعدَ ذا جئتُ دمشقَ الشامِ  
 فشاهدتُ عيناها فيها ما ملا  
 مَدِينةُ فيأضةُ الأنهارِ  
 أرجاؤها زاكيةُ العبيرِ  
 وجلُّ أهلها بجي دانوا  
 فلاحظوا بالأعينِ الكليله  
 وقابلوا عيني بما اقتضاهُ  
 خصوصا المولى الكبيرِ المعترِ

مفتي الوري في مذهب النعمان  
ابن عماد الدين من تعيي القلم  
حاوي طراف المجد والتلاد  
وكنت في مكة قد أبصرت  
جلالة ومحتداً وعلماً  
مع التواضع الذي قد زانه  
فحث من في الشام من أختيار  
أن يأخذوا بعض الفنون عني  
مع أنني والله لست أهلاً  
وكان من جملتهم أبناؤه  
وصنوه الشهاب من توقدا  
وهو الذي قد ابتنى الإجازة  
وكتب القصيدة الطنانه  
ولاتهم كحلقة قد أفرغت  
فلم أجد بداً من الإجابة  
فقد أجزهم بما رويته  
وكل ما صنف في الفنون  
وما أخذت عن شيوخ المغرب  
ولي أسانيد يطول شرحها  
ولو سردت كل مروياتي  
وكل طول غالباً ملول  
فلنقتصر إذن على القليل  
وقد أخذت جامع البخاري  
المقري سعيد الإمام عن

بها الوجيه عابد الرحمن  
أوصافه اللاتي كنور في علم  
نال المني في النفس والأولاد  
منه علاً عن مدحه قصرت  
ورفعة وسودداً وحلماً  
حسن اعتقاد مثقل ميزانه  
لم يسلكوا مناهج الأغيار  
بما اقتضاه منه حسن الظن  
لذلك ، والتصدير ليس سهلاً  
عماد دين قد علا بناؤه  
فهماً وإبراهيم سباق المدى  
لم بوعد طالباً إنجازة  
في ذاك لي مهتصراً أفانه  
دامت لهم آلاء فيض سوغت  
مع كون جهلي سادلاً حجابة  
طراً ، وما ارتجلت أو رويته  
مؤمل التحقيق للظنون  
وغيرهم من كل حبر مغرب  
شيد على تقوى الإله صرحها  
هنا لطلال القول في الأبيات  
وحد من يعنى به مقلول  
تبركاً بالمطلب الجليل  
عن عمي الحاتر للفخار  
محمد يدعى خروفاً حين عن

التونسي الطيب الأنفاس  
 عن الكمال القادري المرتضى  
 نجل أبي المجد عن الحجاري  
 عن مُسْنِدِ الإسلامِ عبدِ الأوّلِ  
 عن السرخسي عن الفربري  
 وفضله أظهر من أن يُذكر  
 ومسلم به إلى الكمال  
 منسوب بلقين عن التنوخي  
 كابن المقير عن ابن ناصر  
 عن جوزقي قدروى عن مكّي  
 فليخبروا عني بذنا والباقي  
 كذا موطأ الإمام مالك  
 ومسند الفذ الرضى ابن حنبل  
 والطبراني وما أرويه  
 وكلها تشملهُ الإجازة  
 فلتقبلوه فهي من جهْدِ المُقِيلِ  
 ومن أسانيدي عن القصار  
 عن شيخه خروف الرّاقى الدرّج  
 قال : سمعت المصطفى في النوم  
 يقول : مَنْ أصبح ، يعني آمنّا  
 ولنمسك العنان في هذا الأرب  
 نزيل حضرة الملوك فاس  
 عن الحجازي عن الخبر الرضى  
 عن الزبيدي بنقل جاري  
 عن الشهر الداودي المعتلي  
 عن البخاري الإمام الخبر  
 وعلمه المعروف غير المنكر  
 عن عثم الدين أخي الجلال  
 عن ابن حمزة عن الشيوخ  
 عن ابن مندة وهو القاصر  
 عن مسلم نافي دياجي الشك  
 من ستة حائزة السباق  
 إمامنا منير كل حالك  
 والدارمي ذي الثناء الأجمل  
 من المعاجيم بما تحويه  
 بشرطها عند الذي أجاده  
 إذ لست بالمطلوب مني أستقل  
 مفتي الأنام بهجة الأعصار  
 عن الشريف الطحطحائي فرج  
 صلى عليه الله كل يوم  
 في سره ، الحديث فاعرف كما  
 مصلياً على الذي زان العرب

١ ماخوذ في ج ودوزي .

٢ ج ق : المعاجم .

وآله وصحبه الأعلام  
 وخطاً هذا المقرّي العاصي  
 سنة سبع وثلاثين تلت  
 عليه أزكى صلوات تستم  
 ومن تلا من أنجم الإسلام  
 أجبر يوم الأخذ بالنواصي  
 ألفاً لهجرة بياسين عكّلت  
 نرجو بها الزلّفي وحسن المختّم

ونص الاستدعاء المشار إليه هو :

فازت دمشق الشام بالمقرّي  
 علامة العصر بلا مقرّي  
 كم سمعت أخبار أوصافه  
 جامع علم بث إملائه  
 يقري فتقري السمع أنفاسه  
 مولاي يا من در أفاظه  
 إجازة نرفل من فضلها  
 مسيلة الذليل على أكبر  
 أطل لنا إنشاءها بل أطب  
 لا زلت في نفع الوري دائماً  
 الألمي اللوذعي العبقري  
 وواحد الدهر بلا مقرّي  
 فقصر المخبر عن منظر  
 بالشام ملء الجامع الأكبر  
 أنفاس ما يقري وما قد قري  
 صحاحها تزري على الجوهر  
 في ثوب عز وريدا مقخر  
 وأوسط الإخوة والأصغر  
 وانظم لنا من درها وانثر  
 تجود جود العارض المطر

العبد الداعي إبراهيم العمادي ، انتهى .

ومن الإجازات التي قلتها بدمشق الشام ما كتبه للأديب الحبيب سيدي

يحيى المحاسني<sup>١</sup> حفظه الله تعالى :

أحمد من زين بالمحاسن دمشق ذات الماء غير الآسن

١ هو يحيى بن أبي الصفا ابن أحمد المعروف بابن محاسن الدمشقي الحنفي ، درس على العمادي وغيره من شيوخ دمشق ، ولما وردها المقرّي لزمه لزوم الظل للشبح وجمع من أماليه مجموعاً ودرس العلم في الغزالية وتوفي سنة ١٠٥٣ ( خلاصة الأثر ٤ : ٤٦٣ ) .

وأطلع النجوم من أعيان  
فكُلُّ أيامهم مواسمُ  
وذكرهم قد شاع بين الأحنيا  
ويشروهم حديثه لا ينكرُ  
وقد حكى جوارحُ الذي ارتحل  
فسمعه عن جابرٍ ، والعينُ عن  
فحلٍّ من أتاهم آلاءُ  
نحمدُهُ سبحانه أن أسدى  
وننتحي صوبَ صلاة باهره  
أجلٌ من خاف الإلهَ واتقى  
صلى عليه الله طولَ الأبدِ  
وبعدُ ، فالعلمُ أساسُ الخيرِ  
وهو موصلٌ إلى منهاجِ  
وما بغيرِ العلمِ يلبو العلمُ  
خصوصاً الحديثُ عن خيرِ البشرِ  
ولم يزل يُعنى به كلَّ زمنٍ  
ولنتي عندَ دخولِ الشامِ  
وشاهدتُ عيني من إنصافهم  
وإن من جملتهم أوجَ الذكا  
ابنُ المحاسنِ الذي قد طابقا  
اللوذعيُّ الألعسيُّ يجيى  
وهو الذي أغراه حسنُ الظنِّ  
وكان قارئَ الحديثِ النبوي  
بمخضِرِ الجمعِ الغزيرِ الوافرِ

بأفقهَا السامي مدي الأحيان  
من الصفا تُغورها بواسمِ  
إذ قطرهم به الكمالُ يحيا  
ومُسندُ الجامعِ عنهم يذكُرُ  
إليهم صحيح ما له انتحل  
قِرّة تُروى ، واللسانُ عن حسن  
حتى أبان نُورهم لألاءِ  
من الأمان ما أنال القصدَا  
إلى الرسولِ ذي السجايا الطاهرة  
محمدُ الهادي الرسولُ المنتقى  
مع آلِه وصحبهِ والمقتدي  
وكيف لا وهو مزيجُ الضيرِ  
هدى ورشدٍ ما له من هاجي  
وليس من يدري كمن لا يعلمُ  
فإن فضله على الكلِّ انتشرُ  
من الرواة كلُّ صدرٍ مؤتمنٍ  
لقيتُ من بها من الأعلامِ  
ما حققَ المحكي عن أوصافهم  
والنيرِ المزري سناه بذكا  
منهُ مُسمَى الاسمِ إذ تسابقا  
لا زالَ رسمُ المجدِ منه يجيا  
على انتمائه لأخذٍ عني  
لدي في الجامعِ ، أعني الأموي  
ممن وجوهُ فضلهم سوافرُ

وَبَعْدَ ذَلِكَ اسْتَمَطَرَ الْإِجَازَهُ  
 فَلَمْ أَجِدْ بُدْأً مِنَ الْإِجَابَةِ  
 وَإِنْ أَكُنْ أَجَبْتُ أَمْرًا يُمَثِّلُ  
 فِيمَنْ دَرَى شَيْئًا وَغَابَتْ أَشْيَا  
 فَلْيُرِ عَنِّي كُلَّ مَا يَصِحُّ لِي  
 وَقَدْ أَخَذْتُ جَامِعَ الْبُخَارِيِّ  
 سَعِيدِ الَّذِي نَأَى عَن دَتَسِ  
 أَعْنِي أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ وَهُوَ عَن  
 عَنِ ابْنِ مَرْزُوقٍ مُحَمَّدِ الرِّضَا  
 الْفَارَقِيِّ عَنِ إِمَامٍ يُدْعَى  
 بِمَا لَهُ مِنْ الرِّوَايَاتِ الَّتِي  
 وَلِيرو عَنِّي مَا انْتَمَى لِلنُّوَوِيِّ  
 أَعْنِي ابْنَ مَرْزُوقِ الْخَطِيبِ الرَّائِي  
 وَهُوَ رَوَى عَنِ صَاحِبِ التَّمَكِينِ  
 وَخَطَّ هَذَا أَحْمَدُ الْبَادِي الْوَجَلُ  
 فِي عَامِ أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ خَلَّتْ  
 أَلْبَسَهُ اللَّهُ الْبُرُودَ الصَّافِيَةَ  
 بِجَاهِ سَيِّدِ الْبَرَايَا طَرًّا  
 عَلَيْهِ أَسْنَى صَلَوَاتِ تَسْنِيدِي

وَسَأَلَ مِنِّي بَعْضُ سَاكِنِي دِمَشْقَ ١ الْمَحْرُوسَةَ أَنْ أَقَرِّظَ لَهُ عَلَى شَرْحِهِ

١ الذي ارتجل : سقطت من ج .

٢ هو محمد بن سعد الكلثني كما سيصرح المقرئ بذلك في أرجوزته، وكان من أدياء الصوفية، وكان فضلاء دمشق يماثرون منه رجلا سهلا خلوقاً متودداً صاحب نوادر وآداب ؛ توفي سنة ١٠٣٧ ( خلاصة الأثر ٣ : ٤٦٨ ) .



لرسالة العارف بالله تعالى سيدي الشيخ أرسلان ، فكتبت ما صورته :

أحمدُ من خصَّصَ بالأسرارِ  
أتاحَهُمُ عوارِفَ المعارِفِ  
فهمُ بهمُ تُستَمطرُ الأنواءُ  
ومِنَ أجلَّهُمُ سناءٌ وسنى  
شيخُ الشيوخِ العارفُ الكبيرُ  
فكمُ إشاراتٍ لَهُ أبانا  
وكمُ عباراتٍ تَلا آياتِها  
ومن رأى رسالةَ التوحيدِ  
فهي تنادي مَن أبى أن يَسْلُكا  
ومن أضلَّ القصدَ في مَهامِهِ  
وكمُ بها من بابِ معنَى مغلِقُ  
فما بغيرِ الفتحِ يُدرى الباطنُ  
وقد رأيتُ في دمشقِ الشَّامِ  
للكلشنيّ ذي الوفا بالوعدِ  
لا زال في أوجِ التجلّي صاعدا  
ومُدَّ أجلتُ ناظري في حُسْنِهِ  
ودلَّ ما أبداهُ من معاني  
لأنَّهُ أجادَ في تقريرِ  
وأبرزَ الأبتكارَ من خدورِ  
فالله يجزيه الجزاءَ الأوفى  
وخطَّ هذا المقرّي مَن وجَلَّ  
كشَفَ كروبٍ عقدَ صبرٍ حلَّتْ

قُدُماً من الصوفيّةِ الأبرارِ  
والحكيمِ السابغةِ المطارفِ  
وتظهرُ الأنوارُ والأضواءُ  
مَن زادَ عن عينِ المعالي الوسنا  
الشيخُ أرسلانُ الشهيرُ  
بها علوماً من حلاها ازدانا  
تعيًا الفحولُ عن مدى غاياتها  
لَهُ انتحى مناهجَ التسديدِ  
يا مُعرضاً شِرْكَ خفيّ كلُّكا  
هدتَهُ للخروجِ عن أوهامِهِ  
عَمَّن يقيّدُ الوجودَ المطلقُ  
وواردُ الفيضِ لَهُ مَواطنُ  
شرحاً لها أنبأ عن إلهامِ  
شمسِ العلّامِ محمدِ بنِ سعدِ  
وعونُ ربّنا لَهُ مساعدا  
ألفيتهُ مستبدعاً في فنّه  
على شهودٍ بالهدى مُعاني  
ما اعتاصَ بالإتقانِ والتحريرِ  
أفكارِهِ حاليةَ الصدورِ  
في يومِ تبدي الأنبياءِ الخوفا  
مرتجياً من ربّه عزّ وجلّ  
مِنهُ وغُفرانَ ذنوبٍ جَلَّتْ

بجاه طه الهاشمي أحمداً  
عاطرة النشر بلا اكتتام  
عليه أركى صلوات سرمد  
تأرجت بالمسك في الختام

وخاطبني السري الحبيب الماجد فخر المدرسين الأعيان مولانا الشمس  
محمد بن الكبير الشهير مولانا يوسف بن كريم الدين الدمشقي حفظه الله تعالى  
بقوله :

شمس المحاسن شرقي أو غربي  
شمس لنا منها شمس فضائل  
المقري العالم الندب الذي  
بدر ولم تبد الدور بمشرق  
لسوى اكتساب سناه لم تغرب ذكاً  
علامة ملاء البلاد بفضل  
عمري هو البحر المحيط فضائلاً  
مولي له سند قوي في العلا  
نسب له المجد المؤئل في الوري  
هو في جبين الفضل أضحى غرة  
آمالنا قطعت بشر جبينه  
بدر به زهيت دمشق وأهلها  
طود الفضائل باكرت أرجاءه  
بحر الهدى والعلم إلا أنه  
هو قطب دائرة الفضائل في الوري

سعدت منازلنا بشمس المغرب  
وسنا هدى قد راح غير محجب  
لسوى اسمه درج الحجى لم يكتب  
إلا بدت من قبل ذلك بمغرب  
فلو أنها شعرت به لم تغرب  
وأفاده لمشرق ومغرب  
إن قيس بالعذب الذي لم يعذب  
فعن الجدود روى العلا وعن الأب  
والمجد لم يكسب إذا لم يوهب  
يُجلى بها للجهل ظلمة غيب  
أن لا ترى للدهر وجه مقطب  
أحبب بدر حيث حل محبب  
ديم الحجى ففدا كروض مخصب  
صفو من الأكدار عذب المشرب  
فيكاد يُخبرنا بكل مغيب

١ ترجمته في خلاصة الأثر (٤ : ٢٧٣) تتلمذ للنقري والعمادي وغيرهما وكان متقناً للفرسية  
والتركية والموسيقى ملحناً ، تردد إلى الروم ودرس بالمدرسة العزية وله ديوان شعر ؛ توفي  
سنة ١٠٦٨ .

كلاً ، ولا قستُ البَدورَ بِكوكبِ  
 قَادِ الزَّمانِ بِأدهمِ وبأشهبِ  
 فَله العُلا تَقْضِي بِفرضِ أوجبِ  
 فافتَرَّ فيها كلُّ ثغرٍ أَشْنَبِ  
 أَذياها من كلِّ عَرَفٍ طيبِ  
 شُهَبِ المجرَّةِ حَيرةُ المتعجِبِ  
 ورُقُّ الأراكِ بِكلِّ صوتِ مطربِ  
 شكوى المَعذَبِ في الهوى لمعذَبِ  
 وجهانِ ، وهو الفرقُ ، ما قد حلَّ بي  
 إلا النَّسيمَ وذا الهوى إن تطلبِ  
 حَيّاً رياضَ حِجَاهِ أطفُ صيبِ  
 مستعذَبٌ ، وكذلك كلُّ مهذَّبِ  
 لنعمتُ منه بِكلِّ روضِ مُعْشِبِ  
 عن مطلي والآن مَدْحُكَ مطلي  
 فَعَوَاتِقُ الأيامِ عُدْرُ المذنبِ  
 فليدأ يطولُ على الزمانِ تَعْتَبِي  
 إلا ثنالك ، وحبذا من مَهْرَبِ  
 فالدهرُ يوجبُ للقريصِ تجنُّبِي  
 من كلِّ وادٍ للضلالةِ متعبِ  
 في عِقْدِ مَدْحِكَ لؤلؤاً لم يُشَقِّبِ  
 لكن بغيرِ مَسامعٍ لم يُشْرَبِ  
 مثلاً لغيرك في العُلا لم يُضْرَبِ  
 بكَرٍ لغيرك في الورى لم تُخْطَبِ  
 يُغْنِي الجمالُ عن الوشاحِ المذْهَبِ

في الفضلِ ما جاولتُ يوماً مثله  
 أنى يُجارى في الفضائلِ مَنْ له از  
 سُننٌ للمدحِ الغيرِ تسقطُ عِنْدنا  
 ما روضةٌ حَلَى أزاهرها الحيا  
 ومَشَتْ بها خود الصِّبا فتعطَّرتُ  
 للنورِ فيها جدولٌ أخذتُ بهِ  
 باتتُ تُناشدني بها ذِكْرَ الهوى  
 تشكو إليَّ بِمثلِ ما أشكو لها  
 فعلمتُ ما قد حلَّ من وجدٍ بها  
 لم تَلقَ فيها مِن عليلِ يَشْتَكِي  
 بأغضَ حُسناً مِن ربي آدابِ مَنْ  
 طبعُ أرقُّ من النَّسيمِ ومنطقُ  
 لو جاد صوبُ حِجَاهِ قَصراً مجدباً  
 مولاي عُدراً فالزمانُ يَعُوقِي  
 عَفْواً إذا أَخَرْتُ مَدْحِكَ سيدي  
 وكذلك يفعلُ بالأديبِ زمانُهُ  
 لم ألقَ يوماً من يديه مهرباً  
 لولاك ما جال القريصُ بِخاطري  
 لولاك لم يَنْهَضُ جوادُ قريحِي  
 فاسمع ، ولستُ بِأمرٍ ، نظماً غدا  
 كالراحِ يلبُ بِالعقولِ للطفه  
 من كلِّ قافيةٍ غدتُ مِن حُسْنِها  
 خود تَقَلَّدُ من ثنالك قلائدأ  
 غَنِيَتِ بِمدحكِ زينةٌ ولربما

هي بعضُ أوصاف لذاتك قد غدتُ  
 جاءتك تسألك القبولَ وحسبها  
 وترومُ منك إجازةً فاقت بما  
 حسبي الإجازةُ منك جائزةٌ ولم  
 لا بدعَ والإطنابُ إيجازاً غدا  
 هيهات لا تحصى مآثر فضله  
 كالبحرِ عذباً ماؤه لم ينضبِ  
 فخرأقبولك وهو جُلُّ المطلبِ  
 ترويه بالسندِ القويِّ عن النبي  
 أكُ قبلُ غيرَ الفضلِ بالمتطلبِ  
 في مدحه إن لم أطلُ أو أسهبِ  
 بالمدحِ إن أطنبُ وإن لم أطنبِ

خدمة الداعي محمد بن يوسف الكريمي ، انتهى .

فأجزته بما نصّه :

أحمدُ مَنْ أطلعَ شمسَ الدينِ  
 وخصَّ فضلاً منه بالإسنادِ  
 فلم يكنْ عصرٌ من الأعصارِ  
 ينفونَ عن حوزةِ دينِ الله ما  
 وأنتحي سبُلَ صلاةٍ كاملته  
 محمدِ المرسلِ بالشرعِ الحسنِ  
 مع حزبه من صحبه وعترته  
 وبعدُ فالعلمُ أجلُّ ما اعتمدُ  
 خصوصاً الحديثَ عن خيرِ الورى  
 ولم يزلْ ذوو النهى يسعونَ في  
 وإنْ مولانا الشهيرَ السامي  
 سالكَ نهجَ السنَّةِ القويمِ  
 لا زالَ في عزٍّ وفي أمانِ  
 وجّهَ لي لما حلتُ الشاما  
 قصيدةً بليغةً مُستعدّبه  
 في أفقِ الروايةِ المبينِ  
 أمةً طه مُذهبِ العنادِ  
 إلا وفيه أهلُ الاستبصارِ  
 يرومُ مَنْ عَلَيْهِ رُشدٌ أبهما  
 على الذي لَهُ العطايا الشاملة  
 ذي المعجزِ المفحمِ أربابِ اللسنِ  
 ومنْ تلا مؤملاً لأثرته  
 موفّقٌ من فيضِ مولاة استمدّ  
 صلّى عليه الله ما زئدُ ورى  
 تحصيله إذ فضله غيرُ خفي  
 الماجدِ المولى نبيهَ الشامِ  
 محمدَ بنِ يوسفَ الكريمي  
 مُبلِّغاً من قصده الأمانِ  
 وبرقَ حُسنِ الظنِّ مني شاما  
 غريبةً في فنّها مهذبّه

يسأل من مثلي بها الإجازة<sup>١</sup> بشرطها عند الذي أجازته<sup>٢</sup>  
مُسْتَمْسِكًا بِعُرْوَةِ الصَّوَابِ ولم أجد<sup>٣</sup> بُدًّا من الجواب  
فَلْيَرَوْ عَنِّي مَا سَمَعْتُ كُلَّهُ وما جمعت<sup>٤</sup> في الفنون جُمَّلَهُ  
على شروطٍ قُرِّرَتْ في الفن<sup>٥</sup> مرتجياً حصولَ كلِّ من<sup>٦</sup>  
وصنوه<sup>٧</sup> الأَكْمَلُ قد أبَحْتَهُ ذاك على الوجه الذي شرحتهُ  
وإن أكن<sup>٨</sup> فيما ابتغى مقصراً فذو الرضى ليسَ لعيبٍ مبصراً  
ولي أسانيد<sup>٩</sup> أبي وقتي عن تفصيلها لما من الرحلةِ عَن<sup>١٠</sup>  
والعذر<sup>١١</sup> بادٍ والكريم يتقبل<sup>١٢</sup> وخط<sup>١٣</sup> هذا المقرئ<sup>١٤</sup> الجاني  
في عامِ ألفٍ وثلاثين<sup>١٥</sup> فنا عليه أزكى صلوات<sup>١٦</sup> تُغْتَنَمُ  
مبتدأ<sup>١٧</sup> ومُخْتَمَمٌ

وكتب إلي الفاضل الخطيب ، الفهامة الأديب ، وارث الفضل عن الأعلام  
ذوي اللسن ، سيدي الشمس محمد المحاسني<sup>١</sup> سبط شيخ الإسلام مولانا  
البوريني حسن ، حفظه الله تعالى ، بقوله :

يا سيدي وملاذي وعالم<sup>١</sup> الشَّكَلَيْنِ  
ومن غدا بمكان<sup>٢</sup> علا على النَيْرَيْنِ  
أجَزْتَ بالدرسِ قوماً<sup>٣</sup> فاقوا به الفرقدينِ  
فزيين<sup>٤</sup> العبدَ أيضاً من مثل<sup>٥</sup> ذلك بزينِ  
إن لم يكن<sup>٦</sup> في ختامِ فذلك<sup>٧</sup> قَدْرُهُ عَيْنِي

١ هو محمد بن تاج الدين بن أحمد المحاسني الدمشقي الحنفي ، درس على علماء دمشق ، ومنهم العمادي والمقري  
وسافر إلى الروم صحبة والده وأخذ عن علمائها ثم تولى الخطابة بجامع السلطان سليم بصاحبة  
دمشق ثم الإمامة بجامع بني أمية ، وتولى مناصب أخرى بين إمامة وخطابة وتدریس ، وتوفي  
سنة ١٠٧٢ ( خلاصة الأثر ٣ : ٤٠٨ ) .

٢ ق : وإن يكن .

فأجزته بما نصّه :

أحمدُ مَنْ أطلَعَ من محاسن  
وزانها بالجلّة الأعيانِ  
الراغبين في الحديث النبوي  
وبعدُ فالعلمُ أجلُّ زينةً  
وإنَّ علمَ السنّةِ الشريفةِ  
لذاك كانَ باعْتنائِ أجدرًا  
وإنَّ ذا الفضلِ الأديبِ البارِعِ  
الماجدُ المسدّدُ السامي الحَسبِ  
ابنُ الشهرِ الصدرِ تاجِ الدينِ  
وجدهُ لأمه الشيخُ الحسنُ  
يسألني إجازةً بكلِّ ما  
وها أنا أجبته غيرَ بطلٍ  
فليرَوْ عني كلَّ ما يصحُّ  
وهي عن الشروطِ لن تريمًا  
وكلَّ ما ألفتُ أو جمعتُ  
ولي أسانيدُ يضيقُ الوقتُ  
في غيرِ هذا فليُحَقِّقْ ذلك  
وقد أخذتُ جامعَ البخاري  
عمي سعيدٍ وهو عمّنْ يدعى  
عن حافظِ الغربِ الرضّي أبيه  
الحافظِ المجلِّلِ العراقي  
وما لهُ من الرواياتِ عليمُ

دمشقَ ما أُرَبِّي على المحاسنِ  
الرافلينَ في حلّى التبيانِ  
السالكينَ في الهدى النهجِ السوي  
وسبيلُهُ في الرشدِ مستبينهُ  
ظلاله ضافيةٌ وريفهُ  
من كلِّ ما يلميه من تصدّرا  
سابقَ ميدانِ الذكا المسارعِ  
محمدُ مَنْ للمحاسنِ انتسبُ  
لا زالَ في عزٍّ وفي تمكينِ  
وذاك بُورينهمُ مُعطى اللّسنِ  
أرويه عنوانًا بحالي معلما  
مستغفراً من خطيٍّ ومِن خطلٍ  
على شروطِ غيْثِها يسحُّ  
وليسَ يخفي علمهُ الكريما  
نظماً ونثراً مثلَ ما أسمعُ  
عن سرِّها وبعضها قد سقتُ  
مقتضياً لأوضحِ المسالكِ  
ومسلمٍ عن حائزِ الفخارِ  
بالتنسيِّ قد أفادَ الجمعا  
عن ابنِ مرزوقٍ عن النبيهِ  
وقدْ سما في سلّمِ المراقِ  
من كتبه التي حوتْ خيرَ الكلمِ

وخطَّ هذا المقرِّيُّ عن عجلٍ مؤملاً من ربه عزَّ وجلَّ  
غفراناً ما جنى من الذنوبِ والصفحَ عن معرَّةِ العيوبِ  
بجاهِ خيرِ العالمينِ أحمداً صلى عليه اللهُ دأباً سرمداً  
وآلهِ وصحبهِ الأخيارِ ومنْ تلا لآخرِ الأعصارِ

ولما سألتني في الإجازة الفاضل الأديب سيدي محمد بن علي ابن مولانا عالم  
الشام الشهير الذكر شيخ الإسلام سيدي ومولاي الشيخ عمر القاري<sup>٢</sup> - حفظه  
الله تعالى - وأنا مستوفز للسفر ، كتبت له عن عجل ما صورته :

أحمدُ منْ زَيْنَ بالآثارِ جيداً من الراوي النبيه القاري  
وشاد للعلياء في أوجِ السندِ منازلًا لم يُبلِّها طولُ الأمدِ  
وميزَّ الواعين للحديثِ بالفضلِ في القديم والحديثِ  
وزانَ منهمُ سماءَ الدينِ فأشرقَتْ بالحفظِ والتبيينِ  
فهمُ<sup>٣</sup> بها للمهتدي نجومُ وإنها للمعتدي رجومُ  
فكم أزاحوا عن حديثِ المجتبي صلى عليه اللهُ ما هبَّتْ صبا  
تحريفَ ذي غلٍ مفضلٍ غالي شانٍ لمنهاجِ الرشادِ قالي  
وبعدُ فالإسنادُ للروايةِ وسيلةٌ ترزحُ الغوايةِ  
والله قد خصَّصَ هذي الأمةَ بهِ امتناناً وأزاح الغمَّةَ  
هذا ولولا ذلك قال من شا ما شاء فهو بحقٍ منشأ  
فلم يزل أهلُ النهي كلَّ زمنٍ يسعون في تحصيله عن مؤتمنٍ

١ إلى هنا تنتهي نسخة ج من النسخ وكتب في آخرها : « انتهى ما وجد في الجزء الأول من نفع  
الطيب ويتلوه في الجزء الثاني : ولما سألتني في الإجازة الفاضل الأديب الشيخ محمد بن علي . . إلخ » .  
٢ ترجمة محمد بن علي بن عمر المشهور بابن القاري في خلاصة الأثر ( ٤ : ٥٤ ) درس الحديث  
على المقرري وكان مدرساً بالمدرسة الشامية الجوانية ، وسافر إلى الروم ونال جاهاً ، وكان  
بينه وبين أحمد الشافعي مودة أكيدة ومراسلات .  
٣ ق : منهم .

وَمَنْ بَسَبَقَ لِلْعُلُومِ غَرًّا  
 الْوَاصِلُ الْمَجْدُ الْأَرِيبُ  
 ابْنُ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْحَبِيبِ الْوَلِيِّ  
 طُودُ السُّكُونِ هَضْبَةُ الْوَقَارِ  
 لَا زَالَ مَحْفُوفًا بَعْزًا سَامِي  
 بَعْضَ الصَّحِيحِ ظَافِرًا بِمَا نَوَى  
 مَنِي وَوَعْدَهَا اقْتَضَى إِنْجَازَهُ  
 إِذْ لَسْتُ فِي ذَا الْأَمْرِ ذَا نِجَابَتِهِ  
 فِي مِثْلِ هَذَا الْمَطْلَبِ الْمُرْعِيِّ  
 بِحَمَلِي الْوَشِيِّ إِلَى صِنْعَاءَ  
 مَرْتَجِيًّا بِذَلِكَ رِبْحَ التَّجْرِ  
 أَنْتِي مِنْ خَوْفِ الْخَطَا لَا أَسْلَمُ  
 جَمِيعَ مَا يَصِحُّ لِي وَعِنِّي  
 عَنِ عَمِّي الشَّهِيرِ ذِي الْقَسْحَارِ  
 عَنْ قَلْقَشَنْدِيِّ مَزِيحِ الْمِينِ  
 بِمَا لَهُ مِنَ الرَّوَايَاتِ اشْتَهَرَ  
 مُبَيِّنًا لَطَالِبِ الْأَخْبَارِ  
 وَالرُّوْضَةَ الْغِنَاءِ يَكْفِي نَفْحُهَا  
 مُفْتِي الْبِرَايَا بِهَجَةِ الْأَعْصَارِ  
 عَنِ الشَّرِيفِ الطُّحْطُحَاثِيِّ فَرَجٍ  
 حَدِيثَ مَنْ أَصْبَحَ وَفَقَّ النَّقْلِ  
 فِي جِسْمِهِ مَعَ قُوَّةِ يَوْمٍ وَافِي

وَإِنَّ مِنْ جَمَلَةٍ مَنْ تَحَرَّى  
 الْفَاضِلُ الْمَسْدَدُ النَّجِيبُ  
 مُحَمَّدٌ سَلِيلُ ذِي الْمَجْدِ عَلِي  
 عَمْرُ الشَّيْخِ الشَّهِيرِ الْقَارِي  
 شَيْخُ الشُّيُوخِ فِي دِمَشْقِ الشَّامِ  
 فَكَانَ مِنْ جَمَلَةٍ مَنْ عَنِّي رَوَى  
 وَبَعْدَ ذَلِكَ اقْتَرَحَ الْإِجَازَهُ  
 فَانْعَجَمَتْ نَفْسِي عَنِ الْإِجَابَتِهِ  
 مَعَ أَنْتِي مَقْصَّرٌ ذُو عِيٍّ  
 وَخَفْتُ أَنْ آتِيَهَا شِنْعَاءَ  
 وَبَعْدَ ذَا أَجَزْتُ قَصْدَ الْأَجْرِ  
 وَقَدْ أَحْبَبْتَهُ وَإِنِّي أَعْلَمُ  
 فَلَئِي وَهِيَ بِالْبَلْغِ التَّمَنِّي  
 مِنْ ذَلِكَ الْجَامِعِ لِلْبُخَارِيِّ  
 سَعِيدِ الْآخِذِ عَنِ سَفِينِ  
 عَنِ حَافِظِ الْإِسْلَامِ أَعْنِي ابْنَ حَجْرٍ  
 وَبَعْضُهَا فِي صَدْرِ فَتْحِ الْبَارِي  
 وَلِي أَسَانِيدُ يَطُولُ شَرْحُهَا  
 وَمِنْ رَوَايَاتِي عَنِ الْقَصَّارِ  
 حَدَّثَنَا خُرُوفُ الذَّاكِي الْأَرْجِ  
 سَمِعْتُ فِي الْمَنَامِ طَهَ يَمْلِي  
 أَيَّ آمَنًا فِي سِرْبِهِ مَعَا فِي



وكلُّ ما ألفتُ في الفنونِ      أرجو بهِ التحقيقَ للظنونِ  
 فليروِه عني بشرطٍ معتبرٍ      وربّما يصدّق الخبرُ الخبرُ  
 ولي تأليف على العشرينا      زادت ثمانياً حوتَ تعيننا  
 فليروها إن شا بلا استثناء      والله أرجو نيلَ قصدِ نائي  
 بجاهٍ من شُرفَ بالإدناء      صلّى عليّه الله في الآناء  
 أحمدَ خيرِ المرسلينَ الهادي      غوثِ البرايا مَلجأ الأَشهادِ  
 عليّه أسنى صلواتِ زاكيه      مع صحبه ذوي المزايا الزاكيه  
 ومن تلا ممّن أطابَ عمَلَه      فنالَ من رجائه ما أمَلَه  
 وشمّ من عرّفِ قبولِ أرجا      فنال من حُسْنِ الختامِ ما رجا

وخطبني من أهلها أيضاً خادماً الشيخ الأكبر ابن عربي محيي الدين ، وهو  
 الشيخ الأكرمي سيدي إبراهيم<sup>٢</sup> ، سلك الله بي وبه سبل المهتمدين ، بقوله :

فكرتُ في فضلِ الإما      مِ المقرّيِّ الخبرِ حيناً  
 فوجدته بكرّ الزما      نِ وواحدَ الدنيا يقيناً  
 ما إن رأيتُ ولا سمع      تُ بتمثله في العالمينا  
 وافى دمشقاً زائراً      لو أنّهُ أضحى قطيناً  
 وأتى عجيبُ الاتفا      ق بفطرِ شهرِ الصائمينا  
 فكأنَّ عُرته الهلا      لُ ونحن كنا ناذرينا  
 والعلمُ قالَ مؤرخاً      أدّى بها فضلاً ميينا

وخطبني أيضاً منهم الفقيه النبيه سيدي مصطفى بن محب الدين<sup>٣</sup> حفظه الله

١ ق ودرزي : تعيننا .

٢ هو إبراهيم بن محمد الدمشقي الصالح المعروف بالأكرمي ، كان شاعراً مشهوراً في عصره بخمرياتة  
 وغزلياته ، وهو وآباؤه خدام باب الشيخ ابن العربي ، توفي سنة ١٠٤٧ ودفن بسفح قاسيون  
 (خلاصة الأثر ١ : ٣٩) .

٣ هو مصطفى بن أحمد بن منصور بن إبراهيم بن محمد سلامة أبو الجود ابن محب الدين الدمشقي =

تعالى بقوله :

فضائلُ قطبِ الغربِ في العلمِ والفضلِ  
حوى كلِّ علمٍ كلِّ عن بعضه السَّوى  
وحازَ فنوناً من ضروبِ معارفِ  
توخَّى دمشقَ الشامِ فافتَرَّ ثغرها  
وشرفَ مصرأً قبلها فاكْتَسَتْ بهِ  
لقدْ أشرقَتْ من أفقِ غربِ شموْسُه  
نفاستُه فيها تنافستِ الورى  
مليٌّ من التحقيقِ إنْ عنَّ مشكلٌ  
إذا ما أدار الدرَّ من كأسِ لفظه  
نظامٌ له يُحكى فلانْدَ عسجدِ  
وأسْجاعُه إنْ حاكَ وشيَ نسيجها  
لهُ القلمُ الأعلى بشرقٍ ومغربِ  
فيا سيِّداً حازَ المفاخرَ والعُلا  
إليكَ من العبدِ الحَقيرِ تحيةً  
مُوالِ يوالي الحبَّ والقربَ منكمُ  
فلا زلتَ محبوباً بسابغِ نعمةٍ  
ودمتَ لدى الأسفارِ في نُججِ أوبةٍ

هو المقرِّيُّ الأصلِ حائزةُ الحصلِ  
فلا غرو أن أضحى فريداً بيلا مثلِ  
ومن فضلِ تحقيقِ ومن منطقِ فصلِ  
سروراً بهِ وازيَّنتُ من حلِ الفضلِ  
ملايسَ فخرِ زانها كرمُ الأصلِ  
وناهيكَ أفقاً نورُه قَدْرَه مُعْلي  
بما قد غدا من درِّ ألفاظه يمي  
تكفلُ بالتيبانِ والشرحِ والحلِّ  
سقانا عقارَ الفضلِ عللاً على نهْلِ  
وثغرُ ملبحٍ فائقُ الحسنِ والذلِّ  
حكّتَ حبراً حيكّتَ نمارقَ من غزلِ  
لهُ الموضعُ الأسمى على الكلِّ في الكلِّ  
وفاقتُ حلِّي الآدابِ منهُ على الحلِّي  
لقد نشأتُ عن خالصِ الودِّ من خلِّ  
بظاهرِ غيبِ لا يجيدُ عنِ الوصلِ  
وفضلِ نعيمِ وافِرِ وارِفِ الظلِّ  
وجمَّعِ لشمْلِ بالمواطنِ والأهلِ

وخطبني أيضاً الشيخُ سيدي محمد بن سعد الكلشني بقوله :

شهرُ شعبانَ جاءنا ليهنَّا بِقِدومِ الأستاذِ كثرِ الفضائلِ

= الأديب ، سافر مرتين إلى مصر ودرس في الجامع الأزهر ثم تولى التدريس بجامع بني أمية بدمشق ،  
توفي سنة ١٠٦١ ( خلاصة الأثر ٤ : ٣٦٥ ) .

بَهْجَةِ الكونِ رَوْضِ عِلْمٍ وَحِلْمٍ  
بِمَصَابِيحِ فَضْلِهِ قَدْ أَضَاءَتْ  
وَبِمُخْتَارِ لَفْظِهِ صَارَ يَجْوِي  
وَمِنَ الْغَرْبِ حِينَ وَافَى لَشَرْقٍ  
حَلَّ مَنِي فِي الْقَلْبِ وَالطَّرْفِ لَمَّا  
وَعَدَا بِالْأَمَانِ وَالسَّعْدِ أَرَخَ  
وَهُوَ مُخْتَبِرُ اللَّيْبِ إِنْ جَاءَ سَائِلٌ  
سَاحَةُ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ لِأَمَلٍ  
لِحَدِيثِ مُسْتَسْلِلٍ عَنِّ أَفْضَلِ  
فَاقَ بَدْرَ التَّمَامِ وَسَطَ الْمَنَازِلِ  
لَا حَ سَعْدُ السَّعُودِ لِي غَيْرَ آفَلِ  
أَحْمَدُ الْمُقَرِّيُّ بِالشَّامِ قَائِلٌ

وقال أيضاً شكراً لله تعالى نيته ، وبلغه أمنيته :

أَتَاكَ دِمَشْقَ الشَّامِ أَكْرَمُ وَارِدِ  
وَهَزَيْ دِلَالَاً فِي أَزَاهِرِ رَوْضِهِ  
لَكَ الْبِشْرُ يَا عَيْنِي ظَفَرْتِ بِأَمْجَدِ  
لَقَدْ شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ وَاسِعُ فَضْلِهِ  
مِنَ الْعَالَمِ الْفَرْدِ الْمَفِيدِ الَّذِي لَهُ  
وَذَاكَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ مَن صَفَّتْ  
تَرَاهُ إِذَا وَافَيْتَهُ مَتَهَلَّلَا  
لِإِمَامٍ سَمَا قَدْرًا عَلَى النَّجْمِ رَفْعَةً  
لَدَيْهِ ارْتِفَاعُ الْمُشْتَرِي وَسَعُودُهُ  
شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ أَوْلَاهُ مَنحَةً  
وَمَذْحَلَّ فِي وَادِي دِمَشْقِ رَكَابُهُ  
حَوَى كُلَّ إِفْضَالٍ وَكُلَّ فَضِيلَةٍ  
وَمَاذَا عَسَى فِي مَدْحِهِ أَنَا قَائِلٌ  
إِذَا رَمَتْ أَنْ تَلْقَى نَظِيرًا لِمِثْلِهِ  
فَكَمْ مِنْ مَعَانٍ حَازَهَا بَيَانِهِ  
وَمِنْطَقُهُ حَاوِيَ الشَّقَا بِجَوَاهِرِ

فَقَرِّي بِهِ عَيْنًا وَلِلْحَسَنِ شَاهِدِي  
مَعَاطِفَ لَيْنٍ كَالْفِصُونَ الْأَمَالِدِ  
رَفِيعِ الذَّرَى مِنْ فَوْقِ فَرَقِ الْفِرَاقِدِ  
فَكَمْ قَاصِدٍ يَسْعَى لِنَيْلِ الْفَوَائِدِ  
أَيَادٍ سَمَّتْ بِالْجُودِ تَوَلَّى لِقَاصِدِ  
مَنَاهِلُهُ دَوْمًا إِلَى كُلِّ وَارِدِ  
وَيَسِمُ حُبًّا فِي وَجْهِهِ الْأَمَاجِدِ  
أَرَى وَصْفَهُ فِي بَيْتِ نَظْمِ مَشَاهِدِ  
وَسَطْوَةَ بَهْرَامٍ وَظَرْفَ عَطَارِدِ  
بِنَقْلِ حَدِيثِ فِي جَمِيعِ الْمَسَاجِدِ  
وَسُودَدَهُ وَافَى بِأَعْدَلِ شَاهِدِ  
بِهَا يَهْتَدِي حَقًّا لِنَيْلِ الْمَقَاصِدِ  
وَلَوْ جِئْتُ فِيهِ مَطْنَبًا بِالْقَصَائِدِ  
عَجَزْتُ وَرَبَّ النَّاسِ عَنِّ عَدُّ وَاحِدِ  
وَفَكَرْتُهُ قَدْ قَيَّدَتْ لِلشُّوَارِدِ  
صَحَاحَ بِهَا يَزْدَانُ عَقْدُ الْقَلَائِدِ

شموسُ علومٍ أسفرتُ عن محامد  
تواترتِ الأخبارُ عن غيرِ واحد  
فأنتَ لموصولِ الجَدَا خيرُ عائد  
وأنتَ يميني للحسودِ وساعدي  
لبغيته من صادرٍ ثمَّ وارد  
بثوبِ الهنا تُكفِي شرورَ الحواسد  
إليك أتتُ في زيِّ عذراءِ ناهد  
بجبرِ جزيلٍ من لذيذِ الموائد  
بحضرتك العلياءِ يا خيرَ ماجد  
مدى الدهرِ ما سَحَّ الحيا في الفدافد  
وما بزغتُ شمسُ الضحى للمشاهد

من الغربِ وافى نحو شرقٍ فأشرقت  
فناديتهُ يا سيدي مَنْ بفضله  
عسى عطفةٌ منكم عليَّ بنظرةٍ  
وأنتَ علي ريبِ الزمانِ مُساعدي  
فلازلتُ تولي كلَّ من هو آملُ  
وتبقى مدى الأيامِ في المجدِ رافلاً  
وهاك عروساً تجتلي في حلبيها  
تُهسِّي بعيدَ الفطرِ من بعد صومكم  
وترجو جميلَ السرِّ إن هي مثلتُ  
وعشُّ في أمانِ الله بالعزِّ دائماً  
وما دارتِ الأفلاكُ من نحو قطبها

وقال أيضاً زاده الله تعالى من فضله :

أعجز بالوصفِ كلَّ قائلٍ	ظبيُّ بوسطِ الفؤادِ قائلٍ
وسحرها ينتمي لبآبيلٍ	ظبيُّ بأجفانه سباني
يرنو فيصمي الفؤادَ عاجلٍ	يرمي بسهمِ اللحاظِ لما
عليَّ حتى غدوتُ ذاهلٍ	قد فتنَ العقلَ مد تجنني
أو كالفنا السّمهريِّ عادلٍ	له قوامٌ كخوطِ بانٍ
في القلبِ والطرفِ عاد نازلٍ	بدرٌ بدا كاملَ المعاني
بقيدِ حُسنٍ وفرعِ سابلٍ	قد أسرَّ القلبَ في هواه
سوى مديحي رضى الأفاضلِ	وما بقي منه لي خلاصٌ
سما على البدرِ في المنازلِ	أعني به المقرِّي مَنْ قد
كالغيثِ يغني لكلِّ سائلٍ	أحمدُ مولى له أيادٍ
سبقاً ومن بالعلومِ عاملٍ	علامةٌ حاز كلَّ فضلٍ

من قد نشأ في العلوم طُرّاً  
طويلٌ باعٍ بسيطٌ فضلٌ  
ووافرٌ العقلِ راح يهدي  
وجامعُ العلمِ في ابتهاجٍ  
وهكذا في الكلامِ مهما  
يروى صحيحَ الحديثِ دأباً  
وكم علومٍ أفادَ مَنْ قد  
وحلَّ إِيهامَ كلِّ شكلٍ  
وغاص في بلجةِ المعاني  
وفي فنونِ البديعِ أضْحى  
وكمّ دليلٍ أقامَ لَمَّا  
إن كانَ وافى لنا أخيراً  
بجرٍ محيطٌ يفيضُ مِنْهُ  
وافى من الغربِ نحوَ شرقٍ  
في مهمهٍ صحصحِ مَهُولٍ  
وحثَّ فيه المسيرَ حتى  
وجاء باليُمْنِ في أمانٍ  
وحلَّ في الشامِ عند قومٍ  
ذاك ابنُ شاهينَ ذو المعالي  
كأتهُ الشمسُ جاء يهدي  
بل كان غيثاً لهم وكانوا  
فبَجَدُوا عَظْمَوه وعَظْمَوه

وحازَ علمَ البيانِ كاملٌ  
مديدٌ جودٍ لكلِّ آملٍ  
سريعَ فضلٍ لكلِّ فاضلٍ  
بمنطقٍ في الأصولِ حافلٍ  
أفاده في الدروسِ شاملٍ  
بالسَنَدِ الواصلِ الدلائلُ  
أناهُ في مشكلِ المسائلِ  
من فنِّ وَفَّقَ إلى الوسائلِ<sup>١</sup>  
واستخرج الدرَّ في المحافلِ  
جِناسُهُ قد حوى رسائلُ  
برهانهُ أبهتَ المعازلُ  
فهو الذي فاخرَ الأوائلُ  
على رياضٍ بكلِّ ساحلٍ  
يجوبُ من فوقِ متنِ بازلٍ  
وحزَنُهُ كم به غوائلُ  
خلَقَهُ من وراءِ كاهلٍ  
وصحَّةِ الجسمِ والشمائلُ  
من أكرمِ الناسِ في القبائلُ  
ربُّ الندى للألوفِ باذلٍ  
للبدْرِ نوراً وليس آفلُ  
روضاً أريضاً لشكرِ وابلٍ  
وادخروا عاجلاً لآجلُ

١ يشير إلى عنوان مؤلف للمقري وهو : في الوقف الخمس الخالي الوسط .

جزاهمُ اللهُ كلَّ خيرٍ      وصانهم من جدالِ جاهلٍ  
وأحمدٌ دامَ في أمانٍ      المقريُّ الرضى المعاملُ  
لربه في دجى الليالي      ويرشدُ الناسَ في الأصائلِ  
لا زال في نعمةٍ وخيرٍ      وفي أمانٍ يعودُ عاجلُ

وخطبني الأديب الفاضل ، الشيخ أبو بكر العمري شيخ الأدباء بدمشق ،  
حفظه الله تعالى ، بقوله :

تاهت تلمسان على مُدنِ الدني      بعالمٍ في العالمينِ يحمِدُ  
المقريُّ أحمدٌ ربُّ الحجي      الكاملُ البحرُ الخضمُ المزبدُ  
مالكُ هذا العصرِ شافعيُّهُ      أحمدُهُ نِعمانُهُ المسدُّ  
مذ حلَّ مصرَ أذعنت أعلامُها      لفضله وبجَلُّوا ومجدُّوا  
وفي دمشقِ الشامِ دامَ سعدُها      كان لهُ بها المقامُ الأسعدُ  
العلماءُ أجمعوا جميعُهُم      على معاليه التي لا تُجحدُ  
أقامَ شهراً أو يزيدَ وانثنى      وفي الحشامِنته المُقيمُ المقعدُ  
سالتُ على فراقه دموعنا      وفي القلوبِ زفرةٌ لا تخمدُ  
لو قيل من يُحمدُ في تاريخه      ما قلتُ إلا المقريُّ أحمدُ  
لا برحتُ أوقاته مفيدةً      ما صاحَ فوق عودِهِ مُغرِدُ

قلتُ : وذكرى لكلام أعيان دمشق - حفظهم الله تعالى - ومديحهم لي ،  
ليس - علم الله - لاعتقادي في نفسي فضلاً ، بل أتيت به دلالة على فضلهم الباهر ،  
حيثُ عاملوا مثلي من القاصرين بهذه المعاملة ، وكسوة حلل تلك المجاملة ،

١ هو الأديب أبو بكر ابن منصور بن بركات بن حسن بن علي العمري الدمشقي ، كان ينظم الموشح  
والدوبيت وأنواع الزجل وهو سابق في كل فن منها ، وقد كان كثير الرحلة والتنقل ، توفي  
آخر جمادى الآخرة سنة ١٠٤٨ ( خلاصة الأثر ١ : ٩٩ ) .

مع كوني لستُ في الحقيقة له بأهل ، لما أنا عليه من الخطأ والخطل والجهل .  
 ولقد خاطبتُ من مصر مفتي الشام صدر الأكابر ، وارث المجد كابرأ  
 عن كابر ، صاحب أذبال الكمال ، صاحب الخلال المبلغة الآمال ، مولانا شيخ  
 الإسلام الشيخ عبد الرحمن العمادي الحنفي ، بكتاب لم يحضرنى منه الآن غير  
 بيتين في أوله ، وهما :

يا حادي الأظعان نحو الشامِ      بلِّغ تحياتي لتلك الخيام<sup>١</sup>  
 وابداً بمفتيها العمادي الرضى      دام به شملُ هنا<sup>٢</sup> في التمام  
 فأجاني بما نصّه :

إلى أهالي مصرَ أهدي السلام      مبتدئاً بالمقريِّ الهمام  
 من ضاع نشرُ العلم من عرفه<sup>٣</sup>      ولم يضع منه الوفا للذمام

أهدي تحف التحية ، إلى حضرته العلية ، وذاته ذات الفضائل السنية الأحمدية ،  
 التي من صحبها لم يزل موصولاً بطرائف الصلوات والعوائد ، الأوحديّة  
 الجامعة التي لها منها عليها شواهد<sup>٤</sup> :

وليسَ لله بمستنكرٍ أن يجمعَ العالم في واحد

فيا من جذب قلوب أهل عصره إلى مصره<sup>٥</sup> ، وأعجز عن وصف فضله  
 كلِّ بليغ ولو وصل إلى النثرة<sup>٥</sup> بنثره ، أو إلى الشعري بشعره ، ومن زرع حبَّ  
 حبه في القلوب فاستوى على سوقه ، وكاد كل قلب يذوب بعدد بعده من

١ ق : الهام .

٢ دوزي : الهوى .

٣ البيت لأبي نواس .

٤ في نسخة : لمصره .

٥ النثرة : اسم لكوكبين .

حر شوقه ، وظهرت شمس فضله من الجانب الغربي فبهرت بالشروق ، وأصبح كل صب وهو إلى بهجتها مَشُوق ، زار الشام ثم ما سلّم حتى ودّع ، بعد أن فرغَ بروضها أفنانَ الفنون فأبدع ، وأسهم لكلِّ من أهلها نصيباً من واداه ، فكان أوفرهم سهماً هذا المحب الذي رفع بصحبته سمكَ عماده ، وعلق بمحبته شغاف فؤاده ، فإنه دنا من قلبه فتدلّتي ، وفاز من حبه بالسهم المُعلّتي ، أدام الله تعالى لك البقا ، وأحسن لنا بك الملتقى ، ومنّ علينا منك بنعمة قرب اللقا ، آمين بمنّه ويمنه . هذا ، وقد وصل من ذلك الخللّ الوفيّ ، كتابٌ كريم هو اللطف الخفيّ ، بل هو من عزيز مصر القميصُ اليوسفي ، جاء به البشير ذو الفضل السني ، الخلل الأعز الأجل التاج المحاسني ، مشتملاً على عقود الجواهر ، بل النجوم الزواهر ، بل الآيات البواهر ، تكاد تقطر البلاغة من حواشيه<sup>١</sup> ، ويشهد بالوصول إلى طرفها الأعلى لمُوشّيه ، فليت شعري بأي لسان ، أنثي على فصوله الحسان ، العالية الشان ، الغالية الأثمان ، التي هي أنفس من قلائد العُقيان ، وأبدع من مقامات بديع الزمان ، فطفقت أرتعُ من معانيها في أمتع رياض ، وأقطع بأنّ في منشئها اعتباضاً لهذا العصر عن عياض<sup>٢</sup> :

لَيْتَ الكواكبَ تدنو لي فأنظِمَها      عَقُودَ مَدَحٍ فلا أرضى لها كلمي

ولا سيما فصل التعزية والتسلية ، المشتمل على عقد التخلية بل عقود التخلية ، لتلميذكم الولد إبراهيم ، فإنه كان له كَرُفُية السليم ، بعد أن كاد يهيم ، فجاء ولله درّه في أحسن المحالّ ، ووقع الموقع حتى كأن الولد نشط ببركته من عِقال :

وإذا الشيءُ أتى في وَقْتِهِ      زاد في العينِ جمالاً بحمال

١ تكاد . . . حواشيه : سقطت من ق .

٢ البيت لعمارة اليميني (النكت المصرية : ٣٣) من قصيدة يمدح فيها الفائز الفاطمي ووزيره

الملك الصالح طلائع بن رزيك ومطلعها :

الحمد لليس بعد العزم والهمم      حمداً يقوم بما أولت من النعم



فجزاكم الله تعالى عنا أحسن الجزاء ، ثم أحسن لكم جميل العزاء ، فيمن ذكركم من كريمي الأصل والفرع ، وأبقى منكم ما كثر في الأرض من به للناس أعمُّ النفع . وأمّا من كان وليي وسميي ومنجدي ، الشهيد السعيد المرحوم الشيخ عبد الرحمن المرشدي ، فإنّها وإن أصابت منّا ومنكم الأخوين ، فقد عمّت الحرمين ، بل طمت الثّقليّين ، ولقد عدّ مصابه في الإسلام ثلّمة ، وفقد به في حرم الله تعالى من كان يدعى للملّة ، ولم يبق بعده إلاّ من يدعى إذا يُحاس الحيس<sup>١</sup> ، واستحق أن ينشد في حقّه وإن لم يُقس به قيس<sup>٢</sup> :

وما كان قيسٌ هُلكهُ هُلكٌ واحدٍ ولكنّه بُنيانُ قومٍ تهدّما

فالله تعالى يرفع درجاته في عليّين ، ويبقي وجودكم للإسلام والمسلمين ؛ وتلامذتكم الأولاد ، يرجون من بركات أدعيتكم أعظم الأمداد ، ويهدّون أكمل التحيّة ، إلى حضرتكم العليّة ، ونبلغكم دعاء صاحب السعادة ، أدام الله تعالى إسعادكم وإسعاده ، ونحن من صحبته الشهية ، في رياض فنون أدبية ، أبهاها لمعات محاضرة في ذكر شمائلكم الجميلة ، تنور المجالس ، وأشهاها نسّمات محاورة بنشر فضائلكم الجليلة ، تعطر المجالس ، وسلام جملة الأصحاب من أهل الشام ، وعامة الخواص والعام ، والدعاء على الدوام – المخلص الداعي عبد الرحمن العمادي ، مفتي الحنفية ، بدمشق المحمية .

ووردت عليّ مع المکتوب المذكور مكاتبات لجماعة من أعيان الشام حفظهم الله تعالى ؛ فمنها من الصديق الحميم ، الرافل في حلل المجد الصميم ، الخطيب ، الأديب ، سيدي الشيخ المحاسني يحيى ، أسمى الله تعالى قدره في الدين والدنيا ، كتابان نصّ أولهما : باسمه سبحانه :

١ إشارة إلى قول الشاعر (السمط : ٢٨٨ وذيله : ٨٦ ، ٨٤) :

وإذا تكون كربة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

٢ البيت من قصيدة لعبد بن الطيب يرثي فيها قيس بن عاصم (حسامة المرزوقي : ٧٩٠) .

لئن حكمت أيدي التوى وتعرضت عوارضُ بينِ بيننا وتفرقُ  
فطرفي إلى رؤياكم متشوقٌ وقلبي إلى لقياكم متشوقٌ

يقبل الأرض الشريفة لا زالت مركزاً لدائرة التهاني ، وقطباً لفلك تجري  
المجرة في حُجْرته على الدقائق والثواني ، ولا برحت ألسن البلاغة عن تمييز  
براعة يراعة حامي حماها معربة ، وבלابل الآداب على الأغصان في رياض فضله  
بمثاني الثناء صادحة ، وبألحان سجعها مطربة :

أرضٌ بها فللك المعالي دائرٌ والشمسُ تُشرقُ والبدورُ تحومُ  
ولها من الزهرِ المنضدِ أنجمٌ ولها على أفقِ السماءِ نجومُ

عمر الله تعالى بالمسرات محلها ، وعم بالخيرات من حلها ، وبيئديء  
بسلام يجبر عن صحيح وده السلم ، ومزيد غرام يؤكد حبه الذي هو للولاء  
حازم ، وينعت شوقاً يحرك ما سكن صميم الضمير ، من صدق حب سلم جمعه  
من التكسير ، ويؤكد السلام بتوابع المدح والثناء ، ويعرب عن محبة مشيدة البناء ،  
وينتهي أن السبب في تسطيرها ، والباعث على تحويرها ، أشواق أضرم نارها في  
الفؤاد ، ومحبة لو تجسمت لمئات البلاد ، وأقول :

شوقي لذاتك شوقٌ لا أزالُ أرى أجدّه يا إمامَ العصرِ أقدّمه  
ولي فمٌ كاد ذكرُ الشوقِ يحرقه لو كان من قال: نارٌ، أحرقت فمه

هذا وإن تفضل المولى بالسؤال عن حال هذا العبد فهو باقٍ على ما تشهد  
الذات العلية، من صدق المحبة وريق العبودية، ولم يزل يزين أفق المجالس بذكركم ،  
ولا يقتطف عند المحاضرة إلا من زهركم ، ولم ينس حلاوة العيش في تلك  
الأوقات التي مضت في خدمتكم المحروسة بعناية الملك المتعال ، وليالي الأنس  
التي قيل فيها ، « وكانت بالعراق لنا ليال » :

واهاً لها من ليالٍ هل تعودُ كما كانت ، وأيُّ ليالٍ عاد ماضيها ؟  
لم أنسها مذ نأت عني ببهجتِها وأيُّ أنسٍ من الأيامِ يُنسيها ؟

فنسأل الله تعالى أن يمن بالتلاق ، ويفصل مانعة الجمع بطي شقة الفراق ،  
إن ذلك على الله يسير ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير .

وبعدُ ، فالمعروض على مسامح سيدي الكريمة ، لا زالت من كل سوء  
سليمة ، أنه وصلنا مکتوبكم الكريم ، صحة العم المحب القديم ، فحصل لهذا  
العبد به جبرٌ عظيم ، وأنسٍ جسيم ، كما شهد بذلك السميع العليم ، فعزمت  
على ترك الإجابة ، لعدم الإجابة ، ومتى تبلغ الألفاظ المذمومة ما بلغته الألفاظ  
المقرّية ؟ وأين يصل صاحب الزمّر كما قيل إلى الدقات الخليلية ؟ ولكنني خشيت  
من ترك الإجابة توهم تقص ما أبنيه من رق العبودية وصحة الوداد ، ومن  
انقطاع برق شيعي الذي هو لبّيت شرفي العُمدة والعماد ، فلزم من ذلك أن  
كتبت لحنابه الشريف الجواب ، وإن كان خطؤه أكثر من الصواب ، وأرسلته  
قبل ذلك بعشرة أيام ، ومكتوب هذا العبد صحبته مکتوبان : أحدهما من  
محبكم شيخ الإسلام المفتي العمادي ، والآخر من محبكم أحمد أفندي الشاهيني ،  
وهما وبقية أكابر البلدة وأعيانها يبلغونكم السلام التام ، ولا تؤاخذونا في هذا  
المكتوب فإنني كتبتُه عَجلاً ، ومن جنابكم حَجلاً ، دام خيركم على الدوام ،  
إلى قيام الساعة وساعة القيام ، وحرره يوم الاثنين ١١ من جمادى الثانية سنة  
١٠٣٨ ، الفقير الداعي يحيى المحاسني ، انتهى .

ونصّ الكتاب الثاني من المذكور أسماء الله باسمه سبحانه : مخلصك الذي  
محض لك وداده ، ومحبك الذي أسلم لمحبتك قياده ، بل عبدك الذي لا يروم  
الخروج عن رقك ، وتلميذك الذي لم يزل مغترفاً من فيض علومك ، معترفاً  
بحقك ، من أسكنك لبه ، وأخلص لك حبه ، واتخذك من بين الأنام ذخرآ  
نافعاً ، وكهفأ مانعاً ، ومولى ربيعاً ، وشهاباً ساطعاً ، وتشبث بأسباب علومك

وتمسك ، يهدي إليك سلاماً كأنما تعطرَ بمسك ثنائك وتمسك ، واكتسب  
من لطف طبعك الرقة ، واستعار من سنا وجهك حلة مستحقة ، ونحية لم يكن  
منه إلا أن تكون بالمواجهة ، والمحاضرة والمشافهة ، على أن فؤاده لم يبرح لك  
سكناً ، وأحشاه لك موطناً ، ويبيدي دعواتٍ يحقق الفضلُ أنها من القضايا  
المنتجة ، وأن أبواب القبول لها غير مُرتجة ، مقبلاً أياديك التي وكفتُ  
بوابل جودها ، وكفتُ المهمَّ بنتائج سعودها ، وحاكت الوشي المرقوم ،  
وسلكت الدرَّ المنظوم ، فهذا يرفل في حللها ، وهذا يتحلى بعقودها :

فَهِيَ التي تَعْنُو الرِيَّاضُ لِرَقْمِهَا وَيَعَارُ منها الدُّرُّ في تنضيدها  
وَيَحَارُ أربابُ البيانِ لنظمها فهمُ بحضرتها كبعض عبيدها

تمسكاً من ولائك بوثق العرى ، متمسكاً من ثنائك الذي لا يزال الكون  
منه معبراً ، متشوقاً للقائك الذي بالمهج يُستام وبالنفوس يشتري ، متشوقاً إلى ما  
يرد من أنباتك التي تسرُّ خبراً ، وتحمد أثراً ، أعني بذلك المولى الذي أقام بفناء  
القساط مخيماً ، وانتجع حماه رائد الفضل ميمماً ، وشدَّت لفضائله الرِّحال ،  
ووقفت عندها بل دونها فحول الرجال ، وطلعت شمس علومه في سماء  
القاهرة ، فاخْتَفَتْ نجومُ فضلائها والأشعة باهرة :

هو الشمس علماء والجميع كواكبُ إذا ظهرت لم يبدُ منهن كوكبُ

فهو العالم الذي سرى ذكره في الآفاق ، مسير الصبا جاذب ذيلها النسيمُ  
الخطّاق ، الذي أطلع شمس التحقيق من أفق بيانه ، وأظهر بدرُ التدقيق من  
تبيانه ، فلهذا عَقَدت عليه الخناصر بين علماء عصره ، وانعظتُ إليه الأواصر  
من فضلاء مصره ، فلا يُضاهيه في ذلك أحد في زمانه ، وينسق ما نسقه من دره  
ومرجانه ، فهو المَعْوَل عليه في مشكلات العلوم ، معقولها ومنقولها والمنطوق  
والمفهوم ، الذي لم تسمح بمثله الأزمان والعصور ، ولم يأت بنظيره تتابعُ الأعصار

والدهور ، مَنْ عجز لسان القلم ، عن التصريح باسمه الشريف في هذا الرقم ، لا زالت المدارس مشرقة بإلقائه فيها الدروس ، ولا برحت البقعة عامرة بوجوده بعد الدروس ، ما سَطَّرت آيات الأشواق في الصحائف والطرروس ، وأرسلت من تلميذ إلى أستاذ بسبب نسبته إليه فحصل على المطلوب من شرف النفوس ، هذا ، والذي يُبْدي لحضرتكم ، ويُنهي لطلعتكم ، أن الراقم لهذه الصحيفة ، المشرفة ببعض أوصافكم اللطيفة ، المرسله لساحة فضائلكم المنيفة ، هو تلميذكم من تشرف بدرسكم ، وافتخر بإجازتكم ، يبدي لكم تلهفه لئيران أشواقه التي التهبت ، وتأسفه على الأيام السالفة مذهبة في خدمتكم<sup>١</sup> لا ذهبت ، وتوجهه لهذه الأزمان التي استرجعت بالبعد عنه من ذمته ما وهبت ، وتطلعه إلى ما يَشْنَفُ به الأسماع من فضائله التي سلبت<sup>٢</sup> العقول وانتهبت ، فلم يزل يسأل الرواة عنها ، ليلتقط منها ، وقد تحقّق أن فرائدها لا يُلْفِي لها نظيراً ولا يدرك لها كُنْها<sup>٣</sup> ، وكيف لا ومنها يتعلّم الفاضل اللبيب ، وإليها يفتقر السعيد ويتودّد حبيب ، وعليها يعتمد ابن العميد ، ولم تنفك راقية في درج المزيّد ، وعبد الحميد عبد الحميد ، وعلم شيخني محيط بصدق محبتي وإخلاصها ، وشدة حرصي على تحصيل فوائد مولانا واقتناصها ، وأنتي لا أزال ذاكراً لمحاسنه التي ليست في غيره مجموعة ، ومتطفلاً على ثمار أفكاره التي هي لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وخاطره الشريف على الحقيقة يشهد بذلك ، فلا يحتاج هذا العبد إلى بيّنة لدى مولانا الأستاذ المالك ، وحقيق على من فارق تلك الأخلاق الغرّ ، والشمائل الزهّرة ، والعشرة المشوقة ، والسجايا الموموقة ، والفضائل الموفورة ، والمآثر المشهورة ، أن يشقّ جيّب الصبر ، ويجعل النار حشواً الصدر :

١ أشواقه . . . خدمتكم : سقطت من ق .

٢ ق : سلبتها .

٣ ق ودوزي : ولا يدرك كنهها .

وإنّي لتعروني لذكراك هزّة<sup>١</sup> كما انتفضّ العصفورُ بلبّه القطرُ<sup>١</sup>  
ولو ملكتُ مرادي ، لما اخضرتُ إلاّ في ذّراه مرادي ، بل لو دار الفلك  
على اختياري ، لما نصّوتُ إلاّ عنده ليلى ونهاري :  
ولو نعطى الخيارَ لما افترقنا ولكن لا خيارَ مع الزّمان

وتحت ضلوعي لوعة لو كتمتها<sup>\*</sup> لحفتُ على الأحشاء أن تنصّراً  
ولو بحتُ في كتبي بما في جواحي<sup>\*</sup> لأنطقتها ناراً وأبكيها دماً

وأنا لا أفرح على الدهر إلاّ لقياه ، ولا أقطع حاضرَ الوقت إلاّ بذكراه ،  
وما أعد أيامي التي سعدتُ فيها بلفائه إلاّ مفاتيح السرور ، ومطالع السعود  
والخبور ، ولست أعيبها إلاّ بقلّة البقاء ، وسرعة الانقضاء ، وكذلك عمر السرور  
قصير ، والدهر بتفريق الأحبة بصير ، وربما اهترّ العود بعد الذبول ، وطلع  
النجم بعد الأفول ، وأدبيل الوصال من الفراق ، وعاد العيش المرّ حلّوا المذاق :

وما أنا من أن يجتمع الله شملنا كأحسن ما كنّا عليه بآيس

فأمّا الآن فلا أزجي الوقت إلاّ بقلب شديد الاضطراب ، وجوانح لا تفيق  
من التوقد والالتهاب ، وكيف لا وحالي حالُ من ودّع صفو الحياة يوم ودّاعه ،  
وانقطع عنه الأنس ساعة انقطاعه ، وطوى الشوق جوانحه على غليل ، وحلّ  
أضلاعه على كمد دخيل ، وأغرى بي فلزمني ولزمته ، وألف بيني وبين الوجد  
فألفيتي وألفته ، فلا أسلك للعزاء طريقاً إلاّ وجدته مسدوداً ، ولا أقصد للصبر  
باباً إلاّ ألفيته مردوداً ، ولا أعدّ اليوم بعد فراق سيدي إلاّ شهراً ، والشهر دون  
لقائه إلاّ دهرأ ، ولست بناس أيامنا التي هي تاريخ زماني ، وعنوان الأماني ،  
إذ ماء الاجتماع عذب ، وغصن الازديار<sup>٢</sup> رطب ، وأعين الحواسد راقدة ،

١ البيت لأبي صخر الهذلي (ديوان الهذليين : ٩٣٠) وينسب أحياناً لغيره .

٢ ق : الازدياد .

وأسواق صروف الدهر كاسدة ، فما كانت إلاّ لمحة الطرف ، ووثبة الطّرف ، ولمعة البرق الخاطف ، وزوارة الخيال الطائف ، وما تذكّر تلك الأيام في أكناف فضائله ونصرتّها ، ورياض علومه في ظلّه وخضرتّها ، إلاّ أوجب على عينه أن تدمع ، وانثى على كبده خشية أن تصدّع<sup>١</sup> ، ثم لما ورد على عبدكم مكتوبكم الكريم ، صحبة حضرة العم المحبّ القديم ، فكان كالعافية للصبّ السقيم ، كما يشهد بذلك السميع العليم ، فوقف له<sup>٢</sup> منتصباً ، وخفّف عنه برؤيته وصباً ، وذكر أيام الجمع فهام وجدأ وبها صباً ، فاستخفّه الإعجاب طرباً ، وشاهد صدوره فقال : هكذا تكون الرياض ، وعين لطفه فقال : هكذا تكون الصّبا ، وقبّل كل حرف منه ووضع على الراس ، وحصل له<sup>٣</sup> بعد ترقبه غاية<sup>٤</sup> المجاورة<sup>٥</sup> والاستئناس ، فعند ذلك أنشد قول بعض الناس :

ورَدَ الكتابُ فكانَ عندَ ورودِهِ      عيداً ، ولكن هبَّجَ الأشواقا  
ألفائهُ قد عانقتْ صاداتِهِ      كعناقٍ مُشتاقٍ يخافُ فراقا  
فكانتْما النوناتُ فيه أهلةً      وكأنّما صاداته أحداقا  
فعمسى الإلهُ كما قضى بفراقنا      يقضي لنا يوماً بأن نتلاقى

فجعلته نصب عيني أتسلى به عند استيلاء الشوق على قلبي ، وأطفئ به بتأمّله نيران وجدي إذا التهبت في صدري ، وسُررت به سرور من وجد ضالة عمره ، وأدرك جميع أمانيه من دهره ، وأنست بتصفّحه أنس الرياض بانهلال القطر ، والساري بطلوع البدر ، والمسافر بتعريس<sup>٦</sup> الفجر ، وكيف لا وقد أصبح في وجه الأمانى خدّاً ، بل في خدّها ورداً ، وصار حسنة من حسنات دهري ،

١ إشارة إلى قول الصمة القشيري :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثى على كبدي من خشية أن تصدعا

٢ ق : المجاورة .

٣ ق : بتعريسة .

لا يحو مرور الأيَّام موضعها من صدري ، وطلعت طوالع السرور وكانت  
أقلّة ، واهترت غصون الفرح وكانت ذابلة ، لا سيّما لما تضمّن من البشارة  
السارّة بصحّة المولى وسلامته ، وحلوله في منازل عزّه وكرامته ، وموعده الكريم  
بعوّده إلى دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام<sup>١</sup> ، مرّة ثانية ، ويتم افتخارها  
على غيرها فلا تزال مفاخرة مباهية ، نسأل الله تعالى أن يحقّق ذلك ، وأن يسلك  
بسيدي أحسن المسالك ، إنّه سبحانه وتعالى سامع الأصوات ، ومجيب الدعوات ،  
فإن عوّدكم يا سيدي والله مرّة أخرى هو الحياة الشهيّة ، والأمنية التي ترتجي  
النفس بلوغها قبل المنيّة ، وما أنا من الله بآيس من أن يتيح سببا ، يعيد المزار  
مقربا ، والشمل مجتمعا ، وحبل البين منقطعا .

ثمّ ليعرض على مسامع سيدي الكريمة ، لا زالت من كل سوء سليمة ، أنا  
أوصلنا مكاتيبكم كما أمرتم لأربابها ، لا سيّما مكتوب شيخ الإسلام سيدي عبد  
الرحمن أفندي المقتي بالشام ، ومكتوب المولى الأعظم ، والهمام الأفخم ، أحمد  
أفندي الشاهيني ، أعزّه الله تعالى فإنّه وقع عنده الموقع العظيم ، وحصل له  
به السرور المقيم ، كما يدل على ذلك جوابه الكريم ، المحفوف بالتعظيم والتكريم ،  
غير أنّه قد ساءنا ما اتصل بمولانا من نفوذ قضاء الله تعالى الذي يعم ، في البنت  
والأم ، فجعل الله تعالى في عمر سيدي البركة ، وكان له في السكون والحركة ،  
وماذا عسى أن يُذكر لجنابكم في أمر التعزية ويقرّر ، ومنكم يستفاد مثله وعنكم<sup>٢</sup>  
يُحرّر ، والأستاذ أدرى بصروف الدهر وتفنّنها ، وأحوال الزمان وتلوّتها ،  
وأعرف بأن الدنيا دار لها بسكانها مدار ، وأن الحياة ثوب مستعار ، ونعيم  
الدنيا وبؤسها ما لواحد منهما فيها قرّار ، وأن لكل طالع أفولاً ، ولكل ناصر  
ذبولاً ، ووراء كل ضياء ظلاماً ، ولكل عروة من عرى الدنيا انفصاماً ، فهو

١ ق : صوب الغمام .

٢ عنكم : سقطت من ق .



محلّ لأن يقوى في العزاء عزائمه ، ويصغر في عينه نوابغ الدهر وعظائمه ، ويغنيه عن عِظّة تجدل له مقالاً ، وتحلُّ عن عقله عِقلاً ، وهو يتلقّى المصائب ، بفكر ثاقب ، وفهم صائب ، وصبر يقصر عنه الطّود الأشم ، وعزم ينفلق دونه الصخر الأصم ، وحلم يَرَجَحُ إذا طاشت الأحلام ، وقَدَمٌ تثبّت إذا زلت الأقدام ، ومدّ المقال في ضرب الأمثال ، إلى جنابكم الشريف نوعٌ من تجاوز حدّ الإجلال ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذه المصيبة خاتمة ، ولا يُرِيه بعدها إلاّ دولة قائمة ونعمة دائمة ، وأن يحرسه من غير الليل والنهار ، ويجعله وارث الأعمار بجاه نبينا محمد المختار ، صلى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه الأطهار ، بمنه وكرمه .

ثمّ أبلغ سيدي - أطال الله عمره ، وشرح صدره ، ونشر بالخير ذكره - السلام التام ، المقرون بألف تحية وإكرام ، من أهل البلدة جميعاً ، لا سيّما من مفتيها العمادي ، حرس الله ذاته التي هي منهل للصادي والغادي ، وأولاده الكرام ، المستحقين للإعزاز والإكرام ، ومن كبيرها ، ومدبرها ومشيرها ، أحمد أفندي الشاهيني ، أعزه الله تعالى بعزه ، وجعله تحت كنفه وحِرْزه ، ومن خطيبها مولانا الشيخ أحمد البهنسي ، ونقيب أشرافها مولانا السيد كمال الدين ، وجميع المحبّين الداعين لذلك الجنب ، والمتمسّكين بتراب تلکم الأعتاب ، ومن الوالد والعم ، والله يا سيدي إنّه ناشرٌ لواء الثناء والمحامد ، وداعٍ لذلك الجنب الكاسب للمفاخر والمحامد ، وحضرة شيخنا شيخ الإسلام وبركة الشام ، مولانا وسيدنا الشيخ عمر القاري ، أبقى الله تعالى وجُوده ، وضاعف علينا إحسانه وجُوده ، وأولاده يسلمون عليكم السلام الوافر ، وينهون لكم الشوق المتكاثر ، وحُرِّرَ في ٢ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ ، المحبّ الداعي يحيى المحاسني ، انتهى .

وكتب إليّ عمّه الفاضل الأسمى ما صورته : باسمه سبحانه وتعالى :

ولاتي لمشتاق إلى وجهك الذي تهلته أهدي السناء إلى البدر  
وأخلاقك الغر اللواتي كأنها تساقط أنداء الغمام على الزهر

سيدي الذي عبودتي إليه مَصْرُوفَةٌ ، ودواعي محبتي لديه موفورة وعليه  
موقوفة ، علم الله سبحانه أنني لا أزجي أوقاتي إلا بذكراه ، ولا أرجي اليمن  
من ساعاتي إلا باستنشاق نسيم رِيَّاه ، وأنتي إلى طلعتة أشوق من الصادي إلى  
ماء صداء<sup>١</sup> ، ومن كثير عزة إلى نوء تيماء :

يُرْتَحِنِي إِلَيْكَ الشُّوقُ حَتَّى أَمِيلَ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الشَّمَالِ  
وَيَأْخُذُنِي لِذِكْرِكَ اهْتِرَازٌ كَمَا نَشَطَ الْأَسِيرُ مِنَ الْعِقَالِ

ولي على صدق هذه الدعوى من نباهة لبه شاهد مُعَدَّلٌ ، ومن نراه  
قلبه مُزَكَّ غير ملوم ولا مُعَدَّلٌ ، كيف لا ومطالع البيان مشرقها من أفلاك  
فهومه ، وجواهر التبيان مقذفها من بحار علومه ، وهو بحر العلم الذي لا يُقْتَحَمُ  
بسفن الأفكار ، وجبيل الحلم الذي رسخ بالهيبية والوقار :

لو اِقْتَسَمَتِ أَخْلَاقُهُ الْغَرَّ لَمْ تَجِدْ مَعِيًّا وَلَا خَلْقًا مِنَ النَّاسِ عَائِبًا

وماذا عسى أصف به مولانا وقد عجز عن وصفه لسان كل واصف ،  
وحار في بث فضائله أرباب المعارف والعارف :

فَلَوْ نَظَّمْتُ الثَّرِيَّا وَالشُّعْرَيَيْنِ قَرِيضًا  
وَكَاهَلَ الْأَرْضِ ضَرْبًا وَشَعْبَ رَضْوَى عَرَوْضًا  
وَصَفْتُ لِلدَّرِّ ضِدًّا وَلِلْهَوَاءِ نَقِيضًا

ولكنني أقول : الثناء منجح أنتى سلك ، والسخيُّ جوده بما ملك ، وإن  
لم يكن خمر فخل ، وإن لم يصبها وابل فطل . هذا ، وقد أوصلنا مكاتيبكم

١ صداء : اسم ماء جرى فيه المثل : « ماء ولا كصداء » .

الشريفة لأربابها ، فكانت لديهم أكرم قادم ، وأشرف منادم ، وقد تدّأولها الأفاضل وشهدوا أنّها من بنات الأفكار ، التي لم يكشف عنها لغير سيدي حُجُب الاستتار ، وقد وجدنا كلاًّ منهم ملتهاً بجمرات الشوق ، متجاوزاً حدّ الصبابة والتوق ، ليس لهم شغل إلاّ ذكر أوصافكم الحميدة ، وبتّ ما أبدىتموه بدروسكم المفيدة ، وما منهم إلا ويرجو بئلاً الصدى ونقّع الظما برؤية ذلك المحيياً ، والتلمّي بتلك الطلعة العليا . وإن سألت سيدي عن أخبار دمشق المحروسة ، دامت ربوعها المأنوسة ، فهي والله الحمد منتظمة الأحوال ، أمنها الله من الشرور والأهوال ، ولم يتجدد من الأخبار ما نعلّم به ذلكم الجناب ، لا زال ملحوظاً بعين عناية ربّ الأرباب ، وأنا أسألُ الله تعالى أن يصون جوهر تلك الذات من عوارض الحدّثان ، وأن يحمي تلك الحضرة العلية من طوارق حكم الدوران :

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتى أضيفَ إليها ألفَ آمينا

وهذا دعاء للبرية شامل - العبد الداعي ، يجمع البواعث والدواعي ، تاج الدين المحاسني ، عفا الله تعالى عنه ، انتهى .

وبالهامش ما صورته : وكاتب الأحرف العبد الداعي محمد المحاسني يقبل يدكم الشريفة ، ويخصكم بالسلام الوافر ، وبتّ لديكم الشوق المتكاثر ، غير أنّه قد نازعته نفسه في ترك المعاتبه ، لسيدته الذي لم يُسعدِ عبده منه بالمكاتبة ، على أنّها مكاتبة تُحكّم عقدَ العبودية ، ولا تخرج رقبتَه من طوق الرقيّة ، والمطلوب أن ينخصه سيده وشيخه بدعوته المستطابة ، التي لا شك أنّها مستجابة ، كما هو في سائر أوقاته ، وحسبان ساعاته ، ودمم ، وحرر في رابع جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ ، انتهى .

وكتب سيدي التاج المذكور لي ضمن رسالة من بعض الأصحاب ما صورته :

يا فاضلَ العصرِ يا مَنْ للشرق والغرب شرف

يا أَحْمَدَ النَّاسِ طُرّاً فِي كُلِّ مَا يَتَصَرَّفُ  
يُهْدِي إِلَيْكَ مَحَبُّ دَموعُهُ تَتَذَرَّفُ  
شَوْقاً وَوَدّاً قَدِيماً مُنْكَرّاً يَتَعَرَّفُ

ولنختم مخاطبات أهل دمشق لي بما كتبه لي أوجد الموالي الكبراء ، السري ، عين الأعيان ، صدر أرباب البلاغة والبيان ، مولانا أحمد الشاهيني السابق الذكر في هذا التأليف مرات ، ضاعف الله تعالى لديه أنواع المبرات والمسرات ، آمين ، ليكون مسكاً للختام ، إذ محاسنه ليس بها خفاء ولا لها انكثام ، ونصّ محل الحاجة منه هو الفياض :

« يا سيداً أحرز خصل العلاء  
ومَن على أهل النهى قد علا  
ومن يزين الدهر منه حلى  
ومن صدأ فكري منه جلا  
ومَن له من يوم قالوا « بلى »  
ومَن غدا بين جميع الملا  
أفديك بالنفس مع الأهل لا  
بالأس والرأي السديد الشديد  
بطبعمه السامي المجيد المجيد  
قول نظم كالقريد النصيد  
نظم له القلب عميد حميد  
في مهجتي حب جديد مزيد  
بالعلم والحلم الوحيد القريد  
بالمال ، والمال عتيد عديد

أقسم بالله الذي علت كلمته ، وعمت رحمته ، وسحرت القلوب والعقول  
رأفته ومحبتة ، وجعل الأرواح جنوداً مُجَنَّدَةً فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر  
منها اختلف ، أنتي أشوق إلى تقبيل أقدام شيخني من الظمان للماء ، ومن الساري  
لطلعة ذكاء ، وليس تقبيل الأقدام ، مما يدفع عن المشوق الأوام ، وقد  
كانت الحال هذه وليس بيني وبينه حاجز إلا الجدار ، إذ كان حفظه الله تعالى  
جار الدار ، فكيف الآن بالغرام ، وهو حفظه الله تعالى بمصر وأنا بالشام ،

١ قالوا : بلى ، أي عندما سأل الله الخلق « ألت بربكم ؟ » .

وليس غيبة مولانا الأستاذ عناً ، إلا غيبة العافية عن الجسم المضنى ، بل غيبة الروح ، عن الجسد البالي المطروح ، ولا العيشة بعد فراقه ، وهجر أحبائه ورفاقه ، إلا - كما قال بديع الزمان - عيشة الخوت في البر ، والتلج في الحر ، وليس الشوق إليه بشوق ، وإنما هو العظم الكسير ، والتزع العسير ، والسم يسري ويسير ، وليس الصبر عنه بصبر ، وإنما هو الصاب والمصاب ، والكبد في يد القصاب ، والنفس رهينة الأوصاب ، والحين الحائن وأين يصاب ، ولا أعرف كيف أصف شرف الوقت الذي ورد فيه كتابُ شيخِي بخطه ، مزيناً بضبطه ، بلى ، قد كان شرف عطارد ، حتى اجتمع من أنواع البلاغة عندي كل شارد ، وأما خطه فكما قال الصاحب بن عباد : أهذا خط قابوس ، أم جناح الطاووس ؟ أو كما قال أبو الطيب :

من خطه في كل قلب شهوةٌ حتى كأن مداده الأهواء

وأنا أقول ما هو أبداع وأبرع ، وفي هذا الباب أنفع وأجمع : بل هو خط الأمان من الزمان ، والبراعة من طوارق الحدثن ، والحرز الحرز ، والكلام الحر الإبريز ، والجوهر النفيس العزيز ، وأما الكتاب نفسه فقد حسدني عليه إخواني ، واستبشر به أهلي وخيالاتي ، وكان تقبيلي لأماله ، أكثر من نظري فيه ، شوقاً إلى تقبيل يد وشته وحشته ، واعتياداً للثم أنامل جسته ومسته ، وأما البراعة ، فلا شك أنها ينبوع البراعة ، حتى جرى من سحر البلاغة منها ما جرى :

فجاء الكتابُ كسحر العيون بما راح يسبي عقول الورى  
وينادي بإحراز خصل سحر البيان من الثريا إلى الثرى ، ولم أر كتاباً قبل  
تكون محاسنه متداخلة مترادفة ، ولطائفه وبدائعه متضاعفة مترادفة ، وذلك  
لأنه سرد من غرر درره الأحاسن ، وورد على يد رأس أحبائنا تاج بني محاسن :  
أولئك قومٌ أحرزوا الحسن كله فما منهم إلا فتى فاق في الحسن

وكما قلت فيهم أيضاً :

فبنو المحاسن بيننا كبنى المُنَجَّم في النجابه  
فهْمُ القِراةُ إنْ عَدِمَتْ من الأنام هوى القِرايه  
فيهم محاسِنُ جَمَّةٌ منها الخطابةُ والكتابه

ثم لم يكتب سيدي وشيخي بما أنعم به ، وأحسن بكتبه ، من كتابه المزين بخطه ، المبين بضبطه ، المسمى بين أهل الوفاء ، بكتاب الأصفياء ، حتى أضاف إليه كتاب الشفاء ، في بديع الاكتفاء ، كأنه لم يرضَ طبعه الشريف المفرد المستثنى ، إلا أن تكون حسناته لدى أحبائه مثنى مثنى ، حتى كأن مراده بتضعيف هذا الإكرام والإحسان ، تعجيز العبد عن أداء خدمة الحمد بمصر البيان وعقد اللسان ، إذ لست ذا لسانين ، حتى أودّي شكر إحسانين ، وغايةُ البليغ في هذا المضمار الخطير ، أن يعترف بالقصور ويلتزم بالتقصير .

ومن فصول هذا الكتاب ما نصّه : « ومن باب إدخال السرور على سيدي وشيخي وبركتي خبير المدرسة الداخلية التي تصدى لها ذلك المولى العظيم ، والمسيد الحكيم ، صدرُ الموالي ، وروّوَتْقُ الأيام والليالي ، سيدي وسندي ، وعمادي ومعتمدي ، الفهامة شيخي أفندي ، المعروف بالعلامة ، حفظه الله ، ووقاه وأبقاه ؛ الذي صدق عليه وعليّ قولُ الأول :

ولي صديقٌ ما مسّني عَدَمٌ      مذ وَقَعَتْ عينُهُ على عَدَمِي  
أغنى وأقنى فما يُكَلِّفني      تقبيلَ كَفِّ لَهْ ولا قدمِ  
قامَ بأمرِي لما قَعَدْتُ بِهِ      ونمّتُ عَنْ حاجتي ولم ينمِ

وقول الثاني :

صديقٌ لي له أدبٌ      صداقةٌ مثله نَسَبُ  
رعى لي فوق ما يرعى      وأوجبَ فوق ما يجب

فَلَوْ نُقِدَتْ خَلَاتِقُهُ لِبَهْرَجَ عِنْدَهَا الذَّهَبُ

ولعمري إنّه كذلك قد تصدّى لحاجتي فقضاها ، ولحجّتي فأمضاها ، ولم يكن لي في الروم سواه وسواها ، وما أصنع بالروم ، إذا تخلّف عني ما أروم ، أبى الله إلاّ أن ينفعني ذلك الحرّ الكريم بنهيه وأمره ، وأن يكون بياني وبناني مرتبطين بحمده وشكره ، وهذه حاجة في نفسي قضيتها ، وأمنية رضيت بها وأرضيتها ، والله الحمد .

ولست أحصي ، ولا أستقصي ، يا سيدي ومولاي ، شوق أخيكم سيدي ومولاي المفتي العمادي ، حفظه الله تعالى وإياكم ، وقد بلغ به شوقه وغرامه ، وتعطّشه وأوامه ، أن أفرد بلحّاب مولانا كتاباً ، يستجلب مفخراً وجواباً ، إذ الشام كما رأيتم عبارة عن وجوده الشريف والسلام ، وكذلك أولاده الكرام ، تلامذتكم يقبلون الأقدام . وأما محبكم وصديقكم الشيخ البركة شيخ الإسلام مولانا عمر القاري فقد بلغته سلام سيدي ، فكان جوابه الدعاء والثناء ، مع العزيمة عليّ بأن أبالغ بلحّابكم الكريم في تأدية سلامه ، وتبليغ ما يتضمّنه من المحبة الخالصة فصيح كلامه . وأما الكريميّان ولدكم محمد أفندي وأخوه سيدي أكل الدين ، فهما لتقبيل أقدامكم من المستعدين . وكذلك لا أحصي ما هما عليه من الدعاء والثناء بلحّابكم الكريم العالي ، تلميذاكم بل عباكم ولدنا الشيخ يحيى ابن سيدي أبي الصفاء ، وولدنا الشيخ محمد ابن سيدي تاج الدين المحاسنيان . وأما عباكم وتلميذاكم ولداي الشيخان الداعيان الأخوان الشيخ عبد السلام والقاضي نعمان ، فليس لهما وظيفة إلا الدعاء والثناء ، في كل صبح ومساء ، لأن كلاّ منهما خليفتي ، والاشتغال بالدعاء لسيدي وظيفتي ، ولا يقنعان بتقبيل اليدين الكريمتين ، ولا بد من تقبيل القدمين المباركتين . وبعد ، فلا ينقضي عجبني من بلاغة كتابكم الشريف الوارد بلحّاب أخيكم المفتي العمادي حفظكم الله تعالى وإيّاها ، ولا كان من يشنّك ويشنّاه ، وعجبه به أعظم وأكبر ،

إذ هو — حفظه الله — بفهم كلام سيدي أحقُّ وأجدر ، فلا عدمننا تلك الأنفاس  
الملكية الفلكية ، من كل منكما إذ هي والله البغية والأمنية ، كما قلت :

ليس فخري ولا اعتدادي بدهرٍ غير دهر أراكُمَا مِن بَنِيهِ

اللهم اختم هذا الكلام ، للقبول التام ، بالصلاة على سيدنا محمد وآله  
الطيبين الطاهرين .

ومن فصول هذا الكتاب ما صورته : « أطال الله يا سيدي بقاءك ، ولا كان  
من يكره لقاءك ، وورعك بعين عنايته ووقاك ، وأدامك وأبقاك ، وضمن لك جزاء  
الصبر ، وعوضك عن مصابك الخير والأجر ، ولقد كنت عزمت على أن أجعل  
في مصاب سيدي بأمه ، متعه الله بعمره وعلمه ، ودفع عنه سؤرة همه وغمه ،  
قصيدة تكون مرثية ، تتضمن تعزية وتسلية ، فنظرت في مرثية أبي الطيب المتنبّي  
لأمه ، واكتفيت بنظمها ونثرها ، وعقدتها وحلها ، وانتخبت قوله منها :

لك الله من مفجوعة بحبيها قتيلة شوقٍ غير مكسبها وصماً

ومنها :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كوثك لي أمّا  
لئن لددّ يومُ الشامتين بيومِها لقد ولدتُ مني لأنفهم رَغماً

فقلت : هذه حال مولانا الراغم لأنوف الأعدا ، المجدد لأسلافه حمداً  
ومجداً ، القاتل بشوقه لا خطأ ولا عمداً ، ثم إنني لما رأيتُ قوله في مرثية أخت  
سيف الدولة :

إن يكن صبرُ ذي الرزية فضلاً تكنِ الأفضلَ الأعزَّ الأجلّ  
أنتِ يا فوق أن تُعزّي عن الأح باب فوق الذي يُعزّيك عقلاً  
وبأنفاظك اهتدى فإذا عزّاً ك قال الذي له قلت قبلاً



قَدْ بَلَّوْتَ الْخُطُوبَ حُلُوءًا وَمُرًّا      وَسَلَكْتَ الْأَيَّامَ حَزْنًا وَسَهْلًا  
وَقَتَلْتَ الزَّمَانَ عِلْمًا      فَمَا يَغِي      رَبُّ قَوْلًا      وَمَا يَجِدُّ فِعْلًا

قلت : هذه والله حلى مولانا الأستاذ الذي عرف للزمان فعله ، وفهم قوله ،  
قد استعارها أبو الطيّب وحلّى بها مخدومه سيف الدولة ، وكيف أستطيع إرشاد  
شيخي لطريق الصبر ، وأذكّره بالثواب والأجر ، وكيف وأنا الذي استقيتُ  
من ديمِهِ ، واهتديت إلى سبيل المعروف بشيّمه ، وسلكت جادة البراعة  
بهداية ألفاظه ، وارتقيت إلى سماء البلاغة برعاية ألاحظه ، وهل يكون التلميذ  
معلمًا ، وهل يرشد الفرخ قشعَمًا ، وكيف يعضد الشبلُ الأسد ، وهو ضعيف  
المُنَّة والمدد ، ومن يعلمُ الثغرَ الابتسام ، والصدرَ الالتزام ، ويختبر الحسام ،  
وهو مجرب صَمَصَام ، وهل تفتقر الشمس في الهداية إلى مصباح ؟ وهل يحتاج  
البدر في سُرَاه إلى دلالة الصباح ؟ ذلك مثل شيخي ومثل من يرشده إلى فلاح  
أو نجاح ، وإتّما نأخذ عنه ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة ، ونحذو حذوه  
في الطريق الموصلة إلى الجنة ، ثم لما وصلت في هذه القصيدة إلى قول أبي الطيّب :

إِنَّ خَيْرَ الدَّمْعِ عَيْنًا لَدَمْعٌ      بَعَثْتَهُ رِعَايَةً فَاسْتَهَلَّ

رأيته قد أبدع فيه كل الإبداع ، ونظم ما يكاد يجري الدمع من طريق  
السماع ، فقلت : إنا لله ، وأكثرت الاسترجاع ، وقلت في نفسي : إن ذلك  
الدمع الذي بعثته رعاية الحقوق ، هو دمع شيخي الذي حمى الله قلبه الشفوق  
من العقوق ، للمصيبة في الأم ، التي حزنها يغم ، ومصابها يعم ، وكيف لا يعننا  
مصابها ، وقد كمل للمصيبة كفاها الله بموتها نصابها ، هذا مع الفقد للسليلة  
الجليلة ، والكريمة الجليلة ، وأي دمع لم تبعثه تلك الرعاية ؟ وأي نفس لا تتمنى أن  
تكون لسيدنا من كل ما يكره وقاية ؟ وأي كبد قاسية ، لم تكن لأحبابها مؤاسية ؟  
وأنتي يتسنّى ، للعبد المعنّى ، تسلية شيخه وهو الصبور الشكور ، العارف  
بالأمور ، العالم بتصاريف الدهور ؟ وما ظننت أن بتاني ، يساعطني على تحرير

بياني ، لتعزية شيخي ، حفظه الله تعالى في أصله وفرعه ، وضُرعه وزرعه ، وفرعه ونبتة ، وأمه وبنته ، أما الوالدة الماجدة فإنني إن أمسكت عن بيان كرم أصلها ، يسمو بها كرم فرعها ونسلها ، فرحم الله تعالى سلفَها ، وأبقى خلتَها ، ولا حرم سيدي ثمرة رضاها ، ورضي عنها وأرضاها ؛ وأماً المخدرة الصغيرة ، فالمصيبة فيها كبيرة ، إذ العمومة مقربة ، والخوولة وقائية ، فهي ذات النجارين ، وحائزة الفخارين ، كأن سيدي - أعزه الله تعالى - لم يرض لها كفواً ومهراً ، فاختار القبر أن يكون له صِهراً ، وخطبة الحِمَام لا يمكن ردها ، وسطوة الأيام لا يستطاع صدها ، كما قال أبو الطيب المتنبي أيضاً :

خِطْبَةُ الْحِمَامِ لَيْسَ لَهَا رَدٌّ وَإِنْ كَانَتْ الْمَسْمَاةَ تُكَلِّمًا  
وَإِذَا لَمْ تُجِدْ مِنَ النَّاسِ كَفْوًا ذَاتُ خِدْرِ أَرَادَتْ الْمَوْتَ بَعَلًا

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْخِطْبَةُ قَافِيَةَ الْخُطُوبِ ، وَهَذَا التَّدْبُ الْمُبْرَحُ آخِرَ النَّوْبِ ، وَأَنْ يَعْوِضَ سَيِّدِي عَنْ حَبِيْبِهِ الْمَبْرَقِ الْمَقْنَعِ ، حَبِيْبًا مَعْمَمًا تَتَحَرَّى النِّجَابَةَ مِنْهُ الْمَصْنَعِ ، وَأَنْ يَبْدِلَهُ عَنْ ذَاتِ الْخِمَارِ وَالْحَضَابِ ، بِمَنْ يَبْصُلُ بِالْحِرَابِ ، وَيَسْطُو بِالْيِرَاعِ وَيَشْتَغِلُ بِالْكِتَابِ :

وَمَا التَّائِثُ لاسِمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلَا التَّذْكِيرُ فَعْرٌ لِلْهِلَالِ

اللَّهُمَّ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، إِنِّي أَتُوسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ، أَنْ تَأْخُذَ بِيَدِ عَبْدِكَ شَيْخِي الْمُقْرِي فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ ، آمِينَ .

وَمِنْ فَصُولِ هَذَا الْكِتَابِ مَا صَوَّرْتَهُ : « وَلَمَّا وَصَلَنِي سَيِّدِي بِهَدِيَّتِهِ الَّتِي أَحْسَنَ بِهَا مِنْ كِتَابِ الْاِكْتِفَاءِ ، دَاخَلَ طَبْعِي الصَّفَاءَ ، وَنَشَطَتْ إِلَى نَظْمِ بَيْتَيْنِ فِيهِمَا التَّرَامُ عَجِيبٌ لَمْ أَرْ مِثْلَهُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ الْمَكْتَفَى بِهِ بِمَعْنَى اللَّفْظِ الْمَكْتَفَى مِنْهُ ، فَإِنَّ الْاِحْتِفَاءَ وَالْاِحْتِفَالَ بِمَعْنَى الْاِعْتِنَاءِ ، كَمَا أَفَادَهُ شَيْخِي ، فَيَكُونُ عَلَى

هذا الاكتفاء وعدمه على حدّ سواء ، إذ لو قطع النظر عن لفظ الاحتفال لأغنى  
عنه لفظ الاحتفاء ، مع تسمية النوع فيهما ، وهما :

إِنَّ احْتِفَالَ المرءِ بالمرءِ لَا أَحِبَّهُ إِلَّا مَعَ الْاِكْتِفَاءِ  
مِبَالِغَاتُ النَّاسِ مَذْمُومَةٌ فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْقَصْدِ فِي الْاِحْتِفَاءِ

ولقد انقطع الثلج أيام الحريف ، وكانت الحاجة إليه شديدة بعد غيبة سيدي  
حفظه الله تعالى عن دمشق ، فتذكرت شغف شيخي به ، فزاد على فقده غرامي ،  
وفاض عليه تعطشي وأوامي ، فجعلت في ذلك عدة مقاطيع ، وأحببت عرضها  
على سيدي : أولها :

ثَلْجٌ يَا ثَلْجُ يَا عَظِيمَ الصِّفَاتِ أَنْتَ عِنْدِي مِنْ أَعْظَمِ الْحَسَنَاتِ  
مَا بَيَاضٌ بَدَأَ بِوَجْهِكَ إِلَّا كَبَيَاضِ بَدَأَ بِوَجْهِ الْحَيَاةِ

ثانيها :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا ضَلَّ عَنِّي رَشْدِي وَمَا رَأَيْتُ الثَّلْجَ يَوْمًا عِنْدِي  
لَا تَقَطِعِ اللَّهُمَّ عَن ذَا الْعَبْدِ أَعْظَمَ أَسْبَابِ الثَّنَا وَالْحَمْدِ

ثالثها :

ثَلْجُ يَا ثَلْجُ أَنْتَ مَاءُ الْحَيَاةِ ضَلَّ مِنْ قَالَ ضَرَّ ذَاكَ لَهَاتِي  
مَا بَيَاضٌ بَدَأَ بِوَجْهِكَ إِلَّا كَبَيَاضِ قَدْ لَاحَ فِي الْمِرْرَةِ  
قَدْرَأَى النَّاسُ وَجْهَهُمْ فِي الْمَرَايَا وَأَنَا فِيكَ شِمْتُ وَجْهَ حَيَاتِي

وما عللت سيدي هذا التعليل ، إلا لأشوقه إلى نسيم دمشق الذي خلّفه سيدي  
حفظه الله عليلًا وهو على الصحة غير عليل ، ولم يشف أعزّه الله تعالى منه الغليل ،  
ولسيدي الدعاء بطول البقاء والارتقاء ، وهذه أبيات أهدتها العبد في وصف  
القهوة ، طالباً من سيده أن يغفر خطأه فيها وسهوه :

وقهوة كالعنبر السحيقِ سوداء مثل مقلّة المعشوقِ  
أتت كسك فائح فتبيقِ شَبَّهْتُها في الطعمِ بالرحيقِ  
تُدني الصديق من هوى الصديقِ وتربطُ الودَّ مع الرفيقِ  
فلا عدتُ مرَّجَها برِيقِي

وما زلتُ ألجُ بما أفادني شيخِي من أماليه ، وأنصف الدهر الذي جمعته  
عنه من أسافله إلى أعاليه ، وأستشكل على الأحباب والأصحاب في أثناء المسامرة ،  
ما أفادني سيدي من تسمية المرحوم القاضي التنوخي كتابه «نشوار المحاضرة»  
حتى ظفرت بأصلها في القاموس في مادة «نشر» ، فإذا هي عربية محضة ، فإنه  
قال : « ونَشَوْرَتِ الدابة نِشْواراً : أبقت من علفها » ، ولقد تعجبت من بلاغة  
هذه التسمية وعذوبتها ، وحسن المجاز فيها مع سلاستها وسهولتها ، وأحببت  
عرَضها على شيخِي حفظه الله تعالى ليفرح لي بين تلامذته كما فرح طبعي به  
حفظه الله تعالى بين أساتذته ، وليعلم أنني لم أنس ما أفادني في خلال المحاورة ،  
أيام المؤانسة والمجاورة ، فوالله إنه سميري ، في ضميري ، وكليمي ، ما بين  
عظمي وأدبمي :

يُدِيرُونَنِي عن سالم وأديرهم وجلدةُ بين العينِ والأنفِ سالمُ

• • •

الطرسُ طما وما مَضَّتْ قصتنا لا ذنبَ لنا حديثنا لذَّ فطالُ

وحرر يوم السبت المبارك غرة جمادى الآخرة من شهور سنة ثمان وثلاثين  
بعد الألف ، أحسن الله ختامها بحرمة محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وحسبنا  
الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله وحده ، عبده الفقير  
الحقير المشاق ، المذنب المقصر لسيدته عن اللحاق ، الذي لم يبرح عن العهد المتين ،  
أحمد الشامي بن شاهين « انتهى » .

ولو تبعته ما له حفظه الله تعالى من النظم والنثر ، اللذين غلب فيهما بُلغاه

أهل العصر ، بالشام ومصر ، وغيرهما من الأقطار ، لا زال مقامه مقضيّ الأوطار ، لاستوعبت الأسفار ، وفي الإشارات ما يُغني عن الكلم ، وقد تقدم في خطبة هذا التصنيف ، ذكر شيء من نظمه ونثره وأتته هو السبب الداعي إلى جمع هذا التأليف ، والله سبحانه يديم جنباه السريّ الشريف ، ويُبوّئه من العزّ الظلّ الوريّف ، فلقد أولى من الحقوق ما لا نُؤدّي بعضه فضلاً عن كلّه ، وناهيك بما جلبناه من كلامه دليلاً على شرفه وفضله .

ورسالته هذه إليّ كانت جواباً عن مكتوب كتبته إليه من جملته :

يا مَنْ لَهُ طائرٌ صيتٌ عَلا	في الجوّ فاصطاد الشريدَ الشديد
يا نجلَ شاهينَ البديعِ الحلّي	تملّ بالعزّ الطويلِ المديد
وفزّ بخصلِ السبّاقِ بينَ الملا	وسرّ بنهْجِ للمعالي سديد
ورِدْ معَ الأحبابِ عذباً حَلا	مُنتظماً من الأمانِ البديد
وارفلْ على طولِ المدى في مُلا	مسرةً راقيةً وعزّةً جديداً
والوالدُ المحروسُ بالله ، لا	بعُدّة الخلق ولا بالعديد

ومن نثرها : « سيدي الذي في الأجياد من عوّارفه أطواق ، وفي البلاد من معارفه ما تشهد به الفِطْرة السليمة والأذواق ، وتشتدُّ إلى مجده المنطب الذي لا يحيطُ له رواقُ الأشواق ، وتعمر بفوائده وفرائده من الآداب الأسواق ، وتنقطع دون نداءه السحب السواكب ، وتَقْصُر عن مداه في السّموا الكواكب ، والله سبحانه له واق ، المولى الذي أَلقت إليه البلاغة أفلاذها ، واتخذت البراعة طاعته عصمتها وملاذها ، إذ بدّ أفرادها وأفذاذها ، وأمطرت سماء أفكاره ، على كل محبّ أو كاره ، طائر في جو أو مستقر في أوكاره ، صبيها ورذاذها ، وفاخرت دمشقُ بعُلاه وحلاه أقطارَ البسيطة وبغذاذها » .

ومنها : « أبقاء الله تعالى وحقيقة وعوده ينمقها النجاز ، وحقيقة سعوده لا يطرُقها المجاز » .

ومنها : « فأنت الذي نَفَسْت عني مُخَنَّقًا ، وأصفيت مشربي وكان مُرْتَقًا ، وكأثرت بما به أثرت ، وما استأثرت - رَمَلَ النقا ، فلو رآك المأمون ابن الرشيد ، لعلم أنك المتمنى بييتي الغناء الذي غني به والنشيد :

وإنني لمشتاق إلى قرب صاحب يرُوق ويصفو إن كدرتُ لَدَيْهِ  
عذيري من الإنسان لا إن جَفَوْتَهُ صفا لي ، ولا إن كنت طوع يديه

ولم يقل : أعطني هذا الصديق وخُذْ مني الخلافة ، وأنا أقول : قد ظفرنا به بحمد الله ولم أجد أحداً في دهره وافقَ الغرضَ فلم نر خلافة » .

ومنها : « فهذه يا ابن شاهين أياديك البيض ، تُفْرِخُ لك الشكر وتبيض ، فلا دليل على ولائي ، كإملائي ، ولا شاهد لما في أحنائي ، كثنائي ، ولا حجة على ودادي ، كتكراري ذكرك وتردادي » .

وهي طويلة ، لا يحضرنى الآن منها سوى ما ذكرته .  
ولنقتصر من مكاتبات أعيان العصر من أهل دمشق المحروسة على هذا المقدار ، ونسأل الله تعالى أن يحفظهم جميعاً في الإيراد والإصدار .

\* \* \*

[رسائل من المغرب ترد للمؤلف]

وفي تاريخ ورود هذه المكاتيب الشامية السابقة عليّ ، اتفق ورودُ كتب من المغرب ، وجهها جماعة من أعيانه إليّ .

فمن ذلك كتاب كتبه لي الأستاذ المجدّد الأديب الفهامة مُعَلِّم الملوك سيدي الشيخ محمد بن يوسف المراكشي التاملي<sup>١</sup> نصّه : « الحمد لله تعالى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد تتوالى ، من المحب المخلص المشتاق ، إلى السيد الذي

١ ترجمته في خلاصة الأثر ٤ : ٢٧١ ( وفيه التاوي ) وقال إنه لم يقف على تاريخ وفاته ؛ وانظر

روضة الآس : ٢٥ .

وَقَعَ على محبته الاتفاق ، وطلعت شمس معارفه في غاية الإشراق ، وصار له في ميدان الكمال حُسْنُ الاستباق ، الصدر الكامل ، والعالم العامل ، الفقيه الذي تهتدي الفقهاء بعلمه وعمّله ، البليغ الذي تقتدي البلغاء ببراعة قلمه ، ناشر ألوية المعارف ، ومُسْنَدِي أنواع العوارف ، العلامة لإمام العصر ، بجميع أدوات الحصر ، سيدي أحمد بن محمد المقرّي قدّس الله السلف ، كما بارك في الخلف . سلامٌ من النسيم أرقُّ ، وألطف من الزهر إذا عَبِقَ .  
وبعد ، فإن أخباركم دائماً تردُّ علينا ، وتصل إلينا ، بما يسر الخاطر ، ويقرّ الناظر ، مع كل وارد وصادر ، والعبء يحمد الله تعالى على ذلك ، ويدعو الله بالاجتماع معكم هنالك :

ويرحم الله عبداً قال آمينا

كتبته إليكم أيّها السيد من الحضرة المراكشية مع كثرة أشواق ، لا تسعها أوراق ، كتبكم الله سبحانه فيمن عنده ، كما جعلكم ممّن أخلص في موالاة الحق قَصْدَه ، وودّي إليكم غَضُّ الحداثق ، مستجلبٍ في مطلع الوفاء بمنظر رائق ، لا يحيله عن مركز الثبوت عائق ، وحقيق بمودة ارتبطت في الحق وللحق معاهدها<sup>١</sup> ، وأسست على المحبة في الله قواعدها ، أن يزيد عقدها على مر الأيام شدة ، وعهدها وإن شط المزار جِدَّة ، وأن تدخّر للأخرى عدّة ، وإنّي ويعلم الله تعالى لممّن يعتقد محبتكم وموالاتكم عملاً صالحاً يقرب من الله تعالى ويؤزّل إليه ، ويعتمدهما<sup>٢</sup> وزراً يعول في الآخرة يوم لا ظل إلا ظله عليه ، فإنّكم واليتم فأخلصتم في الولا ، وعرفتم الله تعالى فقمتم بحقوق الصحبة على الولا ، معرضين في تلكم الأخوّة عن غرض الدنيا وعرضها ، موفين

١ كذا في ق ودوزي ، وقد تقرأ : « معاهدها » .

٢ هذه رواية إحدى النسخ ؛ وفي ق ودوزي : ويعلم .

بشروط<sup>١</sup> نفلها ومفترضها ، إلى أن قضى الله تعالى بافراقنا ، وحقوقكم المتأكدة دين علينا ، والأيام تطلُّ بقضائها عنا ، وتوجه الملام إلينا ، فأوتة<sup>٢</sup> أفق فأقرع السن على التقصير ندماً ، وأوتة أستنيم إلى فضلكم فأتقدم قُدماً ، وفي أثناء هذا لا يخطر بالبال حق لكم سابق ، إلا وقد كر عليه منكم آخر له لاحق ، حتى وقفت موقف العجز ، وضافت عليّ العبارة عن حقيقة مقامكم في النفس فكذت لا أتكلم إلا بالرمز ، إجلالاً لحقكم الرفيع ، وإشفاقاً من التقصير المضيع ، وقد كنت كتبت - أعزكم الله تعالى - إليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة فيها عُدالة قضائد كالعصائد ، كالثريد من الكلام ككلامكم<sup>٢</sup> السلس الكثير الفوائد ، فعذراً ممن كان أخرس من سمكة ، وأشدّ تخبطاً من طائر في شبكة ، فما عرفت أوصل شيء من ذلك ، أم حصل في أيدي المعاطب والمهالك ؟ وما رأيت غير رجل من صعاليك الحجاج التقيت به يوماً بالحضرة المراكشية فقال لي : الشيخ الإمام المقرئ يسأل عنك ، وقد أرسل معي كتاباً إليك ، فوقع في البحر مع جملة ما وقع ، فقلت له : لا غرابة في ذلك فقد رجع إلى أصله ، ومن ظلمة البحار تُستخرج الدرر ، وقد جاءني كتاب من بعض الأخلاء الصديقين وهو الحاج الصالح السيد أبو بكر من مكة المكرمة شرفها الله تعالى ، وذكر لي فيه أنه متعه الله تعالى بلبائكم ، وأخبرني بسؤالكم عني كثيراً ، وإلى الآن يا نعم السيد إنما عرفته بما كتبت لسيادتكم تعريف تذكّر لا تعريف منّة ، فأنصفونا في الحكم عليكم في عدم الجواب بما ألفته الأدباء شريعة وسنة ، وبالجملة ففؤادي لمجدكم صحيح لا سقيم ، واعتدادي بودكم مستنج غير عقيم ، والله تعالى يجعل الحب في ذاته الكريمة ، ويقضي عن الأحبة دين المحبة فيوفي كل غريم غريمه ، ويصلكم إن شاء الله تعالى هذا المرقوم ،

١ ق : بشروطها .

٢ كذا في ق ، والأصح هنا حذف كاف التشبيه .



وبه سؤال منظوم ، لتفضلوا بالجواب عنه بعد حمد الله ، والصلاة والسلام  
على مولانا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

إلى المقرري الحبر صدر الأئمة  
فذلك يا صدر الصدر عجلة  
فتى قد رأى عند العذارى فتية  
وعادت حراماً عند عصرٍ فعندما  
وفي صبح ثاني اليوم عادت محرماً  
وفي ظهره حلت فطابت قريرة  
وعند العشاء بالضرورة حلت  
وفي صبحه عادت حراماً ترى به  
وكان يضيق حسرةً وتأسفاً  
وعن أمة أيضاً يموت سريها  
وعادت لمملوك السري حليلة  
فجاءت ببنت ، هل لها من تزوج  
فإن السيوري مانع من تزوج  
وما الفرق بينها وبين التي أتى  
وعن مشرٍ مملوكة غير محرم  
وليس بمملكه له وطؤها يرى  
وما طالق من عدة خرجت ولا  
نكاح لها من واحد ومطلت  
وتمت بحمد الله مبدية لكم  
من المخلص الوداد أركى نحية  
لتسمح بالجواب عما أكنت  
محرمة عند الزوال فحلت  
عشاء أتى عادت حلالاً تجلت  
وزالت زوالاً منه في غير مربة  
وفي عصره محرماً قد تبدت  
وذلك بعد غرم مال كفدية  
بروق سيوف لامعات بسنة  
وحلت له وقت العشاء وتمت  
قد أولدها في ملكه بعد وطأة  
بعقد نكاح بعد من غير شبهة  
بنجل السري ؟ بينوا لي قصتي  
له بابتة منها بتلك القضية  
بها ابن أبي زيد بأوضح حجة  
ومسلمة شراً صحيحاً بشرعة  
جوازاً على التأيد تأخير جلة  
يجوز على التأيد في خير ملّة  
لها غير معصوم ترى في الشريعة  
سلاماً كما أبدته في صدر طلعة

١ كذا في ق ؛ وجاء في دوزي : يا خير ، وفي التجارية : من حين حلت .

وتقرير السؤال الثاني : أمة أولدها سيدها فصارت حرة ، فمات عنها السيد ، ثم تزوجها عبدُ سيدها ، فأنت ببنت ، أما لولد سيدها أن يتزوج هذه البنت ؟ فإن الرجل له أن يتزوج بنت زوجة أبيه من رجل غيره ، وهذه سرية أبيه ، فإن الإمام السيوري يمنع هذه المسألة ، وما الفرق بينهما ؟ وتصلكم أيضاً إن شاء الله تعالى عَجالة رجزية ، في مآثركم السنية ، ضمنتها أشرطة من الألفية ، ففضلوا بالإغضاء ، وحسن الدعاء ، أن يجمع الله شملنا بكم في تلك الأماكن المشرفة ، ثم المأمول من سيدنا ومولانا أن يتفضل علينا بكتاب « طبقات القراء » للإمام الحافظ الداني ، إذ ليس عندنا منه نسخة ، وأما تأليفكم الكثير الفوائد المسمى بـ « أزهار الرياض في أخبار عياض » ، وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض » فقد انتشر بهذه الأقطار المراكشية ، وانتسخت منه نسخ عديدة من نسخة المرحوم سيدي أحمد بن عبدالعزيز بن الولي سيدي أبي عمر ، وكسا الله سبحانه تأليفكم المذكور جلابب القبول ، فما رآه أحد إلا نسخه ، وعندني النسخة التي كتبها بخطه السيد أحمد المذكور بخط حسن ، وعلى هامشها في بعض الأماكن خطكم الرائق ، وبعض التنيهات من كلامكم الفائق ، وأعلمونا بتأليفكم الذي سميتوه « قطف المهتصر من أفنان المختصر » هل خرج من المبيضة أم لا ؟ ووددنا لو اتصلنا منه بنسخة ، وقد اشتاق فقهاء هذا الإقليم إليه غاية كالفقيه قاضي القضاة محبكم سيدي عيسى وغيره من أخلاء خليل ، في كل محفل جليل ، إلى أن قال : وأنا أتمثل بكلام مولانا علي كرم الله وجهه حيث يقول ، تبرّكاً به :

رضيتُ بما قسم اللهُ لي      وفوّضتُ أمري إلى خالقي  
كما أحسنَ اللهُ فيما مضى      كذلكَ يُحسِنُ فيما بقي

١ ذكره المحببي في خلاصة الأثر باسم « قطف المهتصر في شرح المختصر » وهو حاشية على مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي .

ولي حفظكم الله تعالى تخميس على البيتين ، وذلك أنه نزلت بي شدة لا يمكن  
الخلاص منها عادة ، فما فرغت من تخميسهما إلا وجاء الفرج في الحين ، ونصّه :

إذا أزيمة نزلت قبلي  
وضيقت وضاقت بها حيلي  
تذكرت بيت الإمام علي

« رضيت بما قسم الله لي وفوّضت أمري إلى خالقي »

لأنّ الإله اللطيف قضى  
على خلقه حكمه المترضى  
فسلم وقُل قول من فوّضا

« كما أحسن الله فيما مضى كذلك يُحسِن فيما بقي »

فعدراً - أغزكم الله سبحانه ونفع بإخاتكم - عن إغباب المراسلة بالمكاتبة  
عُدراً ، وصبراً على بُعد اللقاء صبراً ، فإن يُقدر في هذه الدار نلنا فيها ما نتمنى ،  
وإلا فلن نعدم بفضل الله جزاء الحسنى ، ولقاء لا يبيد ولا يفنى ، مع الذين  
أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك  
رفيقاً ، إيقاناً بالوعد وتحقيقاً ، فمن أوجب له محبته ، أدخله جنته ، وأحضره  
مأدبته ، وكَمَّلَ له أمنيته ، جعلنا الله من المتحابين في جلاله ، بكرمه وإفضاله ،  
وكتبه محبكم ومعظمكم ، الواصل حبل وده بودكم ، المشرف لعهدكم ،  
المنوّه بفخركم ومجدكم ، العبد الفقير الحقير ، المشفق على نفسه من التصغير  
والذنب الكبير ، محمد بن يوسف التاملي ، غفر الله ذنبه ، وستر عيبه ، وجبر  
قلبه ، وجمعه بمن أحبه ، بالنبي صلى الله عليه وسلم ، في عاشوراء المحرم  
فاتح سنة ثمانٍ وثلاثين وألف ، انتهى .

وصحبة هذا المکتوب ورقة نصّها : بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وصلى الله

على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم<sup>١</sup>.

للهِ دَرُّ الْعَالَمِ الْحَيَّانِي      كَأَنَّمَا يَنْظُرُ بِالْعِيَانِ  
لِلْمَقَرِّيِّ الْعَالَمِ الْمِفْضَالِ      مُنْظَرًا بِأَحْسَنِ الْمِثَالِ  
وَعَالَمٌ بِأَنْتِي مِنْ بَعْدِهِ      أَشِيرُ فِي نِظَامِنَا لِقَصْدِهِ  
وَمَا أَنَا بِاللَّهِ أَسْتَعِينُ      مُضَمَّنًا وَرَبَّنَا الْمَعِينُ  
بِالشَّطْرِ مِنَ الْفِيَةِ ابْنِ مَالِكٍ      أَيَّدْنَا اللَّهُ لِنَسْجِ ذَلِكَ  
قَالَ مُحَمَّدٌ عَيْدُ الْمَالِكِ      وَمَالِكُ الْأَحْسَنِ مِنْ مَسَالِكِ  
نُشِيرُ بِالتَّضْمِينِ لِلنَّحْرِيرِ      الْمَقَرِّيِّ الْفَاضِلِ الشَّهِيرِ  
ذَلِكَ الْإِمَامُ ذُو الْعِلَاءِ وَالْهَمَمِ      «كَعَلَّمَ الْأَشْخَاصَ لِفِطْرًا وَهُوَ عَم»  
فَلَنْ تَرَى فِي عِلْمِهِ مِثْلًا      «مَسْتَوْجِبًا ثِنَائِي الْجَمِيلَا»  
وَمَدْحُهُ عِنْدِي لِأَزْمٍ أَتَى      «فِي النِّظْمِ وَالنَّوْرِ الصَّحِيحِ مِثْبَتَا»  
أَوْصَافِ سَيِّدِي بِهَذَا الرَّجْزِ      «تَقَرَّبَ الْأَقْصَى بِلِغْظٍ مُوجِزَا»  
فَهُوَ الَّذِي لَهُ الْمَعَانِي تَعْتَرِي      «وَتَبَسُّطُ الْبِذْلِ بُوْعْدٍ مُنْجِزَا»  
رَبَّتُهُ فَوْقَ الْعُلَا يَا مَنْ فَهَمِ      «كَلَامُنَا لِفِطْرٍ مُفِيدٍ كَاسْتَقَمِ»  
وَكَمْ أَفَادَ دَهْرُهُ مِنْ تَحْفِ      «مَبْدِي تَأْوِيلِ بِلَا تَكْلُفِ»  
لِقَدْرِ رَقِيٍّ عَلَى الْمَقَامِ الطَّاهِرِ<sup>٢</sup>      «كَطَاهَرِ الْقَلْبَ جَمِيلِ الظَّاهِرِ»  
وَفَضْلِهِ لِلطَّالِبِينَ وَجَسَدَا      «عَلَى الَّذِي فِي رَفْعِهِ قَدْ عَهَدَا»  
قَدْ حَصَلَ الْعِلْمَ وَحَرَّرَ السَّيْرَ      «وَمَا بِلَا أَوْ بِإِنَّمَا انْحَصَرَ»  
فِي كُلِّ فَنٍّ مَاهِرٍ صَفْهِ وَلَا      «يَكُونُ إِلَّا غَايَةَ الَّذِي تَلَا»  
سِيرَتُهُ جَرَّتْ<sup>٣</sup> عَلَى نَهْجِ الْهُدَى      «وَلَا يَلِي إِلَّا اخْتِيَارًا أَبَدَا»

١ ورد بعض هذه الأرجوزة في خلاصة الأثر ٤ : ٢٧١ .

٢ خلاصة الأثر : إلى المقام الباهر .

٣ خلاصة الأثر : سارت .

«مما به عنه مبيناً يجبر»  
 «اعرف بنا فإننا لنا المنح»  
 «يصل إلينا يستعن بنا يعن»  
 «ولم يكن تصرفه مُمتنعاً»  
 «الخبر الجزء الممّ الفائده»  
 «إن يستطل وصل وإن لم يستطل»  
 «والله يقضي بهيات وافره»  
 «ويقتضي رضى بغير سخط»  
 «تعدل به فهو بضاهي المثلا»  
 «أحمد ربي الله خير مالك»  
 «وهالك وميت به قمن»  
 «عيناً وفي مثل هراوة جعل»  
 «في نحو خير القول إنني أحمد»  
 «مروع القلب قليل الخيل»  
 «وافعل أوافق نغيبط إذ تشكر»  
 «فجره وفتح عينه التزم»  
 «في نحو نعم ما يقول الفاضل»  
 «لكونه بمضمرة الرفع اقترن»  
 «ما مر فاقبل منه ما عدل روى»  
 «وذو تمام ما برفع يكتفي»  
 «وما يجمعه عنيت قد كمل»  
 «مصلياً على الرسول المصطفى»

وعلمه وفضله لا ينكر  
 يقول دائماً بصدر انشرح  
 يقول مرحباً لقاصديه من  
 صدق مقالتي وكن متبعا  
 وانفض إليه فهو بالمشاهدة  
 والزم جنابه وإياك الملل  
 واقصد جنابه ترى مآثره  
 وانسب له فإنه ابن معطي  
 واجعله نصب العين والقلب ولا  
 قد طالما أفاد علم مالك  
 وحاسد له ومبغض زمن  
 وليس يشفي مبغض له أعل  
 يقول عبد ربه محمد  
 وهو بدهره عظيم الأمل  
 فادع له وسادة قد حضروا  
 واجبره بالدعا عساه يغتم  
 أنشدت فيكم ذا وقال قائل  
 ادعو لكم بالستر في كل زمن  
 مآثر لكم كثيرة سوى  
 قد انتهى تعريف ذا المعرف  
 لأنتم تاج الأئمة الأول  
 فالله ببيكم لدينا وكفى

١ خلاصة الأثر : لقاصد ومن .

تَتَرَى عَلَيْهِ دَائماً منعظاً «وآلهِ المُستَكْمِلِينَ الشَّرْفَا»

ومن ذلك ما كتبه لي بعض الأصحاب ممن كان يقرأ علي بالمغرب<sup>١</sup> ،  
وصورته : سيدنا وسيد أهل الإسلام ، حامل راية علوم الأمة الأحمدية ،  
على صاحبها الصلاة والسلام ، آية الله في المعاني والمعالي ، وحسنة الأيام والليالي ،  
وواسطة عقود الجواهر والآلي ، إمام مذهب مالك والأشعري والبخاري ، والواقدي  
والخليل ، العلامة القدوة السيد الكبير الشهير الخليل ، ذو الأخلاق العذبة  
المداق ، والشمائل المُفْصِحَة عن طيب الأصول والأعراق ، كبير زمانه دون  
منازع ، وعالم أوانه من غير منكر ولا مدافع ، شيخنا ومعلمنا ومفيدنا وحيب  
قلوبنا مولانا شيخ الشيوخ أبو العباس أحمد بن محمد المقرَّبِيُّ المغربي التلمساني  
نزير فاس ثم الديار المصرية ، حفظه الله تعالى في موطن استقراره ، ورفع درجته  
بإشادة فخاره على مناره ، عن شوق يودُّ له الكاتب أن لو كان في طي كتابه ،  
وتَوَقَّ إلى مشاهدتكم هو الغاية في بابه ، بعد إهداء السلام المحفوف بأنواع  
التحيات والكرامات والبركات ، الدائم ما دامت في الوجود السكنات والحركات ،  
لمقامكم الأكبر ، ومَحْفَلِكُم الأشهر ، ومن تعلقت بأذيالكم أو كان مستمطراً  
لنوالكم ، أو صببت عليه شآبيب أفضالكم ، من أهل ومحب وصاحب وخديم ،  
هذا وإنه ينهي إلى الوداد القديم ، أن أهل المغرب الأدنى والأقصى حاضرة  
وبادية ، كلهم يتفكّهون بل يتقوتون بذكركم ، ويشتاقون لرؤية وجهكم ،  
ويتلذذون بطيب أخباركم ، وإن كان المغرب الآن في تفاقم أحوال ، وتراكم  
أهوال ، في الغاية مدائن وبوادي ، لا سيما مدينة فاس فإنها في شر عظيم ،  
وأمرها مولاي عبد الملك مات في السنة السابعة والثلاثين بل في ذي الحجة

١ اسم هذا الكاتب كما يتبين من خاتمة الرسالة «علي بن عبد الواحد الأنصاري» (ت : ١٠٥٤هـ)  
وكان فقيهاً محدثاً وله مؤلفات كثيرة ، استوطن الجزائر آخر عمره وفيها توفي (انظر ترجمته  
في صفوة من انتشر للأفرائي ص : ١٣٥ ط . فاس وكتاب الزاوية الدلائية : ١٢٦) .

قبلها ؛ وفي المحرم من سنة سبع وثلاثين ، توفي ملك المغرب السلطان أبو المعالي زيدان<sup>١</sup> وبويع من بعده ابنه مولاي عبد الملك ، وتقاتل مع أخويه الأميرين الوليد وأحمد وهزهما ، وإلى الله عاقبة الأمور . وأهل داركم بفاس بنجر وعافية ، ونعم ضافية ، سوى ما أدركهم من طول الغيبة ، نسأل الله تعالى أن يملاً بقدمكم العيبة ، ومحبتكم الأكبر ، ووليكم الأصغر ، سيد أهل المغرب اليوم وشيخ الطريقة ، والمربي في سلوك أهل الحقيقة ، العارف بالله الشيخ الرباني ، ذو المقامات والكرامات سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي<sup>٢</sup> ، يُحَيِّكُمْ<sup>٣</sup> ويعظم قدركم ، ولسانه لكم ذاكر ناشر شاكر ، وهو على خير ، وقد اجتمعت عليّ من بركتكم في مدينة سلا جماعة من طلاب العلم وفتح الله تعالى علي بتأليف عديدة منها « كفاية الطالب النبيل في حل ألقاظ مختصر خليل » ومنها « شرح على المنهج المنتخب » للزقاق في قواعد مالك ، ومنظومة في أكثر من ألف بيت في السير والشمائل ، ومنها في رجال البخاري ولا كنسخ<sup>٤</sup> الكلاباذي ، ومنها خطب ، وغير ذلك ، والكل من بركتكم ، ونسبته إليكم في صحيفتكم ،

١ بويع أبو المعالي زيدان بن أحمد المنصور بعد وفاة والده سنة ١٠١٢ ، وفي عهده جلا بقية من كان من العرب بالأندلس (سنة ١٠١٦) ؛ وقد خاض أبو المعالي حروباً كثيرة ضد الطامعين المحليين في كل من مراكش وفاس وضد الإسبان (راجع الاستقصا ٦ : ٣ - ٧٢) ؛ وقد بويع ابنه عبد الملك بعد وفاته سنة ١٠٣٧ في شهر المحرم ، فثار عليه أخواه الوليد وأحمد فوَقعت بينه وبينهما معارك وحروب إلى أن هزهما واستولى على ما كان بيدهما من العدة والذخيرة ، وقد كان عبد الملك فاسد السيرة ، قتله العلوج بمراكش سنة ١٠٤٠ (المصدر نفسه ٧٢ - ٧٨) .

٢ نسبة إلى زاوية الدلاء ، وهي زاوية أسسها أبو بكر ابن محمد المجاطي ، وكان لها دور كبير في تاريخ المغرب سياسياً ودينياً وعلمياً ، وقد وضح هذا الدور الأستاذ محمد حجي في كتابه : « الزاوية الدلائية » - الرباط : ١٩٦٤ ؛ ومحمد بن أبي بكر المذكور هنا هو من أعظم شيوخها ، وكان عالماً في التفسير والحديث والكلام (انظر الاستقصا ٦ : ٩٦ والزاوية الدلائية : ٧٦) وقد كان للمقري علاقة وثيقة بالزاوية الدلائية إذ إنه أقام مدة فيها ودرس الحديث على محمد بن أبي بكر .

٣ ق : يحبكم .

٤ كذا في ق ؛ وفي نسخ أخرى « كنسخ » .

والسلام من ولدكم المقر بفضلكم تراب نعالكم علي بن عبد الواحد الأنصاري ،  
لطف الله تعالى به ، وحامله كبير كبيراء قومه ممن يحبكم ويعرفكم ، وما تفعلوا  
معه من خير فلن تُكفَرُوهُ ، والسلام ، انتهى .

ومنها كتاب وافاني من علم قسمطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها سلالة العلماء  
الأكابر ، ووارث المجد كابرأ عن كابر ، المؤلف العلامة سيدي الشيخ عبد  
الكريم الفكون<sup>١</sup> حفظه الله ، نصّه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وصلى الله على من أنزل عليه في القرآن ﴿ وَإِنَّكَ  
لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) وآله وصحبه وسلّم أفضل التسليم ، من  
مُدُنَس الإزار ، المتسربل بسرابيل الخطايا والأوزار ، الراجي للتصل منه  
رحمة العزيز الغفار ، عبد الله - سبحانه - ، عبد الكريم بن محمد الفكون ،  
أصلح الله بالتقوى حاله ، وبلغه من متابعة السنّة النبوية<sup>٢</sup> آماله ، إلى الشيخ الشهير ،  
الصدر النحرير ، ذي الفهم الثاقب والحفظ الغزير ، الأحبّ في الله المؤاخي من  
أجله سيدي أبي العباس أحمد المقرّي ، أحمد الله عاقبتني وعاقبته ، وأسبل على  
الجميع عافيته ، أمّا بعد فإنّي أحمد الله إليك ، وأصلي على نبيه سيدنا محمد ،  
صلى الله عليه وسلّم ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فإنّي أحوجُ  
الناس إليه ، وأشدهم في ظني إلحاحاً عليه ، لما تحققت من أحوال نفسي الأمّارة ،  
واستبظنت من دخيلاتها المثابرة على حبّ الدنيا الغرّارة ، كأنّها عميت عن  
الأهوال ، التي أشابت رؤوس الأطفال ، وقطعت أعناق كُمل الرجال ، فراها في  
بلحج هواها خائضة ، وفي ميدان شهواتها راکضة ، طغت في غيها وما لانت ،  
وجمّحت فما انقادت ولا استقامت ، فويّلي ثمّ ويّلي من يومٍ تبرز فيه

١ هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القسطيني ( - ١٠٧٣ ) له مؤلفات كثيرة منها  
« محمد السنان في نهور إخوان الدخان » ( راجع ترجمته في صفوة من انتشر ورحلة العياشي ،  
واليواقيت الثمينة ١ : ٢٣٢ ) .

٢ ق : المصطفية .



القبايح ، وتنشر الفضائح ، ومُنَادِي العدل قائم بين العالمين ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء : ٤٧) فالله أسأل حسن الإلطاف ، والستر عما ارتكبناه من التعدّي والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم ، وممن يُحشَر تحت لواء خلاصته الكريم ، سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم ، ولنكفّ من القلم عنانه ، لما أرجو من أجله ثواب الله سبحانه ، وقد اتصل بيدي جوابكم ، أطال الله في العلم بقاءكم ، فرأيت من عذوبة ألفاظكم ، وبلاغة خطابكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، وينيلها لدى الجثو لسماعه سؤالها ومأمولها ، بيد ما فيه من أوصاف من أمره قاصر ، وعن الطاعة والاجتهاد فاتر ، وأصدق قول فيه عند مخبره ومرآه « أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه »<sup>٢</sup> لكن يجازيكم المولى بحسن النية ، البلوغ في بجموحة الجنان غاية الأمانة ، وقد ذيلتم ذلك بأبيات أنا أقلّ من أن أوصف بمثلها ، على أنني غير قائم بقرضها ونقلها ، فالله تعالى يمدّكم بمعونته ، ويجعلكم من أهل مناجاته في حضرته ، ويسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيد مُنادمته ، وقد ساعد البنان الجنان ، في إجابتمك بوزنها وقافيتها ، والعُدْرُ لي أنني لست من أهل هذا الشأن ، والاعتراف بأنني جبان وأي جبان ، والكمال لكم في الرضى والقبول ، والكريم يُغضبي عن عَوْرَات الأحمق الجهول ، وظننا حقه الله تعالى أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعني « إضاءة الدجنة »<sup>٣</sup> تقييداً ، أرجو من الله توفيقاً وتسديداً ، بحسب قلدي لا على قدركم ، وعلى مثل فكري القاصر لا على عظيم فكركم ، وإن ساعد الأوان ، وقضى بتيسيره ربُّ الزمان ، فآتي به إن شاء

١ ق : في التلم .

٢ من الأمثال ؛ وكان الكسائي يدخل فيه « أن » والعامية لا تذكرها فيه ، وقال البيهقي حذف « أن » من المثل أشهر عند العلماء ؛ يضرب في الرجل تكون له نباهة ولا منظر عنده (فصل المقال :

١٢١ وأمثال الضبي ٨ - ٩ والميداني ١ : ٨٦ والسكري ١ : ١٨٦ والفاخر : ٥٣) .

٣ هي « إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة » وهي منظومة للمقري ألفها ودرسها في الحجاز والشام وانتسخت منها في حياته نسخ كثيرة ؛ طبعت بمصر سنة ١٣٠٤ هـ شرح عيش على العقيدة السنية .

الله ، الآجل<sup>١</sup> معي ، لأنني بالأشواق ، إلى حضرة راكب البراق ، ومخترق  
 السبع الطباق . وكنت عازماً على أن أبعث لكم من الأبيات أكثر من الواقع ،  
 إلا أن الرفقة أعجلت ، وصادفتني أيام موت قعيدة البيت ، فلم يتيسر عاجلاً  
 إلا ما ذكر وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبي ونعم الوكيل :

يا نُخْبَةَ الدَّهْرِ فِي الدَّرَايَةِ	عِلْمًا تُعَاضِدُهُ الرُّوَايَةُ <sup>٢</sup>
لَا زَلْتَ بَحْرًا بِكُلِّ فَنٍّ	يُرْوِي بِهِ الطَّالِبُونَ غَايَةَ
لَقَدْ تَصَدَّرْتَ فِي الْمَعَالِي	كَمَا تَعَالَيْتَ فِي الْعِنَايَةِ
مِنْ فَيْكَ تَسْتَنْظِمُ الْمَعَانِي	بُلُغْتَ فِي حُسْنِهَا النِّهَايَةَ
رَقَاكَ مَوْلَاكَ كُلَّ مَرَقَى	تَحْوِي بِهِ الْقُرْبَ وَالْوَلَايَةَ
أَعْجُوبَةٌ مَا لَهَا نَظِيرٌ	فِي الْحَفْظِ وَالْفَهْمِ وَالْمُهَادَايَةَ
يَا أَحْمَدُ الْمُقَرَّبِيُّ دَامَتْ	بُشْرَاكَ تَصْحَبُهَا الرَّعَايَةُ <sup>٣</sup>
بِحَاهِ خَيْرِ الْعِبَادِ طُرّاً	وَالْأَلِّ وَالصَّحْبِ وَالنُّقَايَةَ
صَلَّتِي عَلَيْهِ الْإِلَهُ تُتَرَى	نُكْفَى بِهَا الشَّرَّ وَالْغَوَايَةَ

وأختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،  
 وكتب بغاية عجلة ، يوم السبت سابع أو ثامن رجب ، من عام ثمانية وثلاثين  
 وألف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام ؛ انتهى .  
 والمذكور عالم المغرب الأوسط غير مدافع ، وله سلف علماء ذوو شهرة ،  
 ولهم في الأدب الباع المديد ، غير أن المذكور مائل إلى التصوف ، ونعم ما فعل ،  
 تقبل الله تعالى عملي وعمله ، وبلغ كلاً منا أمله ؛ ولأشهر أسلافه العلامة الشيخ

١ يريد : العام الآجل .

٢ لا يتفق الشطران في الوزن .

٣ خرج في الشطر الثاني عن وزن سائر الأبيات .

حسن بن علي بن عمر الفكون القسطيني أحد أشياخ العبدري<sup>١</sup> صاحب الرحلة  
قصيدة مشهورة عند العلماء بالمغرب ، وهي من درّ النظام ، وحرّ الكلام ، وقد  
ضمّتها ذكر البلاد التي رآها في ارتحاله من قسطينة إلى مراكش ، وأولها :

ألا قُلْ لِلسَّرِيِّ ابْنِ السَّرِيِّ أَبِي البَدْرِ الجِوَادِ الأَرِيحِيِّ<sup>٢</sup>

ومنها :

وكنْتُ أظنُّ أنَّ النَّاسَ طُرّاً      سوى زَيْدٍ وعمرو وغير شيءٍ  
فلمَّا جئتُ مَيْلَةَ<sup>٣</sup> خَيْرِ دَارٍ      أمالَتْنِي بِكُلِّ رِشَا أَبِي  
وكمُّ أورتَ ظباءِ بني وِزارٍ      أوارَ الشُّوقِ بالرِّيقِ الشَّهِيِّ  
وجئتُ بِجَايَةٍ فَجَلَّتْ بِدوراً      بِضَيْقٍ بِوصفِها حُرْفُ الرُّويِّ  
وفي أرضِ الجِزائرِ هَامَ قَلْبِي      بِمَعَسُولِ المِراشِفِ كوثريِّ  
وفي مِلْيَانَةٍ قَدْتُ ذِبْتُ شوقاً      بِلِينِ العِطْفِ والقَلْبِ القَسِيِّ  
وفي تَنَسُّسٍ نَسِيتُ جَمِيلَ صَبْرِي      وَهَمِمْتُ بِكُلِّ ذِي وَجْهِ وَضِي  
وفي مازونةٍ ما زلتُ صَبّاً      بوسنانِ المِحاجرِ لودعيِّ  
وفي وَهْرَانَ قَدُ أَمَسْتُ رهنًا      بِظامِي الحِصْرِ ذِي رَدْفِ رَوِيِّ  
وأبدتُ لي تِلْمِسَانَ<sup>٤</sup> بدوراً      جَلِبْنَ الشُّوقِ للقَلْبِ الحَلِيِّ

١ وهم المقري هنا إذ ان العبدري لما حل بمدينة قسطينة سأل من لقيه (وهو الحسن بن بلقاسم  
ابن باديس) عن الأديب أبي علي حسن بن علي بن عمر القسطيني المعروف بابن الفكون فذكر  
ابن بلقاسم أنه أدرك الفكون وهو طفل صغير ولكنه لا يحفظ عام ولادته أو وفاته . قال العبدري :  
ورمت أن أجد من يروي عنه قصيدته المشهورة في رحلته من قسطينة إلى مراكش فلم أجده ،  
فقيدتها هناك غير مروية وكان القسطيني كتب بها إلى أبي البدر ابن مردنيش (رحلة العبدري :  
٣٠ وأثبت القصيدة هناك ص ٣٠ - ٣١) وقد غارض العبدري هذه القصيدة بقصيدة أثبتتها  
في آخر رحلته .

٢ هو أبو البدر ابن مردنيش ، كما في التعليق السابق .

٣ في ق ودوزي : بيلة ، والتصويب عن الرحلة .

ولما جئتُ وَجْدَةً هَمَّتُ وَجِدًا  
وحلَّ رِثًا الرِّبَاطِ رِثًا رِبَاطِي  
وأطلعَ قَطْرُ فَاَسٍ لِي شَمُوسًا  
وما مَكْنَسَةٌ إِلَّا كَنَاسٌ  
وإن تَسألَ عَنَ آرَضٍ سَلَافِيفِهَا  
وفي مَرَاكِشٍ يَا وَبِجَ قَلْبِي  
بَدُورٌ بَلْ شَمُوسٌ بَلْ صَبَاحٌ  
أَجْمَنَ مِصَارِعَ العِشَاقِ لَمَّا  
بِقَامَةِ كَلِّ أَسْمَرَ سَمَهْرِي  
إِذَا أَنَسَيْنِي حُسْنًا فَلَانِي  
فَهَا أَنَا قَدْ تَخَذْتُ العَرَبَ دَارًا  
عَلَى أَنَّ اشْتِيَاقِي نَحْوَ زَيْدٍ  
تَقَسَّمَنِي الهَوَى شَرْقًا وَغَرْبًا  
فَلِي قَلْبٌ بِأَرْضِ الشَّرْقِ عَانٌ  
فَهَذَا بِالغُدُوِّ يَهِيمُ غَرْبًا  
فَلَوْلَا اللهُ مَتُّ هَوَى وَشَوْقًا  
وَأَدْعَى اليَوْمَ بِالْمَرَاكِشِي  
كشَوِيقِ نَحْوِ عَمْرٍو بِالسُوِي  
فِيَا لِلْمَشْرِقِيِّ المَغْرِبِيِّ  
وَجِسْمٌ حَلٌّ بِالعَرَبِ القِصِي  
وَذَاكَ يَهِيمُ شَرْقًا بِالعِشِي  
وَكَمُّ اللهُ مِن لُطْفِ خَفِي  
بِمَخْنَثِ المِيعَاطِفِ مَعْنَوِي<sup>١</sup>  
وَتِيخِي بِطَرْفِ بَابِلِي  
مَغَارِبُهُنَّ فِي قَلْبِ الشَّجِي  
لأَحْوَى الطَّرْفِ ذِي حُسْنِ سِنِي  
ظُبَاءَ كَاسِرَاتٍ لِلْكَمِي  
أَتَى الوَادِي فَطَمَّ عَلَى القَرِي  
بِهَيْيَ فِي بَهِييَ فِي بَهِييَ  
سَعَيْنَ بِهِ فِكْمَ مَيْتٍ وَحِييَ  
وَمَقْلَةَ كَلِّ أَيْضَ مَشْرِفِي  
أَنْسِيهِمْ هَوَى غَيْلَانِ مَي  
وَأَدْعَى اليَوْمَ بِالْمَرَاكِشِي  
كشَوِيقِ نَحْوِ عَمْرٍو بِالسُوِي  
فِيَا لِلْمَشْرِقِيِّ المَغْرِبِيِّ  
وَجِسْمٌ حَلٌّ بِالعَرَبِ القِصِي  
وَذَاكَ يَهِيمُ شَرْقًا بِالعِشِي  
وَكَمُّ اللهُ مِن لُطْفِ خَفِي

وقد خرجنا بالاستطراد إلى الطول ، وذلك منّا استرسال مع جاذب الأدب ، فلمسك العنان ، والله المستعان .

وما عددناه من القصائد والمقطوعات في مدح دمشق الشام فهو غيبض من فيض ، وفي نيتي أن أجمع في ذلك كتاباً حافلاً أسميه « نشق عرّف دمشق »

١ قال المهدي في تعليقه على هذا البيت : « قوله معنوي بعد منخنث المعاطف . . . لقد استربت به حتى ظننت أنه مصحف ، ولا أتبرأ فيه من تصحيف . »

أو «مشق قلم المدح لدمشق»<sup>١</sup> ولسان حالي الآن ينشد قول بعض الأكابر :

نحن في مصر رهنٌ شوقٍ إليكم      هل لديكم بالشام شوقٌ إلينا  
فمجزنا عن أن ترونا لديكم      وأبيتم عن أن نراكم لدينا  
حفظ الله عهد من حفظ العهد      لم ووفى به كما قد وفينا

وقول ابن الصائغ :

وددت لو أن عيني      مكان كتي إليكم  
حتى أراكم وأملي      أخبار شوقٍ عليكم

رجع إلى ابن جبير رحمه الله تعالى :

ومن شعره قوله :

إياك والشهرة في ملابس      والبس من الأثواب أسماها  
تواضع الإنسان في نفسه      أشرف للنفس وأسمى لها

وقال :

تنزّه عن العوراء مهما سمعتها      صيانة نفس فهو بالحر أشبه  
إذا أنت جاوبت السفيه مشاماً      فمن يتلقى الشتم بالشتم أسفه

وقال :

أقول وقد حان الوداعُ وأسلمتُ      قلوبٌ إلى حكم الأسي ومدامعُ  
أيا رب أهلي في يديك ودیعة      وما عدت صوتاً لديك الودائعُ

١ ذكره المحبي بين مؤلفاته وسماه «عرف النشق في أخبار دمشق» ما قد يدل على أنه حقق نيته وقام بتأليفه .

وقال أبو عبد الله ابن الحاج المعروف بمُدْغَلَيْس<sup>١</sup> صاحب الموشحات  
بمدح ابن جبير المذكور :

لأبي الحسين مكارم<sup>٢</sup> لو أنها عدت لما فرغت ليوم المحشر  
وله علي<sup>٣</sup> فضائل<sup>٤</sup> قد قصرت عن بعض نعمها عظام الأجر  
وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها<sup>٥</sup> :

يا وفود الله فزتم بالمني فهيتا لكم أهل ميني  
قد عرفنا عرفات بعدكم<sup>٦</sup> فلهذا برح الشوق بنا  
نحن في الغرب ويجري ذكركم<sup>٧</sup> بغروب الدمع يجري هتنا<sup>٨</sup>  
ومنها :

فيناديه على شحط النوى من لنا يوماً بقلب ملنا  
سر بنا يا حادي الركب<sup>٩</sup> عسى أن نلاقى يوم جمع سربنا  
ما دعا<sup>١٠</sup> داعي النوى لما دعا غير صب شفه برح العنا  
شم لنا البرق إذا لاح<sup>١١</sup> وقل جمع الله<sup>١٢</sup> بجمع شملنا

١ هو أبو عبد الله أحمد بن الحاج الزجاج عاش في دولة الموحدين ويعد خليفة ابن قزمان في الزجل  
( انظر المغرب ٢ : ٢١٤ ، ٢٢٠ ، والعاقل الحالي : ١٨ - ٢٦ وسيأتي ذكره في النسخ ) .

٢ انظر هذه القصيدة في الذيل والتكملة ٥ : ٦١٤ وبعضها في المغرب ٢ : ٣٨٥ . ومقدمة  
الرحلة : ١٨ .

٣ الذيل : معكم .

٤ الذيل :

نحن بالمغرب نجري ذكركم فغروب الدمع يجري هتنا

٥ في النسخ المطبوع : فقلت ، والتصويب عن الذيل والتكملة .

٦ الذيل : حادي العيس .

٧ الذيل : ما عني .

٨ الذيل : إذا هب .

عَلَّنَا نَلْقَى خِيَالًا مِنْكُمْ      بِلذِيذِ الذِّكْرِ وَهَنَا عَلَّنَا  
لَوْ حَتَا الدَّهْرُ عَلَيْنَا لَقَضَى      بِاجْتِمَاعِ بِكُمْ بِالْمُنْحَى  
لَا حَ بَرَقَ مَوْهِنًا مِنْ نَحْوِكُمْ      فَلَعَمْرِي مَا هَتَا الْعَيْشُ هُنَا  
أَنْتُمْ الْأَحْيَابُ نَشْكُو بِعُدْكُمْ      هَلْ شَكُوتُمْ بِعُدْنَا مِنْ بَعْدِنَا

وله رحمه الله تعالى من قصيدة مطوّلة أوّلها :

لعلّ بشيرَ الرّضى والقبولِ      يُعَلِّلُ بِالْوَصْلِ قَلْبَ الْخَلِيلِ

وله أخرى أنشدّها عند استقباله المدينة المشرفة ، على صاحبها الصلاة وآتم السلام ، وهي ثلاثة وثلاثون بيتاً من الغر ، أوّلها ٢ :

أَقُولُ وَأَنْسَتُ بِاللَّيْلِ نَارًا      لَعَلَّ سِرَاجَ الْهُدَى قَدَ أَنْارَا  
وإلاّ فما بالُ أفقِ الدُّجَى      كَأَنَّ سَنَا الْبَرَقِ فِيهِ اسْتَطَارَا  
ونحنُ من الليلِ في حِنْدِسِ      فَمَا بِاللَّهِ قَدَ تَجَلَّى نَهَارَا

وكان أبو الحسين ابن جبّير المترجم به قد نال بالأدب دنيا عريضة ، ثم رفضها وزهد فيها .

وقال صاحب « الملتبس » في حقّه : الفقيه الكاتب أبو الحسين ابن جبّير ، ممّن لقيته وجالسته كثيراً ورويت عنه ، وأصله من شاطبيّة ، وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها ، ذكره ابنُ اليَسَعِ في تاريخه ، ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه ، وتولّع بغيرناطة ، فسكن بها ، قال : وممّا أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد بإشبيلية :

أبا عمرانَ قَدَ خَلَفْتُ قَلْبِي      لَدَيْكَ وَأَنْتَ أَهْلٌ لِلْوَدِيعَةِ

١ هذا البيت وما يليه من أبيات لم ترد في الذيل والتكملة .

٢ وردت هذه القصيدة في الذيل والتكملة ٥ : ٦٠٢ والإحاطة ٢ : ١٧١ .

صَحَبْتُ بِكَ الزَّمانَ أَخا وَفاهُ      فَمَها هُوَ قَدَ تَنَمَّرَ لِقَطِيمِها

قال : وكان من أهل المروءات ، عاشقاً في قضاء الحوائج ، والسعي في حقوق الإخوان ، والمبادرة لإيناس الغرباء ، وفي ذلك يقول :

يَجسِبُ الناسُ بِأَنِّي مُتَعَبٌ      في الشَّفَاعاتِ وتكليفِ الورى  
والذي يُتَعَبُهُمْ مِن ذاكَ لي      راحةً في غيرها لن أفكِّرا  
وَبودَي لو أَقْضِي العَمْرَ في      خِدمةِ الطِّلابِ حَتى في الكرى

قال : ومن أبدع ما أنشده رحمه الله تعالى أول رحلته :

طالَ شوقِي إلى بِقاعِ ثلاثِ      لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إِلَيها  
إنَّ لِلنَّفْسِ في سماءِ الأمانِ      طائراً لا يَحومُ إلا عَلَيها  
فُصٌّ مِنْهُ الجِناحُ فهو مَهَيِّضٌ      كلَّ يومٍ يَرجو الوقوعَ لَدَيها

وقال :

إذا بَلَغَ العَبْدُ أرضَ الحِجازِ      فَقَدَ نالَ أَفضلَ ما أمَّ لَه  
فإنَّ زارَ قَبْرَ نبيِّ الهُدَى      فَقَدَ أَكلَ اللهُ ما أمَلَه

وعاد رحمه الله تعالى إلى الأندلس بعد رحلته الأولى التي حل فيها دمشق والموصل وبغداد ، وركب إلى المغرب من عكا مع الإفرنج ، فعبط في خليج صقلية الضيق ، وقامى شدائد إلى أن وصل الأندلس سنة ٥٨١ ، ثم أعاد السير إلى المشرق بعد مدة إلى أن مات بالإسكندرية كما تقدم .

ومن شعره أيضاً :

لي صديقٌ خسرت فيه ودادي      حينَ صارتَ سلامتي منه ربجا

١ البيتان في الإحاطة ٢ : ١٧٢ والذيل والتكملة ٥ : ٦٠٤ .



حَسَنُ الْقَوْلِ سَيِّئُ الْفَعْلِ كَالْحِ زَارَ سَمَى وَأَتَبَعَ الْقَوْلَ ذَبْحًا

وحدّث رحمه الله تعالى بكتاب «الشفاء» عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي عن القاضي عياض ، ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذري وأبو الحسين يحيى بن علي القرشي .

وتوفّي ابن جبّير بالإسكندرية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ ، والدعاء عند قبره مستجاب ، قاله ابن الرقيق رحمه الله تعالى وقال ابن الرقيق : في السنة بعدها .

وقال أبو الربيع ابن سالم : أنشدني أبو محمد عبد الله بن التميمي البجائي ، ويُعرف بابن الخطيب ، لأبي الحسين ابن جبّير ، وقال : وهو ممّا كتب به لميّ من الديار المصرية في رحلته الأخيرة لما بلغه ولايتي قضاء سبتة ، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك ، وتوفّيَتْ هناك زوجته بنت أبي جعفر الوَقْشيّ<sup>١</sup> فدفنها بها :

بِسَبْتَةَ لِي سَكَنْ فِي الثَّرَى وَخِلٌ كَرِيمٌ لِيهَا أُمِّي  
فَلَوْ اسْتَطِيعَ رَكِبْتُ الْهَوَا فزرت بها الحيّ والميتًا

وأنشد ابن جبّير رحمه الله تعالى لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى إلى غرناطة ، أو في طريقها ، قوله<sup>٢</sup> :

لِي نَحْوَ أَرْضِ الْمَنَى مِنْ شَرْقِ أُنْدَلُسٍ شَوْقٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْقَبَسِ  
إلى آخرها .

١ هي عاتكة المدعوة بأم المجد ووالدها هو الوزير الحبيب أحمد بن عبد الرحمن الوَقْشيّ ، وكانت وفاتها يوم السبت لعشر غلّون من شعبان سنة ٦٠١ بعد زمانة طاولتها مدة ؛ وقد قام ابن جبّير برحلته الثالثة بعد وفاتها ، فوصل مكة سنة ٦٠٢ وجاور هناك طويلا .

٢ قال هذه القصيدة لما قفل من رحلته الأولى ولاحت له وهو على ظهر البحر جبال دانية ، انظر الذيل والتكملة : ٦٠٤ .

ومن شعره قوله :

يا خَيْرَ مولى دعاه عَبْدٌ  
هَبَّ لِي ما قد علمتَ مِنِّي  
أَعْمَلُ في الباطلِ اجتهادَهُ  
يا عالمَ الغيبِ والشهادةِ

وقال رحمه الله تعالى :

ولمَّني لأوثرَ مَنْ أَصْطَفِي  
وأهوى الزيارَةَ ممَّنْ أَحَبُّ  
وأغضِي عَلى زَلَّةِ العائِرِ  
لأَعْتَقِدَ الفِضْلَ للزائِرِ

وقال رحمه الله تعالى :

عجبتُ للمرءِ في دنياه تُطْمِعُهُ  
يُمْنِي وَيُصْبِحُ في عَشْواءِ يَجْطِئُهَا  
يَغْتَرُّ بالدهرِ مسروراً بصحبته  
ويجمعُ المالَ حرصاً لا يفارقه  
تراهُ يُشْفِقُ من تضييعِ درهمه  
وأسوأَ الناسِ تديباً لعاقبه  
في العيشِ والأجلِ المحتومِ يَقْطَعُهُ  
أعمى البصيرةِ والآمالِ تُخْذَعُهُ  
وقدْ تيقنَ أَنَّ الدهرَ يصرعه  
وقد درى أَنَّهُ للغيرِ يجمعه  
وليس يُشْفِقُ من دينِ يضيِّعُهُ  
مَنْ أنفقَ العمرَ فيما ليس ينفعُهُ

وقال :

صبرتُ على غَدْرِ الزَّمانِ وحقدهِ  
وجرَّبتُ إخوانَ الزَّمانِ فلم أجِدْ  
وكمَّ صاحبِ عاشرتهِ وَالْفِتْنَةَ  
وكم غرَّني تحسِينُ ظنِّي به فلم  
وأغربُ من عَنقَاءِ في الدهرِ مُغْرِبِ  
بنفسكِ صادمٍ كلَّ أمرٍ تريدهُ  
وعزَمَكَ جَرَّدُ عند كلِّ مهمَّةِ  
وشاب لي السَّمَّ الزُّعَافَ بشهْدِهِ  
صديقاً جميلَ الغيبِ في حالِ بَعْدِهِ  
فما دام لي يوماً على حُسْنِ عَهْدِهِ  
يضيءُ لي على طولِ اقتداحي لزندِهِ  
أخو ثقةٍ يسقيكَ صافي ودهِ  
فليس مضاءَ السيفِ إلا بِحَدِّهِ  
فما نافعٌ مَكْتُ الحسامِ بِغَمْدِهِ

وشاهدتُ في الأسفارِ كلَّ عجيبةٍ  
فكن ذا اقتصادٍ في أموركَ كلها  
وما يُحرِّمُ الإنسانُ رزقاً لعجزه  
حُظوظُ الفتي من شقوةٍ وسعادةٍ  
فلمَ أرَ مَنْ قد نالَ جدّاً بجِدِّه  
فأحسنُ أحوالِ الفتي حُسْنَ قِصْدِه  
كما لا ينالُ الرزقَ يوماً بكِدِّه  
جرتَ بقضاءٍ لا سبيلَ لردِّه

وقال :

الناسُ مثلُ ظروفٍ حَشَوْها صَبِيرٌ  
تَغَيَّرُ ذائقُها حتى إذا كُشِفَتْ  
فوقَ أفواهِها شيءٌ من العَسَلِ  
لَهُ تَبَيَّنَ ما تَحْوِيهِ من دَخَلِ

وقال :

تَغَيَّرَ إِخْوانُ هذا الزمانِ  
وكانوا قديماً على صحَّةِ  
وكُلُّ صديقٍ عَرَّاهِ الخللُ  
فقد داخَلَتْهُمُ حروفُ العَللِ  
قضيتُ التعجِبَ من أمرهم  
فصرتُ أطلعُ بابَ البَدلِ

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور<sup>١</sup> ،  
ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر ، وهو قوله :

تَكَلَّمتُ أخلاقاً هذا الزمانِ  
قضيتُ التعجِبَ من شأنهم  
فَعِنْدِي مِمَّا جَسَّوهُ خَلَلُ  
فصرتُ أطلعُ بابَ البَدلِ

ولابن جبير رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> :

مِنَ اللّهِ فَاسْأَلْ كُلَّ أمرِ تَريدُهُ  
ولا تتواضعُ للولاءِ فإنَّهم  
فما يملكُ الإنسانُ نفعاً ولا ضراً  
من الكبرِ في حالِ تَموجِ بهم سُكُرا

١ انظر ص : ٣٨٤ من هذا الجزء .

٢ الأبيات في الذيل والتكملة ٥ : ٦١٣ .

ولياك أن ترضى بتقبيل راحة

فقد قيل عنها إنها السجدة الصغرى

وهو نحو قول القائل<sup>١</sup> :

أيتها المستطيلُ بالبغي أقصرُ  
وتذكرُ قولَ الإلهِ تعالى ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾

ربّما طأطأ الزّمانُ الرّؤسا

وقال ، وقد شهد العيد بطنندتة من قرى مصر :

شهدنا صلاةَ العيدِ في أرضِ غربيّةٍ  
فقلّتُ لخليّ في النوى جدُّ بمدمعٍ

بأحوازِ مصرٍ والأحبةُ قدّ بانوا

فلَيْسَ لَنَا إِلَّا المِدامِعُ قُرْبانُ

وقال :

قد أحدثَ الناسُ أموراً فلا  
فما جِماعُ الخيرِ إِلَّا الذي

تعملُ بها إني امرؤ ناصعُ

كانَ عليه السّلفُ الصّالحُ

وقال :

ربّ إنّ لم تؤتني سعةً  
لا أحبُّ اللبثَ في زمنٍ  
فهمُ كسرٌ لمنجبرٍ  
ما همُ جبرٌ لمنكسرٍ

فاطوٍ عني فضلةَ العُمُرِ

حاجتي فيه إلى البشرِ

فما همُ جبرٌ لمنكسرٍ

ولما وصل ابن جبير ، رحمه الله تعالى ، إلى مكة في ١٢ ربيع الآخر

سنة ٥٧٩ أنشد قصيدته التي أولها :

بلغتُ المنى وحللتُ الحرامَ  
فعاد شبابك بعدَ الهرمِ

١ انفردت إحدى النسخ بإيراد ما يلي بعد كلمة « القائل » :

قل لنصر والمرء في دولة ال سلطان أعنى ما دام يدعى أميراً

فاذا زالت الولاية عنه واستوى بالرجال عاد بصيراً

وقال ابن جبير رحمه الله تعالى : أيها المستطيل . . . إلخ البيتين .

فأهلاً بمكة أهلاً بها وشكراً لمن شكره يلتزم  
وهي طويلة ، وسيأتي بعضها :

وقال رحمه الله تعالى عند تحرّكه للرحلة الحجازية :

أقولُ وقد دعا للخيرِ داعٍ  
حرامٌ أن يلدنَّ لي اغتماضٌ  
ولا طافتْ بي الآمالُ إن لم  
ولا طابتْ حياةٌ لي إذا لم  
وأهديه السلامَ وأقتضيه

حننتُ لهُ حينَ المستهامِ  
ولم أرحلُ إلى البيتِ الحرامِ  
أطفُ ما بينَ زمزمَ والمقامِ  
أزرُ في طيبةٍ خيرَ الأنامِ  
رضى يُدني إلى دارِ السلامِ

وقال :

هنيئاً لمن حجَّ بيتَ الهدى  
وإنَّ السعادةَ مضمونةٌ

وحطَّ عنِ النفسِ أوزارها  
لمن حجَّ طيبةً أو زارها

ولنختم ترجمته بقوله :

أحبُّ النبيَّ المصطفى وابنَ عمِّه  
همُ أهلُ بيتِ أذهبَ الرجسُ عنهمُ  
مُواليتهمُ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ  
وما أنا للصَّحْبِ الكرامِ بمبغضٍ  
همُ جاهلوا في اللهِ حقَّ جهاده  
عليهمُ سلامُ الله ما ذكرهمُ

علياً وسيطيه وفاطمةَ الزهراء  
وأطلعهمُ أفقُ الهدى أنجماً زهراً  
وجبهمُ أسنى الذخائرِ للأخرى  
فلإني أرى البغضاءَ في حقهمُ كفرها  
وهم نصرُوا دينَ الهدى بالطَّبِ نصراً  
لدى الملا الأعلى وأكرمُ به ذكراً

وقوله في آخر الميمية :

نبيُّ شفاعتهُ عصمةٌ فيومَ التنادي به يُعتصمُ

١ البيتان في الذيل والتكملة ٥ : ٦٠٤ والإحاطة ٢ : ١٧٢ .

عسى أن تُجَابَ لنا دعوةٌ      لديه فَنُكْفَى بها ما أهمّ  
وَيَرَعَى لزواره في غدٍ      ذماماً فما زال يَرَعَى الذمّ  
عليه السلام ، وطوبى لمن      ألمّ بِتَرَبَّتِهِ فاستلم  
أخي كم نَتَابِعُ أهواءنا      ونخبطُ عشواءها في الظلم  
رُوَيْدَكَ جُرْتَفَعُجٌ واقتصدُ      أمامك نهجُ الطريقِ الأعمّ  
وتُبُّ قبلَ عضِّ بنانِ الأسي      ومن قَبْلِ قَرَعِكَ سِنَّ الندم

ومنها :

وقلْ رَبِّ هَبْ رَحْمَةً في غدٍ      لعبدٍ بِسِيما العُصَاةِ اتَّسَمَ  
جرى في ميادينِ عصيانهِ      مسيئاً ودانَ بكفرِ النَّعَمِ  
فيا ربَّ صَفِّحْكَ عما جتني      وياربَّ عَفِّوْكَ عما اجترمُ

١٨٠ - ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الأديب أبو عامر ابن عيشون . قال الفتح<sup>١</sup> : رجل حلَّ المشيّدات والبلاقع ، وحكى النسرین الطائر والواقع ، واستدرَّ خِلْفِي البؤس والنعيم ، وقعد مقعد البائس والزعيم ، فأونة في سماط ، وأخرى بين درانك وأنماط ، ويوماً في ناووس<sup>٢</sup> ، وأخرى في مجلس مانوس ، رحل إلى المشرق فلم يحمده رحلته ، ولم يعلق بأمل نخلته ، فارتد على عقبه ، ورُدَّ من جباله الفوت إلى منتظره ومرتقبه ، ومع هذا فله تحقُّق بالأدب ، وتدفُّق طبع إذا مدح أو نسب ، وقد أثبت له ما تعلم حقيقة نفاذه ، وترى سرعة وخده في طريق الإحسان وإغذاذه .

ثم قال : وأخبرني أنّه دخل مصر وهو سارٍ في ظلم البوس ، عارٍ من كل لبوس ، قد خلا من النقد كيسه ، وتخلّى عنه إلا تعذيره<sup>٣</sup> وتنكيسه ، فنزل بأحد

١ انظر قلائد المقيان : ٢٨٨ .

٢ القلائد : الناموس .

٣ القلائد : تعذيره .

شوارعها لا يفترش<sup>١</sup> إلا نكده ، ولا يتوسد<sup>٢</sup> إلا عضده ، وبات بليلة ابن عبدل<sup>١</sup> ،  
تهب عليه صرصر لا ينفخ منها عنبر ولا مندل ، فلما كان من السحر دخل عليه  
ابن طوفان فأشفق لحاله ، وفرط إجماله ، وأعلمه أن الأفضل ابن أمير الجيوش  
استدعاه ، ولو ارتاد جوده بقطعة يغنيها له لأخصب مرعاه ، فصنع له في حينه :

قل للملوك وإن كانت لهم همم<sup>١</sup>      تأوي إليها الأماني غير متبدد  
إذا وصلت بشاهنشاه لي سبباً      فلن أبالي بمن منهم نقضت يدي  
من واجه الشمس لم يعدل بها قمرأ      يعشو إلى ضوءه لو كان ذا رمد

فلما كان من الغد وافاه فدفع إليه خمسين مثقالاً مصرية وكسوة  
وأعلمه أنه غناه ، وجود الإظهار للفظه ومعناه ، وكرره ، حتى أثبتته في سمعه  
وقرره ، فسأله عن قائله فأعلمه بقائله ، وكلمته في رفع خالته ، فأمر له بذلك .

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

قصدت على أن الزيارة سنة<sup>١</sup>      يؤكد لها فرض من الود واجب  
فألفيت باباً سهلاً الله إذنه<sup>٢</sup>      ولكن عليه من عبوسك حاجب  
مرضت ومرضت الكلام تثاقلاً      لي إلى أن خلت أنك عاتب  
فلا تتكلف للعبوس مشقة<sup>٣</sup>      سأرضيك بالهجران إذ أنت غاضب  
فلا الأرض تدمير<sup>٣</sup> ولا أنت أهلها      ولا الرزق إن أعرضت عني جانب

وله يستعيني<sup>٣</sup> :

كبت ولو وقيت برك حقه<sup>١</sup>      لما اقتصرت كفتي على رقم قرطاس  
ونابت عن الخط الخطا وتبادرت<sup>٢</sup>      فطوراً على عيني وطوراً على راسي

١ إشارة إلى الحكم بن عبدل أحد شعراء العصر الأموي وأوصافه لما يقاسيه من هموم بالليل .

٢ القلائد : فتحه .

٣ الضمير عائد إلى الفتح بن خاقان صاحب القلائد .

سل الكأس عني هل أدبرت فلم أصغُ مديحك الخائناً يسوغُ بها كاسي  
وهل نافع الآس الندامي فلم أذع ثنائي<sup>١</sup> أذكي من منافحة الآس

١٨١ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو مروان الطَّبَّي ، وهو  
عبد الملك بن زيادة الله<sup>٢</sup> . قال في الذخيرة : كان أبو مروان هذا أحدَ حُمَاةِ  
سَرَحِ الكلام ، وحملة ألوية الأقاليم ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر ، اشتهار  
المنزل بالبدر ، أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة ، وانتشار<sup>٣</sup>  
شمئ الطاعة ، وأناخوا في ظلها ، ولحقوا بسراوات أهلها ، وأبو مضر أبوه  
زيادة الله بن علي التميمي الطَّبَّي هو أول من بنى بيت شرفهم ، ورفع في  
الأندلس صوته بنباهة سلفهم .

قال ابن حيان : وكان أبو مضر نديم محمد بن أبي عامر أمتع الناس حديثاً  
ومشاهدةً ، وأنصفهم<sup>٤</sup> ظرفاً ، وأحذقهم بأبواب الشحد والملاطفة ، وآخذهم  
بقلوب الملوك والخلّة ، وأنظّمهم لشمئ لإفادة ونجعة ، انتهى المقصود منه .  
ثم قال في الذخيرة : فأما ابنه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديث  
والرواية ، ورحل إلى المشرق ، وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز ،  
وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، انتهى .  
وقد ذكر قصة قتله المستبشعة وآتهم باغتياله ابنه .

ومن نظم أبي مروان الطَّبَّي المذكور ما وجده صاحب الذخيرة في بعض  
التعليق بخط بعض أدباء قرطبة ، قال : لما عدا أبو عامر أحمد بن محمد بن أبي

١ القلائد : ثنائك .

٢ ترجمة عبد الملك بن زيادة الله ابن الطبي في الذخيرة ١/٢ : ٥٢ - ٥٧ والمغرب ١ : ٩٢ والصلة :

٣٤٣ .

٣ في بعض نسخ الذخيرة والتجارية : وانتشار .

٤ في ق : وأنصفهم ، والتصويب عن الذخيرة .



عامر على الحدلمي<sup>١</sup> في مجلسه وضربه ضرباً موجعاً ، وأقرَّ بذلك أعين مطالبيه ،  
قال أبو مروان الطُّبِّي فيه :

شكرتُ للعامريِّ ما صنعا      ولم أقلُّ للحدلميِّ لعا  
ليثُ عرينَ عدا بعزته      مفترساً في وجاره ضبعا  
لا برحتُ كفه ممكنةً      من الأمانى فنعم ما صنعا  
وددتُ لو كنتُ شاهداً لهما      حتى ترى العينُ ذُلَّ ما خضعا  
إن طالَ منه سجوده فلقد      طالَ لغير السجود ما ركعا

\* \* \*

[ موقف ابن بسام في الذخيرة من الهجاء ]

قال ابن بسام<sup>٢</sup> : وابن رشيق القائل قبله :

كم ركعة ركع الصَّفْعان تحت يدي      ولم يقل سمع الله لمن حمده  
ثمَّ قال ابن بسام في الذخيرة ما نصّه : والعربُ تقول « فلان يركع لغير  
صلاة<sup>٣</sup> » إذا كنوا عن عهد الخلوة ، ومن مליح الكناية لبعض المتقدمين  
يخاطب امرأته :

قلت : التشيعُ حُبُّ أصْلِعِ هاشم      فترفضي إن شئت أو فتشيئي  
قالت : أصْلِعُ هاشم ، وتنفستُ      بأبي وأمي كل شيء أصْلِعِ

ولما صنت كتابي<sup>٤</sup> هذا من شين الهجاء ، وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء ،

١ الذخيرة : الحدلمي .

٢ الذخيرة ١ / ٢ : ٦١ .

٣ الذخيرة : فلان يخبأ المصا وفلان يركع . . . الخ .

٤ هذا من قول ابن بسام أيضاً إلى آخر القول في أقسام الهجاء .

أجريت ههنا طَلَقاً<sup>١</sup> من مליح التعريض ، في إيجاز القريض ، ممّا لا أدب على  
 قائله ، ولا وَصْمَةَ عَظْمَى<sup>٢</sup> على من قيل فيه ، والهجاء ينقسم قسمين : فقسم  
 يسمونه هجو الأشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مُقَدِّعاً ، ولا هجواً<sup>٣</sup>  
 مستبشعاً ، وهو ظأطاً قديماً من الأوائل ، وثلاًّ عرش القبائل ، إنّما هو توبيخ  
 وتعيير ، وتقديم وتأخير ، كقول النجاشي في بني العَجَلان ، وشهرة شعره  
 منعني عن ذكره ، واستعدواً عليه عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه ،  
 وأنشدوه قول النجاشي فيهم ، فدرأ الحد بالشبهات ، وفعل ذلك بالزبرقان  
 حين شك الحطيئة ، وسأله أن ينشد ما قاله فيه ، فأنشده قوله :

دعِ المكارمَ لا تَرَحَّلْ لبغيتها واقعدُ فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسي

فسأل عن ذلك كعب بن زهير ، فقال : والله ما أودُّ بما قال له حُمُر النعم ،  
 وقال حسان : لم يَهْجُهُ ، ولكن سَلَحَ عليه بعد أن أكل الشُبْرُمَ ، فهم  
 عمر ، رضي الله تعالى عنه ، بعقابه ، ثم استعطفه بشعره المشهور .  
 وقال عبد الملك بن مروان يوماً : أحسابكم ؛ يا بني أمية ، فما أود أن يكون  
 لي ما طلعت عليه الشمس وأن الأعشى قال في :

تبيتون في المشتى ملاءً ببطونكم وجاراتكم غرثي يبيتن خمائصا

ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى ، وقال : أنحن نفعل هذا  
 بجاراتنا ؟ ! ودعا عليه ، فما ظنك بشيء يهكي علاثة ، وقد كان عندهم لو  
 ضُرب بالسيف ما قال حسن .

١ الذخيرة : طرفاً .

٢ الذخيرة : أعظم .

٣ الذخيرة : هجراً .

٤ الذخيرة : احفظوا أحسابكم .

وقد كان الراعي يقول : هجوت جماعة من الشعراء ، وما قلت فيهم ما تستحي العذراء أن تنشده في خدرها .

ولمّا قال جرير :

فغُضَّ الطَّرْفُ إنك من نُميرِ فلا كَعْباً بلغت ولا كلاباً

أطفأ مصباحه ونام ، وقد كان بات ليلته يتململ ، لأنه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه .

قال الراعي : فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء من مياه العرب إلا وسمعنا البيت قد سبقنا إليه ، حتى أتينا حاضر بني نمير فخرج إلينا النساء والصبيان يقولون : قبحكم الله وقبح ما جئتمونا به .

والقسم الثاني : هو السباب الذي أحدثه جرير أيضاً وطبقته ، وكان يقول : إذا هجوتم فأضحكوا ، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتاً ، ولا عُيرت به قبيلة ، وهو الذي صنّاه هذا المجموع عنه ، وأعفينا أن يكون فيه شيء منه ، فإن أبا منصور الشعالبي كتب منه في يتيمة ما شأنه اسمه ، وبقي عليه إثمه . ومن مליح التعريض لأهل أبقنا قول بعضهم في غلام كان يصحب رجلاً يسمّى بالبعوضة :

أقولُ لشادنكمُ قولةً ولكنّها رمزةٌ غامضةٌ  
لزومُ البعوضِ لهُ دائماً يدلُّ على أنّها حامضةٌ

وأنشدت في مثله قول بعض أهل الوقت :

بيتي وبينك سرٌّ لا أبوحُ بهِ الكلُّ يعلمه والله غافره

وحكى أبو عامر ابن شهيد عن نفسه قال : عاتبت بعض الإخوان عتاباً شديداً عن أمر أوجع فيه قلبي ، وكان آخر الشعر الذي خاطبته به هذا البيت :

وإني على ما هاج صدرِي وغازِطِي ليأمنني من كانَ عندي له سُرٌّ

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد ، ولم يزل يقلق به حتى بكى إلى منه بالدموع ، وهذا الباب ممتدّ الأطناب ، ويكفي ما مرّ ويمرّ منه في أضعاف هذا الكتاب ، انتهى كلام ابن بسام في الذخيرة بلفظه .

\* \* \*

### [ من محطبة الذخيرة ]

ولا خفاء أنّه عارض بالذخيرة يتيمةً الثعاليّ ، ولذا قال في خطبة الذخيرة<sup>١</sup> : أمّا بعد حمد الله وليّ الحمد وأهله ، والصلاة على سيّدنا محمد خاتم رُسُلِهِ ، فإن ثمره هذا الأدب ، العالي الرتب ، رسالة تنثر وترسل ، وأبيات تُنظّم وتُفصّل ، تتثال تلك انثيال القِطار ، على صفحات الأزهار ، وتتصل هذه اتصال القلائد ، على نُحُور الخرائد ، وما زال في أفقنا هذا الأندلسي القصي إلى وقتنا هذا من فرسان الفسّين ، وأئمة النوعين ، قوم هم ما هم طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعدوية مَوَارِد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدُّجى بِمُحْفُون المورّق ، وحدّوا بفنون السحر المنمّق ، حذاء الأعشى ببنات المُحلّق ، فصبّوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى والأصائل ، بمعجائب الأشعار والرسائل ، نثر لو رآه البديع لنسي اسمه ، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح ، أو تبعه جرّول ما عوى ولا نبج ، إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة<sup>٢</sup> ، رجوع الحديث إلى قنّادة ، حتى لو نعتق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لحشّوا

١ انظر مقدمة الذخيرة ج ١ / ص ١ .

٢ الذخيرة : المعتادة .

على هذا صَنَمًا ، وتلوا ذلك كتاباً مُحْكَمًا ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم  
السائرة ، مرمى القصبة ، ومناخ الرذيلة ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا  
يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظني منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت  
نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري ، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري ،  
غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحوره ثماداً مضمحلة ،  
مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديماً ضيعوا العلم وأهله ، ورباً محسن  
مات إحسانه قبله ، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص  
أهل المشرق بالإحسان ، وقد كتبت لأرباب هذا الشأن ، من أهل الوقت والزمان ،  
محاسن تبهر الألباب ، وتسحر الشعراء والكتّاب ، ولم أعرض لشيء من أشعار  
الدولة المروانية ، ولا المدائح العامرية ، إذ كان ابن فرج الجياني قد رأى رأبي  
في النَّصَف ، وذهب مذهبي من الأنفة ، فأمل في محاسن أهل زمانه كتاب  
« الحدائق » معارضاً لكتاب « الزهرة » للأصبهاني ، فأضربت أنا عمّا ألف ،  
ولم أعرض لشيء مما صنف ، ولا تعدّيت أهل عصري ، ممّا شاهدته بعصري  
أو لحقه أهل دهري ، إذ كلُّ مُرْدَدٍ ثقيل ، وكل متكرّر مملول ، وقد مجّت  
الأسماع :

يا دار مية بالعلياء فالسند

إلى أن قال بعد ذكره أنّه يسوق جملة من المشاركة مثل الشريف المرتضى  
والقاضي عبد الوهاب والوزير ابن المغربي وغيرهم ممّن يطول ، ما صورته :  
وإتّما ذكرت هؤلاء ائساء بأبي منصور ، في تأليفه المشهور ، المترجم بـ « بئيمة  
الدهر في محاسن أهل العصر » . انتهى المقصود منه .

\* \* \*

١ الذخيرة : ويا رب .

قلت : وتذكرت بما أنشده في الهجاء قول الباقعة الشاعر المشهور أبي العباس أحمد الغفجومي الشهير بالجوارى ، وعامة الغرب يقولون الجراوي ، يهجو قومه بني غفجوم وهم بربر بيتادلا ، متوصلاً بذلك إلى هجو أصلاء فاس بني الملجوم ، ومستطرداً في ذلك ما هو في اطراذه كالماء السجوم ، وهو قوله :

يا ابن السبيل إذا مررت بيتادلا لا تنزلن على بني غفجوم -  
أرض أغار بها العدو فلن ترى إلا مجاورة الصدى لليوم -  
قوم طووا ذكر الساحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللوم -  
لا حظاً في أموالهم ونوالهم للسائل العافي ولا المحروم -  
لا يملكون إذا استبيح حريمهم إلا الصراخ بدعوة المظلوم -  
يا ليثني من غيرهم ولو أنني من أرض فاس من بني الملجوم -

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن أحد بني الملجوم قضاة فاس وأصلاتها بيعت أوراق كتبه التي هي غير مجلدة بل متفرقة بستة آلاف دينار ، ويكفيك ذلك في معرفة قدر القوم ، ومع ذلك هجاهم بهذا ، والله سبحانه يغفر الزلات .

رجع إلى ما كنا فيه من ذكر من ارتحل من علماء  
الأندلس إلى البلاد الشرقية المحروسة ، فنقول :

١٨٢ - ومنهم حبيب بن الوليد بن حبيب الداخل إلى الأندلس ابن عبد

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي ( - ٦٠٩ ) دخل الأندلس متردداً عليها وكان عالماً بالأدب ، وقف ابن الأبار على ديوان شعره وألف كتاباً سماه « صفوة الأدب ونخبة كلام العرب » ، وكانت وفاته بإشبيلية . ولم أجد أحداً سماه بنير « الجراوي » ولعله أن يكتب « الكوارى » أو « القوارى » ، لأنه يلفظ بحيم مصرية . انظر التكملة : ١٢٨ وصفحات مختلفة =

الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان<sup>١</sup> ، من أهل قرطبة ، ويُعرف بدحون ، رحل إلى المشرق أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وحج ، ولقي أهل الحديث فكتب عنهم ، وقفل بعلم كثير ، وكانت له حلقة بجامع قرطبة يسمع الناس فيها ، وهو يلبس الوشي الشامي ، إلى أن أوصى إليه الأمير عبد الرحمن بترك ذلك ، فتركه ، وتوفي بعد المائتين .

ومن شعره قوله :

قال العَدُول : وأين قلبك ؟ كلِّمنا رُمْتُ اهتدائك لم يزل متحيراً  
 قلتُ : اتشد فالفَلْبُ أولُ خائن لما تَغَيَّرَ مَنْ هَوَيْتُ تَغْييراً  
 ونأى فبان الصَّبْرُ عني جملة وبقيتُ مَسْلُوبَ العِزِّاء كما ترى

ومن ولده سعيد بن هشام ، وكان أديباً عالماً فقيهاً ، رحم الله تعالى الجميع . ودخل دمشق ووطنهم الأقدم وعاملها يومئذ للمعتصم بن الرشيد عمر بن فرج الرُّخْجِي ، فوافق دخوله إياها غلاء شديداً ومجاعة أشكت أهلها ، فضجوا إلى الرُّخْجِي أن يخرج عنهم من عندهم من الغرباء القادمين عليهم من البلاد ، فأمر بالنداء في المدينة على كل مَنْ بها من طاريء وابن سبيل ليخرجوا عنها ، وضرب لهم أجلاً ثلاثة أيام أوعد من تخلف منهم بعدها بالعقاب ، فابتدر الغرباء الخروج عنها ، وأقام دَحُون لم يتحرك ، فجيء به إلى الرُّخْجِي بعد الأجل ، فقال له : ما بالك عصيت أمري ؟ أو ما سمعت ندائي ؟ فقال له دَحُون : ذلك النداء الذي وقفتي ، فقال له : وكيف ؟ فانتفى له ، فقال

= من البيان المغرب ( طبع تطوان ١٩٦٠ ) . ويجب التمييز بينه وبين أبي العباس الجراوي المسمى أحمد بن حسن بن سيد فهذا الثاني مالقي أصيل ( انظر تحفة القادِم : ٤٤ ، ومخطوطة الوافي ٨ : ٦٤ من مسودة المؤلف ) وقد خلط بينهما عبد القادر محمَّد في حواشيه على زاد المسافر لصفوان ص : ٧ .  
 ١ ترجمة دحون في التكملة : ٢٧٧ والمقتبس : ٩٤ ( تحقيق الدكتور محمود مكِّي ) وانظر نسب الحبيبيين في جمهرة ابن حزم : ٨٩ - ٩٠ .

له الرَّحَّحَجِي : صدقت والله إنك لأحقُّ بالإقامة فيها منّا ، فأقم ما أحببت ، وانصرف إذا شئت .

وكان لدَحَوْن هذا ابن يقال له بشر بن حبيب ، ويُعرف بالحبيبي ، وهو من المشهورين بقرطبة ، وأمّه المدنية الراوية عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه ، وبنته عبدة بنت بشر مشهورة ، ولها رواية عنه ، رحم الله تعالى الجميع .

١٨٣ - ومنهم بهلول بن فتح من أهل أقليمس<sup>١</sup> ، له رحلة حجّ فيها ، وكان رجلاً صالحاً خيراً ، حكى عن نفسه أنّه رأى في منامه بعد قدومه من الحج كأنه بمكة وقائل يقول : انطلق بنا نصلّ مع النبيّ ، صلى الله عليه وسلّم ، قال : فكنت أقول لرجل من جيراني بأقليمس : يا أبا فلان انطلق بنا نصلّ مع النبيّ ، صلى الله عليه وسلّم ، فيقول لي : لست أجد إلى ذلك سبيلاً ، فكنت أتوجه وأصلي مع الناس والنبيّ ، صلى الله عليه وسلّم ، إمامنا ، فلما سلّم من الصلاة رجعت إليّ وقال لي : من أين أنت ؟ قلتُ له : من الأندلس ، فكان يقول : من أي موضع ؟ فكنت أقول : من مدينة أقليمس ، فيقول لي : أتعرف أبا إسحاق البوّافي ؟ فكنت أقول : هو جاري ، وكيف لا أعرفه ؟ فيقول لي : أقرئه منّي السلام .

١٨٤ - ومنهم أبو الحسن ثابت بن أحمد بن عبد الولي ، الشاطبي<sup>٢</sup> . روى عن أبي زيد عبد الرحمن بن يعيش المهري<sup>٣</sup> ، ورحل حاجباً ، فسمع منه بالإسكندرية أبو الحسن ابن الفضل المقدسي ، وحدث عنه بالحديث المسلسل في الأخذ باليد عن ابن يعيش المذكور عن أبي محمد عبد العزيز بن عبد الله بن سعيد ابن خلف الأنصاري عن أبي الحسن طاهر بن مُفَوِّز ، وعليه مداره بالأندلس ،

١ ترجمة بهلول الأقليمسي في التكملة : ٢٢٧ .

٢ انظر ترجمته في التكملة : ٢٣٦ .

٣ التكملة : المهروي .



عن نصر السمرقندي بإسناده ، وفيه بعد ، قال الحافظ ابن الأَبَّار : وقد رويته مسلسلاً من طرق بعضها عن ابن المفضل ، وأنبأني به ابن أبي جَمْرَةَ عن أبي بحر الأسدي ، عن نصر السمرقندي ، فصار ابن المفضل بمنزلة من سمعه ممن سمعه مني ، والحمد لله تعالى ، انتهى .

١٨٥ - ومنهم أبو أحمد جعفر بن لُبِّ بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس ابن ميمون ، اليحصبي<sup>١</sup> ، سكن شاطبة ، وأصله من أنشيان عملها ، ويكنى أبا الفضل أيضاً، حج وسمع أبا طاهر ابن عوف والحافظ السَلْفي وأبا عبد الله ابن الحضرمي وأبا الثناء الحراني وبدر بن عبد الله الحبشي وأبا الحسن ابن المفضل وغيرهم ، وكان من أهل العناية بالرواية مع الصلاح والعدالة ، حسن الخط جيد الضبط سماه التَّجِيبي في معجم مشيخته وهو في عداد أصحابه لاشتراكهما في السماع بإسكندرية وتركه هنالك ، ثم قدم عليه تلمسان من شاطبة في أضحى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وحكى مما أفاده عن ابن المفضل أن أبا عبد الله الكيزاني<sup>٢</sup> - وكان شاعراً مجيداً - أته امرأة مات ولدها ، فسألته أن يرثيه ، فقال :

تبكي عليَّه بشجْوٍ فقلتُ لا تتدُبِيه  
هذا زمانٌ عجيبٌ قد عاشَ مَنْ مات فيه

وأخذ عنه الحافظ أبو الربيع ابن سالم وقال : إنَّه توفي بعد التسعين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

١ ترجمة ابن لب الشاطبي في التكملة : ٢٤٢ .

٢ هو الفقيه الواعظ المصري أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المعروف بابن الكيزاني ( ٥٦٠ - ) تنتمي إليه الطائفة الكيزانية وله شعر رقيق يذهب فيه مذهب المتصوفة ( انظر الحريدة ٢ : ١٨ قم مصر ووفيات الأعيان رقم : ٦٥٠ والوافي ٢ : ٣٤٧ والمغرب (قم مصر) ١ : ٢٦١ والنجوم الزاهرة ٥ : ٣٦٨ .

١٨٦ - ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه ، الخزاعي ، العابد<sup>١</sup> ، من أهل قسطنطينية عمل دانية ، أخذ القراءات عن ابن هذيل ، وسمع منه ومن ابن النعمة بيلنسية ، ورحل حاجاً فأدى الفريضة ، ودخل الإسكندرية مرافقاً لمن سمع من السلفي ، ولم يسمع منه هو شيئاً ، قال ابن الأبار : فيما علمت ، وقفل إلى بلده مائلاً إلى الزهد والإعراض عن الدنيا ، وكان شيخ المتصوفة في وقته ، وعلا ذكره ، وبعد صيته في العبادة ، إلا أنه كان فيه غفلة ، قال ابن الأبار : ورأيتُهُ إذ قدم بلنسية لإحياء ليلة النصف من شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة ، وتوفي عن سن عالية تقارب المائة ، منتصف ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة ، وشهد جنازته بشر كثير من جهات شتى ، وانتاب الناس قبره دهرًا طويلاً يتبركون بزيارته إلى حين إجلاء الروم ممن كان يشاركونهم من المسلمين ببلاد شرق الأندلس التي تغلبوا عليها ، وذلك في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة .

١٨٧ - ومنهم أبو جعفر النحوي<sup>٢</sup> ، أندلسي نزل مصر ، وكان من رؤساء أهل العلم بالنحو ، وممن له حال جليلة ، ذكره الطَّبَّي في حكاية ابن الأبار .

١٨٨ - ومنهم أبو الحسن جابو بن أحمد بن عبد الله ، الخزرجي القرطبي ، وكناه بعضهم أبا الفضل<sup>٣</sup> ، سمع ببلده من أبي محمد ابن عتاب وغيره ، ورحل حاجاً فأدى الفريضة ، وكان أديباً ناظماً ، كتب عنه أبو محمد العثماني بالإسكندرية بعض شعره .

١٨٩ - ومنهم أبو الحسن جَهْوَر بن خلف بن أبي عمر ابن قاسم بن ثابت

١ ترجمته في التكملة : ٢٤٤ .

٢ ترجمته في التكملة : ٢٤٤ .

٣ ترجمته في التكملة : ٢٤٦ .

المعافري<sup>١</sup>. رحل حاجاً إلى المشرق فأدى الفريضة ، وسمع بالإسكندرية من أبي طاهر السلفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وسمع أيضاً من غيره ، وطال مكثه هناك ، وهو - فيما رجحه بعضهم<sup>٢</sup> - من أهل غرب الأندلس .

١٩٠ - ومنهم أبو علي الحسن بن حَقْفَص بن الحسن ، البَهْراني الأندلسي<sup>٣</sup> ، رحل وتجوّل ببلاد المشرق ، فسمع أبا محمد عبد الله بن حَمَوِيَه وأبا حامد أحمد ابن محمد بن رجاء بسرْحَسَن ، وأبا محمد ابن أبي شُرَيْح بِبَهْرَةَ ، وأبا عبد الله الحسين بن عبد الله المفلحي بالأهواز ، وأبا بكر أحمد بن جعفر البغدادي وأبا حامد أحمد بن الخليل وأبا حاتم حامد بن العباس وأبا محمد الحسن بن رشيق بمصر ، وقدم دمشق فروى عنه من أهلها تمام بن محمد ، وبنيسابور أحمد بن منصور بن خلف المغربي وغيره .

ذكره ابن عساكر وقال : أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن علي بن فطيمة وأبو القاسم زاهر بن طاهر قالا : أنا أبو بكر أحمد بن منصور ، أنا أبو علي الحسن بن جعفر القضاعي ، وأنا الحسن بن رشيق بمصر ، أنا المفضل بن محمد الجندي ، أنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري ، قال : سمعت مالك بن أنس يقول : لا يُحْمَلُ العلم عن أهل البِدَاعِ كلهم ، ولا يحمل العلم عمّن لم يُعْرَفْ بالطلب ومجالسة أهل العلم ، ولا يحمل عمّن يكذب في حديث الناس ، وإن كان في حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، صادقاً ؛ لأن الحديث والعلم إذا سُمِعَ من العالم فقد جعل حجّة بين الذي سمعه وبين الله تبارك وتعالى ، وإنما قال فيه « القضاعي » لأن بَهْرَةَ من قُضَاعَةَ .

١٩١ - ومنهم أبو علي الحسن بن خلف بن يحيى بن إبراهيم بن محمد ،

١ ترجمته في التكملة : ٢٥٤ .

٢ قال ابن الأبار : أحسبه من أهل غرب الأندلس .

٣ ترجمته في التكملة : ٢٥٥ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ١٧٢ .

الأموي<sup>١</sup> . من أهل دانيّة ، ويُعرف بابن برّنجال ، سمع من أبي بكر ابن صاحب الأحباس وأبي عثمان طاهر بن هشام وغيرهما ، وله رحلة حج فيها وسمع من أبي إسحاق إبراهيم بن صالح القروي ، وبيت المقدس من أبي الفتح نصر بن إبراهيم سنة خمس وستين وأربعمائة ، وبعسقلان من أبي عبد الله محمد ابن الحسن بن سعيد التّجّيبّي ، وأخذ عنه « كتاب الوقف والابتداء » لابن الأنباري بسماعه من عبد العزيز الشعيري عن مؤلفه ، وكان فقيهاً على مذهب مالك ، وولي الأحكام ببلده ، وحدث ، وأخذ عنه ، وسمع الناس منه بالإسكندرية سنة تسع وستين ، ثم بدانيّة سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ، وتوفي في نحو الخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

١٩٢ - ومنهم أبو علي الحسن بن إبراهيم بن محمد بن تقي ، الجذامي ، المالقي<sup>٢</sup> ، روى بقرطبة عن أبي محمد ابن عتّاب ، وعن أبي سكرة الصّدق بمُرسيّة سنة ثمان وخمسمائة ، وصحب أبا مروان ابن مسرّة ، وكان من أهل الرواية والتقيد ، وكانت له رحلة سمع فيها من أبي طاهر السلفي مجالسه التي أملاها بسلماس بربح سنة خمس عشرة وخمسمائة حسبما ألفي بخط السلفي ، وفي رحلته لقيه أبو علي الحسن بن علي البطليوسي نزير مكة ، وحدث عنه أبو طالب أحمد بن مسلم المعروف بالتّسوّخي من أهل الإسكندرية بكتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر ، وأجاز له إجازة عامّة في السنة السابقة ، وقال ابن عساكر في تاريخه ، وذكر أبا ذر المرّوي : سمعت أبا الحسن علي بن سليمان المرّادي الحافظ الأندلسي بنيسابور يقول : سمعت أبا علي الحسن بن علي الأنصاري البطليوسي ، قال ابن عساكر : وقد لقيته ، ولم أسمعها منه ، قال : سمعت أبا علي الحسن بن إبراهيم بن تقي الجذامي المالقي يقول : سمعت بعض

١ ترجمته في التكملة : ٢٥٧ .

٢ ترجمته في التكملة : ٢٥٨ ومعجم أصحاب الصّدق : ٧٢ .

الشيوخ يقول : قيل لأبي ذر الهروي : أنت من هرة ، فمن أين تمذهبت لملك والأشعري ؟ فقال : إني قدمت بغداد أطلب الحديث ، فلزمت الدارقطني ، فلما كان في بعض الأيام كنت معه ، فاجتاز به القاضي أبو بكر الطيب ، فأظهر الدارقطني من إكرامه ما تعجبت منه ، فلما فارقه قلتُ : أيها الشيخ الإمام مَنْ هذا الذي أظهرت من إكرامه ما رأيت ؟ فقال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا ، فقال : هذا سيف السنة أبو بكر الأشعري ، فلزمت القاضي منذ ذلك ، واقتديت به في مذهبه ، انتهى .

١٩٣ - ومنهم أبو علي الحسن بن علي بن الحسن بن عمر ، الأنصاري ، البَطَلَيْسِيُّ<sup>١</sup> ، رحل إلى المشرق ، فأدى الفريضة ، وتجوّل هناك ، ولقي أبا الحسن ابن المُفَرَّج الصقلي وأبا عبد الله الفراوي ، فسمع منهما الصحيحين بعلو ، وسمع من أبي الفتح ناصر بن أبي علي الطوسي سنن أبي داود ، وحدث بالموطأ عن أبي بكر الطرطوشي ، وله أيضاً رواية عن زاهر بن طاهر الشَّحَامِي وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيري وأبي محمد الحريري سمع منه مقاماته الخمسين ببُستانه من بغداد ، ونزل بمكة ، وجاور بها ، وحدث فيها وفي غيرها ، وأسناناً ، وكان ثقة مسنداً يروي عنه أبو عبد الله ابن أبي الصيف اليمني وأبو جعفر ابن شراحيل الأندلسي وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الإربلي ، وسمع منه في صفر سنة ست وستين وخمسمائة ، وقد لقيه أبو القاسم ابن عساكر الحافظ وروى عنه .

١٩٤ - ومنهم أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري<sup>٢</sup> : من أهل لرية عمل بكنسية ، ويُعرف بابن الرَّهْبِيل<sup>٣</sup> ، سمع من أبي الحسن ابن النعمة

١ ترجمته في التكملة : ٢٦٠ .

٢ ترجمته في التكملة : ٢٦١ .

٣ التكملة وإحدى النسخ : الرهيبيل .

كثيراً ، واختص به ، وعنه أخذ القراءات ، وسمع من ابن هذيل أيضاً ، ثم رحل حاجباً ، فلقى بالإسكندرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أبا طاهر السلفي وأبا عبد الله ابن الحضرمي ، وسمع منهما ، وجاور بمكة ، وأخذ بها عن أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي صحيح البخاري ، وكان يرويه عن أبي مكتوم عيسى بن أبي ذر الهروي عن أبيه ، وسمع أيضاً من أبي محمد المبارك بن الطباخ البغدادي ، وأجاز له أبو المفاخر سعيد بن الحسين الهاشمي وأبو محمد عبد الحق ابن عبد الرحمن الإشبيلي ببجاية عند صدوره في ربيع الأول سنة سبع وسبعين ، وقفل إلى بلده فلزم الانقطاع والانقباض عن الناس والإقبال على ما يعنيه ، وكان قد خطب به قبل رحلته ، وحكى التُّجِيبِي أن طلبة الإسكندرية تراحموا عليه لسماع « التيسير » لأبي عمرو المقرء منه بروايته عن ابن هذيل سماعاً في سنة ثلاث وخمسين ، وصارت له بذلك عندهم وجاهة ، وبعد قُفُوله أصابه خَدَارٌ منعه من التصرف ، وكان الصلاح غالباً عليه ، وتوفي غدوة الجمعة لثمان خلون من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وكانت جنازته مشهودة ، رحمه الله تعالى .

١٩٥ - ومنهم الحسين بن أحمد بن الحسين بن حي ، التُّجِيبِي ، القرطبي<sup>١</sup> ، أخذ علم العدد والهندسة عن أبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن بُرْعُوث<sup>٢</sup> ، وكان كلفاً بصناعة التعديل ، وله زُيْجٌ مختصر ذكره القاضي صاعد ونسبه ، وحكى أنه خرج من الأندلس في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة بعد أن نالته بها وبالبحر مَحْنٌ شَدَادٌ ، ولحق بمصر ، ثم رحل عنها إلى اليمن ، واتصل بأمرها ، فحظي عنده ، وبعثه رسولاً إلى القائم بأمر الله الخليفة ببغداد ، ونال هناك دنيا عريضة ،

١ ترجمته في طبقات صاعد : ٧٣ والتكملة : ٢٧٣ .

٢ انظر ترجمة ابن برغوث في طبقات صاعد : ٧١ وكان هذا متحققاً بالعلوم الرياضية وخاصة الفلك (توفي سنة ٤٤٠) .

وتوفي باليمن بعد انصرافه من بغداد سنة ست وخمسين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى .

١٩٦ - ومنهم أبو يوسف حماد بن الوليد ، الكلاعي<sup>١</sup> ، أخذ بقُرْطُبة عن أبي المطرف القنازعي وغيره ، ورحل إلى المشرق ، وحدث بالإسكندرية فسمع منه بها يحيى بن إبراهيم بن عثمان بن شبل « شرح الاعتقاد » من تأليفه ، ورسالة « قمع الحيرص وقصّر الأمل والحث على العمل » ، وذلك في سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، ولقيه هنالك أبو مروان الطُّبُتي ، فسمع منه بعض فوائده .

١٩٧ - ومنهم أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد الله بن جبَّير<sup>٢</sup> ، من أهل طَرْطُوشة ، يُعرف بالجبَّيري ، وهو والد أبي عبيد القاسم بن خلف الجبيري الفقيه ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، ومعه رَحَل ابنه وهو صغير ، وكان من اهل العلم والتزاهة ، وعليه نزل القاضي مُنذِر بن سعيد بطَرْطُوشة في ولايته قضاء الثغور الشرقية ، قال أبو عبيد : نزل القاضي مُنذِر بن سعيد على أبي بطَرْطُوشة ، وهو يومئذ يتولى القضاء في الثغور الشرقية قبل أن يلي قضاء الجماعة بقرطبة ، فأنزله في بيته الذي كان يسكنه ، فكان إذا تفرغ نظر في كتب أبي ، فمر على يديه كتاب فيه أرجوزة ابن عبد ربّه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاوية رابعهم ، ولم يذكر عليّاً فيهم ، ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بني مروان إلى عبد الرحمن بن محمد ، فلما رأى ذلك منذر غضب وسبّ ابن عبد ربّه ، وكتب في حاشية الكتاب :

أوما عليّ<sup>٣</sup> - لا برحت ملعناً يا ابن الخبيثة - عندكم بإمام؟

١ ترجمته في التكملة : ٢٨٥ .

٢ ترجمته في التكملة : ٢٩٢ .

ربُّ الكساء وخير آلِ محمدٍ داني الولاء مُقدِّم الإسلام .  
قال أبو عبيد : والأبيات بخطه في حاشية كتاب أبي إلى الساعة ، وكانت ولاية منذر للشغور مع الإشراف على العمال بها والنظر في المختلفين من بلاد الإفرنج إليها سنة ثلاثين وثلاثمائة .

١٩٨ - ومنهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف ، العرناطي<sup>١</sup> ، له رحلة روى فيها بالإسكندرية عن مهدي بن يوسف الوراق ، وحدث عنه أبو العباس ابن عيسى الداني « بالتلقين » للقاضي عبد الوهاب .

١٩٩ - ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن فحلون ، القنطري<sup>٢</sup> ، من قنطرة السيف ، وسكن بطليوس ويعرف بابن الروية ، رحل حاجاً فأدى الفريضة ، ولقي بمكة رزيّن بن معاوية الأندلسي فحمل عنه كتابه في « تجريد الصحاح » سنة خمس وخمسمائة ، وفيها حج وقفل إلى بلده بعد ذلك ، وكان فقيهاً مشاوراً ، حدث عنه ابن خير في كتابه إليه من بطليوس في نحو الثلاثين وخمسمائة .

٢٠٠ - ومنهم زرارة بن محمد بن زرارة الأندلسي<sup>٣</sup> ، رحل حاجاً إلى المشرق ، وسمع بمصر أبا محمد الحسن بن رشيق سنة سبع وستين وثلاثمائة وأبا بكر مسرة بن مسلم الصدي ، حدث ، وأخذ عنه .

٢٠١ - ومنهم طاهر الأندلسي ، من أهل مالقة ، يكنى أبا الحسين<sup>٤</sup> ، رحل إلى قرطبة ، وخرج منها لما دخلها البرابر عتوة سنة ثلاث وأربعمائة ،

١ ترجمته في التكملة : ٢٩٩ .

٢ ترجمته في التكملة : ٣٠٢ .

٣ ترجمته في التكملة : ٣٣٤ .

٤ ترجمته في التكملة : ٣٤٠ .



فلم يزل بمكّة إلى حدود الخمسين وأربعمائة ، وكان من أصحاب أبي عمر الطلمنكي وملازميه لقراءة القرآن ، وطلب العلم مع أبي محمد الشنتجالي وأبي أيوب الزاهد إمام مسجد الكوايين بقرطبة ، وجاور بمكّة طويلاً ، وأقرأ على مقربة من باب الصفا ، وكان الشيبون يكرمونه ويفرجون له لضعفه عند دخوله البيت الحرام ، ذكره الطنبلي ، قال ابن الأبار : وأحسبه المذكور في برنامج الحولاني ، والذي قرأ لهم أكثر المدونة على أبي عمر أحمد ابن محمد الزيات ، انتهى .

٢٠٢ - ومنهم أبو الطاهر الأندلسي ، من أهل لبلة<sup>١</sup> ، نزل مصر ، وكانت له حلقة بجامع عمرو بن العاص ، وكان - رحمه الله تعالى - نحوياً ، له شعر وترسيل وتعلق بالملوك للتأديب بالنحو ، ثم ترك ذلك .

٢٠٣ - ومنهم أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش ، المنصفي ، المخزومي<sup>٢</sup> ، والمنصفي نسبة إلى قرية بغيري ببلنسية ، ويكنى أيضاً أبا الحسن ، رحل قبل العشرين وخمسائة ، فأدى الفريضة ، وجاور بمكّة ، وسمع بها من أبي عبد الله الحسين بن علي الطبري ، ومن الشريف أبي محمد عبد الباقي الزهري المعروف بشقران أخذ عنه كتاب « الإحياء » للغزالي عن مؤلفه ، وسمع بالإسكندرية من أبي بكر الطرطوشي وأبي الحسن ابن مشرف وأبي عبد الله الرازي وأبي طاهر السلفي وغيرهم ثم قفل إلى بلده فحدث ، وأخذ الناس عنه ، وسمعوا منه ، وكان شيخاً صالحاً عالي الرواية ثقة ، قال ابن عياد : لم ألق أفضل منه ، وكان مُجاب الدعوة ، وحدث عنه بالسماع والإجازة جليّة<sup>٣</sup> منهم أبو الحسن ابن هذيل وأبو محمد القليني وأبو مروان ابن الصبّقتل وأبو العباس الإقليشي

١ ترجمته في التكملة : ٣٤٢ .

٢ ترجمته في التكملة : ٣٤٣ .

وأبو بكر ابن خير وابن سعد الخير وأبو محمد عبد الحق الإشبيلي وأبو بكر ابن جَزَيّ وغيرهم ، ثم رحل ثانية إلى المشرق مع صهره أبي العباس الإقبلي وأبي الوليد ابن خيرة الحافظ سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وقد نَيْفَ على السبعين ، فأقام بمكة مجاوراً إلى أن توفي بها عن سن عالية - رحمه الله تعالى - سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

٢٠٤ - ومنهم محمد بن إبراهيم بن مُزَيْنِ الأودي من أهل أكشونة غربي الأندلس ، يكنى أبا مُضَر ، وولاه عبد الرحمن بن معاوية قضاء الجماعة بقرطبة ، وذلك في المحرم سنة سبعين ومائة ، وأقام أشهراً ، ثم استغنى فأغفاه ، ورحل حاجباً فأدى الفريضة ، وسمع في رحلته إمامنا مالك بن أنس وانصرف ومات عن سن عالية سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وذكره ابن شعبان في الرواة عن مالك وحكى أنه روى عنه : من قطع لسانه استؤنفي به عاماً ، وأن مالكا قال له : قد بلغني أن بالأندلس من نبت لسانه فإن لم ينبت أقيده ، انتهى .

٢٠٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد حيمّاز ، الشاطبي ، الأوسي ، قدم مصر ، وكان قد أخذ عن ابن بُرْطُلُه وابن البراء وغيرهما ، وعمل فهرست شيوخه على حروف المعجم ، وحج وعاد إلى بلده ، ومات يوم الجمعة حادي عشر رجب سنة ثمانين وعشرون وسبعمائة ، رحمه الله تعالى وغفر له .

٢٠٦ - ومنهم القاضي أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة ابن صخر بن سماعة اللخمي الأندلسي الإشبيلي<sup>١</sup> . قال أبو شامة<sup>٢</sup> : هو من

١ ترجمته في التكملة : ٣٥٥ والذيل والتكملة ٦ الورقة : ٣٩ (نسخة باريس) .

٢ ترجمة أبي مروان الباجي هذه مكررة ، انظر رقم : ١٧٢ .

٣ انظر ذيل الروضتين : ١٦٤ .

بيت كبير بالأندلس يُعرف ببني الباجي مشهور كثير العلماء والفضلاء ، وأصلهم من باجة القيروان ، وليس منهم القاضي أبو الوليد الباجي الفقيه ، فإنه من بيت آخر من باجة الأندلس ، وقدم أبو مروان حاجاً من بلاده في البحر إلى عكا من ساحل دمشق ، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة ، ونزل عندنا بالمدرسة العادية ، وجدّه الأعلى أحمد ابن عبد الله بن محمد بن علي قدم إلى الديار المصرية ، وحجّ منها ومعه ولده محمد أخو عبد الملك ويُعرف بصاحب الوثائق ، وسمعا بها من جماعة من العلماء ، وذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله هذا في « جذوة المقتبس »<sup>١</sup> ، وكتّاه أبا عمر ، وذكر أنه سكن إشبيلية وأُتِيَ عليه كثيراً ، وقال : مات في حدود الأربعمئة ، وروى عنه ابن عبد البر وغيره .

وأبوه عبد الله بن محمد بن علي يُعرف بالرواية ، ذكره الحميدي<sup>٢</sup> أيضاً . وذكر ابن بَشْكُوَال في « الصلة »<sup>٣</sup> عبد الملك بن عبد العزيز جد هذا الشيخ القادم وأُتِيَ عليه ، وقال : توفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . وكان هذا الشيخ أبو مروان حسن الأخلاق فاضلاً متواضعاً محسناً ، وسمعته يقول ، وقد سئل إعاره شيء ، فبادر إليه ، ثم قال : عندي في قوله تعالى ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ هو كل شيء .

واستفدنا من هذا الشيخ فائدة جليلة ، وهي معاينة قدر مُدَّ النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو عندهم مُتَوَارَثٌ ، وقد أخبر عن ذلك أبو محمد ابن حزم في كتابه « المحلى » وعابرت بذلك المدّ الذي لنا بدمشق حينئذ ، وهو الكيل الكبير ، فوجدت مُدَّنَا يسع صَاعَيْنِ إلا يسيراً ، ووجدته ممسوحاً يسع صاعاً ونصفاً وشيئاً فيكون مدان ممسوحان ثلاثة أصعٍ زائدة ، وقرأت في كتاب

١ الجذوة : ١٢٠ .

٢ الجذوة : ٢٢٣ .

٣ الصلة : ٣٤٧ .

« المحلى » لابن حزم ، قال أبو محمد<sup>١</sup> : وخرط لي مد<sup>٢</sup> على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن علي الباجي ، وهو عند أكثرهم<sup>٣</sup> لا يفارق داره ، أخرجه إلي<sup>٤</sup> ثقتي الذي كلفته ذلك علي بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن علي المذكور ، وذكر أنه مد<sup>٥</sup> أبيه ، وأن جده أخذه وخرطه<sup>٦</sup> على مد أحمد بن خالد ، وأخبره أحمد بن خالد أنه خرطه على مد يحيى بن يحيى ، على مد مالك ، قال أبو محمد : ولا أشك<sup>٧</sup> أن أحمد بن خالد صححه أيضاً على مد محمد بن وضاح الذي صححه ابن وضاح بالمدينة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . قال أبو محمد : ثم كلته بالقمح الطيب ، ثم وزنته فوجدته رطلاً ونصف رطل بالفلفلي لا يزيد حبة ، وكلته بالشعير إلا أنه لم يكن بالطيب فوجدته رطلاً واحداً ونصف أوقية ، وسألت عن الرطل الفلفلي ، فقيل لي : هو ست عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم ، وفي تقدير ابن حزم نظر .

وتوفي هذا الشيخ بالقاهرة سنة خمس وثلاثين وستمائة بعد رجوعه من الحج ، رحمه الله تعالى . انتهى كلام أبي شامة ، وبعضه بالمعنى .

٢٠٧ - ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد ، الواعظ ، الإشبيلي ، ثم المصري<sup>٨</sup> ، فاضل شرح الصدر بلفظه ، ومتكلم أحيا القلوب بوعظه ، أحواله مشهورة ، ومجالسه بالذكر معمورة ، وله معرفة بالأدب ، وخبرة بالشعر والخطب ، وكلام وجهه حسن ، ونظم يمتاز به على كثير من أرباب

١ انظر المحلى ٥ : ٢٤٥ - ٢٤٦ .

٢ المحلى وأبو شامة : أكبرهم .

٣ المحلى : وذكر أنه مد أبيه وجده وأبي جده خرطه . . . إلخ . وما في النسخ موافق لما في ذيل الروضتين .

٤ هذا هو الشاعر المشهور باسم « الزين كذاكت » المصري ( زين الدين كذاكت ) أصل أهله من إشبيلية ، أما هو فقد ولد بتنيس عام ٦٠٥ وعلى ذلك فلا يصح أن يدرج في سياق الراحلين من الأندلس ( انظر ترجمته في الوافي ٧ الورقة : ١٦٠ ، والفوات ١ : ١٠٨ ، والنجوم الزاهرة ٧ : ٣٦٤ ) .

اللّسن ، قاله ابن حبيب الحلبي ، قال : وهو القائل ١ :

مَنْ أَنْتَ مَحْبُوبُهُ مَنْ ذَا يُعَيِّرُهُ      وَمَنْ صَفَوْتَ لَهُ مَنْ ذَا يَكْدُرُهُ  
هيهات عنك ملاح الكون تشغلني      والكلُّ أعراضُ حسن أنت جوهره

وقال ٢ :

اكشيف البرقع عن بكرِ العقارِ      واخُلْ في ليلك مع شمس النهارِ  
وانهب العيشَ ودعه غلظاً      ينقضي ما بينَ هتكِ واستتارِ  
إن تكن شيخَ خلاعاتِ الصبا      فالبس الصبوة في خلع العذارِ  
وارضَ بالعارِ وقل : قد آن لي      في هوى خمّارِ كاسي لبس عاري

وقال :

حُثُّوا إلى نجدِ نياقِ الهوى      فثَمَّ وادٍ جَوَّهُ مُعْشَبُ  
وانتظروا حتى يبلوح الحمى      فالعِشُّ فيه طيبٌ طيبٌ

وتوفي سنة أربع وثمانين وستمائة ، هكذا ذكر ترجمته ابن حبيب ، ثم بعد كتبها حصل لي شك : هل هو ممن ارتحل بنفسه من الأندلس أو ولد بمصر وإنما ارتحل إليها بعض سلفه ؟ والله تعالى أعلم .

٢٠٨ - وكذا ذكر آخرَ بقوله في سنة سبع وثمانين وستمائة : وفيها توفي الإمام زكي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن يحيى بن علي الإشبيلي المالكي ٣ ، محدث ، عالم ، زاهد فيما ليس بدائم ، كثير الخير ،

١ البيتان في النجوم الزاهرة ٧ : ٣٦٥ .

٢ الأبيات في الوافي : ١٦٠ .

٣ نسبه في المصادر « اللوري » لا الإشبيلي ، وقيل إن لورة قلعة من أعمال إشبيلية ، ولد سنة ٦١٤ هـ وحج - ومعنى هذا القول أنه هاجر من الأندلس وأقام في المشرق ، وتوفي بالينبع ( انظر شذرات =

جزيل المير ، كان حسن المناهج ، قاضياً للحوائج ، محسناً إلى الصامت والمغرب .  
مَقْصِداً لمن يَرِدُ من الحجاز والمغرب ، سمع بمصر ودمشق وحلب ، وأقنى  
ودرس ، مفيداً لذوي الطلب ، ولم يبرح يعين بأيديه ويغيث ، وهو أول من  
بأشر بظاهرية دمشق مشيخة الحديث ، وكانت وفاته بدمشق عن نيّف وسبعين  
سنة ، انتهى .

٢٥٩ - ومنهم الأحق بالسبق والتقدم ، بَقِيَّيْ بن مَخْلَد بن يزيد ،  
أبو عبد الرحمن ، القرطبي ، الأندلسي ، الحافظ ، أحد الأعلام ، وصاحب  
التفسير والمسند<sup>١</sup> . أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي ومحمد بن عيسى الأعمش ،  
وارتحل إلى المشرق ، ولقي الكبار ، وسمع بالحجاز مُصْعَباً<sup>٢</sup> الزهري وإبراهيم  
ابن المنذر وطبقتهما ، وبمصر يحيى بن بكير وزهير بن عَبَّاد وطائفة ، وبدمشق  
إبراهيم بن هشام الغساني<sup>٣</sup> وصَفْوَان بن صالح وهشام بن عمار وجماعة ،  
وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته ، وبالكوفة يحيى بن عبد الحميد الحماني ومحمد  
ابن عبد الله بن نمير وأبا بكر ابن أبي شيبة وطائفة ، وبالبحيرة أصحاب حماد بن  
زيد ، وعُني بالأثر عناية عظيمة لا مزيد عليها ، وعدد شيوخه مائتان وأربعة  
وثلاثون رجلاً ، وكان إماماً ، زاهداً ، صَوَّاماً ، صادقاً ، كثير التهجد ،  
مجاوب الدعوة ، قليل المثل ، مجتهداً ، لا يقلد ، بل يفتي بالأثر .  
ولد في رمضان سنة إحدى ومائتين ، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ست  
وسبعين ومائتين .

= الذهب ٥ : ٤٠٠ والنجوم الزاهرة ٧ : ٣٧٨ ؛ وهذه الترجمة منقولة أيضاً عن درة الأسلاك  
حسبما ورد في حاشية طبعة ليدن .

١ ترجمة بقي بن مخلد في المنذوة : ١٦٧ (وبغية الملتصق رقم : ٥٨٤) وابن الفرضي ١ :  
١٥٧ ، والمرقبة العليا : ١٨ ، وتذكرة الحفاظ : ٦٢٩ ، وطبقات المفسرين : ٩ .

٢ ابن الفرضي : أبا المصعب .

٣ دوزي : إبراهيم بن إبراهيم الغساني ؛ وما هنا يوافق إحدى النسخ .

قال ابن حزم : أقطع أنه لم يؤلّف في الإسلام مثل تفسيره . لا تفسير محمد ابن جرير ولا غيره ، وكان محمد بن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس محباً للعلوم عارفاً بها . فلماً دخل بقيُّ بن مخلد الأندلس بمصنف ابن أبي شيبة وقرىء عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستشعوه ، وقام جماعة من العامة عليه ، ومنعوه من قراءته ، فاستحضره الأمير محمد وإياهم ، وتصفح الكتاب جزءاً جزءاً حتى أتى على آخره ، ثم قال لخازن كتبه : هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه ، فانظر في نسخته لنا ، وقال لبقِي : انشُرْ علمك ، وارو ما عندك ، ونهاهم أن يتعرضوا له .

قال ابن حزم : مسند بقيّ روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيّف . ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مُسَنَّدٌ ومُصَنَّفٌ ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث ، وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممّن ذكرهم أرّبى فيه على مُصَنَّف أبي بكر ابن أبي شيبة وعلى مصنّف عبد الرزّاق وعلى مصنّف سعيد بن منصور . ثم ذكر تفسيره فقال : فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام ، لا نظير لها ، وكان متخيراً لا يقلّد أحداً . وكان جارياً في مِصْمَار البخاري ومسلم والنسائي .

وذكر القشيري<sup>٢</sup> أن امرأة جاءت فقالت له : إن ابني قد أسرته الفرنج ، وإنتي لا أنام الليل من شوقي إليه ، ولي دُويّرة أريد أن أبيعها لأفتكّه بها . فإن رأيت أن تشير إلي من يأخذها ويسعى في فكاكه ، فليس لي ليل ولا نهار . ولا صبر ولا قرّار ، فقال : نعم ، انصرفي حتى ننظر في ذلك إن شاء الله تعالى .

١ الفرق بين المسند والمصنف أن الأول رتب فيه الحديث بحسب رواته من الصحابة والثاني رتب فيه الحديث بحسب أبواب الفقه .

٢ وردت القصة في الجذوة : ١٦٨ سنن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، إجازة عنه ؛ وفي النص اختلاف عما أورده المقرئ .

وأطرق الشيخ وحرك شفّته يدعو الله ، عزّ وجلّ ، لولدها بالخلّاص ، فذهبت ، فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها فقالت : اسمع خبره يرحمك الله تعالى . فقال : كيف كان أمرك ؟ فقال : إنّي كنت فيمن يخدم الملك ، ونحن في القيود ، فبينما أنا ذات يوم أمشي إذ سقط القيد من رجلي ، فأقبل عليّ الموكل بي فشتمني ، وقال : فككّنت القيد من رجلك ، فقلت : لا والله ولكن سقط ولم أشعر ، فجاءوا بالحدّاد فأعادوه ، وسَمّر مسماره وأينده ، ثم قمت ، فسقط أيضاً ، فسألوا رُهبانهم ، فقالوا : ألك والدة ؟ فقلت : نعم ، فقالوا : إنّه قد استجيب دعاؤها له ، فأطلقوه ، فأطلقوني ، وخفروني إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام ، فسأله [ بقيّ ] عن الساعة التي سقط القيد من رجليه فيها ، فإذا هي الساعة التي دعا له فيها ، رحمه الله تعالى .

٢١٠ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف الأزدي ، المعروف بالمغمّامي<sup>١</sup> . من أهل قُرطبة ، وأصله من طُلَيْطَلَة ، وهو من ذرية أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان ، وروى عن عبد الملك بن حبيب مصنفاته ، وارتحل إلى مصر ، وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي ، وعاد إلى الأندلس ، وكان فقيهاً ، نبيلاً ، فصيحاً [ بصيراً ]<sup>٢</sup> بالعربية ، ثم بعد عَوْدَه من مصر أقام بقرطبة أعواماً ، ثم عاد إلى مصر ، وأقام بها ، وسمع الناس منه ، وعظم أمره بالبلاد المشرقية ، ثم إنّه عاد إلى المغرب فتوفّي بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وبين بمصر « الواضحة » لابن حبيب ، وصنف شيئاً في الرد على الشافعية في عشرة أجزاء ، وألف كتاب « فضائل مالك » رضي الله تعالى عنه . والذي يرتضى أن من قلد إماماً من المجتهدين لا ينبغي له أن يتعصّب من

١ ترجمته في جذوة المقتبس : ٣٥٠ ( وبقية الملتبس رقم : ١٤٥٢ ) وابن الفرضي ٢ : ٢٠٠ .

٢ زيادة من ابن الفرضي وإحدى النسخ .



قدر غيره ، وإن كان ولا بد من الانتصار لمذهبه وتقوية حجته فليكن ذلك بحسن أدب مع الأئمة ، رضي الله تعالى عنهم ، فإنهم على هدى من ربهم ، وقد ضلَّ بعض الناس فحمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز في حق العلماء الذين هم نجوم الملة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقد حكى أبو عبد الله الوادي آشي - حسبما رأيتُه بخطه - أن القاضي عبد الوهاب ابن نصر البغدادي المالكي ألَّف كتاباً لنصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب في مائة جزء ، وسمَّاه « النصر لمذهب إمام دار الهجرة » ، فوقع الكتابُ بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر ، فغرَّقه في النيل ، ففضى الله تعالى أن السلطان فرَجَّ بن برقوق سافر إلى الشام ومعه القضاة الأربعة وغيرهم من الأعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد ، فلم يستطع شيئاً ، وهُزِمَ إلى مصر ، وتفرقت العساكر ، وأخذ القضاة والعلماء أسارى ومن جملتهم ذلك القاضي ، فبقي في أسر تيمورلنك إلى أن ارتحل عن الشام ، فأخذته معه أسيراً إلى أن وصل إلى الفرات ، فغرق فيه ، أعني القاضي ، فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تغريقه الكتاب المذكور ، والجزء من جنس العمل ، والله تعالى أعلم .

\* \* \*

[ بين ابن خلدون وتيمورلنك ]

وقد نجَّى الله تعالى من هذه الورطة قاضي القضاة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المالكي صاحب كتاب « العبر ، وديوان المبتدئ والخبر ، في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » فإنه كان من جملة القضاة الحاضرين في الهزيمة ، فلما أدخلوا على تيمورلنك قال لهم ابن خلدون<sup>١</sup> : قدّموني للكلام تنجوا إن شاء الله تعالى . وإلا فأنتم أخبر ،

١ أخبار ابن خلدون مع تيمورلنك وردت في التعريف : ٣٦٦ وما بعدها وعجائب المقدور =

فقدّموه وعليه زي المغاربة ، فلما رآه تيمورلنك قال : ما أنت من هذه البلاد ؟  
ونكلّم معه فخلبه ابن خلدون بلسانه ، وكان آية الله الباهرة ، ثم قال لتيمورلنك :  
إنتي ألفت كتاباً في تاريخ العالم ، وحليته بذكرك ، أو كما قال ، ويقال : إن  
تيمورلنك هو الذي قال له : بلغني أنك ألفت كتاباً في تاريخ العالم ، ثم قال  
له تيمورلنك : كيف ساغ لك أن تذكرني فيه وتذكر بختنصر مع أننا خربنا  
العالم ؟ فقال له ابن خلدون : أفعالكما العظيمة ألحقتكما بالذكر مع ذوي المراتب  
الجسيمة ، أو نحو هذا من العبارات ، فأعجبه ذلك ، وقيل : إنّه لما أنس بابت  
خلدون قال له : يا خُونْدُ ، ما أسفي إلا على كتاب ألفت في التاريخ ، وأنفقت  
فيه أيام عمري ، وقد تركته بمصر ، وإن عمري الماضي ذهب ضياعاً حيث لم  
يكن في خدمتك وتحت ظل دولتك ، والآن أذهب فأتي بهذا الكتاب وأرجع  
سريعاً حتى أموت في خدمتك ، ونحو هذا من الكلام ، فأذن له ، فذهب ولم  
يغد إليه ، وقال بعض العلماء : إنّه لم ينبج من يد ذلك الجبار أحد من العلماء  
غير ابن خلدون ورجل آخر ، وقد ذكر ذلك ابنُ عرب شاه في « عجائب  
المقدور » وقد طال عهدي به فليراجع ، وحكى غير واحد أن تيمورلنك  
لما أخذ حلب على الوجه المشهور في كتب التاريخ جمع العلماء فقال لهم على عادته  
في التعنت : قَتِيلَ مِنَّا وَمِنكُمْ جَمَاعَةٌ ، فمن الذي في الجنة قتلانا أو قتلاكم ؟  
وكان مراده إبراز سبب لقتلهم ، لأنهم إن قالوا أحد الأمرين هلكوا ، فقال  
بعض العلماء ، وأظنه ابن الشحنة : دعوني أجبه وإلا هلكتم ، فركوه ،  
فقال له : يا خُونْدُ ، هذا السؤال أجاب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم  
حين سئل عنه ، فغضب تيمورلنك وقال : كيف يمكن أن يجيب عن هذا السؤال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن لم نكن في زمانه ؟ أو كلاماً هذا معناه ،

= والسلوك للمقريزي وتاريخ ابن قاضي شعبة وقد قام وتر فشل بدراستها في كتابه « ابن خلدون  
وتيمورلنك : ١٩٥٢ » .

فقال العالم المذكور : رويانا في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميئة ويقاتل ليُدْكَرَ ويُرَى مكانه ، فمن الذي في الجنة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ » أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، فتعجب تيمورلنك من هذا الجواب المفحم المسكت ، وحق له أن يتعجب منه ، فإن هذا من الأجوبة التي يقل نظيرها ، وفيها المخلص على كل حال بالإنصاف ، وقد وفق الله تعالى هذا العالم لهذا الجواب حتى يتخلص على يده أولئك الأقوام من الطاغية الجبار العنيد الذي جعل الله تعالى فتنته في الإسلام وفتنة جنكيزخان وأولاده من أعظم الفتن التي وهى بها المسلمون .

وذكر بعض العلماء أن ابن خلدون لما أقبل على تيمورلنك قال له : دعني أقبل يدك ، فقال : ولم ؟ فقال له : لأنها مفتاح الأقاليم ، يشير إلى أنه فتح خمسة أقاليم ، وأصابع يده خمس : فلكل إصبع إقليم ، وهذا أيضاً من دهاء ابن خلدون .

وقد كدنا نخرج عن المقصود في هذه الترجمة فلنصرف العنان ، والله سبحانه المستعان .

٢١١ - ومن الراحلين من الأندلس الإمام الحافظ أبو بكر ابن عطية ، رحمه الله تعالى<sup>١</sup> ، قال الفتح : شيخ العلم ، وحامل لوائه ، وحافظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم وكوكب سمائه ، شرح الله تعالى لحفظه<sup>٢</sup> صدره ، وطاول به عمره ، مع كونه في كل علم وافر النصيب ، مياسراً بالمعلى والرقيب ، رحل إلى المشرق لأداء الفرض ، لابس برْدٍ من العمر الغض ، فروى وقيد ،

١ ترجمة أبي بكر ابن عطية في قلائد العقيان : ٢٠٧ ، وأزهار الرياض ٣ : ٩٩ ، وتذكرة الحفاظ : ١٣٦٩ ، والصلة : ٤٣٢ ، واسمه غالب بن عبد الرحمن بن عطية .

٢ القلائد : لتحفظه .

ولقي العلماء وأسند ، وأبقى تلك المآثر وخلّد ، نشأ في بيئته<sup>١</sup> كريمة ، وأرومة  
من الشرف غير مَرُومة ، لم يزل فيها على وجه الزمان أعلامُ عِلْم ، وأرباب  
مجد ضخّم ، قد قيدت مآثرهم الكتب ، وأطلعتهم التواريخ كالشهب ، وما  
برح الفقيه أبو بكر يتسّم كواهل المعارف وغوّارها ، ويقيد شوارد المعاني  
وغرائبها ، لاستضلاعه بالأدب الذي أحكم أصوله وفروعه ، وعمر برهةً من  
شيبته رُبُوعه ، وبرز فيه تبرز الجواد المستولي على الأمد ، وجلّى عن نفسه  
به كما جلّى الصقال عن النصل الفرد ، وشاهد ذلك ما أثبتته من نظمه الذي يروق  
جملة وتفصيلاً ، ويقوم على قوّة العارضة دليلاً ، فمن ذلك قوله يحذر من  
خلطاء الزمان ، وينبه على التحفظ من الإنسان :

كُنْ بِذَنْبِ صَائِدٍ مُسْتَأْنَسًا      وَإِذَا أَبْصَرْتَ إِنْسَانًا فَفَصِّرْ  
إِنَّمَا الْإِنْسَانُ بَحْرٌ مَا لَهُ      سَاحِلٌ فَاحْذَرُهُ إِيَّاكَ الْغَرَرُ  
وَاجْعَلِ النَّاسَ كَشَخْصٍ وَاحِدٍ      ثُمَّ كُنْ مِنْ ذَلِكَ الشَّخْصِ حَذِرٌ

وله في الزهد :

أيتها المطرودُ من بابِ الرضى      كم يراكَ اللهُ تلهو مُعْرِضًا  
كم إلى كم أنتَ في جهلِ الصِّبَا      قد مضى عُمُرُ الصِّبَا وانقرضا  
قمُ إذا الليلُ دَجَّتْ ظُلْمَتُهُ      واستلذَّ الجفنُ أن يغتمضا  
فضعِ الخدَّ على الأرضِ ونُحْ      واقرعِ السنَّ على ما قد مضى

وله في هذا المعنى :

قلبي يا قلبي المعنى      كم أنا أدعى فلا أُجيبُ  
كم أتمادى على ضلالٍ      لا أرعوي لا ولا أنيبُ

١ دوزي : بيئته ، القلائد : بيئته .

ويلاه<sup>١</sup> من سوء ما دهاني  
 واأسفي كيف برء<sup>٢</sup> دائي  
 لو كنت أذنو لكنت أشكو  
 أبعدني منه سوء فعلي  
 ما لي قدر<sup>٣</sup> وأي قدر<sup>٤</sup>  
 يتوب<sup>٥</sup> غيري ولا أتوب<sup>٦</sup>  
 دائي كما شاء<sup>٧</sup> الطيب<sup>٨</sup>  
 ما أنا من بابه قريب<sup>٩</sup>  
 وهكذا يبعد<sup>١٠</sup> المرئ<sup>١١</sup>  
 لمن أحلت<sup>١٢</sup> به الذنوب<sup>١٣</sup>

وله في هذا المعنى أيضاً :

لا تجعلن<sup>١٤</sup> رمضان شهر فكاهاة  
 واعلم<sup>١٥</sup> بأنك لا تنال<sup>١٦</sup> قبوله<sup>١٧</sup>  
 تلهيك<sup>١٨</sup> فيه من القبيح فنونه<sup>١٩</sup>  
 حتى تكون<sup>٢٠</sup> تصومه<sup>٢١</sup> وتصونه<sup>٢٢</sup>

وله في مثل ذلك<sup>٢٣</sup> :

إذا لم يكن<sup>٢٤</sup> في السمع مني تصاون<sup>٢٥</sup>  
 فحظي إذا<sup>٢٦</sup> من صومي الجوع<sup>٢٧</sup> والظما<sup>٢٨</sup>  
 وفي بصري غص<sup>٢٩</sup> وفي مقولي صمت<sup>٣٠</sup>  
 وإن قلت<sup>٣١</sup> إنني صمت<sup>٣٢</sup> يوماً فما صمت<sup>٣٣</sup>

وله في المعنى الأول :

جفوت<sup>٣٤</sup> أنا ساء<sup>٣٥</sup> كنت آلف<sup>٣٦</sup> وصلهم<sup>٣٧</sup>  
 بلوت<sup>٣٨</sup> فلم أحمد<sup>٣٩</sup> ، وأصبحت<sup>٤٠</sup> آيساً<sup>٤١</sup>  
 رأيت<sup>٤٢</sup> جميع الشر<sup>٤٣</sup> في خيلطة<sup>٤٤</sup> الناس<sup>٤٥</sup>  
 وما في الجفا عند الضرورة<sup>٤٦</sup> من<sup>٤٧</sup> باس<sup>٤٨</sup>  
 ولا شيء<sup>٤٩</sup> أسفى<sup>٥٠</sup> للنفوس<sup>٥١</sup> من<sup>٥٢</sup> الياس<sup>٥٣</sup>  
 فلا تعدلوني<sup>٥٤</sup> في انقباضي<sup>٥٥</sup> فإنني<sup>٥٦</sup>

وله يعاتب بعض إخوانه :

وكنت<sup>٥٧</sup> أظن<sup>٥٨</sup> أن<sup>٥٩</sup> جبال<sup>٦٠</sup> رضوى<sup>٦١</sup>  
 ولكن<sup>٦٢</sup> الأمور لها اضطراب<sup>٦٣</sup>  
 فإن يك<sup>٦٤</sup> بيننا وصل<sup>٦٥</sup> جميل<sup>٦٦</sup>  
 تزول<sup>٦٧</sup> وأن<sup>٦٨</sup> ودك<sup>٦٩</sup> لا يزول<sup>٧٠</sup>  
 وأحوال<sup>٧١</sup> ابن آدم<sup>٧٢</sup> تستحيل<sup>٧٣</sup>  
 وإلا<sup>٧٤</sup> فليكن<sup>٧٥</sup> هجر<sup>٧٦</sup> طويل<sup>٧٧</sup>

١ ورد هذان البيتان أيضاً في أخبار وتراجم أندلسية ص : ٣١ .

وأما شعره الذي اقتدحه من مرَّخ الشباب وعفَّاره ، وكلامه الذي وشحه  
بمآرب الغزل وأوطاره ، فإنه نسي إلى ما تناساه ، وتركه حين كساه العلم  
والورع من ملابسه ما كساه ، فمما وقع من ذلك قوله :

كيف السلوُّ ولي حبيبٌ هاجرٌ      قاسي الفؤادِ يسومني تعذيبا  
لما درى أنَّ الخيالَ مواصلي      جعل السهادَ على الجفونِ رقبيا

وله أيضاً :

يا مَنْ عهودي لَدَيْكَ تُرعى      أنا على عهدِكَ الوثيقِ  
إن شئتِ أن تسمعي غرامي      مِنْ مخبرِ عالمِ صدوقِ  
فاستخبري قلبكِ المعنى      يُخبركِ عن قلبي المشوقِ

انتهى كلام الفتح .

وأبو بكر ابن عطية المذكور هو والد الحافظ القاضي أبي محمد عبد الحق  
ابن عطية صاحب التفسير الشهير ، رحم الله تعالى الجميع .

\* \* \*

[ ترجمة عبد الحق بن عطية ]

قال في الإحاطة في حقه ما ملخصه<sup>١</sup> : [ هو ] الشيخ الإمام المفسر عبد  
الحق بن غالب بن عطية المحاربي ، فقيه عالم بالتفسير والأحكام والحديث والفقهِ  
والنحو واللغة والأدب ، حسن التقييد ، له نظم ونثر ، ولي قضاء المرية سنة  
تسع وعشرين وخمسمائة في المحرم ، وكان غاية في الذكاء والدهاء والتهتم  
بالعلم ، سريَّ الهمة في اقتناء الكتب ، توخَّى الحق ، وعدل في الحكم ، وأعز  
الخطَّة ، روى عن أبيه وأبوي علي الغساني والصدفي وطبقتهما ، وألف كتابه

١ انظر الإحاطة : ٣٠٨ ( نسخة الكتاني ) .

«الوجيز» في التفسير فأحسن فيه وأبدع ، وطار بحسن نيته كل مطار ،  
وبرناجماً ضمته مروياته وأسماء شيوخه فحرر وأجاد .

ومن نظمه يندب عهد شبابه<sup>١</sup> :

سَقِيًّا لِعَهْدِ شَبَابٍ ظَلَمْتُ أَمْرَحُ فِي رِيَعَانِهِ وَلِيَالِي الْعَيْشِ أَسْحَارُ  
أَيَّامِ رَوْضِ الصَّبَا لَمْ تَدْوِ أَعْصَنُهُ وَرَوْتَقُ الْعَمْرِ غَضُّ وَالْهَوَى جَارُ  
وَالنَّفْسُ تُرْكَضُ فِي تَضْمِيرِ شَرَّتْهَا طِرْفًا لَهُ فِي زَمَانِ اللَّهْوِ إِحْضَارُ  
عَهْدًا كَرِيمًا لِبَسْنَا فِيهِ أَرْدِيَّةً كَانَتْ عِيَانًا وَمَحَّتْ فِيهِ آثَارُ  
مَضَى وَأَبْقَى بِقَلْبِي مِنْهُ نَارَ أَسَى كَوْنِي سَلَامًا وَبَرْدًا فِيهِ يَا نَارُ  
أَبْعَدْ أَنْ نَعِمْتَ نَفْسِي وَأَصْبَحَ فِي لَيْلِ الشَّبَابِ لَصُبْحِ الشَّيْبِ إِسْفَارُ  
وَقَارَعَتْنِي اللَّيَالِي فَانْتَنَتْ كَسْرًا عَنْ ضَيْغَمٍ مَا لَهُ نَابٌ وَأظْفَارُ  
إِلَّا سِلَاحَ خِيَالٍ أَخْلَصَتْ فَلَهَا فِي مَنْهَلِ الْمَجْدِ إِيرَادٌ وَإِصْدَارُ  
أَصْبُو إِلَى رَوْضِ عَيْشٍ رَوْضُهُ خَضِيلٌ أَوْ يَنْثِي بِي عَنْ الْعَلْيَاءِ إِقْصَارُ  
إِذَا فَعَطَلْتُ كَفِّي مِنْ شَبَابِ قَلَمِ آثَارِهِ فِي رِيَاضِ الْعِلْمِ أَزْهَارُ

مولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وتوفي في الخامس والعشرين من  
شهر رمضان سنة ست وأربعين وخمسمائة ببلورقة<sup>٢</sup> ، قصد ميورقة<sup>٣</sup> يتولى  
قضاءها فصدَّ عن دخولها وصُرف منها إلى لورقة<sup>٤</sup> اعتداء عليه ، رحمه الله  
تعالى ، انتهى .

وقال الفتح في حقه ما نصه<sup>٣</sup> : فتى العمر كهل العلاء ، حديث السن قديم  
السنة ، لبس الجلالة برُداً صافياً ، وورد ماء الأصاله صافياً ، وأوضح للفضل  
رسماً عافياً ، وثنى من ذهنه للأغراض فنناً قصداً ، وجعل فهمه شهاباً

١ لم ترد القصيدة في نسخة الإحاطة ، والمقري يشعر أنه ما يزال ينقل عنها .

٢ الإحاطة : قصد مرسية .

٣ لم يرد هذا النص في القلائد والمطمع المطبوعين .

رَصَدًا ، سما إلى رُتَب الكهول صغيراً ، وشنَّ كَتِيبةً ذهنه على العلوم مُغَيِّراً ،  
فَسَبَّاهَا معنى وَفَصَلًّا ، وَحَوَّاهَا فرعاً وأصلاً ، ولهُ أدبٌ يسيل رَضْرَاضاً ،  
ويستحيل ألفاظاً مبتدعةً وأغراضاً .

وقال أيضاً فيه <sup>١</sup> : نَبَعَةُ دَوْحِ العَلَاءِ ، ومحرزٌ ملبسُ الثناء ، فَنَدُّ الجلالة ،  
وواحدُ العصر والأصالة ، وقار كما رسا الهضب ، وأدب كما اطرد السلسلُ  
العذب ، وشيم تتضاءلُ لها قطع الرياض ، وتبادر الظن به <sup>٢</sup> إلى شريف الأغراض ،  
سابقَ الأجماد فاستولى على الأمد بعبابه <sup>٣</sup> ، ولم ينض ثوب شبابه ، أذمن التعب  
في السؤدد جاهداً ، فتي تناول الكواكب قاعداً ، وما اتكل على أوائله ، ولا  
سكن إلى راحت بُكْرِهِ وأصائله ، أثره في كل معرفةٍ عَلَّمٌ في رأسه نار ،  
وطوالعه في آفاقها صُبْحٌ أو منارٌ ، وقد أثبت من نظمه المستبدع ما ينفح عبيراً ،  
ويتضح منيراً ، فمن ذلك قوله من قصيدة :

وليلةٌ جُبْتُ فيها الجزع مرتدياً      بالسيف أسحبُ أذيالاً من الظلمِ  
والنجمُ حيرانٌ في بحر الدجى غرقٌ      والبرقُ في طيلسان الليل كالعلمِ  
كأنما الليلُ زنجيٌ بكاهلهِ      جرحٌ فيثعبُ أحياناً له بدمِ  
انتهى المقصود منه .

وهو - أعني أبا بكر - أحدُ مشايخ عياض ، حسبما أُلعت به في « أزهار  
الرياض » .

٢١٢ - ومنهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرّح - بالحاء المهملة -

- ١ انظر القلائد : ٢٠٨ .
- ٢ القلائد : ويبادر به الظن .
- ٣ القلائد : بغلابه .
- ٤ القلائد : نهار .



ابن أحمد بن محمد ، الإمام ، الحافظ ، الزاهد ، بقية السلف ، اللّخمي ، الإشبيلي ، الشافعي<sup>١</sup> ، أسره الإفرنج سنة ست وأربعين وستمائة ، وخلص ، وقدم مصر سنة بضع وخمسين ، وقيل : إنه تمذهب للشافعي ، وتفقه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام قليلاً ، وسمع من شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري الحموي ، والمعين أحمد بن زين الدين وإسماعيل بن عزوز والنجيب بن الصيقل وابن علاّق ، وبدمشق من ابن عبد الدائم وخلق ، وعني بالحديث ، وأتقن ألفاظه ، وعرف رواته وحفاظه ، وفهم معانيه ، وانتقى لبايته ومبانيه .

قال الصفدي<sup>٢</sup> : وكان من كبار أئمة هذا الشأن ، وممن يجري فيه وهو طَلَّقُ اللسان<sup>٣</sup> ، هذا إلى ما فيه من ديانة ، وورع وصيانة ، وكانت له حلقة اشتغال بكرة بالجامع الأموي يلازمها ، ويَحُومُ عليه من الطلب حوائمها ، سمع عليه الشيخ شمس الدين الذهبي ، واستفاد منه ، وروى في تصانيفه عنه ، وعرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية فأبأها ، ولم يقبل حياها ، وكان بزي الصوفية ، ومعه فقاها بالشافعية<sup>٤</sup> ، ولم يزل على حاله حتى أجزن الناس ابن فرح ، وتقدّم إلى الله وسرح ، وشيع الخلق جنازته ، وتولّوا وضعه في القبر وحيازته ، وتوفّي رحمه الله تعالى تاسع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة ، ومولده سنة خمس وعشرين وستمائة .

وله قصيدة غزلية في ألقاب الحديث سمعها منه الدّمياطي واليُونيني ، وسمع منه البرزالي والمقاتلي والناقلي وأبو محمد ابن الوليد ، ومات بترية أم

١ ترجمته في أعيان العصر ( الورقة ١٠٥ أ من المخطوطة رقم ٢٩٦٢ آياصوفيا ) والوافي ٧ : الورقة ١٣٨ وتذكرة الحفاظ : ١٤٨٦ وطبقات السبكي ٥ : ١٢ وشدرات الذهب

٥ : ٤٤٣ .

٢ النقل عن أعيان العصر .

٣ أعيان العصر : العنان .

٤ أعيان العصر : بالشامية .

## الصالح بالإسهال .

والقصيدة المذكورة هي هذه :

غَرَامِي صَاحِبِ الرَّجَا فَبِكَ مَعْضَلُ  
وَصَبْرِي عَنَّا يَشْهَدُ الْعَقْلُ أَنَّهُ  
وَلَا حَسَنٌ إِلَّا سَمَاعُ حَدِيثِكُمْ  
وَأَمْرِي مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ ، وَلَيْسَ لِي  
وَلَوْ كَانَ مَرْفُوعًا إِلَيْكَ لَكُنْتُ لِي  
وَعَدَلُ عَدُولِي مُنْكَرٌ لَا أَسِيغُهُ  
أَفْضَى زَمَانِي فَبِكَ مَتَّصِلُ الْأَمْسِ  
وَمَا أَنَا فِي أَكْفَانِ مَجْرُوكِ مُدْرَجُ  
وَأَجْرَيْتُ دَمْعِي بِالْدمَاءِ مَدْبُجًا  
فَمَتَّفَقٌ سُهْدِي وَجَفِيٌّ وَعَبْرَتِي  
وَمُؤْتَلَفٌ شَجْوِي وَوَجْدِي<sup>١</sup> وَلَوْعِي  
خُذِ الْوَجْدَ عَنِّي مُسْتَنْدًا وَمَعْنَعًا  
وَذِي نُبْدٍ مِنْ مَبْهَمِ الْحُبِّ فَاعْتَبِرْ  
عَزِيزٌ بِكُمْ صَبٌّ ذَلِيلٌ لِغَيْرِكُمْ  
غَرِيبٌ يُقَاسِي الْبُعْدَ عَنكَ ، وَمَا لَهُ  
فَرَفَقًا بِمَقْطُوعِ الْوَسَائِلِ ، مَا لَهُ  
فَلَا زَلَّتْ فِي عَزٍّ مَنِيْعٍ وَرَفْعَةٍ  
أَوْرِي بِسُعْدِي وَالرَّبَابِ وَزَيْنَبِ  
فَخُذِ أَوْلَاً مِنْ آخِرِ أَمِّ أَوْلَاً

١ أعيان مصر : جفني وسهدي .

٢ أعيان مصر : وجدي وشجوي .

أبرئ إذا أقسمتُ أنسي بجمه أهيمُ وقلدي بالصباة يُشعلُ

وقد ذكرت شرحها في الجزء الثلاثين من تذكرتي ، انتهى كلام الصفدي .  
وظاهر كلامه أنه ابن فرح - بفتح الراء - والذي تلقيناه عن شيوخنا أنه  
بسكون الراء ، وقد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق والمغرب يطول  
تعدادهم ، وهي وحدها دالة على تمكن الرجل ، رحمه الله تعالى .

٢١٣ - ومنهم عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر ، أبو الأصبع ، الأموي ،  
الأندلسي <sup>١</sup> ، سمع بمكة وبدمشق ومصر وغيرها ، وحدث عن سليمان بن  
أحمد بن يحيى بسنده إلى جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
« إن لكل بني أب عَصَبَة يتنمون إليها ، إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عَصَبَتهم ،  
وهم عِترتي ، خلُقوا من طينتي ، ويل للمكذِّبين بفضلهم ، مَنْ أَحَبهم أَحبه  
الله ، ومن أَبغضهم أَبغضه الله » . وحدث عن أبي العباس أحمد بن محمد البردعي  
بسنده إلى عبد الله بن المبارك قال : كنت عند مالك بن أنس وهو يحدثنا ،  
فجاءت عقرب فلدغته ست عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويتصبر ، ولا يقطع  
حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس  
عنه قلت له : يا أبا عبد الله ، قد رأيت منك عجباً ، قال : نعم ، أنا صبرت  
إجلالاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولد أبو الأصبع المذكور بقَرْطَبَة وتوفي ببخارى سنة ٣٦٥ .

قال الحاكم أبو عبد الله : رأيت أبا الأصبع في المنام في بستان فيه خضرة  
ومياه جارية وفرش كثيرة ، وكأني أقول : إنَّها له ، فقلت : يا أبا الأصبع ، بماذا  
وصلت إليه ؟ أبالحديث ؟ فقال : إي والله ، وهل نجوت إلا بالحديث ؟ قال :  
ورأيت أيضاً وهو يمشي بزى أحسن ما يكون ، فقلت : أنت أبو الأصبع ؟ فقال :

١ ترجمت في ابن الفرضي ١ : ٣٢١ .

نعم ، قلت : ادعُ الله تعالى أن يجمعني وإيّاك في الجنة ، فقال : إن أمام الجنة أهوالاً ، ثم رفع يديه وقال : اللهم اجعله معي في الجنة بعد عمر طويل ، انتهى .

٢١٤ - ومنهم القاضي أبو البقاء خالد ، البَلّوي ، الأندلسي ، رحمه الله تعالى <sup>١</sup> ، وهو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد ، البلوي ، ووصفه الشاطبي بأنه الشيخ الفقيه القاضي الأعدل ، انتهى .  
وهو صاحب الرحلة المسماة : « تاج المصْرُق في تحلية أهل المشرق » <sup>٢</sup> ، ومما أنشده رحمه الله تعالى فيها لنفسه :

ولقد جرى يومَ النّوى دمعي دماً حتى أشاعَ النَّاسَ أنّك فاني  
والله إنَّ عادَ الزَّمانُ بقُرْبنا لكففتُ عن ذكرِ النّوى وكفاني

وهذه الرحلة المسماة بتاج المصْرُق مشحونة بالفوائد والفرائد ، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوزه الرائد ، وقد قال رحمه الله تعالى فيها في ترجمة الولي نجم الدين الحجازي ، رضي الله تعالى عنه ، ما نصّه <sup>٣</sup> : وذكر لي رضي الله تعالى عنه قال : مما وصّني به الجَد الأكبر أبو الحجاج يوسف المذكور - يعني سيدي أبا الحجاج يوسف بن عبد الرحيم الأقمري القطب الغوث رضي الله تعالى عنه ، وأعاد علينا من بركاته - خواصّه وأصدقائه ، قال : إذا أدركتكم الضرورة والفاقة فقولوا : حسبي الله ، ربي الله يعلم أنّي في ضيق ، قال : وذكر لي أيضاً رضي الله تعالى عنه قال : رأى هذا الجد يوسف المذكور النبيّ صلى الله

١ ترجمة خالد البلوي في الإحاطة ١ : ٣٢٤ والكتيبة الكامنة : ١٣٤ ونيل الابتهاج : ٩٩  
نقلا عن فهرسة الحضرمي .

٢ من هذه الرحلة نسخ كثيرة خطية ، وسنعت منها النسخة رقم ١٠٥٣ جغرافياً بدار الكتب المصرية ، وإن لم تكن من خير النسخ .

٣ تاج المصْرُق ، الورقة : ١٤٠ .

عليه وسلّم في النوم ، بعد أن سأل الله تعالى ذلك ، وقد كان أصابته فاقة ، فشكا إلى النبي صلى الله عليه وسلّم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « قل يا بَرٌّ<sup>١</sup> يا رحيم ، يا بَرٌّ يا رحيم ، الطُفُّ بي في قضائك ، ولا تولّ أمري أحدًا سواك ، حتى ألقاك » ، فلما قالها أذهب الله تعالى عنه فاقته . قال : وكان رحمه الله تعالى يوصي بها أصحابه وأحبابه ، انتهى .

ونسب بعضهم القاضي خالدًا المذكور إلى انتحال كمال العماد في « البرق الشامي » ، لأن خالدًا أكثر في رحلته من الأسجاع التي للعماد ، فلذا قال لسان الدين ابن الخطيب فيه :

خليليَّ إن يُقْضَ اجتماعٌ بخالدٍ فقولا له قولاً ولن تعدوا الحقاً  
سرقَتَ العمادَ الأصهبانيَّ برقهُ وكيف ترى في شاعر سرقَ البرقاً

وأظن أن لسان الدين كان منحرفاً عنه ، ولذلك قال في كتابه « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف »<sup>٢</sup> عندما جرى ذكر قننورية<sup>٣</sup> وقاضيتها خالد المذكور ما صورته : لم يتخلف ولد عن والد ، وركب قاضيتها ابن أبي خالد ، وقد شهرته النزعة الحجازية ، ولبس من خشن الحِجَا زيتهُ ، وأرخی من البياض طيلساناً ، وتشبّهَ بالمشاركة شكلاً ولساناً ، والبدَاوة تسمه على الخُرطوم ، وطبع الماء والهواء يقوده قودَ الجمل المخطوم ، انتهى .

ومن نظم أبي البقاء خالد البلّوي المذكور قوله :

أتى العيدُ واعتاد الأحبّةُ بعضهم ببعض وأحبابُ المتيمّمِ قد بانوا

١ تاج المفرق : يا رب .

٢ نشرها الدكتور أحمد مختار العبادي في كتابه « مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب » ص ٢٥ -

٥٣ ، وانظر النص ص : ٣٦ - ٣٧ .

٣ قننورية : ( Cantoria ) تقع إلى جنوب برشانة ( Purchena ) ، في ولاية المرية ، وتكتب أيضاً « قنورية » .

وأضحى وقد ضحَّوا بقُرْبَانِهِمْ وما لَدَيْهِ سِوَى حُمْرِ الْمَدَامِ قِرْبَانُ

وقال في رحلته : إنَّه قال هذين البيتين بديهةً بمصلَّى تونس في عيد النحر من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

ومن نظمه أيضاً قوله رحمه الله تعالى :

وَمَسْتَنْكَرُ شَيْبِي وَمَا ذَهَبَ الصَّبَا وَلَا جَفَّ إِينَاعُ الشَّيْبَةِ مِنْ غَضَنِي  
فَقُلْتُ فِرَاقِي لِلأُحْبَةِ مُؤَذَّنٌ بِشَيْبِي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ عَشْرِينَ مِنْ سِنِي

ومحاسنه - رحمه الله تعالى - كثيرة ، وفي الرحلة منها جملة .

٢١٥ - ومنهم برهان الدين أبو إسحاق ابن الحاج إبراهيم ، النميري ،  
القرنَاطي<sup>١</sup> ، وهو أيضاً مذكور في ترجمة ابن الخطيب بما يغني عن تكرير  
ذكره هنا ، وقال رحمه الله تعالى في رحلته : أخبرني شيخنا - يعني الشيخ الإمام  
الصالح أبا عبد الله محمد المعروف بخليل التوزري إمام المالكية بالحرم الشريف  
رضي الله تعالى عنه - قال : اعتكفت بجامع عمرو بن العاص كفافاً لشرَّتي عن  
الناس ، خصوصاً أذى الغيبة ، نحو خمسين ليلة ، أردت أن أدعو لطائفة من  
أصحابي بمطالب مختلفة ، كلُّ بحسب ظنِّي فيه يومئذ ، فأدركني حيرة في  
التمييز والتخصيص ، فألهمت أن قلت بديهة :

شَهِدْنَا بِتَقْصِيرِ أَلْبَابِنَا فَحُسْنُ اخْتِيَارِكَ أَوْلَى بِنَا  
وَأَنْتَ الْبَصِيرُ بِأَعْدَائِنَا وَأَنْتَ الْبَصِيرُ بِأَحْبَابِنَا

قال : ثم أردفتها بدعاء ، وهو : اللهم يا من لا يعلم خيره إلا هو ،  
أنت أعلم بأعدائنا وأودائنا ، فافعل بكل منهم ما يناسب حسن اختيارك لنا ،  
حسبما علمته منا ، وكفى بك عليماً ، وكفى بك قديراً ، وكفى بك بصيراً ،

١ سأتى له ترجمة ضافية في النفع ، حيث نذكر أهم المصادر التي أوردت ترجمته .

وكفى بك لطيفاً ، وكفى بك خبيراً ، وكفى بك نصيراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً كثيراً كثيراً .

وقال ابن الحاج المذكور في الرحلة المذكورة : إذا التقى الرجل بعدوه وهو على خوف منه فليقرأ هذه الحروف ( كهيعص ، حمعسق ) وليعقد بكل حرف منها إصبعاً ، يبدأ بإبهام يده اليمنى ويختم بإبهام يده اليسرى ، فإذا قرب من عدوه فليقرأ في نفسه سورة الفيل ، فإذا وصل إلى قوله ( ترميهم ) فليكررها ، وكلما كررها فتح إصبعاً من أصابعه المعقودة تجاه العدو ، فيكررها عشر مرّات ، ويفتح جميع أصابعه ، فإذا فعل ذلك أمن من شرّه إن شاء الله تعالى ، وهو مجرب ، انتهى .

ومن بديع نظم أبي إسحاق ابن الحاج النميري المذكور قوله :

ياربّ كاس لم يُشجَّ شمولها فاعجب لها جسماً بغير مزاج  
لما رأينا السحر من أشكالها جملاً نسبناه إلى الزجاج

وله فيما أظن :

له شقّة أضاعوا النثر فيها بلثم حين سدّت ثغر بدر  
فما أشهى لقلبي ما أضاعوا « ليوم كريمة وسداد ثغر »

وهو تضمين حسن .

٢١٦ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق إمام النحاة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان ، النَّقْزِي ، الأثري ، الغرناطي<sup>١</sup> . قال ابن مرزوق الخطيب في حقّه : هو شيخ النحاة بالديار

١ ترجم له الصفدي في الوافي وأعيان العصر ونكت الحميان : ٢٨٠ وانظر أيضاً الكتيبة الكامنة : ٨١ والدرر : ٣٠٢ وبغية الوعاة : ١٢١ وطبقات الشافعية ٦ : ٣١ وغاية النهاية ٢ : ٢٨٥ .

المصرية ، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية ، انتهت إليه رئاسه التبريز في علم العربية واللغة والحديث ، سمعت عليه وقرأت ، وأنشدني الكثير ، وإذا أنشدني شيئاً ولم أقيده استعاده مني فلم أحفظه ، فأنشدني وكنت أظنه لنفسه ارتجالاً إلى أن أخبرني أحد أصحابنا عنه أنه أخبره أنهما لأبي الحسن التجاني أنشدهما له بيته بالمدرسة الصالحية رحمه الله تعالى :

إنَّ الذي يَرَوِي وَلِكنَّهُ يَحْفَظُ ما يروِي ولا يَكْتُبُ  
كصخرةٍ تنعُ أمواجها تسقي الأراضِي وهي لا تشربُ

قال : ورويت عنه تواليف ابن أبي الأحوص : منها « التبيان في أحكام القرآن » و « العرب المفهم في شرح مسلم » ولم أقف عليه ، و « الوسامة في أحكام القسامة » و « المشرع السلسل في الحديث المسلسل » وغير ذلك . وحدثني بسنن أبي داود عن ابن خطيب المزة عن أبي حفص ابن طبرزد عن أبي البدر الكروخي ومفلح الرومي عن أبي بكر ابن ثابت الخطيب عن أبي عمر الهاشمي عن اللؤلؤي عن أبي داود ، وبسنن النسائي عن جماعة عن ابن باقا عن أبي زرعة عن ابن حميد الدؤسي عن أبي نصر الكمار عن ابن السني عن النسائي ، وبالموطأ عن أبي جعفر ابن الطباع بسننه .

وشكوت إليه يوماً ما يلقاه الغريب من أذاة العداة ، فأنشدني لنفسه :

عُدَّاتِي لَهْمُ فَضْلٍ عَلِيٍّ وَمَنَّةٌ      فلا أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَنِي الأَعادِيا  
هَمْ يُبْحَثُوا عَن رَلَّتِي فَاجْتَنَبَتْهَا      وهِم نَافَسُونِي فَاكْتَسَبَتْ المَعاليِا

وأنشدني أيضاً من مُداعباته ، وله في ذلك النظم الكثير مع طهارته وفضله :

عَلَّقَتْهُ سَبَجِيَّ اللَوْنِ قَادِحَهُ      ما ابيض منه سوى ثغرِ حَكِي الدُّرِّا  
قد صاعه من سوادِ العين خالقه      فكلُّ عَيْنٍ إِلَيْهِ تُدْمِنُ النِّظْرَا



وأشدني في جاهل لبس صوفاً وزها فيه :

أيا كاسياً من جَيْدِ الصوفِ نَفْسَهُ      ويا عارياً من كل فَضْلٍ ومن كَيْسِ  
أترهى بصوفٍ وهو بالأمس مصبُحٌ      على نَعْجَةٍ واليوم أمسى على تَيْسِ  
انتهى ما اختصرته من كلام الخطيب ابن مرزوق .

وأشد الرحالة ابن جابر الوادي آشي لأبي حيان قوله :

وقصّر آمالي مآلي إلى الردى      وأنتي وإن طال المدى سوف أهلكُ  
فصنّتُ بماء الوجهِ نفساً أبيضَةً      وجادت يميني بالذي كنت أملكُ

ووقفت على «أعيان العصر وأعوان النصر» للصفدي ، فوجدت فيه ترجمة أبي حيان واسعة فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد ، وهي :

الشيخ ، الإمام ، العالم ، العلامة ، الفريد ، الكامل ، حجة العرب ، مالك أئمة الأدب ، أثير الدين ، أبو حيان الأندلسي الجياني - بالجيم ، والياء آخر الحروف مشددة ، وبعد الألف نون - وكان أمير المؤمنين في النحو ، والشمس السافرة شتاء في يوم الصحو ، والمتصرف في هذا العلم فإليه الإنبات والمحو ، لو عاصر أئمة البصرة لبصرهم ، أو أهل الكوفة لكف عنهم اتباعهم السواد وحذرهم ، نزل منه كتاب سيبويه في وطنه بعد أن كان طريداً ، وأصبح به التسهيل بعد تعقيده مفيداً ، وجعل سرحه شرحه وجنة راقته النواظر توريداً ، ملأ الزمان تصانيف ، وأمال عتق الأيام بالتواليف ، تخرج به أئمة في هذا الفن ، وروق لهم في عصره منه سلافة الدن ، فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضاً غير مجيب ، أو عيسى بن عمر لأصبح من تقصيره وهو محذر ، أو الخليل لكان بعينه قذاه ، أو سيبويه لما تردى من مسألته الزنبورية بـرداه ، أو الكسائي لأعراه حلة جاهه عند الرشيد وأناسه ، أو الفرّاء لفرّ منه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مداسه ، أو اليزيدي لما ظهر نقصه من مكانه ، أو الأخفش

لأخفى جملةً من محاسنه ، أو أبو عبّيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية ، أو أبو عمرو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلّق بعربية ، أو السكري لما راق كلامه في المعاني ولا حلا ، أو المازني لما زانه قوله « إنّ مُصَابِكُمْ رجلا » ، أو قطرب لما دبّ في العربية ولا درّج ، أو ثعلب لاستكن بمكره في وكره ولما خرج ، أو المبرد لأصبحت قواه مقترّة ، أو الزجاج لأمست قواريره مكسرة ، أو ابن الوزان لعدم نقله ، أو الثماني لما تجاوز حدّه ، أو ابن باب لعلم أن قياسه ما اطّرد ، أو ابن درّيد لما بلغ ريقه ولا ازدرد ، أو ابن قتيبة لأضاع رحله ، أو ابن السراج لمشاه إذا رأى وحله ، أو ابن الخشاب لأضرم فيه ناراً ، ولم يجد معه نوراً ، أو ابن الخباز لما سجّر له تنوراً ، أو ابن القوّاس لما أغرق في نزعته ، أو ابن يعيش لأوقعه في نزعته ، أو ابن خروف لما وجد له مرعى ، أو ابن إياز لما وجد لأوزاره وقعاً ، أو ابن الطراوة لم يكن نحوه طرياً ، أو ابن الدباج لكان من حلّته الرائقة عرياً ، وعلى الجملة فكان إمام النحاة في عصره شرقاً وغرباً ، وفريد هذا الفن الفذّ بعداً وقرباً ، وفيه قلت :

سلطانُ علم النحوِ أستاذنا الـ شيخُ أثيرُ الدينِ حَبْرُ الأنامِ  
فلا تقلُّ زيدٌ وعمرو ، فما في النحوِ معه لسواهُ كلامُ

خدم هذا العلم مدةً تقارب الثمانين ، وسلك من غرّائبه وغوامضه طرقاً متشعبةً الأفانين ، ولم يزل على حاله إلى أن دخل في خبر كان ، وتبدّلت حركاته بالإسكان ، وتوقّى رحمه الله تعالى بمتزله خارج باب البحر بالقاهرة في يوم السبت بعد العصر الثامن والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر ، وصلي عليه في الجامع الأموي بدمشق صلاة الغائب في شهر ربيع الآخر ، ومولده بمدينة مطّخشارش في أخريات شوال سنة أربع وخمسين وستمائة .

وقلت أنا أرتيه رحمه الله تعالى :

فاستعر البارقُ واستعبرا  
 واعتلَّ في الأسحارِ لما سرى  
 رثته في السجعِ على حرفِ را  
 يَرَوَى بها ما ضَمَّه من ثرى  
 قد اقتضى أكثرَ ممَّا جرى  
 يُرى إماماً والورى من ورا  
 فضمه القبرُ على ما ترى  
 فعادَ في تربته مُضمرا  
 صحَّ فلما أن قضى كسراً  
 والآن لما أن مضى نُكراً  
 يطرقُ من وافاهُ خطبُ عرّا  
 وبينَ من أعرفه في الورى  
 ففعله كانَ لهُ مصدرًا  
 فكَّ من الصبرِ وثيقَ العرى  
 أمثلة النحوِ وممن قرا  
 فكم لهُ من عسرةٍ يسرا  
 إذ كان في النحوِ قد استبحرا  
 وحظُّه قد رجَّع القهقرى  
 وكم لهُ فنٌّ به استأثرا  
 بدمعهم فيه بقايا الكرى  
 والصرفُ للتصريفِ قد غيرا  
 يلغى الذي في ضبطها قررا  
 يهدي إلى ورَّاده الجوهرًا  
 عليه فيها نعقدُ الخنصرًا

مات أثيرُ الدين شيخُ الورى  
 ورقٌ من حزنِ نسيمِ الصبا  
 وصادحاتُ الأيكِ في نوحها  
 يا عينُ جودي بالدموعِ التي  
 واجري دماً فالخطبُ في شأنه  
 مات إمامٌ كانَ في فنِّه  
 أمسى منادىً للبلبلى مفرداً  
 يا أسفا كان هدىً ظاهرًا  
 وكان جمعُ الفضلِ في عصره  
 وعُرفَ الفضلُ به برهه  
 وكان ممنوعاً من الصرفِ لا  
 لا أفعلُ التفضيلِ ما بينه  
 لا بدَّلُ عن نعتِه بالتقى  
 لم يدغمَ في اللحدِ إلا وقد  
 بكى لهُ زيدٌ وعمرو فمن  
 ما أعقدَ التسهيلِ من بعده  
 وجسَّرتَ الناسَ على خوضه  
 من بعده قد حال تمييزه  
 شاركَ منْ قد سادَ في فنِّه  
 دأبُ بني الآدابِ أن يغسلوا  
 والنحوُ قد سار الردى نحوه  
 واللغةُ الفصحى غدتْ بعده  
 تفسيره البحرُ المحيطُ الذي  
 فوائدهُ من فضلهِ جمَّة

وكان ثَبَتًا نَقَلَهُ حُجَّةٌ  
 ورحلهُ في سُنَّةِ المصطفى  
 له الأسانيدُ التي قد علَّتْ  
 ساوى بها الأحفادُ أجدادَهم  
 وشاعراً في نظمه مفلحاً  
 لها معانٍ كلما خطتها  
 أفديه من ماضٍ لأمر الردى  
 ما باتَ في أبيضِ أكفانه  
 تُصافِحُ الحورُ له راحةً  
 إن مات فالذكرُ له خالدٌ  
 جاد ثررى وافاه غيثٌ إذا  
 وخصه من ربه رحمةً

مثل ضياء الصبح إن أسفرا  
 أصدق من يسمعُ إن أخبرا  
 فاستفلت عنها سوامي الذرى  
 فاعجب لماضٍ فاته من طراً  
 كم حررَ اللفظَ وكم حبراً  
 تسرُّ ما يرقمُ في تسراً  
 مستقبلاً من ربه بالقيرى  
 إلا وأضحى سُنْدُساً أحضرا  
 كم تعبتُ في كلِّ ما سطرأ  
 يحيا به من قبل أن ينشرا  
 مساهُ بالسقي له بكرأ  
 توردُهُ في حشره الكوثرأ

وكان قد قرأ القراءات على الخطيب أبي محمد عبد الحق بن علي بن عبد الله  
 نحواً من عشرين ختمة إفراداً وجمعاً ، ثم على الخطيب الحافظ أبي جعفر أحمد  
 العرناطي المعروف بالطباع بغرناطة ، ثم قرأ السبعة إلى آخر سورة الحجر على  
 الخطيب الحافظ أبي علي الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص بمالقّة ،  
 ثم إنّه قدم الإسكندرية ، وقرأ القراءات على عبد النصير بن علي بن يحيى  
 المربوطي ، ثم قدم مصر فقرأ بها القراءات على أبي الطاهر إسماعيل بن هبة الله  
 المليحي ، وسمع الكثير على اللحم الغفير بجزيرة الأندلس وبلاد إفريقية والإسكندرية  
 وديار مصر والحجاز ، وحصل الإجازات من الشام والعراق وغير ذلك ،  
 واجتهد في طلب التحصيل والتقييد والكتابة ، ولم أر في أشياخي أكثر اشتغالا  
 منه ، لأنّي لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب ، ولم أره على غير ذلك ،  
 وله إقبال على الطلبة الأذكاء ، وعنده تعظيم لهم ، ونظم ونثر ، وله الموشحات

البديعة ، وهو ثبت فيما ينقله ، محرر لما يقوله ، عارف باللغة ، ضابط لألفاظها ، وأما النحو والتصريف فهو إمام الناس كلهم فيهما ، لم يذكر معه في أقطار الأرض غيره في حياته ، وله اليد الطولى في التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم ، خصوصاً المغاربة ، وتقيد أسمائهم على ما يتلفظون به من إمالة وترقيق وتضخيم ، لأنهم يجاورون بلاد الإفرنج وأسماءهم قريبة من لغاتهم ، وألقابهم كذلك ، وقيد وحرره ، وسأله شيخنا الذهبي أسئلة فيما يتعلق بذلك ، وأجاب عنه .

وله التصانيف التي سارت وطارت ، وانتشرت وما انتشرت ، وقرئت ودريت ونسخت وما فسخت ، أحملت كتب الأقدمين ، وأهت المقيمين بمصر والقادمين ، وقرأ الناس عليه ، وصاروا أئمة وأشياخاً في حياته ، وهو الذي جسر الناس على مصنفات ابن مالك رحمه الله تعالى ، ورغبهم فيها وفي قراءتها ، وشرح لهم غامضها ، وخاض بهم لحجها ، وفتح لهم مقلها ، وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب : هذه نحو الفقهاء ، وكان التزم أن لا يُقرىء أحداً إلا إن كان في كتاب سيبويه أو في التسهيل لابن مالك أو في تصانيفه ، ولما قدم من بلاده لازم الشيخ بهاء الدين رحمه الله تعالى كثيراً ، وأخذ عنه كتب الأدب . وكان شيخاً حسن العمة ، مليح الوجه ، ظاهر اللون ، مُشرباً حمرة ، منور الشيبة ، كبير اللحية ، مستمرل الشعر فيها لم تكن كثة ، عبارته فصيحة بلغة الأندلس يعقد حرف القاف قريباً من الكاف ، على أنه لا ينطق بها في القرآن إلا فصيحة ، وسمعته يقول : ما في هذه البلاد من يعقد حرف القاف . وكانت له خصوصية بالأمر سيف الدين أرغون كافل الممالك ، ينسبط معه ، ويبيت عنده في قلعة الجبل ، ولما توفيت ابنته نُصار طلع إلى السلطان الملك الناصر محمد ، وسأل منه أن يدفنها في بيته داخل القاهرة في البرقية ، فأذن له في ذلك ، وكان أولاً يرى رأي الظاهرية ، ثم إنه تذهب للشافعي رضي الله تعالى عنه ؛ بحث على الشيخ علم الدين العراقي « المحرر » للرافعي ، و« مختصر المنهاج »

للنووي ، وحفظ « المنهاج » إلا سيراً ، وقرأ أصول الفقه على أستاذه أبي جعفر ابن الزبير ، بحث عليه من « الإشارة » للباجي ، ومن « المستصفي » للغزالي ، وعلى الخطيب أبي الحسن ابن فضيلة ، وعلى الشيخ علم الدين العراقي ، وعلى الشيخ شمس الدين الأصبهاني ، وعلى الشيخ علاء الدين الباجي ، وقرأ أشياء من أصول الدين على شيخه ابن الزبير ، وقرأ عليه شيئاً من المنطق ، وقرأ أشياء من المنطق على بدر الدين محمد بن سلطان البغدادي ، وقرأ عليه شيئاً من « الإرشاد » للعميدي في الخلاف ، ولكته برع في النحو ، وانتهت إليه الرئاسة والمشيخة فيه ، وكان خالياً من الفلسفة والاعتزال والتجسيم ، وكان أولاً يعتقد في الشيخ تقي الدين ابن تيمية وامتدحه بقصيدة ، ثم إنّه انحرف عنه لما وقف على كتاب « العرش » له ، قال الفاضل كمال الدين الأدفوي : وجرى على مذهب كثير من النحويين في تعصبه للإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه التعصب المتين ، قال : حكى لي أنّه قال لقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة : إن علياً رضي الله تعالى عنه عهد إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يجتدك إلا مؤمناً ولا يبغضك إلا منافقاً ، أترأه ما صدق في هذا ؟ فقال : صدق ، قال فقلت له : فالذين سلكوا السيوف في وجهه يبغضونه أو يحبونه أو غير ذلك ؟ قال : وكان سيء الظن بالناس كافة ، فإذا نُقل له عن أحد خبير لا يتكيف به وينثني عنه حتى عمّن هو عنده مجروح ، فيقع في ذم من هو بالسنة العالم ممدوح ، وبسبب ذلك وقع في نفس جمع كبير منه ألم كثير ؛ انتهى .

قلت : أنا لم أسمع منه في حق أحد من الأحياء والأموات إلا خيراً ، وما كنت أنقم عليه شيئاً إلا ما كان يبلغني عنه من الخط على الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، على أنّي أنا ما سمعت في حقه شيئاً ، نعم كان لا يثق بهؤلاء الذين يدعون الصلاح حتى قلت له يوماً : يا سيدي ، فكيف تعمل في الشيخ أبي مدّين ؟ فقال : هو رجل مسلم ديناً ، وإلا ما كان يطير في الهواء ، ولا يصلي الصلوات الخمس في مكة كما يدعي فيه هؤلاء الأعمار .

وكان فيه - رحمه الله تعالى - خشوع ، يبكي إذا سمع القرآن ، ويجري دمه  
عند سماع الأشعار الغزلية . وقال كمال الدين المذكور : قال لي : إذا قرأتُ  
أشعار العشق أميل إليها ، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلني ، وغيرهما ، إلا  
أشعار الكرم ما تؤثر فيّ ، انتهى .

قلت : كان يفتخر بالبخل ، كما يفتخر غيره بالكرم ، وكان يقول لي :  
أوصيك احفظ دراهمك ويقال عنك بخيل ، ولا تحتج إلى السفلى .

وأنشدني من لفظه لنفسه :

رجاؤك فلساً قد غدا في حباتي قنيصاً رجاءً للنَّتاج من العقم  
أتعبُ في تحصيله وأضيعه إذن كنتُ معترضاً من البرء بالسُّقم

قلت : والذي أراه فيه أنه طال عمره ، وتغرب ، وورد البلاد ولا شيء  
معه ، وتعب حتى حصل المناصب تعباً كثيراً ، وكان قد جرب الناس ، وحلب  
أشطرَ الدهر ومرت به حوادث ، فاستعمل الحزم ، وسمعتة غير مرة يقول :  
يكفي الفقير في مصر أربعة أفلس : يشتري له بائنة بفلسين ، وبفلس زبيباً ، وبفلس  
كوز ماء ، ويشترى ثاني يوم ليموناً بفلس يأكل به الخبز ، وكان يعيب على  
مشتري الكتب ويقول : الله يرزقك عقلاً تعيش به ، أنا أي كتاب أردته استعرتة  
من خزائن الأوقاف ، وإذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم ما أجد ذلك ،  
وأنشدني له إجازة :

إنَّ الدراهمَ والنساءَ كلاهما لا تأمننَّ عليهما إنسانا  
يتزعن ذا اللبِّ المتينِ عن التُّقى فترى إساءةَ فعلِهِ إحسانا

وأنشدني له من أبيات :

أتى بشفيح ليس يمكن ردهُ دراهمُ بيضٌ للجروح مراهمُ  
تُصَيِّرُ صعبَ الأمرِ أهونَ ما يُرى وتقضي لباتاتِ الفتي وهو نائمُ

ومن حزمه قوله :

عُدَّاتي لهم فضل - البيتين

وقد مدحه كثير من الشعراء ، والكبار الفضلاء ، فمنهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله :

قد قلتُ لما أنُ سمعتُ مباحثاً في الذاتِ قرَّرها أجلُّ مفيدِ  
هذا أبو حيَّان قلتُ صدقتمُ وبررتُمُ هنا هو التوحيدِ

وكان قد جاء يوماً إلى بيت الشيخ صدر الدين ابن الوكيل فلم يجده ، فكتب بالخص على مصراع الباب ، فلما رأى ابن الوكيل ذلك قال :

قالوا أبو حيَّانَ غيرَ مُدافعٍ ملكُ النحاةِ فقلتُ بالإجماعِ  
اسم الملوکِ على النقودِ وإنتي شاهدتُ كنيته على المصراعِ

ومدحه شرف الدين ابن الوحيد بقصيدة مطولة أولها :

إليكَ أبا حيَّانَ أعَمَلتُ أينُقي وملتُ إلى حيثُ الركائبُ تلتقي  
دعاني إليك الفضلُ فانقَدتُ طائِعاً ولبيتُ أحدوها بلفظي المصدقِ

ومدحه نجم الدين إسحق بن ألمي التركي ، وسأله تكملة شرح التسهيل بقصيدة ، وأرسلها إليه من دمشق ، وأولها :

تبدى فقلنا وجهه فلقَّ الصُبْحِ وكمَّله باليُمْنِ فيه وبالشُجْحِ  
وسهلتُ تسهيلَ الفوائدِ مُحسِناً فكنْ شارحاً صدرِي بتكملةِ الشرحِ

ومدحه مجير الدين عمر بن الملطي بقصيدة أولها :

يا شيخَ أهلِ الأدبِ الباهرِ من ناظمِ يُلْفَى ومن ناثرِ



ومدحه نجم الدين يحيى الإسكندري بقصيدة أولها :

ضَيْفُ أَلَمٍ بِنَا مِنْ أُبْرَعِ النَّاسِ لَا نَاقِضُ عَهْدِ أَيْامِي وَلَا نَاسِي  
عَارٍ مِنَ الْكِبَرِ وَالْأُدْناسِ ذُو شَرَفٍ لَكِنَّهُ مِنْ سَرَابِيلِ الْعُلَا كَاسِي

ومدحه نجم الدين الطوفي بقصيدتين أول الأولى :

أُتْرَاهُ بَعْدَ هِجْرَانٍ يَصِلُ وَيُرى فِي ثُوبٍ وَصَلٍ مَبْتَدِلُ  
قَمَرٌ جَارٍ عَلَى أَحْلَامِنَا إِذْ تَوَلَّاهَا بِقَدِّ مَعْتَدِلُ

وأول الثانية :

اعذروهُ فِكْرِيْمٌ مِنْ عَدَرَ قَمَرَتُهُ ذَاتُ وَجْهِ كَالْقَمَرُ

ومدحه بهاء الدين محمد بن شهاب الدين الخيمي بقصيدة أولها<sup>١</sup> :

فَضِضْتُ عَنِ الْعَذْبِ النَّمِيرِ خَتَامَهَا وَفَتَّحْتُ عَنِ زَهْرِ الرِّياضِ كِمَامَهَا

ومدحه جماعة آخرون يطول ذكرهم ، وكتبت أنا إليه من الرحبة سنة ٧٢٩ :

لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ مِنْ دَهْرِي جَنَاحِيْنِ لَطَرْتُ لَكِنَّهُ فَيْكُم جَنِي حَيْتِي  
يَا سَادَةَ نَلْتُ فِي مَصْرِ بِهَمِّ شَرَفًا أَرْقِي بِهِ شَرَفًا يَنَائِي عَنِ الْعَيْنِ  
وَإِنْ جَرَى لَسَمَا كِيوَانَ ذَكَرُ عَلَا أَحَلَّتِي فَضْلُهُمْ فَوْقَ السَّمَاكِيْنِ  
وَلَيْسَ غَيْرُ أَثِيرِ الدِّينِ أَثْلُهُ فَشَادَ مَا شَادَ لِي حَقًّا بِلَا مِيْنِ  
حَبْرٌ وَلَوْ قُلْتُ إِنَّ الْبَاءَ رَتَّبْتُهَا مِنْ قَبْلِ صَدَقِكَ الْأَقْوَامِ فِي ذِيْنِ

١ وقع بعد هذا قوله في المطبوعة التجارية :

إن الأثير أبا حيان أحيانا بنشره طي علم مات أحيانا

ومدحه القاضي ناصر الدين شافع بقصيدة أولها :

فضضت عن العذب . . . . . ( البيت )

ولم يرد هذا في ق أو دوزي .

أحيا علوماً أَمَاتَ الدَّهْرُ أَكْثَرَهَا      مَدَّ جُلْدَتِ خُلْدَتِ مَا بَيْنَ دَفَيْنِ  
يَا وَاحِدَ الْعَصْرِ مَا قَوْلِي بِمُتَّهَمٍ      وَلَا أَحَاشِي أَمْرًا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ  
هَذَا الْعِلْمُ بَدَّتْ مِنْ سَبْيِهِ كَمَا      قَالُوا وَفِيكَ انْتَهَتْ يَا ثَانِي اثْنَيْنِ  
قَدُمُ لَهَا وَبُودَيَّ لَوْ أَكُونُ فِدَى      لَمَا يَسْأَلُكَ فِي الْأَيَّامِ مِنْ شَيْنِ  
يَا سَبْيِهِ الْوَرَى فِي الدَّهْرِ لَا عَجَبٌ      إِذَا الْخَلِيلُ غَدَا يَفْدِيكَ بِالْعَيْنِ

يقبل الأرض وينهي ما هو عليه من الأشواق التي برحت بألمها ، وأجرت  
الدموع دماً ، وهذا الطرس الأحمر يشهد بدمها . وأريت بسحها على السحاب  
وَأَيْنَ دَوَامٌ هَذِهِ مِنْ دَيْمِهَا . وَفَرَقْتَ الْأَوْصَالَ عَلَى السَّقَمِ لَوْجُودِ عَدَمِهَا :

فِي شَوْقٍ مَا أَبْقَى ، وَيَا لِي مِنَ النَّوَى      وَيَا دَمْعُ مَا أَجْرَى ، وَيَا قَلْبُ مَا أَصْبَى  
ويذكر ولاءه الذي تسجع به في الأرض الحمايم ، ويسير تحت لوائه مسير  
الرياح بين الغمام ، وثنائه الذي يتضوع كالزهر بين الكمام ، ويتنسم تنسم  
هَامَاتِ الرَّبِيِّ إِذَا لَبَسْتَ مِنَ الرَّبِيعِ مَلَوَّنَاتِ الْعِمَامِ ، وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا قَدْ قَلْتَهُ وَاللَّهُ  
سَبْحَانَهُ نَعْمَ الشَّهِيدُ .

فكُتِبَ هُوَ الْجَوَابُ عَنِ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ عَدَمٌ مِنِّي .

وَأَنْشَدْتَهُ يَوْمًا لِنَفْسِي :

قَلْتُ لِلْكَاتِبِ الَّذِي مَا أَرَاهُ      قَطُّ إِلَّا وَنَقَطَ الدَّمْعُ شَكْلَهُ  
إِنْ نَحَطَّ الدَّمْعُ فِي الْخَلْدِ شَيْئًا      مَا يَسْمَى ؟ فَقَالَ خَطُّ ابْنِ مُقْلَةٍ  
وَأَنْشَدْنِي هُوَ مِنْ لَفْظِهِ لِنَفْسِهِ :

سَبَقَ الدَّمْعُ بِالْمَسِيرِ الْمَطَايَا      إِذْ نَوَى مِنْ أَحَبِّ عَنِّي نُقْلَهُ  
وَأَجَادَ الْخَطُوطَ فِي صَفْحَةِ الْخَا      دَوْلِيمَ لَا يُجِيدُ وَهُوَ ابْنُ مُقْلَةٍ

وَأَنْشَدْنِي فِي مَلِيحِ نَوْتِي :

كَلَفْتُ بِنَوْتِي كَأَنَّ قَوَامَهُ      إِذَا يَنْثِي خُوطُومًا مِنَ الْبَانِ نَاعِمٌ

مَجَازِفُهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ مَجَازِبٌ وَهَزَّاتُهُ لِلْعَاشِقِينَ هَزَائِمٌ  
وَأُنشِدْتَهُ أَنَا لِنَفْسِي :

إِنَّ نَوْتِي مَرْكَبٌ نَحْنُ فِيهِ هَامٌ فِيهِ صَبُّ الْفؤَادِ جَرِيحُهُ  
أَقْلَعَ الْقَلْبُ عَنْ سَلْوِيٍّ لَمَّا أَنْ بَدَأَ تُغْرُهُ وَقَدْ طَابَ رِيحُهُ  
وَأُنشِدْتَهُ لِنَفْسِي أَيْضاً :

نَوْتِيْنَا حُسْنُهُ بَدِيعٌ وَفِيهِ بَدْرُ السَّمَاءِ مُغْرَى  
مَا حَكَ بَرًّا إِلَّا وَقَلْنَا يَا لَيْتَ أَنَا نَحْكَ بَرًّا  
فَأَعْجَبَاهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَزَهْرَهُ لَهَا .

وَأُنشِدُنِي هُوَ لِنَفْسِهِ فِي مَلِيحِ أَحْدَبِ :

تَعَشَّقْتُهُ أَحْدَبًا كَيْسًا يَحَاكِي نَحِيًّا حِينَ النَّعَامِ  
إِذَا كَدْتُ أَسْقَطُ مِنْ فَوْقِهِ تَعَلَّقْتُ مِنْ ظَهْرِهِ بِالسَّنَامِ  
فَأُنشِدْتَهُ لِنَفْسِي :

وَأَحْدَبٌ رَحْتُ بِهِ مَغْرَمًا إِذْ لَمْ تُشَاهِدْهُ مِثْلَهُ عَيْنِي  
لَا غَرَوَّ أَنْ هَامَ فؤَادِي بِهِ وَخَصَّرُهُ مَا بَيْنَ دَفِينِ  
وَأُنشِدُنِي مِنْ لَفْظِهِ لِنَفْسِهِ فِي أَعْمَى :

مَا ضَرَّ حُسْنَ الَّذِي أَهْوَاهُ أَنْ سَنَا كَرِيمِيهِ بِلَا شَيْنٍ قَدْ احْتَجَبَا  
قَدْ كَانَتَا زَهْرَتِي رَوْضٍ وَقَدْ ذَوَّتَا لَكِنَّ حَسْنَهُمَا الْفَتَانَ مَا ذَهَبَا  
كَالسَيْفِ قَدْ زَالَ عَنْهُ صَقْلُهُ فَعَدَا أَنْكَى وَالْمَ فِي قَلْبِ الَّذِي ضَرَبَا  
وَأُنشِدْتَهُ لِنَفْسِي فِي ذَلِكَ :

وربّ أعمى وجهه روضةً تنزّهي فيها كثيرُ الديون  
وخذّه وردٌ غنياً به عن نرجسٍ ما فتحته العيون

وأشدته أيضاً لنفسي في ذلك :

فيا حُسنَ أعمى لم يخفْ حدّ طرفه محبٌ غداً سكرانَ فيه وما صحّا  
إذا صادَ خيلٌ باتَ يرعى حدوده غداً آمناً من مقلّتيه الجوارحا

وكتبت إليه استدعاءً ، وهو : المسؤول من إحسان سيدنا الإمام العالم العلامة ،  
لسان العرب ، ترجمان الأدب ، جامع الفضائل ، عمدة وسائل السائل ، حجة  
المقلّدين ، زين المقلّدين ، قطب المؤملين ، أفضل الآخرين ، وارث علوم  
الأولين ، صاحب اليد الطولى في كل مكان ضيق ، والتصانيف التي تأخذ بمجامع  
القلب فكل ذي لبٍ إليها شيق ، والمباحث التي أثارَت الأدلة الراجحة من  
مكامن أماكنها ، وقنصت أوابدها الجاحمة من مواطىء مواطنها ، كشّاف معضلات  
الأوائل ، سبّاق غايات قصر عن شأوها سبحان وائل ، فارع هضبات البلاغة  
في اجتلاء اجتلابها وهي في مرقى مرقدها ، سالب تيجان الفصاحة في اقتضاء  
اقتضابها من فوق فرقدها ، حتى أبرز كلامه جناناً فكلُّ جنانٍ من بعده  
عن الدخول إليها جبان ، وأتى ببراہين وجوه حورها لم يطمئنهن إنس قبله  
ولا جان ، وأبدع خمائل نظم ونثر لا تصل إلى أفنان فنونها يدُ جان ، أثير الدين  
أبي حيان ، لا زال ميت العلم يُحييه ، وهل عجيب ذلك من أبي حيان :

حتى ينال بنو العلوم مرامهم ويحلّهم دارَ المنى بأمان

إجازةُ كاتبِ هذه الأحرف ما رواه — فسبح الله تعالى في مدته — من المسانيد  
والمصنفات والسنن والمجاميع الحديثية ، والتصانيف الأدبية ، نظماً ونثراً ، إلى  
غير ذلك من أصناف العلوم على اختلاف أوضاعها ، وتباين أجناسها وأنواعها ،  
مما تلقاه ببلاد الأندلس وإفريقية والإسكندرية والديار المصرية والبلاد الحجازية

وغيرها من البلدان ، بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة خاصة أو عامة ، كيفما تأدى ذلك إليه ، وإجازة ما له — أدام الله إفادته — من التصانيف في تفسير القرآن العظيم والعلوم الحديثية والأدبية وغيرها ، وما له من نظم ونثر إجازة خاصة ، وأن يثبت بخطه تصانيفه إلى حين هذا التاريخ ، وأن يجزئه إجازة عامة لما يتجدد له من بعد ذلك على رأي من يراه ويجوزّه ، منعماً متفضلاً إن شاء الله تعالى .

فكتب الجواب رحمه الله تعالى : أعزك الله ، ظننت بإنسان جميلاً فعاليت ، وأبديت من الإحسان جزيلاً وما باليت ، وصفت من هو القتام يظنه الناس سماء ، والسراب يحسبه الظمان ماء ، يا ابن الكرام وأنت أبصر من بشيم ، أمع الروض النضير يرعى الهشيم ، أما أغنتك فضائلك ، وفواضلك ، ومعارفك ، وعوارفك ، عن نغبة من دأماء ، وتربة من يهماء ، لقد تبلجت المهارق من نور صفحاتك ، وتأرجت الأكوان من أريج نيفحاتك ، ولأنت أعرف من يُقصد للدراية ، وأنقد من يعتمد عليه في الرواية ، لكنك أردت أن تكسو من مطارفك ، وتفضل من تالدك وطارفك ، وتجلو الخامل في منصة النباهة ، وتقدّه من لكن الفهامة ، فتشيد له ذكراً ، وتعلي له قدراً ، ولم يمكنه إلا إسعافك فيما طلبت ، وإجابتك فيما إليه نذبت ، فإن المالك لا يُعصى ، والمتفضل المحسن لا يقصى ، وقد أجزت لك — أيدك الله تعالى — جميع ما رويته عن أشياخي بجزيرة الأندلس وبلاد إفريقية وديار مصر والحجاز وغير ذلك ، بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة بمشافهة وكتابة ووجازة ، وجميع ما أجزيت لي أن أرويه بالشام والعراق وغير ذلك ، وجميع ما صنفته واختصرته وجمعته وأنشأته نظماً ونثراً ، وجميع ما سألت في هذا الاستدعاء : فمن مروياتي الكتاب العزيز قرأته بقراءة السبعة على جماعة من أعلامهم الشيخ المسند المعمار فخر الدين أبو الطاهر إسماعيل بن هبة الله بن علي بن هبة الله المصري ابن المديحي ، آخر من روى القرآن بالتلاوة على أبي الجود ، والكتب الستة والموطأ ومسنند عبّيد بن حمّيد ومسنند الدارمي ومسنند الشافعي ومسنند الطيالسي والمعجم الكبير للطبراني والمعجم الصغير

له وسنن الدارقطني وغير ذلك .

وأما الأجزاء فكثيرة جداً ، ومن كتب النحو والآداب فأروي بالقراءة كتاب سيبويه ، والإيضاح ، والتكملة ، والمفصل ، وجمل الزجاجي ، وغير ذلك ، والأشعار الستة والحماسة وديوان حبيب والمنتبي والمعري ، وأما شيوخي الذين رويت عنهم بالسماع أو القراءة فهم كثير ، وأذكر الآن منهم جماعة : فمنهم القاضي أبو علي الحسن بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي ، والمقرئ أبو جعفر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشير الأنصاري ، وإسحاق بن عبد الرحيم ابن محمد بن عبد الملك بن درباس ، وأبو بكر ابن عباس بن يحيى بن غريب القنواس البغدادي ، وصفي الدين الحسين بن أبي منصور بن ظافر الخزرجي ، وأبو الحسين محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري ، ووجيه الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الأزدي بن الدهان ، وقطب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن القسطلاني ، ورضي الدين محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الشاطبي اللغوي ، ونجيب الدين محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الهمداني ، ومكي بن محمد بن أبي القاسم ابن حامد الأصبهاني الصفار ، ومحمد ابن عمر بن محمد بن علي السعدي الضرير ابن الفارض ، وزين الدين أبو بكر محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن الأنماطي ، ومحمد بن إبراهيم بن ترجم بن حازم المازني ، ومحمد بن الحسين بن الحسن بن إبراهيم الداري ابن الخليلي ، ومحمد ابن عبد المنعم بن محمد بن يوسف الأنصاري ابن الخيمي ، ومحمد بن عبد الله ابن محمد بن عمر العنسي عرف بابن النُّنَّ ، وعبد الله بن محمد بن هارون بن عبد العزيز الطائي القرطبي ، وعبد الله بن نصر الله بن أحمد بن رسلان بن فتيان ابن كامل الخزمي ، وعبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن فارس التميمي ، وعبد الرحمن بن يوسف بن يحيى بن يوسف ابن خطيب المزنة ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلي المصري السكري ، وعبد العزيز بن عبد المنعم بن علي ابن نصر بن الصيقل الحرفاني ، وعبد العزيز بن عبد القادر بن إسماعيل الفيالي

الصالح الكتّاني ، وعبد المعطي بن عبد الكريم بن أبي المكارم ابن مسنّجى الخزرجي ، وعلي بن صالح بن أبي علي ابن يحيى بن إسماعيل الحسيني البهنسي المجاور ، وغازي بن أبي الفضل ابن عبد الوهاب الخلاوي ، والفضل بن علي بن نصر بن عبد الله بن الحسين بن رواحة الخزرجي ، ويوسف بن إسحاق بن أبي بكر الطبري المكي ، واليسر بن عبد الله بن محمد بن خلف بن اليسر القشيري ، ومؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر ابن أيوب بن شادي . وشامية بنت الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد التيمية ، وزينب بنت عبد اللطيف بن يوسف ابن محمد بن علي البغدادي .

وممن كتبت عنه من مشاهير الأدباء أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن علي بن الفرج المالقي ابن المرحل ، وأبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأنصاري القرطاجني ، وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن يحيى بن عبد الله الهذلي التطيلي ، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن ذنون المالقي . وأبو عبد الله محمد بن عمر بن جبير الجلياني العكي المالقي . وأبو الحسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى الأنصاري الجزار ، وأبو عمرو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن تُوْلُو القرشي ، وأبو حفص عمر بن محمد بن أبي علي الحسن المصري الوراق . وأبو الربيع سليمان ابن علي بن عبد الله بن ياسين الكومي التلمساني . وأبو العباس أحمد بن أبي الفتح نصر الله بن باتكين القاهري ، وأبو عبد الله محمد بن سعيد بن حمّاد بن محسن الصنهاجي البوصيري . وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم الغزالي . وممن أخذت عنه من النحاة أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحشني الأبيدي ، وأبو الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي ابن الضائع . وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن الزبير الثقفي . وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفهري اللبلي ، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن نصر الحلبي ابن النحاس .

وممن لقيته من الظاهرية أبو العباس أحمد بن علي بن خالص الأنصاري

الإشيلي الزاهد ، وأبو الفضل محمد بن محمد بن سعلون الفهري الشنتمري .  
وجملة الذين سمعت منهم نحو من أربعمئة شخص وخمسين . وأما الذين  
أجازوني فعالم كثير جداً من أهل غرناطة ومالقة وسبته وديار إفريقية وديار  
مصر والحجاز والعراق والشام ، وأما ما صنفته فمن ذلك « البحر المحيط » في  
تفسير القرآن العظيم . « إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب » . كتاب  
« الأسفار الملخص من كتاب الصقار » شرحاً لكتاب سيويه . كتاب « التجريد  
لأحكام سيويه » . كتاب « التذليل والتكميل في شرح التسهيل » . كتاب « التنخيل  
الملخص من شرح التسهيل » . كتاب « التذكرة » . كتاب « المبدع » في التصريف .  
كتاب « الموفور » . كتاب « التقريب » . كتاب « التدریب » . كتاب « غاية الإحسان » .  
كتاب « النكت الحسان » . كتاب « الشذا في مسألة كذا » . كتاب « الفضل  
في أحكام الفصل » . كتاب « اللحة » . كتاب « الشذرة » . كتاب « الارتضاء  
في الفرق بين الضاد والطاء » . كتاب « عقد اللآلي » . كتاب « نكت الأمالي » .  
كتاب « النافع في قراءة نافع » . « الأثير في قراءة ابن كثير » . « المورِد  
الغمَر في قراءة أبي عمرو » . « الروض الباسم في قراءة عاصم » . « المزن  
المامر في قراءة ابن عامر » . « الرمزة في قراءة حمزة » . « تقريب النائي  
في قراءة الكسائي » . « غاية المطلوب في قراءة يعقوب » . قصيدة « النير الجلي  
في قراءة زيد بن علي » . « الوهاج في اختصار المنهاج » . « الأنور الأجلی  
في اختصار المحلى » . « الحلال الحالية في أسانيد القرآن العالية » . كتاب  
« الإعلام بأركان الإسلام » . « نثر الزهر ونظم الزهر » . « قطر الحبي  
في جواب أسئلة الذهبي » . « فهرست مسموعاتي » . « نوافث السحر في  
دمائث الشعر » . « تحفة الندس في نحاة الأندلس » . « الأبيات الوافية في  
علم القافية » . « جزء في الحديث » . « مشيخة ابن أبي المنصور » . كتاب  
« الإدراك للسان الأتراك » . « زهو الملك في نحو الترك » . « نفحة المسك  
في سيرة الترك » . كتاب « الأفعال في لسان الترك » . « منطق الخرس في



لسان الفرس . ومما لم يكمل تصنيفه : كتاب « مسلك الرشد في تجريد مسائل نهاية ابن رشد » . كتاب « منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك » . « نهاية الإغراب في علمي التصريف والإعراب » . رجز « مجاني المصرفي آداب وتواريخ لأهل العصر » . « خلاصة التبيان في علمي البديع والبيان » . رجز « نور الغبش في لسان الحبش » . « المخبور في لسان اليعمور » قاله وكتبه أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان .

وأنشدني الشيخ أثير الدين من لفظه لنفسه في صفات الحروف :

أنا هاوٍ لمستطيلٍ أغنَى  
كلّما اشتد صارتِ النفسُ رخوه  
أهمسُ القولَ وهو يجهرُ سبّي  
وإذا ما انخفضتُ أظهرُ علوه  
فتح الوصلَ ثمّ أطبق هجرًا  
بصفيّرٍ والقلبُ قلقلَ شجوه  
لان دهرًا ثمّ اغتدى ذا انحرافٍ  
وفشا السرُّ مذ تكررت نحوه

وأنشدني أيضاً لنفسه :

يقولُ ليَ العذولُ ولم أطيَعهُ  
تخيّلَ أنها شانتُ حبيبي  
تسلّ فقد بدا للحبِّ حيةٌ  
وعندي أنها زينٌ وحليه

وأنشدني لنفسه أيضاً :

شوقي لذاك المحبّ الزاهر الزاهي  
أسهرتُ طرفي وولّتهُ الفؤادَ هوّى  
شوقٌ شديدٌ وجسمي الواهنُ الواهي  
فالطرفُ والقلبُ مني الساهرُ الساهي  
نبتَ قلبي وتنهى أن أبوح بما  
يلقاهُ واشوقهُ للناهبِ الناهي  
بهرتُ كلَّ ملبحٍ بالبهاءِ فما  
في النيرين شبيهُ الباهرِ الباهي  
لَهَجَتَ بالحبِّ لما أن لهوتَ به  
عن كلِّ شيءٍ فويح اللّاهجِ اللّاهي

وأنشدني من لفظه لنفسه :

يا حُسْنَهُ من عارضٍ راضٍ  
والأصلُ لا يعتدُّ بالعارضِ

على وجنتيه باسمينُ على وردٍ  
أمنتُ عليه من رقيبٍ ومن صدِّ  
لسودِ اللحي ناسٍ وناسٍ إلى المرءِ  
صبوتُ إلى هيفاءِ مائسةِ القدِّ  
فأحببتُ أن أبقى بأبيضهم وحدي

أظنُّ بها هاروتَ أصبحَ نافثاً  
وكنَّ على دينِ التصابي بواعثاً  
وأسرعنَ للبلوى بمن كان رائثاً  
وإن كان ما بين الجوانحِ لابثاً  
وللبدرِ والشمسِ المنيرةِ ثالثاً

ولينُ لذاك الجسمِ في اللمسِ أم خنزُ  
له أبدأً في قلبِ عاشقه هزُ  
فصار عليها من محاسنها طرزُ  
فماسَ كأنَّ الغصنَ خامره العزُ  
ويخضِرُّ من آثارِ تروبتِها الجرُّ  
فيُنهضها قدَّ ويَقعدُها عجزُ  
فلا رقيةً تجدي المصابَ ولا حرزُ

راضٍ حبيبي عارضٌ قد بدا  
وظنَّ قومٌ أنَّ قلبي سلا

وأنشدني من لفظه لنفسه :

تعشقتُهُ شيخاً كأنَّ مشيبه  
أخا العقلِ يدري ما يراد من الهوى  
وقالوا الورى قسمان في شرعة الهوى  
ألا إنني لو كنتُ أصبو لأمرد  
وسود اللحي أبصرت فيهم مشاركاً

وأنشدني من لفظه لنفسه :

ألا إنَّ الحاظاً بقلبي عوايلاً  
إذا رام ذو وجدٍ سلواً منعه  
وقيدن من أضحي عن الحبِّ مطلقاً  
بروحي رشاً من آل خاقان راحل  
غدا واحداً في الحسنِ للفضلِ ثانياً

وأنشدني لنفسه ، ومن خطه نقلت :

أسحرُّ لتلك العينِ في القلبِ أم وخنزُ  
وأملودُ ذاك القدِّ أم أسمرُ غدا  
فتاةً كساها الحسنُ أفخَرَ حلة  
وأهدى إليها الغصنُ لينَ قوامه  
يضعُ أديمُ الأرضِ من نَشْرِ طيبها  
وتخالُ في بُردِ الشبابِ إذا مضت  
أصابتُ فوادِ الصبِّ منها بنظرةٍ

وأنشدني إجازةً في مליح أبرص . ومن خطه نقلت :

وقالوا الذي قد صرّت طَوَّعَ جماله      ونفسك لاقَتْ في هواهُ نِزاعها  
به وَضَحُ تَأْبَاهُ نَفْسُ أُولِي النُّهَى      وأفْطَعُ دَائِ ما يُنَانِي طباعها  
فقلتُ لهم لا عَيْبَ فيه يَشِينُهُ      ولا عِلَّةٌ فيه يرومُ دفاعها  
ولكنّها شمسُ الضحى حين قابلتُ      محاسِنَهُ أَلْقَتُ عليه شعاعها

وأنشدني من لفظه لنفسه في فحّام :

وعَلَّقْتُهُ مُسَوِّدَ عَيْنٍ ووفرةٍ      وثوبٍ يعاني صِنَعَةَ الفحْمِ عن قصدٍ  
كَأَنَّ خَطوطَ الفحْمِ في وجناتِهِ      لطاخةٌ مسكٍ في جَنِيٍّ من الوردِ

وأنشدني إجازةً . ومن خطه نقلت :

سألَ البدرُ هل تبدّى أخوهُ      قلتُ يا بدرُ لن تطيقَ طلوعا  
كيف يبدو وأنت يا بدرُ بادٍ      أوبَدْرانِ يَطلُعانِ جميعا

وأنشدني من لفظه لنفسه موشحة عارض بها شمس الدين محمد بن التلمساني :

عاذِلِي في الأَهِيفِ الأَنَسِ      لو رآهُ الآنَ قد عَدَرَآ

رَشًا تَدُّ زانهُ الحَوَرُ      غُصْنٌ من فوقهُ قَمَرُ

قَمَرٌ من سُجْبهِ الشَّعَرُ      ثَغَرٌ في فيه أم درُ

حِمالَ بَينَ الدَرِّ واللَّمَسِ      خَمَرَةٌ مَنَ ذاقها سَكرَا

رَجَّةٌ بالرَدْفِ أم كَسَلُ      رِيقَةٌ بالثَغْرِ أم عَسَلُ

وردةٌ بالحدِّ أم خَجَلُ      كَحَلٌ بالعينِ أم كُحَلُ

يا لها من أعينِ نَعْسِ      جَلَبَتِ للتَناظيرِ السَهْرَا

ما أذيقا لذّة الوَسَنِ	مذ نأى عن مقلتي سَتِي
عجبا ضِدَّانِ فِي بَدَنِ	طال ما ألقاهُ من شَجَنِ
وبعيتي الماءَ منفَجِرا	بفؤادي جَدْوَةً القبسِ
إذ دنا مني أبو الفرجِ	قد أتاني اللهُ بالفرجِ
كيف لا يخشى من الوهجِ	قمرٌ قد حلَّ في المهجِ
ظنَّه مِنْ حَرِّهِ شَرَّرا	غَيْرُهُ لو صابَهُ نَفْسِي
فانثى والقلبَ قد ملكا	نَصَبَ العَيْنينِ لي شَركا
قال لي يوماً وقد ضحكا	قَمَرٌ أضحى له فلكا
نحو مصرَ تعشِقُ القَمَرا	أتحي من أرضِ أندلسِ
	وأما موشحة ابن التلمساني فهي :
بَهَرَ الأَبصارَ مذ ظهرا	قَمَرٌ يَجَلو دُجى الغلسِ
ذبتُ من عينيه بالكلفِ	أمنٌ من شُبُهَةِ الكلفِ
بركاب الدالِّ والصلفِ	لم يَزَلِ يسمى إلى تَلَفِي
نلتُ منه الوصلَ مقتدرا	آه لولا أعينُ الحارسِ
كيف لا ترثي لمن بُلِيا	يا أميراً جارِ مذ وليا
قد حلا طعماً وقد حليا	فبثغري منك قد جُلِيا
جُدُ فَمَا أَبْقَيْتَ مُصْطَبِرا	وبما أُوتيتَ مِنْ كَيْسِ

بدرٌ تمَّ في الجمالِ سَيِّ  
قَدْ سَبَانِي لَذَّةَ الوَسَنِ  
وهو خِشْفِي وهو مُفْرَسِي  
فَارُو عن أَعْجُوبِي خَبْرَا

لَكَ خَدَّ يَا أبا الفَرَجِ  
وَحَدِيثُ عَاطِرُ الأَرَجِ  
لَوْ رَأَى العُضُنُ لَمْ يَمْسِ  
أَوْ رَأَى البَدْرُ لاسْتَمْرَا

يَا مَذِيباً مَهْجَتِي كَمَدَا  
يَا كَحِيلًا كُحْلُهُ اعْتَمَدَا  
وَيَسْقَمُ النَّاطِرِينَ كُشِّي  
جَفْنُكَ السَّحَارُ وَاكْسُرَا

وَأَنْشِدُنِي مِنْ لَفْظِهِ لِنَفْسِهِ أَيْضاً :

إِنْ كَانَ لَيْلٌ دَاجٌ وَخَانَنَا الإِصْبَاحُ  
فَنورُهَا الوَهَّاجُ يُغْنِي عَنِ المِصْبَاحِ

سُلَافَةٌ تَبَلُّو  
مِزَاجُهَا شَهْدُ  
وَجَبَّذَا الوَرْدُ  
كَالكَوْكِبِ الأَزْهَرِ  
وَعَرَفُهَا عَنَبَرُ  
مِنْهَا وَإِنْ أُسْكِرُ

قَلْبِي بِهَا قَدْ هَاجَ فَمَا تَرَانِي صَاحُ  
عَنْ ذَلِكَ المُنْهَاجِ وَعَنْ هَوَى يَ صَاحُ

وَبِي رَشَاءٌ أَهْيَفُ  
بَدْرٌ فَلَا يُخَسَفُ  
بَلَحْظِهِ المُرْهَفُ  
قَدْ لَجَّ فِي بُعْدِي  
مِنْهُ سَنَا الخَدُّ  
يَسْطُو عَلَى الأُسْدِ

كَسْطُوةِ الحِجَاجِ فِي النَّاسِ وَالسَّفَاحِ  
فَمَا تَرَى مِنْ نَاجٍ مِنْ لَحْظِهِ السَّفَاحِ

عَدَلْ بِالْمُسْكِ قَلْبَ رَشًا أَحْوَرُ  
مُنْعَمٍ الْمَسْكِ ذِي مَبْسَمٍ أَعْطَرَ  
رِيَاهُ كَالْمَسْكِ وَرَيْقُهُ كَوَثَرُ

غَضَنُ عَلَى رَجْرَاجٍ طَاعَتْ لَهُ الْأَرْوَاحُ فَحَبِذَا الْآرَاجُ إِنْ هَبَّتِ الْأَرْوَاحُ

مَهْلًا أَبَا الْقَاسِمِ عَلَى أَبِي حَيَّانٍ  
مَا إِنْ لَهُ عَاصِمٌ مِنْ لِحْظِكَ الْفَتَّانِ  
وَهَجْرُكَ الدَّائِمِ قَدْ طَالَ بِالْهِيمَانِ

فَدَمَعُهُ أَمْوَاجٌ وَسِرُّهُ قَدْ بَاحٌ لَكِنَّهُ مَا عَاجٌ وَلَا أَطَاعَ اللَّاحُ

يَا رَبَّ ذِي بُهْتَانٍ يَعْذَلُ فِي الرَّاحِ  
وَفِي هَوَى غَزْلَانٍ دَافَعْتُ بِالرَّاحِ  
وَقَاتُ لَا سُلْوَانَ عَنْ ذَاكَ يَا لَاحِ

سَبْعُ الْوُجُوهِ وَالنَّاجُ هِيَ مَنِيَّةُ الْأَفْرَاحِ فَاخْتَرْتُ لِیَازِجَّاجَ قَمِصَالِ وَزُوجِ أَقْدَاحِ

وَأَنْشَدَنِي مِنْ لَفْظِهِ لِنَفْسِهِ الْقَصِيدَةَ الدَّالِيَّةَ الَّتِي نَظَمَهَا فِي مَدْحِ النَّحْوِ وَالْحَلِيلِ  
وَسَيَّبِيوِيهِ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا إِلَى مَدِيحِ صَاحِبِ غَرْنَاتِةٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَشْيَاخِهِ ، وَأَوْلَاهَا :

هُوَ الْعِلْمُ لَا كَالْعِلْمِ شَيْءٌ تَرَاوَدَهُ لَقَدْ فَازَ بِأَغْيِهِ وَأَنْجَحَ قَاصِدَهُ

وَهِيَ قَصِيدَةٌ جَيِّدَةٌ تَزِيدُ عَلَى مِائَةِ بَيْتٍ .

وَحَكِي لِي أَنَّ الشَّيْخَ أَثِيرَ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ضَعَفَ فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ  
يَعُودُونَهُ ، وَفِيهِمْ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ دَانِيَالٍ ، فَأَنْشَدَهُمُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقَصِيدَةَ  
الْمَذْكُورَةَ ، فَلَمَّا فَرَّغَتْ قَالَ ابْنُ دَانِيَالٍ : يَا جَمَاعَةَ أُخْبِرْكُمْ أَنَّ الشَّيْخَ قَدْ عَوْنِي ،  
وَمَا بَقِيَ عَلَيْهِ بَأْسٌ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ فَضْلَةٌ ، قَوْمُوا بِاسْمِ اللَّهِ .

وأنشدني من لفظه لنفسه رحمه الله تعالى قصيدته السينية التي أولها :

أهاجك ربع حائلُ الرسمِ دارسُهُ كَوْحِي كتابٍ أضعفَ الخطَّ دارسُهُ

انتهى نص الصفدي . وما ذكره رحمه الله تعالى في موضع ولادة أبي حيان غير مخالف لما ذكره في الوافي أنه ولد بغرناطة ، إلا أن قوله « بمدينة مطخشارش » فيه نظر ، لأنه يقتضي أنها مدينة ، وليس كذلك ، وإنما هي موضع بغرناطة ، ولذا قال الرعيبي : إن مولد أبي حيان بمطخشارش من غرناطة ، ونحوه لابن جماعة ، انتهى ، وهو صريح في المراد ، وصاحب البيت أدرى على أنه يمكن أن يرد كلام الصفدي لذلك ، والله تعالى أعلم .

وذكر في الوافي أنه تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية ، والإقراء بالجامع الأحمر ، قال الصفدي : وقال لي : لم أرَ بعد ابن دقيق العيد أفصح من قراءتك ، وكان ذلك حين قرأت عليه المقامات الحريرية بمصر جماعة ، انتهى .

وما وقع في كلام كثير من أهل المغرب أن أبا حيان توفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة غير ظاهر ، لأن أهل المشرق أعرف بذلك ، إذ توفي عندهم ، وقد تقدم أنه توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فعلى كلام أهل المشرق في هذا المعول ، والله أعلم .

وكانت نضار بنت أبي حيان حجت ، وسمعت بقراءة العلكم البرزالي على بعض الشيوخ ، وحدثت بشيء من مروياتها ، وحضرت على الدياتي ، وسمعت على جماعة ، وهي بضم النون وتخفيف الضاد ، وأجازها من المغرب أبو جعفر ابن الزبير ، وحفظت مقدمة في النحو ، ولما توفيت عمل والدها فيها كتاباً سماه « النضار في المسئلة عن نضار » ، وكان والدها يثني عليها كثيراً ، وكانت تكتب وتقرأ ، قال الصفدي : قال لي والدها : إنها خرَّجت جزءاً لنفسها ولإنها تعرب جيداً ، وأظنه قال لي : إنها تنظم الشعر ، وكان يقول دائماً : ليت أخاها حيان كان مثلها ، وتوفيت رحمها الله تعالى في جمادى الآخرة سنة ٧٣٠ ،

في حياة والدها ، فوجد عليها وجداً عظيماً ولم يثبت وانقطع عند قبرها بالبرقية ،  
ولازمه سنة ، ومولدها في جمادى الآخرة سنة ٧٠٢ ، قال الصفدي : وكنت  
بالرحبة لما توفيت ، فكتبت لوالدها بقصيدة أولها :

بكينا باللُّجين على نُضارٍ فسيلُ الدمع في الخدين جاري  
فيسا لله جاريةٌ تولتُ فنيكها بأدمعنا الجواري

وقال الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعيني الأندلسي في برناجه ،  
عند ذكره شيخه أبا حيان زيادةً على ما قدمناه ، ما ملخصه : إن أبا حيان قال :  
سمعت بغرناطة ومالقة وبلش والمرية وبجاية وتونس والإسكندرية ومصر والقاهرة  
ودمياط والمحلة وطهرمس والحيزة ومنية بني خصيب ودشنا وقنا وقوص وبلبيس  
وبعيزاب من بلاد السودان وبينبع ومكة شرفها الله تعالى وجدة وأيلة ، ثم فصل  
من لقيه في كل بلد إلى أن قال : وبمكة أبا اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن  
الحسن بن عبد الله بن عساكر ، إلى أن قال : فهذه نبذة من شيوخي ، وجملة من  
سمعت منه خمسمائة ، والمجيزون أكثر من ألف ، وعدّ من كتب القراءات  
التي أخذ تسعة عشر كتاباً ، وقال في حق ابن المليحي : إنه أعلى شيوخي في  
القراءات وإن آخر من روى عنه السبع أبو الجود غياث بن فارس المنذري اللخمي  
ولإجازته منه سنة ٦٠٤ ، قال : وقرأت البخاري على جماعة أقدمهم إسناداً فيه  
أبو العز الحرافي قرأته عليه بلفظي إلا بعض كتاب التفسير من قوله تعالى  
﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾  
في سورة النور ، فسمعته بقراءة غيري ، قال : أنبأنا به أبو المعالي أحمد بن يحيى  
ابن عبيد الله الخازن البيه سماعاً عليه سنة ستمائة ببغداد ، أنبأنا أبو الوقت بسنده ،  
وكمل له رحمه الله تعالى جامع الترمذي بين قراءة وسماع على ابن الزبير بغرناطة ،  
وسمعه على محمد بن ترمذ ، أنبأنا ابن البناء أنبأنا الكروخي بسنده ، وقرأ السنن  
لأبي داود بغرناطة على أبي زيد عبد الرحمن الربعي ، عُرِف بالتونسي ، أنبأنا



به سهل بن مالك ، وقرأه بالقاهرة على أبي الفضل عبد الرحيم ابن خطيب المزنة  
عن أبي حفص ابن طبرزد عن أبي بدر الكروخي ومفلح الرومي عن أبي بكر ابن  
ثابت الخطيب أنبأنا أبو عمر الهاشمي أنبأنا اللؤلؤي أنبأنا أبو داود ، وقرأ الموطن  
على أبي حفص ابن الطباع عن أبي القاسم ابن بقي عن ابن عبد الحق عن ابن الطلاع  
بسنده ، وهذا أعلى سند يوجد عن يونس بن مغيث في عصره . وسمع أبو حيان  
الأجزاء الخلعيات والغيلانيات والقطيعيات والنهروانيات والمحاملات والثقفيات  
وسداسيات الرازي بعلو ، قرأها على صفى الدين عبد الوهاب بن الفرات عن  
أبي الطاهر إسماعيل بن ياسين الجيلي ، وهو آخر من حدث عنه ، عن أبي عبد الله  
الرازي سماعاً ، وقرأ جزء الأنصاري على أبي بكر ابن الأنماطي بسماعه حضوراً في  
الرابعة على أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي ، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي  
اليزار سنة ٥٣٢ ، أنبأنا إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي قراءة عليه في رجب  
سنة ٤٤٥ ، أنبأنا عبد الله بن إبراهيم بن ماس ، أنبأنا أبو مسلم الكشي البصري ،  
أنبأنا محمد بن عبد الله الأنصاري ؛ وقرأ جميع كتاب سيويه على البهاء ابن النحاس  
المشهور بالنحو في مصر والشام ، بقراءته على علم الدين أبي محمد القاسم بن أحمد  
ابن الموفق ، بقراءته على التاج أبي اليمن الكندي ، أنبأنا أبو محمد عبد الله بن علي  
ابن أحمد البغدادي مؤلف كتاب « المبهج » ، أنبأنا أبو الكرم المبارك بن فاخر بن  
محمد بن يعقوب عُرْف بابن الدبّاس ، أنبأنا أبو القاسم عيد الواحد بن علي بن  
عمر بن برهان الأسدي ، أنبأنا [أبو] القاسم علي بن عبيد الله الرقيق ، أنبأنا علي بن  
عيسى بن عبد الله الرماني ، أنبأنا أبو بكر ابن السراج ، أنبأنا أبو العباس المبرد ،  
أنبأنا أبو عمر الحرمي وأبو عثمان المازني ، قالا : أنبأنا أبو الحسن الأخفش ،  
أنبأنا سيويه ، قال الشيخ أبو حيان : ولا أعلم راوياً له بمصر والشام والعراق  
واليمن والمشرق غيري ، ورويته عن الأساتيد أبي علي ابن الضائع وابن أبي  
الأحوص وأبي جعفر اللبلي عن أبي علي الشلوين ، وسنده مشهور بالمغرب .  
ووقع لأبي حيان تساعيات كثيرة ، وأغرب ما وقع له ثلاثة أحاديث بينه وبين

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيها ثمانية ، أخبره المحدث نجيب محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الحمداني بقراءته عليه والخليلة السلطانية مؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر ابن أيوب بن شادي قراءةً عليها وهو يسمع ، قال : أنبأنا أبو الفخر أسعد بن سعيد بن روح في كتابه ، أخبرتنا فاطمة بنت عبد الله بن أحمد الجوزدانية ، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن ريدة الضبي الأصبهاني ، أنبأنا الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر اللخمي الطبراني ، أنبأنا عبيد الله بن رماحس القيسي برمادة الرملة سنة ٢٧٤ ، أنبأنا أبو عمر زياد بن طارق وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة ، قال : سمعت أبا جرول زهير بن صرد الجشمي يقول : لما أسرنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوم هوازن آتيته فقلت :

فإنك المرء نرجوهُ ومنتظرُ	امنْ علينا رسولَ الله في كرمِ
مشتت شملمها في دهرها غيرُ	امنْ على بيضةٍ قد عاقها قدرُ
علا قلوبهمُ الغماءُ والغمرُ	أبقت لنا الدهرَ هتانا على حزنِ
يا أرجح الناس حتماً حين يُختبرُ	إن لم تداركهمُ نعماءُ تنشرها
إذ فوك تملؤه من محضها الدررُ	امنْ على نسوةٍ قد كنت ترضعها
وإذ يريبك ما تأتي وما تذرُ	إذ أنت طفلٌ صغيرٌ كنت ترضعها
واستبق منّا فإننا معشرٌ زهرُ	لا تجعلنا كمن شالت نعمتهُ
وعندنا بعد هذا اليوم مدّخرُ	إنّا لنشكرُ للنعماءِ إذ كُفّرتُ
من أمهاتك إن العفو مشهرُ	فألبس العفو من قد كنت ترضعه
عند الهياج إذا ما استوقد الشررُ	ياخير من مرحت كمت الجياد به
هذي البرية إذ تعفو وتتنصرُ	إنّا نؤملُ عفواً منك تلبسه
يوم القيامة إذ يهدى لك الظفرُ	فاعفُ عفا الله عما أنت راهبهُ

فلما سمع ، صلى الله عليه وسلم ، هذا الشعر قال : « ما كان لي ولبي

عبد المطلب فهو لكم» ، فقالت قريش : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، قال أبو القاسم الطبراني : لا يروى عن زهير إلا بهذا الإسناد ، وتفرد به عبيد الله بن رماحس ، وبالإسناد إلى الطبراني : أنبأنا جعفر بن حميد بن عبد الكريم بن فروخ بن ديزج بن بلال بن سعد بن بلال بن سعد الأنصاري الدمشقي ، قال : حدثني جدي لأمي عمر بن أبان بن مفضل بن أبان المدني ، قال : أراني أنس بن مالك الوضوء : أخذ ركوة فوضعها عن يساره ، وصبَّ على يده اليمنى فغسلها ثلاثاً ، ثم أدار الركوة عن يده اليمنى وصبَّ على يساره فغسلها ثلاثاً وثلاثاً ، ومسح برأسه ثلاثاً وأخذ ماء جديداً لصِمَاحِيَه فمسح صِمَاحِيَه ، فقلت له : قد مسحت أذنك ، فقال : يا غلام ، هل رأيت وفهمت أو أعيد عليك ؟ فقلت : قد كفاني ، وقد فهمت ، قال : فكذا رأيت رسول الله ، صلَّى الله عليه وسلَّم ، يتوضأ ، قال الطبراني : لم يروِ عمر بن أبان عن أنس حديثاً غير هذا ، وبالإسناد إلى الطبراني : حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد القصاص البصري ، أنبأنا دينار بن عبد الله مولى أنس بن مالك ، حدثني أنس بن مالك قال : قال رسول الله ، صلَّى الله عليه وسلَّم ، « طوبى لمن رآني وآمن بي ، ومن رأى من رآني وآمن بي ، ومن رأى من رأى من رآني » .

ثم قال الرعيني : وتصانيف أبي حيان تزيد على خمسين ما بين طويل وقصير ، ثم قال الرعيني : وخرج أبو حيان من الأندلس مفتح سنة ٦٧٩ ، واستوطن القاهرة بعد حجه ، وأنشد لشيخه أبي الحسن الزَّجَّاج :

رضيتُ كفاني رتبةً ومعيشةً      فلستُ أسامي موسيراً ووجيهاً  
ومن جراً أثواب الزمانِ طويلةً      فلا بُدَّ يوماً أن سيَعترُ فيها

١ ق : الدجاج ، وفي نسخة من أصول دوزي : الدجاج .

وأشدد بإسناده لموسى بن أبي تليد :

حالي مع الدهر في تقلُّبه      كطائرٍ ضمَّ رِجله شِرْكُ  
فهَمَّهُ في خلاصٍ مهجته      يرومُ تخلصها فتشبتكُ

ثمَّ أورد الرعيي جملة من نظم الإمام أبي حيان ، منها قوله :

أريدُ من الدنيا ثلاثاً وإنها      لَعَايَةٌ مطلوبٍ لمن هو طالبُ  
تلاوةُ قرآنٍ ، ونفسٌ عفيفةٌ ،      وإكثارُ أعمالٍ عليها أواظبُ

وقوله :

أرحتُ روحي من الإيناسِ بالناسِ      لمَّا غَنَيْتُ عن الأكياسِ بالياسِ  
وصرتُ في البيتِ وحدي لا أرى أحداً      بناتُ فكري وكتبي هنَّ جَلَّاسِي

وقوله :

وزَهَدَني في جمعي المالَ أَنه      إذا ما انتهى عند الفتي فارقَ العُمرا  
فلا روحه يوماً أراحَ من العنا      ولم يكتسبَ حمداً ولم يدخرَ أجرا

وقوله :

يظنُّ العَمْرُ أنَ الكُتُبَ تُجدي      أخوا ذَهْنٍ لإدراكِ العلومِ  
وما يدري الجهولُ بأنَّ فيها      غوامضَ حيرتَ عَقْلَ الفهيمِ  
إذا رمتَ العلومَ بغيرِ شيخٍ      ضللتَ عن الصراطِ المستقيمِ  
وتلَّتْيسُ الأمورُ عليكَ حتى      تصيرَ أضلَّ من توما الحكيمِ

وله لغز في قيراط زاعماً أنه لا يُفك :

وما اسمٌ خماسيٌّ إذا ما فككتهُ      بصيرُ لنا فعلينِ أمراً وماضيا

بعكسٍ وهو كلٌّ وجزءٌ وجمعهُ  
 بببدالٍ عينٍ حارٍ فيه التناهي  
 ومع كونه فرداً وجمعاً فأولٌ  
 وآخره أضحى لشخصٍ معاديا  
 وفي عكسه صوتٌ فتنيه صيغةٌ  
 وتبي بمعناه وما أنت بانيا  
 فكم فيه من معنَى خَفِيٍّ وإنّما  
 عنيتُ بذكرٍي للذي ليس خافيا

ثمّ قال الرعيني : وهو شيخ فاضل ، ما رأيت مثله ، كثير الضحك  
 والانبساط ، بعيد عن الانقباض ، جيد الكلام ، حسن اللقاء ، جميل المؤانسة ،  
 فصيح الكلام ، طلق اللسان ، ذولمة وافرة ، وهمّة فاخرة ، له وجه مستدير ،  
 وقامته معتدلة التقدير ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، انتهى ما لخصته من كلام  
 الرعيني .

ولما قدم الأستاذ أبو حيان إلى مصر أوصى أهله بقوله : ينبغي للعاقل أن يعامل  
 كل أحد في الظاهر معاملة الصديق ، وفي الباطن معاملة العدو في التحفظ منه  
 والتحرز ، وليكن في التحرز من صديقه أشد من التحرز من عدوه ، وأن يعتقد  
 أن إحسان شخص إلى آخر وتودده إنما هو لغرض قام له فيه يتعلّق به يبعثه على  
 ذلك لا لذات ذلك الشخص ، وينبغي أن يترك الإنسان الكلام في ستة أشياء :  
 في ذات الله تعالى ، وما يتعلّق بصفاته ، وما يتعلّق بأحوال أنبيائه صلوات الله  
 وسلامه عليهم أجمعين ، وفي التعرض لما جرى بين الصحابة ، رضي الله تعالى عنهم  
 أجمعين ، وفي التعرض لأئمة المذاهب . رحمهم الله تعالى ورضي عنهم ، وفي  
 الطعن على صالحى الأمة نفع الله بهم وعلى أرباب المناصب والرتب من أهل زمانه ،  
 وأن لا يقصد أذى أحد من خلق الله سبحانه وتعالى إلاّ على حسب الدفع عن  
 نفسه ، وأن يعذر الناس في مباحثهم وإدراكاتهم . فإن ذلك على حسب عقولهم .  
 وأن يضبط نفسه عن المراء والاستزراء والاستخفاف بأبناء زمانه ، وأن لا يبحث  
 إلا مع من اجتمعت فيه شرائط الديانة والفهم والمزاولة لما يبحث ، وأن لا يغضب  
 على من لا يفهم مراده ومن لم يدرك ما يدركه ، وأن يلتبس مخرجاً لمن ظاهر

كلامه الفساد ، وأن لا يقدم<sup>١</sup> على تخطئة أحد ببادي الرأي ، وأن يترك الخوض في علوم الأوائل ، وأن يجعل اشتغاله بعلوم الشريعة ، وأن لا ينكر على الفقهاء ، وليسلم لهم أحوالهم ، وينبغي للعاقل أن يلتزم نفسه التواضع لعبيد الله سبحانه وتعالى ، وأن يجعل نُصَبَ عينيه أنه عاجز مفتقر ، وأن لا يتكبر على أحد ، وأن يُقَلَّ من الضحك والمزاح والخوض فيما لا يعنيه ، وأن يتظاهر لكلِّ بما يوافقه فيما لا معصية لله تعالى فيه ولا خرمَ مروءة ، وأن يأخذ نفسه باجتناب ما هو قبيح عند الجمهور ، وأن لا يظهر الشكوى لأحد من خلق الله تعالى ، وأن لا يعرض بذكر أهله ، ولا يجري ذكر حرمه بحضرة جليسه ، وأن لا يطلع أحداً على عمل خير يعمله لوجه الله تعالى ، وأن يأخذ نفسه بحسن المعاملة من حسن اللفظ وجميل التقاضي ، وأن لا يركن إلى أحد إلاّ إلى الله تعالى ، وأن يكثُر من مطالعة التواريخ فإنها تلقح عقلاً جديداً ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهت وصية أبي حيان الجامعة النافعة ، وقد نقلتها من خط الشيخ العلامة أبي الطيب ابن علوان التونسي المالكي الشهير بالمصري ، وهو ممن أخذ عن تلامذة الشيخ أبي حيان ، رحمه الله تعالى .

قلت : وبما في هذه الوصية من نَهْيِهِ عن الطعن في صالحِي الأمة نفع الله تعالى بهم وأمره بالتسليم لأحوالهم وعدم الإنكار عليهم ؛ تعلم أن ما نقله الصفدي عنه فيما تقدم من قوله « إن الشيخ أبا مدين إلى آخره » كلام فيه نظر ، لأن أبا حيان رضي الله تعالى عنه لا ينكر كرامات الأولياء ، كيف وقد ذكر رحمه الله تعالى منها كثيراً ، فمن ذلك ما حكى عنه تلميذه الرعيني بسنده إلى الفقيه المقرئ الصالح أبي تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيد بونه الخزاعي ، حدث أنه زار قبر أبي الحسن ابن جالوت ، ولم يكن زاره قبلُ ، فاشتبه عليه فكرهه ، فسمع النداء من قبر معين : يا غالب أتمشي وما زرتني ؟ فزار ذلك القبر ، وقعد عنده ، ثم جاء

١ ق : لا يقدر .

ابن أبي الحسن المذكور ، فسأله عن القبر : فقال : هو الذي قعدت عنده . وغالب هذا وابن جالوت هما من أصحاب الشيخ أبي أحمد جعفر بن سيد بونه الخزاعي . وهو من أصحاب الشيخ أبي مدّين . انتهى . فكيف ينكر أبو حيان كرامات الصالحين وهو يوصي على من ينهى عن الطعن فيهم . ويحكي كراماتهم . نعم قول الصفدي قبل ذلك الكلام « إنه كان ينكر على فقراء الوقت » كلامٌ صحيح في الجملة ، لكثرة الدعاوى الباطلة ممّن ليس من أهل الصلاح ، وأما إنكار الكرامات مطلقاً فمقام أبي حيان يجل عن إنكارها ، والله تعالى أعلم . وقد أورد ابن جماعة له من قطعة قوله في أهل عصره :

ومن يكُ يدّعي منهم صلاحاً      فزندقٌ تغلغلَ في الضلالِ  
وأول هذه القطعة :

حلبتُ الدهرَ أشطُرهُ زماناً	وأغنائي العيانُ عن السؤالِ
فما أبصرتُ من خيلٍ وفيّ	ولا ألفتُ مشكورَ الخلالِ
ذئبٌ في ثيابٍ قد تبسّدتْ	لرائيها بأشكالِ الرجالِ
ومن يكُ يدّعي منهم صلاحاً	فزندقٌ تغلغلَ في الضلالِ
ترى الجهالَ تتبّعه وترضى	مشاركةً بأهلٍ أو بمالِ
فينهبُ ما لهم ويصيبُ منهم	نساءهم بمقبوحِ الفعالِ
وتأخذُ حاله زوراً فيرمي	عمامته ويهربُ في الرمالِ
ويجرون التيوسُ وراء رجسٍ	تقرّمطَ في العقيدةِ والمقالِ

أي اعتقدوا رأي القرامطة ، ومذهبهم مشهور . فلا تطيل به ، فظهر بما ذكر أن أبا حيان إنما أنكر على أهل الدعاوى ، لا على غيرهم . والله تعالى أعلم . وقد أورد قاضي القضاة ابن جماعة للشيخ أبي حيان من النظم غير ما قدمنا ذكره قوله :

أما إنه لولا ثلاثُ أحبَّها  
فمنها رجائي أن أفوزَ بتوبةٍ  
ومنهنَّ صَوْنِي النَّفْسِ عن كلِّ جاهلٍ  
ومنهنَّ أَخْذِي بالحديثِ إذا وُورِي  
أتركُ نَصّاً للرسولِ وتقتدي

وقوله :

سألَ في الخدِّ للحبيبِ عِذارُ  
وسألتُ التِّثامهُ فَتَجَنَّتِي

وقوله :

أمدَّ عيًّا علماً ولستَ بقارىءٍ  
أترعُمُ أن الذهنَ يوضحُ مشكلاً  
وإن الذي تبغيه دون معلّمٍ  
كتاباً على شيخٍ به يسهلُ الحزنُ  
بلا موضعٍ؟ كلا لقد كذبَ الذهنُ  
كموقِدِ مصباحٍ وليس له دهنُ

وقوله « عداي - البيتين » قال : وأخذ هذا المعنى من قول الطغرائي :

مَنْ خَصَّ بِالوَدِّ الصَّحَابَ فَإِنِّي  
جَعَلُوا التَّنَافُسَ فِي المَعَالِي دَيْدَنِي  
وَتَعَوُّوا إِلَيَّ مِثَالِي فَحَدَرْتَهَا  
وَلرَبَّمَا انْتَفَعَ الفَتَى بَعْدَوَهُ  
أَحِبُّ بِخَالِصِ وُدِّي الأَعْدَاءَ  
حَتَّى وَطِئْتُ بِأَخْصِي الحِوْزَاءَ  
وَنَفَيْتُ عَنِ أخْلَاقِي الأَقْدَاءَ  
كَالمِمْ أَحْيَاناً يَكُونُ دَوَاءَ

ومن نظم أبي حيان :

يا مُنْضِي الطَّرْفِ فِي ميدانِ لذتهِ  
وَنَاضِي الطَّرْفِ بِسِينِ الرَاحِ والرودِ



ستشربُ الروحُ راحَ الوقتِ كارهةً وَيذهبُ الجسمُ بسينِ التربِ في الدودِ

وله رحمه الله تعالى قصيدة سماها ب «المورد العذب في معارضة قصيدة كعب» وقصيدة في مدح الإمام الشافعي مطلعها :

غذيتُ بعلمِ النحوِ إذ درَّ لي ثدياً

وله رحمه الله تعالى من قصيدة في مدح أم ولده حيّان :

جُنْتُ بها سَوْدَاءَ لَوْنٍ وَنَاطِرٍ وَيَا طَالِمَا كَانَ الْجَنُونَ بِسَوْدَاءِ  
وَجَدْتُ بها بَرْدَ النِّعَمِ وَإِنْ يَكُنْ فَوَادِي مَنَهَا فِي جَحِيمٍ وَأَوَاءِ  
وَشَاهَدْتُ مَعْنَى الْجَمَنِ فِيهَا مَجْسَدًا فَأَعْجَبُ لِمَعْنَى صَارَ جَوْهَرُ أَشْيَاءِ  
أَطَاعِنَةً مِنْ قَدَّهَا بِمُتَقَفٍ أَصَبْتُ وَمَا أَغْنَى الْقَتَى لُبْسُ حَصْدَاءِ  
لَقَدْ طَعَنْتُ وَالْقَلْبُ سَاهٍ فَمَا دَرَى أِبَالِقَدَّ مِنْهَا أَمْ بِصَعْدَةِ سَمْرَاءِ  
ثُمَّ غَيْرِ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ ، وَأَنْشُدُ :

جُنْتُ بها سَوْدَاءَ شَعْرٍ وَنَاطِرٍ وَسَمْرَاءَ لَوْنٍ تَزْدَرِي كُلَّ بِيضَاءِ

وقال يهني ، قال ابن جماعة : خاطبني به ارتجالاً عند ولادة ابني عمر بعد بنتين :

حُيْتُ بِرِيحَانَتِي رَوْضَةَ وَبَعْدَهُمَا جَاءَ نَجْلٌ أَغْرَ  
وَسَمِيَتْهُ اسْمَ إِمَامٍ إِذَا رَأَهُ أَبُو مِرَّةٍ مِنْهُ فَرَّ  
وَلَا عَجَبٌ مِنْكَ عَبْدَ الْعَزِيزِ إِذَا كَانَ نَجْلُكَ يُسَمَّى عَمْرُ  
تَفَرَّعْتُمَا مِنْ إِمَامِ الْهُدَى وَيَدْرِ الدَّجَى وَرَيْسِ الْبَشَرِ  
فَلَا زَالَ يُوَضِّحُ سُبُلَ الْهُدَى وَلَا زَلْتُمَا تَقْفُؤَانَ الْأَثَرِ

وقال :

لقد زادني بالناس علماً تجاربي      ومن جرّب الأيام مثلي تعلّما  
وإني وتلامي من الناس راحةً      لكالمبتغي وسط الحميم تنعّما  
سأزهدُ حتى لا أرى لي صاحِباً      وأنجِدُ حتى لا ألقى مُتَهِمَا

قال ابن جماعة: وقال في إملاك علي ابن قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي ، وكان جميل الصورة ، على أُختي شقيقتي فاطمة :

هنياً بتأليفٍ غريبٍ نظامهُ      لقد حار في أوصافه نَظْمُ عارفِ  
غدَت شمسُ حُسنِ بنتِ بدرٍ سيادةً      تُزِفُ لبدرٍ نَجَلِ شمسِ معارفِ  
سميان للزهرا البتول وللرضا      عليّ ونجلا الأكرمين الغطارفِ  
فدام عليُّ عاليَ الجَدِّ سيِّداً      ولا زال في ظلِّ من العيشِ وارِفِ

وقال يخاطب شيخه ابن النحاس وقد أغب زيارته :

أعينَ حياتي والذي ببقائه      بقائي لقد أصبحتُ نحوك شيقاً  
أقمتَ بقلبي غير أن لقلتي      برؤيتك الحظَّ الذي يذهبُ الشقا  
وما كان ظني أنك الدهرَ تاركي      ولو أنني أصبحتُ بين الوري لقا  
لطائفُ معنَى في العيان ولم تكن      لتُدرَكَ إلا بالتزاور واللقا

وقال يخاطب قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي ، وقد أُعيد إلى منصب القضاء ، وكان يتطلّع إليه رجل يدعى نجم الدين :

ذو العلم في الدنيا نجومٌ زواهرُ      وإنك فيها الشمسُ حقاً بلا لبسِ  
إذا لحت أخفى نوركم كل نيرٍ      ألم تر أن النجمَ يخفي مع الشمسِ

١ ق : لكالمبتغي .

وقال :

لم أُوخِّرَ عَمَّنْ أَحِبُّ كِتَابِي      لِقَلِّي فِيهِ أَوْ لَتَرِكِ هَوَاهُ  
غَيْرَ أَنِّي إِذَا كَتَبْتُ كِتَاباً      غَلَبَ الدَّمْعُ مُقَلَّتِي فَمَحَاهُ

وقال :

تذَكَّرِي لِلْبَلِي فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ      أَصَارَنِي زَاهِداً فِي المَالِ وَالرُّتْبِ  
أَتَى أُسْرُ بِحَالٍ سَوْفَ أُسْلِبُهَا      عَمَّا قَرِيبٍ وَأَبْقَى رَمَّةَ التَّرْبِ؟

وقال :

أَتَيْتُ وَمَا أَدْعَى وَأَقْبَلْتُ سَامِعاً      فَوَائِدَ مَوْلَى سَيِّدِ مَسَاجِدِ نَدَبِ  
وَأَحْضَرُ جَمْعاً أَنْتَ فِيهِ جَمَالُهُ      أَشْنَفُ سَمْعِي مِنْكَ بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ

وقال :

لَنَا غَرَامٌ شَدِيدٌ فِي هَوَى السُّودِ      نَخْتَارُهُنَّ عَلَى بِيضِ الطُّلِيِّ الغَيْدِ  
لَوْنٌ بِهِ أَشْرَقَتْ أَبْصَارُنَا وَحَكْمِي      فِي اللُّونِ وَالْعَرَفِ نَفْحَ المَسْكِ وَالْعُودِ  
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْ آسٍ تَرَكَّبَهُ      فِي آبِنُوسٍ وَلَا أَشْفَى لِمَسْبُودِ  
لَا تَهَوَّ بِبِيضَاءِ لَوْنِ الجِصِّ وَاسْمُ إِلَى      سَوْدَاءَ حَسَنَاءَ لَوْنِ الأَعْيُنِ السُّودِ  
فِي جِيدِهَا غَيْدٌ ، فِي قَدِّهَا مَيْدٌ      فِي خَدِّهَا صَيْدٌ ، مِنْ سَادَةِ صَيْدِ  
مِنْ آلِ حَامٍ حَمَتُ قَلْبِي بِنَارِ جَوَى      مِنْ هَجْرِهَا وَابْتَلَتْ عَيْنِي بِتَسْهِيدِ

وقال في عكسه :

إِذَا مَالَ الفَتَى لِلسُّودِ يَوْمَماً      فَلَا رَأْيَ لَدَيْهِ وَلَا رِشَادُ  
أَتَهَوَّى خُنْفُساءَ كَأَنَّ زَفْتاً      كَسَا جِلْداً لَهَا وَهُوَ السَّوَادُ  
وَمَا السُّودَاءُ إِلَّا قِدَرُ فَرْنٍ      وَكَانُونِ وَفَحْمٌ أَوْ مَدَادُ

تنيرُ العينُ منها والفؤادُ  
يلدُ السُّهْدُ معَهَا والرقادُ  
لدى عقلٍ به اتضح المرادُ  
ووجه الكافرين به اسودادُ

وما البيضاءُ إلا الشمسُ لاحتُ  
سبيكةُ فضةٍ حُشيتُ بوردُ  
وبين البيضِ والسودانِ فرقُ  
وجوه المؤمنين بها ايضاضُ

وقال رحمه الله تعالى :

فلستُ أرى فيهم صديقاً مصافياً  
أحبَّائي تغني عن لقائي الأعدايا  
نجاني إذا فكرتُ أو كنتُ تاليا  
أُنقِبُ عمن كان لله داعياً  
وجمَّاعِ أموالٍ وشيخاً مرانيا  
عن الناسِ واستغيتُ باللهِ كافياً

أعاذلُ ذرّتي وانفرادي عن الوري  
نداماي كُتِبَ أستفيدُ علومها  
وأنسها القرآنُ فهو الذي به  
لقد جُلْتُ في غربِ البلادِ وشرقها  
فلم أرَ إلا طالباً لرياسةٍ  
قبضتُ يدي عنهم وآثرتُ عزلةً

قال العز ابن جماعة : وخطبَ والذي وقد أبلَّ من ضعف أشيع فيه موته

مهنتاً له :

وصيّرَ دورَ العدا عافيه  
فكلُّ النجومِ به خافيه  
فآياتهُ كانت الشافية  
وربتهم للعلا نافية  
وخلقُ مواردُه صافية  
ولو أنها قد سعتُ حافية  
وليسَ لما مزّقتُ رافيه  
وآراؤهمُ عنده هافية  
وأخلاقهمُ كلُّها جافية

أدامَ الإلهُ لك العافيه  
إذا لاح من بدركم نورُه  
تخذتَ كلامَ الإلهِ الدوا  
تشوّفَ ناسٌ لمنصبيكم  
فأينَ العلومُ وأينَ الحلومُ  
هَمُّ عصبهٍ لا تنالُ العلا  
إذا كان خرقُ تداركتهُ  
فإن عنَّ خطبُ ثبتَ له  
سجاياك لينٌ ورفقُ بنا

تصلي على سبعة منهم<sup>١</sup> وثامنهم<sup>٢</sup> نفسه طافيه<sup>٣</sup>  
 يقيمون في تربهم همداً<sup>٤</sup> وتسفي على قبرهم سافيه<sup>٥</sup>  
 فلا زلت في صحة دائماً<sup>٦</sup> تجر ذبول السني ضافيه<sup>٧</sup>  
 ويوردك الله عين الحياة<sup>٨</sup> فتجيا بها مائة وافيه<sup>٩</sup>  
 فإن زاد عشرأ فذاك المني<sup>١٠</sup> وعشرون أيضاً هي الكافيه<sup>١١</sup>  
 وهدي القوافي أت كملأ<sup>١٢</sup> فلم تبق لي بعدها قافيه<sup>١٣</sup>

وقال رحمه الله تعالى أيضاً :

خلق الإنسان في كبَد<sup>١</sup> بوجود الأهل والولد<sup>٢</sup>  
 كل عضو فيه نافعهُ<sup>٣</sup> غير عضوٍ ضررٌ للأبد<sup>٤</sup>  
 منتجٌ ذلاً<sup>٥</sup> وفقد غني<sup>٦</sup> وفراخاً جمّة العدد<sup>٧</sup>  
 من يمت منهم يذقه أسى<sup>٨</sup> أو يعيش ألقاه في نكد<sup>٩</sup>  
 عاش في أمن فتى عزب<sup>١٠</sup> مستريح الفكر والجسد<sup>١١</sup>

وقال رحمه الله تعالى أيضاً :

جنّ غيري بعارضٍ فترجتي<sup>١</sup> أهله أن يفيق عمّا قريب<sup>٢</sup>  
 وفؤادي بعارضين مصاب<sup>٣</sup> فهو داء أعياء دواء الطيب<sup>٤</sup>

وقال :

سعت حية من شعره نحو صدغهِ<sup>١</sup> وما انفصلت من خده ، إن ذا عجب<sup>٢</sup>  
 وأعجب من ذا أن سلسال ريقه<sup>٣</sup> برود ولكن شب في قلبي اللهب<sup>٤</sup>

وقال :

طالع تواريخ من في الدهر قد وجدوا<sup>١</sup> تجد خطوباً تسلي عنك ما تجد<sup>٢</sup>  
 تجد أكابره قد جرّعوا غصصاً<sup>٣</sup> من الرزايا بها كم فتت كبد<sup>٤</sup>

عزلٌ ونهبٌ وضربٌ بالسياطِ وحبٌّ  
وإنٌ وقبتَ بحمدِ اللهِ شِرتَهُمْ  
سٌ ثمَّ قتلٌ وتشريدٌ لمن ولدوا  
فلتحمدِ اللهَ فالعقبي لمن حمِدوا

وقال رحمه الله تعالى يمدح البخاري وكتابه الصحيح :

أسامِعَ أخبارِ الرسولِ لكَ البشري  
تشنَّفُ آذاناً بعقدِ جواهرِ  
جواهرٍ كمَ حَلَّتْ نفوساً نفيسةً  
هَلَّ الدينُ إلا ما روته أكابرُ  
وأدوا أحاديثَ الرسولِ مصونةً  
وإنَّ البخاريَّ الإمامَ لجامعُ  
على مَقَرِّقِ الإسلامِ تاجٌ مرصعُ  
وبجرُ علومِ يلفظُ الدرَّ لا الحَصَا  
تصانيفُهُ نورٌ ونورٌ لناظر  
نحاسنَةُ المختارِ ينظِّمُ شتَّها  
وكمَ بدَلَ النفسَ المصونةَ جاهداً  
فظوراً عراقياً وطوراً يمانياً  
إلى أن حوى منها الصحيحَ صحيفةً  
كتابٌ له من شرعِ أحمدَ شِريعةً

قلت : وتتصل روايتي عن الإمام أبي حيان من طُرق عديدة : منها عن  
عمي وليِّ الله العارف به شيخ الإسلام مقي الأنام الخطيب الإمام مُلْحِقِ الأحماد  
بالأجداد سيدي سعيد بن أحمد المقرئ التلمساني ، عن شيخه العالم أبي عبد الله  
التنسي ، عن والده حافظ عصره سيدي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي  
ثمَّ التلمساني الأموي ، عن عالم الدنيا أبي عبد الله ابن مرزوق ، عن جده الرئيس  
الخطيب سيدي أبي عبد الله محمد بن مرزوق ، عن الأثير أبي حيان بكل مروياته :

فمنها أن أبا حيان قال : حدثنا ابن أبي الأحوص عن قاضي الجماعة أبي القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن ابن أحمد بن بقي بن مخلد بن يزيد القرطبي عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن عمر بن علي وعبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد الله بن عمرو أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، مر بمجلسين أحدهما يدعون الله ويدعون إليه ، والآخر يتعلمون العلم ويعلمونه ، فقال : « كل المجلسين خير ، وأحدهما أفضل من الآخر ، أما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل فهم أفضل ، وأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه إن شاء أعظاهم وإن شاء منعهم ، وأنا بُعِثت معلماً » ، ثم جلس معهم .

قال أبو حيان : قلت : لا أعرف حديثاً اجتمعت فيه رواية الأبناء عن الآباء بعدد ما اجتمع في هذا إلا ما أخبرنا به أبو الحسن محمد بن محمد بن الحسن بن مامة بقراةتي عليه ، أنبأنا أبو المعالي الأبرموي أنبأنا أبو بكر ابن عبد الله بن محمد بن سابور القلانسي ، أنبأنا أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازي ، أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب التميمي ، قال : سمعت أبي أبا الفرج عبد الوهاب يقول : سمعت أبي أبا الحسن عبد العزيز يقول : سمعت أبي أبا بكر الحارث يقول : سمعت أبي أسداً يقول : سمعت أبي الليث يقول : سمعت أبي سليمان يقول : سمعت أبي الأسود يقول : سمعت أبي سفيان يقول : سمعت أبي يزيد يقول : سمعت أبي أكيمة يقول : سمعت أبي الهشيم يقول : سمعت أبي عبد الله يقول : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « ما اجتمع قوم على ذكر إلا حَفَّتْهُم الملائكة وعمتهم الرحمة » ، انتهى .

قلت : قال الحافظ ابن حجر في فوائده : ما اجتمع حديث فيه من عدد الآباء أكثر من هذا ، انتهى .

ورأيت بخط بعض الحفاظ على قول أبي أكيمة ما صورته : صوابه أكيمة ،

انتهى ، فليحزر .

ومنها أن أبا حيان قال : أنبأنا الأستاذ أبو جعفر الزبير صاحب الصلة ، أنبأنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الأزدي ، أنبأنا عبد الله بن محمد ابن حسن بن عطية ، ح قال أبو حيان : وأنبأنا الأصولي أبو الحسين ابن القاضي أبي عامر ابن ربيع الأشعري ، عن أبي الحسن أحمد بن علي الغافقي ، قال : أنبأنا عياض ، ح وكتب لنا الخطيب أبو الحجاج يوسف بن أبي ركانة ، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن عبد الودود بن سمحون عن عبد الله بن عطية قال هو وعياض : أنبأنا القاضي أبو بكر ابن العربي ، أنبأنا أبو محمد هبة الله الأكفاني ، أنبأنا الحافظ عبد العزيز الكناني الدمشقي ، أنبأنا أبو عصمت نوح ابن الفرغاني قال : سمعت أبا المظفر عبد الله بن محمد بن عبد الله بن قتّ الخرجي وأبا بكر محمد بن عيسى البخاري قالا : سمعنا أبا ذر عمّار بن محمد بن مخلد التميمي يقول : سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخاري يقول : لما عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم بن يزيد الهمداني عن قضاء الري ورَدَ بخارى سنة ٣١٨ لتجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل البلعي ، فترز في جوارنا ، فحملني معلمي أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الختلي إليه فقال له : أسألك أن تحدث هذا الصبي ما سمعته من مشايحك ، فقال : ما لي سماع ، فقال : وكيف وأنت فقيه ؟ فما هذا ؟ قال : لأنني لما بلغت مبلغ الرجال تأقت نفسي إلى طلب الحديث ورواية الأخبار وسماعها ، فقصدت محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى صاحب التاريخ والمنظور إليه في علم الحديث ، وأعلمته مرادي ، وسألته الإقبال على ذلك ، فقال لي : يا بني ، لا تدخل في أمر إلا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره ، فقلت : عرّفتني - رحمك الله تعالى - حدود ما قصدتك له ، ومقادير ما سألتك عنه ، فقال لي : اعلم أن الرجل لا يصير محدثاً كاملاً في حديثه إلا بعد أن يكتب أربعاً مع أربع كأربع مثل أربع في أربع عند أربع بأربع على أربع عن أربع لأربع ، وكل هذه الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع ، فإذا تمت له كلها



هان عليه أربع ، وابتلي بأربع ، فإذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع وأثابه في الآخرة بأربع ، قلت له : فسّر - رحمك الله تعالى - ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب صافٍ بشرح كافٍ وبيان شافٍ طلباً للأجر الوافٍ ، فقال : نعم ، أما الأربع التي تحتاج إلى كتبها فهي أخبار الرسول ، صلّى الله عليه وسلّم ، وشرائعه ، والصحابة ، رضي الله تعالى عنهم ، ومقاديرهم ، والتابعين وأحوالهم ، وسائر العلماء وتوارخهم ، مع أسماء رجالهم وكناهم وأمكنتهم وأزمانهم ، كالتحميد مع الخطب ، والدعاء مع التوسّل ، والبسملة مع السورة ، والتكبير مع الصلوات ، مثل المسندات والمرسلات ، والموقوفات والمقطوعات ، في صغره وفي إدراكه ، وفي شبابه وفي كهولته ، عند فراغه وعند شغله ، وعند فقره وعند غناه ، بالجهال والبحار ، والبلدان والبراري ، على الأحجار والأخزاف ، والجلود والأكتاف ، إلى الوقت الذي يمكنه نقلها إلى الأوراق ، عمّن هو فوقه وعمّن هو مثله وعمّن هو دونه ، وعن كتاب أبيه يتيقّن أنه بخط أبيه دون غيره ، لوجه الله تعالى طلباً لمرضاته ، والعمل بما وافق كتاب الله ، عز وجل ، منها ، ونشرها بين طالبها ومحبيها ، والتأليف في إحياء ذكره بعده ، ثم لا تتم له هذه الأشياء إلاّ بأربع ، هي من كَسَبَ العبد ، أعني معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو ، مع أربع هي من إعطاء الله تعالى ، أعني القدرة والصحة والحرص والحفظ ، فإذا صحت له هذه الأشياء كلها هان عليه أربع : الأهل ، والولد ، والمال ، والوطن . وابتلي بأربع : بشماتة الأعداء ، وملامة الأصدقاء ، وطعن الجهلاء ، وحنسّد العلماء ، فإذا صبر على هذه المحن أكرمه الله جل وعلا في الدنيا بأربع : بعز القناعة ، وبهيبة النفس ، وبلذّة العلم ، وبجياة الأبد ، وأثابه في الآخرة بأربع : بالشفاعة لمن أراد من إخوانه ، وبظل العرش حيث لا ظل إلاّ ظله ، وبسقي من أراد من حوض نبيه ، صلّى الله عليه وسلّم ، وبجوار النبيين في أعلى عليين في الجنة ، فقد أعلمتك يا بني بمجمّلات جميع ما سمعت من مشايخي متفرقاً في هذا الباب ، فأقبل الآن إلى ما قصدتني له أو دَع ، فهالني

قوله ، فسكت متفكراً ، وأطرقت متأدباً ، فلما رأى ذلك مني قال : وإن لم تنطق حمل هذه المشاق كلها فعليك بالفقه ، يمكنك تعلمه وأنت في بيتك قارئ ساكن لا تحتاج إلى بُعد الأسفار ، ووطء الديار ، وركوب البحار ، وهو ذا ثمرة الحديث ، وليس ثواب الفقيه دون ثواب المحدث في الآخرة ، ولا عزه بأقل من عز المحدث ، فلما سمعت ذلك نُقِضَ عزمي في طلب الحديث ، وأقبلت على دراسة الفقه وتعلمه إلى أن صرت فيه متقدماً ، ووقفت منه على معرفة ما أمكنني من علمه بتوفيق الله تعالى ومنته ، فلذلك لم يكن عندي ما أمليه لهذا الصبي يا أبا إبراهيم ، فقال له أبو إبراهيم : إن هذا الحديث الواحد الذي لا يوجد عند غيرك خيرٌ للصبي من ألف حديث يجده عند غيرك ، انتهى .

وجاء أبو حيان إلى ابن تيمية والمجلس غاص فقال يمدحه ارتجالاً :

لَمَّا أَتَيْنَا تَقِيَّ الدِّينِ لَاحَ لَنَا	دَاعٍ إِلَى اللَّهِ فَرَدُّ مَا لَهُ وَزَرُّ
عَلَى حَيَّاهُ مِنْ سَيِّمِ الْأَلَى صَحَبُوا	خَسِيرَ الْبَرِيَّةِ نَوْراً دُونَهُ الْقَمَرُ
حَبْرٌ تَسْرِبِلَ مِنْهُ دَهْرُهُ حَبِيراً	بِحَرْبٍ تَقَاذِفُ مِنْ أَمَاجِهِ الدَّرَرُ
قَامَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي نَصْرِ شَرَعْتِنَا	مَقَامَ سَيِّدِ تَيْمِيمٍ إِذْ عَصَتْ مُضْرُ
فَأَظْهَرَ الْحَقَّ إِذْ آثَارُهُ دَرَسَتْ	وَأَخْمَدَ الشَّرَّ إِذْ طَارَتْ لَهُ الشَّرْرُ
كَانَا نَحْدِثُ عَنْ حَبْرٍ يَجِيءُ فِيهَا	أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي قَدْ كَانَ يُسْتَنْظَرُ

ثم انحرف أبو حيان فيما بعد عن ابن تيمية ، ومات وهو على انحرافه ، ولذلك أسباب : منها أنه قال له يوماً : كذا قال سيويوه ، فقال : يكذب سيويوه ، فانحرف عنه ، رحم الله تعالى الجميع .

وحضر الشيخ أبو حيان مع ابن بنت الأعز في الروضة فكتب إلى أبي حيان ووجهه مع بعض غلمانته :

حَيِّتُ أَثِيرَ الدِّينِ شَيْخَ الْأَدْبَا	أَقْضِي لَهُ حَقّاً كَمَا قَدْ وَجِبَا
حَيِّتُ فَتَى بَطَاقِ آسٍ نَضِيرِ	كَالْقَدِّ بَدَا مَلَكْتُ مِنْهُ طَرِبَا

قال : فأشدته :

أهدى لنا غُصْنًا مِنْ ناضِرِ الآسِ      أفضى القُضَاةَ حَليْفُ الجُودِ والبَاسِ  
لَمَّا رَأَى سَقَمِي أَهدَاهُ مَعَ رَشِي      حلَوِ الثَّنيِ فَكَنانِ الشَّافِي الآسِي

ولما أنشد الشيخ أبو حيان قول نور الدين القصري في روضة مصر :

ذاتُ وجهين فيهما قُسيمَ الحس      نُ فأضحَتْ بها القلوبُ تهيمُ  
ذا يَلِي مصر فهو مصرٌ وهذا      يتولَّى وسيمٌ فهو وسيمُ  
قد أعادت عصرَ التصابي صباها      وأبادتُ فيها الغيومَ الغيومُ

زاد فيها بيتاً ، وهو :

فَبِيلُجُ البحارِ يسبحُ نونُ      وبِفِجِّ القفارِ يَسْفَحُ ريمُ

قال أبو حيان : وكنت ماشياً بين القصرين مع ابن النحاس ، فعبر علينا صبي يدعى بجمال ، وكان مصارعاً ، فقال البهاء : لينظم كل منا فيه ، ثم قال :

مُصارعٌ تصرعُ الآسادَ شمَرتُهُ      تيهأُ فكلُّ مَليحٍ دونهُ سَمِجُ  
لما غدا راجحاً في الحسنِ قلتُ لهم      عن حسنه حدثوا عنه ولا حرجُ

فنظمت أنا :

سباني جمالٌ من مَليحٍ مُصارعٍ      عليه دليلٌ للملاحَةِ واضحُ  
لئن عَزَّ منه المثلُ فالكلُّ دونهُ      وإن خَفَّ منه الحصرُ فالرَدْفُ راجحُ

وسمع العزازي نظمنا فقال ، وأنشدنيه :

هل حَكَمَ يَنصِفني في هَوِي      مُصارعٍ يصرعُ أسدَ الشرى  
مذ فرَّ عَنِّي الصبرُ في حَبِّهِ      حكى عليه مدمعي ما جرى

أَبَاحَ قَتْلِي فِي الْهَوَىٰ عَامِلِدًا      وَقَالَ كَمْ لِي عَاشِقٌ فِي الْوَرَى  
رَمَيْتُهُ فِي أَسْرِ حُبِّي وَمَنْ      أَجْفَانُ عَيْنِيهِ أَخَذَتْ الْكُرَى

وقال لسان الدين في الإحاطة : كان أثير الدين أبو حيان نسيجَ وَحَدِه في ثقوب الذهن ، وصحة الإدراك ، والاضطلاع بعلم العربية والتفسير وطريق الرواية ، إمام النحاة في زمانه غيرَ مُدافع ، نشأ في بلده غرناطة مشاراً إليه في التبريز بميدان الإدراك ، وتغيير السوابق في مضممار التحصيل ، ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق ، واستقر بمصر ، فنال بها ما شاء من عز وشهرة وتأنل وافر وحظوة ، وأضحى لمن حل بساحته من المغاربة ملجأً وعُدَّة ، وكان شديد البسط مهيباً جهورياً ، مع الدُّعابة والغزل وطرح التَّسَمُّتِ ، شاعراً ، مكثراً ، مليح الحديث ، لا يمل وإن أطال ، وأسَنَّ جدّاً فانتفع به ، قال لي بعضُ أصحابنا : دخلت عليه وهو يتوضأ ، وقد استقر على إحدى رجليه لغسل الأخرى كما تفعل البرك والإوز ، فقال لي : لو كنتُ اليوم جار شلّير ما تركني لهذا العمل في هذا السن ، ثمّ قال لي بعد كلام حدثنا عنه الجملة الكثيرة من أصحابنا كالحاج أبي يزيد خالد بن عيسى والمقري الخطيب أبي جعفر الشَّقُورِي والشريف أبي عبد الله ابن راجع وشيخنا الخطيب أبي عبد الله ابن مرزوق قال : حدثنا شيخنا أبو حيان في الجملة سنة ٧٣٥ بالمدرسة الصالحية بين القَصْرَيْنِ بمنزله ، حدثنا الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير سماعاً من لفظه وكتبه من خطه بغرناطة ، عن الكاتب أبي إسحاق ابن عامر الهمداني الطَّوْسِي - بفتح الطاء - حدثنا أبو عبد الله ابن محمد العنسي القرطبي ، وهو آخر من حدّث عنه ، أنبأنا أبو علي الحسن بن محمد الحافظ الجبائي ، أنبأنا حكم بن محمد ، أنبأنا أبو بكر ابن المهندس ، أنبأنا عبد الله بن محمد ، أنبأنا طالوت بن عباد بن نصال بن جعفر ، سمعتُ أبا أمانة الباهلي يقول : سمعت رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، يقول « اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة ، إذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اتّمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ،

غضبوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم . واحفظوا فروجكم » .  
 ثم قال ابن الخطيب : إن أبا حيان حملته حدة الشيبة على التعرض للأستاذ  
 أبي جعفر الطباع . وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير الوحشة ، فنال منه ،  
 وتصدَّى للتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته ، ورفع أمره للسلطان ، فامتعض  
 له . ونفذ الأمر بتكليه ، فاختمى ، ثم أجاز البحر مخفياً ، ولحق بالمشرق يلتفت  
 خلفه .

ثم قال : وشعره كثير يتصف بالإجادة وضدها ، فمن مطولاته قوله :

لا تعذلاه فما ذو الحب معذولُ      العقلُ مخبلٌ والقالبُ متبولُ  
 هزّت له أسمرًا من خوط قامتها      فما انثى الصبُّ إلا وهو مقتولُ  
 جميلة فصل الحسن البديع لها      فكسّم لها جمّل منه وتفصيلُ  
 فالنحر مرمرَةٌ ، والنشر عنبرةُ .      والثغرُ جوهرَةٌ . والريقُ معسولُ  
 والطرف ذو غنّج . والعرف ذو أرج ،      والخصرُ مختطفُ ، والمئنُ مجدولُ  
 هيفاء ينطق في الخصر الوشاح لها      درماء تحرس في الساق الخلاخيلُ  
 من اللواتي غداهنّ النعيمُ فما      يشقين ، آباؤها الصيدُ البهاليلُ

إلى أن قال : وقوله :

نورٌ بخداك أم توقد نارُ      وضئى بجفك أم فتور عفارُ  
 وشداً بريقك أم تأرج مسكةُ      وسناً بثغرك أم شعاع دراري  
 جمعت معاني الحسن فياء فقد غدتُ      قيّد القلوبِ وقتنة الأبصارِ  
 متصاوين خفراً إذا ناطقته      أغضى حياءً في سكون وقارِ  
 في وجهه زهراء روض تجلى      من نرجسٍ مع وردة وبهارِ  
 خاف اقتطاف الورد من وجناتها      فأدار من آسٍ سيماج عذارِ  
 وتسلفت نمل العذار بخده      ليبردن شهدة ريقه المعطارِ  
 وبخده نار حمتته وردّها      فوقفن بين الورد والإصدارِ

كم ذا أداري في هَوَاهِ مَحَبَّتِي . ولقد وَشَى بي فيه فرطُ أوارِي

وقال ابن رشيد : حدثنا أبو حيان قال : حدثنا التاجر أبو عبد الله البرجوني بمدينة عَيْنَدَاب من بلاد السودان ، وبرجونة قرية من قرى دار السلام ، قال : كنت بجامع لِنَوْلَمَ من بلاد الهند ومعنا رجل مغربي اسمه يونس ، فقال لي : اذكر لنا شيئاً ، فقلت له : قال علي ، رضي الله تعالى عنه : « إذا وضع الإحسان في الكريم أثمر خيراً ، وإذا وضع في اللئيم أثمر شراً ، كالغيث يقع في الأصداف فيثمر الدر ، ويقع في فم الأفاعي فيثمر السم » ، فما راعنا إلا ويونس المغربي قد أنشد لنفسه :

صنائعُ المعروفِ إن أودعتْ      عند كريمٍ زكَّتِ النَّعْمَا  
وإن تكنُ عند لئيمٍ غَدَّتْ      مكفورةٌ موجيئةٌ إنما  
كالغيثِ في الأصدافِ درٌّ ،      وفي فمِ الأفاعي يُثمرُ السَّمَا

قال أبو حيان : فلما سمعت هذه الأبيات نظمت معناها في بيتين ، وهما :

إذا وُضِعَ الإحسانُ في الحبِّ لم يُفدْ      سوى كفره ، والحُرُّ يجزي به شكرا  
كغَيْثٍ سَقَى أُنْعَى فجاءتْ بِسَمِّهَا      وصاحبَ أصدافاً فأثمرتِ الدرّاً

قال أبو حيان : وأنشدنا الأمير بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن سيف الدولة أبي المعالي ابن رمّاح الهمداني لنفسه بالقاهرة :

فلا تَعَجَّبْ لِحُسْنِ المدحِ مِنِّي      صفاتكَ أظهرتْ حُكْمَ البوادي  
وقدْ تُبَدِي لكَ المِرَاةُ شَخْصاً      ويُسْمَعُكَ الصدى ما قد تُنادي

وبعد كتّبي ما نقله ابن رشيد عن أبي حيان رأيت لبعضهم أن أبا حيان هذا الذي ذكره ابن رشيد ليس هو أبا حيان النحوي الأندلسي ، وإنما هو شخص

آخر ، وفيه عندي نظر لا يخفى ، والذي أعتقده ولا أرتاب فيه أنه أبو حيان  
النحوي .

وقال ابن رشيد : وأنشدني أبو حيان لنفسه :

إذا غاب عن عيني أقولُ سَدَوْتُهُ      وإن لاح حالَ اللونُ فاضطربَ القلبُ  
يُهَيِّجُنِي عِينَاهُ      والمبسمُ الذي      به المسكُ منظومٌ به اللؤلؤُ الرطبُ

وقال الشريف ابن راجح : رأيت أن ما وضعه الشيخ أبو حيان في تقدم لسان  
الأثرak تضييع لعمره . وقلت :

نفائسُ الأعمار أنفقَتْهَا      أنا وأمثالي على غير شيءٍ  
شيوخُ سوءٍ ليس يرضى بما      ترضى به من المخازي صبي

ومن نظم أبي حيان قوله :

إنَّ علماً تعبتُ فيه زماني      باذلاً فيه طارفي وتلادي  
بلحديراً بأن يكون عزيزاً      ومصوناً إلا على الأجوادِ

وقوله :

ومنا لك والإنعابَ نفساً شريفةً      وتكليفها في الدهرِ ما ليس يعذبُ  
أرحها فغن قربٍ تلاقٍ حمامها      فتنعمُ في دارِ البقا أو تُعذبُ

واستشكل هذان البيتان بأن ظاهرهما خلاف الشرع . وأجيب بأن مراده أمر  
الرزق ، لا أمر التكليف .

وأفاد غير واحد أن سبب رحلة الشيخ أبي حيان عن الأندلس أنه نشأ شر  
بينه وبين شيخه أحمد بن علي بن الطباع فألف أبو حيان كتاباً سماه «الإلماع  
في إفساد إجازة ابن الطباع» فرفع ابن الطباع أمره للأمير محمد بن نصر المدعو  
بألفقيه ، وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه . فنشأ شر عن

ذلك . وذكر أبو حيان أنه لم يُقَسِّمَ بفاس إلا ثلاثة أيام ، وأدرك فيها أبا القاسم  
المزياتي ، وخرج أبو حيان من الأندلس سنة تسع وسبعين وستمائة .

\* \* \*

وكان جماعة من أعلام الأندلس رحلوا منها ، فلما وصلوا إلى العُدوة  
أقاموا بها ، ولم يذهبوا إلى البلاد المشرقية :

٢١٧ - منهم الشيخ النحوي الناظم النائر أبو الحسن حازم بن محمد  
القرطاجي<sup>١</sup> ، وهو القائل بمدح أمير المؤمنين المستنصر بالله صاحب تونس<sup>٢</sup> :

أمن بارق أورى بجنح الدجى سقطا      تذكرت من حلّ الأجارع فالسقطا  
وبان ولكن لم يبن عنك ذكره<sup>٣</sup>      وشطّ ولكن طيفه عنك ما شطّا  
حبيب لئو أن البدر جراه في مدى      من الحسن لاستدنى مدى البدر واستبطا  
إذا انتجعت مرعى خصيباً ركابه      غدا لحظ عيني يشكي الجذب والقحطا  
لقد أسرعني المطي بشادن      تسرع في قتل النفوس وما أبطا  
ظننت الفلا دار ابن ذي يزن بها      وخيلت المحارب الهادج والغبطا  
فكم دمية للحسن فيها وصورة      تروق وتمثال من الحسن قد خطّا  
حمامل لأحت كالحماميل بهجة<sup>٤</sup>      سقيط الحيا فيهن لا يسأم السقطا  
توسد غزلان الأوانس والمها      به الوشي والديباج لالسدر والأرطى  
ولم يسب قلبي غير أهرها سناً      وأطولها جيداً وأخفها قرطاً  
أيا ربّة الأحداج سيري فتعلمي<sup>٥</sup>      وما بك جهل ، أن سهمك ما أخطا

١ ترجمة حازم القرطاجي في اختصار القدح : ٢٠ وبغية الوعاة : ٢١٤ وأزهار الرياض  
٣ : ١٧٢ وشذرات الذهب ٥ : ٣٨٧ (انظر بروكلمان ١ : ٣١٧ وتكلمته ١ : ٤٧٤) ،  
وجمع ديوانه الأستاذ عثمان الكماك (ط. دار الثقافة بيروت ١٩٦٤) .  
٢ ديوانه : ٦٨ وبعض أبياتها في أزهار الرياض .  
٣ ق ودوزي : سيري فتعلمي ، وفي الديوان : عوجي فتعلمي .



قفي تستيني ما بعينيك من ضنّي  
 فلم أر أعدى منك لحظاً وناظراً  
 سقى الله عيشاً قد سقانا من الهوى  
 وكم جنةٍ قد رُدّت في ظلّ كافرٍ  
 وكم ليلةٍ قاسيتها نابغيّةٍ  
 وبتّ أظنّ الشُّهَبَ مثلي لها هوى  
 على أنها مثلي عزيزةٌ مطّلبٍ  
 كأنّ الثريّا كاعبُ أزمعتْ نوى  
 كأنّ نجومَ الحقعةِ الزُّهرِ هودجٌ  
 كأنّ رشاءَ الدلوِ رشوةٌ خاطبٍ  
 كأنّ السُّها قد دقّ من فرطِ شوقه  
 كأنّ سهيلاً إذ تنسأت وأنجدت  
 كأنّ خفوقَ القلْبِ قلبُ متيمٍ  
 كأنّ كلا النسرين قد ريعَ إذ رأى  
 كأنّ الذي ضمّ القوادِمَ منهما  
 كأنّ أخاهُ رامَ فوتاً أمامه  
 كأنّ بياضَ الصبحِ معصمٌ غادةٍ  
 كأنّ ضياءَ الشَّمسِ وجهُ إمامنا  
 محمدُ الهادي الذي أنطق الورى  
 إمامٌ غدا شمسَ المعالي وبدورها  
 جميلُ المحيّا مجملٌ طيبٌ ذكره  
 إذا ما الزمانُ الجعْدُ أبدى تجهماً

كجسمي وعنوان الهوى فيه مخنطاً  
 لقلبي ولا أعدى عليه ولا أسطى  
 كؤوساً بمعسول اللّمي خلطتُ خلطا  
 فلم أجزِ ما أولاهُ كفرةً ولا غمطاً  
 إلى أن بدتُ شيباً ذوائبها شمطاً  
 وأغبطها في طول ألفتها غبطاً  
 ومن ذا الذي ما شاء من دهره يُعطي  
 وأمتٌ بأقصى الغربِ منزلةً شحطاً  
 لها عن ذرّ الحرفِ المناخحةِ قد حطّطاً  
 لها جعلَ الأشرافُ في مهرها شرطاً  
 إليها كما قد دقق الكاتبُ النقطاً  
 غدا يائساً منها فأتهمَ وانحطّطاً  
 تعدّى عليه الدهرُ في البين واشتطّطاً  
 هلالَ الدجى يهوي له مخلباً سلطاً  
 هوى واقِعاً للأرضِ أو قص أو قطّاً  
 فلم يعدْ أن مدّ الجناحَ وأن مطّاً  
 جنّت يدُها أزهار زهرِ الدجى لقطاً  
 إذا ازداد بشراً في الوغى وإذا أعطى  
 ثناءً بما أسدى إليهم وما أنطى  
 وقد أصبحتُ زهرُ النجومِ له رهطاً  
 يعاطى سروراً كالحميّا ويُسعطى  
 أرانا الحياءَ الطلقتِ والخلقتِ السبّطاً

كلا أبوي حَقَصْ نَمَاهُ إِلَى الْعَلَا  
 بِسِيْمَاهُ تَدْرِي أَنَّ كَعْباً جَدُودَهُ  
 إِذَا قَبِضَ الرُّوعُ الْوُجُوهَ فَوَجَّهَهُ  
 بِهِ تَتَرَكُّ الْأَبْطَالُ صَرَغِي لَدَى الْوَعْيِ  
 تَرَاهُ إِذَا يَعْطِي الرِّغَائِبَ بِاسْمًا  
 وَكَمْ عُنُقِي قَدْ قَلَّدَتْ بِنُوَالِهِ  
 مَتَى مَا تَنْقَسُ جُودَ الْكِرَامِ بِجُودِهِ  
 يَشْفُ لَهُ عَنِ كُلِّ غَيْبٍ حِجَابَهُ  
 تَطِيعُ اللَّيَالِي أَمْرَهُ فِي عَصَاتِهِ  
 وَتَمْضِي عَلَيْهِمْ سَيْفُهُ وَسَنَانُهُ  
 فَكَيْفَ تَرَجَّتْ غِرَّةٌ مِنْهُ فِرْقَةٌ  
 وَكَمْ بِالنَّهْيِ وَالْحَلْمِ غَطَى عَلَيْهِمْ  
 فَأَمْطَاهُمْ دُهُمَ الْحَدِيدِ وَطَالَمَا  
 وَرَامَ لَهُمْ هَدْيًا وَلَكِنَّهُمْ أَبَوْا  
 وَكَانَ لَهُمْ بِيغِي الْمَثُوبَةِ وَالرِّضَى  
 وَلَوْ قُوْبَلَتْ بِالشُّكْرِ مِنْهُ مَارَبٌ  
 هُوَ النَّاصِرُ الْمَنْصُورُ وَالْمَلِكُ الَّذِي  
 أَصَاخَتْ لَهُ الْأَيَّامُ سَمْعًا وَطَاعَةً  
 فَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَمْلِكَ الْأَرْضَ كُلَّهَا

فأصبح عن مرقساته النجم منحنطاً  
 وإن هو لم يذكر رزاحاً ولا قرطاً  
 يزيد ، لكون النصر نضلاً ، له بسطاً  
 كأن قد سقوا من خمير بابل إسفنظاً  
 له جدلٌ يربي على جدل المعطى  
 فريداً وقد كانت قلاذتها لظاً<sup>١</sup>  
 فبالبحر قايسة الوقيعة والوقطاً<sup>٢</sup>  
 فتحسبه دون المحجب ما لظاً<sup>٣</sup>  
 وتردي أعاديه أساودها نشطاً<sup>٤</sup>  
 فتبري الكلى طعناً وتفري الطلى قظاً  
 غدا عزها ذلاً ورفعتها هبطاً  
 إلى أن جنوا ذنباً على العلم قد غطى  
 أنا لهم دهم الجياد وما أمطى  
 بغيهم إلا الضلالة والخبطاً  
 ولكن أبوا إلا العقوبة والسخطاً  
 لما اعتاض منها أهلها الأثل والحمطاً  
 أعاد شباب الدهر من بعد ما اشمطاً  
 وأحكمت الدنيا له عهداً ربطاً  
 وأن تملأ الدنيا إياته قسطاً

١ اللط : القلادة من حب الخنظل .

٢ الوقيعة : ثقرة يستقر الماء فيها ؛ الوقط : حوض يستنقع فيه الماء .

٣ لط : أسدل وستر .

٤ النشط : اللدغ .

٥ ق ودوزي : أهيل .

ويجيش تخطّ الأرضَ ذُبْلَهُ خَطًّا  
 يمسّ الثرى إلاّ مخالسةً فرطاً<sup>١</sup>  
 من الرعبِ جيشٌ يُسرّعُ السيرَ إن أبطأ  
 بها فتوافي سُبْقاً ذلك الشيطانُ  
 وموسى به رحلاً لغزو العدا خطّاً  
 ويوسعُ سَعْيَ المشركينَ به حَبْطاً  
 بها تملأُ الأسماعَ طيرُ الملا لغطاً  
 كما راطنَ الزنجَ النييطَ أو القبطاً  
 ترى الجوّ ناراً والصعيدَ دماً عبطاً  
 فنصولُ ترى منها يفودُ الدجى وخطاً  
 حسامٍ إذا لاقى الطلّى حادةً قَطّاً  
 بسيفِ غدا بالرمحِ ينقط ما خطّاً  
 تُقلِّقُ<sup>٢</sup> في أسنانِ مشطٍ يدُ مشطاً  
 رأته دون ما ترجو القتادةَ والحرطاً  
 وينشقها بالرمحِ ريحَ الردى سعطاً<sup>٣</sup>  
 فيحكى الأسودَ الغلبَ والأذوبَ المعطاً  
 يمدُّ يداً مبسوطةً وندى بسطاً  
 لبوساً من الماذي لانعقٍ وانعطاً  
 به أثرٌ يعزوه للحيّة الرقطاً  
 بهنّ وقد أبصرن عاريةً مرطاً

ويغزو في آفاقِ أندلسِ العدا  
 وكلّ جواد خفّ سنبكه فمسا  
 يؤمُّ بها الأعداءَ ملكٌ أمامه  
 ويرمي جبالَ الفتحِ من شطّ سببته  
 بحيث التقى بالحضرِ موسى ، وطارقٌ<sup>٤</sup>  
 وسعيك ينسي ذكرَ سعيهما به  
 ويوقعُ في الأعداءِ أعظمَ وقعةً  
 تجاوبُ سحُومُ الطيرِ فيه وشهها  
 وتنكرُ فيها الجوّ والأرضَ أعينٌ<sup>٥</sup>  
 فتخضبُ منهم من أشابتَ بخوفها  
 ويحسمُ أدواءَ العدا كلُّ صارمٍ<sup>٦</sup>  
 وكلُّ كميّ كلما خطّ صفحةً  
 شجاع إذا التفّ الرماحان مثل ما  
 إذا ما رجّت منه أعاديه غيرةً  
 فيجدعُ آنافَ العداة بسيفه  
 يبيدُ الأعادي سطوةً ومكيدةً  
 سرى في طلابِ المعلوات فلم يزل  
 ولو نازعت يمناهُ جذباً شماله  
 يصولُ بخطّي لكلّ مرشّة  
 قناه تبصر الآكام فرعاً كواسياً

١ فرطاً : سبقاً وإسراعاً .

٢ الديوان : كل ضارب .

٣ الديوان : تنفلن .

٤ في الأصل : قسطاً ، بسطاً ، والتصويب عن الديوان .

٥ في الأصول : قى ، والتصويب عن الديوان .

إِذَا نُسِبَتْ لِلخَطِّ أَوْ لِرُدْيَنَةِ  
 كَمَاةٌ حَمَاةٌ مَا يَزَالُ إِلَى الوَغَى  
 عَلَيْهِمْ نَسِيحُ السَابِغَاتِ كَأَنَّهَا  
 إِذَا لُمِعَ لِلشَّمْسِ لَاحَتْ عَلَيْهِمْ  
 تَرَجْرَجُ كَالزَّرَاقِ لِينًا وَمِثْلَهُ  
 جِيوشٌ إِذَا غَطَى البِلَادَ عِبَابُهَا  
 فَكَمْ قَدْ حَكَتْ فِي حَصْرِ حِصْنٍ وَمَعْقِلٍ  
 وَخَيْلٍ كَأَمْثَالِ النَّعَامِ تَخَالُهَا  
 تَخِيلُهَا فَتُخَا إِذَا ارْتَفَعَتْ وَإِنْ  
 فِينَعُ مِنْهَا مَرَطٌ كُلُّ عَجَاجَةٍ  
 وَكَمْ خَالَطَتْ سَمَرَ الرَّمَاحِ وَأُورِدَتْ  
 يَجْمُونَهَا لَيْلَ السُّرَى فَإِذَا دَعَا  
 فَكَمْ جَنِبُهَا خَلْفَ مَعْتَادَةِ السُّرَى  
 وَقَدْ وَسَمَتْ أَعْنَاقَهُنَّ أَزْمَةً  
 إِذَا أُوقِدَتْ نَارًا بِقَذْفِ الحِصَا حَكَتْ  
 إِمَامَ الهُدَى أَعْلَيْتَ لِلدِّينِ مَعْلَمًا  
 وَأَلْقَحْتَهُمْ عَقْمَ المَيِّ عَنْ حِيَالِهَا  
 وَصِيرَهُمْ فِي عَقْلَةٍ سَارِحَ العِدَا  
 وَمَنْ كَانَ يَشْكُو سَطْوَةَ الدهْرِ قَدْ غَدَا

نَسِبَنَ إِلَى العَلْيَا رَدِيَنَةَ وَالخَطَّ  
 حَنِينٌ لَهُمْ مَا حَنَ نَضُوءٌ وَمَا أَطَا  
 جَلُودٌ عَنِ الحَيَاتِ قَدْ كُشِطَتْ كَشِطَا  
 رَأَيْتَ صِلَالًا أَلْبَسَتْ حُلُلًا رُقَطَا  
 تَرَى نَقْطَةً مِنْ بَعْدِ مَا طَرَحَتْ خَطَّ  
 وَأَمَاجِهَا غَطَّتْ نَفُوسَ العِدَا غَطَّ  
 وَشَاحًا عَلَى خَصْرِ فَاسْتَفَنَهُ ٢ ضَغَطَا  
 لِإِفْرَاطِ لُوكِ اللُّجْمِ تَبَغِي لَهَا سِرطَا  
 سَبِجْنِ بِمَاءِ خَلْتِهَا خَفَّةً بَطَّ  
 مَوَازِعَ لَا يَسْأَمُنَ مَرًّا وَلَا مَرطَا  
 مِيَاهًا غَدَتِ حَمْرُ الدَّمَاءِ لَهَا خَلطَا  
 نَزَالِ امْتَطَوْا مِنْهُنَّ أَشْرَفَ مَا يَمِطِي  
 عَوَارِفَ لَمْ تَسْمَعِ لَهَا أذُنٌ نَحَطَا  
 بِطُولِ السُّرَى حَتَّى تَظُنَّ لَهَا عِلطَا ٣  
 وَبِحَجْرِ الدَّجِي طَامٍ سَفِينًا رَمَتْ نَفطَا  
 وَسَمَّتَ العِدَا مِنْ بَعْدِ رَفَعْتَهُمْ حَطَّ  
 فَمَا وَلَدَتْ عَقْمًا وَلَا نَتَجَتْ سَقَطَا  
 وَسَرَحْتُمْ الأَمَالَ مِنْ عَقْلِهَا نَشطَا  
 بَعْدَ ذَلِكَ لَا يُعْغَدِي عَلَيْهِ وَلَا يُسْطِي

١ الديوان : تدحرج كالزراوق .

٢ الديوان : فأوسعته .

٣ ق ودوزي : حتى تظن بها غلطا .

٤ في الأصول : وألحفهم .

٥ ق : وصيرتهم .

ففي كلِّ حالٍ تَوَثَّرُ القسَطَ جاريًا  
 فبوركتَ سِبْطاً جَدُّهُ عُمَرُ الرضَى  
 تلوتَ الإمامَ العدلَ<sup>١</sup> يحيى فلم تزلْ  
 فزدتَهم وضوحاً بعده واستقامَةً  
 وما كان أبقي غايَةً غيرَ أنه  
 إذا دُرِّرَ الأملَكِ<sup>٢</sup> في الفخرِ نُظِّمَتِ  
 وله أيضاً<sup>٣</sup> فيه :

في كلِّ أفقٍ من صباحٍ دجاكُمُ  
 راقَتِ محاسنُ مجدكم فبِهَرَنَ مسا  
 نورٌ جلا خيطَ الظلامِ بخيطِهِ  
 كُسيَّتَهُ من حَبَرِ المديحِ وربطِهِ

وله - رحمه الله تعالى - عدة تأليف ، وولد سنة ٦٠٨ ، وتوفي ليلة السبت ٢٤ رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس ، وممن أخذ عنه الحافظ ابن رشيد الفهري ، وذكره في رحلته وأثنى عليه ، كما أثنى عليه العبدري في رحلته ، فقال : حازم ، وما أدراك ما حازم ، وقد عرَّفْتُ به في «أزهار الرياض» ممّا يغني عن الإعادة ، وكان هو والحافظ أبو عبد الله ابن الأبار فرسيّ رِهان ، غير أن ابن الأبار كان أكثر منه رواية .

٢١٨ - وهو الإمام الحافظ الكاتب الناظم المؤلف الراوية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن عبد الله بن أبي بكر ، القضاعي ، الأندلسي ، البليكنسي<sup>٤</sup> ، كتب ببليسية عن السيد أبي عبد الله ابن السيد أبي حفص ابن أمير

١ العدل : سقطت من ق .

٢ الديوان : دول الأملك .

٣ أيضاً : سقطت من ق ؛ والبيتان في الديوان : ٧٣ .

٤ ترجمة ابن الأبار في اختصار القحج : ١٩١ وأزهار الرياض ٣ : ٢٠٤ وعنوان الدراية : =

المؤمنين عبد المؤمن بن علي ، ثم عن ابنه السيد أبي زيد ، ثم كتب عن الأمير ابن مردنيش ، ولما نازل الطاغية بِلَنْسِيَّة بعثه الأمير زيان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة للسلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص وفي ضمن ذلك استصرخه لدفع عادية العدو ، فأنشد السلطان قصيدته السينية التي مطلعها :

أدرك بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجَاتِهَا دَرَسَا

وقد ذكرناها في غير هذا الموضع ، ثم لما كان من أمر بلنسية ما كان رجع بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه ، فنزل منه بخير مكان ، ورشحه لكتبة علامته في صدور مكاتباته ، فكتبها مدة ، ثم أراد السلطان صرفها لأبي العباس الغساني لكونه يحسن كتابتها ، فكتبها مدة بالخط المشرقي ، وكان أثر عند السلطان من المغربي ، فسخط ابن الأبار أنفةً من إيثار غيره عليه ، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه ، لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه ، وأن يبقى موضع العلامة منه لكتابها ، فجاهر بالرد ، ووضعها استبداداً وأنفة ، وعتب على ذلك ، فاستشاط غضباً ، ورمى بالقلم ، وأنشد متمثلاً :

اطلُبِ العِزَّ فِي لَطْفِي وَذَرِ الذَّلَّ لَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الخُلُودِ

فنمي ذلك إلى السلطان ، فأمر بلزومه بيته ، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب ، وأعتبه ، وسماه « إعتاب الكتاب » واستشفع فيه بابنه المستنصر ، فغفر السلطان له ، وأقال عثرته ، وأعادته إلى الكتابة ، ولما توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضور مجلسه ، ثم حصلت له أمور معه كان آخرها أنه تقبض عليه ، وبُعث إلى داره ، فرفعت إليه كتبه أجمع ، وألقى أثناءها ، فيما زعموا ، رقعةً بأبيات أولها :

= ١٨٧ والفوات ٢ : ٤٥٠ وشذرات الذهب ٥ : ٢٧٥ والمغرب ٢ : ٣٠٩ وقد كتب عنه

الدكتور عبد العزيز عبد المجيد دراسة في كتاب ( طبع بمعهد مولاي الحسن : ١٩٥١ ) .

طغى بتونس خلفٌ سموه ظلماً خليفه

فاستشاط السلطان لها ، وأمر بامتحانها ، ثم بقتله ، فقتل قَعْصاً بالرماح  
وسط محرّم سنة ٦٥٨ ، ثم أحرق شِلْوُه ، وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه  
ودواوينه فأحرقت معه ، وكان مولده ببِلَنْسِيَّة سنة ٥٩٥ .

وقال في حقه ابن سعيد في « المغرب » ما ملخصه <sup>١</sup> : حامل راية الإحسان ،  
المشار إليه في هذا الأوان ، ومن شعره قوله يصف الياسمين <sup>٢</sup> :

حديقة ياسمين لا تهيمُ بغيرها الحدقُ  
إذا جفّن الغمام بكى تسمّ ثغرُها اليققُ  
فأطرافُ الأهلّةِ سا ل في أثنائها الشفقُ

وكتب إلى الوزير أبي عبدالله ابن أبي الحسين ابن سعيد يستدعي منه منشوراً <sup>٣</sup> :

لك الخيرُ أتخفي بخيري روضة لأنفاسه عند الهجوم هبوبُ  
أليس أديبُ الروض يجعل ليله نهاراً فيذكو تحته ويطيبُ  
ويطوى مع الإصباح منشورُ نشره كما بان عن ربع المحبّ حبيبُ  
أهيمُ به عن نسبة أديبّة ولا غرو أن يهوى الأديب أديبُ

وقوله في الحسوف <sup>٤</sup> :

نظرتُ إلى البدر عند الحسوفِ وقد شينَ منظره الأزينُ  
كما سفرتُ صفحةً للحبيبِ ب يحجبها برقعٌ أدكنُ

١ هذا النقل غير موجود في المغرب المطبوع ، فيما أن المقرئ ينقل عن نسخة أخرى وإما أنه ينقل  
عن القدح الملئ .

٢ المغرب ٢ : ٣١٠ ، واختصار القدح : ١٩١ .

٣ المغرب : ٣١٠ ، واختصار القدح : ١٩٢ .

٤ المغرب : ٣١٠ .

وقوله في المعنى ١ :

ألم ترَ للخسوفِ وكيف أبدى      بيدرِ التَّمِّ لَمَاعِ الضياءِ  
كمرآةٍ جلاها القيسنُ حتى      أنارتُ ثمَّ رُدَّتْ في غشاءِ

وقوله :

والثريا بجانبِ البدرِ تحكي      راحةً أو مأتً لتلطمَ خدّاً

وقوله ٢ :

مَنْ عاذري من بابلي طرفه      ولعمره ما حَلَّ يوماً بابلا  
أعتدّه خوفاً لعيشي ناعماً      فيعودُ خطيباً لقتلي ذابلا

وهو حافظ متقن ، له في الحديث والأدب تصانيف ، وله كتاب في متخير الأشعار سماه «قطع الرياض» و«تكملة الصلة» لابن بَشْكُوَال ، و«هداية المعترف في المؤلف والمختلف» ، وكتاب التاريخ ، وبسببه قتله صاحب إفريقية ، وأحرقت كتبه على ما بلغنا ، رحمه الله تعالى ، وله «تحفة القادم في شعراء الأندلس» ، و«الحلة السراء في أشعار الأمراء» ٣ .

ومن شعره قوله :

أمري عجيبٌ في الأمورِ      بين التواري والظهورِ  
مستعمَلٌ عندَ المغيِّ      بٍ ومُهْمَلٌ عندَ الحضورِ

وسبب هذا أن ملك تونس كان إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغز أو

١ اختصار القدح : ٣٤٨ .

٢ اختصار القدح : ١٩٣ ، والمغرب ٢ : ٣١٢ .

٣ طبع من كتبه الحلة السراء وتكملة الصلة والمقتضب من تحفة القادم وإعتاب الكتاب ومعجم أصحاب الصدي .



مُعَمَّى أو مترجم بعث به إليه ، فيحله ، وإذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتفت إليه ، ووجد في تعاليقه ما يشين دولة صاحب تونس ، فأمر بضربه ، ففُضِرِبَ حتى مات ، وأُحْرِقَت كتبه ، رحمه الله تعالى ، وكان أعداؤه يلقبونه بالفار ، وحصلت بينه وبين أبي الحسن علي بن شلبون المعافري البَلَنْسِي مُهَاجَاةٌ ، فقال فيه <sup>١</sup> :

لا تَعَجَبُوا لِمُضْرَّةٍ نَالَتْ جَمِيْعَ  
أوليسَ فَاَرَأَى خَلِيْقَةً وَخَلِيْقَةً  
معَ النَّاسِ صَادِرَةٌ عَنِ الْأَبَارِ  
والفَارُ مَجْبُولٌ عَلَى الْإِضْرَارِ  
فَأَجَابَهُ ابْنُ الْأَبَارِ :

قُلْ لَابْنَ شَلْبُونٍ مَقَالَ تَسْرَهُ  
غَيْرِي يَجَارِيكَ الْهَجَاءَ فَجَارِ  
[ إِنَّا اقْتَسَمْنَا خَطَّتَيْنَا بَيْنَنَا  
فَحَمَلْتُ بَرَّةً وَاحْتَمَلْتَ فَجَارِ ]

وهذا مضمَّن من شعر النابغة الذبياني ، انتهى ما لخصناه من كلام ابن سعيد في حقه .

ومن شعر ابن الأبار أيضاً :

لو عنَّ لي عونٌ من المقدارِ  
وهجرتُ للدارِ الكريمةِ داري  
وحللتُ أطيبَ طيبةٍ من طيبةِ  
جاراً لمن أوصى بحفظِ الجارِ  
حيث استبانَ الحقُّ للأبصارِ  
لَمَّا استثارَ حفاظَ الأنصارِ  
يا زائرينَ القبرِ قبرَ محمدٍ  
بُشِّرِي لَكُمْ بِالسَّبْقِ فِي الزَّوَارِ  
أَوْضَعْتُمْ لِنَجَاتِكُمْ فَوْضَعْتُمْ  
ما آدكم من فادحِ الأوزارِ  
فوزوا بسبقكمُ وفوهوا بالذي  
حُمِّلْتُمْ شَوْقاً إِلَى الْمُخْتَارِ

١ هو علي بن لب بن شلبون البَلَنْسِي أبو الحسن وترجمته والأبيات في الدليل والتكملة ٥ : ٢٧٤ ، وله ترجمة في تحفة القادم : ١٥١ .

أدُّوا السَّلَامَ سَلِمَتْ وِبَرْدِهِ أَرْجُو الإِجَارَةَ مِنْ وَرُودِ النَّارِ

اللَّهُمَّ أَجْرْنَا مِنْهَا يَا رَحِيمُ يَا رَحْمَنُ يَا كَرِيمُ .

وَلنَخْتَمُ تَرْجَمَتَهُ بِقَوْلِهِ :

رَجَوْتُ اللَّهَ فِي اللَّأْوَاءِ لَمَّا بَلَوْتُ النَّاسَ مِنْ سَاهٍ وَلاهِي

فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّي فَأِنِّي غَنِيْتُ بِالْإِفْتِقَارِ إِلَى إلهِي

وَقَدْ جَوَّدَتْ تَرْجَمَتَهُ فِي « أَزْهَارِ الرِّيَاضِ فِي أَخْبَارِ عِيَاضِ » فَلْيَرِاجِعْ ذَلِكَ

فِيهِ مِنْ شَاءَ .

رَجِعْ إِلَى مَا كَتَبْنَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ الْمُرْتَحِلِينَ مِنَ الأَنْدَلُسِ إِلَى الْمَشْرِقِ :

٢١٩ - وَمِنْهُمْ الْحَافِظُ أَبُو الْمَكَارِمِ جَمَالُ الدِّينِ بْنِ مُسَدِّي ، وَهُوَ أَبُو بَكْرٍ

مُحَمَّدٌ ، وَيُقَالُ : أَبُو الْمَكَارِمِ ، ابْنُ أَبِي أَحْمَدَ يَوْسُفَ بْنِ مُوسَى بْنِ يَوْسُفَ بْنِ مُوسَى  
ابْنِ مُسَدِّي ، الْمَهْلَبِيُّ ، الأَزْدِيُّ ، الأَنْدَلُسِيُّ .

شَيْخُ السَّنَةِ ، وَحَامِلُ رَايَاتِهَا ، وَفَرِيدُ الفُنُونِ ، وَمُحَكِّمُ آيَاتِهَا ، عَرَفَ الأَحَادِيثَ  
وَمِيزَ بَيْنَ شَهْرَتِهَا وَغَرَابَتِهَا ، وَكَانَ المَتَلَقِّي لِرَايَةِ السَّنَةِ بِيَمِينِ عَرَابَتِهَا ، طَلَعَ بِمَغْرِبِهِ  
شَمْسًا قَبْلَ بَزْوُغِهِ بِأَفُقِ المَشْرِقِ ، وَمَلَأَ جَزِيرَتَهُ الخُضْرَاءَ مِنْ بَحْرِ عُلُومِهِ المَتَدَفِّقِ ،  
وَأَفْعَمَهَا بِنُورِهِ المَشْرِقِ ، وَطَافَ البِلَادَ الإِسْلَامِيَّةَ المَغْرِبِيَّةَ وَالمَشْرِقِيَّةَ ، فَعَقَّدَتْ عَلَى  
كِمَالِهِ الخُنَاصِرَ ، وَجَعَلَهُ أَرْبَابُ الدَّرَايَةِ لِمَقَلَّةِ الدِّينِ البَاصِرِ ، وَلَقِيَ أَعْيَانَ الشُّيُوخِ  
فِي القُطْرَيْنِ ، وَأَخَذَ عَنْهُمْ مَا تَقَرَّرَ بِهِ العَيْنُ ، وَيُدْفَعُ بِهِ عَنِ القَلْبِ الرَّيِّ ، مَعَ  
فِصَاحَةِ لِسَانِهِ ، وَطَلَاقَةِ بَيَانِ وَبِنَانِهِ ، وَخِلَالِ حَسَانِهِ ، وَبِإِعْلَافَةِ سَحْبَتِهِ عَلَى سَحَابَانِ ،  
وَظَهَرَ أَزْهَارُ بَانِهِ ، وَفُوضَتْ إِلَيْهِ خُطَابَةُ الحَرَمِ الشَّرِيفِ بِمَكَّةَ فَكَانَ كَمَا يُقَالُ :

هَذَا السُّوَارُ لِمِثْلِ هَذَا المَعْصَمِ

١ تَرْجَمَةُ ابْنِ مُسَدِّي فِي تَذَكْرَةِ الحَافِظِ : ١٤٤٨ ، وَشُدْرَاتُ الذَّهَبِ ٥ : ٣١٣ .

فكم وَتَنَّى بها من مطارف للبلاغة وكم عَنَّم ، حتى يظن الرائي عود منبره من وعظه مائساً ، ولئن مال من سجع الحمام رطباً فقد مال من سجع هذا الإمام يابساً، وترجم على من لقي من الأعيان بسحر البيان، وفَصَّل أحوالهم بأحسن تبيان، وعدتهم أربعة آلاف شيخ وناهيك بهذه مزية تقاد لها الفضائل في أرسان ، وأرى تحقيق قول القائل : جمع الله تعالى العالم في إنسان ، وله موضوعات مفيدة من حديث وفقه ونظم ونثر ، وله مُسْتَدَّ غريب جمع فيه مذاهب العلماء المتقدمين والمتأخرين ، وهو أشهر من نارٍ على عكَم ، وكان يكتب بالقلمين المغربي والمشرقي ، وكلاهما في غاية الجودة ، ومثل هذا يُعدُّ نادراً ، توفي شهيداً مطعوماً من أناس كانوا يحسدونه ، فحَمَّ الله تعالى له بالشهادة ، وبُؤىء بها دار السعادة ، وتوفي سنة ٦٦٣ بمكة ، ومولده سنة ٥٩٨ ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا بأمثاله .

٢٢٠- ومنهم الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقي القِبْتَوْرِي<sup>٢</sup> - بفتح القاف ، وسكون الباء الموحدة ، وفتح التاء ثالثة الحروف ، وسكون الواو ، وبعدها راء - الإشبيلي المولد والمنشأ ، ولد في شوال سنة ٦١٥ ، وقرأ على الأستاذ الدباج كتاب سيبويه والسبع ، وله باع مديد في الترسل مع التقوى والخير ، وله إجازة من الرضي بن برهان والنجيب بن الصيقل ، وكتب لأمير سَبْتَةَ ، وحدث بتونس عن الغرافي ، وجاور زماناً ، وتوفي بالمدينة سنة ٣٧٠٤ ، وحج مرتين .

قال أبو حيان : قدم القاهرة مرتين ، وحج في الأولى ، وأنشدني من لفظه لنفسه :

أسيلي الدمعَ يا عيني ولكن دماً ، ويقلُّ ذلك لي ، أسيلي

١ ق ودوزي : المتقدمين والمتقدمين .

٢ ترجمة خلف بن عبد العزيز القبتوري في بغية الوعاة : ٢٤٢ نقلا عن الصفي والدرر الكامنة .

٣ ق : ٧٤٠ وهو مخالف لما في المصادر .

فكم في التُّرْبِ من طرف كحيلٍ لَتَرِبِ لي ومن خَدِّ أسيلٍ

وقال :

ماذا جَنَيْتُ على نَفْسِي بما كَتَبْتُ ولو يشاء الذي أجرى عليَّ بسداً  
كفِّي ، فيا وَيْحَ نَفْسِي من أذى كَفِّي قضاءه الكفَّ عنه كنت ذا كفِّ

وقال :

واحسرتنا لأمرٍ لَيْسَ يبلغها مسالي وهُنَّ مَنَى نَفْسِي وآمالي  
أصبحتُ كالآل لا جَدوى لديَّ وما أَلَوْتُ جَهْداً ولكن جَدِّي الآلي

وقال العلامة فتح الدين ابن سيد الناس إنه أنشده لنفسه بالحرم الشريف النبوي سنة ثلاث وسبعمائة<sup>١</sup> :

رجوتك يا رحمن إنك خير من رجاهُ لغُضْرانِ الجرائمِ مُرْتَجِي  
فرحمتك العظْمى التي ليس بابها وحاشاك في وجه الميِّءِ بِمُرتَجِي

وقد أنشد له أبو حيان كثيراً من نظمه ، رحمه الله تعالى .

٢٢١ - ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي الخليل ، الأموي الإشبيلي ، النباتي ، المعروف بابن الرومية<sup>٢</sup> ، كان عارفاً بالعُشْبِ والنبات ، صنف كتاباً حسناً كثير الفائدة في الحشائش ، ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم ، ورحل إلى البلاد ، ودخل حلب ، وسمع الحديث بالأندلس وغيرها .  
وقال البرزالي في حقه : إنه كان يعرف الحشائش معرفة جيدة ، وسمع

١ البيتان في البغية والدرر الكامنة .

٢ ترجمة ابن الرومية في اختصار الفتح : ١٨١ والإحاطة ١ : ٢٢٠ وتذكرة الحفاظ : ١٤٢٥

والتكملة : ١٢١ وبرنامج الرعيي : ١٤٢ والديباج : ٤٢ .

الحديث بدمشق من ابن الحرستاني ، وابن ملاعب ، وابن العطار ، وغيرهم ، وقال بعضهم : اجتمعت به ، وتفاوضت معه في ذكر الحشائش ، فقلت له : قصب الذريرة قد ذُكر في كتب الطب ، وذكروا أنه يُستعمل منه شيء كثير ، وهذا يدل على أنه كان موجوداً كثيراً ، وأما الآن فلا يوجد ، ولا يخبر عنه مخبر ، فقال : هو موجود ، وإنما لا يعلمون أين يطلبونه ، فقلت له : وأين هو ؟ فقال : بالأهواز منه شيء كثير ، انتهى ١ .

وأجاز البحر بعد سنة ٥٨٠ للقاء ابن عبيد الله بسببته فلم يتها له ذلك ، وحج - رحمه الله تعالى - في رحلته الأولى ، ولقي كثيراً ، وروى عن عدد من رجال ونساء ضمنهم التذكرة له ، وله مختصر كتاب « الكامل » لأحمد بن عدي في رجال الحديث ، وله كتاب « المعلم بما زاده البخاري على كتاب مسلم » . ويُعرف بالنباتي لمعرفة بالنبات ، ومولده في نحو سنة ٥٦١ ، وتوفي رحمه الله تعالى بإشبيلية منسلاً ربيع النبوي سنة ٦٣٧ ، وقد رثاه أناس من تلامذته ، وألف بعضهم في التعريف به ، وسمع من ابن زرقون وابن الحد وابن عفير وغير واحد كأبي ذر الحبشي ، وسمع ببغداد من جماعة ، وحدث بمصر الأحاديث من حفظه ، ويقال له « الحزمي » - بفتح الحاء - نسبة إلى مذهب ابن حزم لأنه كان ظاهري المذهب ، وكان زاهداً صالحاً ، وحكى بعضهم عنه أنه كان جالساً في دكانه بإشبيلية يبيع الحشائش وينسخ ، فاجتاز به الأمير أبو عبد الله ابن هود سلطان الأندلس ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، واشتغل بنسخه ، ولم يرفع إليه رأسه ، فبقي واقفاً منتظراً أن يرفع إليه رأسه ، ساعة طويلة ، فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى ، وله كتابان حسنان في علم الحديث : أحدهما يقال له « الحافل في تكملة الكامل » لابن عدي ، وهو كتاب كبير ، قال ابن الأبار : سمعت شيخنا أبا الخطاب ابن واجب يثني عليه ويستحسنه ؛ والثاني اختصر فيه

١ انتهى : سقطت من ق .

الكامل لأبي أحمد ابن عدي كما سبق في مجلدين ، وسمع بدمشق والموصل وغيرهما جماعة من أصحاب الحافظ أبي الوقت السجزي وأبي الفتح ابن البطي وأبي عبد الله الغراوي وغيرهم من الأئمة ، وله فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالأندلس من روايته بالمشرق ، وكان متعصباً لابن حزم بعد أن تفقه في المذهب المالكي على ابن زرقون أبي الحسين ، وطالت صحبته له ، وكان بصيراً بالحديث ورجاله ، كثير العناية به ، واختصر كتاب الدارقطني في غريب حديث مالك ، وغيره أضبط منه ، وفاق أهل زمانه في معرفة النبات ، وقعد في دكان لبيعه ، قال ابن الأبار : وهناك رأيت ولقيته غير مرة ، ولم آخذ عنه ، ولم أستجزه ، وسمع منه جل أصحابنا ، ومولده في شهر المحرم سنة ١٥٦٧ ، وتوفي بإشبيلية ليلة الاثنين مستهل ربيع الآخر سنة ٦٣٧ ، وقال ابن زرقون : منسلخ شهر ربيع الأول ، وحكى ذلك عن ولده أبي النور محمد بن أحمد ، انتهى .

٢٢٢ - ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام ، الغافقي ، الإشبيلي ، الشهير بالمسيلي<sup>٣</sup> ، رحل حاجاً ، وقفل إلى بلده ، وحدث عنه أبو بكر ابن خير بوفاة القاضي ابن أبي حبيب ، وروى عن أبي محمد ابن أبي السعادات المروودي الخراساني ، وأنه أنشده بئغر الإسكندرية عند وداعه إياه ، قال : أنشدني أبو تراب جندل<sup>٤</sup> عند الوداع لبعضهم :

السَّمُّ من ألسِنِ الأفاعي      أعذبُ من قبلة الوداعِ  
وَدَعْتَهُم والدموع تجري      لما دعا للوداعِ داعي

٢٢٣ - ومنهم أبو العباس - ويقال : أبو جعفر - أحمد بن معد بن عيسى

١ التكملة : سنة إحدى وستين وخمسة .

٢ ق : ٦٣٨ ، وهو مخالف لما في التكملة .

٣ ترجمة المسيلي في التكملة : ٦٠ .

٤ التكملة : ابن جندل .

ابن وكيل ، التجيبي ، الزاهد ، ويُعرف بابن الإقليشي<sup>١</sup> ، صاحب كتاب « النجم من كلام سيد العرب والعجم » ، صلتى الله عليه وسلّم ، عارض به شهاب القضاعي ، وأصل أبيه من اقليش ، وضبطها بعضهم بضم الهزرة ، وسكن دانية وبها ولد ونشأ ، سمع أباه أبا بكر وأبا العباس ابن عيسى ، وتلمذ له ، ورحل إلى بَلَنْسِيَةَ فأخذ العربية والآداب عن أبي محمد البَطَلَيْوْسِي . وسمع الحديث من صهره أبي الحسن طارق بن يعيش والحافظ أبي بكر ابن العربي وأبوي الوليد : ابن خيرة وابن الدباغ ، ولقي بالمرية أبا القاسم ابن ورد وأبا محمد عبدالحق بن عطية ووليّ الله سيدي أبا العباس ابن العريف ، ورحل إلى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وجاور بمكة سنين ، وسمع بها من أبي الفتح الكروخي جامع الترمذي برباط أم الخليفة العباسي سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، ثم كر راجعاً إلى المغرب فقُبُضَ في طريقه ، وحدث بالأندلس والمشرق ، وكان عالماً ، عاملاً ، متصوفاً ، شاعراً مجوداً ، مع التقدم في الصلاح والزهد والعزوف عن الدنيا وأهلها ، والإقبال على العلم والعبادة ، وله تصانيف : منها كتاب « الغُرَر من كلام سيد البشر » وكتاب « ضياء الأولياء » وهو أسفار عدة ، وحمل الناس عنه معشراته في الزهد ، وكتبها الناس ، وكان يضع يده على وجهه إذا قرأ القارىء فيكي حتى يعجب الناس من بكائه . وكان الناس يدخلون عليه بيته والكتب عن يمينه وشماله ، وقد وصف غير واحد إمامته وعلمه وورعه وزهده ، وروى عنه أبو الحسين ابن كوثر وابن بيش وغيرهما .

ومن شعره قوله<sup>٢</sup> :

أسير الخطايا عند بابك واقف له عن طريق الحق قلب مخالف

١ ترجمة ابن معد الإقليشي في التكملة : ٦٠ ، وإنباء الرواة ١ : ١٧٦ ، وأخبار وتراجم أندلسية : ٢٤ ، وياقوت « اقليش » .  
٢ الشعر في التكملة : ٦١ .

قديمًا عصي عمداً وجهلاً وغرّةً  
 تزيدُ سنوهُ وهو يزداد ضلّةً  
 تطلّعَ صبحَ الشَّيبِ والقَلْبُ مظلم  
 ثلاثون عاماً قد تولّتْ كأنها  
 وجاء المشيب المنذر المرء أنهُ  
 فيا أحمد الخوآن قد أدبر الصبا  
 فهل أرق الطرف الزمان الذي مضى  
 فجدُ بالدموع الحمر حزناً وحسرةً  
 ولم ينهه قلبٌ من الله خائف  
 فها هو في ليلِ الضلالةِ عاكف  
 فما طاف منه من سنى الحق طائف  
 حلومٌ تقصّتْ أو بروقِ خواطف  
 إذا رحلتْ عنه الشبية تالف  
 وناداك من سن الكهولة هاتف  
 وأبكاهُ ذنبٌ قد تقدّم سالف  
 فدمعك يُني أن قلبك آسف

وقد وافق في أول هذه القطعة قول أبي الوليد ابن الفرّاضي ، أو أخذه منه نقلاً ، وتوفي في صدره عن المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر في عشر الحَمسين وخمسمائة ، ودفن عند الجميزة التي في المقبرة التالية لسوق العرب ، وقال ابن عياد: إنه توفي سنة خمسين أو إحدى وخمسين بعدها — رحمه الله تعالى — وقد نيّف على الستين .

٢٢٤ — ومنهم أبو العباس أحمد بن عمر ، المعافري ، المُرسِي<sup>١</sup> ، وأصله من طليبة ، ويُعرف بابن إفرند<sup>٢</sup> ، روى عن أبي الحسين الصفدي<sup>٣</sup> وغيره كالقاضي الحافظ أبي بكر ابن العربي وأبي محمد الرشاطي وأبي إسحاق ابن حبيش وغيرهم ، وله رحلة حج فيها ، ولقي أبا الفتح ابن الرندانقاني — بلد بين سرخس ومرو — من أصحاب أبي حامد الغزالي ، وأنشد عنه ممّا قاله في وداع إخوانه بالبيت المقدس :

لئن كان لي من بعدُ عودٌ إليكمُ  
 قضيتُ لُباناتِ الفؤادِ لديكمُ

١ ترجمة أحمد بن عمر المعافري في التكملة : ٧٢ .

٢ التكملة : بابن إفرندو .

٣ أكبر الظن أن هذا خطأ ، ففي التكملة روى عن أبي علي ابن سكرة وهذا هو الصفدي .



وإن تكن الأخرى ولم تك أوبة<sup>١</sup> وحن حامي فالسلام عليكم

وقد روى هذين البيتين أبو عمر ابن عياد وابنه محمد عن ابن إفرند هذا ، وكان صالحاً زاهداً متصوفاً ، رحمه الله تعالى .

٢٢٥ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن عميرة بن يحيى ، الضبي<sup>١</sup> ، من أهل لورقة<sup>٢</sup> ، رحل حاجاً ، وكان منقبضاً زاهداً صواماً قواماً ، وأقرأ القرآن ، وأسمع الحديث ، وممن حدث عنه الحافظان أبو سليمان وأبو محمد ابن جوط الله ، ولقيه أبو سليمان<sup>٢</sup> بلورقة سنة ٥٧٥ ، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٥٧٧ ، وقد قارب المائة .

٢٢٦ - ومنهم أبو عمر ابن عات ، وهو أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي<sup>٣</sup> ، من أهل شاطبة ، سمع أباه وأبا الحسن ابن هذيل وأبا عبد الله ابن سعادة وابن حبيش وغير واحد وطائفة كثيرة ، ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، وسمع أبا الطاهر السلفي وأبا الطاهر ابن عوف وغيرهما ممن يطول ذكره ، وأجاز له أبو الفرج ابن الجوزي وغيره ممن أخذ عنه وسمع منه ، وقد ضمن ذكر أشيائه وجملته صالحة من مروياته عنهم برناجيه اللذين سمى أحدهما بـ « النزهة في التعريف بشيوخ الوجهة » وهو كتاب حافل جامع ، والآخر بـ « ريحانة التنفس وراحة الأنفس في ذكر شيوخ الأندلس » . قال ابن عبد الملك المراكشي في الصلاة<sup>٤</sup> : حدثنا عنه شيخنا أبو محمد حسن بن علي بن

١ ترجمة أبي جعفر الضبي في التكملة : ٧٩ ، والمقري ينقل عنها بإيجاز .

٢ يعني ابن حوط الله .

٣ ترجمة أبي عمر ابن عات في التكملة : ١٠١ والنقل عنها باختصار وعن غيرها وخاصة الذيل

والتكملة ؛ وانظر الديباج : ٥٩ .

٤ الصواب : في الذيل والتكملة .

القطان ، وكان من أكابر المحدثين ، وجملة الحفاظ<sup>١</sup> المسندين للحديث والآداب بلا مدافعة ، يسرد الأسانيد والمتون ظاهراً فلا يخل بحفظ شيء منها ، متوسط الطبقة في حفظ فروع الفقه ومعرفة المسائل ، إذ لم يُعَنَ بذلك عنايته بغيره ، فكان أهل شاطبة يفاخرون بأبوي عمر ابن عبد البر وابن عات ، وكان على سَنَنِ السلف الصالح في الانتباض ، ونزارة الكلام ، ومثانة الدين ، وأكل الحشف ، ولزوم التقشف ، والتقلل من الدنيا ، والزهد فيها ، والمثابرة على كثير من أفعال البر كالأذان والإمامة وبذل المعروف والتوسع بالصدقات على الضعفاء والمساكين . وحكي أنه حضر في جماعة من طلبة العلم لسماع السَيْرِ على بعض شيوخهم ، فغاب الكتاب أو القارىء بكتابه ، فقال أبو عمر : أنا أقرأ لكم ، فقرأ لهم من حفظه ، وقال أبو عمر عامر بن نذير : لازمته مدة ستة أشهر ، فلم أرَ أحفظ منه ، وحضرت إسماع الموطأ وصحيح البخاري منه ، فكان يقرأ من كل واحد من الكتابين نحو عشر أوراق عرضاً بلفظه كل يوم عقب صلاة الصبح ، لا يتوقف في شيء من ذلك ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين<sup>٢</sup> : إنه كان آخر<sup>٣</sup> الحفاظ للحديث ، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً لا يخل بحفظ شيء منها ، موصوفاً بالدراية والرواية ، غالباً عليه الورع والزهد ، على منهاج السلف ، يلبس الحَشِينَ ، ويأكل الحشف<sup>٤</sup> ، وربما أذن في المساجد ، وله تأليف دالة على سعة حفظه ، مع حظ من النظم والنثر ، وشهد وقية العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى في تَحْيِيفِ الروم بلادها حتى استولت عليها ، ففقد حينئذٍ ولم يوجد حياً ولا ميتاً ، وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة ،

١ دوزي : وجملة الحفاظ .

٢ هو ابن الأبار في التكملة .

٣ التكملة : أحد .

٤ التكملة : الحشب .

ومولده سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، قاله ابن الأبار ، وهو ممّن أجاز له المذكور فيما رواه أو ألفه ، رحمه الله تعالى .

٢٢٧ - ومنهم أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن حنّون ، البهراني<sup>١</sup> ، من ساكني إشبيلية ، وأصله من لبّلة ، روى عن أبيه وابن الجدي وابن زرقون وابن جهور وغيرهم من أعلام الأندلس ، ثمّ رحل إلى المشرق ، فسمع ببغداد من أبي حفص عمر بن طبرزد ، وبخراسان من المؤيد الطوسي ، وبهراة من أبي روح عبد المعز ، وبمرو من عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني ، ومن جماعة غير هؤلاء ، وسمع أيضاً بدمشق من أبي الفضل الحرّستاني وسواه ، وبها توفي قبل العشرين وستمائة ، فيما نقل ابن الأبار عن ابن نقطة ، وقال غيره : إنه مات سنة خمس وعشرين وستمائة .

٢٢٨ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد ، المخزومي<sup>٢</sup> ، من أهل قرطبة ، ويعرف أبوه بكوزان<sup>٣</sup> ، روى عن أبيه وغيره من مشيخة بلده ، ورحل حاجّاً فلقي بالإسكندرية أبا الحسن ابن المقدسي وسمع منه ، وأنشد من لفظه بعض أصحاب ابن الأبار ، قال : أنشدني شرف الدين أبو الحسن علي بن الفضل المقدسي ، قال : أنشدتني تقيّة<sup>٤</sup> بنت غيث بن علي الأرمنازي لنفسها<sup>٥</sup> :

لا خير في الخمر ، على أنها مذكورة في صفة الجنة  
لأنها إن خامرت عاقلاً خامره في عقله جنة  
يخاف أن تقذفه من عليّ فلا تقي مهجته جنة<sup>٦</sup>

١ ترجمة أحمد بن تميم البهراني في التكملة : ١١٢

٢ ترجمة أحمد بن إبراهيم المخزومي في التكملة : ١١٢ .

٣ التكملة : بكوزان .

٤ ق : بقية وكذلك في دوزي .

٥ زاد في ق : رحمها الله تعالى .

٦ ق : الجنة .

٢٢٩ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن عياش ، الكناني ،  
المُرسي<sup>١</sup> ، سمع من ابن بَشْكُوَال موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى والقعني  
وابن بكير بقراءة أبي محمد ابن حَوَظ الله ، ورحل إلى المشرق سنة تسع وسبعين  
وخمسمائة ، فحج سنة ثمانين بعدها ، وأقام بالحجاز والشام مدة ، ولقي أبا الطاهر  
الخشوعي بدمشق فسمع منه مقامات الحريري وأخذها الناس عنه ، وممّا أفاد  
وزاد في قول الحريري :

إذا ما حويت جني نخلة

الآيات - قوله :

ولا تأسَقَنَّ على خارج إذا ما لمحت صنا الداخل  
ولا تكثُر الصمت في معشر وإن زدت عيباً على باقيل

وسمع من أبي القاسم ابن عساكر السنن للبيهقي ، ومن أبي حفص المياشي  
جامع الترمذي ، وقفل إلى الأندلس في سنة سبع وتسعين ، وحدث بيسير ، وكان  
يحسن عبارة الرؤيا ، وكُفِّ بصره سنة ثمان وعشرين وستمائة أو نحوها ، وتوفي  
على إثر ذلك ، ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

٢٣٠ - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن حصن بن أحمد بن حزم  
الغافقي<sup>٢</sup> ، ويقال فيه : إبراهيم بن حصن بن عبد الله بن حصن ، أندلسي ،  
سكن دمشق ، وولي الحِسْبَةَ بها ، ويكنى أبا إسحاق ، سمع ببغداد من أبي بكر  
ابن مالك القطيعي وطبقته ، وبدمشق من عبد الوهاب الكلابي ويوسف بن القاسم  
المياجي ، وبمصر من أبي طاهر الذُّهلي<sup>٣</sup> وأبي أحمد الغطريفني ، وله أيضاً سماع

١ ترجمة ابن عياش الكناني في التكملة : ١١٨ .

٢ ترجمة إبراهيم بن حصن في التكملة : ١٣٣ وتهذيب ابن عساكر ٢ : ٢٢٢ .

٣ التكملة : الذهبي .

بالرملة وأطرابلس والدينور وغيرها من البلدان ؛ وحدث بيسير ؛ روى عنه أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الله الجبّان من شيوخ عبد العزيز بن أحمد الكنافي ، وكان مالكيّاً ، وقيل : إنه يذهب إلى الاعتزال ، وكان صارماً في الحِسْبَةِ ، ووليها سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم العبّيدي ، وتوفي بدمشق في ذي الحجة سنة أربع وأربعمائة ، قيل : ثاني عيد الأضحى ، وقيل غير ذلك ، ذكره ابن عساكر ، رحمه الله تعالى .

قلت : ما سمعت بمالكي معتزلي غير هذا ، ولعله كان مالكيّاً بالمغرب ، فلمّا دخل في خدمة الشيعة حصل منه ما حصل من نسبه للذهب الاعتزال ، فآله تعالى أعلم .

٢٣١ - ومنهم أبو أمية إبراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد ، الغافقي<sup>١</sup> ، من أهل المرية ، ونزل مُرْسِيَةَ ، سمع ببلده من ابن<sup>٢</sup> شفيح ، وأخذ عنه القراءات ، ومن الحفاظ ابن سُكْرَةَ وابن زغبة<sup>٣</sup> وعبد القادر بن الحناط ، وبقرُطْبَةَ من ابن عتاب وابن طريف وأبي بجر الأسدي وابن مغيث وغيرهم ، ورحل حاجّاً ، فسمع بمكة من أبي عليّ ابن العرجاء أحاديثَ جعفر بن نسطور وغيرها في شعبان سنة ست وعشرين ، وسمع أيضاً من أبي الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسي ، ونقل إلى بلده ، وانتقل بعد الحادثة عليه إلى مُرْسِيَةَ ، وولي القضاء والخطبة هنالك ، وحدث ، وأخذ عنه ، وكان فقيهاً مشاوراً ، وقيل : إن ابن حبيش سمع منه الأحاديث النسطورية ، وأسمع صحيح البخاري آخر ذي الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وكان يحدث به عن سلطان بن إبراهيم عن كريمة المروزية ، وحكى رحمه الله تعالى عن أبي ذرّ الهروي أنه قال عند موته : عليكم بكريمة فإنها تحمل

١ ترجمة إبراهيم بن منبه في التكملة : ١٤٩ .

٢ ابن : سقطت من ق .

٣ كذا في التكملة ؛ ق : ابن زغبة .

كتاب البخاري من طريق أبي الهيثم ، رحم الله تعالى الجميع .

٢٣٢ - ٢٣٣ - ومنهم أبو القاسم ابن فورثش ، وهو إسماعيل بن يحيى ابن عبد الرحمن ، السَّرْقُسطي<sup>١</sup> ، وأخوه القاضي محمد بن يحيى ، وكانا جميعاً زاهدين ، لهما رحلة سمعا فيها من أبي ذر الهروي بمكة ، وعادا إلى بلدهما ، وولي محمد منهما القضاء ، وقد لقيهما القاضي الحافظ أبو علي ابن سُكْرَةَ ولم يسمع منهما ، ويرويان عن أبي عمر الظلمنكي وأبي الحزم ابن أبي درهم ، وتوفي أبو القاسم في نحو الخمسمائة .

٢٣٤ - ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر ، القُرْشي ، العلوي ، الإشبيلي<sup>٢</sup> ، رحل حاجباً ، ودخل العراق والموصل ، وقيد الكثير ورواه ، وسمع من أبي حفص الميائشي بمكة سنة ٥٧٠ ، وحدث بالموطأ عن أبي الحسن علي بن هابيل الأنصاري عن أبي الوليد الباجي ، وحدث أيضاً عن غيره بما دل على أنه كان يخالط ولا يضبط ، وكذلك قال أبو الصبر : كان له في الموطأ إسناد عالٍ جداً فتصفحته فوجدته ينقص منه رجل واحد<sup>٣</sup> ، فاستربت في الرواية عنه بعد تحسين الظن به ، ولم يتنبه أبو الصبر لأن ابن هابيل وغيره من شيوخه مجهولون ، وأبو الصبر ممن روى عن المذكور ، وهو أبو الصبر السبتي ، والله تعالى أعلم بحقيقة حال الرجل .

٢٣٥ - ومنهم أبو الروح عيسى بن عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد ابن عبد الله بن إبراهيم بن خليل ، النفزي ، الحميري ، التاكرُتي . قال في تاريخ إربل : كان شاباً متأدباً فاضلاً ، قدم مصر ، وله شعر حسن ، وقال الحافظ عبد العظيم المنذري : أنشدنا المذكور لنفسه :

١ ترجمة ابن فورثش وأخيه محمد بن يحيى في التكملة : ١٨٢ .

٢ ترجمة أبي الطاهر العلوي في التكملة : ١٨٥ وفيها : إسماعيل بن عمر بن أحمد .

٣ التكملة : رجلا واحداً .

يا قلبُ ما لك لا تفيقُ من الهوى      أو ما يَقَرُّ بك الزمانَ قرارُ؟  
ألكلُّ ذي وجه جميل حنة      ولكلُّ عهد سالف تذكارُ؟

وله :

يا رب أضحية سوداء حالكة      لم ترعَ في البیدِ إلا الشمس والقمرَا  
تخالُ باطنها في اللون ظاهرها      فهبي الغداةَ كزنجيَ إذا كفرَا

ولد سنة ٥٩٠ بتاكرتاً من بلاد الأندلس ، وهي من نظر قرطبة ، وتوفي  
بأرزن من ديار بكر سنة ٦٢٩ ، عائداً من آمد ، رحمه الله تعالى .  
ومن بديع شعره :

إن أودعَ الطرسَ ما وشّاه خاطره      أبدى لعينيك أزهاراً وأشجارا  
وإن تهدّدَ فيه أو يعبُدْ كرمأ      بثَّ البريةَ آجالاً وأعمارا

وتاكرنا - بضم الكاف والراء وتخفيفها ، وشد النون - وورد المذكور لإربل  
سنة سبع وعشرين وستمائة ، وله أبيات أجاز فيها قول شرف الدين عمر بن  
الفارض في غلام اسمه بركات ، قال الأسدي الدمشقي ، ومن خطه نقلت :  
كنت حاضرَ هذه الواقعة بالقاهرة بالجامع الأزهر ، إذ قال ابن الفارض :

بركاتٌ يحكي البدرَ عند تمامه      حاشاه بل شمسُ الضحى تحكيه  
فقال أبو الروح ، وأنشدني ذلك :

هذا الكمالُ فقلُّ لمن قد عابه      حسداً وآية كل شيء فيه  
لم تدوِ إحدى زهرتيه ، وإنما      كملت بذلك ملاحه التشبيه  
وكانه قد رام يُغلقُ جفنته      ليصيب بالسهم الذي يرميه

وقال ابن المستوفي في تاريخ إربل : أنشدني أبو الروح لنفسه :

أوصيتُ قلبي أن يفرَّ عن الصِّبا  
فأجابني لا تخشَ مني بعدما  
حتى إذا نادى الحبيب رأيتَه  
كذبالةٍ أخدمتها فإذا دنا  
ظناً بأني قد دعوتُ سميحاً  
أفلفتُ من شَرِكِ الغرامِ وقوعاً  
آوى إليه ملبياً ومطيعاً  
منها الضرامُ تَعَلَّقَتْهُ سريعا  
قال : وأنشدني :

وزائرُ زارني والليلُ مُعْتَكِرٌ  
أمسكتُ قلبي عنه وهو مضطربٌ  
فبتُّ أصدى إلى من لا يجلِّثني  
تراهُ عيني وكفِّي لا تلامسه  
والطيبُ يفضحه والحلِّيُّ يشهره  
والشوقُ يبعثه والصَّونُ يزجره  
والوردُ صافٍ ولا شيء يكدره  
حتى كأني في المرآة أنظره

قال : وأنشدني الإمام أبو عمرو ابن غياث الشريشي لنفسه رحمه الله تعالى :

صبوتُ وهل عارٌ على الحرِّ إن صبا  
وقالوا مشيبٌ قلتُ واعجبا لكم  
وليس مشيباً ما ترون ، وإنما  
كُمَيْتُ الصِّبا لما جرى عادُ أشها  
أينكرُ صبحٌ قد تخللَ غيَّها  
وقيدُ ثغر الأربعين إلى الصِّبا

وتوفي أبو عمرو سنة ٦٢٠ ، عن تسعين سنة .

قال ابن المستوفي : وأنشدني المذكور قال : أنشدني أبو عمرو أيضاً لنفسه :

أودعُ فؤادي حسرةً<sup>٢</sup> أو دَعِ  
أمسك سهم اللحظ أو فارمها  
موقعها القلب وأنت الذي  
نفسك تؤذى أنت في أضلعي  
أنت بما ترمي مصابٌ معي  
مسكنه في ذلك الموضع

قال : وأنشدني قال : أنشدني مطرف الغرناطي :

١ ق : عمران .

٢ دوزي : حرماً .



أنا صبَّ كما تشاء وتهوى  
سُنَّة سَنَّهَا قَدِيمًا جَمِيلًا  
شاعر ماجد كريم جوادُ  
وأتى المحدثون مثلي فرادوا

قال : وأنشدني أيضاً المطرف :

وفي فروع الأيك وُرُقٌ إذا  
أو هَزَّهَا نَفْحُ نَسِيمِ الصَّبَا  
بَلَّ الندى أعطافها تَسْجَعُ  
شاقكَ منها غُرْدٌ شُرْعُ  
كأتمسا رِيَطَتُهَا مَنِيرٌ  
وهيَ خطيبٌ فوقه مِصْقَعُ  
إن شَبَّهَهَا فِي طَرْفِ لَوْعَةٍ  
جَرَى لها فِي طَرْفٍ مَدْمَعُ

أخذه من قول عبد الوهاب بن علي المالقي الخطيب :

كأنَّ فُوادي وطَرْفي مَعًا  
إذا اشْتَعَلَ النَّارُ فِي جَانِبِ  
هما طَرْفا غُصْنِ أَخْضَرِ  
جَرى الماءُ فِي الجَانِبِ الآخَرِ

٢٣٦ — ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الإمام النحوي اللغوي نور الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن حمدون ، الحميري ، الأندلسي ، المالقي . قال شرف الدين الصابوني : أنشدنا المذكور لنفسه سنة ٦٦٧ :

فُوادُ بِأَيْدِي النَّائِبَاتِ مُصَابُ  
تَناءت ديارٌ قَد أَلْفَت وَجيرةُ  
وَجَفَنَ لَفِيضِ الدَّمْعِ فِيهِ مَصَابُ  
فَهَل لِي إِلى عَهْدِ الوِصالِ إِيابُ  
وَفارقتُ أوطاني ولم أبلِّغِ المنى  
ودون مرادي أبحرٌ وهِصابُ  
مضى زمني والشيبُ حلَّ بمفرقي  
وأبعدُ شيءٌ أن يَرَدَّ شَبابُ  
إذا مرَّ عمرُ المرءِ ليس بِراجعِ  
وإن حلَّ شيبٌ لم يُفدِه خِصابُ  
فحلَّ حمامُ الشيبِ في فَرَّقِ لَمْتِي  
وقد طار عنها للشبابِ غرابُ  
وكم عِظَّةٌ لي في الزمانِ وأهلِهِ  
وبين فُوادي والقَبولِ حِجابُ

فَعَذَّبُ اللَّيَالِي مَقْتَضَاهُ عَذَابُ  
 فَمَا الْقَصْدُ مِنْهَا زَيْنٌ وَرَبَابُ  
 فَرَبَعُ صِلَاحِي بِالْفَسَادِ خَرَابُ  
 وَمَا الْقَصْدُ إِلَّا مَرْجِعٌ وَمَتَابُ  
 وَهَلْ نَافِعٌ فِي الْجَامِدَاتِ عِتَابُ  
 وَأَزْعَمُ صِدْقًا وَالْمَقَالُ كِذَابُ  
 فَسَقَى رَبِّي غَرْبَ الْبِلَادِ سَحَابُ  
 وَبِالْعَيْنِ مِنْ فَيْضِ الدَّمْعِ عِبَابُ  
 وَلَا حُطَّ عَنْ وَجْهِ الْمَرَادِ نِقَابُ  
 وَمَا سَارَ بِي نَحْوَ الرَّسُولِ رِكَابُ  
 فَمَا لِي فِي غَيْرِ الْحِجَازِ طِلَابُ  
 فَتَقَدَّسَ مِنْهَا مَنَزَلٌ وَجَنَابُ  
 مَنَازِلُ مِنْ وَادِي الْحَمَى وَقَبَابُ  
 فَلِلرُّوحِ عَنِ جَسْمِي هُنَاكَ مَنَابُ  
 تُشْتَقُّ قُلُوبٌ لَا تُشْتَقُّ ثِيَابُ  
 وَمَا كُلُّ مَثْنٍ فِي الزَّمَانِ يُثَابُ  
 وَحَقَّقَ مِنْ ظِلِّي الْفَلَاةَ خَطَابُ  
 وَكَمْ قَدْ شَفَى مِنْهُ الْعَيُونَ رُضَابُ  
 وَمَا كُلُّ خَلْقٍ حَيْثُ قَالَ يَجَابُ  
 وَلَا شَغَلَتْهُ عَنْ رِضَاهِ كِعَابُ  
 وَأَكْرَمُ مَبْعُوثٍ أَنَاهُ كِتَابُ  
 وَهِيَهَاتِ مَا يَحْصِي عِلَاهُ حِسَابُ  
 وَقَدْ ذَلَّ جَبَّارٌ وَخَيْفَ عِقَابُ  
 وَذَلَّتْ لِأَحْكَامِ الْإِلَهِ رِقَابُ

فَدَعُ شَهْوَاتِ النَّفْسِ عَنْكَ بِمَعزَلُ  
 وَسَلِّ فؤَادًا عَنْ رَبَابٍ وَزَيْنَبُ  
 وَأَنْوِي مَتَابًا ثُمَّ أَنْقِضْ نَيْتِي  
 أَقْرُبْ بِتَقْصِيرِي وَأَطْمَعُ فِي الرِّضَى  
 وَيَعْتَبِي فِي الْعَجْزِ حَيْلٌ وَصَاحِبُ  
 أَطْهَرُ أَثْوَابِي وَقَلْبِي مُدْتَسُّ  
 وَفَارَقْتُ مِنْ غَرْبِ الْبِلَادِ مَوَاطِنًا  
 فَبِالْقَلْبِ مِنْ نَارِ التَّشْوَقِ حُرْقَةً  
 وَمَا بَلَغَ الْمَمْلُوكُ قَصْدًا وَلَا مَنَى  
 وَأَخْشَى سَهَامَ الْمَوْتِ تَفْجَأً غَفْلَةً  
 وَقَلْبِي مَعْمُورٌ بِحُبِّ مُحَمَّدٍ  
 يَحْنُ إِلَى أَوْطَانِهِ كُلُّ مُسْلِمٍ  
 فَاسْعَدُ أَيَّامِي إِذَا قِيلَ هَذِهِ  
 فَجَسْمِي فِي مِصْرٍ وَرُوحِي بِطَبِيبَةٍ  
 عَلَى مِثْلِ هَذَا الْعَجْزِ وَالْعَمْرِ مُنْقِضٍ  
 وَأَرْجُو ثَوَابًا بِأَمْتِدَاحِي مُحَمَّدًا  
 بِهِ أُخْمِدْتُ مِنْ قَبْلِ نِيرَانِ فَارَسٍ  
 وَكَمْ قَدْ سَقَى مِنْ كَفِّهِ الْجَيْشَ فَارْتَوُوا  
 أُجِيبَ لِمَا يَخْتَارُ فِي حَضْرَةِ الْعِلَا  
 فَلَمْ تَلْهِهِ دُنْيَاهُ عَنْ خَوْفِ رَبِّهِ  
 مُحَمَّدُ الْمُخْتَارُ أَعْلَى الْوَرَى نَدَى  
 أَنْحَسِبُ أَنْ تَحْصِيَ بَعْدَ صِفَاتِهِ  
 ثَنَاءَ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرُ ذَخِيرَةٍ  
 وَقَدْ نَصَبَ الْمِيزَانَ وَاللَّهُ حَاكِمٌ

فكلُّ ثناءٍ واجبٌ لصفاته - فما مدحُ مخلوقٍ سواه صوابٌ  
إليك رسولَ الله أنهي مدائحي - وإنَّ رجائي راحةٌ وثوابٌ  
إذا قيلَ مَنْ تعني بمدحك كلُّه - فأنتَ إذا خبرتَ عنه جوابٌ  
« فليتك تحلو والحياة مريرةٌ - وليتك ترضى والأنام غضابٌ »  
فأنتَ أجلُّ العالمين مكانةً - وأكرمُ مدفونٍ حواه ترابٌ

وله يرثي العز بن عبد السلام :

أمدُّ الحياة كما علمتَ قصيرُ - وعليك نَقَادٌ بها وبصيرُ  
عجباً لغترٍ بدارٍ فَنائِه - وله إلى دارِ البقاءِ مصيرُ  
فسليمها للناثباتِ مُعَرَّضٌ - وعزيزها بيد الردي مقهورُ  
أبظنُّ أن العُمُرَ مملودٌ له - والعمرُ فيه على الردي مقصورُ

وهي طويالة ، ولم يحضرني سوى ما ذكرته

٢٣٧ - ومنهم عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الرحمن ، الغساني ،  
الوادي آشي ، أبو محمد<sup>١</sup> ، وله أخبار كثيرة في الحماسة وعلو الهمة . ومن نظمه  
لما تعمم مخدومه ابن غانية<sup>٢</sup> بعمامة بيضاء ولبس غفارة حمراء على جبة خضراء :

فَدَيْتُكَ بِالنَّفْسِ الَّتِي قَد مَلَكَتْهَا - بما أنتَ موليتها من الكرمِ الغَضُّ  
تَرَدَّيْتُ لِلْحُسْنِ الْحَقِيقِيِّ بِهَجَةٍ - فصار لها الكليُّ في ذلك كالبعضِ  
وَلَمَّا تَلَّالَا نَوْرُ غُرَّتِكَ الَّتِي - تُقَسِّمُ فِي طَوْلِ الْبِلَادِ وَفِي عَرْضِ

١ ترجمة ابن فرسان الوادي آشي في المغرب ٢ : ١٤٢ ، والمقتضب من تحفة القادم : ١١٥ .

وكانت وفاة ابن فرسان سنة ٦١١ .

٢ هو أبو زكريا يحيى بن إسحاق بن غانية أحد الثائرين على الموحدين أيام منصور بني عبد المؤمن ،  
وفي المغرب : أبو الحسن ابن غانية وهو أخو يحيى .

تلفعتها<sup>١</sup> خضراء أحسنَ ناظرٍ  
وأسدلتَ حمراءَ الملابسِ فوقها  
فأصبحتَ بَدْرًا طالعاً في غمامةٍ  
نبتَ عنك إجلالاً وذاك من الفرضِ  
بمفرقِ تاجِ المجدِ والشرفِ المحضِ  
على شفقِ دانٍ إلى خضرةِ الأرضِ

وقال رحمه الله تعالى :

أجبتنا ورعي ناصري وحسامي  
ولي منك بطاشُ اليدينِ غَضَنْفَرٌ<sup>٢</sup>  
وعجزاً وعزمي قائدي وإمامي  
يحاربُ عن أشباله ويحامي

وقال رحمه الله تعالى لما أسنَّ يستأذن مخدومه في الحج والزيارة<sup>٣</sup> :

امننْ بتسريحِ عليٍّ فعلتهُ  
ولئن تقولَ كاشحُ أنَّ الهوى  
فمقالتي ما إن مللتُ وإنما  
وعجزتُ عن أن أستثيرَ كمينها  
سببُ الزيارةِ للحطيمِ ويثربِ  
درستُ معالمةً وأنكرَ مذهبي  
عمري أبى حملَ النجادِ ومنكبي<sup>٤</sup>  
وأشقَّ بالصمصامِ صدرَ الموكبِ

وقال رحمه الله تعالى ، ولا خفاء ببرايعته<sup>٥</sup> :

ندى مخضلاً ذاك الجناحَ المنمنا  
أعدهنَّ أحناءاً على سمعِ معربِ  
وطرٌّ غيرَ مقصوصِ الجناحِ مرفهاً  
مُخلّي وأفراخاً بوكركَ نوماً  
وسقياً وإن لم تشكُ يا ساجعاً ظما  
يطارحُ مرتاحاً على القُضبِ معجماً  
مسوغَ أشتاتِ الحبوبِ منعماً  
ألا ليتَ أفراخي معي كنَّ نوماً

وقال رحمه الله تعالى ° :

- ١ دوزي : تلففتها .
- ٢ الأبيات في المغرب .
- ٣ المغرب : بمنكبي .
- ٤ الأبيات في التحفة .
- ٥ الأبيات في التحفة .

كفى حزنًا أن الرماح صقيلة<sup>١</sup> وأن الشبا رهن<sup>٢</sup> الصدى بدمائمه  
وأن بياذيق الجوانب فرزرت<sup>٣</sup> ولم يعد رُخ الدست بيت بنائه

وكان - رحمه الله تعالى - من جلّة الأدباء ، وفحول الشعراء ، وبرعة  
الكتاب ، كتب عن ابن غانية الأمير أبي زكريا يحيى بن إسحاق<sup>٢</sup> بن محمد بن علي  
المسوفي الميرقي النائر على منصور بني عبد المؤمن ، ثم على من بعده من ذريته إلى  
أيام الرشيد منهم ، وكان منقطعاً إليه ، وممن صحبه في حركاته ، وكان آية في  
بُعد الهمة ، والذهاب بنفسه ، والغناء في مواقف الحرب ، والجنسية علة الضم ،  
إذ ابن غانية كان غاية في ذلك أيضاً . ووجهه الميرقي المذكور عشية يوم من أيام  
حروبه إلى المأزق ، وقد طال العراك ، وكاد الناس ينفصلون عن الحرب [ إلى أن  
يباكروها من الغد . فلماً بلغ الصدر اشتد على الناس ]<sup>٣</sup> وذمّر أرباب الحفيظة .  
وأسمى إليهم العزم من أميرهم في الحملة ، فانهزم عدوهم شر هزيمة ، ولم يعد  
أبو محمد إلا في آخر الليل بالأسلاب والغنيمة ، فقال له الأمير : وما حملك على  
ما صنعت ؟ فقال : الذي عملت هو شأني . وإذا أردت من يصرف الناس عن  
الحرب ويذهب ريحه فانظر غيري .

وتشاجر له ولد صغير مع تريب له من أولاد أميره أبي زكريا فقال منه ولد  
الأمير ، وقال : وما قدّر أبيك ؟ فلماً بلغ ذلك أباه خرج مغضباً لحينه . ولقي  
ولد الأمير المخاطب لولده فقال : حفظك الله تعالى ، لست أشك في أي خديم  
أبيك ، ولكنني أحب أن أعرفك بنفسي ومقداري ومقدار أبيك ، اعلم أن أباك  
وجهني رسولاً إلى دار الخلافة ببغداد بكتاب عن نفسه ، فلماً بلغت بغداد  
أنزلت في دار الكريت لي بسبعة دراهم في الشهر ، وأجري عليّ سبعة دراهم في

١ التحفة : الزجاج .

٢ إسحاق : سقطت من ق .

٣ ما بين قوسين ساقط من ق ودوزي .

اليوم ، وطُوع بكتابي ، وقيل : مَنْ الميرقي الذي وجّهه ؟ فقال بعض الحاضرين : هو رجل مغربي نائر على أستاذه . فأقمت شهراً ، ثم استدعيت ، فلما دخلت دار الخلافة وتكلمت مع مَنْ بها من الفضلاء وأرباب المعارف والآداب اعتذروا إليّ ، وقالوا للخليفة : هذا رجل جهل مقداره . فأعدتُ إلى محل اكتري لي بسبعين درهماً ، وأجري عليّ مثلها في اليوم ، ثم استدعيت فودعت الخليفة ، واقتضيت ما تيسر من حوائجه وصدر لي شيء له حظ من صلته ، وانصرفت إلى أبيك ، فالمعاملة الأولى كانت على قدر أبيك عند مَنْ يعرف الأقدار ، والثانية كانت على قدري : وترجمته رحمه الله تعالى متسعة .

٢٣٨ - ومنهم عبد المنعم بن عمر الغساني ، الوادي آشي<sup>١</sup> ، المؤلف ، الرحالة ، المتجول ببلاد المشرق سائحاً ، صاحب المؤلفات الكثيرة التي منها « جامع أنماط السائل في العرّوض<sup>٢</sup> والخطب والرسائل » .

ومن نظمه قوله رحمه الله :

ألا إنما الدنيا بحارٌ تلاطمتُ      فما أكثر الغرقى على الجنياتِ  
وأكثرُ من لاقيت يُغرقُ إلفهُ      وقلَّ فتى يُنجي من الغمراتِ

توفي سنة ٦٠٣ ، رحمه الله تعالى .

٢٣٩ - ومنهم أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد ، القرطبي ، الخزرجي ، كان إماماً في التفسير والفقه والحساب والفرائض والنحو واللغة والعرّوض والطب ، وله تأليف حسان ، وشعر رائق ، فمنه قوله رحمه الله تعالى :

١ ترجمة عبد المنعم بن عمر الغساني في الذيل والتكملة ٥ : ٥٧ والتكملة رقم : ١٨١٥ ، وصلة الصلة : ١٥ ، وتحفة القادم : ٩٠ ، وفوات الوفيات رقم ٢٦٣ ، وابن أبي أصيبعة ٢ : ١٥٧ وهو الجلياني لأن جليانة من عمل وادي آش .  
٢ الذيل والتكملة : في القريض .

وفي الوجنات ما في الروض لكن لرونق زهرها معنى عجب  
وأعجب ما التّعجب عنه أني أرى البستان يحمله قضيب

وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٦٠١ .

٢٤٠ - ومنهم أبو العباس القرطبي<sup>١</sup> ، صاحب « المفهم في شرح مسلم » ،  
وهو أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري ، المالكي ، الفقيه ، المحدث ،  
المدرس ، الشاهد بالإسكندرية .

ولد بقرطبة سنة ٥٧٨ ، وسمع الكثير هناك ، ثم انتقل إلى المشرق ، واشتهر  
وطار صيته ، وأخذ الناس عنه ، وانتفعوا بكتبه . وقدم مصر ، وحدث بها ،  
واختصر الصحيحين ، وكان بارعاً في الفقه والعربية ، عارفاً بالحديث ، وممن  
أخذ عنه القرطبي صاحب التذكرة ، ومن تصانيفه رحمه الله تعالى « المفهم  
في شرح مسلم » وهو من أجل الكتب ، ويكفيه شرفاً اعتماد الإمام النووي ، رحمه  
الله تعالى ، عليه في كثير من المواضع ، وفيه أشياء حسنة مفيدة . ومنها اختصاره  
للصحيحين كما مر . وله غير ذلك وتوفي رحمه الله تعالى بالإسكندرية رابع  
ذي القعدة سنة ٦٥٦<sup>١</sup> . وكان يُعرف في بلاده بابن المزين ، وله كتاب « كشف  
القناع عن الوجود والسماع » أجاد فيه وأحسن ، وكان يشتغل أولاً بالمعقول ،  
وله اقتدار على توجيه المعاني بالاحتمال .

قال الشيخ شرف الدين الدمياطي : أخذت عنه ، وأجاز لي مصنفاته . رحمه  
الله تعالى ، وحدث بالإسكندرية وغيرها ، وصنف غير ما ذكرناه ، وكان  
إماماً عالماً جامعاً لمعرفة الحديث والفقه العربية وغيرها .

١ ترجمة أبي العباس القرطبي في الديباج : ٦٨ ، قال : وتوفي بالإسكندرية في ذي القعدة سنة  
ست وعشرين وستائة ، وفي كتاب الذيل والتكملة لقاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد الملك  
المراكشي أنه توفي سنة ست وخمسين فانظره .

٢٤١ - ومنهم العارف الكبير ، الولي الصالح الشهير ، أبو أحمد جعفر ابن عبد الله بن محمد بن سيد بونه ، الخزاعي ، الأندلسي<sup>١</sup> ، أحد الأعلام المنتطعين المقربين أولي الهداية ، كان - رضي الله تعالى عنه ونفعنا به - كثير الأتباع . بعيد الصيت ، فنداً شهيراً .

قال الحافظ ابن الزبير : هو أحد الأعلام المشاهير فضلاً وصلاحاً . قرأ بملئسمة وتفقه ، وحفظ نصف المدونة ، وأقرأها . وكان يؤثر التفسير والحديث والفقه على غيرها ، أخذ عن أبي الحسن ابن النعمة وابن هذيل . وحج . ولقي في رحلته من الأندلس جيلةً أكبرهم الولي الكبير سيدي أبو مدين شعيب . أفاض الله تعالى علينا من أنواره ، وانتفع به ، ورجع عنه بعجائب ، فشهّر بالعبادة . وتبرك الناس به ، فظهرت عليه بركته ، توفي رحمه الله تعالى في شوال سنة ٦٢٤ . وعاش نيفاً وثمانين سنة .  
وله ترجمة في الإحاطة ملخصها ما ذكرناه .

٢٤٢ - ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب ، الخزرجي . الأنصاري ، الشاطبي<sup>٢</sup> ، الفقيه ، القاضي ، الصدر ، المتفنن ، المحصل ، المجيد . له علم محكم ، وعقد صحيح مبهرم ، رحل إلى المشرق وحج ، وكانت رحلته بعد تحصيله فزاد فضلاً إلى فضل ، ونُبلاً إلى نبل ، وكان مثبتاً في فقهه . لا يستحضر من النقل الكثير ، ولكنه يستحضر ما يحتاج إليه ، وكان له علم بالعربية وأصول الفقه ، ومشاركة في أصول الدين ، له شرح على الجزولية ، وكان أبوه قاضياً ، وبيتهم بيت قضاء وعلم وسؤدد متوارث ومجد مكسوب ومنسوب ؛ ثم ولي قضاء بجاية ، فكان في قضائه على سنن الفضلاء وطريق الأولياء العقلاء بالحق مع

١ ترجمة ابن سيد بونه في الإحاطة ١ : ٢٩١ ( ط . السلفية ) .

٢ ترجمة محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي في عنوان الدراية : ٦٧ ، وقد كانت وفاته عام ٦٩١ .



الصدق ، معارضاً للولاء ، وكان يرى أن لا يقدم الشهود إلاّ عند الحاجة ، وأما إن حصل مَنْ تحصل به الكفاية فلا يقدم غيره ، ويرى أن الكثرة مفسدة ، وقد طلب منه الملك أن يقدم رجلاً من أهل بجاية ، فقال له مشافهة : إن شئتم قدمتموه وأخرتموني ؛ وكان إذا جرى الأمر في مجرى الشهادة وما قاله القاضي ابن العربي أبو بكر وغيره من أنها « قبول قول الغير على الغير بغير دليل » يرى أن هذا من الأمر العظيم الذي لا يليق أن يمكن منه إلاّ الآحاد الذين تبيّن فضلهم في الوجود ؛ وكان يرى أن جنائيات الشاهد إنما هي في صحيفة مَنْ يقدمه من باب قوله عليه الصلاة والسلام « من سن سنة حسنة ، ومن سن سنة سيئة » ، وقد سئل<sup>١</sup> : مَنْ أولياء الله ؟ فقال : شهود القاضي ، لأنهم لا يأتون كبيرة ، ولا يواظبون على صغيرة ، وإن كانت الشهادة على هذه الصفة فلا شيء أجلّ منها ، وإن كانت خلة لا صفة فلا شيء أحسن منها ، ولما كانت واقعة بني مرين<sup>٢</sup> بطنجة عرض عليه أهلها أن يتقدم وأن يبایعوه ، فقال : والله لا أفسد ديني . ولما توفي عجز القاضي الذي تولى بعده عن سلوك منّحاه ، واقتفاء سنّته الذي اقتفاه ، قال هذا كله بمعناه وبعضه بحروفه الغبريني<sup>٣</sup> في « عنوان الدراية في علماء بجاية » .

٢٤٣ — ومنهم محمد بن يحيى الأندلسي ، التّسبي — بلام فموحدة فسين — قاضي القضاة<sup>٣</sup> ، أخذ عن الحافظ ابن حجر ، ونوّه به عند الأشرف ، حتى ولاه قضاء المالكية بحماة ، وسار سيرة السلف الصالح ، ثم حنق على نائبها في بعض الأمور ، وسافر إلى حلب مظهراً لإرادة السماع على حافظها البرهان .  
ووصفه ابن حجر في بعض مجاميعه بقوله : الشيخ الإمام العالم العلامة في الفنون ، قاضي الجماعة . وقال : إنه إنسان حسن إمام في علوم منها الفقه

١ عنوان الدراية : وقد سئل الجنيد .

٢ كذا هو في ق وعنوان الدراية ؛ وفي دوزي : مزين .

٣ ترجمة محمد بن يحيى اللبسي في الضوء اللامع .

والنحو وأصول الدين ، يستحضر علوماً كأنها بين عينيه ، ووصفه أيضاً بعلامة  
دهره ، وخالصة عصره ، وعين زمانه ، وإنسان أوانه ، جامع العلوم ، وفريد  
كل مشور ومنظوم ، قاضي القضاة ، لا زالت آيات الإسلام به منصوره ،  
وأعلام الإيمان به منشورة ، ووجوه الأحكام الشرعية بحسن نظره مجبورة ، ولد  
سنة ٨٠٦ ، وتوفي ببرُسا من بلاد الروم أواخر شعبان سنة ١٨٨٤ ، قاله السخاوي  
« في الضوء اللامع » .

٢٤٤ - ومنهم الوزير الشهير أبو عبد الله ابن الحكيم ، الرندي ، ذو  
الوزارتين<sup>٢</sup> ، رحل إلى مصر والحجاز والشام ، وأخذ الحديث عن جماعة ، وقد  
ترجمناه في باب مشيخة لسان الدين عند تعرضنا لذكر ابنه الشيخ أبي بكر ابن الحكيم ،  
ولا بأس أن نزيد هنا ما ليس هنالك ، فنقول<sup>٣</sup> : إن من مشايخه برُندة الشيخ  
الأستاذ النحوي أبا الحسن علي بن يوسف العبدري السفاح ، أخذ عنه العربية ،  
وقرأ عليه القرآن بالروايات السبع ، وأخذ عن الخطيب بها أبي القاسم ابن الأيسر ،  
وأخذ - رحمه الله تعالى - عن جملة من أعلام الأندلس ، وأخذ في رحلته  
عن الجليّة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر ، فمن شيوخه الحافظ أبو اليمن ابن  
عساكر ، لقيه بالحرم الشريف ، وانتفع به ، وأكثر من الرواية عنه ، والشيخ  
أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحراني المعروف بابن هبة الله ، والشيخ الشرف  
أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطي ابن الإمام الجزائري - جزائر  
المغرب نزيل بغداد والشيخ أبو الصفاء خليل بن أبي بكر الحنبلي ، لقيه بالقاهرة ،  
والشيخ رضي الدين أبو بكر القسطيني ، والشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد  
عبد المؤمن بن خلف الدمياطي إمام الديار المصرية في الحديث وحافظها ومؤرخها ،

١ ق : ٨٤٠ .

٢ ستجيء له ترجمة أخرى في النسخ نشير فيها إلى مصادر ترجمته .

٣ انظر الإحاطة ٢ : ٢٨٠ ، فالقري يلخص ترجمة ابن الحكيم عنها .

والشهاب ابن الخيمي ، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التي أولها :

يا مطلباً لئيس لي في غيره أربُّ إليك آلَ التقصي وانتهى الطلبُ

وفيهما البيت المشهور الذي وقع النزاع فيه :

يا بارقاً بأعالي الرقمتينِ بدا لقد حكيتَ ولكن فاتك الشنبُ

والشيخ جمال الدين أبو صادق محمد بن يحيى القرشي ، ومن تخريجه « الأربعون المروية بالأسانيد المصرية » وسمع الحلبيات من ابن العماد الحراني والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة<sup>١</sup> ، ومولده سنة ٥٩٨ ، وزينب بنت الإمام أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي ، وتكنى أم الفضل ، وسمعت من أبيها . ومن أشياخ ذي الوزارتين بن الحكيم المذكور الملك الأوحى يعقوب ابن الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب ، والشيخ عبد الرحمن بن سليمان بن طرخان وأخوه محمد بن سليمان ، في طائفة كبيرة من مشايخ مصر والشام والعراق وغيرها من البلاد يطول تعدادهم ، وأخذ ببجاية عن خطيبها أبي عبد الله ابن رحيمة الكناني ، وبتونس عن قاضيها أبي العباس ابن الغماز البكنسي وأخذ العربية عن قدوة النحاة أبي الحسين عبد الله<sup>٢</sup> بن أحمد ابن عبيد الله بن أبي الربيع القرشي .

ومن شعر ذي الوزارتين ابن الحكيم المذكور قوله<sup>٣</sup> :

هل إلى ردّ عشيّاتِ الوصالِ سببٌ أم ذلك من ضربِ المحالِ  
حالة يسْري بها الوهمُ إلى أنها تثبتُ برءاً باعتلالِ  
وليالٍ ما تبقى بعدها غيرُ أشواقٍ إلى تلك الليالي

١ دوزي : البهزة .

٢ هكذا في ق ودوزي ؛ الإحاطة : عبيد الله .

٣ الشعر في الإحاطة ٢ : ٢٨٩ ، وهي قصيدة رفعها إلى السلطان ببلدة رندة وهو إذ ذاك قى .

إذ مجالُ الوصلِ<sup>١</sup> فيها مسرحي  
 ولحالاتِ التراضيِ جولة<sup>٢</sup>  
 فبوادي الخيفِ خوفي مُسعد<sup>٣</sup>  
 لستُ أنسى الأُنسَ فيها أبداً  
 وغزالٍ قد بدا لي وجهه<sup>٤</sup>  
 ما أمالَ التيهُ من أعطافه  
 خُصَّ بالحسنِ فما أنت ترى  
 منَ تَسَلَّى عن هَوَاهُ فأنا  
 فلنَ أتعبني حُبِّي له<sup>٥</sup>  
 إذ لآلي جيدهِ من قبلي  
 خالَفَ النومُ لي السُّهدَ به  
 فتداوى بلمَاهُ ظمإي  
 أو إشاداتِ بناءِ الملكِ الأو  
 ملك<sup>٦</sup> إن قلتَ فيه مَلَكاً  
 أيدَ الإسلامَ بالعدلِ فما  
 ذو أبادٍ شَمَلتْ كُلالَ الوري  
 هِمَّةُ هامتْ بأحوالِ التقي  
 وقفَ النفسَ على إجهادها

وهي طويلة ومنها :

أيها المولى الذي نعمائهُ<sup>٣</sup> أعجزتُ عن شكرها كنهَ المقالِ

١ الإحاطة : الليل .

٢ الإحاطة : فضل .

٣ ق ودوزي : نعماكم ؛ وفي الإحاطة : نعمائهُ .

ها أنا أنشدكم مهناً  
فأنا العبدُ الذي حُبُّكم  
أورقتُ روضةً آمالي بكم  
[واقنيت الجاه من خدمتكم  
من بديع النظم بالسحرِ الجلالِ  
لم يزلُ والله في قلبي وبالي  
مذ تولاها الربابُ المتوالي<sup>١</sup>  
فهي ما أذخره من كثرِ مالِ<sup>٢</sup>

ومنها :

يا أميرَ المسلمين هذه  
هي بنتُ ساعةٍ أو ليلَةٍ  
ما عليها إذ أجادتُ مدحها  
فهي في تأديةِ الشكرِ لكم  
خدمتي تنبئ عن صادقِ حالِ  
سهلتُ بالحبِّ في ذاكِ الجلالِ  
من بعيدِ الفهمِ يُلغِيها وقالِ  
أبدأ بين احتفاء واحتفالِ

وكتب رحمه الله تعالى يخاطب أهله من مدينة تونس<sup>٣</sup> :

حَيِّ حَيِّيَ بالله يا رِيحَ نَجْدِ  
وإذا ما بَشَّتْ حالي فبلِّغْ  
ما تناسيتهم وهل في مغيبِ  
بي شوقٍ إليهم ليس يُعزِي  
يا نَسِيمَ الصَّبَا إذا جئتَ قوماً  
فتاطَفْ عندَ المرورِ عليهم  
قل لهم قد غدوتُ من وجدهم في  
وإنِ استتَفَسَّرُوا حديثي فإنِّي  
وتحمّلَ عظيمَ شوقي ووجدي  
من سلامي لهم على قدرِ ودِّي  
قد نسوني على تطاولِ بُعدي  
لجميلٍ ولا لسكانِ نَجْدِ  
مُلِّتْ أرضَهُمْ بشيخِ ورنَدِ  
وحقوقاً لهم عليَّ فأدِّ  
حالِ شوقٍ لكلِّ رندٍ ورنَدِ  
باعتناءِ الإلهِ بُلِّغْتُ قَصْدِي

١ الإحاطة : الكبير المتعالي .

٢ سقط البيت من ق ودوزي ولم يرد في الإحاطة .

٣ الأبيات في الإحاطة ٢ : ٢٩١ .

٤ كذا في ق ودوزي ؛ الإحاطة : هم .

فله الحمد إذ حبانى بلطفٍ      عنده قل كل شكرٍ وحمدٍ

وافتح مخاطبته لأخيه الأكبر أبى إسحاق إبراهيم بقصيدة أولها ١ :

ذكر اللوى شوقاً إلى أقماره      ففضى أسى أو كاد من تذكاره  
وعلا زفير حريق نارٍ ضلوعه      فرمى على وجناته بشراره  
لو كنت تبصر خطه في خده      لقرأت سر الوجد من أسطاره  
يا عاذليه أقصروا فلشدماً<sup>٢</sup>      أفضى عتابكم إلى إضراره  
إن لم تعينوه على بزحائه      لا تنكروا بالله خلع عذاره  
ما كان أكتمه لأسرار الهوى      لو أن جند الصبر من أنصاره  
ما ذنبه والبين قطع قلبه      أسفاً وأذكى النار في أعشاره  
بجل اللوى بالساكنيه وطيفهم      وحديثه ونسيمه ومزاره  
يا برق خذ دمعى وعرج باللوى      فاستفحه في باناته وعراره  
وإذا لقيت بها الذي بإخائه      ألقى خطوب الدهر أو بجواره  
فاقر السلام عليه قدر محبتي      فيه وترفعي إلى مقداره  
والمس بسائر إخوتي وقرابتي      من لم أكن لجوارهم بالكاره  
ما منهم إلا أخ أو سيد      أبداً أرى دأبى على إكباره  
فابشئ لذاك الحي أن أخاهم      في حفظ عهدهم على استبصاره

وقال رحمه الله تعالى في غرض كلفه سلطانه القول فيه ٣ :

ألا واصل مواصلة العقار      ودع عنك التخلق بالوقار

١ الإحاطة : ٢٩٢ .

٢ الإحاطة : فلربما .

٣ الأبيات في الإحاطة ٢٩٢ - ٢٩٣ .

وقم واخلع عذارك في غزال  
 قضيب مائس من فوق دِعْصٍ  
 ولاح بخده ألف ولام  
 رماني قاسم والسين صاد  
 وقد قُسمت محاسن وجنتيه  
 فذاك الماء من دمعي عليه  
 عَجِبْتُ لَهُ أَقَامَ بَرِيعِ قَلْبِي  
 أَلْفُ الْحَبِّ حَتَّى صَارَ طَبْعاً  
 فما لي عن مذاهبه ذهاب  
 يحق لِمِثْلِهِ خَلَعُ الْعَذَارِ  
 تعمم بالدجى فوق النهارِ  
 فصار معرّفاً بين الدراري  
 بأشفار تنوب عن الشفارِ  
 على ضدين من ماء ونارِ  
 وتلك النار من فرط استعاري  
 على ما شبّ فيه من الأوارِ  
 فما أحتاج فيه إلى ادّكارِ  
 وهذا فيه أشعاري شعاري

وقال العلامة ابن رشيد في « ملء العيبة »<sup>١</sup> : لما قدمنا المدينة سنة ٦٨٤ كان  
 معي رفيقي الوزير أبو عبد الله ابن أبي القاسم ابن الحكيم . وكان أرمداً . فلمّا  
 دخلنا ذا الحليفة أو نحوها نزلنا عن الأكوار . وقوي الشوق لقرب المزار .  
 فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتساباً لتلك الآثار . وإعظماً لمن حل تلك  
 الديار . فأحسّ بالشفاء ، فأنشد لنفسه في وصف الحال قوله :

ولما رأينا من ربوع حبيينا  
 وبالترّب منها إذ كحلنا جفوننا  
 وحين تبدّى للعيون جمالها  
 « نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة  
 نسح سجال الدمع في عرّصاتها  
 وإن بقائي دونه لخسارة »  
 فيا عجباً ممن يحب بزعمه  
 بيثرب أعلاماً أثرن لنا الحبّا  
 شقينا فلا بأساً نخاف ولا كربا  
 ومن بعدها عنّا أديلت لنا قربا  
 لمن حلّ فيها أن نلّم به ركبا  
 ونلّم من حبّ لواطئه التربا  
 ولو أن كفتي تملأ الشرق والغربا  
 يقيم مع الدعوى ويستعمل الكتبا

١ لا يزال النقل مستمراً عن الإحاطة : ٢٩٣ .

وزلاّت مثلي لا تُعدّدُ كثرةً ١ وبُعدي عن المختارِ أعظمها ذنباً

انتهى .

وخط الوزير ابن الحكيم في غاية الحسن ، وقد رأيتُه مراراً ، وملكْت بعض كتبه ، ونثره - رحمه الله تعالى - أعلى من شعره كما نبّه عليه لسان الدين في الإحاطة .

ومن نثره في رسالة طويلة كتبها عن سلطانه ، ما صورته<sup>١</sup> : وقد تقرر عند الخاص والعام ، من أهل الإسلام ، واشتهر في آفاق الأقطار ، اشتهاه الصباح في سواد الظلام ، أننا لم نزل نبذل جهدنا في أن تكون كلمة الله هي العليا ، ونَسْمَح في ذلك بالنفوس والأموال رجاء ثواب الله لا لعرض الدنيا . وأنا ما قصرنا في الاستنفار والاستنصار<sup>٢</sup> ، ولا أقصرنا عن الاعتضاد بكل من أملنا معاملته والاستظهار<sup>٣</sup> ، ولا اكتفينا بمطوّلات الرسائل وبنات الأفكار ، حتى اقتحمنا بنفسنا لجحّ البحار ، فسمحنا بالطارف من أموالنا والتلاد ، وأعطينا رجاء نصرة الإسلام موفورَ الأموال والبلاد ، واشترينا بما أنعم الله به علينا ما فرض الله على كافة أهل الإسلام من الجهاد ، فلم يكن بين تلبية المدعوّ وزهده ، ولا بين قبوله وردّه ، إلا كما يحسو الطائر ماء الثماد ، ويأبى الله أن يكيل نُصرة الإسلام بهذه الجزيرة إلى سواه ، ولا يجعل فيها شيئاً ؛ إلا لمن أخلص لوجهه الكريم علانيته ونجّواه ، ولما أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغربية إلى مناويه ، وبقي المسلمون يتوقعون حادثاً ساءت ظنونهم لمباده<sup>٥</sup> ، ألقينا

١ انظر هذه الرسالة في الإحاطة : ٢٩٧ ، وما بعدها .

٢ الإحاطة : في الاستنصار والاستنفار .

٣ ق : من الاستظهار .

٤ الإحاطة : وأن يجعل فيها شيئاً ؛ ق ودوزي : ولا يجعل فيها سبباً .

٥ وبقي ... لمباده : سقط من ق .



إلى الثقة بالله تعالى يد الاستسلام ، وشمّرنا عن ساعد الحديد<sup>١</sup> في جهاد عبدة الأصنام ، وأخذنا بمقتضى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ١٩٥) أخذ الاعتزام ، فأمدنا الله تعالى في ذلك بتوالي البشائر ، ونصرنا بألطف أغنى فيها خلوص الضمائر عن قود العساكر ، ونفلنا على أيدي قوادنا ورجالنا من السبابا والغنائم ما غدا ذكره في الآفاق كالمثل السائر ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) وكيف يُحصيها المحصي أو يحصرها الحاصر ، وحين أبدت لنا العناية الربانية وجوه الفتح سافرة المحيّا ، وانتشقتنا نسائم النصر<sup>٢</sup> المنوح عبقة الريّا ، استخرنا الله تعالى في الغزو بنفسنا<sup>٣</sup> ونعم المستخار ، وكتبنا بما قد علمتم<sup>٤</sup> إلى ما قرب من أعمالنا بالحض على الجهاد والاستنفار ، وحين وافى من خوف للجهاد من الأجناد المطوعين ، وغدوا بحكم رغبتهم في الثواب على طاعة الله مجتمعين ، خرجنا بهم ونصر الله تعالى أهدي دليل ، وعناية الله تعالى بهذه الفئة المفردة من المسلمين تقضي بتقريب البعيد من آمالنا وتكثير القليل ، ونحن نسأل الله تعالى أن يحملنا على جادة الرضى والقبول ، وأن يرشدنا إلى طريق تفضي إلى بلوغ الأمنية والمأمول .

وهذه رسالة طويلة سقنا بعضها كالعنوان لسائرنا .

ونال ابن الحكيم — رحمه الله تعالى — من الرياسة والتحكّم في الدولة ما صار كالمثل السائر ، وخدمته العلماء الأكابر<sup>٥</sup> ، كابن خميس وغيره ، وأفاض عليهم سجال خيره ، ثم ردت الأيام منه ما وهبت ، وانقضت أيامه كأن لم تكن وذهبت ، وقُتل يوم خلع سلطانه ، ومُثل به سنة ٧٠٨ ، رحمه الله تعالى ،

١ الإحاطة : الجد والاجتهاد .

٢ الإحاطة : من النصر . . . عبق .

٣ الإحاطة : بأنفسنا .

٤ بما قد علمتم : سقطت من الإحاطة .

٥ زاد في ق : الأخير .

وانتهب من أمواله وكتبه وتحفه ما لا يعلم قدره إلا الله تعالى ، أثابه الله تعالى بهذه الشهادة بجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم .

٢٤٥ - ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الحافظ نجيب الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الأمير القائد أبي علي الحسن بن عبد العزيز بن هلال ، اللخمي ، الأندلسي ، ولد سنة ٥٧٧ تقريباً ، ورحل فسمع بمكة من زاهر بن رسم ، وبيغداد من أبي بكر أحمد بن سكينه وابن طبرزد وطائفة ، وبواسط من أبي الفتح ابن المنداني ، وبأصبهان من عين الشمس الثقفية وجماعة ، وبخراسان من المؤيد الطوسي وأبي روح وأصحاب الفراوي وهذه الطبقة ، وخطه مليح مغربي في غاية الدقة . وكان كثير الأسفار ، ديبناً متصوفاً كبير القدر ، قال الضياء في حقّه : رفيقنا وصديقنا ، توفي بالبصرة عاشر رمضان سنة ٦١٧ ، ودفن إلى جانب قبر سهل التستري رضي الله تعالى عنه ، وما رأينا من أهل المغرب مثله ، وقال ابن نقطة : كان ثقة فاضلاً ، صاحب حديث وسنة ، كريم الأخلاق ، وقال مفضل القرشي : كان كثير المروءة غزير الإنسانية ، وقال ابن الحاجب : كان كيس الأخلاق ، محبوب الصورة ، لين الكلام ، كريم النفس ، حلو السمائل ، محسناً إلى أهل العلم بماله وجاهه ، وقيل : إنه أوصى بكتبه للشرف المرسي ، رحمه الله تعالى .

٢٤٦ - ومنهم محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد ، أبو بكر ابن العربي الإشبيلي ، حفيد القاضي الحافظ الكبير أبي بكر ابن العربي . قرأ لنافع على قاسم ابن محمد الزقاق صاحب شريح ، وحج فسمع من السلفي وغيره ، ثم رحل بعد نيّف وعشرين سنة إلى الشام والعراق ، وأخذ عن عبد الوهاب بن سكينه وطبقته ، ورجع فأخذوا عنه بقرطبة وإشبيلية ، ثم سافر سنة ٦١٢ ، وتصوّف

١ ترجمة ابن العربي الحفيد في التكملة : ٦٠٣ .

وتعبّد . وتوفي بالإسكندرية سنة ٦١٧ . قاله الذهبي في تاريخه الكبير .

٢٤٧ - ومن المرتحلين من الأندلس يحيى بن عبد العزيز ، المعروف بابن الحرّاز ، أبو زكريا ، القرطبي<sup>١</sup> ، سمع من العتيبي وعبد الله بن خالد ونظرائهما من رجال الأندلس ، ورحل فسمع بمصر من المُرزّي والربيع بن سليمان المؤذن ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله ابن ميمون وعبد الغني بن أبي عقيل وغيرهم . وسمع بمكّة من علي بن عبد العزيز ، وكانت رحلته ورحلة سعيد بن عثمان الأعنّاتي وسعيد بن حميد وابن أبي تمام واحدة ، وسمع الناس من يحيى المذكور مختصر المزني ورسالة الشافعي وغير ذلك من علم محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وكان يميل في فقهه إلى مذهب الشافعي ، وكان مُشاوراً مع عبيد الله بن يحيى وأضرابه ، وحدث عنه من أهل الأندلس محمد بن قاسم وابن بشر<sup>٢</sup> وابن عبادة وغير واحد ، ولم يسمع منه ابنه محمد لصغره ، وتوفي سنة ٢٩٥ . رحمه الله تعالى ورضي عنه .

٢٤٨ - ومنهم الشيخ الإمام العالم العامل الكامل الزاهد الورع ، العلامة جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ، البكري ، الشريشي ، المالكي ، كان من أكابر الصالحين المتورعين ، ومولده سنة ٦٠١ بشريش ، وتوفي برباط الملك الناصر بسفح قاسيون سنة ٦٨٥ في ٢٤ رجب ، ودفن قبالة الرباط . وله المصنفات المفيدة ، تولّى مشيخة الصخرة بحرم القدس الشريف ، وقدم دمشق ، وتولى مشيخة الرباط الناصري ، فلمّا توفي قاضي القضاة جمال الدين المالكي ولوه مشيخة المالكية بدمشق ، وعرضوا عليه القضاء فلم يقبل ، وبقي في المشيخة إلى أن توفي ، رحمه الله تعالى ونفعنا به وبأمثاله ، آمين .

١ ترجمة ابن الحرّاز في ابن الفرضي ٢ : ١٨٢ ؛ وفي دوزي : الحرّاز .

٢ يعني أحمد بن بشر الأغبس .

٢٤٩ - ومن الراحلين من الأندلس الفقيهُ الصالح أبو بكر ابن محمد بن علي بن ياسر ، الجياني ، المحدث الشهير .

ذكره ابن السمعاني وغيره ، سافر الكثير ، وورد العراق ، وطاف في بلاد خراسان ، وسكن بَلَخَ ، وأكثر من الحديث ، وحصل الأصول ، ونسخ بخطه ما لا يدخل تحت حصر ، قال ابن السمعاني : وله أنس ومعرفة بالحديث ، لقيته بسمرقند ، وكان قد قدمها سنة ٥٤٩ مع جماعة من أهل الحجاز لدين له عليهم ، وسمعت منه جزءاً أخرجه من حديث يزيد بن هرون ممّا وقع له عالياً ، وجزءاً صغيراً من حديث أبي بكر ابن أبي الدنيا ، وأحاديث أبي بكر الشافعي في أحد عشر جزءاً المعروف بالغيلايات بروايته عن ابن الحصين عن ابن غيلان ، وكان مولده بيجيان سنة ٤٩٣ [ أوفي التي بعدها ، الشك منه ، ثم لقيته بنسّف في أواخر سنة خمسين ]<sup>١</sup> ولم أسمع منه شيئاً ، ثم قدم علينا في<sup>٢</sup> بخارى في أوائل سنة إحدى وخمسين وسمعت من لفظه جميع كتاب الزهد لهناد بن السري الكوفي بروايته عن أبي القاسم سهل بن إبراهيم المسجدي عن الحاكم أبي عبد الرحمن محمد بن أحمد الشاذلي عن الحاكم أبي الفضل محمد بن الحسين الحدّادي عن حماد بن أحمد السلمي عن مصنّفه ، وأخبرنا الجياني بسمرقند ، أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن محمد بن الحصين الكاتب ببغداد ، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان البزار ، أخبرنا<sup>٣</sup> أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي ، أخبرنا<sup>٤</sup> محمد بن مسلمة ، أنبأنا يزيد بن هرون ، أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ناداهم مناد : يا أهل الجنة ، إن

١ ما بين معقنين ساقط من ق ودوزي ، ومثبت في التجارية .

٢ في : سقطت من ق .

٣ ق : أنبأنا .

٤ ق : حدثنا .

لكم عند الله موعداً لم تروه ، قالوا : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا وبييض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُنجنا من النار ؟ قال : « فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » ثم تلا هذه الآية ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس : ٢٦) .

وقال ابن السمعاني أيضاً : وأخبرنا الجياني المذكور بسمرقند ، أنبأنا هبة الله بن محمد بن عبد الواحد ببغداد ، أنبأنا أبو طالب ابن غيلان ، أنبأنا أبو بكر الشافعي ، أنبأنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي ، أنبأنا محمد بن حسان ، أنبأنا مبارك بن سعيد ، قال : أردت سفراً ، فقال لي الأعمش : سئل ربك أن يرزقك صحابة صالحين ، فإن مجاهداً حدثني قال : خرجت من واسط فسألت ربي أن يرزقني صحابة ، ولم أشرط في دعائي ، فاستويت أنا وهم في السفينة فإذا هم أصحاب طنابير .

وقال ابن السمعاني أيضاً : أخبرنا أبو بكر الجياني المغربي بسمرقند ، سمعت الإمام أبا طالب لإبراهيم بن هبة الله ببلخ يقول : قرأت على أبي يعلى محمد بن أحمد العبدى بالبصرة قال : قرأت على شيخنا أبي الحسين ابن يحيى في كتاب « العين » بإسناده إلى الخليل بن أحمد أنه أنشد قول الشاعر :

إنَّ في بَيْتِنَا ثلاثَ حَبَالِي      فوددنا أن قد وَضَعْنَ جميعاً  
زوجتي ثمَّ هَرَّتِي ثمَّ شَاتِي      فإذا ما وَضَعْنَ كَنَّ ربيعا  
زوجتي للخبيص ، والمهر للفا      ر ، وشاتي إذا اشتهينا جميعاً

قال أبو يعلى : قال شيخنا ابن يحيى : وذكر عن الخليل بن أحمد في العين أن الجميع أكل التمر بالابن ، انتهى .

٢٥٠ - ومنهم أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن ابن سعيد بن حزم ، الأندلسي ، المري ، ذكره الحميدي في تاريخه وأثنى

عليه ، وقال<sup>١</sup> : كان من أهل العلم والأدب والذكاء والهمّة العالية [ في طلب العلم ]<sup>٢</sup> ، وكتب بالأندلس فأكثر ، ورحل إلى المشرق فاحتفل في العلم والرواية والجمع .

وذكره الخافظ الخطيب أبو بكر [ أحمد بن علي ]<sup>٣</sup> بن ثابت البغدادي ، وقال : هو من بيت جلاله وعلم ورياسة ، وأخرج عنه في غير موضع من مصنفاته ، وقدم بغداد ودمشق وحدث فيهما ، ثم عاد إلى المغرب فتوفي ببلده المرية سنة ٤٥٤ ، وحدث عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري ، ويعرف بابن الإفليلي ، الأندلسي النحوي وغيره ، وكان صدوقاً ثقة ، رحمه الله تعالى<sup>٤</sup> .

٢٥١ - ومنهم أبو زكريا يحيى بن قاسم بن هلال ، القرطبي<sup>٥</sup> ، الفقيه المالكي أحد الأئمة الزهاد ، كان يصوم حتى يخضر ، توفي سنة ٢٧٢ ، وقيل : سنة ٢٧٨ ، ورحل إلى المشرق ، وسمع من عبد الله بن نافع صاحب مالك بن أنس ، ومن سحنون بن سعيد ، وغيرهما ، وكان فاضلاً فقيهاً عابداً عالماً بالمسائل ، وروى عنه أحمد بن خالد ، وكان يفضّله ويصفه بالفضل والعلم ، وهو صاحب الشجرة ، قال عباس بن أصبغ : كانت في داره شجرة تسجد لسجوده إذا سجد ، قاله ابن الفرضي رحمه الله تعالى ، ورضي عنه ، ونفعنا به .

٢٥٢ - ومنهم أبو بكر يحيى بن مجاهد بن عوّانة ، الفزاري ، الإلبيري ،

١ ترجمة العلاء بن عبد الوهاب في جذوة المقتبس : ٢٩٨ (وبغية الملتبس رقم : ١٢٤١) وتاريخ بغداد ، والصلة : ٤٢١ .

٢ ما بين معقفين ساقط من ق .

٣ ما بين معقفين ساقط من ق .

٤ بعد هذه الترجمة وردت في ق ترجمة لأبي حفص عمر بن الحسن الهوزني وهي ترجمة مكررة نصاً وقد وردت رقم : ٥٠ ، ولذلك لم نجد ضرورة لإثباتها ، وكذلك سقطت عند دوزي .

٥ ترجمة يحيى بن قاسم بن هلال في جذوة المقتبس : ٣٥٥ (وبغية الملتبس رقم : ١٤٨٧) وابن الفرضي ٢ : ١٨٠ .

الزاهد<sup>١</sup> ، سكن قرطبة ، قال ابن الفرضي : كان منقطع القرين في العبادة ، بعيد الاسم في الزهد ، حججاً ، وعُيى بعلم القرآن والقراءات والتفسير ، وسمع بمصر من الأسيوطي وابن الورد وابن شعبان وغيرهم ، وكان له حظ من الفقه والرواية إلا أن العبادة غلبت عليه ، وكان العمل أملك به ، ولا أعلمه حدث ، توفي رحمه الله تعالى سنة ست وستين وثلاثمائة ، ودفن في مقبرة الرَبَضِ ، وصلى عليه القاضي محمد بن إسحاق بن السليم ، ثم صلى عليه حيّان مرة ثانية ، رحمه الله تعالى وأفاض علينا من أنوار عنايته آمين .

٢٥٣ — ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن إبراهيم ، الصديقي ، الإشبيلي<sup>٢</sup> ، الأديب البارع ، له نظم حسن ، وموشحات رائقة ، قرأ على الأستاذ الشلوبين وغيره ، ومدح الملوك ، ورحل من الأندلس فقدم ديار مصر . ومدح بها بعض من كان يوصف بالكرم ، فوصله بنزّر يسير ، فكرّر راجعاً إلى المغرب ، فتوفي ببرقة ، رحمه الله تعالى ، وكان من النجباء في النحو وغيره .

ومن نظمه من قصيدة :

ما بي مَوَارِدُ أَمْسٍ <sup>٣</sup> بل مَصَادِرُهُ	الآنحظُ أولهُ واللّحدُ آخره
أرسلتُ طرفيَ مرتاداً فطلّ دمي	روضٌ من الحسنِ مطلولٌ أزاهره
رَعَيْتُ في خصبهِ لحظي فأعقبني	جذباً بجسميَ ما يرويه هامره
وبي وإن لم أكن بالذكّرِ أشهره	فالوصف فيه لفقْد المثلِ شاهره

وهي طويلة ، وأنى عليه أثير الدين أبو حيّان . وأورد جملة من محاسن كلامه وبدائع نظامه ، رحم الله تعالى الجميع .

١ ترجمة يحيى بن مجاهد في ابن الفرضي ٢ : ١٨٨ وجذوة المقتبس : ٣٥٦ (وبغية الملتبس

رقم : ١٤٩٠) .

٢ ترجمة أبي بكر الصديقي في الواقي ٢ : ١٣٥ .

٣ الواقي : حبي ، التجارية : أمر .

٢٥٤ - ومنهم أبو يحيى زكريا بن خطاب ، الكلبي ، التُّطَيْلي<sup>١</sup> ، رحل سنة ٢٩٣ ، فسمع بمكة كتاب « النسب » للزبير بن بكار من الجرجاني الذي حدث به عن علي بن عبد العزيز بن الحمحي عن الزبير ، وروى موطأ مالك ابن أنس رواية أبي مصعب أحمد بن عبد الملك الزهري عن إبراهيم بن سعيد الحذاء ، وسمع بها من إبراهيم بن عيسى الشيباني والقزاز في آخرين ، وقدم الأندلس فكان الناس يرحلون إليه إلى تَطِيلَةَ السماع منه ، واستقدمه المستنصر الحكم وهو ولي عهد فسمع منه أكثر مروياته ، وسمع منه جماعة من أهل قرطبة ، وكان ثقة مأموناً ، ولي قضاء بلده تَطِيلَةَ إحدى مدائن الأندلس بعد عمر بن يوسف ابن الإمام .

٢٥٥ - ومنهم سعد الخير بن محمد بن سعد ، أبو الحسن ، الأنصاري ، البَلَسَنِي ، المحدث<sup>٢</sup> ، رحل إلى أن دخل الصين ، ولذا كان يكتب بالبَلَسَنِي الصيني ، وركب البحار ، وقامى المشاق ، وتفقه ببغداد على أبي حامد الغزالي ، وسمع بها أبا عبد الله التَّعَالِ وطراداً وغيرهما ، وبأصبهان أبا سعد المطرز ، وسكنها وتزوج بها وولدت له فاطمة بها ، ثم سكن بغداد ، وروى عنه ابن عساكر وابن السمعاني وأبو موسى المدني وأبو اليمن الكندي وأبو الفرج ابن الجوزي وابنته فاطمة بنت سعد الخير في آخرين ، وتأدب على أبي زكريا التبريزي ، وتوفي في المحرم سنة ٥٤١ ، رحمه الله تعالى ، ببغداد ، وصلى عليه الغزنوي والشيخ الواعظ بجامع القصر ، وكان وصيه ، وحضر جنازته قاضي القضاة الزيني والأعيان ، ودفن إلى جانب عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنهم أجمعين بوصية منه .

١ ترجمة زكريا بن خطاب في جذوة المقتبس : ٢٠٢ (وبغية الملتبس رقم : ٤٧٣) وابن

الفرضي ١ : ١٧٦ .

٢ ترجمة سعد الخير البلسني في الذيل والتكملة ٤ : ١٦ ، والتكملة رقم : ٢٠١١ .



٢٥٦ - ومنهم أبو عثمان سعيد بن نصر بن عمر بن خلفون ، الإستجي<sup>١</sup> ،  
سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وابن أبي دليم وغيرهما ، ورحل فسمع بمكة من  
ابن الأعرابي ، وبيغداد من أبي علي الصفار وجماعة ، وبها مات .

٢٥٧ - ومنهم أبو عثمان سعيد الأعناني ، ويقال : العناني ، القرطبي<sup>٢</sup> ،  
كان ورعاً زاهداً عالماً بالحديث بصيراً بعلله ، سمع من محمد بن وضاح وصحبه ومن  
يحيى بن إبراهيم بن مزين ومحمد بن عبد السلام الحشني وغيرهم ، ورحل فلقي  
جماعة من أصحاب الحديث منهم نصر بن مرزوق كتب عنه مسند أسد بن موسى  
وغير ذلك من كتبه ، ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم  
والحارث بن مسكين في آخرين ، وحدث عنه أحمد بن خالد وابن أيمن ومحمد  
ابن قاسم وابن أبي زيد في عدد كثير ، ومولده سنة ٢٣٣ ، وتوفي سنة ٣٠٥  
بصفر .

والأعناني : نسبة إلى موضع يقال له أعناق وعناق .

٢٥٨ - ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف ، التحجبي ، الإقليشي<sup>٣</sup> ،  
روى عن أبي عثمان سعيد بن سالم المجريطي وأبي ميمونة دراس بن إسماعيل  
فقيه فاس ، ورحل حاجاً سنة ٣٤٩ ، فسمع بمكة من أبي بكر الآجري وأبي  
حفص الجمحي ، وبمصر من أبي إسحاق ابن شعبان ، وروى عنه كتاب « الزاهي »  
جميعه وقد قرئ عليه جميعه ، وحُمل عنه ، ومولده سنة ٣٠٣ ، رحمه الله تعالى .

١ ترجمة سعيد بن نصر الإستجي في الصلة : ٢٠٣ وجذوة المقتبس : ٢١٧ ( رقم : ٤٨٤ ) وبغية  
الملتبس ( رقم : ٨٢٢ ) وقال ابن بشكوال والحميدي : توفي ببخارى سنة ٣٥٠ .  
٢ ترجمة سعيد الأعناني في جذوة المقتبس : ٢١٤ ( وبغية الملتبس رقم : ٨٠٣ ) وابن الفرضي  
١ : ١٩٥ ، وهو سعيد بن عثمان بن سعيد بن سليمان التحجبي الأعناني .  
٣ ترجمة عبد الرحمن الإقليشي في ابن الفرضي ( ١ : ٣١٠ ) .  
٤ كذا في ق ودوزي ؛ وفي ابن الفرضي ثلاثمائة ؛ وفي التجارية : ٣١٣ .

٢٥٩ - ومنهم أبو الأصبع عبد العزيز بن علي ، المعروف بابن الطحان ،  
الإشبيلي ، المقرئ<sup>١</sup> ، ولد بإشبيلية سنة ٤٩٨ ، ورحل فدخل مصر والشام وحلبا ،  
وتوفي بحلب بعد سنة ٥٥٩ ، وله كتاب « نظام الأداء في الوقف والابتداء » ،  
ومقدمة في مخارج الحروف ، ومقدمة في أصول القراءات ، وكتاب « الدعاء » ،  
وكان من القراء المجوِّدين الموصوفين بالإتقان ومعرفة وجوه القراءات ، وسمع  
الحديث على شريح بن محمد بن أحمد بن شريح الرعيبي خطيب إشبيلية وأبي  
بكر يحيى بن سعادة القرطبي .  
وله شعر حسن منه قوله :

دع الدنيا لعاشقها سيصبحُ من رثائها  
وعاد النفسَ مصطبراً ونكَّبَ عن خلائقها  
هلاكُ المرء أن يضحى مُجدّاً في علائقها  
وذو التقوى يذلُّها فيسلمُ من بوائقها

وأخذ القراءات ببلده عن أبي العباس ابن عيَّشون وشريح بن محمد ، وروى  
عنهما وعن أبي عبد الله ابن عبد الرزاق الكلبي ، وروى مصنّف النسائي عن  
أبي مروان ابن مسرّة ، وتصدّى للإقراء ، ثم انتقل إلى فاس ، وحج ودخل  
العراق ، وقرأ بواسطة القراءات وأقرأها أيضاً ، ودخل الشام واشتهر ذكره ،  
وجلّ قدره ، وروى عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي الحافظ ، وعلي بن يونس ،  
قال بعضهم : سمعت غير واحد يقول : ليس بالغرب أعلم بالقراءات من ابن  
الطحان ، قرأ عليه الأثير أبو الحسن محمد بن أبي العلاء وأبو طالب ابن عبد السميع  
وغيرهما ، رحم الله تعالى الجميع .

١ ترجمة ابن الطحان في التكملة رقم : ١٧٥٩ ( ص : ٦٢٨ ) قال : ويعرف بالطحان وبابن الحاج  
ويكنى أبا محمد وأبا الأصبع ، رحل من إشبيلية بعد سنة ٥٥٤ وله من المؤلفات : « شعار الأخيار  
الأبرار في التسييح والاستغفار » . وانظر غاية النهاية ١ : ٣٩٥

٢٦٠ - ومنهم أبو الأصبع عبد العزيز بن خلف ، المعافري<sup>١</sup> ، قدم مصر سنة ٥٠٢ ، وولد سنة ٤٤٨ ، وحدث بالموطأ عن سليمان بن أبي القاسم ، أنبأنا أبو عمر ابن عبد البر ، أنبأنا سعيد بن نصر . عن قاسم بن أصبغ عن محمد ابن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، رضي الله تعالى عنه .

٢٦١ - ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة ، السعدي ، الشاطبي<sup>٢</sup> ، قدم مصر ودمشق طالب علم ، وسمع أبا الحسن ابن أبي الحديد وأبا منصور العكبري وغيرهما ، وصنف<sup>٣</sup> غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام على حروف المعجم ، وسمعه عليه أبو محمد الأكفاني ، وتوفي بأرض حوران من أعمال دمشق في رمضان سنة ٤٦٥ ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

٢٦٢ - ومنهم الحكيم الطيب أبو الفضل محمد عبد المنعم ، الغساني ، الجلياني<sup>٤</sup> ، وهو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن أحمد بن خضر بن مالك بن حسان ، ولد بقريّة جليانة من أعمال غرناطة سابع المحرم سنة ٥٣١ ، وقدم إلى القاهرة ، وسار إلى دمشق فسكنها مدة ، ثم سافر إلى بغداد فدخلها سنة ٦٠١ ، ونزل بالمدرسة النظامية ، وكتب الناسُ عنه كثيراً من نظمه ، وكان أديباً فاضلاً ، له شعر مليح المعاني أكثره في الحكم والإلهيات وآداب النفوس والرياضيات ، وكان طبيباً حاذقاً ، وله رياضات ومعرفة بعلم الباطن ، وله كلام مليح على طريق القوم ، وكان مليح السمت ، حسن الأخلاق ، لطيفاً ، حاضر الجواب ،

١ ترجمة عبد العزيز بن خلف في التكملة رقم : ١٧٤٢ ( ص : ٦٢٤ ) .

٢ ترجمة عبد العزيز السعدي في التكملة رقم : ١٧٣٩ ( ص : ٦٢٣ ) وذكره ابن عساكر .

٣ الصواب : ورتب ، كما في التكملة .

٤ هذا هو حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني الذي مرت ترجمته رقم : ٢٣٨ ولكن هذه الترجمة هنا أكثر إسهاباً ، وقد ذكرنا في الحاشية هنالك مصادر ترجمته ولا أدري كيف وقع في اسمه « محمد » ولعله محمد [ أو ] عبد المنعم ، لقول المقرئ من بعد : « وسماه بعضهم عبد المنعم » .

ومات بدمشق سنة ٦٠٢ ، وكان يقال له : حكيم الزمان ، وأراد القاضي الفاضل أن يَغْضَّ منه فقال له بحضرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب : كم بين جليانة وغرناطة ؟ فقال : مثل ما بين بيسان وبيت المقدس .

ومن شعره قوله :

خَبَرْتُ بَنِي عَصْرِي عَلَى الْبَسْطِ وَالْقَبْضِ  
فَأَنْتَجَّ لِي فِيهِمْ قِيَاسِي تَخْلِيًّا  
أَلْأَزْمُ كَسْرَ الْبَيْتِ خِلْوًا ، وَإِنْ يَكُنْ  
أَرَى الشَّخْصَ مِنْ بَعْدِ فَأَغْضِي تَغَافِلًا  
وَبِحَسْبِي فِي غَفْلَةٍ وَفِرَاسَتِي  
أَجَانِبُهُمْ سَلْمًا لَيْسَلِمَ جَانِبِي  
تَخَلَّيْتُ عَنْ قَوْمِي وَلَوْ كَانَ مَمْكِي  
وَكَاشَفْتُهُمْ كَشْفَ الطَّبَائِعِ بِالنَّبْضِ  
عَنِ الْكُلِّ إِذْ هُمْ آفَةُ الْوَقْتِ وَالْعَرِضِ  
خُرُوجُ فَرْدًا مَلْصِقَ الطَّرْفِ بِالْأَرْضِ  
كَشْدُوهِ بِالِ فِي مَهْمَتِهِ يَمْضِي  
عَلَى الْفُورِ مِنْ لَمْحِي بِمَا قَدْ نَوَى تَقْضِي  
وَلَيْسَ لِحَقْدٍ فِي النَّفُوسِ وَلَا بَغْضِ  
تَخَلَّيْتُ عَنْ بَعْضِي لَيْسَلِمَ لِي بَعْضِي

وقال :

قالوا نراك عن الأكابر تُعْرِضُ  
قلتُ الزَّيْرَةَ لِلزَّمَانِ إِضَاعَةً  
إِنْ كَانَ لِي يَوْمًا إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ  
وسواك زَوَّارٌ لَهِمْ مُتَعَرِّضُ  
وَإِذَا مَضَى زَمَنٌ فَمَا يَتَعَوَّضُ  
فَبِقَدْرِ مَا ضَمَّنَ الْقَضَاءُ تَقْيِيضُ

وقال :

حاولَ مَقَارَكَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَا  
إِنَّ الْمِيَّ مِنَ الْمِنِيَّةِ لَفْظُهُ  
فَالْحَالُ آخِرُهَا كَحَالِكَ أَوْلَا  
لِتَدَلَّ فِي أَصْلِ الْبِنَاءِ عَلَى الْبَلِي

وسماه بعضهم عبد المنعم ، وذكره العماد في « الخريدة » وقال : هو صاحب البدع البعيد ، والتوشيح والترشيح ، والترصيع والتصريح ، والتجنيس والتطبيق ، والتوفيق والتلفيق ، والتقريب والتقرير ، والتعريف والتعريب ، وهو مقيم

بدمشق ، وقد أتى العسكر المنصور الناصري سنة ٥٨٦ بظاهر ثغر عكا ، وكتب إلى السلطان صلاح الدين وقد جرح فرسه :

أيا ملكاً أفنى العداة حُسامهُ	ومُنتَجِماً أقتى العفاة ابتسامهُ
لقاؤك يوماً في الزمانِ سعادةُ	فكيف بثاؤ في حماك حِمامهُ
وعبدك شك دِينهُ وهو شاكرُ	نداك الذي يُغني الغمام غمامهُ
ولي قمرسُ أصماهُ سهمُ فردّه	أثافي ربيعٍ بالثلاث قيامهُ
تعمّر فيه بالجراحة ساحة	وعُطلّ منه سرّجهُ وبلحامهُ
أتينا لما عودتُنا من مكارمِ	يلوذُ بها الراجي فيشفي غرامهُ
فرحماك غوثٌ لا يغيبُ نصيره	ونعماك غيثٌ لا يُغيبُ انسجامهُ

وله رحمه الله تعالى غير هذا ، وترجمته واسعة .

٢٦٣ - ومنهم الأستاذ أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القدوس القرطبي ، مؤلف « المفتاح » في القراءات ، ومقرئ أهل قرطبة<sup>١</sup> ، رحل وقرأ القراءات على أبي علي الأهوازي ، وبحرّان على أبي القاسم الرّيدي ، وبمصر على أبي العباس ابن نفيس ، وبمكة على أبي العباس الكازريني ، وسمع بدمشق من أبي الحسن ابن السمسار ، وكان عجباً في تحرير القراءات ومعرفة فنونها ، وكانت الرحلة إليه في وقته ، ولد سنة ٤٠٣ ، ومات في ذي القعدة سنة ٤٦١<sup>٢</sup> ، قرأ عليه أبو القاسم خلف ابن النحاس وجماعة ، رحمه الله تعالى .

٢٦٤ - ومنهم عبيد الله ، وقيل : عبد الله ، بغير تصغير ، ابن المظفر بن عبد الله بن محمد ، أبو الحكم ، الباهلي ، الأندلسي<sup>٣</sup> ، ولد بالمريّة سنة ٤٨٦ ،

١ ترجمة عبد الوهاب بن محمد القرطبي في الصلة : ٣٦٢ وغاية النهاية ١ : ٤٨٢ .

٢ الصلة : ٤٦٢ .

٣ ترجمة الحكيم المغربي في وفيات الأعيان ٢ : ٣٠٧ والخريدة (القسم الرابع ١ : ٣٦٩) وابن

أبي أصيبمة ٢ : ٢٤٠ .

وحج سنة ٥١٦ وحج أيضاً سنة ٥١٨ ، ودخل دمشق وقرأ بصعيد مصر وبالإسكندرية ، ثم مضى إلى العراق ، وأقام ببغداد يعلم الصبيان وخدم السلطان محمود بن ملك شاه سنة ٥٢١ ، وأنشأ له في معسكره مارستاناً يُنقل على أربعين جملاً ، فكان طبيبه ، ثم عاد إلى دمشق ومات بها سنة ٥٤٩ ، ودفن بباب الفراديس ، وكان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة ، وله ديوان شعر سماه «نهج الوضاعة لأولي الخلاعة» ذكر فيه جملة شعراء كانوا بمدينة دمشق كطالب الصوري ونصر الهيتي وغيرهما كعرقاة ، وفيه نزاهات أدبية ، ومفاكهات غريبة ، ممزوج جدّها بسخفها ، وهزلها بظرفها ، ورثى فيه أنواعاً من الدواب وأنواعاً من الأثاث وخلقاً من المغنين والأطراف ، وشرح هذا الديوان ابنه الحكيم الفاضل أبو المجد محمد بن أبي الحكم الملقب بأفضل الدولة ، وكان كثير الهزل والمداعبة ، دائم اللهو والمطايبة ، وكان إذا أتاه الغلام وما به شيء فيجس نبضه ثم يقول له : تصلح لك الهريسة ، وكان أعور فقال فيه عرقلة :

لنا طيّبٌ شاعرٌ أعورٌ      أراحنا من طبهِ اللهُ  
ما عاد في صبحه يومٍ فتى      إلا وفي باقيه رثاهُ

وله أيضاً يرثيه :

يا عينُ سُحِّيْ بدمعٍ ساكبٍ ودمٍ      على الحكيم الذي يكنى أبا الحكمِ  
قد كان لا رحيمَ الرحمنُ شيبته      ولا سقى قبره من صيبِ الدِّيمِ  
«شيخاً يرى الصلواتِ الخمسَ نافلةً      ويستحلُّ دمَ الحجاج في الحرمِ»

ومن كنايات أبي الحكم المستحسنة قوله :

ألم ترني أكابدُ فيك وجدي      وأحملُ منك ما لا يُستطاعُ

١ ق : يسمي .

إذا ما أنجمُ الجوّ استقلتُ ومال الدلوُ وارْتَفَعَ الذراعُ

ومن شعره قوله :

محاسنُ العالم قد جُمِعَتْ في حُسْنِهِ المستكمل البارِعِ  
وليس لله بمستنكِرٍ أن يجمعَ العالم في الجامعِ

٢٦٥ - ومنهم أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن صافي ، الغرناطي ، القيساني ، وقيسانة من عمل غرناطة ، الفقيه المالكي ، ولد سنة ٥٦٤ ، وقدم القاهرة وناب في الحسبة ، وله شعر حسن ، توفي بالقاهرة سنة ٦٣٤ ، رحمه الله تعالى .

٢٦٦ - ومنهم طالوت بن عبد الجبار ، المعافري ، الأندلسي ، دخل مصر ، وحج ولقي إمامنا مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه ، وعاد إلى قرطبة ، وكان ممن خرج على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن من أهل ربض شقندة يريد خلعه وإقامة أخيه المنذر ، وزحفوا إلى قصره بقرطبة ، فحاربهم ، وقتلهم ، وفرّ من بقي منهم ، فاستتر الفقيه طالوت عاماً عند يهودي ، ثم ترامى على صديقه أبي البسام الكاتب ليأخذ له أماناً من الحكم ، فوشى به إلى الحكم ، وأحضره إليه فعنفه ووبّخه ، فقال له : كيف يحل لي أن أخرج إليك وقد سمعت مالك بن أنس يقول : سلطان جائرٌ مدةٌ خيرٌ من فتنة ساعة ؟ فقال : الله تعالى لقد سمعتَ هذا من مالك ؟ فقال طالوت : اللهم إنّي قد سمعته ، فقال : انصرف إلى منزلك وأنت آمن ، ثم سأله : أين استتر ؟ فقال : عند يهودي مدة عام ، ثم إنّي قصدت هذا الوزير فغدر بي ، فغضب الحكم على أبي البسام وعزله عن وزارته ، وكتب عهداً أن لا يخدمه أبداً ، فرؤي أبو البسام بعد ذلك في فاقة وذل ، فقيل : استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت ، رحمه

١ ترجمة طالوت في الذيل والتكملة ٤ : ١٥٠ والتكملة : ٣٤٥ وابن القوطية : ٧٥ .

الله تعالى .

٢٦٧ - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد ، ضياء الدين ونظامه ، ابن خروف الأديب ، القيسي ، القرطبي ، القيداني ، الشاعر<sup>١</sup> ، قدم إلى مصر ، ثم سار إلى حلب ومات بها متردياً في جب حنطة سنة ٦٠٢ ، وقيل : في التي بعدها ، وقيل : سنة خمس وستمائة ، وله شرح كتاب سيويه ، وحمله إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار<sup>٢</sup> ، وله شرح جمل الزجاجي ، وكتب في الفرائض ورد<sup>٣</sup> على أبي زيد السهيلي ، وغير ذلك<sup>٤</sup> ، ومدح الأفضل ابن السلطان صلاح الدين ومدح الظاهر ابن الناصر أيضاً .

وشعره جيد ، فمنه قوله في كأس<sup>٤</sup> :

أنا جسمٌ للحُمَيَّا والحُمَيَّا ليَ رُوحٌ  
بينَ أهلِ الظرفِ أَعْدُو كلِّ يومٍ وأروحُ

١ المسمى علي بن محمد بن علي بن محمد المشهور بابن خروف وبالدريدنة ، له ترجمة في الذيل والتكملة ٥ : ٣١٩ وصلة الصلة : ١٢٢ والتكملة رقم : ١٨٨٤ ووفيات الأعيان ٣ : ٢٢ وبرنامج الرعيبي : ٨١ وجذوة الاقتباس : ٣٠٧ ومعجم الأدباء ١٥ : ٧٥ وهذا هو ابن خروف النحوي الحضرمي الإشبيلي الذي توفي بإشبيلية سنة ٦٠٩ أما الشاعر فإن اسمه علي بن محمد بن يوسف بن خروف القرطبي وله ترجمة في صلة الصلة : ١١٤ ، والتكملة رقم : ١٨٩٤ والذيل والتكملة ٥ : ٣٩٦ ومسالك الأبيصار ١١ : ٤٨٥ وهذا هو المقرئ يخلط بين الاسمين فيترجم للشاعرتحت اسم النحوي وقد وقع في هذا الخلط ابن شاکر في الفوات ٢ : ١٦٠ والسيوطي في بغية الوعاة ٣٥٤ وابن الساعي في الجامع المختصر : ٣٠٦ .

٢ وله . . . دينار سقط من ق .

٣ قلت : صاحب هذه الشروح هو ابن خروف النحوي لا الشاعر ، وشرحه على سيويه يسمى « تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب » ؛ قال ابن عبد الملك : وكان كثير العناية بالرد على الناس فرد على إمام الحرمين . . . وأبي القاسم السهيلي .

٤ الفوات : ١٦٠ .



وقال<sup>١</sup> في صبي حبس :

أقاضي المسلمين حكمتَ حكماً غدا وجهُ الزمان به عبوسنا  
حبستَ على الدراهمِ ذا جمالٍ ولم تسجنه إذ سلبَ النفوسا

وقال :

ما أعجبَ النيل ما أحلى شمائله في ضفّتيه من الأشجارِ أدواحُ  
من جنة الخلد فيأضُّ على تُرعٍ تهبُّ فيها هبوبَ الريحِ أرواحُ  
ليستَ زيادتهُ ماءً كما زعموا وإنما هي أرزاقُ وأرباحُ

والقيزاني : بقاف ، ثم ياء آخر الحروف ، بعدها ذال معجمة ، ثم ألف ،  
وفاء . وله رسالة كتب بها إلى بهاء الدين بن شداد بحلب يطلب منه فروة ، وهي :

بهاء الدين والدنيا ونورَ المجدِ والحسبِ  
طلبتُ مخافةَ الأنوا ء من جدِّ والكَ<sup>٢</sup> جلد أبي  
وفضلكَ عالمٌ أني خرووفٌ بارعُ الأدبِ  
حلبتُ الدهرَ أشطُرهُ وفي حلبِ صفا حلبتي

ذو الحسب الباهر ، والنسب الزاهر ، يسحب ذبول سير السيراء ، ويجب النجاة  
من أجل القراء<sup>٣</sup> ، ويمن على الحروف النبيه ، بجلد أبيه ، قاني الصباغ ،  
قريب عهد<sup>٤</sup> بالدباغ ، ما ضلَّ طالب قرظهِ ولا ضاع ، بل ذاع ثناء صانعه  
وضاع ، إذا طهر إهابه ، يخافه البرد ويهابه ، أثيث خمائل الصوف ، يهزأ

١ ق : وله ؛ والبيتان في الفوات أيضاً وكذلك سائر ما أورد له المقرئ من شعر ولم يورد في الفوات رسالته .

٢ ق ودوزي : من حسناك .

٣ ق ودوزي : ويجب النجاة من أهل (أجل) القراء ، وهو مصحف .

٤ ق : المهدي .

بكل هَوَجاء عصف ، ما في اللباس له ضريب ، إذا نزل الجليد والضريب ،  
ولا في الثياب له نظير ، إذا عري من ورقه الغصنُ النَّضِير ، والمولى بيعته فرجياً  
النوع ، أرجي الضوع ، يكون تارة لحافاً وتارة بُرداً ، وهو في الحالين يجي  
حرّاً ويميت بُرداً ، لا كطَيْلسان ابن حرب ، ولا كجلد عمرو الممزق  
بالضرب ، إن عزاه السواد إلى حام فحام ، أو نماء البياض إلى سام فسام ، كأنه  
من جلد جمل الحرباء ، الذي يرعى القمر والنجم ، لا من جلد السَّخْلة  
الحرباء ، التي ترعى الشجر والنجم ، لا زال مهديه سعيداً ، ينجز للأخبار  
وعداً وللأشرار وعيداً ، بالمنة والطَّول ، والقوّة والحول .

٢٦٨ - ومنهم مالك بن مالك ، من أهل جيان ، رحل حاجتاً فأدى الفريضة ،  
وسكن حلب ، ولقي عبد الكريم بن عمران ، وأنشد له قوله :

يَا رَبِّ خُذْ بِيَدِي مِمَّا دُفِعْتُ لَهُ فَلَسْتُ مِنْهُ عَلَى وِرْدٍ وَلَا صَدْرٍ  
الْأَمْرُ مَا أَنْتَ رَائِيهِ وَعَالِمُهُ وَقَدْ عَتَبْتُ وَلَا عَتَبْتُ عَلَى الْقَدْرِ  
مَنْ يَكْشِفُ السُّوءَ إِلَّا أَنْتَ بَارِئْنَا وَمَنْ يَزِيلُ بَصْفِي حَالَةَ الْكَدْرِ

٢٦٩ - ومنهم أبو علي ابن خميس ، وهو منصور بن خميس بن محمد بن  
إبراهيم اللخمي من أهل المرية<sup>١</sup> . سمع من أبي عبد الله البوني<sup>٢</sup> وابن صالح ،  
وأخذ عنهما القراءات ، وروى أيضاً عن الحافظ القاضي أبي بكر ابن العربي ،  
وأبوي القاسم ابن رضا<sup>٣</sup> وابن ورد وأبي محمد الرشاطي وأبي الحجّاج القضاعي  
وأبي محمد عبد الحق بن عطية وأبي عمرو الخضر بن عبد الرحمن وأبي القاسم  
عبد الرحمن<sup>٤</sup> بن محمد الخزرجي وغيرهم ، ورحل حاجتاً فنزل الإسكندرية ،

١ ترجمة منصور بن خميس في التكملة : ٧١١ .

٢ التكملة : البوني .

٣ ق : وأبوي القاضي ابن رضي . . . الخ وهو خطأ .

٤ كذا في ق ودوزي ؛ وفي التكملة : وأبي القاسم عبد الرحيم ؛ التجارية : عبد الحق .

وسمع منه أبو عبد الله ابن عطية الداني سنة ٥٩٦ ، وحدث عنه بالإجازة أبو العباس العزفي وغيره .

٢٧٠ - ومنهم منصور بن لُبّ بن عيسى ، الأنصاري<sup>١</sup> ، من أهل المريّة ، يكنى أبا علي ، أخذ القراءات ببلده عن ابن خميس المذكور قبله ، ورحل بعده ، فترزل الإسكندرية ، وأجازه أبو الطاهر السِّلَفي في سفره<sup>٢</sup> ، وقد أخذ عنه فيما ذكر بعضهم ، ومولده سنة ٥٧١ ، رحمه الله تعالى .

٢٧١ - ومنهم مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج ، المَعافري<sup>٣</sup> ، من أهل قرطبة ، وهو جد ابن مفرج صاحب كتاب « الاحتفال بعلم الرجال » ، صحب المذكور محمد بن وضاح في رحلته الثانية ، وشاركه في كثير من رجاله ، وصَدَرَ عن المشرق معه ، فاجتهد في العبادة ، وانتبذ عن الناس ، ثم كَرَّ راجعاً إلى مكّة عند موت ابن وضاح ، فترزها واستوطنها إلى أن مات<sup>٤</sup> ، فقبره هنالك .

وقال في حقّه أبو عمر عفيف : إنّه كان من الصالحين ، رحل فحجّ وجاور بمكّة نحو عشرين سنة إلى أن مات بها ، رحمه الله تعالى .

٢٧٢ - ومنهم محب بن الحسين<sup>٥</sup> ، من أهل الثغر الشرقي ، كانت له رحلة حج فيها ، وسمع بالقيروان من أبي عبد الله ابن سفيان الكتاب « الهادي في القراءات » من تأليفه ، وكان رجلاً صالحاً ، حدث عنه أبو عبد الله محمد بن عبد

١ ترجمة منصور بن لب في التكملة : ٧١٢ .

٢ كذا في التكملة ؛ ق : في سفره .

٣ ترجمة مفرج بن حماد المَعافري في التكملة : ٧٢٠ ، قال : يعرف بالقبشي ، وحفيده هو الحسن ابن محمد بن مفرج أبو بكر .

٤ زاد في ق : بها .

٥ ترجمة محب بن الحسين في التكملة : ٧٣٤ .

الملك التجيبي من شيوخ أبي مروان ابن الصيقل .

٢٧٣ - ومنهم مساعد بن أحمد بن مساعد ، الأصبحي ، من أهل أوريولة ، يكنى أبا عبد الرحمن ، ويُعرف بابن زعوقة ، روى عن ابن أبي تليد وابن جَحْدَر ، والحافظين أبي علي الصدفي وأبي بكر ابن العربي ، وكتب إليه أبو بكر ابن غالب بن عطية ، ورحل حاجباً في سنة أربع وتسعين وأربعمائة ، فأدى الفريضة سنة خمس بعدها ، ولقي بمكة أبا عبد الله الطبري ، فسمع منه صحيح مسلم ، مشتركاً في السماع مع أبي محمد ابن أبي جعفر الفقيه ، ولقي أبا محمد ابن العرجاء وأبا بكر ابن الوليد الطرطوشي وأصحاب الإمام أبي حامد الغزالي وأبا عبد الله المازري وجماعة سواهم ساوى بلقائهم مشيخته ، وانصرف إلى بلده فسمع منه الناس ، وأخذوا عنه لعلو روايته ، وكان من أهل المعرفة والصلاح والورع ، وممن حدث عنه من الجلة أبو القاسم ابن بَشْكُوَال ، وأبو الحجاج الثغري الغرناطي ، وأبو محمد عبد المنعم بن الفرس وغيرهم ، وأغفله ابن بَشْكُوَال فلم يذكره في الصلة مع كونه روى عنه ، وقال تلميذه أبو الحجاج الثغري الغرناطي : أخبرني أبو سليمان ابن حَوْط الله وغيره عنه ، قال : أخبرني الحاج أبو عبد الرحمن ابن مساعد رضي الله تعالى عنه : أنه لقي بالمشرق امرأة تُعرف بصباح عند باب الصفا ، وكان يقرأ عليها بعض التفاسير ، فجاء بيت شعر شاهد ، فسألت : هل له صاحب ؟ فسألوا الشيخ أبا محمد ابن العرجاء ، فقال الشيخ : لا أذكر له صاحباً ، فأنشدت :

طلعت شمسٌ من أحبِّك ليلاً      واستضاءت فما لها من مغيبِ  
إنَّ شمسَ النهارِ تغربُ بالليْلِ      لشمسِ القلوبِ دونِ غروبِ

ولد في صفر سنة ٤٦٨ ، وتوفي بأوريولة سنة ٥٤٥ ، قاله ابن سفيان .

١ ترجمة مساعد بن أحمد الأصبحي في التكملة : ٧٣٦ .

٢٧٤ - ومنهم أبو حبيب نصر بن القاسم<sup>١</sup> . قال ابن الأبار : أظنه من أهل غرناطة ، له رحلة حج فيها ، وسمع من أبي الطاهر السلفي ، وحدث عنه عن ابن فتح بمسند الجوهري ، انتهى .

٢٧٥ - ومنهم النعمان بن النعمان ، المعافري<sup>٢</sup> ، من أهل مَيُورُقَةَ منسوب إلى جده ، رحل حاجاً فأدى الفريضة وجاور بمكة ثم قفل إلى بلده ، واعتزل الناس ، وكان يُشار إليه بإجابة الدعوة ، وتوفي سنة ٦١٦ رحمه الله تعالى ونفعنا به .

٢٧٦ - ومنهم نعم الخلف بن عبد الله بن أبي ثور ، الحضرمي<sup>٣</sup> ، من أهل طرطوشة أو ناحيتها ، رحل إلى المشرق ، وأدى الفريضة ، وتوفي بمكة أبا عبد الله الأصبهاني ، فسمع منه سنة ٤٢٢ ، حدث عنه ابنه القاسم بن نعم الخلف بيسير .

٢٧٧ - ومنهم نابت - بالنون - ابن المفرج بن يوسف ، الخثعمي<sup>٤</sup> ، أصله من بِلَنْسِيَّةَ ، وسكن مصر ، يكنى أبا الزهر ، قال السلفي : قدم مصر بعد خروجي منها ، وتفقه على مذهب الشافعي ، وتأدب ، وقال الشعر الفائق ، وكتب إليّ بشيء من شعره ، ومات في رجب سنة ٥٤٥ بمصر .

٢٧٨ - ومنهم ضمام بن عبد الله ، الأندلسي<sup>٥</sup> ، رحل إلى المشرق ،

---

١ ترجمة نصر بن القاسم في التكملة : ٧٤٨ ؛ وفي ق : صخر بن القاسم وهو مخالف لما في التكملة .  
٢ ترجمة النعمان بن النعمان المعافري في التكملة : ٧٥٣ .  
٣ ترجمة نعم الخلف بن أبي ثور في التكملة : ٧٥٧ .  
٤ ترجمة نابت بن المفرج في التكملة : ٧٥٨ .  
٥ ترجمة ضمام بن عبد الله في التكملة : ٧٧٠ والذيل والتكملة : ٤ : ١٤٥ وجذوة المقتبس : ٢٢٩ (وبغية الملتبس رقم : ٨٥٨) .

ودخل بغداد ، وهو ممن يروي عن عبد السلام بن مسلمة<sup>١</sup> الأندلسي . وممن روى عن ضمام أبو الفرج أحمد بن القاسم الحشابي البغدادي من شيوخ الدارقطني ، قال ابن الأبار : هكذا وقع في نسخة عتيقة من تأليف الدارقطني في الرواة عن مالك في باب مسَلَمَة منه ضمام - بالضاد المعجمة - وهكذا ثبت في رواية أبي زكريا ابن مالك بن عائذ عن الدارقطني ، وقال فيه غيره : هَمَام بن عبد الله - بالهاء وتشديد الميم - وفي حرف الهاء أثبتته أبو الوليد ابن الفرضي من تاريخه<sup>٢</sup> ، والأول عندي أصح ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

٢٧٩ - ومنهم ضرغام بن عروة بن حجاج بن أبي فُرَيْعَة<sup>٣</sup> ، واسمه زيد ، مولى عبد الرحمن بن معاوية والداخل معه إلى الأندلس ، من أهل لبَلَّة ، له رحلة إلى المشرق ، وكان فقيهاً ، ذكره الرازي .

٢٨٠ - ومنهم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ، المَعافري<sup>٤</sup> ، من أهل قرطبة ، وأصله من الجزيرة الخضراء ، وهو والد المنصور ابن أبي عامر ويكنى أبا حفص ، سمع الحديث ، وكتبه عن محمد بن عمر ابن لبابة وأحمد بن خالد ومحمد بن فطيس وغيرهم ، ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، وكان من أهل الخير والدين والصلاح والزهد والقعود عن السلطان ، أنى عليه الرواية أبو محمد الباجي وقال : كان لي خير صديق أنتفع به وينتفع بي ، وأقابل معه كتبه وكتبي ، ومات مُنْصَرَفَه من حجّه ، ودفن بمدينة طرابلس المغرب ، وقيل : بموضع يقال له رَقَادَة ، وكان رجلاً عالماً صالحاً ، وقال بعضهم : إنّه توفي في آخر خلافة عبد الرحمن الناصر .

١ في الأصول : مسلم ، والتصويب عن المصادر .

٢ انظر تاريخ ابن الفرضي ٢ : ١٧٣ .

٣ ترجمة ضرغام بن عروة في التكملة : ٧٧٠ والذيل والتكملة ٤ : ١٤٥ .

٤ ترجمة عبد الله بن أبي عامر المعافري في التكملة : ٧٨١ .

٢٨١ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن حمود ، الزبيدي ، الإشبيلي ، ابن عم أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي اللغوي<sup>١</sup> ، كان من مشاهير أصحاب أبي علي البغدادي ، ورحل إلى المشرق فلم يعد إلى الأندلس ، ولازم السيرافي في بغداد إلى أن توفي ، فلأزم بعده صاحبه أبا علي الفارسي ببغداد والعراق ، وحيثما جال ، واتبعه إلى فارس ، وحكى أبو الفتوح الجرجاني<sup>٢</sup> أن أبا علي البغدادي غكّس لصلاة الصبح في المسجد ، فقام إليه أبو محمد الزبيدي من مِذْوَد كان لدابته خارج الدار قد بات فيه أو أدلج<sup>٣</sup> إليه ليكون أول وارد عليه ، فارتاع منه ، وقال : ويحك ! من تكون ؟ قال : أنا عبد الله الأندلسي ، فقال له : إلى كم تبغني ؟ والله إن على وجه الأرض أنحى منك . وكان من كبار النحاة وأهل المعرفة التامة والشعر ، وجمع شرحاً لكتاب سيويه ، ويقال : إنه توفي ببغداد سنة ٣٧٢ .

٢٨٢ - ومنهم عبد الله بن رشيق ، القرطبي<sup>٤</sup> ، رحل من الأندلس ، فأوطن القيروان ، واختص بأبي عمران الفاسي ، وتفقه به ، وكان أديباً شاعراً عفيفاً خيراً ، وفي شيخه أبي عمران أكثر شعره ، ورحل حاجباً فأدى القريضة ، وتوفي في انصرافه بمصر سنة ٤١٩ ، وأنشد له ابن رشيق في « الأنموذج » قوله رحمه الله تعالى :

خيرُ أعمالك الرضى بالمقادير والقضا

١ ترجمة عبد الله بن حمود الزبيدي في التكملة : ٧٨٣ والذيل والتكملة ٤ : ٢٢٠ وطبقات الزبيدي

٣٩٩ وبنية الوعاة : ٢٨٢ وإنباه الرواة ٢ : ١١٨ والمقري ينقل عن التكملة .

٢ انظر هذه الحكاية في إنباه الرواة ٢ : ١١٩ ومجمع الأدباء ١٤ : ٨١ .

٣ ق ودوزي : أو دلج .

٤ ترجمة عبد الله بن رشيق في التكملة : ٧٩٣ والذيل والتكملة ٤ : ٢٢٥ ومسالك الأبصار

١١ : ٣٥٩

بينما المرء ناضراً قيل: قدمات وانقضى

وقوله :

سأقطعُ جبلي من جبالك جاهداً وأهجرُ هجرأ لا يجرُّ لنا عرضاً  
وقد يُعرضُ الإنسانُ عمن يودُّهُ ويلقى ببِشرٍ من يُسرُّ له البغضاً

قال في «الأنموذج» : وأراد الحج فناله وجع فمات بمصر بعد اشتهاؤه فيها بالعلم والجلالة ، وقد بلغ عمره نحو الأربعين سنة ، رحمه الله تعالى ، وهو مخالف لما قدمناه من أنه أدى الفريضة ، وقد ذكر ابن الأبار العبارتين ، والله تعالى أعلم .

٢٨٣ - ومنهم أبو بكر الياقوبي ، ويكنى أيضاً أبا محمد ، وهو عبد الله ابن طلحة بن محمد بن عبد الله ، أصله من يابرة ، ونزل هو لإشبيلية ، وروى عن أبي الوليد الباجي وعن جماعة بغرب الأندلس منهم أبو بكر ابن أيوب وأبو الحزم ابن عليم وأبو عبد الله ابن مزاحم البطلانيوسيون وغيرهم ، وكان ذا معرفة بالنحو والأصول والفقه وحفظ التفسير والقيام عليه ، وحلّق به مدّة بإشبيلية وغيرها ، وهو كان الغالب عليه مع القصص فيسرد منه جملاً على العامة ، وكان متكلماً ، وله ردّ على أبي محمد ابن حزم ، وكان أحد الأئمة بجامع العبدبس ، ورحل إلى المشرق ، فروى عن أبي بكر محمد بن زيدون بن علي كتابه المؤلف في الحديث المعروف بالزيدوني ، وألف كتاباً في شرح صدر رسالة ابن أبي زيد ، وبين ما فيها من العقائد ، وله مجموعة في الأصول والفقه منها كتاب سمّاه «المدخل» إلى كتاب آخر سمّاه «سيف الإسلام على مذهب مالك الإمام» ألفه للأمير علي بن تميم بن المعز الصنهاجي صاحب المهديّة ، وذكر

١ ترجمة أبي بكر الياقوبي في التكملة : ٨١٥ .



في فصل الحج منه أنه رحل إلى المهديّة سنة ٥١٤ ، واستوطن مصر مدة ، ثم رحل إلى مكّة ، وبها توفّي رحمه الله تعالى ؛ وروى عنه أبو المظفر الشيباني وأبو محمد العثماني وأبو الحجاج يوسف بن محمد القيرواني وأبو عمرو عثمان ابن فرج العبدي وأبو محمد ابن صدقة المنكبي وأبو عبد الله ابن يعيش البلسنسي وغيرهم ، وكان سماع أبي الحجاج منه موثقاً مالك سنة ٥١٦ ، رحم الله تعالى الجميع .

٢٨٤ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن مرزوق ، اليحصبي ، الأندلسي<sup>١</sup> ، رحل حاجاً فسمع منه بالإسكندرية أبو الطاهر السلفي كتاب «طبقات الأمم» لأبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطي ، وحدث به عنه عن ابن بُرّال عن صاعد .

٢٨٥ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد ، الصريحي ، المرسي ، ويعرف بابن مطحنة<sup>٢</sup> ، روى عن أبي بكر ابن الفرّاضي النحوي ، وتأدب به ، ورحل إلى المشرق ، ولقي أبا محمد العثماني وغيره ، وحج ، وقعد لتعليم الآداب ، وممن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد السلام وأبو عبد الله المكناسي وغيرهما ، وأنشد رحمه الله تعالى قال : أنشدني أبو محمد عبد الله بن البيّاسي<sup>٣</sup> بالإسكندرية لنفسه :

يمدُّ الدهرُ من أجلي وعمري كما أتى أمدُّ من المدادِ  
لنا خطّانِ مختلفانِ جدّاً كما اختلفَ الموالِي والمُعادي  
فأكتبُ بالسوادِ على بياضٍ ويكتبُ بالبياضِ على السوادِ

١ ترجمة ابن مرزوق اليحصبي في التكملة : ٨١٨ .

٢ ترجمة ابن مطحنة في التكملة : ٨٣٠ .

٣ التكملة : ابن أبي الياسر .

وهذا نظير قول الآخر :

ولي خطٌّ وللأيامِ خطٌّ وبينهما مخالفةُ المدادِ  
فأكتبهُ سواداً في بياضٍ وتكتبهُ بياضاً في سوادِ

وبعضهم ينسب الأبيات الثلاثة السابقة للسلفي الحافظ ، فالله تعالى أعلم .

٢٨٦ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى ، الشُّلبي<sup>١</sup> ، سمع من الصديقي وغيره ، وكان من أهل الحفظ للحديث ورجاله والعلم بالأصول والقروع ومسائل الخلاف وعلم العربية والهيئة مع الخير والدين والزهد ، وامتنح بالأمراء في قضاء بلده بعد أن تقلده نحو تسعة أعوام لإقامته الحق وإظهاره العدل حتى أدى ذلك إلى اعتقاله بقصر إشبيلية ، ثم سُرح فرحل حاجتاً إلى المشرق ، ودخل المهديّة فلقي بها المازري ، وأقام في صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم انتقل إلى مصر ، وحج سنة ٥٢٧ ، وأقام بمكة مجاوراً ، وحج ثانية سنة ٥٢٨ ، ولقي بمكة أبا بكر عتيق بن عبد الرحمن الأوربولى في هذه السنة ، فحمل عنه ، ودخل العراق وخراسان ، وأقام بها أعواماً ، وطار ذكره في هذه البلاد ، وعظم شأنه في العلم والدين ، وكان من بيت شرف وجاه في بلده عريض مع سعة الحال والمال ، وتوفي بهرأة سنة ٥٥١ ، وقيل : إن وفاته سنة ٥٤٨ ، وذكره العماد في « الخريدة » والسمعاني في الذيل ، وأنشد له :

تلوّتَ الأيامُ لي بِبِصْرُوفِها فكنتُ على لَوْنٍ من الصبرِ واحدٍ  
فإن أقبَلتُ أدبرتُ عنها وإن نأتُ فأهونُ بِمفقودٍ لأكرمٍ فاقدٍ

وولد سنة ٤٨٤ بشلب ، رحمه الله تعالى .

٢٨٧ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن موسى ، الأزدي ، المرسي ، ويُعرف

١ ترجمة عبد الله بن عيسى الشلبي في التكملة : ٨٣٤ وسرد ابن الأبار نسبة أطول مما هنا .

بابن بُرْطُلَه<sup>١</sup> ، سمع من صهره القاضي الشهيد أبي علي الصدفي ، ورحل حاجباً سنة ٥١٠ هـ ، فأدى الفريضة ، وسمع من الطرطوشي والأنماطي والسلفي وغيرهم ، وانصرف إلى مَرْسِيَةِ بلدته ، وكان حسن السمْتِ خاشعاً مُخْبِتاً خيِّراً متواضعاً نبيهاً نزهاً سالم الباطن ، وحكى عن شيخه أبي عبد الله الرازي عن أبيه أنه أخبره أن قاضي البرلس ، وكان رجلاً صالحاً ، خرج ذات ليلة إلى النّيل فتوضأ وأسبغ وضوءه ، ثم قام فقرن قدميه وصلى ما شاء الله تعالى أن يصلي ، فسمع قائلاً يقول :

لولا أناسٌ لهم سرْدٌ يصومونا وآخرون لهم وِرْدٌ يقومونا  
لزلزلتُ أرضُكم من تحتكم سحرّاً لأنكم قومٌ سوءٌ لا تبالونا

قال : فتجوّزت في صلاتي ، وأدرت طرفي فما رأيت شخصاً ولا سمعت حساً ، فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى .

وقال ابن بُرْطُلَه رحمه الله تعالى : أنشدني أبو عامر قال : دخلت بعض مَراسي الثغر ، فوجدت في حَجَرٍ منقوش هذه الأبيات :

نزلتُ ولي أملٌ عودةٌ ولكنّي لستُ أدري متى  
ودافعي قدَرٌ لم أُطِقْ دفاعاً لمكروهه إذ أتى  
ومن أمره في يدَيّ غيره سيُغلبُ إن لان أو إن عتا  
فيا نازلاً بعدنا ههنا نخيبك إن كنتَ نعمَ الفتي

فسألت عن منشدها ، فقبل لي : هو أبو بكر ابن أبي درهم الوشقي ، وكان قد حج وأراد العوْدة ، فقال هذه الأبيات ، ورواها بعضهم « رحلت » مكان نزلت ، وهو أصوب ، وأبدل قوله « يا نازلاً » بيا ساكناً ، والخطب سهل

١ ترجمة عبد الله بن موسى بن برطلة في التكملة : ٨٤١ ومعجم أصحاب الصدفي : ٢٢٦ .

فيه ، وبعض يقول : إن الأبيات وجدت بجامع مصر ، والله تعالى أعلم .

٢٨٨ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن خلف بن سعادة ، الداني ،  
الأصبحي ، لازم ابن سعد الخير ، واحتذى أول أمره مثال خطه فقاربه ،  
وسمع منه ، ثم رحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من أبي الطاهر ابن عوف  
والسلفي وغير واحد ، قال التجيبي : كان معنا بالإسكندرية بالعادية منها ،  
وبقراءته سمعنا صحيح البخاري على السلفي سنة ٥٧٣ ، قال : وأنشدني لشيخه  
الأستاذ أبي الحسن علي بن إبراهيم بن سعد الخير البكسني :

يا لاحظاً تمثال نعل نبيه      قبل مثال النعل لا متكبراً  
والثم له<sup>٢</sup> فلطالما عكفت به      قدم النبي مروحاً ومبكراً  
أولاً ترى أن المحب مقبل<sup>١</sup>      طلباً وإن لم يُلَفِ فيه مخبراً

وقد سبق ابن سعادة أبو عبد الله وهو غير هذا ، والله تعالى أعلم .

٢٨٩ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن يوسف ، القضاعي ، المري<sup>٣</sup> ،  
سمع من أبي جعفر ابن غزلون صاحب الباجي وغير واحد ، ورحل إلى المشرق  
فسمع بالإسكندرية من السلفي والرازي ، وتجول هنالك ، وأخذ عنه أبو الحسن  
ابن المفضل المقدسي وغير واحد ، وقال ابن المفضل : أنشدني المذكور ، قال :  
أنشدني أبو محمد بن صارة :

وكوكبٍ أبصر العفريتَ مُسْتَرْقَاً      لاسمعِ فانقضَّ يدُني خَلْفَه لُهبةً

١ ترجمة ابن سعادة الأصبحي في التكملة : ٨٥٠ والذيل والتكملة : ٢٢٧ .

٢ ق : به ، وكذلك في التكملة .

٣ ترجمة عبد الله بن يوسف القضاعي في التكملة : ٨٥٦ وقال إن أصله من أندة .

كفارسٍ حَلَّ إِعْصَارًا عَمَامَتَهُ فَجَرَّهَا كُلَّهَا مِنْ خَلْفِهِ عَدَّيْبَهُ

٢٩٠ - ومنهم شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن مهاجر ، الوادي آشي ،  
الحنفي<sup>٢</sup> ، سكن طرابلس الشام ، ثم انتقل إلى حلب ، وأقام بها ، وصار من  
العدول المبرزين في العدالة بحلب ، يعرف النحو والعروض ، ويشغل فيهما ،  
وله انتماء إلى قاضي القضاة الناصر ابن العديم ، قال الصفدي : رأيت بحلب أيام  
مقامي بها سنة ٧٢٣ فرأيت حسن التودد ، وأنشدني لنفسه من لفظه :

مَالَاخَ فِي دِرْعٍ يَصُولُ بِسَيْفِهِ وَالْوَجْهَ مِنْهُ يَضِيءُ تَحْتَ الْمِغْفَرِ  
إِلَّا حَسِبْتُ الْبَحْرَ مَدًّا بِجَدُولٍ وَالشَّمْسَ تَحْتَ سَحَابٍ مِنْ عَنَبِرِ

قال الصفدي : جمع هذا المقطوع بين قول ابن عباد<sup>٣</sup> :

وَلَمَّا اقْتَحَمْتَ الْوَعْيَ دَارِعًا وَقَتَّعْتَ وَجْهَكَ بِالْمِغْفَرِ  
حَسْبًا مِجْمَاكَ شَمْسَ الضَّحَى عَلَيْهَا سَحَابٌ مِنْ الْعَنَبِرِ

وبين قول أبي بكر الرصافي<sup>٤</sup> :

لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُ وَقَدْ غَشِيَ الْوَعْيَ يَخْتَالُ فِي دِرْعِ الْحَدِيدِ الْمَسْبِلِ  
لرَأَيْتَ مِنْهُ وَالْقَضِيبُ بِكَفِّهِ بَحْرًا يَرِيْقُ دَمَ الْكُؤْمَةِ بِجَدُولِ

وقال يمدح الشيخ كمال الدين محمد بن الزملكاني وقد توجه إلى حلب قاضي

القضاة :

١ التكملة : إحصار .

٢ ترجمته في الوافي ٧ الورقة : ٦٦ وأعيان مصر ( نسخة آياصوفيا رقم : ٢٩٦٢ ) : ١٧٣  
والدرر الكامنة ١ : ١٨٢ والمقري ينقل عن الوافي .

٣ ديوان المعتمد : ١٧ والقلائد : ٨ .

٤ ديوان الرصافي البلسي : ١٢٥ ولعلهما لغيره إذ كنية الرصافي البلسي أبو عبد الله ، وهذا يكنى  
أبا بكر .

يَمِنْ تَرْتَمَ فَوْقَ الْأَيْكِ طَائِرُهُ  
وَسُودِدُ أَصْبَحَ الْإِقْبَالَ مُمَثَلًا  
وَطَائِرٌ عَمَّتِ الدُّنْيَا بِشَائِرُهُ  
فِي أَمْرِهِ مَا أَخُوهُ الْعِزُّ أَمْرُهُ

ومنها ١ :

مَنْ مُخْبِرٌ عَنِ الشَّهَاءِ أَنْ كَمَا  
وَأَنَّ تَقْلِيدَهُ الزَّاهِي وَخَلَعْتَهُ  
بِالنَّفْسِ أَفْدِيكَ مِنْ تَقْلِيدِ مَجْتَهِدِ  
أَنْشَدْتُ حِينَ أَدَارَ الْبَشَرَ كَأْسَ طَلِي  
وَقَدْ بَدَتْ فِي بِيَاضِ الطَّرْسِ أَسْطَرُهُ  
سَاقٍ تَكُونُ مِنْ صَبْحٍ وَمِنْ غَسَقٍ  
وَخَلَعَةٌ قَلْتُ إِذْ لَاحَتْ لِتَرْزِينَا  
وَقَدْ رَأَاهَا عَدُوٌّ كَانَ يُضْمِرُ لِي  
وَرَامَ صَبْرًا فَأَعْيَيْتَهُ مُطَالِبُهُ  
بِعُودَةِ الدُّوَلَةِ الْغُرَاءِ ثَالِثُهُ

وقال أيضاً :

تَسَمَّرُ فِي الْوَعْيِ نِيرَانُ حَرْبٍ  
وَمِنْ عَجَبٍ لَطَى قَدْ سَمَّرَتْهَا  
بِأَيْدِيهِمْ مُهَنَّدَةٌ ذَكَورُ  
جِدَاوُلُ قَدْ أَقْلَتْهَا بَدُورُ

وقال ملغزاً في قالب لبن :

مَا أَكَلْتُ فِي فَمِي  
مُغْرَى بَقْبُضٍ وَبَسَطِ  
يَغُوطُ مِنْ مَخْرَجِي  
وَمَا لَهُ مِنْ يَدِي  
مِنْ غَيْرِ مَا قَدَمِي

١ ومنها : سقطت من ق ، وهي ثابتة في الوافي .

وخمسة لامية العجم مدحاً في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الصفدي :  
ولما كنت في حلب كتب إليّ أبياتاً ، انتهى .

٢٩١ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن صابر ، القيسي<sup>١</sup> ، قال أبو حيان : كان المذكور  
رفيقاً للأستاذ أبي جعفر ابن الزبير شيخنا ، وكان كاتباً مترسلاً شاعراً ، حسن  
الخط ، على مذهب أهل الظاهر ، وكان كاتب أبي سعيد فرج ابن السلطان الغالب  
بالله بن الأحمر ملك الأندلس ، وسبب خروجه من الأندلس أنه كان يرفع  
يديه في الصلاة على ما صح في الحديث ، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله ، فتوعده  
بقطع يديه ، فضج من ذلك وقال : إن إقليماً تمت فيه سنة رسول الله صلى الله  
عليه وسلم حتى يتوعد بقطع اليد من يقيمها لجدير أن يرحل منه ، فخرج وقدم  
ديار مصر ، وسمع بها الحديث ، وكان فاضلاً نبيلاً ، ومن شعره :

أتُنكرُ أن يبيّضَ رأسي لحادثٍ من الدهر لا يقوى له الجبلُ الراسي  
وكان شعاراً في الهوى قد لبسته فرأسي أمي وقلبي عباسي

قلت : لو قال « شبي » لكان الغاية .

وأشده له بعضهم :

فلا تعجبا ممن عوى خلف ذي عللاً لكلّ عليّ في الأنام معاويه

قلت : لا يخفى ما فيه من عدم سلوك الأدب مع الصحابة رضي الله تعالى  
عنهم أجمعين<sup>٢</sup> ، ويرحم الله بعض الأندلسيين حيث قال في رجز كبير :

ومن يكنّ يقدح في معاويه فذاك كلب من كلاب معاويه

١ ترجمة أحمد بن صابر القيسي في المنهل الصافي ١ : ٢٩٩ .

٢ أجمعين : سقطت من ق .

وأنشد أبو حيان للمذكور :

أرى الدهر سادَ بهِ الأردلو  
ومات الكرامُ وفات المديحُ  
ن كالسَّيلِ يطفو عليه الغُثا  
فلم يبقَ للقولِ إلا الرثا

وأنشد له أيضاً :

لولا ثلاثٌ هنَّ واللهِ من  
حجٌّ لبيت الله أرجو بهِ  
والعلمُ تحصيلاً ونشراً إذا  
وأهلُ ودِّ أسألُ الله أنْ  
ما كنتُ أخشى الموتَ أتى أتى  
أكبر آماليَ في الدنيا  
أن يقبلَ النيةَ والسعيَا  
رويتُ أوسعتُ الورى ريباً  
يُمتنعَ بالبقيا إلى اللقيا  
بل لم أكنُ ألتذُّ بالمحيا

وقال أبو حيان في هذه المادة :

أما إنه لولا ثلاثٌ أحبها  
فمنها رجائي أن أفوزَ بتوبةٍ  
ومنهن صوفي النفسَ عن كلِّ جاهلٍ  
ومنهن أخذي بالحديث إذا الورى  
أترك نصّاً للرسول وتقتدي  
تمنيتُ أني لا أعدُّ من الأحيا  
تكفّر لي ذنباً وتُنجح لي سعيَا  
لثيمٍ فلا أمشي إلى بابهِ مشيا  
نَسُوا سُنَّةَ المختارِ واتبعوا الرأيا  
بشخص؟ لقد بُدلت بالرشد الغيا

٢٩٢ - ومنهم الأستاذ أبو القاسم ابن الإمام القاضي أبي الوليد الباجي ،  
سكن سرقسطة وغيرها ، وروى عن أبيه معظم علمه ، وخالقه بعد وفاته  
في حلقة وغلب عليه علم الأصول والنظر ، وله تأليف تدل على حذقه :  
منها « العقيدة في المذاهب السديدة » ورسالة « الاستعداد للخلاص من المعاد » ،

١ زاد في ق بعد هذا لفظه « انتهى » .



وكان غاية في الورع ، توفي بجدة بعد منصرفه من الحج سنة ٤٩٣ ، رحمه الله تعالى .

٢٩٣ - ومنهم الإمام الفاضل الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلي ، العرناطي<sup>١</sup> . قال العز بن جماعة : قدم علينا من المغرب سنة ٧٢٤ ، ثم رجع إلى المغرب في هذه السنة ، وبلغنا أنه توفي بمراكش سنة نيّف وأربعين وسبعمئة<sup>٢</sup> ، وأنشد والدي قصيدةً من نظمه امتدحه بها ، وأنا أسمع ، ومن خطه نقلت ، وهي :

قِفَا مَورِدًا عِينًا جَرَّتْ بَعْدَكُمْ دَمَا  
أَنَاضِي أَسْفَارَ طَوِينٍ عَلَى ظَمَا  
غَدُونَ أَهْلَاتٍ تَنَاقِلُ أَجْمَا  
وَرُحْنٌ حَنِيَّاتٍ تَفُوقُ أَسْهَمَا  
يَجْشَمُهَا الْحَادِي الْأَمْرِينَ حُسْرًا  
وَيُوطِنُهَا الْحَادِي الْأَحْرِينَ هَيْمًا  
عَلَى مَنَسِمِيهَا لِلشَّقَاتِ مَنَبِتٌ  
وَفِي فَمُوبِهَا لِلشَّقَاشِقِ مَرْتَمَى

إلى أن قال :

وَتَعَسَا لِأَمَالِ جِيْهَامٍ سَحَابُهَا  
تُجَادِبُهَا نَفْسٌ تَجِيْشُ نَفْسِيَّةً  
فَهَلْ ذَمُّ يَرَعَاهُ لَيْلٌ طَوِيْتَهُ  
وَمَنْ لَمْ يَجِدْ إِلَّا صَعِيدًا تَيْمَمًا  
أَقْبَلُ مِنْهُ لِلْبُرُوقِ مَبَاسِمَا  
طَوَانِي سَرًّا بَيْنَ جَنِيْبِهِ مِنْهُمَا  
إِلَى أَنْ تَجَلِّيَ مِنْ كَنَانَةِ بَدْرُهَا  
فَعَرَسَ رَكْبِي فِي حِمَاهُ وَخَيْمًا  
وَأَرَشَفُ مِنْ بَهْمَاءِ ظَلْمَائِهِ لِي

١ ترجمة إبراهيم بن محمد الساحلي في الإحاطة ١ : ٣٣٧ والكتيبة الكامنة : ٢٣٥ ومسالك الأبصار ١١ : ٥١٦ وقد ترجم له ابن الخطيب أيضاً في التاج وعائد الصلة وابن الأحرر في نثر الجمان وفي فرائد نثر الجمان الورقة : ٥٢ وما بعدها . وهذا هو الطويجن وترجمته هنا مكررة وقد وردت في النسخ برقم : ١١٦ .  
٢ قلت : قد مر من قبل أنه توفي بتبنيكتو سنة ٧٤٤ .

ثَمَالُ الْيَتَامَى حَيْثُ لَيْسَ مَظَلُّهُ  
وَكَهْفُ الْأَيَامَى أَيَّمَا عَزَّزْتُ مَرْمِي  
ومنها :

فِيَا كَفَّهُ هَلْ أَنْتِ أُمُّ غَيْثٍ دِيمَةٍ  
وَيَا سَعِيهِ يَهْتِنُكَ أَجْرٌ نَبِيٌّ بِهِ  
قَضَى بِنَمْنَى أَوْطَارَ نَفْسٍ كَرِيمَةٍ  
وَنَادَاهُ دَاعِي الْحَقِّ حَيَّ عَلَى الْهُدَى  
فَلَلَّهَ مَا أَهْدَى وَأَرْشَدَ وَاهْتَدَى  
ومنها :

أَمْتُ بَادَابٍ وَعِلْمٍ كَلِيهِمَا  
أَقَامَا لَدَيْكَ الدَّعَى فَرَضًا وَالزَّمَا  
وهي طويلة .

٢٩٤ - ومن الراحلين من الأندلس الوليد بن هشام ، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل فيما حكى بعض المؤرخين<sup>١</sup> ، خرج من الأندلس على طريقة الفقر والتجرد ، ووصل بَرَقَةَ بَرَكُوَّةَ لَا يَمْلِكُ سِوَاهَا فَعُرِفَ بِأَبِي رَكُوَّةَ ، وأظهر الزهد والعبادة ، واشتغل بتعليم الصبيان وتلقينهم القرآن ، وتغيير المنكر ، حتى خدع البربر بقوله وفعله ، وزعم أن مَسَلَمَةَ بن عبد الملك بشر بخلافته بما كان عنده من علم الحدثان ، وكان يقال عن مسلمة : إنه أخذ علم الحدثان عن خالد بن يزيد بن معاوية ، وأخرج لهم أرجوزة أسندها إلى مسلمة ، ومنها في وصفه :

وَابْنُ هِشَامٍ قَائِمٌ فِي بَرَقَةٍ  
بِهِ يَنَالُ عَبْدُ شَمْسٍ حَقَّةً

١ انظر أخبار أبي ركوته في الدررة المضية ٦ : ٢٧٥ واماظ الحنفا : ٣٠٤ وتاريخ ابن خلدون ٤ : ٥٨ وابن الأثير ٩ : ١٩٧ - ٢٠٣ .

يكونُ في بربرها قيامهُ وقرةُ العُرب لها إكرامهُ

واتفق أن قرة انحرفوا عن الحاكم فمالوا إليه ، وحصروا معه مدينة بركة حتى فتحوها ، وخطبوا له فيها بالخلافة ، وكان قيامه في رجب سنة ٣٩٧ ، فهزم عسكر باديس الصنهاجي صاحب إفريقية وعسكر الحاكم بمصر ، وأحيا أمره ، وخاطبه بطانة الحاكم لكثرة خوفهم من سفك الحاكم الدماء ، ورغبوه في الوصول إلى أوسيم ، وهو مكان بالجزيرة قبالة القاهرة ، فلماً وصل إليها قام بمحاربتة الفضل بن صالح القيام المشهور إلى أن هزم أبا ركوة ، ثم جاء به إلى القاهرة ، فأمر الحاكم أن يطاف به على جمل ، ثم قُتل صبراً في ١٣ رجب سنة ٣٩٩ ، ولما حصل في يد الحاكم كتب إليه :

فرت ولم يُغنِ الفرارُ ، ومن يكن مع الله لم يعجزه في الأرضِ هاربُ  
ووالله ما كان الفرارُ حاجةً سوى فنزعي الموت الذي أنا شاربُ  
وقد قادني جرّمي إليك برمتي كما اجترّ ميتاً في رحى الحرب سالبُ  
وأجمع كلّ الناسِ أنك قاتلي فيا ربّ ظنّ ربّه فيه كاذبُ  
وما هو إلا الانتقامُ وينتهي وأخذك منه واجباً وهو واجبُ

ولأبي ركوة المذكور أشعار كثيرة ، منها قوله :

بالسيفِ يقربُ كلُّ أمرٍ يتزخُّ فاطلبُ به إن كنتَ ممن يُفلحُ

وله :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعهُ وليس عليه أن يساعدهُ الدهرُ

وقوله :

إن لم أجلبها في ديار العدا تملأ وعراً الأرضِ والسهلا  
فلا سمعتُ الحمدَ من قاصدٍ يوماً ولا قلتُ له أهلا

وله غير ذلك مما يطول ، وخبره مشهور .

٢٩٥ - ومنهم أبو زكريا الطليطي ، يحيى بن سليمان<sup>١</sup> ، قدم إلى الإسكندرية ، ثم رحل إلى الشام واستوطن حلب ، وله ديوان شعر أكثر فيه من المديح والهجاء ، قال بعض من طالعه : ما رأيت مدح أحداً إلا وهجاه ، وله مصنفات في الأدب ، ومن نظمه قوله :

أَرْضٌ سَقَّتْ غَيْطَانَهَا أَعْطَانَهَا      وَزَهَتْ عَلَى كَثْبَانِهَا قُضْبَانُهَا

ومنها :

فَتَكَتْ بِالْبَابِ الْكُمَاءِ فَسَيْفُهَا      مِنْ طَرْفِهَا وَسِنَانُهَا وَسِنَانُهَا  
لَمْ يَبْقَ شَخْصٌ بِالْبَسِيطَةِ سَالِمًا      إِلَّا سَبَى إِنْ سَانَهُ إِنْ سَانُهَا

ومنها :

وَتَصَاحَبَتْ وَتَجَاوَبَتْ أَطْيَارُهَا      وَتَدَاوَلَتْ وَتَنَاوَلَتْ أَلْحَانُهَا  
وَتَسَمَّتْ وَتَبَسَّمَتْ أَيَامُهَا      وَتَهَلَّلَتْ وَتَكَلَّلَتْ أَزْمَانُهَا  
بِمُدِيرِهَا وَمُنِيرِهَا وَنَمِيرِهَا      وَمُعِيرِهَا حُسْنًا جَلَاهُ عِيَانُهَا

٢٩٦ - ومنهم أبو بكر يحيى بن عبد الله بن محمد ، القرطبي ، المعروف بالمغيلي<sup>٢</sup> ، سمع من محمد بن عبد الملك بن أيمن وقاسم بن أصبغ وغيرهما ، ورحل فسمع من أبي سعيد ابن الأعرابي ، وكان بصيراً بالعربية والشعر ، ومؤلفاً جيد النظر حسن الاستنباط ، حدث ، وتوفي فجأة في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٢ ، قاله ابن الفرضي .

١ ق : سلمان .

٢ ترجمة يحيى بن عبد الله المغيلي في ابن الفرضي ٢ : ١٨٨ .

٢٩٧ - ومنهم الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن يحيى ابن سلمة ، الأنصاري ، الغرناطي ، قدم المشرق وتوفي بمصر سنة ٧٠٣ عن نحو خمسين سنة ، بالبيمارستان المنصوري ، قال قاضي القضاة عبد العزيز ابن جماعة الكتباني في كتابه « نزهة الألباب <sup>١</sup> » : أنشدنا المذكور لنفسه بالقاهرة ، بعد قدومه من مكة والمدينة ، وقد رام أن يعود إليهما فلم يتيسر له :

لئن بَعَدَتْ عَنِّي ديارُ الذي أهوى	فقلبي على طولِ التباعدِ لا يَقْوَى
فحدَّثَ رعاك اللهُ عن عُربِ رامةٍ	فإِنِّي لهم عبدٌ على السرِّ والنجوى
فإن متُّ شوقاً في الهوى وصبابةً	فيا شرقي إن متُّ في حبٍّ من أهوى
فيا أيها العُدَّالُ كُفِّوا ملامتكم	فما عندكم بعض الذي بي من الشكوى
ويا جيرةَ الحيِّ الذي ولَّي بهم	أما ترحموا صبأً يحنُّ إلى حزوَى
ويا أهلَ ذِيكَ الحمى وحياتِكُمْ	يمينَ وقيِّ صادقِ القولِ والدَّعوى
ملكتم قيادي فارحموا وترفقوا	فأنتم مرادي لا سعادُ ولا علوى
فما لي سواكم سادتي لا عدمتكم	فجدودا بوصلِ أنتم الغايةُ القصوى

انتهى .

٢٩٨ - ومنهم الفاضل الأديب أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى بن علي <sup>٢</sup> ، الغرناطي ، قال ابن جماعة في الكتاب المسمى قريباً : أنشدني المذكور لنفسه ، على قبر سيدنا حمزة رضي الله تعالى عنه :

يا سيِّدَ الشَّهداءِ بَعَدَ مُحَمَّدٍ	ورضيعَ ذي المَجْدِ المرفَعِ أحمدِ
يا ابنَ الأَعزَّةِ من خلاصةِ هاشمٍ	سُرُجَ المَعالي والكرامِ المَجْدِ
يا أيُّها البَطْلُ الشَّجاعُ المحتمي	دينُ الإلهِ بِأسِهِ المِستأسدِ
يا نَبْعَةَ الشَّرَفِ الأصيلِ المُعتلي	يا ذرْوَةَ الحِسابِ الأثيلِ الأتلدِ

١ ق : الأولياء ؛ وفي كشف الظنون : نزهة الألباب ؛ ودوزي : الألباء .

٢ ترجمته في الدرر الكامنة ٤ : ٩٦ .

يا نَجْدَةَ الملهوفِ في قَحَمِ الوعى  
 يا غَيْثَ ذِي الأملِ البعيدِ مرامِهِ  
 يا من لعُظْمِ مصابهِ خصَّ الأسي  
 يا حمزةَ الخَيْرِ المؤمِّلِ نفعُهُ  
 وَافاك يا أسدَ الإلهِ وسيفَهُ  
 جِئناكَ يا عمَّ الرِّسولِ وصِنوهُ  
 واسألِ إلهَكَ في اغتفارِ ذنوبنا  
 لَدُنَّا بِجانِبِكَ الكَرِيمِ تَوَسُّلاً  
 فاشفَعْ لضعيفِكَ فالكَرِيمِ مُشَفِّعاً  
 يا ابنَ الكرامِ المَكْرَمِينَ نَزِيلَهُم  
 نزلِ الضيوفِ جَنابِ ساحتِكَ التي  
 فاجعلْ أبا يعلى قِراناً عطفَةً  
 فمسي يمنُّ على الجَميعِ بتوبَةٍ  
 فقد اعتمدنا منك خيراً وسيلةً  
 لِمِ لا تُؤمُّ وَأنتَ عمُّ محمدٍ  
 وصحبتهِ ونصرتهِ وعَضدتهِ  
 وبذلتَ نفسَكَ في رضاهِ بِجَنَّةِ  
 فَجَزَاكَ عَنَّا اللهُ خيراً جزاءَهُ  
 وعلى رسولِ اللهِ مِنْهُ سلامُهُ

عندَ التهابِ جحيمها المتوقِّدِ  
 يا غوثَ موتورِ الزمانِ الأتكدِ  
 قلبَ الرِّسولِ وعمِّ كلِّ موحدِ  
 يومَ الهياجِ وعندَ فقدِ المنجدِ  
 وفدِّ ألتوا من حِمَاكَ بمعهدِ  
 قَصَدَ الزيارةَ فاحتفلَ بالقُصْدِ  
 شيمَ المَزورِ قيامَهُ بالعودِ  
 وكذا العبيدُ ملاذهم بالسَّيِّدِ  
 عندَ الكَرِيمِ ومن يشفَعُ يَقْضِدِ  
 أهلِ المكارمِ والعُلا والسُّودِ  
 منها يؤمِّلُ كلُّ عطفِ مسعدِ  
 وارغبَ لربِّكَ في هُدانا واقصدِ  
 يَهْدِي بها نَهجَ الطريقِ الأرشِدِ  
 نرجو بها حُسْنَ التجاوزِ في غدِ  
 ولدينه قد صُلَّتْ صولةَ أيدي  
 وَذَبَبَتْ عنه باللسانِ وباليدِ  
 فقُبِّلَتْ في ذاتِ الإلهِ الأوحدِ  
 وسقى ثراكِ حيا الغمامِ المُرْعِدِ  
 وعليكِ مُتَّصِلُ الرضى المتجدِّدِ

ولد ببعض أعمال غرناطة قبل التسعين وستمائة ، وتوفي بالمدينة الشريفة  
 طابة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧١٥ ، ودفن بالبقيع ، رحمه  
 الله تعالى ، انتهى .

٢٩٩ - ومنهم الشيخ نور الدين أبو الحسن المايريقي ، من أقارب بعض

ملوك المغرب ، وكان من الفضلاء العلماء الأدباء ، وله مشاركة جيدة في العلوم  
ونظم حسن ، ومنه قوله :

القُضْبُ راقصةٌ ، والطيرُ صادحةٌ والنشرُ مرتفعٌ ، والماءُ منحدرُ  
وقد تجلّتْ من اللذاتِ أوجهها لكنّها بظلالِ الدوحِ تسترُ  
فكلُّ وادٍ به موسى يُفجّره وكلُّ رَوْضٍ على حافاتهِ الحَصيرُ  
وقوله :

وذِي هَيْفٍ راقِ العيونَ انشاؤه بقدرَ كريّانٍ من البانِ مُورِقِ  
كُتِبَ إِلَيْهِ : هلْ تجودُ بزورةٍ ؟ فوقَ « لا » خوفِ الرقيبِ المصدقِ  
فأيقنتُ من « لا » بالعناقِ تفاؤلاً كما اعتنقتُ « لا » ثم لم تفرقِ

وهذا أحسن من قول ذي القرنين ابن حمدان<sup>١</sup> :

إنّي لأحسدُ « لا » في أحرفِ الصحفِ إذا رأيتُ اعتناقَ اللامِ للألفِ  
وما أظنهما طال - اجتماعهما - إلاّ لما لقيتُ من لوعةِ الأسفِ  
وأحسن من هذا قول القيسراني :

أستشعرُ اليأسَ في « لا » ثم يُطمعني إشارة في اعتناقِ اللامِ للألفِ

وكانت وفاة أبي الحسن المذكور في ربيع الأول سنة ٦٥٥ ، ودفن بقاسيون  
رحمه الله تعالى ، والأبيات التي أولها « القُضْبُ راقصة » . . . الخ نسبها له اليوناني  
وغير واحد ، والصواب أنها ليست له ، وإنما هي لنور الدين ابن سعيد  
صاحب المغرب ، وقد تقدم ذكره ، ولعل السهو سرى من تشارك الاسم  
واللقب والقطر ، ومثل هذا كثيراً ما يقع ، والله تعالى أعلم .

٣٥٥ - ومن الراحلين من أهل الأندلس إلى المشرق ابن عتبة الإشبيلي ،

١ انظر البيهقي ١ : ١٠٦ .

وكان فارق إشبيلية حين تولاهما ابن هود ، واضطرت بفتنته الأندلس ناراً ،  
ولما قدم مصر هارباً من تلك الأهوال تغيرت عليه البلاد ، وتعدّلت به الأحوال ،  
فلما سئل عن حاله ، بعد بعده عن أرضه وترّحاله ، بادر وأنشد ١ :

أصبحتُ في مصر مُستَضاماً      أرقصُ في دولة القروُدِ  
واضيعةَ العمرِ في أخيرٍ      معَ النصارى أو اليهودِ  
بالحدِّ رزقُ الأنامِ فيهم      لا بنواتٍ ولا جدودِ  
لا تبصر الدهرَ من يراعي      معنى قصيدٍ ولا قصودِ  
أودُّ من لؤمهم رجوعاً      للغرب في دولة ابن هودِ

وتذكرت بقوله « أرقص في دولة القروود » ما وقع لأبي القاسم ابن القطان ،  
وهو مما يُستطرف ويُستظرف ، وذلك أنّه لما ولي الوزارة الزينبيّ دخل عليه  
أبو القاسم المذكور والمجلس حافل بالرؤساء والأعيان ، فوقف بين يديه ودعا  
له ، وأظهر الفرح والسرور ، ورقص ، فقال الوزير لبعض من يُفضي إليه  
بسرّه : قبح الله هذا الشيخ ، فإنّه يشير بزقصه إلى قول الشاعر :

وأرقص للقرد في دولته

٣٠١ - ومن المرتحلين أبو عبد الله ابن جابر محمد بن جابر الضرير<sup>٢</sup> ، من  
أهل المرية ، ويُعرف بشمس الدين بن جابر الضرير ، وله ترجمة في الإحاطة  
ذكرناها مع زيادة عليها عند تعرضنا لأولاد لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله  
تعالى ، ورحل إلى المشرق ودخل مصر والشام واستوطن حلب ، وهو صاحب  
البيديّة المعروفة ببيديّة العميان ، وله أمداح نبوية كثيرة وتواليف : منها « شرح  
ألفية ابن مالك » وغير ذلك ، وله ديوان شعر وأمداح نبوية في غاية الإجازة ،  
ومن نظمه رحمه الله تعالى مورياً بأسماء الكتب :

١ الأبيات في اختصار القدح : ١٦٤ ومعها ترجمته وانظر المغرب ١ : ٢٥٨ .

٢ قد مرّت الإشارة إلى ابن جابر الهواري الضرير وترجمته ، ج ١ : ٣٨ .



عرائسُ مدحي كم أتينَ لغيره      فلما رأتهُ قلن هذا من الأكنفا  
نوادِرُ آدابي ذخيرةٌ ماجدٍ      شمائلُكم فيهن من نكّت تُلْفِي  
مطالعها هنّ المشارقُ للعلّا      قلائد قد راقّت جواهرها رصفا  
رسالةٌ مدحي فيك واضحةٌ ، ولي      مسالكُ تهذيبٍ لتنبيه منّ أغفى  
فيا منتهى سؤلي ومحصولَ غايبي      لأنّ امرؤ من حاصل المجد مستصفي

وقد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتاباً ، وهي :  
العرائس للثعالبي ، والنوادر للقالبي وغيره ، والذخيرة لابن بسام وغيره ،  
والشمائل للترمذي ، والنكت لعبد الحق الصقلي وغيره ، والمطالع لابن قرقول  
وغيره ، والمشارق للقاضي عياض وغيره ، والقلائد لابن خاقان وغيره ،  
و« رصف المباني في حروف المعاني » للأستاذ ابن عبد النور ، وهو كتاب  
لم يصنف في فنّه مثله ، والرسالة لابن أبي زيد وغيره ، والواضحة لابن حبيب ،  
والمسالك للبكري وغيره ، والجواهر لابن شاس وغيره ، و« التهذيب في اختصار  
المدونة » وغيره ، و« التنبية » لأبي إسحاق وغيره ، و« منتهى السؤل » لابن  
الحاجب ، و« المحصول » للإمام الرازي ، و« الغاية » للنووي وغيره<sup>١</sup> ،  
و« الحاصل » مختصر المحصول ، و« المستصفي » للغزالي . وما أحسن قول الحكيم  
موفق الدين :

لله أيامنا والشملُ منتظمٌ      نظماً به خاطرُ التفريقِ ما شعراً  
والهفّ نفسي على عيشٍ ظفرتُ به      قطعْتُ مجموعهُ المختارَ مختصراً

وهذه ثلاثة كتب مشهورة : المختار ، والمجموع ، والمختصر ، وأحسن  
منه قول الآخر :

عن حالتي يا نورَ عيني لا تسَلْ      تَرَكَ الجوابِ جوابُ تلك المسألة

١ وغيره : سقطت من ق .

حالي إذا حدثت لا لمأ ولا جملاً لإيضاحي بها من تكمله  
عندي جوى يذّر الفصيح مبلداً فاترك مفصله ودونك مجمله  
القلب ليس من الصحاح فيرنجى إصلاحه ، والعين سحِبْ مثقله

وقد أوردنا في ترجمة أبي عبد الله ابن جرّي الكاتب الأندلسي جملة  
مستكثرة في التورية بأسماء الكتب فلترجع ثمة .

رجع إلى الشمس بن جابر ، فنقول : ومن نظمه رحمه الله تعالى تسمينه  
للأبيات المشهورة :

لم يبقَ فيّ اضطبارُ  
مذ خَلَفُونِي وساروا  
وللحيب أشاروا  
جار الكرامُ فجاروا  
لله ذاك الأوارُ  
بانُوا فما الدارُ دارُ

يا بدرُ أهلكَ جارُوا وعلموكَ التجري

كانوا من الودّ أهلي  
ما عاملوني بعدلٍ  
أصموا فؤادي بنبلٍ  
يا بينُ بينتَ ثكلي  
يا روحَ قلبي قل لي  
أهمُّ دَعَوَكَ لقتلي

وحرّموا لك وصلي وحلّوا لك هجري

١ الكاتب : سقطت من ق .

حسبي وماذا عنادُ  
هُمُ المُنَى والمرادُ  
وإن عن الحقِّ حادُوا  
أو جامَلوني وجادوا  
يا من به الكلُّ سادوا  
والكلُّ عندي سدَادُ

فَلْيَفْعَلُوا ما أرادوا فإِنَّهم أَهلُ بَدْرٍ

وتذكرت بهذا قول أبي البركات أيمن<sup>١</sup> بن محمد السعدي رحمه الله تعالى :

للعاشقين انكسارُ وذَلَّةٌ وافتقارُ  
وللملاح افتخارُ وعزَّةٌ واقتدارُ  
وأهلُ بدرٍ أشاروا وودعوني وساروا

يا بَدْرُ - إلخ .

كُتِبَ والوصلُ يُملي  
وحارٌ ذهني وعقلي  
جدَّةُ الهوى بعد هزَلِ  
ما بينَ بدرٍ وأهلي  
يا بَدْرُ فاحكمْ بعدلِ  
إذا أتوكْ بعدلِ

وحَرَّموا - إلخ .

لولا هواكَ المرادُ  
ولا شجاني البعادُ  
ما كنتُ ممن يُصادُ  
يا بدرُ أهْلِكَ جادوا  
غَلِطْتُ جاروا وزادوا  
لكنَّهم بك سادوا

انتهى

فليفعلوا - إلخ .

١ أيمن : سقطت من ق .

رجع إلى ابن جابر ، فنقول :

توفي رحمه الله تعالى في إلبيرة في جمادى الآخرة سنة ٧٨٠ ، ومن نظمه  
قوله :

يا أهلَ طَيِّبَةِ في مَغْنَاكُمُ قمر  
كالغَيْثِ في كرم ، والليثِ في حرم  
وله :

ولمّا وقفنا كي نودّعَ من نأى  
بكيّنا وحقّ للمُحِبِّ إذا بكى  
وقال :

أمّا معاني المعاني فهي قد جُمِعَتْ  
كالبدْرِ في شَيْمٍ ، والبحرِ في دَيْمٍ  
وقال :

ضَحِكْتُ فقلتُ كأنَّ جِيدَكَ قد غدا  
وكانَ وردَ الخدَّ منكِ بمائه  
وقال ١ :

منعتنا قيرى الجمال وقالتُ :  
فأقمنا على الرحالِ وقلنا  
ليس في غير زادنا من مجال  
ما لنا حاجةٌ بحطِّ الرحالِ

١ ق : وقوله .

وقال :

عَدَبَ قَلْبِي رَشًا نَاعِمٌ      أَسَهَرَ جَفْنِي طَرْفُهُ النَّاعِسُ  
يَجْرَسُ بِاللَّحْظِ جَنَى خَدِّهِ      يَا لَيْتَهُ لَوْ غَفَلَ الْحَارِسُ

وله :

وَأَيْتَ رَبِّعَهُمْ      وَقَدْ بَعُدَ الْمَدَى  
مَا كَدْتُ أَعْرِفُ بَعْدَ طَوْلِ تَأْمَلٍ      دَارًا بِهَا طَافَ السَّرُورُ وَدَارَا

وله :

وَلَسْتُ أَرَى الرِّجَالَ سِوَى أَنَاسٍ      هُمُومُهُمْ مُوَافَاةُ الرِّجَالِ  
أَطَالُوا فِي النَّدَى إِهْلَاكَ مَالٍ      فَعَاشُوا فِي الْأَنَامِ ذَوِي كَمَالِ

وقال :

أَيُّهَا الْمُتَّهِمُونَ نَفْسِي فِدَاكُمْ      أَنْجِدُونِي عَلَى الْوُصُولِ لِنَجْدِ  
وَقَفُوا بِي عَلَى مَنَازِلِ لَيْلِي      فَوْجُودِي هُنَاكَ يَذْهَبُ وَجُدِي

وما كتبه على كتاب « نسيم الصبا » لابن حبيب ، وصورته : لما وقفت على الفصول الموسومة بنسيم الصبا ، المرسومة في صفحات الحسن فإذا أبصرها اللبيب صبا ، انتعش بها الخاطر انتعاش النبت بالغمام ، وهمت سحائب بيانها فأثمرت حدائق الكلام ، وأخرجت أرضُ القرائح ما فيها من النبات ، وسمعت الآذان صخبة الأذهان بهذه الأبيات :

هذي فصولُ الربيعِ في الزمنِ      كم حسنٍ أسندتُ إلى حسنِ

رَقَّتْ وِرَاقَتٌ فَمِنْ شَمَائِلِهَا      بِمَثَلِ صَرْفِ الشَّمُولِ تُتَحَفُّي  
 كَمْ مَلْحٍ قَدْ حَوَتْ وَكَمْ لَمَحٍ      يُعْجِبُنِي لَقَطُهَا وَيَعْجِزُنِي  
 كَمْ فِيهِ مِنْ نُفْثٍ وَمِنْ نُكْتٍ      أَشْهَدُنِي حَسَنَهَا فَأَدْهَشُنِي  
 جَمَعٌ عَدِمْنَا لَهُ النُّظِيرَ فَلَا      يُصْرَفُ عَنْ خَاطِرٍ وَلَا أذُنٍ  
 يَا خَيْرَ أَهْلِ الْعِلَا وَبَحْرَهُمْ      أَيَّ بَدِيعِ الْكَلَامِ لَمْ تُرْفِي  
 بَدْرُكَ فِي مَطْلَعِ الْفَضَائِلِ لَا      يَكُونُ مِثْلُ لَهْ وَلَمْ يَكُنْ  
 هَذَا الْفُصُولُ الَّتِي أَتَيْتَ بِهَا      قَدْ أَفْحَمْتُ كُلَّ نَاطِقٍ لَسِينِ  
 كَمْ فَنٌ مَعْنَى بِهَا يَذْكَرُنِي      شَجْوِي لِشَدْوِ الْحَمَامِ فِي فَنِي  
 فَمِنْ نَسِيبِ مَعَ النَّسِيمِ جَرَى      لَطْفًا فَازَرِي بِالْجَوْهَرِ الثَّمَنِ  
 وَحُسْنِ سَجْعِ كَالزُّهْرِ فِي أَفْقٍ      وَالزُّهْرِ فِي نَاعِمٍ مِنَ الْغُصْنِ  
 لَهُ مَعَانٍ أَعْيَتْ مَدَارِكُهَا      كُلَّ مَعَانٍ بَنِيْلَهْنَ عُنِي  
 لَا زَالَ رَاقٍ لِلْمَجْدِ رَاقِمُهَا      ذَا سَنِي حَازَ أَحْسَنَ السَّنِي

فصول ، هي للحسن أصول ، وشمول ، لها على كل القلوب شمول ، ليس  
 لقدمية على التقدم إليها حصول ، ولا لسحبان لأن يسحب ذيلها ووصول ،  
 ولا انتهى قس الإيادي لهذه الأيادي ، ولا ظفر بديع الزمان بهذه البدائع  
 الحسان ، لقد قصر فيها حبيب عن ابنه ، وحرار بين لطافة فضله وفضل ذهنه ،  
 نزهت في طرف خمائلها ، ونهت بلطف شمائلها ، تالله إنتها لسحر حلال ،  
 وخلال ما مثلها خلال ، كلام كله كمال ، ومجال لا يرى فيه إلا جمال ،  
 راقم بردها ، وناظم عقدها ، في كل فصل ، جاء بكمال فضل ، وفي كل  
 معنى ، عمّر بالبراعة معنى ، أعرب فأعرب ، وأوجز فأعجز ، وأطال  
 فأطاب ، وأجاد حين أجاب ، فما أنفس فرائده ، وأنفع فوائده ، وأفصح  
 مقالته ، وأفسح مجاله ، وأطوع للنظم طباعه ، وأطول في النثر باعه ، أزاهر  
 نبئت في كتاب ، وجواهر تكوّنت من الفاظ عذاب ، ومواهب لا تُدرك

بيد اكتساب ، فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب ، فصول أحلى في الأفواه من الشهد ، وأشهى إلى النواظر من النوم بعد السهد ، سكب أدبها في قالب النكت الحسان ، وذهب بمحامد عبد الحميد ومحاسن حسّان ، فما أحقّها أن تسمى فصول الربيع ، وأصول البديع ، لا زال حُسْنُهَا يَمَلَأُ الأوراق بما راق ، ويزين الآفاق بما فاق ، ولا برحت حدائق براعته نزهة للأحداق ، وحقائق بلاغته في جيد الإجازة بمنزلة الأطواق ، بمنّ الله تعالى وكرمه ، انتهى .

وحيث جرى ذكر كتاب « نسيم الصبا » فلا بأس أن نذكر تقارير العلماء له ، فمن ذلك قول القاضي شرف الدين بن ريان : وقفت على هذا الكتاب الذي أبدع فيه مؤلفه ، ونظم فيه الجواهر النفيسة مُصَنَّفَه ، وأينعت حدائق أدبه فدنا ثمرها لمن يقطفه ، وعرفت مقدار ما فيه من الإنشاء وأين مَنْ يعرفه ، فوجدته ألطف من اسمه ، وأحسن من الدرر في نظمه ، وأطيب من الورد عند شمّه ، هبت على رياض فصوله نسيمُ صباها ، ففاقت الأزهار في رباها ، وتشوقت قلوب الأدباء إلى انتشاق شدّآها وطيب رباها ، وفاضت عليه أنوار البدر فأغنى سنّاها ، عن الشمس وضحاها ، وتخلّت نحور البلغاء من كلامه بالدر اليتيم ، ومن معانيه بالعقد النظيم ، وترتحت أفنان فنون الفصاحة لما هبّ عليها ذلك النسيم ، كل فصل له في الفضل أسلوب على بابه ، وطريق انفراد به مُنْشِئُه محاسن لا توجد إلاّ في كتابه ، صدّر هذا الكتاب عن علم سابق ، وفكر ثاقب وذهن رائق ونفّس صادق ، وروية ملأت تصانيفها المغرب والمشرق ، وقريحة إذا ذقت جنتها ، وشمّت سنّاها ، تذكرت ما بين العذيب وبارق ، فالله تعالى يبقي مصنفه قبلة لأهل الأدب وبيدعه ، ويبلغه من سعادة الدنيا والآخرة ما يرومه ، بمنّهُ وكرمه ، انتهى .

وقرظ عليه بعضهم بقوله : وقف الملوك سليمان بن داود المصري على فصول الحكم من هذه الفصول ، ووجدت من نسيم الصبا أمارات القبول ، ونزّه طرفه في رياض هذا الكتاب ، وخاطب فكره العقيم في وصفه فعجز عن

رد الجواب :

ماذا أقولُ وكلُّ وصفٍ دونهُ أين الحضيض من السّمَاك الأعزلِ

يا لها كلمات نقصت قدر الأفاضل ، وفضحت فصحاء الأوائل ، وسحبت ذيل الفصاحة على سحّبان وائل ، وزادت في البلاغة على فريد ، وغيرت حال القدماء فما عبد الرحيم الفاضل وما عبد الحميد<sup>١</sup> ، وذلت لها تشبيهات ابن المعتز طوعاً ، وملكت زمام البيان فما تركت للبديع منه نوعاً :

قَطَفَ الرجالُ القولَ حينَ نَبَاتِهِ وقطفتَ أنتَ القولَ لما نوراً

وخطاب أعجز الخطباءَ وَصَفُهُ ، وجواب ألغى البلغاءَ رَصْفُهُ ، وغرائب تعرّفت بمبديها ، وشوارد تألفت بمهديها ، وجنان بلاغة لم يَطْمِثُ أبكارها إنسٌ قبلك ولا جانٌ ، ولم يقطف أزهارها عين ناظر ولا يدُ جانٍ ، معان تطرب السمع لها حكم وأحكام ، وألفاظ هي الأرواح للأرواح أجسام ، فلما ألقى فهمه عروة المتماسك ، وضافت عليه في وصفه المسالك ، وعجز عن وصف بلوغ بلاغته ، عطف على حُسن كتابته ، فرأى خطأ يسبي الطرف ، ويستغرق الطرف ، نَسَجَ<sup>٢</sup> قلمه الكريم من وشي البلاغة ديباجاً ، واتخذ من محاسن الحسان طريقاً ومنهاجاً ، فألقى أَلِفَاتٍ كاعتدال القدود ، ونونات كاهلِةِ السعود ، وسينات كالطرر ، ونقطاً كالدرر ، جعل للأقلام حُجَّةَ قاطعة على السيوف ، وحكّى الأسماع بحلّية زائدة على الشنوف ، فعطف ساعة يُطنّب<sup>٣</sup> في دعائه وشكره ، وآونة يميل من طَرَبِهِ بألفاظه وسكره ، فليله درّ ألفاظك ودرر فضلك ، وأحسن بوابلك الهاطل بالبيان وطلّك :

١ ق ودوزي : ولا عبد الحميد .

٢ ق ودوزي : نسخ .

٣ ق ودوزي : يطيب .



لسانك غواصاً ، ولفظك جوهراً ، وصدرك بحرٌ بالفضائلِ زاخراً  
والله المسؤول أن يرفع قدر مقالك ومقام قدرك ، ويوضح منهاج الأدب بنور  
بدرك بمنه وكرمه ، إنه على كل شيء قدير .  
وكتب قاضي القضاة تاج الدين السبكي ، رحمه الله تعالى ، في تقرّيب الكتاب  
المذكور ما نصّه : الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه  
وسلم ، حدّثت نحو الحدائق ، وفوقت سهمي تلقاء العراض الشائق ، وطرقت  
إلى ما يضيء أخوا الحجى أسهل الطرائق ، فما عكّل صدأي كنسيم الصبا ،  
ولا كمثلُه سهماً صائباً صابه من لا صبا ، ولا نظرت نظيره حديقة تنبت فضة  
وذهباً :

وتجىء من ملّح الكلا م بطارفٍ أو تالده  
كلمٌ نوابغٌ نحو آ فاق المطالع صاعده  
لو رامها قسٌ لما ألفى أباه ساعده  
أبدى نتائج عيّه في ذي المعاني الشارده

فعين الله تعالى عليها كلمات عليها منه رقيب ، ومحاسن تسلي عندها بالحسن  
حبيب ، وفوائد حسان يذكرنا بها حسان البعيد حسن القريب<sup>١</sup> ، كتبه  
عبد الوهاب السبكي ، انتهى .

وكتب ناصر الدين صاحب دواوين الإنشاء ما صورته : وقفت على هذا الكتاب  
الذي أشبه الدرّ في انتظامه ، والثغر في ابتسامه ، وقطر الندى في انسجامه ،  
وزهر الروض في البكر إذا غنت على غصونه مطربات حمامه ، فوجدت  
بين اسمه ومسماه مناسبة اقتضاها طبع مؤلفه السليم ، واتصالاً قريباً كاتصال  
الصديق الحميم ، فتحققت أن مؤلفه - أبقاه الله تعالى وحرسه - أبدع في

١ وفوائد . . . القريب : سقط من ق .

تأليفه ، وأصاب في تمييزه بهذا الاسم وتعريفه ، فهو في اللطافة كالماء في إروائه ، وكالهواء المعتدل في ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتقي جوهره وأجيد في انتقائه ، قد أينعت ثمرات فضائله فأصبحت دانية القطوف ، وتجلت عرائس بلاغته فظهر بدرها بلا كسوف ، وانجابت ظلمات الهموم بسماع موصول مقاطعه التي هي في الحقيقة لأذن الجوزاء شنوف ، فأكرم به من كتاب ما الروض بأبهى من وسيمه ، ولا الریحان بأعطر من شميمه ، ولا المدامة بأرق من هبوب نسيمه ، ولا الدرُّ بأسنى زهراً بل زهواً من رؤومه ، إذا تدبره الأديب أغنته تلك الأفانين ، عن نعمات القوانين ، وإذا تأمله الأريب نزه طرفه في رياض البساتين ، قد سُور على كل نوع من البديع باب ، لا يدخله إلا من خُص من البلاغة باللباب ، والله تعالى يؤتیه الحكمة وفصل الخطاب ، ويمتّع بفضائله التي شهدها أهل العلم وذوو الألباب ، بمنه وكرمه ، وكتبه محمد ابن يعقوب الشافعي .

وكتب الصفدي شارح لامية العجم بما نصّه : وقفت على هذا المصنّف الموسوم بنسيم الصبا ، والتأليف الذي لو مرّ بالمجنون لما أُلّف ليلاه ولا مال إليها ولا صبا ، والإنشاء الذي إن شاء قائله جعل الكلام غيره في هبات الهواء هبا ، والنثر الذي أغار قائله على سبائك الذهب الإبريز وسبي ، والكلام الذي نبا عنه الجاحظ جاحداً وما له ذكر ولا نبا ، فسبحت جواهر حروفه لمن أوجده في هذا العصر ، وعلمت أن ألفاظه ترمي قلوب حساده بيشرر كالقصر ، وتحقق أن قعقة طروسه أصوات أعلامه التي تخفق له بالنصر ، وتيقنت أن سطوره غصون لا تصل إليها كف جناية بجنتي ولا هضر :

وقلت لأهل النظم والنثر قابلوا « تراثيها مصقولة كالسجنجل »  
وميلوا بأعطف التعجب إنها « نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل »

ولما ملت بعدما ثملت ، وغزلت بعدما هزلت ، جردت من نفسي شخصاً

أخاطبه وأجاربه ، في أوصاف محاسنها التي أُنَاهِبُ منها وأُنَاهِيهِ ، فقال لي : هذا الفن الفذ ، والنثر الذي قهر أقران هذه الصناعة وبذ ، والأدب الذي سد الطرق على أوابده فما فاته شيء ولا شذ ، وهذا الإنشاء الذي ماله عدليل في هذا العديد ولا ضريب ، وهذا الكلام الذي فاق في الآفاق فما لحبيب بن أوس حُسْنُ حَسْنِ بن حبيب ، فعين الله تعالى على هذه الكلم الساحرة ، والفوائد التي أيقظت جفن الأدب بعدما كان بالساهرة ، ومتع الله تعالى الزمان وأهله بهذا النوع الغض ، والنقد النض ، والبز البض ، والبديع الذي رَمَّ ما تشعث من ربيع هذا الفن ورض ، واقتض المعاني أبقاره واقتض ، وأرسل جراح بلاغته على الجوارح فصادها وانقص وانقض ، وأنبَطَ ماء الفصاحة لما تحدر وارفض ، واستمال القلب الفظ لما فك ختم ذهوله وفض ، إنّه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير ، بمنته وكرمه ، وكتبه خليل الصفدي ، انتهى .

٣٠٢ - ومنهم الأديب أبو جعفر الإلبيري<sup>١</sup> ، رفيق ابن جابر السابق

الذكر ، وهو البصير وابن جابر الأعمى ، وله نظم بديع منه قوله :

أبدت لي الصُدغَ على خدّها فأطلع الليلُ لنا صُبْحَهُ  
فخدّها مع قدّها قائلٌ « هذا شقيقٌ عارضٌ رحمةٌ »

وقوله وقد دخل حمص :

حمصٌ لمن أضحى بها جنّةٌ يدنو لديها الأملُ القاصي  
حلّ بها العاصي ألا فاعجبوا من جنّةٍ حلّ بها العاصي

وقوله :

إنّ بيّنَ الحبيبِ عندي موتٌ وبه قد حيثُ منذ زمانٍ

١ وردت الإشارة إلى أبي جعفر الإلبيري الرعيني ومصادر ترجمته في النفع ج ١ : ص ٤٤ .

لَيْتَ شعري متى تشاهده العيِّ ن وتقضي من اللقاء الأمانى

قال : وفيه استخدام ، لأن البين يطلق على البعد والقرب ، انتهى .

ومن نظمه أيضاً رحمه الله تعالى :

وَمُورِدِ الْوَجَنَاتِ دَبَّ عِدَارُهُ فَكَأَنَّهُ خَطٌّ عَلَى قِرطاسٍ

لَمَّا رَأَيْتُ عِدَارَهُ مُسْتَعْجِلاً قَدْ رَامَ يَخْفِي الْوَرْدَ مِنْهُ بَاسٍ

ناديته قف كي أودعَ ورده « ما في وقوفك ساعةً من باس »

وهذا المعنى قد تبارى فيه الشعراء وتسبقوا في مضماره ، فمنهم من جلى وبرز ، وحاز خصل السبق وأحرز ، ومنهم من كان مُصَلِّياً ، ومنهم من غدا بلحيد الإحسان مُحَلِّياً ، ومنهم من عاد قبل الغاية مولئياً .

رجع - ومن تأليفه رحمه الله تعالى شرحه لبديعية رفيقه ابن جابر المذكور .

وقال في خطبته : ولما كانت القصيدة المنظومة في علم البديع المسماة « بالحلة السيرا في مدح خير الورى » التي أنشأها صاحبنا الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله ابن جابر الأندلسي ، نادرةً في فنها ، فريدة في حسنها ، يُجنى ثمر البلاغة من غصنها ، وتنهل سواكب الإجادة من مِرْنِها ، لم يُنسج على منوالها ، ولا سمحت قريحة بمثالها ، رأيت أن أضع لها شرحاً يجلو عرائس معانيها لمعانيها ، ويبيد غرائب ما فيها لموافيها ، لا أمل الناظر فيه بالتطويل ، ولا أعوقه بكثرة الاختصار عن مدارك التحصيل ، فخير الأمور أوسطها ، والغرض ما يقرب المقاصد ويضبطها ، فأعرب من ألفاظها كل خفي ، وأسكت من لغاتها عن كل جلي ، والله أسأل أن يبلغنا ما قصدناه ، ويوردنا أحسن الموارد فيما أردناه ، انتهى . وسمى الشرح المذكور « طراز الحلة وشفاء الغلة » ، ومما أورده رحمه الله تعالى في ذلك الشرح من نظم نفسه قوله :

طَيِّبَةٌ ما أطيبها منزلاً سقى ثراها المطرُ الصيَّبُ  
طابَتْ بمن حلَّ بأرجائها فالتربُّ منها عنبرٌ طيِّبٌ  
يا طيبَ عيشي عند ذكري لها والعيشُ في ذاك الحمى أطيّب

وقال رحمه الله تعالى في هذا الشرح بعد كلام ما نصّه : وإذا أردت أن تنظر إلى تفاوت درجات الكلام في هذا المقام فانظر إلى إسحاق الموصلي كيف جاء إلى قصر مشيد ، ومحلّ سرور جديد ، فخاطبه بما يخاطب به الطلول البالية ، والمنازل الدارسة الحالية ، فقال :

يا دارُ غَيْرِكَ البليِّ ومحاكِ

فأحزن في موضع السرور ، وأجرى كلامه على عكس الأمور ، وانظر إلى قول القَطامي :

إنّا محيُّوكَ فاسلم أيتها الطللُ وإن بليتَ وإن طالت بك الطيِّلُ

فانظر كيف جاء إلى طَلَل بالٍ ، ورسم خالٍ ، فأحسن حين حيّاه ، ودعا له بالسلامة كالمبتهج برؤية مُحَيّاه ، فلم يذكر دروس الطلل وبلاه ، حتى آنس المسامع بأوفى التحية وأزكى السلامة ، والذي فتح هذا الباب ، وأطنب فيه غاية الإطناب ، صاحب اللواء ، ومقدم الشعراء ، حيث قال :

ألا عِمَّ صباحاً أيتها الطلُّ البالي وهل يعمّن من كان في العُصُر الخالي  
وهل يعمّن إلا سعيدٌ مخلَّدٌ قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوجالٍ

قيل : وهذا البيت الأخير يحسن أن يكون من أوصاف الجنة ، لأن السعادة والخلود وقلة الهموم والأوجال لا توجد إلا في الجنة ، انتهى .

وقال رحمه الله تعالى عند رحيله من غرناطة وأعلام نجد تلوح ، وحمائم تشدو على الأيك وتنوح :

ولمّا وقفنا للوداع وقد بدتُ  
نظرتُ فألفيتُ السبيكةَ فضةً  
فلمّا كستَها الشمسُ عادَ لُجِينُها  
لحسن بياضِ الزهرِ في ذلكِ النادي  
قبابٌ بنجدٍ قد علّتْ ذلكِ الوادي  
لها ذهباً فاعجب لإكسيرا البادي

والسبيكة : موضع خارج غرناطة .

وقال رحمه الله :

هذه عشرةٌ تقصّتْ وعندي من أليم البعادِ شوقٌ شديدُ  
وإذا ما رأيتَ إطفاءَ شوقي بالتلاقي فذاك رأيٌ سديدُ

وقال رحمه الله تعالى وقد أهدى طاقةً :

خذها إليك هديةً ممن يعزُّ على أناسِكْ  
اخترتها لكَ عندما أضحت هدية كلِّ ناسِكْ  
أرسلتها طاقةً لتنوبَ عن تقبيلِ راسِكْ

وله من رسالة : وافى كتابك فوجدناه أزهى من الأزهار ، وأبهى من  
حسن الحباب على الأنهار ، يشرق إشراق نجوم السماء ، ويسمو إلى الأسماع  
سماً حباب الماء .

وقال رحمه الله تعالى في العَرُوض على مذهب الخليل :

خلّ الأنامَ ولا تخالطْ منهمُ أحداً ولو أصفى إليك ضمائرهُ  
إنّ الموفّقَ من يكونُ كأنه متقاربٌ فهو الوحيدُ بدائرهُ

وقال على مذهب الأخفش :

إنّ الخلاصَ من الأنامِ لراحةٌ لكنّه ما نالَ ذلكَ سالِكُ  
أضحى بدائرةٍ له متقاربٌ يرجو الخلاصَ فعاقهُ متداركُ

وله :

دائرةُ الحبِّ قد تناهتُ فما لها في الهوى مزيدُ  
فبحرُ شوقي بها طويلٌ وبحرُ دمعي بها مديد  
وإنَّ وجدي بها بسيطٌ فليفعلِ الحسنُ ما يريد

وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيراً ، ومنهم الشيخ شهاب الدين بن صارو البعلي . قال أبو جعفر المترجم به : أنشدنا شهاب الدين المذكور لنفسه بحماسة :

وبي عروضيٌ سريعُ الجفا  
الوردُ مِن وجنته وافرٌ  
يغار غصنُ البانِ من عطفه  
لكنه يَمْتَعُ من قطفه

قال : وأنشدنا أيضاً لنفسه :

وبي عروضيٌ سريعُ الجفا  
قلتُ له قَطَعْتَ قلبي أسى  
وجدي به مثلُ جفاه طويلُ  
فقال لي التقطعُ دابُ الخليلُ

انتهى .

وأنشد رحمه الله تعالى لرفيقه ابن جابر الضرير السابق الترجمة في ذلك :

إن صدَّ عني فإنِّي لا أعاتبه  
شوقي مديدٌ وحيي كاملٌ أبداً  
فما التنافر في الغزلان تنقيصُ  
لأجل ذلك قلبي فيه مَوْقُوصُ

وأنشد له أيضاً في ذلك :

عالمٌ بالعروض يَحْنِينُ قلبي  
عنده وافرٌ من الرَّدْفِ يبدو  
في مديدِ الهوى بلحظٍ سريعٍ  
وخفيفٌ من خصره المقطوعِ

وله :

صدوده لي مديدٌ وأمرٌ حبيّ طويلٌ  
وفيه أسبابٌ حُسنٌ وتلك عندي الأصولُ  
فخصره لي خفيفٌ وردفه لي ثقيلٌ

وله :

سببٌ خفيفٌ خَصَرُها ، ووراءه  
لم يُجمعِ النوعانِ في تركيبها  
من ردها سببٌ ثقيلٌ ظاهرٌ  
إلاّ لأنّ الحسَنَ فيها وافرٌ

وقد ذكر أبو جعفر - رحمه الله تعالى - لرفيقه ابن جابر السابق الذكر  
مقطوعات كثيرة ، منها قوله :

يا أيها الحادي اسقني كأس السرى  
حيّ العراقَ على النوى واحملْ إلى  
نحوّ الحبيب ومهجتي للساقى  
أهلِ الحِجازِ رسائلَ العُشاقِ  
يا حُسنَ ألحانِ الحُدادةِ إذا جرتْ  
نَعَماتِها بِمَسامعِ المُشْتاقِ

وأورد له أيضاً ١ :

يا حُسنَ ليلتنا التي قدّ زارني  
قَوِّمْتُ شَمْسَ جِماله فوجدتها  
فيها فأنجز ما مضى مِنّ وعدهِ  
في عَقْرَبِ الصُدغِ الذي في خدهِ

رجع إلى أبي جعفر - رحمه الله تعالى - ومن فوائده أنّه لما ذكر قدّ لكة  
الحساب قال : هي التي يصنعها أهل الحساب آخر جملهم المتقدمة فيقولون :  
فذلك كذا وكذا ، انتهى .

١ أيضاً : سقطت من ق .



ولما أنشد رحمه الله تعالى قول بعضهم :

غزالٌ قَدْ غَزَا قَلْبِي بِالْحَاظِ وَأَحْدَاقِ  
لَهُ الثَّلَاثَانُ مِنْ قَلْبِي وَثَلَاثَا ثَلَاثَةَ الْبَاقِي  
وَثَلَاثَا ثَلَاثَ مَا يَبْقَى وَبَاقِي الثَّلَاثِ لِلْسَاقِي  
وَتَبْقَى أَسْهُمٌ سِتُّ تُقَسَّمُ بَيْنَ عَشَاقِ

قال ما نصّه : هذا الشاعر قسم قلبه إلى ٨١ سهماً ، فجعل لمحجوبه منها الثلثين ٥٤ ، وبقي الثلث ٢٧ ، فزاده ثلثيه ١٨ ، فصار له ٧٢ ، يبقى ثلث الثلث وهو ٩ ، زاده منها ثلثي ثلثها ، وهو اثنان ، وبقي من الثلث واحد أعطاه للساقى ، فبقي من التسعة ستة ، قسمها بين العشاق ، فاجتمع لمحجوبه ٧٤ ، وللساقى سهم واحد ، وللعشاق ستة ، والجملة ٨١ ، انتهى .

وأنشد رحمه الله تعالى في علم الحساب لرقيقه ابن جابر السابق الذكر :

قَسَمَ الْقَلْبَ فِي الْغَرَامِ بِلِحْظٍ يَضْرِبُ الْقَلْبَ حِينَ يَرْسَلُ سَهْمَهُ  
هَذِهِ فِي هَوَاهُ يَا قَوْمٌ حَالِي ضَاعَ قَلْبِي مَا بَيْنَ ضَرْبٍ وَقِسْمِهِ

وأنشد له في الهندسة :

مُحِيطٌ بِأَشْكَالِ الْمَلَاخَةِ وَجْهَهُ كَأَنَّ بِهِ إِقْلِيدَسًا يَتَحَدَّثُ  
فَعَارِضُهُ خَطٌّ اسْتَوَاءٌ ، وَخَالَهُ بِهِ نَقْطَةٌ ، وَالشَّكْلُ شَكْلٌ مِثْلَثٌ

وأنشد له في خط الرمل :

فَوْقَ خَدْيِهِ لِلْعِذَارِ طَرِيقٌ قَدْ بَدَأَ تَحْتَهُ بَيَاضٌ وَحُمْرَةٌ  
قَبْلَ مَاذَا فَقَلْتُ أَشْكَالٌ حُسْنٌ تَقْتَضِي أَنْ أَبِيعَ قَلْبِي بِنَظَرِهِ

وأنشد له في علم الخط :

قَدْ حَقَّقَ الْحُسْنَ نُونََ حَاجِبِهِ وَخَطَّ فِي الصُّدُغِ وَأَوَّ رِيحَانَ

ومدّ من حُسنِ قدّه ألفاً

أوقفَ عيني وقوفَ حيرانِ

وأُشِد له أيضاً :

ألفُ ابنِ مقلّةٍ في الكتابِ كقدّه  
والعينُ مثلُ العينِ لكنْ هذه  
وعلى الجبينِ لشعره سينٌ بدتْ  
قلٌ للذي قد خطّ تحت الصدغِ من  
يا للرجالِ ويا لها من فتنةٍ  
في وضعِ ذاكِ النقطِ تحت النونِ  
والنونُ مثلُ الصدغِ في التحسينِ  
شكّلتْ بحسنِ وقاحةٍ ومجونِ  
حار ابنِ مقلّةٍ عند تلك السينِ  
خيلائه نَقَطاً بلحَبِ فنونِ

وأورد له في ذكر الأعلام السبعة وغيرها :

تعلقُ ردِّفِكَ بالخصر الخفيفِ له  
خذتْ عليه رقاعِ الروضِ قد جعلتْ  
خطّ الشبابِ بطُومارِ العذارِ به  
محقّقِ نسخِ صبري عن هَوَاهِ ومن  
يا حسنِ ما قلمُ الأشعارِ خطّ على  
أقسمتُ بالمصحفِ الشامي وأحرفه  
ولا غبارِ على حبي فعندك لي

وأُشِد له :

يا صاحبَ المالِ ألم تستمعُ  
فاعملْ به خيراً فوالله ما  
لقوله ﴿ ما عندكم ينفدُ ﴾  
يبقى ولا أنت به مُخلدُ

وله :

إن شئتَ أن تجدَ العدوَّ وقد غدا  
فاعملْ كما قال الخبيرُ بخلقه  
لك صاحباً يُولي الجميلَ ويُحسنُ  
في قوله ﴿ ادفعْ بالتي هي أحسنُ ﴾

وله :

إذا شئت رزقاً بلا حِسْبَةٍ      فلذُ بالتقى واتَّبِعْ سُبُلَهُ  
وتصديقُ ذلك في قوله      ﴿ومن يتَّقِ اللهَ يجعلْ له﴾

وأورد له أيضاً :

عملٌ إن لم يوافق نيةً      فهوَ غرَسٌ لا يرى منه ثمرَ  
«إنما الأعمال بالنيات» قد      نصَّه عن سيد الخلق عمراً

وقوله :

الخير في أشياء عن خير الورى      ورَدَّتْ فأبدتْ كلَّ نهجِ بَيْنِ  
«دع ما يريبك ، واعملنَّ بنيةً ،      وازهد ولا تغضب وخلقك حسنٍ»

وقوله :

حياء المرء يزجره فيخشى      فحَفَّ من لا يكون له حياءُ  
فقد قال الرسولُ بأنَّ ممَّا      به نَطَقَ الكرامُ الأنبياءُ :  
«إذا ما أنت لم تستحي فاصنع      كما تختارُ وافعل ما تشاء»

وقوله :

قال الرسول «الحياء خير»      فاصحَبْ من الناس ذا حياءُ  
وعن قليلِ الحياء فابعدُ      فخيره ليس ذا رجاء

وقوله :

« من سلم المسلمون كلهم      وآمنوا من لسانه ويده»

١ ق : قوله .

فذلك المسلم الحقيق « بيذا جاء حديثٌ لا شك في سنَدِهِ

ولابن جابر ممّا كتب به إلى الصّلاح الصّفدي<sup>١</sup> :

إن البراعة لفظ أنت معناه وكلُّ شيءٍ بديع أنت معناه  
إنشاد نظمك أشهى عند سامعه من نظم غيرك لو إسحاقُ غنّاه

وهي طويلة ، فأجابه الصّفدي بقوله :

يا فاضلاً كرمتُ فينا سجاياهُ وخصّنا بالآلي في هداياهُ  
خصّصتني بقريض شَفَّ جوهره لما تألّق منه نورُ معناه  
من كل بيتٍ مَبانيه مشيدة كم من خبايا معانٍ في زواياهُ  
وهي طويلة .

رجع إلى نظم أبي جعفر - فمن ذلك قوله :

تريكَ قدّاً على ردْف تجاذبه كخُوطّةٍ في كثيبِ الرملِ قد نبتتُ  
ريّاً القرنفل في رِيح<sup>٢</sup> الصّبَا سحرأ يضُوعُ منها إذا نحوي قد التفتتُ

عقد بهما ألفاظ قول امرئ القيس :

إذا التفتتُ نحوي تضوع ريجها نسيم الصّبَا جاءت بريّاً القرنفل

وأورد له قوله :

ولولا نَجاء العيسِ حولَ ديارها غداةَ مِنّى لم يبق في الركبِ مُحَرّم  
ف فوقَ ذرّاً المتنينِ بُردٌ مهللٌ وتحت رداء الخز وجهٌ مُعلّم

١ انظر القصيدة وجواب الصّفدي عليها في الوافي ونكت الهميان .

٢ ق : ربا .

عقد في الأول قول قيس بن الخطيم<sup>١</sup> :

ديارُ التي كُنّا ونحن على مِنيّ تحوطُ بنا لولا نَجاء الركائبِ

وعقد في الثاني قول ابن أخي ربيعة :

أماطتُ رداءَ الحزّ عن حُرٍّ وجهها وأرختُ على المتنين بُرداً مهللاً

وأورد له قوله :

إن ادعى لك مروانُ الجلالَ فقلْ لا يجهل المرء بينَ الناس رتبتهُ  
إن الجلالة حقاً للمقول له « هذا الذي تعرف البطحاء وطأتهُ »

وقوله :

مَنْ مُنْصِفي يا قومُ من ظبيةٍ تسرف في هجري وتأبى الوصال  
وكلّما أسأل عن عذرها تقول لي : « ما كلُّ عذرٍ يقال »

وقوله :

همُ حسدوا الرسولَ فلم يجيبوا وكم حسدوا فصار لهم فرارُ  
وهاجرَ عندما هجروا فأضحى لخيمة أمّ معبدٍ الفخارُ

وقوله :

بحسبيك أن تبيتَ على رجاء ولو حطّتكَ لليأسِ الخطوبُ  
ومهما أكربتك صروفُ دهرٍ فقل ما قاله الرجلُ الأريبُ :  
« عسى الكرب الذي أمسيتَ فيه يكون وراءه فرجٌ قريبُ »

١ ديوان قيس بن الخطيم : ٣٤ وفيه : تحل بنا .

وقوله :

خليليّ هذا قبر أشرف مرسلٍ « قفا نبك من ذكرى حبيب ومترلٍ »  
رويدا كما نبكي الذنوب التي خلّت « بسقط اللوى بين الدخول فحوملٍ »  
منازل كانت للتصابي فأقفرّت « لما نسجتّها من جنوب وشمالٍ »

قال : ثم جرى على هذا النمط ، واستخرج الدرر النفيسة من ذلك السّفط ،  
وقال قبله : إنّه أخذ أعجاز هذه القصيدة من أولها إلى آخرها على التوالي ، وصنع  
لها صدوراً ، وصرّفها إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلّم ، فجاء في ذلك بما لم  
يُسبق إليه ، ولم يقف أحد في تلك المعاني على ما وقف عليه ، انتهى .

وقوله :

كم ليالٍ خلّت بكم كاللآلي نظمتها لنا يدُ الأزمانِ  
أيّها النازحون عن رأي عيني وهمُ في جوانحي وجناني  
ما ألدّ الوصالَ بعد التناهي وأمرَ الفراقَ بعد التداي  
قدّ وكلناكمُ لربِّ كريمٍ غير وانٍ عن عبده في أوانٍ  
ما رحلنا عن اختيارٍ ولكن رحلتنا تلوناتُ الزمانِ

وقوله :

تشككي الصّفْرُ من يديه وترضى الـ سمرُ عن راحتيه عند الحروبِ  
أحمرُ السيفِ أخضرُ السيبِ حيثُ الـ أرضُ غبراءُ من سوادِ الخطوبِ  
وقوله ممّا التزم في أوله الدال :

دفاعٌ لمكروهٍ ، أمانٌ لخائفٍ سحبابٌ لمستجدٍ ، هلاكٌ لمستعدي  
دروبٌ على الحسنى ، عفوٌ لمن جنى ميثبٌ لمن أثنى ، مجيبٌ لذي قصدٍ

دع الغيث إن أعطى ، دع الليث إن سطا  
دع الروض إذ يهدي ، دع البدر إذ يهدي

وقوله :

غزالٌ ما توسدَ ظلَّ بانٍ  
تبسّم لؤلؤاً ، واهتز غصناً  
بهاجرةٍ ولا عَرَفَ الظلالا  
وأعرض شادناً ، وبدا هلالا

وقوله :

رُفِعَ الخصرُ فوق منصوبٍ ردْفٍ  
مال غصناً ، رنارِشاً ، فاح مسكاً  
ولحزمِ القلوبِ قرعَينِه جِراً  
ناه درآ ، أرخى دُجى ، لاح بدرا

وقوله حين زار قبر قسّ بن ساعدة بجبل سمعان :

هذي منازلُ ذي العُلا  
كم عاشَ في الدنيا وكم  
قد زانها بِحُلَى البَلا  
قدّ قرّ في بطنِ الثرى  
قسّ بن ساعدة الإيادي  
أسدى إلينا من أيادي  
غة مفصّحاً في كل نادي  
متفرّداً بسينِ العبادِ

قال أبو جعفر : زرنا قبره فرأينا موضعاً ترتاح إليه النفس ، ويلوح عليه  
الأنس ، وعند قبره عين ماء يقال : إنّه ليس بجبل سمعان عين تجري غيرها  
هناك ، وأورد له قوله :

كرامٌ فيخامٌ من ذؤابةِ هاشمٍ  
يفعلُ في فقر المقلّينَ جودهم  
يقولون للأضياف أهلاً ومرحبا  
كفعل عليّ يومَ حاربَ مَرَحِباً

رجع إلى أبي جعفر ، رحمه الله تعالى ، فنقول : إنّه كان بمدينة النبي صلى  
الله عليه وسلم سنة ٧٥٥ ، ولما ذكر الروضة قال : قيل : ولا تكون الروضة  
إلاّ بماء يسقيها أو إلى جنبها ، ولا يقال في موضع الشجر روضة ، انتهى ، وقال :

لقوامه الأليفُ التي جاءت بحسن ما أُلِفُ  
عانقتهُ فكأنتي لامٌ معانقةُ الألفُ

وقال رحمه الله تعالى معتذراً عمّن لم يسلم :

لا تعبتنّ على تركِ السلامِ فقد جاءتك أحرفهُ كَتَباً بلا قَلَمِ  
فالسین من طرتي واللامُ مع أليفِ من عارضيّ وهذا الميمُ ميمُ فمي

وقال رحمه الله تعالى :

لا يُفْنِطَنَّكَ ذنبُ قد كان منك ، عظيمُ  
فالله قد قال قولاً وهو الجوادُ الكريمُ  
﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

وقال :

إذا ظلم المرء فاصبر له فبالقرب يُقَطِّعُ منه الوَتِينَ  
فقد قال ربُّكَ وهو القويُّ ﴿ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

ومن نثره لما ذكر قصيدة كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه ما نصّه : وهذه  
القصيدة لها الشرف الراسخ ، والحُكْمُ الذي لم يوجد له ناسخ ، أنشدتها كعبٌ<sup>١</sup>  
في مسجد المصطفى بحضرته وحضرة أصحابه ، وتوسّل بها فوصل إلى العفو عن  
عقابه ، فسدّ صلى الله عليه وسلم خَلَّتَهُ ، وخلع عليه حِلَّتَهُ ، وكفّ عنه كفّ  
من أَرَادَهُ ، وأبلغه في نفسه وأهله مُرَادَهُ ، وذلك بعد إهدار دمه ، وما سبق  
من هَذَرِ كَلِمِهِ ، فمحت حسناتها تلك الذنوب ، وسرت محاسنها وجه  
تلك العيوب ، ولولاها لمنع المدح والغزل ، وقَطِّعَ مَنْ أخذ الجوائز على الشعر

١ كعب : سقطت من ق .



الأمل ، فهي حجة الشعراء فيما سلكوه ، وملاك أمرهم فيما ملكوه ، حدثني بعضُ شيوخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة كعب ، فقيل له في ذلك ، فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، قصيدة كعب أنشدتها بين يديك ؟ فقال : نعم ، وأنا أحبها وأحب من يحبها ، قال : فعاهدت الله أنني لا أدخل من قراءتها كل يوم . قلت : ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينسججون على منوالها ، ويقتلون بأقوالها ، تبرئاً بمن أنشدت بين يديه ، ونسب مدحها إليه ، ولما صنع القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم على وزن « بانت سعاد » قال :

لقد قال كعبٌ في النبيّ قصيدةٌ      وقلنا عسى في مدحه نشاركُ  
فإن شملتنا بالجوائزِ رحمةً      كرحمةِ كعبٍ فهو كعبٌ مباركُ  
انتهى .

وقال رحمه الله تعالى :

لقد كرتُ العذارُ بوجنتيه      كما كرتُ الظلامُ على النهارِ  
فغابتُ شمسُ وجنته وجاءتُ      على مهلٍ عشيَّاتُ العذارِ  
فقلتُ لناظري لما رآها      وقد خلط السوادُ بالاحمرارِ  
« تمتع من شميم عرّار نجد      فما بعد العشيّة من عرّار »

وقال :

قالوا عشقت وقد أضربك الهوى      فأجبتهم يا ليتني لم أعشقتِ  
قالوا سبقت إلى محبة حسنه      فأجبتهم ما فاز من لم يسبقِ

ولما أنشد رحمه الله تعالى قول ابن الحشاش في المستضيء بالله :

وَرَدَ الْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَارْتَوَوْا وَوَقَفْتُ دُونَ الْوَرْدِ وَقَفَّةَ حَائِمٍ  
 ظَمَانٌ أَطْلَبُ خَفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ وَالْوَرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَرَاحِمٍ  
 قَالَ مَا نَصَّه : فَانظُرْ حَسَنَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرِيَا كَالْمَاءِ فِي سَلَاسْتِهِ ، وَوَقَعَا  
 مِنَ الْقُلُوبِ كَالشَّهَدِ فِي حَلَاوَتِهِ ، مَعَ أَنَّ نَازِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنِ وَصْفِ الْمَاءِ  
 كَلَامُهُ ، وَلَا تَعْدَى ذَلِكَ الْمَعْنَى نَظَامُهُ ، حَتَّى قِيلَ : إِنْ فِيهِمَا عَشْرَةُ مَوَاضِعَ مِنْ  
 مِرَاعَاةِ النَّظِيرِ ، فَهَمَا فِي الْحَسَنِ مَا لَهْمَا مِنْ نَظِيرٍ ، لَكِنَّهُمَا سَلِمَ مَلِيحٌ مِنْ عَيْبٍ ،  
 وَلَا خِلَا مِنْ وَقُوعِ رَيْبٍ ، فَمَعَ هَذِهِ الْمَحَاسِنِ الْوَاقِفِيَّةُ ، مَا سَلِمَا مِنْ عَيْبِ الْقَافِيَّةِ ،  
 . انْتَهَى .

وَلنَحْمُ تَرْجَمَتَهُ بِقَوْلِهِ عِنْدَ شَرْحِ بَيْتِ رَفِيقِهِ :

خَيْرُ اللَّيَالِي لِيَالِي الْخَيْرِ فِي إِضْمٍ وَالْقَوْمُ قَدْ بَلَغُوا أَقْصَى مُرَادِهِمْ

مَا نَصَّه : يَقُولُ : إِنْ خَيْرَ اللَّيَالِي الَّتِي تَنْشُرُهَا الصُّدُورُ ، وَيُحْمَدُ فِيهَا  
 الْوَرُودُ وَالصُّدُورُ ، لِيَالِي الْخَيْرِ فِي إِضْمٍ ، حَيْثُ التَّرْيِيلُ لَمْ يُضْمَ ، وَالْقَوْمُ قَدْ  
 وَرَدُوا مَوَارِدَ الْكُرْمِ ، وَبَلَغُوا أَقْصَى مُرَادِهِمْ فِي ذَلِكَ الْحَرَمِ .

٣٠٣ - وَمِنَ الرَّاحِلِينَ الْوَلِيُّ الصَّالِحُ أَبُو مَرْوَانَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ  
 ابْنِ بَشَرَ ، الْقَيْسِيُّ . وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ ابْنِ صَاحِبِ الصَّلَاةِ الْبَجَانِسِيِّ ، نَسَبُهُ إِلَى  
 بَجَانِسِ قَرْيَةٍ مِنْ قَرْيِ وَادِي آشٍ ، وَكَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي أَوْاسِطِ الْمِائَةِ  
 السَّابِعَةِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْفَقِيهُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ بَيْحِي الْأَزْدِيُّ  
 الْفَسْطَاتِيُّ فِي تَأْلِيْفِهِ الَّذِي سَمَّاهُ « تَحْفَةُ الْمَغْرِبِ بِيَلَادِ الْمَغْرِبِ » ، وَقَالَ فِيهِ : رَاضُوا  
 نَفُوسَهُمْ لَتَنْقَادَ لِلْمَوْلَى سَرَّاءً وَعِلْنَاءً ، وَزَهَدُوا فِي الدُّنْيَا فَلَمْ يَقُولُوا مَعْنَا وَلَا لَنَا ،  
 وَانْتَدَبُوا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .  
 (الْمَنْكِبُوتُ : ٦٩) .

وَقَالَ صَاحِبُ التَّأْلِيفِ الْمَذْكُورِ : سَأَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا مَرْوَانَ يَوْمَافِي مَسِيرِي  
 مَعَهُ مِنْ وَادِي آشٍ إِلَى بِلَدِهِ بَجَانِسِ سَنَةَ تِسْعِ وَأَرْبَعِينَ وَسَمِئَاةً ، فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ

يا سيدي لم تكن قرأت ولا لازمت المشايخ قبل سفرك للمشرق ، ولا سافرت مع عالم تقتدي ببركته في هذا الطريق ، فقال لي : أقام الله تعالى لي من باطني شيخاً ، قلت له : كيف ؟ قال : كنت إذا عرض لي أمر نظرت في خاطري فيخطر لي خاطران في ذلك ، أحدهما محمود والآخر مذموم ، فكنت أجتنب المذموم وأرتكب المحمود ، فإذا وصلت إلى أقرب بلد سألت عمّن فيه من المشايخ والعلماء ، فأسأله عن ذلك ، فكان يذكر لي المحمود محموداً والمذموم مذموماً ، فأحمد الله تعالى أن وفقني ، ومع تتابع ذلك واتصاله دون مخالفة لم أعتد على ما يقع بخاطري من الأمور الشرعية إلى الآن حتى أسأل عنه من حضر من العلماء ، انتهى .

ومن كلام صاحب التأليف المذكور قوله في حق الصوفية ، نفعنا الله تعالى بهم : حمّوا طريق الحق فحماهم ، ونور بصائرهم فأصمهم عن الباطل وأعماهم ، وأهانوا في رضاه نفوسهم ، ورفضوا نعماهم ، فأعلى قدرهم عنده وعند الناس وأسماهم ، انتهى .

وما أحسن قوله في التأليف المذكور : يا هذا ، من حافظ حفوظ عليه ، ومن طلب الخير بصدق وصل إليه ، ومن أخلص العبودية لربه قام الأحرار خدّمة بين يديه ، انتهى .

٣٠٤ - ومنهم الطبيب الماهر الشهير ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار ، المالقي ، نزيل القاهرة . وهو الذي عناه ابن سعيد في كتابه « المغرب » بقوله : وقد جمع أبو محمد المالقي الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً في هذا الشأن حشّر فيه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها ، وضبطه على حروف المعجم ، وهو النهاية في مقصده .

١ ترجمة ابن البيطار في ابن أبي أصيبعة ٢ : ١٣٣ والقوات ١ : ٤٣٤ .

وقد ذكرت كلام ابن سعيد هذا بجملة في غير هذا الموضوع ، فليراجع .  
 وكان ابن البيطار أوحّد زمانه في معرفة النبات ، سافر إلى بلاد الأغرقة  
 وأقصى بلاد الروم والمغرب ، واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا  
 الفن ، وعين منابته وتحققها ، وعاد بعد أسفاره ، وخدم الكامل بن العادل ،  
 وكان يعتمد عليه في الأدوية والحشائش ، وجعله في الديار المصرية رئيساً على  
 سائر العشّابين وأصحاب البسطات ، ومن بعده خدم ولدّه الصالح ، وكان  
 حظيّاً عنده ، إلى أن توفي بشعبان سنة ٦٤٦ التي توفي بها ابن الحاجب ، وله  
 من المصنّفات كتاب « الجامع في الأدوية المفردة » وكتاب « المغني » أيضاً في  
 الأدوية ، وكتاب « الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام » ، وكتاب  
 « الأفعال العجيبة والخواص الغريبة » ، وشرح كتاب ديسقوريدوس ، قال  
 الذهبي : انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته ، وأماكنه ومنافعه ، وتوفي  
 بدمشق ، انتهى .

٣٠٥ - ومنهم الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي ، القرشي ،  
 البسطي ، الشهير بالقلصادي - بفتحات - كما قال السخاوي<sup>١</sup> ، الصالح  
 الرحلة ، المؤلف ، الفرضي ، آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس ،  
 وأكثر تصانيفه في الحساب والفرائض ، كشرحه العجيبين على تلخيص ابن  
 البناء والحوافي ، وكفاه فخراً أن الإمام السنوسي صاحب العقائد أخذ عنه جملة  
 من الفرائض والحساب ، وأجازه جميع مروياته ، وأصله من بسطة ، ثم انتقل  
 إلى غرناطة ، فاستوطنها ، وأخذ بها عن جماعة كابن فتوح والسرقسطي  
 وغيرهما ، ثم ارتحل إلى المشرق ومر بتلمسان فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا  
 ابن مرزوق والقاضي أبي الفضل قاسم العقباني وأبي العباس ابن زاغ وغيرهم ،

١ - ترجمة القلصادي في الضوء اللامع ٥ : ١٤ ونيل الابتهاج : ٢٠٩ (هامش الديباج) وانظر فيه  
 أعلام الزركلي للاطلاع على مصادر أخرى (٥ : ١٦٣) .

ثم ارتحل فلقي بتونس تلامذة ابن عرفة كابن عقاب والقلشاني وحلولو وغيرهم ،  
ثم حج ولقي أعلاماً ، وعاد فاستوطن غرناطة إلى أن حل بوطنه ما حل ،  
فتحيل في خلاصه من الشرك وارتحل ، ومر بتلمسان فترل بها على الكفيف  
ابن مرزوق ابن شيخه ، ثم جدت به الرحلة إلى أن وافته منيته بباجة إفريقية  
منتصف ذي الحجة سنة ١٨٩١ ، وكان كثير المواظبة على الدرس والكتابة  
والتأليف ، ومن تأليفه « أشرف المسالك إلى مذهب مالك » وشرح مختصر  
خليل ، وشرح الرسالة ، وشرح التلقين ، و« هداية الأنام في شرح مختصر  
قواعد الإسلام » وهو شرح مفيد ، وشرح رجز القرطبي ، و« تنبيه الإنسان  
إلى علم الميزان » ، و« المدخل الضروري » ، وشرح إيساغوجي في المنطق ، وله  
شرح الأنوار السنية لابن جزي ، وشرح رجز الشراز في الفرائض الذي أوله :

بمحمد خير الوارثين أبتدي وبالمرّاج النبوي أهتدي

وشرح حكيم ابن عطاء الله ، ورجز أبي عمرو بن منظور في أسماء النبي  
صلى الله عليه وسلم ، وشرح البردة ، ورجز ابن بري ، ورجز شيخه أبي  
إسحاق بن فتوح في النجوم الذي أوله :

سبحان رافع السماء سقفا ناصبها دلالة لا تخفى

وشرح رجز أبي مفرعة ، وله « النصيحة في السياسة العامة والخاصة » ،  
و« هداية النظائر في تحفة الأحكام والأسرار » ، و« كشف الجلباب عن علم  
الحساب » ، و« كشف الأسرار عن علم الغبار » ، و« التبصرة » ، و« قانون  
الحساب » في قدر التلخيص ، وشرحه ، وشرحان على التلخيص كبير وصغير ،  
وشرح ابن الياسمين في الجبر والمقابلة ، ومختصره ، وكتليات الفرائض ، وشرحها ،

وشرحان للتلمسانية كبير وصغير ، وشرح فرائض صالح بن شريف وابن الشاط وفرائض مختصر خليل والتلقين وابن الحاجب ، وله كتاب « الغنية في الفرائض » ، و « غنية النحاة » وشرحها الكبير والصغير ، و « تقريب المواريث » ، و « منتهى العقول البواحث » ، وشرح مختصر العقباني ، ولم يتم ، و « مدخل الطالبين » ، ومختصر مفيد في النحو ، وشرح رجز ابن مالك ، والجرومية ، وجمل الزجاجي ، ومُلححة الحريري ، والخزرجية ، ومختصر في العروض ، وغير ذلك ، وأخذ بمصر عن الحافظ ابن حجر والزين طاهر النويري وأبي القاسم النويري والعلامة الجلال المحلي والتقي الشمني وأبي الفتح المراغي وغيرهم ، حسبما ذكر ذلك في رحلته الشهيرة ، وهي حاوية لشيوخه بالمغرب والمشرق وجملة من أحوالهم ، رحم الله تعالى الجميع .

٣٠٦ - ومنهم أبو عبد الله الراعي ، وهو شمس الدين محمد بن إسماعيل ، الأندلسي الغرناطي<sup>١</sup> ، ولد بها سنة ٧٨٢ تقريباً ، ونشأ بها ، وأخذ الفقه والأصول والعربية عن جماعة ، منهم أبو جعفر أحمد بن إدريس بن سعيد الأندلسي ، وسمع على أبي بكر عبد الله بن محمد بن محمد المعافري ابن الدب ، ويعُرف بابن أبي عامر ، والخطيب أبي عبد الله محمد بن علي بن الحفار ، ومحمد بن عبد الملك بن علي القيسي المنتوري صاحب الفهرسة الكبيرة الشهيرة ، ومما أخذ عنه الجرومية بأخذه لها عن الخطيب أبي جعفر أحمد بن محمد بن سالم الجذامي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي عن مؤلفها أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي عُرِف بابن آجروم ، وجميع « خلاصة الباحثين في حصر حال الوارثين » للقاضي أبي بكر عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصاري بأخذه لها عن مؤلفها ، وأجاز له أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي ، والقاضي

١ ترجمة الراعي في الضوء اللامع ٩ : ٢٠٣ وشدرات الذهب ٧ : ٢٧٨ وبنية الوعاة : ١٠٠ واسمه كاملاً محمد بن محمد بن إسماعيل .

أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباتي ، والعلامة أبو الفضل محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن الإمام ، وعالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني ، وغيرهم من المغاربة ، ومن أشياخه من أهل المشرق الكمال بن خير السكندري ، والزين أبو بكر المراغي ، والزين محمد الطبري ، وأبو إسحاق إبراهيم بن العفيف النابلسي ، في آخرين ، ودخل القاهرة سنة ٨٢٥ فحج واستوطنها ، وسمع بها من الشهاب المتبولي وابن الجزري والحافظ ابن حجر وطائفة ، وأمّ بالمؤيدية وقتاً ، وتصدى للاشتغال ، فانتفع به الناس طبقة بعد أخرى ، لا سيما في العربية ، بل هي كانت فنه الذي اشتهر به وبجودة الإرشاد لها ، وشرح كلاً من الجرومية والألفية والقواعد وغيرها مما حمله عنه الفضلاء ، وله نظم وسط ، قال السخاوي : كتبت عنه منه الكثير ، ومما لم أسمع منه ما أودعه في مقدمة كتاب صنفه في نصره مذهبه وأثبتته دفعاً لشيء نُسب إليه ، فقال :

عليك بتقوى الله ما شئت واتَّبِعْ	أئمةَ دينِ الحقِّ تهْدُ وتَسْعَدُ
فمَالِكُهُم والشافعيُّ وأحمدُ	ونُعْمَانُهُمْ كلُّ إلى الخير يرشُدُ
فتابع لمن أحببت منهم ولا تَمِلْ	لذي الجهلِ والتعصيبِ إن شئت تحمُدُ
فكلُّ سواهُ في وجيبة الاقتدا	مُتَابِعُهُمْ جنّاتِ عدن يخلدُ
وحبُّهم دينٌ يزِينُ وبغضهم	خروجٌ عن الإسلامِ والحقُّ يبعدُ
فلعنة ربِّ العرشِ والخلقِ كلهم	على مَنْ قلاهم والتعصبَ يقصدُ

وكان حادّ اللسان والخلق ، شديد النفرة من الشيخ يحيى العجيسي ، أضر بأخرة ، ومات بسكنه بالصالحية يوم الثلاثاء ٢٧ ذي الحجة سنة ٨٥٣ ، بعد أن أنشد قبيل موته بشهر في حال صحته الشيخ جمال الدين ابن الأمانة من نظمه قوله :

أفكّرُ في موتي وبعد فضيحتي	فيحزنُ قلبي من عظيم خطيبتني
وتبكي دماً عيني وحق لها البكا	على سوء أفعالي وقلة حيلتي

وقد ذابت أكبادي عناء وحسرة  
على بُعد أوطاني وقد أحيني  
فما لي إلا الله أرجوه دائماً  
ولا سيما عند اقتراب مني  
فنسألُ ربي في وفائي مؤمناً  
بجاه رسول الله خير البرية  
قال السخاوي : ومما كتبه عنه :

ألفيته حول المعلم باكياً  
ودموعه قد صاغها من كؤنر  
نشر اللموع على الحدود فخلتها  
دراً تناثر في عقيق أحمر  
وقوله :

عليك بنعمة رب العلاء  
وراع الملوك لرعي الذمم  
وذو العلم فارغ له حقه  
وإلا تفارق وتلق الندم  
فهذا مقالتي فلتسمعوا  
نصيحة خير من أهل الحكم  
إذا كنت في نعمة فارعها  
فإن المعاصي تزيل النعم

وقال ١ :

للغرب فضل شائع لا يُجهل  
ولأهله شرفٌ ودينٌ يكمل  
ظهرت به أعلامٌ حقٌ حققت  
ما قاله خير الأنام المرسل  
مين أنهم حتى القيامة لن يزا  
لوا ظاهرين على الهدى لن يُخذلوا

وممن حدث عن الراعي الحافظ ابن فهد والبرهان البقاعي ، ومن تأليفه  
« شرح القواعد » وكتاب « انتصار الفقير السالك لمذهب الإمام الكبير مالك »  
في كراريس أربعة حسن في موضوعه ، وله « التوازل النحوية » في عشرة  
كراريس أو أكثر وفيها فوائد حسنة وأبحاث راقية ، تكلم معه في بعضها أبو

١ ق : وقوله .



عبد الله ابن العباس التلمساني .

وذكر بعضهم أنه اختصر شرح شيخه ابن مرزوق على مختصر الشيخ خليل من باب القضاء إلى آخر الكتاب ، انتهى .

وجرت له في صغره حكاية دلت على نُبْله ، وهي أنه دخل على الطلبة رجل وهم بجامع غرناطة ، فسألهم عمّن كان وراء إمام ، فحدث للإمام عذر ذهب لأجله ، مثل الرعاف مثلاً ، فصلوا بعض الصلاة لأنفسهم ، ثم اقتدوا بإمام منهم قدموه فيما بقي ، فهل تصح صلاتهم أم لا ؟ فلم يكن عند أحد من الحاضرين فيها علم ، فقال هو : إن الصلاة باطلة ، لأن النحاة يقولون : الإتياعُ بعد القطع لا يجوز .

وقد حكى ذلك في شرحه للجرومية الذي سماه بعنوان الإفادة في باب النعت إذ قال ما نصّه : كنت جالساً بمسجد قيسارية غرناطة أنتظر سيدنا وشيخنا أبا الحسن علي بن سمعة رحمه الله تعالى مع جماعة من كبار طلبته ، وكنت إذ ذاك أصغرهم سنّاً وأقلهم علماً ، فدخل سائل سأل عن مسألة فقهية نصّها : إن إماماً صلى بجماعة جزءاً من صلاة ، ثم غلب عليه الحدث ، فخرج ولم يستخلف عليهم ، فقام كل واحد من الجماعة وصلى وحده جزءاً من الصلاة ، ثم بعد ذلك استخلفوا من أتمّ بهم الصلاة ، فهل تصحّ تلك الصلاة أم لا ؟ فلم يكن فيها عند الحاضرين جواب ، فقلت : أنا أجاب فيها بجواب نحوي ، فقال : هات الجواب ، فقلت : هذا إتياع بعد القطع ، وهو ممتنع عند النحويين ، فصلاة هؤلاء باطلة ، فاستظرفها مني من حضر لصغر سني ، ثم طلبنا النصّ فيها فلم نلقه في ذلك التاريخ ، ولو لقيناه لكان الجواب حسناً ، انتهى .

ومن أغازه قوله .

حاجيتُكم نحاتنا المصريّة • أولي الذكا والعلم والطعمية  
ما كلمات أربع نحويّة • جُمِعن في حرفين للأحجية

يعني فعل الأمر للواحد من « وأى يئي » إذا أضمر ، فإنك تقول فيه :  
« إ » يا زيد على حرف واحد ، وهو الهمزة المقطوعة ، فإذا قلت « قُلْ إ » ونقلت حركته  
على لغة النقل إلى الساكن صار هكذا « قُلِ » فذهب فعل الأمر وفاعله ، فهي  
كلمات أربع فعلا أمر وفاعلهما جُمعن في حرفين القاف واللام ، فافهم .  
وأحسن من هذا قوله ملغزاً في ذلك أيضاً :

في أي لفظٍ يا نحاةَ الملةِ حرَكةٌ قامت مقامَ الجملةِ

وبالجملة فمحاسنه كثيرة ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

ومن فوائده قوله : حكى لي بعض علماء المالكية قال : كنتنا نقرأ المدوثة على  
الشيخ سراج الدين البلقيني الشافعي ، فوقعت مسألة خلافية بين مالك والشافعي ،  
فقال الشيخ في مسألة « مذهبنا كذا » في مسألة لم يقل فيها الشافعي بما قال ، وإنما  
نسبها البلقيني لنفسه ، ثم فطن وخاف أن ينتقد عليه المالكية ويقولوا له : أنت  
شافعي وهذا ليس مذهب الشافعي ، فقال : فإن قلت يا مالكية لسنا بمالكية ،  
وإنما أنتم شافعية ، قلنا : كذلك أنتم قاسمية ، وقد اجتمعنا الكل في مالك ،  
قال : وهذا الكلام حلو حسن في غاية الإنصاف من الشيخ .

قال : ولما قرىء عليه كتاب « الشفاء » مدحه وأثنى عليه إلى الغاية ، وكان  
يحضره جماعة من المالكية فقال القاضي جمال الدين ابنه : ما لكم يا مالكية  
لا تكونون مثل القاضي عياض ؟ فقال له أبوه الشيخ سراج الدين المذكور :  
وما لك لا تقول للشافعية ما لكم يا شافعية لا تكونون مثل القاضي عياض ؟

ومن فوائده الراعي في باب العلكم من شرحه على الألفية : في الكلب عشر  
خصال محمودة ينبغي أن تكون في كل فقير ، لا يزال جائعاً ، وهو من دأب  
الصالحين ، ولا يكون له موضع يُعرف به ، وذلك من علامة المتوكلين ، ولا  
ينام من الليل إلا القليل ، وذلك من صفات المحبين ، وإذا مات لا يكون له  
ميراث ، وذلك من أخلاق الزاهدين ، ولا يهجر صاحبه وإن جفاه وطرده ،

وذلك من شيم المريدين ، ويرضى من الدنيا بأدنى يسير ، وذلك من إشارة القانعين ، وإذا غُلب عن مكانه تركه وانصرف إلى غيره ، وذلك من علامة المتواضعين ، وإذا ضُرب وطُرد ثم دعي أجاب ، وذلك من أخلاق الخاشعين ، وإذا حضر شيء من الأكل وقف ينظر من بعيد ، وذلك من أخلاق المساكين ، وإذا رحل لا يرحل معه بشيء ، وذلك من علامة المتجردين ، انتهى بمعناه .

وقد نسبه للحسن البصري رحمه الله تعالى ورضي عنه بمنه .

ومن تصانيفه رحمه الله تعالى كتاب « الفتح المنير في بعض ما يحتاج إليه الفقير » في غاية الإفادة ، مَلَكَتْهُ بالمغرب ولم أره بهذه البلاد المشرقية ، وحفظت منه فوائد ممتعة .

٣٠٧ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق بعد أخذ جميع بلاد الأندلس - أعادها الله تعالى - قاضي الجماعة بَغْرَنَاطَة أبو عبد الله محمد بن علي ابن محمد بن الأزرق<sup>١</sup> ، قال السخاوي : إنه لازم الأستاذ إبراهيم بن أحمد ابن فتوح مفتي غَرْنَاطَة في النحو والأصلين والمنطق ، بحيث كان جلُّ انتفاعه به ، وحضر مجالس أبي عبد الله محمد بن محمد السَّرْقُسْطِي العالم الزاهد مفتيها أيضاً في الفقه ، ومجالس الخطيب أبي الفرج عبد الله بن أحمد البقفي ، والشهاب قاضي الجماعة بَغْرَنَاطَة أبي العباس أحمد بن أبي يحيى بن شرف التلمساني ، انتهى .

وله رحمه الله تعالى تأليف : منها « بسدائع السلك في طبائع الملك »<sup>٢</sup> كتاب حسن مفيد في موضوعه ، لخص فيه كلام ابن خلدون في مقدمة تاريخه وغيره مع زوائد كثيرة ، ومنها « روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام »

١ ترجمة ابن الأزرق في أزهار الرياض ٣ : ٣١٧ والأنس الجليل ٢ : ٥٩١ ، وكانت وفاته في ذي الحجة من سنة ٨٩٦ .

٢ منه نسختان بخرافة الرباط رقم : D 1340 , D 582 .

مجلد ضخيم فيه فوائد وحكايات لم يؤلف في فنه مثله ، وقفت عليه بتلمسان  
وحفظت منه ما أنشده لبعض أهل عصره مما يكتب في سيف :

إن عمّت الأفق من نقع الوغى سحُبٌ فشمٌ بها بارقاً من لمع إيماضي  
وإن نوت حركات النصر أرض عدى فليس للفتح إلا فعلي الماضي

ومن إنشائه في التأليف المذكور ما صورته : قلت : ولقد كان شيخنا  
العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن فتوح قدس الله تعالى روحه يفسح  
لصاحب البحث مجالاً رحباً ، ويوسع المراجع له قبولاً ورحباً ، بل يطالب  
بذلك ويقتضيه ، ويختار طريق التعليم به ويرتضيه ، توقيفاً على ما خلاص له  
تحقيقه ، ووضح له في معيار الاختيار تدقيقه ، وإلا فقد كان ما يلقيه غاية ما  
يتحصل ، ويتمهد به مختار ما يحفظ ويتأصل ، انتهى .

وهو يدل على ملكته في الإنشاء ، ويحقق ما يحصله ، إلا أن ذلك إذا  
طال حتى وقع الملل والضجر أو كاد فينبغي الإمساك عن البحث ، لئلا يفضي  
الحال إلى ما ينهى عنه .

قال : ومخالفة التلميذ الشيخ في بعض المسائل إذا كان لها وجه وعليها دليل  
قائم يقبله غير الشيخ من العلماء ليس من سوء أدب التلميذ مع الشيخ ، ولكن  
مع ملازمة التوقير الدائم ، والإجلال الملائم ، فقد خالف ابن عباس عمر وعلياً  
وزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنهم ، وكان قد أخذ عنهم ، وخالف كثير  
من التابعين بعض الصحابة ، وإنما أخذوا العلم عنهم ، وخالف مالك كثيراً  
من أشياخه ، وخالف الشافعي وابن القاسم وأشهب مالكا في كثير من المسائل ،  
وكان مالك أكبر أساتيد الشافعي ، وقال : لا أحد أمن علي من مالك ، وكاد  
كل من أخذ العلم أن يخالفه بعض تلامذته في عدة مسائل ، ولم يزل ذلك دأب  
التلاميذ مع الأساتيد إلى زماننا هذا ، وقال : وشاهدنا ذلك في أشياخنا مع  
أشياخهم رحمهم الله تعالى ، قال : ولا ينبغي للشيخ أن يتبرم من هذه المخالفة

إذا كانت على الوجه الذي وصفناه ، والله تعالى أعلم ، انتهى .  
ولما أشد ابنُ الأزرق المذكور في كتابه « روضة الأعلام » قولَ القائل  
في مدح ابنِ عصفور :

نَقَلَ النَحْوَ إِلَيْنَا الدُّوْلِي عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَطَّلِ  
بَدَأَ النَحْوَ عَلِيٌّ وَكَذَا خَتَمَ النَحْوَ ابْنُ عَصْفُورٍ عَلِيٌّ

قال بعده ما نصّه : على أن صاحبنا الكاتب الأديب الأبرع أبا عبد الله محمد  
ابن الأزرق الوادي آشي رحمه الله تعالى قد قال فيما يدافع ابن عصفور عما  
اقتضاه هذا المدح له بتفضيل الأستاذ المحقق أبي الحسن ابن الضائع عليه ، ولقد  
أبدع في ذلك ما شاء لما تضمن من التورية :

بضائعك ابن الضائع الندب قد أتت بحظّ من التحقيق والعلم موفور  
فطرت عقاباً كاسراً أو ما ترى مطارك قد أعيا جناح ابن عصفور  
انتهى .

وقد نقل عن ابن الأزرق صاحب المعيار في جامعه ، وأثنى عليه غير واحد ،  
ومن أعظم تأليفه شرحه الحافل على مختصر خليل المسمى بـ « شفاء الغليل في  
شرح مختصر خليل » وقد توارد معه الشيخ ابن غازي على هذه التسمية ، وكان  
مولانا العم الإمام شيخ الإسلام سيدي سعيد بن أحمد المقرري رضي الله تعالى  
عنه قال لي حين سألته عن هذا التوارد : لعل تسمية ابن الأزرق « شفاء الغليل »  
بالعين ، قلت : يُبعد ذلك أن جماعة من تلامذته الأكابر كالوادي آشي وغيره  
كتبوه بخطوطهم بالعين المعجمة ، فبان أنه من توارد الخواطر ، وأن كلاً منهما  
لم يقف على تسمية الآخر ، والله تعالى أعلم ، وقد رأيت جملة من هذا الشرح  
بتلمسان وذلك نحو ثلاثة مجلدات ، ولا أدري هل أكمله أم لا ، لأن تقديره  
بحسب ما رأيت يكون عشرين مجلداً ، إذ المجلد الأول ما أتم مسائل الصلاة ،

ورأيت الخطبة وحدها في أكثر من كراسة أبان فيها عن علوم ، ولم أر في شروح خليل مع كثرتها مثله . ودخل تلمسان لما استولى العدو على بلاد الأندلس ، ثم ارتحل إلى المشرق ، فدخل مصر ، واستنهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الأندلس ، فكان كمن يطلب بييض الأتوق ، أو الأبيض العقوق . ثم حج ورجع إلى مصر فجدد الكلام في غرضه ، فدافعه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس ، فتولاه بتزاهة وصيانة وطهارة ، ولم تطل مدته هناك حتى توفي به بعد سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، حسبما ذكره صاحب « الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل » فليراجع فإنه طال عهدي به .

ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله في المجبّينات :

وربّ محبوبية تبدّت كأنّها الشمسُ في حلّاهَا  
فاعجب لحال الأنام منّ قد أحبّها منهم قلاها

ومنه قوله رحمه الله تعالى :

عذري في هذا الدخان الذي جاور داري واضح في البيان  
قدّ قلتُ إنّ بها زخرفاً ولا يلي الزخرف إلا الدخان

وقوله :

تأمّلتُ من حُسن الربيعِ نضارةٌ وقد غرّدتْ فوق الغصونِ البلايلُ  
حكّتْ في غصونِ الدّوحِ قسّاً فصاحةٌ لتعلم أن النبتَ في الروضِ باقلُ

وقوله :

وقائلة صف للربيع محاسناً فقلتُ وعندي للكلامِ بدارُ  
همى ببطّاح الأرض صوب من الحيا فلنّبتِ في وجه الزمانِ عذارُ

وقوله :

تَعَجَّبْتُ مِنْ يَانِعِ الْوَرْدِ فِي سَنَا وَجَنَةِ نَبْتِهَا بَارِضُ  
وَلَيْمٌ لَا يُرَى وَرَدَهَا يَانِعاً وَقَدْ سَالَ مِنْ فَوْقِهَا الْعَارِضُ

وقوله رحمه الله تعالى عند وفاة والدته :

تَقُولُ لِي وَدَمَوْعُ الْعَيْنِ وَاكْفَةُ مَا أَفْطَعَ الْبَيْنَ وَالتَّرْحَالَ يَا وَلَدِي  
فَقُلْتُ أَيْنَ السَّرَى قَالَتْ لِرَحْمَةِ مَنْ قَدْ عَزَّ فِي الْمَلِكِ لَمْ يُؤَلِّدْ وَلَمْ يَلِدْ

قال تلميذه الحافظ ابن داود : ممّا ألفتته بخط قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن الأزرق عن علي رضي الله تعالى عنه : من أراد أن يطول الله عمره ، ويظفر بعدوه ، ويصان من فتن الدنيا ، ويوسع عليه باب رزقه ، فليقل هذا التسبيح إذا أصبح ثلاثاً ، وإذا أمسى ثلاثاً : سبحان الله ملء الميزان ، ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضى ، وعدد النعم ، وزنة العرش ، والحمد لله ملء الميزان ، ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضى ، وعدد النعم ، ولا إله إلا الله ملء الميزان ، ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضى ، وعدد النعم ، والله أكبر ملء الميزان ، ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضى ، وعدد النعم ، وزنة العرش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم مثل ذلك ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله مثل ذلك .

قال : وبخطه أيضاً لنيل الرزق وما يراد : يا باسط ، يا جواد ، يا علي في عرشك ، بحق حقك على جميع خلقك ، ابسط [ لي ] رزقك ، وسخر لي خلقك .

وبخطه أيضاً : بسم الله الرحمن الرحيم الدافع المانع الحافظ الحي القيوم القوي القادر الولي الناصر الغالب الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم .

وبخطه أيضاً : يا فتاح ، يا علیم ، يا نور ، يا هادي ، يا حق ، يا مبين ،

افتح لي فتحاً تنور به قلبي ، وتشرح به صدري ، واهدني إلى طريق مرضاه ،  
وبيّن لي أمري ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً .  
انتهى .

وقال رحمه الله تعالى مورياً :

من تكن صنعته الإنشاء لا ينكرُ الرزقَ لأقصى العُمرِ  
ولو استعلى على السبع الدرا ريّ بما في فمه من دُررِ  
فأنا الكاتبُ لكن لو يُبا ع لي العتقُ لكنتُ المشتري

هكذا رأيت نسبتها إليه .

ولنختم ترجمته ، بل والباب جميعاً ، بقوله ، رحمه الله تعالى ، عند نزول  
طاغية النصارى بمرج غرناطة أعادها الله تعالى للإسلام بجاه النبي عليه أفضل  
الصلاة وأزكى السلام :

مَشُوقٌ بِحَيَمَاتِ الْأَجْبَةِ مُوَلَّعٌ تذكّره نَجْدٌ وَتَغْرِيه لَعَلَعُ  
مَوَاضِعِكُمْ يَا لَائِمِينَ عَلَى الْهَوَى فلم يَبْتَقِ لِلْسُلُوانِ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعُ  
وَمَنْ لِي بِقَلْبٍ تَلْتَطِي فِيهِ زَفْرَةٌ وَمَنْ لِي بِجَفْنٍ تَنْهَمِي مِنْهُ أَدْمُعُ  
رُؤْيُوكَ فَارْقَبْ لِلطَّائِفِ مَوْضِعاً وَخَلَّ الَّذِي مِنْ شَرِّهِ يُتَوَقَّعُ  
وَصَبِراً فَإِنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ غَنِيمَةٌ وَيَا فَوْزَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلصَّبْرِ يَرْجِعُ  
وَبَيْتٌ وَائْتِقاً بِاللِّطْفِ مِنْ خَيْرِ رَاحِمٍ فَالطَّافُهُ مِنْ لَمَحَةِ الْعَيْنِ أَسْرَعُ  
وَأِنْ جَاءَ حَظُّبٌ فَانْتَظِرْ فَرَجاً لَهُ فَسَوْفَ تَرَاهُ فِي غَدٍ عَنْكَ يَرْفَعُ  
وَكُن رَاجِعاً لَلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ فليس لنا ، إلا إلى الله ، مرجعُ



## محتويات المجلد الثاني من نفع الطيب

### الباب الخامس

في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق . . .

ومخاطبة أعيان دمشق للمؤلف

٧٠٤ - ٥

٥	عبد الملك بن حبيب السلمي	١
٩	يحيى بن يحيى الليثي	٢
١٢	محمد بن أبي عيسى ، أبو عبد الله	٣
١٥	عتيق بن أحمد الأندلسي	٤
١٥	إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري ، أبو إبراهيم	٥
١٦	منذر بن سعيد البلوطي	٦
٢٢	أبو القاسم ابن فيره بن خلف الرعيني الشاطبي	٧
٢٥	محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري ، أبو بكر	٨
٤٣	محمد بن أبي عامر ابن حجاج الفاققي ، أبو بكر	٩
٤٤	محمد بن محمد بن محمد بن عيسى بن ذي النون ، أبو عبد الله	١٠
٤٥	زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون	١١
٤٦	سوار بن طارق	١٢
٤٧	بقي بن مخلد (انظر رقم : ٢٠٩)	١٣٠
٤٧	قاسم بن أصبغ البياني	١٤
٤٩	قاسم بن ثابت السرقسطي	١٥
٥٠	قاسم بن أحمد اللورقي المرسي ، أبو محمد	١٦

هذه العلامة • تدل على أن الترجمة مكررة .

- ٥٠ . . . . . قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار . . . . . ١٧ -
- ٥١ . . . . . محمد بن إبراهيم بن أسود الفسائي ، أبو بكر . . . . . ١٨ -
- ٥٢ . . . . . محمد بن إبراهيم بن حيون الحجاري ، أبو عبد الله . . . . . ١٩ -
- ٥٢ . . . . . محمد بن إبراهيم بن غالب المالقي ، أبو عبد الله . . . . . ٢٠ -
- ٥٣ . . . . . محمد بن إبراهيم اليقوري . . . . . ٢١ -
- ٥٣ . . . . . محمد بن إبراهيم بن شق الليل الطليطي ، أبو عبد الله . . . . . ٢٢ -
- ٥٤ . . . . . محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الهاشمي ، أبو عبد الله . . . . . ٢٣ -
- ٥٧ . . . . . محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين القرطبي ، أبو عبد الله . . . . . ٢٤ -
- ٥٧ . . . . . محمد بن علي بن خلف التجيبي ، أبو بكر . . . . . ٢٥ -
- ٥٨ . . . . . محمد بن علي بن ياسر الجياني ، أبو بكر . . . . . ٢٦ -
- ٥٨ . . . . . محمد بن علي التجيبي الدهان الغرناطي ، أبو عبد الله . . . . . ٢٧ -
- ٥٨ . . . . . محمد بن علي بن أبي الربيع العثماني ، أبو عمر . . . . . ٢٨ -
- ٥٩ . . . . . محمد بن علي بن محمد بن هذيل البلنسي ، أبو بكر وأبو عبد الله . . . . . ٢٩ -
- ٥٩ . . . . . محمد بن علي البياسي الغرناطي ، أبو عبد الله (أو أبو سلمة) . . . . . ٣٠ -
- ٥٩ . . . . . محمد بن علي بن يحيى الشامي الغرناطي ، أبو عبد الله . . . . . ٣١ -
- ٦٠ . . . . . محمد بن عمار الكلاعي الميورقي ، أبو عبد الله . . . . . ٣٢ -
- ٦٠ . . . . . محمد بن عمر بن الفخار القرطبي الحافظ ، أبو عبد الله . . . . . ٣٣ -
- ٦١ . . . . . محمد بن عمرو بن القرطبي ، أبو عبد الله . . . . . ٣٤ -
- ٦٢ . . . . . محمد بن عيسى بن نجیح المعافري ، أبو عبد الله . . . . . ٣٥ -
- ٦٢ . . . . . محمد بن فطيس الغافقي ، أبو عبد الله . . . . . ٣٦ -
- ٦٢ . . . . . محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار القرطبي ، أبو عبد الله . . . . . ٣٧ -
- ٦٣ . . . . . محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم القرشي النهري ، أبو عبد الله . . . . . ٣٨ -
- ٦٣ . . . . . محمد بن لب الشاطبي ، أبو عبد الله . . . . . ٣٩ -
- ٦٣ . . . . . محمد بن سراقه الشاطبي ، أبو عبد الله . . . . . ٤٠ -
- ٦٥ . . . . . محمد بن محمد بن أحمد الفريشي ، أبو عبد الله . . . . . ٤١ -
- ٦٥ . . . . . محمد بن محمد بن خير بن خير ، أبو عبد الله . . . . . ٤٢ -
- ٦٦ . . . . . محمد بن محمد بن بندار ، ضياء الدين أبو جعفر . . . . . ٤٣ -
- ٦٦ . . . . . محمد بن محرز البلنسي الزهري ، أبو بكر . . . . . ٤٤ -
- ٦٧ . . . . . سليمان بن خلف الباجي ، أبو الوليد . . . . . ٤٥ -
- ٧٠ . . . . . [ ترجمة أبي ذر الهروي ]

- ٧١ . . . . . رجوع إلى القاضي أبي الوليد الباجي .
- ٧٢ . . . . . رجوع إلى الباجي
- ٧٧ . . . . . [ ترجمة ابن حزم الفقيه ]
- ٨٤ . . . . . رجوع إلى القاضي أبي الوليد الباجي
- ٨٥ - ٤٦ - محمد بن الوليد الطرطوشي ، أبو بكر
- ٩٠ - ٤٧ - محمد بن عبد الجبار الطرطوشي
- ٩٠ - ٤٨ - حسين بن محمد بن فيره الصدي ، أبو علي المعروف بابن سكرة .
- ٩٣ - ٤٩ - ابن أبي روح الجزيري .
- ٩٣ - ٥٠ - عمر بن حسن الهوزني ، أبو حفص
- ٩٤ - ٥١ - عثمان بن الحسين ، أبو عمرو أخو ابن دحية
- ٩٥ - ٥٢ - محمد بن القاسم المعروف باشكتهادة ، أبو بكر
- ٩٧ - ٥٣ - محمد بن عبد ربه المالقي ، أبو عبد الله ( انظر رقم : ٦٦ )
- ٩٩ - ٥٤ - عبد المنعم بن عمر بن حسان الجلياني ، أبو محمد ( انظر رقم : ٢٣٨ ، ٢٦٢ )
- ٩٩ - ٥٥ - أبو الخطاب ابن دحية
- ١٠٥ - ٥٦ - خلف بن القاسم الدباغ
- ١٠٥ - ٥٧ - خلف بن سعيد بن المرابط الكلبي
- ١٠٥ - ٥٨ - أمية بن عبد العزيز الإشبيلي ، أبو الصلت
- ١١٠ - ٥٩ - عبد الله بن يحيى بن بهلول السرقسطي ، أبو محمد
- ١١٠ - ٦٠ - أبو عامر التياري
- ١١١ - ٦١ - يوسف بن عتبة الإشبيلي ، أبو الحجاج ( انظر رقم : ٣٠٠ )
- ١١٢ - ٦٢ - ابن مسدي ، محمد بن يوسف بن موسى
- ١١٢ - ٦٣ - الحميدي ، محمد بن فتوح بن عبد الله
- ١١٥ - ٦٤ - الشريشي ، أحمد بن عبد المؤمن ، أبو العباس شارح المقامات
- ١١٦ - ٦٥ - يحيى بن سعدون الأزدي ، أبو بكر
- ١١٨ - ٦٦ - محمد بن عبد ربه ( انظر رقم : ٥٣ )
- ١١٩ - ٦٧ - محمد بن الصفار القرطبي ، أبو عبد الله
- ١٢٠ - ٦٨ - أبو الوليد ابن الجنان ، محمد بن أبي بكر الشاطبي
- ١٢٣ - ٦٩ - أبو محمد القرطبي
- ١٢٤ - ٧٠ - علي بن أحمد القادسي الكناني
- ١٢٤ - ٧١ - أبو عبد الله ابن العطار القرطبي

- [ رسالة للسان الدين في الشفاعة لابن مرزوق الخطيب ]  
 رجع إلى ذكر الرّاحلين من أعلام الأندلسيين .
- ١٢٥ . . . . .  
 ١٢٩ . . . . .  
 ١٢٩ . . . . . ابن القرضي ، عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي ، أبو الوليد  
 ١٣١ . . . . . محمد بن أحمد بن محمد البكري الشريشي ، أبو بكر .  
 ١٣٢ . . . . . ابن المغلس ، عبد العزيز بن أحمد بن السيد ، أبو محمد  
 ١٣٣ . . . . . الحكيم المغربي ، أبو الحكم عبيد الله بن المظفر .  
 ١٣٥ . . . . . أبو عمرو الداني ، عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي .  
 ١٣٦ . . . . . عبد الله بن عيسى بن أبي حبيب ، أبو محمد .  
 ١٣٧ . . . . . أحمد بن علي بن شكر ، أبو العباس .  
 ١٣٧ . . . . . القاسم بن أحمد المريني ، علم الدين .  
 ١٣٧ . . . . . أبو عبد الله ابن أبي الربيع القيسي الفرناطي .  
 ١٣٨ . . . . . محمد بن سعدون بن مرجى العبدري ، أبو عامر .  
 ١٣٩ . . . . . محمد بن سعدون الباجي ، أبو عبد الله .  
 ١٣٩ . . . . . محمد بن سعدون الجزيري ، أبو بكر .  
 ١٤٠ . . . . . محمد بن سعد الأعرج الطليطي ، أبو عبد الله .  
 ١٤٠ . . . . . محمد بن سعيد بن إسحاق الأموي ، أبو عبد الله .  
 ١٤٠ . . . . . محمد بن سعيد بن حسان القرطبي ، أبو عبد الله .  
 ١٤٠ . . . . . محمد بن سليمان المعافري الشاطبي ، أبو عبد الله .  
 ١٤١ . . . . . محمد بن شريح الرعيبي الإشبيلي ، أبو عبد الله .  
 ١٤٢ . . . . . محمد بن صالح الأنصاري المالقي ، أبو عبد الله .  
 ١٤٢ . . . . . محمد بن صالح القحطاني المعافري ، أبو عبد الله ( انظر رقم : ١٠١ ) .  
 ١٤٢ . . . . . محمد بن ظاهر بن علي الخزرجي الداني ، أبو عبد الله .  
 ١٤٣ . . . . . محمد بن بشير بن شراحيل المعافري .  
 ١٤٩ . . . . . محمد بن عيسى بن دينار الغافقي .  
 ١٤٩ . . . . . محمد بن يحيى بن يحيى اللبني .  
 ١٤٩ . . . . . محمد بن مروان بن خطاب ، ابن أبي جمرة .  
 ١٥٠ . . . . . محمد بن أبي علاقة البواب .  
 ١٥٠ . . . . . محمد بن حزم بن بكر التنوخي .  
 ١٥١ . . . . . محمد بن يحيى بن مالك بن عائذ .  
 ١٥١ . . . . . محمد بن عبدون الجبلي العددي .

- ١٥٢ . . . . . محمد بن عبد الرحمن الأزدي ، أبو عبد الله
- ١٥٢ . . . . . محمد بن صالح المعافري ( انظر رقم : ٩٠ )
- ١٥٣ . . . . . محمد بن أحمد الأنصاري السرقسطي ، أبو عبد الله
- ١٥٣ . . . . . محمد بن عيسى بن بقاء الأنصاري ، أبو عبد الله
- ١٥٤ . . . . . محمد بن طاهر بن علي الأنصاري ، أبو عبد الله
- ١٥٤ . . . . . محمد بن أبي سعيد الفرج بن عبد الله البراز
- ١٥٥ . . . . . محمد بن الحسين الميورقي ، أبو بكر
- ١٥٥ . . . . . محمد بن عبد الرحمن بن الطفيل العبدي ، أبو الحسن ابن عزيمة
- ١٥٦ . . . . . محمد بن أحمد بن إبراهيم الخزرجي ، أبو عبد الله
- ١٥٧ . . . . . محمد بن علي بن ياسر الأنصاري ، أبو عبد الله
- ١٥٨ . . . . . ابن سعادة ، محمد بن يوسف ، أبو عبد الله
- ١٦٠ . . . . . محمد بن إبراهيم بن وضاح اللخمي
- ١٦٠ . . . . . محمد بن عبد الرحمن التجيبي ، أبو عبد الله
- ١٦١ . . . . . محيي الدين ابن عربي الحاتمي
- ١٧٠ . . . . . [ سعد الدين ابن الشيخ محيي الدين ]
- ١٧٠ . . . . . [ حكاية عن ابن جزى ]
- ١٧١ . . . . . رجع إلى سعد الدين
- ١٧٣ . . . . . رجع إلى الشيخ محيي الدين
- ١٨٥ . . . . . أبو الحسن الششتري ، علي بن عبد الله النميري
- ١٨٧ . . . . . الحراي ، علي بن أحمد ، أبو الحسن
- ١٩٠ . . . . . أبو العباس المرسي
- ١٩٤ . . . . . أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويين ( انظر رقم : ٢٩٣ )
- ١٩٥ . . . . . ابن عفيف الخزرجي ، علي بن محمد بن يوسف ، أبو الحسن
- ١٩٦ . . . . . ابن سبعين ، أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم
- ٢٠٥ . . . . . [ رجع إلى الششتري ]
- ٢٠٧ . . . . . ابن غصن الإشبيلي ، محمد بن إبراهيم ، أبو عبد الله
- ٢٠٨ . . . . . أحمد بن يوسف الفهري اللبلي ، أبو جعفر
- ٢١٠ . . . . . محمد بن أحمد ، أبو عبد الله ابن فرح القرطبي
- ٢١٢ . . . . . محمد بن أحمد بن حاضر الخزيري
- ٢١٢ . . . . . محمد بن أحمد التجيبي ، أبو القاسم

- ٢١٢ . . . محمد بن أحمد وقيل محمد بن عيسى الخزرجي ، أبو بكر
- ٢١٣ . . . محمد بن أحمد بن فرج الهاشمي ، أبو بكر
- ٢١٤ . . . محمد بن أحمد الزهري ، أبو عبد الله
- ٢١٤ . . . محمد بن أحمد بن عبد الأعلى القرطبي ، أبو عبد الله
- ٢١٥ . . . محمد بن أحمد الباجي ، أبو عبد الله
- ٢١٥ . . . محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتيبي ، أبو عبد الله
- ٢١٦ . . . محمد بن أحمد بن محمد المعافري ، أبو عبد الله
- ٢١٧ . . . محمد بن أحمد بن محمد الظليطي النقاش
- ٢١٧ . . . محمد بن أحمد القيسي القبري ، أبو عبد الله
- ٢١٧ . . . محمد بن أحمد بن محمد بن سجمان ، أبو بكر الوائلي
- ٢١٨ . . . محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القرطبي ، أبو عبد الله
- ٢١٩ . . . محمد بن أحمد بن موسى الواحلي ، أبو عبد الله
- ٢١٩ . . . محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري ، أبو عبد الله
- ٢٢٠ . . . محمد بن أحمد بن نوح الإشبيلي ، أبو عبد الله
- ٢٢٠ . . . محمد بن أسباط المخزومي
- ٢٢٠ . . . محمد بن إسحاق ، ابن السليم
- ٢٢٠ . . . موسى بن بهيج المغربي
- ٢٢١ . . . موسى بن سعادة ، أبو عمران المرسي
- ٢٢٢ . . . عبد الله بن طاهر ، أبو محمد
- ٢٢٢ . . . محمد بن عبد الله بن مالك ، أبو عبد الله ، النحوي
- ٢٢٣ . . . [تعريف بابنه بدر الدين]
- ٢٣٤ . . . محمد بن طاهر القيسي التدميري ، أبو عبد الله
- ٢٣٥ . . . محمد بن عبد الجليل القبيجاطي ، أبو عبد الله
- ٢٣٥ . . . أبو حامد الغرناطي الرحالة
- ٢٣٦ . . . محمد بن عبد السلام القرطبي الحشفي ، أبو عبد الله
- ٢٣٧ . . . محمد بن عبد الملك بن أيمن القرطبي ، أبو عبد الله
- ٢٣٧ . . . محمد بن عبد الملك بن ضيفون القرطبي ، أبو عبد الله
- ٢٣٨ . . . محمد بن عبد الملك الخزرجي القرطبي ، أبو عبد الله
- ٢٣٨ . . . محمد بن عبد الملك ابن السراج ، أبو بكر
- ٢٣٨ . . . محمد بن عبد الله بن أحمد العنسي ، أبو عبد الله

- ٢٣٩ . . . . . محمد بن عبد الله بن الدفاع ، أبو عبد الله . ١٥٤
- ٢٣٩ . . . . . محمد بن عبد الله بن عابد المعافري ، أبو عبد الله . ١٥٥
- ٢٣٩ . . . . . محمد بن عبد الله بن هاجد الأنصاري ، أبو عبد الله . ١٥٦
- ٢٤٠ . . . . . محمد بن عبد الله بن خيرة القرطبي ، أبو الوليد . ١٥٧
- ٢٤١ . . . . . محمد بن عبد الله بن أبي الفضل المرسي ، أبو عبد الله . ١٥٨
- ٢٤٣ . . . . . محمد بن عبد الله النبي ، أبو بكر . ١٥٩
- ٢٤٣ . . . . . محمد بن عبد الله الخولاني ، أبو عبد الله . ١٦٠
- ٢٤٣ . . . . . محمد بن عبد الله اللوشي ، أبو عبد الله . ١٦١
- ٢٤٤ . . . . . محمد بن عيدون العذري ، أبو عبد الله . ١٦٢
- ٢٤٤ . . . . . عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر ، أبو مروان . ١٦٣
- ٢٤٦ . . . . . [ رسالة للفتح في غريق ]
- ٢٤٧ . . . . . رجع إلى بيت بني زهر .
- ٢٥٣ . . . . . يوسف بن إبراهيم الساحلي ، أبو الحجاج . ١٦٤
- ٢٥٤ . . . . . يحيى بن حكم الجياني الملقب بالغزال . ١٦٥
- ٢٦٢ . . . . . علي بن موسى بن سعيد العنسي ، أبو الحسن . ١٦٦
- ٢٩٠ . . . . . [ نقول عن ابن سعيد : ١ - بناء الهودج بروضة مصر ]
- ٢٩٢ . . . . . ٢ - مكين الدولة ابن حديد
- ٢٩٤ . . . . . ٣ - الشهاب التلعفري
- ٢٩٦ . . . . . ٤ - العادل بن أيوب
- ٢٩٩ . . . . . ٥ - المرذغاني
- ٣٠٠ . . . . . ٦ - دفترخوان الدمشقي
- ٣٠١ . . . . . ٧ - الزناطي وابن الريب
- ٣٠٢ . . . . . رجع إلى نظم ابن سعيد .
- ٣١٨ . . . . . [ أبو عبد الله ابن سعيد ]
- ٣٢٠ . . . . . رجع إلى أخبار أبي عبد الله ابن سعيد
- ٣٢٢ . . . . . [ ذكر المستنصر الجففي ]
- ٣٢٨ . . . . . [ مقتبسات من خطبة المغرب ]
- ٣٣٠ . . . . . [ قلعة بني سعيد ]
- ٣٣٠ . . . . . [ أولية بني سعيد ]
- ٣٣١ . . . . . [ شعر لأبي بكر ابن سعيد ]
- ٣٣١ . . . . . [ ترجمة النساني من المغرب ]
- ٣٣٢ . . . . . [ إجازته للتيغاشي رواية المغرب ]

٢٢٢	[ شعر لابن سعيد ]
٢٢٢	[ ترجمة والد ابن سعيد من المغرب ]
٢٢٥	[ محمد بن عبد الملك بن سعيد ]
٢٢٦	[ عبد الملك بن سعيد ]
٢٢٧	[ وصف ابن سعيد للقساط ]
٢٤٤	[ وصف القاهرة ]
٢٥٠	بعض أخبار والد ابن سعيد
٢٥٢	[ وصية ابن سعيد الأب لابنه علي ]
٢٦٢	[ رسالة ابن سعيد الأب لعبد الواحد الموحد ]
٢٦٤	[ من شعر والد ابن سعيد ]
٢٦٦	رجع إلى أبي الحسن ابن سعيد
٣٧٠	١٦٧ - عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد
٣٧٤	١٦٨ - علي بن عبد الله بن حمزة القرطبي ، أبو الحسن
٣٧٤	١٦٩ - محمد بن علي بن يوسف الأنصاري ، أبو عبد الله
٣٧٨	١٧٠ - حميد بن عبد الله بن الحسن القرطبي ، أبو بكر
٣٧٩	١٧١ - اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي
٣٧٩	١٧٢ - محمد بن عبد الرحمن بن علي التجيبي ، أبو عبد الله
٣٧٩	١٧٣ - محمد بن أحمد بن عبد الملك الباجي ، أبو مروان
٣٨٠	١٧٤ - وليد بن بكر بن محمد العمري
٣٨٠	١٧٥ - عيسى بن سليمان بن عبد الملك الرعيبي ، أبو محمد
٣٨١	١٧٦ - سليمان بن أحمد البيني ، أبو الربيع
٣٨١	١٧٧ - أحمد بن يحيى الضبي ، أبو جعفر
٣٨١	١٧٨ - ابن جبير الرحالة ، محمد بن أحمد ، أبو الحسين
٣٨٣	١٧٩ - رفيق ابن جبير ، أحمد بن الحسن القضاعي ، أبو جعفر
٣٨٣	رجع إلى ابن جبير
٣٨٧	[ كلام الوادي آشي في التعليق على وصف ابن جبير لدمشق ]
٣٨٧	رجع إلى كلام ابن جبير
٣٨٩	[ أشعار في وصف دمشق ]
٤٠١	[ تعريف بابن عنين ]
٤٠٤	رجع إلى دمشق
٤٠٦	[ شعر في ذم دمشق ]
٤٠٧	رجع إلى مدح دمشق



- ٤١٢ . . . . . نبذة مما خوطب به المؤلف من علماء الشام وأدبائه .
- ٤٧٠ . . . . . [ رسائل من المغرب ترد للمؤلف ] .
- ٤٨٥ . . . . . رجع إلى ابن جبير .
- ٤٩٤ . . . . . ١٨٠ - أبو عامر ابن عيشون .
- ٤٩٦ . . . . . ١٨١ - عبد الملك بن زيادة الله الطنبلي ، أبو مروان .
- ٤٩٧ . . . . . [ ابن بسام والهجاه ] .
- ٥٠٠ . . . . . [ من خطبة الذخيرة ] .
- ٥٠٢ . . . . . [ الجراوي يهجو قومه ] .
- ٥٠٢ . . . . . رجع إلى ذكر من ارتحل من علماء الأندلس إلى المشرق .
- ٥٠٣ . . . . . ١٨٢ - حبيب بن الوليد بن حبيب المعروف بدحون .
- ٥٠٤ . . . . . ١٨٣ - بهلول بن فتح .
- ٥٠٤ . . . . . ١٨٤ - ثابت بن أحمد بن عبد الولي الشاطبي ، أبو الحسن .
- ٥٠٥ . . . . . ١٨٥ - جعفر بن لب بن ميمون اليحصبي ، أبو أحمد .
- ٥٠٦ . . . . . ١٨٦ - جعفر بن عبد الله بن سيد بونه الخزاعي ، أبو أحمد .
- ٥٠٦ . . . . . ١٨٧ - أبو جعفر النحوي .
- ٥٠٦ . . . . . ١٨٨ - جابر بن أحمد الخزرجي ، أبو الحسن .
- ٥٠٦ . . . . . ١٨٩ - جهور بن خلف المعافري ، أبو الحسن .
- ٥٠٧ . . . . . ١٩٠ - الحسن بن حفص بن الحسن البهراني ، أبو علي .
- ٥٠٧ . . . . . ١٩١ - الحسن بن خلف بن يحيى ، ابن برنجال ، أبو علي .
- ٥٠٨ . . . . . ١٩٢ - الحسن بن إبراهيم بن تقي الحدامي ، أبو علي .
- ٥٠٩ . . . . . ١٩٣ - الحسن بن علي بن الحسن الأنصاري ، أبو علي .
- ٥٠٩ . . . . . ١٩٤ - الحسن بن محمد بن الحسن ، ابن الرهيبيل ، أبو علي .
- ٥١٠ . . . . . ١٩٥ - الحسين بن أحمد بن حي التجيبي .
- ٥١١ . . . . . ١٩٦ - حماد بن الوليد ، أبو يوسف .
- ٥١١ . . . . . ١٩٧ - خلف بن فتح الجبيري ، أبو القاسم .
- ٥١٢ . . . . . ١٩٨ - خلف بن محمد بن خلف الفرناطي ، أبو القاسم .
- ٥١٢ . . . . . ١٩٩ - خلف بن فرج بن خلف بن فحلون القنطري ، أبو القاسم .
- ٥١٢ . . . . . ٢٠٠ - زرارة بن محمد بن زرارة .
- ٥١٢ . . . . . ٢٠١ - طاهر الأندلسي ، أبو الحسين المالقي .
- ٥١٣ . . . . . ٢٠٢ - أبو الطاهر الأندلسي ، اللبي .
- ٥١٣ . . . . . ٢٠٣ - طارق بن موسى بن يعيش المنصفي ، أبو محمد .

- ٢٠٤ - محمد بن إبراهيم بن مزيد الأودي . . . . . ٥١٤
- ٢٠٥ - محمد بن أحمد حياز الشاطبي ، أبو عبد الله . . . . . ٥١٤
- ٢٠٦ - محمد بن أحمد بن عبد الملك بن سماعة اللخمي ، أبو مروان . . . . . ٥١٤
- ٢٠٧ - أحمد بن محمد الواعظ المصري ( الشهير بالزير كناكت ) . . . . . ٥١٦
- ٢٠٨ - إبراهيم بن عبد العزيز الإشبيلي ، زكي الدين أبو إسحاق . . . . . ٥١٧
- ٢٠٩ - بقي بن مخلد بن يزيد ، أبو عبد الرحمن ( انظر رقم : ١٣ ) . . . . . ٥١٨
- ٢١٠ - يوسف بن يحيى الأزدي المغامي . . . . . ٥٢٠
- [ بين ابن خلدون وتيمورلنك ] . . . . . ٥٢١
- ٢١١ - أبو بكر ابن عطية . . . . . ٥٢٣
- [ ترجمة عبد الحق بن عطية ] . . . . . ٥٢٦
- ٢١٢ - أحمد بن فرح ، شهاب الدين أبو العباس . . . . . ٥٢٨
- ٢١٣ - عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر ، أبو الأصمغ . . . . . ٥٣١
- ٢١٤ - الشيخ خالد البلوي ، أبو البقاء ، الرحالة . . . . . ٥٣٢
- ٢١٥ - ابن الحاج النميري ، برهان الدين أبو إسحاق . . . . . ٥٣٤
- ٢١٦ - أبو حيان أثير الدين الجبائي النحوي . . . . . ٥٣٥
- ٢١٧ - حازم بن محمد القرطاجني ، أبو الحسن . . . . . ٥٨٤
- ٢١٨ - ابن الأبار ، محمد عبد الله بن أبي بكر ، أبو عبد الله . . . . . ٥٨٩
- ٢١٩ - ابن مسدي ، جمال الدين محمد بن يوسف ، أبو المكارم . . . . . ٥٩٤
- ٢٢٠ - خلف بن عبد العزيز القبتوري ، أبو القاسم . . . . . ٥٩٥
- ٢٢١ - ابن الرومية ، أحمد بن محمد بن مفرج ، أبو خليل . . . . . ٥٩٦
- ٢٢٢ - أحمد بن عبد السلام الفافقي ، أبو العباس . . . . . ٥٩٨
- ٢٢٣ - ابن وكييل الإقلبيشي ، أحمد بن معد ، أبو العباس . . . . . ٥٩٨
- ٢٢٤ - ابن افرند ، أحمد بن عمر المعافري ، أبو العباس . . . . . ٦٠٠
- ٢٢٥ - أحمد بن عبد الملك الضبي ، أبو جعفر . . . . . ٦٠١
- ٢٢٦ - أبو عمر ابن عات . . . . . ٦٠١
- ٢٢٧ - أحمد بن تميم بن حنون ، أبو العباس . . . . . ٦٠٣
- ٢٢٨ - ابن كوزان ، أحمد بن إبراهيم المخزومي ، أبو جعفر . . . . . ٦٠٣

١ لا يعد من الراحلين وإنما أهله رحلوا من الأندلس وولد هو بتونس .

- ٢٢٩ - أحمد بن محمد بن عياش ، أبو جعفر . . . . . ٦٠٤
- ٢٣٠ - إبراهيم بن عبد الله بن حزم الغافقي ، أبو إسحاق . . . . . ٦٠٤
- ٢٣١ - إبراهيم بن منبه بن عمر الغافقي ، أبو أمية . . . . . ٦٠٥
- ٢٣٢ - أبو القاسم بن فورتش ، إسماعيل بن يحيى السرقسطي . . . . . ٦٠٦
- ٢٣٣ - محمد بن يحيى السرقسطي ( أخوه ) . . . . . ٦٠٦
- ٢٣٤ - إسماعيل بن أحمد القرشي ، أبو الطاهر . . . . . ٦٠٦
- ٢٣٥ - عيسى بن عبد الله التاكرفي ، أبو الروح . . . . . ٦٠٦
- ٢٣٦ - علي بن أحمد بن حمدون ، أبو الحسن . . . . . ٦٠٩
- ٢٣٧ - عبد البر بن فرسان الوادي آشي . . . . . ٦١١
- ٢٣٨ - عبد المنعم بن عمر الفسائي الجلياني ( انظر رقم : ٥٤ ، ٢٦٢ ) . . . . . ٦١٤
- ٢٣٩ - أحمد بن مسعود القرطبي ، أبو العباس . . . . . ٦١٤
- ٢٤٠ - أبو العباس القرطبي ( صاحب المقهم ) . . . . . ٦١٥
- ٢٤١ - ابن سيد بونه ، جعفر بن عبد الله ، أبو أحمد . . . . . ٦١٦
- ٢٤٢ - محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب الخزرجي الشاطبي . . . . . ٦١٦
- ٢٤٣ - محمد بن يحيى الأندلسي اللبسي . . . . . ٦١٧
- ٢٤٤ - أبو عبد الله ابن الحكيم الرندي . . . . . ٦١٨
- ٢٤٥ - عبد العزيز بن هلال اللخمي ، أبو محمد . . . . . ٦٢٦
- ٢٤٦ - أبو بكر ابن العربي الحفيد . . . . . ٦٢٦
- ٢٤٧ - ابن الخراز ، يحيى بن عبد العزيز القرطبي . . . . . ٦٢٧
- ٢٤٨ - جمال الدين الشريشي ، أبو بكر . . . . . ٦٢٧
- ٢٤٩ - أبو بكر ابن محمد بن علي بن ياسر الجياني . . . . . ٦٢٨
- ٢٥٠ - العلاء بن عبد الوهاب بن حزم ، أبو الخطاب . . . . . ٦٢٩
- ٢٥١ - يحيى بن قاسم بن أبي هلال ، أبو زكريا . . . . . ٦٣٠
- ٢٥٢ - يحيى بن مجاهد بن عوانة ، أبو بكر . . . . . ٦٣٠
- ٢٥٣ - محمد بن أحمد بن إبراهيم الصديقي ، أبو بكر . . . . . ٦٣١
- ٢٥٤ - زكريا بن خطاب ، أبو يحيى . . . . . ٦٣٢
- ٢٥٥ - سعد الخير بن محمد البلنسي ، أبو الحسن . . . . . ٦٣٢
- ٢٥٦ - سعيد بن نصر بن خلفون ، أبو عثمان . . . . . ٦٣٣
- ٢٥٧ - سعيد الأعناني ، أبو عثمان . . . . . ٦٣٣
- ٢٥٨ - عبد الرحمن بن خلف الإقلبيشي ، أبو المطرف . . . . . ٦٣٣

- ٢٥٩ - ابن الطحان ، عبد العزيز بن علي ، أبو الأصمغ .
- ٢٦٠ - عبد العزيز بن خلف المعافري ، أبو الأصمغ .
- ٢٦١ - عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة ، أبو محمد .
- ٢٦٢ - عبد المنعم بن عمر الغساني الجلياني ( انظر رقم : ٥٤ ، ٢٣٨ ) .
- ٢٦٣ - عبد الوهاب بن محمد القرطبي ، أبو القاسم .
- ٢٦٤ - عبيد الله ( أو عبد الله ) بن المظفر الباهلي ، أبو الحكم .
- ٢٦٥ - سليمان بن إبراهيم بن صافي ، أبو الربيع .
- ٢٦٦ - طالوت بن عبد الجبار المعافري .
- ٢٦٧ - ابن خروف الأديب القيسي ، علي بن محمد .
- ٢٦٨ - مالك بن مالك الجلياني .
- ٢٦٩ - منصور بن خميس اللخمي ، أبو علي .
- ٢٧٠ - منصور بن لب بن عيسى الأنصاري .
- ٢٧١ - مفرج بن حماد المعافري .
- ٢٧٢ - محب بن الحسين .
- ٢٧٣ - مساعد بن أحمد بن مساعد الأصمغ .
- ٢٧٤ - نصر بن القاسم ، أبو حبيب .
- ٢٧٥ - النعمان بن النعمان المعافري .
- ٢٧٦ - نعم الخلف بن عبد الله الحضرمي .
- ٢٧٧ - ثابت بن المقرج الخثعمي .
- ٢٧٨ - ضمام بن عبد الله .
- ٢٧٩ - ضرغام بن عروة بن أبي فريعة .
- ٢٨٠ - عبد الله بن أبي عامر ( والد المنصور ) .
- ٢٨١ - عبد الله بن حمود الزبيدي أبو محمد .
- ٢٨٢ - عبد الله بن رشيق القرطبي .
- ٢٨٣ - عبد الله بن طلحة ، أبو بكر البابري .
- ٢٨٤ - عبد الله بن محمد بن مرزوق اليحصبي ، أبو محمد .
- ٢٨٥ - عبد الله بن محمد الصريح ، أبو محمد .
- ٢٨٦ - عبد الله بن عيسى الشلبي ، أبو محمد .
- ٢٨٧ - عبد الله بن موسى الأزدي ، أبو محمد .
- ٢٨٨ - عبد الله بن محمد بن سعادة ، أبو محمد .

- ٢٨٩ - عبد الله بن يوسف القضاعي ، أبو محمد .
- ٢٩٠ - أحمد بن عبد الله بن مهاجر الوادي آشي ، شهاب الدين .
- ٢٩١ - أحمد بن صابر القيسي ، أبو جعفر .
- ٢٩٢ - أبو القاسم الباجي ( ابن القاضي أبي الوليد ) .
- ٢٩٣ - إبراهيم بن محمد الساحلي ، أبو إسحاق ( انظر رقم : ١١٧ ) .
- ٢٩٤ - أبو ركوة ، الوليد بن هشام الأموي .
- ٢٩٥ - يحيى بن سليمان الطليطلي ، أبو زكريا .
- ٢٩٦ - يحيى بن عبد الله بن محمد القرطبي ، أبو بكر .
- ٢٩٧ - محمد بن علي بن سلمة الأنصاري ، أبو عبد الله .
- ٢٩٨ - محمد بن علي بن يحيى الغرناطي ، أبو عبد الله .
- ٢٩٩ - نور الدين أبو الحسن المايروقي .
- ٣٠٠ - ابن عتبة الإشبيلي ( انظر رقم : ٦١ ) .
- ٣٠١ - أبو عبد الله ابن جابر الضرير .
- تقاريط على كتاب « نسيم الصبا » .
- ٣٠٢ - أبو جعفر الإلبيري ( رفيق ابن جابر ) .
- أشعار لابن جابر .
- رجع إلى أبي جعفر .
- رجع إلى مقطعات ابن جابر .
- رجع إلى نظم أبي جعفر .
- مقطعات لابن جابر .
- رجع إلى أبي جعفر .
- ٣٠٣ - عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي ، أبو مروان .
- ٣٠٤ - ابن البيطار المالقي .
- ٣٠٥ - القلصادي ، علي بن محمد ، أبو الحسن .
- ٣٠٦ - أبو عبد الله الراعي ، شمس الدين الغرناطي .
- ٣٠٧ - ابن الأزرق صاحب بدائع السلك .





Abu'l-'Abbās A. al-Maqqarī

# NAFH AT-TĪB

II

Edited and Annotated

by

Ihsān 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 10

BEIRUT, Lebanon



# نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ

غَضَنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِيبِ

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد القرني التليساني

حققه

الدكتور احسان عباس

المجلد الثالث

دار صادر

بيروت



نفع الطيب

٣



# الإمام أبو بكر

## الباب السادس

في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق ، المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المشرق ، والأكابر الذين حلوا بجلولهم فيها الجليل منها والمفرق ، والمفتخرين برؤية قُطْرِهَا الموق ، على المُشْتِمِ والمُعْرِقِ

اعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تُحصِر الأعيان منهم ، فضلاً عن غيرهم ، ومنهم من اتخذها وطناً ، وصيرها سَكناً ، إلى أن وافته مَنِيَّتُهُ ، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قُضِيَتْ بالأندلس أَمْنِيَّتُهُ .

١ - فمن الداخلين إلى الأندلس المنيذر الذي يقال إنّه صحابي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن الأبار في التكملة<sup>٢</sup> : المنيذر الإفريقي ، له صحبة ، وسكن<sup>٣</sup> إفريقية ، ودخل الأندلس فيما ذكره عبد الملك بن حبيب ، قاله أبو محمد الرشاطي ، ولم يذكره أحد غيره ، روى عنه أبو عبد الرحمن الحبلي<sup>٤</sup> ، انتهى .

١ ق : رأى النبي .

٢ التكملة : ٧٣١ ، وانظر أيضاً الإصابة ٦ : ١٤٤ .

٣ التكملة : وكان يسكن .

٤ اسمه عبد الله بن يزيد المعافري وكان رجلاً صالحاً فاضلاً بعثه عمر بن عبد العزيز إلى أهل إفريقية =

وأُنكر غير واحد دخول أحد من الصحابة الأندلس .  
 وذكر بعضُ الحفاظِ المنيذر المذكور ، وقال : إنَّه المنيذر اليماني ، وذكر  
 الحجاري أنَّه من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وأنَّه دخل الأندلس مع  
 موسى بن نصير غازياً ، وقال ابن بشكُوَال : يقال فيه المنيذر لكونه من أحداث  
 الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وقد حكى ذلك الرازي ، وذكره ابن عبد البر  
 في كتاب « الاستيعاب في الصحابة »<sup>١</sup> وسمَّاه بالمنيذر الإفريقي ، وقال ابن  
 بشكُوَال : إن ابن عبد البر روى عنه حديثاً سمعه من رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم ، وذكره أبو علي ابن السكن في كتاب الصحابة وقال : روي عنه حديث  
 واحد ، وأرجو أن يكون صحيحاً ، وذكره ابن قانع في معجم الصحابة له .  
 وذكره البخاري في تاريخه الكبير إذ قال : أبو المنيذر صاحب رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم ، وكان قد حدث بإفريقية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
 قال : « مَنْ قَالَ رَضِيْتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 نَبِيًّا ، فَأَنَا الزَّعِيمُ لِأَخْذِنَ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » كذا ذكره البخاري بالكنية ،  
 وهذا الحديث هو الذي رَوَّه عنه لا يُعرف له غيره ، وذكره أبو جعفر أحمد  
 ابن رشد بن في كتاب « مسند الصحابة » له ، فقال : المنيذر اليماني إما من مدَّحج  
 أو غيرها ، وذكر الحديث سواء ، وقد أشرنا فيما سبق إلى المنيذر هذا<sup>٢</sup> .

٢ - ومن التابعين الداخلين الأندلس أميرها موسى بن نصير ، وقد سبق  
 من الكلام عليه ما فيه كفاية<sup>٣</sup> .

= ليقفهم ، وتوفي بالقيروان سنة ١٠٠ هـ (رياض النفوس ١ : ٦٤ - ٦٦) وسُمِّيَ ترجمته  
 في النسخ (رقم : ٥) .

١ انظر الاستيعاب : ١٤٨٥ ، والحديث الذي رواه ابن عبد البر هو الحديث الذي سيورده المؤلف  
 نقلاً عن البخاري ؛ وقد أورده أيضاً فيما سبق ج : ١ ، ص : ٢٧٩ .

٢ انظر ص : ٢٧٩ من المجلد الأول .

٣ راجع ما سبق ج ١ : ٢٦٩ - ٢٨٧ .

٣ - ومن التابعين الداخلين الأندلس حنش الصنعائي<sup>١</sup> . وفي كتاب ابن بشكُوَال قال ابن وضاح : حنش لقب له ، واسمه حسين بن عبد الله ، وكنيته أبو علي ، ويقال : أبو رشدين ، قال ابن بشكُوَال : وهو من صنعاء الشام . وذكره أبو سعيد ابن يونس في تاريخ أهل مصر وإفريقية والأندلس ، فقال : إنّه كان مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وغزّا المغرب مع رفيقه رُوَيْفَع بن ثابت ، وغزا الأندلس مع موسى بن نُصَيْر ، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فأتى به عبد الملك في وثاق فمعا عنه ، وكان أوّل من ولي عُسُور إفريقية في الإسلام ، وتوفي بإفريقية سنة مائة . وذكر ابن يونس عن حنش أنّه كان إذا فرغ من عشاءه وحوادثه وأراد الصلاة من الليل أوقدَ المصباح ، وقرب المصحف وإناء فيه ماء فإذا وجد الثعاس استنشق الماء ، وإذا تعابا في آية نظر في المصحف ، وإذا جاء سائل يستطعم لم يزل يصيح بأهله : أطعموا السائل ، حتى يطعم .

قال ابن حبيب : دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد الله الصنعائي . وهو الذي أشرف على قُرْطُبة من الفج المسمى بفج المائدة ، وأذنّ ، وذلك في غير وقت الأذان ، فقال له أصحابه في ذلك ، فقال : إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلى أن تقوم الساعة ، هكذا ذكره غير واحد ، وقد كشف الغيب خلاف ذلك ، فلعلّ الرواية موضوعة أو مؤولة ، والله تعالى أعلم .

وذكره ابن عساكر في تاريخه ، وطول ترجمته ، وقال : إن صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام ، وليست صنعاء اليمن ، وقد قيل : إنّه لم يرو عن حنش الشاميون ، وإنّما روى عنه المصريون ، وحدث حنش عن عبد الله بن عباس أنّه قال له : إن استطعت أن تلقى الله تعالى وسيفك حليته حديد فافعل .

١ انظر ترجمته في رياض النفوس ١ : ٧٨ ومعالم الإيمان ١ : ١٤٤ وتهذيب ابن عساكر ٥ : ٧  
وابن الفرضي ١ : ١٤٨ والجدوة : ١٨٩ .

وكان عبد الملك بن مروان حين غزا المغرب مع معاوية بن حُديج نزل عليه بإفريقية سنة خمسين ، فحفظ له ذلك ، فعفا عنه حين أتى به في وثاق حين ثار مع ابن الزبير . وسُئِلَ أبو زُرْعَةَ عن حنش فقال : ثقة ، ولم يذكر ابن عساكر أن حنشاً لقب له ، وأن اسمه حسين ، بل اقتصر على اسمه حنش ، ولعله الصواب ، لا ما قاله ابن وضاح ، والله تعالى أعلم<sup>١</sup> .

وفي تاريخ ابن الفرضي أبي الوليد أن حنشاً كان بسرْفُسْطَةَ ، وأنه الذي أسس جامعها ، وبها مات ، وقبره بها معروف عند باب اليهود بغربي المدينة .  
وفي تاريخ ابن بَشْكُوَال أنه أخذ أيضاً قبلة جامع إلبيرة ، وعدلّ وزن قبلة جامع قرطبة الذي هو فخر الأندلس .

٤ - ومن الداخِلين من التابعين للأندلس أبو عبد الله عليّ بن رباح اللخمي<sup>٢</sup> . ذكر ابن يونس في تاريخ مصر أنه ولد سنة خمس عشرة عام اليرموك ، وكان أعور ذهب عينه يوم ذات السّواري في البحر مع عبد الله بن سعد سنة أربع وثلاثين ، وكان يفد لليمانية من أهل مصر على عبد الملك بن مروان ، وكانت له من عبد العزيز بن مروان منزلة ، وهو الذي زَفَّ أم البنين بنت عبد العزيز إلى الوليد بن عبد الملك ، ثم عنت عليه عبد العزيز فأغراه إفريقية ، فلم يزل بإفريقية إلى أن توفّي بها ، ويقال : كانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة . قال ابن بَشْكُوَال : أهل مصر يقولون : عليّ بن رباح ، بفتح العين ، وأما أهل العراق فعليّ ، بضم العين ، وقد سبق هذا الكلام عن ابن معين في الباب الثاني . وقال : وقال ابنه موسى بن عليّ : من قال لي موسى بن عليّ بالتصغير لم أجعله في حلّ .

١ ميز ابن عساكر بين اثنين لقب كل منهما حنش ؛ والثاني منهما اسمه حسين وهو رحبي صنعاني همداني - من صنعاء الشام أيضاً ، ولكنه سكن واسطاً ( ٥ : ٩ ) .  
٢ ترجمة علي بن رباح في ابن الفرضي ١ : ٣٥٤ ورياض النفوس ١ : ٧٧ .



٥ - ومن التابعين الداخلين أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المَعافري الحُبلي<sup>١</sup>. قال ابن بَشْكُوَال : إنّه يروي عن أبي أيّوب الأنصاري وعبد الله ابن عمرو رضي الله تعالى عنهم وغيرهم ، وروى عنه جماعة . وذكر البخاري في تاريخه الكبير أنّه يُعدّ في المصريين ، وذكر ابن يونس في تاريخ المغرب أنّه توفّي بإفريقية سنة مائة ، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً ، رحمه الله تعالى ؛ ويذكر أهل قرطبة أنّه توفّي بقرطبة ، وأنّه دفن بقبليها ، وقبره مشهور يُتبرك به ، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر في ذلك .

٦ - ومن الداخلين من التابعين حِبَّان بن أبي جبلة<sup>٢</sup> . ذكر ابن بَشْكُوَال أنّه مولى قریش ، ويكنى أبا النصر ، وذكره أبو العرب محمد بن تميم في تاريخ إفريقية ، وقال : حدثني فرات بن محمد أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يُفَقِّهُون أهل إفريقية منهم حِبَّان بن أبي جبلة ، روى عن عمرو ابن العاص وعبد الله بن عباس وابن عمر ، رضي الله تعالى عنهم . ويقال : توفّي بإفريقية سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقيل : سنة خمس وعشرين ومائة ، وذكر ابن الفَرَضِي أنّه غزا مع موسى بن نُصَيْر حين افتتح الأندلس حتى انتهى إلى حصن من حصونها يقال له قَرَقَشُونَة فتوفّي به ، قال<sup>٣</sup> : وقال لنا أبو محمد الثغري : بين قَرَقَشُونَة وبِرَشْلُونَة مسافة خمسة وعشرين ميلاً ، وفيها الكنيسة المعظمة عندهم المسماة شنت مرية ، ذكر أن فيها سبع سوارٍ فضة خالصة لم ير الراؤون مثلها لا يحزم الإنسان بذراعيه واحدة منها مع طول مفرط ، هكذا نقله ابن سعيد عمّن ذكر ، والله تعالى أعلم .

١ انظر ترجمة أبي عبد الرحمن الحُبلي في ابن الفرضي ١ : ٢٥٠ ، وابن سعد ٧ : ٥١١ .  
٢ ترجمة حبان في ابن الفرضي ١ : ١٤٦ ورياض النفوس ١ : ٧٣ ومعالم الإيمان ١ : ١٥٨ وتهذيب التهذيب ١ : ١٦٢ .  
٣ لم يرد هذا النص في كتاب ابن الفرضي .

٧ - ومن الداخلين من التابعين فيما ذُكر : المغيرة بن أبي بردة نشيط ابن كنانة العذري<sup>١</sup> . روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، ويروي عنه مالك في موطنه ، وذكره البخاري في تاريخه الكبير ، وفي كتاب الحافظ ابن بشكُوَال أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر فكان موسى بن نُصَيْر يخرج على العساكر .

٨ - ومن التابعين حيوة بن رجاء التميمي<sup>٢</sup> ، ذكر ابن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر وأصحابه ، وأنه من جملة التابعين ، رضي الله تعالى عنهم ، قاله ابن بشكُوَال في مجموعته المترجم بـ « التنبه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين » . قال ابن الأبار : وقد سمعته<sup>٣</sup> من أبي الخطاب ابن واجب ، وسمعه هو منه ، انتهى .

وقال ابن الأبار في موضع آخر ما صورته : رجاء بن حيوة مذكور في الذين دخلوا الأندلس من التابعين ، وفي ذلك عندي نظر ، وما أراه يصح ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

فانظر هذا فإنه سماه رجاء بن حيوة ، وذلك السابق حيوة بن رجاء ، فالله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر في ذلك .

٩ - ومنهم عياض بن عقبة الفهري ، من خيار التابعين ، ذكره ابن حبيب في الأربعة الذين حضروا غنائم الأندلس ، ولم يغلوا .

١٠ - ومنهم عبد الله بن شِماسة الفهري ، ذكر ابن بشكُوَال أنه مصري ، وأن البخاري ذكره في تاريخه .

١ ترجمة المغيرة في رياض النفوس ١ : ٨٠ .

٢ حيوة بن رجاء في التكملة : ٢٨٢ ورجاء بن حيوة في التكملة : ٣٢٢ .

٣ يعني كتاب ابن بشكُوَال المذكور .

١١ - ومنهم عبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ،  
جدّه عبد الرحمن أحد العشرة رضي الله تعالى عنهم ، وهو ممن ذكره ابن  
بشكوال في الأربعة من التابعين الذين لم يغلوا .

١٢ - ومنهم منصور بن حزامة ، فيما يذكر ؛ قال ابن بشكوال : قرأت  
في كتاب روايات الشيخ أبي عبد الله ابن عابد الراوية رحمه الله تعالى قال : وممن  
دخل الأندلس من المعمّرين ما وجدت بخطّ المستنصر بالله الحكيم بن عبد الرحمن  
الناصر رضي الله تعالى عنه في بعض كتبه المختزنة أنّه قال : طرأ علينا رجل أسود  
من ناحية السودان في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، فذكر أنّه منصور بن حزامة  
مولى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وكان يزعم أنّه أدرك أيام عثمان بن  
عقان رضي الله تعالى عنه ، وأنّه كان مراهقاً ، وكان مع عائشة رضي الله تعالى  
عنها يوم الحمل ، وأنّه شهد صِفِّينَ ، وأن حزامة أعتقه رسول الله صلى الله  
عليه وسلّم ، وخرج عن الأندلس في سنة ثلاثين وثلاثمائة إلى المغرب ، انتهى .  
قلت : هذا كلّه لا أصل له ، ويرحم الله تعالى حافظ الإسلام ابن حجر حيث  
كتب على هذا الكلام ما صورته : هذا هذيان لا أصل له ، ولا يفتّر به ،  
وكذلك ترجمة أشج الغرب اتفق الحفاظ على كذبه ، انتهى .

قلت : وما هو إلا من نمط عكراش ، والله تعالى يحفظنا من سماع الأباطيل  
بمنه . ومن هذه الأكاذيب ما يذكرون عن أبي الحسن علي بن عثمان بن خطاب ،  
وأنّه يُعرف بأبي الدنيا ، وأنّه كان مُعَمَّرًا مشهوراً بصحبة علي بن أبي طالب ،  
كرم الله وجهه ، وأنّه رأى جماعة من كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم ،  
ووصفهم بصفاتهم ، وأنّه رأى عائشة رضي الله تعالى عنها فيما زعم ، وقدم  
قُرْطُبَةَ على المستنصر الحكيم بن الناصر وهو ولي عهد ، وسأله أبو بكر ابن  
القوطية عن مغازي علي وكتبها عنه ، وقد ذكره ابنُ بَشْكَوَالٍ وغيره في  
كتبهم وتواريخهم ، فقد ذكر الثقات العارفون بالفن أنّه كذاب دجال مائن

جاهل ، فإيّاك والاعترار بمثل ذلك ممّا يوجد في كتب كثير من المؤرخين  
بالمشرق والأندلس ، ولا يلتفت إلى قول تميم بن محمد التميمي : إنّه كان إذ  
لقيه ابن ثلاثمائة سنة وخمس سنين ، قال تميم : واتصلت بنا وفاته ببلده في نحو  
سنة عشرين وثلاثمائة ، وبالجملة فلا أصل له ، وإنّما ذكرناه للتنبية عليه .

وقد عرفت بما ذكرناه التابعين الداخلين الأندلس ، على أن التحقيق أنهم  
لم يبلغوا ذلك العدد ، وإنّما هم نحو خمسة أو أربعة كما ألعنا به في غير هذا  
الموضع <sup>١</sup> ، والله تعالى أعلم .

١٣ - ومن الداخلين إلى الأندلس مُغِيثُ فاتح قرطبة ، وقد  
تقدم بعض الكلام عليه ، وذكر ابن حيّان والحجاري أنّه رومي ، زاد الحجاري :  
وليس برومي على الحقيقة ؛ وتصحيح نسبه أنّه مغيث بن الحارث بن الحويرث  
ابن جبلة بن الأيهم الغساني ، سُبِي من الروم بالمشرق وهو صغير ، فأدبه  
عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد ، وأنجب في الولادة ، وصار منه بنو مغيث  
الذين نجبوا في قرطبة ، وسادوا وعظم بيتهم ، وتفرعت دَوْحَتُهُمْ ، وكان منهم  
عبد الرحمن بن مُغِيثِ حاجب عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس وغيره .  
ونشأ مغيث بدمشق ، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها ، وجاز على ما في طريقها  
من البلاد إلى الشام ، وقدمه طارق لفتح قُرْطُبة ففتحها ووقع بينه وبين طارق  
ثم وقع بينه وبين موسى بن نُصَيْرِ سيد طارق ، فرحل معهما إلى دمشق ثم  
عاد ظافراً عليهما إلى الأندلس ، وأنسلَ بقرطبة البيت المذكور ؛ وفي  
« المسهب » أنّه فتح قرطبة في شوال سنة ٩٢ ، ثم فتح الكنيسة التي تحصّن بها  
ملك قرطبة بعد حصار ثلاثة أشهر في محرم سنة ٩٣ ، ولم يذكر له مولداً ولا وفاة .  
وذكر الحجاري أنّه تأدب بدمشق مع بني عبد الملك فأفصح بالعربية ، وصار  
يقول من الشعر والنثر ما يجوز كتّبه ، وتدرّب على الركوب ، وأخذ نفسه بالإقدام

١ انظر ما تقدم ج : ١ ، ص : ٢٨٧ .

في مضايق الحروب ، حتى تخرّج في ذلك تخرّجاً أهله للتقدم على الجيش الذي فتح قرطبة ، وكان مشهوراً بحسن الرأي والكيّف ، وقد قدمنا كيفية فتحه قرطبة وأسر ملكها الذي لم يؤسّر من ملوك الأندلس غيره ، لأن منهم من عقد على نفسه أماناً ، ومنهم من فدّر إلى جليقية .

وذكر الحِجاري أنّه لما حصل بيده ملك قرطبة وحرّبه رأى فيهن جارية كأنّها بينهن بدر بين نجوم ، وهي تكرر التعرض له بجمالها ، فوكل بها من عرض عليها العذاب إن لم تُقِرّ بما عزمت عليه في شأن مغيث ، وأنّه قد فطن من كثرة تعرضها له بحسنها لما أضمرته من المكر في شأنه ، فأقرت أنها أكثر التعرض لتقع بقلبه ، إذ حُسِنَتْ فتان ، وقد أعدت له خرقة مسمومة لتمسح بها ذكره عند وقاعها ، فحمد الله تعالى على ما أهداه إليه من مكرها ، وقال : لو كانت نفس هذه الجارية في صدر أبيها ما أخذت قرطبة من ليلة . وذكر أن سليمان بن عبد الملك لما أصغى إلى طارق في شأن سيده موسى بن نصير فعذبه واستصغى أمواله أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق ، وكان مغيث قد تغير عليه ، فاستشار سليمان مغيثاً في تولية طارق ، وقال له : كيف أمره بالأندلس ؟ فقال : لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءوا لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان ، وبدا له في ولايته ، فلقبه بعد ذلك طارق ، فقال له : ليتك وصفت أهل الأندلس بعصبياني ، ولم تضمر في الطاعة ما أضمرت ، فقال مغيث : ليتك تركت لي العليج فتركت لك الأندلس ، وكان طارق قد أراد أن يأخذ منه ملك قرطبة الذي حصل في يده ، فلم يمكنه منه ، فأغرى به سيده موسى بن نصير ، وقال له : يرجع إلى دمشق وفي يده عظيم من عظماء الأندلس ، وليس في أيدينا مثله ، فأبي فضل يكون لنا عليه ؟ فطلبه منه ، فامتنع من تسليمه ؛ قال ابن حيّان : فهجم موسى على العليج وانتزعه من مغيث ، فقيل له : إن سرت به معك حيّاً ادعاه مغيث والعلج لا ينكر ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فاضطغنها عليه مغيث ، وبالغ

في أذيتته عند سليمان .

وذكر الحجاري في « المسهب » أن لمغيث من الشعر ما يجوز كتبه ، فمن ذلك شعر خاطب به موسى بن نصير ومولاه طارقاً ويكفي منه هنا قوله :

أَعْتَبْتُكُمْ وَلَكِنْ مَا وَفَيْتُمْ<sup>١</sup> فسوف أعيثُ في غربٍ وشرقٍ

وعنوان طبخته في النثر أن موسى بن نصير قال له وقد عارضه بكلام في محفل من الناس : كفَّ لسانك ، فقال : لساني كالمفصل ، ما أكفّه إلا حيث يقتل<sup>١</sup> . وأضافه ابن حيّان والحجاري إلى ولاء الوليد بن عبد الملك ، وهو الذي وجهه إلى الأندلس غازياً ففتح قرطبة ، ثم عاد إلى المشرق ، فأعاد الوليد رسولاً عنه إلى موسى بن نصير يستحثه على القدوم عليه ، فوفد معه ، فوجدوا الوليد قد مات ، فخدم بعده سليمان بن عبد الملك .

١٤ - ١٥ - ومن الداخلين أيّوب<sup>٢</sup> بن حبيب اللخمي . ذكر ابن حيان أنّه ابن أخت موسى بن نصير ، وأن أهل إشبيلية قدّموه على سلطان الأندلس بعد قتل عبد العزيز بن موسى ، واتفقوا في أيامه على تحويل السلطان من إشبيلية إلى قرطبة ، فدخل إليها بهم ، وكان قيامه بأمرهم ستة أشهر ، وقيل : إن الذي نقل السلطنة من إشبيلية إلى قرطبة الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي .

قال الرازي : قدم الحرّ والياً على الأندلس في ذي الحجة سنة سبع وتسعين ومعه أربعمائة رجل من وجوه إفريقية ، فمنهم أول طوابع الأندلس المعدودين ، وقال ابن بشكّو<sup>٣</sup> : كانت مدّة الحرّ سنتين وثمانية أشهر ، وكانت ولايته بعد قيام أيّوب بن حبيب اللخمي .

١٦ - ٢٦ - ومن الداخلين السّمحُ بن مالك الخولاني ، ولي الأندلس

١ ق ودوزي : ساكفه إلا حيث يقبل .

٢ ق : أبو أيّوب ؛ وانظر أخبار مجموعة : ٢١ .

بعد الحر بن عبد الرحمن السابق ، قال ابن حيان : ولآه عمر بن عبد العزيز ، وأوصاه أن يُخَمَّسَ من أرض الأندلس ما كان عَسْوَةَ ، ويكتب إليه بصفتها وأنهارها وبحارها ، قال : وكان من رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم وبعُدِهِم عن أهل كلمتهم ، قال : ولت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بَوارٍ إلا أن يستنقذهم الله تعالى برحمته<sup>١</sup> .

وذكر ابن حيان أن قدوم السَّمْح كان في رمضان سنة مائة ، وأنه الذي بنى قنطرة قَرْطُبَةَ بعدما استأذن عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله تعالى ، وكانت دار سلطانه قَرْطُبَةَ . قال ابن بَشْكُوَال : استشهد بأرض الفرنجة يوم التروية سنة اثنتين ومائة .

قال ابن حيان : كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر ، وذكر أنه قُتِلَ في الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البَلَاط<sup>٢</sup> ، وكانت جنود الإفرنجية قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين ، فلم يَنجُ من المسلمين أحد ، قال ابن حَيَّان : فيقال : إن الأذان يُسَمع بذلك الموضع إلى الآن .

وقدَّمَ أهل الأندلس على أنفسهم بعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . وذكر ابن بَشْكُوَال أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس ، وأنه يروي عن عبد الله بن عمر ، رضي الله تعالى عنهما ؛ قال : وكانت ولايته للأندلس في حدود العشر ومائة من قِبل عبيدة بن عبد الرحمن القَيْسِي صاحب إفريقية ، واستشهد في قتال العدو بالأندلس سنة خمس عشرة ، انتهى .

وفيه مخالفة لما سبق أنه ولي بعد السَّمْح ، وأن السَّمْح قُتِلَ سنة ١٠٢ ، وهذا يقول تولى سنة ١١٠ ، فأين ذا من ذلك ؟ والله تعالى أعلم .

١ أورد هذا صاحب أخبار مجموعة : ٢٣ وابن القوطية : ٣٩ وابن عذاري ٢ : ٢٦ .  
٢ المرجح أن السَّمْح بن مالك واصل تقدمه وراء جبال البرتات حتى شارف طولوشة (Tolosa) وهناك دارت معركة بينه وبين دوقها أسفرت عن مقتله ؛ وهذا يتعارض مع قول صاحب أخبار مجموعة « فعزل بشر السَّمْح بن مالك وولى عنبسة بن سحيم . . . » (ص ٢٤) .

ووصفه الحُمَيْدِي بِحَسَنِ السَّيْرَةِ وَالْعَدْلِ فِي قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ<sup>١</sup> ، وَذَكَرَ الْحِجَارِيُّ أَنَّهُ وَلِيَ الْأَنْدَلُسَ مَرَّتَيْنِ ، وَرَبَّمَا يَجَابُ بِهَذَا عَنِ الْإِشْكَالِ الَّذِي قَدِمْنَا قَرِيباً<sup>٢</sup> ، وَيُضَعِّفُهُ أَنَّ ابْنَ حِيَانَ قَالَ : دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ حِينَ وَلِيَهَا الْوَلَايَةَ الثَّانِيَةَ مِنْ قَبْلِ ابْنِ الْحِجَابِ فِي صَفَرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ وَمِائَةٍ ، وَغَزَا الْإِفْرَنْجَ فَكَانَتْ لَهُ فِيهِمْ وَقَائِعٌ جَمَّةٌ إِلَى أَنْ اسْتَشْهَدَ ، وَأَصِيبَ عَسْكَرُهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ١١٤ ، فِي مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِبِلَاطِ الشَّهْدَاءِ .

قَالَ ابْنُ بَشْكُوَالٍ : وَتُعْرَفُ غَزْوَتُهُ هَذِهِ بِغَزْوَةِ الْبِلَاطِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا فِي غَزْوَةِ السَّمْحِ ، فَكَانَتْ وَلايَتُهُ سَنَةَ وَثْمَانِيَةَ أَشْهُرَ ، وَفِي رِوَايَةٍ سَتَيْنِ وَثْمَانِيَةَ أَشْهُرَ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَكَانَ سَرِيرَ سُلْطَانِهِ حَضْرَةَ قَرْطَبَةَ .

وَوَلِيَ الْأَنْدَلُسَ بَعْدَهُ عَنبَسَةَ بْنُ سُوْحَيْمِ الْكَلْبِيِّ<sup>٣</sup> ، وَذَكَرَ ابْنُ حِيَانَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْيَأْمَانِيَّ مِنْ قَبْلِ يَزِيدِ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ كَاتِبِ الْحِجَابِ حِينَ كَانَ صَاحِبَ إِفْرِيقِيَّةِ ، وَكَانَ قَدُومُهُ الْأَنْدَلُسَ فِي صَفَرِ سَنَةِ ١٠٣ ، فَتَأَخَّرَ بِقَدُومِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُتَقَدِّمُ الذِّكْرَ ، قَالَ ابْنُ بَشْكُوَالٍ : فَاسْتَقَامَتْ بِهِ الْأَنْدَلُسَ ، وَضَبَطَ أَمْرَهَا ، وَغَزَا بِنَفْسِهِ إِلَى أَرْضِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَتَوَفِّيَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ ١٠٧<sup>٤</sup> ، فَكَانَتْ وَلايَتُهُ أَرْبَعَةَ أَعْوَامٍ وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرَ ، وَقِيلَ : ثَمَانِيَةَ أَشْهُرَ .

١ انظر الجذوة : ٢٥٥ - ٢٥٦ .

٢ هذا حقاً يزيل الإشكال الذي أشار إليه ؛ ذلك أن عبد الرحمن النافقي أنقذ بقية الجند بعد مقتل السمح فولاه الجند أمر الأندلس سنة ١٠٢ حتى يقدم وال جديد ، فلما وصل عنبة بن سحيم الكلبي أخذ الولاية من يده ، ثم عاد عبد الرحمن إلى ولاية الأندلس في حدود ١١٢ هـ . وهذا لا يتعارض مع قول ابن حيان وإنما يتعارض مع قول ابن بشكوال إنه تولى في حدود سنة ١١٠ هـ . وقد سها ابن بشكوال عن أن بين عنبة وعبد الرحمن والياً هو عذرة بن عبد الله الفهري .

٣ يريد بعد ولاية عبد الرحمن الأولى .

٤ انظر فجر الأندلس حيث وصف المؤلف استمرار عنبة في الغزو حتى سنة ١١٢ (ص ٢٤٧) ثم ذكر (ص ٢٥٤) أن عنبة أصيب بجراح بالغة توفي على أثرها سنة ١٠٧ هـ ؛ ولعل هذا بسبب اضطراب المصادر القديمة نفسها في ترتيب ولاية الأندلس .



وذكر ابن حيان أنه في أيامه قام بجليقية عِلْجٌ خبيث يدعى بلاي<sup>١</sup> ، فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثار ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عمّا بقي بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطعمون في ذلك ، وقيل : إنّه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تُفتح إلا الصخرة التي لاذ بها هذا العِلْجُ ومات أصحابه جوعاً إلى أن بقي في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش إلا من عسل النحل في جباح<sup>٢</sup> معهم في خروق الصخرة ، وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيا المسلمين أمرهم ، واحتقروهم ، وقالوا : ثلاثون عِلْجاً ما عسى أن يجيء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك في القوة والكثرة والاستيلاء ما لا يخفاء به . وملك بعده أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السّمة .

قال ابن سعيد : قال احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقب مَنْ كان فيها المدن العظيمة ، حتى إن حضرة قُرْطُبة في يدهم الآن ، جبرها الله تعالى ، وهي كانت سرير السلطنة لعنيسة . اهـ .

قال ابن حيان والحجاري : إنّه لما استشهد عنيسة قدّم أهل الأندلس عليهم عُدرة<sup>٣</sup> بن عبد الله الفهري ، ولم يعدّه ابن بشكوال في سلاطين الأندلس ، بل قال : ثم تابعت ولاة الأندلس مرسلين من قبل صاحب إفريقية : أولهم يحيى بن سلمة ، وذكر الحجاري أن عُدرة كان من صلحائهم وفرسانهم ، وصار لعقبه نباهة ،

١ سيمود المقرئ إلى ذكر « بلاي » في أول الباب الثامن من القسم الأول ؛ وانظر كذلك أخبار مجموعة : ٦١ وابن عذاري ٢ : ٢٩ ؛ وقد أسهب الدكتور مؤنس (فجر الأندلس ٣١٣ - ٣٤٣) في توضيح أمر بلاي هذا (Pelayo وباللاتينية : Pelagius) بدراسة الروايات العربية والإسبانية .  
٢ كذلك وردت هذه اللفظة في أخبار مجموعة : ٢٨ والمقصود بها « الخلايا » ؛ انظر ملحق المعاجم لدوزي : « جيج » .  
٣ ق ودوزي : عزرة .

وولده هشام بن عذرة هو الذي استولى على طليطلة قصبة الأندلس ، وفي عقبه  
بوادي آش من مملكة غرناطة نباهة وأدب ، قال ابن سعيد : وهم إلى الآن  
ذوو بيت مؤصل ، ومجد مؤثل ، وكان سرير سلطنة عذرة قرطبة .

وولي بعده يحيى بن سلمة الكلبي ، قال ابن بشكوال : أنفذه إلى الأندلس  
بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقية إذ استدعى منه أهلها والياً بعد مقتل أميرهم  
عنبسة ، فقدمها في شوال سنة سبع ومائة ، وأقام عليها سنة وستة أشهر لم يغر  
فيها بنفسه غزوةً — ونحوه لابن حيان — وكان سريره قرطبة .

وتولى بعده عثمان بن أبي نِسْعَةَ الخثعمي ، وذكر ابن بشكوال : أنه  
قدم عليها والياً من قبيل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب إفريقية في شعبان  
سنة عشر ومائة ، ثم عُرِلَ سريعاً بعد خمسة أشهر ، وكان سرير سلطانه بقرطبة .  
وولي بعده حذيفة بن الأحوص القيسي ، قال ابن بشكوال : وأتى إليها  
والياً من قبيل عبيدة المذكور ، على اختلاف فيه وفي ابن أبي نِسْعَةَ أيهما تولى  
قبل صاحبه ، وكان قدوم حذيفة في ربيع الأول سنة عشر ومائة ، وعُرِلَ عنها  
سريعاً أيضاً ، وقيل : إن ولايته استتمت سنة ، وكان بقرطبة .

وولي بعده الأندلس الهيثم بن عدي الكلابي ، قال ابن بشكوال : ولأه  
عبيدة المذكور فوافى الأندلس في المحرم سنة إحدى عشرة ومائة ، وقيل :  
إنه ولي سنتين وأياماً ، وقد قيل : أربعة أشهر ، وكان بقرطبة .

وولي بعده محمد بن عبد الله الأشجعي ، قال ابن بشكوال : قدمه الناس  
عليهم ، وكان فاضلاً فصلى بهم شهرين . قال : ثم قدم عليهم والياً عبد الرحمن  
ابن عبد الله الغافقي الذي تقدمت ترجمته ، وذكرت ولايته الأولى للأندلس ،  
وليها من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية إلى أن استشهد كما تقدم .  
وولي الأندلس بعده عبد الملك بن قطن الفهري ، وذكر الحجاري أن من  
نسله بني القاسم أصحاب البونت وبني الجدا أعيان إشبيلية ، قال ابن بشكوال :  
قدم الأندلس في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومائة فكانت مدة ولايته عامين ،

وقيل : أربع سنين ، ثم عُرِّل عنها ذميماً في شهر رمضان سنة ست عشرة ومائة ، قال : وكان ظلُّوماً في سيرته ، جائراً في حكومته ، وغزاً أرض البشكنس فأوقع بهم . وذكر ابن بَشْكُوَال أنه لما عزل وولي عقبه بن الحجاج وَتَبَ ابن قَطَنَ عليه فخلعه ، لا أدري أقتله أم أخرجه ، وملك الأندلس بقية إحدى وعشرين ومائة إلى أن رحل بلج بن بشر بأهل الشام إلى الأندلس ، فغلبه عليها ، وقتل عبد الملك بن قَطَنَ ، وصُلب في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة بعد ولاية بلج بعشرة أشهر ، وصُلب بصحراء رَبَضِ قُرْطُبَةَ بعدُوةِ النهر حيال رأس القنطرة ، وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً ، وأقام سِلْوَه على جذعه إلى أن سرقه مواله بالليل وغيَّبوه ، فكان المكان بعد ذلك يُعرف بِمَصْلَبِ ابن قَطَنَ . فلما ولي ابن عمّه يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي استأذنه ابنه أمية بن عبد الملك ، وبنى فيه مسجداً نُسب إليه ، فقيل : مسجد أمية ، وانقطع عنه اسم المصلب ، وكان سن عبد الملك عند مقتله نحو التسعين . وذكر ابن بشكوال أن عقبه بن الحجاج السلوي ولآه عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية الأندلس ودخلها سنة سبع عشرة ومائة ، وقيل : في السنة التي قبلها ، فأقام بها سنين محمود السيرة ، مثابراً على الجهاد ، مفتحاً للبلاد ، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة وصار رباطهم على نهر رودنة<sup>١</sup> ، فأقام عقبه بالأندلس سنة إحدى وعشرين ومائة ، وكان قد اتخذ بأقصى نجر الأندلس الأعلى مدينة يقال لها أربونة كان يتزها للجهاد ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويُبَيِّنَ له عيوب دينه ، فأسلم على يده ألفاً رجل ، وكانت ولايته خمس سنين وشهرين ، قال الرازي : فثار أهل الأندلس بعقبه ، فخلعوه في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام ابن عبد الملك ، وولوا على أنفسهم عبد الملك بن قَطَنَ ، وهي ولايته الثانية ،

١ قد : رودنة - حيثما وقع - وقد صوبناه فيما سبق ؛ والإدريسي يكتبه رودنو (يعني نهر الرون) ؛ وفي بعض المصادر «ردانه» .

فكانت ولاية عقبة الأندلس ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفي في صفر سنة ١٢٣ ، وسريه قرطبة .

٢٧ - ٣١ - ومن الداخلين إلى الأندلس بلج بن بشر بن عياض القشيري . قال ابن حيان : لما انتهى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصى والأندلس وخلصهم لطاعته وعيَّثهم في الأرض شقَّ عليه فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن إفريقية ، وولى عليها كلثوم ابن عياض القشيري ، ووجهه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم ، كان فيه مع ما انضاف إليه من جيوش البلاد التي صار عليها سبعون ألفاً ؛ ومع ذلك فإنه لما تلاقى مع ميسرة البربري المدعي للخلافة هزمه ميسرة وجرح كلثوم ولاذ بسبته ، وكان بلج ابن أخيه معه ، فقامت قيامة هشام لما سمع بما جرى عليه ، فوجه لهم حنظلة بن صفوان فأوقع بالبربر ففتح الله تعالى على يديه . ولما اشتدَّ حصار بلج وعمه كلثوم ومن معهما من فلَّ أهل الشام بسببته وانقطعت عنهم الأقوات وبلغوا من الجهد إلى الغاية استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس ، فتناقل عنهم صاحب الأندلس عبد الملك بن قطنٍ لخوفه على سلطانه منهم ، فلما شاع خبر ضرهم عند رجال العرب أشفقوا عليهم ، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرةً أمسكا من أرقامهم ، فلما بلغ ذلك عبد الملك ابن قطنٍ ضربته سبعمائة سوط ، ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه ، فسمل عينيه ، ثم ضرب عنقه ، وصلبه وصلب عن يساره كلباً ، واتفق في هذا الوقت أن برابر الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابر العدو على العرب انتقضوا على عرب الأندلس ، واتفقوا بما فعله إخوانهم ، ونصبوا عليهم إماماً ، فكثروا إيقاعهم بجيوش ابن قطنٍ ، واستفحل أمرهم ، فخاف ابن قطنٍ أن يلقي منهم ما لقي العرب ببر العدو من إخوانهم ، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده ، فلم ير أجدى من الاستعداد بصعاليك عرب الشام أصحاب بلج الموتورين ، فكتب

بلج وقد مات عمه كلثوم في ذلك الوقت ، فأسرعوا إلى إجابته ، وكانت  
 أمّيتهم ، فأحسن إليهم ، وأسبغ النعم عليهم ، وشرط عليهم أن يأخذ منهم  
 رهائن ، فإذا فرغوا له من البربر جهزهم<sup>١</sup> إلى إفريقية ، وخرجوا له عن أندلسه ،  
 فرضوا بذلك ، وعاهدوه عليه ، فقدّم عليهم وعلى جنده ابنه قطناً وأمّية ،  
 والبربر في جموع لا يحصيها غير رازقها ، فاقتتلوا قتالاً صعباً فيه المقام ،  
 إلى أن كانت الدائرة على البربر ، فقتلتهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا  
 فلّسهم بالثغور ، وخفوا عن العيون ، فكفّر الشاميون وقد امتلأت أيديهم من  
 الغنائم ، فاشتدت شوكتهم ، وثابت همتهم ، وبطروا ، ونسوا العهود ،  
 وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس إلى إفريقية ، فتعلّلوا عليه ، وذكروا  
 صنيعه بهم أيام انحصارهم في سبّته ، وقتله الرجل الذي أعانهم بالميرة ،  
 فخلعوه ، وقدّموا على أنفسهم أميرهم باج بن بشر ، وتبعه جند ابن قطن ،  
 وحملوا عليه في قتل ابن قطن ، فأبى فثارت اليمانية وقالوا : قد حميت لمضرك ،  
 والله لا نطيعك ، فلماً خاف تفرّق الكلمة أمر باج بن قطن فأخرج إليهم وهو  
 شيخ كبير كفسرّخ نعامة قد حضر وقعة الحرّة مع أهل اليمامة ، فجعلوا يسبونه ،  
 ويقولون له : أفلت من سيوفنا يوم الحرّة ، ثم طالبتنا بتلك الثرة فعرضتنا لأكل  
 الكلاب والجلود وحبستنا بسبّتنا محبّس الضنك حتى أمّتنا جوعاً ، فقتلوه  
 وصلبوه كما تقدم ، وكان أمّية وقطن ابناه عندما خلّع قد هربا ، وحشدا  
 لطلب الثار ، واجتمع عليهما العرب الأقدمون والبربر ، وصار معهم عبد الرحمن  
 ابن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهري كبير الجند ، وكان في أصحاب  
 بلج ، فلماً صنع باج بن عمه عبد الملك ما صنع فارقه ، فأنحاز فيمن يطلب ثاره ،  
 وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب أربونة ، وكان فارس  
 الأندلس في وقته ، فأقبلوا نحو بلج في مائة ألف أو يزيدون ، وبلج قد استعدّ

١ ق : هزمهم ؛ وانظر أخبار مجموعة : ٣٩ .

لهم في مقدار اثني عشر ألفاً سوى عبيد له كثيرة وأتباع من البلديين ، فاقتلوا ،  
 وصبر أهل الشام صبراً لم يصبر مثله أحد قط ، وقال عبد الرحمن بن علقمة  
 اللخمي : أروني بلجاً ، فوالله لأقتلنه أو لأموتن دونه ، فأشاروا إليه نحوه ،  
 فحمل بأهل الثغر حملة انضج لها الشاميون ، والراية في يده ، فضربه عبد الرحمن  
 ضربتين مات منهما بعد ذلك بأيام قلائل . ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة  
 قبيحة ، واتبعهم الشاميون يقتلون ويأسرون ، فكان عسكرياً منصوراً مقتولاً  
 أميره ، وكان هلاك بلج في شوال سنة أربع وعشرين ومائة ، وكانت مدته أحد  
 عشر شهراً ، وسريره قرطبة ، والعرب الشاميون الداخلون معه إلى الأندلس  
 يُعرفون عند أهل الأندلس بالشاميين ، والذين كانوا في الأندلس قبل دخوله  
 يُشهرون بالبلديين .

ولما هلك بلج قدّم الشاميون عليهم بالأندلس ثعلبة بن سلامة العاملي ، وقد  
 كان عندهم عهد الخليفة هشام بذلك ، فسار فيهم بأحسن سيرة ، ثم إن أهل  
 الأندلس الأقدمين من العرب والبربر سمّوا بعد الواقعة لطلب الثأر ، قال أمره  
 معهم إلى أن حصروه بمدينة ماردة ، وهم لا يشكّون في الظفر ، إلى أن حضر  
 عيد تشاغلوا به ، فأبصر ثعلبة منهم غيرة وانتشاراً وأشرأ بكثرة العدد والاستيلاء ،  
 فخرج عليهم في صبيحة عيدهم وهم ذاهلون ، فهزمهم هزيمة قبيحة ، وأفشى  
 فيهم القتل ، وأسر منهم ألف رجل ، وسبى ذريتهم وعايلهم ، وأقبل إلى قرطبة  
 من سببهم بعشرة آلاف أو يزيدون ، حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس وهو  
 يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة . وأصبح الناس منتظرين  
 لقتل الأسارى ، فإذا بهم قد طلع عليهم لواء فيه موكب ، فنظروا فإذا أبو  
 الخطار قد أقبل والياً على الأندلس ، وهو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي .  
 وذكر ابن حيان أنه قدم والياً من قبيل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقية ،  
 والخليفة حينئذ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وذلك في رجب سنة  
 خمس وعشرين ومائة ، بعد عشرة أشهر وليها ثعلبة بن سلامة ، قال : وكان

مع فروسيته شاعراً محسناً ، وكان في أوّل ولايته قد أظهر العدل فدانت له الأندلس ، إلى أن مالت به العصبية اليمانية على المصيرية ، فهاج الفتنة العمياء ، وكان سبب هذه الفتنة أن أبا الخطّار بلغ به التعصّب لليمانية أن اختصم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان أبلج حجةً من ابن عم أبي الخطار ، فمال أبو الخطار مع ابن عمه ، فأقبل الكناني إلى الصّميل بن حاتم الكلابي أحد سادات مضر ، فشكا له حيفَ أبي الخطار ، وكان أبيتاً للضميم حامياً للعشيرة ، فدخل على أبي الخطار وأمّض عتابه ، فتجّهه أبو الخطار وأغلظ له ، فرد الصّميل عليه ، فأمر به أبو الخطار ، فأقيم ودّع قفاه حتى مالت عمامته ، فلما خرج قال له بعض منّ على الباب : أبا جوشن ، ما بال عمامتك مائلة ؟ فقال : إن كان لي قوم فسقيموها . وأقبل إلى داره ، فاجتمع إليه قومه حين بلغهم ذلك ممتعضين ، فباتوا عنده ، فلما أظلم الليل قال : ما رأيكم فيما حدث علي فإنه مسّوط بكم ؟ فقالوا : أخبرنا بما تريد ، فإن رأينا تبعُ رأيك ، فقال : أريد والله إخراج هذا الأعرابي من هذا السلطان على ما خيلتُ ، وأنا خارج لذلك عن قرطبة ، فإنه ما يمكنني ما أريد إلاّ بالخروج ، فإلى أين ترون أقصد ؟ فقالوا : اذهب حيث شئت ، ولا تأت أبا عطاء القيسي ، فإنه لا يواليك على أمر ينفك ، وكان أبو عطاء هذا سيداً مطاعاً يسكن بإستجة ، وكان مشاحناً للصّميل مسامياً له في القدر ، فسكّت عند ذكره أبو بكر ابن الطفيل العبدي ، وكان من أشرافهم ، إلا أنه كان حديث السن ، فقال له الصّميل : ألا تتكلم ؟ فقال : أتكلّم بواحدة ما عندي غيرها ، قال : وما هي ؟ قال : إن عدوّت إتيان أبي عطاء وشتت أمرك به لم يتم أمرنا وهلكنا ، وإن أنت قصدته لم ينظر في شيء ممّا سلف بينكما ، وحركته الحمية لك ، فأجابك إلى ما تريد ، فقال له الصّميل : أصبّت الرأي ، وخرج من ليلته ، وقام أبو عطاء في نصّرته على ما قدره العبدي ، وعمد إلى ثوابة بن يزيد الجذامي أحد أشراف اليمن وساداتهم ، وكان ساكناً بمورور وقد استفسد إليه أبو الخطار ، فأجابهما في

القيام والتقدم على المضرية ، فاجتمعوا في شذونة ، وآل الأمر إلى أن هزموا  
أبا الخطار على وادي لُكَّة ، وحصل أسيراً في أيديهم ، فأرادوا قتله ، ثم  
أرجأوه ، وأوثقوه وأقبلوا به إلى قرطبة ، وذلك في رجب سنة ١٢٧ بعد ولاية  
أبي الخطار بسنتين .

ولما سُجِن أبو الخطار في قرطبة امتعض له عبدُ الرحمن بن حسان الكلبي ،  
فأقبل إلى قرطبة ليلاً في ثلاثين فارساً معهم طائفة من الرجالة ، فهجموا على  
الحبس وأخرجوه منه ، ومضوا به إلى غرب الأندلس ، فعاد في طلب سلطانه ،  
ودبَّ في يمانيته حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة ، فخرج إليه ثوابه  
ومعه الصَّميل ، فقام رجل من المضرية ليلاً فصاح بأعلى صوته : يا معشر اليمن ،  
ما لكم تتعرضون إلى الحرب وتردون المنايا عن أبي الخطار ؟ أليس قد قدرنا  
عليه لو أردنا قتله لفعلنا ، لكننا مننناً وشفقةً وجعلنا الأمير منكم ، أفلا تفكرون  
في أمركم ، فلو أن الأمير من غيركم عذرتكم ، ولا والله لا نقول هذا رهبةً  
منكم ولا خوفاً لحربكم ، ولكن تخرجاً من الدماء ورغبة في عافية العامة ،  
فتسامع الناس به ، وقالوا : صدق ، فتداعوا للرحيل ليلاً ، فما أصبحوا  
إلا على أميال .

قال الرازي : ركب أبو الخطار البحر من ناحية تونس في المحرم سنة  
١٢٥ ؛ وفي كتاب أبي الوليد ابن الفرضي : كان أبو الخطار أعرايياً عصبياً ،  
أفرط في التعصب لليمانيين ، وتحامل على مضر ، وأسخط قيساً ، فثار به  
زعيمهم الصَّميل ، فخلعه ، ونصب مكانه ثوابه ، وهاج بين الفريقين الحروب  
المشهورة ، وخلع أبو الخطار بعد أربع سنين وتسعة أشهر ، وذلك سنة ١٢٨ ،  
وآل أمره إلى أن قتله الصَّميل .

وولي الأندلس ثوابه بن سلامة الجذامي ، قال ابن بشكوال : لما  
اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب القيروان ، فكتب  
إليه بعهد الأندلس ، وذلك سلخ رجب سنة ١٢٧ ، فضبط البلد ، وقام بأمره كله



الصَّمِيلَ واجتمع عليه أهل الأندلس ، وأقام والياً سنة أو نحوها ، ثم هلك ،  
وفي كتاب ابن الفَرَضِي أَنَّهُ ولي سنتين .

ثم ولي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة  
ابن نافع الفِهْرِي ، وجدُّه عقبة بن نافع صاحب إفريقية وباني القيروان المجاب  
الدعوة صاحب الغزوات والآثار الحميدة ، ولهذا البيت في السلطنة بإفريقية  
والأندلس نَبَاهَةٌ . وذكر الرازي أن مولده بالقيروان ، ودخل أبوه الأندلس  
من إفريقية مع حبيب بن أبي عبيدة الفهري عند افتتاحهم ، ثم عاد إلى إفريقية ،  
وهرب عنه ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مُغاضباً له ، فهوي الأندلس ،  
واستوطنها فساد بها ، قال الرازي : كان يوسف يوم ولي الأندلس ابن سبع  
وخمسين سنة ، وأقامه أهل الأندلس بعد أميرهم ثوابة ، وقد مكثوا بغير والٍ  
أربعة أشهر ، فاجتمعوا عليه بإشارة الصَّمِيل من أجل أَنَّهُ قُرَشِي رضي به  
الحيان ، فرفعوا الحرب ، ومالوا إلى الطاعة ، فدانت له الأندلس تسع سنين  
وتسعة أشهر ، وقال ابن حيان : قدمه أهل الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٢٩ ،  
واستبد بالأندلس دون ولاية أحد له غير من بالأندلس ، وحكى ابن حيان أَنَّهُ  
أنشد قول حُرْقَةَ بنت النعمان بن المنذر يوم خلعه بالأمان من سلطانه ودخوله  
عسكر عبد الرحمن الداخل المرواني :

فبيننا نَسُوسُ النَّاسِ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوْقَةٌ نُنْتَصِفُ

قال ابن حيان : لما سمع أبو الخطار بتقديمه حرك يمانيته ، فأجابوا دعوته ، فأدى  
ذلك إلى وقعة شقنُدة بين اليمانية والمُضَرِّيَّة فيقال : إنَّه لم يك بالمشرق ولا  
بالمغرب حرب أصدق منها جِلاداً ولا أصبر رجلاً ، طال صبر بعضهم على  
بعض ، إلى أن فني السلاح ، وتجاذبوا بالشعور ، وتلاطموا بالأيدي ، وكلٌّ  
بعضهم عن بعض ، وثابت للصمِيل غِرَّة في اليمانية في بعض الأيام ، فأمر  
بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبة ، فخرجوا في نحو أربعمئة رجل من

أنجادهم بما حضرهم من السكاكين والعِصِيّ ليس فيهم حامل رمح ولا سيف إلا قليلاً ، فرماهم على اليمانية وهم على غفلة ، وما فيهم من يبسط يداً لقتال ، ولا ينهض للدفاع ، فانهزمت اليمانية ووضعت المُضْرِبَةَ السيفَ فيهم ، فأبادوا منهم خلقاً ، واختفى أبو الخطار تحت سرير رحي ، فقبض عليه وجيء به إلى الصميل ، ف ضرب عنقه ، وقد ذكرنا خبر انخلاع يوسف عن سلطانه في ترجمة عبد الرحمن الداخل ، وهو آخر سلاطين الأندلس الذين ولّوها من غير موارثة ، حتى جاءت الدولة المروانية .

وذكر ابن حيان أن القائم بدولة يوسف والمستولي عليها الصّمِيل بن حاتم ابن شمر بن ذي الجوشن الكلابي ، وجدّه شمر هو قاتل الحسين ، رضي الله تعالى عنه ، وكان شمر قد قرّب من المختار بولده من الكوفة إلى الشام ، فلما خرج كلثوم بن عياض للمغرب كان الصّمِيل فيمن خرج معه ، ودخل الأندلس في طالعة بلج ، وكان شجاعاً جواداً جسوراً على قلب الدول ، فبلغ ما بلغ ، وآل أمره إلى أن قتله عبدُ الرحمن الداخل المرواني في سجن قرطبة مخنوقاً .

وذكر ابن حيان أنّه كان ممّن ثار على يوسف الفهري عبد الرحمن بن علقمة اللخمي فارس الأندلس ، ووالي ثغر أربونة ، وكان ذا بأس شديد ووجاهة عظيمة ، فبينما هو في تدبير غزو يوسف إذ اغتاله أصحابه وأقبلوا برأسه إليه . ثم ثار عليه بعد ذلك بمدينة باجة عروة بن الوليد في أهل الذمة وغيرهم ، فملك إشبيلية ، وكثر جمعه ، إلى أن خرج له يوسف فقتله ، وثار عليه بالجزيرة الخضراء عامر العبدري ، فخرج له ، وأنزله على أمان في سكنى قرطبة ، ثم ضرب عنقه بعد ذلك .

وقيل : إن أول من خرج على يوسف عمرو بن يزيد الأزرق في إشبيلية فظفر به فقتله ، وثار عليه في كورة سَرَقُسطة الحباب الزهري إلى أن ظفر به يوسف فقتله ، ثم جاءت الداهية العظمى بدخول عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس وسعّيه في إفساد سلطانه ، فتم له ما أراد ، والله تعالى أعلم .

٣٢ - ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية

ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان ، المعروف بالداخل<sup>١</sup> . وذلك أنه لما أصاب دولتهم ما أصاب ، واستولى بنو العباس على ما كان بأيديهم ، واستقر قَدَمُهُم في الخلافة ، فرّ عبد الرحمن إلى الأندلس ، فنال بها ملكاً أورثه عَقِبَهُ حَقِيبَةٌ من الدهر .

قال ابن حبان في «المقتبس» : إنّه لما وقع الاختلال في دولة بني أمية والطلب عليهم ، فر عبد الرحمن ، ولم يزل في فراره منتقلاً بأهله وولده إلى أن حلّ بقرية على الفرات ذات شجر وغياض ، يريد المغرب ، لما حصل في خاطره من بشرى مسلمة<sup>٢</sup> ، فمما حكى عنه أنّه قال : إنّي لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت توأرت فيه لرمّد كان بي ، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي ، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حجّري ، فجعلت أدفعه لما كان بي وبأبى إلا التعلّق ، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر ، فإذا بالرّوع قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحنطة ، وأخ لي حديث السن كان معي يشتدُّ هارباً ويقول لي : النجاء يا أخي ، فهذه رايات المسوّدة<sup>٣</sup> ، فضربت بيدي على دنائير تناولتها ، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي ، وأعلمت أخواني بمتوجّهي ومكان مقصدي ، وأمرتهن أن يلحقني ومولاي بدّر معهن ، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية ، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت

١ انظر أخبار عبد الرحمن الداخل في ابن القوطية : ٤٥ ؛ وأخبار مجموعة : ٥٠ وابن عذاري ٢ : ٤٠ والنويري ٢٢ : ١ (الباب الخامس) وذكر بلاد الأندلس ، الورقة : ٨٩ والمقتطفات ، الورقة : ١٠٩ ونص هذا الأخير مطابق لنص النسخ .

٢ نسب إلى مسلمة بن عبد الملك أنه كان يخبر بأمر من الحدّاث والملاحم ، وكان يرى أن نهاية بني أمية في المشرق قد اقتربت ويتنبأ بظهور عبد الرحمن (راجع أخبار مجموعة : ٥١ - ٥٢) وسيأتي شيء من ذلك في هذا الكتاب .

٣ المقتطفات : فهذه الرايات السود .

الخيـل فأحاطت بالدار ، فلم تجد أثراً ، ومضيت ولحقني بدر ، فأتيت رجلاً من معارفـي بشطّ الفـرّات ، فأمرته أن يبتاع لي دوابّ وما يصلح لسفري ، فدلّ عليّ عبدٌ سوء له العامل ، فما راعنا إلا جالسـة الخيـل تحفـزنا فاشتدنا<sup>١</sup> في الهرب ، فسبقناها إلى الفرّات<sup>٢</sup> ، فرمينا فيه بأنفسنا ، والخيـل تنادينا من الشط : ارجعا لا بأس عليكما ، فسبحتُ حائساً لنفسي وكنـت أحسن السبح ، وسبح الغلام أخي ، فلماً قطعنا نصف الفرات قصّر أخي ودُهِش ، فالتفتُ إليه لأقويّ من قلبه ، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يمدعونـه عن نفسه ، فناديتـه : تُقْتَلُ يا أخي ، إليّ إليّ ، فلم يسمعي ، وإذا هو قد اغتر بأمانهم ، وخشي الغرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات ، وبعضهم قد همّ بالتجرد للسباحة في أثري ، فاستكفّه أصحابه عن ذلك ، فركوني ، ثم قدّموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه شكلاً ملائني مخافة ، ومضيت إلى وجهي أحسب أنّي طائر وأنا ساع على قدمي ، فلجأت إلى غيضة أشبه ، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت<sup>٣</sup> أوام المغرب حتى وصلت إلى إفريقية .

قال ابن حيان : وسار حتى أتى إفريقية وقد ألحقت به أخته شقيقته أم الأصبغ مولاه بدرأ ، ومولاه سالماً ، ومعهما دنانير للنفقة ، وقطعة من جوهر ، فنزل بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من قـلّ بني أمية ، وكان عند واليها عبد الرحمن ابن حبيب الفهري يهودي حدثاني صحب مسـلمة بن عبد الملك ، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك القوم ، واسمه عبد

١ المقتطفات : فخرجنا واشتدنا .

٢ المقتطفات : وسبقنا الخيل إلى أن وصلنا الفرات .

٣ المقتطفات ودوزي : ثم خرجت هارباً .

الرحمن ، وهو ذو ضفيريّتين يملك الأندلس ويؤرثها عقبه ، فاتخذ الفهري عند ذلك ضفيريّتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر إلى ضفيريّته قال لليهودي : ويحك ؛ هذا هو ، وأنا قاتله ، فقال له اليهودي : إنك إن قتلته فما هو به ، وإن غلبت على تركه إنّه لو . وثقل فلّ بني أميّة على ابن حبيب صاحب إفريقية ، فطرد كثيراً منهم مخافة ، وتجنّى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلها ، وأخذ مالاّ كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان ، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه ، وطلب عبد الرحمن فاستخفى ، انتهى .

وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخلة أقام ببرقة مستخفياً خمس سنين ، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط ، وتقلب في قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قوم من زنّانة ، وأخذ في تجهيز بدر مولاة إلى العبور للأندلس لموالي بني أمية وشيعتهم بها ، وكانت الموالي المروانية المدوّنة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعماتة والخمسمائة ، ولهم جمرة ، وكانت رياستهم إلى شخصين : أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، وهما من موالي عثمان ، رضي الله تعالى عنه ، وكانا يتوليان لواء بني أمية يعتقبان حمّله ورياسة جند الشام النازلين بكورة إلبيرة ، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبي عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أياديّ سلفه من بني أمية وسببه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله ، إذ كان الأمر لجدّه هشام فهو حقيق بوراثته ، ويسأله القيام بشأنه وملاقة من يثق به من الموالي الأموية وغيرهم ، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليُبليّ عذراً في الظهور عليها ، ويعدّه بإعلاء الدرجة ، ولطف المنزلة ، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه ، ويرجو قيامه معه ، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحنق على المضربة لما بين الحيين من الترات ، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه ، وبانت له فيه طماعية ، وكان عند ورود بدر قد تجهز إلى ثغر سرقسطة لنصرة

صاحبها الصَّمِيل بن حاتم وَجَّهَ دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور : لو كنّا ذاكرنا الصَّمِيل خبرَ بَدْرٍ وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا ، وكانا على ثقة في أنّه لا يُظهر على سرّهما أحداً لمروءته وأنفثته ، فقال له : إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدرکه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجمالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا ، قال أبو عثمان : فتمسح<sup>١</sup> إذاً على أمره ، ونذكر له أنّه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أحماس جده هشام لدينا ليتعيش بها ، لا يريد غير ذلك ، فاتفقا على هذا . فلما ودعا الصَّمِيل خلكوا به في ذلك ، وقد ظهر لهما منه حقد على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سرقسطة ، فقال لهما : أنا معكما فيما تحبان ، فاكتبنا إليه أن يعبر ، فإذا حضر سألنا يوسف أن يُنزله في جواره وأن يحسن له ، ويزوجه بابنته ، فإن فعل وإلا ضربنا صلّعته بأسيفنا ، وصرفنا الأمر عنه إليه ، فشكراه وقبلّا يده ثم ودعاه ، وأقام بطليطلة وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر ، وانصرفا إلى وطنهما ببلييرة ، وقد كانا لقيما من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم ، فطارحاهم أمر ابن معاوية ، ثم دسّا في الكور إلى ثقاتهما بمثل ذلك ، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر ، وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس .

وفي رواية أن الصَّمِيل لانّ لهما في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبّر ذلك لما انصرفا ، فراجع فيه ، فردهما ، وقال : إنّي روّيت في الأمر الذي أدرته معكما فوجدت الفتى الذي دعوتاني إليه من قوم لوبال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بؤله ، وهذا رجل نتحكم عليه ، ونميل على جوانبه ، ولا يسعنا بدل منه ، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما

١ في المتقطعات : نسخ ، وفي ق : فتسح .

فأرقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لثلاثاً أغركما من نفسي ، فإنني أعلمكما أن أولَ سيف يُسلُّ عليه سيفي ، فبارك الله لكما في رأيكما ، فقالا له : ما لنا رأي إلا رأيك ، ولا مذهب لنا عنك . ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان ، وانفصلا عنه إلى البيرة عازمين على التصميم في أمره ، ويشا من مضر وربيعه ، ورجعا إلى اليمانية ، وأخذا في تهيج أحقاد أهل اليمن على مُضَرَ ، فوجداهم قوماً قد وَغِرَتْ صدورهم عليهم ، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم ، واغتنما بُعْدَ يوسف صاحب الأندلس في الثغر ، وغيبة الصَّمِيل ، فابتاعا مركباً ووجهها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بَدْر الرسول ، وفيهم تمام بن علقمة وغيره ، وكان عبد الرحمن قد وجهه خاتمه إلى مواليه ، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر ، فبثوا من ذلك في الجهات ما دبَّ به أمرهم ، ولما وجهه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألقوه بشطِّ مغيلة من بلاد البربر ، وهو يصلي ، وكان قد اشتدَّ قَلْبُه وانتظاره لبدر رسوله ، فبشره بدر بتمكن الأمر ، وخرج إليه تمام مكثرًا لتبشيرِهِ ، فقال له عبد الرحمن : ما اسمك ؟ قال : تمام ، قال : وما كنيته ؟ قال : أبو غالب ، فقال : الله أكبر ! الآن تم أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته ، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك ، ولم يزل حاجبه حتى مات عبدُ الرحمن . وبادر عبدُ الرحمن بالدخول إلى المركب ، فلما همَّ بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه ، ففُرقت فيهم من مال كان مع تمام صِلاتٌ على أقدارهم ، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه ، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بجبَلِ الهودج يَعْقِلُ المركب ، فحوّل رجل اسمه شاكر يده بالسيف ، فقطع يدَ البربري ، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم ، حتى حلّوا بساحل البيرة في جهة المنكب ، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨ ، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد ، فنقلاه إلى

قرية طرش<sup>١</sup> منزل أبي عثمان ، فجاءه يوسف بن بخت ، واثالث عليه الأموية ، وجاءه جدار<sup>٢</sup> بن عمرو المذحجي من أهل مالقة ، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر ، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبي من إشبيلية فاستوزره ، واثالث عليه الناس انشياً ، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام ، وأمدّه الله تعالى بقوة عالية ، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر .

وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر ، وقد قبض على الحباب الزهري النائر بسرّ قسطة ، وعلى عامر العبدي النائر معه ، فبينما هو بوادي الرمل بمقرّبة من طليطلة وقد ضرب عنق عامر العبدي وابن عامر برأي الصمّيل إذ جاءه قبل أن يدخل رواقه رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق ، واجتماع الموالي المروانية إليه ، وتشوف الناس لأمره ، فانتشر الخبر في العسكر لوقته ، وشميت الناس بيوسف لقتله القرشيين عامراً وابنه ، وختّره بعهدهما ، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل ، وتنادوا بشعارهم ، وقوضوا عن عسكره ، واتفق أن جادت السماء بوابل لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف ، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانته وخاصته وقوم الصمّيل قيس وأتباعه ، فأقبل إلى طليطلة وقال للصمّيل : ما الرأي ؟ فقال : بادره الساعة قبل أن يغلظ أمره ، فإنّي لست آمنُ عليك هؤلاء اليمانية لحنقهم علينا ، فقال له يوسف : أتقول ذلك ؟ ومع من نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عتاً ؟ وقد أنفضنا من المال ، وأنضينا الظهر ، ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه ، ولكن نسير إلى قرطبة ، فنستأنف الاستعداد له ، بعد أن ننظر في أمره ويتبين لنا خبره ، فلعلّه دون ما كتب

١ طرش (Torrox) على الساحل الشرقي ، وهي تعد اليوم في مديرية مالقة .

٢ ق : حدران ؛ المقتطفات : جديران ؛ ابن عذاري : جدار ؛ أخبار مجموعة (٧٦) : جدار .



إلينا . فقال الصَّمِيل : الرأيُ ما أُشرتُ به عليك ، وليس غيره ، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه ، ومضوا إلى قرطبة .

وسار عبد الرحمن الداخل إلى إشبيلية ، وتلقاه رئيسُ عربها أبو الصباح ابن يحيى اليَحْضُبِي ، واجتمع الرأي على أن يقصدوا به دار الإمارة قرطبة ، فلما نزلوا بطشانة<sup>١</sup> قالوا : كيف نسير بأمر لا لواء له ولا علكم نهتدي إليه ؟ فجاءوا بقناة وعمامة ليعقدوها عليه ، فكروها أن يُمِيلوا القناة لتعقد تطيراً فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين ، فصعد رجل فرعاً لإحدهما فعقد اللواء والقناة قائمة ، كما سيأتي ؛ وحكي أن فرقداً العالم صاحب الحدثن مرّ بذلك الموضع ، فنظر إلى الزيتونين ، فقال : سيُعقد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمر لا يثور عليه لواء إلاّ كسره ، فكان ذلك اللواء يسعد به هو وولده من بعده ، ولما أُقبل إلى قرطبة خرج له يوسف ، وكانت المجاعة توالى قبل ذلك ست سنين فأورثت أهل الأندلس ضعفاً ، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة مذخرجوا من إشبيلية إلا الفول الأخضر الذي يجدونه في طريقهم ، وكان الزمان زمان ربيع ، فسمي ذلك العام عام الخلف ، وكان نهر قرطبة حائلاً ، فسار يوسف من قرطبة وأقبل ابن معاوية على بر إشبيلية والنهر بينهما ، فلما رأى يوسف تصميم عبد الرحمن إلى قرطبة رجع مع النهر مُحاذياً له ، فتسايرا والنهر حاجز بينهما ، إلى أن حل يوسف بصحراء المُصَّارة غربي قرطبة ، وعبد الرحمن في مقابلته ، وتراسلا في الصلح ، وقد أمر يوسف بذبح الجُرُز ، وتقديم بعمل الأطمعة ، وابن معاوية آخذ في خلاف ذلك قد أعدّ للحرب عدتها ، واستكمل أهبتها ، وسهر الليل كله على نظام أمره ، كما سنذكره ، ثم انهزم أهل قرطبة ، وظفر عبد الرحمن الداخل ، ونصّر نصرأ لا كفاء له ، وانهزم

١ المقتطفات : بطشانة ؛ وهذا خطأ ؛ وطشانة (Tocina) قد عدها العذري (١٠٩) من أقاليم إشبيلية .

الصَّمِيل ، وفر إلى شَوَذر من كورة جَيَّان ، وفرَّ يوسف إلى جهة ماردة .  
وذكر أن أبا الصَّبَّاح رئيس اليمانية قال لهم عند هزيمة يوسف : يا معشر  
يمن ، هل لكم إلى فتحين في يوم ؟ قد فرغنا من يوسف وصميل ، فلنقتل هذا  
الفتى المِقْدَامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا ، نقدم عليه رجلاً منا ، ونحل عنه هذه  
المضرية ، فلم يجبه أحد لذلك ، وبلغ الخبر عبد الرحمن فأسرَّها في نفسه إلى  
أن اغتاله بعد عام ، فقتله .

ولما انقضت الهزيمة أقام ابن معاوية بظاهر قرطبة ثلاثة أيام ، حتى أخرج  
عيال يوسف من القصر ، وعَفَّ وأحسن السيرة ، ولما حصل بدار الإمارة ،  
وحل محل يوسف ، لم يستقرَّ به قرار من إفلات يوسف والصَّمِيل ، فخرج  
في إثر عدوه واستخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان ، واستكتب كاتب  
يوسف أمية بن زياد ، واستنام إليه إذ كان من موالي بني أمية ، ونهض في  
طلب يوسف ، فوقع يوسف على خبره فخالفه إلى قرطبة ودخل القصر ،  
وتحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع فاستتره بالأمان ، ولم يزل  
عنده إلى أن عقد الصلح بينه وبين ابن معاوية ، وكان عقد الصلح المشتمل عليه  
وعلى وزيره الصَّمِيل في صفر سنة ١٣٩ ؛ وشارطه على أن يخلِّي بينه وبين أمواله  
حيثما كانت ، وأن يسكن بلاط الحر - منزله بشرقي قرطبة - على أن يختلف  
كل يوم إلى ابن معاوية ويُرِيه وجهه ، وأعطاه رهينة على ذلك ابنه أبا الأسود  
محمد بن يوسف ، زيادةً على ابنه عبد الرحمن الذي أسره ابنُ معاوية يوم  
الوقعة ؛ ورجع العسكران وقد اختلطوا إلى قرطبة .

وذكر ابن حَيَّان أن يوسف بن عبد الرحمن نكث سنة ١٤١ ، فهرب من قرطبة ،  
وسعى بالفساد في الأرض ، وقد كانت الحال اضطربت به في قرطبة ودس له  
قوم قاموا عليه في أملاكه ، زعموا أنه غصبهم إياها ، فدفع معهم إلى الحكام

المقتطفات : إلى أحكام الحكام .

فأعتوه ، وحُمل عنه في التأم بذلك كلام رفع إلى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به والتخويف منه ، فاشتد تَوَحُّشُهُ ، فخرج إلى جهة ماردة ، واجتمع إليه عشرون ألفاً من أهل الشتات ، فغلظ أمره ، وحدثه نفسه بقاء ابن معاوية ، فخرج نحوه من ماردة ، وخرج ابن معاوية من قرطبة ، فبينما ابنُ معاوية في حصن المدور مستعداً ، إذ التقى بيوسف عبد الملك بن عمر بن مروان صاحب إشبيلية ، فكانت بينهما حرب شديدة انكشف عنها يوسف بعد بلاء عظيم منهزماً ، واستَحَرَّ القتلُ في أصحابه ، فهلك منهم خلق كثير ، وسار يوسف لناحية طُلَيْطَلَةَ ، فلقبه في قرية من قرأها عبد الله بن عمرو الأنصاري ، فلماً عرفه قال لمن معه : هذا القهري يفر ، قد ضاقت عليه الأرض ، وقتلُهُ الراحةُ له ، والراحةُ<sup>٢</sup> منه ، فقتله واحتر رأسه وقدم به إلى عبد الرحمن ، فلماً قرب وأوذن عبد الرحمن به أمره أن يتوقَّف به دون جسر قرطبة ، وأمر بقتل ولده عبد الرحمن المحبوس عنده ، وضم إلى رأسِهِ رأسَهُ ، ووضعاً على قناتين مُشَهَّرَيْنِ إلى باب القصر .

وكان عبد الرحمن لما فرَّ يوسف قد سجن وزيره الصَّمِيلَ لأنَّه قال له : أين توجه ؟ فقال : لا أعلم ، فقال : ما كان ليخرج حتى يعلمك ، ومع ذلك فإن ولدك معه ، وأكد عليه في أن يحضره ، فقال : لو أنَّه تحت قدمي هذه ما رفعتها لك عنه ، فاصنع ما شئت ، فحينئذ أمر به للحبس وسَجَنَ معه ولدي يوسف أبا الأسود محمداً المعروف بعد بالأعمى وعبد الرحمن ، فتهيأ لهما الهرب من نقب ، فأما أبو الأسود فنجاً سالماً ، واضطرب في الأرض يبغي الفساد إلى أن هلك حتفَ أنفه ، وأما عبد الرحمن فأنقله اللحم فانبهر ، فردَّ إلى الحبس ، حتى قُتِل كما تقدم ؛ وأنف الصَّمِيلِ من الهرب فأقام بمكانه ، فلماً

١ المقتطفات : مشتغل .

٢ المقتطفات : راحة له وراحة . . .

قُتِلَ يوسُفُ أدخَلَ ابنُ معاويةَ على الصمِيلِ من خنقته ، فأصبح ميتاً ، فدخَلَ عليه مشيخة المضرية في السجن ، فوجدوه ميتاً وبين يديه كأسٌ ونقْلٌ ، كأنه بَغت على شرابه ، فقالوا : والله إننا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها ولكن سُقيتها .

ومما ظهر من بطش الأمير عبد الرحمن بن معاوية وصرايمته فتكه بإحدى دعائم دولته رئيس اليمانية أبي الصباح يحيى<sup>١</sup> ، وكان قد ولاه إشبيلية وفي نفسه منه ما أوجب فتكه به . ومن ذلك النوع حكايته مع العلاء بن مغيث اليحصبي إذ ثار بياجة ، وكان قد وصل من إفريقية على أن يُظهِر الرايات السود بالأندلس ، فدخَلَ في ناس قليلين ، فأرسل بِناحية باجة ، ودعا أهلها ومن حولهم فاستجاب له خلق كثير ، إلى أن لقيه عبد الرحمن بجهة إشبيلية فهزمه ، وجيء به وبأعلام أصحابه ، فقطع يديه ورجليه ، ثم ضرب عنقه وأعناقهم ، وأمر فقرطت الصكاك في آذانهم بأسمائهم ، وأودعت جوالقاً محصناً ، ومعها اللواء الأسود ، وأنفذ بالجوالق تاجرًا من ثقاته ، وأمره أن يضعه بمكة أيام الموسم ، ففعل ، ووافق أبا جعفر المنصور قد حج ، فوضعه على باب سُرَّادقه ، فلما كشفه ونظر إليه سَقِطَ في يده ، واستدعى عبد الرحمن وقال : عرضنا هذا البائس - يعني العلاء - للحتف ، ما في هذا الشيطان مطمع ، فالحمد لله الذي صير هذا البحر بيننا وبينه .

ولما أوقع عبد الرحمن باليمانية الذين خرجوا في طلب ثار رئيسهم أبي الصباح اليحصبي وأكثر القتل فيهم ، استوحش من العرب قاطبة ، وعلم أنهم على دَعَلٍ وحقْدٍ ، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المالِك ، فوضع يده في الاتباع ، فابتاع موالِي الناس بكل ناحية ، واعتضد أيضاً بالبرابر ، ووجه عنهم إلى برِّ العُدوة فأحسن لمن وفد عليه إحساناً رَغِبَ مَنْ خلفه في المتابعة ، قال ابن

١ ق والمقتطفات : ابن يحيى .

حيان : واستكثر منهم ومن العبيد ، فاتخذ أربعين ألف رجل ، صار بهم غالباً على أهل الأندلس من العرب ، فاستقامت مملكته وتوطدت .

وقال ابن حيان<sup>١</sup> : كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم<sup>٢</sup> ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يُخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكبلُ الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور شديد الحدة قليل الطمأنينة بليغاً مفوهاً شاعراً محسناً سَمِحاً سخياً طلق اللسان ، وكان يلبس البياض ويعتمُّ به ويؤثره ، وكان قد أعطى هبة<sup>٣</sup> من وليه وعدوه ، وكان يحضر الجنائز ، ويصلي عليها ، ويصلي بالناس إذا كان حاضراً الجُمع والأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم ، إلى أن حضر في يوم جنازة فتصدى له في منصرفه عنها رجل متظلم عامي وقاح ذو عارضة فقال له : أصلح الله الأمير ، إن قاضيك ظلمي وأنا أستجيرك من الظلم ، فقال له : تُنصف إن صدقت ، فمد الرجل يده إلى عنانه وقال : أيها الأمير أسألك بالله لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي فإنه معك ، فوجم الأمير والتفت إلى مَنْ حوله من حشمه ، فرأهم قليلاً ، ودعا بالقاضي وأمر بإنصافه ، فلما عاد إلى قصره كلمه بعضُ رجاله ممن كان يكره خروجه وابتداله فيما جرى ، فقال له : إن هذا الخروج الكثير - أبقى الله تعالى الأمير - لا يَجْمَلُ بالسلطان العزيز ، وإن عيون العامة تخلق تجلته ، ولا تؤمن بوادهم عليه ، فليس الناس كما عهدوا ، فترك من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل ، ووكل بذلك ولده هشاماً .

١ انظر هذا النص في « ذكر بلاد الأندلس » : ٩١ .

٢ المصدر السابق : راجح العقل راسخ العلم واسع الحلم .

٣ المقتطفات : وكان مهاباً جداً .

ومن نظم عبد الرحمن الداخل ما كتب به إلى أخته بالشام<sup>١</sup> :

أيها الراكب الميممُ أرضي      افترَ مِنِّي بعضَ السلامِ لبعضي  
إنَّ جسمي كما تراهُ بأرضٍ      وفؤادي ومالكيه بأرضٍ  
قدَّرَ البينُ بيِّننا فافترقنا      وطوى البينُ عن جفوني غمضي  
قد قضى الدهرُ بالفراقِ علينا      فعسى باجتماعنا سوف يَقضي

وكتب إلى بعض مَنْ° وقد عليه من قومه لما سأله الزيادة في رزقه ، واستقل ما قابله به وذكره بحقه بهذه الأبيات<sup>٢</sup> :

شَتَانٌ مَنْ° قامَ ذا امتعاضٍ      مُنْتَضِي الشَّقَرَتَيْنِ نَصْلاً<sup>٣</sup>  
فجَابَ قفراً وشقَّ بحراً      مُسَامِياً لِحِجَّةً وَمَحْلاً  
دَبَّرَ ملكاً وشادَ عزاً؛      ومنبراً للخطابِ فَصْلاً  
وجنَّدَ الجندَ حينَ أودى      ومَصَّرَ المَصْرَ حينَ أجلى  
ثمَّ دَعَا أهْلَهُ إِلَيْهِ°      حيثُ انتأوا أن هَلُمَّ أهلاً  
فجاءَ هذا طريدَ جوعٍ      شديدَ رَوْعٍ يخافُ قتلاً<sup>٤</sup>  
فنالَ أمناً ونالَ شَيْعاً      ونالَ مالاً° ونالَ أهلاً<sup>٥</sup>  
ألم يكنُ حقُّ ذا على ذا      أعظمَ من منعمٍ وموئى

وحكى ابن حيان أن عبد الرحمن لما أذعن له يوسف صاحب الأندلس

١ وردت هذه الأبيات في أكثر المصادر التي ترجمت للأمير عبد الرحمن ؛ انظر ذكر بلاد الأندلس :

٩١ والحلة السيرة ١ : ٣٦ وجذوة المقتبس : ١٠ .

٢ انظر الحلة السيرة ١ : ٣٩ وذكر بلاد الأندلس : ٩٧ وابن عذاري ٢ : ٥٩ .

٣ في رواية ابن حيان : فشال ما قل واضمحلا ، وستأتي هذه الرواية فيما يلي ص : ٤٣ .

٤ الحلة : فشاد مجدأ وبز ملكاً .

٥ الحلة : جميعاً .

٦ الحلة : شريد سيف أباد قتلا .

٧ الحلة : وحاز . . . وضم .

واستقرّ ملكه استحضر الوفود إلى قرطبة ، فاثالوا عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلامٍ سرّهم وطيبَ نفوسهم ، مع أنّه كساهم وأطعمهم ووصلّهم ، فانصرفوا عنه محبورين مغتبطين ، يتدارسون كلامه ، ويتهافتون بشكره ، ويتهانئون بنعمة الله تعالى عليهم فيه . وفي بعض مجالسهم هذه مثلاً بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه فقال له : يا ابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت وبك عدت من زمن ظلوم ودهر غشوم ، قتل المال وكثر العيال وشعث الحال فصير إلى ندادك المال ، وأنت ولي الحمد والمجد والمرجو للرفد ، فقال له عبد الرحمن مسرعاً : قد سمعنا مقاتلك وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودنّ ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف في الطلّية ، وإذا ألمّ بك خطب أو حزّبك أمر فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك ، كيما نستر عليك خلّتك ، ونكفّ شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عزّ وجهه بإخلاص الدعاء وصدق النية ، وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون منه من حسن منطقته وبراعة أدبه ، وكفّ فيما بعدُ ذوو الحاجات عن مقابله بها شفاهاً في مجلسه .

قال ابن حيّان : ووقع إلى سليمان بن يقظان الأعرابي على كتاب منه سلك به سبيل الخلداع : أمّا بعد فدعني من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدّن يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بجبل الجماعة ، أو لأزوينّ بنانها عن رصف المعصية ، نكالاً بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد .  
وفي « المسهب » أن عبد الرحمن كان من البلاغة بالمكان العالي ، الذي يرتدّ عنه أكثر بني مروان حسيراً . وقد جرى بينه وبين مولاة بدر ما لا يجب إهماله ،

١ زاد في المقتطفات : أو تعتبر بلاغته .

وذلك أنه لما سعى بدر في تكميل دولته من ابتدائها إلى استقرارها صحبه عجب  
 وامتنان كادا يرد أن به حياض المنية ، فأول ما بدأ به أن قال : بعنا أنفسنا  
 وخاطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله . وقال وقد أمره بالخروج  
 إلى غزاة : إنما تعبنا أولاً لنستريح آخرأ ، وما أرانا إلا في أشد مما كنا ،  
 وأطال أمثال هذه الأقوال ، وأكثر الاستراحة في جانبه ، فهجره وأعرض عنه ،  
 فزاد كلامه ، وكتب له رقعة منها : أما كان جزائي في قطع البحر وجوب  
 القفر ، والإقدام على تشيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر ، الذي أهانني  
 في عيون أكفائي وأشمت بي أعدائي ، وأضعف أمري ونهبي عند من يلود  
 بي ، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني على الطمع والرجاء ، وأظن أعداءنا  
 بني العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا ، فإننا لله وإننا إليه  
 راجعون . فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه ، فوقع عليها :  
 « وقفت على رقعتك المنية عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أدبك ولثيم معتقدك ،  
 والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيت بما يهدم كل متات  
 مشيد مما تمن به ، مما قد أضجر الأسماع تكراره ، وقدحت في النفوس  
 إعادته ، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك ، وزدنا في  
 هجرك وإبعادك ، وهضنا جناح إدلالك ، فلعل ذلك يجمع منك ويردعك  
 حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى ؛ فنحن أولى بتأديك من كل أحد ، إذ  
 شرك مكتوب في مثالنا ، وخيرك معدود في مناقبنا » . فلما ورد هذا الجواب  
 على بدر سقيط في يده وسلم للقضاء ، وعلم أنه لا ينفع فيه قول ، ووجه عبد  
 الرحمن من استأصل ماله وألزمه داره ، وهتك حرمة وقص جناح جاهه ،  
 وصيره أهون من قعيس على عمته ، ومع هذا فلم ينته بدر عن الإكثار من  
 مخاطبة مولاه ، تارة يستلينه وتارة يذكره ، وتارة ينفث مصدوراً بخط قلمه ما  
 يلقيه عليه بلسانه ، غير مفكر فيما يؤول إليه ، إلى أن كتب له : قد طال هجري ،  
 وتضاعف همّي وفكري ، وأشد ما عليّ كوني سليياً من مالي ، فعسى أن تأمر



لي بإطلاق مالي وأتَّحِدُ به في معزل لا أشتغل بسُلطان ولا أدخل في شيء من  
أموره ما عشت ، فوقَّع له : إن لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك  
لكان بعض ما استوجبتَه ، ولا سبيل إلى رد مالك ، فإن تَرَكَكَ بِمَعزَلٍ في  
بُلْهَنِيَّةِ الرَّفَاهِيَّةِ وسعة ذات اليد والتخلِّي من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه  
بالنقمة ، فإياس من ذلك فإن اليأس مُرِيح . فسكت لما وقف على هذه الإجابة  
مدة إلى أن أتى عيد فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة مَنْ يلوذ به وهمهم بما  
يفرح به الناس ، فكتب إليه في ذلك رقعة منها : « وقد أتى هذا العيد الذي  
خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى في خراب دولتك ، ممَّن عفوت عنه ،  
فتبَنَّكَ النعمة في ذَرَاكَ ، واقعد ذِرْوَةَ العز ، وأنا على ضدِّ من هذا سلباً من  
النعمة ، مُطَرِّحاً في حضيض الهوان ، أياس ممَّا يكون ، وأقرع السن على ما  
كان » . فلما وقف على هذه الرقعة أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر ، وكتب  
له على ظهر رقعته : « لتعلم أنَّك لم تزل بمقتك ، حتى ثقلت على العين طلمتك ،  
ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ،  
وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلّا ما أقصرت ، ولا يبلغ بك زائد المقت  
إلى أن تضيق بك معي الدنيا ، ورأيتك تشكو لفلان وتتألّم من فلان ، وما  
تَقَوَّلوه عليك ، وما لك عدوٌّ أكبر من لسانك ، فما طاح بك غيره ، فاقطعه  
قبل أن يقطعك » .

ولما فتح الداخل سَرَقُسطة ، وحصل في يدهِ ثائرها الحسين الأنصاري ،  
وشُدخت رؤوس وجوهاها بالعمد ، وانتهى نصره فيها إلى غاية أمله ، أقبل  
خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه به من الجند ، فهنّأه بصوت  
عال ، فقال : والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ عليّ فيه النعمة من هو فوق  
فأوجب عليّ ذلك أن أنعم فيه علي من هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من

سوء النكاح ، من تكون حتى تُقبل مهنتاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيب  
لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ؟ وإن  
جهلك ليحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة ،  
فقال : ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي ، فتشفع  
لي متى أتيت بمثل هذه الزلة ، لا أعدمنيه الله تعالى ؛ فتهلّل وجه الأمير ، وقال :  
ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نبّهونا على أنفسكم ، إذا لم تجدوا من ينبهنا  
عليها ، ورفع مرتبته ، وزاد في عطائه .

ولما أنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال :  
لا تستأصلوا شأفة أعداءٍ ترجون صداقتهم ، واستبّقوهم لأشدّ عداوةٍ منهم ،  
يشير إلى استبقائهم ليستعان بهم على أعداء الدين .

ولما اشتد الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهري ، ورأى شدة مقاساة  
أصحابه ، قال : هذا اليوم هو أس ما يبني عليه ، إمّا ذل الدهر وإمّا عزّ الدهر ،  
فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون .

ولما خرج من البحر أول قدومه على الأندلس أتوه بخمر ، فقال : إنني محتاج  
لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه ، فعرفوا بذلك قدره ؛ ثم أهديت إليه جارية  
جميلة فنظر إليها وقال : إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن أنا اشتغلت عنها  
بهمتي فيما أطلبه ظلمتها ، وإن اشتغلت بها عمّا أطلبه ظلمت همتي ، ولا حاجة  
لي بها الآن ، وردّها على صاحبها .

ولما استقامت له الدولة بلغه عن بعض من أعانه أنّه قال : لولا أنا ما توصل  
لهذا الملك ، ولكان منه أبعد من العيوق ، وأن آخر قال : سعه أعانه ،  
لا عقله وتدييره ، فحركه ذلك إلى أن قال :

لا يُلْفَ ممتنٌ علينا قائلٌ لولايٍ ما ملك الأنامَ الداخلُ  
سَعدي وحزمي والمهند والقنا ومقادِرُ بلغتْ وحالٌ حائلُ

إن الملوكَ معَ الزمانِ كواكبٌ      نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفلٌ  
 والحزم كلُّ الحزمِ أن لا يغفلوا      أيروم تدبيرَ البريةِ غافلٌ  
 ويقول قومٌ سعده لا عقله      خير السعادة ما حماها العاقلُ  
 أبنِي أميةَ قد جبرنا صدعكم      بالغربِ رغماً والسعودُ قبائلُ  
 ما دامَ من نسلي إمامٌ قائمٌ      فالملكُ فيكم ثابتٌ متواصلُ

وحكى ابن حيان أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام حدثوه يوماً في بعض مجالسهم عنده ما كان من الغمّر بن يزيد بن عبد الملك أيام محتتهم ، وكلامه لعبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس الساطي بهم ، وقد حضروا رواقه وفيه وجوه المسوّدّة من دعاة القوم وشيعتهم راداً على عبد الله فيما أراقه من دماء بني أمية ، وثلبهم والبراءة منهم ، فلم تردعه هيئته وعصف ربحه واحتفال جمعه عن معارضته والرد عليه بتفضيله لأهل بيته والذبّ عنهم ، وأتته جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله وأغصه بريقه ، وعاجل الغمر بالحتف ، فمضى وخلف في الناس ما خلف من تلك المعارضة في ذلك المقام ، وكثر القوم في تعظيم ذلك ، فكان الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك الذي كان من الغمّر في جنب ما كان منه في الذهاب بنفسه عن الإذعان لعدوهم ، والأنف من طاعتهم ، والسعي في اقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عنه ، وقام عن مجلسه ، فصاغ هذه الأبيات بديهة :

شتان من قام ذا امتعاض      فشال ما قل<sup>١</sup> واضمحلا  
 ومن غدا مُصلتاً لعزمي      مجرداً للعُداة نصلاً  
 فجاب قفراً وشقّ بجرأ      ولم يكن في الأنام كلاً  
 فشاد ملكاً وشاد عزاً      ومنبراً للخطاب فصلاً

١ ق : فمر ما قال ؛ وآثرنا رواية الحلة السبراء .

وجنّد الجندَ حين أودى ومصرَ المصرَ حين أجلى  
ثمّ دعا أهله جميعاً حيث انتأوا أن هلمّ أهلاً

وله غير ذلك من الشعر ، وسيأتي بعضه ممّا يقارب هذه الطبقة .

وأول ناصر لعبد الرحمن سائر معه في الحمول والاستخفاء مولاه المتقدم الذكر ، سعى في سلطانه شرقاً وغرباً وبراً وبحراً ، فلمّا كمل له الأمر سلبه من كل نعمة ، وسجنه ، ثم أقصاه إلى أقصى الثغر ، حتى مات وحاله أسوأ حال ، والله تعالى أعلم بالسرائر ، فلعلّ له عذراً ويلومه من يسمع مبداه ومآله .

ورأس الجماعة الذين توجه إليهم بدر في القيام بسلطانه أبو عثمان ، ولما توطدت دولة الداخل استغنى عنه وعن أمثاله ، فأراد أبو عثمان أن يشغل خاطره وينظر في شيء يحتاج به إليه ، فجعل ابن أخته يثور عليه في حصن من حصون البيرة ، فوجه عبد الرحمن من قبض عليه وضرب عنقه ، ثم أخذ أبو عثمان مع ابن أخي الداخل ، وزين له القيام عليه ، فسعى لعبد الرحمن بابن أخيه قبل أن يتم أمره ، فضرب عنقه وأعناق الذين دبروا معه ، وقيل له : إن أبا عثمان كان معه ، وهو الذي ضمن له تمام الأمر ، فقال : هو أبو سلمة هذه الدولة<sup>١</sup> ، فلا يتحدث الناس عنه بما تحدثوا عن بني العباس في شأن أبي سلمة ، لكن سأعتبه عبثاً أشد من القتل ، وجعل يوعده ، ثم رجع له إلى ما كان عليه في الظاهر .

وكان صاحبه الثاني في المؤازرة والقيام بالدولة صهره عبد الله بن خالد ، وكان قد ضمن لأبي الصباح رئيس اليمانية عن الداخل أشياء لم يف بها الداخل ، وقتل أبا الصباح ، فانزل عبد الله وأقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته ، فمات منفرداً عن السلطان .

١ يشير إلى أبي سلمة الحلال الذي كان يلقب وزير آل محمد ، وقد تخلص منه العباسيون حين تمهدت الدولة .

وكان ثالثهما في النصره والاختصاص تمام بن علقمة ، وهو الذي عبّر البحر إليه وبشره باستحكام أمره ، فقتل هشام بن عبد الرحمن ولّدَ تمام المذكور ، وكذلك فعل بولد أبي عثمان المتقدم الذكر ، قال ابن حيان : فذاقنا من تُكُلِّ ولديهما على يدي أعز الناس عليهما ما أراهما أن أحداً لا يقدر أن ينظر في تحسين عاقبته .

وإذا تتبع الأمر في الذين يقومون في قيام دولة كان مآلهم مع من يظهرونه هذا المآل وأصعب .

وذكر أن أول حُجَّاب الداخل تمام بن علقمة مولاه ذو العمر الطويل ، ثم يوسف بن بنخت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان ، وله بقرطبة عَقِبٌ نابه ، ثم عبد الكريم بن مهران من ولد الحارث بن أبي شمر الغساني ، ثم عبد الرحمن بن مغيث بن الحارث بن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني ، وأبوه مغيث فاتح قرطبة الذي تقدمت ترجمته ، ثم منصور الحِصِّيُّ ، وكان أول خصيٍّ استحجبه بنو مروان بالأندلس ، ولم يزل حاجبه إلى أن توفي الداخل .

ولم يكن للداخل من ينطلق عليه سِمَةٌ<sup>١</sup> وزير ، لكنّه عين أسيخاً للمشاوره والمؤازرة<sup>٢</sup> ، أولهم أبو عثمان المتقدم الذكر ، وعبد الله بن خالد السابق الذكر ، وأبو عبدة صاحب إشبيلية ، وشُهَيْد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان ابن الحكم ، وكان من سببي البرابر ، وقيل : إنّه رومي ، وبنو شُهَيْد الفضلاء من نسله ، وعبد السلام بن بسيل الرومي مولى عبد الله بن معاوية ، ولولده نباهة عظيمة في الوزارة وغيرها ، وثعلبة بن عبيد بن النظام الجُدّامي صاحب سرقسطة لعبد الرحمن ، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته وأول من خاض النهر وهو عريان يوم الوقعة بقرطبة ، ولعقبه في الدولة نباهة .

١ المقتطفات : تسمية .

٢ المقتطفات : والمؤازرة .

وأول من كتب له عند خلوص الأمر له واحتلاله بقرطبة كبير نُقْبَانِه أبو عثمان وصاحبه عبد الله بن خالد المتقدم الذكر ، ثم لزم كتابته أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان ، وكان في عديد من يشاوره أيضاً ويفضل أمره وآراءه ، وكان يكتب قبله ليوسف الفهري ، وقيل : إنه ممن آتهم في ممالأة اليزيدي في إفساد دولة عبد الرحمن ، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدي واطلاع عبد الرحمن على الأمر .

وذكر ابن زيدون أن الداخل ألقى على قضاء الجماعة بقرطبة يحيى بن يزيد اليحصبي ، فأقره حيناً ، ثم ولّى بعده أبا عمرو معاوية بن صالح الحمصي ، ثم عمر ابن شراحيل ، ثم عبد الرحمن بن طريف ، وكان جدار بن عمرو يقضي في العساكر . وكان الداخل يرتاح ، لما استقر سلطانه بالأندلس ، إلى أن يفدّ عليه فتلّ بيته بني مروان ، حتى يشاهدوا ما أنعم الله تعالى عليه ، وتظهر يده عليهم ، فوفد عليه من بني هشام بن عبد الملك أخوه الوليد بن معاوية وابن عمّه عبد السلام ابن يزيد بن هشام ، قال ابن حبان : وفي سنة ١٦٣ قتل الداخل عبد السلام ابن يزيد بن هشام المعروف باليزيدي ، وقتل معه من الوافدين عليه عبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام ، وهو ابن أخي الداخل ، وكانا تحت تدبير يُبْرِمَانِه في طلب الأمر ، فَوَشَى بهما مولى لعبيد الله بن أبان ، وكان قد ساعدهما على ما همّا به من الخلاف أبو عثمان كبير الدولة ، فلم ينله ما نالهما .

وذكر الحِجَارِي أن الداخل كان يقول : أعظم ما أنعم الله تعالى به علي بعدَ تمكيني من هذا الأمر القدرة على إيواء من يَصِلُ إلي من أقاربي ، والتوسع في الإحسان إليهم ، وكبري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من هذا السلطان الذي لا مِنةَ علي فيه لأحد غيره .

وذكر ابن حزم أنه كان فيمن وفد عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ، فسعى في طلب الأمر لنفسه ، فقتله سنة ١٦٧ ، وقتل معه من أصحابه هذيل بن الصمّيل بن حاتم ، ونفى أخاه الوليد بن معاوية والد المغيرة المذكور إلى العُدوة

بماله وولده وأهله .

وفي « المسهب » حدث بعض موالى عبد الرحمن الحاصين به أنه دخل على الداخل إثر قتله ابن أخيه المغيرة المذكور ، وهو مُطْرَق شديد الغم ، فرفع رأسه إلي وقال : ما عجبني إلا من هؤلاء القوم ، سَعَيْنَا فيما يجمعهم في مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلوا علينا بالسيوف ، ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا ودرّت عليهم أخلافُ النعم هزّوا أعطافهم ، وشمخوا بأنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم إذ أطلعنا على عورتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدّى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم ، وساء أيضاً ظنّه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه ، وإن أشدّ ما علي في ذلك أخي والد هذا المخذول ، كيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه ؟ أم كيف يجتمع بصري مع بصره ؟ اخرج له الساعة فاعتذر إليه ، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه ، واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العُدوة . قال : فلما وصلت إلى أخيه وجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء ، فأنسته وعرفته ، ودفعت له المال ، وأبلغته الكلام ، فتأوّه وقال : إن المشثوم لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه ، وهذا الولد العاق الذي سعى في حثّفه قد سرى ما سعى فيه إلى رَجُلٍ طَلَبَ العافية ، وفتح بكسر بيت في كَنَفٍ من يحمل عنه معرة الزمان وكَلَّه ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله ، لا مرد لما حكم به وقضاه<sup>١</sup> ، ثم ذكر أنه أخذ في الحركة إلى بر العُدوة . قال : ورجعت إلى الأمير فأعلمته بقوله ، فقال : إنّه نطق بالحق ، ولكن لا يحدعني بهذا القول عمّا في نفسه ، والله لو قدر أن يشرب من دمي ما عَفَّ عنه لحظة ، فالحمد لله الذي أظهرنا

١ المقتطفات : لا مرد لحكم به قضى .

عليهم بما نوبناه فيهم ، وأذلم بما نووه فينا .  
واعلم أنه دخل الأندلس أيام الداخل من بني مروان وغيرهم من بني أمية  
جماعة كثيرون سرد أسماءهم غير واحد من المؤرخين ، وذكر أعقابهم  
بالأندلس ، ومنهم جزيّ بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز ، وسيأتي قريباً .  
وقد ثار على عبد الرحمن الداخل من أعيان الغرب وغيرهم جماعة كثيرون  
ظفّره الله تعالى بهم ، وقد سبق ذكر بعضهم ، ومنهم الدعي الفاطمي البربري  
بشنت مربة فأعيا الداخل أمره ، وطال شره سنين متوالية ، إلى أن فتك به بعض  
أصحابه فقتله .

ومنهم حيوة بن ملابس الحضرمي رئيس إشبيلية ، وعبد الغفار بن حميد  
اليحصبي رئيس لبلة ، وعمرو بن طالوت رئيس باجة ، اجتمعوا وتوجهوا  
نحو قرطبة يطلبون دم رئيس اليمانية أبي الصباح ، فقتلوا في هزيمة عظيمة ،  
وقيل : نجوا بالفرار ، فأمنهم الداخل .

وفي سنة ١٥٧ ثار بسرّ قسطة الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد  
ابن عبادة الخزرجي ، وشايعة سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي رأس الفتن ،  
وآل أمرهما إلى أن فتك الحسين بسليمان ، وقتل الداخل الحسين كما مر .  
وفي سنة ١٦٣ ثار الرماحس بن عبد العزيز الكناني بالجزيرة الخضراء ،  
فتوجه له عبد الرحمن الداخل ، ففر في البحر إلى المشرق .

قال ابن حيان : كان مولد عبد الرحمن الداخل سنة ١١٣ ، وقيل : في  
التي قبلها ، بالعلياء من تدمر ، وقيل : بدير حنا من دمشق ، وبها توفي أبوه  
معاوية في حياة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، وكان قد رشّحه للخلافة -  
وبقبر معاوية المذكور استجار الكميّ الشاعر حين أهدر هشام دمه - . وتوفي  
الداخل لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧١ ، وهو ابن سبع وخمسين سنة وأربعة



أشهر ، وقيل : اثنتان وستون سنة ، ودفن بالقصر من قرطبة ، وصلى عليه  
ابنه عبد الله .

وكان منصوراً مؤيداً مُظفراً على أعدائه ، وقد سردنا من ذلك جملة ،  
حتى قال بعضهم : إن الراية التي عقدت له بالأندلس<sup>١</sup> حين دخلها لم تُهزَم قط ،  
وإن الوهن ما ظهر في ملك بني أمية إلا بعد ذهاب تلك الراية ، قال أكثر هذا  
مؤرخ الأندلس الثبّت الثقة أبو مروان ابن حيان ، رحمه الله تعالى .

ولا بأس أن نورد زيادة على ما سلف وإن تكرر بعض ذلك ، فنقول :  
قال بعض المؤرخين من أهل المغرب بعد كلام ابن حيان الذي قدمنا ذكره ،  
ما نصّه<sup>٢</sup> : كان الإمام عبد الرحمن الداخل راجح العقل ، راسخ الحلم ، واسع  
العلم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، لم تُرفع له قط راية على عدوٍ إلا هزمه ، ولا  
بلد إلا فتحه ، شجاعاً ، مقداماً ، شديد الحذر ، قليل الطمأنينة ، لا يُخلى إلى  
راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكمل الأمر إلى غيره ، كثير الكرم ، عظيم  
السياسة ، يلبس البياض ويعتم<sup>٣</sup> به ، ويعود المرضى ويشهد الجنائز ، ويصلي  
بالناس في الجُمع والأعياد ، ويخطب بنفسه ، جنّد الأجناد وعقد الرايات واتخذ  
الحجّاب والكتّاب ، وبلغت جنوده مائة ألف فارس .

وملخص دخوله الأندلس أنّه لما اشتدّ الطلب على قتلّ بني أمية بالمشرق  
من وارثي ملكهم بني العباس خرج مستتراً إلى مصر ، فاشتدّ الطلب على مثله ،  
فاحتال حتى وصل برقة ، ثم لم يزل متوغلاً في سيره إلى أن بلغ المغرب الأقصى ،  
ونزل بنفزة ، وهم أخواله ، فأقام عندهم أياماً ثم ارتحل إلى مُغيلة بالساحل ،  
فأرسل مولاة بدرأ بكتابه إلى موالِيهم بالأندلس عبيد الله بن عثمان وعبد الله  
ابن خالد وتمام بن علقمة وغيرهم ، فأجابوه واشتروا مركباً وجهّزوه بما يحتاج

١ المقتطفات : في الأندلس بين الزيتونتين .

٢ قد تقدم أن هذا النص لابن حيان . ( انظر ص ٢ : ٣٧ ) .

إليه ، وكان الذي اشتراه عبيد الله بن عثمان ، وأركب فيه بدرأ ، وأعطاه خمسمائة دينار برسم النفقة ، وركب معه تمام بن علقمة ، وبينما هو يتوضأ لصلاة المغرب على الساحل إذ نظر إلى المركب في بلجة البحر مقبلاً حتى أرسى أمامه ، فخرج إليه بدر ساجحاً ، فبشّره بما تم له بالأندلس ، وبما اجتمع عليه الأمويون والموالي ، ثم خرج إليه تمام ومن معه في المركب فقال له : ما اسمك وما كنيته ؟ فقال : اسمي تمام ، وكنيتي أبو غالب ، فقال : تم أمرنا وغلبنا عدوّنا إن شاء الله تعالى ، ثم ركبوا المركب معه فتزل بالمتكب ، وذلك غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ .

فلما اتصل خبر جَوّازه بالأموية أتاه عبيد الله بن عثمان وجماعة فتلقوه بالإعظام والإكرام ، وكان وقت العصر ، فصلّى بهم العصر ، وركبوا معه إلى قرية طُرُش من كور البيرة فتزل بها ، وأتاه بها جماعة من وجوه الموالي وبعض العرب ، فبايعوه وكان من أمره ما يُذكر ، وقيل : إنّه أقام بالبيرة حتى كمل من معه ستمائة فارس من موالي بني أمية ووجوه العرب ، فخرج من البيرة إلى كورة رية فدخلت في جماعته ثم بايعته أهلها وأجنادها ، ثم ارتحل إلى شدونة ثم إلى مورور ، ثم سار إلى إشبيلية .

وقال بعضهم : لما أراد عبد الرحمن قصد قرطبة عند دخوله الأندلس من المشرق نزل بطشانة ، فأشاروا عليه أن يعقد له لواء ، فجاءوا بعمامة وقناة ، ففكروا أن يمسيلوا القناة تطيراً ، فأقاموها بين شجرتين من الزيتون متجاورتين ، وصعد رجل على فرع إحداهما فعقد اللواء والقناة قائمة ، وتبرك هو وولده بهذا اللواء ، فكان بعد أن بلسي لا تحل منه العقدة التي عقدت أولاً ، بل تُعقد فوقها الألوية الجدد ، وهي مستكنة تحتها ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وقيل : إلى ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، فاجتمع الوزراء على تجديد اللواء ، فلما رأوا تحت اللواء أسمالاً خَلَقَة ملفوفة

معقدة جهلها فاسترذلوها ، وأمروا بجلتها ونبذها ، وجدّوا غيرها ، وكان  
 جهور بن يوسف بن بخت شيخهم غائباً ، فحضر في اليوم الثاني وطولع بالقصة ،  
 فأنكرها أشد إنكار وساءه ما فعلوه ، وقال : إن جهلم شأن تلك الأخلاق فكان  
 ينبغي أن تتوقفوا عن نبذها حتى تسألوا المشايخ وتفكروا في أمرها ، وخبرهم  
 خبرها ، فطلبوا تلك الأخلاق فلم توجد ، ويقال كما قال ابن حبان : إنّه  
 لم يزل يعرف الوهّان في ملك بني أمية بالأندلس من ذلك اليوم ، وقد كان الذي  
 عقده أولاً عبد الله بن خالد من موالي بني أمية ، وكان والده خالد عقد لواء  
 مروان بن الحكم جدّ عبد الرحمن الأعلى لما اجتمع عليه بنو أمية وبنو كلب  
 بعد انقراض دولة بني حرّب على قتال الضحّاك بن قيس الفهري يوم مرّج  
 رَاهِط ، فانصر على الضحّاك وقتله ، ولما عرف الأمير بقصة اللّواء حزن أشدّ  
 حزن ، وانفتقت عليه إثر ذلك الفتوقُ العظام ، وكانوا يرون أنّها جرت  
 بسبب اللّواء لأنّه لم ينهزم قط جيش كان تحته ، على ما اقتضته حكمة الله التي  
 لا تتوصّل إليها الأفكار ، وتولى حمل هذا اللّواء لعبد الرحمن الداخل أبو  
 سليمان داود الأنصاري ، ولم يزل يحمله ولده من بعده إلى أيام محمد بن عبد  
 الرحمن .

ولما تلاقى عبد الرحمن الداخل مع أمير الأندلس يوسف الفهري بالقرب  
 من قرطبة وتراسلا ، فخادعه يومين آخرهما يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين  
 ومائة ، أظهر عبدُ الرحمن قبولَ الصلح ، فبات الناسُ على ذلك ليلة العيد ،  
 وكان قد أسرّ خلافَ ما أظهر ، واستعد للحرب ، ولما أصبح يوم الأضحى لم  
 يتنشب أن غشيت الخيلُ ، ووكلَ عبد الرحمن بخالد بن زيد الكاتب رسولَ  
 يوسف جماعةً ، وأمرهم إن كانت الدائرة عليهم أن يضربوا عنقه ، وإلاّ فلا ،  
 فكان خالد يقول : ما كان شيء في ذلك الوقت أحبّ إليّ من غلبة عبد الرحمن  
 الداخل عدوّ صاحبي ، وركب عبد الرحمن جواداً ، فقالت اليمانية الذين أعانوه :  
 هذا فتى حديث السنّ تحته جواد وما نأمن أول ردّةٍ يردعها أن يطير منهزماً

على جواده ويدعنا ، فأتى عبد الرحمن أحدُ مواليه فأخبره بمقاتلهم ، فدعا أبا الصباح ، وكان له بغل أشهب يسميه الكوكب ، فقال له : إن فرسي هذا قلق تحتي ، لا يمكنني من الرمي ، فقدم لي بغلك المحمود أركبه ، فقدّمه ، فلماً ركب اطمأن أصحابه ، وقال عبد الرحمن لأصحابه : أي يوم هذا ؟ قالوا : الخميس يوم عرفة ، فقال : فالأضحى غداً يوم الجمعة ، والمتزاحقان أموي وفهري ، والجنندان قيس وبعن ، قد تقابل الأشكال جدّاً ، وأرجو أنه أخو يوم مَرَجِ راهط ، فأبشروا وجِدُّوا ، فذكرهم يوم مرج راهط الذي كانت فيه الوقعة بين جده مروان بن الحكم وبين الضحاك بن قيس الفهري ، وكانت يوم الجمعة ويوم أضحى ، فدارت الدائرة لمروان على الضحاك ، فقتل الضحاك ، وقتل معه سبعون ألفاً من قبائل قيس وأحلافهم ، وقيل : إنّه لم يحضر مَرَجِ راهط من قيس مع مروان غير ثلاثة نفر : عبد الرحمن<sup>١</sup> بن مسعدة الفزاري ، وابن هبيرة المحاربي ، وصالح الغنوي ، وكذا لم يحضر مع عبد الرحمن الداخل يوم المصارة غربي قُرْطُبة من قيس غير ثلاثة : جابر بن العلاء بن شهاب ، والحسين بن الدجن ، والعقيليان ، وهلال بن الطفيل العبدي ، وكان الظفر لعبد الرحمن ، وانهمزم يوسف ، وصبر الصّميل بن حاتم بعده معذراً وعشيرته يحفونه ، فلماً خاف انهزامهم عنه تحول على بغله الأشهب معارضة لعبد الرحمن الداخل ، فمرّ به أبو عطاء فقال له : يا أبا جوشن ، احتسب نفسك ، فإن للأشباه أشباهاً : أموي بأموي ، وفهري بفهري ، وكلبي بكلبي ، ويوم أضحى بيوم أضحى ، وبغني بغيبي ، والله إنّي لأحسبُ هذا اليوم بمثل مَرَجِ راهط سواء ، فقال له الصّميل : كبرت وكبر علمك ، الآن تنجلي الغمائم ، وسحرك<sup>٢</sup> منتفخ ، فأنثى أبو عطاء لوجهه منقلباً ، وانهمزم الصّميل ، وملك عبد الرحمن قُرْطُبة .

١ دوزي : عبد الله .

٢ السحر : الرثة .

ويوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهري ، باني القيروان ، وأمير معاوية على إفريقية والمغرب ، وهو مشهور . وأما الصَّمِيل فهو ابن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن ، وقيل : الصَّمِيل بن حاتم بن عمرو بن جُنْدَع بن شمر بن ذي الجوشن ، كان جدّه شمر من أشرف الكوفة وهو أحد قتلة الحسين ، رضي الله تعالى عنه ، ودخل الصَّمِيل الأندلس حين دخل كُثُوم بن عياض المغرب غازياً ، وساد بها ، وكان شاعراً كثير السكر أميّاً لا يكتب ، ومع ذلك فانتهت إليه في زمانه رياسة العرب بالأندلس ، وكان أميرها يوسف الفهري كالمغلوب معه ، وكانت ولاية الفهري الأندلس سنة تسع وعشرين ومائة ، فدانت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه كما مرّ انتقل سلطانها إلى بني أميّة ، واستفحل مُلْكهم بها إلى بعد الأربعمائة ، ثم انتثر سلكهم ، وباد ملكهم ، كما وقع لغيرهم من الدول في القرون السالفة ، سنّة الله التي قد خلت في عباده .

وكانت مدّة الأمراء قبل عبد الرحمن الداخل من يوم فُتحت الأندلس إلى هزيمة يوسف الفهري والصَّمِيل ستّاً وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام ، لأن الفتح كان حسبما تقدم لحمس خَلَوْنَ من شوال سنة اثنتين وتسعين ، وهزيمة يوسف يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، والله غالب على أمره .

وحكي أن عبد الرحمن بن معاوية دخل يوماً على جده هشام ، وعندهُ أخوه مَسْلَمَة بن عبد الملك ، وكان عبد الرحمن إذ ذاك صبيّاً ، فأمر هشام أن يُنَحِّي عنه ، فقال له مَسْلَمَة : دعه يا أمير المؤمنين ، وضمّه إليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذا صاحب بني أمية ، ووزرُهم عند زوال ملكهم ، فاستَوْصِ به خيراً ، قال : فلم أزل أعرف مزيةً من جدي من ذلك الوقت .

وكان الداخل يقاس بأبي جعفر المنصور في عزمه وشدّته وضبط المملكة ، ووافقه في أن أمّ كلّ منهما بربرية ، وأن كلاّ منهما قتل ابن أخيه ، إذ قتل

المنصور ابن السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية .  
ومن شعر عبد الرحمن وقد رأى نخلة برُصافته<sup>١</sup> :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة<sup>٢</sup> تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل  
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول اكتابي عن بني وعن أهلي  
نشأت بأرض أنت فيها غريبة<sup>٣</sup> فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي  
سقتك غواصي المزن في المنتأى الذي يسح<sup>٤</sup> ويستمرى السماكين<sup>٥</sup> بالوبل

وكان نقش خاتمه « بالله يثق عبد الرحمن ، وبه يعتصم » . وأشاع سنة ١٦٣  
الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العباس ، وكاتب جماعة من أهل بيته ومواليه  
وشيعة ، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس في طائفة ، ويذهب بعامة  
من أطاعه ، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين<sup>٦</sup> الأنصاري الذي انتزى  
عليه بسر قسطة ، فبطل ذلك العزم .

ومن شعر عبد الرحمن أيضاً قوله يتشوق إلى معاهد الشام<sup>٧</sup> :

أيها الراكب الميمم أرضي اقر مني بعض السلام لبعضي  
إن جسمي كما علمت بأرض وفوايدي ومالكه بأرض  
قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي  
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وترجمة الداخلة طويلة ، وقد ذكر منها ما فيه مقنع ، انتهى ؛ والله تعالى  
الموفق للصواب .

١ انظر ابن عذاري ٢ : ٦٢ والخلة السيرا : ٣٧ .

٢ المقتطفات و ق : يصح ويستمرى المساكين .

٣ المقتطفات و ق : الحسن ؛ وقد تقدم ذكره باسم « الحسين » .

٤ تقدمت هذه الأبيات ص : ٣٨ .

وفي بنائه جامع قرطبة يقول بعضهم :

وأبرزَ في ذات الإلهِ ووجههِ      ثمانين ألفاً من لُجَيْنِ وَعَسْجِدِ  
وأنفقها في مسجدِ زانهُ التقي      وقرَّ به دينُ النبي محمدِ  
ترى الذهب الوهاج بين سموكه      يلوحُ كلمح البارق المتوقدِ

٣٣ - ومن الوافدين على الأندلس أبو الأشعث الكلبي<sup>١</sup> ، دخل الأندلس ، وكان شيخاً مُسنناً يروي عن أمه عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، إلا أنه كان مُندراً صاحب دُعابة ، وكان مختصاً بعبد الرحمن بن معاوية ، وله منه مكانة لطيفة يُدلُّ بها عليه ، ولما توفي حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد ابن عبد الملك بن مروان ، وكانت له من عبد الرحمن خاصة لم تكن لأحد من أهل بيته ، جعل عبد الرحمن يبكي ويجهتد في الدعاء والاستغفار لحبيب ، وكان إلى جنبه أبو الأشعث هذا قائماً ، وكانت له دالة عليه ودُعابة يحتملها منه ، فأقبل عند استعباره كالمخاطب للمتوفى علانية يقول : يا أبا سليمان ، لقد نزلت بحُفرة قلما يغني عنك فيها بكاء الخليفة عبد الرحمن بَعْرَةً ، فأعرض عنه عبد الرحمن ، وقد كاد التيسم يغلبه ؛ هكذا ذكره ابن حبان رحمه الله تعالى في «المقتبس» ، ونقله عنه الحافظ ابن الأبار .

٣٤ - ومن الداخلين إلى الأندلس جُزَيُّ بن عبد العزيز<sup>٢</sup> ، أخو عمر بن عبد العزيز ، رضي الله تعالى عنه ؛ دخل الأندلس ، ومات في مدة الداخل ، وكان من أولياء الله تعالى مقتنياً سبيل أخيه عمر بن عبد العزيز ، رحمهما الله تعالى .

١ انظر التكملة : ٢١٣ والنقل عنه حرفي دون إخلال أو إيجاز . والترجمة في «المقتطفات» :

١٢٣ ، وفي ق : أبو الأشعث الكلبي .

٢ الجمهرة : ١٠٥ وقال ابن حزم : ولجزي عقب بقرطبة ؛ وترجمته في الجذوة : ١٧٨ (وبنية

الملتس رقم : ٦٢٧) .

٣٥ - ومنهم بكر بن سوادة بن ثمامة ، الجُدّامي<sup>١</sup> ويكنى أبا ثمامة ،  
 وجدّه صحابي ، وكان بكر هذا فقيهاً كبيراً من التابعين ، روى عن جماعة من  
 الصحابة كعبد الله بن عمرو بن العاص وقيس بن سعد بن عبادة وسهّل بن سعد  
 السّاعدي وسفيان بن وهب الخولاني وحبّان بن سمح الصّدائحي ، - وقيد اسمه  
 الدارقطني رحمه الله تعالى حبّان ، بكسر الحاء المهملة ، وباء معجمة بواحدة ،  
 ونقله الأمير كذلك ، وهو ممّن وقّد على رسول الله صلى الله عليه وسلّم ،  
 وشهد فتح مصر ، قال ابن يونس : ويقال فيه حبّان بالكسر ، وحبّان بالفتح  
 أصح ، انتهى ، وضبطه بعضهم بالياء المثناة تحت - .

رجع - وممّن روى عنه بكر من الصحابة أبو ثور الفهّمي ، وأبو عميرة  
 المزني ، وروى عن جماعة من التابعين أيضاً كسعيد بن المسيّب وأبي سلّمة  
 ابن عبد الرحمن وعروة بن الزبير وجماعة سواهم يكثر عددهم ويطول سردُهم ،  
 منهم ربيعة بن قيس الجملي وأبو عبد الرحمن الحُبلي وزياد بن نعيم الحضرمي  
 وسفيان بن هانئ الجيشاني وسعيد بن شمر السبائي وعبد الله بن المستورد بن  
 شداد الفهري وعبد الرحمن بن أوس المزني وزيادة بن ثعلبة البَلّوي وشيبان بن  
 أمية القتباني وعامر بن ذريح الحميري وعمير بن الفيض اللخمي وأبو حمزة  
 الخولاني وعياض بن فروخ المعافري ومسلم بن مخشي المدبجي<sup>٢</sup> وهانئ بن معاوية  
 الصدي وغيرهم ممّن اشتمل على ذكرهم التاريخان لابن عبد الحكم وابن يونس .  
 وممّن روى عن بكر المذكور عبد الله بن لهيعة وعمرو بن الحارث وجعفر  
 ابن ربيعة وأبو زُرعة ابن عبد الحكم الإفريقي وغيرهم .

قال ابن يونس : توفي بإفريقية في خلافة هشام بن عبد الملك ، وقيل : بل

١ انظر ترجمته في الجذوة : ١٦٩ (وبغية الملتبس رقم : ٥٨٦) ورياض النفوس ١ : ٧٤ ومعالم

الإيمان ١ : ١٦٠ .

٢ ق : المرنجي ؛ ولم ينسبه الذهبي في ميزان الاعتدال ( ١ : ١٠٧ ) وقال : تفرد بحديث الفراسي

في ماء البحر ؛ ما حدث عنه غير بكر بن سوادة .



غرق في مجاز الأندلس ، سنة ثمان وعشرين ومائة ، قال : وجدته ثمامة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله بمصر حديث رواه عمرو بن الحارث .

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد القيرواني المالكي في تاريخه المسمّى بـ «رياض النفوس» وقد ذكر بكرةً هذا : إنّه كان أحد العشرة التابعين ، يعني الموجهين إلى إفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز في خلافته ليفقهوا أهل إفريقية ويعلموهم أمر دينهم ، قال : وأغرب بحديث عن عقبة بن عامر ، لم يروه غيره فيما علمت ، حدث عبد الله بن لهيعة عنه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان رأس مائتين فلا تأمر بمعروف ، ولا تنه عن منكر ، وعليكَ بخاصة نفسك » ، وحكى المالكي أيضاً عن أبي سعيد بن يونس قال : كان فقيهاً مفتياً ، سكن القيروان ، وكانت وفاته كما تقدم ، وذكره الحمييدي في الداخلين إلى الأندلس ، ولم يذكره ابن الفرضي .

٣٦ - ومنهم رزّيق بن حكيم<sup>١</sup> ، أحد المعدودين في الداخلين إلى الأندلس ، ذكره أبو الحسن ابن النعمة عن أبي المطرف عبد الرحمن بن يوسف الرفاء القرطبي ، وحكى أنّه كتب ذلك من خطّه ، وسمّاه مع جماعة منهم حبان بن أبي جبلة وعلي بن أبي رباح وأبو عبد الرحمن الحُبلي وحنش بن عبد الله الصنعاني ومعاوية ابن صالح وزيد بن الحباب العكلي ، وانتهى عددهم برزّيق هذا سبعة ، ولم يذكره ابن الفرضي ولا غيره ، قاله الحافظ أبو عبد الله القضاعي .

٣٧ - ومنهم زيد بن قاصد السكسكي<sup>٢</sup> . قال ابن الأبار : وهو تابعي ، دخل الأندلس وحضر فتحها ، وأصله من مصر ، يروي عن عبد الله بن عمرو

١ ق : زريق ؛ وأثبت ابن الأبار في حرف الراء « رزّيق » ( التكملة : ٣٢٤ ) وكذلك ساه الذهبي في المشته : ٣١٢ واسم والده مصفر أيضاً ؛ وما أورده المقرئ في ترجمته منقول عن ابن الأبار .  
٢ التكملة : ٣٣٠ والحدوة : ٢٠٤ ( وبغية المتلس رقم : ٧٥٧ ) .

ابن العاص رضي الله تعالى عنه ، وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ، ذكره يعقوب بن سفيان ، وأورد له حديثاً ؛ من كتاب الحميدي <sup>١</sup> ، انتهى .

٣٨ - ومنهم زرعة بن روح الشامي <sup>٢</sup> ؛ دخل الأندلس ، وحدّث عنه ابنه مسلمة بن زرعة بحكاية عن القاضي مهاجر بن نوفل .

٣٩ - ومنهم محمد بن أوس بن ثابت ، الأنصاري <sup>٣</sup> ، قال ابن الأبار : تابعي ، دخل الأندلس ، يروي عن أبي هريرة ، قرأته بخط ابن حبيش ، وقال أبو سعيد ابن يونس مؤرخ مصر : إنّه يروي عنه الحارث بن يزيد ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان ، وكان غزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير ، ويروي عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ وقال الحميدي : إنّه كان من أهل الدين والفضل معروفاً بالفقه ، وليَ بحر إفريقية سنة ثلاث وتسعين ، وغزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير ، فيما حكاها ابن يونس صاحب تاريخ مصر ، وكان على بحر تونس سنة ثنتين ومائة على ما حكاها عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم . ولما قُتل يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية اجتمع رأي أهلها عليه ، فولوه أمرهم ، وذلك في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان ، إلى أن ولي بشر بن صفوان الكلبي إفريقية ، وكان على مصر فخرج إليها واستخلف أخاه حنظلة ، انتهى .

٤٥ - ومنهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ، الأموي <sup>٤</sup> ، فرّ من الشام خوفاً من المسوذة ، فمر بمصر ومضى إلى الأندلس ، وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فأكرمه ونوّه به ، وولاه إشبيلية لأنّه

١ يريد ابن الأبار أنه نقل هذه الترجمة من كتاب الحميدي ( جذوة المقتبس ) .

٢ انظر التكملة : ٣٣٦ .

٣ ترجمته في التكملة : ٣٥٤ وجذوة المقتبس : ٤٢ ( وبغية الملتبس رقم : ٦٧ ) .

٤ ترجمته في الحلة السراء : ١ : ٥٦ والمقتطفات : ١٢٣ .

كان قُعدد بني أمية ، ثمَّ إنَّه لما وجد الداخل يدعو لأبي جعفر المنصور أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة ، وذكره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية ، فتوقف عبد الرحمن في ذلك ، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنَّه قال له حين امتنع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي ، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة بالمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر ، ولما زحف أهل غرب الأندلس نحو قرطبة لحرب الأمير عبد الرحمن أنهض إليهم عبد الملك هذا ، فهض في معظم الجيش ، وقدم ابنه أمية أمامه في أكثر العساكر ، فخالطهم أمية ، فوجد فيهم قوَّة ، فخاف الفضيحة معهم ، فانحاز منهزماً إلى أبيه ، فلما جاءه سقِطَ في يده ، وقال له : ما حملك على أن استخففت بي وجرأت الناس عليَّ والعدوِّ؟ إن كنتَ قد فررت من الموت فقد جئتَ إليه ، فأمر بضرب عنقه ، وجمع أهل بيته وخاصته وقال لهم : طُردنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع ، ونحسد على لقمة تبقِّي الرمتق ، اكسروا جفون السيوف ، فالموت أولى أو الظفر ، ففعلوا وحملوا ، وتقدمهم ، فهزم اليمانية وأهل إشبيلية ، ولم تقم بعدها لليمانية قائمة ، وقتل بين الفريقين ثلاثون ألفاً ، وجرح عبد الملك ، فأتاه عبد الرحمن وجرحه بجري دمًا وسيفه يقطر دمًا ، وقد لصقت يده بقائم سيفه ، فقَبَّل بين عينيه ، وجزَّاه خيراً ، وقال له : يا ابن عمِّ ، قد أنكحتُ ابني وولي عهدي هشاماً ابنتك فلانة ، وأعطيتها كذا وكذا ، وأعطيتك كذا ، ولأولادك كذا ، وأقطعتك وإياهم كذا ، ووليتكم الوزارة .

ومن شعره لما نظر نخلة منفردة بإشبيلية فتذكر وطنه بالشام ، وقال<sup>١</sup> :

١ نسب ابن الأبار هذه الأبيات لعبد الرحمن الداخل (الحلة : ٣٧) ثم قال : وقد قيل إن الأبيات الأربعة الأولى (تبدت لنا وسط الرصافة نخلة . . .) لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك ، وقيل في الأبيات الأخيرة (يا نخل أنت غريبة . . .) إنها لعبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ؛ ثم عاد فذكر أن هناك ما يقوي نسبتها إلى عبد الرحمن .

يا نَخْلَ أنت فريدة مثلي في الأرض نائية عن الأهلِ  
تبكي وهل تبكي مكمة عجماء لم تُجَبَّلْ على جبلي  
ولو أنها عَقَلَتْ إذا لبكت ماء الفُرات ومنبت النخلِ  
لكنها حُرِمَتْ وأخرجني بَغْضِي بني العباسِ عن أهلي

٤١ - ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس هاشم بن الحسين بن إبراهيم ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين . ونزل حين دخوله بلبلّة ، وتُعرف منازلهم فيها بمنازل الهاشمي ، وذكره أمير المؤمنين الحكم المستنصر في كتابه « أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب » .

٤٢ - ومن الداخلين إلى الأندلس عبد الله بن المغيرة ، الكنافي<sup>١</sup> ، حليف بني عبد الدار ، سماه أبو محمد الأصيلي الفقيه في الداخلين الأندلس من التابعين ، حكى ذلك عنه أبو القاسم ابن بشكّو<sup>٢</sup> في مجموعته المسمى بـ « التنبيه والتعيين » ، قال ابن الأبار : وما أراه يُتَابَع عليه ؛ وذكره أبو سعيد ابن يونس من أهل إفريقية ، انتهى ، وذكر أنه يروي عن سفيان بن وهب الخولاني .

٤٣ - ومنهم عبد الله المعمر<sup>٢</sup> الذي طرأ على الأندلس في آخر الزمان ، وكان يزعم أنه لقي بعض التابعين . قال ابن الأبار : روى عنه أبو محمد أسد الجهنبي ، ذكر ذلك القَبْشِيّ ، وفيه عندي نظر ، انتهى .

٤٤ - ومنهم أبو عمرو عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب ، المهري<sup>٣</sup> ، روى عن أبي ذر ، وقيل : عن أبي نضرة عن أبي ذر ، وعائشة وعمرو بن العاص

١ ترجمته في التكملة : ٧٧٢ .

٢ التكملة : ٩١٢ .

٣ ترجمته في التكملة رقم : ١٥٢٥ ، وفيه « ابن ذؤيب » .

وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وأبي نضرة الغفاري<sup>١</sup> وعقبة بن عامر الجهني وعوف ابن مالك الأشجعي ، ومعاوية بن حُديج ومسلمة بن مخلد وأبي رهم ، ذكره ابن يونس في تاريخ مصر ، وسمّاه ابن بشكُوال في الداخلين الأندلس من التابعين ، وروى ذلك عن الحُمَيْدي ، قاله ابن الأبار ؛ وقال ابن يونس : وآخر من حدّث عنه بمصر حرملة بن عمران .

٤٥ - ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق عبد الله بن سعد بن عمّار ابن ياسر<sup>٢</sup> ، رضي الله تعالى عنه ، وقد ذكره ابن حيّان في مقتبسه ، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري كتب له أن يدافع عبد الرحمن الرواني الداخل للأندلس ، وكان المذكور إذ ذاك أميراً على اليمانية من جند دمشق ، وإنّما ركّنَ إليه في محاربة عبد الرحمن لما بين بني عمّار وبني أميّة من الثأر بسبب قتل عمّار بصفتين ، وكان عمّار رضي الله تعالى عنه من شيعة علي ، كرّم الله وجهه .

وهذا عبد الله بن سعد هو جدُّ بني سعيد أصحابِ القلعة الذين منهم عدّة رؤساء وأمراء وكتّاب وشعراء ، ومنهم صاحب « المغرب » وغير واحد ممّن عرفنا به في هذا الكتاب ، ومن مشاهيرهم أبو بكر محمد بن سعيد بن خلف ابن سعيد صاحب أعمال غرناطة في مدة الملتَمين ، قال : وهو القائل يفتخر<sup>٣</sup> :

إن لم أكنْ للعلاء أهلاً بما تراهُ فمن يكونُ  
فكلُّ ما أبتغيه دوني ولي على همّتي ديونُ  
ومن يرّمُ ما يقلُّ عنه فذاك من فعله جنونُ

١ التكملة : أبي بصرة ؛ وذكر صاحب الأغاني أن أبا بصرة الغفاري المحدث هو والد عزة صاحبة كثير ؛ قال : واسمه صميل بن وقاص ( ٩ : ٢٤ ) .  
٢ انظر ما تقدم : ج ٢ : ٣٣٠ .  
٣ مرت هذه الأبيات والتي تليها ، ج ٢ : ص ٣٣١ من هذا الكتاب .

فرعٌ بأفقِ السماءِ سامٍ وأصلُهُ راسخٌ مَكِينٌ

وقوله :

اللهُ يعلمُ أنِّي أحبُّ كَسْبَ المعالي  
وإنما أتواني عنها لسوء المآل  
تحتاجُ للكدِّ والبذلِ واصطناعِ الرجالِ  
دعُ كلَّ منْ شاء يسمو لها بكلِّ احتيالِ  
فحالهم في انعكاسٍ بها وحالي وحالي

وتراجمهم واسعة ، وقد بسّطت في « المسهب » و « المغرب » وغيرهما ، وقد قدمنا في الباب قبل هذا من أخبار بني سعيد هؤلاء ما يشلج الصدر فليراجع .

٤٦ - ومن الواقدين على الأندلس من المشرق أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر بن إسحاق بن عمرو بن مزاحم بن غياث ، التميمي ، البخاري <sup>١</sup> ، الحافظ ، نزيل مصر .

سمع ببخارى بلده من إبراهيم بن محمد بن يزداد وأخيه أحمد ، وكانا يرويان معاً عن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي وعن أبي الفضل السليماني ببيكند ، وأبي عبد الله محمد بن أحمد المعروف بغنّجار ، وأبي يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبي وأقرانه باليمن ، وأبي القاسم تمام بن محمد الرازي بدمشق ، وابن أبي كامل بأطرابلس الشام ، وأبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ بمصر ، وله رواية عن أبي نصر الكلاباذي وأبي عبد الله الحاكم وأبي بكر بن فورك المتكلم وأبي العباس ابن الحاج الإشبيلي وأبي القاسم علي بن أحمد الخزاعي صاحب الهيثم ابن كليب وأبي الفضل العباس بن محمد الحدّاد التنيسي وأبي الفتح محمد بن إبراهيم الجحدري وأبي بكر محمد بن داود العسقلاني وهلال الحفار وصدقة بن محمد

١ ترجمته في التكملة رقم : ١٦٧١ .

ابن مروان الدمشقي ، ولقي بإفريقية العابد وليّ الله سيدي محرز بن خلف التميمي مولاهم وصحبته ، وقال : لقد هبته يوم لقيته هيبته لم أجدها لأحد في نفسي من الناس ، ودخل الأندلس وبلاد المغرب ، وكتب بها عن شيوخها ، ولم يزل يكتب إلى أن مات حتى كتب عمّن دونه ، وله « رسالة الرحلة » وأسبابها وقول لا إله إلاّ الله وثوابها » ، فسمع منه أبو عبد الله الرازي وذكره في مشيخته ، قال الحافظ ابن الأبار : ومنها نقلت اسمه وتعرّفت دخوله الأندلس ، وحدث عنه هو وجماعة منهم أبو مروان الطنبلي - وقال : هو من الرحالين في الآفاق ، أخبرني أنّه يحدث عن مئين من أهل الحديث - وأبو عبد الله الحميدي وأبو بكر [ جماهر بن عبد الرحمن ]<sup>٢</sup> الطلّسّيّ وأبو عبد الله ابن منصور الحضرمي وأبو سعيد الرهاوي وأبو محمد جعفر بن محمد السراج وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي وأبو الحسن ابن مشرف الأنماطي وأبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي وأبو محمد شعيب بن سبعون الطرطوشي وأبو بكر ابن نعمة العابد<sup>٣</sup> وأبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الغراف<sup>٤</sup> وأبو عثمان سعد بن عبد الله الحيدري من شيوخ السلفي ، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمي ، وأبو إسحاق الكلّاعي من شيوخ أبي بجر الأسدي ، وأبو محمد ابن عتاب كتب إليه بجميع ما رواه ولم يعرف ذلك في حياته . وسمّاه أبو الوليد ابن الدباغ في الطبقة العاشرة من طبقات أئمة المحدثين من تأليفه ، مع أبي عمر ابن عبد البر وأبي محمد ابن حزم وأبي بكر ابن ثابت الخطيب ، وذكره أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه ، وقال : سمع بما وراء النهر والعراق ومصر واليمن والقيروان ، ثم سكن مصر وقدم دمشق قديماً وحدث بها ، وسمى جماعة كثيرة من الرواة عنه ، وحكى أنه قال : لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضي وأجيء بها ،

١ التكملة : رسالة الرحمة .

٢ زيادة من التكملة .

٣ دوزي : العابر .

٤ التكملة : الفراء .

قال : وسئل عن مولده ، فقال : في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ، قال : وتوفي بالحوراء سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ، انتهى .

قلت : والذي أعتقده أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث ، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة ، والحق أبلج .

٤٧ - وممن دخل الأندلس من المشرق عبدُ الجبار بن أبي سلمة الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف ، القرشي ، الزهري <sup>١</sup> ، دخل الأندلس مع موسى بن نصير ، وكان على ميسرة معسكره ، ونزل باجة ثم بطليوس ، ومن نسله الزهريون الأشراف الذين كانوا بإشبيلية انتقلوا إلى سكنائها قديماً ، هكذا في خبر القاضي أبي الحسين الزهري منهم عن أبي بكر ابن خير وغيره ، قال ابن بشكوال في مجموعته المسمى بـ « التنبية والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين » : عبدُ الجبار بن أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف من التابعين ، وقع ذكره في كتاب شيخنا أبي الحسن ابن مغيث ، انتهى .  
قال ابن الأبار : ولم يزد على هذا ، انتهى .

٤٨ - ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق أبو محمد عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب <sup>٢</sup> ، من أهل مصر ، وسكن بغداد ، ويعرف بالطندثاني ، قرية بمصر نُسب إليها ، روى عن أبي محمد الشارمساحي ، وتفقه به ، وقدم الأندلس رسولاً بزعمه من عند الخليفة العباسي ، فسكن مرسية ودرس بها ، وخرج منها سنة اثنتين وأربعين وستمائة بعد أن تملكها النصارى صلحاً ، وأسر بناحية صقلية ، قال ابن الأبار : ثم بلغني أنه تخلص ولحق ببلده ، رحمه الله تعالى .

٤٩ - ومنهم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب ، يكنى أبا القاسم . قال

١ ترجمته في التكملة رقم : ١٧٧٢ .

٢ ترجمته في التكملة رقم : ١٧٩٦ .



ابن الأبار<sup>١</sup> : لا أعرف موضعه من بلاد المشرق ، وكان أديباً قوي العارضة ، مطبوع الشعر ، مديد النفس . ومن شعره من قصيدة صنعها في وقت رحلته إلى الأندلس قوله :

على الذلّ أو فاحلُّ عقالِ الرّكائبِ وللضيمِ أو فاحلُّ صدورِ الكتائبِ  
فإمّا حياةٌ بعدَ إدراكِ مُنيّةِ وإمّا مماتٌ تحتَ عزِّ القواضبِ  
فما العيشُ في ظلِّ الهوانِ بطيبٍ وما الموتُ في سُبُلِ العلاءِ بعائبِ

٥٠ - ومنهم أبو محمد عبد اللطيف بن أبي الطاهر أحمد بن محمد بن هبة الله ، الهاشمي ، الصديقي ، من أهل بغداد ، يُعرف بالنرسي ، دخل الأندلس ، وكان يزعم أنه روى عن أبي الوقت السّجزي وأبي الفرج الجوزي وغيرهما ، وله تأليف سماه «الدليل في الطريق من أقاويل أهل التحقيق» ذكره أبو عبد الله محمد بن سعيد الطراز وضعّفه بعدما سمع منه ، أخذ عنه وسمع منه هو وأبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم المغيلي وغيرهما ، وقال : ورد علينا غرناطة قريباً من سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وتوفّي ، عفا الله تعالى عنه ، بإشبيلية قريباً من هذا التاريخ ، وقال فيه أبو القاسم ابن فرقد : عبد اللطيف بن عبد الله الهاشمي البغدادي النرسي ، منسوب إلى قرية من قرى بغداد ، سمع صحيح البخاري من أبي الوقت السّجزي ، وروى عن غيره ، وله تأليف ، قال ابن الأبار<sup>٢</sup> : في التصوّف ، منها تأليف في إباحة السماع ، قرأت عليه أكثره ، وقرأت عليه عوالي النقيب بمدينة إشبيلية بحومة القصر المبارك عام خمسة عشر وستمائة .

٥١ - ومنهم أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد ، الخراساني ،

١ لم ترد ترجمته في كتاب التكملة المطبوع .

٢ لم يرد أيضاً في كتاب التكملة المطبوع .

الباخوزي ، الماليني ، يكنى أبا بكر<sup>١</sup> ، سمع من أبي الخير أحمد بن إسماعيل الطالقاني القزويني وأبي يعقوب يوسف بن عمر بن أحمد الخالدي الزنجاني ، وقدم الأندلس ، وحدث بصحيفتي الأشج وجعفر بن نسطور الرومي ، وسمع منه بغرناطة ومُرُسية وغيرهما من بلاد الأندلس ، وحدث عنه أبو القاسم الملاحي ، وسمع منه بمالقَة أبو جعفر ابن عبد الجبار وأبو علي ابن هاشم في صفر سنة ٦٠٠ ، ومولده في ربيع الأوّل سنة ٥٦٠ ، انتهى من تكملة ابن الأبار<sup>٢</sup> . قلت : ولا يخفى على مَنْ له بصر بعلم الحديث أن الأشج وابن نسطور لا يلتفت إليهما ، ويرحم الله تعالى السَّلَفي الحافظ إذ قال :

حديثُ ابن نسطورٍ وقيسٍ ويعنمٍ وبعد أشجَّ الغربِ ثم خراشٍ  
ونسخةُ دينارٍ ونسخةُ تربيهِ أبي هُدْبَةَ القيسيِّ شبهُ فراشٍ

قال ابن عات : كان الحافظ السَّلَفي إذا فرغ من إنشاد هذين البيتين ينفخ في يديه إشارة إلى أن هذه الأشياء كالريح ، انتهى .

٥٢ - ومن الوافدين على الأندلس من أهل المشرق علي بن بُندار بن إسماعيل بن موسى بن يحيى بن خالد بن بَرَمَك ، البرمكي ، من أهل بغداد ، قدم الأندلس تاجراً سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان قد أخذ عن أبي الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس الفقيه الداودي ، وتكلم له ، وسمع منه «الموضح» و«المنجح» من تأليفه في الفقه ، وما تم له من أحكام القرآن ، هكذا نقله الحافظ ابن حزم عن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله المعني بهذا الشأن ، رحمه الله تعالى .

٥٣ - ومنهم أبو العلاء عبيد بن محمد بن عبيد ، أبو العلاء ، النيسابوري ،

١ انظر التكملة رقم : ١٨٣٠ .

٢ جاءت ترجمته في التكملة المطبوع ناقصة كثيراً عما أثبتته المقرئ .

لقية الحافظ أبو علي الصدفي ببغداد وأخذ عنه إذ قدمها حاجتاً ، وهو يحدث عن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد البصري ، قال أبو علي : وأراه دخل الأندلس ، ويغلب على ظني أنني لقيته بسرّ قسطة ، ذكر ذلك القاضي عياض في « المعجم » من تأليفه ، والله تعالى أعلم .

٥٤ - ومنهم سهل بن علي بن عثمان ، التاجر ، النيسابوري ، يكنى أبا نصر<sup>١</sup> ، سمع جماعة من الخراسانيين وغيرهم ، منهم أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي وأبو الفتح السمرقندي ، وأدرك الإمام أبا المعالي الجويني ، وحضر مجلسه ودرسه ، ولقي بعده أصحابه القشيري والطوسي وغيرهما ، وكان شافعي المذهب ، ذكره عياض وقال : حدثني بحكايات وفوائد ، وأنشدني لأبي طاهر السلفي ، وأجازني جميع رواياته وحدثني أن وفاة أبي المعالي كانت بنيسابور سنة خمس أو أربع وسبعين وأربعمائة ، وقال أبو محمد العثماني : أنشدني أبو نصر سهل بن علي النيسابوري الحقواني قال : أنشدنا أبو الفتح نصر ابن الحسن ، أنشدنا أبو العباس العذري ، قال : أنشدنا أبو محمد ابن حزم الحافظ لنفسه :

ولما رأيتُ الشَّيْبَ حلَّ مفارقي      نذيراً ببتِّر حالِ الشَّبَابِ المُفَارِقِ  
رجعتُ إلى نفسي فقلتُ لها انظري      إلى ما أتى ، هذا ابتداء الحقائقِ  
دعي دَعَوَاتِ اللّهُو قد فاتَ وقتها      كما قد أفاتَ الليلَ نورُ المِشَارِقِ  
دعي متزلَّ اللذاتِ ينزلُ أهله      وجِدِّي لما ندعَى إليه وسابقي

قال عياض : توفي سهل هذا غريباً في البحر منصرفاً إلى بلده من المرية ، رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> .

١ ترجمة أبي نصر النيسابوري في التكملة رقم : ٢٠٠٨ .

٢ زاد في التكملة : سنة ٥٣١ .

٥٥ - ومنهم أبو المكارم هبة الله بن الحسين ، المصري <sup>١</sup> ، كان من أهل العلم ، عارفاً بالأصول ، حافظاً للحديث ، متيقظاً ، حسن الصورة والشارة ، دخل الأندلس ، وولي قضاء إشبيلية منها آخر شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة . قال ابن الأبار : وبه صُرف أبو القاسم الخولاني ، وأقام بها سنة ، وحضر غزوة شنترين ، وكان قدوم أبي المكارم هذا الأندلس خوفاً من صلاح الدين يوسف بن أيوب في قوم من شيعة العبّيدي ملك مصر ، ووفد أيضاً معه أبو الوفاء المصري ، ثم استصحبه أمير المؤمنين يعقوب المنصور معه في غزوة قفصة الثانية ، وولاه حينئذ قضاء تونس ، وكان قد ولي قضاء فاس ، وولي أيضاً أبو الوفاء صاحبه القضاء ، وتوفي وهو يتولى قضاء تونس سنة ست وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

٥٦ - ومنهم يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن عبد الله ، القيسي ، الدمشقي <sup>٢</sup> ، أصله من دمشق ، وبها ولد ، ويُعرف بالأصبهاني في مجلس أبي طاهر السلفي لدخوله إياها وإقامته بها أزيد من خمسة أعوام لقراءة الخلافات ، ويكنى أبا زكريا، وسمع بالمشرق أبا بكر ابن ماشاذه السكري وأبا الرشيد ابن خالد البيع وأبا الطاهر السلفي وغيرهم ، وقصد المغرب بعد أداء الفريضة فلقني ببجاية أبا محمد عبد الحق الإشبيلي ، وأجازه وحضّه على الوعظ والتذكير ، فامثل ذلك ، ودخل الأندلس ، وتجوّل ببلادها ، واستوطن غرناطة منها ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي ، عارفاً بالأصول والتصوف ، زاهداً ، ورعاً ، كثير المعروف والصدقة ، يعظ الناس ، ويسمع الحديث ، ولم يكن بالضابط فيما قاله الحافظ ابن الأبار ، قال : وله كتاب « الروضة الأنيقة » من تأليفه ، حدث عنه جماعة من الجلّة ، منهم أبو جعفر ابن عميرة <sup>٣</sup> الضبي ، وابنا حوْط الله أبو محمد وأبو

١ ترجمته في التكملة رقم : ٢٠٢٤ .

٢ التكملة رقم : ٢٠٧١ .

٣ ق : حبيرة .

سليمان ، وأبو القاسم الملاحي ، وأبو العباس ابن الجيار ، وأبو الربيع ابن سالم ،  
وقال : أنشدني عند توديعي إياه بغرناطة قال : سمعت بعض المذكورين ينشد :

يا زائراً زارَ وما زارا      كأنه مُقتَبِسٌ نارا  
مرَّ ببابِ الدارِ مستعجلاً      ما ضرَّه لو دخل الدارا  
نفسى فداء لك من زائري      ما زار حتى قيل قد سارا

وسمع منه أبو جعفر ابن الدلال كتاب « المعالم » للخطابي في شرح « سنن  
أبي داود » بقراءة جميعه عليه .

ومولده في شوال سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وتوفي بغرناطة بعد أن  
سكنها يوم الاثنين سادس شوال سنة ثمان وستمائة ، قال ابن الأبار : وفي هذا  
اليوم بعينه كانت وفاة شيخنا أبي عبد الله ابن نوح ببلنسية ، رحمهما الله تعالى .

٥٧ - ومن الوافدين من المشرق إلى الأندلس إسماعيل بن عبد الرحمن بن  
علي ، القرشي<sup>١</sup> ، من ذرية عبد بن زمعة أخي سودة أم المؤمنين ، رضي الله  
تعالى عنها ، رحل من مصر إلى الأندلس في زمن السلطان الحاكم المستنصر  
بالله أعوام الستين وثلاثمائة حين ملك بنو عبّيد مصر وأظهروا فيها  
معتقدهم الحبيث ، فحلّ يومئذ من الحكم المستنصر محل الرحب والسعة ،  
ولما ثارت الدولة العامرية أوى إلى إشبيلية ، وأوطنها داراً ، واتخذها قراراً ،  
وبها لقيه أبو عمر ابن عبد البر علامة الأندلس فدرس عليه ، واقتبس ممّا لديه ،  
وقد ذكره في تاريخ شيوخه ، ولم يزل عقبه بها إلى أن نجم منهم أبو الحسين سالم  
ابن محمد بن سالم ، وهو من رجال « الذخيرة »<sup>٢</sup> وله نثر ، كما تفتح الزهر ،  
وتدقق البحر ، ونظم كما اتسق الدرّ ، وسفّرت عن محاسنها الأوجه الغرّ ،

١ ترجمته في جذوة المقتبس : ١٥٣ (وبغية الملتبس رقم : ٥٤٥) .

٢ لم يرد اسمه في فهرست الذخيرة ١/١ : ١١ - ٢٠ .

فمن نظمه قوله :

خليلي ، هل ليلى ونجدٌ كمهدنا      فيا حبّداً ليلى ويا حبّداً نجدُ  
عسى الدهرُ أن يقضي لنا بالفتاةِ      فيا ربّ قربٍ قد يجدّه بعدُ  
وله أثناء رسالة :

قوسُ العُلا وُضِعَتْ في كفِ بارِئها      وأسهم الخطبِ عادت نَحْوَ رامِئها  
ومنها :

وإنما الشمسُ لاحت في مطالعها      بلى وأجرى جِبادَ الخيلِ مُجْرِئها

ونشأ هذا النجم الثاقب ، والصيّب الساكب ، وقد أخذ من العلوم في غير  
ما فن ، وحقق فيه كل ما ظن ، وذكره في « المسهب » و « سمط الجمان »  
وفضله شهير ، رحمه الله تعالى .

٥٨ - ومنهم أبو علي القالي ، صاحب الأماشي والنوادر<sup>١</sup> ، وفد على الأندلس  
أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن ، فأمر ابنه الحكم - وكان يتصرف  
عن أمر أبيه كالوزير - عاملهم ابن رماحس أن يحيي مع أبي علي إلى قرطبة ،  
ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكريمةً لأبي  
علي ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل ، فكانوا يتذكرون الأدب  
في طريقهم ، ويتناشدون الأشعار ، إلى أن تحاوروا يوماً وهم سائرون أدب  
عبد الملك بن مروان ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل وإنشاده بيت عبدة  
ابن الطيب<sup>٢</sup> :

١ انظر ترجمة القالي في طبقات الزبيدي : ٢٠٢ وابن الفرضي ١ : ٨٣ والجدوة : ١٥٤ (وبنية  
الملتصق رقم : ٥٤٧) وفهرسة ابن خير ٣٩٥ وابن خلكان ١ : ٢٠٤ وإنباه الرواة ١ :  
٢٠٤ ومعجم الأدباء ٧ : ٢٥ والشذرات ٣ : ١٨ ومعجم البلدان : (قالقلا) وبروكلمان  
٢ : ٢٧٧ (الترجمة العربية) .  
٢ البيت : ٥١ من المفضلية رقم ٢٦ .

ثُمَّتَ قُمْنَا إِلَى جُرْدٍ مَسُومَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلٌ

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا علي ، فأنشد الكلمة في البيت «أعرافها لأيدينا مناديل» فأنكرها ابن رفاعة الإليبري ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفي خلقه حرج وزعارة ، فاستعاد أبا علي البيت مثبتاً مرتين ، في كليهما أنشده «أعرافها» ، فلوى ابن رفاعة عينانه منصرفاً وقال : مع هذا يُوفد على أمير المؤمنين وتُتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ؟ والله لا تبعته خُطوة ، وانصرف عن الجماعة ، وندبه أميره ابن رماحس أن لا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب إلى الحكم يعرفه ويصف له ما جرى لابن رفاعة ويشكوه ، فأجابه على ظهر كتابه : الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء وافد أهل العراق إلينا ، وابن رفاعة أولى بالرضى عنه من السخط ، فدعاه لشأنه ، واقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته ، فسوف يُعليه الاختبار إن شاء الله تعالى أو يحطه .

وبعض المؤرخين يزعم أن وفادة أبي علي القالي إنما كانت في خلافة الحكم المستنصر بالأندلس ، لا في خلافة أبيه الناصر ، والصواب أن وفادته في أيام الناصر ، لما ذكره غير واحد من حصّره وعيّه عن الخطبة يوم احتفال الناصر لرسول الإفرنج كما ألمعنا به في غير هذا الموضع<sup>١</sup> .

وفي القالي يقول شاعر الأندلس الرمادي<sup>٢</sup> :

مَنْ حَاكَمَ بَيْتِي وَبَيْنَ عَدُولِي الشُّجُو شُجُوِي وَالْعَوِيلِ عَوِيلِي  
فِي أَيِّ جَارِحَةٍ أَصَوْنُ مُعَدِّبِي سَلِمْتُ مِنَ التَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ

١ انظر خبر الخطبة يوم وفادة رسل الفرنجة ج ١ ص : ٣٦٨ من هذا الكتاب ؛ وقد كان وصول أبي علي إلى الأندلس عام ٣٣٠ فلا خلاف بعد ذلك في أنه وصل أيام الناصر ، وسيذكر ذلك صاحب النفع .

٢ وردت أبيات الرمادي في اليتيمة ٢ : ١٠٠ والمطمح : ٧٠ ومطلعها في الجدوة : ٣٤٧ .

إن قلت في بَصْرِي فثمَّ مدامعي أو قلت في قلبي فثمَّ غَلِيلِي  
لكن جعلت له المسامع موضعاً وحجبتها عن عدلِ كلِّ عدولِ

ولما سمع المتنبي البيت الثاني قال : يصونه في استه .

وكان الرمادي لما سمع قول المتنبي :

كفى بجسمي نحولاً أنِّي رجلٌ لولا مُخاطَبَتِي إِيَّاكَ لم تَرَفِي

قال : أظنه ضَرْطَةٌ ، والجزء من جنس العمل .

وباسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله طرز الشيخ أبو علي القالي كتاب  
« الأمالي » . وكان الحكم كريماً ، معنياً بالعلم ، وهو الذي وجّه إلى الحافظ  
أبي الفرج الأصبهاني ألفَ دينار على أن يوجه له نسخة من كتاب الأغاني ،  
وألف أبو محمد الفهري كتاباً في نسب أبي علي البغدادي ورواياته ودخوله  
الأندلس . وحكى ابن الطيلسان عن ابن جابر أنه قرأ هذين البيتين في لوح رخام  
كان سقط من القبة المبنية على قبر أبي علي البغدادي عند تدهمها ، وهما :

صِلُوا لحدّ قبري بالطريقِ وودّعوا فليس لمن وارى الترابُ حبيبُ  
ولا تدفنونني بالعرءِ فربّما بكى أن رأى قَبْرَ الغريبِ غريبُ

واسم أبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد  
ابن سليمان ، وجدّه سليمان مولى عبد الملك بن مروان ، وكان أبو علي أحفظَ  
أهل زمانه باللّغة والشعر ونحو البصريين ، وأخذ الأدب عن أبي بكر ابن دُرَيْدِ  
الأزدي وأبي بكر ابن الأنباري وابن دُرُسْتُوَيْهٍ وغيرهم ، وأخذ عنه أبو بكر الزبيدي  
الأندلسي صاحب « مختصر العين » ، ولأبي علي التصانيف الحسان كـ « الأمالي »  
و « البارع » ، وطاف البلاد ، وسافر إلى بغداد سنة ٣٠٣ ، وأقام بالموصل  
لسماع الحديث من أبي يعلى الموصلي ، ودخل بغداد سنة ٣٠٣ ، وأقام بها إلى  
سنة ٣٢٨ ، وكتب بها الحديث ، ثم خرج من بغداد قاصداً الأندلس ، وسمع



من البغوي وغيره .

قال ابن خلكان : ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلاثمائة ،

انتهى .

وهو مما يعين أنه قدم في زمن الناصر ، لا في زمن ابنه الحكم كما تقدم ، وقد صرح بذلك الصفدي في الوافي فقال : ولما دخل المغرب قصد صاحب الأندلس الناصر لدين الله عبد الرحمن ، فأكرمه ، وصنف له ولولده الحكم تصانيف وبث علومه هناك ، انتهى .

وقال ابن خلكان إنه استوطن قرطبة إلى أن توفي بها في شهر ربيع الآخر ،

وقيل : جمادى الأولى سنة ٣٥٦ ، ليلة السبت لست خلون من الشهر المذكور ، ودفن ظاهر قرطبة ، ومولده بمنزلة جيرد من ديار بكر سنة ٢٨٨ ، وقيل : سنة ٢٨٠ ، وإنما قيل له « القالي » لأنه سافر إلى بغداد مع أهل قاليقلا ، وهي من أعمال ديار بكر . وهو من محاسن الدنيا ، رحمه الله تعالى .

وعيدون : بفتح العين ، وسكون الياء المثناة التحتية ، وضم الذال المعجمة .

وقال ابن خلكان في ترجمة ابن القوطية<sup>١</sup> : إن أبا علي القالي لما دخل الأندلس

اجتمع به ، وكان يباليغ في تعظيمه ، قال له الحكم بن عبد الرحمن الناصر : من أنبل من رأيت ببلدنا هذا في اللغة ؟ فقال : محمد بن القوطية ، وكان ابن القوطية مع هذه الفضائل من العبادة النساك ، وكان جيد الشعر صحيح الألفاظ حسن المطالع والمقاطع إلا أنه تركه ورفضه ، وقال الأديب أبو بكر ابن هذيل<sup>٢</sup> : إنه توجه يوماً إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة ، وهي من بقاع الأرض الطيبة

١ ابن خلكان ٤ : ٤ - ٦ وهناك ترجمات أخرى لابن القوطية في ابن الفرضي ٢ : ٧٨ والخزوة :

٧١ والديباج ٢٦٢ وإنباه الرواة ٣ : ١٧٨ وبنية الوعاة : ٨٤ ومعجم الأدباء ١٨ : ٢٧٢ .

٢ هو يحيى بن هذيل التميمي الشاعر الكفيف أستاذ الرمادي (انظر الخزوة : ٣٥٨ وبنية المنتس

رقم : ١٤٩٥) وله عدد صالح من الأشعار في كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن

الكتاني .

المؤنقة ، فصادف أبا بكر ابن القوطية المذكور صادراً عنها ، وكانت له أيضاً هناك ضيعة ، قال : فلما رأني عرج عليّ ، واستبشر بلقائي ، فقلت مداعباً له :

من أين أقبلت يا مَنْ لا شبيه لهُ  
ومَنْ هو الشمس والدنيا له فلكُ  
قال : فتبسم وأجاب بسرعة :

من منزل تُعجِبُ النساكَ خلوتُهُ  
وفيه سر على الفتاك إن فتكوا

فما تمالكت أن قبّلت يده ، إذ كان شيخني ، ودعوت له ، انتهى .  
وهو صاحب كتاب « الأفعال » الذي فتح فيه هذا الباب ، فتلاه ابن القَطّاع ، وله كتاب « المقصور والممدود » جمع فيه ما لا يحد ولا يعد ، وأعجز مَنْ بعده به ، وفاق من تقدّمه ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .  
وممن أخذ عن أبي علي القالي بالأندلس أبو بكر محمد الزبيدي صاحب كتاب « مختصر العين » وغيره ، وكان الزبيدي كثيراً ما ينشد :

الفقرُ في أوطاننا غُرْبَةٌ      والمالُ في الغربةِ أوطانُ  
والأرضُ شيءٌ كلُّها واحدٌ      والناسُ إخوانٌ وجيرانُ

وترجمة الزبيدي واسعة<sup>١</sup> ، وكان مؤدب المؤيد هشام ، ووصفه بأنه كان في صباه في غاية الخدق والذكاء ، رحمه الله تعالى .  
وكان القالي قد بحث على ابن دُرُسْتُوَيْه كتاب سيبويه ، ودقق النظر ، وانتصر للبصريين ، وأمل شيئاً من حفظه ككتاب « النوادر والأمالي » ، و« المقصور والممدود » ، و« الإبل والخيل » ، و« البارع في اللغة » نحو خمسة آلاف

١ انظر ترجمة الزبيدي في الجذوة : ٤٣ وابن الفرضي ٢ : ٩٢ والمغرب ١ : ٢٥٠ واليتيمة ٢ : ٧١ وابن خلكان ٤ : ٧ وإنباه الرواة ٣ : ١٠٩ ومعجم الأديباء ١٨ : ١٨٠ والوافي ٢ : ٢٥١ وبغية الوعاة : ٣٤ وانظر كتاب الحركة اللغوية في الأندلس ففيه دراسة لأهم مؤلفاته .

ورقة ، لم يصنف مثله في الإحاطة والجمع ، ولم يتم ، ورتب كتاب « المقصور والممدود » على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق مستقصى في بابه لا يشذ منه شيء ، وكتاب « فعلت وأفعلت » وكتاب « مقاتل الفرسان » و « تفسير السبع الطوال » .

وكان الزبيدي إماماً في الأدب ، ولكنه عرف فضل القاضي ، فمال إليه ، واختص به ، واستفاد منه ، وأقر له .

وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر وبعدها ينشط أبا علي ، ويعينه على التأليف بوسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام ، وكانوا يسمونه « البغدادي » لوصوله إليها من بغداد ، ويقال : إن الناصر هو الذي استدعاه من بغداد لولائه فيهم ، وفيه يقول الرمادي متخلصاً في لاميته السابق بعضها :

روضٌ تعَاهدهُ السحابُ كأنه	متعاهدٌ من عهدِ إسماعيلِ
قسهُ إلى الأعرابِ تعلمُ أنه	أولى من الأعرابِ بالفضلِ
حازتْ قبائلهم لغاتٍ فرقت	فيهم وحاز لغاتٍ كل قبيلِ
فالشرقُ خالٍ بعده وكأتما	نزل الخرابُ بربعه المأهولِ
فكأنه شمسٌ بدت في غربنا	وتغيبت عن شرقهم بأفولِ
يا سيدي هذا ثنائي لم أقلُ	زوراً ولا عرضتُ بالتنويلِ
من كان يأملُ نائلاً فأنا امرؤُ	لم أرجُ غيرَ القربِ في تأميلي

وقد تقدمت أبيات القاضي التي أجاب بها منذر بن سعيد في الباب قبل هذا ، فلترجع ثمة ، والله تعالى أعلم .

٥٩ - ومن الوافدين إلى الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد بن الحسين

ابن عيسى البغدادي ، اللغوي<sup>١</sup> .

١ ترجمة صاعد في الذخيرة ١/٤ : ٢ - ٣٩ وابن خلكان ٢ : ١٨١ وإنباه الرواة ٢ : ٨٥ وبغية الوعاة : ٢٦٧ والجنوة : ٢٢٣ .

وأصله من الموصل ، قال ابن بسام<sup>١</sup> : ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر عزم المنصور على أن يعقبي به آثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية ، فما وجد عنده ما يرتضيه ، وأعرض عنه أهل العلم ، وقدحوا في علمه وعقله ودينه ، ولم يأخذوا عنه شيئاً لقلّة الثقة به ، وكان ألف كتاباً سماه كتاب « الفصوص » فدَحَصُوهُ ورفضوه ونبذوه في النهر ، ومن شعره قوله :

ومهفهفٍ أبهى من القمرِ قهر الفؤادِ بفاتينِ النَّظَرِ  
خالسته تَفَاحَ وجنته فأخذتها مِنْهُ على غَرَرِ  
فأخافني قومٌ فَقَلْتُ لهم : لا قطع في ثَمَرٍ ولا كَثَرِ

والكَثَرِ : الجُمَارُ ، وهذا اقتباس من الحديث .

وقال الحميدي<sup>٢</sup> : سمعت أبا محمد ابن حزم الحافظ يقول : سمعت أبا العلاء صاعداً ينشد بين يدي المظفر عبد الملك بن أبي عامر من قصيدة يهنيه فيها بعيد الفطر سنة ٣٩٦ :

حسبتُ المنعمينَ على البرايا فألفيتُ اسمه صدرَ الحسابِ  
وما قدمته إلاّ كأنّي أقدمُ تالياً أمّ الكتابِ

وذكر الحميدي أن عبد الله بن ماكان<sup>٣</sup> الشاعر تناول نرجسة فركبها في وردة ثم قال لصاعد ولأبي عامر ابن شهيد : صفاها ، فأفحما ، ولم يتّجه لهما القول ، فبينما هم على ذلك إذ دخل الزهيري<sup>٤</sup> صاحب أبي العلاء وتلميذه ، وكان شاعراً

١ نقل النص عن الذخيرة بتصرف .

٢ الجذوة : ٢٢٤ .

٣ ذكر الحميدي (الجزء : ٣٧٣) من اسمه أبو عبد الله ابن فاكان وقال فيه : أديب شاعر يتكلم على معاني الآداب ومحاسن الأشعار ، ذكره أبو عامر ابن شهيد وذكر له مع صاعد بن الحسن منازعات في ذلك . ثم عاد فذكره بهذا الاسم (ص : ٣٨٤) .

٤ القصة في الجزء ٣٨٤ - ٣٨٥ ، ولكن الشاعر مذكور هناك باسم الزبيري ، ووردت أيضاً في البدائع والبدائه ٢ : ١٠٩ وفيه « الزهري » .

أديباً أميماً لا يقرأ ، فلماً استقر به المجلس أخبر بما هم فيه ، فجعل يضحك ويقول :

ما للأديبين قدّ أعيتهما مليحة<sup>١</sup> من ملح الجنّة<sup>٢</sup>  
نرجسة<sup>٣</sup> في وردة<sup>٤</sup> رُكبت كقلمة<sup>٥</sup> تطرف في وجنّه

انتهى .

ومن غريب ما جرى<sup>١</sup> لصاعد أن المنصور جلس يوماً وعنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم كالزبيدي والعاصمي وابن العريف وغيرهم ، فقال لهم المنصور : هذا الرجل الوافد علينا يزعم أنه متقدّم في هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن ، فوجّه إليه ، فلماً مثل بين يديه والمجلس قد احتفل خجل فرجع المنصور محله وأقبل عليه ، وسأله عن أبي سعيد السيرافي ، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه ، فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس جُلّ بضاعته ، فقال له الزبيدي : فما تحسن أيّها الشيخ ؟ فقال : حفظ الغريب ، قال : فما وزن أولق ، فضحك صاعد ، وقال : أمثلي يسأل عن هذا ؟ إنّما يسأل عنه صبيانُ المكتب ، قال الزبيدي<sup>٢</sup> : قد سألتك ، ولا نشك أنّك تجهله ، فتغير لونه ، وقال : أفل وزنه ، فقال الزبيدي : صاحبكم مُمخّرق ، فقال له صاعد : إخال الشيخ صناعته الأبنية ، فقال له : أجل ، فقال صاعد : وبضاعتي أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار ، وفك المعنى ، وعلم الموسيقى ، فقال : فناظره ابن العريف ، فظهر عليه صاعد ، وجعل لا يجري في المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعراً شاهداً ، وأتى بحكاية يجانسها ، فأعجب المنصور ، ثم أراه كتاب «النوادر» لأبي علي القالي ، فقال :

١ القصة في النخيرة ١/٤ : ٦ - ٨ .

٢ ق ودوزي : الزهري ؛ وفي النخيرة ما أثبتناه .

إن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته<sup>١</sup> كتاباً أرفع منه وأجلّ لا أورد فيه خبراً ممّا أورده أبو علي ، فأذن له المنصور في ذلك ، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابه المترجم بـ «الفصوص» ، فلماً أكمله تتبعه أدباء الوقت ، فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم ، وسألوا المنصور في تجليد كراريس بياض تزال جلدتها ، حتى توهم القدم ، وترجم عليه كتاب «النكت» تأليف أبي الغوث الصنعاني ، فترامى إليه صاعد حين رآه ، وجعل يقبله ، وقال : إي والله ، قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان ، فأخذه المنصور من يده خوفاً أن يفتحه ، وقال له : إن كنت قد قرأته كما تزعم ، فعلامَ يحتوي ؟ فقال : وأبيك لقد بعُدَ عهدي به ، ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنّه يحتوي على لغة مثورة لا يشوبها شعر ولا خبر ، فقال له المنصور : أبعدَ الله مثلك ! فما رأيت أكذب منك ، وأمر بإخراجه ، وأن يُقذف كتاب «الفصوص» في النهر ، فقال فيه بعض الشعراء :

قد غاص في النهر كتاب الفصوص<sup>٢</sup> وهكّذا كلُّ ثقيلٍ يَغُوصُ<sup>٣</sup>  
فأجابه صاعد :

عادَ إلى معدِنه ، إنّما توجد في قعر البحار الفصوص<sup>٤</sup>

قال ابن بسام<sup>٥</sup> : وما أظن أحداً يجترىء على مثل هذا ، وإنّما صاعد اشترط أن لا يأتي إلا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه بما كان يتسنّفق به من الكذب .

وحكى ابن خلّكان<sup>٦</sup> أن المنصور أثابه على كتاب «الفصوص» بخمسة

١ الذخيرة : أمليت على مقيدي خدمته وكتاب دولته .

٢ النقل عن الذخيرة ٤ / ١ : ٨ بإيجاز شديد .

٣ وفيات الأعيان ٢ : ١٨١ .

آلاف دينار<sup>١</sup> .

ومن أعجب<sup>٢</sup> ما جرى له أنه كان بين يدي المنصور ، فأحضرت إليه وردة في غير وقتها لم يستم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلاً :

أنتك أبا عامر ورّدة<sup>٣</sup> يذكرك المسك أنفاسها  
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها راسها

فسرّ بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضراً ، فحسده ، وجرى إلى مناقضته ، وقال لابن أبي عامر : هذان البيتان لغيره ، وقد أنشدنيهما بعضُ البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندي على ظهر كتاب بخطّه ، فقال له المنصور : أرنيه ، فخرج ابنُ العريف ، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن بدر<sup>٣</sup> ، وكان أحسن أهل زمانه بديهة ، فوصف له ما جرى ، فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتي صاعد :

عشوتُ إلى قصر عبّاسة وقد جدّال النوم حراسها  
فألقيتها وهي في خدرها وقد صرع السكر أناسها  
فقلت : أسارٍ على هجعة فقلت : بلى ، فرمت كاسها  
ومدّت يديها إلى وردة يحاكي لك الطيب أنفاسها  
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها راسها  
وقالت : خف الله لا تفضح ن في ابنة عمك عبّاسها  
فوليت عنها على غفلة وما خنت ناسي ولا ناسها

فطار ابن العريف بها ، وعلّقها على ظهر كتاب بخط مصري ومداد أشقر ،

١ زاد في ق : دراهم .

٢ عاد إلى النقل عن الذخيرة .

٣ جعلها دوزي « ابن برد » ونقل القصة صاحب بدائع البداهة ٢ : ٢٨ .

ودخل بها على المنصور ، فلما رآها اشتد غيظه على صاعد ، وقال للحاضرين :  
غداً أمتحنه ، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد ، ولم يبق في موضع لي  
عليه سلطان ، فلما أصبح وجّه إليه فأحضر ، وأحضر جميع الندماء ، فدخل  
هم إلى مجلس محفل قد أعدّ فيه طبقاً عظيماً فيه سقائف مصنوعة من جميع  
النواوير ، ووُضِعَ على السقائف لُعبٌ من ياسمين في شكل الجوّاري ، وتحت  
السقائف بركة ماء ، قد أُلقي فيها اللآلئ مثل الحصباء ، وفي البركة حيّة تسبح ،  
فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : إن هذا يوم إماماً أن تسعد فيه  
معنا ، وإماماً أن تشقى بالضد عندنا ، لأنه قد زعم قومٌ أن كل ما تأتي به دعوى ،  
وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملك  
قبلي شكله ، فصفه بجميع ما فيه ، وعبّر بعضٌ عن هذه القصة بقوله : أمر  
فعبء له طبق فيه أزهار ورياحين وياسمين وبركة ماء حصباؤها اللؤلؤ ، وكان  
في البركة حيّة تسبح ، وأحضرها صاعد ، فلما شاهد ذلك قال له المنصور :  
إن هؤلاء يذكرون أن كل ما تأتي به دعوى لا صحّة لها ، وهذا طبق ما ظننت  
أنه عمل الملك مثله ، فإن وصفته بجميع ما فيه علمت صحّة ما تذكره ، فقال  
صاعد بديهة :

أبا عامرٍ هل غير جدّواك واكفُ	وهل غير من عاداك في الأرض خائفُ
يسوقُ إليك الدهرُ كلَّ غريبةٍ	وأعجبُ ما يلقاه عندك واصفُ
وشائع نورٍ صاغها هامرُ الحيا	على حافتيها عبقرٌ ورفارفُ
ولما تنهى الحسن فيها تقابلتُ	عليها بأنواع الملاهي الوصائفُ
كمثلِ الظباء المستكنة كُنساً	تظللها بالياسمين السقائفُ
وأعجبُ منها أنهن نواظيرُ	إلى بركة ضمت إليها الطرائفُ
حصاها اللآلي سايحٌ في عبابها	من الرقشِ مسمومُ الثعابين زاحفُ

١ الذخيرة : مسموم العابين .



ترى ما تراه<sup>١</sup> العينُ في جنباتها من الوحش حتى بينهن السلاحفُ  
 فاستغربت له يومئذ تلك البديهة في مثل ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه ،  
 وكان إلى ناحيته من تلك السفائف سفينة فيها جارية من النوار تجذف بمجاديف  
 من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : أحسنت ، إلا أنك أغفلت ذكر  
 المركب والجارية ، فقال للوقت :

وأعجبُ منها عادةٌ في سفينةٍ مَكَلَّةٌ تصبو إليها المهاتفُ<sup>٢</sup>  
 إذا راعها موجٌ من الماء تتقي بسكانها ما أنذرته<sup>٣</sup> العواصفُ  
 متى كانت الحسنة رُبَّانَ مركبٍ تَصَرَّفُ في يميني يديه المجاذفُ  
 ولم ترَ عيني في البلادِ حديقةً تُنَقِّلُها في راحتين الوصائفُ<sup>٤</sup>  
 ولا غرو أن شاقمتُ معاليك روضةً وشتها أزاهيرُ الربى والزخارفُ  
 فأنت امرؤ لو رُمْتَ نقل متالعٍ ورضوى ذررتها من سطاك نواسفُ  
 إذا قلتُ قولاً أو بدتُ بديهةً فكلني له إني لمجدك واصفُ

فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب ، ورتب له في كل شهر ثلاثين  
 ديناراً ، وألحقه بالندماء .

قال<sup>٥</sup> : وكان شديد البديهة في ادعاء الباطل ، قال له المنصور يوماً : ما  
 الخبشار ؟ فقال : حشيشة يُعقَد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفي ذلك يقول  
 شاعرهم :

لقد عَقِدَتُ محبَّتَها بقلبي كما عَقِدَ الحليبُ بخبشار

١ الذخيرة : ما تشاء .

٢ الذخيرة : المهاتف ؛ وجملها دوزي : المهاتف .

٣ جملها دوزي : ما إن ذرته ؛ وفي البدائع : الرواجف .

٤ الذخيرة : المناصف ؛ وتعني الخدم .

٥ الذخيرة ٤ / ١ : ٢١ .

وقال له يوماً ، وقد قدّم إليه طبق فيه تمر : ما التمر كل في كلام العرب ؟  
فقال : « يقال تَمَرَ كُلَّ الرَّجُلِ تَمَرَ كُلاً » إذا التف في كسائه . وكان مع ذلك عالماً .

قال ١ : وكان لأبن أبي عامر فتي يسمّى فاتناً أوحد لا نظير له في علم كلام العرب ، فناظر صاعداً هذا فقطعه وظهر عليه وبكته ، فأعجب المنصور منه ، فتوفّي فاتن هذا سنة ٤٠٢ ، وبيعت في تركته كتب مضبوطة جلييلة مصحّحة ، وكان منقاداً لما نزل به من المثلة فلم يتخذ النساء كغيره ، وكان في ذلك الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المخانيث ممّن أخذ بأوفر نصيب من الأدب .  
قال : ورأيت تأليفاً لرجل منهم يُعرف بحبيب ترجمه بكتاب « الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » وذكر فيه جملة من أشعارهم وأخبارهم ونواديرهم .

وقال ابن بسّام وغيره ٢ : ومن عجائب ما جرى لصاعد أنّه أهدى ليلاً  
إلى المنصور ، وكتب على يد موصله :

يا حِرْزَ كُلِّ مُخَوِّفٍ وَأَمَانَ كُلِّ  
يا سَلَكَ كُلِّ فَضِيلَةٍ وَنِظَامَ كُلِّ

ومنها :

ما إن رأيت عيني وعلمك شاهد<sup>٣</sup>  
شروى علائك في معيمٍ محوّل

ومنها :

١ الذخيرة ١/٤ : ٢٢ .

٢ المصدر نفسه : ٢٢ ؛ والجذوة : ٢٢٦ .

٣ في الأصل : جدوى ، والتصحيح عن الجذوة .

وأبي مؤانسُ غربيّ وتحفظي من صفرِ أيامي ومن ومستعملي<sup>١</sup>  
عبدٌ جذبتَ بفضبعه ورفعتَ من مقدارهِ أهدى إليك بيللِ  
سميتهُ غرسيةً وبعثتهُ في حبله ليصحَّ فيه تفاؤلي  
فلئن قبلتَ فتلكَ أنفَسُ مينةُ أسدى بها ذو منحةٍ وتطولِ  
صبحتك غاديةُ السرورِ وجللتَ أرجاءَ ربك بالسحابِ المخضيلِ<sup>٢</sup>

فقضي في سابق علم الله سبحانه وتعالى أن ملك الروم غرسيةُ أسر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه بالإيلِ ، وسمّاه باسمه على التفاؤل ، انتهى .  
وكان غرسيةُ أمتع من النجم ، وسبب أخذه أنه خرج يتصيد ، فلقبته خيل للمنصور من غير قصد ، فأسرته وجاءته به ، فكان هذا الاتفاق ممّا عظم به العجب<sup>٣</sup> .

ولتزدُ من أخبارِ صاعد فنقول : حكى أن المنصور قال بسبب هذه القضية :  
إنه لم يتفق لصاعد هذا القولُ الغريب إلاّ لحسن نيّته وسريرته ، وصفاء باطنه ،  
فرفع قدره من ذلك اليوم فوق ما كان ، ورجحه على أعدائه ، وحق له ذلك .  
وفي الزهرة الثامنة والعشرين من كتاب « الأزهار الماثورة في الأخبار  
الماثورة » حكى أن صاعداً قال : جمعت خرقَ الأكياس والصرر التي  
قبضت فيها صلات المنصور محمد بن أبي عامر ، فقطعت لكافور الأسود غلامي  
منها قميصاً كالمربعة ، وبكرت به معي إلى قصر المنصور ، فاحتلت في تنشيطه  
حتى طابت نفسه فقلت : يا مولانا لعبدك حاجة ، فقال : اذكرها ، قلت :

١ رواه في الجذوة :

- مولاي مؤانس غربيّ متخفظي من ظفرِ أيامي ، منع معقلي  
٢ البيت مضطرب في الأصل : منحتك . . . بعزة ، وحلت أوجاً ، وقد اعتمدت رواية الجذوة .  
٣ الخبر عن كيفية أسر غرسية في الذخيرة ١ / ٤ : ٣٠ وهو مختلف عما قاله المقرئ .  
٤ في الذخيرة : ١٦ شبيه بهذه القصة ، غير أن ما ورد هناك يحكي أن صاعداً هو الذي لبس القميص تحت ثيابه فلما خلا المجلس ورأى فرصة لما أراد تجرد وبقى في القميص المخيط من الخرائط .

وصول غلامي كافور إلى هنا ، فقال : وعلى هذه الحال ؟ فقلت : لا أقنع بسواه إلا بحضوره بين يديك ، فقال : أدخلوه ، فمَسَّلَ قائماً بين يديه في مرقعته وهو كالنخلة إشرافاً ، فقال : قد حضر ، وإنه لباذ الهيئة ، فمالك أضعته ؟ فقلت : يا مولانا هنالك الفائدة ، اعلم يا مولاي أنك وهبت لي اليوم ملء جلد كافور مالا ، فتهلَّلَ وقال : لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معاني الشكر ! وأمر لي بمال واسع وكسوة ، وكسا كافوراً أحسن كسوة ، انتهى .

ولمَّا دخل صاعد دانية ، وحضر مجلس الموفِّق مجاهد العامري أمير البلد ، كان في المجلس أديب يقال له بشار ، فقال للموفِّق : دعني أعبث بصاعد ، فقال له : لا تتعرض إليه ، فإنه سريع الجواب ، فأبى إلا مُساءلته ، وكان بشار المذكور أعمى ، فقال لصاعد : يا أبا العلاء ما الجرئفل في كلام العرب ؟ فعرف صاعد أنه وضع هذه الكلمة ، وليس لها أصل في اللغة ، فقال بعد أن أطرق ساعة : الجرئفلُ في اللغة الذي يفعل بنساء العُمَيان ولا يتجاوزهن إلى غيرهن ، وهو في ذلك كله يصرح ولا يكفي ، فخرجل بشار وانكسر ، وضحك مَنْ كان حاضراً ، فقال له الموفِّق : قلت لك لا تفعل فلم تقبل ، انتهى .

والجرئفل - بضم الجيم والراء ، وسكون النون ، وضم الفاء ، وبعدها لام .

ولصاعد أخبار ونوادير كثيرة غير ما تقدم ، وله مع المنصور بن أبي عامر رحمه الله تعالى من ذلك كثير ، وبعضه ذكرناه في هذا الكتاب .  
ومن حكاياته<sup>١</sup> أنه خرج معه يوماً إلى رياض الزاهرة ، فمدَّ المنصور يده إلى شيء من الريحان المعروف بالترنجان ، فعبث به ورماه إلى صاعد ، وأشار إليه أن يقول فيه ، فارتجل :

لم أدر قبل ترنجان عبثت به

الآبيات الآتية .

١ الذخيرة ٤ / ١ : ١٢ .

وهذا المنصور بن أبي عامر قد تقدّمت جملة من أخباره ، ومن أعجب ما وقع له ما رأيته بخزانة فاس في كتاب ألفه صاحبه في الأزهار والأنوار ، حكى فيه في ترجمة النيلوفر أن المنصور لما قدم عليه رسول ملك الروم الذي هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم ، فأمر المنصور أن يُغْرَس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر على ما تسع ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً على قدر ما تسع النيلوفرة ، ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذي في البركة ، وأرسل إلى الرومي فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامي بالزاهرة بحيث يُشرف على موضع البركة ، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة ، ويبد خمسمائة أطباق ذهب ، ويبد خمسمائة أطباق فضة ، فتعجب الرسول من حسن صورهم وجمال شاربهم ، ولم يدر ما المراد ، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة ، فبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر ، وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب ، حتى التقطوا جميع ما فيها ، وجاؤوا به فوضعه بين يدي المنصور ، حتى صار كوماً بين يديه ، فتعجب النصراني من ذلك ، وأعظمه ، وطلب المهادنة من المسلمين ، وذهب مسرعاً إلى مرسله ، وقال له : لا تُعاد هؤلاء القوم ، فإنني رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها ، انتهى .

وهذه القضية من الغرائب ، وإنها لحيلة عجيبة في إظهار عز الإسلام وأهله . وكان المنصور بن أبي عامر آية الله سبحانه في السعد ونصرة الإسلام ، قال ابن بسام نقلاً عن ابن حبان<sup>١</sup> : إنّه لما انتهت خلافة بني مروان بالأندلس إلى الحكم تاسع الأئمة ، وكان مع فضله قد استهواه حب الولد ، حتى خالف الحزم

١ الذخيرة : ٤ : ٤٠ وما بعدها .

في توريثه الملك بعده في سن الصبا دون مشيخة الإخوة وفتيان العشيرة ، ومن كان ينهض بالأمر ويستقل بالملك ، قال ابن بسام : وكان يقال « لا يزال ملك بني أمية بالأندلس في إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء ، فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه فيما بينهم أدبر وانصرم » ، ولعل الحكم لحظ ذلك ، فلما مات الحكم أخفى جوذر وفاق فتياه ذلك ، وعزما على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة : وكان فائق قد قال له : إن هذا لا يتم لنا إلاّ بقتل جعفر المصحفي ، فقال له جوذر : ونستفتح أمرنا بسفك دم شيخ مولانا ، فقال له : هو والله ما أقول لك ، ثم بعثنا إلى المصحفي ونعيا إليه الحكم ، وعرفاه رأيهما في المغيرة ، فقال لهما المصحفي : وهل أنا إلاّ تبع لكما ، وأنتما صاحبا القصر ، ومدبرا الأمر ، فشرعا في تدبير ما عزما عليه ، وخرج المصحفي وجمع أجناده وقواده ونعى إليهم الحكم ، وعرفهم مقصود جوذر وفاق في المغيرة ، وقال : إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولة لنا ، وإن بدلنا استبدل بنا ، فقالوا : الرأي رأيك ، فبادر المصحفي بإنفاذ محمد بن أبي عامر مع طائفة من الجند إلى دار المغيرة لقتله ، فوافاه ولا خبر عنده ، فنعى إليه الحكم أخاه ، فجزع ، وعرفه جلوس ابنه هشام في الخلافة ، فقال : أنا سامع مطيع ، فكتب إلى المصحفي بحاله ، وما هو عليه من الاستجابة ، فأجابه المصحفي بالقبض عليه ، وإلا وجهه غيره ليقته ، فقتله خنقا . فلما قتل المغيرة واستوثق الأمر لهشام بن الحكم افتتح المصحفي أمره بالتواضع والسياسة واطراح الكبر ومساواة الوزراء في الفرش ، وكان ذلك من أول ما استحسن منه ، وتوفّر على الاستئثار بالأعمال والاحتجان للأموال ، وعارضه محمد بن أبي عامر - فتنى ماجد أخذ معه بطرفي نقيض بالبخل جوداً وبالاستبداد أثرة ، وتملك قلوب الرجال إلى أن تحركت همته للمشاركة في التدبير بحق الوزارة ، وقوي على أمره بنظره في الوكالة ، وخدمته

١ الذخيرة : دم شيخ دولة مولانا .

للسيدة صُبْح أم هشام ، وكانت حاله عند جميع الحرم أفضل الأحوال بتصدّيه لمواقع الإرادة ، ومبالغته في تأدية لطيف الخدمة ، فأخرجن له امر هشام الخليفة إلى الحاجب جعفر المصحفي بأن لا ينفرد عنه برأي ، وكان غير متخيّل منه سكوناً إلى ثقته ، فامثل الأمر وأطلعه على سرّه ، وبالع في بره ، وبالع محمد ابن أبي عامر في مخادعته والنصح له ، فوصل المصحفي يده بيده ، واستراح إلى كفايته ، وابن أبي عامر يمكر به ، ويضربّ عليه ، ويفري به الحسدّة<sup>١</sup> ، ويناقضه في أكثر ما يعامل به الناس ، ويقضي حوائجهم ، ولم يزل على ما هذه سبيله إلى أن انحل أمر المصحفي ، وهوى نجمه ، وتفرد محمد بن أبي عامر بالأمر ، ومنع أصحاب الحكم وأجلاهم وأهلكهم وشردهم وشتتهم وصادرهم ، وأقام من صنائعهم من استغنى به عنهم ، وصادر الصقالبة وأهلكهم وأبادهم في أسرع مدّة .

قال ابن حيان<sup>٢</sup> : وجاشت النصرانية بموت الحكم ، وخرجوا على أهل الثغور فوصلوا إلى باب قرطبة<sup>٣</sup> ، ولم يجدوا عند جعفر المصحفي غنّاء ولا نصرة ، وكان ممّا أتى عليه<sup>٤</sup> أن أمر أهل قلعة رباح بقطع سد نهرهم ، لما تخيله من أن في ذلك النجاة من العدو ، ولم تتسع<sup>٥</sup> حيلته لأكثر منه ، مع وفور الجيوش وجموم الأموال ، وكان ذلك من سقطات جعفر ، فأنف محمد بن أبي عامر من هذه الدنيّة ، وأشار على جعفر بتجريد<sup>٦</sup> الجيش بالجهاد ، وخوفه سوء العاقبة في تركه ، وأجمع الوزراء على ذلك ، إلا من شدّ منهم ، واختار ابن أبي عامر

١ في أصول النفع ودوزي : الحرة ، وقد تنصرف إلى صبح - وهو مستبعد - وفي الذخيرة :

« وابن أبي عامر يمكر به ويضرب بين حسدته » .

٢ النقل مستمر عن الذخيرة ١ / ٤ : ٤٤ .

٣ الذخيرة : فجاء صراخهم إلى باب قرطبة .

٤ الذخيرة : وكان مما غرب به لحيته وعظيم أفنه . . .

٥ في ق ودوزي : ولم تقع ، والتصويب عن الذخيرة .

٦ في ق : بتبديد ؛ والتصويب عن الذخيرة ؛ وفي ابن عذاري : بتجهيز .

الرجال ، وتجهز للغزاة ، واستصحب مائة ألف دينار ، ونفذ بالجيش ، ودخل على الثغر الجوفي [ إلى جليقية ] ونازل حصن الحامة ، ودخل الربض ، وغنم وقفل فوصل الحضرة بالسبي بعد اثنين وخمسين يوماً ، فعظم السرور به ، وخلصت قلوب الأجناد له ، واستهلكوا في طاعته لما رأوه من كرمه .

ومن أخبار كرمه<sup>١</sup> ما حكاه محمد بن أفلح غلام الحكم قال : دُفِعْتُ إلى ما لا أظن من نفقة في عرس ابنة لي ، ولم يبق معي سوى لحام مُحلَّى ، ولما ضاقت بي الأسباب قصدته بدار الضرب حين كان صاحبها ، والدرهم بين يديه موضوعة مطبوعة ، فأعلمته ما جئت له ، فابتهج بما سمعه مني ، وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بمجديده وسُيوره ، فملاً حجري ، وكنت غير مصدق بما جرى لعظمه ، وعملت العرس ، وفصلت لي فضلة كثيرة ، وأحبته قلبي حتى لو حملني على خلع طاعة مولاي الحكم لفعلت ، وكان ذلك في أيام الحكم قبل أن يقتعد<sup>٢</sup> ابن أبي عامر الذرورة .

وقال غير واحد : إنه صنع يومئذ قصرأ من فضة لصُبح أم هشام ، وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبها بذلك ، وقامت بأمره عند سيدها الحكم ، وحدث الحكم خواصه بذلك ، وقال : إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمانا بما يتحفهن به ، قالوا : وكان الحكم لشدة نظره في علم الحدثان يتخيل في ابن أبي عامر أنه المذكور في الحدثان ، ويقول لأصحابه : أما تنظرون إلى صُفرة كفيه ؟ ويقول في بعض الأحيان : لو كانت به شجة لقلت إنه هو بلا شك ، فقضى الله أن تلك الشجة حصلت للمنصور يوم ضربه غالب بعد موت الحكم بمدة .

قال ابن حبان<sup>٣</sup> : وكان بين المصحفي وغالب صاحب مدينة سالم وشيخ الموالي وفارس الأندلس عداوة عظيمة ، ومباينة شديدة ، ومقاطعة مستحكمة ،

١ عن الذخيرة : ٤٥ : بإيجاز .

٢ ق : يمتقد .

٣ عن الذخيرة : ٤٦ : مع اختلاف في الرواية .



وأعجز المصحفي أمره ، وضعف عن مُباراته ، وشكا ذلك إلى الوزراء ، فأشاروا عليه بملاظفته واستصلاحه ، وشعر بذلك ابن أبي عامر ، فأقبل على خدمته ، وتجرد لإتمام إرادته ، ولم يزل على ذلك حتى خرج الأمر بأن ينهض غالب إلى مقدمة جيش الثغر ، وخرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثانية ، واجتمع به ، وتعاقدا على الإيقاع بالمصحفي ، وقفل ابن أبي عامر ظافراً غانماً ، وبعُدَ صيته ، فخرج أمر الخليفة هشام بصرف المصحفي عن المدينة ، وكانت في يده يومئذ ، وخلع على ابن أبي عامر ولا خبر عند المصحفي ، وملك ابن أبي عامر الباب بولايته للشرطة ، وأخذ على المصحفي وجوه الحيلة ، وخلاّهُ وليس بيده من الأمر إلاّ أقلّه ، وكان ذلك بإعانة غالب له ، وضبط المدينة ضبطاً أنسى به أهل الحضرة من سلف من الكفاة أولي السياسة ، وانهمك ابن أبي عامر في صحبة غالب ، ففطن المصحفي لتدبير ابن أبي عامر عليه ، فكاتب غالباً يستصلحه ، وخطب أسماء بنته لابنه عثمان ، فأجابه غالب لذلك ، وكادت المصاهرة تتم له ، وبلغ ابن أبي عامر الأمر ، فقامت قيامته ، وكاتب غالباً يخوفه الحيلة ، ويهيج حقوقه ، وألقى عليه أهل الدار وكاتبوه فصرفوه عن ذلك ، ورجع غالب إلى ابن أبي عامر ، فأنكحه البنت المذكورة ، وتم له العقد في محرم سنة سبع وستين وثلاثمائة ، فأدخل السلطان تلك الابنة إلى قصره ، وجهزها إلى محمد بن أبي عامر من قبله ، فظهر أمره وعز جانبه ، وكثر رجاله ، وصار جعفر المصحفي بالنسبة إليه كلاً شيء ، واستقدم السلطان غالباً ، وقلّده الحجابة شركة مع جعفر المصحفي ، ودخل ابن أبي عامر على ابنته ليلة النيروز ، وكانت أعظم ليلة عرس في الأندلس ، وأيقن المصحفي بالنكبة وكفّ عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء من التدبير ، وابن أبي عامر يساتره ولا يظاهاه ، وانفض عنه الناس ، وأقبلوا على ابن أبي عامر إلى أن صار المصحفي يغدو إلى قصر قرطبة

١ ق ودوزي : وتولى السياسة ، وهو سهو ؛ والتصويب عن الذخيرة .

ويروح وهو وحده ، وليس بيده من الحجابة سوى اسمها ، وعوقب المصحفي بإعانتته على ولاية هشام ، وقتل المغيرة . ثم سخط السلطان على المصحفي وأولاده وأهله وأسبابه وأصحابه ، وطولبوا بالأموال ، وأُخِذُوا برفع الحساب لما تصرفوا فيه ، وتوصل ابن أبي عامر بذلك إلى اجتثاث أصولهم وفروعهم ، وكان هشام ابن أخي المصحفي قد توصل إلى أن سرق من رؤوس النصارى التي كانت تحمل بين يدي ابن أبي عامر في الغزاة الثالثة ليقدّمَ بها على الحضرة ، وغازه ذلك منه ، فبادره بالقتل في المطبق قبل عمّه جعفر المصحفي ، فلما استقصى ابن أبي عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة<sup>١</sup> ، وكانت من أعظم قصور قرطبة ، واستمرت النكبة عليه سنين<sup>٢</sup> مرة يحتبس ومرة يترك ومرة يُقَرُّ بالحضرة ومرة ينفر عنها ، ولا يراح له<sup>٣</sup> من المطالبة بالمال ، ولم يزل على هذا الحكم حتى استصفي ، ولم يبق فيه محتمل ، واعتقل في المُطَبَّقِ بالزهراء إلى أن هلك ، وأُخرج إلى أهله ميتاً ، وذكر أنه سمّه في ماء شربه ، قال محمد بن إسماعيل : سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لنسلم جسد جعفر ابن عثمان إلى أهله بأمر المنصور ، وسرنا إلى مترله فكان مغطى بخلق كساء لبعض البوابين ألقاه على سريره ، وغُسل على فردة باب اختلع من ناحية الدار ، وأُخرج وما حضر أحد جنازته سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه ومن حضر من ولده ، فعجبت من الزمان ، انتهى .

وما أحسن عبارة صاحب المطمح عن هذه القضية إذ قال<sup>٤</sup> : قال محمد بن إسماعيل كاتب المنصور : سرتُ بأمره لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده ،

١ كذا في ق والنخيرة ؛ وجمله دوزي : « فلما قتل استصفي ابن أبي عامر مال جعفر حتى باع . . .

إلخ » .

٢ كذا في ق والنخيرة ، وجمله دوزي : « سنتين » . وهو مستدرك في التعليقات لأن المصحفي أقام في الإذلال والتعذيب خمس سنين .

٣ النخيرة : ولا يراح .

٤ ه ق : لتسلم .

٥ المطمح : ٦ .

والحضور على إنزاله في مَلْحَدَه ، فنظرته ولا أثر فيه ، وليس عليه شيء يُواريه ، غير كساء خلقٍ لبعض البوابين ، فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله والله على فَرْدَة باب اقتطع من جانب الدار ، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه إلى قبره وما معنا سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه ، وما تجاسر أحدٌ منا للنظر إليه ، وإن لي في شأنه لخبراً ما سَمِعَ بمثله طالبُ وعظ ، ولا وقع في سمع ولا تصوّر في لُحْظ ، وقفت له في طريقه من قَصْرَه ، أيام نهبه وأمره ، أروم أن أناوله قِصَّة ، كانت به مختصّة ، فوالله ما تمكنت من الدنو منه بجيلة لكثافة موكبه ، وكثرة مَنْ حَفَّ به ، وأخذَ الناسُ السُّكَّك عليه وأفواهَ الطرق داعين ، ومارين بين يديه وساعين ، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذين نَصَبَهُم جناحي موكبه لأخذ القِصَص ، فانصرفتُ وفي نفسي ما فيها من الشَّرْقِ بحاله والغِصَص<sup>٢</sup> ، فلم تطل المدّة حتى غضب عليه المنصور واعتقله ، ونقله معه في الغزوات واحتمله<sup>٣</sup> ، واتفق أن نزلتُ بجليقية إلى جانب خبائه في ليلة نهى فيها المنصورُ عن وقود النيران ليخفي على العدو أثره ، ولا ينكشف إليه خبره ، فرأيت والله عثمان ولده يُسِفّه<sup>٤</sup> دقيقاً قد خلطه بماء يقيم به أودّه ، ويمسك بسببه رَمَقَه ، بضعف حال وعدم زاد ، وهو يقول<sup>٥</sup> :

تعاظيت<sup>٦</sup> صرف الحادثات فلم أزل أراها تُوقِّي عند موعدهما الحرا  
فله أيام مضت بسبيلها فإني لا أنسى لها أبداً ذكرا

١ انظر أيضاً الذخيرة ١/٤ : ٤٩ .

٢ فانصرفت . . . والغصص : سقطت من ق .

٣ ق : وأخمله ؛ المطمح : وحمله .

٤ الذخيرة : يسقيه .

٥ انظر أيضاً الحلة ١ : ٢٦٥ .

٦ المطمح والحلة : تأملت .

تجافّت بها عنّا الحوادثُ برهةً      وأبدتْ لنا منها الطّلاقَةَ والبِشْرا  
لياليَ ما يدري الزمانُ مكاننا      ولا نظرتْ منها حوادثُهُ شَزْرا  
وما هذه الأيامُ إلاّ سحائبُ      على كلّ أرضٍ تمطرُ الخيرَ والشْرا  
انتهى .

وأما غالب الناصري فإنه حضر مع ابن أبي عامر في بعض الغزوات ، وصعد إلى بعض القلاع ، لينظرا في أمرها ، فجرت محاورة<sup>١</sup> بين ابن أبي عامر وغالب ، فسبّه غالب وقال له : يا كلب ، أنت الذي أفسدت الدولة ، وخربت القلاع ، وتحكمت في الدولة ، وسلّ سيفه فضربه ، وكان بعض الناس حبس يده ، فلم تتم الضربة وشجّه ، فألقى ابن أبي عامر نفسه من رأس القلعة خوفاً من أن يُجهز عليه ، فقضى الله تعالى أنّه وجد شيئاً في الهويّ منعه من الهلاك ، فاحتمله أصحابه وعالجوه حتى برىء ، ولحق غالب بالناصرى ، فجيّش بهم ، وقابله ابن أبي عامر بمن معه من جيوش الإسلام ، فحكمت الأقدار بهلاك غالب وتم لابن أبي عامر ما جد له ، وتخلصت دولته من الشوائب .

قالوا<sup>٢</sup> : ولما وقعت وحشة بين ابن أبي عامر والمؤيد ، وكان سببها تضريب الحساد فيما بينهما ، وعلم أنّه ما دُهي إلاّ من جانب حاشية القصر ، فرقمهم ومزقهم ، ولم يدع فيه منهم إلاّ من وثق به أو عجز عنه ، ثم ذُكر له أن الحرم<sup>٣</sup> قد انبسط أيديهم في الأموال المختزنة بالقصر ، وما كانت السيدة صُبْحُ أخت رائق تفعله من إخراج الأموال عندما حدث من تغيرها على ابن أبي عامر ، وأنها أخرجت في بعض الأيام مائة كوز مختومة على أعناق الخدم الصقالبة فيها الذهب والفضة ، وموّهت ذلك كلّه بالمرى<sup>٤</sup> والشهد وغيره

١ محاورة : سقطت من ق .

٢ عاد إلى تلخيص كلام ابن حيان الذي أورده صاحب الذخيرة ٤ / ١ : ٥٢ - ٥٦ .

٣ ق ودوزي : الخدم .

٤ في الذخيرة : بالمرى ؛ والمرى - بتشديد الراء - والعامّة تخففها وباللاتينية : ( Murfa ) =

والأصباغ المتخذة بقصر الخلافة ، وكتبت على رؤوس الكيزان أسماء ذلك ،  
 ومرت على صاحب المدينة ، فما شك في أنه ليس فيها إلا ما هو عليها ، وكان  
 مبلغ ما حملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار ، فأحضر ابن أبي عامر جماعة  
 وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بانهماكه في العبادة ، وأن في  
 إضاعتها آفة على المسلمين ، وأشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها فيه ، فحمل منها  
 خمسة آلاف ألف دينار عن قيمة ورق وسبعمئة ألف دينار ، وكانت صُبَّح  
 قد دافعت عمّا بالقصر من الأموال ، ولم تمكن من إخراجها ، فاجتمع ابن أبي  
 عامر بالخليفة هشام ، واعترف له بالفضل والغناء في حفظ قواعد الدولة ،  
 فخرست ألسنة الأعداء والحسد ، وعلم المنصور ما في نفوس الناس لظهور  
 هشام ورؤيتهم له ، إذ كان منهم مَنْ لم يره قط ، فأبرزه للناس وركب الركبة  
 المشهورة ، واجتمع لذلك من الخلق ما لا يحصى ، وكانت عليه الطويلة<sup>١</sup> والقضيب<sup>٢</sup>  
 في يده زيّ الخلافة ، والمنصور يسايره .

ثم خرج المنصور لآخر غزواته ، وقد مرض المرض الذي مات فيه ،  
 وواصل شنّ الغارات ، وقويت عليه العلة ، فاتخذ له سرير خشب ووُطّيء  
 عليه ما يقعد عليه ، وجعلت عليه ستارة ، وكان يُحمَل على أعناق الرجال  
 والعساكر تحفّ به ، وكان هَجَرَ الأطباء في تلك العلة لاختلافهم فيها ، وأيقن  
 بالموت ، وكان يقول : إن زمامي يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما أصبح

= أنواع من مستحضرات تتخذ في صنع الأطعمة منها المري بالنقيع والطيب ومري الخبز ومري الحوت  
 وبعض أنواعه يصنع من عصير العنب بالأفاويه دون خبز محرق ، والعامّة تصنعه من العسل المحرق  
 والخبز المحرق وغيرهما . ويقول دوزي إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر وأشياء  
 أخرى . ويقول ابن البيطار إن نوعاً منه يعمل من السمك المالح واللحوم المالحّة وينقل عن الجاحظ  
 قوله « المري هو جوهر الطعام وروح البارد المستظرف والحار المستنظف . . . » ( انظر قاموس  
 دوزي «مادة مري» ومفردات ابن البيطار ٤ : ١٤٩ - ١٥٠ وكتاب الطيبخ : ٨٢ ومواضع  
 أخرى منه ) .

١ الطويلة : هي القلنسوة .

فيهم أسوأ حالة مني - ولعلته يعني مَنْ حضر تلك الغزاة ، وإلا فعساكر الأندلس ذلك الزمان أكثرُ من ذلك العدد - واشتغل ذهنه بأمر قرطبة وهو في مدينة سالم ، فلماً أيقن بالوفاة أوصى ابنه عبد الملك وجماعته وخلا بولده وكان يكرر وصاته ، وكلّما أراد أن ينصرف يرده ، وعبدُ الملك يبكي ، وهو ينكر عليه بكاءه ويقول : وهذا من أول العَجْز ، وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر .

وخرج عبد الملك إلى قرطبة ومعه القاضي ابن ذكوان ، فدخلها أول شوال ، وسكّن الإرجاف بموت والده ، وعرفَ الخليفةَ كيف تركه .

ووجد المنصور خيفةً فأحضر جماعة بين يديه ، وهو كالخيال لا يُبين الكلام ، وأكثر كلامه بالإشارة كالمسلم المودع ، وخرجوا من عنده ، فكان آخر العهد به ومات لثلاث بقين من شهر رمضان ، وأوصى أن يُدفن حيث يُقبض ، فدفن في قصره بمدينة سالم . واضطرب العسكر ، وتلّوم ولده أياً ، وفارقه بعض العسكر إلى هشام ، وقفل هو إلى قرطبة فيمن بقي معه ، ولبس فتیان<sup>١</sup> المنصور المُسُوّح والأكسية بعد الوشي والحبر والخز .

وقام ولده عبد الملك المظفر بالأمر ، وأجراه هشام الخليفة على عادة أبيه ، وخلع عليه ، وكتب له السجل بولاية الحجابة ، وكان الفتیان قد اضطربوا فقوم المائل ، وأصلح الفاسد ، وجرت الأمور على السداد ، وانشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد ، فكان أسعد مولود ولد في الأندلس .

ولنمسك عنان القلم في أمر ابن أبي عامر ، فقد قدمنا في محلّه جملة من أحواله ، وما ذكرناه هنا وإن كان محلّه ما سبق وبعضه قد تكرر معه فهو لا يخلو من فوائد زوائد ، والله تعالى ولي التوفيق .

١ ق ودوزي : قيان .

رجع إلى أخبار صاعد اللغوي البغدادي :

حكى<sup>١</sup> أنه دخل على المنصور يوم عيد ، وعليه ثياب جُدُد وخفٌ جديد ، فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين في الصحن ، فزلق فسقط في الماء ، فضحك المنصور ، وأمر بإخراجه ، وقد كاد البرد أن يأتي عليه ، فخلع عليه ، وأدنى مجلسه ، وقال له : هل حضرك شيء ؟ فقال :

شَيْثَانٌ كَانَا فِي الزَّمَانِ عَجَبِيَّةٍ      ضَرَطَ ابْنُ وَهْبٍ ثَمَّ وَقَعَةَ<sup>٢</sup> صَاعِدِ

فاستبرد ما أتى به فقال أبو مروان الكاتب الجزيري : هلا قلت :

سُرُورِي بَغْرُتَكَ الْمَشْرُقَةَ      وَدِيْمَةَ رَاحَتِكَ الْمَغْدِقَةَ<sup>٣</sup>  
ثَنَانِي نَشْوَانَ حَتَّى غَرَقَ      تٌ فِي لِحَةِ الْبَرْكَةِ الْمَطْبِقَةَ<sup>٤</sup>  
لَنْ ظَلَّ عَبْدُكَ فِيهَا الْغَرِيقَ      فَجُودُكَ مِنْ قَبْلِهَا أَعْرَقَهُ

فقال له المنصور : لله درك يا أبا مروان ، قسناك بأهل بغداد ففضلتهم ، فبمن نقيسك بعد ؟ انتهى .

وقال في الذخيرة في ترجمة صاعد<sup>٣</sup> : وفد على المنصور نجماً من المشرق غرب ، ولساناً عن العرب أعرب ، وأراد المنصور أن يعفّي به آثار أبي علي القالي فألقى سيّفه كهاماً ، وسحابه جهاماً ، من رجل يتكلّم بملء فيه ، ولا يوثق بكل ما يذره ولا ما يأتيه ، انتهى باختصار .

وأصل صاعد من ديار الموصل ، وقال ارتجالاً وقد عبث المنصور بترنجان :

لم أدر قبل تُرُنْجَانٍ عَيْبِثَتْ بِهِ      أَنْ الزَّمْرَدَ أَغْصَانُ<sup>٥</sup> وَأَوْرَاقُ

١ انظر الذخيرة ١/٤ : ٢٣ .

٢ الذخيرة : زلقة .

٣ الذخيرة ١/٤ : ٢ ؛ وبدائع البداهة ٢ : ٣١ .

من طيبه سَرَقَ الأترجُ نكهته يا قومُ حتى من الأشجار سَرَّاقُ  
كأنما الحاجبُ المنصورُ علّمه فعلَ الجميلِ فطابتْ منه أخلاقُ  
وقدمه الحِجاري بقوله :

كأن لبْرِيقنا والراحُ في فمه طيرٌ تناول يا قوتاً بمنقار  
وقبله :

وقهوة من فم الإبريق صافية كدمعٍ مفجوعة بالإلف مِعْبَاراً  
وقال في بدائع البدائه<sup>٢</sup> : دخل صاعد اللغوي على بعض أصحابه في مجلس  
شراب ، فملاً الساقى قدحاً من إبريق ، فبقيت على فم الإبريق نقطة من الراح  
قد تكونت ولم تقطر ، فاقترح عليه الحاضرون وصف ذلك فقال :

وقهوة من فم الإبريق ساكبة

البيتين .

ثمّ قال بعدهما : وإنّما اهتدم صاعد قول الشريف أبي البركات علي بن  
الحسين العلوي<sup>٣</sup> :

كأن ريح الروضِ لما أتت فَتَّتْ عَلَيْنَا مسكَ عَطَّارِ  
كأنما لبْرِيقنا طائرٌ يحملُ يا قوتاً بمنقارِ

انتهى .

١ ق : مغيار .

٢ بدائع البدائه ٢ : ٣٢ .

٣ ق ودوزي : اللغوي ؛ والتصويب عن اليتيمة ٤ : ٢٠ ؛ وفيه ترجمة أبي البركات والبيتان اللذان  
أوردهما المقري ؛ وانظر الذخيرة أيضاً : ١٥ - ١٦ .



ومن نظم صاعد :

قلتُ لهُ والرقيبُ يُعجِله مودعاً للفراق : أين أنا  
فمَدَّ كَفّاً إلى تراثه وقال : سِرُّ وادعاً فأنتَ هنا

وقال صاعد ، لما أمر المنصور بن أبي عامر بمعارضة قصيدة لأبي نواس :

إنِّي لأستَحْيِي عُلَا ك من ارتجال القول فيه  
من ليس يُدْرِكُ<sup>١</sup> بالروية ة كيف يدرك بالبدية

وقال حاشد البغدادي في صاعد اللغوي ، وكان صاعد يشدهما ويبكي  
ويقول : ما هُجيت بشيء أشد علي منهما :

اقبلْ هُدَيْتَ أبا العلاء نصيحتي بقبولها وبواجب الشكر  
لا تهجُونْ أَسَنَّ منكُ فر بما تهجو أباكَ وأنتَ لا تدري

نعوذ بالله من لسان الشعراء ، وأنواع البلاء ، بجاه نبينا محمد صلى الله عليه  
وسلم .

ومن نظم صاعد قوله<sup>٢</sup> :

بعثتُ إليكَ من خيري روضٍ محرمة<sup>٣</sup> كأوراق العقيق  
توكل بالغروب<sup>٤</sup> عن التصابي وتصطادُ الخليع من الطريق

وروى صاعد عن القاضي أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ، وأبي علي

١ ق : يحسن .

٢ الذخيرة ٤ / ١ : ١٢ .

٣ كذا في ق وأصل الذخيرة وجعلها دوزي : « محزمة » .

٤ كذا ولعل الصواب : بالزوف ، أي العازف عن التصابي ، كما ثبت في الذخيرة .

الحسن بن أحمد الفارسي ، وأبي بكر ابن مالك القطيعي ، وأبي سليمان الخطابي ، وغيرهم .

قال الحميدي<sup>١</sup> : خرج من الأندلس في الفتنة وقصد صقلية ، فمات بها قريباً من سنة عشر وأربعمائة .

وقال ابن حزم<sup>٢</sup> : توفي بصقلية سنة سبع عشرة وأربعمائة .

وقال ابن بشكوال في حقّه : إنّه يُتهم بالكذب وقلّة الصدق فيما يورده ، عفا الله تعالى عنه ؛ وقدم الأندلس من مصر أيام المؤيد وتحكم المنصور بن أبي عامر في حدود سنة ٣٨٠ ، فأكرمه المنصور ، وزاد في الإحسان إليه ، والإفضال عليه ، وكان عالماً باللّغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فكهِ المجالسة .

وقال بعضهم<sup>٣</sup> : دخل صاعد على المنصور وعنده كتاب ورد عليه من عامل له في بعض الجهات اسمه مبرمان<sup>٤</sup> بن يزيد يذكر فيه القلب والتربيل ، وهما عندهم اسم الأرض قبل زراعتها<sup>٥</sup> ، فقال له : يا أبا العلاء ، قال : لبيك يا مولانا ، فقال : هل رأيت أو وصل إليك من الكتب القوالب والزوالب لمبرمان ابن يزيد ؟ قال : إي والله ببغداد في نسخة لأبي بكر ابن دريد بخطّ ككراع النمل ، في جوانبها [علامات الوضاع]<sup>٦</sup> فقال له : أما تستحيي أبا العلاء من هذا الكذب ؟ هذا كتاب عاملي ببلد كذا واسمه كذا يذكر فيه كذا ، فجعل يحلف له أنّه ما كذب ، ولكنّه أمرٌ وافق . ومات عن سنّ عالية ، رحمه الله تعالى .

١ الجذوة : ٢٢٧ .

٢ نقله أيضاً ابن بشكوال في ترجمة صاعد ص : ٢٣٢ .

٣ راجع الجذوة : ٢٢٤ والذخيرة ١/٤ : ٢٠ .

٤ في الذخيرة : ميدان .

٥ الحميدي : وهما عندهم من معاناة الأرض قبل زراعتها .

٦ زيادة من الجذوة والذخيرة .

٦٠ - ومن الوافدين على الأندلس من المشرق الشيخ تاج الدين بن حمويه السرخسي<sup>١</sup> ، ولد سنة ٥٧٢ ، وقد ذكر في رحلته عجائب شاهدها بالمغرب ومشايخ لقيهم ، فمنهم الحافظ أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري ، قال : سمعت عليه سنة سبع وتسعين وخمسمائة الحديث وشيئاً من تصانيف المغاربة ، وروى لنا عن الحافظ أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف ابن إبراهيم بن قرقول ، وولي ابن حوط الله المذكور قضاء غرناطة ، وأدرك ابن بشكوال وابن حبيش وابن حميد المرسي النحوي وأبا يزيد السهيلي صاحب الروض وغيرهم . ومن الشيوخ الذين لقيهم السرخسي المذكور بالمغرب<sup>٢</sup> الفقيه ابن أبي تميم ، قال : وأنشدني :

اسمع أخي نصيحتي والنصح من محض الديانة  
لا تقربن إلى الشها دة والوساطة والأمانة  
تسلم من أن تُعزى لزو رٍ أو فُضولٍ أو خيانه

وذكر أنه أدرك الشيخ الولي العارف بالله سيدي أبا العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي صاحب الحالات والكرامات الظاهرة والطريقة الغربية والأحوال العجيبة ، قال : أدركته بمراكش سنة أربع وتسعين وخمسمائة وقد ناهز الثمانين ، ومهما حصل عنده مال فرقه في الحال ، وتركته في سنة ثمان وتسعين حياً يرزق ، انتهى . وولي الله السبتي قد ذكرت في غير هذا الموضع بعض أحواله ، فلتراجع في الباب الثامن من ترجمة لسان الدين ابن الخطيب ، ومحلّه مقصود

١ هو أبو أحمد عبد الله بن عمر بن محمد بن حمويه تاج الدين شيخ الشيوخ ( - ٦٤٢ ) كان مفتياً في العلوم عارفاً بالأصلين والفروع والترسل والتواريخ والهندسة والطب ، وله كتاب المؤنس في أصول الأشياء ، وأمال وتواريخ كثيرة ، بقي في المغرب بعد وفاة يعقوب المنصور ، وعاد إلى الشام سنة ٦٠٠ وحبس سنة ٦٠٤ ، وكان نزهاً عفيفاً شريفاً النفس . (راجع ترجمته في مرآة الزمان : ٧٤٨ - ٧٤٩ وذيل أبي شامة : ١٧٤ والشذرات : ٥ : ٢١٤ ) .

٢ الروض . . . بالمغرب : سقطت هذه العبارة من ق .

لقضاء الحاجات ، وقد زرته مراراً عديدة سنة ١٠١٠ .

وقال لسان الدين في « نفاضة الجراب » : كتبت عن السلطان الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر ونحن بفاس يخاطب الضريح المقصود ، والمنهل المورود ، والمرعى المنتجع ، والحوان الذي يكفي الغرثي ، ويمرض المرضى ، ويقوت الزمئي ، ويتعداهم إلى أهل الحيدة زعموا والغني ، قبر ولي الله سيدي أبي العباس السبتي نفعنا الله به ، وجبر حالنا ، وأعاد علينا النعم ، ودفع عنا النقم :

يا وليَّ الإلهِ أنتَ جوادٌ وقصدنا إلى حماك المنيعِ  
راعنا الدهرُ بالخطوبِ فجثنا نرتجي من علاك حُسنَ الصنيعِ  
فمددنا لك الأكفَّ نرجي عودَةَ العزِّ تحتَ شَمْلِ جميعِ  
قد جعلتنا وسيلةً تُربِّكَ الزا كي وزلّفي إلى العليمِ السميعِ  
كم غريبٍ أسرى إليك فوافي برضى عاجلٍ وخيرٍ سريعِ

يا وليَّ الله الذي جعل جاهه سبباً لقضاء الحاجات ، ورفع الأزمات ، وتصريفه باقياً بعد الممات ، وصدقَ نقولَ الحكاياتَ ظهورُ الآيات ، نفعني الله بنبيي في بركة تربك ، وأظهر عليَّ أثرَ توسّلي بك إلى الله ربك ، مُزقَ شملي ، وفرق بيني وبين أهلي ، وتُعدي عليَّ ، وصُرفت وجوه المكايد إليَّ ، حتى أُخرجت من وطني وبلدي ، ومالي وولدي ، ومحل جهادي ، وحقّي الذي صار لي طوعاً عن آبائي وأجدادي ، عن بيعة لم يحلَّ عقدتها الدين ، ولا ثبوتُ جرحة تشين ، وأنا قد قرعت بابَ الله سبحانه بتأميلك ، فالتمس لي قبوله بقبولك ، وردّني إلى وطني على أفضل حال ، وأظهر علي كرامتك التي تُشدُّ إليها ظهور الرّحال ، فقد جعلتُ وسيلتي إليك رسول الحق ، إلى جميع الخلق ، والسلام عليك أيها الولي الكريم ، الذي يأمن به الخائف ويتصف الغريم ، ورحمة الله ، انتهى .

رجع - والسرخسي المذكور قال في حقّه بعض الأئمة : إنّه الشيخ الإمام ،

شيخ الشيوخ ، تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه ، له رحلة مغربية ، انتهى .

وهو من بيت كبير ، وقال البديري في تاريخه في حقه ما صورته : تاج الدين ، شيخ الشيوخ بدمشق ، أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين ، له كتاب في ثماني مجلدات ذكر فيه أصول الأشياء ، وله « السياسة الملوكية » صنفها للملك الكامل محمد ، وغير ذلك ، وسمع الحديث ، وحفظ القرآن ، وكان قد بلغ الثمانين ، وقيل : لم يبلغها ، وقد سافر إلى بلاد المغرب سنة ثلاث وتسعين ، واتصل بمراكش ، عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فأقام هنالك إلى سنة ستمائة ، وقدم مصر ، وولي مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين ابن حمويه ، انتهى .

وقال غيره : إنه كان فاضلاً متواضعاً نزهاً حسن الاعتقاد ، قال أبو المظفر : كان يحضر مجالسي ، وأنشدني يوماً :

لم ألقَ مستكبراً إلا تحوّل لي عند اللقاء له الكبرُ الذي فيه  
ولا حلّالي من الدنيا ولدتها إلاّ مقابلي للتيه بالتيه

وقال السرخسي المذكور في رحلته : إتي وإن كنت خراساني الطينة ، لكني شامي المدينة ، وإن كانت العمومة من المشرق ، فإن الخوولة من المغرب ، فحدّث باعثٌ يدعو إلى الحركات والأسفار ، ومشاهدة الغرائب في النواحي والأقطار ، وذلك في حال ريعان الشباب الذي تعضده عزائم النفوس بنشاطها ، والجوارح بجنّة حركاتها وانبساطها ، فخرجت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة إلى زيارة البيت المقدس وتجديد العهد ببركاته ، واغتنام الأجر في حلول بقاعه ومزاراته ، ثم سرت منه إلى الديار المصرية ، وهي أهلة بكل ما تتجمل به البلاد وتردهي ، ويتتهي وصف الواصف لشؤونها ولا تنتهي ، ثم دخلت الغرب من الإسكندرية في البحر ودخلت مدينة مراكش أيام السيد الإمام أمير المؤمنين

أبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، فاتصلت بخدمته ، والذي علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن ، ويحفظ متون الأحاديث ويُتقِنها ، ويتكلّم في الفقه كلاماً بليغاً ، وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتاوى ، وله فتاوى مجموعة حسبما أدّى إليه اجتهاده ، وكان الفقهاء ينسبونه إلى مذهب الظاهر ، وقد شرحت أحوال سيرته ، وما جرى في أيام دولته ، في كتاب التاريخ المسمّى « عطف الذيل » . وقد صنف كتاباً جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلق بها العبادات سمّاه « الترغيب » . وتهدّده ملك الإفرنج الفُتُشُّ في كتابه فمزقه ، وقال لرسوله : ﴿ اَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ( النمل : ٢٧ ) إن شاء الله تعالى ، ثم قال للكاتب : اكتب على هذه القطعة ، يعني من كتابه الذي مزّقه : الجواب ما ترى لا ما تسمع :

فلا كُتِبَ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّةُ وَالْقَنَا وَلَا رُسُلٌ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَرْمَرَمُ<sup>١</sup>

ومن شعره أبيات كتب بها إلى العرب ، وهي :

يا أيّها الراكبُ المُزجِبي مطيِّته	على عُدافرة تشقّى بها الأكمُ
بلغ سليماً على بُعد الديارِ بها	بيتي وبينكمُ الرحمنُ والرحيمُ
يا قومنا لا تشبُّوا الحربَ إن خمدتُ	واستمسكوا بعري الإيمانِ واعتصموا
كم جرّبَ الحربَ منْ قد كان قبلكمُ	من القرونِ فبادتْ دونها الأممُ
حاشا الأعرابَ أن ترضى بمنقصة	يا ليت شعري هل تراهُمُ علموا
يقودهمُ أرمنيُّ لا خلاقَ له	كأنه بينهمُ من جهلهم علمُ

يعني بالأرمني قراقوش مملوك بني أيوب الذي كان ذهب إلى بلاد الغرب

١ ورد هذا الجواب في الحلل الموشية : ٣٠ ولكنه منسوب هناك ليوسف بن تاشفين وكذلك قال ابن عبد الغفور في أحكام صنعة الكلام ص : ١٦٤ ؛ والبيت المتنبي .

الأدنى ، وأوقد النار الحربية من طرابلس إلى تونس مع ابن غانية اللّمتوني ،  
وحديثه مشهوراً ، وتما الأبيات :

الله يعلم أني ما دعوتكمُ دعاء ذي قوةٍ يوماً فينتقمُ  
ولا بلحأتُ لأمرٍ يُستعانُ بهِ من الأمورِ وهذا الخلقُ قد علموا  
لكن لأجزى رسولَ الله عن نسبٍ يُنمى إليه وترعى تلكم الذممُ  
فإن أيتّم فجلُّ الوصلِ متصلٌ وإن أيتّم فعندَ السيفِ نحتكمُ

ثمّ قال السرخسي : وبلغني أن قوماً من الغرباء قصدوه ، ومعهم حيوانات  
مُعَلّمة منها أسد وغراب ، أمّا الأسد فيقصده من دون أهل المجلس ، ويربض  
بين يديه ، وربّما أوماً بالسجود ومدّ ذراعيه ، وأمّا الغراب فكان يقول :  
النصر والتمكين لسيدنا أمير المؤمنين ، وفي ذلك يقول بعضُ الشعراء :

أنسَ الشبلُ ابتهاجاً بالأسدُ ورأى شبهَ أبيه فقصدُ  
أنطق الخالقُ مخلوقاته شهدوا والكلُّ بالحقّ شهدُ  
أنك الخيرةُ من صفوته بعدما طال على الناس الأمدُ

فأعطاهم وكساهم ، وأحسن حياهم . وبلغني أن قوماً أتوه بفيل من بلاد  
السودان هدية ، فأمر لهم بصلّة ، ولم يقبله منهم ، وقال : نحن لا نريد أن نكون  
أصحاب الفيل .

وقال لي يوماً : كيف ترى هذه البلاد ؟ وأين هي من بلادك الشامية ؟  
فقلت : يا سيدنا ، بلادكم<sup>٢</sup> حسنة أنيقة مجملّة مكملة ، وفيها عيب واحد ،  
فقال : ما هو ؟ فقلت : أنّها تُنسى الأوطان ، فتبسم وظهر لي إعجابه

١ تجد تفصيلاً لأعمال قراقوش وابن غانية في رحلة التجاني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون ( الجزء  
السادس ) والبيان المغرب ( الجزء الثالث ) وراجع كتابي « تاريخ ليبيا » : ١٥٧ - ١٩٤ .  
٢ ق : بلاد .

بالجواب ، وأمر لي من غد بزيادة رتبة وإحسان .  
وحدثني بعض عمالهم أنه فرّق على الجنود والأمراء والفقراء في عيد سنة  
أربع وتسعين ثلاثة وسبعين ألف شاة من ضأن ومعز .  
ودرّج إلى رحمة الله تعالى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وكان قد  
استخلف ولده محمداً وقرّر الأمر له ، انتهى .

قلت : بهذا وأمثاله تعلم فساد ما زعمه غير واحد أن يعقوب المنصور هذا  
تخلّى عن الملك ، وفر زهداً فيه إلى المشرق ، وأنه دفن بالبقيع ، لأن هذه مقالة  
عامية لا يثبتها علماء المغرب ، وسبب هذه المقالة تولّع العامة به ، فكذبوا في  
موته ، وقالوا : إنّه ترك الملك ، وحكوا ما شاع إلى الآن وذاع ممّا ليس له  
أصل . ويرحم الله تعالى الإمام العلامة القاضي الشريف الغرناطي شارح الخزرجية ،  
إذ قال في شرح مقصورة حازم عند ذكره وقعة الأرك ما معناه<sup>١</sup> : إن بعض  
الناس يزعمون أن المنصور ترك الملك وذهب إلى المشرق ، وهذا كلام لا يصح ،  
ولا أصل له . انتهى . وقال في « المغرب » : كان أبوه يوسف قد استوزره في  
حياته ، وتخرّج بين يديه ، وتمرّس ، وهزم الفرنج الهزيمة العظيمة ، وتولّع  
بالعلم حتى نفى التقليد وحرّق كتب المذاهب ، وقتل على السكر ، انتهى .  
وحكى لسان الدين الوزير ابن الخطيب في شرح كتابه « رقم الحُلل في  
نظم الدول » أن المنصور طلب من بعض أعيان دولته رجلين لتأديب ولده  
يكون أحدهما برّاً في عمله ، والآخر بجرّاً في علمه ، فجاءه بشخصين زعم  
أنهما على وفقٍ مقترح المنصور ، فلمّا اختبرهما لم يجدهما كما وصف ، فكتب  
إلى الآتي بهما ﴿ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحْرِ﴾ (الروم : ٤١) انتهى . وناهيك

١ نص ما أورده الشريف الغرناطي (رفع الحجب ٢ : ١٥٥) « وكذب الكافة من العامة بوفاته  
فأونة يجعلونه يرابط ببلاد الأندلس مستكتماً بها ، وتارة يقولون إنه خرج زاهداً في الملك فتوجه  
نحو بيت الله وجاور في المدينة عند قبر رسول الله (ص) حيث يخفي أمره ، ولهم في ذلك حكايات  
يقولونها إلى الآن ، كلها تحرّص وأباطيل » ، وانظر البيان المغرب ٣ : ٢١١ (ط . تطوان) .



بهذا دلالةً على قوة فطنته ومعرفته ، رحمه الله تعالى .

### رجع إلى أخبار السرخسي :

وقال في رحلته لما ذكر السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي<sup>١</sup> ، وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة وأعمالها : اجتمعت به حين قدم إلى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعة ولده محمد ، فرأيته شيخاً هيب المنظر ، حسن المخبر ، فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية ، ومن كلامه في جواب رسالة إلى ملك السودان بغانة ينكر عليه تعويق التجار قوله : نحن نتجاوز بالإحسان ، وإن تخالفنا في الأديان ، ونتفق على السيرة المرضية ، ونتألف على الرفق بالرعية ، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانیه إلاّ النفوس الشريرة الجاهلة ، وقد بلغنا احتباسُ مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ، وتردد الجلالة إلى البلد مفيد لسكانها ، ومعين على التمكّن من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا مَنْ في جهاتنا من أهل تلك الناحية لكنّا لا نستصوب فعله ، ولا ينبغي لنا أن ننهي عن خلق ونأتي مثله ، والسلام .

ووقع إلى عامل له كثرت الشكاوى منه : قد كثرت فيك الأقوال ، وإغضائي عنك رجاء أن تتيقظ فتتصلح الحال ، وفي مبادرتي إلى ظهور الإنكار عليك نسبة إلى شر الاختيار وعدم الاختبار ، فاحذر فإنك على شفا جرف هارٍ .  
ومن شعره المشهور قصيدة يمدح فيها ابن عمّه المنصور يعقوب<sup>٢</sup> :

١ أبو الربيع الموحدي سليمان بن عبد الله ( - ٦٠٤ ) ، ولي بجاية ، وشارك في بعض الأعمال الحربية ضد ابن غانية بتونس ؛ وقال الشقندي فيه إنه من مفاخر بني عبد المؤمن ، كان قديراً على النظم حافظاً للأدب ، وله ديوان شعر ( انظر الفصون اليانعة : ١٣١ - ١٣٤ ) ويبدو أن قسماً من هذا الشعر قد نخله إياه أحد كتابه ( المعجب : ٣٧٨ ) .

٢ هي في ديوانه ص ٢٠ ( ومخطوطة الرباط من ديوانه : الورقة ١٥٧ ) قالها يهنيء الخليفة أبا يوسف بفتح قصة سنة ٥٨٣ .

وَجَرَّتْ بِسَعْدِكُمْ النُّجُومُ الطُّلَعُ  
أَنْ الْأُمُورَ إِلَى مُرَادِكَ تَرْجِعُ  
مَلَأَ الْبَسِيطَةَ نُورَهُ الْمُشْتَعِشُ  
نَفْسًا تُفَدِّيهَا الْخَلَائِقُ أَجْمَعُ  
بِعَزِيمَةِ كَالسَّيْفِ بَلْ هِيَ أَقْطَعُ  
وَالْخَيْلُ تُجْرِي وَالْأَسْنَةُ تَلْمَعُ  
مَا إِنْ لَهُ غَيْرُ التَّوَكُّلِ مَفْزَعُ  
يَوْمًا إِذَا أَضْحَى الْجَوَارُ يُضَيِّعُ

هَبَّتْ بِنَصْرِكُمْ الرِّيحُ الْأَرْبَعُ  
وَاسْتَبَشَّرَ الْفَلَكَ الْأَثِيرُ تَيْقَنًا  
وَأَمَدَكَ الرَّحْمَنُ بِالْفَتْحِ الَّذِي  
لَمْ لَا وَأَنْتَ بَدَلْتِ فِي مَرَضَاتِهِ  
وَمَضَيْتِ فِي نَصْرِ الْإِلَهِ مُصَمَّمًا  
لِلَّهِ جَيْشِكَ وَالصَّوَارِمُ تُنْتَضِي  
مَنْ كُلُّ مَنْ تَقْوَى الْإِلَهِ سِلَاحُهُ  
لَا يُسْلَمُونَ إِلَى النَّوَازِلِ جَارَهُمْ

ومنها يصف انهزام العدو :

فبجهله قد ظنَّ ما لا ينفَعُ  
وَالْأَرْضُ تُنْشَرُ فِي يَدَيْكَ وَتَجْمَعُ  
فَتَحُّ يُمَدُّ بِمَا سِوَاهُ وَيُشْفَعُ  
وَلَبَسْتَ مِنْهُ أَنْتَ مَا لَا يُخْلَعُ  
وَاللَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ  
وَمَنْ ادْعَاهُ يَقُولُ مَا لَا يُسْمَعُ  
فإليك يا يعقوبُ تومي الإصْبَعُ  
أَنْتَ الْمَقْدَمُ وَالْخَلَائِقُ تُبْعُ  
مَنْ قَلْبِ صَدَقٍ لَمْ يَشْنَهُ تُصْنَعُ  
أَنْتَ الْمَلَاذُ لَهَا وَأَنْتَ الْمَفْزَعُ  
وَالْمَدْحُ مِنْ غَيْرِي إِلَيْكَ تَطْبَعُ  
يَفْنَى الزَّمَانُ وَعَرَفُهَا يَتَضَوِّعُ

إِنْ ظَنَّ أَنْ فِرَارَهُ مُنْجٍ لَهُ  
أَيْنَ الْمَفْرُؤِ وَلَا فِرَارَ لِهَارِبٍ  
أَخْلِيفَةَ اللَّهِ الرَّضَى هُنَيْتَهُ  
فَلَقَدْ كَسَوْتَ الدِّينَ عِزًّا شَاخًا  
هِيَهَاتَ سِرُّ اللَّهِ أَوْدَعَ فِيكُمْ  
لَكُمْ الْهُدَى لَا يَدَّعِيهِ سِوَاكُمْ  
إِنْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا  
إِنْ كُنْتَ تَتَلَوُ السَّابِقِينَ فَإِنَّمَا  
خُذْهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَدِيحَةً  
وَاسْلَمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِأُمَّةٍ  
فَالْمَدْحُ مِنِّي فِي عِلَاكَ طَبِيعَةٌ  
وَعَلَيْكَ يَا عَلَمَ الْهُدَاةِ تَحِيَّةٌ

قال لي الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلاني : دخلت إلى السيد أبي الربيع بقصر سجلماسة ، وبين يديه أنطاع عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة وغانة ، وهو ينكت الأرض بقضيب من الآبنوس ، ويقول :

ولا غرواً أن كانت رؤوسُ عِدَاتِهِ جواباً إذا كان السيوفَ رسائله  
ومات بعد الستمائة ، رحمه الله تعالى ، انتهى .

وقال لما هجره أمير المؤمنين يعقوب المنصور ، ووافق ذلك أن وقدَ على حضرة الخلافة مراکش جمعٌ من العرب والغزّاء من بلاد المشرق ، ونزلوا بتمرتانسقت ظاهر مراکش ، واستأذنوا في وقت الدخول ، فكتب إلى المنصور<sup>٢</sup> :

يا كعبةَ الجودِ التي حَجَّتْ لها عَرَبُ الشَّامِ وَغَزُّهَا وَالدَّيْلَمُ  
طوبى لمن أمسى يطوفُ بها غداً ويحلُّ بالبيتِ الحرامِ ويُحْرِمُ  
ومن العجائبِ أن يفوزَ بنظرةٍ منْ بالشَّامِ ومن بمكَّةَ يُحْرِمُ  
فعفا عنه ، وأحسن إليه ، وأمره بالدخول بهم ، والتقدم عليهم .

وقال في « المغرب » في حق السيد أبي الربيع المذكور ، ما ملخصه<sup>٣</sup> : لم يكن في بني عبد المؤمن مثله في هذا الشأن الذي نحن بصدده ، وكان تقدم على مملكتي سجلماسة وبجاية ، وكان كاتباً شاعراً أديباً ماهراً ، وشعره مدون ، وله ألغاز ،

١ الغز : فريق من الجيش الذي كان يلتف حول شرف الدين قراقوش وفيه عناصر تركية في الأغلب وردوا المغرب حوالي ٥٨٢ هـ أو التي بعدها ، فأكرمهم الخليفة الموحي وجعل لهم جامكية شهرية لا تحتل (انظر المعجب : ٣٦٥ - ٣٦٧) حين رتبهم في جيشه ، وقد نوه المنصور بالغز في وصيته حين قال : « وهؤلاء الأغزاز أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها فاتركوها على ما رتبنا وربطنا لأن الموخدين لهم سهام يرجعون إليها وليس للأغزاز سهام » (البيان ٣ : ٢٠٨ ط . تطوان) .

٢ الأبيات في ديوانه : ١٤٤ .

٣ لم ترد هذه الترجمة في المغرب المطبوع .

وهو القائل في جارية اسمها أوف<sup>١</sup> :

خليليَّ قولاً أين قلبي ومنَّ به      وكيف بقاء المرء من بعد قلبه  
ولو شئتُما إسمَ الذي قدَّ هويتهُ      لصحفتُما أمري لكم بعد قلبه<sup>٢</sup>

وله الأبيات المشهورة التي منها<sup>٣</sup> :

أقول لركب أدلجوا بسُحَيْرَة      قِفُوا ساعةً حتى أزورَ رِكابِها  
وأملأ عيني من محاسنِ وجهها      وأشكو إليها أن أطالتَ عتابها  
فإن هي جادتْ بالوصالِ وأنعمتْ      وإلاَّ فحسبي أن رأيتُ قِبابِها

وقال يخاطب ابن عمه يعقوب المنصور<sup>٤</sup> :

فلأملأن الخافقينِ بذكركم      ما دمت حياً ناظماً ومُرْسَلاً  
ولأبدلنَّ نصحي لكم جهدي وذا      جهْدُ المُقِيلِ وما عسى أن أفعلأ  
ولأخلِصنَّ لك الدعاء ، وما أنا      أهلُّ له ، ولعلَّه أن يُقَبَّلأ

وله مختصر كتاب « الأغاني » ، انتهى .

رجع - وذكر السرخسي أيضاً في رحلته السيد أبا الحسن علي بن عمر ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وقال في حقّه : إنّه كان من أهل الأدب والطرب ، ولي بجاية مدة ، ثمّ عزّل عنها لإهماله وإغفاله وانهماكه في ملاذه ، أنشدني محمد ابن سعيد المهدي كاتبه قال : كتب الأمير أبو الحسن إلى أمير المؤمنين يعقوب يمدحه ويستريده ، ويطلب منه ما يقضي به ديونه :

١ الديوان : ١١٧ .

٢ أمره هو الفعل « قولاً » في البيت الأول ، وتصحيحه بعد قلبه هو « أوف » .

٣ الديوان : ٤٩ .

٤ الديوان : ٣٩ .

وجوه الأمازي بكم مُسْفِرَةٌ      وضاحكةٌ ليَ مُسْتَبْشِرَةٌ  
ولي أملٌ فيكمُ صادقٌ      قريبٌ عسى الله قد يسره  
عليّ ديونٌ وتصحيفها      وعندكمُ الجودُ والمغفرة

يعني ذنوب .

وحدثني الشيخ أبو الحسن ابن فشتال<sup>١</sup> الكاتب وقد أنشدته :

أوحشتني ولو اطلعت على الذي      لك في ضميري لم تكن لي موحشا

فقال : أنشدته هذا البيت في مجلس السيد أبي الحسن ، فقال لي ولئن حضر :

هل تعرفون لهذا البيت ثانياً ؟ فما فينا من عرفه ، فأئشدنا :

أترى رُشيتَ على اطِّراح مودتي      ولقد عهدتك ليس تشنيكَ الرُّشا

أوحشتني - البيت ، انتهى .

وقال في « المغرب » في حق السيد المذكور ، ما ملخصه : كان هذا السيد

أبو الحسن قد ولي مملكة تلمسان وبجاية ، وله حكايات في الجود برمكية ،  
ونفس عالية زكية ، كتب إليه السيد أبو الربيع يوم الجمعة<sup>٢</sup> :

اليومُ يومُ الجمعةُ      يومُ سرورٍ ودَعَةٍ  
وشمَلْنَا مفرقٌ      فهل ترى أن نجمعهُ

فأجابه بقوله :

اليومُ يومُ الجمعةُ      وربنا قد رفَعَهُ  
والشربُ فيه بدعةٌ      فهل ترى أن ندَعَهُ

١ ق : قشتال .

٢ ديوان أبي الربيع : ١٣٧ .

قال : ولقطة « السيد » في المغرب بذلك العصر لا تطلق إلا على بني عبد المؤمن بن علي ، انتهى .

رجع - قال السرخسي ، وقد ذكر في الرحلة المذكورة السيد أبا محمد عبد الله صاحب فاس : وله من أبيات في الفخر وقد انتحلها غيره :

ألست ابن من تخشى الليالي انتقامهم وترجو ندهام غايات السحاب  
يخطون بالخطي في حومة الوغى سطور المنايا في نحور المقانب  
كتاباً بأطراف العوالي ونقسه دم القلب مشكولاً بنضح الترائب  
وما كنت أدري قبلهم أن معشراً أقاموا كتاباً من نفوس الكتاب

وأشدني المقدم الأمير أبو زيد بن يكيث قال : أشدني بعض السادة من بني عبد المؤمن :

فديت من أصبحت في أسره وليس لي من حكمه فادي  
إن حل يوماً وادياً كان لي جنة عدن ذلك الوادي

ثم ذكر رحمه الله تعالى جملة من علماء الأندلس والمغرب لقيهم في هذه الرحلة .

ومن نظم السرخسي المذكور قوله رحمه الله تعالى :

يا ساهر المقلة لا عن كرى غفلت عن هجني وأوصابي  
لو لم يكن وجهك لي قبلة ما أصبح الحاجب محرابي

وكان متفتناً في العلوم ، وهو عمُّ الأمراء الوزراء الرؤساء فخر الدين وإخوته ، ومن مصنفاته « المسالك والممالك » و « عطف الذيل » في التاريخ ، وله أمالٍ وتخرّيج وقدمه المنصور صاحب المغرب على جماعة ، وتوفي رحمه الله تعالى بدمشق ، ودفن في مقابر الصوفية عند المنيع ، وكان عالي الهمة ،

شريف النفس ، قليل الطمع ، لا يلتفت إلى أحد رغبة في دُنْيَاه ، لا من أهله ولا من غيرهم ، وذكره صاحب « المرأة » وغيره ، وترجمته واسعة ، رحمه الله تعالى .

٦١ - ومن الوافدين على الأندلس ظفر البغدادي<sup>١</sup> ، سكن قرطبة ، وكان من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط كعباس بن عمرو الصقلي ويوسف البلوطي وطبقتهما ، واستخدمه الحكم المستنصر بالله في الوراقاة ، لما عُلِم من شدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها ، وقد أشار ابن حيّان في كتاب « المقتبس » إلى ظفر هذا ، رحمه الله تعالى .

٦٢ - ومنهم الرازي ، وهو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط ، الكتاني ، الرازي<sup>٢</sup> ، والد أبي بكر أحمد بن محمد صاحب التاريخ ، غلب عليه اسم بلده ، وكان يقدّم من المشرق على ملوك بني مروان تاجراً ، وكان مع ذلك متقناً<sup>٣</sup> في العلوم ، وهلك مُنْصَرَفَه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بالبيرة ، في شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣ ، ذكره ابن حيّان في « المقتبس » .

٦٣ - ومنهم الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز ابن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان التميمي ، الدارمي ، البغدادي<sup>٤</sup> . سمع من أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص<sup>٥</sup>

١ ترجمة ظفر الوراق في التكملة : ٣٤٦ .

٢ انظر ترجمته في التكملة : ٦٧٠ .

٣ التكملة : مفتناً .

٤ ترجمة أبي الفضل البغدادي في الجذوة : ٦٨ (وبنية الملتبس رقم : ٢٠٩) والذخيرة ٤ / ١ : ٦٧ - ٩٢ وفيه تفصيل رحلته وتقلبه في البلاد .

٥ في الجذوة : سمع من أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص جزمين ، وقد يوهم أن « المخلص » اسم كتاب ، وعند حاجي خليفة « المخلصيات » من حديث أبي طاهر لابن العباس ابن مخلص الذهبي . (ص ١٦٣٩) .

وغيره ، وخرج من بغداد رسولاً عن أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي رضي الله تعالى عنه إلى صاحب إفريقية المعز بن باديس ، واجتمع مع أبي العلاء المعري بالمعرة ، وأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب ، فقبل عينيه ، وقال له :  
 لله أنت من ناظم ؛ وخرج من إفريقية من أجل فتنة العرب ، وخيم عند المأمون ابن ذي النون ببطليطة<sup>١</sup> ، وله فيه أمداح كثيرة ، ومن فرائد شعره قوله<sup>٢</sup> :

يا ليلُ أَلَا انجَلَيْتَ عن فلتقِ طُلْتَ ولا صبرَ لي على الأرقِ  
 جفا لحاظي<sup>٣</sup> التغميضُ فيك فما تُطْبِقُ أجفانتها على الحدقِ  
 كأنتي صورةٌ ممثلةٌ ناظرها الدهرَ غيرُ منطبقِ

وقال :

يزرعُ ورداً ناضراً ناظري في وجنةٍ كالقمرِ الطالعِ  
 أَمْنَعُ أن أفطفَ أزهاره في سنةِ المتبوعِ والتابعِ  
 فلمْ منعمٌ شقتي قطفها والحكمُ أن الزرعَ للزارعِ

هكذا نسبها له غير واحد كابن سعيد وابن كتيلة<sup>٤</sup> ، وبعضهم ينسبها للقاضي عبد الوهّاب .

قلت : وقد أجاب عنها بعض المغاربة بقوله :

سَلَّمْتُ أنَّ الحكمَ ما قلمُ وهو الذي نُصَّ عن الشارعِ

١ كان دخوله طليطلة يوم الجمعة ثلاث بقين من جمادى الأولى سنة ٤٥٤ .

٢ الذخيرة : ٧٥ .

٣ الذخيرة : جفوني .

٤ الذخيرة : تسبل أشفارها .

٥ في ق : وأبو كيلة ، وقد اضطربت في النسخ بين : كتيلة ، كتيلة ، كتيلة ، كما جاء موضعها بياض في نسخ أخرى .



فكيف تبغي شفةً قَطَفَهُ وغيرُها المدعوُّ بالزارعِ

ورده شيخُ شيوخِ شيوخنا الإمامِ الحافظِ أبو عبد الله التَّنَسِي ثم التلمساني بقوله:

في ذا الذي قد قَلِمُ مَبِحْثُ إِذْ فِيهِ إِيْهَامٌ عَلَى السَّامِعِ  
سَلَّمْتُمُ الْحُكْمَ لَهُ مُطْلَقاً وَغَيْرُهُ ذَا نَصٍّ عَنِ الشَّارِعِ

يعني أنه يلزم على قول المجيب أن يباح له النظر مطلقاً ، والشرع خلافه .  
وأجاب بعض الحنفية بقوله :

لأنَّ أَهْلَ الْحَبِّ فِي حُكْمِنَا عَيْدِنَا فِي شَرَعِنَا الْوَاسِعِ  
وَالْعَبْدُ لَا مِلِكَ لَهُ عِنْدَنَا فَحَقُّهُ لِلسَّيِّدِ الْمَانِعِ  
وهو جواب حسن لا بأس به .

ورأيت جواباً لبعض المغاربة على غير رويته ، وهو :

قُلْ لِأَبِي الْفَضْلِ الْوَزِيرِ الَّذِي بَاهَى بِهِ مَغْرِبَنَا الشَّرْقُ  
غَرَسْتَ ظِلْمًا وَأَرَدْتَ الْجَنَى وَمَا لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقُّ

قلت : وهذا مما يُعَيِّنُ أن الأبيات لأبي الفضل الدارمي المذكور في  
الذخيرة ، لا للقاضي عبد الوهاب ، والله تعالى أعلم .

ومن شعر الوزير المذكور قوله :

بَيْنَ كَرِيمِينَ مَنزَلٌ وَاسِعٌ وَالْوُدُّ حَالٌ تُقَرَّبُ الشَّاسِعُ  
وَالْبَيْتُ إِنْ ضَاقَ عَنْ ثَمَانِيَةٍ مَتَّعٌ بِالْوُدَادِ لِلتَّاسِعِ

وولد رحمه الله تعالى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ، وهو من بيت علم وأدب ،  
قال الحميدي : أخبرني بذلك أبو عمر<sup>١</sup> رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز

١ الجذوة : أبو محمد .

ابن الحارث ، وتوفي بطليطة سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وقال ابن حيّان :  
توفي ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وخمسين  
وأربعمائة ، في كَنَفِ المأمون يحيى بن ذي النون ، وذكر أنه كان يُتَّهَمُ  
بالكذب ، فإلله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

وقال ابن ظافر في كتابه « بدائع البداهة »<sup>١</sup> ما نصّه : حضر أبو الفضل الدارمي  
البغدادي مجلس المعزّ بن باديس ، وبالمجلس ساقٍ وسيمٍ قد مَسَّكَ عذاره  
وردّ خديه ، وعجزت الراح أن تفعل في الندامي فعلَ عينيه ، فأمره المعز  
بوصفه ، فقال بديهاً :

ومُعَدَّرَ نقشَ الجمالِ بِمِسْكَهِ      خَدَّآ لهُ بدمِ القلوبِ مضرَّجَا  
لَمَّا تيقَّنَ أن سيفَ جفونهِ      من تَرَجِسٍ جعلَ العذارِ بنفسِجَا

وقوله في جارية تبخرت بالند<sup>٢</sup> :

ومَحْطُوطَةُ المتينِ مَهْضُومَةُ الحشا      مُنْعَمَةُ الأردافِ تدمي من اللمسِ  
إذا ما دُخَانَ الند من جيبِهَا عَلَا      على وجهِهَا أبصرت غيماً على شمسِ

وقوله<sup>٣</sup> :

لَأَعْرَرَنَّ بِمَهْجَتِي فِي حَبِّهِ      غَرَّرَا يطيلُ معَ الخطوبِ خطابي  
ولئن تَعَزَّزَ إنَّ عِنْدِي ذَلَّةٌ      تستعطفُ الأعداءُ للأحبابِ

وقوله<sup>٤</sup> :

١ بدائع البداهة ٢ : ٤٠ وانظر الذخيرة ٤ / ١ : ٧٣ .

٢ الذخيرة : نفس الصفحة .

٣ الذخيرة : ٧٤ .

٤ الذخيرة : ٧٥ .

دَعَتْنِي عَيْنَاكَ نَحْوَ الصَّبَا      دُعَاءٌ يَكْرُرُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ  
 وَلَوْلَا وَحَقِّكَ عُدْرُ الْمَشِيبِ      لَقَلْتُ لَعِينِكَ سَمْعًا وَطَاعَةً

وقد تمثل بهذين البيتين لسان الدين ابن الخطيب في خطبة تأليفه المسمّى  
 بـ «روضة التعريف بالحب الشريف» .

وقال أبو الفضل الدارمي المذكور أيضاً<sup>١</sup> :

سَطَا الْفِرَاقُ عَلَيْهِمْ غَفْلَةً فغَدَوْا      مِنْ جَوْرِهِ فِرَاقًا مِنْ شِدَّةِ الْفِرَاقِ  
 فَسَرْتُ شَرْقًا وَأَشْوَاقِي مُغْرَبَةً      يَا بَعْدَ مَا نَزَحْتُ عَنْ طُرُقِهِمْ طُرُقِي  
 لَوْلَا تَدَارِكُ دَمْعِي يَوْمَ كَاطِمَةٍ      لِأَحْرَقَ الرِّكْبَ مَا أَبْدَيْتُ مِنْ حُرْقِي  
 يَا سَارِقَ الْقَلْبِ جَهْرًا غَيْرَ مَكْتَرٍ      أَمِنْتُ فِي الْحَبِّ أَنْ تُعْدِيَ عَلَيَّ السَّرْقِ  
 أُرْمَقُ بَعِينَ الرِّضَى تُنْعِشُ بِعَاطِفَةٍ      قَبْلَ الْمُنِيَّةِ مَا أَبْقَيْتُ<sup>٢</sup> مِنْ رَمَقِي  
 لَمْ يَبْقَ مِنِّي سِوَى لَفْظٍ يَبُوحُ بِمَا      أَلْقَى فِيهَا عَجَبًا لِلْفِظِّ كَيْفَ بَقِيَ  
 صِلْتِي إِذَا شِئْتَ أَوْ فَاهِجْرٍ عِلَانِيَّةً      فَكَلُّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْحَدَقِ

وقال<sup>٣</sup> :

تَذَكَّرَ نَجْدًا وَالْحَمَى فَبَكَى وَجَدَا      وَقَالَ : سَقَى اللَّهُ الْحَمَى وَسَقَى نَجْدَا  
 وَحَيَّتَهُ<sup>٤</sup> أَنْفَاسَ الْخُزَامَى عَشِيَّةً      فَهَاجَتْ إِلَى الْوَجْدِ الْقَدِيمِ بِهِ وَجَدَا  
 فَظَهَرَ سُلُوانًا وَأَضْمَرَ لَوْعَةً      إِذَا طُفِئَتْ نِيرَانُهَا وَقَدَّتْ وَقَدَا  
 وَلَوْ أَنَّهُ أَعْطَى الصَّبَابَةَ حُكْمَهَا      لِأَبْدَى الَّذِي أَخْفَى وَأَخْفَى الَّذِي أَبْدَى

١ الذخيرة : ٨٤ .

٢ الذخيرة : ما أوهيت .

٣ الذخيرة : ٧٨ .

٤ في ق : وخفة ؛ والتصويب عن الذخيرة .

وقال أيضاً ١ :

قلتُ للملقى على الخ  
أسبل الصدغُ على خ  
أم أعان الليلَ حتى  
قال : ميدانُ جرى الحس  
ركضتُ فيه عيونُ  
مدِين من وِردٍ خمارا  
مدك من مسكٍ عذارا  
قهرَ الليلُ النهارا  
نُ عليه فاستدارا  
فأثارتهُ غبارا

وقال ٢ :

وكاتب أهديتُ نفسي له  
فلستُ أدري بعد ما حلَّ بي  
سلطَ خديتهِ على مُهجتي  
فَهَي من السوءِ فدا نفسه  
بمسكِهِ أتلِفُ أمْ نِقسه  
فاستأصلتُها وهَي من غرسه

وقال :

وشادنُ أسرفَ في صدّه  
الحسنُ قد بثَّ على خدّه  
رأيتُهُ يكتبُ في طرسه  
فخِلتُ ما قد خَطّه كَفّه  
وزادَ في التيهِ على عبده  
بنفسجاً يزهو على ورده  
خطأً يباري الدرَّ من عقده  
للحسنِ قد خُطَّ على خدّه

وقال :

إنِّي عشقتُ صغيراً  
وكاد يُفشي حديثَ ال  
لو مرَّ في طرُقِ الهج  
قد دبَّ فيه الجمالُ  
فضول منه الدلالُ  
رِ لاعتراه ضلالُ

١ الذخيرة : ٧٧ .

٢ وردت سائر القطع في الذخيرة ، فلا حاجة إلى إثبات ذلك عند كل قطعة .

يريك بدرأ منيراً في الحسن وهو هلال

وقال :

ظبي إذا حرّك أصداعه لم يلتفت خلت إلى العطر  
غنى بشعري منشداً ليتني الا فظ الذي أودعته شعري  
فكلما كرر إنشاده قبلته فيه ولم يدّر

وقال :

أينفع قولي إنتي لا أحبه ودمني بما يُمليه وجدي يكتب  
إذا قلت للواشين لست بعاشق يقول لهم فيض المدامع يكذب

وقال :

وهبني قد أنكرت حبك جملة وآلت أني لا أروم محطها  
فمن أين لي في الحب جرح شهادة سقامي أملاها ودمني خطها

وقال :

أنا أخشى إن دام ذا الهجر أن يند شط من حبه عقال وثاقي  
فأريح الفؤاد مما اعتراه وأرد الهوى على العشاق

وقال :

كلانا لعمري ذائبان من الهوى فنارك من جمر وناري من هجر  
فأنت على ما قد تقاسين من أذى فصدرك في نار وناري في صدري

١ الذخيرة : ذو بيان .

وقال :

ومن عَجَبِ العَشْقِ أن القَتِيلَ يحنُّ ويصبو إلى القَاتِلِ

وقال :

ألم أجعلُ مُثَارَ النقعِ بحراً على أنَّ الجِيَادَ له سَقِين

وقال :

أصبحتُ أحلبُ نيساً لا مدَرَ له والئيسُ مَنْ ظنَّ أن التيسَ محلوبُ

وأما الحكيم أبو محمد المصري وهو القائل<sup>١</sup> :

رعى اللهُ دهرأ قد نعمنا بطيبه لياليه من شمس الكؤوسِ أصائل  
ونرجسنا درُّ على التبرِ جامدٌ وخمرتنا تبيرٌ على الدرِّ سائل

فقد ترجمه في « الذخيرة » فليراجع ، فإن الذخيرة غريبة في البلاد الشرقية . وقد كان عندي بالمغرب من هذا النوع ما أستعين به ، فخلفته هنالك ، والله تعالى يلم الشمل . وقد ذكر فيها أنه مغربي سافر إلى مصر ، ف قيل له « المصري » لذلك ، فليعلم ، والله تعالى أعلم .

٦٤ - ومن الوافدين على الأندلس أشهب بن العضد الخراساني . قال ابن

سعيد : أنشدنا لما وفد على ابن هود في إشبيلية قصيدة ابن النبيه :

طاب الصَّبُوح لنا فهاك وهات<sup>٢</sup>

وادعاها ، وفيها :

١ هو أبو محمد عبد الله بن خليفة المصري ، ترجم له ابن بسام في الذخيرة في قسم الغريباء الطارئين على الأندلس بعد ترجمة ابن حمديس (في القسم الذي لم يطبع بعد) وانظر ١/٤ : ٦٩ - ١٠٥ ، وقد ذمه ابن خيَّان دون أن يذكر اسمه ص : ١٠٩ .  
٢ عجزه : و اشرب هنيئاً يا أبا اللذت (الفوات ٢ : ١٤٧) .

في روضة غنّا نخال طيورَها وغصونَها همزاً على أَلِفَاتِ

ولم أجد هذا البيت في قصيدة ابن النبيه ، انتهى .

٦٥ - ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو الحسن البغدادي  
الفُكَيْكِيُّ<sup>١</sup> ، وهو مذكور في الذخيرة ، وكان حلواً الجواب ، مليح التندر ،  
يُضحك من حضر ، ولا يضحك هو إذا ندر ، وكان قصيراً دميماً . قال :  
ورأيته يوماً وقد لبس طاقاً أحمر على بياض ، وفي رأسه طرطور أخضر ،  
عمم عليه عمّة لازوردية ، وهو بين يدي المعتمد بن عباد ينشد شعراً قال فيه :

وأنت سليمانُ في مُلكِهِ وبين يديكَ أنا الهدُّهُدُ

وأنشد له في المعتمد :

أبا القاسمِ الملكِ المعظّمِ قَدَرُهُ      سواك من الأملاكِ ليس يُعظّمُ  
لقد أصبحتُ حمصٌ بعدلكِ جَنَّةٌ      وقد أبعدتُ عن ساكنيها جهنمُ  
ولي بحياكِ الربيعِ عاماً وأشهرأ      أزخرفُ أعلامَ النناءِ وأرقمُ  
وأنفقتُ ما أعطيتني ثقةً بما      أوَمَلُ فالدينارُ عندي درهمُ  
وقلبي إلى بغدادٍ يَصُبُّو وإنتي      لنَشْرِ صباها دائماً أتَنسَمُ

وقال :

وذرى على ربيعِ العقيقِ دموعه      عقيماً ففيها توأمٌ وفريدُ  
شهدتُ وما تغني شهادةُ عاشقٍ      بأن قتلَ الغاياتِ شهيدُ

ومنها :

١ راجع فهرست الذخيرة ١/١ : ١٩ وهو في القسم الذي لم يطبع بعد ، في تراجم الغرباء الطارئين على الأندلس .

إذا قابلوه قَبَلُوا تُرْبَ أَرْضِهِ  
وقد هَزَمَ منه الله للملكِ صارماً

وقال :

لأَيَّةِ حالٍ حالَ عن سِنَةِ الكرى  
ولم أَصغِ يوماً في هواه إلى العذلِ

ومنها :

كأنَّ بقاءَ الطَّلِّ فوقَ جفونها  
دموعُ التصابي حِرْنٍ في الأعينِ النُّجْلِ

ومنها :

تملَّكتَ رِقِّي بالعوارفِ منعماً  
وأنسيتني أرضَ العراقِ ودجلةً  
وأغنيتني بالجوَدِ عن كَمَلٍ ذي فضلِ  
وربَّعي حتى ما أحنُّ إلى أهلي

وقال في المقتدر بن هود :

لعزك ذلَّتْ ملوكُ البَشَرِ  
وأصبحتْ أخطَرَهُم بالقنا  
وعفرتْ تيجانَهُم في العفرِ  
سهرتْ وناموا عن المأثِراتِ  
وأركبَهُم لجوادِ الخطرِ  
وجلَّيتْ في حيثِ صلَّى الملوكُ  
فما لهم في المعالي أثرُ  
فكلُّ بذيَلِ المني قد عثرُ

ومنها :

وأنتم ملوكٌ إذا شاجروا  
أظلتهم من قناهم شجرُ

وقال الفكيك من قصيدة :

غَنَّى حُسامُكَ في أرجاءِ قرطبةِ  
حيثُ الدماءُ مُدامٌ والقنا زَهْرُ  
صوتاً أباد العدى والليلُ معتكِرُ  
والقومُ صرعى بكأسِ الحتفِ قد سكَروا



وكان مشهوراً بالهجاء ، وله في نقيب بغداد وكانت في عنقه غُدَّة :  
بَلَعَ الأمانةَ فِيهِ فِي حُلُقُومِهِ      لَا تَرْتَقِي صُعُوداً وَلَا تَنْزَلُ  
وقال في ناصر الدولة بن حمدان :

ولئن غلظتُ بأن مَدَحْتُكَ طالِباً      جَدَّوَاكَ مَعَ عَلْمِي بِأَنَّكَ باخِلُ  
فالدولةُ الغراءُ قد غلظتُ بأن      سَمَّتِكَ ناصِرها وَأَنْتَ الخاذِلُ  
إنَّ تمَّ أمركَ مع يدِي لك أَصْبَحَتْ      شِلاءَ فالأمثالُ شيءٌ باطلُ  
ومما ينسب إليه ، وقيل لغيره :

ووعدتني وَعَدّاً حَسْبِكَ صادقاً      فجعلتُ من طمعي أَجِيءَ وأذهبُ  
فإذا اجتمعتُ أنا وَأَنْتَ بمجلسٍ      قالوا مسيلمةُ وهذا أَشْعَبُ

٦٦ - ومنهم إبراهيم بن سليمان الشامي ، دخل الأندلس من المشرق في  
أخريات أيام الحكم شادياً للشعر ، وهو من موالي بني أمية ، ولم ينفق على الحكم ،  
وتحرك في أيام ولده الأمير عبد الرحمن فنفق عليه ، ووصله ، ثم في أيام الأمير  
محمد بن عبد الرحمن ، وكان أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبي نواس وأبي  
العتاهية . ومن شعره ما كتب به إلى الأمير عبد الرحمن :

يا مَنْ تَعالَى مِنْ أُمِيَّةَ فِي الذرى      قَدِمْماً فَأَصْبَحَ عَالِيَ الأركانِ  
إنَّ الغمامَ غِيائُهُ فِي وَقْتِهِ      وَالغَيْثُ مِنْ كَفَيْكَ كُلِّ أوانِ  
فالغَيْثُ قد عمَّ البلادَ وَأهلها      وظمئتُ بَيْنَهُمْ قَبْلَ لسانِي

وله في الأمير عبد الرحمن بن الحكم :

ومن عبْدِ شمسٍ بالمغربِ عَصْبَةٌ      فأسعدَها الرحمنُ حيثُ أحلَّها  
دَحاً تحتها مهداً من العزِّ آمناً      ومدَّ جناحاً فوقها فأظَلَّها

٦٧ - ومنهم أبو بكر ابن الأزرق ، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حامد بن موسى بن العباس بن محمد بن يزيد، وهو الحصني ، ابن محمد ابن مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، من أهل مصر ، خرج من مصر سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، وصار إلى القيروان ، وامتنحن بها مع الشيعة ، وأقام محبوساً بالمهدية ، ثم أطلق ووصل الأندلس سنة تسع وأربعين ، فأحسن إليه المستنصر بالله الحكيم ، وكان أديباً حكيماً ، سمع من خاله أبي بكر أحمد بن مسعود الزهري ، وولد سنة تسع عشرة وثلاثمائة بمصر ، وتوفي بقرطبة في ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، رحمه الله تعالى .

٦٨ - ومن الواردين على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن علي بن نافع ، الملقب بزرياب<sup>١</sup> ، مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي . قال في «المقتبس» : زرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه ، مع فصاحة لسانه ، وحلاوة شمائله ، شبهَ بطائر أسود غرّد عندهم ، وكان شاعراً مطبوعاً ، وكان ابنه أحمد قد غلب عليه الشعر أيضاً ، وكان من خبره في الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد ، فتلقف من أغانيه استراقاً ، وهُدِي من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع إلى ما فاق به إسحاق ، وإسحاق لا يشعر بما فُتِح عليه ، إلى أن جرى للرشيد مع إسحاق خبره المشهور في الاقتراح عليه بمغنٍ غريب مجيد للصنعة ، لم يشتهر مكانه إليه ، فذكر له تلميذه هذا ، وقال : إنه مولى لكم ، وسمعت له نزعاً حسنة ، ونغمات رائقة ملتاطة بالنفس ، إذا أنا وَقَفْتُه على ما استغرب منها وهو من اختراعي واستنباط فكري ، أجدس أن يكون له شأن ، فقال الرشيد : هذا طلبيتي ، فأحضرني لعل حاجتي عنده ، فأحضره ، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه

١ انظر الجزء الأول من النفع : ٣٤٤ ، وقد توفي زرياب سنة ٢٣٨ قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بأربعين يوماً (المقتبس : ٨٧ وترجمته فيه قد سقطت) ؛ وانظر المغرب ١ : ٥١ .

بأحسن منطق وأوجز خطاب ، وسأله عن معرفته بالغناء ، فقال : نعم أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، ممّا لا يحسن إلا عندك ولا يُدخِر إلا لك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك ، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق ، فلما أدني إليه وقف عن تناوله ، وقال : لي عود نَحْتَه بيدي وأرهفته بإحكامي ، ولا أرتضي غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه ، فأمر بإدخاله إليه ، فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه قال له : ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده ، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي ، فقال له : ما أراهما إلا واحداً ، فقال : صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي النظر غير ذلك ، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه ، وأوتاري من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة ، وبمّتها ومثلثتها اتخذتهما من مُصْران شبلٍ أسدٍ ، فلها في الترم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوّة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها ، فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء ، فجس ، ثم اندفع فغناه :

يا أيّها الملكُ الميمونُ طائرهُ هارونُ راحَ إليك الناسُ وابتكروا

فأتمّ النوبة ، وطار الرشيد طرباً ، وقال لإسحاق : والله لولا أنني أعلم من صدقتك لي على كتمانك إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه ، فخذهُ إليك واعن بشأنه ، حتى أفرغ له ، فإن لي فيه نظراً ، فسقط في يد إسحاق ، وهاج به من داء الحسد ما غلبَ صبره ، فخلا بزرياب وقال : يا علي ، إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ، لا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك ، وقصدت منفعتك

فإذا أنا قد أتيت نفسي من مأمنا بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ، وترتقي أنت فوقتي ، وهذا ما لا أصحابك عليه ولو أنك ولدي ، ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان ، فتخير في ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً إليّ ، فخذ الآن حذرك منى فلست والله أبقي عليك ، ولا أدع اغتيالك باذلاً في ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك . فخرج زرياب لوقته ، وعلم قدرته على ما قال ، واختار الفرار قدامه ، فأعانه إسحاق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه ، فرحل عنه ، ومضى يبغى مغرب الشمس ، واستراح قلب إسحاق منه .

وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه ، فأمر إسحاق بحضوره ، فقال : ومن لي به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يعدله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدّر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عني ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمر المؤمنين ، فإنه كان به لم يمشاه ويفرط خبطه ، فيفرع من رآه ، فسكن الرشيد إلى قول إسحاق ، وقال : على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير . ومضى زرياب إلى المغرب فنسي بالمشرق خبره ، إذ لم يكن اسمه شهر هنالك شهرته بالصقع الذي قطنه ونزعت إليه نفسه وسمت به همته ، فأمر أمير الأندلس الحكم المباين لمواليه ، وخاطبه وذكر له نزاعه إليه واختياره إياه ويعلمه بمكانه من الصناعة التي ينتحلها ويسأله الإذن في الوصول إليه ، فسراً الحكم بكتابه وأظهر له من الرغبة فيه والتطلع إليه وإجمال الموعد ما تمنّاه ، فسار زرياب نحوه بعياله وولده ، وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء ، فلم يزل بها حتى توات عليه الأخبار بوفاة الحكم ، فهم بالرجوع إلى العُدوة ، فكان معه منصور

اليهودي المغني رسول الحكم إليه ، فثناه عن ذلك ورغبه في قصد القائم مقام الحكم ، وهو عبد الرحمن ولده ، وكتب إليه بنجر زرياب ، فجاءه كتاب عيد الرحمن يذكر تطلّعه إليه والسرور بقدمه عليه ، وكتب إلى عمّاله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة ، وأمر خصياً من أكابر خصيائه أن يتلقّاه ببغال ذكور وإناث وآلات حسنة ، فدخل هو وأهله البلد ليلاً صيانة للحرم ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وحمل إليها جميع ما يُحتاج إليه ، وخلّع عليه ، وبعد ثلاثة أيام استدعاه ، وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً ، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه - وكانوا أربعة : عبد الرحمن ، وجعفر ، وعبيد الله ، ويحيى - عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر ، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد ألف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار ، وأن يُقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مندي ثلاثها شعير وثلاثها قمح ، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار . فلما قضى له سؤله وأنجز موعوده ، وعلم أن قد أرضاه وملك نفسه استدعاه ، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه ، فما هو إلا أن سمعه فاستهوله واطّرح كل غناء سواه ، وأحبه حبّاً شديداً وقدمه على جميع المغنين ، وكان لما خلا به أكرمه غاية الإكرام وأدنى منزلته وبسط أمله ، وذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء ، فحرك منه بحراً زخراً عليه مدّة ، فأعجب الأمير به وراقه ما أورده ، وحضر وقتُ الطعام فشرّفه بالأكل معه هو وأكابر ولده ، ثمّ أمر كاتبه بأن يعقد له صكاً بما ذكرناه آنفاً ، ولما ملك قلبه واستولى عليه حبه فتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراد .

وذكر أن زرياباً ادعى أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى

صوت واحد ، كان يَهْبُ من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة ، فتأخذان عودهما ، ويأخذ هو عوده ، فيطارحهما ليلته ويكتب الشعر ثم يعود عجلًا إلى مضجعه ؛ وكذلك يحكى عن إبراهيم الموصلي في لحنه البديع المعروف بالماخوري أن الجن طارحته إياه ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

وزاد زرياب بالأندلس في أوتار عوده وترأ خامساً اختراعاً منه ، إذ لم يزل العودُ ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وترأ خامساً أحمر متوسطاً ، فاكتسب به عوده أَلطَفَ معنى وأكمل فائدة ، وذلك أن الزير صُبغ أصفر اللون ، وجُعِل في العود بمتزلة الصفراء من الجسد ، وصُبغ الوتر الثاني بعده أحمر ، وهو من العود مكان الدم من الجسد ، وهو في الغلظ ضعف الزير ، ولذلك سمي مثنى ، وصُبغ الوتر الرابع أسود ، وجُعِل من العود مكان السوداء من الجسد ، وسمي البمّ ، وهو أعلى أوتار العود ، وهو ضعف المثلث الذي عَطِل من الصبغ وتُرك أبيض اللون ، وهو من العود بمتزلة البلغم من الجسد ، وجُعِل ضعف المثنى في الغلظ ، ولذلك سمي المثلث ، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضي طبائعها بالاعتدال ، فالبم حار يابس يقابل المثنى وهو حار رطب وعليه تسويته ، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب ، قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاقه ، إلاّ أنّه عطل من النفس ، والنفس مقرونة بالدم ، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموي هذا الوتر الخامس الأحمر الذي اخترعه بالأندلس ، ووضعه تحت المثلث<sup>١</sup> وفوق المثنى ، فأكمل في عوده قوى الطبائع الأربع ، وقام الخامس المزيد مقام النفس في الجسد .

وهو الذي اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم التّسر ، معتاضاً به من مرهف الخشب ، فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة ونقاؤه وخفته على

الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إتياء .

وكان زرياب عالماً بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعب بحارها وتصنيف بلادها وسكانها ، مع ما سنع له من فك كتاب الموسيقى ، مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها ، وهذا العدد من الألحان غاية ما ذكره بطليموس واضع هذه العلوم ومؤلفها .

وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يُجِدْه أحد من أهل صناعته ، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنّه لهم من آدابه ، واستحسنه من أطعمته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به : فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل جُمُته مفروقاً وسط البحرين عامّاً للصدغين والحاجبين ، فلماً عين ذوو التحصيل تخذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها إلى آذانهم ، وإسدالها إلى أصداعهم — حسبما عليه اليوم الخدم الخصية والجواري — هوت إليه أفئدتهم ، واستحسنوه . وممّا سنّه لهم استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج لطرديج الصنان من مغابنهم ، ولا شيء يقوم مقامه ، وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد ، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وَصَر ، فلطم على تصعيدها بالملح ، وتبييض لونها ، فلماً جربوه أحمده جِدّاً . وهو أوّل من اجتنى بقلّة الهليون المسماة بلسانهم الإسفراج<sup>١</sup> ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله . وممّا اخترعوه من الطبخ اللون المسمى عندهم بالتفايا<sup>٢</sup> ، وهو مصطنع بماء الكزبرة

١ في مفردات ابن البيطار : الاسفراج ، والصواب بالراء المهملة ، وهو يقابل (Asparagus) .  
٢ التفايا : عدها صاحب كتاب الطبخ من بسائط الأطعمة وهي أنواع منها التفايا البيضاء وتحضر من لحم الضأن القوي السمين في قطع صغار ويضاف إليها ملح وفلفل وكزبرة يابسة ويسير من ماء =

الرطبة محلى بالسنبوسق والكباب ، ويليه عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب .  
ومما أخذته عنه الناس بالأندلس تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب  
والفضة ، وإيثاره فرش أنطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان ،  
واختياره سُفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن  
الأديم بأقل مسحة ، ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به ، فإنه  
رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للملون من يوم مهرجان أهل  
البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يونية الشمسي من  
شهورهم الرومية ، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي منها ثلاثة أشهر متوالية  
ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة ، ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد  
المسمى عندهم الربيع من مصبغهم جباب الخبز والملحم والمحزر والدَّرَارِيع التي  
لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها  
بالمحاشي ، ثياب العامة ، وكذا رأى أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف  
المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفاف الثياب الملونة ذوات  
الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرس البرد في الغدوات ، إلى أن يقوى  
البرد فينتقلوا إلى أثنخ منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى  
صنوف الفراء .

واستمر بالأندلس أن كل من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شدّوه بأي  
نَقْرٍ كان ، ويأتي إثره بالبسيط ، ويحتم بالمحركات والأهزاج تبعاً لمراسم زرياب .  
وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد الملمور المعروف  
بالمسورة ، وأن يشدّ صوته جداً إذا كان قوي الصوت ، فإن كان لينته أمره أن  
يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك ممّا يقوى الصوت ، ولا يجده متسعاً في الجوف

= بصلة مدقوقة ومغرفة من الزيت العذب وماء وتيجمل على نار لينة وتحرك ، ويجمل فيها بندق ولوز  
مقشر مقسوم ، فإذا أردتها خضراء أضفت إليها ماء الكزبرة الرطبة ، ومنها تقايا مبيضة وأخرى  
مقلية وأنواع منها مشرقية ( كتاب الطبخ ٨٥ - ٨٨ ، ١١٨ - ١١٩ ) .



عند الخروج على الفم ، فإن كان الصمّ الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يُدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه ، وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حَجَّام ، أو يصيح : آه ، ويمدّ بها صوته ، فإن سمع صوته بهما صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا يعتره غنّة ولا حبسة ولا ضيق نفّس عرف أن سوف ينجب وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعده .

وكان له من ذكور الولد ثمانية : عبد الرحمن وعبيد الله ويحيى وجعفر ومحمد وقاسم وأحمد وحسن . ومن الإناث ثنتان : عليّة وحمدونة . وكلّهم غنّي ومارس الصناعة ، واختلفت بهم الطبقة ، فكان أعلاهم عبيد الله ويتلوه عبد الرحمن ، لكنّه ابتلي من فرط التيه وشدة الزهو وكثرة العُجب بغناؤه والذهاب بنفسه بما لم يكن له شبه فيه ، وقلّما يسلم مجلس حضوره من كدر يحدّثه ، ولا يزال يجترىء على الملوك ، ويستخفّ بالعظماء ، ولقد حمّله سخفه على أن حضر يوماً مجلس بعض الأكابر الأعظم في أنس قد طاب به سروره ، وكان صاحب قنص تغلب عليه لذّته ، فاستدعى بازياً كان كليلاً به كثير التذكر له ، فجعل يمسح أعطافه ويُعدّل قوادمه ويرتاح لنشاطه ، فسأله عبد الرحمن أن يهبه له ، فاستحيا من رده وأعطاه إياه مع ضنّه به ، فدفعه عبد الرحمن إلى غلامه ليعجل به إلى منزله ، وأسرّ إليه فيه بسيرّ لم يطلع عليه ، فمضى لشأنه ، ولم يلبث أن جاءه بطيفورية مُغطّاة مكرمة بطابع مختوم عليها من فضّة ، فإذا به لونٌ مصوصٌ قد اتخذ من البازي بعد ذبحه على ما حده لأهله ، وذهب إلى الانتقال عليه في شرابه ، وقال لصاحب المجلس : شاركني في نقلي هذا فإنّه شريف المركّب<sup>١</sup> بديع الصنعة ، فلما رآه الرجل أنكر صفته ، وعاب

١ ق ودوزي : الموكب ؛ والمركب يعني التركيب .

لحمه ، وسأله عنه ، فقال : هو البازي الذي كنت تعظم قدره ، ولا تصبر  
 عنه ، قد صيرته إلى ما ترى ، فغضب صاحب المنزل حتى ربا في أثوابه وفارقه  
 حلمه وقال له : قد كان والله أيها الكلب السفية على ما قدرته وما اقتديت فيه  
 إلا بكبار الناس المؤثرين لمثله ، وما أسعفتك به إلا معظماً من قدرك ما صَغَّرَتْ  
 من قدري ، وأظهرت من هَوَانِ السنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهي  
 عنها ، ولا أدع والله الآن تَأْدِيكَ إِذْ أَهْمَلِكْ أَبُوكَ معلّم الناس المروءة ،  
 ودعا له بالسوّط وأمر بترع قَلَنَسُوتِهِ وساط هامته مائة سوط ، فاستحسن جميع  
 الناس فعله به وأبدوا الشّماتة به .

وكان محمد منهم مؤثراً ، وكان قاسمهم أحذقهم غناء مع تجويده ، وتزوج  
 الوزير هشام بن عبد العزيز حمدونة .  
 وذكر عبادة الشاعر أن أول من دخل الأندلس من المغنين علون وزرقون ،  
 دخلا في أيام الحكم بن هشام ، فنفقا عليه ، وكانا محسنين ، لكن غناؤهما ذهب  
 لغلبة غناء زرياب عليه .

وقال عبد الرحمن بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن ونديمه في زرياب :

يا عليُّ بنَ نافعٍ يا عليُّ أنت أنت المهذبُ اللّوذعيُّ  
 أنت في الأصلِ حين يُسألُ عنه هاشميُّ وفي الهوى عبّشيُّ

وقال ابن سعيد : وأنشد لزرياب والذي في معجمه :

عَلَّقْتُهَا رِيحَانَةً هيفاء عاطرةً نضيرةً  
 بين السمينَةِ والحزيرِ لمة والطويلة والقصيرة  
 لله أَيَّامٌ لَنَا سلفت على دَيْرِ المطيرة  
 لا عيبَ فيها للمتيِّمِ مـ غير أن كانت يسيرة

انتهى .

وكان لزرياب جارية اسمها مُتَمَعَة ، أدبها وعلّمها أحسن أغانيه حتى شبت ، وكانت رائعة الجمال ، وتصرفت بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم تغنيه مرّة وتسقيه أخرى ، فلما فطنت لإعجابها بها أبدت له دلائل الرغبة ، فأبى إلا التستر ، فغنته بهذه الأبيات ، وهي لها في ظن بعض الحفاظ :

يا من يُغَطِّي هواهُ من ذا يُغَطِّي النهارا؟  
قد كنتُ أملكُ قلبي حتى علقْتُ فطارا  
يا ويسلتا أتراهُ لي كان ، أو مستعارا  
يا بأبي قُرشي خلتُ فيه العذارا

فلما انكشف لزرياب أمرها أهداها إليه فحظيت عنده .  
وكانت حمدونة بنت زرياب متقدمة في أهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، متقدمة على أختها عليّة ، وهي زوجة الوزير هاشم بن عبد العزيز كما مرّ ، وطال عمر عليّة بعد أختها حمدونة ، ولم يبق من أهل بيتها غيرها ، فافتقر الناس إليها ، وحملوا عنها .

وكانت مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل أخذت عن زرياب الغناء ، وكانت غاية في الإحسان والنبيل وطيب الصوت ، وفيها يقول ابن عبد ربّه صاحب العقد الفريد ، وكتب به إلى مولاها<sup>١</sup> :

يا من يَضَنُّ بصوتِ الطائرِ الغرديِّ ما كنتُ أحسبُ هذا الضنَّ من أحدٍ  
لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

من أبيات ، فخرج حافياً لما وقف على ذلك ، وأدخله إلى مجلسه ، وتمتع من سماعها ، رحم الله تعالى الجميع .

١ انظر الجذرة : ٩٥ .

وقال علويه : كنت مع المأمون لما قدم الشام ، فدخلنا دمشق ، وجعلنا نظوف فيها على قصور بني أمية ، فدخلنا قصرأ مفروشأ بالرخام الأخضر ، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقي بستانأ ، وفي القصر من الأطيبار ما يغني صوته عن العود والمزمار ، فاستحسن المأمون ما رأى ، وعزم على الصبوح ، فدعا بالطعام فأكلنا وشربنا ، ثم قال لي : غَنَّ بأطيب صوت وأطربه ، فلم يمر على خاطري غير هذا الصوت :

لو كان حولي بنو أمية لم ينطق رجال أراهمُ نطقوا

فنظر لي مغضبأ ، وقال : عليك لعنة الله وعلى بني أمية ، فعلمت أني قد أخطأت ، فجعلت أعتذر من هَمَّقوتي ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، أتلومني أن أذكر موالي بني أمية ، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس ، يركب في أكثر من مائة مملوك وفي ملكه ثلاثمائة ألف دينار دون الضياع ، وإني عندكم أموت جوعأ ، وفي الحكاية طول واختلاف ، ومحل الحاجة منها ما يتعلق بزرياب ، رحم الله تعالى الجميع .

وذكرها الرقيق في كتاب « معاقرة الشراب » على غير هذا الوجه ، ونصه : وركب المأمون يوماً من دمشق يريد جبل الثلج ، فمر ببركة عظيمة من برك بني أمية ، وعلى جانبها أربع سروات ، وكان الماء يدخل سيحأ ، فاستحسن المأمون الموضع ، ودعا بالطعام والشراب ، وذكر بني أمية ، فوضع منهم وتَنَقَّصَهُمْ ، فأخذ علويه العود واندفع يغني :

أرى أسرتي في كلِّ يومٍ وليلةٍ يَرُوحُ بهم داعي المنون ويغتدي  
أولئك قومٌ بَعْدَ عزٍّ وثَرْوَةٍ تَفَانُوا فِإِلَّا أذْرِفِ العَيْنَ أَكْمَدِ

فضرب المأمون بكأسه الأرض ، وقال لعلويه : يابن الفاعلة ، لم يكن لك وقت تذكر مواليك فيه إلاّ هذا الوقت ؟ فقال : مولاكم زرياب عند موالي بالأندلس يركب في مائة غلام ، وأنا عندكم بهذه الحالة ! فغضب عليه نحو شهر ، ثم

رضي عنه ، انتهى .

ونحوه لابن الرقيق في كتابه « قطب السرور » وقال في آخر الحكاية :  
وأنا عندكم أموت من الجوع ، ثم قال : وزرياب مولى المهدي ، ووصل إلى  
بني أمية بالأندلس فعلت حاله ، حتى كان كما قال علويه ، انتهى .  
ولما غنى زرياب بقوله ١ :

ولو لم يشقني الظاعنون لَشَاقِي حَمَام تَدَاعَت فِي الدِيَارِ وَقُوعُ  
تَدَاعِينَ فَاسْتَبَكِينَ مَنْ كَانَ ذَا هَوَى نَوَائِحُ مَا تَجْرِي لَهْنَ دَمُوعُ

ذَيَّلَهَا عَبَّاسُ بْنُ فَرْنَسٍ يَمْدَحُ بَعْضَ الرُّؤَسَاءِ بِدِيَهَةِ فَقَالَ :

شَدَدْتُ بِمَحْمُودٍ يَدَا حِينَ خَانَهَا زَمَانٌ لِأَسْبَابِ الرَّجَاءِ قَطُوعُ  
بَنِي لِمَسَاعِي الْجُودِ وَالْمَجْدِ قَبْلَةً إِلَيْهَا جَمِيعُ الْأَجُودِينَ رُكُوعُ

وكان محمود جواداً ، فقال له : يا أبا القاسم ، أعزّ ما يحضرنى من مالى  
القُبّة ، يعنى قبة قامت عليه بخمسائة دينار ، وهى لك بما فيها مع كسوتى هذه ،  
ونكون فى ضيافتك بقية يومنا ، ودعا بكسوة فلبسها ، ودفع إليه الكسوة .

٦٩ - ومن الوافدين من المشرق الأمير شعبان بن كوجبا ٢ ، من غزّ  
الموصل ، وفد على أمير المؤمنين يعقوب المنصور ملك الموحدّين ، ورفع له  
أمداحاً جليّة ، وقدمه على إمارة مدينة بسطة من الأندلس .

قال أبو عمران بن سعيد : أنشدنى لنفسه :

يقولون إن العدل فى الناس ظاهر ولم أر شيئاً منه سرّاً ولا جهراً

١ الشعر لذي الرمة فى ديوانه : ٣٥٢ .

٢ ق : كوحيا ؛ وقد ذكر عبد الواحد المراكشي « شعبان الغزي » دون أن يذكر اسم أبيه فى المعجب  
٣٦٧ ، وقال إنه سأله أن يكتب من شعره فأبى ، وكان ربما بدرت له الأبيات الجيدة .

ولكن رأيتُ الناسُ غالباً أمرهم إذا ما جنى زيد أقادوا به عمراً  
وإلاً فما بالُ النطاسيِّ كلِّما شكوت لهُ يمتني يدي فصد اليسرى

٧٠ - ومن الوافدين من المشرق على الأندلس أبو اليسر إبراهيم بن أحمد  
الشيبياني<sup>١</sup> ، من أهل بغداد ، وسكن القيروان ، ويُعرف بالرياضي ، وكان له  
سماع ببغداد من جِلَّة المحدثين والفقهاء والنحويين ، لقي الجاحظ والمبرد  
وثعلباً وابن قتيبة ، ولقي من الشعراء أبا تمام والبحري ودعبللاً وابن الجهم ،  
ومن الكتاب سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن أبي طاهر وغيرهم ،  
وهو الذي أدخل إفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم ،  
وكان عالماً أديباً ، ومرسلاً بليغاً ، ضارباً في كل علم وأدب ، سمع وكتب  
بيده أكثر كتبه ، مع براعة خطه وحسن وراقته .

وحكي أنه كتب على كبره كتاب سيبويه كلّه بقلم واحد ، ما زال  
يَبْرِيه حتى قَصُر ، فأدخله في قلم آخر ، وكتب به حتى فني بتمام الكتاب .  
وله تأليف : منها « لقيط المرجان » وهو أكبر من « عيون الأخبار » ،  
وكتاب « سراج الهدى » في القرآن ومشكله وإعرابه ومعانيه ، و « المرصعة »  
و « المديجة » .

وجال في البلاد شرقاً وغرباً من خراسان إلى الأندلس ، وقد ذكر ذلك  
في أشعاره . وكان أديب الأخلاق ، نزيه النفس ، كتب لأمير إفريقية إبراهيم  
ابن أحمد بن الأغلب ، ثم لابنه أبي العباس عبد الله ، وكان أيام زيادة الله بن  
عبد الله آخر ملوك الأغالبة على بيت الحكمة ، وتوفي بالقيروان سنة ثمان وتسعين  
ومايتين في أوّل ولاية عبيد الله الشيعي ، وهو ابن خمس وسبعين سنة . وممن  
ألمّ بذكره المؤرخ الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق .  
وقال عريب بن سعد في حقه : إنّه كان أديباً شاعراً مرسلاً حسن التأليف ،

١ ترجمة أبي اليسر الرياضي في التكملة : ١٧٣ .

وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن ، وذكر له معه قصة ذكرها ابن الأبار في كتابه «إفادة الوفادة» وحكى أن له مسنداً في الحديث ، وكتاباً في القرآن سماه «سراج الهدى» والرسالة الوحيدة ، والمؤنسة ، وقطب الأدب ، وغير ذلك من الأوضاع . قال : وكتب لبني الأغلب حتى انصرفت أيامهم ، ثم كتب لعبيد الله حتى مات ، ومن الرواة عنه أبو سعيد عثمان بن سعيد الصيقل مولى زيادة الله بن الأغلب ، وأسند إليه الحافظ ابن الأبار رواية شعر أبي تمام بأن قال : قرأت شعر حبيب علي أبي الربيع ابن سالم ، وقرأت جملة منه على غيره ، وناولني جميعه وحدثني به عن أبي عبد الله ابن زرقون عن الخولاني عن أبي القاسم حاتم بن محمد عن أبي غالب بن تمام بن غالب بن عمر اللغوي عن أبيه أبي تمام عن أبي سعيد المذكور ، يعني ابن الصيقل ، عن أبي اليسر عن حبيب ، وهو إسناد غريب ، انتهى .

٧١ - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن منصور ، الغساني ، الدمشقي ، المعروف بالسهنوري<sup>١</sup> - وسنهو : من بلاد مصر - روى عن أبي القاسم ابن عساكر وأبي اليمن الكندي وأبي المعالي الفراوي وأبي الطاهر الخشوعي وغيرهم .

قال أبو العباس النبائي : قدم علينا - يعني إشبيلية - سنة ثلاث وستمائة ، وسمى جماعة من شيوخه ، وحكى أنه كان يروي موطأ أبي مصعب وصحيح مسلم بعلو .

وقال أبو سليمان ابن حوط الله : أجازني وابني محمداً جميعاً ما رواه عن شيوخه الذين منهم أبو الفخر فناخسرو بن فيروز الشيرازي ، وذكر أن روايته بتزول ، لأنه لم يرحل إلا بعد وفاة الشيوخ المشاهير بهذا الشأن .  
وقال أبو الحسن ابن القطان ، وسماه في شيوخه : قدم علينا تونس سنة

١ ترجمة السهنوري في التكملة : ١٧٦ .

اثنين وستمائة ، واستجزته لابني حسن فأجازه وإيائي ، قال : وانصرف من تونس إلى المغرب ، ثم الأندلس ، وقدم علينا بعد ذلك مراکش مُفْلِتاً من الأسر ، فظهر في حديثه عن نفسه تجازف واضطراب وكذب زهّد فيه ، وإثر ذلك انصرف إلى المشرق راجعاً ، وقد كان إذا أجاز ابني كتب بخطّه جملة من أسانيده وسمى كتباً منها الموطأ والصحيحان وغير ذلك ، قال : وقد تبرأت من عهدته جميعه لما أثبت من حاله ، وحدثني أبو القاسم ابن أبي كرامة صاحبنا بتونس أن السنهوري هذا لما انصرف إلى مصر امتحن بملكها الكامل محمد بن العادل أبي بكر ابن أيوب لأجل مُعاداته أبا الخطاب ابن الجُمَيْل ، فضرب بالسياط ، وطيف به على جمل مبالغة في إهانته ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين في حقّه ما نصّه : الشيخ المحدث الرحالة إبراهيم السنهوري صاحب الرحلة إلى البلاد ، دخل الأندلس كما ذكره ابن النجار وغيره ، وهو الذي ذكر لمشايع الأندلس وعلماؤها أن الشيخ أبا الخطاب ابن دحية يدعي أنه قرأ على جماعة من شيوخ الأندلس القدماء ، فأنكروا ذلك وأبطلوه وقالوا : لم يَلتقَ هؤلاء ولا أدركهم ، وإنما اشتغل بالطلب أخيراً ، وليس نسبة بصحيح فيما يقوله ، ودحية لم يُعقب ، فكتب السنهوري محضراً وأخذ خطوطهم فيه بذلك ، وقدم به ديار مصر ، فعلم أبو الخطاب ابن دحية بذلك ، فاشتكى إلى السلطان منه ، وقال : هذا يأخذ عرضي ويؤذني ، فأمر السلطان بالقبض عليه ، فقبض وضرب بالسياط<sup>١</sup> وأشهر على حمار ، وأخرج من ديار مصر ، وأخذ ابن دحية المحضّر وحرّقه ، ولم يزل ابن دحية على قرب من السلطان إلى حين وفاته ، وبني له داراً للحديث ، وهي الكاملية بين القصرين ، فلم يزل يحدث بها إلى أن مات .

وقد ذكرنا في ترجمة ابن دحية من هذا الكتاب شيئاً من أحواله ، وأن الناس

١ بالسياط : سقطت من ق .



فيه معتقد ومنتقد ، وهكذا جرت العادة خصوصاً في حق الغريب المنتسب للعلم :

وعند الله تجتمع الخصوم

وممن كان عليه لا له أبو المحاسن محمد بن نصر المعروف بابن عنين فإنه قال فيه <sup>١</sup> :

دحية لم يُعقَبْ فليَمَّ تعتري إِلَيْهِ بِالْبُهْتَانِ وَالْإِفْكَ  
ما صحَّ عند الناس شيء سوى أَتَكَ من كَلْبٍ بلا شكَّ

هكذا ذكره ابن النجار ، وأطال في الواقعة في أبي الخطاب ابن دحية . وقال الذهبي : قرأت بخط الضياء عندما ذكر ابن دحية أنه قال : لقيته بأصبهان ، ولم أسمع منه شيئاً ، وأخبرني إبراهيم السنهوري بأصبهان أنه دخل المغرب ، وأن مشايخه كتبوا له جرحه وتضعيفه ، وقد رأيت أنا منه غير شيء مما يدل على ذلك ، وبسببه بنى السلطان الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة وجعله شيخها ، وقد سمع منه الإمام أبو عمرو ابن الصلاح الموطأ سنة نيسف وستمائة ، وأخبره به عن جماعة منهم أبو عبد الله ابن زرقون .

وقال ابن واصل : كان أبو الخطاب ، مع فرط معرفته بالحديث ، وحفظه الكثير منه ، متهماً بالمجازفة في النقل ، وبلغ ذلك الملك الكامل ، فأمره أن يعلّق شيئاً على كتاب « الشهاب » ، فعلّق كتاباً تكلّم فيه على أحاديثه وأسانيده ، فلمّا وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد أيام : قد ضاع مني ذلك الكتاب ، فعلّق لي مثله ، ففعل ، فجاء في الثاني مناقضة للأول ، فعلم الملك الكامل صحة ما قيل عنه ، ونزلت مرتبته عنده ، وعزله عن دار الحديث أخيراً ، وولى أخاه أبا عمرو عثمان .

١ ديوان ابن عنين : ٢٢٠ .

وقال ابن نقطة : كان أبو الخطاب موصوفاً بالمعرفة والفضل ، ولم أره ، إلا أنه كان يدعي أشياء لا حقيقة لها ، ذكر لي أبو القاسم ابن عبد السلام - وكان ثقة - قال : نزل عندنا ابن دحية فقال : إنني أحفظ صحيح مسلم والترمذي ، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذي ومثلها من المسند ومثلها من الموضوعات ، فجعلتها في جزء ، ثم عرضت عليه حديثاً من الترمذي فقال : ليس بصحيح ، وآخر فقال : لا أعرفه ، ولم يعرف منها شيئاً ، فأفسد نفسه بذلك .

وقال سبط ابن الجوزي<sup>١</sup> : إنّه كان يتزيد في كلامه ، ويثلب المسلمين ، ويقع فيهم ، فترك الناس الرواية عنه وكذبوه ، وقد كان الملك الكامل مقبلاً عليه ، فلما انكشف له شأنه أخذ منه دار الحديث وأهانته .

وقال العماد ابن كثير : قد تكلم الناس فيه بأنواع من الكلام ، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث في قصر صلاة المغرب ، وكنت أود أن أقف على إسناده ليعلم كيف رجاله ، وقد أجمع العلماء - كما ذكره ابن المنذر وغيره - على أن صلاة المغرب لا تقصر ، واتفق أنه وصل في جمادى الأولى سنة ٦١٦ إلى غزة ، فخرج كل من في غزة بالأسلحة والعصي والحجارة إلى الموضع الذي هو فيه ، وضربوه ضرباً شديداً بعد أن انهزم من كان معه ، انتهى .  
وقدّمنا في ترجمته توثيق جماعة له ، فربك أعلم بحاله .

٧٢ - ومنهم عبد الله بن محمد بن آدم ، القاري ، الخراساني<sup>٢</sup> ، رحل من خراسان إلى الأندلس ، يكنى أبا محمد ، ذكره أبو عمرو المقرئ ، وقال : سمعته يقرأ مرات كثيرة ، فكان من أحسن الناس صوتاً ، ولم تكن له معرفة بالقراءة ولا دراية بالأداء ، انتهى .

١ امرأة الزمان : ٦٩٨ .

٢ التكملة : ٩١٣ .

٧٣ - ومنهم عبد الرحمن بن داود بن علي ، الواعظ<sup>١</sup> ، من أهل مصر ، يُعرف بالزبزاري ، يكنى أبا البركات وأبا القاسم ، ويلقب زكي الدين ، قدم على الأندلس ، وتجوّل في بلادها واعظاً ومذكراً ، وسمع منه الناس بقرطبة وإشبيلية ومُرُسية وبلنسية سنة ٦٠٨ .

قال ابن الأبار : وسمعت وعظه إذ ذاك بالمسجد الجامع من بلنسية ، وادعى الرواية عن أبي الوقت السجزي والسلفي وأبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي وأبي محمد ابن المبارك بن الطباخ وأبي الفضل محمد بن يوسف الغزنوي وشهادة الكاتبة بنت الإبري ، زعم أنّه قرأ عليها صحيح البخاري ، وجماعة بالمشرق والأندلس لم يلتقهم ولم يسمع منهم ، وربما حدّث بواسطة عن بعضهم ، وأكثرهم مجهولون ، وقفت على ذلك في فهرست روايته ، فزهد أكثر السامعين منه ، واطّرحوا الرواية عنه ، ومنهم أبو العباس النبائي وأبو عبد الله ابن أبي البقاء وجمع أربعين حديثاً مسلسلة سمّاها بالآلئ المفضلة ، حدث فيها عن ابن بشكّو وال و ابن غالب الشراط وغيرهما من الأندلسيين الذين لم يلتقهم ولا أجازوا له ، أخذها عنه ابن الطيّلسان وغيره ، وكان - مع هذا - فقيهاً على مذهب الشافعي ، رضي الله تعالى عنه ، فصيحاً مشاركاً في فنون من العلم ، سمح الله تعالى له ، انتهى .

ولا بأس أن نذكر جملة من النساء القادمات من المشرق على الأندلس ، ثمّ نعود أيضاً إلى ذكر أعلام الرجال ، فنقول :

٧٤ - من النساء الداخلات الأندلس من المشرق عابدة المدنية ، أم ولد حبيب بن الوليد المرواني ، المعروف بلدحون . وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة ، حالكة اللون ، غير أنّها تروي عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة

١ التكملة رقم : ١٦٥٥ .

وغيره من علماء المدينة ، حتى قال بعض الحفاظ : إنَّها تروي عشرة آلاف حديث .

وقال ابن الأبار : إنَّها تسند حديثاً كثيراً ، وهي أم ولده بشر بن حبيب ، والذي وهبها لدحون في رحلته إلى الحج هو محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك ابن مروان ، فقدم بها الأندلس ، وقد أعجب بعلمها وفهمها ، واتخذها لفراشه ، رحم الله تعالى الجميع .

٧٥ - ومنهن فضَّل المدنية ، وكانت حاذقة بالغناء ، كاملة الحصال ، وأصلها لإحدى بنات هرون الرشيد ، ونشأت وتعلّمت ببغداد ، ودرجت من هناك إلى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؛ فازدادت ثمّ طبقتها في الغناء ، واشترت هنالك للأمير عبد الرحمن صاحب الأندلس مع صاحبها علم المدنية ، وصواحب غيرها إليهنّ تُنسب دار المدنيات بالقصر ، وكان يؤثرنهن لحوذة غنائهن ونصاعة ظرفهن ورقة أدهن ، وتضاف إليهن جارية [ يقال لها ] قلم ، وهي ثالثة فضل وعلم في الحظوة عند الأمير المذكور ، وكانت أندلسيّة الأصل رومية من سبي البشكنس ، وحملت صبيّة إلى المشرق ، فوقعت بمدينة النبي صلى الله عليه وسلّم ، وتعلّمت هنالك الغناء فحذقته ، وكانت أديبة ذاكرة حسنة الخط ، راوية للشعر حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الآداب .

٧٦ - ومن النساء الداخلات إلى الأندلس من المشرق قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي ، صاحب إشبيلية<sup>١</sup> ، وكانت من أهل الفصاحة والبيان ، والمعرفة بصوغ الألقان ، وجلبت إليه من بغداد ، وجمعت أدباً وظرفاً ، ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع ، وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل

١ التكملة رقم : ٢١١٤ .

أدبها ، ولها في مولاها تمدحه :

ما في المغارب من كريم يُرْتَجَى إلا حليّف الجودِ لإبراهيم  
إنّي حللتُ لديه منزلَ نعمةٍ كلُّ المنازل ما عداه ذميم

وأنشد لها السالمي لما ذكرها عدّة أشعار ، منها قولها تتشوق إلى بغداد :

أهاً على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر في أحداقها  
ومجالها عندَ الفرات بأوجه تبدو أهلتها على أطواقها  
متبخترات في النعيم كأنّما خلّق الهوى العُدريّ من أخلاقها  
نفسى الفداء لها فأى محاسن في الدهر تُشرق من سنا لإشراقها

٧٧ - ومنهن الجارية العجفاء<sup>١</sup> ، قال الأرقمي<sup>٢</sup> : قال لي أبو السائب

- وكان من أهل الفضل والنسك - هل لك في أحسن الناس غناء ؟ فجيئنا إلى  
دار مسلم بن يحيى مولى بني زهرة ، فأذن لنا فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً  
في مثلها ، وطوله في السماء ستة عشر ذراعاً ، وفي البيت نمرقتان قد ذهب  
عنهما اللحمه وبقي السدى ، وقد حشيتا بالليف ، وكرسيان قد تفككا من  
قدمهما ، ثم اطلعت علينا عجفاء كلفاء ، عليها [ قرقل ] هرّوي أصفر غسيل ،  
وكأن وركبها في خيط من رَسَحها<sup>٣</sup> ، فقلت لأبي السائب : بأبي أنت ! ما هذه ؟  
فقال : اسكت ، فتناولت عوداً فغنّت<sup>٤</sup> :

بيد الذي شغفَ الفؤاد بكُمُ تفرّج ما ألقى من الهمّ  
فاستيقني أن قد كلفيتُ بكم ثم افعلي ما شئت عن علم  
قد كان صرّم في الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصرم

١ هذا الخبر عن العجفاء في الأغاني ٢٣ : ٢٨٥ .

٢ سماه في الأغاني : غرير بن طلحة .

٣ ق ودوزي : من وسخها ، والتصويب عن الأغاني .

٤ الشعر لأبي صخر الهذلي ( الأغاني ٢٣ : ٢٨٢ ) .

قال : فتحسنت في عيني ، وبدا ما أذهب الكلفَ عنها ، وزحف أبو السائب وزحفت معه ، ثم تغتت :

برح الخفاء فأبما بك تكتمُ      ولسوف يظهر ما تسرُّ فيعلمُ  
مما تضمن من غريرة<sup>١</sup> قلبه      يا قلب إنك بالحسان لمُغرم  
ياليت أنك يا حسام بأرضنا      تلقي المراسي طائعاً وتخيّم  
فتدوق لذّة عيشنا ونعيمه      ونكون إخواناً فماذا تنقم

فقال أبو السائب : إن نقم هذا فأعضه الله تعالى بكذا وكذا من أبيه ، ولا يكني ، فرحفت مع أبي السائب حتى فارقنا النمرقتين ، وربت العجفاء في عيني كما يربو السويق بماء مُزونة ، ثم غنت :

يا طول ليلي أعالج السقما      إذ حل<sup>٢</sup> كلُّ الأجابة الحرما  
ما كنت أخشى فراقكم أبداً      فالיום أمسى فراقكم عزما

فألقيت طيلساني ، وأخذت شاذكونة<sup>٣</sup> فوضعتها على رأسي ، وصحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة ، وقام أبو السائب فتناول ربة<sup>٤</sup> في البيت فيها قوارير ودهن ، فوضعها على رأسه ، وصاح صاحب الجارية وكان ألثغ : قوانيبي ، يعني قواريري ، فاصطكت القوارير وتكسرت ، وسال الدهن على رأس أبي السائب وصدره ، وقال للعجفاء : لقد هجّت لي داء قديماً ، ثم وضع الربة . وكنا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس فابتيعت له العجفاء ، وحملت إليه .

١ الأغاني : عزيرة .

٢ ق ودوزي : أدخل .

٣ الشاذكونة : مضربة كبيرة .

٤ الربة : جونة المطار .

٧٨ - ومن القادمين على الأندلس من المشرق الشيخ عبد القاهر بن محمد ابن عبد الرحمن ، الموصلي . قال أبو حيان : قدم علينا رسولاً من ملك مصر إلى ملك الأندلس ، فسمعت منه بالمرية ، انتهى .

٧٩ - ومنهم أحمد بن الحسن بن الحارث بن عمرو بن جرير بن إبراهيم ابن مالك ، المعروف بالأشتر ، بن الحارث ، النخعي<sup>١</sup> ، يكنى أبا جعفر ، دخل الأندلس في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وأصله من الكوفة ، وكان يروي أحاديث عظيمة العدد ، ذكر ذلك الرازي ، وحكى أن الأمير محمداً روى عنه منها ، وأنزله بيرية .

٨٠ - ومنهم أحمد بن أبي عبد الرحمن ، واسمه يزيد بن أحمد بن أبي عبد الرحمن القرشي ، الزهري ، من ولد عبد الرحمن بن عوف<sup>٢</sup> ، من أهل مصر ، وفد على الناصر بقرطبة ، وكان دخوله إليها في محرم سنة ٣٤٣ ، فأكرم الناصر مشواه ، وكان فقيه أهل مصر ، ذكره ابن حيان .

٨١ - ومنهم أبو الطاهر إسماعيل ابن الإسكندراني<sup>٣</sup> ، لقي ببلده أبا طاهر السلفي ، وسمع منه ، ودرس عليه كتاب « الاصطلاح » للسمعاني ، وقدم الأندلس ، ودخل مرسية تاجراً ، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي ، وأنشد عن السلفي قوله :

أنا من أهل الحديث وهم خيرُ فته  
عشت تسعين وأرجو أن أعيشَ لمائه

فعاش كما تمنى ، رحمه الله تعالى .

١ ترجمته في التكملة : ١٢٦ .

٢ ترجمته في التكملة : ١٢٧ .

٣ ترجمته في التكملة : ١٩٠ .

٨٢ - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن بشر ، الأنطاكي ، الإمام ، أبو الحسن ، التميمي<sup>١</sup> ، نزيل الأندلس ومقرئها ومسندها ، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن إبراهيم بن عبد الرزاق ومحمد بن الأخرم وأحمد ابن يعقوب التائب وأحمد بن محمد بن خشيش ومحمد بن جعفر بن بيان ، وصنف قراءة ورش ، قرأ عليه جماعة : منهم أبو الفرج الهيثم الصباغ وإبراهيم بن مبشر المقرئ وطائفة آخرون من قراء الأندلس ، وسمع منه عبد الله بن أحمد ابن معاذ الداراني .

قال أبو الوليد ابن الفرضي : أدخل الأنطاكي الأندلسَ علماً جمماً ، وكان بصيراً بالعربية والحساب ، وله حظ من الفقه ، قرأ الناسُ عليه ، وسمعت أنا منه ، وكان رأساً في القراءات ، لا يتقدمه أحد في معرفتها في وقته ، وكان مولده بأنطاكية سنة ٢٩٩ ، ومات بقرطبة في ربيع الأول سنة ٣٧٧ ، رحمه الله تعالى .

٨٣ - ومنهم عمر بن مودود بن عمر ، الفارسي ، البخاري ، يكنى أبا البركات<sup>٢</sup> ، ولد بسلماس ، ونشأ بها ، وكتب الحديث هنالك ، وتعلم العربية والفقه ، وهو من أبناء الملوك ، وانتقل إلى المغرب ، فدخل الأندلس ، ونزل مالقة في حدود ثلاثين وستمائة ، ودخل إشبيلية ، وكانت له رواية بالمشرق . قال ابن الأبار : أجاز لي ما رواه<sup>٣</sup> ، ولم يسم أحداً من شيوخه ، وبلغني أنه سمع صحيح البخاري بالدامغان على أبي عبد الله محمد بن محمود ، وكانت إجازته لي سنة ٦٣١ ، وعاش بعد ذلك ، وتوفي بمراكش بعد الأربعين وستمائة<sup>٣</sup> ، وحدث بالأندلس ، وأخذ عنه الناس ، وكان من أهل التصوف والتحقق بعلم

١ ترجمة الأنطاكي في ابن الفرضي ١ : ٣٦١ وغاية النهاية ١ : ٥٦٤ .

٢ ترجمته في التكملة رقم : ٢٢٥٢ وصلة الصلة : ٧٤ .

٣ صلة الصلة : سنة ٦٣٩ .



الكلام ، رحمه الله تعالى .

٨٤ - ومنهم الشريف الأجلُ الرحالة الشيخ نجم الدين بن مهذب الدين ،  
وكنت لا أتحمق من أي البلاد هو من المشرق ، ثم لآني علمت أنه من بغداد  
إذ وقفت على كتابين كتبهما في شأن العناية به الأديبُ العلامة أبو المطرف  
أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي : أحدهما لأبي العلاء حسان ، والثاني للكاتب  
أبي الحسن العنسي ، وهو الذي يفهم منه أنه من بغداد .  
ونصُّ الأول :

يا ابن الوصي إذا حملت وصيتي	أوجبت حقاً للحقوق يضافُ
وتحيتي كلُّ التحايا دونها	وكذاك دون رسولها الأشرافُ
أحسِنُ بأن تلقى ابن حسان بها	مهترّةً لورودها الأعطافُ
كالروضِ باكره الندى فلعرّفها	يا ابن النبي على الندى مطافُ
وعلاك إن أبا العلا ومكانه	يلفني به الإسعاد والإسعافُ
وأحقُّ من عرف الكرام بوصفهم	من جمعت منهم له أوصافُ

هذه يا سيدي تحية تجب لها إجابة وحيّة ، وتصلح بها هشاشة وأريحية ،  
أودعتها بطن هذه العجالة ، وبعثتها مع صدر من أبناء الرسالة ، والله دره من  
راضع درّ النبوة ، متواضع مع شرف الأبوة ، نازعته طرق الأشعار ،  
وأطراف الأخبار ، فوجدت بجرأ حصاه الدرّ النفيس ، وروضاً يجني منه  
أطياب السمر الجليس ، ويُنعتُ بنجم الدين وهو كنعته نجم يضيء سناه ،  
ويحلُّ بيتاً من الشرف ربّه بسناه ، وقد جاب الفضاء العريض ، ورأى القصور  
الحمراء والبيض ، وورد الحجون ، بعدما شرب من ماء جيحون ، وزار مشاهد  
الحرمين ، ثم سار في أرض الهرمين ، وفارق لإفريقية لهذا الأفق مختاراً ، وعبر  
إلى الأندلس فأطال بها اعتباراً ، وتشوق إلى حضرة الأنوار المُفاضة ، والنعم  
السابعة المُفضضة ، وجعل قصدها بحجة سفره طواف الإفاضة ، وهمه أن

يشاهد سناها العلوي ، ويبصر ما يحقر عنده المرثي والمروي ، وهي غاية يقول للأمل : عليها أطلت حومي ، وجنة يتلو الداخل لها ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي ﴾ وسيدي هو منها باب على الفتح بُني ، وجنابُ عنانُ الأمل إليه بُني ، وقصده من هذا الشريف أجلُّ قاصد ، وأظلمته سماء المجد بجمال المشتري وظرف عطارد ، ومتى نعتناه فالخبر ليس كالعيان ، ومتى شبّهناه فالتمويه بالشبه عقوق العقيان ، ومن يفضح قريحته بأن يقول لها صفيهِ ، لكن يعرف عن نفسه بما ليس في وسع واصفيه ، ويقتضي من عزيمة برّه ما لا سعة للمتخص فيه ، إن شاء الله تعالى ، وهو يديم علاكم ، ويجرس مجدكم وسناكم ، بمنّه ، والسلام الكريم ، الطيب العميم ، يخصّكم به معظمُ مجدكم ، المعتدّ بذخيرة ودكم ، المحافظ على كريم عهدكم ، ابن عميرة ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، في الرابع والعشرين لربيع الآخر من سنة ٦٣٩ ، انتهى .

ونصُّ الثاني :

هل لك يا سيدي أبا الحسن فيمن له كلُّ شاهدٍ حسنٍ  
في الشرفِ المنتقى له قدمٌ أثبتها بالوصيِّ والحسنِ

أيها الأخ الذي ملكته قيادي ، وأسكنته فوادي ، عهدي بك تتعامُّ الآداب النقية ، وتشتاق للطائف المشرقية ، وتنصف فقرى أن في سيلنا جفء ، وفي مغربنا جفء ، وأن المحاسن نبتت أرض ما بها ولدنا ، وزرعُ وادي ليس ممّا عهدنا ، وأنا في هذا أشايحك وأتابعك ، وأناضل من ينازلك وينازعك ، وقد أتانا الله تعالى بحجة تقطع الحجج ، وتُسكت المهج ، وهو الشريف الأجلُّ ، السيد المبارك نجم الدين بن مهذب الدين نجل الذرية المختارة ، ونجم الدرية السيارة ، جرى مع زعزع ونسيم ، ورتع في جميم وهشيم ، وشاهد عجائب كل إقليم ، وشرق إلى مطلع ابن جلا ، وغرب حتى نزل شاطئ سلا ، وقد توجه الآن إلى حضرة الإمامة الرشيدية أيدها الله تعالى لينتهي من أصابع العدّ

إلى العُقْدة ، ويحصل من مَخْض الحقيقة على الرُّبْدة ، وقد علم أنه ما كلُّ  
الخطب كخطبة المنبر ، ولا جميع الأيام مثل يوم الحج الأكبر ، وأدبه يا سيدي  
من نسبة أفته ، بل على شكل حسبه وخلقه ، فإذا رأته شهدت بأن الشرق قد  
أتحف إفريقية ببغادته ، بل رمانا بجملة أفلاذه ، والحظ فيما يجب من بره  
وتأنيسه ، إنما هو في الحقيقة جليسه ، فيا غبطة من يسبق لجواره ، ويقبس من  
أنواره ، وأنت لا محالة تفهمه فهمي ، وتشيم من شيمه عارضاً برِّي القلوب  
الهميم يَهْمِي ، وتضرب في الأخذ من فوائده وقلائده بسهم وددت أنه سهمي ،  
والسلام ، انتهى .

٨٥ - ومنهم تقي الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن العرّس ،  
الحنفي ، المصري . قال الوادي آشي فيه : إنّه من أعيان مصر ، قال : وسألته  
هل يقع بين أهل مصر تنازع في تفضيل بعض المذاهب على بعض ؟ فأجابني بأن  
هذا لا يقع عندهم بين أهل الرسوخ في العلم ، وذوي المعرفة والفهم<sup>١</sup> ، وإنّما  
يصلر هذا بين الناشئين ، قال : وللحنفية الظهور عليهم حين يقولون لهم : لنا  
عليكم اليد الطولى في الخبز ، لكونه بمصر يُطبخ في الفرن بأرواث الدواب ،  
وكذلك تسخين الحمام ، فإن المالكية وغيرهم بمصر يقلدون الحنيفة في ذلك ،  
قال : وسألته حفظه الله تعالى : هل للوباء بمصر وقتٌ معلوم ؟ فقال  
لي : جرت العادة عندهم بقدر الله تعالى وسره في خليقته أن كل سنة أوها  
ثاء مثلثة يكون فيها الوباء ، والله تعالى أعلم ، وأن هذا مُتعارفٌ عندهم ، هكذا  
قال لي . وعيَّب ما يقع من بعض النقّاد بتونس وما يصدر عنهم بكثرة من  
إلقائهم الأسئلة العويصة في أصول الدين وغيرها على مَنْ يرد عليهم قصداً في  
تعجيزه وتعنيته ، ثم قال : إن من المنقول عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى  
أن من حُفِظت عنه تسع وتسعون خصلة تقتضي الكفر وواحدة تقتضي الإيمان

١ ق : والوهم .

أن الواحدة المقتضية للإيمان تغلب وتبقى حرمتها عليه ، انتهى .  
وقد ذكرنا في الباب الأول من هذا القسم حكاية البصري المغني القادم من  
المشرق من البصرة على عبد الوهاب الحاجب بإفريقية في دولة بني المعز بن  
باديس ، وسردنا دخوله عليه في مجلس أنسه ، وما اتفق في ذلك له معه ، وأنه  
وصف له بلاد الأندلس وحسنها وطيبها ، فارتحل المغني إليها ، ومات بها ،  
حسبما لحصناه من كلام الكاتب ابن الرقيق الأديب المؤرخ في كتابه « قطب  
السرور » ولولا أنه لم يسم المغني المذكور لجعلنا له ترجمة في هذا الباب ، إذ  
هو به أليق ، والأمر في ذلك سهل ، والله تعالى الموفق للصواب .

٨٦ - ومنهم الولي الصالح العارف بالله سيدي يوسف الدمشقي ، رضي  
الله تعالى عنه ، وهو كما قال ابن داود من كبار الأولياء ، شاذلي الطريقة ،  
قدم من المشرق إلى الأندلس ، وكان يأتي مدينة وادي آش الكرة بعد الكرة  
لزيرة معارف له بها ، وكان من الذين أخفاهم الله ، لا يعرف به إلا من تعرف  
له ، أعاد الله تعالى علينا من بركاته .

قال العلامة ابن داود : وحدثني مولاي والذي رضي الله تعالى عنه من لفظه  
بتلمسان أمّنها الله تعالى يوم الاثنين لثني عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول  
سنة ٨٩٥ ، قال : دخل عليّ سنة شهر رمضان المعظم في زمان ولايتي  
الخطابة والإمامة بالعراص من خارج وادي آش ، أعادها الله تعالى ، فقعدت  
أول ليلة منه منفرداً بالمسجد الأعظم من الرباط المذكور بين العشاءين ، وفكرتُ  
في ذكر أتخذ في هذا الشهر المبارك يكون جامعاً بين الدنيا والآخرة ، فأجمعت على  
مطالعة « حلية » النواوي لعلّي أقف على ما اختاره لذلك ، فلما أصبحت  
دخلت إلى المدينة ، ولم أكن أطلعتُ على فكري أحدًا ، فلقيني الحاج الأستاذ  
أبو عبد الله ابن خلف رحمه الله تعالى في الطريق ، فقال لي : سيدي يوسف  
الدمشقي يسلم عليك ويقول لك : الذكر الذي تعمر به هذا الشهر الفاضل :

« اللهم ارزقني الزهد في الدنيا ، ونور قلبي بنور معرفتك » ، قال لي والذي رضي الله تعالى عنه : وكان هذا سبب تعرّفي له ، ولقائي إيّاه ، وكنت قبل ذلك منكراً عليه لكثرة الدعاوى في هذا الطريق ، نفع الله تعالى به ، انتهى .  
ولنجعل هذه الترجمة آخر هذا الباب ، تبرّكاً بهذا الولي الصالح ، نفعنا الله تعالى ببركاته ، مع علمي بأن الوافدين من المشرق على الأندلس كثيرون جداً ، إلاّ أن عدم المادة التي أستعين بها في هذه البلاد تيبن عذري ، ولو اجتمعت على كتبي المخلفة بالمغرب لأتيت في ذلك وغيره بما يشفي ويكفي :

وفي الإشارة ما يُغني عن الكلام .



## الباب السابع

في نبذة مما من الله تعالى به على أهل الأندلس من توقّد الأذهان ، وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالى ما عَزَّ أو هان ، وحوّزهم في ميدان البراعة ، من قصب اليراعة ، خَصَل الرهان ، وجملة من أجوبتهم ، الدالة على لودعيتهم ، وأوصافهم المؤذنة بألمعتهم ، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح برهان

[ نقول في فضائل الأندلس ]

[ ١ - عن فرحة الأنفس ]

اعلم أن فضل أهل الأندلس ظاهر ، كما أن حُسن بلادهم باهر ، ولذلك ذكر ابنُ غالب في « فرحة الأنفس » لما أثنى على الأندلس وأهلها أن بَطَلَيْمُوسَ جعل لهم - من أجل ولاية الزُهْرَةَ لبلادهم - حُسنَ الهمة في الملبس والمطعم ، والنظافة والطهارة ، والحب للهو والغناء ، وتوليد اللحون ، ومن أجل ولاية عطارده حُسنَ التدبير ، والحرص على طلب العلم ، وحبّ الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف . وذكر ابنُ غالب أيضاً ما خُصُّوا به من تدبير المشتري والمريخ . وانتقد عليه بعضهم بأن أقاليم الأندلس الرابع والخامس والسادس في ساحلها الشمالي ، والسابع في جزائر الجوس ، وللإقليم الرابع الشمس ، وللخامس الزُهْرَةَ ، والسادس عطارده ، والسابع القمر ، والمشتري للإقليم الثاني ، والمريخ للثالث ، ولا مدخّل لهما في الأندلس ، انتهى .

ثم قال صاحب الفرحة ١ : وأهلُ الأندلس عرب في الأنساب والعزة

١ م : ثم قال صاحب فرحة الأنفس .

والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية ، هِنْدِيّون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقّة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحِدّة أفكارهم ونفوذ خَواطِرهم ، يونانيون في استنباطهم للمياه ومُعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للنباتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة ، ومنهم ابن بصال صاحب « كتاب الفلاحة » الذي شهدت له التجربة بفضلُه ، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومُقاساة النَّصَب في تحسين الصنائع ، أحذق الناس بالفُرُوسِيَّة ، وأبصرهم بالطعن والضرب .

وعدّ رحمه الله تعالى من فضائلهم اختراعهم للخطوط المخصوصة بهم ، قال : وكان خطهم أولاً مشرقياً ، انتهى . قال ابن سعيد : أمّا أصول الخط المشرقي وما تجدد له في القلب واللحظ من القبول فمسكّم له ، لكن خط الأندلس الذي رأيتُه في مصاحف ابن غطوس الذي كان بشرق الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة عندهم له حسن فائق ، ورونق آخذ بالعقل ، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد ، انتهى .

ونحو صدر كلام ابن غالب السابق مذكورٌ في رسالة لابن حزم ، وقال فيها : إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تُركبون في مُعانة الحروب ومعالجة آلتها والنظر في مهماتها ، انتهى .

وعدّ ابنُ غالب من فضائلهم اختراعهم للموشحات التي قد استحسنها

١ م : وأصناف .

٢ قد : سقطت من ب .

أهل المشرق وصاروا يترعون مترعها ، وأما نظمهم ونثرهم فلا يخفى على من وقف عليهما علو طبقاتهم .

ثم قال ابن غالب : ولما نَفَدَ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المُبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العُدوة مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه ، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحيَّ الطاحنة بالماء وغير ذلك ، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مُستَغلاتهم وعمتهم الخيرات ، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرت ولأن اليونانيين سكنوا الأندلس فورثوا عنهم ذلك ، وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتّاب والعمّال وجُباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة ، ولا يُستعمل بلدي ما وجد أندلسي ، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأحملوا أعمالهم ، وصيروهم أتباعاً لهم ، ومتصرفين بين أيديهم ، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدّة ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يُميلون به النفوس إليهم ، ويصير الذكر لهم ، قال : ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مبطل ، انتهى .

[ ٢ - عن ابن سعيد ]

وقال ابن سعيد ، لما ذكر جملة من محاسن الأندلسيين : يعلم الله تعالى أنني ما أقصد إلا إنصاف المتصفين الذين لا يميل بهم التعصب ، ولا يجمع بهم الهوى ، ولكن الحق أحق أن يُتَّبَع ، فلعلَّ مُطَّلِعاً يقف على ما ذكره ابن غالب فيقول : تعصب هذا الرجل لأهل بلده ، ثمَّ يغمس التابع له والراضي بنقل قوله في هذه الصبغة ويحمله على ذلك بُعدُه عن الأرضين :



ولو أَبْصَرُوا لَيَلِي أَقْرُوا بِحَسَنِهَا وَقَالُوا بِأَتِي فِي الثَّنَاءِ مُقَصَّرٌ

ويكفي في الإنصاف أن أقول : إن حضرة مراکش هي بغداد المغرب ، وهي أعظم ما في بر العُدوة ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنَّما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم<sup>١</sup> ، وذلك مشهور معلوم إلى الآن . ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التي كانت في مراکش<sup>٢</sup> بسلطان إفريقية الآن أبي زكريا يحيى بن أبي محمد ابن أبي حفص ، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس وعرفاء صناعه من الأندلس وتماثيله التي يبني عليها ، وإن كان أعرف خلق الله باختراع محاسن هذا الشأن ، فإنَّما أكثرها من أوضاع الأندلسيين ، وله من خاطره تنبيهات وزيادة ظهَرَ حسن موقعها ، ووجوه صنائع دولته لا تكاد تجدهم إلاّ من الأندلس ، فصح قول ابن غالب ، انتهى .

[ ٣ - عن الحميدي ]

قال الحميدي : أنشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق ، وهي :

وماذا عليهم لو أجاابوا<sup>٣</sup> فسلموا وقد علموا أنني المشوق المتيمم  
سروا ونجوم الليل زهر طوالع على أنهم بالليل للناس أنجم  
وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم فنم عليها في الظلام التسم

فأفرط بعض الحاضرين في استحسانها ، وقال : هذا ما لا يقدر أندلسي

١ م : جزيرتها .

٢ م : بمراكش .

٣ ق ب : أنابوا (اقرأ : أنابوا) .

٤ ب : عليهم .

على مثله ، وبالحضرة أبو بكر يحيى<sup>١</sup> بن هذيل ، فقال بديها :

عرفت بعرفِ الريحِ أين تيمّموا      وأين استقلّ الطاعنون وخيّموا  
خليليّ ردّاني إلى جانبِ الحمى      فلتستُ إلى غيرِ الحمى أتيّم<sup>٢</sup>  
أبيتُ سميرَ الفرقدين كأنّما      وسادي قتاد<sup>٣</sup> أو ضجيجي أرقم<sup>٤</sup>  
وأحورَ وسنانِ الجفونِ كأنّه      قضيب<sup>٥</sup> من الريحانِ لدن<sup>٦</sup> منعّم<sup>٧</sup>  
نظرتُ إلى أجفانهِ وإلى الهوى      فأيقنتُ أنّي لستُ منهنّ أسلم<sup>٨</sup>  
كما أنّ إبراهيمَ أولَ نظرةٍ      رأى في الدراري أنّه سوف يسقم<sup>٩</sup>

انتهى .

[ ٤ - عن ابن بسّام ]

ومن كلام ابن بسّام صاحب « الذخيرة » في جزيرة الأندلس<sup>٢</sup> : أشرف  
عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقي النسل  
فيها بكل إقليم ، على عرق كريم ، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر ،  
وشاعر قاهر . وذكر أن أبا علي البغدادي صاحب الأملالي الوافد على الأندلس  
في زمان بني مروان قال : لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمر<sup>٣</sup> به من أهل  
الأمصار فأجدهم درجات<sup>٤</sup> في العبارات<sup>٥</sup> وقلّة الفهم ، بحسب تفاوتهم في  
مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم  
مُحاصّة ومُفايسة . قال أبو علي : فقلت إن نقص أهل الأندلس عن مقادير  
من رأيت في أفهامهم بقدر نقصان<sup>٦</sup> هؤلاء عمّن قبلهم فسأحتاج إلى ترجمان ،  
في هذه الأوطان ؛ قال ابن بسّام : فبلغني أنّه كان يصل<sup>٧</sup> كلامه هذا بالتعجب

١ ق ب م ودوزي : أبو بكر ابن يحيى .

٢ بعض هذا النص في مقدمة الذخيرة ١ / ١ : ٤ .

٣ الذخيرة : في الغباوة .

٤ م : نقص .

من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم ، ويتغلى عنهم عند المباحثة والمفاتشة ، ويقول لهم : إن علمي علم رواية ، وليس بعلم دراية ، فخذوا عني ما نقلت ، فلم آل لكم أن صححت ، هذا مع إقرار الجميع لهُ يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات ، والأخذ عن الثقات ، انتهى .

[ ٥ - عن الحجاري ]

ومن كلام الحِجَارِيِّ في « المسهب » : الأندلس عِرَاقُ المغربِ عزَّةَ أنساب ، ورقَّةَ آداب ، واشتغالاً بفنون العلوم ، وافتناناً في المنثور والمنظوم ، لم تضق لهم في ذلك ساحة ، ولا قصرت عنه راحة ، فما مرَّ فيها بمصرٍ إلا وفيه نجوم وبلور وشموس ، وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم ، وجعله نُصَبَ أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار والكؤوس ، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن ، وابنُ خَفَاجَةَ سابقهم في هذا المِضْمَارِ الحائِزِ فيه قصب الرهان . وأما إذا هَبَّ نسيم ، ودار كأس في كف ظبي رخييم ، ورجعَ بَمَ وزير ، وصفق للماء خريير ، أو رَقَّتْ العَشِيَّةُ ، وخلعت السحبُ أبرادها الفضية والذهبية ، أو تبسَّم عن شعاعِ ثغر نهر ، أو تفرق بطلَّ جفنُ زهر ، أو خَفَقَ بارق ، أو وصل طيف طارق ، أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح ، وبات مع مَنْ يَهْوَاهُ كالماء والراح ، إلى أن ودَّع حين أقبل رائدُ الصباح ، أو أزهرت دوحة السماء بزهر كواكبها ، أو قوَّضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها ، فأولئك هم السابقون السابقون ، الذين لا يُجَارُونَ ولا يُلْحَقُونَ ، وليسوا بالمقتصرين في الوصف إذا تقعقت السلاح ، وسالت خُلُجانُ الصَّوَارِمِ بين قُضْبَانِ الرماح ، وبنيت الحرب من العجاج سماء ، وأطلعت شبه النجوم أسنَّةً وأجرت شبه الشفق دماء ، وبالجملة فإنهم في جميع الأوصاف والتخييلات أئمة ، ومنَّ وقَفَ على أشعارهم في هذا الشأن فضَّلهم فيه على أصناف الأمة ،

وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية ، وبقاعهم النضرة وهمهم الأبيّة .  
ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيّات ، والتركيبات وأنواع المضحكات ،  
ما تملأ الدواوين كثرتُه ، وتضحك الثكلى وتُسّتي المسلوب قصته ، ممّا لو  
سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركّب ، ولا استغرب أحدٌ ما أورده  
ولا تعجّب ، إلاّ أن مؤلّفني هذا الأفق طمحت همهم عن التصنيف في هذا  
الشأن فكاد يمرّ ضياعاً ، فقامت محتسباً للظرف فتداركته جامعاً فيه ما أمسى  
شعاعاً ، انتهى .

### [ ٦ - رسالة ابن حزم في فضل الأندلس ]<sup>١</sup>

قلتُ : وقد رأيت أن أذكر رسالة أبي محمد ابن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض  
فضائل علماء الأندلس ، لاشتمالها على ما نحن بصدده . وذلك أنّه كتب أبو علي  
الحسن بن محمد بن أحمد بن الرّيبب التميمي القيرواني<sup>٢</sup> ، إلى أبي المغيرة عبد  
الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد<sup>٣</sup>  
أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم ، ما صورته :  
كتبتُ يا سيدي ، وأجلّ عددي ، كتب الله تعالى لك السعادة ، وأدام لك  
العز والسيادة ، سائلاً مسترشداً ، وباحثاً مستخبراً ، وذلك أنّي فكرت في بلادكم  
إذ كانت قرارة كل فضل ، ومنهّل كل خير ، ومقصد كل طرفة ، ومورد  
كل تحفة ، وغاية آمال الراغبين ، ونهاية أمانى الطالبين ، إن بارت تجارة فإليها

١ سماها ابن خير ( الفهرسة : ٢٢٦ ) رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها .  
٢ ترجم العمري في المسالك ١١ : ٣١٩ نقلا عن أنموذج ابن رشيّق لمن اسمه ابن الرّيبب القاضي  
الحسين بن محمد التميمي ، وقال إن أصله من تاهرت ، وكان عارفاً بالأدب وعلم النسب قوي  
الكلام يتكلفه بعض تكلف ، وكان عبد الكريم النهشلي أستاذ ابن رشيّق يعده شاعراً مقدماً .  
٣ ب : تخلص .

تُجَلَّب ، وإن كَسَدَت بضاعة ففيها تنفق ، مع كثرة علمائها ، ووفور أدبائها <sup>١</sup> ،  
وجلالة ملوكها ، ومحبتهم في العلم وأهله ، يُعَظَّمون من عَظَمَته علمه ،  
ويرفعون من رفعة أدبه ، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب : يقدمون من  
قدمته شجاعته ، وعظمت في الحروب نكايته ، فشجع الجبان ، وأقدم الهيبان ،  
ونبئه الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العبيي ، وشعر البكي ، واستنسر  
البُغاث ، وتشعبن الحفّاث <sup>٢</sup> ، فتنافس الناس في العلوم ، وكثر الخذاق في  
جميع <sup>٣</sup> الفنون ، ثم هم مع ذلك على غاية التقصير ونهاية التفريط ، من أجل أن  
علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم ، وخلدوا في الكتب مآثر بلدانهم ،  
وأخبار الملوك والأمراء ، والكتّاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم  
ذكراً في الغابرين يتجدد على مرّ الليالي والآيام ، ولسان صدق في الآخرين  
يتأكد مع تصرف الأعوام ، وعلماءكم مع استظهارهم على العلوم كل امرئ  
منهم قائم في ظله لا يبرح ، وراتب على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنّف ،  
أن يُعَنَف ، وإن أَلَف أن يُخَالَف ، ولا يؤالَف ، أو تخطفه الطير أو تهوي  
به الريح في مكان سحيق ، لم يُتعب أحد منهم نفساً في جمع فضائل أهل بلده ،  
ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه ، ولا بلّ قلماً بمناب كتابه ووزرائه ،  
ولا سوّد قرطاساً بمحاسن قُضّاته وعلمائه ، على أنه لو أطلق ما عَقَلَ الإغفالُ  
من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه ، لوجد للقول مساعداً ، ولم تضق  
عليه المسالك ، ولم تخرج به المذاهب ، ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد ،  
ولكنّ همّ أحدهم أن يطلب شأو من تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق ،  
ويفوز بقيدح ابن مُقبِل ، ويأخذ بكَظْم دغفل ، ويصير شجاً في حلق أبي

١ ق ب : آدابها .

٢ تشعبن الحفّاث : أخذ هيئة الثعبان ؛ والحفّاث : حيوان كالثعبان يفتح قنبحه ويشب مثل وثبه  
ولكنه غير مؤذ (انظر الحاشية ص ٦٤٦ من الجزء الأول) .

٣ ب : لجميع ؛ ق : بجميع .

العميشل ، فإذا أدرك بغيته ، واخترته مَنِيَّتَهُ ، دفن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره ، وانقطع خبره ، ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس ، فألقوا دواوين بقي لهم بها ذكر مُجَدَّد طول الأبد .

فإن قلت : إنّه كان مثل ذلك من علمائنا ، وألقوا كتباً لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يتصحبها تحقيق ، لأنّه ليس بيننا وبينكم غير رَوْحَة رَاكِب ، أو رحلة قارب ، لو نَقَت من بلدكم مصدر ، لأسمع من بللدنا في القبور ، فضلاً عمّن في الدور والقصور ، وتلقّوا قوله بالقبول كما تلقّوا ديوان أحمد ابن عبد ربّه الذي سمّاه بالعقد ، على أنّه يلحقه فيه بعضُ اللوم ، لا سيّما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطةً عقده ، ومناقب ملوكة يتيمة سلكه ، أكثر الخبز وأخطأ المفصل ، وأطال الهزّ لسيفٍ غيرٍ مِقْصَل ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعينهم ، وإغفال ما يهمهم . فأرشد أخاك أرشدك الله واهدِه هداك الله إن كانت عندك في ذلك الجليّة ، وبيدك فصلُ القضية ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب الوزير الحافظُ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، عند وقوفه على هذه الرسالة ، ما نصّه :

الحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى أصحابه الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين الطيبين .  
أمّا بعد يا أخي يا أبا بكر<sup>١</sup> ، سلام عليك سلام أخ مشوق طالبت بينه وبينك الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالي ، ثم لقيك<sup>٢</sup> في حال سفر ونُقْلة ، ووادك في خلال جَوَالة ورحلة ، فلم يقض من مجاورتك أرباباً ، ولا بلغ في

١ هو أبو بكر محمد بن إسحاق المهلبى الإسحاقى الوزير ، من أهل الأدب والفضل (الجدوة : ٤٢) .  
وقد كان صديقاً لابن حزم يتنقلان معاً في أرجاء الأندلس ، واعتقلها خيران معاً كذلك .

٢ ق م : لقيتك .

محاورتك مطلباً ، وإنّي لما احتللت بك ، وجالت يدي في مكنون كتبك ، ومضمون دواوينك ، لمحت عيني في تضاعيفها درجاً ، فتأملته ، فإذا فيه خطاب لبعض الكتاب من مصاقبنا في الدار أهل إفريقية ، ثم ممن ضمته حاضرة قَيْرَوَانهم ، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه<sup>١</sup> ، ولا ذكره بنسبه ، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس - وإن كانوا على الذرّوة العليا من التمكن بأفانين العلوم ، وفي الغاية القُصوى من التحكّم على وجوه المعارف - فإن همهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ، ومكارم ملوكهم ، ومحاسن فقهائهم ، ومناقب قضاةهم ، ومفاخير كتّابهم ، وفضائل علمائهم ، ثم تعدّى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منّا من أن يكون لهم تأليف يحمي ذكركم ، ويبقي علمهم ، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه ، وحقق ظنه في ذلك ، واستدل على صحته عند نفسه بأن شيئاً من هذه التأليف لو كان منّا موجوداً لكان إليهم منقولاً ، وعندهم ظاهراً ، لقرب المزار ، وكثرة السُفّار<sup>٢</sup> ، وتردّدِهِم إليهم ، وتكرّرهم علينا . ثم لما ضمّنا المجلس الحافل بأصناف الآداب ، والمشهد الأهل بأنواع العلوم ، والقصر المعمور بأنواع الفضائل ، والمترل المحفوف بكل لطيفة وسيدة من دقيق المعاني وجليل المعالي ، قرّارة المجد ومحل السؤدد ، ومحطّ رحال الحائفين ، وملقى<sup>٣</sup> عصا التسيار عند الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه ، الرفيع حديثه ومكتسبه ، الذي أجله عن كل خطّة يشركه فيها من لا توازي قومته نومته ، ولا ينال حضرة هويّناه ، وأربأ به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه ، ولا يدنو من المعالي دنوه ، ولا يعلو في حميد

١ لعل ابن حزم يعني أنه لم يجد في الرسالة التي بعثها ابن الربيب اسم المرسل إليه ونسبته ، وقد صرح ابن بسام - كما ذكر المقرئ في النسخ - أن ابن الربيب خاطب أبا المغيرة ابن حزم ، وأن أبا المغيرة رد عليه برسالة أطال فيها القول وختم بذكر جملة من تواليف أهل الأندلس (الذخيرة

١/١ : ١١١ - ١١٦) .

٢ م : السفرة .

٣ م : ومحط ؛ ب : ومحطى .

الخلال علوه ، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور ، وأجتري من الإطالة في  
تقريره بمتناه المذكور ، فحسبي بذينك العلمين دليلاً على سعيه المشكور ،  
وفضله المشهور ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البونت<sup>١</sup> أطال  
الله بقاءه ، وأدام اعتلاءه ، ولا عطل الحامدين من تحليهم بحلّاه ، ولا أخلى  
الأيام من تزينها بعلاه ، فرأيت أعزه الله تعالى حريصاً على أن يجاب هذا  
المخاطب ، وراغباً في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسي أو بعد عنه فخفي ، فتناولت  
الجواب المذكور بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات ، رحمتنا الله تعالى وإياه ،  
فلَمْ يكن لقصده بالجواب معنى ، وقد صارت المقابر له معني ، فلسنا بمُسمعين  
من في القبور ، فصرفت عنان الخطاب إليك ، إذ من قبلك صرت إلى الكتاب  
المجاوب عنه ، ومن لذنك وصلت إلى الرسالة المعارضة ، وفي وصول كتابي على  
هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا مثل ما غاب  
عن هذا الباحث الأول ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن كنت في إخباري  
إياك بما أرسمه في كتابي هذا كهدي إلى البركان نار الحُباب ، وباني صومي في  
مهتبع القصد اللاحب ، فإنك وإن كنت المقصود والمواجه ، فإنما المراد من  
أهل تلك الناحية من نأى عنه علم ما استجلبه السائل الماضي ، وما توفيقي إلا  
بالله سبحانه .

فأمّا مآثر بلدنا فقد ألّف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي<sup>٢</sup> كتاباً  
جمّة : منها كتاب ضخّم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمّهات مدنها  
وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه ممّا ليس في غيره ، وهو

١ ذكر ابن الأبار في التكملة : ٣٨٨ أن ابن حزم كتب هذه الرسالة بطلب من أبي عبد الله محمد بن  
عبد الله الفهري صاحب البونت ويلقب : « يمن الدولة » ؛ والبونت (Alpunte) من أعمال  
بلنسية استقل فيها بنو قاسم الفهريون بعد الفتنة ، وأولهم عبد الله بن قاسم (٤٢١ - ) وخلفه  
يمن الدولة وبقي حاكماً حتى سنة ٤٣٤ (أعمال الأعلام : ٢٠٨) .

٢ ترجمة الرازي في الجذوة : ٩٦ وطبقات الزبيدي : ٣٢٧ .



كتاب مريح مليح ، وأنا أقول : لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بَشَّرَ به<sup>١</sup> ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة في الحديث الذي رَوَيْنَاهُ من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين حدثته به عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخبرها بذلك<sup>٢</sup> ، لكفى شرفاً بذلك يَسْرُ عاجله ، ويغبط آجله . فإن قال قائل : فلعله صلوات الله تعالى عليه إنما عَنَى بذلك الحديث أهلَ صقلية وإقريطش ، وما الدليلُ على ما ادعيتَه من أنه صلى الله عليه وسلم عنى الأندلس حتماً ؟ ومثلُ هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذُو وَرَعٍ دون برهان واضح ، وبيان لائح ، لا يحتمل التوجيه ، ولا يقبل التجريح ، فالجواب - وبالله التوفيق - أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ، وأميرَ بالبيان لما أوحى إليه ، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثَبَجَ هذا البحر غزاة واحدة بعد واحدة ، فسألته أم حرام أن يدعو ربّه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها صلى الله عليه وسلم وخبره الحق بأنها من الأولين ، وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه ، وصح البرهان على رسالته بذلك ، وكانت من الغزاة إلى قبرس ، وخَرَّتْ عن بغلتها هناك ، فتوفيت ، رحمها الله تعالى ، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر ، فثبت يقيناً أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين بَشَّرَ بهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، ولا سبيل أن يُظن به

١ م : إلا ما بشر به رسول الله . . . إلخ .

٢ صحيح مسلم ٢ : ١٠٤ ، وفيه أن رسول الله (ص) نام ثم استيقظ وهو يضحك ، فقالت له أم ملحان : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أمي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة . . . إلخ ، وأنه نام مرة أخرى ، وفعل كفعله الأول ، فلما قالت له أم ملحان : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت من الأولين .

وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين قد سمي إحداهما أولى  
إلا والتالية لها ثانية ، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد ، وهذا يقتضي  
طبيعة صناعة المنطق ، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية ، ولا الثانية ثانية إلا  
لأولى ، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثان ضرورة ، وهو صلى الله عليه وسلم  
إنما ذكر طائفتين ، وبشرّ بفتنين ، وسمّى إحداهما الأولين ، فاقضى ذلك  
بالقضاء الصدق آخرين ، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر صلى الله عليه  
وسلم أنه خير القرون بعد قرنه ، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول  
الله صلى الله عليه وسلم بأنه خير من كل قرن بعده ، ثم رُكِبَ البحرُ بعد ذلك  
أيامَ سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية ، وكان الأمير بها في تلك السفن  
هُبيرة الفزاري ، وأما صقلية فإنّها فُتحت صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢ ، أيام  
قاد إليها السفنَ غازياً أسدُ بن القرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله  
تعالى ، وبها مات ، وأما إقريطش فإنّها فُتحت بعد الثلاث والمائتين <sup>١</sup> ، افتتحها  
أبو حفص عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ <sup>٢</sup> ، من أهل قرية بطروج من  
عمل فحَصَ البلطوط المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس ، وكان من فلّ  
الربّضيين ، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي  
غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ ، وكان أكثر  
المفتحين لها أهل الأندلس .

١ في الجذوة : بعد الثلاثين والمائتين ؛ وفي ياقوت (إقريطش) : بعد سنة ٢٥٠ ، وذكر أبو سعيد  
ابن يونس أن شعيب بن عمر بن عيسى أبا عمر ، تولى فتح جزيرة إقريطش بعد ستة عشرين ومائتين ،  
وقال البلاذري (فتوح : ٢٧٩) إن أبا حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالإقريطشي  
غزاها في خلافة المأمون وافتتح حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح منها شيئاً بعد شيء ؛ ولعل هذا  
هو سبب الاختلاف في تاريخ فتحها .

٢ ترجمة عمر بن شعيب في الجذوة : ٢٨٢ نقلا عن ابن حزم .

٣ افتتحها أرمانوس في منتصف المحرم ٣٥٠ فقتل ونهب وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شعيب وبني  
عه وأمواهم إلى القسطنطينية (ياقوت : إقريطش) .

وأما في قسم الأقاليم فإن قُرْطُبَةَ مَسْقَطَ رُوَسْنَا ، وَمَعَقَّ<sup>١</sup> تَمَائِمْنَا ، مَعَ سُرٍّ مِنْ رَأَى فِي إِقْلِيمٍ وَاحِدٍ ، فَلَمَّا مِنَ الْفَهْمِ وَالذِّكَاةِ مَا اقْتَضَاهُ إِقْلِيمُنَا ، وَإِنْ كَانَتِ الْأَنْوَارُ لَا تَأْتِينَا إِلَّا مَغْرِبَةً عَنِ مَطَالِعِهَا عَلَى الْجِزْءِ الْمَعْمُورِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمُحْسِنِينَ لِلْأَحْكَامِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الْكُوَاكِبُ نَاقِصٍ مِنْ قُوَى دَلَالَتِهَا ، فَلَهَا مِنْ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ حِظٌّ يَفُوقُ حِظَّ أَكْثَرِ الْبِلَادِ ، بَارْتِفَاعٍ أَحَدِ النَّيِّرَيْنِ بِهَا تَسْعِينَ دَرَجَةً ، وَذَلِكَ مِنْ أَدَلَّةِ التَّمَكُّنِ فِي الْعُلُومِ وَالنَّفَازِ فِيهَا عِنْدَ مَنْ ذَكَرْنَا ، وَقَدْ صَدَقَ ذَلِكَ الْخَبْرُ ، وَأَبَانَتُهُ التَّجْرِبَةُ ، فَكَانَ أَهْلُهَا مِنَ التَّمَكُّنِ فِي عُلُومِ الْقِرَاءَاتِ وَالرُّوَايَاتِ وَحِفْظِ كَثِيرٍ مِنَ الْفِقْهِ وَالْبَصْرِ بِالنَّحْوِ وَالشَّعْرِ وَاللُّغَةِ وَالْخَبْرِ وَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَالنَّجُومِ بِمَكَانِ رَحْبِ الْفِينَاءِ وَاسِعِ الْعَطْنِ مِتْنَائِي الْأَقْطَارِ فَسِيحِ الْمَجَالِ ، وَالَّذِي نَعَاهُ عَلَيْنَا الْكَاتِبُ الْمَذْكُورُ لَوْ كَانَ كَمَا ذَكَرَ لَكُنَّا فِيهِ شُرَكَاءَ لِأَكْثَرِ أَمْهَاتِ الْخَوَاصِرِ وَجَلَائِلِ الْبِلَادِ وَمُتَّسَعَاتِ الْأَعْمَالِ ، فَهَذِهِ الْقَيْرَوَانُ بِلْدِ الْمَخَاطِبِ لَنَا ، مَا أَذْكَرَ أَنْتِي رَأَيْتِ فِي أَخْبَارِهَا تَأْلِيفًا غَيْرَ « الْمَرْبِ<sup>٢</sup> عَنْ أَخْبَارِ الْمَرْبِ » وَحَاشَا تَوَالِيفِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوْسُفِ الْوَرَاقِ<sup>٣</sup> ، فَإِنَّهُ أَلَّفَ لِلْمُسْتَنْصِرِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَسَالِكِ إِفْرِيْقِيَّةِ وَمَمَالِكِهَا دِيْوَانًا ضَخْمًا ، وَفِي أَخْبَارِ مَلُوكِهَا وَحُرُوبِهِمُ وَالْقَائِمِينَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا جَمَّةً ، وَكَذَلِكَ أَلَّفَ أَيْضًا فِي أَخْبَارِ تِيَهْرَتِ وَوَهْرَانِ وَتَنْسِ وَسَجْلَمَاسَةَ وَنَكُورَ وَالْبَصْرَةَ<sup>٤</sup> وَغَيْرَهَا تَوَالِيفَ حَسَنًا ، وَمُحَمَّدُ هَذَا أُنْدَلِسِي الْأَصْلُ وَالْفِرْعُ ، أَبَاؤُهُ مِنْ وَادِي الْحِجَارَةِ ، وَمَدْفُونه بِقُرْطُبَةَ ، وَهَجَرْتَهُ إِلَيْهَا ، وَإِنْ كَانَتْ نَشَأَتُهُ بِالْقَيْسِرَوَانِ .

ولا بد من إقامة الدليل على ما أشرت إليه هاهنا إذ مرادنا أن تأتي منه

١ ب : وممقد ؛ ومعق التمام ، أي موضع قطعها دلالة على تجاوز من الطفولة .

٢ ق : المغرب .

٣ محمد بن يوسف أبو عبد الله التاريخي الوراق (الجدوة : ٩٠ وبغية الملتمس رقم : ٣٠٤ وفيهما ما قاله ابن حزم) .

٤ يعني بصرة المغرب ، وكانت قريباً من مدينة أصيلا .

بالمطلب ، فيما يستأنف إن شاء الله تعالى ، وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقيين ، دون محاشاة أحد ، بل قد تيقنًا إجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيلَ تركٍ لسكنائها إلى أن مات ، فإن ذكروا الكوفيَّين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم صدَّروا بعلي وابن مسعود وحُدَيْفَةَ رضي الله تعالى عنهم ، وإنما سكن عليُّ الكوفةَ خمسة أعوام وأشهرًا ، وقد بقي ٥٨ عامًا وأشهرًا بمكة والمدينة شرفهما الله تعالى . وكذلك أيضاً أكثر أعمار من ذكرنا ، وإن ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن حُصَيْن وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكرة ، وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثرُ مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة أعمارهم خلتُ هنالك ، وإن ذكروا الشاميَّين نوَّهوا بعُبادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي عُبَيْدَةَ بن الجراح ومُعَاذ ومعاوية ، والأمرُ في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم ، وكذلك في المصريِّين عمَّرو بن العاص وخارجة بن حُدافة العَدَوِي ، وفي المكيِّين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ، والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا ، فَمَنْ هاجر إلينا من سائر البلاد ، فنحن أحقُّ به ، وهو منَّا بحكم جميع أولي الأمر منَّا الذين إجماعُهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه <sup>١</sup> ، ومن هاجر منَّا إلى غيرنا فلا حظَّ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعدُ به ، فكما لا ندعُ إسماعيلَ بن القاسم <sup>٢</sup> فكذلك لا ننازع في محمد بن هانيء سوانا <sup>٣</sup> ، والعدلُ أولى ما حُرِّص عليه ، والنصف أفضل ما دُعِيَ إليه ، بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه ، وعلى ما ذكرنا من الأنصاف تراضي الكل .

١ م : اقترابه ؛ ق : اقترانه .

٢ يريد أبا علي القالي ، أي أنه يعده أندلسياً - حسب مقياسه - لأنه هاجر إلى الأندلس وأقام فيها حتى توفي .

٣ سوانا : سقطت من م .

وهذه بغداد حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة ، والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف ، والتدقيق في تصريف العلوم ، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء وحادثة الأفكار ونقاد الخواطر ، وهذه البصرة وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا ، وما أعلم في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر<sup>١</sup> ، وأما سائر التواريخ التي ألّفها أهلها فلم يخصّوا بلدتهم بها دون سائر البلاد ، ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة<sup>٢</sup> ، وكتاب لرجل من ولد الربيع ابن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر كريزي النسب [ في ] صفاتها<sup>٣</sup> وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها ، ولا أعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر<sup>٤</sup> بن شبة ، وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والري<sup>٥</sup> والسند وأرمينية وأذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيء منها تأليفاً قصد به أخبار ملوك تلك النواحي ، وعلمائها وشعرائها وأطبائها<sup>٦</sup> ، ولقد تافت النفوس إلى أن يتصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد ، وما علمناه علم ، على أنهم العلية الرؤساء ، والأكابر العظماء ، ولو كان في شيء من ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تأليفهم ، وكما بلغنا كتاب حمزة بن الحسن الأصبهاني في أخبار أصبهان<sup>٧</sup> ،

١ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (- ٢٨٠) وكتابه المشار إليه «بغداد» بقيت منه قطعة نشرها هنسي كلر بالزنكوغراف (١٩٠٨) وأعيد طبعها بمصر (١٣٦٨ هـ)؛ انظر ترجمته في معجم الأدباء ١ : ١٥٢ .

٢ هو كتاب «أخبار أهل البصرة» ومؤلفه ترجمة في معجم الأدباء ٦ : ٤٨١ والتهذيب ٧ : ٤٦٠ وبغية الوعاة : ٣٦١ ونور القيس : ٢٣١ .

٣ ب ق : وصفاتها .

٤ عمر : سقطت من ق .

٥ والري : زيادة من ق ب .

٦ كثرت المؤلفات في البلدان بعد ابن حزم ؛ انظر الإحاطة ١ : ٩٠ والإعلان : ١٢١ - ١٣٥ .

٧ انظر ترجمة حمزة الأصبهاني في تاريخ أصبهان ١ : ٣٠٠ وقد وصلنا من كتبه كتابه تواريخ =

وكتاب الموصلية<sup>١</sup> وغيره في أخبار مصر ، وكما بلغنا سائر تواليهم في أنحاء العلوم ، وقد بلغنا تأليف القاضي أبي العباس محمد بن عبدون القيرواني في الشروط<sup>٢</sup> ، واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى ، وكذلك بلغنا رد القاضي أحمد بن طالب التميمي على أبي حنيفة<sup>٣</sup> وتشيعه على الشافعي ، وكتب ابن عبدوس<sup>٤</sup> ومحمد بن سحنون<sup>٥</sup> وغير ذلك من خوامل<sup>٦</sup> تأليفهم دون مشهورها .  
وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر « أزهّد الناس في عالمِ أهله » ، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي حرمة إلا في بلده » وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من قريش - وهم أوفر الناس أحلاماً وأصحهم عقولاً وأشدهم ثبوتاً ، مع ما خصّوا به من سكناهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه - حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتي فضله من يشاء ؛ ولا سيّما أندلسنا فإنّها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم ، واستقلالهم

= سي ملوك الأرض والأنبياء ، والدرّة الفاخرة (مخطوط) وشرح ديوان أبي نواس ، أما كتابه في تاريخ بلده فلم يصلنا .

١ في م : الوصلية ، ولعلها أن تقرأ « المصري » إذ لا أعلم - بعد البحث - أن موصلياً ألف في تاريخ مصر وأخبارها ؛ ومن الكتب التي يرجح أن ابن حزم عرفها في تاريخ مصر كتاب (أو كتب) أبي عمر الكندي صاحب تاريخ الولاة والقضاة ، وتاريخ مصر لمحمد بن عبد الحكم (توفي ٢٦٨) .

٢ أبو العباس محمد بن عبدون بن أبي ثور ، كان قاضياً على القيروان نحو ثلاثين شهراً ، وعزله عنها إبراهيم بن الأغلب ؛ وكان حافظاً للمذهب أبي حنيفة موثقاً كاتباً للشروط والوثائق (علماء إفريقية : ٢٤١ ، ٣٠٧) .

٣ صوابه : عبد الله بن أحمد بن طالب ، قال فيه الحشني : وكان له نظر ومناظرة وكتب يرد فيها على الشافعي لا بأس بها (علماء إفريقية : ٢٥٧ ، ٢٩٧) .

٤ هناك اثنان هما محمد وإسحاق ابنا إبراهيم بن عبدوس والأول منهما كان حافظاً للمذهب مالك ، وله على مذهبه كتاب اسمه « المجموعة » (توفي سنة ٢٥٨) . انظر علماء إفريقية : ١٨٢ .

٥ انظر علماء إفريقية : ٢٥٦ ، ٢٩٦ .

٦ في الأصول : حواصل .

كثيراً ما يأتي به ، واستهجانهم حسنة ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ومنتحل مدع ، وإن توسط قالوا : غث بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمه الهبل ! وبعد ذلك إن وبلت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها فهناك حمي الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال وهدفاً للمطالب ونصباً للتسبب إليه ونهباً للألسنة وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل ما لم يقبل وطوق ما لم يتقلد وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرز إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من المتالف وينجو من المخالف ، فإن تعرض لتأليف غمز ولمز وتعرض وهمز واشتط عليه ، وعظم سير خطبه واستشنع حين سقطه وذهبت محاسنه وسُرت فضائله وهُتف ونودي بما أغفل ، فتنكس لذلك همته وتكلُّ نفسه وتبرد حميته ، وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعراً ، أو يعمل رسالة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفاتح والمطفف المستولي على الأمد .

وعلى ذلك فقد جمع ما ظنه الظان غير مجموع ، وألفت عندنا تأليف في غاية الحسن ، لنا خطر السبق في بعضها : فمنها كتاب « الهداية » لعيسى بن دينار<sup>١</sup> ، وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب ، فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار<sup>٢</sup> في الأقضية وكتاب النكاح والطلاق ، ومن الكتب المالكية التي

١ عيسى بن دينار بن واقد الغافقي (الجدوة : ٢٧٩ وبغية الملتبس رقم : ١١٤٤ وابن الفرضي ١ : ٣٧٣) . صحب عبد الرحمن العتيقي صاحب مالك وتفقه عليه وأصبح إماماً في الفقه على مذهب مالك (توفي سنة ٢١٢) .

٢ موضع كلمة « الجدار » بياض في ب .

ألفت بالأندلس كتاب القطني مالك بن علي<sup>١</sup> ، وهو رجل قرشي من بني فهر لقي أصحاب مالك وأصحاب أصحابه ، وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولدات ، ومنها كتاب أبي إسحاق [ يحيى بن ]<sup>٢</sup> إبراهيم بن مزين في تفسير الموطأ والكتب<sup>٣</sup> المستقصية لمعاني الموطأ وتوصيل مقطوعاته من تأليف ابن مزين أيضاً ، وكتابه في رجال الموطأ وما للمالك عن كل واحد منهم من الآثار في موطأه .

وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره<sup>٤</sup> .

ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبته<sup>٥</sup> على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيّف ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه ، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير . ومنها مصنفه في فضل الصحابة والتابعين ومن دونهم

١ هو مالك بن علي بن مالك بن عبد الملك بن قطن الفهري ( ولذلك يقال له القطني ؛ وفي دوزي والأصول القصي) أبو خالد الزاهد، له مختصر في الفقه على مذهب مالك ، وتوفي سنة ٢٦٨؛ انظر الجذوة : ٣٢٤ وبغية الملتبس رقم : ١٣٥٠ وابن الفرضي ٢ : ٣ .

٢ زيادة لازمة أدخلت بها الأصول ؛ وقد قال الحميدي (الجزء : ١٤٨) إن إبراهيم بن مزين لم تكن له رواية ؛ أما ابنه يحيى فهو الذي يقصده ابن حزم هنا ؛ توفي سنة ٢٥٩ ( انظر الجذوة : ٣٥٠ وبغية الملتبس رقم : ١٤٥٧ وابن الفرضي ٢ : ١٧٨ ) .

٣ كذا بصيغة الجمع ولعله يعني الأجزاء ؛ وذكر ابن الفرضي أن له كتاباً استقصى فيه علل الموطأ سماه « المستقصية » .

٤ انظر الجذوة : ١٦٧ ( وهو ينتقل كلام ابن حزم ) والصلة : ١١٨ .

٥ م : ألفه ورتبه .

٦ الجذوة : فتاوى .



الذي أربى فيه على مصنف أبي بكر ابن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه ، فصارت تأليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام ، لا نظير لها ، وكان متخيراً لا يقلد أحداً ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه .

ومنها في أحكام القرآن كتاب ابن أمية<sup>١</sup> الحجاري ، وكان شافعي المذهب بصيراً بالكلام على اختياره ، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد ، وكان داودي المذهب قوياً على الانتصار له ، وكلاهما في أحكام القرآن غاية ، ولمنذر مصنفات منها كتاب « الإبانة عن حقائق أصول الديانة » .

ومنها في الحديث مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح ، ومصنف محمد بن عبد الملك بن أيمن<sup>٢</sup> ، وهما مصنفان ربيعان احتويا من صحيح الحديث وغيره على ما ليس في كثير من المصنفات ، ولقاسم بن أصبغ هذا تأليف حسان جدّاً ، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل<sup>٣</sup> وكلامه ، ومنها كتاب « المجتبى على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى » وهو خير منه وأتقى حديثاً وأعلى سنداً وأكثر فائدة ، ومنها كتاب في فضائل قریش وكنانة<sup>٤</sup> ، وكتابه في النسخ والمنسوخ ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس ممّا ليس في الموطأ . ومنها كتاب « التمهيد » لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر ، وهو الآن بعد في الحياة<sup>٥</sup> لم يبلغ سن الشيخوخة ، وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً فكيف أحسن منه ، ومنها كتاب « الاستذكار » وهو اختصار التمهيد<sup>٦</sup> المذكور ، ولصاحبنا أبي عمر ابن عبد البر

١ الجذوة : ابن آمنة ( ص : ٣٨٠ ) .

٢ انظر الجذوة : ٦٣ .

٣ يعني إسماعيل بن إسحاق القاضي ( الجذوة : ٣١١ ) وبقية النص عن قاسم بن أصبغ مثبت في الجذوة .

٤ وكنانة : لم تذكر في الجذوة .

٥ م : بقاء الحياة ، وقد توفي ابن عبد البر سنة ٤٦٣ ( راجع الصلة : ٦٤٠ والجذوة : ٣٤٤ ) .

٦ م : التهذيب .

المذكور كتب لا مثيل لها : منها كتابه المسمّى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتاباً<sup>١</sup> اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه وبوبه وقرّبه فصار مغنياً عن التصنيفات الطوال في معناه ، ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله على كثرة ما صنفوا في ذلك<sup>٢</sup> ، ومنها كتاب « الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو ابن العلاء ، والحجة لكل واحد منهما » ، ومنها كتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس ، ممّا يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات » ، ومنها كتاب « جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته »<sup>٣</sup> .

ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرضي في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال ، ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين لا أعلم مثله في فنّه البتّة ، ومنها تاريخ أحمد بن سعيد<sup>٤</sup> ، ما وضع في الرجال أحد مثله إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي ، ولم أره ، وأحمد بن سعيد هو المتقدم إلى التأليف القائم في ذلك ، ومنها كتب محمد بن [ أحمد بن ] يحيى بن مفرج القاضي ، وهي كثيرة منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري ، وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري .

وممّا يتعلّق بذلك شرح الحديث لقاسم بن ثابت<sup>٥</sup> السرقسطي ، فما شأه

١ الجذوة : ستة عشر جزءاً .

٢ يعني كتاب « الاستيعاب » .

٣ من كتب ابن عبد البر أيضاً الدرر في اختصار المغازي والسير ، والشواهد في إثبات خبر الواحد ، والبيان عن تلاوة القرآن ، والعقل والعقلاء ، وأخبار أئمة الأنصار ، والقصد والأمم ، وغيرها .

٤ أحمد بن سعيد الصديقي ألف في تاريخ الرجال كتاباً كبيراً جمع فيه جميع ما حصل عليه من أقوال في التعديل والتجريح ، توفي سنة ٣٥٠ ( الجذوة : ١١٧ وابن الفرضي ١ : ٥٥ ) .

٥ زيادة من الجذوة : ٣٨ .

٦ في الأصول ودوزي : لعامر بن خلف ، وهو خطأ واضح ؛ ولقاسم كتاب « غريب الحديث » =

أبو عبيد إلاّ بتقدم العصر فقط .

ومنها في الفقه « الواضحة » والمالكيون لا تمانع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها ، ومنها « المستخرجة من الأسمعة » وهي المعروفة بـ « العتبية » ، ولها عند أهل إفريقية القدر العالي والظهير الحثيث<sup>١</sup> ، والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد ابن عبد الملك بن هشام الإشبيلي المعروف بابن المكوي<sup>٢</sup> ، والقرشي أبو مروان المعيطي<sup>٣</sup> في جمع أقاويل مالك كلّها على نحو الكتاب « الباهر » الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحدّاد البصري أقاويل الشافعي كلّها ، ومنها كتاب « المنتخب »<sup>٤</sup> الذي ألّفه القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ، وما رأيت للملكي قط كتاباً أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفريع وجوهها ، وتآليف قاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق ، وكلّها حسن في معناه ، وكان شافعي المذهب نظاراً جارياً في ميدان البغداديين<sup>٥</sup> .

ومنها في اللغة الكتاب « البارع »<sup>٦</sup> الذي ألّفه إسماعيل بن القاسم يحتوي على لغة العرب ، وكتابه في « المقصور والممدود والمهموز » لم يؤلف مثله في بابيه ، وكتاب « الأفعال » لمحمد بن عمر بن عبد العزيز<sup>٧</sup> المعروف بابن القوطية بزيادات ابن طريف مولى العبيديين<sup>٨</sup> فلم يوضع في فنّه مثله ، وكتاب جمعه أبو

= وقول ابن حزم فيه مذكور في الجذوة : ٣١٢ .

- ١ الواضحة لعبد الملك بن حبيب والعتبية لتلميذه العتبي (الجزوة : ٢٦٤ ، ٣٧) .
- ٢ في الأصول : الكوي ، والتصويب عن الجزوة : ١٢٣ والصلة : ٢٨ ؛ (توفي سنة ٤٠١) .
- ٣ المعيطي هو محمد بن عبيد الله القرشي ، وقد قال ابن بشكوال إنهما جمعا الكتاب للمستنصر أما الحميدي فذكر أنهما جمعهما بأمر المنصور بن أبي عامر ، واسم الكتاب « الاستيعاب » .
- ٤ انظر الجزوة : ٩١ وأورد قول ابن حزم .
- ٥ قاسم بن محمد (توفي سنة ٢٧٨) وله كتاب « الإيضاح في الرد على المقلدين » - الجزوة : ٣١٠ .
- ٦ بقيت من هذا الكتاب قطعة أخرجها فلتون (Fulton) بالزنكوغراف (لندن : ١٩٣٣) .
- ٧ في الأصول : لمحمد بن عامر الغزي ؛ وكتابه « الأفعال » مطبوع مرتين ، إحداها بمصر .
- ٨ ترجمة ابن طريف في الجزوة : ٣٨١ .

غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياتي<sup>١</sup> في اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل ، وهو أظن<sup>٢</sup> في الحياة بعد . وههنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها ، وهي أن أبا الوليد عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضي ، حدثني أن أبا الجيش مجاهداً صاحب الجزائر ودانية وجّه إلى أبي غالب أيام غلبته على مُرسية وأبو غالب ساكن بها ألفَ دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور « ممّا ألقه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » فردّ الدنانير وأبى من ذلك ، ولم يفتح في هذا باباً البتة ، وقال : والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب ، لأنّي لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب ، فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوّها ، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها .

ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد<sup>٣</sup> في اللّغة المعروف بكتاب « العالم » نحو مائة سفر على الأجناس في غاية الإيعاب ، بدأ بالفلك وختم بالذرة ؛ وكتاب « النوادر »<sup>٤</sup> لأبي علي إسماعيل بن القاسم ، وهو مبارٍ لكتاب « الكامل » لأبي العباس المبرد ، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً فإن كتاب أبي علي أكثر لغةً وشعراً ، وكتاب « الفصوص »<sup>٥</sup> لصاعد بن الحسن الربيعي ، وهو جارٍ في مضمار الكتابين المذكورين .

ومن الأنحاء تفسير الجُرُفي<sup>٦</sup> لكتاب الكسائي ، حسن في معناه ، وكتاب

١ ترجم له الحميدي مرتين : ١٧٢ ، ٣٨٠ وأورد في الأول قصته مع أبي الجيش مجاهد بصدد كتابه في اللغة واسمه « تلفيح العين » .

٢ م : أظنه .

٣ ق : سعيد ؛ م : سيدة ؛ و ترجمة ابن سيد في الجذوة : ١١٠ والصلة : ١٤ وكان صاحب الشرطة بقرطبة وتلمذ للقالي ، توفي سنة ٣٨٢ ، وترجم له الحميدي مرة أخرى تحت « ابن سيد » ( ص : ٣٨١ ) .

٤ هو المعروف بكتاب أمالي القالي .

٥ من هذا الكتاب مخطوطة جيدة بخزانة القرويين بفاس .

٦ في الأصول : الحوفي والتصويب عن الجذوة : ٣٨٤ إذ ضبطه بالبحيم المضمومة .

ابن سيده في ذلك المنبوز بـ « العالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الأخصس<sup>١</sup> .  
 ومما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في « أخبار شعراء الأندلس »  
 كتاب حسن<sup>٢</sup> ، وكتاب « الحدائق » لأبي عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب  
 الزهرة لأبي محمد ابن داود رحمه الله تعالى ، إلا أن أبا بكر إنتما أدخل مائة باب  
 في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها  
 باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار  
 ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتابُ فرداً في معناه<sup>٣</sup> ، ومنها كتاب  
 « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » جمعه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي  
 الحسن الكاتب ، وهو حي بعد<sup>٤</sup> ، ومما يتعلّق بذلك شرح أبي القاسم لإبراهيم  
 ابن محمد بن الإفليلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جداً<sup>٥</sup> .

ومن الأخبار تواريخ<sup>٦</sup> أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك  
 الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم ، وذلك كثير جداً ، وكتاب له في صفة  
 قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار  
 بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ، وتواريخ متفرقة رأيت  
 منها : أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه ، وتاريخ  
 آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالحبوف ، وفي أخبار بني

١ ذكر الحميدي كتابي « العالم والمتعلم » و « شرح كتاب الأخصس » لأبان بن سيد المتقدم الذكر ،  
 لا لابن سيده صاحب المخصص والمحكم .

٢ لم يصلنا هذا الكتاب ، ولكن ابن سعيد ينقل عنه في المغرب .

٣ أورد الحميدي ( ص : ٩٧ ) نص كلام ابن حزم هذا في الحدائق ، وأكثر الحميدي وابن الأبار  
 في الخلية وابن سعيد في المغرب ، النقل عن هذا الكتاب .

٤ ترجمة ابن أبي الحسن في الجذوة : ٢٩٠ ، قال الحميدي : وعاش إلى أيام الفتنة .

٥ هذا الشرح موجود ولكنه لم ينشر بعد .

٦ م : تاريخ ؛ وهذا النص في الجذوة : ٩٧ .

قسيّ والتَّجِيبِيِّينَ وبنِي الطَّوِيلِ بالثَغْرِ<sup>١</sup> ، فقد رأيت من ذلك كتباً مصنَّفة في غاية الحسن ، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رِيَّة وحصونها وحروبها وفقهاؤها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيبي<sup>٢</sup> ، وكتاب محمد ابن الحارث الحشني في « أخبار القضاة بقرطبة<sup>٣</sup> وسائر الأندلس » ، وكتاب « في أخبار الفقهاء » بها ، وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في « أنساب مشاهير أهل الأندلس » في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها ، وكتاب قاسم بن أصبغ في « الأنساب » في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز ، وكتابه في « فضائل بني أمية » ، وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعامل والأجناد الستة بالأندلس ، ومنها كتب كثيرة جُمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها « أخبار شعراء إلبيرة » في نحو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب « الطوالع » في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب « التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس » تأليف أبي مروان ابن حيَّان نحو عشرة أسفار من أجل كتاب أُلّف في هذا المعنى<sup>٤</sup> ، وهو في الحياة بعدُ لم يتجاوز الاكتهال ، وكتاب « المآثر العامرية » لحسين بن عاصم في سير ابن أبي عامر وأخباره<sup>٥</sup> ، وكتاب الأفتشتين<sup>٦</sup> محمد بن عاصم النحوي في

١ ورد طرف من أخبار هؤلاء النافرين في المقتبس وابن عذاري ، وانظر في أنسابهم كتاب الجمهرة :

٤٦٤ .

٢ في الأصول : الليثي ، والتصويب عن الجذوة : ١٥٩ ، ومعجم البلدان ( رية ) .

٣ كتاب « قضاة قرطبة » للحشي مطبوع مع « علماء إفريقية » له بمصر سنة ١٣٧٢ هـ عن نشرة رييرا ( ١٩١٤ ) .

٤ أبو مروان ابن حيان كبير مؤرخي الأندلس وصاحب المقتبس والمتين وغيرهما ( الصلة : ١٥٠ والذخيرة ٢ / ١ : ٨٤ - ١١٤ ) وقد نشر من مقتبسه ثلاث قطع ، ويمتد ابن بسام عليه في الأجزاء التاريخية من كتاب الذخيرة .

٥ انظر الجذوة : ١٨١ .

٦ الأفتشتين ( Augustine ) له ترجمة في الجذوة مرتين ٧٤ ، ٨٢ مرة باسم محمد بن عاصم ومرة باسم محمد بن موسى بن هاشم ( وبغية الملتبس رقم : ٢٤٣ ، ٢٦٨ ) وطبقات الزبيدي : ٣٠٥ =

« طبقات الكتّاب بالأندلس » ، وكتاب سكن بن سعيد في ذلك<sup>١</sup> ، وكتاب أحمد ابن فرج في « المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم » ، وكتاب « أخبار أطباء الأندلس » لسليمان بن جلجل<sup>٢</sup> .

وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق<sup>٣</sup> وهي كتب رفيعة حسان ، وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني<sup>٤</sup> ، وهي كتب رفيعة حسان ، وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش<sup>٥</sup> الزهراوي ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنّه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدّقن<sup>٦</sup> ، وكتب ابن الهيثم<sup>٦</sup> في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها .

وأما الفلسفة فإنّي رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار دالة على تمكّنه من هذه الصناعة<sup>٧</sup> ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة .

= (وكتب خطأ: الأفشنيق) وابن الفرضي ٢ : ٣١ والقفطي ٣ : ٢١٦ ، وأكبر الظن أن هناك خطأ وقع بين «عاصم» و«هاشم» . ولم يذكر الزبيدي «محمد بن عاصم» في النحويين ، وهو أعرف بهم .  
١ انظر ترجمة سكن بن سعيد في الجذوة : ٣١٩ والبنية رقم : ٨٣٤ .  
٢ نشره الأستاذ فؤاد السيد (القاهرة : ١٩٥٥) مع مقدمة ضافية في التعريف بالكتاب ومؤلفه .  
٣ ترجمته في ابن جلجل : ١٠٠ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٣ والجذوة : ٣٥١ والبنية رقم : ١٤٦٠ .  
٤ ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٥ والجذوة : ٤٥ والبنية رقم : ٨١ وهو أيضاً صاحب كتاب التشبيهات ، وانظر هناك تحقيقنا لاسمه ومواضع ترجمته .  
٥ في النسخ عياش ؛ وفي المصادر التي ترجمت له (ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٢ والجذوة : ١٩٥ والبنية رقم : ٧١٥) «عباس» ومن كتابه التصريف نسخ في برلين وباريس وولي الدين وغيرها (راجع بروكلمان) .

٦ هو عبد الرحمن بن إسحاق (ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٦) .  
٧ سعيد بن فتحون السرقسطي : ترجمته في طبقات صاعد : ٦٨ والجذوة : ٢١٦ وبنية الملتصق رقم : ٨١٣ وبنية الوعاة : ٢٥٦ والذيل والتكملة ٤ : ٤٠ وانظر فهرست كتاب التشبيهات لابن الكتاني .

وأما العدد والهندسة فلم يُقسَمَ لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققتنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا إلاّ أنّي سمعت مَنْ أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول : إنّه لم يؤلف في الأزياج مثل زيغ مسلمة<sup>١</sup> وزيج ابن السمع<sup>٢</sup> ، وهما من أهل بلدنا ، وكذلك كتاب المساحة المجهولة لأحمد بن نصر فما تقدّم إلى مثله في معناه . وإنّما ذكرنا التآليف المستحقّة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة<sup>٣</sup> التي لا يؤلف عاقل عالم إلاّ في أحدها ، وهي إمّا شيء لم يسبق إليه بخرعه ، أو شيء ناقص يتمّه ، أو شيء مستغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه . وأمّا التوالمف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها .

وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقلّ لذلك تصرّفهم في هذا الباب ، فهي على كل حال غير عريّة عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ، نظار على أصوله ، ولهم فيه توالمف : منهم خليل بن إسحاق<sup>٤</sup> ، ويحيى بن السمينة<sup>٥</sup> ، والحاجب موسى بن حدير وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد<sup>٦</sup> ، وكان داعية إلى الاعتزال

- ١ يعني أبا القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي (توفي ٣٩٨) ، وله تعديل زيغ البتاني . انظر ابن أبي أصيبعة ٢ : ٣٩ وطبقات صاعد : ٧٨ وتاريخ الحكماء : ٣٢٦ وملحق بروكلمان .
- ٢ هو أصيبغ بن محمد بن السمع المهندس الفرناطي ، ألف زيغاً على أحد مذاهب الهند (وتوفي سنة ٤٢٦) ، انظر ابن أبي أصيبعة ٢ : ٣٩ وطبقات صاعد : ٧٩ وملحق بروكلمان .
- ٣ قارن هذا بما ذكره ابن حزم في كتاب «التقريب لحد المنطق» ص : ١٠ .
- ٤ لعل صوابه «خليل بن عبد الملك» وهو من أصحاب ابن مسرة ، وعليه درس ابن السمينة (ابن الفرضي ١ : ١٦٥ والتكملة : ٣٠٩) .
- ٥ يحيى بن السمينة توفي سنة ٣١٥ (انظر الجذوة : ٣١٦ والبنية رقم : ١٣٢٠) .
- ٦ راجع ترجمة موسى بن حدير في الجذوة : ٣١٦ والبنية رقم : ١٣٢٠ ، وكان أخوه أحمد بن محمد صاحب الوزارة أيام عبد الرحمن الناصر .



لا يستتر بذلك . ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى<sup>١</sup> ، وهو وإن كان صغير الجرم قليل عدد الورق يزيد على المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة لأننا أسقطنا فيه المشاغب كلها ، وأضربنا عن التطويل جملة ، واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحسّ وبديهية العقل لها بالصحة . ولنا فيما تحققنا به تأليف جمّة ، منها ما قد تم ، ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قصد مباحة فنذكرها ، ولا أردنا السمعة فنسميها ، والمراد بها ربنا جلّ وجهه ، وهو ولي العون فيها ، والمليّ بالمجازاة عليها ، وما كان لله تعالى فسيبدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وبلدنا هذا - على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء - فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طُلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك ، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها .

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجر جعونة بن الصمّة الكلابي<sup>٢</sup> في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق ، لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جارٍ على مذهب الأوائل ، لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمينا بقيّ بن مخلد لم نسابق به إلاّ محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان ابن الأشعث السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي ، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد<sup>٣</sup> لم نباه به إلاّ القفال ومحمد بن عقيل الفريابي ، وهو شريكهما في صحبة المزني أبي إبراهيم والتلميذة له ، وإذا نعمتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار

١ أغلب الظن أنه يعني كتاب «المجل» وهو متن شرحه بالمحل .

٢ ترجمة أبي الأجر في الجذوة : ١٧٧ وبغية الملتبس رقم : ٦٢٦ والمغرب ١ : ١٣١ .

٣ قد مر ذكره ، وهذا النص عنه ثابت في الجذوة .

٤ في الأصول : بن .

بهما إلا أبا الحسن ابن المفلس والحلال والديباجي ورويم بن أحمد . وقد شاركهم عبد الله في أبي سليمان وصحبته ، وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر بن لبابة وعمه محمد بن عيسى وفضل بن سلمة لم نناطح بهم إلا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن سخون ومحمد بن عبدوس<sup>١</sup> ، وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرباحي<sup>٢</sup> وأبي عبد الله محمد بن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد . ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلبي لما تأخر عن شأو بشار بن برد<sup>٣</sup> وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ، وعبد الملك بن سعيد المرادي<sup>٤</sup> ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه ، وحصان ممسوح الغرة .

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا ، وهو حي بعد لم يبلغ سن الاكتهال ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل<sup>٥</sup> ومحمد بن عبد الله بن مسرة<sup>٦</sup> في طريقه التي سلك فيها ، وإن كنا لا نرضى مذهبه ؛ في جماعة يكثر تعدادهم .

١ وإذا أشرنا . . . عبدوس : ورد هذا النص في الجذوة : ٧١ وبغية الملتبس رقم : ٢٢٢ .  
٢ الرباحي (نسبة إلى قلعة رباح) من كبار نحوي الأندلس قبل دخول القالي إليها ؛ انظر طبقات الزبيدي : ٣٣٥ وابن الفرضي ٢ : ٧١ والجذوة : ٩١ وبغية الملتبس رقم : ٣١٢ والقفطي ٣ : ٢٢٩ والوافي ٢ : ٣٧٢ وبغية الوعاة : ١١٣ .

٣ بن برد : زيادة من ق .  
٤ أحمد بن عبد الملك بن مروان (الجذوة : ١٢٣) وأغلب بن شعيب الجياني من شعراء عبد الرحمن الناصر (ص : ١٦٥) ومحمد بن شخيص (الجذوة : ٨٤ واليتيمة ٢ : ٢٣ والمغرب ١ : ٢٠٣ وصفحات متفرقة من المقتبس تحقيق حمي) ، وعبد الملك بن سعيد المرادي الخازن (الجذوة : ٢٦٦) .

٥ يريد : عمرو بن بجر الجاحظ وسهل بن هارون .  
٦ في ابن مسرة ومذهبه كتاب مستوفى للمستشرق آئين بلاسيوس وخلاصة عنه في تاريخ الفكر الأندلسي لبالثيا ، وانظر كتاب تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة : ٥٢ وما بعدها .

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان ، ولم نتزيد فيما رغب فيه إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه ، والحمد لله الموفق لعلمه ، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلّم ، وشرف وكرم . انتهت الرسالة .  
 وكتب الحافظ ابن حجر على هامش قوله فيها « وإنما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهرًا » ما نصّه : صوابه أربعة أعوام ، انتهى .

[ ٧ - تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم ]

وقال ابن سعيد ، بعد ذكره هذه الرسالة ما صورته : رأيت أن أذيل ما ذكره الوزير الحافظ أبو محمد ابن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرني والله تعالى ولي الإعانة .

أما القرآن فمن أجل ما صنّف في تفسيره كتاب « الهداية إلى بلوغ النهاية » في نحو عشرة أسفار ، صنّفه الإمام العالم الزاهد أبو محمد مكّي بن أبي طالب القرطبي<sup>١</sup> ، وله كتاب « تفسير إعراب القرآن » ، وعدّ ابن غالب في كتاب « فرحة الأنفس » تأليف مكّي المذكور ، فبلغ بها ٧٧ تأليفاً ، وكانت وفاته سنة ٤٣٧ ، ولأبي محمد ابن عطية القرطبي في تفسير القرآن الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق ، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة<sup>٢</sup> .  
 وأمّا القراءات فلمكي المذكور فيها كتاب « التبصرة » ؛ وكتاب « التيسير »

١ ترجمته في الصلة : ٥٩٧ وغاية النهاية ٢ : ٣٠٧ ؛ اقرأ في جامع الزاهرة حتى انقضت دولة  
 العامريين فنقله المهدي إلى المسجد الجامع بقرطبة وأقرأ فيه مدة الفتنة إلى أن قلده أبو الحزم ابن  
 جمهور الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع ؛ ومن الغريب أن ابن حزم أغفل ذكره مع أنه عاصره .  
 ٢ توفي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي سنة ٤٤٢ ( انظر الصلة : ٣٦٧ والقلائد ٢٠٨  
 والمرقبة العليا : ١٠٩ والديباج : ١٧٤ والمغرب ٢ : ١١٧ ؛ والنفع ٢ : ٥٢٦ ) .

لأبي عمرو الداني<sup>١</sup> مشهوراً في أيدي الناس .

وأما الحديث فكان بعصرنا في المائة السابعة الإمام أبو الحسن علي بن القطان القرطبي الساكن بحضرة مراکش<sup>٢</sup> ، وله في تفسير غرائب وفي رجاله مصنفات ، وإليه كانت النهاية والإشارة في عصرنا ، وسمعت أنه كان اشتغل بجمع أمهات كتب الحديث المشهورة ، وحذف المكرر ، وكتاب رزين بن عمّار الأندلسي<sup>٣</sup> في جمع ما يتضمّنه كتاب مسلم والبخاري والموطأ والسنن والنسائي والترمذي كتاب جليل مشهور في أيدي الناس بالشرق والمغرب ، وكتاب « الأحكام » لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي مشهور متداول القراءة ، وهي أحكام كبرى ، وأحكام صغرى ، قيل : ووسطى ، وكتاب « الجمع بين الصحيحين » للحميدي مشهور .  
وأما الفقه فالكتاب المعتمد عليه الآن الذي ينطلق عليه اسم الكتاب عند المالكية حتى بالإسكندرية فكتاب « التهذيب » للبراذعي السرقسطي<sup>٤</sup> ، وكتاب « النهاية »<sup>٥</sup> لأبي الوليد ابن رشد كتاب جليل معظم معتمد عليه عند المالكية ، وكذلك كتاب « المنتقى » للباجي .

وأما أصول الدين وأصول الفقه فلإمام أبي بكر ابن العربي الإشبيلي من

---

١ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني من شيوخ القراء وأبدهم شهرة ؛ انظر في أخباره وكتبه مقدمة المحكم تحقيق الدكتور عزة حسن (دمشق ١٩٦٠) . والنسخ ٢ : ١٣٥ (رقم : ٧٦) .

٢ ترجمة ابن القطان في التكملة رقم : ١٩٢٠ وصلة الصلة : ١٣١ (توفي سنة ٦٢٨) وقد استدرك على كتاب الأحكام الآتي ذكره لابن عبد الحق بكتاب سماه « الوهم والإيهام الواقعين على كتاب الأحكام » .

٣ هو رزين بن معاوية بن عمار العبدي سرقسطي يكنى أبا الحسن ، توفي سنة ٥٢٤ وكان من علماء الحديث (الصلة : ١٨٤) .

٤ البراذعي واسمه خلف بن أبي القاسم الأزدي ، قيرواني ارتحل إلى صقلية وألف فيها كتابه تهذيب المدونة (الديباج : ١١٢) وفرغ منه سنة ٣٧٢ هـ وليس البراذعي سرقسطياً ، ويبدو أنه نسب إلى سرقوسة بصقلية واضطرب الأمر في ذلك على ابن سعيد ؛ ومن التهذيب نسخة خطية بدار الكتب رقم : ٤٠٥ فقه مالكي ؛ وانظر كتابنا العرب في صقلية : ٩٧ - ٩٨ .

٥ هو كتاب « نهاية المجتهد » (ابن أبي أصيبعة ٢ : ٧٧) .

ذلك ما منه كتاب « العواصم والقواصم » المشهور بأيدي الناس ، وله تأليف في غير هذا ، ولأبي الوليد ابن رشد في أصول الفقه ما منه « مختصر المستصفي » .  
 وأمّا التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف « بالمتين » في نحو ستين مجلدة وإنّما ذكر ابن حزم كتاب « المقتبس » وهو في عشر مجلّدات ، والمتين يذكر فيه أخبار عصره ويعن فيها ممّا شاهده ، ومنه ينقل صاحب الذخيرة ، وقد ذيل عليه أبو الحجّاج البيّاسي أحد معاصرنا ، وهو الآن بإفريقية في حضرتها تونس عند سلطانها تحت إحسانه الغمر ، وكتاب المظفرّ بن الأفتس ملك بَطْلَيْوَسَ المعروف « بالمظفري » نحو كتاب « المتين » في الكبر ، وفيه تاريخ على السنين ، وفنون آداب كثيرة ، وتاريخ ابن صاحب الصلاة في الدولة اللمتونية<sup>١</sup> ، وذكر ابن غالب أن ابن الصيرفي الغرناطي له كتاب في « أخبار دولة لمتونة »<sup>٢</sup> ، وأن أبا الحسن السالمي له كتاب « في أخبار الفتنة الثانية بالأندلس »<sup>٣</sup> بدأ من سنة ٥٣٩ ، ورتبه على السنين وبلغ به سنة ٥٤٧ ، وأبو القاسم خلف بن بشكوال له كتاب في « تاريخ أصحاب الأندلس » من فتحها إلى زمانه ، وأضاف إلى ذلك من أخبار قرطبة وغيرها ما جاء في خاطره ، وله كتاب « الصلة » في تاريخ العلماء ، وللحميدي قبله « جذوة المقتبس » وقد ذيلَ كتاب الصلة في عصرنا هذا أبو عبد الله ابن الأبار البلسنسي كاتب سلطان إفريقية . وذكر ابن غالب أن الفقيه أبا جعفر ابن عبد الحق الخزرجي القرطبي له كتاب كبير بدأ فيه من بدء

١ لابن صاحب الصلاة عبد الملك بن محمد الباجي كتاب في ثورة المرينيين ، ولا أعرف له كتاباً في تاريخ اللمتونيين ؛ وهو أيضاً صاحب كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » .  
 ٢ يعد ابن الصيرفي حجة في تاريخ المرابطين ؛ وينقل عنه لسان الدين في أعمال الأعلام أخباراً عن دول الطوائف ليس فيها تحامل امرئ . كان وثيق الصلة بالمرابطين ؛ انظر ترجمته في المغرب ٢ : ١١٨ والتكملة : ٧٢٣ .

٣ سماه ابن عبد الملك (الذيل ٦ : الورقة ٣ من نسخة المتحف البريطاني) « في الفتنة الكائنة على اللمتونيين بالأندلس سنة أربعين وما يليها » ؛ وله مختصر سماه « عبرة العبر وعجائب القدر في ذكر الفتن الأندلسية والمدوية بعد فساد الدولة المرابطية » .

الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن ، قال : وفارقته سنة ٥٦٥ . وأبو محمد ابن حزم صاحب الرسالة المتقدمة الذكر له كتب جمعة في التواريخ ، مثل كتاب «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» وقد صنّف أبو الوليد ابن زيدون كتاب «التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس» على مترع كتاب «التعيين في خلفاء المشرق» للمسعودي . وللقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي كتاب «التعريف بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم» وكتاب «جامع أخبار الأمم» . وأبو عُمَرَ ابن عبد البر له كتاب «القصص والأمم في معرفة أخبار العرب والعجم» . وعريب بن سعد القرطبي له كتاب «اختصار تاريخ الطبري» قد سعد باغتباط الناس به ، وأضاف إليه تاريخ إفريقية والأندلس ، ولأحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن [أبي] الفياض كتاب «العبر»<sup>٢</sup> ، وكتاب أبي بكر الحسن بن محمد الزبيدي في «أخبار النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس»<sup>٣</sup> ، وكتاب القاضي أبي الوليد ابن الفرّاضي في «أخبار العلماء والشعراء» وما يتعلق بذلك ، وليحيى بن حكم الغزال تاريخ ألفه كله منظوماً<sup>٤</sup> ، كما صنع أيضاً بعده أبو طالب المتنبّي من جزيرة شُقْر في التاريخ الذي أورد منه صاحب الذخيرة ما أورد<sup>٥</sup> ، وكتاب «الذخيرة» لابن بسام في جزيرة الأندلس ليس هذا مكان الإطناب في تفصيلها وهي كالذيل على حدائق ابن فرج ، وفي عصرها<sup>٦</sup> صنّف الفتح كتاب «القلائد» وهو مملوء بلاغة ،

١ ب : تاريخ .

٢ ابن أبي الفياض أصله من إستجة وسكن المرية ، قال ابن بشكوال (الصلة : ٦٣) له تأليف في الخبر والتاريخ ، ولكنه لم يسمه ؛ توفي سنة ٤٥٩ .

٣ هو الذي نشير إليه في هذه التعليقات باسم «طبقات الزبيدي» .

٤ انظر ترجمة الغزال في النسخ ٢ : ٢٥٤ (رقم : ١٦٥) .

٥ راجع الذخيرة ٢/١ : ٤٠٥ حيث تجد أرجوزة ابن عبد الجبار المتنبّي .

٦ م : عصرنا .

والمحاكمة بين الكتابين ذكرت بمكان<sup>١</sup> آخر ، ولصاحب القلائد كتاب « المطمح » وهو ثلاث نسخ : كبرى ، ووسطى ، وصغرى ، يذكر فيها من الذين ذكرهم في القلائد ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم ، وكتاب « سبط الجمان وسقط<sup>٢</sup> المرجان » لأبي عمرو ابن الإمام بعد الكتابين المذكورين ، ذكر من أخلأ بتوفيته حقه من الفضلاء ، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة ، وذيّل عليه - وإن كان ذيلًا قصيرًا - أبو بحر<sup>٣</sup> صفوان بن إدريس المرسي بكتاب « زاد المسافر » ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة ، وكتاب أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري المسمى بـ « المسهب في فضائل المغرب » صنفه بعد « الذخيرة » و « القلائد » من أول ما عمرت الأندلس إلى عصره ، وخرج فيه عن مقصد الكتابين إلى ذكر البلاد وخواصها مما يختص بعلم الجغرافيا، وخلطه بالتاريخ وتفنن الأدب على ما هو مذكور في غير هذا المكان ، ولم يصنّف في الأندلس مثل كتابه ، ولذلك فضله المصنّف له عبد الملك بن سعيد ، وذيّل عليه ، ثم ذيّل على ذلك ابنه أحمد ومحمد ثم موسى بن محمد ثم علي بن موسى كاتب هذه النسخة ومكمل كتاب « فلك الأدب المحيط بحلى لسان العرب » المحتوي على كتابي « المشرق في حلى المشرق » و « المغرب في حلى المغرب » ، فيكفي الأندلس في هذا الشأن تصنيف هذا الكتاب بين ستة أشخاص في ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥ ، وقد احتوى على جميع ما يذكر به ويحاضر بحلاه من فنون الأدب المختارة على جهّد الطاقة في شرق وغرب على النوع الذي هو مذكور في غير هذا الموضوع ، ومن أغفلت التنبية على عصره ، وغير ذلك من المصنّفين المتقدمي الذكر ، فيطلب الملتبس منهم في مكانه المنسوب إليه كابن

١ ق : في مكان .

٢ ب م : وسقط ؛ وعن هذا الكتاب ينقل ابن سعيد في المغرب .

٣ ق : أبو يحيى ؛ وهو خطأ .

بسام في شنترين ، والفتح في إشبيلية ، وابن الإمام في إستجحة ، والحجاري في وادي الحجارة .

وأما ما جاء منثوراً من فنون الأدب فكتاب « سراج الأدب » لأبي عبد الله ابن أبي الخصال الشقوري رئيس كتاب الأندلس<sup>١</sup> ، صنّفه على مترع كتاب « النوادر » لأبي علي ، و « زهر الآداب » للحصري ؛ وكتاب « واجب الأدب » لوالدي موسى بن محمد بن سعيد ، واسمه يعني عن المراد به ؛ وكتاب « اللآلئ » لأبي عبيد البكري على كتاب « الأمالي » لأبي علي البغدادي مفيد في الأدب ، وكذلك كتاب « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب » لأبي محمد ابن السيد البطليوسي ، وأما شرح « سقط الزند » له فهو الغاية ، ويكفي ذكره عند أرباب هذا الشأن وثناؤهم عليه ، وشرح أبي الحجّاج الأعملم لشعر المتنبي والحماسة وغير ذلك مشهورة .

وأما النحو فالأهل الأندلس من الشروح على « الجمل »<sup>٢</sup> ما يطول ذكره ، فمنها شرح ابن خروف ، ومنها شرح الرندي ، ومنها شرح شيخنا أبي الحسن ابن عصفور الإشبيلي ، وإليه انتهت علوم النحو ، وعليه الإحالة الآن من المشرق والمغرب ، وقد أتيت له من إفريقية بكتاب « المقرب » في النحو فتلقي باليمين من كل جهة ، وطار بجناح الاغتباط ، ولشيخنا أبي علي الشلوبين كتاب « التوطئة » على الجزولية وهو مشهور ، ولابن السيد وابن الطراوة والسّهيلي من التقييدات في النحو ما هو مشهور عند أصحاب هذا الشأن معتمد عليه ، ولأبي الحسن ابن خروف شرح مشهور على كتاب سيبويه .

وأما علم الجغرافيا فيكفي في ذلك كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري

---

١ راجع ترجمة أبي عبد الله ابن أبي الخصال في المطرب : ١٨٧ وبغية الملتبس رقم : ٢٨٢ وقلاند العقيان : ١٧٥ والصلة : ٥٥٧ وبغية الوعاة : ١٠٤ ورايات المبرزين : ٧٤ ، وله ذكر في المعجب والمغرب ومعجم شيوخ الصدي وجذوة الاقتباس .  
٢ انظر كشف الظنون : ٦٠٣ - ٦٠٤ ففيه ذكر لبعض شروح الجمل من تأليف الأندلسيين وغيرهم .



الأونبي وكتاب «معجم ما استعجم من البقاع والأماكن» ، وفي كتاب «المسهب»  
للحجاري في هذا الشأن وتديّلنا عليه في هذا الكتاب الجامع ما جمع زيد<sup>١</sup> الأولين  
والآخرين في ذلك .

وأما الموسيقى فكتاب أبي بكر ابن باجة الغرناطي في ذلك فيه كفاية وهو  
في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق ، وإليه تُنسب الألحان المطربة بالأندلس  
التي عليها الاعتماد ، وليحيى الخذوج<sup>٢</sup> المرسى كتاب «الأغاني الأندلسية»  
على منزع الأغاني لأبي الفرج ، وهو ممن أدرك المائة السابعة .

وأما الطب فالمشهور بأيدي الناس الآن في المغرب ، وقد سار أيضاً في  
المشرق لنبله ، كتاب «التيسير»<sup>٣</sup> لعبد الملك بن أبي العلاء ابن زُهر ، وله كتاب  
«الأغذية»<sup>٤</sup> أيضاً مشهور معتبط به في المغرب والشرق ، ولأبي العباس ابن  
الرومية الإشبيلي<sup>٥</sup> من علماء عصرنا بهذا الشأن كتاب في الأدوية المفردة ، وقد  
جمع أبو محمد المالقي<sup>٦</sup> الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً في هذا الشأن حشر عليه  
ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي  
وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها وضبطه على حروف المعجم ، وهو  
النهاية في مقصده .

وأما الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد ابن رُشد القرطبي ، وله فيها  
تصانيف جحدّها لما رأى انحراف منصور بني عبد المؤمن عن هذا العلم ،

١ م : زبدة .

٢ في الأصول : الخدج : وقد ضبطه الرعي في برناجه : ١٦٤ وهو أبو زكرياء يحيى بن إبراهيم  
الأصبغي الحكيم ؛ قال : عرض علي كتابه الكبير الذي سماه الأغاني الأندلسية وقرأت عليه خطبته  
ومواضع منه وناولني جميع أسفاره .

٣ هو كتاب التيسير في مداواة والتدبير ( ابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٧ ) .

٤ ألف ابن زهر كتاب الأغذية للخليفة عبد المؤمن بن علي ( المصدر السابق ) .

٥ انظر ترجمة ابن الرومية في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٨٧ والإحاطة ١ : ٨٨ ( ط . السلفية ) والنفع  
٢ : ٥٩٦ ( رقم : ٢٢١ ) ومزيداً من المصادر في الحاشية .

٦ يريد ابن البيطار صاحب كتاب المفردات وقد مرت ترجمته في المجلد ٢ : ٦٩١ ( رقم : ٣٠٤ ) .

وسجنه بسبيها ، وكذلك ابن حبيب<sup>١</sup> الذي قتله المأمون بن المنصور المذكور على هذا العلم بإشيلية ، وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره ، فلذلك تخفى تصانيفه .

وأما التنجيم فلا بن زيد الأسقف القرطبي فيه تصانيف ، وكان مختصاً بالمستنصر بن الناصر المرواني ، وله ألف كتاب « تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان » وفيه من ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه ، وكان مطرف الإشبيلي في عصرنا قد اشتغل بالتصنيف في هذا الشأن ، إلا أن أهل بلده كانوا ينسبونه للزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن فكان لا يظهر شيئاً مما يصنّف .

#### [ ٨ - رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس ]

ثم قال ابن سعيد : أخبرني والدي قال : كنت يوماً في مجلس صاحب سبتة أبي يحيى ابن أبي زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن ، فجرى بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى ابن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين ، فقال الشقندي : لولا الأندلس لم يُذكر بر العُدوة ، ولا سارت عنه فضيلة ، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم ، فقال الأمير أبو يحيى : أتريد أن تقول كون أهل برنا عربياً وأهل بركم<sup>٢</sup> بربر ؟ فقال : حاش لله ! فقال الأمير : والله ما أردت غير هذا ، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك ، فقال ابن المعلم : أتقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العُدوة ؟ فقال الأمير : الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بره ، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً ، وأرجو إذا أخليتما له فكركما يصدر عنكما ما يحسن تخليده ، ففعلا ذلك :

١ هو ابن حبيب القصري (المغرب ١ : ٢٩٦) .

٢ م : بلدنا . . . بلدكم .

فكانت رسالة الشقندي : الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بجزيرة الأندلس<sup>١</sup>  
أن يتكلم ملء فيه ، ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يتثنيه ،  
إذ لا يقال للنهار : يا مظلم ، ولا لوجه النعيم : يا قبيح .

وقد وجدّت مكان القولِ ذاسعةٍ فإن وجدتَ لساناً قاتلاً فقلِّ

أحمده على أن جعلني ممّن أنشأته ، وحباني بأن كنت ممّن أظهرته ،  
فامتدّ في الفخر باعي ، وأعاني على الفضائل كرم طباعي ، وأصلّي على سيّدنا  
محمد نبيّه الكريم ، وعلى آله وصحبه الأكرمين ، وأسلم تسليمًا .

أمّا بعد ؛ فإنّه حرك مني ساكنًا ، وملاً مني فارغًا ، فخرجت عن سجيّتي في  
الإغضاء ، مكرهاً إلى الحميّة والإباء ، منازعٌ في فضل الأندلس أراد أن يخرق  
الإجماع ، ويأتي<sup>٢</sup> بما لا تقبله النواظر والأسماع ، إذ من رأى ومن سمع  
لا يجوز عنده<sup>٣</sup> ذلك ، ولا يُضله من تاهَ في تلك المسالك ، رام أن يفضل بر  
العدوّ على بر الأندلس فرّام<sup>٤</sup> أن يفضل على اليمين اليسار ، ويقول : الليل  
أضوأ من النهار ، فيا عجباً كيف قابلَ العوالي بالزجاج ، وصادم الصّفاة<sup>٥</sup>  
بالزجاج ، فيا من نفخ في غير ضرم ، ورام صيّد البزاة بالرخم ، كيف  
تتكّر بما جعله الله قليلاً ، وتتعزّر بما حكم الله أن يكون ذليلاً؟ ما هذه المباهة  
التي لا تجوز؟ وكيف تبدي أمام الفتاة العجوز؟ سلّ العيون إلى وجه من تميل؟  
واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغي<sup>٦</sup>؟

١ ب : بر الأندلس .

٢ ب : ويتأق .

٣ م : له .

٤ م : رام .

٥ م : قابل اللّالي . . . الصفاح ؛ ب : الصفة بالزجاج .

٦ البيت لربيعة الرقي . انظر الأغاني ١٦ : ١٨٩ وفيه هجاء ليزيد بن أسيد السلمي وكان جليلاً عند المنصور والمهدي ، وتفضيل ليزيد بن حاتم الأزدي .

لشَتَان ما بين اليزيديين في الندى يزيدِ سُلَيْمِ والأغرَّ بن حاتم

اقن حَيَاءك أيها المغرد<sup>١</sup> بالنحيب ، المتزين بالخلق المتحَبِّب إلى الغواني  
بالمشيب الخضيب ، أين عَزَبَ عقلك ؟ وكيف نكص على عقبه<sup>٢</sup> فهمك ولُبُّك ؟  
أبَلغت العصية من قلبك ، أن تطمس على نورَي<sup>٣</sup> بصرك ولُبَّك ؟  
أما قولك « الملوك منّا » فقد كان الملوك منّا أيضاً ، وما نحن إلا كما قال  
الشاعر :

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويوم نساء ويوم نُسَرَّ

إن كان الآن كرسيُّ جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن ،  
أدامها الله تعالى ، فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول مشرقهم :

ولانتي مِن قوم كرام أعزّة لأقدامهم صيغت رؤوس المنابر  
خلائف في الإسلام في الشرك قادة بهم وإليهم فخر كل مفاخر

ويقول مغربهم<sup>٤</sup> :

ألسنا بني مروان كيف تبدلت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر  
إذا ولد المولود منّا تهللت له الأرض واهترت إليه المنابر

وقد نشأ في مدتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق ، وصار أثبت  
في صحائف<sup>٥</sup> الأيام ، من الأطواق في أعناق الحمام :

١ ق : المفرد .

٢ م : على عقبه ، ب : على عقب .

٣ م : نور ، وسقطت اللفظة من ق هي والعبارة من قوله : أبلفت . . . لبك .

٤ البيتان من شعر محمد بن عبد الملك حفيد عبد الرحمن الناصر (الحلة ١ : ٢٠٩) قال ابن الأبار :

وقد أنشد أبو منصور الثعالبي في اليتيمة من تأليفه هذا الشعر ونسبه إلى الحكم المستنصر بالله . . .  
وهذا من أغلاط أبي منصور وأوهامه الفاحشة .

٥ ب ودوزي : على صحائف .

وسار مسير الشمس في كل بثلثةٍ وهبَّ هبوبَ الريح في البر والبحر

ولم تزل ملوكهم في الاتساق كما قيل :

إن الخلافة فيكم لم تزل نَسَقًا كالعقدِ منظومة فيه فرائده

إلى أن حكم الله بنثر سِلِكهم ، وذَهَابِ مُلْكهم ، فذهبوا وذهبت أخبارهم ،  
وَدَرَسُوا ودرست آثارهم <sup>١</sup> :

جمالَ ذي الأرضِ كانوا في الحياة وهم بعدَ الماتِ جمالُ الكُتُبِ والسَّيرِ

فكم مكرمة أنالوها ، وكم <sup>٢</sup> عثرة أقالوها :

وإنما المرء حديثٌ بعدهُ فكنُ حديثاً حسناً لمن وعى

وكان من حَسَنَاتِ مَلِكهم المنصور بن أبي عامر ، وما أدراك ، الذي بلغ في  
بلاد النصارى غازياً إلى البحر الأخضر ، ولم يترك أسيراً في بلادهم من المسلمين ،  
ولم يبرح <sup>٣</sup> في جيش الهرقل وعزمة الإسكندر ، ولما قضى نَحْبَهُ كُتِبَ  
على قبره <sup>٤</sup> :

آثارهُ تُنْبِكُ عن أوصافِهِ حتَّى كأنك بالعيانِ تراهُ  
تاللهِ لا يَأْتِي الزَّمانُ بِمِثْلِهِ أبداً ولا يحمي الثغورَ سواهُ

وقد قيل فيه من الأمداح ، وألّف له من الكتب ، ما سمعت وعلمت ،  
حتى قُصد من بغداد ، وعمَّ خيرُهُ وشرُّه أَقاصي البلاد ، ولما ثار بعد انتشار

١ زاد في م : كما قيل .

٢ م : وكم من .

٣ م : ولم يزل .

٤ مر البيتان ، انظر النفع ج : ١ ص : ٣٩٨

٥ أقاصي : سقطت من م .

هذا النظام ملوك الطوائف وتفرقوا في البلاد ، كان في تفرقهم اجتماعٌ على  
النعم لفضلاء العباد ، إذ نَفَقُوا سوق العلوم ، وتباروا في المثوبة على المشور  
والمنظوم ، فما كان أعظم مباحاتهم إلا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ،  
والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني ، وليس منهم إلا مَنْ بذل وَسَعَه في  
المكارم ، ونبت الأمداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم ، وقد سمعت ما  
كان من الفتيان العامرية مجاهد ومُنذر وخيران ، وسمعت عن الملوك العربية :  
بنو عبّاد وبنو صُمّادح وبنو الأفطس وبنو ذي النون وبنو هود ، كل منهم قد  
خُلِدَ فيه من الأمداح ، ما لو مُدِح به اللَّيْلُ لصار أضواً من الصباح <sup>١</sup> ، ولم  
تزل الشعراء تهادى بينهم تهادي التواسم بين الرياض ، وتفتك في أموالم  
فتكة البرّاض ، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه  
أن حلف أن لا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار ، وأن المعتضد بن عبّاد  
على ما اشتهر من سَطْوَتِهِ وإفراط هيبته كَلَّفَه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى  
يعطيه ما شرّطه <sup>٢</sup> في قسمه ، ومن أعظم ما يُحْكِي من المكارم التي لم نسمع لها  
أحداً أن أبا غالب اللغوي ألف كتاباً ، فبذل له مجاهد العامري مَلِكُ دانية ألف  
دينار ومركوباً وكسَى على أن يجعل الكتاب باسمه ، فلم يقبل ذلك أبو غالب ،  
وقال : كتاب ألقته لينتفع به الناس ، وأخِلِدَ فيه همّتي ، أجعل في صدره  
اسمَ غيري ، وأصرف الفخرَ له ، لا أفعلُ ذلك ، فلما بلغ هذا مجاهداً استحسَن  
أنتفتَه وهمّته ، وأضعفَ له العطاء ، وقال : هو في حِلِّ من أن يذكرني  
فيه ، لا نصدّه عن غرضه <sup>٣</sup> . وإن كان كل ملوك الأندلس المعروفين بملوك  
الطوائف قد تنازعوا في <sup>٤</sup> ملاءة الحُضُر ، فإني أخص منهم بني عبّاد ، كما قال الله

١ م : النهار .

٢ م : شرط .

٣ مرت الحكاية في رسالة ابن حزم ؛ انظر ما تقدم ص : ١٧٢ .

٤ الصواب إسقاط « في » ، من قول الخنساء : يتنازعان ملاءة الحضرة .

تعالى ﴿ فِيهِمَا فَكِيهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (الرحمن : ٦٨) فإنَّ الأيام لم تنزل بهم كأعياد ، وكان لهم من الخنو على الأدب ، ما لم يقم به بنو حمدان في حلب ، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدوراً في بلاغتي النظم والنثر ، مشاركين في فنون العلم ، وآثارهم مذكورة ، وأخبارهم مشهورة ، وقد خلدوا من المكارم التامة ، ما هو مترددٌ في ألسن الخاصة والعامة ، وبالله إلاَّ سَمِيَتْ لي بَمَنْ تَفَخَّرُونَ قبل هذه الدعوة المهدية ، أسقوت<sup>١</sup> الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطي<sup>٢</sup> ؟ أم بيوسف بن تاشفين الذي لولا توسط ابن عباد لشراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا الملكة قدرأ ؟ وبعدهما ذكروه بوساطة المعتمد ابن عباد فإن المعتمد قال له ، وقد أنشدوه : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز ، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له<sup>٣</sup> المعتمد رسالة فيها :

بتم وبننا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا  
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء :

يطلب منا<sup>٤</sup> جوارى سوداً وبيضاً ، قال : لا يا مولانا ، ما أراد إلاَّ أن ليله كان يقرب أمير المسلمين نهراً لأن ليالي السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده<sup>٥</sup> ليلاً لأن أيام الحزن ليال سود ، فقال : والله جيد ، اكتب له في جوابه : إن دموعنا

١ ب : أسقمود ؛ ق ودوزي : أسقموت ؛ وهو سقوط البرغواطي المتغلب على مدينة سبته ومنه أخذها يوسف بن تاشفين ( انظر مفاخر البربر : ٥٤ وما بعدها ) .

٢ هو صالح بن طريف الذي استحدث لبرغواطة مذهباً مستقلاً ، حوالي سنة ١٢٣ هـ . ( انظر الاستبصار ١٩٨ - ٢٠٠ في بعض الأخبار عنه وعن مذهبه ) . وفي م : البرغواطي .

٣ زاد في م : يتشوق .

٤ م : هو يطلب ؛ وسقطت « هو يطلب منا » في ب .

٥ م : بيمد أمير المسلمين .

تجري عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده ، فليت العباس بن الأحنف قد عاش حتى يتعلم من هذا الفاضل رقة الشوق :

ولا تُنْكِرَنَّ مَهْمَا رَأَيْتَ مُقَدِّمًا عَلَى حُمْرٍ بَغْلًا فَمَّ تَنَاسُبُ

فاسكتوا<sup>١</sup> فلولا هذه الدولة ، لما كان لكم على الناس صولة :

وإن الورد يُقطفُ من قتاد وإن النار تُقْبَسُ من رماد

وإنك إن تعرضت للمفاضلة بالعلماء<sup>٢</sup> فأخبرني : هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب الذي يُعمل بأقواله إلى الآن ، ومثل أبي الوليد الباجي ، ومثل أبي بكر ابن العربي ، ومثل أبي الوليد ابن رشد الأكبر ، ومثل أبي الواليد ابن رشد الأصغر ؟ وهو ابن ابن الأكبر ، نجوم الإسلام ، ومصابيح شريعة محمد عليه السلام ، وهل لكم في الحفظ مثل أبي محمد ابن حزم الذي زهد في الوزارة والمال ومال إلى رتبة العلم ، ورأها فوق كل رتبة ، وقال وقد أحرقت كتبه<sup>٣</sup> :

دعوني من إحراق رَقِّ وكاغِدِ وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس من يدري فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمَّنه القرطاس ، إذ هو في صدري

ومثل أبي عمر ابن عبد البر صاحب « الاستذكار » و « التمهيد » ومثل أبي بكر ابن الجلد حافظ الأندلس في هذه الدولة ، وهل لكم في حُفَاط اللِّغَةِ كابن سيده صاحب كتاب « المحكم » وكتاب « السماء والعالم » الذي إن أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته ، وهل لكم في النحو مثل أبي محمد ابن السِّيد وتصانيفه ؟ ومثل ابن الطراوة ، ومثل أبي علي الشلوين الذي بين أظهرنا الآن ، وقد سار في المغارب والمشارق ذكره ، وهل لكم في علوم اللحن والفلسفة كابن باجة ،

١ م : فاسكتوا يا أهل العدة .

٢ انظر ج ٢ : ٨٢ .

٣ ب : للعلماء .



وهل لكم في علم النجوم والفلسفة والهندسة ملك كالمقتدر بن هود صاحب سَرَقُسطَة ، فإنه كان في ذلك آية ؟ وهل لكم في الطب مثل ابن طُفَيْل صاحب رسالة «حي بن يقظان» المقدم في علم الفلسفة ، ومثل بني زُهْر أبي العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبي بكر ثلاثة على نَسَق ؟ وهل لكم في علم التاريخ كابن حَيَّان صاحب «المتين» و «المقتبس» ؟ وهل عندكم في رؤساء علم الأدب مثل أبي عُمَرَ بن عبد ربّه صاحب «العقد» ؟ وهل لكم في الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمه والاجتهاد في حشد محاسنهم مثل ابن بَسَّام صاحب «الذخيرة» ؟ وهبّ أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكيِّسة في البيت الفارغ ؟ وهل لكم في بلاغة النثر كالفتح بن عُبَيْد الله الذي إن مدح رفع ، وإن ذمّ وضع ، وقد ظهر له من ذلك في كتاب «القلائد» ما هو أعدل شاهد ، ومثل ابن أبي الحِصَال في ترسيله ، ومثل أبي الحسن سَهْل بن مالك الذي بين أظهرنا الآن في خطبه ، وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله ٢ :

وليل بسُدّ النهر أنساً قطعته      بذات سِواريّ مثل منعطف النهر  
نصّت بُردها عن غصنِ بانٍ منعم      فيا حسن ما انشق الكمام عن الزهرِ  
وقوله في أبيه ٣ :

سَمَيْدَعٌ يهب الآلاف مبتدئاً      وبعد ذلك يُلْفَى وهو يعتذرُ  
له يدٌ كلُّ جبارٍ يقبلها      لولا نداها لقلنا إنها الحجرُ

ومثل ابنه الراضي ٥ في قوله :

- ١ ب : المتقدم ؛ م : في علوم .  
٢ ديوانه : ١٢ والمقطف ، الورقة : ٣١ وعنوان المرقصات : ٢٢ والقلائد : ٦ .  
٣ ديوانه : ٣٧ - ٣٨ وعنوان المرقصات : ٢٢ والثاني في المقطف : ٢٩ .  
٤ ب : معتذر .  
٥ م : الراضي بالله ؛ وانظر البيتين في الحلقة ٢ : ٧١ .

مَرُّوا بنا أَصْلاً من غير ميعادِ فأوقدوا نار قلبي أيَّ إيقادِ  
لا غرو أن زادني وجدني مرورهم فَرؤية الماء تذكّي غلّة الصادي

وهل لكم ملك أَلَف في فنون الآداب كتاباً في نحو مائة مجلّدة مثل المظفر  
ابن الأفتس ملك بَطْلَيْنُوس ولم تشغله الحروبُ ولا المملكة عن همّة الأدب ؟  
وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل ،  
وأحب إلى الأسماع من لقاء حبيب وصل ؟ التي منها :

أَثْمَرْتِ رُمُحَكَ من رؤوس ملوكهم لما رأيتَ الغُصنَ يُعشَقُ مُثْمِراً  
وصبغتِ دِرْعَكَ من دماء كُماهم لما رأيتَ الحُسنَ يلبس أحْمِراً

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يُقَلِّ مع طولها في النسيب أرقّ منها ،  
وهي التي يقول فيها :

كأنتنا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثنا والسعد قد غُض من أجفانِ واشينا  
سرّان في خاطر الظلّماء يكتمننا حتى يكاد لسان الصبح يُفْشينا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبُون في بديهته بين يدي المعتمد بن عباد  
وإصابته الغرض حين استحسّن المعتمد قول المتنبي :

إذا ظفرتُ منك المطيُّ بنظرة أتاب بها معيبي المطيِّ ورازمه  
فارنجل :

لئن جاد شعراً ابنِ الحسينِ فإنّما تُجيدُ العطايا واللّها تفتح اللّها  
تنبأ عجباً بالقريض ولو درى بأنك تروي شعره لتألّها

١ أورد المقرئ قصيدة ابن عمار ، في النفع ج : ١ ص : ٦٥٥ .

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن درّاج الذي قال فيه الثعالبي<sup>١</sup> « هو بالصقع  
الأندلسي كالثعبي بصقع الشام » الذي إن مدح الملوك قال مثل قوله<sup>٢</sup> :

ألم تعلمي أنّ الثواء هو التوى  
وأنّ خطيرات المهالك ضمن<sup>٣</sup>  
تخوّفي طول السفار وإنه  
مجير الهدى والدين من كل ملحد  
تلاقت عليه من تميم ويعرب  
هم يستقلون الحياة لراغب  
ولما توافوا للسلام ورفعت  
وقد قام من زرق الأسته دونها  
رأوا ساعة الرحمن كيف اعتزازها  
وكيف استوى بالبر والبحر مجلس<sup>٤</sup>  
فجاءوا عجلاً والقلوب خواف<sup>٥</sup>  
يقولون والإجلال يخرس ألسنا  
لقد حاط أعلام الهدى بك حائط<sup>٦</sup>

وأنّ بيوت العاجزين قبور  
لراكبها أنّ الجزاء خطير  
بتقبيل كف العامري جدبر<sup>٣</sup>  
وليس عليه للضلال مجير  
شموس تلاق في العلاء وبدور  
ويستصغرون الخطب وهو كبير  
عن الشمس في أفق الشروق استور  
صفوف ومن بيض السيوف سطور  
وآيات صنع الله كيف تنير  
وقام بعبء الراسيات سرير  
وولّوا ببطاء والنواظر صور  
وحازت عيون ملاءها وصدور  
وقدر فيك المكرمات قدير

وأنا أقسم بما حازته هذه الأبيات ، من غرائب الآيات ، لو سمع هذا  
المدح سيد بني حَمْدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، ورأى  
أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم وناثر .  
وإن ذكر الغربية عن الأوطان ، ومكابدة نواب الزمان ، قال<sup>٤</sup> :

١ م : الثعالبي في اليتيمة .  
٢ ديوان ابن دراج : ٢٩٨ .  
٣ الديوان : لتقبيل كف العامري سفير .  
٤ ديوان ابن دراج : ١١٠ ، ١١٢ وانظر المغرب ٢ : ٦١ .

قالت وقد مزج الفراقُ مدامعاً  
 أتفرَّقُ حتى بتمزَلِ غربة  
 ولئن جنيتُ عليك ترحمةً راحل  
 هل أبصرتُ عينك بدرأً طالعاً  
 بمدامع وتراثباً بتراثب  
 كم نحنُ للأيام نهبه ناهب  
 فأنا الزعيم لها بفرحة آيب  
 في الأفق إلاّ من هلال غارب

وإن شبّه قال ١ :

كعاقِلٍ من سوسنٍ قد شيّدت  
 شُرْفَاتُهَا من فضّةٍ وحُمَاتُهَا  
 حول الأمير لهم سيوف من ذهب  
 وأيدي الربيعِ بناءها فوق القضب  
 وهل من شعرائكم من تعرّض لذكر العفّة فاستنبط ما يسحر به السحر ،  
 ويطيّب به الزهر ، وهو أبو عمر ابن فرج في قوله ٢ :

وطائفة الوصالِ عففتُ عنها  
 بدتُ في اللَّيْلِ سافرةً فباتتُ  
 وما من لحظةٍ إلاّ وفيها  
 فملكتُ النهي جمّحاتٍ شوقي  
 وبتُ بها مبيت السّقبِ ٣ يظما  
 كذاك الروض ما فيه لمثلي  
 ولستُ من السوائِمِ مُهملات  
 وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ  
 دياجي اللَّيْلِ سافرةً القناعِ  
 إلى فنّ القلوب لها دواعي  
 لأجري في العفاف على طباعي  
 فيمنعه الكِعَامُ من الرضاعِ  
 سوى نظرٍ وشمٍّ من متاعِ  
 فأتخذ الرياض من المراعي

وهل بلغ أحد من مُشبّهي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللمائي ٤ :

- ١ ديوانه : ٣٦ .  
 ٢ الأبيات لأبي عمر أحمد بن محمد بن فرج الجباني (الجدوة : ٩٧ - ٩٨ والمطمح : ٨٠ والمغرب :  
 ٢ : ٥٦) .  
 ٣ م : السقط .  
 ٤ ترجمته في المطمح : ٢٥ ولم يورد البيتين ؛ والنخيرة ٢/١ : ١٣٢ ، وهما منسوبان لابن برد  
 في النخيرة ٢/١ : ٤٧ ، وأوردهما ابن سعيد اللمائي في عنوان المرقصات : ٢٢ .

عارض "أقبلَ في جُنحِ الدُّجى يتهادى كتهادي ذي الوجى  
بددت<sup>١</sup> ريحُ الصَّبَا لؤلؤهُ فانبرى يوقدُ عنها سُرُجا

ومثل قول أبي حفص ابن بُرد<sup>٢</sup> :

وكانَ الليلَ حينَ لوى ذاهباً<sup>٣</sup> والصبحُ قد لاحا  
كِلَّةٌ سوداءُ أحرقتها عامدٌ أسرج مصباحا

وهل منكم من وصف ما تحدته الحمرة من الحمرة على الوجنة بمثل قول  
الشريف الطليق<sup>٤</sup> :

أصبحتُ شمساً وفوه مغرباً ويدُ الساقى المحيى مشرقاً  
وإذا ما غربتُ في فمه تركتُ في الخدِّ منه شفقاً

بمثل هذا الشعر<sup>٥</sup> فليطلق اللسان ، ويفخر<sup>٦</sup> كلُّ إنسان .

وهل منكم من عمد إلى قول امرىء القيس<sup>٧</sup> :

سَمَوْتُ إليها بَعْدَ ما نامَ أهلُها سُمُو حَبَابِ المَاءِ حالاً على حالِ

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار ، واستلبه<sup>٨</sup> بلطف استلاب ثغر  
الشمس لرُضابِ طلِّ الأسحار ، فلفظه تلطيفاً يمتزج بالأرواح ، ويغني في

١ الذخيرة : أتلفت .

٢ البيتان في الذخيرة ٢/١ : ٤٨ وعنوان المرقصات : ٢٢ .

٣ الذخيرة : هارباً .

٤ من قصيدة أورد أكثرها ابن بسام في الذخيرة ٢/١ : ٨١ - ٨٢ .

٥ ب : الشاعر .

٦ ب م : ويفخر على .

٧ هذا هو ما ذكره ابن شهيد نفسه (الذخيرة ١/١ : ٢٤٤ - ٢٤٥) .

٨ ق : وسلبه .

الارتياح عن شرب الراح ، وهو ابن شهيد في قوله <sup>١</sup> :

ولما تَمَلَّأ من سكره      ونام ونامت عيونُ الحرسِ  
دنوت إليه على رِقْبَةٍ <sup>٢</sup>      دنوًا رفيق درى ما التمسِ  
أدبٌ إليه دبيب الكرى      وأسمو إليه سموً النَّقَسِ  
أقبلُ منهُ بياض الطُّلى      وأرشفُ منهُ سواد اللِّعَسِ  
فبتُ بهِ لَيْلَتِي ناعماً      إلى أن تبسم ثغر الغلَسِ

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه فعارض الصَّهيل  
بالنُّهاق ، وقابل العَدْبُ بالزُّعاق ، فقال وليته سكت :

ونفضت عني العين أقبلت مشية الـ      حُبَابِ وركني خيفة القوم أزورُ  
وأنا أقسم <sup>٣</sup> لو زار جملٌ محبوبه له      لكان أطف في الزيارة من هذا الأزور  
الركن المنفض للعيون ، لكنّه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله <sup>٤</sup> :

قالت لقد أعييننا حجةً      فأت إذا ما هَجَعَ الساهر  
واسقُطُ علينا كسقوط الندى      ليلة لا ناهٍ ولا زاجر

ولله در محمد بن سَقَرٍ أحد شعرائنا المتأخرين عصرًا ، المتقدمين قدرًا ،  
حيث نقل السعي إلى محبوبته فقال وليته لم يزل يقول مثل هذا ، فبمثله ينبغي أن  
يتكلّم ، ومثله يليق أن يدوّن :

١ في قوله : سقطت من م .

٢ في الأصول : على قرينه .

٣ : أقسم أن .

٤ ينسب هذا الشعر لوضاح الين .

٥ أبو الحسين محمد بن سفر (أو صفر) شاعر المرية في عصره ؛ انظر المغرب ٢ : ٢١٢  
والتحفة : ١٠١ والوافي ٣ : ١١٤ والنفح ج : ١ ص : ٤٧٦ ، وقد نسب المريبي في النفح  
وعنوان المرقصات وأغلب الظن أن صوابه « المريبي » نسبة إلى بلده المرية .

وواعدتها والشمس تجنح للنوى  
فجاءت كما يمشي سنا الصبح في الدجى  
فقطرت الآفاق حولي فأشعرت  
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها  
كما يتقصى قارىء أحرف السطر  
تنبه بين الغصن والحيف والبدر  
فبت بها والليل قد نام والهوى  
أعانقها طوراً وألثم تارة  
ففضت عقوداً للتعانق بيننا  
فيا ليلة القدر اتركي ساعة النفر

وهل منكم من قيّد بالإحسان فأطلق لسانه الشكر ، فقال وهو ابن اللبّانة ١ :

بنفسي وأهلي جيرة ما استعتهم على الدهر إلا وانثيتُ معانا  
أراشوا جناحي ثمّ بلبّوه بالندى فلم أستطع من أرضهم طيراً أنا

ومن يقول وقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده منه من الإحسان ،  
فقابل ذلك بقطع مدحه له ، فبلغه أنّه عتبه على ذلك ، وهو ابن وصّاح ٢ :

هل كنتُ إلاّ طائراً بثنائكم في دوح مجدكم أقومُ وأقعدُ  
إن تسلبوني ريشكم وتقلّصوا عني ظلالكم فكيف أغردُ

وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجّوا من سماع تشبيه الثغر بالآفاق ،  
وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخدود بالشقائق ، فتلطّف لذلك في أن يأتي  
به في متزج يصير خلقه في الأسماع جديداً ، وكليله في الأفكار حديداً ،  
فأغرب أحسن إغراب ، وأغرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إغراب ، وهو  
ابن الزقاق ٣ :

١ البيتان في عنوان المرقصات : ٣٦ .

٢ عنوان المرقصات : ٣٨ .

٣ مقطوعات ابن الزقاق هذه في ديوانه : ١٢٤ ، ١٩٧ ، ١٢٥ وفيه التخريجات .

وأغيبَ طاف بالكؤوسِ ضحىً وحثها والصبحُ قد وضحا  
والروضُ أهدى لنا شقائقه وأسهُ العنبريُّ قد نفحا  
قلنا : وأين الأقاحُ ؟ قال لنا : أودعته ثغراً من سقى القدحا  
فظلَّ ساقى المدام يجحدُ ما قال فلماً تبسمُ افتضحاً

وقال :

أديرآها على الروضِ المندى وحكمُ الصبحِ في الظلِّماءِ ماضي  
وكأسِ الرَّاحِ تنظرُ عن حبابِ ينبؤُ لنا عن الحدقِ المراضِ  
وما غربتْ نجومُ الأفقِ لكنَّ نُقلنَ من السماءِ إلى الرياضِ

وقال :

ورياضٍ من الشقائقِ أضحتْ يتهادى بها نسيمُ الرياحِ  
زرتها والغمامُ يجلدُ منها زهراتِ تروقُ لونَ الراحِ  
قلتُ : ما ذنبها ؟ فقال مجيباً : سرقتُ حمرةَ الحدودِ الملاحِ

فانظر كيف زاحم بهذا الاختيال المخترعين ؟ وكيف سابق بهذا اللفظ  
المبتدعين ؟

وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه وما يتعلق بذلك فانتهى  
إلى راية السباق ، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق ، وهو أبو إسحاق ابن  
خفاجة القائل ١ :

وعشيَّ أنسٍ أضجعتنا نشوةً فيها يُمهدُّ مضجعي ويُدَمِّتُ  
خَلَعَتْ عليَّ بها الأراكةُ ظلَّها والغصنُ يُصغي والحمامُ يُحدِّثُ

١ م : في قوله ؟ وأشار ابن خفاجة هذه في ديوانه : ٢٨٥ ، ٣٥٦ ، ٢٥٤ ، ٢٩١ ، ١٤٠ ،

١١٩ ، ٢٣٥ ، ١٢٣ .



والشمسُ تَجْنَحُ للغروبِ مريضةٌ والرعدُ يَرَقِي والغمامةُ تَنفُثُ

والقائل :

لله نهرٌ سالٍ في بطحاء متعطفٌ مثل السَّوارِ كأنه  
قد رَقَّ حتى ظنَّ قرصاً مفرغاً وغدت تحفُّ به الغصونُ كأنها  
ولطالما عاطيتُ فيه مُدامةٌ والريحُ تُعبثُ بالغصونِ وقد جرى  
أشهى وروداً من لَمَى الحسناء والزهرُ يَكْنُفُهُ مَجْرُ سماء  
من فضةٍ في بُردةٍ خضراء هُدْبٌ تحفُّ بمقلةٍ زرقاء  
صفراء تخضبُ أيديَ الندماء ذَهَبُ الأصيلِ على بلجين الماء

والقائل :

حثَّ المدامةَ والنسيمُ عليلُ والروضُ مهتزُّ المعاطفِ نعمةٌ  
ريّانُ فضضه الندى ثمَّ انجلى عنه فذَهَبَ صفحتهِ أصيلُ  
والظلُّ خَفَّاقُ الرواقِ ظليلُ نشوانَ تعطفه الصِّبَا فيميلُ  
ريّانُ فضضه الندى ثمَّ انجلى عنه فذَهَبَ صفحتهِ أصيلُ

والقائل :

أذِنَ الغمامُ بديمةٍ وعُقارٍ واربعٌ على حُكْمِ الربيعِ بأجرعٍ  
متقسّمِ الأخطابِ بين محاسنٍ نثرت بحجرالروضِ فيه يدُ الصِّبَا  
وهفتُ بتغريدٍ هنالك أَيْكَةُ هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا ولربّما  
فامزج بلحيئاً منهما بنضارٍ هنزج الندامى مُفْصِحِ الأطيّارِ  
من ردفِ رابيةٍ وخَصَّرِ قرارٍ دُرَّرَ الندى ودراهمَ الأنوارِ  
خَفَّاقَةُ بمهبِّ ربيعِ عرّارٍ خلعت عليه ملاءةَ النّوّارِ

١ م : الأنوار .

والقائل :

سَقِيًّا لَهَا مِنْ بَطَاحِ خَزِيٍّ      وَدَوَّحِ نَهْرٍ بِهَا مَطْلٌ  
إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ وَجْهِ شَمْسٍ      أَطْلٌ فِيهِ عِذَارٌ ظِلٌّ

والقائل :

نَهْرٌ كَمَا سَأَلَ اللَّحْمَى سَلْسَالٌ      وَصَبًّا بَلِيلٌ ذَيْلُهَا مَكْسَالٌ  
وَمَهَبٌ نَفْحَةٌ رَوْضَةٌ مَطْلُولَةٌ      فِي جَانِبَيْهَا لِلتَّسِيمِ مَجَالٌ  
غَازَلَتْهَا وَالْأَقْحُوَانَةُ مَبْسِمٌ      وَالْأَسُّ صُدْعٌ وَالْبَنْفَسُجُ خَالٌ

والقائل :

وَسَاقٍ كَحَيْلِ اللَّحْظِ فِي شَاوِحُسْنِهِ      جَمَاحٌ وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ حِرَانٌ  
تَرَى لِلصَّبَا نَارًا بِخَدَيْهِ لَمْ يَشُرْ      لَهَا مِنْ سَوَادِي عَارِضِيهِ دَخَانٌ  
سَقَاهَا وَقَدْ لَاحَ الْهَلَالُ عَشِيَّةً      كَمَا اعْوَجَّ فِي دِرْعِ الْكَمِي سَنَانٌ  
عُقَارًا نَمَاهَا الْكُرْمُ فِيهَا كَرِيمَةٌ      وَلَمْ تَزَنْ بِابْنِ الْمَزْنِ فِيهَا حَصَانٌ  
وَقَدْ جَالَ مِنْ أَجْوَنِ الْغَمَامَةِ أَدْهَمٌ      لَهُ الْبَرْقُ سَوَاطٍ وَالشَّمَالُ عَنَانٌ  
وَضَمَّخَ رَدْعُ<sup>٢</sup> الشَّمْسِ نَحْرَ حَدِيقَةٍ      عَلَيْهِ مِنَ الظَّلِّ السَّقِيطِ جُمَانٌ  
وَنَمَّتْ بِأَسْرَارِ الرِّيَاضِ خَمِيلَةٌ      لَهَا النَّوْرُ ثَغْرٌ وَالنَّسِيمُ لِسَانٌ

والقائل في وصف فرس ولم يخرج عن طريقته :

وَأَشْقَرٍ تُضْرَمُ مِنْهُ الْوَعْيُ      بِشَعْلَةٍ مِنْ شَعَلِ الْبَاسِ  
مِنْ جَلْتَارٍ نَاضِرٍ لَوْنُهُ      وَأُذْنُهُ مِنْ وَرْقِ الْآسِ  
يَطْلَعُ لِلغَرَّةِ فِي شَقْرَةٍ      حَبَابَةٌ تَضْحَكُ فِي كَاسِ

١ م : جال في .

٢ في الأصول : درع ؛ والرَدْعُ : الخَلُوقُ .

وهل منكم من يقول مُنادماً لنديمه وقد باكر رَوْضاً بمحجوب وكأس ،  
فألفاه قد غطي محاسنه ضباب ، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى  
ذلك ، وهو أبو الحسن ابنُ بَسَّام<sup>١</sup> :

ألا بادرُ فما ثانٍ سوى ما عهدتَ الكأس والبدر التمام  
ولا تكسلُ برؤيته ضباباً تنص<sup>٢</sup> به الحديقة والمدام  
فإنَّ الروضَ ملتم<sup>٣</sup> إلى أن توافيه<sup>٤</sup> فينحط<sup>٥</sup> اللثام

وهل منكم مَنْ تَغَزَّلَ في غلام حائك بمثل قول الرصافي<sup>٣</sup> :

قالوا وقد أكثروا في حبه عذلي لو لم تهم بمذآل القدر مبتدل  
فقلتُ : لو كان أمري في الصباية لي لاخترتُ ذاك ، ولكن ليس ذلك لي  
علقتُه حببي الثغر عطره حلوا اللمى ساحر الأجنان والمقل  
غزِيلٌ لم تزل في الغزل جائلة بنانه جولان الفكر في الغزل  
جدلان تلعب بالمحواك أنمله على السدى لعب الأيام بالأمل  
ضماً بكفيه أو فحصاً بأخمصه تحبُّط الظبي في أشراك محتبل

ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل<sup>٤</sup> :

وعشي رائق منظره قد قطعناه على صرف الشمول  
وكان الشمس في أثنائه ألصقت بالأرض خدأ للنزول  
والصبا ترفع أذيال الربى ومحيًا الجو كالنهر الصقيل  
حبذا منزِلنا مغتبقاً حيث لا يطرقتنا غير الهديل

١ الأبيات في عنوان المرقصات : ٣٦ .

٢ ب م : تنفض .

٣ ديوان الرصافي : ١٢١ .

٤ ديوان الرصافي : ١٢٣ .

طائرٌ شادٍ وغصنٌ مثنٍ والدجى تشربُ صهباءَ الأصيلِ  
 وهل منكم من يقول في مَوْشَحٍ فيما يجره هذا المعنى :  
 ورداد الأصيلِ تطويه كَفُ الظلامِ  
 وهو أبو قاسم ابن الفرس<sup>١</sup> .

وهل منكم من وصف غلاماً جميل الصورة راقصاً بمثل قول ابن خروف<sup>٢</sup> :

ومُنزَعُ<sup>٣</sup> الحركاتِ يلعبُ بالنُّهى لبس المحاسنِ عند خلعِ لباسِه  
 متأوداً كالغُصْنِ وسطَ رياضِه مُتلاعباً كالظبيِ عندِ كناسِه  
 بالعقلِ يلعبُ مقبلاً أو مدبراً كالدهرِ يلعبُ كيف شاء بناسِه  
 ويضمُّ للقدمين منه رأسَه كالسيفِ ضمَّ ذُبَابَه لرئاسِه

وهل منكم من وصف خالاً بأحسن من قول النشار<sup>٤</sup> :

الوَّامي على كلفي بيحى متى مِن حُبِّه أرجو سَراحا  
 وبين الخلدِ والشفقين خالٌ كزنجي أتى روضاً صَباحا  
 تحيّرَ في جنّاه فليس يدري أيجني الوردَ أم يجني الأفاحا

وهل منكم الذي اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخلدِ ورَشَف رُصابِ الثغر  
 لم يهتد إليه أحد غيره ، وهو أبو الحسن سلام بن سلام المالقي<sup>٥</sup> في قوله :

١ ق ب : أبو القاسم ؛ والأرجح أن هذا البيت من موشحة له في المغرب ٢ : ١٢٢ .  
 ٢ ابن خروف هذا هو علي بن محمد بن يوسف بن خروف القيسي الراحل إلى المشرق ؛ توفي بحلب  
 حوالي سنة ٦٢٠ و ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ٣٩٦ ، ومصادر ترجمته في الحاشية ؛ وأبياته  
 في الذيل وصلّة الصلة : ١١٥ وانظر النفع ٢ : ٦٤٠ (رقم ٢٦٧) .  
 ٣ كذا في أصول النفع ؛ وفي الذيل : ومنوع .  
 ٤ أبو علي النشار بلنسي من شعراء زاد المسافر (ص : ٥٧) وأبياته هناك .  
 ٥ صاحب المقامات السبع وكتاب النخائر والأعلاق في أدب النفوس ومكارم الأخلاق (توفي ٥٤٤) . =

لَمَّا ظَفَرْتُ بِلَيْلَةٍ مِنْ وَصَلِهِ وَالصَّبُّ غَيْرُ الْوَصْلِ لَا يَشْفِيهِ  
أَنْصَجْتُ وَرْدَةَ خَدَّهِ بِتَنْفَسِي وَطَفَقْتُ أَرْشَفُ مَاءِهَا مِنْ فِيهِ

وهل منكم مَنْ هجا من غير النطق بإقذاع فبلغ ما لم يبلغه المقذع ، وهو  
المخزومي في قوله <sup>١</sup> :

يُودُّ عَيْسَى نَزُولَ عَيْسَى عَسَاهُ مِنْ دَائِهِ يَرِيحُ  
وَمَوْضِعُ الدَّاءِ مِنْهُ عَضُوٌّ لَا يَرْضِي مَسَّهُ الْمَسِيحُ

ولمَّا أَقْذَعُ أَتَى أَيْضاً بِأَبْدَعُ ، فقال :

يَا فَارِسَ الْخَيْلِ وَلَا فَارِسُ\* إِلَّا عَلَى مَتْنِ جَوَادِ الْخَيْصِ  
زَدْتَ عَلَى مُوسَى وَآيَاتِهِ تَفَجَّرُ الْمَاءُ وَتُخْفِي الْعَصَا

وهل منكم من مدح بمعنى فبلغ به النهاية من المدح ، ثم نقله إلى الهجاء  
فبلغ به النهاية من الذم ، وهو اليكي <sup>٢</sup> في قوله مادحاً :

قَوْمٌ لَمْ شَرَفُ الْعَلَا فِي حِمِيرٍ وَإِذَا انْتَمَوْا لِمَتُونَةٍ فَهَمُّ هُمْ  
لَمَّا حَوَّوْا أَحْرَازَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمْ فَتَلْثَمُوا

وفي قوله هاجياً :

إِنَّ الْمُرَابِطَ بِاخِلٍ\* بِنَوَالِهِ لَكِنَّهُ بَعِيَالَهُ يَنْتَكِرُمُ

= راجع ترجمته في المغرب ١ : ٤٣٤ والذيل والتكملة ٤ : ٤٨ وجملة ابن عبد الملك إشبيلية ؛ وبيتاه  
في المغرب .

١ هو المخزومي الأعمى الذي مرت قصته مع زهون (النفح ١ : ١٩٠-١٩٣) ، انظر بيته الأولين  
في زاد المسافر : ٧٥ .

٢ سناه ابن سعيد (المغرب ٢ : ٢٦٦) « ابن رومي عصرنا وحطيفة دهرنا » وبيتاه الأولان في  
المغرب : ٢٦٨ .

الوجهُ منه مُخَلَّقٌ بِقَبِيحٍ ما يَأْتِيهِ فهو مِنِ آجَلِهِ يَتَلَمُّهُ

وهل منكم مَنْ هجا أَشْرَ العَيْنِ بِمِثْلِ قولِ أَبِي العباسِ ابنِ حَنونٍ<sup>١</sup> الإشبيلي :

يا طلعةً أبَدتْ قَبائِحَ جَمَّةً      فالكلُّ منها إنْ نظرتْ قَبِيحُ  
أبَينِكَ الشَّراءِ عَينٌ ثَرَّةٌ      منها تَرقرِقُ دَمعُها المَسفوحُ  
شَتِرتْ قَقلنا : زورِقٌ في لِحَّةِ      مالَتْ بِإِحدى دَفْتِيهِ الرِّيحُ  
وكأَنما إنسانها مَلاحها      قد خاف من غرقِ فَظْلِ يَمِيحُ

وهل منكم مَنْ حَضَرَ مع عَدُوِّ لِه جاحِدٍ لما فَعَلَهُ مَعَهُ مِنَ الخَيْرِ ، وأمامِها زجاجة سوداء فيها خمر ، فقال له الحسود المذكور : إن كنت شاعراً فقل في هذه ، فقال ارتجالاً ، وهو ابن مُجَبَّر<sup>٢</sup> :

سأشكو إلى الندمانِ أمرَ زجاجةٍ      تَرَدَّتْ بِثوبِ حالكِ اللونِ أسْحَمِ  
نصبٌ بها شَمْسُ المَدامَةِ بَيننا      فَتَغْرِبُ في جَنحِ مِنَ اللَيلِ مَظْمِ  
وتَججَحِدُ أنوارَ الحُمَيِّيا بلونها      كَقَلبِ حَسودِ جاحِدِ يَدِ مَنعِمِ

وهل منكم من قال لفاضل جمع بينه وبين فاضل ، وهو أبو جعفر الذهبي<sup>٣</sup> :

١ أبو العباس أحمد بن حنون (عنوان المرقصات : حيون) الإشبيلي ، أمله من أغنياء إشبيلية اهتم بالقيام على الموحدين ، ثم عفي عنه في مدة منصور بن عبد المؤمن (راجع ترجمته في المغرب ١ : ٢٤٤ وزاد المسافر : ٥٠ وشعره فيهما وفي عنوان المرقصات : ٤٤) .

٢ يحيى بن مجبر أبو بكر من بلش (Velez Malaga) ، توفي سنة ٥٨٨ بمراكش؛ ترجمته في زاد المسافر : ٩ وبغية الملتبس رقم : ١٤٩٣ وله شعر كثير سيرد في النسخ ؛ وفي شرح المقصورة والخزء الثالث من البيان المغرب .

٣ هو أبو جعفر أحمد بن عتيق بن جرج المعروف بابن الذهبي من أعيان بلنسية غلبت عليه الفلسفة ، وهو من أصحاب ابن رشد ، إلا أنه اختفى حين طلب أستاذه إلى أن صدر العفو عنه (انظر المغرب ٢ : ٣٢١ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٨١ والديباج : ٦٩ وبغية الوعاة : ١٤٤ والغصون اليانعة : ٣٦ والتكملة : ٩٥ وأبياته في المغرب) .

أيتها الفاضلُ الذي قد هداني نحو من قد حمدتهُ باختيارٍ  
 شكر الله ما أتيتَ وجزا لك ولا زلتَ نجمَ هدى لساري  
 أيُّ بَرَقَ أفادَ أيُّ غَمَامٍ وصباح أدى لضوء نهارٍ  
 وإذا ما غدا النسيمُ دليلي لم يحلني إلا على الأزهارِ  
 وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره وسواد شعره ، وهو التَّطِيلِي<sup>١</sup> :

أما اشتفتَ مِنِّي الأيامُ في وطني حتى تضايق فيما عن من وطري  
 ولا قضتَ من سواد العين حاجتها حتى تكرَّ على ما طلَّ في الشعرِ  
 وهل منكم الذي طار في مشارق الأرض ومغاربها قوله ، وهو أبو القاسم  
 محمد بن هانيء الإلبيري :

فتقت لكم ريح الجلالِ بعنبرٍ وأمدكم فلق الصُّباحِ المسفرِ  
 وجنيمٌ ثمرَ الوقائعِ يانعا بالنصرِ من ورق الحديد الأخرِ  
 وقد سمعت فائتته في النجوم ، ولولا طولها لأنشدتها هنا ، فإنها أحسن ما قيل  
 في معناها .

وهل منكم من قال في الزهد مثل قول أبي وهب العباسي القرطبي<sup>٢</sup> :

أنا في حالي التي قد تراني إن تأملت أحسن الناس حالا  
 منزلي حيث شئتُ من مستقرِّ الـ أرضٍ أسقى من المياه زلالا  
 ليس لي كسوةٌ أخافُ عليها من مغيرٍ ولا ترى لي مالا  
 أجعلُ الساعدَ اليمينَ وسادي ثم أني إذا انقلبتُ الشمالا

١ ديوان التَّطِيلِي : ٤٩ .

٢ له ترجمة مسهبه في المغرب ١ : ٥٨ وأبياته مثبتة هناك .

لَيْسَ لِي وَالِدٌ وَلَا لِي مَوْلُو دٌ وَلَا حَزْتُ مَذْ عَقَلْتُ عِيَالَا  
قَدْ تَلَذَذْتُ حَقْبَةً<sup>١</sup> بِأُمُورٍ فَتَأَمَّلْتُهَا<sup>٢</sup> فَكَانَتْ خِيَالَا

ومثل قول أبي محمد عبد الله بن العسال الطليطلي<sup>٣</sup> :

انظر الدنيا فإن أبُ صَرَّتْهَا شَيْئًا يَدُومُ  
فاغْدُ منها في أمانٍ إن يساعذك النعيمُ  
وإذا أبصرتَها منذُ لكَ على كرهٍ تميمُ  
فاسلُ عنها واطرحها وارنحلُ حيثُ تقيمُ

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولادة المروانية<sup>٤</sup> التي تقول مداعبة للوزير  
ابن زيدون ، وكان له غلام اسمه «علي» :

ما لابن زيدون على فضله يغتابني ظلماً ولا ذنبَ لي  
ينظرني شزراً إذا جثته كأنما جثت لأخصي علي

ومثل زينب بنت زياد المؤدب الوادي أشية التي تقول :

ولما أبى الواشونَ لإفراقنا وما لهمُ عندي وعندك من نارِ  
وشنّوا على أسماعنا كل غارةٍ وقلَّ حُماتي عند ذاك وأنصاري  
غزوتهمُ من مقلتيك وأدمعي ومن نَفسي بالسيفِ والماءِ والنارِ

وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول أبي بكر ابن بقي ليكون الختام مسكاً<sup>٥</sup> :

١ م : خيفة .

٢ المغرب : فتدبرتها .

٣ م : أبي عبد الله محمد ؛ وراجع ترجمة ابن العسال في المغرب ٢ : ٢١ والحاشية .

٤ ستأتي تراجم لأدبيات الأندلس في النفع وسيجري التعريف بهن وبمصادر ترجمتهن هناك .

٥ اشتهرت هذه الأبيات عند المشاركة ، فعارضوها ووردت في عدة مصادر ؛ انظر المغرب ٢ : ٢١

ومعجم الأدباء ١٩ : ٢١ .



عاطيته والليل يسحبُ ذيله      صهباءُ كالمسك الفتيق لناشِقِ  
 وضممتهُ ضمَّ الكميَّ لسيفه      وذؤابته حماملٌ في عاتقي  
 حتى إذا مالت به سِنَّةُ الكرى      زحزحته شيئاً وكان مُعانِقي  
 باعدته<sup>١</sup> عن أضلعِ تشاقه      كيلا ينامَ على وسادِ خافقِ

ويقول القاضي أبي حفص ابن عمر القرطبي<sup>٢</sup> :

هُمُ نظروا لواحظها فهماموا      وتشربُ لُبَّ شاربها المدامُ  
 يخافُ الناسُ مُقلتها سواها      أيدعِر قلبَ حامله الحسام  
 سما طرفي إليها وهنوَ باك      وتحت الشمس ينسكب الغمام  
 وأذكر قَدَّها فأنوحُ وجداً      على الأغصان تَسْتَدبُ الحمام  
 وأعقبَ بينها في الصدر غمّاً      إذا غربت ذُكاءُ أُمي الظلام

ويقوله أيضاً :

لها رِدْفٌ تعلتُ في لطيف      وذاك الردفُ لي ولها ظلُّومُ  
 يُعدِّبني إذا فكَّرتُ فيه      ويَتُعبها إذا رامت تقومُ

وقد أطلتُ عِنانَ النظم<sup>٣</sup> ، على أُنِّي اكتفيتُ عن الاستدلال على النهار  
 بالصباح ، فبالله إلا ما أخبرني<sup>٤</sup> : مَنْ شاعرِكم الذي تقابلونَ به شاعراً ممَّن  
 ذكرتُ ؟ لا أعرف لكم أشهرَ ذكراً ، وأضخمَ شعراً ، من أبي العباس الجراوي ،

١ ب : أبعدته .

٢ هو القاضي الأديب أبو حفص عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السلمي ، كان  
 من أهل الفتيّا بمدينة فاس ثم ترقى إلى الخطابة والقضاء ، ولاء المنصور الموحدى قضاء إشبيلية ومات  
 بها وهو قاض سنة ٦٠٣ ( انظر الفصون اليانعة : ٩١ وصلة الصلة : ٧٢ وزاد المسافر : ١٠١ ؛  
 والقطعتان في الفصون والثانية في زاد المسافر ؛ وفي الشريشي ١ : ١٥٨ ) .

٣ م : عنان القلم في النظم .

٤ ق : أخبرت .

وأولى لكم أن تجحدوا فخره ، وثنسوا ذكره ، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم في قوله من قصيدة يمدح بها خليفة :

إذا كان أملاكُ الزمان أراقماً      فإنك فيهم دائم الدهر ثعبانُ

فما أقبح ما وقع « ثعبان » وما أضعف ما جاء « دائم الدهر » ، ولقد أنشدت أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت ، فقال : لا يُنكّر هذا على مثل الجراوي ، فسبحان من جعل نسبة وروحه وشعره تتناسب في الثقالة <sup>١</sup> .

وإن أردت الافتخار بالفرسان ، والتفاضل بالشجعان ، فمن كان قبلنا منهم في مدة المنصور بن أبي عامر ومدّة ملوك الطوائف أخبارُهُم مشهورة <sup>٢</sup> ، وآثارهم مذكورة ، وكفأك من أبطال عصرنا ما سمعت عن الأمير أبي عبد الله ابن مرّديش وأنه كان يدفع في المواكب ويشقّها يمينا ويساراً منشداً :

أكرُّ على الكتيبة لا أبالي      أحتنفي كان فيها أم سواها

حتى إنّه دفع يوماً في موكب من النصارى فصّرع وقتل ، وظهر منه ما أعجبت به نفسه ، فقال لشيخ من خواصّه ، عالم بأمور الحرب مشهور بها : كيف رأيت ؟ فقال له : لو رأك السلطان زاد فينا لك في بيت المال ، وأعلى مرتبتك ، أمن يكون رأس جيش يقدم هذا الإقدام ، ويتعرض بهلاك نفسه إلى هلاك جيشه <sup>٢</sup> ؟ فقال له : دعني فإنّي لا أموت مرتين ، وإذا مت أنا فلا عاش من بعدي .

والقائد أبو عبد الله ابن قادس الذي اشتهر من شجاعته ومواقفه في النصارى وحسن بلائه ما صير النصارى من رُعبه والإقرار بفضلته في هذا الشأن أن يقول

١ في الثقالة : سقطت من ب .  
٢ ب : هلاكهم ؛ ق : هلاككم .

أحدهم لفرسه إذا سقاه فلم يُقبل على الماء : ما لك ؟ أ رأيت ابن قادس في الماء ؟  
وهذه مرتبة عظيمة :

والفضلُ ما شهدت به الأعداء

ولقد أخبرني مَنْ أثق به أنه خرج من عسكر في كتيبة مجردة برسم الغارة على بلاد النصارى ، فوقع في جمع كبير منهم ، فجهد جهده في الخلاص منهم والرجوع إلى العسكر ، فجعل يقاتل مع أصحابه في حالة الفرار إلى أن كبا بأحد جنده فرسه ، وفرّ عنه ، فناداه مستغيثاً ، فقال : اصبر ، ثم نظر إلى فارس من النصارى قد طرق فقال : اجرِ إلى هذا النصراني فخذ فرسه ، وركض نحوه فأسقطه ، وقال لصاحبه : اركب ، فركب ونجا معه سالماً ، وأمثال هذا كثير ، وإنما جئت بخصاصة من تبيير .

وأما كرم النفس وشمائل الرياسة ، فأنا أحكي لك حكاية تتعجب منها ، وهي مما جرى في عصرنا ، وذلك أن أبا بكر ابن زُهر نشأت بينه وبين الحافظ أبي بكر ابن الجحد عداوة مفرطة للاشتراك في العلم والرياسة وكثرة المال والبلدية<sup>١</sup> ، فأجرى ابن زُهر يوماً ذكره في جماعة من أصحابه ، وقال : لقد آذانا هذا الرجل أشد أذية ، ولم يقصر في القول عند أمير المؤمنين وعند خواص الناس وعوامهم ، فقال له أحد عوامهم : إنني<sup>٢</sup> أذكر لك عليه عقداً فيه مخاصمة في موضع مما يعزّ عليه من مواضعه ، ومتى خاصمته في ذلك بلغت منه في النكاية أشد مبلغ ، فحرج ابن زُهر ، وأظهر الغضب الشديد ، والإنكار لذلك ، وقال لو كي له : أمثلي يجازي على العداوة بما يجازي به السفل والأوباش ؟ وإنني أجعل ابن الجحد في حل من موضع الخصام ، وأمر بأن يحمل له العقد ، ثم قال : وإنني

١ وكثرة . . . والبلدية : سقطت من م .

٢ م : أنا .

والله ما أروم بذلك أن أصلحه ، فإن عداوته من حسد ، وأنا أسأل الله تعالى أن يُدِيمها لأنها مقترنة بدوام نعم الله علي .

وإن تعرضت إلى ذكر البلاد ، وتفسير محاسنها ، وما خصَّها الله تعالى به ممَّا حرّمها غيرها ، فاسمع ما يميت الحسود كمدأ :

أمّا إشبيلية فمن محاسنها اعتدالُ الهواء ، وحسن المباني ، وتزيين الخارج والداخل ، وتمكن التمصر ، حتى إن العامة تقول : لو طُلب لبْنُ الطير في إشبيلية وُجِد ، ونهرها الأعظم الذي يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلاً ثمَّ يحسر ، وفيه يقول ابن سفر :

شقّ النسيمُ عليه جيبَ قميصه فانساب من شطّيه يطلب ثارَهُ  
فتضاحكت وُرُقُ الحمام بدوحها هزّاً فضم من الحياء إزارَهُ  
وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطررتين<sup>١</sup> بالمنازه والبساتين والكروم  
والأنشام<sup>٢</sup> متصل ذلك اتصالاً لا يوجد على غيره .

وأخبرني شخص من الأكياس دخل مصر وقد سألته عن نيلها أنه<sup>٣</sup> لا تتصل بشطيه البساتين والمنازه اتصالها بنهر إشبيلية ، وكذلك أخبرني شخص آخر دخل بغداد ، وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مَسْرَةٍ ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لا ناهٍ عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤدّ السكرُ إلى شر وعربدّة ، وقد رام مَنْ وليها من الولاة المظهرين للدين قَطَعَ ذلك ، فلم يستطيعوا إزالته ، وأهله أخف الناس أرواحاً ، وأطبعهم نوادر ، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب ، قد مرّونا على ذلك ، فصار لهم ديدناً حتى صار عندهم مَنْ لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتاً ثقيلاً . وقد سمعت عن شَرْفِ إشبيلية الذي ذكره أحد الوشّاحين في مَوْشحة مدح بها المعتضد بن عبّاد :

١ في الأصول : مطرزة .

٢ الأنشام : نوع من الشجر .

٣ م : فذكر أنه .

إشيبيليا عروساً وبعْلُها عباد  
وتاجُها الشرف وسلِكُها الواد

أي شرف قد حاز ما شاء من الشرف إذ عم أقطار الأرض خيره ، وسفر ما يعصر من زيتونه من الزيت حتى بلغ الإسكندرية ، وتزيد قُراه على غيرها من القرى بانتخاب مبانيها ، وتهمم سكانها فيها داخلاً وخارجاً ، إذ هي من تبيضهم لها نجوم في سماء الزيتون .

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيها رأيت أحسن هذان أم إشيبيلية ؟ فقال بعد تفضيل إشيبيلية : وشرفها غابة بلا أسد ، ونهرها نيل بلا تمساح . وقد سمعت عن جبال الرحمة بخارجها ، وكثرة ما فيها من التين القوطي والشعري ، وهذان الصنفان أجمع المتجولون في أقطار الأرض أن ليس في غير إشيبيلية مثل<sup>١</sup> لهما ، وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب كالحيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس<sup>١</sup> والكثيرة<sup>٢</sup> والفنار<sup>٣</sup> والزلامي والشقرة<sup>٤</sup> والنورة - وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه - والبوق<sup>٥</sup> ، وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد ، وليس في بر العُدوة من هذا شيء إلا ما جلب إليه<sup>٦</sup> من الأندلس وحسبهم الدف وأقوال واليرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحماتي البرابر ، وأما جواريتها ومرآكبتها برراً وبحراً ومطابخها وفواكهها الخضراء واليابسة فأصناف

١ م : والدنس .

٢ دوزي : الكثيرة .

٣ دوزي : الفنار .

٤ ب : والسفرة .

٥ قد أثبت دوزي أسماء هذه الآلات الموسيقية في ملحقاته المعاجم ولكنه لم يحدد مدلولاتها في الأكثر ، ومن الصعب ضبط بعض أسمائها .

٦ م : إليها .

أخذت من التفضيل بأوفر نصيب ، وأما مَبَانِيهَا فقد سمعت عن إتقانها واهتمام أصحابها بها وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجاري والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك ، وأما علماؤها في كل صنف رفيع أو وضع جَدًّا أو هزلاً فأكثر من أن يُعَدَّوا ، وأشهر من أن يُذكَروا ، وأما ما فيها من الشعراء والوشّاحين والزجالين فما لو قُسموا على بر العُدوة ضاق بهم ، والكل يتالون خير رؤسائها ورفدَهم ، وما من جميع ما ذكرت في هذه البلدة الشريفة إلا وقصدي به العبارة عن فضائل جميع الأندلس ، فما تخلو بلادها من ذلك ، ولكن جعلت إشبيلية ، بل الله جَعَلَهَا أُمَّ قُرَاهَا ، ومركز فخرها وعُلاها ، إذ هي أكبر مدنها ، وأعظم أمصارها .

وأما قرطبة فكرسي المملكة في القديم ، ومركز العلم ومَنَارِ التقي ومحل التعظيم والتقديم ، بها استقرت ملوك الفتح وعظماؤه ، ثم الملوك المرَوانية ، وبها كان يحيى بن يحيى راوية مالك ، وعبد الملك بن حبيب ، وقد سمعت من تعظيم أهلها للشريعة ، ومنافستهم في السؤددِ بعلمها ، وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها ، ويرفعون أقدارهم ، ويصدرون عن آرائهم ، وأنهم كانوا لا يقدّمون وزيراً ولا مشاوراً ما لم يكن عالماً ، حتى إن الحكمَ المستنصر لما كره له العلماء شربَ الخمر<sup>١</sup> همَّ بقطع شجرة العنب من الأندلس ، فقيل له : فإنّها تُعصر من سواها ، فأمسك عن ذلك ، وأنهم كانوا لا يقدمون أحداً للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختياره ، وتُعقد له مجالس المذاكرة ، ويكون ذا مال في غالب الحال خوفاً من أن يميل به الفقر إلى الطمع<sup>٢</sup> فيما في أيدي الناس فيبيع به حقوق الدين ، ولقد أخبرت أن الحكم الربضي أراد تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة ، فأخذ في ذلك مع يحيى بن يحيى وعبد الملك وغيرهما من أعلام العلماء ، فقالوا له : هو أهل ، ولكنّه شديد الفقر ، ومن

١ م ق : بغض الخمر .

٢ ب : للطمع .

يكون في هذه الحالة لا تأمنه<sup>١</sup> على حقوق المسلمين ، لا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في الموارث والوصايا وأشباه ذلك ، فسكت ولم يَرِ منازعتهم ، وبقي مهموماً من كونهم لم يقبلوا قوله ، فنظر إليه ولده عبد الرحمن الذي ولي الملك بعده ، وعلى وجهه أثر ذلك ، فقال : ما بالك يا مولاي ؟ فقال : ألا ترى لهؤلاء الذين تقدمهم ونُتَوِّه عند الناس بمكانهم حتى إذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه شَطَط ، بل ما لا يعيهم<sup>٢</sup> ، ولا هو مما يرزؤهم شيئاً صدقنا عنه ، وغلقوا أبواب الشفاعة ، وذكر له ما كان منهم ، فقال : يا مولاي ، أنت أولى الناس بالإنصاف ، إن هؤلاء ما قدمتهم أنت ولا نَوَّهت بهم ، وإنما قدمهم ونوه بهم علمهم ، أو كُنْت تأخذ قوماً جهالاً فتضعهم في مواضعهم ؟ قال : لا ، قال : فأنصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة ، قال : صدقت ، ثم قال : وأما كونهم لم يقبلوا هذا الرجل لشدة فقره فالعلة في ذلك تنحسم بما يبقي لك في الصالحات ذكراً ، قال : وما هو ؟ قال : تعطيه من مالك قَدْرَ ما يلحق به من الغنى ما يؤهله لتلك المنزلة ، ويزيل عنك هذا خجل ردهم لك ، وتكون هذه مكرمة ما سبقك إليها أحد ، فَتَهَلَّل وجهُ الحكم وقال : إني إني ، إنها والله شِنْشِنَة عَبْشَمِيَة وإن الذي قال فينا لصادق :

وأبناء أملاك خضارم سادة صغيرهم عند الأنام كبير

ثم استدعى عبد الملك بن حبيب وسأله عن قدر ما يؤهله لتلك المرتبة من الغنى ، فذكر له عدداً ، فأمر له به في الحين ، ونبّه قدره بأن أعطاه من إصطبله مركوباً ، وكانت هذه أكرومة<sup>٣</sup> لا خفاء بعظمها :

١ ب : ومن يكن . . . تؤمنه .

٢ ب : بل ما لا يعيهم .

٣ م : مكرمة .

يفنى الزمان وما بَنَتْهُ<sup>١</sup> مُخَلَّد

ثمَّ إنَّه إذا كان له من الغنى ما يكفُّه عن أموال الناس ، ومن الدين ما يصدِّه عن محارم الله تعالى ، ومن العلم ما لا يجهل به التصرّف في الشريعة ، أباحوا له الفتوى والشهادة ، وجعلوا علامة لذلك بين الناس القالس والرداء .  
وأهلُ قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية ، حتى إنهم كانوا لا يُوتون حاكماً إلاّ بشرط أن لا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم .

وقال ابن سارة لما دخل قرطبة :

الحمدُ لله قد وافيتُ قرطبةً دارَ العلوم وكرسیَّ السلاطين

وهي كانت مجمع جيوش الإسلام ، ومنها نصر الله على عبدة<sup>٢</sup> الصليب .  
يقال : إن المنصور بن أبي عامر - حين تم له ملك البرين ، وتوفرت الجيوش والأموال - عرّض بظاهر قرطبة خيلَه ورجلَه ، وقد جمع من أقطار البلاد ما ينهض به إلى قتال العدو وتدويخ بلاده ، فنيّف الفرسانُ على مائتي ألف ، والرجالة على ستمائة ألف . وبها حتى الآن من صنديد المسلمين وقوادهم من لا يفتّر عن محاربة ، ولا يملُّ من مضاربة ، أسماؤهم بأقاصي بلاد النصرى مشهورة ، وآثارهم فيها مأثورة ، وقلوبهم على البعد بخوفهم معمورة .

ويحكى أن العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت إلى أن كان يمشى فيها لضوء السُّرُج المتصلة عشرة أميال ، وأمّا جامعها الأعظم فقد سمعت أن ثريّاته من نواقيس النصرى ، وأن الزيادة التي زاد في بنائه ابن أبي عامر من ترابٍ نقله النصرى على رؤوسهم ممّا هُدِم من كنائس بلادهم ، وقد

١ ب : بنيته ، والصواب « بنيت » .

٢ م : عباد .



سمعت أيضاً عن قنطرتها العظمى وكثرة أرحي واديها ، يقال : إنَّها تنيّف على خمسة آلاف حجر ، وقد سمعت عن كنبانيتها وما فضل الله تعالى به تربها من برّكة وما ينبت فيها من القمح وطيبه ، وفيها جبال الورد الذي بلغ الربع منه مرات إلى ربع درهم ، وصار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه ، ونهرها إن صغر عندها عن عظمه عند إشبيلية فإن لتقارب برّيه هنالك وتقطع غُدْره ومُرُوجه معنى آخر وحلاوة أخرى ، وزيادة أنس ، وكثرة أمان من الغرق ، وفي جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارة وبهجة .

وأما جِيَان فإنَّها لبلاد الأندلس قلعة ، إذ هي أكثرها زرعاً ، وأصرمها أبطالاً ، وأعظمها منعة ، وكم رامتها من عساكر النصارى عند فترات الفتن فرأوها أبعدَ من العيوق ، وأعزَّ منالاً من بيض الأنوق ، ولا خلت من علماء ولا من شعراء ، ويقال لها « جيان الحرير » لكثرة اعتناء باديتها وحاضرتها بلود الحرير .

ومما يُعدُّ في مفاخرها ما ببياسة إحدى بلاد أعمالها من الزعفران الذي يسفّر<sup>١</sup> برّاً وبحراً ، وما في أبدة من الكروم التي كاد العنب فيها لا يباع ولا يشتري كثرة ، وما كان بأبدة من أصناف الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنَّهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدك ، وإخراج القروي والمرابط والمتوجه<sup>٢</sup> .

وأما غرناطة فإنَّها دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ، ومطمح الأنفس ، لها القصبة المنيعة ذات الأسوار الشاحمة ، والمباني الرفيعة ، وقد اختصت بكون النهر يتوزع على ديارها وحماماتها وأسواقها وأرحاها الداخلة والخارجة وبساتينها ، وزانها الله تعالى بأن جعلها مرتبة على بسطها الممتد الذي تفرغت<sup>٣</sup>

١ ب : يسافر .

٢ ب : والمتوحة .

٣ م : تفرغت .

فيه سبائك الأنهار بين زبرجد الأشجار ، ولنسيم نجدها وبهجة منظر حورها  
 في القلوب والأبصار ، استلطاف يروق الطباع ، ويحدث فيها ما شاءه الإحسان  
 من الاختراع والابتداع ، ولم تخل من أشرف أمائل ، وعلماء أكابر ، وشعراء  
 أفاضل ، ولولم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها من  
 الشواعر مثل نزهون القلاعية وزينب بنت زياد ، وقد تقدم شعرهما ، وحفصة  
 بنت الحجاج ، وناهيك في الظرف والأدب ، وهل ترى أظرف منها في جوابها  
 للوزير الحسيب الناظم النائر أبي جعفر ابن القائد الأجل أبي مروان ابن سعيد ،  
 وذلك أنهما باتا بجور مؤمل على ما يببت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة  
 ونضارة النعيم ، فلمّا حان الانفصال قال أبو جعفر ١ :

رعى الله ليلاً لم يرعُ بمدّمٍ عشيةً واراناً بجورٍ مؤملٍ  
 وقد خفقت من نحو نجد أريجةً إذا تفتحت هبت برياً القرتنقلٍ  
 وغرد قمري على الدوح وانثى قضيب من الريحان من فوق جدولٍ  
 ترى الروض مسروراً بما قد بدا له عناقٍ وضمٍ وارتشافٍ مقبلٍ

وكتبه إليها بعد الافتراق ، لتجاوبه على عاداتها في ذلك ، فكتبت له ما لا  
 يخفى فيه قيمتها :

لعمرك ما سرّ الرياضُ بوصلنا ولكنّه أبدى لنا الغلّ والحسدُ  
 ولا صفقَ النهرُ ارتياحاً لقربنا ولا صدحَ القُمريُّ إلا بما وجد<sup>٢</sup>  
 فلا تحسّن الظنّ الذي أنت أهله فما هو في كل المواطن بالرشدُ  
 فما خلّت هذا الأفق أبدي نجومه لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رصدُ

وأما مالقة فإنها قد جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة التي

١ ستأتي أخبار أبي جعفر ابن سعيد وحفصة مفصلة في النفع .

٢ ق : وجداً بما وجد .

لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التي شابهت نجوم السماء ، كثرة عدد وبهجة ضياء ، وتخلل الوادي الزائر لها في فصلي الشتاء والربيع في سرر بطحائها ، وتوشيحها لخصور أرجائها ، ومما اختصت به من بين سائر البلاد التين الريبي المنسوب إليها ، لأن اسمها في القديم رية ، ولقد أخبرت أنه يُباع في بغداد على جهة الاستطراف<sup>١</sup> ، وأما ما يسفر منه المسلمون والنصارى في المراكب البحرية فأكثر من أن يعبر عنه بما يحصره ، ولقد اجتزت بها مرة ، وأخذت على طريق الساحل من سهيل إلى أن بلغت إلى بليش قدر ثلاثة أيام متعجباً فيما حوته هذه المسافة من شجر التين ، وإن بعضها ليحتني جميعها الطفل الصغير من لزوقها بالأرض ، وقد حوت ما يُتعب الجماعة كثرة ، وتين بليش<sup>٢</sup> هو الذي قيل فيه للبربري : كيف رأيتَه ؟ قال : لا تسألني عنه ، وصُبَّ في حلقي بالقفّة ؛ وهو لعمر الله معذور ، لأنه نعمة حُرمت بلاده منها ، وقد خُصت بطيب الشراب الحلال والحرام ، حتى سار المثل بالشراب المالحقي ، وقيل لأحد الخلاء ، وقد أشرف على الموت : أسأل ربك المغفرة ، فرفع يديه وقال : يا رب ، أسألك من جميع ما في الجنة خمر مالقة وزبيبي<sup>٣</sup> إشييلية ، وفيها تُنسج الحُلل الموشية التي تجاوز أثمانها الآلاف ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم ، وساحلها محط تجارة لمراكب<sup>٤</sup> المسلمين والنصارى .

وأما المريّة فإنّها البلد المشهور الذكر ، العظيم القدر ، الذي خُصّ أهله باعتدال المزاج ، ورونق الديباج ، ورقة البشرة ، وحسن الوجوه والأخلاق ، وكرم المعاشرة والصحبة ، وساحلها أنظف السواحل وأشرحها<sup>٤</sup> وأملحها منظرأ ،

١ م : لأجل الاستطراف .

٢ م : بليش .

٣ م : مراكب .

٤ م : وأشرقها .

وفيهما الحصى الملتون العجيب الذي يجعله رؤساء مراکش في البراريد<sup>١</sup> والرخام الصقيل الملوكي ، وواديها المعروف بوادي بجانة من أفرج الأودية ، ضمّته بالرياض كالعذارين حول الثغر ، فحق أن ينشد فيها :

أرض وطئت الدر رضاضاً بها والترّب مسكاً والرياض جنانا<sup>٢</sup>

وفيهما كان ابن ميمون القائد الذي قهرّ النصارى في البحر ، وقطع سفرهم فيه ، وضرب على بلاد الرمانية ، فقتل وسبي ، وملاً صدور أهلها رعباً ، حتى كان منه كما قال أشجع<sup>٣</sup> :

فإذا تبنّه رُعتُهُ وإذا غفا سلّت عليه سيوفك الأحلام<sup>٤</sup>

وبها كان محطّ مراكب النصارى ، ومجتمع ديوانهم ، ومنها كانت تسفّر<sup>٥</sup> لسائر البلاد بضائعهم ، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي تصلح لهم ، وقصد بضبط ذلك بها حصر ما يجتمع في أعشارهم ، ولم يوجد لهذا الشأن مثلها ، لكونها متوسطة ومتسعة قائمة بالوارد والصادر ، وهي أيضاً مصنع للحلّل الموشية النفيسة .

وأما مرسية<sup>٥</sup> فإنّها حاضرة شرق الأندلس ، ولأهلها من الصرامة والإباء ما هو معروف مشهور ، وواديها قسيم وادي إشبيلية ، كلاهما يتبع من شقورة وعليه من البساتين المتهدبة الأغصان ، والنواعير المطربة الألحان ، والأطيار المغرّدة ، والأزهار المتنزدة ، ما قد سمعت ، وهي من أكثر البلاد فواكه وريحاناً ، وأهلها أكثر الناس راحت وفرجاً لكون<sup>٥</sup> خارجها معيناً على ذلك

١ ب : البواريد .

٢ ب م : جنابا .

٣ هو أشجع السلمي ، وبيته من قصيدة في مدح الرشيد .

٤ م : تسافر ؛ وكانت سقطت من ق .

٥ ب : يكون .

بحسن منظره ، وهي بلدة تجهز منها العروس التي تنتخب شورتها لا تفتقر في شيء من ذلك إلى سواها ، وهي للمرية ومالقة في صنعة الوشي ثالثة ، وقد اختلفت بالبسط التتلية التي تسفر<sup>١</sup> لبلاد المشرق ، وبالخصر التي تغلف بها الحيطان المبهجة للبصر ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ، ولم تخل من علماء وشعراء وأبطال .

وأما بلنسية<sup>٢</sup> فإنها لكثرة بساينها تُعرف بمطيب الأندلس ، ورُصافتها من أحسن متفرجات الأرض ، وفيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء والرواق ، ويقال إنه لمواجهه الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوء بلنسية إذ هي موصوفة بذلك ، ومما خُصت به النسيج البلنسي الذي يسفر<sup>٣</sup> لأقطار المغرب ، ولم تخل من علماء ولا شعراء ، ولا فرسان يكايدون مصابقة<sup>٤</sup> الأعداء ، ويتجرعون فيها النعماء ممزوجة بالضراء ، وأهلها أصلح الناس مذهباً ، وأمتهم ديناً ، وأحسنهم صحبة ، وأرقهم بالغريب .

وأما جزيرة ميورة فمن أخصب بلاد الله تعالى أرجاء ، وأكثرها زرعاً ورزقاً وماشية ، وهي على انقطاعها من البلاد مستغنية عنها ، يصل فاضل خيرها إلى غيرها ، إذ فيها من الحضارة والتمكن والتمصر وعظم البادية ما يغنيها ، وفيها من الفوائد ما فيها ، ولها فضلاء وأبطال اقتصروا على حمايتها من الأعداء المحلقة بها :

من كل من جعل الحسام خليله لا يبتغي أبداً سواه مُعينا

هذا - زان الله تعالى فضلك بالإنصاف ، وشرف كرمك بالاعتراف -  
ما حضرني الآن في فضل جزيرة الأندلس ، ولم أذكر من بلادها إلا ما كلُّ

١ ب : تسافر .

٢ ب : مصادمة ؛ م : مصافقة ، وأثبتنا ما في ق .

بلد منها مملكة مستقلة يليها ملوك بني عبد المؤمن على انفراد ، وغيرها في حكم  
التبع .

وأما علماءها وشعراؤها فإنني لم أعرض منهم إلا لمن هو في الشهرة  
كالصباح ، وفي مسير الذكر كسير الرياح ، وأنا أحكي لك حكاية جرت  
لي في مجلس الفقيه الرئيس أبي بكر ابن زهر ، وذلك أنني كنت يوماً بين يديه ،  
فدخل علينا رجل عجمي من فضلاء خراسان ، وكان ابن زهر يكرمه ، فقلت  
له : ما تقول في علماء الأندلس وكتّابهم وشعرائهم ؟ فقال : كبرتُ ، فلم  
أفهم مقصده ، واستبردتُ<sup>١</sup> ما أتى به ، وفهم مني أبو بكر ابن زهر أنني نظرتُه  
نظر المستبرد المنكر ، فقال لي : أقرأت شعر المتنبي ؟ قلت : نعم ، وحفظت  
جميعه ، قال : فعلى نفسك إذن فلتنكر ، وخاطركَ بقلّة الفهم فلتتهم ، فذكرني  
بقول المتنبي :

كبرتُ حول ديارهم لما بدتُ منها الشموسُ وليس فيها المشرقُ

فاعتذرت للخراساني ، وقلت له : قد والله كبرت في عيني بقدر ما صغرتُ  
نفسي عندي ، حين لم أفهم نُبْلَ مقصدك<sup>٢</sup> ، فالحمد لله الذي أطلع من المغرب  
هذه الشموس ، وجعلها بين جميع أهلها بمنزلة الرؤوس ، وصلى الله على سيدنا  
محمد نبيّه المختار من صفوة العرب ، وعلى آله وصحبه ، صلاةً متصلة إلى<sup>٣</sup>  
غابر الحقب .

كملت رسالة الشقندي .

[ ترجمة الشقندي ]

وهو أبو الوليد إسماعيل بن محمد ، وشقندة المنسوب إليها قرية مطلة

١ ب : واستريت ؛ وهو خطأ .

٢ ب : على .

٣ ب : مقصودك .

على نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب . قال ابن سعيد<sup>١</sup> : وهو ممن كان بينه وبين والدي صحبة أكيدة ، ومجالسات أنس عديدة ، ومزاورات<sup>٢</sup> تتصل ، ومحاضرات لا تكاد تنفصل ، وانتفعت بمجالسته ، وله رسالة في تفضيل الأندلس ، يعارض بها أبا يحيى في تفضيل بر العدو<sup>٣</sup> وأورد فيها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المترع وعدوبة المشرع ، وكان جامعاً لفنون من العلوم الحديثة والقديمة ، وعني<sup>٣</sup> بمجلس المنصور ، فكانت له فيه مشاهد غير ذميمة ، وولي قضاء بياسة وقضاء لورقة<sup>٤</sup> ، ولم يزل محفوظ<sup>٤</sup> الجانب ، محمود المذاهب ، سمعته ينشد والذي قصيدة<sup>٥</sup> في المنصور وقد نهض للقاء العدو ، منها :

إذا نهضت فإن السيف متهض<sup>٥</sup> ترمي السعود سهاماً والعدا غرض<sup>٥</sup>  
لك البسيطة تطويها وتشرها فليس في كل ما تنويه معترض<sup>٥</sup>

قال : وسمعته يقول له : أنشدت الوزير أبا سعيد ابن جامع قصيدة أولها :

استوقف الركب قد لاحت لك الدار<sup>٥</sup> وأسأل بربع تناءت عنه أقمار<sup>٥</sup>  
لا خفف الله عني بعد بينهم<sup>٥</sup> فإنتي سرت والأحباب ما ساروا

ومنها :

ألا رعى الله ظيماً في قباهم<sup>٥</sup> منه لهم في ظلام الليل أنوار<sup>٥</sup>

وله :

عللاني بذكر من همت فيه<sup>٥</sup> وعداني عنه بما أرتجيه

١ انظر اختصار القدح : ١٢٨ .

٢ القدح : ومداورات .

٣ القدح : وعين .

٤ القدح : ملحوظ .

٥ القدح : السعد منتصر .

وإذا ما طربتما لارتياحي  
 لیت شعري وكم أطيلُ الأمانی  
 فاجعلا خمرتي مُدامةً فيه  
 وإذا ما ظفرتُ يوماً بشكوى  
 لا دموع ولا سقام فماذا  
 قلتُ دعني أمتُ بدائي فلانتي  
 لو برّاني الغرامُ لا أبدیه  
 وقال في عودِهِ لما مرضَ ٣ :

إنتي مرضتُ مرضةً  
 فكان في الإخوان مَنْ  
 أسقطَ منها في يدي  
 فقلتُ في كلِّهمُ  
 قولَ امرئٍ مقتصدٍ  
 أير الذي قد عادني  
 لم أره في العودِ  
 في آستِ الذي لم يعُدِ

مات بإشبيلية سنة ٦٢٩ ، انتهى .

#### [ استطراد في الإشادة بالأندلس ]

وقال ابن سعيد : أنشدني والذي للحافظ أبي الطاهر السلفي ، قال وكفى  
 به شاهداً ، وبقوله مفتخراً :

بلادُ أذربيجانَ في الشرقِ عندنا  
 كَأندلسٍ بالغربِ في العلمِ والأدبِ  
 فما إنْ تكادُ الدهرَ تلقى مميّزاً  
 مِنِ أهليهما إلا وقد جدَّ في الطلبِ  
 وحكى غيرُ واحدٍ كابن الأبار أن عباس بن ناصح الشاعر لما توجه من قرطبة

١ القدح : ظهرت .

٢ القدح : بالذي تخفيه ؛ وهو أجود لكي لا تتكرر القافية .

٣ م : في عوده لمن مرض .



إلى بغداد ، ولقي أبا نُواس ، قال له : أنشدني لأبي الأجر ، قال : فأنشدته ،  
ثم قال : أنشدني لبكر الكنائي ، فأنشدته ، وهذا شاعران من الأندلس .

### [ حكايات وأشعار أندلسية ]

واعلم أننا إن تتبعنا كلام الأندلسيين وحكاياتهم الدالة على سبقهم طال  
بنا الكتاب ، ولم نستوف المراد ، فرأينا أن نذكر بعضاً من ذلك بحسب ما اقتضاه  
الحال وأبداه ، ليكون عنواناً دالاً على ما عداه :

يَكْفِي مِنَ الْحَلِيِّ مَا قَدْ حَفَّ بِالْعُنُقِ

١ - ولنبداً ما نسوقه من أخبار الأندلسيين وأشعارهم وحكاياتهم في الجدة  
والهزل ، والتولية والعزل ، بقول الفقيه الزاهد أبي عمران موسى بن عمران  
المارتلي<sup>١</sup> ، وكان سكن إشبيلية :

لا تَبِكِ ثوبكِ إن أبلتِ جدته      وابكِ الذي أبلتِ الأيام من بدنك<sup>٢</sup>  
ولا تكوننِ مختالاً بجدته      فربما كان هذا الثوب من كفنك  
ولا تعفه إذا أبصرته دنساً      وإنما اكتسب الأوساخ من درنك<sup>٣</sup>

٢ - وقال أبو عمرو، اليحصبي اللوشي :

شرد النوم عن جفونك وانظر      حكمة توقظ النفوس النياما

١ المارتلي ويكتب أيضاً الميرتلي نسبة إلى بلده « حصن مارتلة » من حصون باجة ؛ أحد شعراء الزهد  
بالأندلس ؛ توفي سنة ٦٠٤ ( انظر المغرب ١ : ٤٠٦ والنصون اليانعة : ١٣٥ والتكملة :  
٦٨٧ ) وله شعر كثير في شرح الشريشي على المقامات .

٢ م : جسدك .

٣ م ق : بدنك .

٤ ق ب : عمر .

فحرامٌ على امرئٍ لم يشاهدُ حكمةَ الله أن يذوق المناما  
وقال أيضاً :

ليس للمرء اختيارٌ في الذي يتمنى من حراكٍ وسكونٍ  
إن يشأ قال له : كن فيكون

٣ - وقال أبو وهب القرطبي ١ :

تنامُ وقد أُعيدَ لك السهادُ وتوقنُ بالرحيلِ وليس زادُ  
وتصبحُ مثل ما تسمي مضيعاً كأنك لست تدري ما المراد  
أتطمعُ أن تفوزَ غداً هنيئاً ولم يكُ منك في الدنيا اجتهاد  
إذا قرطتَ في تقديمِ زرعٍ فكيف يكونُ من عدمٍ حصاد

وقيل : إن الأبيات السابقة التي أولها : « أنا في حالي التي . . . الخ » وجدتُ  
في تركته بخطه في شقف ٢ ، وبعضهم ينسبها لغيره ، واسم أبي وهب المذكور  
عبد الرحمن ، وذكره ابن بشكُوَال في الصلَّة ٣ ، وأثنى عليه بالزهد والانتقطاع ،  
وكان في أول أمره قد حسب عامة الناس أنه مختلّ العقل ، فجعلوا يؤذونه  
ويرمونهُ بالحجارة ، ويصيحون عليه : يا مجنون يا أحمق ، فيقول :

يا عاذلي أنت به جاهلٌ دعني به لست بمغبونٍ  
أما تراني أبدأً والهاً فيه كسحورٍ ومفتونٍ  
أحسن ما أسمع في حبه وصفي بمختلٍ ومجنونٍ

١ مرت الإشارة إليه ، انظر ما تقدم ص : ٢٠٧ .

٢ م : شقة .

٣ لم أجد له ترجمة في الصلَّة ، وأغلب الظن أن هذا وهم من المقرئ ، لأن ابن بشكُوَال أفرد للعباسي مؤلفاً خاصاً .

٤ - وقال الخطيب أبو محمد ابن برطله :

بأربعة أرجو نجاتي وإنها لأكرمُ مذخورٍ لديٍّ وأعظمُ  
شهادة إخلاصي وحيي محمداً وحسن ظنوني ثم أنتي مسلمُ

٥ - وقال ابن حبيش :

قالوا تصبرُ عن الدنيا الدنيّةِ أو  
لا بدّ من أحدِ الصبرين ، قلت : نعمُ  
كنّ عبدّها واصطبرُ للذلِّ واحتملِ  
الصبر عنها بعونِ الله أوفق لي

٦ - وقال ابن الشيخ :

اطلبُ لنفسك فوزها واصبرُ لها  
من ليس يرحم نفسه ويصدّها  
نظَرَ الشفيقِ وخَفَ عليها واتقِ  
عماً سيهلكها فليس بمشفقِ

٧ - وقال أبو محمد القرطبي <sup>١</sup> :

لعمرك ما الدنيا وسرعة سيرها  
حقيقتُها أنّ المُقامَ بغيرها  
بسكّانها إلاّ طريقَ مجاز  
ولكنّهم قد أولِعُوا بمجاز

٨ - وقال السمسير <sup>٢</sup> :

لله في الدنيا وفي أهلها  
من بشرٍ نحن فمن طبعنا  
مُعَمَّياتٌ قد فككناها  
نُحِبُّ فيها المالَ والجها  
دعني من الناسِ ومن قولهم  
فإنّما النَّاسُ خَلَائِها <sup>٣</sup>

١ هو عبد الله بن الحسن بن أحمد الأنصاري القرطبي أبو محمد ( انظر ترجمته في الذيل والتكملة  
٤ : ١٩١ والتكملة : ٨٧٩ وتذكرة الحفاظ : ١٣٩٦ وبرنامج الرعيي : ١٤١ ) والبيتان في  
البرنامج والذيل : ٢١٠ .  
٢ في الأصول ودوزي : الشمس ؛ وصوبناه .  
٣ في ب : الناس أخلاها .

لم تُقْبِلِ الدُّنْيَا عَلَى نَاسِكَ إِلَّا بِالرَّحْبِ تَلَقَّاهَا  
وَأَتَمَّا يُعْرِضُ عَنْ وَصْلِهَا مَنْ صَرَفَتْ عَنْهُ مُحَيَّاهَا

٩ - وقال أبو القاسم ابن بقي :

أَرَادَ مُدِيرُوهَا بِهَا جَلَبَ الْأَنْسِ  
فَعَادَ الَّذِي رَامُوا مِنَ الْأَنْسِ بِالْعَكْسِ  
أَلَا إَتَمَّا الدُّنْيَا كَرَّاحٍ عَتِيقَةٍ  
فَلَمَّا أَدَارُوهَا أَثَارَتْ حَقُودَهُمْ

١٠ - وقال أبو محمد عبد الله بن العسال الطَّلَيْطَلِي ١ :

انظُرِ الدُّنْيَا فَإِنْ أَبَدُ  
فَاغْدُ مِنْهَا فِي أَمَانٍ  
صَرَّتْهَا شَيْئًا يَدُومُ  
إِنْ يَسَاعِدُكَ النَّعِيمُ  
وَإِذَا أَبْصَرْتَهَا مِنْذُ  
كَ عَلَى كَرِهِ تَهِيمُ ٢  
فَاسْأَلْ عَنْهَا وَاطَّرَحْهَا  
وَارْتَحِلْ حَيْثُ تُقِيمُ

١١ - وقال ابن هشام القرطبي :

وَأَبِي الْمُدَامَةِ مَا أُرِيدُ بِشَرْبِهَا  
لَمْ يَبْقَ مِنْ عَهْدِ الشَّبَابِ وَطَيْبِهِ  
صَلَفَ الرَّقِيعِ وَلَا انْهَمَكَ الْإِلَهِي  
شَيْءٌ كَعَهْدِي لَمْ يَحُلْ إِلَّا هِيَ  
إِنْ كُنْتُ أَشْرَبْتُهَا لِغَيْرِ وَفَائِهَا  
فَتَرَكْتُهَا لِلنَّاسِ لَا لِلَّهِ

١٢ - وقال أبو محمد ابن السيد البطلانيوسي مما نسبه إليه في « المغرب ٣ » :

أَخُو الْعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ  
وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ التَّرَابِ رَمِيمٌ  
وَذُو الْجَهْلِ مَيِّتٌ وَهُوَ مَاشٍ عَلَى الثَّرَى  
يُظَنَّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمٌ

١ انظر ما تقدم ص : ٢٠٨ .

٢ م ق : تقيم .

٣ ليسا في ترجمته في المغرب ( ١ : ٣٨٥ ) وهما في أزهار الرياض ٣ : ١٠٣ .

١٣ - وقال أبو الفضل ابن شرف ١ :

لعمرك ما حصَلتُ على خطيرٍ من الدنيا ولا أدركتُ شيئاً  
وها أنا خارجٌ منها سلبياً أقلبُ نادماً كلتا يديّنا  
وأبكي ثمّ أعلمُ أنّ مبكاً ي لا يُجدي فأمسحُ مقلتيّنا  
ولم أجزعُ لهولِ الموتِ لكنّ بكيتُ لقلّةِ الباكي علينا  
وأنّ الدهرَ لم يعلمْ مكاني ولا عرفتُ بنوهُ ما لدينا  
زمانٌ سوفُ أنشرُ فيه نشرأ إذا أنا بالحمامِ طويتُ طيأ  
أسرُّ بأنّي سأعيشُ ميتأ به ويسوعي أنّ متُّ حيأ

١٤ - وقال الزاهد العارف بالله سيدي أبو العباس ابن العريف نفعا الله

تعالى به ٢ :

سلوا عن الشوقِ مَنْ أهوى فلأنهمُ أدنى إلى النفسِ من وهني ومن نفسِي  
فمنّ رسولِي إلى قلبي ليسألهمُ عن مشكلٍ من سؤالِ الصبِّ ملتبسِ  
حلّوا فؤادي فما يندى، ولو وطنوا صحراً بلجادِ بماءٍ منه منبجسِ  
وفي الحشا نزلوا والوهمُ يجرّحهمُ فكيف قرأوا على أذكي من القبسِ  
لأنهضنَّ إلى حشري بجههمُ لا باركَ الله فيمن خانهمُ ونسي

قلت : وقد زرت قبره المعظم بمراكش سنة عشر وألف ، وهو ممّن

١ راجع أبياته في التكملة : ٨٧٠ .

٢ أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المشهور بابن العريف ؛ صاحب كتاب « محاسن المجالس » اختار طريقة الزهد والتصوّف ، وصادف ذلك ظهور جماعة من المتصوفة بمدينة شلب وانتشر مذهبهم فيها وفي ليلة ومارتلة ، ثم تفرقوا ووصل رئيسهم إلى المرية وفيها شيخ المتصوفة ابن العريف ، فوجه علي بن يوسف اللمتوفي في طلبه وطلب أبي الحكم ابن برجان ، فتوفيا بمراكش سنة ٥٣٧ ( أو ٥٣٦ ) . انظر وفيات الأعيان ١ : ١٥١ وأعمال الأعلام : ٢٤٨ - ٢٤٩ والمغرب ٢ : ٢١١ وبغية الملتصص ص : ١٥٤ والصلة : ٨٤ والمغرب : ٩٠ ومعجم الصندي : ١٨ والتحفة : ١٧ والوافي : ٨ الورقة : ٥٠ وأبياته في المغرب والمغرب .

يُتبرك به في تلك الديار ، ويُستسقى به الغيث ، وهو من أهل المَريّة ، وأحضره السلطان إلى مراکش فمات بها ، وله كرامات شهيرة ومقامات كبيرة ، نفعنا الله تعالى به .

١٥ - واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم<sup>١</sup> على مذهب الأوزاعي ، وأهل الشام منذ أول الفتح ، ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل - وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين - انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً ، بل والمغرب ، وذلك برأي الحكم واختياره ، واختلفوا في السبب المقتضي لذلك ، فذهب الجمهور إلى أن سببه رحلة علماء الأندلس إلى المدينة ، فلما رجعوا إلى الأندلس وصَفُوا فضل مالك وسعة علمه ، وجلالة قدره ، فأعظموه كما قدمنا ذلك ، وقيل : إن الإمام مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس ، فوصف له سيرته ، فأعجبت مالكا لكون سيرة بني العباس في ذلك الوقت لم تكن بمرضية . وكابد لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والإهانة وغيرهما على ما هو مشهور في كتب التاريخ ، فقال الإمام مالك رضي الله تعالى عنه لذلك المخبر : نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم ، أو كلاماً هذا معناه ، فنميت المسألة إلى ملك الأندلس ، مع ما علم من جلالة مالك ودينه ، فحمل الناس على مذهبه ، وترك مذهب الأوزاعي ، والله تعالى أعلم .

١٦ - وحكي أن القاضي الزاهد أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أبي يغمور لما ندبه أهل الأمر لولاية القضاء بمدينة فاس استعفى ، فلم يقبل منه ، وخرج إلى تلك الناحية ، وخرج الناس لوداعه ، فأنشد :

عليكم سلامُ الله إنّي راحلٌ وعيناي من خوفِ الفرقِ تدمعُ

١ في القديم : سقطت من م .

فإن نحنُ عشنا فهوَ يجمعُ بيننا وإن نحنُ متُّنا فالقيامَةُ تجمَعُ

وأنشد أصحابه رحمه الله تعالى ، ولا أدري هل هي له أو لغيره :

كنا نعظمُ بالآمالِ قدرَكُمُ حتى انقضتْ فتساوى عندنا الناسُ  
لم تفضلونا بشيءٍ غيرِ واحدةٍ هي الرجاءُ فسوى بيننا اليأسُ

وأنشد أيضاً :

بلَوْتُهُمُ مذ كنتُ طفلاً فلم أجد كما أشتهي منهم صديقاً وصاحباً  
فصوبتُ رأبي في فراري منهمُ وشمرتُ أذيالي وأمعتُ هارباً

وأنشد لغيره في الكتمان :

أخفى الغرامَ فلا جوارحهُ شعرتُ بذلكَ ولا مفاصلهُ  
كالسيفِ يصحبه الحِمَامُ ولم يعلمُ بما حَمَلتُ حمائلهُ

وأنشد :

قد كنتُ أمرضُ في الشيبةِ دائماً والموتُ ليسَ يمرُّ لي في البالِ  
والآنُ سبتُ وصحتي موجودةٌ وأرى كأنَّ الموتَ في أذيالي

ولما أنشده تاج الدين بن حمويه السرخسي الوافدُ على المغرب من المشرق

قول بعضهم :

فلا تحقيرنَّ عدوآ رماك وإن كان في ساعديه قِصرُ  
فإن السيوفَ تحزُّ الرقابَ وتعجزُ عما تنالُ الإبرُ

قال : حسنٌ جيدٌ ، ولكن اسمع ما قال شاعرنا القسطلتي<sup>١</sup> ، وأنشد :

١ يريد ابن دراج ، والأبيات من قصيدته في مدح المنصور بن أبي عامر (ديوانه : ٢٠٣) .

أثرني لكشفِ الخطبِ والخطبُ مشكلٌ وكِلْتا لِيثِ الغابِ وهو هَصُورٌ  
فقد تخفضُ الأسماءُ وهي سواكنٌ ويعملُ في الفعلِ الصريحِ ضميرٌ  
وتنبؤُ الردينيَّاتُ ، والطولُ وافرٌ ويعدُّ وقعُ السهمِ وهو قصيرٌ

١٧ - وكان الوزير الكريم أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري<sup>١</sup> أحد  
وزراء الأندلس كثير الصنائع جزل المواهب عظيم المكارم ، على سنن عظماء  
الملوك وأخلاق السادة ، لم يُر بعده مثله في رجال الأندلس ، ذا كراً للفقه والحديث ،  
بارعاً في الآداب ، شاعراً مجيداً ، وكاتباً بليغاً ، كثير الخدم والأهل ، ومن آثاره  
الحمام بجوفي الجامع الأعظم من غرناطة ، وزاد في سقف الجامع من صحنه  
وعوض أرجل قيسيه أعمدة الرخام ، وجلب الرؤوس والموائد من قرطبة ،  
وفرش صحنه بكذان الصخر . ووجهه أميره علي بن يوسف بن تاشفين إلى  
طرطوشة برسم بنائها ، فلما حلّها سأل قاضيها فكتب له جملة من أهلها ممّن  
ضعفت حاله وقلّ تصرفه من ذوي البيوتات ، فاستعملهم أمناء ، ووسّع  
أرزاقهم ، حتى كمل له ما أراد من عمله ، ومن عجز أن يستعمله وصله من  
ماله ، فصدر عنها وقد أنعش خلقاً ، رضي الله تعالى عنه ورحمه .

ومن شعره في مجلس أطربه سماعه ، وبسط احتشاد الأنس فيه واجتماعه ،  
فقال<sup>٢</sup> :

لا تلمني إذا طربتُ لشجويِّ يبعثُ الأنسَ فالكريمَ طرُوبُ  
ليس شتقُ الجيوبِ حقّاً علينا إنّما الحقُّ أنْ تُشتقَّ القلوبُ

وقطف غلام من غلمانهِ نؤارة ومدّ بها يده إلى أبي نصر الفتح بن عبّيد الله ،  
فقال أبو نصر :

١ ترجمته في القلائد : ١٧٠ .

٢ القلائد : ١٧٠ ؛ والنقل عنه حتى قوله « من النوى » .



وبَدْرٍ بدا والطرفُ مطلعُ حُسْنِهِ . وفي كفه من رائقِ النورِ كوكبُ  
فقال أبو محمد ابن مالك<sup>١</sup> :

يروحُ لتعذيبِ النفوسِ ويغتدي ويطلعُ في أفقِ الجمالِ ويغربُ  
ويحسدُ منه الغصنَ أي مهفهفٍ يجيء على مثلِ الكثيبِ ويذهبُ  
وقد سبق هذا .

وكتب إلى الفتح من غير تروٍّ : يا سيدي ، جرت الأيام بفراقك ، وكان الله  
جارك في انطلاقك<sup>٢</sup> ، فغيرك روع بالظعن ، وأوقد للوداع جاحم الشجن ،  
فإنك من أبناء هذا الزمن ، خليفة الحضرة لا يستقر على وطن ، كأنك - والله  
يختار لك ما تأتيه وما تدعه - موكل بفضاء الأرض تذرعه<sup>٣</sup> ، فحسب من نوى  
بعشرتك الاستمتاع ، أن يعدك من العواري السريعة الارتجاع ، فلا يأسف على  
قلّة السوا ، وينشد :

وفارقتُ حتى ما أبالي من النوى<sup>٤</sup>

ومات رحمه الله تعالى بغرناطة سنة ٥١٨ ، وحضر جنازته الخاصة والعامة ،  
وهو من محاسن الأندلس ، رحمه الله تعالى .

١٨ - ومن نوادر الاتفاق<sup>٥</sup> أن جارية مَسَّت بين يدي المعتمد ، وعليها  
قميص لا تكاد تفرق بينه وبين جسمها ، وذوائبها تخفي آثار مشيها ، فسكب

١ البيت الأول من هذين ورد منسوباً للفتح نفسه في أصول النفع .

٢ من قول البحري :

الله جارك في انطلاقك تلقاء شامك أو عراقك

٣ عجز بيت لابن زريق البغدادي ، وصدده : كأنما هو في حل ومرتحل .

٤ ق م : من الهوى .

٥ انظر هذه القصة في بدائع البدائنه ١ : ١٠٦ .

عليها ماء ورد كان بين يديه ، وقال :

عُلِّقْتُ جَائِلَةَ الْوِشَاحِ غَرِيرَةَ      تَخْتَالُ بَيْنَ أَسْنَةِ وَبَوَاتِرِ

وقال لبعض الخدم : سر إلى أبي الوليد البَطْلَيْوَسِي المشهور بالنحلي  
وخذهُ بإجازة هذا البيت ، ولا تفارقه حتى يفرغ منه ، فأجاب النحلي لأول  
وقوع الرقعة بين يديه :

رَاقَتُ مُحَاسِنُهَا وَرَقَّ أَدِيمُهَا      فَتَكَادُ تَبْصُرُ بَاطِنًا مِنْ ظَاهِرِ  
وَتَمَاطِلُ كَالْغَصَنِ فِي دِعْصِ النَّقَا      تَلْتَفُّ فِي وَرَقِ الشَّبَابِ النَّاصِرِ  
يَنْدَى بِمَاءِ الْوَرْدِ مُسْبَلُ شَعْرَهَا      كَالطَّلِّ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِ الطَّائِرِ  
تُزْهِى بِرَوْنِقِهَا وَعَزَّ جَمَالُهَا      زَهْوَ الْمُؤَيَّدِ بِالثَّنَاءِ الْعَاطِرِ  
مَلِكٌ تَضَاءَلَتِ الْمُلُوكُ لِقَدْرِهِ      وَعَنَّا لَهُ صَرَفُ الزَّمَانِ الْجَائِرِ  
وَإِذَا لَمَحَتْ جَبِينَهُ وَبِئِنَّهُ      أَبْصَرَتْ بَدْرًا فَوْقَ بَحْرِ زَاخِرِ

فلما قرأها المعتمد استحضره ، وقال له : أحسنت ، أو معنا كنت ؟ فقال  
له : يا قَاتِلَ الْمَحَلِّ ، أما تَلُوتٌ ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (النحل : ٦٨) .  
وأصبح المعتمد يوماً ثَمِيلًا فدخل الحمام ، وأمر أن يدخل النحلي معه ،  
فجاء وقعد في مسيح<sup>١</sup> الحمام حتى يستأذن عليه ، فجعل المعتمد يبحق في الحمام  
وهو خالٍ وقد بقيت في رأسه بقية من السكر ، وجعل كلما سمع دوي ذلك  
الصوت يقول : الجوز ، اللوز ، القسطل ، ومر على هذا ساعة ، إلى أن تذكر  
النحلي ، فصادفه<sup>٢</sup> ، فلما دخل قال له : من أي وقت أنت هنا ؟ قال : من أول  
مارتب مولانا الفواكه في النصبية ، فغشي عليه من الضحك ، وأمر له بإحسان .  
والنصبية : مائدة يصبون فيها هذه الأصناف .

١ ق : مسلخ .

٢ ق م : فصادمه .

ولمّا استحسن المعتمد قول المتنبي<sup>١</sup> :

إذا ظفرت منك المطيُّ بنظرة أتاب بها معنيي المطيِّ ورآزمه

قال ابن وهبون بديهة : « وقالوا أجاد ابن الحسين . . . إلخ البيتين » ، وقد تقدم ذكرهما ، فأمر له بمائتي دينار .

ولمّا قال ابن وهبون المذكور :

غاض الوفاء فما تلقاه في رجُلٍ ولا يمرُّ لمخلوقٍ على بالٍ  
قد صار عندهمُ عنقاءٌ مغرّبةٌ أو مثل ما حدّثوا عن ألفٍ مثقالٍ

قال له المعتمد : عنقاء مغرّبة وألف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء؟ فقال : نعم ، قال : قد أمرنا لك بألف دينار وبألف دينار أخرى تنفقها .

١٩ - وذكر القرطبي صاحب « التذكرة » في كتابه « قمع الحرص بالزهد والقناعة » ، ما صورته : روينا أن الإمام أبا عمر ابن عبد البر رضي الله تعالى عنه بلغه وهو بشاطبة أن أقواماً عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزهم ، فقال :

قل لمن ينكرُ أكلي ل طعام الأمراء  
أنت من جهلكَ هذا في محلّ السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين ، من الصحابة والتابعين ، وأئمة الفتوى من المسلمين ، من السلف الماضين ، هو مِلاكُ الدين ، فقد كان زيد بن ثابت - وكان من الراسخين في العلم - يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد ، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما - مع ورعه وفضله - يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد ، ويأكل

١ انظر ما تقدم ص : ١٩٤ .

طعامه ، ويقبل جوائزَه ، وقال عبد الله بن مسعود - وكان قد مُلئَ علماً - لرجل سأله ، فقال : إن لي جاراً يعمل بالربا ، ولا يجتنب في مكسبه الحرام ، يدعوني إلى طعامه ، أفأجيبه ؟ قال : نعم ، لك المهناً وعليه المأثم ، ما لم تعلم الشيء بعينه حراماً ، وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه - حين سئل عن جوائز السلاطين - : لحم ظبي ذكي ، وكان الشعبي - وهو من كبار التابعين وعلماهم - يؤدب بني عبد الملك بن مروان ، ويقبل جوائزَه ويأكل طعامه ، وكان إبراهيم النخعي وسائر علماء الكوفة والحسن البصري - مع زهده وورعه - وسائر علماء البصرة وأبو سلمة ابن عبد الرحمن وأبان بن عثمان والفقهاء السبعة بالمدينة - حاشا سعيد بن المسيّب - يقبلون جوائز السلطان ، وكان ابن شهاب يقبلها ، ويتقلّب في جوائزهم ، وكانت أكثر كسبه ، وكذلك أبو الزناد ، وكان مالك وأبو يوسف والشافعي وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء ، وكان سفيان الثوري - مع ورعه وفضله - يقول : جوائز السلطان أحبُّ إليّ من صلة الإخوان ، لأن الإخوان يَمُنُّون والسلطان لا يمنُّ ، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير ، وقد جمع الناس فيه أبواباً ، ولأحمد بن خالد فقيه الأندلس وعالمها في ذلك كتاب حمله على وضعه وجمعه طعنُ أهل بلده عليه في قبوله جوائز عبد الرحمن الناصر ، إذ نقله إلى المدينة بقرطبة ، وأسكنه داراً من دور الجامع قربه ، وأجرى عليه الرزق من الطعام والإدام والناض ، وله ولمثله في بيت المال حظ ، والمستول عن التخليط فيه هو السلطان ، كما قال عبد الله بن مسعود « لك المهناً وعليه المأثم ، ما لم تعلم الشيء بعينه حراماً » ، ومعنى قول ابن مسعود هذا قد أجمع العلماء عليه ، فمن علم الشيء بعينه حراماً مأخوذاً من غير حلّه كالجريمة وغيرها وشبهها من الطعام أو الدابة وما كان مثل ذلك كلّه من الأشياء المتعيّنة غضباً أو سرقة أو مأخوذة بظلم بيّن لا شبهة فيه فهذا الذي لم يختلف أحد في تحريمه ، وسقوط عدالة آكله ، وأخذِه وتملكه ، وما أعلم من علماء التابعين أحداً تورّع عن جوائز السلطان ، إلا سعيد بن المسيّب بالمدينة ، ومحمد بن

سيرين بالبصرة ، وهما قد ذهبا مثلاً في التورع ، وسلك سبيلهما في ذلك أحمد ابن حنبل وأهل الزهد والورع والتقشف ، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين .  
والزهد في الدنيا من أفضل الفضائل ، ولا يحلُّ لمن وفقه الله تعالى وزهدَ فيها أن يحرِّم ما أباح الله تعالى منها ، والعجب من أهل زماننا يعيرون الشبهات ، وهم يستحلون المحرِّمات ، ومثالم عندي كالذين سألوا عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن المحرِّم يقتل القُرَّاد والحلمة ، فقال للسائلين له : من أنتم ؟ فقالوا : من أهل الكوفة ، فقال : تسألوني عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما ؟ وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنّه قال : « ما أتاك من غير مسألة فكله وتموّله » ، وروى هذا الحديث أيضاً عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما « ما أتاك من غير مسألة فكله وتموّله » ، وروى أبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلّم معناه ، وفي حديث أحدهما « إنّما هو رزق رزقكّه الله تعالى » ، وفي لفظ بعض الرواة « ولا تردّ على الله رزقه » ، وهذا كلّه مركب مبني على ما أجمعوا عليه ، وهو الحق ، فمن عرف الشيء المحرِّم بعينه فإنّه لا يحلُّ له ، فهذه المسألة من كلام ابن عبد البر ، انتهى .

٢٠ - وحضر ابن مجبر مع عدوّ له جاحد لمعروفه ، وأمامهما زجاجة سوداء فيها خمر ، فقال له الحسود : إن كنت شاعراً فقل في هذه ، فقال ارتجالاً : « سأشكو إلى الندمان » ، إلى آخر الحكاية ، وقد تقدمت في رسالة الشقندي رحمه الله تعالى .

[ ترجمة ابن مجبر وشعره ]

وابن مجبر هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر النهري ،

١ انظر ما تقدم ص : ٢٠٦ .

كان في وقته شاعر المغرب ، ويشهد له بقوة عارضته وسلامة طبعه قصائده التي صارت مثلاً ، وبعدت على قريها مثلاً ، وشعره كثير يشتمل على أكثر من تسعة آلاف وأربعمائة بيت ، واتصل بالأمير أبي عبد الله ابن سعد بن مردنيش ، وله فيه أمداح ، وأنشد يوسف بن عبد المؤمن يهنيه بفتح :

إنَّ خيرَ الفُتوح ما جاء عَفْوَاً      مثل ما يَخطبُ الخطيبُ ارتجالاً

وكان أبو العباس الجراوي حاضراً ، فقطع عليه لحسادةٍ وجدها ، وقال :  
يا سيدنا اهتدم بيت وضاح :

خيرُ شرابٍ ما كان عفواً      كأنه خطبةُ ارتجالٍ

فبدر المنصور ، وهو حينئذ وزير أبيه وسنه قريب العشرين ، وقال :  
إن كان اهتمامه فقد استحقه لنقله إياه من معنى خسيس إلى معنى شريف ،  
فسرّ أبوه بجوابه ، وعجب الحاضرون .

ومرّ المنصور أيام إمرته بأوينة<sup>٢</sup> من أرض شلب ، فوقف على قبر الحافظ  
أبي محمد ابن حزم ، وقال : عجيباً لهذا الموضع ، يخرج منه مثل هذا العالم ،  
ثم قال : كل العلماء عيال على ابن حزم ، ثم رفع رأسه وقال : كما أن الشعراء  
عيال عليك يا أبا بكر ، يخاطب ابن مجبر .

ومن شعر ابن مجبر يصف خيل المنصور من قصيدة في مدحه :

له حلبةُ الخيلِ العتاقِ كأنها      نشاوى تهاوتَ تطلبُ العزفَ والقصفا  
عراسُ أغنتها الحجولُ عن الحلبي      فلم تبغِ خلخالاً ولا التمسّت وقفا  
فمن يققِ كالطرسِ تحسبُ أنه      وإن جردوهُ في ملاءته التفا

١ م : فنطق .

٢ ق : بأوقية ؛ ب : بأوقية .

وأبلىَ أعطى الليلَ نصفَ إهابه  
وورِدَ تغشى جلدَه شفقُ الدجى  
وأشقرَ مَجَّ الرّاحَ صرفاً أديمه  
وأشهبَ فضيَّ الأديمِ مُدْتَرِي  
كما خطَطَ الزاهي بمهرقِ كاتبٍ  
تهبُّ على الأعداء منها عواصفُ  
ترى كلَّ طرفٍ كالغزالِ فتمتري  
وقد كان في البيداء بألفِ سِرْبِه  
تناوله لفظُ الجوادِ لأنَّه

وغار عليه الصُّبحُ فاحتبس النصفاً  
فإذ حازه دلتى له الذيلَ والعرفاً  
وأصفرَ لم يمسحُ بها جلده صرفاً  
عليه خطوطٌ غيرُ مفهمةٍ حرفاً  
فجرَّ عليه ذيله وهو ما جفّاً  
ستنسفُ أرضَ المشركين بها نسفاً  
أظبيّاً ترى تحت العجاجة أم طرفاً  
فربّته مهراً وهي تحسبهُ خِشفاً  
إذا ما أردتَ الجريَ أعطاكه ضعفاً

ولمّا اتخذ المنصور مقصورة الجامع بمراكش بدار ملكها ، وكانت مدبرة  
على انتصابها إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاّه ، واختفائها إذا انفصلوا  
عنها ، أنشد في ذلك الشعراء فقال ابنُ مجبر من قصيدة أولها :

أعلمتني ألقي عصا التسيارِ في بلدةٍ ليست بدارِ قرارِ

إلى أن قال ٢ :

طوّرًا تكون بمن حوته محيطةً  
وتكونُ حيناً عنهمُ مخبوءةً  
وكأنتها علمتُ مقاديرَ الورى  
فإذا أحسستُ بالإمام يزورها  
يلو فتبدو ثم تخفى بعدهُ  
فكأنتها سورٌ من الأسوارِ  
فكأنتها سرٌّ من الأسرارِ  
فتصرفتُ لهمُ على مقدارِ  
في قومه قامتُ إلى الزوارِ  
كتكونُ الهالاتِ للأقمارِ

١ ق ب : على .

٢ وردت هذه الأبيات في الحلال الموشية : ١٢٠ .

وممن روى عنه أبو علي الشلوبين وطبقته ، وتوفي بمراكش سنة ٥٨٨ ،  
وعمره ٥٣ سنة ، رحمه الله تعالى .

وقد حكى الشريف الغرناطي شارحُ المقصورة هذه الحكاية بآتم مما  
ذكرناه ، فقال عن الكاتب ابن عياش كاتب يعقوب المنصور الموحيدي ، قال ١ :  
كانت لأبي بكر ابن مجبر وفادةٌ على المنصور في كل سنة ، فصادف في إحدى  
وفاداته فراغهُ من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره في  
حاضرة ٢ مراكش ، وكانت قد وُضعت على حركات هندسية تُرفع بها لخروجه  
وتخفّض لدخوله ، وكان جميعُ من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والأدباء قد  
نظموا أشعاراً أنشدوه إياها في ذلك ، فلم يزيدوا على شكره ، وتجزئته  
الخيرَ فيما جدّد من معالم الدين وآثاره ، ولم يكن فيهم من تصدّى لوصف الحال ،  
حتى قام أبو بكر ابن مجبر فأنشد قصيدته التي أولها « أعلمني ألقى عصا التسيار »  
واستمر فيها حتى ألمّ بذكر المقصورة فقال يصفها « طوراً تكون - إلخ » فطرب  
المنصور لسماعها ، وارتاح لاختراعها ، انتهى .

وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن ، وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة  
عشر وألف ، والله تعالى وارثُ الأرض ومنّ عليها .  
ومن نظم ابن مجبر أيضاً ما كتب به إلى السلطان ملك المغرب ، رحمه الله  
تعالى ، وقد ولد له ابن ، أعني لابن مجبر :

وُلِدَ الْعَبْدُ الَّذِي لِإِنْعَامِكُمْ      طِينَةٌ أَنْشِءَ مِنْهَا جَسَدُهُ  
وَهُوَ دُونَ اسْمٍ لِعَلْمِي أَنَّهُ      لَا يُسَمِّي الْعَبْدَ إِلَّا سَيِّدُهُ

وقوله :

مَلِكٌ تُرْوِيكَ مِنْهُ شَيْمَةٌ      أَنْسَتِ الظَّمَانَ زُرْقَ النَّطْفِ

١ انظر شرح المقصورة ١ : ٧١ .

٢ م : مدينة .



جمعتُ من كلِّ مجدٍ فحكْتُ  
 يعجبُ السامعُ من وصفي لها  
 لفظةٌ قد جمعتُ من أحرفِ  
 لو أعار السهمَ ما في رأيه  
 ووراء العجزِ ما لم أصِفِ  
 حلمه الراجحُ ميزانُ الهدى  
 من سدّادٍ وهُدَى لم يَصِفِ  
 يزنُ الأشياءَ وزنَ المنصفِ

٢١ - وقال ابن خفاجة<sup>١</sup> :

صحَّ الهوى منكَ ولكنني  
 كأننا في فلكِ دائرِ  
 أعجبُ من بينِ لنا يُقدَرُ  
 فأنتَ تخفي وأنا أظهرُ

وهما الغاية في معناهما ، كما قاله ابن ظافر ، رحمه الله تعالى .

٢٢ - وقال الأعمى التُّطيلي<sup>٢</sup> :

أما اشتفتَ منِّي الأيامُ في وطني  
 فلا قَصَّتْ من سوادِ العينِ حاجتها  
 حتى تُضايقَ فيما عزَّ من وطري  
 حتى تكررَ على ما طلَّ في الشعري

٢٣ - وقال القاضي أبو حفص ابن عمر القرطبي<sup>٣</sup> :

همُّ نظروا لواحظها فهاموا  
 يخافُ الناسُ مقلتها سواها  
 وتشربُ لبَّ شاربها المدامُ  
 أيذُ عرُّ قلبَ حامله الحسامُ  
 وتحت الشمسِ ينسكبُ الغمامُ  
 على الأغصانِ تنتدبُ الحمامُ  
 وأذكرُ قدَّها فأنوحُ وجداً  
 فأعقبَ بينُها في الصدرِ غمماً  
 إذا غرَبَت ذُكاءُ أتى الظلامُ

٢٤ - وقال الحاجب عبد الكريم بن مغيث<sup>٤</sup> :

١ ليسا في ديوان ابن خفاجة .

٢ انظر ما سبق ص : ٢٠٧ ؛ وديوان الأعمى : ٤٩ .

٣ انظر ما سبق ص : ٢٠٩ .

٤ عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث كان حاجباً للحكم الرضي ، وكان بليغاً شاعراً مفوهاً ( انظر =

طارَتْ بنا الخيلُ ومن فوقها      شُهْبُ بُزَاةٍ لِحِمَامِ الحِمَامِ  
كأنَّما الأيْدي قسيُّ لها      والطيْرُ أهدافٌ وهُنَّ السهامُ

٢٥ - وقال أخوه أحمد :

اشْرَبَ على البستانِ من كَفَ مَنْ      يسقيكَ مِنْ فِيهِ وأحداقِهِ  
وانظر إلى الأيكةِ في بُرْدِهِ      ولاحِظِ البدرَ بأطواقِهِ  
وقدْ بدا السَّروُ على نهرِهِ      كخائضٍ شمَّرَ عَنْ ساقِهِ

٢٦ - وقال أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله ابن أمية البلنسي :

إذا كان ودِّي وهو أنفَسُ قربةٍ      يُجَازِي ببغضٍ فالقطيعةُ أحزمُ  
ومن أضيعِ الأشياءِ ودٌّ صرفتهُ      إلى غير من تحظى لديه وتكرمُ

### [ حكايات في البديهة والارتجال ]

٢٧ - ومن حكايات أهل الأندلس<sup>١</sup> في خلع العذار والطرب والظرف وغير ذلك كسرعة الارتجال ما حكاها صاحب « بدائع البدائه »<sup>٢</sup> قال<sup>٣</sup> : أخبرني مَنْ أتق به بما هذا معناه ، قال : خرج الوزير أبو بكر ابن عمّار والوزير أبو الوليد ابن زبندون ومعهما الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظره لبني عباد بموضع يقال له الفنت<sup>٣</sup> تحفُّ بها مروجٌ مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النوار ، في زمان ربيع سقت الأرض السحبُ فيه

= الحلة ١ : ١٣٥ - ١٣٦) وكان له أخ اسمه عبد الملك تولى سرقسطة ، ولم يذكر ابن الأبار أخاه أحمد .

١ هنا يأخذ المقرئ بالنقل عن بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي أكثر حكايات هذا الباب .

٢ بدائع البدائه ١ : ٢١٤ .

٣ في الأصول : الفنت ؛ والبدائع : الفيت .

بوسميتها ووليها ، وجلتها في زاهر ملبسها وباهر حليتها ، وأرداف الربى  
 قد تأزرت بالأزر الخضر من نباتها ، وأجساد الجداول قد نظم الثوار قلائده  
 حول لباتها ، ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها ، وهناك من البهار  
 ما يزرري على مدهان<sup>١</sup> النضار ، ومن الرجس الريان ما يهزأ بنواعس الأجفان ،  
 وقد نوا الانفراد للهو والطرب ، والتنزه في روضي النبات والأدب ، وبعثوا  
 صاحباً لهم يسمى خليفة هو قوام لذتهم ، ونظام مسرتهم ، ليأتيهم بنبيذ  
 يذهبونهم بذهبه في لججين زجاجه ، ويرمونه منه بما يقضي بتحريكه للهرب  
 عن القلوب وإزعاجه ، وجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما  
 بصروا به مقبلاً من أول الفج بادروا إلى لقائه ، وسارعوا إلى نحوه وتلقائه ،  
 وافق أن فارساً من الجند ركض فرسه فصدمه ووطيء عليه فهشم أعظمه وأجرى  
 دمه ، وكسر قمعل<sup>٢</sup> النبيذ الذي كان معه ، وفرق من شملهم ما كان الدهر  
 قد جمعه ، ومضى على غلوائه راكضاً حتى خفي عن العين ، خائفاً من  
 متعلق به يحين بتعلقه الحين ، وحين وصل الوزراء إليه ، تأسأوا عليه ،  
 وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه ، والخطب وألوانه ، ودخوله بطوام  
 المضرات ، على تمام المسرات ، وتكديره الأوقات المنعمات ، بالآفات المؤلمات ،  
 فقال ابن زيدون :

أنلهو والحتوف بنا مطيفه<sup>١</sup> ونأمن<sup>٢</sup> والمتون لنا مخيفه<sup>٣</sup>

فقال ابن خلدون :

وفي يومٍ وما أدراك يومٍ مضى قمعالنا ومضى خليفه<sup>٤</sup>

١ البدائع : بمدهان .

٢ القمعل : القدح الضخم .

فقال ابن عمار :

هما فَخَارَتَا راحٍ وروحٍ . تكسرتا فأشَقَفَا<sup>١</sup> وجيفه<sup>٢</sup>

انتهى .

٢٨ - وذكر ابن بسام ما معناه<sup>٢</sup> أن أبا عامر ابن شهيد حضر ليلة عند الحاجب أبي عامر المظفر بن المنصور بن أبي عامر بقرطبة ، فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق<sup>٣</sup> ، ولم تزل تسهر في خدمتهم إلى أن همَّ جند الليل بالانهزام ، وأخذ في تقويض خيام الظلام ، وكانت تسمى أسيماء ، فعجب الحاضرون من مكابلتها السهر طول ليلتها<sup>٤</sup> على صغر سنها ، فسأله المظفر وصفها ، فصنع ارتجالاً :

أفدي أسيماء من نديمٍ ملازمٍ للكؤوسِ راتبٌ  
قد عجبوا في السَّهادِ منها وهي لعمرى من العجائب  
قالوا : تجافى الرقادُ عنها فقلت : لا ترقُدُ الكواكب

٢٩ - وحكى ابن بسام<sup>٥</sup> ما معناه أن ابن شهيد المذكور كان يوماً مع جماعة من الأدباء عند القاضي ابن ذكوان ، فجيء بباكورة باقلاً ، فقال ابن ذكوان : لا ينفرد بها إلا من وصفها ، فقال ابن شهيد : أنا لها ، وارتجل :

إنَّ لآلِكَ أَحَدَتَتْ صَلَفًا فاتخذت من زُمُرْدٍ صدفا  
تسكنُ ضَرَّاتُهَا البحورَ وذي تسكن للحسنِ روضةً أنفا  
هامتُ بِلِحْفِ الجبالِ فاتخذتُ من سندسٍ في جنبانها لُحفا

١ البدائع : فشقتا .

٢ بدائع البدائه ٢ : ٣٢ .

٣ البدائع : وصيفة صغيرة ظريفة الخلق .

٤ البدائع : ليلها .

٥ بدائع البدائه ٢ : ٣٣ ؛ وانظر الذخيرة ١/٤ : ٢٨ .

شَبَّهْتُهَا بِالثَغُورِ مِنْ لُطْفٍ      حَسِبَكَ هَذَا مِنْ بَرٍّ مِنْ لَطْفَا  
 جَازِ ابْنِ ذَكْوَانَ فِي مَكَارِمِهِ      حُدُودَ كَعْبٍ وَمَا بِهِ وَصِيفَا  
 قَدَّمَ دُرَّ الرِّيَاضِ مِنتَخِبَا      مِنْهُ لِأَفْرَاسٍ مَدْحَهُ عَطْفَا  
 أَكَلَ ظَرِيفٌ وَطَعَمَ ذِي أَدَبٍ      وَالْقَوْلُ يَهْوَاهُ كُلُّ مَنْ ظَرَفَا  
 رَخَّصَ فِيهِ شَيْخٌ لَهُ قَدْرٌ      فَكَانَ حَسْبِي مِنَ الْمَنَى وَكَفَى

٣٥ - وقال ابن بسام<sup>٢</sup> : إن جماعة من أصحاب ابن شهيد المذكور قالوا له : يا أبا عامر ، إنك لآتٍ بالعجائب ، وجاذب بدوائب الغرائب ، ولكنك شديد الإعجاب بما يأتي منك ، هازئ لعطفك عند النادر يتاح لك ، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا ، وكان الذي طلبوه منه زبدة التعنيت ، لأن المعنى إذا كان جلفاً ثقيلاً على النفس ، قبيح الصورة عند الحس ، ككثت الفكرة عنه وإن كانت ماضية ، وأساءت القريحة في وصفه وإن كانت محسنة ، وكان في المجلس بابٌ مخلوع معترض على الأرض ولبد أحمر مبسوط قد صفت خفافهم<sup>٣</sup> عند حاشيته ، فقال مسرعاً :

وَفَتِيَّةٌ كَالنَّجُومِ حُسْنًا      كَلَّهْمُ شَاعِرٌ نَبِيلٌ  
 مَتَّقِدُ الْجَانِبِينَ مَاضٍ      كَأَنَّهُ الصَّارِمُ الصَّقِيلُ  
 رَامُوا انْصِرَافِي عَنِ الْمَعَالِي      وَالْغَرْبُ مِنْ دُونِهَا كَلِيلٌ  
 فَاشْتَدَّ فِي إِثْرِهَا فَسِيحٌ      كُلُّ كَثِيرٍ لَهُ قَلِيلٌ  
 فِي مَجْلَسٍ زَانَهُ التَّصَابِي      وَطَارَدَتْ وَصْفَهُ الْعُقُولُ

١ دوزي : رقد .

٢ بدائع البدائت ٢ : ٣٣ ؛ وانظر الذخيرة ١/٤ : ٢٧ .

٣ ب : قد رصت ؛ البدائع : نعالهم .

٤ في الأصول : قليل ، والتصويب عن البدائع والذخيرة ؛ وفي الأصول أيضاً : عن دونها .

٥ في الأصول : فالشد في أمرها .

كَأْتَمَا بِأَبِهِ أُسِيرٌ      قَدْ عَرَضْتُ ١ دُونَهُ نُصُولُ  
 يَرَادُ مِنْهُ الْمَقَالُ قَسْرًا      وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ لَا يَقُولُ  
 نَنْظُرُ مِنْ لَيْدِهِ لَدِينَا      بِحَرِّ دَمٍ تَحْتَنَا بِسِيلُ  
 كَانَ أَخْفَانًا عَلَيْهِ      مَرَاكِبُ مَا لَهَا دَلِيلُ  
 ضَلَّتْ فَلَمْ تَدْرِ أَيْنَ تَجْرِي      فَهَلْ عَلَى شَطْتِهِ تَقِيلُ

فعجب القوم من أمره ، ثم خرج من عندهم فمر على بعض معارفه من  
 الطرائفين وبين يديه زنبيل ملآن حرشاً<sup>٢</sup> ، فجعل يده في لجام بغلته ، وقال :  
 لا أتركك أو تصف الحرشف ، فقد وصفه صاعد فلم يقل شيئاً ، فقال له ابن  
 شهيد : ويحك ! أعلى مثل هذه الحال ؟ قال : نعم ، فارتجل<sup>٣</sup> :

هَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ يَا خَلِيلِي      قَنَافِذَا تُبَاعُ فِي زَنْبِيلِ  
 مِنْ حَرْشَفٍ مُعْتَمِدٍ جَلِيلِ      ذِي إِبْرٍ تَنْفُذُ جِلْدَ الْفِيلِ  
 كَأَنَّهَا أَنْيَابُ بِنْتِ الْعَوْلِ      لَو نَحَسْتَ فِي اسْتِ امْرِئٍ ثَقِيلِ  
 لَقَفَزْتُهُ نَحْوَ أَرْضِ النَّيْلِ      لَيْسَ يَرَى طِيَّ حَشَا مِنْدِيلِ  
 نَقَلُ السَّخِيفِ الْمَائِنِ الْجُهُولِ      وَأَكْلُ قَوْمٍ نَازِحِي الْعُقُولِ  
 أَقْسَمْتُ لَا أَطْعِمُهَا أَكْبِيلِي      وَلَا طَعْمَتُهَا عَلَى شَمُولِ  
 انتهى .

٣١ - وقال في « بدائع البدائه »<sup>٤</sup> : دخل الوزير أبو العلاء زُهرُ ابن  
 الوزير أبي مروان عبد الملك بن زُهر على الأمير عبد الملك بن رَزِين في مجلس  
 أنس ، وبين يديه ساق يسقي خميرين من كأسه ولحظه ، وييدي دُرِين من حبابه

١ ب : عارضت .

٢ ب : زنبيل حرشف .

٣ الذخيرة ١/٤ : ٢٨ .

٤ ب ودوزي : نبت .

٥ بدائع البدائه ٢ : ٤٢ .

ولفظه ، وقد بدا حَظُّ عِدَارِهِ فِي صَحِيفَةِ خَدِّهِ ، وَكَمَلْ حَسَنَهُ بِاجْتِمَاعِ الضَّدِّ  
مِنهُ مَعَ ضَدِّهِ ، فَكَأَنَّهُ بِسِحْرِ لَحْظِهِ أَبَدَى لَيْلًا فِي شَمْسٍ ، وَجَعَلَ يَوْمَهُ فِي الْحَسَنِ  
أَحْسَنَ مِنْ أَمْسٍ ، فَسَأَلَهُ ابْنُ رَزِينٍ أَنْ يَصْنَعَ فِيهِ ، فَقَالَ بَدِيهًا :

تَضَاعَفَ وَجْدِي إِذْ تَبَدَّى عِدَارُهُ      وَنَمَّ فَخَانَ الْقَلْبَ مِنِّي اصْطِبَارُهُ  
وَقَدْ كَانَ ظَنِّي أَنْ سِيَمَحِقُ لَيْلُهُ      بِدَائِعِ حَسَنِ هَامٍ فِيهَا نَهَارُهُ  
فَظَهَرَ ضَدُّ ضَدِّهِ فِيهِ إِذْ وَشَتْ      بَعْبِرِهِ فِي صَفْحَةِ الْخَدِّ نَارُهُ  
وَاسْتَزَادَهُ ، فَقَالَ بَدِيهًا :

مُحِيَّتْ آيَةُ النَّهَارِ فَأُضْحَى      بَدَرَ تِيَمٍ وَكَانَ شَمْسَ نَهَارِ  
كَانَ يُعْشِي الْعَيُونَ نَوْرًا إِلَى أَنْ      شَعَلَ اللَّهُ خَدَّهُ بِالْعِدَارِ  
وَصَنَعَ أَيْضًا :

عِدَارٌ أَلَمَّ فَأَبْدَى لَنَا      بِدَائِعِ كَنَّا لَهَا فِي عَمَى  
وَلَوْلَمْ يَجْنِ النَّهَارَ الظَّلَا      مٌ لَمْ يَسْتَبِنْ كَوْكَبٌ فِي السَّمَا  
وَصَنَعَ أَيْضًا :

تَمَّتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ وَتَكَامَلَتْ      لَمَّا اسْتَدَارَ بِهِ عِدَارٌ مَوْنِقُ  
وَكَذَلِكَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ جَمَالُهُ      فِي أَنْ يَكْتَفَهُ سَمَاءُ أَرْقُ  
انتهى .

٣٢ - وحكى الحميدي<sup>١</sup> وغيره أن عبد الله بن عاصم صاحب الشرطة بقرطبة  
كان أديباً شاعراً سريع البديهة ، كثير النوادر ، وهو من جلساء الأمير محمد بن  
عبد الرحمن الأموي ملك الأندلس ، وحكوا أنه دخل عليه في يوم ذي غيتم ،

١ الجذوة : ٢٤٥ ؛ وبدائع البديهة ٢ : ٨٦ .

وبين يديه غلام حسن المحاسن ، جميل الزي ، لَيْسَ الأخلاق ، فقال الأمير :  
يا ابن عاصم ما يصلح في يومنا هذا ؟ فقال : عُقَار تنفّر الذبّان<sup>١</sup> ، وتؤنس  
الغزّلان ، وحديث كقطع الروض قد سقطت فيه مؤونة التّحفّظ ، وأرخي  
له عِنَانُ التّبسُّط ، يديرها هذا الأعيد المليح ، فاستضحك الأمير ، ثم أمر  
بمراتب الغناء ، وآلات الصهباء ، فلما دارت الكأس ، واستمطر الأمير  
نوادره<sup>٢</sup> ، أشار إلى الغلام أن يُلحَّ في سَقْيِهِ ، ويؤكد عليه ، فلما أكثر رفع  
رأسه إليه وقال على البديهة :

يا حَسَنَ الوِجْهِ لا تَكُنْ صَليفاً ما لِحسانِ الوُجُوهِ والصَّليفاً  
تُحَسِّنُ أن تُحَسِّنَ القَبيحَ ولا ترثي لصبٍّ مَتيماً دَيفِ

فاستبدع الأمير بديهته ، وأمر له ببدره ، ويقال : إنّه خيره بينها وبين  
الوصيف ، فاختارها نفيّاً للظنّة عنه<sup>٣</sup> ، انتهى .

[ استطراد حول ابن ظافر ]

قلتُ أذكرتني هذه الحكاية ما حكاها علي بن ظافر عن نفسه إذ قال<sup>٤</sup> :  
كنت عند المولى الملك الأشرف بن العادل بن أيّوب سنة ٦٠٣ بالرها ، وقد وردتُ  
إليه في رسالة ، فجعلني بين سمعه وبصره ، وأنزلني في بعض دوره بالقلعة بحيث  
يقرب عليه حضوري في وقت طلبي أو لإرادة الحديث معي ، فلم أشعر في بعض  
الليالي وأنا نائم في فراشي إلاّ به ، وهو قائم على رأسي ، والسكر قد غلب عليه ،  
والشمع تزهّر حوآليه<sup>٥</sup> ، وقد حف مماليكه به ، وكأنتهم الأقمار الزواهر ، في

١ في أصول النفع : تنفد الدنان .

٢ ب : نواره .

٣ ويقال . . . عنه : سقطت هذه العبارة من ب .

٤ بدائع البدائه ٢ : ٦١ .

٥ البدائع : والشموع تزهّر بين يديه .



ملابس كالرياض ذات الأزاهر ، فقامت مُرَوَّعاً ، فأمسكني وبادر بالجلوس إلى جانبي بحيث منعتني عن القيام عن الوساد ، وأبدى من الحميل ما أبدلني بالنفاق بعد الكساد ، ثم قال : غلبي الشوق إليك ، ولم أُرِدْ إزعاجك والتثقيب عليك ، ثم استدعى مَنْ كان في مجلسه من خواص القوالين ، فحضروا وأخذوا من الغناء فيما يملأ المسامع التذاذاً ، ويجعل القلوب من الوجد جُذاداً ، وكان له في ذلك الوقت مملوكان هما نَيْرَا سماء ملكه ، وواسطنا دُرِّ سِلْكِه ، وقطبا فلك طربه ووجده<sup>١</sup> ، وركنا بيت سروره ولوه ، وكانا يتناوبان في خدمته ، فحضر أحدهما في تلك الليلة وغاب الآخر ، وكان كثيراً ما يُداعِبني في أمرهما ، ويستجلب مني القول فيهما والكلام في التفضيل بينهما ، فقلت للوقت :

يا مالكا لم يحك سيرته ماضٍ ولا آتٍ من البشرِ  
اجتمعَ لنا تفديك أنفسنا في الليلِ بينَ الشمسِ والقمرِ

فطرب ، وأمر في الحال باستدعاء الغائب منهما ، فحضر والنوم قد زاد أجفانه تفتيراً ، ومعاطفه تكسيراً ، فقلت بين يديه بديهاً في صفة المجلس :

سقى الرحمنُ عَصراً قد مضى لي  
وليلاً باتت الأنوارُ فيه  
فنورٌ من شموعٍ<sup>٢</sup> أو ندامي  
يطوفُ بأنجمِ الكاساتِ فيه  
تريك به الكؤوسُ جمودَ ماء  
يُميلُ به غصوناً من قلودٍ  
فكم من موصليٍ فيه يشدُّو  
بأكنافِ الرُّها صوبَ الغمامِ  
تعاونُ في مدافعةِ الظلامِ  
ونورٌ من سقاةٍ أو مُدامِ  
سقاةٌ مثلُ أقمارِ التمامِ  
فتحسبُ راحها ذوبَ الضرامِ  
غناء مثل أصواتِ الحمامِ  
فيُنسي النفسَ عاديةَ الحمامِ

١ البدائع : وزهوه .

٢ ب : شعاع .

وكم من زُلْزُلٍ للضربِ فيهِ      وكم للزَّمْرِ فيهِ من زُنَامِ  
 لدى موسى بن أيوبَ المرجي      إذا ما ضنَّ غَيْثٌ بانسجامِ  
 ومَن كَمظفَرِ الدينِ المليكِ الذِّ      أجَلَّ الأشرفِ النَّدْبِ الهمامِ  
 فما شمسٌ تُقاسُ إلى نجومِ      تحاكي قدرهُ بينَ الكرامِ  
 فدامَ مُخَلِّدًا في الملكِ بيقى      إذا ما ضنَّ دهرٌ بالدوامِ

فلما أنشدتها قام فوضع فرجية من خاص ملابسه كانت عليه على كتفي ،  
 ووضع شربوشه بيده على رأس مملوك صغير كان لي ، انتهى .  
 ولابن ظافر هذا بدائع : منها ما حكاها عن نفسه إذ قال ١ : ومن أعجب  
 ما دُهِيت به ورُميت ، إلاَّ أنَّ الله بفضله نصر ، وأعطى الظَّفَرَ ، وأعانَ  
 خاطري الكليل ، حتى مضى مَضَاءَ السيفِ الصَّقِيلِ ، أتتني كنت في خدمة مولانا  
 السلطان الملك العادل بالإسكندرية سنة إحدى وستمئة مع من ضمته حاشية  
 العسكر المنصور من الكُتَّاب والحواشي والخدام ، ودخلت سنة اثنتين وستمئة  
 ونحن بالثغر مقيمون في الخدمة ، مرتضعون لأفاويق النعمة ، فحضرتُ في  
 جملة مَنْ حضر الهناء ، من الفقهاء بالثغر والعلماء ، والمشايخ والكبراء ،  
 وجماعة الديوان والأمرء ، واتفقَ أن كان اليومُ من أيام الجلوس لإمضاء  
 الأحكام والعرض لطوائف الأجناد ، فلم يبق أحد من أهل البلد ولا من أهل  
 العسكر إلا حضر مهنيًا ، ومثَّل شاكراً وداعياً ، فحين غَصَّ المجلس بأهله ،  
 وشرق بجمع السلطان وحفله ، وخرج مولانا السلطان إلى مجلسه ، واستقرَّ في  
 دَسْتِهِ ، أخرج من بركة قبائه كتاباً ناوله للصاحب الأجلَّ صفي الدين أبي محمد  
 عبد الله بن علي وزير دولته ، وكبير جملته ، وهو مفضوض الختام ، مفكوك  
 الفِداَم ، ففتحه فإذا فيه قطعة وردت من المولى الملك المعظم كتبها إليه يتشوقه  
 ويستعطفه لزيارته ، ويرققه ويستحثه على عود ركابه إلى بلاد الشام ، للمشاغرة

بها ، وقمّع عدوّها ، ويعرض بذكر مصر وشدة حرّها ، ووقد جمرها ، وذلك بعد أن كان وصل إلى خدمته بالثغر ثمّ رجع إليها ، والأبيات :

أروي رماحك من نحور عداكا      وانهب بخيلك من أطاع سواكا  
واركب خيولا كالسّعلي شزّبا      واضرب بسيفك من يشق عصاكا  
واجلب من الأبطال كل سّميديع      يفرّي بعزمك كل من يشناكا  
واسترعف السّمّر الطوال وروّها      واستق المنيّة سيفك السفّاكا  
وسير الغداة إلى العداة مبادرا      بالضرب في هام العدو دراكا  
وانكح رماحك للثغور فإنّها      مشتاقّة أن تبني بعلاكا  
فالعز في نصّب الخيام على العدا      تُردي الطّغاة وتدفع الملائكا  
والنصر مقرون بهمتك التي      قد أصبحت فوق السّمك سماكا  
فإذا عزمت وجدت من هو طائع      وإذا نهضت وجدت من يخشاكا  
والنصر في الأعداء يوم كريمة      أحلى من الكأس الذي رواقا  
والعجز أن تضحى بمصر راهنا      وتحل في تلك العراض عراكا  
فأريح حشاشتك الكريمة من لظى      مصر لكي تحظى الغداة بذاكا  
فلقد غدا قلبي عليك بجرقة      شغفا ولا حرّ البلاد هناكا  
وانهض إلى راجي لقاك مسارعا      فمناه من كلّ الأمور لقاكا  
وأبرد فؤاد المستهام بنظرة      وأعد عليه العيش من رؤياكا  
واشف الغداة غليل صبّ هائم      أضحي مناه من الحياة مناكا  
فسعادتي بالعدل الملك الذي      ملك الملوك وقارن الأفلاكا  
فقيت لي يا مالكي في غبطة      وجعلت من كلّ الأمور فيداكا

فلما تلا الصاحب على الحاضرين محكم آياتها ، وجلا منها العروس التي حازت من المحاسن أبعدا غاياتها ، أخذ الناس في الاستحسان لغريب نظامها ،

وتناسق الثامها ، والثناء على الخاطر الذي نظم بديع أبياتها ، وأطلع من مشرق فكره آياتها ، فقال السلطان : نريد مَنْ يجيبه عنا بأبيات على قافيتها ، فالتفت مسرعاً إليّ وأنا عن يمينه ، وقال : يا مولانا مملوكك فلان هو فارس هذا الميدان ، والمعتاد للتخلص من مضايق هذا الشأن ، ثم قطع وصلاً من درج كان بين يديه ، وألقاه إلي ، وعمد إلى دواته فأدارها<sup>١</sup> بين يديّ ، فقال له السلطان : أهكذا على مثل هذا الحال ؟ وفي مثل هذا الوقت ؟ فقال : نعم ، أنا قد جربته فوجدته مُتقد الخاطر ، حاضر الذهن ، سريع إجابة الفكر ، فقال السلطان : وعلى كل حال قُمْ إلى هنا لتتكفّف عنك أبصار الناظرين ، وتنقطع عنك ضوضاء الحاضرين ، وأشار إلى مكان عن يمين البيت الخشب الذي هو بالجلوس فيه منفرد ، فقمْتُ وقد فقدت رجلي انخدالاً ، وذهني اختلالاً ، لهيبة المجلس في صدري ، وكثرة من حضره من المترقبين لي ، المنتظرين حلول فاقرة الشماتة بي ، فما هو إلا أن جلست حتى ثاب إليّ خاطري ، واثال الكلام على سرائري<sup>٢</sup> ، فكنت أتوهم أن فكري كالبازي الصيود لا يرى كلمة إلا أنشب فيها منسیره ، ولا معنى إلا شكّ فيه ظفّره ، فقلت في أسرع وقت :

وَصَلَّتْ من الملك المعظم تحفة	ملأتُ بفاخرِ دُرِّها الأسلاك
أبياتُ شعرٍ كالنجومِ جلاله	فلذا حكّتْ أوراقُها الأفلاك
عجباً وقد جاءت كمثلِ الروضِ إذ	لم تُدوِّها بالحرِّ نارُ ذكّاك
جلّتِ الهمومَ عن الفؤادِ كمثلِ ما	تجلو بغرّةِ وجهك الأحلاك
كقميصِ يوسفٍ إذ شفت يعقوبَ ريب	أهْ شَفَتْنِي مثلهُ ريباك
قد أعجزتْ شعراءَ هذا العصرِ كلَّ	همٍ فلمْ لا تُعجزُ الأملاك
ما كان هذا الفضلُ يمكن مثله	أن يحتويه من الأنام سواك

١ م : فالقاه .

٢ البدائع : واثال الشعر على ضمائري .

لِمَ لا أُغيبُ عن الشَّامِ وهَلْ لَه  
أَمْ كَيْفَ أُحْشِي والبِلادُ جَميعِها  
يَكْفِي الأَعادي حَرًّا بِأَسِكَ فيهِمُ  
ما زَرْتُ مَصْرَ لغيرِ ضَبطِ ثغورِها  
أَمْ البِلادُ عَلاَ عَليها قَدْرُها  
طابَتْ وحقُّها ولمْ لا وهِي قَد  
أنا كَالسحابِ أَزورُ أرضاً ساقِياً  
مَكْتَنِي جِهادٌ لِلعدوِّ لِأَنِّي  
لولا الرِباطُ وَغَيرُهُ لَقصدتُ بِألا  
ولئن أُتيتُ إلى الشَّامِ فإِنِّما  
إِنِّي لِأمنحكِ المَحبَّةَ جاهدأ  
فأفخرُ قَد أَصبَحَتْ بي وببأسِكَ  
لا زلتُ تَقهرُ مَنْ يَعادي مَلَكنا  
وأعيشُ أَبْصِرُ ابْنَكَ الباقِي أبأ

ثمَّ عدتُ إلى مكاني وقد بيّضتها، وحليت بزهرها ساحة القرطاس وروّضتها،  
فلما رأني السلطانُ قد عدتُ قال لي : هل عملت شيئاً؟ ظناً منه أن العمل في  
تلك اللمحة القريبة معجز متعذر، وبلوغ الغرض فيها غير متصور ، فقلت :  
قد أجبت ، فقال : أنشدنا ، فصمت الناس ، وحدقت الأبصار ، وأصاحت  
الأسماع ، وظنّ الناسُ بي الظنون ، وترقبوا منّي ما يكون ، فما هو إلاّ أن  
توالى الإنشاد لأبياتها حتى صفقت الأيدي إعجاباً ، وتغامزت الأعين استغراباً ،  
وحين انتهيت إلى ذكر مولانا الملك الكامل ، بأنّه المعلّى في البنين إذا ضربت  
قِداحهم ، وسُردت أمداحهم ، اغرورقت عيناه دمعاً لذكره ، وأبان صمته

١ ب : أنشد .

مخفي المحبة حتى أعلن بسرّه ، وحين انتهيت إلى آخرها فاض دمه ، ولم يمكنه دفعه ، فمدّ يده مستدعيّاً للورقة ، فناولتها إلى يد الصاحب ، فناولها له ، وعند حصولها في يده قام من غير إشعار لأحد بما دار من إرادة القيام في خلكه ، سراً لما ظهر عليه من الرقة على الموالي الأولاد ، وكتماً لما عليه من الوجد بهم والمحبة لهم ، وانفض المجلس .

وإنما حمل الصاحب على هذا الفعل الذي غرّر بي فيه وخاطر بي بالتعريض له أشياء كان يقترحها علي فأنفذ فيها من بين يديه ، ويخف الأمر منها عليّ للداتي عليه ، منها أنني كنت في خدمته سنة ٥٩٩ بدمشق ، فورد عليه كتاب من الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة ، وقد بعث صحبته نسخة من ديوان شعره فتشاغل بتسويد جواب كتابه ، فلماً كتب بعضه التفت إلي وقال : اصنع أبياتاً أكتبها إليه في صدرّ الجواب ، واذكر فيها شعره ، فقلت له : على مثل هذه الحال ؟ فقال : نعم ، فقلت بقدر ما أنجز بقية النسخة :

أيا ملكاً قد أوسع الناس نائلاً	وأغرقهم بئذلاً وعمهم عدلاً
فدينك هب للناس فضلاً يزينهم	فقد حزت دون الناس كلهم الفضلاً
ودونك فامنحهم من العلم والحجى	كما منحتهم كفك الجود والبذلاً
إذا حزت أوفى الفضل عفواً فما الذي	تركت لمن كان القريض له شغلاً
وماذا عسى من ظلّ بالشعر قاصداً	لبابك أن يأتي به جلّ أو قلاً
فلا زلت في عزّ يدوم ورفعة	تحوز ثناء يملأ الوعر والسهلاً

ووقع لابن ظافر أيضاً من هذا النمط<sup>١</sup> أنه دخل في أصحاب له يعوّدون صاحباً لهم ، وبين يديه بركة قد راق ماؤها ، وصحّت سماؤها ، وقد رُصّ تحت دساتيرها نارنج فتن قلوب الحضّار ، وملأ بالمحاسن عيون النظار ، فكأنما

١ بدائع البداه ٢ : ٥٤ .

رُفِعَتْ صَوَالِحُ فَضَّةٍ عَلَى كِرَاتٍ مِنَ النَّضَارِ ، فَأَشَارَ الْحَاضِرُونَ إِلَى وَصْفِهَا ،  
فَقَالَ بَدِيهَا :

أَبَدَعْتَ يَا بَنَ هَلَالَ فِي فَسْقِيَّةٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهَا بِمَا لَمْ يُعْهَدِ  
عَجَباً لِأَمْوَاهِ الدَّسَاتِيرِ الَّتِي فَاضَتْ عَلَى نَارِنِجْهَا الْمُتَوَقَّدِ  
فَكَأَنَّهَا صَوَالِحٌ مِنْ فَضَّةٍ رُفِعَتْ لِضَرْبِ كِرَاتِ خَالِصِ عَسْجَدِ

[ قَدْرَةُ ابْنِ قَلَاقِسٍ فِي الْإِرْتِجَالِ ]

وَمِنْ بَدِيعِ الْإِرْتِجَالِ مَا حَكَاهُ الْمَذْكُورُ عَنْ ابْنِ قَلَاقِسِ الْإِسْكَانْدَرِيِّ رَحِمَهُ  
اللَّهُ تَعَالَى إِذْ قَالَ <sup>١</sup> : دَخَلَ الْأَعَزُّ أَبُو الْفَتْوحِ ابْنَ قَلَاقِسٍ عَلَى بِلَالِ بْنِ مَدَافِعِ بْنِ  
بِلَالِ الْفَزَارِيِّ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ سَيْفًا قَدْ نَظَّمَ الْفِرْنَنْدُ فِي صَفْحَتِهِ جَوْهَرَهُ ، وَأَذَكِي  
الدَّهْرِ نَارَهُ وَجَمَدَ نَهْرَهُ ، وَأَلْبَسَهُ مِنْ سِلْخِ الْأَفَاعِي رِدَاءً وَجَسَّمَهُ رَدَى أَوْ دَاءً ،  
لَا يَمْنَعُ مِنْ بَرَقِهِ بَدْرٌ مَجْنٌ وَلَا ثَرِيًّا مَغْفَرٌ ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ حِدَّةٍ مَنْ ثَبِتَ وَلَا يَنْجُو  
لَطُولُهُ مِنْ فَرٍّ ، فَهُوَ يَبْكِي لِلنَّفَاقِ وَيَضْحَكُ ، وَيُرْعِدُ لِلغَيْظِ وَيَفْتِكُ ، وَأَمْرُهُ  
بِصِفَةِ شَانِهِ ، فَقَالَ عَلَى لِسَانِهِ :

أَرُوقُ كَمَا أَرُوعُ فَإِنْ تَصِيفُنِي فَإِنِّي رَائِقُ الصَّفْحَاتِ رَائِعُ  
تَدَافِعُ بِي خَطُوبَ الدَّهْرِ حَتَّى نَقَلْتُ إِلَى بِلَالٍ عَنِ مَدَافِعُ

وَقَالَ أَيْضاً فِيهِ :

رَبِّ يَوْمٍ لَهُ مِنَ النَّقْعِ سُحْبٌ مَا لَهَا غَيْرَ سَائِلٍ <sup>٢</sup> الدَّمِ وَدَقُ  
قَدْ جَلَّتْهُ يَمْنَى بِلَالٍ بِجَدِّي فَكَأَنِّي فِي رَاحَةِ الشَّمْسِ بَرِّقُ

١ المصدر نفسه ٢ : ٤٧ .

٢ ب : مائت .

وقال أيضاً فيه :

أنا في الكريهة كالشهاب الساطع من صفحة تَبْدُو وحدّ قاطع  
فكأنما استمليتُ تلك وهذه من وصفِ كفِّ بلالِ ابنِ مدافعِ

وقال أيضاً فيه :

انظر المُطَرِّدِ المياه بصفحتي ولنارِ حدّي كم بها من صالي  
قد عاد شدّي في المضايق شيمي كبلالِ ابنِ مدافعِ بنِ بلالِ  
وسأله صاحبٌ له وَصَفَ مشطِ عاجٍ قد أشبه الثريا شكلاً ولوناً، وشقَّ ليلاً  
من الشعرِ جَوَّناً ، فقال :

ومتيمٌ بالآبنوسِ وجسمهُ عاجٌ ومين أدهانهِ شُرْفاتهُ<sup>١</sup>  
كتمتُ دِياجي الشعرِ منه بدرها فوشتُ بهِ للعينِ عَيّوقاتهُ

وقال فيه :

وأبيض ليل الآبنوسِ إذا سرى تمزقَ عن صُبْحٍ من العاجِ باهرِ  
وإن غاص في بحرِ الشعورِ رأيته تُبَشِّرنا أطرافهُ بالجواهرِ

وقال فيه :

ومشرقٍ يشبه لونَ الضحى حُسناً ويسري في الدجى الفاحمِ  
وكلما قلبَ في لَمّةٍ أضحكها عن ثَغْرِ باسمِ

وجلس بمصر في دار الأنماط يوماً مع جماعة ، فمرت بهم امرأة تُعرف  
بأبنة أمين الملك ، وهي شمس تحت سحاب التّقاب ، وغصن في أوراق الشباب ،

١ ب : حرقاته .



فحدقوا إليها تحديق الرقيب إلى الحبيب ، والمريض إلى الطبيب ، فجعلت تتلفت  
 تَلَفَّتَ الظبي المذعور ، أفرقه القانصُ فهرب ، وتثنى تثنى الغصن المطور  
 عانقه النسيم فاضطرب ، فسألوه العمل في وصفها ، فقال : هذا يصلح أن يعكس  
 فيه قول العطار الأزدي القيرواني :

أعرضنَ لما أن عرضنَ ، فإن يكنْ حذراً فأين تَلَفَّتُ الغِزلانِ  
 ثمَّ صنع :

لها ناظرٌ في ذرأ ناظرٍ كما رُكِبَ السنُّ فوق القناةِ  
 لوتٌ حينَ ولَّتْ لنا جيدَها فأبى حياةٍ بدتْ من وفاةِ  
 كما ذُعِرَ الظبيُّ من قانصٍ فمرَّ وكرَّرَ في الإلتفاتِ

ثمَّ صنع أيضاً :

ولطيفةِ الألفاظِ لكنْ قلبُها لم أشكُ منه لَوَعَةٌ إلاَّ عَتَا  
 كملتْ محاسنُها فودَّ البدرُ أن يحظى ببعضِ صفاتها أو ينعتا  
 قد قلتُ لما أعرضتْ وتعرضتْ يا مؤيساً يا مُطمعاً قُلْ لي متى  
 قالتُ أنا الظبيُّ الغريرُ وإنما ولتِي وأوجسَ نَبْأَةً<sup>٢</sup> فتلفتنا

قال علي بن ظافر : وحضر يوماً عند بني خليف بظاهر الإسكندرية في  
 قصر رسا بناؤه وسما ، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما ، قد ارتدى جلايبَ  
 السحاب ولات عمائم الغمام ، وابتسمت ثنانيا شرفاته ، واتسمت بالحسن  
 حنانيا غرفاته ، وأشرف على سائر نواحي الدنيا وأقطارها ، وحبته الرياض  
 بما ائتمنتها عليه السحب من ودائع أمطارها ، والرمل بفنائها قد نثر تبره في زبرجد

١ سقط البيت من ب .

٢ في الأصول : نبوة .

كرومه ، والجو قد بعث بذخائر الطيب لَطِيْمَةً نسيمه ، والنخل قد أظهرت  
جواهرها ، ونشرت غدائرها ، والطلُّ ينثر لؤلؤه في مسارب النسيم ومساحبه ،  
والبحر يرعد غيظاً من عبث الرياح به ، فسأله بعضُ الحضور أن يصف ذلك  
الموضع الذي تمت محاسنه ، وغبِط به ساكنه ، فجاشت لذلك لُجَجُ بحره ،  
وألقت إليه جواهره لترصيع لَبَةِ ذلك القصر ونَحْرِهِ ، فقال :

قصرٌ بمدْرَجَةِ النسيم تحدثُ	فيه الرياضُ بسرّها المستورِ
خفَضَ الخورُ نَقْ وَالسَّديرُ سُمُوهُ	وثى قصورَ الروم ذاتَ قُصُورِ
لاث الغمامِ عمامةٌ مِسْكِيَّةٌ	وأقام في أرضٍ من الكافورِ
غنى الربيعُ به محاسنَ وَصْفِهِ	فاقتَرَّ عن تَوْرِ يروقُ ونُورِ
فالذَّوْحُ يسحبُ حِلَّةً من سندسٍ	تُزهَى بلؤلؤِ ظلِّها المنثورِ
والنخلُ كالغَيْدِ الحسانِ تَقَرَّرَتِ	بسبائكِ المنظومِ والمنثورِ
والرملُ في حُبِّكَ النسيمِ كأنما	أبدى غصونَ سِوَالفِ المدعورِ
والبحرُ يرعدُ متنه فكأنه	دِرْعٌ تُشَنُّ بِمِعْطَفِي مَقْرورِ
وكأننا والقصرُ يجمعُ شملنا	في الأفقِ بينَ كواكبِ وبلورِ
وكذاك دهرُ بني خليفٍ لم يزلْ	يثنى المعاطفَ في حَبِيرِ حُبُورِ

ثم قال ابن ظافر : وأخبرني الفقيه أبو الحسن علي بن الطوسي المعروف بابن  
السيوري الإسكندري النحوي بما هذا معناه ، قال : كنت مع الأعز بن قلاقيس  
في جماعة ، فمر بنا أبو الفضائل ابن فتوح المعروف بالمصري ، وهو راجع من  
المكتب ، ومعه دواته ، وهو في تلك الأيام قُرَّةَ العين ظرفاً وجمالاً ، وراحة  
القلب قُرْباً ووصالاً ، كل عين إلى وجهه مُحَدِّقَةٌ ، ولمشهد خديهِ بخلُوقِ  
الحجل مُحَلِّقَةٌ ، فاقترحنا عليه أن يتغزل فيه ، فصنع بديهاً :

عَلَّقْتُهُ مُتَعَلِّقًا      بِالْحَطِّ مُعْتَكِفًا عَلَيْهِ  
 حَمَلَ الدَّوَاءَ وَلَا دَوَا      ۞ لِعَاشِقٍ يُرْجِي لَدَيْهِ  
 فِدْمَاءَ حَبَاتِ القُلُوبِ      بِ تَلُوحٍ صَبِغًا فِي يَدَيْهِ  
 لَمْ أَدْرِ مَا أَشْكُو إِلَيْهِ      هَ أَهْجَرَةٌ أَمْ مُقَلَّتِيهِ  
 وَالْحَبُّ يُخْرِسُنِي عَلَى      أَنْتِي الْكَعْبُ سَيَبُوهِ  
 مَا لِي إِذَا أَبْصَرْتُهُ ١      شُغْلٌ سَوَى نَظَرِي إِلَيْهِ

وقد آن وقت الرجعة إلى كلام الأندلسيين الذي حلا ، وأبعدنا عنه بما مر  
 النُّجُعة ، فنقول :

٣٣ - ذكر الفتح في قلائد العقيان ، كما قال ابن ظافر ، ما معناه ٢ :  
 أخبرني الوزير أبو عامر ابن بشتغير أنه حضر مجلس القائد أبي عيسى ابن لبّون  
 في يوم سَفَرَتْ فيه أَوْجُهُ المِسرَات ، ونامت عنه أعين المضرات ، وأظهرت  
 سقائه غصوناً تحمل بدوراً ، وتطوف من المدام بنار مازَجَتْ من الماء نوراً ،  
 وشموس الكاسات تطلع في أكفِّها كالورد في السوسان ، وتغرب بين أقاحي  
 نجوم الثغور فتُذبل نرجس الأجناف ، وعنده الوزير أبو الحسن ابن الحاج  
 اللورقي ، وهو يومئذ قد بذل الجهد ، في التحلي بالزهد ، فأمر القائد بعض  
 السُّقاة أن يعرض عليه ذهب كاسه ، ويحييه بزبرجد آسه ، ويغازله بطرفه  
 ويميل عليه بعطفه ، ففعل ذلك عَجِلاً ، فأنشد أبو الحسن مرتجلاً :

ومَهْفَهِ مَزَجَ الفَتُورَ بِشِدَّةِ      وَأَقَامَ بَيْنَ تَبْذُلٍ وَتَمْنَعِ  
 يَشْنِيهِ مِنْ فَعْلِ المِدمَاةِ وَالصَّبَا      سَكْرَانَ سَكْرُ طَبِيعَةٍ وَتَطْبَعِ  
 أَوْ مَا إِلَيَّ بِكَاسِهِ فَكَفَفْتُهَا      وَرَنَا فَشَفَعَهَا بِلِحْظِ مُطْمَعِ

١ البدائع : قابلته .

٢ بدائع البدائه ٢ : ٨٧ ؛ والقلائد : ١٣٩ .

والله لولا أن يقال هوى الهوى منه بفضل عزيمة وتورع  
لأخذت في تلك السبيل بماخذي فيما مضى ونزعت فيها مترعي

٣٤ - وحكى الحميدي<sup>١</sup> أن عبد الملك بن إدريس الجزيري كان ليلة بين  
يدي الحاجب ابن أبي عامر والقمر يبدو تارة ، ويخفيه السحاب تارة ، فقال بديهاً :

أرى بدرَ السماءِ يلوحُ حيناً فيبدو ثمَّ يلتحفُ السحابا  
وذاكَ لأنَّهُ لما تبدَّى وأبصرَ وجهكَ استحيا فغابا  
مقالٌ لو نمي غني إليه لراجعي بتصديقي جوابا

٣٥ - وكان صاعد اللغوي<sup>٢</sup> صاحب كتاب « الفصوص » - وقد تكرر  
ذكره في هذا الكتاب - كثيراً ما يمدح بلاد العراق بمجلس المنصور بن أبي عامر ،  
ويصفها ويقرظها ، فكتب الوزير أبو مروان عبدُ الملك بن شهيدُ والدُ الوزير  
أبي عامر أحمد بن شهيدُ صاحب الغرائب ، وقد تقدم بعض كلامه قريباً ،  
إلى المنصور في يوم برّد - وكان أخصَّ وزرائه به - بهذه الأبيات :

أما ترى برّد يومنا هذا صيرنا للكُمونِ أفذاذا  
قد فطرتَ صحّةُ الكبودِ به حتى لكادتُ تعودُ أفلاذا  
فادعُ بنا للشّمولِ مُضطلياً نُغدُ سيراً إليك إغذاذا  
وادعُ المسميَ بها وصاحبةً<sup>٣</sup> تدعُ نبيلاً وتدعُ أستاذا  
ولا تبالِ أبا العلاءِ زها بخر قطربُبلٍ وكلواذا  
ما دام من أرملاطَ مشربنا دغ دبر عمي وطيزنا باذا<sup>٤</sup>

١ جذوة المقتبس : ٢٦٢ ؛ وبدائع البدائه ٢ : ٩٦ .

٢ بدائع البدائه ٢ : ١٠٣ ؛ والذخيرة ١/٤ : ١٦ .

٣ يريد غلاماً اسمه «شمول» .

٤ سقط هذا البيت من م .

وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالحرم ، فأمر بإحضار مَنْ جرى رَسْمُهُ من الوزراء والندماء ، وأحضر ابن شهيد في محفّة لنقرس كان يعتاده ، وأخذوا في شأنهم ، فمر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، ووقت لم يعهدوا نظيره ، وطَمَا الطربُ وسما بهم ، حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة ، حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد ، فأقامه الوزيرُ أبو عبد الله ابن عباس ، فجعل يرقص وهو متوكيء عليه ، ويرتجل ويوميء إلى المنصور ، وقد غلب عليه السكر<sup>١</sup> :

هاك شيخاً قاده عُدْرٌ لكا      قام في رقصته مستهلكا  
لم يُطِقْ يرقصها مستتباً      فأننى يرقصها مستمسكا  
عاقه عن هزّها منفرداً      نقرسٌ أخنى عليه فاتكا  
من وزيرٍ فيهمُ رقاصةٌ      قام للسكرِ يناغي ملكا  
أنا لو كنتُ كما تعرفني      قمتُ لإجلالاً على رأسي لكا  
قهقهة الإبريقُ مني ضاحكاً      ورأى رِعْشَةَ رجلي فببكي

قال ابن ظافر : وهذه قطعة مطبوعة ، وطرفها الأخير واسطتها ، وكان حاضرهم ذلك اليوم رجلٌ بغدادي يعرف بالفكيك ، حسن النادرة سريعها ، وكان ابن شهيد استحضره إلى المنصور فاستطبعه ، فلما رأى ابن شهيد يرقص قائماً مع ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة قال : لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة ، وتصلّي بالقاعدة ، فضحك المنصور ، وأمر لابن شهيد بمال جزيل ، ولسائر الجماعة ، وللبغداديين .

٣٦ - وقال ابن بسام<sup>٢</sup> : حدث أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر بن

١ الذخيرة ١/٤ : ١٧ ؛ وزاد في م : وقال ارتجالاً .

٢ بدائع البداهة ٢ : ١٠٦ .

عثمان المصحفي قال : دخلت يوماً على أبي عامر ابن شهيد ، وقد ابتدأت  
 علته التي مات بها ، فأنس بي ، وجرى الحديث إلى أن شكوت له تجنّي  
 بعض أصحابي علي ، وفقاره عني ، فقال لي : سأسعى في إصلاح ذات البين ،  
 فخرجت عنه ، واتفق لقائي لذلك المتجنّي عليّ مع بعض أصحابي<sup>١</sup> وأعزهم علي ،  
 فلما رأني ذلك الصديق مؤثماً عنه أنكر عليه ، وسأله عن السبب الموجب ، فأخبره ،  
 وزادا في مشيها حتى لحقا بي ، وعزم علي في مكاملة صاحبي ، وتعاتبنا عتاباً  
 أرق من الهواء ، وأشهى من الماء على الظماء ، حتى جئنا دار أبي عامر ، فلما  
 رأنا جميعاً ضحك وقال : من كان الذي تولى إصلاح ما كنا سررنا بفساده ؟  
 قلنا : قد كان ما كان ، فأطرق قليلاً ثم أنشد :

مَنْ لَا أَسْمِي وَلَا أَبُوحُ بِهِ أَصْلَحَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَهْوَى  
 أُرْسَلْتُ مَنْ كَابَدَ الْهَوَى فِدْرَى كَيْفَ يَدَاوِي مَوَاقِعَ الْبَلْوَى  
 وَلِي حَقُوقٌ فِي الْحَبِّ ثَابِتَةٌ لَكِنْ الْإِنْفِي يَعْذُهَا دَعْوَى

وقد ذكرنا في هذا الكتاب من غرائب أبي عامر ابن شهيد في مواضع متفرقة  
 الغرائب ، وقدمنا في الباب الرابع حكايته مع المرأة الداخلة في رمضان لجامع  
 قرطبة وحكيها [ ها ] هناك بلفظ « المطمح » فلتراجع .

وعبر ابن ظافر عن معناها بقوله<sup>٢</sup> : إن أبا عامر كان مع جماعة من أصحابه  
 بجامع قرطبة في ليلة السابع والعشرين من رمضان<sup>٣</sup> ، فمرت امرأة به من بنات  
 أجلاء قرطبة ، قد كملت حسناً وظرفاً ، ومعها طفل يتبعها كالظبية تستبج  
 خشفاً ، وقد حفّت بها الجوارى ، كالبدر حُفّ بالدراري ، فحين رأت تلك  
 الجماعة ، المعروفة بالخلاعة ، وقد رمقوا ذلك الظبي بعيون أسودٍ رأت فريسة ،

١ البدائع : إخواني .

٢ بدائع البدائه ٢ : ١٠٧ .

٣ من رمضان : سقطت من ب .

ارتاعت وتخوّفت أن تخطف منها<sup>١</sup> تلك الدرة النفيسة ، فاستدنت إليها خشفها ،  
وألزمته عطفها ، فارتجل ابن شهيد قائلاً :

وناظرة تحت طي القناع .. الخ

ومرت في الباب الرابع هذه الأبيات .

٣٧ - وقال الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي<sup>٢</sup> : لما نعت  
أبا عامر ابن شهيد إلى أبي عبد الله الحنّاط<sup>٣</sup> الشاعر ، وقد عرف ما كان بينهما  
من المنافسة ، بكى وأنشدني لنفسه بديهة :

لما نعى الناعي أبا عامرٍ أيقنتُ أنني لستُ بالصابرِ  
أودى فتى الظرفِ وتربُّ الندى وسيدُ الأولِ والآخِرِ

٣٨ - وقال ابن بسّام<sup>٤</sup> : اصطحب المعتصم بن صُمداح يوماً مع ندمائه ،  
فأبرز لهم وصيفة مهدوية متصرفة في أنواع اللعب المطرب من الدك ، وحضر  
أيضاً هناك لاعب مصري ساحر فكان لعه حسناً ، فارتجل أبو عبد الله ابن الحداد :

كذا فلتلخُ قمرًا زاهرا وتجنّي الهوى ناظراً ناضرا  
وسيبك سيبُ ندى مُغديقٍ أقامَ لنا هامياً هامرا  
وإنَّ ليومك ذا رونقاً منيراً كنورِ الضحى باهرا  
صباحُ اصطباحٍ بإسفاره لحظنا محياً العلاء سافرا  
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس فما زال كوكبها زاهرا  
وأسمعنا لاحقاً فاتناً وأحضرتنا لاعباً ساحرا

١ منها : سقطت من ب .

٢ بدائع البداهة ٢ : ١٠٩ .

٣ في الأصول : الخياط .

٤ بدائع البداهة ٢ : ١٢١ .

يرفرف فوق رؤوس القيانِ      فننظرُ ما يُذهلُ الناظرا  
ويحفظها ذيلُ سرباله      فننظرُ طالعها غائرا  
فظاهرها ينثني باطناً      وباطنها ينثني ظاهرا  
وثناه ثانٍ لأعباهِ      دقائق تنثي الحجي حائرا<sup>١</sup>  
وفي سَوْرَةِ الرَّاحِ من سحره      خواطرُ دلّتهِ الخاطرا  
إذا وَرَدَ اللَّحْظَ أَثناءها      فما الوهمُ عن وِردِها صادرا  
ومن حُسْنِ دهرِكِ إبداعهُ      فما انفكَّ عارضُها مطرا  
وسعدكُ يجتلبُ المغرباتِ      فيجعلُ غائبها حاضرا

٣٩ - قال<sup>٢</sup> : وحضر الأديب أحمد بن الشقاق عند القائد ابن دري<sup>٣</sup>  
بجيان ، هو وأبو زيد ابن مَقَانَا الأشيوني ، فأحضر لهما ؛ عبأ أسود مُغَطِّي  
بورق أخضر ، فارتجل ابن الشقاق :

عبٌ تَطَلَّعَ من حشأ ورق لناه      صُبِغَتْ غلائلُ جلدِهِ بالإمدِ  
فكأنته من بينهنَّ كواكبٌ      كسفتُ فلاحتُ في سماءِ زَبَرَجَدِ

٤٠ - قال<sup>٤</sup> : وحضر ابنُ مرزقان ليلةً عند ذي النون بن خلدون ،  
وبحضرتِه وصيفةٌ تحملُ شمعةً ، فاستحسنها ابن مرزقان ، فقال بديهاً :

يا شمعةٌ تَحْمِلُهَا أُخْرَى      كأنها شمسٌ عَكَتْ بدرا  
امتحنَتْ إحداكما مُهْجَتِي      بمثلِ ما تمتحنُ الأخرى

١ اضطربت النسخة م بعد هذا البيت وسقط منها قسط كبير وسنشير إلى موضع التثامها مع النسختين ق ب .  
٢ بدائع البداهة ٢ : ١٢٢ وروى ابن بسام القصة ( النخيرة ٢/١ : ٢٦٢ ) عن المفتل عبد العزيز  
ابن خيرة القرطبي .  
٣ ق ب : ابن دريد .  
٤ ب : فأحضرهما .  
٥ ب : له ؛ النخيرة : ندي .  
٦ بدائع البداهة ٢ : ١٢٣ .



٤١ - قال ١ : ودخل الأديب غانم يوماً على باديس صاحب غرناطة ، فوسّع له على ضيق كان في المجلس ، فقال بديهاً :

صَيَّرَ فؤادَكَ للمحبوبِ منزلةً سَمَّ الخياطِ مجالاً للمحبِّينِ  
ولا تسامحْ بغيضاً في معاشرَة فقلّما تنسَعُ الدنيا بغيضينِ = ٢٤٨  
٢٤٧

وأخذه من قول الخليل « ما تضايق سَمَّ الخياطِ بمتحايين ، ولا اتسعت الدنيا لمتباغضين » ٢ . وكان الخليل على نُمرقة صغيرة ، والمجلسُ متضايق ، فدخل عليه بعضُ أصحابه ، فرحّب به وأجلسه معه على النمرقة ، فقال له الرجل : إنَّها لا تسعنا ، فقال ما ذكر .

٤٢ - وقال ابن بسّام أيضاً ٣ : أمر الحاجب المنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة بعرض بعض الجند في بعض الأيام ، ورئيسهم مملوك له رومي يقال له خيار في نهاية الجمال ، فجعل ينفخ في القرن ليجتمع أصحابه على عادة لهم في ذلك ، فقال ابن هندو الداني فيه ارتجالاً ٤ :

أعَنَ بابلُ أجفانُ عينيكُ تنفثُ ومن قومِ موسى أنتَ للعهد تنكثُ  
أفي الحقِّ أن تحكي سَرافيلَ نافخاً وأمكثُ في رَمَسِ الصُّدودِ وألبثُ  
عساک ، نبيّ الحسن ، تأتي بآيةٍ فتنفخُ في ميتِ الصُّدودِ فيبيعثُ

٤٣ - قال : وكان بقرطبة غلام وسيم ، فمر عليه ابن فرج الجياني ، ومعه صاحب له ، فقال صاحبه : إنَّه لصبيح لولا صفرة فيه ، فقال ابن فرج ارتجالاً ٤ :

١ المصدر نفسه : ١٢٣ .

٢ ب : بمتباغضين .

٣ الذخيرة ( ٣ : ٢٨٢ ) .

٤ الذخيرة ( ٣ : ٢٨٠ ) .

قالوا : بهِ صُفْرَةٌ عابت محاسنَهُ فقلتُ : ما ذاك من عيبٍ بهِ نزلا  
عيناهُ تطلبُ في أوتارٍ من قتلتُ فليستَ تلقاهُ إلاّ خائفاً وجِلا

قال : وكان يوماً مع لمة من أهل الأدب في مجلس أنس ، فاحتاج رب  
المنزل إلى دينار ، فوجهه إلى السوق ، فدخل به عليهم غلام من الصيارف في  
نهاية الجمال ، فرمى بالدينار إليهم من فيه تماجناً ، فقال ابن فرج<sup>١</sup> :

أبصرتُ ديناراً بكفٍ مهفهفٍ يُزهي بهِ من كثرةِ الإعجابِ  
أوما بهِ من فيه ثم رمى بهِ فكأنه بدرٌ رمى بشهابِ

٤٤ - قال<sup>٢</sup> : وخرج الأديب أبو الحسن ابن حصن الإشبيلي إلى وادي  
قرطبة في نزهة ، فتذكر إشبيلية ، فقال بديهاً :

ذكرتُك يا حمصُ ذكرى هوى ألماتِ الحسودِ وتعنيتَه  
كأنك والشمسُ عند الغروبِ عروسٌ من الحسنِ منحوتَه  
غدا النهرُ عقدكِ والطودُ تا جكِ والشمسُ أعلاه ياقوته

انتهى .

٤٥ - وعبر بعضهم ، وهو صاحب « بدائع البدائه » عن بعض حكايات  
صاحب القلائد بما يقاربه في المعنى ، فقال<sup>٣</sup> : إن المستعين بن هودٍ ملكَ  
سرقسطة والثغور ركب نهر سرقسطة يوماً لتفقد بعض معاقله ، المنتظمة بجيد  
ساحله ، وهو نهر رقة ماؤه وراق ، وأزرى على نيل مصر ودجلة العراق ، قد  
اكتنفتَه البساتين من جانبيه ، وألقت ظلها عليه ، فما تكاد عين الشمس أن

١ الذخيرة ( ٣ : ٢٨٠ ) .

٢ بدائع البدائه ٢ : ١٢٤ .

٣ بدائع البدائه ٢ : ١٢٤ .

تنظر إليه ، هذا على اتساع عرضه ، وبعُد سطح مائه من أرضه ، وقد توسّط زورقه زوارق حاشيته توسّط البدر للهالّة ، وأحاطت به إحاطة الطفاوة<sup>١</sup> بالغزاة ، وقد أعدّوا من مكاييد الصيد ما استخرج ذخائر الماء ، وأخاف حتى حوت السماء ، وأهيلة الهالات طالعة من الموج في سحب ، وقانصة من بنات الماء كلّ طائرة كالشهاب ، فلا ترى إلاّ صيوداً كقصدي الصوارم ، وقدود اللهازم ، ومعاصم الأبقار النواعم ، فقال الوزير أبو الفضل ابن حسداي والطرب قد استهواه ، وبديع ذلك المرأى قد استرقّ هَوَاهُ :

لله يومٌ أنيقٌ واضحُ الغررِ	مفضّضٌ مُذهبُ الآصالِ والبُكرِ
كأنما الدهرُ لما ساءَ أعتبنا	فيه بعثي فأبدي صفحَ معتدِرِ
نسيرُ في زورقِ حَفّ السرورِ به	من جانيه بمنظومٍ ومنتشرِ
مدّ الشراعُ به قدّأ على ملكِ	بدّ الأوائِلَ في أيامه الأخرِ
هو الإمامُ الهمامُ المستعينُ حوى	علياء مؤتمنٍ في هدّي مقتدِرِ
تحوي السفينةُ منه آيةً عجبا	بحرٌ تجمّع حتى صار في نهَرِ
تثار من قعره النينانُ مُصعدةٌ	صيداً كما ظفر الغواصُ بالدرِ
وللتدامي به عبّ ومرتشفٌ	كالريق يعذبُ في وردٍ وفي صدَرِ
والشربُ في ودّ مولى خلّقه زهرٌ	يذكو وبهجتهُ أبهى من القمَرِ

ثمّ قال ما معناه<sup>٢</sup> : وقوله « نينان » غير معروف ، فإن نونا لم يجيء جمعها على نينان ، وقد كان سيويوه لحن بشار بن برد في قوله في صفة السفينة :

تلاعَبُ نينانُ البحورِ وربّما رأيت نفوس القوم من جربها تجري

فغيره بشار بـ « تيار البحور » ، وقد قال أبو الطيب يصف خيلاً :

١ الطفاوة : دارة الشمس .

٢ بدائع البداهة ٢ : ١٢٧ .

فهنَّ مع السيِّدان في البرِّ عُسَلٌ<sup>١</sup> وهُنَّ مع النينانِ في البحرِ عُوَمٌ  
انتهى .

والمستعين بن هود هو أحمد بن المؤتمن على أمرِ الله يوسف بن المقتدر بالله  
أحمد بن المستضيء بالله سليمان بن هود ، الجُدّامي ، رحم الله تعالى الجميع .

٤٦ - وعبر المذكور عن قضية ابن وهبُون في هلال شوال بما نصّه<sup>١</sup> :  
خرج ابن وهبون يوماً لنظر هلال شوال ، وأبو بكر ابن القَبْطُرُنة الوزير يسايره ،  
وهو يومئذ غلام يُخنجل البدر ، ويدوي<sup>٢</sup> الغُصنَ النَّضْر ، وصفحته لم يسطرها  
العِدَارُ بأنفاسه ، ووردة خده لم يسترها الشَّعرُ بآسه ، فارتجل عبد الجليل :

يا هلالُ اسْتَتِرْ بوجهك عني إنَّ مولاكَ قابضٌ بشمالي  
هَبْكَ تحكي سناه خدّاً بخدِّ قم فجنني لقدّه بمثالي

وقد ذكرنا هذه الحكاية في غير هذا الموضع بلفظ الفتح في « القلائد » ولكننا  
أعدناها هنا لتعبير صاحب « البدائع » عنها محاكياً لطريقته .

٤٧ - وذكر ابن بَسَّام<sup>٣</sup> أن الوزير أبا عبد الله ابن أبي الخصال وقف بباب  
بعض القضاة ، واستأذن عليه ، فحُجِب عنه ، فكتب إليه بديهاً<sup>٤</sup> :

جئناك للحاجة المطولِ صاحبها وأنت تنعمُ والإخوانُ في بوسِ  
وقد وقفنا طويلاً عند بابكم ثم انصرفنا على رأي ابن عبْدوسِ

أشار به إلى قول الوزير أبي عامر ابن عبدوس :

١ المصدر السابق ٢ : ١٢٨ .

٢ البدائع : وزير .

٣ بدائع البدائع ٢ : ١٤٧ .

٤ ب : بديهة .

لنا قاضٍ له خُلُقٌ أَقْلٌ ذَمِيمُهُ النَّزَقُ  
إذا جِئناهُ يَجْبِنَا فَتَلْعَنُهُ وَنَفْتَرِقُ

وهو تمليح مليح ، سامح الله تعالى الجميع .

٤٨ - وقال أبو جعفر الكاتب القرطبي الربضي <sup>١</sup> :

وأبي المدامة ما أريد بشرها صَلَفَ الرقيق ولا انهماك اللاهي  
لم يبقَ من عَصْرِ الشبابِ وطيبه شيء كعهدي لم يَحُلْ إلا هي  
إن كنتُ أشربها لغيرِ وفائها فتركتها للناس لا لله

وبعضهم ينسبها لأبي القاسم عامر بن هشام ، والصواب - كما قال ابن الأبار <sup>٢</sup> - الأول .

وقال أبو جعفر المذكور في فوارة رخام كلّفه وصفها والي قرطبة <sup>٣</sup> :

ما شَغَلَ الطَّرْفَ مثلُ فائِرةٍ تَمَجُّ صِرْفَ الحِياةِ مِنْ فيها  
أشربُ بها والحبابُ في جِذالٍ يُظْهره حُسْنُها ويخفيها  
تَكَادُ مِنْ رِقَّةٍ تَضْمِنُها تخطبها العينُ إذ توافيها  
كأنها دُرَّةٌ مُنَعَمَةٌ زهراءُ قد ذاب نصفها فيها

ومن شعره أيضاً :

١ انظر ما سبق ص : ٢٢٨ ، وأبو جعفر هذا هو أحمد بن عبد الرحمن اللخمي الكاتب من أهل قرطبة ويعرف بالربضي لسكناه بالربض الشرقي منها ؛ توفي سنة ٦١٠ (المقتضب من تحفة القادِم : ١٢٦) .

٢ قال ابن الأبار : وهذه الأبيات قد أنشدنيها بعض الأعلام لأبي القاسم عامر بن هشام وإنما هي لأبي جعفر هذا أنشدنيها صاحبنا أبو الحسن حازم بن محمد الأديب . . . إلخ (الوافي ٧ : ٢٤ نقلا عن التحفة ولم يرد في المقتضب) .

٣ الأبيات في الوافي ٧ : الورقة ٢٤ ؛ وكذلك الأبيات التي تليها .

ضحك المشيبُ براسه فيكي بأعينِ كاسه  
رجلٌ نخوتهُ الزمما ن بيؤسه وبياسه  
فجرى على غلوائه طلقَ الجموحِ بناسه  
أخذاً بأوفرِ حظّه لرجائه من ياسه

٤٩ - وقال أحد بني القبطرنة الوزراء<sup>١</sup> :

ذكرتُ سليمي ونارُ الوغي بقلبي كساعةٍ فارقتها  
وأبصرتُ قدّ القنا شبيها وقد ملنَ نحوي فعانقتها

وهذا معنى بديع ما أراه سبق به .

٥٠ - وقال أبو الحسن ابن الغليظ المالقي<sup>٢</sup> : قلت يوماً للأديب أبي عبد الله  
ابن السراج المالقي ، ونحن على جرية ماء : أجزّ :

شربنا على ماء كأنّ خريره

فقال مبادراً :

بُكاءٍ محبّ بان عنه حيبُ

فمن كان مشغولاً كثيراً بإلفه فإني مشغوفٌ به وكثيرُ

٥١ - وكتب أبو بكر البلسنسي<sup>٣</sup> إلى الأديب أبي بحر صفوان بن إدريس  
هذين البيتين يستجيزه القسم الأخير منهما :

١ انظر القلائد : ١٥٥ والمغرب ١ : ٣٦٨ .

٢ بدائع البدائنه ١ : ٧٣ .

٣ بدائع البدائنه ١ : ٧٩ .

خليلي أبا بحرٍ وما قرَّفتُ اللَّمَى<sup>١</sup>  
أجز غير مأمورٍ قسيماً نظمتُهُ  
بأعدبَ من قولي خليلي أبا بحرٍ  
تأملْ على نحرِ المياهِ حلَى الزَّهرِ  
فأجازه :

تأملْ على نحرِ المياهِ حلَى الزَّهرِ  
وقد ضحككتُ للياسمينِ مباسمٌ  
كعهدك بالخضراءِ والأنجُمِ الزَّهرِ  
وأصغتُ من الآسِ النضيرِ مسامعٌ  
سروراً بأدابِ الوزيرِ أبي بكرٍ  
لتسمعَ ما يتلوه من سُورِ الشعرِ  
٥٢ - وقال ابن خفاجة<sup>٢</sup> :

وما الأنسُ إلا في مجاحِ زجاجةٍ  
ولاني وإن جئتُ المشيبَ لمولعٌ  
ولا العيشُ إلا في صريرِ سريرِ  
وقال ابن خفاجة أيضاً<sup>٣</sup> :

وأسود يسبحُ في لُجَّةٍ  
كأنها في شكلها مقلنةٌ  
لا تكتمُ الحصباءُ غُدرانها  
وذلك الأسودُ إنسانها

#### [ قصائد لابن زيدون ]

٥٣ - وكتب الوزير الشهير أبو الوليد ابن زيدون إلى الوزير أبي عبد الله ابن  
عبد العزيز إثر صدوره عن بلنسية<sup>٤</sup> :

راحتْ فصحَّ بها السقيمُ  
مقبولةٌ هبتتْ قبو  
ريحٌ معطرَةٌ النسيمُ  
لأَ فهي تعبقُ في الشميمُ

١ ب : الطلي .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٨١ .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٣ ؛ وفي ق : وله .

٤ ديوان ابن زيدون : ٢٠١ ، وهي في الذخيرة والقلائد .

٥ الديوان : فراح .

أفضيضُ مسكٍ أم بكتنُ  
بلدٌ حبيبٌ أفقهُ  
إيه أبا عبدِ الإلا  
إن عيل صبري من فرا  
أو أتبعتك حنينها  
ذكرى لعهدك كالعرا  
مهما ذممتُ فما زما  
زمنٌ كمألوفِ الرضا  
أيامٍ أعقدُ ناظري  
وأرى الفتوةَ غضةً  
اللهُ يعلمُ أنَّ حبَّ  
ولئن تحمّلَ عنك لي  
قلُّ لي بأيّ خلالٍ سر  
المجدك العمم الذي  
أم ظرفك الغضّ الجنى  
أم برّك العذب الجمأ  
إن أشمستُ تلك الطلا  
أم بالبدائع كالآ  
لبلاغة إن عدّ أه  
فقرّ تسوغُ بها المدا  
إن الذي قسم الحظو  
لا أستريدُ الله نهُ  
فلقد أقرّ العينَ أذ  
حسي الثناء بحسن برّ

سيرة لربّاهما نعيم  
لفتى يحلُّ به كريم  
ه نداء مغلوب العزيم  
قك فالعذابُ به أليم  
نفسى فأنت لها قسيم  
ر سرى فبرح بالسليم  
ني في ذمامك بالذميم  
ع يشوقُ ذكراه العظيم  
في ذلك المرأى الوسيم  
في ثوبٍ أوأهٍ حلیم  
لك من فؤادي في الصميم  
جسمٌ فعن قلبٍ مقيم  
ك فيك أفتنُّ أو أهيم  
نستق الحديث مع القديم  
أم عريضك الصافي الأديم  
م وبشرك الغضّ الجميم  
قه فالندى منها مغيم  
لي من نثيرٍ أو نظيم  
لموها فأنت بها زعيم  
م إذا يكرّرها النديم  
ظ حبّاك بالخلق العظيم  
حى فيك لا بل أستديم  
لك غرةُ الزمنِ البهيم  
ك ما بدا برقٌ وشيم



ثمّ الدُّعاء بأنّ تُهَبَّ نأ طولَ عيشك في نعيمٍ  
ثمّ السلامُ تَبَلَّغْنَا هُ فغيبُ مُهْديهِ سَليمٍ

ولما ورد إشيلية نزل بدار الوزير الكاتب ذي الوزارتين أبي عامر ابن مسلمة وهو بيني مجلساً ، فصنع أبياتاً كتبت فيه <sup>١</sup> :

عُمَرُ مَنْ يَعْمُرُ ذَا الْمَجْلِسَا أَطْوَلَ عُمُرٍ يُبْهَجُ الْأَنْفُسَا  
وبعد ذَا عَوْضَ مِنْ دَارِهِ عَدْنَا وَمِنْ دِيَابِجِهِ السُّنْدَسَا  
وَلُقِّيَ النُّورَ ٢ بِهَا وَالرُّضَى وَوُقِّيَ الْأَسْوَاءَ وَالْأَبْوَسَا  
وَدَامَ عِبَادٌ لِعُضْدِ ٣ الْهَدَى يَحْرَسُ حَتَّى يَفْنِيَ الْأَحْرَسَا  
مَعْتَضِدٌ بِاللَّهِ إِحْسَانُهُ جَمٌّ إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَسَا  
الْمَلِكُ الْعَمْرُ النَّدَى الْمُقْتَنِي مِنْ كُلِّ حَمْدٍ عَلَقَهُ الْأَنْفَسَا  
إِنْ رَامَ يَوْمًا وَصَفَ عَلَيْهِ لَهْ مَفْوَةٌ مُقْتَدِرٌ أُخْرَسَا  
لَا زَالَ بَدْرًا طَالِعًا نَيِّرًا يَكْشِفُ عَنْ آمَالِنَا الْحِنْدِسَا

وقال فيه أيضاً <sup>٤</sup> :

أَدْرِمَا فَقَدْ حَسَّنَ الْمَجْلِسُ وَقَدْ آنَ أَنْ تُتْرَعَ الْأَكْوَسُ  
وَلَا تَنْسَ أَنْ أَوَانَ الرَّبِيعَ ٥ إِذَا لَمْ تَجِدْ فَقَدَهُ الْأَنْفُسُ  
فَإِنَّ خِلَالَ أَبِي عَامِرٍ بِهَا يُحَقَّرُ الْوَرْدُ وَالزَّرْجَسُ

وكتب إلى الوزير أبي المعالي المهلب بن عامر يستدعيه <sup>٦</sup> :

١ ديوان ابن زيدون : ٢٢٧ .

٢ الديوان : ووفي الفوز .

٣ الديوان : لمهد .

٤ ديوان ابن زيدون : ٢٢٨ .

٥ الديوان : ولا بأس إن كان ولي الربيع .

٦ الديوان : ٢٢٨ .

طابت لنا ليلتنا الخالية  
 أبا المعالي نحن في راحة  
 لأنهما<sup>٢</sup> عاطلة<sup>١</sup> إن تغيب<sup>٣</sup>  
 أنت الذي لو تشتري ساعة<sup>٤</sup>  
 فلتتبع<sup>١</sup> عنها هذه الثانية<sup>١</sup>  
 فانقل<sup>٢</sup> إلينا القدم<sup>٣</sup> العاليه  
 عنا فزرنا كي ترى حاله  
 منه بدهر<sup>٤</sup> لم تكن غاليه

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتباً<sup>٥</sup> :

تباعدنا على قُربِ الجِوارِ  
 تطلع لي هلالُ الهجرِ بدرًا  
 وشاع شنيعُ قطعك لي بوصلي  
 أيحمل أن تُرى عني صبورًا  
 وكنت أزيدُ سمعك من عتابي  
 فراع مودتي واحفظ جِواري  
 وزرني مُنعِمًا من غيرِ أمرٍ  
 كأننا صدنا شحطُ المزارِ  
 وصار هلالُ وصلك في سرارِ  
 فهلاً كان ذلك في استتارِ  
 فأصبح<sup>٤</sup> مولعاً دون اصطبارِ  
 ولكن عاقبي قرطُ الخمارِ  
 فإنَّ الله أوصى بالجِوارِ  
 وأنس موحشاً من عقرِ داري

فكتب إليه ابنُ زيدون<sup>٥</sup> :

هوأي وإن تناءت عنك داري  
 مقيم<sup>١</sup> لا تغيره عواد  
 رأيتك قلت إن الهجرَ بدرٌ  
 وراك أنتي جلدٌ صبورٌ  
 كمثلِ هوأي في حال الجِوارِ  
 تُباعدُ بينَ أحيانِ المزارِ  
 متى خلتِ البدورُ من السرارِ  
 وكم صبرٍ يكونُ عن اصطبارِ

١ الديوان : فلتتسناها . . . التايه .

٢ الديوان : ليلتنا .

٣ الديوان : ٢٠٤ .

٤ ب : وأصبح .

٥ الديوان : ٢٠٥ .

ولم أهجر لعتب ، غير أني  
 وإن الخمر ليس لها خمار  
 وهل أنسى لديك نعيم عيش  
 وساعات يجولُ اللهو فيها  
 وإن يكُ فرَّ عنك اليوم جسمي  
 وكنت على العباد أجل شيء  
 أضرتُ بي معاقرَةُ العقارِ  
 يبرِّحُ بي فكيف مع الخمارِ  
 كوشِي الخلدُ طُرزَ بالعذارِ  
 مجالَ الطلِّ في حدقِ البهارِ  
 فُديتَ فما لقلبي من فرارِ  
 لدي فكيف إذ أصبحت جاري

وكان أبو العتَّاف إذ ورد إشبيلية رسولاً قد سأله أن يُريَه شيئاً من شعره فمطله به ، حتى كتب إليه شعراً يستبطنه ، فأجابه ابن زيدون في العرّوض والقافية<sup>٢</sup> :

أفدَّتني من نفائسِ الدررِ ما أبرزته غوائصُ الفكرِ  
 من لفظةٍ قارنتُ نظائرها قرانَ سقمِ الجفونِ للحوَرِ  
 وهي أكثر مما ذكره .

وكتب رحمه الله تعالى - أعني ذا الوزارتين ابن زيدون - إلى ولادة<sup>٣</sup> :

أضحى التَّنائي بديلاً من تدانينا  
 ألا وقد حان صُبحُ الليل صبَّحنا  
 من مَبْلَغِ المَلْبَسِينا بانتزاحِهِمْ  
 أن الزمانَ الذي ما زال يُضحكننا  
 غيظَ العدا من تساقينا الهوى فدعوا  
 ونابَ عن طيبِ دُنيانا تجافينا  
 حينَ فقام بنا للحين ناعينا  
 حُزنًا مع الدهرِ لا يبلى ويُبلىنا  
 أنسأ بقربهمُ قد عادَ يَبْكِينا  
 بأن نغصَّ فقال الدهرُ آمينا

١ هذا البيت والذي يليه سقطا من ب .

٢ في الأصول : الظل . . . النهار ، والتصويب عن الديوان .

٣ الديوان ٢٠٦ .

٤ ب : أفادني .

٥ هي في عشرين بيتاً .

٦ ديوان ابن زيدون : ١٢١ .

وانبت ما كان موصولاً بأيدينا  
 واليوم نحن وما يرجى تلاقينا  
 هل نال حظاً من العتي أعادينا  
 رأياً ولم نقتلده غيره ديناً  
 وقد يشنا فما لليأس يغرنا  
 شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا  
 يقضي علينا الأسي لولا تأسينا  
 سوداً وكانت بكم بيضاً لبالينا  
 ومورد الهوى صافٍ من تصافينا  
 قُطوفها فجنينا منه ما شينا  
 كنتم لأرواحنا إلا رباحينا  
 أن طال ما غير النأي المحبيننا  
 منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا  
 من كان صرف الهوى والود يسقينا  
 إلفاً تذكره أمسى يُعنيننا  
 من لو على البعد حياً كان يحينا  
 فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا  
 مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا  
 من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا  
 توم العقود<sup>٣</sup> وأدمته البرى لينا

فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا  
 بالأمس كتناً وما يُخشى تفرقنا  
 ياليت شعري ولم نعتب أعاديكم  
 لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم  
 كتناً نرى اليأس تُسلينا عوارضه  
 بنم وبتنا فما ابتلت جوانحنا  
 نكاد حين تناجيكم ضمائرنا  
 حالت لفقدكم أيامنا فغدت  
 إذ جانب العيش طلق من تألقنا  
 وإذا هصرنا فنون الوصل دائية  
 ليُسق عهدكم عهد السرور فما  
 لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا  
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً  
 يا ساري البرق غاد القصر فاسق به  
 وأسأل هنالك هل عنى تذكرنا  
 ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا  
 من لا يرى الدهر يقضينا مساعفة  
 من بيت<sup>٢</sup> ملك كأن الله أنشأه  
 أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه  
 إذا تأود آدته رفاهية

١ الديوان : وقد نكون .

٢ الديوان : ربيب .

٣ ب : تدمي العقول .

كانت له الشمسُ ظئراً في تكلُّه  
كأما أُثبتت في صحن وجنته  
ما ضرَّ أن لم نكن أكفاهُ شرفاً  
يا روضةً طالما أجت لواحظنا  
ويا حياةً تمكَّينا بزهرتها  
ويا نعيماً خطرنا من غضارته  
لسنا نسميك إجلالاً وتكرمةً  
إذا انفردت وما شورك في صفة  
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها  
كأننا لم نبت والوصلُ ثالثنا  
سرَّان في خاطر الظلماء تكتمنا  
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نبت  
إنا قرأنا الأسي يوم النوى سوراً  
أما هواك فلم نعدل بمشربه  
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه  
ولا اختياراً تجنِّبناك عن كشب  
نأسي عليك إذا حثت مشعشةً  
لا أكؤسُ الراح تُبدي من شمائلنا  
دومي على العهد ما دمننا محافظةً  
فما استعضنا خليلاً عنك يحبسنا  
ولو صبا نحونا من أفق مطلعته  
أبلي وفاة وإن لم تبذلي صلةً  
وفي الجواب متاع لو شفعت به  
عليك بنتي سلام الله ما بقيت

بل ما تجلّي لها إلا أحياننا  
زهر الكواكب تعويداً وتزيينا  
وفي المودة كاف من تكافينا  
وردأ جلاه الصبا غضاً ونسرنا  
منى ضروباً ولذات أفانينا  
في وشي نعلمي سحبا ذيله حيننا  
وقدرك المعالي عن ذاك يغينا  
فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيننا  
والكوثر العذب زقوماً وغسلينا  
والسعد قد غض من أجفاننا واشينا  
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا  
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا  
مكتوبةً وأخذنا الصبر تلقينا  
شرباً وإن كان يروينا فيظميننا  
سالمين عنه ولم نهجره قالينا  
لكن عدتنا على كره عوادينا  
فينا الشمول وغنانا مغنينا  
سيما ارتساح ولا الأوتار تلهينا  
فالحر من دان إنصافاً كما دينا  
ولا استفدنا حبيباً عنك يغينا  
بدر الدجى لم يكن حاشاك يصينا  
فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا  
بيض الأيدي التي ما زلت تولينا  
صبا بك نخفيها وتخفيننا

وإنما ذكرت هذه القصيدة - مع طولها - لبراعتها ، ولأن كثيراً من الناس لا يذكر جملتها ، ويظن أن ما في القلائد وغيرها منها هو جميعها ، وليس كذلك ، فهي وإن اشتهرت بالمشرق والمغرب لم يذكر جملتها إلا القليل ، وقد كنت وقفت بالمغرب على تسديس لها لبعض علماء المغرب ، ولم يحضرنى منه الآن إلا قوله في المطلع :

ما للعيونِ بسهمِ الغنَجِ تُصْمِنَا      وعن قَطَافِ جَنَى الأَعْطَافِ تَحْمِنَا  
تَأَلَّفُ كَانِ يَحْمِنَا وَيُضْمِنُنَا      تَفَرَّقُ عَاثٌ فِي شَمْلِ المَحْمِنَا  
أَضْحَى التَّنَائِي بِدَيْسَلًا مِنْ تَدَانِنَا      وَنَابَ عَنِ طَيْبِ دُنْيَانَا تَجَافِنَا

وما أحسن قوله في هذا التسديس :

مَا لِلأَحْبَةِ دَانُوا بِالنَوَى وَرَأَوْا      تَعْرِضُ عَهْدَ اللِقَا بِالْبَعْدِ حِينَ نَأَوْا  
رَعَاهُمُ اللهُ كَانُوا لِلْعَهودِ رَعَوْا      فَغَيَّرْتَهُمْ وَشَاءَ بِالفَسَادِ سَعَوْا  
غِيظَ العَدَا مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى فَدَعَوْا      بَأْنَ نَغَصَّ فَقالَ الدَهرُ آمِينَا

وقد ذكرنا في الباب الرابع موشحة ابن الوكيل التي وطأ فيها لنونية ابن زيدون هذه فلتراجع<sup>١</sup> .

رجع - وقال ذو الوزارتين ابن زيدون يتغزل<sup>٢</sup> :

وَصَحَّ الصَبْحُ<sup>٣</sup> المَبِينُ      وَجَلَا الشَكَّ اليَقِينُ  
وَرَأَى الأَعْدَاءُ مَا غ      رَتَمُ مِنْكَ الظَّنُونُ  
أَمَلُوا مَا لَيْسَ يُمْتَنَى      وَرَجَّوْا مَا لَا يَكُونُ  
وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونََ ال      عَبْدَ مَوْلَى لَا يَخُونُ

١ انظر النفع ج ١ ص : ٦٣٢ .

٢ ديوان ابن زيدون : ١٧٦ .

٣ الديوان : الحق .

فإذا الغيبُ سليمٌ  
 قل لمن دان بهجري  
 أرخصَ الحبِّ فؤادي  
 يا هلالاً تراءا  
 عجباً للقلبِ يقسو  
 ما الذي ضرَّك لو سـُ  
 وتلطفتَ بصبـِ  
 فوجوهُ اللطفِ شتى  
 وإذا العهدُ مَصونٌ  
 وهواني إذ يسدين<sup>١</sup>  
 لكَ والعليقُ ثمينٌ  
 هُ نفوسٌ لا عيونُ  
 منكَ والعطفُ يلينُ  
 مرّاً بمراكِ الحزينِ  
 حينُهُ فيكَ يحينُ  
 والمعاذيرُ فنونُ

وقال أيضاً<sup>٢</sup> :

إليكَ من الأنامِ غدا ارتياحي  
 وما اعترضتْ همومُ النفسِ إلا  
 فديتُكَ إن صبري عنك صبري  
 ولي أملٌ لو الواشونَ كفوا  
 وأعجبُ كيفَ يغلبي عدوُّ  
 ولما أن جلتكَ لي اختلاسا  
 رأيتُ الشمسَ تطلعُ في نقابِ  
 فلو أستطيع طيرتُ إليكَ شوقاً  
 على حالي وصالٍ واجتنابِ  
 وحسي أن تظالمك الأمانى  
 فؤادي من أسى بك غيرُ خالٍ  
 وأنتَ من الزمانِ مدى اقتراحي  
 ومن ذكراكَ ريحاني وراحي  
 لدى عطشي عن الماء القراحِ  
 لأطلعَ غرسُهُ ثمرَ النجاحِ  
 رضاكَ عليه من أمضى سلاحِ  
 أكفُ الدهرِ للحينِ المتاحِ  
 وغصنَ البانِ يرفلُ في وشاحِ  
 وكيفَ يطيرُ مقصوصُ الجناحِ  
 وفي يومي دُنُوً وانتراحِ  
 بأفئدكَ في مساءٍ أو صباحِ  
 وقلبي من هوى لك غيرُ صاحِ

١ الديوان : وهواه لي دين .

٢ ديوانه : ١٤٨ .

وأن تهدي السلامَ إليّ شوقاً  
وقال ١ :

كمْ ذَا أُرِيدُ وَلَا أُرَادُ  
أَصْفِي الْوَدَادَ إِلَى الَّذِي ٢  
كَيْفَ السُّلُوكُ عَنِ الَّذِي  
يَقْضِي عَلَيَّ دَلَالَهُ  
مَلِكَ الْقُلُوبِ بِحَسَنِهِ  
يَا هَاجِرِي كَمْ أَسْتَفِي  
أَفَلَا رَيْتَ لِمَنْ يَبِي  
إِنْ أَجْنُ ذَنْبًا فِي الْهَوَى  
كَانَ الرِّضَى وَأَعْيَدُهُ  
لِلَّهِ مَا لَقِيَ الْفُؤَادُ  
لَمْ يَصِفْ لِي مِنْهُ الْوَدَادُ  
مِثْوَاهُ مِنْ قَلْبِي السَّوَادُ  
فِي كُلِّ حِينٍ أَوْ يَكَادُ  
فَلَهَا إِذَا أَمَرَ اتَّقِيادُ  
دُ الصَّبْرِ عَنْكَ فَلَا أَفَادُ  
تُ وَحَشَوُ مَقْلَتِهِ السَّهَادُ  
خَطَأً فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ  
أَنْ يَعْقُبَ الْكُونَ الْفَسَادُ

وقال ٣ :

مَتَى أَنْبَيْتُكَ مَا بِي  
مَتَى يَنْوِبُ لِسَانِي  
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي  
فَمَا يَلِدُ مَنْامِي  
يَا فِتْنَةَ الْمُتَعَزِّي  
الشمسُ أَنْتَ تَوَارَتْ  
يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي  
فِي شَرْحِهِ عَنِ كِتَابِي  
أَصْبَحْتُ فِيكَ لَمَّا بِي  
وَلَا يَسُوعُ شَرَابِي  
وَحُجَّةَ الْمُتَصَابِي  
عَنْ نَاطِرِي بِالْحِجَابِ

١ ديوان ابن زيدون : ١٧٨ .

٢ الديوان : مدلا .

٣ ديوانه : ١٤٩ .

٤ إلى هنا ينتهي ما يقطع من النسخة م .



ما النورُ شَفَّ سَنَاهُ  
إِلَّا كَوَجْهَكَ لَمَّا  
على رقيقِ السَّحَابِ  
أضَاءَ تَحْتَ النَّقَابِ

وقال ١ :

هَلْ لِدَاعِيكَ مَجِيبُ  
يَا قَرِيبًا حِينَ يَنَآيُ  
كَيْفَ يَسْلُوكَ مَحَبُّ  
إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ  
قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنِّ  
إِنَّ سِرَّ الْحَسَنِ مِمَّا  
أَمْ لَشَاكِيكَ طَيِّبُ  
حَاضِرًا حِينَ يَغِيبُ  
زَانَهُ مِنْكَ حَيِّبُ  
تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ  
هُوَ لَا شَكَّ مَصِيبُ  
أَضْمَرْتُ تِلْكَ الْقُلُوبُ

وقال ٢ :

أَنْتَى تُضَيِّعُ عَهْدَكَ  
وَقَدْ رَأَيْتَكَ الْأَمَانِي  
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَعِنْدِي  
هَلْ طَالَ لَيْلُكَ بَعْدِي  
سَلْتِي حَيَاتِي أَهْبَبَهَا  
الدَّهْرُ عِبْدِي لَمَّا  
أَمْ كَيْفَ تَخْلَفُ وَعِنْدَكَ  
رَضَى فَلَمْ تَتَعَدَّكَ  
مَا لَيْسَ فِي الْحَبِّ عِنْدَكَ  
كَطُولِ لَيْلِي بَعْدَكَ  
فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ  
أَصْبَحْتُ فِي الْحَبِّ عِبْدَكَ

وقال رحمه الله تعالى ، وقد أمره السلطان أن يعارض قطعاً كان يغني بها

واستحسن ألقائها ٥ :

١ ديوان ابن زيدون : ١٦٤ .

٢ ديوانه : ١٦٥ .

٣ الديوان : يا ليت مالك عندي من الهوى لي عندك

٤ الديوان : فطال .

٥ ديوانه : ٥١٢ .

وَيَشْفِي وَصَالِكَ قَلْبِي الْعَلِيلا  
فَقَدْتُ نَسِيمَ الْحَيَاةِ الْبَلِيلا  
وَلَمْ يُبَدِّ عَذْرِي وَجْهًا جَمِيلا  
وَيَدَّ بِاللَّهِ مَوْلَى مُقِيلا  
يُظِلُّ الصَّرِيرُ بِيَارِي الصَّلِيلا

يُقَصِّرُ قَرْبُكَ لَيْلِي الطَّوِيلَا  
وَإِنْ عَصَفَتْ مِنْكَ رِيحُ الصُّدُودِ  
كَمَا أَتَيْتَنِي إِنْ أَطَلَّتْ الْعِثَارُ  
وَجَدْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الظَّافِرِ الْمَا  
لْأَقْلَامِهِ فِعْلٌ ١ أَسْيَافِهِ

وقال يهنيه بالقدوم من السفر ٢ :

وَاجْتَلِ التَّائِيدَ فِي أَجْهِ الصُّورِ  
فِيهِ مِنْ غَرَسِ الْمَنَى أَحْلَى الثَّمَرِ  
شَاتِقٍ مِنْكَ إِلَى أَنْسِ الصَّدْرِ  
عَاطِرِ الْآصَالِ وَضَاحِ الْبُكْرِ  
يَشْتَكِي مِنْ لَيْلِهِ مَطْلَ السَّحَرِ  
وَلشَادِينَا يُطِيلُ ٣ قَطَعَ الْوَتْرُ

أَيْهَا الظَّافِرُ أَبْشُرْ بِالظَّفَرِ  
وَتَفِيئًا ظِلِّ سَعْدٍ يُجْتَنِي  
وَرِدِ النَّجْحَ فَكَمْ مَسْتَوْحِشٍ  
كَانَ مِنْ قَرْبِكَ فِي عَيْشٍ نَدِي  
فَتَوَى دُونَكَ مَثْوَى قَلْقٍ  
قُلْ لِسَاقِينَا يَجِدُ أَكْؤُسَهُ

ومنها :

جَالِبِ التَّمْرِ إِلَى أَرْضِ هَجْرٍ  
نِعْمَةُ الْمَوْلَى عَلَيْهِ فَشْكُرُ  
قَاضِيًا أَثْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرٍ  
سَرَّتْ فِي إِرْضَائِهِ أَزْكَى السَّيْرِ  
فَانْتَحْتَهُمْ مِنْكَ صَمَاءَ الْغَبْرِ ٤

لِي فِيهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ فِي  
ثُمَّ قَدْ وَفَّقَ عَبْدٌ عَظُمْتَ  
لَا عَدَا حَظَّكَ إِقْبَالَ يَرَى  
وَاصْطَبِحْ كَأْسَ الرِّضَى مِنْ مَلِكٍ  
حِينَ صَمَمْتَ إِلَى أَعْدَائِهِ

١ الديوان : وأقلامه وفق .

٢ ديوانه : ٥١٤ .

٣ الديوان : يجز . . . يصل .

٤ صماء الغبر : الداهية .

فاض غَمْرٌ للندى من فَوْقِهِمْ  
كان يروي شربهم منه الغَمْرُ  
سبقَ الناسَ فصلّى سابقٌ  
إذ رأى آثاره مثلَ الزَّهْرِ<sup>١</sup>

وهي طويلة .

وقال رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> :

لم يكنْ هَجْرٌ حبيبي عن قِلي  
سَرَهُ دعوى ادعائي ثمّ لم  
أنا راضٍ بالذي يرضى به  
مَثَلٌ في كلِّ حُسْنٍ مثلَ ما  
يا فتيتَ المسكِ يا شمسَ الضحى  
إنْ يكنْ لي أملٌ غيرُ الرضى  
لا ولا ذاكَ التجنّي مَلَا  
يَدْرٍ ما غاية صبري فابتل  
لي من لو قال مُتْ ما قلتُ لا  
صار حالي في هواهُ مَثَلَا  
يا قضيبَ البانِ يا ظبيَ الفلا  
منك لا بُلِّغْتُ ذاكَ الأملَا

وقال رحمه الله تعالى<sup>٣</sup> :

أذكرتني سالفَ العيشِ الذي طابا  
إذْ نحنُ في روضةٍ للوصلِ أنعمها  
إنّي لأعجبُ من شوقِ يطالبي  
كمْ نظرةً لكَ عندي قدْ علمتُ بها  
قلبٌ يطيلُ معاصاتي لطاعتِكُمْ  
يا ليتَ غائبَ ذاكَ الوقتِ قد آبا  
من السرورِ غمامٌ فوقها صابا  
فكلّما قيلَ فيه قد قضى ثابا  
يومَ الزيارة أنّ القلبَ قدْ ذابا  
فإنْ أكلفهُ يوماً سلوةً يابى

وقال رحمه الله تعالى<sup>٤</sup> :

١ الديوان : . . . . . منك من إن رأى آثاره الزهر اقتفر

٢ ديوانه : ١٦٥ .

٣ ديوانه : ١٢٣ .

٤ الديوان : العهد .

٥ ديوانه : ١٩٢ .

واستحدثت القلبُ بعد العشقِ سلواني  
من الأَجِينِ عليها تاجُ عَقِيَانِ  
تَسْبِي القلوبِ بِسَاجِي الطَّرْفِ وَسَنَانِ  
يُحْيِي سَوَالِفَ أَيَّامِي وَأَزْمَانِي  
نَسَخْتُ فِي حُبِّهَا كُفْرًا بِإِيمَانِ

عاودتُ ذكْرَ الهوى من بعدِ نسياني  
من حُبِّ جاريةٍ يبدو بها صَنَمٌ  
غريرةٌ لم تفارقها تمامها  
لأَسْتَجِدَّنَ فِي عَشْقِي لَهَا زَمَنًا  
حَتَّى يَكُونَ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خَاتِمَةً

وقال رحمه الله تعالى ١ :

وسَيْلُ الهوى وَقَصْدُ الوَلْوَعِ  
لك عند الغروبِ فَضْلُ الطَّلْوَعِ  
بَ دِلَالًا من الرضى الممنوعِ  
كوكبٌ يَسْتَقِيمُ بعد الرجوعِ

أنتَ معنى الهوى وسرُّ الدموعِ  
أنتَ والشمسُ ضَرَّتَانِ ولكنْ  
ليس يا مؤنِسِي نكلُكَ ٢ العتة  
إنما أنتَ والحسودُ مُعَنَّى

وقال رحمه الله تعالى ٣ :

إلا كعهدي قِصْرَكَ  
ما بتُ أرعى قمرَكَ  
ألتدُّ عنه خَبْرَكَ  
فقال لا بل غَدَرَكَ

يا ليلُ طُلْ لا أَشْتَهِي  
لو بات عندي قَمَرِي  
يا ليلُ خَبَّرْ أَنْتِي  
باللهِ قلْ لي هلْ وفَى

وقال رحمه الله تعالى ٤ :

لأَكْتَفِينِ بِسَمَاعِ الخَبَرِ

لئن فاتني منكَ حظُّ النظرِ

١ ديوانه : ١٦٦ .

٢ الديوان : تكلُفك .

٣ ديوانه : ١٨٢ .

٤ الديوان : بوصل .

٥ ديوانه : ١٦٨ .

وإن عرضتُ غفلةً للرقيب  
أحاذرُ أن يتَجَنَّى<sup>٢</sup> الوشاةُ  
فأصبرُ مستيقناً أنه  
فحسبي بتسليمةٍ<sup>١</sup> تُختصرُ  
وقد يُستدامُ الهوى بالحدزُ  
سيحظى بنيلِ المنى من صبرُ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى<sup>٣</sup> :

أيها البدرُ الذي يـ  
حملَ القلبُ تبارك  
ثم لا تياسُ<sup>٤</sup> فكم قد  
لأ عيني من تأملٍ  
ح التَجَنَّى فتحملُ  
نيلَ أمرٍ لم يؤملُ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى<sup>٥</sup> :

أجدُّ ومن أهواهُ في الحبِّ عابثُ  
حبيبُ نأى عني مع القُربِ ، والأسى  
جفاني بألطفِ العدا وأزاله  
تَغَيَّرتَ عن عهدي وما زلتُ واثقاً  
وما كنتُ إذ ملكتك القلبَ عالماً  
ستبلى الليالي والودادُ بحاله  
فلو أتني أقسمتُ أنك قاتلي  
وأوفي له بالعهدِ إذ هو ناكثُ  
مقيمٌ له في مُضمَرِ القلبِ ماكثُ  
عن الوصلِ رأيٌ في القطيعةِ حادثُ  
بعهدك لكن غيرتك الحوادثُ  
بأني عن حفتي بكفي باحثُ  
مقيمٌ ، وغضُّ وهو للأرض وارثُ  
وأني مقتولٌ لما قيل حانثُ

وقال رحمه الله تعالى<sup>٦</sup> :

١ الديوان : تسليمة .

٢ الديوان : يتظلى .

٣ الديوان : ١٨٢ .

٤ الديوان : لا يأس .

٥ الديوان : ١٨٣ .

٦ الديوان : ١٨٦ .

يا غزالاً أصارني  
إنتي منذ هَجَرْتِي  
ليتَ حَظِّي إشارةٌ  
شافعي يا معذبي  
موتقاً في يدِ المحنِّ  
لم أذقَ لذةَ الوسنِ  
منكَ أو لحظةً تعنِّ<sup>١</sup>  
في الهوى وجهك الحسنِ  
كنتُ خلواً من الهوى  
وأنا اليومَ مُرتَهَنُ  
كان سرِّي مكتماً  
وهو الآنَ قد علنَ  
ليس لي عنك مذهبٌ  
فكما شئتَ لي فكنُ

وقال رحمه الله تعالى <sup>٢</sup> :

أيوحشُ لي الزمانُ وأنتَ أنسي  
وأغرسُ في محبتكَ الأمانِي  
لقد جازيتَ غدرأً عن وفائي  
ولو أنَّ الزمانَ أطاعَ حكْمِي  
ويُظلمُ لي النهارُ وأنتَ شمسي؟  
وأجني الموتَ من ثمراتِ غرسي  
وبعتَ مودتي ظلماً ببخسِ  
فديتكَ من مكارههِ بنفسِي<sup>٣</sup>

ومحاسن ابن زيدون كثيرة ، وقد ذكرنا منها في غير هذا المحل جملة .  
وسألتُ جارية من جواري الأندلس ذا الوزارتين أبا الوليد ابن زيدون أن  
يزيد علي بيت أنشدته إياه ، وهو <sup>٤</sup> :

يا مُعطشي من وصالٍ كنتُ واردَهُ  
هل منك لي غلَّةٌ إن صحتُ : واعطشي  
قال : وكانت الجارية المذكورة تتعشق فتى قرشياً ، والوزير يعلم ذلك ،  
وهي لا تعلم أنه يعلم ، فقال :

- ١ الديوان : عنن .
- ٢ الديوان : ١٨٥ .
- ٣ استطردت نسخة م بعد هذا البيت بإيراد أشعار أخرى لابن زيدون وذكر ترجمته من القلائد .
- ٤ ديوان ابن زيدون : ١٧٠ .

كَسَوْتِي مِنْ ثِيَابِ السُّقْمِ أَسْبَغَهَا  
 أَنْتَى بِصَرْفِ الْهَوَى عَنْ مَقْلَةٍ كُحِلَّتْ  
 لَمَّا بَدَأَ الصَّدُغُ مَسُوداً بِأَحْمَرِهِ  
 أَوْفَى إِلَى الْخَدِّ ثُمَّ انْصَاعَ مَنْعُطاً  
 لَوْ شِئْتَ زَرْتِ وَسَلَكِ اللَّيْلُ ٢ مُنْتَظِمٌ  
 جَفَا إِذَا التَّدَّتِ الْأَجْفَانُ طَيْبَ كَرِّي  
 هَذَا وَإِنْ تَلَفَّتْ نَفْسِي فَلَا عَجَبٌ

٥٤ - وكان لابن الحاج صاحب<sup>٤</sup> قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس  
 صورة : رحمون ، وعزؤون ، وحسون ، فأولع بهم الحافظ الشهير أبو محمد ابن  
 السيد البطلاني صاحب « شرح أدب الكاتب » وغيره وقال فيهم :  
 أَخْفَيْتُ سُقْمِي حَتَّى كَادَ يَخْفِينِي وَهَمْتُ فِي حَبِّ عَزْوُنٍ فَعَزَوْنِي  
 ثُمَّ أَرْحَمُونِي بِرَحْمُونٍ وَإِنْ ظَمْتُ نَفْسِي إِلَى رَيْقِ حَسُونٍ فَحَسُونِي

قال : ثم خاف على نفسه ، فخرج عن قرطبة ، وهو القاتل :

نَفْسِي الْفِدَاءُ لَجُودِي حَلَوِ اللَّيْمِ مَسْتَحْسَنِ بِصُدُودِهِ أَفْنَانِي  
 فِي فِيهِ سِمَطَا جَوْهَرِي يَرْوِي الظَّمَا لَوْ عَلَّنِي بِبَرُودِهِ أَحْيَانِي

وهذان البيتان تخرج منهما عدة مقطعات كما لا يخفى .

٥٥ - وقال أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بالأبيض ،

١ الديوان : التسالم .

٢ الديوان : النجم .

٣ الديوان : صبا . . . . . جفا .

٤ انظر أزهار الرياض ٣ : ١٠٢ ، ١٣٤ ؛ والقطعة الثانية تنفك منها ست قطع .

في تهته بمولود ، قال ابن دحية<sup>١</sup> : وهذا أبلع ما قيل في هذا المعنى :

أصاحت الخيلُ آذاناً لصرخته      واهتزَّ كلُّ هزْبٍ عندما عطسا  
تَعَشَّقَ الدرْعَ مذهُ شَدَّتْ لفائفُهُ      وأبغضَ المهْدَ لما أبصرَ الفرسا  
تعلّم الركنَ أيامَ المخاضِ به      فما امتطى الخيلَ إلا وهو قد فرسا

٥٦ - وقال الوزير الكاتب أبو عامر السالمي<sup>٢</sup> في غلام يرش الماء على خديه فتزداد حمرتها :

لقد نعمتُ بحمامٍ تطلَّعَ في      أرجائه قمرٌ والحسنُ يكمله  
أبصرتهُ كلما راقَتْ محاسنُهُ      ونعمةُ الجسمِ والأردافِ تُخجلُهُ  
يرشُ بالماءِ خديه فقلتُ له :      صف لي لما أحمرُ الياقوتِ تصقله  
فقال : طرفي سَفَاكٌ بصارمه      دماء قومٍ على خدِّي فأغسله

وقال أيضاً<sup>٣</sup> :

أوقدَ النارَ بقلبي      ثم هبَّت ريحُ صدَّةٍ  
فشرارُ النارِ طارت      فانطفت في ماء خدَّةٍ

وهو تخييل عجيب .

٥٧ - وقال ابن الحنَّاط المكفوف الأندلسي في المعنى المشهور<sup>٤</sup> :

لم يخلُ من نوبِ الزمانِ أديبُ      كلاً فشانِ النائباتِ عجيبُ  
وغضارةُ الأيامِ تَأبى أن يرى      فيها لأبناء الذكاء نصيبُ

١ المطرب : ٧٦ .

٢ المطرب : ٧٧ والشعر ليس للسالمي ، وإنما أنشده السالمي وهو لأبي الحسين ابن مظفر .

٣ المطرب : ٧٨ ؛ وهذا الشعر صحيح النسبة للسالمي .

٤ الذخيرة ١/١ : ٣٩٢ .



وكذلك مَنْ صَحِبَ اللَّيَالِي طَالِباً جَدّاً وَفَهماً فَاتَهُ الْمَطْلُوبُ

[ أشعار لابن الزقاق ]

٥٨ - وكان ابن الزقاق الأندلسي الشاعر المشهور - وقد تكرر ذكره في هذا التأليف مرات كثيرة - يسهر في الليل ، ويشتغل بالأدب ، وكان أبوه فقيراً جداً ، فلامه ، وقال له : نحن فقراء ، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه ، فاتفق أن برع في الأدب والعلم ونظم الشعر ، فقال في أبي بكر ابن عبد العزيز صاحب بكتنسية قصيدة أولها ١ :

يا شمسَ خلدٍ ما لها مغربٌ      أرامةٌ خِدرُكِ أم يثربُ  
ذهبتِ فاستعبرَ طرقي دماً      مفضضُ الدمعِ به مذهبُ

ومنها :

ناشدتُكَ اللهُ نَسيمَ الصِّبَا      أتى استقرتْ بَعْدَنَا زَيْنَبُ  
لم نَسرِ إِلَّا بِشِدَا عَرَفْهَا      أو لا فماذا النَّفْسُ الطَّيْبُ  
إِيهِ وَإِنْ عَدَّ بَنِي حُبِّهَا      فمن عذابِ النَّفْسِ ما يَعْذُبُ

فأطلق له ثلاثمائة دينار ، فجاء بها إلى أبيه وهو جالس في حانوته مكباً على صنعته ، فوضعها في حجره ، وقال : خذها فاشتر بها زيتاً .

وقال رحمه الله تعالى في غلام رمى حجراً فشدخ وجهه ٢ :

وأحوى رمى عن قسيِّ الحَوَرِ      سهاماً يُفوقُهِنَّ النَّظَرُ  
يقولون وجنته قُسمت      ورسمُ محاسنِه قد دَثِرُ

١ ديوان ابن الزقاق : ٨٠ . والمغرب ٢ : ٣٢٥ والنيث ٢ : ٨٤ .  
٢ ديوانه : ١٧٩ . والمغرب : ١٠١ ولحج السحر : ٤٨ . والمغرب ٢ : ٣٣٢ والوادي : ١٣٤ .

وما شقّ وجنته عابئاً ولكنها آية للبشر  
جلاها لنا الله كيما نرى بها كيف كان انشاق القمر

وقال أيضاً ١ :

بأبي وغير أبي أغنّ مهفهفٌ مَهْضُومٌ ما خَلَفَ الوشاحَ خَمِيصُهُ  
لَبَسَ السَّوَادَ وَمَزَقَّتْهُ جُفُونُهُ فَأَتَى كِيوسُفَ حِينَ قُدَّ قَمِيصُهُ

وقال أيضاً ٢ :

سَقَّتْني يُمْنَاهَا وفيها فَلَمَّ أزلّ  
ترشفتُ فاها إِذْ ترشفتُ كأسها يجاذبني من ذا ومن هذه سُكْرُ  
فلا والهوى لَمْ أدرِ أيهما الخمرُ

وقال ٣ :

رَقَّ النَّسِيمُ وراقَ الرّوضُ بِالزَّهَرِ فَنَبَّهَ الكَأْسَ والإبْرِيْقَ بالوْتَرِ  
ما العيشُ إِلَّا اصْطَباحُ الرّاحِ أو شَنَبٌ يُغني عن الرّاحِ من سلسالِ ذِي أَشْرٍ  
قلْ للكواعِبِ غُضِّي للكَرَى مُقْلًا فأعِينُ الزَّهْرِ أُولَى مِثْكِ السَّهْرِ  
وللصباحِ أَلَا فانشرْ رداءَ سَنًا هذا الدجى قد طوته راحةُ السَّحْرِ  
وقام بالقَهْوَةِ الصَّهْبَاءِ ذُو هَيْفٍ يكادُ مَعْظَفُهُ يَنْقَدُ بالنظْرِ  
يظنّو عَلَيَّها إِذا ما شَجَّها دُرٌّ تخالها اخْتَلِسَتْ من ثَغْرِه الخَصِرِ  
والكَأْسُ من كَفِّه بِالرّاحِ مَحْدَقَةٌ كهالةٍ أَحْدَقَتْ في الأفقِ بالقَمَرِ

١ الديوان : ١٩٦ والمطرب : ١٠٣ والشريشي ٢ : ١٦٤ والمغرب ٢ : ٣٣٤ .

٢ الديوان : الفواد .

٣ ديوان ابن الزقاق : ١٧٨ والمطرب : ١٠٤ والفوات ٢ : ١٢٦ والواقي : ١٣٤ .

٤ الديوان : ١٧٣ والمطرب : ١٠٦ والمغرب ٢ : ٣٣٢ .

٥ الديوان : لوته راحة السر .

وقال ١ :

تضوعن أنفاساً وأشرقن أوجهاً  
لئن كنّ زهراً فالجوانحُ أبرجٌ  
فهنّ منيراتُ الصباحِ بتواسمُ  
وإن كنّ زهراً فالقلوبُ كمامُ  
وهو من بديع التقسيم .

٥٩ - وقال السمسير ٢ :

تحفظُ من ثيابك ثمّ صنّها  
وميزّ في زمانك كلّ حبرٍ  
وإلاّ سوف تلبسها حدادا  
وناظر ٣ أهله تسدّ العبادا  
وظنّ بسائر الأجناس خيراً  
وأما جنسُ آدمَ فالعبادا  
أرادوني بجمعهم فرّدوا  
على الأعقاب قد نكصوا فرادى  
وعادوا بعد ذا إخوان صدق  
كبعض عقارب رجعت جرادا

٦٠ - وقال ابن رزين ، وهو من رجال الذخيرة ٤ :

لأسرّحنَ نواظري في ذلك الروض النضير  
ولآكلننك بالني ولأشربننك بالضمير

٦١ - وقال سلطان بلننسية عبد الملك بن مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ٥ :

ولا غروَ بعدي أن يسودَ معشرٌ فيضحى لهم يومٌ وليس لهم أمسُ  
كذلك نجومُ الجوّ تبدو زواهرأ إذا ما توارت في مغاربا الشمسُ

١ الديوان : ١٤٦ والمطرب : ١٠٨ والشريشي ٢ : ٣٥٣ .

٢ الذخيرة ١ / ٢ : ٣٨٣ .

٣ الذخيرة : كل حين ، ونافر ...

٤ ترجمته في الذخيرة ٣ : ٣٣ والمغرب ٢ : ٤٢٨ والقلائد : ٥١ .

٥ المغرب ٢ : ٣٠٠ .

٦٢ - وتحاكم إلى أبي أيوب سليمان بن محمد بن بطلال البطلبيوسي المعروف بالملتمس<sup>١</sup> غلامان جميلان لأحدهما وفرة شقراء، وللآخر سوداء : أيهما أحسن؟ والملتمس المذكور هو صاحب كتاب «الأحكام فيما لا يستغني عنه الحكام» ، فقال :

وشادنين ألما بي على مقة  
 كأن لمة ذا من نرجس خلقت  
 وحكما الصب في التفضيل بينهما  
 فقام بدلي إليه الريم حجته  
 فقال : وجهي بدر يستضاء به  
 وكحل عيني سحر للنهي وكذا  
 فقال صاحبه : أحسنت وصفك ل  
 أنا على أفقي شمس النهار ، ولم  
 وفضل ما عيب في عيني من زرق  
 قضيت للمة الشقراء حيث حكمت  
 فقام ذو اللمة السوداء يرشقي  
 وقال جررت فقلت الجور منك على  
 فقلت عفوك إذ أصبحت متهما

تنازعا الحسن في غايات مستبق  
 على بهار وذا مسك على ورق  
 ولم يخافا عليه رشوة الحدق  
 مبيناً بلسان منه منطلق  
 ولون شعري مصبوغ من الغسق  
 والسحر أحسن ما يعزى إلى الحدق  
 كن فاستمع لمقال في متفق  
 تغرب، وشقرة شعري حمرة الشفق  
 أن الأسنه قد تعزى إلى الزرق  
 نوراً<sup>٢</sup> كذا حبها يقضي على رمقي  
 سهام أجفانه من شدة الحنق  
 قلبي ولي شاهد من دمعي الغدق  
 فقال دونك هذا الجبل فاختنق

٦٣ - وقال أبو محمد عبد الله بن غالب :

ومُهفَهَفَ خَنَثِ الجفونِ كأنما  
 فتخاله ليلاً إذا استقبلته  
 من أرجلِ النملِ استفاد عذارا  
 وتخال ما يجري عليه نهارا

١ ترجمته في الجذوة : ٢٠٦ وبنية الملتمس رقم : ٧٦٢ وقصيدته هذه في التشبيهات : ١٢٦ .  
 ٢ ب م : لوني .

٦٤ - وقال أبو القاسم خلف بن فرج السميسر المتقدم<sup>١</sup> :

الناسُ مثلُ حَبَابِ والدهرُ بلحّةُ ماء  
فعالمٌ في طُفُوٍّ وعالمٌ في انطفاء

٦٥ - وقال أحمد بن بُرْدِ الأندلسي في الرجس ، وهو البهار عند الأندلسيين ، ويسمى العبهر<sup>٢</sup> :

تنبّه فقد شقّ البهارُ مُغَلَّسًا كمامته عن نوره<sup>٣</sup> الخضل الندي  
مداهينُ تبرٍ في أناملِ فضّةٍ على أذرعٍ مخروطةٍ من زبرجدٍ

٦٦ - وقال الوزير عبد المجيد بن عبدون في دار أنزله بها المتوكل بن الألفس وسقفها قديم ، فهطل عليه المطر منه :

أيا سامياً من جانبينه إلى العُلا « سموّ حَبَابِ الماءِ حالاً إلى حالِ »  
لعبدك دارٌ حلّ فيها كأنها « ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذى الحالِ »  
يقولُ لها لما رأى من دثورها « ألا عِمّ صباحاً أيها الظلل البالي »  
فقلتُ وما عيئتُ جواباً بردّها « وهل يعمّن من كان في العُصر الخالي »  
فمُرّ صاحبَ الانزالِ فيها بفاصلٍ « فإنّ الفتي يتهذي وليس بفَعّالِ »

قيل : وهو أبو عُدْرَةَ تضمين لامية امرىء القيس ، وقد أولع الناس بعده بتضمينها .

٦٧ - وقال أبو الفضل ابن حسداي<sup>٤</sup> ، وكان يهودياً فأسلم ، ويقال : إنه

١ تقدم هذان البيتان في م على اللذين قبلهما ( رقم : ٦٣ ) .

٢ النخيرة ٢ / ١ : ٤٨ .

٣ النخيرة : زهره .

٤ ترجمته في القلائد : ١٨٣ والأبيات فيه ص : ١٨٤ وانظر المجلد الأول : ٦٤٠ .

من ولد موسى على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام :

توريدُ خدكَ للأحداقِ لذاتُ  
نيرانُ هجركَ للعشاقِ نارُ لظيِّ  
كأنما الراحُ والراحاتُ تحمِلُها  
حُشاشةٌ ما تركنا الماءَ يقتلُها  
قد كان من قبلها في كأسها ثِقَلُ  
فخفَ إذ مُلئتُ منها الزجاجاتُ  
عليه من عنبرِ الأصداغِ لاماتُ  
لكن وصالكِ إن واصلتِ جناتُ  
بُدورُ تيمِّ وأيدي الشربِ هالاتُ  
إلا لتحيًا بها منّا حُشاشاتُ

وقد تبارى المشاركة والمغاربة من المتقدمين والمتأخرين في هذا الوزن والقافية ،  
ولولا خوف السامة لذكرت من ذلك الجملة الشافية الكافية<sup>١</sup> .

٦٨ - ومن سرعة جواب أهل الأندلس<sup>٢</sup> أن ابن عبد ربه كان صديقاً لأبي  
محمد يحيى القلقاط الشاعر ، ففسد ما بينهما بسبب أن ابن عبد ربه صاحب العقد<sup>٣</sup>  
مرّ به يوماً وكان في مشيه اضطراب ، فقال : أبا عمر ما علمت أنك آدر إلا  
اليوم لما رأيت مشيك ، فقال له ابن عبد ربه : كذبتك عرسك أبا محمد ، فعزّ  
على القلقاط كلامه ، وقال له : أتعرض للحرم ؟ والله لأرينك كيف الهجاء ،  
ثم صنع فيه قصيدة أولها :

يا عرسَ أحمدٍ إني مُزْمِعٌ سفراً فودّعيني سرّاً من أبي عمراً

ثم تهاجيا بعد ذلك ، وكان القلقاط يلقبه بطلاس لأنه كان أطلس اللحية ،  
ويسمّي كتاب العقد جبل الثوم ، فاتفق اجتماعهما يوماً عند بعض الوزراء ،  
فقال الوزير للقلقاط : كيف حالك اليوم مع أبي عمر ؟ فقال مرتجلاً :

١ م : جملة كافية شافية .

٢ بدائع البداهة ١ : ٥١ .

٣ صاحب العقد : سقطت من ب .

حالَ طِلاسٍ لِيَ عَن رَائِهِ وَكُنْتُ فِي قُعْدُدِ أَبْنَائِهِ

فبدر ابن عبد ربه وقال :

إِنْ كُنْتُ فِي قُعْدُدِ أَبْنَائِهِ فَقَدْ سَقَى أُمَّكَ مِنْ مَائِهِ

فانقطع القلقاط خجلاً ؛ وعاش ابن عبد ربه ٨٢ سنة ، رحمه الله تعالى .

٦٩ - ومن الحكايات في مروءة أهل الأندلس ما ذكره صاحب «الملتصم» في ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبي الحسين ابن جبير صاحب الرحلة ، وقد قدمنا ترجمته في الباب الخامس من هذا الكتاب ، وذكرنا هنالك أنه كان من أهل المروءات عاشقاً في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الإخوان ، وأنشدنا هنالك قوله :

يَحْسَبُ النَّاسُ بَأَنِي مُتَعَبٌ ... إلخ .

وقد ذكر ذلك كله صاحب «الملتصم» ثم قال - أعني<sup>١</sup> صاحب «الملتصم» -  
ومن أغرب ما يحكى أني كنتُ أحرص الناس<sup>٢</sup> على أن أصاهر قاضي غرناطة  
أبا محمد عبد المنعم بن الفرس ، فجعلته - يعني ابن جبير - الواسطة حتى تيسر  
ذلك ، فلم يوفق الله ما بيني وبين الزوجة ، فجنته وشكوت له ذلك ، فقال : أنا  
ما كان القصد لي في اجتماعكما ، ولكن سعت جهدي في غرضك ، وها أنا  
أسعى أيضاً في افتراقكما ، إذ هو من غرضك ، وخرج في الحين ففصل القضية ،  
ولم أر في وجهه أولاً ولا آخرأ عنواناً لامتنان ولا تصعيب ، ثم إنه طرق بابي ،  
ففتحت له ، ودخل وفي يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية ، ثم قال<sup>٣</sup> : يا ابن

١ أعني : سقطت من م .

٢ الناس : سقطت من م .

٣ م : فقال .

أخي ، اعلم أنني كنت السبب في هذه القضية ، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذي وجدته الآن عند عمك ، فبالله إلا ما سررتني بقبوله ، فقلت له : أنا ما أستحيي منك في هذا الأمر ، والله إن أخذت هذا المال لأتلفنه فيما أتلفتُ فيه مال والدي<sup>١</sup> من أمور الشباب ، ولا يحل لك أن تتمكني منه بعد أن شرحت لك أمري ، فتبسم وقال : لقد احتلت في الخروج عن المنّة بحيلة ، وانصرف بماله ، انتهى .

٧٠ - ثم قال صاحب «الملتصم» : وتذاكرنا يوماً معه حالة الزاهد أبي عمران المارتلي ، فقال : صحبته مدّة فما رأيت مثله ، وأنشدني شعرين ما نسيتهما ولا أنساهما ما استطعت ، فالأول قوله<sup>٢</sup> :

إلى كم أقولُ فلا أفعلُ	وكم ذأ أحومُ ولا أنزلُ
وأزجرُ عيني فلا ترعوي	وأنصحُ نفسي فلا تقبلُ
وكم ذأ تعللُ لي ويحها	بعلٌ وسوف وكم تمطلُ
وكم ذأ أوملُ طولَ البقا	وأغفلُ والموتُ لا يغفلُ
وفي كل يومٍ يُنادي بنا	منادي الرحيلِ ألا فارحلوا <sup>٣</sup>
أمن بعد سبعين أرجو البقا	وسبعٍ أتت بعدها تعجلُ
كأن بي وشيكاً إلى مصرعي	يُساقُ بنعشي ولا أمهلُ
فيا ليت شعري بعد السؤالِ	وطولِ المقامِ لما أنقلُ

والثاني قوله :

اسمعُ أخي نصيحتي والنصحُ من مخضِ الديانهِ

١ م : مالي ومال أبي .

٢ هاتان القطعتان في ترجمته في المغرب والفصون الياضة ، والثانية منهما مرت فيما تقدم ص : ٩٩ .

٣ المغرب : ألا فازلوا .

٤ م : كاني .



لا تَقْرَبَنَّ إِلَى الشَّهَاءِ دةِ والوساطةِ والأمانةِ  
تسلمُ من أن تُعْزَى لزو رٍ أو فضولٍ أو خيانهِ

قال : فقلت له : أراك لم تعمل بوصيته في الوساطة ، فقال : ما ساعدتني رقة  
وجهي على ذلك ، انتهى .

رجع إلى نظم الأندلسيين :

٧١ - وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز<sup>١</sup> :

أفضلُ ما استصحبَ النَّبيلُ فلا تَعْدِلُ به في المقامِ والسَّقْرِ  
جِرْمٌ إذا ما التَّمَسْتَ قيمتهُ جَلٌّ عن التبرِ<sup>٢</sup> وهو من صُفْرِ  
مختصرٌ وهو إذْ تَفْتَشُهُ عن مَلَحِ العلمِ غيرِ مختصرِ  
ذو مُقَلَّةٍ تَسْتَبِينُ ما رَمَقَتْ عن صائبِ اللحظِ صادقِ الخبرِ  
تحملة وهو حاملٌ فلكاً لو لَمْ يَدْرُ بِالْبَنانِ لم يَدْرِ  
مسكنه الأرضُ وهو يُنْبِئُنَا عن كلِّ ما في السَّماءِ من خبرِ  
أبدعه ربُّ فِكْرَةٍ بَعُدَتْ في اللطفِ عن أن تقاس بالفكرِ  
فاستوجبَ الشكرَ والثناءَ به من كلِّ ذي فطنةٍ من البشرِ  
فهو لذي اللَّبِّ شاهدٌ عَجَبٌ على اختلافِ العقولِ والصورِ

قلت : وهي من أحسن ما سمعت في الاضطراب .

وأمر رحمه الله تعالى أن يكتب على قبره<sup>٣</sup> :

سَكَنْتُكَ يا دارَ الفناءِ مصدقاً بأنِّي إلى دارِ البقاءِ أصيرُ  
وأعظمُ ما في الأمرِ أنِّي صائرٌ إلى عادلٍ في الحكمِ ليس يجورُ

١ الخريدة ١/٤ : ٢٧٢ .

٣ مرت في المجلد الثاني : ١٠٨ .

٢ ب : جل على التبر .

فيا لیت شعري كيف ألقاهُ عندها      وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ  
 فإن ألكُ مَجْزِيًّا بذنبي فإتني      بِشَرِّ عِقَابِ المذنبين جَدِيرُ  
 وإن يكُ عفوٌ من غيِّ ومُفْضِلٍ      فثُمَّ نعيمٌ دائمٌ وسرورُ

٧٢ - وقال ابن خفاجة<sup>١</sup> ، وهو ممّا أورده له صاحب الذخيرة :

لقد زار من أهوى على غير موعد      فعايَنتُ بَدَرَ التَّمِّ ذاك التلاقيا  
 وعاتبته والعتبُ يجلو حديثُهُ      وقد بَلَغَتْ رُوحِي لِدِيهِ التراقيا  
 فلما اجتمعنا قلتُ من فَرَحِي به      من الشعر بيتاً والدموع سواقيا  
 « وقد يجمعُ الله الشَّتَيْتَيْنِ بَعْدَمَا      يظنَّان كلَّ الظنِّ أن لا تلاقيا »

٧٣ - ومن مُجَوِّن الأندلسيين هذه القصيدة المنسوبة لسيدي أبي<sup>٢</sup> عبد الله

ابن الأزرق ، وهي :

عِمِّمٌ باتصالِ الزمنِ      ولا تُبالي بِمَنِ  
 وهو يواسي بالرضى      من سَمِحٍ أو حَسَنِ  
 أو من عجوزٍ تحتظي<sup>٣</sup>      والظهرُ منها منحنى  
 أو من مليحٍ مُسْعِدٍ      موافقٍ في الزمنِ  
 مهما تبدى خدّه      يبدو لك الوردُ الجني  
 والغصنُ في أثوابه      إذا تمشى بِنَشِي  
 لا أمَّ لي لا أمَّ لي      إن لم أبردُ شَجِي  
 وأخلعنَّ في المجوى      نِ والتصابي رَسِي  
 وأجعلُ الصبرَ على      هَجْرِ الملاحِ ديدني

١ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٥ (نقلا عن النفع) .

٢ م : لأبي .

٣ م : تحتظي .

يا عاذلي في مذهبي  
أعطيت في البطن سنا  
أي فتى خالفني  
فإتني لناصح  
فلا تكن لي لاحقاً  
فلم أزل أعرب عن  
وإن تسفه نظري  
فالصنع تستوجه  
والزبل في وجهك به  
وبعد هذا أشتقي  
وأضرب الكف أما  
طقطق طق طقطق  
فحقق قح فحقق قح  
قد كان أولى بك عن  
النفي تستوجه  
عرضت بالنفس كذا  
أفدي صديقاً كان لي  
فتارة أنصحهُ  
وتارة ألعنهُ  
وربما أصفعه  
أستغفر الله فه  
يا ليت هذا كله  
أرداك شرب اللبن  
نأ إن تخالف سني  
يوماً ولما يلقني  
وإتني وإتني  
وفي الأمور استفتني  
نصحي لمن لم يلحني  
ومذهبي وتنهي  
نعم ونتف الذقن  
لمو باتصال الزمن  
منك ويبرا شجتي  
م ذلك الوجه اللذي  
أصخ بسمع الأذن  
الضحك يغلبني  
هذي المخازي تشي  
لواسط أو عدن  
إلى ارتكاب المحن  
بنفسه يسعدني  
وتارة ينصحني  
وتارة يلعنني  
وربما يصفعني  
ذا القول لا يعجني  
فيما مضى لم يكن

أضحكتُ والله بذا الـ  
دهرُ تولى وانقضى  
يا ليتني لم أره  
دنتُ فيه جاني  
وبعتُ فيه عيشتي  
كأنتي ولستُ أدُ  
والله ما التشبيه عنـ  
لكنه أنطقني  
وا حسرتي وا أسفي  
لو أنصف الدهرُ لما  
وليس لي من جنةٍ  
أسرحُ الطرفَ وما  
وليس لي من فرسٍ  
يا ليت شعري وعسى  
هل أمتطي يوماً إلى الـ  
وأجتلي ما شتتهُ  
حينئذ أخلعُ في  
وتحسنُ الفكرة بالـ  
واللحم مع شحمٍ ومع  
والبيض في المقلاة بالـ

حديث من يسمعي  
عني كطيف الوسنِ  
وليسته لم يرني  
وملبسي بالدرنِ  
لكن بيخس الثمنِ  
ري الآن ما كأنتي  
مد شاعر بهينِ  
بالقول ضيق العطنِ  
زلت وضاعت فطني  
أخرجني من وطني  
وليس لي من مسكنِ  
لي دمنة في الدهنِ  
وليس لي من سكنِ<sup>١</sup>  
يا ليت أن تنفعي  
شرقِ ظهور السفنِ  
في المنزل المؤمنِ<sup>٢</sup>  
هذي القوافي رسي  
مدوس<sup>٣</sup> والسمنسي<sup>٤</sup>  
طوابق الكبش الثني  
زيت اللذيذ الدهنِ

١ سقط البيت من م .

٢ ب : المؤمن .

٣ ب : بالفندوس .

٤ ب : والشمشيني ؛ م : والسستي .

وجلدة الفروج مش  
 من منقذي أفديه من  
 وعلة<sup>١</sup> قد استوى  
 هل للثريد عودة<sup>٢</sup>  
 تغوص فيه أنملي  
 ولي إلى الإسفنج شو  
 وللأرز<sup>٣</sup> الفضل إذ  
 وللشواء والرقا  
 واسكت عن الجبن فإن<sup>٤</sup>  
 ظاهرها كالورد أو  
 أي<sup>٥</sup> امرى<sup>٦</sup> أبصرها  
 تميم<sup>٧</sup> فيها فكر<sup>٨</sup> الأس  
 لو كان عندي معدن<sup>٩</sup>  
 لكنني عزمت أن  
 والكم<sup>١٠</sup> قد أكسبه<sup>١١</sup>  
 لا تنسبوا لي سقها<sup>١٢</sup>  
 وهات ذكر الكسكسو  
 لا سيما إن كان مص  
 أرفع<sup>١٣</sup> منه كوراً<sup>١٤</sup>  
 وإن ذكرت غير ذا  
 فابدأ من الثوما

وياً كثير السمن  
 ذا الجوع<sup>١٥</sup> والتمسكن  
 فيها الفقير والغني  
 إلي<sup>١٦</sup> قد شوقي  
 غوص<sup>١٧</sup> الأكل المحسن  
 ق<sup>١٨</sup> دائم<sup>١٩</sup> يطربني  
 تطبخه<sup>٢٠</sup> باللبن  
 ق<sup>٢١</sup> من هيام<sup>٢٢</sup> أنني  
 بنته<sup>٢٣</sup> تذهلي  
 باطنها<sup>٢٤</sup> كالسوسن  
 يوماً ولم يفتن  
 تاذ<sup>٢٥</sup> والمؤذن  
 لبعث<sup>٢٦</sup> فيها معدني  
 أبيع<sup>٢٧</sup> كم<sup>٢٨</sup> البدن  
 بعد<sup>٢٩</sup> ولا يكسبني  
 فالجوع<sup>٣٠</sup> قد أرشدني  
 فهو شريف<sup>٣١</sup> وسّي  
 نوعاً<sup>٣٢</sup> بفتل<sup>٣٣</sup> حسن  
 بين<sup>٣٤</sup> تدوي<sup>٣٥</sup> أذني  
 أطعمة<sup>٣٦</sup> في الوطن  
 ت<sup>٣٧</sup> بالجين<sup>٣٨</sup> الممكن

١ م : وقلة .

٢ ب : ( بها ) تداوى .

من فوقها الفروجُ قد  
وثنٌ بالعصيدةِ الـ  
لا سيما إن صنعتُ  
كذلك البلياطُ بالـ  
تطبخُهُ حتى يرى  
والزبزينُ في الصحا  
فاسمعُ قضاءً ناصحِ  
من اقتنى التفين فه  
وإن في شاشية الـ  
تبعدي عن وصلها  
تؤنسي<sup>٢</sup> عن اللقا  
فأضلعي إن ذُكرتُ  
كم رُمتُ تقريباً لها  
وصدتي عن ذلك و  
إيه خليلي هذه  
أعجبُ من ريقك إذ  
هل نلت منها شعاً  
وإن تكن جوعان يا  
فليس عند شاعري  
يصورُ الأشياء وه

أنهي في التسمنِ  
تي بها تطربي  
على يدي ممركنِ  
زيت الذي يقنعي  
يحمّر في التلونِ  
ف حسب أهل البطن<sup>١</sup>  
يأتي بنصح بين  
و الآن نعم المقتني  
فقير أنساً للغني  
عن وصلها تبعدي  
عن اللقا تؤنسي<sup>٢</sup>  
تهفو كمثل الغصنِ  
لكنه لم يهن  
لمة الوفا بالثمنِ  
مطاعم لكنني  
يسيل فوق الذقنِ  
فذكرها أشعني  
صاح فكل بالأذنِ  
غير كلام الألسنِ  
ي أبدأ لم تكن

١ سقط من م ؛ وأول لفظة فيه بياض في ب .

٢ م : تؤنسي .

فقولهُ يريكَ ما ليسَ يرى بالممكنِ  
فاسمعُ وسامعُ واقتنعُ واطوِ حشاكِ واسكُنِ  
ولتنصرفِ فقصدناُ إطرافُ هذا الوطنِ

انتهى .

٧٤ - وقال ابن خفاجة رحمه الله تعالى <sup>١</sup> :

درسوا العلوم ليملكوا يجداهمُ  
وتزهدوا حتى أصابوا فرصةً في أخذ مالِ مساجدِ وكنائسِ  
فيها صدورَ مراتبِ ومجالسِ

وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيراً .

٧٥ - وقال - فيما أظن - الفقيه الكاتب المحدث الأديب الشهير أبو عبد  
الله محمد بن الأبار القُضاعي ، وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب في مواضع :

لقد غَضِبْتُ حتى على السَّمْطِ نَحْوَةَ<sup>٢</sup> فلم تتقلد غير مبسمها سِمطاً  
وأنكرتِ الشَّيْبَ المُلِمَّ بِلِمَتِي ومن عَرَفَ الأيامَ لم ينكرِ الوخطا

[ نقول من القدح المعلقى ]

٧٦ - وقال ابن سعيد في القدح المعلقى في حقه <sup>٢</sup> : كاتب مشهور ، وشاعر  
مذكور ، كتب عن ولاة بِلَنْسِيَّة ، وورد رسولاً حين أخذ النصارى بِمَخْتَنِّ  
تلك الجهات ، وأنشد قصيدته السينية :

أدركُ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللهِ أَنْدَلَسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا

وعارضه جمع من الشعراء ما بين مخطىء ومحروم ، وأغري الناس بحفظها

١ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٦ ( عن النفع ) .

٢ اختصار القدح : ١٩١ .

إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم ، إلا أن أخلاقه لم تُعِنه على الوفاء بأسباب الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، وأخر عن تلك العناية ، وارتحل إلى بجاية ، وهو الآن بها عاطل من الرتب ، خالٍ من حلى الأدب ، مشتغلٌ بالتصنيف في فنونه ، متنقلٌ منه بواجبه ومسئولته ، ولي معه مجالسات آتقٌ من الشباب ، وأبهج من الروض غبّ نزل السحاب ، ومما أنشدنيه من شعره ٢ :

يا حَبِّدًا بجديقة دولا بٌ سكنتُ إلى حركاته ٣ الألبابُ  
 غنّتي ولم يطربُ وسقّتي وهو لم يشرب ومنه العُود والأكوابُ  
 لو يدعني لطفَ الهواء أو الهوى ما كنتُ في تصديقه أرتابُ  
 وكأنته ممّا شدّا مُستَهزِئٌ ٤ وكأنته ممّا بكى ندّابُ  
 وكأنته بنّاره ومداره فلكٌ كواكبُه لها أذئابُ

٧٧ - وقال أبو المعالي القبيجاطي ٥ :

فقلت يا ربّعهمُ أينَ منَ أحببته فيك وأينَ النديمُ  
 فقال عهدٌ قد غدا شمله كمثل ما يُنشرُ درّ تنظيمُ

٧٨ - وقال أبو عمرو ابن الحكم القبطي ٦ ، وقبلة من أعمال وادي

إشبيلية :

كمّ أقطعُ الدهر بالمِطالِ ؟ ساءت وحقّ الإله حالي

١ القدح : ظل تلك .

٢ القدح : ١٩٢ .

٣ ب : بحركاتها .

٤ القدح : مستهتر .

٥ القدح : ٢١١ .

٦ القدح : ٢٠٠ ؛ وفي ب : عبد الحكم .



رحلتُ أبغي بكمُ نجاحاً فلم تفيدوا سوى ارتحالي  
وعَدْتُمْ ألفَ ألفِ وعدٍ لكنني عدتُ بالمحالِ

٧٩ - وقال أبو عمران القلعي<sup>١</sup> :

طلعتَ عليَّ والأحوالُ سودٌ كما طلع الصبحُ على الظلامِ  
فقل لي كيف لا أوليك شعري وإخلاصَ التَّحيّةِ والسَّلامِ

٨٠ - وقال أبو إسحاق إبراهيم بن أيوب المرسبي<sup>٢</sup> :

أنا سكرانٌ ولكنٌ من هوى ذاك الفلاني  
كلّما رمتُ سلُوءاً لم يزلْ بين عياني

وقال :

حبيبي ما لصبّك من مرادٍ سوى أن لا تدومَ على البعادِ  
وإن كان ابتعادك بعد هذا مقيماً فالسَّلامُ على فؤادي

قال ابن سعيد : وكان المذكور إذا غنى هذه الأشعار اللطيفة على الأوتار لم يبق لسامعه عند الهموم من ثار ، مع أخلاق كريمة ، وآداب كانسكاب الدّيمة ، انتهى .

٨١ - وقال ابن سعيد<sup>٣</sup> في أبي بكر محمد بن عمّار البرجي كاتب ابن

هود القائل :

١ القدح : ٢٠١ .

٢ القدح : ٢١٤ وفيه ابن لبون .

٣ القدح : ٢١٧ .

[قل] لمن يشهد حرباً تحت رايات ابن هود

الخ ... :

يا ابن عمار لقد أحبيت لي ذاك السميّاً  
في حليّ نظمٍ ونثرٍ علّقاً في مسمعيّاً  
ولقد حزت مكاناً من ذرى الملك عليّاً  
مثل ما قد حاز لكن عيش بنعماك هنيّاً

٨٢ — وقال أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز الإشبيلي المعروف بابن صاحب

الرد :

يا أبداع الخلق بلا مريّة  
لا سيّما إذ نلتقي خطرةً  
طوبى لمن قد زرتّه خالياً  
من ذلك الثغر الذي وردّه  
وما حوى ذلك الإزارُ الذي  
وَجْهك فيه فتنةُ الناظرينُ  
فيغلبُ الوردُ على الياسمينُ  
فمتّع النفسَ ولو بعد حينُ  
ما زال فيه لذةُ الشارينُ  
لم يعُدْ عنه أمَلُ الزائرينُ

وهذه الأبيات يقولها في غلام كان أدباء إشبيلية قد فتنوا به ، وكان مروره

على داره .

وحكى عنه أنه أعطاه في زيارة خمسين ديناراً ، ومرت أيام ثم صادفه عند داره ، فقال له : أتريد أن أزورك ثانية ؟ فقال له : لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وهذا الجواب — على ما فيه من قلة الأدب ، وهتك حجاب الشريعة — من أشد الأجوبة إصابتاً للغرض ، والله تعالى يسمح له ، فقد قال ابن سعيد في حقه : إن بيته بإشبيلية من أجل البيوت ، ولم يزل له مع تقلب الزمان ظهور

١ القتح : ١١٢ - ١١٣ .

ونخفوت ، وكان أديباً شاعراً ذوّاقاً لأطراف العلوم ، انتهى .

٨٣ - ومن المشهورين بالمجون والخلاعة بالأندلس - مع البلاغة والبراعة - أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب<sup>١</sup> ، وهو من بيت مشهور من جزيرة شقر ، من عمل بلسنسية<sup>٢</sup> ، وكتب عن ولاية من بني عبد المؤمن ، ثم استكتبه السلطان ابن هود حين تغلب على الأندلس ، وربما استوزره في بعض الأحيان . قال ابن سعيد : وهو ممن كان والذي يكثر مجالسته ، ولم أستفد منه إلا ما كنت أحفظه في مجالسته ، وكان شديد التهور ، كثير الطيش ، ذاهباً بنفسه كل مذهب ، سمعته مرة وهو في محفل يقول : تقيمون القيامة لحبيب والبحري والمتني وفي عصركم من يهتدي إلى ما لم يهتدوا إليه ؟ فأهوى له شخص له قِحة وإقدام ، فقال : يا أبا جعفر ، فأرنا برهان ذلك ، ما أظنك تعني إلا نفسك ، فقال : نعم ، ولم لا ؟ وأنا الذي أقول ما لم يتنبه<sup>٣</sup> إليه متقدم ، ولا يهتدي لثله متأخر :

يا هل ترى أظرفَ من يومنا      قلّد جيدَ الأفقِ طوقَ العقيقِ  
وأنطقَ الورقَ بعيدها      مرقصةً كلَّ قضيبي وريقِ  
والشمسُ لا تشربُ خمرَ الندى      في الروضِ<sup>٣</sup> إلا بكؤوسِ الشقيقِ

فلم ينصفوه في الاستحسان ، وردوه في الغيظ إلى أضيق مكان<sup>٤</sup> ، فقلت له : يا سيدي ، هذا هو السحر الحلال ، فبالله إلا ما زدني من هذا النمط ، فقال :

أدرها فالسّماء بدتْ عروساً      مُضمّخةً الملابسَ بالغوالي

١ ترجمته في اختصار القدح : ١١٤ وعنه ينقل المقرئ ، وانظر المغرب ٢ : ١٣٦ والمقتضب من

التحفة : ١٥٧ والإحاطة ١ : ٢٤٤ .

٢ القدح : لم يهتد ؛ دوزي : لم ينته .

٣ ب ودوزي : الأرض .

٤ القدح : إلى أشد ما كان .

وخذُ الروضَ حمرةً أصيلٌ وجفنُ النهرِ كُحْلٌ بالظلالِ  
وجيدُ الغصنِ يُشْرِقُ في لآلٍ تضيءُ بهنَّ أكنافُ الليالي

فقلت : زد وعدُّ ، فعاد والارتياح قد ملك عطفه ، والتيه قد رفع أنفه ،

فقال :

لله نهرٌ عندما زرتُه عاين طرفي منه سحراً حلالٌ  
إذْ أصبحَ الطلُّ به ليلةٌ وجال فيه الغصنُ شبه الخيالُ

فقلت : زد ، فأنشد :

ولما ماج بحرُ الليلِ بيني وبينكمُ وقد جدتُ ذكرا  
أراد لقاءكمُ إنسانُ عيَّتي فمدَّ له المنامُ عليه جسرا

فقلت : إيه ، فقال :

ولما أن رأى إنسانُ عيَّتي بصحنِ الخدِّ منه غريقَ ماءٍ  
أقامَ له العذارُ عليه جسراً كما مدَّ الظلامُ على الضياء

فقلت : أعد ، فأعاد ، وقال : حسْبُكَ لثلاثَ تكثرَ عليك المعاني ، فلا

تقوم بحق قيمتها ، وأنشد :

هات المدامَ إذا رأيتَ شبيهاً في الأفقِ يا فرداً بغيرِ شبيهِ  
فالصبحُ قد ذبحَ الظلامَ بنصله فغدَّتْ تحاصمهُ الحمامُ فيه

ثمَّ قال : وكان قد تهتك في غلام لابن هود ، ولكثرة انهزام ابن هود ربما

انهزم مع العليج ، وفيه يقول :

١ القدح : خفره .

ألفتُ الحربَ حتى علّمتني      مقارعةَ الحوادثِ والخطوبِ  
ولم أكُ عالماً وأبيكُ حرباً      بغيرِ لواحظِ الرشيدِ الرّيبِ  
فها أنا بين تلكَ وبين هذي      مصابٌ من عدوٍّ أو حبيبِ

ولما هرب بالعلج إلى سبته أحسن إليه القائم بها أبو العباس الينشتي<sup>١</sup> ، فلم يقنع بذلك الإحسان ، وكان يأتي<sup>٢</sup> بما يوغر صدره ، فقال يوماً في مجلسه : رميت مرة بقوس ، فبلغ السهم إلى كذا<sup>٣</sup> ، فقال ابن طلحة لشخص بجانبه : لو كان قوس فزح ما بلغ إلى كذا ، ف شعر بقوله ، فأسرّها في نفسه ، ثم بلغه أنه هجاه بقوله :

سمعنا بالموققِ فارتحلنا      وشافِعُنَا له حسبٌ وعلمُ  
ورُمْتُ يداً أقبَلها وأخرى      أعيشُ بفضلها أبداً وأسمو  
فأنشدنا لسان الحالِ فيه      يدٌ شلّا وأمرٌ لا يتمُّ

فزاد في حنقه ، وبقي مترصدًا له الغوائل ، فحفظت عنه أبيات قالها وهو في حالة استهتار في شهر رمضان ، وهي :

يقولُ أخو الفضولِ وقد رآنا      على الإيمانِ يَغلبنا المجونُ  
أتنتهكون شهرَ الصومِ هلاً      حماهُ منكمُ عَقْلٌ ودينُ  
فقلتُ اصحبِ سوانا ، نحن قوم      زنادقةٌ مذاهبنا فنونُ  
ندينُ بكلِّ دينٍ غيرِ دينِ الر      عاع فما به أبداً ندينُ  
بحيِّ على الصُّبحِ الدَّهرَ ندعو      وإبليسُ يقولُ لنا أمينُ

١ في الأصول : البتي ؛ وصوابه ما أثبتناه ، ويكتب أيضاً « اليناشتي » .

٢ القدح : يستريح .

٣ زاد في القدح : ذكر مدى بعيداً .

فيا شهرَ الصيامِ إليك عَنَّا إليك ففبك أكفر ما نكونُ  
فأرسل إليه من هجم عليه وهو على هذه الحال ، وأظهر أنه يُرضي العامة  
بقتله ، فقتله ، وذلك سنة ٦٣١ ، انتهى . وحاكى الكفر ليس بكافر ، والله  
سبحانه وتعالى للزلات غير الكفر غافر .

٨٤ - وقال محمد بن أحمد الإشبيلي ابن البناء<sup>١</sup> :

كأنك من جنس الكواكب كنت لم يَفْتُكَ طلوغاً حالها وتواريا  
تجَلَّيْتَ من شرقِ تروقٍ تَلألُؤاً فلما انتحيتَ الغربَ أصبحتَ هاويا

٨٥ - ولما أمر المستنصر الموحد<sup>٢</sup> بضرب ابن غالب الداني ألف سوط  
وصلبه ، وضرب بإشبيلية خمسمائة فمات ، وضرب بقية الألف حتى تناثر  
لحمه ، ثم صُلب ، قال ابنه أبو الربيع<sup>٣</sup> يرثيه :

جهلاً لملك أن يبكي لما قدرا وأن يقول أسي يا ليته قبرا  
فاضت دموعك أن قاموا بأعظمه وقد تطاير عنه اللحم وانتثرا

ومنها :

ضاقَتْ به الأرضُ ممّا كان حملها من الأيادي فمجتْ شلوهُ ضجرا  
وعزَّ جسمك<sup>٤</sup> أن يحظى به كفنٌ فما تسربلَ إلاّ الشمسَ والقمرَا

٨٦ - وقال أبو العلاء عبد الحق المرسي رحمه الله تعالى ° :

- ١ القدح : ١١٨ والمغرب ١ : ٢٤٩ .  
٢ القدح : ١٢٧ والتحفة : ٨٣ والمغرب ٢ : ٤٠٦ .  
٣ ق : الربيع .  
٤ القدح : إذ ذاك .  
٥ القدح : ١٢٦ .

يا أبا عمرانٍ دعني والذي لم يملُ بي خاطري إلاّ إليه  
ما نديمي غيرُ من يخدمني لا الذي يجلسني بين يديه  
يرفعُ الكُلْفَةَ عني ويرى أنها واجبةٌ مني عليه

٨٧ - وقال ابن غالب الكاتب بمالقمة<sup>١</sup> :

لا تخشَ قولاً قد عقَدتَ الألسنا وابعثُ خيالك قد سحرتَ الأعينا  
واعطفْ عليّ فإنَّ روعي زاهقٌ وانظرْ إليّ بنظرةٍ إنْ أمكنا  
لا يخدمتكَ أن تراني لابساً ثوبي فقد أصبحتُ فيه مكفناً  
ما زال سحرك يستميلُ خواطري بأرقٍ من ماء الصفاء واليّننا  
حتى غدوتُ ببحرٍ حُبِّ زاخِرٍ فرمتُ بيّ الأمواجُ في شطّ الضيّ

وقال :

ما للنسيمِ لدى الأصيلِ عيلا أتراهُ يشكو زفرةً وغيللا  
جرّ الذبولَ على ديارِ أحبتي فأتى يجرُّ من السقامِ ذيولا

٨٨ - وقال أبو عبد الله ابن عسكر الغساني قاضي مالقمة<sup>٢</sup> :

أهواك يا بدْرُ وأهوى الذي يَعدّني فيك وأهوى الرقيبُ  
والجارَ والدارَ ومن حلتها وكلّ من مرّ بها من قريبُ  
ما إنْ تنصّرتُ ولكنّي أقولُ بالتثليثِ قولاً غريبُ  
تُطابقُ الألحانَ والكاسَ إذ تَسمُ عجباً والغزالَ الريبُ

٨٩ - وكان أبو أمية ابن عفير<sup>٣</sup> قاضي إشبيلية - مع براعته ، وتقدّمه في

١ القحح : ١٢٨ .

٢ القحح : ١٣٠ .

٣ القحح : ١٣٢ .

العلوم الشرعية - أقوى الناس بالعلوم الأدبية المرعية ، وقد اشتهر بسرعة الخاطر في الارتجال ، وعدم المناظر له في ذلك المجال ، قال ابن سعيد : رأيت كثيراً ما يصنع القصائد والمقطعات ، وهو يتحدث أو يفصل بين الغرماة في أكثر الأوقات ، ومن شعره :

ديارهم صاحٍ نُصِبُ عيني وليس لي وصلةٌ إليها  
إلاّ سلامي لدى ابتعادٍ من بعدِ سُكّانها عليها

وقوله رحمه الله تعالى :

ووجه تغرّقُ الأبصارُ فيه ولكن يتركُ الأرواحَ هياما  
أتاني ثمّ حياتي حبيبٌ به وأباحني الخلدَ الرقيما  
فمرّاً لنا مجونٌ في فنونٍ سلكتُ به الصراطَ المستقيما

قلت : أما مجرد الارتجال فأمر عن<sup>٢</sup> الكثير صادر ، وأما كونه مع التحدث أو فصل الخصومات فهو نادر ، وقد حكينا منها في هذا الكتاب من القسم الأول موارد ومصادر .

[عود للحديث عن ابن ظافر]

ويعجبني من الواقع لأهل المشرق من ذلك قضية علي بن ظافر ، إذ قال<sup>٣</sup> :  
بيتٌ ليلة والشهابُ يعقوبُ ابن أختِ نجم الدين في منزل اعترفت له مُشَيِّدات  
القصور ، بالانخفاض والقُصور ، وشهدت له ساميات البروج ، بالاعتلاء  
والعُروج ، قد ابيضَّت حيطانه ، وطاب استيطانه ، وابتهج به سُكّانه وقُطّانه ،  
والبدردُ قد محّا خِصَابَ الظلّماء ، وجلا محياه<sup>٤</sup> في زرقة قناع السماء ، وكسا الجدران

١ القدح : تلك ؛ ب ق : ديارهم هي . ٢ م : فما مر من .

٣ البدائع ٢ : ٢٠٦ .

٤ ق : وحكى محياه .



ثياباً من فضة ، ونثر كافوره على مسك الثرى بعد أن سحقه ورضه ، والروض  
 قد ابتسم بحياته ، ووشت بأسرار محاسنه رياته ، والنسيم قد عانق قامات الأغصان  
 فميلها ، وغصبها بماسم نورها فقبلها ، وعندنا معلن قد وقع على تفضيله  
 الإجماع ، وتغايرت على محاسنه الأبصار والأسماع ، إن بدا فالشمس طالعة ،  
 وإن شدا فالورق ساجعة ، تغالزه مقلة سراج قد قصر على وجهه تحديقه ، وقابله  
 فقلنا البدر قابل عيوقه ، وهو يغار عليه من النسيم كلما خفق وهب ، ويستجيش  
 عليه بتلويح بارقه الموشى بالذهب ، ويديم حرقة وسهده ، ويبدل في إطفاه  
 طاقته وجهده ، فتارة يضمخه بخلوقه ، وتارة يحلله بعقيقه ، وآونة يكسوه  
 أثواب شقيقه ، فلم نزل كذلك حتى نعس طرف المصباح ، واستيقظ نائم  
 الصباح ، فصنعت بديهاً في المجلس ، وكتبت بها إلى الأعز بن المؤيد رحمه الله  
 تعالى أصف تلك الليلة التي ارتفعت على أيام الأعياد ، كارتفاع الرؤوس على  
 الأعياد ، بل فضلت ليلاي الدهر ، كفضل البدر على النجوم الزهر :

غبت عني يا ابن المؤيد في وفة	ت شهي يلهي المحب المشوقا
ليلة ظل بدرها يلبس الجدد	ران ثوباً مفضضاً مرموقا
وغدا الطل فيه ينثر كافو	رأ فيعلمسك التراب السحيقا
وتبدى النسيم يعتنق الأء	صان لما سرى عناقاً رقيقا
بت فيها منادماً لصديق	ظل بين الأنام خيلاً صدوقا
هو مثل الهلال وجهاً صيحاً	ومثال النسيم ذهنأ رقيقا
وغزال كالبدر وجهاً وغصن ال	بان قدأ والحمرة الصرف ريقا
مظهر للعيون ردفاً مهيلاً	وحشاً ناحلاً وقدأ رشيقا
إن تغنى سمعت داود ، أو لا	ح تأملت يوسف الصديقا
وإذا قابل السراج رأينا	منه بدرأ يقابل العيوقا
وأظن الصباح هام بمرأ	ه فأبدي قلباً حريقاً خفوقا

هو نجمٌ ما لاح في الجُدُرِ كافو  
 ما بدا نرجسُ الكواكبِ إلا  
 وإذا ما بدت جواهرها في الج  
 فغدونا تحت الدجى نتعاطى  
 وجعلنا رِيحاننا طيبَ ذكرا  
 ذاك وقتٌ لولا مغيبكَ عنه  
 رُ بياضٍ إلا كساهُ خلوقا  
 قام من نومه يرينا الشقيقا  
 وأبدى في الأرض منهم عقيقا  
 من رقيق الآداب خمرأ رحيقا  
 ك فخلناهُ عنبراً مفتوقا  
 كان بالمدحِ والثناء خليقا

قال : فأجاب عنها من الوزن دون الروي :

قد أتني من الجمالِ قصيدٌ  
 جمعت رقةَ الهواءِ وطيبَ ال  
 فأرثنا طباعهُ وشذاهُ  
 سيدي هل جمعتَ فيها اللَّآلي  
 أفحمتني حسناً وحقَّ أيادي  
 فركتُ الجوابَ والله عجزاً  
 هل يسامي الثرى الثرياً وأتى  
 يا لها من قصيدةٍ غراءِ  
 مسك في سبكها وصفو الماءِ  
 والذي حاز ذهنهُ من ذكاءِ  
 يا أخوا المجد أم نجومَ السماءِ  
 لك التي لا تُعدُّ بالإحصاءِ  
 فابسطِ العذرَ فيه يا مولائي  
 يدعي النجمُ قرطاً نورِ ذُكاءِ

رجع إلى أهل الأندلس :

٩٠ - وقال ابن السماك :

إياك أن تكثر الإخوان مغتتماً  
 في واحدٍ منهم تُصفي الوداد له  
 في كلِّ يومٍ إلى أن يكثر العددُ  
 من التكاليفِ ما يفنى به الجلدُ

وله :

١ الفتح : ١٣٤ ؛ وفي م : الساد ؛ ق : الساذ .

تحنُّ ركابي نحو أرض وما لها      وما لي من ذاك الحنين سوى الهمِّ  
وكم راغبٍ في موضعٍ لا ينالهُ      وأمستُ منه مثل يونسَ في اليمِّ  
بهذا قضى الرحمن في كلِّ ساخطٍ      يموتُ على كرهٍ ويحيا على رغمٍ

٩١ - ولما قام الباجي<sup>١</sup> بإشبيلية وخلع طاعة ابن هود ، وأبدل شعاره  
الأسود العباسي في البنود ، قال أبو محمد عبد الحق الزهري القرطبي في ذلك :

كأنما الرايةُ السوداءُ قد نعبتُ      لهم غراباً بين الأهل والولدِ  
مات الهوى تحتها من فرطِ روعتهِ      فأظهر الدهرُ منها لبسةَ الكمدِ  
وأنشدهما القائم الباجي في جملة قصيدة .

٩٢ - وقال الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حجاج الأعمى الإشبيلي<sup>٢</sup> :

٩٣ - .....  
أسمى الفِراشُ يطوفُ حول كؤوسنا      إذ خالها تحت الدُّجى قنديلاً  
ما زال يخفقُ حولها بجناحه      حتى رمته على الفِراشِ قتيلاً  
وله :

لاموا على حبِّ الصِّبا والكاسِ      لما بدا وضحَّ المشيبُ براسي  
والغصنُ أحوجُ ما يكون لسقيهِ      أيامَ يبدو بالأزاهرِ كاسي

وله ، وقد رأى على نهر قرطبة ثلاثين نفساً مصلوبين من قطاع الطريق :

١ القدح : ١٣٥ .  
٢ ترجمة أبي الوليد إسماعيل بن حجاج الأعمى في اختصار القدح : ١٤٠ ولقبه هناك « الأفلح »  
ولكن الشعر التالي ليس له .  
٣ هذه الأشعار التالية لأبي يحيى ابن هشام القرطبي في القدح : ٨٩ - ٩٢ والمعتقد أن سهواً حدث  
في نسخ النسخ سقط فيه شعر الأعمى واسم القرطبي صاحب هذه المقطعات .

ثلاثون قد صفوا كلهم وقد فتّحوا أذرعاً للوداعِ  
وما ودّعوا غيرَ أرواحهم فكان وداعاً لغيرِ اجتماعِ

وله في فتى وسيم عَضَّ كلبٌ وجنته :

وأغيدَ وضاحِ المحاسينِ باسمِ إذا قامر الأرواحِ ناظره قَمَرُ  
تعمدَ كلبٌ عَضَّ وجنته التي هي الوردُ إيناعاً وأبقى بها أثرُ  
فقلت لشهبِ الأفقِ كيف صماتكم وقد أثرَ العواءُ في صفحةِ القمرِ

٩٤ - وقال الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي<sup>٢</sup> المؤرخ الأديب ،  
المصنف الشهير ، وكان حافظاً لنكّت الأندلسيين حديثاً وقديماً ، ذاكراً  
لفكاهاتهم التي صيرته للملوك خليلاً وندياً<sup>٣</sup> ، في صبي من أعيان الجزيرة الخضراء  
تهافت في حبه جماعة من الأدباء والشعراء<sup>٤</sup> :

قد سلونا عن الذي تدريةِ وجفوناهُ إذ جفا بالتيهِ  
وتركناهُ صاغراً لأناسِ خدعوه بالزورِ والتمويهِ  
لمضلٍ يسوقه لمضلٍ وسفيهِ يقوده لسفيهِ

وكان من التوم الذين هاموا بالمذكور ، وقاموا فيه المقام المشهور ، أديبٌ  
يقال له الفار ، فتسلط على البياسي حتى سافر من الجزيرة وكان يلقب بالقط ،  
[ فقال أحد الشعراء ] :

عذرتُ أبا الحجاج من ربّ شيبةِ غدا لابساً في الحبّ ثوباً من القارِ  
وألجأه الفارُ المشارِكُ للنوى ولم أرَ قطاً قبله فرّاً من فارِ

١ ب : بغير .

٢ القدح : ٩٤ - ٩٥ .

٣ القدح : جلسياً وندياً .

٤ كان هذا النص في النسخ شديد الاضطراب ، فصوبناه على حسب رواية القدح المثل .

وله ، وقد كتب إلى بعض أصحابه يذكره بالأيام السوالمف :

أبا حسنٍ لعمرُك إنَّ ذكري لأيام النعيم من الصواب  
أمثلي ليس يذكر عهدَ حمصٍ وقد جمحتُ بنا خيلُ التصابي  
ونحنُ نجرُّ أثوابَ الأمانى مطرزةً هنالك بالشباب  
وعهدٌ بالجزيرة ليس ينسى وإن أغفلته عند الخطاب  
هو الأحلى لديَّ وإن حماني عن العسلِ اجتماعٌ للذُّبابِ

أشار<sup>١</sup> إلى المحبوب وكان كثير الاجتماع به في جنة لوالده على وادي العسل  
وقال<sup>٢</sup> :

جنةٌ وادي العسلِ كم لي بها من أملٍ  
لو لم يكن ذُّبابُها يمنعُ ذوقَ العسلِ

قال ابن سعيد : ولما التقينا بتونس بعد إيابي من المشرق ، وقد ولج<sup>٣</sup> ظلام  
الشَّعر على [ صبح ] وجهه المشرق ، قلت لأبي الحجاج مشيراً إلى محبوبه ، وقد  
غطى هواه عنده على عيوبه :

خَلَّ<sup>٤</sup> أبا الحجاج هذا الذي قد كنتَ فيه دائمَ الوجد  
وانظر إلى لحيته واعتبر مما جنى الشَّعرُ على الخدِّ

والله سبحانه يسمح للجميع ، في هذا الهزل الشنيع ، ويصفح عنا في ذكره ،  
إنه مجيبٌ سميع .

١ في أصول النفع : وسار ، والتصويب عن القدح .

٢ في الأصول : فقال - عطفاً على سار - قال ابن سعيد : ولما اجتمعت به مستحسناً لهذا المقصد قال  
لي قد كنت ذكرته أيام تلك المزاحمات ثم أنشد « جنة وادي . . . إلخ » .

٣ القدح : دلج .

٤ القدح : خلي .

[ عود إلى النقل عن بدائع البدائه ]

٩٥ - وقال صاحب « البدائع »<sup>١</sup> ركب الأستاذ أبو محمد ابن صارة مع أصحاب له في نهر إشبيلية في عشية سال أصيلها على بلحين الماء عقيانا ، وطارت زواريقها في سماء النهر عقبانا ، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سُرراً وأعكانا ، في زورق يجول جولانَ الطَّرف ، ويسودُّ أسودادَ الطَّرف ، فقال بديها :

تأملُ حالنا والجوُّ طَلَّقُ حَيَاهُ وقد طَفَّلَ المساءُ  
وقد جالتُ بنا عذراءُ حُبْلَى تجاذبُ مِرْطَها رِيحُ رُخَاءِ  
بنهرٍ كالسَّجْنَجْلِ كوثريِّ تُعَبَّسُ وجهها فيه السماءُ

واتفق أن وقف أبو إسحاق ابن خفاجة على القطعة واستظرفها واستلطفها ، فقال يعارضها على وزنها وروبها وطريقتها :

ألا يا حَبْدًا ضَحِكُ الحَمِيَا بجانتها وقد عَبَسَ المساءُ  
وأدهمَ من جِيادِ الماءِ مُهْرٍ<sup>٢</sup> تَنَازَعُ جِلَّةُ رِيحُ رُخَاءِ  
إذا بدت الكواكبُ فيه غَرَفِي رأيت الأرض تحسدها السماءُ

٩٦ - وقال الأديب ابن خفاجة في ديوانه<sup>٣</sup> : صاحبتُ في صَدْرِي من المغرب سنة ثلاث وثمانين واربعمئة أبا محمد عبد الجليل بن وهبون شاعر المعتمد ، وكان أبو جعفر ابن رشيق يومئذ قد تمتع ببعض حصون مُرْسِيَّة ، وشرع في النفاق فقطع السبيل ، وأخاف الطريق ، ولما حاذينا قلعتة وقد احتدمت جَمْرَةُ الهجير ،

١ بدائع البدائه : ٢ : ١٤٢ .

٢ ب : نهد ؛ ق : نهر .

٣ وردت هذه القصص المتعلقة بابن خفاجة في بدائع البدائه : ٢ : ١٤٣ ، ١٤٥ .

وملَّ الركبُ رَسِيمه وذَمِيله ، وأخذ كلُّ منَّا يرتادُ مقيله ، اتفقنا على أن لا نطعم طعاماً ، ولا نذوق مناماً ، حتى نقول في صورة تلك الحال ، وذلك الترحال ، ما حضر ، وشاء الله أن أجبَلَ ابن وهبون واعتذر ، وأخذت عفوَ خاطري ، فقلت أترِصُ به ، وأعرِّضُ بعظمِ لحيته :

ألا قل للمريض القلب مهلاً      فإنَّ السيف قد ضمن الشفاء  
ولم أرَ كالتفاقِ شكاةَ حرٍّ      ولا كدم الوريد له دواء  
وقد دُحِيَ النجيعُ هناك أرضاً      وقد سُمِكَ العجاجُ به سماء  
وديسَ به انحطاطاً بطنُ وادٍ      مُدَّ أعشَبَ شعراً لحيته ضراء

وقال ابن خفاجة أيضاً : حضرت يوماً مع أصحاب لي ، ومعهم صبي متهم في نفسه ، واتفق أنهم تحاوروا في تفضيل الرمان على العنب ، فانبرى ذلك الصبي فأفرط في تفضيل العنب ، فقلت بديهاً أعث به :

صِلتني لك الخيرُ برمانَةَ      لم تنتقلْ عن كرمِ العهدِ  
لا عنباً أمتصُّ عنقودَهُ      ثدياً كأني بعدُ في المهدي  
وهلْ يَرى بَيْنَهُمَا نِسْبَةً      مَنْ عدَلَ الحِصِيَةَ بالنهدِ

فخجل خجلاً شديداً وانصرف .

قال : وخرجتُ يوماً بشاطبة إلى باب السَّمارين ، ابتغاء الفرجة على خريبر ذلك الماء بتلك الساقية ، وذلك سنة ٤٨٠ ، وإذا بالفقيه أبي عمران ابن أبي تليد رحمه الله تعالى قد سبقني إلى ذلك ، فألفيته جالسا على دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن ، فسلمت عليه ، وجلست إليه ، مستأنسا به ، فجرى أثناء ما تناشدهنا ذكر قول ابن رشيق :

١ البدائع : أريض نار نزوته .

يا من يمرُّ ولا تمرُّ به القلوبُ من الفسِّقِ  
 بعمامةٍ من خدِّه أو خدِّه منها استرقِ  
 فكأنَّه وكأنَّها قمرٌ تعمَّمَ بالشفقِ  
 فإذا بدا وإذا انثنى وإذا شدا وإذا نطقِ  
 شغلَّ الخواطرَ والجوا نحَ والمسامعَ والحدقِ

فقلت ، وقد أعجب بها جداً ، وأثنى عليها كثيراً : أحسن ما في القطعة  
 سياقة الاعداد ، وإلاّ فأنت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير  
 والبيت الذي قبله فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها ، وهل ينزل بإزاء قوله  
 « وإذا نطق » قوله « شغل الحدق » ، وكأنه نازعي القول في هذا غاية الجهد ، فقلت  
 بديهاً :

ومهفَهفٍ طاوي الحشا خنث المعاطف والنظرِ  
 ملأ العيونَ بصورةٍ تُلِيَّتْ محاسنُها سورُ  
 فإذا رنا وإذا مشى وإذا شدا وإذا سقرِ  
 فضحَّ الغزالةَ والغما مةَ والحمامةَ والقمرِ

فجنَّ بها استحساناً ، انتهى .

قال ابن ظافر : والقطعة القافية ليست لابن رشيق ، بل هي لأبي الحسين علي  
 ابن بشر الكاتب أحد شعراء البيتية<sup>١</sup> .

٩٧ - وكان بين السميسر الشاعر<sup>٢</sup> وبين بعض رؤساء المريّة واقع لمدح

١ هذا وهم من ابن ظافر تابعه فيه المقرئ فإن أبا الحسن ( لا أبا الحسين ) علي بن أبي البشر الكاتب  
 هو أحد شعراء الدرة الخطيرة لابن القطاع ، وهو من ثم أحد شعراء الخريدة ( ١/٤ : ٥٠ وسماه  
 ابن أبي البشائر ) ؛ وقد ترجم له الصفدي في الجزء الثالث من الوافي ، نسخة مكتبة أحمد الثالث ؛  
 وذكره أبو الصلت في رسالته المصرية ( نواذر المخطوطات ١ : ٢٢ ) .

٢ البدائع ٢ : ١٤٨ .



مدحه فلم يجزه عليه ، فصنع ذلك الرجل دعوة للمعتصم بن صمادح صاحب المرية واحتفل فيها بما يحتفل مثله في دعوة سلطان مثل المعتصم ، فصبر السميسر إلى أن ركب السلطان متوجهاً إلى الدعوة ، فوقف له في الطريق ، فلما حاذاه رفع صوته بقوله :

يا أيها الملك الميمون طائرهُ وَمَنْ لذي مآثم في وجهه عرسُ  
لا تفرسن<sup>١</sup> طعاماً عند غيركم إنَّ الأسودَ على المأكولِ تفرسُ

فقال المعتصم : صدق والله ، ورجع من الطريق ، وفسد على الرجل ما كان عمله .

#### [ حكاية مشرقية ]

ونظير هذه الحكاية<sup>٢</sup> أن عبّاد بن الحرّيش كان قد مدح رجلاً من كبار أصبهان أرباب الضيع والأملك والتبع الكثير ، فمطله بالجائزة ، ثمّ أجازته بما لم يرضه ، فردّه عليه ، وبعد ذلك بحين عمل الرجل دعوة غرم عليها ألوف دنانير كثيرة لأبي دُلْف القاسم بن عيسى العجّلي على أن يجيء إليه من الكرج ، ووصل أبو دُلْف ، فلما وقعت عين عبّاد عليه وهو يساير بعض خواصه أوماً إلى ذلك السائر وأنشد بأعلى صوته :

قلْ له يا فدَيْتُهُ قولَ عبّاد : ذا سَمَجْ  
جئتَ في ألفِ فارسٍ لغداءٍ من الكرجِ  
ما على النفسِ بعدَ ذا في الدنّاءاتِ من حرجِ

فقال أبو دلف ، وكان أخوف الناس من شاعر : صدق والله ، أجيء من

١ البدائع : لا تقربن .

٢ البدائع ٢ : ١٤٩ .

الكرج إلى أصبهان حتى أتغدى بها؟ والله ما بعد هذا في ذنابة النفس من شيء .  
ثم رجع من طريقه ، وفسد على الرجل كل ما غرمه ، وعرف من أين أتى .  
وتخوف أن يعود عبّاد عليه بشرّاً منها ، فسير إليه جائزة سنية مع جماعة من  
أصحابه ، فاجتمعوا به ، وسألوه فيه ، وفي قبول الجائزة ، فلم يقبل الجائزة ،  
ثم أنشد بديهاً :

وهبتُ يا قوم لكم عرضه

فقالوا : جزاك الله تعالى خيراً ، فقال :

كرامةٌ للشعر لا للفى

لأنه أبخلُ من ذرّةٍ على الذي تجمعه في الشنا

انتهى .

٩٨ - وذكر أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ما معناه ٢ : أنه  
عزم بمصر هو ورفقة له على الاصطباح ، فقصدوا بركة الحبّش ، في وقت ولاية  
الغبّش ، وحتّوا منها روضاً بسم زهره ، ونسم عطّره ، فأداروا كؤوساً ،  
تطّلع من المدام شمساً ، وعابنوها نجوماً ، تكون لشياطين الهموم رجوماً ،  
فطرب حتى أظهر الطرب نشاطه ، وأبرز ابتهاجه وانبساطه ، فقال :

لله يومي ببركة الحبّش والحوّ بين الضياء والغبّش  
والنيلُ تحت الرياح مضطربٌ كصارمٍ في يمين مرتعش  
ونحنُ في روضةٍ مَفوّقةٍ دُبجَ بالنّورِ عطفهاً ووُشي  
قد نسجتُها يدُ الغمامِ لنا فنحن من نورها على فرُش

١ ب : بأشد .

٢ البدائع ٢ : ١٥١ ، ونوادير المخطوطات ١ : ٢٠ - ٢١ .

فعاظني الراح إن تاركها من سؤره لهم غير متعش  
وأسقي<sup>١</sup> بالكبار مترعة فهن أروي لشدة العطش  
فأثقل الناس كلهم رجل<sup>٢</sup> دعاه داعي الصبا فلم يطش

وهذا أبو الصلت أمية من كبراء أدباء الأندلس العلماء الحكماء ، وقد ترجمناه في الباب الخامس في المرتحلين من الأندلس إلى المشرق .

٩٩ - وقال رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> : كنت مع الحسن بن علي بن تميم بن المعز ابن باديس بالمهدية في الميدان ، وقد وقف يرمي بالشباب ، فصنعت فيه بديهاً :

يا ملكاً مذ خلقت كفه لم تدر إلا الجود والباسا  
إن النجوم الزهر مع بعدها قد حسدت في قربك الناسا  
وودت الأفلاك لو أنها تحولت تحتك أفراسا  
كما تمنى البدر لو أنه عاد لنشابك برجاسا

انتهى .

١٠٠ - وصنع الوزير<sup>٣</sup> أبو جعفر أحمد الوقشي وزير الرئيس أبي إسحاق ابن همشك صهر الأمير أبي عبد الله محمد بن مردنيس في غلام أسود في يده قضيب نور بديهاً :

وزنجي أتى بقضيب نور وقد زفت لنا بنت الكروم  
فقال في من الفتيان صفها فقلت الليل أقبل بالنجوم

١ ب : وسقي .

٢ البدائع ٢ : ١٥٢ .

٣ البدائع ٢ : ١٥٣ ؛ وهذان البيتان في الحلة ٢ : ٢٦٦ للرصافي (ديوانه : ١٣٥) ؛ قال : وغلط أبو مروان ابن صاحب الصلاة الإشبيلي فنسبهما في تاريخه إلى بعض الأمراء (يعني الوقشي) ؛ وفي المغرب ٢ : ٢٥٧ أنهما لأبي علي الحسين بن أم الحور .

١٠١ - ولما أفرط أبو [ بكر ] يحيى اليكبي<sup>١</sup> في هجاء أهل فاس تَعَسَّفُوا عليه ، وساعدهم واليهم مظفر الحصي من قِبَل أمير المسلمين<sup>٢</sup> علي بن يوسف ، والقائدُ عبد الله بن خيار الجياني<sup>٣</sup> ، وكان يتولى أموراً سلطانية بها ، فقدّموا رجلاً ادعى عليه بدّين ، وشهد عليه به رجل فقيه يُعرف بالزناتي ، ورجل آخر يكنى بأبي الحسين من مشايخ البلد ، فأثبت الحق عليه ، وأمر به إلى السجن ، فرُفِع إليه ، وسيقَ سوقاً عنيفاً ، فلما وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه ، وكتب فيها ، وأنفذها إلى مظفر مع العون الذي أوصله إلى السجن ، فكان ما كتب :

ارشوا الزناتيَّ الفقيهَ بيئِضَةَ      يشهدُ بأنَّ مظفرًا ذو بيضتين  
واهدوا إليه دجاجةً يحلِّفُ لكم      ما ناك عبدُ الله عرسَ أبي الحسين

١٠٢ - وقال أبو الحسن علي بن عتيق بن مؤمن القرطبي الأنصاري : عمل والدي محملاً للكتب من قضبان تشبه سلماً ، فدخل عليه أبو محمد عبد الله بن مفيد ، فرآه ، فقال ارتجالاً :

أيها السيّدُ الذكيُّ الجنانِ      لا تقسني بسلمِ البنيانِ  
فضلُ شكلي على السلامِ أتّي      محملاً للعلومِ والقرآنِ  
حزتُ من حلية المحبين ضعفي      واصفراري ورقةَ الأبدانِ  
فادعُ للصانعِ المجيدِ بفوزِ      ثمَّ والِ الدعاءِ للإخوانِ  
ثمَّ عمل أيضاً :

أيها السيّدُ الكريمُ المساعي      التفتُ صنعتي وحسنِ ابتداعي

١ البدائع ٢ : ١٥٧ ؛ و انظر بعض أهاجيه في أهل فاس في زاد المسافر .  
٢ ب : المؤمنين ؛ وهو غير دقيق .  
٣ راجع ترجمة ابن خيار الجياني في الحلة ٢ : ٢٣٥ .

أنا للنسخِ حملٌ خفَّ حملي أنا في الشكلِ سلّم الإطلاعِ -

١٠٣ - وقال أحمد بن رضى المالقي :

ليس المدامة ممّا أستريحُ له ولا مجاوبةُ الأوتارِ والنغمِ -  
وإنّما لذّتي كُتُبٌ أطلعها وخادمي أبدأُ في نصرتي قلبي

١٠٤ - وقال أبو القاسم البلّوي الإشبيلي :

لمن أشكو مُصابي في البرايا ولا ألقى سوى رجلٍ مصابٍ  
أمورٌ لو تدبّرتّها حكيمٌ لعاش مدى الزمان أخا اكتتابٍ  
أما في الدهرِ مَنْ أفشي إليه بأسراري فيؤنسُ بالجوابِ ؟  
يشتُّ من الأنامِ فما جليسٌ يعزُّ على نهايَ سوى كتابي

١٠٥ - وقال أبو زكريا يحيى ، ابن صفوان بن إدريس صاحب كتاب

« العجالة » و « زاد المسافر » وغيرهما :

ليت شعري كيفَ أنتم وأنا الصبُّ المعنّي  
كلُّ شيءٍ لم تكونوا فيه لفظٌ دون معنّي

وله في نصراني وسيم لقيه يوم عيد :

توحّد في الحسن من لم يزلْ يثلث والقلبُ في صدّه  
يشفُّ لك الماء من كفه ويقتدحُ النَّارَ من خدّه

وهذان البيتان نسّبهما له بعضُ معاصريه ، وأبوه صفوان سابق الميدان .

١٠٦ - وقال ابن بسام<sup>١</sup> : ساير ابن عمّار في بعض أسفاره غلامان من

١ بدائع البدائه ٢ : ١٣٠ .

بني جَهْور أحدهما أشقر العذار والآخر أخضره ، فجعل يميل بحديثه لمخضر العذار . ثم قال ارتجالاً :

تعلَّقته جهوريَّ النُّجَارِ حَلِيَّ<sup>١</sup> اللَّمَى جوهرِيَّ الثَّنَايا  
من النَّقْرِ البِيضِ أُسَدِ الزَّمَانِ رفاقِ الحواشي كرامِ السَّجَايا  
ولا غروا أن تغربَ الشارقاتُ وتبقى محاسنها بالعشايا  
ولا وصلَ إلَّا جمانِ الحديثِ نساقطه من ظهورِ المطايا  
شَنَيْتُ المثلثَ للزعفرانِ وملتُ إلى خضرةٍ في التفايا

ومعناه أن ابن عمّار أبغض المثلث لدخول الزعفران فيه لشبهه بعذار الأشقر منهما ، وأحبَّ خضرة التفايا<sup>٢</sup> ، وهو لون طعام يُعمل بالكزبرة ، لشبهها بعذار الأخضر منها .

١٠٧ - وقال أبو العرب ابن معيشة الكِنَاني السبتي<sup>٣</sup> : أخبرني شيخ من أهل إشبيلية كان قد أدرك دولة آل عبّاد . وكان عليه من أثر كبر السن ودلائل التعمير ما يشهد له بالصدق . وينطق بأن قوله الحق ، قال : كنت في صباي حسن الصورة ، بديع الحلقة ، لا تلمحي عين أحد إلّا ملكت قلبه ، وخبلت قلبه ، وسلبت لبّه ، وأطلت كربه . فبينما أنا واقف على باب دارنا إذا بالوزير أبي بكر ابن عمّار قد أقبل في موكب زَجَلٍ ، على فرس كالصخرة الصماء قُدَّت من قنّة الجبل ، فحين حاذاني ورآني اشرباً إليّ ينظرني وبهت يتألمني ثمّ دفع بمخضرة كانت بيده في صدري ، وأنشد :

١ ب : حلو .

٢ راجع شرح التفايا ج ٣ ص : ١٢٧ الحاشية : ٢ .

٣ بدائع البداهة ٢ : ١٣٢ وفيه « ابن معوشة » .

كُفَّ هذا النَّهْدَ عَنِّي فبقلي منه جُرْحُ  
هو في صدرك نهدٌ وهو في صدري رُمحُ

١٠٨ - وعبر في « البدائع » على طريقة القلائد بما صورته<sup>١</sup> : ذكر الفتح ابن خاقان ما هذا معناه : أخبرني ذو الوزارتين أبو المطرف ابن عبد العزيز أنه حضر عند المؤمن بن هود في يوم أجرى الجو فيه أشقرَ برقه ، ورمى بنبل ودقه ، وحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها ، وتمايلت قامات الأغصان في الحُلُل الخضر من أوراقها ، والأزهار قد تفتحت عيونها ، والكمام قد ظهر مكنونها ، والأشجار قد انصقلت بالقَطْر ، ونشرت ما يفوق ألوان البز وبثت ما يعلو العطر ، والراح قد أشرقت نجومها في بروج الراح ، وحاكت شمسها شمس الأفق فتلفت بغيوم الأقداح ، ومُدبرها قد ذاب ظرفاً فكاد يسيل من إهابه ، وأخجل خدَّها حسناً فتكلل بعرق حبابه ، إذا بفتى رومي من أصبح فتیان المؤمن قد أقبل متدرعاً كالبدر اجتاب سحاباً ، والحمر اكتست حباباً ، والطاووس انقلب حباباً ، فهو ملكٌ حسناً إلا أنه جسد ، وغزالٌ ليناٌ إلا أنه في هيئة الأسد ، وقد جاء يريد استشارة المؤمن في الخروج إلى موضع كان عول فيه عليه ، وأمره أن يتوجه إليه ، فحين وصل إلى حضرته لمحهُ ابنُ عمّار والسكر قد استحوذ على لبّه ، وانبت سراياه في ضواحي قلبه ، فأشار إليه وقرّبهُ ، واستبدع ذلك اللباسَ واستغربه ، وجدّ في أن يستخرج تلك الدرّة من ماء ذلك الدّلاص ، وأن يجلي عنه سهكه كما يجلي الخبث عن الخلاص ، وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه ، ويكون هو السّاقى على عادته القديمة ورسمه ، فأمره المؤمن بقبول أمره وامثاله ، واحتذاء أمثاله ، فحين ظهرت تلك الشمس من حُجُبها ، ورمّت شياطين النفوس من كُمّتِ المدام بشُهْبها ، ارتجل ابن عمّار :

١ بدائع البدائه ٢ : ١٣٣ ؛ وانظر النفع ج ١ ص : ٦٥٤ .

وهَوَيْتُهُ يُسْقِي المَدَامَ كَأَنَّهُ  
 مَتَنَاحِ الحَرَكَاتِ يَنْدِي عِطْفُهُ  
 يُسْقِي بِكَأْسٍ فِي أَنَامِلِ سَوَسَنِ  
 يَا حَامِلَ السِّيفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ  
 إِيَّاكَ بَادِرَةَ الوَعْيِ مِنْ فَارِسِ  
 جَهْمٍ وَإِنْ حَسَرَ القِنَاعَ فَإِنَّمَا  
 يَطْنِي وَيَلْعَبُ فِي دَلَالِ عِدَارِهِ  
 سَلَّمَ فَقَدْ قَصَفَ القَنَا غِصْنَ النِّقَا  
 عَتَا بِكَأْسِكَ قَدْ كَفَتْنَا مُقْلَةً

وَصَنَعَ فِيهِ أَيْضاً :

وَأَحْوَرَ مِنْ ظَبَاءِ الرُّومِ عَاطٍ  
 قَسَا قَلْبًا وَشَنَّ عَلَيْهِ دِرْعًا  
 بِكَيْتٍ وَقَدْ دَنَا وَنَأَى رِضَاهُ  
 وَإِنَّ فَتَى تَمَلَّكَه بَرِقٌ

بِسَالَفَتِيهِ مِنْ دَمْعِي فَرِيدُ  
 فَبَاطِنُهُ وَظَاهِرُهُ حَدِيدُ  
 « وَقَدْ يَبْكِي مِنَ الطَّرْبِ الْجَلِيدُ »  
 وَأَحْرَزَ حَسَنَهُ لِفَتَى سَعِيدُ

انتهى .

١٠٩ - وذكر في « البدائع » مؤلفه ما نصه<sup>١</sup> : خرج المعتصم بن صمادح صاحب المرية يوماً إلى بعض متزهاته ، فحلَّ بروضة قد سفرت عن وجهها البهيج ، وتنفتت عن مسكها الأريج ، وماست معاطفُ أغصانها ، وتكللت بلؤلؤ الطلِّ أجبادُ قضبائها ، فتشوق إلى الوزير أبي طالب ابن غانم أحد كبراء دولته ، وسيوف صولته ، فكتب إليه بديهاً بورقة كرنب يعود من شجرة :

١ البدائع ٢ : ١٣٩ ، وانظر أيضاً ٢ : ١٤٠ للحكاية التالية عن المعتصم .



أقبلُ أبا طالبٍ إلينا واسقُطُ سقوطَ الندى علينا

١١٠ - وجلس المعتصم بن صمادح المذكور يوماً وبين يديه ساقية قد أخذت بردها حرّاً الأوار ، والتوى ماؤها فيها التواء فضة السوار ، فقال ارتجالاً :

انظر إلى الماء كيف انحطّ من صبّبه كأنه أرقمٌ قد جدّ في هربه

١١١ - وقال السمسر<sup>١</sup> :

بعوضٌ شربَ دمي قهوةً وغنّيتني بضروب الأغانِ  
كأنّ عبروقي أوتارهنّ وجسمي الربابُ وهنّ القيان<sup>٢</sup>

١١٢ - وأحسن منه قول ابن شرف القيرواني<sup>٣</sup> :

لك مجلس كملت بشارةً لهونا فيه ، ولكن تحت ذاك حديثُ  
غنّي الذبابُ فظلّ يزمُرُ حوله فيه البعوضُ ويرقصُ البرغوثُ

١١٣ - والسابق إلى هذا المعنى أبو [ الحسن ] أحمد بن أيوب من شعراء

البيّمة إذ قال<sup>٤</sup> :

لا أعذلّ الليلَ في تطاوله لو كان يدري ما نحن فيه نقصّ  
لي والبراغيثَ والبعوضَ إذا أجنّنا حنّسُ الظلامِ قصصّ  
إذا تغنّى ببعوضه طرباً أطرب<sup>٥</sup> برغوثه الغنا فرقص

١ البدائع ٢ : ١٧٦ .

٢ زاد في مطبوعة التجارية بعد هذين البيتين مقطوعتين في البرغوث والبعوض يظهر أنهما من زيادات النساخ .

٣ البدائع ٢ : ١٧٦ والمطرب : ٧٠ ومعجم الأدباء : ١٩ : ٣٨ .

٤ بدائع البدائع ٢ : ١٧٦ والبيّمة ٤ : ٣٨٣ ، ومنه تصويب الاسم .

٥ البيّمة : ألقينا .

٦ البيّمة : ساعد .

١١٤ - ونحو هذا قول الحُصري فيما نسبه إليه ابن دحية<sup>١</sup> :

ضاقَتْ بِلنْيسِيَّةٍ بي وذَاد عني غموضي  
رَقَصُ البراغِيثِ فيها على غناء البعوضِ

رجع إلى أهل الأندلس ، فنقول :

١١٥ - كان ابن سعد الخير البلسنسي الشاعر كثير الدهول ، مفرط النسيان ، ظاهر التغفل ، على جودة نظمه . ورطوبة طبعه ، وكان كثيراً ما يسلك سكة الإسكافيين الذين يعملون الخفاف على بغلة له ، فأتخذت البغلة النفور من أطراف الأدم وفضلات الجلود الملقاة في السكة عادة لها ، واتفق أن عبر في السكة راجلاً ، ومعه جماعة من أصحابه ، فلما رأى الجلود الملقاة قفز ووثب راجعاً على عقبيه ، فقال له أصحابه : ما هذا أيها الأستاذ؟ فقال: البغلة نفرت ، فعجبوا من تخلفه وتغفله كيف ظن مع ما يقاسيه من ألم المشي ونصّب التعب أنه راكب؟ وأن حركته الاختيارية منه حركة الدابة الضرورية له ، فكان تغفله ربما أوقعه في تهمة عند من لم يعرفه ، فاقترح عليه بعض الأمراء أن يصنع بيتين أول أحدهما كتاب وآخره ذئب ، وأول الآخر جوارح وآخره أناييب ، فصنع بديهاً :

كتابٌ نجيعٌ<sup>٢</sup> لاح في حومةِ الوغى وقارتهُ نَسْرٌ هنالك أو ذيبُ  
جوارحُ أهليه حروفٌ وربما تولّتهُ من نقطِ الطعانِ أناييبُ

١١٦ - وقال الحميدي<sup>٣</sup> : ذكر لي أبو بكر الرواني أنه شاهد محبوباً الشاعر

النحوي قال بديهة في صفة ناعورة :

١ المطرب : ٩٤ وبدائع البدائع ٢ : ١٧٦ .

٢ م : نجيج .

٣ الجذوة : ٣٢٨ .

وذا تِ حنينٍ ما تغيضُ جفونها      من اللججِ الخضرِ الصوافي على شطِّ  
وتبكي فتُحيي من دموعِ جفونها      رياضاً تبدتْ بالأزاهِرِ<sup>١</sup> في بسطِ  
فمن أحمرِّ قانٍ وأصفرِّ فاقعٍ      وأزهرِ مبيضِّ وأدكنِّ مُشمطِّ  
كانَ ظروفَ الماءِ من فوقِ متنها      لآلي جُمانٍ قد نُظِمنَ على قُرطِ

١١٧ - وقال أبو الخطاب ابن دحية<sup>٢</sup>: دخلت على الوزير الفقيه الأجل<sup>٣</sup>  
أبي بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور السلمي ، فوقع الكلام في علوم لم تكن  
من جنس فنونه ، فقال بديهاً :

أيها العالم أدركني سماحاً      فلمثلي يحقُّ منك السماحُ  
إن تخلني إذا نطقتُ عيباً      فبناني إذا كتبتُ وقاحُ  
أحرزُ الشاؤَ في نظامٍ ونثرٍ      ثمَّ أنثي وفي العنانِ جِماحُ  
فبهزلٍ كما تأوَّد غُصنٌ      ويجدِّ كما تُهزُّ الصفاحُ

وقال<sup>٣</sup> : دخلت عليه منزله بشاطبة في اليوم الذي توفي فيه وهو يجود بنفسه ،  
فأنشد بديهاً :

أيها الواقفُ اعتباراً بقبري      استمع فيه قولَ عظمي الرميمِ  
أودعوني بطنَ الضريحِ وخافوا      من ذنوبِ كلومها بأديمي  
ودعوني بما اكتسبتُ رهيناً      غلِقَ الرهنِ عند مولى كريمِ

١١٨ - وقال ابن طوفان<sup>٤</sup> : دعا أبي أبا الوليد النَّحلي ، فلما قضاوا  
وطرهم من الطعام سقيتهم ، وجعلت أترعُ الكاسات ، فلما مشت في النَّحلي

١ الخذوة : من أزاهير .

٢ بدائع البدائنه ٢ : ١٧١ ، ولم ترد في المطرب .

٣ المصدر نفسه : ١٧٢ .

٤ بدائع البدائنه ٢ : ١٩١ ، وفي ب : طفوان .

سورة الحميا ارتجل :

لابن طوفان أبادٍ قلّ فيها مُشبهوهُ  
ملاً الكاساتِ حتّى قيل في البيتِ أبوهُ

ونظيره قول المنفلت<sup>١</sup> من شعراء الذخيرة في الشاعر ابن الفراء :

فإذا ما قال شعراً نفقت سوق أبيه

١١٩ - وذكر في « بدائع البدائه »<sup>٢</sup> أن جماعة من الشعراء في أيام الأفضل خرجوا متنزهين إلى الأهرام ليروا عجائب مبانيها ، ويتأملوا ما سطره الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها ، فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي :

بعيشك هل أبصرت أعجبَ منظرًا  
على ما رأّت عيناك من هرَميّ مصرِ  
أنافا بأعنان<sup>٣</sup> السماء فأشرفنا  
على الجوّ إشرافَ السماكِ أو النسرِ  
وقد وافيا نشزاً من الأرضِ عاليًا  
كأنهما نهدانِ قاما على صدرِ

وصنع أبو منصور ظافر الحداد :

تأملْ هيئةَ الهرمَيْنِ وانظرْ  
وبينهما أبو الهولِ العجيبُ  
كعمارتينِ على رحيلِ  
بمحبوبينِ بينهما رقيبُ  
وفيضُ البحرِ عندهما دموعُ  
وصوتُ الريحِ بينهما نجيبُ  
وظاهر سجنِ يوسفٍ مثل صبّ  
تخلّف فهو محزونٌ كئيبُ

١ المصدر السابق : ١٩٢ .

٢ المصدر نفسه ١ : ٢٤٣ وانظر نوادر المخطوطات ١ : ٢٦ .

٣ م : بأسباب ؛ البدائع : بأكناف .

٤ العمارية : الهودج .

١٢٠ - وقال ابن بسام<sup>١</sup> : كان للمتوكل ابن الأفطس فرس أدهم أغر  
 محجل على كفله ست نقط بيض ، فندب المتوكل الشعراء لصفته ، فصنع التحلي  
 أبو الوليد فيه بديهاً :

ركب البدرُ جَوَاداً سَابِحاً      تقفُ الرِيحُ لأدنى مهَلِهِ  
 لبسَ الليلَ قَمِيصاً سَابِغاً      والثرياَ نُقْطُ في كَفَلِهِ  
 وغديرُ الصبحِ قد خيَضَ به      فبدا تحجِيلُهُ من بلله  
 كلُّ مطلوبٍ وإن طالَتْ بهِ      رجله من أَجَلِهِ في أَجَلِهِ

ثم انتدب الشعراء بعد ذلك للعمل فيه ، فصنع ابن اللبانة :

لله طِرْفٌ جال يا ابنَ محمدٍ      فحبت<sup>٢</sup> به حوباؤه التأميلا  
 لما رأى أن الظلامَ أديمُهُ      أهدي لأربعه الهدى تحجيلا  
 وكأنما في الردفِ منه مَباسمٌ      تبغي هناك لرجله تقييلا

وقال فيه أبو عبد الله ابن عبد البر الشنتريني من قطعة :

وكانما عُمَرُ على صَهَوَاتِهِ      قمرٌ تسيرُ به الرياحُ الأريعُ

ويعني بعمر المتوكل المذكور لأن اسمه عمر .

١٢١ - وقال أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي قاضي إشبيلية :

لله إخوانٌ تناعت دارهمُ      حفظوا الوداد على النوى أو خانوا  
 يهدي لنا طيبَ الثناء ودادهمُ      كالندِّ يهدي الطيبَ وهو دخانُ

١ البدائع ١ : ٢٦٠ .

٢ البدائع : فحبت ؛ ب : فحبت .

[ أخبار عن المروانيين ]

١٢٢ - وحكي أن أيوب بن سليمان السهيلي المرواني حضر يوماً عند ابن باجة والشاعر أبو الحسن ابن جودي هناك ، فتكلم المرواني بكلام ظهر فيه نُبْل وأدب ، فتشوف أبو الحسن ابن جودي لمعرفة ، وكان إذ ذاك في السن ، فقال له : من أنت أكرمك الله تعالى ؟ فقال : هلا سألت غيري عني فيكون ذلك أحسن لك أدباً ولي توقيراً ، فقال ابن جودي : قد سألت من المعرف عنك فلم يعرفك ، فقال : يا هذا ، لظالما مر علينا زمان يعرفنا من يجهل ، ولا يحتاج من يرانا فيه إلى أن يسأل ، وأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه وأنشد :

أنا ابن الألى قد عَوَّض الدهر عزمهم      بذلّ وقلوا واستحبوا التنكرا  
ملوكٌ على مرّ الزمان بمشرقٍ      وغرّب دهاهم دهرهم وتغيرا  
فلا تذكرتهم بالسؤال مُصابهم      فإن حياة الرّزء أن يتذكرا

ففظن ابن جودي أنه من بني مروان ، فقام وقبّل رأسه ، واعتذر إليه ، ثم انصرف المرواني ، فقال ابن باجة لابن جودي : أساء أدبك بعد ما عهدت منك ؟ كيف تعمد إلى رجل في مجلسي تراني قد قربته وأكرمته وخصّصته بالإصغاء إلى كلامه فتقدم عليه بالسؤال عن نفسه ؟ فأحذر أن تكون لك عادة ، فإنها من أسوأ الأدب ، فقال ابن جودي : لم أزل من الشيخ على ما قاله أبو تمام :

نأخذ من ماله ومن أدبه<sup>١</sup>

١٢٣ - وحكي أن بكاراً المرواني<sup>٢</sup> لما ترك وطنه وخرج في الجهاد وقُتِل ، قال صاحب السقط : إنه اجتمع به في أشبونة فقال : قصدت منزله بها ، ونقرت

١ صدر البيت : ننقل أسبابنا إلى ملك .

٢ انظر أخبار بكار وأشعاره في المغرب ١ : ٤١٥ .

الباب . فنأدى : من هذا ؟ فقلت : رجل ممن يتوسل لرؤيتك بقرابة ، فقال : لا قرابة إلا بالتقى ، فإن كنت من أهله فادخل ، وإلا فتنح عني ، فقلت : أرجو في الاجتماع بك والاقتراب منك أن أكون من أهل التقى ، فقال : ادخل ، فدخلت عليه فإذا به في مُصَلَّاه وسبحة أمامه ، وهو يعدّ حبوبها ويسبّح فيها ، فقال لي : ارفق عليّ حتى أتمم وظيفتي من هذا التسبيح ، وأقضي حقلك ، فقعدت إلى أن فرغ ، فلما قضى شغله عطف عليّ وقال : ما القرابة التي بيني وبينك ؟ فانتسبت له ، فعرف أبي وترحم عليه ، وقال لي : لقد كان نعم الرجل ، وكان لديه أدب ومعرفة ، فهل لديك أنت ممّا كان لديه شيء ؟ فقلت له : إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلّم الأدب ، وقد تعلقت من ذلك بما أتميز به ، فقال لي : هل تنظم شيئاً ؟ قلت : نعم ، وقد ألجأتني الدهر إلى أن أرزق به ، فقال : يا ولدي إنه بشما يُرترزق به ، ونعم ما يُتحملي به إذا كان على غير هذا الوجه ، وقد قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : « إنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةٌ » ولكن تحلّ الميتة عند الضرورة ، فأنشدني أصلحك الله تعالى ممّا على ذُكْرِكَ من شعرك ، قال : فطلبت بخاطري شيئاً أقابله به ممّا يوافق حاله فما وقع لي إلا فيما لا يوافق من مُجُون ووصف خمر وما أشبه ذلك ، فأطرقت قليلاً ، فقال : لعلك تنظم ، فقلت : لا ولكن أفكر فيما أقابلك به ، فقولي أكثره فيما حملني عليه الصبّا والسخف ، وهو لائق بغير مجلسك ، فقال : يا بني ، ولا هذا كله ، إنّا لا نبلي من تقوى الله إلى حدّ نخرج به عن السلف الصالح ، وإذا صح عندنا أن عبد الله ابن عباس ابن عم رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، ومفسر كتاب الله تعالى ينشد مثل قول القائل :

إن يَصْدُقُ الطيرُ نَنكَ لِمِيسَا

فمن نحن حتى نأبى أن نسمع مثل هذا ؟ والله لا نشذ عن السلف الصالح ،  
أنشدني ما وقع لك غير متكلف ، فلم يمدني خاطري إلى غير قولي من شعر  
أعجنُ فيه :

أبطأتَ عني ، وإني لفي اشتياقٍ شديدٍ  
وفي يدي لك شيء قد قام مثل العمودِ  
لو ذقتَه مرة لم تعد لهذا الصدودِ

فتبسم الشيخ وقال : أما كان في نظمك أظهر من هذا ؟ فقلت له : ما وفقت  
لغيره ، فقال : لا بأس عليك ، فأنشدني غيره ، ففكرت إلى أن أنشدته قولي :

ولما وفقتُ على ربِّعِهِمْ تجرعتُ وجدِّي بالأجرِ  
وأرسل دمعي شرارَ الدموعِ لنارٍ تأججُ في الأضلعِ  
فقال عنولي ، لما رأى بكائي : رفقا على الأدمعِ  
فقلتُ له : هذه سنَّةٌ لمن حفظ العهدَ في الأربعِ

قال : فرأيت الشيخ قد اختلط ، وجعل يجيء ويذهب ثم أفاق وقال : أعد بحق  
آبائك الكرام ، فأعدتُ فأعاد ما كان فيه وجعل يردده ، فقلت له : لو علمت  
أن هذا يحركك ما أنشدتك إياه ، فقال : وهل حرك مني إلا خيراً وعظة ؟ يا بني  
إن هذه القلوب المخلاة لله كالورق التي جفت ، وهي مستعدة لهبوب الرياح ،  
فإن هبَّ عليها أقلُّ ريحٍ لعب بها كيف شاء ، وصادف منها طَوْعُه ، فأعجبني  
منزعه ، وتأنست به ، ولم أر عنده ما يعتاد من هؤلاء المتدينين من الانجماع  
والانكماش ، بل ما زال يبسطني ويحدثني بأخبار فيها هزل ، ويذكر لي من  
تاريخ بني أمية وملوكها ما أرتاح له ، ولا أعلم أكثره ، فلما كثر تأنسي به



أهويتُ إلى يده كي أُقبلها ، فضمها بسرعة ، وقال : ما شأنك ؟ فقلت : راغباً لك في أن تشدني شيئاً من نظمك ، فقال : أما نظمي في زمان الصبا فكان له وقت ذهب ، ويجب للنظم أن يذهب معه ، وأما نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله ، وهو يثقل عليك ، فقلت له : إن أنصف سيدي الشيخ نفعنا الله تعالى به أنشدني من نظم صباه ، ومن نظم شيخوخته<sup>١</sup> ، فيأخذ كلانا بحظه ، فضحك وقال : ما أعصيك وأنت ضيف وقريب ولك حرمة أدب ووسيلة قصد ، ثم أنشدني وقد بدا عليه الخشوع وختفتَه العبرة :

ثوقٌ بالذي سَوَّكَ من عَدَمٍ فَإِنَّكَ من عَدَمٍ  
وانظرْ لنفسِكَ قبلَ قَرِّ عِ السنِّ من فرطِ الندمِ  
واحذرْ وُقَيْتَ من الورى واصحَبْهُمْ أَعْمَى أصَمَّ  
قد كنتُ في تيهٍ إلى أن لاحَ لي أهدي عَلمِ  
فاقتَدْتُ نحو ضيائه حتى خرجتُ من الظُّلَمِ  
لكنْ قناديلُ الهوى في نورِ رشدي كالحممِ

قال : فوالله لقد أدركني فوق ما أدركه ، وغلبَ على خاطري بما سمعت من هذه الأبيات ، وفعلت بي من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلاّ بعد حين ، فقال لي الشيخ : إن هذه بقطة يرجي معها خيرك ، والله مرشدك ومتقذك ، ثم قال لي : يا بني هذا ما نحن بسبيله الآن ، فاسمع فيما مضى والله وليّ المغفرة ، وإنّا لنرجو منه غفران الفعل ، فكيف القول ، وأنشد :

أطلَّ عِذارُ على خَدِّه فظنّوا سلُويَ عن مذهبي  
وقالوا غرابٌ لوشك النوى فقلتُ اكتسى البدرُ بالغيهبي  
وناديتُ قلبي أينَ المسيرُ وبدرُ الدجى حلَّ في العُقرَبِ

١ ق ب : شيخه .

فقال ولو رُمْتَ عن حُبِّهِ رَحِيلاً عَصِيْتُ ولم أذهبِ

قال : فسمعت ما يقصر عنه صدور الشعراء ، وشهدت له بالتقدم ، وقلت له : لم أرَ أحسن من نظمك في جدِّ ولا هزل ، ثمَّ قلت له : أرويه عنك ؟ فقال : نعم ، ما أرى به بأساً بعد اطلاع مَنْ يَعْلَمُ السرائر ، على ما في الضمائر ، فما قدر هذه الفكاهة في إغضاء من يغفر الكبائر ، ويغضي عن العظائم ؟ قال : فقلت له : فإن أسبغت علي النعمة بزيادة شيء من هذا الفن فعلتَ ما تملك به قلبي آخِرَ الدهر ، فقال : يا بني لا مَلَكَ قلبك غير حب الله تعالى ، ثمَّ قال : ولا أجمع عليك ردَّ قول ومنعاً ، وأنشد :

أيها الشادنُ الذي حُسْنُهُ في البورى غريبُ  
لحظُ ذاك الجمالِ يُطْفئُ ما بي من اللهبِ  
وعليه أحومُ دَهْرِي ولكنِّي أحيبُ  
كلِّما رمتُ زورةً قَبِضَ اللهُ لي رقيبُ

قال : فمازج قلبي من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجز عن التعبير عنه ، فقلت له : زدني زادك الله تعالى خيراً ، فأنشدني :

ما كان قلبي يدري قَدَرَ حَبِّكُمْ حتى بعدتم فلم يقدر على الجَلَدِ  
وكنتُ أحسبُ أنِّي لا أضيقُ به ذرَّعاً فما حان حتى فَتَّ في عضدي  
ثمَّ استمررتُ على كرهٍ مَرِيرَتُهُ فكاد يفرقُ بينَ الروحِ والجَسَدِ  
عساكمُ أن تلاقوا باللقا رَمَتِي فليس لي مهجةٌ تقوى على الكمدِ

ثمَّ قال : حسبك ، وإن كلفتنى زيادة فالله حسبك ، فقلت له : قد وكلتني إلى كريم غفور رحيم ، فبالله إلا ما زدتنى . وأكببتُ لأقبل رجليه ، فضمهما وأنشد :

لله من قال لما شكوتُ فيهِ نحولي  
 أمّا السبيلُ لوصلِ فما له من وصولِ  
 فقلتُ حسبي التماخُ بحسنِ وجهِ جميلِ  
 وجهُ تلوحُ عليهِ علامةٌ للقبولِ  
 فقال دعني فهذا تعرّضُ للفضولِ  
 فقلتُ عاتبُ وخاطبُ بالأمنِ أهلَ العقولِ

فملاً سمعي عجائب ، وبسط أنسي ، وكتبتُ كل ما أنشدني ، ثمّ قلت له :  
 لولا خوفاً من التثقيب عليك لم أزل أستدعي منك الإنشاد حتى لا تجد ما تنشد ،  
 فقال : إن عدت إن شاء الله تعالى إلى هنا تذكرت ، وأنشدتك ، فما عندي ممّا  
 أضيفك غير ما سمعت ، وما تراه ، ثمّ قام وجاء من بيت آخر في داره بصحفة  
 فيها حساً من دقيق وكسور باردة ، فجعل يفتّ فيها ، ثمّ أشار إليّ أن أشرب  
 فشربت ثمّ شرب إلى أن أبتنا على آخرها ، ثمّ قال لي : هذا غذاء عمك نهاره ،  
 وإنه لنعمة من الله تعالى أستديم بشكرها اتصالحا ، قال : فقلت له : يا عم ، ومن  
 أين عيشك ؟ فقال : يا بني ، عيشتي بتلك الشبكة أصطاد بها في سواحل البحر ما  
 أقتات به ، ولي زوجة وبنت يعود من غزلهما مع ذلك ما نجد فيه معونة ، وهذا  
 مع العافية والاستغناء عن الناس خيرٌ كثير ، جعلنا الله تعالى ممّن يلقاه على حالة  
 يرضاها ، وختم لنا بخاتمة لا يخاف معها فضيحة . قال : فركته وقلت وفي نيتي  
 أن أعود إلى زيارته ، ونويت أن يكون ذلك بعد أيام خوف التثقيب ، فعدت إليه  
 بعد ثلاثة أيام ، فنقرت الباب ، فكلمتني المرأة بلسان عليه أثر الحزن ، وقالت :  
 إن الشيخ خرج إلى الغزو ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم ، ناله كالجنون ، فقلت  
 له : ما شأنك ؟ فقال : أريد أن أموت شهيداً في الغزو ، وهؤلاء جيران لي قد

١ ب : على آخره .

عزموا على الغزو ، وأنا إن شاء الله تعالى ماضٍ معهم ، ثم احتال في سيفٍ ورمح وتوجهه معهم ، وقال : نفسي هي التي قتلتني بهواها ، أفلا أقتصمُ منها فأقتلها ؟ قال : فقلت لها : مَنْ خَلَّفَ للنظر في شأنكم ؟ فقالت : ليس ذلك لك ، فالذي خلفنا له لا نحتاج معه إلى غيره ، فأدركني من جوابها روعة ، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاحاً ، فقلت : إني قريبه ، ويجب عليّ أن أنظر في حالكم بعده ، فقالت : يا هذا إنك لست بذئ محرم ، ولنا من العجائز من ينظر منا ويبيع غزَلنا ويتفقد أحوالنا ، فجزاك الله تعالى عنّا خيراً ، انصرف عنّا مشكوراً ، فقلت لها : هذه دراهم خذوها تستعينوا بها ، فقالت : ما اعتدنا أن نأخذ شيئاً من غير الله تعالى ، وما كان لنا أن نُخِلَّ بالعادة ، فانصرفت نادماً على ما فاتني من الاستكثار من شعر الشيخ والتبرك بزيادة دعائه ، ثم عدت بعد ذلك لداره سائلاً عنه ، فقالت لي المرأة : إنه قد قبله الله تعالى ، فعلمت أنه قد قُتِلَ ، فقلت لها : أقتل ؟ فقرأت : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ — الْآيَةَ ﴾ (آل عمران : ١٦٩) فانصرفت معتبراً من حاله ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به . وكانت للمروانيين بالأندلس يد علياً ، في الدين والدنيا . انتهى .

١٢٤ - وقال محمد بن أيوب المرواني ، لما كلّف قوماً حاجة له سلطانية فما نهضوا بها فكلّفها رأس بني مروان القائد سعيد بن المنذر ، فنهض بها :

نهضت بما سألتك غيرَ وان وقد صعبت لسالكها الطريقُ  
وليس يبين فضلُ المرء إلا إذا كلّفته ما لا يطيقُ

وعتبه يوماً سعيد بن المنذر في كونه يتعرض لملاح خدام بني مروان ، فقال له : أعز الله تعالى القائد الوزير ، إنكم جعلتموني ذنباً وجعلوني رأساً ، والنفس تتوق إلى من يكرمها وإن كان دونها أكثر منها إلى من يهينها وإن كان فوقها ،

وإني من هذا وهذا في أمر لا يعلمه إلاّ الذي أبلاني به ، ويا ويح الشجيّ من  
الخليّ ، وأنا الذي أقول فيما يتخلل هذا المنزع :

نُسِبْتُ لِقَوْمٍ لَيْتِي نَجَلٌ غَيْرِهِمْ      فلي نَسَبٌ يعلو وحظي يَسْفُلُ  
أَقْطَعُ عَمْرِي بِالتَعَلُّلِ وَالْمَنَى      وكم يَخْدَعُ المرءَ اللبيبَ التَعَلُّلُ  
فَمَا لِي مَكَانٌ أَرْضِيهِ لِهَمَّةٍ      وَلَا مَالٌ مِنْهُ أَسْتَعْفُ وَأَفْضِلُ  
وَلَكِنِّي أَقْضِي الحَيَاةَ تَجْمُلًا      وَهَلْ يَهْلِكُ الْإِنْسَانُ إِلَّا التَّجْمُلُ

فقال له سعيد : قصدنا لومك فعطفت اللائمة علينا ، ونحن أحق بها ،  
وسننظر إن شاء الله تعالى فيما يرفع اللوم عن الجانبين ، ثم تكلم مع الناصر في  
شأنه ، فأجرى له رزقاً أغناه عن التكفف ، فكانت هذه من حسنات سعيد وأياديه.  
١٢٥ - وقال المطرف بن عمر المرواني يمدح المظفر بن المنصور بن أبي عامر :

إِنَّ المَظْفَرَ لَا يَزَالُ مَظْفَرًا      حَكَمًا مِنَ الرَّحْمَنِ غَيْرَ مَبْدَلٍ  
وَهُوَ الْأَحَقُّ بِكُلِّ مَا قَدْ حَازَهُ      مِنْ رَفْعَةٍ وَرِيَاسَةٍ وَتَفَضُّلٍ  
تَلْقَاهُ صَدْرًا كَلِمًا قَلْبَتَهُ      مِثْلَ السَّنَانِ بِمَحْفَلٍ وَبِمَحْفَلٍ

وحضر يوماً مع شاعر الأندلس في زمانه ابن دراج القسطلّي ، فقال له  
القسطلّي : أنشدني أبياتك التي تقول فيها :

عَلَى قَدَرٍ مَا يَصِفُو الخَلِيلُ يُكَدِّرُ

فأنشده :

تَخَيَّرْتُ مِنْ بَيْنِ الْأَنَامِ مُهَدَّبًا      وَلَمْ أَدْرِ أَنِي خَائِبٌ حِينَ أُخْبِرُ  
فَمَا زَجَنِي كَالرَّاحِ لِلْمَاءِ ، وَاعْتَدَى      عَلَى كُلِّ مَا جَسَّمْتَهُ يَتَصَبَّرُ

١ ب : عمير .

إلى أن دهاني إذ أمنتُ غروره سفاهاً وأداني لما ليس يُذكرُ  
وكدّرَ عيشي بعد صفوي ، وإنما على قدر ما يصفو الخليلُ يكدرُ

فاهتزّ القسطلّي وقال : والله إنك في هذه الأبيات لشاعر ، وأنا أنشدك  
فيما يقابلها لبلال بن جرير :

لو كنتُ أعلمُ أن آخرَ عهدهمُ يومَ الفراقِ فعلتُ ما لم أفعلِ

ولكن جعل نفسه فاعلاً وعرضت نفسك لأن يقال : إنك مفعول ، فقال :  
ومن أين يلوح ذلك ؟ فقال القسطلّي : من قولك « وأداني لما ليس يُذكرُ » فما  
يُظنّ في ذلك إلاّ أنه أذاك إلى موضع فعل بك فيه ، فاغتاظ الأموي وقال :  
يا أبا عمر ، ومن أين جرت العادة بأن تمزح معي في هذا الشأن ؟ فقال له : حلم  
بني مروان يحملنا على أن نخرق العادة في الحمل على مكارمهم ، فسكن غيظه .  
وكتب المرواني المذكور إلى صاحب له يستعير منه دابة يخرج عليها للفرجة  
والخلاعة : أنهض الله تعالى سيدي بأعباء المكارم ، إن هذا اليوم قد تبسم أفنقه .  
بعدا بكى ودقّه . وصقلت أصداء أوراقه . وفتحت أحداق حدائقه . وقام  
نوره خطيباً على ساقه . وفضضت غدراؤه ، وتوّجت أغصانه . وبرزت شمس  
من حجابها ، بعدما تلفعت بسحابها ، وتنبّه في أرجاء الروض أرج النسيم ،  
وعرف في وجهه نضرة النعيم ، وقد دعا كلُّ هذا ناظر أخيك إلى أن يجيله في  
هذه المحاسن ، ويجدد نظره في المنظر الذي هو غير مبتذل والماء الذي هو غير  
أسن ، والفحص اليوم أحسن ما ملح . وأبدع ما حرن فيه وجمع . فجئني  
بإعارة ما أنهض عليه لمشاهدته ويرفع عني خجل الابتذال ، بمناكفة الأندال ،  
لا زلت نهاضاً بالأمال . مُسْعِفاً بمراد كل خليل غير مقصر ولا آل .

١٢٦ - وكتب الأمير هشام بن عبد الرحمن إلى أخيه عبد الله المعروف  
بالبسّسي حين فرّ كتاباً يقول في بعض فصوله : والعجب من فرارك دون أن

ترى شيئاً . فخاطبه بجواب يقول فيه : ولا تتعجب من فراري دون أن أرى شيئاً ؛ لأنني خفت أن أرى ما لا أقدر على الفرار بعده ، ولكن تعجب مني أن حصلت في يدك بعدما أفلت منك .

وقال له وزيره أحمد بن شعيب البَلَسَنِي : أليس من العار أن يبلغ بك الخَوَر من هذا الصبي أن تجعل بينك وبينه البحر ، وتترك بلاد ملكك وملكك أهلك ؟ فقال : ما أعرف ما تقول ، وكل ما وُقِيَ به إتلاف النفس ليس بعار ، بل هو محض العقل ، وأوّل ما ينظر الأديب في حفظ رأسه ، فإذا نظر في ذلك نظر فيما بعده .

١٢٧ - وقال عبد الله بن عبد العزيز الأموي ويُعرف بالحجر<sup>١</sup> :

اجعلْ لنا منك حظّاً أيها القَمَرُ فإِنما حظُّنا من وجهك النظرُ  
رآكَ ناسٌ فقالوا : إنَّ ذا قَمَرٌ فقلتُ : كُفُّوا فعندي منهما الخبرُ  
البَدْرُ ليسَ بغيرِ النِّصْفِ بهجتهُ حتى الصباحِ وهذا كَلَّةٌ قمرُ

١٢٨ - وقال أبو عبد الله محمد بن محمد بن الناصر يرثي أبا مروان ابن

سراج<sup>٣</sup> :

وكمْ مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ أَبَانَهُ وَأَبْسَهُ مِنْ حُسْنِ مَنْطِقِهِ وَشِيَا  
وكمْ مَصْعَبٍ لِلنَّحْوِ قَدْ رَاضَ صَعْبَهُ فَعَادَ ذَلُولاً بَعْدَمَا كَانَ قَدْ أَعْيَا

١٢٩ - وحكي أنه دخل بعض شعراء الأندلس على الفقيه سعيد بن أضحى ،

وكان من أعيان غرناطة ، فمدحه بقصيدة ، ثم بموشحة ، ثم بزجل ، فلم

١ الجذوة : ٢٤٤ ( وبقية الملتبس رقم : ٩٣٣ ) .

٢ الجذوة : البدر ليلة نصف الشهر . . . . وهذا دهره .

٣ الذخيرة ٢ / ١ : ٣١٧ .

يعطه شيئاً . بل شكاً إليه فقراً ، حتى إنه بكى ، فأخذ الدواة والقرطاس وكتب ووضع بين يديه :

شكاً مثالَ الذي أشكوهُ من عدمٍ      إنَّ المقلَّ الذي أعطاك دمعتهُ  
وساءه مثل ما قد ساءني فبكي      نعمَ الجوادُ فتَّى أعطاك ما ملكا

١٣٠ - وقال ابن خفاجة ١ :

نهرٌ كما سالَ ٢ اللّمي سألُ  
ومَهَبَ نَفْحَةَ رَوْضَةٍ مَطْلُولَةٍ  
وَصَبَّاءٌ بَلِيلٌ ذَيْلُهَا مَكْسَالُ  
فِيهَا لِأَفْرَاسِ النَّسِيمِ ٣ مَجَالُ  
وَالْأَسُّ صُدْعٌ وَالْبَنْفَسُجُ خَالُ  
غَازِلَتُهُ وَالْأَقْحَوَانَةُ مَبْسِمُ

وقال ٤ :

وساقٍ كحيلِ الطَّرْفِ ٥ فِي شَأْوِ حَسَنِهِ  
تَرَى لِلصَّبَا نَاراً بَجْدَيْهِ لَمْ يَثُرْ  
سَقَانَا وَقَدْ لَاحَ الْمَلَالُ عَشِيَّةً  
عُقَاراً نَمَاهَا الْكَرْمُ فِيهِ كَرِيمَةٌ  
وَقَدْ جَالَ مِنْ جَوْنِ الْغَمَامَةِ أَدْهَمُ  
وَضَمَّخَ رَدْعُ الشَّمْسِ نَحْرَ حَدِيقَةٍ  
وَنَمَّتْ بِأَسْرَارِ الرِّيَاضِ خَمِيلَةٌ  
جَمَاحٌ ، وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ حِرَانُ  
لَهَا مِنْ سَوَادِي عَارِضِيهِ دُخَانُ  
كَمَا اعْوَجَّ فِي دَرَعِ الْكَمِيِّ سَنَانُ  
وَلَمْ تَزِنْ بِابْنِ الْمِزْنِ فِيهِ حِصَانُ  
لَهُ الْبَرْقُ سَوَاطِئُ وَالْعِنَانُ عِنَانُ  
عَلَيْهِ مِنَ الطَّلِّ السَّقِيطِ جُمَانُ  
لَهَا النُّورُ ثَغْرٌ وَالنَّسِيمُ لِسَانُ

١ ديوان ابن خفاجة : ١١٩ والنفح : ٣ : ٢٠٢ .

٢ الديوان : ساغ .

٣ الديوان : في جلهتها للنسيم .

٤ ديوان ابن خفاجة : ٢٣٥ وقد تقدمت الأبيات ص : ٢٠٢ من هذا المجلد .

٥ ديوانه : لحيل اللحظ ؛ وهو أصوب .



وقال في وصف فرس أصفر ، ولم يخرج عن طريقته <sup>١</sup> :

وأشقرَ تُضرمُ منه الوغى      بشعلة من شعلِ الباسِ  
من جلتنا ناضِرٍ لونهُ      وأذنهُ من ورقِ الآسِ  
يطلعُ للغرةِ في شقرةٍ      حباةً تضحك في الكاسِ

١٣١ - وقال أبو بكر يحيى <sup>٢</sup> بن سهل اليكبي يهجو :

أعدِ الوضوء إذا نطقتَ به      مستعجلاً من قبل أن تنسى  
واحفظ ثيابك إن مررتَ به      فالظلُّ منه ينجسُ الشمسَا

١٣٢ - وقال ابن اللبّانة <sup>٣</sup> :

أبصرتهُ قصّر في المشية      لما بدت في خدّه لحيه  
قد كتب الشعرُ على خدّه      ﴿أو كالذي مرَّ على قريه﴾

١٣٣ - وقال الوزير الكاتب أبو محمد [ ابن ] عبد الغفور الإشبيلي في الأمير

أبي بكر سير من أمراء المرابطين ، وكتب بها إليه في غزاة غزاهما <sup>٤</sup> :

سرّ حيثُ سرتَ يخلهُ النوارُ      وأراك فيه مرادك المقدارُ  
وإذا ارتحلتَ فشيّعتك سلامةُ      وغمامةٌ لا ديمةٌ مدرارُ  
تنفي الهجيرَ بظللها وتنيماً      رشّ القتامَ وكيف شئتَ تدارُ  
وقضى الإله بأن تعودَ مظفراً      وقضت بسيفك نجبها الكفارُ

١ ديوانه : ١٢٣ ومرت الأبيات ص : ٢٠٢ من هذا المجلد .

٢ في الأصول : محمد ، وهو خطأ اقتضى التصويب .

٣ القلائد : ٢٥٢ .

٤ القلائد : ١٦٣ والمغرب ١ : ١٣٧ .

٥ ب م : نحوها .

هذا غير ما تمناه الجعفي حيث قال <sup>١</sup> : حيث ارتحلت وديمة <sup>٢</sup> ، وما تكاد  
تنفذ معها عزيمة ، وإذا سَفَحَتْ على ذي سفر ، فما أحرأها بأن تعوق عن الظفر ،  
ونعتها بمدرار ، فكان ذلك أبلغ في الإضرار ، وما أحسن قول القائل :

فَسِرْ ذَا رَايَةٍ خَفَقَتْ بِنَصْرِ وَعُدُّ فِي جِحْفَلٍ بِهَجِّ الْجَمَالِ  
إِلَى حِمْنٍ فَأَنْتَ بِهَا حُلِيٌّ تَغَايِرُ فِيهِ رَبَاتُ الْحِجَالِ

١٣٤ - وقال الحجاري في « المسهب » : كتبتُ إلى القاضي أبي عبد الله  
محمد اللوشي أستدعي منه شعره لأكتبه في كتابي ، فتوقفَ عن ذلك وانقبض  
عني ، فكتبتُ إليه :

يَا مَانِعاً شِعْرَهُ عَنْ سَمْعِ ذِي أَدَبٍ نَائِي الْمَحَلِّ بَعِيدِ الشَّخْصِ مَغْرَبِ  
سِيرُ عَنكَ بِهِ فِي كُلِّ مُتَّجِهٍ كَمَا يَمُرُّ نَسِيمُ الرِّيحِ بِالْعَذْبِ  
إِنِّي وَحَقِّكَ أَهْلٌ أَنْ أَفُوزَ بِهِ وَاسْأَلُ فِدَيْتَكَ عَن ذَاتِي وَعَن أَدْبِي

فكان جوابه :

يَا طَالِباً شِعْرٍ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ فِي الْأَدَبِ مَاذَا تَرِيدُ بِنِظْمٍ غَيْرِ مُنْتَحَبِ  
إِنِّي وَحَقِّكَ لَمْ أَبْجُلْ بِهِ صِلَفاً وَمَنْ يَضُنُّ عَلَى جِيدٍ بِمُخْشَلَبِ  
لَكِنِّي صُنْتُ قَدْرِي عَن رَوَايَتِهِ فَمِثْلُهُ قَلٌّ عَن سَامٍ إِلَى الرَّئِبِ  
خَذَهُ إِلَيْكَ كَمَا أَكْرَهْتَ مِضْطَرَباً مَحَلَّلاً ذَمَّ مَوْلَاهُ مَدَى الْحَقْبِ

قال : ثم كتبتُ لي مما أتخفي به من نظمه محاسن أبي من الأعمار ، وأرق  
من نسيم الأسحار .

١ القلائد : هذا ما تمناه الولي لا ما تمناه الجعفي حيث قال .

٢ يريد قول المتنبي :

وإذا ارتحلت فشيعتك سلامة حيث اتجهت وديمة مدار

١٣٥ - وقال صالح بن شريف في البحر وهو أحسن ما قيل فيه :

البحرُ أعظمُ ممّا أنتَ تحسبُهُ من لم يرَ البحرَ يوماً ما رأى العجبا  
طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زَرَقٍ مثل السَّماءِ إذا ما مُلَّتْ شُهبا

وقال أيضاً :

ما أحسنَ العقلَ وآثاره لو لازم الإنسانُ لئثاره  
يصونُ بالعقلِ القوي نفسه كما يصون الحرُّ أسرارَه  
لا سيّما إن كان في غُرْبَةٍ يحتاج أن يعرفَ مقدارَه

١٣٦ - وقال ابن برطله ٢ :

خطوبُ زماني ناسبتي غرابةٌ لذلك يرمني بهنّ مصيبُ  
غريبٌ أصابتهُ خطوبٌ غريبةٌ «وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ»

وهذا من أحسن التضمين ، الذي يُزري بالدرّ الثمين .

١٣٧ - ودخل ابن بقيّ الحمّام وفيه الأعمى التّطيلي فقال له : أجز ٣ :

حمّامنا كزمان القَيْظِ محتدمٌ وفيه للبرد صرٌّ غيرُ ذي ضررٍ

فقال الأعمى :

ضدّان يَنعَمُ جسمُ المرءِ بينهما كالغصنِ ينعمُ بين الشمسِ والمطرِ  
ولا يخفى حُسْنُ ما قال الأعمى .

١ م : حليت .

٢ م : برطالة .

٣ انظر مطالع البدور ٢ : ١٠ .

وقد ذكر في «بدائع البدائيه»<sup>١</sup> البيتين معاً منسوبين إلى ابن بقيّ ، ولنذكر كلامه برمته لما اشتمل عليه من الفوائد ، ونصه : ذكر ابن بسام قال : دخل الأديبان أبو جعفر ابن هريرة التّطيليّ المعروف بالأعمى وأبو بكر ابن بقيّ الحمّام ، فتعاطيا العمل فيه ، فقال الأعمى :

يا حُسْنَ حَمَامنا وبهجتَهُ      مرأى من السحرِ كلَّهُ حَسَنُ  
ماءٍ ونارٍ حوامها كَنَفُ      كالقلبِ فيه السرورُ والحَزَنُ

ثمّ أعجبه المعنى فقال :

ليسَ على لهُوننا مزيدُ      ولا الحَمَامينا ضريبُ  
ماءٍ وفيهِ لهُيبُ نارٍ      كالشمسِ في ديمةٍ تَصوبُ  
وابيضُ من تحته رخامُ      كالثلجِ حين ابتدا يندوبُ

وقال ابن بقيّ :

حَمَامنا فيه فصل القِيظ - البيتين

فقال الأعمى وقد نظر فيه إلى فتي صبيح :

هل استمالكَ جسمُ ابنِ الأميرِ وقد      سالتُ عليه من الحَمَام أنداء  
كالغصنِ باشرَ حرَّ النارِ من كَثَبِ      فضلٍ يقطرُ من أعطافه الماءُ

[ وصف حمّام مشرقى ]

قلت : تذكرت هنا عند ذكر الحمّام ما حكاه بدر الدين الحسن بن زفير الإربلي المتطبب إذ قال<sup>٢</sup> : رأيت ببغداد في دار الملك شرف الدين هرون ابن

١ البدائع ١ : ٢٤٢ والنّخيرة ١ / ١ : ٢٥٨ .

٢ مطالع البدر ٢ : ٨ .

الوزير صاحب شمس الدين محمد الجويني حمّاماً متقن الصنعة ، حسن البناء ، كثير الأضواء ، قد احتفّت به الأزهار والأشجار ، فأدخلني إليه سائسه ، وذلك بشفاعة صاحب بهاء الدين بن الفخر عيسى المنشيء الإربلي ، وكان سائس هذا الحمّام خادماً حبشياً كبير السن والقدر ، فطاف بي عليه ، وأبصرت مياحه وشبائيكه وأنايبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة ، ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الأنايب إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسنة الإلتقان ، ثمّ منها إلى البستان ، ثمّ أراني نحو عشر خلوات ، كلُّ خلوة صنعتها أحسن من صنعة أختها ، ثمّ انتهى بي إلى خلوة عليها باب مُقْفَل بقفل حديد ، ففتحه ، ودخل بي إلى دهليز طويل كله مرخم بالرخام الأبيض الساذج ، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة تتسع بالتقريب نحو أربعة أنفس إذا كانوا قعوداً وتتسع اثنين إذا كانوا نياماً ، ورأيت من العجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرأة ، يرى الإنسان سائر بشرته في أي حائط شاء منها ، ورأيت أرضها مصورة بفصوص حمر وصر وخنصر ومذهبة وكلها متخذة من بلّور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر ، فأما الأخضر فيقال إنه حجارة تأتي من الروم ، وأما المذهب فزجاج ملبس بالذهب ، وتلك الصورة في غاية الحسن والجمال ، على هيئات مختلفة في اللون وغيره ، وهي ما بين فاعل ومفعول به ، إذا نظر المرء إليها تحركت شهوته ، وقال لي الخادم السائس : هذا صنّع على هذه الصفة لمخدومي ، حتى إنه إذا نظر إلى ما يفعله هؤلاء بعضهم مع بعض من المُجامعة والتقبيل ووضع أيدي بعضهم على أعجاز بعض تتحرك شهوته سريعاً ، فيبادر إلى مجامعة مَنْ يجبه .

قال الحاكي : وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التي دخلت إليها هي مخصوصة بهذا الفعل ، إذا أراد الملك شرف الدين هرون الاجتماع في الحمّام بمن يهواه من الجوارى الحسان والصور الجميلة والنساء الفاتحات الحسن لم يجتمع به إلاّ في هذه

الخلوة ، من أجل أنه يرى كل محاسن الصور الجميلة مصوّرة في الحائط ومجسمة بين يديه ، ويرى كل منهما صاحبه على هذه الصفة ، ورأيت في صدر الخلوة حوض رخام مزلع وعليه أنبوب مركب في صدره ، وأنبوب آخر<sup>١</sup> برسم الماء البارد ، والأنبوب الأول برسم الماء الفاتر ، وعن يمين الحوض ويساره عمدان صغار منحوتة من البلور يوضع عليها مباخر الندّ والعود ، وأبصرت منها خلوة شديدة الضياء مفرحة بديعة قد أنفق عليها أموال كثيرة ، وسألت الخادم عن تلك الحيطان المشرقة المضيئة : من أي شيء صنعت ؟ فقال لي : ما أعلم .

قال الحاكي : فما رأيت في عمري ولا سمعت بمثل تلك الخلوة ، ولا بأحسن من ذلك الحمام ، مع أنني ما أحسن أن أصفهما كما رأيتهما ، فإنه لم تتكرر رؤيتي لهما ، ولا اتفق لي الظفر بصناعتها ومباشرتها ، وفي الذي ذكرت كفاية . انتهى .

#### [ دار جمال الملك البغدادي ]

ولما اتصل أبو القاسم علي بن أفلح البغدادي الكاتب بأمر المؤمنين المسترشد بالله العباسي ، ولقبه جمال الملك ، وأعطاه أربع ديار في درب الشاكرية اشترى دوراً أخرى إلى جانبها ، وهدم الكل ، وأنشأ داره الكبيرة ، وأعانها الخليفة في بنائها ، وأطلق له أموالاً وآلات البناء ، وكان في جملة ما أطلق له مائتا ألف آجرة وأجريت الدار بالذهب ، وصنع فيها الحمام العجيب الذي فيه بيت مستراح فيه أنبوب إن فركه الإنسان يميناً خرج ماء حار وإن فركه شمالاً خرج ماء بارد ، وكان علي إيوان الدار مكتوباً<sup>٢</sup> :

إن عَجِبَ الرَّاعُونَ من ظاهري فباطني لو علموا أعجبُ

١ ب : وعليه مركب في صورة أنبوب آخر برسم الماء ؛ م : مركب في صدره أنبوب وآخر . . .  
٢ ب م : مكتوب .

شيدني من كفه مزنه  
ودبجت روضة أخلاقه  
صدر كسا صدري من نوره  
يهمل منها العارض الصيب  
في رياضاً نورها مذهب  
شمساً على الأيام لا تغرب

وكتب على الطرز :

ومن المروعة للفتي  
فأقنع من الدنيا بها  
هاتيك وافية بما  
ما عاش دار فاخيرة  
واعمل لدار الآخرة  
وعدت ، وهذي ساخره<sup>١</sup>

وكتب على النادي :

وناد كأن جنان الخلود  
وأعطته من حادثات الزما  
فأضحى بنيه على كل ما  
تظل الوفود به عكفاً  
بقيت له يا جمال الملو  
وسالته فيك ريب الزمان  
أعارته من حُسْنها رونقا  
ن أن لا تلم به موثقا  
بني مغرباً كان أو مشرقا  
وتُسمي الضيوف به طرُقا  
ك والفضل مهما أردت البقا  
ووقيت فيه الذي يُتقى

[ أشعار للمشاركة في الحمام ]

وعلى ذكر الحمام فما أحكم قول ابن الوردي فيما أظن<sup>٢</sup> :

وما أشبه الحمام بالموت لا مري  
يجرد عن أهل ومال وملبس  
تذكر ؛ لكن أين من يتذكر  
ويصعبه من كل ذلك مثر

١ ب : خاسرة .

٢ مطالع البدور ٢ : ١٣ .

وقال الشهاب بن فضل الله ١ :

وحمامكم كعبة للوفود  
يكرر صوت أناييه  
تحنج إليه حفاة عراه  
كتاب الطهارة باب المياه

وقد تمثل بهذين البيتين البرهان القيراطي في جواب كتاب استدعاه فيه بعض أهل عصره إلى الحمام ، وافتتح الجواب بقوله ٢ :

قد أحببنا وأنت أيضاً فصبح  
وبساق يسبي العقول بساق  
ت بصبحي سواف وسلاف  
وقوام وفق العناق خلافي  
ووصله بنثر تمثل فيه بالبيتين كما مر .

ولبعضهم ٣ :

إن حمامنا الذي نحن فيه  
قد نزلنا به على ابن معين  
أي ماء به وأية نار  
ورويانا عنه صحيح البخار [ي]  
وألغز بعضهم في الحمام بقوله ٤ :

ومنزل أقوام إذا ما تقابلوا  
ينفس كربى إذ ينفس كربه  
تشابه فيه وغده ورئيسه  
ويعظم أنسي إذ يقل أنيسه  
إذا ما أعرت الجوطر فأكثرت  
على من به أقماره وشموسه

رجع إلى ما كنا فيه من كلام أهل الأندلس ، فنقول :

١ مطالع البدور ٢ : ١١ ، ١٧ .

٢ مطالع البدور ٢ : ١٦ .

٣ المصدر نفسه : ١٠ .

٤ المصدر نفسه : ٩ .



١٣٨ - وكان محمد بن خلف بن موسى البيري<sup>١</sup> متكلماً متحققاً برأي الأشعرية ، وذاكراً لكتب الأصول في الاعتقاد ، مشاركاً في الأدب ، مقدماً في الطب ، ومن نظمه بمدح إمام الحرمين رحمه الله تعالى :

حُبُّ حَبْرٍ يَكْنَى أَبَاً لِمَعَالِي هُوَ دِينِي فَفِيهِ لَا تَعْدِلُونِي  
أَنَا وَاللَّهِ مَغْرَمٌ بِهَوَاهُ عَلَّلُونِي بِذِكْرِهِ عَلَّلُونِي

١٣٩ - وكتب<sup>٢</sup> أبو الوليد ابن الجنان الشاطبي<sup>٣</sup> يستدعي بعض إخوانه إلى مجلس أنس بما صورته : نحن في مجلس أغصانهُ الندامى ، وغمامه الصهباء ، فبالله إلا ما كنت لروض مجلسنا نسيماً ، ولزهر حديثنا شميماً ، وللجسم روحاً ، وللطيب ريحاً ، وبيننا عنراء زُجاجتها خدرها ، وحبابها ثغرها ، بل شقيقة حوتها كمامة ، أو شمس حجبتها غمامة ، إذا طاف بها معصم الساقى فوردة على غصنها ، أو شربها مقهقهةً فحمامة على فنسها ، طافت علينا طَوْفَانِ الْقَمَرِ عَلَى مَنَازِلِ الْحُلُولِ ، فَأَنْتَ وَحَيَاتِكَ إِكْلِيلُنَا وَقَدْ آنَ حُلُولُهَا فِي الْإِكْلِيلِ ، انْتَهَى .

وقال أبو الوليد المذكور :

فَوْقَ خَدِّ الْوَرْدِ دَمْعٌ مِنْ عَيُونِ السَّحْبِ يُدْرَفُ  
بِرْدَاءِ الشَّمْسِ أَضْحَى بَعْدَمَا سَالَ يَجْفَفُ

[ حكاية مشرقية عن الورد والياسمين ]

وتذكرت هنا بذكر الورد ما حكاه الشيخ أبو البركات هبة الله بن محمد النصيبي المعروف بالوكيل ، وكان شيخاً ظريفاً فيه آداب كثيرة ، إذ قال :

١ م : البشيري .  
٢ م : وكتب الوزير .  
٣ مرت ترجمته رقم : ٦٨ في الراحلين إلى المشرق ( ٢ : ١٢٠ ) .

كنت في زمن الربيع والورد في داري بنصيين ، وقد أحضر من بستاني من  
الورد والياسمين شيء كثير ، وعملت على سبيل الولع دائرة من الورد  
تقابلها دائرة من الياسمين ، فاتفق أن دخل علي شاعران كانا بنصيين أحدهما  
يُعرف بالمهذب والآخر يُعرف بالحسن ابن البرقععيدي ، فقلت لهما : اعملا  
في هاتين الدائرتين ، ففكّرنا ساعة ثم قال المهذب :

يا حُسْنَهَا دَائِرَةٌ      من يَاسْمِينٍ مُشْرِقِ  
والوَرْدُ قَدْ قَابَلَهَا      فِي حُلَّةٍ مِنْ شَفَقِ  
كَعَاشِقٍ وَحَبِيبِهِ      تَغَامِزًا بِالْحَدَقِ  
فَاحْمَرَّ ذَا مِنْ خَجَلٍ      وَاصْفَرَّ ذَا مِنْ فَرَقِ

قال : فقلت للحسن : هات ، فقال : سبقني المهذب إلى ما لمحتّه في هذا  
المعنى ، وهو قولي :

يا حُسْنَهَا دَائِرَةٌ      من يَاسْمِينٍ كَالْحَلِيِّ  
والوَرْدُ قَدْ قَابَلَهَا      فِي حُلَّةٍ مِنْ خَجَلِ  
كَعَاشِقٍ وَحَبِيبِهِ      تَغَامِزًا بِالْمُقَلِّ  
فَاحْمَرَّ ذَا مِنْ خَجَلٍ      وَاصْفَرَّ ذَا مِنْ وَجَلِ

قال : فعجبت من اتفاقهما في سرعة الاتحاد ، والمبادرة إلى حكاية الحال ،  
انتهى .

وما أَلْطَفَ قَوْلَ بَعْضِهِمْ :

أرى الوَرْدَ عِنْدَ الصَّبْحِ قَدْ مَدَّ لِي فَمًا      يَشِيرُ إِلَى التَّقْبِيلِ فِي حَالَةِ اللَّمَسِ  
وبعد زوالِ الشَّمْسِ أَلْفَاهُ وَجَنَّةً      وَقَدْ أَثَّرَتْ فِي وَسْطِهَا قَبْلَةَ الشَّمْسِ

١٤٠ - وقال ابن ظافر في « بدائع البدائنه »<sup>١</sup> : اجتمع الوزير أبو بكر ابن القبطرنة والأديب أبو العباس ابن صارة الأندلسيان في يوم جلا ذهب برقه ، وأذاب ورق ودقه ، والأرض قد ضحكت لتعيس السماء ، واهترت وربت عند نزول الماء ، فقال ابن القبطرنة :

هذي البسيطة كاعب أبرادها حُللُ الربيعِ وحلَّيها التوارُ  
فقال ابن صارة :

وكانَ هذا الجوّ فيها عاشقٌ قد شفّه التعذيبُ والإضرارُ  
ثم قال ابن صارة أيضاً :

وإذا شكّا فالبرقُ قلبٌ خافقٌ وإذا بكى فدموعهُ الأمطارُ  
فقال ابن القبطرنة :

من أجلِ ذلّةِ ذا وعزةِ هذه يبكي الغمامُ وتضحكُ الأزهارُ

[ بديهة ابن ظافر ]

وتذكرت هنا ما حكاه ابن ظافر<sup>٢</sup> في الكتاب المذكور أنه اجتمع مع القاضي الأعز يوماً فقال له ابن ظافر : أجز :

طار نسيمُ الروضِ من وكر الزهرِ

فقال الأعز :

وجاء مبلولَ الجناحِ بالمطرِ

انتهى .

١ بدائع البدائنه ١ : ١٨٦ ومطالع البدور ١ : ١٢٣ .

٢ البدائع ١ : ٧٠ .

ويعجبي قول ابن قرناص<sup>١</sup> :

أظنُّ نسيماً الرّوضِ والزهرِ قد رَوَى      حديثاً ففاحت من شدّاهُ المسالكُ  
وقالَ دنا فصلُ الربيعِ فكلّهُ      تُغورُ لما قال النسيمُ ضواحكُ

رجع إلى الأندلسيين :

١٤١ - وما أرق قول ابن الزقاق<sup>٢</sup> :

ورياضٍ من الشقائقِ أضحت      يتهدى بها نسيماً الرّياحِ  
زرتها والغمامُ يجلدُ منها      زهّراتٍ تفوقُ لونَ الرّاحِ  
قلتُ : ما ذنبها ؟ فقال مجيباً :      سرقتُ حمرةَ الخلودِ الملاحِ

١٤٢ - وقال أبو إسحاق ابن خفاجة<sup>٣</sup> :

تعلقته نشوان<sup>٤</sup> من خمر ريقه      له رشفها دوني ولي دونه السكرُ  
ترقرق ماءً مقلّتي ووجهه      ويدكي على قلبي ووجنته الجمرُ  
أرقّ نسيبي فيه رقّةٌ حسنه      فلم أدري أيّ قبلها منهما السحرُ  
وطبنا معاً شعراً وثغراً كأنّما      له منطقي ثغرٌ ولي ثغره شعرُ

١٤٣ - وقال أبو الصّلت أمية بن عبد العزيز<sup>٥</sup> :

وقائلة : ما بالُ مثلك خاملاً      أنت ضعیف الرأي أم أنت عاجز ؟  
فقلت لها : ذنبي إلى القومِ أنتي      لما لم يحوزوه من المجدِ حائر

١ مطالع البدور ١ : ١٢٥ .

٢ ديوان ابن الزقاق : ١٢٥ والمغرب ٢ : ٣٢٤ والشريشي ١ : ١٢٠ وقد مرت ص : ٢٠٠ .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٥٣ .

٤ الديوان : ريان .

٥ الحريدة ١/٤ : ٢٧٧ .

وما فاتني شيء سوى الحظّ وحده وأما المعالي فهي عِندي غرائز

وقال :

جدّ بقلبي وعبثُ ثمّ مضى وما اكترثُ  
وأحرّبا<sup>١</sup> من شادنٍ في عقْدِ الصبرِ نَفَثُ  
يقتُلُ من شاء بعيهٍ ومن شاء بعثُ

١٤٤ - وقال البليغ الفاضل يحيى بن هذيل<sup>٢</sup> أحد أعيان شعراء الأندلس :

نام طفلُ النبتِ في حِجْرِ النعامي لاهتزازِ الطلِّ في مهد الخزامي  
وسقى الوَسْمِيُّ أغصانَ النَّقا فهوت تلمُّ أفواه الندامي  
كحلّ الفجرُ لهم جفّنَ الدجى وغدا في وجنة الصبح لثاما  
تحسب البدرَ مُحِيًّا تَمَلِّ قد سقته راحةُ الصبح مُداما  
حوله الزهرُ كووسٌ قد غدت مسكةُ الليل عليهنّ ختاماً

وتذكرت هنا قول الآخر ، وأظنه مشرقياً<sup>٣</sup> :

بكر العارضُ تحدوه النعامي فسقاك الريّ يا دارَ أماما  
وتمشّت فيكِ أرواحُ الصبا يتأرجنَ بأنفاس الخزامي  
قد قضى حفظُ الهوى أن تصبحي للمحبين مُناخاً ومُقاما  
وبجرعاء الحمى قلبي ، فعج بالحمى واقراً على قلبي السلاما  
وترحلّ فتحدّث عجباً أن قلباً سار عن جسمٍ أقاما  
قل بليران الغضا آهاً على طيب عيش بالغضا لو كان داما

١ الخريدة : وا حزني .

٢ الكتيبة الكامنة : ٧٤ منسوبة خطأ لابن شقرال ، ونثير الفرائد : ٣٢٢ .

٣ هي لمهيار الديلمي ، ديوانه : ٣ : ٣٢٧ .

حملوا ريح الصبا من نَشْرِكُمْ<sup>١</sup> قبلَ أن تحملَ شَيْحاً وثُماما  
وابعثوا أشباحكم لي في الكرى إن أذتمْ<sup>٢</sup> بلحفوني أن تناما

١٤٥ - وخرج بعض علماء الأندلس من قرطبة إلى طليطلة ،  
فاجتاز بحريز<sup>٢</sup> بن عكاشة الشجاع المشهور الذي ذكرنا في هذا الباب ما يدلُّ  
على شجاعته وقوته وأيده ، بقلعة رباح ، فنزل بخارجها في بعض جنباتها ،  
وكتب إليه :

يا فريداً دون ثانٍ وهلالاً في العيانِ  
عدم الراح فصارتُ مثلَ دُهْنِ البلسانِ

فبعث إليه بها ، وكتب معها :

جاء من شعرك روضٌ جاده صوبُ اللسانِ  
فبعثناها سلفاً كسجايك الحسانِ

[ أشعار لابن شهيد ]

١٤٦ - وقال الوزير أبو عامر ابن شهيد يتغزل<sup>٣</sup> :

أصبحُ شيمَ أم برقٍ بدا  
أم سنا المحبوب أوري زندا  
هبَّ من مرقدِه منكسراً  
مُسبلاً للكُمِّ مرخٍ للردا  
يمسح النعسة من عيني رشاً  
صائدٍ في كلِّ يومٍ أسدا

١ ب : شعراء ؛ ق ودوزي : أدباء .

٢ كذا في م ؛ وفي ب : مجزيرة ؛ وفي ق : مجدير .

٣ انظرها في الذخيرة ١/١ : ٢٢٣ والمطوح : ١٨ وديوان ابن شهيد : ٤٩ .

٤ الذخيرة : أصفيح .

أوردته لطفاً آياته  
فهو من دلّ عراه زبده<sup>١</sup>  
قلت هب لي يا حبيبي قبله  
فانثني يهتر من منكبه  
كلما كلمني قبلته  
كاد أن يرجع من لثمي له<sup>٢</sup>  
وإذا استنجزت يوماً وعده  
شربت أعطافه ماء الصبا  
فإذا بت به في روضة  
قام في الليل بجيد أتلع<sup>٣</sup>  
ومكان عازب عن جيرة  
ذي نبات طيب أعراقه<sup>٤</sup>  
تحسب الهضبة منه جبلاً

صفوة العيش وأرعته ددا  
من مريح لم تخالط زبدا  
تشف من عمك تبريح الصدى  
مائلاً لطفاً وأعطاني اليدا  
فهو إما قال قولاً رُدداً  
وارتشاف الثغر منه أذرداً  
أمطل الوعد وقال: اصبر غدا  
وسقاه الحسن حتى عرّبدا  
أغيد يقرو<sup>١</sup> نباتاً أغيدا  
ينفض اللمة من دمع الندى  
أصدقاء وهم عين العدا  
كعدار الشعر في خدّ بدا  
وحدور الماء منه أبردا

وقال يرثي القاضي ابن ذكوان ، نجيب ذلك الأوان ، وقد افتن في الآداب ،  
وسنّ فيها سنّة ابن داب ، وما فارق ربع الشباب شرخه ، ولا استتمجد في  
الكهولة عقاره ولا مرّخه ، وكان لأبي عامر هذا قسيم نفسه ، ونسيم أنسيه<sup>٣</sup> :

ظننا الذي نادى محقاً بموته  
وخيلنا الصباح الطلق ليلاً وأنا  
ثكلنا الدثني لما استقلّ وإنما  
وما ذهبّت إذ حلّ في القبر نفسه

لعظم الذي أنحى من الرزء كاذبا  
هبطنا خدارياً من الحزن كاربا  
فقدناك يا خير البرية ناعبا  
ولكنّا الإسلام أديب زاهبا

١ الذخيرة : قال لي يطل ذكرني غدا .

٢ الذخيرة : يعرو ؛ ب م ق : يغزو .

٣ المطمح : ١٩ ؛ وديوانه : ٢٣ .

ولما أبى إلا التحملَ رائحاً  
يسيرُ بهِ النعشُ الأعزُّ وحوله  
عليه حفيفٌ للملائكِ أقبلتْ  
تخال لفيفَ الناسِ حولَ ضريحه  
إذا ما امتمروا سحِبَ الدموعُ تفرعتْ  
فمن ذا لفصلِ القولِ يسطعُ نورُهُ  
ومن ذا ربيعُ المسلمين يقوتهم  
فيا لهفَ قلبي آه ذابت حشاشتي  
ومات الذي غاب السرورُ لموته  
وكان عظيماً يُطرقُ الجَمْعُ عندهُ  
وذا مقولِ عَضْبِ الغرارينِ صارمِ  
أبا حاتمٍ صبرَ الأديبِ ١ فإنتي  
وما زلتَ فينا تُرهبُ الدهرَ سطوةً  
سأستعتبُ الأيامَ فيك لعلها  
لئن أفلتَ شمسُ المكارمِ عنكمُ

منحناه أعناقَ الكرامِ ركائباً  
أبعدُ كانوا للمُصابِ أقارباً  
تُصافحُ شيخاً ذاكرَ الله تائباً  
خليطَ قطاً وافى الشريعةَ هارباً  
فروعُ البكا عن بارقِ الحزنِ لاهباً  
إذا نحن ناوينا الألدَّ المناوباً  
إذا الناسُ شاموها بروقاً كواذباً  
مضى شيخنا الدفّاعُ عتاً النواثباً  
فليس وإن طال السرى منه آيباً  
ويعنو له ربُّ الكتيبةِ هائباً  
يروحُ به عن حومة الدين ضارباً  
رأيتُ جميلَ الصبرِ أحلى عواقباً  
وصعباً به نُعيي الخطوبِ المصاعباً  
لصحّةِ ذاك الجسمِ تطلبُ طالباً  
لقد أسارت بدرّاً لها وكواكباً

قال في «المطمح» ٢: ودبت إلى أبي عامر ابن شهيد أيام العلويين عقارب ، برئت بها منه أباعد وأقارب ، واجهه بها صرْفُ قطوب ، وانبرت إليه منها خطوب ، نبا لها جنبه عن المضجع ، وبقي بها ليالي يارق ولا يهجع ، إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله ، وعقلته في عقال أذهب ماله ، فأقام مرتهاً ، ولقي وهناً ، وقال :

١ ب م ق : الأديم .

٢ المطمح : ٢٠ وانظر الذخيرة ١/١ : ٢٢٤ .



قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّهِ الْهَوَانِ مَجِيدٌ  
نَعَى صَبْرَهُ عِنْدَ الْإِمَامِ فَيَا لَهُ  
وَمَا ضَرَّهُ إِلَّا مَزَاحٌ وَرَقَّةٌ  
جَنَى مَا جَنَى فِي قَبَّةِ الْمَلِكِ غَيْرِهِ  
وَمَا فِيَّ إِلَّا الشَّعْرُ أَثْبَتَهُ الْهَوَى  
أَفْوَهُ بِمَا لَمْ آتِهِ مَتَعَرِضاً  
فَإِنْ طَالَ ذَكَرِي بِالْمَجُونِ فَإِنَّهَا  
وَهَلْ كُنْتُ فِي الْعِشَاقِ أَوْلَ عَاقِلٍ  
فِرَاقٌ وَشَجْوٌ وَاشْتِيَاقٌ وَذَلَّةٌ  
فَمَنْ يَبْلُغُ الْفَتْيَانَ أَنِّي بَعْدَهُمْ  
مَقِيمٌ بَدَارٍ سَاكِنُهَا مِنَ الْأَذَى  
وَيَسْمَعُ لِلْجَنَانِ فِي جَنَابِهَا  
وَلَسْتُ بِذِي قَيْدٍ يَرِنُ ، وَإِنَّمَا  
وَقَلْتُ لَصَدَّاحِ الْحَمَامِ وَقَدْ بَكَى  
أَلَا أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَيَّ مَنْ تَجَبَّهُ  
وَهَلْ أَنْتَ دَانٍ مِنْ مَحَبِّ نَأَى بِهِ  
فَصَفَّقْ مِنْ رِيشِ الْجَنَاحِينَ وَأَقْعَا  
وَمَا زَالَ يَبْكِينِي وَأَبْكِيهِ جَاهِداً  
إِلَى أَنْ بَكَى الْجُدْرَانَ مِنْ طَوْلِ شَجُونَا  
أَطَاعَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابٌ  
فَلِلشَّمْسِ عَنَّا بِالنَّهَارِ تَأَخَّرُ  
أَلَا إِنَّهَا الْأَيَّامُ تَلْعَبُ بِالْفَتَى  
وَمَا كُنْتُ ذَا أَيْدٍ فَأَذْعَنُ ذَا قَوَى  
وَرَاضَتْ صَعَابِي سَطْوَةً عَلَوِيَّةً

يَجُودُ وَيَشْكُو حُزْنَهُ فَيَسْجِدُ  
عَدُوَّ لِأَبْنَاءِ الْكِرَامِ حَسُودُ  
ثَنَّتْهُ سَفِيهَ الذِّكْرِ وَهُوَ رَشِيدُ  
وَطُرُقَ مِنْهُ بِالْعَظِيمَةِ جَبِيدُ  
فَسَارَ بِهِ فِي الْعَالَمِينَ فَرِيدُ  
لِحَسَنِ الْمَعَانِي تَارَةً فَأَزِيدُ  
عِظَاتِمُ لَمْ يَصْبِرْ لَهْنٍ جَلِيدُ  
هُوتَ بِمَجَاهِ أَعْيُنٍ وَخُدُودُ  
وَجَبَّارُ حِفَاطِ عَلِيٍّ عَتِيدُ  
مَقِيمٌ بَدَارِ الظَّالِمِينَ وَحَبِيدُ  
قِيَامٌ عَلَى جَمْرِ الْحِمَامِ قَعُودُ  
بَسِيطٌ كَتَرَجِيعِ الصَّدَى وَنَشِيدُ  
عَلَى اللَّحْظِ مِنْ سَخَطِ الْإِمَامِ قِيُودُ  
عَلَى الْقَصْرِ الْفَأْ وَالِدُمُوعُ تَجُودُ  
كَلَانَا مُعَنَّى بِالْخِلَاءِ فَرِيدُ  
عَنْ الْإِلْفِ سُلْطَانَ عَلَيْهِ شَدِيدُ  
عَلَى الْقَرَبِ حَتَّى مَا عَلَيْهِ مَزِيدُ  
وَلِلشُّوقِ مِنْ دُونَ الضُّلُوعِ وَقُودُ  
وَأَجْهَشُ بَابُ جَانِبَاهُ حَدِيدُ  
تَصَرَّفُ فِي الْأَمْوَالِ كَيْفَ تَرِيدُ  
وَالْبَدْرِ شَحْنَا بِالظَّلَامِ صُدُودُ  
نَحُوسٌ تَهَادَى تَارَةً وَسَعُودُ  
مَنْ الدَّهْرِ مَبْدِ صَرْفِهِ وَمَعِيدُ  
لَهَا بَارِقٌ نَحْوَ النَّدى وَرَعُودُ

تقولُ التي مِن بيتِها كُفَّ مركبي أَقْرُبُكَ دانِ أم مَسْدَاكَ بَعِيدُ<sup>١</sup>  
فقلتُ لها أُمري إلى مَنْ سَمْتُ بِهِ إلى المَجْدِ آبَاءُ لَهُ وَجَدودُ

ثمَّ قالَ<sup>٢</sup> : ولزِمَتْهُ آخِرَ عمره عِلَّةٌ دامت به سنين ، ولم تفارقه حتى  
تركته يد جنين ، وأحسب أن الله أراد بها تمحيصه ، وإطلاقه من ذنب كان  
قَتِيصَهُ ، فطهره تطهيراً ، وجعل ذلك على العفو له ظهيراً ، فإنها أقعدته حتى  
حُمِلَ في المِحْفَةِ ، وعاودته حتى غدت لرونقه مُشْتَفَّةً ، وعلى ذلك فلم يعطل  
لسانه ، ولم يبطل إحسانه ، ولم يزل يستريح إلى القول ، ويزيح ما كان يجده  
من الغَوْل ، وآخر شعر قاله قوله :

ولمَّا رأيتُ العيشَ لوَّى برأسِهِ  
تمنَّيتُ أتِّي ساكنٌ في عباءة<sup>٣</sup>  
أردُّهُ سقيطَ الطَّلِّ في فضلِ عيشي  
خليليَّ مَنْ ذاق المنيَّةَ مرَّةً  
كأني وقد حان ارتحالي لم أفزُ  
فمَنْ مبلغٌ عني ابن حزمٍ وكان لي  
عليك سلامٌ اللهُ إني مُفارقُ<sup>٤</sup>  
فلا تنسَ تأيبي إذا ما ذكرتني<sup>٥</sup>  
وحرَّكْ له باللهِ من أهلِ فِتْنَا<sup>٦</sup>

وأيقنتُ أن الموتَ لا شكَّ لاحقي  
بأعلى مهبِّ الريحِ في رأسِ شاهقِ  
وحيداً وأحسو الماءِ نبي المعالقِ  
فقد ذقتُها خمسِينَ ، قولةً صادقِ  
قديماً من الدنيا بِلَمْحَةٍ بارقِ  
يداً في مُلِمَّاتي وعند مَصَابِقي  
وحسبُكَ زاداً من حبيبٍ مُفارقِ  
وتذكَّارَ أيامي وفضلَ خلاتي  
إذا غيبوني كلَّ شَهْمِ غُرَانِقِ

١ م : نواك ؛ ق ب : نذاك بعيد .

٢ المطمح : ٢١ ، وانظر الذخيرة ١/١ : ٢٨٢ .

٣ الذخيرة : غيابة .

٤ الذخيرة : أدرك .

٥ ق ب : من رام . . . فقد رمته .

٦ الذخيرة : فقدتني .

٧ ق ب : مهما ذكرتني ، وسقط البيت من م .

عسى هامتي في القبر تسمعُ بعضه  
فلي في ادكاري بعد موتي راحة  
ولاني لأرجو الله فيما تقدّمت  
بترجيع شادٍ أو بتطريب طارق  
فلا تمنعوها لي علالة زاهق  
ذنوبي به ممّا درى من حقائق

١٤٧ - وكان أبو مروان عبد الملك بن غصن مستولياً على وزارة ابن عبيدة

ولسانه ينشد :

وشيدت مجدي بين أهلي ولم أقل  
وهجا ابن ذي التون بقوله :

تلقبت بالأمون ظلماً ، ولأنتي  
حرامٌ عليه أن يجود ببشره  
سطور المخازي دون أبواب قصره  
لآمنٌ كلباً حيث لست مؤمنة  
وأما الندى فاندب هنالك مدفنته  
بحجابيه للقاصدين معنوته

فلمّا تمكّن منه الأمون سجنه ، فكتب إلى ابن هودٍ من أبيات :

أيّا راكب الوجناء بلغ تحية  
ولمّا دهنتي الحادثات ولم أجد  
ومثلك من يُعدي على كلِّ حادث  
فعلّك أن تخلو بفكرك ساعة  
وها أنا في بطن الثرى وهو حامل  
حنانك<sup>٣</sup> ألفاً بعد ألفٍ فإنّني  
وأنت الذي يدري إذا رام حاجة  
أمير جُدّامٍ من أسيرٍ مُقيّدٍ  
لها وزراً أقبلتُ نحوكٍ أعتدي<sup>١</sup>  
رمى بسهامٍ للردى لم ترصد  
لتنقذني من طولٍ همٍّ مجدّدٍ  
فيسرّ على رُقبي<sup>٢</sup> الشفاعة مولدي  
جعلتك بعد الله أعظمَ مقصدي  
تضلُّ بها الآراء من حيث يهندي

١ ب : أعتدي .

٢ م : رمل ؛ ق : قيل .

٣ م : حنانك .

فرقَ له ابن هود ، وتحيل حتى خلَّصه بشفاعته ، فلما قدم عليه أنشده :

حياتي موهوبةٌ من علاكا وكيف أرى عادلاً عن ذرأكا  
ولو لم يكن لك من نعمة علي وأصبحتُ أبغي سواكا  
لناديتُ في الأرض هل مُسعفٌ مجيبٌ فلم يُصغ إلا نداكا

فطرب ابن هود ، وخلع عليه ثوبَ وزارته ، وجعله من أعلام سلطنته وإمارته .

١٤٨ - وقال المنصور بن أبي عامر للشاعر المشهور أبي عمر يوسف

الرمادي : كيف ترى حالك معي ؟ فقال : فوق قدري ودون قدرك ، فأطرق  
المنصور كالغضبان ، فانسلَّ الرمادي وخرج وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل  
يقول : أخطأت ، لا والله ما يفلح مع الملوك مَنْ يعاملهم بالحق ، ما كان ضررتي  
لو قلت له : إني بلغت السماء ، وتمنطقت بالجوزاء ، وأنشدته :

متى يأت هذا الموت لا يُلْفِ حاجةٌ لِنفسي إلا قد قضيتُ قضاءها

لا حول ولا قوة إلا بالله . ولما خرج كان في المجلس من يحسُّده على مكانه

من المنصور ، فوجد فرصة فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد ، إن هذا  
الصنف صنف زور وهذيان لا يشكرون نعمة ، ولا يرعونَ إلا ولا ذمة ،  
كلابٌ من غلب ، وأصحابٌ من أخصب ، وأعداء من أجذب ، وحسبك  
منهم أن الله جلَّ جلاله يقول فيهم ﴿ والشُعراءُ يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ - إلى ما  
لا يَفْعَلُونَ ﴿ (الشراء : ٢٢٤) والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم :  
ما ظنك بقوم الصدق يُستحسن إلا منهم ؟ فرفع المنصور رأسه ، وكان مُحبباً  
في أهل الأدب والشعر ، وقد اسودَّ وجهه ، وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال :  
ما بال أقوام يشيرون في شيء لم يُستشاروا فيه ، ويسئون الأدب بالحكم فيما

١ البيت لقيس بن الخطيم ، ديوانه : ١٠ .

لا يلرون أيرضي أم يسخط ؟ وأنت أيها المنبعث للشرّ دون أن يبُعث ، قد علمنا  
غرضك في أهل الأدب والشعر عامة ، وحسدك لهم ، لأن الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فنضُّ إلا عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصّة ، ولسنا إن شاء الله تعالى نبُلِّغ أحداً  
غرضه في أحد ، ولو بلَّغناكم بلغنا في جانبكم ، وإنك ضربت في حديد بارد ،  
وأخطأت وجه الصواب ، فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً ، وإنّي ما أطرقت من  
خطاب الرمادي إنكاراً عليه ، بل رأيتُ كلاماً يجلُّ عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت  
من تهديّه له بسرعة ، واستنباطه له على قلته من الإحسان الغامر ما لا يستنبطه  
غيره بالكثير ، والله لو حكّمته في بيوت الأموال لرأيت أنّها لا ترجع ما تكلمت  
به قلبه ذرة<sup>١</sup> ، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص قبل أن يؤخذ  
معه فيه ، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ولو أبصرتم منا التغيّر عليهم ، فإننا  
لا نتغير عليهم بغضاً لهم وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ، فإننا من نريد  
إبعاده لم نُظهِر له التغير ، بل نبذه مرّة واحدة ، فإن التغير إنّما يكون لمن يراد  
استبقاؤه ، ولو كنتُ مائل السمع لكل أحد منكم في صاحبه لفرقتُم أيدي سبّا ،  
وجونبتُ أنا مجانبه الأجر ، وإنّي قد أطلعتكم على ما في ضميري فلا تعدلوا  
عن مرضاتي ، فتجنّبوا سخطي بما جنيتموه على أنفسكم ؛ ثم أمر أن يُردّ  
الرمادي وقال له : أعد عليّ كلامك ، فارتاع ، فقال : الأمر على خلاف ما  
قدرت ، الثواب أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ، وأعاد ما تكلمت به ،  
فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فمّ النابغة بالدر لكلام استحسنة  
منه ، وقد أمرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ما هو أنوه وأحسن عائدة ؛ وكتب  
له بمال وخيل وموضع يتعيش منه ، ثم ردّ رأسه إلى المتكلم في شأن الرمادي ،

١ قلبه ذرة : سقطت من م .

وقد كاد يغوص في الأرض لو وجد لشدة ما حلَّ به مما رأى وسمع ، وقال :  
والعجب من قوم يقولون الابتعادُ من الشعراء أولى من الاقتراب ، نعم ذلك  
لمن ليس له مفاخر يريد تخليدها ، ولا أياذٍ يرغب في نشرها ، فأين الذين قيل  
فيهم <sup>١</sup> :

على مكثريهم رزق من يعترهم وعند المقلين الساحة والبذل  
وأين الذي قيل فيه <sup>٢</sup> :

إنما الدنيا أبو دلفٍ بين مبداه <sup>٣</sup> ومحتضره  
فإذا ولت أبو دلفٍ ولت الدنيا على أثره

أما كان في الجاهلية والإسلام أكرم ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ، ولكن  
صحة الشعراء والإحسان إليهم أحييت غابر ذكرهم ، وخصتهم بمفاخر عصرهم ،  
وغيرهم لم تخلد الأمداح مآثرهم فدثر ذكرهم ، ودرس فخرهم ، انتهى .

[ بنو صمادح ]

١٤٩ - ومن حكاياتهم في العدل أنه لما بنى المعتصم بن صمادح ملك  
المرية قصوره المعروفة بالصمادحية غصبوا أحد الصالحين في جنة وألقوها  
بالصمادحية ، وزعم ذلك الصالح أنها لأيتام من أقاربه ، فبينما المعتصم يوماً يشرب  
على الساقية الداخلة إلى الصمادحية إذ وقعت عينه على أنبوب قصبة مشمع ،  
فأمر من يأتيه به ، فلما أزال عنه الشمع وجد فيه ورقة فيها « إذا وقفت أيها  
الغاصبُ على هذه الورقة فاذكر قول الله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ

١ البيت لزهير بن أبي سلمى ، ديوانه : ٢٢ (شرح الأعلام) .

٢ الشعر لعلي بن جبلة ، انظر طبقات ابن المعتز : ١٧٢ .

٣ م : باديه .

وَتَسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿ص: ٢٣﴾ لا إله إلا الله ، أنت ملك قد وسع الله تعالى عليك ، ومكن لك في الأرض ، ويملك الحرص على ما يفنى أن تضم إلى جنتك الواسعة العظيمة قطعة أرضٍ لأيتام حرّمت بها حلالها ، وخبثت طيبها ، ولئن تحجبت عني بسلطانك ، واقتدرت علي بعظم شأنك ، فنجتمع غداً بين يدي من لا يحجب عن حق ، ولا تضيع عنده شكوى . فلماً استوعب قراءتها دمعت عيناه ، وأخذته خشية خيف عليه منها ، وكانت عادته رحمه الله تعالى ، وقال : عليّ بالمشتغلين ببناء الصمادحية ، فأحضروا ، فاستفسرهم عما زعم الرجل ، فلم يسعهم إلا صدقه ، واعتذروا بأن نقصها من الصمادحية بعيها في عين الناظر ، فاستشاط غضباً وقال : والله إن عيبها في عين الخالق أقبح من عيبها في عين المخلوق ، ثم أمر بأن تُصرف عليه ، واحتمل تعويرها لصمادحيته . ولقد مرّ بعض أعيان المريّة وأخبارها مع جماعة على هذا المكان الذي أخرجت منه جنة الأيتام فقال أحدهم : والله لقد عورت هذه القطعة هذا المنظر العجيب ، فقال له : اسكت ، فوالله إن هذه القطعة طراز هذا المنظر وفخره ، وكان المعتصم إذا نظر إليها قال : أشعرتم أن هذا المكان المعوج في عيني أحسن من سائر ما استقام من الصمادحية ؟ ثم إن وزيره ابن أرقم لم يزل يلاطف الشيخ والأيتام حتى باعوها عن رضائي بما اشتهاوا من الثمن ، وذلك بعد مدة طويلة ، فاستقام بها بناء الصمادحية ، وحصل للمعتصم حسن السمعة في الناس ، والجزاء عند الله تعالى .

١٥٠ - ولما مات المعتصم بن صمادح ركب البحر ابنه ولي عهد الوائق عز الدولة أبو محمد عبد الله<sup>١</sup> ، وفارق الملك كما أوصاه المعتصم والده وفي ذلك يقول<sup>٢</sup> :

١ انظر الحلة ٢ : ٩٠ حيث سماه « أبو مروان عبید الله » .

٢ الشعر في المغرب ٢ : ٢٠١ .

لك الحمدُ بعد الملكِ أصبَحَتْ خاملاً      بأرضِ اغترابٍ لا أُميرٌ ولا أُحلي  
وقد أصدأتُ فيها الجذاذة أنملي      كما نَسِيتُ ركضَ الجيادِ بها رجلي  
فلا مِسْمعي يُصغني لنغمَةِ شاعرٍ      وكفِّي لا تمتدُّ يوماً إلى بذلِ

قال ابن اللبانة الشاعر : ما علمت حقيقة جَورِ الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع عز الدولة بن المعتصم بن صمادح فإنتي رأيت منه خير من يجتمع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تمُّ من تحت خموله كما يتم فرندُ السيف وكرمه من تحت الصدا ، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه وإسماعه ، ورقة طباعه ولطافة ذهنه ، ولقد ذكرته لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ووصفته بهذه الصفات ، فتشوق إلى الاجتماع به ، ورغب إلي في أن أستاذنه في ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال : يا أبا بكر لتعلم أننا اليوم في خمول وضيق لا يتسع لنا معهما ، ولا يحمل بنا الاجتماع مع أحد ، لا سيما مع ذي أدب ونسابة يلقانا بعين الرحمة ، ويزورنا بمنّة التفضّل في زيارتنا ، ونكابد من ألفاظ توجّعه وألحاظ تفجّعه ما يجدد لنا همّاً قد بلي ، ويحيي كمدّاً قد فني ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضى به عن هممتنا ، فدعنا كأتننا في قبر ، نتدرع لسهام الدهر بدرع الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامترجت امتزاج الماء بالخمير ، فكأننا لم نكشف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا ، فلا تحمل غيرك محملك ، قال ابن اللبانة : فملاً والله سمعي بلاغة لا تصدر إلا عن سداد ونفس أبيّة متمكّنة من أعينة البيان ، وانصرفت متمثلاً :

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ      ولم يبقَ إلا صورة اللحم والدمِ  
وكائنٌ تررى من صامت لك معجبٍ      زيادتهُ أو نقصه في التكلمِ

١ المغرب : الهوادة ؛ دوزي : منهلي .



وكتب إليه ابنُ اللبانة<sup>١</sup> :

يا ذا الذي هزّ أمداحي بحليته<sup>٢</sup> وعزّه أن يهزّ المجدّ والكرما  
واديك لا زرعَ فيه اليوم تبدُّلهُ فخذْ عليه لأيامِ المنى سلّما

فتحيلَ في قليلِ برٍ ووجهه إليه وكتب معه :

المجدُّ ينجلُ مَنْ يفتديك من زمنٍ ثنّك عن واجبِ البر الذي علما  
فلونك التّررَ من مُصَفِّ مودتهُ حتّى يوفيك أيامَ المنى السلما

ومن شعر عزّ اللولة المذكور<sup>٣</sup> :

أفدّي أبا عمرو وإن كان عاتياً فلا خيرَ في ودّ يكون بلا عتبِ  
وما كانَ ذاكَ الودّ إلاّ كبارقٍ أضاء لعيني ثمّ أظلم في قلبي

وقال الشقندي في الطرف : إن عزّ اللولة أشعر من أبيه .

١٥١ - وأما أخوه رفيع اللولة<sup>٤</sup> الحاجب أبو زكريا يحيى بن المعتصم  
فله أيضاً نظم رائق ، ومنه ما كتب به إلى يحيى بن مطروح يستدعيه لأنس<sup>٥</sup> :

يا أخي بل سيدي بل سندي في مهماتِ الزمان الأثكدِ  
لُحْ بأفقٍ غاب عنه بدرهُ في اختفاء من عيونِ الحُسدِ  
وتعجّلُ فحبيبي حاضرٌ وفي يشتاقُ كأسِي في يدي

فأجابه ابنُ مطروح ، وهو من أهل باغه ، بقوله :

١ البيتان في الحلة ٢ : ٩١ ومهما رد ابن صراح .

٢ ب م ق : بحليته .

٣ هذا الشعر منسوب في الحلة ( ٢ : ٩٦ ) والمغرب ( ٢ : ٢٠٠ ) لرفيع اللولة .

٤ انظر ترجمة رفيع اللولة في المطمح : ٣٠ والحلة ٢ : ٩٢ والمغرب ٢ : ١٩٩ .

٥ المغرب ٢ : ٢٠٠ .

أنا عبدٌ من أقلُّ الأعبُدِ قِبَلِي وَجَهٌ بأفقِ الأُسْعُدِ  
 كلِّما أظمأني وردٌ فَمَا منْهلي إلا بذاك المورِدِ  
 ها أنا بالبابِ أبغي إذْلكم والظما قد مدَّ للكأسِ يدي

وكان قد سلَّط عليه إنسان مختل إذا رآه يقول : هذا ألف لا شيء عليه ،  
 يعني أن ملكه ذهب عنه وبقي فارغاً منه ، فشكا رفيع الدولة ذلك إلى بعض  
 أصحابه ، فقال : أنا أكفيك مؤونته ، واجتمع مع الأحمق ، واشترى له حلواء ،  
 وقال له : إذا رأيت رفيع الدولة بن المعتصم فسلمَّ عليه وقبَّل يده ولا تقل هذا  
 ألف لا شيء عليه ، فقال : نعم ، واشترط الوفاء بذلك ، إلى أن لقيه فجرى  
 نحوه وقبَّل يده وقال : هذا هو باء ، بنقطة من أسفل ، فقامت قيامة رفيع الدولة ،  
 وكان ذلك أشد عليه ، وكان به علة الحصى فظن أن الأحمق علم ذلك وقصده ،  
 وصار كلِّما أحسَّ به في موضع تجنَّبه .

واستأذن يوماً على أحد وجوه دولة المرابطين فقال أحد جلسائه ﴿ تلك  
 أمةٌ قد خلت ﴾ (البقرة : ١٣٤ ، ١٤١) استحقاراً له واستقلالاً للإذن له ، فبلغ  
 ذلك رفيع الدولة فكتب إليه :

خَلَّتْ أمتي لكنَّ ذاتي لم تَخُلْ وفي الفرع ما يعني إذا ذهب الأصلُ  
 وما ضرَّكم لو قلتُم قولَ ماجدٍ يكونُ له فيما يجيء به الفضلُ  
 وكلُّ إناءٍ بالذي فيهِ راسحٌ وهل يمنحُ الزنبورُ ما مجَّه النحلُ  
 سأصرفُ وجهي عن جنابِ تحلُّه ولو لم تكنْ إلاَّ إلى وجهك السُّبُلُ  
 فما موضعُ تحلُّه بمرقَعٍ ولا يترتَضَى فيه مقالٌ ولا فعلُ  
 وقد كنتُ ذا عدلٍ لعلَّكَ ترعوي ولكنْ بأربابِ العُلا يجمُلُ العذلُ

١٥٢ - وأما أخوهما أبو جعفر ابن المعتصم<sup>١</sup> فله ترجمة في المسهب

والمطرب والمغرب ، ومن شعره :

كُتِبَتْ وَقَلْبِي ذُو اشْتِيَاقٍ وَوَحْشَةٍ      وَلَوْ أَنَّهُ يَسْطِيعُ مَرًّا يُسَلِّمُ  
جَعَلْتُ سَوَادَ الْعَيْنِ فِيهِ سَوَادَهُ      وَأَبْيَضَهُ طِرْسًا وَأَقْبَلْتُ أَلْمَ  
فَخَيْلَ لِي أَنْتِي أَقْبَلُ مَوْضِعًا      يَصَافِحُهُ ذَاكَ الْبَنَانِ الْمُسَلِّمِ

وَأَمَّا أُخْتُهُمْ أُمُّ الْكُرْمِ فَذَكَرْنَاهَا مَعَ النِّسَاءِ فَلْتَرَاجِعِ .

١٥٣ - وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ ابْنُ زُهْرًا :

تَمَّتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ وَتَكَامَلَتْ      لَمَّا بَدَأَ وَعَلَيْهِ صُدُغٌ مُوْتَقٌ  
وَكَذَلِكَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ جَمَالُهُ      فِي أَنْ تَكْتَنِفَهُ سَمَاءُ أَزْرَقُ

١٥٤ - وَقَالَ أَبُو الْفَضْلِ ابْنُ شَرْفٍ :

يَا مَنْ حَكَى الْبِيدَقَ فِي شَكْلِهِ      أَصْبَحَ بِحِكْمِكَ وَتَحْكِيهِ  
أَسْفَلُهُ أَوْسَعُ أَجْزَائِهِ      وَرَأْسُهُ أَصْغَرُ مَا فِيهِ

١٥٥ - وَقَالَ ابْنُ خَفَاجَةَ ٢ :

يَا أَيُّهَا الصَّبُّ الْمَعْنَى بِهِ      هَا هُوَ لَا خَلَّ وَلَا خَمْرُ  
سُودَ مَا وُرِدَ مِنْ خَدِّهِ      فَصَارَ فَحْمًا ذَلِكَ الْجَمْرُ

١٥٦ - وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبِيهَاسِيُّ :

صِغَرُ الرَّأْسِ وَطُولُ الْعُنُقِ      شَاهِدَا عَدْلِ بَفْرِطِ الْحُمُقِ

وَلَمَّا سَمِعَهُ أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ حَرِيقٍ قَالَ :

١ مر البيتان ص : ٢٤٧ .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٩٠ .

صِغَرُ الرَّأْسِ وَطُولُ الْعُنُقِ خَلْقَةٌ مُنْكَرَةٌ فِي الْخَلْقِ  
فَإِذَا أَبْصَرْتَهَا مِنْ رَجُلٍ فَاقْضِ فِي الْحَيْنِ لَهُ بِالْحُمُقِ

١٥٧ - وقال أبو الحسن ابن الفضل<sup>١</sup> يذكر مقاماً قامه سهل بن مالك  
وابن عيَّاش<sup>٢</sup> :

لعمري لقد سرَّ الخِلافةَ قائماً      بخطبته الغراء سهلُ بن مالكِ  
وأما ابن عيَّاشٍ ومن كان مثله      فضلوا جميعاً بين تلك المسالكِ  
ومات وماتوا حسرةً وحسادةً      وغيظاً فقلنا هالكٌ في الهوالِكِ

وسهل بن مالك له ترجمة مطوّلة ، رحمه الله تعالى .

١٥٨ - ومن حكاياتهم في الوفاء<sup>٣</sup> وحسن الاعتذار والقيام بحق الإخاء  
أن الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم كان صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز ،  
ثابتاً على مودته ، ولما قضى الله تعالى على هاشم بالأسر أجرى السلطان محمد بن  
عبد الرحمن الأموي ذكره في جماعة من خُدّامه ، والوليدُ حاضر ، فاستقصره ،  
ونسبه للطيش والعجلة والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير  
الوليد ، فقال : أصلح الله تعالى الأمير ، إنّه لم يكن على هاشم التخيّر في الأمور ،  
ولا الخروج عن المقتدر ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى  
حق الإقدام ، ولم يكن ملاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، ونكل عنه  
من كان معه ، فلم يزحزح قدمه عن موطن حِفَاطِهِ ، حتى مُلِكَ مقبلاً غير  
مدبر ، مُبْتَلِياً غير فُشِّل ، فجوزي خيراً عن نفسه وسلطانه ، فإنّه لا طريق  
للملّام عليه ، وليس عليه ما جَنَّتَهُ الحرب الغشوم ، وأيضاً فإنّه ما قصد

١ ترجمته في القلح : ١٠٨ .

٢ ب : وابن يعيش .

٣ انظرها في المقتبس (تحقيق مكّي) : ٢٣٢ (الورقة ٢٨٢ - أ) .

أن يجود بنفسه إلا رضى للأمير ، واجتناباً لسخطه ، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضى جالب التقصيرِ فذلك معدود في سوء الحظ ، فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر فيما بعد عن تفنيد هاشم ، وسعى في تخليصه ، واتصل الخبرُ بهاشم ، فكتب إليه : الصديقُ من صدَّقَكَ في الشدة لا في الرخاء ، والأخ من ذبَّ عنكَ في الغيب لا في المشهد ، والوفى من وفى لك إذا خانك زمان ، وقد أتاني من كلامك بين يدي سيدنا - جعل الله تعالى نعمته سرمداً - ما زادني بمودتك اغتباطاً ، وبصداقتك ارتباطاً ، ولذلك ما كنتُ أشدُّ يدي على وصلك ، وأخصِّك بإخائي ، وأنا الآن بموضع لا أقدر فيه على جزاء غير الثناء ، وأنت أقدر مني على أن تزيد ما بدأت به بأن تم ما شرعت فيه ، حتى تتكامل لك المنّة ، ويستوثق عقد الصداقة ، إن شاء الله تعالى ، وكتب إليه بشعر منه :

أيا ذاكري بالغيب في محفلٍ بهِ      تصامتَ جمعٌ عن جوابٍ به نصري  
أنتني والبيداء بيّني وبيئتها      رُقي كلماتٍ خلصتني من الأسر  
لئن قُربَ اللهُ اللقاءُ فلأنتي      سأجزيك ما لا ينقضي غابرَ الدهر

فأجابه الوليد : خلصك الله أيها البدر من سِرّارك ، وعجل بطلوعك في أكمل تمامك وإبدارك ، وصلّتي شكرك على أن قلتُ ما علمتُ ، ولم أخرج عن النصيح للسلطان بما زكنته من ذلك ، واللهُ تعالى شاهد ، على أن ذلك في مجالس غير المجلس المنقول لسيدي إن خفيت عن المخلوق فما تخفي عن الخالق ، ما أردت بها إلا أداء بعض ما اعتقده لك ، وكم سهرت وأنا نائم ، وقمت في حقّي وأنا قاعد ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ثم ذكر أبياتاً لم تحضرنى الآن .

١٥٩ - ومن حكاياتهم في علوِّ الهمة في العلم والدنيا أنه دخل أبو بكر ابن الصائغ المعروف بابن باجة جامعَ غرناطة ، وبه نحويّ حوله شباب يقرؤون ، فنظروا إليه ، وقالوا له مستهزئين به : ما يحمل الفقيه؟ وما يُحسن من العلوم؟ وما يقول؟ فقال لهم : أحمل اثني عشر ألف دينار ، وها هي تحت إبطي ،

وأخرج لهم اثنتي عشرة ياقوتة ، كل واحدة منها بألف دينار ، وأمّا الذي أحسنه فائنا عشر علماً أدونها علم العربية الذي تبحثون فيه ، وأمّا الذي أقول فأنتم كذا ، وجعل يسبهم ، هكذا نقلت هذه الحكاية من خط الشيخ أبي حيّان النحوي ، رحمه الله تعالى .

١٦٠ - ومن حكاياتهم في الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها أن أبا القاسم عباس بن فرناس<sup>١</sup> ، حكيم الأندلس ، أوّل من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأوّل من فكّ بها كتاب العرّوض للخليل ، وأوّل من فكّ الموسيقى ، وصنع الآلة المعروفة بالمنقانة<sup>٢</sup> ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال ، واحتال في تطير جثمانه ، وكسا نفسه الريش ، ومدّ له جناحين ، وطار في الجوّ مسافة بعيدة ، ولكنّه لم يحسن الاحتيال في وقوعه ، فتأذّى في مؤخره ، ولم يدر إن الطائر انما يقع على زمكّه ولم يعمل له ذنباً ، وفيه قال مؤمن بن سعيد الشاعر من أبيات :

يطمُّ على العنقاء في طيرانها إذا ما كسا جثمانه ريش قشعم

وصنع في بيته هيئة السماء ، وخيّل للنّاظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود ، وفيه يقول مؤمن بن سعيد أيضاً :

سماء عباس الأديب أبي ال قاسم فاهيك حسن رائقها  
 أمّا ضراطُ استه فراعدها فليّت شعري ما لمعُ بارقيها  
 لقد تمنيتُ حين دوّمها فكريّ بالبصق في است خالقها

١ المغرب ١ : ٣٣٣ والمقتبس (تحقيق مكّي) الورقة ٢٥٦ ب .  
 ٢ في الأصول ودوزي : بالمنقالة ؛ وهذه صورة من صور الكلمة وأقرّها إلى اللفظ المغربي ما أثبتناه ، إذ تسمى في المغرب « المنجاة » وهي البنكام أو البنكان الفارسية أي الساعة أو آلة حساب الوقت ، وقد تصحفت في المغرب إلى « الميقانة » .

وأشد ابن فرناس الأميرَ محمدًا من أبيات :

رأيتُ أميرَ المؤمنينَ محمدًا وفي وجهه بذرُ المحبةِ يُشمرُ

فقال له مؤمن بن سعيد : قبلاً لما ارتكبتَه ، جعلت وجه الخليفة مَحْرُتاً يشمر فيه البذر ، فحجل وسبه .

[ المشهورون بعلوم الأوائل ]<sup>١</sup>

١٦١ - وأول من اشتهر في الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، لأنه كان يشرق في صلاته ، وكان عالماً بحركات الكواكب وأحكامها ، وكان صاحب فقه وحديث ، دخل المشرق ، وسمع بمكة من علي بن عبد العزيز ، وبمصر من المزني وغيره .  
ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة ، من أهل قرطبة ، وكان بصيراً بالحساب والنجوم والنحو<sup>٢</sup> واللغة والعروض ومعاني الشعر والفقه والحديث والأخبار والجَدَل ، ودخل إلى المشرق ، وقيل : إنه كان معتزلياً المذهب .  
وأبو القاسم أصبغ بن السمح ، وكان بارعاً في علم النجوم<sup>٣</sup> والهندسة والطب ، وله تأليف منها كتاب « المدخل إلى الهندسة في تفسير إقليدس » ، وكتاب كبير في الهندسة ، وكتابان<sup>٤</sup> في الأسطرلاب ، وزيج على مذاهب الهند المعروف بالسند هند .  
وأبو القاسم ابن الصفار ، وكان عالماً بالهندسة والعدد والنجوم ، وله زيج مختصر على مذاهب السند هند ، وله كتاب في عمل الأسطرلاب .  
ومنهم أبو الحسن الزهراوي ، وكان عالماً بالعدد والطب والهندسة ، وله

١ يعتمد المقرئ في هذا الفصل على طبقات صاعد ٦٤ - ٧٢ ويستمد أيضاً من المطرب : ٢٢٣ - ٢٢٤ ،  
وللمقارنة انظر ابن أبي أصيبعة ٢ : ٣٦ - ٤٩ .  
٢ والنحو : سقطت من م .  
٣ ق ب : علم النحو .  
٤ ب : وكتاب .

كتاب شريف في المعاملات على طريق البرهان .  
ومنهم أبو الحكم عمر الكرمانى ، من أهل قرطبة ، من الراسخين في علم  
العدد والهندسة ، ودخل المشرق ، واشتغل بحرّان ، وهو أوّل من دخل برسائل  
إخوان الصفا إلى الأندلس .

ومنهم أبو مسلم ابن خلدون من أشرف إشبيلية ، وكان متصرفاً في علوم  
الفلسفة والهندسة والنجوم والطب ؛ وتلميذه ابن برغوث ، وكان عالماً بالعلوم  
الرياضية ، وتلميذه أبو الحسن مختار الرعيني ، وكان بصيراً بالهندسة والنجوم ،  
وعبد الله بن أحمد السرقسطي ، كان نافذاً في علم الهندسة والعدد والنجوم ،  
ومحمد بن الليث ، كان بارعاً في العدد والهندسة وحركات الكواكب ، وابن  
حي ، قرطبي بصير بالهندسة والنجوم ، وخرج عن الأندلس سنة اثنتين وأربعين  
وأربعمائة ، ولحق بمصر ، ودخل اليمن ، واتصل بأمرها الصليبي القائم  
بدعوة المستنصر العبيدي ، فحظي عنده ، وبعثه رسولاً إلى بغداد إلى القائم بأمر  
الله ، وتوفّي باليمن بعد انصرافه من بغداد ، وابن الوقشي الطليطي ، عارف  
بالهندسة والمنطق والزيج ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم .

وكان الحافظ أبو الوليد هشام الوقشي من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء  
والنحو واللغة ومعاني الأشعار والعروض وصناعة الكتابة والفقّه والشروط  
والفرائض وغيرها ، وهو كما قال الشاعر :

وكان من العلوم بحيث يُقضى له في كلّ فنٍّ بالجميع

ومن شعره قوله :

قد بيّنتُ فيه الطبيعة أنها بدقيق أعمال المهندس ماهرة  
عنيت بمبسمه فخطت فوقه بالمسك خطاً من محيط الدائرة

١ ب : من المستنصر ؛ ق ودوزي : من المستنصر .



وعزم على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك ، فقال :

لا أركبُ البحرَ ولو أنتي ضربتُ فيه بالعَصَا فانفَلَقَ  
ما إن رأتُ عينيَ أمواجهُ في فِرَقٍ إلا تناهى الفِرَقُ

وكان الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن مهند<sup>١</sup> مصنف الأدوية المفردة آية الله تعالى في الطب وغيره ، حتى إنّه عانى جميع ما في كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن بالأغذية أو ما يقرب منها ، وإذا اضطر إلى الأدوية فلا يرى التداوي بالمركبة ما وجد سبيلاً إلى المفردة ، وإذا اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة في الإبراء من الأمراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه .

ومنهم ابن البيطار<sup>٢</sup> ، وهو عبد الله بن أحمد المالقي الملقب بضياء الدين ، وله عدّة مصنّفات في الحشائش لم يسبق إليها ، وتوفّي بدمشق سنة ست وأربعين وستمائة ، أكل عقاراً قاتلاً فمات من ساعته ، رحمه الله تعالى .

١٦٢ - ومن حكاياتهم في الحفظ أن الأديب الأوحد حافظ إشبيلية ، بل الأندلس في عصره ، أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره في الرواية للأشعار والأخبار ، قال ابن سعيد<sup>٣</sup> : أخبرني مَنْ أثق به أنّه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء إشبيلية فجرى ذكر حفظه ، وكان ذلك في أول الليل ، فقال لهم : إن شئتم تختبروني أجبتكم ، فقالوا له : بسم الله ، إنّا نريد أن نحدّث عن تحقيق ، فقال : اختاروا أيّ قافية شئتم لا أخرج عنها ، حتى

١ في أصول النفع ودوزي : شهيد ؛ والتصويب عن ابن أبي أصيبعة ( ٢ : ٤٩ ) .

٢ ابن أبي أصيبعة ٢ : ١٣٣ والنفع ٢ : ٦٩١ .

٣ اختصار القدر : ١٥٨ والمغرب ١ : ٢٥٨ والتكملة رقم : ٢٠٢٥ .

تعجبوا<sup>١</sup> ، فاختاروا القاف ، فابتدأ من أوّل الليل إلى أن طلع الفجر ، وهو ينشد وزن :

أرق على أرقٍ ومِثليَ يَارقُ

وسُمّاره قد نام بعض وضج بعض ، وهو ما فارق قافية القاف .

وقال أبو عمران ابن سعيد : دخلت عليه يوماً بدار الأشراف بإشبيلية ، وحوله أدباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرّمّة ، فمد الهيثم يده<sup>٢</sup> إلى الديوان المذكور ، فمنعه منه أحد الأدباء ، فقال : يا أبا عمران ، أوجب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتاً ، وأنا أحفظه ؟ فأكذبت الجماعة ، فقال : اسمعوني وأمسكوه ، فابتدأ من أوّله حتى قارب نصفه ، فأقسمنا عليه أن يكف ، وشهدنا له بالحفظ .

وكان آية في سرعة البديهة ، مشهوراً بذلك ، قال أبو الحسن ابن سعيد : عهدني به في إشبيلية يملئ علي أحد الطلبة شعراً ، وعلى ثانٍ موشحة ، وعلى ثالثٍ زجلاً ، كل ذلك ارتجالاً .

ولما أخذ الحصار بمُخَنَّقِ إشبيلية في مدة الباجي خرج خروج القارظين<sup>٣</sup> ، ولا يدري حيثُ ولا أين .

ومن شعره وقد نزل بداره عبيدُ السلطان ، وكتب به إلى صاحب الأنزال :

كم من يدٍ لك لا أقومُ بِشُكْرِها      وبها أُشيرُ إليك إن خرست فمي  
وقد استشرتكَ في الحديثِ فهل ترى      أن يدخلَ الغِربانُ وكَرَّ الهيثمِ

١ ق ب : تمجوا .

٢ ب : فمد يده الهيثم .

٣ يعني خرج ولم يعد ، فعل القارظين المضروب بهما المثل في عدم الأوبة .

وله ١ :

يُجْنَى الْفَقِيرُ وَيَغْشَى النَّاسُ قَاطِبَةً  
وَأَمَّا النَّاسُ أَمْثَالُ الْفَرَاشِ فَهَم  
بَابَ الْغَيْ ، كَذَا حُكْمُ الْمَقَادِيرِ  
بِحَيْثُ تَبَدُّوْا مَصَابِيحَ الدَّنَائِرِ

وله :

عندي لفقديك أوجالٌ أبيتُ بها  
ولا ملامة إن لم أهد نيّره  
قد كنت أودع سرّ الشوق في طرُس  
لكنني خفت أن يعدو على الطرُسِ  
كأنتي واضعٌ كفّي على قَبَسِ  
حتى تمدّ إليّها كفّ مُقْتَبِسِ

وأُشْد له أبو سهّل شيخ دار الحديث بالقاهرة في إملائه :

قفْ بالكثيبِ لغيرك التأيّبُ  
يا راحلين لنا عليكم وقفةٌ  
تُخْلِ الديارُ من المحبةِ والهوى  
أبدأً وتعمُرُ أضلعٌ وقلوبُ  
إنّ الكثيبَ هوى لنا محبوبُ  
ولكم علينا دمعنا المسكوبُ

وقال ارتجالاً في صفة فرس أصفر :

أَطْرَفٌ فَاتَ طَرْفِي أَمْ شِهَابُ  
أَعَارُ الصَّبْحِ صَفْحَتَهُ نَقَاباً  
فَمَهْمَا حُثَّ خَالَ الصَّبْحِ وَافِي  
إِذَا مَا انْقَضَ كَلَّ النِّجْمُ عَنْهُ  
هَمًّا كَالْبَرْقِ ضَرَمَهُ التَّهَابُ  
فَقَرَّ بِهِ وَصَحَّ لَهُ النِّقَابُ  
لِيَطْلَبَ مَا اسْتَعَارَ فَمَا يُصَابُ  
وَضَلَّتْ عَنْ مَسَالِكِهِ السَّحَابُ  
فَيَا عَجَباً لَهُ فَضْلُ الدَّرَارِي  
فَعِنْدَ الرِّيحِ قَدْ يُلْفَى الْجَوَابُ  
سَلَّ الْأَرْوَاحَ عَنْ أَقْصَى مَدَاهِ

١٦٣ - وقال أبو عمر الطلمنكي : دخلتُ مُرْسِيَةَ ، فتشبّث بي أهلها

١ القدح : ١٥٩ والمغرب ؛ ٢٥٨ وقد تأخر موضعهما في ب بعد وصف الفرس .

يسمعوا عليّ الغريب المصنّف ، فقلت : انظروا مَنْ يقرأ لكم ، وأمست  
أنا كتابي ، فأتوني برجل أعمى يُعرف بابن سيده ، فقرأه عليّ من أوّله إلى  
آخره ، فعجبت من حفظه ، وكان أعمى ابن أعمى ، وابن سيده المذكور هو أبو  
الحسن علي بن أحمد بن سيده ، وهو صاحب كتاب « المحكم » . ومن نظمه  
مما كتب به إلى ابن الموفق :

ألا هلّ إلى تقبيل راحتك اليُمْنى سبيلٌ فإنّ الأمنَ في ذاك واليُمْنى  
ومنها :

ضحيتُ فهل في برّدي ظلك نومةٌ لذي كبدٍ حرّى وذوي مُقلّةٍ وسنى  
وتوفي ابن سيده المذكور سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، وعمره نحو الستين ،  
رحمه الله تعالى .

١٦٤ - ومن حكاياتهم في حب العلم أن المظفر بن الأفتس صاحب  
بَطْلَيْوُس كان كما قال ابن الأبار كثير الأدب ، جمّ المعرفة ، محباً لأهل  
العلم ، جماعةً للكتب ، ذا خزانة عظيمة ، لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه  
في أدب ومعرفة ، قاله ابن حيّان .

وقال ابن بسام<sup>٢</sup> : كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ،  
وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بالتذكرة والمشتهر أيضاً اسمه  
بالكتاب المُظفَرِي ، في خمسين مجلداً ، يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ  
وسيرٍ ومثّل وخبرٍ وجميع ما يختص به علم الأدب ، أبقاه للناس<sup>٣</sup> خالداً ،  
وتوفي المظفر سنة ستين وأربعمائة . وكان يحضر العلماء للمذاكرة ، فيفيد

١ ب : قرأه .  
٢ الذخيرة ٢ : ٢٥٥ .  
٣ الذخيرة : في الناس .

ويستفيد ، رحمه الله تعالى .

١٦٥ - ومن التأليف الكبار لأهل الأندلس كتاب « السماء والعالم »<sup>١</sup> الذي ألفه أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة ، وهو مائة مجلد ، رأيت بعضه بفاس ، وتوفي ابن أبان سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ، رحمه الله تعالى .

[ روح الفكاهة عند الأندلسيين ]

ولأهل الأندلس دُعابة وحلاوة في محاوراتهم ، وأجوبة بديهة مسكتة ، والظرفُ فيهم والأدب كالغريزة ، حتى في صبيانهم ويهودهم ، فضلاً عن علمائهم وأكابرهم . ولنذكر جملة من ذكر الجلمة فنقول :

١٦٦ - حكى عن عالم المرية القاضي أبي الحسن مختار الرعيبي ، وكان فيه حلاوة ولوذعية ووقار وسكون ، أنه استدعاه يوماً زهير ملك المرية من مجلس حكمه ، فجاءه يمشي مشية قاض قليلاً قليلاً ، فاستعجله رسول زهير ، فلم يعجل ، فلما دخل عليه قال له : يا فقيه ، ما هذا البطء ؟ فتأخر إلى باب المجلس ، وطلب عصا ، وشمّر ثيابه ، فقال له زهير : ما هذا ؟ قال : هذا يليق باستعجال الحاجب لي ، فوقع في خاطري أنه عزلني عن القضاء وولاني الشرطة ، فضحك زهير واستحلاه ولم يعد إلى استعجاله .

وهذا القاضي هو القائل - وقد دخل حمّاماً فجلس بإزائه عامي أساء الأدب عليه - :

ألا لُعِنَ الحمّامُ داراً فإنّه سَوَاءٌ بِهِ ذُو الْعِلْمِ وَالْجَهْلُ فِي الْقَدْرِ  
تَضِعُ بِهِ الْأَدَابُ حَتَّى كَانَتْهَا مَصَابِيحُ لَمْ تَنْفَقْ عَلَى طَلْعَةِ الْفَجْرِ

١٦٧ - وروي أن المقرئ أبا عبد الله محمد بن الفراء إمام النحو واللغة في زمانه - وكانت فيه فطنة ولوذعية - أبطأ خروجه يوماً إلى تلامذته ، فقال بهم الكلام في المذاكرة فقال أحدهم نصف بيت ، وكان فيهم وسيم من أبناء الأعيان ، وكان ابن الفراء كثير الميل إليه ، فلما خرج قال له : يا أستاذ ، عملتُ نصف بيت ، وأريد أن تتمه ، فقال : ما هو ؟ فقال :

ألا بأبي شادنٍ أوطَفُ

فقال الأستاذ ابنُ الفراء بديهاً :

إذا كان وردك لا يُقَطَفُ      وثغرُ ثنابك لا يُرَشَفُ  
فأيُّ اضطرارٍ بنا أن نقولَ :      ألا بأبي شادنٍ أوطَفُ ؟

وهذا ابن الفراء هو القائل<sup>١</sup> :

قيل لي : قد تبدلَا      فاسلُ عنه كما سلا  
لك سمعٌ وناظرٌ      وفؤادٌ فقلت : لا  
قيل : غالٍ وصالهُ      قلت : لما غلا حلا  
أيُّها العاذلُ الذي      بعدابي توكلَا  
عُدْ صحيحاً مسلماً      لا تعيرُ فتُبْتَلَى

وتذكرت بهذا ما أنشده لسانُ الدين في كتابه « روضة التعريف بالحب

الشريف » :

قلتُ للساخر الذي      رَفَعَ الأنفَ واعتَلَى  
أنتَ لم تأمن الهوى      لا تعيرُ فتُبْتَلَى

١ زاد المسافر : ١٠٠ .

ومن بديع نظم ابن الفراء المذكور قوله<sup>١</sup> :

شكوتُ إليه بفرطِ الدتَّفِ      فأنكر من قصتي ما عرَفُ  
وقال : الشهودُ على المدعي      وأمّا أنا فعليّ الخلفُ  
فجئنا إلى الحاكم الألميِّ      قاضي المجون وشيخِ الطُرفِ  
وكان بصيراً بشرعِ الهوى      ويعلم من أين أكَلُ الكتِفِ  
فقلتُ له : إقصِ ما بيننا      فقال : الشهودُ على ما تصفُ  
فقلتُ له : شهدتُ أدمعي      فقال : إذا شهدتُ تنتصفُ  
ففاضت دموعي من حينها      كفيضِ السحابِ إذا ما يكِفُ  
فحركَ رأساً إلينا وقال :      دعوا يا مهاتيكُ هذا الصلفُ  
كذا تقتلون مشاهيرنا      إذا مات هذا فأين الخلفُ  
وأوما إلى الوردِ أن يجتني      وأوما إلى الريقِ أن يُرتشفُ  
فلمّا رآه حبيبي معي      ولم يختلف بيّنا مختلفُ  
أزالَ العنادَ فعانقتهُ      كأنيّ لامٌ وحبيّ ألفُ  
فظلّتُ أعاتبه في الخفا      فقال : عفا الله عما سلفُ

١٦٨ - وحكي عن الزهري خطيب إشبيلية - وكان أعرج - أنه خرج

مع ولده إلى وادي إشبيلية ، فصادف جماعة في مركب<sup>٢</sup> ، وكان ذلك بقرب  
الأضحى ، فقال بعضهم له : بكم هذا الحروف ؟ وأشار إلى ولده ، فقال له  
الزهري : ما هو للبيع ، فقال : بكم هذا التيس ؟ وأشار إلى الشيخ الزهري ،  
فرفع رجله العرجاء وقال : هو معيب لا يُجزىء في الضحية ، فضحك كل

١ زاد المسافر : ٩٩ .

٢ ب : وكان ذلك في مركب .

مَنْ حضر ، وعجبوا من لطف خُلُقِه .  
وركب مرّة هذا النهر مع الباجي يوم خميس ، فلما أصبحا وصعد الزهري  
يخطب يوم الجمعة ، والباجي حاضر قدامه ، فنظر إليه الباجي وأوماً إلى محل  
الحدّث ، وأخرج لسانه ، فجعل الزهري يلمس عصا الخطبة ، يشير بالعصا  
إلى جوابه على ما قصد ، رحمه الله تعالى .

١٦٩ - ومرّ العالم أبو القاسم ابن وَرْد صاحب التآليف في علم القرآن  
والحديث بجنّة لأحد الأعيان فيها ورد ، فوقف بالباب وكتب إليه :

شاعر قد عراك يبغي أباهُ      عندما اشتاق حسنه وشدّاهُ  
وهو بالباب مصغياً لجوابٍ      يرتضيه التّدَى فماذا تراهُ

فعندما وقف على البيتين علم أنّه ابن وَرْد ، فبادر من جنته إليه ، وأقسم  
في النزول عليه ، ونثر من الورد ما استطاع بين يديه .

١٧٠ - وحكي أن أبا الحسين سليمان بن الطراوة نحويّ المريّة حضر مع  
ندماء ، وإلى جانبه مَنْ أخذ بمجامع قلبه ، فلما بلغت النبوة إليه استعفى من  
الشرب ، وأبدى القُطوب ، فأخذ ابنُ الطراوة الجِمام من يده وشربها عنه ،  
ويا برّدها على كبده ، ثم قال بديهاً :

يشربُها الشيخُ وأمثالهُ      وكلُّ من تُحمَدُ أفعالهُ  
والبكر إن لم يستطع صولةً      تُلقي على البازل أنقالهُ

ودخل عليه وهو مع ندمائه غلام بكأس في يده فقال :

ألا بأبي وغيرِ أبي غزالُ      أتى وبراحهٍ للشربِ راحُ  
فقال مُنادمي في الحسنِ صِفِه      فقلتُ الشَّمسُ جاء بها الصّباحُ



وقال فيمن جاء بالراح :

ولما رأيتُ الصبحَ لاحَ بجمده  
وأطلعها مثلَ الغزالةِ وهو كالـ  
دعوتهمُ رفقاً تلحُ لكمُ الشمسُ  
غزالِ فمَّ الطيبُ واكمل الأَنسُ

وقال ، وقد شرب ليلة القمر :

شربنا بمصباح السماء مُدامةً  
وظل جهولٌ يرقبُ الصبحَ ضلَّةً  
بشاطي غديرٍ والأزهارُ تنفحُ  
ومن أكوسي لم يبرحِ الليلُ يُصبحُ

١٧١ - وكان أبو عبد الله ابن الحاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يشرب مع ندماء ظراف في جنَّة بهجة ، فجاءتهم ورقة من ثقيل يرغب في الإذن ، وكان له ابن مليح فكتب إليه مدغليس :

سيدي هذا مكانٌ لا يُرى فيه بلحية  
غير تيسٍ مصفعاذ ي له بالصفع كديه  
أو له ابن شافع في ه فيلقى بالتحية  
أيها القابل بادرُ سائقاً تلك المطية

وكان مدغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة في الأزجال ، خليفة ابن قزمان في زمانه ، وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبي تمام ، بالنظر إلى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى ، ومدغليس ملتفت للفظ ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه .

ومن شعره قوله :

ما ضرَّكم لو كتبتُمُ حرفاً ولو باليسارِ  
إذ أنتمُ نورُ عيني ومطلبي واختياري

١٧٢ - وقال الخطيب الأديب النحوي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الفراء - المذكور قبل هذا بقريب - الضرير ، في صبي كان يقرأ عليه النحو اسمه حسن ، وهو في غاية الجمال - بعد أن سأله : كيف تقول إذا تعجبت من حُسنك ؟ فقال أقول : ما أحسنني - :

يا حَسَنًا ما لكَ لم تُحَسِّنِ	إلى نفوسٍ بالهوى متعبَةٍ
رقت بالورد وبالسوسن	صفحة خدٍ بالسنا مُذْهَبَةٍ
وقد أبى صدغك أن أجتني	منه وقد ألدغي عقربته
يا حُسْنَهُ إذ قال ما أحسنني	ويا لذاك اللفظ ما أَعذِبُهُ
ف فوق السهمَ ولم يُخْطِني	وإذ رأني ميسرًا أعجبه
وقال كم عاش وكم حَبَبِي	وحُبُّهُ إِيَّايَ قد عَذَّبَهُ
يرحمه الله على أتني	قتلي له لم أدرِ ما أوجبَهُ

وهذا ابن الفراء من فضلاء المائة السادسة ، ذكره ابنُ غالب في « فرحة الأنفس في فضلاء العصر من الأندلس » وكان شاعراً مجيداً ، يُعَلِّمُ بالمَريَّة القرآن والنحو واللغة ، وكانت فيه فطنة ولَوذَعِيَّة ، وذكاء وألعيَّة ، خرق بها العوائد . وحكي أن قاضي المَريَّة قبل شهادته في سَطْل ميزه في حمام باللمس ، واختبره في ذلك بحكاية طويلة . وذكره صفوان في « زاد المسافر » ووصفه بالخطيب .

[ رسالة أبي عبد الله ابن الفراء إلى ابن تاشفين ]

وجَدُّهُ القاضي أبو عبد الله ابن الفراء مشهور بالصلاح والفضل والزهد ، ومن العجائب أنه ليس له ترجمة في « المغرب » ، ولما كتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى أهل المرية يطلب منهم المعونة جاوبه بكتابه المشهور الذي يقول فيه : فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك ، وأن

الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوّة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعة في قبره ، ولا يُشك في عدله ، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعة في قبره ، ولا من لا يُشك في عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل فالله تعالى سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر رضي الله تعالى عنه حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلّف أن ليس عنده درهم واحد في بيت مال المسلمين ينفقه عليهم ، فتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة من أهل العلم وتحلّف أن ليس عندك درهم واحد ولا في بيت مال المسلمين ، وحينئذ تستوجب ذلك ، والسلام ، انتهى .

١٧٣ - وأما ابن الفراء الأخفش بن ميمون<sup>١</sup> الذي ذكره الحنجاري في « المسهب » فليس هو من هؤلاء ، بل هو من حصن القبذاق من أعمال قلعة بني سعيد ، وتآدب في قرطبة ، ثم عاد إلى حضرة غرناطة ، واعتكف بها على مدح وزيرها اليهودي ، وهو القائل :

صايحُ مُحياه تلقَ النُججَ في الأملِ      وانظر بناديه حُسنَ الشمسِ في الحملِ  
ما إن يلاقي خليلٍ فيه من خَلَلٍ      وكلّما حالَ صرفُ الدهرِ لم يحلِّ

وكان بهاجي المنفلت شاعر إلبيرة ، ومن هجاء المنفلت<sup>٢</sup> له قوله :

لابن ميمون قريضٌ      زمهريرُ البردِ فيه  
فإذا ما قالَ شعراً      نفقتُ سوقُ أبيه

ولما وفد على المرية مدح رفيع الدولة بن المعتصم بن صمّاح بشعر ، فقال له

١ المغرب ٢ : ١٨٢ .

٢ ق ب : ومن هجائه المنفلت له ؛ والبيتان في الذخيرة ١ / ٢ : ٢٦٤ .

بعض مَنْ أراد ضرّه : يا سيدي لا تقرب هذا اللعين ، فإنه قال في اليهودي :

ولكنّ عندي للوفاء<sup>١</sup> شريعة<sup>٢</sup> تركتُ بها الإسلامَ يبكي على الكفرِ

فقال رفيع الدولة : هذا والله هو الحر الذي ينبغي أن يُصْطَنع ، فلولا وفاؤه ما بكى كافراً بعد موته ، وقد وجدنا في أصحابنا من لا يرعى مسلماً في حياته . وقال فيه المنفث<sup>٣</sup> :

إن كنتَ أخْفَشَ عَيْنٍ فَإِنَّ قَلْبَكَ أَعْمَى  
فكَيْفَ تَنْتَرُ نِزْراً وَكَيْفَ تَنْظُمُ نِظْماً

ومن شعر الأخفش المذكور قوله :

إذا زرتكم غيباً فلمْ أُلْتَقَ بالبرِّ وإن غبت لم أطلب ولم أجِر في الذكرِ  
فإنّي إذن أولى الورى بفراقكم ولا سيّما بعدَ التجلّدِ والصبرِ

١٧٤ - ولما وفد على المنصور بن أبي عامر الشاعرُ المشهور أبو عبد الله محمد بن مسعود الغَسَّاني البجالي<sup>٣</sup> اتهم برهق في دينه ، فسجنه في المطبق مع الطليق القرشي ، والطيّيق غلام وسيم ، وكان ابن مسعود كلفاً به يومئذ وفيه يقول :

غدوتُ في السجنِ خِدناً لابن يعقوبِ  
رامتُ عُدائيَ تَعْدِيبي وما شعرتُ  
وكنْتُ أحسبُ هذا في التكاذِبِ  
فكانَ ذلكَ إدنائي وتقريبي  
أنَّ الذي فعلوهُ ضدَّ تعديبي  
قد كان غايةَ مأمولي ومرغوبي  
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها  
لمْ يَعْلَمُوا أنَّ سجنِي لا أباهمُ

١ ب : في الوفاء .

٢ المغرب ٢ : ١٨٤ .

٣ في الأصول ودوزي : البجالي ؛ وترجمته في الخدوة : ٨٦ ؛ وانظر الذخيرة ٢ / ١ : ٧٩ .

٤ الذخيرة : الحب .

وانطلق ابن مسعود والطلق قبله ، ووقع بينه وبين الطليق ، وعاد المدح هجاء ، فقال فيه ١ :

ولي جليسٌ قربه منّي      بعدُ الأماي كذباً<sup>٢</sup> عني  
قد قدّيت من لظه مقلّي      وقرحت من لظه أذني  
راهني في السجن من قربه<sup>٣</sup>      أشدُّ في السجن من السجن  
لو أن خلقاً كان ضداً له<sup>٤</sup>      زاد على يوسف في الحسن  
إذا ارتمى فكري في وجهه      سلط لإبطيه على ذهني  
كأتما يجلس من ذا وذا      بين كنيفين من النتن

وقال يخاطب المنصور من السجن :

دعوتُ لما عيلَ صبري فهل<sup>٥</sup>      يسمعُ دعوايَ المليكُ الحليم<sup>٥</sup>  
مولايَ مولايَ ألا عطفة<sup>٦</sup>      تذهبُ عني بالعذابِ الأليم<sup>٦</sup>  
إن كنتُ أضمرتُ الذي زخرقوا      عني فدعني للتقديرِ الرحيم<sup>٦</sup>  
فَعنده نزعاًة<sup>٦</sup> للشوى      وعنده الفردوسُ ذات النعيم<sup>٦</sup>

١٧٥ - وركب بعض أهل المريّة في وادي إشبيلية ، فمرّ على طاقة من طاقات شنتبوس ، وهو يُغني :

خلّين من وادٍ ومن قوارب<sup>٧</sup>      ومن نزاها في شنتبوس<sup>٧</sup>  
غرس الحبق الذي في داري      أحب عندي من العروس<sup>٧</sup>

فأخرجت رأسها جارية وقالت له : من أي البلاد أنت يا من غنّي ؟ فقال :

١ الذخيرة : ٨٣ .

٢ الذخيرة : كلها .

٣ في ق ب ودوزي : الفردوس ، وهو خطأ ؛ والعروس من متزهات إشبيلية .

من المرية ، فقالت : وما أعجبك في بلدك حتى تفضّله على وادي إشبيلية ؟ وهو بوجه مالح وقفاً أحرش ، وهذا من أحسن تعيب ، وذلك أنّها أتمته بالنقيض من إشبيلية ، فإن وجهها النهر العذب ، وقفها بجبال الرحمة أشجار التين والعنب ، لا تقع العين إلا على خضرة في أيام الفرج ، وأين إشبيلية من المرية ، وفي المرية يقول السميسر شاعرها :

بش دار المرية اليوم داراً ليس فيها لساكنٍ ما يُحِبُّ  
بلدةً لا تُمار إلا بريحٍ ربّما قد تهبُّ أو لا تهبُّ

يشير إلى أن مرآقها مجلوبة ، وأن الميرة تأتيها في البحر من بر العدوّة ، وفيها يقول أيضاً :

قالوا المرية فيها نظافةٌ قلتُ : إيه  
كأنتها طستُ تبر ويُبصقُ الدمُ فيه

١٧٦ - وحكى مؤرخ الأندلس أبو الحجاج البياسي ، أنّه دخل عليه في مجلس أنس شيخ ضخم الجثة مستقل ، فقال البياسي :

اسقني الكأس صاحيه ودع الشيخ ناحيه

فقال الكاتب أبو جعفر أحمد بن رضي :

إن تكُن ساقياً له ليس ترويه ساقيه

١٧٧ - وحكى أن العالي إدريس الحمودي لما عاد إلى ملكه بمالقة وبخ قاضيها الفقيه أبا علي ابن حسّون ، وقال له : كيف بايعت عدوي من بعدي وصحبته ؟ فقال : وكيف تركت أنت ملكك لعدوك ؟ فقال : ضرورة القدرة حملتني على ذلك ، فقال : وأنا أيضاً حصلت في يد من لا يسعني إلا طاعته .

ومن نظم القاضي المذكور :

رفعت من دهري إلى جائر ويتغني العدل بأحكامي  
أضحّت به أملاكه مثل أش كال خيال طوع أيام  
هذا لما أبرم ذا ناقض كأنهم في حكم أحلام

١٧٨ - وكان الفقيه العالم أبو محمد عبد الله الوحيدى<sup>١</sup> قاضي مالقة جرى  
- كما قال الحِجاري - في صباه طلق الجموح ولم يزل يعاقب بين غبوق  
وصبوح ، إلى أن دعاه النذير ، فاهتدى منه بسراج منير ، وأحلته تلك الرجعة ،  
فيما شاء من الرفعة . وقال بعض معاشره : كنت أماشيه زمن الشباب ، فكلما  
مررنا على امرأة يدعو حسننها وشكلها إلى أن تحير الألباب ، أمال إليها طرفه ،  
ولم ينح عنها صرفه ، ثم سايرته بعد لما رجع عن ذلك واقتصر ، فأرأته يغض  
البصر ، ويخفي الطريق معرضاً إلى ناحية ، متى زاحمته امرأة ولو حكت  
الشمس ضاحية ، فقلت له في ذلك ، فقال :

ذاك وقت قضيت فيه غرامي من شبابي في سرة الإظلام  
ثم لما بدا الصباح لعيني من مشيبي ودعته بسلام<sup>٢</sup>

ومن شعره في صباه :

لا ترتجوا رجعتي باللوم عن غرضي ولتتركوني وصيدي فرصة الخلس  
طلبتم رد قلبي عن صبابته ومن يرد عنان الجامع الشرس

ولما أقصر باطله ، وعريت أفراس الصبا ورواحله ، قال<sup>٣</sup> :

١ ترجمة الوحيدى في المغرب ١ : ٤٣١ وبغية الملتس (ص : ٣٢٦) والصلة : ٢٩٠ والمرقبة  
العليا : ١٠٤ .  
٢ م : بالسلام .  
٣ البيتان في المغرب ١ : ٤٣١ .

ولمّا بدا شَيْبِي عطفْتُ على الهدى كما يهتدي حلف السرى بنجوم  
وفارقتُ أشياع الصباية والطلا ومِلْتُ إلى أهليّ علّاً وعلوم

١٧٩ - ولما تألّب بنو حسّون على القاضي الوحيد المذکور صادر عنه  
العالم الأصولي أبو عبد الله ابن الفخار ، وطلع في حقّه إلى حضرة الإمامة مراکش ،  
وقام في مجلس أمير المسلمين ابن تاشفين ، وهو قد غصّ بأربابه ، وقال : إنّه  
لقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنوّ منه ، ونصلي على خيرة أنبيائه محمد  
الهادي إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم ، أمّا بعد  
فإنّا نحمد الله الذي اصطفاك للمسلمين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفي نصيراً  
وظهيراً ، ونفزع إليك ممّا دهمنا في حِمَاك ، ونبثُ إليك ما لحقنا من الضيم  
ونحن تحت ظل علاك ، ويأبى الله أن يُدهم من احتمى بأمر المسلمين ، ويصاب  
بضيم من ادّرّع بحصنه الحصين ، شكوى قمت بها بين يديك في حق أمرك الذي  
عضده مؤيده ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيد  
الذي قدمته في مالقة للأحكام ، ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام ،  
لم يزل يدلُّ على حسن اختيارك بحسن سيرته ، ويرضي الله تعالى ويرضي الناس  
بظاهره وسريته ، ما علمنا عليه من سوء ، ولا درّينا له موقفَ خِزْي ، ولم  
يزل جارياً على ما يرضي الله تعالى ويرضيك ويرضينا إلى أن تعرضت بنو حسّون  
إلى الطعن في أحكامه ، والهد من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدّم ، راجع  
على المقدّم ، بل جمّحوا في لجاجهم فعموا وصمّوا ، وفعلوا وأمضوا ما به همّوا .

وإلى السّحب يرفع الكف من قد جف عنه مسيل عين ونهر

فمداً سمعه بلاغة أعقت نصره ونصر صاحبه .

ومن شعر ابن الفخار المذکور ، ويُعرف بابن نصف الربض ، قوله :

أمستكّرُ شيبُ المفارقِ في الصبا وهل يُنكرُ النورَ المفتح في الغصنِ  
أظنُّ طِلابَ المجدِ شيبَ مقرفي وإن كنت في إحدى وعشرين من سني



وقوله :

أقيلَ عتابك إنَّ الكريمَ      يُجازي على حُبِّه بالقلي  
وخلَّ اجتنابك إنَّ الزمانَ      يُمرُّ بتكديره ما حلا  
وواصلْ أخاك بعلاته      فقد يُلبسُ الثوبُ بعد البلي  
وقلْ كالذي قاله شاعرٌ      نبيلٌ وحقك أن تنبلا  
إذا ما خليلٌ أسا مرةً      وقدْ كانَ فيما مضى جملا  
ذكرتُ المقدمَ من فعله      فلمْ يفسدِ الآخرُ الأولا

١٨٠ - ولما وفد أبو الفضل ابن شرف من برجة في زي تظهر عليه  
البدواة بالنسبة إلى أهل حضرة المملكة العظمى أنشده قصيدته الفائقة وهي<sup>١</sup> :

مطلَّ الليلُ بوعدِ الفلقِ      وتشكى النجمُ طولَ الأرقِ  
ضربتُ ريحُ الصِّبامسكِ الدجى      فاستفادِ الروضُ طيبَ العبقِ  
وألاح الفجرُ خدّاً خجلاً      جال من رشحِ الندى في عرقِ  
جاوز الليلَ إلى أنجمه      فتساقطنَ سقوطَ الورقِ  
واستفاضَ الصبحُ فيه فيضةً      أيقنَ النجمُ لها بالغرقِ  
فانجلى ذاك السنّا عن حلكِ      وانمحي ذاك الدجى عن شفقِ  
بأبي بعد الكرى طيفُ سرى      طارقاً عن سكنٍ لم يطرُقِ  
زارني والليلُ ناعٍ سدّفه      وهوَ مطلوبٌ بباقي الرمتِ  
ودموعُ الطلِّ تمرّ بها الصبا      وجفونُ الروضِ غرقى الحدقِ  
فتأنى في إزارٍ ثابتٍ      وتثنى في وشاحٍ قلقى  
وتجلّى وجهه عن شعره      فتجلّى فلقٌ عن غسقى  
نهبَ الصبحُ دجى ليلته      فحبا الخدّ ببعضِ الشفقِ

١ انظرها في الذخيرة (٣ : ٢٧٧) وبعضها في المغرب ٢ : ٢٣٠ .

سلبت عيَّناهُ حَدَّيْ سِيفِه  
وامتطى من طرفه ذا خَبَبِ  
أشوس الطرفِ علته نخوةٌ  
لو تمطى بينَ أسرابِ المَها  
حسرت دهمته عن غرةِ  
لبست أعطافه ثوبَ الدجى  
وانبرى تحسبه أجفَلَ عن  
مدركاً بالمهل ما لا ينتهي  
ذو رضى مستترٍ في غضبِ  
وعلى خدِّ كعضبِ أبيضِ  
كلما نصَّها مستمعاً  
حاذرت منه شبا خطيئة  
كلما شامت عذارى خده  
في ذرا ظمان فيه هيفُ  
يتلقاني بكفِّ مصقعِ  
إن يدُرْ دورةَ طرفٍ يلمحِ  
عصفت ريحٌ على أنبويه  
كلما قلبه باعدَ عن  
جمع السردِ قوى أزارها  
أوجبت في الحربِ من وخزِ القنا  
كلما دارت بها أبصارها  
زلَّ عنه متنُ مصقولِ القوى

وتحلَّى خدهُ بالرونقِ  
يلثم الغبراء إن لم يُعنقِ  
يتهادى كالغزالِ الحرقِ  
نازعته في الحشا والعنقِ  
كشفت ظلماؤها عن يققِ  
وتحلَّى خدهُ باليقتقِ  
لسعةٍ أو جنةٍ أو أولتِ  
لاحقاً بالرقق ما لم يلحقِ  
ذو وقارٍ منطوي في خرقِ  
أذنٌ مثلُ سنانِ أزرقِ  
بدت الشهبُ إلى مسترقِ  
لا يجيدُ الخطأ ما لم يمشقِ  
خفقت خفتقَ فؤادِ الفرقِ  
لم يدعهُ للقضيبِ المورقِ  
يقتفي شأوَ عذارٍ مفلقِ  
أو يجلُّ جولَ لسانِ ينطقِ  
وجرت أكعبه في زئبقِ  
متنِ ملساءِ كمثلِ البرقِ  
فتأخذنَ بعهدِ موثقِ  
فتوارت حلقاً في حلقِ  
صوّرت منها مثالَ الحدقِ  
يرتمي في مايتها بالحرقِ

لو نضا وهوَ عليه ثوبهُ  
 أكهبٌ من هبّواتٍ أخضرُ  
 وارتوت صفحاهُ حتى خيلته  
 يا بني معنٍ لقد ظلتُ بكم  
 لو سقي حسانُ إحسانكمُ  
 أو دنا الطائيُّ من حيكمُ  
 أبدعوا في الفضلِ حتى كلّفوا  
 لتعرّى عن شواظٍ محرقِ  
 من فيرندٍ أحمرٌ من علقِ  
 بحيا منٍ لكفيك سقي  
 شجّرٌ لولاكمُ لم تورقِ  
 ما بكى ندمانهُ في جلقِ  
 ما حدا البرقَ لربعِ الأبرقِ  
 كاهلِ الأيام ما لم يطقِ

فلما سمعها المعتصم لعبت بارتياحه ، وحسده بعض من حضر ، وكان من جملة من حسده ابن أخت غانم ، فقال له : من أيّ البوادي أنت ؟ قال : أنا من الشرف في الدرجة العالية ، وإن كانت البادية عليّ بادية ، ولا أنكر حالي ، ولا أعرف بخالي ، فمات ابن أخت غانم خجلاً ، وسميت به كل من حضر .  
 وابن شرف المذكور هو الحكيم الفيلسوف أبو الفضل جعفر ابن أديب إفريقية أبي عبد الله محمد بن شرف الجُدّامي ، وُلد ببرجة ، وقيل : إنّه دخل الأندلس مع أبيه وهو ابن سبع سنين ، ومن نظمه قوله :

رأى الحسنُ ما في خدهِ من بدائعِ  
 وقالَ لقد ألفتُ فيهِ نوادرأ  
 فأعجبهُ ما ضمَّ منه وحرّفا  
 فقلتُ له لا بل غريباً مصنفا  
 وقوله :

قد وقفَ الشكرُ بي لديكم  
 ونِلتُ أقصى المرادِ منكم  
 فلستُ أقوى على الوفادةِ  
 فصرتُ أخشى من الزيادةِ

١ ترجمة أبي الفضل ابن شرف في المغرب ٢ : ٢٣٠ والذخيرة ( ٣ : ٢٧٦ ) والقلائد : ٢٥٢ والصلة : ١٢٩ والمطرب : ٧١ وبغية المتلسن ص : ٢٣٩ .

وقوله :

إذا ما عدوك يوماً سما إلى رتبةٍ لم تُطِقْ نَقْضَهَا  
فقبَّلْ ولا تأنَّفنْ كَفَّهُ إذ أنتَ لم تستطع عَضَّهَا

وقوله ، وقد تقدم به على كل شاعر :

لم يبق للـجورِ في أيامهم أثرٌ إلاّ الذي في عيونِ الغيدِ من حَوَرِ  
وأولّ هذه القصيدة قوله :

قامت تجرُّ ذبولِ العَصْبِ والحِبرِ ضعيفةُ الحَصْرِ والميثاقِ والنظرِ

وكان قد قَصَرَ أمداحه على المعتصم ، وكان يفد عليه في الأعياد وأوقات  
الفرج والفتوحات ، فوفد عليه مرة يشكو عاملاً ناقشه في قرية يحرث فيها ،  
وأنشده الرائية التي مرّ مطلعها إلى أن بلغ قوله :

لم يبق للـجورِ . . . البيت

فقال له : كم في القرية التي تحرث فيها ؟ فقال : فيها نحو خمسين بيتاً ،  
فقال له : أنا أسوِّغك جميعها لهذا البيت الواحد ، ثم وقع له بها ، وعزل عنها  
نظر كل والٍ .

وله ابنٌ فيلسوف شاعر مثله ، وهو أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المذكور ،  
وهو القائل :

وكريمٍ أـجـارني من زمانٍ لم يكن من خطوبه لي بدؤ  
منشدٍ كلِّما أقولُ تناهى ما لمن يبتغي المكارمَ حدُّ

١ ترجمته في المغرب ٢ : ٢٣٢ والمسالك ١١ : ٢٣٨ .

١٨١ - وابن أخت غانم هو العالم اللغوي أبو عبد الله محمد بن معمر<sup>١</sup> ، من أعيان مالقة ، متفنن في علوم شتى ، إلا أن الغالب عليه علم اللغة ، وكان قد رحل من مالقة إلى المرية ، فحلَّ عند ملكها المعتصم بن صمادح بالمكناة العلية ، وهو القائل في ابن شرف المذكور :

قُولُوا لِشَاعِرٍ بَرَجَةٌ هَلْ جَاءَ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ فَحَازَ طَبَعَ الْبَحْرِيِّ  
وَإِنِّي بِأَشْعَارِهِ تَضَجُّ بِكَفِّهِ وَتَقُولُ هَلْ أَعَزَّى لِمَنْ لَمْ يَشْعِرِ  
يَا جَعْفَرًا رُدَّ الْقَرِيضُ لِأَهْلِهِ وَاتْرَكَ مَبَارَاةً لِتِلْكَ الْأَبْحَرِ  
لَا تَزْعَمَنَّ مَا لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لَهُ هَذَا الرُّضَابُ لَغَيْرِ فَيْكِ الْأَبْحَرِ

وذكره ابن الیسع في معربه<sup>٢</sup> وقال : إنّه حدثه بداره في مالقة وهو ابن مائة سنة ، وأخذ عنه عام أربعة وعشرين وخمسمائة ، وله تأليف منها « شرح كتاب النبات » لأبي حنيفة الديّنوري ، في ستين مجلداً ، وغير ذلك .  
وغانم خاله الذي يُعرف به هو الإمام العالم غانم المخزومي ، نُسب إليه لشهرة ذكره ، وعلوّ قدره .

١٨٢ - ولما قرأ العالم الشهير أبو محمد ابن عبدون في أول شبابه على أبي الوليد ابن ضابط النحوي المالقي جرى بين يديه ذكر الشعر ، وكان قد ضجر منه ، فقال :

الشعرُ خُطَّةٌ خَسَفِ

فقال ابن عبدون معرّضاً به حين كان مُستجدياً بالنظم ، وكان إذ ذاك شيخاً :

لكلِّ طالبٍ عُرْفِ

١ ترجمته في المغرب ١ : ٤٣٣ وبغية الوعاة : ١٠٦ وأبياته في المغرب ١ : ٤٣٣ .  
٢ في الأصول ودوزي : مغربه .

للشيخ عَيْبَةُ عَيْبٍ وللفتي ظَرْفُ ظَرْفٍ

وابن ضابط هو القائل في المظفر بن الأفتس :

نظّمنا لك الشعر البديع لأننا علمنا بأنّ الشعر عندك ينفقُ  
فإن كنت منّي بامتداح مظفراً فإنّي في قصدي إليك موفّق<sup>١</sup>

١٨٣ - ودخل غانم المخزومي السابق ذكره ، وهو من رجال الذخيرة ،  
على الملك ابن حبّوس صاحب غرناطة ، فوسّع له على ضيق كان في المجلس ،  
فقال<sup>٢</sup> :

صير فؤادك للمحبوب منزلة سمّ الخياط مجالاً للمحبّين  
ولا تسامح بغيضاً في معاشره فقلّما تسع الدنيا بغيضين

وهو القائل :

وقد كنت أعدو نحو قطرك فارحاً فيها أنا أعدو نحو قبرك ثاكلاً  
وقد كنت في مدحيك سحباناً وائل فيها أنا من فرط التأسّف باقلاً

وله أيضاً :

الصبرُ أولى بوقار الفتي من ملك يهتك ستر الوقار  
من لزم الصبرَ على حالةٍ كان على أيامه بالخيار

١٨٤ - وكتب أبو علي الحسن بن الغليظ إلى صاحبه أبي عبد الله ابن  
السراج ، وقد قدم من سفر<sup>٣</sup> :

١ انظر التكملة : ٤٠٧ .

٢ مر البيتان ، انظر ص : ٢٦٥ وانظر بدائع البداهة ٢ : ١٢٣ .

٣ البيتان في المغرب ١ : ٤٣٦ .

يا من أقلبُ طرفي في محاسنهِ فلا أرى مثله في الناسِ إنسانا  
لو كنت تعلمُ ما لقيتُ بعدك ما شربت كأساً ولا استحسنت ريحانا

فورد عليه من حينه وقال : أردت مجاوبتك ، فحفت أن أبطيء ، وصنعت  
الجواب في الطريق :

يا من إذا ما سقتني الراحَ راحتُهُ أهدتُ إليَّ بها رَوْحاً وريحانا  
من لم يكن في صباحِ السبتِ يأخذها فليس عندي بحكم الظرفِ إنسانا  
فكن على حُسْنِ هذا اليومِ مصطبِحاً مذكراً حَسَناً فيه وإحسانا  
وفي البساتينِ إن ضاق المحلُّ بنا منْدوحةٌ لا عدمننا الدهرَ بستانا

١٨٥ - ووفد أبو علي الحسن بن كسرين المالقي الشاعر المشهور على ملك  
إشبيلية السيد أبي إسحاق إبراهيم ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد  
المؤمن بن علي ، فأنشده قصيدة طار مطلعها في الأقطار ، كل مَطَار ، وهو :

قسماً بجمصٍ إنّه لعظيمُ ففهي المقامُ وأنتَ إبراهيمُ

١٨٦ - ووصف الشاعر عطاء المالقي عادةً جعلت على رأسها تاجاً فقال :

وذات تاج رَصَعُوا دَوْرَهُ فزاد في لألائها باللال  
كأنّها شمسٌ وقد تَوَجّتْ بأنجمِ الجوزاءِ فوق الهلال  
قد اشتكى الخلخالُ منها إلى سوارها فاشتبهها في المقال  
وأجرّياً ذكرَ الوشاحِ الذي لما يزلُ من خصرها في مجال  
فقال : لم أرضَ بما نلته وليني مثلكما لا أزال  
أغصُّ بالخصرِ وأعيا به كفصِ ظمآنِ بماءِ زلال  
وإنّما الدهرُ بغيرِ الرضى يقضي فكلُّ غيرِ راضٍ بحال

١ في التحفة : ٩١ ابن كسرى ، وكذلك في التكملة : ٢٦٤ .

وهو القائل :

سَلِّ بِحَمَانَا الَّذِي كَلَّ عَنْ شُكْرِهِ فَمَيِّ  
كَمْ أَرَانِي بِقَرْبِهِ جَنَّةً فِي جَهَنَّمَ

١٨٧ - وكان يحضر حلقة الإمام السهيلي وضيء الوجه من تلامذته ، فانقطع لعارض ، فخرج السهيلي ماراً في الطريق الذي جرت عادته بالمشي فيه ، فوجد قناة تصلح ، فمنعته من المرور ، فرجع وسلك طريقاً آخر ، فمرّ على دار تلميذه الوضيء ، فقال له بعض أصحابه ممازحاً بعبوره على مترله ، فقال : نعم ، وأنشد ارتجالاً :

جَعَلْتُ طَرِيقِي عَلَى بَابِهِ وَمَا لِي عَلَى بَابِهِ مِنْ طَرِيقٍ  
وَعَادَيْتُ مِنْ أَجْلِهِ جِيرَتِي وَأَخَيْتُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِي صَدِيقٍ  
فَإِنْ كَانَ قَتْلِي حَلَالًا لَكُمْ فَسَيَرُوا بِرُوحِي سِيرًا رَفِيقٍ

وأبو القاسم السهيلي مشهور ، عرّف به ابن خلكان وغيره ، ويكنى ايضاً بأبي زيد ، وهو صاحب كتاب «الروض الأنف» وغيره . واجتاز على سهيل وقد خربه العدو لما أغار عليه وقتلوا أهله وأقاربه ، وكان غائباً عنهم ، فاستأجر من أركبه دابة ، وأتى به إليه ، فوقف بإزائه ، وأنشدا :

يَا دَارُ أَيْنَ الْبَيْضِ وَالْآرَامُ      أَمْ أَيْنَ جِيرَانِ عَلِيٍّ كِرَامُ  
رَابِ الْمَحَبِّ مِنَ الْمَنَازِلِ أَنَّهُ      حَيًّا فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ سَلَامُ  
لَمَّا أَجَابَنِي الصَّدَى عَنْهُمْ وَلَمْ      يَلِجِ الْمَسَامِعَ لِلْحَبِيبِ كَلَامُ  
طَارِحَتْ وَرُقَّ حَمَامَهَا مَتَرَنًا      بِمَقَالِ صَبِّ وَالِدِ الْمَوْعُ سِجَامُ  
« يَا دَارُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْأَيَّامُ      ضَامَتِكَ وَالْأَيَّامُ لَيْسَ تَضَامُ »

١ الأبيات في المغرب ١ : ٣٧٠ .



وجرى بين السهيلي والرصافي الشاعر المشهور ما اقتضى قول الرصافي :

عفا الله غني فإني امرؤٌ أتيتُ السلامة من بابِها  
على أنْ عندي لمن هاجني كناننَ غصتْ بنشأها  
ولو كنتُ أرمي بها مسلماً لكان السهيليُّ أولى بها

وتوفي السهيلي بمراكش سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وزرت قبره  
بها مراراً سنة عشر وألف ، وسكن رحمه الله تعالى إشبيلية مدةً ، ولازم القاضي  
أبا بكر ابن العربي وابن الطراوة ، وعنه أخذ لسان العرب ، وكان ضريراً .

ومن شعره أيضاً لما قال : « كيف أمسيت » موضع « كيف أصبحت » :

لئن قلتُ صباحاً كيف أمسيتَ مخطئاً فَمَا أنا في ذلكَ الخطأ بمَلومٍ  
طلعتَ وأُفقي مُظلمٌ لفراقكم فخلتُك بدرأ والمساء هُمومي

١٨٨ - وحكي أن الوزير الكاتب أبا الفضل ابن حسداي الإسلامي  
السرقسطي ، وهو من رجال الذخيرة ، عشق جارية ذهب بلبه ، وغلبت  
على قلبه ، فجن بها جنونه ، وخلع عليها دينه ، وعلم بذلك صاحبه فزفها  
إليه ، وجعل زمامها في يديه ، فتجافى عن موضعه من وصلها أنفة من أن يظن  
الناس أن إسلامه كان من أجلها ، فحسن ذكره ، وخفي على كثير من الناس  
أمره ، ومن شعره قوله<sup>١</sup> :

وأطربنا غيمٌ يمازج شمسهُ فَيُسْتَرُ طوراً بالسحاب ويُكشَفُ  
تري قزحاً في الجو يفتحُ قوسه مكباً على قطنٍ من الثلج يندفُ

وكان في مجلس المقتدر بن هودٍ ينظر في مجلد ، فدخل الوزيرُ الكاتبُ أبو

١ البيتان في الذخيرة ( ٣ : ١٦٤ ) .

الفضل ابن الدباغ وأراد أن يندّر به ، فقال له ، وكان ذلك بعد إسلامه : يا أبا الفضل ، ما الذي تنظر فيه من الكتب ، لعلّ التوراة ؟ فقال : نعم ، وتجليدها من جلدٍ دَبَّغَهُ مَنْ تَعَلَّمَ ، فمات خجلاً ، وضحك المقتدر .

١٨٩ - وأراد الشاعر أبو الربيع سليمان السرقسطي حضور نديم له ،

فكتب إليه :

بالراحِ والريحانِ والياسمينِ      وبكرةِ الندمانِ قبلَ الأذنينِ  
وبهجةِ الروضِ بأندائهِ      مُقلداً منهُ بعقدِ ثمينِ  
ألا أجِبْ سَبَقاً نِدائي إلى الـ      كأسِ تَبَدَّتْ لذةَ الشارِبينِ  
هامتْ بها الأعينُ من قبل أن      يَخْبِرَها الذوقُ بحقِّ اليقينِ  
لاحتْ لَدَيْنا شَفَقاً مُعلناً      فكنْ لها بالله صُبْحاً مَبِينِ

١٩٠ - وكتب علي بن خير التُّطيلي<sup>١</sup> إلى ابن عبد الصمد السرقسطي يستدعيه

إلى مجلس أنس : أنا - أطال الله تعالى بقاء الكاتب سراج العلم وشهاب الفهم - في مجلس قد عَبَقَتْ تَفاحُهُ ، وضحكت راحُهُ<sup>٢</sup> ، وخفقت حولنا للطرب ألوية ، وسالت بيننا للهو أودية ، وحضرتنا مُقلّة تسأل منك إنسانها<sup>٣</sup> ، وصحيفة فكنْ<sup>٤</sup> عُنوانها ، فإن رأيت أن تجعل إلينا القصد ، لنحصل بك في جنة الخُلد ، صَقَلْت نفوساً أصدأها بُعدُك ، وأبرزت شمساً<sup>٥</sup> أدجاها فقدك .

١ هذا النص في الذخيرة ( ٣ : ٢٥٦ ) وقد صدره ابن بسام بقوله « وأخبرت أن بعض أدباء الثغر

استدعى هذا الشيخ ( يعني أبا عبد الصمد ؛ وكان في عصر أبي حفص ابن برد الأصغر ، فهو غير أبي بحر ابن عبد الصمد ) لمجلس أنس بهذا النثر : أنا أطال الله بقاء الكاتب . . . إلخ .

٢ الذخيرة : وصفت أقداحه .

٣ الذخيرة : فنحن لتأيك عنا مقلّة تسأل إنسانها .

٤ الذخيرة : نشر .

٥ الذخيرة : وأزت سرجاً ؛ وهو أجود .

فأجابه أبو عبد الصمد : فضضتُ - أيها الكاتب العليم ، والمصنّع الحبر الصميم - طابِعَ كتابك ، فمنحني منه جوهر منتخب ، لا يشوبه مَخْشَلَب ، هو السحر إلاّ أنّه حلال ، دلّ على ود حنيت ضلوعك عليه ، ووثيق عهد انتدب كريم سجيتك إليه ، فسألت فالق الحَب ، وعامر القلب بالحُب ، أن يصون لي حظي منك ، ويَدْرَأ لي النوائب عنك ، ولم يمنعني أن أصرف وجه الإجابة إلى مرغوبك ، وأمتطي جواد الانحدار إلى محبوبك ، إلاّ عارضُ ألمٍ ألمّ بي فقيّد بقبده نشاطي ، ورَوَى براحتة بساطي ، وتركني أتلمل على فراشي كالسليم ، وأستمطر الإصباح من الليل البهيم ، وأنا منتظر لإدباره .

١٩١ - ومن لطف أهل الأندلس ورقة طباعهم ما حكاها أبو عمرو ابن سالم المالقي قال : كنت جالساً بمنزلي بمالقة ، فهاجت نفسي أن أخرج إلى الجبّانة ، وكان يوماً شديداً الحر ، فراودتها على القعود ، فلم تمكني من القعود ، فمشيت حتى انتهيت إلى مسجد يُعرف برابطة الغبار ، وعنده الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي ، فقال لي : إنّي كنت أدعو الله تعالى أن يأتيني بك ، وقد فعل ، فالحمد لله ، فأخبرته بما كان مني ، ثم جلست عنده ، فقال : أنشدني ، فأنشدته لبعض الأندلسيين :

غَضَبُوا الصبَاحَ فَقسَمُوهُ خَلُوداً      واستوعبوا قُضِبَ الأَرَآكِ قَدُوداً  
ورأوا حصى الياقوتِ دونِ نَحُورِهِمْ      فتقلّدوا شُهَبَ النُجُومِ عَقُوداً  
لم يكفِهِمْ حَدُّ الأَسِنَّةِ وَالظُّبِي      حتى استعاروا أعياناً وخذوداً

فصاح الشيخ ، وأغمي عليه ، وتصبّب عرقاً ، ثم أفاق بعد ساعة ، وقال : يا بني اعذرني فشيئان يقهراني ، ولا أملك نفسي عندهما : النظر إلى الوجه الحسن ، وسماع الشعر المطبوع ، انتهى . وستأتي هذه الأبيات في هذا الباب

بأتم من هذا وعلى كل حال فهي لأهل الأندلس ، لا لابن دريد كما ذكره بعضهم ، وسيأتي تسمية صاحبها الأندلسي ، كما في كتاب « المغرب » لابن سعيد العنسي المشهور ، رحمه الله تعالى .

١٩٢ - وقال بعض الأدباء ليحيى الجزار ، وهو يبيع لحم ضأن<sup>١</sup> :

لحمُ إناثِ الكِبَاشِ مهزولُ

فقال يحيى :

يَقولُ للمشترين مَهْ زُولُوا

١٩٣ - وقال التطيلي الأعمى في وصف أسد رخام يرمي بالماء على بحيرة<sup>٢</sup> :

أسدٌ وَلَوْ أَتَيْتُ أَنَا قَشَهُ الْحَسَابِ لَقُلْتُ صَخْرَهُ  
وَكَأَنَّهُ أَسَدُ السَّمَاءِ يَمْجُجُ مِنْ فِيهِ الْمَجْرَةُ

١٩٤ - وحضر جماعة من أعيان الأدباء مثل الأبيض وابن بقي وغيرهما من الوشاحين ، واتفقوا على أن يصنع كل واحد منهم موشحة ، فلما أنشد الأعمى موشحته التي مطلعها<sup>٣</sup> :

ضاحك عن جمان<sup>٤</sup>      سافر عن بدر<sup>٥</sup>  
ضاق عنه الزمان<sup>٦</sup>      وحواه صدري

خَرَّقَ كُلُّ مِنْهُمْ مَوْشَحَتَهُ .

١٩٥ - وتماكت امرأة إلى القاضي أبي محمد عبد الله اللأردني الأصبحي ،

١ انظر زاد المسافر : ٩٨ .

٢ ديوان التطيلي : ٢٤٩ .

٣ أزهار الرياض ٢ : ٢٠٨ .

وكانت ذات جمال ونادرة ، فحكم لزوجها عليها ، فقالت له : من يُضيع قلبه كلُّ طرف فاتر جدير أن يحكم بهذا ، تشير إلى قوله :

أين قلبي ؟ أضاعه كلُّ طَرْفٍ فاترٍ يُضرعُ الحليمِ لديه  
كلّما ازداد ضعفه ازداد فتكاً أيّ صبرٍ تُرى يكونُ عليه ؟

١٩٦ - وحضر أبو إسحاق ابن خفاجة مجلساً بمُرْسِيَةِ مع أبي محمد جعفر ابن عنق الفضة الفقيه السالمي ، وتذاكرا ، فاستطال ابن عنق الفضة ، ولعب بأطراف الكلام ، ولم يكن ابن خفاجة يعرفه ، فقال له : يا هذا لم تترك لأحد حظاً في هذا المجلس ، فليت شعري من تكون ؟ فقال : أنا القائل :

الهوى علّمني سُهْدَ الليالِ ونظامُ الشعر في هذي اللالِ  
كلّما هبّت شمالٌ منهمُ لعبتُ بي عن يمينٍ وشمالِ  
وأرقتُ فكري أرواحها فأنتِ منهنَّ بالسحر الحلالِ  
كان كالملحِ أجاجاً خاطِري وسحابُ الحبِّ أبدته زلالِ

فاهتر ابنُ خفاجة ، وقال : من يكون هذا قوله لا ينبغي أن يُجهل ، ولك المعنرة في جهلك ، فإنك لم تُعرّفنا بنفسك ، فبالله من تكون ؟ فقال : أنا فلان ، فعرّفه وقضى حقّه .

١٩٧ - وحكى ابن غالب في « فرحة الأنفس » أن الوزير أبا عثمان ابن شتيفير وأبا عامر ابن غندشلب وقد آرسولين على المعتمد بن عباد ، عن إقبال الدولة بن مجاهد والمعتمد بن صمادح والمقتدر بن هود ، لإصلاح ما كان بين المعتمد وبين ابن ذي النون ، فسُر المعتمد بهم وأكرمهم ، ودعاهم إلى طعام صنعه لهم ، وكان لا يُظهر شرب الراح منذ ولي الملك ، فلماً رأوا انقباضه عن ذلك تحاموا الشراب ، فلماً أمر بكتب أجوبتهم كتب إليه أبو عامر :

١ لعله : ابن بشتيفير كما ورد من قبل ص : ٢٥٩ .

بقيت حاجة لعبد رغيب<sup>١</sup> لم يدع غيرها له من نصيب  
 أنا خيرية المساء حديثاً وأنا في الصباح أخشى رقيبي  
 فإذا أمس كان عندي نهراً لم تخفي عليه بعد الغروب  
 وإذا الليلُ جنَّ حدثتُ جُلاً سبي بما كان من حديث عجب  
 قيل إن الدُّجي لديك نهراً وكذلك الدُّجي نهراً الأريب  
 فتمنيت ليلةً ليس فيها لذكاء ذلك السنن من مغيب  
 حيث أعطيك في الخلاء وتعطي في مُداماً كمثل ريق الحبيب  
 ثم أغدو كأنني كنت في النور م وأخفي المنام خوف هزيب

والهزيب : الرقيب العتيد في كلام أهل الأندلس ، فسُرَّ المعتمد وانبسط  
 بانبساطه ، وضحك من مجونه ، وكتب إليه :

يا مجاباً دعا إلى مستجيبٍ فسمعنا دعاءه من قريب  
 إن فعلت الذي دعوت إليه كنت فيما رغبت عين رغيب

واستحضره فنادمه خالياً ، وكساه ووصله ، وانقلب مسروراً ، وظن  
 المعتمد أن ذلك يخفى من فعله عن ابن شنتفير ، فأعلم بالأمر القائد ابن مرتين ،  
 فكاد يتفطر حسداً وكتب إلى المعتمد :

أنا عبدٌ أوليته كل برّ لم تدع<sup>٢</sup> من فنون برّك فنا  
 غير رفع الحجاب في شربك الرا ح فماذا جناه أن يتجنّي  
 وتمنى شراب سورك في الكأ س فبالله أعطه ما تمنى

فسرتة أبياته ، وأجابه :

١ م : غريب .  
 ٢ في الأصول : لم يدع .

يا كريمَ المحلِّ في كلِّ معنَى والكريمُ المحلِّ ليس يُعنَى  
هذه الحمرُ تبتغيك فخذها أو فدَعها أو كيفما شئت كُنَّا

١٩٨ - وكان يقرأ في مجلس ملك السهلة أبي مروان ابن رزين ذي الرياستين  
ديوان شعر محمد بن هانيء ، وكان القارىء فيه بَلَّه ، فلما وصل إلى قوله :

حرام حرام زمان الفقير

اتفق أن عَرَضَ للملك ما اشتغل به ، فقال للقارىء : أين وقفت ؟ فقال :  
في حرِّ آمِّ ، فقام الملك ، وقال : هذا موضع لا أقف معك فيه ، ادخل أنت  
وحدك ، ثم دخل إلى قصره ، وانقلب المجلس ضحكاً .

١٩٩ - وكان للملك المذكور وزير من أعاجيب الدهر ، وهو الكاتب أبو  
بكر ابن سدراي<sup>١</sup> ، وذكره الحنجاري في « المسهب » وقال : إن له شعراً أرق  
من نسيم السَّحَر ، وأندى من الطَّل على الزهر ، ومنه قوله :

ما ضرکم لو بعثتم° ولو بأدنى تحية°  
تهزني من شداهما° إليكم الأريحيه°  
خذوا سلامي إليكم° مع الرياح النديه°  
في كل سحرة يوم° تترى وكل عشييه°  
يا رب طال اصطباري° ما الوجد إلا بلييه°  
غيلان بالشرق أضحى° وحلت الغرب ميه°

وقوله :

سأبغى المجد في شرقٍ وغربٍ فما ساد الفتي دون اغترابٍ

١ انظر المغرب ٢ : ٤٣٠ وبعض أبياته هناك .

٢ المغرب : غرة .

فإن بُلُغْتُ مأمولاً فإني جَهَدْتُ ولم أقصِّرْ في الطلابِ  
وإن أنا لم أفزُ بمرادٍ سعبي فكم من حَسرةٍ تحتَ الترابِ

٢٠٠ - وقال ملك بلنسية مروان بن عبد العزيز لما ولي مكانه من لا يساويه :

ولا غَرَوَ بعدي أن يُسَوِّدَ معشرٌ فيضحني لهم يومٌ وليس لهم أمْسُ  
كذلك نجوم الجوّ تبدو زواهرأ إذا ما توارتْ في مغاربها الشمسُ

وقال ابن دحية : دخلت عليه وهو يتوضأ ، فنظر إلى لحيته وقد اشتعلت  
بالشيب اشتعالاً ، فأنشدني لنفسه ارتجالاً<sup>١</sup> :

ولمّا رأيتُ الشيبَ أيقنْتُ أنه نَدِيرٌ لجسمي بانهدامِ بنائه  
إذا ابيضَّ مخضراً النباتِ فإنه دليلٌ على استحصادِه وفنائه

٢٠١ - واعتل ابن ذي الوزارتين أبي عامر ابن الفرج<sup>٢</sup> وزير المأمون بن  
ذي النون ، وهو من رجال الذخيرة والقلائد<sup>٣</sup> ، فوصف له أن يتداوى بالحمز  
العتيق ، وبلغه أن عند بعض الغلمان منها شيئاً ، فكتب إليه يستهديه<sup>٤</sup> :

ابعثْ بها مثلَ ودِّكْ أرقَّ مِن ماءِ خدِّكْ  
شقيقة النفسِ ، فانضح بها جَوَى ابني وعبدكْ

وهو القائل معذراً عن تخلّفه عمّن جاءه منذراً<sup>٥</sup> :

١ المطرب : ٨٠ .  
٢ ترجم له صاحب المطمح : ١٥ وانظر الذخيرة (القسم الثالث) والمغرب ٢ : ٣٠٣ والحلة  
٢ : ١٧١ .  
٣ كذا قال ابن سعيد أيضاً ولكن ليست لابن الفرج ترجمة في القلائد المطبوع ، وإنما ترجمته في المطمح .  
٤ البيتان في المطمح والحلة .  
٥ انظر المصدرين السابقين .



ما تَخَلَّفْتُ عَنْكَ إِلَّا لَعْدِرٍ      ودليلي في ذاك خوفي عليك  
هَبِكْ أَنْ الْفِرَارَ مِنْ غَيْرِ عَدِرٍ      أتراهُ يَكُونُ إِلَّا إِلَيْكَ؟

وله من رسالة هتاء :

أَهْنِءْ بِالْعِيدِ مَنْ وَجَّهَهُ      هو العيدُ لو لاح لي طالعا  
وَأَدْعُو إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ      بشملي يكونُ لنا جامعا

وكتب إلى الوزير المصري<sup>١</sup> يستدعيه أن يكون من ندمائه ، فكتب إليه الوزيرُ  
المصري يستعلمه اليوم ، فلما أَرَادَهُ كَتَبَ إِلَيْهِ<sup>٢</sup> :

هَاقِدْ أَهَبْتُ بِكُمْ وَكُلُّكُمْ هَوَى      وَأَحَقُّكُمْ بِالشُّكْرِ مِنِّي السَّابِقُ  
كَالشَّمْسِ أَنْتَ وَقَدْ أَظْلَمَ طُلُوعُهَا      فَاطْلَعُ وَبَيْنَ يَدَيْكَ فَجْرٌ صَادِقُ

وله في رئيس مُرْسِيَةِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ طَاهِرٍ ، وَكَانَ مَتَمِّعَ الْمَجَالِسَةِ كَثِيرُ  
النَّادِرَةِ :

قَدْ رَأَيْنَا مِنْكَ الَّذِي قَدْ سَمِعْنَا      فَعِنْدَا الْخُبْرُ عَاضِدَ الْأَخْبَارِ  
قَدْ وَرَدْنَا لَدَيْكَ بِجَرَأِ نَمِيرٍ      وَارْتَقَيْنَا حَيْثُ النُّجُومُ الدَّرَارِي  
وَلَكُمْ مَجْلِسٌ لَدَيْكَ أَنْصَرَفْنَا      عَنْهُ مِثْلَ الصَّبَا عَنِ الْأَزْهَارِ

٢٠٢ - وَشَرِبَ الْأَدِيبُ الْفَاضِلُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ حَرِيقٍ<sup>٣</sup> عَشِيَّةً مَعَ  
مَنْ يَهْوَاهُ ، وَرَامَ الْإِنْفِصَالَ عَنْهُ لِدَارِهِ ، فَمَنَعَهُ سَيْلٌ<sup>٤</sup> حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دَارِهِ ،  
فَبَاتَ عَنْدَهُ عَلَى غَيْرِ اخْتِيَارِهِ ، فَقَالَ ابْنُ حَرِيقٍ<sup>٤</sup> :

١ هو أبو محمد المصري : (أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبي) .

٢ الشعر في الحلة والمطمح .

٣ ترجمته في المغرب ٢ : ٣١٨ وزاد المسافر : ٢٣ والتكملة : ٦٢٩ والفوات ٢ : ٧٠ .

٤ هذه القطعة واللذان تليانها في المغرب : ٣١٩ ، ٣١٨ .

يا ليلةً جادت الليالي  
 للسيل فيها عليّ نَعْمَى  
 أبات في منزلي حبيبي  
 فبت لا حالة كحالي  
 يا ليلة القدر في الليالي  
 لأنت خير من ألف شهر  
 بها على رغم أنف دهري  
 يقصرُ عنها لسان شكري  
 وقام في أهله بعذر  
 ضجيع بدرٍ صريع سكر

ومن حسنات ابن حريق المذكور قوله :

يا ويح من بالمغرب الأقصى ثوى  
 لولا الحذارُ على الورى للمأت ما  
 وسكبت دمعي ثم قلت لسكبه  
 لكن خشيت عقاب ربي إن أنا  
 حلف النوى وحبيبه بالمشرق  
 بيني وبينك من زفير محرق  
 من لم يذب من زفرة فليغرق  
 أحرقت أو أغرقت من لم أخلق

وله :

لم يبق عندي للصبا لذة  
 إلا الأحاديث على الخمر

وله :

فقبَّلتُ إثرك فوق الثرى  
 وعانقتُ ذكرك في مضجعي

وله ١ :

إن ماءً كان في وجنتها  
 وذوى العناب من أعملها  
 وردته السن حتى نشفا  
 فأعادته الليالي حشفا

وأورد له أبو بحر في « زاد المسافر » قوله :

١ زاد المسافر ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ( ثلاث قطع ) .

كَلَمْتُهُ فاحمرَّ من خجلٍ  
وسألتهُ تقييلَ راحتِهِ  
حتى زفيري عاقَ عن أملي  
حتى اكنسى بالعسجد الورقُ  
فأبى وقال أخافُ أحترقُ  
إنَّ الشَّقِيَّ بِرِيقِهِ شَرِقُ

وقوله في السواقي :

وكأنما سكن الأراقمُ جوفها  
فإذا رأينا الماءَ يطفحُ نفضتُ  
من عهد نوحٍ مدَّةَ الطوفانِ  
من كل خرقٍ حيَّةٌ بلسانِ

٢٠٣ - وقال الفيلسوف أبو جعفر ابن الذهبي فيمن جمع بينه وبين أحد

الفضلاء<sup>١</sup> :

أيها الفاضلُ الذي قد هداني  
شكر الله ما أتيتَ وجزا  
أيُّ برقٍ أفادَ أيَّ غمامٍ  
وإذا ما النسيمُ كان دليلي  
نحوَ من قد حمدتهُ باختبارِ  
ك ولا زلتَ نجمَ هَدْيي لساري  
وصباحٍ أدَّى لضوءِ نهارِ  
لم يُحِلِّيْني إلاَّ على الأزهارِ

٢٠٤ - وأنشد أبو عبد الله محمد بن عبادة الوشاح المعتصم بن صمادح

شعراً يقول فيه :

ولو لم أكن عبداً لآلِ صمادحٍ  
لما كان لي إلا إليهمُ ترحُّلُ  
وفي أرضهم أصلي وعيشتي وموئدي  
وفي ظلِّهم أُمسي وأضحى وأغتدي

فارتاح ، وقال : يا ابن عبادة ، ما أنصفناك بل أنت الحر لا العبد ، فاشرح  
لنا في أملك ، فقال : أنا عبدكم كما قال ابن نُباتة :

لم يُبْقِ جودكَ لي شيئاً أومله  
تركتني أصحابُ الدنيا بلا أملِ

١ مرت الأبيات ص : ٢٠٧ .

فالتفت إلى ابنه الواثق يحيى وليَّ عهده وقال : إذا اصطنعت الرجال فمثل هذا فاصطنع ، ضمه إليك وافعل معه ما تقتضيه وصيتي به ، ونبهني إليه كل وقت ، فأقام نديماً لوليِّ العهد المذكور .  
وله فيهما الموشحات المشهورة ، كقوله ١ :

كم في قدود البان° تحتَ اللمم° من° أقمري° عوَاطِي  
بأَعْلٍ وبَسَان° مثلِ العَنَم° لَم تَنْبِري° للعَاطِي

٢٠٥ - ولما بلغ المعتصم أن خلف بن فرج السميسر هجاه احتال في طلبه حتى حصل في قبضته ، ثم قال له : أنشدني ما قلت فيَّ ، فقال له : وحقَّ مَنْ حَصَلَنِي في يدك ما قلت شرّاً فيك ، وإنما قلت :

رأيتُ آدم في نومي فقلتُ له : أبا البرية إنَّ الناسَ قد حكموا  
أن البرابر نسلُ منكَ ، قال : إذن حواءُ طالقةٌ إن كان ما زعموا

فنذر ابن بلقين صاحب غرناطة دمي ، فخرجت هارباً إلى بلادك فوضع عليَّ مَنْ أشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت فيدرك ثأره بك ، ويكون الإثم عليك ، فقال : وما قلت فيه خاصّة مضافاً إلى ما قلته في عامة قومه ؟ فقال : لما رأيتُه مشغولاً بتشديد قلعتي التي يتحصن فيها بغرناطة قلت :

بيني على نفسه سفاهاً كأنه دودةُ الحريرِ

فقال له المعتصم : لقد أحسنت في الإساءة إليه ، فاختر : هل أحسن إليك وأخلي سبيلك أم أجيرك منه ؟ فارتجل :

خَيَّرني المعتصمُ وهو بقصدي أعلمُ

١ انظر هذه الموشحة في دار الطراز : ٦٠ .

وَهُوَ إِذَا يَجْمَعُ لِي أَمْنًا وَمِنَّا أَكْرَمُ

فقال : خاطرك خاطر شيطان ، ولك المن والأمان ، فأقام في إحسانه بأوطانه ، حتى خلع عن ملكه وسلطانه .

٢٠٦ - ولما أنشده عمر بن الشهيد قصيدته التي يقول فيها<sup>١</sup> :

سَبَطُ البَتَانِ كَأَنَّ كُلَّ غِمَامَةٍ      قَدْ رُكِبَتْ فِي رَاحَتِيهِ أَنَامِلًا  
لَا عَيْشَ إِلَّا حَيْثُ كُنْتُ ، وَإِنَّمَا      تَمْضِي لِيَالِي العَمْرِ بِعَدِكَ بَاطِلًا

التفت إلى من حضر من الشعراء وقال : هل فيكم من يحسن أن يجلب القلوب بمثل هذا ؟ فقال أبو جعفر ابن<sup>٢</sup> الخراز البطرني<sup>٣</sup> : نعم ، ولكن للسعادة هبات ، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتاً أقول فيها<sup>٤</sup> :

وَمَا زِلْتُ أَجْنِي مِنْكَ وَالدهرُ مُنْحَلٌّ      وَلَا ثَمْرٌ يُجْنِي وَلَا الزرعُ يُحْصَدُ  
ثَمَارَ أَيَادٍ دَانِيَاتٍ قَطُوفُهَا      لِأَغْصَانِهَا ظِلٌّ عَلَيَّ مُمَدَّدُ  
يُرَى جَارِيًا مَاءَ المَكَارِمِ تَحْتَهَا      وَأَطْيَارُ شُكْرِي فَوْقَهُنَّ تَغْرُدُ

فارتاح المعتصم ، وقال : أنت أنشدتني هذا ؟ قال : نعم ، قال : والله كأنها ما مرت بسمعي إلى الآن ، صدقت ، للسعد هبات ، ونحن نجيزك عليها بجاترتين : الأولى لها والثانية لمَطل راجيها وغمط إحسانها ، انتهى .

١ الذخيرة ٢/١ : ١٩٥ .

٢ ابن : سقطت من م ب .

٣ هو أبو جعفر أحمد بن الخراز (الجزار في المغرب) البطرني (نسبة إلى بطرنة من قرى بلنسية) وهو الذي أثار ابن غرسية إلى كتابة رسالته في الشعوبية وعارضه أبو جعفر برسالة تناظرها (المغرب

٢ : ٣٥٥ والحاشية) .

٤ الأبيات في المغرب ٢ : ٣٥٦ .

٢٠٧ - وقال بعض ذرية<sup>١</sup> ملوك إشبيلية :

نُثِرَ الوردُ بالخليج وقد درَّ جَهْ بالهبوب مرَّ الرياحُ  
مثل درع الكميّ مزقها الطع نُ فسالت بها دماء الجراح

٢٠٨ - وقال ابن صارة في النارج<sup>٢</sup> :

كُرَّاتٌ عقيق في غصون زبرجد بكفّ نسيم الريح منها صوالجُ  
تقبلها طوراً وطوراً نشمتها فهنّ خدودٌ بيننا ونوافجُ

### [ أشعار لابن الزقاق ]

٢٠٩ - وقال أبو الحسن ابن الزقاق ابن أخت ابن خفاجة<sup>٣</sup> :

وما شقَّ وجنته عابثاً ولكنّها آيةٌ للبشرِ  
جلاها لنا الله كيما نرى بها كيف كان انشاق القمرِ

وقال :

ضربوا ببطن الوادين قبابهمُ بين الصوارم والقنا الميَّادِ  
والورقُ تهتفُ حولهم طرباً بهم فبكلّ محنية ترثمُ شادي  
يا بانهَ الوادي كفى حزناً بنا أن لا نظارح غير بانه وادي

وقال :

نحن في مجلسٍ به كمل الأذس ولو زُرُتْنا لزاد كمالا

١ ذرية : سقطت من م . والبيتان لابن الزقاق (ديوانه : ١٣١) .

٢ من أبيات في الذخيرة (٢ : ٣٢٥) .

٣ انظر هذه القطع في ديوان ابن الزقاق : ١٧٩ ، ١٤٤ ، والقطع الثلاث الأخيرة لم ترد في ديوانه ؛

والقطعة الأولى مرت في النسخ ص : ٢٩٠ .

طلعت فيه من كؤوس الحميا  
غير أن النجوم دون هلال  
ومن الزهر أنجم تتللا  
فلتكن منعماً لهن الهللا  
وقال :

وهويتها سمراء غنت واننت  
تشلو ووسواس الحلي يجيبها  
فنظرت من ورقاء في أملودها  
مهما اننت في وشيها وعقودها  
أوليس من بدع الزمان حمامة  
غنت فغنى طوقها في جيدها  
وقال :

لئن بكيت دماً والعزم من شيمي  
على الحليط فقد يبكي الحسام دما

[ أشعار للحجام ]

٢١٠ - وقال أبو تمام غالب بن رباح الحجام<sup>١</sup> في دولاب طار منه لوح  
فوقف<sup>٢</sup> :

وذات شدو وما لها حلْمٌ كل فتى بالضمير حيّاها  
وطار لوح بها فأوقفها كلمحة العين ثم أجراها

وكان المذكور ربّي في قلعة رباح غربي طليطلة ، ولا يعلم له أب ،  
وتعلم الحجامة فأتقنها ، ثم تعلق بالأدب حتى صار آية ، وهو القائل في ثريّا  
الجامع<sup>٣</sup> :

تحكي الثريّا الثريّا في تألقها وقد عراها نسيمٌ فهي تتقد

١ ترجمة أبي تمام غالب الحجام في الذخيرة (٣ : ٢٥٦) والمغرب ٢ : ٤٠ والمسالك ١١ : ٤٥١ .

٢ الذخيرة : ٢٦١ .

٣ المصدر نفسه : ٢٦٠ .

كأنها لذوي الإيمان أفئدة<sup>١</sup> من التخشع جوف الليل ترتعد<sup>٢</sup>

وقال :

زرت الحبيب ولا شيء أحاذره  
في ليلة خيلت من حُسن كواكبها

وقال في الثريا أيضاً :

انظر إلى سُرج في الليل مشرقة  
كأنها ألسن الحيات قد برزت

وقال<sup>١</sup> :

ترى النسر والقتلى على عدَد الحصى  
مُصَرَّجةً مما أكلن كأنها

وقال ، وقد أبدع غاية الإبداع ، وأتى بما يحير الألباب ، وإن كان أبو نواس فاتح هذا الباب :

وكأس ترى كسرى بها في قرارة  
وما صورته فارس عبثاً به  
أشاروا بما كانوا له في حياته

وما أحلى قوله<sup>٢</sup> :

الأقحوان رُمى عليك ظلامه<sup>١</sup> لما عَنَفْتِ عَلَيْهِ بالمسواك

١ المصدر نفسه : ٢٦١ .

٢ الذخيرة : ٢٦٢ .



لا يحمل النور الأنيقُ تمسُّه  
وجلاؤه المخلوقُ فيه قد كفى  
كفُّ بعودِ بشامةٍ وأراكِ  
من أن يرَاعَ عرارهُ بسواكِ  
وقوله ١ :

صغارُ الناسِ أكثرهم فساداً  
ألم ترَ في سباعِ الطيرِ سِراً  
وليس لهم لصاحبةٌ نهوضُ  
تسالمتنا ، وبأكلتنا البعوضُ  
وقد بلغ غاية الإحسان في قوله ٢ :

فما للملكِ ليس يرى مكاني  
كذا المسواكُ مطرَحاً مهاناً  
وقد كحلت لواحظهُ بنوري  
وقد أبقى جِلاءً في الثغورِ  
ومن حسناته قوله ٣ :

لي صاحبٌ لا كان من صاحبٍ  
يحكي إذا أبصر لي زلَّةً  
فإنه في كبدي جرَّحةٌ  
ذبايةٌ تضربُ في قرَّحةٍ

ولقيه أبو حاتم الحجاري على فرس في غاية الضعف والردالة قد أهلكتها  
الوجى ، وكانا في جماعتين ، فقال له : يا أبا تمام ، أنشدني قولك :

وتحتي ريحٌ تسبقُ الريحَ إن جرت  
لها في المدى سبقٌ إلى كلِّ غايةٍ  
وما خلَّتُ أن الريحَ ذاتُ قوائمِ  
فيا عجباً حتى العُلا في البهائمِ  
وهمةٌ نفسِي نَزَّهَتْها عن الوجى

فلما أنشده إياها ردَّ رأسه أبو حاتم إلى الجماعتين وقال : ناشدتكُم الله

١ المغرب ٢ : ٤٠ . والذخيرة : ٢٦٣ .

٢ المغرب : ٤١ .

٣ الذخيرة : ٢٦٤ .

أيجوز لحجّام على فرس مثل هذه الرمكة الهزيلة العرجاء ، أن يقول مثل هذا ؟  
فضحك جميعٌ من حَضَرَ ، وأقبل أبو تمام في غيظه بسبّه .

ومن شعر الحجّام المذكور قوله :

لا يفخر السيفُ والأقلامُ في يده      قد صار قطع سيوفِ الهندِ للقَصَبِ  
فإن يكنْ أصلها لم يتقوَ قُوَّتُها      « فإنَّ في الحمرِ معنَى ليس في العنبِ »

وقال :

ثقلتُ على الأعداءِ إلّا أنّها      خفّتْ على السبّابِ والإبّهامِ  
أخذتُ من الليلِ البهيمِ سوادهُ      وبدتْ تنمقُ أوجهَ الأيامِ

وقال ١ :

نظر الحسودُ فازدرى لي هَيْثَةً      والفضلُ منّي لا يزال مبيناً  
قَبَحَتْ صفاتي من تغيرِ ودّه      صدأُ المِرآةِ يقبَحُ التحسینا

وقال ٢ :

تَصَبَّرْ وإن أبدى العدوُّ مدمّةً      فمهما رمى ترجعْ إليه سهامهُ  
كما يفعل النحلُ الملمُّ بلسعه      يريد به ضراً وفيه حمَامهُ

وقال :

وباردِ الشعرِ لم يؤلم بهِ ولقد      أضرَّ منهُ جميعَ الناسِ واعتزلا  
كأنهُ الصلُّ لا تؤذيه ريقتهُ      حتّى إذا مجَّها في غيرهِ قتلا

١ الذخيرة : ٢٦٣ .

٢ المصدر نفسه : ٢٦٣ .

٢١١ - وقال ابن الزقاق<sup>١</sup> :

دعاك خليل<sup>٢</sup> والأصيل<sup>٣</sup> كأنه  
إلى شطّ منساب كأنك ماؤه  
ومهوى جناح<sup>٤</sup> للصبأ<sup>٥</sup> يمسح<sup>٦</sup> الربى  
على حين راح البرق<sup>٧</sup> في الجوّ مغمداً  
وقد حان مني للرياض<sup>٨</sup> التفاتة<sup>٩</sup>  
على سطح<sup>١٠</sup> خيري<sup>١١</sup> ذكرتك<sup>١٢</sup> فأننى  
فصيل<sup>١٣</sup> زهرات<sup>١٤</sup> منه هذا كأنها  
عليل<sup>١٥</sup> يقضي<sup>١٦</sup> مدّة<sup>١٧</sup> الرّمق<sup>١٨</sup> الباقي  
صفاء<sup>١٩</sup> ضمير<sup>٢٠</sup> أو عدو<sup>٢١</sup>بة<sup>٢٢</sup> أخلاق<sup>٢٣</sup>  
خفي<sup>٢٤</sup> الخوافي<sup>٢٥</sup> والقوادم<sup>٢٦</sup> خفّاق<sup>٢٧</sup>  
ظباه<sup>٢٨</sup> ودمع<sup>٢٩</sup> المزن<sup>٣٠</sup> من جفنه<sup>٣١</sup> راق<sup>٣٢</sup>  
حبست<sup>٣٣</sup> بها كأس<sup>٣٤</sup> قليلاً<sup>٣٥</sup> عن الساق<sup>٣٦</sup>  
يميل<sup>٣٧</sup> بأعناق<sup>٣٨</sup> ويرنو<sup>٣٩</sup> بأحداق<sup>٤٠</sup>  
وقد خضلت<sup>٤١</sup> قطراً<sup>٤٢</sup> محاجر<sup>٤٣</sup> عشاق<sup>٤٤</sup>

٢١٢ - ولما مدح الحسين أبو [محمد] القاسم بن مسعدة<sup>٢</sup> الأوسي<sup>٣</sup> أمير المؤمنين عبد المؤمن بقوله :

حنانك مدعو<sup>١</sup>اً ولبيك<sup>٢</sup> داعياً  
طلعت<sup>٣</sup> على أرجائنا<sup>٤</sup> بعد فترة<sup>٥</sup>  
وقد كثرت<sup>٦</sup> منّا سيوف<sup>٧</sup> لدى العلاء<sup>٨</sup>  
وغيرك ناديتنا<sup>٩</sup> زماناً فلم<sup>١٠</sup> يجب<sup>١١</sup>  
فكل<sup>١٢</sup> بما ترضاه<sup>١٣</sup> أصبح<sup>١٤</sup> راضياً  
وقد بلغت<sup>١٥</sup> منّا النفوس<sup>١٦</sup> التراقيا<sup>١٧</sup>  
ومن سيفك<sup>١٨</sup> المنصور<sup>١٩</sup> نبغي<sup>٢٠</sup> التقاضيا<sup>٢١</sup>  
وعزمك<sup>٢٢</sup> لم<sup>٢٣</sup> يحتاج<sup>٢٤</sup> علاه<sup>٢٥</sup> مناديا<sup>٢٦</sup>

كتب اسمه وزير عبد المؤمن في جملة الشعراء ، فلما وقف على ذلك عبد المؤمن ضرب على اسمه وقال : إنّما يكتب اسم هذا في جملة الحساب ، لا تدنّسوه بهذه النسبة ، فلسنا ممن يتقاضى على غمط حسبه ، ثم أجزل صيلته ، وأمر له بضبعة<sup>١</sup> يحرث<sup>٢</sup> له بها ، يعني بذلك أنّه من ذرية ملوك ، لأن جدّه كان ملك وادي الحجارة .

١ ديوانه : ٢٨٦ ( عن النفع ) .

٢ ب : سعدة .

٣ م : الأونسي ؛ وانظر ترجمته في المغرب ٢ : ٢٦ وسماه في المغرب « أبو محمد القاسم » ولذلك صوبناه في النفع ؛ والمغرب : ٢١٦ وبنية الوعاة : ٣٧٧ ؛ وأبياته هذه في المغرب .

٢١٣ - وقال أبو بكر محمد بن أزرق<sup>١</sup> :

هل عليم الطائرُ في أبنكهِ      بأنّ قلبي للحمي طائرُ  
ذكَرني عهدَ الصبا شَجْوَهُ      وكلُّ صَبٍّ للصبا ذاكر  
سقى عهداً لهم بالحمي      دمعٌ له ذكرهم نائر

٢١٤ - وقال أبو جعفر ابن أزرق<sup>٢</sup> :

أراك ملكت الخافقين مهابةً      بها ما تلحُّ الشهب بالخفقانِ  
وتغضي العيون عن سناك كأنها      تقابل منك الشمس في اللمعانِ  
وتصفرُّ ألوانُ العداة كأنما      رُموا منك طول الدهر باليرقانِ

٢١٥ - وقال أبو القاسم ابن أزرق :

ذاك الزمانُ الذي تقضى      يا لَيْتَهُ عادَ منه حينُ  
بكلِّ عمري الذي تبقى      وما أنا في الشرا غيبينُ

٢١٦ - وقال راشد بن عريف الكاتب<sup>٣</sup> :

جمّع في مجلسٍ ندامي      تحسدني فيهمُ النجومُ  
فقال لي منهم نديمٌ :      ما لك إذ قمتُ لا تقومُ  
فقلت : إن قمتُ كلَّ حين      فإن حظي بكم عظيمُ  
وليس عندي إذن ندامي      بل عندي المقعدُ المقيمُ

١ ترجمته وشعره في المغرب ٢ : ٢٨ ويكتب فيه « أزراق » .

٢ ترجمته وشعره في المغرب ٢ : ٢٩ .

٣ ترجمته وشعره في المغرب ٢ : ٣٢ .

٤ المغرب : خليل .

٢١٧ - وقال الحسيب أبو جعفر ابن عائش<sup>١</sup> :

ولي أخٌ أوردُهُ سلسلاً      لكنّه يُوردني مالها  
ألقاه كي أبسطه ضاحكاً      ويلتقيني أبداً كالحا  
وليس ينفكّ عنائي به      ما رُمْتُ من فاسده صالحا

قال الحجاري : وكتب إلى جدي إبراهيم في يوم صحو بعد مطر :

إذا رأيتَ الجوّ يَصْحو فلا      تصحُ ، سقاك الله ، من سكرِ  
تعالَ فانظرَ لدموعِ الندى      ما فعلتَ في ميسمِ الزهرِ  
ولا تقلْ إنك في شاغلٍ      فليس هذا آخرَ الدهرِ  
يُخلفُ ما فات سوى ساعةٍ      تقصُ فيها لذةَ الحمرِ

فأجابه :

لبّيك لبّيك ولو أتني      أسعى على الرأس إلى مصرِ  
فكيفَ والدار جوارِي وما      عندي من شغلٍ ولا عذرِ  
ولو غدا لي ألفُ شغلٍ بلا      عذرٍ تركتُ الكلَّ للحشرِ  
وكلّما أبصرني ناظرٌ      ببابكم عَظَمَ من قلدي  
أنا الذي يشربها دائماً      ما حضرتُ في الصّحو والقطرِ  
وليس نقلي أبداً بعدها      إلا الذي تعهد من شكري

قال الحجاري : ولم يقصّر جدي في جوابه ، ولكن ابن عائش أشعر منه في ابتدائه ، ولو لم يكن له إلا قوله « تعال فانظر - إلخ » لكفاه ، قال : وفيه يقول جدي إبراهيم يملحه :

١ هو أحمد بن عائش أحد أعيان وادي الحجارة ، وكان في زمان المأمون بن ذي النون ملك طليطلة (المغرب ٢ : ٢٧) .

ولو كان ثانٍ في الندى لابن عائشٍ  
 يَهَشُّ إلى الأمداح كالغصنِ للصَّبَا  
 لما كان في شرقٍ وغربٍ أخو فقيرٍ  
 وبشرٌ يحياه ينوبُ عن الزهرِ  
 حياءُ أناسٍ قد كفوا كلفة الدهرِ  
 فياربِّ زدْ في عمره إنَّ عمره

وقتلَه ابن مسعدة ملك وادي الحجارة الثائر بها ، ولما قدَّمه ليقته قال : ارفق  
 علي حتى أخاصم عن نفسي ، فقال : على لسانك قتلناك ، فقال له : لا رَفَقَ اللهُ  
 عليك يوم تحتاج إلى رِفَقِهِ ! فقال بجبروته : مارهبنا السيوف الحداد ، نرهب  
 دعاء الحَسَّاد !

٢١٨ - وقال أبو [ علي ] الحسن [ بن ] علي بن شعيب<sup>١</sup> :

انزعي الوشيَّ فهو يسترُ حُسْنًا لم تحزه برقمهنَّ الثيابُ  
 ودعيني عسى أقبِلُ<sup>٢</sup> نغراً لَدَّ فيه اللَّمَى وطاب الرُّضابُ  
 وعجيبٌ أن تهجرينيَ ظلماً وشفيعي إلى صباك الشبابُ

٢١٩ - وقال أخوه أبو حامد الحسين حين كبا به فرسه فحصل في أسر

العدو<sup>٣</sup> :

وكنْتُ أعدتُ طيرَني للرزايا يخلّصني إذا جعلتُ تحوُمُ  
 فأصبح للعدا عوناً لأتني أطلتُ عناءه فأنا الظلومُ  
 وكم دامت مَسْرَاتي عليه وهل شيءٌ على الدنيا يدومُ؟

٢٢٠ - وقال أبو الحسن علي بن رجاء صاحب دار السكة والأحباس

بقرطبة :

١ المغرب ٢ : ٢٧ .

٢ المغرب : أتركيني حتى أقبِل .

٣ المغرب ٢ : ٢٨ .

يا سائلي عن حالي إنتي لا أشتكى حالي لمن يضعفُ  
معَ أني أحذرُ من نقده لا سيما إن كان لا يُنصِفُ  
وأشده له الحميدي في « الجذوة » ١ :

قل لمن نال عِرْضَ من لم ينله حَسْبُنَا ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ  
لم يزدني شيئاً سوى حَسَنَاتٍ لا ولا نَفْسَهُ سِوَى آثَامِ  
كان ذا مَنَعَةٍ فَتَقَلَّ مِيزَا نِي بِهَذَا فَصَارَ مِنْ خُدَّامِي  
٢٢١ - وقال أبو محمد القاسم بن الفتح ٢ :

أَيَّامُ عَمْرِكَ تَذْهَبُ وَجَمِيعُ سَعِيكَ يُكْتَنَبُ  
ثُمَّ الشَّهِيدُ عَلَيْكَ مِنْ كَيْ فَأَيْنَ أَيْنَ الْمَهْرَبُ ؟

٢٢٢ - وقال أبو مروان عبد الملك بن غصن ٣ :

فديتك لا تخف مني سلووا إذا ما غير الشعر الصغارا  
أهيمُ بدنَ خمرٍ صارَ خِلاَّ وأهوى لحيَّةً كانت عذارا  
وقال ٤ :

قد ألحف الغيمُ بانسكابه والتحف الجوُّ في سحابه  
وقام داعي السرورِ يدعو حيَّ على الدنِّ وانتهابه  
وتاه فيه التنديمُ ممَّا يزدحمُ الناسُ عندَ بابه

وكان أحد الأعلام في الآداب والتاريخ والتأليف .

١ الجذوة : ٢٩٥ .

٢ م : أبو القاسم محمد بن الفتح .

٣ الذخيرة ( ٣ : ١١٣ ، ١١٥ ) والمغرب ٢ : ٣٣ .

٤ الذخيرة : ١١٤ .

ونقم عليه المأمون بن ذي النون بسبب صحبته لرئيس بلده ابن عبيدة ،  
وبلغه أنه يقع فيه ، فنكبه أشراً نكبة ، وحبسه ، فكتب إليه من السجن :

فديتكَ هل لي منك رُحْمى لعلِّي أفارق قبراً في الحياة فأنشُرُ  
وليس عقابُ المذنبين بمنكرٍ ولكن دَوامُ السخطِ والعتبِ يُنكرُ  
ومن عَجَبِ قولِ العُداةِ مثقلٌ ومثليَ في إلحاحه الدهرَ يُعذرُ

وألف للمأمون رسالة « السجن والمسجون والحزن والمحزون » ورسالة  
أخرى سماها بـ « العشر كلمات » ، وقال <sup>١</sup> :

يا فتيةً خيرةً فدَتَهُمْ من حادثات الزمانِ نفسي  
شربهمُ الخمرَ في بُكورٍ ونطقهم عندها بهمسٍ  
أما ترون الشتاء يُلقى في الأرضِ بسطاً من الدمقسِ  
مقطبٌ عابسٌ يُنادي يومُ سرورٍ ويومُ أنسٍ

وقال عنه الحميدي في الجذوة <sup>٢</sup> : إنه شاعرٌ أديب ، دخلَ المشرق ،  
وتأدب ، وحنج ، ورجع ، وشعره كثير . وله أبيات كتبها في طريق الحج إلى  
أحد القضاة :

يا قاضياً عدلاً كأنَّ إمامه ملكٌ يُريه واضحَ المنهاجِ  
طافت بعبدك في بلادك علّةٌ قعدت به عن مقصِدِ الحجاجِ  
واعتلَّ في البحر الأجاجِ فكن لهُ بجرأً من المعروفِ غيرَ أجاجِ

٢٢٣ - وقال الزاهد الورع المحدث أبو محمد إسماعيل ابن الديواني :

١ الذخيرة : ١١٥ .

٢ الجذوة : ٣٧٨ وهناك الأبيات أيضاً .



ألا أيها العائب<sup>١</sup> المعتدي ومن لم يزل مؤذياً ازدد  
مساعدك يكتبها الكاتبون فبيّض<sup>٢</sup> كتابك أو سود

٢٢٤ - وقال ابنه أبو بكر محمد :

خاصم<sup>٣</sup> عدوك باللسان وإن قدرت فبالسنان  
إن<sup>٤</sup> العداوة ليس يضر<sup>٥</sup> لحها الخضوع مدى الزمان

٢٢٥ - وقال إبراهيم الحجاري جدّ صاحب « المسهب »<sup>٦</sup> :

لئن كرهوا يومَ الوداع فإنتي أهيّم<sup>٧</sup> به وجداً من أجل عناقهِ  
أصافح<sup>٨</sup> من أهواه غير مساتر<sup>٩</sup> وسرّ التلاقي مودع<sup>١٠</sup> في فراقهِ

وقال :

كن كما شئت إنني لا أحول<sup>١١</sup> غير مصغ<sup>١٢</sup> لما يقول العذول<sup>١٣</sup>  
لك والله في الفؤاد محل<sup>١٤</sup> ما إليه مدى الزمان ووصول<sup>١٥</sup>  
ومرادي بأن ترور<sup>١٦</sup> خفيّاً ليت شعري متى يكون السبيل<sup>١٧</sup>

وقال :

قد توات في حالتينا الظنون<sup>١٨</sup> فلنصدق ما كذبتهُ العيون<sup>١٩</sup>  
ومرادي بأن تلوح<sup>٢٠</sup> بأفقي أنا قد قلت ما دعاني إليه  
وإذا شئت أن تُسفه رأيي فمحلتي من الرقيب مَصُون<sup>٢١</sup>  
وبه ما تشاء من كل معنى كل<sup>٢٢</sup> من لم يجب له<sup>٢٣</sup> مجنون<sup>٢٤</sup>

١ م : الظالم .

٢ المغرب ٢ : ٣٣ - ٣٤ وفيه البيتان .

وإلى كم تفضل ليل الأمانى ومن اليأس لاح صبح ميين

وقال :

سألتُهُ عن أبيهِ فقَالَ خَالِي فلَانُ  
فَانظُر عَجَائِبَ مَا قَد أتت بِهِ الأزْمَانُ  
دَهْرٌ عَجِيبٌ لَدَيْهِ عَن المَعَالِي حِرَانُ<sup>١</sup>  
فَمَا لَهُ غَيْرُ ذِمَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ

٢٢٦ - وقال الكاتب العالم أبو محمد ابن خيرة الإشبيلي<sup>٢</sup> صاحب كتاب  
«الريحان والريمان» يمدح السيد أبا حفص ملك إشبيلية ابن أمير المؤمنين عبد  
المؤمن بن علي من قصيدة :

كأنما الأفق صرّح والنجومُ بهِ كواكبٌ وظلامُ الليل حاجبُهُ  
وللهلالِ اعتراضٌ في مطالعه كأنه أسودٌ قد شاب حاجبُهُ  
وأقبل الصبحُ فاستحيتُ مشارقُهُ وأدبر الليلُ فاستخفتُ كواكبهُ  
كالسيد الماجدِ الأعلى الهمامِ أبي حفصٍ لرحلته ضُمَّتْ مضاربهُ

وأشده له ابن الإمام في «سمط الجمان» :

رَعِيًا لِمَنْزِلِهِ الخَصِيبِ وظلّه وسقى الثرى النجديَّ سحُ رَبَابِهِ  
وَاهَا عَلَى ساداته لا أدعي كلفاً بزِينبه ولا برَبَابِهِ

ويعرف<sup>٣</sup> رحمه الله تعالى بابن المواعيني .

١ هذا البيت والذي يليه سقطا من م .  
٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٤٢ والتكملة : ٥١٥ ومن كتابه «الريحان والريمان» جزء موجود  
بمكتبة الفاتح باستانبول (رقم : ٣٩٠٩) .  
٣ قوله : ويعرف . . . وكفا : سقط هذا كله من م .

٢٢٧ - وقال ابنه أبو جعفر أحمد :

يا أخي هاتها وحبَّبْ سناها عن مُثِيرِهَا جنوناً وسخفا  
هذه الشمسُ إن بدت لضعيفِ الـ عين زادت في ذلك الضعيفِ ضعفا  
إنما يشربُ المدامةَ مَنْ إن خَشِنَتْ كَفُّهُ جَفَّهَا وكَفَّأ

٢٢٨ - وكتب الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حبيب الملقب بحبيب إلى  
أبيه<sup>١</sup> : لما خلقت الربيع من أخلاقك الغرّ ، وسرق زهره من شيمك الزهر ،  
حسن في كل عين منظره ، وطاب في كل سمع خبره<sup>٢</sup> ، وطاقت النفوس إلى  
الراحة فيه ، ومالت إلى الإشراف على بعض ما يَحْتَوِيهِ ، من النور الذي  
بُسط على الأرض<sup>٣</sup> حللاً ، لا ترى في أثنائها خللاً ، سلوكٌ نُثرت على  
الثرى ، وقد ملئت مسكاً وعنبراً ، إن تنسّمها فأرجة ، أو توسّمها فبهجة :

فالأرض في بزة من يانع الزهرِ تُزري إذا قستها بالوشي والخبرِ  
قد أحكمتها أكفُ المزنِ واكفّةً وطرزتها بما تهمني من الدرِ  
تبرّجت فسبت منّا العيونَ هوىً وفتنةً بعد طول السرِّ والخفْرِ

فأوجد لي سيلاً إلى إعمال بصري<sup>٥</sup> فيها ، لأجلو بصيرتي بمحاسن نواحيها ،  
والفصل على أن يكمل أوانه ، ويتصرّم وقتّه وزمانه ، فلا تُخليني من بعض  
التشفي منه ، لأصدر نفسي متيقظة عنه ، فالنفوسُ تصدأ كما يصدأ الحديد ،  
ومن سعى في جلائها<sup>٦</sup> فهو الرشيد السديد .

١ الذخيرة (٢ : ٤٨) وكتاب البديع : ٢٨ .

٢ ب : مخبره .

٣ البديع : كسا الأرض .

٤ ومالت . . . حلا : سقطت العبارة من م .

٥ ب : نظري .

٦ البديع : ومن أجها .

ومن شعره يصف وِرْدًا بعث به إلى أبيه ١ :

يا من تأزَّرَ بالمكارم وارتدى  
بالمجد والفضل الرفيع الفائق  
انظر إلى خدَّ الربيعِ مركباً  
في وجهِ هذا المهرجانِ الرائقِ  
وَرْدٌ تقدّم إذ تأخَّرَ واغتدى  
في الحسنِ والإحسانِ أولِ سابقِ  
وإفكٍ مشتملاً بثوبِ حياتهِ  
خجلاً لأن حياكٍ آخرَ لاحقِ

وله ٢ :

أتى الباقلاء الباقلُ اللونِ لابساً  
بُرودِ سماءٍ من سحائبها غُدّي  
ترى نوره يلتاحُ في ورقاته  
كبلقِ جياذٍ في جلالِ زمردِ

وقال ٣ :

إذا ما أدرت كؤوس الهوى  
ففي شربها لستُ بالمؤتلي  
مُدّامٌ تُعتقُ بالنّاظرين  
وتلك تعتقُ بالأرجلِ

وكان وهو ابن سبع عشرة سنة يتنظم النظم الفائق ، وينثر النثر الرائق ، وأبو جعفر ابن الأبار هو الذي صقل ميراثه ، وأقام قناته ، وأطلعته شهاباً ثاقباً ، وسلك به إلى فنون الآداب طريقاً لاجباً ، وله كتاب سماه بـ « البديع في فصل الربيع » جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة ، أعرب فيه عن أدب غزير ، وحظّ من الحفظِ موفور ، وتوفي وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، واستوزره داهيةُ الفتنة ، ورعى المحنة ، قاضي إشبيلية عبّاد جدُّ المعتمد ، ولم يزل يُصنعي إلى مقاله ، ويرضى بفعاله ، وهو ما جاوز العشرين إذ ذاك ،

١ الذخيرة : ٥٠ والبديع : ١٢٨ .

٢ م : وله في نور الباقلاء ؛ والشعر في كتاب البديع : ١٥٥ .

٣ الذخيرة : ٥٢ .

وأكثر نظمه ونثره في الأزاهر ، وذلك يدل على رقّة نفسه ، رحمه الله تعالى .

٢٢٩ - وقال الوزير الكاتب أبو الحسن علي بن حصن وزير المعتضد بن

عباد :

عليّ أن أتدلّس له وأن يتدلّس  
خدّ كأنّ الثريا عليه قرطٌ مسلسلٌ

وقال :

طلّ عليّ خدّه العذارُ فافتضح الآسُ والبهارُ  
وابيضّ هذا واسودّ هذا فاجتمع الليلُ والنهارُ

٢٣٠ - وقال الوزير أبو الوليد ابن طريف في المعتمد بعد خلعه :

يا آل عباد ألا عطفةٌ فالدهرُ من بعدكم مظلمٌ  
من الذي يُرجى لنيلِ العُلا ومن إليه يقدُ المعدم  
ما أنكر الدهر سوى أنّه بجودكم في فعله يرغم

وله :

مَنْ حَلِقَتْ لِحْيَهُ جَارٍ لَهُ فَلْيَسْكَبِ الْمَاءَ عَلَى لِحْيَتِهِ

٢٣١ - وقد أجزينا في هذا الكتاب ذكر جملة من أخبار المعتمد بن عباد

ونظمه في أماكن متعددة فلتراجع ؛ ومن نظمه ٢ :

ثلاثةٌ منعتّها عن زيارتنا خوف الرقيب وخوف الحاسدِ الحنقِ

١ النخيرة ٢ : ٦٣ ، ٦٦ .

٢ م : ومن نظم المعتمد ؛ والشعر في ديوانه : ٢٢ وفي الشريفي ١ : ٢٢٥ .

ضَوْءُ الْجَبِينِ، وَوَسْوَاسُ الْخَلِيٍّ، وَمَا  
هَبَّ الْجَبِينُ بِفَضْلِ الْكَمِّ تَسْتَرَهُ  
تَحْوِي مَعَاظِفُهَا مِنْ عَنَبِرٍ عَبِيقِ  
وَالْخَلِيَّ تَنْزَعُهُ، مَا حِيلَةُ الْعَرَقِ؟

وقال ١ :

يَوْمَ يَقُولُ الرَّسُولُ قَدْ أَذْنَتْ  
أَقْبَلْتُ أَهْوِي إِلَى رِحَالِهِمْ  
فَأْتِ عَلَيَّ غَيْرَ رِقْبَةٍ وَوَلِجِ  
أُهْدِي إِلَيْهَا بِرِيحِهَا الْأَرْجِ

قالوا : وَيُسْتَدَلُّ عَلَى الْمَلُوكِيَّةِ بِالطَّيْبِ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَكُونُ النَّاسُ فِيهَا غَيْرَ  
مَعْرُوفِينَ كَالْحِمَامِ وَمَعَارِكِ الْحَرْبِ وَمَوَاسِمِ الْحَجِّ .

رجع إلى ما كنا فيه ٢ :

٢٣٢ - وقال أبو العباس أحمد الخزرجي ٣ القرطبي :

وَفِي الْوَجَنَاتِ مَا فِي الرُّوضِ لَكِنْ  
وَأَعْجَبُ مَا التَّعَجُّبُ مِنْهُ أَتَى  
لِرَوْنِقِ زَهْرِهَا مَعْنَى عَجِيبُ  
أَرَى الْبِسْتَانَ يَحْمَلُهُ قَضِيبُ

٢٣٣ - وقال الوزير أبو [أيوب] سليمان بن أبي أمية ٤ يخاطب رئيساً

قد بلغه عن بعض أصحابه كلام فيه غَضٌّ منه :

هَوْنٌ عَلَيْكَ كَلَامَهُ  
وَأَسْمَحُ لَهُ فِيمَنْ سَمَحَ  
مَاذَا يَسُوءُكَ إِنْ هَجَا  
مَاذَا يَسْرُكُ إِنْ مَدَحَ  
أَوْ مَا عَلِمْتَ بَلَى جَهْلًا  
تَ بَأْتَهُ غِلٌّ طَفَحَ  
وَنُخْفِي حَقْدِي كَامِنٍ  
دَأْبُوا لَهُ حَتَّى اتَضَحَ

١ ديوان المتمدن : ١١٩ .

٢ رجع . . . فيه : سقطت من م .

٣ الخزرجي : سقطت من ب .

٤ ترجمته في المغرب ١ : ٢٤٣ والمطمح : ٢٨ والمسالك ١١ : ٤٢٤ .

هذا بمُسْتَنَ الوقا ر فكيفَ لو دار القدح  
فاشكُرْ عوارفَ ذي الجلا ل بما وقى وبما منح

٢٣٤ - وقال أبو علي عمر بن أبي خالد يخاطب أبا الحسن علي بن الفضل :

أباحسن وما قدمتَ عهدٌ لنا بينَ المنارة والجزيرة  
أتذكر أنسنا والليلُ داجٍ بخمرٍ في زجاجتها منيرة  
إذا الملاحُ ضلَّ رنا إليها فأبصرَ في مناحيه مسيره

٢٣٥ - وقال الكاتب عبد الله المهيريس<sup>١</sup> ، وكان حلو النادرة ، لما شرب

عند الوزير أبي العلاء ابن جامع وقد نظر إلى فاخنة فأعجبه حسنها ولحنها :

ألا خذها إليكَ أبا العلاء حلَى الأمداح ترفل في الثناء  
وهبها قينةً تُجلى عروساً خضيبَ الكف قانية الرداء  
لأجعلها محلَّ جليس أنسي وأغنى بالهديل عن الغناء

وحكي أنه ناوله ليمونة وأمره بالقول فيها فقال :

أهدى إليَّ بروضة ليمونة وأشار بالتشبيه فعلَ السيد  
فصمتُ حيناً ثم قلت : كجلجلٍ من فضةٍ تعلوهُ صفرةُ عسجدٍ

٢٣٦ - وقال الكاتب أبو بكر ابن البناء يرثي أحد بني عبد المؤمن ، وقد

عُزل من بِلْتَنَسِيَّة وولي لإشيلية فمات بها<sup>٢</sup> :

كأنتك من جنس الكواكبِ كنتَ لم تفارقَ طلوعاً حالها وتواريا

١ ساء في المغرب « عبد الله بن عمر الإشبيلي المهيريس وكنيته أبو محمد » ( ١ : ٢٤٨ ) وفي القدح :

أبو عبد الله محمد عمر المعروف بالمهيد ( ١٩٨ ) وشمره في المصدرين .

٢ القدح : ١١٩ والمغرب ١ : ٢٤٩ .

تَجَلَّيْتَ مِنْ شَرْقٍ تَرُوقُ تَلَأْلُؤًا فَلَمَّا انْتَحَيْتَ الْغَرْبَ أَصْبَحْتَ هَاوِيَا

٢٣٧ - وكان محمد بن مروان بن زُهْر - كما في المغرب والمسهب والمطرب ، وقد قدمنا بعض أخباره - منشأ الدولة العبّادية وأول من تُشْنَى عليه الخناصر ، وتستحسنه البواصر ، فضافت الدولة العبّادية عن مكانه ، وأُخرج عن بلده ، فاستُصْفيت أمواله ، فلحق بشرق الأندلس ، وأقام فيه بقية عمره ، ونشأ ابنه<sup>١</sup> الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد ، فما بلغ أشدّه ، حتى سَدَّ مَسَدَهُ ، ومال إلى التّفنن في أنواع التعاليم من الطب وغيره ، ورحل إلى المشرق لأداء الفرض ، فملاً البلاد جلاله ، ونشأ ابنه أبو العلاء زُهْر بن عبد الملك ، فاخترع فضلاً لم يكن في الحساب ، وشرع نبلاً قصرت عنه نتائج أولي الألباب ، ونشأ بشرق الأندلس والآفاق تتهادى عجائبه ، والشام والعراق تتدارس بدائعه وغرائبه ، ومال إلى علم الأبدان فلولا جلاله قدره ، لقلنا جاذب هاروت طرفاً من سحره ، ولولا أن الغلو آفة المديح ، لتجاوزتُ طلق الجموح ، ولكنتي اكتفيت بالكناية عن التصريح<sup>٢</sup> ، ولم يزل مقيماً بشرق الأندلس إلى أن كان من غزاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ومن انضم إليه من ملوك الطوائف ما علم ، وشخص أبو العلاء معهم ، فلقبه المعتمد بن عباد ، واستماله واستهواه ، وكاد يغلب على هواه ، وصرف عليه أملاكه فحنّ إلى وطنه ، حنين النّيب إلى عطّنه ، والكريم إلى سكنه ، ونزع إلى مقر سلفه ، نزوع الكوكب إلى بيت شرفه ، إلاّ أنّه لم يستقر بإشبيلية إلاّ بعد خلع المعتمد ، وحل عند يوسف بن تاشفين محلاً لم يحلّه الماء من العطشان ، ولا الروح من جسد الجبان ، ولما كتب إليه حسام الدولة ابن رزيّن ملك السهلة بقوله :

عَادِ اللَّيْمَ فَأَنْتَ مِنْ أَعْدَائِهِ وَدَعِ الْحَسُودَ بَغْلَهُ وَبَدَائِهِ

١ راجع الذخيرة (٢ : ٩١) وشعره مثبت هناك .

٢ أثبتنا هنا نص الذخيرة .



لا كان إلا من غَدَتْ أعداؤهُ مشغولةً أفواههم بجفائه  
أبا العلاء لئن حُسِدَتْ لطلما حُسِدَ الكَرِيمُ بجوده ووفائه  
فخَرَ العلاءُ فكنْتَ من آباهه وزها السناءُ فكنْتَ من أبنائه  
كن كيف شئتَ مشاهداً أو غائباً لا كان قلبٌ لستَ في سَوَدائه

أجابه بقوله :

يا صارماً حَسَمَ العدا بمضائه وتَعَبَدَ الأحرارَ حُسْنُ وِفائِهِ  
ما أثارَ العَضْبُ الحَسامُ بذاته إلا بأن سُمِّيَتْ من أسمائه  
وكلّفه الحسامُ المذكورَ القولَ في غلامٍ قائمٍ على رأسه ، وقد عذّر ،  
فقال <sup>١</sup> :

مُحِيَّتْ آيةُ النهارِ فأضحى بَدَرَ تَمِّمٍ وكان شمسَ نهارِ  
كان يُعْشِي العيونَ ناراً إلى أن أشغلَ اللهُ خدّه بالعِذارِ  
وقال :

عِذارُ أَلَمٍ فأبْدى لَنَا بدائعَ كُنّا لها في عمى  
ولو لم يحنَ النهارَ الظلا مٌ لم يَسْتَبِينِ كوكبٌ في السما  
وقال :

يا راشقي بسهامٍ ما لها غرضُ إلا الفؤاد وما منه له عوضُ  
ومُمرِّضي بجفونٍ لحظها غَنَجٌ صَحَّتْ وفي طبعها التمريضُ والمرضُ  
أمنٌ ولو بخيالٍ منك يؤنسي فقد يسدُّ مسدَّ الجواهرِ العَرَضُ  
وهذا معنى في غاية الحسن .

وكان بينه وبين الإمام أبي بكر ابن باجة - بسبب المشاركة - ما يكون

١ مرت القطعة والتي تليها ص : ٢٤٧ .

بين النار والماء ، والأرض والسماء ، ولما قال فيه ابن باجة :

يا مَلِكَ الموتِ وابنَ زهرٍ      جاوزتما الحدَّ والنهائِهَ  
ترفقا بالورى قليلاً      في واحد منكما الكفايهَ

قال أبو العلاء :

لا بد للزنديق أن يُصَلِّبَا      شاء الذي يَعْضُدُهُ أو أبى  
قد مهّد الجذعُ له نَفْسَهُ      وسَدَّدَ الرمحُ إليه الشبَا

والذي يعضده مالك بن وهيب جليس أمير المسلمين وعالمه .

٢٣٨ - وأما حفيده أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر فهو وزير  
إشبيلية وعظيمها وطبيبها وكريمها ، ومن شعره :

رَمَتْ كبدِي أختُ السماءِ فأقصدتُ      ألا بأبي رامٍ يصيبُ ولا يخطي  
قريبةُ ما بين الخلاخيل إن مَشَّتْ      بعيدةُ ما بين القلادة والقرطِ  
نعمتُ بها حتى أتيتُ لنا النوى      كذا شيمُ الأيامِ تأخذُ ما تعطي

وتوفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وأمر أن يُكْتَبَ على قبره :

تأملْ بفضلِكَ يا واقفاً      ولاحظْ مكاناً دُفَعْنَا إليه  
ترابُ الضريحِ على صفحتي      كأنِّي لم أمشِ يوماً عليه  
أداوي الأنامَ حِذارَ المنون      فها أنا قد صرتُ رهناً لديه

رحمه الله تعالى ، وعفا عنه .

وفي هذه الأبيات إشارة إلى طبّه ومعالجته للناس ، رحمه الله تعالى ، وقد  
ذكرنا بعض أخباره في غير هذا الموضع .

٢٣٩ - وقال أبو الوليد ابن حزم<sup>١</sup> :

مَرَّكَ مَرَّكَ لَا شَمْسُ وَلَا قَمَرُ      وَوَرْدٌ خَدَيْكَ لَا وَرْدٌ وَلَا زَهْرُ  
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ قَلْبٌ أَنْتَ سَاكِنُهُ      إِنْ بِنْتَ بَانَ فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ

وقال<sup>٢</sup> :

لِللَّهِ أَيَّامٌ عَلَى وَادِي الْقَرْيِ      سَلَفَتْ لَنَا وَالدهرُ ذُو أَلْوَانِ  
إِذْ نَجَّسْتِي فِي ظِلِّهِ ثَمَرَ الْمَنَى      وَالطَيْرُ سَاجِعَةٌ عَلَى الْأَغْصَانِ  
وَالشَّمْسُ تُنظَرُ مِنْ مَحَاجِرِ أَرْمَدٍ      وَالطَّلُّ يَرَكُضُ فِي النِّسِيمِ الْوَاثِي  
فَلتَمَّتْ فَاهُ وَالتَّرْمْتُ عِنَاقَهُ      وَيَدُ الْوَصَالِ عَلَى قَفَا الْمَجْرَانِ

٢٤٠ - وقال ابن عبد ربه<sup>٣</sup> :

يَا قَابِضَ الْكَفِّ لَا زَالَتْ مَقْبِضَةٌ      فَمَا أَنَامِلَهَا لِلنَّاسِ أَرْزَاقُ  
وَغِيبٌ إِذَا شِئْتَ حَتَّى لَا تُرَى أَبْدَاً      فَمَا لِفَقْدِكَ فِي الْأَحْشَاءِ إِقْلَاقُ

وقال في المدح :

وَمَا خُلِقْتَ كَفَّاكَ إِلَّا لِأَرْبَعٍ      عَقَائِلَ لَمْ تُخْلَقْ لِهِنَّ يَدَانِ  
لِتَقْبِيلِ أَفْوَاهٍ ، وَإِعْطَاءِ نَائِلِ      وَتَقْلِيْبِ هِنْدِيٍّ ، وَحَبْسِ عَنَانِ

٢٤١ - وقال الكاتب أبو عبد الله ابن مصادق<sup>٤</sup> الرندي الأصل :

صَارَمَتُهُ إِذْ رَأَتْ عَارِضَهُ      عَادَ مِنْ بَعْدِ الشَّبَابِ أَشْيَا

١ ترجمته في المغرب ١ : ٢٣٩ والذخيرة ٢ : ٢٣١ والمسالك ١١ : ٤٣٤ .

٢ الذخيرة ( ٢ : ٢٣٨ ) .

٣ هاتان المقطوعتان في الشريشي ١ : ١٨٤ .

٤ دوزي : مصادف .

قلتُ ما ضركَ شيبٌ فلقد  
هو كالعنبرِ غاليٍ نفحه  
بقيتَ فيه فُكاهات الصبا  
وشذاه أخضراً أو أشهباً

وقال :

ووردة وردت في غير موقتها  
وإنما الروضُ لما لم يُفدُ ثمرًا  
والسُحْبُ قد هملت أجفانها هطلا  
يَقْرِبِكهُ انفتحت في خده خجلا

وله :

لم أحتفل لقدم العيدِ من زمنِ  
لم ألقَ أهلي ولا إلفي<sup>١</sup> ولا ولدي  
قد كان يهيجني إذ كنت في وطي  
فليت شعري سُروري واقعٌ بمنِ

وقال :

يقول لي العاذلُ تُبُّ عن هوى  
وكيف لي والدينُ دين الهوى  
من ليس يُدُنِيكَ إلى مطلبِ  
فلا أرى أرجح من مذهبي  
طلوعه شمساً من المغربِ<sup>٢</sup>  
أليس بابُ التوبِ قد سده

وله :

أمنعُ كرائمك الخروجَ ولا  
لا تعتبرُ منهن مسخطةً  
تُظهرُ لذلك وجهَ منبسطِ  
نيلُ الرضى في ذلك السخطِ  
أولسنَ مثل الدرِّ في شبهِ<sup>٣</sup>  
والدرُّ من صدَفِ إلى سَفَطِ

١ ب : إلفي ولا أهلي .

٢ هو كقول الصقلي :

أيأسني التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

٣ م : سَفَطِ .

٢٤٢ - وقال المعتمد بن عباد<sup>١</sup> :

تمّ له الحسنُ بالعدارِ واختلط الليلُ بالنهارِ  
أخضرٌ في أبيضٍ تبدّى فذاك آسي وذا بهاري  
فقد حوى مجلسي تماماً إن يكُ من ريقه عُقاري

٢٤٣ - وقال ابن فرج الحياتي رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> :

وطائفة الوصال صددت عنها وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ  
بدتْ في الليل سافرةً فباتت دياجي الليل سافرةً القناعِ  
وما من لحظةٍ إلا وفيها إلى فتنِ القلوبِ لها دواعي  
فملكْتُ الهوى جمحاتِ أمري لأجري في العفافِ على طباعي  
كذلك الروضُ ما فيه لمثلي سوى نظيرٍ وشمّ من متاعِ  
ولستُ من السوائِمِ مهملاتٍ فأخذَ الرياضَ من المراعي

وقال<sup>٣</sup> :

بأيهما أنا في الشكرِ بادي بشكر الطيفِ أم شكرُ الرقادِ  
سرى فازداد لي أمني ولكن عَقَفْتُ فلم أُنلْ منه مُرادي  
وما في النومِ من حرجٍ ولكن جريتُ مع العفافِ على اعتيادي

٢٤٤ - وقال الرصافي<sup>٥</sup> :

وعشِّي أنسٍ للسرور وقد بدا من دون قرصِ الشمسِ ما يتوقَّعُ

١ ديوان المعتمد : ١٧ .

٢ مرت هذه الأبيات ص : ١٩٦ وانظر الشريشي ١ : ٢١١ والجزوة : ٩٧ .

٣ انظر الجزوة : ٩٧ والمطوح : ٨٠ والبييمة ٢ : ١٧ والشريشي ١ : ٢١١ .

٤ ب : بطيب .

٥ ديوان الرصافي : ١٠٥ .

سقطت فلم يملك نديمك<sup>١</sup> رَدَّها فوددتُ يا موسى لَوَأَنَّكَ يُوَشَّعُ

٢٤٥ - وقال ابن عبد ربه<sup>٢</sup> :

يِرَاعَةُ غُرَّتِي مِنْهَا وَمِيضُ سَنَاءُ فَصَادَفْتُ حَجْرًا لَوْ كُنْتُ تَضْرِبُهُ  
حَتَّى مَدَدْتُ إِلَيْهَا الْكَفَّ مَقْتَبَسًا مِنْ لُؤْمِهِ بَعْصًا مُوسَى لَمَّا انْبَجَسَا  
كَأَنَّمَا صَيْغَ مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَذِبٍ فَكَانَ ذَاكَ لَهُ رُوحًا وَذَا نَفْسًا

٢٤٦ - وقال ابنُ صَارَةَ فِي فِرْوَةَ<sup>٣</sup> :

أودتُ بذاتِ يَدِي فُرْيَةَ أُرْنَبٍ كَفَوَادِ عُرْوَةَ فِي الضَّحَى وَالرَّقَّةِ  
يَتَجَشَّمُ الْفَرَاءُ مِنْ تَرْقِيْعِهَا بَعْدَ الْمَشَقَّةِ فِي قَرِيبِ الشَّقَّةِ  
لَوْ أَنَّ مَا أَنْفَقْتُ فِي تَرْقِيْعِهَا يُحْصَى لَزَادَ عَلَى رِمَالِ الرَّقَّةِ  
إِنْ قُلْتُ بِسْمِ اللَّهِ عِنْدَ لِبَاسِهَا قَرَأْتُ عَلَيَّ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾

٢٤٧ - وقال الغزالي<sup>٤</sup> :

والمراء يعجبُ من صغيرة غيره لَسْنَا نَرَى مِنْ لَيْسَ فِيهِ غَمِيْزَةٌ  
أَيُّ امْرِئٍ إِلَّا فِيهِ مَقَالٌ أَيُّ الرِّجَالِ الْقَائِلُ الْفَعَّالُ

٢٤٨ - وقال أبو حَيَّان :

لَا تَرْجُونَ دَوَامَ الْخَيْرِ مِنْ أَحَدٍ فَالْشَّرُّ طَبِيعٌ وَفِيهِ الْخَيْرُ بِالْعَرَضِ  
وَلَا تَظَنَّ امْرَأً أَسَدِيَّ إِلَيْكَ نَدَى مِنْ أَجْلِ ذَاتِكَ بَلْ أَسَدَاهُ لِلْغَرَضِ

١ م : نديمي .

٢ العقدة ١ : ١٣١ والشريشي ١ : ١٢٧ .

٣ أبيات ابن صارة في أخبار وتراجم : ١٥ والقلائد : ٢٦١ والشريشي ١ : ١٢٥ .

٤ في الأصول ودوزي : الغزالي .

٥ ب : القائل البطال .

٢٤٩ - وقال ابن شهيد<sup>١</sup> :

ولما فشا بالدمع ما بين وجدنا  
أمرنا بإمساك الدموع جفوننا  
أبى دمنا يجري مخافة شامت  
وراق الهوى مناً عيوناً كريمة<sup>٢</sup>  
إلى كاشحينا ما القلوب كواتم<sup>٣</sup>  
ليشجى بما نظوي عدول ولائم<sup>٤</sup>  
فنظمه بين المحاجر ناظم<sup>٥</sup>  
تبسمن حتى ما تروق المباسم<sup>٦</sup>

وقال في الانتحال<sup>٢</sup> :

وبلغت أقواماً تجيش صدورهم<sup>٧</sup>  
أصاخوا إلى قولي فأسمعت معجزاً  
فقال فريق : ليس ذا الشعر شعره<sup>٨</sup>  
فمن شاء فليخبر فإني حاضر<sup>٩</sup>  
علي وإني فيهم فارغ الصدر<sup>١٠</sup>  
وغاصوا على سري فأعجزهم أمري  
وقال فريق أئمن الله ما ندري<sup>١١</sup>  
ولا شيء أجلى للشكوك من الخبر<sup>١٢</sup>

٢٥٠ - وينظر إلى مثل هذا قصة أبي بكر ابن بقي<sup>٣</sup> حين استهدى من بعض إخوانه أقلاماً فبعث إليه بثلاث من القصب ، وكتب معها :

خذها إليك أبا بكر العلاء قصباً  
يزهى بها الطرس حسناً ما نثرت بها  
كأنما صاغها الصواغ من ورقه<sup>١٣</sup>  
مسك المداد على الكافور من ورقه<sup>١٤</sup>  
فأجابه أبو بكر :

أرسلت نحوي ثلاثاً من قنأ سلب<sup>١٥</sup>  
فالخط ينكرها والحظ يعرفها  
ميادة تطعن القرطاس في درقه<sup>١٦</sup>  
والرق ينخدمها بالرق في عنقه<sup>١٧</sup>

١ الذخيرة ١/١ : ٢٧٦ وديوانه : ١٣٩ والشريشي ١ : ٤٦ .

٢ الذخيرة : ٢٦٢ وديوانه : ٦٨ والشريشي ١ : ٤٦ .

٣ الشريشي ١ : ٤٧ .

٤ ب م : منادة . . . في ورقه .

فحسده عليه بعض من سمعه ، ونسبه إلى الانتحال ، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأول :

وجاهلٍ نسب الدعوى إلى كلمي      لما رماهُ بمثلِ النَّبلِ في حَدَقِهِ  
فقلتُ من حَنَّقٍ لما تعرَّضَ لي      من ذا الذي أخرج اليربوعَ من نفقه  
ما ذمَّ شعري وأيمُّ الله لي قسمٌ      إلا امرؤُ ليستِ الأشعارُ من طُرُقِهِ  
والشعرُ يشهدُ أنني من كواكبه      بل الصباحُ الذي يستنُّ من أُفقه

٢٥١ - وقال ابن شهيد أيضاً في ضيف ١ :

وما انفكَّ معشوقُ الثناء يَمُدُّهُ ٢  
إلى أن تشهَى البينَ من ذاتِ نفسه  
فأتبعته ما سدَّ خلةَ حاله  
ببشرٍ وترحيبٍ وبسَطِ بَنانِ  
وحنَّ إلى الأهلين حنَّةَ حاني  
وأتبعني ذكراً بكلِّ مكانِ

وقال ٣ :

وبتنا نراعي الليلَ لم يطوِ بُرْدَهُ  
تراه كملك الزنج من فرطِ كبره  
مُطِلاً على الآفاقِ والبدرُ تاجُهُ  
ولم يجلُّ شيبُ الصبحِ في فَوْدِهِ وخطا  
إذا رام مشياً في تبختره أبطا  
وقد جعل الجوزاء في أذنه قُرْطاً

٢٥٢ - وقال بعضهم في لباس أهل الأندلس البياض في الحزن ، مع أن أهل المشرق يلبسون فيه السواد ٤ :

ألا يا أهلَ أندلسٍ فطنتمُ  
بلطفتكمُ إلى أمرٍ عجيبِ

١ الذخيرة : ٢٦٧ وديوانه : ١٦٨ .

٢ الديوان : النواء نمده .

٣ الذخيرة : ٢٣٧ وديوانه : ٨٨ واليتيمة ٢ : ٤٣ والشريشي ١ : ٦٣ .

٤ الشريشي ١ : ٤٩ .



لبسم في ماتمكم بياضاً فجتتم منه في زي غريب  
صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب

٢٥٣ - وقال أبو جعفر ابن خاتمة :

هل جسوم يوم النوى ودعوها باقيات لسوء ما أودعوها  
يا حداة القلوب ما العدل هذا أتبعوها أجسامها أو دعوها

٢٥٤ - وقال القسطلي يصف هول البحر :

إليك ركبنا الفلك تهوي كأنها وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان  
على لجج خضر إذا هبت الصبا ترامي بها فينا ثبير وثهلان  
موائل ترعى في ذراها موائل كما عبدت في الجاهلية أوثان  
يقطن وموج البحر والهم والدجى يموج بها فيها عيون وآذان  
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

٢٥٥ - وقال الرمادي يهنيء ابن العطار الفقيه بمولود :

يهنيك ما زادت الأيام في عددك من فلذة برزت للسعد من كبديك  
كأنما الدهر دهر كان مكتئباً من انفرادك حتى زاد في عددك  
لا خلقتك الليالي تحت ظل ردى حتى ترى ولداً قد شب من ولدك

٢٥٦ - وقال ابن صارة في النار :

هات التي للأيك أصل ولادها ولها جبين الشمس في الأشماس  
يتشع الياقوت في لباتها بوساوس تشفي من الوسواس

١ ديوان ابن دراج : ٨٧ والخيرة ١/١ : ٧٤ .

٢ في الأصول : مقاتل موج .

أُنْسُ الْوَحِيدِ وَصَبْحُ عَيْنِ الْمُجْتَلِي  
حَمْرَاءُ تَرَفُلُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّمَا  
وَلِبَاسٌ مِّنْ أَمْسَى بغيرِ لِبَاسٍ  
ضَرَبَتْ بِعِرْقٍ فِي بَنِي الْعَبَّاسِ  
وَقَالَ فِيهَا أَيْضاً ١ :

لَابِنَةُ الزَّيْنِدِ فِي الْكُوَانِينِ جَمْرٌ  
خَبْرُونِي عَنْهَا وَلَا تَكْذِبُونِي  
كَالدَّرَارِيِّ فِي اللَّيْلَةِ ٢ الظُّلْمَاءُ  
أَلْدِيهَا صِنَاعَةُ الْكِيْمِيَاءِ  
رَصَعْتَهُ بِالْفِضَّةِ الْبِيضَاءِ  
رَقَصَتْ فِي غِلَالَةِ حَمْرَاءِ  
سَقَرْتِ عَنْ جَبِينِهَا فَأَرْتَنَا  
لَوْ تَرَانَا مِنْ حَوْلِهَا قَلْتِ قَوْمٌ  
حَاجِبَ اللَّيْلِ طَالِعاً بِالْعِشَاءِ  
يَتَعَاطُونَ أَكْوَسَ الصَّهْبَاءِ

٢٥٧ - وَقَالَ فِيهَا الْفَقِيهَ الْأَدِيبُ ٥ ابْنُ لِبَالٍ :

فَحْمٌ ذَكَا فِي حِشَاهُ جَمْرٌ  
أَوْ خَدٌّ مِّنْ قَدِّ هَوَيْتُ لَمَّا  
فَقَلْتُ مَسْكٌ وَجُلَّنَارُ  
أَطْلُ مِنْ فَوْقِهِ الْعِذَارُ

٢٥٨ - وَكَانَ أَبُو الْمَطْرَفِ الزَّهْرِيُّ جَالِساً فِي بَابِ دَارِهِ مَعَ زَائِرٍ لَهُ ،  
فَخَرَجَتْ عَلَيْهِمَا مِنْ زُقَاقٍ ثَانٍ جَارِيَةٍ سَافِرَةٍ الْوَجْهَ كَالشَّمْسِ الطَّالِعَةِ فَحِينَ  
نَظَرْتَهُمَا عَلَى غَفْلَةٍ مِنْهَا نَفَرَتْ خَجَلَةٌ ، فَرَأَى الزَّائِرُ مَا أَبْهَتَهُ فَكَلَّفَهُ وَصْفَهَا ،  
فَقَالَ مَرْتَجِلاً :

- ١ القلائد : ٢٦٦ .
- ٢ القلائد : كالدراري في دجى .
- ٣ القلائد : صفائح .
- ٤ القلائد : سمرت في عشائها .
- ٥ م : الأديب الفقيه ؛ ولعله أبو الحسن علي بن أحمد بن لبال الشريفي ( - ٥٨٣ ) وله ترجمة في التحفة : ٧٤ والذيل والتكملة ٥ : ١٦٩ .

يا ظبيةً نفرت والقلبُ مسكنها  
لا تختشي فابنُ عبدِ الحقِّ أنحلنا  
خوفاً لحتلِّي بل عمداً لتعديبي  
عدلاً يؤلف بين الظبي والذيب

٢٥٩ - وقال ابن شهيداً :

أصبحَ لاحَ أم بدرٌ بدأ  
هَبَّ من نعسته منكسراً  
يمسح النعسة من عيني رشا  
قلتُ هَبَّ لي يا حبيبي قبلةً  
فانثي يهتر من منكبِهِ  
كلما كلمني قبلته  
قال لي يلعب صيدٌ لي طائراً  
وإذا استنجزت يوماً وعده  
شربتُ أغصانه<sup>٣</sup> خمراً الصبا  
رشاً بل عادةً مَمَكُورةً<sup>٤</sup>  
أححت<sup>٥</sup> من عضة في نهدها  
فأنا المجروح من عضتها  
أم سنا المحبوب أوري زندا  
مسبلٌ للكُمِّ مُرخٍ للردا  
صائد في كلِّ يوم أسدا  
تشف من همك<sup>١</sup> تبريح الصدى  
قائلاً لا ثمَّ أعطاني اليدا  
فهو ما قال كلاماً ردداً  
فتراني الدهر أجري بالكدي  
قال لي يمطل ذكركني غدا  
وسقاه الحسن حتى عرَبدا  
عمت صباحاً بليل أسودا  
ثم عَضت حُرّاً وجهي عمدا  
لا شفاني الله منها أبدا

٢٦٠ - وقال محمد بن هانيء في الشيب ° :

بِئْسَ فُلُولا أَنْ أُغْبِرَ لِمَتِي عِبْتاً وَالْقَاكِمَ عَلِيَّ غَضَابَا

- ١ مرت هذه القصيدة ص : ٣٥٨ .
- ٢ الرواية المشهورة : من عمك ؛ وتصحف إلى « غمك » .
- ٣ م : أعطافه ، وهو أجود .
- ٤ هذه رواية الذخيرة ، وفي م : أحجبت .
- ٥ ديوان ابن هانيء : ١٩٨ - ١٩٩ والثريشي ١ : ٢١٤ .

ولم تحضبتُ شيئاً في مفارق لمتي<sup>١</sup> ومحوت محو النَّفْسِ عنه شبابا  
 وخضبتُ مَبْيُض<sup>٢</sup> الحدادِ عليكم<sup>٣</sup> لو أنتي أجد البياض خضابا  
 وإذا أردتَ على المشيب وفادةً فاجعل مطيِّكَ دونه الأحقابا  
 فلتأخذنَّ من الزمانِ حمامةً ولتدفعنَّ إلى الزمانِ غرابا

٢٦١ - وكتب ابن عمار إلى ابن رزين وقد عتب عليه أن اجتاز ببلده ولم

يلتقه<sup>٣</sup> :

لم تثنِ عنك عناني سلوةً خطرتَ  
 لكن عدتني عنكم خجلةً خطرتُ  
 « لو اختصرتم من الإحسان زرتكم<sup>٤</sup>  
 ولا فؤادي ولا سمعي ولا بصري  
 كفاني العذرُ منها بيتَ معتذرِ  
 والعذب يُهجر للإفراط في الحصرِ »

٢٦٢ - وقال ابن الجدي<sup>٤</sup> :

وإنِّي لصبٌّ للتلاقي وإنما  
 أذوبُ حياءً من زيارةِ صاحبٍ<sup>٥</sup>  
 يصدُّ ركابي عن معاهدك العسرِ  
 إذا لم يساعدني على بیره الوفيرُ

٢٦٣ - وقال ابن عبد ربّه<sup>٦</sup> :

يا من عليه حجابٌ من جلالته  
 ما أنت وحلك مكسوًّا ثيابِ ضني  
 ألقى عليك يداً للضرِّ كاشفةً  
 وإن بدا لك يوماً غير محبوبِ  
 بل كلنا بك من مضني ومشحوبِ  
 كشافُ ضرِّ نبيِّ اللهِ أيوبِ

١ الديوان : في عذاري كاذباً .

٢ الديوان : مسود .

٣ الذخيرة ( ٢ : ١٦٠ ) والشريشي ١ : ٢٤٣ والبيت المضمن للمعري .

٤ الشريشي ١ : ٢٤٣ .

٥ م : سيد .

٦ أبيات ابن عبد ربّه في الشريشي ١ : ٣٠٥ .

٢٦٤ - وقال النَّحْلِي في مغنية :

ولاعبة الوشاح كغصن<sup>١</sup> بان لها أثرٌ بتقطيعِ القلوبِ  
إذا سوتَ طريقَ العُودِ نقرأً وغنتَ في حُبِّ أو حبيبِ  
فيمينها تقدُّ بها فؤادي ويسراها تعدُّ بها ذنوبي

٢٦٥ - وقال ابن شهيد<sup>٢</sup> :

كلفت<sup>٣</sup> بالحب حتى لو دنا أجلي لما وجدتُ لطعمِ الموتِ من ألمِ  
وعاقي<sup>٤</sup> كرمي عمّن ولهت به ويئي من الحبّ أو ويئي من الكرمِ

٢٦٦ - وكان بشرِيش<sup>٥</sup> صوفي<sup>٥</sup> حافظ للشعر ، فلا يعرض في مجلسه معنى إلاّ وهو ينشد عليه ، فاتفق أن عطس رجل بمجلسه ، فشمته الحاضرون ، فدعا لهم ، فرأى الصوفي أنّه إن شمته قطع إنشاده بما لا يشاكله من النظم ، وإن لم يشمته كان تقصيراً في البر ، فرغب حين أصبح من الطلبة نظم هذا المعنى ، فقال الوزير الحسيب أبو عمرو ابن أبي محمد<sup>٦</sup> :

يا عاطساً يرحمك اللهُ إذ أعلنت بالحمد على عطسك<sup>٥</sup>  
ادعُ لنا ربك يغفرُ لنا وأخلص النيةَ في دعوتك<sup>٥</sup>  
وقلْ له يا سيدي رغبتي حضورُ هذا الجمعِ في حضرتك<sup>٥</sup>  
وأنت يا ربّ الندى والنوى بارك ربُّ الناس في ليلتك<sup>٥</sup>  
فإن يكنْ منكم لنا عودةٌ فأنت محمودٌ على عودتك<sup>٥</sup>

١ ق ب : بغصن .

٢ ديوان ابن شهيد : ١٤٨ .

٣ الديوان : ألت .

٤ الديوان : وذادني .

٥ الشريشي ١ : ٣٤١ .

٦ الشريشي : ابن محمد .

وهذا الوزير المذكور كان يُصَرِّف شعره في أوصاف الغزلان ومخاطبات الإخوان ، وكتب إلى الشريشي - شارح المقامات<sup>١</sup> - يستدعي منه كتاب العقد :

أيا مَنْ غدا سِلْكَاً بجيد معارفه • وَمَنْ لَفْظُهُ زهرٌ أُنِيقٌ لِقَاطِفِهِ •  
محبُّكَ أضْحَى عَاطِلَ الجيدِ فلتتجدُ • بعِقدٍ على لَبَّاتِهِ وَسَوَافِهِ •

ووعِكَ في بعض الأعياد ، فعاده من أعيان الطلبة جملة ، فلما هموا بالانصراف أنشدتهم ارتجالاً :

اللهِ درُّ أفاضلٍ<sup>٢</sup> أمجادِ شَرُفَ التَّدِيُّ بقصدِهم والنادي  
لما أشاروا بالسَّلامِ وأزمعوا أنشدتهم وصدقتُ في الإنشادِ  
في العيدِ عُدَّتُمْ وهو يوم عَرُوبَةٍ يا فرحتي بثلاثةِ الأعيادِ

قال الشريشي في شرح المقامات : ولقد زرتة في مرضه الذي توفي فيه رحمه الله تعالى أنا وثلاثةُ فتيان من الطلبة ، فسألني عنهم وعن آباءهم ، فلما أرادوا الانصراف ناول أحدهم محبرة ، وقال له : اكتب ، وأملى عليه ارتجالاً :

ثلاثة فتيان يؤلفُ بينهم • نديٌّ كريمٌ لا أرى الله بينهم •  
تشابه خَلَقٌ منهمُ وخليقةٌ • فإن قلت أين الحُسْنُ فانظره أين هم •  
وزيّنهم أستاذهم إذ غدا لهم • معلمَ آياتٍ فتمم زينهم •  
فإن خفت من عين ففي الكلّ فلتقل • وقى الله ربَّ الناسٍ لكلّ عينهم •

٢٦٧ - وقال الشريشي<sup>٣</sup> : حدثنا شيخنا أبو الحسين ابن زرقون ، عن أبيه أبي عبد الله ، أنه قعد مع صهره أبي الحسن عبد الملك بن عيَّاش

١ م : صاحب كتاب شرح المقامات .

٢ الشريشي : در عصابة .

٣ الشريشي ١ : ٣٦٥ .

الكاتب على بحر المجاز ، وهو مضطرب الأمواج ، فقال له أبو الحسن : أجز :

وَمُلْتَطِمِ الْغَوَارِبِ مَوْجَتَهُ بَوَارِحُ فِي مَنَاكِبِهَا غَيُومُ

فقال أبو عبد الله :

تَمَنَّعَ لَا يَعْوَمُ بِهِ سَقِينٌ وَلَوْ جَدَّبَتْ بِهِ الزُّهْرُ النُّجُومُ

٢٦٨ - وكان لابن عبد ربّه فتي يهواه ، فأعلمه أنّه يسافر غداً ، فلما أصبح عاقه المطر عن السفر ، فأنجلى عن ابن عبد ربّه همّة ، وكتب إليه ١ :

هلا ابتكرت لبينٍ أنتَ مبتكرُ هيهات يأبى عليك اللهُ والقدرُ  
ما زلت أبكي حذارَ البينِ ملتهباً حتى رثى ليَ فيكَ الريحُ والمطرُ  
يا برّدهُ من حياً مَزُنَ على كبدِ نيرانها بغليلِ الشوق تستعرُ  
آليتُ أن لا أرى شمساً ولا قمرأً حتى أراك فأنتَ الشمسُ والقمرُ

وقال ابن عبد ربّه ٢ :

صِلْ من هويت وإن أبدى معاتبَةً فأطيبُ العيشُ وَصَلْ بينَ إلفين  
واقطعُ حبالَ خِدِنٍ لا تلائمه فقلّما تَسَعُ الدنيا بغيضين

٢٦٩ - وقال أبو محمد غانم بن الوليد المالقي ٣ :

صيرَ فؤادك للمحبوب منزلةً سَمَّ الخياطِ مجالٌ للمحبين  
ولا تسامحُ بغيضاً في معاشره فقلّما تَسَعُ الدنيا بغيضين

٢٧٠ - وكان المتوكل صاحبُ بَطْلَيْنُوسَ ينتظر وفود أخيه عليه من

١ أبيات ابن عبد ربّه في المطح : ٥١ .

٢ العقد ٢ : ٣١٦ .

٣ مر البيتان ص : ٢٦٥ ، ٣٩٨ .

شَنَّتْرِينَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَأَتَاهُ يَوْمَ السَّبْتِ ، فَلَمَّا لَقِيَهُ عَانِقَهُ وَأَنْشَدَهُ :

تَخَيَّرَتِ الْيَهُودُ السَّبْتَ عِيداً      وَقَلْنَا فِي الْعَرُوبَةِ يَوْمُ عِيدِ  
فَلَمَّا أَنْ طَلَعَتِ السَّبْتَ فِينَا      أَطَلَّتْ لِسَانَ مَحْتَجِّ الْيَهُودِ

٢٧١ - وقال أبو بكر ابن بقي<sup>١</sup> :

أَقَمْتُ فِيكُمْ عَلَى الْإِقْتَارِ وَالْعَدَمِ      لَوْ كُنْتُ حُرّاً أَبِي النَّفْسِ لَمْ أَقِمِ  
فَلَا حَدِيقَتُكُمْ يُجْتَنِي لَهَا ثَمَرٌ      وَلَا سَمَاؤُكُمْ تُنْهَلُ بِالْدَيْمِ  
أَنَا أَمْرٌ وَإِنْ نَبَتَ بِي أَرْضُ أُنْدَلَسِ      جِئْتُ الْعِرَاقَ فَقَامَتْ لِي عَلَى قَدَمِ  
مَا الْعَيْشُ بِالْعِلْمِ إِلَّا حِيلَةٌ ضَعُفَتْ      وَحِرْفَةٌ وَكِلْتَا بِالْقُعْدُدِ الْبَرَمِ

٢٧٢ - وقال الأبيص في الفقهاء المراثين<sup>٢</sup> :

أَهْلَ الرِّيَاءِ لِبَسْتُمْ نَامُوسَكُمْ      كَالذَّبِّ يُدْلَجُ<sup>٣</sup> فِي الظَّلَامِ الْعَاتِمِ  
فَمَلِكْتُمْ الدُّنْيَا بِمَذْهَبِ مَالِكٍ      وَقَسَمْتُمْ الْأَمْوَالَ بَابِنِ الْقَاسِمِ  
وَرَكِبْتُمْ شُهْبَ الْبِغَالِ بِأَشْهَبِ      وَبَأَصْبَغٍ صَبَغَ لَكُمْ فِي الْعَالِمِ

وقال<sup>٤</sup> :

قُلْ لِلْإِمَامِ سَنَا الْأُمَّةِ مَالِكٍ      نُورِ الْعِيُونَ وَنُزْهَةِ الْأَسْمَاعِ  
لِلَّهِ دَرْكٌ مِنْ هُمَامٍ مَاجِدٍ      قَدْ كُنْتَ رَاعِيْنَا فَنَعْمَ الرَّاعِي  
فَمَضَيْتَ مَحْمُودَ النَّقِيبَةِ طَاهِراً      وَتَرَكْنَا قَنْصاً لَشَرِّ سِبَاعِ

١ أبيات ابن بقي في القلائد : ٢٨١ .

٢ زاد المسافر : ٧١ وهي في المعجب : ٢٣٥ منسوبة لابن النبي ؛ وانظر الشريشي ١ : ١٨٥ .

٣ زاد المسافر : يختل .

٤ زاد المسافر : ٧١ .

٥ م : المناقب .



أكلوا بك الدنيا وأنت بمغزل  
تشكوك دنيا لم تزل بك برة<sup>١</sup>  
طاوي الحشا متكفت الأضلاع  
ماذا رفعت بها من الأوضاع

٢٧٣ - وقال ابن صارة :

يا من يعذبني لما تملكني  
تروق حسناً وفيك الموت أجمعه  
ماذا تريدُ بتعذبي وإضراري  
كالصقل في السيف أو كالنور في النار

٢٧٤ - وقال عبدون البلنسي<sup>١</sup> :

يا من مَحِيَّاهُ جَنَّاتٌ مَفْتَحَةٌ  
لقد تناقضت في خلقي وفي خلقي  
وهَجَّرَهُ لِي ذَنْبٌ غَيْرُ مَغْفُورٍ  
تناقضَ النارِ بالتدخينِ والنَّوْرِ

٢٧٥ - وقال الوزير ابن الحكيم :

رَسَخَتْ أَصُولُ عِلاَكِمُ تَحْتَ الثَّرَى  
إنَّ المِكَارِمَ صُورَةٌ مَعْلُومَةٌ  
ولكُمْ عَلَى خِطَّةِ المِجْرَةِ دَارُ  
أَنْتُمْ لَهَا الأَسْمَاعُ والأَبْصَارُ  
تَبْدُو شَمُوسُ الدَّجَنِ مِنْ أَطْوَاقِكُمْ  
ذَلَّتْ لَكُمْ نَسَمُ الخَلَاقِ مِثْلَ مَا  
ذَلَّتْ لَكُمْ نَسَمُ الخَلَاقِ مِثْلَ مَا  
فَمَتَى مَدَحْتُ وَلَا مَدَحْتُ سِوَاكُمْ  
فَمَدِيحِكُمْ فِي مَدْحِهِ إِضْمَارُ

٢٧٦ - وقال القاضي أبو جعفر ابن برطال<sup>٢</sup> :

١ هو أبو محمد عبد الله بن يحيى الحضرمي ابن صاحب الصلاة ويعرف بعبدون من أهل دانية وسكن شاطبة وتوفي ببلنسية (٥٧٨ -) وترجمته في التحفة : ٦٨ والتكملة رقم : ١٤٠٢ .  
٢ هو أحمد بن محمد بن علي الأموي ويكنى أبا جعفر ويعرف بابن برطال ، كان من أهل الخير والانقباض والقفه والوقار يتكسب بصناعة التوثيق ، ثم أصبح قاضياً لفرناطة وإماماً بمسجدها الأعظم حتى عام ٧٤١ وتوفي بمالقة سنة ٧٥٠ (انظر ترجمته وشعره في الإخاطة ١ : ١٧٧ - ١٧٩) .

أستودع الرحمن مَنْ لِيُودِعَهُمْ      قلبي وروحي آذنا بوداع  
بانوا وطرفي والفؤاد ومِقْوَلِي      باك ومسلوبُ العزَاءِ وداع  
فتولَّ يا مولايَ حفظهم ولا      تجعلُ تفرُّقنا فراقَ وداع<sup>١</sup>  
٢٧٧ - وقال ابن خفاجة<sup>٢</sup> :

وما حاجني إلا تألَّقُ بارقٍ      لبستُ به بُرْدَ الدُّجْنَةِ معلِّمًا  
وهي طويلة .

وقال من أخرى<sup>٣</sup> :

جَمَعَتْ ذَوَائِبُهُ ونورُ جبينه      بينَ الدُّجْنَةِ والصباحِ المشرقِ  
٢٧٨ - وقال ذو الوزارتين أبو الوليد ابن الحضرمي البطلانيوسي في  
غلام للمتوكل بن الأفطس يرثيه<sup>٤</sup> :

غالتهُ أيدي المنايا      وكُنَّ في مقلتيه  
وكان يسقي الندامى      بطرفه ويديه  
غصنٌ ذوى وهلالٌ      جار الكسوفُ عليه

٢٧٩ - وقال الفقيه العالم أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطلال البطلانيوسي  
عالمها في المذهب المالكي ، وقد تحاكم إليه وسيمان أشقر وأكحل فيمن يفضل  
بينهما<sup>٥</sup> :

وشادِنَيْنِ أَلْمَا بي على مِقَّةٍ      تنازعا الحسنَ في غاياتِ مستبقِ

١ سقط البيت من م .

٢ ديوانه : ١٧٣ .

٣ ديوانه : ١٥٠ .

٤ انظر ترجمته في المغرب ١ : ٣٦٥ .

٥ مرت الأبيات ص : ٢٩٢ .

كأنّ لمة ذا من نرجس خلقت  
 وحكما الصبّ في التفضيل بينهما  
 فقام يبدي هلال الدّجن حجته  
 فقال وجهي بدرٌ يستضاء به  
 وكحل عيني سحرٌ للنهي وكذا  
 وقال صاحبه أحسنت وصفك لـ  
 أنا على أفقي شمس النهار ولم  
 وفضل ما عيب في العينين من زرق  
 قضيت لمة الشقراء حيث حكّت  
 فقام ذو اللمّة السوداء يرشقي  
 وقال جرّت فقلت الجور منك على  
 وقلت عَفْوِكَ إذ أصبحت متهماً

وكان فيه ظرّف وأدب ، وعنوان طبقة هذه الأبيات .

وقال :

وغاب من الأكواس فيها ضراغم  
 من الراح الباب الرجال فريستها  
 قرعتُ بها سنّ الحلوم فأقطعت  
 وقد كاد يسطو بالفؤاد ريسها

وله رحمه الله تعالى « شرح البخاري » وأكثر ابن حجر من النقل عنه في « فتح الباري » ، وله كتاب « الأحكام » وغير ذلك ، وترجمته شهيرة .

٢٨٠ - وقال الأديب النحوي المؤرخ أبو إسحاق إبراهيم بن [ قاسم ] الأعمى البطليوسي صاحب التوليف التي بلغت نحو خمسين ١ :

١ انظر ترجمته في المغرب ١ : ٣٦٩ واختصار القدر : ١٥٧ وبنية الوعاة : ١٨٥ والبيتان في المغرب والقدر .

يا حِمِصُ لا زلتِ داراً لكلِّ بؤسٍ وساحه  
ما فيكِ موضعُ راحه إلاّ وما فيه راحه

وهو شيخ أبي الحسن ابن سعيد صاحب «المغرب» وأنشده هذين البيتين  
لما ضجر من الإقامة بإشبيلية أيام فتنة الباجي .

٢٨١ - وقال الأديب الطبيب أبو الأصبع عبد العزيز البطليوسي الملقب  
بالقلمندر<sup>١</sup> :

جَرَّتْ مِنِّي الخمرُ مجرى دمي فَجُلُّ حَيَاتِي من سكرها  
ومهما دجتْ ظَلَمٌ للهمومِ فتمزيقُها بِسِنَا بدرها

وخرج يوماً وهو سكران ، فلقي قاضياً في نهاية من قبح الصورة ، فقال :  
سكران خلوه ، فلماً أخذه الشرط قال للقاضي : بفضل من ولاك على المسلمين  
بهذا الوجه القبيح عليك إلا ما أفضلت علي وتركتني ، فقال القاضي : والله لقد  
ذكرتني بفضل عظيم ؛ ودراً عنه الحد .

٢٨٢ - وقال ابن جاح الصباغ البطليوسي<sup>٢</sup> ، وهو من أعاجيب الدنيا ،  
لا يقرأ ولا يكتب :

ولما وقفنا غداة النوى وقد أسقطَ البينُ ما في يدي  
رأيتُ الهوادجَ فيها البلورُ عليها البراقعُ من عَسَجَدِ  
وتحت البراقعِ مقلوبُها تدبُّ على وَرْدٍ خَدَّ نَدِي  
تُسلمَ مَنْ وَطِئتْ خَدَّهُ وتلدغ قلبَ الشَّجِي المكدِ

١ المغرب ١ : ٣٦٩ وفيه «القلمندر» .  
٢ ترجمته في الجذوة : ٣٨١ (وبغية المنتسب رقم : ١٥٦٢) ؛ والأبيات التي أوردت هنا ذكر  
صاحب المطرب (١٨٤) أنها لعلي بن إسماعيل الأشبوني وأخذها ابن جاح وادعاها لنفسه .

وقال في المتوكل ، وقد سقط عن فرس :

لا عَتَبَ للطَّرْفِ إن زَلَّتْ قوائمهُ      ولا يُدْتَسُّه من عائبِ دَنْسِ  
حَمَلْتِ جُوداً وبأساً فوقه ونُهَى      وكيف يحملُ هذا كَلَهُ الفرسُ

٢٨٣ - وقال الشاعر المشهور بالكميت البطليوسي<sup>١</sup> :

لا تلموني فإنني عالمٌ      بالذي تأتبه نفسي وتدعُ  
بالحميّا والمحيّا صبّوتي      وسوى حبّهما عندي بدعُ  
فُضِّلَ الجمعةُ يوماً وأنا      كلُّ أيامي بأفراحي جُمعُ

٢٨٤ - وقال أبو عبد الله محمد بن البين البطليوسي ، وهو ممن يميل

إلى طريقة ابن هاني<sup>٢</sup> :

غَصَبُوا الصبّاحَ فقسّموه خلودا      واستنهبوا قُضْبَ الأراكِ قدودا  
ورأوا حصى الياقوتِ دون محلّهم      فاستبدلوا منه النجومَ عقودا  
واستودعوا حدقَ المها أجفانهمُ      فسبّوا بهنَّ ضراغماً وأسودا  
لم يكفهمُ حملُ الأسنّةِ والظبي      حتى استعاروا أعيناً وقدودا  
وتضافروا بصفائيرِ أبدوا لنا      ضوءَ النهارِ بليلها معقودا  
صاغوا الثغورَ من الأفاحي بيئتها      ماءَ الحياة لو اغتدى مورودا

٢٨٥ - وكان عند المتوكل مضحك يقال له الخطّارة ، فشرّب ليلة مع

المتوكل ، وكان في السقاة وسيم ، فوضع عينه عليه ، فلمّا كان وقت السحر  
دبّ إليه ، وكان بالقرب من المتوكل ، فأحسّ به ، فقال له : ما هذا يا خطّارة ؟

١ ترجمة الكميّ في الحدوة : ٣١٤ (وبنية الملتبس رقم : ١٢١٥) وهو الكميّ بن الحسن أبو

بكر من شعراء عماد الدولة ابن هود بسرّسطة ؛ وانظر المغرب ١ : ٣٧٠ .

٢ الشعر في الذخيرة (٢ : ٣٠٧) والمغرب ١ : ٣٧٠ وانظر ما تقدم ص : ٤٠٣ .

فقال له : يا مولاي هذا وقت تفرغ الخطارة الماء في الرياض ، فقال له : لا تَعُدْ  
لثلاثاً يكون ماء أحمر ، فرجع إلى نومه ، ولم يُعِدْ في ذلك كلمة بقية عمره  
معه ، ولا أنكر منه شيئاً ، ولم يحدث بها الخطارة حتى قُتِل المتوكل ، رحمه  
الله تعالى .

والخطارة : صنف من اللوايب الخفاف يستقي به أهل الأندلس من الأودية ،  
وهو كثير على وادي لإشبيلية ، وأكثر ما يياكرون العمل في السحر .

٢٨٦ - وقال الوزير أبو زيد عبد الرحمن بن مولود :

أرني يوماً مِنَ الدهرِ على وَفْقِ الأمانِي  
ثمَّ دَعَنِي بَعْدَ هذا كيفما شئتَ تراني

٢٨٧ - وقال أديب الأندلس وحافظها أبو محمد عبد المجيد بن عبدون  
الفهري اليابري ، وهو من رجال الذخيرة والقلائد ، وشهرته مغنية عن الزيادة ،  
يخاطب المتوكل وقد أنزله في دار وكفّت عليه <sup>١</sup> :

أيا سامياً من جانبيه كليهما « سُمُوَّ حباب الماء حالاً على حال »  
لعبدك دارٌ حلٌّ فيها كأنّها « ديار لسلمى عافياتٌ بندي خال »  
يقولُ لها لما رأى من دُثورها « ألا عم صَباحاً أيتها الظلل البالي »  
فقالَتْ وما عَيَّتْ جواباً بردّها « وهل يعِمنُ من كان في العُصر الخالي »  
فَمَرُّ صاحبِ الانزالِ فيها بعاجلٍ « فإنَّ الفتي بَهْدي وليس بفعّالٍ »

وقال في جَمْع حروف الزيادة حسبما ذكره عنه في « المغرب » <sup>٢</sup> :

سألت الحروف الزائدات عن اسمها فقالت ولم تكذب : أمان وتسهيل

١ مرت هذه الأبيات ص : ٢٩٣ وانظر المطرب : ١٨٢ .  
٢ لم يرد البيت في ترجمة ابن عبدون في المغرب ( ١ : ٣٧٤ ) وإنما أورده صاحب المطرب : ١٨٠ .

[ ضوابط حروف الزيادة ]

قلت : وعلى ذكر حروف الزيادة فقد أكثر الناس في انتقاء الكلمات الضابطة لها ، وقد كنت جمعت فيها نحو مائة ضابط ، ولندكر الآن بعضها ، فنقول : منها « أهوى تلمسانا » ونظمتها فقلت :

قالت حروفُ زياداتٍ لسائلها هل هَوِيَتْ بلدةُ : أهوى تلمسانا

وجمعها ابن مالك في بيت واحد بأربعة أمثلة من غير حَشْوٍ ، وهو :

هنا وتسلم ، تلا يوم أنسه ، نهاية مسثول ، أمان وتسهيل

ومنها « هَوِيَتْ السمان » . وحكي أن أبا عثمان المازني سئل عنه فأنشد :

هَوِيَتْ السمانَ فشيَّبني وقد كنتُ قِدْماً هَوِيَتْ السمانا

ف قيل له : أجبنا ، فقال : أجبتم مرتين ، ويروى أنه قال : سألتمونيها ، فأعطيتم ثلاثة أجوبة ، هكذا حكاها بعضُ المحققين ، وهو أرقٌ ممّا حكاها غير واحد على غير هذا الوجه ، ومنها : « سألتمونيها » ، ومنها : اليوم تنساه ، الموت ينساه ، أسلمني وتاه ، هم يتساءلون ، التناهي سموٌ ، تنمي وسائله ، أسلمي تهاون ، تهاوني أسلم ، التمس هواني ، ما سألت يهون ، مؤنس التياه ، لم يأتنا سهو ، يا أويس هل نمت ، نويت سؤاظم ، نويت مسائله ، سألتم هواني ، تأملها يونس ، أتاني وسهيل ، هوني مسألتها ، سألت ما يهون ، وسليمان أتاه ، تسأل من يهوى ، استملاني هو ، أسلمت وهناني ، هو استملاني ، سايل وأنت هم ، يا هول استم ، أتاه وسليمان .

قلت : وليس هذا تكراراً مع السابق الذي هو « وسليمان أتاه » لأن التقديم والتأخير يصيرهما شيئين .

ومنها : الوسمي هتَانُ ، أوليم سناه ، واليم أنسه ، أمسيت وناله ، أنله

توسيمًا ، أملتني سهوًا ، أتوسل يمنها ، سألتهن يوماً ، سألت يومنها ، سألت ما يوهن ، نهوي ما سألت ، يهون ما سألت ، وقد سبق «سألت ما يهون» وعدُّهما شيئين من أجل التقديم والتأخير كما مرّ نظيره ، ألا تنس يومه ، ليتأس ماؤه ، سله موتي أنا ، أنسته اليوم ، سألتهم هوبنا ، أوي من تسأله ، وهين ما سألت ، وهني ما سألت ، مسألتي نواه .

ومنها : مسألتي هاون ، سهوان يتألم ، أيلتم سهوان ، أو يلتم ناسه ، مسألتي أهون ، أو ميت تنساه ، سموتن إليها ، أملت سَهوان ، وسألت هينا ، يهون ما تسأل ، أتلو من سهيا ، أسلم وانتهى ، يتأمل سهوان ، يتأمل ناسوه ، يتأملن سواه ، ايتأمل نسوه ، الهوى أتنسم ، وليت ماه آسن ، تولين أسهما ، اتلوا سهمين ، أول ساهمتني ، أسماؤه تنيل ، يتأملنه سوا ، أو لم يتسنّاه ، آمن ويتساهل ، أمسين هوا ، توسميه لناء ، هو ما تسألين ، لأيهما فتوسم ، أيّهما نتوسل ، أثنائي لسموه ، سميتهن أولاً ، أو لاهن سميت ، سلمتني أهوا ، أسلمتني هوا ، أو نستميلها ، أيستميلونا ، هنأت الموسى ، سليم انتهوا ، وأنت سائلهم ، ساءلته ينمو ، تهنأ لا يسمو ، أسالي مؤنته ، سألتي موهناً ، التمس هوناً ، استملي أهون ، التناه موسى ، هواه يتسنم ، نهوي ما تسأل ، ماؤه ليتأسن ، تنسمي هواه ، تلومي إن سهوا ، أملتني سهوًا ، ستولينا أمه ، يتمهلون أسا ، أمهلتني سوا ، التناسي وهم ، أهويت سلمان ، هويت المأنس ، المأنس تهوي ، هويت أم ناسل ، أوليس تم هنا ، استوهن أملي ، استهون ألمي ، استلمنا وهياً ، أتسلمونيها ، ألا يتسمونه ، أليس توهمننا ، ألا يتسنموه .

فهذه مائة وأربعة وثلاثون تركيباً ، منها ما هو متين ، ومنها ما هو غير متين ، وقد جمع ابن خروف فيها اثنين وعشرين تركيباً محكيًا وغير محكي ، وأحسنها بيت ابن عبدون السابق ، ويليه بيت ابن مالك ، وقال الطغمي جامعاً لها أربع مرّات :



آلتي سهواً ، تلومي إن سها أو ليس تم هنا ، الهوا يتسم  
هكذا بخطه يتسم ، ولو قال يتسم لكان أنسب ، وقال أيضاً :

وليت ما سناه والتمسي هنا ما تسألين هو الهنا يتوسم

قلت : وقد جمعت في المغرب زيادة على ما تقدم ، وكنت قدرت رسالة فيها  
أسميها « إنحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة » .

٢٨٨ - وقال أبو محمد عبد الله بن الليث يستدعي الوزير أبا الحسن الياقوبي

في يوم غيَم :

رقمَ الربيعُ بروضنا أزهارهُ	فجرى على صفحاته أنهارهُ
فعمى تشرفنا ببهجة سيد	ألقي على ليل الخطوب نهارهُ
تمتّع الآدابُ من نَفحاته	فيشمُّ منها وردةُ وبهارهُ
يا سيداً بهرَ البرية سؤدداً	أبدى إلينا سرهُ وجهاره
يومٌ أظلَّ الغيمُ وجهَ ضيائه	فعليك يا شمسَ العلا إظهاره

٢٨٩ - وقال أبو القاسم ابن الأبرش :

أدرُ كاسَ المدامِ فقد تَغَنَى	بفرعِ الأيكِ طائرُه الصَّدوحُ
وهبَّ على الرياضِ نسيمُ صَبحٍ	يمرُّ كما دنا سارٍ طليح
ومالِ النهْرُ يشكو من حصاه	جراحاتٍ كما أنَّ الجريح

وقال :

حلفتُ ويشهدُ دمعي بما أقاسيه من هجرِكَ الزائدِ

١ هو أبو القاسم خلف بن يوسف بن فرتون الأبرش النحوي (توفي : ٥٣٢) وترجمته في التحفة :

١٣ والصلة : ١٧٤ وبغية الملتبس رقم : ٧٢٢ وبغية الوعاة : ٢٤٣ .

فإن كنت تجحدُ ما أدعي وحاشاك تُعرفُ بالجاحدِ  
فإن النبي عليه السلامُ قضى باليمينِ معَ الشاهدِ

٢٩٠ - وقال أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني صاحبُ الذخيرة ،  
وشهرته تغني عن ذكره ، ونظمه دون نثره ، يخاطبُ أبا بكر ابن عبد العزيز :

أبا بكرٍ المُجتبى للأدبِ رفيعَ العمادِ قريعَ الحسبِ  
أيلحنُ فيك الزمانُ الخؤونُ ويُعربُ عنك لسانُ العربِ  
وإن لم يكنُ أفقنا واحداً فينظمننا شملُ هذا الأدبِ

وقد ذكرنا له في غير هذا المحل قوله :

ألا بادرُ فلا تانٍ سوى ما عهَدتَ الكأسَ والبدرُ التمامُ  
... الأبيات

وتأخرت وفاته إلى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وهو منسوب إلى  
« شنترين » من الكور الغربية البحرية من أعمال بطليوس .

٢٩١ - وقال أبو عمر يوسف بن كوثر :

مررتُ به يوماً يغازلُ مثله وهذا على ذا بالملاحه يمتنُ  
فقلتُ: اجمعا في الوصلِ رأيكما فما لثلكما كان التغزلُ والمجنُ  
عسى الصبُّ يقضي الله بينكما له بخيرٍ فقال لي: اشتهى العسلَ السمنُ

٢٩٢ - وقال أبو محمد ابن سارة<sup>١</sup> :

أعندك أن البدرَ بات ضجيجي فقضيتُ أوطاري بغيرِ شفيعِ

١ الذخيرة (٢ : ٣٢٤) .

جعلتُ ابنةَ العنقودِ بيني وبينهُ فكانتُ لنا أمّاً وكان رضيعي  
وقال<sup>١</sup> :

أيا من حارتِ الأوهامُ فيهِ فلم تعلم له الأقدارُ كُنْها  
بجيدِ النبلِ منّا عقْدُ أنْسِ أقامَ بغيرِ واسطةٍ فكُنْها

٢٩٣ - وقال أبو الحسن [ ابن ] منذر الأشبوني :

فديتكَ لآتي عن جنابك راحِلٌ فهل لي يوماً من لقائك زادُ  
وحسْبُك والأيامُ خُونُ غوادِرُ فراقٌ كما شاء العدا وبعادُ

٢٩٤ - وقال خلف بن هرون القطيبي :

مَنْ أنبتَ الوردَ في خديكَ يا قمرُ ومن حمى قطفه إذ ليس مصطبرُ  
الزهرُ في الروضِ مقرونٌ بأزمنةٍ وروضُ خدكَ موصولٌ به الزهرُ

٢٩٥ - وكان لابن الحاج صاحب قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس  
حسّون وعزّون ورحمون ، فأولع بهم الإمام أبو محمد ابن السيّد النحوي ،  
وقال فيهم<sup>٢</sup> :

أخفيتُ سقمي حتّى كاد يخفيني وهيمتُ في حبِّ عزّونَ فعزّوني  
ثم ارحموني برحمون فإن ظمئت نفسي إلى ريقِ حسّونَ فحسّوني

ثم خاف على نفسه فخرج من قرطبة ، هكذا رأيتُه بخط بعض المؤرخين  
والله أعلم .

١ الذخيرة ( ٢ : ٣٢٦ ) .

٢ مر البيتان ص : ٢٨٧ وقد حذفهما في م وقال : « وقد تقدمت هذه الحكاية » .

٢٩٦ - وقال ابن خفاجة يُداعب من بقلّ عذاره<sup>١</sup> :

أيّها النّائهُ مهلاً ساءني أن تهتّ جهلاً  
هل ترى فيما ترى إلا شباباً قدّ تولّى  
وغراماً قد تسرّى وفؤاداً قدّ تسلى  
أين دمعٌ فيك يجري أينَ جنبٌ يتقلّى  
أين نفسٌ بك تهدي وضلوعٌ فيك تُصلى  
أيّ باكٍ كان لولا عارضٌ وافى فوالّى  
وتخلّى عنك إلاّ أسفاً لا يتخلّى  
وانطوى الحسنُ فهلاً وانطوى الحسنُ وهلاً

أمّا بعد أيّها النبيل النبيه ، فإنه لا يجتمع العذار والديه ، قد كان ذلك وغصن  
تلك الشبيبة رطب ، ومنههل ذلك المقبل عذب ، وأما والعذار قد بقلّ ،  
والزمان قد انتقل ، والصبُّ قد صحا فعقل ، فقد ركبت رياحُ الأشواق ،  
ورقدت عيونُ العشاق ، فدع عنك من نظرة التجني ، ومشية الشني ، وغضّ  
من عنانك ، وخذ في ترضي إخوانك ، وهشّ عند اللقاء هشّة أريحية ،  
واقنع بالإيماء رجّع تحية ، فكأنّي بفنائك مهجوراً ، وبزائرِك مأجوراً ،  
والسلام .

٢٩٧ - وقال الرّصافي لما بعث إليه من يهواه سكيناً<sup>٢</sup> :

تفاءلتُ بالسكين لما بعثته لقد صدقتُ منّي العيافةُ والزجرُ  
فكان من السكينِ سكيناً في الحشا وكان من القطعِ القطيعةُ والهجرُ

١ ديوان ابن خفاجة : ١٢٩ .

٢ ديوان الرصافي : ٩٩ (عن النّفح) .

٢٩٨ - وحضر الفقيه أبو بكر ابن حبيش ليلة مع بعض الجلة وطفىء السراج ،  
فقال ارتجالاً :

أذكَ السراجِ يرينا غُرَّةً سَفرتْ فباتت الشمسُ تستحيي وتسترُ  
أو خَلَّه فكفانا وجهُ سيدنا لا يطلبُ النجمَ من في بيته القمرُ

٢٩٩ - وقصد أحد الأدباء بمُرْسِيَةِ أحدِ السادات من بني عبد المؤمن ،  
فأمر له بصِلَّة خرجت على يد ابن له صغير ، فقال المذكور ارتجالاً :

تبركُ بَنَجَلٍ جاء باليمنِ والسَّعدِ يبشِّرُ بالتأييدِ طائفةَ المهدي  
تكلَّمَ روحُ الله في المهدِ قبله وهذا براءٌ بدَّلَ اللامَ في المهدِ

٣٠٠ - وخرج الأستاذ أبو الحسن ابن جابر الدباج<sup>٢</sup> يوماً مع طلبته للترهة  
بمخارج إشبيلية ، وأحضرت مُجَبَّنَاتٌ ما خبأ نارُها<sup>٣</sup> ، ولا هداً أوارُها ، فما  
خام عنها ولا كفَّ ، ولا صَرَفَ حرُّها عن اختصابها البنانَ ولا الكفَّ ،  
فقال :

أحلى مواقعِها إذا قرَّبَتها وبُخارُها فوقَ الموائدِ سامٍ  
إن أحرقتْ لِمَساً فإنَّ أوارها في داخلِ الأحشاءِ بَرْدٌ سلامٍ

٣٠١ - وقال أبو بكر أحمد بن محمد الأبيض الإشبيلي يتهمك برجل زعم  
أنه ينال الخلافة<sup>٤</sup> :

أميرَ المؤمنين نداءً شيخٍ أفادك من نصائحهِ اللطيفهِ

١ م : في وجهه .

٢ القصة والبيتان في القدرح : ١٥٦ وانظر المغرب ١ : ٢٥٦ .

٣ كانت عادة أهل إشبيلية أكل هذه المجبنات يوم خميس إبريل .

٤ زاد المسافر : ٦٩ .

تَحْفَظُ أَنْ يَكُونَ الْجَدْعُ يَوْمًا      سريراً من أسرتك المنيفه  
أفكر فيك مطويًا فأبكي      وتضحكني أمانيك السخيفه

٣٠٢ - وقال صفوان :

ونهار أنس لو سألنا دهرنا      في أن يعودَ بمثله لم يقدر  
خرقَ الزمانُ لنا به عاداته      فلو أقرحنا النجمَ لم يتعذر  
في فتية علمت ذكاءً بحسنهم      فتلفت من غيمها في مثر  
والسرحة الغناء قد قبضت بها      كف النسيم على لواء أخضر  
وكان شكل الغيم منخل فضة      يلقي على الآفاق رطب الجوهر

٣٠٣ - واجتاز بعض الغلمان على أبي بكر ابن يوسف، فسلم عليه  
بإصبعه، فقال أبو بكر في ذلك وأشار في البيت الثالث إلى أن والد الغلام كان  
خطيب البلد :

مر الغزال بنا مرّوعاً نافرأ      كشيبه في القفر ريع بصائده  
لثم السّلامى في السّلام تسراً      ثم انثنى حذر الرقيب لراصده  
هلاً تكلف وقفةً لمحبه      ولو أنها قصرأ كجلسة والده

٣٠٤ - وقال أبو القاسم القبتوري :

واحسرتنا لأمرٍ ليس يبلغها      مالي وهنّ منى نفسي وآمالي  
أصبحت كآلال لاجدوى لدي وما      آلت جدّاً ولكنّ جدّي الآلي

٣٠٥ - وقال أبو الحسن ابن الحاج<sup>٢</sup> :

١ ب : الماء .  
٢ هو جعفر بن الحاج ، ترجم له في القلائد : ١٣٩ والمغرب ٢ : ٢٧٧ وانظر الحاشية ، وورد  
البيتان فيه ص : ٢٨١ والمغرب : ١٧٥ وقد وقعا في م قبل بيتي القبتوري .

كفى حزنًا أن المِشَارِعَ جَمَّةٌ وعندي إليها غُلَّةٌ وأوامُ  
ومن تكدي الأيام أن يعدم الغنى كريمٌ وأنّ المكثرين لثامُ

٣٠٦ - وقال أحمد بن أمية البلسني :

قال رئيسي حين فاوضته وما درى أن مقامي عسير  
أقم فقلت الحال لا تقتضي فقال سر قلت جناحي كسير

٣٠٧ - وقال ابن برطله :

لله ما ألقاه من همّة لا ترتضي إلا السها منزلا  
ومن خمول كلما رمت أن أسمو به بين الورى قال لا

٣٠٨ - وكتب ابن خروف لبعض الرؤساء :

يا من حوى كل مجدٍ بجده وبجده  
أناك نجلُ خروفٍ فامن عليه بجده

وكتب أيضاً لبعضهم يستدعي فروة :

بهاء الدين والدنيا ونور المجد والحسب  
طلبت مخافة الأنوا ء من جدواك جلد أبي  
وقضلك عالم أني خروف بارع الأدب  
حلبت الدهر أشطره وفي حلب صفا حلبي

وبعد كتبي لما ذكر خشيت أن يكون لابن خروف المشرقي لا الأندلسي ،  
والله تعالى أعلم .

١ هو كما قدر المقري فإن هاتين القطعتين لابن خروف أبي الحسن علي بن محمد ، ولكنه أيضاً قرطبي  
الأصل استقر بحلب ( انظر النصوص الياضة : ١٣٨ وزاد المسافر : ٢٠ ) .

٣٠٩ - وركب محبوب أبي بكر ابن مالك<sup>١</sup> كاتب ابن سعد بغلة رديف -  
رجل يُعرف بالدب ، فقال أبو بكر في ذلك :

وبغلة ما لها مثالُ يركبها الدبُّ والغزالُ  
كأنَّ هذا وذا عليها سحابةٌ خَلَفَها هلالُ

٣١٠ - وخرج محبوب لأبي الحسن ابن حريق<sup>٢</sup> يوماً لتزهة وعَرَضَ -  
سَيْلَ عاقه عن دخول البلد ، فبات ليلة عند أبي الحسن ، فقال في ذلك :

يا ليلةٌ جادت الأماي بها على رَعْمِ أنفِ دهري  
تسيلُ فيها عليَّ نَعْمى يقصر عنها لسانُ شكري  
أباتَ في منزلي حبيبي وقام في أهله بعذري  
وبتُّ لا حالةٌ كحالي صريعَ سكرٍ ضجيجَ بدرِ  
يا ليلةَ القدرِ في اللَّيالي لأنتِ خيرٌ من ألف شهرِ

٣١١ - وقال أبو الحسن ابن الزقاق<sup>٣</sup> :

عذيري من هَضِيمِ الكشحِ أَحْوَى رخيماً الدَّلَّ قد لبس الشَّبَابا  
أعدَّ الهجرَ هاجرةً لقلبي وصيرَ وعده فيها سَرَابا

٣١٢ - وقال أبو بكر ابن الجزار السرقسطي :

ثَناءُ الفتى يبقى ويفنى ثراؤه فلا تكتسبُ بالمال شيئاً سوى الذكرِ  
فَقَدَّ أبْلَتِ الأيامُ كعباً وحاتماً وذكرهما غَضُّ جديدهُ إلى الحشرِ

١ زاد المسافر : ٣٣ .

٢ هذا الخبر والشعر سقطا من م ، وقد مرت الأبيات ص : ٤١٠ .

٣ ديوان ابن الزقاق : ٩٨ .

٤ ب : العتب .



٣١٣ - وقال الأديب أبو عبد الله الجذامي<sup>١</sup> : كان لشخص من أصحابنا قَيْئَةً ، فبينما هو ذات يوم قد رام تقييلها على أثر سواك أبصره بمسماها إذ مرَّ فوَال ينادي على فول يبيعه ، قال : فكلفني أن أقول في ذلك شيئاً ، فقلت : ولم أنسَ يومَ الأَنسِ حينَ سَمَحْتِ لي وأهديتِ لي من فيك فول سواكِ ومرَّ بنا الفوَالُ للفولِ مادحاً وما قَصَدُهُ في المدحِ فولُ سواكِ وشرب يوماً أبو عبد الله المذكور عند بعض الأَجِلَّةِ وذَرَعَهُ القِيءُ ، فارتجل في العذر :

لا تَوَاخِذْ مَنْ أَخْلَ بِهِ قهوةٌ في الكاسِ كَالقَبَسِ  
كيف يُلْحَى في المدامِ فتَى أخذته أخذَ مفترسِ  
دخَلتُ في الحلقِ مُكْرَهَةً ضاق عنها موضعُ النفسِ  
خرجت من موضعٍ دخلتُ أنفَتُ من مخرجِ النجسِ

٣١٤ - وجلس سلمة بن أحمد إلى جنب وسيم يكتب من محبرة فانصبَّ الحبرُ منها على ثوب سلمة ، فخرج الغلام ، فقال سلمة :

صَبَّ المِدادَ وما تَعَمَّدَ صَبَّهُ فتوردَ الخدُّ المِليحُ الأزهرُ  
يا من يُوَثِّرُ حبره في ثوبنا تأثيرُ لحظك في فؤادي أكبرُ

٣١٥ - وكان لأبي الحسن ابن حزمون<sup>٢</sup> بمُرْسِيَّةٍ محبوب يدعى أبا عامر ، وسافر أبو الحسن ، فبينما هو بخارج المَرِيَّةِ إذ لقي فتى يشبه محبوبه ، وسأله عن اسمه ، فأخبره بأنه يدعى أبا عامر ، فقال أبو الحسن في ذلك :

إلى كَمِّ أفرُّ أمامَ الهوى وليس لذا الحبُّ من آخرِ

١ الخبر والبيتان التاليان ساقطة من م .

٢ من شعراء زاد المسافر : ٦٤ وله شعر في المعجب والبيان المغرب .

وكيف أفرأ أمام الهوى وفي كلِّ وادٍ أبو عامرٍ

٣١٦ - وحضر أبو بكر ابن مالك كاتب ابن سعد مع محبوبه لارتقاب هلال شوال ، فأغمي على الناس ورآه محبوبه ، فقال أبو بكر في ذلك <sup>١</sup> :

تواری هلالُ الأفقِ عن أعینِ الوری ولاحَ لمن أهواهُ منه فحيَّاهُ <sup>٢</sup>  
فقلتُ لهم : لم تفهموا كُنْهَ سِرِّهْ ولكنْ خذوا عني حقيقةَ معناه  
بدا الأفقُ كالمرأةٍ راقِ صفاؤهُ فأبصرَ دونَ الناسِ فيه مُحيَّاهُ

٣١٧ - وكتب أبو بكر ابن حبیش لمن يهواه بقوله :

متى ما ترم شرحاً لحالي وتبيننا فصحَّف على قلبي « علومك تحيينا »  
أراد « إنِّي بحبِّك مولعٌ » .

٣١٨ - وكتب القاضي ابن السليم <sup>٣</sup> إلى الحكم المستنصر بالله :

لو أنَّ أعضاء جسمي السُّنْ نطقتْ بشكر نِعْماك عندي قلَّ شكري لك  
أو كان ملكي الرحمنُ من أجلي شيئاً وصلتُ به يا سيدي أجلك  
ومن تكنُ في الوری آماله كثرتْ فإنما أُملي في أنْ ترى أملكُ

٣١٩ - وقال الوزير ابن أبي الخصال :

وكيف أؤدِّي شكرَ من إنْ شكرتهُ على بَرِّ يومٍ زادني مثلهُ غدا  
فإن رمتُ أقضي اليومَ بعضَ الذي مضى رأيتُ لهُ فضلاً عليَّ مُجدِّداً

١ زاد المسافر : ٣٣ .

٢ م : محياه .

٣ ب : ابن سليم .

٣٢٠ - وقال الرُّصافي ١ :

قَلَدْتُ جَيْدَ الْفِكْرِ مِنْ تِلْكَ الْحَلِيِّ      مَا شَاءَ الْمَثُورُ وَالْمَنْظُومُ  
وَأَشْرْتُ قَدَّامِي كَأَنِّي لَأْتُمُّ      وَكَأَنَّ كَفِّي ذَلِكَ الْمَلْثُومُ

وقال :

وَيَا لِكِ نِعْمَةٍ رُمْنَا مَدَاهَا      فَمَا وَصَلَ اللِّسَانُ وَلَا الضَّمِيرُ  
عَجَزْنَا أَنْ نَقُومَ لَهَا بِشُكْرِ      عَلَيَّ أَنْ الشُّكُورَ لَهَا كَثِيرُ

٣٢١ - وقال ابن باجة :

قَوْمٌ إِذَا انْتَقَبُوا رَأَيْتَ أَهْلَةً      وَإِذَا هُمْ سَفَرُوا رَأَيْتَ بَدُورًا  
لَا يَسْأَلُونَ عَنِ النَّوَالِ عُقَاتِهِمْ      شُكْرًا وَلَا يَحْمُونَ مِنْهُ تَقِيرًا  
لَوْ أَنَّهُمْ مَسْحَوْا عَلَى جَدْبِ الرَّبِيِّ      بِأَكْفِهِمْ نَبْتَ الْأَقَاحِ نَضِيرًا ٢

٣٢٢ - وقال ابن الأَبَّارِ يمدح أبا زكريا سلطان إفريقية :

تَحَلَّتْ بَعْلِيَاكَ اللَّيَالِي الْعَوَاطِلُ      وَدَانَتْ لِسَقْيَاكَ السَّحَابُ الْهَوَاطِلُ  
وَمَا زِينَةُ الْأَيَّامِ إِلَّا مَنَاقِبُ      يُفَرِّعُهَا أَصْلَانُ : بَأْسٌ وَنَائِلُ  
إِذَا الطَّوَلُ وَالصَّوَلُ اسْتَقْلَابَ بَرَاةٍ      تَرَقَّتْ لَهَا نَحْوُ النُّجُومِ أَنْامِلُ

وقال أيضاً في سعيد بن حكيم رئيس منركة :

سَيِّدٌ أَبَدٌ رَيْسٌ بَيْسٌ      فِي أَسَارِيرِهِ صِفَاتُ الصَّبَاحِ  
قَمَرٌ فِي أَفْقِ الْمَعَالِي تَجَلَّى      وَتَحَلَّى بِالسُّودِ الْوَضَّاحِ  
سَلِمَ الْبَحْرِ فِي السَّمَاحَةِ مِنْهُ      لِحَوَادِ سَمَّوِهِ بِحَرَ السَّمَاحِ

١ ديوان الرصافي : ١٣١ ، ٨٧ .

٢ ب : صغيرا .

٣٢٣ - وقال أبو العباس أحمد الإشبيلي :

يا أفضلَ الناسِ إجماعاً ومعرفةً  
ورثتَ عن سلفٍ ما شئتَ من شرفٍ  
تُغني وما الحسنُ في ريبٍ ولا ريبٍ  
فقد بهرتَ بموروثٍ ومكتسبٍ

٣٢٤ - وقال ابن زهر الحفيد :

يا من يُذَكّرني بعهدِ أحبّي  
أعدّ الحديثَ عليّ من جنابته  
طاب الحديثُ بذكرهم ويطيبُ  
ملاً الضلوعَ وفاضٍ عن أحنائها  
إنّ الحديثَ عن الحبيبِ حبيب  
ما زال يضرب خافقاً بجناحه  
قلبٌ إذا ذُكر الحبيبُ يذوب  
يا ليت شعري هل تطيرُ قلوب

وقال في زهر الكتان :

أهلاً بزهر اللازوردِ ومرحبا  
لو كنتُ ذا جهلٍ لخلتُك بلحّةً  
في روضةِ الكتانِ تعطفه الصبا  
وكشفتُ عن ساقٍ كما فعلتُ سباً

ولما قال الموشحة المشهورة التي أولها :

صادني ولم يدر ما صادنا

قال أبو بكر ابن الجدي : لو سئل عما صاد لقال : تيس بلحية حمراء .

ولما قال الموشحة التي أولها :

هاتِ ابنة العنبِ واشربِ

إلى قوله :

وفدّه بأبي ثمّ بي

سمعها أبوه فقال : يفديه بالعجوز السوء أمّه ، وأما أنا فلا .

٣٢٥ - وهناك أبو بكر ابن زهر الأصغر ، وهو ابن عم هذا الأكبر .  
ومن نظم الأصغر :

والله ما أدري بما أتوسلُ إذ ليس لي ذاتُ بها أتوصلُ  
لكن جعلتُ مودتي مع خدمتي لعلاكَ أحظى شافعٍ يتقبَّلُ  
إن كنتُ من أدواتِ زهرٍ عاطلاً فالزهرُ منهنَّ السَّمَكُ الأعزلُ

وهذه الأبيات خاطب بها المأمون بن المنصور صاحب المغرب .

٣٢٦ - وقال الأديب أبو جعفر عمر ابن صاحب الصلاة :

وما زالتِ الدنيا طريقاً لهالكِ تباين في أحوالها وتخالفُ  
ففي جانبٍ منها تقوم مآتمٌ وفي جانبٍ منها تقومُ معازفُ  
فمن كان فيها قاطناً فهو ظاعنٌ ومن كان فيها آمناً فهو خائفُ

٣٢٧ - وقال أبو بكر محمد ابن صاحب الصلاة يخاطب أخيل<sup>٢</sup> لما انتقل  
إلى العُدوة :

لا تُنكرنَ زماناً رماكَ مِنْهُ بسهمٍ  
وأنتَ غايةُ مجدٍ في كلِّ علمٍ وفهمٍ  
هذي دموعي حتى يراكَ طرفي تَهْمِي  
يا ليتَ ما كنتُ أخشى عليكَ عُدوانَهم  
وإنما الدهرُ يُبدي ما لا يجوزُ بوهمٍ  
ما زالَ شَيْهَمَ مَسٍّ لكلِّ يقظانٍ شَهْمٍ

ولما وفد أهل الأندلس على عبد المؤمن قام خطيباً ناثرأ وناظماً ، فأثى

١ هو أبو بكر محمد بن قسورة بن زهر الإيادي ، وترجمته وأبياته في القحح : ١٥٠ - ١٥١ .

٢ يياض في ب ؛ م : أخال .

بالعجب ، وباهى به أهل الأندلس في ذلك الوقت .

وله في عبد المؤمن :

هم الألى وهبوا للحرب أنفسهم  
وأنهبوا ما حوت أيديهم الصفدا  
ما إن يُغبُونَ كحل الشمس من رَهجٍ  
كأنما عينها تشكو لهم رمدا

٣٢٨ - وقال ابن السيد البطليوسي في أبي الحكم عمرو بن مدحج

ابن حزم ، وقد غلب على لبه ، وأخذ بمجامع قلبه <sup>١</sup> :

رأى صاحبي عمراً فكلفَ وصفه  
وحَمَلَنِي من ذاك ما ليس في الطوقِ  
فقلتُ له : عمرو كعمرو فقال لي :  
صدقت ، ولكن ذاك شبٌّ <sup>٢</sup> عن الطوقِ

وفيه يقول ابن عبدون <sup>٣</sup> :

يا عمرو رُدَّ على الصدور قلوبها  
وأدر علينا من خلاك أكوساً  
من غير تقطيعٍ ولا تحريقِ  
لم نألُ تسكرنا بغيرِ رحيقِ

وفيه يقول أحدهما :

قل لعمرو بن مدحج  
شاربٌ من زبرجدٍ  
جاء ما كنتُ أرتجي  
ولمى من بنفسجٍ

وكتب إليه ابن عبدون :

سلامٌ كما هبتُ من المزنِ نَفحةٌ  
تنفّسَ عند الفجرِ في وجهها الزهرُ

١ مر البيتان في المجلد الأول : ٦٣٦ وهنا خطأ فصاحب البيتين كما مر هو أبو الحسن البليوسي

(ابن القبطونية) ، ذكر ذلك ابن بسام في الذخيرة وابن سعيد في المغرب ١ : ٢٣٨ .

٢ ب م : ولكن ذا أشب .

٣ الذخيرة ( ٢ : ٢٣٢ ) .

ومنها :

أبا حَسَنَ أبلغَ سلامَ فَمِ يَدَيَّ  
ولا تَنسَ يَمناكَ الـيَ ١ هي والندى  
أبي حَسَنٍ وارفقْ فكلتاها بحرُ  
رضيعا لِبَيانِ لا اللُّجَيْنِ ولا التَّبَرُ  
فأجابه من أبيات :

تَحَيَّرَ ذهني في مَجاري صفاته  
أرى الدهرَ أعطاكَ التقدُّمَ في العُلَى  
فلم أدرِ شعراً ما به فُهتَ أم سحرُ  
لئن حازتِ الدنيا بك الفضلَ آخراً  
وإن كان قد وافى أخيراً بك الدهرُ  
ولعمرو في أبي العلاء ابن زُهْرٍ ٢ :

قدمتَ عَلَيْنَا والزمانُ جديداً  
وحقُّ العُلا لولا مراتبك العُلا  
وما زلتَ تُبدي في الندى وتعيدُ  
فلو حووا بني زهرٍ فإنَّ وجوهكم  
لما اخضَرَ في أفقِ المكارمِ عودُ  
وقوله لأبي الوليد ابن عمِّه ٤ :

إنتي لأعجبُ أن يدنو بنا وطنُ  
لا غروَ إن بعدتِ دارُ مُصَاقِبَةٍ  
ولا يُقَصِّى من اللُّقيا لنا وطرُ  
فمحجر العينِ لا يلقاهُ ناظرها  
بنا وجدَّ بنا للحضرةِ السَّفَرُ  
وقد توسَّعَ في الدُّنيا به النظرُ  
وقال ابن عمِّه أبو بكر محمد بن مذحج يخاطب ابن عمِّه أبا الوليد ٥ :

١ الذخيرة : لي تلك التي .

٢ الذخيرة ( ٢ : ٢٣٤ ) ؛ وفي م : ولعمرو في ابن زهر .

٣ الذخيرة : وعيش .

٤ الذخيرة ( ٢ : ٢٣٥ ) .

٥ الذخيرة ( ٢ : ٢٤٣ ) .

ولما رأى حمض استخفت بقدره  
تحمل عنها والبلاد عريضة

وقال أبو الوليد المذكور<sup>١</sup> :

أنجزع من دمعي وأنت أسلته  
وترعم أن النفس غيرك علقت  
إذا طلعت شمس علي بسلوة  
ومن نار أحشائي وأنت لهيها  
وأنت ولا من عليك حبيها  
أثار الهوى بين الضلوع غروبها

وله أيضاً<sup>٢</sup> :

لما استمالك معشر لم أرضهم  
داريت دونك مهجتي فتماسكت  
فاذهب فغير جوانحي لك منزل  
والقول فيك ، كما علمت ، كثير  
من بعد ما كادت إليك تطير  
واسمع فغير وفائك المشكور

وقال :

يقول وقد لمته في هوى  
أتحسني ؟ قلت : لا والذي  
وكيف وقد حل ذلك الجناب  
فلان وعرضت شيئاً قليلاً  
أحلك في الحب مرعى وبيلاً  
وقد سلك الناس ذلك السبيلاً

وله مما يكتب على قوس<sup>٣</sup> :

إننا إذا رفعت سماء عجاجة  
ومرد الأبطال في جنباتها  
والحرب تقعد بالردى وتقوم  
والموت من فوق النفوس يحوم

١ الذخيرة : ٢٣٧ .

٢ المغرب ١ : ٢٤٠ .

٣ الذخيرة ( ٢ : ٢٤٤ ) ؛ م : وما يكتب على قوس قوله .



مرقت لهم منا الحتوفُ كأنما نحن الأهلّةُ والسهامُ نجومُ<sup>١</sup>

٣٢٩ - وقال أبو الحسين ابن فندلة في كلب صيد<sup>٢</sup> :

فُجِعْتُ بمن لو رمتُ تعبيرَ وصفه لقلَّ ولو أنِّي غرقت من البحرِ  
بأخطَلٍ وثابٍ طموحٍ مؤدَّبٍ ثبوتٍ يصيدُ النسرَ لو حلَّ في النسرِ  
كلونِ الشبابِ الغضِّ في وجهه سنّاً كأنَّ ظلاماً ليس فيه سوى البدرِ  
إذا سار والبازي أقولُ تعجباً ألا ليت شعري يسبقُ الطيرُ من يجري

ولا يلتفت إلى قول أبي العباس ابن سيد فيه<sup>٣</sup> :

الموتُ لا يُبقي على مهجةٍ لا أسداً يُبقي ولا نَعشَلَه<sup>٤</sup> ،  
ولا شريفاً لبني هاشمٍ ولا وضيعاً لبني فندله<sup>٥</sup> .

وكان ابن سيد مسلطاً على هذا البيت ، قال ابن سعيد : وإنما ينبح الكلب

القمر .

٣٣٠ - قال أبو العباس النجّار<sup>٥</sup> : كان أبو الحسين يلقّب بالوزّاعة ،

فوصلتُ إلى بابه يوماً ، فتحجب عني ، فكتبت على الباب :

تحجّبَ الفندليُّ عني فساء من فعله ضميري  
يَنفِرُ من رؤيتي كأنّي مضمخُ الجيبِ بالعبيرِ

قال : ومن عادة الوزّاعة أن تكره رائحة الزعفران وتهرب منه .

١ الذخيرة : رجوم .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٤١ والهاشية ؛ وكنيته فيه أبو الحسن .

٣ هو أحمد بن سيد الملقب بالحص (المغرب ١ : ٢٥٢ والهاشية) .

٤ ب : تنفله ؛ م : شكله .

٥ ب : الأبار ؛ ق : النبار .

٣٣١ - وقال أبو القاسم ابن حسان<sup>١</sup> :

ألا لَيْتَنِي مَا كُنْتُ يَوْمًا مَعْظَمًا      ولا عرفوا شخصي ولا علموا قصري  
أَكَلَفُ فِي حَالِ الْمَشِيبِ بِمِثْلِ مَا      تحمّله والغصنُ في ورقٍ نضري  
فَمَا عَاشَ فِي الْأَيَّامِ فِي حَرِّ عَيْشَةٍ      سوى رجلٍ ناءٍ عن النهي والأمرِ

٣٣٢ - وقال أبو بكر ابن مرتين<sup>٢</sup> :

صَحِبْتُ مِنْكَ الْعِلَا وَالْفَضْلَ وَالكَرْمَا      وشيمةً في الندى لا ترتضي السأما  
مُودَّةٌ فِي ثَرَى الْإِنْصَافِ رَاسِخَةٌ      وَسَمَكُهَا فَوْقَ أَعْنَاقِ السَّمَاءِ سَمَا

وقال :

أَنْصَفْتَنِي فَمَحْضَتُكَ الْوَدَّ الَّذِي      يُجْزَى بِصَفْوَتِهِ الْخَلِيلُ الْمُنْصَفُ  
لَا تَشْكُرُنَّ سِوَى خِلَالِكَ إِنَّهَا      جَلِبَتْ إِلَيْكَ مِنَ الثَّنَا مَا يُعْرَفُ

وقال :

يَا هِلَالًا يَتَجَلَّى      وقضياً يثنى  
كُلُّ أَنْسٍ لَمْ تَكُنْهُ      فهو لفظٌ دون معنى

٣٣٣ - وقال القاضي أبو عبد الله محمد بن زرقون :

ذَكَرَ الْعَهْدَ وَالْدِيَارَ غَرِيبُ      فَجَرَى دَمْعُهُ وَلَجَّ النَّحِيبُ  
ذَكَرَ الْعَهْدَ وَالنَّوَى مِنْ حَيْبٍ      حَبَّذَا الْعَهْدُ وَالنَّوَى وَالْحَيْبُ  
إِذْ صَفَاءَ الْوَدَادِ غَيْرُ مَشُوبٍ      بَتَجَنٍّ وَوَدُنَا مَشُوبُ

١ ترجمته في القلح : ١٤٨ (توفي سنة ٦٢٥) .

٢ أبو بكر محمد بن مرتين وزر للظافر بن المعتد أثناء ولايته على قرطبة ؛ (انظر المغرب ١ :

٢٤٣ وفيه البيتان الأولان) .

وإذا الدهرُ دهرنا وإذا الدا رُ قريبٌ وإذا يقولُ الرقيبُ

ومنها :

أسألُ اللهَ عَقْوَهُ فلئن سا ءَ مقالي لقد تعفُ القلوبُ  
قد ينالُ الفتى الصغائرَ ظرفاً لا سواها ولتذُتُوبُ ذنوبُ  
وأخو الشعرِ لا جناحَ عليه وسواءُ صدوقه والكذوبُ

٣٣٤ - وقال الخطيب أبو عبد الله محمد بن عمر الإشبيلي<sup>١</sup> :

وكلُّ إلى طَبَعِهِ عائدٌ وإن صَدَّه المنعُ عن قصدِهِ  
كذا الماءُ من بعد إسْخَانِهِ يَعُودُ سَرِيعاً إلى بَرْدِهِ

وقال :

يا معدنَ الفضلِ وطَوْدَ الحجى لا زلتَ من بحرِ العلا تغتَرَفُ  
عبدك بالبَابِ فقلْ منعماً يدخلُ أو يصبرُ أو ينصرفُ

٣٣٥ - وقال إمامُ اللغة أبو بكر محمد بن الحسن<sup>٢</sup> الزبيدي الإشبيلي :

ما طلبتُ العلومَ إلا لأتِي لم أزلُ مِينَ فنونها في رياضِ  
ما سواها له بقلبيَ حظٌ غير ما كان للعيون المِرَاضِ

وقال :

أشعِرَنُ قلبَكَ ياسا ليسَ هذا الناسُ ناسا  
ذَهَبَ الإبريزُ منهم فبقوا بعدُ نحاسا

١ هو المعروف بالمهريس ، وقد مرت الإشارة إلى ترجمته ، قتل في واقعة تالمست سنة ٦٢٥ .

٢ ق ب : الحسين .

ساميريين يقولون جميعاً لا ميساسا

وكان كتاب « العين » للخليل مختلّ القواعد ، فامتعض له هذا الإمام ،  
وصقل صدأه كما يُصقل الحسام ، وأبرزه في أجمل مترع ، حتى قيل : هذا  
مما أبدع واخترع ، وله كتاب في النحو يسمى « الواضح » وصيّره الحكم  
المستنصر مؤدباً لولده هشام المؤيد ، وبالجملة فهو في المغرب بمنزلة ابن دريد  
في المشرق<sup>١</sup> .

٣٣٦ - وقال النحوي أبو بكر محمد بن طلحة الإشبيلي<sup>٢</sup> ، وشعره رقيق  
خارج عن شعر النحاة ، ومنه :

إلي أيّ يوم بعده يُرْفَعُ الخمرُ      وللورقِ تغريدٌ وقد خفق النهرُ  
وقد صقلتْ كف الغزالة أفقها      وفوق متون الروض أودية خضرُ  
وكم قد بكتْ عين السماء بدمعها      عليها ولولا ذاك ما بسم الزهرُ

وقال<sup>٣</sup> :

بدا الهلالُ فلما      بدا نقصتُ وتمّا  
كأنّ جسمي فعلٌ      وسحر عينيه لما

وكان لا يملك نفسه في النظر إلى الصور الحسان ، وأتاه يوماً أحد أصحابه  
بولد له فتان الصورة ، فعندما دخل مجلسه قصر عليه طرفه ، ولم يلتفت  
إلى والده ، وجعل والده يوصيه عليه وهو لا يعلم ما يقوله ، وقد افتضح في طاعة  
هواه ، فقال له الرجل : يا أبا بكر حقق النظر فيه لعله مملوك ضاع لك ، وقد

١ م ب : بالمشرق .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٥٣ والتكملة : ٦٠٥ وبنية الوعاة : ٤٩ وبرنامج الرعيني : ٧٩ .

٣ البيتان في المغرب .

جبره الله تعالى عليك ، ولكن على مَنْ يتركه عندك لعنة الله ، هذا ما عملت  
بمحضري ، والله إن غاب معك عن بصري لمحة لتفعلنَّ به ما اشتهر عنك ؛  
وأخذ ولدَه وانصرف به ، فانقلب المجلس ضحكاً .

٣٣٧ - وقال أبو جعفر أحمد بن الأبار الإشبيلي<sup>١</sup> ، وهو من رجال

« الذخيرة » :

زارني خيفةَ الرقيب مُربياً	يَتَشَكَّى منه الفضيْبُ الكثيبُ
رشاً راشَ لي سِهَامَ المنايا	من جفونٍ يَسِيْ بهنَّ القلوبا
قال لي ما ترى الرقيبَ مطلاً	قلتُ دعه أتى الجنابَ الرحيا
عاطِهٍ أكؤسِ المدامِ دِراكاً	وأدرُها عليه كوباً فكوباً
واسقنيها من خمر عينيك صِرْفاً	واجعلِ الكأسَ منك تُغْرأُ شنيا
ثمَّ لما أنْ نامَ مَنْ نَتَّقِيهِ	وتَلَقَى الكرى سميعاً مُجيباً <sup>٢</sup>
قال لا بدَّ أنْ تدبَّ عليه	قلتُ أبغي رشاً وأخذ ذيباً
قال فابدأ بنا وثنَّ عليه	قلتُ عمري لقد أتيتُ قريبا
فوئبنا على الغزالِ ركوباً	وسعينا على الرقيبِ دبيبا
فهلْ أبصرتْ أو سمعتْ بصبٍ	ناك محبوبه وناك الرقيباً

وأنشد له ابن حزم<sup>٣</sup> :

أوما رأيتَ الدهرَ أقبلَ معتباً  
متنصلاً بالعدرِ ممّا أذنباً  
بالأمسِ أذبل في رياضك أيكّةً  
واليومَ أطلّع في سمالكِ كوكباً

١ انظر الذخيرة (٢ : ٥٢) والمغرب ١ : ٢٥٣ والجدوة : ١٠٧ وبغية الملتبس رقم : ٣٦٤

ووفيات الأعيان ١ : ٦٤ والمسالك ١١ : ٤١٨ .

٢ سقط من م ؛ وفي ب : ثم لما أتى الرقيب سريماً .

٣ يعني في الجدوة : ١٠٧ .

وقيل : إنه خاطب بهما ابن عبيد ملك إشبيلية وقد ماتت له بنتٌ ووُلد له ابنٌ ، وبعضهم ينسبهما لغيره .

٣٣٨ - ودخل الأديبُ أبو القاسم [ابن] العطار الإشبيلي حمّاماً بإشبيلية ، فجلس إلى جانبه وسيم خمريّ العينين ، فافتن بالنظر إليه والمحادثة إلى أن قام وقعد في مكانه أسود ، فقال :

مضتُ جنّة المأوى وجاءت جهنّمُ      فها أنا أشقى بعدما كنتُ أنعمُ  
وما كان إلا الشمسُ حان غروبُها      فأعقبها جنحٌ من الليل مظلمُ

٣٣٩ - وقال الأديب المصنّف أبو عمرو عثمان بن علي بن عثمان ابن الإمام الإشبيلي صاحب « سمط الجمان » :

عذيري من الأيام لا درّ درّها      لقد حمّلتني فوق ما كنتُ أرهبُ  
وقد كنتُ جلدأ ما ينهني النوى      ولا يستيني الحادثُ المتغلبُ  
يقاسي صروف الدهر مني مع الصبا      جذيلُ حكاك أو عديقُ مرجبُ  
وكنتُ إذا ما الخطبُ مدّ جناحهُ      عليّ تراني تحتَه أتقلبُ  
فقد صرتُ خفّاقَ الجناح يروعي      غرابٌ إذا أبصرتهُ وهو يتنعبُ  
وأحسبُ من ألقى حبيباً مودعاً      وأنّ بلادَ الله طراً مُحصّبُ

وقد امتعض للآداب في صدر دولة بني عبد المؤمن ، فجمع شمل الفضلاء الذين اشتملت عليهم المائة السابعة إلى مبلغ سنه منها في ذلك الأوان ، واستولى بذلك على خصل الرهان ، وانفرد بهذه الفضيلة التي لم ينفرد بها إلاّ فلان وفلان .

٣٤٠ - وكان الأديب العالم الصالح أبو الحسن علي بن جابر الدباج الإشبيلي إماماً في فنون العربية ، ولكن شهر بإقراء كتب الآداب كالكمال للمبرد ونوادر

١ زيادة من المغرب ١ : ٢٥٤ وانظر القلائد : ٢٨٤ والمسالك ١١ : ٣٩٤ .

القالبي وما أشبه ذلك ، وكان - مع زهده - فيه لَوَذَعِيَّةٌ ، ومن ظرفه أن أحد تلامذته قال لعلام جميل الصورة : بالله أعطني قبلة تمسك رمقي ، فشكاه إلى الشيخ وقال له : يا سيدي ، قال لي هذا كذا ، فقال له الشيخ : وأعطيته ما طلب ؟ فقال : لا ، فقال له : ما هذه الثقالة ؟ ما كفاك أن حرمته حتى تشتكي به أيضاً ؟ وحَسْبُكَ من جلاله قدره أن أهل إشبيلية رضوا به إماماً في جامع العديس .

وله ١ :

لَمَّا تَبَدَّتْ شَمْسُ الْأَفْقِ بَادِيَةً      أَبْصَرْتُ شَمْسِينَ مِنْ قُرْبٍ وَمِنْ بَعْدِ  
مِنْ عَادَةِ الشَّمْسِ تُعْشِي عَيْنَ نَاطِرِهَا      وَهَذِهِ نَوْرَهَا يَشْفِي مِنَ الرَّمَدِ

٣٤١ - وقال مالك بن وهيب :

أَرَامِيَّتِي بِالسَّحْرِ مِنْ لِحْظَاتِهَا      نَعِيدُكَ كَيْفَ الرَّمِي مِنْ دُونَ أَسْهَمِ  
أَلَا فَاعْلَمِي أَنَّ قَدْ أَصَبْتِ ، فَوَاصِلِي      سَهَامَكَ أَوْ كُفَيْتِي فَلَسْتُ بِمُسْلِمِ  
فَأَنْسَانَ عَيْنِ الدَّهْرِ أَصْمَيْتِ فَاحْذَرِي      مَطَالِبَةَ بِالْقَلْبِ وَالْيَدِ وَالْقَمِ  
أَمَا هُوَ فِي غَيْلٍ غَدَا غَابَهُ الْقَنَا      تَحْفُ بِهَ آسَادُ كُلِّ مَلْتَمِ  
وَلَوْ أَنَّ لِي رُكْنًا شَدِيدًا بِنَجْوَةِ      أَوَيْتُ لَهُ مِنْ بَأْسِ لِحْظِكَ فَارْحَمِي

وهو إشبيلي ، كان من أهل الفلسفة كما في « المسهب » ، قال : وهو فيلسوف المغرب ، ظاهر الزهد والورع ، استدعاه من إشبيلية أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين إلى حضرة مرآكش ، وصيره جليسه وأنيسه ، وفيه يقول بعض أعدائه :

دَوْلَةٌ لِابْنِ تَاشْفِينَ عَلِيٍّ      طَهَّرَتْ بِالْكَمَالِ مِنْ كُلِّ عَيْبِ  
غَيْرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ دَسَّ إِلَيْهَا      مِنْ خَبَايَاهِ مَالِكِ بْنِ وَهَيْبِ

١ القدح : ١٥٦ .

وأمرهُ علي بمناظرة محمد بن تومرتَ الملقبِ بالمهدي الذي أنشأ دولة بني عبد المؤمن .

[ أشعار لأبي الصلت ]

٣٤٢ - وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز المذكور في غير هذا الموضع من هذا الكتاب يستدعي بعض إخوانه<sup>١</sup> :

بمعاليك وجدكُ جُدُّ بلقياك لعبدكُ  
حضر الكلُّ ولكنْ لم يطبْ شيءٌ لفقدكُ

وقال :

وراعبٍ في العلوم مجتهدٍ لكنَّهُ في القَبُولِ جُلْمُودُ  
فهو كذي عَنَّةٍ به شَبَقٌ ومشتهي الأكل وهو مَمْعُودُ

وقال :

لئن عرضتْ نوى وعدتْ عوادٍ أذالت من دُنُوكُ بالبعادِ  
فما بعدتْ عن اللقيا جُومٌ تَدانَتْ بالمحبةِ والودادِ  
ولكن قُرْبُ داركُ كانَ أندى على كبدي وأحلى في فؤادي

وله في مجمرة :

ومحرورة الأحشاء لم تَدْرِ ما الهوى ولم تدرِ ما يَلتقى المحبُّ من الوجدِ  
إذا ما بدأ برقُ المدامِ رأيتها تثير غماماً في الندى من النَّدِ  
ولم أر ناراً كلما شبَّ جمرها رأيت الندامى منه في جنة الخلدِ

١ معظم هذه القطع لأبي الصلت وردت في الخريدة ٤ / ١ : ٢٥٨ - ٣٢٠ .



وقوله من قصيدة :

وإن همُّ نكصوا يوماً فلا عَجَبُ  
العَوْدُ أحمدُ والأَيامُ ضامنةُ  
قد يَكْهَمُ السيفُ وهو الصارمُ الذِكرُ  
عُقْبَى النِجَاحِ ووَعْدُ اللَّهِ مُنْتَظَرُ

وقال :

تَقْرِبُ ذِي الأَمْرِ لِأَهْلِ النَّهْيِ  
هَذَا بِهِ أَوْلَى وَمَا ضَرَّهُ  
أَفْضَلُ مَا سَاسَ بِهِ أَمْرَهُ  
تَقْرِبُ أَهْلَ اللّهُو فِي النَّدْرَةِ  
أَدْنَى إِلَى الشَّمْسِ مِنَ الزُّهْرَةِ  
عَطَارِدٌ فِي جُلِّ أَوْقَاتِهِ

وقوله :

تُفَكِّرُ فِي نَقْصَانِ مَالِكَ دَائِمًا  
وَيَشُنِيكَ خَوْفُ الْفَقْرِ عَنِ كُلِّ بَغِيَّةٍ  
وَتَغْفُلُ عَنِ نَقْصَانِ جِسْمِكَ وَالْعَمْرِ  
وَخَوْفِكَ حَالَ الْفَقْرِ شَرُّ مِنَ الْفَقْرِ

وقوله :

يَا لَيْلَةَ لَمْ تَبَيِّنْ مِنَ الْقَصْرِ  
لَمْ تَكُ إِلَّا كَلًّا وَلَا وَمَضَتْ  
كَأَنَّهَا قُبَيْلَةٌ عَلَى حَدَرٍ  
تَدْفَعُ فِي صَدْرِهَا يَدُ السَّحَرِ

وقال فيمن نظر إليه فأعرض عنه :

قالوا : نَتَى عَنْكَ بَعْدَ الْبَشْرِ صَفْحَتَهُ  
فَقُلْتُ : لَا بَلْ دَرَى وَجَدِي بَعَارِضِهِ  
فَهَلْ أَصَاحُ إِلَى الْوَاشِيِ فغَيْرَهُ  
فَرَدَّ صَفْحَتَهُ عَمْدًا لِأَبْصَرَهُ

وقال :

حَكَتِ الزَّمَانَ تَلَوْنًا  
فَوَصَّالَهَا بَرْدُ الأَصْبِ  
لِمَحِبَّتِهَا الْعَانِيِ الأَسِيرِ  
لِوَهْجِهَا حَرُّ المَهِجِرِ

وقال يستدعي :

هو يومٌ كما تراه مطيرٌ  
وأرانا الغمامُ والبردُ ثوبيه  
ولدينا شمسان شمسٌ من الرأ  
فمن الرأي أن تُسبَّ الكوانيه  
فاتركِ الإعتذارَ فيه فتركِ ال  
كَلِيبَ القُرِّ فيهِ والزمهريُّ  
نِ عَلَيْنَا كلاهما مجرورُ  
حِ وشمسٌ تسعى بها وتدورُ  
نُ بأجذالها وترُخى الستورُ  
شربِ في مثلِ يومنا تعذيرُ

وقال :

هو البحرُ غُصٌّ فيه إذا كان ساكناً  
على الدرِّ واحذره إذا كان مُزْبِداً

وقال :

غبتَ عنَّا فغاب كلُّ جمالٍ  
ثمَّ لما قدمتَ عاودنا الأذ  
فلو أنا نَجْزِي البشيرَ بنعمي  
ونأى إذ نأيتَ كلُّ سرورٍ  
سُ وَقَرَّتْ قلوبنا في الصدورِ  
لَوَهَبْنَا حَيَاتِنَا للبشيرِ

وقال :

كم ضيَّعتَ منك المنى حاصلًا  
فالفظُ بها عنك فمن حقُّ ما  
فإن تعلتَ بأطماعها  
كان من الأحزم أن يُحفظًا  
يخفي صواب الرأي أن يُلفظًا  
فإنما تحلُمُ مستيقظًا

وقال :

يقولون لي صبراً وإنِّي لصابرٌ  
سأصبرُ حتى يقضيَ الله ما قضى  
على نائباتِ الدهرِ وهي فواجعُ  
وإن أنا لم أصبرُ فما أنا صانعُ

وقال :

بأبي خَوْدٌ شَمُوعٌ<sup>١</sup>      أُقبلتُ تحملُ شَمْعَهُ  
فالتقى نوراها وَاخ      تلتفا قدراً ورفَعَهُ  
ومسيرُ الشمسِ تسته      لدي بضوءِ النجمِ بدعه

وقال في فرسٍ أشهب :

وأشهبٍ كالشهابِ أضحي      يَلُوحُ في مُذْهبِ الجلالِ  
قال حسودي وقد رآه      يَخُبُّ نَحْيَ<sup>٢</sup> إلى القتالِ :  
مَنْ أَلْجَمَ الصَّبْحَ بالثريا      وأسرجَ البرقَ بالهلالِ

وقال :

رمتني صروفُ الدهرِ بينَ مَعاشِرِ      أَصَحَّهُمْ وِدّاً عدوُّ مُقاتلِ  
وما غربةُ الإنسانِ في غيرِ دارِهِ      ولكنّها في قِربِ مَنْ لا يَشاكلُ

وقال :

أصبحتُ صَبّاً دنفأ مغرماً      أشكو جَوَى الحَبِّ وأبكي دما  
هذا وقد سَلَمَ إذ مرَّ بي      فكيف لو مرَّ وما سلّما

وقال :

وقفنا للتوى فَهَمَّتْ قلوبُ      أَضَرَّ بها الجوى وَهَمَّتْ شُؤونُ  
يُنَاجِي بعضنا باللحظِ بعضاً      فتعربُ عن ضمائرنا العيونُ  
فلا والله ما حَفِظْتَ عهودُ      كما ضمّنوا ولا قُضِيَتْ ديونُ

١ الشموع : اللعوب .

٢ الخريدة : يجنب خلفي .

ولو حكم الهوى يوماً بعدلٍ لأنصفَ من يَفِي ممّن يخونُ  
أمرٌ بداركم وأغضُّ طرفي مخافةً أن تُظنَّ بي الظنونُ

٣٤٣ - ولما رأى عبدُ الرحمن بن سبلاق<sup>١</sup> الحضرمي الإشبيلي في النوم  
أنه مرَّ على قبر وقوم يشربون حوله وسط أزهـر فأمره أن يرثي صاحب القبر ،  
وهو أبو نُوَاس الحسن بن هانيء ، قال :

جارك يا قبرُ انسكابُ<sup>٢</sup> الغمامِ وعادَ بالروح عليك السلامُ  
ففيك أضحي الظرفُ مستودعاً واستترتُ عنّا عيونُ الظلامِ

٣٤٤ - وقال أبو بكر محمد بن نصر الإشبيلي<sup>٣</sup> :

وكأنما تلك الرياضُ عرائسُ ملبوسهن معصفرٌ ومزعفرُ  
أو كالقيان لبسن مَوْشِيّ الحلي فلهنَّ في وَشِيّ اللباسِ تبخترُ

٣٤٥ - وقال أحمد بن محمد الإشبيلي<sup>٤</sup> :

أما ترى النرجسَ الغضَّ الذكيَّ بدا كأنه عاشقٌ شابت ذوائبهُ  
أو المحبُّ شكاً لما أضرب به قرطُ السقامِ فعادتهُ حبايبهُ  
وقال<sup>٥</sup> :

رُبَّ نَيْلُوفَرٍ غداً مخجلَ الرا ثي إليه نفاسَةٌ وغرابةُ  
كملكٍ للزنجِ في قبّةٍ بي ضياء يدنو الدجى فيعلقُ بابهُ

- ١ في الأصول : سبلاق ، والتصويب عن الجذوة : ٢٥٥ .
- ٢ الجذوة : نشاط ؛ وهو السحاب المرتفع .
- ٣ البيتان في كتاب البديع : ٢٧ .
- ٤ هو أبو جعفر ابن الأبار الذي سبق ذكره ؛ وترجم له صاحب المغرب ١ : ٢٥٩ وفيه القطعتان .
- ٥ البديع : ١٤٦ .

٣٤٦ - وقال أبو [ الحسن ] الأصبع بن سيد :

كأنما الرجسُ في منظرِ الـ حُسنِ الذي أمثاله تُبتَغى  
أناملُ من فضةٍ فوقه كأسٌ من التبرِ به أفرغا

٣٤٧ - وقال أبو إسحاق إبراهيم بن خيرة الصباغ مما أنشده له أبو عامر  
ابن مسلمة في كتاب « حديقة الارتياح » ٢ :

يومٌ كأنَّ سحابه لبت عِمامي المصامتُ  
حُجبتُ به شمس الضحى بمثالِ أجنحة الفوَاحتُ  
فالغيثُ يبكي فقَدَها والبرقُ يضحكُ مثلَ شامِتُ  
والرعدُ يخطبُ مُفصِحاً والجوُّ كالمحزونِ ساكتُ  
والروضُ يسقيه الحيا والنورُ ينظرُ مثلَ باهتُ  
فاشربُ ولذَّ بجنَّةٍ واطربُ فإنَّ العمرَ فائتُ  
ولهُ :

ربَّ ليلٍ طالَ لا صُبْحَ لهُ ذي نجومٍ أقسمتُ أن لا تغورُ  
قد هتكنا جُنْحَه من فلقٍ من خمورٍ ووجوهٍ كالبدورُ  
إذ بدتْ تشبهها في كأسها نارُ إبراهيمَ في بردٍ ونورُ  
صرعتنا إذ علونا ظهرها في ميادينِ التصابي والسرورُ  
وكانتْ حينَ قمنا معشرُ نُشِرُوا بعدَ مماتٍ من قبورُ

٣٤٨ - وقال أبو بكر ابن حجاج ٣ :

١ زيادة من الجذوة : ١٦٤ ؛ قال الحميدي : وهو شاعر إشبيلي رأته قبل الخمسين وأربعمائة .  
٢ الجذوة : ١٤٥ وفيه بعض الأبيات التائية ، ونسبها لأبي عامر ابن مسلمة في المطمح : ٢٣ وهي  
في المغرب ١ : ٢٦٠ لابن خيرة .  
٣ هو أبو بكر عبد الله بن حجاج من شعراء المعتضد ، هجر إشبيلية إلى الجزيرة الخضراء وأخذ يمدح  
محمد بن القاسم بن حمود (المغرب ١ : ٢٦١) .

لَمَّا كَتَمْتُ الْحَبَّ لَا عَنْ قَلْبِي      وَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الْبُكَاءَ وَالْعَوِيلَ  
نَادَيْتُ وَالْقَلْبُ بِهِ مَغْرَمٌ      يَا حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ

وقال :

يقولون إنَّ السحرَ في أرضِ بابلِ      وما السحرُ إلا ما أرتك محاجرُهُ  
وما الغصنُ إلا ما انثني تحتَ برْدِهِ      وما الدّعصُ إلا ما طوّته مآزرُهُ  
وما الدرُّ إلا ثغرُهُ وكلامُهُ      وما الليلُ إلا صُدْغُهُ وغداثرُهُ

وهذه الأبيات من قصيدة في محمد بن القاسم بن حمّود ملك الجزيرة الخضراء ، أعادها الله تعالى .

٣٤٩ - وقال الرّصافي أبو عبد الله الشاعر المشهور ، وهو ابن رومي الأندلس ، في حريري<sup>١</sup> :

وبنفسِي من لا أسميه إلا      بعضَ إمامةٍ وبعضَ إشارةٍ  
هو والظبيُّ في المجالِ سواءٌ      ما استفاد الغزالُ منه استعارهُ  
أغْيَدٌ يُمْسِكُ الحريرَ بفيه      مثل ما يمسك الغزال العرّارهُ

وهو القائل بمدح أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي :

لو جئت نار الهدى من جانبِ الطُّورِ      قبستَ ما شئتَ من علمٍ ومن نورِ

٣٥٠ - ولأبي جعفر أحمد بن الجزار<sup>٢</sup> :

وما زلت أجني منك والدهرُ مُمَحِلٌ      ولا ثمرٌ يُجني ولا زرعٌ يُحصَدُ  
ثمّارَ أيادٍ دانياتٍ قطفوها      لأوراقها ظلُّ عليٍّ ممددُ

١ ديوان الرصافي : ١٠٠ ( عن النفع ) ؛ ٧٧ .

٢ مرت الأبيات ص : ٤١٣ ، وانظر المغرب ٢ : ٣٥٦ .

يُرى جاريًا ماء المكارم تحتها وأطيّارٌ شكري فوقهنّ تغرّدُ

٣٥١ - ولما نفي أبو جعفر ابن النبي<sup>١</sup> من ميّورقة ، وأقلع في البحر ثلاثة أميال ، ونشأت ريح ردّته ، لم يتجاسر أحد من إخوانه على إتيانه ، فكتب إليهم :

أحببتنا الألى عتبوا علينا وأقصونا وقد أزفّ الوداعُ  
لقد كنتم لنا جدلاً وأنساً فما بالعيش بعدكم انتفاعُ  
أقولُ وقد صدّرنا بعد يوم : أشوقُ بالسفينة أم نزاعُ  
إذا طارت بنا حامت عليكم كأنّ قلوبنا فيها شرّاعُ

وله<sup>٢</sup> :

غصبت الثريا في البعاد مكانها وأودعت في عيني صادق نونها  
وفي كلّ حالٍ لم تزالي بخيلة فكيف أعرت الشمس حلّة ضوئها  
وله في غلام يرمي الطيور :

قالوا : تصيب طيور الجوّ أسهمه إذا رماها فقلنا : عندنا الحبرُ  
تعلمت قوسه من قوس حاجبه وأيد السهم من أجزائه الحورُ  
يلوح في بردة كالنفس حالكة كما أضاء بجنح الليلة القمرُ  
وربما راق في خضراء مونيقة كما تفتح في أوراقه الزهرُ

٣٥٢ - وقال الأديب الكاتب القاضي أبو المطرف ابن عميرة المخزومي .

١ هو شخص آخر غير أبي جعفر أحمد بن عبد الولي الذي أحرقه السيد الكنيطور في بلنسية ، وقد خلط بعض الناس بينهما ونبه ابن الأبار على ذلك في التكملة : ٢٤ . انظر ترجمة النبي في القلائد : ٢٩٨ والمطوح : ٩١ والمغرب ٢ : ٣٥٧ والحاوية ؛ وكتب اسمه في م ب « ابن البنا » .  
٢ القلائد : ٣٠٠ ، والقطعتان الأخريان فيه وفي المغرب .

لما قص شعر ملك شرق الأندلس زيان بن مردنيش مزين ، في يوم رفع فيه

أبو المطرف شعراً ، فخرجت صلة المزين ، ولم تخرج صلة أبي المطرف<sup>١</sup> :

أرى مَنْ جاء بالموسى مُوسَى وراحة من أذاع المدحَ صِفْراً  
فأنجح سعيُّ ذا إذ قصَّ شعراً وأخفق سعيُّ ذا إذ قصَّ شعراً

واسم أبي المطرف أحمد ، وهو من جزيرة شقر ، من كورة ببلنسية .

٣٥٣ - وكان الكاتب الحسيب أبو جعفر أحمد بن طلحة يعيش علجاً من

علوج ابن هودٍ وبماشيه في غزواته ، وفيه يقول<sup>٢</sup> :

ما أحضرُ الغزوَ من صلاحٍ كلاً ولا رغبةَ الجهادِ  
لكنْ لكيما يكونَ داعٍ لقريننا خيرةَ الجيادِ

وقد تقدمت حكايته فلترجع .

٣٥٤ - وكان صنوبري الأندلس أبو إسحاق ابن خفاجة ، وهو من

رجال الذخيرة والقلائد والمسهب والمطرب والمغرب ، وشهرته تغني عن الإطناب فيه ، مغررى بوصف الأنهار والأزهار وما يتعلق بها ، وأهل الأندلس يسمونه الجنتان ، ومن أكثر من شيء عُرِف به ، وتوفي سنة ثلاث أو خمس وثلاثين وخمسمائة ، وولد سنة خمسين وأربعمائة ، ومن نظمه قوله<sup>٣</sup> :

ربّما استضحك الحجابَ حبيبٌ نفضتْ لونها عليه المدامُ  
كلّما مرَّ قاصراً منْ خطاه يتهادى كما يمرُّ الغمامُ

١ القدح : ٤٣ .

٢ القدح ١١٤ - ١١٧ . وانظر ما تقدم ص ٣٠٧ - ٣١٠ .

٣ ديوان ابن خفاجة : ٦٢ ، ١٨٣ ، ٣٦٠ ، ٣٥٦ .

٤ م : كما تهادى .



سَلَّمَ الغصنُ والكثيبُ علينا فعلى الغصنِ والكثيبِ السَّلامُ  
وبات مع بعض الرؤساء فكاد ينظفئ السراج ثم تراجع نوره ، فقال :

وأغرَّ ضاحكٍ وجهه مصباحهُ فأنار ذا قمراً وذلك فرّقدا  
ما إن خبا تلقاء نورِ جبينه حتى ذكا بذكائه فتوقدا  
وله :

كُتبتُ وقلبي في يدكَ أسيرُ يُقيمُ كما شاء الهوى ويسيرُ  
وفي كلِّ حينٍ من هواك وأدمعي بكلِّ مكانٍ روضةٌ وغديرُ  
وله :

كتابنا ولدينا البدرُ ندّمانُ وعندنا أكؤسٌ للراح شُهبانُ  
والقُضبُ مائةٌ ، والطيرُ ساجعةٌ والأرضُ كاسيةٌ ، والجوُّ عُريانُ

٣٥٥ - ولما سئل أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض عن  
لغة فعجز عنها بمحضر من خجل منه أقسم أن يقيد رجله بقيد حديد ، ولا  
ينزعه حتى يحفظ « الغريب المصنف » فاتفق أن دخلت عليه أمه في تلك الحال ،  
فارتاعت ، فقال :

رِبعُ عجوزي أن رأيتي لابساً حَلَقَ الحديدِ ومثلُ ذاك يَرُوعُ  
قالت: جُنِنْتُ؟ فقلت: بل هي همةٌ هي عنصرُ العَلَياءِ واليَسْبوعُ  
سَنَ الفرزدقُ سُنَّةً فتبعَتْها إنِّي لما سَنَ الكرامُ تَبُوعُ

وكان شاعراً وشاحاً وطاح دمه على يد الزبير أمير قرطبة لما هجاه بمثل قوله :

عَكَّفَ الزبيرُ على الضلالةِ جاهداً ووزيرهُ المشهورُ كلبُ النارِ  
ما زال يأخذُ سجدةً في سجدةٍ بينَ الكؤوسِ ونعمةِ الأوتارِ

فإذا اعتراه السهو سَبَّحَ خَلْفَهُ صَوْتُ الْقِيَانِ وَرَنَّةُ الْمِزْمَارِ

ولما بلغ الزبير عنه ذلك وغيره أمر بإحضاره ، فقرعه ، وقال : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنني لم أر أحقّ بالهجو منك ، ولو علمت ما أنت عليه من المخازي لهجوت نفسك إنصافاً ، ولم تكلمها إلى أحد ، فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته ، وأمر بقتله .

وأُشِدَّ له ابن غالب في « فرحة الأنفس » قوله في حلقة خائط :

وحلقة كشعاع الشمسِ صافيةٍ لو قابلتْ كوكباً في الجوّ لالتهبها  
تأنقَ القَيْنُ في إحكامِ صنعِها حتى أفاضَ على أطرافها الذهبا  
كأنها بيضةٌ قدْ قُدَّ قَوْنَسُها وكلَّ جنبٍ لها بالطعنِ قد تُثبَا

وقال فيمن يحدث نفسه بالخلافة<sup>١</sup> :

أميرَ المؤمنين ، نداء شيخٍ أفادك من أماليه اللطيفة  
تحفظُ أن يكونَ الجذعُ يوماً سريراً من أسرتك المنيفة  
وأذكر منك مصلوباً فأبكي وتضحكني أمانيك السخيفة

وهاجى ابن سارة ، فقال فيه ابن سارة<sup>٢</sup> :

ومن العجائب أن يكونَ الأبيضُ بحماره بينَ السوابقِ يركضُ

٣٥٦ - وقال إمام النحاة بالأندلس أبو علي عمر الشلوبين فيمن اسمه

قاسم<sup>٣</sup> :

١ مرت الأبيات ص : ٤٦١ ؛ وقد سقطت من نسخة «م» .

٢ زاد المسافر : ٦٧ .

٣ القدح : ١٥٣ .

ومما شجأ قلبي وقَضَّ مدامعي هَوَى قَدَّ قلبي إذ كلفتُ بقاسم  
وكنتُ أظنُّ الميم أصلاً فلم تكن وكانتُ كميمٍ أَلحقتُ بالزراقم

والزراقم : الحيات ، مشتقة من الزرقة ، والميم زائدة ، يريد أن ميم قاسم  
كيمها ، فهو قاسٍ ، وهو منسوب إلى حصن شلوبينة<sup>١</sup> على ساحل غرناطة ،  
وله من الشهرة والتأليف ما يغني عن الإطناب في وصفه ، وله « التوطئة »  
و « شرح الجزولية » وغيرهما ، وكان مغفلاً ، ومع ذلك فهو آية الله تعالى  
في العربية ، وكان في لسانه لكنة ، ولما أراد مأمون بني عبد المؤمن التوجه إلى  
مُرْسِيَّة ، وقد ثار بها ابن هود ، وأنشده الشعراء ، وتكلم في مجلسه الخطباء ،  
قام الشلوين وقال دعاء منه : ثَلَمَك اللهُ ونَثَرَكَ ، يريد سَلَمَك اللهُ ونَصَرَكَ ،  
لأنه بلكنته يردّ السين والصاد ثاء ، فكان كما قال : عاد المأمون وقد ثلم  
عسكره ونثر .

٣٥٧ - ولما مرض الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم الإلبيري<sup>٢</sup> دخل عليه  
الوزير أبو خالد هاشم بن رجا ، فرأى ضيق مسكنه ، فقال : لو اتخذت غير  
هذا المسكن لكان أولى بك ، فقال وهو آخر شعر قاله :

قالوا ألا تستعجدُ بيتاً تعجبُ من حسنه البيوتُ  
فقلتُ : ما ذلكم صواباً عَشٌّ<sup>٣</sup> كثير لمن يموتُ  
لولا شتاء ، ولَفَحُ قَيْظُ وخوفُ لَص ، وحفظُ قوتُ  
ونسوةٌ يَبْتَغِين سترأُ بنيتُ بُنيانَ عَنكَبوتُ

١ هكذا قال ابن سعيد في القدح ، ولكن يبدو أنه سمي بذلك لأن أحد أجداده كان أبيض أشقر ،  
وذلك هو معنى كلمة « شلوين » ؛ انظر ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ٤٦٠ ؛ والحاشية ؛ وفي  
م : شلوبينية .

٢ انظر ديوان الإلبيري : ١٠٩ .

٣ الديوان : حفش .

٣٥٨ - وقال أبو بكر ابن عبادة القزاز الموشح في ابن بسام صاحب  
« الذخيرة » :

يا منيفاً على السماكين سامٍ حُزَّتْ خَصَلَ السباقِ عن بسامٍ -  
إن تحك مدحةً فأنت زهيرٌ أو تشببُ فعروةُ بنُ حزامٍ -  
أو تباكرُ صيدَ المها فابنُ حُجَيرٍ أو تُبَكِّ الديارِ فابنُ حذامٍ -  
أو تدمّ الزمانَ وهو حقيقٌ فأبو الطيبِ البعيدُ المرامي -

٣٥٩ - ولما انتثر سلك نظام مُلكٍ لمتونة تفرق مُلكَ الأندلس رؤساء  
البلاد ، وكان من جملتهم الأمير أبو الحسن ابن نزار لما له من الأصالة في  
وادي آش ، فحسده أهل بلده ، وقصدوا تأخيرَه عن تلك المرتبة ، فخطبوا في  
بلدهم لملك شرق الأندلس محمد بن مردنيش ، ووجه لهم عماله وأوصاهم أن  
يُخْرِجَ هذا الأسدَ من غِيبِهِ ، ويفرِّقَ بينه وبين تأميله ، ورفعوا له أشعاراً  
كان يستريح بها على كاسه ، ويبثها بمحضر من يركن إليه من جُلَّاسِهِ ، ومنها  
قوله ، وقد استشعر من نفسه أنها أهل للتقديم ، مستحقّة لطلب سلفه القديم :

الآن أعرفُ قَدَرَ النفعِ والضَّرَرَ فكيف أصدرُ ما للملك من صدرِ  
وكيف أطلعُ في أفقِ العُلا قمرأً ويستهلُّ بكفّي واكفُ الدررِ  
وكيف أملاً صدرَ الدهرِ من رُعبٍ وأستقلُّ بحملِ الحادثِ النُكْرِ  
وأستعدُّ لما ترمي الخطوبُ به وأستطيلُ على الأيامِ بالفِكرِ  
لكنتي ربما بادرتُ منتهزاً لفرصةٍ مرقتُ كاللحمِ بالبصرِ  
في أمِّ رأسي ما يعيا الزمانُ بهِ شرحاً فسَلْ بعدها الأيامِ عن خبري

فعندما وقف ابن مردنيش على هذا القول وجهه إلى وادي آش من حمله  
إليه وقيده ، وقدم به إلى مُرسِيَةِ أسيراً ، بعدما كان مرتقباً أن يقدم أميراً ،  
فلما وقعت عين ابن مردنيش عليه قال له : أمكن الله منك يا فاجر ، فقال :

أنت - أعزك الله - أولى بقول الخير من قول الشر ، ومن أمكنه الله من القدرة على الفعل فما يليق به أن يستقدر بالقول ، فاستحيا منه ، وأمر به للسجن ، فمكث فيه مدة ، وصدرت عنه أشعار في تشوقه إلى بلاده ، منها قوله :

لقد بلغ الشوقُ فوقَ الذي      حسبت فهل للتلاقي سبيلُ  
فلو أتني متّ من شوقكم      غراماً لما كان إلا قليلُ  
تُعَلِّقُني بالتداني المُنَى      وينشدني الدهرُ : صبرٌ جميلُ  
فقل لبثينة إن أصبحتُ      بعيداً فلم يسئلُ عنها جميلُ  
أغضُّ جفوني عن غيرها      وسمعي عن اللومِ فيها يميلُ

ولم يزل على حاله من السجن إلى أن تحيّل في جارية مُحسنة للغناء حسنة الصوت و صنع مؤشحته التي أولها :

نازَعَكَ البدرُ اللّياحُ      بنتَ الدنانِ  
فلم يدعْ لك اقتراحُ      على الزمانِ

وفيهما يقول :

يا هل أقولُ للحسودُ      والعيسُ تُحْدَى  
يا لائمي على السّراحُ      كانت أماني  
أخرجها ذاك السّماحُ      إلى العيانِ

وجعل يلقيها على الجارية حتى حفظتها ، وأحكمت الغناء بها ، وأهداها إلى ابن مردنيس بعدما أوصاها أنّها متى استدعاها إلى الغناء وظفرت به في أطرب ساعة وأسرها غنته بهذه الموشحة ، وتلطّفت في شأن رغبتها في سراح قائلها ، فلعلّ الله تعالى يجعل في ذلك سبباً ، واتفق أن ظفرت بما أوصاها به ، وأحسن غناء الموشحة ، فطرب ابن مردنيس لسماع مدحه ، وأعجبه مقاصد قائلها ،

فسألها : لمن هي ؟ فقالت : لمولاي عبدك ابن نزار ، فقال : أعيدي عليّ قوله «يا لائمي على السراح» فأعادته ، فداخلته عليه الرأفة والأريحية بما أصابه ، فأمر في الحين بحملّ قيده ، واستدعى به إلى موضعه في ذلك الوقت ، فلما دخل خلع عليه وأذناه وقال له : يا أبا الحسن ، قد أمرنا لك بالسراح على رغم الحسود ، فارجع إلى بلدك مُباحاً لك أن تطلب الملك بها وبغيرها إن قدرت ، فأنت أهل لأن تملك جميع الأندلس ، لا وادي آش ، فقال له : والله يا سيدي بل التزم طاعتك والإقرار بأنك بعثني من قبر رماني فيه الحساد والوشاة ، ثم شربا حتى تمكنت بينهما المطايبية ، فقال له : يا ابن نزار ، الآن أريد أن أسألك عن شيء ، قال : وما هو يا سيدي ؟ قال : عما في أمّ رأسك حين قلت :

في أمّ رأسي ما يعنيا الزمانُ بهِ شرحاً فسئل بعدها الأيام عن خبري

فقال له : يا سيدي لا تسمع إلى غرور نفس ألقته على لسان نشوان لعبت بأفكاره الأمامي وغطت على عقله الآمال ، والله لقد بقيتُ في داري أروم الاجتماع بجمارية مهينة قدر سنة فما قدرت على ذلك ، ومنعتني منها زوجتي ، فكيف أطلب ما دونه قطع الرؤوس ونهب النفوس ؟ فضحك ابن مردنيش ، وجدّد له الإحسان ، وجهزه إلى بلده ، وأمر عمّاله أن يشاركوه في التدبير ، ويستأذنوه في الصغير والكبير ، فتأثّل به مجده ، وعظّم سعده .

ومن شعره قوله :

انظر إلى الروض سُحَيْراً وقد بَثَّ به الطَّلُّ علينا العيونُ  
تَرَقُبُ مِنَّا يَقْظَةً للمنى فقل لها أهلاً بداعي المجونُ  
وحشها شمساً إلى أن ترى شمس الضحى تطرق تلك الخفون

وقوله :

تنبه لمعشوقٍ وكأسٍ وقبينةٍ وروضٍ ونهرٍ ليس يبرح خفًا  
فقد نبهت هذي الحدائقُ ورقها وفتّح فيها الصبحُ بالطلّ أحداقا  
ومهما تكن في ضيقةٍ فأدر لها كؤوسَ الطلا فالسكرُ يوسع ما ضاقا

وقوله :

عطف القضيّبُ مع النسيمِ تميلًا والنهرُ مَوْشِيُ الخمائلِ والحلّى  
تركتهُ أعطافُ الغصونِ مظلًا ولنا عن النهجِ التويمِ مظلًا  
أمسى يُغازلنا بمقلةٍ أشهلٍ والطرفُ أسحرُ ما تراهُ أشهلا

وقال بعضهم : استدعاني أبو الحسن ابن نزار لمجلس أنس بوادي آش ،  
فلما احتفل مجلسنا ، وطابت لذتنا ، قال : والله ما تمامُ هذه المسرة إلا حضور  
أبي جعفر ابن سعيد وهو الآن بوادي آش ، فوافقناه على ذلك لما نعلم من  
طيب حالتنا معهما ، وأنهما لا يأتيان إلا بما يأتي به اجتماع النسيم والروض ،  
فخلا في موضع وكتب له :

يا خيرَ مَنْ يدعى لكاسٍ دائرٍ ووجوهٍ أقمارٍ وروضٍ ناضرٍ  
إنّا حضرنا في الندى عصابةً معشوقةً من ناظمٍ أو ناثرٍ  
كلُّ مخلّى للذي يختاره في الأمنِ من ناهٍ له أو زاجرٍ  
ما إن لهم شغلٌ بفنٍّ واحدٍ بل كلٌّ ما يجري بوقتِ الخاطرِ  
شدو ورقصٌ واقتطافٌ فكاهةٌ وتعانقٌ وتغامزٌ بنواظرِ  
وهمٌ كما تدري بأفتي أنجمٍ لكنّ لنا شوقٌ لبدرٍ زاهرٍ

سيدي ، لازلت متقدماً لكل مكرمة ، هل يجمل التخلف عن ناد قام فيه

السُرور على ساق ، وضحك فيه الأنس ملء فيه ، وانسدل<sup>١</sup> به ستر الصون ،  
وفاء عليه ظلُّ النعيم ، وسقّرت فيه وجوه الطرب ، وركضت خيل اللهو ، وثار  
قتام الند ، وهطلت سحاب ماء الورد ، وطُيبت الكؤوس ، كالعرائس  
على كراسي العروس<sup>٢</sup> ، المثقلة بالعاج والآبنوس ، وكأنّ قطع النهار ممتزجة  
بقطع الظلام ، أو بني حام قد خالطت بني سام ، وعلى رؤوس الأقداح ، تيجان  
نظمها امتزاج الماء بالراح ، فطوراً تستحيي فيبدو خجلها ، وطوراً تمتزج<sup>٣</sup>  
فيظهر وجلها ، والعود ترجمان المسرة قد جعلته أمه<sup>٤</sup> في حجّرها ، كولد  
ترضعه بدرّها ، وساقى الشرب كالغصن الرطيب ، أوراقه أردية الشرب ،  
وأزهاره الكؤوس ، التي لا تزال تطلع وتغرب كالشموس ، ساق يفهم  
بالإشارة ، حلو الشمائل عدبّ العبارة ، ذو طرف سقيم ، وخذّ كأنه<sup>٥</sup>  
من خقره لطيم ، ولدينا من أصناف الفواكه والأزاهر ، ما يجار فيه الناظر ،  
وهل تكمل لذّة دون إحضار خلود الورد ، وعيون النرجس ، وأصداع الآس ،  
ونهود السفرجل ، وقدود قصب السكر ، ومباسم قلوب الجوز ، وسرر  
التفاح ، ورُضاب ابنة العنب ، فقد اكتمل بهذه الأوصاف المختلصة من أوصاف  
الحبايب الطرب :

فَطِيرَ بِجَنَاحِ الشُّوقِ عِنْدَ وَصُولِهَا      إِلَيْكَ وَلَا تَجْعَلْ سِوَاكَ جَوَابَهَا  
فَلَا عَيْنَ إِلَّا وَهِيَ تَرْتَوُّ بِطَرْفِهَا      إِلَيْكَ فَيَسَّرُ فِي الْمِطَالِ حَسَابَهَا  
فَقَدْ أَصْبَحَتْ تَعْلُو عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ      لِبُعْدِكَ فَاكْشِفْ عَنْ سَنَاهَا ضِيَابَهَا

قال أبو جعفر : فجعلتُ وصولي جواب ما نظّم ونثّر ، وألّفت الحالة  
يقصر عن خبرها الخبر ، فانغمسنا في النعيم ، انغماس عرّف الزهر في

١ ب : فانسدل .

٢ ب : العرائس .

٣ م ودوزي : يخلف .



النسيم ، ومَرَّ لنا يومٌ غَضَّ الدهرُ عنه جَفَنَه ، حتى حسبناه عنواناً لما وعد الله تعالى به في الجنة .

وشرب يوماً مع أبي جعفر ابن سعيد والكتندي الشاعر في جنة بزاوية غَرَناطة ، وفيها صِهْرِيح ماء قد أحدق به شجر نارنج وليمون وغير ذلك من الأشجار ، وعليه أنبُوبُ ماء تتحرك به صورة جارية راقصة بسيف وظيفور رخام يصنع في أنبوبة الماء صورة خباء ، فقالوا : نقتسم هذه الأوصاف الثلاثة ، فقال أبو جعفر يصف الراقصة :

وراقصةٍ ليست تَحْرَكُ دونَ أن  
يلورُ بها كرهاً فتنضي صَوَّارماً  
إذا هي دارت سرعة خِلتَ أُنْها  
إلى كلِّ وجه في الرياض تَلَقَّتْ  
وقال ابن نزار في خباء الماء :

رأيتُ خباءَ الماء تُرْسِلُ ماءها  
تطاوعُهُ طوراً وتَعْصِيهِ تارةً  
وقد قابلتُ خيرَ الأنام فلم تزلْ  
إذا أرسلتُ جوداً أمامَ يمينه  
فنازعها هَبُّ الرياحِ رداءها  
كراقصةٍ حَلَّتْ وضمَّتْ قَباءها  
لديه من العلياء تُبْدي حياءها  
أبى العدلُ إلا أن يردَّ إباءها

وقد قيل : إن هذه الأبيات صنعها بمحضر الأمير أبي عبد الله ابن مَرْدَنِيش ملك شرق الأندلس ، وإنه لما ألبأته الضرورة أن يرتجل في مثل ذلك شيئاً ، وكانت هذه عنده مُعَدَّة ، فزعم أنه ارتجلها ، قال أبو عمرو ابن سعيد : وهذا هو الصحيح ، فإنه ما كانت عادته أن يخاطب عمي أبا جعفر بنحير الأنام ؛ فإن كل واحد منهما كفو الآخر .

وقال الكتندي :

وصهريجٍ نخالُ به لُجِيناً يُذابُ وقد يُذَهِّبُه الأصيلُ

كأنَّ الرُّوضَ بعشقهُ فمنهُ على أرجائه ظلُّ ظليلُ  
 وتمنحه أكفُ الشمسِ عشقاً دنانيراً فمنهُ لها قبُولُ  
 إذا رَفَعَ النسيمُ القُضْبَ عنها فحينئذٍ يكونُ لها سبيلُ  
 وللنَّارنج تحت الماء لما تبدَّى عكسها جمرٌ بليلُ  
 ولليمون فيه دونَ سبكٍ جلاجلُ زُخرفٍ بصبا تجولُ  
 فيا روضاً به صُقِلتْ جفوني وأرهف مَتْنَه الزهرُ الكليلُ  
 تناثر فيك أسلاكُ الغوادي وقبَلْ صَفْحَ جدولك القبولُ  
 ولا برحت تُجَمِّعُ فيك شملاً من الأكياس والكاسِ الشَّمولُ  
 بُدُورٌ تَسْتَدِيرُ بها نجومٌ مع الإصباح ليس لها أفولُ  
 بهم نسيمُ الرُّوضِ إلفاً فمن وجدٍ له جسمٌ عليلُ

٣٦٠ - وروي أن الوزير أبا الأصبح عبد العزيز بن الأرقم وزير المعتصم  
 ابن صُمادح رأى رايةً خضراء فيها صنيفة بيضاء في يد عِلجٍ من علوج المعتصم  
 نَشَرَهَا على رأسه ، فقال :

نَشَرْتَ عليكَ من النعيمِ جناحا خضراء صيَّرتِ الصبَّاحَ وشاحا  
 تحكي بحفنى قلبَ من عادته مهما يصفحُ صفحُها الأرواحا  
 ضمنتُ لك النعمى برأى ظافرٍ فترقبِ الفألَ المُشيرَ نجاحا

وكان هذا الوزير آية الله تعالى في الوفاء ، وأرسله المعتصم إلى المعتمد بن  
 عباد ، فأعجبت المعتمد محاولته ، ووقع في قلبه ، فأراد إفساده على صاحبه ،  
 وأخذ معه في أن يقيم عنده ، فقال له : ما رأيت من صاحبي ما أكره فأوثر عند غيره  
 ما أحب ، ولو رأيت ما أكره لما كان من الوفاء تركي له في حين فَوْضَ إليَّ  
 أمره ، ووثق بي ، وحمَلني أعباء دولته ، فاستحسن ذلك ابنُ عباد ، وقال  
 له : فاکتم عليَّ ، فلمَّا عاد إلى صاحبه سأله عن جميع ما جرى له ، فقال له في

أثناء ذلك : وجرى لي معه ما إن أعلمتك به خِفتُ أن تُحسب فيه كالامتنان والاستظهار ، وتظن أن خاطري فسَدَ به ، وإن كتمتك لم أوفِ النصيحة حقها ، وخفت أن تطَّلِعَ عليه من غيري ، فيحطُّني ذلك من عينك ، وتحسب فيه كيداً ، فحمل عليه في أن يُعلمه ، فأعلمه بعد أن تَلَطَّفَ هذا التلطف ، وهو من رجال الذخيرة والمسهب ، وابنه الوزير أبو عامر من رجال القلائد .

ومن نظم أبي عامر :

ففي الخليلِ يفتادها ذُبَّلاً خفافاً تُباري القنأ الذابلا  
ترى كلَّ أجرَدَ سامي التليلِ وتحسبهُ غُصْناً مائلا

٣٦١ - وللوزير الكاتب أبي محمد ابن فرسان واسمه عبد البر ، وهو حسنة وادي آس ، يخاطب يحيى الميُورقي<sup>١</sup> :

أنعم بتسريح عليّ فعله سبب الزيارة للحطيم ويثرب  
ولئن تقول كاشح أن الهوى درست معاله وأنكر مذهبي  
فمقالي ما إن مَلِيتُ وإنما عمري أبي حمل التجاد بمنكبي  
وعجزت عن أن أستثير كينها وأشق بالصمصام صدر الموكب

وهذه الأبيات كتب بها إليه وقد أسنَّ وملَّ من الجهد معه ، يرغب في سراحه إلى الحجاز ، رحمه الله تعالى ، وتقبَّلَ نيته بمنه وبمنه .

٣٦٢ - وقال حاتم بن حاتم بن سعيد العنسي<sup>٢</sup> ، وكان صاحب سيف وقلم ، وعِلِمَ وعَلَمَ :

يا دانياً مني وما أنا زائرُ لا أنت معذورٌ ولا أنا عاذرُ

١ ترجمته والشعر في المغرب ٢ : ١٤٢ وانظر التحفة : ١١٥ .

٢ ترجمته والشعر في المغرب ٢ : ١٦٨ والإحاطة ١ : ٣١٠ .

ماذا يضرك إذ ظلمت بظلمة أن لا يطالع منك بدرٌ زاهرٌ  
وتوفّي المذكور بغرناطة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

٣٦٣ - وقال التطيلي الأعمى في أسد نحاس يقذف الماء ١ :

أسد ولو أتني أنا قيسه الحساب لقلت صخره  
فكأنه أسد السما ء يمج من فيه المجره

[ من بدائه ابن ظافر ]

قال ابن ظافر ٢ : صرنا في بعض العشايا على البساتين المجاورة للنيل ،  
فرأينا فيه بئراً عليها دولابان متحاذيان ٣ ، قد دارت أفلاكهما بنجوم القواديس ،  
ولعبت بقلوب ناظريهما لعب الأماني بالمفاليس ، وهما يثنان أنين الأشواق ،  
ويفيضان ماء أغزر من دموع العشاق ، والروض قد جلا للأعين زبرجده ،  
والأصيل قد راقه حسنه فنثر عليه عسجده ، والزهرة قد نظم جواهره في  
أجساد الفصون ، والسواقي قد أذالت من سلاسل فضتها كل مَصُون ، والنبت قد  
اخضرت شاربها وعارضته ، وطيرف النسيم قد ركضه في ميادين الزهر راكضه ،  
ورضاب الغيث ٤ قد استقر من الطين في لمى ، وحيات المجاري حائرة تخاف  
من زمرد النبات أن يدركها العمى ، والبحر قد صقل النسيم درعه ،  
وزعفران العشي قد ألقى في ذيل الجوّ ردعه ، فأوسعنا ذلك المكان حسناً

١ مر البيتان ص : ٤٠٤ .

٢ بدائع البدائه ١ : ٢٣٢ .

٣ البدائع : يتحاذيان .

٤ البدائع : الماء .

٥ البدائع : والنهر .

وقلوبنا استحواذاً<sup>١</sup> ، وملاً أبصارنا وأسماعنا مسرةً والتذاذاً ، وملنا إلى  
الدولابين شاكين أزمراً حين سجعت قيان الطير بألحانها ، وشدت على  
عيدانها ، أم ذكرنا أيام نعيم وطابا ، وكانا أغصاناً رطابا ، فنقياً عنهما لذيد  
الهبجوع ، ورجعنا النوح وأفاضنا الدموع طلباً للرجوع ، وجلسنا نتذاكر ما في  
تركيب الدواليب ، من الأعاجيب ، ونتناشد ما وصفت به من الأشعار ، الغالية  
الأسعار ، فأفضى بنا الحديث الذي هو شجون ، إلى ذكر قول الأعمى التُّطيلي  
في أسد نحاس يقذف الماء :

أسد ولو أني . . . . الخ

فقال لي القاضي أبو الحسن علي بن المؤيد رحمه الله تعالى : يتولد من هذا  
في الدولاب معنى يأخذ بمجامع المسامع ، ويطرب الرائي والسامع ، فتأملت  
ما قاله بعين بصيرتي البصيرة ، واستمددت مادة غريزتي الغزيرة ، فظهر لي  
معنى ملائي أطراباً ، وأوسعني إعجاباً<sup>٢</sup> ، وأطرق كل منّا ينظم ما جاش به مدُّ  
بحره ، وأنبأه به شيطانُ فكره ، فلم يكن إلاّ كنفرة العصفور ، الخائف  
من الناطور ، حتى كمل ما أردنا من غير أن يقف واحد منّا على ما صنعه الآخر ،  
فكان الذي قال :

حبذا ساعةُ العشيّة والدو      لاب يُهّدي إلى النفوس المسرّة<sup>١</sup>  
أدهم لا يزال يعدو ولكن      ليس يعدو مكانه قدّر ذرّة<sup>٢</sup>  
ذو عيون من القواديس تبكي      كل عين من فائض الدمع ثرّة<sup>٣</sup>  
فلنكّ دائر يرينا نجوماً      كل نجم يبدي لدينا المجرّة<sup>٤</sup>

١ البدائع : فاستحوذ علينا ذلك الموضع استحواذاً .

٢ واستمددت . . . إعجاباً : تغيرت صياغة هذه العبارة في البدائع .

٣ البدائع : تبدي . . . عبرة .

٤ البدائع : منها يرينا .

وكان الذي قلت :

ودولاب يثين<sup>١</sup> أنين<sup>٢</sup> شكلي ولا فقدأ شكاه ولا مَضْرَبَةٌ  
تري الأزهارَ في ضحكِ إذا ما بكى بدموعِ عينٍ منه ثرَّةٌ  
حكى فلَكَا تدورُ به نجومٌ تؤثرُ في سرائرنا المسرَّةُ  
يظلُّ النجمُ يشرقُ بعد نجمٍ ويغربُ بعدما تجري المجرةُ  
فمعجنا من اتفاقنا ، وقضى العجب منه سائر رفاقنا ؛ انتهى .

رجع :

٣٦٤ - وكان لأبي محمد عبد الله بن شعبة الوادي آشي<sup>١</sup> ابن<sup>٢</sup> شاعر<sup>٣</sup> ،  
فعرض عليه شعراً نظمته<sup>٤</sup> ، فأعجبه ، فقال :

شعرك كالبلستان في شكله يجمع بين الآسِ والوردِ  
فاصنع به إن كنت لي طائعاً ما يصنعُ الفارسُ بالبندِ

٣٦٥ - ولشاعر الأندلس أبي عبد الله ابن الحداد الوادي آشي<sup>١</sup> ، وهو من  
رجال الذخيرة :

لزمتُ قناعتي وقعدت عنهم فلستُ أرى الوزير ولا الأميرا  
وكنتُ سمير أشعاري سفاهاً فعدت بها لفلسفي سميرا

وله في العروض تأليف<sup>١</sup> مزج<sup>٢</sup> فيه بين الأنحاء الموسيقية ، والآراء الخليلية ،  
ورد<sup>٣</sup> فيه على السرقسطي المنبوز بالحمار .

١ ترجمته والشعر في المغرب ٢ : ١٤٠ .

٢ ترجمته في الذخيرة ٢/١ : ٢٠١ والمطبخ : ٨٠ والوادي ٢ : ٨٦ والإحاطة ٢ : ٢٥٠ والمسالك  
١١ : ٤٠٠ والقوات ٢ : ١٦٧ والمغرب ٢ : ١٤٣ واسمه محمد بن أحمد بن الحداد ، والقطعة  
الأولى في الذخيرة .

وله في المعتصم بن صُمادح<sup>١</sup> :

لعلك بالوادي المقدّس شاطيءُ  
ولأتي في رِيَاكَ واجدٌ رِيحِهِمْ  
ولي في السُّرَى من نارهم ومنازهم  
لذلك ما حَنَّتْ رِكايبِي وحممحتُ  
فهل هاجها ما هاجني ولعلها  
رويداً فذا وادي لُبَيْتِي وإنه  
مواردٌ<sup>٢</sup> تهَيَّامِي ومسرُحٌ ناظري

واعترض عليه بعضهم بأنه همز في هذه القصيدة ما لا يهمز ، فقال<sup>٤</sup> :

عجبتُ لغمازين علمي بجهلهم  
تجلتْ لهم آياتُ فهمي ومنطقي  
ولاحتْ لهم همزيةٌ أوحديةٌ  
رمّوها بنقصِ بيتٍ فيه نقصُهُمْ  
فإن أنكرتْ أفهامُهُم بعضَ همزها  
وإن قناني لا تلينُ على الغمزِ  
مبيّنة الإعجازِ مُلْزِمة العجزِ  
وويلٌ بها وويلٌ لذي الهمزِ واللمزِ  
ومن لمسَ الأفعى شكا ألم النكزِ  
فقد عرفتْ أكبادهم صحّةَ الهمزِ

وله وهو ممّا يُتَغَنَّى به بالأندلس<sup>٥</sup> :

فَدَرِ العَقِيقَ مجانباً لعُوقه  
أفقٌ مُحَلَّى بالقواضِبِ والقنا  
ودع العُدَيْبَ عذيبَ ذاتِ الخالِ  
للأغْيَدِ العطارِ لا المعطالِ

١ الذخيرة : ٢١٨ .

٢ الخريدة : فروح .

٣ الخريدة : ميادين .

٤ الذخيرة : ٢١٩ .

٥ الذخيرة : ٢٢٣ .

حجبوك إلا من توهم خاطري وحَمَوِكَ إلا من تصوّر بالي  
والقارطان جميلٌ صبري والكرى فمتى أرجي منك طيفَ خيالِ

ومن بدائعه قوله <sup>١</sup> :

سامح <sup>٢</sup> أخاك إذا أتاك بزلّة فخلوصٌ شيءٌ قلما يتمكّنُ  
في كلِّ شيءٍ آفةٌ موجودةٌ إنَّ السراج على سنانه يُدخّنُ

وأنشده أحد الأدباء هذين البيتين متمثلاً ، فأعجبا المعتصم ، وسأل عن  
قائلهما ، فأخبر ، فتبسم وقال : أتعرف إلى مَنْ أشار بهذا المعنى ؟ قال : ما  
أعرف إلا أنه مليح ، فقال المعتصم : كنت في الصبا وهو معي ألقب بسراج  
الدولة ، فقاتله الله ما أشعره ، فسלוه ، فلما باحثوه في ذلك أقر بحسن حدّس  
المعتصم . واكتنفته سعايات ، وكان ممّن يغلب لسانه على عقله ، ففر من  
المرية ، وحُبس أخوه بها فقال <sup>٣</sup> :

الدهر لا ينفكّ من حدثانه والمرء منقادٌ لحكم زمانه  
وعلمت أن السعد ليس بمُنْجِح ما لا يكون السعد من أعوانه  
والجدد دون الجدد ليس بنافع والرمح لا يمضي بغير سنانه

وبلغت الأبيات المعتصم فقال : شعره أعقل منه ، صدق فإنه لا يتهيأ له  
صلاح عيش إلا بأخيه ، وهو منه بمنزلة السنان من الرمح ، ثم أمر بإطلاقه  
ولحاقه به .

ولما قال في المعتصم :

١ الذخيرة : ٢٣٥ .

٢ الذخيرة : واصل .

٣ الذخيرة : ٢٣١ .



يا طالب المعروف دُونكَ فَا تَرَكَنَّ  
 رَجُلٌ إِذَا أَعْطَاكَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ  
 لَوْ قَدْ مَضَى لَكَ عُمُرُ نُوحٍ عِنْدَهُ  
 لا فَرْقَ بَيْنَكَ وَالْبَعِيدِ النَّازِحِ  
 اغْتَاطَ عَلَيْهِ ، وَأَبْعَدَهُ ، فَفَرَّ عَنْ بَلَدِهِ .  
 وَمِنَ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي النِّسَاءِ :

حُنَّ عَهْدُهَا مِثْلَ مَا خَانَكَ مَتَنَصِّفًا  
 فَالْقَيْدُ كَالرُّوْضِ فِي خَلْقِي وَفِي خَلْقِكَ  
 وَأَمْنَحُ هَوَاهَا بِنِسْيَانٍ وَسُلُوانِ  
 إِنْ مَرَّ جَانٍ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ جَانٍ  
 وَهُوَ :

حَيْثَمَا كُنْتَ ظَاعِنًا أَوْ مَقِيمًا دُمٌّ رَفِيعًا وَعَشٌّ مَنِيعًا سَلِيمًا

٣٦٦ - وَقَالَ ابْنُ دِحْيَةَ فِي « الْمَطْرَبِ »<sup>١</sup> : إِنْ مِنَ الْمُجِيدِينَ فِي الْجِدِّ  
 وَالْهَزْلِ ، وَرَقِيقِ النِّظْمِ وَالْجَزْلِ ، صَاحِبِنَا الْوَزِيرِ أَبَا بِلَالٍ<sup>٢</sup> ، وَقَالَ لِي : إِنَّهُ  
 كَانَ وَبُرْدُ شَبَابِهِ قَشِيبٌ ، وَغُضُنُ اعْتِدَالِهِ رَطِيبٌ ، بِقَمِيصِ النَّسْكِ مَتَمِّصٌ ،  
 وَبِعِلْمِ الْحَدِيثِ مَتَخَصِّصٌ ، فَاجْتَازَ يَوْمًا وَبِيَدِهِ مُجَلَّدٌ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ بِقَصْرِ  
 بَعْضِ الْمُلُوكِ الْأَكْبَارِ ، وَمِنْ بَعْضِ مَنَازِرِهِ نَازِرٌ ، وَمَجْلِسُهُ بِخَوَاصِ نَدَمَائِهِ حَالٌ ،  
 وَصَوْتُ الْمَثَانِي وَالْمَثَالِ عَالٌ ، فَقَالَ : أَطْلَعُوا لَنَا هَذَا الْفَقِيهَ ، فَلَعَلْنَا نَضْحَكُ مِنْهُ . فَلَمَّا  
 مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَحَيًّا ، أَمَرَ السَّاقِيَّ بِمُنَاوَلَتِهِ كَأْسِ الْحَمِيَاءِ ، فَتَقَبَّضَ مُتَأَفِّقًا ،  
 وَأَبْدَى تَمَعْرًا وَتَقَشَّفًا ، وَالسَّلْطَانَ يَسْتَعْرَبُ ضَحْكًَا بِمَا هَجَمَ عَلَيْهِ ، وَيَدُ

١ المطرب : ٢٤١ .

٢ في المطرب : كصاحبنا الوزير أبي القاسم ابن البراق ، ومعنى ذلك أن هذا الخبر والأشعار التالية بعده كان يجب أن تعطى رقماً واحداً ؛ ولابن البراق ترجمة في المغرب ٢ : ١٤٩ وكنيته هناك أبو عمرو ، وتحفة القادِم : ٨٠ والواقي ٤ : ١٥٦ .

الساقى ممدودة إليه ، وافق أن انشقت من ذاتها الزجاجاة ، فظهر من السلطان  
التطير من ذلك ، فأنشد الفقيه مرتجلاً :

ومجلس بالسرور مُشتمل لم يخلُ فيه الزجاجُ من أدبِ  
سرى بأعطافه يُرتحُّه فشقَّ أثوابه من الطربِ

فسرَّ السلطان وسرِّي عنه ، واستحسن من الفقيه ما بدا منه ، وأمر له  
بجائزة سنية ، وخلعة رائقة [ بهية ] .

٣٦٧ - وما أحسن قول ابن البراق<sup>١</sup> :

يا سرحةَ الحميِّ يا مطولُ شرحُ الذي بيننا يطولُ  
ولي ديون عليكِ حلتُ لو أنه ينفع الحلولُ

وقوله :

انظر إلى الوادي إذا ما غرَّدت<sup>٢</sup> أطياره شقَّ النسيم ثيابه  
أتراهُ أطرَبهُ الهديلُ وزاده طرباً وحققك أن حلت جنابه  
وله في غلام على فمه أثر المداد :

يا عجباً للمداد أضحى على فمِ ضُمنَ الزُّلالا  
كالقار أضحى على الحميا والليل قد لامس الهلالا

٣٦٨ - وكتب أبو محمد عبد الله بن عذرة<sup>٣</sup> إلى بعض أصحابه من الأسر

في طلبِ تيلة :

١ المغرب : ١٤٩ ، ١٥٠ .

٢ المغرب : الذي مذغردت .

٣ في الأصول ودوزي : في معذرة ؛ وفي م : بن مفردة والتصويب عن المغرب ٢ : ١٤٨ وفي  
الآبيات .

لو كنت حيث تجبني لأذاب قلبك ما أقول  
 يكفيك مني أني لا أستقل من الكبول  
 وإذا أردت رسالة لكم فما ألقى رسول  
 هذا وكم بتنا وفي أيماننا كأس الشمول  
 والعود يخفق والدخان العنبري به يحول  
 حال الزمان ولم ينزل مذ كنت أعهده يحول

٣٦٩ - ولأبي الحسن علي بن مهلهل الجلياني<sup>١</sup> في أبي بكر ابن سعيد  
 صاحب أعمال غرناطة في دولة المثلثين :

لولا النهود لما عراك تنهد  
 وعلى الخلود القلب منك يخذد  
 يا نافذاً قلبي بسهم جفونه  
 ما لي على سهم رميت به يد

٣٧٠ - وقال أبو زكريا يحيى بن مطروح في غلام كاتب أطل عذاره<sup>٢</sup> :

يا حسنه كاتباً قد خطّ عارضه  
 في خده حاكياً ما خطّ بالقلم  
 لام العذول عليه حين أبصره  
 فقلت دعني فزين البرد بالعلم  
 وانظر إلى عجب مما تلوم به  
 بدر له هالة قددت من الظلم  
 قولوا عن البحر ما شتم ولا عجب  
 من عنبر الشحر أو من در مبسم

وله ، وقد عزّل عن مالقة وال غير مرضي ، ونزل المطر على إثره ،  
 وكان الناس في جدب :

وربّ وال سرنا عزله  
 فبعضنا هناه البعض  
 قد واصلتنا السحب من بعده  
 ولدّ في أجفاننا الغمض

١ ترجمته في المغرب ٢ : ١٥٠ وفيه البيتان ؛ وفي ب : « الجلياني » .

٢ ترجمته والشعر في المغرب ٢ : ١٥٥ .

لو لم يكن من نجسٍ شخصه ما طهرت من بعده الأرض  
 ٣٧١ - وكان الكاتب أبو بكر محمد بن نصر الأوسي<sup>١</sup> مختصاً بوزير عبد  
 المؤمن أبي جعفر ابن عطية ، فقال فيه :

أبا جعفر نلت الذي نال جعفرُ ولا زلت بالعليا تُسرُّ وتُحبرُ  
 عليك لنا فضل وبرٌّ وأنعمُ ونحن علينا كلُّ مدح يُحبرُ

وحدّث مَنْ حضر مجلس الوزير ابن عطية وقد أحسَّ من عبد المؤمن  
 التغير الذي أفضى إلى قتله ، وقد افتتح ابنُ نصر مطلع هذه القصيدة ، فتغير  
 وجه أبي جعفر ، لأن جعفر بن يحيى كان آخر أمره الصلب ، فكأن هذا عمم  
 الدعاء ، والعجب أنه قُتل مثل جعفر بعد ذلك .

وهذا الشاعر هو القائل :

وما أنا عن ذاك الهوى مُتبدلٌ وذا الغدرُ بالإخوان غيرُ كريمٍ  
 بغيرك أُجري ذكرَ فضلك في الندى كما قد جرى بالروض هبُّ نسيمٍ  
 وإن كان عندي للجديد لذاذة فلست بناسٍ حرمةً لقديمٍ

٣٧٢ - ولأبي عبد الله محمد بن علي اللوشي<sup>٢</sup> يخاطب صاحب « المسهب » :

بي إليكم شوقٌ شديدٌ ولكن ليس يبقى مع الحفاء اشتياقُ  
 إن يُغيّركم الفراقُ فودّي لو خبرتكم يزيد فيه الفراقُ

وله :

لو أن لي قلباً كقلبي لك كنتُ أهجرُ هجركا

١ ترجمته والبيتان في المغرب ٢ : ١٥٦ .

٢ ذكره ابن سعيد في المغرب باسم « محمد بن عبد المولى » ( ٢ : ١٥٨ ) وفيه البيتان الأولان .

يكفيك أنك قد نسيه  
ومن العجائب أنني  
كن كيفما تختاره  
ت ولست أنسى ذكركا  
أفنى وأكم سركا  
فالحب يبسط عذركا

وله :

هل عندكم علم بما فعلت بنا  
نضحاً لكم أن تأمنوها إننا  
تلك الجفون الفاتكات بضعفها  
سحر النهى ما تبصرون بطرفها

٣٧٣ - ولابنه أبي محمد عبد المولى ، وكان ماجناً ، لما نعي إليه وهو على  
الشراب أحد أصحابه مرتجلاً :

إتما دنيك أكل  
ثم من بعد صراخ  
وشراب وقحاب  
ووداع وتراب

وله :

يا نديم اشرب على أف  
واسقني ثم اسقني  
من غزال تطلع الشم  
لا تفوت ساعة من  
واجتنب ما سخرت جه  
رغبوا في باطل زو  
ليس إلا ما تراه  
ق صقيل وحديقه  
م اسقني خمراً وريقه  
س بجديبه أنيقه  
كأس خمير وعشيقه  
لا له هذي الخليقه  
ر بزهد في الحقيقه  
أنا أدري بالطريقه

قال أبو عمران موسى بن سعيد : قلنا له : ما هذا الاعتقاد الفاسد الذي  
لا ينبغي لأحد أن يصحبك به ؟ فقال : هذا قول لا فعل ، وقد قال الله تعالى

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾  
 (الشراء : ٢٢٤) .

ثم قال ابن سعيد : ولولا أن حاكي الكفر ليس بكافر ما ذكرتها ، وهذا  
 منترع من قال من المجوس :

خُذْ مِنَ الدُّنْيَا بِحِظٍّ      قَبْلَ أَنْ تَرِحَلَ عَنْهَا  
 فِيهَا دَارٌ لَا تَرَى مِنْ      بَعْدَهَا أَحْسَنَ مِنْهَا

وهذا كفرٌ صُراح ، وقائله قد تَمَّصَّ كفرًا ، اللهم غَفْرًا .  
 وطلب منه بعض الأرزال ، أن يكتب له شفاعة عند أحد العُمال ،  
 فكتب له رسالة فيها هذه الأبيات :

ما طارَ فيه طائرُ اليمْنِ	كتبتهُ مولاي في طالع
يَنْهَبُ بِأَهْمٍ وبالْحُزْنِ	وفكرةٌ حائلةٌ والحشا
مُشْتَهَرٌ بِالطَّحْنِ والقرنِ	كَلَّفَنِي ساقطُ أحرَقُ
أُخوفهم في الخوفِ والأمنِ	أَكْذَبُ خَلَقَ اللهُ أَرْدَاهُمْ
يَعْدُرُ خَلْقًا سيءِ الظنِّ	يَكْفُرُ ما يُسْدى إِلَيْهِ ولا
شَرًّا وَأضحى المجدِ ذا غِبْنِ	فإنْ صَنَعْتَ الخَيْرَ النُّفَيْتِ
تُسْدى لَهُ في أيِّ ما فنِّ	وانتقدَ الناسُ عَلَيْكَ الَّذِي
واسمعه تفسيراُ ولا أكني	فأفعلْ بِهِ ما هوَ أَهلٌ لَهُ
بِوَابِ يكرمه لدى الإذنِ	أَهْنَهُ وَأصْفَعَهُ ولا تتركْ الـ
رَدِّ جوابِ أَنسِهْ يَدِنِي	واقطعْ بفيه القولَ واحرمه من
فَنَّهُ ودعه مُسْخَنَ الجفنِ	وكَلِّما استنبط رأياُ فسـ
وصالحُ بالهُونِ واللَّعنِ	فهو إذا أَكرمه فاسد

١ ب : ولا تكن .

شَفَاعَتِي فِي مِثْلِهِ هَذِهِ فَلَا سِقَاهُ هَاطِلُ الْمَزْنِ

ودفع إليه الكتاب مخنوماً ، فسُرَّ به ، وحمله إلى العامل ، وسافر إليه أياماً ، فلماً دفعه إليه قرأه وضحك ، ودفعه إلى مَنْ يشاركه في ذلك من أصحابه ، فوعده بخير وأخرجه إلى شغل لم يرضه ، فلماً عاد منه قال له : أخرجتني لأرْذَلِ شغلٍ وأخسّه فما فائدة الشفاعة إذن ؟ فقال له : أو تُريد أن أفعل معك ما تقتضيه شفاعة صاحبك ؟ قال : لا أقلّ من ذلك ، فأمر من يأتيه بالأبيات ، فقرئت عليه ، فانصرف في أسوأ حال ، فلماً دخل غرناطة - وكان عبد المولى تزوّج فيها امرأة اغتبط بها - تزيّاً هذا الرجل بزيّ أهل البادية ، وزور كتاباً على لسان زوجة لعبد المولى في بلدة أخرى ، وقال في الكتاب : وقد بلغني أنّك تزوّجت غيري ، وأردت أن أكتب إليك في أن تطلّقي ، فوصلني كتابك تعرفني فيه أن الزوجة الجديدة لم توافق اختيارك ، وأنك ناظر في طلاقها ، فردني ذلك عمّا عزمتم عليه ، فانظر في تعجيل ما وعدت به من طلاقها ، فإنّك إن لم تفعل لم أبقَ معك أبداً ؛ فلماً مرّ بدار عبد المولى رأى جارية زوجته فقال لها : أنا رجل بدوي أتيت من عند فلانة زوجة أبي محمد عبد المولى ، فعندما سمعت ذلك أعلمت ستها ، وأخذت الكتاب ، فوقفت على ما فيه غير شاكّة في صحته ، فلماً دخل عبد المولى وجدها على خلاف ما فارقتها عليه ، فسألها عن حالها ، فقالت : أريد الطلاق ، فقال : ما سبب هذا وأنا أرغبُ الناسَ فيك ؟ فألقت إليه الكتاب ، فلماً وقف عليه حلّف لها أن هذا ليس بصحيح ، وأن عدوّاً له اختلقه عليه ، فلم يُفد ذلك عندها شيئاً ، ولم يَطِبْ له بعد ذلك معها عيش ، فطلّقها ، وعلم أن ذلك الرجل هو الذي فعل ذلك ، فقال له : لا جزاك الله خيراً ، ولا أصلح لك حالاً ! فقال : وأنت كذلك ، فهذه بتلك ، والبادي أظلم ، فما كان ذنبي عندك حين كتبت في حقّي ما كتبت ؟ فقال له : مثلك لا يقول « ما ذنبي » أنت كلك ذنوب :

أَلَسْتَ بِالْأَمِّ الثَّقَلَيْنِ طُرّاً وَأَثْقَلَهُمْ وَأَفْحَشَهُمْ لِسَانًا  
فَمَهْمَا تَبَغَى بَرّاً عِنْدَ شَخْصٍ تَزَدُ مِنْهُ بِمَا تَبَغَى هَوَانًا  
فَانصَرَفَ عَنْهُ عَالِي اللِّسَانِ بِلَعْنَتِهِ .

وكان أحد بني عبد المؤمن قد ألزمه أن ينسخ له كتاباً بموضع منفرد ، فخطر  
له يوماً جلدُ عُمَيْرَةَ ، واتفق أن مر السيد يوماً بذلك الموضع ، فنظر إليه في  
تلك الحال ، فقال له السيد<sup>١</sup> : ما تصنع ؟ فقال : الدواة جفّت ، ولم أجد ما  
أسقيها<sup>٢</sup> به إلا ماء ظهري ، فضحك السيد ، وأمر له بجارية ، فقال :

قُلْ لِلْعُمَيْرَةِ طُلَّقْتُ      تَ بَعْدَ طَوْلِ زَوَاجٍ  
قَدْ كَانَ مَائِي ضِياعاً      يَمُرُّ فِي غَيْرِ حَاجٍ  
حَتَّى حَبَانِي بِحَسْنَاءِ      قَابِلٍ لِلنَّتَاجِ  
فَكَانَ نَاقِلَ خَمْرٍ      مِنْ حَنَمٍ لَزَجَاجِ  
كَانَتْ تَمْرٌ ضِياعاً      فَأَصْبَحْتُ كَالسَّرَاجِ

٣٧٤ - وقال حاتم بن سعيد :

جَنَّبُونِي عَنِ الْمَدَامَةِ إِلَّا      عِنْدَ وَقْتِ الصَّبَاحِ أَوْ فِي الْأَصِيلِ  
وَاشْفَعُوهَا بِكُلِّ وَجْهِ مَلِيحٍ      وَدَعُونِي مِنْ كُلِّ قَالٍ وَقِيلِ  
وَإِذَا مَا أَرَدْتُمْ طِيبَ عَيْشِي      فَاحْجِبُونِي عَنْ كُلِّ وَجْهِ ثَقِيلِ

٣٧٥ - وقال مالك بن محمد بن سعيد<sup>٣</sup> :

أَتَانِي زَائِراً فَبَسَطْتُ خَدِّي      لَهُ وَيَقُلُّ بَسَطُ الْخَدِّ عِنْدِي

١ ق ب : الخادم ؛ وسقطت اللفظة من م .

٢ دوزي : ماء أسقيها .

٣ ترجمته في المغرب ٢ : ١٧١ .



فقلتُ لهُ أيا مولاي ألقأ فقال وأنت ألقأ عبد عدي  
وعانقتي وقبّلتني ونادى بلطف منه كيف رأيت وعدي  
وقال في استهداء مقص :

الأقل نَعَم في مطلب قد حكاها لا  
نشقُّ به صدرَ النهار وقد بدا  
وقال :

سارت كبدٍ وليلٌ الخدر يسترها ولو بدا وجهها جاءتك بالفلقِ  
ودونها من صليل اللامعات حيمي فالبرق والرعد دون الشمس في الأفقِ

٣٧٦ - واجتمع بغيرناطة محمد بن غالب الرصافي الشاعر المشهور ومحمد  
ابن عبد الرحمن الكتندي<sup>١</sup> الشاعر وغيرهما من الفضلاء والرؤساء ، فأخذوا  
يوماً في أن يخرجوا لنجد أو لخور مؤمل ، وهما منتزهان من أشرف وأظرف  
منتزهات غيرناطة ، ليتفرجوا ويصقلوا الخواطر بالتطلع في ظاهر البلد ، وكان  
الرصافي قد أظهر الزهد وترك الخلاعة ، فقالوا : ما لنا غنى عن أبي جعفر ابن  
سعيد ، اكتبوا له ، فصنعوا هذا الشعر وكتبوا له ، وجعلوا تحته أسماءهم :

بعثنا إلى ربّ السماحة والمجدِ ومن ما له في ملّة الظرف من ندِّ  
ليسعدنا عند الصبيحة في غدٍ لنسعى إلى الخور المؤمل أو نجدِ  
نسرّح منّا أنفساً من شجونها ثوت في شجون هن شرٌّ من اللحدِ  
ونظفر من بخل الزمان بساعة ألدّ من العلياء وأشهى من الحمدِ  
على جدّول ما بين ألقاف دَوْحة تهزُّ الصبا فيها لواء من الرندِ  
ومن كان ذا شربٍ يخلّي بشأنه ومن كان ذا زهدٍ تركناه للزهدِ  
وما ظرفه يأبى الحديث على الطلّي ولا أن يدلّل الهزل حيناً من الجدِّ

١ ترجمة الكتندي في المغرب ٢ : ٢٦٤ والتكملة : ٥٣٥ وأدباء مالقة ، الورقة : ٢٧ .

ويمرح في ثوب الصباية والوجد  
 يمازجه تكليف ما ليس بالود  
 ولما نجد إلاك واسطة العقد  
 فنحن بما تبديه في جنة الخلد  
 تقاب وكل منك يهدي إلى الرشد

هز معاني الشعر أغصان ظرفه  
 وما نعص العيش المهناً غير أن  
 نظمنا من الخلان عقد فرائد  
 فماذا تراه لا عدمنك ساعة  
 ورشدك مطلوب وأمرك نحوه ار

فكان جوابه لهم :

هو الزهر نفاح الصبا أم شدا الود  
 فحل بنفث السحر ما حل من عقد  
 علمت جناب الورد من نفس الورد  
 لتقديم عصر أو وقوف على حد  
 ترادف موج البحر رداً إلى رد  
 يهز بما قد أضمرت معطف الصلد  
 قياد المعاني ما سوى قصدكم قصدي  
 به لا أرى عنه مدى الدهر من بد  
 مقلدة الأجياد موشية البرد  
 بها زهراً أذكي نسيماً من الند  
 من الراح والمعشوق والكتب والورد  
 عناناً له إن المساعد ذو الود  
 إذا ما شدت ضل الخلي عن الرشد  
 أو ان غناء ثم ترميه بالبعد  
 ثقلي ما بين خصر إلى نهد  
 إذا حل عندي أن يحول عن الزهد

هو القول منظوماً أو الدر في العقد  
 أتاني وفكري في عقالي من الأسى  
 ومن قبل علمي أين مبعث وجهه  
 وأيقنت أن الدهر ليس براجع  
 فكل أو ان فيه أعلام فضله  
 فكم طيتها من فائت مترد  
 فيا من بهم تزهي المعالي ومن لهم  
 فسمعا وطوعاً للذي قد أشرتم  
 فقوموا على اسم الله نحو حديقه  
 بها قبة تدعى الكمامة فاطلعوا  
 وعندي ما يحتاج كل مؤمل  
 فكل إلى ما شاءه لست ثانياً  
 ولست خلياً من تأتس قينة  
 لها ولد في حجرها لا تزيله  
 فيا ليثني قد كنت منها مكانه  
 ضمنت لمن قد قال إني زاهد

فإن كان يرجو جنة الخلدِ آجلاً فعندي له في عاجلِ جنة الخلدِ  
فركبوا إلى جنته ، فمرّ لهم أحسن يومٍ على ما اشتهوا ، وما زالوا بالرصافي  
إلى أن شرب لماً غلب عليه الطرب ، فقال الكتندي :

غَلَبْنَاكَ عَمَّا رُمْتَهُ يَا ابْنَ غَالِبٍ بِرَاحٍ وَرِيحَانٍ وَشَدْوٍ وَكَاعِبٍ  
فقال أبو جعفر :

بدا زهدهُ مثلَ الخضابِ فلم يزلْ بهِ ناصِلاً حتى بدأ زور كاذبٍ  
فلما غربت الشمس قالوا : ما رأينا أقصر من هذا اليوم ، وما ينبغي أن  
يترك بغير وصف ، فقال أبو جعفر : أنا له ، ثم قال بعد فكرة ، وهو من  
عجائبه التي تقدم بها المتقدمين وأعجز المتأخرين<sup>١</sup> :

لله يومٌ مسرّةٌ أضوا وأقصر من ذُباله  
لما نصّبنا للمنى فيه بأوتارِ حباله  
طارَ النهارُ بهِ كمرٍ تاع فأجفَلتِ الغزاة  
فكأننا من بعدهِ بعنا الهدايةَ بالضلاله

والنهار : ذكر الحُبّارى ، وإليه أشار بقوله « طار النهار » والغزاة :  
الشمس ، ولا يخفى حسن التوريتين ، فسلم له الجميع ، تسليم السامع المطيع .  
وعلى ذكر الغزاة في هذا الموضع فلا يبي جعفر أيضاً فيها ، وهو من  
بدائعهم ، قوله<sup>٢</sup> :

بدا ذنّبُ السرحانِ ينيءُ أنهُ تقدّم سبت<sup>٣</sup> والغزاة خلفهُ

١ المغرب ٢ : ١٦٧ .

٢ المصدر نفسه .

٣ كذا في الأصول ، ولعل الصواب « سيد » بمعنى الذئب .

ولم ترَ عيني مثلهُ من مُتابعٍ  
لمن لا يزال الدهرُ يطلب حَتْفَه  
وقوله :

اسقني مثلَ ما أنار لعيني  
قبلَ أن تبصر الغزاة تستد  
وتأملُ لعسجد سال نهرأ  
شَفَقُ ألبس الصباح جمالهُ  
رج منهُ على السماء غلالهُ  
كرعت فيه ، أو تقصَّى ، غزالهُ  
ومن نظم أبي جعفر قولهُ :

لو لم يكن شدُّ والحمام فاضلاً  
شَدَّ وَالْقِيَانُ لَمَا اسْتَخَفَّ الْأَعْصُنَا  
وَقَطْرَبُ ثَنَى حَتَّى الْجَمَادِ تَرْتَحَا  
وأفاضَ من دمعِ السحابِ أعيُنَا  
وقوله ١ :

في الروضِ منكَ مشابهٌ من أجلها  
الغصنُ قدَّ ، والأزاهر حلية ،  
يهفو له طرفي وقدَّبي المغرمُ  
والوردُ خدُّ ، والأقاحي مبسمُ  
وقوله :

ألا حبذا نهر إذا ما لحظتهُ  
ترى القمرينِ الدهر قد عُنِيَا بِهِ  
أبى أن يردَّ اللحظَ عن حسنه الأَنسُ  
يُقَصِّضُه بدرُّ وتُدْهِبُه شمسُ  
وقوله ، وقد مرَّ بقصر من قصور أمير المؤمنين عبد المؤمن وقد رحل عنه ٢ :

قَصَرَ الخليفة لا أُخْلِيَتَ من كرمِ  
جُرْنَا عَلَيْكَ فلم تنقص مهابته  
وإن خلوتَ من الأعدادِ والعُدِ  
والغِيلِ يخلو وتبقي هيبَةُ الأَسَدِ

١ المغرب ٢ : ١٦٧ .  
٢ المصدر نفسه .

وقوله من أبيات :

سَرَّحَ لِحَاظِكَ حَيْثُ شَتَّ فَإِنَّهُ فِي كُلِّ مَوْقِعٍ لِحِظَةٍ مُتَأَمَّلٌ

وقوله أيضاً :

ولقد قلتُ للذي قال حُلُّوا  
لا تَعَيِّنْ لَنَا مَكَانًا وَلَكِنْ  
ههنا : سِرٌّ فَإِنَّا مَا سَمْنَا  
حَيْثُمَا مَالَتِ اللُّوَاظِحُ مَلْنَا

وقال :

أَلَا هَاتِيهَا إِنَّ الْمَسْرَةَ قَرِيبَهَا  
مُدَامَ بَكَى الْإِبْرِيْقَ عِنْدَ فِرَاقِهَا  
وما الحزنُ إلاّ في توالي جفائها  
فأضحكُ ثغر الكاس عند لقائها

وقال :

عَرَّجَ عَلَى الْحَوْرِ وَخَيَّمْ بِهِ  
وَأَسْبَقَ لَهُ قَبْلَ ارْتِحَالِ النَّدى  
وَكُنْ مُقِيمًا مِنْهُ حَيْثُ الصَّبَا  
وَالْقُضْبُ مَالِ الْبَعْضِ مِنْهَا عَلَى  
وَشَقَّ جِيبَ الصَّيْحِ نَوْرَ كَمَا  
لَمْ أُحْصِ كَمْ غَادِيْتَهُ ثَابِتًا  
حيثُ الأمانى ضايفاتُ الجَنَاحِ  
ولا تزره دونَ شادٍ وراح  
تتمارُ مسكًا من أريجِ البطاح  
بعضُ كما يثني القدودَ ارتياح  
شَقَّتْ جِيُوبَ الطَّلِّ مِنْهَا الرِّياحُ  
واسترقَصَتْنِي الرِّياحُ عِنْدَ الرِّواحِ

وقوله :

أَلَا حَبْدًا رَوْضٌ بِكَرَّرْنَا لَهُ ضُحَى  
وَقَدْ جَعَلَتْ بَيْنَ الْغُصُونِ نَسِيمَةً  
وَنَحْنُ إِذَا مَا ظَلَّتِ الْقُضْبُ رُكْعًا  
وفي جَنَبَاتِ الرِّوَضِ لِلطَّلِّ أَدْمَعُ  
تَمزَّقُ ثُوبَ الطَّلِّ مِنْهَا وَتَرْقَعُ  
نَظْلُهَا مِنْ هَزَةِ السُّكْرِ نَرَكْعُ

١ هذه رواية م ؛ وفي ق ب : وشق جيب الصبر قصف إذا .

٣٧٧ - وكان ابن الصابوني<sup>١</sup> في مجلس أحد الفضلاء بإشبيلية ، فقدّم فيما قدّم خيار ، فجعل أحد الأدباء يقشرها بسكين ، فخطف ابن الصابوني السكين من يده ، فألحّ عليه في استرجاعها ، فقال له ابن الصابوني : كفّ عني وإلاّ جرحتك بها ، فقال له صاحب المنزل : اكفف عنه لئلاّ يجرحك ويكون جرحك جُبّاراً ، تعريضاً بقول النبيّ صلى الله عليه وسلّم «جُرْحُ العجماء جُبّار» ، فاغتاظ ابن الصابوني ، وخرج من الاعتدال ، وأخطأ بلسانه ، وما كف إلا بعد الرغبة والتصرّع .

ومن نظم ابن الصابوني<sup>٢</sup> :

بعثتُ بمرآةٍ إلَيْكَ بَدِيعَةً	فأطْلِعْ بِساميَ أفقِها قَمَرَ السعدِ
لتنظرَ فيها حَسَنَ وجهكَ منصفاً	وتعذرنِي فيما أَكِينُ من الوجدِ
فأرسلَ بِذاك الخلدَ لحظكَ برهةً	لتجنيَ منهُ ما جَنَاهُ من الوردِ
مثالكَ فيها منكَ أَقربَ مَلَمَساً	وأكثرَ إِحساناً وأبقى على العهدِ

وقوله في لابس أحمر<sup>٣</sup> :

أقبلَ في حِلَّةٍ مُورَدَةٍ	كالبدْرِ في حِلَّةٍ من الشَّفَقِ
تحسبُهُ كلِّما أراقَ دمي	يمسحُ في ثوبه ظُبِّي الحدقِ

ورحل إلى القاهرة والإسكندرية فلم يلتفت إليه ، ولا عوّل عليه ، وكان شديد الانحراف ، فانقلب على عقبه يعرض يديه ، على ما جرى عليه ، فمات عند إيابه إلى الإسكندرية كمدأ ، ولم يُعرف له بالديار المصرية مقدار .

١ هو أبو بكر محمد بن أحمد الصابوني شاعر إشبيلية في عصره ، رحل إلى تونس ثم إلى القاهرة وتوفي سنة ٦٣٦ (الفتح : ٦٩ والمغرب ١ : ٢٦٣ والوافي ٩ : ٢ والتحفة : ١٦١ والفوات ٢ : ٢٠٩) .

٢ المغرب والفتح : ٧٢ .

٣ البيتان في القحح ، وأكثر اعتماد المقرئ عليه في سائر أخبار ابن الصابوني .

وحضر يوماً بين يدي المعتضد الباجي ملك إشبيلية وقد نُثرت أمامه جملة من  
دنانير سَكَّتْ باسمه ، فأنشد :

قد فخرَ الدينارُ والدرهمُ لما علا ذين لكم ميسمُ  
كلاهما يُفصِحُ عن مجدكم وكلُّ جزءٍ منه فرد فمُ

ومرّ فيها إلى أن قال في وصف الدنانير ١ :

كانها الأنجمُ والبُعدُ قد حققَ عندي أنها الأرجمُ

فأشار السلطان إلى وزيره ، فأعطاه منها جملة ، وقال له : بدّلْ هذا البيت  
لثلاثٍ يبقى ذمّاً .

وكان يلقَّب بالحمار ، ولذا قال فيه ابن عتبة الطيب :

يا عيْرَ حِمصٍ عيرتكَ الحميرُ بأكلِكَ البرِّ مكانَ الشميرِ

وهو أبو بكر محمد ابن الفقيه أبي العباس أحمد بن الصابوني شاعر إشبيلية  
الشهير الذكر ، والذي أظهره مأمون بني عبد المؤمن ، وله فيه قصائد عدّة ،  
منها قوله في مطلع :

استَوَلِ سَبَاقاً على غاياتها نُججُ الأمورِ بينُ في بدآتها

وله الموشحات المشهورة ، رحمه الله تعالى .

٣٧٨ - ومن حكايات الصبيان أن ابن أبي الخصال ٢ ، وهو من شقورة ،  
اجتاز بأبدة وهو صبي صغير يطلب الأدب ، فأضافه بها القاضي ابن مالك ،

١ سقط هذا السطر من م .

٢ الشريشي ١ : ٣٦٤ .

ثم خرج معه إلى حديقة معروشة ، فقطف لهما منها عنقوداً أسود ، فقال  
القاضي :

انظر إليه في العصا

فقال ابن أبي الخصال :

كرأس زنجي عَصَى

فعلم أنه سيكون له شأن في البيان .

٣٧٩ - وحدث أبو عبد الله ابن زرقون<sup>١</sup> أن أبا بكر ابن المنخل وأبا بكر  
الملاح الشلبيين كانا متواخين متصافيين ، وكان لهما ابنان صغيران قد برعا في  
الطلب ، وحازا قصب السبق في حلبة الأدب ، فتهاجى الابنان بأقذع هجاء ،  
فركب ابن المنخل في سحر من الأسحار مع ابنه عبد الله ، فجعل يعتبه على  
هجاء بني الملاح ويقول له : قد قطعت ما بيني وبين صديقي وصفيبي أبي بكر  
في إقذاعك في ابنه ، فقال له ابنه : إنه بدائي والبادي أظلم ، وإنما يجب  
أن يلحى من بالشرّ تقدم ، فعَدَرَه أبوه ، فبينما هما على ذلك إذ أقبل على  
واد تنق في الضفادع ، فقال أبو جعفر لابنه : أجز :

تنق ضفادع الوادي

فقال ابنه :

بصوت غير معتاد

فقال الشيخ :

كأن نقيق مقولها

فقال ابنه :

بنو الملاح في النادي

١ المصدر نفسه وانظر زاد المسافر : ٨٨ .



فلما أحست الضفادع بهما صمتت ، فقال أبو بكر :

وتصمت مثل صمتهم<sup>١</sup>

فقال ابنه :

إذا اجتمعوا على زاد

فقال الشيخ :

فلا غوثٌ للمهوف

فقال الابن :

ولا غيثٌ لمُرتادٍ

ولا خفاء أن هذه الإجازة لو كانت من الكبار لحصلت منها الغرابة ، فكيف ممن هو في سن الصبا .

٣٨٠ - ومن حكايات النصارى واليهود من أهل الأندلس - أعادها الله

تعالى إلى الإسلام عن قريب ، إنه سميع مجيب - ما حكى أن ابن المرعزي<sup>١</sup> النصراني الإشبيلي أهدى كلبة صيد للمعتمد بن عبّاد وفيها يقول :

لم أرَ ملهَى لذي اقتناصٍ      ومكسباً مقنع<sup>٢</sup> الحريصِ  
كمثل خطلاء<sup>٣</sup> ذات جيدٍ      أتلعَ في صفرة القميصِ<sup>٤</sup>  
كالقوس في شكلها ولكن      تنفذُ كالسهم للقنيصِ  
إن تخذتْ أنفها دليلاً      دلّ على الكامنِ العويصِ  
لو أنها تستثير برقاً      لم يجدِ البرقُ من محيصِ

١ في المغرب ( ١ : ٢٦٤ ) المرعز ؛ وفيه الأبيات ؛ وقد تصحف الاسم في الأصول وأثبتنا ما في ب .

٢ المغرب : ومقنع الكاسب .

٣ في الأصول : خطار ؛ والخطلاء : المسترخية الأذن .

٤ المغرب : أغيد تبرية القميص .

ومنها في المديح :

يَشْفَعُ تَنْوِيلُهُ بُودَ شَفَعِ القِيَّاسَاتِ بِالنَّصُوصِ

وقال :

اللهُ أَكْبَرُ أَنْتَ بَدْرٌ طَالَعُ وَالنَّقْعُ دَجَنٌ وَالْكُمَاةُ نُجُومُ  
وَالجُودُ أَفلاكُ وَأَنْتَ مُدِيرُهَا وَعَدْوُكَ الْغَاوِي وَهُنَّ رُجُومُ

وقال :

نزلت في آل مكحول وضيْفُهُمْ كَنازِلِ بَيْنَ سَمْعِ الأَرْضِ وَالبَصْرِ  
لَا تَسْتَضِيءُ بِضَوْءِ فِي بِيوتِهِمْ مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ تَطْفِيلٌ عَلَى القَمَرِ  
وسببها أَنَّهُ نَزَلَ عِنْدَهُمْ فَلَمْ يوقِدُوا لَهُ سراجاً .

٣٨١ - [ شعراء اليهود ]

١ - وقال نسيم الإسرائيلي :

يا ليتني كنتُ طيراً أُطيرُ حَتَّى أراكَ  
بِمن تَبَدَّلْتَ غَيْرِي أَوْ لَمْ تَحُلْ عَن هِواكَ

وهو شاعر وشاح من أهل إشبيلية ، وذكره الحجاري في المسهب .

٢ - وقال إبراهيم بن سهل الإسرائيلي في أصغر ارتجالاً<sup>١</sup> :

كانَ مُحَيَّاكَ لَهُُ بِهِجَةٍ حَتَّى إِذا جاءَكَ ما حَيَّ الجِمالَ

١ انظر دراسة عنه في مقدمة ديوانه (ط . دار صادر ١٩٦٧) وفيها إلام بمصادر ترجمته . وهذه الأبيات الواردة هنا مثبتة في ديوانه .

أصبحت كالشمعة لما خبا منها الضياء اسودَّ فيها الذُّبال

وهو شاعر إشبيلية ووشّاحها ، وقرأ على أبي علي الشلوين وابن الدباج وغيرهما ، وقال العزُّ في حقّه ، وكان أظهر الإسلام ، ما صورته : كان يتظاهر بالإسلام ، ولا يخلو مع ذلك من قلدح واتّهام ، انتهى . وسئل بعض المغاربة عن السبب في رقّة نظم ابن سهل ، فقال : لأنّه اجتمع فيه ذلان : ذل العشق ، وذل اليهودية . ولما غرق قال فيه بعض الأكابر : عاد الدر إلى وطنه . ومن نظم ابن سهّل المذكور قوله :

وألمى بقلبي منه جمرٌ مؤججٌ      تراه على خدّيه يندى ويبردُ  
يسألني من أي دين مداعباً      وشمل اعتقادي في هواه مُبددُ  
فؤادي حنيفي ، ولكنّ مقلتي      مجوسية من خدّه النارَ تعبدُ

ومنه قوله :

هذا أبو بكر يقود بوجهه      جيشَ الفتور مطرّزَ الراياتِ  
أهدى ربيعُ عذاره لقلوبنا      حرّاً المصيف فشبّها لفحاتِ  
خدُّ جرى ماء النعيم بجمره      فاسودَّ مجرى الماء في الجمراتِ

وذكر الحافظ أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري في رحلته الكبيرة القدر والجرم المسماة بـ « ملء العيّبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبّة » خلافاً في إسلام ابن سهل باطنياً ، وكتب على هامش هذا الكلام الخطيبُ العلامة سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق ما نصّه : صحّح لنا من أدركناه من أشياخنا أنّه مات على دين الإسلام ، انتهى .

ورأيت في بعض كتب الأدب بالمغرب أنّه اجتمع جماعة مع ابن سهل في مجلس أنس ، فسألوه لما أخذت منه الراح عن إسلامه : هل هو في الظاهر والباطن أم لا ؟ فأجابهم بقوله : للناس ما ظهر ، ولله ما استتر ، انتهى .

واستدل بعضهم على صحة إسلامه بقوله :

تسلّيت عن موسى بحبّ محمدٍ هُدَيْتُ ولولا الله ما كنت أهتدي  
وما عن قِلِّي قد كان ذاك ، وإنّما شريعة موسى عَطَّلت بمحمدٍ

وله ديوان كبير مشهور بالمغرب ، حاز به قَصَب السَّبْق في النظم والتوشيح .

وما أحسن قوله من قصيدة :

تأملْ لَطَى شوقي وموسى يَشْبُهها « تجد خير نار عندها خير مُوقدٍ »

وأنشد بعضهم له قوله :

لقد كنت أرجو أن تكون مؤاصلي فأسقيتني بالبعد فاتحة الرعدِ  
فبالله برّد ما بقلبي من الجوى بفاتحة الأعراف من ريقك الشهدِ

وقال الراعي رحمه الله تعالى : سمعت شيخنا أبا الحسن عليّ بن سمعة  
الأندلسي رحمه الله تعالى يقول : شيطان لا يصحّان : إسلام إبراهيم بن سهل ،  
وتوبة الزمخشري من الاعتزال ، ثم قال الراعي : قلت : وهما في مروياتي ،  
أما إسلام إبراهيم بن سهل فيغلب على ظني صحته لعلمي بروايته ، وأما الثاني  
— وهو توبة الزمخشري — فقد ذكر بعضهم أنّه رأى رسماً بالبلاد المشرقية  
محكوماً فيه يتضمن توبة الزمخشري من الاعتزال فقوي جانب الرواية ، انتهى  
باختصار .

وقال الراعي أيضاً ما نصّه : وقد نكت الأديب البارع إبراهيم بن سهل  
الإسرائيلي الأندلسي على الشيخ أبي القاسم في تغزله حيث قال :

أموسى أيا بعضي وكلّي حقيقة وليس مجازاً قولي الكلّ والبعضا  
خفّضت مكاني إذ جزمت وسائلي فكيف جمعت الجزم عندي والخفضا

وفي هذا دليل على أن يهود الأندلس كانوا يشتغلون بعلم العربية ، فإن إبراهيم قال هذين البيتين قبل إسلامه ، والله تعالى أعلم . وقد روينا أنه مات مسلماً غريقاً في البحر ، فإن كان حقاً فالله تعالى رزقه الإسلام في آخر عمره والشهادة ، انتهى .

ومن نظم ابن سهل في التوجيه باصطلاح النحاة قوله :

رفعت<sup>١</sup> عوامله وأحسب رتبي بُنيت على خفض فلن<sup>٢</sup> تتغيرا

ومنه :

تنأى وتدنو والتفاتك<sup>٣</sup> واحد<sup>٤</sup> كالفعل يعمل ظاهراً ومُقَدَّراً

وقوله :

إذا كان نصراً<sup>٥</sup> الله وقفاً عليكم<sup>٦</sup> فإن العدا التنوين يحذفه الوقف<sup>٧</sup>

وقوله :

ليَئني نلتُ منه<sup>٨</sup> وصلاً<sup>٩</sup> وأجلى ذلك الوصل<sup>١٠</sup> عن صباح المنون<sup>١١</sup>  
وقرأنا باب المضاف<sup>١٢</sup> عناقاً<sup>١٣</sup> وحذفنا الرقيب<sup>١٤</sup> كالتنوين<sup>١٥</sup>

وقوله :

بنيت بناء الحرف خامر<sup>١٦</sup> طبعه فصار لتأثير العوامل مانعاً<sup>١٧</sup>

وقوله :

لك<sup>١٨</sup> الثناء فإن يذكر سواك به<sup>١٩</sup> يوماً فكالرابع المعهود في البدل<sup>٢٠</sup>

١ في الأصول : رقت .

٢ هذا البيت مضطرب في الأصول وقافيته « جازما » وقد صوبناه عن الديوان .

يعني الغلط ، وقوله :

إذا اليأس ناجى النفس منك بلن ولا أجابت ظنوني ربّما وعساني<sup>١</sup>

وقوله :

وقلت عساهُ إن أقتُ يرقُّ لي وقد نَسَخَتْ لا عنده ما اقتضت عسى

وقوله :

ينفي ليّ الحال ولكنّه يُدخِلُ لا في كل مستقبل

وقوله :

خفضتَ مقامي إذ جزمتَ وسائلي فكيف جمعتَ الجزم عندي والخفضا

وقوله في غلام شاعر :

كيفَ خلاصُ القلبِ من شاعري رقتَ معانيه عنِ النقدِ  
بصغرُ نثر الدرِّ عن نثره ونظمه جَلَّ عنِ العقدِ  
وشعره الطائل في حسنه طال على النابغة الجعدي

وحدّث أبو حيّان عن قاضي القضاة أبي بكر محمد بن أبي نصر الفتح بن علي الأنصاري الإشبيلي بغرناطة أن إبراهيم بن سهل الشاعر الإشبيلي كان يهودياً ثمّ أسلم ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقصيدة طويلة بارعة ، قال أبو حيّان : وقفت عليها ، وهي من أبداع ما نظم في معناها ، وكان سنُّ ابن سهل حين غرق نحو الأربعين سنة ، وذلك سنة تسع وأربعين وستمائة ، وقيل : إنّه جاوز الأربعين ، وكان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم ، وما أحسن قوله :

١ في الأصول : وعساني ، وهو من قصيدة نونية (ص : ٢١٤) .

مضى الوصلُ إلاّ منية تبعث الأسي  
أتاني حديث الوصل زوراً على النوى  
ويا أيها الشوق الذي جاء زائراً  
كسائي موسى من سقام جفونه  
أداري بها همّي إذا الليل عسعساً  
أعدّ ذلك الزور اللذيذ المونسا  
أصبّت الأمانى خذ قلباً وأنفساً  
رداء وسقائي من الحب أكوساً  
ومن أشهر موشحاته قوله<sup>١</sup> :

ليلُ الهوى يقظان والحبُّ تيربُ السهَرِ  
والصبر لي خوآن والنوم عن عيني بَرِي

وقد عارضه غيرُ واحد فما شقّوا له غباراً .

3 - وأمّا إبراهيم بن الفخار اليهودي<sup>٢</sup> فكان قد تمكن عند الأذفونش ملك طليطلة النصراني ، وصيره سفيراً بينه وبين ملوك المغرب ، وكان عارفاً بالمنطق والشعر ، قال ابن سعيد : أنشدني لنفسه يخاطب أديباً مسلماً كان يعرفه قبل أن تعلق رتبته ويسفر بين الملوك ، ولم يزد على ما كان يعامله به من الإذلال ، فضاق ذرعُ ابن الفخار وكتب إليه :

أيا جاعلاً أمرين شبيهين ما له  
جعلت الغنى والفقر والذلّ والعلا  
وهل يستوي في الأرض نجد وتلعة  
وما كنت ذا ميز لمن كنت طالباً  
وقد حال ما بيني وبينك شاغل  
فإن كنت تأبى غير إقدام جاهل  
من العقل إحساس به يتفقد  
سواءً فما تنفك تشقى وتجد  
فتطلب سهيلاً وسيرك مُصعد  
بما كنت في حال الفراغ تعود  
فلا تطلبني بالذي كنت تعهد  
فإنك لا تنفك تلحى وتطرّد

١ ديوانه : ٢٩٦ .

٢ ترجم له في المغرب ٢ : ٢٣ وأورد بيتيه في مدح الأذفونش .

ألا فأتِ في أبوابه كل مسلك ولا تك محلاً حيثما قمت تقعد<sup>١</sup>

قال ابن سعيد : وأنشدني لنفسه :

ولمّا دجا ليل العذار بخده تيقنت أن الليل أخفى وأستر<sup>٢</sup>  
وأصبح عدّالي يقولون صاحب فأخلو به جهراً ولا أتستر<sup>٣</sup>

وقال يمدح الأذفونش لعنهما الله تعالى :

حضرة الأذفونش لا برحت غضة أيامها عرس<sup>٤</sup>  
فاخلع النعلين تكريمة في ثراها إنّها قدس<sup>٥</sup>

قال : وأدخلوني إلى بستان الخليفة المستنصر ، فوجدته في غاية الحسن كأنّه الجنة ، ورأيت على بابه بواباً في غاية القبح ، فلمّا سألتني الوزير عن حال فرجتي قلت : رأيت الجنة إلا أنّي سمعت أن الجنة يكون على بابها رضوان ، وهذه على بابها مالك ، فضحك وأخبر الخليفة بما جرى ، فقال له : قل له إنّنا قصدنا ذلك ، فلو كان رضوان عليها بواباً لحسينا أن يردّه عنها ، ويقول له : ليس هذا موضعك ، ولمّا كان هناك مالك أدخله فيها ، وهو لا يدري ما وراءه ، ويخيّل أنّها جهنم ، قال : فلمّا أعلمني الوزير بذلك قلت له : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (الأنعام : ١٢٤) .

4 - وكان في زمان الياس بن المدور<sup>٦</sup> اليهودي الطيب الرُندي طيب آخر كان يجري بينهما من المحاسبة ما يجري بين مشتركين في صناعة ، فأصلح الناس بينهما مراراً ، وظهر لإلياس من ذلك الرجل الطيب ما ينفّر الناس منه فكتب إليه :

١ في الأصول : عادة .

٢ ترجمة الياس في المغرب ١ : ٣٣٦ وهو من شعراء المائة السادسة .



لا تخدعنّ فما تكون مودة ما بين مشتركين أمراً واحداً  
انظر إلى القمرين حين تشاركا بسناهما كان التلاقي واحداً

يعني أنهما معاً لما اشتركا في الضياء وجب التحاسد بينهما والفرقة : هذا  
يطلع ليلاً وهذه تطلع نهاراً ، واعتراضهما يوجب الكسوف .

5 - وكتب أيوب بن سليمان المرواني<sup>1</sup> إلى بسام بن شمعون اليهودي  
الوشقي في يوم مطير : لما كنت - وصل الله تعالى لإخاءك وحفظك - مطمح  
نفسي ، ومرتز اختياري من أبناء جنسي ، على جوانبك أميل ، وأرتع في  
رياض خلقتك الجميل ، هزتي خواطر الطرب والارتياح ، في هذا اليوم المطير ،  
الداعي بكاؤه إلى ابتسام الأقداح ، واستنطاق البمّ والزير ، فلم أرَ مُعيناً على  
ذلك ، ومُبلغاً إلى ما هنالك ، إلا حسن نظرك ، وتجشّمك من المكارم ما جرت به  
عادتك ، وهذا يوم حرم الطرف فيه الحركة ، وجعل في تركها الخير والبركة ،  
فهل توصل مكرمتك أخاك إلى التخلّي معك في زاوية ، متكئاً على دنّ مستنداً  
إلى خابية ، ونحن خلال ذلك نتجاذب أهداب الحديث الذي لم يبق من اللذات  
إلاّ هو ، ونُجّيل الألفاظ فيما تعودت عندك من المحاسن والأسماع في أصناف  
الملاهي ، وأنت على ذلك قدِير ، وكرمك بتكلفه جدير :

ولا يعينُ المرء يوماً على راحته إلاّ كريم الطباع  
وها أنا والسمعُ مني إلى باب وذو الشوق حليف استماع  
فإن أتى داعٍ بنَيْلِ المنى ودّعَ أشجاني ونعم الوداع

وهذا المرواني من ذرية عبد العزيز أخي عبد الملك بن مروان ، وهو من أهل

المائة السادسة .

١ ترجمة أيوب المرواني في المغرب ١ : ٦٠ .

6 - وكانت بالأندلس شاعرة من اليهود يقال لها قسمونة بنت إسماعيل اليهودي ، وكان أبوها شاعراً ، واعتنى بتأديبها ، وربما صنع من الموشحة قسماً فأتمتها هي بقسم آخر ، وقال لها أبوها يوماً : أجزبي :

لي صاحبٌ ذو مهجةٍ قد قابلتُ نَعْمَى بظلمٍ<sup>١</sup> واستحلّت جرْمها  
ففكرت غير كثيرٍ وقالت :

كالشمس منها البدرُ يقبِسُ نوره أبدأً ويكشفُ بعد ذلك جرْمها  
فقام كالمُختَبَل ، وضمتها إليه ، وجعل يقبَلُ رأسها ، ويقول : أنت  
والعشر كلمات أشعر مني .

ونظرت في المرأة فرأت جمالها وقد بلغت أوان التزويج ولم تتزوج ، فقالت :  
أرى رَوْضَةً قد حان منها قطافُها ولستُ أرى جان يمدّ لها يدا  
فوا أسفا يمضي الشَّبَابُ مُضِيْعاً ويبقى الَّذي ما إنَّ أَسْمِيَه مفردا  
فسمعها أبوها ، فنظر في تزويجها .

وقالت في ظبية عندها :

يا ظبِيَّةَ ترعى بروضٍ دائماً لآتي حكيّتكِ في التوحّشِ والحورِ  
أمسى كلانا مفرداً عن صاحبٍ فلنصطبر أبدأً على حكم القدرِ

٣٨٢ - واستدعى أبو عبد الله محمد بن رشيق القلنبي<sup>٢</sup> ثم الغرناطي بعض أصحابه إلى أنس ، بقوله :

سيدي عندي أترج ونا رنج وراخ

١ في الأصول : ذو مهجة ... منما يظهر .

٢ ترجمته في المغرب ٢ : ١٨٠ .

وَجَنَّتِي آسٍ وَزَهْرِيٍّ      وَحِمَانَا لَا يُبَاحُ  
 لَيْسَ إِلَّا مُطْرَبٌ يُسُّ      لِي النَّدَامَى ، وَالْمَلَاخُ  
 وَمَكَانٌ لَانْهَيْتَاكَ      قَدْ نَأَى عَنْهُ الْفَلَاحُ  
 لَا يُرَى يَطْلُعُ فِيهِ      دُونَ أَكْوَاسٍ صَبَاحُ  
 فِيهِ فَتْيَانٌ لَهْمٌ فِي      لَذَّةِ الْعَيْشِ جِمَاحُ  
 طَرَحُوا الدُّنْيَا يَسَارًا      فَاسْتَرَا حَتْ وَاسْتَرَا حُوا  
 لَا كَقَوْمٍ أَوْجَعْتَهُمْ      لَهْمٌ فِيهَا نُبَاحُ

وله :

قَالَ الْعَذُولُ : إِلَى كَمْ      تَدْعُو لِمَنْ لَا يَجِيبُ  
 فَقُلْتُ : لَيْسَ عَجِيبًا      أَنْ لَا يَجِيبَ حَبِيبُ  
 هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي      مِنْ حُبِّهِ لَا أَتُوبُ

قال أبو عمران ابن سعيد : دخلت عليه وهو مسجون بدار الأشراف بإشبيلية ،  
 وقد بقي عليه من مال السلطان اثنا عشر ألف دينار قد أفسدها في لذات نفسه ،  
 فلما لمحني أقبل يضحك ويشغل بالنادر والحكايات الطريفة ، فقلت له : قالوا :  
 إنك أفسدت للسلطان اثني عشر ألف دينار ، وما أحسبك إلا زدت على هذا  
 العدد لما أراك فيه من المسرة والاستبشار ، فزاد ضحكاً ، وقال : يا أبا عمران ،  
 أتراني إذا لزمتم الهمم والفكر يرجع عليّ ذلك العدد الذي أفسدت ؟ ثم فكر  
 ساعة وأنشدني ١ :

لَيْسَ عِنْدِي مِنَ الْهَمُومِ حَدِيثٌ      كَلَّمَا سَاعَنِي الزَّمَانُ سُرِرْتُ  
 أَتْرَانِي أَكُونُ لِلدَّهْرِ عَوْنًا      فَإِذَا مَسَّتِي بَصْرًا ضَجِرْتُ

١ الأبيات في المصدر السابق .

غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي فَكَأَنِّي عِنْدَ إِقْلَاعِ هَمِّهَا مَا ضُرُرْتُ

٣٨٣ - وقال النحوي اللغوي أبو عيسى لب بن عبد الوارث القلعي<sup>١</sup> :

بَدَا أَلْفُ التَّعْرِيفِ فِي طِرْسِ خَدِّهِ      فَيَا هَلْ تَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْكُرُ  
وَقَدْ كَانَ كَأَفْوَرًا فَهَلْ أَنَا تَارِكُ      لَهُ عِنْدَمَا حَيَاهُ مَسْكٌ وَعَنْبَرُ  
وَمَا خَيْرُ رَوْضٍ لَا يَرِفُّ نَبَاتُهُ      وَهَلْ أَفْتَنُ الْأَثْوَابَ إِلَّا الْمَشْهَرُ

وقال :

أَبِي لِي أَنْ أَقُولَ الشَّعْرَ أَنْتِي      أُحَاوِلُ أَنْ يَفُوقَ السَّحْرَ شِعْرِي  
وَأَنْ يُصْغِي إِلَيْهِ كُلُّ سَمْعٍ      وَيَعْلَقَ ذِكْرُهُ فِي كُلِّ صَدْرٍ

قال الحِجَارِي : أخبرني أنه أحبُّ أحدَ أولاد الأعيان ممن كان يقرأ عليه ، فلما خلا به شكاه إليه ما يجده ، فقال له : الصبيان يفتنون بنا ، فإذا أردت أن تقول شيئاً فاكتبه لي في ورقة ، [قال] : فلما سمعت ذلك منه تمكّن الطمعُ منِّي فيه ، وكتبت له :

يَا مَنْ لَهُ حُسْنٌ يَفُوقُ بِهِ الْوَرَى      صِلْ هَائِمًا قَدْ ظَلَّ فِيكَ مُحَيَّرًا  
وَأَمِنَ عَلَيْهِ بِقَبْلَةٍ أَوْ غَيْرِهَا      إِنْ كُنْتَ تَطْمَعُ فِي الْهَوَى أَنْ تَوْجِرًا

وكتبتُ بعدها من الكلام ما رأيته ، فلما حصلت الورقة عنده كتب إليّ في غيرها : أنا من بيتٍ عادةُ أهلِهِ أَنْ يَكُونُوا اسْمَ فاعِلٍ لَا اسْمَ مفعولٍ ، وإنّما أردتُ أَنْ يَحْصُلَ عِنْدِي خَطُّكَ شَاهِدًا عَلَيَّ مَا قَابَلْتَنِي بِهِ لِثَلَاثِ أَشْكَوكَ إِلَى أَبِي فيقول لي : حاشَ لِلَّهِ أَنْ يَقَعَ الْفَقِيهَ فِي هَذَا ، وإنّما أَنْتَ خَبِيثٌ ، رأيته يطالبك بالتزام الحفظ فاخترقت عليه لأخرجك من عنده ، فأبقى معدّباً معك ومعه ، وإن

١ ترجمته في المغرب ٢ : ١٨٠ وبغية الوعاة : ٣٨٣ وفي المغرب أبياته الأولى .

أنا أوقفته على خطك صدّقي واسترحت ، ولكن لا أفعل هذا إلاّ إذا لم تنته عني ، وإن انتهيت فلا أخبر به أحداً ؛ قال ابن عبد الوارث : فلما وقفت على خطّه علمت قدر ما وقعت فيه ، وجعلت أرغب إليه في أن يردّ الرقعة إليّ ، فأبى وقال : هي عندي رهّن على وفائك بأن لا ترجع تتكلّم في ذلك الشأن ، قال : فكان والله يبطل القراءة ولا أجسر أكلمه ، لأنّي رأيت صيانتني وناموسي قد حصل في يده ، وتبّنت من ذلك الحين عن هذا وأمثاله .

٣٨٤ - وقال جابر بن خلف الفحّصي - وكان في خدمة عبد الملك بن سعيد ، وقرأ مع أبي جعفر ابن سعيد وتهذّب معه - يخاطبه حين عاثت الذئب في غنّمه :

أيا قائداً قد سما في العُلا وسادَ عَلَيْنَا بذاتٍ وجدّ  
غدا الذئبُ في غنّمي عائناً وقد جئتُ مستعدياً بالأسد

وكثر عليه الدين ، فكتب إليه أيضاً :

أفي أيّامك الغُرُّ أموتُ كذا من الضّرّ ؟  
وأخبطُ في دجى همّي ووجهك طلعةُ الفجرِ

فضحك وأدّى دينه .

٣٨٥ - ولما خلع أهلُ المرية طاعة عبد المؤمن ، وقتلوا نائبه ابن مخلوف ، قدّموا عليهم أبا يحيى ابن الرميمي ، ثم كان عليه من النصاري ما علم ، ففرّ إلى مدينة فاس ، وبقي بها ضائعاً خاملاً ، يسكن في غرفة ، ويعيش من النسخ ، فقال :

١ ترجمته في المغرب ٢ : ١٩٨ ، وانظر البيان المغرب ( ج ٣ ) والمعجب للمراكشي .

أَمْسَيْتُ بَعْدَ الْمَلِكِ فِي غُرْفَةٍ ضَيْقَةَ السَّاحَةِ ۱ وَالْمُدْخَلِ  
تَسْتَوْحِشُ الْأَرْزَاقُ مِنْ وَجْهَهَا فَمَا تَزَالُ الدَّهْرَ فِي مَعزَلِ  
النَّسْخُ بِالْقَوْتِ لَدَيْهَا وَلَا تَقْرَعُهَا كَفُّ أَخٍ مُفْضِلِ

وأنشدها لبعض الأدباء ، فبينما هو ليلة ينسخ بضوء السراج إذا بالباب يُقرع ، ففتحه ، فإذا شخص متكر لا يعرفه ، وقد مدّ يده إليه بصرة فيها جملة دنانير ، وقال : خذها من كف أخ لا يعرفك ولا تعرفه ، وأنت المفضل بقبولها ، فأخذها ، وحسّن بها حاله .

وقال له بعضٌ : هذا شعرك أيام خلعتك ، فهل قلت أيام أمرك ؟ قال : نعم ، لما قتل أهل المرية ابن مخلوف عامل عبد المؤمن وأكروهوني أن أتولى أمرهم قلت :

أَرَى فِتْنًا تَكشِفَ عَنْ لظَاهَا رَمَادٌ بِالنِّفَاقِ لَهُ انْصِدَاعُ  
وَأَلَّ بِهَا النِّظَامُ إِلَى انْتِثَارِ وَسَادَ بِهَا الْأَسَافِلُ وَالرِّعَاعُ  
سَاحِلُ كُلِّ مَا جُشِمَتْ مِنْهَا بِصَدْرِ فِيهِ لِلهَوْلِ اتِّسَاعُ

وأصل بني الرميمي من بني أمية ملوك الأندلس ، ونُسبوا إلى رميمة قرية من أعمال قرطبة .

٣٨٦ - وقال أبو بحر يوسف بن عبد الصمد ٢ :

فَوَصَلْتُ أَقْطَارًا لِغَيْرِ أَحِبَّةٍ وَمَدَحْتُ أَقْوَامًا بِغَيْرِ صِلَاتِ  
أَمْوَالٍ أَشْعَارِي نَمَتْ فَتَكَاثَرَتْ فَجَعَلْتُ مَدْحِي لِلْبَخِيلِ زَكَاتِي

وهذا من غريب المعاني .

١ ب : الساحات .

٢ ترجمة ابن عبد الصمد في الذخيرة ( ٣ : ٢٥١ ) والمغرب ٢ : ٢٠٣ وسالك الأبصار ١١ : ٤٥٠ .

٣٨٧ - وفي بني عبد الصمد يقول بعض أهل عصرهم ، لما رأى من كثرة عددهم ، والتباسهم بالسلطان :

ملأت قلبي هموماً مثل ما ملاً الدنيا بنو عبد الصمد  
كأثر الشيخ أبوهم آدمأ فغدا أكثر نسلأ وولدأ  
كلهم ذئب إذا آمنته والرعايا بينهم مثل النقدة

٣٨٨ - وكان الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن عباس<sup>١</sup> وزير زهير الصقلي ملك المرية بذئ الناس في وقته بأربعة أشياء : المال ، والبخل ، والعجب ، والكتابة ؛ قال ابن حيان : وكان قبل محنته صير هجيره أوقات لعب الشطرنج أو ما يسح له هذا البيت :

عيونُ الحوادثِ عني نيامٌ وهضمي على الدهر شيء حرامٌ  
وذاع هذا البيت في الناس حتى قلب له مصراعه الأخير بعض الأدياء فقال :

سَيُوقِظُهَا قَدَرٌ لَا يَنَامُ

وكان حسن الكتابة ، جميل الخط ، مليح الخطاب ، غزير الأدب ، قوي المعرفة ، مشاركاً في الفقه ، حاضر الجواب ، جماعاً للدفاتر ، حتى بلغت أربعمئة ألف مجلد ، وأما الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها ، وبلغ ماله خمسمئة ألف مثقال جعفرية سوى غير ذلك ، وكان مقتله بيد باديس ابن حبوس<sup>٢</sup> ملك غرناطة ، وكفى دليلاً على إعجابه قوله :

لي نفس لا ترتضي الدهر عمراً وجميع الأنام طراً عبيدا  
لو ترقت فوق السماك محلاً لم تزل تبغني هناك صعودا

١ انظر الذخيرة ٢/١ : ١٥١ والمغرب ٢ : ٢٠٥ والإحاطة ١ : ١٢٩ .

٢ تفصيل الخبر عن مقتله في الذخيرة : ١٦٦ .

أنا مَنْ تعلمون شيدتُ مجدي في مكاني ما بين قومي وليدا  
وكان يُتهم بداء أبي جهل فيما ينقل ، حتى كتب بعضُ الأدباء على برجه  
بالمريّة :

خلوت بالبرج فما الذي تصنعُ فيه يا سخيْفَ الزّمانِ  
فلما نظر إليه أمر أن يُكتب :

أصنعُ فيه كلَّ ما أشتهي وحاسدي خارجهُ في هوانِ

٣٨٩ - وكان الأعمى التّطيلي<sup>١</sup> شاعراً مشهوراً ، وكان الصبيان يقولون له « تحتاج كحلاً يا أستاذ » فكان ذلك سبب انتقاله من مُرسية ، وقيل له : يا أبا بكر ، كم تقع في الناس ؟ فقال : أنا أعمى ، وهم لا يبرحون حفراً فما عذري في وقوعي فيهم ؟ فقال له السائل : والله لا كنتُ قطُّ حفرةً لك ، وجعل يواليه برّه ورفدّه .

ومن شعره :

وجوهٌ تعزُّ على معشري ولكن تهنُّ على الشاعرِ  
قروئهمُ مثلُ ليلِ المحبِّ وليلُ المحبِّ بلا آخرِ

وله :

زنجيكم بالفُسوقِ داري يُدلي من الحرصِ كالحمارِ  
يخلو بنجلِ الوزيرِ سرّاً فيولجُ الليلَ في النّهارِ

١ أغلب الظن أن هذا الشاعر هو التطيلي الأصغر ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد التطيلي (التحفة : ٢٧ ونكت الحميان : ٩٠) إلا إن قدرنا أن المقرئ وقع في الوهم فإن القطعة الثانية أوردها ابن سعيد للمخزومي الأعمى (المغرب ١ : ٢٢٧) وهو الذي يكنى بأبي بكر .



٣٩٠ - ومن شعر أبي جعفر أحمد بن الخيال الاستبي<sup>١</sup> كاتب ابن الأحمر  
فيمن اسمه « فضل الله » :

من الناس من يُؤْتَى بنقديٍّ ومنهمُ بِكِرْهِ ومنهم مَن يُنَاك إذا انتشى  
ومنهم فتى يُؤْتَى على كلِّ حالةٍ وذلك فضلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يشاء

٣٩١ - ولعبد الملك بن سعيد الخازن<sup>٢</sup> :

ما حمدناك إذ وقفنا ببابكُ للذي كان من طويل حجابكُ  
قد ذمنا الزمانَ فيكَ فقلنا أبعدَ اللهُ كلَّ دهرٍ أتى بكُ

٣٩٢ - وقال في « المسهب » : كنت بمجلس القاضي ابن حمدين ، وقد  
أنشده شعراء قرطبة وغيرها ، وفي الحملة هلال شاعر غرناطة ، ومحمد بن  
الاستحي شاعر استجة الملقب بزحكون ، فقام الاستحي وأنشد قصيدة ، منها :

إليك ابن حمدين انتخلتُ قصائدًا بها رقصتُ في القُضْبِ ورُقُ الحمايمِ  
أنا العبدُ لكنِ بالموَدَّةِ أُشترى إذا كان غيري يُشترى بالدرهمِ

فشكره ابن حمدين ، ونبّه على مكان الإحسان ، فحسده هلال البياني على  
ذلك ، فلما فرغ من القصيدة قال له هلال : أعد علي البيت الذي فيه « رقص  
الحمام » فأعاده ، فقال له : لو أزلت النقطة عن الخاء كنت تصدق ، فقال  
له في الحين : ولو أزلت النقطة عن العين كنت تحسن .  
وكانت على عين هلال نقطة فكان ذلك من الاتفاق العجيب والجواب  
الغريب ، وعمل فيه .

١ في القمح : ٦٦ أبو عبد الله ابن الخيال الاستحي وكان يكتب لابن الأحمر وأورد له البيتين المثبتين  
هنا ؛ وفي ب : السبتي وسقطت اللفظة من م .  
٢ ترجمته في الجذوة : ٢٦٧ (وبغية الملتمس رقم : ١٠٦٧) والمغرب ١ : ٢٢٨ وهناك البيتان  
وانظر اليتيمة (ج ٢) وكتاب التشبيهات .

٣٩٣ - ولما قال المقدم بن المعافى<sup>١</sup> في رثاء سعيد بن جودي :

مَنْ ذَا الَّذِي يُطْعِمُ أَوْ يَكْسُو      وَقَدْ حَوَى حَيْفَ النَّدَى رَمْسُ  
لَا اخْضَرَّتْ الْأَرْضُ وَلَا أَوْرَقَ الـ      مُوَدُّ وَلَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ  
بَعْدَ ابْنِ جُودِي الَّذِي لَنْ تَرَى      أَكْرَمَ مِنْهُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ

فقيل له : أترثيه وقد ضربك ؟ فقال : والله إنّه نفعني حتى بذنوبه ، ولقد نهاني ذلك الأدب عن مضار جمّة كنتُ أفعُ فيها على رأسي ، أفلا أرمي له ذلك ؟ والله ما ضَرَبَنِي إِلَّا وأنا ظالم له ، أفأبقي على ظلمي له بعد موته ؟ وقيل له : لم لا تهجو مؤمن بن سعيد ؟ فقال : لا أهجو من لو هجا النجوم ما اهتدى أحد بها .

٣٩٤ - وقال أبو مروان عبد الملك بن نظيف<sup>٢</sup> :

لَا أَشْرَبُ الرَّاحَ إِلَّا      مَعَ كُلِّ خَيْرٍ كَرِيمٍ  
وَلَسْتُ أَعْشَقُ إِلَّا      سَاجِي الْجُفُونِ رَحِيمٍ

٣٩٥ - ومدح هلال البياني ابن حمدين بقصيدة أولها :

عَرَّجْ عَلَي ذَاكَ الْجَنَابِ الْعَالِي      وَاحْكَمْ عَلَى الْأَمْوَالِ بِالْأَمَالِ  
فِيهِ ابْنُ حَمْدِينَ الَّذِي لِنَوَالِهِ      مِنْ كُلِّ أَرْضٍ شَدُّ كُلِّ رِحَالِ

فقال له القاضي : ما هذا الوثوب على المدح من أوّل وهلة ، ألا تدري أنهم عابوا ذلك ، كما عابوا الطول أيضاً ، وأن الأولى التوسط ؟ فقال : ياسيدي ، اعذرني بما لك في قلبي من الإجلال والمحبة ، فإنّي كلّما ابتدأت في مدحك لم

١ ترجمة مقدم في الجذوة : ٣٣٣ وبغية الملتبس رقم : ١٣٨٦ وشعره في سعيد بن جودي في الحلة

السراء ١ : ١٥٦ - ١٥٧ .

٢ ترجمته في الجذوة : ٢٦٨ وبغية الملتبس (رقم : ١٠٨١) .

يتركني غرامي في اسمك إلى أن أتركه عند أول بيت ، فاستحسن ذلك منه ،  
وأحسن إليه .

ومن هذه القصيدة :

قاصٍ مَوَالٍ بِرَّةٍ وَنَوَالَهُ فلهُ جميعُ العالمين مَوَالِي

وكان يهوى وسيماً من متأدبي قرطبة ، فصنع فيه شعراً أنشده منه :

وَكَلَّتْ عَيْنِي بِرَعْنِي النَّجْمِ فِي الظُّلْمِ وَعَبَّرْتِي قَدْ غَدَّتْ مَمْزُوجَةً بِدَمٍ

فقال له الغلام : أنت لا تبرح بكوكب من عينك ليلاً ولا نهاراً ، وعاشقاً  
وغير عاشق ، فحجل هلال ، وكان على عينه نقطة .

٣٩٦ - وحكى ابن حيان<sup>١</sup> أن الأمير عبد الرحمن عثرت به دابته وهو  
سائر في بعض أسفاره ، وتطأطأت ، فكاد يكبو لفيه ، ولحقه جزع ، وتمثل  
إثره بقول الشاعر :

وَمَا لَا تَرَى مِمَّا يَبْقَى اللَّهُ أَكْثَرُ

وطلب صدر البيت فغزب عنه ، وأمر بالسؤال عنه فلم يوجد من يحفظه إلا  
الكاتب محمد بن سعيد الزجالي ، وكان يلقب بالأصمعي لذكائه وحفظه ، فأنشد  
الأمير :

تَرَى الشَّيْءَ مِمَّا يُتَّقَى فَتَهَابُهُ

فأعجب الأمير ، واستحسن شكله ، فقال له : الزم السرادق .  
وأعقب ابناً يسمى حامداً .

١ انظر المغرب ١ : ٣٣٠ والمقتبس (تحقيق مكِّي) : ٣٤ .

وحضر مع الوزير عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني في مجلس فيه رؤساء ،  
فعرض عليهم فرس مطهّم ، فتمثل فيه عبد الواحد بقول امرئ القيس :

بَرِيدِ السُّرَى بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرْبَرَا

ففهم الزجاجي أنه عرض بأنه من البربر ، فلم يحتمل ذلك وأراد الجواب ،  
فقال مبدئياً لما أراده ومعرضاً : أحسن عندي من ليل يسرى بي فيه على مثل هذا  
يوم على الحال التي قال فيها القائل :

وَيَوْمٍ كَظَلِّ الرَّمَحِ قَصَرَ طَوْلَهُ دُمُ الزُّقِّ عَنَّا وَاصْطَفَاكَ الْمَزَاهِرُ

وإنما عرض للإسكندراني بأنه كان يشهد مجالس الراحات في أول أمره  
ومعرفة الغناء ، فقلق الوزير ، وشكاه إلى الحاجب عيسى بن شهيد ، فاجتمع  
مع الزجاجي وأخذ معه في ذلك ، فحكى له الزجاجي ما جرى من الأول إلى الآخر ،  
وأنشد :

وَمَا الْحُرُّ إِلَّا مَنْ يَدِينُ بِمَثَلِ مَا يُدَانُ وَمَنْ يَخْفِي الْقَبِيحَ وَيُنْصِفُ  
هُمْ شَرَعُوا التَّعْرِيزَ قَدْ فَاغْنَمُوا تَبَعْنَاهُمْ لَامُوا عَلَيْهِ وَعَنَقُوا

ومن نوادر ابنه حامد أنه غلط أمامه في قوله تعالى ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾  
(النور : ٢) بأن قال « فانكحوهما » فأنشده حامد :

أَبْدَعَ الْقَارِئُ مَعْنَى لَمْ يَكُنْ فِي الثَّقَلَيْنِ  
أَمَرَ النَّاسَ جَمِيعاً بِنِكَاحِ الزَّانِيَيْنِ

وقال لبعض أصحابه حينئذ : أما سمعت ما أتى به إمامنا من تبديل الحدود ؟  
وتضحكا .

1 - وكتب الوزير أبو عبد الله ابن عبد العزيز<sup>١</sup> إلى المنصور صاحب بكنسية ، ويعرف بالمنصور الصغير ، قطعةً أولها :

يا أحسنَ الناسِ آداباً وأخلاقاً      وأكرمَ الناسِ أغصاناً وأوراقاً  
ويا حياً الأرضِ لمْ نكَبَّتْ عن سنني      وسُقَّتْ نحوي إرعاداً وإبراقاً  
ويا سناً الشمسِ لمْ أظلمتْ في بصري      وقدْ وسعتْ بلادَ الله إشراقاً  
من أيِّ بابٍ سَعَتْ غيرُ الزمانِ إلى      رحيبِ صدركِ حتى قيلَ قد ضاقاً  
قد كنتُ أحسبني في حسنِ رأيكِ لي      أتّي أخذتُ على الأيامِ ميثاقاً  
فالآنَ لم يبقَ لي بعدَ انحرافكِ ما      آسى عليه وأبدي منهُ إشفاقاً  
فأجابه بهذه القطعة :

ما زلتُ أوليكِ إخلاصاً وإشفاقاً      وأثنى عنك مَهْمَا غَبِثَ مشتاقاً  
وكان من أمني أن أقتنيكِ أخاً      فأخفقَ الأملُ المأمولُ إخفاقاً  
فقلتُ غرسٌ من الإخوانِ أكلؤهُ      حتى أرى منه إثمارةً وإبراقاً  
فكانَ لما زهتْ أزهارهُ ودنتُ      أثمارها حنظلًا مرّاً لمن ذاقاً  
فلستُ أولَ إخوانِ سقيتهمُ      صفوي وأعلقتهمُ بالقلبِ إعلاقاً  
فما جزوني بإحساني ولا عرفوا      قدري ولا حفظوا عهداً وميثاقاً

والوزير المذكور قال في حقّه في المطمح : إنّه وزير المنصور بن عبد العزيز ، وربُّ السبق في ودّه والتبريز ، ومنقُضُ الأمور ومُبرِّمُها ، ومُخمدُ الفتن ومُضرمها ، اعتقل بالدّهية ، واستقلَّ بالأمر والنهي ، على انتهاض بين الأكفاء ، واعتراض المحو لرسومه والإعفاء ، فاستمر غيرَ مراقب ، وأمر

ما شاء غير ممثل للعواقب ، ينتضي عزائم تنتضي ، فإن ألت من الأيام مظلمة  
أضاً ، إلى أن أودى ، وغار منه الكوكب الأهدى ، فانتقل الأمر إلى ابنه أبي  
بكر ، فناهيك من أي عرف ونكر ، فقد أربى على الدهاة ، وما صبا إلى  
الظبية ولا إلى المهاة ، واستقل بالهول يقتحمه ، والأمر يسديه ويلحمه ، فأى  
ندى أفاض ، وأي أجنحة بمدى هاض ، فانقادت إليه الآماك بغير خطام ،  
ووردت من نداه ببحر طام ، ولم يزل بالدولة قائماً ، وموقظاً من بهجتها  
ما كان نائماً ، إلى أن صار الأمر إلى المأمون بن ذي النون أسد الحروب ،  
ومسد الثغور والدروب ، فاعتمد عليه واتكل ، ووكل الأمر إلى غير وكيل ،  
فما تعدى الوزارة إلى الرياسة ، ولا تردى بغير التدبير والسياسة ، فتركه مستبداً ،  
ولم يجد من ذلك بدءاً . وكان أبو بكر هذا ذا رفعة غير متضائلة ، وآراء لم تكن  
آفلة ، أدرك بها ما أحب ، وقطع غارب كل منافس وجب ، إلى أن طأحه  
العمر وأنصاه ، وأعمده الذي انتصاه ، فخلّى الأمر إلى ابنه ، فتبدل في التدبير ،  
ولم يفرقا بين القبيل والدبير ، فغلب عليهما القادر بن ذي النون ، وجلب  
إليهما كل خطب ما خلا المنون ، فانجلكوا ، بعدما ألقوا ما عندهم وتخلّوا ،  
وكان لأبي عبد الله نظم مستبدع ، يوضع بين الجوانح ويودع ؛ انتهى المقصود  
من الترجمة .

2 - وكان للوزير أبي الفرج<sup>٢</sup> ابن<sup>١</sup> مكبود قد أعياه علاجه ، وتبيأ  
للفساد مزاجه ، فدل على خمر قديمة ، فلم يعلم بها إلا عند حكم ، وكان  
وسيماً ، وللحسن قسيماً ، فكتب إليه<sup>٣</sup> :

أرسل بها مثل ودك أرق من ماء خدك

١ ب : جلب .

٢ المطمح ١٥ - ١٦ .

٣ انظر ما سبق ص : ٤٠٨ .

شقيقة النفس فانضح بها جوى ابني وعبدك

وكتب رحمه الله تعالى معتذراً ، عما جناه منذراً :

ما تغيبتُ عنكَ إلا لعذر ودليلي في ذاك حرصي عليك  
هيبك أن الفرار من عظم ذنبٍ أتراهُ يكونُ إلا إليك

وقال في المطمح في حق أبي الفرج : من ثنية رياسة ، وعثرة نفاسة ،  
ما منهم إلا من تحلى بالإمارة ، وتردّى بالوزارة ، وأضاء في آفاق الدول ،  
ونفض بين الخيل والحوال ، وهو أحد أمجادهم ، ومقلد نجادهم ، فاتهم أدباً  
ونبلاً ، وباراهم كراماً تخاله وبلاً ، إلا أنه بقي وذهبوا ، ولقي من الأيام  
ما رهبوا ، فعين تنكرها ، وشرب عكرها ، وجال في الآفاق ، واستدر أخلاف  
الأرزاق ، وأجال للرّجاء قداحاً متواليات الإخفاق ، فأخمل قدره ، وتوالى  
عليه جور الزمان وغدره ، فاندفعت آثاره ، وعفت أخباره ، وقد أثبت له  
بعض ما قاله وحاله قد أدبرت ، والخطوبُ إليه قد انبّرت ؛ أخبرني الوزير  
الحكيم أبو محمد المصري وهو الذي آواه ، وعنده استقرت نواه ، وعليه كان  
قادماً ، وله كان مُنادماً ، أنه رغب إليه في أحد الأيام أن يكون من جملة  
ندمائه ، وأن لا يُحجّب عنه وتكون منةً من أعظم نعمائه ، فأجابه بالإسعاف ،  
واستساغ منه ما كان يعاف ، لعلمه بقلته ، وإفراط خلته ، فلما كان  
ظهراً<sup>٢</sup> ذلك اليوم كتب إليه :

أنا قد أهبتُ بكم وكلكم هوى وأحقّكم بالشكر مني السابق  
فالشمس أنت وقد أظلّ طلوعها فاطلع وبين يديك فجر صادق

١ م ب : الرجاء .

٢ ظهر : سقطت من ب .

3 - وقال الوزير أبو عامر ابن مسلمة<sup>١</sup> :

حجَّ الحجاجُ مِنِّي ففازوا بالمني وتفرقتُ عن خيفهِ الأَشهادُ  
ولنا بوجهك حجةٌ مبرورةٌ في كلِّ يومٍ تنقضي وتُعادُ

وقال الفتح في حقِّه ما صورته : نَبْتَهُ<sup>٢</sup> شرفٍ باذخ ، ومَفْخَرٍ على ذوائبِ الجوزاءِ شامخ ، وزرُّوا للخلفاء ، فانتجعتهم الأدباءُ واتبعتهم العظماء ، وانتسبت لهم النعماء ، وتنفست عن نورِ بهجتهم الظُّلَماءُ ، وأبو عامر هذا هو جوهرهم المنتخل ، وجوادهم الذي لا يبخل ، وزعيمهم المعظَّم ، وسيلك مَفْخَرِهِمِ المنظَّم ، وكان فتي المدام ، ومستغني النَّدَام ، وأكثر من النعت للراح والوصف ، وآثر الأفراح والقصف ، وأرى قَيْنَاتِ السرورِ مجلوةً ، وآياتِ الحسنِ متلوةً ، وله كتاب سَمَاهُ « حديقة الأرتياح في وصف حقيقة الراح » ، واختص بالمتعصد اختصاصاً جَرَّعَهُ رَدَاهُ ، وصَرَّعَهُ في مَدَاهُ ، فقد كان في المعتصد من عدم تحفظه للأرواح ، وتهاونه باللَّوَامِ في ذلك واللَّوَا حِ ، فاطمأن إليه أبو عامر واغترَّ ، وأنس إلى ما بَسَمَ من مؤانسته وافترَّ ، حتى أمكنته في اغتياله فرصة ، لم يعلق فيها حصَّةً ، ولم يطلق عليه إلا أنَّه زلت به قدمه فسقط في البحيرة وانكفا ، ولم يُعلم به إلاَّ بعدما طفا ، فأخرج وقد قضى ، وأدرج منه في الكفن حُسامَ المجد مُنْتَضِي ، فمن محاسنه قوله يصف السوسن ، وهو ممَّا أبدع فيه وأحسن :

وسوسنٍ راقٍ مرآهُ ومخبِره وجلَّ في أعينِ النُّظَّارِ منظرُهُ  
كأنه أكوُسُ البَلُّورِ قد صنعتُ مُسْتَنَدَاتِ تعالَى اللهُ مظهرُهُ  
وبينها ألسنٌ قد طُوِّقَتْ ذهباً من بينها قائمٌ بالملكِ يؤثره

١ المطح : ٢٣ - ٢٤ .

٢ المطح : بيت .



إلى أن قال : واجتمع بجنّة بخارج إشبيلية مع إخوان له عليّة ، فينما هم يديرون الراح ، ويشربون من كأسها الأفرّاح ، والجوُّ صاح ، إذا بالأفق قد غيّم ، وأرسل الدّيم ، بعدما كسا الجوَّ بمطارف اللاذ ، وأشعر الغصون زهر قباز<sup>٢</sup> ، والشمس منتقبة<sup>٣</sup> بالسحاب ، والرعد يبكيها بالانتحاب ، فقال<sup>٤</sup> :

يومٌ كأنّ سحابه لبست عمامات الصوامت  
 حجبت به شمس الضّحى بمثال أجنحة الفواخت  
 والغيث يبكي فقدّها والبرق يضحك مثل شامت  
 والرعد يخطب مفصّحاً والجو كالمحزون ساكت

وخرج إلى تلك الخميّة والربيع قد نشر رداه<sup>٥</sup> ، ونثر على معاطف الغصون نداه<sup>٦</sup> ، فأقام بها وقال :

وخميّة رقم الزّمان أديمها بمفضّض ومقسّم ومشوب  
 رشفت قبيل الصبح ريق غمامة رشف المحب مراشف المحبوب  
 وطردت في أكنافها ملك الصبا وقعدت واستوزرت كل أديب  
 وأدرت فيها اللّهُو حق مداره مع كل وضّاح الجبين حسيب<sup>٥</sup>

4 - وقال الوزير الكاتب أبو حفص أحمد بن برّد<sup>٦</sup> :

قلبي وقلبك لا محالة واحد<sup>٥</sup> شهدت بذلك بيننا الألاحظ<sup>٦</sup>

١ م : الرذاذ .

٢ م : دهر قباز .

٣ ب : منتقبة .

٤ مرت الأبيات ص : ٤٨٥ .

٥ ب والمطح : مهوب .

٦ المطح ٢٤ - ٢٥ .

فتعالَ فلنُغِظِ الحسودَ بوصلنا إنَّ الحسودَ بمثلِ ذاكِ يُغَاظُ

وقال :

يا من حُرِّمْتُ لئاذني بمسيره هذي النوى قد صَعَّرَتْ لي خدَّها  
زوّد جفوني من جمالك نظرة والله يعلمُ إن رأيتكَ بعدَها

وقال في المطمح في ابن برد المذكور : إنه غُذِيَ بالأدب<sup>١</sup> ، وعلا إلى  
أسمى<sup>٢</sup> الرتب ، وما من أهل بيته إلا شاعر كاتب ، لازم لباب السلطان  
راتب<sup>٣</sup> ، ولم يزل في الدولة العامرية بسبقي يُذكر ، وحق لا يُنكر ، وهو بديع  
الإحسان ، بليغ القلم واللسان ، مليح الكتابة ، فصيح الخطابة ، وله « رسالة  
السيف والقلم »<sup>٤</sup> ، وهو أوّل من قال بالفرق بينهما ، وشعره مثقف المباني ،  
مرهف كالحسام اليماني ، وقد أثبت منه ما يلهيك سماعاً ، ويريك الإحسان  
لماعاً ، فمن ذلك قوله يصف البهار :

تأملُ فقد شقَّ البهارُ كئاماً وأبرز عن نواره الخَصْلِ الندي  
مداهنَ تبرٍ في أناملِ فضةٍ على أذرعٍ مخروطةٍ من زبرجدٍ

وله يصف معشوقاً ، أهيفَ القدِّ مشوقاً ، أبدى صفحة ورد ، وبدا في  
ثوب لازورد :

لما بدا في لازور ديّ الحريرِ وقد بهرُ  
كبرتُ من فرطِ الجمالِ لٍ وقلتُ : ما هذا بشرُ  
فأجابني لا تنكرنُ ثوبَ السماء على القمرُ

١ المطمح : هذه ثنية غذيت بالأدب .

٢ المطمح : وريت في سماء .

٣ ق ب ودوزي : مراتب .

٤ راجع هذه الرسالة في الذخيرة ٢/١ : ٤٣٥ .

5 - وقال الوزير الكاتب أبو جعفر ابن اللماثي<sup>١</sup> :

أَلْمَا فَدَيْتِكُمْ نَسْتَلِمُ      منازلَ سَلَمَى عَلَى ذِي سَلَمٍ  
مَنَازِلُ كُنْتُ بِهَا نَازِلًا      زَمَانَ الصَّبَا بَيْنَ جَيْدٍ وَفَمٍ  
أَمَّا تَجِدُنَّ الثَّرَى عَاطِرًا      إِذَا مَا الرِّيَاحُ تَنفَسْنَ ثُمَّ

وقال في المطمح فيه : إمام<sup>٢</sup> من أئمة الكتابة ومُفَجَّرُ يَنْبوعِهَا ، والظاهر على مصنوعها بمطبوعتها ، إذا كتب نَشَرَ الدُرَّ في المَهَارِقِ ، وَنَمَتَ فِيهِ أَنْفَاسُهُ كَالْمَسْكِ فِي المَفَارِقِ ، وانطوى ذكره على انتشار إحسانه ، [وقصر أمره] مع امتداد لسانه ، فلم تَطُلْ لِدَوْحَتِهِ فروع ، ولا اتصل لها من نهر الإحسان كروع ، فاندفت محاسنه من الإهمال في قَبْرِ ، وانكسرت الآمالُ بَعْدَ بدائعه كسراً بعد جَبْرِ ، وكان كاتبَ عَلِيِّ بْنِ حمود العلوي وذكر أنه كان يرتجل بين يديه ولا يُرَوِّي ، فيأتي على البَدِيهِ ، بما يتقبله المُرَوِّي ويُبْدِيهِ<sup>٣</sup> ، فمن ذلك ما كتب به معتنياً من بعض رسالة : رَوْضُ القَلَمِ فِي فَنَائِكِ مُونِقِ ، وَغُصْنُ الأَدبِ بِمَائِكِ مَورِقِ ، وقد قذف بحر الهند دُرَّرَهُ ، وبعث روض نجدٍ زَهْرَهُ ، فأهدى ذلك على يدي فلان الجاري في حَمْدِهِ ، على مباني قصده .

6 - وقال الوزير حسان بن مالك بن أبي عبدة في المهرجان<sup>٣</sup> :

أَرَى المَهْرَجَانَ قَدْ اسْتَبْشَرَا      غَدَاةَ بَكِي المِزْنِ وَاسْتَعْبَرَا  
وَسَرِبَلَتِ الأَرْضُ أَمْوَاهَهَا      وَجَلَّتِ السِّنْدِسَ الأَخْضَرَا  
وَهَزَّتِ الرِّيَاحُ صَنَائِيرَهَا      فَضَوَّعَتِ المَسْكَ وَالعِنبَرَا  
تَهَادَى بِهِ النَّاسُ الطَّافَهُ      وَسَامَى المَقِيلُ بِهِ المَكْتَرَا

١ المطمح : ٢٥ - ٢٦ .

٢ المطمح : ويفديه ؛ وفي م : بما يفصله ؛ ب : يفعله ؛ دوزي : يتقبله .

٣ المطمح : ٢٦ - ٢٧ .

وقال في حقّه في المطمح : من بيت جلاله ، وعِثْرَة<sup>١</sup> أصالة ، كانوا مع عبد الرحمن الداخل ، وتوغّلوا معه في متشعبات تلك المداخل ، وسعوا في الخلافة حتى حضر مُبايعُها ، وكثُر مُشايِعُها ، وجدّوا في الهدنة وانعقادها ، وأخمدوا نار الفتنة عند اتقادها ، فأنبرمت<sup>٢</sup> عُرّاها ، وارتبطت أولاهها وأخرهاها ، فظهرت البيعة واتضح ، وأعلنت الطاعة وأفصحت ، وصاروا تاج مَقْرُفِها ، ومنهاج طُرُقِها ، وهو ممّن بلغ الوزارة بعد ذلك وأدركها ، وحلّ مطلعها وفلكتها ، مع اشتهاار في اللغة والآداب ، وانخرط في سلك الشعراء والكتّاب ، وإبداع لما ألّف ، وانتهاض بما تكلّف ، ودخل على المنصور وبين يديه كتاب ابن السري وهو به كليف ، وعليه معتكف ، فخرج وعمل على مثاله كتاباً سماه « ربيعة وعقيل » ، جرد له من ذهنه أيّ سيفٍ صَقِيلٍ ، وأتى به منتسَخاً مصوراً في ذلك اليوم من الجمعة الأخرى ، وأبرزه والحسنُ يتبسّم عنه ويتفرّج ، فسُرّ به المنصور وأعجب ، ولم يَغِبْ عن بصره ساعة ولا حُجِبَ ، وكان له بعد هذه المدة حين أدجّت الفتنة ليلها وأزجت ليلها وخيلها ، اغتراب كإغتراب الحارث بن مُضاض ، واضطراب بين القوافي والمواضي ، كالحية النضاض ، ثم اشتهر بعد ، وافترّ له السعد ، وفي تلك المدّة يقول يتشوّق إلى أهله :

سقى بلداً أهلي به وأقاربي	غواد بأثقالِ الحيا وروائحُ
وهبّت عليهم بالعشي وبالضحى	نواسمُ بردٍ والظلالُ فوائحُ
تذكرتهم والنأيُ قد حال دونهم	ولم أنسَ لكنّ أوقدَ القلبَ لافحُ
ومما شجاني هاتفٌ فوق أيكّة	ينوحُ ولم يعلمُ بما هو نائحُ
فقلت اتشدُّ يكفيك أني نازحُ	وأن الذي أهواهُ عني نازحُ
ولي صيبةٌ مثلُ الفراخِ بقفرةٍ	مضى حاضنها فاطحتها الطوائحُ <sup>٣</sup>

١ المطمح : وغرة ؛ ب : ومحمدة ؛ م : ومجرة .

٢ المطمح : فأبرمت .

٣ المطمح : متى حضناها طوحتها الطوائح .

إذا عصفت ريح أقامت رؤوسها فلم يلقها إلا طيور بوارح  
فمن لصغار بعد فقد أبيهم سوى سانح في الدهر لو عن سانح

واستوزره المستظهر عبد الرحمن بن هشام أيام الفتنة فلم يرض بالحال ،  
ولم يمض في ذلك الانتحال ، وثناقل عن الحضور في كل وقت ، وتغافل في ترك  
الغرور بذلك المقت ، وكان المستظهر يستبد بأكثر تلك الأمور دونه ، وينفرد  
مغيباً عنه شؤونه ، فكتب إليه :

إذا غبت لم أحضر وإن جئت لم أسل  
فأصبحت تيمياً وما كنت قبلها  
فسيان مني مشهد ومغيب  
اتيم ولكن الشبه نسب  
وله :

رأت طالعا للشيب بين ذوائي  
وقالت: أشيب؟ قلت: صبح تجاربي  
فباحث بأسرار الدموع السواكب  
أنار على أعقاب ليل نوائي  
ولما مات رثاه الوزير أبو عامر ابن شهيد بقوله :

أفي كل عام مصرع لعظيم  
وكيف اهتدائي في الخطوب إذا دجت  
مضى السلف الوضاح إلا بقية  
فإن ركبت مني الليالي هزيمة  
أبا عبدة إننا غدرناك عندما  
أخذل من كنا نرود بأرضه  
ويجلو العمى عنا بأنوار رأيه  
كأنك لم تلتح بريح من الحجى  
ولم نعتد مغناك غلوا ولم نزر  
أصاب المنايا حادتي وقديمي  
وقد فقدت عيناى ضوء نجوم  
كغرة مسود القميص بهم  
فقبلي ما كان اهتضام تميم  
رجعنا وغادرناك غير ذميم  
ونكرع منه في إناء علوم  
إذا أظلمت ظلماى ذات غيوم  
عقائم أفكار بغير عقيم  
رواحا لفصل الحكم دار حكيم

المطوح : ولم نزل نوم .

7 - وقال الوزير الفقيه أبو أيوب ابن أبي أمية<sup>١</sup> :

أَمِسْكَ دَارِينَ حَيَّاكَ النَّسِيمُ بِهِ    أَمْ عَنبَرُ الشَّحْرِ أَمْ هَذِي الْبَسَاتِينِ  
بِشَاطِئِ النَّهْرِ حَيْثُ النَّوْرُ مُؤْتَلَقٌ    وَالرَّاحُ تَعْبِقُ أَمْ تَلِكُ الرِّيَاحِينِ

وحلاه في المطمح بقوله : واحد الأندلس الذي طَوَّقَهَا فَخَارًا ، وَطَبَّقَهَا  
بَأَوَانِهِ افْتِخَارًا ، مَا شَتَّ مِنْ وَقَارٍ لَا تُحِيلُ الْحَرَكَةُ سَكُونَهُ ، وَمَقْدَارٌ يَتَمَنَّى مَخْبَرٌ  
أَنْ يَكُونَهُ ، إِذَا لَاحَ رَأَيْتَ الْمَجْدَ مَجْتَمِعًا ، وَإِذَا فَاهُ أَضْحَى كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَمِعًا ،  
تَكْتَحِلُ مِنْهُ مُقَلَّ الْمَجْدِ ، وَتَتَحِلُّ الْمَعَالِي أفعالُه انتحالُ ذِي كَلْفٍ بِهَا وَوَجَدَ ،  
لَوْ تَفَرَّقَتْ فِي الْخَلْقِ سَجَايَاهُ لَحُمِدَتْ الشَّيْمُ ، وَلَوْ اسْتَسْقَيْتَ بِمَحْيَاهُ لَمَا  
اسْتَمْسَكَتِ الدَّيْمُ ، وَدَعِيَ الْقَضَاءُ فَمَا رَضِيَ ، وَأَعْفَى عَنْهُ فَكَأَنَّهُ مَا اسْتَقْضَى ،  
لَدَيْهِ تَثَبَّتِ الْحَقَائِقُ ، وَتَنَبَّتِ الْعَلَائِقُ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ يُسَلِّكُ عَيْنَ الْجَدِّدِ<sup>٢</sup> ، وَيَدْعُ  
اللَّدِّدِ اللَّدِّدِ<sup>٣</sup> ، وَلَهُ أَدَبٌ إِذَا حَاضَرَ بِهِ فَلَا الْبَحْرُ إِذَا عَصَفَ ، وَلَا أَبُو عَثْمَانَ  
إِذَا وَصَفَ ، مَعَ حَلَاوَةِ مَوَاسِنِهِ تَسْتَهْوِي الْجَلِيسَ ، وَتَهْوِي حَيْثُ شَاءَتْ  
بِالنَّفُوسِ ، وَأَمَّا تَحْيِيرُهُ وَإِنشَاؤُهُ ، فَفِيهِمَا لِلْسَامِعِ تَحْيِيرُهُ وَإِنشَاؤُهُ ، وَقَدْ اثْبَتُ  
لَهُ بَدْعًا ، يَثْبِي إِلَيْهَا الْإِحْسَانَ جَيِّدًا وَأَخْدَعًا ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي مَثَرَلِ  
حَلِهِ مَثَرَلًا :

يَا مَثَرَلَ الْحَسَنِ أَهْوَاهُ وَأَلْفُهُ    حَقًّا لَقَدْ جُمِعَتْ فِي صَحْنِكَ الْبِدْعُ  
لِلَّهِ مَا اصْطَنَعَتْ نِعْمَاكَ عِنْدِي فِي    يَوْمٍ نِعْمَتْ بِهِ وَالشَّمْلُ مَجْتَمِعُ

وَحَلَّ مَنِيَّةَ صَهْرِهِ الْوَزِيرِ أَبِي مَرْوَانَ ابْنَ الدَّبِّ بَعْدُ وَهِيَ إِشْبِيلِيَّةُ الْمَطَّلَةِ عَلَى  
النَّهْرِ ، الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى بَدَائِعِ الزَّهْرِ ، وَهُوَ مُعْرَسٌ بِبَنْتِهِ<sup>٤</sup> ، فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا مَتَانَسًا ،

١ المطمح : ٢٨ - ٢٩ ؛ وقد سقط « أبو أيوب » من م .

٢ ب : مسلك ؛ دوزي : يسلك من الحق الجدد .

٣ ق : الألد اللدد .

٤ ب : معرس مبيته ؛ م : معرس بابنته .

ولحدوة السرور مقتبساً ، فوالى عليه من التُّحَف ، وأهدى إليه من الطُّرَف ،  
 ما غمر كثرة ، وبهر نفاسة وأثرة ، فلماً ارتحل وقد اكتحل من حسن ذلك  
 الموضوع بما اكتحل ، كتب إليه :

قلُّ للوزيرِ وأين الشكرُ من منيِ جاءتْ على سننٍ تترى وتتصلُ  
 غَشِيَتْ مغناكَ والروضُ الأنيقُ بهِ يَنْدَى وِصْوبُ الحيا يهْمِي وينهلُ  
 وِجَالَ طرْفِي فِي أَرْجَائِهِ مَرِحاً وَفَقَّ اجْتِيَازِي يَسْتَعْلِي وَيَسْتَفِلُ  
 نَدَعُو بِلَفْتَتِهِ حَيْثُ ارْتَمَى زَهْرٌ عَلَيْهِ مِنْ مَنَشِي أَفْنَانِهِ كِلَلُ  
 مَحَلِّ أَنْسٍ نَعِمْنَا فِيهِ آوْتَةٌ مِنَ الزَّمَانِ وَوَاتَانَا بِهِ الْأَمَلُ

وحلَّ بعد ذلك متنزهاً بها على عادته ، فاحتفل في موالة ذلك البر وإعادته ،  
 فلماً رحل كتب إليه :

يا دارُ أمتكِ الزَّما نُ صروفهُ ونوائبهُ  
 وجرتْ سعودكِ بالذي يهوى نزيلكِ آبيهُ  
 فلنعم مأوى الضيفِ أذ تِ إذا تحاموا جانبهُ  
 خطرٌ شأوتِ بهِ الدنيا رَ وأذعنت<sup>١</sup> لكِ قاطبهُ

وصنع له ولد ابن عبد الغفور<sup>٢</sup> رسالة سماها بـ «الساجعة» حذا بها حذو أبي  
 العلاء المعري في «الصاهل والشاحج» وبعث بها إليه ، فعرضها عليه ، فأقامت  
 عنده أياماً ثم استدعاها منه فصرفها إليه ، وكتب معها : بكثرُ زَفَقْتها أعزَّكَ اللهُ  
 تعالى نحوك ، وهزَّزْتَ بمقدمها سنالكِ وسرَّوكِ ، فلم ألفظها عن شيبَع ، ولا

١ ب والمطبع : ودنت .

٢ ب : فأذعنت .

٣ هو صاحب إحكام صنعة الكلام ؛ وقد تحدث عن رسالة «الساجعة» هناك ، وسقطت لفظة «ولد»  
 من م .

جهلت ارتفاعها عما يحتلى من نوعها ويُسْتَمَع ، ولكن لما أنسته<sup>١</sup> من أنسك بانتجاعها ، وحرصك على ارتجاعها ، دفعت في صدر الولوج ، وتركت بينها وبين مجامعها تلك الربوع ، حيث الأدب غَضٌّ ، وماء البلاغة مُرْفُضٌ ، فأسعد أعزك الله بكرتها ، وسلها عن أفانين معرّتها ، بما تقطفه من ثمارك ، وتغرفه من بحارك ، وترتاح له ولإخوانه من نتائج أفكارك ، وإنها لشنْشِنَة أعرفها فيكم من أخزَم ، وموهبة حزموها وأحرزتم سبق فيها منذ كم . انتهى .

8 - وابن عبد الغفور هو الوزير أبو القاسم الذي قال فيه الفتح<sup>٢</sup> : فتى زكا فرعاً وأصلاً ، وأحكم البلاغة معنًى وفصلاً ، وجرّد من ذهنه على الأعراض نصلاً ، قدّما به وقرّأها ، وقدح زندَ المعالي حتى أوراها ، مع صون يرتديه ، ولا يكاد يبديه ، وشيبة ألحقته بالكهول ، فأفقرت منه ربعها المأهول ، وشرف ارتداه ، وسلّف اقتضى أثره الكريم واقتداه ، وله شعر بديع السرد ، مُصَوّف البرد ، وقد أثبت له منه ما ألفت ، وبالذلالة عليه اكتفيت ، فمن ذلك قوله :

تركتُ التصابي للصبابِ وأهلهِ      وبيضَ الطلّي للبيضِ والسّمَرَ للسّمِرِ  
مُدامي مِدادِي والكؤوسُ محابري      وندَمَي أِقلامي ومنقِلي سِفْري  
وله :

لا تُنْكروا أننا في رحلة أبدأ      نحثُ في نَفْصِ ٣ طوراً وفي هدَفِ  
فدهرنا سُدْفَةً ونحنُ أنجُمُها      وليس يُنكرُ مجرى النّجمِ في السُدْفِ  
لو أسفر الدهرُ لي أقصرتُ عن سفْري      وملتُ عن كِلفِي بهدِهِ الكُلفِ

١ ب م : أنست .

٢ المطبع : ٢٩ - ٣٠ .

٣ ب م : ثقف .



وله من قصيدة :

رويدك يا بدر التمام فإنتي  
كان أديم الصبح قد أنجماً  
فإنتي وإن كان الشبابُ محبباً  
لأنف من حُسنٍ بشِعري مُفترى  
أرى العيس حَسرى والكواكبَ ظلُّعا  
وغودرَ درعُ الليلِ فيها مرقعا  
إليّ وفي قلبي أجلّ وأوقعا  
وأنف من حُسنٍ بشِعري قُنعا

9 - وقال الوزير أبو الوليد ابن حزم :

إليك أبا حفص وما عن ملالة  
مقالاً يطيرُ الجمرَ عن جنباته  
مضت لك في أفياء ظليّ قولة  
ولكن أباي إلا إليك التفاتهُ  
وكم بيننا لو كنتَ تحمّداً ما مضى  
وتحت جناح الغيم أحشاء روضة  
وللزهري في ظلّ الرياض تبسّم

وقال في الزهد :

ثلاث وستون قد جزتها  
وحلّ عليك نذيرُ المشيب  
تمرُّ لياليك مرّاً حيثاً  
فلو كنتَ تعقلُ ما ينقضي  
فما لك لا تستعدُّ إذن  
أترغبُ عن فجأةٍ للمنون  
فماذا تؤملُ أو تنتظرُ  
فما ترعوِي أو فما تردجرُ  
وأنتَ على ما أرى مستمرّ  
من العمر لا اعتضتَ خيراً بشرّ  
لدار المقام ودار المقرّ  
وتعلمُ أن ليسَ منها مفرّ

فإمّا إلى جنةٍ أزلّفتُ وإمّا إلى سقرٍ تستعزّ

10 - وقال ابن أبي زمنين<sup>١</sup> :

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشرُ الكفنا  
لا تطمئنَّ إلى الدنيا وبهجتها  
أين الأحبةُ والجيرانُ؟ ما فعلوا؟  
سقاهمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ  
تبكي المنازلُ منهم كلَّ منسجمٍ  
حسبُ الحِمامِ لو أبقاهمُ وأمهلهمُ  
ونحنُ في غفلةٍ عمّا يُراد بنا  
وإن توشحتَ من أثوابها الحسنا  
أين الذين همُ كانوا لنا سكنا؟  
فصيرتهم لأطباقِ الثرى رهنا  
بالمكرماتِ وترثي البرِّ والمِتنا  
أن لا يظنَّ على معلوّةٍ حسنا

وقال في المطمح : الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين فقيه متبتّل ، وزاهد لا منحرف إلى الدنيا ولا منفتل<sup>٢</sup> ، هجرها هجر المنحرف ، وحلّ أوطانه فيها محلّ المُعترف ، لعلمه بارتحاله<sup>٣</sup> عنها وتقويضه<sup>٤</sup> ، وإبداله منها وتقويضه ، فنظر بقلبه لا بعينه ، وانتظر يوم فراقه وبيئته ، ولم يكن له بعد ذلك بها اشتغال ، ولا في شعاب تلك المسالك إيغال ، وله تواليف في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين تدل على تخليته عن الدنيا واتسراكه ، والتفلت من حبال الاغترار وأشراكه ، والتنقل من حال إلى حال ، والتأهب للارتحال ، ويستدل به على ذلك الانتحال ، فمنها قوله :

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشرُ الكفنا

فذكر الأبيات ، انتهى .

١ المطمح : ٤٩ - ٥٠ وزاد في م : في الزهد .

٢ المطمح : منتقل .

٣ ق ب : بارتحالها عنه .

٤ في الأصول : وتقويضه .

11 - وقال خَلْفُ بن هرون يمدح الحافظ أبا محمد ابن حزم<sup>١</sup> :

ينحوضُ إلى المجدِ والمكرُماتِ بحارَ الخطوبِ وأهوالها  
وإن ذُكرتُ للعلا غايَةً ترقى إليها وأهوى لها

وقال في المطمح فيه : فقيه مستنبط ، ونبية بقياسه مُرْتَبِط ، ما تكلم تقليداً ، ولا عدا<sup>٢</sup> اختراعاً وتوليداً ، ما تمنّت به الأندلس أن تكون كالعراق ، ولا حنّت الأنفس معه إلى تلك الآفاق ، أقام بوطنه ، وما برح عن عطّنه ، فلم يشرب ماء الفرات ، ولم يقفُ عيشة الثمرات<sup>٣</sup> ، ولكنّه أربى على مَنْ مِنْ ذلك غُدِّي ، وأزرى على مَنْ هنالك نُعلِ وحُدِّي ، تفرّد بالقياس ، واقتبس نارَ المعارف أيّ اقتباس ، فناظر بها أهل فاس ، وصنّف وجبّرحى أفنى الأتقاس ، ونابذ الدنيا ، وقد تصدّت له بأفتن مُحَيّا ، وأهدت إليه أعْبَقَ عَرَفَ ورِيّا ، وخلع الوزارة وقد كسّته مَلاها ، وألبسته حُلاها ، وتجردَ للعلم وطلبه ، وجدّ في اقتناء نُخبه ، وله تأليف كثيرة ، وتصانيف أثيرة ، منها « الإيصال إلى فهم كتاب الحصال » وكتاب « الإحكام لأصول الأحكام » وكتاب « الفِصَل في الأهواء والملل والنحل » وكتاب « مراتب العلوم » وغير ذلك ، ممّا لم يظهر مثله من هنالك ، مع سرعة الحفظ ، وعفاف اللسان واللحظ ، وفيه يقول خلف بن هرون :

ينحوضُ إلى المجدِ والمكرُماتِ

ولابن حزم في الأدب سبقٌ لا يُنكر ، وبديهة لا يُعلم أنّه روّى فيها ولا

١ المطمح : ٥٥ - ٥٦ .

٢ المطمح : تمدى .

٣ كذا ، ولعله : عيشة السمرات .

٤ م ب ق : القصد .

٥ هذه رسالة نشرتها ضمن « رسائل ابن حزم » ( القاهرة ١٩٥٤ ) .

فَكَرَّ ، وقد أثبتُّ من شعره ما يُعلمُ أنه أُوحد ، وما مثله فيه أحد ، ثم ذكر جملة من نظمه ذكرناها في غير هذا الموضع .

12 - وكتب أبو عبد الله ابن مسرّة<sup>١</sup> إلى أبي بكر الؤلؤي يستدعيه في يوم طين ومطر ، لقضاء أرب من الأنس ووطر :

أقبلُ فإنَّ اليومَ يومٌ دَجَنٌ إلى مكانٍ كالضميرِ مكني  
لعلنا نُحكِمُ أشهى فنَّ فأنتَ في ذا اليومِ أمشى مني

وقال في المطمح : إن ابن مسرّة كان على طريق من الزهد والعبادة سبقَ فيها ، وانتسق في سلك مُقتضيتها ، وكانت له إشارة غامضة ، وعبارة عن منازل الملحدين غير داحضة ، ووجدت له مقالات ردية ، واستنباطات مُردية ، نُسب بها إليه رهق ، وظهر له فيها مزحَل عن الرشد ومزهق ، فتُتبعُ مصنفاته بالخرق ، واتسع في استباحتها الخرق ، وغدت مهجورة ، على التالين محجورة ، وكان له تنميق في البلاغة وتدقيق لمعانيها ، وتزويق لأغراضها وتشيد لمبانيها ، انتهى . وهو من نمط الصوفية الذين تكلّم فيهم ، والتسليم أسلم ، والله تعالى بأمرهم أعلم .

13 - ومن حكايات أهل الأندلس في الانقباض عن السلطان ، والفرار من المناصب ، مع العذر اللطيف : ما حكاه في المطمح في ترجمة الفقيه أبي عبد الله الحسني<sup>٢</sup> إذ قال : كان فصيح اللسان ، جزيل البيان<sup>٣</sup> ، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان ، لم يتشبث بدُنْيَا ، ولم يُنكث له مُبرم عُلْيَا ، دعاه الأمير محمد إلى

١ المطمح : ٥٨ .

٢ المطمح : ٥٦ - ٥٧ وفي ب م : الحسني .

٣ ب : البيان .

القضاء فلم يجب ، ولم يُظهر رجاءه المحتجب ، وقال : أبيتُ عن أمانة هذه الديانة ، كما أبت السموات والأرض عن حمل الأمانة ، إباية إشفاق ، لا إباية عصيان ونفاق ، وكان الأمير قد أمر الوزراء بإجباره ، أو حمل السيف إن تمادى على تأبّيه وإصراره ، فلماً بلغه قوله هذا أعفاه ، قال : وكان الغالب عليه علم النسب ، واللغة والأدب ، ورواية الحديث ، وكان مأموناً ثقة ، وكانت القلوب على حبه متفقة ، وله رحلة دخل فيها العراق ، ثم عاد إلى هذه الآفاق ، وعندما اطمأنت داره ، وبلغ أقصى مناه مدّاره ، قال :

كأن لم يكن بيّنٌ ولم تكُ فُرقةٌ

الأبيات ، انتهى .

وهذه الأبيات قدمناها في الباب الخامس في ترجمة القاضي ابن أبي عيسى . فأتت ترى كلام الفتح قد اضطرب في نسبتها ، فمرة نسبها إلى هذا ، ومرة نسبها إلى ذاك ، وهي قطعة عرّفها ذاك .

٣٩٨ - ومن دُعابات أهل الأندلس ومُلحهم : ما يحكى عن ابن أبي حنّى ، وهو علي بن أبي حنّى المكناسي<sup>١</sup> أبو الحسن ، قال لسان الدين : كان شيخاً مليح الحديث ، حافظاً للمسائل الفقهية ، قائماً على المدوّنة<sup>٢</sup> ، مضطلعاً بمشكلاتها ، كثير الحكايات ، يحكى أنه شاهد غرائب وتملحاً فينمقها عليه بعض الطلبة ، ويتعدون ذلك إلى الافتعال والمداعبة ، حتى جمعوا من ذلك جزءاً سموه « السالك والمحلّي في أخبار ابن أبي حنّى » ، فمن ذلك أنه كانت له هرة فدخل البيت يوماً فوجدها قد بلت إحدى يديها وجعلتها في الدقيق حتى علق بها ونصبها

١ م : الكنافي .

٢ م ب : الدولة .

بإزاء كُوَّةَ فأر ورفعت اليد الأخرى لصيده ، فناداها باسمها ، فردَّت رأسها ،  
وجعلت لإصبعها على فمها ، على هيئة المشير بالصمت ، وأشباه ذلك ، وتوفّي  
المذكور سنة ٤٠٦ ، قاله في الإحاطة .

٣٩٩ - ومن أجوبة ملوك الأندلس : أن نزاراً العبيدي صاحب مصر  
كتب إلى المرواني صاحب الأندلس كتاباً يسبه فيه ويهجوّه ، فكتب إليه المرواني :  
أمّا بعد فإنّك عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبنك ، والسلام ، فاشتد ذلك  
على نزار وأفحمه عن الجواب ، وحكي أنّه كتب إلى العبيدي ملك مصر  
مفتخراً<sup>١</sup> :

السنا بني مروانَ كيف تبدلتُ بنا الحالُ أو دارتُ علينا الدوائرُ  
إذا وُلد المولودُ منّا تهلّتُ له الأرضُ واهتزّتُ إليه المنابرُ

[ حريز بن عكاشة ]

٤٠٠ - ومن غريب ما يحكى من قوة أهل الأندلس وشجاعتهم : أن  
الأمير حريز بن عكاشة<sup>٢</sup> من ذرية عكاشة بن محصن صاحب رسول الله صلى الله  
عليه وسلّم لما نزل بساحة أذفونش ملك ملوك الروم ، فبدأهم بخراب ضياعها  
وقطع الشجر ، فكتب إليه حريز : ليس من أخلاق القدير ، الفساد والتدمير ،  
فإن قدرت على البلاد أفسدت ملكك ، ولو كان الملك في عشرة أمثال عددي لم  
ينزل لي بساحة ، ولا تمكن منها براحة ، فلما وصلته الرسالة عَفَّ ، وأمر  
بالكفّ ، وبعث الملك يرغبه في الاجتماع به ، فاسترهنه في نفسه عدّة من ملوك

١ مر البيتان ص : ١٨٨ .

٢ قد مر شيء عنه ص : ٣٥٨ وانظر الحلقة ٢ : ١٧٦ - ١٧٩ .

٣ الحلقة : ١٧٩ والمطمح : ٣٠ .

الروم ، فأجاب إلى ما ارتهن ، ولما صاروا بالمدينة البيضاء - وهي قلعة رباح غربي طُلَيْطَلَة - خرج حريز لابساً لأمّة حربه ، يرمق الروم منه شخصاً أوتي بسطة في الجسم والبسالة يتعجبون من آلات حربه ، ويتحدّثون بشجاعة قلبه . ولما وصل فسطاط الملك تلقته الملوك بالرحب والسعة ، ولما أراد التزول عن فرسه ركز رمحه ، فأبصر الملك منه هيئة تشهد له بما عنه حدّث ، وهيبة يجزع للقائها الشجاع ويكثرث ، فدعاه إلى البراز عظيم أبطاهم ، فقال له الملك : يا حريز أريد أن أنظر إلى مبارزتك هذا البطل ، فقال له حريز : المبارز لا يبارز إلا أكفاه ، وإن لي بيّنة على صدق قولي أن ليس لي فيهم كُفء ، هذا رمحي قد ركزته ، فمن ركب واقتلعه بارزته ، كان واحداً أو عشرة ، فركب عظيمهم فلم يهز الرمح من مكانه حين رامه ، ثم فعل ذلك مراراً ، فقال له الملك : أرني يا حريز كيف تقلعه ، فركب وأشار بيده واقتلعه ، فعجب القوم ، ووصله الملك وأكرمه ، انتهى .

وكان حريز هذا شاعراً ، ولما اجتاز به كاتب ابن ذي النون الوزير أبو المطرف ابن المنثي كتب إليه ١ :

يا فريداً دونَ ثانٍ وهلالاً في العيانِ  
عُدِمَ الراحُ فصارتْ مثلَ دُهْنِ البلسانِ

فجاوبه حريز ، وهو يومئذٍ أمير قلعته :

يا فريداً لا يُجارى بينَ أبناءِ الزمانِ  
جاء من شعركَ روضٌ جاده صوبُ البيانِ  
فبعثناها سلفاً كسجاياك الحسنانِ

١ مرت هذه الحكاية ص : ٣٥٨ وانظر الحلة ٢ : ١٧٩ والمطح : ٣٠ .

وكان لحرير كاتب يقال له عبد الحميد بن لاطون فيه تغفل شديد ، فأمره أن يكتب إلى المأمون بن ذي النون في شأن حصنٍ دخله النصارى ، فكتب : وقد بلغني أن الحصن الفلاني دخله النصارى إن شاء الله تعالى ، فهذه الواقعة التي ذكرها الله تعالى في القرآن ، بل هي الحادثة الشاهدة بأشراط الزمان ، فإننا لله على هذه المصيبة التي هدَّتْ قواعد المسلمين ، وأبقت في قلوبهم حسرة إلى يوم الدين . فلماً وصل الكتاب للمأمون ضحك حتى وقع للأرض ، وكتب لابن عكاشة جوابه ، وفيه : وقد عهدناك منتقياً لأُمورك ، نقاداً لصغيرك وكبيرك ، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب الأبله الجليْفِ ، وأسندت إليه الكتب عنك دون أن تَطَّلِعَ عليه ، وقد علمت أن عنوان الرجل كتابه ، ورائد عقله خطابه ، وما أدري من أيِّ شيء يتعجَّب منه ، هل من تعليقه إن شاء الله تعالى بالماضي ؟ أم من حسن تفسيره للقرآن ووضع مواضعه ؟ أم من تورُّعه عن تأويله إلا بتوقيف من سماع عن إمام ؟ أم من تهويله لما طرأ على مَنْ يخاطبه ؟ أم من علمه بشأن هذا الحصن الذي لو أنه القسطنطينية العظمى ما زاد عن عظمه وهو له شيئاً ؟ ولو أن حقيراً يخفي عن علم الله تعالى لخفي عنه هذا الحصن ، ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى ، منقطع عن بلاد الإسلام ، خارج عن سلك النظام ، لا يعبره إلا لص فاجر ، أو قاطع طريق غير متظاهر ، حرَّاسُهُ لا يتجاوزون الخمسين ، ولا يرون خبز البر عندهم إلا في بعض السنين ، باعه أحدهم بعشرين ديناراً ، ولعمري إنَّه لم يغب في بيعه ولا ربح أرباب ابتياعه ، وأراح من الشين بنسبته والنظر في خداعه ، فليت شعري ما الذي عظمه في عين هذا الجاهل ، حتى خطب في أمره بما لم يخطب به في حرب وائل .

فلماً وقف حرير على الكتاب كتب لابن ذي النون جواباً منه : وإن المذكور ممَّن له حرمة قديمة ، تغنيه عن أن يمتَّ بسواها ، وخدمة محمود أولها وأخراها ، ولسنا ممَّن اتسعت مملكته ، وعظمت حضرته ، فنحتاج إلى انتقاء الكُتَّاب ، والتحفظ في الخطاب ، وإنما نحن أحلاسُ نغور ، وكتَّابُ كتَّاب



لا سطور ، وإن كان الكاتب المذكور لا يحسن فيما يليق به على القلم ، فإنه يحسن كيف يصنع في مواطن الكرم ، وله الوفاء الذي تحدث به فلان وفلان ، بل سارت بشأنه في أقصى البلاد الرُّكبان ، وليس ذلك يَقْدَحُ عندنا فيه ، بل زاده لكونه دالاً على صحة الباطن والسذاجة في الإكرام والتنويه ، انتهى .

ولهذا الكاتب شعر يسقط فيه سقوط الأغبياء ، وقد يتنبه فيه تنبه الأذكياء ، فمنه قوله من قصيدة يمدح حريزاً المذكور مطلعها :

يذكرني بهم العنبرُ وظلمُ ثيابهمُ سكرُ  
إلى أن قال :

ولولا معاليك يا ذا الندى لما كان في الأرض من يشعرُ  
فلا تنكرن زحاماً على ذراك وفي كفك الكوثرُ

ومشى في موكبه وهم في سقر ، وكان في فصل المطر والطين ، فجعل فرسه في ذنب فرس ابن عكاشة ، فلما أثارت يدا فرسه طيناً جاء في عنق أميره ، ففطن لذلك الأمير ، فقال له : يا أبا محمد ، تقدم ، فقال : معاذ الله أن أسيء الأدب بالتقدم على أميرى ، فقال : فإن كان كذلك فتأخر مع الخيل ، فقال : مثلي لا يزال عن ركابك في مثل هذه المواضع ، فقال له : فقد والله أهلكني بما ترمي يدا فرسك على من الطين ، فقال : أعز الله الأمير ، يعذرني ، فوالله ما علمت أن يد فرسي تصل إلى عنقك ، فضحك ابن عكاشة حتى كاد يسقط عن مركوبه .

٤٠١ - وكان بسر قسطة غلام اسمه يحيى بن يظفت من بني يفرن ، قد نشأ عند ملكها المقتدر بن هود ، وتخلق بالركوب والأدب ، وكان في غاية الجمال والحلاوة والظرف فعلق بقلب ابن هود ، وكم حبه زماناً فلم ينكم ، فكتب له :

يا ظبي بالله قل لي متى تُرى في حياي

بمرُّ عمري وحالي في خيبي منك خالي

فكتب له الغلام في ظهر الرقعة :

إن كنتُ ظلياً فأنتَ الـ هزبرُ تبغي اغتيالِي  
وليسَ يخطرُ يوماً حلولُ غيلِ بيالي

ثم كتب بعدهما : هذا ما اقتضاه حكم الجواب في النظم ، وأنا بعدُ قد جعلت رَسَتي بيدِ سيدي ، فعسى أن يقودني إلى ما أحب ، لا ما أكره ، والذي أحبه أن يكون بيننا من المحبة ما يقضي بدوام الإخلاص ، ونأمن في مَغْبَتِهِ من العار والقصاص ، فتركه مدّة ، ثم كتب له يوماً على الصورة التي ذكرها :

ماذا ترى في يومِ أَمْنٍ طَرَزْتَ حُللَ السحابِ به البروقُ المذْهبةُ  
وأنا وكاسي لا جليسٌ غيرهُ ملآن لا يخلو إلى أن تشرَبتهُ  
والأنسُ إن يَسَّرْتَهُ متيسرٌ متى تُصعبه فَيَا ما أصعبهُ

فأجابه :

يا مالكا بددَ الملوكَ بعلمهِ وخلالهِ وعلوهِ في المرتبةِ  
وافي نَدَاك فحيرتُ عند جوابهِ إذ ما تضمّنَ ريبةً مستغربةِ  
إنّا إذا نخلو ، تقوّلَ حاسدٌ وغدا بهذا الأمرُ ينصرُ مذهبهِ  
هَبْنِي إلى يومٍ تطيشُ به النهيُ والبيضُ تُنضِي والقنا متأشبهِ  
وهناك فانظري بعينِ بصيرةِ فالشبلُ يعرفُ أصله من جربةِ

ثم أعلاه إلى درجة الوزارة والقيادة ، إلى أن قُتل في جيش كان قدّمه عليه ، فقال فيه من قصيدة :

يا صارماً أغمدتهُ عن ناظري الصّوارمِ

وزهرة غيبتُها      من الطيورِ كئامُ  
 يا كوكباً خراً من أذ      جمبي وأنفي راغمُ  
 بكتُ عليَّ وشقتُ      جيوبهُنَّ الغمامُ  
 قل للحمامِ إنني      أصبحتُ أحكي الحمامُ  
 وأنشُرُ الدمعَ مَهَمَا      رأيتُ للزهريِّ باسمُ  
 تاللهِ لا لَدَّ عيشُ      لمترفٍ لكَ عادمُ

٤٠٢ - ولما رحل الوزير عبد البر بن فرسان من وادي آش إلى علي الميورقي صاحب فتنة إفريقية أقبل عليه ، ثم ولي أخوه يحيى الإمارة بعده ، فأسند جميع أموره إليه . فقال يخاطبه :

أجُبْنَا ورعي ناصرِي وحُسامي      وعجزاً وعزمي قائدي وإمامي  
 ولي منك بطّاش اليدِين غَضَنُفَر      يُحاربُ عن أشبالِهِ ويُحامي  
 ألا غنياني بالصهيل فإنه      سماعي ورقراقُ الدماءِ مُدامي  
 وحطّتا على الرماءِ رحلي فإنها      مهادي وخفّاقُ البُنودِ خيامي

٤٠٣ - وكان الأمير أبو عبد الله ابن مرْدَنيش ملك شرق الأندلس من أبطال عصره ، وكان يدفع في المواكب ، ويشقها يمينا وشمالاً منشداً :

أكرُّ على الكتيبة لا أبالي      أحتنفي كان فيها أم سواها

حتى إنّه دفع مرّة في موكب النصارى ، فصَرَخ منهم وقتل ، وظهر منه ما أعجبت به نفسه ، فقال لشخص من خواصه عالم بأمور الحرب : كيف رأيت ؟ فقال : لو رآك السلطان لزاد فيما لك في بيت المال ، وأعلى مرتبتك ، أمن يكون رأس جيش يُقدِّم هذا الإقدام ، ويتعرّض بهلاك نفسه إلى هلاك مَنْ

١ مرت هذه الحكاية ص : ٢١٠ .

معه ؟ فقال له : دعني فإني لا أموت مرتين ، وإذا متُّ أنا فلا عاش مَنْ بعدي .

٤٠٤ - ومن حكاياتهم في الظرف ١ : أن القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى من بني يحيى بن يحيى خرج إلى حضور جنازة ، وكان لرجل من إخوانه منزل بقرب مقبرة قريش ، فعزم عليه في الميئل إليه ، فترل وأحضر له طعاماً ، وغنّت جارية :

طابَتْ بطيب لثاتِكَ الأفداحُ      وزهتْ بحمرة وجهك التفاحُ  
وإذا الربيعُ تنسَمَتْ أرواحُهُ      نمتْ بعرفِ نسيمِكَ الأرواحُ  
وإذا الحنادسُ ألبستْ ظلماءَها      فضياءَ وجهك في الدجى مصباحُ

فكتبها القاضي طرباً على ظهر يده ٢ ؛ قال الراوي : فلقد رأيتَه يكبّرُ على الجنازة والأبيات على ظهر يده .

٤٠٥ - ومن حكاياتهم في البلاغة ما ذكره في «المطح» أن أبا الوليد ابن عيال ٣ لما انصرف من الحج اجتمع مع أبي الطيب في مسجد عمرو بن العاص بمصر ، ففاوضه قليلاً ، ثم قال له : أنشدني للمليح الأندلس ، يعني ابن عبد ربّه ، فأنشده :

يا لؤلؤاً يسبي العقولَ أنيقاً      ورشاً بتعذيب القلوبِ رقيقاً  
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلهِ      دُرّاً يعودُ من الحياءِ عقيقاً  
وإذا نظرتَ إلى محاسن وجههِ      أبصرتَ وجهك في سناهُ غريقاً  
يا من تقطعَ خصرُهُ من رقّةٍ      ما بالُ قلبك لا يكونُ رقيقاً

١ انظر الجذوة : ٧٠ .

٢ الجذوة : على باطن كفه .

٣ المطح : ٥٢ وفيه أبا الوليد ابن عباد ؛ وفي م : ابن عتال .

فلما كمل إنشادها استعادها ، ثم صفقَ بيديه وقال : يا ابن عبد ربه ،  
لقد تأتيتك العراق حببوا ، انتهى .

٤٠٦ - وقال مؤلف كتاب « واجب الأدب »<sup>١</sup> : مما يجب حفظه من  
مخترعات الأندلسيين قول ابن عبد ربه<sup>٢</sup> :

يا ذا الذي خَطَّ العِذارُ بخدّه خطَّينَ هاجا لوعةً وبلا بلا  
ما كنتُ أقطعُ أنْ لحظكَ صارمٌ حتى حملت من العِذارِ حمائلًا

٤٠٧ - وحكي أن الوزير أبا الوليد ابن زيدون<sup>٣</sup> توفيت ابنته ، وبعد  
الفراغ من دفنها وقف للناس عند مُنصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم ، فقيل :  
إنه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، قال الصَّفدي : وهذا من التوسع  
في العبارة ، والقدرة على التفنن في أساليب الكلام ، وهو أمر صعب إلى الغاية ،  
وأرى أنه أشقُّ مما يحكى عن واصل بن عطاء أنه ما سُمعت منه كلمة فيها  
راء ، لأنه كان يلثغ بحرف الراء لثغة قبيحة ، والسبب في تهوين هذا الأمر وعدم  
تهويله أن واصل بن عطاء كان يعدل إلى ما يُرادف تلك الكلمة مما ليس فيه  
راء ، وهذا كثير في كلام العرب ، فإذا أراد العدول عن لفظ فرس قال جواد  
أو ساعٍ أو صافين ، أو العدول عن رمح قال قناة أو صعدة أو يزناني أو غير ذلك ،  
أو العدول عن لفظ صارم قال حسام أو لهزم أو غير ذلك ، وأما ابن زيدون  
فأقول في حقّه إنه أقلّ ما كان في تلك الجنازة ، وهو وزير ، ألف رئيس  
ممن يتعين عليه أن يتشكر له ، ويضطر إلى ذلك ، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف  
عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير إلى الغاية ، لا سيما من محزون ، فقد

١ هو والد الأديب الجغرافي علي بن موسى بن سعيد .

٢ البيتان في المطمح : ٥٢ .

٣ انظر الذخيرة ١/١ : ٢٠٠ وشرح العيون : ٤ .

قطعة من كبده :

ولكنه صَوَّبُ العقول إذا انبرت سحائبُ منه أعقبتُ بسحائب

وقد استعمل الحريري هذا في مقاماته عندما يذكر طلوع الفجر ، وهو من القدرة على الكلام ، وأرى الخطيب ابن نباتة ممن لا يُلْحَقُ في هذا الباب ، فإنه أملى مجلدة معناها من أولها إلى آخرها : يا أيها الناس اتقوا الله واحذروه فإنكم إليه راجعون ، وهذا أمر بارع معجز ، والناس يذهلون عن هذه النكتة فيه ، انتهى كلام الصَّفدي ملخصاً .

وقال في الوافي ، بعد ذكره جملةً من أحوال ابن زيدون ، ما نصّه : وقال بعض الأدباء : مَنْ لبس البياض ، وتختّم بالعقيق ، وقرأ لأبي عمرو ، وتفقه للشافعي ، وروى شعر ابن زيدون ، فقد استكمل الظرف . وكان يسمى بَحْثَرِيَّ المغرب لحسن ديباجة نظمه ، وسهولة معانيه ، انتهى .

رجع إلى كلام أهل الأندلس :

٤٠٨ - وكان الأديب المحدث أبو الربيع سليمان بن علي الشلبي الشهير بكثير<sup>١</sup> يهوى مَنْ يتجنّى عليه ويقول : إنّه أبرد من الثلج ، فخاطبه كثير بقوله :

يا حبيباً له كلامٌ خَلُوبٌ      قَلْبَتُ في لَظي هواه القلوبُ  
كيف تعزو إلى محبِّكَ بَرْدًا      ومن الحبِّ في حشاه هيبُ  
أنت شمسٌ وقلتُ إنِّي ثلجٌ      فلهذا إذا طلعت أذوبُ

١ هناك من يترجم له ابن سميذ (في المغرب ١ : ٣٩٨ والقدح : ١٨٩) باسم كثير العلياري نسبة إلى العلياء وهي من قرى شلب ، وهو يقول فيه : أديب مشهور في عصرنا ، كان بإشبيلية ورحل إلى بجاية فأكثر كلامه فيما لا يعنيه ف ضرب وجرس ونفي في البحر ؛ ويقول إنه كان يتجنب مجالسته بإشبيلية لأنها تجلب مشاركته لحدّة فيه ، ولا أقطع بأنه علي بن سليمان الشلبي هذا .

٤٠٩ - وقال ابن مهران ممّا يشتمل على أربعة أمثال<sup>١</sup> :

المال زينٌ ، والحياةُ شهيةٌ ، والحدودُ يُفقرُ ، والشجاعةُ تقتلُ  
والبخلُ عيبٌ ، والجبانُ مذممٌ ، والقصدُ أحكمٌ ، والتوسطُ أجملُ

٤١٠ - وقال ابن السّيد البطلانيّ متغزلاً<sup>٢</sup> :

نفسِي الفداءَ بلخوذٍ حلّو اللّمي مستحسنٍ بصلودهِ أضناني  
في فيه سِمْطا جوهريّ يروي الظما لو علّني بيرودهِ أحياني  
ويخرج من هذه القطعة عدة قطع .

٤١١ - وقال ابن صارة مضمناً<sup>٣</sup> :

إلى كم ينفرُ الدينارُ منّي ويطلبُ كفّ منّ عنه يحيد  
ألمُ أنشده في وادي هيامي به لو كان يعطفه النشيد  
حبيبي أنتَ تعلمُ ما أريدُ ولكنّ لا ترقُ ولا تجود  
وكم غنّيتُ حينَ تنكبتني منّي شيطانها أبداً مرّيد  
« يريدُ المرءُ أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما يريد »

٤١٢ - وقال ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزّين<sup>٤</sup> :

بالله إن لم تزدجيراً يا مشبهَ البدرِ المنيرِ

١ لعله سليمان بن مهران السرقطي (الجدوة : ٢٠٩ وبغية المتنصر رقم : ٧٧٣ والذخيرة ٣ : ١٥٧ والمغرب ٢ : ٤٤٢ والمسالك ١١ : ٤٤٧) .  
٢ مر البيتان ، انظر ص : ٢٨٧ .  
٣ الأبيات في الذخيرة ( ٢ : ٣٢٧ ) .  
٤ في الأصول : ينقد ، والتصويب عن الذخيرة .  
٥ مر بيتان من هذه الثلاثة ص : ٢٩١ .

لأَسْرَحَنَّ نواظري في ذلك الورد النصير  
ولآكلتْكَ بالمى ولأشربنْكَ بالضمير

٤١٣ - وقال ابن جعد ربه<sup>١</sup> :

اشربْ على المنظرِ الأنيقِ وامزجْ بريقِ الحبيبِ ريقِي  
واحللْ وشاحَ الكعابِ رفقاً خوفاً على خصرها الرقيقِ  
وقل لمنْ لامَ في التصابي خلّ قليلاً عن الطريقِ

وسياتي إن شاء الله تعالى قريباً من بلاغة أهل الأندلس في الجدل والهزل ما فيه مَقْنَع لمن اقتصر عليه .

٤١٤ - ومن حكاياتهم في عدم احتمال الضيم والذل والوصف بالأنفة :  
أنه لما ثار أيوب بن مطروح في المائة الخامسة في الفتنة على ملك غرناطة عبد الله بن بلقين بن حبّوس وخاض بحار الفتنة حتى رماه موجهاً فيمن رمى على الساحل ، وحصل فيما بث عليهم يوسف بن تاشفين من الحباطل ، وكانت له همّة وأنفة عظيمة ، وخُلِع عن إمارته ، وحصل في حبالته ، أدخل رأسه تحتها ، فانتظر مَنْ حضر معه أن يتكلّم أو يخرج رأسه ، فلم يكن إلا قليل حتى وقع ميتاً ، رحمه الله تعالى .

٤١٥ - ولما ثار الميورقي بإفريقية على بني عبد المؤمن الثورة المشهورة ، وخدمه جملة من أعيان أهل الأندلس ، وكان من جملتهم مالك بن محمد بن سعيد العنسي<sup>٢</sup> ، كتب عنه من رسالة : وبعد ، فإننا لا نحتاج لك إلى برهان على أمير لسانه الحسام ، وأيده التأييد الرباني الذي لا يُرام ، قد نصب خيامه

١ المقد ٦ : ٢٨٥ ، ٤٢٧ .

٢ انظر ترجمة مالك في المغرب ٢ : ١٧١ .



بالبراح ، ولم يتخذ سوراً غير سُمُر القنا وبيض الصَّفاح ، له من العزم رداء<sup>١</sup>  
ومن الرأي كمين<sup>٢</sup> :

إذا صدقَ الحسامُ ومُنْتَضِيه فكلُّ قَرَارَةٍ حِصْنٌ حِصِينُ

وهو من القوم الذين لا يجورون على جار ، ولا يرحلون بحزبية ولا يتركون  
من عار ، دينهم دين التقوى ، وإن كنت من ذلك في شك فاقدم علينا حتى  
يصح لك اختبار الذهب بالسَّبْك ، وأنت بالخيار في الظعن والإقامة ، فإن حلت  
نزلت خيرَ منزل ، وإن رحلت ودَّعْتَ أفضلَ وداع ، وسرت في كنف  
السلامة ، إذ قد شُهرنا بأننا لا نقيّد إلا بالإحسان ، وأن ندع لاختياره كل إنسان .

٤١٦ - ومن حكايات أهل الأندلس في الجود والفضل ومكارم الأخلاق<sup>٣</sup> :

أن أبا العرب الصقلي حضر مجلس المعتمد بن عباد ، فأدخلت عليه جملة من  
دنانير السكّة ، فأمر له بخريطين منها ، وبين يديه تصاوير عنبر من جملتها  
صورة جمل مُرَصَّع بنفيس الدر ، فقال أبو العرب : ما يحمل هذه الدنانير إلا  
جمل ، فتبسم المعتمد وأمر له به ، فقال :

أعطيني جَمَلًا جَوْنًا شَفَعَتْ بِهِ  
نِتَاجُ جُودِكَ فِي أَعْطَانِ مَكْرَمَةٍ  
فَاعْجَبْ لَشَأْنِي فَشَأْنِي كُلَّهُ عَجَبٌ  
رَفَهْتَنِي فَحَمَلْتُ الْحَمْلَ وَالْحَمَلَا

ومن نظم أبي العرب المذكور :

إِلَامَ اتِّبَاعِي لِلْأَمَانِي الْكُؤَادِبِ وَهَذَا طَرِيقَ الْمَجْدِ بَادِي الْمَذَاهِبِ ؟

١ في الأصول : رداء .

٢ البيت للأعمى التطيلي ، ديوانه : ٢٠٢ ( البيت رقم : ٢١ ) .

٣ بدائع البدائه ٢ : ١٣٦ .

٤ البدائع : أجديتي .

أهْمُ ولي عزمان : عزمٌ مُشْرِقٌ      وآخرُ يَئني هِمِّي للمغاربِ  
ولا بدَّ لي أن أسألَ العيسَ حاجةً      تشقُّ على أخفافِها والغواربِ  
إذا كانَ أصلي من تُرابٍ فكلَّها      بلادي وكلُّ العالمين أقرابي

٤١٧ - وذكر الحافظ الحجاري في « المسهب » أنه سأل عمه أبا محمد عبد الله بن إبراهيم<sup>١</sup> عن أفضل من لقي من أجواد تلك الحلببة ، فقال : يا ابن أخي ، لم يُقدَّر أن يقضى لي الاستمطار بهم ، في شباب أمرهم ، وعضفوان رغبتهم في المكارم ، ولكن اجتمعت بهم وأمرهم قد هرم ، وساءت بتغير الأحوال ظنونهم ، وملّوا الشكر ، وضجروا من المروءة ، وشغلتهم المحن والفتن ، فلم يبقَ فيهم فضل للإفضال وكانوا كما قال أبو الطيب :

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته      فسرَّهم وأتيناه على الهرمِ

فإن يكن أتاها على الهرم فإننا أتيناها وهو في سياق الموت ، ثم قال : ومع هذا فإن الوزير أبا بكر ابن عبد العزيز ، رحمه الله تعالى ، كان يحمل نفسه ما لا يحمله الزمان ، ويبسم في موضع القطوب ، ويظهر الرضى في حال الغضب ، ويجهد ألا ينصرف عنه أحدٌ غير راضٍ ، فإن لم يستطع الفعل عوض عنه القول . قلت له : فالمعتمد بن عباد كيف رأيتَه ؟ فقال : قصدته وهو مع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في غزوته للنصارى المشهورة ، فرفعت له قصيدة منها :

لا رَوْعَ الله سِرْباً في رحابهمُ      وإن رموني بترويعٍ وإبعادِ  
ولا سقاهمُ على ما كان من عطشٍ      إلا ببعضِ نَدَى كَفَّ ابن عبّادِ  
ذي المكرمات التي ما زلت تسمعها      أنسَ المقيمِ وفي الأسفارِ كالزادِ  
يا ليت شعري ماذا يرتضيه لمن      ناداه يا مؤثلي في جَحْفَلِ الناديِ

١ ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري في المغرب ٢ : ٣٤ .

فلما انتهيت إلى هذا البيت قال : أمّا ما أرتضيه لك فليست أقدر في هذا الوقت عليه ، ولكن خذ ما ارتضى لك الزمان ، وأمر خادماً له فأعطاني ما أعيش في فائدته إلى الآن ، فإتني انصرفت به إلى المرية ، وكان يعجبي سكنها والتجارة بها ، لكونها ميناء لمراكب التجار من مسلم وكافر ، فتجرتُ فيها فكان إبقاء ماء وجهي على يديه ، رحمة الله تعالى عليه . ثمّ أخذ البطاقة وجعل يجيل النظر والفكر في القصيدة ، وأنا مترقب لنقده ، لكونه في هذا الشأن من أئمنه ، وكثيراً ما كان الشعراء يتحامونه لذلك إلاّ من عرف من نفسه التبريز ، ووثق بها ، إلى أن انتهى إلى قولي :

ولا سقاهم على ما كان من عطش إلاّ ببعضِ ندَى كف ابن عبّاد

فقال : لأي شيء بخلت عليهم أن يُسقوا بكفّه ؟ فقلت : إذن كان يلحقني من النقد ما لحق ذا الرمة في قوله :

ولا زال مُنْهلاًّ بجرعائك القطر<sup>١</sup>

وكان طوفان نوح أهون عليهم من ذلك ، فتألقت غرته ، وبدت مسرته ، وقال : إننا لله على أن لم يُعينا الزمان على مكافأة مثلك . قال : وكنت ممن زاره بسجنه بأغصام ، وحملتني شدة الحمية له والامتصاص لما حل به أن كتبت على حائط سجنه متمثلاً :

فإن تَسْجُنُوا القَسْرِيَّ لا تَسْجُنُوا اسْمَهُ ولا تَسْجُنُوا مَعْرُوفَهُ في القبائل

ثم تفقدت الكتابة بعد أيام ، فوجدت تحت البيت : لذلك سجنناه<sup>٢</sup> :

١ صدر البيت :  
ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى

٢ البيت التالي للمتنبّي .

وَمَنْ يَجْعَلِ الضَّرْغَامَ فِي الصَّيْدِ بَازَهُ تَصَيَّدَهُ الضَّرْغَامُ فِيمَا تَصَيَّدَا  
 فَمَا أَدْرَى مَنْ جَاوَبَ بِذَلِكَ ، ثُمَّ عَدَّتْ لَهُ وَوَجَدَتْهُ قَدْ مَحَى ، وَأَعْلَمْتُ  
 بِذَلِكَ ابْنَ عَبَّادٍ ، فَقَالَ : صَدَقَ الْمَجَاوِبُ ، وَأَنَا الْجَانِي عَلَى نَفْسِهِ ، وَالْحَافِرُ  
 بِيَدِهِ لِرَمْسِهِ ، وَلَمَّا أُرِدْتُ وَدَاعَهُ أَمْرٌ لِي بِإِحْسَانٍ عَلَى قَدْرِ مَا اسْتَطَاعَ ، فَارْتَجَلْتُ :

أَلَيْتُ لَا أَقْبَلُ إِحْسَانَكُمْ      وَالذَّهْرُ فِيمَا قَدِ عَرَاكُمْ مُسِي  
 فَنِي الَّذِي أَسْلَفْتُمْ غُنِيَّةً      وَإِنْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ قَدْ نُسِي  
 قَالَ : وَفِيهِ أَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

يَا طَالِبَ الْإِنصَافِ مِنْ دَهْرِهِ      طَلَبْتَ أَمْرًا غَيْرَ مَعْتَادِ  
 فَلَوْ يَكُونُ الْعَدْلُ فِي طَبَعِهِ      لَمَا عَدَا مَلِكَ ابْنِ عَبَّادِ  
 وَلِلْحِجَارِيِّ الْمَذْكُورِ كِتَابٌ فِي الْبَدِيعِ سَمَّاهُ « الْحَدِيقَةُ » وَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ فِيهِ ١ :

وَشَادَنٍ يُنصِفُ مِنْ نَفْسِهِ      أَمْتَنِي مِنْ سَطْوَةِ الدَّهْرِ  
 يَنَامُ لِلشَّرْبِ عَلَى جَنْبِهِ      وَيَصْرِفُ الذَّنْبَ إِلَى الخَمْرِ  
 وَهُوَ فِي فَرَسٍ :

وَمُسْتَبِقِ يَحَارِ الطَّرْفُ فِيهِ      وَيَسْلَمُ فِي الْكِفَاحِ مِنَ الْجَمَاحِ  
 كَانَ أَدِيمَهُ لَيْلٌ بِهِيمٌ      تَحَجَّلَ بِالسَّيْرِ مِنَ الصَّبَاحِ  
 إِذَا احْتَدَمَ التَّسَابِقُ صَارَ جِرْمًا      تَقَلَّبَ بَيْنَ أَجْنَحَةِ الرِّيَاحِ

٤١٨ - وَكُتِبَ أَبُو الْعَلَاءِ إِدْرِيسُ بْنُ أَرْزُقِ إِلَى ابْنِ رَشِيقٍ مَلِكِ مُرْسِيَّةَ ،  
 وَقَدْ طَالَتْ إِقَامَتُهُ عِنْدَ ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ٢ :

١ البيتان في المغرب ٢ : ٣٤ .

٢ انظر ترجمته وشعره في الجنوة : ٨٨ وبغية الملتبس رقم : ٢٩٨ .

ألا ليت شعري هل أعودُ إلى الذي عهدتُ من النعمى لديكم بلا جهنْد  
فوالله مُدٌّ فارقتكم ما تخلّصتُ من الدهر عندي ساعةٌ دون ما كدّ  
فمُنّوا بإذنٍ كي أطيرَ إليكمُ فلا عارَ في شوقٍ إلى المالِ والمجدِ

ووقف بعضُ أعدائه على هذه الأبيات ، فوشى بها إلى ابن عبد العزيز قاصداً  
ضرّره ، وكان ذلك في محفّل ليكون أبلغ ، فقال : والله لقد ذكرتني أمره ،  
ولقد أحسن الدلالة على حاله ، فإن الرجل كريم ، وعلينا موضع اللوم ، لا عليه ،  
ووالله لأوسعنّه مالاً ووُجداً بقدر وسعي ، ثم أخذ في الإحسان إليه حتى برّ  
يمينه ، رحمه الله تعالى :

هكذا هكذا تكونُ المعالي طُرُقُ الجدِّ غيرُ طُرُقِ المزاح

٤١٩ - ولندكر جملة من بني مروان بالأندلس ، فنقول :

١ - قال محمد بن هشام الرواني صاحب كتاب « أخبار الشعراء » ١ :

وروضةٍ من رياضِ الحزنِ حالفها طلُّ أطلّتْ به في أفقها الحللُ  
كأنما الورد فيما بينها ملكٌ موفٍ ونوارها من حوله خولُ

وكان في مدة الناصر ، وأدخل عليه يوماً ليذاكره ، فاستحسنه ، وأمره  
بالتزام بنيه ليؤدبهم بحسن أدبه ، ويتخلّقوا بخلقه ، فاستعفى من ذلك ، وقال :  
إن الفتيان لا يتعلمون إلاّ بشدة الضبط والقيّد والإغلاظ ، وأنا أكره أن أعامل  
بذلك أولاد الخليفة فيكرهوني ، وقد يحقد لي بعضهم ذلك إلى أن يقدر على النفع  
والضرر .

قالوا : وكان يتعشّق المستنصر بالله ولي عهد الناصر وهو غلام ، وله فيه :

١ ترجمته في الجذوة : ١٣٩ وبغية الملتبس رقم : ٤٥٧ .

مَتَّعْ بِوَجْهِكَ جَفْنِي      يَا كوكِباً فَوْقَ غُصْنِ  
 يَا مِنْ تَحْجَبَ حَتَّى      عَنْ كُلِّ فِكْرٍ وَأُذُنِ  
 وَخَامَرَ الخَوْفُ فِيهِ      فَمَا يَجُولُ بِذَهْنِ  
 فَلَيْسَ لِلظَّرْفِ وَالْقَلَدِ      بِ غَيْرِ دَمْعٍ وَحُزْنِ  
 فَإِنِّي ذُو ذُنُوبٍ      وَأَنْتَ جَنَّةٌ عَدْنِ

2 - وقال أخوه أحمد بن هشام :

قَطَعْتُ اللَّيَالِي بَارْتِجَاءً وَصَالِكُمْ      وَمَا نَلْتُ مِنْكُمْ غَيْرَ مُتَّصِلِ المَهْجَرِ  
 وَمَا كُنْتُ أُدْرِي مَا التَّصْبِرُ قَبْلَكُمْ      فَعَلِمْتُمُونِي كَيْفَ أَقْوَى عَلَى الصَّبْرِ  
 وَمَا كُنْتُ مَمَّنْ يَعْلَقُ الصَّبْرُ فِكْرَهُ      وَلَكِنْ خَشِيتُ الصَّبْرُ يَذْهَبُ بِالعَمْرِ

ومن حكاياتهم في علو الهمة : أنه كان سبب قراءته واجتهاده أنه حضر مجلساً فيه القائد أحمد بن أبي عبدة ، وهو غلام ، فاستخبره القائد ، فرآه بعيداً من الأدب والظرف ، ورأى له ذهنًا قابلاً للصلاح ، فقال : أيُّ سيف لو كانت عليه حلية ! فقامت من هذه الكلمة قيامته ، وثابت له همة ملوكية عطفَ بها على الأدب والتعلم ، إلى أن صار ابن أبي عبدة عنده كما كان هو عند ابن أبي عبدة أولاً ، فحضر بعد ذلك معه ، وجالا في مضمار الأدب ، فرأى ابن أبي عبدة جواداً لا يُشَقُّ غُبَارُهُ ، فقال : ما هذا ؟ أين هذا ممّا كان ؟ فقال : إن كلمتك عملت في فكري ما أوجب هذا ، فقال : والله إن هذه حلية تليق بهذا السيف ، فجزاك الله عن همتك خيراً .

ثم قال له : سر ، إن لي عليك حقاً إذ بعثتك على التأدب والتميز ، فإذا حضرنا في جماعة فلا تتناول على تقصيري ، وحافظ على أن لا أسقط من العيون بإرباء غيري عليّ ، فقال : لك ذلك وزيادة .

3 - وكان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط سيء الخلق في أول

أمره ، كثير الإصغاء إلى أقوال الوشاة ، مفرط القلق ممّا يقال في جانبه ، معاقباً على ذلك لمن يقدر على معاقبته ، مكثر التشكي ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فطال ذلك على الأمير ، فقال لوكيل خاص به عارف بالقيام بما يكلفه به : الموضع الفلاني الذي بالجبل الفلاني المنقطع عن العمران تبني فيه الآن بناء أسكن فيه ابني المنذر ، وأوصاه بالاجتهاد فيه ، ففرغ منه ، وعاد إليه ، فقال له : تعلم المنذر أنني أمرته بالانفراد فيه ، ولا تترك أحداً من أصحابه ولا أصحاب غيره يزوره ، ولا يتكلم معه البتة ، فإذا ضجر من ذلك وسألك عنه فقل له : هكذا أمر أبوك ، فتولّى الثقة ذلك على ما أمر به ، ولما حصل المنذر في ذلك المكان وبقي وحده ، وفقد حواره ومن كان يستريح إليه ، ونظر إلى ما سلبه من الملك ضجيراً ، فقال للثقة : عسى أن يصلني غلماني وأصحابي أتأس بهم ، فقال له الثقة : إن الأمير أمر أن لا يصلك أحد ، وأن تبقى وحدك لتستريح ممّا يرفع لك أصحابك من الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد محنته بذلك وتأديبه ، فاستدعى دواة وكتب إلى أبيه : إنني قد توحشت في هذا الموضع توحشاً ما عليه من مزيد ، وهدمت فيه من كنت أنس إليه ، وأصبحت مسلوب العز فقيد الأمر والنهي ، فإن كان ذلك عقاباً لذنوب كبير ارتكبتها وعلمه مولاي ولم أعلمه فإني صابر على تأديبه ، ضارع إليه في عفوّه وصفحته :

وإن أمير المؤمنين وفعلته لكالدهر ، لا عار بما فعل الدهر

فلما وقف الأمير على رفقته ، وعلم أن الأدب بلغ به حقه ، استدعاه فقال له : وصلت رفقته تشكو ما أصابك من توحش الانفراد في ذلك الموضع ، وترغب أن تأنس بخوأك وعبيدك وأصحابك ، وإن كان لك ذنب يترتب عليه

١ ب : يفرع إليه .

أن تطول سكنائك في ذلك المكان ، وما فعلتُ ذلك عقاباً لك ، وإنّما رأيناك  
 تكثر الضجر والتشكي من القال والقيّل ، فأردنا راحتك بأن نحجبَ عنك سماع  
 كلام مَنْ يرفع لك وينمُّ ، حتى تسريح منهم ، فقال له : سماعٌ ما كنت  
 أضجر منه أخفُّ عليّ من التوحّد والتوحش والتخلي ممّا أنا فيه من الرفاهية  
 والأمر والنهي ، فقال له : فإذا قد عرفت وتأدبتَ فارجع إلى ما اعتدته ،  
 وعوّل على أن تسمع كأنك لم تسمع ، وترى كأنك لم تر ، وقد قال النبي  
 صلى الله عليه وسلم « لو تكاشفتُم ما تدافنتُم » ، واعلم أنّك أقرب الناس إليّ  
 وأحبهم فيّ ، وبعد هذا فما يخلو صدرك في وقت من الأوقات عن إنكار عليّ ،  
 وسخط لما أفعله في جانبك أو جانب غيرك ، ما لو أطلعني الله تعالى عليه لساءني ،  
 لكن الحمد لله الذي حفظ ما بين القلوب بسّتر بعضها عن بعض فيما يجول  
 فيها ، وإنّك لدو همّة ومطمّح ، ومن يكن هكذا يصبر ويغض ويحمل ،  
 ويبدل العقاب بالثواب ، ويصير الأعداء من قبيل الأصحاب ، ويصبر من  
 الشخص على ما يسوء ، فقد يرى منه بعد ذلك ما يسر ، ولقد يخف عليّ اليوم  
 مَنْ قاسيت من فعله وقوله ، ولو قطعتم عضواً عضواً لما ارتكبه مني ما شفيت  
 فيهم غيظي ، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لا سيما عند الاقتدار ، أولى ،  
 ونظرت إلى جميع مَنْ حولي ممّن يحسن ويسيء فوجدت القلوب متقاربة  
 بعضها من بعض ، ونظرت إلى المسيء يعود محسناً ، والمحسن يعود مسيئاً ،  
 وصرتُ أندم على مَنْ سبق له مني عقاب ، ولا أندم على مَنْ سبق له مني  
 ثواب ، فالزم يا بنيّ معالي الأمور ، وإن جماعها في التغاضي ، ومَنْ لا يتغاضي  
 لا يسلم له صاحب ، ولا يقرب منه جانب ، ولا ينال ما ترقى إليه همته ،  
 ولا يظفر بأمله ، ولا يجد معيناً حين يحتاج إليه ؛ فقبّل المنذر يده وانصرف ،  
 ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده حتى تخلق بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه



به أبوه ، ورفع قدره .

ومن شعره في ابن عم له :

ومولّى أبى إلاّ أذايَ وإنتي لأحلمُ عنه وهو بالجهلِ يقصدُ  
توددته فازداد بُعداً وبغضةً وهل نافعٌ عند الحسود التوددُ

وقوله :

خالف عدوك فيما أتاك فيه لينصح  
فإتما يبغي أن تنام عنه فتريح

ومن كرم نفسه أن أحداً التجار أهدي له جارية بارعة الحسن ، واسمها طرَب ، ولها صنعة في الغناء حسنة ، فعندما وقع بصره على حسننها ثم أذُنُه على غنائها أخذت بمجامع قلبه ، فقال لأحد خُدّامه : ما ترى أن ندفع لهذا التاجر عوضاً عن هذه الجارية التي وقعت منّا أحسن موقع ؟ فقال : تقدر ما تساوي من الثمن وتدفع له بقدرها ، فقوّمت بخمسمائة دينار ، فقال المنذر للخديم : ما عندك فيما ندفع له ؟ فقال : الخمسمائة ، فقال : إن هذا اللؤم ، رجل أهدي لنا جارية ، فوَقعت منّا موقع استحسان ، نقابله بثمنها ، ولو أنّه باعها من يَهُودي لوجد عنده هذا ، فقال له : إن هؤلاء التجار لؤماء بخلاء ، وأقلُّ القليل يقنعهم ، فقال : وإنّا كرماء سُمحاء ، فلا يقنعنا القليل لمن نجود عليه ، فادفع له ألفَ دينارٍ ، واشكره . على كونه خصّنا بها ، وأعلمه بأنّها وقعت منّا موقع رضى .

وفيهما يقول :

م ١ : بعض .

ليس يُفِيدُ السرورُ والطربُ إن لم تقابل لواحظي طربُ  
 أبهتُ في الكأسِ لستُ أشربها والفكرُ بين الضلوعِ يلتهبُ  
 يعجبُ مني معاشرٌ جهلوا ولو رأوا حسنها لما عجبوا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك لتيهاً مُفْطَراً ، فقال له : حُقَّ لفرعٍ أنت  
 أصله أن يعلو ، فقال له : يا بني إن العيون تمجُّ التائه ، والقلوب تنحرف عنه ،  
 فقال : يا أبي لي من العز والنسب وعلو المكان والسلطان ما يجمُلُ من ذلك ، وإني  
 لم أرَ العيون إلاّ مقبلة علي ، ولا الأسماع إلاّ مُصْغية إلي ، وإن لهذا السلطان  
 رونقاً يرتقه التبدل ، وعلواً يخفضه الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه إلا التيه  
 والانتقباض ، وإن هؤلاء الأندال لهم ميزان يَسْبُرُون به الرجل منّا ، فإن  
 رأوه راجحاً عرفوا له قدر رجاحته ، وإن رأوه ناقصاً عاملوه بنقصه ، وصبروا  
 تواضعه صغراً ، وتخضعه خِسةً ، فقال له أبوه : لله أنت فابقَ وما رأيت .

4 - وكان له أخ أديب أيضاً اسمه المطرف بن عبد الرحمن الأوسط ،

ومن شعره :

أفنيْتُ عمري في الشَّرِّ بِ الوجوهِ الملاحِ  
 ولم أَضَيِّعْ أصيلاً ولا اِطْلاعَ صباحِ  
 أحبي الليالي سُهْداً في نشوةٍ ومراحِ  
 ولستُ أسمعُ ماذا يقولُ داعي الفلاحِ

والعياذ بالله من هذا الكلام ، وحاكي الكفر ليس بكافر .

وعتبه أحد إخوانه على هذا القول فقال : إنني قلته وأنا لا أعقل ، ولم أعلم  
 أنه يُحْفَظُ عني ، وأنا أستغفر الله تعالى منه ، والذي يغفر الفعل أكرمُ من

١ م ب : يريته .

٢ ب : وتخفضه .

أن يعاقب على القول .

ومن جيد شعره قوله :

يا أخي فرقتُ صروفُ الليالي      بيننا غيرَ زورةِ الأحلامِ  
فغدونا بعد ائتلافٍ وقربٍ      نتناجى بالسُّنِّ الأَقلامِ

5 - وقال أخوهما الثالث هشام بن عبد الرحمن فيمن اسمه ريحان :

أحبك يا ريحانُ ما عشتُ دائماً      ولو لامتني في حبك الإنسُ والجانُ  
ولولاك لمْ أهو الظلامَ وسُهدَهُ      ولا حُببتُ لي في ذرّاً الدارِ غريانُ  
وما أعشقتُ الريحانَ إلاّ لأنهُ      شريكك في اسمٍ فيه قلبي هينانُ  
على أنه لم يكملِ الظرفَ مجلسٌ      إذا لم يكن فيه مع الراحِ ريحانُ  
وله فيه :

إذا أنا مازحتُ الحبيبَ فإنما      قصدتُ شفاءَ همّ في ذلك المرحِ  
فما العيشُ إلاّ أن أراه مُضحكاً      كما ضحك الليلُ البهيمُ عن الصبحِ

6 - وقال أخوهم الرابع يعقوب بن عيد الرحمن :

إذا أنا لم أجُدْ يوماً وقومي      لهم في الجودِ آثارَ عظامُ  
فمن يُرْجى لتشييدِ المتعالي      إذا قعدت عن الخيرِ الكرامُ ؟

وملحه بعضُ الشعراء ، فأمر له بمال جزيل ، فلمّا كان مثلُ ذلك الوقت  
جاءه بملح آخر ، فقال أحدُ خدام يعقوب : هذا اللثيم له دين عندنا جاء يقتضيه ؟  
فقال الأمير : يا هذا ، إن كان الله تعالى خلقك مجبولاً على كره ربِّ الصنائع

١ ترجمة يعقوب في الحلة السيرا. ١ : ١٢٤ وقال فيه : « كان أديباً شاعراً مطبوعاً كلفاً بالعلوم  
جواداً لا يليق شيئاً » .

فاجرٍ على ما جُبِلت عليه في نفسك ، ولا تكن كالأجرب يُعدي غيره ، وإن هذا الرجل قصدنا قبلُ ، فكان منّا له ما أنيسَ به وحمّله على العودة ، وقد ظنّ فينا خيراً ، فلا نخيب ظنّه ، والحديثُ أبدأً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهنتة بالعمر ، ونحن نسأل الله تعالى أن يطيل عمرنا حتى يكثر ترداده ، ويدمّ نعمنا حتى نجد ما نُنعم به عليه ، ويحفظ علينا مروءتنا حتى يعيننا على التجميل معه ، ولا يبيلنا بجليسٍ مثلك يقبض أيدينا عن إسداء الأيادي ، وأمر للشاعر بما كان أمر له به قبلُ ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان ما دام العمر .

7 - وقال أخوهم الخامس الأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن لأخيهم السادس أبان وقد خلا معه على راحة : هل لك أمل نبغك إيتاه ؟ فقال : لم يبق لي أملٌ إلاّ أن يديمَ الله تعالى عمرك ويخلد ملكك ، فأعجب ذلك الأمير ، وقال : ما مالت إليك نفسي من باطل ، وكان كل واحد منهما يهيم بالآخر ، وفي ذلك يقول أبان :

يا مَنْ يَلُومُ ولا يَدْرِي بَمَنْ أَنَا مَهْ تونٌ لو أَبصرتَهُ ما كنتَ تَلْحاني  
من ما زَجَّتْ رُوحُهُ وروحي وشاطِرنِي يا حُسْنَهُ حينَ أهْواهُ وَيَهْواني

وكان للأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن ثلاثة أولاد نجباء : القاسم ، والمطرف ، ومسلمة ، ولهم أخ رابع اسمه عثمان .

8 - فمن نظم القاسم<sup>٢</sup> في عثمان أخيه ، وقد زاره فاستسقاها ماء ، فأبطأ عليه غلامه لعلّة لم يقبلها القاسم :

الماء في دار عثمان له<sup>٣</sup> ثمن والحيز شيء له شأن من الشان<sup>٣</sup>

١ ترجمته في الحلة ١ : ١١٩ .

٢ ترجمة القاسم في الحلة ١ : ١٢٧ والمقتبس (تحقيق مكّي) : ٢٠٠ .

٣ قال ابن الأبار بعد أن أورد البيهقي : كذا قال ابن حيان (المقتبس : ٢٠١) وهو غلط لا خفاء =

فاسلح على كل عثمانٍ مررت به غير الخليفة عثمان بن عفان  
وله :

شغلت بالكيمياء دهرِي فلم أفد غير كل خسِر  
إتعبُ فكري ، خداعُ عقلٍ فسادُ مالٍ ، ضياعُ عمرٍ

9 - وقال شقيقه الطرف<sup>١</sup> ، ويُعرف بابن غزلان ، وهي أمه ، وكانت  
مغنية بديعة محسنة عوادة أديبة :

هل أتكي مُشْرِفاً على نَهْرِي أرمي بطرفي إليه من قَصْرِي  
عند أخٍ لو دهتهُ حادثةٌ أعطيتهُ ما أحب من عمري

10 - وقال أخوهما مسلمة<sup>٢</sup> :

إنَّ شَيْباً وصبوةً لمحالٍ أولمَّ بأن أن يكون زوالُ  
فدع النفس عن مزاحٍ ولهُوٍ تلك حالٌ مضت وجاءتك حالُ

وكان يقول : إنني لا أفارق إلا من اختار مفارقتي ، ومن خادعني انخدعت  
له ، وأريته أنني غير فطين بخداعه ، ليعجبه أمره ، وأدخل عليه مسرة بنفسه  
ورأيه .

11 - وقال محمد ابن الأمير منذر ابن الأمير محمد في جاريته الأراكة :

قل للأراكة قد زادت بالدنو اشتياقي

= به وإنما البيتان من قطعة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي أنشدها ابن عبد البر في كتاب هجة المجالس .  
١ انظر ترجمة الطرف في الحلة ١ : ١٢٨ والمقتبس (تحقيق مكِّي) : ٢٠٥ والجمهرة : ٩٨  
وبيته في الحلة : ١٢٩ والمقتبس : ٢٠٨ .  
٢ راجع المقتبس ص : ٢١١ .

وهاجَ ما بي إِلَيْهَا      تمثُّلي للعِناقِ  
 وإتني وبقلي      جمرٌ جرى في المآقي  
 طويتُ ما بي ليومٍ      يكونُ فيه التلاقِ  
 فإن أعدُ لاجتماعٍ      حرَّمتُ يومَ افتراقِ  
 لا يعرفُ الشوقَ إلاَّ      من ذاقَ طعمَ الفراقِ

12 - وقال عبد الله بن الناصر<sup>١</sup> ، وقد أهدى له سعيد بن فرج ياسميناً  
 أبيض وأصفر ، وكتب معه<sup>٢</sup> :

مولاي قد أرسلتُ نحوكَ تحفةً      بمرادٍ ما أبغيه منكَ تُذَكِّرُ  
 من ياسمينٍ كاللُّجَيْنِ تبرجتُ      بيضاً وصريراً والسماحُ يعبرُ  
 فأجابه بما نصّه :

أناكَ تفسيري ولما يحلُّ      عني على أضغاث أحلامِ  
 فاجعله رسماً دائماً زائراً<sup>٣</sup>      منكَ ومنِّي غرّةَ العامِ

وبعث إليه بهذين البيتين مع ملء الطبق دنانير ودراهم ، فقال ابن فرج :

قد سمعنا بجُودِ كعْبٍ وحاتمٍ      ما سمعنا جوداً مَدَى العمرِ لازمٍ  
 فدعائي بأنْ تَدُومَ دعاءُ      لي لا زالَ طولَ ما عشتَ دائمٍ  
 ما سمعنا كمثلِ هذا اختراعاً      هكّذا هكّذا تكونُ المتكّارمُ

وتُشبه هذه الحكاية حكاية اتفقت لبعض ملوك إفريقيا ، وذلك أن رجلاً

١ عبد الله بن الناصر : له ترجمة في الجذوة : ٢٤٤ وبغية الملتبس رقم : ٩٤٩ والمغرب ١ : ١٨٢ .  
 والحلة السراء ١ : ٢٠٦ .  
 ٢ البيتان وجوابهما في المغرب .  
 ٣ المغرب : باقياً .

أهدى له في قادوس ورداً أحمر وأبيض ، فأمر أن يملأ له دراهم ، فقالت له جارية من جواريه : إن رأى الأمير أن يلوّن ما أعطاه ، حتى يوافق ما أهداه ، فاستحسن ذلك الأمير ، وأمر أن يملأ دنانير ودراهم .

وكان المرواني المذكور يساير أحد الفقهاء الظرفاء ، فمرّاً بجميل ، فمال عبد الله بطرفه على وجهه ، وظهر ذلك لمسائره ، فتبسّم ، ففهم عبد الله عنه ، فقال : إن هذه الوجوه الحسان خلابة ، ولكننا لا نتغلغل في نظرها ، ولا ندعي العفة عنها بالجملة ، وفيها اعتبار وتذكّار بالحوار العين التي وعد الله تعالى ، فقال له الفقيه : احتجّ لروحك بما شئت ، فقال : أو ما هي حجةٌ تُقبل ؟ فقال الفقيه : يقبلها من رَقّ طبعه ، وكاد يضيق عن الصبر وسُعه ، فقال : وأراك شريكاً لي ، فقال : ولولا ذلك للمتك ، فأطرق عبد الله ساعة ثم أنشد :

أفندي الذي مرّ بي فمال له لحظي ولكنّ ثنيتَه غصبا  
ما ذاك إلا مخافَ منتقدٍ فاللهُ يعفو ويغفرُ الذنبا

فقال له الفقيه : إن كنتَ ثنيتَ لحظك خوفَ انتقادي فإنّي أدعوه إليك حتى تملأ منه ، ولا تنسبُ إليّ ما نسبت ، فتبسّم عبد الله وقال : ولا هذا كلّهُ ، وقال له : إن مثلك في الفقهاء لمعدوم ، فقال له : ما كنتُ إلاّ أديباً ، ولكني لما رأيت سوقَ الفقهِ بقُرْطُبةِ نافقة اشتغلتُ به ، فقال له : ومن عَقْلُ المرء أن لا يفي عمره فيما لا ينفقه عصره .

وكان<sup>١</sup> عبد الله المذكور يسمّى الزاهد ، فبايع قوماً على قتل والده الناصر وأخيه الحكم المستنصر ولي العهد ، فأخذ يوم عيد الأضحى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، فذبح بين يديه ، رحمه الله تعالى .

13 - وقال أخوه أبو الأصبغ عبد العزيز بن الناصر<sup>٢</sup> ، وقد دخل ابن له

١ ورد في المغرب نقلا عن الرقيق .

٢ ترجمة عبد العزيز بن الناصر في الجنوة : ٢٧٠ وبغية الملتبس رقم : ١٠٩٣ والمغرب ١ : ١٨٤ =

الكتاب ، فكتب أول لوح ، فبعثه إلى أخيه الحكم المستنصر ملك الأندلس ،  
ومعه :

هاك يا مولايَ حَطًّا      مَطَّه في اللوحِ مَطًّا  
ابنُ سبعٍ في سِنِيهِ      لم يُطِقْ اللوحِ ضَبْطًا  
دُمْتَ يا مولايَ حَتَّى      يلدَ ابنُ ابْنِكَ سِبْطًا

وله :

زارني من همتُ فيه سَحَرًا      يتهادى كنسيم السَّحَرِ  
أقبَسَ الصبَحَ ضياءَ ساطِعًا      فأضأ والفجرُ لَمَ ينفجرِ  
واستعار الروضُ منه نَفْحَةً      بثَّها بينَ الصَّبَا والزهرِ  
أيتها الطالعُ بدرًا نيرًا      لا حلتَ الدهرَ إلاَّ بصري

وكان مُغْرَى مغرمًا بالخمير والغناء ، فقطع الخمر ، فبلغه أن المستنصر لما  
بلغه تركه للخمر قال : الحمد لله الذي أغنانا عن مفاتحته ، ودلّه على ما نريد  
منه ، ثم قال : لو ترك الغناء لكمل خيره ، فقال : والله لا تركته حتى تترك  
الطيور تغريدًا ، ثم قال ١ :

أنا في صحّة وجاه ونُعْمى      هي تدعو لهذه الألحان  
وكذا الطير في الحدائق تشدُّو      للذي سرَّ نفسه بالقيان

14 - وقال أخوه محمد بن الناصر ٢ لما قدم أخوهما المستنصر من غزوة :

قدمتَ بحمد الله أسعدَ مقدمٍ      وضدك أضحى لليدين وللهمِ

= والحلة ١ : ٢٠٨ وأبياته الأولى في المصادر السابقة ما عدا المغرب والقطعة الثانية في المغرب وحده .

١ المغرب : ١٨٤ .

٢ ترجمة محمد بن الناصر في المغرب ١ : ١٨٤ وفيه البيتان .



لقد حُرِّتَ فيها السبقَ إذ كنتَ أهله كما حاز «بِسْمِ اللَّهِ» فضلَ التقدُّمِ .

15 - وأما أخوهما محمد بن عبد الملك بن الناصر<sup>١</sup> فقال الحجاري فيه :  
إنه لم يكن في ولد الناصر ممن لم يبلِ الملكَ أشعر منه ومن ابن أخيه ، وكتب إلى  
العزيز صاحب مصر<sup>٢</sup> :

أَلَسْنَا بِنِي مِرْوَانَ كَيْفَ تَبَدَّلَتْ      بِنَا الْحَالُ أَوْ دَارَتْ عَلَيْنَا الدَّوَابُّ  
إِذَا وُلِدَ الْمَوْلُودُ مَتَا تَهَلَّلَتْ      لَهُ الْأَرْضُ وَاهْتَزَّتْ إِلَيْهِ الْمَنَابِرُ

وكان جواب العزيز له : أما بعدُ فإنَّك علمتنا فهجوتنا ، ولو علمناك  
لهجوناك .

وله في الصنوبر :

إِنَّ الصَّنُوبَرَ حِصْنٌ      لَدَيْهِ حِرْزٌ وَبِاسٌ  
خَفَّتْ مِنْ أَجْلِ لَارِهَا      بِ مَنْ عَدَاهُ تِرَاسٌ  
كَأَنَّمَا هُوَ ضِدٌّ      لِمَا حَوَاهُ الرَّئِاسُ

وبعض سيوف الأندلس محفور صدر الرئاس على صورة قشور الصنوبر  
إلا أن تلك ناتئة وهذه محفورة ، وقال<sup>٣</sup> :

أَتَانِي وَقَدْ خُطَّ الْعِدَارُ بِخَدِّهِ      كَمَا خُطَّ فِي ظَهْرِ الصَّحِيفَةِ عِنَاوَانُ  
تَرَاحِمَتِ الْأَلْحَاطِ فِي وَجَنَاتِهِ      فَشُقَّتْ عَلَيْهِ لِلشَّقَاقِقِ أَرْدَانُ  
وَزِدْتُ غَرَامًا حِينَ لَاحَ كَأَنَّمَا      تَفْتَحُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْآسِ سَوْسَانُ<sup>٤</sup>

١ ترجمته في الحلة ١ : ٢٠٨ والمغرب ١ : ١٨٥ واليتمية ١ : ٣٥٥ .  
٢ مر البيتان ص : ١٨٨ ؛ وانظر المصادر السابقة ، وفي اليتيمة نسبة للحكم المستنصر وتمقبه  
ابن الأبار في ذلك .  
٣ هذه القطمة والتي تليها في المغرب : ١٨٥ .  
٤ المغرب : آس وسوسان .

وقال :

لئن كنتُ خَلَاعَ العِذارِ بِشادنٍ      وكأسٍ فإتني غيرُ نَزْرِ المواهبِ  
ولإتني لَطَعَانٌ إذا اشتَجَرَ القَنَا      ومُقْحَم طرفي في صدور الكنائِبِ  
ولإتني إذا لم ترضَ نفسِي بمتزلٍ      وجاش بصَدْرِي الفِكرُ جمَ المذاهبِ  
جليدٌ يودُّ الصخرُ لو أنَّ صبرَه      كصبري على ما نابني للنوائِبِ  
وأسرِّي إلى أن يحسبَ الليلُ أنْتِي      لطولِ مسيري فيه بعضُ الكواكبِ

16 — وأما ابن أخيه مروان بن عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر<sup>٢</sup>  
فكان في بني أمية شبه عبد الله بن المعتز في بني العباس ، بملاحة شعره وحسن  
تشبيهه .

ومن شعره القصيدة المشهورة<sup>٣</sup> :

غُصْنٌ يهتَرُ في دِعْصِ نَقَا      يجتني منه فؤادي حرَقَا  
سال لأمُ الصلغِ في صَفْحَتِه      سَيْلَانُ التَّبْرِ وافي الورقا  
فتناهى الحسنُ فيه إنْما      يَحْسُنُ الغصنُ إذا ما أورقا

ومنها :

أصْبَحَتْ شمساً وفوهُ مَغْرِباً      ويدُ الساقِي المحيِّي مشرقا  
فإذا ما غَرَبَتْ في فمهِ      تركتُ في الخلدِ منه شفقاً

١ في الأصول : يؤود ، والتصويب عن المغرب .  
٢ هو المشهور باسم الشريف الطليق وله ترجمة في الحلة ١ : ٢٢٠ والجدوة : ٣٢١ وبغية الملتبس  
رقم : ١٣٤٣ واليتيمة ٢ : ٦١ والذخيرة ٢/١ : ٨١ والمغرب ١ : ١٨٦ والمعجب :  
٢٨٥ والمسالك ١١ : ١٧٦ وانظر كتاب التشبيهات وفهرسته .  
٣ أوردها ابن بسام في الذخيرة ، ومنها قطع في المصادر المذكورة ، وفي الحلة منها قسط وافر .

ومنها :

وكانَ الوردَ يعلوهُ الندى وَجَنَّةُ المحبوبِ تَندى عَرَفاً

قالوا : وهذا النمط قد فاق به أهل عصره ، ويظن أنه لا يوجد لأحد منهم أحلى وأكثر أخذاً بمجامع القلوب من قوله :

وَدَعْتُ مَنْ أَهْوَى أَصِيلاً ، لِيَتِي  
فوجدتُ حتى الشمسُ تشكو وجده  
وعلى الأصائلِ رِقَّةٌ من بَعْدِهِ  
وغدا النسيمُ مبلِّغاً ما بيننا  
ما الروضُ قد مُزجتُ به أنداؤه  
والزهرُ مبسمهُ ونكّهتهُ الصبا  
فلذلك أولعُ بالرياضِ لأنّها

ولله قوله :

وعشِّيَ كأنهُ صبحُ عيدِ  
هبَّ فيه النسيمُ مثلَ محبِّ  
ظلتُ فيه ما بينَ شمسينِ هذي  
وتدلّتُ شمسُ الأصيلِ ولكنْ  
ربُّ هذا خلقته من بديعِ  
أي وقتٍ قد أسعف الدهرُ فيه  
قد قطعناه نشوةً ووصالاً  
حينَ وجّههُ السعودِ بالبشرِ طلقُ  
ضيعَ اللهُ من يضيعُ وقتاً

جامعٍ بينَ بهجةٍ وشحوبِ  
مُستعيراً شمائلَ المحبوبِ  
في طلوعِ وهذه في غروبِ  
شمسنا لم تزلْ بأعلى الجيوبِ  
من رأى الشمسِ أطلعتْ في قضيبِ  
وأجابتْ بهِ المنى عن قريبِ  
وملأناه من كبار الذنوبِ  
ليس فيه أمانةٌ للقطوبِ  
قد خلا من مُكدرٍ ورقيبِ

وبات عند أحد رؤساء بني مروان ، فقدم إليه ذلك الرئيس قدحاً من فضة فيه راح أصفر ، وقال : اشرب ووصف فداك ابن عمك ، فقام لإجلالاً وشرب صائحاً بسروره ، ثم قال : الدواة والقرطاس ، فأحضرها ، وكتب :

اشرب هنيئاً لا عداك الطرب شرب كريم في العلا منتخب  
 وافاك بالراح وقد ألبست برد أصيل معلماً بالحبيب  
 في قدح لم يك يسقي به غير أولي المجد وأهل الحسب  
 ما جار إذ سقاك من كفه في جامد الفضة ذوب الذهب  
 فقم على رأسك برأ به واشرب على ذكراه طول الحقب<sup>٢</sup>

ويحكى أنه لما قتل أباه وقد وجده مع جارية له كان يهواها سجنه المنصور ابن أبي عامر مدة ، إلى أن رأى في منامه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يأمره بإطلاقه فأطلقه ، فمن أجل ذلك عُرف بالطلق .

17 - وقال أحمد بن سليمان بن أحمد بن [ عبد الرحمن بن ] عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر في ابن حزم لما عاداه علماء عصره<sup>٣</sup> :

لما تحلى بخلق كالملك أو نشر عود  
 نجل الكرام ابن حزم وقام في العلم عودي  
 فتواه جددي جدواه أورد عودي

وله في أبي عامر ابن المظفر بن أبي عامر من قصيدة يمدحه بها :

بأبي عامر وصلت حبالي فزمانى به زمان سعيد

١ م : برداً أصيلاً .

٢ متقدم على سابقه في م .

٣ الجنوة : ١١٦ وبغية الملتبس رقم : ١٠٧ والقطعة الأولى فيها .

فمتى زدتُ فيه ودّاً وشكراً فنَداهُ وقد تناهى يزيدُ  
كيف لي وصفه وفي كلِّ يومٍ منه في المكرمات معنى جديدُ

18 - وقال أبو عبد الله محمد بن محمد بن الناصر يرثي أبا مروان ابن  
سراج<sup>١</sup> :

وكم مِن حديثٍ للنبي أبانه وألبسه من حُسن منطقهِ وشياً  
وكم مُصعَّبٍ للنحو قد راض صعبه فعاد ذلُّولاً بعدما كان قد أعيأ

19 - وقال عبيد الله بن محمد المهدي ، وهو من حسنات بني مروان ،  
ويُعرف بالأقرع :

أقول لآمالي ستبلغُ إن بدا مُحياً ابن عطفٍ ونعم المؤملُ  
فقلتُ دعاني كلَّ يومٍ تعلُّ لثن كان مني كلَّ حينٍ ترحلُ  
فتى تردُّ الآمالُ في بحرِ جوده فإني إن أحلُّلُ به لستُ أرحلُ  
وليس على نُعمى سواهُ المعولُ

وقال هذه في الوزير ابن عطفٍ ، فضل عليه حتى يرجع الجواب ، فكتب  
إليه بقصيدة منها :

أيها الممكنُ من قدرته لا يراك الله إلا مُحسناً  
إنما المرء بما قدَّمه فتخيَّر بينَ ذمٍّ وثنا  
لا تكن بالدهرِ غيراً وإذا كنتَ فانظروا فعله في ملكنا  
كلُّ ما خوَّلتَ منه ذاهبٌ والذي تصحبُ منه الكفنا  
مدٌّ كفاً نحو كفِّ طالما أمطرت فيه السحابُ الهتنا  
أو أرحمني بجوابِ مؤيسٍ فمطالُ البرِّ من شرِّ العنا

١ مر البيتان ، انظر ص : ٣٤٣ .

فلم يُعْطه شيئاً ، وكان له كاتب فتَحِيلَ في خمسين درهماً فأعطاها له ،  
 فلما سمع الوزير بذلك طرده ، وقال له : من أنت حتى تحملَ نفسك هذا  
 وتعطيه ؟ قال : فوالله ما لبث إلا قليلاً حتى مات الوزير ، وتزوج الكاتب  
 بزوجته ، وسكن في داره ، ونحوَل في نعمته ، فحملني ذلك على أن كتبت  
 بالفحم في حائط داره :

أيا دارُ قولي أين ساكنك الذي      أبي لؤمه أن يتترك الشكر خالدا  
 تسمي وزيراً والوزارة سبةً      لمن قد أبي أن يستفيد المحامدا  
 وولتي ولكن ليس يبرح ذمه      فما هو قد أرضى عدواً وناقدا  
 وأضحى وكيلٌ كان يأنف فعله      نزيلك في الحوض المنع واردا  
 جزاءً بإحسانٍ لذا وإساءةٍ      لذلك ، وساعٍ ورث الحمد قاعدا

والمثل السائر في هذا «رُبَّ ساعٍ لقاعد» .

20 - وقال سليمان بن المرتضى بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وكان  
 في غاية الجمال ، ويلقب بالغزال :

قدم الربيعُ عليك بعد مغيب      فتلقه بسلافةٍ وحبيب  
 فصلٌ جديدٌ فلتجددُ حالةً      يأتي الزمانُ بها على المرغوب  
 الجؤ طلقُ فالقه بطلاقة      وإذا تقطبَ فالقه بقطوب  
 لله أيامٌ ظفرتُ بها ومن      أهواه منقادٌ بغير رقيب

وله :

لي في كَفالاتِ الرماحِ لو آتاهَا      وقتُ ضمانٍ يُبلغُ الآملا  
 وكنتُ دهري في اقتضاءِ ضمانها      ضناً به أن لا يحولَ فحالا

وكان مولعاً بالفكاهة والنادر ، محباً في الظرفاء ، وكان يلتزم خدمته المضحك

المشهور بالزرافة ، ويحضر معه ، ولعبوا في مجلس سليمان لعبة أفضوا فيها إلى أن تقسموا اثنين اثنين ، كل شخص ورفيقه ، فقال سليمان : ومن يكون رفيقي ؟ فقال له المضحك : يا مولاي ، وهل يكون رفيق الغزال إلا الزرافة ؟ فضحك منه على عادته . ودخل عليه وهو قاعد في رحبة قصره ، وقد أطلّ عذاره ، فقال له : ما تطلب الزرافة ؟ فقال : ترعى الحشيش ، وأشار إلى عذاره ، فقال له : اعزّب لعنك الله !

ومرّ سليمان به يوماً وهو سكران ، وقد أوقف ذكره وجعل يقول له : ماذا رأيت في القيام في هذا الزمان ؟ أما رأيت كل ملك قام كيف خلع وقُتل ؟ والله إنك سيء الرأي ، فقال له سليمان : وبم لقبت هذا الثائر ؟ فقال : يا مولاي بصفته القائم ، فقال : ويحتاج إلى خاتم ؟ فقال : نعم ويكون خاتم سليمان ، فقال له : أخزأك الله ، إن الكلام معك لفضيحة .

21 - وقال سعيد بن محمد المرواني<sup>١</sup> ، وقد هجره المنصور بن أبي عامر مدةً لكلام بلغه عنه ، فدخل والمجلس غاص<sup>٢</sup> ، وأنشد :

مولاي مولاي أما آن أن تُريحني بالله من هجركا  
وكيف بالهجر وأنتي به ولم أزل أسبح في بحرِكا

فضحك ابن أبي عامر<sup>٢</sup> على ما كان يظهره من الوآقار ، وقام وعانقه وعفا عنه ، وخلع عليه .

وله :

والبدرُ في جوِّ السماء قد انطوى طرفاه حتى عاد مثلَ الزورقِ

١ قال الحميدي (٢١٤) اختلف علي في نسبه : فهو سعيد بن عثمان بن مروان القرشي المعروف بالبلينه وقيل : سعيد بن محمد ، وقيل : سعيد بن مروان ؟ ويقال له ابن عمرو ؟ وانظر المغرب ١ : ١٩٢ واليتيمة ٢ : ٥٤ وكتاب التشبيهات .

٢ ضحك ابن أبي عامر لأن سعيداً كان يلقب « بالينه » أي الحوت وقد مائل بقوله « ولم أزل أسبح... »

فتراه من تحتِ المحاقِ كأنما غرقَ الكثيرُ وبعضُهُ لم يغرقِ  
وهو مأخوذ من قول ابن المعتز :

وانظر إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلتهُ حُمولةٌ من عنبرٍ

22 - وقال قاسم بن محمد المرواني<sup>١</sup> يستعطف المنصور بن أبي عامر ، وقد  
سجّنه لقول صدر عنه :

ناشدتُكَ اللهُ العظيمَ وحَقَّهُ في عبدِكَ المتوسِّلِ المتحرِّمِ -  
بوسائلِ المدحِ المُعادِ نشيدُها في كلِّ مجمعٍ موكبٍ أو موسمِ -  
لا تستبِحْ مني حِمِّي أَرعَاكَهُ يا مَنْ يرى في اللهُ أحمى محتَمي

23 - وقال الأصم المرواني<sup>٢</sup> يمدح أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ببجل  
الفتح معارضاً بائية أبي تمام :

السيفُ أصدَقُ أنباء من الكتبِ

بقصيدة طويلة منها :

ما للعدا جِنَّةٌ أوقى من الهربِ أين المفرُّ وخيلُ اللهُ في الطلبِ  
وأين يذهبُ مَنْ في رأسِ شاهقةٍ إذا رَمَتْهُ سماءُ اللهُ بالشهبِ

ومنها :

وطودِ طارقٍ قد حلَّ الإمامُ بهِ كالطُورِ كان لموسى أيمنَ الرُتبِ  
لو يعرفُ الطودُ ما غشاهُ من كرمِ لم يبسطِ النورُ فيه الكفَّ للشُحْبِ

١ ترجمة قاسم بن محمد هذا في الجذوة : ٣١٠ وبغية المنتسب رقم : ١٢٩٦ وفيهما أبياته .  
٢ من شعراء زاد المسافر : ٨٤ وقال المراكشي في المعجب : ٢٨٤ إن جده هو الشريف الطليق ؛  
وبعض البائية في المصدرين والقطعة الثانية والخامسة في زاد المسافر .



ولو تيقنَ بأساً حلَّ ذرّوته  
منه يعاودُ هذا الفتحَ ثانيةً  
ويلبسُ الدينُ غضباً ثوبَ عزته  
وقال في نارنجة :

وبنتِ أيكِ دنا من لثمها فزح  
يبدو لعينيك منها منظرٌ عجبٌ  
فصار منه على أرجائها أثرٌ  
كانَ موسى نبيَّ الله أقبسه  
زبرجدٌ ونضارٌ صاغه المطرُ  
ناراً وجرَّ عليها كفه الخضرُ

وقال ١ :

وشادنٍ قلتُ له صفّ لنا  
فقال لي بستانكم جنّةٌ  
بُستاننا هذا ونارنجنا  
ومنّ جنى النارنج ناراً جنى

وقال في زلّاني ٢ :

لله سفّاحٌ بدا لي مسحراً  
ذهبتُ فضة خده بلواحظي  
فأفاد علم الكيمياء يمينه ٣  
وكذاك تفعلُ ناره بعجينه

وقال ، وقد نزل في فندق لا يليق بمثله :

يا هذه لا تُفنديني  
فليس قبحُ المحلِّ ممّا  
أن صرتُ في منزلٍ هجينٍ  
فالشمسُ علويةٌ ولكنّ  
يقدحُ في منصبي وديني  
تغربُ في حمّاه وطيني

١ زاد في م : في النارنج .

٢ يريد قالي الزلابية ؛ وفي م : زلفاني .

٣ م ب : بحسنه ، ولا يستقيم مع القافية .

24 - وقال أحمد المرواني :

حلفتُ بمن رمى فأصابَ قلبي      وقلَّبهُ على جمرِ الصلودِ  
لقدْ أودى تذكُّرهُ بجسمي      ولستُ أشكُّ أنَّ النفسَ تُودي  
فقيدٌ وهو موجودٌ بقلبي      فواعجبا بوجودِ فقيدِ

25 - وقال الأصبغ القرشي يرثي ابن شهيد وهو من أصحابه :

نأى مَنْ به كان السرورُ مواصلاً      وأسلمَ قلبي للصبابةِ والفكرِ  
ومنها :

لعمرك ما يُجدي النعيمُ إذا نأتُ      وجوههمُ عني ولا فسحةُ العمرِ

26 - وقال سليمان بن عبد الملك الأموي :

وذي جدلٍ أطال القولَ منهُ      بلا معنى وقد خفي الصوابُ  
فقلتُ أجيبهُ فازداد ردأً      فقلتُ له قد ازدحمَ الجوابُ  
ولم أرَ غيرَ صمتي من مريحٍ      إذا ما لم يفدُ فيه الخطابُ

27 - وقال أبو يزيد ابن العاصي :

عابه الحاسدُ الذي لامَ فيهِ      أنْ رأى فوقَ خدِّه جدرِيَا  
إنما وجهه هلالٌ تمامٍ      جعلُوا برقعاً عليه الثريا

وله :

إذا شئتَ أن يصفو صديقك فاطرِّحْ      نزاعَ الذي يُبديهِ في الهزلِ والجِدِّ  
وإن كنتَ من أخلاقه في جهنمِ      فأنزلهُ من مثواك في جنَّةِ الخلدِ  
إلى أن يُشجَّ اللهُ من لطفِ صنعهِ      فراقاً جميلاً فاجعل العذرَ في البعدِ

وليكن هذا آخر ما نورده من كلام بني مروان رحمهم الله تعالى .  
ولنرجع إلى أهل الأندلس جملة ، فنقول :

٤٢٠ - أمر أبو الحجاج المنصفي أن يكتب على قبره ١ :

قالت لي النفسُ : أتاك الردى وأنت في بحر الخطايا مقيم  
هلا أدخرت الزاد قلتُ : أقصري لا يحتملُ الزادُ للدارِ الكريمِ  
وقد ذكرنا هذين البيتين في غير هذا الموضع ٢ .

وقال ابن مرج الكحل ٣ : اجتمعنا في حانوت بعض الأطباء بإشبيلية ،  
فأضجرناه بكثرة جلوسنا عنده ، وتعذرت المنفعة عليه من أجلنا ، فأشدنا :

خففوا عنا قليلاً ربّ ضيقٍ في براح  
هل شكوتم من سقامٍ أو جلتسنا للصحاح

فأضفت إليهما ثالثاً ، وأنشدته إياهُ على سبيل المُداعبة :

إن أتيتم ففرادى ذاك حُكمُ المستراح

٤٢١ - ودخل أبو محمد غانم بن وليد مجلس باديس بن جبوس ، فوسّع

له على ضيق كان فيه ، فقال ٤ :

١ أبو الحجاج يوسف المنصفي زاهد مشهور سكن سبتة (والمُنصف التي ينسب إليها من قرى بلنسية)

راجع المغرب ٢ : ٣٥٤ .

٢ انظر المغرب .

٣ هو أبو عبد الله محمد بن إدريس يعرف بمرج كحل (توفي بجزيرة شقر سنة ٦٣٤) انظر : زاد

المسافر : ٢٧ والإحاطة ٢ : ٦٣٤ والتكملة : ٦٣٦ وشرح المقصورة ١ : ٢٥ ، ١٢٠ ،

١٩٥ والوافي ٢ : ١٨١ والمغرب ٢ : ٣٧٣ .

٤ انظر ما سبق ص : ٢٦٥ ، ٣٩٨ ، ٤٤٧ .

صَيْرَ فؤادك للمحجوب منزلةً      سَمَّ الخياطِ مجالٌ للمحبِّينِ  
ولا تسامحْ بغيضاً في معاشرَةٍ      فقلِّمًا تَسَعُ الدنيا بَغِيضِينِ

٤٢٢ - ودخل على أبي جعفر اللمائي بعضُ أصحابه عائداً في علته التي مات فيها ، وجعل يروح عليه بمروحة ، فقال أبو جعفر على البديهة :

رَوَّحَني عائدي فقلتُ له :      لا لا تزدني على الذي أجِدُ  
أما ترى النارَ وهي خامدةٌ      عند هبوبِ الرياحِ تتقدُّ

٤٢٣ - وقال الأعلام : ليكن محفوظك من النظم مثل قول ابن القسِّطُرنة<sup>١</sup> :

دعاكَ خليلُكَ واليومُ طلُّ      وعارضُ وجهِ الثرى قد بقَلُّ  
لقِدْرَيْنِ فاحا وشمامةً      وإبريقِ راحٍ ونعمَ المحلِّ  
ولو شاء زادَ ولكنَّهُ      يُلَامُ الصديقُ إذا ما احتفلُّ

٤٢٤ - وقال أبو عامر ابن يَنقُّ الشاطبي<sup>٢</sup> :

ما أحسنَ العيشَ لو أنَّ الفتى أبداً      كالبدْرِ يرجو تماماً بعدَ نقصانِ  
إذ لا سبيلَ إلى تخليدِ مآثرَةٍ      إذ لا سبيلَ إلى تخليدِ جثمانِ

٤٢٥ - وقال أبو الحسن اللورقي<sup>٣</sup> :

عجباً لمنْ طلبَ المحا      مدَّ وهو يَمْنَعُ ما لديه  
ولباسطِ آمالِهِ      للغيرِ لم ييسطِ يديه  
لم لا أحبُّ الضيفَ أو      أرتاحُ من طربِ إليه

١ المغرب ١ : ٣٦٨ والقلائد : ١٥٢ .  
٢ ترجمة أبي عامر محمد بن يثق في القلائد : ١٨٦ والمغرب ٢ : ٣٨٨ والتكملة : ٤٧٩ ومعجم الصديقي : ١٦٢ .  
٣ هو أبو الحسن جعفر بن الحاج اللورقي وأبياته في المغرب ٢ : ٢٨٠ والقلائد : ١٤٢ .

والضَّيْفُ يَأْكُلُ رِزْقَهُ عِنْدِي وَيُحَمَّدُنِي عَلَيْهِ

٤٢٦ - وقال أبو عيسى ابن لبّون ، وهو من قواد المأمون بن ذي

النون<sup>١</sup> :

نَفَضْتُ كَفْيِي مِنَ الدُّنْيَا وَقَلْتُ لَهَا      إِلَيْكَ عَنِّي فَمَا فِي الْحَقِّ أُعْتَبِنُ  
مِنْ كَسْرِ بَيْتِي لِي رَوْضٌ وَمِنْ كَتْبِي      جَلِيسٌ صَدَقَ عَلَى الْأَسْرَارِ مُؤْتَمِنُ  
أَدْرِي بِهِ مَا جَرَى فِي الدَّهْرِ مِنْ خَبِيرٍ      فَعِنْدَهُ الْحَقُّ مَسْطُورٌ وَمُخْتَزِنُ  
وَمَا مُصَابِي سِوَى مَوْتِي وَيَدْفِنِي      قَوْمٌ وَمَا لَهُمْ عِلْمٌ بِمَنْ دَفَنُوا

٤٢٧ - وقال أبو عامر ابن الحمارة<sup>٢</sup> :

وَلِي صَاحِبٌ أَحْنُو عَلَيْهِ وَإِنَّهُ      لِيُوجِعُنِي حِينًا فَلَا أُتَوَجَّعُ  
أَقِيمُ مَكَانِي مَا جَفَانِي وَرَبَّمَا      يَسْأَلُنِي الرَّجْعَى فَلَا أُتَمَّعُ  
كَأَنِّي فِي كَفْيِهِ غُضْنٌ أَرَاكَةَ      تَمِيلُ عَلَى حَكْمِ النَّسِيمِ وَتَرْجَعُ

٤٢٨ - وقال أبو العباس ابن السعود<sup>٣</sup> :

تَبَّأَ لِقَلْبٍ عَنِ الْأَحْبَابِ مَنْصَرَفٍ      يَهْوَى أَحْبَبْتَهُ مَا خَالَسَ النَّظْرَا  
مِثْلَ السَّجَنَجْلِ فِيهِ الشَّخْصُ تُبْصِرُهُ      حَتَّى إِذَا غَابَ لَمْ يَتْرِكْ بِهِ أَثْرَا

٤٢٩ - ومرض أبو الحكم ابن غلندة<sup>٤</sup> ، فعاده جماعة من أصحابه فيهم

١ أبياته في المغرب ٢ : ٣٧٧ والقلائد : ١٠٢ .

٢ ترجمته في المغرب ٢ : ١٢٠ والخاصية ؛ وفي م : وقال أبو عامر الملقب بابن الجبارة .

٣ هو أبو العباس أحمد بن السعود كاتب ابن همشك (المغرب ٢ : ٥٢) ؛ وفي م : وقال الفقيه الأديب . . . إلخ .

٤ هو أبو الحكم عبيد الله بن علي بن غلندة الكاتب من أهل سرقسطة وسكن إشبيلية وتوفي بمراكش ( - ٥٨١ ) وقد أسن (التحفة : ٧١ وفيها البيتان) .

فتى صغير السن ، فوقاه من برّه ما أوجب تغييرهم ، ففطن لذلك وأنشد  
ارتجالاً :

تكثرُ من الإخوانِ للدهرِ عُدَّةٌ      فكثرةُ دُرِّ العقْدِ من شَرَفِ العِقْدِ  
وعظّمَ صغيرِ القومِ وابدأَ بحقّه      فمن خِئَصْرِي كَفَيْكَ تَبْدَأُ بالعِقْدِ

[ ثم نظر إليهم وأنشدهم ارتجالاً قوله :

مُغِيثُ أَيُوبَ والكافي لذي النونِ      يحلتي فرجاً بالكافِ والنونِ  
كم كربة من كروب الدهرِ فرجها      عني ولم ينكشفْ وجهي لمن دُونِي ]<sup>١</sup>

٤٣٠ - وقال القاضي أبو موسى ابن عمران :

ما للتجاربِ من مَدَى      والمرءُ منها في ازديادِ  
قد كنتُ أحسبُ ذا العلا      منْ حاز علماً واستفادِ  
فإذا الفقيهُ بغيرِ ما      ل كالخباءِ بلا عمادِ  
شَرَفُ الفتي بنُضارهِ      إنَّ الفقيرَ أخو الجمادِ  
ما العلمُ إلا جوهرٌ      قد بيع في سوقِ الكسادِ

٤٣١ - وقال أبو بكر ابن الجزار السرقسطي :

إياكَ من زلزلِ اللسانِ فإنّما      عقْلُ الفتي في لفظهِ المسموعِ  
والمرءُ يختبرِ الإناءَ بنقْرِهِ      ليرى الصحيحَ به من المصدوعِ

٤٣٢ - وقال أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد<sup>٢</sup> : تناول بعض

أصحابنا نرجسة ، فركبها في وردة ، ثم دفعها إلي وإلى صاعد ، وقال : قولاً ،

١ ما بين مقفين زيادة من م .  
٢ راجع هذه القصة فيما تقدم : ٧٦ ، والزهيري قد اضطربت في الأصول ، وقد تقرأ « الزميري »  
في م .

فأبهت دوننا أبواب القول ، فدخل الزهيري ، وكان أمياً لا يذكر من الكلام إلا ما علق بنفسه في المجالس ، وينفذ مع هذا في المطولات من الأشعار ، فأشعر بأمرنا ، فجعل يقول دون روية :

ما للأدبيين قدّ أعيتهما مليحة من ملّح الجنّة  
نرجسة في وردة ركبّت كقلة تطرف في وجهه

٤٣٣ - وقال أبو محمد ابن حزم في « طوق الحمامة »<sup>١</sup> :

خلوتُ بها والراحُ ثلاثة لَنَا وجنحُ ظلامِ الليلِ قد مدّ واعتلجُ<sup>٢</sup>  
فتاةٌ عدمتُ العيشَ إلا بقربها فهل في ابتغاءِ العيشِ ويحك من حرجُ  
كأنّي وهي والكأسُ والخمرُ والدجى حياً وثرى والدرُّ والتبرُّ والسيحُ

قال : وهذه خمس تشبيهات لا يقدر أحد على أكثر منها إذ تضيق الأعاريف عنه .

قال أبو عامر ابن مسلمة : ولا أذكر مثلها إلا قول بعض :

فأمطرتُ لؤلؤاً من نرجسٍ فسقتُ ورّداً وعصتُ على العنّابِ بالبردِ<sup>٣</sup>

إلاّ أنّه لم يعطف خمسة على خمسة كما صنع ابن حزم ، بل اكتفى بالعلم في التشبيهات .

قال : ومن أغرب ما وقع لي من التشبيهات في بيت قول ابن برون الأکشوني<sup>٤</sup> الأندلسي يصف فرساً ورّداً أغرّ مُحَجَّلاً :

١ طوق الحمامة : ١٦ .

٢ الطوق : قدم ما أنبلج .

٣ هامش م : المراد به الوأواء الدمشقي من قصيدته الفريدة . . . إلخ . قلت انظر ديوانه : ٨٤ .

٤ لملها « الأکشوني » ؛ وسقطت لفظة « برون » من ب .

فَكَأَنَّ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَاتِهِ خَمْسٌ مِنَ السُّوسَانِ وَسَطُ شَقَائِقِ

قال : وهذا على التحقيق ستة على ستة ، ولم أسمع بمثله لأحد [ من الأندلسيين  
ولا من المشاركة ]<sup>١</sup> .

قال ابن الجلاب : وكلام أبي عامر هذا لا يخلو من النقد .

٤٣٤ - وقال ابن صارة :

انظُرْ إِلَى الْبَدْرِ وَإِشْرَاقِهِ عَلَى غَدِيرٍ مَوْجُهُ يَزْهَرُ  
كَيْشْحَدٍ مِنْ حَجَرٍ أَخْضَرٍ خُطٌّ عَلَيْهِ ذَهَبٌ أَحْمَرُ

٤٣٥ - وقال أبو القاسم ابن العطار الإشبيلي<sup>٢</sup> :

رَكِبْنَا<sup>٣</sup> سَمَاءَ النَّهْرِ وَالْجَوْثُ مَشْرِقٌ وَليْسَ لَنَا إِلَّا الْحِجَابَ نِجْمُ  
وَقَدْ أَلْبَسْتَهُ الْأَيْكُ بُرْدَ ظِلَالِهَا وَلِلشَّمْسِ فِي تَلْكَ الْبُرُودِ رِقُومُ

٤٣٦ - وقال ابن صارة<sup>٤</sup> :

وَالنَّهْرُ قَدْ رَقَّتْ غِلَالَةُ صَبْغِهِ وَعَلَيْهِ مِنْ ذَهَبِ الْأَصِيلِ طِرَازُ  
تَرَقَّرَقُ الْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَنَّهَا عُكِّنُ الْخِصُورِ تَضْمُّهَا الْأَعْجَازُ

٤٣٧ - وقال سهل بن مالك<sup>٥</sup> :

وَرَبَّ يَوْمٍ وَرَدْنَا فِيهِ كُلَّ مَنَى وَقَلَّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنْ نَرِدَا  
فِي رَوْضَتَيْنِ بِشَطْئِي سَلْسَلِ شَبْمِ كَمَا اجْتَلَيْتَ مِنَ الْمَحْبُوبِ مَفْتَقِدَا

١ زيادة من م .

٢ القلائد : ٢٨٥ .

٣ القلائد : عبرنا .

٤ انظر القلائد : ٢٧٠ ؛ وفي م : وقال الأديب البارع . . . إلخ .

٥ زاد في م : في صفة النهر .



يبددُ القَطْرُ في أثنائه حلقاً      فتنظمُ الريحُ منها فوقه زرداً<sup>١</sup>  
٤٣٨ - وقال ابن صارة :

انظرِ النهرَ في رداء عروسٍ      صبغته بزعفرانِ العشيِّ  
ثمَّ لما هبَّ النسيمُ عليه      هزَّ عطفيه في دلاصِ الكميِّ

٤٣٩ - ولبعضهم في شكل يرمي الماء مجوفاً مثل الخبء وتمزقه الريح أحياناً:

ومُطَنَّبٌ للماءِ ما أوتاده      إلا نتائج فكر طبِّ حاذقٍ  
لعبت به أيدي الصبا فكأنتها      أيدي الصبابة بالفؤاد العاشقِ

٤٤٠ - وقال صفوانُ بن إدريس يصفُ تفاعحة في الماء :

ولم أرَ فيما تشتهي العينُ منظرأً      كتفاعحة في بركةٍ بقَرَارِ  
يفيضُ عليها ماؤها فكأنتها      بقيةً خدِّ في اخضرارِ عِذارِ

٤٤١ - وقال أبو جعفر ابن وضاح في دولاب :

وباكيةٍ والروضُ يضحكُ كلما      ألحَّت عليه بالدموع السّواجمِ  
يروقك منها إن تأملتَ نحوها      زثيرُ أسودٍ والتفّاتُ أراقمِ  
تُخلِّصُ من ماء الغديرِ سبائكاً      فتُنبتُها في الروضِ مثل الدّراهمِ

١ زاد في م قطعتين بعد هذه لابن مالك ؛ وقال أيضاً من التشبيهات العجيبة :  
وتحدث الماء الزلال مع الحصى      فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى  
فكان فوق الماء وشياً ظاهراً      وكان تحت الماء درأ مضمراً  
وقوله أيضاً في تشبيه الحمرة وهو عجيب :  
إذا كان عندي قوت يوم و ليلة      من الخمر تنفي الهم عني إذا امتنع  
فلست تراني سائلاً عن خليفة      ولا عن وزير الخليفة ما صنع  
٢ زاد بعدهما هنا في م بيتين لسهل بن مالك :  
شربنا وجفن الليل يغسل كحلّه      . . . . . البيتين .

٤٤٢ - وقال الوزير ابن عمار :

يومٌ تكاثفَ غيمُهُ فكأتهُ  
دونَ السماءِ دخانٌ عودٌ أخضرٍ  
والطلُّ مثلُ بُرّادةٍ من فضةٍ  
منثورةٍ في تربةٍ من عنبرٍ  
والشمسُ أحياناً تلوحُ كأنها  
أمةٌ تُعرّضُ نفسها للمشترى

٤٤٣ - وقال أبو الحسن ابن سعد الخيري<sup>١</sup> :

للهِ دولابٌ يفيضُ بسلسلٍ  
في روضةٍ قد أينعتُ أفنانا  
قد طارحتَهُ بها الحمائمُ شجوها  
فبيجبيها ويرجعُ الألحانا  
فكأتهِ دَنيفٌ يدورُ بمعهدٍ  
يبكي ويسأل فيه عمّن بانا  
ضاقتُ مجاري طرفه عن دمعهِ  
فتفتحتُ أضلاعهُ أجفانا

٤٤٤ - وقال ابن أبي الحصال :

ووردَ جَنِيٌّ طالعتنا خلودُهُ  
ببشرٍ ونشرٍ يبعثانِ على السكرِ  
وحفٌّ ترنجانٌ بهِ فكأتهُ  
خدودُ العذارى في مقانعها الخضرِ

٤٤٥ - وقال ابن صارة<sup>٢</sup> :

يا ربَّ نارنجةٍ يلهو النديمُ بها  
كأنها كُرّةٌ من أحمرِ الذهبِ  
أو جدوةٌ حملتها كفٌ قابيسها  
لكنها جذوةٌ معلومةٌ للهبِ

٤٤٦ - وقال الخفاجي<sup>٣</sup> :

١ أبو الحسن علي بن سعد الخيري من شعراء زاد المسافر : ١٠٣ وانظر المغرب ٢ : ٣١٧ والتكملة رقم : ١٨٦٧ والنحفة : ٥١ والذيل والتكملة ٥ : ١٨٧ ووصفه للدولاب ورد في أكثرها ؛ م : وقال أبو الحسن . . . في دولاب .  
٢ القلائد : ٢٦٧ ؛ م : وقال ابن صارة في نارنجة يشبهها .  
٣ ديوانه : ٦٩ ؛ م : وقال الخفاجي الأندلسي في أيقية .

ومياسة تزهو وقد خلع الحيا عليها حلّى حمراً وأردية خضرا  
يدوبُ بها ريقُ الغمامة فضةً ويحمدُ في أعطافها ذهباً نضرا

٤٤٧ - وقال ابن صارة أيضاً ١ :

ونارنجة لم يدعُ حُسْنُها لعيني في غيرها مذهباً  
فظوراً أرى لهباً مُضْرمًا وطوراً أرى شفقاً مُذهباً

٤٤٨ - وقال ابن وضاح في السرو ٢ :

أيا سرّو لا يُعطِش منابتك الحيا ولا يدعنُ أعطافك الخليلُ النضرُ  
فقد كسيتُ منك الجدوع بمثل ما تلفُ على الخطيّ راياته الخضرُ

٤٤٩ - وقال أبو إسحاق الخولاني ٣ :

نيلوفرٌ شكّلهُ كشكلي يعومُ في أبحرِ الدموع  
قد ألْبَسَتْ عطفه دروعاً خودٌ لريحِ الصبا شموع  
يلوحُ إذ لونهُ كلوني من فوقِ فضفاضةِ هموع  
مثلَ مساميرِ مذهباتٍ في حلقاتٍ من الدروع

٤٥٠ - وقال ابن الأبار ٤ :

وسوسناتٍ أرّت من حُسْنها بدعاً ولم يزل عصرُ مولانا يُري بدعاً  
شبهةً بالثريّا في تألّفها وفي تألّفها تلتاحُ ملتعمه

١ زاد في م : في تشبيه نارنجة .

٢ م : شجر السرو .

٣ زاد في م : في النيلوفر .

٤ زاد في م : الأديب المشهور في السوسن .

هَامَتْ بِبُيْمَانِهِ تَبْغِي أَنْ تَقْبَلَهَا      واستشرفت تجتلي مرآه مُطْلَعَةٌ  
ثُمَّ انْتَبَهَتْ مِنْ بَعْضِهَا غَلَبًا      على البدارِ فَوَافَتْ وَهِيَ مَجْتَمِعَةٌ  
ورفع هذه الأبيات إلى الأمير أبي يحيى زكريا<sup>١</sup> .

٤٥١ - وقال حازم :

لَا نَوْرَ يَبْعُدُ نُورَ اللُّوزِ فِي أَنْتَقِ      وبهجةٍ عند ذي عدلٍ وإنصافِ  
نِظَامِ زَهْرٍ يَظَلُّ الدَّرُّ مُنْتَثِرًا      عليه من كلِّ هامي القطرِ وكافِ  
بَيْنَا تُرَى وَهِيَ أَصْدَافٌ لِدَرْ حَيًّا      بيضٍ غدت دررًا في خُضْرِ أَصْدَافِ

٤٥٢ - وقال ابن سعد الخير في رُمَانَةٍ<sup>٢</sup> :

وَسَاكِنَةٌ فِي ظِلَالِ الْغُصُونِ      بروضٍ<sup>٣</sup> يروقك أفنانُهُ  
تُضَاحِكُ أَتْرَابَهَا فِيهِ إِذْ      غدا الجؤ تدمعُ أجفانُهُ  
كَمَا فَتَحَ اللَّيْثُ فَاهُ وَقَدَّ      تَضَرَّجَ بِالدَّمِ أَسْنَانُهُ

٤٥٣ - وقال ابن نزار الوادي آشي<sup>٤</sup> :

وَرُمَانَةٌ قَدْ فَضَّ عَنْهَا خَتَامَهَا      حبيبٌ أعار البدرَ بعضَ صفاتِهِ  
فَكَسَّرَ مِنْهَا نَهْدَ عِذْرَاءٍ كَاعِبٍ      وناولني منها شبيهَ لداتِهِ

٤٥٤ - وقال بعضهم في القَرَسِيَا<sup>٥</sup>، ويقال له بالمغرب «حب الملوك» :

وَدَوْحٍ تَهْدِلُ أَشْطَانُهُ      رعى الدهرُ من حسنه ما اشتهى

١ ب م : أبي زكريا .

٢ التحفة : ٥٣ .

٣ التحفة : بخدر .

٤ زاد في م : في رمانة .

٥ م : القرسيا .

فما احمرَّ منه فصوصُ العقيقِ وما اسودَّ منه عيونُ المَها

٤٥٥ - وقال بعضهم <sup>١</sup> :

وأين معاهدٌ للحُسنِ فيها وللأنسِ التِقَاءُ البهجتينِ  
وللأوتارِ والأطيّارِ فيها لدى الأسحارِ أطربُ ساجعينِ <sup>٢</sup>  
فكم بدرٍ تجلّى من رُبّاهَا ومن بطحائها في مطلعين  
وأعيَدَ يرتعي من تلعتَيها ومن ثمرِ القلوبِ بمرتعين  
إذا أهوى لسوسنةَ يميناً عجبتَ من التِقَاءِ السوسنينِ  
وكم يومٍ توشّحَ من سنّاهُ ومينُ زهراها في حلتين  
وراح أصيلُهُ ما بينَ نهرٍ ودولابٍ يدورُ بمسمعينِ  
بنهرٍ كالسماءِ يجولُ فيه سحائبُ من ظلالِ الدوحتينِ  
تدرّعُ للنّواسمِ حينَ هزت عليه كلَّ غصنٍ كالرُدّيّينِ  
ملاعب في غرامي عند ذكري صباه وغبصنه المتلاعبين

٤٥٦ - وقال الوزير محمد بن عبد الرحمن بن هانيء :

يا حرقةَ البينِ كويتِ الحشا حتى أذبتِ القلبَ في أضلعه  
أذكيتِ فيه النَّارَ حتى غدا ينسابُ ذاك الذّوبُ من مدمعه  
يا سؤلَ هذا القلبِ حتى متى يؤسى برشفِ الرّيقِ من متبّعه  
فإنّ في الشهدِ شفاءَ الوريّ لا سيّما إن مُصَّ من مكرّعه  
والله يُدني منكمُ عاجلاً ويبلّغُ القلبَ إلى مطمّعه

٤٥٧ - ولو لم يكن للأندلسيين غير كتاب «شذور الذهب» لكفاهم  
دليلاً على البلاغة ، ومؤلفه هو علي بن موسى بن علي بن محمد بن خلف أبو

١ زاد في م : في خضرة وروض واجتماع أحباب .

٢ ب م : سامعين .

الحسن الأنصاري ، الجياني ، نزيل فاس ، وولي خطابتها ، ولم ينظم أحدٌ في الكيمياء مثل نظمه بلاغةً معانٍ ، وفصاحةً ألفاظٍ ، وعذوبةً تراكيباً ، حتى قيل فيه : إن لم يعلمك صناعة الذهب علمك الأدب . وفي عبارة بعضهم : إن فأتك ذهبه ، لم يفتك أدبه . وقيل فيه : إنّه شاعر الحكماء ، وحكيم الشعراء . وتوفّي رحمه الله تعالى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

[ عود إلى النقل عن بدائع البدائه ]

ولنذكر هنا نبذة من سرعة بديهة أهل الأندلس ، وإن مرّت من ذلك جملة ، وستأتي أيضاً زيادة على الجميع ، فنقول :

٤٥٨ - قال في « بدائع البدائه » ما صورته<sup>١</sup> : روى عبد الجبار بن حمّديس الصقلي قال : صنع عبد الجليل بن وهبّون المرسي الشاعر لنا نزهة بوادي إشبيلية ، فأقمنا فيه يومنا ، فلما دنت الشمس للغروب هبّ نسيم ضعيف غَضَّن وجهَ الماء ، فقلت للجماعة : أجزوا :

حاكتِ الرِّيحُ من الماءِ زَرْدًا

فأجازه كل منهم بما تيسر له ، فقال لي أبو تمام غالب بن رباح ، الحجاج : كيف قلت يا أبا محمد ؟ فأعدتُ القسم له ، فقال :

أيُّ دِرْعٍ لِقَتالٍ لو جَمَدٌ

وقد ذكرنا في هذا الكتاب ما يخالف هذا ، فليراجع في محله<sup>٢</sup> . ثم قال صاحب « بدائع البدائه »<sup>٣</sup> بعد ما سبق ما صورته : وقد نقله ابن

١ البدائع ١ : ٦٣ .

٢ سيجي ما يخالفه في ترجمة الرميكية في الجزء الرابع من النسخ .

٣ ص : ٦٤ - ٦٥ .

حمديس إلى غير هذا الوصف ، فقال :

نثر الجوّ على التربِ بِرَدِّ أَيُّ دُرِّ لنحورٍ لو جَمَدَ

فتناقض المعنى بذكر البرد، وقوله « لو جمد » إذ ليس البرد إلا ما جمده  
البرد، اللهم إلا أن يريد. بقوله « لو جمد » دام جموده ، فيصح وينعقد على  
التحقيق .

ومثل هذا قولُ المعتمد بن عباد يصف فوّارة :

ولربّما سلّت لنا من مائها سيفاً وكان عن النواظر مُغمّدا  
طبعته بلحياً فزانتُ صفحةً منه ولو جمدتُ لكان مُهنّدا

وقد أخذت أنا هذا المعنى<sup>١</sup> فقلت أصف روضاً :

فلو دام ذاك النبتُ كان زبرجداً ولو جمدتُ أنهاره كنّ بلورا

وهذا المعنى مأخوذ من قول علي التونسي الإيادي من قصيدته الطائية  
المشهورة :

أؤلؤ قَطْرُ هذا الجوّ أم نُقَطُ ما كان أحسنه لو كان يلتقطُ

وهذا المعنى كثير للقدماء ، قال ابن الرومي من قطعة في العنب الرازقي :

لو أنّه يبقى على الدهورِ قرطَ آذانِ الحسانِ الحورِ

٤٥٩ - قال علي بن ظافر<sup>٢</sup> : وأخبرني مَنْ أثق به قال : ركب المعتمد

على الله أبو القاسم ابن عبّاد لنزهة بظاهر إشبيلية في جماعة من ندماثة ، وخواص  
شعرائه ، فلماً أبعدَ أخذ في المسابقة بالحيول ، فجاء فرسه بين البساتين سابقاً ،

١ يعني ابن ظافر .

٢ البدائع ١ : ٦٦ - ٦٧ .

فرأى شجرة تين قد أينعت وزهت وبرزت منها ثمرة قد بلغت وانتهت ، فسدد إليها عصاً كانت في يده فأصابها ، وثبتت على أعلاها ، فأطربته ما رأى من حسنها وثباتها ، والتفت ليخبر به مَنْ لحقه من أصحابه ، فرأى ابنَ جاح الصباغ أول من لحق به فقال : أجز :

كأنها فوق العصا

فقال :

هامة زنجي عصى

فزاد طربه وسروره بحسن ارتجاله ، وأمر له بجائزة سنية .

قال علي بن ظافر<sup>١</sup> : وأخبرني أيضاً أن سبب اشتهار ابن جاح<sup>٢</sup> هذا أن الوزير أبا بكر ابن عمّار كان كثير الوفاة على ملوك الأندلس ، لا يستقرّ ببلد ولا يستقرّه عن وطّره ووطن ، وكان كثير التطلب لما يصدر عن أرباب المهن ، من الأدب الحسن ، فبلغه خبرُ ابن جاح هذا قبل اشتهاره ، فمر على حانوته وهو أخذ في صباغته ، والنيل قد جرّ على يديه ذيّلاً ، وأعاد نهارهما ليلاً ، فأراد أن يعلم سرعة خاطره ، فأخرج زندّه ويده بيضاء من غير سوء ، وأشار إلى يده ، وقال :

كم بين زندٍ وزندٍ ؟

فقال :

ما بين وصلٍ وصدّ

فعجب من حسن ارتجاله ، ومبادرة العمل واستعجاله ، وجذب بضبعه ، وبلغ من الإحسان إليه غايةً وسعته .

١ المصدر نفسه : ٦٧ .

٢ ب م : ابن جامع ، حيثما رقت ، وهو خطأ .



٤٦٠ - وبلغني أيضاً أنه دخل سرْقُسْطَة فبلغه خبر يحيى القصاب السرقسطي ، فمر عليه ، ولحم خرفانه بين يديه ، فأشار ابن عمار إلى اللحم ، وقال<sup>١</sup> :

لحم سباطِ الخرفانِ مهزولُ

فقال :

يقول يا مشترين<sup>٢</sup> مه زولوا

٤٦١ - ولما صنع المتوكل<sup>٣</sup> على الله بن الأفطس صاحب بطليوس هذا القسيم :

الشَّعْرُ خُطَّةٌ خَسْفُ

أرتج عليه ، فاستدعى أبا محمد عبد المجيد بن عبدون صاحب الرائية التي أولها :

الدهرُ يَفْجَعُ بعد العينِ بالأثرِ

وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب ، وهو أحد وزراء دولته ، وخواص حضرته ، فاستجازه إياه ، فقال :

لكلِّ طالبِ عُرْفِ

للشيخِ عَيْبَةَ عَيْبِ وللفتي ظَرْفُ ظَرْفِ

وذكر ابن بسّام في الذخيرة أن قائل القسيم الأوّل الأستاذ أبو الوليد ابن ضابط ، وأن عبد المجيد أجازه ارتجالاً ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وقد ذكرنا ما يقرب من ذلك في هذا الكتاب .

١ انظر ما تقدم ص : ٤٠٤ .

٢ البدائع : للمفلسين .

٣ البدائع ١ : ٧٢ ، وقد مرت الحكاية ص : ٣٩٧ .

٤٦٢ - وقال ابن الغليظ المالقي<sup>١</sup> : قلت يوماً للأديب أبي عبد الله ابن السراج المالقي ، ونحن على جرية ماء : أجز :

شربنا على ماءٍ كأنَّ خريرهُ

فقال بديهاً :

بكاءٍ مُحِبِّ بانٍ عنه حبيبُ

فمن كان مشغوفاً كثيباً بلفه

فإنِّي مشغوفٌ به وكثيبُ

٤٦٣ - وذكر ابن بسّام في الذخيرة<sup>٢</sup> أنه اجتمع ابن عبادة وابن القابلة السبتي بالمريّة ، فنظر إلى وسيم يسبح في البحر ، وقد تعلق بسكّان بعض المراكب ، فقال ابن عبادة : أجز :

انظر إلى البدرِ الذي لاحَ لكُ

فقال ابن القابلة :

في وسطِ اللُّجّةِ تحتَ الحلّكُ

قد جَعَلَ الماءَ سماءَ لهُ واتخذَ الفلّكُ مكانَ الفلّكُ

٤٦٤ - وقال أبو عامر ابن شهيد<sup>٣</sup> : لما قدم زهير الصقليّ إلى حضرة قرطبة من المريّة وجّه وزيره أبو جعفر ابن عباس إلى لُمة من أصحابنا منهم ابن بُردُ وأبو بكر المرواني وابن الحنّاط والطبني ، فحضرُوا إليه ، فسألهم عني ،

١ البدائع ١ : ٧٣ ومرت الحكاية ص : ٢٧٠ .

٢ البدائع ١ : ٧٣ .

٣ البدائع ١ : ٧٤ .

٤ ب م : الصقلي ، وهو خطأ ، وكان زهير من فتيان الصقالبة بالأندلس .

وقال : وجَّهوا إليه ، فوافاني رسوله مع دابة بسَرَجٍ مُحَلَّتِي ثَقِيلٍ ، فسرت إليه ، ودخلت المجلس ، وأبو جعفر غائب ، فتحفز المجلسُ لدخولي ، وقاموا جميعاً لي ، حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً ذيلاً لم أرَ أحداً سَحَبَهُ قَبْلَهُ ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ الرِّجَالِ ، فرد ردّاً لطيفاً ، فعلمت أن في أنفه نَعْرَةَ لا تخرج إلاّ بسعوط الكلام ، ولا ترام إلاّ بمستحصد النظام ، ورأيت أصحابي يُصَيِّخُونَ إلى ترنمه . فقال لي ابن الحنّاط ، وكان كثير الإنحاء عليّ ، جالباً في المحافل ما يسوء إليّ : إن الوزير حضره قسيم ، وهو يسألنا إجازته ، فعلمت أنّي المراد ، فاستنشدته ، فأنشد :

مَرَضُ الجُفُونِ وَلثَغَةٌ فِي المَنْطِقِ

فقلت لمن حضر : لا تجهدوا أنفسكم ، فما المراد غيري ، ثم أخذت الدواء فكتبت :

سَبَبَانِ جَرّاً عَشَقَ مَنْ لَمْ يَعشُقِ

مَنْ لِي بِاللثَغِ لَا يَزَالُ حَدِيثُهُ  
يُذَكِّرُنِي فِي الكَلَامِ لِسَانُهُ  
لَا يَنْعَشُ الأَلْفَاظَ مِنْ عَثْرَاتِهَا  
يُذَكِّرُنِي عَلَى الأَحْشَاءِ جَمْرَةٌ مَحْرَقِ  
فَكَأَنَّهُ مِنْ خَمْرِ عَيْنِهِ سَقِي  
وَلَوْ أَنَّهُ كُتِبَتْ لَهُ فِي مُهْرَقِ

ثم قمت عنهم ، فلم ألبث أن وَرَدُوا عليّ ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئت به من البديهة ، وسألوني أن أحمل مكاوي الهجاء على حثاره ، فقلت :

أبو جعفر كاتبٌ محسنٌ  
تملأ شحماً ولحماً وما  
له عرقٌ ليس ماء الحياء  
جرى الماء في سفله جري لينٍ  
مليحٌ سنا الخطّ حلو الخطابه  
يليقُ تملّؤه بالكتابه  
ولكنه رشحُ ماء الجنابه  
فأحدث في العلو منه صلابه

٤٦٥ - وذكر الوزير أبو بكر ابن اللبّانة الداني<sup>١</sup> في كتابه «سقيط الدرر ولقيط الزهر» أن المعتمد بن عباد صنع قسيماً في القبة المعروفة بسعد السعود فوق المجلس المعروف بالزاهي ، وهو :

سعدُ السعودِ يتيهُ فوقَ الزاهي

ثم استجاز الحاضرین فعجزوا ، فصنع ولده عبد الله الرشيد :

وكلاهما في حُسْنِهِ مُتْناهي

ومَنْ اغْتَدَى سَكناً لِمِثْلِ مُحَمَّدٍ      قد جَلَّ في العِليا عن الأشباه  
لا زال يبلُغُ فيهما ما شاءه      ودهت عِداه من الخطوبِ دواهي

٤٦٦ - وخرج القاضي الفقيه<sup>٢</sup> أبو الحسن علي بن القاسم بن محمد بن عشرة أحد رؤساء المغرب الأوسط في جماعة من أصحابه منهم محمد بن عيسى ابن سوار الأشبوني ورجل يسمى بأبي موسى خفيف الروح ، ثقیل الجسم ، فجعل يعبث بالحاضرین بأبيات من الشعر يصنعها فيهم ، فصنع القاضي أبو الحسن معابثاً له :

وشاعرٍ أثقلَ مِنْ جِسْمِهِ

ثم استجاز ابن سوار ، فقال :

تأتي معانيه على حُكْمِهِ

ظُلْامةٌ تُعْدي على ظُلْمِهِ

منيّةُ الحيةِ في سُمِّهِ

يهجو فلا يهْجَى فهل عندكم

لسانهُ في هَجْوِهِ حِيَّةٌ

١ البدائع ١ : ٧٨ .

٢ البدائع ١ : ٧٨ .

يُصِيبُ سِرَّ المرءِ فِي رَمِيهِ كَأَنَّمَا الْعَالَمُ فِي عِلْمِهِ  
أَمَّا أَبُو مُوسَى فَمَنْ كَفَّهُ عَصَا ابْنِهِ وَالسَّحْرُ فِي نَظْمِهِ

٤٦٧ - وفي «المقتبس في تاريخ الأندلس»<sup>١</sup> أن الأمير عبد الرحمن خرج في بعض أسفاره فطرقة خيال جاريتة طروب أم ولده عبد الله ، وكانت أعظم حظاياها عنده ، وأرفعهن لديه ، لا يزال كلفاً بها ، هائماً بجبها ، فانتبه وهو يقول :

شاقك من قرطبة الساري في الليل لم يدر به الداري

ثم أنبه عبد الله بن الشمر نديمه فاستجازه كمال البيت ، فقال :

زار فحياً في ظلام الدجى أحبيب به من زائر ساري

وصنع الأمير عبد الرحمن المذكور في بعض غزواته قسيماً<sup>٢</sup> ، وهو :

نرى الشيء ممّا يُتَّقَى فنهابه

ثم أرتج عليه ، وكان عبد الله بن الشمر نديمه وشاعره غائباً عن حضرته ، فأراد من يجيزه ، فأحضر بعض قواده محمد بن سعيد الزجالي ، وكان يكتب له ، فأنشده القسيم ، فقال :

وما لا نرى ممّا بقي الله أكثر

فاستحسنه وأجازه ، وحمله استحسانه على أن استوزره .

١ البدائع ١ : ٨٧ .

٢ انظر المقتبس (تحقيق مكّي) : ٣٤ ومنه يفهم أن الأمير لم يصنع القسيم وإنما تمثل به ونسي تمامه فآتمه الزجالي من حفظه . وانظر ما سبق ص : ٥٣٩ .

٤٦٨ - وذكر ابن بسّام<sup>١</sup> أن المعتمد بن عباد أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب ، فصيغا ، فجاء وزنهما سبعمائة مثقال ، فأهدى الغزال إلى السيدة ابنة مجاهد . والهلال إلى ابنه الرشيد ، فوقع له إلى أن قال :

بعثنا بالغزال إلى الغزالِ وللشمسِ المنيرة بالهلالِ

ثم أصبح مصطبحا ، وجاء الرشيد فدخل عليه ، وجاء الندماء والجلساء ، وفيهم أبو القاسم ابن مرزقان<sup>٢</sup> ، فحكى لهم المعتمد البيت ، وأمرهم بإجازته ، فبدر ابنُ مرزقان فقال :

فَدَا سَكْنِي أَبُوئِهِ فُوَادِي      وَذَا نَجَلِي أَقْلَدُهُ الْمَعَالِي  
شَعَلْتُ بِذَا الطَّلَاخَلْدِي وَنَفْسِي      وَلَكِنِّي بِذَاكَ رَخِيٌّ بِالِ  
دَقَعْتُ إِلَى يَدِيهِ زِمَامَ مُلْكِي      مَحَلِّي بِالصَّوَارِمِ وَالْعَوَالِي  
فَقَامَ يَقْرُ عَيْنِي فِي مِضَاءِ      وَيَسْلُكَ مَسَلَكِي فِي كُلِّ حَالِ  
فَدُمْنَا لِلْعَلَاءِ وَدَامَ فِينَا      فَإِنَّا لِلْسَّمَاحِ وَاللَّنْزَالِ

٤٦٩ - ولما أنشد أبو القاسم ابن الصيرفي قول عبد الله بن السمط :

حَارَ طَرْفٌ تَأَمَّلَكَ      مَلِكٌ أَنْتَ أُمَّ مَلَكٌ

قال بديها :

بَلْ تَعَالَيْتَ رَتْبَةً      فَلَكَ الْأَرْضُ وَالْفَلَكَ

٤٧٠ - وذكر ابن بسّام في الذخيرة<sup>٣</sup> أنه غنّي يوماً بين يدي العلي

بالله الإدريسي بمالقة بيت لعبد الله بن المعتز :

١ البدائع ١ : ١٠٧ .

٢ م : ابن مرزبان .

٣ الذخيرة ٢/١ : ٣٥٥ والبدائع ١ : ١٤٨ .

هَلْ تَرِينِ الْبَيْنَ يَحْتَالُ أَنْ غَدَتَ لِلْحَيِّ أَجْمَالُ

فَأَمْرُ الْفَقِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ غَانِمِ بْنِ الْوَلِيدِ الْمَالِقِيِّ بِإِجَازَتِهِ . فَقَالَ بَدِيهًا :

إِنَّمَا الْعَالِي إِمَامٌ هَدَى حَلِيَّتَ فِي عَصْرِهِ الْحَالُ  
مَلِكٌ أُقِيالُ دَوْلَتِهِ لِنُورِ الْأَفْهَامِ إِقْبَالُ  
قَلِّ لِمَنْ أَكْدَتْ مَطَالِبُهُ رَاحَتَهُ الْجَاهُ وَالْمَالُ

٤٧١ - وَغَنَى أَبُو الْحَسَنِ زُرْيَابٌ<sup>٢</sup> يَوْمًا بَيْنَ يَدَيِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ  
الْحَكَمِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخَلِ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ . وَهُمَا لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ :

قَالَتْ ظَلُومٌ سَمِيَّةٌ الظُّلْمِ مَا لِي رَأَيْتَكَ نَاحِلَ الْجَسْمِ  
يَا مَنْ رَمَى قَلْبِي فَأَقْصَدَهُ أَنْتَ الْخَبِيرُ بِمَوْجِعِ السَّهْمِ

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : هَذَا الْبَيْتَانِ مُنْقَطِعَانِ . فَلَوْ كَانَ بَيْنَهُمَا مَا يَصِلُهُمَا  
لَكَانَ أَبْدَعُ ، فَصَنَعَ عبيد الله<sup>٣</sup> بِنِ فِرْنَانَسٍ بَدِيهًا :

فَأَجْبَتْهَا وَالِدْمَعُ مَنَحْدَرٌ مِثْلُ الْجُمَانِ وَهَيَّ مِنَ النَّظْمِ  
فَاسْتَحْسَنَهُ . وَأَمْرٌ لَهُ بِجَائِزَةٍ .

٤٧٢ - وَذَكَرَ ابْنُ بَسَامٍ أَيْضًا أَنَّ الْمُعْتَمِدَ بْنَ عَبَادٍ غَنَى بَيْنَ يَدَيْهِ بِقَوْلِ ابْنِ  
الْمُعْتَزِ<sup>٤</sup> :

وَخَمَّارَةٌ مِنْ بَنَاتِ الْمَجُوسِ تَرَى الزُّرْقَ فِي بَيْتِهَا سَائِلًا  
وَزَنَّا لَهَا ذَهَبًا جَامِدًا فَكَالَتْ لَنَا ذَهَبًا سَائِلًا

- ١ الذخيرة : للبين .
- ٢ البدائع ١ : ١٥٥ .
- ٣ ب : عبد الرحمن .
- ٤ البدائع ١ : ١٥٤ .

فقال بديها يُجيزه :

وقلت خذِي جوهرأ ثابتأ ففالت خذوا عرأضأ زائلا

٤٧٣ - وركب المعتمد<sup>١</sup> في بعض الأيام قاصداً الجامع ، والوزير أبو بكر ابن عمار يسايره ، فسمع أذان مؤذن ، فقال المعتمد :

هذا المؤذنُ قد بدأ بأذانه

فقال ابن عمار :

يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد :

طوبى له من شاهدٍ بحقيقة

فقال ابن عمار :

إن كان عقْدُ ضميره كلسانه

٤٧٤ - وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلي<sup>٢</sup> : أقمتُ بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلي ولا يعبا بي ، حتى قنطت لحييتي مع فرط تعبي ، وهممت بالنكوص على عقبي ، فإنتي لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذا بغلام<sup>٣</sup> معه شمعة ومركوب ، فقال لي : أجب السلطان ، فركبت من فورى ، ودخلت عليه ، فأجلسني على مرتبة فننك<sup>٤</sup> ، وقال لي : افتح الطاق التي تليك ، ففتحتها فإذا بكور زجاج على بعد ، والنار تلوح من بابيه ، وواقدة تفتحهما تارة وتسدُّهما أخرى ، ثم دام سدَّ أحدهما وفتح الآخر ، فحين تأملتُهما قال لي : أجز :

١ البدائع ١ : ١٧١ .

٢ البدائع ١ : ١٧١ .

٣ البدائع : إذ أتاني غلام .

٤ البدائع : على مرتبته .



انظرهما في الظلامِ قد نجما

فقلت :

كما رَنَا في الدُّجْنَةِ الأسدُ

فقال :

يفتحُ عَيْنِيهِ ثُمَّ يُطْبِقُهَا

فقلت :

فعلَ امرىءٌ في جُفُونِهِ رَمَدٌ

فقال :

فابتزَّهُ الدهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت :

وهل نَجَا من صُرُوفِهِ أَحَدٌ

فاستحسن ذلك ، وأمر لي بجائزة سنوية ، وألزمي خدمته .  
وقد ذكرنا هذه الحكاية في هذا الكتاب ، ولكن ما هنا أتم مساقاً فلذلك  
نبهت عليه .

٤٧٥ - وذكر صاحب « فرحة الأنفس في أخبار أهل الأندلس »<sup>١</sup> أن  
أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر جلس في جماعة من خَوَاصِهِ ، ومعهم أبو  
القاسم لب ، وكان يعدّه للمجون والتطايب ، فقال له : أهجُ عبد الملك بن  
جهور ، يعني أحد وزرائه ، فقال : أخافه ، فقال لعبد الملك : فاهجُ أنت ،  
فقال : أخاف على عِرْضِي منه ، فقال : أهجوه أنا وأنت ، ثم صنع :  
لبُّ أبو القاسمِ ذو الحيةِ طويلةٍ أزرى بها الطولُ<sup>٢</sup>

١ البدائع ١ : ١٨٥ .

٢ ب م : كبيرة في طولها ميل .

فقال عبد الملك :

وعرضها ميلانٍ إن كُسِّرَتْ والعقلُ مأفونٌ ونخبولُ

فقال الناصر لب : اهجّه فقد هجاك ، فقال بديهاً :

قال أمينُ الله في عَصْرنا لي لحيةٌ أزرى بها الطولُ  
وابن جهيرٍ قال قولَ الذي مأكولُهُ القرضيلُ والقولُ  
لولا حيائي من إمام الهدى نخست بالمنخس شو . . .

ثم سكت ، فقال له الناصر : هاتِ تمام البيت ، فامتنع ، فقال له « قولو »  
يعني تمام البيت ، كلمة قالها الناصر مسترسلاً غير متحفظ من زيادة الواو وإبدال  
الهاء واوآ ، إذ صوابها « قله » على حكم المشي مع الطبع والراحة من التكلف ،  
فقال لب : يا مولانا أنت هجوته ، ففطن الناصر والحاضرون ، وضحكوا ،  
وأمر له بجائزة .

والقرضيل : شوك له ورق عريض تأكله البقر ، وقوله « شو » اسم للذكر  
الرجل<sup>١</sup> بالرومية ، و « قولو » اسم لللاست بها ، فكأنه قال : لولا حيائي  
من إمام الهدى نخست بالمنخس - الذي هو الذكر - استه .

انتهى المجلد الثالث

١ م : اسم الرجل .

## محتويات المجلد الثالث من نفح الطيب

### الباب السادس

في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق . . . . . ١٤٩ - ٥

٥	.	.	.	.	.	.	١ - المنير الإفريقي
٦	.	.	.	.	.	.	٢ - موسى بن نصير
٧	.	.	.	.	.	.	٣ - حنش الصنعاني
٨	.	.	.	.	.	.	٤ - علي بن رباح اللخمي
٩	.	.	.	.	.	.	٥ - أبو عبد الرحمن الجبلي
٩	.	.	.	.	.	.	٦ - حبان بن أبي جبلة
١٠	.	.	.	.	.	.	٧ - المغيرة بن أبي بردة
١٠	.	.	.	.	.	.	٨ - حيوة بن رجاء التميمي
١٠	.	.	.	.	.	.	٩ - عياض بن عقبة الفهري
١٠	.	.	.	.	.	.	١٠ - عبد الله بن شماسة الفهري
١١	.	.	.	.	.	.	١١ - عبد الجبار بن أبي سلمة الزهري ( انظر رقم : ٤٧ )
١١	.	.	.	.	.	.	١٢ - منصور بن حزامة
١٢	.	.	.	.	.	.	١٣ - مغيث الرومي
١٤ - ٢٦	.	.	.	.	.	.	١٤ - ٣١ - عدد من ولاة الأمويين
٢٧	.	.	.	.	.	.	٣٢ - عبد الرحمن الداخل
٥٥	.	.	.	.	.	.	٣٣ - أبو الأشعث الكلبي

هذه العلامة \* تدل على أن الترجمة مكررة .

- ٣٤ - جزي بن عبد العزيز .  
٣٥ - بكر بن سواده الجذامي .  
٣٦ - رزيق بن حكيم .  
٣٧ - زيد بن قاصد السكسكي .  
٣٨ - زرعة بن روح الشامي .  
٣٩ - محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري .  
٤٠ - عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم .  
٤١ - هاشم بن الحسين بن إبراهيم الطالبي .  
٤٢ - عبد الله بن المغيرة الكتاني .  
٤٣ - عبد الله المعمر .  
٤٤ - عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب المهري .  
٤٥ - عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر .  
٤٦ - عبد الرحيم بن أحمد بن نصر التميمي البخاري .  
٤٧ - عبد الجبار بن أبي سلمة الزهري ( انظر رقم : ١١ ) .  
٤٨ - عبد الوهاب بن عبد الله الطندثاني .  
٤٩ - عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب .  
٥٠ - عبد اللطيف بن أبي الطاهر الصديقي .  
٥١ - عمر بن عثمان بن محمد الخراساني .  
٥٢ - علي بن بندار البرمكي .  
٥٣ - عبيد بن محمد بن عبيد النيسابوري .  
٥٤ - سهل بن علي بن عثمان النيسابوري .  
٥٥ - هبة الله بن الحسين المصري .  
٥٦ - يحيى بن عبد الرحمن القيسي الدمشقي .  
٥٧ - إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي .  
٥٨ - أبو علي القالي .  
٥٩ - صاعد البغدادي .  
[ طرف من أخبار المنصور الكبير ]  
رجع إلى أخبار صاعد البغدادي .  
٦٠ - ابن حمويه السرخسي .  
[ رسالة من لسان الدين إلى ضريح الولي السبتي ]

١٠٠	.	.	.	.	رجع إلى السرخسي
١٠٤	.	.	.	[بعض أخبار عن المنصور الموحي]	
١٠٥	.	.	.	رجع إلى أخبار السرخسي	
١١١	.	.	.	٦١ - ظفر البغدادي	
١١١	.	.	.	٦٢ - محمد بن موسى الرازي	
١١١	.	.	.	٦٣ - أبو الفضل الدارمي البغدادي	
١١٨	.	.	.	٦٤ - أشهب بن العضد الخراساني	
١١٩	.	.	.	٦٥ - الفكيك البغدادي	
١٢١	.	.	.	٦٦ - إبراهيم بن سليمان الشامي	
١٢٢	.	.	.	٦٧ - أبو بكر ابن الأزرق المرواني	
١٢٢	.	.	.	٦٨ - زرياب المغني ، علي بن نافع	
١٣٣	.	.	.	٦٩ - شعبان بن كوجبا	
١٣٤	.	.	.	٧٠ - أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني	
١٣٥	.	.	.	٧١ - إبراهيم بن خلف بن منصور ، السنهوري	
١٣٦	.	.	.	[ ذكر أبي الخطاب ابن دحية ]	
١٣٨	.	.	.	٧٢ - عبد الله بن محمد بن آدم الخراساني	
١٣٩	.	.	.	٧٣ - عبد الرحمن بن داود بن علي الواعظ	
١٣٩	.	.	.	٧٤ - عابدة المدنية أم ولد حبيب بن الوليد المرواني ( دحون )	
١٤٠	.	.	.	٧٥ - فضل المدنية	
١٤٠	.	.	.	٧٦ - قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي	
١٤١	.	.	.	٧٧ - الجارية العجفاء	
١٤٣	.	.	.	٧٨ - عبد القاهر بن محمد الموصلي	
١٤٣	.	.	.	٧٩ - أحمد بن الحسن النخعي	
١٤٣	.	.	.	٨٠ - أحمد بن يزيد بن أحمد الزهري	
١٤٣	.	.	.	٨١ - إسماعيل بن الإسكندراني ، أبو الطاهر	
١٤٤	.	.	.	٨٢ - علي بن محمد بن إسماعيل الأنطاكي ، أبو الحسن	
١٤٤	.	.	.	٨٣ - عمر بن مودود بن عمر ، أبو البركات البخاري	
١٤٥	.	.	.	٨٤ - نجم الدين بن مهذب الدين ، الرحالة	
١٤٧	.	.	.	٨٥ - تقي الدين ابن الغرس الحنفي المصري	
١٤٨	.	.	.	٨٦ - الولي يوسف الدمشقي	

## الباب السابع

في ذكر توقد الأذهان الأندلسية وحب الأندلسيين للمعرفة وبراعتهم  
في الأجوبة وغير ذلك مما يدل على فضلهم

— ١٥٠ —

- [نقول في فضائل الأندلس : ١ - عن فرحة الأندلس . . . . . ١٥٠ . . . . .]
- ١٥٢ . . . . . ٢ - عن ابن سعيد . . . . .
- ١٥٣ . . . . . ٣ - عن الحميدي . . . . .
- ١٥٤ . . . . . ٤ - عن ابن بسام . . . . .
- ١٥٥ . . . . . ٥ - عن الحجاري . . . . .
- ١٥٦ . . . . . ٦ - رسالة ابن حزم في فضل الأندلس . . . . .
- ١٧٩ . . . . . ٧ - تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم . . . . .
- ١٨٦ . . . . . ٨ - رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس . . . . .
- ٢٢٢ . . . . . [ ترجمة الشقندي ] . . . . .
- ٢٢٤ . . . . . [ استطراد في الإشادة بالأندلس ] . . . . .
- ٢٢٥ . . . . . [ حكايات وأشعار أندلسية ] . . . . .
- ٢٢٥ . . . . . ١ - شعر للزاهد أبي عمران المارثلي . . . . .
- ٢٢٥ . . . . . ٢ - « لأبي عمرو اليحصبي اللوشي . . . . .
- ٢٢٦ . . . . . ٣ - « لأبي وهب القرطبي . . . . .
- ٢٢٧ . . . . . ٤ - « لأبي محمد ابن برطله . . . . .
- ٢٢٧ . . . . . ٥ - « لابن حبيش . . . . .
- ٢٢٧ . . . . . ٦ - « لابن الشيخ . . . . .
- ٢٢٧ . . . . . ٧ - « لأبي محمد القرطبي . . . . .
- ٢٢٧ . . . . . ٨ - « للسميسر . . . . .
- ٢٢٨ . . . . . ٩ - « لأبي القاسم ابن بقي . . . . .
- ٢٢٨ . . . . . ١٠ - « لابن العسال الطليطلي . . . . .
- ٢٢٨ . . . . . ١١ - « لابن هشام القرطبي . . . . .
- ٢٢٨ . . . . . ١٢ - « لابن السيد البطليوسي . . . . .
- ٢٢٩ . . . . . ١٣ - « لأبي الفضل ابن شرف . . . . .
- ٢٢٩ . . . . . ١٤ - « لأبي العباس بن عريف . . . . .

٢٣٠	انتقال الأندلس من مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك
٢٣٠	ترجمة للزاهد ابن أبي يغمور
٢٣٢	الوزير أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري
٢٣٤	بعض أخبار المعتمد
٢٣٥	رسالة ابن عبد البر في الرد على من عابه بأكل طعام السلطان
٢٣٧	ابن مجبر ، ترجمته وشيء من شعره
٢٤١	شعر لابن خفاجة
٢٤١	« للأعمى التطليبي
٢٤١	« لأبي حفص ابن عمر القرطبي
٢٤١	« للحاجب ابن مغيث
٢٤٢	« لأخيه أحمد
٢٤٢	« لابن أمية البلنسي
٢٤٢ - ٢٦٩	[ حكايات في البديهة والارتجال منقولة عن بدائع البدائه ]
٢٤٢	٢٧ - بين ابن عمار وابن زيدون وابن خلدون
٢٤٤	٢٨ - ٣٠ - من بدائه ابن شهيد
٢٤٦	٣١ - بين ابن زهر وابن رزين
٢٤٧	٣٢ - بين ابن عاصم والأمير محمد بن عبد الرحمن
٢٤٨	[ استطراد حول ابن ظافر الأزدي ]
٢٥٥	[ قدرة ابن قلاتس في الارتجال ]
٢٥٩	رجعة إلى كلام الأندلسيين
٢٥٩	٣٣ - بديهة أبي الحسن ابن الحاج اللورقي
٢٦٠	٣٤ - « عبد الملك بن إدريس الجزيري
٢٦٠	٣٥ - قصة ابن شهيد الوزير مع المنصور
٢٦٢	٣٦ - بديهة ابن شهيد أبي عامر
٢٦٣	٣٧ - « ابن الحنطاط
٢٦٣	٣٨ - « ابن الحداد
٢٦٤	٣٩ - « ابن الشقاق
٢٦٤	٤٠ - « ابن مرزقان
٢٦٥	٤١ - « غانم الأديب
٢٦٥	٤٢ - « ابن هندو الداني

٢٦٥	٤٣ -	بديهة ابن فرج الجياني .
٢٦٦	٤٤ -	« ابن حصن الإشبيلي .
٢٦٦	٤٥ -	« أبي الفضل ابن حسداي
٢٦٨	٤٦ -	« عبد الجليل بن وهبون
٢٦٨	٤٧ -	« ابن أبي الحصال .
٢٦٩	٤٨ -	شعر لأبي جعفر الرضي .
٢٧٠	٤٩ -	« لأحد بني القبطورنة
٢٧٠	٥٠ -	بين ابن الغليظ وابن السراج المالقي
٢٧٠	٥١ -	بين أبي بكر البلنسي وصفوان
٢٧١	٥٢ -	شعر لابن خفاجة
٢٧١	٥٣ -	قصائد لابن زيدون
٢٨٧	٥٤ -	شعر لابن السيد البطليوسي
٢٨٨	٥٥ -	« للأبيض .
٢٨٨	٥٦ -	« لأبي عامر السالمي (منسوب له خطأ)
٢٨٨	٥٧ -	« لابن الحناط
٢٨٩	٥٨ -	أشعار لابن الزقاق
٢٩١	٥٩ -	شعر للسميسر .
٢٩١	٦٠ -	« لابن رزين
٢٩١	٦١ -	« لعبد الملك سلطان بلنسية
٢٩٢	٦٢ -	« لسليمان بن بطلال البطليوسي
٢٩٢	٦٣ -	« لأبي محمد عبد الله بن غالب
٢٩٣	٦٤ -	« للسميسر .
٢٩٣	٦٥ -	« لأحمد بن برد
٢٩٣	٦٦ -	« لعبد المجيد بن عبدون
٢٩٣	٦٧ -	« لأبي الفضل ابن حسداي
٢٩٤	٦٨ -	بين ابن عبد ربه والقلفاط
٢٩٥	٦٩ -	مروعة أبي الحسين ابن جبير
٢٩٦	٧٠ -	أشعار للزاهد أبي عمران المارثلي
٢٩٧	٧١ -	« لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز
٢٩٨	٧٢ -	شعر لابن خفاجة



٢٩٨	قصيدة مجونية لابن الأزرق	٧٣
٣٠٣	شعر لابن خفاجة	٧٤
٣٠٣	« لابن الأبار القضاعي	٧٥
٣١٧-٣٠٣	[نقول من القدح الممل]	
٣٠٣	ابن الأبار القضاعي	٧٦
٣٠٤	أبو المعالي القيحاوي	٧٧
٣٠٤	عمرو بن الحكم القبطي	٧٨
٣٠٥	أبو عمران القلعي	٧٩
٣٠٥	أبو إسحاق لإبراهيم بن أيوب المرسي	٨٠
٣٠٥	أبو بكر ابن عمار البرجي	٨١
٣٠٦	أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز الإشبيلي	٨٢
٣٠٧	أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير	٨٣
٣١٠	ابن البناء الإشبيلي	٨٤
٣١٠	ابن غالب الداني	٨٥
٣١٠	أبو العلاء عبد الحق المرسي	٨٦
٣١١	ابن غالب الكاتب بمالقة	٨٧
٣١١	أبو عبد الله ابن عسكر الغساني	٨٨
٣١١	أبو أمية ابن عفير	٨٩
٣١٢	[عود للحديث عن ابن ظافر]	
٣١٤	رجع إلى أهل الأندلس	
٣١٤	ابن السماك	٩٠
٣١٥	أبو محمد عبد الحق الزهري	٩١
٣١٥	إسماعيل بن حجاج الأعمى (سقط شعره)	٩٢
٣١٥	أبو يحيى ابن هشام القرطبي	٩٣
٣١٦	أبو الحجاج يوسف البياسي	٩٤
٣٢٣-٣١٨	[عود إلى النقل عن بدائع البدائه]	
٣١٨	ابن صارة وابن خفاجة	٩٥
٣١٨	ابن خفاجة وابن وهبون وأخبار أخرى	٩٦
٣٢٠	بين السميسر وأحد رؤساء المرية	٩٧
٣٢١	[حكاية مشرقية عن عباد بن الحرث]	

٣٢٢	.	.	.	.	٩٨ ، ٩٩ - أبو الصلت أمية بن عبد العزيز
٣٢٣	.	.	.	.	١٠٠ - أبو جعفر أحمد الوقشي
٣٢٤	.	.	.	.	١٠١ - اليكي وأهل فاس .
٣٢٤	.	.	.	.	١٠٢ - أبو الحسن علي بن عتيق
٣٢٥	.	.	.	.	١٠٣ - أحمد بن رضى المالقي
٣٢٥	.	.	.	.	١٠٤ - أبو القاسم البلوي الإشبيلي
٣٢٥	.	.	.	.	١٠٥ - أبو زكريا ابن صفوان الأديب
٣٢٥	.	.	.	.	١٠٦ - ١٠٨ - ابن عمار .
٣٢٨	.	.	.	.	١٠٩ ، ١١٠ - ابن صمادح .
٣٢٩	.	.	.	.	١١١ - السميسر .
٣٢٩	.	.	.	.	١١٢ - ابن شرف القيرواني .
٣٢٩	.	.	.	.	١١٣ - أبو الحسن ابن أيوب ( شاعر مشرقى )
٣٣٠	.	.	.	.	١١٤ - الحصري .
٣٣٠	.	.	.	.	١١٥ - ابن سعد الخير البلنسي
٣٣٠	.	.	.	.	١١٦ - محبوب النحوي يصف ناعورة
٣٣١	.	.	.	.	١١٧ - أبو الخطاب ابن دحية وابن مغاور السلمى
٣٣١	.	.	.	.	١١٨ - أبو الوليد النحلي الشاعر
٣٣٢	.	.	.	.	١١٩ - أبو الصلت وظافر الحداد
٣٣٣	.	.	.	.	١٢٠ - أبو الوليد النحلي وابن اللبانة وابن عبد البر الشنريبي
٣٣٣	.	.	.	.	١٢١ - أحمد بن الصقر الخزرجي
٣٣٤ - ٣٣٤	.	.	.	.	[ أخبار عن المروانيين ]
٣٣٤	.	.	.	.	١٢٢ - خبير أيوب بن سليمان المرواني
٣٣٤	.	.	.	.	١٢٣ - « بكار المرواني
٣٤٠	.	.	.	.	١٢٤ - « محمد بن أيوب المرواني
٣٤١	.	.	.	.	١٢٥ - « المطرف بن عمر المرواني
٣٤٢	.	.	.	.	١٢٦ - « هشام بن عبد الرحمن المرواني
٣٤٣	.	.	.	.	١٢٧ - شعر لعبد الله بن عبد العزيز الأموي
٣٤٣	.	.	.	.	١٢٨ - « لأبي عبد الله محمد بن محمد بن الناصر الأموي
٣٤٣	.	.	.	.	١٢٩ - بين سعيد بن أضحى ومادحه
٣٤٤	.	.	.	.	١٣٠ - شعر لابن خفاجة

٣٤٥	.	.	.	.	١٣١ - شعر لأبي بكر اليكبي
٣٤٥	.	.	.	.	١٣٢ - « لابن اللبانة »
٣٤٥	.	.	.	.	١٣٣ - « لابن عبد الغفور الإشبيلي »
٣٤٦	.	.	.	.	١٣٤ - بين الحجاري وأبي عبد الله اللوشي
٣٤٧	.	.	.	.	١٣٥ - شعر لصالح بن شريف
٣٤٧	.	.	.	.	١٣٦ - « لأبي محمد ابن برطلة »
٣٤٧	.	.	.	.	١٣٧ - « لابن بقي والأعمى التطيلي في حمام
٣٤٨	.	.	.	.	[ وصف حمام مشرقى ]
٣٥٠	.	.	.	.	[ دار جمال الملك البغدادي ]
٣٥١	.	.	.	.	[ أشعار للمشاركة في حمام ]
٣٥٢	.	.	.	.	رجع إلى كلام أهل الأندلس
٣٥٣	.	.	.	.	١٣٨ - شعر لابن خلف الإليبري
٣٥٣	.	.	.	.	١٣٩ - « لأبي الوليد ابن الجنان الشاطبي
٣٥٢	.	.	.	.	[ حكاية مشرقية عن الورد والياسمين ]
٣٥٥	.	.	.	.	١٤٠ - بين ابن القبطونة وابن صارة
٣٥٥	.	.	.	.	[ بديهة ابن ظافر ]
٣٥٦	.	.	.	.	رجع إلى الأندلسيين
٣٥٦	.	.	.	.	١٤١ - شعر لابن الزقاق
٣٥٦	.	.	.	.	١٤٢ - « لابن خفاجة »
٣٥٦	.	.	.	.	١٤٣ - « لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز
٣٥٧	.	.	.	.	١٤٤ - « ليحيى بن هذيل »
٣٥٨	.	.	.	.	١٤٥ - بين شاعر وحريز بن عكاشة
٣٥٨	.	.	.	.	١٤٦ - أشعار لابن شهيد
٣٦٣	.	.	.	.	١٤٧ - أخبار عبد الملك بن غصن الحجاري
٣٦٤	.	.	.	.	١٤٨ - بين المنصور والرمادي
٣٦٦	.	.	.	.	١٤٩ - ١٥٢ - أخبار عن بني صمادح
٣٧١	.	.	.	.	١٥٣ - شعر لابن زهر أبي العلاء
٣٧١	.	.	.	.	١٥٤ - « لأبي الفضل ابن شرف »
٣٧١	.	.	.	.	١٥٥ - « لابن خفاجة »
٣٧١	.	.	.	.	١٥٦ - « لأبي عبد الله الياسمي »

- ٣٧٢ . . . . . شعر لأبي الحسن ابن الفضل . ١٥٧
- ٣٧٢ . . . . . حكاية عبد الرحمن بن غانم في الوفاء لهاشم بن عبد العزيز ١٥٨
- ٣٧٣ . . . . . « في علو الهمة عن ابن باجة ١٥٩
- ٣٧٤ . . . . . « في الذكاء عن ابن فرناس ١٦٠
- ٣٧٥ . . . . . ذكر المشهورين من الأندلسيين بعلوم الأوائل ١٦١
- ٣٧٧ . . . . . حكاية الهيثم بن أحمد في قوة الحفظ وشيء من شعره ١٦٢
- ٣٧٩ . . . . . « ابن سيده في قوة الحفظ . ١٦٣
- ٣٨٠ . . . . . أمثلة من حب الأندلسيين للعلم . ١٦٤
- ٣٨١ . . . . . من تأليفهم الكبيرة كتاب « السماء والعالم » ١٦٥
- ٣٨١ . . . . . [حكايات في الفكاهة الأندلسية] .
- ٣٨١ . . . . . بين مختار الرعيبي وزهير صاحب المرية ١٦٦
- ٣٨٢ . . . . . خبر ابن الفراء النحوي . ١٦٧
- ٣٨٣ . . . . . فكاهيات الزهري . ١٦٨
- ٣٨٤ . . . . . حكاية عن ابن ورد أبي القاسم . ١٦٩
- ٣٨٤ . . . . . حكاية عن أبي الحسين ابن الطراوة . ١٧٠
- ٣٨٥ . . . . . فكاهة مدغليس الرجال . ١٧١
- ٣٨٦ . . . . . عود إلى ذكر ابن الفراء النحوي . ١٧٢
- ٣٨٦ . . . . . [رسالة ابن الفراء الأب إلى ابن تاشفين] .
- ٣٨٧ . . . . . ابن فراء آخر اسمه الأخفش القبذاتي . ١٧٣
- ٣٨٨ . . . . . بين الطليق المرواني ومحمد بن مسعود البجاني ١٧٤
- ٣٨٩ . . . . . بين أحد أهل المرية وجارية إشبيلية . ١٧٥
- ٣٩٠ . . . . . بين البياسي المؤرخ وأحمد بن رضي . ١٧٦
- ٣٩٠ . . . . . بين العالي الحمودي وابن حسون المالقي . ١٧٧
- ٣٩١ . . . . . أخبار عن الوحيددي قاضي مالقة . ١٧٨
- ٣٩٢ . . . . . دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيددي . ١٧٩
- ٢٩٣ . . . . . قصيدة أبي الفضل ابن شرف الفائية وقطع أخرى ١٨٠
- ٣٩٧ . . . . . شعر لابن أخت غانم . ١٨١
- ٣٩٧ . . . . . بين ابن عبدون وأستاذه ابن ضابط . ١٨٢
- ٣٩٨ . . . . . شعر لغانم المخرومي . ١٨٣
- ٣٩٨ . . . . . بين ابن الغليظ وابن السراج المالقي ١٨٤

- ٣٩٩ . . . . . وفاة ابن كسرين على أبي إسحاق إبراهيم الموحدى
- ٣٩٩ . . . . . شعر لعطاء المالقي
- ٤٠٠ . . . . . أشعار وأخبار للسهيلي صاحب الروض
- ٤٠١ . . . . . أخبار عن أبي الفضل ابن حسداي
- ٤٠٢ . . . . . شعر لأبي الربيع سليمان السرقسطي
- ٤٠٢ . . . . . مكتبة بين ابن خير التطيلي وأبي عبد الصمد السرقسطي
- ٤٠٣ . . . . . حكاية أبي عمرو ابن سالم المالقي والخطيب أبي محمد المالقي
- ٤٠٤ . . . . . بديهة يحيى الجزار
- ٤٠٤ . . . . . شعر للأعمى التطيلي
- ٤٠٤ . . . . . تفوق الأعمى في إحدى موشحاته
- ٤٠٤ . . . . . القاضي عبد الله اللاردي وامرأة تحاكت إليه
- ٤٠٥ . . . . . ابن خفاجة وابن عنق الفضة
- ٤٠٥ . . . . . ابن شنتفير وابن غندشلب في وفاة علي المعتمد
- ٤٠٧ . . . . . قارىء أبله في مجلس ابن رزين
- ٤٠٧ . . . . . أبو بكر ابن سدراي وزير ابن رزين
- ٤٠٨ . . . . . شعر لمروان بن عبد العزيز صاحب بلنسية
- ٤٠٨ . . . . . أشعار لأبي عامر ابن الفرج
- ٤٠٩ . . . . . « لابن حريق
- ٤١١ . . . . . شعر للفيلسوف أبي جعفر الذهبي
- ٤١١ . . . . . أشعار لابن عبادة الوشاح
- ٤١٢ . . . . . بين السميسر والمعتمد بن صمادح
- ٤١٣ . . . . . عمر بن الشهيد والبطرني في مجلس ابن صمادح
- ٤١٤ . . . . . شعر لابن الزقاق
- ٤١٤ . . . . . « لابن صارة
- ٤١٩ . . . . . أشعار لابن الزقاق
- ٤١٥ . . . . . « للحجّام ، غالب بن رباح
- ٤١٩ . . . . . شعر لابن الزقاق
- ٤١٩ . . . . . ابن مسعدة وعبد المؤمن بن علي
- ٤٢٠ . . . . . ٢١٥ - شعر لبني الأزرق
- ٤٢٠ . . . . . شعر لراشد بن عريف

٤٢١	.	.	.	.	٢١٧ - بين ابن عائش والحجاري إبراهيم
٤٢٢	.	.	.	.	٢١٨ ، ٢١٩ - شعر لابن شعيب الحسن وأخيه الحسين
٤٢٢	.	.	.	.	٢٢٠ - شعر لعلي بن رجاء
٤٢٣	.	.	.	.	٢٢١ - « للقاسم بن الفتح
٤٢٣	.	.	.	.	٢٢٢ - « لعبد الملك بن غصن الحجاري
٤٢٤	.	.	.	.	٢٢٣ ، ٢٢٤ - شعر لابن الديواني الزاهد وابنه محمد
٤٢٥	.	.	.	.	٢٢٥ - شعر لإبراهيم الحجاري
٤٢٦	.	.	.	.	٢٢٦ ، ٢٢٧ - شعر للمواعيني وابنه أحمد
٤٢٧	.	.	.	.	٢٢٨ - رسالة من أبي الوليد حبيب إلى أبيه ، وبعض شعره وأخباره
٤٢٩	.	.	.	.	٢٢٩ - شعر لأبي الحسن علي بن حصن
٤٢٩	.	.	.	.	٢٣٠ - « لأبي الوليد ابن طريف
٤٢٩	.	.	.	.	٢٣١ - من نظم المعتمد بن عباد
٤٣٠	.	.	.	.	٢٣٢ - شعر لأبي العباس الخزرجي
٤٣٠	.	.	.	.	٢٣٣ - « لأبي أيوب سليمان بن أمية
٤٣١	.	.	.	.	٢٣٤ - « لعمر بن أبي خالد
٤٣١	.	.	.	.	٢٣٥ - « للمهيريس
٤٣١	.	.	.	.	٢٣٦ - « لابن البناء
٤٣٢	.	.	.	.	٢٣٧ - أخبار محمد بن مروان بن زهر
٤٣٤	.	.	.	.	٢٣٨ - « أبي بكر محمد بن عبد الملك بن زهر
٤٣٥	.	.	.	.	٢٣٩ - شعر لأبي الوليد ابن حزم
٤٣٥	.	.	.	.	٢٤٠ - « لابن عبد ربه
٤٣٥	.	.	.	.	٢٤١ - أشعار لابن مصادق الرندي
٤٣٧	.	.	.	.	٢٤٢ - شعر للمعتمد بن عباد
٤٣٧	.	.	.	.	٢٤٣ - « لابن فرج الجياني
٤٣٧	.	.	.	.	٢٤٤ - « للرصافي البلنسي
٤٣٨	.	.	.	.	٢٤٥ - « لابن عبد ربه
٤٣٨	.	.	.	.	٢٤٦ - « لابن صارة
٤٣٨	.	.	.	.	٢٤٧ - « للغزال
٤٣٨	.	.	.	.	٢٤٨ - « لأبي حيان
٤٣٩	.	.	.	.	٢٤٩ - « لابن شهيد

٤٣٩	.	.	.	.	.	شعر لأبي القاسم ابن بقي	٢٥٠ -
٤٤٠	.	.	.	.	.	« لابن شهيد	٢٥١ -
٤٤٠	.	.	.	.	.	« لبعضهم في لبس الأندلسيين للبياض حداداً	٢٥٢ -
٤٤١	.	.	.	.	.	« لابن خاتمة	٢٥٣ -
٤٤١	.	.	.	.	.	« لابن دراج القسطلي	٢٥٤ -
٤٤١	.	.	.	.	.	« للرمادي	٢٥٥ -
٤٤١	.	.	.	.	.	« لابن صارة	٢٥٦ -
٤٤٢	.	.	.	.	.	« لابن لبال	٢٥٧ -
٤٤٢	.	.	.	.	.	« لأبي المطرف الزهري	٢٥٨ -
٤٤٣	.	.	.	.	.	« لابن شهيد	٢٥٩ -
٤٤٣	.	.	.	.	.	« لابن هانيء	٢٦٠ -
٤٤٤	.	.	.	.	.	« لابن رزين يعاتب ابن عمار	٢٦١ -
٤٤٤	.	.	.	.	.	« لابن الحدّ	٢٦٢ -
٤٤٤	.	.	.	.	.	« لابن عبد ربه	٢٦٣ -
٤٤٥	.	.	.	.	.	« للنحلي في مغنية	٢٦٤ -
٤٤٥	.	.	.	.	.	« لابن شهيد	٢٦٥ -
٤٤٥	.	.	.	.	.	أخبار عن الوزير أبي عمرو ابن أبي محمد	٢٦٦ -
٤٤٦	.	.	.	.	.	بين ابن زرقون وأبي الحسن ابن عياش	٢٦٧ -
٤٤٧	.	.	.	.	.	شعر لابن عبد ربه	٢٦٨ -
٤٤٧	.	.	.	.	.	« لغانم المالقي	٢٦٩ -
٤٤٧	.	.	.	.	.	المتوكل ابن الأفتس وأخوه	٢٧٠ -
٤٤٨	.	.	.	.	.	شعر لأبي القاسم ابن بقي	٢٧١ -
٤٤٨	.	.	.	.	.	« للأبيض في هجاء الفقهاء	٢٧٢ -
٤٤٩	.	.	.	.	.	« لابن صارة	٢٧٣ -
٤٤٩	.	.	.	.	.	« لعبدون البنسي	٢٧٤ -
٤٤٩	.	.	.	.	.	« للوزير ابن الحكيم	٢٧٥ -
٤٤٩	.	.	.	.	.	« لابن برطال	٢٧٦ -
٤٥٠	.	.	.	.	.	« لابن خفاجة	٢٧٧ -
٤٥٠	.	.	.	.	.	٢٧٨ - ٢٨٧ - أشعار لمختلف شعراء بطليوس	
٤٥٥	.	.	.	.	.	[ضوابط حروف الزيادة]	

٤٥٧	.	.	.	.	٢٨٨ - شعر لعبد الله بن الليث
٤٥٧	.	.	.	.	٢٨٩ - « لابن الأبرش
٤٥٨	.	.	.	.	٢٩٠ - « لابن بسام الشنتريني
٤٥٨	.	.	.	.	٢٩١ - « ليوسف بن كوثر
٤٥٨	.	.	.	.	٢٩٢ - « لابن صارة
٤٥٩	.	.	.	.	٢٩٣ - « لابن منذر الأشبوني
٤٥٩	.	.	.	.	٢٩٤ - « لخلف بن هارون القطيني
٤٥٩	.	.	.	.	٢٩٥ - خبر عن ابن السيد البطليوسي
٤٦٠	.	.	.	.	٢٩٦ - رسالة لابن خفاجة
٤٦٠	.	.	.	.	٢٩٧ - شعر للرصافي
٤٦١	.	.	.	.	٢٩٨ - « لابن حبيش
٤٦١	.	.	.	.	٢٩٩ - « لأحد أدباء مرسية
٤٦١	.	.	.	.	٣٠٠ - « لابن جابر الدباج
٤٦١	.	.	.	.	٣٠١ - « للأبيض الإشبيلي
٤٦٢	.	.	.	.	٣٠٢ - « لصفوان بن إدريس
٤٦٢	.	.	.	.	٣٠٣ - « لأبي بكر ابن يوسف
٤٦٢	.	.	.	.	٣٠٤ - « لأبي القاسم القبتوري
٤٦٢	.	.	.	.	٣٠٥ - « لأبي الحسن ابن الحاج
٤٦٣	.	.	.	.	٣٠٦ - « لأحمد بن أمية البلنسي
٤٦٣	.	.	.	.	٣٠٧ - « لأبي محمد ابن برطله
٤٦٣	.	.	.	.	٣٠٨ - « لابن خروف القيسي
٤٦٤	.	.	.	.	٣٠٩ - « لأبي بكر ابن مالك
٤٦٤	.	.	.	.	٣١٠ - « لأبي الحسن ابن حريق
٤٦٤	.	.	.	.	٣١١ - « لابن الزقاق
٤٦٤	.	.	.	.	٣١٢ - « لابن الجزار السرقسطي
٤٦٥	.	.	.	.	٣١٣ - « لأبي عبد الله الجذامي
٤٦٥	.	.	.	.	٣١٤ - « لسلمة بن أحمد
٤٦٥	.	.	.	.	٣١٥ - « لأبي الحسن ابن حزمون
٤٦٦	.	.	.	.	٣١٦ - « لأبي بكر ابن مالك
٤٦٦	.	.	.	.	٣١٧ - « لأبي بكر ابن حبيش



٤٦٦	.	.	.	.	شعر للقاضي ابن السليم	٣١٨ -
٤٦٦	.	.	.	.	« لابن أبي الحصال	٣١٩ -
٤٦٧	.	.	.	.	للرصافي	٣٢٠ -
٤٦٧	.	.	.	.	« لابن باجة	٣٢١ -
٤٦٧	.	.	.	.	« لابن الأبار القضاعي	٣٢٢ -
٤٦٨	.	.	.	.	« لأبي العباس أحمد الإشبيلي	٣٢٣ -
٤٦٨	.	.	.	.	أشعار لابن زهر الحفيد	٣٢٤ -
٤٦٩	.	.	.	.	شعر لابن زهر الأصغر	٣٢٥ -
٤٦٩	.	.	.	.	« لعمر ابن صاحب الصلاة	٣٢٦ -
٤٦٩	.	.	.	.	« لمحمد ابن صاحب الصلاة	٣٢٧ -
٤٧٠	.	.	.	.	أشعار في أبي الحكم عمرو بن مدحج وأشعار له	٣٢٨ -
٤٧٣	.	.	.	.	شعر لابن فنداة ، وهجاء اللص له	٣٢٩ -
٤٧٣	.	.	.	.	« لأبي العباس النجار في ابن فنداة	٣٣٠ -
٤٧٤	.	.	.	.	« لأبي القاسم ابن حسان	٣٣١ -
٤٧٤	.	.	.	.	« لأبي بكر ابن مرتين	٣٣٢ -
٤٧٤	.	.	.	.	« لابن زرقون	٣٣٣ -
٤٧٥	.	.	.	.	« لمحمد بن عمر الإشبيلي الخطيب	٣٣٤ -
٤٧٥	.	.	.	.	« لمحمد بن حسن الزبيدي اللغوي	٣٣٥ -
٤٧٦	.	.	.	.	« لمحمد بن طلحة النحوي	٣٣٦ -
٤٧٧	.	.	.	.	« لابن الأبار الإشبيلي	٣٣٧ -
٤٧٨	.	.	.	.	« لابن العطار الإشبيلي	٣٣٨ -
٤٧٨	.	.	.	.	« لابن الإمام صاحب السمط	٣٣٩ -
٤٧٨	.	.	.	.	ترجمة أبي الحسن الدباج النحوي	٣٤٠ -
٤٧٩	.	.	.	.	شعر لمالك بن وهيب وترجمته	٣٤١ -
٤٨٠	.	.	.	.	أشعار لأبي الصلت	٣٤٢ -
٤٨٤	.	.	.	.	شعر لعبد الرحمن بن شبلاق	٣٤٣ -
٤٨٤	.	.	.	.	« لابن نصر الإشبيلي	٣٤٤ -
٤٨٤	.	.	.	.	« لأحمد بن محمد الإشبيلي	٣٤٥ -
٤٨٥	.	.	.	.	« للأصمغ بن سيد	٣٤٦ -
٤٨٥	.	.	.	.	« لابن خيرة الصباغ	٣٤٧ -

٤٨٥	.	.	.	.	شعر لأبي بكر ابن حجاج	٣٤٨ -
٤٨٦	.	.	.	.	« للرصافي	٣٤٩ -
٤٨٦	.	.	.	.	« لأبي جعفر ابن الجزار	٣٥٠ -
٤٨٧	.	.	.	.	أشعار لابن النبي أبي جعفر	٣٥١ -
٤٨٧	.	.	.	.	شعر لأبي المطرف ابن عميرة	٣٥٢ -
٤٨٨	.	.	.	.	« لأحمد بن طلحة	٣٥٣ -
٤٨٨	.	.	.	.	أشعار لابن خفاجة	٣٥٤ -
٤٨٩	.	.	.	.	ترجمة أبي بكر الأبيض	٣٥٥ -
٤٩٠	.	.	.	.	« الشلوين النحوي	٣٥٦ -
٤٩١	.	.	.	.	شعر لأبي إسحاق الإلييري	٣٥٧ -
٤٩٢	.	.	.	.	« لابن عبادة القزاز	٣٥٨ -
٤٩٢	.	.	.	.	ترجمة أبي الحسن ابن نزار	٣٥٩ -
٤٩٨	.	.	.	.	« أبي الأصمغ عبد العزيز بن الأرقم	٣٦٠ -
٤٩٩	.	.	.	.	شعر لعبد البر ابن فرسان	٣٦١ -
٤٩٩	.	.	.	.	« لحاتم بن سعيد	٣٦٢ -
٥٠٠	.	.	.	.	« للأعمى التطيلي	٣٦٣ -
٥٠٠	.	.	.	.	[ من بدائه ابن ظافر ]	
٥٠٢	.	.	.	.	شعر لابن شعبة الوادي آشي	٣٦٤ -
٥٠٢	.	.	.	.	أشعار لابن الحداد الوادي آشي	٣٦٥ -
٥٠٥	.	.	.	.	٣٦٦ ، ٣٦٧ - خبر عن الوزير أبي بلال (أو ابن البراق) وشعره	
٥٠٦	.	.	.	.	شعر لابن عنبرة	٣٦٨ -
٥٠٧	.	.	.	.	« لابن مهلهل الجلياني	٣٦٩ -
٥٠٧	.	.	.	.	« لابن مطروح	٣٧٠ -
٥٠٨	.	.	.	.	« لمحمد بن نصر الأوسي	٣٧١ -
٥٠٨	.	.	.	.	٣٧٢ ، ٣٧٣ - أشعار لمحمد بن علي اللوشي وابنه عبد المولى	
٥١٢	.	.	.	.	شعر لحاتم بن سعيد	٣٧٤ -
٥١٢	.	.	.	.	شعر لمالك بن سعيد	٣٧٥ -
٥١٣	.	.	.	.	٣٧٦ - بين الرصافي والكتندي وأبي جعفر ابن سعيد	
٥١٨	.	.	.	.	٣٧٧ - ترجمة ابن الصابوني	
٥١٩	.	.	.	.	٣٧٨ - بديهة ابن أبي الخصال	

٥٢٠	٣٧٩ - بين أبي بكر المنخل وابنه
٥٢١	٣٨٠ - ابن المرعزي الإشبيلي والمعتمد
	٣٨١ - شعراء اليهود (نسيم ، وابن سهل ، وابن الفخار ، وابن المدور ، وابن شمعون ، وقسمونة)
٥٢٢	٣٨٢ - ترجمة ابن رشيق القلعي
٥٣٠	٣٨٣ - خبر عن لب بن عبد الوارث القلعي
٥٣٢	٣٨٤ - أشعار بلخاير بن خلف القلعي
٥٣٣	٣٨٥ - أخبار أبي يحيى ابن الرميمي
٥٣٤	٣٨٦ - شعر لأبي بحر ابن عبد الصمد
٥٣٥	٣٨٧ - « في بني عبد الصمد
٥٣٥	٣٨٨ - ترجمة أحمد بن عباس وزير زهير الصقلبي
٥٣٦	٣٨٩ - شعر للأعمى التطلي (لعله للأعمى المخزومي)
٥٣٧	٣٩٠ - « لابن الخيال الاستبي
٥٣٧	٣٩١ - « لعبد الملك بن سعيد الخازن
٥٣٧	٣٩٢ - هلال الغرناطي ومحمد بن الاستجي عند ابن حمدين
٥٣٨	٣٩٣ - شعر لمقدم بن معافي
٥٣٨	٣٩٤ - « لعبد الملك بن نظيف
٥٣٨	٣٩٥ - هلال الغرناطي يمدح ابن حمدين
٥٣٩	٣٩٦ - الأمير عبد الرحمن والزجال
٥٤١	٣٩٧ - ترجمة مقولة من المطمح
٥٥٧	٣٩٨ - شخصية ابن أبي حلى
٥٥٨	٣٩٩ - جواب المرواني لضرار العبيدي
٥٥٨	٤٠٠ - ترجمة حرز بن عكاشة
٥٦١	٤٠١ - من أخبار المقتدر بن هود وشعره
٥٦٣	٤٠٢ - شعر لعبد البر ابن فرسان
٥٦٣	٤٠٣ - شجاعة ابن مردنيش
٥٦٤	٤٠٤ - ظرف القاضي محمد بن عيسى
٥٦٤	٤٠٥ - أندلسي يقابل المتنبي
٥٦٥	٤٠٦ - شعر لابن عبد ربه
٥٦٥	٤٠٧ - حكاية عن بلاغة ابن زيدون

- ٥٦٦ . . . . . ٤٠٨ - شعر لسليمان بن علي الشلبي .
- ٥٦٧ . . . . . ٤٠٩ - « لابن مهران . . . . . »
- ٥٦٧ . . . . . ٤١٠ - « لابن السيد البطلوسي . . . . . »
- ٥٦٧ . . . . . ٤١١ - « لابن صارة . . . . . »
- ٥٦٧ . . . . . ٤١٢ - « لعبد الملك بن رزين . . . . . »
- ٥٦٨ . . . . . ٤١٣ - « لابن عبدربه . . . . . »
- ٥٦٨ . . . . . ٤١٤ - انتحار أيوب بن مطروح . . . . .
- ٥٦٨ . . . . . ٤١٥ - رسالة من مالك بن سعيد عن الميورقي الناثر . . . . .
- ٥٦٩ . . . . . ٤١٦ - أبو العرب الصقلي عند المعتمد . . . . .
- ٥٧٠ . . . . . ٤١٧ - عبد الله بن إبراهيم الحجاري يتحدث عن أجواد عصره . . . . .
- ٥٧٣ . . . . . ٤١٨ - بين ابن أزرق وابن عبد العزيز . . . . .
- ٥٧٣ . . . . . ٤١٩ - ذكر جملة من بني مروان وأشعارهم . . . . .
- ٥٩٥ . . . . . ٤٢٠ - أبو الحجاج المنصفي وابن مرج كحل . . . . .
- ٥٩٥ . . . . . ٤٢١ - غانم في مجلس باديس . . . . .
- ٥٩٦ . . . . . ٤٢٢ - شعر لأبي جعفر اللماني . . . . .
- ٥٩٦ . . . . . ٤٢٣ - « لابن القبطرنة . . . . . »
- ٥٩٦ . . . . . ٤٢٤ - « لأبي عامر ابن يتيق . . . . . »
- ٥٩٦ . . . . . ٤٢٥ - « لأبي الحسن اللورقي . . . . . »
- ٥٩٧ . . . . . ٤٢٦ - « لأبي عيسى ابن لبون . . . . . »
- ٥٩٧ . . . . . ٤٢٧ - « لأبي عامر ابن الحمامة . . . . . »
- ٥٩٧ . . . . . ٤٢٨ - « لأبي العباس ابن السعود . . . . . »
- ٥٩٧ . . . . . ٤٢٩ - « لأبي الحكم ابن غلنده . . . . . »
- ٥٩٨ . . . . . ٤٣٠ - « للقاضي أبي موسى ابن عمران . . . . . »
- ٥٩٨ . . . . . ٤٣١ - « لابن الجزائر السرقسطي . . . . . »
- ٥٩٨ . . . . . ٤٣٢ - الزهيري وصاعد وابن شهيد . . . . .
- ٥٩٩ . . . . . ٤٣٣ - شعر لابن حزم الفقيه . . . . .
- ٦٠٠ . . . . . ٤٣٤ - « لابن صارة . . . . . »
- ٦٠٠ . . . . . ٤٣٥ - « لابن العطار الإشبيلي . . . . . »
- ٦٠٠ . . . . . ٤٣٦ - « لابن صارة . . . . . »
- ٦٠٠ . . . . . ٤٣٧ - « لسهل بن مالك . . . . . »

- ٦٠١ . . . . . شعر لابن صارة - ٤٣٨
- ٦٠١ . . . . . « لبعضهم في شكل يرمي الماء » - ٤٣٩
- ٦٠١ . . . . . « لصفوان بن إدريس » - ٤٤٠
- ٦٠١ . . . . . « لابن وضاح » - ٤٤١
- ٦٠٢ . . . . . « لابن عمار » - ٤٤٢
- ٦٠٢ . . . . . « لابن سعد الخير البلنسي » - ٤٤٣
- ٦٠٢ . . . . . « لابن أبي الخصال » - ٤٤٤
- ٦٠٢ . . . . . « لابن صارة » - ٤٤٥
- ٦٠٢ . . . . . « لابن خفاجة » - ٤٤٦
- ٦٠٣ . . . . . « لابن صارة » - ٤٤٧
- ٦٠٣ . . . . . « لابن وضاح » - ٤٤٨
- ٦٠٣ . . . . . « لأبي إسحاق الخولاني » - ٤٤٩
- ٦٠٣ . . . . . « لابن الأبار القضاعي » - ٤٥٠
- ٦٠٤ . . . . . « لحازم القرطاجني » - ٤٥١
- ٦٠٤ . . . . . « لابن سعد الخير البلنسي » - ٤٥٢
- ٦٠٤ . . . . . « لابن نزار الوادي آشي » - ٤٥٣
- ٦٠٤ . . . . . « لبعضهم في القراسية » - ٤٥٤
- ٦٠٥ . . . . . « لبعضهم » - ٤٥٥
- ٦٠٥ . . . . . « لمحمد بن عبد الرحمن بن هانيء » - ٤٥٦
- ٦٠٥ . . . . . « كتاب شذور الذهب . » - ٤٥٧
- ٦٠٦ . . . . . [ عود إلى النقل عن بدائع البدائنه ]
- ٦٠٦ . . . . . بين ابن حمديس والحجام والمعتمد - ٤٥٨
- ٦٠٧ . . . . . ابن جاج والمعتمد . - ٤٥٩
- ٦٠٩ . . . . . ابن جاج ويحيى القصاب السرقسطي - ٤٦٠
- ٦٠٩ . . . . . المتوكل وابن عبدون . - ٤٦١
- ٦١٠ . . . . . بين ابن الغليظ وابن السراج المالقي - ٤٦٢
- ٦١٠ . . . . . بين ابن عبادة وابن القابلة السبتي - ٤٦٣
- ٦١٠ . . . . . ابن شهيد والوزير أحمد بن عباس - ٤٦٤
- ٦١٢ . . . . . بين المعتمد وابنه الرشيد - ٤٦٥
- ٦١٢ . . . . . بين أبي الحسن ابن عشرة وابن سوار الأشبوني - ٤٦٦

٦١٣	.	.	.	٤٦٧ - الأمير عبد الرحمن وابن الشعر والزجالي .
٦١٤	.	.	.	٤٦٨ - بين المعتمد وابن مرزقان .
٦١٤	.	.	.	٤٦٩ - ابن الصيرفي وابن السمط .
٦١٤	.	.	.	٤٧٠ - ابن غانم المالقي يميز بيتاً لابن المعتز .
٦١٥	.	.	.	٤٧١ - زرياب يعني بين يدي عبد الرحمن .
٦١٥	.	.	.	٤٧٢ - غناء بشعر ابن المعتز في مجلس المعتمد .
٦١٦	.	.	.	٤٧٣ - بين المعتمد وابن عمار .
٦١٦	.	.	.	٤٧٤ - بين ابن حمديس والمعتمد .
٦١٧	.	.	.	٤٧٥ - بين الناصر وابن لب وابن جهور .



Abu 'l- 'Abbās A. al- Maqqarī

# NAFH AT-TĪB

III

Edited and Annotated

by

Ihsān 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 10

BEIRUT, Lebanon



# نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ

غَضَنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِيبِ

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد القرني التلياني

ترجمته

الدكتور اجسان عباس

المجلد الرابع

دار صادر  
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ ۱۹۶۸ م

نفع الطيب

٤



## الباب السابع

(تتمة)

٤٧٦ - وقال ابن ظافر<sup>١</sup> : أخبرني مَنْ أثق به قال : اجتمع الوزير أبو بكر ابن القَبْطُرْنَة والأستاذ أبو العباس ابن صارة في يوم جلا ذهب برقه ، وأذاب ورق ودَقَه ، والأرض قد ضحكت لتعيس السماء ، واهترت وربَّتْ عند نزول الماء ، فترافدا في صفتها ، فقال ابن صارة :

هندي البسيطة كاعب أبرادها حُلِّلُ الربيعِ وحلَّيها النوارُ

فقال ابن القبطرنة :

وكانَ هذا الجوّ فيها عاشقٌ قد شَفَّهَ التعذيبُ والإضرارُ

فقال ابن صارة :

فإذا شكّا فالبرقُ قلبٌ خافقٌ وإذا بكى فدموعُه الأمطارُ

فقال ابن القبطرنة :

فمنَ آجلِ عزةٍ ذا وذلةٍ هذه تبكي الغمامُ وتضحكُ الأزهارُ

١ البدائع ١ : ١٨٦ وهذا مكرر ، انظر ج ٣ : ٣٥٥ .

٤٧٧ - وقال أبو بكر محمد بن [الحسن] الزبيدي النحوي<sup>١</sup> صاحب الشرطة  
يخاطب الوزير أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي لما كتب كتاباً له فيه « فاضت  
نفسه » بالضاد - مبيناً له الخطأ دون تصريح :

قل للوزير السني محتده	لي ذمة منك أنت حافظها
عناية بالعلوم معجزة	قد بهظ الأولين باهظها
يقر لي عمرها ومعمرها	فيها ونظامها وجاحظها
قد كان حقاً قبول حرمتها	لكن صرف الزمان لافظها
وفي خطوب الزمان لي عظة	لو كان يثي النفوس واعظها
إن لم تحافظ عصابة نسبت	إليك قدماً فمن يحافظها
لا تدعن حاجتي بمطرحة	فإن نفسي قد فاظ فائظها

فأجابه المصحفي :

خفص فواقاً فأنت أوحدها	علماً ونقأها وحافظها
كيف تضيع العلوم في بلد	أبناؤها كلهم يحافظها
ألفاظهم كلها معطلة	ما لم يعول عليك لافظها
من ذا يساويك إن نطقت وقد	أقر بالعجز عنك جاحظها
علم ثني العالمين عنك كما	ثني عن الشمس من يلاحظها
وقد أتتني فديت شاغلة	للنفس أن قلت فاظ فائظها
فأوضحننا تقز بنادرة	قد بهظ الأولين باهظها

فأجابه الزبيدي ، وضمن شعره الشاهد على ذلك :

أتاني كتاب من كريم مكرم  
فنفس عن نفس تكاد تفيظ

١ الجردة : ٤٣ - ٤٥ .

فسرّ جميع الأولياء وروده  
لقد حفظ العهد الذي قد أضاعه  
وباحثت عن فاضلت وقبلي قالها  
روى ذلك عن كيسان سهل وأنشدوا  
«وسميت غياظاً ولست بغياظ  
«فلا رحيم الرحمن روحك حيّة  
وسيء رجال آخرون وغيظوا  
لديّ سواه والكريم حفيظ  
رجال لديهم في العلوم حظوظ  
مقال أبي الغياظ وهو مغيظ  
عدواً ولكن للصديق تغيظ  
ولا هي في الأرواح حين تغيظ»

قلت : وفي خطاب الوزير بهذا البيت وإن حكى عن قائله ما لا ينبغي أن  
اجتنابه المطلوب ، على أنه قد يقال «فاضت نفسه» بالضاد ، كما ذكره ابن  
السكيت في خلل «الألفاظ» له ، والله أعلم .

وكتب الزبيدي المذكور إلى أبي مسلم ابن فهدي :

أبا مسلم إنّ الفتى يجنانه  
وليس ثيابُ المرء تغي قلامه  
وليس يفيدُ العلم والحلم والحجى  
أبا مسلم طولُ القعود على الكرسي  
ومقوله ، لا بالمراب واللبس  
إذا كان مقصوراً على قصر النفس

وقال ، وقد استأذن الحكم المستنصر في الرجوع إلى أهله بإشيلية ولم يأذن  
له ، فكتب إلى جاريته سلمى ٢ :

ويحك يا سلم لا تُراعي  
لا تحسبني صبرتُ إلا  
ما خلقت الله من عذاب  
ما بينها والحمام فرق  
لا بدءاً للبين من زماع  
كصبر مبيت على النزاع  
أشدّ من وقفة الوداع  
لولا المناحات والنواعي

١ الجذوة : ٤٣ .

٢ المصدر نفسه .

إن يفترق شملنا وشيكاً من بعد ما كان ذا اجتماع  
فكل شمل إلى افتراق وكل شعب إلى انصداع  
وكل قرب إلى بعد وكل وصل إلى انقطاع

٤٧٨ - واجتمع جماعة من الأدباء فيهم أبو الحسن سهل بن مالك والمهر  
ابن الفرس وغيرهما بمدينة سبتة سنة ٥٨١ ، فتذاكروا محبوباً لهم يسكن الجزيرة  
الخضراء أمامهم ، فقالوا : ليقل كل واحد منكم شيئاً فيه ، فقال سهل بن  
مالك :

لما حطت<sup>٢</sup> بسبتة قتب النوى والقلب يرجو أن يحول حاله  
والجو مصقول الأديم كأتما يُبدي الخفي من الأمور صقاله  
عابت من بلد الجزيرة مكنساً والبحر يمنع أن يُصاد غزاله  
كالشكل في المرأة تبصره وقد قربت مسافته وعز ماله

فقال الجماعة : والله لا يقول أحد منا بعد هذا شيئاً .

٤٧٩ - ولما قرأ أبو محمد عبد الله بن مطروح البلسنسي صداق إمالك ،  
وغير فيه حال القراءة لفظة « غير » برفع ما كان منصوباً أو بالعكس ، أنشد بديهاً  
بعد الفراغ معتذراً عن لحنه :

غيرت غيراً فصرتُ عيرا وهكذا من يجد سيرا

فأجابه الحافظ أبو الربيع ابن سالم الكلاعي ، وكان إلى جانبه ، بديهة :

ما أنت ممن يُظن فيه بذاك جهل فظن خيرا

١ اختصار القدح : ٦٢ .

٢ القدح : أنخت .



٤٨٠ - ووقف أبو أمية ابن حمّدون بباب الأستاذ الشلوين ، فكتب في ورقة « أبو أمية بالباب » ودفع الورقة لخدام الأستاذ ، فلما نظر إليها الأستاذ نون تاء أمية ، ولم يزد على ذلك ، وأمر الخادم بدفع الورقة إليه ، فلما نظر فيها أبو أمية انصرف ، علماً منه أن الأستاذ صرفه ، فانظر إلى فِطْنَةِ الشيخ والتلميذ ، مع أن الشيخ منسوب إلى التغفل في غير العلم .

٤٨١ - ومن حكايات أهل الأندلس في العفو أن المعتصم بن صُمّاح كان قد أحسن للنحلي البَطَلِيَّوسِي ، ثمّ إن النحلي سار إلى إشبيلية ، فمدح المعتضد ابن عباد بشعر قال فيه :

أباد ابنُ عبّادِ البريرا وأفنى ابنُ معنٍ دجاجِ القرى

ونسى ما قاله ، حتى حلّ بالمرية ، فأحضره ابن صُمّاح لمناذمته ، وأحضر للعشاء موائد ليس فيها غير دجاج ، فقال النحلي : يا مولاي ، ما عندكم في المرية لحم غير الدجاج ؟ فقال : إنما أردتُ أن أكذبك في قولك :

وأفنى ابنُ معنٍ دجاجِ القرى

فطار سكر النحلي ، وجعل يعتذر ، فقال له : خَفِّضْ عليك ، إنما ينفق مثلك بمثل هذا ، وإنما العتب على من سمعه فاحتمله منك في حقّ مَنْ هو في نصابه . ثمّ أحسن إليه وخاف النحلي ، ففر من المرية ، ثمّ ندم فكتب إلى المعتصم :

رضى ابن صُمّاحَ فارقتُهُ فلم يُرضني بعده العالمُ  
وكانت مَرِيَّتُهُ جَنَّةً فجئتُ بما جاءه آدمُ

فما زال يتفقده بالإحسان على بُعد دياره ، وخروجه عن اختياره ، انتهى .

٤٨٢ - وقال في بلنسية أبو عبد الله الرصافي ، وقد خرج منها صغيراً :

بلادي التي ريشت قويدمتي بها فربحاً وآوتني قرارها وكرا  
مهادي ولين العيش في ريت الصبا أباي الله أن أنسى اعتيادي بها خيرا

٤٨٣ - وقال أبو بكر محمد بن يحيى الشلطي<sup>١</sup> :

وفاة المرء سر لم يكشف ولم تثبت حقيقته دراية  
سيفي كل ذي شبح ونفس وتلتحق النهاية بالبداية  
وينصدع الجميع إلى صدوع تعود به البرية كالبراية  
كان مصائب الدنيا سهام لها الأيام أغراض الرمايه  
فنل ماشت إن الفقر حد وعش ماشت إن الموت غايه

٤٨٤ - وقال أبو بكر محمد بن العطار الياسي ، وهو من رجال الذخيرة :

أمطيت عزمك منه متن ساجحة خلت الحباب على لباتها ليا  
تبدو على الموج أحيانا ويضميرها كالعيس تعتسف الأهضام والكثبا

٤٨٥ - وقال محمد بن الحسن الجبلي النحوي<sup>٢</sup> :

وما الأئس بالناس الذين عهدتهم بأئس ولكن فقد رؤيتهم أنس  
إذا سلمت نفسي وديني منهم فحسي أن العريض مني لهم ترس

٤٨٦ - وقال محمد بن حرب<sup>٣</sup> :

طوبى لروضة جنة لك قد نويت ورودها  
نظمت على لباتها أيدي الغمام عقودها

١ يعرف بابن القابلة ، انظر المغرب ١ : ٣٥٢ والمسالك ١١ : ٢٢٧ .

٢ الجذوة : ٤٧ .

٣ هو محمد بن مروان بن حرب (الجزء : ٨٥ ومقطوعته وردت فيها) .

وسقت بماء الوردِ والـ مسكِ الفتيتِ صعيدَها  
والطيرُ تشدو في الغصو ن المائداتِ قصيدَها  
وتعيرُ سمعَ المستعيرِ رِ نظيمها ونشيدَها

٤٨٧ - وكان في دار محمد بن اليسع شاعر الدولة العامرية وردة<sup>١</sup> ، وكان يهدي وردها كلَّ عام إلى عارض الجيش أحمد بن سعيد<sup>٢</sup> ، فغاب العارض سنة فقال :

قال لي الوردُ وقد لا حَظُّتُهُ في روضَتَيْهِ  
وهو قد أبْنَعَ طيباً جَمَعَ الحسَنَ لديه  
أين مولاي الذي قد كنتَ تهديني إليه  
قلتُ غابَ العامَ فأيأسُ أن تُرى بينَ يَدَيْهِ  
فبدا يذبلُ حتى ظَهَرَ الحُزْنُ عليه

٤٨٨ - وقال أحمد بن أفلح<sup>٣</sup> :

ما أستريحُ إلى حالٍ فأحمدَها باليينِ قلبي وقبلَ البينِ قد ذهبها  
إن كان لي أربُّ في العيشِ بعدكمُ فلا قَصِيتُ إذنَ من حبكمُ أربا

٤٨٩ - وقال أحمد بن تليد الكاتب<sup>٤</sup> :

لم أرضَ بالذلِّ وإنْ قَلَا والحرُّ لا يحتملُ الذلَّ  
ياربُّ خيلٍ كان لي خاملٍ صار إلى العزَّةِ فاحولاً  
حرَّمتُ للمامي على بابهِ ووَصَلُهُ لم أَرَهُ حِلًّا

١ ترجمته ومقطوعته في الجذوة : ٩٠ - ٩١ .

٢ الجذوة : سعد .

٣ ترجمته وشعره في الجذوة : ١١٠ ؛ زاد في م : وهو من الشعراء المجيدين .

٤ الجذوة : ١١١ .

تأبى عليّ النفسُ من أن أرى يوماً على مستثقلٍ كلاً

٤٩٠ - وقال إسحاق بن المنادي ، وقد أهدى له مَنْ يهواه تفاعحة<sup>١</sup> :

جمالُ العينِ في وردِ الحدودِ يُذكرُ طيبَ جنّاتِ الخلودِ  
وآرجةٌ من التفاحِ تزهو بطيبِ النشْرِ والحسنِ الفريدِ  
أقول لها فَضَحَتْ المسكَ طيباً فقالتُ لي بطيبِ أبي الوليدِ

٤٩١ - وقال غالب بن عبد الله الثَّغْرِي<sup>٢</sup> :

يا راحلاً عن سوادِ المقتلينِ إلى سوادِ قلبٍ عن الأضلاعِ قد رحلا  
غدا كجسمٍ وأنتَ الروحُ فيه فما ينفكُ مرتحلاً ما دمتُ<sup>٣</sup> مرتحلاً  
وللفراقِ جَوَّيْ لو مرَّ أبردُهُ من بعدِ فرقتمْ بالماءِ<sup>٤</sup> لاشتعلاه

٤٩٢ - وقال الوزير أبو الحسن ابن الإمام الغرناطي يهجو مراکش

المحروسة<sup>٥</sup> :

يا حضرةَ الملكِ ما أشهاك لي وطناً لولا ضروبُ بلائِ فيكِ مَصِبوبِ  
ماءِ زُعاقٍ وجوُّ كَلِّهِ كَدَرٌ وأكلةٌ من بذنجانِ ابنِ معيوبِ

وابن معيوب هذا كان من خدام أبي العلاء ابن زُهْر ، يزعم الناس أنه سمَّ

١ الجذوة : ١٥٨ - ١٥٩ .

٢ الجذوة : ٣٠٦ .

٣ الجذوة : إذ ظلت ؛ م ب : ما دام .

٤ الجذوة : بجامد الماء مر البرق .

٥ زاد في م بعد هذه الأبيات : وقال المذكور من قصيدة وهو بديع :

وما شجاني أنني كنت نائماً أعلل من فرط الكرى بالتنم

(في أربعة أبيات . . .)

٦ هو أبو الحسن علي بن الإمام الغرناطي كاتب تميم بن يوسف بن تاشفين (المغرب ٢ : ١١٦) .

ابن باجة لعداوته لابن زهر في باذنجان .

٤٩٣ - ولما بنى الفقيه أبو العباس ابن القاسم<sup>١</sup> قصره بسلا وشيّدته وصفّته الشعراء ، وهنّته به ، ودعت له ، وكان بالحضرة حينئذٍ الوزير أبو عامر ابن الحمارة ، ولم يكن أعدّ شيئاً ، فأفكر قليلاً ثم قال :

يا واحدَ الناسِ قد شيّدتَ واحدةً      فحلّ فيها محلّ الشمسِ في الحملِ  
فَمَا كَدَارِكَ فِي الدُّنْيَا لذي أَمَلٍ      ولا كَدَارِكَ فِي الأخرى لذي عملِ  
وفيهم<sup>٢</sup> يقول ابن بقيّ في موشحته الشهيرة التي آخرها<sup>٣</sup> :

إن جئتَ أرضَ سَلا      تلقاكَ بالمكارمِ      فتیان<sup>٤</sup>  
همُ سطورُ العُـسلا      ويوسفُ بن القاسمِ      عنوان

٤٩٤ - وكان محمد بن عبادة بالمرية ، ومعه ابن القابلة السبتي ، فنظر إلى غلام وسيم يسبح ، وقد تعلق بمركب ، فقال ابن عبادة<sup>٥</sup> :

انظر إلى البدرِ الذي لاح لك<sup>٥</sup>

فقال ابن القابلة :

في وَسَطِ اللجّةِ تحتِ الحلكِ<sup>٥</sup>

قد جعل الماء مكان السما      واتخذ الفلّك مكان الفلّك<sup>٥</sup>

١ أبو العباس ابن القاسم من بني عشرة أعيان سلا وقد مدحهم كثيرون من شعراء الأندلس والمغرب ومن مدحهم الأعمى التطيلي وابن بقي .

٢ يريد بني عشرة .

٣ انظر هذه الموشحة في ديوان التطيلي : ٢٧٢ .

٤ م : فيدان .

٥ انظر ما تقدم ج ٣ : ٦١٠ .

٤٩٥ - وقال ابن خروف ، ويروى لغيره <sup>١</sup> :

أبتها النفسُ إليه اذهبي      فحبهُ المشهورُ من مذهبي  
مفصَّضُ الثغرِ له شامةٌ      مسكيةٌ في خدّه المذهبِ  
أياسني التوبةَ من حُبّه      طلوعهُ شمساً من المغربِ

٤٩٦ - واجتمع في بستان واحد ثلاثة من شعراء الأندلس ، وهم : ابن خفاجة ، وابن عائشة ، وابن الزقاق ، فقال ابن خفاجة يصف الحال هنالك <sup>٢</sup> :

لله نوريّةُ المحيّا      تحملُ ناريّةَ الحميّا  
دُرنا بها تحتَ ظلِّ دَوْحٍ      قد راق مرأى وطابَ ريباً  
تجسّمَ النورُ فيه نوراً      فكلُّ غصنٍ به ثريباً

وقال ابن عائشة <sup>٣</sup> :

ودوحةٌ قد علتُ سماءَ      تطلعُ أزهارها نجوماً  
هفا نسيمُ الصبّا علينا      فخلتها أرسلتُ رجوماً  
كأما الأفقُ غار لما      بدتْ فأغرى بها النسيما

وقال ابن الزقاق <sup>٤</sup> :

ورياضٍ من الشقائقِ أضحّتْ      يتهدى بها نسيمُ الرياحِ  
زرتها والغمامُ يجلدُ منها      زهراتٍ تفوقُ لونَ الراحِ

١ نسبها ابن سعيد (في القسم الخاص بصقلية) لأبي القاسم ابن طلحة الصقلي وكان في دولة منصور

بني عبد المؤمن .

٢ ديوان ابن خفاجة : ٧٢ .

٣ المغرب : ٢ : ٣١٤ .

٤ ديوانه : ١٢٥ وقد مرت الأبيات ج ٣ : ٢٠٠ ، ٣٥٦ .

قلتُ ما ذنبها فقال مجيباً سرقتُ حمرةَ الحدودِ الملاحِ

٤٩٧ - وقال الأديب أبو الحسن ابن زنون : وقع بيدي وأنا أسير بقيجاجة<sup>١</sup>  
- أعادها الله تعالى دار إسلام - كتابُ ترجمته «كتاب التحف والطرف» لابن  
عفيون فوجدت فيه : قال الحسين بن الضحاك<sup>٢</sup> :

ما كان أحوجني يوماً إلى رجلٍ في وسطه ألفُ دينارٍ على فرسٍ  
في كفه حربةٌ يقري الدروعَ بها وصارمٌ مرهفٌ الحدين كالقبسِ  
فلو رجعتُ ولم أظفرُ بمهجتهِ وقد خضبتُ ذبابَ الصارمِ الشكسِ  
فلا اغتبطتُ بعيشٍ وابتليتُ بما يحولُ بيني وبين الشادنِ الأنسِ

ووقف على هذه القطعة أبو نواس فقال :

ما كان أحوجني يوماً إلى خنثٍ حلوا الشمائل في باقٍ من الغلَسِ  
في كفه قهوةٌ يسبي<sup>٣</sup> النفوسَ بها محكمٌ الطرفِ للألبابِ مختلسِ  
فلو رجعتُ ولم أظفرُ بتكتهِ وقد رويتُ من الصهباءِ كالقبسِ  
فلا هنيئُ بعيشٍ وابتليتُ بما يكونُ منه صدودُ الشادنِ الأنسِ  
هذا ألدُّ وأشهى من منى رجلٍ في وسطه ألفُ دينارٍ على فرسِ

ووقف على ذلك الوزير أبو عامر ابن يتق فقال :

ما كان أحوجني يوماً إلى رجلٍ يرددُ الذكرَ في باقٍ من الغلسِ  
في حلقه غنَّةٌ يشفي النفوسَ بها وفي الحشا زفرةٌ مشبوبةُ القبسِ  
فلو رجعتُ ولم أوتر تلاته ولم أوتر تلاته على سماعِ غناءِ الشادنِ الأنسِ

١ تعد قيجاجة من أعمال جيان ، وكانت مدينة نزهة في نهاية من الحصب .

٢ لم ترد في ديوانه ، جمع الأستاذ عبد الستار فراج .

٣ ق : يشي .

فلا حمدت إذن نفسي ولا اعتمدتُ  
بي النجائبُ قصد البيت والقدسِ  
ولا أسلتُ بقبرِ المصطفى مُقللاً  
تبكي عليه بهامي الدمعِ منبجسِ

فوقفت على ذلك - يقول ابن زنون - فقلت : وكلُّ ينفق ممّا عنده ، ومن  
عجائب الله أنه عند فراغي من كتّيب هذه القطعة وصل الفكاك إليّ ، وحل قيودي  
وأخرجني إلى بلاد المسلمين ، وهي :

ما كان أحوجني يوماً إلى رجلٍ  
يفكُّ قيدي وغلّي غير مرتقبٍ  
وقوله لي تأنيساً وتسليةً  
فلو جبنتُ ولم أقبلْ مقاتلتهُ  
إذن خلعتُ لباسَ المجدِ من عنقي  
وأخلفتني أمانيّ التي طمّحتُ  
يأتي فينبهني في فحمةِ الغلسِ  
ولا مبالٍ<sup>٢</sup> من الحجابِ والحرسِ  
هذا سلاحيّ فالبسهُ وذا فرسي  
وأمتطي الطرفَ وثباً فعل مفترسِ  
وصار حظيّ منه حظّاً مختلسِ  
نفسيّ إليها وإحساني لكلِّ مُسي

٤٩٨ - وقال أبو بكر ابن حبيش ، وقد زاره بعضُ أودائه في يوم عيد فطر :

أكلُّ ذاك الإجمالِ في ذا الجمالِ  
يا مالكا بالبرِّ رقيّ أما  
سرتَ إلى ربّعي زوراً كما  
العيدُ لي وحدي بين الوري  
صوميّ مقبولٌ وبرهانهُ  
الله أستحفظُ ذاك الكمالِ  
يكفيك أن تملكني بالوصالِ  
سرى إلى المهجور طيفُ الخيالِ  
حقاً لأني قد رأيتُ الهلالِ  
أني أدخلتُ جنانَ الوصالِ

٤٩٩ - وقال أبو بكر ابن يوسف اللخمي ، وقد عادته في شكايه فتى وسيم

من الأعيان كان والده خطيب البلد :

١ ق ب : في القدس ؛ وأثبتنا رواية م .  
٢ ب : ولا يبالي ؛ والبيت متأخر عن تاليه في م .



يا عائدي وهو أصل ما بي أفديك من ممرض طيب  
أصميت لما رميت قلبي بسهم الحاذك المصيب  
وجتني منكرًا لسقمي وتلك من عادة الحبيب  
يا ساعة قد غفرتُ فيها ما كان للدهر من ذنوب  
ما كان في فضلها مقال لو لم تكن جلسة الخطيب

٥٠٠ - وخاطب أبو زيد ابن أبي العافية أبا عبد الله ابن العطار القرطبي  
بقصيدة منها هذا البيت :

وكيف يُفنيقُ ذو صبرٍ قصيرٍ حليفٌ وساوسٍ حُولِ طوالِ  
يعرّض له بطوله وحوله ، ولصاحبه أبي محمد ابن بلال بقصره ، فراجعه أبو  
عبد الله المذكور بهذه الأبيات يعرّض له فيها بجرّبه ، وكان أبو زيد أصابه جرّبٌ  
كثير :

أجلُ يا نافثَ السحرِ الحلالِ أتاني منك نظمٌ كاللآلي  
يروقك أولاً لفظاً ومعنى ويلدغُ آخراً لدغِ الصّلالِ  
تعرّضُ فيه أنك ذو مطالِ حليفٌ وساوسٍ حُولِ طوالِ  
كأنك لم تجرّبُ قطُّ خلقاً ولم تعرف بتجربة الليالي  
أنسيتَ التجاربَ إذ تجاري بهنّ الجربياء مع الشمالِ  
فلا تغفل عن التجريب يوماً ولو أعطيت فيه جراب مالِ  
وجرّب جارَ بيتك واختبره وجرّ برجله إن كان قالي  
وجارُ بنيك لا تستحي منه ومن نجار بابك لا تبالِ  
وأجرِ بيالك الجرباء تبصرُ نجوم الأفق تجري بانتقالِ  
وجرّب أهلَ جربة تُلّف قوماً أبوا لبس الجوارب والتعالِ  
تجاراً باعةً تجروا بزيتٍ تسموا بالتجارِ بغير مالِ

إذا سمعوا بتمرٍ في جريبٍ جَرَوْا ببطاء ذي التمر<sup>١</sup> البوالي  
إذا جَرَبْتَ هذا الخَلْقَ أبدى لك التجريبُ أجْرِبَةً خوالي  
جرى بالنُّجْحِ دهرًا جرًّا بؤسًا عليكَ وجار بالنُّوبِ الثقالِ

٥٠١ - وخرج ثلاثة أدباء لنزهة خارج مرسية ، وصلّوا خلف إمام بمسجد  
قرية ، فأخطأ في قراءته ، وسها في صلاته ، فلما خرج أحدهم كتب على حائط  
المسجد :

يا خَجَلْتِي لصلاةٍ صَلَّيْتُهَا خَلْفَ خَلْفٍ<sup>٢</sup>  
فلما خرج الثاني كتب تحته :

أغضُّ عنها حياةً من المهيمِنِ طَرْفِي  
فلما خرج الثالث كتب تحته :

فليسَ تُقْبَلُ مِنَّا لو أنها ألفُ ألفِ

٥٠٢ - وقال أبو إسحاق ابن خفيف الأندلسي<sup>٣</sup> في أحدب أخذ مع صبي  
في خلوة فضربا ، وطيفَ بهما ، والأحدب على عنق الصبي :

رَأَيْتُ اليَوْمَ مَحْمُولًا وَأَعْجِبُ مِنْهُ مَنْ حَمَلَهُ  
جِمالُ الناسِ تَحْمِلُهُمْ وَهَذَا حَامِلٌ جَمَلَهُ

٥٠٣ - وقال أبو الصلت الأندلسي<sup>٤</sup> :

١ ب : ابطاء للتمر ؛ م : ببطانة التمر .

٢ الخلف : المتخلف الذي لا خير فيه .

٣ الأندلسي : زيادة من م .

٤ مر البيتان ج ٣ : ٣٥٦ وزاد بعدهما في م : وقوله أيضاً فيما قرب من هذه :

وقائلة ما لي أراك مجانياً أموراً وفيها للتجارة مريح

فقلت لها ما لي بربحك حاجة ونحن أناس بالسلامة نفرح

وقائلة ما بالٌ مثلكَ خاملاً<sup>١</sup>      أنتَ ضعيفُ الرأي أم أنتَ عاجزٌ  
فقلتُ لها ذنبي إلى القومِ أنتي      لما لم يحوزوه من المعجدهِ حائزٌ

٥٠٤ - وكتب بعض المغاربة لأبي العباس ابن مضاء يذكره بحاله :

يا غارساً لي ثمارِ مجد      سقيتها العذبَ من زلالك<sup>٢</sup>  
أخافُ من زهرِها سُقوطاً      إن لم يكنْ سقيها ببالك<sup>٣</sup>

٥٠٥ - وكتب الكاتب أبو عبد الله القرطبي مستنجزاً وعداً :

أبا عبد الإله وعدتَ وعداً      فأجزُ تريحَ الشكرَ الحزيبلا  
ولا تمطلُ فإنَّ المَطلَ يمحو      من الإحسانِ رونقهُ الصقيلا  
إذا كانَ الحميلُ يُحبُّ طبعاً      فإني أكره الصبرَ الحميلا

٥٠٦ - وكتب ابن هذيل الفزاري للغني بالله سلطان لسان الدين بن الخطيب :

ليسَ يا مولايَ لي من جابرٍ      إذ غدا قلبي من البلى جُذاذا  
غيرَ صكِّ أحمرٍ تكتبُ لي      فيه يمينكَ اعتناء : صحَّ هذا

٥٠٧ - وقال أبو الحسن ابن الزقاق في غلام يهودي كان يجلس معه وينادمه  
يوم سبت<sup>١</sup> :

وحبَّ يومَ السبتِ عندي أنتي      ينادمي فيه الذي أنا أحببتُ  
ومن أعجب الأشياءِ أنتي مسلمٌ      حنيفٌ، ولكن خيرُ أيامي السبتُ

٥٠٨ - وقال أبو حيان<sup>٢</sup> :

ويعجبني رشفٌ تلكَ الشفاهِ      وعضُ الخلودِ وهصرُ القوامِ

١ ديوان ابن الزقاق : ١١٣ .

٢ زاد في م : النحوي في الأوصاف .

محاسنُ فاتتُ قضيبَ الأراكِ ووردَ الرياضِ وكأسَ المدامِ

٥٠٩ - وكتب أحد الأدباء بمُرْسِيَةٍ إلى فتى وسيم من أعيانها كان يلازم حانوت بعض القضاة بها للتفقه عليه ، بأبيات في غرض ، فراجعه عنه أبو العباس ابن سعيد بقوله :

ما للمحبِّ لديٍّ غير صبايةٍ تقضي عليه ولَوَعَةٍ وغرامِ  
فدع الطماعةَ واسترحْ باليأسِ من وصلٍ عليك إلى المماتِ حرامِ

٥١٠ - وقال السمسِرُ ١ :

قربانةُ سوءٍ شرٌّ داؤٌّ فاحملْ أذاهمْ تعشْ حميدا  
ومن تكنْ قُرْحَةً بفيهِ يصبرْ على مصهِّ الصديدا

٥١١ - وقال ابن خفاجة ٢ :

إنَّ للجنَّةِ بالأندلسِ مجتلى عينٍ وريتا نَفْسِ  
فَسَنَا صُبْحَتَهَا من شَنَبٍ ودُجى ليلتها من لَعَسِ  
فإذا ما هبَّتْ الريحُ صباً صِحتْ واشوقى إلى الأندلسِ

٥١٢ - وقال بعض الأندلسيين ممن لم يحضرنى اسمه الآن :

إذا صال ذو ودٍ بودِّ صديقه فيا أيها الخلُّ المصاحبُ لي صلِّ بي  
فإتني مثلُ الماءِ لينا لصاحبي وناهيك للأعداءِ من رَجُلٍ صُلْبِ

٥١٣ - وقال أبو يحيى ابن هشام القرطبي :

وخائطٍ رائعٍ جمالاً وصاله غايةُ اقتراحي

١ زاد في م : الشاعر ، في قرباء سوء .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٣٦ وزاد في م : السابق ذكره أولا .

تَنعمُ مِنْهُ الخيوطُ فَتَلأُ      بينَ أَقاحٍ وَبينَ راحِ  
 تراهِ فِي السُّلمِ ذَا طَعانٍ      بِنافذاتِ بلا جراحِ  
 حَلَقَتُهُ أَشبهتُ فُوادي      لكثرةِ الوخزِ فِي النواحي  
 تُقَطِّعُ الثوبَ راحِتهِ      كصنَعِ الحَاطِهِ الملاحِ  
 فقبلَهُ ما رأيتُ بَدراً      ممزقاً بِرُدةِ الصِّباحِ

٥١٤ - وقال أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البلنسي ٢ :

غصبتِ الثرياً فِي البعادِ مكانِها      وأودَعَتِ فِي عينيَّ صادقَ نوئِها  
 وَفِي كُلِّ حالٍ لَمْ تَزالي بِخيلةً      فكيفِ أَعرتِ الشَّمسَ حُلَّةَ ضوئِها

قال ابن الأثير : أنشد مؤلف « قلائد العقيان » هذين البيتين لأبي جعفر  
 النبي اليعمري ، وأحدهما غالط من قبل اشتباه نسبهما ، والتفرقة بينهما مستوفاة في  
 تأليفي المسمى بـ « هداية المعتسف في المؤلف والمختلف » انتهى .

وأبو جعفر ابن عبد الولي المذكور أحرقه القنيطور - لعنه الله تعالى - حين  
 تغلبه بالروم على بلنسية . قال ابن الأثير : وذلك في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ،  
 وقيل : إن إحراقه كان سنة تسعين وأربعمائة ، انتهى .

٥١٥ - وقال أبو العباس القيجاطي فيما أنشده له ابن الطيلسان ٣ :

ليسَ الخمولُ بعاريٍّ      على امرئٍ ذي جلالِ  
 فليلةُ القدرِ تَخْفَى      وتلكَ خيرُ الليالي

١ ب : الوجد .  
 ٢ التكملة : ٢٤ ؛ وفي م : وكتب أبو جعفر ابن عبد المولى إلى أحمد البلنسي ؛ وانظر ج ٣ : ٤٨٧ .  
 ٣ التكملة : ٤٦ .

٥١٦ - وقال أبو محمد ابن جحاف المَعافري البِلَسْنسي<sup>١</sup> :

أقولُ وقد خوّفوني القِرانَ وما هو من شرّه كائنُ  
ذنوبي أخافُ وأما القِرانُ فإِنِّي مِن شرّه آمِنُ

وأبوه أبو أحمد هو المحرّق ببلنسية كما ذكرناه في غير هذا الموضع .

٥١٧ - وقال أبو العباس المالقي<sup>٢</sup> :

وبينَ ضلوعي للصبابةِ لوعةٌ بحكمِ الهوى تقضي عليّ ولا أقضي  
جنى ناظري منها على القلبِ ما جنى فيا مَنْ رأى بعضاً يُعِينُ على بعضِ

٥١٨ - ودخل أبو القاسم ابن عبد المنعم ، وكان أزرق وسيماً ، ومعه أبو  
عبد الله الشاطبي وأبو عثمان سعيد بن قوشرة ، على صاحب كتاب « مشاهد  
الأفكار في مآخذ النُّظار » فقال ابن قوشرة :

عابوهُ بالزَّرَقِ الذي بِجفونهِ والماءُ أزرقُ والسَّنَانُ كذلكا

فقال الشاطبي :

والماءُ يُهدي للنفوسِ حياتها والرمحُ يشرعُ للمنون مسالكا

فقال أبو بكر ابن طاهر صاحب كتاب « المشاهد » :

وكذاك في أجفانه سببُ الردى لكنْ أرى طيبَ الحياة هنالكا

وهذا من بارع الإجازة ، وكَمَ لأهلِ الأندلس من مثلِ هذا الديباج  
الخُسْرُواني ، رحمهم الله تعالى وسامحهم .

١ التكملة : ٥٦ .

٢ التكملة : ٦٩ .

٥١٩ - وكتب الشيخ الإمام العالم العلامة أبو عبد الله محمد بن الصائغ الأندلسي النحوي عند قول الحريري<sup>١</sup> «أما أن يُعززا بثالث» ما نصه : قد جيء لهما بثالث ورابع في قافيتهما ، وهو قول بعض الفضلاء :

ما الأمةُ اللكعَاءُ بينَ الوري كسَلِمِ حُرِّ أتي مَلَأَمَهُ  
فَمَهْ إذا استَجِدَيْتَ من قولٍ لا فالحرُّ لا يَمَلَأُ منها فَمَهْ  
ثم قال : وبخامس وسادس :

انقَدَّ مَهْوَى أزرِهِ فأنثي مَهْ يا عذولي في الذي انقَدَمَه  
مَنَدَمَه قتلُ المعنى فلا تُرْسِلِ سهامَ اللحظِ تأمَنَ دَمَهْ

قلت : رأيت في المغرب<sup>٢</sup> في هذا المعنى ما ينيف على سبعين بيتاً كلتها مُساجلة لبيتي الحريري ، رحمه الله تعالى<sup>٣</sup> .

٥٢٠ - وقال أبو بكر عبادة الشاعر في أبي بكر والد الوزير أبي الوليد ابن زيدون :

أي ركنٍ من الرياسةِ هِيضاً وجمُومٍ من المكارمِ غِيضاً  
حملوه من بلدةٍ نحو أخرى كي يوافقوا به ثراهُ الأريضا  
مثل حملِ السحابِ ماءً طيباً لتداوي به مكاناً مريضاً

وكان المذكور توفي في ضيعة له ، ونُقل تابوته إلى قَرْطُبَة فدفن في الرَبَضِ سنة ٤٠٥ ، وولد سنة ٣٠٤ .

٥٢١ - وقال أبو بكر ابن قرمان صاحب الموشحات<sup>٤</sup> :

١ ق : قول لبيتي الحريري .  
٢ أكبر الظن أنه يعني هنا بلاد المغرب لا كتاب المغرب .  
٣ انظر الذيل والتكملة ٤ : ٤٩ - ٥٣ حيث أورد نماذج من هذه المساجلة لبيتي الحريري .  
٤ الأصح أن يقول : صاحب الأرجال .

وعهدي بالشبابِ وحُسنِ قَدَيِ      حكي أَلِفَ ابنِ مُقَلَّةِ في الكتابِ  
فصرتُ اليومَ منحنيًا كأنِّي      أفتشُ في الترابِ على شبابي

وقال<sup>١</sup> :

يا ربَّ يومٍ زارني فيه مَنْ  
ذو شَفَةِ لَمَيَاءِ معسولةٍ  
قلتُ له هَبْ لي بها قِبَلَةً  
فدقتُ شيئاً لم أذقْ مثلهُ  
أطلع من غُرَّتِه كوكبا  
يشعُ من خَدَّيْهِ ماءُ الصبا  
فقال لي مبتسماً مَرْحَبًا  
لله ما أحلى وما أعذبا  
يا سَعِدني الله بِإِسعادِهِ  
يا شقوتي يا شقوتي لو أبى

قال لسان الدين : كان ابن قزمان نسيجَ وَحْدِه أدباً وظرفاً ولَوْذَعِيَّة وشهرة ، قال ابن عبد الملك : كان أديباً بارعاً ، حلو الكلام ، مليح التندير ، مبرزاً في نظم الزجل<sup>٢</sup> ، قال لسان الدين : وهذه الطريقة الزجلية بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيِّق على الشاعر سلوكه ، وبلغ فيها أبو بكر ، رحمه الله تعالى ، مبلغاً حَجَرَه الله عن سواه ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وفارسها المُعَلِّم ، والمبتدئ فيها والمتمم .

وقال الفتح في حقه<sup>٣</sup> : مبرز في البيان ، ومُحَرِّزٌ للسَّبْقِ عند تسابق الأعيان ، اشتمل عليه المتوكِّل على الله فرقاؤه<sup>٤</sup> إلى مجالس ، وكساه ملابس ، فامتطى أسمى الرتب وتَبَوَّأها ، ونال أسمى الخطط<sup>٥</sup> وما تَمَلَّأها ، وقد أثبت<sup>٦</sup>

١ م : وقال المذكور أيضاً في زيارة الحبيب .

٢ قال لسان . . . الزجل : سقطت هذه العبارة من ق .

٣ القلائد : ١٨٧ .

٤ القلائد : الحصل .

٥ القلائد : اشتمالاً أرقاه إلى . . .

٦ القلائد : المخطوط .



له ما يُعلم به رفيع قدره<sup>١</sup> ، ويُعرف كيف أساء له الزمان بغدْره ، كقوله :  
 ركبوا السيولَ من الخيولِ وركبوا فوقَ العوالي السُّمرِ زُرُقَ نطافِ  
 وتجلَّلوا الغدرانَ من ماذِيهِمْ مرتجَّةً إلا على الأكتافِ<sup>٢</sup>  
 والمأذي : العسل ، والنطاف : جمع النطفة ، وهي الماء الصافي قل أو كثر .

## ٥٢٢ - [ نقول من المطمح ]

١ - وقال الفقيه أبو بكر ابن القوطية صاحب « الأفعال » في اللغة  
 والغريب ، في زمن الربيع<sup>٣</sup> :

ضحك الثرى وبدا لك استبشاره<sup>٤</sup> فاخضرَ شاربُه وطرَّ عذارُه  
 ورنَتْ حدائقُه وزرَرَ نبتُه وتعطرتْ أنواره وثمارُه  
 واهترَّ ذابيلُ كلِّ ماءٍ قرارة<sup>٥</sup> لما أتى متطلِّعاً آذارُه  
 وتعمَّمتْ صلُعُ الرُّبى بنباته وترنمتْ من عجمه أطيارُه

وقال في المطمح في حق ابن القوطية المذكور<sup>٦</sup> : إنّه ممّن له سلَف ، وثنية  
 كلّها شرف ، وهو أحد المجتهدين في الطلب ، والمشتهرين بالعلم والأدب ،  
 والمنتدبين للعلم والتصنيف ، والمرتبّين له بحسن الترتيب والتأليف ، وكان له  
 شعر نبيه ، وأكثره أوصاف وتشبيه ، انتهى .

٢ - وقال القاضي الأجلُّ يونس بن عبد الله بن مغيث<sup>٧</sup> :

١ القلائد : ما تعلم به حقيقة قدره .

٢ ب : الأعطاف .

٣ المطمح : ٥٩ ، والبديع : ٢٠ .

٤ المطمح : ودنت ... وآزر ... ؛ البديع : وربت ... وآزر ... وتفطرت .

٥ البديع : كل نبت .

٦ المطمح : ٥٨ .

٧ المطمح : ٥٩ .

أتوا حسبةً إذ قيل جدّ نُحوله فلم يبقَ من لحمٍ عليه ولا عظمٍ  
فعادوا قميصاً في فراشٍ فلم يروا<sup>١</sup> ولا لمسوا شيئاً يدلُّ على جسمٍ  
طواه الهوى في ثوبٍ سقمٍ من الضنى وليس بمحسوسٍ بعينٍ ولا وهمٍ

وقال في المطمح فيه : إنّه قاضي الجماعة بقرطبة ، فاضل ورع مبرز في  
النسآك والزهاد ، دائم الأرق في التخشع والسُّهاد ، مع التحقّق بالعلم والتمييز  
بجمله<sup>٢</sup> ، والتحيز إلى فئة الورع وأهله ، وله تآليف في التصوّف والزهد<sup>٣</sup> ، منها  
كتاب « المنقطعين إلى الله » وكتاب « المجتهدين » وأشعار في هذا المعنى ، منها  
قوله :

فرتُ إليك من ظلمي لنفسي وأوحشني العبادُ وأنت أنسي  
قصدتُ إليك منقطعاً غريباً لتؤنس وحندي في قعر رمسي  
وللعظمى من الحاجاتِ عندي قصدتُ وأنت تعلمُ سرّ نفسي

ولما أراد المستنصر بالله غزو الروم تقدّم إلى أبي محمد والده بالكونِ في  
صحبته ، ومسايرته في غزواته ، فاعتذر بعذر يجده ، وألم لا ينجده ، فقال له  
الحكم : إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب  
الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيتها من الغزاة ، وجازيته أفضل المجازاة ،  
فأجابته إليه على أن يؤلفه بالقصّر ، فزعم أنّه رجل مزور ، وأن ذلك الموضع  
ممتنع على من يُلمُّ به ويزور ، فألّفه بدار الملك المظلة على النهر ، وأكمله فيما  
دون شهر ، وتوفّي والمستنصر بعدُ في غزاته<sup>٤</sup> .

١ م ق ب : فلم يجد .

٢ المطمح : والتمييز بفضله .

٣ المطمح : وله تصانيف في الزهد والتصوف .

٤ في الأصول : وتوفّي المستنصر إذ ذاك ؛ وهو خطأ واضح لأن المستنصر توفي سنة ٣٦٦ ؛ وفي  
المطح : وتوفّي بعد المستنصر في غزاته .

3 - وقال ابن سيده صاحب « المحكم » يخاطب إقبال الدولة :

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى سبيل<sup>١</sup> فإن الأمن في ذاك واليمنا

قال في المطمح<sup>١</sup> : الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن سيده إمام في اللغة والعربية ، وهمام في الفنة الأدبية ، وله في ذلك أوضاع ، لأفهام أخلافها استدرار واسترضاع ، حررها تحريراً ، وأعاد طرف الذكاء بها قديراً ، وكان منقطعاً إلى الموفق صاحب دانية ، وبها أدرك أمانيه ، ووجد تجرده للعلم وفراغه ، وتفرد بتلك الإراغة ، ولا سيما كتابه المسمى بالمحكم ، فإنه أبدع كتاب<sup>٢</sup> وأحكم ، ولما مات الموفق راثش جناحه ، ومثبت غرره وأوضاحه ، خاف من ابنه إقبال الدولة ، وأطاف به مكروهاً<sup>٣</sup> بعض من كان حوله ، إذ أهل الطلب كحيات مسورة ، ففر إلى بعض الأعمال المجاورة ، وكتب إليه منها مستعظماً :

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى  
فتنضى هموم<sup>١</sup> طلحته خطوبها  
غريب<sup>٢</sup> نأى أهله عنه<sup>٣</sup> وشقه  
فيا ملك<sup>٤</sup> الأملاك<sup>٥</sup> إتي محلاً  
تحققت<sup>٦</sup> مكروهاً فأقبلت<sup>٧</sup> شاكياً  
وإن تتأكد<sup>٨</sup> في دمي لك نية<sup>٩</sup>  
إذا ما غدا من حر سيفك بارداً  
وهل هي إلا ساعة<sup>١٠</sup> ثم بعدها

سبيل<sup>١</sup> فإن الأمن في ذاك واليمنا  
ولا غارباً يبسين<sup>٢</sup> منه ولا متنا  
هواهم<sup>٣</sup> فأمسى لا يقر ولا يهنا  
عن الورد لا عنه أذاد<sup>٤</sup> ولا أدنى  
لعمرى<sup>٥</sup> أمأذون<sup>٦</sup> لعبدك أن يعنى  
فإتي سيف<sup>٧</sup> لا أحب له جفنا  
فقدماً غدا من برد نعماكم<sup>٨</sup> سخنا  
ستقرع<sup>٩</sup> ما عمّرت<sup>١٠</sup> من ندم سيننا

١ المطمح : ٦٠ .

٢ المطمح : كتاب في اللغة ؛ م : في فنه .

٣ المطمح : مكروه .

وما لي من دهري حياة ألدّها فتجعلها نُعمى عليّ وتمتتّا  
إذا ميتة أرضتكَ عنّا فهاتها حبيبٌ إلينا ما رضيت به عنّا

4 - وقال الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد الأندلسي المخزومي المالقي<sup>١</sup> :

صبرٌ فؤادك للمحبوب منزلةٌ سَمُّ الخياطِ مجالٌ للمحبينِ  
ولا تسامحٌ بغيضاً في معاشرَةٍ فقلّما تسعُ الدنيا بغيضينِ

وله :

الصبرُ أولى بوقارِ الفتي من قلّقى يهتكُ سترَ الوقارِ  
منَ لزمَ الصبرَ على حالةٍ كانَ على أيامه بالخيارِ

وقال في المطمح فيه : إنّه عالمٌ مُتفرّس ، وفقهه مُدرّس ، وأستاذٌ متجرّد<sup>٢</sup> ،  
وإمامٌ لأهل الأندلس مجود ، وأمّا الأدب فكان جُلّ شِرْعته ، ورأس بغيته ،  
مع فضل وحسن طريقة ، وجدّ في جميع الأمور وحقيقة ، انتهى .

5 - وقال المحدث الحافظ أبو عمر ابن عبد البر يوصي ابنه بمقصورة<sup>٣</sup> :

تجافَ عن الدنيا وهونَ لقدرها ووفَّ سبيلَ الدين بالعروة الوثقى

١ المطمح : ٦٠ - ٦١ ؛ وفي م لم يرو هذين البيتين له وأورد بهلما قوله :

أهل الحرابة والفساد من الورى يعزون في التشبيه للذكار  
مرآهم ذكراً إذا ما أبصروا فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار  
لو عم فضل الله جملة خلقه ما كان أكثرهم من أهل النار

وقوله : الصبر أولى بوقار الفتي

والأولان وردا في ج ٣ : ٢٦٥ ، ٣٩٨ ، ٤٤٧ ، والتاليان وردا في ج ٣ : ٣٩٨ .

٢ المطمح : مجود .

٣ المطمح : ٦٢ ، وترجمة ابن عبد البر : ٦١ .

وسارعُ بتقوى الله سرّاً وجهرَةً  
ولا تنسَ شكرَ الله في كلِّ نعمةٍ  
فدعُ عنك ما لا حظَّ فيه لعاقِلٍ  
وشحَّ بأيّامٍ بقينَ قلائِلٍ  
ألم ترَ أنّ العمرَ يمضي مولياً  
نخوضُ ونلهو غفلةً وجهالةً  
تواصلنا فيهِ الحوادثُ بالردى  
عجبتُ لنفسٍ تبصرُ الحقَّ بيّناً  
وتسعى لما فيهِ عليها مضرّةٌ  
ذنوبيَ أخشاهما ولستُ بآيس  
وإن كانَ ربي غافراً ذنبَ مَنْ يشا  
فلا ذمةَ أقوى هُديتَ من التقوى  
يَمُنُّ بها فالشكرُ مستجلبُ النعمى  
فإنَّ طريقَ الحقِّ أبلجُ لا يخفى  
وعمرٌ قصيرٌ لا يدومُ ولا يبقى  
فجدته تبلى ومدته تفي  
ونشرُ أعمالاً وأعمارنا تُطوى  
وتتأبنا فيهِ النوائبُ بالبلوى  
لديها وتأبى أن تفارقَ ما تهوى  
وقد علمتُ أن سوف تجزى بما تسعى  
وربِّي أهلٌ أن يخافَ وأن يُرجى  
فإني لا أدري أأكرمُ أم أخزى

وقال في المطمح<sup>١</sup> : الفقيه الإمام العالم الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، إمام الأندلس وعالمها ، الذي التاحت به معالمها ، صحح المتن والسند ، وميز المرسل من المسند ، وفرق بين الموصول والقاطع ، وكسا الملة منه نوراً ساطع ، حصر الرواة ، وأحصى الضعفاء منهم والثقات ، وجدّد في تصحيح السقيم ، وجدد منه ما كان كالكهف والرقيم ، مع معلّات العلل ، وإرهاف ذلك العلل ، والتنبيه والتوقيف ، والإتقان والتثقيف ، وشرح المغفل ، واستلراك المغفل ، وله فنون هي للشريعة رتاج ، وفي مفرق الملة تاج ، أشهرت للحديث ظبي ، وفرعت لمعرفته ربي ، وهبت لتفهّمه شمال<sup>٢</sup> وصبا ، وشفّت منه وصبا ، وكان ثقة ، والأنفس على تفضيله متفقه ، وأما أدبه فلا تُعبّرُ

١ م : وقال في حقه .

٢ المطمح : شمالا .

بلحته ، ولا تُدحض حُجته ، وله شعر لم نجد منه إلا ما نفث به أنفة ، وأقصى<sup>١</sup>  
فيه عن معرفة ، فمن ذلك قوله — وقد دخل إشبيلية فلم يلقَ فيها مبرة ، ولم يلقَ  
من أهلها تهللَ أسيرةً ، فأقام بها حتى أخلقه مقامه ، وأطبقه اغتمامه ، فارتحل  
وقال :

تنكَّرَ مَنْ كَتَا نُسْرُ بِقَرَبِهِ      وعاد زعافاً بَعْدَمَا كَانَ سَلْسَلَا  
وَحَقُّ بِلْجَارٍ لَمْ يُوَافِقْهُ جَارُهُ      ولا لاءمتهُ الدارُ أَنْ يَتَحَوَّلَا  
بُلَيْتٌ بِمَحْصٍ وَالْمَقَامُ بِبِلْدَةٍ      طويلاً لِعَمْرِي مَخْلُقٌ يورث البلي  
إِذَا هَانَ حُرٌّ عِنْدَ قَوْمٍ أَنَاهُمْ      ولم يئأ عنهم كان أعمى وأجهلا  
وَلَمْ تُضْرَبِ الْأَمْثَالُ إِلَّا لِعَالَمٍ      وما عوتبَ الإنسانُ إلا ليعقلا

6 — وقال الفقيه أبو بكر ابن أبي الدوس<sup>٢</sup> :

إِلَيْكَ أبا يَحْيَى مَدَدْتُ يَدَ الْمُنَى      وقديماً غدتُ عن جود غيرك تُقْبِضُ  
وَكَانَتْ كَنُورِ الْعَيْنِ يَلْمَعُ بِالِدَجَى      فلَمَّا دعاه الصبحُ لبَّاه يَنْهَضُ

وقال في المطمح : إنّه من أبداع الناس خطأً ، وأصحهم نقلاً<sup>٣</sup> وضبطاً ،  
اشتهر بالإقراء ، واقتصر بذلك على الأمراء ، ولم ينحطّ لسواهم ، ومطلّ  
الناسَ بذلك ولتواهم ، وكان كثير التحوّل ، عظيم التحوّل ، لا يستقر في بلد ،  
ولا يستظهر على حرمانه بجالد ، فقدفته النوى ، وطرده عن كل ثوا ، ثم  
استقر آخر عمره بأغامت ، وبها مات ، وكان له شعر بديع يصونه أبدأً ، ولا  
يمدّ به يداً . أخبرني من<sup>٣</sup> دخل عليه بالمريّة فرآه في غاية الإملاق ، وهو في  
ثياب أخلاق ، وقد توارى في منزله توارى المذنب ، وقعد عن الناس قعود

١ المطمح : وأوصى .

٢ المطمح : ٦٤ ؛ وفي ق : ابن الدوس ، وانظر ترجمته في المطمح : ٦٣ .

٣ م : أخبرني من أتق به أنه .

مجتنب ، فلما علم ما هو فيه ، وترفعه عن بجته ، عاتبه في ذلك الاعتزال ،  
 وأخذته حتى استنزله بفيض الاستئزال ، وقال له : هلا كتبت إلى المعتصم ،  
 فما في ذلك ما يصم ، فكتب إليه : إليك أبا يحيى مدت يد المني - البيتين ،  
 انتهى .

7 - وقال الفقيه القاضي الفاضل أبو الفضل ابن الأعمش ، حين ألق وأتاب ،  
 وودع ذلك الجنب ، وتزهذ وتنسك ، وتمسك من طاعة الله بما تمسك ، وتذكر  
 يوماً يتجرد من أمله ، وينفرد فيه بعمله :

الموتُ يشغلُ ذكرهُ	عن كلِّ معلومٍ سواهُ
فأعمرُ له ربَّعَ أدِّكا	ركَ في العشيَّةِ والغداه
واكحلُّ به طَرْفَ اعتبا	ركَ طولَ أيامِ الحياهِ
قبلَ ارتكاضِ النفسِ ما	بين الترائبِ واللَّهَاه
فيقالُ هذا جعفرُ	رَهْنٌ بما كسبتُ يداهُ
عصفتُ به ريحُ المنو	ن فصيرتُهُ كما تراه
فضعَّوه في أكفانِهِ	ودعَّوه يجني ما جناهُ
وتمتعُّوا بمتاع	ه المخزونِ واحوِّوا ما حواه
يا منظرأ مستبشعأ	بلغ الكتابُ به مداهُ
لُقِّيتُ فيه بشارة	تشفى فؤادي من جواهُ
ولقيتُ بعدك خيرَ مَنْ	نَبَّاه ربِّي واجتباهُ
في دارٍ خَفَضٍ ما اشتَهتُ	نفسُ المقيمِ بها أتاهُ

وقال في المطمح : إنَّه كَهْلُ الطريقة ، وفقى الحقيقة ، تدرِّع الصيانة ،

وبرع في الورع والديانة ، وتماسك عن الدنيا عفافاً ، وما تماسك<sup>١</sup> التماساً بأهلها  
 والتفافاً ، فاعتقل النهى ، وتنقل في مراتبها حتى استقر فيها في السُّها ، وعطل  
 أيام الشباب ، ومطل فيها سعاد وزينب والرباب ، إلا ساعات وقفتها على المدام ،  
 وعطفها إلى الندام ، حتى تخلت عن ذلك واترك ، وأدرك من المعلومات ما  
 أدرك ، وتعري من الشبهات ، وسرى إلى الرشيد مستيقظاً من تلك السنات ،  
 وله تصرف في شتى الفنون ، وتقدم في معرفة المفروض والمسنون ، وأما  
 الأدب فلم يجاره في ميدانه أحد ، ولا استولى على إحسانه فيه حصراً ولا حدة ،  
 وجدده أبو الحجاج الأعلم هو خلد منه ما خلد ، ومنه تقلد ما تقلد ، وقد  
 أثبت لأبي الفضل هذا ما يسقيك ماء الإحسان زلالاً ، ويريك سحر البيان حلالاً ،  
 فمن ذلك ما كتب به إلي ، وقد مررت على شنت مرية بعدما رحل عنها وانتقل ،  
 واعتقل من نوانا<sup>٢</sup> وبيننا ما اعتقل ، وشنت مرية هذه داره ، وبها كل هلاله  
 وإبداره ، وفيها استقضي ، وشيم مضاهه وانتضي ، فالتقينا بها على ظهر ،  
 وتعطينا ذكر ذلك الدهر ، فجددت من شوقه ، ما كان قد شب عن طوقه ،  
 فرامني على الإقامة ، وسامني على ذلك بكل كرامة ، فأبيت إلا النوى ، وانثيت  
 عن الشوا ، فودعني ، ودفع إلي تلك القطعة حين شيعني :

بشراي أطلعت السعود على	آفاق أنسي بدورها ككلا
وكسا أديم الأرض منه سناً	فكست بسائطها به حلاً
إيه أبا نصري ، وكتم زمن	قصر ادكارك عندي الأملا
هل تذكرن العهد ينجلني	هل تذكرن أيامنا الأولا
أيام نعثر في أعنتنا	ونجر من أبرادنا خيلا
ونحل روض الأنس مؤتنفاً	ونحل شمس مرادنا الحملا

١ المطح : وما تمالك .

٢ ب : ثوانا .



ونرى ليالينا مساعفةً      تدعو إلينا رفقنا الحفلي  
 زمنٌ نقول على تذكره      ما تم حتى قيلَ قد رحلاً  
 عرضت لزورتكم وما عرضت      إلا لتمحقَ كلَّ ما فعلاً

ووافيته عشيّةً من العشايا أيام اثتلافنا ، وعودنا إلى مجلس الطلب واختلافنا ،  
 فرأيته مستشرفاً متطلعاً ، يرتاد موضعاً يقيم به لثغور الأنس مرتشفاً ولثديه  
 مرتضعاً ، فحين مقلني<sup>١</sup> ، تقلدني إليه واعتقلي ، وملنا إلى روضة قد سئدس  
 الربيعُ في بساطها ، ودبّجَ الزهر درّانك أوساطها ، وأشعرت النفوسَ فيها  
 بسرورها وانبساطها ، فأقمنا بها نتعاطى كؤوس أخبار ، ونتهادى أحاديثَ  
 جهابذة وأخبار ، إلى أن نثر زعفران العشي ، وأذهب الأنس خوف العالم  
 الوحشي ، فقامت وقام ، وعودُ الرب من ألسنتنا ما كان استقام ، وقال :

وعشيّة كالسيفِ إلاّ حدّه      بسطَ الربيعُ بها لتعليّ خدّه  
 عاطيتُ كأسَ الأنسِ فيها واحداً      ما ضرّه أن كان جمعاً وحدّه

وتنزه يوماً بحديقة من حدائق الحضرة قد اطرد نهرها ، وتوقد زهرها ،  
 والريحُ يسقطه فينظم بلبّة الماء ، ويتبسم به فتخاله كصفحة خضرة السماء ،  
 فقال :

انظر إلى الأزهار كيف تطلعتُ      بسماوة الروضِ المجدودِ نُجوماً  
 وتساقتتُ فكانَ مسترقاً دنا      للسمعِ فانقضتُ عليه رُجوماً  
 وإلى مسيلِ الماءِ قد رقمتُ به      صنعُ الرياحِ من الحجابِ رُقوماً  
 ترمي الرياحُ لها نثيراً زهرةً      فتمدّه في شاطئيه رقيماً

وله يصف قلم يراعة ، وبرع في صفته أعظم براعة :

١ ب : رمقي .

ومهفهف ذليق صليب المكسر سبب لنيل المطلب المتعذر  
متألق تنيك صفرة لونه بقديم صحبته لآل الأصفر  
ما ضره أن كان كعب براعة وبحكمه اطردت كعوب السمهي

وله عندما شارف الكهولة ، واستأنف قطع صرة كانت موصولة :

أما أنا فقد ارعويتُ عن الصبا وعضضتُ من ندمٍ عليه بناني  
فأطعتُ نصّاحي ورُبَّ نصيحةٍ جاءوا بها فلججتُ في العصيانِ  
أيامَ أسحبُ من ذيولِ شيبتي مَرَحاً وأعثرُ في فضولِ عنائي  
وأجلُّ كأسِي أن تُرى موضوعةً فعلى يدي أو في يدي ندماني  
أيامَ أحيا بالغواني والغنا وأموتُ بينَ الراح والريحانِ  
في فتيةٍ فرضوا اتصالَ هواهمُ فمناهمُ دنٌ من الأدنانِ  
هزتُ علاهمُ أريحياتُ الصبا فهي النسيمُ وهمُ غصونُ البانِ  
من كلِّ مخلوعِ الأعنةِ لم يبسلُ في غيّهِ بمصارفِ الأزمانِ

إلى أن قال : ومن نثره يصف فرساً : انظر إليه سليم الأديم ، كريم  
القديم ، كأنما نشأ بين الغبراء واليحموم<sup>١</sup> ، نجم إذا بدأ ، ووهم إذا عدا ،  
يستقبل بغزال ، ويستدبر برال ، ويتحلى بشيات<sup>٢</sup> تقسيمات الجمال .

وله يصف سرّجاً : بزة جياذ ، ومركب أجواد ، جميل الظاهر ، رحيب  
ما بين القادمة والآخر ، كأنما قُدّ من الحدود أديمه ، واختص بإتقان الحُبك  
تقويمه .

وله في وصف لحام : متناسب الأشلاء ، صريح الانتماء ، إلى ثريّ السماء ،  
فكلّه نكال ، وسائرته جمال .

١ م ب : والنجوم .

٢ ب : شيبات ؛ المطح : بشتات .

وله في وصف رمح : مُطَرَّد الكعوب ، صحيح اتصال الغالب والمغلوب ،  
أخ ينوب كلما استنيب ويصيب .  
وله في وصف قميص : كافوري الأديم ، بابلي الرسوم ، تباشر منه الجسوم ،  
ما يباشر الروض من النسيم .  
وله في وصف بغل : مُقَرَّف<sup>١</sup> النسب ، مستخبر الشرف ، آمن الكعب ،  
إن ركب امتنع اعتماله ، أو ركب استقل به أخواله .  
وله في وصف حمار : وثيق المفاصل ، عتيق النهضة إذا وَّتتِ المراسل ،  
انتهى ببعض اختصار .

8 - وقال الأديب الشاعر أبو عمر<sup>٢</sup> يوسف بن هرون الكندي ، المعروف  
بالرمادي<sup>٣</sup> :

أومى لتقبيل البساط خنوعا	فوضعتُ خدّي في التراب خضوعا
ما كان مذهبه الخنوع لعبده	إلا زيادة قلبه تقطيعا
قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً	يمن عليّ برده مصلوعا
العبد قد يعصي ، وأحلف أني	ما كنتُ إلا سامعاً ومطيعا
مولاي يحيى في حياة كاسمه	وأنا أموتُ صبايةً وولوعا
لا تنكروا غيثَ الدموع فكلُّ ما	ينحلُّ من جسمي يكونُ دموعا

والرمادي المذكور عرّف به غير واحد ، منهم الحافظ أبو عبد الله الحميدي  
في كتابه « جذوة المقتبس » وقال<sup>٤</sup> : أظن أن أحد آبائه كان من أهل الرمادة ،  
وهي موضع بالمغرب ، وهو قرطبي ، كثير الشعر ، سريع القول ، مشهور عند

١ م ق ب : مترف .

٢ ق : أبو عمرو .

٣ المطمح : ٧١ .

٤ جذوة المقتبس : ٣٤٦ .

الخاصة والعامة هنالك ، لسلوكه في فنون من المنظوم والمنثور مسالك ، حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فُتِحَ الشعر بِكِنْدَةَ ، وَخُمَّ بِكِنْدَةَ ، يعنون امرأ القيس والتمني ويوسف بن هرون ، على أن في كون التمني من كِنْدَةَ القبيلة كلاماً مشهوراً .

وأخذ أبو عمر ابن عبد البر عن الرمادي هذا قطعة من شعره ، وضمَّنها بعض تأليفه .

قال ابن حيَّان : توفي الرمادي سنة ٤٠٣ ، وذكر ابن سعيد في « المغرب » أن الرمادي اكتسب صناعة الأدب من شيخه أبي بكر يحيى بن هذيل الكفيف عالم أدباء الأندلس ، وهو القائل رحمه الله تعالى :

لا تلمني على الوقوفِ بدارِ أهلها صيروا السقامَ ضجيجي  
جعلوا لي إلى هواهم سبيلاً ثمَّ سدَّوا عليَّ بابَ الرجوعِ

وروى الرمادي عن أبي عليّ كتاب « النوادر » ومدح أبا علي بقصيدة كما أشرنا إليه في غير هذا الموضع .

وقال في المطمح<sup>١</sup> : إنَّه شاعر مُفْلِق ، انفرج له من الصناعة المُغْلَق ، ومَمَّصَ له برقعها المؤتلق ، وسال بها طبعه كالماء المندفق ، فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق ، فتارة يُحزِن وأخرى يُسهل ، وفي كليهما بالبدیع يعلُّ وينهل ، فاشتهر عند الخاصة والعامة بانطباعه في الفريقين ، وإبداعه في الفريقين ، وكان هو وأبو الطيب متعاصرين ، وعلى الصناعة متغايرين ، وكلاهما من كِنْدَةَ ، وما منهما إلا من اقتدح في الإحسان زَنْدَه ، وتمادى بأبي عمر<sup>٢</sup> ، طَلَّقُ العَمر ، حتى أفرده صاحبه ونديمه ، وهَرِيْقَ شِبابه واستثنى أديمه ،

١ المطمح : ٦٩ .

٢ ق ب والمطمح : عمرو .

ففارق تلك الأيام وبهجتها ، وأدرك الفتنه فخاض لجتها ، وأقام فرقاً من هيجانها ،  
 شرقاً بأشجانها ، ولحقته فيها فاقة نهكته ، وبعدت عنه الإفاقة حتى أهلكته ،  
 وقد أثبت من محاسنه ما يعجبك سرده ، ولا يمكنك نقده ، فمن ذلك قوله :

شَطَّتْ نَوَاهِمُ بِشَمْسٍ فِي هَوَادِجِهِمْ      لَوْلَا تَلَأُؤُهَا فِي لَيْلِهِنَّ عَشُّوْا  
 شَكَّتْ مَحَاسِنَهَا عَيْنِي وَقَدْ غَدَرْتُ      لِأَنَّهَا بِضَمِيرِ الْقَلْبِ تَنْجَمُشُ  
 شَعَرَ وَوَجْهٌ تَبَارَى فِي اخْتِلَافِهِمَا      بِحَسْنِ هَذَا وَذَلِكَ الرُّومُ وَالْحَبَشُ  
 شَكَّتْ فِي سَقَمِي مِنْهَا أَفِي فُرُشِي      مِنْهَا نَكِسَتْ وَإِلَّا الطَّيْفُ وَالْفَرَشُ

إلى أن قال : وكان كليفاً بفتى نصراني استسهل<sup>١</sup> لباس زُنَّاره ، والخلود معه  
 في ناره ، وخلع بروده لمُسوحه ، وتسوغ الأخذ عن مسيحه<sup>٢</sup> ، وراح في  
 بيعته ، وغدا من شيعته ، ولم يشرب نصيبه ، حتى حط عليه صليبه ، فقال :

أَدْرِهَا مِثْلَ رَيْقِكَ ثُمَّ صَلِّبْ      كَعَادَتِهِمْ<sup>٣</sup> عَلَيَّ وَهَمِي وَكَاسِي  
 فَيَقْضَى مَا أَمَرْتَ بِهِ اجْتِلَاباً      لِمَسْرُورِي وَزَادَ خُضُوعاً<sup>٤</sup> رَاسِي

وله في مثله :

وَرَأَيْتُ فَوْقَ النَّحْرِ دِرَّةً      عَاً فَاقِعاً مِنْ زَعْفَرَانِ  
 فَزَجَرْتُهُ لُوناً سَقَا      مِي بِالنُّوَى ، وَالزَّجْرُ شَانِي  
 يَا مَنْ نَأَى عَنِّي كَمَا      تَنَأَى الْعَيُونَ ° الْفَرْقَدَانِ  
 فَأَرَى بَعِينِي الْفَرْقَدِي      نِ وَلَا أَرَاهُ وَلَا يِرَانِي

- ١ المطمح : استحسن .
- ٢ خطأ في الأصلين ؛ وأثبتنا عبارة المطمح .
- ٣ المطمح : كما دتكم .
- ٤ المطمح : ففضي . . . خنوع ؛ م : خنوع .
- ٥ المطمح : ينأى لعيني .

لا قُدِّرَتْ لك أوبةٌ حتى يَؤوبَ القارظانِ  
هل ثمَّ إلا الموتُ فر دأ لا تكونُ منيَّتانِ

وله أيضاً :

اشربِ الكاسِ يا نصيرُ وهاتِ  
بأبي غرَّةٌ ترى الشخصَ فيها  
تترعُ<sup>١</sup> الناسَ نحوها بازدحامِ  
هاها يا نصيرُ إنا اجتمعنا  
إنما نحنُ في مجالسِ لهوٍ  
فإذا ما انقضت دنانةُ ذا الله  
لومضى الدهرُ دونَ راحٍ وقصفِ  
لعددنا هذا من السيئاتِ

وشاعت عنه أشعار في دولة الخلافة<sup>٣</sup> وأهلها ، سدّد إليهم صائبات تبيلها ،  
وسقاهم كؤوس نهلها ، أوغرّت عليه الصُّدور ، ونفرت<sup>٤</sup> عليه المنايا ولكن  
لم يساعدها المقدر ، فسجنه الخليفةُ دهرأ ، وأسكنه<sup>٥</sup> من النكبة وعراً ، فاستعطفه  
أثناء ذلك واستلطفه ، وأجناه كل زهر من الإحسان وأقطفه ، فما أصغى إليه ،  
ولا ألغى موجدته عليه ، وله في السجن أشعار صرّح فيها ببيته ، وأفصح  
فيها عن جُلّ الخطب لفقد صبره ونكته ، فمن ذلك قوله :

لك الأمنُ من شجوٍ يزيدُ تشوّقي

١ ق : تترع ؛ المطمح : تسرع ؛ م : ترع .

٢ المطمح : دنان على اللهو ؛ م : دنانات ذا اللهو .

٣ المطمح : الخليفة .

٤ المطمح : ونفرت .

٥ المطمح : وأسلكه .

ومنها :

فوافوا بنا الزهراء في حال خالغ الـ  
وحولي من أهل التأديب مأم<sup>١</sup>  
فلو أن في عيني الحمام كروضها  
ونادى حمامي مهجتي لتقلقت<sup>٢</sup>  
أعيني إن كانت لدمعي فضلة<sup>٢</sup>  
فلو ساعدت قالت أمن عُدَّةِ الأسي

ومنها :

وقالت تظنُّ الدهرَ يجمع بيننا  
ولكنني فيما زجرتُ بمقلتي  
فقد كانت الأشفارُ في مثلِ بُعدنا  
أباكيةً يوماً ولم يأتِ وقتهُ  
إلى أن قال : وله أيضاً :

على كبري همي السحابُ وتذرفُ  
كأنَّ السحابَ الواكفاتِ غواسلي  
ألا ظعننُ ليلي وبان قطينها  
وآنستُ في وجه الصباح ليينها  
وأقربُ عهدٍ رشفةً بَلَّتِ الحشا  
وكانت على خوفٍ فولتْ كأنَّها  
ومن جزعي تبكي الحمامُ وتهتفُ  
وتلك على فقدي نوائحُ هتفُ  
ولكنني باقٍ فلوموا وعنقوا  
نحولاً كأنَّ الصبحَ مثلي مُدْتَفُ  
فعاد شتاءً بارداً وهو صيفُ  
من الردفِ في قيدِ الخلاخلِ ترسِفُ

١ المطمح : حلة ثلاثم .

٢ المطمح : فتغافتل .

وله :

قَبَلْتَهُ قُدَّامَ قَسِيهِ شَرِبْتُ كَاسَاتٍ بِتَقْدِيهِهِ  
يَقْرَعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِنْ فَرَطِ شَوْقِي قَرَعُ نَاقُوسِهِ

وسُجِنَ معه غلامٌ من أولاد العبيدِ فيه مَجَالٌ ، وفي نفسٍ متأمله من لوعته  
أوجالٌ ، فكتب يخاطب الموكل بالسجن بقطعة منها :

جَلِيْسُكَ مَمَّنْ أَتْلَفُ الحُبُّ قَلْبَهُ وَيَلْدَعُ قَلْبِي حَرَقَةٌ دُونَهَا الجَمْرُ  
هَالَالٌ وفي غَيْرِ السَّمَاءِ طَلُوعُهُ وَرِيمٌ وَلَكِنْ لَيْسَ مَسْكَنَتُهُ القَفْرُ  
تَأَمَّلْتُ عَيْنِيهِ فَخَامِرِنِي السَّكْرُ وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ العَيُونََ هِيَ الخَمْرُ  
أَنَاطِقُهُ كَيْمَا يَقُولُ ، وَإِنَّمَا أَنَاطِقُهُ عَمْدًا لِيَتَثَّرَ الدَّرُّ  
أَنَا عَبْدُهُ وَهُوَ المَلِيكُ كَمَا اسْمُهُ فلي منه شَطْرٌ كَامِلٌ وَله شَطْرٌ

انتهى باختصار .

9 - وقال محمد بن هانيء<sup>١</sup> :

قَدُّ مَرَرْنَا عَلَى مَغَانِيكَ تِلْكَ فَرَأَيْنَا بِهَا مَشَابِهَ مَنْكَ  
عَارِضَتْنَا المَهَا الخَوَازِلُ سِرْبًا عِنْدَ أَجْرَاعِهَا فَلَمْ نَسْلُ عَنْكَ  
لَا يُرَعُ لِمَهَا بِذِكْرِكَ سِرْبٌ أَشْبَهَتْكَ فِي الوَصْفِ إِنْ لَمْ تَكُنْكَ  
كُنْ عَذِيرِي لَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاجِي يَوْمَ تَبْكِي بِالجَزَعِ وَلَهْيٌ<sup>٢</sup> وَأَبْكِي  
بِحْنَيْنٍ مَرَجَّعٍ وَتَشَكَّ وَأَنْبِيْنَ مَوْجِعٍ كَتَشَكِّي

وقال صاحب المطمح في حقته : الأديب أبو القاسم محمد بن هانيء ، ذخر<sup>٣</sup>

١ المطمح : ٧٧ ، وترجمته ص : ٧٤ .

٢ المطمح : وجدأ .

٣ المطمح : علق .



خطير ، وروضُ أدبِ مطيرٍ ، غاص في طلب الغريب حتى أخرج درّه  
المكنون ، وبهـرَج بافتنانه فيه كلّ الفنون ، وله نظم تمنى الثريا أن تتوج به  
وتتقلد ، ويودُّ البدرُ أن يكتب ما اخترع فيه ووَلد ، زهت به الأندلس وتاهت ،  
وحاستت ببدائعه الأشمس وباهت ، فحسد المغرب فيه المشرق ، وغصّ به  
منّ بالعراق وشرق ، غير أنه نبت به أكنافها ، وشمخت عليه آناقها ،  
وبرئت منه ، وزوِيَت الخيرات فيها عنه ، لأنه سلك مسلك المعري ، وتجرّد  
من التدين وعري ، وأبدى الغلو ، وتعدّى الحقّ المجلو ، فمجّته الأنفس ،  
وأزعجته الأندلس ، فخرج على غير اختيار ، وما عرّج على هذه الديار ،  
إلى أن وصل الزاب واتصل بجعفر ابن الأندلسية ، مأوى تلك الجنسية ، فناهيك  
من سعد وردّ عليه فكّرَع ، ومن باب ولج فيه وما قرّع ، فاسترجع عنده  
شبابه ، وانتجع وبّله وربابه ، وتلقاه بتأهيل ورُحِب ، وسقاه صوب تلك  
السُّحب ، فأفرط في مدحه فيه في الغلو وزاد ، وفرّع عنده تلك المزاد ، ولم  
يتورع ، ولا ثناه ذو ورّع ، وله بدائع يتحير فيها ويبحر ، ويخال لرقتها أنها  
أسحار ، فإنه اعتمد التهذيب والتحرير ، واتّبع في أغراضه الفرزدق مع جرير ،  
وأما تشبيهاته فخرّق فيها المعتاد ، وما شاء منها اقتاد ، وقد أثبت له ما تحنُّ  
له الأسماع ، ولا تتمكن منه الأطماع ، فمن ذلك قوله :

أليتنا إذ أرسلتُ وارداً وحفاً	وبتنا نرى الجوزاء في أذننا شنفاً
وبات لنا ساقٍ يقومُ على الدجى	بشمعةٍ صُبْحٍ لا تُقَطُّ ولا تُطفا
أغنُّ غضيضٌ خفّف اللينُ قدّه	وثقلتِ الصهباءُ أجفانهُ الوطفا
ولم يُبقِ إرعاشُ المدام لهُ يداً	ولم يُبقِ إعناتُ الثني لهُ عِطفا
نزيفٌ نضاه السكرُ إلا ارتجاجةً	إذا كلَّ عنها الحصرُ حملها الردفا
يقولون حِقْفٌ فوقهُ خيَزرانةُ	أما يعرفونَ الخيَزرانةَ والحقفا
جعلنا حشايانا ثيابَ مُدامنا	وقدّدتُ لنا الأزهارُ من جلدها لحفا

فمن كبد توحى إلى كبد هوى  
ومن شفة تومي إلى شفة رَشفا  
ومنها :

كأنَّ السَّماكين اللِّذين تراهُما  
فذا رامحٌ يهُوي إليه سنانهُ  
كأنَّ سُهَيْلاً في مطالعِ أفقهِ  
كأنَّ بني نعشٍ ونعشاً مطافلٌ  
كأن سُهَهاها عاشقٌ بين عودٍ  
كأن قدامى النسرِ والنسرُ واقعٌ  
كأن أخاه حينَ حومَ طائرٌ  
كأن ظلامَ الليلِ إذ مالَ مَيْلَةً  
كأن عمودَ الصبحِ خاقانٌ معشرٍ  
كأن لواءَ الشمسِ غرَّةٌ جعفرٍ  
وله أيضاً :

فُتِقَتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بَعْبِرِ  
وَجَنَيْتُمْ ثَمَرَ الْوَقَائِعِ يانِعاً  
أبْنِي الْعَوالي السَّمْهَرِيَّةِ وَالسِّيَوِ  
مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمَطاعُ كَأَنَّهُ  
جَيْشٌ تَعَدَّ لَهُ اللَّيْوثُ وَفَوْقَها  
وَكَأَنَّمَا سَلَبَ الْقِشاعِمَ ريشَها  
لَحِقَ الْقَبولَ مَعَ الدَّبورِ وسارَ في

وأمدَّكم فلقُ الصِّباحِ المسفرِ  
بالنصرِ من علقِ الحَديدِ الأحمِرِ  
فِ الْمَشْرِفِيَّةِ وَالعَدِيدِ الأَكْثَرِ  
تَحْتَ السَّوابِغِ تَبَعٌ فِي حِميرِ  
كَالغَيْلِ مِنْ قَصَبِ الوَشِيحِ الأَخْضَرِ  
مِمَّا يَشقُّ مِنَ العِجاجِ الأَكْثَرِ  
جَمعَ المِرْقَلِ وَعِزْمَةَ الإسْكَندِرِ

١ المطمح : لطفاً .

٢ المطمح : ورق .

في فنية صدأ الحديد لباسهم  
وكفاه من حب السماحة آتة  
في عبقرى البيض جنة عبقرى  
منها بموضع مقلة من محجر

ومنها :

نعمائوه من رحمة ، ولباسه  
من جنة ، وعطاؤه من كوثر

وله أيضاً من قصيدة في جعفر بن علي :

ألا أيها الوادي المقدس بالندى<sup>١</sup>  
ويا أيها القصر المنيف قبابه<sup>٢</sup>  
ويا ملك الزاب الرفيع عماده<sup>٣</sup>  
فما أنس لا أنس الأمير إذا غدا  
ولا الجود يجري من صفيحة وجهه  
وهزته للمجد حتى كأنما  
أما وأبي تلك الشمائل إنها  
فكيف بصبر النفس عنه ودونه<sup>٤</sup>  
فكن كيف شاء الناس أو شئت دائماً  
ولا تشكر الدنيا على نيل رتبة  
وأهل الندى قلبي إليك مشوق<sup>٥</sup>  
على الزاب لا يسد إليك طريق<sup>٦</sup>  
بقيت لجمع المجد وهو فريق<sup>٧</sup>  
تروع بحوراً فلكه وتروق<sup>٨</sup>  
إذا كان من ذاك الجين شروق<sup>٩</sup>  
جرت في سجايه العذاب رحيق<sup>١٠</sup>  
دليل على أن النجار عتيق<sup>١١</sup>  
من الأرض مغبر الفجاج عميق<sup>١٢</sup>  
فليس لهذا الملك غيرك فوق<sup>١٣</sup>  
فما نلتها إلا وأنت حقيق<sup>١٤</sup>

وله من أخرى :

خليلي أين الزاب مني وجعفر<sup>١٥</sup>  
فقبلني نأى عن جنة الخلد آدم<sup>١٦</sup>  
لقد سررتني أنني أمر بباله<sup>١٧</sup>  
وجنات عدن بنت عنها وكوثر<sup>١٨</sup>  
فما راقه من جانب الأرض منظر<sup>١٩</sup>  
فيخبرني عنه<sup>٢٠</sup> بذلك مخبر<sup>٢١</sup>

١ المطح : بالطوى .

٢ هذا الشطر مضطرب في الأصل ، ولا يزال - على التصويب - قلقاً .

٣ ب : فيخبره عني .

وقد ساعني أني أراه ببلدة  
وقد كان لي منه شفيع مشفع  
أني الناس أفواجاً إليك كأنما  
فأنت لمن قد مزق الله شمله

بها منسك منه عظيم ومشعر  
به يمحص الله الذنوب ويغفر  
من الزاب بيت أو من الزاب محشر  
ومعشره والأهل أهل ومعشر

وله أيضاً :

ألا طرقتنا والنجوم ركود  
وقد أعجل الفجر الملمع خطوها  
سرت عاطلاً غضبي على الدرّ وحده  
فما برحت إلا ومن سلك أدمعي  
ويا حسنها في يوم نصت سوالفاً  
ألم يأتها أنا كبرنا عن الصبا  
ولا كالليالي ما هن مواتق  
ولا كالعز ابن النبي خليفة

وفي الحي أيقاظ وهن هجود  
وفي أخريات الليل منه عمود  
ولم يدر نحر ما دهاه وجيد  
قلائد في لباتها وعفود  
تريع إلى أترابها وتحييد  
وأنا بلينا والزمان جديداً  
ولا كالغواني ما هن عهد  
له الله بالفخر الميين شهيد

وله من قصيدة يمدح بها يحيى بن علي بن رمان :

قفا بي فلامسرى سرينا ولا نسري  
قفا نتبين أين ذا البرق منهم  
لعل ثرى الوادي الذي كنت مرة  
وإلا فما واد يسيل بعنبر  
أكل كناس بالصرير تظنه  
وهل عجبوا أني أسائل عنهم  
وهل علموا أني أيمم أرضهم  
ولي سكن تأتي الحوادث دونه

وإلا نرى مشي القطا الوارد الكدر  
ومن أين تأتي الريح طيبة النسر  
أزورهم فيه توضع للسفر  
وإلا فما تدري الركاب ولا ندري  
كيناس الأطباء الدعج والشدن العفر  
وهم بين أحناء الجوانح والصدر  
وما لي بها غير التعسف من خبر  
فيبعد عن عيني ويقرب من فكري

إذا ذكرته النفسُ جاشتُ بذكره  
فلا تسألاني عن زماني الذي خَلا  
وآليتُ لا أعطي الزمانَ مَقادتي  
حنيني إليه ظاعناً ومُخيماً  
وله من قصيدة :

فتكاتُ طرفكِ أم سيوفُ أبيكِ  
أجلادُ مرهفةٍ وفتكُ محاجرِ  
يا بنتَ ذي السيفِ الطويلِ نجادهُ  
عينكِ أم مغناكِ موعدنا ، على  
وله أيضاً :

أحبُّ بهاتيكِ القبابِ قبابا  
فيها قلوبُ العاشقينَ تخالها  
والله لولا أن يعنّفي الهوى  
لكسرتُ دُمَلجها بضيقِ عناقها  
بنمٍ فلولا أن أُغَيِّرَ لمتي  
لخَصَبْتُ شيئاً في مفارقِ لمتي  
وخَضَبْتُ مبيضَ الحدادِ عليكمُ  
وإذا أردتَ على المشيبِ وفادةً  
فلتأخذنَّ من الزمانِ حمامةً  
ومنها :

قد طيبَ الأقطارَ طيبُ ثنائهِ  
لم تُدْنيني أرضُ إليكِ وإنّما  
من أجلِ ذا نجدُ الثغورِ عذابا  
جئتُ السماءَ ففتحتُ أبوابا

ورأيتُ حولي وقدَ كلَّ قبيلةً  
 أرضٌ وطئتُ الدرَّ من رضاضها  
 ورأيتُ أجبلَ أرضِها منقاداً  
 سدَّ الإمامُ بها الثغورَ وقبلها  
 حتَّى توهمتُ العراقَ الزابا  
 والمسكَ تريباً والرياضَ جنابا  
 فحسبتها مدَّتْ إليك رقابا  
 هزمَ النبيُّ بقومك الأحزابا  
 وقال ابن هانئ يصف الأسطول :

مُعَطِّفَةَ الأعناقِ نحوَ مُتُونِها  
 إذا ما وردنَ الماءَ شوقاً لبرِّدهِ  
 إذا أعملوا فيها المجاذيفَ سرعةً  
 كما نَبَّهتْ أَيْدِي الحِوَاةِ الأفاعيا  
 صدرنَ ولم يشرنَ غرقاً صواديا  
 ترى عقرباً منها على الماء ماشيا

10 - وقال الأديب أبو عمر أحمد بن فرج الجياني رحمه الله تعالى<sup>١</sup> :

وطائفة الوصال عدوتُ عنها  
 بدتُ في الليل ساترةً ظلامَ الـ  
 وما من لحظةٍ إلّا وفيها  
 فملكتُ النهى جمّحاتٍ شوقي<sup>٢</sup>  
 وبتُّ بها مبيتَ الطفلِ يظما  
 كذلك الروضُ ليس بهِ لمثلي  
 ولستُ من السوائِمِ مهمّلاتٍ  
 وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ  
 دياجي منه<sup>٣</sup> سافرةً القناعِ  
 إلى فتنِ القلوبِ لها دواعي  
 لأجري بالعفافِ على طباعي  
 فيمنعه الفطامُ عن الرضاعِ  
 سوى نظري وشمِّ مسن متاعِ  
 فأتحذَّ الرياضَ من المراعي

وقال :

للروضِ حسنٌ فقِفْ عليهِ واصرفِ عنانَ الهوى إليهِ

١ المطمح : ٨٠ ، وقد سقطت القطعة من ب م ، وألحقت التالية بأشعار ابن هانئ ؛ وانظرها في

ج ٣ : ١٩٦ .

٢ ق : ظلام الليالي وهي ؛ المطمح : ساترة دياجي ظلام الليل .

٣ ق : حجج .

أما ترى نرجساً نضيراً      يرنو إليه بمقلتيه  
نشرُ حبيبي على رباه      وصفرتي فوق وجتيه

وقال :

بمهلكة يستهلكُ الحمدُ عَفْوَهَا      ويتركُ شملَ العزمِ وهو مُبَدَّدٌ  
ترى عاصفَ الأرواحِ فيها كأنها      من الأينِ تمشي ظالعٌ أو مقيدٌ

وقال فيه في المطمح : مُحَرِّزِ الخصل ، مُبَرِّزِ في كل معنى وفصل<sup>١</sup> ،  
متميز بالإحسان ، مُنْتَمِ إلى فئة البيان ، ذكي الخلد مع قوة العارضة ، والمنة  
الناهضة ، حضر مجلس بعض القضاة وكان مشتهر الضبط منتهراً<sup>٢</sup> لمن انبسط فيه  
بعض البسط ، حتى إن أهله لا يتكلمون فيه إلا رمزاً ، ولا يخاطبون إلا  
إيماء فلا تسمع لهم ركزاً ، فكلّم فيه خصماً له كلاماً استطال به عليه لفضل  
بيانه ، وطلاقة لسانه ، ففارق عادة المجلس في رفض الأنفة ، وخفض الحجّة  
المؤتفة ، وهز عطفه وحسّر عن ساعده ، وأشار بيده ، مادّ آبه لوجه خصمه ،  
خارجاً عن حد المجلس ورسمه ، فهمّ الأعوان بتقويمه وتثقيفه ، ووزّعهم  
رهبة منه وخشية ، حتى تناوله القاضي بنفسه ، وقال له : مهلاً عافاك الله  
اخفيض صوتك ، واقبض يدك ، ولا تفارق مركزك ، ولا تعدّ حقتك ،  
وأقصر عن إدلالك<sup>٣</sup> ، فقال له : مهلاً يا قاضي ، أمن المخدرات أنا فأخفض  
صوتي وأستر يدي ، وأعطي معاصمي لديك ؟ أم من الأنبياء أنت فلا يُجهر  
بالقول عندك ؟ وذلك لم يجعله الله تعالى إلا لرسوله عليه الصلاة والسلام ، لقول  
الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ -

١ المطمح : وفضل .

٢ في الأصول والمطمح : مشهراً .

٣ المطمح : انتمائك وإدلالك .

إلى قوله : لا تَشْعُرُونَ ﴿ (الحجرات : ٢) ولستَ به ولا كرامة ، وقد ذكر الله تعالى أن النفوس تُجَادِلُ في القيامة في موقف الهَوَلِ الذي لا يَعدُّه مَقَامٌ ، ولا يشبه انتقامه انتقام ، فقال تعالى ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا - إلى قوله تعالى : وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ (النحل : ١١١) . لقد تعديت طَوْرَكَ ، وَعَلَوْتَ في منزلك<sup>١</sup> ، وإنما البيان ، بعبارة اللسان ، وبالنطق يستبين الحق من الباطل ، ولا بد في الخصام ، من إفصاح الكلام . وقام وانصرف . فبُهِتَ القاضي ، ولم يُحِرْ جواباً . وكان في الدولة صدرأً من أعيانها ، وناسق درر تبيانها ، ونَفَقَ في سوقها وصنَّفَ ، وقرَّطَ محاسنها وشنَّفَ ، وله الكتاب الرائق ، المسمى بالحدائق ، وأدرکه في الدولة سَعِي ، ورُفِضَ له فيها الرَّعِي ، واعتقله الخليفة وأوثقه في مكان أخيه فلم يَوْمِضْ له عَقْوٌ ، ولم يشب كدر حاله صَفْوٌ ، حتى قضى معتقلاً ، ونُعيَ للنائب نَعِيّاً مثكلاً ، وله في السجن أشعار كثيرة ، وأقوال مُبَدَّعات منيرة ، فمن ذلك ما أنشده ابن حزم يصف خيالاً طرقه ، بعدما أسهره الوجد وأرقه :

بأَيِّهما أنا في الشُّكْرِ بادي      بشُكْرِ الطَّيْفِ أم شكر الرقادِ  
سَرَى وازداد في أملي ولكن      عَفِيفْتُ فلم أجِدْ منه مُرَادِي  
وما في النومِ من حرج ولكن      جريت من العفافِ على اعتيادي

11 - وقال الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد بن الحدّاد<sup>٢</sup> :

يا غائباً حَطَرَاتُ القلبِ مَحْضَرُهُ      الصبرُ بعدك شيءٌ لستُ أقدرُهُ  
تركتَ قلبي وأشواقِي تُفَطِّرُهُ      ودَمْعُ عَيْنِي وأحدآقِي تُحَدِّرُهُ  
لو كنتَ تبصرُ في تدميرِ حالتنا      إذنٌ لأشفقتَ مما كنتَ تبصرُهُ

١ المطمح : منزلتك .

٢ المطمح : ٨١ ؛ وترجمته ص : ٨٠ - ٨٢ .



فالعينُ دونك لا تحلّي بلذتها      والدهرُ بعدك لا يصفو تكدرُهُ  
أحفي اشتياقي وما أطويه من أسفٍ      عن البريةِ والأنفاسُ تُظهرُهُ

قال في المطمح : هو شاعر مباح ، وعلى أيك الندى صادق ، لم يُنطقه  
إلا معن<sup>١</sup> أو صُمادح ، فلم يَرمِ مثنواهما ، ولم ينتجع سواهما ، واقتصر  
على المرية ، واختصر قطع المهامه وخوض البرية ، فعكف فيها ينثر درره  
في ذلك المُنتدَى ، ويرشِفُ أبداً ثغورَ ذلك النَدَى ، مع تميّزه بالعلم ،  
وتحيّزه إلى فئة الوقار والحلم ، وانتمائه إلى آية سلف ، ومذهبه مذاهب أهل  
الشرف ، وكان له لَسَنٌ ورّواء يشهدان له بالنباهة ، ويقلدان كاهله ما شاء  
من الوجاهة ، وقد أثبت له بعض ما قذفه من درره ، وفأه به من محاسن غرره ؛  
فمن ذلك قوله :

إلى الموت رُجعي بعد حين فإن أمت      فقد خُلِّدَتْ خُلِّدَ الزمان مناقبي  
وذكرني في الآفاق طار كأنه      بكلّ لسانٍ طيبٍ عذراء كاعبِ  
ففي أيِّ علمٍ لم تبرزُ سوابقي      وفي أيِّ فنٍّ لم تبرزُ كتائبي

وحضر مجلس المعتصم بحضور ابن اللبّانة فأنشد فيه قصيداً أبرز به من عُرَى  
الإحسان ما لم ينقصم واستمر فيها يستكمل بدائعها وقوافيها ، فإذا هو قد أغار  
على قصيد ابن الحداد الذي أوّله :

عُجّ بالحمى حيثُ الطباءُ<sup>٢</sup> العينُ

فقال ابن الحداد مرتجلاً :

حاشا لعدلك يا ابن معنٍ أن يُرى      في سلكٍ غيري دريِّ المكنونُ

١ المطمح : جود معن .  
٢ المطمح : الحماس .

واليكها تشكو استلابَ مطيِّها  
فاحكمْ لها واقطع لساناً لا يداً  
عُجْ بالحمى حيثُ الطباءُ العينُ  
فلسانُ من سَرَقَ القريضَ يمينُ  
وله :

إنَّ المدامعَ والزفيرُ  
فعلامَ أخفي ظاهراً  
قد أعلننا ما في الضميرُ  
هبْ لي الرضى من ساخطٍ  
سَقَمي عليَّ به ظهيرُ  
قلبي بساحتِهِ الأسيرُ  
وله أيضاً :

أيها الواصلُ هجري  
ليت شعري أيُّ نفعٍ  
أنا في هجرانِ صبري  
لكَ في إدمانِ ضُرِّي  
وله أيضاً :

يا مُشبهَ الملكِ الجَعديَّ تسميةً  
ومُخجِلَ القمرِ البدريَّ أنوارا  
وله :

تُطالبني بنفسي بما فيه صَوْنُها  
ووالله ما يَخْفَى عليَّ ضلالها  
فأعصي ويسطو شوقها فأطيعُها  
ولكنها تهوي فلا أستطيعُها  
وقال :

بِخَافِقَةِ القَرنِ قَلْبِكَ خَافِقُ  
وَفِي مَشْرِقِ الصُّدُغِينِ لِلبَدْرِ مَغْرَبُ  
وَعَن خَرَسِ القُلُوبِ دَمْعُكَ نَاطِقُ  
مُحَلَّلَةٌ عَنهُ الطَّبَّاءُ السَّوَابِقُ  
وبينَ حصيِّ الياقوتِ ماءً وسامةٍ

وحشوا قباب الرقم أحوى مقرطق<sup>١</sup> كما أس روض عطفه<sup>٢</sup> والقراطق<sup>٣</sup>  
انتهى باختصار .

12 - وقال الأسعد بن بليظة<sup>٤</sup> :

برامة ريم<sup>٥</sup> زارني بعدما شطاً  
رعى من أفانين الهوى ثمر الحشا  
خيال لمقوم<sup>٦</sup> غرير<sup>٧</sup> برامة  
فأكسني من خدّها روضة الجنى  
وباتت ذراعها نجاداً لعاتقي  
وسلّ اهتصاري غصنها من مخصر<sup>٨</sup>  
وقد غاب كحل الليل<sup>٩</sup> في دمع فجره  
ومنها في وصف الديك :

وقام لها ينعى الدجى ذو شقيقة  
إذا صاح أضغى سمعه لأذانه  
كان أنوشروان<sup>١٠</sup> أعلاه<sup>١١</sup> تاجه<sup>١٢</sup>  
سبي حلة الطاووس حسن لباسها  
ومن غزلها :

غلامية<sup>١٣</sup> جاءت وقد جعل الدجى  
فقلت أحاجيها بما في جفونها  
محيرة العينين من غير سكرة<sup>١٤</sup>  
لحاتم فيها قصر<sup>١٥</sup> غالية خطأ  
وما في الشفاه<sup>١٦</sup> اللعس من حسنها المعطى  
متى شربت<sup>١٧</sup> الحاظ<sup>١٨</sup> عينيك إسفنطا

١ المطح : ٨٣ - ٨٤ .

٢ ب : العين .

أرى نكهة المسواك في حُمرة اللَّمَى      وشاربك المخضَّر بالمسكِ قد خطَّأ  
عسى قُرْحُ قِبَلْتِهِ فإِخَالَهُ      على الشفةِ اللَّمِيَاءِ قد جاءَ مَحْتَطَّأً

وقال في المطمح في تحلية الأسعد : إنَّه سرَّدَ البدائع أحسن السَّرْدِ ،  
وافترس المعاني كالأسد الوَرْدِ ، وأبرَزَ درر المحاسن من صدفها ، وحاز من  
بحر الإجادة وشرفها ، ومدح ملوكاً طَوَّقَهُم من مدائحهم قلائد ، وزفَّ إليهم  
منها خَرَائِدَ ، وجلاها عليهم كواعب ، بالألباب لواعب ، فأسالت العوَّارف ،  
وما تقلَّصَ له من الحظوة ظِلِّ وارف ، وقد أثبتُّ له ما يعترف بحقه ، ويُعرف  
به مقدار سَبَقِهِ ، فمن ذلك قوله :

لو كنتَ شاهدنا عشيةَ أمسنا      والمُزْنُ يُبَكِّينَا بعينيْ مَذْنِبِ  
والشمسُ قد مدَّتْ أديمَ شعاعها      في الأرضِ تَجْنَحُ غيرُ أنْ لم تغربِ  
وقوله :

وتلذُّ تعذبي كأنك خلتي      عوداً فليس يطيبُ ما لم يُحرقِ  
وهو مأخوذ من قول ابن زيدون :

تظنونني كالعودِ حقاً وإنَّما      تطيبُ لكم أنفاسه حينَ يُحرقُ  
انتهى ببعض اختصار<sup>١</sup> .

13 - وقال الأديب أبو بكر عبادة بن ماء السماء ، وهو كما في المطمح<sup>٢</sup> :  
من فحول الشعراء ، وأئمتهم الكبراء ، وكان منتجعاً بشعره ، مسترجعاً من  
صروف دهره ، وكانت له همَّة أطالت همَّه ، وأكثرت كمده وغمَّه :

١ هو كما في المطمح المطبوع دون اختصار .

٢ المطمح : ٨٤ .

يؤرقني الليلُ الذي أنا نائمُهُ      فتجهلُ ما ألقى وطرفك عالمُهُ  
وفي الهودج المرقوم وجهٌ طوى الحشا      على الحزن فيه الحسن قد حار راقمه  
إذا شاء وفقاً أرسل الحسنُ فرعهُ      يُضِلُّهم عن منهجِ القصدِ فاحمه  
أظلماً رأوا تقليده الدرّ أم زرواً      بتلك اللآلي أنهنّ تئاتمه

14 - وقال الأديب أبو عبد الله ابن عائشة في فتي طرزت غلالة خده ،  
ورُكب من عارضه سنان على صعّدة قده<sup>1</sup> :

إذا كنت تهوى خدّه وهو روضةٌ      بهِ الوردُ غَضُّ والأقاحُ مفلجُ  
فردٌ ككلفاً فيهِ وفِرطاً صبايةِ      فقد زيدَ فيه من عذارِ بنفسجُ

وحلّاه في المطمح بأن قال : اشتهر صوناً وعفافاً ، ولم يخطب بعقيلة  
حصّرة زفافاً ، فأثر انقباضاً وسكوناً ، واعتمد إليها ركوناً ، إلى أن أنهضه  
أميرُ المسلمين إلى بساطه فهبّ من مرقد خموله ، وشبّ لبلوغ مأموله ، فبدا  
منه في الحال انزواء ، في تسم تلك الرسوم والتواء ، وقعود عن مراتب الأعلام ،  
وجمود لا يُحمد فيه ولا يُلام ، إلاّ أن أمير المسلمين ألقى عليه منه محبّته ،  
جلبت إليه مسرّى الظهور ومهّبه ، وكان له أدب واسع المدى ، يانع  
كالزهر بلّله الندى ، ونظم مشرق الصفحة ، عبقّ النّفحة ، إلاّ أنّه قليلاً  
ما كان يحلُّ ربه ، وينديل له طبعه ، وقد أثبت له منه ما يدع الألباب حائرة ،  
والقلوب إليه طائرة ، فمن ذلك قوله في ليلة سمحت له بفتى كان يهواه ،  
ونفحت له هبةً وصلّ بردتُ جواه :

لله ليلٌ باتَ عندي بهِ      طوعَ يدي منْ مهجتي في يديه  
وبتُ أسقيه كؤوس الطلّا      ولم أزل أسهرُ شوقاً إليّه  
عاطيته حمراء ممزوجةً      كأنّها تُعصرُ من وجنتيه

١ المطمح : ٨٤ - ٨٦ .

وخرج من بِلَسْنِيَّة يوماً إلى منية الوزير الأجلّ أبي بكر ابن عبد العزيز ، وهي من أبدع منازل الدنيا ، وقد مدّت عليها أدواحها الأفيا ، وأهدت إليها أزهارها العرفَ والرِّيا ، والنهر قد غص بمائه ، والروض قد خص بمثل أنجم سمائه ، وكانت لبني عبد العزيز فيها أطراب ، تهاهم فيها من الأيام آراب ، فلبسوا فيها الأشرَ حتى أبلوه ، ونشروا فيها الأنسَ وطوَّوه ، أيام كانوا بذلك الأفق طلوعاً ، لم تضمّ عليهم الثوبُ ضلوعاً ، فقعد أبو عبد الله مع لُمة من الأدباء تحت دَوْحة من أدواحها ، فهبت ريح أنس من أرواحها ، سطت بإعصارها ، وأسقطت لؤلؤها على باسم أزهارها ، فقال :

ودوحة قد علّت سماء تطلع أزهارها نجوما  
هفا نسيم الصبا عليها فأرسلت فوقنا رجوما  
كأنما الجوّ غار لما بدت فأغرى بها النسيما

وكان في زمان عطلته ، ووقت اصفراره وعلته ، ومقاساته من العيش أنكدّه ، ومن التخوف أجهدّه ، كثيراً ما ينشرح بجزيرة سُقْر ويسريح ، ويستطيب تلك الريح ، ويَجُول في أجارع واديها ، وينقل من نواديها إلى بَواديها ، فإنها صحيحة الهواء ، قليلة الأدوية ، خضلة العُشب والأزهار<sup>١</sup> ، قد أحاط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الأساور ، والأيكُ قد نشرت ذوائبها على صفيحه ، والروض قد عطر جوانبه<sup>٢</sup> بريجه ، وأبو إسحاق ابن خفاجة هو كان منزع نفسه ، ومصرع أنسه ، نفح له بلنّي عبّق وشذا ، ومسح عن عيون مسرّاته القنّدي ، وغدا على ما كان وراح ، وجرى متهافتاً في ميدان ذلك المراح ، قريب عهدٍ بالفطام ، ودهره ينقاد في خطام ، فلما اشتعل رأسه شيباً ، وزرّت عليه الكهولة جيّباً ، أقصر عن تلك الهنات ، واستيقظ من تلك السنّات ، وشبّ

١ المطح : زاهية الأزاهر .

٢ المطح : جوانبها .

عن ذلك الطوق ، وأقصر عن الهوى والشوق ، وقنع بأدنى تحية ، وما يستشعره  
في وصف تلك العهاد من أريحية ، فقال :

ألا خلتباني والأسى والقوافيا      أرددُها شجوي<sup>١</sup> وأجهشُ باكيا  
أمن شخصاً للمسرة بادياً      وأندبُ رسماً للشيبة باليا  
تولّى الصبأ إلا توالي فكرة      قدحتُ بها زنداً وما زلتُ واريا  
وقد بان حلو العيش إلا تعلّة<sup>٢</sup>      تحدثني عنها الأمانى خاليا<sup>٢</sup>  
ويا برد هذا الماء هل منك قطرة<sup>٣</sup>      تهلُّ فيستسقى غمامك صاديا  
وهيهات حالت دون حزوى وأهلها      ليال وأيام تُخالُ اللياليا  
فقل في كبير عاده صائد الطبأ      إليهن مهتاجاً وقد كان ساليا  
فيا راكباً يستعمل الخطو قاصداً      ألا عجُ بشقير راثعاً أو مغاديا  
وقف حيثُ سال النهرُ ينساب أرقماً      وهب نسيم الأيك ينثُ راقيا  
وقل لأثيلاتِ هناك وأجرع<sup>٣</sup>      سقيتِ أثيلاتِ وحييتِ واديا  
انتهى ببعض اختصار<sup>٣</sup> .

وابن عائشة أشهر من أن يطال في أمره ، وليس الخبر كالعيان .

٥٢٣ - وقال أبو عمرو يزيد بن عبد الله بن أبي خالد اللخمي الإشبيلي

الكاتب في فتح المهديّة سنة ٦٠٢ :

كم غادر الشعراء من متردّم      ذخرتُ عظامه لخيرٍ معظّم  
تبعاً للذخورِ الفتحِ فإنه      جاءت له بخوارق لم تُعلم  
من كلّ سامية المنال إذا انتمت      رفعت إلى اليرموك صوت المتّمي

١ ب : شكوى ؛ م : شجوا .

٢ المطمح : خواليا .

٣ لم يختصر شيئاً من المطمح المطبوع .

وتوسّطت في النهروان بنسبةٍ كَرُمَتْ ففازت بالمحلّ الأكرمِ

قال ابن الأبار في «تحفة القادم»<sup>١</sup> : هو صدر في نبهائها وأدبائها ، يعني إشبيلية ، وممن له قدر في منجبيها ونجباتها ، وإلى سلفه ينسب المعقل المعروف بحجر أبي خالد<sup>٢</sup> ، وتوفي بها سنة ٦١٢ ، وأورد له قوله :

ويا للجوّاري المنشآت وحسّنها طوائرَ بينَ الماءِ والجوّ عوّمًا  
إذا نشرتُ في الجوّ أجنحةً لها رأيتَ بهِ روضاً ونوراً مكمّما  
وإن لم تهجه الريحُ جاء مصافحاً فمدت له كفاً خضيباً ومعصما  
مجازفُ كالحياتِ مدّت رؤوسها على وجلٍ في الماءِ كي تروي الظما  
كما أسرعَت عدّاءُ أناملُ حاسبٍ بقبضٍ وبسطٍ يسبقُ العينَ والفما  
هي الهدبُ في أجفانٍ أكحلٍ أوطفٍ فهل صنعتُ من عندمٍ أو بكت دما

قال ابن الأبار : أجاد ما أراد في هذا الوصف ، وإن نظر إلى قول أبي عبد الله ابن الحداد يصف أسطول المعتصم بن صُمّادح :

هام صرّف الردى بهامِ الأعادي أن سمّت نحوهم لها أجيادُ  
وتراءتُ بشرعها كعيونٍ دأبها مثلُ خائفها سُهادُ  
ذات هُدبٍ من المجاذيفِ حاكٍ هُدبَ باكٍ لدمعه إسعادُ  
حُممٌ فوقها من البيضِ نارٌ كلُّ من أرسلت عليه رمادُ  
ومن الخطّ في يدي كلّ درٍ أليفٌ خطّها على البحرِ صادُ

قال : وما أحسن قول شيخنا أبي الحسن ابن حريق في هذا المعنى من قصيدة

أنشدنيها :

١ تحفة القادم : ١٢٠ وفيه الأشار حتى قوله : انتهى ؛ والنص هنا أوفى بما هو في المقتضب .

٢ كذا في الأصول ؛ وفي التحفة : ابن أبي خالد .



وكأنما سكن الأرقامُ جوفها من عهدِ نوحٍ خشيةَ الطوفانِ  
فإذا رأين الماءَ يطفحُ نضضتُ من كلِّ خرْقٍ حيةً بلسانِ

قال : ولم يسبقهم إلى الإحسان ، وإنما سبقهم بالزمان ، عليُّ بن محمد  
الإيادي التونسي في قوله :

شرعوا جوانبها مجاذفَ أتعبتُ شادي الرياح لها ولما تتعبِ  
تنصاعُ من كَثَبٍ كما نفر القَطَا طوراً وتجتمع اجتماعَ الرَبْرَبِ  
والبحرُ يجمعُ بينها فكأنه ليلٌ يقربُ عقرباً من عقربِ  
وعلى جوانبها أسودُ خلافةِ تختالُ في عددِ السلاحِ المذهبِ  
وكأنما البحرُ استعارَ بزيمهم ثوبَ الجمالِ من الربيعِ المعجبِ

ومن هذه القصيدة الفريدة في ذكر الشراع :

ولها جناحٌ يُستعارُ يُطيرها طوعَ الرياحِ وراحةَ المتطربِ  
يلعبها حدبَ العُبابِ مطاره في كلِّ لَحٍّ زاخرٍ معلولِ  
يسمو بأخر في الهواءِ منصَّبِ عريانَ منسرحِ الذؤابةِ شوذبِ  
يتنزلُ الملاحُ منه ذؤابةً لو رام يركبها القطا لم يركبِ  
وكأنما رامَ استراقةَ مقعدِ للسمعِ إلا أنه لم يُشهبِ  
وكأنما جينُ ابنِ داودِ همُ ركبوا جوانبها بأعنفِ مركبِ  
سجروا جواهرهم بينهمُ فتقاذفوا منها بألسُنِ مارجِ متلهبِ  
من كلِّ مسجونِ الحريقِ إذا انبرى من سجنه انصلت انصلات الكوكبِ  
عريانَ يقدمهُ الدخانُ كأنه صُبْحُ يكرُّ على ظلامِ غيبِ

ومن أولها :

١ م : وإن ؛ التحفة : وإن كان .

أعجِبَ بأسطول الإمامِ محمدٍ      وبحسنه وزمانه المستغربِ  
لبستَ به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ      يبدو لعينِ الناظرِ المتعجِّبِ  
من كلِّ مشرفةٍ على ما قابلتُ      إشرافَ صدرِ الأجدلِ المنتصبِ  
ومنها :

جوفاء تحملُ موكباً في جوفها      يومَ الرهانِ وتستقلُّ بموكبِ  
وهي طويلة من غرر القصائد ، وقد سرَدَ جملة منها صاحب « المناهج »  
وغيره .

وقال أبو عمر القسطلِّي<sup>١</sup> :

وحال الموجُ بينَ بني سبيلٍ      يطير بهمُ إلى الغولِ ابنُ ماء  
أغرُّ له جناحٌ من صباحٍ      يرفرفُ فوقِ جناحٍ من سماء  
وأخذهُ أبو إسحاق ابن خفاجة فقال<sup>٢</sup> :

وجاريةٍ ركبْتُ بها ظلاماً      يطيرُ من الصباحِ بها جناحُ  
إذا الماءُ اطمأنَّ ورقٌ خصرأ      علا من موجهِ رِدْفٍ رداحُ  
وقد فغر الحِمَامُ هناك فاه      وأتلعُ جيدةَ الأجلِ المُتاحُ

ولا يخفأك حُسن هذه العبارة الصقيلة المرأة ، فالله تعالى يرحم قائلها .  
وقال ابن الأبار : وقد قلت أنا في ذلك :

يا حبذا من بناتِ الماءِ سابجةً      تَطْفُو لما شبَّ أهلُ النارِ تطفئهُ  
تطيرها الريحُ غريباناً بأجنحةٍ      حمامِ البيضِ للأشراكِ ترزؤه

١ ديوانه : ٣٢٣ ورفع الحجب ١ : ١٤٢ .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٣٨ .

من كلَّ أدهمَ لا يُلفى به جَرَبٌ فما لراكبه بالقصارِ يهنؤه  
يدعى غراباً وللفتحاء سرعته وهو ابن ماءٍ وللشاهين جُوْجُوْه

واجتمع ابن أبي خالد وأبو الحسن ابن الفضل الأديب عند أبي الحجاج ابن  
مرطير الطيب بحضرة مراکش ، وجرى ذكر قاضيتها حينئذ أبي عمران موسى  
ابن عمران بينهم ، وما كان عليه من القصور والبعد عما أتبع له ، وأوثر به ،  
فقال أبو الحجاج :

ليس فيه من أبي موسى شبهة

فقال أبو الحسن :

فأبوه فِضَّة وهو شبهة

فقال ابن أبي خالد :

كم دعاه إذ رآه عُرَّةً وأباه إذ دعاهُ يا أبة

٥٢٤ - وقال أبو العباس الأعمى<sup>١</sup> :

بهيمة لو جرى في الخليل أكبرها      لفاتت الرياح في الأحجال والغرر<sup>٢</sup>  
تجرى فللماء ساقا عائمٍ دربٍ      وللرياح جناحا طائرٍ حذر<sup>٣</sup>  
قد قسمتها يدُ التقدير<sup>٤</sup> بينهما      على السواء فلم تسبح ولم تطير

٥٢٥ - وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الأسطول<sup>٥</sup> :

١ هو الأعمى التطيلي ، انظر ديوانه : ٥١ .

٢ رواية الديوان :

بهيمة لو توفي كنه شرتها      لفاتت الخليل في الأحجال والغرر

٣ الديوان : ذكر .

٤ الديوان : التدبير .

٥ الذخيرة ( ٢ : ٢٠٧ ) .

يا حسنها يوماً شهدتُ زفافها  
ورقاء كانتُ أَيْكَةً فتصوّرتُ  
حيثُ الغرابُ يجرُّ شملةَ عَجْبِهِ  
من كلِّ لَابِسَةِ الشَّبَابِ مَلَاءَةً  
شهدتُ لها الأعيانُ أنَّ شَوَاهِنَا  
من كلِّ ناشرةٍ قوادِمَ أَجْنِحِ  
زارتُ زَيْبَرَ الأَسَدِ وهي صوامتُ  
ومَجاذِفُ تحكي أرقامَ ربوةِ

٥٢٦ - وقال ابن خفاجة ٢ :

سَقِيًّا لها من بطاحِ خَزْرٍ  
فما ترى غيرَ وجهِ شمسِ  
ودَوَّحِ نهرِ بها مُطِيلٍ  
أطلَّ فيه عِذارُ ظِلِّ

وهو من بديع الشعر ، وكم لابن خفاجة من مثله .

٥٢٧ - [ قطعة منقولة عن المغرب ]

١ - وقال عبيد الله بن جعفر الإشبيلي ، وقد زار صاحباً له مرات ولم  
يزره هو ، فكتب على بابهِ ٣ :

يا من يُزارُ على بُعدِ المحلِّ ولا  
زُرُ من يزوركِ واحذري قولَ عاذلةِ  
يزورنا مرّةً من بينِ مرّاتِ  
تقولِ عنكِ : فتى يوتى ولا يأتي

١ ب : عسرة ؛ ق : عرة ؛ وأثبتنا رواية م .  
٢ ديوانه : ١٤٠ وقد مر البيتان ج ١ : ١٩ .  
٣ ترجمته والبيتان الأولان في المغرب ١ : ٢٦٢ .

ومن مجونياته ، سماحه الله تعالى :

وأغيدَ لَيْسَ تعلوهُ الأمانِي      ولو حكمتَ عَلَيهِ بِاشتطاطِ  
سَقَيْتُ الرَّاحَ حَتَّى مالَ سَكَراً      ونامَ عَلَى النمارقِ والبساطِ  
وأسلم لي على طول التجني      وأمكني على فرط التعاطي  
فأولجتِ المقادِرُ جيدَ بَكْرٍ      ولا كفرانَ في سَمِّ الحياطِ  
وغنّاني بصوتٍ من حشاه      فأطربني وبالغَ في نشاطي  
فما نَقَرُ المِثَالِ والمِثاني      بأطربَ من تلاحينِ الضراطِ  
ولولا الريقُ لم أظفرُ بشيءٍ      على عدم اهتبالي واحتياطي  
فلا تسخرُ بريقٍ بَعْدَ هذا      فإنَّ الريقَ مَفْتاحُ اللواطِ

2 - وقال أبو الحسن علي بن جحدر الزجاج<sup>1</sup> :

كيفَ أصبحتَ أيهذا الحبيبُ      نحن مَرَضَى الهوى وأنت الطيبُ  
كلُّ قلبٍ إِلَيْكَ يهفو غراماً      ويحها يا علي<sup>2</sup> منكَ القلوبُ  
إن تَلَحُّ حَوَمَتُ عَلَيْكَ هياماً      أو تَغِبَ حَنها عَلَيْكَ الوجيبُ  
غيرَ آتِي من بينهم مستريبُ      حينَ تبدو وليس لي ما يريبُ  
كلُّ ما قد ألقاه منكَ ومني      دونَ هذا له تُشَقُّ الجُيوبُ

3 - وقال أحمد المعروف بالكساد ، في موسى الذي كان يتغزل فيه شعراء

إشيلية<sup>3</sup> :

ما لموسى قد خرَّ لله لما      فاض نوراً غشاه ضوء سناه  
وأنا قد صُعِقْتُ من نور موسى      لا أُطيقُ الوقوفَ حينَ أراه

١ المغرب ١ : ٢٦٢ والقدح : ١٧٢ .

٢ هذه رواية القدح ؛ وفي الأصول : وتجانى علي .

٣ ترجمة الكساد ومقطعاته في المغرب ١ : ٢٨٨ .

ولله درّه في رثاء موسى المذكور إذ قال :

فرّا إلى الجنة حوريها وارفع الحسن من الأرض  
وأصبح العشاق في ماتم بعضهم يبكي إلى بعض

وقوله فيه :

هتفّ الناعي بشجور الأبد إذ نعى موسى بن عبد الصمد  
ما عليهم ويجهم لو دفنوا في فؤادي قطعة من كبدي  
ولقب بالكساد لقوله :

وبيع الشعر في سوق الكساد

4 - وقال أبو القاسم ابن أبي طالب الحضرمي المنيشي<sup>٢</sup> :

صاغت يمين الرياح محكمة في نهر واضح الأسارير  
فكلما ضاعفت به حلقاً قام لها القطر بالمسامير

5 - وقال أبو زيد عبد الرحمن العثماني ، وهو من بيت إمارة<sup>٣</sup> :

لا تسلتي عن حالي فهي هدي مثل حالي لا كنت يا من يراني  
ملتي الأهل والأخلاء لما أن جفاني بعد الوصال زماني  
فاعتبر بي ولا يغرك دهر ليس منه ذو غبطة في أمان

6 - وقال أبو زكريا يحيى بن محمد الأركشي<sup>٤</sup> :

١ المغرب : رد .  
٢ هو الملقب بمصا الأعمى لأنه كان في صحبة الأعمى التطيل ، انظر المغرب ١ : ٢٨٩ .  
٣ ترجم ابن سعيد في القدح : ١٩٦ لعبد الرحمن العثماني وقال فيه : « كان من الخواص في جميع ما به تلبس » إلا أنه كناه أبا القاسم . ويبدو أن ترجمته سقطت من المغرب .  
٤ ترجمة الأركشي في المغرب ١ : ٣١٦ والتكملة رقم : ٢٠٥٣ . وصلة الصلة : ١٨٤ .

لا حبذا المالُ والإفضالُ يُتلفه والبخلُ يحميه والأقدارُ تعطيه

وقال :

لا تبكينَ لإخوانٍ تفارقهم فإنتي قبلكِ استخبرتِ إخواني  
فما حمدتهم في حالِ قربهم فكيف في حالِ إبعادٍ وهجرانِ

7 - وقال أبو عمران موسى الطرياني لما دخلَ يومَ نيروز إلى بعضِ  
الأكابر ، وعادتهم أن يصنعوا في مثل هذا اليوم مدائن من العجين لها صور  
مستحسنة ، فنظر إلى صورة مدينة ، فأعجبه ، فقال له صاحب المجلس :  
صفها وخذها<sup>١</sup> :

مدينةٌ مسورةٌ تحارُ فيها السحرةُ  
لم تبناها إلاً يدا عذراء أو مخدرةُ  
بدت عروساً تجتلي من درمك مزعفره  
وما لها مفاتحٌ إلاً البنان العشرة

8 - وقال أبو عمرو ابن حكيم<sup>٢</sup> :

حاشا لمن أملككم أن يخيبَ وينثني نحو العدا مستريب  
هذا وكم أقراني بيشركم ﴿ نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ ﴾

9 - وقال أبو الحسن علي بن الجعد القرموني<sup>٣</sup> :

إيّاك من زللِ اللسان فإنه قدّرُ الفتى في لفظه المسموع

١ ترجمته وشعره في المغرب ١ : ٢٩٤ والقذح : ٢٠٢ .

٢ ترجمة ابن حكيم وشعره في المغرب ١ : ٢٩٢ والقذح : ٢٠٠ ؛ وفي م : ابن حاكم .

٣ ترجمته في المغرب ١ : ٣٠٠ ، وقد جاءت هذه الفقرة في م بعد مقطعات ابن لبال .

فالمرء يختبرُ الإِنَاءَ بِنَقْرِهِ ليرى الصحيحَ به من المصدوعِ

10 - وقال الفقيه أبو الحسن علي بن لبال في محبرة عناب محلاة بفضة<sup>١</sup> :

مُنْعَلَةٌ بِالْهَلَالِ ، مُلْجَمَةٌ بِالنَّسْرِ ، مَجْدُولَةٌ مِنَ الشَّفَقِ  
كَأَنَّمَا حَبْرَهَا تَمِيعٌ فِي فُرْضَتِهَا سَائِلًا مِنَ الْعَسَقِ  
فَأَنْتَ مَهْمَا تَرَدُّ تَشْبِهُهَا فِي كُلِّ حَالٍ فَانظُرْ إِلَى الْأَفْقِ

وقال في محبرة ابنوس :

وَخَدِيمَةٌ لِلْعِلْمِ فِي أَحْشَائِهَا كَلَّفَ بِجَمْعِ حَرَامِهِ وَحَلَالِهِ  
لَبَسَتْ رِذَاءَ اللَّيْلِ ثُمَّ تَوَشَّحَتْ بِنُجُومِهِ وَتَوَجَّتْ بِهَلَالِهِ

11 - وقال أبو جعفر أحمد الشريشي<sup>٢</sup> :

عَلَى حُسْنِ نَوْرِ الْبِاقِلَاءِ أَدْرَهُمَا عَلَى صَبِّ كَأْسِي خَمْرَةٍ وَجِفُونِ  
يَذَكِّرُنِي بِلُتْقِ الْحَمَامِ وَتَارَةٍ يُوَكِّدُ لِلْأَشْجَانِ شُهْلَ عَيُونِ

12 - وقال أبو العباس أحمد بن شكيل الشريشي<sup>٣</sup> :

تُفَاحَةٌ بَتُّ بِهَا لَيْلِي أَبْثَهَا سَرِّيَ وَالشُّكُويَ  
أَضْمُهَا مَعْتَقًا لِأَنَّمَا إِذَا ذَكَرْتُ خَدَّ مِنْ أَهْوَى

وقال :

تُفَاحَةٌ حَامِضَةٌ عَضَّهَا فِي ثَمَلٍ مَنَ قَطَّبَ الْوَجْهََا

١ المغرب ١ : ٣٠٣ ؛ والحاشية في مصادر ترجمته ؛ والذيل والتكملة ٥ : ١٦٩ .

٢ ترجمة أحمد الشريشي في المغرب ١ : ٣٠٤ .

٣ انظر المغرب ١ : ٣٠٤ .



ولم أخلّ من قبلها محسناً يُجزى عليه العَضّ والنجها

13 - وقال أبو عمرو ابن غياث<sup>١</sup> :

وقالوا مَشِيبٌ قلتُ واعجبا لكم أينكرُ صبحٌ قد تَخَلَّلَ غيها  
وليسَ مَشِيباً ما ترونَ وإنّما كَمِيتُ الصِّبَا لما جرى عادُ أشها

14 - وقال الوزير أبو بكر محمد بن ذي الوزارتين أبي مروان عبد الملك

ابن عبد العزيز يخاطب ابن عبدون<sup>٢</sup> :

في ذمّة الفضلِ والعلياء مُرْتَحِلٌ فارقتُ صبري إذ فارقتُ موضعهُ  
ضاءت به بُرْهَةٌ أرجاءُ قرطبةٍ ثمَّ استقلَّ فسدَّ البينُ مطلعَه  
عذراً إلى المجد عني حين فارقتي ذاك الجلالُ فأعيا أن أُشيعَه  
قد كنتُ أصحبتُه قلبي وأقعدني ما كان أودعني عن أن أودعَه

وفيهم يقول ابن عبدون :

بحورُ بلاغةٍ ونجومُ عزِّ وأطوادُ رَؤاسٍ من جلالِ

15 - وقال الوزير الكاتب أبو القاسم ابن أبي بكر ابن عبد العزيز :

نديمي لا علمتُك من نديمِ أدْرِها في دجى الليلِ البهيمِ  
فخيرُ الأنسِ أنسٌ تحتَ سترِ يُصانُ عن السفهِ أو الحليمِ

16 - وقال الثائر أبو عبد الله الجزيري<sup>٣</sup> :

في أمِّ رأسي سرٌّ يبدو لكم بعدَ حينِ

١ انظر المغرب ١ : ٣٠٥ وترجمته في التكملة : ٦١٠ والتحفة : ١٢٩ والوافي ٤ : ١٠ .

٢ المغرب ١ : ٣٠٧ .

٣ المغرب ١ : ٣٢٣ .

لأَبْلُغَنَّ مَرَادِي إِنْ كَانَ سَعْدِي مُعِينِي  
أَوْ لَا فَأَكْتُبُ مِمَّنْ سَعَى لِإِظْهَارِ دِينِ

وسبب قوله هذا أن بني عبد المؤمن لما غيروا رسم مَهْدِيَهُمْ ، وصيروا الخلافة مُلْكًا ، وتوسَّعوا في الرفاهية ، وأهملوا حقَّ الرعية ، جعل يتسَّر ، وقال هذه الأبيات ، وشاع سره في مدة ناصر بني عبد المؤمن ، فطلبه ، ففرَّ ، ولم يزل ينتقل مستخفياً مع أصحابه إلى أن حصل في حصن قولية من عمل مدينة بسطة ، فبينما هو ذات يومٍ في جامعها مع أصحابه وهم يأكلون بطيخاً ويرمون قشره في صحن الجامع ، إذ أنكر ذلك رجل من العامة ، وقال لهم : ما تتقون الله تعالى ؟ ! تنهانون بيت من بيوته ؟ فضحكوا منه ، واستهزأوا به ، وأهلُ تلك الجهة لا تحتمل شيئاً من ذلك ، فصاح بفتية من العامة ، فاجتمع جمع وحملوا إلى الوالي فكان عند الوالي مَنْ عَرَفَهُ ، فقتلوا جميعاً ، وأمر الناصر أن يُرفع عن جميع أرض قولية جميع تكاليف السلطان .

17 - ولَمَّا عَتَبَ المنصور بن أبي عامر على الكاتب عبد الملك الجزيري ، وسجنه في الزاهرة ، ثُمَّ صَفَحَ عَنْهُ ، قَالَ وَكُتِبَ بِهِ إِلَيْهِ ١ :

عَجِبْتُ مِنْ عَقْوِ أَبِي عَامِرٍ لَا بَدَّ أَنْ تَتَّبِعَهُ مِنْهُ  
كَذَلِكَ اللَّهُ إِذَا مَا عَفَا عَنْ عَبْدِهِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ

فاستحسن ذلك ، وأعادته إلى حاله .

وقال على لسان بهار العامرية ، وهو النرجس ٢ :

حَدِّقْ الْحَسَانَ تَقِيرُ لِي وَتَغَارُ وَتَضَلُّ فِي وَصْفِي النَّهْيِ وَتَحَارُ

١ المغرب ١ : ٣٢١ وقد مر البيتان ( ج ١ : ٤١٩ ) منسويين لغيره .

٢ تقدمت هذه الأبيات والقطعتان بعدها ، ج ١ : ٥٣١ ، ٥٨٨ .

طلعت على قضيبي عيون تلامي  
وأخص شيء بي إذا شبهته  
أنا نرجس، حقاً بهرت عقولهم  
مثل العيون تحفها الأشفار  
دُرُّ تمنطق سلكه دينار  
بيديع تركيبي فقيل بهار

وقال في بنفسجها :

شهدت لنوار البنفسج ألسن  
بمشابه الشعر الأحم أعاره ال  
ولربما جمد النجيع من الطلى  
فحكاه غير مخالف في لونه  
من لونه الأحوى ومن إيناعه  
قمر المنير الطلق نور شعاعه  
في صارم المنصور يوم قيراعه  
لا في روائحه وطيب طباعه

وقال في القمر حين جعل يخفي بالسحاب ويبدو أمام المنصور :

أرى بدر السماء بلوح حيناً  
وذلك أنه لما تبدى  
فيظهر ثم يلتحف السحابا  
وأبصر وجهك استحيا وغابا

18 - وقال الحِجاري في « المسهب »<sup>١</sup> : سألت أبا الحسن علي بن حفص

الجزيري أن ينشدني شيئاً من شعره ، فقال : يا أبا محمد ، إذا لم ينظم الإنسان  
مثل قول ابن شرف :

لم يبق للجور في أيامكم أثر  
إلا الذي في عيون الغيد من جور  
فالأولى له أن يترك نظم الشعر . إلى أن خرجت معه يوماً إلى سيف الجزيرة  
الخصراء ، فلقني غلاماً قد كدر رونق حسنه السفر ، وأثر في وجهه آثار  
الكلف في القمر ، فصافحه ، ثم قال :

بأبي الذي صافحته فتوردت  
وجناته وأناة نحوي قدّه

١ المغرب ١ : ٣٢٥ .

قمرٌ بدا كسلفُ السرى في خده  
لكنْ معالمُ حسنه تمت كما  
لمَّا توالى في الترحل جهدهُ  
قد تم عن صدى الحسام فرندهُ

فحفظتها من سمعه ، ثم قلت له : قد أخذت عنك من نظمك ، بغير شكر ،  
فضحك وقال : فاحفظ هذا ، وأنشد :

لا تقولنَّ فلانٌ صاحبٌ قبلَ اختبارِ  
وانظرْ ويحك نقدَ الـ  
أنا جرَّبتُ فلم أُلـ  
لميلِ فيه والنهارِ  
فِ صديقاً باختيارِ

وأنشد :

كم قد بكرتُ إلى الرياضِ وقضيتها  
يا حسنها والريحُ يلحفُ بعضها  
والوردُ خدٌّ والأفاحي مسمٌ  
لم أنفصلُ عنها بكأسِ مُدامةٍ  
قد ذكرني موقفَ العشاقِ  
بعضاً كأعناقِ إلى أعناقِ  
وغدا البهارِ ينوبُ عن أحداقِ  
حتى حملتُ محاسنَ الأخلاقِ

19 - ولما كتب أبو الحسن ابن سعيد إلى الأديب القائد أبي العباس أحمد  
ابن بلال يستدعيه ليوم أنس بقوله :

أبا العباس لو أبصرت حولي  
يُبيحون المدام ولا انتقادٌ  
وهم مع ما بدالك من عفافٍ  
ويَهوونَ المثالثَ والمثاني  
على الروض الذي يهدي لطرْفِ  
فلا تَلْمِ السريَّ على ارتياحِ  
ندامى بادروا العيش الهنيئاً  
وقارهمُ ويزدادون غيئاً  
يجئونَ الصبية والصبيبا  
وشربَ الراح صباحاً أو عشيا  
وأنفٍ منظرأً بهجاً ورياً  
حكى طرباً بجانبه سرباً

المغرب ١ : ٣٢٦ والفتح : ٨٦ .

وبادرُ نحوَ نادٍ ما خلا من نذاك فقد عهدتك لوذَعِيًا  
أجابه بقوله :

أبَيْتَ سَوَى المَعَالِي يَا عَلِيًّا      فَمَا تَفَنَكُ دَهْرَكَ أُرِيحِيًّا  
تَمِيلُ إِذَا النَسِيمُ سَرَى كغَصْنٍ      وَتَسْرِي لِلْمَكَارِمِ مَشْرِفِيًّا  
وَمَرْتاحُ ارْتِياحًا لِلْمَثَانِي ١      وَتَقْتَنَصُ الصَّبِيَّةَ وَالصَّبِيَّا  
وَتَهْوَى الرُّوضَ قَلْدَهُ نَدَاهُ      وَأَلْبَسَهُ مَعَ الحُلَلِ الحَلِيًّا  
وَإِنْ غَنَى الحَمَامُ فَلَا اصْطَبَارُ      وَإِنْ خَفِقَ الحَلِيحُ فَنَبَيْتَ حَيًّا  
تَذَكُرُنِي الشَّبَابَ فَلَسْتُ أُدْرِي      أَصْبَحًا حِينَ تَذَكُرُ أُمَّ عَشِيَّا  
فَلَوْ أُدْرِكْتَنِي وَالغَصْنُ غَضُّهُ      لِأُدْرِكَتَ الَّذِي تَهْوَى لَدَيَّا  
وَلَمْ أَتْرِكْ وَحَقِّكَ قَدْرًا لِحَظِّ      وَقَدْ نَادَيْتَنِي ذَاكَ النَّدِيَّا

٥٢٨ ٢ - وقال بعض أهل الأندلس :

وَفَرَعٍ كَانَ يُوعِدُنِي بِأَسْرِ      وَكَانَ القَلْبُ لَيْسَ لَهُ قَرَارُ  
فَنَادَى وَجْهَهُ لَا خَوْفَ فَاسْكُنْ      « كَلَامُ اللَّيْلِ يَمُحُوهُ النِّهَارُ »

ولستُ على يقين أن قائلهما أندلسي ، غير أنني رأيت في كلام بعض  
الأفاضل نسبتها لأهل الأندلس ، والله تعالى أعلم .

20 - وقال أبو الوليد القسطلي ٣ :

وَفَوْقَ الدَّوْحَةِ الغَنَّا غَدِيرُ      تَلَأُ صَفْحَةً وَسَجَا قَرَارَا  
إِذَا مَا انْصَبَّ أَرْقَ مُسْتَقِيمًا      تَدَوَّرَ فِي البَحِيرَةِ فَاسْتَدَارَا  
يُجَرِّدُهُ فَمُ الأَنْبُوبِ صَلْتًا      حَسَامًا ثُمَّ يُفْلِتُهُ سَوَارَا

١ م : بالثاني .

٢ ميزنا هذه القطعة برقم لأنها ليست من المغرب ثم يفود الترقيم إلى ما نقله المقرئ عن المغرب نفسه .  
٣ المغرب ١ : ٣٢٨ والتكملة رقم : ٢١٠١ وزاد المسافر : ١٥-١٩ وانظر الخريدة ١/٤ : ٤٤٣ .

21 - ولأبي كثير الطريفي يمدح الناصر بن المنصور<sup>١</sup> :

فَتُوحٌ لَهَا يَهْتَرُ شَرْقٌ وَمَغْرَبٌ      كَمَا اطَّردتْ فِي السَّمهريةِ أَكْعَبُ  
تَجَلَّتْ عَلَى الدنِيا شَموسٌ مَنيرةٌ      فلم يَبقَ فِي ليلِ الكأبةِ غَيْهَبُ  
أقام بِها الإسلامُ شَدَوَ مَغْرَدٍ      وظلتْ بأرضِ الشَّرِكِ بِالخَطْبِ تَخْطُبُ  
فلا سَمعَ إلاّ وَهو قد مالَ نَحوَهَا      ولا قَلبَ إلاّ فِي مُناها يَقْلَبُ

22 - وقال أبو عامر ابن الجحد<sup>٢</sup> :

للهِ ليلَةٌ مُشْتاقٍ ظفرتُ بِها      قَطَعَتْها بِوصالِ اللِّمِّ والقُبَلِ  
نعمتُ فِيها بأوتارٍ تَعَلَّسني      أحلى مِنَ المَنِّ أو أَمْنِيَةِ الغَزَلِ  
أحِبُّ إليَّ بِها إِذْ كَلها سَحَرٌ      أراحتِ الصَّبَّ مِنَ عَذرٍ وَمِنَ عَذَلِ

23 - وقال الكاتب أبو عبد الله محمد الشلبي<sup>٣</sup> كاتب ملك إفريقية عبد

الواحد بن أبي حفص :

مَدَّ إليَّ الكاسَ مَنَ لحظُهُ      لا يَجوجُ الشَّرْبَ إلى الكاسِ  
ومنذُ حَياني بِأسٍ فلم      أباَسَ ولكن كان لي آسِي  
وقال لولا الناسُ قَبَلتُهُ      ما أشامَ الناسَ على الناسِ

24 - وقال أبو بكر محمد بن الملح<sup>٤</sup> ، وهو من رجال النخيرة ، على لسان

حال سوار مذهب :

أنا مِنَ الفِضَّةِ البَيْضاءِ خالِصةٌ      لكنْ دَهنتي خُطوبٌ غيرتُ جَسدي

١ المغرب ١ : ٣١٩ واسمه عنده « كثير » ، والطريفي نسبة إلى جزيرة طريف .

٢ المغرب ١ : ٣٤٢ وبغية الوعاة : ٢٧٥ .

٣ لم يرد ذكره في المغرب في القسم الخاص بشلب .

٤ المغرب ١ : ٣٨٣ والقلائد : ١٨٧ والنخيرة ( ٢ : ١٨٢ ) ومسالك الأبصار ٨ : ٢٥٧ .

علقتُ غصناً على أحوى فأحسدني جرّي الوشاح وهذي صفرةُ الحسدِ

وما أحسن قوله من قصيدة في المعتضد والد المعتمد :

غُرَّتْهُ الشَّمْسُ وَالْحَيَا يَدُهُ بَيْنَهُمَا لِلنَّجِيعِ قَوْسٌ قُرْخٌ

25 - وأماً ابنه أبو القاسم<sup>١</sup> فهو من رجال « المسهب » وكان اشتغل أوّل أمره بالزهد وكتب التصوف ، فقال له أبوه : يا بني ، هذا الأمر ينبغي أن يكون آخر العمر ، وأماً الآن فينبغي أن تعاشر الأدباء والظرفاء ، وتأخذ نفسك بقول الشعر ، ومطالعة كتب الأدب ، فلما عاشرهم زينوا له الراح ، فتهتك في الخلاعة ، وفر إلى إشبيلية ، وتزوج بامرأة لا تليق بحاله ، وصار يضرب معها بالدف ، فكتب إليه أبوه :

يَا سُخْنَةَ الْعَيْنِ يَا بِنِيَا لَيْتَكَ مَا كُنْتَ لِي بِنِيَا  
أَبَكَيْتَ عَيْنِي ، أَطَلْتَ حَزَنِي أَمَتَّ ذَكَرِي وَكَانَ حَيَا  
حَطَطْتَ قَدْرِي وَكَانَ أَعْلَى فِي كُلِّ حَالٍ مِنَ الثَّرِيَا  
أَمَا كَفَاكَ الزَّنَا ارْتِكَابَا وَشَرِبُ مَشْمُولَةِ الْحَمِيَا  
حَتَّى ضَرَبْتَ الدَّفُوفَ جَهْرَا وَقَلْتَ لِلشَّرِّ جِيءَ إِلَيَا  
فَالْيَوْمَ أَبَكَيْكَ مَلءَ عَيْنِي إِنْ كَانَ يُغْنِي الْبُكَاءُ شَيَْا

فأجاب أباه بقوله :

يَا لَائِمَ الصَّبِّ فِي التَّصَابِي مَا عَنكَ يُغْنِي الْبُكَاءُ شَيَْا  
أَوْجَفْتُ خَيْلَ الْعَتَابِ نَحْوِي وَقَبْلُ أَوْثَبَهَا إِلَيَا  
وَقَلْتَ هَذَا قَصِيرُ عَمْرِي فَارْبِحْ مِنَ الدَّهْرِ مَا تَهَيَا  
قَدْ كُنْتُ أَرْجُو الْمَتَابَ مِمَّا فَتَنْتُ جَهْلَا بِهِ وَغِيَا

١ انظر المغرب ١ : ٢٨٤ .

لولا ثلاثُ شيوخُ سوء أنتَ وإبليسُ والحُمَيّا

26 - وقال أبو بكر محمد بن عبد القادر الشلبي<sup>١</sup> يستدعي :

فديتك باكرُ نحو قُبّةِ روضةٍ تسبحُ بها الأمواهُ والطيْرُ تهْتَفُ  
وقد طلعتُ شمسُ الدنانِ بأفْقها ونحنُ لديها في انتظارك وُقِفُ  
فلا تتخلفُ ساعةً عن محلةٍ صدودكُ عمن حلَّ فيها تخلفُ

27 - وقال أخو إمام نخاة الأندلس أبي محمد عبد الله بن السيد البطلانيّوسي ،

وهو أبو الحسن عليُّ بن السيد<sup>٢</sup> :

يا رَبَّ ليلٍ قد هتكتُ حجابَهُ بزجاجةٍ وقادةٍ كالكوكبِ  
يسعى بها ساقٍ أغنُ كأنّها من خدّه ورُضابٍ فيه الأشنبِ  
بدرانٍ بهرٌ قد أمنتُ غروبَهُ يسعى ببدرٍ جانحٍ للمغربِ  
فاذا نعمتُ برشْف بدرٍ طالعٍ فانعمُ ببدرٍ آخِرٍ لم يغربِ  
حتى ترى زهُرَ النّجومِ كأنّها حولَ المجرةِ رَبَّربٍ في مشربِ  
والليلُ منحفرٌ يطيرُ غرابُه والصبحُ يطرده بيازٍ أشهبِ

28 - ولما مدح أبو بكر محمد بن الروح الشلبي<sup>٣</sup> الأميرَ إبراهيمَ الذي

خطب به الفتح في القلائد ، وهو ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكان يُدلُّ عليه وينادمه ، بقصيدته التي أوّلها :

أنا شاعرُ الدنيا وأنتَ أميرُها فما لي لا يسْري إليَّ سرورُها

أشار الأمير إلى مضحك له كان حاضراً أن يحق له لقوله « أنا شاعر الدنيا »

١ لم ترد ترجمته في المغرب المطبوع بين رجال شلب .

٢ يعد ابن السيد من شلب في الأصل ( انظر المغرب ١ : ٣٨٥ ) ، وكل هذا يدل على أن المقري ينتقل

فقلاً متتابعاً عن نسخة من المغرب غير التي وصلتنا .

٣ المغرب ١ : ٣٨٦ .



فقال له ابن الروح : على من حبقت ؟ يعني أنه يحتمل أن يكون ذلك الفعل لقوله « أنا شاعر الدنيا » أو لقوله « وأنت أميرها » ، ففطن الأمير لما قصده ، وضحك وتغافل .

29 - وقال أبو بكر ابن المنخل الشَّلي<sup>١</sup> :

كم ليلةً دارتُ عليَّ كواكبٌ      للخمير تطلع ثم تغربُ في فمي  
قبَّلتها في كفِّ مَنْ يسعى بها      وخلطت قبلتها بقبلة معصم  
وكانَ حُسْنُ بنانه مع كأسه      غيمٌ يشيرُ لنا ببعضِ الأَنجم

30 - وقال ذو الوزارتين أبو بكر ابن عمَّار<sup>٢</sup> :

قرأتُ كتابك مستشفعاً      بوجهِ أبي الحُسْنِ من رده  
ومن قبْلِ فضِّ ختامِ الكتاب      قرأتِ الشفاعة في خده

وقال :

غزا القلوبَ غزالٌ      حَجَّتْ إليه العيونُ  
قد حطَّ في الخلدِ نوناً      وآخِرُ الحسنِ نونُ

قال الحجاري : وإكثار ابن عمار في المعذَّرين وإحسانه فيهم يدلُّك على أنه ، كما قيل عنه ، كان مشغولاً بالكاس ، والاستلقاء من غير نُعاس .

31 - وكان أبو الفضل ابن الأعلم<sup>٣</sup> أجمل الناس وأذكَّهم<sup>٤</sup> في علم الأدب والنحو ، وأقرأ علم النحو قبل أن يلتحي ، فقال ابن صارة فيه :

١ المغرب ١ : ٣٨٧ والوافي ٢ : ٧ وزاد المسافر : ٨٧ والتكملة : ٤٩٦ .

٢ المغرب ١ : ٣٨٨ .

٣ المغرب ١ : ٣٩٦ .

٤ م : وأذكَّهم .

أَكْرَمُ بِجَعْفَرِ اللَّيْبِ فَإِنَّهُ  
 مَاءَ الْجَمَالِ بَحْدَهُ مَرْتَرَقُ  
 مَا خَدَّهُ جَرَحَتْهُ عَيْنِي ، إِنَّمَا  
 لِلَّهِ زَايَ زَبْرَجْدٍ فِي عَسْجِدِ  
 ذِي طُرَّةٍ سَبَجِيَّةٍ ، ذِي غُرَّةٍ  
 رَشَأُ لَهُ خَدُّهُ الْبَرِيءُ وَلِحْظُهُ  
 مَا زَالَ يُوَضِّحُ مُشْكَلَ «الإِبْصَاحِ»  
 فَالْعَيْنُ مِنْهُ تَجُولُ فِي ضَحْضَاحِ  
 صَبَغَتْ غِلَالَتَهُ دِمَاءَ جِرَاحِي  
 فِي جَوْهَرٍ فِي كَوْثَرٍ فِي رَاحِ  
 عَاجِيَّةٍ ، كَاللَّيْلِ وَالْإِصْبَاحِ  
 أَيْدَاءُ شَرِيكَ الْمَوْتِ فِي الْأَرْوَاحِ

32 - وقال الرمادي ١ :

نَوْءٌ وَغَيْثٌ مُسْبَلٌ  
 تَدُورُ بَيْنَ فِتْيَةٍ  
 وَالْأَفْقُ مِنْ سَحَابِهِ  
 كَأَنَّهُ مِنْ فِضَّةٍ  
 وَقَهْوَةٌ تَسَلْسَلُ  
 بِخَلْقِهِمْ تَمَثَّلُ  
 طَلٌّ ضَعِيفٌ يَنْزَلُ  
 بُرَادَةٌ تَغْرَبَلُ

وقال ٢ :

بَدْرٌ بَدَا يَحْمِلُ شَمْسًا بَدَتْ  
 تَغْرُبُ فِي فِيهِ وَلَكِنَّهَا  
 وَحَدُّهَا فِي الْحَسَنِ مِنْ خَدِّهِ  
 مِنْ بَعْدِ ذَا تَطْلَعُ فِي خَدِّهِ

33 - ومن نظم أبي الفضل ابن الأعلم السابق الذكر :

وَعَشِيَّةٌ كَالسَّيْفِ إِلَّا حَدَّهُ  
 عَاطِيتُ كَأَسِّ الْأَنْسِ فِيهَا وَاحِدًا  
 بَسَطَ الرِّبِيْعُ بِهَا لِنَعْلِي خَدَّهُ  
 مَا ضَرَّهُ أَنْ كَانَ جَمْعًا وَحَدَّهُ

وهو جعفر ابن الوزير أبي بكر محمد ابن الأستاذ الأعلم ، من رجال « القلائد »

١ المغرب ١ : ٣٩٢ والأبيات في كتاب التشبيهات : ٣٦ .  
 ٢ المغرب : ٣٩٣ . والبيتان للصنوبري في الفوات ١ : ١١٢ وتهذيب ابن عساكر ١ : ٤٥٨  
 والوافي ٧ : ١٨٥ .

و « المسهب » و « سمط الجُمان » ، وكان قاضي شنتميرية ، والأستاذ الأعلام هو إمام نخاعة زمانه أبو الحجاج يوسف بن عيسى من رجال « الصلة » و « المسهب » و « السمط » ، وهو شارح الأشعار الست ، ومن نظمه يخاطب المعتمد بن عباد :

يا من تملكني بالقول والعمل ومُبْلِغِي فِي الَّذِي أَمَلْتُهُ أَمَلِي  
كيف الثناء وقد أعجزتني نعماً ما لي بشكري عليها الدهر من قِبَلِ  
رفعت للوجود أعلاماً مشهورةً فبابك الدهر منها عامرُ السبلِ

34 - وقال أبو علي لإدريس بن اليماني العبدري<sup>١</sup> :

قُبلةٌ كانت على دَهَشٍ أَذْهَبَتْ ما بي من العَطَشِ  
ولها في القلبِ منزلةٌ لو عَدَّتْها النفسُ لم تعشِ  
طرقتني والدُّجى لبستِ خِلَعاً من جلدة الحيشِ  
وكانَ النَجْمَ حينَ بدا درهمٌ في كفِّ مرتعشِ

وسأله المعتضد أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها ابن حمّود فقال له : أشعاري مشهورة ، وبنات صدري كريمة ، فمن أراد أن ينكح بكبرها ، فقد عرف مهراً ، وكانت جائزته مائة دينار .

ومن مشهور شعره بالمغرب والمشرق قوله :

ثقلت زجاجاتُ أتنا فرغاً حتى إذا ملكتُ بصرفِ الراحِ  
خفتُ فكادت أن تطير بما حوتُ وكذا الجسومُ تخفُّ بالأرواحِ

35 - وكانت بين الأديب الحسيب أبي عمرو ابن طيغور والحافظ الهيثم

١ المغرب ١ : ٤٠٠ وانظر الخدوة : ١٦٠ والذخيرة ٣ : ١١٥ والمسالك ١١ : ٢٠٤ .

مُهَاجَاةٌ ، فَقَالَ فِيهِ الْحَافِظُ ١ :

لَا بِنَ طَيْفُورٍ قَرِيضٌ فِيهِ شَوْكٌ وَغَمُوضٌ  
عُدِمَتْ فِيهِ الْقَوَافِي وَالْمَعَانِي وَالْعَرُوضُ

وَقَالَ فِيهِ ابْنُ طَيْفُورٍ :

إِنَّمَا الْهَيْثُمُ سَفِيرٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ضَخْمٌ  
لَا تُطَالِبُهُ بِفَهْمٍ لَيْسَ لِلدِّيَوَانِ فَهْمٌ

36 - وَقَالَ أَبُو عَمْرَانَ ابْنُ سَعِيدٍ : أَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّهُ زَارَ ابْنَ حَمْدَانَ بِقَرْطَبَةَ فِي مَدَّةٍ يَحْيَى بْنُ غَانِيَةَ ، [ قَالَ ] : فَوَجَدْتَهُ فِي هَالَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ ، فَقَامَ وَتَلَقَّانِي ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، مَا هَذَا الْجَفَاءُ ؟ فَاعْتَذَرْتُ بِأَنِّي أَخْشَى التَّثْقِيلَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ سَيِّدِي مَشْغُولٌ بِمَا هُوَ مُكَبَّبٌ عَلَيْهِ ، فَأَطْرَقُ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ :

لَوْ كُنْتُ تَهَوَّنَا طَلَبْتَ لِقَاءَنَا لَيْسَ الْمَحِبُّ عَنِ الْحَبِيبِ بِصَابِرٍ  
فَدَعِ الْمَعَاذِرَ إِنَّمَا هِيَ جُنَّةٌ لِمَخَادَعٍ فِيهَا ، وَلَسْتُ بِعَاذِرٍ

فَقُلْتُ : تَصَدِّيقُ سَيِّدِي عِنْدِي أَحَبُّ إِلَيَّ وَإِنْ تَرْتَبْتُ عَلَيَّ فِيهِ الْمَلَامَةُ مِنْ مَنَازَعَتِهِ مُتَّصِرًا لِحَقِّي ، فَاسْتَحْسَنَ جَوَابِي ، وَقَالَ لِي : كَرَّرَهُ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا حِمْ لِكُلِّ ذَنْبٍ ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ كَتَبَ الْبَيْتَيْنِ عَنْهُ ، فَقَالَ لِي : وَمَا تَكْتُبُ فِيهِمَا ؟ فَقُلْتُ : أَلَيْسَ فِي الْإِنْعَامِ ذَلِكَ لِأَجْدَ مَا أُخْبِرُ بِهِ وَالِدِي إِذَا أُبْتُ إِلَيْهِ ؟ فَأَمْلَاهُمَا عَلَيَّ ، فَقُلْتُ : مَنْ قَاتَلَهُمَا ؟ قَالَ : قَاتَلَهُمَا ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُمَا لَهُ ، وَتَنَعْتُ بِذَلِكَ .

٥٢٩ - وَقَالَ الْحِجَارِيُّ صَاحِبُ « الْمَسْهَبِ فِي أَخْبَارِ الْمَغْرِبِ » :

كَمْ بَتُّ مِنْ أَسْرِ السَّهَادِ بَلِيَّةٍ نَادَيْتُ فِيهَا هَلْ لِحُنْحُوكِ آخِرُ

إذ قام هذا الصبحُ يُظهرُ ملّةً حكمتُ بأن ذُبِحَ الظلامُ الكافرُ

وعلى ذكر « المسهب » فقد كنت كثيراً ما أستشكل هذه التسمية ، لما قال غير واحد : إن المسهب إنما هو بفتح الهاء ، كقولهم سَيْلٌ مُفْعَمٌ — بفتح العين — والفقرة الثانية وهي « المغرب » تقتضي أن يكون بكسر الهاء ، ولم يزل ذلك يتردد في خاطري إلى أن وقفت على سؤال في ذلك رفعه المعتمد بن عبّاد سلطان الأندلس إلى الفقيه الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشنمري المشهور بالأعلم ، ونص السؤال :

سألك — أبقاك الله — الوزيرُ الكاتبُ أبو عمرو ابن غطمش ، سلّمه الله ، عن « المسهب » وزعم أنك تقول بالفتح والكسر ، والذي ذكر ابن قتيبة في « أدب الكاتب » والزبيدي في « مختصر العين » أسهبَ الرجلُ فهو مُسْهَبٌ إذا أكثر الكلام ، بالفتح خاصة ، فبيّن لي — أبقاك الله تعالى — ما تعتقد فيه ، وإلى أي كتاب تسند القولين ، لأقف على صحّة من ذلك .

فأجابه : وصل إليّ — أدام الله تعالى توفيك — هذا السؤال العزيز ، ووقفت على ما تضمنه ، والذي ذكرته من قول ابن قتيبة والزبيدي في الكتابين موضوع كما ذكرته ، والذي أحفظه وأعتقده أن المسهب بالفتح المكثّر في غير صواب ، وأن المسهب بالكسر البليغ المكثّر من الصواب ، إلا أنني لا أسند ذلك إلى كتاب بعينه ، ولكني أذكره عن أبي علي البغدادي من كتاب « البارع » أو غيره ، معلقاً في عدّة نسخ من كتاب « البيان والتبيين » على بيت في صدره لمكي بن سواده وهو :

حَصِرَ مُسْهَبٌ جَرِيءٌ جَبَانٌ خَيْرَ عِيٍّ الرِّجَالِ عِيٌّ السُّكُوتِ

والمعلقة : « تقول العرب : أسهب الرجل فهو مُسْهَبٌ وأحصن فهو مُحْصَنٌ وألّجج فهو مُلْجَجٌ ، إذا افتقر ، قال الخليل : يقال رجل مُسْهَبٌ ومُسْهَبٌ ، قال أبو علي : أسهب الرجل فهو مُسْهَبٌ بالفتح إذا أكثر في

غير صواب ، وأسهب فهو مُسْهَب بالكسر إذا أكثر وأصاب ، قال أبو عبيدة :  
 أسهب الرجل فهو مُسْهَب إذا أكثر من خرف وتلف ذهن ، وقال أبو عبيدة  
 عن الأصمعي : أسهب الرجل فهو مُسْهَب بالفتح إذا خرف وأهتر ، فإن  
 أكثر من الخطأ قيل : أفند فهو مُفند ، انتهت المعلقة . فرأي مملوكك  
 — أيدك الله تعالى — واعتقاده أن المُسْهَب بالفتح لا يوصف به البليغ المحسن ،  
 ولا المكثّر المصيب ، ألا ترى إلى قول الشاعر « حصر مسهب » أنه قرن فيه  
 المسهب بالحصر وذمه بالصفتين ، وجعل المسهب أحقّ بالعي من الساكت  
 والحصر فقال :

خيرُ عبيّ الرجالِ عبيّ السكوتِ

والدليل على أن المُسْهَب بالكسر يقال للبليغ المكثّر من الصواب أنهم  
 يقولون للجواد من الخيل مُسْهَب بالكسر خاصة لأنها بمعنى الإجادة والإحسان ،  
 وليس قول ابن قتيبة والزيدي في المُسْهَب بالفتح هو المكثّر من الكلام بموجب  
 أن المكثّر هو البليغ المصيب ، لأن الإكثار من الكلام داخل في معنى الهم ،  
 لأنه من الثرثرة والهذر ، ألا تراهم قالوا : رجل مِكْثَار ، كما قالوا : ثرثار ،  
 ومهذار ، وقال الشاعر :

فلا تُمارُون إن ماروا بإكثار

فهذا ما عندي ، والله تعالى الموفق للصواب .  
 قال الأعلام : ثمّ نظمت السؤال العزيز والجواب المذكور ، فقلت :

سلامُ الإلهِ وربّحائهُ	على الملكِ المجتبي المتخلُّ
سلامَ امرئٍ ظلّ من سيّبه	خصيبَ الجنابِ رحيبَ المحلِّ
أتاني سؤالكَ أعزّزُ بهِ	سؤالَ مبرّ عليّ من سأل
يسائل عن حالتيّ مُسْهَبِ	ومُسْهَبِ المُبتلى بالعللِ

لم اختلفا في بناءيهما	وحكمهما واحد في فعل
أتى ذا على مُفْعَل لم يُعَلّ	وذاك على مُفْعِلٍ قد أعلّ
فقلتُ مقالاً على صدقه	شهِدُ منَ العَقلِ لا يَستَزلّ
بناء البليغ أتى سالماً	سلامته من فضول الخطل
وأسهبَ ذاك مسيئاً فزلّ	زليلاً ثني متته فانخذلّ
وأحسنَ ذا فَجَرى وصفهُ	على سَنَنِ المحسنِ المستقلّ
فهذا مقالِي مستبصراً	ولستُ كمن قال حدساً فضلّ
تقلدتُ في رأيه مذهباً	يخصك بين الطُّبّي والأسلّ
سموك في الروع مستشرفاً	إلى مهجة المستميتِ البطلّ
كأنك فيها هلالُ السما	يزيدُ بهاءً إذا ما أهلّ
بلّ أنتَ مطلّ كبدِرِ السماء	يُمضي الظلام إذا ما أطلّ

قلت : رأيت في بعض الحواشي الأندلسية : أن ابن السكيت ذكر في بعض كتبه في بعض ما جعله بعضُ العرب فاعلاً وبعضهم مفعولاً : رجل مُسْهَبٌ ومُسْهَبٌ ، لكثير الكلام ، وهذا يدل على أنّهما بمعنى واحد ، انتهى .

٥٣٠ - وسأل بعضُ الأدباء الأستاذَ الأعلام المذكور عن المسألة الزنبورية ، المقترنة بالشهادة الزورية ، الجارية بين سيبويه والكسائي أو الفراء ، والقضاء بينهم فيها ، وهي « ظننت أن العَصْرَبَ أشدُّ لسعةً من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو إياها » ، وعن نسب سيبويه : هل هو صريح أو مَوْلَى ؟ وعن سبب لزومه الخليل بعد أن كان يطلب الحديث والتفسير ، وعن علّة تعرضه لمناظرة الكسائي والفراء ، وعن كتابه الجاري بين الناس : هل هو أولُ كتاب أو أنشأه بعد كتاب أول ضاع كما زعم بعض الناس ؟

فأجاب : أما المسألة الزنبورية الماثورة بين سيبويه والكسائي ، أو بينه وبين

الفراء على حسب الاختلاف في ذلك ، بحضرة الرشيد ، أو بحضرة يحيى بن خالد البرمكي فيما يروى ، فقد اختلفت الرواة فيها : فمنهم من زعم أن الكسائي أو الفراء قال لسيبويه : كيف تقول « ظننت أن العقرب أشدُّ لسعةً من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو إياها » ؟ فأجاب سيبويه - بعد أن أطرقَ شيئاً - « فإذا هو إياها » في بعض الأقاويل ، وزعم آخرون أنه قال « فإذا هو هي » ففيها من الاختلاف عنهم ما ترى ، فإن كان أجاب بإذا هو هي ، فقد أصاب لفظاً ومعنى ، ولم تدخل عليه في جوابه شبهة ، ولا علقمة لمعرض ، لأن « إذا » في المسألة من حروف الابتداء المتضمنة للتعليق بالخبر ، فإذا اعتبرت المضمير بعدها بالاسمين المظهرين لزمك أن تقول « فإذا الزنبورُ العقربُ » أو « اللسعة اللسعة » أي مثلها سواء ، فلو قلت « فإذا هو إياها » بنصب الضمير الأخير لزمك أن تقول : فإذا الزنبورُ العقربَ ، بالنصب ، وهذا لا وجه له ، فإذا لم يجوز نصب الخبر المظهر فكيف يجوز نصب الخبر المضمحل الواقع موقعه ؟ ويروى في المسألة أن الكسائي أو الفراء قال لسيبويه بعد أن أجاب برفع الضميرين على ما يوجبه القياس : كيف تقول يا بصري « خرجت فإذا زيد قائم ، أو قائماً » ؟ فقال سيبويه : أقول « قائم » ولا يجوز النصب ، فقال الكسائي : أقول قائم وقائماً ، والقائمُ والقائمَ ، بالرفع والنصب في الخبر مع النكرة والمعرفة ، فتأول الكسائي والفراء في اختيارهما « فإذا هو إياها » حمل الخبر المضمحل في النصب على الخبر المظهر المعرفة مع الإعراب بوجه النصب ، فكأنه قال : فإذا الزنبور العقربَ ، كما تقول : فإذا زيد القائمَ ، فيجري المعرفة في النصب مجرى النكرة ، وقولهما في هذا خطأ من جهتين : إحداهما : أن نصب الخبر بعد إذا لا يكون إلا بعد تمام الكلام الأول في الاسم مع حرف المفاجأة ، ومع كون الخبر نكرة ، كقولك : خرجت فإذا زيد قائماً ، لأنك لو قلت « خرجت فإذا زيد » تمَّ الكلام ، لتعلق المفاجأة بزيد على معنى حضوره ، ثم تبيّن حاله في المفاجأة المتعلقة به فتقول « قائماً » أي : خرجت ففاجأني زيد في هذا الحال ،



وقوله في المسألة « إياها » لا يتم الكلام في الاسم الأول دونها ، ألا ترى أنك لو قلت « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو » وسكت ، لم يتم الكلام أولاً ، ولا أفدت بذكر المفاجأة وتعليقها بالزنبور فائدة ، وإنما المفاجأة للضمير الآخر ، فلا بد من ذكره والاعتماد عليه ، وهذا يوجب الرفع في الخبر ؛ لأن الظرف له ، لا للمخبر عنه ، فهذا بيّن واضح ، والجهة الأخرى في غلظهما أن « إياها » معرفة ، والحال لا تكون إلا نكرة ، فقد اجتمع في قولهما أن أتياً بحال لم يتم الكلام دونها ، معرفة ، والحال لا تكون إلا بعد تمام الكلام ومع التنكير ، فقد تبين خطأهما وإصابة سبويه في لزوم الرفع في الخبر فقط .

وأما من زعم عن سبويه أنه قال « خرجت فإذا زيد قائم » بالرفع لا غير فباطل ، وكيف يُنسب إليه وهو علمنا أن الظرف إذا كان مستقراً للاسم المخبر عنه نصب الخبر ، وإذا كان مستقراً للخبر رفع الخبر ، ونحن نقول « خرجت فإذا زيد » فيتم الكلام ، و « نظرت فإذا الهلال طالع » فيتبعه الخبر رفعاً ، كما تقول « في الدار زيد قائم ، وقائماً » و « اليوم سيرك سريع ، وسريعاً » ، ولكن الخبر إذا كان الظرف له ولم يتعلّق إلاّ به لم يكن إلا رفعاً ، كقولك « اليوم زيد منطلق ، وغداً عمرو خارج » لأن الظرف لا يكون مستقراً للاسم المخبر عنه إذا كان زماناً ، والمخبر عنه جثّة ، وكذلك المفاجأة إذا كانت للخبر لم يكن إلاّ مرفوعاً ، معرفة كان أو نكرة ، فإذا كانت للمخبر عنه والخبر نكرة انتصب على الحال ، فجرى قولك « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي ، وظننت زيداً عالماً فإذا هو جاهل » في لزوم الرفع في الخبر مجرى « اليوم زيد منطلق ، وغداً عمرو خارج » كما جرى « خرجت فإذا زيد قائم ، وقائماً » في جواز الرفع والنصب مجرى « في الدار زيد جالس ، وجالساً » ، فتأمل الفرق بينهما وحصله ، فإن النحويين المتقدمين والمتأخرين قد أغفلوا الفرق بين المفاجأتين .

وأما نصب الخبر المعرفة بعد إذا ، تم الكلام أو لم يتم ، فباطل لا تقوله

العرب ، ولا يجيزه إلا الكوفيون .

وإن كان سيبويه رحمه الله تعالى أجاب بقوله « فإذا هو إياها » كما روى بعضهم فظاهر جوابه مدخول ، لما قدمت ، والخطأ فيه بيّن من جهة القياس كما ذكرنا ، فإن كان قاله والترمه دون الرفع فقد أخطأ خطأ لا مخرج له منه ، وإن كان قد قاله وهو يرى أن الرفع أولى وأحق ، إلا أنه أثر النصب للإعراب حملاً على المعنى الخفي ، دون ما يوجهه القياس واللفظ الجلي ، فلجوابه عندي وجهان حسان :

أحدهما : أن يكون الضمير المنصوب وهو « إياها » كناية عن السعة ، لا عن العقرب ، والضمير المرفوع كناية عن الزنبور ، فكأنه قال « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا الزنبور لسعة العقرب » أي فإذا الزنبور يلسع لسعة العقرب ، فاختزل الفعل لما تقدم من الدليل عليه ، بعد أن أضمر السعة متصلة بالفعل ، فكأنه قال « فإذا الزنبور يلسعها » فاتصل الضمير بالفعل لوجوده ، فلما اختزل الفعل انفصل الضمير ، لعدم الفعل .

ونظير هذا من كلام العرب قولهم « إنمّا أنت شرب الإبل » أي : إنمّا أنت تشرب شرب الإبل ، فاختزل الفعل ، وبقي عمله في المصدر ، ولم يرفع لأته غير الاسم الأول ، فلو أضمرت شرب الإبل بعدما جرى ذكره فقلت « ما يشرب زيد شرب الإبل ، إنمّا أنت تشربه » لاتصل الضمير بالفعل ، فلو حذفته لانفصل الضمير فقلت « إنمّا أنت إياه » فتدبره تجده منقاداً صحيحاً .

والوجه الآخر : أن يكون قوله « فإذا هو إياها » محمولاً على المعنى الذي اشتمل عليه أصل الكلام من ذكر الظن أولاً وآخرأ ، لأن الأصل في تأليف المسألة « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فلماً لسعني الزنبور ظننته هو إياها » فاختصر الكلام لعلم المخاطب ، وحذف الظن آخرأ لما جرى من ذكره أولاً ، ودلت « إذا » لما فيها من المفاجأة على الفعل الواقع بعد لما الدالة على وقوع الشيء لوقوع غيره ، فإذا جاز حذف الكلام إثارة للاختصار مع وجود الدليل على

المحذوف كان قولنا « فإذا هو إياها » بمنزلة قولنا « فلماً لسغي الزبور ظنته هو إياها » فحذف الظن مع مفعوله الأول ، وبقي الضمير الذي هو العماد والفصل مؤكداً للضمير المحذوف مع الفعل ودالاً على ما يأتي بعده من الخبر المحتاج إليه ، فيكون في حذف المخبر عنه لما تقدم من الدليل عليه مع الإتيان بالعماد والفصل المؤكد له المثبت لما بعده من الخبر المحتاج إليه مثل قوله ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ (آل عمران : ١٨٠) فحذف البخل الذي هو المفعول الأول لقوله « يحسبن » وبقي الضمير مؤكداً له مثبتاً لما بعده من الخبر ، وجاز حذفه لدلالة « يبخلون » عليه ، والمعنى : لا يحسبن الذين يبخلون البخل هو خيراً لهم ، فهو في المسألة عماد مؤكد لضمير الزبور المحمول على الظن المضمر ومثبت لما يجيء بعده من الخبر الذي هو « إياها » ففهمه فإنه متمكن من جهة المعنى ، وجاز من الاختصار لعلم المخاطب على قياس وأصل ، وشاهد القرآن في الحذف واستعمال العرب النظائر ، وهي أكثر من أن تحصى ، فمنها قولهم « ما أغفله عنك شيئاً » أي تثبت شيئاً ودع الشك ، وقولهم لمن أنكروا عليه ذكر إنسان ذكره « من أنت زيداً » أي : من أنت تذكروا زيداً ، وربما قالوا « من أنت زيد » بالرفع على تقدير : من أنت ذكرك زيد ، فحذفوا الفعل مرة وأبقوا عمله ، وحذفوا المبتدأ أخرى وأبقوا خبره ، وكل ذلك اختصار ، لعلم المخاطب بالمعنى ، وكذلك قولهم « هذا ولا زعماتك » أي هذا القول والزمع الحق ولا أتوهم زعماتك ، فحذف هذا لعلم السامع مع تحصيل المعنى وقيامه عند المخاطب ، والحمل في كلامهم على المعنى أكثر من أن يحصى .

فإن كان الضمير الأول في المسألة للزبور والضمير الآخر للعقرب لم يجوز البتة إلا رفع الضميرين بالابتداء والخبر ، على حد قولك « ظننت زيداً عاقلاً » فإذا هو أحق ، وحسبت عبد الله قاعداً فإذا هو قائم » ولو تقدم ذكر الخبر والمخبر عنه لقلت « فإذا هو هو » ولم يجوز فإذا هو إياه البتة . ويجوز في المسألة

إذا قلت : فإذا هو ، لأبى أن يكون الضمير للزنبور والعقرب على حد قولك « الزنبور العقرب » ويجوز أن تقول « فإذا هي هو » على التقديم والتأخير على حد قولك « فإذا العقربُ الزنبورُ » أي سواء في شدة اللسعة كما تقول « خرجت فإذا قائم زيد » على تقدير فإذا زيد قائم ، ويجوز أن يكون « هو » كناية عن اللسع بدلالة اللسعة عليه ، وتكون « هي » كناية عن اللسعة على تقدير : فإذا لسع الزنبور لسعة العقرب ، ويجوز « فإذا هي هو » على إضمار اللسعة واللسع ، والتقدير : فإذا لسعة الزنبور لسع العقرب ، وهذا كله لا يجوز فيه إلا الرفع عند البصريين ؛ لأن الآخر هو الأول ، والخبر معرفة متعلق بالمفاجأة فلا يجوز فيه الحال ، والكوفيون يميزون النصب كما تقدم ، وهو غلط بين ، وخطأ فاحش ، لا تقوله العرب ، ولا تعلق له بقياس ، فاعلمه .

ويجوز في المسألة « فإذا هو هو » على تقدير : فإذا اللسع اللسع ، ويجوز « فإذا هي هي » على تقدير : فإذا اللسعة اللسعة ، وفي هذا كفاية إن شاء الله تعالى .  
وأما نسب سيبويه ففارسي مولى لبني الحارث بن كعب بن علة بن خلدة ابن مالك ، وهو مدحج ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر ، وكنيته أبو بشر ، ولقبه الذي شهر به سيبويه ، ومعناها بالفارسية رائحة التفاح ، وكان من أطيب الناس رائحة ، وأجملهم وجهاً ، وقيل : معنى « سي » ثلاثون ، ومعنى « بويه » رائحة ، فكأن معناها : الذي ضوعف طيب رائحته ثلاثين مرة .

وأما سبب تعويله على الخليل في طلب النحو - مع ما كان عليه من الميل إلى التفسير والحديث - فإنه سأل يوماً حماد بن سلمة فقال له : أحدتلك هشام ابن عروة عن أبيه في رجل رَعَفَ في الصلاة ، بضم العين ، فقال له حماد : أخطأت ، إنما هو رَعَفَ بفتح العين ، فانصرف إلى الخليل ، فشكا إليه ما لقيه من حماد ، فقال له الخليل : صدق حماد ، ومثل حماد يقول هذا ، ورَعَفَ بضم العين لغة ضعيفة ، وقيل : إنه قدم البصرة من البسداء من قرى شيراز من عمل فارس ، وكان مولده ومنتشؤه بها ، ليكتب الحديث ويرويه ، فلزم حلقة حماد

ابن سَلَمَة ، فبينما هو يستملي على حماد قولَ النبي صلى الله عليه وسلم « ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأقذتُ عليه ، ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه « ليس أبو الدرداء » بالرفع ، وحمته اسم ليس ، فقال له حماد : لحتت يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، إنَّما ليس ههنا استثناء ، فقال سيبويه : سأطلب علماً لا تلحنني فيه ، فلزم الخليل ، وبرع في العلم .

وأما سبب وفوده على الرشيد ببغداد وتعرُّضه لمناظرة الكسائي والقراء ، فلما كانا عليه من تمكن الحال ، والقرب من السلطان ، وعلو همته ، وطلبه للظهور مع ثقته بعلمه ؛ لأنَّه كان أعلم أهل زمانه ، وكان بينه وبين البرامكة أقوى سبب ، فوفد على يحيى بن خالد بن برمك وابنيه جعفر والفضل ، فعرض عليهم ما ذهب إليه من مناظرة الكسائي وأصحابه ، فسعوا له في ذلك ، وأوصلوه إلى الرشيد ، فجرى بينه وبين الكسائي والقراء ما ذكر واشتهر ، وكان آخر أمره أن الكسائي وأصحابه لما ظهروا عليه بشهادة الأعراب على حسب ما لقنوا أن قال يحيى بن خالد أو الكسائي للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن لا يرجع خائباً فعلت ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وانصرف إلى الأهواز ، ولم يُعرج على البصرة ، وأقام هنالك مدَّة إلى أن مات كمدأ ، ويروى أنَّه ذرَّبت معدته فمات ، فيرون أنَّه مات غمماً ، ويروى أن الكسائي لما بلغه موته قال للرشيد : ده يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن أكون شاركتُ في دمه ، ولما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه فقطرت دمعة من دموعه على خده ، فرفع عينيه وقال :  
أُخَيِّينَ كُنَّا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا إِلَى الأَمَدِ الأَقْصَى ، وَمَنْ يَأْمَنُ الدَّهْرَ ؟

ومات على السنَّة والجماعة ، رحمه الله تعالى .

وأما كتابه الجاري بين الناس فلم يصح أنَّه أنشأه بعد كتاب آخر قبله ، على أن ذلك قد ذُكر .

فهذا ما حضر فيما سألت عنه ؛ فمن قرأه وأشرف فيه على تقصير فليبسط

العنبر فإنه لساعتين من نهار ، إملأه يوم الثلاثاء عشي النهار لثمان خلون لصفر  
سنة ٤٧٦ ، انتهى .

٥٣١ - وقال الإلييري ، رحمه الله تعالى <sup>١</sup> :

لا شيء أخسرُ صَفَقَةً مِنْ عَالَمٍ      لعبتُ بِهِ الدُّنْيَا مَعَ الْجَهَالِ  
فَعِنْدَا يَفْرُقُ دِينَهُ أَيْدِي سَبَا      ويذيله حرصاً يجمع المَالِ  
لا خَيْرَ فِي كَسْبِ الْحَرَامِ ، وَقَلَّمَا      يُرْجَى الْخِلَاصُ لِكَسْبِ الْحَلَالِ  
فَخِذْ الْكِفَافَ وَلَا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ      فَالْفَضْلُ تَسْأَلُ عَنْهُ أَيُّ سَوَالِ

٥٣٢ - وكان أبو الفضل ابن الأعمش من أحسن الناس وجهاً ، وأذكرهم  
في علم النحو والأدب ، وأقرأ النحو في صباه ، وفيه يقول ابن صارة الأندلسي ،  
رحمه الله تعالى <sup>٢</sup> :

أَكْرَمُ بِجَعْفَرِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ      ما زال يوضحُ مشكلَ «الإيضاح»  
مَاءَ الْجَمَالِ بِوَجْهِهِ مَرْفُوقٌ      فالعينُ منه تجولُ في ضَحْضَاحِ  
ما خدُّهُ جَرَحَتْهُ عَيْنِي ، إِنَّمَا      صبغتُ غِلَاقَتَهُ دَمَاءَ جِرَاحِي  
لِلَّهِ زَائِيُ زَبْرَجِدٍ فِي عَسْجِدِ      في جوهرٍ في كوثرٍ في رَاحِ  
ذِي طُورَةٍ سَبَجِيَّةٍ ، ذِي غُرَّةٍ      عاجية ، كالليلِ والإصباحِ  
رَشَأُ لَهُ خَدُّ الْبَرِيِّ ، وَلِحْظُهُ      أبدأُ شريكُ الموتِ في الأرواحِ <sup>٣</sup>

٥٣٣ - وقال محمد بن هانيء الأندلسي من قصيدة <sup>٤</sup> :

السافراتُ كأنهنَّ كواكبٌ      والناعماتُ كأنهنَّ غصونُ

١ ديوان الإلييري : ٨١ .

٢ قد مر هذا ص : ٧٣ - ٧٤ من هذا الجزء .

٣ زاد في م بعده : وقد سبقت هذه الأبيات قبل هذا .

٤ ديوان ابن هانيء : ١٧١ .

ماذا على حُلل الشقيق لَوآنها  
لأعطينَّ الروض بعدهمُ ولا  
أأعير لحظَّ العين بهجةً منظرٍ  
لا الجوّ جوَّ مشرقٌ وإن اكتسى  
لا يبعدنَّ إذ العبيرُ لهُ ثرى  
الظلُّ لا متنقلٌ ، والحوضُ لا  
عن لابسها في الخلود تبينُ  
يرويه لي دمعٌ عليه هَتُونُ  
وأخونهم ؟ إنني إذن لخَوُونُ  
زهواً ، ولا الماء المعينُ معينُ  
والبانُ روح ، والشموسُ قطينُ  
متكدرٌ ، والأمنُ لا ممنونُ

٥٣٤ - وقال القَسْطَلِيّ في أسطول أنشأه المنصور بن أبي عامر من قصيدة ١ :

تَحَمَّلَ منهُ البحرُ بحرًا من القَنَا  
بكلِّ ممالاتِ الشراعِ كأنَّها  
إذا سابقتُ شأوَ الرياحِ تخيلتُ  
سحائبُ تزجُّها الرياحُ فإن وفّت  
ظباء سمام ما لهنَّ مفاحصُ  
سواكنُ في أوطانهنَّ كأنَّ سَمَا  
كما رفعَ الآلُ الهوادجَ بالضُّحى  
أرقامُ تحوي نافعَ السمِّ ما لها  
يروعُ بها أمواجهُ ويهولُ  
وقد حملتُ أسدَ الحقائقِ غيلُ  
خيولاً مدى فرسانهن خيولُ  
أطافتُ بأجسادِ النعامِ فيولُ  
وزرق حمامٍ ما لهنَّ هديلُ  
بها الموجُ حيث الراسياتُ نزولُ  
غداة استقلتُ بالخليطِ حُمولُ  
بما حملتُ دونَ العُداةِ مَقيلُ

وقد أظنبت الناس في وصف السفن وأطابوا ، وقرّطسوا القريرضَ  
وأصابوا ، وقد ذكرنا نبذة من ذلك في هذا الكتاب .

٥٣٥ - وقال أبو بحر صَفْوَان بن إدريس التُّجِيبِي : حدثني بعض الطلبة  
بمراكش أن أبا العباس الجراوي كان في حانوت ورّاق بتونس ، وهناك فنى  
يميل إليه ، فتناول الفتى سوسنة صفراء ، وأوماً بها إلى خديه مشيراً ، وقال :  
أين الشعراء ؟ تحريكاً للجراوي ، فقال ارتجالاً :

١ ديوان ابن دراج : ٥ .

وعُلُوِيَّ الجَمالِ إِذا تَبَدَّى أراكَ جِيبِنَهُ بَدراً أَنارا  
أشارَ بِسَوَسَنِ يَحكيه عَرَفاً ويحكي لونا عَاشِقِهِ اصفرارا

قال أبو بجر : ثم سألتني أن أقول في هذا المعنى ، فقلت بديهاً :

أومى إلى خدهِ بِسَوَسَنَةٍ صفراءِ صيغتُ من وجنتي عبدهِ  
لم ترَ عيني من قبله غُصْناً سوسنُهُ نابتٌ إذا وردهِ  
أعملتُ زَجْرِي فقلتُ ربّما قَرَّبَ خدَّ المشوقِ من خدهِ

فحدثني المذكور أنه اجتمع مع أبي بكر ابن يحيى بن مجبر ، رحمه الله تعالى ،  
قبل اجتماعه بي في ذلك الموضع الذي اجتمع فيه بي بعينه ، فحدثه بالحكاية كما  
حدثني ، وسأله أن يقول في تلك الحال ، فقال بديهاً :

بي رشاً وَسَنانُ مَهما انثني حار قُضيبُ البانِ في قدِّهِ  
مُدُّ وِليَ الحِسنِ وسلطانهُ صارتُ قلوبُ الناسِ من جندهِ  
أودع في وجنته زهرةً كأنَّها تجرَعُ من صدِّهِ  
وقد تفاعلتُ على فعلهِ أني أرى خدي على خدهِ

فتعجبت من توارد خاطرنا على معنى هذا البيت الأخير .

قال أبو بجر : ثم قلت في تلك الحال :

أبرزَ من وجنته وردةً أودعها سوسنةً صَفْراً  
وإنما صورتهُ آيةٌ ضمَّنها من سوسنٍ عشراً

٥٣٦ - وقال بعضهم<sup>١</sup> في الباذنجان :

ومستحسنٍ عند الطعامِ مُدَحْرَجٍ غَدَاهُ نيمِرُ الماءِ في كلِّ بستانِ

١ م : بعض شعراء الأندلس .



تَطَّلَعَ فِي أَمْعَائِهِ فَكَأَنَّهُ قُلُوبُ نَعَاجٍ فِي مَخَالِبِ عَقْبَانٍ

٥٣٧ - وقال ابن خروف ، ويقال إنَّها في وصف دمشق :

إِذَا رَحَلَتْ عَرَّوبَةٌ عَنْ حِمَاهَا تَأْوَهُ كُلُّ أَوَاهٍ حَلِيمٍ  
إِلَى سَبْتِ حَكِي فِرْعَوْنَ مُوسَى يَجْمَعُ كُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ  
فَتَبْصِرُ كُلَّ أُمَّلُودٍ قَوْمٍ يَمِيسُ بِكُلِّ ثَعْبَانٍ عَظِيمٍ  
إِذَا انْسَابَتْ أَرَاقُمُهَا عَلَيْهَا تَذَكَّرْنَا بِهَا لَيْلَ السَّلِيمِ  
وَشَاهَدْنَا بِهَا فِي كُلِّ حِينٍ حَبَالاً أَلْقَيْتُ نَحْوَ الْكَلِيمِ

٥٣٨ - وقال أبو القاسم ابن هشام<sup>١</sup> ارتجالاً في وسيم عض وردة ثم رمى

بها ، وسئل ذلك منه امتحاناً :

وَمَعْجَزَ الْأَوْصَافِ وَالْوَصَافِ فِي بُرْدَيَّ جَمَالٍ طُرُزًا بِالتَّيِّهِ  
سُوسَانَ أَمَلَهُ تَنَاوَلَ وَرْدَةً فَعَدَا يَمِزُهَا أَقَاحِي فِيهِ  
فَكَأَنِّي شَبِهْتُ وَجَنَّتَهُ بِهَا فَرَمَى بِهَا غَضَباً عَلَى التَّشْبِيهِ

وقال أيضاً<sup>٢</sup> فيمن عض كلبٌ وَجَنَّتَهُ :

وَأَعْيِدَ وَضَاحِ الْمَحَاسَنِ بِاسْمِ إِذَا قَامَرَ الْأَسْيَافَ نَاطِرُهُ قَمَرُ  
تَعَمَّدَ كَلْبٌ عَضٌ وَجَنَّتَهُ الَّتِي هِيَ الْوَرْدُ إِيْنَاعاً وَأَبْقَى بِهَا أَثْرُ  
فَقَلْتُ لَشُهْبِ الْأَفَقِ كَيْفَ صُمَاتِكُمْ وَقَدْ أَثَّرَ الْعَوَاءُ فِي صَفْحَةِ الْقَمَرِ

٥٣٩ - وقال آخر يصف شجّة في خد وسيم :

عَذِيرِي مِنْ ذِي صَفْحَةٍ يُوَسِّفِيهِ بِهَا شَجَّةٌ جَلَّتْ عَنِ اللَّثْمِ وَاللِّمَسِ

١ ترجمة أبي القاسم ابن هشام في زاد المسافر : ٦٢ .

٢ م : وقال آخر .

يقولون من عَجَبٍ : أتمحسُّ وصفها فقلت : هلال لاح في شَقِّ الشمسِ

٥٤٠ - وقال القاضي أبو الوليد الوقشي فيمن طرَّ شاربه١ :

قد بيَّنت فيه الطبيعةُ أنها لبديعِ أفعالِ المهندسِ باهرةُ  
عُنيتْ بمبسمه فخطَّت فوقهُ بالمسكِ خطًّا من محيطِ الدائرةُ

٥٤١ - وقال أبو الحسن ابن عيسى :

عابوه أَسْمَرَ ناحلاً ذا زرقه رمداً وظنوا أنَّ ذاك يَشِينُهُ  
جهلوا بأنَّ السمهريَّ شبيههُ وخضابهُ بدمِ القلوبِ يزينهُ

٥٤٢ - وقال الأستاذ أبو ذر الحشني :

أنكر صحبي إذ رأوا طرفهُ ذا حمرة يَشْفِي بها المغرمُ  
لا تنكروا ما احمرَّ من طرفه فالسيفُ لا يُنكرُ فيه الدمُ

٥٤٣ - وقال أبو عبد الله محمد<sup>٢</sup> بن أبي خالص الرندي :

يا شادناً برز العذارُ بخدّه وازداد حسناً ، ليته لم يبرز  
الآن أعلمُ حين جدَّ بي الهوى كم بين مختصرٍ وبين مطرِّزٍ

٥٤٤ - وقال أبو الحسين عبد الملك بن مفوِّز المَعافري :

ومعدِّرٍ من خدّه ورقبيه شغلان حلاًّ عقد كلِّ عزيمةٍ  
خدُّ وخبُّ عيل صبري منهما هذا بنمنمةٍ وذا بنمنمةٍ

٥٤٥ - وقال أبو الوليد ابن زيدون فيمن أصابه جدري<sup>٣</sup> :

١ مر البيتان ، انظر ج ٣ : ٣٧٦ .

٢ محمد : سقطت من م .

٣ ديوان ابن زيدون : ١٢٤ .

قال لي اعتلّ من هويّ حَسودٍ  
ما الذي قد نكرت من بشرات  
جسمه في الصفاء والرقة الما  
قلتُ : أنت العليلُ ويحك لا هو  
ضاغفتُ حسنهُ وزانتُ حُلاهُ  
ء فلا غرو أن حبابُ علاهُ

٥٤٦ - وقال الهيثم<sup>١</sup> :

قالوا : به جربٌ فقلت لهم قِفُوا  
هو روضةٌ والقدُّ غصنٌ ناعمٌ  
تلك الندوبُ مواقعُ الأبصارِ  
أرايتمُ غصناً بيلاً نوّارِ

٥٤٧ - وقال أبو بكر محمد بن عياض القرطبي<sup>٢</sup> في مخضوبة الأنامل :

وعَلِقْتُهَا فَتَانَةً أَعْطَافُهَا  
من للغزاةِ والغزالِ بحسنيها  
تُزري بغصنِ الباتَةِ الميَادِ  
في الخدِّ أو في العينِ أو في الهادي  
خضبتُ أَنامِلُهَا السوادَ وَقَلَمًا  
أبصرتُ أَقلامًا بغيرِ مدادِ

٥٤٨ - وقال أبو الحسين النفزي<sup>٣</sup> :

بدا يوسفًا وشداً معبدًا  
كانَ بأعلاهُ قُمْرِيَّةً  
فللعينِ ما تشتهي والأُذنُ  
تغردُ من قدّه في غُصْنِ

٥٤٩ - وقال ابنُ صارة :

مُقامٌ حُرٌّ بأرضِ هونٍ  
سافرٌ فإن لم تجد كريمةً  
عجزَ لعمري مِنَ المقيمِ  
فمن لثيمِ إلى لثيمِ

١ زاد في م : في من اعتل يجرّب .

٢ ترجمته في التكملة : ٥١٥ .

٣ م : وقال أبو الحسن النفزي في مهفهب أهيف .

وقال المعتمد بن عباد ، رحمه الله تعالى ١ :

مولايَ أشكو إليك داءً أصبحَ قلبي به قريحا  
سخطك قد زادني سقاماً فابعثْ إليَّ الرضى مسيحا

قال بعضهم : وقوله « مسيحا » من القوافي التي يتحدى بها .

وكتب إلى أبيه جواباً عن تحفة ٢ :

يا مالكاً قد أصبحتُ كفهُ ساخرةً بالعارضِ الهاطلِ  
قد أفحمتني منةٌ مثلها يُضيقُ القولَ على القائلِ  
وإن أكنُ قصرتُ في وصفها فحسنها عن وصفها شاغلي

وكتب إلى وزيره ابن عمار :

لما نأيتَ نأى الكرى عن ناظري ووددتهُ لما انصرفتُ عليهِ  
طلبَ البشيرُ بشارةً يُجزى بها فوهبتُ قلبي واعتذرتُ إليه

وقال في جارية له كان يحبها ، وبينما هي تسقيه إذ لمع البرق فارتاعت :

يررؤها البرقُ وفي كفها برقٌ من القهوة لَمَاعُ  
ياليتَ شعري وهيَ شمس الضحى كيف من الأنوارِ ترتاعُ

ومن توارُد الخواطر أن ابن عبّاد أنشد عبدَ الجليل بن وهبون البيت

الأول ، وأمره أن يذيله ، فقال :

ولنَ ترى أعجبَ من أنسٍ مِنِ مثلِ ما يمسك يرتاعُ

١ ديوان المعتمد : ٣٣ .

٢ وردت هذه القطع في ديوان المعتمد ٤٢ ، ٦٣ ، ٣١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ٣ ، ١٠ ، ٢٥ ، ٧ .

وقال المعتمد ، رحمه الله تعالى :

داوى ثلاثته بلطفٍ ثلاثة ففى بذاك رقيه لم يشعِر  
أسرارهُ بتستر ، وأوارهُ بتصبر ، وخبالهُ بتوقُر

وكانت له جارية اسمها « جوهرة » وكان يحبها ، فجرى بينهما عتاب ، ورأى أن يكتب إليها يسترضيها ، فأجابته برقعة لم تعنونها باسمها ، فقال :

لم تصف لي بعدُ وإلاّ فلمْ  
درتْ بأنتي عاشقٌ لاسمها  
لم أرَ في عنوانها جوهرة  
فلم تُردْ للغيط أن تذكره  
قالتُ : إذا أبصره ثابتاً  
قبّله ، والله لا أبصره

وقال في هذه الجارية :

سرورنا بعدكم ناقصٌ  
والسعْدُ إن طالعتنا نجمه  
والعيّشُ لا صافٍ ولا خالصٌ  
سموكِ بالجواهرِ مظلومةٌ  
وغبتِ فهو الآفلُ الناكصُ  
مثلك لا يدركه غائصُ

وقال فيها أيضاً :

جوهرةٌ عذبي  
فزفرتي في صعّدِ  
منك تمادي الغضبِ  
يا كوكبَ الحسن الذي  
وعبرتني في صبّبِ  
مسكنك القلبُ ، فلا  
أزرى بيزهرِ الشهبِ  
ترضني له بالوصبِ

وقال في جارية اسمها ودّاد :

اشرب الكأسَ في ودّادِ ودادك  
وتأثسْ بذكرها في انفرادك

قمرٌ غابَ عن جفونكَ مرآهُ وسكناهُ في سوادِ فؤادكُ

وقال ١ :

لكَ اللهُ كَم أودعتَ قلبيَ من أسَى  
لحاظكَ طولَ الدهرِ حربٌ لمهجتي  
وكم لك ما بين الجوانح من كَلَمٍ  
ألا رحمةٌ تشيك يوماً إلى سِلْمِي

وقال :

قلتُ : متى ترَحمني ؟ قال : ولا طولَ الأبدِ

قلتُ : فقد أياسني من الحياة ، قال : قد

٥٥١ - وأهدى أبو الوليد ابن زيدون باكورة تفاحٍ إلى المعتضد والد

المعتمد ، وكتب له معها ٢ :

يا من تزيتَ الريا سةٌ حينَ ألبسَ ثوبها  
جاءتكَ جامدةٌ المدا مٍ فخذ عليها ذوبها

٥٥٢ - وقال المعتمد وقد أمره أبوه المعتضد أن يصف مجنأً فيه كواكب

فضة ٣ :

مجنٌ حكي صانعه السما لتقصر عنه طوال الرماحُ  
وقد صوروا فيه شبهة الثريا كواكبَ تقضي له بالنجاحُ

٥٥٣ - وقال ابن اللبانة : كنتُ بين يدي الرشيد ابن المعتمد في مجلس

أنسه ، فورد الخبر بأخذ يوسف بن تاشفين غرناطة سنة ٤٨٣ ، ففتجع وتلهف ،

١ سقط البيتان من م .

٢ ديوان ابن زيدون : ٢٢١ .

٣ ديوان المعتمد : ٢٩ .

واسترجع وتأسف ، وذكر قصر غرناطة ، فدعونا لقصره بالدوام ، ولملكه  
بترأخي الأيام ، وأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلي بالغناء ، فغنى :

يا دار مية بالعلياء فالسندِ أقوتَ وطال عليها سالفُ الأمدِ

فاستحالت مسرته ، وتجهمت أسرته ، وأمر بالغناء من ستارته ، فغنى :

إن شئت أن لا ترى صبراً لمصطبرٍ فانظرُ على أيِّ حالٍ أصبحَ الطَّلَلُ

فتأكد تطيره ، واشتد اربدادُ وجهه وتغيره ، وأمر مغنية أخرى من

سراريه بالغناء ، فغنت :

يا لهفَ نَفْسي على مالٍ أفرقه على المقلِّين من أهلِ المروءاتِ  
إنَّ اعتذاري إلى مَنْ جاء يسألني ما لستُ أملك من إحدى المصيباتِ

قال : فتلافتُ الحال بأن قلت :

محلُّ مكرمة لا هدَّ مَبْنَاهُ وشَمَلُ مأثرة لا شَتَّتْ اللهُ  
البيتُ كالبيتِ لكن زادَ شرفاً أنَّ الرشيدَ معَ المعتدِّ ركناهُ  
ثاو على أنجمِ الجوزاءِ مقعدهُ وراحلُ في سبيلِ السعدِ مسراهُ  
حَمَّ على الملكِ أن يقوى وقد وصلتُ بالشرقِ والغربِ يُمنَاهُ ويُسراهُ  
بأسٌ توقد ، فاحمرتُ لواحِظُهُ ونائلُ شبِّ ، فاخضرتُ عذاراهُ

فلعمري لقد بسطت من نفسه ، وأعادت عليه بعض أنسه ، على أتني وقعت

فيما وقع فيه الكل لقولي « البيت كالبيت » . وأمر إثر ذلك أبا بكر بالغناء ،

فغنى :

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ ولم يبقَ إلا أن تزَمَّ الركائبُ

فأيقننا أن هذا التطير ، يعقبه التغير .

٥٥٤ - وقد كان المعتضد بن عباد - حين تصرمت أيامه ، وتداني حمامه - استحضر مغنياً يغنيه ليجعل ما يبدأ به فألاً ، وكان المغني السوسي ، فأول شعر قاله :

تَطْوِي المَنَازِلَ عِلْمًا أَنْ سَتَطْوِينَا فَشَعَشَعِيهَا بِمَاءِ المَزْنِ وَاسْقِينَا

فمات بعد خمسة أيام ، وكان الغناء من هذا الشعر في خمسة أبيات .

٥٥٥ - وقال المعتمد بعدما خُلع وسجن<sup>١</sup> :

قَبِحَ الدهرُ فماذا صَنَعَا كَلَّمَا أعطَى نَفْسًا نَزَعَا  
قَدَّ هَوَى ظُلْمًا بِمَنْ عَادَاتُهُ أَنْ ينادي كلَّ مَنْ يهوي : لَعَا  
من إِذَا قيل الخنى صمَّ ، وإن نطق العاقونَ همساً سمعا  
قُلْ لمن يطمعُ في نائله قد أزال اليأسُ ذاك الطمعا  
رَاحَ لا يَمْلِكُ إِلَّا دعوةً جَبَرَ اللهُ العُفَاةَ الضُّيْعَا

٥٥٦ - وقال ابن اللبانة : كنت مع المعتمد بأغمات ، فلما قاربت الصدر ، وأزمعت السفر ، صرف حيلته ، واستنفذ ما قبيلته ، وبعث إليّ مع شرف الدولة ولده - وهذا من بنيه أحسنُ الناسُ سَمْتًا ، وأكثرهم صَمْتًا ، تخجله اللفظة ، وتجرحه اللحظة ، حريص على طلب الأدب ، مسارع في اقتناء الكتب ، مثابر على نسخ الدواوين ، مفتوح فيها من خطه زهر الرياحين - بعشرين مثقالاً مرابطة ، وثوبين غير مخيطين ، وكتب معها أبياتاً منها<sup>٢</sup> :

إِلَيْكَ النَّزْرَ من كَفِّ الأَسِيرِ وَإِنْ تَقْنَعُ تَكُنْ عَيْنَ الشُّكُورِ

١ ديوان المعتمد : ١٠٨ .

٢ ديوانه : ١٠٢ .



تقبَّلَ ما يذوبُ لهُ حياءً وإن عَدَرَتْهُ حالاتُ الفقيرِ

فامتنعت من ذلك عليه ، وأجبتَه بأبيات منها :

تركتُ هواك وهو شقيقُ ديني      لئن شُقتُ برودي عن غدورِ  
ولا كنتُ الطليقَ من الرزايا      إذا أصبحتُ أجحفُ بالأسيرِ  
جذيمة أنت ، والزبباءُ خانتُ      وما أنا من يقصرُ عن قصيرِ  
تُصرِّفُ في الندى حيلَ المعالي      فتسمحُ من قليلٍ بالكثيرِ  
وأعجبُ منك أنتك في ظلامٍ      وترفعُ للعفاةَ منارَ نورِ  
رويدك سوف توسعني سروراً      إذا عادَ ارتقاؤكَ للسريـرِ  
وسوف تحلني رتبَ المعالي      غداةَ تحلُّ في تلك القصورِ  
تزيدُ علي ابن مروان عطاءً      بها وأزيدُ ثمَّ علي جـريرِ  
تأهبُّ أن تعودَ إلى طلوعِ      فليس الخسفُ ملترمَ البدورِ

وأتبعها أبياتاً منها :

حاشَ لله أن أجيحَ كريماً      يتشكى فقراً وقد سدَّ فقرا  
وكفاني كلامك الرطبُ نيلاً      كيف ألغي درأً وأطلب تبرا  
لم تمّتْ إنما المكارمُ ماتتْ      لا سقى الله بعدك الأرضَ قطراً

ورأى ابن اللبّانة أحد أبناء المعتمد ، وهو غلام وسيم ، وقد اتخذ الصياغة صناعة ، وكان يلقب أيام سلطانهم من الألقاب السلطانية بفخر الدولة ، فنظر إليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ ، وقد جلس في السوق يتعلّم الصياغة ، فقال :

شكأتنا لك يا فخرَ العلاء عَظُمْتَ      والرزؤُ يعظمُ ممّن قدره عَظُماً  
طبّوؤتَ من نائباتِ الدهرِ مُخنّقةً      ضاقتُ عليكَ وكم طوّفتنا نِعَماً  
وعاد طوّفكُ في دكانِ قارعةٍ      من بعد ما كنتَ في قصرِ حكي إراماً

صرفت في آلة الصواغ أتملة  
يد عهدتك للتقبيل تبسطها  
يا صائغاً كانت العليا تُصاغ له  
للتفخ في الصور هول ما حكاه سوى  
وددت إذ نظرت عيني إليك به  
ما حطك الدهر لما حط عن شرف  
لح في العلا كوكباً، إن لم تلح قمرأ  
واصبر فربما أحمدت عاقبة  
والله لو أنصفتك الشهب لأنكسفت  
أبكي حديثك حتى الدر حين غدا  
لم تدّر إلا الندى والسيف والقلما  
فتستقل الثريا أن تكون فما  
حلياً وكان عليه الحلي منتظما  
هول رأيتك فيه تنفخ الفحما  
لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى  
ولا تحيف من أخلاقك الكرما  
وقم بها ربوة ، إن لم تقم علما  
من يلزم الصبر يحمد غب ما لزمنا  
ولو وفى لك دمع الغيث لانسجما  
يحكيك رهطاً وأفاظاً ومبتسما

٥٥٧ - وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ١ : وقفت على قبر  
المعتمد بن عباد بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية ،  
باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١ ، وهو بمقبرة أغمات في نشز  
من الأرض ، وقد حفّت به سدرّة ، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة  
رُميكت ، وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الحمول من بعد الملك ، فلا تملك العين  
دمعها عند رؤيتها ، فأنشدت في الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات  
لم لا أزورك يا أندى الملوك بدأ  
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه  
أناف قبرك في هضب يميزه  
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا  
رأيت ذلك من أولى المهمات  
ويا سراج الليالي المدهمات  
إلى حياتي بلحادث فيه أبياتي  
فتنتحيه حفيات التحيات  
فأنت سلطان أحياء وأموات

١ انظر مشاهدات لسان الدين : ١٣٣ نقلا عن نفاضة الجراب ، وأزهار الرياض ١ : ٢٩٧ وستأتي  
القصيدة في الباب الخاص بشعر لسان الدين .

ماريء مثلك في ماضٍ ، ومعتقدي أن لا يُرى الدهرَ في حال وفي آت  
وقد زرت أنا قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات سنة ١٠١٠ ، ورأيت فيه  
مثل ما ذكره لسان الدين رحمه الله تعالى ، فسبحان من لا يبِيدُ ملكه ،  
لا إله إلا هو .  
وأخبار المعتمد كثيرة .

٥٥٨ - وقال وزيره أبو الوليد ابن زيدون ١ :

متى أخف الغرام يَصِفُهُ جِسمي      بألسنة الضنى الخرس الفِصاحِ  
فلو أن الثياب نَزَعْنَ عني      خفيتُ خفاء خصرك في الوشاحِ  
وقال يخاطب المعتمد :

وطاعةُ أمركَ فرضُ أراهُ      من كلِّ مُفْتَرَضٍ أو كَدَا  
هي الشرعُ أصبحَ دينَ الضميرِ      فلوَ قد عصاكَ لقد أَلْحَدَا  
وقال فيه :

يا نَدَى يَمْنَى أَبِي القاسمِ عمُ      يا سنا بشرَ المحيّا أشمسِ  
وارتشفَ معسولَ نَغْرِ أشنبِ      لحبيبٍ من عجاجِ العَسِ  
وقال :

مهما امتدحتُ سواكَ قبلُ فإنّما      مدّحي إلى مدّحي لك استطرادُ  
تغشى الميادينَ الفوارسُ حَقَبَةً      كيما يعلمها التزالَ طرادُ  
وقال :

١ وردت هذه المقطعات في ديوان ابن زيدون : ٤٢٩ ، ٢١٦ ، ٢١٢ ، ٤٦٥ ، ٤٣٦ ، ٢٣٩ .

يحييني بريحانِ التجني      ويصحبي مُعْتَقَةَ السَماحِ  
فها أنا قد ثملتُ من الأيادي      إذا اتصل اغتباقي باصطباحي  
وكتب إلى أبي عامر يستدعيه :

أبا المعالي نحنُ في روضة      فانقلُ إلينا القَدَمَ العالِيهَ  
أنتَ الذي لو نشترى ساعةً      منهُ بدهرٍ لَمَ تكنُ غاليهَ

وتذكرت هنا قولَ بعضِ المَشارِقَةِ فيما أظنّ :

لله أيامٌ مضتْ مأنوسةً      ما كان أحسنها وأنصرها معا  
لو ساعةٌ منها تُباع شريئها      ولو آآها بيعتْ بعمرى أجمعا

رجع :

٥٥٩ - وقال أبو القاسم أسعد من قصيدة في المعتمض بن صَماح<sup>١</sup> :

وقد ذابَ كحلُّ الليلِ في دمعِ فجره      إلى أن تبدَّى الليلُ كاللَمَّةِ الشمطا  
كأنَّ الدُّجى جيشٌ من الزنجِ نافذٌ      وقد أرسل الإصباحُ في إثره القبطا

ومنها :

إذا سارَ سارَ الجُودُ تحتَ لوائه      فليس يحطُّ المجدُ إلاَّ إذا حطَّا

٥٦٠ - وقال ابن خَلصة المكَفوف<sup>٢</sup> النحوي من قصيدة :

ملكٌ تملكُ حرَّ المجدِ، لا يدُه      نالت بظلم ولا مالت إلى البخلِ  
مهذبٌ الجِدِّ ماضي الحدِّ مضطلعٌ      لما تحمَّله العلياءُ من ثِقَلِ

١ المطمح : ٨٣ وقد مرت بعض أبيات هذه القصيدة ص : ٥١ .  
٢ ترجمة ابن خَلصة في التحفة ( ص : ١ ) والوافي ٣ : ٤٢ ، ٢٢٢ .

أغرُّ ، لا وعده يخشى لهُ أبداً  
 قد جاوزتُ نطقَ الجوزاءِ همته  
 يأبى لهُ أن يحلَّ الدمُ ساحتَهُ  
 وخلفُ ، ولا رأيه يؤتني من الزللِ  
 به ، وما زحلتُ عن مرتقى زحلِ  
 ما صدَّ من جلالٍ أو سدَّ من خللِ  
 ومنها :

إن لم تكن بكمُ حالي مُبدلةً  
 فما انتفاعي بعلمِ الحالِ والبدلِ

٥٦١ - وقال ابن الحداد يمدح المعتصم بن صُماح :

عُجَّ بالحمى حيثُ الغياضُ العِينُ  
 واستقبلنَّ أراجَ النسيمِ فدارهمُ  
 أفقُ إذا ما رمتَ لحظَ شموسهِ  
 أتى أراعُ لهمُ وبينَ جوانحي  
 أتى يهابُ ضرابهمُ وطعانهمُ  
 فكأنما بيضُ الصفاحِ جداولُ  
 ذرني أسرُ بينَ الأسنَّةِ والطَّبِي  
 يا ربةَ القرطِ المعيرِ خفوقهُ  
 توريدُ خدكِ للصبابةِ موردُ  
 فإذا رمقتِ فوحيُ جبكِ مُنزلُ  
 فعمى تمنُّ لنا مهاهُ العِينُ  
 نديَّةُ الأرجاءِ لا دارينُ  
 صدَّتكَ للنقعِ المثارِ دُجونُ  
 شوقُ يهونُ خطبهمُ فيهونُ  
 صبُّ بالخطِ العيونِ طعينُ  
 وكأنما سمرُ الرماحِ غصونُ  
 فالقلبُ في تلكِ القبابِ رهينُ  
 قلبي ، أما لحراكه تسكينُ ؟  
 وفتورُ طرفكِ للنفوسِ فتونُ  
 وإذا نطقتِ فإنهُ تلقينُ

ومنها في وصف قصر :

رأسُ بظهرِ النونِ إلا أنهُ  
 هو جنةُ الدنيا تبوَّأ نزلها  
 فكأنما الرحمنُ عجلها لهُ  
 وكانَ بانيهُ سنمارُ فما  
 سام ، فقبيتهُ بحيثُ النونُ  
 ملكُ تملكهُ الثقي والدينُ  
 ليرى بما قد كان ما سيكونُ  
 يعدوه تحسينُ ولا تحصينُ

وجزاؤه فيه نقيضُ جزائه شتانَ ما الإحياءُ والتحيينُ

ومنها في المديح :

لا تُلْفَحُ الأحكامُ حَيْفًا عندهُ فكأنتها الأفعالُ والتنوينُ

ومنها :

وبدا هلالُ الأفقِ أحنى ناسخاً عهدَ الصيامِ كأنه العُرْجُونُ  
فكانَ بَيْنَ الصومِ خَطَطَ نحوه خطأ خفيّاً بانَ منه النونُ

٥٦٢ - وقال عبد الجليل بن وهبون :

زعموا الغزالَ حكاةَ قلتُ لهم : نعم في صدّه عن عاشقيه وهجره  
وكذا يَقُولون المدامُ كريقه يا ربّ ما علموا مذاقة ثغره

٥٦٣ - وقال أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي وهب الأندلسي :

قالوا : تدانيتَ من وداعهم ولم نَرَ الصبرَ عنك مغلوباً  
فقلتُ : للعلمِ أنّي بغدٍ أسمعُ لفظَ الوداعِ مغلوباً

وهذا كقول بعض شعراء اليتيمة<sup>١</sup> :

إذا دهاك الوداعُ فاصبرُ ولا يروعنّك البعادُ  
وانتظر العودَ عن قريبٍ فإنّ قلبَ الوداعِ عادوا

٥٦٤ - وقال ابن اللبّانة<sup>٢</sup> :

إن تكنُ تبغني القتالَ فدعني عنك في حومةِ القتالِ أحامي

١ مر البيتان في ج ١ : ٩٢ .

٢ زاد في م : في التورية .

خذ جناني عن جنةٍ ، ولساني عن سنانٍ ، وخاطري عن حسامٍ

٥٦٥ - وقال القزاز يمدح ابن صُمادح ، وخطب النسيب بالمديح :

نفى الحبُّ عن مقلتي الكرى      كما قد نفى عن يديَّ العدمُ  
فقد قرَّ حبُّك في خاطري      كما قرَّ في راحتك الكرمُ  
وفرَّ سلوكك عن فكري      كما فرَّ عن عرضه كلُّ ذمِّ  
فحبِّي ومفخره باقيان      لا يذهبان بطولِ القدمِ  
فأبقى لي الحبَّ خالٌ وجدٌ      وأبقى له الفخرَ خالٌ وعمُّ

٥٦٦ - وقال أبو الحسن ابن الحاج :

أذوبُ اشتياقاً يومَ يحجبُ شخصهُ      ولأني على ريبِ الزمانِ لقاسي  
وأذعرُ منه هيةٌ وهو المني      كما يدعُرُ المخمورَ أولُ كاسِ

وقال :

من لي بيطرفٍ كأنني أبداً      منهُ بغيرِ المدامِ مخمورُ  
ما أصدقَ القائلين حينَ بدا :      عاشقُ هذا الجمالِ معذورُ

وقال :

أبا جعفرٍ ، مات فيك الجمالُ      فأظهرَ خسدكُ لبسَ الحدادِ  
وقد كان يُنبِتُ نورَ الربيعِ      فقد صار يُنبِتُ شوكَ القتادِ  
فهل كنت من عبدِ شمسٍ فأخشى      عليكَ ظهورَ شعارِ السوادِ

وقال ، وما أحكمه :

ما عجي من بائعٍ دينتهُ      بلدةٍ يبلغُ فيها هواهُ

١ انظر المغرب ٢ : ٢٨١ والقلائد : ١٤٤ .

ولئنما أعجبُ من خاسرٍ يبيعُ أخراهُ بدنياهُ سواهُ

وقال من مُخَمَّسةٍ يرثي فيها ابن صمادح ، ويندب الأندلس زمن الفتنة :

من لي بمجبولٍ على ظلم البشرِ صحفَ في أحكامه حاء الحورِ  
مرّ بنا يسحبُ أذيالَ الحفرِ ما أحسدَ الظبيَ له إذا نقرَ  
وأشبهَ العُصنَ به إذا خطرَ

كافورةٌ قد طُرِّزتْ بمسكِ جوهرةٌ لم تمتهنُ بسلكِ  
نبتتُ فيها ورعي ونُسكي بَعَدَ لجاحي في التقى ومحكي  
فاليومَ قد صحَّ رجوعي واشتهرُ

نهيتُ قِدماً ناظري عن نظري علماً بما يجني ركوبُ الغريرِ  
وقلتُ: عرِّجْ عن سبيلِ الخطرِ فاليومَ قد عاينَ صدقَ الخبرِ  
إذ باتَ وقفاً بينَ دمعٍ وسهرِ

سقى الحيا عهداً لنا بالطاقِ معتركِ الألبابِ والأحداقِ  
وملتقى الأنفسِ والأشواقِ أياسٍ فيه الدهرُ عن تلاقِي  
وربما ساءك دهرٌ ثمَّ سرَّ

أحسِنَ بهِ مُطلِعاً ما أغرباً قابلٍ من دجلةٍ مرأى معجبا  
إن طلعتْ شمسٌ وقد هبتْ صبا حسبته ينشرُ بُرداً مُذهبا  
بمنظرٍ فيه جلاءٌ للبصرِ

ياربِّ أرضٍ قد دخلتْ قصورها وأصبحتْ أهلةً قبورها  
يشغلُ عن زائرها مزورها لا يأملُ العودةَ من يزورها  
هيهات: ذاك الورد ممنوع الصدِّرُ



تنتحبُ الدنيا على ابنِ مَعْنٍ كَأَنهَا تُكَلِّمِي أَصَيْتِ بَابِنِ  
أَكْرَمِ مَأْمُولٍ وَلَا أُسْتَفِي أَنِّي بِنِعْمَاهُ وَلَا أُثْنِي  
وَالرَّوْضُ لَا يُنْكِرُ مَعْرُوفَ الْمَطْرِ

عَهْدِي بِهِ وَالْمَلِكُ فِي ذِمَارِهِ وَالنَّصْرُ فِيمَا شَاءَ مِنْ أَنْصَارِهِ  
يَطْلَعُ بَدْرُ التَّمِّ مِنْ أَرْزَارِهِ وَتَكْمُنُ الْعَفَّةُ فِي إِزَارِهِ  
وَيَحْضُرُ السُّودَدُ أَيَّانَ حَضَرَ

قَلُّ لِلنَّوَى جَدًّا بِنَا انْطِلَاقُ مَا بَعْدَتْ مِصْرُ وَلَا الْعِرَاقُ  
إِذَا حِدَا نَحْوَهُمَا اشْتِيَاقُ وَمِنْ دَوَاءِ الْمَلْلِ الْفِرَاقُ  
وَمِنْ نَأَى عَنِ وَطَنِ نَالِ وَطَرُ

سَارَ بَدِي بَرْدٍ مِنَ الْإِصْبَاحِ رَاكِبٌ نَشْوَى ذَاتِ قِصْدٍ صَاحٍ  
مَسْوَدَةٍ مَبِيضَةِ الْجَنَاحِ تَسْبُحُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالرِّيَاحِ  
بِزَوْرَهَا عَنِ طَافِحِ الْمَوْجِ زَوْرُ

يَقْتَحِمُ الْهَوْلَ بِهَا اغْتَرَارًا فِي فِتْيَةٍ تَحْسِبُهَا سُكَارَى  
قَدْ افْتَرَشْنَ الْمَسَدَ الْمُغَارَا حَتَّى إِذَا شَارَفَتِ الْمَنَارَا  
هَبَّ كَمَا بَلَّ الْعَلِيلُ الْمُحْتَضِرُ

يَوْمٌ عَدَلَ الْمَلِكُ الرُّضِيَّ الْهَاشِمِيَّ الطَّاهِرِ النَّقِيَّ  
وَالْمَجْتَبِيَّ مِنْ ضَيْضِيِّ النَّبِيِّ مِنْ وَلَدِ السَّفَاحِ وَالْمَهْدِيِّ  
فَخَرَّ مَعْدًى وَنَزَارٍ وَمُضَرَّ

حَيْثُ تَرَى الْعَبَّاسَ يُسْتَسْقَى بِهِ وَالشَّرْفُ الْأَعْظَمُ فِي نِصَابِهِ  
وَالْأَمْرَ مَوْقُوفًا عَلَى أَرْبَابِهِ وَالدِّينَ لَا تَخْتَلِطُ الدُّنْيَا بِهِ  
وَسِيرَةَ الصُّدِّيقِ تَمْضِي وَعُمُرُ

وقال ابن خفاجة في صفة قوس<sup>١</sup> :

عوجاء تُعطفُ ثم تُرسلُ تارةً  
فكأنتما هي حيةٌ تنسابُ  
وإذا انحنت، والسهمُ منها خارجٌ  
فهي الهلالُ انقضَّ منه شهابُ

وقال :

وعسى الليالي أن تمنَّ بنظمنا  
فكأنتما هي حيةٌ تنسابُ  
ولربِّما نُشرَّ الجُمانُ تعمُّداً  
ليعادَ أحسنَ في النظامِ وأجملاً  
وهو من قول مهيار :

عسى اللهُ يَجْعَلُها فُرْقَةً  
تَعُودُ بِأَكْمَلِ مُسْتَجْمِعِ

وقول المتنبي :

سألتُ اللهَ يَجْعَلُهُ رَجِيلاً  
يَعِينُ على الإقامةِ في ذَرَاكَا

وقال :

اقضِ على خَلْكَ أو ساعِدِ  
عشتَ بِجَدِّ في العُلا صاعِدِ  
فقدَ بكى جفني دماً سائلاً  
حتى لَقَدُ ساعِدَهُ ساعِدِي

وقال :

وأسودٍ يسبحُ في بركةٍ  
لا تكتمُ الحصباءُ غُدْرانها  
كأنَّها في صفوها مقلَّةٌ  
زرقاءُ ، والأسودُ إنسانها

١ راجع ديوان ابن خفاجة : ٣٦١ ، ٣٦٩ ، ٣٦٣ ، ٣٧٠ ، والثانية مرت في ج ١ : ٣١ .

وقال :

حيًا بها ونسيمها كنسيمه  
فشربتها من كفه في وده  
منساعةً فكأنتها من ريقه  
حمرّةً فكأنتها من خده

وقال :

لعمري لو أوضعتُ في منهبِ التقي  
فما يستقيمُ الأمرُ ، والمملك جائر  
وقال يرثي صديقاً من أبيات :

تيقنَ أنَّ اللهَ أكرمُ جيرةٍ  
فإنَّ أفقرتُ منه العيونُ فإنَّه  
ولم أرَ أنساً قبله عادَ وحشةً  
ومن تكُّ أيامُ السرورِ قصيرةً  
فأزَمَعَ عن دار الحياة رَحِيلاً  
تعوَّضَ منها بالقلوبِ بديلاً  
وبرداً على الأكبادِ عادَ غليلاً  
به كان ليلُ الحزنِ فيه طويلاً

وقال :

تفاوت نجيلاً أبي جعفر  
فهذا يمينٌ بها أكله  
فمن متعالٍ ومن مُنْسَقِلٍ  
وهذا شمالٌ بها يغتسلُ

٥٦٨ - وقال ابن الرقاء :

ولمَّا رأيتُ الغربَ قد غصَّ بالدُّجى  
توهمتُ أنَّ الغربَ بحرٌ أخوضه  
وفي الشرقِ مِن ضوءِ الصباحِ دلائلُ  
وأنَّ الذي يَبْدُو من الشرقِ ساحلُ

٥٦٩ - وقال أبو محمد ابن عبد البر الكاتب :

لا تُكثِرَنَّ تَأَمَّلاً  
وامسكْ عليك عِنانَ طَرَفِكَ

فلربما أرسلته فرماك في ميدان حَتْفِكَ

٥٧٠ - وقال أبو القاسم السميسر<sup>١</sup> :

يا آكلًا كلَّ ما اشتهاهُ وشاتمَ الطَّبِّ والطَّيِّبِ  
ثمَّار ما قد غرستَ تجني فانتظرِ السقمَ عن قريبِ  
يجتمعُ الداءُ كلَّ يومٍ أغذيةُ السوءِ كالذنوبِ

وكان كثير الهجاء ، وله كتاب سماه بـ « شفاء الأمراض في أخذ الأعراض »

والعياذ بالله تعالى .

ومن قوله :

ختمَ فهنمٌ وكم أهتمُّ زمانَ كنتمُ بلا عيونُ  
فأنتمُ تحتَ كلِّ تحتٍ وأنتمُ دونَ كلِّ دونُ  
سكنتمُ يا رياحَ عادٍ وكلُّ ريحٍ إلى سكونُ

وقال<sup>٢</sup> :

يا مُشفقاً مِن خُمُولِ قومٍ ليسَ لهم عندنا خلاقُ  
ذَلُّوا ويا طالما أذَلُّوا دعهمُ يذوقوا الذي أذاقوا

وقال :

وليتمَّ فما أحسنتمُ مذ وليتمُ ولا صنتمُ عمَّن يصونكمُ عِرْضاً  
وكنتمُ سماء لا يُنالُ منالها فصرتمُ لدى من لا يسائلكم أرضاً  
ستترجعُ الأيامُ ما أقرضتكمُ ألا إنها تسترجعُ الدينَ والقرضا

١ الذخيرة ٢/١ : ٣٨٠ .

٢ الذخيرة ٢/١ : ٣٧٥ .

٥٧١ - وقال ابن شاطر السرقسطي :

قد كنتُ لا أدري لأيةِ علّةٍ صار البياضُ لباسَ كلِّ مصابٍ  
حتى كساني الدهرُ سَحَقَ ملاءةٍ بيضاءٍ مِن شبيبي لفقْدِ شَبَابِي  
فبذا تبينَ لي إصابةُ مَنْ رأى لبسَ البياضِ على نَوَى الأَحْبابِ

٥٧٢ - وهذه عادة أهل الأندلس ، ولهذا قال الحُصْرِي :

إذا كان البياضُ لباسَ حُزْنٍ بأندلسٍ فذاك من الصوابِ  
ألم تَرَني لبستُ بياضَ شبيبي لأنني قد حزنتُ على الشَّبَابِ

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

لو كنتِ زائرتي لراعك منظري ورأيتِ بي ما يصنعُ التفريقُ  
ولحال من دمعي وحرَّ تنفسي بيّني وبينك لحظةً وحرّيقُ

٥٧٣ - وقال ابن عبد الصمد يصف فرساً :

على سابحٍ فرْدٍ يفوتُ بأربعٍ له أربعاً منها الصِّبَا والشمائلُ  
من الفُتُخِ خوَارِ العنانِ كأنه مع البرقِ سارٍ أو مع السيلِ سائلُ

٥٧٤ - وقال ابن عبد الحميد البرجي :

أرِحْ مَنْ المهنّدِ والحوادِ فقدَ تعباً بجدك في الجهادِ  
قضيتَ بعزيمةٍ حقَّ العوالي ففضَّ براحةٍ حقَّ الهوادي

٥٧٥ - وقال عبادة :

إنّما الفتحُ هلالٌ طالعٌ لاحَ من أزراره في فلّكِ  
خدّهُ شمسٌ ، وليلٌ شعْرُهُ من رأى الشمسِ بدت في حلكِ

٥٧٦ - وقال ابن المطرف المنجم :

يرى العواقبَ في أثناء فكرته كأنَّ أفكاره بالغيبِ كهُنَّ  
لا طَرَفَةَ منه إلا تحتها عملٌ كالدهرِ لا دورةٌ إلا لها شانُ

٥٧٧ - وقال أبو الحسن ابن اليسع :

راموا ملامي ، وكانَ إغرا وذمَّ حبي ، وكانَ إطرا  
لو علم العاذلون ما بي لانقلبتُ فيه لامهم را

وقال :

لَمَّا قَدِمْتُ وَعِنْدِي شَطْرٌ مِنَ الشوقِ وَا فِي  
قَدِمْتُ قَلْبِي قَبْلِي فَصُنَّهُ حَتَّى أُوَافِي

٥٧٨ - ولَمَّا خَاطَبَ المِستَصرَ مَلِكَ إِفْرِيقِيَّةِ ابنَ سَيِّدِ النّاسِ بقولهِ :

ما حالُ عَينِكَ يا عَينَ الزَّمانِ فقد أَوْرَثَتَنِي حَزَنًا مِينَ أَجْلِ عَينِكَ  
وليس لي حيلةٌ غيرُ الدِّعاءِ فيا ربِّ براوي الصّحيحينِ حَنايِكَ

أجابهُ الحافظُ أبو المطرفِ ابنَ عميرةِ المِخزوميّ خِدمةً عن الحافظِ أبي بكرِ ابنِ  
سَيِّدِ النّاسِ :

مولايَ حالهما واللهِ صالحةٌ لَمَّا سَأَلْتَ فَأَعَلَى اللهُ حاليكَ  
ما كانَ من سَفَرٍ أو كانَ من حَضَرٍ حَتَّى تَكُونَ الثَّريّا دونَ نَعليكَ

٥٧٩ - وقال الأديب أبو العباس الرّصافي ، وهو من أصحاب أبي

حيّان :

هذا هلالُ الحَسَنِ أَطْلَعَ بَيننا وجميعنا بحلى محاسنه شُغِفُ

لَمَّا رَأَى صِلُ الْعِدَارِ بَخْدَهُ      مَاءَ النِّعِيمِ أُنِي إِلَيْهِ لِيَرْتَشِفُ  
فَكَانَ ذَاكَ الْخَدَّ أَنْكَرَ أَمْرَهُ      فَاحْمَرَّ مِنْ حَنْقٍ عَلَيْهِ وَقَالَ قِفْ

وقال :

وعشيّةً نعمتُ بها أرواحنا      والحمْرُ قد أخذتُ هنالكَ حقّها  
وكأنّما إبريقنا لَمَّا جئنا      ألقى حديثاً للكؤوسِ وقهقهها

٥٨٠ - وقال الإمام الحافظ أبو الربيع ابن سالم :

كأنّما إبريقنا عاشقٌ      كلٌّ عن الخطوِّ فما أعمله  
غازل من كأسٍ حبيباً له      فكلّما قبله أُخجله

٥٨١ - وقال أبو القاسم ابن الأبرش :

رأيتُ ثلاثةً تحكي ثلاثاً      إذا ما كنتَ في التشبيهِ تُنصِفُ  
فتنّجوا النيلُ منفعةً وحسناً      وشتريّن مصرُ ، وأنتَ يوسفُ

وقال في غريق ، وقيل : إنّه ممّا تمثل به ٢ :

الحمدُ لله على كلّ حالٍ      قد أطفأ الماءُ سراجَ الجَمالِ  
أطفأه ما كانَ محبباً له      قد يطفىء الزيتُ ضياءَ الذبَالِ

وهو القائل أيضاً :

لو لم يكن لي آباءُ أسودُ بهم      ولم يؤسس رجالُ الغربِ لي شرفاً  
ولم أنلُ عند ملكِ العصرِ منزلةً      لكانَ في سيبويه الفخرُ لي وكفى  
فكيفَ علمٌ ومجدٌ قد جمعتهما      وكلُّ مختلقٍ في مثلِ ذا وقفا

١ كذا ولعله فتجو أي « تاجه » اسم النهر ( Tagus ) .

٢ وقيل . . . به : سقطت من م .

٥٨٢ - وقال أبو الحسن ابن حريق :

أصبحت تدميرُ مصرأ كاسمها وأبو يوسفَ فيها يوسفَا

٥٨٣ - وقال أبو القاسم ابن العطار الإشبيلي في بعض الموزنين وقد غرق

في نهر طلييرة عند فتحها<sup>١</sup> :

ولما رأوا أن لا مقرَّ لسيفه      سوى هامهم لاذوا بأجرأ منهم  
فكان من النهر المعين معينهم      ومن ثلّم السدّ الحسامُ المثلم  
فيا عجباً للبحرِ غالته نُطفة      وللأسدِ الضرغامِ أرداهُ أرقمُ

٥٨٤ - [ نقول من التكملة ]

1 - وقال أبو العباس اللص<sup>٢</sup> :

وقائلة والضنى شاملي      علامَ سهرتَ ولم ترقدِ  
وقد ذاب جسمك فوق الفرا      شِ حتى خفيتَ على العودِ  
فقلتُ : وكيف أرى نائماً      ورائي المنية بالمرصدِ

ولما قرىء عليه ديوان أبي تمام ، ومرّ فيه وصف سيف ، قال : أنا أشعر  
منه حيث أقول :

تراه في غداة الغيمِ شمساً      وفي الظلماءِ نجماً أو ذبالا  
يروعهمُ معاينةً ووهماً      ولو ناموا لروّعهم خيالا

2 - وقال أبو إسحاق الإلبيري<sup>٣</sup> :

١ الشعر في القلائد : ٢٨٨ والبيت الثالث في المغرب ١ : ٢٥٤ .

٢ القطعتان في التكملة : ٨٠ .

٣ التكملة : ١٣٧ وديوانه : ١٥٩ .



تمرُّ لِدَاتِي وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ      وَأَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَهُمْ غَيْرُ خَالِدٍ  
وَأَحْمَلُ مَوْتَاهُمْ وَأَشْهَدُ دَفْنَهُمْ      كَأَنِّي بَعِيدٌ عَنْهُمْ غَيْرُ شَاهِدٍ  
فَهَا أَنَا فِي عِلْمِي لَهُمْ وَجِهَاتِي      كَمَسْتَقِظٍ يَرْنُو بِمَقْلَةٍ زَائِدٍ

قيل : ولو قال في البيت الثاني :

كَأَنِّي عَنْهُمْ غَائِبٌ غَيْرُ شَاهِدٍ

لكان أحسن وأبداع وأبرع في الصناعة الشعرية ، قاله ابن الأبار رحمه الله تعالى .

3 - وقال الوزير أبو الوليد ابن مسلمة<sup>١</sup> :

إِذَا خَانَكَ الرَّزْقُ فِي بِلْدَةٍ      وَوَأْفَاكَ مِنْ هَمِّهَا مَا كَثُرُ  
فَمِفْتَاحُ رِزْقِكَ فِي بِلْدَةٍ      سِوَاهَا فَرِدْهَا تَنْتَلُ مَا يَسُرُ  
كَذَا الْمِبْهَمَاتُ بَوْسَطِ الْكُتُبِ      بَ مِفْتَاحُهَا أَبْدَأُ فِي الطَّرْرِ

4 - وقال أبو الطاهر إسماعيل الحشني الجياني المعروف بابن أبي ركب ، وقيل : إن أخاه الأستاذ أبا بكر هو المعروف بذلك<sup>٢</sup> :

يَقُولُ النَّاسُ فِي مَثَلٍ      تَذَكَّرُ غَائِبًا تَرَهُ  
فَمَا لِي لَا أَرَى سَكَّتِي      وَلَا أَنْسَى تَذَكَّرَهُ

5 - وأنشد أبو المعالي الإشبيلي الواعظ بمسجد رجة القاضي من بكنسية أبياتاً منها<sup>٣</sup> :

- ١ التكملة : ١٨٤ .  
٢ التكملة : ١٨٥ .  
٣ التكملة : ١٩٦ .

أنا في الغربة أبكي ما بكت عين غريب  
لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب  
عجبا لي ولتَرَكي ووطناً فيه حبيبي

6 - وقال أبو القاسم ابن الأنقر السرقسطي<sup>١</sup> :

احفظ لسانك والجوارح كلها فلكل جارحة عليك لسان  
واخزن لسانك ما استطعت فإنه ليث هصور والكلام سينان

7 - وقال أبو القاسم خلف بن يحيى بن خطاب الزاهد ، مما نسب له لأبي

وهب الزاهد<sup>٢</sup> :

قد تخيرت أن أكون خفياً ليس لي من مطيهم غير رجلي  
فإذا كنت بين ركب فقالوا قدموا للرحيل قدمت نعلي  
حيثما كنت لا أخلف رجلاً من رأني فقد رأني ورحلي

8 - وقال أبو عبد الله ابن محمد بن فتح الأنصاري الثغري<sup>٣</sup> :

كم من قوي قوي في قلبه مهذب الرأي عنه الرزق ينحرف  
ومن ضعيف ضعيف الرأي مختل كأنه من خليج البحر يغترف

9 - وقال أبو القاسم محمد بن نصير الكاتب<sup>٤</sup> :

مضت أعمارنا ومضت سنونا فلم تظفر بذي ثقة يدان  
وجربنا الزمان فلم يفدنا سوى التخويف من أهل الزمان

١ التكملة : ٣٠١ .

٢ التكملة : ٣٠٤ .

٣ التكملة : ٣٧٥ .

٤ التكملة : ٣٧٨ .

10 - وحكي عن الفقيه الأديب النحوي أبي عبد الله محمد بن ميمون الحسيني ، قال <sup>١</sup> : كانت لي في صبّوتي جارية ، وكنت مُغرّى بها ، وكان أبي رحمه الله يَعُدُّني ويعرض لي ببيعها ، لأنها كانت تشغلني عن الطلب والبحث عليه ، فكان عدّلهُ يزيدني إغراء بها ، فرأيت ليلة في المنام كأن رجلاً يأتيني في زي أهل المشرق كلُّ ثيابه بيض ، وكان يُلْتَمِ في نفسي أنه الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما ، وكان ينشدني :

تَصَبُّوْا إِلَى مَيِّ ، وَمَيِّ لَا نَبِيَّ تَزْهَرُ بِسَلْوَاكَ الَّتِي لَا تَنْقُضِي  
وَفَخَارِكَ الْقَوْمُ الْأَلَى مَا مِنْهُمْ إِلَّا إِمَامٌ أَوْ وَصِيٌّ أَوْ نَبِيٌّ  
فَإِنَّ عَنَانِكَ لِلْهُدَى عَنِ ذِي الْهَوَى وَخَفَ الْإِلَهَ عَلَيْكَ وَيَحْكُ وَارْعَوِي

قال : فانتبهت فزعاً مفكراً فيما رأيته ، فسألت الجارية : هل كان لها اسم قبل أن تتسمى بالاسم الذي أعرفه ؟ فقالت : لا ، ثم عاودتها حتى ذكرت أنها كانت تسمى مية ، فبعثتها حينئذ ، وعلمت أنه وعظُّ وعظني الله به ، عز وجل ، وبشرى .

11 - وقال ابن الحداد أول قصيدته « حديقة الحقيقة » <sup>٢</sup> :

ذَهَبَ النَّاسُ فَاَنْفَرَادِي أَنْيْسِي وَكِتَابِي مَحْدَثِي وَجَلِيسِي  
صَاحِبٌ قَدْ أَمِنْتُ مِنْهُ مَلَالاً وَاخْتِلَالاً وَكُلَّ خَلْقٍ بِئِيسِ  
لَيْسَ فِي نَوْعِهِ بَحْيٌ وَلَكِنْ يَلْتَقِي الْحَيُّ مِنْهُ بِالْمُرْمُوسِ

12 - وقال بعض أهل الجزيرة الخضراء <sup>٣</sup> :

١ التكملة : ٣٩٦ .  
٢ التكملة : ٣٩٩ .  
٣ التكملة : ٤١٥ .

أَلْحَاطِكُمْ تَجْرَحُنَا فِي الْحَشَا      وَلِحِظْنَا يَجْرَحُكُمْ فِي الْخُدُودِ  
جَرَحٌ يَجْرَحُ فَاجْعَلُوا ذَا بَذَا      فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ جَرَحَ الصَّدُودِ

وقال ابن النعمة : إنهما لابن شرف ، وقد ذكرناهما مع جوابهما في غير هذا الموضع .

13 - وقال المعتمد بن عباد<sup>١</sup> :

اقنَعْ بِمِحْطِكَ فِي دُنْيَاكَ مَا كَانَا      وَعَزَّ نَفْسُكَ إِنْ فَارَقْتَ أَوْطَانَا  
فِي اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَفْقُودٍ مَضَى عِيُوضٌ      فَأَشْعِرِ الْقَلْبَ سُلُوَانًا وَإِيمَانَا  
أَكَلَّمَا سَنَحْتَ ذَكَرَى طَرِبْتَ لَهَا      مَجَّتْ دَمُوعُكَ فِي خَدَيْكَ طُوفَانَا  
أَمَا سَمِعْتَ بِسُلْطَانِ شَيْبِيهِكَ قَدَ      بَزَّتُهُ سُودُ خُطُوبِ الدَّهْرِ سُلْطَانَا  
وَطَنٌ عَلَى الْكِرْهِ وَارْقَبْ لِإِثْرِهِ فَرَجًا      وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ تَغْنَمٌ مِنْهُ غَفْرَانَا

14 - وقال أبو عامر البرياني في الصنم الذي بشاطبة<sup>٢</sup> :

بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا الرُّومِ مَعْجَبَةٌ      أُبْدَى الْبُنَاةِ بِهَا مِنْ عِلْمِهِمْ حِكْمَا  
لَمْ أَدْرَ مَا أَضْمُرُوا فِيهِ سِوَى أُمَمٍ      تَتَابَعَتْ بَعْدُ سَمَوُهُ لَنَا صِنْمَا  
كَالْمِرْدِ الْقَرْدِ مَا لَمْ يَخْطُ مِشْبَهُه      حَقًّا لَقَدْ بَرَدَ الْأَيَّامَ وَالْأُمَمَا  
كَأَنَّهُ وَعَظُّ طَالَ الْوُقُوفُ بِهِ      مِمَّا يَحْدُثُ عَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرْمَا  
فَانظُرْ إِلَى حَجَرٍ صَلْدٍ يَكَلِّمُنَا      أَسْمَى وَأَوْعَظُ مِنْ قُسٍّ لَنْ فِهْمَا

قيل : لو قال مكان حكما علما لأحسن .

15 - وقال السمسير<sup>٣</sup> :

١ التكملة : ٤٧٧ ، وديوانه : ١١٤ .

٢ التكملة : ٤٣٦ .

٣ التكملة : ٤٧٠ ، وفيه القطعة التالية أيضاً .

إذا شئت إبقاء أحوالكا      فلا تُجْرِ جاهاً على بالكا  
وكن كالطريق لمجتازها      يمرُّ وأنت على حالكا

وقال :

هَنْ إِذَا مَا نَلْتَ حَظًّا      فَأَخُو الْعَقْلِ يَهُونُ  
فَمَتَى حَطَّكَ دَهْرٌ      فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

16 - وقال أبو الربيع ابن سالم الكلاعي : أنشدني أبو محمد الشلبي ، أنشدني

أبو بكر ابن منخل ، لنفسه<sup>١</sup> :

مضت لي ستّ بعد سبعين حجةً      ولي حركاتٌ بعدها وسكونُ  
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى      يكونُ الذي لا بدّ أن سيكونُ

17 - وقال أبو محمد عبد الحق الإشبيلي<sup>٢</sup> :

لا يحدّ عنك عن دين الهدى نفرٌ      لم يرزقوا في التماس الحقّ تأييدا  
عمي القلوب عروا عن كلّ فائدةٍ      لأنهم كفروا بالله تقليدا

18 - وقال أبو محمد ابن صارة<sup>٣</sup> :

بنو الدنيا بجهلٍ عظّموها      فعزّت عندهم وهي الحقيرة  
يهاش بعضهم بعضاً عليها      مهارشة الكلاب على العقيرة

وقال :

اسعد بمالك في الحياة ولا تكن      تبقي عليه حذاراً فقيرٍ حادث

١ التكملة : ٤٩٦ .

٢ التكملة : ٦٩٩ .

٣ التكملة : ٨١٧ وفيه القطعة التالية أيضاً .

فالبخلُ بينَ الحادِثينِ ، وإِنَّمَا مالُ البخيلِ لحادِثٍ أو وارثِ

19 - ودخل أبو محمد الطائي القرطبي على القاضي أبي الوليد ابن رشد ،  
فأنشده ارتجالاً<sup>١</sup> :

قام لي السيّدُ الهمامُ قاضي قضاةِ الورى الإمامُ  
فقلتُ قُمْ بي ولا تقُمْ لي فقلّما يوكلُ القيامُ

20 - وقال الحافظ أبو محمد ابن حزم<sup>٢</sup> :

لا تلمني لأنّ سُبِقْتُ لحظّةً فاتَ إدراكُهُ ذَوِي الألبابِ  
يسبقُ الكلبُ وثبّةَ الليثِ في العَدُوِّ ويعلو النُخالُ فوقَ اللُّبابِ

21 - وقال أبو عبد الله الجبلي الطيب القرطبي<sup>٣</sup> :

اشدّدْ يدِيكَ على كلبِ ظفرتَ بهِ ولا تدعهُ فإنّ الناسَ قد ماتوا  
قلت : تذكّرت بهذا قول الآخر :

اشدّدْ يدِيكَ بكلبٍ إن ظفرتَ بهِ فأكثرُ الناسِ قد صاروا خنازيرا

22 - وقال محمد بن عبد الله الحضرمي مولى بني أمية :

عاشِرِ الناسَ بالحميةِ لِ وسدّدْ وقاربِ  
واحترس من أذى الكرا م وَجُدْ بالمواهبِ  
لا يسودُّ الجميعَ من لَمْ يقمْ بالتواهبِ  
ويحوطُ الأذى وير عى ذِمَامَ الأقاربِ

١ التكملة : ٨٢٤ .

٢ التكملة : ٨٧٥ ومر البيتان ج ٢ : ٨٤ .

٣ التكملة : ٩٠٩ .

لا تواصل إلا الشريد  
من له خير شاهد  
واجتنب وصل كل وغد  
ف الكرم المناصب  
وله خير غائب  
ديء المكاسب

[ ابن الأبار ]

٥٨٥ - وقال الكاتب الحافظ أبو عبد الله ابن الأبار :

لله نهر كالحباب  
يصف السماء صفاؤه  
وكأنما هو رقة  
غارت على شطيه أبد  
والظل يبدو فوقه  
لا بل أدار عليه خو  
مثل المجرة جر في  
ترقيشه سامي الحباب  
فحصاه ليس بذئ احتجاب  
من خالص الذهب المذاب  
كار المني عصر الشباب  
كالخال في خد الكعاب  
ف الشمس منه كالنقاب  
ها ذبله جون السحاب

وقال :

شتى محاسنه ، فمن زهر على  
غربت به شمس الظهيرة لاني  
حتى كساه الدوخ من أفنائه  
وكأنما لمع الظلال بمتنه  
نهر تسلسل كالحباب تسلسلا  
إحراق صفحته هيباً مشعلا  
برداً بمزن في الأصيل مسلسلا  
قطع الدماء جمداً حين تحللا

وقال يمدح المستنصر صاحب إفريقية :

إن البشائر كلها جمعت  
للدين والدنيا وللأمم

١ أزهار الرياض ٣ : ٢٢٣ وفيه القطعة التالية أيضاً .

في نعمتين جسيمتين هما براء الإمام وبيعة الحرم.

قال ابن الأثير : وأخبرني بعض أصحابنا - يعني أبا عمرو ابن عبد الغني - أنه أنشدهما الخليفة فسبقه إلى عجز البيت الثاني ، فقلت له على البديهة :

فخر لشعري على الأشعار يحفظه خليفة الله كان الله حافظه

وأشار بقوله « وبيعة الحرم » إلى ما ذكره ابن خلدون وغير واحد من المؤرخين أن أهل مكة خطبوا للمستنصر صاحب تونس بعرفة ، وكتبوا له بيعة من إنشاء ابن سبّعين المتصوف ، وقد ذكر ابن خلدون نص البيعة في ترجمة المستنصر ، فليراجعها من أرادها .

وقال ابن الأثير :

ألا اسمع في الأمير مقال صدق  
متى يكتب تردّ وسلاً أجاجاً  
وخذه عن امرئ خدم الأميرا  
وإن يركب تردّ عذباً نмира

وقال مجيباً للتجاني :

أيتها الصاحب الصفي ، مباح  
إن عتاني إسعافُ قصدك فيها  
للك عني فيما نصصت الرواية  
فلكم لم تزل بها ذا عنايه  
ولها شرطها فحافظ عليه  
وتحام الإخلال جهلك ، لاقية  
ثم كافيء وصيتي بالكفافية  
ت من الله عصمة وحمایه

ونص استدعاء التجاني :

إن رأى سيدي الذي حاز في العدا  
وحوى المجد عن جلود كرام  
م مع الحلم والعلا كل غايه  
كلهم في السماح والفضل آيه  
كل ما فيه لي تصح الرواية  
أن أرى عنه بالإجازة أروي



من حديث وكلّ نظمٍ ونثرٍ وفنونٍ لهُ بهنّ درايه  
 فلهُ في ذلكَ الثوابُ من اللّاهِ ومنّا الثناء دونَ نهايه  
 دام في رفعةٍ وعزٍّ وسعدٍ وأمانٍ ومكّنةٍ وحمایه  
 ما تولّى جيشُ الظلامِ هزيماً وعلتُ للصباحِ في الأفقِ رايه

ولابن الأَبّار ترجمة واسعة ذكرتها في « أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض » فلترجع فيه .

٥٨٦ - وأمّا التجاني أبو عبد الله هذا المذكور فقد وصفه قريبه أبو الفضل محمد حفيد عمّه في كتابه « الحلى التيجانية والحلل التيجانية » ، قال ابن رشيد : وجمعه باسمنا حفظه الله تعالى وشكره ، وقال في موضع آخر : إنّه باسمه واسم صاحبه الوزير ابن الحكيم ، رحمهما الله تعالى ، انتهى .

٥٨٧ - وقال ابن مفلّح أبو الحسين :

إذا عرّتكَ عيّلةٌ يعجزُ عنها ما تجِدُ  
 فلتقتصدْ فإنّه ما عالَ قطُّ مقتصدُ

وقال :

حازَ دُنياهُ كلّها مُحَرِّزاً أكبرَ المِنِّ  
 منَ حوى قوتِ يومه آمناً سالمَ البدنِ

وقال :

أعینَ أخاكَ في الذي يأملُهُ ويرتجيه  
 فاللهُ في عونِ الفسى ما كان في عونِ أخيه

وقال :

أنفسُ ما أودعتهُ قلبكَ ذكرى موقظهُ

وخيرُ ما أتلفتَهُ مالٌ أفادَ موعظتهُ

٥٨٨ - وقال أبو البركات القميحي : أنشدنا أبو العباس ابن مكنون ،  
وقد رأى اهتزاز الثمار وتمايلها ، مرتجلاً :

حارَتُ عقولُ الناسِ في إبداعِها      ألسُكْرِها أمْ شُكْرِها تتأوَدُ  
فيَقُولُ أربابُ البطالةِ : تنثني      ويقولُ أربابُ الحقيقةِ : تسجدُ

قال الشيخ أبو البركات القميحي : قلت لابن مكنون : ما الذي يدل على  
أنهما في وصف الثمار ؟ فقال : وطئُ أنت لهما ، فقلت :

يا من أتى منتزهاً في روضة      أزهارها من حسنها تتوقدُ  
انظرْ إلى الأشجارِ في دوحاتها      والريحُ تنسفُ والطيورُ تغردُ  
فترى الغصونَ تمايلتُ أطرافها      وترى الطيورَ على الغصونِ تعربدُ

قال ابن رشيد : غلط المذكور في نسبه البيتين لابن مكنون ، وإنما هما  
لأبي زيد الفاززي من قصيدة أولها :

نِعَمُ الإلهِ بشُكْرِهٍ تنقيدُ      فاللهُ يُشكِرُ في النوالِ ويُحمَدُ  
مُدَّتْ إليه أكفُنًا محتاجةً      فأناها من جوده ما تعهدُ

والبيتان في أثنائها ، غير أن أولهما في ديوانه هكذا :

تاهت عقولُ الناسِ في حركاتها

انتهى .

ورأيت في « روضة التعريف » للسان الدين بعدهما بيتاً ثالثاً ، وهو :

وإذا أردتَ الجمعَ بينهما فقلْ      في شكرِ خالقها تقومُ وتقعُدُ

٥٨٩ - وحكي أن حافظ الأندلس إمام الأدباء<sup>١</sup> ، رئيس المؤلفين ، حسنة الزمان ، نادرة الإحسان ، أبا محمد عبد الله بن إبراهيم الصنهاجي الحِجاري صاحب كتاب « المسهب » كان سبب اتصاله بعبد الملك بن سعيد جدّ علي بن موسى صاحب « المغرب » أنه وفد عليه في قلّعته ، فلمّا وقف على بابه وهو بزّي بدّاوة ازدراف البوابون ، فقال لهم : استأذنوا لي على القائد ، فضحكوا به ، وقالوا له : ما كان وجَدَ القائد مَنْ يدخل عليه في هذه الساعة إلاّ أنت ؟ فمدّ يده إلى دواة في حزامه وسحاة ، وكتب بها : بباب القائد الأعلى - لا زال أهلاً بأهل الفضيلة - رجلٌ وفد عليه من شلبَ بقصيدة مطلعها :

عليك أحالي الذّكرُ الجميلُ

فإن رأى سيدي أن يحجب مَنْ بلدُه شلبَ ومَنْ قصيدُه هذا فهو أعلم بما يأتي ويذرّ ، ولا عتب على القدر ، ورجب إلى أحد غلمانة ، فأوصل الورقة ، فلمّا وقف عليها القائدُ قال : من شلبَ ، وهذا مطلع قصيدته ، ما لهذا إلاّ شأن ، ولعلّه الوزير ابن عمّار ، وقد نُشِر إلى الدنيا ، عجلوا بالإذن له ، فأذّنوا له ودخل وبقي واقفاً لم يسلم ولا كلّم أحداً ، فاستثقله الحاضرون ، واستبردوا مقصده ، ونسبوه للجهل وسوء الأدب ، فقال له أحدهم : ما لك لا تسلّم على القائد ، وتدخل مداخل الأدباء والشعراء ؟ فقال : حتى أُخجل جميعكم قدّر ما أخجلتموني على الباب مع أقوام أنذل ، وأعلم أيضاً مَنْ هو الكثير الفضول من أصحاب القائد أعزه الله تعالى فأكون أتقيه إن قدر لي خدمته ، فقال له عبد الملك : أتأخذنا بما فعل السفهاء منا ؟ قال : لا ، والله ، بل أغفر لك ذنوب الدهر أجمع ، وإنّما هي أسباب نقصدها لنحاور بها مثلك أعزّك الله تعالى ، ويتمكّن التأنيس ، وينحلّ قيد الهيبة ، ثمّ أنشد من رأسه ولا ورقة في يده :

١ ب : الأدب .

عَلَيْكَ أَحَالِي الذِّكْرُ الْجَمِيلُ فَصَحَّ الْعِزْمُ وَاقْتَضَى الرَّحِيلُ  
 وودعتُ الحبيبَ بغيرِ صبرٍ ولم أسمعُ لما قال العنولُ  
 وأسبَلْتُ الظلامَ عليّ سراً ونجمُ الأفقِ ناظرُهُ ككَلِيلِ  
 ولم أشكُ الهجيرَ وقدْ دعاني إلى أرجائكِ الظلُّ الظليلُ

وهي طويلة ، فأكرمه وقربه ، رحم الله تعالى الجميع .

٥٩٠ - وأهديت للمعمد بن عبّاد شمعة ، فقال في وصفها أبو القاسم ابن  
 مرزقان الإشبيلي وهو ممن قُتل في فتنة المعتمد :

مدينةٌ في شمعةٍ صوّرتُ قامت حُماةٌ فوق أسوارها  
 وما رأينا قبلها روضةً تتفقدُ النارُ بنوارها  
 تُصيرُ الليلَ نهاراً إذا ما أقبلتُ ترفلُ في نارها  
 كأنّها بعضُ الأيادي التي تحت الدجى تسري بأنوارها  
 من ملكٍ معتمدٍ ماجدٍ بلادُهُ أوطانُ زوارها

٥٩١ - وقال أبو الأصبح ابن رشيد الإشبيلي لما هطلت بإشبيلية سحابة  
 بقطرٍ أحمر يوم السبت الثالث عشر من صفر عام أربعة وستين وخمسمائة :

لقد آن للناس أن يُقلعوا ويمشوا على السننِ الأقومِ  
 متى عهد الغيثُ يا غافلاً كلونِ العقيقِ أو العندمِ  
 أظنُّ الغمامَ في جوّها بكتّ رحمةً للورى بالدمِ

وفيهما أيضاً :

لا تكنْ دائمَ الكآبةِ ممّا قد غدا في الثرى نيراً نجيعاً

لَطَمَ البرقُ صفحةَ المزنِ حتى سال منه على الرياضِ نجيعا

وله في دولاب :

وَمَنْجَنُونَ إِذَا دَارَتْ سَمِعَتْهَا  
كَأَنَّ أَقْدَاسَهَا رَكَبٌ إِذَا سَمِعُوا  
صَوْتًا أَجَشَّ وَظَلَّ الْمَاءُ يَنْهَمِلُ  
مِنْهَا حُدَاءٌ بِكَوًّا لِلْبَيْنِ وَارْتَحَلُوا

وله فيمن اسمه مالك :

غزاليُّ الجفونِ شقيقُ بلدرِ  
له نفحاتُ مسكٍ أيِّ مسكٍ  
تَبَسَّمَ عَنْ عَقِيقٍ فَوْقَ دُرٍّ  
له نفثاتُ سحرٍ أيِّ سحرٍ  
شكوتُ لَهُ الهوى والهجرَ منه  
فَقَالَ : عَلَيْكَ بِاسْمِي سَوْفَ تَدْرِي  
تَعَلَّمْتُ الْقِسَاوَةَ مِنْ سَمِيَّتِي  
وَأَحْرَقْتُ الْقُلُوبَ بِنَارِ هَجْرِي

٥٩٢ - وقال أبو بكر ابن حجاج الغافقي في موسى وسيم إشبيلية الذي

كان شعراؤها يتغزلون فيه ١ :

من مُبْلَغٍ مُوسَى الْمَلِيحِ رِسَالَةً  
مَا كَانَ خَلْقٌ رَاغِبًا عَنْ دِينِهِ  
بُعِثْتُ لَهُ مِنْ كَافِرِي عَشَاقِهِ  
لَوْ لَمْ تَكُنْ تَوْرَاتُهُ مِنْ سَاقِهِ

وقال :

إِنَّ الزَّوَيْلِيَّ فَتَى شَاعِرٌ  
وَأَنْتَ يَا مُوسَى قَدْ اخْتَرْتَهُ  
قَدْ أَعْجَبَ الْعَالَمَ مِنْ نَظْمِهِ  
وَاخْتَارَ مُوسَى قَبْلُ مِنْ قَوْمِهِ

وقال :

عَلَى مُعَاذِ قُرُونٍ لَوْ يُعَايِنُهَا  
فِرْعَوْنُ مَا قَالَ أَوْ قَدْ لِي عَلَى الطَّيْنِ

١ المغرب ١ : ٢٦١ .

قالت له عرسه إذ جاء ينكحها ماذا دُهِيتُ به من كلِّ عُنِينِ  
هلاً استعنتَ بميمونٍ ، فقال لها إنِّي استعنتُ على نفسي بميمون

٥٩٣ - وقال أبو وهب ابن عبد الرؤوف النحوي ، وكان له حظ في قرض الشعر ، وكان سناطاً<sup>١</sup> :

لَيْسَ لِمَنْ لَيْسَتْ لَهُ لِحْيَةٌ بِأَسْرُءَ إِذَا حَصَلَتْهُ ، لَيْسَا  
وَصَاحِبُ اللَّحْيَةِ مُسْتَقْبَحٌ يَشْبَهُ فِي طَلْعَتِهِ التَّيْسَا  
إِنْ هَبَّتِ الرِّيحُ تَلَاهَتْ بِهِ وَمَاسَتْ الرِّيحُ بِهِ مَيْسَا

٥٩٤ - وقال أبو عبد الله محمد بن يحيى القلقاط :

يا غزلاً عَنْ لِي فَاذْ تَرَى قَلْبِي ثُمَّ وَلَّتِي  
أَنْتَ مَنِّي بِفَوَادِي يَا مَنِّي نَفْسِي أَوْلِي

٥٩٥ - وقال أحمد بن المبارك الحبيبي في الناصر قبل أن يلي عهد جده<sup>٢</sup> :

يا عابدَ الرحمنِ فُكِّتَ الوريُّ بهذه العُلْيَا وهذا الكرمُ  
ما جعلَ اللهُ الندى في امرئٍ إلاَّ وقد جنَّبه كلَّ ذمِّ

٥٩٦ - واستدعى الوزير عبيد الله بن إدريس أبا بكر أحمد بن عثمان المرواني ، ونادمه ليلة ، فلماً قرب الصباح قال له : أين ما يحدث عنك من حسن الشعر ؟ فهذا موضعه ، فقال : الدواة والقرطاس ، فأمر له بإحضارهما ، فجعل يفكر ويكتب إلى أن أنشده هذه الأبيات :

بتنا ندأمي صفاء يستحثُّ لنا في جامدِ الفضةِ التبرُّ الذي سُبِّكا

١ السناط : الذي ليس في عارضيه شعر .  
٢ إلى هنا انتهت نسخة ب ، وسقطت سائر الأوراق منها .

كُلُّ مُصَيِّخٍ إِلَى مَا قَالَ صَاحِبُهُ      وَلَا يَبَالِي أَسَدِقًا قَالَ أَمْ أَفْكَا  
مَوْقَرُونَ خَفَافٌ عِنْدَ شَرِبِهِمْ      وَلَا يَخَافُونَ فِيمَا أَحْدَثُوا دَرَكَا  
لَا تَعْدَمَنَّ إِذَا أَبْصَرْتَهُمْ فَرِحًا      أَمَا تَرَى الصَّبِيحَ مِنْ بَشَرِهِمْ ضَحْكَا

٥٩٧ - وقال أبو محمد عبد الله المرواني في الخيري :

عَجِبْتُ مِنَ الْخَيْرِيِّ يَكْتُمُ عَرَفَهُ      نَهَارًا وَيَسْرِي بِالظَّلَامِ فَيُعْرَبُ  
فَتَجْنِي عَرُوسَ الطَّيِّبِ مِنْهُ يَدُ الدَّجِي      وَيَبْدُو لَهُ وَجْهُ الصَّبَاحِ فَيَحْجَبُ

٥٩٨ - وقال إبراهيم بن إدريس العلوي :

لِلْبَيْنِ فِي تَعْذِيبِ نَفْسِي مَذْهَبٌ      وَلِنَائِبَاتِ الدَّهْرِ عِنْدِي مَطْلَبٌ  
أَمَّا دِيونُ الْحَادِثَاتِ فَإِنَّهَا      تَأْتِي لَوْقْتِ صَادِقٍ لَا يَكْذِبُ

٥٩٩ - وخرج الأديب النحوي هذيل الإشبيلي يوماً من مجلسه، فنظر إلى سائل عاري الجسم ، وهو يُرْعَدُ وَيَصِيحُ : الجوع والبرد ، فأخذ بيده ، ونقله إلى موضع بلكغته الشمس ، وقال له : صِحِ الجوع ، فقد كفأك الله مؤونة البرد .

٦٠٠ - ومر المعتمد بن عباد ليلة مع وزيره ابن عمّار بباب شيخ كثير التهكم والتندير ، يمزج ذلك بانحراف يُضْحِكُ الثَكْلِي ، فقال لابن عمّار : تعال نضرب على هذا الشيخ الساقط بابه حتى نضحك معه ، فضربا عليه الباب ، فقال : مَنْ هَذَا ؟ فقال ابن عباد : إنسان يرغب أن تتقد له هذه الفتيلة ، فقال : والله لو ضرب ابن عباد بابي في هذا الوقت ما فتحت له ، فقال : فإني ابن عباد ، فقال : مصفوع ألف صفقة ، فضحك ابن عباد حتى سقط إلى الأرض ، وقال لوزيره : امض بنا قبل أن يتعدى الصفح من القول إلى الفعل ، فهذا شيخ ركيك ؛ ولما كان من غد تلك الليلة وجه له ألف درهم ، وقال

١ راجع هذه الحكاية في المغرب ١ : ٢٨٦ - ٢٨٧ .

لموصلها : قل له هذه حقُّ الألف صفقة التي كانت البارحة .

٦٠١ - وكان في زمان المعتمد السارق المشهور بالبازي الأشهب ، وكان لهُ في السرقة كلُّ غريبة ، وكان مسلطاً على أهل البادية ، وبلغ من سرقة أنه سرق وهو مصلوب ؛ لأن ابن عباد أمر بصلبه على ممرِّ أهل البادية لينظروا إليه ، فبينما هو على خشبته على تلك الحال إذ جاءت إليه زوجته وبناته ، وجعلن يبكين حوله ويقلن : لمن تركنا نضيع بعدك ؟ وإذا بيدوي على بغل وتحت حمل ثياب وأسباب ، فصاح عليه : يا سيدي ، انظر في أي حالة أنا ، ولي عندك حاجة فيها فائدة لي ولك ؛ قال : وما هي ؟ قال : انظر إلى تلك البئر ، لما أرهقني الشرط رميت فيها مائة دينار ، فعسى تحتال في إخراجها ، وهذه زوجتي وبناتي يُمسكن بَعْلِكَ خلالَ ما تخرجها ، فعمد البدوي إلى حبل ودلى نفسه في البئر بعدما اتفق معه على أن يأخذ النصف منها ، فلما حصل أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبلَ ، وبقي حائراً يصيح ، وأخذت ما كان على البغل مع بناتها ، وفرت به ، وكان ذلك في شدة حرِّ ، وما سبب الله شخصاً يغيثه إلاّ وقد غيبنَ عن العين وخلصن ، فتحيل ذلك الشخص مع غيره على إخراجها ، وسأله عن حاله ، فقال : هذا الفاعل الصانع احتال عليّ حتى مضت زوجته وبناته بشيبي وأسبابي ، ورُفِعَت هذه القصة إلى ابن عباد ، فتعجب منها ، وأمر بإحضار البازي الأشهب ، وقال له : كيف فعلت هذا مع أنك في قبضة الملكة ؟ فقال له : يا سيدي لو علمت قدر لذتي في السرقة خليت ملكك واشتغلت بها ، فلعنه وضحك منه ، ثم قال له : إن سَرَحْتك وأحسن إليك وأجريت عليك رزقاً يقلك أتتوب من هذه الصنعة الذميمة ؟ فقال : يا مولاي كيف لا أقبل التوبة وهي تخلصني من القتل ؟ فعاهده وقدمه على رجال أنجادٍ ،

١ م : ألف .



وصار من جملة حراس أحواز<sup>١</sup> المدينة .

٦٠٢ - ويحكى أن منصور بن عبد المؤمن لما أراد بناء صومعة إشبيلية العظيمة القدر أحضر لها العرفاء والصناع من مظانهم ، فعرف بشيخ مغفل صحيح المذهب عارف بالبناء الذي يجمله كثير من الصناع ، فأحضر ، فقال له المنصور : كم تقدّر أن يُنفق على هذه الصومعة ؟ فضحك وقال : يا سيدي ، البنيان إنمّا هو مثل ذكر ليس يُقدّر حتى يقوم ، فكاد المنصور يفتضح من الضحك ، وصرف وجهه عنه ، وبقيت حكايته يضحك عليها زماناً .

٦٠٣ - وكان أحمد المقرئ المعروف بالكساد شاعراً وشاحاً زجالاً إشبيلياً ، وقال في موسى الذي تغزل<sup>٢</sup> فيه ابن سهّل<sup>٣</sup> :

ما لموسى قد خرّ لله لما فاض نورٌ غشاه ضوءٌ سناه  
وأنا قد صعقتُ من نورِ موسى لا أطيقُ الوقوفَ حينَ أراه  
وقال في رثائه<sup>٤</sup> :

فرّ إلى الجنة حوريتها وارتفع الحسنُ من الأرض  
وأصبح العشاقُ في مآتمِ بعضهم يبكي على بعض  
وقال فيه :

هتف الناعي بشجور الأبد إذ نعى موسى بن عبد الصمد  
ما عليهم ويحهم لو دفنوا في فؤادي قطعةً من كبدي

١ أحواز : سقطت من م .

٢ م : يتغزل .

٣ مر البيتان ص : ٦١ .  
٤ هذه القطعة والتي تليها لم تردا في م ، وتعليل ذلك أنهما وردتا قبلا ص : ٦١-٦٢ ونسخة « م » قد جرى فيها بعض الحذف للمكرر ، كما أن فيها زيادات انفردت بها سننبتها في مواضعها .

ولابن سهيل الإسرائيلي في موسى هذا ما هو مثبت في ديوانه .

٦٠٤ - وكان محمد بن أحمد بن أبي بكر القرموطي المرسي من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة : المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب ، فيلسوفاً طبيباً ماهراً ، آية الله في المعرفة بالأندلس ، يقرىء الأمم بألستهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها ، ولما تغلب طاغية الروم على مرسية عرف له حقه ، فبنى له مدرسة يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود ، وقال له يوماً وقد أدنى منزلته : لو تنصرت وحصلت الكمال كان لك عندي كذا ، وكنت كذا ، فأجابه بما أفتعه ؛ ولما خرج من عنده قال لأصحابه : أنا عمري كله أعبد إلهاً واحداً ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالي لو كنت أعبد ثلاثة كما طلب الملك مني ؟ انتهى .

٦٠٥ - وقال أبو عبد الله محمد بن سالم القيسي الغرناطي يخاطب السلطان على السنة أصحابه الأطباء الذين ببابه مؤرباً بأسمائهم :

قد جمَعنا ببابكم<sup>١</sup> سطرَ علمٍ لبلوغِ المنى ونيلِ الإرادة  
ومِنِ أسمائنا لكم<sup>٢</sup> أحسنُ قالٍ سالمٌ ثمَّ غالبٌ وسعادة

٦٠٦ - وقال أبو عبد الله ابن عمر<sup>٣</sup> الإشبيلي الخطيب :

وكلُّ إلى طبعه عائدٌ وإن صدّه المنعُ عن قصده  
كذا الماء من بعدِ إسخانه يعودُ سريعاً إلى برده

٦٠٧ - وقال الكاتب أبو زيد عبد الرحمن العثماني لما تغير حاله بإشبيلية<sup>٤</sup> :

١ م : ببابهم .

٢ م : لهم .

٣ م : عمرو .

٤ قد مرت الأبيات في ما تقدم ص : ٦٢ من هذا المجلد ؛ وقد سقطت من م .

لا تَسْلني عن حالي فبي هذي      مثل حالي لا كنت يا من يراني  
 مَلتي الأهل والأخلاء لما      أن جفاني بعد الوصال زماني  
 فاعتبر بي ولا يغركَ دهرٌ      ليس منه ذو غبطة في أمانِ

٦٠٨ - ودخل الأديب النحوي أبو عمران موسى الطرياني<sup>١</sup> إلى بعض  
 الأكابر يوم نَيْرُوز ، وعادتهم أن يصنعوا في مثل هذا اليوم مدائن من العجين  
 لها صور مستحسنة ، فنظر إلى مدينة أعجبه ، فقال له صاحب المجلس : صفها  
 وخذها ، فقال :

مدينةٌ مسورةٌ      تحارُ فيها السحرةُ  
 لم تبشها إلا يدا      عذراء أو مُخدرةُ  
 بدت عروساً تجتلي      من درمك مزعفرهُ  
 وما لها مفاتحٌ      إلا البنانُ العشرةُ

ورفع إلى القائد أبي السرور صاحب ديوان سبئنة قصيدة يعرض له فيها  
 بزاد ، وقد عزم على سفر ، فأنعم عليه بذلك ، ثم أتبعه بتحف مما يكون  
 في الديوان مما يجلبه الإفرنج إلى سبئنة ، ولم يكن التمس منه ذلك ولا خطر  
 بخاطره ، فكتب إليه :

أيا سابقاً بالذي لم يجلُ      بفكري ولم يبْدُ لي في خطابِ  
 ويا غائصاً في بحارِ الندى      ويا فاتحاً للعلا كل بابِ  
 كذا فلتكن نِعَمُ الأكرمين      تفاجي بنيلِ المني والطلابِ  
 ولم أرَ أعظمَ من نعمةٍ      أتني ولم تكُ لي في حسابِ  
 سأشكرها شكرَ عهدِ الرضى      وأذكرها ذكرَ غَضِّ الشبابِ

١ قد مر هذا الخبر والأبيات ص : ٦٣ وقد سقطا من م .

٦٠٩ - وكتب مجاهد صاحب دانية إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر  
ملك بلنسية رقعة ، ولم يضمها غير بيت الخطيئة<sup>١</sup> :

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرَحَّلْ لِبَغِيئِها      واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكاسِي  
فأخرجت<sup>٢</sup> المنصور ، وأقامته وأعدته ، فأحضر وزيره أبا عامر ابن التاكري  
فكتب عنه :

شتمت مواليتها عبيد نزار      شيم العبيد شتمة الأحرار  
فسلا المنصور عما كان فيه .

ومن شعر المذكور في المنصور :

انهض على اسمك إنه منصور      وارم العدو فإنه مقهور  
ولو اغتنت عن النهوض كفتهم      فبذكر بأسك كلهم مدعور  
ولتبلغن مدى مرادك فيهم      ويكون يوم في العدا مشهور

وقال له المنصور يوماً : والله لقد سئمت من هؤلاء الجند ، ووددت الراحة  
منهم ، فقال له : يصبر مولاي فلا بد من السامة ، فهي على حالتين : إما  
ممن يكون أمرك إليه ، أو يكون أمره إليك ، والحمد لله الذي رفعه عن الحالة  
الأولى .

٦١٠ - وقال بعض الهجائين في رندة<sup>٣</sup> :

قبحاً لرندة مثلما      قبحت مطالعة الذنوب

١ المغرب ١ : ٣٣٢ .

٢ كذا في ق م والتقدير « فأخرجته عن طوره » .

٣ هو أبو الفتح ابن فاخر التونسي (المغرب ١ : ٣٤٤) .

بلدٌ عَلَيْهِ وحشةٌ ما إن يفارقه القُطُوبُ  
ما حلَّها أحدٌ فيني وي بعد بين أن يؤوبُ  
لم آتِها عند الضحى إلا وخيل لي غروبُ  
أفقٌ أغمٌ وساحةٌ تملأ القلوب من الكروبُ

٦١١ - وقال حبلان الشاعر الرندي<sup>١</sup> :

لا تفرحَنَ بولاية سوغتِها فالثور يُعلفُ أشهراً كي يُذبحا

وله في بعض رؤساء<sup>٢</sup> المثلثين من قصيدة :

ولو لم تكن كالبلدر نوراً ورفعةً لما كنت غراً بالسحاب ملثماً  
وما ذلك إلا للنوال علامةٌ كذا القَطْرُ مهما لم الأفقَ أنهمى

فاهتر المثلث وأعجبه ، وأمر له بكسوة وذهب .

٦١٢ - ولما ذكر أبو بكر ابن عمر الأندي في مجلس بعض الرؤساء بحضرة

أبي الحسن علي بن سعيد ، وأظن في الثناء عليه ، وعمر المجلس بشكره ،  
وأخبر بذلك ، أشرق ساعة ثم قال<sup>٣</sup> :

لا تذكرن ما غابَ عني من ثنا أظنبت فيه فليس ذلك يُجهلُ  
فمتى حضرتُ بمجلس وجرى به خبري فإنَّ الذكرَ فيه يجملُ

٦١٣ - ولما نفى بنو ذي النون أرقم من نسبهم لأنه كان ابن أمة مهينة ،

واقعتها أبو الظافر في حال سكره ، ولم يكن فيهم من ينظم ويتولع بالأدب غيره ،

١ المغرب ١ : ٣٣٦ .

٢ م : شعراء .

٣ المغرب ١ : ٣٣٨ وترجمته في الفتح : ١٦٨ .

وولي ابنه يحيى ، وكان أحسد من طلعت عليه الشمس ، فمال على أرقم  
بالأذية ففرَّ عن مملكته ، وقال مرتجلاً<sup>١</sup> :

لئن طبتمُ نفساً بتركي دياركم      فنفسىَ عنكم بالتفرق أطيبُ  
إذا لم يكنْ لي جانبٌ في دياركم      فما العذرُ لي أن لا يكون تجنُّبُ  
زعمتمْ بأنِّي لستُ فرعاً لأصلكم      فهلاًّ علمتمْ أنّي عنه أرغبُ  
وحسبي إذا ما البيضُ لم ترعَ نسبةً      بأنِّي إلى سيفي ورحمي أنسبُ  
وإن مدّت الأيامُ عمري للعلاء      يُشَرِّقُ ذكري في الوري ويغربُ

٦١٤ - وكتب الوزير الكاتب أبو محمد ابن سفيان إلى أبي أمية ابن عصام<sup>٢</sup>  
قاضي قضاة شرق الأندلس « عين زمانه » ، فوقعت نقطة على العين ، فتوهمها ،  
وظن أنه أبهما واعتقدها ، وعددها وانتقدها ، فقال :

لا تُلْزمني ما جنتهُ يراعةً      طَمَسْتَ بريقتها عُيونَ ثناء  
حققتْ عليّ لزامها فتحوّلتْ      أفعى تمجُّ سماها بسحاء  
غدر الزمان وأهله عرف ولم      أسمعُ بغدر يراعةٍ وإباء

٦١٥ - وشرب المأمون بن ذي النون مع أبي بكر محمد بن أرفع رأسه  
الطليطي وحقن من رؤساء ندمائه كابن لبون وابن سفيان وابن الفرج وابن  
مثنى ، فجرت مذاكرة في ملوك الطوائف في ذلك العصر ، فقال كل واحد  
ما عنده بحسب غرضه ، فقال ابن أرفع رأسه ارتجلاً<sup>٣</sup> :

دعوا الملوكَ وأبناء الملوكِ فمَنَ      أضْحَى على البحرِ لم يشقْ إلى نهرِ  
ما في البسيطة كالمأمونِ ذو كرمٍ      فانظر لتصديق ما أسمعت من خيرِ

١ المغرب ٢ : ١٤ .

٢ القلائد : ١٣٩ .

٣ المغرب ٢ : ١٨ والصلة رقم : ٨٧٤ .

يا واحداً ما على علياه مُختلف  
وقد طلعت لنا شمساً فما نظرتُ  
مد جاد كفك لم نحتج إلى المطرِ  
عينٌ إلى كوكبٍ يهدي ولا قمرِ  
وقد بدوت لنا وسطي ملوكهم  
فلم نُعرج على شدرٍ ولا دررِ

فداخل ابن ذي النون من الارتياح ما ليس عليه مزيد ، وأمر له بإحسان  
جزيل عتيد .

٦١٦ - وقال أبو أحمد عبد المؤمن الطليطي :

رأيتُ حياتي قادحاً في معيشتي  
وقد فسدتُ الناسُ الذين عهدتهم  
ويصعبُ تركي للحياء ويقبحُ  
وقد طال تأنيبي لمن ليس يصلحُ  
وله :

ولما غلدوا بالغيد فوقَ جماهم  
عسى عيسى من أهوى تجودُ بوقفه  
طفقتُ أنادي لا أطيقُ بهم همسا  
ولو كوقوفِ العينِ لاحظتِ الشمسا

٦١٧ - وقال الزاهد أبو محمد عبد الله بن العسال :

أعندكم علمٌ بأنني متيمٌ  
وما بال عيني لا تغمضُ ساعةً  
وإلاّ فما بالُ المدامع تسجُمُ  
كأنّي في رعي الدراري منجمٌ

٦١٨ - وكان الوزير أبو جعفر الوقشي تيّهاً مُعجباً بنفسه ، ومن شعره

في غرضه الفاسد :

إذا لم أعظم قدرَ نفسي وإنتي  
فغيري معذورٌ إذا لم يبرني  
عليمٌ بما حازته من عظيمِ القدرِ  
ولا يكبرُ الإنسانُ شيء سوى الكبرِ

١ في م ق : الفسال ؛ وانظر ترجمته في المغرب ٢ : ٢١ .

وله :

يرومون بي غيرَ المكان الذي لهُ  
فَقُولُوا لبدْرِ الأفقِ يتركُ سماءهُ  
خُلقتُ، وبعضي منكرٌ ذاك من بعضي  
ويحتلُّ من أجلِ التواضعِ في الأرضِ

وقال :

تكبرُّ وإن كنتَ الصغيرَ تظاهراً  
وكننٌ تابعاً للهراً في حفظِ أمره  
وباعدُ أخا صدقٍ متى ما اشتهى القربا  
ألسنَ تراه عندما يبصرُ الكسلبا

وقال له بعض ندماء ملكه يوماً صاحب جيان ، ابن همشك : يا أبا جعفر ،  
أنت جملة محاسن ، وفيك الأدوات العلية التي هي أهل لكل فضيلة ، غير أنك  
قد قدحت في ذلك كله بكثرة عجبك ، وإهل مشيت على الأرض تشمئز منها ،  
فقال له : كيف لا أشمئز من شيء أشرك معك في الوطاء عليه ؟ فضحك جميع  
من حضر من جوابه . وله جواب لمن اعتذر عن غيبته عنه :

لك الفضلُ في أن لا تلوح لناظري  
فوجهك في لحظي كما صور الردي  
وتبعدَ عني ما بقيت مدى الدهرِ  
ولفظك في سمعي حديثٌ عن الفقرِ  
وَمَنْ حاز ما قد حُرزته من ركاكةٍ  
وغاب فلا يحتاجُ إلى كلفةِ العذرِ

وله أيضاً ٢ :

لكَ يومان لم تَلحُ لعياني  
ولك الفضلُ في زيادةِ عامٍ  
ولك الفضلُ في زيادةِ شهرٍ  
ولك الفضلُ في زيادةِ دهرٍ  
ذلك الوجهَ ما تظاول عمري  
ولك الفضلُ أن تُغيبَ عني

١ ق : للمهر .  
٢ أيضاً : سقطت من م .



وله ، وقد شرب على صهريج فاخنتق الأسد الذي يرمي بالماء ، فنفخ فيه  
رجل أبخر ، فجرى :

ليثٌ بديعُ الشكلِ لا مثلَ له° صيغَ من الماء له° سلسله°  
يقذفُ بالماءِ على حينه° كأنه° عافَ الذي قبله°

٦١٩ - وقال أبو الوليد هشام الوقشي :

برحَ بي أنَ علومَ الوري اثنان ما إن فيهما من مزيد°  
حقيقةً يعجزُ تحصيلها وباطلٌ تحصيله° لا يفيد°

وله ١ :

وفارهٍ يركبهُ فاره°  
سنانها مشتملٌ لحظه°  
يزحفُ للنسكِ في جحفلٍ  
قلتُ لنفسي حينَ مُدَّتْ لها الـ  
لا تطمعي فيه كما الشعرُ لا  
مرّ بنا في يده صعدة°  
وقدّها منتحلٌ قدّه°  
من حسنه وهو يرى وحده°  
آمالُ والآمالُ ممتدّه°  
يطمعُ في تسويده خده°٢

وقال :

عجباً للمدامِ ماذا استعارت°  
طيبَ أنفاسه وطعمَ ثنايا  
وسنا وجهه وتوريدَ خدّيه°  
والتداوي منها بها كالتداوي  
من سجايا معذبي وصفاته°  
ه وسُكّرَ العقولِ من لحظاته  
ه ولطفَ الديباجِ من بشراته  
برضى من هويت من سطواته°٣

١ ق : وله أيضاً .

٢ ق م : الشمس لا يطمع في تدنيسه حده .

٣ البيت والذي يليه سقطا من م .

وهي من بعد ذا عليّ حرامٌ مثل تحريمه جتي رَشَفَاتِهِ

ومن تأليفه « نكت الكامل للمبرد » ، وقد مر ذكر هذا الرجل الفرد قبل هذا .

وحضر يوماً مجلس ابن ذي النون ، فقُدّم نوع من الحلوى يُعرف بآذان القاضي ، فتهافت جماعة من خواصّه عليها يقصّصون التندير فيه ، وجعلوا يكثرون من أكلها ، وكان فيما قدم من الفاكهة طبق فيه نوع يسمى عيون البقر ، فقال له المأمون : يا قاضي أرى هؤلاء يأكلون أذنك ، فقال : وأنا أيضاً أكل عيونهم ، وكشف عن الطبق ، وجعل يأكل منه ، وكان هذا من الاتفاق الغريب .

٦٢٠ - وكان الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبي جعفر الوراقشي آية الله في الظرف ، وكيف لا ووالده الوزير أبو جعفر ، وصهره أبو الحسين ابن جبير ، وشيخه في علم الموسيقى والتهديب والظرف والتدريب أبو الحسن ابن الحسن ابن الحاسب شيخ هذه الطريقة ، وقد رزق أبو الحسين المذكور فيها ذوقاً مع صوت بديع ، أشهى من الكأس للخليع ، قال أبو عمران ابن سعيد : ما سمعته إلا تذكرت قول الرصافي<sup>١</sup> :

ومُطَارِحٍ مِمَّا تَجَسُّ بُنَانُهُ لِحْنًا أَفَاضَ عَلَيْهِ مَاءَ وَقَارِهِ  
يَثْنِي الْحَمَامَ فَلَا يَرُوحُ لُوكره طرباً ، ورزقُ بنيه في منقاره

وكنت أرتاح إلى لقائه ، ارتياح العليل إلى شفائه ، ولم أزل أقرع باباً فباباً ، وأخرق للاتصال حجاباً فحجاباً ، حتى هجمت مع شفيح لا يُرد عليه ، وجلست بين يديه ، فحينئذ حرّضه حسبه على الإكرام ، وتلقى بما أوسع من البشر والسلام ، وقال : ليعلم سيدي أنني كنت أودّ الناس في لقائه ، وأحبّهم في

١ ديوان الرصافي : ١٠١ ( نقلا عن النفع ) .

إخائه ، والحمد لله الذي جعلني أنشد :

وليس الذي يَتَّبِعُ الوَبْلَ رائداً كمن جاءه في داره رائدُ الوَبْلِ

ثمَّ قام إلى خزانه ، فأخرج منها عود غناء يطرب دون أن تُجس أوتاره ،  
وتلحن أشعاره ، واندفعَ يغني دون أن أسأله ذلك ، ولا أتجشم تكليفه الدخول  
في تلك المسالك :

وما زلتُ أرجو في الزمان لقاءكم فقد يسّرَ الرحمنُ ما كنتُ أرغبني  
فذكركمُ ما زلتُ أتلوهُ دائماً إذا ذكروا ما بينَ سَلَمي ومُنْعَجِ

فلما فرغ من استهلاله وعمله قبّلت رأسه ، وقلت له : لا أدري علامَ  
أشكرك قبلُ ، هل على تعجيلك بما لم تدعني أسألك في شأنه أم على ما تفردت  
بإحسانه ؟ فما هذا الصوت ؟ قال : هذا نشيد خسرواني من تلحيني ، قال :  
وأنشدني لنفسه :

حننتُ إلى صوتِ النواعيرِ سُحرةً فأضحى فؤادي لا يقيرُ ولا يهدا  
وفاضتُ دموعي مثلَ فيضِ دموعها أطارحُها تلكَ الصبابةَ والوجدا  
وزادَ غرامي حينَ أكثرَ عاذلي فقلتُ له أقصرُ ولا تقدحِ الزندا  
أهمُّ بهم في كلِّ وادٍ صبابةٌ وأزدادُ مع طولِ البعادِ لهم ودّا

وأنشدني لنفسه :

ولقد مررتُ على المنازلِ بعدهم أبكي وأسألُ عنهمُ وأنوحُ  
وأقولُ إن سألوا بحالي في النوى ما حالُ جِسْمِ فارقتهُ الروحُ

قال : وكتب إليّ :

يا حسرةً ما قصّتُ من لذةٍ وطرا أين الزمانُ الذي يُرجي به الخلفُ ؟

أبكيكَ مِلاً جفوني ثم يَرْجِعُنِي إلى التَّصَبُّرِ أَنِّي سوفَ أَنْصَرِفُ  
قال أبو عمران : وكنت في أيام الفتنة إذا ركنت إلى الآمال ، هونت على  
نفسي ما ألقى من أهوالها بقولي مع خاطري قوله :  
أين الزمانُ الذي يُرْجى به الخَلْفُ  
انتهى .

٦٢١ - وكان أبو الحسين علي بن الحمارة<sup>١</sup> ممتن برع في الألحان وعلمها ،  
وهو من أهل غرناطة ، واشتهر عنه أنه كان يعمد إلى الشعراء<sup>٢</sup> ، فيقطع العود  
بيده ، ثم يصنع منه عوداً للغناء ، وينظم الشعر ويلحنه ، ويغني به ، فيطرب  
سامعيه ، ومن شعره قوله :

إذا ظنَّ وَكُراً مُقْلَتِي طائرُ الكرى رأى هُدُوبَهَا فارتاع خوفَ الحبالِ  
وقال بعض العلماء في حقّه : إنّه آخر فلاسفة الأندلس ، قال : وأعجب ما  
وقع له في الشعر أنّه دخل سلاً وقد فرغ ابن عشرة من بناء قصره ، والشعراء تنشده  
في ذلك ، فارتجل ابن الحمارة هذين البيتين ، وأنشدهما بعدهم :

يا واحدَ الناسِ قد شَيَّدتَ واحدةً فحلَّ فيها محلَّ الشمسِ في الحملِ  
فما كَدَّ أركَ في الدُّنيا لذي أملٍ ولا كدَّ أركَ في الأخرى لذي عملِ  
وسياتي ذكر هذين البيتين .

٦٢٢ - وكان أهل الأندلس في غاية الاستحضار للمسائل العلمية على البديهة ،

١ ترجمته في المغرب ٢ : ١٢٠ وفيه أبو عامر محمد بن الحمارة ، وانظر الواقي ٢ : ٢٤٢ وبغية  
الملتصص ص : ٥١٧ .  
٢ م : الشجر .

قال ابن مسدي : أملى علينا ابن المناصف النحوي بدانيةً على قول سيبويه « هذا باب ما الكلم من العربية » عشرين كراساً ، بسط القول فيها في مائة وثلاثين وجهاً ، انتهى .

وهذا وأشباهه يكفيك في تبحر أهل الأندلس في العلم ، وربما سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها إلى مطالعة ونظر ، فلم يحتاج إلى ذلك ، ويذكر من فكره ما لا يحتاج معه إلى زيادة .

٦٢٣ - ومن الحكايات في مثل ذلك أن الأديب البليغ الحافظ أبا بكر ابن حبيش لما قال في تخميسه المشهور :

بماذا على كل من الحق أوجبت

اعترض عليه أبو زكريا اليفرنى بما نصّه : استعمل الخمسُ « ماذا » في البيت تكثيراً وخبراً ، والمعروف من كلام العرب استعمالها استفهاماً ، فجأوبه بقوله : أما استعمالها استفهاماً كما قال فكثير ، لا يحتاج إلى شاهد ، وأما استعمالها في السن فصحاء العرب للكثرة فكثير لا يحتاج إلى شاهد لو وصل بحث ، واستعمل مكث ، فلم يعترض علي ولي ، ولا تشكك في جلي :

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

قال الله تعالى في سورة يونس ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السموات والأرض ، وما تُعْطَى الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس : ١٠١) ووقع في صحيح البخاري في رثاء المقتولين من المشركين يوم بدر<sup>١</sup> :

وماذا بالقليبِ قلبِ بدرٍ من الفتيان والشربِ الكرام<sup>٢</sup>

١ الشعر لشداد بن الأسود ؛ انظر أنساب الأشراف ١ : ٣٠٧ وابن هشام : ٥٣٠ وفي مناقب الأنصار من البخاري ٦٣ / ٤٣ (حديث : ٢١) .  
٢ روايته في البلاذري :

ونقب عن أخيك أبي يزيد أخي القينات والشرب الكرام

وماذا بالقلبِ قلبِ بدرٍ من الشيزى تُكَلَّلُ بالسنامِ<sup>١</sup>

وفي السيرِ في رثاء المذكورين أيضاً<sup>٢</sup> :

ماذا ببدرٍ فالعقنقلِ من مرآزية جحاجح

وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت الثقفي ، ووقع في الأغاني للوليد بن يزيد

يرثي نديماً له يُعرف بابن الطويل<sup>٣</sup> :

لله قـبـرٌ ضـمـنـت فيه عظامُ ابنِ الطويلِ

ماذا تـضـمـنَ إذ ثوى فيه من الرأي الأصيلِ

والخبر طويل ، وأجلى من هذا وأعلى ، وأحق بكل تقديم وأولى ، ولكن

الواو لا تفيد رتبة ، ولا تتضمن نسبة ، قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم

« ماذا أنزل الليلة من الفتن » وهو في الصحاح<sup>٤</sup> ، ووقع في الحماسة ، وقد

أجمعوا على الاستشهاد بكل ما فيها :

ماذا أجالَ وثيرةُ<sup>٥</sup> بنِ سِماكِ من دمعِ باكيةٍ عليه وباكِ<sup>٦</sup>

وفي الحماسة أيضاً وأظنها لأبي دهب<sup>٧</sup> :

ماذا رُزئتنا غداةَ الحلِّ من زَمَعٍ عند التفرق من خيمٍ ومن كرمِ

ووقع في نوادر القالي لكعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار<sup>٨</sup> :

١ القلب : البثر ؛ والشيزى : جفان تصنع من خشب بهذا الاسم .

٢ الأبيات في أنساب الأشراف ١ : ٣٠٦ وابن هشام : ٥٣١ - ٥٣٢ .

٣ انظر ديوانه : ٥٨ (نقلا عن الأغاني ٦ : ١٣٣) .

٤ م : الصحيح .

٥ م ق : أحال ؛ ق : وثيرة ؛ وهو رواية ثانية .

٦ الحماسة رقم : ٣٢٠ من شرح المرزوقي .

٧ هي الحماسة رقم : ٧٠٦ لأبي دهب .

٨ أمالي القالي ٢ : ١٤٦ .

هَوَتْ أُمُّهُ مَا يَبْعَثُ الصَّبْحُ غَادِيًا وَمَاذَا يَرُدُّ اللَّيْلُ حِينَ يُؤُوبُ  
ووقع في شعر الخنساء ترثي أخاها صخرًا :

أَلَا ثَكَلْتُ أُمَّ الَّذِينَ غَدَوَا بِهِ إِلَى الْقَبْرِ مَاذَا يَحْمِلُونَ إِلَى الْقَبْرِ  
وَمَاذَا يُوَارِي الْقَبْرُ تَحْتَ تَرَابِهِ مِنَ الْجُودِ فِي بُؤْسِ الْحَوَادِثِ وَالْدهْرِ  
والحرير وهو في الحماسة<sup>١</sup> :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوَا بِلَبِّكَ غَادَرُوا وَشَلَّاءَ بَعِينِكَ لَا يَزَالُ مَعِينَا  
غَيِّضْنَ مَنْ عِبْرَاتِهِمْ وَقَلْنَ لِي مَاذَا لَقَيْتَ مِنَ الْمُهْوَى وَلَقِينَا  
وفي الحماسة أيضًا<sup>٢</sup> :

مَاذَا مِنَ الْبَعْدِ بَيْنَ الْبَخْلِ وَالْجُودِ

ووقع في الحماسة أيضًا ، وهو لامرأة<sup>٣</sup> :

هَوَتْ أُمُّهُمْ مَاذَا بِهِمْ يَوْمَ صُرِعُوا بِجَيْشَانَ مِنْ أَسْبَابِ مَجْدٍ تَصَرَّمًا  
أَرَادَتْ مَاذَا تَصَرَّمْ لَهُمْ يَوْمَ صُرِعُوا بِجَيْشَانَ مِنْ أَسْبَابِ مَجْدٍ تَصَرَّمًا .  
ومما يُسْتَظْهَرُ بِهِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمَتَنِيِّ :

مَاذَا لَقَيْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبْتُهَا أَتَى بِمَا أَنَا بَاكٍ مِنْهُ مُحْسُودٌ  
وقوله أيضًا :

وَمَاذَا بِمَصْرَ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ وَلَكِنَّهُ ضَحْكٌ كَالْبُكََا

١ ديوان جرير : ٤٧٦ .

٢ الحماسية رقم : ٦٨٥ وصدره : ألا ترين وقد قطعتني عذلا

٣ هو لأم الصريح ، الحماسية : ٣١٨ .

ومن مُلَحِّ المتأخرين : كان بمُرْسِيَةِ أبو جعفر المذكور في المطمح ، وكان يلقَّب بالبقيرة ، فقال فيه بعض أهل عصره :

قالوا : البقيرةُ يهجوننا فقلتُ لهم : ماذا دُهيتُ به حتى من البَقَرِ  
هذا وليسَ بثورٍ بلُّ هو ابنتهُ وأين منزلةُ الأثني من الذكرِ  
وأنشُد صاحبَ الزهر ، ولا أذكرُ قائله ١ :

ماذا لقيتُ من المستعربين ومن قياسِ قولهم هذا الذي ابتدعوا  
إن قلتُ قافيةً بكرّاً يكونُ لها معنَى يخالفُ ما قالوا وما وضعوا  
قالوا لحنَتَ وهذا الحرفُ منتصبٌ وذلك خفضٌ ، وهذا ليس يرتفعُ  
وضربُوا بينَ عبدِ الله واجتهدوا وبينَ زيدٍ فطال الضربُ والوجعُ

وقال صاحبُ الزهر ٢ : أنشُد أبو حاتم ولم يُسمِّ قائله :

ألا في سبيلِ الله ماذا تَضَمَّنْتَ بطونُ الثرى واستودِعَ البلدُ القفرُ

هذا ما حضر بفضل الله من الاستشهاد على أن « ماذا » تُستعمل بمعنى الخبر والتكثير ، والله الذي لا إله غيره ما طالعتُ عليه كتاباً ، ولا فتحت فيه باباً ، وإنما هو ثُمالة من حوض التذكار ، وصُباية ممّا علق به شَرَك الأفكار ، وأثر ممّا سَدِكَ به السمع ، أيام خلوّ الذَّرْع ، وعُقُدت عليه الحُبِّي ، في عصر الصِّبا ، ورحم الله من تصفَّح ، وتلمَّح فتسمَّح ، وصحح ما وقع إليه ٣ من الاعتلال ، وأصلح ما وضع لديه من اختلال ، فخير الناس ، من أخذ بالبر والإيناس ، فبصر من جهلة ، وادَّكر عن وهلة ، وإنما المؤمنون إخوة ،

١ لم أجده في زهر الآداب .

٢ م : الروض ؛ وانظر زهر الآداب : ٧٩٦ .

٣ م : له .



وتحايهم في الله رفعة وحظوة ، ولهم في السلف الكريم ، ومحافظتهم على الود القديم ، أسوة كريمة وقُدوة .

قال ابن الطراح : انظر تحصيل هذا الإمام الرئيس ، والأسمى النفيس ، واستحضاره كلام الأدباء ، وسير النقّاد البلغاء ، ومُساجلتهم مع فرسان المعاني ، ووصفه تلك المغاني ، وقد كان حامل لواء الأدب ، وفائق أبناء جنسه في مرقب الطلب ، وهذه الكلمة - أعني « ماذا » - جرت بسببها مناظرة بين الأستاذ أبي الحسين ابن أبي الربيع النحوي المشهور وبين مالك بن المرحّل بسببته ، حتى ألّف مالك كتاب « الرمي بالحصى والضرب بالعصا » وفيه هتّات لا ينبغي لعاقل أن يذكرها ، ولا لذي طي في البيان أن ينشرها ، وفي ذلك قال الأستاذ أبو الحسين رحمه الله تعالى :

كان ماذا ليّتها عدَمُ      جنّبوها قُرْبُها ندَمُ  
ليّني يا مالٍ لَمْ أرَها      لأنّها كالنارِ تضطرمُ

وقوله « يا مال » ترخيم مالك .

وحكى الأستاذ ابن غازي أنهم اختلفوا : هل يقال : كان ماذا أم لا ؟ وقال : إن الأستاذ ابن أبي الربيع تطفّل على مالك بن المرحّل في الشعر ، كما أن ابن المرحّل تطفّل عليه في النحو ، قال : ومن نظم مالك بن المرحّل في هذه القضية :

عاب قومٌ كانَ ماذا      ليّت شعري كانَ ماذا  
إن يكنْ ذلك جهلاً      منهم فكانَ ماذا

ومن نظم ابن حبيش المذكور قوله :

١ م : الحسن ، في الموضمين .

إذا ما شئت أن تحيا هتياً  
رفيع القدر ذا نفسٍ كريمه  
فلا تشفع إلى رجلٍ كبيرٍ  
ولا تشهد ولا تحضر وليمه

وله أيضاً :

لأُعملنَّ إلى لقاءكم قَدَمي  
ولو نجشمتُ بينَ الطينِ والماءِ  
لأنَّ بيلَ ثيابي الغيثُ أهونُ بي  
من أن تحرقَ نارُ الشوقِ أحشائي

[ ترجمة اليفرنى النحوي ]

وأبو زكريا المعترض على ابن حبيش هو الفقيه النحوي الأديب أبو زكريا يحيى بن علي بن سلطان اليفرنى<sup>١</sup> ، وُلد سنة ٦٤١ ، وبرع في العربية ، وكان يلقب في المشرق « جبل النحو » وكان عند نفسه مجتهداً ، وكان لا يجيز نكاح الكتابيات ، خلافاً للإمام مالك ، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، ويتمسك بقوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم : ٢١) . وكان يرى أن الطلاق لا يكون إلا مرتين : مرة للاستبراء ، ومرة للانفصال ، ولا يقول بالثلاث ، وهو خلاف الإجماع ، وكان يقول في نهيه عليه الصلاة والسلام عن أكل ذي ناب من السباع : أي مأكول كل ذي ناب ، وتبقى هي على الإباحة ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَمَا أَكَلِ السَّبُعُ ﴾ (المائدة : ٣) وكان يقول في قوله تعالى ﴿ إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ ﴾ (طه : ٦٣) الهاء اسم إن ، وذان لساحران جملة خبر لأن ، ولا تحتاج لرابط لأنها تفسيرية ، والمعنى عنده وأسروا النجوى قالوا إنها أي نجوانا هذان لساحران ، أي قولنا هذان لساحران ، تثبيطاً للناس عن اتباعهما ، وخطأ المصحف يرده ، لكن في المصحف أشياء كُتبت على غير المصطلح ، مثل (مال هذا) و (لا أوضاعوا)

١ انظر ترجمته في بغية الوعاة : ٤١٢ وفيه نقل عن رحلة ابن رشيد .

و (لا أذبحه) . قال ابن الطراح : ورأيت هذا المعنى لغيره ، وأظنه ابن النحاس ،  
وتوفي اليفرنى المذكور سنة ٧٠٠ ، ومن شعره :

ماذا على الغصن الميأس لو عطفنا      على صباية صبّ حالف الدنفا  
يا رحمة لفؤادي من معدّبه      كم ذا يحمله أن يحمل الكلفا  
ويارعى الله داراً ظلّ يجمعنا      في ظلّ عيش صفا من طيبه وضمّنا  
مودّة بيننا في الحبّ كاملة      ونحن لا نعرف الإعراض والصلفا

رجع إلى كلام الأندلسيين :

٦٢٤ - قال صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى في سكين الكتابة :

أنا صمصامة الكتابة ، ما لي      من شبيه في المرهفات الرقاق  
فكأنتي في الحسن يوم وصال      وكأنتي في القطع يوم فراق  
وقال في المقصّ :

ومصطحبين ما اتهما بعشق      وإن وُصفا بضمّ واعتناق  
لعمرُ أليك ما اجتمعا لشيء      سوى معنى القطيعة والفراق

٦٢٥ - ولبعض الأندلسيين :

هلاً اقتدى ذو خلة بفعالنا      فيكون واصل خله كوصالنا  
مهما يحيى أحد ليقطع بيننا      نقطعه ثم نعد لأحسن حالنا

٦٢٦ - وجرح بعض الكتاب يده بالمقص ، فأنشده أحد جلسائه ، وغالب

ظني أنه أندلسي :

١ م : صفا من طيبه وضمّنا .

عداوةٌ « لا » لكفك من قديمٍ فلا تعجبٌ لمقراضٍ لثيمٍ  
لئن أدماكَ فهوَ لـلا شبيهٌ وقد يعدو اللثيمُ على الكريمِ

٦٢٧ - ولما ألف ابنُ عصفور كتابه « المقرب » في النحو انتقده جماعة  
من أهل قطره الأندلسيين وغيرهم ، منهم ابن الصائغ وابن هشام والجزيري ،  
وله عليه « المنهج المعرب في الرد على المقرب » وفيه تخليط كثير وتَعَسُف :

وفي تَعَبٍ من يحسدُ الشمسَ نورها ويأملُ أن يأتي لها بضربٍ  
ومنهم ابن الحاج وأبو الحسن حازم القرطاجني الخزرجي ، وسمّاه « شد  
الزيار على جَحْفَلَةِ الحمار » ، وابن مؤمن القابسي ، وبهاء الدين ابن النحاس .

٦٢٨ - ومن شعر حازم الأندلسي المذكور قوله :

لم تدرِ إذ سألتك ما أسلاكها أبكتَ أسيَّ أم قَطَّعْتَ أسلاكها  
وعارضه التجاني بقوله :

يا ساحرَ الأُلحاظِ يا فتاكها فُتِيا جوازِ الصدِّ مَنْ أَفتاكها

٦٢٩ - ومن حكاياتهم في المُجون<sup>١</sup> وما يجري مجراه أن الوزير أبا بكر  
ابن الملح كان له ابنٌ شاب ، فاسترسل مع الأدب إلى أن خرج من القول إلى  
الفعل ، وأتى بأشياء لا تليق بمثله ، فكتب إليه أبوه :

يا سُخْنَةَ العينِ يا بُنيَّا ليتكَ ما كنتَ لي بُنيَّا  
أبكِتَ عيني ، أطلتَ حزني أمتَّ صيتي وكانَ حيَّا  
حططتَ قدرِي وكانَ أعلى في كلِّ حالٍ من الثريا

١ قد وردت هذه القصة والشعر فيما مر ص : ٧١ وسقطت من م .

أما كفاك الزنا ارتكاباً  
 حتى ضربت الدفوفَ جهراً  
 فاليوم أبكيك ملء عيني  
 وشربُ مشمولة الحميما  
 وقلت للشراً : جيء إليا  
 لو كان يُغني البكاء شيئاً  
 فأجابه ابنه بقوله :

يا لائم الصبِّ في التصابي  
 أو جفت خيل العتابِ نحوي  
 وقلت عمرُ الهنا قصيرٌ  
 قد كنتُ أرجو المتابَ ممّا  
 لولا ثلاثُ شيوخُ سوء  
 ما عنك يُغني البكاء شيئاً  
 وقبلُ وثبتها إليا  
 فاربحُ من العيش ما تهياً  
 فثنتُ جهلاً به وغياً  
 أنت وإبليسُ والحميما

٦٣٠ - وقال أبو جعفر ابن صفوان الملقبى رحمه الله تعالى :

سألتُه الإتيانَ نحوي مُقبِلاً  
 قرأتُ بابَ الجمعِ من شوقي لهُ  
 للاستغاثَةِ ابتدأتُ تاليأ  
 وكلّما طلبتُ منهُ في الهوى  
 وإن أرمُ محضَ إضافة لهُ  
 في ألفِ الوصلِ ظللتُ باحثاً  
 فلستُ موصولاً وليس عائداً  
 فيا منى نفسي ومن لفهمه  
 وجددي موقوفٌ عليك لا أرى  
 فما الذي يمنعُ من تسكينه  
 والحبُّ مرفوعٌ إليك مفردٌ  
 فالضمُّ للرفعِ غدا علامةُ  
 فقال سلْ نحوي كي تحصلاً  
 وهو بالاشتغالِ عنّي قد سلا  
 وهو لأفعالِ التعدّي قد تلا  
 عطفاً غدا يطلبُ منّي بدلا  
 أعملَ في قطعي عنه الحيلا  
 وهو ببابِ الفصلِ قد تكفلاً  
 وليس حالي عن أسى منتقلا  
 دانتُ فهومُ الأذكياءِ النبلا  
 عنك مدى الدهر لهُ تنقلاً  
 والوقفُ بالتسكينِ حكمٌ أعملا  
 فلم تُرى لضمّي مستقلا  
 في مفردٍ مثلي فأوضحُ مشكلا

لا زلتَ للهِيامِ عني رافعاً  
للسوقِ مُسكناً ، لهجري صارفاً  
تجزمُ أمراً في الأمانى ماضياً  
وتبتدي بما تشا مستقبلاً  
للوصلِ ناصباً ، لقولي مُعملاً  
بالقربِ من حالِ البعادِ مبدلاً

٦٣١ - وقال محمد بن إدريس القُضاعي الأصبطوني :

علاهُ رياضُ أورقتِ بمحامدِ  
تسحُّ عليها من نداءِ غمامةٍ  
وهلّ هو إلا الشمسُ نفساً ورفعةً  
تعمُّ أباديه البريةَ كلَّها  
تنورُ بالجدوى وتُثمرُ بالأملِ  
تروي ثرى المعروفِ بالعلِّ والنهلِ  
فيقربُ بالجدوى ويبعدُ بالأملِ  
فدانٍ وقاصٍ جودُ كفيهِ قد شملِ

٦٣٢ - وقال محمد التطيلي الهذلي ، من أعيان غرناطة ١ :

جارتِ عليّ لواحظُ الآرامِ  
حكمتُ عليّ بحكمها فتبسّمتُ  
يا قاتلي عمداً بسيفِ لحاظهِ  
كم رمتُ وصلك والصدودُ يصدني  
إنّي عدمتُ النفسَ يومَ فراقكم  
كيف المقامُ وأصلُ جسمي ناحلُ  
صعبَ العلاجِ فليس يمكنُ برؤها  
قد كنتُ أفرحُ بالسلوِّ فيها أنا  
مالت به نحو الفتونِ بدائعُ  
فقوامُ أنفسنا بللقةٍ وصلهِ  
لما رمتُ أجفانها بسهامِ  
فغدا الضنى منها لدى أحكامِ  
اغمدُ ظباهُ قبلَ وقَعِ حِمامي  
ويقلُّ عزمي أمرهُ ومرامي  
والبينُ أسلمها إلى الإعدامِ  
إنّ النفوسَ مقيمةُ الأجسامِ  
حتى يعودَ الشهرُ مثلَ العامِ  
قد زُمَ قلبي في الهوى بزمامِ  
من شادنٍ يحكيه بدرُ تمامِ  
وجميعُ أعيننا عليه سوامِ  
عظمتُ على الأفكارِ والأوهامِ  
قد أبرزتُ خداه روضَ محاسنِ

١ ترجمة الهذلي التطيلي في المغرب ٢ : ٤٥٠ وبرنامج الرعيبي : ٢٠٢ ؛ والمقري ينقل عن الإحاطة .

تندى بماء شبيبة وتنعم  
فكأتما وجناتها في لونها  
وكأتما درع الدجى من شعره  
وكأتما ريق حواه ثغره  
وكأتما سيف نضت الحاظه  
ذاك الأمير محمد بن محمد  
ملك علا فوق السماك علاؤه  
لو كان يعقل الشها لأتاه في  
أو كان يرضى بالمجرة أجرداً  
فالسعد يفعل للأماني قولها  
واليوم يعشقه ويحسد ليله  
نامت عيون الشرك خوف سنانه  
بهر الأنام بسيفه وببأسه  
فالمعتني يجني جزيل هباته  
مهما استعنت به فصيغ معرك  
أجرى مياه العدل بعد جفوفها  
كم من كتيبة جحفل قد هدّها  
المقتني الجرد المتداكي عدّة  
من كل مبيض كان أديمه  
ومنها :

يا خير من ركب الجياد وقادها  
لا زلم والسعد يخدم أمركم  
حتى يصير الأمن في أرجائنا  
تحت اللواء ، وعمدة الأقبام  
في غبطة موصولة بدوام  
عبداً يقوم لنا على الأقدام

والله ينصركم ويُعلي مجدكم ما سَحَّ إثر الصحو ماء غمام

٦٣٣ - وكان يجيى السرقُسطي أديباً ، فرجع إلى الجزائر ، فأمر  
الحاجبُ ابنُ هود أبا الفضل ابن حسداي أن يوبخه على ذلك ، فكتب إليه :

تركت الشعرَ من عَدَمِ الإصابه٠ وملت إلى التجارةِ والقِصابه٠

فأجابه يجيى :

تَعيبُ عليّ مألوفَ القِصابه٠ ومَنْ لم يَدْرَ قَدْرَ الشْيءِ عابه٠  
ولو أَحكمتَ منها بعضَ فنّ٠ لما استبدلتَ منها بالحِجابه٠  
ولو تدري بها كلفي ووجدي علمتَ علامَ أَحتملُ الصِبابه٠  
وإنك لو طلعتَ عليّ يوماً وحوالي من بني كلبِ عِصابه٠  
لهالك ما رأيتَ وقلتَ هذا هزْبِرُّ صيِّرَ الأوضامَ غابه٠  
وكم شهدتُ لنا كلبٌ وهرٌّ بأن المجدَ قد حَزُننا لُبابه٠  
فتكنا في بني العتريِّ فتكاً أقرَّ الذعرَ فيهم والمهابه٠  
ولم نُقلعَ عنِ الثوريِّ حتى مزجنا بالدم القاني لُعباه٠  
ومن يَغترَّ منهم بامتناعِ فإنَّ إلى صوارمنا إيابَه٠  
ويبرزُ واحدٌ منا لألفِ فيغلبهم وذلكَ من الغرابه٠

ومنها :

أبا الفضلِ الوزيرِ أجِبْ ندائي وفضلُكَ ضامنٌ عنكَ الإِجابَه٠  
وإصغاءٌ إلى شكوى شكورِ أطلتَ على صناعته عتابه٠  
وحقِّكَ ما تركتُ الشعرَ حتى رأيتُ البخلُ<sup>٢</sup> قد أوصى صحابه<sup>٣</sup>

١ المغرب ٢ : ٤٤٤ والنخيرة (٣ : ٢٨٦) وزاد المسافر : ٩٨ .

٢ م : المحل .

٣ المغرب : أذكى شهابه .



وحتى زرتُ مشتاقاً خليلي<sup>١</sup> فأبدى لي التحيل<sup>٢</sup> والكآبه  
وظنَّ زيارتي لطِلابِ شيءٍ فنافرني وغلَّظَ لي حِجابَه

٦٣٤ - وقال الأديب أبو الحسن ابن الحداد :

قالتْ وأبدتْ صفحةً كالشمسِ من تحتِ القناعِ  
بعثَ الدفاترَ وهي آ خرُ ما يُباعُ من المتاعِ  
فأجبتُها ويدي على كبدي وهمتُ بانصداعِ  
لا تعجبي ممّا رأيتِ فنحن في زمنِ الضياعِ

٦٣٥ - وقال الأديب أبو زكريا ابن مطروح من أهل مدينة باغه ، وقد  
عزل والٍ فترتل المطر على إثره ، وهو من أحسن شعر قاله ، وكان الوالي غير  
مرضى :

وربَّ والٍ سرَّنا عزَّلهُ فبعضنا هناهُ البعضُ  
قد واصلتنا السُّحبُ من بعده ولدَدَ في أجفاننا الغمضُ  
لو لم يكن من نجسٍ شخصهُ ما طهرت من بعده الأرضُ

٦٣٦ - وقال القاضي أبو البركات ابن الحاج البليقي ، رحمه الله تعالى :

وعشية حكمت على من تاب من أهل الخلاعة أن يعود لما مضى  
جمعت لنا شمل السرورِ بفتية جمعوا من اللذات شملاً مرتضى  
ما عاقني عن أن أسيرَ بسيرهم إلا الرياء مع الخطابة والقضا

٦٣٧ - وقال أبو الحجاج يوسف الفهري من أهل دانية :

١ المغرب : حبيباً .

٢ ق : التخيل ؛ المغرب : التجهم .

أبى الله إلا أن أفارقَ منزلاً      يطالغني وَجْهُ المُنَى فيه سافرا  
كَأنَّ على الأَيَّامِ أن لا أَحِلَّهُ      رويداً فما أغشاهُ إلا مسافرا

٦٣٨ - وقال بعضهم في الرثاء :

عَبَّراتٌ تفيضُ حزنًا وثكلاً      وشجونٌ تعمُّ بعضاً وكُلاً  
ليس إلا صُبابَةٌ أضرمتها      حسرةٌ تبعثُ الأسى ليس إلا

٦٣٩ - ولأبي جعفر البغيل أحد شعراء المِريَّةِ وكتَّابها :

عزاءٌ على هذا المصابِ الذي دهى      وشتت شملَ الأُنسِ من بعد ما انتهى  
بفرعِ علاءٍ في منابتِ سُودد      تسمى رُقيّاً في المعالي إلى السُّها  
أصِبتَ به من بعد ما تمَّ مجدهُ      وقد شمختُ منه الشماريخُ وازدهى  
فأبىة شمسٍ فيه للمجد كُورَت      وأيُّ بناءٍ للمكارمِ قَدَّ وهى  
فصبراً عليه لا رُزئتَ بمثله      فمثلك من يُعزى إلى الحلمِ والنهى

٦٤٠ - وقال الكاتب الماهر أبو جعفر أحمد بن أيوب اللمائي المالقي<sup>١</sup> :

طلعتُ طلائعَ للربيعِ فأطلعتُ      في الروضِ ورَدًا قبل حينِ أوَانِهِ  
حيّاً أميرَ المؤمنينِ مِشْتِراً      ومؤملاً للنيلِ من إحسانِهِ  
ضنَّتْ سحائبُهُ عليهِ بمائه      فأتاه يستسقيه ماءً بِنانِهِ  
دامتْ لنا أيامُهُ موصولةً      بالعزِّ والتمكينِ في سلطانِهِ

٦٤١ - وقال أبو جعفر أحمد بن طلحة من جزيرة سُفُر<sup>٢</sup> :

يا هل ترى أظرف من يومينا      قلَّدَ جيدَ الأفقِ طوقَ العقيقِ  
وأنطقَ الورقَ بعيدانها      مطربةً كلَّ قضيبيِّ وريقِ

١ الإحاطة ١ : ١١٠ .

٢ اختصار القحح : ١١٤ والإحاطة ١ : ١١٢ .

والشمسُ لا تشربُ خمرَ الندى في الروضِ إلاّ بكؤوسِ الشقيقِ

٦٤٢ - وقال أبو جعفر الغساني من أهل وادي آش ، واستوطن غرناطة ، ثم مات بالمريّة ، فكتب على حمالة قرابٍ لموطئ الإمام مالك ، بعدما استنجد قرائح أدباء عصره ، واستصرخ اختراعاتهم لنصره ، فكلّهم قصّر عن غرضه ، وأداء مفرضه ، فقال هو :

يا طالباً لكمالٍ حفطي أمّ كمالكِ  
فما تقلّدتِ مثلي إذ لم تقلّدي كمالكِ

٦٤٣ - وقال أبو بكر يحيى بن بقيّ :

خذها على وجهِ الربيعِ المُخصبِ لم يقضِ حقّ الروضِ من لم يشربِ  
همي سماءٍ علّاءٍ وهمّي ماردٌ فارجمه من تلك الكؤوسِ بكوكبِ

وهو رحمه الله تعالى صاحب الأبيات المشهورة :

زحزحته عن أضلعٍ تشنّقهُ كيلا ينامَ على فراشٍ خافقِ

وانتقد عليه بعض اللطفاء فقال : إنّه كان جاني الطبع حيث قال « زحزحته » ولو قال « باعدت عنه أضلعاً تشنّقه » لكان أحسن .

٦٤٤ - وقال السلطان المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يستدعي :

انهضُ أبا طالبٍ إلينا واستقطُ سقوطَ الندى علينا  
فنحنُ عقيدٌ بغيرِ وسطي ما لم تكنْ حاضراً لدينا

وتذكرت هنا قول بعض المشاركة فيما أظن والله تعالى أعلم :

نحنُ في مجلسِ أنسٍ ما بهِ غيرُ محبِّكَ  
فتصدَّقْ بمُحْضورٍ واجمعِ الوقتَ بقربكُ  
وخَفِ الآنَ عتابي مثلَ خوفي عندَ عتَبكُ

٦٤٥ - وقال أبو عبد الله ابن خَلِصَة الضَّريرُ ١ :

ولو جادَ بالدُّنيا وثَنِّيَ بِمِثْلِهَا لظنَّ من استصغارها أَنَّهُ ضَنَّا  
ولا عيبَ في إنعامه غيرَ أَنَّهُ إذا مَنَّ لم يَتَّبِعْ مواهبه مَنَّا  
وله أيضاً ٢ :

يا مالِكاً حَسَدَتْ عليه زَمَانَهُ أُمُّ خَلَّتْ من قِبَلِهِ وَقُرُونُ  
مالي أرى الآمالَ بِيضاً وَضَحاً ووُجُوهُ أَمالي حِوَالِكِ جُونُ  
أنا آمِنٌ فَرِقٌ ، وراجِ آيسُ وروِ صَدِّ ، ومُسرَّحُ مَسْجُونُ  
لا تَعُدُّني أنواءَ سَيِّبِكِ لا عدا كِ النَّصْرُ والتأييدُ والتَمَكِينُ

٦٤٦ - وقال ابن اللَّيْثَانَةِ :

كَرَمْتَ فلا بَحرٌ حِكاكَ ولا حَيًّا وَفَتَّ فلا عُجْمَ شَأْتِكَ ولا عُرْبُ  
وأولَيْتَنِي مِنكَ الجَمِيلَ فَوَالِهِ عسى السَّحُّ من نَعْمائِكَ يَتَّبِعُهُ السَّكْبُ

٦٤٧ - وقال أبو علي ابن الِيمانِ ٣ :

أبناتِ الهديلِ أَسْعِدُنَ أو عَد نَ قَليلَ العِزِّاءِ بالإسعادِ  
بيدَ أَنِّي لا أرتضي ما فَعَلتَ نَ فأطواقُكُنَّ في الأجيادِ

١ هو أبو عبد الله محمد بن خَلِصَة الشَّدَوِي وَيقال له الضَّريرُ تَمييزاً عن من ينسب سِواه إلى خَلِصَة ،  
انظر الجذوة : ٥١ ونكت الهميان : ٢٤٨ والمسالك : ١١ : ٤٥ والذخيرة ( ٣ : ١٠٩ ) .

٢ الذخيرة : ١١١ .

٣ هو إدريس بن الِيمانِ ؛ وَوهم المقري أو من ينقل عنه في نسبة البيتين له فهما لأبي العلاء المعري  
من داليتِه « غير مجد في مَلِّيِّ واعتقادي » ، ولعل سبب الوهم أبيات ابن الِيمانِ في الحماسة (الذخيرة  
٣ : ١١٩) .

٦٤٨ - وقال أبو جعفر أحمد بن الدودين من كلمة<sup>١</sup> :

فغدتْ غواني الحميَّ عنك غوانياً وأسلن الحاظَ الرباب ربابا

٦٤٩ - وقال ابن أبي الخصال في مليحة لها أربع جوارٍ قبيحات :

وليلةٍ طولها على سنَّةٍ باتَ بها الجفنُ نادباً وسنَّةٌ  
بأربعٍ بينهنَّ واحدةٌ كسيئاتٍ وبينها حسنةٌ

٦٥٠ - وقال غالب بن تمام الملقَّب بالحجَّام :

صغارُ الناسِ أكثرهم قبيحاً وليسَ لهم بصالحةٍ نهوضُ  
ألم ترَ في سباعِ الطيرِ نسرأ يُسالننا ويؤذينا البعوضُ

٦٥١ - وقال ابن عائشة<sup>٢</sup> :

وروضةٌ قد علت سماءً تطلعُ أزهارها نجوماً  
هفا نسيماً الصبأ عليها فخلتها أرسلت رجوماً<sup>٣</sup>  
كأنما الجوى غاراً لما بدت فأغرى بها التسيماً

وله يصف فرساً ، وهو من بدائعه :

قصرتْ له تسعٌ وطالت أربعٌ وزكتْ ثلاثٌ منه للمتأملِ  
وكأنما سالَ الظلامُ بمتنه وبدا الصباحُ بوجهه المتهللِ  
وكانَ راكبه على ظهرِ الصبأ من سرعةٍ أو فوق ظهرِ الشمالِ

١ هو من رجال النخيرة (٣ : ٢١٩) والمغرب ٢ : ٣٢٢ ؛ والبيت فيه .

٢ مرت هذه الأبيات ص : ٥٤ وانظر النخيرة (٣ : ٢٧٩) .

٣ سقط هذا البيت من م .

وقال :

تربةٌ مسك ، وجوُّ عنبرةٍ      وغيمٌ نَدَّ ، وطشٌ ما وُرِدَ  
كأنَّما جائلُ الحبابِ بهِ      يلعبُ في جانبيه بالردِ  
وتروى هذه الأبيات لغيره ١ .

وقال ٢ :

همُّ سلبوني حُسنَ صبري إذ بانوا      بأقمارِ أطواقٍ مطالعها بانُ  
لئن غادروني باللوى إنَّ مهجتي      مسائرةٌ أظعانهم حيثما كانوا  
٦٥٢ - وقال أبو محمد ابن سفيان ، وهو من أبداع التلخيص :

فقلتُ وجفني قد تَدَاعَتْ شؤونهُ      وحرُّ ضلوعي مُقْعَدٌ ومُتَقِيمُ  
لئن دهمتْ دُهمُ الخطوبِ وآلتُ      فإنَّ أبا عيسى أغرُّ كريمُ  
٦٥٣ - وقال ابن الزقاق ٣ :

بأبي وغيرِ أبي أغنُّ مهفهُفٌ      مهضومٌ ما تحتَ الوشاحِ خميصُهُ  
ليس الفؤادَ ومزقته جفونُهُ      فأتى كيوسُفَ حينَ قَدَّ قميصُهُ  
وقال :

سلامٌ على أيامِكُم ما بكى الحيا      وسَقِيًّا لذاك العهد ما ابتسم الزهرُ  
كانَ لم نَبِتْ في ظلِّ أمنٍ تضمُّنا      من الليلةِ الظلماءِ أوديةٌ خُضْرُ  
ولم نغْتَبِقْ تلكَ الأحاديثِ قهوةً      وكم مجلسٍ طيبِ الحديثِ بهِ خمرُ  
ألا في ضمانِ الله في كلِّ ساعةٍ      يجدُّ لي فيها بشوقٍ لهُ ذكْرُ

١ وتروى ... لغيره : سقطت من م .

٢ وردت القصيدة بتمامها في أزهار الرياض ٣ : ١٢١ منسوبة لابن السيد البليوسي .

٣ وردت قطعنا ابن الزقاق في ديوانه : ١٩٦ ، ١٧١ .

يُدكّرنيه البرقُ جَدْلانَ باسماً وَيُدكّرني إسْفارَ غُرّته الفجرُ  
ومارقُ زهرُ الروضِ إلاّ تَمثلتُ لناظِرِ عيني منه آدابُه الزُّهرُ

٦٥٤ - وقال يحيى السَّرْقَسْطِي :

هاتِها عسْجديّةٌ كوثرِيّةٌ بنتَ كرمٍ رحيقَةٌ عطريّةٌ  
كلّما شَفّها النحولُ تقوّتُ فاعجبوا من ضعيفَةٍ وقويّةٌ  
ربّ خمّارةٍ سريتُ إليها والدجى في ثيابه الرنجيّةُ

ومنها :

كمُ عُقارٍ بدلتُهُ بعُقارٍ وثيابٍ صبغتُها خمريّةٌ  
إنّ خيرَ البيوعِ ما كان نقداً ليس ما كان أجلاً بنسيّةٌ

وله<sup>١</sup> :

نسبتم الظلمَ لعمالكم ونتممُ عن قبح أعمالكم  
والله لو حكمتم ساعةً ما خطر العدلُ على بالكم

٦٥٥ - وقال الرصافي في اللولاب<sup>٢</sup> :

وذي حنينٍ يكادُ شجواً يخلتسُ الأنفُسَ اختلاسا  
إذا غدا للرياضِ جاراً قال لها المحلُّ لا مساسا  
يبتسمُ الروضُ حينَ يبكي بأدمعٍ ما رأين باسا  
من كلّ جفنٍ يسلّ سيفاً صار له عقده رثاسا

٦٥٦ - وخرج أبو بكر الصابوني لتزّهة بوادي إشبيلية ، وكان يهوى

١ زاد المسافر : ٩٩ .

٢ ديوان الرصافي : ١٠٢ والمغرب ٢ : ٣٥١ والمعجب : ١٤٣ ورفع الحجب : ١٣٥ .

فتى اسمه علي ، فقال :

أبا حسنِ أبا حسنِ بَعادُكَ قد نفى وسني  
وما أنسى تذكُّره فهل أنسى فيذكركني

ويشبه هذا قول الطاهر بن أبي ركب<sup>١</sup> :

يقولُ الناسُ في مثلي تذكَّرْ غائباً تره  
فما لي لا أرى سكاني وما أنسى تذكُّره

٦٥٧ - وكتب بعض الأدباء إلى ابن حزم الأندلسي بقوله :

سألتُ الوزيرَ الفقيهَ الأجلَّ سؤالَ مُدِلِّ علي من سألُ  
فقلتُ أيا خيرَ مسترشدٍ ويا خيرَ مَنْ عن إمامٍ نقلُ  
أيجرمُ أن نالني قبلةُ غزالٍ ترشفُ فيه الغزلُ  
وعانقتي والُدجي خاضبُ فبتنا ضَجيعين حتى نصلُ  
وجئتكَ أسألُ مسترشداً فبينَ فديتَ لمن قد سألُ

فأجابه ابنُ حزم بقوله :

إذا كان ما قلته صادقاً وكنْتَ تحرَّيتَ جهدَ المقلِّ  
وكان ضَجيعك طاوي الحشا أعارَ المهاةَ احمرارَ المقلِّ  
قريبَ الرضى وله غنَّةٌ تميمُ الهمومِ وتحيي الجدلُ  
ففي أخذِ أشهبَ عن مالكٍ عن ابن شهابٍ عن الغيرِ قُلِّ  
بتركِ الخلافِ على جمعهم على أن ذلك حلٌّ وبيلُ

٦٥٨ - ونظر الرصافي يوماً إلى صبي يبكي ، وأخذ من ريقه وييلُ

١ انظر ما تقدم ص : ١١٣ .



عينه ، كي يخفي أثر البكاء ، فارتجل الرصافي ١ :

عذيري من جدلان يبدي كآبةً وأضلعهُ ممّا يحاوله صفرُ  
أميلدُ مياسُ إذا قاده الصبا إلى ملحِ الإدلال أيده السحرُ  
يبسلُ مآقي مُقلتيه بريقه ليحكى البكا عمداً كما ابتسم الزهرُ  
أبوهم أنّ الدمعَ بلّ جفونهُ وهل عُصرتُ يوماً من الرجس الحمرُ

وكان المذكور - أعني الرصافي - يميل في شببته لبعض فتيان الطلبة ، وأجمع الطلبة على أن يصنعوا نزهة بالوادي الكبير بمالقّة ، فركبوا زورقاً للمسير إلى الوادي ، فوافق أن اجتمع في الزورق شملُ الرصافي بمحبوبه ، ثم إن الريح الغربية عَصَفَتْ وهاج البحر ، ونزل المطر ، فترلوا من الزورق ، وافترق شمل الرصافي من محبوبه ، فارتجل في ذلك ، ويقال إنها من أول شعره :

غارَ بيَ الغربُ إذ رأني مجتمِعَ الشمْلِ بالحبيبِ  
فأرسلَ الماءَ عن فراقٍ وأرسلَ الريحَ عن رقيبِ

فلما سمع ذلك أستاذه استنبله ، وقال له : إنك ستكون شاعر زمانك .

٦٥٩ - وحكي أن أبا بكر ابن مجبر قال في ابن لأبي الحسن ابن القطان

بمحضر والده :

جاء وفي يساره قوسٌ وفي اليمنى قدحُ  
كأتهُ شمسٌ بدتُ وحوها قوسٌ قزحُ  
يا لائمي في حبه ما كلُّ من لام نصحُ

فقال ابن عياش الكاتب : هذه أبيات لأندلسي استوطن المشرق في تركي ،

١ ديوان الرصافي : ٦٧ .

فأقسم أبو بكر أنه لم يسمع شيئاً من ذلك ، وإنما ارتجلها ، وقيل : إنها لأبي  
الفتح محمد بن عبيد الله من أهل بغداد ، وأولها :

جَدَّ بقلبي ومَزَحْ

فإنه أعلم بحقيقة الأمر .

٦٦٠ - وخرج أبو بكر ابن طاهر وأبو ذر الحُشَتي والقاضي أبو حفص  
ابن عمر ، وهو إذ ذاك وسيمٌ ، فأثرت الشمس في وجهه ، فقال أبو ذر :

وسمك الشمس يا عمرُ سِمةً في القلبِ تنترُ

فقال الآخر :

عَلِمَتْ قَدَرَ الذي صَنَعَتْ فَآتَتْ صفراءُ تَعْتَذِرُ

٦٦١ - وقال أبو الحسين البلنسي الصوفي : كان لي صديق أُمي لا يقرأ  
ولا يكتب ، فعلق فتىً ، وكان خرج لتزهة فأثرت الشمس في وجهه ، فأعجبه  
ذلك ، وأنشد :

رَأَيْتُ أَحْمَدَ لما جاء من سفرٍ والشمسُ قد أثرت في وجهه أثرا  
فانظرْ لما أثرت الشمسُ في قمرٍ والشمسُ لا ينبغي أن تُدرك القمرَا

٦٦٢ - واجتمع أبو الوليد الوقشي وأبو مروان عبد الملك بن سراج  
القرطبي ، وكانا فريدي عصرهما حفظاً وتقدماً ، فتعارفا ، وتساءلا ، ثم بادر  
أبو الوليد بالسؤال ، وقال : كيف يكون قول القائل :

ولو أن ما بي بالحصي فعل الحصى وبالريح لم يُسمع هن هبوبُ

١ م : فلق .

ما ينبغي أن يكون مكان « فعل الحصى » ؟ فقال أبو مروان « فلق الحصى » ، فقال :  
 وهمت ، إنما يكون « فلق الحصى » ليكون مطابقاً لقوله « لم يُسمع لمن هبوب »  
 يريد أن ما به يحرك ما شأنه السكون ويسكن ما شأنه الحركة ، فقال أبو مروان :  
 ما يريد الشاعر بقوله :

وراعةٍ في ظلِّ غصنٍ منسُوطَةٍ بلؤلؤةٍ نيطتْ بمنقارِ طائرٍ

وكان اجتماعهما في مسجد ، فأقيمت الصلاة إثر فراغ ابن سراج من إنشاد  
 البيت ، فلما انقضت الصلاة قال له الوقشي : ألغز الشاعر باسم أحمد ، فالراعة  
 الحياء ، والغصن كناية عن الألف ، واللؤلؤة الميم ، ومنقار الطائر الدال ، فقال  
 له ابن سراج : ينبغي أن تعيد الصلاة لشغل خاطرك بهذا اللغز ، فقال له الوقشي :  
 بين الإقامة وتكبيرة الإحرام فكفته .

والبيت الأول لعبد الله بن الدمينية ، وبعده :

ولو أنتني أستغفرُ اللهَ كلِّما ذكرتُكِ لم تُكْتَبْ عليّ ذنوبُ

٦٦٣ - وقال الوزير أبو الحسن ابن أضحى :

ومستشفعٍ عندي بخير الورى عندي وأولاهمُ بالشكر منِّي وبالحمدِ  
 وَصَلْتُ فلما لم أقم بجزائه « لفتتُ له رأسي حياءً من المجدِ »<sup>١</sup>

وكان سبب قوله هذين البيتين أنه كتب إليه بعض الوزراء شافعاً لأحد  
 الأعيان ، فلما وصل إليه برّه وأنزله وأعطاه عطاء استعظمه واستجزله ، وخلع  
 عليه خلعاً ، وأطلعه من الأحمال بدرأ لم يكن مطلعاً ، ثم اعتقد أنه قد جاء  
 مُقَصِّراً ، فكتب إليه معتذراً بالبيتين ، هكذا حكاه الفتح<sup>٢</sup> ، وقال بعد ذلك  
 ما صورته : ومن باهر جلاله ، وظاهرِ جلاله ، أنه أعفُ الناس بواطن ،

١ عجز بيت لأبي تمام وصدره : « أتاني مع الركبان ظن ظننته » .

٢ القلائد : ٢١٧ ومر بعضه .

وأشرفهم في التقى مواطن ، ما علمت له صبوة ، ولا حلت له إلى مستنكر  
 حبوة ، مع عدل لا شيء يعدله ، وتحجب عما يتقى مما يرسل عليه حجاب  
 ويسد له ، وكان لصاحب البلد الذي كان يتولى القضاء به ابن من أحسن الناس  
 صورة ، وكانت محاسن الأقوال والأفعال عليه مقصورة ، مع ما شئت من لسن ،  
 وصوت حسن ، وعفاف ، واختلاط بالبهاء والتفاف ، قال الفتح : وحملنا  
 لإحدى ضياعه بقرب من حضرة غرناطة فحللنا قرية على ضفة نهر ، أحسن من  
 شاذمهر ، تشقها جداول كالصلال ، ولا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال ،  
 ومعنا جملة من أعيانها ، فأحضرنا من أنواع الطعام ، وأرانا من فرط الإكرام  
 والإنعام ، ما لا يطاق ولا يحد ، ويقصر عن بعضه العد ، وفي أثناء مقامنا بدا  
 لي من ذلك القتي المذكور ما أنكرته ، فقابلته بكلام اعتقده ، وملام أحقده ،  
 فلما كان من الغد لقيت منه اجتنابه ، ولم أر منه ما عهدته من الإنابة ، فكتبت  
 إليه مُداعباً له ، فراجعني بهذه القطعة :

أنتني أبا نصرٍ نتيجةً خاطرٍ	سريعٍ كرجع الطرف في الخطرات
فأعربت عن وجدٍ كمينٍ طويته	بأهيفٍ طاوٍ فاترٍ اللحظات
غزالٍ أحمٍ المقلتين عرفته	بخيفٍ مني للحسنٍ أو عرفات
رماكٍ فأصمى والقلوبُ رمية	لكلٍ كحيلٍ الطرف ذي فتكات
وظنّ بأن القلب منك مُحصَّبٌ	فلباك من عينيه بالجمرات
تقرب بالنسأك في كل منسك	وضحى غداة النحر بالمهجات
وكانت له جيانٌ مثوى فأصبحت	ضلوعك مشواه بكل فلاة
يعزُّ علينا أن تهيم فتنتطوي	كثيباً على الأشجان والزفرات
فلو قبِلت للناس في الحب فدية	فدينك بالأموال والبشرات

ومن إثارة ديانته ، وعلامة حفظه للشرع وصيانته ، وقصده مقصد المتورعين ،  
 وجره جريّ المشرعين ، أن أحد أعيان بلده كان متصلاً به اتصال الناظر

بِسَوَادِهِ ، محتلاً في عينه وفؤاده<sup>١</sup> ، لا يُسَلِّمُهُ إلى مكروهه ، ولا يفرده في  
 حادث يَعْرُوه ، وكان من الأدب في منزلة تقتضي إسعافه ، ولا تورده من  
 تشفيعه في مورد قد عافه ، فكتب إليه ضارِعاً في رجلٍ من خواصه اختلط بامرأة  
 طَلَّقَهَا ، ثم تعلقها ، وخاطبه في ذلك بشعر ، فلم يسعفه ، وكتب إليه مُراجِعاً :

ألا أيها السيدُ المجتبي	ويا أيها الألميُّ العلمُ
أنتنيَ أبياتك المحكماتُ	بما قد حوت من بديع الحكمِ
ولم أرَ من قبلها مثلها	وقد نَفَثَتْ سحرها في الكلمِ
ولكنهُ الدينُ لا يُشْتَرَى	بنثرٍ ولا بنظامٍ نُظِمِ
وكيف أُبيحُ حِمِّيَ مانعاً	وكيف أحللتُ ما قد حرمِ
ألستُ أخافُ عقابَ الإلهِ	وناراً مَوْجِجَةً تضطرمِ
أأصرفُها طالقاً بَتَّةً	على أنوكِ قد طغى وأجترمِ
ولو أن ذلك الغوي <sup>٢</sup> الزري	تثبتَ في أمره ما ندمِ
ولكنهُ طاشَ مستعجلاً	فكانَ أحقَّ الوري بالندمِ

انتهى كلام الفتح الذي أردت جلبه هنا .

ولا خفاء أن هذه الحكاية مما يدخل في حكايات عدل قضاة الأندلس .  
 ومن نظم ابن أضحى المذكور ما كتب به إلى بعض من يعز عليه<sup>٣</sup> :

يا ساكن القلبِ رفقاً كم تُقَطِّعه	الله في منزلٍ قد ظلّ مشواكا
يُشِيدُ الناسَ للتحصينِ منزلهم	وأنتَ تهدمه بالعنفِ عيناكا
والله والله ما حُبِّي لفاحشةٍ	أعاذني الله من هذا وعافاكا

١ م : محتفلاً في عينه وفؤاده .

٢ م : الفبي .

٣ القلائد : ٢١٨ .

وله في مثل ذلك ١ :

روحي إليك فردّيه إلى جسدي  
بالله زوري كثيراً لا عزاء له  
لو تعلمين بما ألقاهُ يا أملي  
عليك مني سلامُ الله ما بقيتُ  
من لي على فقدته بالصبر والجلد  
وشرفيه ومثواه غداة غد  
بايعتني الودّ تُصفيه يداً بيد  
آثارُ عينيك في قلبي وفي كبدي

٦٦٤ - وإذا وصلت إلى هذا الموضع من كلام أهل الأندلس ، فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي هنّ اليدُ الطولى في البلاغة ، كي يُعلم أن البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم ، حتى في نسايتهم وصبيانهم .

١ - فمن النساء المشهورات بالأندلس : أم السعد بنت عصام الحميري ٢ ، من أهل قرطبة ، وتُعرف بسعدونة ، ولها رواية عن أبيها وجدّها وغيرهما ، كما حكاها ابن الأبار في ترجمتها من « التكملة » . وأنشدت لنفسها في تمثال نعل النبي صلى الله عليه وسلم تكملة لقول غيرها ما صورته ٣ :

سألتم التمثالَ إذ لمْ أجِدْ  
للم نعلِ المصطفى من سبيل  
لعلني أحظى بتقبيله  
في جنة الفردوسِ أسنى مقيل  
في ظلّ طوبى ساكناً آمناً  
أسقى بأكواسٍ من السلسيل  
وأمسحُ القلبَ به علهُ  
يسكنُ ما جاش به من غليل  
فظالما استشفى بأطلالِ مَنْ  
يهواه أهلُ الحبِّ في كل جيل

وأنشدني ابن جابر الوادي آشي عن شيخه المحدث أبي محمد ابن هرون

١ في مثل ذلك : سقطت من م .

٢ ترجمة أم السعد في التكملة ( رقم : ٢١٢٨ ) والذيل والتكملة ( آخر قسم الغرياه ) والسيوطي :

٢٦ ؛ وساق ابن عبد الملك نسبها وقال : توفيت بمالقة سنة أربعين وستمائة أو نحوها .

٣ يريد أن البيت الأول ليس من نظمها .

القرطبي لجدته سعدونة ، وأظنها هذه :

أخ الرجال من الأبا عيد والأقارب لا تقارب  
إن الأقارب كالعقا رب أو أشد من العقارب

هكذا نقله الخطيب ابن مرزوق ، ورأيت نسبة البيت لابن العميد ،  
فأله أعلم .

2 - ومنهن حسانة التميمية بنت أبي المخشّي الشاعر ٢ .

تأديت وتعلمت الشعر ، فلما مات أبوها كتبت إلى الحكم ، وهي  
إذذاك بكر لم تتزوج :

إنني إليك أبا العاصي موجعة      أبا المخشّي سفته الواكف الديم  
قد كنت أرتع في نعماه عاكفة      فاليوم آوي إلى نعماك يا حكم  
أنت الإمام الذي انقاد الأنام له      وملكته مقاليد النهى الأمم  
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفاً      آوي إليه ولا يعرفني العدم  
لا زلت بالعزة القعساء مرتدياً      حتى تذلل إليك العرب والعجم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنته ، وأمر لها بإجراء مرتب ، وكتب  
إلى عامله على البيرة فجهازها بجهاز حسن .  
ويحكى أنها وفدت على ابنه عبد الرحمن بشكية من عامله جابر بن لييد

١ انظر يتيمة الدهر ٣ : ١٨٣ - ١٨٤ حيث نسيهما لابن العميد .  
٢ ترجمة حسانة التميمية في الذيل والتكملة (آخر قسم الغرباء) وكتاب ذكر بلاد الأندلس (١٠٩) ،  
الرحمن وما أنشدته من شعر ؛ وأبو المخشّي والدها هو عاصم بن زيد أحد قدامى الشعراء بالأندلس  
وهو تميمي عبادي وقد قطع لسانه هشام بن عبد الرحمن الداخل (انظر المغرب ٢ : ١٢٣ والحنوة :  
٣٧٧ والبنية رقم : ١٥٤٣ وقد كتب في أصول النفع خطأ - أبو الحسين) .

وَأَلِي لِابْنِ بَيْرَةَ ، وَكَانَ الْحَكَمُ قَدْ وَقَعَ لَهَا بِحِطِّ يَدِهِ تَحْرِيرَ أَمْلَاكِهَا ، وَحَمَلَهَا فِي ذَلِكَ عَلَى الْبَرِّ وَالْإِكْرَامِ ، فَتَوَسَّلَتْ إِلَى جَابِرٍ بِحِطِّ الْحَكَمِ ، فَلَمْ يَفْدهَا ، فَدَخَلَتْ إِلَى الْإِمَامِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَأَقَامَتْ بِفِنَائِهِ ، وَتَلَطَّفَتْ مَعَ بَعْضِ نِسَائِهِ ، حَتَّى أَوْصَلَتْهَا إِلَيْهِ ، وَهُوَ فِي حَالِ طَرْبٍ وَسُرُورٍ ، فَانْتَسَبَتْ إِلَيْهِ ، فَعَرَفَهَا وَعَرَفَ أَبَاهَا ، ثُمَّ أَنْشَدَتْهُ :

إِلَى ذِي النَّدَى وَالْمَجْدِ سَارَتْ رِكَابِي      عَلَى شَحَطٍ تَصَلَّى بِنَارِ الْهَوَاجِرِ  
 لِيَجْبِرَ صَدْعِي إِنَّهُ خَيْرُ جَابِرِ      وَيَمْنَعُنِي مِنْ ذِي الظَّلَامَةِ جَابِرِ  
 فَإِنِّي وَأَيْتَامِي بِقَبْضَةِ كَفِّهِ      كَذِي رَيْشٍ أَصْحَى فِي مَخَالِبِ كَاسِرِ  
 جَدِيرٌ لِمَثَلِي أَنْ يَقَالَ مَرُوعَةٌ      لِمَوْتِ أَبِي الْعَاصِي الَّذِي كَانَ نَاصِرِي  
 سَقَاهُ الْحَيَا لَوْ كَانَ حَيًّا لَمَا اعْتَدَى      عَلَيَّ زَمَانٌ بَاطِشٌ بِطُشِّ قَادِرِ  
 أَيْمَحُو الَّذِي خَطَّهَ يَمْنَاهُ جَابِرٌ      لَقَدْ سَامَ بِالْأَمْلَاكِ إِحْدَى الْكِبَائِرِ

وَمَا فَرَعَتْ رَفَعَتْ إِلَيْهِ خَطَّ وَالِدِهِ ، وَحَكَتْ جَمِيعَ أَمْرِهَا ، فَفَرَّقَ لَهَا ، وَأَخَذَ خَطَّ أَبِيهِ فَقَبَّلَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ : تَعَدَّى ابْنُ لُبَيْدِ طَوْرَهُ ، حِينَ رَامَ نَقْضَ رَأْيِ الْحَكَمِ ، وَحَسِبْنَا أَنْ نَسْلُكَ سَبِيلَهُ بَعْدَهُ ، وَنَحْفِظَ بَعْدَ مَوْتِهِ عَهْدَهُ ، انْصَرَفِي يَا حَسَانَةَ فَقَدْ عَزَلْتَهُ لَكَ ، وَوَقَّعَ لَهَا بِمِثْلِ تَوْقِيعِ أَبِيهِ الْحَكَمِ ، فَقَبَّلَتْ يَدَهُ ، وَأَمَرَ لَهَا بِجَائِزَةٍ ، فَانْصَرَفَتْ وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ بِقَصِيدَةٍ مِنْهَا :

ابْنُ الْمَشَامِينِ خَيْرُ النَّاسِ مَأْتِرَةٌ      وَخَيْرُ مُنْتَجِعٍ يَوْمًا لِرَوَادِ  
 إِنْ هَزَّ يَوْمَ الْوَعْغَى أَثْنَاءَ صَعْدَتِهِ      رَوَى أَنَابِيئِهَا مِنْ صَرْفِ فِرْصَادِ  
 قَلُّ لِلْإِمَامِ أَيَا خَيْرِ الْوَرَى نَسْبًا      مِقَابِلًا بَيْنَ آبَاءِ وَأَجْدَادِ  
 جَوَدَتْ طَبْعِي وَلَمْ تَرْضَ الظَّلَامَةَ لِي      فَهَآكَ فَضْلَ ثَنَاءٍ رَائِحِ غَادِ  
 فَإِنْ أَقَمْتُ فِي نِعْمَاكَ عَاطِفَةٌ      وَإِنْ رَحَلْتُ فَقَدْ زَوَّدْتَنِي زَادِي



3 - ومنهن أم العلاء بنت يوسف الحجارية<sup>١</sup> .

ذكرها صاحب « المغرب » وقال : إنَّها من أهل المائة الخامسة ، ومن

شعرها :

كلُّ ما يصدرُ منكم حَسَنٌ      وبعلياًكم تحلَّى الزمنُ  
تعطفُ العينُ على منظركم      وبذكراكم تَلَدُّ الأذنُ  
من يعيشُ دونكمُ في عمره      فهو في نيلِ الأمانِ يُغَبِّنُ

وعَشِقَها رجلٌ أشيبُ ، فكتبت إليه :

الشيبُ لا يُخدَعُ فيه الصِّبا      بجِمةٍ فاسمَعُ إلى نُصحي  
فلا تكنِ أجهلَ من في الوري      بيتُ في الجهلِ كما يُضحي

ولها أيضاً :

افهمْ مطارِحَ أحوالي وما حكمتُ      به الشواهدُ واعذرني ولا تَلُمِ  
ولا تَكِلني إلى عُدُرِ أبيته      شرُّ المعاذيرِ ما يحتاجُ للكلمِ  
وكلَّ ما جئتُه من زلَّةٍ فيما      أصبحتُ في ثقةٍ من ذلك الكرمِ

والحجارية - بالراء المهملة - نسبة إلى وادي الحجارة .

4 - ومنهن أمةُ العزيز<sup>٢</sup> .

قال الحافظ أبو الخطاب ابنُ دحية في كتاب « المطرب من أشعار المغرب » :

أنشدتني أخت جدي الشريفة الفاضلة أمة العزيز الشريفة الحسينية لنفسها :

١ ترجمة أم العلاء الحجارية في المغرب ٢ : ٣٨ والسيوطي : ٢٢ وأشعارها في المصدر الثاني .  
٢ انظر المطرب : ٦ ، والبيتان ينسبان لغيرها ، ولم يقل ابن دحية إن البيتين لها وإنما قال « وأنشدتني » .  
وراجع السيوطي : ٢٤ .

لحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الحدود  
جرحٌ بجرحٍ فاجعلوا ذا بدا فما الذي أوجب جرح الصدود

قلت : هذا السؤال يحتاج إلى جواب ، وقد رأيت لبلدينا القاضي الإمام  
الفاضل أبي الفضل قاسم العقباني التلمساني رحمه الله تعالى جوابه ؛ والغالب أنه  
من نظمه ، وهو قوله :

أوجبّه مِنِّي يا سيدي جرحٌ بخد ليس فيه الجحود  
وأنت فيما قلتَه مُدّعٍ فأين ما قلتَ وأين الشهود  
انتهى .

5 - ومنهن أم الكرام بنت المعتصم بن صُماذح ملك المَرِيَّة<sup>١</sup> .

قال ابن سعيد في « المغرب » : كانت تنظم الشعر ، وعشقت الفتي المشهور  
بالجمال من دانية المعروف بالسمار ، وعملت فيه الموشحات ، ومن  
شعرها فيه :

يا معشرَ الناسِ ألا فاعجبوا ممّا جنته لوعةُ الحبِّ  
لولاه لم ينزلْ بيدرِ الدجى من أفقه العلويِّ للتربِ  
حسبي بمن أهواه ، لو أنّه فارقتي تابعه قلبي

6 - ومنهن الشاعرة الغسانية البجانية<sup>٢</sup> - بالنون - نسبة إلى بجانة ، وهي  
كورة عظيمة ، وتشتهر بإقليم المرية ، وهي من أهل المائة الرابعة ، فمن نظمها  
من أبيات :

١ أم الكرام ، وتكتب أحياناً « أم الكرم » الصادحية : ترجم لها في المغرب ٢ : ٢٠٢ والسيوطي : ٢٠ .

٢ ترجمة الغسانية في الجذوة : ٣٧٩ ( وبغية الملتبس رقم : ١٥٨٥ ) والصلة : ٦٥٧ والسيوطي : ١٠٧ وقد مدحت خيران العامري ، أي أدركت آخر الدولة الأموية وعهد الفتنة وأوائل حكم الطوائف .

عهدتُهُمُ والعيشُ في ظلِّ واصلهم  
أنيق وروض الوصل أخضر فينان  
ليالي سعدٍ لا يخافُ على الهوى عتابٌ ولا يُخشى على الوصل هجرانُ

7 - ومنهن العروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب .

سكنت بلنسية ، وكانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة ، لكنها فاقته في ذلك ، وبرعت في العروض ، وكانت تحفظ « الكامل » للمبرد و « النوادر » للقيلي وتشرحهما ، قال أبو داود سليمان بن نجاح : قرأت عليها الكتابين ، وأخذت عنها العروض ، وتوفيت بدانية بعد سيدها في حدود الخمسين والأربعمائة ، رحمها الله تعالى .

8 - ومنهن حفصة بنت الحاج الركونية<sup>١</sup> الشاعرة الأدبية المشهورة بالجمال ، والحسب والمال . ذكرها الملاحى في تاريخه ، وأنشد لها ممّا قالته في أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ارتجالاً بين يديه :

يا سيّدَ الناسِ يا مَنْ  
يؤمّلُ الناسُ رِفْدَهُ  
امننْ عليّ بطيرسٍ  
يكونُ للدهرِ عدّةً  
تخطّ يَمناكَ فيهِ :  
الحمدُ لله وحده

وأشارت بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين ، فإنها كانت أن يكتب السلطان بيده بخط غليظ في رأس المنشور « الحمد لله وحده » .

٦٦٥ - [ استطراد بقصتين ]

وتذكرتُ بذلك ، والشيء بالشيء يُذكر ، أنه لما قتل السلطانُ الناصر أمير

١ ترجمة حفصة الركونية في الإحاطة ١ : ٤٩٩ والمغرب ٢ : ١٣٨ والمغرب : ١٠ والسيوطي : ٤٠ والتحفة : ١٦٧ ومجمع الأدباء ١٠ : ٢١٩ .

المؤمنين ابن أمير المؤمنين يعقوب المنصور ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد  
المؤمن بن علي سلطان المغرب والأندلس من إفريقية سنة ثلاث وستمائة بعد فتح  
المهديّة هنأته الشعراء بذلك ، ثم اجتمع أبو عبد الله ابن مَرَج الكحل بالشعراء  
والكتاب ، فتذكروا الفتح وعظمه ، فأنشدهم ابن مرج الكحل في الوقت لنفسه :

ولما تَوَالَى الفتحُ من كلِّ جهةٍ ولم تبلغ الأوهامُ في الوصفِ حدّهُ  
تركنا أميرَ المؤمنين لشُكره بما أودع السرُّ الإلهيُّ عندهُ  
فلا نعمةٌ إلاّ تؤدّي حقوقها علامتهُ بالحمدِ لله وحدهُ  
فاستحسن الكتاب لهُ ذلك ، ووقع أحسن موقع .

وحكى صاحب كتاب «رُوح الشعر وروح الشجر» وهو الكاتب أبو  
عبد الله محمد بن الجلاب الفهري أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور لما قُتِلَ من  
غزوة الأراكة المشهورة ، وكانت يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة إحدى وتسعين  
 وخمسمائة ، ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه ، فلم يمكن لكثرتهم أن  
يشد كلُّ إنسان قصيدته ، بل كان يختصُّ منها بالإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة ،  
فدخل أحد الشعراء فأنشده :

ما أنتَ في أمراءِ الناسِ كلِّهمُ إلاّ كصاحبِ هذا الدِّينِ في الرُّسلِ  
أحييتَ بالسيفِ دينَ الهاشميِّ كما أحياهُ جدُّك عبدُ المؤمنِ بنُ علي

فأمر لهُ بألفي دينار ، ولم يصل أحداً غيره لكثرة الشعراء ، وأخذ بالمثل  
«منعُ الجميع ، أرضى للجميع» ، قال : وانتهت رِقَاعُ القصائد وغيرها إلى أن  
حالت بينه وبين مَنْ كان أمامه لكثرتها ، انتهى .

رجع إلى أخبار حفصة :

وأنشد لها أبو الخطاب في «المطرب» قولها :

ثنائي على تلك الثنايا لأنتي أقول على علم وأنطق عن خبر  
وأنصفها لا أكذبُ الله إنتي رشتُ بها ريقاً أرقاً من الخمرِ

وتولع بها السيدُ أبو سعيد ابن عبد المؤمن ملك غرناطة ، وتغير بسببها على  
أبي جعفر ابن سعيد ، حتى أدى تغيره عليه أن قتله ، وطلب أبو جعفر منها  
الاجتماع ، فمطلته قدر شهرين ، فكتب لها :

يا مَنْ أجانِبُ ذَكَرَاسِ مَه وَحَسْبِي عِلَامَةٌ  
مَا إِنْ أَرَى الْوَعْدَ يُقْضَى وَالْعَمْرُ أُخْشَى انْصِرَامَةٌ  
الْيَوْمَ أَرْجُوكَ لَا أَنْ تَكُونَ لِي فِي الْقِيَامَةِ  
لَوْ قَدْ بَصُرْتَ بِحَالِي وَاللَّيْلُ أَرْخَى ظِلَامَةٌ  
أَنُوحُ وَجِدًا وَشَوْقًا إِذ تَسْتَرِيحُ الْحَمَامَةٌ  
صَبٌّ أَطَالَ هَوَاهُ عَلَى الْحَبِيبِ غَرَامَةٌ  
لَمْ يَتَّبِعْهُ عَلَيْهِ وَلَا يَرُدُّ سَلَامَتَهُ  
إِنْ لَمْ تُنِيلِي أَرْيَحِي فَالْيَأْسُ يُثِي زَمَامَةٌ

فأجابته :

يَا مُدَّعِي فِي هَوَى الْحَسَنِ نِ وَالْغَرَامِ الْإِمَامَةُ  
أَتَى قَرِيضُكَ ، لَكِنْ لَمْ أَرْضَ مِنْهُ نِظَامَةٌ  
أَمْدَعِي الْحَبَّ يَتْنِي يَا سُّ الْحَبِيبِ زِمَامَةٌ ؟  
ضَلَلْتَ كُلَّ ضَلَالٍ وَلَمْ تُفِدِكَ الزَعَامَةُ  
مَا زِلْتَ تَصْحَبُ مَذَكَّةً تَ فِي السَّبَاقِ السَّلَامَةُ  
حَتَّى عَثَرْتَ وَأَخْجَلْتَ تَ بِافْتِضَاحِ السَّامَةِ  
بِاللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ يُبْذِي السَّحَابُ انْسِجَامَةٌ  
وَالزَّهْرُ فِي كُلِّ حِينٍ يَشُقُّ عَنْهُ كَمَامَةٌ

لو كنتَ تعرفُ عذري كفتَ غَرَبَ الملامه

ووجهت هذه الأبيات مع موصل أبياته ، بعدما لعنته وَسَبَّتَهُ ، وقالت له : لعن الله المرسل والمرسل ، فما في جميعكما خير ، ولا لي برؤيتكما حاجة ، وانصرف بغاية من الحزني ، ولما أطلَّ على أبي جعفر وهو في قلق لانظاره قال له : ما وراءك يا عصام ؟ قال : ما يكون وراء مَنْ وجهه خلف إلى فاعلة تاركة ، اقرأ الأبيات تعلم ، فلما قرأ الأبيات قال للرسول : ما أسخفَ عقلك وأجهلك ! إنها وعدتني للقبّة التي في جنّتي المعروفة بالكمامة ، سر بنا ، فبادروا للكمامة ، فما كان إلا قليلاً ، وإذا بها قد وصلت ، وأراد عتّبها ، فأنشدت :

دعي عدّ الذنوب إذا التقينا تعالي لا نعدُّ ولا تعدُّني

وجلسا على أحسن حالة ، وإذا برقعة الكتندي الشاعر لأبي جعفر ، وفيها :

أبا جعفر يا ابن الكرام الأماجدِ خَلَوْتُ بِمَنْ تَهَوَّاهُ رَغْمًا لِحَاسِدِ  
فهل لك في خيل قنُوعٍ مهذبٍ كتومٍ عليمٍ باختفاء المراصدِ  
بيتٌ إذا يخلو المحبُّ بحبه ممتعٌ لذاتٍ بخمسٍ ولائدِ

فقرأها على حفصة ، فقالت : لعنه الله ، قد سمعنا بالوارش على الطعام والواغل على الشراب ، ولم نسمع اسماً لمن يعلم باجتماع محبّين فيروم الدخول عليهما ، فقال لها : بالله سميه لنكتب له بذلك ، فقالت : أسميه الحائل ، لأنّه يحوّل بيني وبينك إن وقعت عيني عليه ، فكتب له في ظهر رقعته :

يا مَنْ إذا ما أتاني جعلتُهُ نصبَ عيني  
تراكَ تَرْضَى جلوساً بينَ الحبيبِ وبينِي ؟  
إنْ كانَ ذاكَ فماذا تبغي سوى قُربِ حَيّتي

والآن قد حَصَلَتْ لي      بعدَ المَطالِ بديتي  
 فإن أتيَتْ فدَفَعاً      منها بِكِلْتَا اليدينِ  
 أو ليسَ تبغي وحاشا      لك أن تُرَى طيرَ بينِ  
 وفي مَبيتكِ بالحم      سِ كُلُّ قبحٍ وشينِ  
 فليسَ حَقِّكَ إلا ال      خلَوَ بالقَمَرينِ

وكتب له تحت ذلك ما كان منها من الكلام ، وذيل ذلك بقوله :

سَمَّاكَ من أهواهُ حائلٌ      إن كنتَ بعد العتبِ واصلٌ  
 مع أنَّ لونسكَ مزعجٌ      لو كنت تُحبسُ بالسلاسلُ

فلما رجع إليه الرسول وجده قد وقع بمطمورة نجاسة ، وصار هتكة ،  
 فلما قرأ الأبيات قال للرسول : أعلمهما بحالي ، فرجع الرسول ، وأخبرهما  
 بذلك ، فكاد أن يُغشى عليهما من الضحك ، وكتب إليه كل واحد بيتاً ،  
 وابتدأ أبو جعفر فقال :

قُلْ للذي خَلَصْنَا      منهُ الوقوعُ في الخرا  
 ارجعْ كما شاء الخرا      يا ابن الخرا إلى ورَا  
 وإن تَعُدُّ يوماً إلى      وصالنا سوف تری  
 يا أسقَطَ الناسِ ويا      أنظم بلا مِرا  
 هذا مدى الدهرِ تُلا      قي لو أتيَتْ في الكرى  
 يا لحيَةً تشغفُ في ال      خراء وتَشْنَا العنبرا  
 لا قَرَبَ الله اجتما      عاً بكَ حتى تُقبِرا

ومن شعرها :

سلامٌ يفتَحُ في زهرهِ ال      كمامَ وَيُنطِقُ ورقَ الغصونِ

١ سقط البيت من م .

على نازح قد ثَوَى في الحشا  
فلا تحسبوا البُعدَ يُنسيكم<sup>١</sup>  
وإن كان تحرم منه الجفون<sup>٢</sup>  
فذلك والله ما لا يكون<sup>٣</sup>

وقولها من أبيات :

ولو لم يكن نجماً لما كان ناظري  
سلام<sup>٤</sup> على تلك المحاسن من شج<sup>٥</sup>  
وقد غبتُ عنه مُظلماً بعد نوره  
تناوت بنعماه وطيب سروره

وقولها :

سلوا البارق الخفاق والليل ساكن<sup>٦</sup>  
لعمري لقد أهدى لقلبي خفقة<sup>٧</sup>  
أظلُّ بأحبابي يذكّرني وهنأ<sup>٨</sup>  
وأمطرنني مُنهل<sup>٩</sup> عارضه الجفنا

ونسب بعض إليها البيتين الشهيرين<sup>١٠</sup> :

أغارُ عليك من عيّي رقيبي  
ولو أنّي خبأتك في عيوني  
ومنك ومن زمانك والمكان  
إلى يوم القيامة ما كفاني  
والله تعالى أعلم .

وكتبت إلى أبي جعفر :

رأست فما زال العُدّة بظلمهم<sup>١١</sup>  
وهل منكر أن ساد أهل زمانه  
وعلمهم النامي يقولون ما<sup>١٢</sup> رأس  
جموح إلى العليا حرّون عن الدنس

وقال ابن دحية : حفصة من أشرف غرناطة ، رخيمة الشعر ،  
رقيقة النظم والنثر ، انتهى .

١ ق : المبد ينساكم .

٢ م : وما ينسب إليها .

٣ م : لم ؛ ق : لي .



ومن قولها في السيد أبي سعيد ملك غرناطة تهنئه بيوم عيد ، وكتبت  
بذلك إليه :

يا ذا العلاء وابن الخلية      فمة والإمام المرتضى  
يهنيك عيدٌ قد جرى      فيه بما تهوى القضا  
وأناك من تهواه في      قيد الإنابة والرضى  
ليعيد من لذاته      ما قد تصرم وانقضى

وذكر الملاحى في تاريخه أنها سألتها امرأة من أعيان أهل غرناطة أن تكتب  
لها شيئاً بخطها ، فكتبت إليها :

ياربة الحسن ، بل ياربة الكرم      غضى جفونك عما خطه قلبي  
تصفحيه بلحظ الودّ منعمة      لا تحفلي برديء الخط والكلم

واتفق أن بات أبو جعفر ابن سعيد معها في بستان بحور مؤمل ، على ما  
بييت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم ، فلما حان  
الانفصال ، قال أبو جعفر وكان يهواها كما سبق :

رعى الله ليلاً لم يرخّ بمذمم      عشية واراننا بحور مؤمل  
وقد خفقت من نحو نجد أريجة      إذا نفحت هبت برياً القرنفل  
وغرد قمري على الدوح وانثى      قضيب من الريحان من فوق جدول  
يرى الروض مسروراً بما قد بدا له :      عناق وضم وارتشاف مقبل

وكتب بها إليها بعد الافتراق ، لتجيبه على عاداتها في مثل ذلك ، فكتبت  
إليه بقولها :

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا      ولكنّه أبدى لنا الغلّ والحسد  
ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا      ولا غرد القمرى إلا لما وجد

فلا تحسن الظن الذي أنت أهله      فما هو في كل المواطن بالرشد  
فما خلعت هذا الأفق أبدى نجومه      لأمر سوى كيما تكون لنا رصد

وقال ابن سعيد في «الطالع السعيد» : كتبت حفصة الركونية إلى بعض أصحابها :

أزورك أم تزور فإن قلبي      إلى ما تشتهي أبدأ بميل  
فشغري مورد عذب زلال      وفرع ذواتي ظل ظليل  
وقد أملت أن تظما وتضحى      إذا وافى إليك بي المقيبل  
فعجل بالحواب فما جميل      إباؤك عن بثينة يا جميل

٦٦٦ - [سلمى بنت القراطيسي]

قال التجاني : تشبه أبيات حفصة هذه أبيات أنشدها ابن أبي الحصين في تاريخه لسلمى بنت القراطيسي من أهل بغداد ، وكانت مشهورة بالجمال ، وهي :

عيون مہا الصريم فداء عيني      وأجبادُ الطباء فداء جيدي  
أزینُ بالعقود وإن نحري      لأزینُ للعقود من العقود  
ولا أشكو من الأوصاب ثقلاً      وتشكو قامتي ثقل النهود

وبلغت هذه الأبيات المقتضي أمير المؤمنين فقال : اسألوا هل تصدق صفتها قولها ؟ فقالوا : ما يكون أجمل منها ، فقال : اسألوا عن عفافها ، فقالوا له : هي أعف الناس ، فأرسل إليها مالا جزيلا ، وقال : تستعين به على صيانة جمالها ، وروثق بهجتها ، انتهى .

رجع إلى حفصة :

وقال أبو جعفر ابن سعيد : أقسم ما رأيت ولا سمعت بمثل حفصة ، ومن

بعض ما أجعله دليلاً على تصديق عزمي ، وبر قسمي ، أنتي كنت يوماً في منزلي مع من يجب أن يخلى معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام ، فلم نشعر إلا بالباب يُضرب ، فخرجت جارية تنظر من الضارب ، فوجدت امرأة ، فقالت لها : ما تريدن ؟ فقالت : ادفعي لسيدك هذه الرقعة ، فجاءت برقعة فيها :

زائرٌ قد أتى بجيدِ الغزالِ      مُطَّلِعٌ تحتَ جنحهِ للهِلالِ  
بلحاظٍ من سحرِ بابلٍ صيغَتْ      ورُضابٍ يفوقُ بنتَ الدَّواليِ  
يفضحُ الوردَ ما حوى منه خدٌ      وكذا الثغرُ فاضحٌ للآليِ  
ما ترى في دخولهِ بعدَ إذنٍ      أو تراه لعارضٍ في انفصالِ

قال : فعلمتُ أنّها حفصة ، وقمت مبادراً للباب ، وقابلتها بما يقابل به من يشفع له حُسْنُهُ وآدابه والغرام به ، وتفضُّله بالزيارة دون طلب في وقت الرغبة في الأنس به ، انتهى .

٦٦٧ - [ أبو جعفر ابن سعيد ]

قلت : وإذا قد جرى ذكر أبي جعفر ابن سعيد سابق الحلبه فلنلم ببعض أحواله فنقول<sup>١</sup> : هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، قال قريبه أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد في « المغرب » : سمعت أبي يقول : لا أعلم في بني سعيد أشعر منه ، بل لا أعلم في بلده ، وعشق حفصة شاعرة الأندلس ، وكانا يتجاوبان تجاوب الحمام ، ولما استبد والده بأمر القلعة حين ثار أهل الأندلس بسبب صولة بني عبد المؤمن على المثلثين اتخذه وزيراً ، واستنابه في

١ ترجمة أبي جعفر ابن سعيد في الإحاطة ١ : ٩٤ والمغرب ٢ : ١٦٤ والمسالك ١١ : ٢٧٩ وما أورده المقرئ يعد أكثر شيء إسهاباً في أخباره .

أموره ، فلم يصبر على ذلك ، واستعفى فلم يُعْفِه ، وقال : أفي مثل هذا الوقت الشديد تركن إلى الراحة ؟ فكتب إليه :

مولايَ في أيِّ وقتٍ	أنالُ في العيشِ راحه°
إن لم أنلها وعمري	ما إن أنارَ صباحه°
وللملاح عيون°	تميلُ نحوَ الملاحه°
وكأسُ راحيَ ما إن	تملُّ مني راحه°
والخطبُ عنِّي أعمى	لم يقترُبْ لي ساحة°
وأنتَ دوني سور°	من العُلا والرجاحه°
فأعفني وأقلني	مما رأيتَ صلاحه°
ما في الوزارة حظ°	لمن يريدُ ارتياحه°
كلُّ وقالٌ وقيل°	ممن يطيلُ نباحه°
أنسي أني مستغيثاً	فاتركُ فُديتَ سراحه°

فلما قرأ الأبيات قال : لا ينفع الله بما لا يكون مركباً في الطبع ماثلة له النفس ، ثم وقّع على ظهر ورقته : قد تركنا سراح أنسك ، وألحقنا يومك بأمسك . ولما رجع ثوار الأندلس إلى عبد المؤمن وبايعه عبدُ الملك بن سعيد فغمره إحساناً وبراً ، وولي السيد أبو سعيد ابن عبد المؤمن غرناطة طلب كاتباً من أهلها ، فوصف له فضل أبي جعفر وحسبه وأدبه ، فاستكتبه ، فطلب أن يعفيه ، فأبى إلى أن شرب أبو جعفر يوماً مع خواصه ، وخرج ثاني يوم إلى الصيد وكان اليوم ذا غيم وبرد ، ولما اشتد البرد مالوا إلى خيمة ناطور ، وجعلوا يصطلون ويشربون على ما اصطادوا ، فحمل أبا جعفر بقية السكر على أن قال يصف يومه ، ويستطرد بما في نفسه :

ويومٍ تجلّى الأفقُ فيه بعنبرٍ	من الغيم لُدنا فيه باللهو والقنص°
وقد بقيتُ فينا من الأمسِ فضلة°	من السكر تُغرينا بمنتهب الفرص°

ركبنا له صباحاً وليلاً وبعضنا  
 وشهب بزاة قد رجمنا بشهبها  
 وعن شفق تغري الصباح أو الدجى  
 وملنا وقد نلنا من الصيد سؤلنا  
 بخيمة ناطورٍ توسطَ عذبها  
 أدرنا علىه مثله ذهيبه  
 فقل لحريص أن يراني مقيسداً  
 وما كنت إلا طوعَ نفسي فهل أرى  
 أصيلاً وكلُّ إن شدا جلجل رقص  
 طيوراً يساغُ اللهُ إن شكت الغصص  
 إذا أوثقت ما قد تحرك أو قمص  
 على قنص اللذات والبرد قد قرص  
 جعيم به من كان عذب قد خلص  
 دعتهُ إلى الكبرى فلم يجب الرخص  
 بخدمته لا يجعل الباز في القفص  
 مطيعاً لمن عن شأو فخري قد نقص

فكان في أصحابه من حفظ هذين البيتين ، ووشى بهما للسيد ، فعزله أسوأ  
 عزل ، ثم بلغه بعد ذلك أنه قال لحفصة الشاعرة : ما تحيين في ذلك الأسود وأنا  
 أقدر أن أشترى لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه<sup>١</sup> ؟ وكان لونه مائلاً إلى  
 السواد ، فأسرّها في نفسه إلى أن فرَّ عبدُ الرحمن بن عبد الملك بن سعيد إلى ملك  
 شرق الأندلس محمد بن مردنيش ، فوجد له بذلك سبباً ، فقتله صبراً بمالقة .  
 وكان عبد الملك بن سعيد يذكر ابنه أبا جعفر لعبد المؤمن ، وينشده من  
 شعره رغبة في تشريفه بالحضور بين يديه وإنشاده في مجلسه ، فأمره بحضوره ،  
 فعندما دخل عليه قبلَ يده وأنشد قصيدة منها قوله :

عليك أحالتي داعي النجاح  
 وكنت كساهرٍ ليلاً طويلاً  
 وترنح حين بشرّ بالصباح  
 شكاً ظمأً فدلّ على القراح  
 وذو جهلٍ تغلغل في قفاري  
 ويذكر للرياض شدا الرياح  
 دعانا نحو وجهك طيب ذكرٍ

١ دوزي : أحسن منه .

٢ ق م والمغرب : هادي .

وله في غلام أسود ساق ، ارتجالاً :

أدارَ علينا الكأسَ ظبيَّ مهفَفٌ      غدا نَشْرهُ واللونُ للعنبرِ الشحري  
وزادَ لنا حُسناً بزهرِ كؤوسِهِ      وحسنُ ظلامِ الليلِ بالأنجمِ الزُّهرِ

وقوله فيه وقد لبس أبيض :

وغصنٍ من الآبنوس ارتدى      بعاجٍ كليلٍ علاه فلقٌ  
يُحاكي لنا الكأسَ في كفه      صباحٌ بيجحٍ علاه شفقٌ

وقوله ممّا كتب به إلى أخيه محمد وقد ورد منه كتاب بإنعام :

وافي كتابك يُنبي      عن سابغِ الإنعامِ  
فقلتُ درٌّ ودرٌّ      من زاخِرِ وغمامِ

وقوله يذم حماماً :

يا رَبَّ حمامٍ لعنّا بما      أبدى إلينا كلَّ حمامِ  
أفقٌ له قطرٌ حميمٌ كما      أصمتُ سهامٌ من يدي رامي  
يخرقُ سَجَباً للدخانِ الذي      لاحَ لغيمِ العارضِ الهامي  
وقيمٌ يجذبُني جَدْبَةً      وتسارةٌ يكسرُ إبهامي  
ويجمعُ الأوساخَ من لؤمه      في عضدي قصداً لإعلامي  
وازدحمَ الأندالُ فيه وقد      ضجوا ضجيجاً دون إفهامِ  
وجملةُ الأمرِ دخلنا بني      سامٍ وعدنا كيني حامِ

وله في ضد ذلك ، والنصف الأخير لابن بقي :

لا أنسَ ما عشتُ حماماً ظفرتُ به      وكان عندي أحلى من جتى الظفَرِ  
نَعَمْتُ جِسمي في ضدّين مغتتماً      «تَنعَمُ الغُصنُ بينَ الشمسِ والمطرِ»

وقال له السيد أبو سعيد ابن عبد المؤمن صاحب غرناطة : ما أنت إلا حسنُ  
الفراسة وافر العقل ، فقال :

نسبتم لمن هذَّبْتُمُوهُ فِرَاسَةً      وعقلاً ولولاكم لَلَّازَمَهُ الجَهْلُ  
وما هوَ أَهْلٌ لِلثَّنَاءِ وَإِنَّمَا      علاكم لتقليد الأيادي له أَهْلُ  
وما أَنَا إِلا مِنكُمْ وَإِلَيْكُمْ      وما في من خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَصْلُ

وقال :

ولمَّا رَأَيْتُ السَّعْدَ فِي صَفْحِ وَجْهِهِ      منيراً دعاني ما رأيتُ إلى الشكرِ  
وأقبلَ يُبْدي لي غرائبَ نَطْقِهِ      وما كنتُ أدري قبله مترعَ السحرِ  
فأصغيتُ لإصغاءِ الحديدِ إلى الحَيَا      وكان ثنائي كالرياضِ على القَطْرِ  
وله :

لا تُكثِرَنَّ عِتَابِي      إن طالَ عَنكَ فِرَاقِي  
فما يضرُّ بعادي      يطولُ والودُّ باقي

وله :

ما خدمناكمُ لأن تشفعوا في      لنا بدارِ الجزاءِ يومَ الحسابِ  
ذاكَ يومٌ أَنَا وَأَنْتَ سَوَاء      فيه ، كلُّ يُخَافُ سِوَى العِقَابِ  
إنَّمَا الشَّانُ الذَّبُّ فِي هذِهِ الدُّنَى      يا بسلطانكم عن الأصحابِ  
وإذا ما خدلتهموهمُ بِشَكْوَى      وبخلمِ عنهمُ بَرْدَ الجِوَابِ  
فاعدروهم أن يطلبوا مِن سِوَاكُمْ      نصرةً وارفعوا حِجَالَ العِتَابِ  
وإذا أرضُ مُجْدِبٍ لَفَظَتَهُ      فَلَهُ العِذْرُ فِي اتِّبَاعِ السَّحَابِ

وله وقد تقدّم أمامه في ليلة مظلمة أحدُ أصحابه ، فظفء السراج في يده ،  
فقال لوقته :

لي من جينك هادي  
فما أريدُ سراجاً  
أنتى وكفكُ سَحْبُ  
في الليلِ نحو مُرادِي  
يدلّني لرشادِ  
يَبْدُو بها ذا اتقادِ

ولهُ في قوادة :

قوادةٌ تَفَخَّرُ بالعارِ  
ولا جةٌ في كلِّ دارٍ وما  
ظريفةٌ مقبولةٌ الملتقى  
لحافها لا ينطوي دائماً  
قدريبتُ مذ عرفتُ نفعها  
جاهلةٌ حيثُ ثوى مسجدُ  
بسامةٌ مكثرةٌ بـيرها  
علمُ الرياضاتِ حوتهُ وسا  
متاعةٌ للنعلِ من كيسها  
تكادُ من لطفِ أحاديثها  
أقودُ من ليلِ على سارِ  
يدري بها من حدقها داري  
خفيفةُ الوطاء على الجارِ  
أقلقُ من رايةِ بيطارِ  
ما بينَ فتاكِ وشطّارِ  
عارفةٌ حانةِ خمّارِ  
ذاتُ فكاهاتٍ وأخبارِ  
ستهُ بتقويمِ وأسحارِ  
موسرةٌ في حالِ إعسارِ  
تجمعُ بينَ الماءِ والنّارِ

وما سمعنا في هذا الباب أحسن من هذا ، والبيت السائر :

تقودُ ، من السياسةِ ، ألف بغلٍ إذا حرنت ، بجيظِ العنكبوتِ  
وشربَ ليلةً مع أصحابِ له وفيهم وسيم ، فأعرض بجانبه وقطب ،  
فتكدر المجلس ، فقال أبو جعفر :

يا من نأى عنّا إلى جانبِ  
لا تزوِ عنّا وجهكَ المجتلى  
إن دام هذا الحالُ ما بيننا  
صدّاً كميلِ الشمسِ عند الغروبِ  
فالشمسُ لا يُعْهَدُ منها قُطوبُ  
فإننا عمّا قريبٍ نتوبُ



ما نشتكى الدهرَ ولا خطبتهُ  
لولاك ما دارت علينا خطوبُ  
وله أيضاً :

أيا لائمي في حملِ صحبةِ جاهلٍ  
لمنفعةٍ تُرجى لديهِ صحبتهُ  
كما احتمل الإنسانُ شربَ مرارةِ الـ  
وله ، وقد أحسن ما شاء :

تركتكمُ لا كارهاً في جنابكمُ  
وطاحتُ بي الأطماعُ في كلِّ وجهةٍ  
وما باختيارٍ فارقَ الخلدَ آدمُ  
ولكنها الأيامُ ليستَ مقيمةً  
وإنك إن فكّرتَ فيما أتيتهُ  
ولكن بلحاجٍ في النفوس إذا انقضى  
وإني لمنسوبٌ إليكم وإن نأتُ  
وإني لمُثنٍ بالذي نلتُ منكمُ  
وإن خُنتكم يوماً فعْزاني المني  
على أنتي أقررتُ أني مذنبُ  
وله يصف ناراً :

نظرتُ إلى نارٍ تصولُ على الدجى  
تُرفَعها أيدي الرياحِ ، وتارةٌ  
وإلا فمَنْ لا يملكُ الصبرَ قلبه  
لها ألسُنٌ تشكو بها ما أصابها  
إذا ما حسبناها تدانتُ تبعدُ  
تخفَضُها مثلَ المكبرِ يسجدُ  
يقومُ به غيظٌ هناكُ ويقعدُ  
وقد جعلتُ من شدةِ القرّ ترُعدُ

وله على لسان إنسان أخلقت بُردتُه :

مولاي هذي بُردتي أخلقتُ وليسَ شيءٌ دونها أملكُ  
وصرتُ من بأسٍ ومن فاقةٍ أبكي إذا أبصرتها تضحكُ

وله يستدعي أحد أبناء الرؤساء إلى يوم اجتماع :

تداركنا فإننا في سرورٍ وما بسواك يكتملُ السرورُ  
أهْلَةٌ أنسينا بكَ في تمامٍ أليسَ تمُّ بالشمسِ البدورُ

وله ، وقد خطر على منزله من إليه له مئيل ، وقال : لولا أخاف التثقيب  
لدخلت ، وانصرف ، فلما أعلم أبو جعفر كتب إليه :

مولاي لِمَ تقصدُ تعذيبَ مَنْ : يهوى وما قصدك مجهولُ  
طلبتَ تخفيفاً ببعدي وفي تخفيفٍ مَنْ تهوَاهُ تثقيبُ  
غيرك إن زارَ جئى ضجيرةٌ ولجَّ منه القالُ والقبيلُ  
وأنتَ إن زرتَ حياةً وما الـ عيشُ إذا ما طالَ مملولُ<sup>١</sup>

وله ، وقد جلس إلى جانبه رجل تكلم فأنبا عن علو قدر ، فسأله عن بلده ،  
فقال : إشبيلية ، ففكر ثم قال :

يا سيداً لم أكن من قبلُ أعرفهُ حتى تكلمَ مثلَ الروضِ بالعَبقِ  
وزادني أن غدا في حمصَ منشوهُ لقد تشاكلَ بينَ البدنِ والأفقِ

وله وقد حضر مجلساً مع إخوان له في انبساط ومزاح ، فدخل عليهم أحدُ  
ظرفاء الغرباء<sup>٢</sup> بوجه طلق وبشاشة ، فاهتز لما سمع بينهم ، وجعل يصل ما

١ دوزي : مملول .

٢ م : أحد الغرباء .

يحتاج من مزاحهم إلى صلة بأحسن متزح وأنبيل مقصد ، فأنشده أبو جعفر ارنجالاً :

يا سيِّداً قد ضمته مجلسٌ حلَّ به للمزح إخوانُ  
لم نلقَ من فجأته خجلةٌ ولا ثناناً عنه كتمانُ  
كانه من جمعنا واحدٌ لم ينبُ منّا عنه إنسانُ  
ولم نكن ندرية لكن بدا في وجهه للظرف عنوانُ

وله وقد لقي أحد إخوانه وكان قد أطال الغيبة عنه ، فدار بينهما ما أوجب أن قال :

إن لُحِتَ لم تلمح سواك الأعينُ أو غبتَ لم تذكر سواك الألسنُ  
أنت الذي ما إن يملَّ حضوره ومغيبه السلوانُ عنه يؤمنُ  
وله وهو من آياته :

إنِّي لأحمدُ طيفها وأومئها والفرقُ بينهما لديَّ كبيرُ  
هي إن بدت لي شيبةٌ في جفوةٍ والطيْفُ في حين المشيب يزورُ  
وإذا توالى صدُّها أو بينها وافي على أن المزارَ عسيرُ

وله وقد سافر بعض الأراذل بماله ، فنكب في سفره ، وعاد فقيراً بأسولاً أحواله :

اغدُ ولا يُغنِ عنك القيلُ والقيلُ فالجودُ مبتسمٌ والفضلُ يختالُ  
قالوا فلانُ رماه اللهُ في سفرٍ رآه رأياً بما حالت به الحالُ  
فآب منه سلباً مثل مولده عليه ذلٌّ وتفجيعٌ وإقلالُ  
فقلت لا خففَ الرحمنُ عنه ، فلم يكن لديه على القصادِ إقبالُ  
فقل له : دام في ذلٍّ ومسغبةٍ ولا أعيدت له في المالِ آمالُ

قد كان حُمُقُكَ حَسَنُ المَالِ يَسْتَرُهُ ۚ فاليومَ أَصْبَحْتَ لا عَقْلُ ولا مالُ  
وله وقد سافر أحد الرؤساء من أصحابه :

أيا غائباً لم يَغِيبْ ذَكَرُهُ ۚ ولا حالَ عن ودّه حائلُ  
لئن مال دهرِي بي عنكم ۚ فقلبي نَحَوَكُمْ مائلُ  
فإنِّي شَهِدْتُ مِنْكُمْ عُلّاً ۚ من العجز قَسُّ بها باقلُ  
لئن طال بي البعدُ عن لحظكم ۚ فَمَا في حَيَاتِي إِذَنْ طائلُ

وله وهو من حسناته :

شُقَّتْ جُيُوبٌ فرحاً عندما ۚ آبَتْ ، وفي البعد تُشَقُّ القُلُوبُ  
فَقُلْتُ هذا موقفٌ ما يَشَقُّ الـ ۚ جِيبَ فِيهِ غيرُ صبِّ طروبُ  
فابتسمتُ زهواً وَقَالَتْ كَذَا الـ ۚ أَفْقُ لِعَوْدِ الشَّمْسِ شَقَّ الجُيُوبُ

وله وقد أجمع<sup>١</sup> رأيه على أن يَفِدَ على أمير المؤمنين عبد المؤمن ، فأخذ في ذلك مع أصحاب له ، فجعلوا يَشْنُونُه عن ذلك ، وظهر عليهم الحسد له ، فقال :

سر نحو ما تختارُ لا تَسْمَعَنَّ ۚ ما قاله زِيدٌ ولا عمروُ  
كلُّهُمْ يُحْمَدُ ما رُمَتْهُ ۚ مهما يساعِدُ رأيتك الدهرُ  
عجبتُ ممَّنْ رامَ صدرَ العُلا ۚ يرومُ أن يصفو له دهرُ

فقالوا له : اتهمتنا في الود ، فقال : لو لم أتهمكم كنت أتهم عقلي ، والعياذ بالله تعالى من ذلك ، وكيف لا أتهمكم وقد غدوتم تشنوني عن زيارة خليفة لوالدي عنده مكان<sup>٢</sup> ، وله علينا إحسان ، ولي شافعٌ عنده مقرب لمجلسه عقلي ولساني ، ولكنني أنا المخطيء الذي عدلت عن العمل بقول القائل<sup>٢</sup> :

١ دوزي : اجتمع .

٢ هو سعد بن ناشب (الحماسية : ١٠ من المرزوقي) .

ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً

وله في شعاع القمر والشمس على النهر :

ألا حبذا نهر إذا ما لحظته  
ترى القمرين الدهر قد عنيا به  
أبى أن يرد اللحظ عن حسنه الأنس  
يفضضه بدر وتذهب شمس

وله في والده وقد سنّ عليه درعاً :

أيا قائد الأبطال في كلّ وجهة  
لقد قلت لما أن رأيتك دارعاً  
تطير قلوب الأسد فيها من الذعر  
وأنشدت والأبطال حولك هالة  
أيا حسن ما لاح الحباب على البحر  
أيا حسن ما دار النجوم على البدر

وقوله وقد بلغه أن حاسداً شكره :

متى سمعت ثناء  
فكان منك الخداع  
عمن غدا لك حاسد  
بصدره منك نار  
به فرأيتك فاسد  
وعله لك ما زد  
لهيها غير خامد  
وانما ذاك منه  
ت في السعادة زائد  
كالحب في فسخ صائد

وله :

أبصره من يلوم فيه  
أما ترى ما دهيته منه  
فقال ذا في الجمال فائق  
كان عدولاً فصارعاشق

وله في أبيه وقد سجنه عبد المؤمن :

مولاي إن يجسك خير خليفة  
فالجنس يجس نوره من غبطة  
فيذاك فخرك واعتلاء الشان  
والمرهقات تصان في الأجفان

فابشرُ فترعُ الدُرَّ من أصدافه      يُعليه للأسلاكِ والتيجانِ  
ولئن غدا منَ ظِلِّ دونك مطلقاً      إنَّ القذى مُلقَى عن الأجنانِ  
والعينَ تحبسُ دائماً أجنانها      وهدايةَ الإنسانِ بالإنسانِ  
والطرسُ يحتمُّ ما حواه نفاسةً      ويهانُ ما يبلو من العنوانِ  
فاهناً به لكنّ ملياً مكثهُ      سجناً لغيرِ مذلةٍ وهوانِ  
فلتعلونَ رغمَ الأعادي بعده      بلدى الخليفةِ في ذرى كيوانِ

مولاي غيرك يُعزّي بما لم يزل يجري على الكرام ، ويُدكّر تأنيساً له في  
الوحشة بما يطراً من الكسوف والخسوف على الشمس المنيرة والبلر التمام :

وَأَنْتَ تَعَلَّمُ النَّاسَ التَّعْزِيَّ      وَخَوْضَ الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ السَّجَالِ

وقد كان مولاي أنشدني لعلي بن الجهم قائلاً : إن أحداً لم يُسلِّ نفسه  
عمّا ناله من السجن بمثله ٢ :

قالوا سُجنتَ فقلتُ ليس بضائرٍ سجنِي      وأيُّ مهنّدٍ لا يُغمدُ ؟

الآبيات ، ماذا تفيدك من العلم وصدرك ينبوعه ، وبخاطرك لا يزال غروبه  
وظلوعه ، وإنما هي عادة تبناها أديباً ، وقضينا بها ما في النفس من الإعلام  
بالتوجع والتضجع أرباً ، ولعل الله تعالى يتبع هذه التسلية بتهنئة ، ويعقب بالنعمة  
هذه المرزئة . قال : فأمر الملك بتسريحه إثر ذلك ، فلما اجتمع وجهه بوجهه  
جعل يحمد الله تعالى جهراً ويفرد بهذه الآبيات ، وكان سراحه بكرة :

طَلَعَتْ عَلَيْنَا كَالغَزَالَةِ بِالضَّحَى      وَعَزَكَ طَمَاحٌ وَوَجْهَكَ مُشْرِقٌ

١ البيت المتنبي من قصيدته في رثاء أم سيف الدولة .

٢ انظر ديوان ابن الجهم : ٤١ .

فَقَضَّرَا لِدُنْبِ الدَّهْرِ أَجْمَعَ إِنَّهُ      أَتَى الْيَوْمَ مِنْ حَسَنَاهُ مَا هُوَ أَلْيَقُ  
فَلَحُخٌ فِي سَمَاءِ الْعَزِّ بِالسَّعْدِ طَالِعاً      وَقَدْرَكَ سَامٌ أَفْقُهُ لَيْسَ يُلْحَقُ  
فَقَدْ سَرَحَتْ لَمَّا غَلَوَتْ مُسْرَحاً      قُلُوبٌ وَأَفْكَارٌ وَسَمْعٌ وَمَنْطِقُ

فاهتز أبوه من شدة الطرب ، وقال له : والله إنك لتملأ الدلو إلى عَقْدِ  
الكَرْبِ .

وله يعتذر ، وقد دعي إلى مجلس أنس : سيدي ساعدك سولك ، لَمَّا وصل  
إلى أخيك المعتد بك رسولك ، قابله بما يجب من القبول ، وأبدى له من الشغل  
ما منع من الوصول :

ومن ذا الذي يُدعى لِعَدْنٍ فَلَائِيْرِي      على الرأس إجلالاً لِيَهَا يُبَادِرُ

ولكن الاضطرار ، لا يكون معه اختيار ، وإنتي لأشوق الناس إلى مشاهدة  
تلك المكارم ، وأحبهم في محاضرة تلك الآداب المترادفة ترادف الغنائم ، ولكن  
شغلي عارض قاطع ، وبرغمي أنتي لدعوتك عاصٍ وله طائع ، وإنتي بعد ذلك  
لحامل على تلك السجية الكريمة في الغفران ، مستجير بالخلاص الذي أعهد من  
خُرُقِ فلان ومكر فلان ، فإنتي متى غبت لا أعدم مترصداً قرحة يقع عليها  
ذُبابُهُ ، ومستجعماً إذا أبصر فرصة سلَّ عليها ذُبابُهُ :

ولكنني أدري بأنِّي فَنَازِحٌ      ودانٍ سواء عند مَنْ يَحْفَظُ الْعَهْدَا

وإنتي لأقول وقد غبت عن تلك الحضرة العلية ، وجانبت ذلك الجنب السامي  
والمثابة السنية :

لئن غبتُ عن نورهِ نُورُ ناظري      فحسبي لديه أن أغيبَ عِقَابَا  
وسوف أوافيه مُقْبِراً بزلتي      وفي حلمه أن لا يُطِيلَ حسابَا

وله في قصر النهار ، ولو لم يكن له غيره لكفاه :

للهِ يَوْمُ مَسْرَةٍ أَضْمُوا وَأَقْصِرُوا مِنْ ذُبَالِهِ  
لَمَّا نَصَبْنَا لِلْمَنَى فِيهِ بِأُوتَارِ حِبَالِهِ  
طَارَ النَّهَارُ بِهِ كَمَرٍ تَاعٍ وَأَجْفَلَتِ الْغَزَالَةُ

وهذا المعنى لم يُسَبِّقْ إليه ، ولم يقدر أحد أن ينزعه من يديه .

ولمَّا وصل صحبة والده إلى إشبيلية افتتن بواديها ، واعتكف على الخلاعة فيها ، مُصْعِداً ومنحدرًا بين بساتينه ومنازحه ، فمر ليلة بطريانة فمال نحو منزله فيه طربٌ سَمِعَهُ ، فاستوقفه هنالك ، وهو في الزورق متكئٌ وأصحابه وأصحاب أبيه مظهرون الحطاطهم عنه في المرتبة ، فأخرج رأسه أحدُ الأندال المعتادين بالنادر من شرجب ، - والشرجب : هو الدرايزين من خشب فيه طاقات ، وطريانة مقابلة إشبيلية ، وبها المنازه والأبنية الحسنة - فصرط له ذلك النذل بغاية ما قدر ، فرفع رأسه وقد أخذ منه السكر ، ولم يعتد مثل ذلك في بلده ، وقال : يا سفلة ! أتقدم علي بهذا قبل معرفتي ! ففنى عليه واحدة أخرى ، ثم رفع ثوبه عن ذكره وهو منعظ ، وقال : يا وزير اجعل هذا عندك وديعة حتى أعرف من تكون ، ثم رفع ما على استه من ثيابه وقال : واعمل من هذا غلافًا للحيتك فإذا عرفناك ذهبناه لك ؛ فغلبه الضحك على الحرج ، وجعل أصحابه يقولون له : ما سمعت أن من دخل هذا الوادي يعول على هذا وأمثاله ؟ فمال عن ذلك المنزه قليلاً ، وأطرق ساعة وقال :

نَهْرَ حَمَصٍ لَا عَدْمَنَا كَ فَمَا مِثْلَكَ نَهْرُ  
فِيكَ يُلْتَدُّ ارْتِيَاخٌ أَبَدَ الدَّهْرِ وَسُكْرُ  
كُلُّ عَمْرٍ قَدْ خَلَامَنِي كَ فَمَا ذَلِكَ عَمْرُ  
خَصَّهُ اللهُ بِمَعْنَى فِيهِ لِلْأَلْبَابِ سُرُّ

١ م : يا سفيه .



يُلَعَنُ الْإِنْسَانُ فِيهِ وَهُوَ يَصْغِي وَيُسْرُ

ثمَّ سأل بعد ذلك عن ربّ المتزه ، فسُمِّي له ؛ وأعلم أن ابن سيد الشاعر المشهور باللص كان حاضراً وأنه أُملي على السفلة<sup>١</sup> ما قال وصنع ، فكتب له أبو جعفر :

يا سميِّ وإن أفادَ اشْرَاكَ      غيرَ ما يرتضيه فضلٌ وودٌ  
أَكْذا يُزْدِرِي الخليلُ بأفْقِي      أنت فيه ولم يكنْ منك ردٌ  
لا أرى من سلَّطتْ وغداً ولكن      ليس يخفي عليك مَنْ هو وغدٌ

فلما وقف على هذه الأبيات كتب له : يا مولاي وسيدي ، وأجلّ ذخري للزمان وعصْدي ، الذي أفخر بمشاركة اسمه ، وتته هذه الصناعة بذكره ورَسْمه<sup>٢</sup> :

وخيرُ الشعرِ أشرفهُ رجالاً      وشرُّ الشعرِ ما قال العبيدُ

سلام كتسينيم ، على ذلك المقام الكريم ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وإن كان مولاي لم يفاتحني بالسلام ، ولا رأني أهلاً لمقاومة الكرام ، لكن حطّ قدري عنده ما نُسب لي من الذنب المختلّق ، ولا والله ما نطقت بلسان ولا كنت ممن رمق ، بل الذي زور لسيدي في هذه الوشاية كان المعين<sup>٣</sup> عليها ، والملم إليها ، فبادر إليكم قبل أن أسبقه فاتسّم بأسقط خطتين : النذالة الأولى والوشاية الأخرى ، ولولا أن المجالس بالأمانات ، وأن الخلاعة بساط يطوى على ما كان فيه ، لكنت أسبق منه ، لكنني بأبي ذلك خلقي ، وما تأدبت به ، ومع ذلك فإنّي أقول :

١ م : السفية .

٢ م : ووسمه .

٣ ق : العين .

فإن كنتُ ذا ذنبٍ فقد جئتُ تائباً ومثلُكَ غفَّارٌ ومثلُكَ قابلٌ

ولولا ما أخشى من التثقيب ، وما أتوقع من الخجل إذا التقى الوجهان ،  
لأتيت حتى أبلغت في الاعتذار بالمشافهة ما لا يسع القرطاس ، لكنني متكل على  
حلم سيدي وإغضائه ، متوسل إليه في الغفران بعلائه ، وكتب تحت ذلك شعراً  
طويلاً منه :

ولا غرو أن تغفو وأنت ابن من غدا  
لكنم آل عمارة بيوت ربيعة  
إذا نحن أذنبنا رجونا ثوابكم  
وإنك فرع من أصول كريمة  
وإني مظلوم لزور سمعته  
وقد جئت أرجو العفو في زي ظالم  
تعود عفواً عن كبار الجرائم  
تشيئاً من كسب الثنا بدعائم  
ولم نفتنح بالعفو دون المكارم  
ولا تلد الأزهار غير الكمام  
وقد جئت أرجو العفو في زي ظالم

فأجابه أبو جعفر بما نصه : سيدي الذي أكبر قدره ، وأجل ذكره ،  
وأجزل شكره ، وصل جوابك الذي لو كان لك من الذنب ما تحمَّله ابن ملجم ،  
لأضربت لك عنه صفحاً ونسيت بما تأخر ما تقدم ، ومعاذ الله أن أنسب  
لفضلك عيباً ، فأذم لك حضوراً أو غيباً ، وإنما قصدت بالمعاتبه ، ما تحتها  
من المطارحة والمداعبة ، على أن سيدي لو تيقنت أنه ظالم لأنشدت :

منذُ غدا طرفك لي ظالماً آليت لا أدعو على ظالم

لكنني أتيقنُ خلافَ ذلك ، وأعلم حتى كأنني حاضر ما كان هنالك ،  
وقد أطلت عليك ، وبعد هذا فلتعتمد على أن تصل إلي أو أصل إليك ، فهذا  
يوم كما قال البستي<sup>٢</sup> :

يومٌ له فضلٌ على الأيامِ مزجَ السحابُ ضيائهُ بظلامِ

١ م : وأجل . ٢ البيهقي ٤ : ٣٠٤ .

فالبرقُ يُخفقُ مثلَ قلبِ هائمٍ والغيمُ يُبكي مثلَ جفنِ هامٍ  
فاختر لنفسك أربعاً من المنى وبهن تصفو لذّة الأيّامِ  
وجه الحبيب ومنظراً مستشرفاً ومغنياً غرداً وكأسَ مُدامِ

وقد حضرت عند محبك الثلاثة فكن رابعها ، ونادت بك همم الأمازي فكن  
بفضلك سامعها ، ومركز أفلاك هذه المسرة حين كتّبت هذه الرقعة إلى مجدك  
متره مطلٌ على جزيرة شنتبوس لا أزال أترنم فيه بقول ابن وكيع :

قم فاسقني والخليجُ مضطربٌ والريحُ تثني ذوائبَ القُضْبِ  
كأنها والرياحُ تعطفها صفٌ قنأً سندسيةُ العذبِ  
والجوُّ في حلّةٍ ممسّكةٍ قد طرزتها البروقُ بالذهبِ

فإن كان سيدي في مثل هذا المكان ، جرينا إليه جري الحلبة لحصل الرهان ،  
وإن كان في كِسْرِ بيته فليبادر إلى محل تقصير عنه همّة قيصر وكسرى ، وإن  
أبطأ فإن الرقاع بالاستدعاء لا تزال عليه تترى ، وإن كان لا يجدي هذا الكلام ،  
فما تقنع من العقوبة المؤلمة باللام ، وعلى المودة المرعية الداعية أكمل ما يكون  
من السلام .

فعندما قرأ الرقعة ركب إليه زورقاً وصنع هذه الأبيات في طريقه ، فعند  
وصوله أنشده إياها :

ركبتُ إليكَ النهرَ يا بحرُ فالقنا بما يتلقَى جودُهُ كلَّ قادمٍ  
بفيضٍ ولكن من مُدامٍ وهزّةٍ ولكن إلى بذل الندى والمكارمِ  
وكنّا نسْمِي قبلَ كونك حاتماً ومذْ لُحْتِ فينا لم نُعِدْ ذكْرَ حاتمِ  
بأل سعيدٍ يفخرُ السعدُ والعلا فأيديهمُ تلغي أيادي الغمامِ

فامتلاً أبو جعفر سروراً ، وخلع عليه ما كان عنده هنالك ، ووعد به غير  
ذلك ، فأطرق لينظم شيئاً في شكره ، فأقسم عليه أن لا يشغل خاطره في ذلك

الوقت عن الارتياح ، وحثَّ أكوس الراح ، فأقبلوا على شأنهم ، وكان ابن سيد في ذلك الحين مستراً بشرب الراح ، وكان عند أبي جعفر خديم كثير النادر والالتفات ، يخاف أهل التستر من مثله ، فقال ابن سيد : هاتِ دواة وقرطاساً ، فأعطاه ذلك ، فكتب :

يا سيدي قد علمت أني	بهذه الحال لا أظاهر
أخشى أناساً لهم عيون <sup>١</sup>	نواظر مني المعايير
أحذرهم طاقتي وإنني	وثقت بالله فهو غافر
ولا تقس حالي بحال	منك <sup>١</sup> اعتذار فالفرق ظاهر
فأنت إن كنت ذا جهار	غير مبال فإلجاه ساتر
لا تخش من قول ذي اعتراض	ولا حسود عليك قادر
وإنني قد رأيت ممن	يكثر القول وهو ساخر
ما قد أراب العفيف منه <sup>١</sup>	ضحك وظن به يجاهر
أخشى إذا قيل كيف كنتم	قال بحال تسر ناظر
واللص ما بيننا صريعاً	بكل كأس عليه دائر
مطرحاً للصلاة يصغي	لصولة الدف والمزامر
فأعتدي سيدي مشاراً	إلي مهماً مررت خاطر
وإن أتيت الملوك أبغي	نواهم قيل أي شاعر
يذكر في شعره خلافاً <sup>٢</sup>	وهو لزور المحال ذاكر
بالأمس قد كان ذا انتهاك	فما له بعد ذلك عاذر
إن كان هذا فإن حظي	وافى لربح قاب خاسر

فقال له أبو جعفر : يا أبا العباس ، اشرب هنيئاً غير مقدر ما قدرت ، فلو

١ م : هذا .

٢ م : غلظاً .

كان هذا المضحك على الصفة التي ذكرت كان الذنب منسوباً إلي في كوني  
أحضر في مجلسي من يهتك ستر المستورين ، ومهما تره هنا بهذه الخفة والطيش  
والتسرع للكلام فإنه إذا فارقتنا أثقل من جبل ، وأصمت من سمكة ، متري بزي  
خطيب في نهاية من السكون والوقار :

وتحت الثياب العار لو كان باديا

فكن في أمن ما شربت معي ، فإنني والله لا أسمع أحداً من أصحابنا تكلم في شأنك  
بأمر إلا عاقبته أشد العقاب ، والذنب في ذلك راجع إلي . فسكن ابن سيد وجعل  
يحث الأقداح ، ويمرح أشد المراح ، على ما كان يظهره من الانقباض ، تقيّة  
لما يخشاه من الاعتراض ، إلى أن قاربت الشمس الغروب ، ومدّ لها في النهر  
معصم مخضوب ، فقال أبو جعفر :

انظر إلى الشمسِ قد ألصقت على الأرضِ خدّاً

فقال ابن سيد :

هي المِرآةُ ولكن من بعدها الأفقُ يصدأ

فقال أبو جعفر :

مدّت طرازاً على النهـرِ عند ما لاحَ برُدا

فقال ابن سيد :

أهدتْ لطرفك منه ما للأكارمِ يُهدى

فقال أبو جعفر :

درعُ اللّجينِ عليه سيفٌ من التبرِ مُدّاً

فقال ابن سيد :

فاشربْ عليه هنيئاً وزدْ سروراً وسعداً  
ثم لما أظلم الليلُ نظروا إلى منارة شتَبوس قد عكست مصابيحها في النهر ،  
ولمَّا النجوم قد طلعت فيه ، فقال ابن سيد :

اخْلَعْ على النهرِ ثوبَ الـ كرى فذلك واجبٌ

فقال أبو جعفر :

وانظرْ إلى السُّرْجِ فيه كالزُّهرِ ذاتِ الذوائبِ  
وحينَ صَفَّقَ للأفـ قِ نَقَطَتَهُ الكواكبُ

فقبَّل ابن سيد رأسه ، وقال : ما تركت بعد هذا مقالاً لقائل ، ثمَّ جعلوا  
يشربون .

فقال أبو جعفر :

سَقَى والأفقُ بُردٌ بنجومِ الليلِ معلَّمٌ

فقال ابن سيد :

وبساطُ النَّهرِ منها وهو فيضٌ مُدرهمٌ

فقال أبو جعفر :

ورواقُ الليلِ مُرخى والشدا بالروضِ قد نمَّ

فقال ابن سيد :

والندى في الزهرِ مثو رٌ على عقدٍ مُنظَّمٌ

فقال أبو جعفر :

والصبا جرَّتْ على مِيَّةِ الطلِّ كَفَّ ابنِ مريمَ

فقال ابن سيد :

كان مبهوتاً فلماً نفخت فيه تكلم

فقال أبو جعفر :

وكان الكأس والقهوة ديناراً ودرهم

فقال ابن سيد :

وبدا الدف يناغي الهمود والمزمار هيم

فقال أبو جعفر :

فأذاع الأنس من كل ما قد كان مكنم

فقال ابن سيد :

أي عيش يهتك المس تور لو كان ابن أدهم

فقال أبو جعفر :

هكذا العيش ودعني من زمان قد تقدم

فقال ابن سيد :

حين لا خمر سوى ما بكؤوس البيض من دم

فقال أبو جعفر : والله ما تعديت ما جال الساعة في خاطري ، فإنني ذكرت أيام الفتنة وما كابدنا فيها من المحن ، وأنا لم نزل في مصادمة ومقارعة ، ثم رأيت ما نحن الآن فيه بهذه الدولة السعيدة التي أمنت وسكنت ، فشكرت الله تعالى ، ودعوت بلدوامها .

ثم لما طلع الفجر قال أبو جعفر :

نثر الطل عقودة ونضا الليل برودة

فقال ابن سيد :

وبدا الصبحُ بوجهٍ مُطلعٍ فينا سعودةً

فقال أبو جعفر :

وغدا ينشرُ لنا فتر الليلُ بُنودةً

فقال ابن سيد :

فهلُمَّ اشربْ وقبّلْ مَنْ غدا يُنطقُ عودَةَ

فقال أبو جعفر :

ثمَّ صافحه على رغبِ النوى وافركْ نهودةً

فقال ابن سيد :

واجعلِ الشكرَ على ما نلتَهُ منه جُحودةً

فقال أبو جعفر : يا أبا العباس ، إنك أغرت على التهامي في هذا البيت في

قوله :

وشكرُ أيادي الغايات جُحودُها

قال : فلمَ لُقِّبْتَ باللصِّ ؟ لولا هذا وأمثاله ما كان ذلك .

واللص المذكور اسمه أحمد بن سيد ، يكنى أبا العباس ، وهو من مشهوري شعراء الأندلس . ولما أنشد أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ببجل الفتح قوله :

غمّض عن الشمسِ واستقصيرُ مدى زحلِ وانظرْ إلى الجبلِ الراسي على جبلِ

قال له : أنت شاعر هذه الجزيرة ، لولا أنك بدأتنا بغمّض وزحل والجبل .

ومن بديع نظم اللص قوله :

سَلَبْتُ قلبي بلحظِ أبا الحسينِ خَلُوبِ



فَلِمَ أَسْمَى بِلِصِّ وَأَنْتَ لِصُّ الْقُلُوبِ

ولما اجتمع أبو جعفر ابن سعيد المترجم به باللص أبي العباس المذكور في جبل الفتح عندما وفد فضلاء الأندلس على عبد المؤمن ، واستنشدته ، فجعل ينشده ما استجفاه به لخروجه عن حلاوة مَنْزِعِ أَبِي جَعْفَرِ ، إلى أن أنشده قوله :

وما أفنى السؤالُ لكم نوالاً ولكنَّ جودكم أفنى السؤالِ

فقال له أبو جعفر : لا جعلك الله في حل من نفسك ، يكون في شعرك مثل هذا وتنشدني ما كان يحملني على أن أسأتُ معك الأدب ؟ والله لو لم يكن لك غير هذا البيت لكنتَ به أشعر أهل الأندلس .

وكتب إلى أبي جعفر أبو الحكم بن هرودس<sup>١</sup> في يوم بارد بغرناطة :

يا سَمِيَّ ، في علم مجدك ما يح  
تاجُ فيه هذا النهارُ المطيرُ  
ندفَ الثلجُ فيه قُطْنًا علينا  
ففررنا بعدلكم نستجيرُ  
والذي أبغيه في اللحظ منه  
ورضاب الذي هويت نظيرُ<sup>٢</sup>  
يومُ قرَّ يودُ من حلِّ فيه  
لو تبدى لقلتيه سَعِيرُ

فوجه بما طلب ، وجاوبه بما كتب :

أيها السيد الأجلُّ الوزيرُ  
ألندي قدره معلّى خطيرُ  
قد بعثنا بما أشرت إليه  
دمت للأنسِ والسرورِ تشيرُ  
كان لغزاً فككته دون فكري  
إنَّ فهمي بما تريد خبيرُ

١ هو أبو الحكم أحمد بن هرودس كاتب عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة (توفي سنة ٥٧٣ هـ أو في التي قبلها) انظر المغرب ٢: ٢١٠ والهاشية ، وسيأتي ذكره عند الحديث عن الموشحات والأزجال.

٢ المغرب : ورضاه في كل أمر يسير .

ومن نظم أبي الحكم :

إذا ضاقتْ عَلَيْكَ فَوْلاً عنها      وسرٌّ في الأرضِ واختبرِ العبادا  
ولا تمسكْ رحالكِ في بلادِ      غدوتْ بأهلها خبيراً مُعادا

٦٦٨ - [أخيل الرندي]

ولما مدح أبو القاسم أخيل بن إدريس الرندي عبد المؤمن في جبل الفتح  
بقصيدة أولها :

ما الفخرُ إلاّ فخرُ عبدِ المؤمنِ      أني عليه كلُّ عبدٍ مؤمنِ

قال أبو جعفر ابن سعيد : دعاه التجنيس إلى الضعف والخروج عن المقصود ،  
والأولى أن لو قال « شاد الخلافة وهو أولُ مُبْتَنِي » .

ومن هذه القصيدة :

أما ابنُ سَعْدٍ فهو أولُ مارقٍ      يا ليته بأبيه سَعْدٍ يَكْتَتِي  
ما قلرُ مُرسيةٍ وحكمك نافذٌ      إن شئتَ من عدنٍ لأرضِ المعدنِ

فلما أكملها قال له عبد المؤمن : أجدت ، فقال ارتجالاً :

من لي أميرَ المؤمنين بموقفي      هذا وقولك لي أجدتَ ولم تنِ  
فلقد مدحتك خائفاً أن لا يفني      لَسْتِي بما يُعْني جميعَ الألسنِ

ولابن إدريس المذكور :

أيها البدرُ هل علمتَ بأنّي      لم أبتُ راعياً مُحَيَّاك ودّاً  
أنا لو باتَ مَنْ حَكيتَ بجنبي      لم يكنْ عنه ناظري يتعدّى

وله :

شَتَّانَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي الْهَوَى أَنَا أَبْتَغِيكَ وَأَنْتَ عَنِي تَصَدِّفُ  
وَإِذَا عَتَبْتُكَ وَارْعَوَيْتُ يَسْبِينُ لِي فِي الْحَيْنِ مِنْكَ بَأَنَّ ذَاكَ تَكَلِّفُ  
يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يُقْضَى وَصَلْنَا وَالْعَمْرُ يُفْنَى وَالْمَوَاعِدُ تُخْلَفُ

وقيل له لما هجره عبد المؤمن : اكتب له واعتذر وبرهن عن نفسك ، فقال :  
ما يكون أمير المؤمنين هجرني إلا وقد صحَّ عنده ، ولا أنسبه في أمري لقلَّة  
الثبت والجور ، وإنما أُرغب في عفوه ورحمته ، فكأن هذا الكلام ألان عليه  
قلب عبد المؤمن لما بلغه ، وكان قد نقل عنه حسَّاده أنه قال : كيف تصحُّ  
له الخلافة ، وليس بقرشي ؟

٦٦٩ - [ترجمة اللص]

ولا بأس أن نزيد من أخبار اللص الذي جرى ذكرنا له مع أبي جعفر ابن  
سعيد فنقول<sup>١</sup> :

هو النحوي المبرز في الشعر أبو العباس أحمد بن سيد ، الإشبيلي ، ذكره  
ابن دحية في « المطرب » وأخبر أنه شيخه ، وختم كتاب سيبويه مرتين على  
النحوي أبي القاسم ابن الرماك ، واجتمع به أبو جعفر ابن سعيد بجبل الفتح كما  
سبق ، ولُقِّب اللص لإغارته على أشعار الناس .

وله :

شاموا الردى فأشموا الترب آنفهم ولم يُبالوا بما فيها من الشَّمَمِ  
ثم جعل يقول : قطع الله لساني إن كان اليوم على وجه الأرض مَنْ يعرف

١ ترجمة اللص في المغرب ١ : ٢٥٢ والمطرب : ٢٠٠ وبغية الوعاة : ١٤٩ والتكملة : ٨٠ .

أن يسمعه ، فضلاً عن أن يقوله .

وله القصيدة الشهيرة :

نَدَاكَ الْغَيْثُ إِنْ مَحَلُّ تَوَالِي وَأَنْتَ اللَّيْثُ إِنْ شَاعُوا الْقِتَالَا  
سَلَبْتَ اللَّيْثَ شِدَّةَ سَاعِدِيهِ نَعَمْ ، وَسَلَبْتَ عَيْنِيهِ الْغَزَالَا  
وَمَا أَفْنَى السُّؤَالُ لَكُمْ نَوَالَا وَلَكِنْ جُودِكُمْ أَفْنَى السُّؤَالَا

وقد تقدّم هذا البيت في حكايته مع ابن سعيد

وقال في حلقة خياط ، وهو من محاسنه :

كَأَنَّهَا بِيضَةٌ وَخَزُّ الرِّمَاحِ بِهَا بَادٍ وَقُونَسُهَا بِالسِّيفِ قَدْ قُطِعَا

وقال :

فَاللَّيْلُ إِنْ وَاصَلْتُ كَاللَّيْلِ إِنْ هَجَرْتُ أَشْكُو مِنَ الطُّوْلِ مَا أَشْكُو مِنَ الْقِصْرِ

رجع إلى أخبار أبي جعفر ابن سعيد :

قال في « الأزهار المنثورة في الأخبار المأثورة » ما نصّه : لما قبض على الوزير أبي جعفر ابن عبد الملك بن سعيد العنسي ، وثقف بمالقة ، دخل إليه ابن عمه ، ووصل إلى الاجتماع به ريثما استؤذن السيد أبو سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن في أمره ، قال : فدمعت عيناى حين رأيتك مكبولا ، فقال لي : أعلي تبكي بعدما بلغت من الدنيا أطياب لذاتها ، فأكلتُ صدور الدجاج ، وشربت في الزجاج ، ولبست الديباج ، وتمتعت بالسراري والأزواج ، واستعملت من الشمع السراج الرهّاج ، وركبت كل هملّاج ، وما أنا في يد الحجاج ، منتظر محنة الحلاج ، قادم على غافرٍ لا يحتاج إلى اعتذار ولا احتجاج ، قال فقلت : أفلا يؤسف

م ١ : عليه .

على من ينطق بهذا الكلام ، ثم يُفقد ؟ و قمت عنه فكان آخر العهد به ، انتهى .

رجع إلى أخبار النساء :

9 — ومن أشهرهن بالأندلس ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن ابن عبيد الله بن الناصر لدين الله<sup>١</sup> ، وكانت واحدة زمانها ، المشار إليها في أوانها ، حسنة المحاضرة ، مشكورة المذاكرة ، كتبت بالذهب على طرازها الأيمن :

أنا والله أصلحُ للمعالي وأمشي مشيتي وأتبهُ تيهي

وكتبت على الطراز الأيسر :

وأمكنُ عاشقي من صحنُ خدي وأعطي قلبي مَنْ يشتهيها

وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف ، وفيها خلع ابن زيدون عذاره ، وقال فيها القصائد الطنانة والمقطعات ، وكانت لها جارية سوداء بديعة المعنى ، فظهر لولادة أن ابن زيدون مال إليها ، فكتبت إليه :

لو كنت تُنصِفُ في الهوى ما بيننا لم تهو جاري تي ولم تتخيرِ  
وتركت غُصناً مثمراً بجماله وجنحت للغصن الذي لم يُثمرِ  
ولقد علمت بأنتي بدرُ السما لكن ولعت ، لشقوتي ، بالمشري

ولقبت ابن زيدون بالمسدس ، وفيه تقول :

ولُقبت المسدس وهو نعتُ تفارقك الحياةُ ولا يفارقُ  
فلوطيٌّ ومأبونٌ وزانٍ وديوثٌ وقرنانٌ وسارقُ

وقالت فيه :

١ ترجمة ولادة في الذخيرة ١/١ : ٣٧٦ والمطرب : ٧ والصلة : ٦٥٧ والسيوطي : ١٠١ .

إنَّ ابنَ زيدونَ على فضلهِ  
يلحظني شرراً إذا جثتهِ  
يغتَابني ظلماً ولا ذنب لي  
كأنَّتي جثتُ لأخصي علي

وقالت فيه أيضاً :

إنَّ ابنَ زيدونَ على فضلهِ  
لو أبصرَ الأيرَ على نخلةِ  
يعشقُ قُضبانَ السراويلِ  
صارَ من الطيرِ الأبايلِ

وقالت ولادة تهجو الأصبحي :

يا أصبحيُّ اهنأ فكم نعمة  
قد نلتَ بأسَتِ ابنك ما لم ينلْ  
جاءتك من ذي العرش ربَّ المننِ  
بفرج بُورَانَ أبوها الحسنِ

وكتبت إليه لما أولع بها بعد طول تمنع :

ترقبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتي  
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلحْ  
فإنِّي رأيتُ الليلَ أكمَّ للسرِّ  
وبالبدْرِ لم يطلعْ وبالنجمِ لم يسرِّ

ووفت بما وعدت ، ولما أرادت الانصراف ودعته بهذه الأبيات :

ودَّعَ الصبرَ محبَّ ودَّعَكَ  
يقرعُ السنَّ على أن لم يكنْ  
يا أخا البدرِ سناءً وسناً  
إن يَطلُّ ببعْدك ليبي فلکم  
ذائعٌ من سره ما استودعكْ  
زاد في تلك الخطى إذ شيعكْ  
حفظ الله زماناً أطلعك  
بتُّ أشكو قصرَ الليل معك

وكتبت إليه :

ألا هلِّ لنا من بعد هذا التفرقِ  
وقد كنتُ أوقاتَ التزاورِ في الشتَا  
سبيلٌ فيشكو كلُّ صبِّ بما لقي  
أبيتُ على جمرٍ من الشوق محرقِ  
لقد عَجَّلَ المقدورُ ما كنتُ أتقي  
فكيف وقد أمسيتُ في حالِ قطعةِ

تمرُّ الليالي لا أرى البينَ ينقضي      ولا الصبرَ من رِقِّ التشوقِ معتقي  
سقى اللهُ أرضاً قدْ غدتْ لكَ منزلاً      بكلِّ سَكُوبِ هاطلِ الوبلِ مُغْدِقِ

فأجابها بقوله :

لحى الله يوماً لستُ فيه بملتقى      محيَاكِ من أجلِ النوى والتفرقِ  
وكيف يطيبُ العيشُ دونَ مسرةٍ      وأيُّ سرورٍ للكئيبِ المورقِ  
وكتب في أثناء الكلام بعد الشعر : وكنتِ ربما حششتني على أن أنبهكِ  
على ما أجد فيه عليكِ نقداً ، وإنِّي انتقدت عليكِ قولك :  
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً

فإن ذا الرمة قد انتقِدَ عليه قوله مع تقديم الدعاء بالسلامة :

ألا يا اسلمي يا دارَ مِيَّ على البلى      ولا زال منهلاًً بجرعائك القطرُ  
إذ هو أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له ، وأما المستحسن فقول  
الآخر :

فسقى ديارك غيرَ مفسدها      صوبُ الربيعِ وديمةٌ تهمي

وبسببها خاطب ابن عَبدوس بالرسالة المشهورة التي شرحها غيرُ واحد من  
أدباء المشاركة كالجمل ابن نُباتة والصفدي وغيرهما ، وفيها من التلميحات  
والتنديرات ما لا مزيد عليه .

وقد ذكر ولادة ابن بَشْكُوَال في « الصلَّة » فقال : كانت أديبة ، شاعرة ،  
جزلة القول ، حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق  
البرعاء ، وعمرت عمراً طويلاً ، ولم تتزوج قط ، وماتت ليلتين خلتا من صفر  
سنة ثمانين ، وقيل : أربع وثمانين وأربعمائة ، رحمها الله تعالى .

وكان أبوها المستكفي بايعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر ، كما ألعنا به في غير هذا الموضع ، وكان جاهلاً ساقطاً ، وخرجت هي في نهاية من الأدب والظرف : حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ونخب ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتهى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً بلحياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها ، وعلى سهولة حجابها ، وكثرة منثابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيلَ بقلّة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . ولما مرت بالوزير أبي عامر ابن عبدوس وأمام داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار ، وقد نشر أبو عامر كُميّه ، ونظر في عِطْفِيّه ، وحشر أعوانه إليه ، فقالت له :

أنتَ الخصبُ وهذه مصرُ فتدفقنا فكلالما بجرُ

فركته لا يبحر حرفاً ، ولا يبرد طرفاً .

وقال في « المغرب » بعد ذكره أنّها بالغرب كعَلِيّة بالشرق : إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق ، وأمّا الأدب والشعر والنادر وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة في الغناء ، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك ، وفيها يقول ابن زيدون :

بنم وبنّاً فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

وقال أيضاً يخاطب ابن عبدوس لاشترائه معه في هواها :

أثرت هزبرَ الشرى إذ ربضُ ونبّهته إذ هذا فاغتمضُ

وما زلت تبسطُ مسترسلاً إليه يدَ البغي لما انقبضُ



حذارِ حذارِ فَإِنَّ الكَرِيمَ      إِذَا سِيمَ حَسَفًا أَبِي فامْتَعْضُ  
وإنَّ سَكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْوُ      سِ لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعْضُ  
عمدتَ لشعري ولم تَتَشَدُّ      تعارضُ جوهره بالعَرَضُ  
أضاقَتْ أساليبُ هذا القرِي      ضِ أم قد عفارسمه فانقرضُ  
لعمري فَوَقَّتْ سَهْمَ النُّضالِ      وأرسلتهُ لو أصبتَ الغرضُ

ومنها :

وغرَّكَ من عهدٍ ولادةٍ      سرَّابُ تراءى وبرقٍ ومَضُ  
هي الما يعزُّ على قابضٍ      ويُمْنَعُ زُبْدَتَهُ من مَحْضُ

ومن أخبار ولادة مع ابن زيدون ما قاله الفتح في القلائد<sup>١</sup> : إن ابن زيدون كان يكلف بولادة ويهيم ، ويستضيء بنور محياها في الليل بهيم ، وكانت من الأدب والظرف ، وتميم السمع والظرف ، بحيثُ تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ، فلما حل بذلك الغرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ، فرَّ إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ، ويتسلى برؤية موافيقها ، فوافاها والربيع قد خلج عليها بُرْدَه ، ونشر سوسسته وورده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح ارتياح جميل بوادي القرى ، وراح بين روض يانع وريح طيبة السرى ، فتشوق إلى لقاء ولادة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده إليها وطلّقه ، ويعلمها أنه ما سلا عنها بخمر ، ولا خبا ما في ضلوعه من مُلْتَهَبِ جمر<sup>٢</sup> ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده :

إنِّي ذكركِ بالزهراء مشتاقا      والأفق طلقٌ ووجه الأرضِ قد راقا

١ القلائد : ٧٣ .

٢ ويعلمها . . . جمر : سقط هذا من القلائد المطبوع .

وللنسيمِ اعتلالٌ في أصائله  
 والروضُ عن مائهِ الفضيِّ مبتسمٌ  
 يومٌ كأَيَّامِ لذَاتِ لنا انصرمتْ  
 نلهو بما يستميلُ العينَ من زهرِ  
 كأنَّ أعينه إذ عاينتْ أرقِي  
 وردٌ تألَّقَ في ضاحي منابته  
 سرى ينافحه نيلوفرٌ عبقٌ  
 كلُّ يهبجُ لنا ذكرى تشوقنا  
 لو كان وقى المنى في جمعنا بكمُ  
 لا سَكَنَ اللهُ قلباً عن ذكركمُ  
 لو شاء حملي نسيمُ الريحِ حينَ هَمَّا  
 يا عِلقي الأخطرَ الأستى الحبيبِ إلى  
 كان التجاري بمحضِ الودِّ مذ من  
 فالآنَ أحمدُ ما كنَّا لعهدكمُ

كأنما رقَّ لي فاعتلَّ إشفاقا  
 كما حلتَ عن اللبَّاتِ أطواقا  
 بتنا لها حينَ نامَ الدهرُ سرَّاقا  
 جال الندى فيه حتى مالَ أعناقا  
 بكتُ لما بي فجال الدمعُ رقرقا  
 فازداد منه الضحى في العينِ إشراقا  
 وسنان نبيّه منه الصبحُ أحداقا  
 إليك ، لم يعدُ عنها الصدرُ أن ضاقا  
 لكان من أكرمِ الأيامِ أخلاقا  
 فلم يطيرُ بجناحِ الشوقِ خفَّاقا  
 وافتكمُ بفتى أضناه مسالاقا  
 نفسي إذا ما اقتنى الأحبابُ أعلاما  
 ميدان أنسٍ جرينا فيه أطلاقا  
 سلوتُمُ وبقينا نحن عشاقا

وقال أيضاً<sup>١</sup> : إن ابن زيدون لم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه  
 دونها ويهدر ، لسوء أثره في ملك قرطبة وواليتها ، وقبائح كان ينسبها إليه  
 ويواليها ، أحقدت بني جهور عليه ، وسددت أسهمهم إليه ، فلما يئس من لقيائها ،  
 وحجج عنه محيَّاتها ، كتب إليها يستديم عهدها ، ويؤكد ودّها ، ويعتذر  
 من فراقها بالخطب الذي غشيه ، والامتحان الذي خشيه ، ويعلمها أنّه ما سلا  
 عنها بخر ، ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب الجمر ، وهي قصيدة ضربت في  
 الإبداع بسهم ، وطلعت في كل خاطر ووهم ، ونزعت مترعاً قصر عنه حبيب  
 وابن الجهم ، وأولها :

بنم وبنّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا  
تكادُ حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولا تأسينا  
وأخبار ولادة كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية .

10 - ومن المشهورات بالأندلس « اعتماد »<sup>1</sup> جارية المعتمد بن عباد ، وأم  
أولاده ، وتشتهر بالرُمَيْكِيَّة ، وفي المسهب والمغرب أنه ركب المعتمد في النهر  
ومعه ابن عمّار وزيره ، وقد زردت الريح النهر ، فقال ابن عباد لابن عمار :  
أجز :

صنع الريحُ من الماء زَرْدُ

فأطال ابن عمّار الفكرة ، فقالت امرأة من الغسالات :

أيّ درعٍ لقتالٍ لو جَمَدُ

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمّار ، ونظر إليها  
فإذا هي صورة حسنة ، فأعجبه فسألها : أذات زوج هي ؟ فقالت : لا ، فتزوجها ،  
وولدت له أولاده الملوك النجباء ، رحمهم الله تعالى .  
وحكى البعض منهم صاحب « البدائنه » بسنده إلى بعض أدباء الأندلس ،  
وسمّاه ولم يحضرنني الآن ، أنه هو الذي قال للمعتمد :

أيّ درعٍ لقتالٍ لو جمد

قال : فاستحسنه المعتمد ، وكنّت رابعاً في الإنشاد فجعلني ثانياً ، وأجازني  
بجائزة سنية .

قال ابن ظافر : وقد أخذت هذا المعنى ، فقلت أصف روضاً :

١ القلائد : ٢٢ ؛ وانظر المجلد ٣ : ٦٠٦ .

فلو دام ذلك النبتُ كان زبرجداً ولو جمّدت أنهاره كان بلّورا  
ولما قال ابن ظافر :

قد أذكتِ الشمسُ على الما لهباً

قال القاضي الأعز :

فكستِ الفضةً منه ذهباً

رجع :

ولما خلع المعتمد وسُجن بأغمار قالت له : يا سيدي لقد هُنتا هُنا ، فقال :

قالتُ لقد هُنتا هُنا مولاي أينَ جاهُنا

قُلْتُ لها إلهُنا صيرنا إلى هُنا

وحكي أنها قالت له وقد مرض : يا سيدي ، ما لنا قدرة على مرّضاتك في  
مرضاتك .

ولما قال الوزير ابن عمار قصيدته اللامية الشهيرة في المعتمد والرُميكية أغرت  
المعتمد به حتى قتله ، وضربه بالطبرزين ففلق رأسه ، وترك الطبرزين في رأسه ،  
فقال الرميكية : قد بقي ابن عمّار هدهداً ، والقصيدَة أولها :

ألا حيّ بالغرب حيّاً حلالاً أناخُوا جِمالاً وحازُوا جِمالاً

وعرّجُ بيومينَ أمّ القرى ونمّ فعى أن تراها خيالاً

ويومين : قرية بإشبيلية كانت منها أولية بني عباد ، وفي هذه القصيدة يقول  
معرّضاً بالرُميكية :

تخيرتها من بناتِ الهجانِ رُميكيةٌ ما تساوي عقلا

فجاءت بكلّ قصير العذارِ      لنسيمِ النّجارين عمّاً وخالا  
 قصارِ القُدودِ ولكنّهم      أقاموا عليها قروناً طوالا  
 أتذكر أيامنا بالصِّبا      وأنت إذا لحت كنت الهلالا  
 أعانقُ منك القُصيبَ الرطيبَ      وأرشفُ من فيك ماءَ زلالا  
 وأفنعُ منك بدونِ الحرامِ      فتقسّمُ جهدك أن لا حاللا  
 سأهتك عرضك شيئاً فشيئاً      وأكشفُ سترك حالاً فحاللا

ومنها :

فيا عامرَ الخيلِ يا زَيْدَها      منعتَ القرى وأبجتَ العيالا

وسبب قول ابن عمّار هذه القصيدة أن المعتمد ندرّ به وذيل على قصيدته  
 الرائية المذكورة في القلائد بعد قوله :

كيف انتقلتُ بالخدِعةِ من يَدَيَّ      رجلِ الحقيقةِ من بني عمّارِ  
 وسخر به في أبيات مشهورة .

٦٧٠ - [ أخبار المعتمد ]

قال الفتح في حق المعتمد بعد كلام : وما زالت عقارب تلك الداخلة تدبّ ،  
 وريحها العاصفة تهب ، ونارها تقيد ، وضلوعها تحقّق وتحقد ، وتضمّر الغدر  
 وتعتقد ، حتى دُخِلَ البلد من واديه ، وبدت من المكروه بّواديه ، وكرّ عليه  
 الدهر بعوائده وعوّاديه ، وهو مستمسك بعُرَى لذّاته ، منغمس فيها بذاته ،  
 ملقّى بين جواريه ، مغرّ بودائع ملكه وعواريه ، التي استرجعت منه في يومه ،  
 ونبّهه فواتها من نومه ، ولما انتشر الداخلون في البلد ، وأوهنوا القوّى والجلد ،

خرج والموت يتسعر في الحاظه ، ويتصور من أفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ،  
ويتوقد عند انتضائه ، فلقبهم برحبة القصر ، وقد ضاق بهم فضاؤها ، وتضعضت  
من رجعتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فِرَقًا ، وملاّتهم فِرَقًا ، وما زال  
يوالي عليهم الكر المعاد ، حتى أوردهم النهر وما بهم جواد ، وأودعهم  
حشاه كأنّهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله ، وذهاب ملكه  
وارتحاله ، وعاد إلى قصره واستمسك فيه يومه وليلته مانعاً لحوزته ، دافعاً للذل  
عن عزته ، وقد عزم على أفطع أمر ، وقال : بيدي لا بيد عمرو ، ثم صرفه تُفاه ،  
عمّا كان نَوَاه ، فنزل من القصر بالقسر ، إلى قبضة الأسر ، فقيدَ للحين ،  
وكان له يوم شر ما ظنّ أنّه يحين ، ولما قيدت قدماه ، وذهبت عنه رقة الكبل  
ورُحماه ، قال يخاطبه :

إليكَ فلو كانت قِيُودُكَ أسعرتُ      تنصّرَمَ منها كلُّ كَفِّ ومعصمِ  
مخافةً من كانَ الرجالُ بسَيْبِهِ      ومن سيفِهِ في جنّةٍ أو جهنمِ

ولما آله عَضَّهُ ، ولازمه كسره ورَضَّهُ ، وأواهاه ثقله ، وأعياه نقله ، قال :

تبدلتُ من عزِّ ظلِّ البنودِ      بدُلُّ الحديدِ وثقلِ القيودِ  
وكان حليدي سناناً ذليقاً      وعضباً رقيقاً صقيلَ الحديدِ  
فقد صارَ ذاكَ وذا أدُهما      يععضُ بساقِيَّ عضَّ الأسودِ

ثم جُمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمنتهم جوانحها كأنّهم  
أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناسُ قد حشروا  
بضفتي الوادي ، وبكوا بدموع كالغواصي ، فساروا والنوحُ يحُدُّوهم ،  
والبسوحُ باللوعة لا يعدوهم ، وفي ذلك يقول ابن اللبّانة :

تبكي السماءُ بمزْنٍ رائحِ غادِ      على البهاليلِ من أبناءِ عبّادِ  
على الجبالِ التي هُدَّتْ قواعدها      وكانتِ الأرضُ منها ذاتُ أوتادِ

عَرِيْسَةٌ دَخَلْتَهَا النَّائِبَاتُ عَلَى  
وَكَعْبَةٌ كَانَتْ الْآمَالُ تُخَدِمُهَا  
يَا ضَيْفُ أَقْفَرِ بَيْتِ الْمَكْرَمَاتِ فَخَذْ  
وَيَا مُؤَمِّلَ وَاذِيهِمْ لَيْسَكُنْهُ  
وَأَنْتَ يَا فَارِسَ الْخَيْلِ الَّتِي جَعَلْتُ  
أَلْتَقِيَ السَّلَاحَ وَخَلَّ الْمَشْرِفِي فَقَدْ  
لَمَّا دَنَا الْوَقْتُ لَمْ تَخْلَفْ لَهُ عِدَّةٌ  
إِنْ يُخْلَعُوا فَبَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ خَلَعُوا  
حَمَمًا حَرِيمَهُمْ حَتَّى إِذَا غَلَبُوا  
وَأَنْزَلُوا عَن مَتُونِ الشَّهْبِ وَاحْتَمَلُوا  
وَعَيْثُ فِي كُلِّ طَوْقٍ مِّنْ دَرُوعِهِمْ  
نَسِيْتُ إِلَّا غَدَاةَ النَّهْرِ كَوْنَهُمْ  
وَالنَّاسُ قَدْ مَلَأُوا الْعَبْرَيْنِ وَاعْتَبَرُوا  
حُطَّ الْقِنَاعُ فَلَمْ تُسْتَرْ مَخْدَرَةٌ  
حَانَ الْوَدَاعُ فَضَجَتْ كُلُّ صَارِخَةٍ  
سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَالنَّوْحُ يُصْحَبُهَا  
كَمْ سَالَ فِي الْمَاءِ مَن دَمَعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ

أَسَاوِدٌ لَّهُمْ فِيهَا وَأَسَادُ  
فَالْيَوْمَ لَا عَاكِفٌ فِيهَا وَلَا بَادُ  
فِي ضَمِّ رَحْلِكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ  
خَفَّ الْقَطِينُ وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي  
تَخْتَالُ فِي عُدَدٍ مِنْهُمْ وَأَعْدَادُ  
أَصْبَحَتْ فِي لَهَوَاتِ الضَّيْغِ الْعَادِي  
وَكُلُّ شَيْءٍ لَمِيقَاتٍ وَمِيعَادُ  
وَقَدْ خَلَّتْ قَبْلَ حَمَصِ أَرْضِ بُغْدَادِ  
سَيَقُوا عَلَى نَسَقٍ فِي حَبْلِ مَقْتَادِ  
فَوْقَ دُهُمٍ لَتَلُوكَ الْخَيْلِ أَنْدَادُ  
فَصَيْغَ مِنْهُمْ أَغْلَالٌ لِأَجْيَادِ  
فِي الْمَنْشَأَتِ كَأَمْوَاتٍ بِالْحَادِ  
مِن لَوْلَا طَافِيَاتٍ فَوْقَ أَزْيَادِ  
وَمُزَّقَتْ أَوْجُهُ تَمْزِيقَ أَبْرَادِ  
وَصَارَخَ مِنْ مُفْدَاةٍ وَمَنْ فَادِ  
كَأَنَّهَا لِابِلٍ يَجْدُو بِهَا الْحَادِي  
تَلِكِ الْقَطَائِعِ مِنْ قِطَعَاتِ أَكْبَادِ

انتهى ما قصد جلبه من كلام الفتح رحمه الله تعالى وسأحه .

وقال ابن اللبَّانة في كتاب « نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار  
الدولة العبادية » : إن طائفة من أصحاب المعتمد خامرت عليه ، فأعلم باعتمادها ،  
وكشَّف له عن مُرادها ، وحُضَّ على هتك حُرْمِها ، وأغرِي بسفك دمها ، فأبى  
ذلك مجدُّه الأثيل ، ومذهبه الجميل ، وما خصَّه الله تعالى به من حسن اليقين ،  
وصحة الدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة فانتصروا ببيغاث مُستَنسِر ، وقاموا بجمع

غير مستبصر ، فبرز من قصره ، متلافياً لأمره ، عليه غلالة ترفُّ على جسده ،  
وسيفه يتلظى في يده :

وذاك السيفُ راقٍ وراعٍ حتى كأنَّ عليه شيمةَ منتضيه  
كأنَّ الموتَ أودعَ فيه سرّاً ليرفعهُ إلى يومٍ كربه

فلقي على باب من أبواب المدينة فارساً مشهوراً بنجدة ، فرماه الفارس برمح  
التوى على غلّالته ، وعصمه الله تعالى منه ، وصبَّ هو سيفه على عاتق الفارس ،  
فشقه إلى أضلاعه ، فخرَّ صريعاً سريعاً ، فرأيت القائمين عندما تسنموا الأسوار  
تساقطوا منها ، وبعدها أمسكوا الأبواب تخلَّوا عنها ، وأخذوا على غير  
طريق ، وهوت بهم ريح الهيبية في مكان سحيق ، فظننا أن البلد من أقدائه قد  
صفا ، وثوب العصمة علينا قد ضفأ ، إلى أن كان يوم الأحد الحادي والعشرون  
من رجب فعظم الأمر في الخطب الواقع ، واتسع الحرق فيه على الراقع ، ودخل  
البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية بادية ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد  
وبأسه ، وتراميه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ،  
فشنت الغارة في البلد ، ولم يُبق فيه على سبَد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من  
منازلهم ، يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العنّآرى ،  
ورأيت الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال  
جميع ماله ، لم يصحب معه بلُعة زاد ، ولا بغية مراد ، فأمضيت عزيمتي في  
اتباعه ، فوصلت إليه بأغصات عقب ثقاف استنقذه الله منه ، فذكرت به شعراً  
كان لي في صديق اتفق له مثل ذلك في الشهر بعينه من العام الماضي ، وهو الأمير  
أبو عبد الله ابن الصفار ، وهو :

لم نقلُ في الثقافِ كان ثقافاً كنتَ قلباً به وكان شغافاً  
يمكثُ الزهرُ في الكمامِ ولكنْ بعد مكثِ الكمامِ يدنو قطافاً  
وإذا ما الهلالُ غابَ بغيمٍ لم يكنْ ذلك المغيبُ انكسافاً



إِنَّمَا أَنْتَ دَرَّةٌ لِّلْمَعَالِي رَكَّبَ الدَّهْرُ فَوْقَهَا أَصْدَافَا  
 حَجَبَ الْبَيْتِ مِنْكَ شَخْصاً كَرِيماً مِثْلَمَا تَحْجِبُ الدَّنَانُ السُّلَافَا  
 أَنْتَ لِلْفَضْلِ كَعْبَةٌ وَلَوْ أَنِّي كُنْتُ أُسْطِيعُ لَأَسْتَطَعْتُ الطَّوَافَا

قال أبو بكر : وجرت بيني وبينه مخاطبات ألد من غفلات الرقيب ،  
 وأشهى من رشقات الحبيب ، وأدل على السماح ، من فجر على صباح ، انتهى .  
 ثم قال : ولما خلع المعتمد وذهب إلى أغمات طلب من حواء بنت تاشفين  
 خباء عارية ، فاعتذرت بأنه ليس عندها خباء ، فقال :

هم أوقدوا بينَ جنبيكَ نارا أطالوا بها في حشاك استعارا  
 أما ينجلُ المجدُ أنْ يُرحلوك ولم يصحبوك خباء معارا  
 فقد قنعوا المجدَ إن كان ذلكَ وحاشاهمُ منك خزيًا وعارا  
 يقلُّ لعينيك أن يجعلوا سوادَ العيونِ عليكم شعارا

ثم إنّه بقي مأسوراً بأغمات إلى سنة ٤٨٦ ، فأخذ بمالقته رجل كبير يُعرف  
 بابن خلف ، فسُجن مع أصحاب له ، فنقبوا السجن وذهبوا إلى حصن منت ميور  
 ليلاً فأخرجوا قائدها ، ولم يضره ، وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل ،  
 فسألوه فإذا هو عبد الجبار بن المعتمد ، فولوه على أنفسهم ، وظن الناس أنه  
 الراضي ، فبقي في الحصن ، ثم أقبل مركب من الغرب يُعرف بمركب ابن الزرقاء ،  
 فانكسر بمرسى الشجرة قريباً من الحصن ، فأخذوا بنوده وطبوله وما فيه من  
 طعام وعدة فاتسعت بذلك حالتهم ، ثم وصلت أم عبد الجبار إليه ، ثم خاطبه أهل  
 الجزيرة وأهل أركش فدخلها سنة ٤٨٨ ، ولما بلغ خبر عبد الجبار إلى ابن تاشفين  
 أمر بثقاف المعتمد في الحديد ، وفي ذلك يقول :

قيدي أما تعلمني مُسليماً أبَيَّتَ أن تشفقَ أو ترحما

١ زاد في م ورقة ونصف ورقة ، ولكننا آثرنا عدم إثباتها هنا لأنها سترد في سياق الأخبار من بعد .

يُبصرني فيكَ أبو هاشمٍ فيثني القلبُ وقد هُشما

وبقي إلى أن توفي رحمه الله سنة ٤٨٨ .

وقد ساق الفتح قضية ثورة عبد الجبار بن المعتمد بعبارة البارة فقال :  
وأقام بالعدوة برهة لا يُروِّعُ له سِرْبُ وإن لم يكن آمناً ، ولا يثور له كرب  
وإن كان في ضلوعه كامناً ، إلى أن ثار أحدُ بنيه بأركش - معقل كان مجاوراً  
لإشبيلية مجاورة الأنامل للراح ، ظاهر على بسائط وبِطاح ، لا يمكن معه عيش ،  
ولا يتمكّن من منازلته جيش ، فغدا على أهلها بالمكارة وراح ، وضيّقَ عليهم  
المتسع من جهاتها والبرّاح ، فسار نحوه الأمير سير بن أبي بكرٍ رحمة الله عليه ،  
قبل أن يرتدّ طرف استقامته إليه ، فوجده وشره قد تشمّر ، وضره قد  
تنمّر ، وجمّره متسر ، وأمره متوعر ، فنزل عدوّته ، وحلّ للحزم  
حبّوته ، وتدارك داءه قبل إعضاله ، ونازله وما أعدّ آلات نضاله ، وانحشدت  
إليه الجيوش من كل قطر ، وأفرغ من مسالكة كل قطر ، فبقي محصوراً  
لا يشدّ إليه إلاّ سهم ، ولا ينفذ عنه إلاّ نفس أو وهم ، وامتسك شهوراً  
حتى عرضه أحدُ الرّماة بسهم فرماه ، فأصماه ، فهوى في مطلعهِ ، وخرّ  
قتيلاً في موضعه ، فدُفن إلى جانب سريره ، وأمن عاقبة تغريره ، وبقي أهله  
ممتنعين مع طائفة من وزرائه حتى اشتد عليهم الحصر ، وارتدّ عنهم  
النصر ، وعمهم الجوع ، وأغبّ أجفانهم الهجوع ، فنزلت منهم طائفة متهافئة ،  
وولت بأنفاس خافتة ، فتبعهم من بقي ، ورغب في التّنعّم من شقي ، فوصلوا  
إلى قبضة الملبات ، وحصلوا في غصّة المّات ، فوسّمهم الحيف ، وتقسمهم  
السيف ، ولما زار الشّبل خيفت سؤرة الأسد ، ولم يُرَجّ صلاح الكل والبعض  
قد فسّد ، فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثناءها ، وأحلّ ساحة الخطوب

١ القلائد : ٢٥ .

٢ زاد في م : أمير ابن تاشفين .

وفناءها ، وحين أركبوه أساودا ، وأورثوه حزنًا بات له معاودا ، قال :

غنتك أغمائية الألمانِ      ثقلت على الأرواحِ والأبدانِ  
قد كان كالثعبانِ رُحكاً في الوري      فغدا عليك القيدُ كالثعبانِ  
متمرداً يحميك كلَّ تمرد      متعطفاً لا رحمة للعاني  
قلبي إلى الرحمن يشكو بثه      ما خاب من يشكو إلى الرحمنِ  
يا سائلاً عن شأنه ومكانه      ما كان أغنى شأنه عن شانِ  
هاتيك قبته وذلك قصره      من بعد أي مقاصرٍ وقيانِ

ولما فقد من يجالسه ، وبعد عنه من كان يؤانسه ، وتمادى كربه ، ولم تسالنه  
حربه ، قال :

تؤملُ للنفسِ الشجيةِ فرجةً      وتأبى الخطوبُ السودُ إلا تماديا  
لياليك في زاهيك أصفى صحبتها      كذا صحبت قبلي الملوكُ اللياليا  
نعيمٌ وبؤسٌ ذا لذلك ناسخٌ      وبعدهما نسخُ المنايا الأمانيا

ولما امتدت في الثقافة مدته ، واشتدت عليه قسوة الكبلِ وشدته ، وأقلقته  
همومه ، وأطبقتة غمومه ، وتوالت عليه الشجون ، وطالت ليليه الجون ، قال :

أنباء أسركَ قد طبقتن آفاقا      بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا  
سرت من الغرب لا تطوى لها قدمٌ      حتى أتت شرقها تنعك إشراقا  
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدةً      وأغرق الدمعُ آفاقاً وأحداقا  
قد ضاق صدرُ المعالي إذ نُعيت لها      وقيل : إنَّ عليك القيد قد ضاقا  
أتى غلبت وكنت الدهرَ ذا غلب      للغالينِ وللسباقِ سباقا  
قلت الخطوبُ أذلتني طوارقها      وكان غربي إلى الأعداء طراقا

١ م ق : قيدك .

متى رأيتَ صروفَ الدهرِ تاركةً إذا انبرتَ لذوي الأخطارِ أرماقا

وقال لي من أثقه : لما ثار ابنه حيث ثار ، وأثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار ، جزع جزعاً مفرطاً ، وعلم أنه قد صار في أنشودة الشر متورطاً ، وجعل يتشكى من فعله ويتظلم ، ويتوجع منه ويتألم ، ويقول : عرض بي للمجن ، ورضي لي أن أمتحن ، ووالله ما أبكي إلاّ انكشاف من أتخلفه بعدي ، ويتحيفه بعدي ، ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهلت أسرته ، وظلته مسرته ، ورأيته قد استجمع ، وتشوف إلى السماء وتطلع ، فعلمت أنه قد رجا عودةً إلى سلطانه وأوبةً إلى أوطانه ، فما كان إلاّ بمقدار ما تنداح دائرة ، أو تلتفت مقلة حائرة ، حتى قال :

كذا يهلكُ السيفُ في جفنه	إلى هنزٍ كفتي طويلَ الحنينِ
كذا يعطشُ الرمحُ لم أعتقله	ولم تروه من نجيعِ يميني
كذا يُمنعُ الطُرفُ علكَ الشكِي	م مرتقباً غيرةً في كمينِ
كانَ الفؤارسَ فيه ليوثُ	تراعي فرائسها في عرينِ
ألا شرفُ يرحمُ المشرفي	مما به من شمات الوتينِ
ألا كرمُ ينعشُ السّمهري	ويشفيه من كلّ داء دفينِ
ألا حنةُ لابنِ محنية	شديدِ الحنينِ ضعيفِ الأنينِ
يؤملُ من صدرها ضمةٌ	تبوئه صدرَ كفؤٍ معينِ

وكانت طائفة من أهل فاس قد عاثوا فيها وفسقوا ، وانتظموا في سلك الطغيان واتسقوا ، ومنعوا جفون أهلها السنّات ، وأخذوا البنين من حجور آبائهم والبنات ، وتلقبوا بالإمارة ، وأركبوا السوء نفوسهم الأمارة ، حتى كادت أن تفقر على أيديهم ، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم ، إلى أن تدارك أمير المسلمين رحمه الله تعالى أمرهم ، وأطفأ جمرهم ، وأوجعهم ضرباً ، وأقطعهم ما شاء حزناً وكرهاً ، وسجنهم بأغمات ، وضمنهم جوانح الملمات ،

والمعتمد إذ ذاك معتقل هناك ، وكانت فيهم طائفة شعرية ، مُذنبَة أو بريّة ، فرغبوا إلى سجانهم ، أن يستريحوا مع المعتمد من أشجانهم ، فَخَلَّى ما بينهم وبينه ، وغمض لهم في ذلك عَيْنَه ، فكان المعتمد رحمه الله تعالى يَتَسَلَّى بمجالستهم ، ويجد أثر مؤانستهم ، ويستريح إليهم بِجَوَاهِ ، ويبوح لهم بسرّه ونجواه ، إلى أن شُفِعَ فيهم وانطلقوا من وثاقهم ، وانفرج لهم مُبْهِمٌ أغلاقهم ، وبقي المعتمد في محبسه يشتكي من ضيق الكبل ، ويكيكي بدمع كالوَبَلِّ ، فدخلوا عليه مُودِعِينَ ، ومن بثه متوجعين ، فقال :

أما لانسكابِ الدَّمْعِ في الخَدِّ راحَةً  
هبوا دعوةً يا آل فاسٍ لمبتلى  
تخلّصتم من سجنِ أغماتٍ والتوت  
مِنَ الدهنِ أمّا خلقها فأساودُ  
فهنّيمُ النعما ، ودامتُ لكلكم  
خرجتم جماعاتٍ وخلفتُ واحداً  
لقد آن أن يفتني ، ويفني به الخدُّ  
بما منه قد عافاكمُ الصمَدُ الفردُ  
عليّ قيودٌ لم يحنّ فكها بعدُ  
تلكوى وأما الأيدُ والبطشُ فالأسدُ  
سعادتهُ إن كان قد خانني سعدُ  
ولله في أمري وأمركمُ الحمدُ

ومر عليه في موضع اعتقاله سِرْبُ قَطَأٍ لم يعلق لها جناح ، ولا تعلق بها من الأيام جناح ، ولا عاقها عن أفرانها الأشرار ، ولا أعوزها البشام ولا الأراك ، وهي تمرح في الجو ، وتسرح في مواقع النو ، فتتكبد بما هو فيه من الوثاق ، وما دون أحبته من الرقباء والأغلاق ، وما يقاسيه من كَبَلِه ، ويعانيه من وجده وخبَلِه ، وفكر في بناته وافتقارهنّ إلى نعيم عَهْدِنَه ، وجبور حَضْرَتِه وشهيدته ، فقال :

بكيتُ إلى سربِ القطا إذ مررنَ بي  
سوارح لا سجنٌ يعوقُ ولا كَبَلُ  
ولم تكُ ، والله المعيدُ ، حسادةً  
ولكن حنيناً أن شكلي لها شكلُ

فأسرَحُ لا شملي صَدِيعٌ ، ولا الحشا  
هنيئاً لها أن لم يُفَرِّقْ جميعها  
وإذ لم تبت مثلي تطيرُ قلوبها  
وما ذاك ممّا يعتربه ، وإنّما  
لنفسي إلى لُقْيَا الحِمَامِ تشوّفٌ  
ألا عصمَ الله القطا في فراخها  
وجيعٌ ، ولا عينا يَبْكِيهما ثكلُ  
ولا ذاق منها البُعدَ عن أهلها أهلُ  
إذا اهترَبَ بابُ السجنِ أو صلصل القفلُ  
وصفتُ التي في جبلة الخلق من قبلُ  
سوايَ يحبُّ العيشَ في ساقه كبلُ  
فإنّ فراخي خانها الماءُ والظلُّ

وفي هذه الحالة زاره الأديب أبو بكر ابن اللبّانة ، وهو أحد شعراء دولته المرتضعين دررَها ، المنتجعين دررَها ، وكان المعتمد رحمه الله تعالى يميزه بالشفوف والإحسان ، ويجوّزه في فرسان هذا الشأن ، فلما رآه وحلّقات الكبّيل قد عضت بساقيه عض الأسود ، والتوت عليه التواء الأساود السود ، وهو لا يطيق إعمال قَدَم ، ولا يُريقُ دمعاً إلاّ ممزوجاً بدم ، بعدما عهدده فوق منبر وسرير ، ووسط جنّة وحرير ، تخفقُ عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ، وتكفّ الأمطار من راحته ، وتشرفُ الأقدار بحلول ساحته ، ويرتاع الدهرُ من أوامره ونواهيه ، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه ، ندبته بكلّ مقال يلهب الأكبّاد ، ويثير فيها لوعة الحارث بن عبّاد ، أبداع من أناشيد معبّد ، وأصدع للكبد من مرّاثي أربد ، أو بكاء ذي الرّمّة بالمرّبّد ، سلك فيها للاحتفاء طريقاً لاجباً ، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحباً ، فمن ذلك قوله :

انفضّ يديك من الدنيا وساكنها  
وقلْ لعالمها السفليّ قد كتّمتْ  
طوّتْ مظلتّها لا بل مدلتّها  
منّ كان بين الندى والبأس أنصلّه  
فالأرض قد أقفرتْ والناس قد ماتوا  
سريرةَ العالم العلويّ أغماتْ  
منّ لم تزلْ فوقه للعزّ راياتْ  
هنديّةٌ وعطاياهُ هنيّاداتْ

١ م : أن التى .

٢ ق ودوزي : وتشرق .

رماه من حيث لم تسترهُ سابغةُ  
 أنكرتُ إلاّ التواءاتِ القيودِ بهِ  
 غلظتُ بينَ همايينِ عَقْدَنَ لهِ  
 وقلتُ هن ذؤاباتُ فليمُ عكستُ  
 حسبها من قناهُ أو أعنتهِ  
 دروهُ ليثاً فخافوا منه عاديةُ  
 لو كان يُفْرَجُ عنهُ بعضَ آونةِ  
 بحرٍ محيطُ عهدناهُ تجميءُ لهُ  
 لهنّي على آلِ عبادٍ فإنهمُ  
 راحَ الحيا وغدا منهمُ بمنزلةِ  
 أرضُ كأنَّ على أقطارها سُرجاً  
 وفوقَ شاطيءِ واديها رياضُ ربّي  
 كأنَّ واديها سلكُ بلبستها  
 نهرُ شربتُ بعبريهٍ على صورِ  
 وربما كنتُ أسمو للخليجِ بهِ  
 وبالعروساتِ لا جفتُ منابتها

ولم تزل كبده تتوقّد بالزفرات ، واخلّده يتردد بين النكبات والعثرات ،  
 ونفسه تنقسم بين الأشجان والحسرات ، إلى أن شفته منيته ، وجاءته بها أمنيته ،  
 فدُفن بأغمات ، وأريح من تلك الأزمات :

وعُظلتِ المآثرُ من حُلاها وأفرِدَتِ المفاخِرُ من عُلاها

ورُفعت مكارم الأخلاق ، وكسدت نفائس الأعلاق ، وصار أمره عِبرةُ  
 في عصره ، وصاب أُندى عِبرةٍ في مصره . وبعد أيام وافى أبو بحر ابن عبد  
 الصمد شاعره المتصل به ، المتوصّل إلى المنى بسببه ، فلما كان يوم العيد وانتشر

الناس ضُحَى ، وظهر كلُّ متوارٍ وضَحَا ، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم ، واختيالهم بزيتهم وحُلاهم ، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخرَّ على ترُبه ولثمه :

ملكَ الملوكِ ، أسامعُ فأنادي      أم قد عدتُكَ عن السماعِ عوادي  
لما خَلتَ منك القصورُ فلم تكنْ      فيها كما قد كنتَ في الأعيادِ  
قبَلتُ في هذا الثرى لك خاضعاً      وتَخِدتُ قبرك موضعَ الإنشادِ

وهي قصيدة أطلال إنشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانحشر الناس إليه وانحفلوا ، وبكوا ببيكائه وأعوّلوا ، وأقاموا أكثر نهارهم مُطيفين به طوافَ الحجيج ، مديمين للبكاء والعجيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأفرحوا ماقيهم بفيضِ شؤونهم ، وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ، والأيام لا تدع حياً ، ولا تألو كلَّ نشر طيباً ، تطرق رزاياها كل سمع ، وتُفرِّق مناياها كل جمع ، وتُضمي كل ذي أمر ونهْي ، وترمي كل مشيد بوهْي ، ومن قبله طوت النعمان ابن الشقيقة ، ولوت مجازه في تلك الحقيقة . انتهى ما قصدنا جلبه من كلام الفتح ممّا يدخل في أخبار المعتمد بن عباد المناسبة لما مرّ .

وكلام الفتح كله الغاية ، وليس الخبر كالعيان ، ولذا قال بعض من عرّف به : إنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذكروهم في كتبه بنثره ، ساعه الله تعالى . وأخبار المعتمد رحمه الله تعالى تحتل مجلدات ، وآثاره إلى الآن بالغرب مجلدات ، وكان من النادر الغريب قولهم في الدعاء للصلاة على جنازته « الصلاة على الغريب » بعد اتساع ملكه ، وانتظام سلكه ، وحكمه على إشبيلية وأنحائها ، وقرطبة وزهرائها ، وهكذا شأن الدنيا في تدريسها نحو نُدبته وإغرائها . وقد توجه لسان الدين الوزير ابن الخطيب إلى أغمات لزيارة قبر المعتمد رحمه



الله تعالى ، ورأى ذلك من المهمات ، وأنشد على قبره أبياته الشهيرة التي ذكرتها في جملة نظمه الذي هو أرقّ من النسيم ، وأبهج من المحيّا الوسيم .  
 قلت : وقد زرت أنا قبر المعتمد والرّمَيْكِيّة أم أولاده ، حين كنت بمراكش المحروسة عام عشرة وألف ، وعمّي عليّ أمرُ القبر المذكور ، وسألت عنه من تُظن معرفته له ، حتى هداني إليه شيخ طعن في السن ، وقال لي : هذا قبر ملك<sup>١</sup> ملوك الأندلس ، وقبر حظيته التي كان قلبه بجبها خضاقاً غير مطمئن ، فرأيته في ربوة حسبا وصفه ابن الخطيب رحمه الله تعالى في الأبيات ، وحصلت لي في ذلك المحل خشية وادكار ، وذهبت بي الأفكار ، في ضروب الآيات ، فسبحان من يؤتي ملكه من يشاء لا إله غيره وارث الأرض ومنّ عليها وهو خير الوارثين .

وما أحسن قول الوزير ابن عبدون في مطلع رائيته الشهيرة :

الدهرُ يَفْجَعُ بعد العَيْنِ بالأثرِ      فما البكاء على الأشباحِ والصُّورِ

وهو القائل :

يا نائمَ الليلِ في فكرِ الشبابِ أفقُ      فصُبْحُ شَيْكٍ في أفقِ النهيِ بادي  
 غَصَّتْ عَيْنانَكَ أيدي الدهرِ ناسخةً      علماً بجهلٍ وإصلاحاً بإفسادِ  
 وأسلمتَ للمنايا آلَ مَسْلَمَةٍ      وعبّدتَ للرزايا آلَ عَبّادِ  
 لقد هوتْ منك ، خانيتها قوادمها ،      بكوكبٍ في سماءِ المجدِ وقَادِ

ومنها :

ومالك كان يحمي<sup>٢</sup> شَوْلَ قُرْطَبَةَ      أستغفرُ اللهَ ، لا بل شَوْلَ بَغْدادِ

١ ق : ملك من .

٢ في الأصول : يحمي وهو خطأ ؛ والقول ناظر إلى المثل « الفحل يحمي شوله مغلولا » .

شَقَّ العلومَ نطافاً والعُلا زَهراً ثُبِينَ ، ما بين روادٍ وورادٍ  
وأين هذه القصيدة في مدحهم من قصيدة الغصن منهم ، وهي قول أبي  
الحسن جعفر بن إبراهيم ابن الحاج اللورقي :

تَعَزَّ عن الدُّنيا ومعروفٍ أهلها إذا عُدِمَ المعروفُ في آلِ عِبَادِ  
حَلَلْتُ بهمُ ضيفاً ثلاثةَ أشهرٍ بغيرِ قِرَى ثم ارتحلتُ بلا زادٍ  
وهذا يدلُّك على أن الشعراء ، لم يَسَلِّمَ من لسانهم مَنْ أحسنَ فضلاً عمَّن  
أساء ، من العظماء والرؤساء ، وما أمدح قول أبي محمد غانم فيهم :

ومن الغريبِ غروبُ شمسٍ في الثرى وضياؤها باقٍ على الآفاقِ

وقال في المطمح في حق بني عبَّاد وأوليتهم ما صورته<sup>١</sup> : الوزير أبو القاسم  
محمد بن عبَّاد ، هذه بقيةٌ منتماها في لحم ، ومرتماها إلى مفخر ضخم ، وجدَّهم  
المنذر بن ماء السماء ، ومَطَّلَعهم من جو تلك السماء ، وبنو عبَّاد ملوك أنيسَ  
بهم الدهر ، وتنفس منهم عن أعقب الزهر ، وعمرَوا ربع الملك ، وأمروا بالحياة  
والهلك ، ومُعْتَضدهم أحد من أقام وأقعد ، وتبوا كاهلَ الإرهاب واقعد ،  
وافترش من عريسته ، وافترس من مكابد فريسته ، وزاحم بعود ، وهَدَّ كلَّ  
طوود ، وأخملَ كلَّ ذي زي وشارة ، وختلَ بوحى وإشارة ، ومعتمدهم  
كان أجود الأملاك ، وأحد نبيرات تلك الأفلاك ، وهو القائل ، وقد شغل عن  
منادمة خواص دولته بمنادمة العقائل :

لقد حَسَنَتْ إلى ما اعتدتُ من كرمٍ حينَ أرضٍ إلى مستأخِرِ المطرِ  
فهاها خِلَعاً أرضي السَماحَ بها محفوفةً في أكفِ الشَّرْبِ بالبيدَرِ

وهو القائل وقد حَنَّ في طريقه ، إلى فريقه :

أدارَ النوى كم طالَ فيكِ تلذذي      وكم عَقَّتني عن دارِ أهيفِ أغيدِ  
حلفتُ به لو قد تعرَّضَ دونه      كُماةُ الأعادي في النسيجِ المسرِّدِ  
بجرَّدتُ للضربِ المهندَ ، فانقضى      مُرادِي ، وعزماً مثلَ حدِّ المهندِ

والقاضي أبو القاسم هذا جدهم ، وبه سَقَرَ مجدهم ، وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر ، واختصَّهم منه بالحظ الوافر ، فإنه أخذ الرياسة من أيدي جبابر ، وأضحى من ظلالها أعيان أكابر ، عندما أناخت بها أطماعُهُم ، وأصاغت إليها أسماعُهُم ، وامتدت إليها من مستحقيها اليد ، وأتلعوا أجياداً زانها الجيِّد ، وفغَرَ عليها فمه حتى هجا بيت العبدى ، وتصدى إليها من تحضَّر وتبَدَّى ، فاقتعد سنامها وغاربها ، وأبعد عنها عَجَمها وأعاربها ، وفاز من الملك بأوفر حصَّة ، وغدت سِمَتُهُ به صفة مختصة ، فلم يمح رسم القضاء ، ولم يتسم بسمه الملك مع ذلك النفوذ والمضاء ، وما زال يحمي حوزته ، ويجلو غرَّتَه ، حتى حوته الرجام ، وخلت منه تلك الآجام ، وانتقل الملك إلى ابنه المعتضد ، وحل منه في روض نَمَقَ له ونُضد ، ولم يعمر فيه ولم يدم ولاه ، وتسمى بالمعتضد بالله ، وارتمى إلى أبعاد غايات الجود بما أناله وأولاه ، لولا بطش في اقتضاء النفوس كدَّر ذلك المنهل ، وعكر أثناء ذلك صفو العَلِّ والنهْلِ ، وما زال للأرواح قابضاً ، وللوثوب عليها رابضاً ، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر ، وينتصف منهم بالدهاء والمكر ، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتمد ، فاكتحل منه طرفه الرَّمَد ، وأحمد مجده ، وتقلد منه أيَّ بأسٍ ونَجْدَة ، ونال به الحق مناه ، وجرَّ رسنه ، وأقام في الملك ثلاثاً وعشرين سنة ، لم تعدم له فيها حسنة ولا سيرة مستحسنة ، إلى أن غلبَ على سلطانه ، وذهب به من أوطانه ، فنقل ،

١ م : وتصدر أثناء ذلك المل والنهل ؛ المطمح : وتصور . . . إلخ .

إلى حيث اعتقل ، وأقام كذلك إلى أن مات ، ووارته برية أغمات ، وكان للقاضي  
جده أدب غصّ ، ومذهب مبيضّ ، ونظم يرتجله كل حين ، ويبعثه أعطر من  
الرياحين ، فمن ذلك قوله يصف النيلوفر :

يا ناظرين لذا النيلوفرِ البهجِ وطيبِ مخبره في الفسوحِ والأراجِ  
كأنه جامٌ دُرٌّ في تَأَلَّقِهِ قد أحكموا وسطه فصّاً من السبجِ  
انتهى المقصود منه .

٦٧١ - [ تراجم منقولة عن الفتح ]

[ ١ - ترجمة ابن النبي من المطمح ]

وهو - أعني الفتح - يشيد قصور الشرف إذا مدح ، ويهدم معاقلها إذا  
هجا وقدح .

ومن أغراضه قوله في « المطمح » في حق الأديب أبي جعفر ابن النبي<sup>١</sup> :  
رافع رايات القريض ، وصاحب آيات التصريح والتعريض ، أقام شرائعه ،  
وأظهر بدائعه ، إذا نظم أزرى بالعقود ، وأتى بأحسن من رقم البرود ، وكان  
أليف غلمان ، وحليف كفر لا إيمان ، ما نطق متشرعاً ، ولا رمق متورعاً ،  
ولا اعتقد حشراً ، ولا صدق بعثاً ولا نشراً ، وربما تنسك مجوناً وفتكاً ، وتمسك  
باسم التقى وقد هتكه هتكاً ، لا يبالي كيف ذهب ، ولا بما تمذهب ، وكانت  
له أهاجي جرع بها صاباً ، ودرع منها أوصاباً ، وقد أثبت له ما يرتشف ريقاً ،  
ويشرب تحقيقاً ، فمن ذلك قوله يتغزل :

من لي بغرة فاتنٍ يختالُ في حللِ الجمالِ إذا بدا وجليتهِ  
لو شمت في وضحِ النهارِ شعاعها ما عاد جنحُ الليلِ بعدَ مضيتهِ

١ المطمح : ٩١ وله ترجمة في القلائد : ٢٩٨ ؛ وانظر النفع ٣ : ٤٨٧ .

شرقت لآلي الحسن حتى خلتصت  
 في صفحته من الجمال أزهراً  
 ذهبية في الخلد من فضيته  
 غذيت بوسمي الحيا ووليه  
 من سحر عينه ، حسام سميه  
 لقتل محبه

وله فيه :

كيف لا يزداد قلبي  
 وإذا قلت علي  
 هو كالغصن وكالبدر  
 أشرق البدر كمالا  
 إن من رام سلوي  
 لست أسلو عن هواه  
 قل لمن قصر فيه  
 دون أن تدرك هذا  
 من جوى الشوق خبالا  
 بهر الناس جمالا  
 ر قواماً واعتدالا  
 وانثنى الغصن احتيالا  
 عنه قد رام محالا  
 كان رشداً أو ضلالا  
 عدل نفسي أو أطالا  
 تسلب الأفق الهلالا

و كنت بيمورقة وقد حلها متسماً بالعبادة ، وهو أسرى إلى الفجور من خيال  
 أبي عبادة<sup>١</sup> ، وقد لبس أسمالاً ، ولبس منه أقوالاً وأفعالاً ، سجوده هجود ،  
 وإقراره بالله ججود ، وكانت له رابطة لم يكن للوازها مرتبطاً ، ولا بسكانها<sup>٢</sup>  
 مغتبطاً ، سماها بالعقيق وسمى في كان يتعشقه بالحمى ، وكان لا يتصرف إلا  
 في صفاته ، ولا يقف إلا بعرفاته ، ولا يؤرقه إلا جواه ، ولا يشوقه<sup>٣</sup> إلا  
 هواه ، فإذا بأحد دعاة حبيبه ، ورواة تشيبيه ، قال له : كنت البارحة بحماه ،  
 وذكر له خبراً ورى به عني وعماه ، فقال :

١ أبو عبادة البحري ذكره لإكثاره من وصف طيف الخيال وطروقه .  
 ٢ م : بسكانها .  
 ٣ دوزي : يشوقه .

تنفّسَ بالحمى مطلولُ أرضٍ ١ فأودع نَشْرَهُ نَشْرًا شمالا  
فصبّحتِ العيونُ إليَّ كسلى تجرُّرُ فيه أرداناً خضالا  
أقولُ وقد شممتُ الترابَ مسكاً بنفّحتِها يميناً أو شمالا  
نسيمٌ جاء يببعتُ منك طيباً ويشكو من محبتك اعتلالا

ولما تقرر عند ناصر الدولة من أمره ما تقرر ، وتردد على سمعه انتهاكُه وتكرره ، أخرجه من بلده ونفاه ، وطمس رسم فسقِه وعفاه ، فأقنع إلى المشرق وهو جار ، فلما صار من ميورقة على ثلاثة مجار ٢ ، نشأت له ريح صرفته عن وجهته ، إلى فقْد مهجته ، فلما لحق بميورقة أراد ناصر الدولة إمامته ، وأخذ ثار الدين منه وإراحتة ، ثم آثر صفحه ، وأحمد ذلك الجمر ولفّحه ، وأقام أياماً ينتظر ريحاً عليها تزجيه ، ويستهدبها لتخلصه وتنجيه ، وفي أثناء بلوته ، لم يتجاسر أحد على إتيانه من إخوته ، فقال يخاطبهم :

أحييتنا الألى عتبوا علينا فأقصرنا وقد أزفَ الوداعُ  
لقد كنتم لنا جدلاً وأنساً فهل في العيش بعدكم انتفاعُ؟  
أقولُ وقد صدرنا بعدَ يومٍ أشوقُ بالسفينة أم نزاعُ؟  
إذا طارت بنا حامت عليكم كأنّ قلوبنا فيها شرعُ

وله يتغزل :

بني العربِ الصّميمِ ألا رعيتمْ ماثركمْ بأثارِ السّماحِ  
رفعتمْ ناركمْ فعشا إليها بوهنِ فارسِ الحيّ الوقاحِ  
فهل في القعبِ فضلٌ تنضحوهُ به من محضِ ألبانِ اللقاحِ  
لعلّ الرّسلَ شابتُهُ الثنايا بشهدٍ من ندى نورِ الأفاحِ

١ م : روض .

٢ المطح : جوار .

وله أيضاً :

وكأنما رشأ الحمى لما بدا  
غصب الغمام قسيته فأراكها  
لك في مضلعة الحديد المعلم  
من حُسن معطفه قويم الأسهم

وله أيضاً :

نظرت إليه فاتقاني بمقلة  
حميت الجفون النوم يارشأ الحمى  
تردُّ إلى نخري صدورَ رماح  
وأظلمت أيامي وأنت صباحي

وقال :

قالوا تصيبُ طيورَ الجوّ أسهمهُ  
تعلمت قوسها من قوسِ حاجبه  
يروحُ في برودةِ كالتنّفسِ حالكة  
وربما راق في خضراءِ مورقة  
إذا رماها فقلنا عندنا الخبرُ  
وأيد السهم من الحَاظه الحورُ  
كما أضاء بجُنْحِ الليلةِ القمرُ  
كما تفتَح في أوراقهِ الزهرُ

[ ٢ - ترجمة ابن لبال من المطمح ]

وقال في ترجمة أبي الحسن ابن لبال<sup>١</sup> : شاعر سمح ، متقلد بالإحسان متشع ، أمّ الملوك والرؤساء ، ويمّم تلك العزّة القعساء ، فانتجع مواقع خيرهم ، واقتطع ما شاء من مبيّرهم ، وتمادت أيامه إلى هذا الأوان ، فجالت به في ميدان الهوان ، فكسد نفاقه ، وارتدّت آفاقه ، وتوالى عليه حرمانه وإخفاقه ، وأدركنه وقد خبثته سنونه ، وانظرتّه متّونه ، ومحاسنه كعهدها في الانتقاد ، وبُعدها من الانتقاد ، وقد أثبت منها ما يعذب جنّي وقطافاً ، ويستعذب استنزالاً واستلطافاً ، فمن ذلك قوله يستنجد الأمير الأجلّ أبا إسحاق ابن أمير المسلمين :

١ المطمح : ٩٣ وكتب فيه خطأ « ابن لسان » . وفي ق م أحياناً : ابن لبان .

قلّ للأمير ابن الأمير بل الذي  
 والمجنبي بالزُرُقِ وهي بنفسجٌ  
 جاءتك آمالُ العفاةِ ظوامئاً  
 وانثر على المداحِ سيبكَ ، إنهم  
 فالناس إن ظلموا فأنت هو الحمى  
 أبداً به في المكرمات وفي الندى  
 ورَدَ الجراحِ مضعقاً ومنضداً  
 فاجعل لها من ماء جودك مورداً  
 نثروا المدائحِ لؤلؤاً وزبرجداً  
 والناس إن ضلوا فأنت هو الهدى

أخبرني وزير السلطان أن هذه القطعة لما ارتفعت ، اعتنت بجملة الشعراء  
 وشققت ، فأنجز لهم الموعد ، وأورق لهم ذلك العود ، وكثر اللغظ في تعظيمها ،  
 واستجادة نظيمها ، وحصل له بها ذكر ، وانصقل له بسببها فكر .

وله من قطعة يصف بها سيفاً :

كلُّ نهرٍ توقّدتْ شقّرتاه  
 فهو ماء قد رُكبتْ فوق نارٍ  
 كاتقادِ الشهابِ في الظلماة  
 أو كنارٍ قد ركبتْ فوق ماء

وكتب إليّ معزياً عن والدني :

على مثله من مصابٍ وجبّ  
 وقلبٍ فروقٍ ولبّ خفوقٍ  
 فقد خشعتْ للتقى هضبةً  
 من الجاعلاتِ محاريبها  
 من القائماتِ بظلّ الدجى  
 فكم ركعتْ إثرها في الدجى  
 وكم سكبتْ في أوانِ السجودِ  
 وقد خلقتْ ولداً باسلاً  
 على من أصيب به المنتجبُ  
 ونفسٍ تشبّ ، وهم نصبُ  
 ذؤابتها في صميمِ العرَبِ  
 هوادجها أبداً والقَتبُ  
 ولا منّ تسامرُ إلاّ الشهبُ  
 تناجي بها ربّها من كَشَبِ  
 مدامع كالغيثِ لما انسكبُ  
 فصيحاً إذا ما قرا أو خطبُ

١ م : أصاب .



يفلُّ السيفَ بأقلامِهِ ويكسرُ صُمَّ القنا بالقَصَبِ

وكان القائد أبو عمرو عثمان بن يحيى بن إبراهيم أجلّ من جال في خلكد ، واستطال على جلكد ، رشأ يحيى باحتشامه ، ويسترّد البدر بلثامه ، ويزري بالغصن تشنّيه ، ويثمر الحسن لو دنت قُطوفه لمجتنيه ، مع لودعية تحالها جريالاً ، وسجية يختال فيها الفضل اختيالاً ، وكان قد بعد عن أنسنا بمخص ، وانتضى من تلك القُمص ، وكان بثمر الأشبونة فسده ، ولم يفرج لنا من الأنس بعده ما يسدّ مسده ، إلى أن صدر ، فأسرع إلينا وابتدر ، فالتقينا وبتنا ليلة نام عنها الدهر وغفّل ، وقام لنا بما شئنا فيها وتكفل ، فينا نحن نفض ختامها ، ونفض عنا غُبار الوحشة وقتامها ، إذا أنا ببن لبال هذا وقد دخل إذنه علينا فأمرناه بالنزول والتقيناه بترحيب ، وأنزلناه بمكان من المسرة رحيب ، وسقيناه صغاراً وكباراً ، وأريناها إعظاماً وإكباراً ، فلما شرب ، طرب ، وكلما كرعها ، التحف السلوة وتدرعها ، وما زال يشرب أقداحاً ، وينشد فينا أمداحاً ، ويفدي بنفسه ، ويستهدي الاستزادة من أنسه ، فهتكنا الظلام بما أهدها من البديع ، واجتلينا محاسنه كالصديع ، وانفصلت ليلته عن أم مسرة ، وأعم مبرة ، وارتحل عثمان أعزه الله إلى ثغره ، وأقام به برهة من دهره ، فمشيت بها إليه مجدداً عهداً ، ومتضلعاً من مؤانسته شهداً ، فكتب ابن لبال هذه القطعة من القصيدة يذهب إلى شكره ، ويجتهد في تجديده ذكره :

ما شامَ إنسانُ إنسانَ كعثمانِ ولا كبعيته من حُسنِ إحسانِ  
بدرُ السيادةِ يبدو في مطالعِهِ من المحاسنِ محفوفاً بشهبانِ  
له التمامُ وما بالأفقِ من قمرٍ متممٍ دونَ أن يُرمى بنقصانِ  
به الشيبةُ تزهي من نصارتها كما تساقطَ ظلُّ فوق بستانِ

١ الصديع : الصبح .

معصفرُ الحُسنِ للأبصارِ ناصعُهُ  
نبتت عنه بأنباء إذا نَفَحَتْ  
قامت عليه براهينُ تصدَّقها  
قد زادها ابنُ عبيد الله من وَضَحِ  
بالله بلَغُهُ تسليمي إذا بلغتُ  
وليتَ أيّ لو شاهدتُ أنسكما  
فألفظُ الكَلِمَ المَثورَ بينكما  
لله دركُ يا ذا الخطينِ لقد  
كلا كما البحرُ في جودٍ وفي كرمِ  
إن كان فارسَ هيجاءٍ ومعرِكِ  
فاذكرُ أبا نصرٍ المعمورَ مَنْزِلُهُ  
قصائدًا لأخي ودِّ وإن نَزَحَتْ

كَأَنَّهُ فَضَةٌ شَيْبَتُ بَعِيقَانِ  
تَعَطَّلَتْ نَفَحَاتُ الْمَسْكِ وَالْبَانَ  
كَالشَّكْلِ قَامَ عَلَيْهِ كُلُّ بَرَهَانَ  
مَا زَادَتْ الشَّمْسُ نُورَ الْفَجْرِ لِلرَّانِي  
تِلْكَ الرِّكَابُ وَعَجَلٌ غَيْرَ لِيَانَ  
عَلَى كَوْوسٍ وَطَاسَاتٍ وَكِيْزَانَ  
كَأَنَّمَا هُوَ مِنْ دُرٍّ وَمَرْجَانِ  
خَطَطَتْ بِالْمَدْحِ فِيهِ كُلَّ دِيْوَانَ  
أَوِ الْغَمَامَةِ تُسْقِي كُلَّ ظَلْمَانَ  
فَأَنْتَ فَارِسُ إِفْصَاحٍ وَتَبْيَانِ  
بِالرَّفْدِ مَا شِئْتَ مِنْ مِثْنَى وَوَحْدَانِ  
بِكَ الرِّكَابُ إِلَى أَقْصَى خِرَاسَانَ

### [ ٣ - ترجمة عبد المعطي من المطمح ]

وقال في ترجمة الأديب أبي بكر عبد المعطي<sup>١</sup> : بيت شعر ونباهة ، وأبو بكر ممن انتبه خاطره للبدائع أي انتباهة ، وله أدب باهر ، ونظم كما سَقَرَتْ أزاهر ، وقد أثبت له جمالاً ، يبلغ آمالاً ، فمن ذلك قوله ، وقد اجتمعنا في ليلة لم يضرب لها وعد ، ولم يعزُب عنها سعد ، وهو قَعْدِي ، قد شبَّ عن طَوَّق الأتس في النَّدي ، وما قال خالي عمرو ولا عدي<sup>٢</sup> ، والكهولة قد قبضته ، وأقعدته عن ذلك وما أنهضته :

١ المطمح : ٩٦ .

٢ في الأصول والمطمح : وما قال خلا عمرو ولا عدا ؛ والإشارة هنا إلى المثل « شب عمرو عن الطوق » وهو عمرو بن عدي ، الذي ثار بلذيمة .

إمامُ النثرِ والمنظومِ فَتَنَحُّ جميعُ الناسِ ليلٌ وهو صَبِحُ  
 له قلمٌ جليلٌ لا يجارى يقرُّ بفضله سيفٌ ورمحُ  
 يباري المزنَ ما سَحَّتْ سماحاً وإن سَحَّتْ فليسَ لديه شُحُّ

وكان مرتسماً في عسكر قرطبة ، وكان ابن سراج يقوم له بكل ما يبغي  
 تطلبه ، خيفة من لسانه ، ومحافضة على إحسانه ، ولما خرج إلى إقليش خرج معه ،  
 وجعل يساير من شيعته ، فلما حصلوا بفحص سراق ، وهو موضع توديع  
 المفارق للمفارق ، قرب منه أبو الحسين ابن سراج لوداعه ، وأنشده في تفرق  
 الشمل وانصداعه :

هُمُ رحلوا عَنَّا لأمرٍ لهم عَنَّا فما أحدٌ منهم على أحدٍ حنَّا  
 وما رحلوا حتى استقادوا نفوسنا كأنهم كانوا أحقَّ بها مِنَّا  
 فيا ساكني نجدٍ لتبعدَ داركمُ ظننَّا بكمُ ظننَّا فأخلفتم الظننَّا  
 غدرتم ولم أغدرْ ، وخنتم ولم أخنْ وقلم ولم أعتبْ ، وجرتم وما جرنَّا  
 وأقسمتم أن لا تخونون في الهوى فقد ، وذمامِ الحبِّ ، خنتم وما خننَّا  
 ترى تجمعُ الأيامُ بيني وبينكم ويجمعنا دهرٌ نعودُ كما كنَّا

فلما استتم إنشاده لحق بالسلطان واعتذر إليه بمريض خلفه ، وهو يخاف  
 تلفه ، فأذن له بالانصراف ، وكتب إلى أبي الحسين ابن سراج :

أما والهدايا ما رحلنا ولا حُلنَّا وإن عنَّ من دون الترحلِ ما عَنَّا  
 تركنا ثوابَ الفضلِ والعزِّ للعزى<sup>١</sup> على مضضٍ مِنَّا وعدنَّا كما كنَّا  
 وليس لنا عنكم على البينِ سلوةٌ<sup>٢</sup> وإن كان أنتم عندكم سلوةٌ عَنَّا

وجمعتنا عشية بربض الزجالي<sup>٢</sup> بقرطبة ، ومعنا لمة من الإخوان وهو في

١ كذا في م ق وفي المطح : للعزى ؛ وفي التجارية : تركنا ثواب الغزو والقصد للعدا .

٢ م : الرحال .

جملتهم ، مناهض لأعيانهم وجيلتهم ، بفضل أدبه ، وكثرة سحبه ، فجعل  
يزنجل ويروي ، وينشر محاسن الآداب ويطوي ، ويمتحن بتلك الأخبار ،  
ويقطعنا منها جانب اعتبار ، ويطلعنا على إقبال الأيام وعلى الإدبار ، ثم قال :

أيا ابنَ عميدِ الله يا ابنَ الأكارِمِ      لقد بَحَلتَ يَمناكَ صوبَ الغمامِ  
لك القلمُ الأعلى الذي عطلَ القنا      وقلَّ ظُبَاتِ المِرهفاتِ الصوارِمِ  
وأخلاقكَ الزُّهرُ الأزاهرُ بالرُّبى      ترفُّ بشؤبِوبِ الغيوثِ السِواجِمِ  
بقيتَ لتشييدِ المكارِمِ والعلَى      تظاهرها بالسالفِ المتقادمِ

واجتمع عند أبيه لُمةٌ من أهل الأدب ، وذوي المنازل والرتب ، في عشية  
غيم أعقب مطراً ، وخط فيها البرق أسطراً ، والبرْدُ يتساقط كدرٍ من نظام ،  
ويترأى كثنائيا غادة ذات ابتسام ، وهو غلام ما نضا بُرد شبابه ، ولا انتضى  
مُرَهَفَ آدابه ، فقال معرضاً بهم ، ومتعرضاً لتحقق أدهم :

كأنَّ الهِواءَ غديرٌ جَمَدٌ      بحَيْثُ البروقُ تُذِيبُ البرَدُ  
خيوطٌ وقد عُقِدَت في الهِواءِ      وراحةٌ رِيحٍ تحُلُّ العُقَدُ

وشرب في دار ابن الأعمى في يوم لم يرَ الدهر فيه إساءة ، وليل نَسَخَ  
نورُ أنسه مَساءه ، ومعهم جملة من الشعراء ، وجماعة من الوزراء ، منهم  
أبناء القَبْطُرنة فوقع بينهم عتاب وتعدال ، وامتهان في ميدان المشاجرة وابتدال ،  
آل به إلى تجريد السيف ، وتكدير ما صفا بذلك الحَيْف ، فسكنوه بالاستئزال ،  
وثنَّوه عن ذلك النزال .

[ ٤ - ترجمة ابن بقي من المطمح والقلائد ]

وقال في المطمح في حق أبي بكر يحيى بن بقي القرطبي صاحب الموشحات  
البديعة : كان نبيل السيرة والنظام ، كثير الارتباط في سلوكه والانتظام ، أحرز  
خصالاً ، وطرزَ بمحاسنه بُكراً وأصلاً ، وجرى في ميدان الإحسان إلى أبعده

م ١ : الزواهر .

أمّد ، وبنى من المعارف أثبت عمّد ، إلاّ أن الأيام حرّمته ، وقطعت جبل  
 رعايته وصرّمته ، فلم تم له وطراً ، ولم تُسجّم عليه الحظوة مطراً ، ولا  
 سوّغت من الحرمة نصيباً ، ولا أنزلته مرعى خصيباً ، فصار راكب سهوات ،  
 وقاطع فلوات ، لا يستقر يوماً ، ولا يستحسن يوماً ، مع توهم لا يُظفره  
 بأمان ، وتقلّب ذهن كالزمان ، إلاّ أن يحيى بن علي بن القاسم نزعه من  
 ذلك الطيش ، وأقطعته جانباً من العيش ، وأرقاه إلى سمائه ، وسقاه صيب  
 نعمائه ، وفيّاه ظلاله ، وبوّاه أثر النعمة بجوس خلاله ، فصرف به أقواله ،  
 وشرف بعواقبه فعاله ، وأفرده منها بأنفس دُرّ ، وقصده منها بقصائد غرّ ؛  
 انتهى المقصود جلكبّه من ترجمته في المطمح .

وقال في حقه في القلائد : رافع راية القريض ، وصاحب آية التصريح فيه  
 والتعريض ، أقام شرائعه ، وأظهر روائعه ، وصار عصيه طائعه ، إذا نظم  
 زرى بنظم العقود ، وأتى بأحسن من رقم البرود ، وطقا عليه حيرمانه ،  
 فما صفا له زمانه ، انتهى .

وابن بقيّ المذكور هو القائل :

بأبي غزال غازلتَهُ مُقلّتي بين العُدَيْبِ وبين شطبيّ بارقِ

الآبيات المذكورة في غير هذا الموضع .

ومن موشحاته قوله :

غلب الشوقُ بقلبي فاشتكى ألمَ الوجدِ فلبّبتُ أدْمعي

أيّها الناسُ فؤادي شغيفُ

وهو من بغي الهوى لا يُنصفُ

كم أداريه ودَمعي يكيفُ

أيّها الشادنُ منَ علّمكا بسهامِ اللحظِ قتلَ السبعِ

بدرُ تيمّ تحت ليلٍ أغطشِ  
طالعٌ في غصنِ بانٍ متشي  
أهيفُ القَدِّ بخدِّ أرقشِ

ساحِرُ الطرفِ وكمْ ذا فتكا بقلوبِ الأسدِ بين الأضلعِ

أي ريمٍ رمتهُ فاجتنبيا  
وانثى يهترُ من سُكْرِ الصبا  
كفضيبِ هزّه ريحُ الصبا

قلتُ هبْ لي يا حبيبي وصدِّكا واطرحْ أسبابَ هجري ودعِ

قال خدّي زهره مُدْ فوفا  
جرّدتْ عينيَّ سيفاً مرهفا  
حذراً منه بأن لا يُقطّفا

إنّ مَنْ رامَ جنّاهُ هلّكا فأزلْ عنكْ علالَ الطمعِ

ذاب قلبي في هوى ظيِّ غريرِ  
وجههُ في الدّجنِ صبحٌ مستنيرِ  
وفؤادي بين كفيهِ أسيرِ

لم أجدُ للصبرِ عنه مسلكا فانتصاري بانسكابِ الأدمعِ

وقال رحمه الله تعالى :

خذْ حديثَ الشوقِ عن نفسي وعن الدّمعِ الذي همّعا

ما ترى شوقي وقد وقّدا

وهمي دمني واطردا  
واغتدى قلبي عليك سدى

آه من ماء ومن قبس بين طرفي والحشا جمعا

بأبي ريم إذا سقرا  
أطلعت أزراره قمترا  
فاحذروه كلما نظرا

فبالحاظ الجفون قسي أنا منها بعض من صرعا

أرتضيه جار أو عدلا  
قد خلعت العذر والعدلا  
إنما شوقي إليه جلا

كم وكم أشكو إلى اللعس ظمئي لو أنه نفعنا

صال عبد الله بالحوار  
وبطرف فاتر النظر  
حكيمه في أنفس البشر

مثل حكم الصبح في الغلس إن تجلى نوره صدعا

شبهته بالرشا الأمم  
فلعمري إنهم ظلموا  
فتعنتي من به السقم

أين ظبي القفر والكنس من غزال في الحشا رتعا

انتهى .

وله أيضاً :

ما ردّني لابسٌ      ثوبَ الضنى الدارسُ      إلاّ قمرٌ  
في غصنٍ مائسٍ      شعاعه عاكسٌ      ضوء البصرِ  
أسيرٌ كالسَّيْلِ      إليّهِ لا باعُ      إلا ودادي  
والطيفُ في خيلٍ      هـنَّ إسرَاعُ      مع الرقادِ  
يا كوكبَ الليلِ      إن كنتَ ترتاعُ      فلم فؤادي  
كالأسدِ العابسِ      لكنّه خانسٌ      من الحورِ

ومن نظمه قصيدة مدح يحيى بن علي بن القاسم المذكور بها ، منها في المديح قوله :

نورانٍ ليسا يُحجبانِ عَنِ الوري  
وكلاهُما جُمعا ليحيى فليدعُ  
في كلّ أفقٍ من جمالِ ثنائه  
ردُّ في شمائله وردُّ في جوده  
بدرٌ عليه من الوقارِ سَكِينَةٌ  
مثلُ الحسامِ إذا انطوى في غمده  
أربى على المزنِ المَلِثُ لأنّه  
كرمُ الطباعِ ولا جمالُ المنظرِ  
كتمان نورِ علائهِ المشهرِ  
عرَفُ يزيدُ على دخانِ المجرِ  
بين الخديقةِ والغمامِ المطرِ  
فيها لقيطةٌ كلّ ليثٍ مخدرِ  
ألقي المهابة في نفوسِ الحُصَرِ  
أعطى كما أعطى ولم يستعبرِ  
ومنها :

أقبلتُ مرتاداً لجودك إنّه  
ورأيتُ وجهَ النُججِ عندك أيضاً  
وهي طويلة .

[ استطراد ]

وقوله « أربى على المزن المثلث - البيت » هو معنى تلاعب الشعراء بكرته ،



وأورده كلٌ منهم على حسب مقدرته ، فقال بعض :

من قاسَ جَدَّوَاكَ بِالْغَمَامِ فَمَا      أَنْصَفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ  
أَنْتَ إِذَا جُدْتَ ضَاحِكٌ أَبْدَأُ      وَهُوَ إِذَا جَادَ دَامِعُ الْعَيْنِ

وقال آخر :

ما نَوَالُ الْغَمَامِ يَوْمَ رُبَيْعٍ      كَنَوَالِ الْأَمِيرِ يَوْمَ سَخَاءِ  
فَنَوَالُ الْأَمِيرِ بَدْرَةٌ عَيْنٍ      وَنَوَالُ الْغَمَامِ قَطْرَةٌ مَاءِ

وهما من شواهد البدیع .

وقال أبو عبد الله الحوضي التلمساني في قصيدة مدح بها سلطان تلمسان أبا عبد الله الزباني :

أَصْبَحَ الْمَزْنُ مِنْ عَطَائِكَ يَحْكِي      يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِلْأَنَامِ عَطَاءِ  
كَيْفَ يُدْعَى لَكَ الْغَمَامُ شَبِيهَاً      وَلَقَدْ فُقِّتَهُ سَنًا وَسِنَاءِ  
أَنْتَ تَعْطِي إِذَا تَقَصَّرَ مَالاً      وَهُوَ يَعْطِي إِذَا تَطَوَّلَ مَاءِ

رجع - وذكر العماد في الخريدة ابن بقي المذكور ، وأورد له جملة من المقطعات ، ومحاسنه كثيرة رحمه الله تعالى ؛ وبقي على وزن علي .

رجع إلى بني عبّاد رحمهم الله تعالى :

وقال ابن اللبّانة في بني عبّاد ما نصه : بماذا أصفهم وأحليهم ، وأي منقبة من الجلالة أوليهم ، فهم القوم الذين تجل مناقبهم عن العد والإحصاء ، ولا يتعرض لها بالاستيفاء والاستقصاء ، ملوك زينت بهم الدنيا وتحلّت ، وترقت حيث شاءت وحلّت ، إن ذكرت الحروب فعليهم يوقف منها الخبر اليقين ، أو عدّت المآثر فهم في ذلك في درجة السابقين ، أصبح الملك بهم مُشرق القسّام ، والأيام

ذات بهجة وابتسام ، حتى أناخ بهم الحمام ، وعطل من محاسنهم الوراثة والأمام ،  
 فنقل إلى العدم وجودهم ، ولم يرع بأسهم وجودهم ، وكل ملك آدمي فمفقود ،  
 ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴾ (هود : ١٠٤) ، فأول ناشئة ملكهم ،  
 ومحصل الأمر تحت ملكهم ، عظيمهم الأكبر ، وسابقة شرفهم الأجل الأشهر ،  
 وزينهم الذي يعد في الفضائل بالوسطى والخنصر ، محمد بن عبّاد ، ويكنى أبا  
 القاسم ، واسم والده إسماعيل ، ومن شعره قوله :

يا حَبْدًا الياسمينُ إذْ يزهرُ فوقَ غصونٍ رطبيةٍ نُضِرَّ  
 قد امتطى للجبالِ ذروتها فوقَ بساطٍ من سندسٍ أخضرٍ  
 كأنه والعيونُ ترمقُهُ زمردٌ في حلاله جوهراً

ولنذكر كلام ابن اللبّانة وغيره في حقهم فنقول : وصف المعتضد رحمه  
 الله تعالى بما صورته<sup>١</sup> : المعتضد أبو عمرو عبّاد رحمه الله تعالى ، لم تخل أيامه في  
 أعدائه من تقييد قدام ، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم ، حتى لقد  
 كانت في باب داره حديقة لا تثمر إلا رؤوساً ، ولا تنبت إلا رئيساً ومرؤوساً ،  
 فكان نظره إليها أشهى مقترحاته ، وفي التلفت إليها استعمل جلُّ بكره وروحاته ،  
 فبكى وأرق ، وشتت وفرق ، ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغي أن  
 تصان عنه الأسماع ، ولا يتعرض له بتصريح ولا إلماع ، ومن نظمه عفا الله عنه :

أنتك أمُّ الحسَنِ تشدو بصوتِ حَسَنِ  
 تمدُّ في ألحانها من الغناء المدني  
 تقودُ مني ساكناً كأنني في رَسَنِ  
 أوراقها أستارها إذا شدتُ في قَنِ

وقوله :

شربنا وجفنُ الليل يغسلُ كحلّه بماء صباحٍ ، والنسيمُ رقيقُ

١ الذخيرة (٢ : ٩ - ١٠) .

معتقة كالنجرِ أمّا نجرها فضخم ، وأمّا جسمها فرقيق  
وقوله :

قد وجدنا الحبيبَ يصفني ودادة°  
قربَ الحبِّ من فؤادِ محبِّ  
وحميدنا ضميرَه واعتقاده°  
لا يرى هجره ولا إبعاده°  
وقال عند حصول رُندة في ملكه :

لقد حصّلت يارُندة°  
أفادتناك أرماح°  
فصرت للمكنا عُدّة°  
وأسيافٌ لها حِدة°

وقال رحمه الله تعالى :

اشربْ على وجهِ الصباحِ  
واعلمْ بأنك جاهلٌ  
وانظر إلى نورِ الأجاجِ  
ما لم تقلْ بالاصطباحِ  
فالدّهْرُ شيءٌ باردٌ  
ما لم تُسخّنه بُراحِ

٦٧٢ - [ ابن جاح والمعتضد ]

ومن حكايات المعتضد عبّاد ما ذكره غير واحد أن ابن جاح الشاعر ورد  
على حضرته ، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء ، فسأله ، فقال : إني شاعر ،  
فقالوا : أنشدنا من شعرك ، فقال :

إني قصدتُ إليك يا عبّادي  
قصدَ القليقِ بالبحري للوادي

فضحكوا منه وازدروّه ، فقال بعض عقلائهم : دعوه فإن هذا شاعر ،  
وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ويندرج في سلكهم ، فلم يبالوا بكلام الرجل ،  
وتنادروا على المذكور ، فبقي معهم ، وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص

لا يدخل فيه على الملك غيرهم ، وربما كان يوم الاثنين ، فقال بعض لبعض : هذه شنة بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا ، ويجترىء على الدخول معنا ، فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان ، وقد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم ، ويكون ذلك حسماً لعله إقدام مثله عليهم . فلما كان اليوم المذكور ، وقعد السلطان في مجلسه ، ونصب الكرسي لهم ، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم ، فأمر بذلك ، فصعد الكرسي ، وانتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدم ، فقال :

قَطَعْتَ يا يومَ النوى أكبادي	وحرمتَ عن عيني لذيذَ رُقادي
وتركتني أرعى النجومَ مسهداً	والنارُ تُضرمُ في صميمِ فؤادي
فكأنما آلى الظلامُ أليّةً	لا يتنجلي إلاّ إلى ميعادِ
يا بينَ بينَ أينَ تقنادُ النوى	إبلُ الذينَ تحمّلوا بسُعادِ
ولربّ خرقَ قدّ قطعْتَ نياطهُ	والليلُ يرقلُ في ثيابِ حدادِ
بشملةِ حرّفٍ كأنّ ذمّيلها	سُرحُ الرياحِ وكلُّ برقِ غادي
والنجمُ يحدوها وقدّ ناديتها	يا ناقتي عوجي على عبّادِ
ملكٌ إذا ما أضرمتُ نارُ الوغى	وتلاقّتِ الأجنادُ بالأجنادِ
فترى الجسومَ بلا رؤوسٍ تنثي	وترى الرؤوسَ لقيّ بلا أجسادِ
يا أيها الملكُ المؤمّلُ والذي	قدّمأ سما شرفاً على الأندادِ
إنّ القريضَ لكاسدٌ في أرضنا	وله هنا سوقٌ بغيرِ كَسادِ
فجلبتُ من شعري إليك قوافياً	يفنى الزمانُ وذكرها بتمادي
من شاعرٍ لم يضطلعُ أدباً ولا	خطّت يدهُ صحيفةً بمدادِ

فقال له الملك : أنت ابن جاخ ؟ فقال : نعم ، فقال : اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء ، وأحسن إليه ، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لأحد بعده .  
انتهى .

## رجع إلى أخبار بقية بني عبّاد :

المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد أبي عمرو عبّاد ابن القاضي أبي القاسم ابن عبّاد رحمه الله تعالى ، ملك مجيد ، وأديب على الحقيقة مُجيد ، وهُمَام تحلّى به للملك لبّة وللنظم جيد ، أفنى الطغاة بسيفه وأباد ، وأنسى بسّيه ذكر الحارث بن عبّاد ، فأطلع أيامه في الزمان حُجولاً وغُرراً ، ونظم معاليه في أجيادها جواهر ودرراً ، وشيد في كل معلوة فِناه ، وعمر بكل نادرة مستغربة وبادرة مستظرفة أوقاته وآناه ، فنفقت به للمحامد سوق ، وبسقت ثمرات إحسانه أيّ بسوق ، منّ وقرى ، وراش وبرى ، ووصل وفرى ، وكان له من أبنائه عدة أعمار نظمهم نظم السلك ، وزين بهم سماء ذلك الملك ، فكانوا معاقل بلاده ، وحُماة طارفه وتلاده ، إلى أن استدار الزمان كهيئته ، وأخذ البؤسُ في فيئته ، واعتز الخلاف وظهر ، وسلّ الشتات سيفه وشهر ، والمعتمد رحمه الله تعالى يطلب نفسه أثناء ذلك بالثبات ، بين تلك الثبات ، والمقام ، في ذلك المقام ، إلى أن بدل القطب بالواقع ، واتسع الحرق على الراقع ، فاستعضد بابن تاشفين فورد عليه خطابه يشعر بالوفاء ، فتاب إليه فكر خاطره وفاء ، وثبت خلال تلك المدة للنزال ، ودعا من رام حربَهُ نزال ، إلى أن أصبح والحروب قد نهبت ، والأيام تسترجع منه ما وهبته ، فتل ذلك العرش ، واعتدت الليالي حين أمنت من الأرش ، فنقل من سهوات الخيول إلى بطون الأجنان ، وهذه الدنيا جميعُ ما لديها زائل وكل من عليها فان ، فما أغنت تلك المملكة وما دفعت ، وليتها ما ضرت إذ لم تكن نفعت ، وكلّ يلتقى معجّله ومؤجّله ، ويبلغ الكتابُ أجله .

وقال الفقيه القاضي أبو بكر ابن خميس رحمه الله تعالى حين ذكر تاريخ بني عبّاد : وقد ذكر الناسُ للمعتمد من أوصافه ، ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه ، وأنا الآن أذكر نبذاً من أخباره ، وأردفها بما وقفت عليه من منظومات

أشعاره ، فإنه رحمه الله تعالى جَمَّ الأدب رائقه ، عالي النظم فائقه ، كان يسمى بمحمد ، ويكنى بأبي القاسم ، على كنية جده القاضي ، استبد بالأمر عند موت أبيه المعتضد ، وفي ذلك يقول الحصري رحمه الله تعالى :

ماتَ عَبَادٌ وَلَكِنْ بَقِيَ الْفِرْعُ الْكَرِيمُ  
فَكَأَنَّ الْمَيْتَ حَيٌّ غَيْرَ أَنْ الضَّادُ مِيمٌ

قال ابن اللبّانة رحمه الله تعالى : ولم يزل المعتمد بخير إلى أن كانت سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، ووصل اليهودي ابن شاليب لقبّص الجزية المعلومة مع قوم من رؤساء النصارى ، وحلّوا بباب من أبواب إشبيلية ، فوجّه لهم المعتمد المال ، مع جماعة من وجوه دولته ، فقال اليهودي : والله لا أخذت هذا العيار ، ولا آخذته منه إلاّ مشجراً ، وبعد هذا العام لا آخذ منه إلاّ أجفان البلاد ، ردوه إليه ، فردّ المال إلى المعتمد ، وأعلم بالقصة ، فدعا بالهند ، وقال : اثتوني باليهودي وأصحابه ، واقطعوا حبال الخباء ، ففعلوا وجاؤوا بهم ، فقال : اسجنوا النصارى ، واصلبوا اليهودي الملعون ، فقال اليهودي : لا تفعل ، وأنا أفندي منك بزني مالا ، فقال : والله لو أعطيتني العُدوة والأندلس ما قبلتهما منك ، فصُلب ، فبلغ الخبر النصراني ، فكتب فيهم ، فوجّه إليه بهم ، فأقسم النصراني أن يأتي من الجنود بعدد شعر رأسه حتى يصل إلى بحر الزقاق ، وأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين إذ ذاك محاصر سبتة ، فجاز المعتمد إليه ، ووعد بنصرته ، فرجع وحث ملوك الأندلس على الجهاد ، ثم وصل ابن تاشفين ، فكانت غزوة الزلاّقة المشهورة ، ورجع ابن تاشفين إلى المغرب ، ثم جاز بعد ذلك إلى الأندلس ، وتوهم ابن عبّاد أنه إذا أخذ البلاد يأخذ أموالها ويترك الأجفان ، فعزم ابن تاشفين على أن يخلع ملوك الأندلس ، ودارت إذ ذاك مكاييد جمّة ، ثم وجّه ابن تاشفين من سبتة إلى المعتمد يطلب منه الجزيرة الخضراء وفيها ابنه يزيد ، فكتب إليه معتذراً عنها ، فلم يكن إلاّ كلمح البصر وإذا بمائة شرّاع قد أطلت على الجزيرة ،

فطير ابنه الحمام إليه ، فأمره بإخلائها ، فظهر عند ذلك ابن تاشفين ، وقيل : إنه لم يجز المرة الأولى حتى طلب من المعتمد الجزيرة لتكون عدة له ، وكان ذلك بدسيسة بعض أهل الأندلس نصحاً لابن تاشفين . ثم شرع ابن تاشفين في خلع ملوك الأندلس وقتلهم ، وأرسل إلى كل مملكة جماعة من أهل دولته وأجناده يحاصرونها ، وأرسل إلى حضرة المعتمد إشبيلية ، وشرع في قتالها ، والناس قد ملوا الدولة العبيدية وسئموها ، على ما جرت به العادة من حب الحديد ، لا سيما وقد ظهر من ابن عباد من التهتك في الشرب والملاهي ما لا يخفى أمره ، فتمنى أكثر الناس الراحة من دولتهم ، ولما اشتدّ مُخْتَقَ المعتمد وجهه عن النصارى ، فأعدّ لهم ابن تاشفين من لقيهم في الطريق ، فهزمهم ، وجهز ابن تاشفين القطائع لإشبيلية ، وجنّد في حصارها ، والمعتمد مع ذلك منغمس في لذاته ، وقد ألقى الأمور بيد ابنه الرشيد ، فلم يشعر ابن عباد إلاّ والعسكر معه في البلد ، فأفاق من نومه ، وصحاح من سكره ، وركب فرسه وحسامه في يده ، وليس عليه إلاّ ثوب واحد ، فوافق العسكر قد دخل من باب الفرج ، ووافى هنالك طبالاً ، فضربه بسيفه ضربة قسمه بها نصفين ، ففر الناس أمامه ، وتراموا من السور ، ووقف حتى بان الباب ، وفي ذلك يقول الأبيات المذكورة فيما يأتي :

إن يسلب القوم العدا . . . إلخ .

فلما وصل إلى باب الصباغين وجد ابنه مالكا مقتولاً ، فاسترحم له ، ودخل القصر ، وزاد الأمر بعد ذلك ، ودُخِلَ البلد من كل جهاته فطلب الأمان له ولمن معه ، فأمنّ وجميع من له ، وأعدت له مراكب ، واجتاز إلى طنجة ، فلقبه الحصري الشاعر ، وكان قد ألّف له كتاب « المستحسن من الأشعار » فلم يُقْضَ بوصوله إليه إلاّ وهو على تلك الحالة ، فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصري : ارفع ذلك البساط فخذ ما تحته ، فوالله ما أملك غيره ، فوجد تحته جملة مال ، فأخذه ، ثم انتقل حتى وصل أغمات ، ولم يزل بها إلى أن مات ، رحمه الله تعالى .

وقال الفتح في ترجمته ما نصه<sup>١</sup> : ملك قَمَعَ العدا ، وجمع البأس والندى ،  
 وطلع على الدنيا بدر هدى ، لم يتعطل يوماً كفته ولا بنانه ، آونةً يراعه وآونة  
 سنانه ، وكانت أيامه مواسم ، وثغوره بواسم<sup>٢</sup> ، ولياليه كلها درراً ، وللزمان  
 حَجُولاً وغُرراً ، لم يغفلها من سِمات عوارف ، ولم يُضحها من ظل إيناس  
 وارف ، ولا عطلها من مأثرة بقي أثرها بادياً ، ولقي معتفيه منها إلى الفضل  
 هادياً ، وكانت حضرته مطمخاً للهمم ، ومسرحةً لآمال الأمم ، ومقذفاً لكل  
 كميٍّ ، وموقفاً لكل ذي أنفٍ حميٍّ ، لم تخلُ من وفدٍ ، ولم يصحُ جوهاً من  
 انسجام رِفدٍ ، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكُماة ، ومشاهير الحُماة ، أعداد  
 يغصُّ بهم الفضاء ، وأنجاد يُزهي بهم النفوذ والمضاء ، وطلع في سمائه كل نجم  
 مُتقد ، وكل ذي فهم مُتقد ، فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان ، ومضماراً  
 لإحراز الخصل ، في كل معنى وفصل ، فلم يلتحق بزمامه إلاّ كل بطل نجد ، ولم  
 يتسق في نظامه إلاّ ذكاء ومجد ، فأصبح عصره أجمل عصر ، وغدا مصره أكمل  
 مصر ، تُسفع فيه ديسمُ الكرم ، ويُفصح فيه لسانا سيفٍ وقلم ، ويفضح الرضى  
 في وصفه أيام ذي سلّم ، وكان قومه وبنوه لتلك الحلبة زيناً ، ولتلك الجملة  
 عيناً ، إن ركبوا خيلت الأرض فلكاً يحمل نجوماً ، وإن وهبوا رأيت الغمام  
 سجوماً ، وإن أقدموا أحجم عنترة العبسي ، وإن فخرُوا أفحم عرّابة الأوسي ،  
 ثم انخرفت الأيام فألوت بإشراقه ، وأذوت يانع لإيراقه ، فلم يدفع الرمحُ ولا  
 الحسام ، ولم تنفع تلك المن الجسام ، فتملك بعد الملك ، وحطّ من فلكه إلى  
 الفلُك ، فأصبح خائضاً تحدوه الرياح ، وناهضاً يزجيه البكاء والصياح ، قد  
 ضجت عليه أياديه ، وارتجت جوانبُ ناديه ، وأضحت منازلُه قد بان عنها الأُنس  
 والحُبور ، وألوت ببهجتها الصبا والدّبور . فبكت العيون عليه دماً ، وعاد

١ القلائد : ٤ وما بعدها .

٢ م والمطخ : وثغور بره بواسم .



موجود الحياة عدماً ، وصار أحرار الدهر فيه خَدَمًا ، فسحقاً لدنيا ما رعت حقوقه ، ولا أبقت شروقه ، فكلم أحيائها لبنيتها ، وأبداها رائقةً لمجنتيها ، وهي الأيام لا يتقى من تجنيها<sup>١</sup> ، ولا تبقي على مواليتها ومُلدانيها ، أدثرت آثار جلق ، وأخمدت نار المحلق ، وذلت عزة ابن شداد ، وهدت القصر ذا الشرفات من سِنَداد ، ونعمت بيؤس النعمان ، وأكمنت غدرها له في طلب الأمان ، انتهى .

ثم ذكر الفتح من أخباره وأشعاره ومجالس أنسه وغير ذلك من أمره نبذاً ذكرنا بعضها في هذا الكتاب .

### ٦٧٣ - [الراضي ابن المعتمد]

وقال في ترجمة ابنه الراضي بالله أبي خالد يزيد بن المعتمد ما نصه<sup>٢</sup> : ملك تفرع من دَوْحَة سَنَاء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وتحدّر من سُلالة أكابر ، ورقاة أسيرة ومنابر ، وتصرف أثناء شببته بين دراسة معارف وإفاضة عوارف ، وكلف بالعلم حتى صار مَلْهَجَ لسانه ، وروضة أجفانه ، لا يستريح منه إلاّ إلى متن سائل الغرّة ، ميمون الأسرة ، يسابق به الرياح ، ويحاسن بغرّته البدر اللياح ، عريق في السناء ، عتيق الاقتناء ، سريع الوخذ والإرقال ، من آل أعوج أو لذي العقال<sup>٣</sup> ، إلى أن ولاه أبوه الجزيرة الخضراء ، وضم إليها رُنْدَة الغراء ، فانتقل من متن الجواد ، إلى ذروة الأعواد ، وأقلع عن الدراسة ، إلى تدبير الرياسة ، وما زال يدبّر بها بجوده ونُهاه ، ويورد الآمل فيها مُناه ، حتى غدت عِراقاً ، وامتلأت إشراقاً ، إلى أن اتفق في أمر الجزيرة ما اتفق ، وخاب

١ وهي . . . تجنيها : سقطت من م .

٢ القلائد : ٣١ .

٣ القلائد : أو ولد العقال ؛ والإشارة إلى قول الشاعر :

وترى الجياد يبتن حول خيائنا من آل أعوج أو لذي العقال

وأعوج والعقال : فحلان من فحول الجياد .

فيها الرجاء وأخفق ، واستحالت بهجتها ، وأحالت عليها من الحال لجتها<sup>١</sup> ، فانتقل إلى رُنْدَة معقل أشيب ، ومنزل للسماك منتسب ، وأقام فيها رهين حصار ، ومهين حماة وأنصار ، ولقيت ريحه كل إعصار ، حتى رمته سهام الخطوب عن قسيها ، وأمكنت منه يدي مُسيها ، فحواه رمسه ، وطواه عن غده أمسه ، حسبما بسطنا القول فيه ، فيما مر من أخبار أبيه ، انتهى .

والذي أشار إليه هنا وأحال عليه فيما تقدم له من أخبار المعتمد هو قوله بعد حكايته قتل المأمون بن المعتمد بقرطبة وسياسة أخبار ذلك ما نصه<sup>٢</sup> : ثم انتقلوا إلى رُنْدَة أحد معاقل الأندلس الممتنعة ، وقواعدها السامية المرتفعة ، تطرد منها على بُعد مُرتقاها ، ودنو النجوم من ذراها ، عيون لانصبابها دوي كالرعد القاصف ، والرياح العواصف ، ثم تتكوّن وادياً يلتوي بجوانبها التواء الشجاع ، ويزيدها في التوعر والامتناع ، وقد تجوّنت نواحيها وأقطارها ، وتكوّنت فيها لُباناتها وأوطارها ، لا يتعذر لها مطلب ، ولا يتصور فيها عدو إلاّ علقته ناب أو مخلب ، فلما أناخوا منها على بُعد ، وأقاموا من الرجاء فيها على غير وعد ، وفيها ابنه الراضي لم يحفل بإنابختهم بإزائه ، ولا عدّها من أرزائه ، لامتناعه من منازلتهم ، وارتفاعه عن مطاولتهم ، إلى أن انقضى في أمر إشبيلية ما انقضى ، وأفضى أمر أبيه إلى ما أفضى ، فحمل على مخاطبته لينزل عن صياصيه ، ويمكنهم من نواصيه ، فنزل برآ بأبيه ، وإبقاء على أرماق ذويه ، بعد أن عاقدهم مستوثقاً ، وأخذ عليهم عهداً من الله وموثقاً ، فلما وصل إليهم ، وحصل في أيديهم ، مالوا به عن الحصن وجرّعه الردى ، وأقطعوه الثرى حين أودى ، وفي ذلك يقول المعتمد يرثيها ، وقد رأى قمرية بائحة بشجنها ، نائحة بفسنها على سكنها ، وأمامها وكرّ فيه طائران يرددان نغماً ، ويغردان ترحةً وترنماً :

١ القلائد : وسالت عليها من الحوادث لجتها .

٢ القلائد : ٢٠ .

بكتُ أن رأيتُ إلفين ضمتهما وكرُّ  
وناحتُ فباحتُ واستراحتُ بسرِّها  
فما لي لا أبكي أم القلبُ صخرةُ  
بكتُ واحداً لم يشجِّها غيرُ فقدهِ  
بُنيُّ صغيرٌ أو خليلٌ موافقٌ  
ونجمانِ زَيْنٌ للزمانِ احتواهما  
غدرتُ إذنُ إن ضنَّ جفني بقطرةِ  
فقلُّ للنجومِ الزهرِ تبكيهما معي

مساءً وقد أحنى على إلفها الدهرُ  
وما نطقتُ حرفاً يبوحُ به سرُّ  
وكم صخرة في الأرض يجري بها نهرُ  
وأبكي لألافٍ عديدهم كثيرُ  
يمزقُ ذا قفَرٌ ويغرِقُ ذا بحرُ  
بقرطبةِ التكداءِ<sup>١</sup> أو رندةِ القبرِ  
وإن لوَّمتُ نفسي فصاحبها الصبرُ  
لمثلها فلتحزَنِ الأنجمُ الزهرُ

وقال في ترجمة الراضي ما صورته<sup>٢</sup> : وكان المعتمد رحمه الله تعالى كثيراً ما يرميه بملامه ، ويُصميه بسهامه ، فربما استلطفه بمقال أفصح من دمع المحزون ، وأملح من رَوْضِ الحزُون ، فإنه كان ينظم من بديع القول لآلئ وعقوداً ، تسلُّ من النفوس سخائم وحقوداً ، وقد أثبتُّ من كلامه في بثِّ آلامه ، واستجارةِ عدلِّه وملامه ، ما تستبدعه ، وتحلِّه النفوس<sup>٣</sup> وتودعه ، فمن ذلك ما قاله وقد أنهض جماعة من إخوته وأقعدته ، وأدناهم وأبعده :

أعينك أن يكون بنا خمولٌ ويطلعَ غيرنا ولنسا أفلولُ  
حنانك إن يكن جرمي قبيحاً فإنَّ الصفحَ عن جرمي جميلُ  
ألسْتُ بفرعك الزاكي وماذا يرجي الفرعُ خائتهُ الأصولُ

ثم قال الفتح بعد كلام<sup>٤</sup> : ومرت عليه - يعني الراضي - هودجٌ وقباب ، فيها حباب كُنَّ له وأحباب ، ألفهن أيامَ خلائه من دواة ، وجمال معهن في

١ م : التكره .

٢ القلائد : ٣٢ .

٣ م : النفس .

٤ القلائد : ٣٣ .

ميدان المني أعظم جولة ، ثم انتزعوا منه ببُعده ، وأودعوا الهوادجَ من بعده ،  
ووجَّهوا هدايا إلى العُدوة ، وألَّوا بها إلام قريش بدار الندوة ، فقال :

مَرَّو بنا أَصْلاً من غيرِ ميعادِ فأوقدوا نارَ شوقي أيَّ إيقادِ  
وأذكروني أياماً لهوتُ بهم فيها ففازوا بإيثاري وإحمادي  
لا غرو أن زادني وجدني مرورهمُ فرؤيةُ الماء تُذكي غلَّةَ الصادي

ولما وصل المعتمد<sup>١</sup> لورقة أعلم أن العدو قد جيش لها واحتشد ، ونهَدَ نحوها  
وقصد ، ليتركها خاوية على عروشها ، طاوية الجوانح على وحوشها ، فتعرض  
له المعتمد دون بغيته ، وطلع عليه من ثنيته ، وأمر الراضي بالخروج إليه في عسكر  
جَرَّده لمحاربتة ، وأعدّه لمصادمته ومضاربتة ، فأظهر التمارض والتشكي ،  
وأضمر التقاعس والتلكي ، فراراً من المصادمة ، وإحجاماً عن المساومة ،  
وجزَعاً من منازلة الأقران ، ومقابلة ذوابل المرَّان ، ومقاساة الطعان ، وملاقاة  
أبطال كالرَّعان ، ورأى أن المطالعة ، أرجح من المقارعة ، ومعاناة العلوم ، أريح  
من مداواة الكلوم ، فقد كان عاكفاً على تلاوة ديوان ، عارفاً بإجادة صدر  
وعنوان ، فعلم المعتمد ما نواه ، وتحقق ما لواه ، فأعرض عنه ، ونفض يده منه ،  
ووجَّه المعتد<sup>٢</sup> مع ذلك الجيش الذي لم تنشر بنوده ، ولا نصرت جنوده ، فعندما  
لاقوا العدو لاذوا بالفرار ، وعاذوا بإعطاء الغرَّة بدلاً من الغرار ، وتفرقوا في  
تلك الأماريت<sup>٣</sup> ، وفرقوا من تخطف أولئك العفاريت ، فتحييف العدو من بقي  
مع المعتد واهتضمه ، وخضم ما في العسكر وقضمه ، وغدت مضاربه مجرَّ عواليه ،  
ومجرى مذاكيه ، وآب أخسَرَ من بائع السدانة<sup>٤</sup> ، ومضيع الأمانة ، فانطبقت  
سما المعتمد على أرضه ، وشغلته عن إقامة نوافله وفرَّضه ، فكتب إليه الراضي :

١ ق م : العدو .

٢ ق م : وتوجه المعتد .

٣ الاماريت : الأراضي المنبسطة ؛ وفي ق م : الأناريت .

٤ يعني أبا غبشان الذي باع سدانة الكعبة لقصي ، قيل : بزق خمر .

لا يكرثنكَ خطبُ الحادِثِ الجاري  
 ماذا على ضيغَمٍ أمضى عزيمتهُ  
 لئنْ أتوكَ فمن جبنٍ ومن خورٍ  
 عليكَ للناسِ أن تَبقى لنصرتهم  
 لو يَعلمُ الناسُ فيما أنْ تدومَ لهمْ  
 ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهمْ  
 فما عليكَ بذاكِ الخطبِ من عاري  
 إنْ خانهُ حدُّ أنيابٍ وأظفارِ  
 قد ينهضُ العيرُ نحو الضيغَمِ الضاري  
 وما عليكَ لهمْ إسعادُ أقدارِ  
 بكَواً لأنكَ من ثوبِ الصبا عاري  
 لم يُتَحِفوكَ بشيءٍ غيرِ أعمارِ

فحجب عنه وجهه رضاه ، ولم يستتر له <sup>٢</sup> بذلك ولا استرضاه ، وتمادى على  
 إعراضه ، وقعد عن إظهاره وإنهاضه ، حتى بسطته سوانح السلو ، وعطفته عليه  
 جوانح <sup>٣</sup> الحنو ، فكتب إليه بهزل ، غلب فيه كل مترع جزل ، وهو :

الملكُ في طيِّ الدفاترِ  
 طفُفٌ بالسرييرِ مُسلماً  
 وازحفْ إلى جيشِ المعاييرِ  
 واطعنْ بأطرافِ اليراءِ  
 واضربْ بسكينِ اللوا  
 أولست رسطاليسَ إنْ  
 وأبو حنيفةَ ساقطاً  
 وكذلكَ إنْ ذُكرَ الخليةِ  
 منْ هُرْمَسٍ منْ سيبويهِ  
 هذي المكارمُ قد حوى  
 واقعدْ فإنكَ طاعمٌ  
 فتخلَّ عن قودِ العساكرِ  
 وارجعْ لتوديعِ المنايرِ  
 رفِ تقهرِ الحبرِ المقامرِ  
 عِ نُصرتَ في ثغرِ المحابرِ  
 ة مكانَ ماضي الحدِّ باترِ  
 ذُكِرَ الفلاسفةُ الأكابرِ  
 في الرأي حين تكونُ حاضرِ  
 لُ فأنتَ نحويٌّ وشاعرُ  
 ٤ منْ ابنِ فُوركِ إذ تناظرِ  
 تَ فكنْ لمن حاباكِ شاكِرِ  
 كاسٍ وقل: هل من مُفاخرِ

١ هذا البيت سقط من ق م .

٢ القلائد : ولم يستمله .

٣ ق م : جوانب ، وأثبتنا رواية القلائد .

لحجبت وجهَ رضايَ عذ  
أولستَ تذكرُ وقتَ لُو  
لا يَسْتَقِرُّ مكانَه  
هَلاَّ اقتديتَ بفعلِه  
قدَ كانَ أبصرَ بالعوا  
قَبِ والمَواردِ والمَصادرِ  
وَكنتَ قدَ تلقاهُ سافرُ  
رَقَّةَ وقلبِكَ ثمَّ طائرُ  
وأبوكَ كالضُرغامِ خادرُ  
وأطعتهُ إذ ذاكَ أمرُ

فكتب إليه الراضي مراجعاً بقطعة منها :

مولايَ قد أصبحتُ كافرُ  
وفلنلتُ سكتينَ الدَّوا  
وعلمتُ أنَّ المُلِكَ ما  
والمَجْدُ والعلياءُ في  
لا ضَرْبِ أقوالِ بأذ  
قد كنتُ أحسبُ مِن سفا  
فإذا بها فرعُ لها  
لا يدركُ الشرفَ الفتي  
وهجرتُ من سميتهمُ  
لو كنتَ تهوى مِنِّي  
ضحكُ الموالِي بالعبي  
إنَّ كانَ لي فضلُ فمَن  
أو كانَ بي نقصُ فمَن  
ذَكَرتَ عبدَكَ ساعةً  
يا لَيْتَهُ قد غيبتَ  
أتريدُ مِنِّي أنْ أكو  
هيهاتَ ذلكَ مَطمَعُ  
بجميعِ ما تحوي الدفاترُ  
ةٍ وظلتُ للأقلامِ كاسرُ  
بينَ الأسنَّةِ والبواتيرُ  
ضربِ العساكرِ بالعساكرُ  
وال ضعيفاتِ متناكرُ  
ه أنها أصلُ المفاخرُ  
والجهلُ للإنسانِ عاذرُ  
إلا بعَسالِ وباتيرُ  
وجحدتُ أَنهمُ أكابرُ  
لوجدتني للعيشِ هاجرُ  
د إذا تؤمِّلَ غيرُ ضائرُ  
ك وهلَ لذاكِ النورِ ساترُ  
نني غيرَ أنَّ الفضلَ غامرُ  
يبقى لها ما عاشَ ذاكرُ  
ه عندها إحدى المقابرُ  
ن كمن غدا في الدهرِ نادرُ  
يُعني الأوائِل والأواخرُ

لا تنسَ يا مَوْلَايَ قَوْلَ ضَارِعٍ لَا قَوْلَ فَاحِرٍ  
 ضَبَطَ الْجَزِيرَةَ عِنْدَمَا نَزَلَتْ بِعَقْوَتِهَا الْعَسَاكِرُ  
 أَيَّامَ ظَلَمْتُ بِهَا فَرِيداً لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ نَاصِرُ  
 إِذْ كَانَ يُعْشِي نَاطِرِي لَمَعُ الْأَسِنَّةِ وَالْبَوَاتِرِ  
 وَيُصِمُّ أَسْمَاعِي بِهَا قَرَعُ الْحِجَارَةِ بِالْحَوَافِرِ  
 وَهِيَ الْحَضِيضُ سَهْوَلَةٌ لَكِنْ ثَبْتُ بِهَا مَخَاطِرُ  
 هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا أَسَأْتُ أَمَا لِهَذَا الْعَتَبِ آخِرُ  
 هَبْ زَلَّتِي لِبِسُّوتِي وَاعْفُرْ فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرُ

فقربه وأذناه ، وصفح عما كان جناه ، ولم تزل الحال آخذة في البوار ،  
 والأمور معتلة اعتلال حب الفرزدق للنوار ، حتى مضوا غير طيبة ، وقضوا  
 بين الصوارم والرماح الخطيبة ، حسبما سردناه ، وعلى ما أوردناه ، وإذا أراد  
 الله سبحانه إنفاذ أمر سبق في علمه ، فلا مرد له ولا معقب لحكمه ، ولا إله إلا  
 هو رب العالمين ؛ انتهى كلام الفتح .

وعلى الحملة فكانت دولة بني عبّاد بالأندلس من أهبج الدول في الكرم  
 والفضل والأدب ، حتى قال ابن اللبّانة رحمه الله تعالى : إن الدولة العبّادية  
 بالأندلس أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد ، سعة مكارم ، وجمع فضائل ،  
 ولذلك ألّف فيها كتاباً مستقلاً سماه «الاعتماد في أخبار بني عبّاد» ، ولا يلتفت  
 لكلب عتقور نبج بقوله :

ممّا يزهدني في أرضِ أندلسٍ أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتدٍ  
 ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كالهَرِّ يحكي انتفاخاً صورة الأسدِ

لأن هذه مقالة متعسف كافر للنعم ، ومثل ذلك في حقهم لا يقدر ، وما زالت  
 الأشراف تُهنّجى وتُمدح .

وللمعتمد أولاد ملوك منهم المأمون والرشيد والراضي والمعتد وغيرهم ، وقد  
سر دنا خبر بعضهم .

#### ٦٧٤ - [ مدائح ابن البانة في بني عباد ]

وكان الداني المذكور مائلاً إلى بني عبّاد بطبعه ، إذ كان المعتمد هو الذي  
جذب بضبعه ، وله فيه المدائح الأنيقة ، التي هي أذكى من زهر الحديقة ،  
فمن ذلك قوله من قصيدة يمدحه بها ويذكر أولاده الأربعة ، الذين عمروا من  
المجد أربعه ، وهم الرشيد عبید الله والراضي يزيد والمأمون والمؤمن ، وكانوا  
نجوم ذلك الأفق وغيوث ذلك الزمن ، ولقد أجاد في ذلك كل الإجادة ، وأطال  
لمجدهم نجاده :

يغيثك في محلّ ، يعينك في ردّي      يروعك في درع ، يروك في بردي  
جمال وإجمال وسبق وصوله      كشمس الضحى كالزن كالبرق كالرعد  
بمهجته شاد العلام ثم زادها      بناء بأبناء ججاجحة لُد  
بأربعة مثل الطباع تركبوا      لتعديل ذكر المجد والشرف العبد

والمأمون بن المعتمد قتله لمتونة بقرطبة ، والراضي يزيد قتلوه برنّدة كما  
سقتنا خبره آنفاً ، وفي حالتهم هذه يقول الشاعر المشهور عبد الجبار بن حمديس  
الصقلي :

ولما رحلت بالندی في أكفكم      وقلقل رضى منكم وثبير  
رفعت لساني بالقيامة قد دنت      فهذي الجبال الراسيات سير

وفي قصة المعتمد يقول الداني المذكور :

لكل شيء من الأشياء ميقاتٌ وللمنى في منايهن غاياتُ



والدهرُ في صفةِ الحِرْبَاءِ منغمسٌ  
ونحن من لُعبِ الشطرنجِ في يده  
انفض يديك من الدنيا وزينتها  
وقلْ لعالمها الأرضي قد كتمتْ  
وهي طويلة ذكرها الفتح وغيره .

وللداني أيضاً قصيدة عملها في المعتمد وهو بأغامت سنة ٤٨٦<sup>١</sup> :

تنشقُ بريحانِ السلامِ فإنما  
وقلْ لي مجازاً إن عدمتْ حقيقةً  
أفكرُ في عصرٍ مضى بك مشرقاً  
وأعجبُ من أفقِ المجرةِ إذ رأى  
لئن عظمتْ فيك الرزيةُ إننا  
قناة سعتْ للطعن حتى تقسمتْ

أفضّ به مسكاً عليك مختماً  
لعلك في نعمي فقد كنتَ منعماً  
فيرجعُ ضوءُ الصبحِ عندي مظلماً  
كسوفك شمساً كيف أطلع أنجماً  
وجدناك منها في الرزيةِ أعظماً  
وسيفُ أطال الضربَ حتى تثلماً

ومنها :

بكي آلَ عبادٍ<sup>٢</sup> ولا كمحمدٍ  
حبيبٌ إلى قلبي حبيبٌ لقوله  
صباحهمُ كُنا بهِ نحمدُ السرى  
وكتار عيننا العزَّ حولَ حِمَاهُمُ  
وقد ألبستُ أيدي الليالي قلوبهم  
قصورُ نخلتْ من ساكنيها فما بها

وأولادهِ صوبُ الغمامةِ إذ همي  
عسى طللٌ يدنو بهم ولعلماً  
فلما علمناهم سرينا على عمي  
فقد أجذبَ المرعى وقد أقفر الحمي  
مناسجَ سدّي الغيثُ فيها وألحما  
سوى الأدم تمشي حول واقفة الدُمي

١ سنة ٤٨٦ : سقطت من م .

٢ ق م : محمود .

تجيبُ بها الهامَ الصّدى ولطالما  
 كأن لم يكن فيها أنيس ، ولا التقى  
 أجابَ القيانُ الطائرَ المترنماً  
 بها الوفدُ جمعاً والحميسُ عمرماً  
 ومنها :

حكيتَ وقد فارقتَ ملكك مالكا  
 مصابٌ هوى بالنيراتِ من العلا  
 ولم يُبقِ في أرضِ المكارمِ معلما  
 تضيقُ عليّ الأرضُ حتى كأنما  
 خلقتُ وإياها سواراً ومعصما  
 ندبتك حتى لم يخل ليّ الأسي  
 دموعاً بها أبكي عليك ولا دما  
 وإني على رسمي مقيمٌ فإن أمتُ  
 سأجعلُ للباكين رسمي موسما  
 بكاك الحيا والريحُ شقتُ جيوها  
 عليك وناحَ الرعدُ باسمك معلما  
 ومزق ثوب البرق واكتست الضحى  
 حداداً وقامت أنجمُ الجوّ أفحما  
 وحراربتك الإصباح وجداً فما اهتدى  
 وغار أخوك البحرُ غيضاً فما طمى  
 وما حلّ بدرُ التّم بعدك دارةً  
 ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما  
 قضى الله أن حطوك عن ظهرِ أشقرٍ  
 بشم وأن أمطوك أشامَ أدهما

وكان قد انفكت عنه القيود ، فأشار إلى ذلك بقوله فيها :

قيودك ذابت فانطلقت لقد غدّت  
 عجبت لأن لان الحديد وأن قسّوا  
 قيودك منهم بالمكارم أرحمّا  
 لقد كان منهم بالسريرة أعلمّا  
 سينجيك من السجن يوسفاً  
 ويؤويك من آوى المسيح بن مريما

ولأبي بكر الداني المذكور في البكاء على أيامهم وانتشار نظامهم عدة  
 مقطوعات وقصائد ، هي قرّة عين الطالب ونجعة الرائد ، وقد اشتمل عليها جزء  
 لطيف ، صدر عنه في هيئة تصنيف ، سماه « السلوك في وعظ الملوك » ، ووفد  
 على المعتمد وهو بأغمات ، عِدّة وفادات ، لم يخل في جميعها من إفادات ، وقال  
 في إحداها : هذه وفادة وفاء لا وفادة اجتداء .

قال غير واحد : من النادر الغريب أنه نودي في جنازته « الصلاة على الغريب » بعد عظم سلطانه ، وسعة أوطانه ، وكثرة صقالبته وحُبشانه ، وعظم أمره وشانه ، فتبارك من له العزة والبقاء والدوام ، واجتمع عند قبره جماعة من الأقسام ، الذين لهم في الأدب حصّة ، ولقضية المعتمد في صدورهم غُصّة ، منهم البالغ في البلاغة الأمد ، شاعره أبو بحر عبد الصمد ، وكان به خصيصاً ، وكم ألبسه من بره حلّة وقميصاً ، فقال من قصيدة طويلة أجاد فيها ما شا ، وجلب بها إلى أنفس الحاضرين بعد الأانس إباحشا ، مطلعها :

مَلِكِ الملوِكِ أَسامِعُ فَأنادي أم قد عدتكَ عن السماع عَوادي

ومنها :

لَمّا خَلتْ مِنْكَ القصورُ ولم تكنْ فيها كما قد كنتَ في الأعيادِ  
قَبِلتْ من هذا الثرى لك خاضعاً وجعلت قبرك موضع الإنشادِ

فلما بلغ من إنشاده ، إلى مراده ، قبّل الثرى ومرغ جسمه وعفر خده ، فبكى كل من حضر وصرفه ذلك عن سرور العيد وصدّه ، إذ كانت هذه القصة يوم عيد ، فسبحان المبدئ المعيد .

ويحكى أن رجلاً رأى في منامه إثر الكائنة على المعتمد بن عباد كأن رجلاً صعد منبر جامع قرطبة فاستقبل الناس وأنشد هذه الأبيات ممتثلاً :

ربّ ركبٍ قد أناخوا عيسهمُ في ذرى مجدهمُ حينَ بسقُ  
سكتَ الدهرُ زماناً عنهمُ ثمّ أبكاهمُ دماً حينَ نطقُ

وعاش أبو بكر ابن اللبّانة المعروف بالداني المذكور آنفاً بعد المعتمد ، وقدم ميورقة آخر شعبان سنة ٤٨٩ ، ومدح ملكها مبشر بن سليمان بقصيدة مطلعها :

ملكٌ يروعكَ في حلّ ريعانهِ راقَتُ برونقهِ صفاتُ زمانهِ

وأين هذا من أمداحه في المعتمد ؟

وتذكرت هنا من أحوال اللداني أنه دخل على ابن عمار في مجلس ، فأراد أن يندر به وقال له : اجلس يا داني ، بغير ألف ، فقال له : نعم يا ابن عمار ، بغير ميم ، وهذا هو الغاية في سرعة الجواب والأخذ بالتأثر في المزاح .

ونظيره - وإن كان من باب آخر - أن المعتمد مر مع وزيره ابن عمار ببعض أرجاء إشبيلية ، فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط ، فكشفت وجهها ، وتكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء ، وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون به الجبس والخياريين الصانعين للجير ، بإشبيلية ، فالتفت المعتمد إلى موضع الخياريين ، وقال : يا ابن عمار الخياريين ، ففهم مراده ، وقال في الحال : يا مولاي والجباسين ، فلم يفهم الحاضرون المراد ، وتحيروا ، فسألوا ابن عمار ، فقال له المعتمد : لا تبعها منهم إلاّ غالية ، وتفسيرها أن ابن عباد صحف «الحيا زين» بقوله الخياريين إشارة إلى أن تلك المرأة لو كان لها حياء لازدانت ، فقال له والجباسين وتصحيفه «والخناشين» أي : هي وإن كانت جميلة بدبعة الحسن لكن الخنا شأنها ، وهذا شأو لا يُلحق .

ومن أخبار المعتمد أنه جلس يوماً والبزاة تُعرض عليه ، فاستحثّ الشعراء في وصفها ، فصنع ابن وهبون بديهاً :

للصيدِ قبلك سنةٌ مأثورةٌ لكنّها بكَ أبدعُ الأشياءِ  
تمضي البزاة وكلّما أمضيتّها عاطيتها بنخاطرِ الشعراءِ

فاستحسنهما ، وأسنى جائزته .

وذكر ابن بسّام أن أبا العرب الصقلي حضر مجلس المعتمد يوماً وقد حُمِل إليه حمول وافرة من قراريط الفضة ، فأمر له بكيسين منها ، وكان بين يديه تماثيل

عبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللاآء ، فقال له أبو العرب معرّضاً :  
ما يحمل هذين الكيسين إلاّ جمل ، فتبسم المعتمد وأمر له به ، فقال أبو العرب  
بديهاً :

أهديتني اجمالاً جوناً شفّعت به حملاً من الفضة البيضاء لو حملاً  
نتاجُ جودك في أعطان مكرمة لا قد تصرف من مننع ولا عقلاً  
فاعجبُ لشأني فشأني كله عجبٌ رفهتني فحملتُ الحملَ والحملاً

وذكر الحجاري هذه القصة فقال : قعد المعتمد في مجلس احتفل في تنزيده  
وإحضار الطرائف الملوكية ، وكان في الحملة تمثال جمل من بلور ، وله عينان  
من ياقوتتين ، وقد حُلّيَ بنفائس الدر ، فأنشده أبو العرب قصيدة ، فأمر له بذهب  
كثير ممّا كان بيده من السكة الجديدة ، فقال معرّضاً بذلك الجمل : ما يحمل  
هذه الصلة إلاّ جمل ! فقال : خذ هذا الجمل ، فإنه حمال أنقال ، فارتجل  
شعراً منه :

### رفهتني فحملت الحمل والحملاً

وذكر أن ذلك الجمل بيع بجمسمائة مثقال ، فسارت بهذا الخبر الركائب ،  
وتهادته المشارق والمغارب .

وتباحث المعتمد مرة مع الجلساء في بيت المتنبي الذي زعم أنه أمير شعره :

أزورهم وسوادُ الليل يشفعُ لي وأنثي وبياضُ الصبحِ يغري بي

فقال : ما قصر في مقابلة كل لفظة بضدها إلاّ أن فيه نقداً خفياً ، فكفروا  
فيه ، فلما فكروا قالوا له : ما وقفنا على شيء ، فقال : الليل لا يطابق إلاّ بالنهار  
لأن الليل كلّي والصبح جزئي ، فتعجب الحاضرون ، وأثنوا على تدقيق انتقاده .

١ م : أهديت لي ؛ وقد مرت الأبيات في ج ٣ : ٥٦٩ .

قال الصفدي : قلت : ليس هذا بنقد صحيح ، والصواب مع أبي الطيب ، لأنه قال « أزورهم وسواد الليل يشفع لي » فهذا محب يزور أحبابه في سواد الليل خوفاً ممن يشي به ، فإذا لاح الصبح أغرى به الوشاة ، ودل عليه أهل النسيمة ، والصبح أول ما يغري به قبل النهار ، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلاً ، وينصرف عند انفجار الصبح خوفاً من الرقباء ، ولم تجر العادة أن الخائف يتلبث إلى أن يتوضح النهار ، ويمتلئ الأفق نوراً ، فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار ، والله أعلم ، انتهى .

قلت : كان يختلج في صدري ضعف ما قال الصفدي ، حتى وقفت على ما كتبه البدر البشتكي ، ومن خطه نقلت ما صورته : هو ما انتقد عليه المعنى ، إنما انتقد عليه مطابقة الليل بالصبح ، فإن ذلك فاسد ، انتهى ، فحمدت الله على الموافقة ، انتهى .

وقال في بدائع البدائ<sup>١</sup> : جلس المعتمد للشرب وذلك في وقت مطر أجرى كل وهدة نهراً ، وحلّى جيد كل غصن من الزهر جوهرأ ، وبين يديه جارية تسقيه وهي تقابل وجهها بنجم الكأس في راحة كالثريا ، وتخلج الزهر بطيب العرف والريتا ، فاتفق أن لعب البرق بحسامه . وأجال سوطه المذهب يسوق به ركامه ، فارتاعت لخطفته ، وذعرت من خيفته . فقال المعتمد بديها :

روّعها البرقُ وفي كفّها برقٌ من القهوةِ لماعُ  
عجبتُ منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوارِ ترتاعُ

فاستدعى عبد الجليل بن وهبون المرسي ، وأنشده البيت الأول مستجيزاً ، فقال عبد الجليل :

ولن ترى أعجبَ من أنسٍ من مثلِ ما يُمسِكُ يرتاعُ

١ بدائع البدائ<sup>١</sup> : ١٠٠ - ١٠١ ؛ وانظر ص : ٩٢ من هذا الجزء .

فاستحسنه ، وأمر له بجائزة .

قال ابن ظافر : وبئته عندي أحسن من بيت المعتمد ، انتهى .  
وقال ابن بسام<sup>١</sup> : كان في قصر المعتمد فيل من الفضة على شاطئ بركة  
يقذف الماء ، وهو الذي يقول فيه عبد الجليل بن وهبون من بعض قصيدة :

ويفرغُ فيهٍ مثلَ النصلِ بدعُ من الأفيالِ لا يشكو مَلالاً  
رعى رطبَ اللجين فجاء صلداً تراهُ قلتماً يخشى هزالاً

فجلس المعتمد يوماً على تلك البركة والماء يجري من ذلك الفيل ، وقد أوقدت  
شمعتان من جانبيه ، والوزير أبو بكر ابن الملح عنده ، فصنع الوزير فيهما عدة  
مقاطيع بديهاً منها :

ومشعلين من الأضواء قد قرنا  
لاحا لعيني كالنجمين ، بينهما  
بالماء والماء بالدولاب منزوفُ  
خطُّ المجرَّةِ ممدودٌ ومعطوفُ

وقال أيضاً :

كأنما النارُ فوق الشمعتين سنأ  
غمامةٌ تحت جناح الليلِ هامةٌ  
والماء من نفذ الأنبوبِ منسكبُ  
في جانبيها حفافُ البرقِ يضطربُ

وقال أيضاً :

وأنبوبِ ماءٍ بين نارينِ ضمنا  
كأنَّ اندفاعَ الماءِ بالماءِ حيةٌ  
هوَى لكؤوسِ الراحِ تحت الغياهِبِ  
يحركها في الماءِ لمعُ الحياهِبِ

وقال أيضاً :

كأنَّ سراجي شربهم في التظائها  
كريمٌ تولَّى كبره من كليهما  
وأنبوبَ ماءِ الفيلِ في سيلانه  
لثيمانِ في إنفاقهِ بعدلانه

١ بدائع البداه ٢ : ١٣٧ .

ولما مات والد المعتمد واستقل بالملك قال ذو الوزارتين ابن زيدون يرثي  
المعتضد ويمدح المعتمد بقصيدة طويلة أولها ١ :

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهرُ  
ستصبرُ صبرَ اليأسِ أو صبرَ حَسْبَةِ ٣  
حذارك من أن يعقب الرزءُ فتنَةً  
إذا آسفَ الشكلُ اللَّيبَ فَشَقَّهُ  
مصابُ الذي يأسى بموتِ ثوابه  
حياةُ الوري نهجٌ إلى الموتِ مَهَيِّعٌ  
فمن شيمَ الأحرارِ ٢ في مثلها الصبرُ  
فلا تؤثرَ الوجَهَ الذي معه الوزرُ  
يضيقُ بها عن مثل إيمانك العذرُ  
رأى أفدحَ الثكلين أن يذهبَ الأجرُ  
هو البرحُ لا الميتُ الذي أحرزَ القبرُ  
لهم فيه إيضاعٌ كما يوضعُ السَّفرُ  
ومنها :

إذا الموتُ أضحى قصدَ كلِّ معمرٍ  
ألم ترَ أنَّ الدينَ ضيمَ ذماره  
بميتِ استقلَّ الملكُ ثانيَ عطفه  
هو الضيمُ لو غيرُ القضاءِ يرومُه  
إذا عثرتْ جردُ العناجيجِ في القنَا  
فإنَّ سواءَ طال أو قصُرَ العمرُ  
فلم يغنِ أنصارٌ عديدهم دثرُ  
وجرَّ من أذياله العسكرُ المجرُ  
ثناه المرامِ الصعبُ والمسلكُ الوعرُ  
بليلِ عجاجٍ ليس يصدعه فجرُ  
ومنها :

أعبادُ يا أوفى الملوكِ لقد عدا  
إلى أن قال بعد أبيات كثيرة :

- ١ ديوان ابن زيدون : ٥٦٢ .  
٢ الديوان : الأبرار .  
٣ في الأصول : وحشة .  
٤ الديوان : أن يهلك .



ألا أيها المولى الوصولُ عبيدَهُ  
يغاديكَ داعينَا السلامُ كعَهْدِه  
أعتبُ علينا ذاد عن ذلك الرضى  
لقد رابنا أن يتلو الصلَّةَ الهجرُ  
فما يُسمعُ الداعي ولا يُرفعُ السُرُ  
فتسمعُ ١ أم بالمسمعِ المعتلي وقرُ

ومنها :

وكيفَ بنسيانٍ وقد ملأت يدي  
وإن كنتُ لم أشكرُ لك المننَ التي  
فهل علم الشلو المقدسُ أتني  
وأن متاتي لم يضعه محمدُ  
هو الظافرُ الأعلى المؤيدُ بالذي  
له ٣ في اختصاصي ما رأيتُ وزادني  
وأرغم في برِّي أنوفَ عصابة  
إذا ما استوى في الدست عاقد حُبوة  
وفي نفسه العلياء لي متبواً  
جسامُ أياد منك أسرها الوفرُ  
تمليتها ترى فأوبقي ٢ الكفرُ  
مسوغُ حال حار في كنهها الفكرُ  
خليفتك العدلُ الرضى وابنك البرُ  
له في الذي وافاه من صنعه سرُ  
مزية زلفى من نتائجها الفخرُ  
لقاؤهمُ جهمُ ولحظهمُ شزرُ  
وقام سماطاً حقله في الصدرُ  
يساجلي ٤ فيه السماكان والنسرُ

ومنها :

لك الخيرُ إن الرزء كان غياية ٥  
فقرت عيونُ كان أسخنها البكا

ومنها :

ولما قدمت الجيش بالأمرِ أشرقُ  
إليك من الآمالِ آفاقها الغبرُ

١ الديوان : فنتعب .

٢ الأصول : فلا بقي ؛ وهو خطأ .

٣ الديوان : رأى .

٤ الديوان : ينافسي .

٥ في الأصول والديوان : غياية - بالباء الموحدة - ؛ والغياية : السحابة ، وهو أنسب لذكر البدر .

فقضيت من فرض الصلاة لبانة  
ومن قبل ما قدمت مثنى نوافل  
ورحت إلى القصر الذي غض طرفه  
وأجمل عن الثاوي العزاء فإن ثوى  
وما أعطت السبعون قبل أولي الحجى  
ألست الذي إن ضاق ذرعٌ بجادث  
فلا تهض الدنيا جناحك بعده  
ولا زلت موفور العديد بقرة  
فإنك شمسٌ في سماء رياسة  
شككنا فلم نثبت : أيام دهرنا  
وما إن تغشتها مغزلة الكرى  
سوى نشوات من سجايا مملك  
أرى الدهر إن يبطش فأنت يمينه  
وكم سائلٍ بالغيب عنك أجبتُه  
هناك التقى والعلم والحلم والنهى  
همامٌ إذا لاقى المناجز رده  
محاسن ما للروض سامره الندى  
متى انتشقت لم تدر دارين مسكها  
عطاءً ولا من ، وحكمٌ ولا هوى  
قد استوفت النعماء فيك تمامها

فشيعة نسكٌ وقارنها طهر  
يلاقى بها من صام من عوزٍ فطر  
بعيد التسامي أن غدا غيره القصر  
فإنك لا الواني ولا الضرع الغمر  
من اللب ما أعطاك عشروك والعمر  
تبلج منه الوجه واتسع الصدر  
فمنك لمن هاضت نوائبها جبر  
لعينك مشدوداً بها ذلك الأزر  
تطلع منهم حولنا أنجم زهر  
بها وسنٌ أم هز أعطافها سكر  
وما إن تمشت في معاطفها الخمر  
يصدق في عليائها الخبر الخبر  
وإن تضحك الدنيا فأنت لها ثغر  
هناك الأيادي الشفع والسودد الوتر  
وبذل اللها والبأس والنظم والنثر  
وإقباله خطرٌ وإدباره حصر  
رواءٌ إذا نصت حلاها ولا نشر  
حياةٌ ولم تفخر بعنبرها الشحر  
وحلمٌ ولا عجزٌ ، وعزٌ ولا كبر  
علينا فمنا الحمد لله والشكر

- ١ الديوان : مشيعة . . . وفارطها .  
٢ في الأصول : غيره .  
٣ الديوان : في مفاصلها خمر .  
٤ الديوان : لم تطر .

وكتب ابن زيدون المذكور إلى المعتمد رحمهما الله تعالى يشوقه إلى تعاطي الحميّا ، في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريا<sup>١</sup> :

فُزْ بالنجاحِ وأحرزِ الإقبالا	وخذِ المنى وتَنَجِّزِ الآمالا
وليهنك التأييدُ والظفرُ اللدا	صدقاك في السمةِ العليةِ فالا
يا أيّها الملكُ الذي لولاه لمُ	تجدِ العقولُ الناشداتُ كمالا
أمّا الثريا فالثريا نسبةً	وإفادةً وإنافةً وجمالا
قد شاقها الإغبابُ حتى إنَّها	لو تستطيعُ سرّتْ إليك خيالا
رفّهٌ ورودكها لتغتمَ راحةً	وأطلُ مزاركها لتنعّمَ بالا
وتأمّلِ <sup>٢</sup> القصرَ المباركَ وجنّةً	قد وُسِّطتْ فيها الثريا خالا
وأدرُ هناكَ من المدامِ كؤوسها	وأتمّها <sup>٣</sup> وأشفقها جريالا
قصرٌ يُقِرُّ العينَ منهُ مصنعٌ	بِهيجُ الجوانبِ لو مشى لاختالا
لازلتَ تفرشُ السرورَ حدائقاً	فيه وتلتحفُ النعيمَ ظلّالا

وأهدى إليه تفاحاً ، واعتقد أن يكتب معه قطعة ، فبدأ بها ، ثم عرض له غيرها فتركها ثم ابتداءً<sup>٤</sup> :

دونكَ الراحَ جامدّة	وفدّتَ خيرَ وافده
وجدتَ سوقَ ذَوْبِها	عندكَ اليومَ كاسده
فاستحالتَ إلى الجمو	دِ وجاءتَ مُكايِدّة

وكتب إلى المعتمد<sup>٥</sup> :

- ١ ديوان ابن زيدون : ٥٢٠ .
- ٢ الديوان : وتمثل .
- ٣ الديوان : أنمها أرجاً زكا .
- ٤ الديوان : ٢٢٤ .
- ٥ الديوان : ٦١٦ .

يا أيها الظافر نلت المني  
 إن الخلال الزهر قد ضمها  
 لا زال للمجد الذي شدته  
 وافاك نظم لي في طيه  
 مرأته يصعب ما لم يببح  
 ولا أتانا فيك مَحْدُورُ  
 ثوبٌ عليك الدهر مزْرُورُ  
 ربّعٌ بتعميرك معمورُ  
 معنى معمى اللفظ مستورُ  
 بالسر قُمْرِيٌّ وشُحْرُورُ

وذكر أبياتاً فيها أسماء طيور عمى بها عن بيت طيره فيها ، والبيت  
 المطير فيه :

أنت إن تغزُ ظافرُ  
 فليطع من يُنافرُ

ففكّه المعتمد وجاوبه ١ :

يا خيرَ مَنْ يلحظه ناظري  
 ومن إذا خطبٌ دجا ليله  
 جاءني الطيرُ التي سرُّها  
 شعرٌ هو السحرُ فلا تُنكروا  
 اللفظُ والقرطاسُ إن شبَّها  
 هوىَ لحسنِ الطيرِ من فكرتي  
 ولاح لي بيتٌ فؤادي له  
 حظُّك من شكري يا سيدي  
 قصرتُ في نظمي فاعذر فمَنْ  
 فأنت إن تنظمُ وتثرُ فقد  
 شهادةٌ ما شأنها ٢ زورُ  
 لاحَ به من رأيه نورُ  
 نظمٌ به قلبي مسرورُ  
 أني به ما عشتُ مسحورُ  
 قيل هما مسكٌ وكافورُ  
 صقرٌ قولتي وهو مقهورُ  
 دأباً على ودك مقصورُ  
 حظُّ تمالا منك ٣ موفورُ  
 ضاهاك في التقصير معذورُ  
 أعوزَ منظومٌ ومثورُ

١ انظر ديوان ابن زيدون : ٦١٨ .

٢ الديوان : شأها .

٣ الديوان : بما بدا لي منك .

لا يَعْدُكُمْ رَوْضٌ مِنْ الْحِظِّ فِي الْإِكْرَامِ وَالسَّرْفِيعِ مَمْطُورٌ

فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ زَيْدُونَ<sup>١</sup> :

حِظِّيَ مِنْ نُعْمَاكَ مَوْفُورٌ      وَذَنْبُ دَهْرِي بِكَ مَغْفُورٌ  
وَجَانِبِي إِنْ رَامَهُ أَزْمَةٌ<sup>٢</sup>      حَجْرٌ لَدَى ظِلِّكَ مَحْجُورٌ  
يَا ابْنَ الَّذِي سَرَبُ الْهَدَى آمَنٌ      مِنْذُ انْبَرَى بِحِمِيهِ مَخْفُورٌ  
وَأَمْرِ الدَّهْرِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ      يُصْغِي إِلَيْهِ مِنْهُ مَأْمُورٌ  
أَلْبَسَ مِنْكَ الدَّهْرُ<sup>٣</sup> أَسْنَى الْخَلِي      بِظَافِرٍ مَنَحَاهُ مَنصُورٌ  
يَا مَرْوِي، الْمَأْثُورِ يَا مَنْ لَهُ      مَجْدٌ مَعَ الْآيَامِ مَأْثُورٌ  
عَبْدُكَ إِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ      فَهُوَ بِمَا تَوَلَّيْتَهُ مَكْثُورٌ  
إِنْ تَعَفَّ عَنْ تَقْصِيرِهِ مَنَعَا      فَالْيَسْرُ أَنْ يُقْبَلَ مَعْسُورٌ  
إِنَّ حَلَالَ السَّحْرِ إِنْ صُعْتَهُ      فِي صُحْفِ الْأَنْفَسِ مَسْطُورٌ  
نَظْمٌ زَهَانِي مِنْهُ إِذْ جَاءَنِي      عَلِقٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَذْخُورٌ  
لَا غُرُو أَنْ أَفْتَنَ إِذْ لَاحَظْتُ      فِكْرِي مِنْهُ أَعْيُنُ حُورٌ  
تَمُّ عَنْ مَعْنَاهُ أَلْفَاظُهُ      كَمَا وَشَى بِالرَّاحِ بَلُورٌ  
جَهَلْتُ إِذْ عَارَضْتُهُ غَيْرَ أَنْ      لَا بَدَأَ أَنْ يَنْفِثَ مَصْدُورٌ  
يَا آلَ عِبَادِ مُوَالَاتِكُمْ      زَاكَ مِنَ الْأَعْمَالِ مَبْرُورٌ  
إِنَّ الَّذِي يَرْجُو مُوَاذَاتِكُمْ      مِنَ الْمَنَآوِينِ لَمَغْرُورٌ  
مَكَانُهُ مِنْكُمْ كَمَا انْحَطَّ عَنْ      مَتْرَلَةِ الْمَرْفُوعِ مَجْرُورٌ  
لَا زَلَمْتُ فِي غِبْطَةٍ مَا انْجَلَى      عَنْ فَلَاقِ الْإِصْبَاحِ دِيحُورٌ

١ ديوانه : ٦٢٠ .

٢ الديوان : إن زمني رامة .

٣ الديوان : الملك .

٤ في الأصول : قام وفي ؛ والمأثور : السيف .

ولا يَزَلْ يَجْرِي بِمَا شَتَمُ أَعْمَارَكُمُ اللَّهُ مَقْدُورُ

وكتب المعتمد إلى ابن زيدون بعد أن فكَّ معمّي كتب به إليه ابن زيدون ما صورته<sup>١</sup> :

العَيْنُ بِعَدِكَ تَقْنَدِي بِكُلِّ شَيْءٍ تَرَاهُ  
فَلِيَجْلُ شَخْصُكَ عَنْهَا مَا بِالْمَغِيبِ جِنَاهُ

وقد قدمنا من كلام أبي الوليد ابن زيدون رحمه الله تعالى ما فيه كفاية .

رجع إلى بني عبّاد :

قال ابن حمديس<sup>٢</sup> : لما قدمت وافداً على المعتمد بن عبّاد استدعاني وقال :  
افتح الطاق ، فإذا بكير زجاج والنار تلوح من بابيه ، وواقدهُ يفتحهما تارة  
ويسدّهما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما ، وفتح آخر ، فحين تأملتُهما قال لي :  
أجز :

انظُرْهُمَا فِي الظَّلَامِ قَدْ نَجْمَا

فقلت :

كَمَا رَنَا فِي الدُّجْنَةِ الْأَسَدُ

فقال :

يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ ثُمَّ يُطَبِّقُهَا

فقلت :

فِعْلَ امْرِي فِي جُفُونِهِ رَمَدُ

١ ديوان ابن زيدون : ٢١٤ .

٢ انظر هذا الخبر ومقطعات ابن حمديس في ديوانه : ٨ ، ٥٣٣ ، ٥٤٣ ، والخبر في النسخ ٣ :

٦١٦ - ٦١٧ .

فقال :

فابتزّه الدهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت :

وهل نجا من صروفه أحدٌ

فاستحسن ذلك وأطربه ، وأمر لي بجائزة ، وألزمي الخدمة .

٦٧٧ - [مقطعات لابن حمديس]

وعلى ذكر ابن حمديس فما أحسن قوله :

أراك ركبتَ في الأهوال بحرًا عظيمًا ليس يؤمن من خطوبه  
تُسَيِّرُ فلكهُ شرقًا وغربًا وتدفعُ من صباهُ إلى جنوبه  
وأصعبُ من ركوبِ البحرِ عندي أمورٌ ألبأتك إلى ركوبه

ولغيره :

إنَّ ابنَ آدمَ طينٌ والبحرُ ماءٌ يُذِيهُ  
لولا الذي فيهِ يُتلى ما جازَ عندي ركوبهُ

وقال ابن حمديس في هذا المعنى :

لا أركبُ البحرَ ، أخشى عليَّ منهُ المعاطبُ  
طينٌ أنا وهو ماءٌ والطينُ في الماءِ ذائبُ

رجع إلى بني عباد رحمهم الله تعالى :

قال ابن بسام<sup>١</sup> : أخبرني الحكيم النديم المطرب أبو بكر ابن الإشبيلي ، قال :  
حضرت مجلس الرشيد بن المعتمد بن عباد وعنده الوزير أبو بكر ابن عمارة ،

١ بدائع البدائه ٢ : ١٢٩ .

فلما دارت الكأس ، وتمكن الأنس ، وغنيت أصواتاً ذهب الطرب بابن عمّار  
كل مذهب ، فارتجل يخاطب الرشيد :

ما ضرَّ أن قيل لإسحاقُ ومَوْصِلُهُ      ها أنتَ أنتَ وذو حمصٍ وإسحاقُ  
أنتَ الرشيدُ فدع مَنْ قد سمعتَ به      وإن تشابهَ أخلاقُ وأعراقُ  
للهِ دركٌ دارِكُها مُشعِشَعَةٌ      واحضِرْ بساقِكِ ما قامتَ بنا ساقُ

وكان الرشيد هذا أحد أولاد المعتمد النُّجبا ، وله أخبار في الكرم يقضي  
الناظر فيها من أمرها عجبا ، وكذلك إخوته ، وقد ألعنا في هذا الكتاب بجملة  
من محاسنهم ، وأمهم اعتماد الملقبة بالرميكية هي التي ترجمناها في هذا الموضع ،  
واقترضت المناسبة ذكر أمر بني عبّاد ، فلنعد إلى ما كنا بصدده من أخبارها  
رحمها الله تعالى ، فنقول :

#### [ رجع إلى ذكر الرميكية ]

قال ابن سعيد في بعض مصنفاته : كان المعتمد كثيراً ما يأنس بها ،  
ويستظرف نوادرها ، ولم تكن لها معرفة بالغناء ، وإنما كانت مليحة  
الوجه ، حسنة الحديث ، حلوة النادر ، كثيرة الفكاهة ، لها في كل ذلك  
نوادر محكية ، وكانت في عصرها ولاّدة بنت محمد بن عبد الرحمن ، وهي  
أبدع منها ملّحاً ، وأحسن افتناناً ، وأجلُّ منصباً ، وكان أبوها أمير قرطبة ،  
ويلقب بالمستكفي بالله ، وأخبار أبي الوليد ابن زيدون معها وأشعاره فيها مشهورة ،  
انتهى ملخصاً .

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة في قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنّها  
رأت الناس يمشون في الطين ، فاشتهدت المشي في الطين ، فأمر المعتمد ، فسُحقت  
أشياء من الطيب ، وذُرَّتْ في ساحة القصر حتى عمته ، ثم نُصبت الغرابيل ،  
وصُبَّ فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعُجنت بالأيدي حتى عادت كالطين ،



وخاضتها مع جواربها . وغاضبها في بعض الأيام ، فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط ، فقال : ولا يوم الطين ؟ فاستحيت واعتذرت ، وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم في حق النساء « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .

قلت : ولعل المعتمد أشار في أبياته الرائية إلى هذه القضية حيث قال في بناته :

يَطَّأَنَّ فِي الطينِ وَالْأقدامُ حافيةٌ كأنَّها لم تطأ مسكاً وكافورا

ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ما جرت به عادة الملوك من ذرّ الطيب في قصورهم حتى يطؤوه بأقدامهم ، زيادة في التعم .

وسبب قول المعتمد ذلك ما حكاه الفتح فقال<sup>١</sup> : وأول عيد أخذه - يعني المعتمد - بأغامت وهو سارح ، وما غير الشجون له مبارح<sup>٢</sup> ، ولازي إلاّ حالة الحمول ، واستحالة المأمول ، فدخل عليه من بنيه ، من يسلم عليه ويهنيه<sup>٣</sup> ، وفيهم بناته وعليهن أطمار ، كأنها كسوف وهن أقمار ، يبكين عند التساؤل ، ويبدن الخشوع بعد التخيل ، والضيق قد غير صورهن ، وحير نظرهن ، وأقدامهن حافية ، وآثار نعيمهن عافية ، فقال<sup>٤</sup> :

فيما مضى كُنْتُ بِالْأعيادِ مسرورا فساءك العيدُ في أغماتِ مأسورا  
ترى بناتِكَ في الأطمارِ جائعةً يغزلن للناسِ ما يملكنَ قِطْميرا  
برزن نحوكَ للتسليمِ خاشعةً أبصارُهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرا

١ القلائد : ٢٥ .

٢ كذا في ق م ؛ وفي القلائد : مسارح .

٣ في الأصول اضطراب ، وأثبتنا ما في القلائد .

٤ لم تورّد نسخة م هذه القصيدة ، لأنها وردت من قبل ( الورقة : ٢٣٢ ) وأثبتت في موضعها :

« وقد سبقت هذه الأبيات » .

يطأن في الطين والأقدامُ حافيةٌ  
لاخذَ إلا تشكى الجذبَ ظاهرهُ  
أفطرت في العيد لا عادت مساءهُ  
قد كان دهرِك إن تأمرهُ ممثلاً  
من بات بعدك في ملك يُسرُّ به  
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا  
وليس إلا مع الأنفاس مطورا  
فكانَ فطركَ للأكبادِ تفتيرا  
فردكَ الدهرُ منهباً ومأمورا  
فإنما باتَ بالأحلام مغرورا

٦٧٨ - [ عود إلى أخبار المعتمد ]

وقال الفتح أيضاً<sup>١</sup> : ولما نُقل المعتمد من بلاده ، وأُعريَ من طارفه وتيلاده ، وحُمل في السفين ، وأُحِلَّ في العُدوة محلّ الدفين ، تندبه منابره وأعواده ، ولا يدنو منه زوّاره ولا عُواده ، بقي أسيفاً تتصدع زفراته ، وتطرّد اطرّاد المدانِب عبّراته ، لا يخلو بمؤانس ، ولا يرى إلا عريناً بدلاً من تلك المكناس ، ولما لم يجد سلواً ، ولم يؤمل دنواً ، ولم يرَ وجه مسرّة مجلّواً ، تذكر منازلهِ فشاقته ، وتصور بهجتها فراقته ، وتخيل استيحاش أوطانه ، وإجهاش قصره إلى قُطانهِ ، وإظلام جوّه من أقماره ، وخلوّهِ من حرّاسه وسُمّاره ، فقال :

بكي المبارك في إثرِ ابنِ عبّادِ  
بكتْ ثرياه لا غمّتْ كواكبها  
بكي الوحيدُ ، بكي الزاهي وقبتُهُ  
ماء السماء على أفيائهِ دررُ  
بكي على إثرِ غزلانٍ وآسادِ  
بمثلِ نوء الثريا الرائحِ الغادي  
والنهرُ والتاجُ ، كلُّ ذلّه بادي  
يا لجة البحرِ دومي ذات إزبادِ

وفي ذلك يقول ابن اللبّانة<sup>٢</sup> :

أستودعُ الله أرضاً عندما وضحت  
بشائرُ الصبحِ فيها بُدلتْ حلّكا

١ القلائد : ٣ .

٢ أوجزت « م » هنا ، لورود الأبيات قبلا .

كان المؤيد بستاناً بساحتها      يُجني النعيم وفي عليائها فلكا  
 في أمره للملك الدهر معتبرٌ      فليس يَغترُّ ذو مُلكٍ بما ملكا  
 نبكيه من جبلٍ خَرَّتْ قواعدهُ      فكلُّ مَنْ كان في بَطْحائه هلكا

وكان القصر الزاهي<sup>١</sup> من أجمل المواضع لديه وأبهاها ، وأحبها إليه وأشهاها ، لإطلاله على النهر ، وإشرافه على القصر ، وجماله في العيون ، واشتماله بالزهر<sup>٢</sup> والزيتون ، وكان له به من الطرب ، والعيش المزري بحلاوة الضرب ، ما لم يكن بحلب لبني حمدان ، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان ، وكان كثيراً ما يُدير به راحه ، ويجعل فيه انشراحه ، فلما امتد الزمان إليه بعد وانه ، وسد عليه أبواب سلوانه ، لم يحن إلا إليه ، ولم يتمن غير الحلول لديه ، فقال<sup>٣</sup> :

غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيرُ      سيكي عليه منبرٌ وسريرُ  
 وتندبه البيضُ الصوارمُ والقنا      وينهلُ دمعٌ بينهن غزيرُ  
 مضى زمنٌ والملكُ مستأنسٌ به      وأصبحَ منه اليومَ وهو نَقُورُ  
 برأي من الدهرِ المضللِ فاسدُ      متى صلحتُ للصالحين دهورُ  
 أذلَّ بني ماء السماء زمانهمُ      وذُلُّ بني ماء السماء كبيرُ  
 فيا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً      أمامي وخلفي روضةٌ وغديرُ  
 بمُنْبِتَةِ الزيتونِ مورثةِ العُلا      تغني حَمَامٌ أو ترنُ طيورُ  
 بزاهرها السامي الذي جاده الحيا      تشيرُ الثريا نحونا ونشيرُ  
 ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعوده      غيورين والصبُّ المحبُّ غيورُ  
 تراهُ عسيراً لا يسيراً منالهُ      ألا كلُّ ما شاء الإلهُ يسيرُ

وقال الحِجاري في « المسهب » : إن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أهدى

١ القلائد : الحصن الزاهر .

٢ القلائد : بالشجر .

٣ اختصرت « م » إيراد هذه القصيدة لأن هذه الأبيات تقدمت .

إلى المعتمد جارية مغنية قد نشأت بالعدوة ، وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس ، وجاء بها إلى إشبيلية وقد كثر الإرجاف بأن سلطان المثلثين يتزج بلاد ملوك الطوائف منهم ، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك ، فخرج بها إلى قصر الزاهر على نهر إشبيلية ، وقعد على الراح ، فخطر بفكرها أن غنت عندما انثى هذه الأبيات :

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ولووا عماثمهم على الأقمار  
وتقلدوا يوم الوغى هندية أمضى إذا انتضيت من الأقدار  
إن خوفوك لقيت كل كرية أو أمسوك حللت دار قرار

فوقع في قلبه أنها عرضت بساداتها ، فلم يملك غضبه ، ورمى بها في النهر ، فهلكت ، انتهى ، فقدر الله تعالى أن كان تمزيق ملكه على يدهم تصديقا للجارية في قولها :

إن خوفوك لقيت كل كرية

وحصره جيوش لمتونة المثلثين حتى أخذوه قهراً ، وسبق إلى أمير المسلمين ، والقصة مشهورة .

وقال الفتح في شأن حصار المعتمد ما صورته<sup>١</sup> : ولما تم في الملك أمده ، وأراد الله تعالى أن تخر عمده ، وتنقرض أيامه ، وتتقوض عن عراض الملك خيامه ، نازلته جيوش أمير المسلمين ومحلاته ، وظاهرته فساطيطه ومظلاته ، بعدما نشرته حصونه وقلاعه ، وسعرت بالنكاية جوانحه وأضلاعه ، وأخذت عليه الفروج والمضايق ، وثنت إليه الموانع والعوايق ، وطرقته طوارقها بالإضرار ، وأمطرته من النكاية كل ديمة مدارار ، وهو ساه بروض ونسيم ، لاه براح

١ القلائد : ٢١ .

ومُحِيًّا وسِيم ، زاهٍ بفتاة تناديه ، ناهٍ عن هدم أنس هو هادمه ، لا يصيخ إلى  
نبأة سمعهُ ، ولا ينيخ إلا على لهُوٍ يفرق جموعه جمعهُ ، وقد ولى المدامة ملامه ،  
وثنى إلى ركنها طوافه واستلامه ، وتلك الجيوش تجوس خِلاله ، وتقلص ظلاله ،  
وحين اشتد حصاره ، وعجز عن المدافعة أنصاره ، ودلّس عليه ولّاته ، وكثرت  
أدواؤه وعِلاّته ، فتح باب الفرج ، وقد لفح شواظ الهرج ، فدخلت عليه  
من المرابطين زُمرة ، واشتعلت من التغلب جَمرة ، تأجّج اضطرامها ،  
وسهل بها إيقاد الفتنة وإضرامها ، وعندما سقط الخبر عليه خرج حاسراً من  
مُفاضته ، جامعاً كالمهر قبل رياضته ، فلحق أوائلهم عند الباب المذكور وقد  
انتشروا في جنبّاته ، وظهروا على البلد من أكثر جهاته ، وسيّفهُ في يده  
يتلمّظ للطلّي والهام ، ويعد بانفراج ذلك الاستبهام ، فرماه أحدُ الداخلين برمح  
تحطّاه ، وجاوز مطّاه ، فبادره بضربة أذهبت نفسه ، وأغربت شمسهُ ، ولقي  
ثانياً فضربه وقسمه ، وخاض حشاً ذلك الداء وحسمه ، فأجلّوا عنه ،  
ولوّوا فراراً منه ، فأمر بالباب فسُد ، وبني منه ما هـد ، ثم انصرف وقد أراح  
نفسه وشفاهها ، وأبعد الله تعالى عنه الملامة ونقّاهها ، وفي ذلك يقول عندما  
خلع ، وأودع من المكروه ما أودع :

إن يسلب القوم العدى	مُلْكي وتُسَلِمني الجموعُ
فالقلبُ بين ضلوعه	لم تُسَلِم القلبَ الضلوع
قد رمت يوم نزالهم	أن لا تحصّني الدروع
وبرزت ليس سوى القمية	ص على الحشا شيء دفوع
أجلي تأخّر لم يكن	بهواي ذلّي والخضوع
ما سرت قط إلى القتا	ل وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم	والأصل تبعه الفروع

١ القلائد : البقية .

وما زالت عقارب تلك الداخلة تدب ، ثم ذكر الفتح تمام هذا الكلام فراجعه  
فيما مرّ بنحو ثلاث ورفات .

ومن حكايات مجالس أنسه أيام ملكه ، قبل أن ينظمه صرف الدهر في سلكه ،  
ما حكاها الفتح<sup>١</sup> عن ذخر الدولة أنه دخل عليه في دار المزينية<sup>٢</sup> والزهر يحسد  
إشراق مجلسه ، والدر يحكي اتساق تأنسه ، وقد رددت الطير شدّ وها ، وجودت<sup>٣</sup>  
طربها وهوها ، وجدّدت كلفها وشجّوها ، والغصون قد التحفت بسندسها ،  
والأزهار تحيي بطيب تنفسها ، والنسيم يلمّ بها فتضعه بين أجفانها ، وتودّعهُ  
أحاديث آذارها ونيسانها ، وبين يديه فتى من فتيانه يثنى ثني القضيب ، ويحمل  
الكأس في راحة أبي من الكف الحضيبي ، وقد توشح وكأن الثريا وشاحه ،  
وأثار فكان الصبح من مَحِيّاه كان اتضاحه ، فكلّما ناوله الكأس خامرته سورّه ،  
وتخيل أن الشمس تهديه نوره ، فقال المعتمد :

للهِ ساقٍ مهفهفٌ غنّيجٌ قد قامَ يسقي فجاء بالعجبِ  
أهدى لنا من لطيفِ حكمته في جامدِ الماء ذائبِ الذهبِ

ولما وصل لورقة استدعى ذا الوزارتين القائد أبا الحسن ابن اليسع ليلته تلك  
في وقت لم يخف فيه زائر من مرّاقب ، ولم يبّد فيه غير نجم ثاقب ، فوصل  
وما للأمن إلى فؤاده وصول ، وهو يتخيّل أن الجوّ صوّارم ونُصُول ، بعد أن  
وصّى بما خلف ، وودع من تخلف ، فلما مثل بين يديه آنسه ، وأزال توجّسه ،  
وقال له : خرجت من إشبيلية وفي النفس غرام طويته بين ضلوعي ، وكففت فيه  
غرب دُموعي ، بفتاة هي الشمس أو كالشمس إخالها ، لا يجول قلبها ولا  
خلخالها ، وقد قلت في يوم وداعها ، عند تفتّر كبدي وانصداعها :

١ القلائد : ٩ .

٢ ق م : المرينية ؛ القلائد : المزينية .

٣ ق : وجردت ؛ وفي القلائد : وقد رددت الطير شجوها ، وجددت طربها وشجوها .

ولما التقينا للوداع غدّيةً وقد خفتُ في ساحةِ القصرِ راياتُ  
بكينا دماً حتى كأنّ عيوننا بلحري الدموعِ الحمرِ منها جراحاتُ

وقد زارتني هذه الليلة في مضجعي ، وأبرأتني من توجعي ، ومكتنتي من  
رُضابها ، وفتتني بدلالها وخضابها ، فقلت :

أباحَ لطيفي طيفُها الخدَّ والنَّهدا فعضَّ بها تفاحةً واجتني وردا  
ولو قدَّرتُ زارتُ على حالِ يقظةٍ ولكنَّ حجابُ البين ما بيننا مُدّاً  
أما وجدتُ عننا الشجونُ مُعرجاً ولا وجدتُ منا خطوبُ النوى بُدّاً  
سقى الله صوبَ القطرِ أمَّ عبيدةٍ كما قد سقتُ قلبي على حرِّه برداً  
هي الظبيُّ جيداً ، والغزاةُ مقلّةٌ ، وروضُ الرُّبى عرْفاً ، وغصنُ النَّقا قدّاً

فكرّر استجادته ، وأكثر استعادته ، فأمر له بخمسمائة دينار وولاه لورقة  
من حينه .

قال الفتح<sup>١</sup> : وأخبرني ابن اللبّانة أنّه استدعاه ليلة إلى مجلس قد كساه  
الروض وشيّته ، وامثل الدهر فيه أمره ونهيه ، فسقاه الساقى وحيّاه ، وسفر  
له الأنس عن مونيقيّ مُحَيّاه ، فقام للمعتمد مادحاً ، وعلى دَوْحَة تلك النعماء  
صادحاً ، فاستجاد قوله . وأفاض عليه طوله ، فصدر وقد امتلأت يده ،  
وغمره جوده ونده ، فلماً حلَّ بمنزله وافاه رسوله بقطيع وكأس من بلّار ،  
قد أترعا بصيرف العقار ، ومعهما :

جاءتك ليلاً في ثيابِ نهارٍ من نورها وغلالةِ البُلّارِ  
كالمشترى قد لفَّ من مِرْيخه إذ لفّه في الماء جندوةً نارِ  
لطفِ الحمود لذا وذا فتألّفا لم يلقَ ضدُّ ضدّه بنِفارِ

يتحير الراءون في نعتيهما أصفاء ماء أم صفاء دراري

وقال الفتح أيضاً<sup>١</sup> : وأخبرني ذخر الدولة أنه استدعاه في ليلة قد ألبسها البدر رؤاه ، وأوقد فيها أضواءه ، وهو على البحيرة الكبرى ، والنجوم قد انعكست فيها تحالها زهرا ، وقابلتها المجرة فسالت فيها نهرا ، وقد أريجت نوافج الند ، وماست معاطف الرند ، وحسد النسيم الروض فوشى بأسراره ، وأفشى حديث أسه وعراره ، ومشى مختالاً بين لبيات النور وأزراره ، وهو وجيم ، ودمعه منسجم ، وزفراته تترجم عن غرامه ، وتجمجم عن تعذر مرامه ، فلما نظر إليه استداناه وقربه ، وشكا إليه من الهجران ما استغربه ، وأنشده :

أيا نفس لا تجزعي واصبري وإلا فإن الهوى مُتَلِفٌ  
حبيبٌ جفاك ، وقلبٌ عصاك ولاح لحاك ، ولا منصفٌ  
شجونٌ منعن الجفون الكرى وعوضنها أدمعاً تنزفُ

فانصرف ولم يعلمه بقصته ، ولا كشف له عن غصته ، انتهى .

وقال الفتح أيضاً<sup>٢</sup> : أخبرني ذخر الدولة بن المعتضد أنه دخل عليه في ليلة قد ثنى السرور مئامها ، وامتطى الحبور غاربها وسنامها ، وراع الأنس فؤادها ، وستر بياض الأمانى سوادها ، وغازل نسيم الروض زوارها وعوادها ، ونور السرج قد قلص أذيالها ، ومحا من لجين الأرض نياها ، والمجلس مكتس بالمعالي ، وصوت المثاني والمثالث عالي ، والبدر قد كمل ، والتحف بضوئه القصر واشتمل ، وتزين بسناه وتجمّل ، فقال المعتضد :

ولقد شربتُ الراح يسطعُ نورها والليلُ قد مدَّ الظلامَ رداءً

١ القلائد : ٨ .

٢ القلائد : ٦ .



حتى تبدى البدرُ في جوزائه  
وتناهضتُ زهُرُ النجومِ يحفهُ  
لما أراد تترهاً في غربهِ  
وترى الكواكبَ كالمواكبِ حوله  
وحكيته في الأرض بين كواكبِ  
إن نَشَرْتَ تلك الدروعَ حنادساً  
وإذا تغتتْ هذهِ في ميزهَرِ  
ملكاً تنهى بهجةً وبهاء  
لألاؤها فاستكملَ الألاء  
جعل المظلةَ فوقه الجوزاء  
رفعتْ ثُرَيَّاها عليه لواء  
وكواعبِ جمعتْ سنا وسناء  
ملأتْ لنا هذي الكؤوسَ ضياء  
لم تألُ تلكَ على التريكِ غناء

وأخبرني ابن إقبال الدولة [ بن مجاهد ]<sup>١</sup> أنه كان عنده في يوم قد نشر من غيمه رداء ندى ، وأسكب من قطره ماء ورّد ، وأبدى من برقه لسان نار ، وأظهر من قوس قزحهِ حنايا آس<sup>٢</sup> حفت بنرجس وجلنار ، والروض قد بعث رِيّاه ، وبث الشكر لسُقَيّاه ، فكتب إلى الطيب الأديب أبي محمد المصري :

أيّها الصاحبُ الذي فارقتْ عَيْدُ  
نحنُ في المجلسِ الذي يَهَبُ الرا  
ني ونفسي منهُ السنا والسناء  
حةَ والمسمعَ الغنى والغناء  
نتعاطى التي تُنَسِّي من الرقة  
ةِ واللذّةِ الهوى والهواء  
قد أعدّا لك الحيا والحياء  
فأتبه تُلفِ راحةً ومحيّا

فوافاه وألقى مجلسه وقد أثلعت فيه أباريقه أجيادها ، وأقامت فيه خيل السرور طرادها ، وأعطته الأمانى انطباعها وانقيادها ، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعيادها ، وخلعت عليه الشمس شعاعها ، ونشرت فيه الحدائق إيناعها ، فأديرت الراح ، وتعوطيت الأقداح ، وخامر النفوس الابتهاج والارتياح ، وأظهر المعتمد من إيناسه ، ما استرق به نفوس جلاسه ، ثم دعا

١ زيادة من القلائد .

٢ الأصول : خبايا آس .

بكبير ، فشربه كالشمس غربت في ثبير ، وعندما تناولها ، قام المصري ينشد  
أبياتاً تمثلها ١ :

اشربُ هنيئاً عليكَ التاجُ مرتفعاً بشاذمِهَرٍ ودَعْ غُمْدانَ لليمنِ  
فأنتَ أولى بتاجِ الملكِ تلبسه من هودّةِ بنِ عليّ وابنِ ذي يزنِ

فطرب حتى زحف عن مجلسه ، وأسرف في تأنّسه ، وأمر فخلعت عليه  
خيلع لا تصلح إلاّ للخلفاء ، وأدناه حتى أجلسه مجلس الأكفاء ، وأمر له بدنانير  
عدداً ، وملاً له بالمواهب يدأ .

وله في غلام<sup>٢</sup> رآه يوم العروبة من ثنبيات الوغى طالعاً ، ولطلى الأبطال  
قارعاً ، وفي الدماء والغآ ، ولمستبشع كؤوس المنايا سائغاً ، وهو ظبي قد فارق  
كناسه ، وعاد أسداً صارت القنا أحياسه ، ومتكائف العجاج قد مزقه إشراقه ،  
وقلوب الدارعين قد شكتهأ أحداقه ، فقال :

أبصرتُ طِرفكَ بينَ مشتجِرِ القنا فبدا لطرّفي أنه فلكُ  
أوليسَ وجهكَ فوقه قمرأ يُجلى بنيرِ نورِهِ الحلكُ

وقال فيه :

ولما اقتحمتَ الوغى دارعأ وقنّعتَ وجهكَ بالمغفرِ  
حسبنا مُحياكَ شمسَ الضحى عليها سحبٌ من العنبرِ

وقد جمح بنا القلم في ترجمة المعتمد بن عبّاد بعضَ جُمُوح ، وما ذلك إلا  
لما علمنا أن نفوس الأدباء إلى أخباره رحمه الله تعالى شديدة الطمُوح ، وقد جعل  
الله تعالى له كما قال ابن الأَبّار في « الحلة السراء » رقةً في القلوب وخصوصاً

١ نسب المبرد البيتين لشاعر من أهل الري يكنى أبا يزيد أنشدهما عبد الله بن طاهر (الكامل ٢ : ٢٤) .

٢ القلائد : ٨ .

بالمغرب فإن أخباره وأخبار الرميكية إلى الآن متداولة بينهم ، وإن فيها لأعظم  
عبرة ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى أخبار النساء :

11 - ومنهن العبادية جارية المعتضد عبّاد<sup>1</sup> ، والد المعتمد ، أهداها إليه  
مجاهد العامري من دانية ، وكانت أدبية ، ظريفة ، كاتبة ، شاعرة ، ذاكرة  
لكثير من اللغة ، قال ابن عليم في شرحه لأدب الكتّاب لابن قتيبة ، وذكر  
الموسعة وهي خشبة بين حمالين يجعل كل واحد منهما طرفها على عنقه ، ما  
صورته : وبذكر الموسعة أغربت جارية لمجاهد أهداها إلى عبّاد كاتبة شاعرة  
على علماء إشبيلية وبالهمزة<sup>2</sup> التي تظهر في أذقان بعض الأحداث ، وتعتري بعضهم  
في الخدين عند الضحك ، فأما التي في الذقن فهي التونة ، ومنه قول عثمان رضي  
الله تعالى عنه : دسّموا<sup>3</sup> نونته لتدفع العين ، وأما التي في الخدين عند الضحك  
فهي الفحصّة ، فما كان في ذلك الوقت في إشبيلية من عرف منها واحدة .  
وسهر عباد ليلة لأمر حزبه وهي نائمة ، فقال :

تَنَامُ وَمُدُنْفُهَا يَسْهَرُ وَتَصْبِرُ عَنْهُ وَلَا يَصْبِرُ

فأجابته بديهة بقولها :

لئن دامَ هذا وهذا لَهُ سِيهْلُكَ وَجَدّاً وَلَا يَشْعُرُ

ويكفيك هذا شاهداً على فضلها رحمة الله تعالى وسامحها<sup>4</sup> .

١ ترجمتها في الذيل والتكملة (آخر جزء الغرباء) ، وما أثبتته المقرئ منقول بنصه عنه .

٢ هكذا في الذيل ، وفي ق : وبالفرجة .

٣ م : وسما ؛ وهي بالبدال في الذيل وفوقها علامة « صح » .

٤ الذيل : ولا يصبر .

٥ وسامحها : زيادة من ق .

12 - ومنهن : بثينة بنت المعتمد بن عباد ، وأمها الريمكية السابقة الذكر ، وكانت بثينة هذه نحواً من أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر ، ولما أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت من جملة من سُبِي ، ولم يزل المعتمد والريمكية عليها في وِلكه دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب ، وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سُرِيّة ووهبها لابنه ، فنظر من شأنها وهَيَّئت له ، فلما أراد الدخول عليها امتنعت ، وأظهرت نسبها ، وقالت : لا أحل لك إلاّ بعقد النكاح إن رضي أبي بذلك ، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبيلها لأبيها ، وانتظار جوابه ، فكان الذي كتبه بخطها من نظمها ما صورته :

اسمِعْ كلامي واستمعْ لمقالي	فهي السلوكُ بَدَتْ من الأجيادِ
لا تنكروا أنِّي سُبِيْتُ وأنِّي	بنتُ الملكِ من بني عبّادِ
ملكٌ عظيمٌ قد تولّى عصره	وكذا الزمانُ يؤول للإفسادِ
لما أراد الله فرقةً شملنا	وأذاقنا طعمَ الأسى عن زادِ
قامَ النفاق على أبي في ملكه	فدنا القراقُ ولم يكن بمرادِ
فخرجتُ هاربةً فحازني امرؤ	لم يأتِ في إعجاله بسدادِ
إذ باعني بيعَ العبيدِ فضمني	مَنْ صانني إلاّ من الانكادِ
وأرادني لنكاحِ نجلِ طاهرٍ	حَسَنِ الخلاقِ من بني الأنجادِ
ومضى إليك يسومُ رأيك في الرضى	ولأنت تنظرُ في طريقِ رشادي
فعساك يا أبتي تعرفني به	إن كانَ ممّن يُرتجى لودادِ
وعسى ريمكيةُ الملوكِ بفضلها	تدعُو لَنَا باليُمْنِ والإسعادِ

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات ، واقعٌ في شِراكِ الكُروبِ

والأزمات ، سرٌّ هو وأمّها بجياتها ، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها ،  
 إذ علما مال أمرها ، وجبر كسرهما ، إذ ذلك أخف الضررين ، وإن كان الكرب  
 قد ستر القلب منه حجابٌ ريّن ، وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبي  
 المذكور ، وكتب إليها أثناء كتابه ممّا يدل على حسن صبره المشكور :

بنيتي كوني به برّةً فقدّ قضي الوقتُ بإسعافه

وأخبار المعتمد بن عباد ، تذيب الأكباد ، فلنرجع إلى ذكر نساء الأندلس  
 فنقول :

13 - ومنهن حفصة بنت حمدون<sup>١</sup> ، من وادي الحجارة ، ذكرها في  
 « المغرب » وقال : إنّها من أهل المائة الرابعة ، ومن شعرها :

رأى ابنٌ جميلٌ أن يرى الدهرَ مجملًا      فكلُّ الوري قد عمهم سيّبُ نعمته<sup>٥</sup>  
 لهُ خلقتُ كالخمرِ بعدَ امتزاجِها      وحسُنُ فما أحلاه من حين خلقتَه<sup>٥</sup>  
 بوجهٍ كمثلِ الشمسِ يدعو ببشره      عيوناً ويُعشّيها بإفراط<sup>٢</sup> هيته<sup>٥</sup>

ولها :

لي حبيبٌ لا ينثني لِعتابٍ      وإذا ما تركتُه زاد تيهها  
 قال لي هل رأيت لي من شبيهٍ      قلتُ أيضاً وهل ترى لي شبيها

ولها تدم عبيدها :

يا ربّ إنّي من عبيدي على      جمرِ الغضا ، ما فيهم من نجيبٍ  
 إمّا جهولٌ أبلهٌ متعبٌ      أو فطنٌ من كيده لا يجيبُ

١ ترجمة حفصة بنت حمدون في الذيل والتكملة والسيوطي : ٤٦ والمغرب ٢ : ٣٧ .

٢ م : بإطراق .

وقال ابن الأَبَّار : إنَّها كانت أديبة عالمة شاعرة ، وذكرها ابن فرج صاحب « الحدايق » وأنشد لها أشعاراً منها قولها :

يا وحشي لأحبي يا وحشةً متماديه  
يا ليلةً ودعتهم يا ليلةً هي ما هيه

14 - ومنهن زينب المرية<sup>١</sup> ، كانت أديبة شاعرة ، وهي القائلة :

يا أيها الراكبُ الغادي لطبته عرَّجْ أنبئكَ عن بعضِ الذي أجدُ  
ما عالج الناسُ من وجد تضمَّنهم إلا ووجدني بهم فوق الذي وجدوا  
حسبي رضاهُ وأنِّي في مسرَّتهِ وودّه آخراً الأيَّام أجتهدُ

15 - ومنهن غاية المني<sup>٢</sup> ، وهي جارية أندلسية متأدِّبة ، قدمت إلى المعتصم بن صُمادح ، فأراد اختبارها فقال لها : ما اسمك ؟ فقالت : غاية المني ، فقال لها : أجزبي :

اسألُوا غايةَ المني

فقالت :

مَنْ كسا جسميَ الضنى  
وأراني موهاً سيقُولُ الهوى أنا

هكذا أورد السالمي هذه الحكاية في تاريخه .

قال ابن الأَبَّار : وقرأت بخطّ الثقة حاكياً عن القاضي أبي القاسم ابن حبيش قال : سيقت لابن صُمادح جارية نبيلة تقول الشعر وتحسن المحاضرة ، فقال :

١ سقطت هذه الترجمة من نسخة « م » ؛ وترجمة زينب المرية في الذيل والتكملة .

٢ ترجمة غاية المني في الذيل والتكملة وفيه ما أورده المقرئ .

تُحْمَلُ إِلَى الْأَسْتَاذِ ابْنِ الْفَرَاءِ الْخَطِيبِ لِيُخْتَبِرَهَا ، وَكَانَ كَفِيفًا ، فَلَمَّا وَصَلَتْهُ  
قَالَ : مَا اسْمُكَ ؟ فَقَالَتْ : غَايَةُ الْمَنَى ، فَقَالَ : أُجِيزِي :

سَلْ هَوَى غَايَةَ الْمَنَى مَن كَسَا جَسْمِي الضَّنَى

فَقَالَتْ تَجِيزُهُ :

وَأَرَانِي مَتِيمًا سَيَقُولُ الْهَوَى أَنَا

حَكَى ذَلِكَ لِابْنِ صَمَادِحَ ، فَاشْتَرَاهَا ، أَنْتَهَى .

16 - وَمِنْهُمْ حَمْدَةُ ، وَيُقَالُ حَمْدُونَةُ بِنْتُ زِيَادِ الْمُؤَدَّبِ<sup>١</sup> مِنْ وَادِي آشَ ،  
وَهِيَ خَنْسَاءُ الْمَغْرِبِ ، وَشَاعِرَةُ الْأَنْدَلُسِ ، ذَكَرَهَا الْمَلَاخِي وَغَيْرُهُ ، وَمِمَّنْ رَوَى  
عَنْهَا أَبُو الْقَاسِمِ ابْنُ الْبَرَّاقِ .

وَمِنْ عَجِيبِ شَعْرِهَا قَوْلُهَا :

وَلَمَّا أَبَى الْوَأَشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَمَا لَهْمُ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ نَارِ  
وَشَتَّوْا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ وَقَلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي  
غَزَوْتَهُمْ مِنْ مَقْلَتِيكَ وَأَدْمُعِي وَمَنْ نَفَسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ

وَبَعْضُ يَزْعَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ لِمَهْجَةِ بِنْتِ عَبْدِ الرَّزَاقِ الْغُرْنَاطِيَّةِ ، وَكُونَهَا  
لِحَمْدَةِ أَشْهَرِ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .  
وَخَرَجَتْ حَمْدَةُ مَرَّةً لِلْوَادِي مَعَ صَبِيَّةٍ ، فَلَمَّا نَفَضَتْ عَنْهَا ثِيَابَهَا وَعَامَتْ  
قَالَتْ :

١ ترجمه حمدة (أو حمدونة) بنت زياد في التكملة (رقم : ٢١٢٠) والإحاطة ١ : ٤٩٨ وتحفة  
القادم : ١٦٢ والمطرب : ١١ والسيوطي : ٤٨ والذيل والتكملة ، وأبوها هو زياد بن بقي  
العوفي ، وهي أخت زينب .

أَبَاحَ الدَّمْعُ أُسْرَارِي بِيَوَادِي لَهُ لِلْحَسَنِ آثَارٌ بِوَادِي  
فَمَنْ نَهْرٍ يَطُوفُ بِكُلِّ رَوْضٍ وَمَنْ رَوْضٍ يَرْفُءُ بِكُلِّ وَادِي  
وَمَنْ بَيْنَ الطَّبَاءِ مَهَاةُ إِنْسٍ لَهَا لِي بِي وَقَدْ مَلَكَتْ فَوَادِي  
لَهَا لِحْظٌ تَرْقُدُهُ لِأَمْرِ وَذَلِكَ الْأَمْرُ يَمْنَعُنِي رِقَادِي  
إِذَا سَدَلْتُ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ فِي جَنَحِ الدَّادِي<sup>١</sup>  
كَأَنَّ الصَّبِيحَ مَاتَ لَهُ شَقِيقٌ فَمَنْ حَزَنٍ تَسْرَبِلَ بِالْحِلْدَادِ

وقال ابن البراق في سَوَقِ هذه الحكاية : أنشدتنا حمدة العوفية لنفسها ،  
وقد خرجت متنزهة بالرملة من نواحي وادي آش فرأت ذات وجه وسيم  
أعجبها ، فقالت - وبين الروایتين خلاف - : أباح الدمع ، إلى آخره ،  
ونسب بعضهم إلى حمدة هذه الأبيات الشهيرة بهذه البلاد المشرقية ، وهي :

وقانا لفحةَ الرمضاءِ وادٍ سقاه مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ  
حَلَكْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا حُنُوَ الْمَرْضَعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ  
وَأرْشَقْنَا عَلَى ظَمِئٍ زُلَالًا أَلَذَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ  
يَصُدُّ الشَّمْسَ أَتَى وَاجْهَتَنَا فَيَحْجِبُهَا وَيَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ  
يَرُوعُ حِصَاهُ حَالِيَةَ الْعِدَارِي فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعَقْدِ النُّظِيمِ

وممن جزم بذلك الرعيني ، وقال : إن مؤرخي بلادنا نسبوها لحمدة من  
قبل أن يوجد المنازي الذي ينسبها له أهل المشرق ، وقد رأيت أن أذكر كلامه  
برمته ونصّه : كانت من ذوي الألباب ، وفحول أهل الآداب ، حتى إن بعض  
المنتحلين تعلق بهذه الأهداب ، وادعى نظم هذين البيتين - يعني : ولما أبى  
الواشون ، إلى آخره - لما فيهما من المعاني والألفاظ العذاب ، وما غره في ذلك

١ في الأصول : أفق السواد ؛ واخترنا رواية ابن عبد الملك ؛ والدادي : ثلاث ليال من آخر الشهر ؛  
وفي المطرب : رأيت الصبح أشرق في الدادي .



إلاّ بُعدُ دارها ، وخلوّ هذه البلاد المشرقية من أخبارها ، وقد تلبّس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غير هذا من أشعارها ، وهو قولها : وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ، إلى آخره ، وإن هذه الأبيات نسبتها أهلُ البلاد للمنازي من شعرائهم ، وركبوا التعصّب في جادة ادعائهم ، وهي أبيات لم يخلبها غير لسانها ، ولا رقم برديها غير إحسانها ، ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا وهي الأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الموجود ، انتهى . وهو أبو جعفر الأندلسي الغرناطي ، نزيل حلب .

وحكى ابن العديم في تاريخ حلب ما نصّه : وبلغني أن المنازي عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبي العلاء المعري ، فلما وصل إليه أنشده الأبيات ، فجعل المنازي كلما أنشد المصراع الأوّل من كل بيت سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمام البيت كما نظمه ، ولما أنشده قوله :

نزلنا دَوْحَهُ فحنا علينا

قال أبو العلاء :

حنوّ الوالداتِ على الفطيم

فقال المنازي : إنّما قلتُ « على اليتيم » فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى .

وهذا يدل على أن الرواية عنده « حنوّ الوالداتِ » وقد تقدّم المرضعات ، والله تعالى أعلم .

وقال ابن سعيد : يقال لثناء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة « العربيات » لمحافظتهنّ على المعاني العربية ، ومن أشهرهن زينب بنت زياد الوادي آشي ، وأختها حمدة ، وحمدة هذه هي القائلة وقد خرجت إلى نهر منقسم الجداول بين الرياض مع نساها فسبحنّ في الماء وتلاعبنّ :

## أَباحُ الدَّمْعِ أُسْرارِي بُوادي

الأبيات ، انتهى .

17 - ومنهنّ عائشة بنت أحمد القرطبية .

قال ابن حيّان في «المقتبس» : لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يَعدّها علماً وفهماً وأدباً وشِعراً وفصاحة ، تمدح ملوك الأندلس وتخطبهم بما يعرض لها من حاجة ، وكانت حَسنة الخط ، تكتب المصاحف ، وماتت عذراء لم تُنكح سنة أربعمائة .

وقال في «المغرب» : إنَّها من عجائب زمانها ، وغرائب أوانها ، وأبو عبد الله الطيب عمّها ، ولو قيل «إنَّها أشعر منه» لجاز ، ودخلت على المظفر ابن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولد ، فارتجلت :

أراكَ اللهُ فيهِ ما تريدُ	ولا بَرِحَتْ معاليهِ تزيدُ
فقد دَلَّتْ مخابِلُهُ على ما	تؤمِّلُهُ وطالعُهُ السعيدُ
تشوّقتِ الجيادُ لهُ وهزَّتْ الـ	حسامُ هوى وأشرقتِ البنودُ
فسوفَ تراهُ بدرأ في سماء	من العَلِيا كواكبهِ الجنودُ
وكيفَ ينجيبُ شبلٌ قد نمتهُ	إلى العَلِيا ضراغمةُ أسودُ
فأنتم آلَ عامرٍ خيرُ آلٍ	زكا الأبناءُ منكم والجدودُ
وليدكمُ لدى رأيِ كشيخٍ	وشيخكمُ لدى حربٍ وليدُ

وخطبها بعض الشعراء ممّن لم ترضه فكتبت إليه :

أنا لبوةٌ لكنّي لا أرتضي	نفسِي مُناخاً طولَ دهري من أحدٍ
ولو آتني أختارُ ذلك لم أجب	كلباً وكم غلّقتُ سمعي عن أسدٍ

١ ترجمة عائشة القرطبية في الصلة : ٦٥٤ والسيوطي : ٧١ واسم أبيها أحمد بن محمد بن قادم .

سكنت إشبيلية ، وأصلها والله أعلم من شلب .

وذكرها ابن دحية في « المطرب »<sup>٢</sup> وقال : إنّه أديبة شاعرة [ جزلة ] مشهورة ، وكانت تعلم النساء الأدب ، وتحتشم لدينها وفضلها ، وعمرت عمراً طويلاً ، سكنت إشبيلية ، واشتهرت بها بعد الأربعمائة . وذكرها الحميدي ، وأنشد لها جوابها لما بعث المهدي إليها بدنانير ، وكتب إليها :

ما لي بشكرِ الذي أوليتِ من قبَلِ  
يا فذّةَ الظرفِ في هذا الزّمانِ ويا  
أشبهتِ مريمًا العذراءِ في ورَعِ  
لو أني حزتُ نطقَ اللّسنِ في الحلالِ  
وحيدةَ العصرِ في الإخلاصِ في العملِ  
وفقتِ خنساءَ في الأشعارِ والمثلِ  
ونصّ الجواب منها :

من ذا يجاريك في قولٍ وفي عملِ  
ما لي بشكرِ الذي نظمتَ في عنقي  
حلّيتني بحلّى أصبحتُ زاهيةً  
للهِ أخلاقك الغرّ التي سقيتُ  
أشبهتُ مروانَ من غارت بدائعهُ  
من كان والده العصبَ المهند لم  
وقد بدّرت إلى فضلٍ ولم تُسلِ  
من اللّالي وما أوليتِ من قبَلِ  
بها على كلّ أنثى من حلّى عطلِ  
ماء الفراتِ فرقّت رقّة الغزلِ  
وأجّدتُ وغدتُ من أحسن المثلِ  
يلدُ من النسلِ غيرَ البيضِ والأسلِ

ومن شعرها وقد كبرت :

وما يُرتجى من بنتِ سبعينَ حجّةً  
تدبُّ ديببَ الطفلِ تسعى إلى العصا  
وسبعِ كسجِ العنكبوتِ المهلهلِ  
وتمشي بها مشيَ الأسيرِ المكبّلِ

١ ترجمة مريم في الصلة : ٦٥٦ والجدوة : ٣٨٩ (وبنية الملتبس رقم : ١٥٨٤) والسيوطي : ٩٠ .

٢ يبدو أن المقرئ وهم هنا ، فأثبت نص الصلة ونسبه للمطرب ، وليس في المطرب ترجمة لمريم هذه .

19 - ومنهنّ أسماء العامرية<sup>١</sup> ، من أهل إشبيلية ، كتبت إلى عبد المؤمن ابن علي رسالة نمت فيها إليه بنسبها العامري ، وتسأله في رفع الانزال عن دارها ، والاعتقال عن مالها ، وفي آخرها قصيدة أولها :

عرفنا النصرَ والفتحَ المُبينَا      لسيدنا أميرِ المؤمنينَا  
إذا كان الحديثُ عن المعالي      رأيتُ حديثكم فينا شُجُونَا

ومنها :

رويتمُ علمهُ فعلمتموه      وصنتم عهدهُ فغدا مصُونَا

20 - ومنهن أم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية ، سمعت أباه ، وكانت حاضرة النادرة ، سريعة التمثل ، من أهل العلم والفهم والعقل ، ولها تأليف في القبور ، ولما ولي أبوها قضاء المريّة دخل داره وعيناه تذرّفان وجداً لفارقة وطنه ، فأنشده ممثلة :

يا عينُ صارَ الدمعُ عندكِ عادةً      تبكينَ في فرحٍ وفي أحزانِ

وهذا البيت من جملة أبيات هي :

جاء الكتابُ من الحبيبِ بأنّه      سيزورني فاستعبرتُ أجفاني  
غلبَ السرورُ عليّ حتى إنّه      من عظم فرط<sup>٢</sup> مسرتي أبكاني

وبعده البيت ، وبعده :

فاستقبلي بالبشر يومَ لقائهِ      ودعي الدموعَ لليلةِ الهجرانِ

١ ترجمتها في الذيل والتكملة ؛ وما ورد هنا منقول عنه .

٢ م : من فرط عظم .

21 - ومنهن مهجة القرطبية<sup>١</sup> صاحبة ولادة رحمهما الله تعالى ، وكانت من أجل نساء زمانها ، وعلقت بها ولادة ، ولازمت تأديبها ، وكانت من أخف الناس روحاً ، ووقع بينها وبين ولادة ما اقتضى أن قالت :

ولادةٌ قد صرتِ ولادةً من غيرِ بعلٍ ، فُضِحَ الكاتمُ  
حككتُ لنا مريمَ لكنّه نخلَةٌ هذي ذكراً قائمٌ

قال بعض الأكابر : لو سمع ابن الرومي هذا لأقرّها بالتقديم .  
ومن شعرها :

لئن قد حمى عن ثغرها كلّ حائمٍ فما زال يُحمى عن مُطالبه الثغرُ  
فذلك تحميه القواضبُ والقننا وهذا حماه من لواظها السحرُ  
وأهدى إليها من كان يهيم بها خوفاً ، فكتبت إليه :

يا مُتحمفاً بالخوخِ أحبابه أهدلاً به من مُثنجٍ للصدرِ  
حكى ثديي الغيدِ تفليكه لكنه أخزى رؤوس الأيورِ

22 - ومنهن هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي ، وكانت أديبة شاعرة ، كتب إليها أبو عامر ابن ينق يدعوها للحضور عنده بعُودها :

يا هندُ هل لكِ في زيارةِ فتيةٍ نبذوا المحارمَ غيرَ شربِ السلسلِ  
سمعوا البلابلَ قد شدوا فتذكروا نغماتِ عودكِ في الثقلِ الأولِ

فكتبت إليه في ظهر رقعة :

يا سيداً حازَ العُلا عن سادةٍ شُمَّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ

١ ترجمة مهجة في المغرب ١ : ١٤٣ والسيوطي : ٩٣ ونسبتها القرطبية تميزها عن مهجة الغرناطية وقد ترجم للثانية ابن عبد الملك .

حَسْبِي مِنَ الْإِسْرَاعِ نَحْوَكِ أَتَيْتِي كُنْتُ الْجَوَابَ مَعَ الرَّسُولِ الْمَقْبَلِ

23 - ومنهنَّ الشَّليبية ، قال ابن الأَبَّار : ولم أَقِفْ عَلَى اسْمِهَا ، وَكُتِبَتْ إِلَى السُّلْطَانِ يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ تَتَضَلَّمُ مِنْ وِلاَةِ بِلْدَمِهَا وَصَاحِبِ خِرَاجِهِ :

قَدْ آتَى أَنْ تُبْكِي الْعُيُونُ الْآبِيَةَ      وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الْحِجَارَةَ بَاكِيَةً  
يَا قَاصِدَ الْمِصْرِ الَّذِي يُرْجَى بِهِ      إِنْ قَدَّرَ الرَّحْمَنُ رُفْعَ كِرَاهِيَةِ  
نَادِ الْأَمِيرِ إِذَا وَقَفَتْ بِبَابِهِ      يَا رَاعِيًا إِنْ الرِّعِيَةَ فَانِيهِ  
أَرْسَلْتَهَا هَمَلًا وَلَا مَرَعَى لَهَا      وَتَرَكْتَهَا نَهَبَ السَّبَاعِ الْعَادِيهِ  
شَلْبٌ كَلَّ شَلْبٍ ، وَكَانَتْ جَنَّةً      فَأَعَادَهَا الطَّاعُونَ نَارًا حَامِيهِ  
خَافُوا وَمَا خَافُوا عَقُوبَةَ رَبِّهِمْ      وَاللَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيهِ

يُقَالُ : إِنَّهَا أُلْقِيَتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى مِصْلَى الْمَنْصُورِ ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ وَتَصَفَّحَهَا بَحْثَ عَنِ الْقِصَّةِ فَوَقَّفَ عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَأَمَرَ لِلْمَرْأَةِ بِصَلَّةٍ .  
وَحَكِي أَنْ بَعْضَ قِضَاةِ لُوشَةَ كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَاقَتِ الْعُلَمَاءَ فِي مَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ وَالنَّوَازِلِ ، وَكَانَ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ذُكِرَ لَهُ وَصَفَهَا فَتَزَوَّجَهَا ، وَكَانَ فِي مَجْلِسِ قِضَائِهِ تَنْزِلُ بِهِ النَّوَازِلُ ، فَيَقُومُ إِلَيْهَا فَتُشِيرُ عَلَيْهِ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ مَدَاعِبًا بِقَوْلِهِ :

بِلُوشَةَ قَاضٍ لَهُ زَوْجَةٌ وَأَحْكَامُهَا فِي الْوَرَى مَاضِيَةٌ  
فِيَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ قَاضِيًا وَيَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ

فَاطَّلَعَ زَوْجَتَهُ عَلَيْهِ حِينَ قَرَأَهُ فَقَالَتْ : نَاوَلَنِي الْقَلَمَ ، فَنَاوَلَهَا ، فَكُتِبَتْ بَدِيهَةً :

هُوَ شَيْخٌ سُوءُ مُزْدَرِّي لَهُ شَبُوبٌ عَاصِيَةٌ  
كَلَّا لَنْ لَمْ يَنْتَهَ لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ

وسمعتُ بعضَ أشياخنا يحكي القضية عن لسان الدين بن الخطيب ، وأنه هو الذي كتب يُداعب زوج المرأة فكتبت إليه :

إنَّ الإمامَ ابنَ الخطيبِ لهُ شيوِبٌ عاصيَهُ

إلى آخره ، فالله أعلم .

24 - ومنهنَّ زهونُ الغرناطية<sup>١</sup> .

قال في « المغرب » : من أهل المائة الخامسة ذكرها الحجاري في « المسهب » ووصفها بخفة الروح ، والانطباع الزائد ، والحلاوة ، وحفظ الشعر ، والمعرفة بضرب الأمثال ، مع جمال فائق ، وحسن رائق ، وكان الوزير أبو بكر ابن سعيد أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها ، فكتب لها مرة :

يا مَنْ لهُ ألفُ خيلٍ من عاشقٍ وصديقٍ  
أراكَ خلَّيتَ للنِّساءِ سِـ منزلاً في الطريقِ

فأجابته :

حللتَ أبا بكرٍ محلاً منعتُهُ سواكَ ، وهل غيرُ الحبيبِ له صدري  
وإن كانَ لي كم من حبيبٍ فإتِّمَّا يُقدِّمُ أهلُ الحقِّ حُبَّ أبي بكرٍ

قيل : لو قالت « وإن كان خلاني كثيراً ... إلخ » لكان أجود .

ولمَّا قال فيها المخزومي :

١ ترجمة زهون في التحفة : ١٦٤ والمغرب ٢ : ١٢١ والذيل والتكملة والسيوطي : ٩٧ والإحاطة ١ : ٤٣٤ وقال ابن الأبار : إنها عاصرت حمدة أو قاربت عصرها ، ونقل ابن عبد الملك عنه قوله : وهو ( أي القليبي ) فيما أحسب أبو بكر محمد بن أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الفسائي .

على وجه نزهونٍ من الحسن مسحةٌ  
قواصدُ نزهونٍ تواركُ غيرها  
وتحتَ الثيابِ العارُ لو كان باديا  
ومن قصد البحرَ استقلَّ السواقيا  
قالت :

إن كانَ ما قُلْتَ حَقًّا  
فصارَ ذكري ذميماً  
من بعض عهدِ كريمٍ  
يُعزَى إلى كلِّ لومٍ  
وصرتُ أقبحَ شيءٍ  
في صورة المخزومي

وقد تقدمت حكايتها في «الباب الأول» من هذا ، فلتراجع .  
وقال لها بعض الثقلاء : ما على من أكل معك خمسمائة سوط ؟ فقالت :

وذي شقوة لما رأني رأى له  
فقلتُ له كُلها هنيئاً فإنما  
تمنّيه أن يصلى معي جاحمَ الضربِ  
خلقتُ إلى لبس المطارف والشربِ

٦٧٩ - [ ابن قزمان ]

وقال ابن سعيد في طالعه لما وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة واجتماعه  
بجنته بقرية الزاوية من خارجها بنزهون القلاعية الأدبية ، وما جرى بينهما ،  
وأنتها قالت له بعقب ارتجال بديع - وكان يلبس غفارة صفراء على زي الفقهاء  
حينئذ - أحسنت يا بقرة بني إسرائيل ، إلا أنك لا تسرُّ الناظرين ، فقال لها :  
إن لم أسرُّ الناظرين فأنا أسرُّ السامعين ، وإنما يُطلب سرور الناظرين منك يا فاعلة  
يا صانعة ، وتمكن السكر من ابن قزمان ، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى  
رموه في البركة ، فما خرج إلا وهو قد شرب كثيراً من الماء ، وثيابه تهطل ،  
فقال : اسمع يا وزير ، ثم أنشد :

١ إن . . . الناظرين : زيادة من م .



إيه أبا بكر ولا حول لي بدفع أعيان وأنذال  
وذات فرجٍ واسعٍ دافقٍ بالماء يحكي حال أذيابي  
غرقتني في الماء يا سيدي كفره بالتغريق في المال

فأمر بتجريد ثيابه ، وخلع عليه ما يليق به ، ومَرَّ لهم يوم بَعْدَ عهدهم  
بمثله . ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة إلاّ من بعد ما أُجزل له الإحسان ، ومدحه  
بما هو ثابت له في ديوان أزجاله . وحُكيَ عنه فيما أُظنّ - أعني ابن قزمان -  
ويحتمل أنّه غيره أنّه تبع إحدى الماجنات ، وكان أحول ، فأطمعته في نفسها ،  
وأشارت إليه أن يتبعها ، فاتّبعها حتى أتت به سوق الصاغة بإشبيلية ، فوقفت على  
صائغ من صيّاغها ، وقالت له : يا معلم مثل هذا يكون فص الحاتم الذي قلت  
لك عنه ، تشير إلى عين ذلك الأحول الذي تبعها ، وكانت قد كلفت ذلك الصائغ  
أن يعمل لها خاتماً يكون فصّه عين إبليس ، فقال لها الصائغ : جيّبي بالمثل ، فإنّي  
لم أرَ هذا ولا سمعته قط ، فجاءته به عن مثال ، وحكاها بعضهم على وجه آخر  
وأنتها ذهبت إلى الصائغ وقالت له : صور لي صورة الشيطان ، فقال لها : اثيني  
بمثال ، فلمّا تبعها ابن قزمان جاءته به ، وقالت له : مثل هذا ، فسأل ابن قزمان  
الصائغ فأعلمه فخجل ولعنها ، وكتب أبو بكر ابن قزمان على باب جنته :

وقائلٍ يا حُسْنها جنّةٌ لا يدخلُ الحزنُ على بابها  
فقلتُ والحقُّ له صولةٌ أحسنُ منها مجدُّ أربابها

وله :

كثيرُ المالِ تمسكُهُ فيفني وقد يبقى مع الجودِ القليلُ  
ومن غرستُ يداها ثمارَ جودٍ ففي ظلِّ الثناء له مقيلُ

رجع إلى أخبار نزهون بنت القليعي :

حكى أنّها كانت تقرأ على أبي بكر المخزومي الأعمى ، فدخل عليهما أبو

بكر الکتندي ، فقال يخاطب المخزومي :

لَوْ كُنْتَ تَبْصِرُ مِنْ تَجَالِسِهِ

فَأَفْهَمَ ، وَأَطَالَ الْفِكْرَ فَمَا وَجَدَ شَيْئاً ، فَقَالَتْ نَزْهُون :

لَعَدَوْتَ أَخْرَسَ مِنْ خِلَاخِلِهِ

الْبَدْرُ يَطْلُعُ مِنْ أَزْرَتِهِ وَالْغَصْنُ يَمْرَحُ فِي غَلَاثِلِهِ

وكانت ماجنة ، ومن شعرها قولها :

لِللَّهِ دَرٌّ اللَّيَالِي مَا أَحْيَسْنَاهَا      وَمَا أَحْيَسْنَا مِنْهَا لَيْلَةَ الْأَحَدِ  
لَوْ كُنْتَ حَاضِرْنَا فِيهَا وَقَدْ غَفَلْتَ      عَيْنُ الرِّقِيبِ فَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى أَحَدِ  
أَبْصَرْتَ شَمْسَ الضُّحَى فِي سَاعِدِي قَمَرٍ      بَلْ رِيمَ خَازِمَةٍ فِي سَاعِدَتِي أُسْدِ

٦٨٠ - [ مقطعات لابن الزقاق ]

وهذا المعنى متفق مع قول ابن الزقاق<sup>١</sup> :

وَمُرْتَجَّةِ الْأُرْدَافِ أَمَا قَوَامُهَا      فَلَدْنُ وَأَمَا رَدْفُهَا فَرَدَاخُ  
أَلَمْتُ فَبَاتَ اللَّيْلُ مِنْ قِصْرِ بِهَا      يَطِيرُ ، وَلَا غَيْرُ السَّرُورِ جَنَاحُ  
فَبْتُ وَقَدْ زَارَتْ بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ      يِعَانِقُنِي حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحُ  
عَلَى عَاتِقِي مِنْ سَاعِدَيْهَا حَمَائِلُ      وَفِي خَصْرِهَا مِنْ سَاعِدِي وَشَاحُ

وابن الزقاق هذا له في النظم والغوص على المعاني الباع المديد ، ومن نظمه

قوله :

١ انظر مقطعات ابن الزقاق هذه في ديوانه : ١٢٩ ، ٢٩٥ ، ١٧٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٠٢ ،

٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٤ ، ١١٣ (وبعضها عن النفع نفسه) .

رئيسُ الشرقِ محمودُ السجايا  
نسميهُ بيحيى وهو ميتٌ  
يعافُ الوردَ إن ظمئتُ حشاهُ  
وفي مالِ اليتيمِ لهُ ولوغُ  
يُقَصِّرُ عنْ مدائحه البليغُ  
كما أنَّ السليمَ هو اللدِيعُ

وقوله :

كتبتُ ولو أتني أستطيعُ  
قددتُ اليراعةَ من أعملي  
لإجلالِ قدرِكَ بينَ البشرِ  
وكان المداوُ سوادَ البصرِ

وقوله :

غريرُ يباري الصبحَ إشراقُ خدّه  
ترفُ بفيه ضاحكاً أقحوانةُ  
وفي مفرقِ الظلِّماءِ منه نصيبُ  
ويهترُ في برديه منه قضيبُ

وقوله :

ومهفهفٍ نبتَ الشقيقُ بخدّه  
ماءُ الشبيبةِ والغرامِ أرقُ من  
واهترُ أملودُ النقا في بردهِ  
صقلِ الحسامِ المنتقى وفرندهِ  
من بعد ما وردوا الحِمامَ بصدّه  
أيُّ الجوى بجوانحِ لم يهدّه  
إن كنتُ أهديتُ الفؤادَ له فقلُ

وقوله :

أرقُ نسيمِ الصبا عرْفُهُ  
ومرٌّ بنا يتهادى وقد  
وراقَ قضيبَ النقا عطفُهُ  
نضا سيِّفَ أجفانه طرفُهُ  
ومدَّ لمبسه راحةُ  
فخلتُ الأحاحَ دنا قطفُهُ  
أشارتُ بتقبيلها للسلامِ  
فقال فمي ليني كفه

وقوله :

بأبي منْ لمْ يدعْ لي لحظةُ  
في الهوى من رَمَقٍ حين رَمَقِ

جمعت نكهته في ثغره  
وبدت خجلته في خده  
عبقاً في نسقٍ يسبي الخلق  
شفقاً في فلقٍ تحت غسق

وقال :

وعشية لبستُ ملاءَ شقيقِ  
أبقتُ بها الشمسُ المنيرةُ مثلَ ما  
لو أستطيعُ شربتها كلفاً بها  
تزهى بلونٍ للخدودِ أنيقِ  
أبقى الحياءُ بوجنتي معشوقِ  
وعدلتُ فيها عن كؤوسِ رحيقِ

وقال في مسامرة كتاب زعماء :

لله ليلتنا التي استخذي بها  
طراتُ عليَّ مع النجومِ بأنجمِ  
إن حوربوا فزعوا إلى بيضِ الطُّي  
فترى البلاغةَ إن نظرتَ إليهمُ  
فلقُ الصِّباحِ لسُدفةِ الإِظلامِ  
من فتيةِ بيضِ الوجوهِ كرامِ  
أو خوطبوا فزعوا إلى الأَقلامِ  
والبأسَ بينَ يراعةٍ وحسامِ

وقال :

ومجدِّين في السرى قد تعاطوا  
جنحوا وانحنوا على العيسِ حتى  
نبدوا الغمضَ وهو حُلُوٌّ إلى أن  
غفواتِ الهوى بغيرِ كؤوسِ  
خلتهمُ يُعْتَبونُ أيدي العيسِ  
وجدوه سُلَافةً في الرؤوسِ

وقال :

وحبَّبَ يومَ السبتِ عندي أنتي  
ومنْ أعجبِ الأشياءِ أني مسلمٌ  
يُنَادِمُنِي فِيهِ الَّذِي أَنَا أَحْبَبْتُ  
حَنِيفٌ وَلَكِنْ خَيْرُ أَيَّامِي السَّبْتُ

ولنقتصر من نساء الأندلس على هذا المقدار ، ونعدُّ إلى ما كتَّأ فيه من  
جلب كلام بلغاء الأندلس ذوي الأقدار ، فنقول :

٦٨١ - قال الخفاجي رحمه الله تعالى ١ :

وهاتفه في البان تُملي غرامها      علينا وتتلو من صبايتها صُحفا  
عجبت لها تشكو الفراق جهالةً      وقد جاوبت من كل ناحية إلفا  
ويُشجي قلوبَ العاشقين أنينها      وما فهموا مما تغنت به حرفا  
ولو صدقت فيما تقول من الأسي      لما لبست طوقاً ولا خضبت كفاً

٦٨٢ - وقال الأستاذ أبو محمد ابن صارة :

متى تلتقي عيني بدر مكارم      تود الثريا أنها من مواطيه  
ولما أهل المدلجون بذكره      وفاح تراب اليد مسكاً لواطيه  
عرفنا بحسن الذكر حُسن صنيعه      كما عرف الوادي بخضرة شاطئه

وقال يتغزل :

يا من تعرّصَ دونه شحطُ النوى      فاستشرفت لحديثه أسماعي  
إتي لمن يحظى بقربك حاسدٌ      ونواظري يحسدنَ فيك رقاعي  
لم تطوك الأيامُ عني إنما      نقلتكَ من عيني إلى أضلاعي

٦٨٣ - [مقطعات لابن العطار]

وقال الأديب أبو القاسم ابن العطار ٢ :

عبرنا سماء الجوّ والنهرُ مشرقٌ      وليس لنا إلاّ الحجابَ نجومُ  
وقد ألبسته الأيكُ بُردَ ظلالها      وللشمسِ في تلك البرودِ رقومُ

١ ديوان ابن خفاجة : ٣٧٠ (عن النفع) .

٢ القلائد : ٢٨٥ .

وله أيضاً ١ :

لله بهجةٌ نزهةٌ ضَرَبَتْ به فوق الغديرِ رِواقها الأَشْمامُ ٢  
فمع الأصيلِ النهرُ دِرْعٌ سابغٌ ومع الضُّحى يَلْتاحُ فيه حِسامٌ

وقال أيضاً ٣ :

هبتِ الرِّيحُ بالعشيِّ فحاكتُ زَرَدًا للغديرِ ناهيكَ جُنَّةُ  
وانجلى البدرُ بعد هُدًى فحاكتُ كفهُ للقتالِ منه أُسِنَّةُ

وقال أيضاً ٥ :

لله حُسنٌ حديقةٌ بَسَطَتْ لَنَا منها النفوسَ سِوَالفٌ ومعاطفُ  
تختالُ في حُللِ الرِّبيعِ وحَلِيهِ ومن الرِّبيعِ قلائدٌ ومطارفُ

وله ٦ :

وسنانٌ ما إن يزالُ عارضُهُ يعطفُ قلبي بعطفةِ اللامِ  
أسلمني للهوى فواحزني أن بزني عفتي وإسلامي  
لحاظه أسهمٌ ، وحاجبه قوسٌ ، وإنسانٌ عينه رامي

٦٨٤ - وارتجل أبو جعفر ابن خاتمة رحمه الله تعالى لما بات في قرية

بيش :

- 
- ١ القلائد ، والمغرب ١ : ٢٥٤ .
  - ٢ الأَشْمام - بالشين - نوع من الشجر .
  - ٣ القلائد : ٢٨٥ .
  - ٤ م : هذا .
  - ٥ القلائد : ٢٨٦ .
  - ٦ القلائد : ٢٨٨ والثالث في المغرب .

لله منزلنا بقريّة بيشِ  
رُحْنَا إليها والبطاحُ كأنّها  
كاد الهوى فيها ادكاراً بي يشي  
صُحُفٌ مذهبةٌ بإبريزِ العشي

فأجازه الوزير ابن جزى بقوله :

في فنية هزّت حُميًّا الأنس من  
يأتي علاهم بالصحيح ، ولفظهم  
أعطافهم فالكلُّ منها منتشي  
بالمنتقى ، وجمالهم بالمدش

٦٨٥ - وقال السلطان أبو الحجاج النصري مرتجلاً أيام مقامه بظاهر

جبل الفتح سنة ٨١٥ :

ولم يتركوا أوطانهم بمرادهم  
أقام بها ليلُ التهاني تقلباً  
فعمّوضتها ليل الصباية بالشرى  
ولم يشني طرفٌ من النور ناعسٌ  
ولا منهضُ الأشبال في عقر غيرهم  
وعاطيتها صُبْحَ الدياجي مُدّامةٌ  
إذا ما قطعنا بالمطيّ تنوفاً  
بمحيثُ التقى موسى مع الخضر آيةً

وله :

من عاذري من غزال زانه حورٌ  
الحاظه كسيوف الهند ماضيةٌ  
قد هام لما بدا في حسنه البشرُ  
لها بقلبي وإن سالتها أثرُ

٦٨٦ - وقال القاضي أبو القاسم ابن حاتم :

شكوت بما دهاك وكان سراً  
فتلك مصيبةٌ عادت ثلاثاً  
لمن ليست مودتهُ صحيحةٌ  
لصحبته الشماتة والفضيحة

٦٨٧ - وقال الفقيه محمد بن سعيد الأندلسي مخاطباً للفقيه الفخار :

خُضِّفْ عَلَيْنَا قَلِيلاً أَيُّهَا الْعَلَمُ فربّما كان فينا مَنْ به أَلْمُ  
لا يَسْتَطِيعُ نَهوضاً من تَأَلَّمه وإن تَمَادَى قَلِيلاً خانتِ الْقَدَمُ  
كفى وَصِيَّةٌ مولانا وسيدنا محمدٍ فَاسْمَعُوا ما قالوا وَالتَزَمُوا

٦٨٨ - وقال ابن جُبَيْرِ اليحصبي فيمن أهدى إليه تفاحاً :

خَلِيلٌ لَمْ يَزَلْ قَلْبِي قَدِيمًا يميلُ بِفِرطٍ صاغيةً إِلَيْهِ  
أَتَانِي مُقْبِلاً وَالْبَشْرُ بِيَدِي وسائلَ بَرَّةٍ كَرَمَتْ لَدَيْهِ  
وَجاءَ بِعِرفٍ تَفاحٍ ذَكِيٍّ فقلتُ أُنَى الخَلِيلِ بِسَيُوبِهِ  
فأهدى من جَنَاهِ بِكُلِّ شَكْلِ يَلُوحُ جَمالُ مُهَدِيها عَلَيهِ

٦٨٩ - وقال قاضي مالقة سيدي إبراهيم البدوي :

قَطَعْتُ بِأَسِيٍّ فَصَنْتُ نَفْسِي عن الوَقُوفِ لذي وَجَاهِهِ  
قَصَدْتُ رَبِّي فَكانَ حَسْبِي أَلْبَسَنِي فَضْلَهُ وَجَاهَهُ  
فَلا يَرى يَنْشِي عِنساني مَدَى حَياتي إِلا تَجاهَهُ

٦٩٠ - وقال ابن خليل السكوني في فهرسته : شاهدت بجامع العدبَس

بإشيلية ربعة مصحف في أسفار يُنحى به لنحو خطوط الكوفة إلا أنه أحسن  
خطاً وأبينه وأبرعه وأتقنه ، فقال لي الشيخ الأستاذ أبو الحسن ابن الطفيل بن  
عظيمة : هذا خط ابن مقلة ، وأنشد :

خطَّ ابن مقلة مَنْ أَرعاه مُقَلَّتَهُ وَدَّتْ جوارِحُهُ لو أَنَّها مُقَلُّ

ثمَّ قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعها تتماثل في القدر والوضع ، فالألغات  
على قدر واحد ، واللامات كذلك ، والكافات والواوات وغيرها بهذه النسبة ،  
انتهى .



قلت : رأيت بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مصحفاً  
بخط ياقوت المستعصي بهذه المثابة ، وهو من الأوقاف الرسمية . ورأيت بالحجرة  
الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام مصحفاً مكتوباً في آخره ما صورته :  
كتبته بقلم واحد فقط ما قُطَّ قَطُّ إلا مرة فقط ، انتهى .

رجع :

٦٩١ - وقال ابن عبيدُون رحمه الله تعالى :

أذهبنَ من فَرَقِ الفراقِ نفوسا      ونثرنَ من درِّ الدموعِ نقيسا  
فتبعتهُ نظرَ الشجيِّ فحدَّقتُ      رُقبَاؤها نحوي عيوناً شوسا  
وحللنَ عقَدَ الصبرِ إذ ودعني      فحللنَ أفلاكَ الخدورِ شموسا  
حلتهُ إذ حلتهُ حتى خلتُهُ      عرشاً لها وحسبتُها بلقيسا  
فازورَّ جانبُها وكان جوابُها :      لو كنتَ تهوانا صحبتَ العيسا

وهي طويلة .

قلت : ما أظن لسان الدين نسجَ قصيدته من هذا البحر والروي إلا على  
منوال هذه ، وإن كان الحافظ التنسي قال : إنه نسجها على قصيدة أبي تمام  
حسبما ذكرنا ذلك في محله ، فليراجع .

٦٩٢ - وقال أبو عبد الله ابن المناصف قاضي بلنسية ومرسية رحمه

الله تعالى :

ألزمتُ نفسي خُمُولاً      عن رُتبةِ الأعلامِ  
لا يَخْسِفُ البدرَ إلا      ظهورُهُ في تمامِ

وتذكرت به قول غيره :

ليسَ الخمولُ بعارٍ      على امرئ ذي جلالِ  
فليلةُ القدرِ تخفى      وتلكَ خيرُ الليالي

٦٩٣ - وقال الوزير ابن عمّار ، وقد كتب له أبو المطرف ابن الدباغ شافعاً لغلام طرّاً له عذار :

أتاني كتابك مستشفعاً      بوجه أبي الحسن من رده  
ومن قبل فضي ختم الكتاب      قرأت الشفاعة في خده

٦٩٤ - وقال القاضي الأديب ، والفيلسوف الأريب ، أبو الوليد القشبي قاضي طليطلة<sup>١</sup> :

برح بي أن علوم الوري      قسما ما إن فيهما من مزيد  
حقيقة يعجز تحصيلها      وباطل تحصيله لا يفيد

٦٩٥ - وقال أبو عبد الله ابن الصفار وهو من بيت القضاء والعلم بقرطبة :

لا تحسب الناس سواة متى      ما اشتبهوا فالناس أطوار  
وانظر إلى الأحجار ، في بعضها      ماء ، وبعض ضمنه نار  
وهذا مثل قول غيره<sup>٢</sup> :

الناس كالأرض ومنها هم      من خشن الطبع ومن لين  
مرؤ تشكى الرجل منه الوجى      وإئسد يجعل في العين  
ومن نظم ابن الصفار المذكور :

إذا نويت انقطاعاً      فاعمل حساب الرجوع

٦٩٦ - وقال أبو مروان الجزيري :

ومن العجائب والعجائب جمّة      أن يلهج الأعمى بعيب الأعمور

١ انظر ما تقدم ص : ١٣٧ .  
٢ الحصري (التكملة : ٤٣٤) .

٦٩٧ - وقال حسّان بن المصيبي كاتب الظافر بن عباد ملك قرطبة :

لا تأمنن من العدو لبعده  
إنّ امرأ القيس اشتكى الطمّاحا

٦٩٨ - وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي في كتابه « الإسفار

عن نتائج الأسفار » : أنشدني الكاتب الأديب أبو عمرو ابن مهيب بإشيلية أبياتاً عملها في حمود بن إبراهيم بن أبي بكر المرغي ، وكان أجمل أهل زمانه ، رآه عندنا زائراً وقد خط عذاره ، فقلت : يا أبا عمرو ، ما تنظر إلى حُسن هذا الوجه ؟ فعمل الأبيات في ذلك ، وهي :

وقالوا العذارُ جَنّاحُ الهوى      إذا ما استوى طار عن وكرِهِ  
وليسَ كَسذاكَ فخبِرَهُمُ      قياماً بعذريّ أو عذره  
إذا كملَ الحسَنُ في وجنّةٍ      فخاتمهُ وَيَكُ من شِعْره

قال بعضهم : رأيت آخر الكتاب المذكور بعد فراغه شعراً نسه إليه ، وهو :

يا حاضرأ بجماله في خاطري      ومُحجَباً بجلاله عن ناظري  
إن غبتَ عن عيني فإنك نورها      وضميرُ سرّك سائرٌ في سائري  
ومن العجائب أنّي أبدأ إلى      رؤياك ذو شوقٍ مديدٍ وافرٍ  
مع أنّي ما كنتُ قطُّ بمجلسٍ      إلا وكنتُ مُنادِمي ومسامري

٦٩٩ - وأنشد في « الإحاطة » لعبد الله الجذامي :

أيا سيدي أشكو لمجدك أنتي      صددتُ مراراً عن مثولي بساحتك  
شكاةَ اشتياقٍ أنتَ حقاً طبيها      وما راحتي إلا بتقبيلِ راحتك

قال : وهو عبد الله بن عبد الله بن أحمد بن محمد الجذامي ، فاضل ملازم

للقراءة ، عاكف على الخير ، مشارك في العربية ، خاطب للرياسة الأدبية ،  
اختص بالأمير أبي علي المنصور ابن السلطان أيام مقامه بالأندلس ، ومما  
خاطبه به معتدراً :

أيا سيدي . . . البيتين

انتهى .

٧٠٠ - وقال في ترجمة عبد الله بن أحمد المالقي قاضي غرناطة ، وكان  
فقيهاً بارعاً الأدب : إنه كتب إلى أبي نصر صاحب « القلائد » و « المطمح »  
أثناء رسالة بقوله :

تفتحت الكتابة عن نسيم	نسيم المسك في خلُق كريم
أبا نصر رسمت لها رسوماً	تُخالُ رسومها وضح النجوم
وقد كانت عقت فأنرت منها	سراجاً لاح في الليل البهيم
فتحت من الصناعة كل باب	فصارت في طريق مستقيم
فكتاب الزمان ولست منهم	إذا راموا مرامك في هموم
فما قس بأبدع منك لفظاً	ولا سحبان مثلك في العلوم

٧٠١ - وقال الذهبي ، وقد جرى ذكر محمد بن الحسن المذحجي الأندلسي  
ابن الكتاني : إنه أديب شاعر متفنن ذو تصانيف ، حمل عنه ابن حزم ، ومن  
شعره :

ألا قد هجرنا الهجر واتصل الوصل	وبانت ليالي البين واجتمع الشمل
فسعدى نديمي ، والمدامة ريقها ،	ووجنتها روضي ، وتقيلها النقل

٧٠٢ - وقال العلامة محمد بن عبد الرحمن الغرناطي :

الشعبُ ثمَّ قبيلةٌ وعمارةٌ بطنٌ وفخذٌ والفصيحةُ تابعةٌ

فالشعبُ مجتمعُ القبيلةِ كلِّها      ثمَّ القبيلةُ للعمارةِ جامعتهُ  
والبطنُ تجمعهُ العماثرُ فاعلمنْ      والفخذُ تجمعهُ البطونُ الواسعةُ  
والفخذُ يجمعُ للفصائلِ هاكها      جاءت على نسقٍ لها متابعهُ  
فخزيمهٌ شعبٌ ، وإنَّ كنانةً      لقبيلةٍ منها الفصائلُ شاعتهُ  
وقرَّيشها تُسمي العمارةَ يا فتى      وقُصيُّ بطنٌ للأعادي قامعهُ  
ذا هاشمُ فخذٌ وذا عباسها      أثرَ الفصيصةِ لا تُنأطُ بسابعهُ

وكتبتُ هذه الأبيات وإن لم تشتمل على البلاغة لما فيها من الفائدة ، ولأن بعض الناس سألني فيها لغرابتها ، والأعمال بالنيات .

٧٠٣ - ولما دخل أبو محمد الكلاعي الجياني على القاضي ابن رشد قام له فأنشده أبو محمد بديهة :

قامَ ليَ السيدُ الهمامُ      قاضي قضاةِ الورى الإمامُ  
فقلتُ قُمْ بي ، ولا تقمُ لي      فقلِّمًا يؤكِّلُ القيامُ

٧٠٤ - وقال أبو عبد الرحمن ابن جحاف البكنسي :

لئن كانَ الزمانُ أرادَ حظي      وحرابني بأنيابٍ وظُفُرِ  
كفاني أن تصافيتي المعالي      وإن عاديتني يا أمَّ دَفْرِ  
فما اعترَّ اللثيمُ وإن تسامى      ولا هانَ الكريمُ بغيرِ وَفْرِ

٧٠٥ - وقال أبو محمد ابن برطله<sup>١</sup> :

ألا إنَّما سيفُ الفتى صنوُ نفسه      فنافِسُ بأوفى ذمَّةٍ وإخاءِ  
يزينُكَ مرَّأى أو يعينُكَ حاجةً      فيحسنُ حالي شدةً ورخاءِ

١ زاد في م : وقد سبق ذكره .

وقال أيضاً<sup>١</sup> :

أنفسي صبراً لا يروِّعكِ حادثٌ  
فربَّ اشتدادٍ في الخطوبِ لفرجةٍ  
بإرتاجه واستشعري عاجلَ الفتحِ  
كما انشقَّ ليلٌ طال عن فلتقِ الصبحِ<sup>٢</sup>

وقال أيضاً :

متى يدنو لوعدكمُ انتجازُ  
أيجملُ أن يؤمَّكمُ رجائي  
وجدكمُ كفيلُ بالأمني  
إذا ما أمكنتُ فُرصُ المساعي  
ويبعدُ من حقيقته المجازُ  
فيوقفَ لا يردُّ ولا يُجازُ  
ومطلوبي قريبُ مستجازُ  
فعجزُ أن يطاولها انتهازُ  
ويحسنُ للمهندة اهتزازُ  
ويودعَ غمده العضبُ الجرازُ  
ويشفي بالظما البرحَ الحجازُ  
تجاذبه خمولُ واعتزازُ  
فأعيى الناسَ في المقدارِ<sup>٣</sup> حُكمُ

٧٠٦ - وأشد الشيخ أبو بكر ابن حبيش لابن وضاح البيت المشهور ،

وهو :

أسرى وأسيرٌ في الآفاقِ من قمرٍ  
ومن نسيمٍ ومن طيفٍ ومن مثلٍ

١ م : وقوله وقد أجاد وأبلغ في الموعظة .

٢ زاد في م بعد هذه المقطوعة مقطوعتين لابن برطله وهما قوله :

وأمر كأن المصطلين بجره  
صبرت له حتى تنامى وإنما  
وإن لم تكن نار ووقوف على الجمر  
تفرج أيام الكريمة بالصبر

وقوله :

نفسي تنازعني فقلت لها اصبري  
ما قد قضي سيكون فاصطبري له  
موت يريحك أو صمود المنبر  
ولك الأمان من الذي لم يقدر

٣ م : المقدور .

وابن حَبِيش المذكور هو أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف<sup>١</sup> بن حَبِيش  
 - بفتح الحاء - وقد عرّف به تلميذه ابن رشيد الفهري في رحلته ، فقال بعد  
 كلام : أما النظم فيده عِنَانه ، وأما النثر فإن مال إليه توكّف له بنانه<sup>٢</sup> ، مع  
 تواضع زائد ، على صلة مخبره عائد ، لقيته بمنزله ليوم أو يومين من مقدمي  
 على تونس ، فتلقى بكل فنّ يونس ، وصادفته بحالة مرض ، من وثء<sup>٣</sup> في  
 رجله عرض ، وعنده جملة من العوَاد ، من الصدور الأمجاد ، فأذني وقرب ،  
 وسهّل ورحّب ، وتفاوض أولئك الصدور ، في فنون من الأدب كأنّها  
 الشذور ، إلى أن خاضوا في الأحاجي ، واستضاءوا بأنوار أفكارهم في تلك  
 الدّياجِي ، فخضت معهم في الحديث ، وأنشدتهم بيتين كنت صنعتهما وأنا  
 حديث ، لقصة بلغتني عن أبي الحسن سهّل بن مالك ، وهي أنّه كان يسائل  
 أصحابه وهو في المكتب ويقول لهم : أخرجوا اسمي ، فكلّ<sup>٤</sup> ينطق على تقديره ،  
 فيقول لهم : إنكم لم تصيبوه مع أنّه سهل ، فنظمت هذا المعنى فقلت :

وما اسمٌ فكّه سهلٌ يسيرٌ      يكونُ مصغراً نجماً يسيرُ  
 مصحّفهُ له في العينِ حُسْنٌ      وقلبي عندَ صاحبه أسيرُ

وكان الشيخ أبو بكر على فراشه ، فزحف مع ما به من ألم ، إلى محبرة  
 وطِرسٍ وقلم ، وكتب البيتين بخطّه ، وقال للحاضرين : ارووا هذين البيتين  
 عن قائلهما .

ومن شيوخ ابن حَبِيش المذكور أبو عبد الله ابن عسكر المالقي ، كتب له  
 ولأخيه أبي الحسين بخطّه إجازة جميع ما يجوز له ، وعنه ، وضمن آخرها هذه  
 الأبيات :

١ م : يونس ؛ قلت وصوابه محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن يونس كما أورده ابن رشيد  
 في مله العيبة ( ١٧٣٦ من نسخة الاسكوريال ) .  
 ٢ ابن رشيد : عنانه .  
 ٣ ابن رشيد : من ألم ، وفي هامش الرحلة : وثء .

أَجَبْتَكُمَا لَكِن مُقَرِّراً بِأَنْتِي      أَقْصَرُ فِيمَا رَمْتُمَا عَن مَدَاكِمَا  
فَإِنَّكُمَا بَدْرَانِ فِي الْعِلْمِ أَشْرَقَا      فَسَلِّمَ إِذْعَانًا وَقَسَّرَا عِدَاكِمَا  
فَسِيرُوا عَلَى حُكْمِ الْوَدَادِ فَإِنَّتِي      أَجُودُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكِمَا

قال ابن رشيد : وقد جمع صاحبنا أبو العباس الأشعري لابن حبيش فهرسة جامعة ، ولما وقف عليها ابن حبيش كتب في أولها ما نصّه : الحمد لله حق حمده ، أحسن هذا الفاضل فيما صنع أحسن الله إليه ، وبالغ فيما جمع بَلَغَ اللهُ تعالى به أشرف المراتب لديه ، غير أنني أقول واحدة ، ما سريرتي لها بجاحدة<sup>١</sup> ، وأصرح بمقال ، لا يسعني كَتَمُهُ بحال : والله ما أنا للإجازة بأهل ، ولا مَرَامُهَا لديّ بسهل ، إذ من شرط المجيز أن يعد فيمن كمل ، ويُعِدِّ العلم والعمل ، اللهم غَفِّراً ، كيف يُنِيل من عدم وقرأ ، أو يجيز من أصبح صدره من المعارف قفراً ، وصحيفته من الصالحات صِفراً ، وكيف يرسم في ديوان الجلّة ، من يتّسم بالأفعال المخلّة ، ومتى يقترن الشبّه بالإبريز ، أو يوصف السكيت بالتبريز ، ومن ضعف النهى ، مجانسة الأقمار بالسُّها ، ومن أعظم التوبيخ ، تشيخ من لا يصلح للتشيخ ، وإن هذا المجموع لَيَرُوقُ ويُعجب ، ولكنّه جمع لمن لا يستوجب ، وإن القراءة قد تحصلت ، ولكن القواعد ما تأصّلت ، وإن القارئ عكّم ، ولكن المقروء عليه عدّم ، ولقد شكرت لهذا السريّ ما جلب ، وكتبت مسعفاً له بما طلب ، وقرنت إلى دُرّه هذا المَخْشَلَب ، قلت وحليبي عطل ، ونطقي خطل ، مُكْرَه أَخَاكَ<sup>٢</sup> لا بَطَّل ، والله سبحانه وتعالى ينفع بما أخلص له عند الاعتقاد ، ويسمح للبهرج عند الانتقاد ، كتبه العبد المذنب [المستغفر] <sup>٣</sup> محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش اللّخمي حامداً لله تعالى

١ ابن رشيد : جاحدة .

٢ ابن رشيد : أخوك .

٣ زيادة من رحلة ابن رشيد .



ومصلياً على نبيه الكريم المصطفى وعلى آله أعلام الطهارة والهدى ومسلماً تسليماً .  
 وكتب أيضاً رحمه الله تعالى في جواب استجازة : المسؤول مبذول ،  
 إن شاء الله تعالى على التنجيز ، ولكن شروط الإجازة موجودة في المُجاز  
 معدومة في المُجيز ، والله تعالى يصفح بكرمه ومَنِّه ، ويشكر كل فاضل على  
 تحصيل ظنِّه ، وهو المسؤول سبحانه أن يحفظ بعنايته مُهجاتهم ، ويرفع بالعلم  
 والعمل درجاتهم ، ويمتعمهم بالكمال الرائق المعجب ، ويقر بالنجيين عين  
 المنجب ، وكتبه ابن حبيش . انتهى .

٧٠٧ - وقال الوزير الكاتب أبو بكر ابن القبطرنة يستجدي بازياً من  
 المنصور بن الألفس صاحب بَطْلَيْوَسَ :

يا أيها الملكُ الذي آباؤهُ	شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأوَّلِ
حلَّيتَ بالنَّعمِ الجسامِ جسيمةً	عنقي فحلَّ يدي كذاك بأجدلِ
وامننْ بهِ ضافي الجناحِ كأنما	حُدَيْتْ قوائمه بريحِ شمألِ
متلفتاً والطلُّ ينثرُ بُردَهُ	منهُ على مثل اليماني المحملِ
أغدو به عجباً أُصرِّفُ في يدي	ريحاً وآخذُ مطلقاً بمكبَّلِ

٧٠٨ - وأدخَلتُ على المعتمد يوماً باكورة نرجس ، فكتب إلى ابن عمَّار  
 يستدعيه :

قد زارنا النرجسُ الذكيُّ	وآن من يومنا العشيُّ
ونحنُ في مجلسِ أُنُقِ	وقدْ ظمئنا وفيهِ ريُّ
ولي خليل غندا سَمِيَّيْ	يا ليتهُ ساعدَ السَمِيَّيْ

فأجابه ابن عمَّار :

لبيك لبيك من مُنادٍ له الندى الرحبُ والنديُّ

ها أنا بالبابِ عبدِ قنَّ      قَبِلْتُهُ وَجَهْكَ السَّيِّئُ  
شَرَّفَهُ وَالِدَاهُ بِاسْمِ      شَرَّفْتَهُ أَنْتَ وَالنَّبِيُّ

واصطحب المعتمد يوم غيِّم مع أم الربيع ، واحتجب عن الندماء ، فكتب إليه ابن عمار :

تجهَّم وجهُ الأفقِ واعتَلَّتِ النفسُ      لأنَّ لم تَلْحُ للعَيْنِ أَنْتَ وَلَا شَمْسُ  
فإنَّ كانَ هذا منكما من تَوَافُقِ      وضمَّكما أنسٌ فيهنكما الأنسُ  
فأجابه المعتمد بقوله :

خليليَّ قُولاً هل عَلَيَّ ملامَةٌ      إذالم أغبُ إلا لتحضرنِي الشمسُ  
وأهدي بأكواسِ المُدامِ كواكباً      إذا أبصرتها العَيْنُ هَشَّتْ لها النفسُ  
سَلامٌ سَلامٌ أنْتُمَا الأنسُ كلَّهُ      وإنْ غبْتما أمُّ الربيعِ هي الأنسُ

واستدعى جماعة من إخوان ابن عمار منه شراباً في موضع هو فيه مفقود ، فبعث لهم به وبرمانتين وتفاحتين ، وكتب لهم مع ذلك :

خذاها مثلما استدعيتماها      عروساً لا تُزَفُّ إلى اللثامِ  
ودونكما بها ثديي فتاة      أضفتُ إليهما خدي غلامِ

٧٠٩ - وشرب ذو الوزارتين القائد أبو عيسى ابن لبّون مع الوزراء والكتاب بيّطحاء لورقة عند أخيه ، وابن اليسع غائب ، فكتب إليه :

لو كنتَ تشهد يا هذا عَشِيَّتَنَا      والمزُنُ يسكن أحياناً وينحدرُ  
والأرضُ مُصْفَرَّةٌ بالمزُنِ طافية      أبصرتَ دُرّاً عليه التبر ينتثرُ

٧١٠ - وقال الحجاري من القصيدة المشهورة :

عليك أحالتي الذِّكْرُ الجميلُ

في وصف زيه البدوي المستقل وما في طيه :

ومثّلتني بدنّ فيه خمرٌ يخيفُ به ومنظرُهُ ثقيلٌ

ولما انصرف<sup>١</sup> عن ابن سعيد إلى ابن هود عدله ابن سعيد على تحوله عنه ،  
فقال : النفس تواقه ، وما لي بغير التغرب طاقة ، ثم قال :

يقولون لي ماذا الملل تقيمُ في محلّ فعند الأُنس تذهب راحلا  
فقلتُ لهم مثل الحَمَام إذا شدا على غُصْنٍ أمسى بآخر نازلا

٧١١ - وقد رأيت أن أكفر ما تقدّم ذكره من الهزل الذي أتيانا به على سبيل  
الإحماض بما لا بد منه من الحكيم والمواعظ وما يناسبها ، فنقول :

١ - قال أبو العباس ابن خليل :

فهموا إشارات الحبيب فهموا وأقام أمرهمُ الرشادُ فقاموا  
وتوسّموا بمدامع منهلّة تحت الدياجي والأنامُ نيامُ  
وتلوا من الذكر الحكيم جوامعاً جمعت لها الألباب والأفهامُ  
يا صاح لو أبصرت ليلهمُ وقد صفت القلوب وصفت الأقدامُ  
لرأيت نور هداية قد حفهم فسرى السرور وأشرق الإظلامُ  
فهمُ العبيدُ الخادمون مليكهم نعم العبيدُ وأفلح الخدّامُ  
سلموا من الآفات لما استسلموا فعليهمُ حتى الممات سلامُ

٢ - وقال العالم الكبير الشهير صاحب التآليف أبو محمد عبد الحق الإشبيلي  
رحمه الله تعالى :

قالوا صف الموت يا هذا وشدّتهُ فقلتُ وامتدّ مني عندها الصوتُ

١ م : انصرف المذكور .

يكفيكم<sup>١</sup> آمنه أن الناس إن وصفوا أمراً يروّعهم قالوا هو الموت

3 - وقال الخطيب الأستاذ أبو عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي  
نزيل بـجاية :

جعلتُ كتاب ربي لي بضاعة<sup>٢</sup> فكيف أخاف فقراً أو إضاعه<sup>٣</sup>  
وأعددتُ القنّاعة رأس مال وهل شيء أعزُّ من القنّاعة؟

4 - وقال القاضي الكبير الأستاذ الشهير أبو العباس أحمد بن الغمّاز  
البلنّسي نزيل إفريقية :

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة<sup>٤</sup> وأنت على سوء من الفعل عاكف  
وليك أن تمضي من الدهر ساعة<sup>٥</sup> ولا لحظة إلا وقلبك واجف  
وبادر بأعمال تسرك أن تُرى إذا نُشِرت يوم الحساب الصحائف  
ولا تياسن من رحمة الله إنه لرب العباد بالعباد لطائف  
وقال رحمه الله تعالى :

أما آنَ للنفس أن تخشعا أما آنَ للقلب أن يُقلعا  
أليس الثمانون قد أقبلت فم تبتق في لذّة مطمعا  
تقضّى الزمان ولا مطمع لما قد مضى منه أن يرجعا  
تقضّى الزمان فواحسرتي لما فات منه وما ضيّعنا  
ويا ويلتاه لذي شيبة يطبع هوى النفس فيما دعا  
وبُعداً وسحقاً له إذ غدا يسمع وعظماً ولن يسمعا<sup>٦</sup>

١ م ق : يكفيهم .

٢ زاد في م بعد هذا المقطوعتين التاليتين لابن الغمّاز ، وله أيضاً وهو غريب في معناه :

يا صاحب الهم إن الهم منفرج كم من أمور شداد فرج الله  
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تياسن فإن الفاتح الله

5 - وقال الأستاذ الزاهد أبو إسحاق الإلبيري الغرناطي رحمه الله

تعالى ١ :

كلُّ امرئٍ فيما يدين يُدانُ      سبحان من لم يَخْلُ منه مكانُ  
يا عامر الدنيا ليسكنها وما      هي بالتّي يبقى بها سكان  
تفنى وتبقى الأرض بعدك مثلما      يبقى المناخُ وترحل الركبانُ  
أُسرُّ في الدنيا بكلِّ زيادة      وزيادتي فيها هي النقصانُ ٢

وقال أيضاً رحمه الله تعالى ٣ :

وذِي غنى أوهمتُهُ همتُهُ      أن الغنى عنه غير منفصل

الله حسبك فيما عذت منه به      وإذا قضى الله فاستسلم لقدرتَه  
سلم إلى الله فيما شاء وأرض به      فالحير أجمع فيما يصنع الله  
وقال عفا الله عنه وأجاد في قوله ونصحه :

صن النفس واحملها على ما يزيناها      وتمش سالماً والقول منك جميل  
وإن قل رزق اليوم فاصبر إلى غد      عسى نائبات الدهر عنك تزول  
يعز غني النفس إن قل ماله      ويفنى فقير النفس وهو ذليل  
وما أكثر الأحباب حين تعدهم      ولكنهم في النائبات قليل  
١ ديوان الإلبيري (القطعة : ٣٥ في الملحق - نقلا عن النفع) .

٢ زاد هنا في م للإلبيري قوله : وقال عفا الله عنه ميتهلا إلى مولاه :

أنتك راجياً يا ذا الجلال      ففرج ما ترى من سوء حالي  
عصيتك سيدي ويلي بجھلي      وعيب الذنب لم يخطر ببالي  
إلى من يشتكي المملوك إلا      إلى مولاه يا مولى الموالي  
لمعري ليت أمي لم تلدني      ولم أغضبك في ظلم الليالي  
فها أنا عبدك العاصي فقير      إلى رحماك فاقبل لي سؤالي  
فإن عاقبت يا ربّي تعاقب      محقاً بالمذاب وبالنتكال  
وإن تمف فعمفوك قد أراني      لأفعالي وأوزاري الثقال

٣ زاد في م : في تيه الغني بغناه وهو كلا شيء في عقباه ؛ والقطعة رقم ٣٤ في ديوانه نقلا عن النفع .

يَجْرُ أذْيَالُ عَجْبِيهِ بِطَرَأٍ  
بَزَّتْهُ أَيْدِي الْخَطُوبِ بَزَّتَهُ  
فَلَا تَثْقُ بِالْغِنَى فَاقْتَهُ  
كَفَى بَنِيْلَ الْكِفَافِ عَنْهُ غِنَى

وقال رحمه الله تعالى ١ :

لَا شَيْءَ أَحْسَرَ صَفْقَةً مِنْ عَالِمٍ  
فَعَدَا يَفْرُقُ دِينَهُ أَيْدِي سَبَا  
لَا خَيْرَ فِي كَسْبِ الْحَرَامِ وَقَلَمًا  
فَاخْذِ الْكِفَافَ وَلَا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ

وقال رحمه الله تعالى ٢ :

الشَّيْبُ نَبَّةٌ ذَا النَّهْيِ فَتَنَّبَهَا  
فَلِي مَتَى أَلْهُوٌ وَأُخْدَعُ بِالْمَتَى  
مَا حَسَنُهُ إِلَّا التَّقَى لَا أَنْ يُرَى  
أَنْتَى يِقَاتِلُ وَهُوَ مَقُولُ الشَّبَا  
مَحَقَّ الزَّمَانُ هَلَالَهُ فَكَأَنَّمَا  
فَعَدَا حَسِيرًا يَشْتَهِي أَنْ يُشْتَهَى  
إِنْ أَنْ أَوَاهُ وَأَجْهَشُ بِالْبُكََا  
لَيْسَتْ تَنَّبَهُ الْعِظَاتُ وَمِثْلَهُ  
فَقَدَّ اللَّدَاتِ وَزَادَ غِيًّا بَعْدَهُمْ  
يَا وَيْجَهُ مَا بِالَهُ لَا يَنْتَهَى

ونهى الجهولَ فما استفاق ولا انتهى  
والشيخُ أقبحُ ما يكونُ إذا لها  
صَبًّا بِالْحَاظِ الْجَاذِرِ وَالْمَهَا  
كَابِي الْجَوَادِ إِذَا اسْتَقَلَّ تَأَوَّهَا  
أَبْقَى لَهُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ السَّهَا  
وَلَكُمْ جَرَى طَلَقَ الْجَمُوحِ كَمَا اشْتَهَى  
لِذُنُوبِهِ ضَحِكَ الْجَهُولِ وَقَهَقَهَا  
فِي سَنَةِ قَدَّ أَنْ يَنْتَهَنَهَا  
هَلَاءً تَيْقَظَ بَعْدَهُمْ وَتَنَّبَهَا  
عَنْ غِيَّةِ وَالْعَمْرِ مِنْهُ قَدْ انْتَهَى

١ في م : عفا الله عنه في علماء السوء ؛ والقطة رقم : ٥ في ديوانه .  
٢ زاد في م : في المشيب إن حل أو انه ؛ والقطة رقم : ٨ في ديوانه .

6 - وقال الأستاذ وليُّ الله سيدي أبو العباس ابن العريف :

من لم يشافه عالماً بأصوله فيقينه في المشكلات ظنونُ  
من أنكر الأشياء دون تيقنٍ وثبتت فمعاندٌ مفتون  
الكتبُ تذكرة لمن هو عالمٌ وصوابها بمحالها معجون  
والفكرُ غواص عليها مخرجٌ والحقُّ فيها لؤلؤ مكنون

7 - وقال أبو القاسم ابن الأبرش :

أياسوني لما تعاضم ذنبي أتراهم همُ الغفور الرحيمُ  
فدروني وما تعاضم منه إنما يغفرُ العَظيمَ العظيمُ<sup>١</sup>

8 - وقال أبو العباس ابن صقر الغرناطي أو المري ، وأصله من

سَرَقِسطة<sup>٢</sup> :

أرضِ العدوِّ بظاهر متصنع إن كنتَ مضطراً إلى استرضائه  
كم من فتى ألقى بوجهٍ باسم وجوانحي تنقدُّ من بغضائه

9 - وقال الكاتب الشهير الشهيد أبو عبد الله محمد بن الأَبَّار القُضاعي

البَلَسَنسي رحمه الله تعالى من أبيات :

١ زاد في م : وقال وقد أحسن ظنه بالمولى تعالى سبحانه :

إذا ما بت من ترب فراشي وبت مجاور الرب العظيم  
فهوني صحابي ثم قولوا لك البشري قدمت على كريم  
وقال غيره وأظنه من المشاركة :

قدمت على الكريم بغير زاد من الحسنات بالقلب السليم  
وحمل الزاد أقيح كل شيء إذا كان القدوم على كريم

٢ هو أحمد بن عبد الرحمن بن صقر الأنصاري أصله من سرقسطة ، وخرج منها أبوه فسكن بلنسية  
ثم انتقل إلى المرية وبها ولد ابنه سنة ٤٩٢ وتوفي بمراكش سنة ٥٦٩ ؛ انظر التحفة : ٤٩ والوافي

٧ الورقة : ٢٢ .

يا شقيق النفس أوصيك وإن شقّ في الإخلاص ما تنتهجه  
لا تبتّ في كمد من كبد ربّ ضيق عادٍ رحباً مخرجه  
وبلطف الله أصبح واثقاً كلُّ كرب فعلينه فرجه

ولابن الأبار المذكور ترجمة طويلة استوفيت منها ما أمكنني في «أزهار  
الرياض في أخبار عياض وما يناسبها ممّا يحصل به للنفس ارتياح وللعقل  
ارتياض» .

قال الغبريني في «عنوان الدراية»<sup>١</sup> : لو لم يكن له من الشعر إلا قصيدته  
السينية التي رفعها للأمير أبي زكريا رحمه الله تعالى يستنجد به ويستصرخه لنصرة  
الأندلس لكان فيها كفاية ، وإن كان قد نقدها ناقد ، وطعن عليه فيها طاعن ،  
ولكن كما قال أبو العلاء المعري :

تكلّم بالقول المضلل حاسدٌ وكلُّ كلام الحاسدين هراءٌ

ولو لم يكن له من التآليف إلا كتابه المسمى بـ «معادن اللجين في مرآة  
الحسين» لكفاه في ارتفاع درجته ، وعلو منصبه وسمو رتبته .

ثمّ قال : توفي بتونس ضحوة يوم الثلاثاء الموفى عشرين لمحرّم سنة ٦٥٨ ،  
ومولده آخر شهر ربيع سنة ٥٩٥ ببلنسية ، رحمه الله تعالى وسامحه ، انتهى .  
وقال ابن علوان : إنّه يتصل سنده به من طرق ، منها من طريق الراوية  
أبي عبد الله محمد بن جابر القيسي الوادي آشي عن الشيخ المقرئ المحدث  
المتبحر أبي عبد الله محمد بن حيّان الأوسي الأندلسي نزيل تونس عنه ، ومن طريق  
والدي صاحب «عنوان الدراية» عن الخطيب أبي عبد الله ابن صالح عنه ، انتهى .  
قلت : وسندي إليه عن العم عن التنسي عن أبيه عن ابن مرزوق عن جدّه

١ عنوان الدراية : ١٨٥ .

٢ الغبريني : بكتاب .



الخطيب عن ابن جابر الوادي آشي به كما مرّ .

10 - وقال ابن عبد ربه :

بادرْ إلى التَّوْبَةِ الخِصَاءِ مجتهداً والموتُ ويحكَ لم يمددْ إليك يدا  
وارقب من الله وعداً ليسَ يخلفه لا بدَّ لله من إنجاز ما وعدا

11 - وقال الصدر أبو العلاء ابن قاسم القيسي :

يا واقفَ البابِ في رزقِ يؤمِّلهُ لا تقنطنَ فإنَّ اللهَ فاتحهُ  
إن قدرَ اللهُ رزقاً أنتَ طالبهُ لا تياسنَ فإنَّ اللهَ مانحهُ

12 - وقال الأعمى التطيلي<sup>١</sup> :

تنافسَ النَّاسَ في الدنيا وقد علموا أنْ سوفَ تقتلهم لذاتُها بيددا  
قلْ للمحدثِ عن لقمان أو ليد لم يترك الدهرُ لقماناً ولا لبدا  
وللذي همَّهُ البُنيان يرفعهُ إنَّ الردى لم يغادر في الثرى أحداً<sup>٢</sup>  
ما لابنِ آدمَ لا تفنى مطامعه<sup>٣</sup> يرجو غداً وعسى أن لا يعيش غدا

وقال أبو العباس التطيلي<sup>٤</sup> :

والناس كالناس إلا أن تجربهم وللبصيرة حكمٌ ليسَ للبصرِ  
كالأيكِ مشتبهات في منابتها وإنما يقعُ التفضيلُ في الثمرِ

13 - وقال القاضي أبو العباس ابن الغماز البلسنسي :

١ زاد في م : وقد سبق ذكره مراراً ؛ والقطعة في ديوان الأعمى : ٢٧ .

٢ الديوان : في الشرى أسدا .

٣ الديوان : مطالبه .

٤ م : وقال الفقيه العالم أبو العباس التطيلي ؛ قلت : وهذا يوهم أنه شخص آخر غير الأعمى التطيلي ،

وهو نفسه والبيتان في ديوانه : ٤٨ .

من كان يَعْلَمُ لا محالة أَنَّهُ هَلَاً استعدَّ لمشهدٍ يجزي بهِ  
لا بد أن يُودي وإن طالَ المدى  
مَنْ قد أعدَّ من اهتدى ومن اعتدى  
وقال أيضاً<sup>١</sup> :

هو الموتُ فاحذر أن يجيثك بغتةً وأنتَ على سوءٍ من الفعل عاكف  
وإيَّاكَ أن تمضي من الدهرِ ساعةً ولا لحظةً إلاً وقلبكَ واجف  
فبادر بأعمالٍ يسرك أن ترى إذا طُويت يوم الحساب الصحائف  
ولا تيأسنْ من رحمة الله إنَّه لربَّ العباد بالعباد لطائف

14 - ولما استوزر باديس صاحب غرناطة اليهودي الشهير بابن نغدة<sup>٢</sup> ،  
وأعضل داؤه المسلمين ، قال زاهد إلبيرة وغرناطة أبو إسحاق الإلبيري قصيدته  
التونية المشهورة التي منها في إغراء صنهاجة باليهود<sup>٣</sup> :

ألا قُلْ لصنهاجة أجمعين بُدور الزمانِ وأسد العرين  
مقالة ذي مِقَّةٍ مُشفقٍ صحيح النصيحة دنيا ودين  
لقد زلَّ سيّدكم زلَّةً أقرَّ بها أعينَ الشامتين  
تخيَّرَ كاتبه كافرأ ولو شاء كان من المؤمنين  
فغزَّ اليهودُ بهِ وانتموا وسادوا وتاهوا على المسلمين

وهي قصيدة طويلة ، فنارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود ، وقتلوا منهم  
مقتلة عظيمة ، وفيهم الوزير المذكور - وعادة أهل الأندلس أن الوزير هو  
الكاتب - فأراح الله البلاد والعباد ، ببركة هذا الشيخ الذي نور الحق على كلامه  
باد .

١ م : وقال رحمه الله أيضاً في الموت وأهواله ؛ وقد مرت الأبيات ص : ٣١٦ .

٢ هذا وجه من وجوه كتابة هذا الاسم ، وكثيراً ما يرد : النغراه والنغريه .

٣ انظر ديوان الإلبيري : ١٥١ وما بعدها .

15 - وقال أبو الطاهر الجياني المشهور بابن أبي ركب - بفتح الراء وسكون

الكاف<sup>١</sup> - :

يقول الناس في مثلي تذكّر غائباً تره  
فما لي لا أرى وطني<sup>٢</sup> ولا أنسى تذكّره

وكان أبو الطاهر هذا في جملة من الطلبة ، فمر بهم رجل معه محبرة آبنوس  
تأنتق في حليتها واحتفل في عملها ، فأراهم إياها ، وقال : أريد أن أقصد بها  
بعض الأكابر ، وأريد أن تتمموا احتفالي بأن تصنعوا لي بينكم أبيات شعر  
أقدمها معها ، فأطرق الجماعة ، وقال أبو الطاهر :

وَأفْتَكَ من عُدَدِ العُلا زنجيةً في حلّة من حليّة تبخترُ  
صفراء سوداء الحليّ كأنّها ليلٌ تطرزه نجوم تزهّرُ

فلم يغب الرجل عنهم إلا يسيراً ، وإذا به قد عاد إليهم ، وفي يده  
قلم نحاس مذهب ، فقال لهم : وهذا ممّا أعددتّه للدفع مع هذه المحبرة ، فتنفصلوا  
بإكمال الصنيعة عندي بذكوره ، فبدر أبو الطاهر وقال :

حملتُ بأصفرَ من نجار حليها تخفيه أحياناً وحيناً يظهرُ  
خرسان إلاّ حين يرضعُ ثديها فتراه ينطقُ ما يشاء ويذكرُ

قال ابن الأثير في « تحفة القادِم » : وحضر يوماً في جماعة من أصحابه  
وفيهم أبو عبد الله ابن زرقون في [ عقب ] شعبان في مكان ، فلما تملأوا من الطعام  
قال أبو الطاهر لابن زرقون : أجزّ يا أبا عبد الله ، وأنشد :

حمدتُ لشعبان المبارك شعبة تسهل عندي الجوع في رمضان

١ مر البيتان ص : ١١٣ ، ١٦٠ ، والأبيات والترجمة عن تحفة القادِم : ٢٢ بإيجاز .  
٢ التحفة : سكي .

كما حمد الصبّ المتيمّمُ زورةً تحمّلَ فيها الهجرَ طولَ زمانٍ

فقال :

دعوها بشعبانية ولو أنهم دعوها بشعبانية لكفاني

16 - وقال أبو عبد الله ابن خميس الجزائري :

تحفّظ من لسانك ، ليس شيء أحقّ بطول سجن من لسانٍ  
وكن للصمتِ ملتزماً إذا ما أردت سلامة في ذا الزمانِ

وقال أيضاً<sup>١</sup> :

كن حليّس بيتك مهما فتنة ظهرت تخلص بدينك وافعل دائماً حسناً  
وإن ظلمت فلا تحقد على أحدٍ إن الصغائن فاعلمنّ تنشيء الفتنا

وقال :

بدا لي أن خيرَ الناسِ عيشاً من آمنه الإلهُ من الأنامِ  
فليس لخائف عيشٍ لذيدٍ ولو ملك العراق مع الشامِ

وله<sup>٢</sup> :

جانب<sup>٣</sup> جميع الناس تسلم منهم إن السلامة في مجانبة الورى  
وإذا رأيت من امرئ يوماً أذى لا تجزه أبداً بما منه ترى

وله<sup>٤</sup> :

- 
- ١ م : وقال وقد أجاد ونصح بموعظته .  
٢ م : وقال في مجانبة الناس والقفو عن ظلمك .  
٣ دوزي : سالم .  
٤ م : وله في تأديب الصغار والحسد .

من أدب ابناً له صغيراً قرأت به عينه كبيراً  
وأرغم الأنف من عدو يحسدُ نعماءه كثيراً

17 - وقال أبو محمد<sup>١</sup> ابن هرون القرطبي :

بيد الإلهِ مفتحُ الرزقِ الذي أبوابه مفتوحة لم تُغلقِ  
عجياً لذي فقرٍ يكلفُ مثله في الوقتِ شيئاً عنده لم يخلقِ

وقال أيضاً<sup>٢</sup> :

لعمرك ما الإنسان يرزق نفسه ولكنما الربّ الكريم يُسخّره  
وما بيد المخلوق في الرزق حيلة تقدمه عن وقته أو تؤخره

18 - وقال الأديب الأستاذ أبو محمد ابن صارة رحمه الله تعالى :

يا مَنْ يُصيخُ إلى داعي السفاهِ وقد نادى بهِ الناعيانِ الشيبُ والكبرُ  
إن كنتَ لا تسمعُ الذكرى فقيمِ ثوى في رأسكِ الواعيانِ السمعُ والبصرُ  
ليس الأصمُّ ولا الأعمى سوى رجلٍ لَمْ يهدِهِ الهاديانِ العينِ والأثرُ  
لا الدهرُ يبقى ولا الدنيا ولا الفلكُ إلا أعلى ولا النيرانِ الشمسُ والقمرُ  
ليرحلنَّ عن الدنيا وإن كرها فراقها الثاويانِ البدو والحضرُ

وقال رحمه الله تعالى في ابنة ماتت له :

ألا يا موتُ كنتَ بنا رؤوفاً فجددتَ الحياةَ لنا بزوره  
حمادٍ لفعلك المشكور لما كفيتِ مؤونةً وسرتِ عوره  
فأنكحنا الضريح بلا صداق وجهزنا الفتاةَ بغيرِ شوره

١ م : وقال محمد .

٢ م : وقال رحمه الله في الرزق وتسخيره .

19 - وأنشد أبو عبد الله ابن الحاج البكري الغرناطي :

يا غادياً في غفلة ورائحا إلى متى تستحسن القبائحا  
وكم إلى كم لا تخافُ موقفاً يستنطقُ اللهُ بهِ الجوارحا  
يا عجباً منكَ وكنْتَ مبصراً كيفَ تجنبتَ الطريقَ الواضحا  
كيفَ تكونَ حينَ تقرا في غدٍ صحيفةً قد ملئتَ فضائحا  
أم كيفَ ترضى أن تكونَ خاسراً يومَ يفوزُ من يكونُ رابحا

وممن روى عنه هذه الأبيات الكاتب الرئيس أبو الحسن ابن الجياب ،  
وتوفي ابن الحاج المذكور سنة ٧١٥ رحمه الله تعالى .

20 - وقال حافظ الأندلس ومحدثها أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم  
الكلاعي رحمه الله تعالى :

إلهي مضتَ للعمُرِ سَبْعُونَ حجةً ولي حركاتَ بَعْدَها وسكونُ  
فيا ليتَ شعري أينَ أو كيفَ أومئى يكونَ الذي لا بدَّ أن سيكونُ

والصوابُ أنهما لغيره كما ذكرته في غير هذا الموضع ، وبالجملته فهما  
من كلام الأندلسيين ، وإن لم يحقق ناظهما بالتعيين<sup>١</sup> .

21 - وقال أبو بكر يحيى التطيلي رحمه الله تعالى :

إليكَ بسطتُ الكفَ في فحمةِ الدجى نداءً غريقٍ في الذنوبِ عريقِ  
رجاكَ ضميري كي تخلِّصَ جملتي وكم من فريقٍ شافعٍ لفريقِ

22 - وحكي أن بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل بن العادل بن أيوب  
رقعة في ورقة بيضاء ، إن قرئت في ضوء السراج كانت فضية ، وإن قرئت في

١ انظر ص : ١١٧ وكذلك نسبها لأبي بكر ابن منخل الشلبي في التكملة : ٤٩٦ وإنما أنشدهما أبو  
الربيع وقال لتلميذه إنه رأهما في ديوان ابن منخل .

الشمس كانت ذهبية ، وإن قرئت في الظل كانت حبراً أسود ، وفيها هذه الأبيات :

لئن صدتني البحر عن موطني وعيني بأشواقها زاهره  
فقد زخرَفَ اللهُ لي مكة بأنوار كعبته الزاهره  
وزخرف لي بالنبي يثربا وبالملك الكامل القاهره

فقال الملك الكامل قل :

وطيب لي بالنبي طيبة وبالملك الكامل القاهره

وأظن أن المغربي أندلسي لقوله : لئن صدني البحر عن موطني ، فلذلك أدخلته في أخبار الأندلسيين ولست على تحقيق ويقين ، والله أعلم .

23 - وأنشد ابن الوليد المعروف بابن الخليع قال : أنشدنا أبو عمر ابن عبد البر النمري الحافظ :

تذكرتُ من يبكي عليّ مداوماً فلم أَلْفِ إلا العلم بالدين والخير  
علوم كتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله مع صحة الأثر  
وعلم الألى من ناقديه وفهم ما له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر  
وأنشد له أيضاً :

مقالة ذي نصحٍ وذات فوائد إذا من ذوي الألباب كان استماعها  
عليكم بآثار النبي فإنه من أفضل أعمال الرشاد اتباعها

24 - وقال أبو الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب الأزدي الياصري ،  
وسكن أبوه قرطبة :

عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما رمتني الليالي بالمشيب وبالكبر

أطعت الهوى ، عكس القضية ليني خُلقتُ كبيراً وانتقلتُ إلى الصغر ←

وقيل : إن ابنه أبا الحسن علي بن عبد الملك قال بيتاً مفرداً في معنى ذلك ،

وهو :

هنيئاً لهُ إذ لم يكن كابنه الذي أطاعَ الهوى في حالتيه وما اعتبر<sup>١</sup>

وقيل : إن هذا البيت رابع أربعة أبيات<sup>٢</sup> .

25 - وقال أبو إسحاق ابن خنقاية لما اجتمع به أبو العرب<sup>٣</sup> وسأله عن

حاله وقد بلغ في عمره إحدى وثمانين سنة ، فأشده لنفسه :

أيُّ عيشٍ أو غذاءٍ أو سِنَّةٍ لابنٍ إحدى وثمانين سِنَّةٍ  
قلَّصَ الشيبُ به ظلَّ امرئٍ طالما جرَّ صباهُ رسنَه  
تارة تسطو به سيثة تُسخنُ العينَ وأخرى حسنه

26 - وقال أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القيسي الملقب :

الموتُ حصَّادٌ بلا منجلٍ يسطو على القاطن والمنجلي  
لا يقبلُ العذرُ على حالة ما كان من مشكلٍ أو من جلي

27 - وقال الشيخ عبد الحق الإشبيلي الأزدي صاحب كتاب « العاقبة »

١ الذيل : وما ائتمر ؛ وعن ابن الأبار : وما اعتذر .

٢ قلت : أورد في الذيل والتكملة ثلاثة أبيات قبله وهي :

أبي قال قولاً سار في البدو والحضر وخلف في الباقيين ذكراً وقد غير  
وأسلف إحساناً أوان اقتباله وخاف من التقصير في حيز الكبر  
لذلك ما والى أنيناً وزفرة وأصبح يهوى أن يعاد إلى الصغر  
هنيئاً له . . . . . ( البيت )

٣ هو أبو العرب عبد الوهاب التجيبي والأبيات في بغية المنتسب ص : ٢٠٣ والمعجم : ٦١ والديوان :



و « الإحكام » وغيرهما :

→ إنَّ في الموت والمعاد لشُغلاً وادكاراً لذي النهى وبلاغاً  
فاغنم خطتين قبل المنايا صحة الجسم يا أخي والفراغا

28 - وقال أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغساني  
من أهل جليانة من عمل وادي آش<sup>١</sup> :

ألا إنَّما الدنيا بحار تلاطمت فما أكثر الغرقى على الجنَّباتِ  
وأكثرُ من صاحبت يُغرقُ إلفهُ وقلَّ فتى يُنجى من الغمراتِ

وكان المذكور من أهل العلم والأدب ، رحل وحج وتجوّل في البلاد ،  
ونزل القاهرة المعزية ، وكان أحد السياحين في الأرض ، وله تأليف منها « جامع  
أنماط الوسائل في القريض والخطب والرسائل » وأكثره من نظمه ونثره ،  
رحمه الله تعالى .

29 - وقال عبد العليم بن عبد الملك بن حبيب القضاعي الطرطوشي :

وما الناسُ إلاّ كالصحائف غيرت وألسنهم إلاّ كمثل التراجيمِ  
إذا اشتجر الخصمان في فطنة الفتي فمقوله في ذلك أعدلُ حاكمِ

30 - وقال أبو الحكم عبد المحسن البكنسي :

من كان للدَّهرِ خيدناً في تصرفه أبدت له صفحةُ الدهرِ الأعاجيبا  
من كان خلواً من الآداب سرَّبله مرُّ الليالي على الأيام تأديبا

31 - وقال أبو حاتم عمر بن محمد بن فرج من أهل ميرتلة<sup>٢</sup> ، مدينة

بغرب الأندلس ، يمدح « شهاب » القضاعي<sup>٢</sup> :

١ مرا في ج ٢ : ٦١٤ .

٢ م : يمدح بها شهاب القضاعي المشهور وهي .

شهبُ السماء ضياؤها مستور  
فانزع هُديتَ إلى شهابِ نورهُ  
تشفي جواهره القلوبَ من العمى  
فإذا أتى فيه حَدِيثُ محمدٍ  
وترحَّمَنَّ على القُضاعيِّ الذي  
عنا إذا أفَلَتَ توارى النورُ  
مُتألِّقٌ آماله تبصير  
ولطالما انشِرتَ بهنَّ صدور  
خذ في الصلاة عليه يا مغرور  
وضع الشهاب فسعيه مشكور

32 - وقال الأستاذ أبو محمد غانم بن وليد المخزومي المالقي :

ثَلَاثَةٌ يُجْهَلُ مِقْدَارُهَا      الأَمْنُ وَالصَّحَّةُ وَالقُوَّةُ  
فَلَا تَشِقُ بِالْمَالِ مِنْ غَيْرِهَا      لَوْ أَنَّهُ دَرٌّ وَيَاقوتُ<sup>١</sup>

وتذكرت بهذا قول الآخر :

إذا القوتُ تأتي ل      ك والصحة والأمنُ  
وأصبحت أخا حزنٍ      فلا فارقك الحزنُ

وكلُّ ذلك أصله الحديث النبوي [ على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فإنه قال ]<sup>٢</sup> : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، معه قوت يومه ، فكأنما سقت له الدنيا بحمد أفيها » .

وأخبرنا شيخنا القصار أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي مفتي مدينة فاس وخطيبها سنة عشر وألف ، قال : حدثنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التونسي نزيل فاس الشهير بجروف [ قال ]<sup>٢</sup> حدثنا الإمام سيدي فرج الشريف

١ زاد في م هنا المقطوعة الآتية : وقال آخر :

قميص من القطن من حله      وشربة ماء قراح وقوت  
ينال بها المرء ما يبتغي      وهذا كثير على من يموت

وتذكرت بالأخرى . . . إلخ .

٢ زيادة من م .

الطحطاوي ، قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم يقول « من أصبح آمناً في سربه ... الحديث » .

رجع :

33 - وقال الأستاذ العارف بالله سيدي أبو العباس أحمد بن العريف

الأندلسي دفين مراکش ، وقد زرت قبره بها سنة ١٠١٠ :

إذا نَزَلْتَ بِساحتك الرزايا      فلا تجزع لها جزع الصبي  
فإنَّ لكل نازلة عزاء      بما قد كان من فقد النبي

وقال رحمه الله تعالى :

شَدُوا الرحال وقد نالوا المني بمنى      وكلُّهم بأليمِ الشوقِ قدَّ باحا  
راحت ركائبُهُمْ تَندي رواثحُها      طيباً بما طابَ ذاكَ الوفدُ أشباحا  
نَسيمُ قبرِ النبيِّ المصطفى لهم      راحٌ إذا سكَروا من أجله فاحا  
يا راحلينَ إلى المختار من مضر      زرتم جُسوماً وزرنا نحنُ أرواحا  
إنَّا أقمنا على شوقٍ وعن قدرٍ      ومنَ أقامَ على عذرٍ كمن راحا

34 - وقال أبو محمد المحاربي :

دائِ الزَّمانِ وأهلِهِ      دائِ يَعِزُّ لَهُ العِلاجُ  
أطلعت في ظلماتِهِ      رأياً كما سطع السراج  
لمعاشِرِ أعيانِ ثِقا      في من قناتهم اعوجاج  
كالدرِّ ما لَمْ تُختبر      فإذا اختبرت فهم زجاج

١ القطعة في التحفة : ١٧ والوافي ٨ الورقة : ٥٠ .

٢ م : وقال الأديب .

35 - وقال أبو عبد الله غريب الثقفي القرطبي<sup>١</sup> :

يهددني بمخلوق ضعيف      يهابُ من المنية ما أهابُ  
له أجلٌ ولي أجلٌ وكلُّ      سيلغُ حيثُ يبلغه الكتابُ  
وما يدري لعلَّ الموت منه      قريبُ أيُّنا قبلُ<sup>٢</sup> المصابُ

وله<sup>٣</sup> :

أيُّها الآمِلُ ما ليس لهُ      طالما غرَّ جهولاً أملهُ  
ربَّ مَنْ باتَ يُمنِّي نفسه      خانهُ دونَ مناهِ أجلهُ  
وفتَى بكراً في حاجاته      عاجلاً أعقبَ ريثاً عجلهُ  
قلُّ لمنْ مثَّلَ في أشعاره      يذهبُ المرءُ ويبقى مثلهُ  
نافِسِ المحسنِ في إحسانه      فسيفيكُ مسيئاً عملهُ

قال ابن الأبيار : وهذا البيت الأخير في برنامج الطنبي .

36 - وقال أبو الحسين سليمان بن الطراوة النحوي المالقي<sup>٤</sup> :

وقائلة أتصبو للغواني      وقد أضحي بمفرقك النهارُ  
فقلتُ لها حثت على التصابي      «أحقُّ الخيل بالركض المعارُ»

37 - وقال الحافظ أبو الربيع ابن سالم :

إذا برمتَ نفسي بحالٍ أحلتها      على أملٍ ناءٍ فقرتَ به النفسُ

١ غريب بن عبد الله الطليطلي من قدامى الشعراء ، وكان أهل بلده يشاورونه في أمورهم ؛ انظر الجذوة : ٣٠٧ (وبنية الملتبس رقم : ١٢٨١) والمغرب ٢ : ٢٣ والقطعة الأولى في المصادر المذكورة .

٢ قبل : رواية الجذوة ، وفي الأصول : أينما منه .

٣ م : وله أيضاً في طول الأمل وما الأمل إلا غرور .

٤ انظر أخبار وتراجم أندلسية (السلفي) : ١٧ .

وَأُنزِلُ أَرْجَاءَ الرَّجَاءِ رِكَائِي إِذَا رَامَ لِلْمَأْمَى بِسَاحَتِي الْيَأْسَ  
وَإِنْ أَوْحَشْتَنِي مِنْ أَمَانِي نَبْؤَةَ فَلِي فِي الرَّضَى بِاللَّهِ وَالْقَدَرِ الْأَنْسَ

38 - وقال أبو الحسن سلام بن عبد الله بن سلام الباهلي الإشبيلي<sup>١</sup> ممّا أنشده لنفسه في كتابه الذي سمّاه بـ « الذخائر والأعلاق في أدب النفوس ومكارم الأخلاق » :

إِذَا تَمَّ عَقْلُ الْمَرْءِ تَمَّتْ فِضَائِلُهُ وَقَامَتْ عَلَى الْإِحْسَانِ مِنْهُ دَلَائِلُهُ  
فَلَا تَنْكَرُ الْأَبْصَارُ مَا هُوَ فَاعِلُهُ وَلَا تَنْكَرُ الْأَسْمَاعُ مَا هُوَ قَائِلُهُ

وكان أبو المذكور من وزراء المعتمد بن عباد ، رحم الله تعالى الجميع .

39 - وقال أبو بكر الزبيدي اللغوي :

اتْرِكْ الْهَمَّ إِذَا مَا طَرَقَكَ<sup>١</sup> وَكُلِّ الْأَمْرَ إِلَى مِنْ خَلَقَكَ<sup>٢</sup>  
وَإِذَا أَمَّلَ قَوْمٌ أَحَدًا فَلِي رَبِّكَ فَاْمُدِدْ عِنَقَكَ<sup>٣</sup>

40 - وقال القاضي أبو الوليد هشام بن محمد القيسي الشَّذْبِي المعروف بابن الطلاء : فاوضت القاضي أبا عبد الله ابن شبرين<sup>٢</sup> ما يحذر من فتنة النظر إلى الوجوه الحسان ، فقلت :

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى ذِي رَوْنَقٍ أَبَدًا وَاحْذِرْ عُقُوبَةَ مَا يَأْتِي بِهِ النَّظْرُ  
فَكَمْ صَرِيحُ رَأْيَانَاهُ صَرِيحُ هَوَى مِنْ نَظْرَةٍ قَادَهَا يَوْمًا لَهُ الْقَدَرُ

فأجابني في المعنى الذي انتحيتَه :

١ سلام - بتخفيف اللام - كان شيخاً جليلاً أديباً شاعراً وله خطبة بارعة ومقامات سبع ، وقد أودع كتابه المذكور جملة وافرة من شعره ؛ توفي بشلب سنة ٥٤٤ هـ (الذيل والتكملة ٤ : ٤٨) .  
٢ زاد في م : العالم الفقيه المحدث ، فسألته ما يحدث وما . . . إلخ .

إذا نظرت فلا تَوَلَّعْ بتقليبِ      فر بما نظرة عادت بتعذيبِ

و « رب » هنا للتكثير .

41 - وقال الأستاذ ابن حَوْط الله :

أتدري أنكَ الخطّاءَ حقّاً      وأنتك بالذي تأتي رهينُ  
وتغتتاب الألى فعلوا وقالوا      وذاك الظنُّ والإفكُ الميئُنُ

قال في « الإحاطة »<sup>١</sup> : أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حَوْط الله الأنصاري الحارثي ، كان فقيهاً جليلاً أصولياً كاتباً أديباً شاعراً متفناً في العلوم ورعاً دينياً حافظاً ثبتاً فاضلاً ، درس كتاب سيبويه ومستصفي أبي حامد الغزالي ، وكان ، رحمه الله تعالى ، مشهوراً بالعقل والفضل ، معظماً عند الملوك ، معلوم القدر لديهم ، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية ، مقدماً في ذلك بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار ، ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبته وسلا وميورقة ، فتظاهر بالعدل ، وعُرف بما أبطن من الدين والفضل ، وكان من العلماء العاملين ، مجانباً لأهل البدع والأهواء ، بارع الخط ، حسن التقييد ، وسمع الحديث ، فحصل له سماع لم يشاركه فيه أحد من أهل الغرب ، وسمع على الجهابذة كابن بَشْكُوَال وغيره ، وقرأ أكثر من ستين تأليفاً بين كبار وصغار ، وكمل له على أبي محمد ابن عبد الله بين قراءة وسماع نحو من ستة وثلاثين تأليفاً ، منها الصحيحان ، وأكثر عن ابن حَبِيش وابن الفخار والسهيلي وغيرهم ، ومولده في محرم سنة ٥٤١ ، ومات بغرناطة سحر يوم الخميس ثاني ربيع الأول سنة ٦١٢ ، ونُقل منها في تابوته الذي أُلحد فيه يوم السبت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة إلى مالقة فدفن بها ، رحمه الله تعالى ، انتهى ، وبعضه بالمعنى مختصراً .

١ الإحاطة ، الورقة : ٢١٩ .

وللمذكور ترجمة واسعة جداً ، وألعتُ بما ذكر على وجه التبرك بذكره ،  
رحمه الله تعالى ورضي عنه .

42 - وقال أبو المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشبيلي<sup>١</sup> :

يُجفَى الفقير ويغشى الناسُ قاطبةً      بابَ الغنيِّ ، كذا حكم المقاديرِ  
وإنما الناسُ أمثالُ الفَرَاشِ فهم      يرونَ حيثُ مصاييحُ الدنانيرِ

وقال تلميذه ابن الأَبَّار : أنشدني بعض أصحابنا عنه هذين البيتين ، ولم  
أسمعهما منه ، انتهى .

قلت : وبهذا تعرف وَهَمَ من نسب البيتين إلى عبد المهيمن الحضرمي ، فإن  
هذا كان قبل أن يُخلَقَ والد عبد المهيمن الحضرمي ، وقد أنشدهما أيضاً ابن  
الجلاب الفهري في «روح الشعر وروح الشحر» .

43 - وقال أبو محمد القاسم بن الفتح الحجاري المعروف بابن افریولة :

ركابي بأرجاء الرجاء مُناخَةٌ      ورائدها علمي بأنك لي رَبُّ  
وأنتَ عَلَامٌ بما أنا قائل      كما أنتَ عَلَامٌ بما أضمر القلبُ  
لئن آدها ذنبٌ تولت بعبثِهِ      لقد قرعتُ باباً به يُغفر الذنبُ  
وقال أيضاً<sup>٢</sup> :

عجباً لخبِر قد تيقن أنه      سيرى اقرارَ يديه في ميزانِهِ  
ثمَّ امتطى ظهر المعاصي جهرة      لم يثنيه التائبُ عن عصيانِهِ  
أتى عصى ولكل جزء نعمة      من نفسه وزمانه ومكانِهِ

44 - وقال الشاعر الكبير الشهير أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبر الفهري :

١ انظر ما تقدم ج ٣ : ٣٧٩ .

٢ م : وما ينسب إليه أيضاً قوله .

إن الشدائد قد تغشى الكريم لأن  
كبرد القيين إذ يعلو الحديد به  
وتبين فضل سجاياه وتوضحه  
وليس يأكله إلا ليصلحه  
وقال<sup>١</sup> :

لا تغبط المجذب في علمه  
إن الذي ضيغ من نفسه  
وإن رأيت الحصب في حاله  
فوق الذي ثمر من ماله

45 - وقال أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري المنصفي البلسني<sup>٢</sup> :

قالت لي النفس أذاك الردى  
هلاً اتخذت الزاد قلت أقصري  
وأنت في بحر الخطايا مقيم  
هل يحمل الزاد لدار الكريم

وكان المنصفي المذكور صالحاً، وله رحلة حج فيها، ومال إلى علم التصوف،  
رحمه الله تعالى، وله فيه أشعار حُملت عنه .

46 - وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ القرشي الأموي

الأندلسي<sup>٣</sup> خمساً أبيات عز الدين بن جماعة قاضي القضاة رحمه الله تعالى :

همُّ الأبي على مقدار منصبه  
ما أنت والدهر تشكو من تقلبه  
وبسط راحته في طي منصبه  
يا مبتلى بقضاء قد بليت به  
عليك بالصبر واحذر يا أخي جزعك

صبراً فللصبر في حرب العدا عددُ  
ولا يكن لك إلا الله معتمدُ  
ذر العدا يُمته الغيظ والحسدُ  
واعلم بأن جميع الخلق لو قصدوا  
أذاك لم يقدرُوا والله قد رفعتك

١ م : ومن نكته العجيبة قوله .

٢ انظر ما تقدم ج ٣ : ٥٩٥ .

٣ ترجم له الصفدي (الوافي ٣ : ٣٧٥) ، وكان من لقيه بالقاهرة ، ولقبه محب الدين وله كنية

أخرى هي « أبو البقاء » .



أَعْلَاكَ فِي رَتَبٍ غَيْرٍ مَعْظَمَةٍ بِالْعَرَفِ مَعْرُوفَةٌ بِالْعِلْمِ مَعْلَمَةٌ  
وَمَنْ يَنَاطِيكَ فِي بَهْمَاءِ مَظْلَمَةٍ فَاصْرِفْ هَوَاكَ وَجَانِبَ كُلِّ مَظْلَمَةٍ  
وَاصْحَبْ فِدَيْتَكَ مِنَ النَّصِيحِ قَدْ نَفَعَكَ

قَدْ اجْتَلَيْتَ مِنَ الْأَيَّامِ تَبَصْرَةً وَقَدْ كَفَاكَ الْهَدَى وَالذِّكْرُ تَذَكُّرَةً  
فَاشْكُرْ وَقَدِّمْ مَعَ الْإِخْلَاصِ مَعْذِرَةً وَاسْأَلْ إِيَّاكَ فِي الْإِسْحَارِ مَغْفِرَةً  
مَنْهُ وَكُنْ مَعَهُ حَتَّى يَكُونَ مَعَكَ

وتوفي المذكور بالقاهرة في الطاعون العام سنة ٧٤٩ .

47 - وقال أبو عبد الله الحُمَيْدِيُّ ١ :

النَّاسُ نَبَتْ وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ لَهُمْ رُوضٌ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ الْمَاءُ وَالزَّهْرُ  
مَنْ كَانَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ حَاكِمَهُ فَلَا شُهُودَ لَهُ إِلَّا الْأَيْلَى ذَكَرُوا

وقال أيضاً :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعِلْمِ عِنْدَ فَنَائِهِ أَرْجٌ فَإِنَّ بَقَاءَهُ كَفَنَائِهِ  
بِالْعِلْمِ يَحْيَا الْمَرْءُ طُولَ حَيَاتِهِ فَإِذَا انْقَضَى أَحْيَاءُ حَسَنَ ثَنَائِهِ

وقال أيضاً :

دِينُ الْفَقِيهِ حَدِيثٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ عِنْدَ الْحِجَاجِ وَإِلَّا كَانَ فِي الظُّلْمِ  
إِنْ تَاهَ ذُو مَذْهَبٍ فِي قَفْرِ مَشْكَالَةٍ لَأَحَ الْحَدِيثُ لَهُ فِي الْوَقْتِ كَالْعِلْمِ

ولمّا تعرض بعض من لا يُبَالِي بما ارتكب إلى أصحاب الحديث بقوله :

أَرَى الْخَيْرَ فِي الدُّنْيَا يَقِلُّ كَثِيرُهُ وَيَنْقُصُ نَقْصًا وَالْحَدِيثُ يَزِيدُ

١ م : محمد الحميدي الأندلسي .

فلو كان خيراً كان كالحير كله  
ولابن معين في الرجال مقالة  
فإن بكُ حقاً قوله فهي غيبة  
ولكن شيطان الحديث مریدُ  
سَيُسأل عنها والمليك شهيدُ  
وإن بكُ زوراً فالقصاص شديدُ

أجابه الإمام أبو عبد الله الحميدي بقصيدة طويلة ، منها :

ولتي إلى إبطال قولك قاصد  
إذا لم يكن خيراً كلامُ نبينا  
وأقبح شيء أن جعلت لما أتى  
وما زلت في ذكر الزيادة مُعجبا  
كلام رسول الله وَحْيٍ ومن يرمُ  
ولي من شهادات النصوص جنودُ  
لديك فإن الخير منك بَعِيد  
عن الله شيطاناً وذاك شديد  
بها تبدىء التلبيس ثم تعيد  
زيادة شيء فهو فيه عَنيدُ

ومنها في ابن معين :

وما هو إلا واحد من جماعة  
فإن صدق عن حكم الشهادة جاهل  
ولولا رِوَاةُ الدين ضاع وأصبحت  
هم حفظوا الآثار من كل شبهة  
وهم هاجروا في جمعها وتبادروا  
وقاموا بتعديل الرواة وجرحهم  
بتبليغهم صحت شرائع ديننا  
وصح لأهل النقل منها احتجاجهم  
وحسبهم أن الصحابة بلغوا  
فمن حاد عن هذا اليقين فمارق

وكلهم فيما حكوه شهودُ  
فإن كتاب الله فيه عتيد  
معالمه في الآخرين تبسيد  
وغيرهم عما اقتنوه رقود  
إلى كل أفتي والمرام كؤود  
فدام صحيح النقل وهو جديد  
حدود تحروا حفظها وعهود  
فلم يبق إلا عاندٌ وحقود  
وعنهم رَوَوْا لا يستطيع جُحود  
مرید لإظهار الشكوك مرید

١ م : ومن هذه القصيدة .

ولكن إذا جاء الهدى ودليله  
فليس لموجود الضلال وجود  
وإن رام أعداء الديانة كيدها  
فكيدهم بالمخزيات مكيد

48 - وقال أبو بكر محمد بن محرز الزهري البلسني<sup>١</sup> ، والتزم الرءاء في كل كلمة :

اشكر لربك وانتظر في إثر عسر الأمر يسرا  
واصبر لربك وادخِرْ في ستر ضر الفقر أجرا  
فالدهرُ يعثرُ بالورى والصبر بالأحرار أحرى  
والوفر أظهر معسرا والفقر بالأخيار يُغرى

وقال أيضاً :

اقنع بما أوتيته تمل الغنى وإذا دهتك مئمة فتصبر  
واعلم بأن الرزق مقسوم فلو رُمننا زيادة ذرة لم نقدر  
والله أرحم بالعباد فلا تسَلْ بشراً تعش عيش الكرام وتوَجِرْ  
وإذا سخطت لضرّ حالك مرّة ورأيت نفسك قد عدت فاستبصر  
وانظر إلى من كان دونك تدكّر لعظيم نعمته عليك فتشكر

49 - وقال الحافظ أبو محمد ابن حزم : أنشدني والذي أحمد بن سعيد ابن حزم<sup>٢</sup> :

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالة إلاّ رضيت بدونها

50 - وقال القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البلسني نزيل تونس :

وقالوا أما تخشى ذنوباً أتيتها ولم تكُ ذا جهل فتعذّر بالجهل

١ ترجمته في التحفة : ١٤٣ .

٢ الجذوة : ١١٨ .

فقلتُ لهم هبني كما قد ذكرتمُ تجاوزتُ في قولي وأسرفتُ في فعلي  
أما في رضى مولى الموالي وصفحه رجاءً ومسلاةً لمقترفٍ مثلي

وأنشد رحمه الله تعالى لنفسه في اليوم الذي مات فيه ، وهو آخر ما سُمع  
منه ليلة عاشوراء سنة ٦٩٣ :

أدعوك يا ربّ مضطراً على ثقة بما وعدتَ كما المضطربُ يدعوكا  
داركُ بعفوكَ عبداً لم يزل أبدأ في كل حال من الأحوال يرجوكا  
طالت حياتي ولما أتخذتُ عملاً إلا محبة أقوام أجوكا

51 - وقال ابن الزقاق ، ويقال إنها مكتوبة على قبره ١ :

الإخواننا والموتُ قد حالَ دوننا وللموت حُكمٌ نافذٌ في الخلائقِ  
سبقتكمُ للموتِ والعمر طيبة وأعلمُ أن الكلَّ لا بُدَّ لاحقي  
بعيشكمُ أو باضطجاعي في الثرى ألم نكُ في صفو من العيش رائقِ  
فمن مرَّ بي فليمض لي مترحماً ولا يكُ منسبياً وفاء الأصادقِ

52 - وقال الخطيب ٢ أبو عبد الله محمد بن صالح الكتاني الشاطبي ،

ومولده سنة ٣٦٤ :

أرى العمرَ يفتني والرجاء طویلُ وليسَ إلى قرب الحبيبِ سبيلُ  
جباه إله الخلق أحسن سيرة فما الصبر عن ذاك الجمال جميل  
متى يشفتني قلبي بلثم ترابه ويسمح دهر بالمزار بجيـل  
دلتُ عليه في أوائل أسطري فذاك نبيُّ مُصطفى ورسول

١ ديوانه : ٢٠٥ .

٢ زاد في م : الجليل الصالح الفقيه .

٣ م : الشاطبي الأندلسي ومولده بشاطبة . . . إلخ .

53 - وقال أيمن بن محمد الغرناطي نزيل طيبة على ساكنها الصلاة

والسلام :

أرى حُجراتٍ قد أحاطت عِراصُها  
ببحرٍ محيطٍ حصره غيرُ ممكنٍ  
لدى لجةٍ تفتى وعن هوله تني  
أبو القاسم المختار من خيرِ معدنٍ  
نبيُّ إذا أبصرت غرّةً وجهه  
تيقنت أن الغزَّ عزُّ المهيمنِ  
لك الله من بدرٍ إذا الشمس قابلت  
مُحيّاه قالت إنَّ ذا طالعٍ سني

وله ١ :

كلّ القلوب مطيعة لك في الهوى  
جانبٌ فديتك من تشاء ووالٍ  
الحسنُ والٍ ، والقلوب رعيّة  
وعلى الرعيّة أن تطيع الوالي

وقال أيضاً ٢ :

ألا أيّها الباكي على ما يفوته  
من الحظّ في الدنيا جهلت وما تدري  
على فوتٍ حظّ من جوار محمد  
حقيقٌ بأن تبكي إلى آخر العمرِ  
ستدري إذا قمنا وقد رفع اللوا  
وأحمدها ديناً إلى موقف الحشرِ  
مَنْ الفائز المغبوط في يوم عرضه  
أجارُ النبيّ المصطفى أم أخو الوفرِ

وله :

فررتُ من الدنيا إلى ساكن الحمى  
فرارَ محبٍّ لائذٍ بحبيبٍ  
بلحأت إلى هذا الجناب ، وإنّما  
بلحأت إلى سامي العِماد رَحيبٍ  
وناديتُ مولاي الذي عنده الغنى  
نداء عليلٍ في الزمان غريبٍ

١ م : ومن عجيب قوله ورقيق تغزله قوله .

٢ م : وقال أيضاً يفخر بسيدنا محمد (ص) .

أمولايَ إني قد أتيتك لائذاً وأنتَ طيبي يا أجلَّ طيب  
فقال لك البشري ظفرت من الرضى بأوفر حظِّ مُجْزَلٍ ونصيب  
تناومتُ في أطلال ليل شبيبي فأدركني بالفجرُ صبحُ مشيي

54 - وقال أبو بكر الزبيدي اللغوي :

لو لم تكن ناراً ولا جنة للمرء إلا أنه يُقْبِرُ  
لكان فيه واعظٌ زاجر ناهٍ لمن يسمع أو يبصرُ

ولقد صدق رحمه الله تعالى ورضي عنه .

55 - ولبعض فقهاء طلبيرة :

رأيتُ الانقباضَ أجلَّ شيءٍ وأدعى في الأمور إلى السلامه  
فهذا الخلقُ سالمهمُ ودعهم فرويتهم تؤول إلى الندامه  
ولا تُعنى بشيءٍ غير شيءٍ يقود إلى خلاصك في القيامه

56 - وأمر الكاتب أبو بكر ابن مغاور بكتِّب هذه الأبيات على قبره ،

وهي له<sup>١</sup> :

أيها الواقِفُ اعتباراً بقبري استمع فيه قول عظمي الرَّميمِ  
أودعوني بطنَ الضريحِ وخافوا من ذنوبِ كلومها بأديمي  
قلتُ لا تجزعوا عليّ فإنني حسنُ الظنِّ بالرؤوفِ الرحيمِ  
ودعوني بما اكتسبتُ رهيناً غلقتُ الرهنُ عند مولى كريمِ

57 - وقال<sup>٢</sup> الخطيب ابن صفوان :

١ مرت ثلاثة من هذه الأبيات في ج ٣ : ٣٣١ .

٢ م : وقال العالم العلامة .

رَأَيْتُكَ يُدُنِّي إِلَيْكَ تَبَاعُدِي فَأَبْعَدْتُ نَفْسِي لِابْتِغَائِي فِي الْقُرْبِ  
هَرَبْتُ لَهُ مَنِي إِلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ بِي الْبَعْدُ فِي قُرْبِي فَصَحَّ بِهِ قُرْبِي  
فِيَارِبَ هَلْ نَعْمَى عَلَى الْعَبْدِ بِالرَّضَى يَنَالُ بِهَا فَوْزاً مِنَ الْقُرْبِ بِالْقُرْبِ

وقال الوادي آشي :

وهذا النظم معناه جليل ، وتكرار القرب وإن قبح عند العروضي فهو عند  
المحب جميل ، وهمُ القومُ يُسَلِّمُ لهم في الأفعال والأقوال ، وترتجى بركتهم  
في كل الأحوال ، انتهى .

58 - وقال بعض قدماء الأندلس :

سَمْتُ الْحَيَاةَ عَلَى حُبِّهَا وَحُقَّ لَدُنِي السَّقْمُ أَنْ يَسْأَمَا  
فَلَا عَيْشَ إِلَّا لَدُنِي صِحَّةٌ تَكُونُ لَهُ لَلتَّقَى سَلْمَا

وذيله آخر منهم فقال :

وَلَا دَاءَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَزَلْ يُقَارِبُ فِي دِينِهِ مَاثَمَا  
فَلَسْتَ تُعَالِجُ جَرَحَ الْهَوَى هُدَيْتَ بِمَثَلِ التَّقَى مَرَهَمَا

59 - وقال أبو جعفر أحمد السياسي القيسي المري :

إِذَا مَا جَنَى يَوْمًا عَلَيْكَ جَنَايَةً ظُلُومٌ يَدُقُ السَّمْرَ بِأَسَا وَيَقْصِفُ  
فَلَا تَنْتَقِمُ يَوْمًا عَلَيْهِ بِمَا جَنَى وَكَيْلُ أَمْرِهِ لِلدَّهْرِ فَالدَّهْرُ مَنْصِفُ  
وقال أيضاً<sup>٢</sup> :

ليس حلمُ الضَّعِيفِ حِلْمًا، وَلَكِنْ حِلْمٌ مِنْ لَوْ يَشَاءُ صَالَ اقْتَدَارَا

١ أحمد : سقطت من ق ؛ ولعل السياسي أن تكون « البياسي » .

٢ م : وله أيضاً في الحلم والتجاوز عن سيئات من زل إن هفا .

مَنْ تَفَاضَى عَنِ السَّفِيهِ بِحِلْمٍ أَصْبَحَ النَّاسُ دُونَهُ أَنْصَارًا  
مَنْ يَزُوجُ كَرِيمَةَ الْهَمَّةِ الْعِلْمِ يَا عَلَوًّا فَقَدْ أَجَادَ الْخِيَارَا  
سْتَرِيهِ عِنْدَ الْوِلَادِ بِنَيْهَا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالْأَنَاةَ كِبَارَا

60 - وقال الخطيب الصالح أبو إسحاق ابن أبي العاصي :

اعمل بعلمك تَوْتَّ عَلِمًا إِنَّمَا جَدَّوَى عُلُومِ الْمَرْءِ نَهْجُ الْأَقْوَمِ  
وَإِذَا الْفَتَى قَدْ نَالَ عَلِمًا ثُمَّ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ  
وَقَالَ مَوْطَأًا عَلَى الْبَيْتِ الْأَخِيرِ :

أَمْوَلَايَ أَنْتَ الْعَفْوُ الْكَرِيمُ لِبَذْلِ التَّوَالِ وَلِلْمَعْذِرَةِ  
عَلِيٌّ ذَنْوِبٌ وَتَصْحِيفُهَا وَمِنْ عِنْدِكَ الْجُودُ وَالْمَغْفِرَةُ

61 - وقال الخطيب المتصوف الشهير أبو جعفر أحمد بن الزيات من

بلش مألقة :

يَقَالُ خِصَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَلْفٌ وَمَنْ جَمَعَ الْخِصَالَ الْأَلْفَ سَادَا  
وَيَجْمَعُهَا الصَّلَاحُ فَمَنْ تَعَدَّى مَذَاهِبَهُ فَقَدْ جَمَعَ الْفَسَادَا

وَقَالَ أَيْضًا :

إِنْ شَتَّ فَوْزًا بِمَطْلُوبِ الْكِرَامِ غَدَا فَاَسْئَلُكَ مِنَ الْعَمَلِ الْمَرْضِيِّ مِنْهَا جَا  
وَإِغْلَبَ هَوَى النَّفْسِ لَا يَفْرُكُ خَادِعَهُ فَكُلُّ شَيْءٍ يَحِطُّ الْقَدْرُ مِنْهَا جَا

62 - وقال الأديب الكبير الشهير أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة

البكري الشنبريني رحمه الله تعالى<sup>١</sup> :

١ انظر أيضاً ما تقدم ص : ١١٧ .



بَنُو الدنْيَا بِجَهْلِ عَظَمِهَا فَجَلَّتْ عِنْدَهُمْ وَهِيَ الْحَقِيرَةُ  
يُهَارِشُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهَا مُهَارِشَةَ الْكَلَابِ عَلَى الْعَقِيرَةِ

وقال :

أَيُّ عَذْرِ يَكُونُ لَا أَيَّ عَذْرٍ لِابْنِ سَبْعِينَ مُوَلَّعٍ بِالصَّبَابَةِ  
وَهُوَ مَاءٌ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ اللَّيَالِي فِي إِنَاءِ الْحَيَاةِ إِلَّا صُبَابَهُ

وقال أيضاً :

وَلَقَدْ طَلَبْتُ رَضَى الْبَرِيَّةِ جَاهِدًا إِذَا رَضَاهُمْ غَايَةَ لَا تُدْرِكُ  
وَأَرَى الْقِنَاعَةَ لِلْفَتَى كَتْرًا لَهُ وَالْبِرَّ أَفْضَلَ مَا بِهِ يَتَمَسَّكُ

63 - وقال أبو محمد ابن صاحب الصلاة الداني ، ويُعرف بعبودون :

وَعَجَّلَ شَيْبِي أَنْ ذَا الْفَضْلِ مُبْتَلَى بِدَهْرِ غَدَا ذُو النِّقْصِ فِيهِ مُؤَمَّلًا  
وَمَنْ نَكَدَ الدُّثْيَا عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَبْرَى بِهَا الْحُرَّ يَشْقَى وَاللَّثِيمَ مَمُولًا  
مَتَى يَنْعَمُ الْمُعْتَرُّ عَيْنًا إِذَا اعْتَفَى جَوَادًا مُقْلًا أَوْ غَنِيًّا مَبْخَلًا

64 - وقال أبو الحكم عبيد الله الأموي مولاهم الأندلسي :

إِذَا كَانَ إِصْلَاحِي لِحَسْمِي وَاجِبًا فإِصْلَاحُ نَفْسِي لَا مَحَالَةَ أَوْجِبُ  
وَإِنْ كَانَ مَا يَفْنَى إِلَى النَّفْسِ مُعْجَبًا فَإِنَّ الَّذِي يَبْقَى إِلَى الْعَقْلِ أَعْجَبُ

65 - وقال الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه

الله تعالى :

لِللَّهِ أَكْيَاسٌ جَفَوْا أَوْطَانَهُمْ فَالْأَرْضُ أَجْمَعُهَا لَهُمْ أَوْطَانُ

١ انظر التكملة : ٦٩ .

جالت عقولهمُ مجالَ تفكيرٍ وجمالةٍ فبدا لها الكتمان  
ركبت بحار الفهم في فلك النهى وجرى بها الإخلاص والإيمان  
فرست بهم لما انتهوا بجفونهم مرسى لهم فيه غنى وأمان

66 - وقال أبو جعفر ابن خاتمة رحمه الله تعالى :

يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا  
عودتهم بسط أرزاق بلا سبب  
وعدت بالفضل في وردٍ وفي صدر  
عوارف ارتببت شم الأنوف لها  
يا من تعرف بالمعروف فاعترفت  
وعالماً بخفيات الأمور فلا  
عبدٌ فقيرٌ بباب الجود منكسر  
مهما أتى ليمد الكف أخجله  
يا واسعاً ضاقَ خطو الخلق عن نعم  
وناشراً بيد الإجمال رحمة  
ارحم عباداً بضنك العيش قد قنعوا  
إذا توزعت الدنيا فما لهم  
لكنهم من ذرا عليك في نمط  
ومن يكن بالذي يهواه مجتمعاً

ارحم عباداً أكف الفقر قد بسطوا  
سوى جميل رجاء نحوه انبسطوا  
بالجود إن أقسطوا والحلم إن قسطوا  
وكل صعب بقيد الجود يرتبط  
بجم إنعامه الأطراف والوسط  
وهم يجوز عليه لا ولا غلط  
من شأنه أن يوافي حين ينضغط  
قبائح وخطايا أمرها فرط  
منه إذا خطبوا في شكرها خطبوا  
فليس يلحق منه مسرفاً قنط  
فأينما سقطوا بين الورى لقطوا  
غير الدجنة لحف والثرى بسط  
سام رفيع الذرى ما فوقه نمط  
فما يبالي أقام الحي أم شحطوا

١ زاد في م أبياتاً قال : وقال الشيخ أبو بكر ابن مغاور (م : مفاوز) وقيل إنها لابن لبال :

ودعتها ومدامي تنهل بالدمع الطليق  
فبكت وأذرت أدمعاً في صفحة الخلد الأنيق  
ومضت تعض بنانها بين التلهف والشهيق  
فرايت درأ ساقطاً من نرجسين على شقيق  
ورأيت مبيض اللجين يعض محمر العقيق

نحن العبيد وأنت الملك ليس سوى  
وكلُّ شيءٍ يُرَجَى بعدَ ذا شَطَطُ  
وقال رحمه الله تعالى :

ملاك الأمر تقوى الله فاجعل  
تُقاَهُ عُدَّةً لصلاح أمرِك  
وبادر نحوَ طاعتهِ بعزم  
فما تدري متى يمضي بعمرِك  
وقال أيضاً ١ :

إذا كنتَ تعلم أن الأمور  
بِحكم الإلهِ كما قد قضى  
فَقِيمَ التفكير والحكم ماضٍ  
ولا ردَّ للحكم مهما مضى  
فخلِّ الوجود كما شاءه  
مُدبِّره وابعِ منه الرضى  
وقال ٢ :

إذا ما الدهر نابك منه خطب  
وشدَّ عليك من حلق عقاله  
فكِلْ لله أمرِك لا تفكّر  
ففكرِك فيه خبط في حباله  
وقال ٣ :

عدوكِ دارِهِ ما اسطَعَتْ حتى  
يعودَ لديك كالخلِّ الشفيقِ  
فما في الأرض أَردى من عدوِّ  
وما في الأرض أجْدَى من صديقِ  
وقال ٤ :

إن أعرضت دُنْيَاكَ عنكَ بوجهها  
وغدت ومنها في رضاكَ نزاعُ  
فاحذر بنيتها واحتفظ من شرِّهم  
إنَّ البنينَ لأُمَّهم أتباعُ

١ م : في تفويض الأمر إلى الله والاعتكال عليه .

٢ م : وقال في معناه في توكيل الأمر إلى الله تعالى .

٣ م : في مداراة العدو ومكايده .

٤ م : وقد أبلغ في النصيحة وأجاد إلى الغاية .

وقال ١ :

يا مجيب المضطرَّ عندَ الدعاءِ      منك دائي وفي يديكَ دوائي  
جدّبني الدنيا إليها بضبّعي      ودعتني لمحنتي وشقائي  
يا إلهي وأنتَ تعلمَ حالي      لا تدرّني شماتة الأعداءِ

67 - وقال الحافظ الكبير الشهير أبو عبد الله الحميدي صاحب «الجمع بين الصحيحين» رحمه الله تعالى ٢ :

كتابُ الله عزَّ وجلَّ قولي      وما صحّتْ به الآثارُ ديني  
وما اتفق الجميع عليه بدءاً      وعوداً فهو عن حقّ مبین  
فدع ما صدّ عن هذي وخذها      تكن منها على عين اليقين

وقال :

طريق الزهد أفضلُ ما طريق      وتقوى الله باديةُ الحقوقِ  
فثِقْ بالله يكفِكَ ، واستعنه      يُعِنِكَ ، وذَرُ بُنَيَاتِ الطَّرِيقِ

68 - وقال أبو بكر مالك بن جبير رحمه الله تعالى :

رحلتُ وإنّي من غيرِ زاد      وما قدّمتُ شيئاً للمعادِ  
ولكنّي وثقتُ بجودِ ربي      وهل يشقى المقلُّ مع الجوادِ  
وتوفّي المذكور بأربولة - أعادها الله تعالى إلى الإسلام - سنة ٥٦١ .

69 - وقال ابن جبير اليحصبي وهو الكاتب أبو عبد الله محمد :

كلّما رمتُ أن أقدمَ خيراً      لمعادي ورمتُ أنّي أتوبُ

١ م : في التضرع إليه تعالى والابتهاال إليه .

٢ هاتان القطعتان للحميدي وردتا في ج ٢ : ١١٥ .

صرفتني بواعث النفس قسراً فتقاعستُ والذنوبُ ذنوبُ  
رَبِّ قَلْبٍ قَلْبِي لِعِزْمَةِ خَيْرٍ لِمَتَابٍ فِي يَدَيْكَ الْقُلُوبُ

ولتعلم أن كلام أهل الأندلس بحر لا ساحل له ، ويرحم الله تعالى لسان الدين بن الخطيب حيث قال في صدر الإحاطة : وهذا الغرضُ الذي وضعنا له هذا التأليف يطلبنا فيه ما قصدنا به من المباهاة والافتخار بالإكثار ، واستيعاب النظام والنثار ، ويحملنا فيه خوفُ السامة على الاختصار والاقتصار ، وكفى بهذا جلاء في الأعذار ، والله تعالى مُقِيل العِثَار ، وساتر العَيْبِ المِثَار ، بفضلِه ، انتهى .

70 - ولنختم هذا الباب بقول أبي زكريا يحيى بن سعد بن مسعود القلبي :

عَفْوُكَ اللَّهُمَّ عَنَّا خَيْرُ شَيْءٍ نَتَمَنَّى  
رَبِّ إِنَّا قَدْ جَهِلْنَا فِي الَّذِي قَدْ كَانَ مِنَّا  
وَخَطِينَا وَخَلَطْنَا وَهَوْنَا وَمَجَنَّا  
إِنْ نَكُنْ رَبَّ أَسَآنَا مَا أَسَآنَا بِكَ ظَنًّا

وذيلته بقولي :

فَأَنلْنَا الحَمَّ بِالْحَسِّ فِي وَإِنْعَامًا وَمَنَّا

آمين .

## الباب الثامن

في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها ،  
وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره ، واستعماله في أمرها حيلَ فكره ،  
حتى استولى - دمره الله تعالى - عليها ، ومحا منها التوحيد واسمه ، وكتب  
على مشاهدتها ومعاهدها وسُمِّه ، وقرر مذهب التثليث ، والرأي الخبيث ،  
لديها ، واستغاث أهلها استغاثةً أضرابها بالنظم والنثر ، أهل ذلك العصر ،  
من سائر الأقطار ، حين تعذرت بحصارها ، مع قلة حماها وأنصارها ،  
المآرب والأوطار ، وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها ، أعاد الله تعالى  
إليها كلمة الإسلام ، وأقام فيها شريعة سيّد الأنام ، عليه أفضل الصلاة  
والسلام ، ورفع يد الكفر عنها وعمّا حواليا . آمين .

[ ظهور بلاي وخلفائه ]

قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فلّ النصارى بالأندلس - بعد  
غلبة العرب لهم - عِلجٌ يقال له بلاي<sup>١</sup> ، من أهل أشتوريش من جليقية . كان  
رهينةً عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي ،  
الثاني من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها ، وهي  
سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن ،  
فطردوه وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم إلى الآن ، وكان عدّة من ملك  
منهم إلى آخر أيام الناصر لدين الله اثنين وعشرين ملكاً ؛ انتهى .

وقال عيسى بن أحمد الرازي : في أيام عَنبَسَةَ بن سَحِيم الكلابي قام بأرض

١ انظر ما تقدم عن بلاي ج ٣ : ١٧ .

جليقية عِلْج خبيث يقال له بلاي من وقعة أخذ النصارى بالأندلس ، وجدَّ الفرنج في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك ، ولقد استولى المسلمون بالأندلس على النصرانية وأجلَّوهم ، وافتتحوا بلادهم ، حتى بلغوا أريولة من أرض الفرنجة ، وافتتحوا بلبونة من جليقية ، ولم يبق إلا الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاي ، فدخلها في ثلاثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعاً ، وبقي في ثلاثين رجلاً وعشر نسوة ، ولا طعام لهم إلا العسل يشترونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعياء المسلمين أمرهم ، واحتقروا بهم ، وقالوا : ثلاثون عِلْجاً ما عسى أن يجيء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة ما لا خفاء به . وفي سنة ١٣٣ هلك بلاي المذكور ، وملك ابنه فافله<sup>١</sup> بعده ، وكان ملك بلاي تسع عشرة سنة ، وابنه ستين . فملك بعدهما أذفونش بن بيطر<sup>٢</sup> جد بني أذفونش هؤلاء الذين اتصل ملكهم إلى اليوم ، فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم ؛ انتهى باختصار .

وقال المسعودي بعد ذكره غزوة سمورة أيام الناصر ، ما صورته<sup>٣</sup> : وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس ممّا يلي الفرنجة ومدينة أربونة<sup>٤</sup> خرجت عن أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها ممّا كان بأيديهم من المدن والحصون ، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦<sup>٥</sup> من شرق الأندلس طرطوشة ، وعلى سائر بحر الروم ممّا يلي طرطوشة آخذاً في الشمال إفراغه على نهر عظيم ثم لاردة ؛ انتهى .

١ ( Fafila )

٢ ( Alphonso ) ابن ( Pedro ) ؛ وكان أذفونش هذا قد تزوج ابنة بلاي واسمها أرمسندا

( Err.ensinda ) ( فجر الأندلس : ٣٤٤ ) .

٣ مروج الذهب ١ : ١٦٢ .

٤ المزوج : وآخر ما كان . . . مدينة أربونة .

٥ المروج : وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة .

ومن أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة ٤٧٥ ، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال :

يا أهل أندلسٍ حُثُوا مَطِيَّكُمُْ      فما المُقامُ بها إلاّ من الغلَطِ  
الثوبُ يُنسلُ من أطرافه وأرى      ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسطِ  
ونحنُ بينَ عدوٍّ لا يفارقنا      كيفَ الحياة مع الحياتِ في سَفَطِ  
ويروى صدر البيت الثالث هكذا :

من جاورَ الشرَّ لا يأمنُ بَوائِقَهُ      كيفَ الحياة مع الحياتِ في سَفَطِ  
وتروى الأبيات هكذا :

حُثُوا رواحلكمُ يا أهلَ أندلسٍ      فما المقامُ بها إلاّ من الغلَطِ  
السلكُ يُنثرُ من أطرافه ، وأرى      سلكَ الجزيرة منثوراً من الوسطِ  
مَن جاورَ الشرَّ لا يأمنُ عواقبَهُ      كيفَ الحياة مع الحياتِ في سَفَطِ  
وقال آخر :

يا أهلَ أندلسٍ رُدُّوا المُعارَ فما      في العُرفِ عاريةٌ إلاّ مردّاتُ  
ألم تروا بيَندقَ الكفارِ فرزَنهُ      وشاهنّا آخرَ الأبياتِ شَهَماتُ

وقال بعض المؤرخين : أخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذها لها في منتصف محرم سنة ٤٧٨ ؛ انتهى . وفيه بعض مخالفة لما قبله في وقت أخذها ، وسيأتي قريباً بعض ما يؤيده .



قال : وهي مدينة حصينة قديمة أزيلت من بناء العمالقة ، على ضفة النهر الكبير ، ولها قسبة حصينة في غاية المنعة ، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جري ، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً ، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة ، وطلبيطة هذه دار مملكة الروم ، وبها كان البيت المغلق الذي كانوا يتحامون فتحه حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب ؛ انتهى .

وقد تقدم شيء من هذا فيما مر من هذا الكتاب <sup>١</sup> .

وقد حكى ابن بدرون في شرح العبدونية <sup>٢</sup> أن المأمون يجيى بن ذي النون صاحب طليطلة بنى بها قصرأ تأتق في بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حوالها محيطاً بها متصلاً ببعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتقر ، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها إذ سمع مشدأ ينشد :

أتبني بناء الخالدين ، وإتما بقاؤك فيها ، لو علمت ، قليل  
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يعتره رحيل

فلم يلبث بعد هذا إلا يسيراً حتى قضى نجه ؛ انتهى .  
وقال ابن خلكان <sup>٣</sup> : إن طليطلة أخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨  
بعد حصار شديد ؛ انتهى .

١ انظر ما تقدم ج ١ : ١٦١ ، ٢٠٦ .

٢ البسامة : ٢٧١ .

٣ وفيات الأعيان ٤ : ١١٨ .

وقال ابن علقمة : إن طليطلة أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ ، وكانت وقعة الزلافة في السنة بعدها ، انتهى .

[ وقعة الزلافة نقلاً عن الروض المعمار وغيره ]

ورأيت أن أذكر هنا وقعة الزلافة التي نشأت عن أخذ طليطلة وما يتبع ذلك من كلام صاحب «الروض المعمار» وغيره فنقول<sup>١</sup> : إنه لما ملك يوسف ابن تاشفين اللمتوني المغرب ، وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة ، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة ، وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة ، تآقت نفسه إلى العبور بلجزيرة الأندلس ، فهمم<sup>٢</sup> بذلك ، وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليحبر فيها ، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا لإمامه بجزيرتهم ، وأعدوا له العدة والعدد ، وصعبت عليهم مدافعتهم ، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج من شمالهم والمسلمين من جنوبهم ، وكانت الفرنج تشتد وطأتها<sup>٢</sup> عليهم ، وتغير تنهب ، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين ، والفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين ، إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم ، لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب ، وانتقال الأمر إليه في أسرع وقت ، مع ما ظهر لأبطال اللمتين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقدت<sup>٢</sup> الفارس ، والطعنات التي تنظم الكلى ، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدين لقتاله ، وكان ملوك الأندلس يفيثون إلى ظله ، ويحذرونه خوفاً على ملكهم ، مهما عبر إليهم وعابن بلادهم ، فلما رأوا ما دهم على عبوره إليهم وعلموا ذلك ، راسل بعضهم بعضاً يستنجلون آراءهم في أمره ، وكان مقرعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد ، لأنه أشجع القوم ، وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم

١ أكثر هذا النص منقول عن ابن خلكان ٦ : ١١٢ وما بعدها .

٢ ق ص : تشتد وطأتها .

على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ،  
فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتاباً ، وهو : أما بعد فإنك إن أعرضت  
عنا نُسبت إلى كرم ، ولم تُنسب إلى عجز ، وإن أجبنا داعيتك نُسبنا إلى عقل ،  
ولم نُنسب إلى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا ، فاختر لنفسك أكرم  
نسبتك ، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تُسبق فيه إلى مكرمة ، وإن في استبقائك  
ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت ، والسلام . فلما وصله الكتاب مع  
تُحف وهدايا ، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي ، لكنه ذكي  
الطبع ، يجيد فهم المقاصد ، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ، فقال  
له : أيها الملك ، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم  
أهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي ،  
فإنهم مسلمون وذوو بيوتات ، فلا تغير بهم ، وكفى بهم من وراءهم من الأعداء  
الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم إعراضك عن أطاعك  
من أهل الغرب ، فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه : فما ترى أنت ؟ فقال : أيها  
الملك اعلم أن تاج الملك وبهجته شاهده الذي لا يُرد ، فإنه خليق بما حصل في يده  
من الملك والمال أن يعفو إذا استعفي ، وأن يهب إذا استوهب ، وكلما وهب  
جليلاً جزيلاً كان لقدره أعظم ، فإذا عظم قدره تأصل ملكه ، وإذا تأصل  
ملكه تشرف الناس بطاعته ، وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ، ولم يتجشم  
المشقة إليهم ، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته ، واعلم أن بعض  
الملوك الحكماء الأكابر البُصراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ساد ، ومن  
ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد ؛ فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف  
بلغته فهمه وعلم صحته ، فقال للكاتب : أجيب القوم ، واكتب بما يجب في ذلك ،  
واقراً عليّ كتابك ، فكتب الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن  
تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، تحية من سالمكم وسلّم عليكم ،  
وإنكم ممّا في أيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصين ممّا بأكرم إيثار

وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ،  
والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام . فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن  
تاشفين بلسانه ، فاستحسنه ، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرّاق اللّصط  
التي لا توجد إلاّ ببلاده ، وأنفذ ذلك إليهم ، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه  
فرحوا به ، وعظموه ، وسُرّوا بولايته ، وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج  
عنهم ، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يرييهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين  
ليعبر إليهم ، أو يمدّهم بإعانة منه .

وكان ملك الإفرنج الأذفونش لما وقعت الفتنة بالأندلس وثار الخلاف ،  
وكان كل من حاز بلداً وتقوى فيه ملكه وادعى الملك وصار مثل ملوك الطوائف ،  
فطمع فيهم الأذفونش بسبب ذلك ، وأخذ كثيراً من ثغورهم ، فقوي شأنه ،  
وعظم سلطانه ، وكثرت عساكره ، وأخذ طليطلة من صاحبها القادر بالله بن  
المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها في منتصف  
محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فزاد لعنه الله تعالى بملكه طليطلة قوّة إلى قوّته ،  
وأخذ يجوسُ خلال الديار ، ويستفتح المعامل والحصون .

قال ابن الأثير في « الكامل »<sup>١</sup> : وكان المعتمد بن عبّاد أعظم ملوك الأندلس  
ومتملك أكثر بلادها<sup>٢</sup> ، مثل قرطبة وإشبيلية ، وكان — مع ذلك — يؤدي الضريبة  
إلى الأذفونش كل سنة ، فلما تملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة  
المعتادة<sup>٣</sup> ، فلم يقبلها منه ، وأرسل إليه يهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة ليفتحها ،  
إلاّ أن يسلم إليه جميع الحصون المنيعة<sup>٤</sup> ، ويبقى السهل للمسلمين ، وكان الرسول  
في جمع كثير نحو خمسمائة فارس ، فأنزله المعتمد ، وفرق أصحابه على قواد

١ الكامل ١٠ : ١٤٢ ( ط . صادر ) .

٢ ابن الأثير : وكان يملك أكثر البلاد .

٣ ابن الأثير : على عادته .

٤ ابن الأثير : الحصون التي بالجليل .

عسكره ، ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم مَنْ عنده من الكفرة ، وأحضر الرسول وَصَفَعَهُ<sup>١</sup> حتى خرجت عيناه ، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر ، فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر ، وكان متوجهاً إلى قرطبة ليحاصرها ، فرجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ، ويكثر العدد والعدة ، انتهى .

وقال الفقيه أبو عبد الله [محمد] بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري في كتابه «الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار» ما ملخصه<sup>٢</sup> : إنه لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المريّة حتى تأخر الوقت الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش وأرسلها إليه بعد ذلك ، استشاط الطاغية غضباً وتشطط ، وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة ، وأمعن في التّجنيّ ، وسأل في دخول امرأته التّمجيطة<sup>٣</sup> إلى جامع قرطبة لتلد فيه ، إذ كانت حاملاً ، لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة - وهي التي أنشأ بناءها الناصر لدين الله ، وأمعن في بنائها ، وأغرب في حسنها ، وجكّس إليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور من البلاد والأقطار ، وكان يثيب على السارية بكذا وكذا غير الثمن وأجرة الحمل ، وأنفق فيها الأموال العظيمة ، واشتغل بها ، وكان يباشر الصناعات بنفسه ، حتى تخلف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات ، وحضر في الرابعة ، وكان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد مُنذر بن سعيد البكّوطي ، فعرض به في الخطبة ، ووبخه على رؤوس الملأ ، وقصته في ذلك مشهورة ، وبناء الزهراء أيضاً من أغرب مباني الإسلام ، فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان - .

١ في بعض أصول ابن الأثير : وضغفه .

٢ الروض : ٨٤ - ٩٥ .

٣ الروض : القمطيحة .

٤ وهي ... ابن حيان : استطراد من المقرئ ليس في الروض المعطار .

ولنرجع إلى الأذفونش فإن الأطباء والقسوس لما أشاروا أن تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء ، وتردد إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طبيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور ، وكان السفير في ذلك يهودياً كان وزير الأذفونش ، فامتنع ابن عباد من ذلك ، فراجعه ، فأباه وأياسه من ذلك ، فراجعه اليهودي في ذلك ، وأغلظ له في القول ، وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد ، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي ، فأنزل دماغه في حلقه ، وأمر به فصُلب منكوساً بقرطبة ، واستفتى لما سكن غضبه الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي ، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل ، إذ ليس له ذلك ، وقال للفقهاء : إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى الله أن يجعل في عزمته للمسلمين فرجاً .

وبلغ الأذفونش ما صنعه ابن عباد ، فأقسم بألمته ليغزونه بإشبيلية ، ويحاصره في قصره ، فجرد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس ويغير على تلك التخوم والجهات ، ثم يمر على لبلة إلى إشبيلية ، وجعل مواعده إياه طريانة للاجتماع معه ، ثم زحف الأذفونش بنفسه في جيش آخر عرمرم ، فسلك طريقاً غير الطريق التي سلكها الآخر ، وكلاهما عاث في البلاد وخرّب ودمر ، حتى اجتمعا لموعدهما بصفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد ، وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه : كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان ، واشتد عليّ الحر ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عن وجهي ؛ فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة : قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللطيفة تروّح منك لا تروح عليك ، إن شاء الله

تعالى . فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عبّاد ، وقرئت عليه ، وعلم مقتضاها ،  
أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال .

وفشا في الأندلس توقيع ابن عبّاد ، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف  
ابن تاشفين ، والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس ، وفرحوا بذلك ،  
وفتحت لهم أبواب الآمال . وأما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عبّاد  
وانفراده برأيه في ذلك ، اهتموا منه ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من كلمه مواجهة ،  
وحذّروه عاقبة ذلك ، وقالوا له : الملك عقيم ، والسيقان لا يجتمعان في غمد  
واحد ، فأجابهم ابن عبّاد بكلمته السائرة مثلاً : رَعِيُ الجمال خير من رعيِ  
الخنازير ، ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في  
الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قَسْتَالَة .  
وقال لعذاله ولوّامه : يا قوم إني من أمري على حالتين : حالة يقين ، وحالة شك ،  
ولا بد لي من إحداهما ، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى  
الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل ، فهذه  
حالة شك ، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله ،  
وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فإذا كانت حالة الشك فيها  
عارضة ، فلا شيء أَدْع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه ؟ فحينئذ قصر أصحابه  
عن لومه .

ولما عزم أمر صاحب بطليوس المتوكل عمر بن محمد وعبد الله بن حبّوس  
الصنهاجي صاحب غرناطة أن يبعث إليه كلٌّ منهما قاضي حضرته ، ففعلا ،  
واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم . وكان أعقل أهل  
زمانه ، فلما اجتمع عنده القضاة بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر ابن زيدون ،  
وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين ، وأسند إلى القضاة ما يليق  
بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد ، وأسند إلى وزيره ما لا بد  
منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية ، وكان يوسف بن تاشفين لا تزال

تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته ، فيسمع إليهم ، ويصغي لقولهم ، وترقُّ نفسه لهم .

فما عبرت رسل ابن عبّاد البحر إلّا ورسّل يوسف بالمرصاد ، ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم ، وأكرم مثواهم ، واتصل ذلك بابن عبّاد ، فوجه من إشبيلية أسطولا نحو صاحب سبته ، فانتظمت في سلك يوسف ، ثمّ جرت بينه وبين الرسل مراوضات ، ثم انصرفت إلى مرسلها ، ثم عبر يوسف البحر عبوراً سهلاً ، حتى أتى الجزيرة الخضراء ، ففتحوا له ، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات ، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيه ، فامتألت المساجد والرحبات بالمطوّعين ، وتواصوا بهم خيراً ، هذا مساق صاحب «الروض المعطار» .  
وأما ابن الأثير<sup>١</sup> فإنه لما ذكر وقعة الزلاّقة ذكر ما تقدم من فعل المعتمد بالأرسال وقتلهم ، وتخوف أكابر الأندلس من الأذفونش ، وأنه اجتمع منهم رؤساء ، وساروا إلى القاضي عبيد الله<sup>٢</sup> بن محمد [بن أدهم] وقالوا له : ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية ، بعد أن كانوا يأخذونها ، وقالوا : قد غلب على البلاد الفرنج ، ولم يبق إلّا القليل ، وإن طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولاً ، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك ، قال : وما هو؟ قالوا : نكتب إلى عرب إفريقية ، ونبدل لهم إذا وصلوا إلينا شرط أموالنا ، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله ، فقال لهم : إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية ، ويتركوا الإفرنج ويبدأوا بنا ، والمرابطون أصلح منهم ، وأقرب إلينا ، فقالوا له : فكتاب أمير المسلمين ، واسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند . فبينما هم في ذلك يترامضون إذ قدم عليهم المعتمد بن عبّاد

١ الكامل ١٠ : ١٥١ وقد أورده ابن خلكان أيضاً ٤ : ١١٩ .

٢ في ابن الأثير : عبد الله ؛ راجع الصلة : ٢٩٣ .



قرطبة ، فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه ، فقال له ابن عباد : أنت رسولي إليه في ذلك ، فامتنع ، وإنما أراد أن يبريء نفسه من ذلك ، فألح عليه المعتمد ، فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فوجده بسبته ، وأبلغه الرسالة وأعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ، ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس ، وأرسل إلى مراکش في طلب مَنْ بقي من العساكر ، فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً ، فلما تكاملت عنده عبر البحر ، واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية ، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً ، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير ، وقصدته المطوّعة من سائر بلاد الأندلس ، ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره ، وحشد جنوده ، وسار من طُلَيْطَلَة ، وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يُغَلِّظُ له في القول ، ويصف ما معه من التّوة والعُدُد والعَدَد ، وبالغ في ذلك ، فلما وصله وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر ابن التصيرة أن يجيبه ، وكان كاتباً مفلحاً ، فكتب وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال : هذا كتاب طويل ، أحضر كتاب الأذفونش وكتب في ظهره : « الذي يكون ستره » وأرسله إليه ، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له ، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به .

وذكر ابن خلكان<sup>١</sup> أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبّر منها ما أغصّ الجزيرة ، وارتفع رُغَاؤُهَا إلى عنان السماء ، ولم يكن أهلُ الجزيرة رأوا جملاً قطُّ ولا خيلهم ، فصارت الخيل تجمَحُ من رؤية الجمال ومن رُغَائِهَا ، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب ، فكان يحدّق بها عسكره ، ويحضرها للحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمَحُ منها ، وقدّم يوسف بين يديه كتاباً للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب ، كما هي السنّة ، ومن جملة ما في الكتاب : بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن

١. وفيات الأعيان ٦ : ١١٥ .

تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك ، وسرى عاقبة دعائك ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ (غافر : ٥٠) انتهى بمعناه ، وأكثره بلفظه .

ولترجع إلى كلام صاحب « الروض المعطار »<sup>١</sup> فإنه أقعد بتاريخ الأندلس ، إذ هو منهم ، وصاحب البيت أدري بالذي فيه<sup>٢</sup> ، قال رحمه الله تعالى : فلما عبر يوسف وجميع جيوشه إلى الجزيرة الخضراء انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات ، جيشاً بعد جيش ، وأميراً بعد أمير ، وقبيلاً بعد قبيل ، وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف ، وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه ، وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية ، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه ، فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم ، وركضوا نحوه ، فبرز إليه يوسف وحده ، والتقى منفردين ، وتصافحا وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص ، وشكراً نِعَمَ الله تعالى ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشراً أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه ، مقرباً إليه ، وافترقا ، فعاد يوسف لمحلته ، وابن عباد إلى جهته ، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين ، وباتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع ، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ، ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم ، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا مَنْ بادر أو أعان وخرج أو أخرج ، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف ، كل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا<sup>٣</sup> . وكان الأذفونش لما تحقق الحركة والحرب استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما

١ الروض : ٨٧ .

٢ بالذي فيه : سقطت من ق .

٣ في الأصول : وكابروا .

وراءها ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجية ما لا يحصى عدده ، وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع ، وبعث الأذفونش إلى ابن عباد : إن صاحبكم يوسف قد تغنى من بلاده ، وخاض البحور ، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ، ولا أكلفكم تعباً ، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم ، وقال لخاصته وأهل مشورته : إني رأيت أنني إن مكنتهم من الدخول إلى بلادي ، فناجزوني فيها وبين جدُّرها ، وربما كانت الدائرة عليّ ، يستحكمون البلاد ، ويحصدون من فيها غداةً واحدةً ، ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم ، فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلاّ بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي ، وجبر لمكاسري ، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون فيّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها ، ثمّ برز بالمختار من جنوده ، وأنجاد جموعه على باب دربه ، وترك بقية جموعه خلفه ، وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم : بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : المختارون أربعون ألف دارع ، ولكل واحد أتباع . وأما النصراني فيعجبون ممّن يزعم ذلك ، ويرون أنهم أكثر من ذلك كله . واتفق الكل أن عدد المسلمين أقلّ من الكفرة ، ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكبٌ فيلٍ يضرب نقيرة طبل ، فهالته الرؤيا ، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد ، فدسّ يهودياً عمّن يعلم تأويلها من المسلمين ، فدُلّ على معبّر ، فقصّها عليه ، ونسبها لنفسه ، فقال له المعبّر : كذبت ، ما هذه الرؤيا لك ، ولا أعبرها لك إلاّ إن صدقتني بصاحب الرؤيا ، فقال له : اكمّ عليّ ، الرؤيا للأذفونش ، فقال المعبّر : صدقت ولا يراها غيره ، والرؤيا تدلّ على بلاء عظيم ، ومصيبة فادحة فيه وفي عسكره ، وتفسيرها قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (الفيل : ١) وأما ضربه النقيرة فتأويلها ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ (المدثر : ٨ ، ٩) . فانصرف اليهودي وذكر للأذفونش

ما وافق خاطره .

ثم خرج الأذفونش ووقف على الدروب ، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية من بلاد الأندلس ، وتقدم السلطان يوسف فقصدته ، وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ، ورؤساء الأندلس ، وجعل ابنه عبد الله على مقدمته ، وسار وهو ينشد لنفسه متفائلاً مكماً البيت المشهور :

لا بدّ من فرجٍ قريبٍ      يأتيك بالعجبِ العجيبِ  
غزوّ علكِ مباركٌ      سيعود بالفتحِ القريبِ  
للهِ سعديك إنّه      نكس على دين الصليبِ  
لا بدّ من يومٍ يكو      ن له أخذاً يوم القليبِ

ووافت الجيوش كلها بطليوس ، فأنأخوا بظاهاها ، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فلقبهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود ، وجاءهم الخبر بشخص الأذفونش ، ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكاييد الأذفونش ، إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل : إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلة ، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات ، وقد تقدم كتاب السلطان يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى إحدى الثلاث المأمور بها شرعاً ، فامتلاً الكافر غيظاً ، وعتا وطنى ، وراجعه بما يدل على شقائه ، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت ، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما ، وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ ، وحصّوهم على الصبر والثبات ، وحذروهم من الفشل والفرار ،

١ يوم القليب يعني معركة بدر .

٢ ق : ونصبوا .

وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافقتهم ، فكعّ الأذفونش ، ورجع إلى أعمال المكر والخديعة ، فعاد الناس إلى محلاتهم ، وباتوا ليلتهم ، ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول : غداً يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، والأحد عيدنا ، فليكن لقاءنا بينهما ، وهو يوم السبت ، فعرف المعتمدُ بذلك السلطان يوسف ، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة ، وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة ، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كلَّ النهار ، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس . وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي - وكان في محلة ابن عباد - فرحاً مسروراً يقول : إنه رأى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة ، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب ، وانتهى ذلك إلى ابن عباد ، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى .

ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ، ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين بتحريك الأذفونش ، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول : استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه : ابن عباد مسعر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة ، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر ابن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش ، ويستحث نصرته ، فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين ، فعرفه بجليّة الأمر ، فقال له : قل له إني سأقرب منه إن شاء الله تعالى ، وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي

بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيُضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشتغلاً  
مع ابن عباد .

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد ، فلم يصله إلا وقد غشيتة جنود الطاغية ،  
فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ، ومال الأذفونش عليه بجموعه ، وأحاطوا  
به من كل جهة ، فهاجت الحرب ، وحمي الوطيس ، واستحرق القتلى في أصحاب  
ابن عباد ، وصبر ابن عباد صبراً لم يُعهد مثله لأحد ، واستبطن السلطان يوسف  
وهو يلاحظ طريقه ، وعضته الحرب ، واشتد عليه وعلى مَنْ معه البلاء ، وأبطأ  
عليه الصحراويون وساءت الظنون ، وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم ابنة  
عبد الله ، وأثنى ابن عباد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى  
وصلت إلى صدغه وجرحت يمين يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته  
ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قُدّم له آخر ، وهو يقاسي حياض الموت ،  
ويضرب يميناً وشمالاً ، وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مُغرماً به تركه  
في إشبيلية عليلاً ، وكنيته أبو هاشم ، فقال :

أبا هاشم هَسَمْتَنِي الشَّفَارُ      فَلَهِ صَبْرِي لِذَلِكَ الْأَوَارِ  
ذَكَرْتَ شُخَيْصِكَ تَحْتَ الْعِجَاجِ      فَلَمَّ يَثْنِي ذَكَرَهُ لِلْفِرَارِ

ثمّ كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة ، وكان  
بطلاً شجاعاً شهماً ، فنُقِسَ بمجيئه عن ابن عباد ، ثمّ أقبل يوسف بعد ذلك ،  
وطبوله تصعد أصواتها إلى الجو ، فلما أبصره الأذفونش وجّه حملته إليه ،  
وقصده بمعظم جنوده ، فبادر إليهم السلطان يوسف ، وصدّمهم بجمعه ، فردّهم  
إلى مركزهم ، وانتظم به شملُ ابن عباد ، واستنشق ريح الظفر ، وتباشر بالنصر ،  
ثمّ صدقوا جميعاً الحملة ، فترزلت الأرض بجوافر خيولهم ، وأظلم النهار  
بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل في الدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ،  
ثمّ تراجع ابن عباد إلى يوسف ، وحمل معه حملة جاء معها النصر ، وتراجع

المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفتيين ، وصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ، ومرّ هارباً منهزماً وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقيت يجمع بها بقية عمره .

وعلى سيقاب ابن خلكان<sup>١</sup> أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء ، وكان الموعد في المناجزة في يوم السبت ، فغدر الأذفونش ومكر ، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد ، والروم في أثرها ، والناس على طمأنينة ، فبادر ابن عباد للركوب ، وبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها ، ووقع البهت ، ورجفت الأرض ، وصار الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة ، ودهمتهم خيل العدو ، فأحاطت بابن عباد ، وحطمت ما تعرض لها ، وتركت الأرض حصيداً خلفها ، وجرح ابن عباد جرحاً أشواه<sup>٢</sup> ، وفر رؤساء الأندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها ، وظنوا أنه وهي لا يُرَقَع ، ونازلة لا تُدفع ، وظنّ الأذفونش أن السلطان يوسف في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين ، فركب أمير المسلمين ، وأحدق به أنجاد<sup>٣</sup> خيله ورجله من صنهاجة رؤساء القبائل ، وقصدوا محلة الأذفونش فاقتحموها ودخلوها ، وفتكروا فيها ، وقتلوا ، وضربت الطبول ، وزعقت البوقات ، فاهتزت الأرض ، وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجع الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها ، فصدموا أمير المسلمين ، فأفرج<sup>٤</sup> لهم عنها ، ثم كر عليهم فأخرجهم منها ، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشّمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ،

١ انظر ابن خلكان ٦ : ١١٦ وهو ينقل عن كتاب « تذكير العاقل وتنبيه الغافل » لليبائي .

٢ في الأصول : أساءه .

٣ في الأصول : جبياد .

٤ في الأصول : فخرج .

ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الران<sup>١</sup> ، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها ، وأجحمت<sup>٢</sup> عن أقرانها ، وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه ، فأهوى ليضربه بالسيف ، فلصق به الأسود ، وقبض على عنانه ، وانتضى خنجرأ كان متمنطقاً به ، فأثبتته في فخذيه ، فهتك حلق درعه ، ونفذ من فخذيه مع بداد سرجه ، وكان وقت الزوال ، وهبت ريح النصر ، فأنزل الله سكينته على المسلمين ، ونصّر دينه القويم ، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه ، فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ، إلى أن لحقوا ربوة لجأوا إليها واعتصموا بها ، وأحدقت بهم الخيل ، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة ، وأفلتوا بعدما تشبث<sup>٣</sup> بهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك ، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين ، فاجتمع من ذلك تل عظيم ؛ انتهى ، وبعضه بالمعنى .

رَجَعُ إِلَى كَلَامِ صَاحِبِ «الرَّوَضِ الْمُعْطَارِ» قَالَ ٤ :

ولجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلوم ، وأباد القتل<sup>٤</sup> والأسر من عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون من رؤوسهم ماذن<sup>٥</sup> يؤذنون عليها ، والمخذول ينظر إلى موضع الوقعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نكالا<sup>٥</sup> محيطاً به وبأصحابه ، وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهناه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن

١ في الأصول : الزان .

٢ ق ص : وأجحمت ، ابن خلكان : وأجحمت .

٣ ابن خلكان : نشبت .

٤ الروض : ٩٣ .

٥ الروض : صوامع .



بلائه وجميل صبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهمزاهم عنه ، فقال له : هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك .

وكتب ابن عبّاد إلى ابنه بإشيلية كتاباً مضمونه : كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب ، وقد أعز الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ، وهزم الكفرة والمشركين ، وأذاقهم العذاب الأليم ، والخطب الجسيم ، فالحمد لله على ما يسره وسنّاه من هذه المسرة العظيمة ، والنعمة الجسيمة ، في تشيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره ، أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم المليم ، بعد إتيان النهب على محلاته ، واستئصال القتل في جميع أبطاله وحّماته ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فله الحمد على جميل صنعه ، ولم يصبني والحمد لله إلاّ جراحات يسيرة آلت لكنها فرجت بعد ذلك ، فله الحمد والمنة ، والسلام . واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة ، وقاضي مراکش أبي مروان عبد الملك المصمودي ، وغيرهما ، رحمهم الله تعالى .

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما كان فيه موضع قدم ، إلاّ على ميت أو دم ، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ، حتى جُمعت الغنائم ، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف ، فعفّ عنها ، وآثر بها ملوك الأندلس ، وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم ، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه ، وأحبوه وشكروا له ذلك . ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ولم يسمع إلاّ نواح الشكلى عليهم ، اهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غمّاً وهمّاً ، وراح إلى أمه الهاوية ، ولم يخلف إلاّ بنتاً واحدة جعل الأمر إليها ، فتحصنت بطليطلة .

ورحل المعتمد إلى إشيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين ، فأقام السلطان

يوسف بن تاشفين بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام ، ووردت عليه من المغرب أخبار  
تقتضي العزم فسافر وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة ، فحلف ابن تاشفين وعزم  
عليه في الرجوع ، وكانت جراحاته تورمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله إلى  
أن وصل البحر ، وعبر إلى المغرب .

ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس ، وهنئ بالفتح ، وقرأت القراء ،  
وقام على رأسه الشعراء ، فأنشده ، قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك  
اليوم ، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ القارئ ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ  
فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ (التوبة : ٤٠) فقلت : بُعداً لي ولشعري ، والله ما أبت  
لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به .

ولما عزم السلطان<sup>١</sup> يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأمير سير بن أبي بكر  
أحد قواده المشاهير ، وترك معه جيشاً برسم غزو الفرنج ، فاستراح الأمير المذكور  
أياماً قلائل ، ودخل بلاد الأذفونش ، وأطلق الغارة ونهب وسبي ، وفتح الحصون  
المنيعه والمعقل الصعبة العويصة ، وتوغل في البلاد ، وحصل أموالاً وذخائر  
عظيمة ، ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما أخذه ، وأرسل للسلطان يوسف  
جميع ما حصله ، وكتب له يُعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو  
وملازمة الحرب والقتال في أضيح العيش وأنكده ، وملوك الأندلس في بلادهم  
وأهلهم في أرغد العيش وأطيبه ، وسأله مرسومه ، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة  
والرحيل إلى أرض العدو ، فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصرته وقاتله ، ولا  
تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور ، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد ، إلا بعد  
استيلائك على البلاد ، وكل بلد أخذته فول فيه أميراً من عساكرك ؛ فأول من  
ابتدأ به من ملوك الأندلس بنو هود ، وكانوا برؤطة — بضم الراء المهملة ، وبعدها  
واو ساكنة ، وطاء مهملة مفتوحة ، وبعدها هاء ساكنة ، وهي قلعة منيعة من

١ عاد إلى النقل عن ابن خلكان بإيجاز .

عاصمات الذرا ، وماؤها ينبع من أعلاها ، وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان — فحاصرها فلم يقدر عليها ، ورحل عنها ، وجند أجناداً على هيئة الفرنج وزيم ، وأمرهم أن يقصدوها ويغيروا عليها ، وكمن هو وأصحابه بقرب منها ، فلما رأهم أهل القلعة استضعفهم ، فترلوا إليهم ، ومعهم صاحب القلعة ، فخرج عليه سير المذكور ، وقبضه باليد ، وتسلم الحصن . ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس ، فأسلموا له البلاد ، ولحقوا ببر العدو . ثم نازل بني صُمداح بالمرية ، ولها قلعة حصينة ، فحاصروهم وضيق بهم ، ولما علم ابن صُمداح الغلبَ أسف ومات غيباً ، فأخذ القلعة واستولى على المرية وجميع أعمالها . ثم قصد بطليوس ، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأقفس المتقدم ذكره ، فحاصره وأخذه واستولى على جميع أعماله وماله ، ولم يبق له إلاّ المعتمد بن عباد ، فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل ، ويسأله مرسومه في ابن عباد ، فكتب إليه يأمره أنّه يعرض عليه النقلة لبر العدو بجميع الأهل والعشيرة ، فإن رضي ، وإلاّ فحاصره وخُذّه وأرسل به كسائر أصحابه ، فواجهه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف ، وسأله الجواب ، فلم يجب بنفي ولا إثبات ، ثم إنّه نازل إشبيلية وحاصره بها وألح عليه فأقام الحصار شهراً ، ودخل البلد قهراً ، واستخرجه من قصره ، فحُمل وجميع أهله وولده إلى العدو فأنزل بأغمات ، وأقام بها إلى أن مات ، رحمه الله تعالى وعفا عنه .

وأما ابن الأثير ففي كلامه تقديم وتأخير وبعض خلاف لما مر .

وأخبار المعتمد بن عباد . وما رآه من الملك والعز على كل حاضر وباد ، وما قاساه في الأسر من الضيق والعسر وسوء العيش أمر عجيب ، يتعظ به العاقل الأريب ، وأما ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم في حالي يسره وعُسره ، وملكه وأسره . وطيه ونشره ، وتجهّمه وبشره ، فهو كثير ، وفي كتب التواريخ منه نظيم ونثر . وقد قدمنا منه في هذا الكتاب ما يبعث الاعتبار ويثير ، وخصوصاً في الباب السابع من هذا التأليف الذي هو عند المنصف أثير ، وفي المعتمد وأبيه

المعتضد يقول بعض الشعراء<sup>١</sup> :

مِنْ بَنِي مُنْدَرٍ وَذَاكَ انْتِسَابٌ زَادَ فِي فخرهم بَنُو عِبَادِ  
فِتْيَةٍ لَمْ تَلِدْ سِوَاهَا الْمَعَالِي وَالْمَعَالِي قَلِيلَةُ الْأَوْلَادِ

وقال ابن القطاع في كتابه « ملح الملح »<sup>٢</sup> في حق المعتمد : إنه أندى ملوك  
الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثِماداً ، وأرفعهم عماداً ، ولذلك  
كانت حضرته ملقى الرجال<sup>٣</sup> ، وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء ،  
حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء ، وأفاضل الأدباء ، ما  
كان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه .

وقال ابن بسام في « الذخيرة »<sup>٤</sup> : للمعتمد شعر ، كما انشق الكمامُ عن  
الزَّهْر ، لو صار مثله ممَّن جعل الشعر صناعة ، واتخذَه بضاعة ، لكان رائقاً  
معجباً ، ونادراً مستغرباً ، [ فمن ذلك قوله ]<sup>٥</sup> :

أكثرت هجرك غير أنك ربِّما عطفتك أحياناً عليّ أمورُ  
فكأنَّما زمن التهاجر بيننا ليلٌ ، وساعات الوصال بُدورُ

قال : وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من أبيات :

أسفَرَ ضوء الصبح عن وجهه فقام ذاك الخال فيه بِلالٍ  
كأنَّما الخال على خدّه ساعات هجر في زمان الوصال

١ ابن خلكان ٤ : ١١٢ .

٢ نقل العمري في المسالك قطعة موجزة من هذا الكتاب ؛ وهذا النص قد نقله المقرئ عن ابن خلكان

٤ : ١١٥ .

٣ ق ص : الرجال .

٤ لا يزال المقرئ يتابع نص ابن خلكان ص : ١١٥ .

٥ زيادة من ابن خلكان .

وعزم على إرسال حَظَاياه من قرظبة إلى إشبيلية فخرج معهم يشيعهن  
فسايرهنّ من أول الليل إلى الصبح ، فودعهن ورجع ، وأشدّ أبياتاً منها :

سايرتهم والليل عقَدَ ثوبه حتى تبدّى للنواظر معلما  
فوقفت ثمّ مودّعاً وتسلّمتُ مني يد الإصباح تلك الأنجما

وهذا المعنى في نهاية الحسن ، ثم ذكر من كلامه جملة .

### عَوْد وانعطاف :

ولما جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ناحية غرناطة<sup>١</sup> - بعدما  
حصر بعض حصون الفرنج ، فلم يقدر عليه - خرج إلى لقائه صاحبُ غرناطة عبد  
الله بن بلكين ، فسلم عليه ، ثم عاد إلى بلده ليخرج له التقادم ، فغدر به ودخل  
البلد ، وأخرج عبد الله ، ودخل قصره فوجد فيه من الذخائر والأموال ما لا يُحَد  
ولا يحصى ، ثم رجع إلى مراکش وقد أعجبه حسنُ بلاد الأندلس وبهجتها ،  
وما بها من المباني والبساتين والمطاعم وسائر الأصناف التي لا توجد في بلاد  
العدوة ، إذ هي بلاد بربر وأجلاف عربان ، فجعل خواصُ يوسف يعظمون  
عنده بلاد الأندلس ويمحسون له أخذها ، ويؤغرون قلبه على المعتمد بأشياء  
نقلوها عنه ، فتغير على المعتمد وقصد مشاركة الأندلس .

وحكى ابن خلدون أن علماء الأندلس أفتوا ابن تاشفين بجواز خلع المعتمد  
وغيره من ملوك الطوائف ، وبقائلهم إن امتنعوا ، فجهز يوسفُ العساكر إلى  
الأندلس ، وحاصر سيرُ بن أبي بكر أحدُ عظماء دولة يوسف إشبيليةَ وبها  
المعتمد ، فكان من دفاعه وشدة ثباته ما هو معلوم ، ثم أخذ أسيراً ، وصار طرفُ  
الملك بعده حسيراً .

١ لم يكن هذا في الجواز الأول ليوسف .

وفي وصف ذلك يقول صاحب القلائد بعد كلام<sup>١</sup> : ثم جُمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم المِصر<sup>٢</sup> ، والناسُ قد حشروا<sup>٣</sup> بصفتي الوادي ، ليكون بدموع كالفِجَواتِ ، فساروا والنوح يحلّوهم ، والبُوحُ باللوعة لا يعدوهم ؛ انتهى .

ولما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين<sup>٤</sup> من أمر غزوة الزلاّقة المتقدم ذكرها ورجع تكرم له ابن عباد ، وسأله أن يتزل عنده ، فعرّج إلى بلاده إذ أجابه إلى ما طلب ، فلما انتهى ابن تاشفين إلى إشبيلية مدينة المعتمد — وهي من أحسن المدن وأجلّها منظراً — أمعن يوسف النظر فيها وفي محلها ، وهي على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه ، وفي غربها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلّها تين وعنب وزيتون ، وهذا هو المسمى بشرف إشبيلية ، وتتمار بلاد المغرب كلّها بهذه الأصناف منه ، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتمد في غاية الحسن والبهاء ، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من الطعام والمشروب والملبوس والفروش وغير ذلك ، فأنزل المعتمدُ يوسفَ بن تاشفين في أحدها ، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له ، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له يبنهونه على حسن تلك الحال وتأمّلها ، وما هي عليه من النعمة والإتراف ، ويغرّونه بانحاذ مثلها ، ويقولون له : إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة ، كما هو المعتمد وأصحابه ، وكان ابن تاشفين داهية<sup>٥</sup> عاقلاً مقتصداً

١ القلائد : ٢٣ .

٢ القلائد : المِصر .

٣ ق : حشدوا .

٤ عاد لمتابعة ابن خلّكان ٦ : ١١٨ وما بعدها .

٥ داهية : سقطت من ق .

في أموره ، غير متناول ولا مبذر ، غير سالك نهج الترف والتأنق في اللذة  
والنعيم ، إذ ذهب صدْرُ عمره في بلاده بالصحراء في شَطَف العيش ، فأنكر  
على مَنْ أغراه بذلك الإسراف ، وقال له : الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل  
— يعني المعتمد — أنه مُضَيِّع لما في يده من الملك ، لأن هذه الأموال الكثيرة  
التي تُصرف في هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر  
منهم على وجه العدل أبداً ، فأخذُه بالظلم وإخراجه في هذه الترهات من  
أفحش استهتار ، ومَنْ كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو  
الأجوفين متى تستجد<sup>١</sup> همته في ضبط بلاده وحفظها ، وصون رعيته والتوقير  
لمصالحها ؟ ولعمري لقد صدق في كل ذلك .

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته : هل تختلف  
فتنقص عمّا عليه في بعض الأوقات ؟ فقبل له : بل كل زمانه على هذا ، فقال :  
أفكل أصحابه وأنصاره على علوّه ومُنْجِدِيهِ على الملك ينال حظاً من ذلك ؟  
فقالوا : لا ، قال : فكيف ترون رضاهم عنه ؟ فقالوا : لا رضى لهم عنه ،  
فأطرق وسكت ، وأقام عند المعتمد على تلك الحال أياماً .

وفي أثنائها<sup>٢</sup> استأذن رجلٌ على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رتّة ، وكان من  
أهل البصائر ، فلما مثلَ بين يديه قال : أصلحك الله أيّها السلطان ؛ وإن من  
أوجب الواجبات شكر النعمة ، وإن من شكر النعمة إهداء النصائح ، وإنّي رجل  
من رعيّتك حالي في دولتك إلى الاختلال ، أقربُ منها إلى الاعتدال ، ولكنني مع  
ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيّته ، فمن ذلك خبرٌ وقع في  
أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدلُّ على أنهم يرون  
أنفسهم ومملِكهم أحقَّ بهذه النعمة منك ، وقد رأيتُ رأياً ، فإن آثرت الإصغاء

١ في الأصول : تستجد ؛ وفي دوزي : يستجد همة .

٢ ابن خلكان : وفي بعض تلك الأيام .

إليه قتلته ، فقال المعتمد له : قله ، فقال له : رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك مستأسد على الملوك ، قد حطم على زناته ببر العُدوة ، وأخذ الملك من أيديهم ، ولم يُبَقِّ على واحد منهم ، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع في ملكك ، بل في ملك جزيرة الأندلس كلها ، لما قد عاينه من هتاءة<sup>١</sup> عيشك ، وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس<sup>٢</sup> ، وإن له من الولد والأقارب وغيرهم من يودُّ له الحلول بما أنت فيه من خصب الجنب ، وقد أردي الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم ، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه ، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مِجَنٍّ ، وبعد فإنه إن فات الأمر في الأذفونش فلا يفتك الخزم فيما هو ممكن اليوم ، فقال له المعتمد : وما هو الخزم اليوم ؟ فقال : أن تجمع أمرك على قبْض ضيفك هذا ، واعتقاله في قصرك ، وتجزم أنك لا تُطْلِقُه حتى يأمر كل مَنْ بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء ، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه ، ثم تنفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه له ، ثم بعد ذلك تَسْتَحْلِفُه بأغلظ الأيمان ألاَّ يضمّر في نفسه عَوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه ، وتأخذ منه على ذلك رهائن فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء ، فنَفْسُه أعز عليه من جميع ما يُلْتَمَس منه ، فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلاّ له ، وتكون قد استرحت منه بعدما استرحت من الأذفونش ، وتقيم في موضعك على خير حال ، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة ويتسع ملكك ، وينسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزْم وتهابك الملوك ، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة مَنْ عاملته هذه المعاملة ، واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله . فلما سمع المعتمد كلام

١ ابن خلكان : بلهنية .

٢ في الأصول : وإني لمتخيل في مثل ذلك لسائر . . . إلخ .



الرجل استصوبه ، وجعل يفكر في انتهاز الفرصة .  
 وكان للمعتمد نُدماء قد انهمكوا معه في اللذات ، فقال أحدهم لهذا الرجل  
 الناصح : ما كان المعتمد على الله - وهو إمام أهل المكرمات - ممن يعامل  
 بالحَيْف ، ويغدر بالضيّف ، فقال الرجل : إنّما الغدر أخذ الحق من يد  
 صاحبه ، لا دَفَع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به ، فقال ذلك النديم :  
 ضيّم مع وفاء ، خيرٌ من حَزَم مع جفاء . ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر  
 وتلافاه ، فشكر له المعتمد ووصله بصلة . واتصل هذا الخبر بيوسف فأصبح  
 غادياً ، فقدّم له المعتمد الهدايا السنية والتُّحف الفاخرة ، فقبلها ثم رحل .  
 انتهى خبر وقعة الزلاّقة وما يتبعه ملخصاً من كتب التاريخ .

ولما انقرض بالأندلس مُلك ملوك الطوائف بني عبّاد وبني ذي النون  
 وبني الأفضس وبني صُمادح وغيرهم انتظمت في سلك اللّمْتُونيين ، وكانت  
 لهم فيها وقعات بالأعداء مشهورة في كتب التواريخ .

#### [ دخول الأندلس في طاعة الموحدين ]

ولما مات يوسف بن تاشفين سنة خمس مائة قام بالملك بعده ابنه أمير المسلمين  
 علي بن يوسف ، وسلك سنن أبيه ، وإن قَصَرَ عنه في بعض الأمور ، ودفع العدو  
 عن الأندلس مدة ، إلى أن قبض الله تعالى للثورة عليه محمد بن تُوْمَرْت الملقب  
 بالمهّدي الذي أسّس دولة الموحدين ، فلم يزل يسعى في هدْم بنيان لمتونة إلى  
 أن مات ولم يملك حضرة سلطنتهم مراکش ، ولكنه ملك كثيراً من البلاد ،  
 فاستخلف عبد المؤمن بن علي ، فكان من استيلائه على مملكة اللمتونيين ما هو  
 معروف ، ثم جاز إلى الأندلس وملك كثيراً منها ، ثم أخرج الإفرنج من مهدية  
 إفريقية ، وملك بلاد إفريقية وضخم ملكه ، وتسمّى بأمر المسلمين .

[ عبد المؤمن بن علي ]

ولما كانت سنة ٥٤٥ هـ سار الأذفونش صاحب طُلَيْطَلَة وبلاد الجلالقة إلى قَرْطَبَة ومعه أربعون ألف فارس فحاصرها ، وكان أهلها في غلاء شديد ، فبلغ الخبر عبد المؤمن ، فجهز إليهم جيشاً يحتوي على اثني عشر ألف فارس ، فلما أشرفوا على الأذفونش رحل عنها ، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب ، فسلمها إلى صاحب جيش عبد المؤمن يحيى بن ميمون فبات فيها ، فلما أصبح رأى الفرنج عادوا إلى مكانهم ، ونزلوا في المكان الذي كانوا فيه ، فلما عين ذلك رتب هنالك ناساً ، وعاد إلى عبد المؤمن ، ثم رحل الفرنج إلى ديارهم .

وفي السنة بعدها دخل جيش عبد المؤمن إلى الأندلس في عشرين ألفاً عليهم الهنتاتي ، فصار إليه صاحب غرناطة ميمون وابن هُمُشْك وغيرهما ، فدخلوا تحت طاعة الموحدين ، وحرصوا على قصد ابن مرَدْنِيش ملك شرق الأندلس ، وبلغ ذلك ابن مردنيس ، فخاف وأرسل إلى صاحب برشلونة من الإفرنج يستنجده ، فتجهز إليه في عشرة آلاف من الإفرنج عليهم فارس ، وسار صاحب جيش عبد المؤمن إلى أن قارب ابن مردنيس ، فبلغه أمر البرشلوني الإفرنجي فرجع ، ونازل مدينة المريّة وهي بأيدي الروم فحاصرها ، فاشتد الغلاء في عسكره فرجع إلى إشبيلية فأقام فيها ، وسار عبد المؤمن إلى سبتة فجهز الأساطيل وجمع العساكر .

ثم سار عبد المؤمن سنة ٥٤٧ هـ إلى المهديّة فملكها ، وملك إفريقية ، وضخم ملكه كما قدمناه .

[ يوسف بن عبد المؤمن ]

ولما مات بويغ بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن ، ولما تمهدت له الأمور ،

١ انظر المعجب : ٢٩٨ حيث جعل سير عبد المؤمن للمهدية سنة ٥٤٣ .

واستقرت قواعد ملكه ، دخل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته<sup>١</sup> وتفقد أحوالها ، وكان ذلك سنة ست وستين وخمسمائة ، وفي صحبته مائة ألف فارس من الموحدین والعرب ، فنزل بحضرة إشبيلية ، وخافه ملك شرق الأندلس - مرسية وما انضاف إليها - الأمير الشهير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مرديش ، وحمل على قلب ابن مردنيش ، فمرض مرضاً شديداً ومات ، وقيل : إنه سُم ، ولما مات جاء أولاده وأهله إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو بإشبيلية ، فدخلوا تحت حكمه وسلّموا لأحكامه البلاد ، فصاهرهم وأحسن إليهم وأصبحوا عنده في أعز مكان ، ثم شرع في استرجاع البلاد التي استولى عليها الإفرنج ، فاتسعت مملكته بالأندلس ، وصارت سراًياه تغير إلى باب طليطلة ، وقيل : إنه حاصرها ، فاجتمع الفرنج كافة عليه ، واشتد الغلاء في عسكره ، فرجع عنها إلى مراکش حضرة ملكه ، ثم ذهب إلى إفريقية فمهدّها ، ثم رجع إلى حضرتة مراکش ، ثم جاز البحر إلى الأندلس سنة ثمانين وخمسمائة ومعه جمع كثيف ، وقصد غربي بلادها ، فحاصر مدينة شنترين ، وهي من أعظم بلاد العدو ، وبقي محاصراً لها شهراً ، فأصابه المرض فمات في السنة المذكورة ، وحُمل في تابوت إلى إشبيلية ، وقيل : أصابه سهم من قبيل الإفرنج ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الحال .

وفي ابنة السيد أبي إسحاق يقول مطرف التجيبي رحمه الله تعالى :

سعد كما شاء العُلا والفقارُ    تصرّف الليل به والنهارُ  
 ما دانت الأرض لكمّ عَنوةً    وإتما دانت لأمر كُبارُ  
 مهدّموها ففصا عيشها    واتصل الأمنُ<sup>٢</sup> ، فنعم القرارُ

١ تفصيل هذه الأحداث في ابن عذاري ٣ : ٨٨ ( ط . المغرب ) .

٢ ق ص : الابن .

ومنها :

فالشاة لا يَخْشِيهَا ذَنْبُهَا وَإِنْ أَقَامَتْ مَعَهُ فِي وَجَارٍ

[ يعقوب المنصور ]

ولمّا مات يوسفُ قام بالأمر بعده ابنه الشهير أميرُ المؤمنين يعقوبُ المنصورُ ابن يوسف بن عبد المؤمن ، فقام بالأمر أحسن قيام ، ولمّا مات يوسف المذكور رثاه أديب الأندلس أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها ، وأولها :

جَلَّ الأسي فأسيلُ دَمَ الأَجْفَانِ ماء الشؤون لغير هذا الشانِ

ويعقوب المنصور هو الذي أظهر أبهه ملك الموحدين ، ورفع راية الجهاد ، ونصّب ميزان العدل ، وبسط الأحكام الشرعية ، وأظهر الدين وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأقام الحدود على القريب والبعيد ، وله في ذلك أخبار ، وفيه يقول الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر المشهور :

أزال حجابَه عني وعيني تراه من المهابة في حجابِ  
وقربني تفضُّله ولكن بعُدتُ مهابة عند اقترابي

وكرّث الفتوحات في أيامه ، وأولُ ما نظر فيه عند صيرورة الأمر إليه بلاد الأندلس ، فنظر في شأنها ورتب مصالحها ، وقرر المُقاتلين في مراكزهم ، ورجع إلى كرسي مملكته مراکش المحروسة . وفي سنة ٥٨٦ بلغه أن الإفرنج ملكوا مدينة شلبَ وهي من غرب الأندلس ، فتوجه إليها بنفسه وحاصرها وأخذها ، وأنفذ في الوقت جيشاً من الموحدين والعرب ، ففتح أربع مدُن ممّا بأيدي الإفرنج من البلاد التي كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة ، وخافه صاحبُ طليطلة ، وسأله الهدنة والصلح ، فهادنه خمسَ سنين ، وعاد إلى مراکش .

وأُشيد القائد أبو [ بكر بن ] عبد الله بن وزير الشَّشْبِي<sup>١</sup> وهو من أمراء  
 كتائب إشبيلية قصيدةً يحاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى في وقعة مع الفرنج  
 كان الشَّشْبِي المذكور مقدماً فيها :

ولما تلاقينا جرى الطَّعْنُ بَيْنَنَا      فمَنَّا ومنهم طائِحون عديدُ  
 وجال غرار الهند فينا وفيهمُ      فمِنَّا ومنهم قائمٌ وحَصِيدُ  
 فلا صَدْرَ إِلَّا فيه صدرٌ مُشَقَّفُ      وحول الوريد للحسام ورود  
 صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا      كلانا على حرِّ الجِلادِ<sup>٢</sup> جَلِيدُ  
 ولكن شددنا شَدَّةً فقتلدوا      ومن يتبلد لا يزال يَحِيدُ  
 فولتوا وللسَّمْرِ الطوال بهامهم      ركوع ولليض الرقاق سجود

رَجَعَ إلى أخبار المنصور بعد هُدنة الإفرنج :

ولما انقضت مدة الهدنة ، ولم يبق منها إلا القليل ، خرج طائفة من الإفرنج في  
 جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسعوا وعاثوا عَيْثاً فظيماً ، فأنتهى الخبر  
 إليه ، فتجهز لقصدهم في جيوش مؤفَّرة وعساكر مُكْتَبَّة ، واحتفل في ذلك ،  
 وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١ ، فعلم به الإفرنج ، فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي  
 بلادهم وأدانيها ، وأقبلوا نحوه ، وقيل : إنَّه لما أراد الجواز من مدينة سلا مرض  
 مرضاً شديداً ، ويئس منه أطباؤه ، فعاث الأذفونش في بلاد المسلمين بالأندلس ،  
 وانتَهز الفُرْصَةَ ، وتفرقت جيوش المسلمين بسبب مرض السلطان ، فأرسل

١ زدنا ما بين معقنين اعتماداً على ما سيورده المقرئ فيما بعد عند حديثه عن سقوط المرية ؛ وقد أورد  
 ابن الأبار نسبه على نحو آخر (الجلسة ٢ : ٢٧١) فقال أبو بكر محمد بن سيدراي بن عبد الوهاب  
 ابن وزير القيسي ، وأورد له الأبيات الدالية التي أوردها المقرئ ، وقال فيه : ولي قصر الفتح  
 المنسوب إلى أبي دانس عند استرجاعه من أيدي الروم في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وخمسائة ؛  
 وتوفي في صدر المائة السابعة بعد حضوره بموقعة العقاب .

٢ الجلسة : الطعان .

الأذفونش يتهدد ويتوعد ويرعد ويبسرق ، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس ، وخلاصة الأمر أن المنصور توجه بعد ذلك إلى لقاء النصارى ، وتزاحف الفريقان ، فكان المصافئ شمالي قرطبة على قرب قلعة رباح في يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١ ، فكانت بينهم وقعة عظيمة استشهد فيها جمع كبير من المسلمين .

وحكي أن يعقوب المنصور جعل مكانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبا يحيى ابن أبي حفص عم السلطان أبي زكريا الحفصي الذي ملك بعد ذلك إفريقية ، وخطب له ببعض الأندلس ، فقصد الإفرنج الأعلام ظناً أن السلطان تحتها ، فأثروا في المسلمين أثراً قبيحاً ، فلم يرعهم إلا والسلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كسر شوكتهم ، فهزهم شر هزيمة ، وهرب الأذفونش في طائفة يسيرة ، وهذه وقعة الأرك الشهيرة الذكر .

وحكي أن الذي حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفاً ، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد ، ولم يُسمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه ، وربما صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة . وقيل : إن فل الإفرنج هربوا إلى قلعة رباح فتحصنوا بها ، فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها ، وكانت قبل للمسلمين ، فأخذها العدو ، فردت في هذه المرة ، ثم حاصر طليطلة وقتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشن الغارات على أرجائها ، وأخذ من أعمالها حصوناً وقتل رجالها وسبى حريمها وخرب منازلها وهدم أسوارها وترك الإفرنج في أسوأ حال ، ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة ، ثم رجع إلى إشبيلية ، وأقام إلى سنة ٥٩٣ ، فعاد إلى بلاد الفرنج ، وفعل فيها الأفاعيل ، فلم يقدر العدو على لقائه ، وضاعت على الإفرنج الأرض بما رحبت ، فطلبوا الصلح فأجابهم إليه ، لما بلغه من ثورة الميرقي عليه بإفريقية مع قرأقوش مملوك بني أيوب سلاطين مصر والشام .

ثم توفي السلطان يعقوب سنة ٥٩٥ . وما يقال « إنّه ساح في الأرض

وتحلى عن الملك ووصل إلى الشام ، ودفن بالبقيع « لا أصل له ، وإن حكى ابن خلكان بعضه . وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم ، وقال : إن ذلك من هذيان العامة ، لوكوعهم بالسلطان المذكور .

### [ محمد الناصر ووقعة العقاب ]

وولي بعده ولده محمد الناصر المشؤوم على المسلمين ، وعلى جزيرة الأندلس بالخصوص ، فإنه جمع جمعاً شملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاها صاحب « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية »<sup>١</sup> ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش ، فصاف الإفرنج ، فكانت عليه وعلى المسلمين وقعة العقاب المشهورة التي خلا بسببها أكثر المغرب ، واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها ، ولم ينج من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً لم يبلغ الألف فيما قيل ، وهذه الواقعة هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعاً ، وما ذاك إلا لسوء التدبير ، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره ، فشق بعضهم ، ففسدت النيات ، فكان ذلك من بخت الإفرنج ، والله غالب على أمره ، وكانت وقعة العقاب هذه المشؤومة سنة ٦٠٩ ، ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة محمد .

### [ نهاية الموحدين ]

ولما مات الناصر سنة عشرين وستمائة ولي بعده ابنه يوسف المستنصر ، وكان مولعاً بالراحة ، فضعفت الدولة في أيامه ، وتوفي سنة ٦٢٠ .

١ الذخيرة السنية : ٤١ .

فتولى عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، فلم يحسن التدبير ، وكان إذ ذاك بالأندلس العادل بن المنصور ، فرأى أنه أحق بالأمر ، فاستولى على ما بقي في أيدي المسلمين من الأندلس بغير كلفة . ولما خلع عبد الواحد وخُتق بمراكش ثارت الإفرنج على العادل بالأندلس ، وتصافَّ معهم ، فانهزم ومنَّ معه من المسلمين هزيمة شنعاء ، فكانت الأندلس قرحاً على قرح ، فهرب العادل ، وركب البحر يروم مراكش ، وترك بإشبيلية أخاه أبا العلاء لإدريس ، ودخل العادل مراكش بعد خطوب ، ثم قبض عليه الموحدون ، وقدموا يحيى بن الناصر صغير السن غير مجرب للأمور ، فادعى حينئذ الخلافة أبو العلاء لإدريس بإشبيلية ، وبايعه أهل الأندلس ، ثم بايعه أهل مراكش وهو مقيم بالأندلس ، فثار على أبي العلاء بالأندلس الأمير المتوكل محمد بن يوسف الجُدّامي ، ودعا إلى بني العباس ، فمال الناس إليه ، ورجعوا عن أبي العلاء ، فخرج عن الأندلس - أعني أبا العلاء - وترك ما وراء البحر لابن هود . ولم يزل أبو العلاء يتحارب مع يحيى ابن الناصر إلى أن قتل يحيى ، وصفا الأمر لأبي العلاء بالمغرب ، دون الأندلس ، ثم مات سنة ٦٣٠ .

ويبيع ابنه الرشيد ، وبايعه بعض أهل الأندلس ، ثم توفي سنة ٦٤٠ .  
 وولي بعده أخوه السعيد ، وقُتل على حصن بينه وبين تلمسان سنة ٦٤٦ .  
 وولي بعده المرتضى عمر بن إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ، وفي سنة ٦٦٥ دخل عليه الواثق المعروف بأبي دبوس ففرّ ، ثم قبض وسيق إلى الواثق فقتله ، ثم قتل الواثق بنو مَرّين سنة ٦٦٨ ، وبه انقضت دولة بني عبد المؤمن ، وكانت من أعظم الدول الإسلامية ، فاستولى بنو مَرّين على المغرب .

[ ظهور ابن هود وابن الأحمر ]

وأما المتوكل بن هود فملك معظم الأندلس ، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته ، وقتلته غدرًا وزيره ابن الرميمي بالمرية ، واغتم الإفرنج الفرصة بافتراق



الكلمة ، فاستولوا على كثير مما بقي بأيدي المسلمين من البلاد والحصون .  
ثم آل الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر ، وخطب بعض أهل الأندلس لأبي  
زكريا الحفصي صاحب إفريقية ، وقد سبق الكلام على أكثر المذكور هنا ،  
وأعدناه لتناسق الحديث ، ولما في بعضه من زيادة الفائدة على البعض الآخر ،  
وذلك لا يخفى على المتأمل ، وقد بسطنا في الباب الثالث أحوال ابن هود وابن  
الأحمر وغيرهما ، رحم الله تعالى الجميع .

### [ الدولة المرينية ]

ثم استفحل ملك يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب وحضرة ملك فاس ،  
فانتصر به أهل الأندلس على الإفرنج الذين تكالبوا عليهم ، فاجتاز إلى الأندلس  
وهزم الإفرنج أشد هزيمة ، حتى قال بعضهم : ما نصر المسلمون من العقاب  
حتى دخل يعقوب المريني وقتك في بعض غزواته بملك من النصارى يقال له  
ذوننه ، ويقال : إنه قتل من جيشه أربعين ألفاً وهزمهم أشد هزيمة ، ثم تابعت  
غزواته بالأندلس وجوّازه للجهاد ، وكان له من بلاد الأندلس رندة والجزيرة  
الخضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك ، وأعز الله تعالى به الدين بعد تمرّد  
الفرنج المعتدين . ولما مات ولي بعده ابنه يوسف بن يعقوب ، ففرّ إليه الأذفونش  
ملك النصارى لائثاً به وقبّل يده ، ورهنّ عنده تاجه ، فأعانه على استرجاع  
ملكه .

ولم يزل ملوك بني مرّين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركوا منهم  
حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة ، فكانت لهم وقائع في العدو  
مذكورة ، ومواقف مشكورة ، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغيرناطة ،  
وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرّين يسمونه شيخ الغزاة .

ولما أفضى الملك إلى السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني ، وخلص له  
المغرب وبعض بلاد الأندلس أمر بإنشاء الأساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالأندلس ،

واهتم بذلك غاية الاهتمام ، ففضى الله تعالى أن استولى الإفرنج على كثير من تلك المراكب بعد أخذهم الجزيرة الخضراء ، وكان الإفرنج جمعوا جمعوا كثيراً برسم الاستيلاء على ما بقي للمسلمين بالأندلس ، فاستنفر أهل الأندلس السلطان أبا الحسن المذكور ، فجاء بنفسه إلى سبتة فُرْصَةَ المجاز ومحل أساطيل المسلمين ، فإذا بالإفرنج جاءوا بالسفن التي لا تُحصَى ومنعوه العبور وإغاثة أهل الأندلس حتى استولوا على الجزيرة الخضراء ، وأنكوه في مراكبه أعظم نكابة ، والله الأمر . وقد أفصح عن ذلك كتابٌ صدر من السلطان أبي الحسن المذكور إلى سلطان مصر والشام والحجاز الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحى الألفي ، رحم الله تعالى الجميع .

[رسالة من أبي الحسن المريني إلى الملك الصالح ٧٤٥ هـ]

وهذه نسخة الكتاب المذكور الذي خاطب به أمير المسلمين السلطان أبو الحسن المريني المذكور ملك المغرب رحمه الله تعالى السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الشهير الكبير الناصر محمد بن قلاوون ، ووصل إلى مصر في النصف - وقيل في العشر الأواخر - من شعبان المكرم سنة ٧٤٥ بعد البِسْملة والصلاة : من عند عبد الله أمير المسلمين ، المُجاهد في سبيل الله رب العالمين ، المنصور بفضل الله المتوكل عليه ، المعتمد في جميع أموره لديه ، سلطان البرين ، حامى العُدوتين ، مؤثر المِرابطة والمُثاغرة ، مؤازر حزب الإسلام حقّ المؤازرة ، ناصر الإسلام ، مُظاهر دين الملك العلام ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المُجاهد في سبيل ربّ العالمين ، فخر السلاطين ، حامى حوزة الدين ، ملك البرين ، إمام العُدوتين ، مهتد البلاد ، مبدّد شمل الأعداء ، مجتهد الجنود ، المنصور الرايات والبنود ، محط الرحال ، مبلغ الآمال ، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين ، المُجاهد في سبيل ربّ العالمين ، حَسَنَة الأيام ، حُسام الإسلام ، أبي الأملاك ، شجأ أهل العناد والإشراك ، مانع البلاد ، رافع علم الجهاد ،

مُدَوِّخ أَقْطَارِ الْكُفَّارِ ، مُصْرَخٍ مِنْ نَادَاهُ لِلانْتِصَارِ ، الْقَائِمِ لِلْإِعْلَاءِ دِينَ الْحَقِّ ،  
أَبِي يَوْسُفَ يَعْقُوبَ بْنَ عَبْدِ الْحَقِّ ، أَخْلَصَ اللَّهُ لَوَجْهِهِ جِهَادَهُ ، وَيَسَّرَ فِي قَهْرِهِ  
عُدَّةَ الدِّينِ مُرَادَهُ .

إِلَى مَحَلِّ وَلَدْنَا الَّذِي طَلَعَ فِي أَفْقِ الْعِلَاءِ بَدْرًا تَمَّ ، وَصَدَعَ بِأَنْوَاعِ الْفَخَارِ  
فَجَلًّا ظَلَامًا وَظُلْمًا ، وَجَمَعَ شَمْلَ الْمَمْلُوكَةِ النَّاصِرِيَّةِ فَأَعْلَى مِنْهَا عِلْمًا ، وَأَحْيَا  
لَهَا رَسْمًا ، حَائِطَ الْحَرَمِينَ ، الْقَائِمَ بِحِفْظِ الْقِبْلَتَيْنِ ، بَاسِطَ الْأَمَانِ ، قَابِضَ كَفِّ  
الْعُدُوِّ ، الْجَزِيلَ النَّوَالِ ، الْكَفِيلَ تَأْمِينَهُ بِحِيَاطَةِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ ، قَطْبَ الْمَجْدِ  
وَسِمَاكِهِ ، حَبِيبَ الْحَمْدِ وَمِلَاكِهِ ، السُّلْطَانَ الْجَلِيلِ ، الرَّفِيعَ الْأَصِيلِ ، الْحَافِلَ  
الْعَادِلَ ، الْفَاضِلَ الْكَامِلَ ، الشَّهِيرَ الْخَطِيرَ ، الْأَضْحَمَ الْأَفْحَمَ ، الْمُعَانَ الْمُؤَزَّرَ ،  
الْمُؤَيَّدَ الْمُظْفَرَ ، الْمَلِكَ الصَّالِحَ أَبُو الْوَلِيدِ إِسْمَاعِيلَ ، ابْنَ مَحَلِّ أَخِينَا الشَّهِيرِ عَلَاؤُهُ ،  
الْمُسْتَظِيرَ فِي الْآفَاقِ ثَنَاؤُهُ ، زَيْنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِ ، كَمَالَ عَيْنِ إِنْسَانِ الْمَجْدِ وَإِنْسَانَ  
عَيْنِ الْكِمَالِ ، وَارِثَ الدُّوَلِ ، النَّافِثَ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ فِي عَقُودِ أَهْلِ الْمَلَلِ وَالنُّحُلِ ،  
حَامِيَ الْقِبْلَتَيْنِ بَعْدَهُ وَحُسَامَهُ ، النَّزَامِيَّ فِي حِفْظِ الْحَرَمِينَ أَجْرًا اضْطِلَاعَهُ بِذَلِكَ  
وَقِيَامَهُ ، هَازِمَ أَحْزَابِ الْمُعَانِدِينَ وَجِيُوشِهَا ، هَادِمَ الْكِنَائِثِ وَالْبَيْعِ فِيهَا خَاوِيَةً  
عَلَى عُرُوشِهَا ، السُّلْطَانَ الْأَجَلَ ، الْهَمَامَ الْأَحْفَلَ ، الْأَفْحَمَ الْأَضْحَمَ ، الْفَاضِلَ  
الْعَادِلَ ، الشَّهِيرَ الْكَبِيرَ ، الرَّفِيعَ الْخَطِيرَ ، الْمَجَاهِدَ الْمُرَابِطَ ، الْمُتَسَطِّعَ عَدْلَهُ فِي  
الْجَائِثِ وَالْقَاسِطِ ، الْمُؤَيَّدَ الْمُظْفَرَ ، الْمُنْعَمَ الْمُقَدَّسَ الْمُطَهَّرَ ، زَيْنَ السُّلْطَانِينَ ، نَاصِرَ  
الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، أَبِي الْمَعَالِي مُحَمَّدَ ، ابْنَ الْمَلِكِ الْأَرْضِيِّ ، الْهَمَامَ الْأَمْضَى ، وَالِدَ  
السُّلْطَانِينَ الْأَخْيَارِ ، عَاقِدَ لَوَاءِ النَّصْرِ فِي قَهْرِ الْأَرْمَنِ وَالْفَرَنْجِ وَالتُّتَارِ ، وَمُحْيِيَّ  
رِسْمِ الْجِهَادِ ، مُعَلِّيَّ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ فِي الْبِلَادِ ، جَمَالَ الْأَيَّامِ ، ثَمَالَ الْأَعْلَامِ ،  
فَاتِحَ الْأَقْلَامِ ، صَالِحَ مَمْلُوكِ عَصْرِهِ الْمُتَقَادِمِ ، الْإِمَامَ الْمُؤَيَّدَ ، الْمَنْصُورَ الْمُسَدَّدَ ،  
قَسِيمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا تَقَلَّدَ ، الْمَلِكَ الْمَنْصُورَ سَيْفَ الدُّنْيَا وَالِدِينَ قَلَاوُونَ ، مَكْنَ  
اللَّهِ لَهُ تَمَكِينِ أَوْلِيَائِهِ ، وَنَمَى دَوْلَتَهُ الَّتِي أَطْلَعَهَا السُّعْدَ شَمْسًا فِي سَمَائِهِ ، وَأَحْسَنَ  
لِإِزَاعِهِ لِلشُّكْرِ أَنْ جَعَلَهُ وَارِثَ آبَائِهِ .

سلام كريم يفاوحُ زهر الربى مسراه ، وينافح نسيم الصبا مجراه ، يصحبه رضوان يدوم ما دامت ثقلُ الفلك حركاته ، ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله مالك الملك ، جاعل العاقبة للتقوى صدعاً باليقين ودفعاً للشك ، وخاذل من أسرَّ في النفاق النجوى فأصر على الدخن والإفك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محأ بأنوار الهدى ظلم الشرك ، ونبهه الذي ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السلك ، ودحا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك ، والرضى عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هداة فسلك في قلوبهم أجمل السلك ، وملكوا أعنة هواهم فلزموا من مَحَجَّة الصواب أنجح السلك ، وصابروا في جهاد الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهبُ يزيد خلوصاً على السبك ، والدعاء لأولياء الإسلام ، وحُماته الأعلام ، بنصرٍ لمضائه في العدا أعظم الفتك ، ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحفلُ بذلك الدرك ، فكتبناه إليكم - كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم - من حضرتنا بمدينة فاس المحروسة ، وصنعُ الله سبحانه يعرف مذاهب الألفاف ، ويكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ، ويصرف من أمره العظيم ، وقضائه المتلقى بالتسليم ، ما يتكوّن بين النون والكاف ، ومكانكم العتيد سلطانه ، وسلطانكم المجيد مكانه ، وولاؤكم الصحيح برهانه ، وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه . وإلى هذا زاد الله سلطانكم تمكيناً ، وأفاد مقامكم تحصيئاً وتحسيناً ، وسلك بكم من سنن من خلقتموه سيلاً مبيئاً ، فلا خفاء بما كانت عقده أيدي التقوى ، ومهدته الرسائل التي على الصفاء تُطوى ، بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدّسه ، وبقربه مع الأبرار في عليين آنسه ، من مواخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفتاح ، وحفظ عليها محكم الإخلاص معوذتها المحبة والنية الصالحة ، فانعقدت على التقوى والرضوان . واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازح الأبدان ، حتى استحكمت وُصلة الولاء ، والتأمت كلحمة النسب لحمة

الإخاء ، فما كان إلا وشيكاً من الزمان ، ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه  
 الخلان ، ورد وارد رفق المشارب ، وحقق قول « ومن يسأل الركبان عن  
 كل غائب »<sup>١</sup> ، أنبأ باستئثار الله تعالى بنفسه الزكية ، وإكثان درته السنية ، وانقلابه  
 إلى ما أعدّ له من المنازل الرضوانية ، بجليل ما وقر لفقده في الصدور ، وعظيم  
 ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور ، حناناً للإسلام بتلك الأقطار ، وإشفاقاً  
 من أن يعثور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتن عارضُ الإضرار ، ومساهمة  
 في مصاب الملك الكريم ، والولي الحميم ، ثم عميت الأخبار ، وطويت طي  
 السجل الآثار ، فلم نر مخبراً صدقاً ، ولا معلماً بمن استقر له ذلكم الملك حقاً .  
 وفي أثناء ذلك أحفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخُ أهل الأندلس وسلطانها ،  
 وتواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطانها ، ونحن أثناء ذلكم الشان ،  
 نستخبر الورد<sup>٢</sup> من تلكم البلدان ، عمّا أجلى عنه ليل الفتن بتلكم الأوطان ،  
 فبعد لأي وقعنا منها على الخير ، وجاءنا بوقاية حرّم الله بكم البشير ، وتعرفنا  
 أن الملك استقر منكم في نصابه ، وتداركه الله تعالى منكم بفتح الخير من أبوابه ،  
 فأطفأ بكم نار الفتنة وأخمدها ، وأبرأ من أدواء النفاق ما أعلّ البلاد وأفسدها ،  
 فقام سبيلُ الحج سابلًا ، وتعبّد طريقه لمن جاء قاصداً وقافلاً ، ولما احتفت  
 بهذا الخبر القرائن ، وتواتر بنقل الحاضر له والمعان ، أثار حفظ الاعتقاد البواعث ،  
 والود الصحيح تجربتهُ حقاً الموارث ، فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الأطوار ،  
 الجامعة بين الخبر والاستخبار ، الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والذثار ؛  
 ومثل ذلكم الملك رضوان الله عليه من تجلّ المصائب لفقدانه ، وتحل عرى  
 الاضطراب بموته ولات حين أوانه ، لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين ،  
 والأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ، ومثلكم من لا يخفُّ وقاره ، ولا يشفُّ عن  
 ظهور الجزع الحادث اضطباره ، ومن خلفكم فما مات ذكره ، ومن

١ تمامه : فلا بد أن يلقي بشيراً وناعياً .

٢ ق : نستجيز الورد .

قَمَمَ بِأَمْرِهِ فَمَا زَالَ بِلِ زَادَ فَخْرَهُ ، وَقَدْ طَالَتْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَيْشَةُ الرَّاضِيَةُ  
بِالْحَقْبِ ، وَطَابَ بَيْنَ مَسْبَدَاهُ وَمُحْتَضَرِهِ هَنِئِئاً بِمَا مِنَ الْأَجْرِ اِكْتَسَبَ ، وَصَارَ حَمِيداً  
إِلَى خَيْرِ الْمُنْقَلَبِ ، وَوَفَدَ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ عَلَى أَفْضَلِ مَا مَنَحَ مَوْقِئاً وَوَهَبَ ، فَقَدْ  
ارْتَضَاكُمْ اللَّهُ بَعْدَهُ لِحَيَاةِ أَرْضِهِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَحِمَايَةِ زُؤَارِ بَيْتِهِ مُقِيلَةً أَوْ مَعْرَسَةً .  
وَنَحْنُ بَعْدَ بَسْطِ هَذِهِ التَّعْزِيَةِ ، نَهْنِيكُمْ بِمَا حَوْلَكُمْ اللَّهُ أَجْمَلَ التَّهْنِيَةِ ، وَفِي ذَاتِ  
اللَّهِ الْإِيرَادِ وَالْإِصْدَارِ ، وَفِي مَرَضَاتِهِ سُبْحَانَهُ الْإِضْمَارِ وَالْإِظْهَارِ ، فَاسْتَقْبَلُوا  
دَوْلَةَ أَلْتَمَى الْعِزُّ عَلَيْهَا رِوَاقَهُ ، وَعَقَدَ الظُّهُورُ عَلَيْهَا نِطَاقَهُ ، وَأَعْطَاهَا أَمَانُ  
الزَّمَانِ عَقْدَهُ وَمِيثَاقَهُ ، وَنَحْنُ عَلَى مَا عَاهَدْنَا عَلَيْهِ الْمَلِكُ النَّاصِرُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ  
مِنْ عَهْدٍ مُوثِقَةٍ ، وَمَوَالَاةٍ مُحَقَّقَةٍ ، وَثَنَاءٍ كَثَامِهِ عَنْ أَذْكَى مِنَ الزَّهْرِ  
غَبَّ الْقَطْرِ مُفْتَقَّةً .

وَلَمْ يَغِبْ عَنْكُمْ مَا كَانَ مِنْ بَعْثِنَا الْمُصْحَفِينَ الْأَكْرَمِينَ الَّذِينَ خَطَّتَهُمَا مَنَّا الْيَمِينُ ،  
وَأَوْتِ بِهَا الرِّغْبَةُ مِنَ الْحَرَمِينَ الشَّرِيفِينَ إِلَى قَرَارِ مَسْكِينِ ، وَإِنَّهُ كَانَ لَوَالِدِكُمْ  
الْمَلِكُ النَّاصِرُ تَوْلَاهُ اللَّهُ بِرِضْوَانِهِ ، وَأَوْرَدَهُ مَوَارِدَ إِحْسَانِهِ ، فِي ذَلِكَ مِنَ الْفِعْلِ  
الْجَمِيلِ ، وَالصَّنْعِ الْجَلِيلِ ، مَا نَاسَبَ مَكَانَهُ الرَّفِيعِ ، وَشَاكَلَهُ فَضْلُهُ مِنَ الْبِرِّ الَّذِي  
لَا يُضْبِعُ ، حَتَّى طَبَّقَ فِعْلُهُ الْآفَاقَ ذِكْرًا ، وَطَوَّقَ أَعْنَاقَ الْوُرَادِ وَالْقُصَادِ بَرًّا ،  
وَكَانَ مِنْ أَجْمَلِ مَا بِهِ تَحَقَّقَتِي وَأَنْحَفَ ، وَأَعْظَمَ مَا بَعَّرَفَنِي إِلَى رِضَى الْمَلِكِ الْعَلَامِ  
فِي ذَلِكَ تَعَرَّفَ ، إِذْ ذَهَبَ لِلْمَتَوَجِّهِينَ إِذْ ذَاكَ فِي شِرَاءِ رِبَاعِ تَوْقَفُ عَلَى الْمُصْحَفِينَ ،  
وَرَسَمِ الْمَرَامِ الْمُبَارَكَةِ بِتَحْرِيرِ ذَلِكَ الْوَقْفِ مَعَ اخْتِلَافِ الْجَدِيدَيْنِ ، فَجَرَتْ  
أَحْوَالُ الْقِرَاءِ فِيهِمَا بِذَلِكَ الْخِرَاجِ الْمُسْتَفَادِ ، رَيْثَمَا يَصْلِحُهُمْ مِنْ خِرَاجِ مَا وَقَفَاهُ  
عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْبِلَادِ ، عَلَى مَا رَسَمَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ عِنَايَةٍ بِهِمْ مُتَّصِلَةٌ ، وَاحْتِرَامِ  
فِي تِلْكَ الْأَوْقَافِ فَوَائِدُهَا بِهَ مَتَوَفَّرَةٌ مُتَّصِلَةٌ ، وَقَدْ أَمَرْنَا مُؤَدِّيَ هَذَا لِكَمَالِكُمْ ،  
وَمَوْفِدَهُ عَلَى جَلَالِكُمْ ، كَاتِبِنَا الْأَسْنَى الْفَقِيهَ الْأَجَلَ ، الْأَحْطَى الْأَكْلَ ، أَبَا  
الْمَجْدِ ، ابْنَ كَاتِبِنَا الشَّيْخَ الْفَقِيهَ الْأَجَلَ الْحَاجَّ الْأَتَمِّيَّ ، الْأَرْضِيَّ الْأَفْضَلَ ، الْأَحْطَى  
الْأَكْلَ ، الْمَرْحُومَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ أَبِي مَدِينِ حَفِظَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَتْبَهُ ، وَيَسَّرَ فِي قِصْدِ

البيت الحرام بغيته ، بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف ، ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف ، وأن يتخير لها مَنْ يرتضى لذلك ، ويمحمد تصرفه فيما هنالك ، وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن ، جرياً على الود الثابت الأركان ، وإعلاماً بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الأفعال الحسان ، وكما لكم يقتضي تخليد ذلكم البر الحميل ، وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل ، وتشديد ما اشتمل عليه من الشكر الأصيل ، والأجر الجزيل ، والتقدم بالإذن السلطاني في إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب ، على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب ، وثناؤنا عليكم الثناء الذي يفواحُ زهر الرُّبى ، ويطارح نغم حمام الأيك مطرباً .

وبحسب المصافاة ، ومقتضى الموالاتة ، نشرح لكم المتزايدات ، بهذه الجهات ، وننبئكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجنب : وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصريخ ، ونادى مناد للجهد عزمًا لمثل ندائه يُصيح ، أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب ، وحتم عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب ، وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها ، وتتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ، ليمحوا كلمة الإسلام منها ، ويقتلصوا ظل الإيمان عنها ، فقد منا من يشتغل بالأساطيل من القواد ، وسرنا على إثرهم إلى سبته منتهى المغرب الأقصى وباب الجهاد ، فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذه العدو الكفور ، وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور ، وأتوا من أجفانهم بما لا يحصى عدداً ، وأرصدوها بمجمع البحر حيث المجاز إلى دفع العدا ، وتقلصوا عن الانبساط في البلاد ، واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل مَنْ جمعوه من الأعداء ، لكننا مع انسداد تلك السبيل ، وعدم أمور نستعين بها في ذلكم العمل الجليل ، حاولنا إمداد تلكم البلاد بحسب الجهد ، وأصرحناهم بمن أمكن من الجند ، وجهزنا أجفاناً مختلسين فرصة الإجازة ، تردد على خطر بمن جهز للجهد جهازه ، وأمرنا لصاحب الأندلس من المال ، بما يجهز به حركته

لمداناة محلة حزب الضلال ، وأجرينا له وبلحيشه العطاء الجزل مشاهرة ، وأرضخنا لهم في النوال ما نرجو به ثواب الآخرة ، وجعلت أجفاننا تتردد في ميناء السواحل ، وتلج أبواب الخوف العاجل ، لإحراز الأمن الآجل ، مشحونة بالعدد الوفيرة ، والأبطال المشهورة ، والخيال المسومة ، والأقوات المقومة ، فمن ناج حارب دونه الآجل ، وشهيد مضى لما عند الله عز وجل ، وما زالت الأجفان تتردد على ذلك الخطر ، حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجزها عند الله يُدخّر ، ثم لم نقنع بهذا العمل في الأمداد ، فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله تعالى مساهمةً به لأهل تلك البلاد ، فلقني من هؤل البحر وارتياجه ، وإلحاح العدو وبلحاجه ، ما به الأمثال تُضرب ، وبمثله يُتحدث ويُستغرب ، ولما خلاص لتلك العدو بمن أبقته الشدايد ، نزل بإزاء الكافر الجاحد ، حتى كان منه بفرسخين أو أدنى ، وقد ضرب بعطن يُصابح العدو ويماسيه بحرب بها يُمنى .

وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرارته ، وقويت في الحرب إدارته ، يبئنون البلاء الأصدق ، ولا يبألون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق ، إلا أن المطولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ، ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف ، أدى إلى فناء الأقوات بالبلد ، حتى لم يبق لأهله قوت نصف شهر مع انقطاع المدد ، وبه من الخلق ما يُرْبِي على عشرة آلاف دون الحرّم والولد ، فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الإذن له في عقد الصلح ، ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجاح ، فأذنا له فيه الإذن العام ، إذ في إصراخه وإصراخ من بقطره من المسلمين توحيئنا ذلك المرام ، هنالك دُعي النصارى إلى السلم فاستجابوا ، وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا ، فم الصلح إلى عشر سنين ، وخرج من بها من فرسان ورجال وأهل وبنين ، ولم يرزأوا مالا ولا عدّة ، ولا لقوا في خروجهم غير التزوع عن أول أرض مس الجلد تراها شدة ، ووصلوا إلينا فأجزلنا لهم العطاء ، وأسليناهم عما جرى بالحباء ، فمن خيّل تزيد على الألف



عِتَاقُهَا ، وَخِلَعِ تَرْبِي عَلَى عَشْرَةِ آلَافِ أَطْوَاقِهَا ، وَأَمْوَالِ عَمَتِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ ،  
وَرِعَايَةِ شَمَلَتِ الْجَمِيعَ بِالْعَيْشِ النَّصِيرِ ، وَكَفِ اللَّهُ ضَرَّ الطَّوَاغِيتِ عَمَّا عَدَاهَا ،  
وَمَا انْقَلَبُوا بِغَيْرِ مَدْرَةِ عَفَا رَسْمُهَا وَصَمَّ صَدَاهَا .

وَقَدْ كَانَ مِنْ لَطْفِ اللَّهِ حِينَ قَضَى بِأَخْذِ هَذَا الثَّغْرِ ، أَنْ قَدَّرَ لَنَا<sup>١</sup> فَتْحَ جَبَلِ  
طَارِقٍ مِنْ أَيْدِي الْكُفْرِ ، وَهُوَ الْمُطَلُّ عَلَى هَذِهِ الْمَدْرَةِ ، وَالْفُرْصَةَ مِنْهَا إِنْ شَاءَ  
اللَّهُ مَتَيْسَّرَةً ، حَتَّى<sup>٢</sup> يَفْرُقَ عَقْدَ الْكُفَارِ ، وَيَفْرَجَ بِهَذِهِ الْجِهَةِ مِنْهُمْ مَجَاوِرِ  
هَذِهِ الْأَقْطَارِ ، فَلَوْلَا إِجْلَابُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكُونُهُمْ سَدُوا مَسْلَكَ الْعُبُورِ  
بِمَا لِحْمِيْعِهِمْ مِنَ الْأَجْفَانِ وَالْمَرَكَبِ ، لَمَا بَالَيْتُنَا بِإِصْعَاقِهِمْ ، وَلِحَلَلْنَا بَعُونَ اللَّهُ  
عَقْدَ اتِّفَاقِهِمْ ، وَلَكِنْ لِلْمَوَانِعِ أَحْكَامٌ ، وَلَا رَادًا لِمَا جَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ ، وَقَدْ  
أَمَرْنَا لِذَلِكَ الثَّغْرِ بِمَزِيدِ الْمَدَدِ ، وَنَحْيِرْنَا لَهُ وَلَسَائِرِ تِلْكَ الْبِلَادِ الْعُدَدَ وَالْعَدَدَ ،  
وَعَدْنَا لِحَضْرَتِنَا فَاسٍ لِنَسْتَرِيحَ الْجِيُوشَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَتَرْتَبِطَ الْجِيَادَ وَتَنْتَخِبَ  
الْعَدَدَ لَوْقَتِ الظُّهُورِ الْمُنْتَظَرِ ، وَتَكُونَ عَلَى أَهْبَةِ الْجِهَادِ ، وَعَلَى مَرْقَبَةِ الْفُرْصَةِ  
عِنْدَ تَمَكُّنِهَا فِي الْأَعَادِ .

وَعِنْدَ عَوْدِنَا مِنْ تِلْكَ الْمَخَاوِلَةِ ، تَيْسِرَ الرِّكْبَ الْحِجَازِيَّ مُوجَّهًا إِلَى هُنَا لِكُمْ  
رَوَاحِلِهِ ، فَأَصْدَرْنَا إِلَيْكُمْ هَذَا الْخُطَابَ ، لِإِصْدَارِ الْوَدِّ الْخَالِصِ وَالْحُبِّ اللَّبَّابِ ،  
وَعِنْدِنَا لَكُمْ مَا عِنْدَ أَحْسَنِ الْآبَاءِ ، وَاعْتِقَادُنَا فِيكُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ لَا يَخْشَى جَدِيدُهُ  
مِنَ الْبَلَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ غَرَضٍ بِهَذِهِ الْأَنْحَاءِ ، فَمَوْفِي قَصْدُهُ عَلَى أَكْمَلِ الْأَهْوَاءِ ،  
مَوَالِي تَتَمِيمُهُ عَلَى أَجْمَلِ الْأَرْءَاءِ ، وَالْبِلَادِ بِاتِّحَادِ الْوَدِّ مُتَّحِدَةٍ ، وَالْقُلُوبِ وَالْأَيْدِي  
عَلَى مَا فِيهِ مَرْضَاةُ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، مُنْعَقِدَةً<sup>٣</sup> ، جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ خَالِصًا لِرَبِّ  
الْعِبَادِ ، مَدْخُورًا لِيَوْمِ التَّنَادِ ، مَسْطُورًا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَوْمَ الْمَعَادِ ، بِمَنَّةِ  
وَفَضْلِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَصِلُ إِلَيْكُمْ سَعْدًا تَتَفَاخَرُ بِهِ سَعُودَ الْكُوكَبِ ،

١ ص : قدم ؛ ق : قد ولينا .

٢ ص : حين .

٣ ق ص : ممتضدة .

وتتضافر على الانقياد له صلورُ المواكب ، وتتناصر عن نيل مجده متطاولات المناكب ، والسلام الأتم ينخصكم كثيراً أثيراً ورحمة الله وبركاته ، وكتب في يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة ، وصورة العلامة <sup>١</sup> ، وكتب في التاريخ المؤرخ .

[ جواب الملك الصالح من إنشاء الصفدي ]

ونسخة الجواب عن ذلك من إنشاء خليل الصفدي شارح « لامية العجم » في سادس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، بعد البسمة ، في قطع النصف بقلم الثلث : عبدُ الله ووليه ، صورة العلامة ، ولده إسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المثنغر المظفر المنصور عماد الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، مُنصِفَ المظلومين من الظالمين ، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، واهب الممالك والأمصار ، إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المنابر والأسيرة والتخوت والتيجان ، ظلُّ الله في أرضه ، القائم بسنته وقرضه ، مالك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، سيد الملوك والسلاطين ، جامع كلمة الموحدين ، وليُّ أمير المؤمنين ، أبو الفداء إسماعيل ابن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد ابن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون ، خلد الله تعالى سلطانه ، وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه ؛ ينخصُّ المقامَ العالي الملكَ الأجلَّ الكبيرَ المجاهدَ المؤيدَ المرابطَ المثنغرَ المعظَّمُ المكرَّمُ المظفرَّ المعمرَ الأسعدَ الأصعدَ الأوحدَ الأجمدَ الأنجدَ ، السني السري المنصورَ أبا الحسن علي ابن أمير المسلمين أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يوسف

١ في هامش بعض أصول دوزي أن العلامة هكذا

يعقوب بن عبد الحق ، أمدّه الله بالظفر ، وقمرن عزمه بالتأييد في الآصال  
والبُكر .

سلام وشتّ البروق وشائعه ، وادّخرت الكواكب ودائعه ، واستوعب  
الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه ، وثناء اتخذ النفحات المسكية ثلاثه ، ونبه  
للتفريد في الروض سواجعه ، وجلّي في كأسه من الشفق المحمر مُدامه ومن  
النجوم قواقعه . بعد حمد الله على نعم أدت لنا الأمانة في عود سلطنة والدنا  
الموروثه ، وأجلستنا على سرير مملكة زرابيها بين النجوم مبنوثة ، وأحسن  
بنا الخلف عن سلف عهدّه في الأعناق غير منكورة ولا منكوثه ، وصلاته  
على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة  
غاية أمله وسوله ، صلاة تحطّ بالرضوان سيولها ، وتجر بالغفران ذبولها ، ما  
تراسل أصحاب ، وتواصل أحباب ، ويوضح للعلم الكريم ، ورود كتابكم  
العظيم ، وخطابكم الفائق على الدر العظيم ، تفاخر الخمائل سطورّه ، ويصنغ  
خدّ الورد بالحجل منثورّه ، ويحكي الرياض اليانعة فالألقات غصونه والهمزات  
عليها طيورّه ، ويخلع على الآفاق حُلل الأيام والليالي فالطرس صباحه  
والنقّس دينجوره ، لفظه يطرب ، ومعناه يعرب فيغرب ، وبلاغته تدلّ  
على أنه آية لأن شمس بيانها طلعت من المغرب ، فاتخذنا سطورّه ربحاناً ،  
ورجعنا ألفاظه ألقاناً ، ورجعنا إلى الجدّ فشبها ألفاته بظلال الرياح ،  
وورقه بصقال الصّفاح ، وحروفه المفرقة بأفواه الجراح ، وسطورّه المنتظمة  
بالفرسان المزدحمة في يوم الكفاح ، وانتهينا إلى ما أودعتموه من اللفظ  
المسجوع ، والمعنى الذي يطرب طائرّه المسموع ، والبلاغة التي فضح المتطبع  
بيانها المطبوع .

فأمّا الغزاء بأخيكم الوالد قدّس الله رُوحه وسقى عهده ، وأحسن لسلفه  
خلفنا بعده ، فلنّا برسول الله أسوة حسنة ، ولولا الوثوق بأنّه في عِدّة الشهداء  
ما رأى القلب قراره ولا الطرفُ وسنّه ، عاش سعيداً يملك الأرض ، ومات

شهيداً يَفُوزُ بِالْحَنَّةِ يَوْمَ الْعَرَضِ ، قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس<sup>١</sup> في الآفاق ، ويوقف على نَصَارَةِ حَدَائِقِهِ نظرات الأحداق ، وورثنا منه حسن الإخاء لكم ، والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم ، وأمّا الهناء بوراثه ملكه ، والانخراط مع الملوك في سِلْكِهِ ، فقد شكرنا لكم مَنَحِي هذه المنحة ، وقابلناها بثناء يُعَطِّرُ النَّسِيمَ في كل نَفْحَةٍ ، ووقفنا عليها حمداً جعل الود علينا إِبْرَادَهُ<sup>٢</sup> وعلى أنفاس سَرَحَةِ الرّوض شَرْحَهُ ، وتحقيقنا به حسن ودكم الجميل ، وكريم إِيْخَاتِكُمُ الَّذِي لَا يَمِيدُ طَوْدُ رَسُوخِهِ وَلَا يَمِيلُ .

وأما ما ذكرتموه من أمر المصحفين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرَمَيْنِ المنيفين ، وأنكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجلَّ الأسنَى الأسمى أبا المجد ابن كاتبكم أبي عبد الله ابن أبي مَدِينٍ أَعَزَّهُ اللهُ تَعَالَى لتفقد أحوالهما ، والنظر في أمر أوقافهما ، فقد وَصَلَ المذكور بمن معه في حِرْزِ السَّلَامَةِ وَأَكْرَمْنَا نَزْهُهُمْ ، وسهلنا بالترحيب سُبُلَهُمْ ، وجمعنا على بذل الإحسان إليهم شَمَلَهُمْ ، وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه ، وسمعنا كلامه وخاطبناه ، وأمرنا في أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم ، ورسمنا لنوابنا في نواحي أوقافهما بما ذكرتم ، وهذا الوقف المبرور جارٍ على أحسن عادة ألفها ، وأثبت قاعدة عرفها ، مَرْعِيَّ الْجَوَانِبِ ، محمي المنازل والمضارب ، آمن من لإزالة رَسْمِهِ ، أو إزالة حكمه ، بَدْرُهُ أَبْدَأَ في مطالع تمه ، وزهره دائماً يرقص في كفه ، لا يزداد إلا تخليداً ، ولا إطلاق ثبوته إلا تقييداً ، ولا عُنُقُ اجتهاده إلا تقليداً ، جَرِيّاً على عادة أوقاف ممالكنا ، وقاعدة تصرفاتنا في مسالكنا ، وله مزيد الرعاية ، وإفادة الحماية ، ووفادة العناية .

وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها ، ومُنِي به من

١ ص : السمر .

٢ ص : أبراده .

الكفار حَزَنُهَا وَسَهْلُهَا ، فَإِنَّهُ شَقَّ عَلَيْنَا سَمَاعَهُ الَّذِي أَنْكَى أَهْلَ الْإِيمَانِ ،  
وَعَدَّدَ بِهِ ذُنُوبَ الزَّمَانِ ، كُلَّ قَلْبٍ بِأَنَامِلِ الْخَفَقَانِ ، وَطَالَمَا فَرْتَمَ بِالظَّفْرِ ، وَرَزَقَمَ  
النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّكُمْ فَجَرَّ ذَيْلَ الْهَزِيمَةِ وَفَرَّ ، وَلَكِنَّ الْحُرُوبَ سِجَالًا ، وَكُلَّ زَمَانٍ  
لِدَوَائِهِ دَوْلَةٌ وَلِرَجَائِهِ رِجَالٌ ، وَلَوْ أَمْكَنْتِ الْمُسَاعَدَةُ لَطَارَتْ بِنَا إِلَيْكُمْ عَقْبَانِ  
الْجِيَادِ الْمُسَوِّمَةِ ، وَسَالَتْ عَلَى عَدُوِّكُمْ أَبَاطِحُهُمْ بِقَسِيئِنَا الْمَوْجِةِ وَسَهَامِنَا الْمَقْوَمَةِ ،  
وَكَحَلْنَا عِيُونََ النُّجُومِ بِمِرَاوِدِ الرِّمَاحِ ، وَجَعَلْنَا لَيْلَ الْعِجَاجِ مَمْرَقًا بِبُرُوقِ  
الصَّفَاحِ ، وَاتَّخَذْنَا رُؤُوسَهُمْ لِمِصَالِحِ الْقَوَائِمِ كُرَاتٍ ، وَفَرَجْنَا مَضَائِقَ الْحَرْبِ  
بِتَوَالِي الْكُرَاتِ ، وَعَظَفْنَا إِلَيْهِمُ الْأَعْنَةَ ، وَخَضُّنَا جُدَاوِلَ السُّيُوفِ وَدُسْنَا  
شُوكَ الْأَسِنَّةِ ، وَفَلَقْنَا الصَّخْرَاتِ بِالصَّرِخَاتِ ، وَأَسَلْنَا الْعِبْرَاتِ بِالرَّعِبَاتِ ،  
وَلَكِنَّ أَيْنَ الْغَايَةِ مِنْ هَذَا الْمُدَى الْمُتَطَاوِلِ ؟ وَأَيْنَ الثَّرِيَا مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِ ؟ وَمَا لَنَا  
غَيْرَ إِمْدَادِكُمْ بِجُنُودِ الدَّعَاءِ الَّذِي نَرْفَعُهُ نَحْنُ وَرِعَايَانَا ، وَالتَّوَجُّهَ الصَّادِقَ الَّذِي  
تَعْرِفُهُ مَلَائِكَةُ الْقَبُولِ مِنْ سَجَايَانَا .

وَأَمَّا مَا فَقَدْتُمُوهُ مِنَ الْأَجْفَانِ الَّتِي طَرَفَهَا طَيْفُ التَّلَافِ ، وَأَمَّ حَرَمَ فَنَائِهَا  
النِّسَاءَ وَطَافَ بِهِ بَعْدَ الْإِلْطَافِ ، فَقَدْ رَوَّعَ هَذَا الْخَبْرَ قَلْبَ الْإِسْلَامِ ، وَنَوَّعَ لَهُ  
الْحُزْنَ عَلَى اخْتِلَافِ الْإِصْبَاحِ وَالْإِظْلَامِ ، وَهَذِهِ الدَّارُ مَا يَخْلُو صَفْوُهَا مِنْ كَدْرِ  
الْقَدْرِ ، وَطَالَمَا أَنْامْتَ بِالْأَمْنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَخَاطَبْتَ بِالْخَطْبِ فِي السَّحَرِ ، وَلَكِنَّ فِي  
بِقَائِكُمْ مَا يُسْلِي مِنْ خَطْبِ الْعَطْبِ ، وَمَعَ سَلَامَةِ نَفْسِكُمُ الْكَرِيمَةِ فَالْأَمْرُ هِينٌ  
لِأَنَّ الدَّرَّ يَفْدَى بِالذَّهَبِ .

وَأَمَّا مَا رَأَيْتُمُوهُ مِنَ الصَّلْحِ فَرَأَيْ عَقْدَهُ مَبَارِكًا ، وَأَمْرًا فِيهِ فَارِطٌ عَزْمٌ وَإِنْ  
كَانَ فَيْتِدَارِكُمْ ، وَالْأَمْرُ يَجِيءُ كَمَا يَجِبُ لَا كَمَا نَحْبُ ، وَالْحُرُوبُ يُزَوِّرُهَا نَصْرُهَا  
تَارَةً وَيَغِبُ ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدَا ، وَقَدْ يَرُدُّ اللَّهُ الرَّدَى ، وَيُعِيدُ الظَّفَرَ بِالْعَدَا .  
وَأَمَّا عَوْدِكُمْ إِلَى فَاسِ الْمَحْرُوسَةِ طَلِبًا لِإِرَاحَةٍ مِّنْ عِنْدِكُمْ مِنَ الْجُنُودِ ،

وتجهيزاً لمن يَصِلُ من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود ، فهذا أمر ضروري التدبير سروري التثمير ، لأن النفوس تمل وتثير المهاد ، فكيف ملازمة صهوات الجياد ، وتسأم من مجالسة الشرب ، فكيف بممارسة الحرب ، وتعرض عن دوام اللذة ، فكيف بمباشرة المنايا الفدّة ، وهذا جبّل طارق الذي فتح الله به عليكم ، وساق هديّ هديته إليكم ، لعله يكون سبباً إلى ارتجاع ما شرّد ، وحسماً لهذا الطاغية الذي مرّد ، وردّ لهذا النازل الذي قدم ورد الصبر لما ورد ، فعادة الألفاظ الإلهية بكم معروفة ، وعزّاماتكم إلى جهات الجهاد مصروفة ، وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يطرُق ، وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق .

وأما ما منحتموه من الخليل العتاق ، والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق ، والأموال التي زكّت عند الله تعالى ونمت على الإنفاق ، فعلى الله عز وجل خلّفها ، ولكم في منازل الدنيا والآخرة شرفها ، وإليكم تساق هدايا أثنتها وتحفكم تحفها ، وإذا وصل وفدكم الحاج ، وأثار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الداج ، كانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا ، وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا ، يتخولون تحفاً أنم سببها ، ويتناولون طرفاً في كؤوس الاعتناء بهم تنضد حببها ، وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق ، وسهلنا لهم الرفيق ، وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى ، وسولهم ممّن إذا زاروا حجرتة الشريفة حازوا الراحة من العنا ، وفازوا بالغنى ، وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ، ويخيّل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب ، وعمرناهم بالإحسان في العود إليكم ، وأمرناهم بما ينهونه شفاهاً لديكم ، وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم ، وتوفّر لأخذ الثأر حُماكم ، وتخصكم بتأييد تنزلون روضه الأنضر ، وتجنّون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر ، وتتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه ، وعز لا يمحو شبابه مشيبه ، وتحيته المباركة تغادىكم وتراوحكم ، وتفاوحكم أنفاسها المعنبرة وتنافحكم ، بمنّه وكرمه ؛ انتهى .

[ إجازة من الصفدي رواية الرسالتين ]

ورأيت بخط منشيء هذا الجواب الصلاح الصفدي رحمه الله تعالى إثر ذكره ما نصّه : أما بعد حمد الله تعالى على نعمائه ، وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه ، فقد قرأ الشيخ الإمام العالم العامل العلامة المفيد القدوة عز الدين أبو يعلى حمزة ابن الرئيس الكبير الفاضل القاضي قطب الدين موسى بن أحمد ابن شيخ السلامة الأحمدي<sup>١</sup> - أمتع الله بفوائده - الكتاب الوارد من سلطان المغرب الملك المجاهد المرابط أبي الحسن المريني صاحب مراكش تغمّده الله تعالى برحمته والجواب عنه عن السلطان الشهيد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد قدس الله تعالى رُوحَهُما من إنشائي ، وأنا أسمع ذلك جميعاً من أولهما إلى آخرهما ، قراءةً أطربت السمع لفصاحتها ، وأمالت العطف لرجاحتها :

وأخجَلتُ ورق الحمى باللوى إن صدحت في ذروة الغصنِ  
تكادُ من لطف ومن رقة تدخل في الأذن بلا إذنِ

وذلك في مجلس واحد في ذي القعدة سنة ٧٥٦ ، بالجامع الأموي بدمشق المحروسة ، فإن رأى رواية ذلك عني فله علو الرأي في تشريفي بذلك ، وكتبه خليل ابن أيبك الصفدي الشافعي عفا الله عنه ؛ انتهى .

[ أبو الحسن يكتب ثلاثة مصاحف ]

وكان السلطان أبو الحسن المريني المذكور كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه ، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال ، وأوقف عليها أوقافاً جلييلة ، كتب توقيعه سلطان مصر والشام بمساحتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين ابن نباتة المصري ، ونص ما يتعلّق به الغرض منه هنا قوله : وهو

١ دوزي : الخليل .

الذي مدَّ يمينه بالسيف والقلم فكتبَ في أصحابها ، و سطر الختمات الشريفة فأيدَ الله حزبَه بما سطر من أحزابها ، واتصلت أخبار ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح ، وكثرت فتوحه لأملياء الغرب فقالت أوقاف الشرق لا بد للفقراء من فتوح ، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدي ، وخطَّ سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الأعداء بالهندي ، ورتب عليها أوقافاً تجري أقلام الحسنات في إطلاقها وطلَّقها ، وحبس أملاكاً شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها ، والله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف ، وينفع الجالس من ولاة الأمور في تقريرها ويتقبل من الواقف ؛ انتهى .

قلت : وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة ، وهو الذي ببيت المقدس ، وربعته في غاية الصنعة .

#### [ نبذة من أخبار أبي الحسن ]

وقال بعض المشاركة في حق السلطان أبي الحسن ، ما صورته : ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله ، وجرت إلى المشرق أنواء نواله ، وطابت نسَماتُه ، واشتهرت عزَماتُه ، كان حسن الكتابة ، كثير الإنابة ، ذا بلاغة وبراعة ، وشهامة وشجاعة ، كتب بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على المساجد الثلاثة ، أقام في الملك عشر سنين وسبعة أيام ، ثم صُرف بولده أبي عنان بعد حروب يطول شرحها ، انتهى من كتاب « نزهة الأنام » .

ولما ذكر الإمام الخطيب أبو عبد الله ابن مرزوق في كتابه « المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن » أمرَ الربعة التي أرسلها السلطانُ أبو الحسن بخطه قال ما ملخصه : وأرسل معها للسلطان الملك الناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر واليمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ، ومن الزمرذ مائة وثمانية وعشرين ، ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ،



ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين ، وأرسل حُللاً كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر ، ومن الإناق عشرين مذهبة ، ومن الخلادي ستة وأربعين ، ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة ، ومن المحررات المختمة ثمانمائة ، ومن الرصان عشرين شقة ، والأكسية المحررة أربعة وعشرين ، والبرانس المحررة ثمانية عشر ، والمشققات<sup>١</sup> مائة وخمسين ، وأحارم الصوف المحررة عشرين ، ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ، ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة ، وأوجه اللحف المذهبة عشرين ، وحائطان حلة وحنابل مائة واثنى عشر كلّها حرير<sup>٢</sup> ، وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجواهر عشرة ، والسروج عشرة بركب ذهب ومهاميز ذهب كذلك ، وثلاث ركب فضة ، وست مزججة ومذهبة ، ومضمتان من ذهب ممّا يليق بالملوك ، وشاشية حرير مطوقة بذهب مكمل بالجواهر ، ومن لزمات الفضة عشرة ، وسرج مخروزة بالفضة عشرة ، وعشر علامات معششة مذهبة ، وعشر رايات مذهبة ، وعشر براقع مذهبة ، وعشر أمثلة<sup>٣</sup> مرقومة ، وثلاثين جلد أشرك<sup>٤</sup> ، وأربعة آلاف درقة لظ منها مائتان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة ، وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة<sup>٥</sup> لها أربعة أبواب ، وقبة أخرى مضرية من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بجلّة مذهبة ، وهي حرير أبيض ومرابطها حرير ملوّن وعمودها عاج وآبنوس وأكبارها من فضة مذهبة ، ومن البزاة الأحرار المنتقاة أربعة وثلاثين<sup>٦</sup> ، ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمسة وثلاثين ، ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين ، ومن الجمال سبعمائة ، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسّم الحج مع الرّبعة المكرمة ، وأعطى الحرة أم أخته أم

١ ص : والمشققات .

٢ قد شرح دوزي أكثر هذه الألفاظ في ملحق المعاجم ولكنه استمد معانيها من النص نفسه .

٣ ص : أشلة .

٤ ص : وثلاث زجلوا شركي .

٥ دوزي : نبيقة .

٦ هذا العدد والأعداد التالية وردت بصورة الرفع في ص .

ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ، ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ، ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة وبغلات ، وللرسول المعين للهدية ألفاً ، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ، ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة ، وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ، ولشراء ربع ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً ؛ انتهى .

وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن الموصوف أهدي هدايا غير هذه لكثير من الملوك ، ومنها لصاحب الأندلس صلة وصدقة في مرات ، ومنها للملوك النصارى بعد هداياهم ، ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي ، ومنها لصاحب إفريقية ، ومنها لصاحب تلمسان ؛ انتهى .

وقال مؤرخ مصر المقرئ في كتاب « السلوك » في سنة ٧٣٨ ما نصّه : وفي ثاني عشرين من رمضان قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج ، ومعها هدية جلييلة إلى الغاية ، نزل لحملها من الإصطبل السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال ، كان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حِجْرَة ومائة فحل ومائتا بغل ، وجميعها بسُرُج ولحم مسقطة بالذهب والفضة ، وبعضها سُرجُها وركبها كلُّها ذهب ، وكذلك لجمها ، وعدتها اثنان وأربعون رأساً ، منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر ، وفيها اثنان وثلاثون بازاً ، وفيها سيفٌ قرابه ذهب مرصع ، وحياصته ذهب مرصع ، وفيها مائة كساء ، وغير ذلك من القماش العال ، وكان قد خرج المهندار إلى لقائهم ، وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح ، وهم جمع كبير جداً ، وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة ، ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم ، حتى نفذت كلُّها سوى الجواهر واللؤلؤ فإنه اختص به ، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ، ثم نُقِلت الحرة إلى الميدان بمن معها ، ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم بكرةً وعشبةً ما عمهم وفضل عنهم ، فكان

مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ، ونصف إردب أرز ، وقنطار حب رمان ، وربيع قنطار سكر ، وثماني فانوسيات شمع ، وتوابل الطعام ، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم ، وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ، ثم خلع على جميع مَنْ قدم مع الحرة ، فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم ، حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول ، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجلب قدره ، وقيل لها أن تُملي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء ، وإنما تريد عناية السلطان بإكرامها وإكرام مَنْ معها حيث كانوا ، فتقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد أقبغا بتجهيزها اللائق بها ، فقاما بذلك ، واستخدما لها السقائين والضوية ، وهيتا كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلوات والسكر والدقيق والبقسماط ، وطلبا الحماية لحمل جهازها وأزودتها ، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة ، وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام المحمل ، ويمثل كل ما تأمر به ، وكتب للأميرِي مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة .

وقال في سنة خمس وأربعين وسبعمئة ما نصّه : وفي نصف شعبان قدمت الحرة أخت صاحب المغرب في جماعة كثيرة ، وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام ، وأن يدعو له الخطباء يوم الجمعة وخطبها ومشايخ الصلاة وأهل الخير بالنصر على عدوهم ، ويكتب إلى أهل الحرمين بذلك ، وذلك أن في السنة الحالية كانت بينه وبين الفرنج وقعة عظيمة قُتل فيها ولده ، ونصره الله تعالى بمنه على العدو ، وقتل كثيراً منهم ، وملكوا منهم الجزيرة الخضراء ، فعمر الفرنج مائتي شيني ، وجمعوا طوائفهم ، وقصدوا المسلمين ، وأوقعوا بهم على حين غفلة ، فاستشهد عالم كثير ، ونجا أبو الحسن في طائفة من أزمه بعد شداثد ، وملك الفرنج الجزيرة ، وأسروا وسبّوا وغنموا شيئاً يجلب وصفه ، ثم مضوا إلى جهة غرناطة ، ونصبوا عليها مائة منجنيق حتى صالحهم أهلها على قطيعة يقومون بها ، وتهادنوا مدة عشر سنين ؛ انتهى كلامه .

وقد تقدّم نص هذا الكتاب الموجه من السلطان أبي الحسن فليراجع قريباً .  
 وقال ابن مرزوق في « المسند الصحيح الحسن » بعد كلام ما ملخصه :  
 وكان - يعني السلطان أبا الحسن - مجتهداً في الجهاد بنفسه وحرمه ، وجاز للأندلس  
 برسم ذلك بنفسه ، وأظهر آثاره الجميلة ، ومنها ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد  
 أن أنفق عليه الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود ، إذ كان من عمالته هو  
 والجزيرة ورندة ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيّقوا به إلى أن استرجعوه  
 ليد المسلمين ، وأنفق على بنائه<sup>١</sup> أحمال مال ، واعتنى بتحسينه ، وبني حصنه  
 وأبراجه وسوره وجامعه ودوره ومخازنه ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برّاً وبحراً ،  
 فصبر المسلمون صبر الكرام ، فخبب الله تعالى أمل العدو ، وعاد خاسراً<sup>٢</sup> ،  
 والمنّة لله ، فرأى أن يحصن سفح الجبل بسور يحيط به من جميع جهاته حتى  
 لا يطمع عدوّ في منازلته ، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس  
 ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه إحاطة  
 الهائلة بالهلال ، وأمّا بناؤه للمحاسن<sup>٣</sup> والطوالع فأمر غير مجهول ؛ انتهى .

[ رسائل لسان الدين ابن الخطيب ]

[ ١ - رسالة إلى أحد سلاطين بني مرين ]

وقد رأيت أن أذكر هنا بعض إنشاء لسان الدين ابن الخطيب في شأن ما يتعلق  
 بجبل الفتح وغيره من بلاد الأندلس ، وحال العدو الكافر ، وما ينخرط في هذا  
 السلك : فمن ذلك على لسان سلطانه يخاطب به أحد السلاطين من أولاد السلطان  
 أبي الحسن المريني ، ونصه :  
 المقام الذي يُصْرِّخُ وَيُنْجِدُ ، وَيُتُّهِمُ فِي الْفَضْلِ وَيُنْجِدُ ، وَيُسْعَفُ

١ ص : وأنفقوا فيه .

٢ ص : ورجعوا خاسرين .

٣ ص : للمحارس .

ويُسعد ، ويبرق في سبيل الله ويرعد ، فيأخذ الكفر من عزماته المقيم المُقعد ، حتى  
ينجز من نصر الله تعالى الموعِد ، مقامُ محلِّ أخينا الذي حُسنُ الظنِّ بمجده جميل ،  
وحدُّ الكفر (بسَعده كليل ، وللإسلام فيه رجاء وتأميل ، ليس للقلوب عنه  
مَسيل ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى وعزمه الماضي لصَولة  
الكفر قامعاً ، وتدبيره الناجح لشمس الإسلام جامعاً ، ومُلْكُه الموفق لنداء  
الله مطيعاً سامعاً ، معظم مقداره ، وملتزم لإجلاله وإكباره ، المعتدُّ في الله بكرم  
شيمته وطيب نِجاره ، المستظهر على عدوِّ الله بإسراعه إلى تدمير الكافر وبداره .  
سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته ، أمّا بعدَ حمد الله مجيب دعوة  
السائل ، ومُتَقَبِلِ الوسائل ، ومُتَبِحِ النعم الجلائل ، مُرَبِحِ مَنْ عامله في  
هذا الوجود الزائف الزائل ، والأيام القلائل ، بالمتاع الدائم الطائل ، والنعيم غير  
الحائل ، ومقيم أودِ الإسلام المائل ، بأولي المكارم من أوليائه والفضائل ، والصلاة  
والسَّلَام على سيدنا ومولانا محمد رسولہ المنقذ من الغوائل ، المُنْجِي من الرَّوعِ  
الهائل ، الصادع بدَعْوَةِ الحقِّ الصائل ، بين العشائر والفضائل ، الذي ختم به  
وبرسالته ديوان الرسل والرسائل ، وجَعَلَه في الأواخر شرف الأوائل ، فحبه  
كثر العائل ، والصلاة عليه زكاة القائل ، والرضى عن آله وصحبه وعِترته وحزبه  
تيجان الأحياء والقبائل ، المتميزين بكرم السجايا وطيب الشمائل ، والدعاء لمقام  
أخوتكم في البُكر والأصائل ، بالسعد الصادق المخايل ، والصنع الذي تترج  
مواهبه تترج العقائل ، والنصر الذي تهز له الصُّعاد المُلْد عطف المترانح المتخايل ،  
فإنَّا كتبناه إليكم كتب الله لكم عزّاً يانع الحمائل ، ونصراً يكفل للكتائب  
المدونة في الجهاد ومرضاة ربِّ العباد بسَرْدِ المسائل وإقناع السائل ، من حمراء  
غَرْنَاطَة ، حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استبصار في التوكل  
على من بيده الأمور ، وتسبب مشروع تتعلق به بإذن الله تعالى أحكام القدر

المقدور ، ورجاء فيما وعد به من الظهور ، يتضاعف على توالي الأيام وترادف الشهور ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله ، ومقامكم المعروف محله ، الكفيلُ بالإرواء نَهْلُهُ وَعَلْتُهُ ، وإلى هذا وَصَلَ اللهُ تعالى سعدكم ، وحرس مجدكم ، ووالى النعم عندنا وعندكم <sup>١</sup> ، فإننا في هذه الأيام ، أهمنا من أمر الإسلام ، مارنتقُ الشراب ونغص الطعام ، وذاد المنام ، لما تحققنا من عمل الكفر على مكايده ، وسعي الضلّال - والله الوافي - في استئصال بقيته ، وعقد النوادي للاستشارة في شأنه ، وشروع الخيل في هدّ أركانه ، ومنّ يؤمّل من المسلمين لدفع الردى وكشف البلوى وبث الشكوى ، وأهله - حاطهم الله تعالى وتولاهم ، وتمم عوائد لطفه الذي أولاهم ، فهو مولاهم - في غفلة ساهون ، وعن المغبة فيه لاهون ، قد شغلتهم دنياهم عن دينهم ، وعاجلهم عن آجلهم ، وطولُ الأمل ، عن نافع العمل ، إلا منّ نَوَّرَ اللهُ تعالى قلبه بنور الإيمان وتمللم بمناصحة الله تعالى والإسلام تمللم السليم ، واستدل بالشاهد على الغائب ، وصرف الكفر إلى مطالب <sup>٢</sup> الأمم النوائب ، فلما رأينا أن الدولة المرينية التي هي على مرّ الأيام شجّ العدا ، ومتوعّد من يكيد الهدى ، وفئة الإسلام التي إليها يتحيز ، وكهفُهُ الذي إليه يلجأ ، قد أذن الله تعالى في صلاح أمورها ، ولّمّ شعنها ، وإقامة صغاها ، بأن صرّف الله تعالى عنها هنّات الغدر <sup>٣</sup> ، وأراحها من مس الضرّ ، ورد قوسها إلى يد بارئها ، وصيّر حقها إلى وارثها ، وأقام لرعي مصالحها منّ حَسُنَ الظنُّ بِحَسَبِهِ ودينه ، ورُجِي الخير من ثمرات نُصَحِهِ ، ومنّ لم يُعَلِّمْ إلا الخيرُ من سَعْيِهِ والسداد من سيرته ، ومنّ لا يستريب المسلمون بصحة عقده ، واستقامة قصده ، أردنا أن نخرج لكم عن العهدة في هذا

١ وعندكم : سقطت من ص .

٢ ص : معاطب .

٣ ص : العدو .

٤ من سعيه : سقطت من ق .

الدين الحنيف الذي وَسَمَتْ دعوته وجوه أحابيكم شملهم الله تعالى بالعافية ،  
وتشبثت به أنفسٌ مَنْ صار إلى الله تعالى من السلف تغمدهم الله بالرحمة والمغفرة ،  
وفي هذا القطر الذي بلاده ما بين مكفول يجب رَعِيْهُ طبعاً وشرعاً ، وجار  
يلزم حقه ديناً ودنيا وحميةً وفضلاً ، وعلى الحالين فعليكم بعد الله المُعَوَّل ،  
وفيكُم المؤمِّل ، فأرْعُونَا أسماعكم المباركة نَقْصٌ عليكم ما فيه رضى الله ،  
والمُنْجاة من نكيره ، والفخر والأجر وحفظ النعم ، والخلف في الذرية ، بهذا  
وعدت الكتب المنزلة ، والرسل المرسله : وهو أن هذا القطر الذي تعددت فيه  
المحارب والمناير ، والرايع والساجد ، والذاكر والعابد ، والعالم واللقيف ،  
والأرملة والضعيف ، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام ، وشحت الأيدي به منذ  
أعوام ، وسلم إلى عبدة الأصنام ، وقوبلت ضرائره بالأعذار ، والمواعيد  
المستغرقة للأعمار ، وإن عَرَّضت شواغل وفتن ، وشَوَّأغب وإحن ، فقد كانت  
بحيث لا يقطع السبب بجملته ، ولا يذهب المعروف بكليته :

ولا بد من شكْوَى إلى ذي مروءة يُواسيك أو يُسئلك أو يتَوَجَّعُ ١

ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدَّسُ  
والدُّكُم جبلَ الفتح وهو منازل أخاه بسجلماسة ، ولا أمدّه ولده السلطان أبو  
عنان وهو بمراكش ، وبالأمس بعثنا إلى الجبل وشماتة في جملة ما أهمنا مبلغ  
جهد وسداد من عَوَز ، وقد فضلت عن ضرائرنا أموال فُرِضت من أجل الله  
على عباده ، وطعام سَمَحْنَا به على الاحتياج إليه في سبيل جهاده ، فلم يسهم  
المتغلب منها بجانب الله بحجة ، ولا أقطعه منها ذرة مستخفّاً به جلّ وعلا ، متهاوناً  
بنكيره الذي هو أحق أن يخشى ، فضاعت الأمور ، واختلَّت الثغور ، وتشذبت  
الحامية ، وتبدّدت العُدُد ، وختلت المخازن ، وهلكت بها الجرذان ، وعظمت

١ ص ق : يتفجع .

بها حسرة الإسلام ، أضعاف ما عظمت خبرته أيام ما كانت تكفلها همم الملوك الكرام والخلفاء العظام ، والوزراء والنصحاء ، والأشياخ الأجماد ، قدس الله تعالى أرواحهم ، وضاعف أنوارهم ، ولا كالحسرة في الجبل باب الأندلس وركاب الجهاد وحسنة بني مَرِين ومآثر آل يعقوب وكرامة الله للسلطان المقدس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذي تَرَدُّ على قبره ١ مع الساعات والأنفاس وفُودُ الرحمة ، وهدايا الزلفَة ، وريحان الجنة ، فلو لا أنكم على علم من أحواله لشرَحْنَا المجل ، وشكلنا المهمل ، إنَّما هو اليوم شبح مائل ، وطلل بائد ، لولا أن الله تعالى شغل العدا عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلا إليه ، ولا حوم طيره إلا عليه ، ولكان بصدَد أن يتخذهُ الصليب داراً ، وأن يقرَّب به عيناً ، والعدوة فضلاً عن الأندلس ، قد أوسعها شرّاً ، وأرهب ما يُجاوره عُسراً ، نسأل الله تعالى بنور وجهه أن لا يسودَّ الوجوه بالفسج فيه ، ولا يسمع المسلمين الثكلة ، وما دونه فهو - وإن أنعش بالتعليل عليه ووقع بالجهد خلقه - لحم على وَضَم ، إلا أن يصل الله تعالى وقايتة ، ويوالي دفاعه وعصمته ، لا إله إلا هو الولي النصير ، وما زلنا نشكو إلى غير المصمّت ، ونمدّ اليد إلى المُدْبِر عن الله المعرض ، ونخطب له زكاة الأموال من المباني الضخمة ، والخزائن الثرة ، والأهراء الطامية ، والحظ التافه من المفترض برسمه ، فتمضي الأيام لا تزيد الضرائر فيها إلا ضيقاً ، ولا الأحوال إلا شدة ، ولا الثغر إلا ضعة ، ولا نعلم أن نظراً وقع له ولا فكراً أعمل فيه إلا ما كان من تسخير رعيته الضعيفة ، وبلالة مجباه السخيفة ، في بناء قصر بمنت ميور من جباله :

شاده مرمرآ وجلّله كل ساء فللطير في ذراه وُكورُ ٢

جلب إليه الزليج ٣ ، واختلفت فيه الأوضاع في رأس نيق ، لأمل نزوة ،

١ زاد في ص : منه بعد لفظة قبره .

٢ البيت لعدي بن زيد العبادي .

٣ ص : الازليج .



وسوء فكرة ، فلما تم أقطع المهجران ، فهو اليوم ممتنع اليوم وحظ الخراب ،  
فلا حول ولا قوة إلا بالله ، حتى جاء أمر الله خالي الصحيفة من البر ، صفر  
اليد من العمل الصالح ، نعوذ بالله من نكيره ، ونسأله الإلهام والسداد ، والتوفيق  
والرشاد ، وقد بذلنا جهدنا قولاً وفعلاً ، وموعظة ونصحاً ، واستدعينا  
لتلك الجهة صدقة المسلمين محمولة على أكتاد العباد الضعفاء الذين كانت صدقات  
فاتحيه رضي الله تعالى عنهم ترفدهم ، ونوافله تتعهدهم ، فما حرك ذلك الجوار  
حلوباً ، ولا استدعى مطلوباً ، ولا رفداً مجلوباً ، فيلى متى تُنصَى ركاب الصبر  
وقد بلغ الغاية ، واستنفد البلاة ، بعد أن أعاد الله تعالى العهد ، وجبر المال ،  
وأصلح السعي ، وأجرى ينابيع الخير ، وأنشق رياح الإقالة . وجملة ما نريد  
أن نقرره فهو الباب الجامع ، والقصد الشامل ، والداعي والباعث : أن صاحب  
قشتالة لما عاد إلى ملكه ، ورجع إلى قطره ، جرت بيننا وبينه المراسلة التي أسفرت  
بعدم رضاه عن كدحنا لنصره ، ومظاهرتنا إياه على أمره ، وإن كنا قد بلغنا  
جهداً ، وأبعدنا وسعاً ، وأجلت عن شروط ثقيلة لم نقبلها ، وأغراض صعبة لم  
نكملها ، ونحن نتحقق أنه إما أن تهيج حفيظته ، وتثور إحنته ، فيكشف وجه  
المطالبة مستكثراً بالأمة التي داس بها أهل قشتالة ، فراجع أمره غلاباً ، وحقه  
ابتزازاً واستلاباً ، أو يصرفها ويهادن المسلمين بخلال ما لا يدع جهة من جهات  
دينه الغريب إلا عقد معها صلحاً ، وأخذ عليها بإعانتها إياه عهداً ، ثم تفرغ إلى  
شفاء غليله ، وبلوغ جهده ، ولا شك أنها تجيبه صرفاً لبأسه عن نخورها ،  
ومقارضة كما وقع باطيريرة من مضيق صدورها ، ومؤسف جمهورها ، وكل  
من له دين ما فهو يحرص على التقرب إلى مَنْ دانه به وكلفه وظائف تكليف ،  
رجاء لوعده وخوفاً من وعيده ، وبالله ندفع ما لا نطبق من جموع تداعت من  
الجزر ووراء البحور والبر المتصل الذي لا تقطعه الرفاق ، ولا تحصي ذرعه  
الحدائق ، وقد أصبحنا بدار غربة ، ومحل روعة ، ومفترس نبوة ، ومظنة فتنة ،  
والإسلام عدده قليل ، ومنتجعه في هذه البقعة جديب ، وعهده بالإرفاد والإمداد

من المسلمين بعيد ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا - إِلَى آخِرِ السُّورَةِ﴾  
(البقرة : ٢٨٦) .

وإذا تداعت أمم الكفر نصره لدينها المكذوب ، وحميةً لصلبيها المنصوب ،  
فمن يستدعي لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن ؟ حيث المآذن  
بذكر الله تعالى تملأ الآفاق ، وكلمة الإسلام قد عمت الرُّبى والوهاد ، إنَّما الإسلام  
غريق قد تشبَّثَ بأهدابكم ، يناشدكم الله في بقية الرمتِّ ، وقبل الرمي تُراش  
السهام ، وهذا أوان الاعتناء ، واختيار الحماة ، وإعداد الأقوات ، قبل أن يضيق  
المجال ، وتمنع الموانع ، وقد وجَّهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم  
مقرَّراً الضرورة ، منهيّاً الرغبة ، مذكراً بما يقرب عند الله ، مذكراً لذمام  
الإسلام ، جالباً على مَنْ وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح  
الصدور ، وتسني الآمال ، وتستدعي الدعاء والثناء ، فالؤمن كثير بأخيه ، ويد الله  
مع الجماعة ، والمسلمون يدٌ على مَنْ سواهم ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان  
المرصوص يشد بعضه بعضاً ، والتعاون على البر والتقوى مشروع ، وفي الذكر  
الحكيم مذکور ، وحق الجار مشهور ، وما كان جبريل يوصي به في الصحيح  
مكتوب ، وكما راع المسلمين اجتماع كلمة الكفر ، فرجو أن يروِّع الكفر من  
العز بالله ، وشدّد الحيازيم في سبيل الله ، وفقير النفرة لدين الله ، والشعور في  
حماية الثغور وعمرانها ، وإزاحة عللها ، وجلب الأقوات إليها ، وإنشاء الأساطيل ،  
وجبر ما تلف من عدة البحر ، أمور تدل على ما وراءها ، وتجبر بمشيئة الله تعالى  
عما بعدها ، ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ  
الرَّزَادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة : ١٩٧) . ومن خطب عليّ رضي الله تعالى عنه : أما بعد ،  
فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رهبة ألبسه الله تعالى سيما الخسف ،  
ووسَّمه بالصَّغار ، وما بعد الدنيا إلا الآخرة ، وما بعد الآخرة إلا إحدى داري  
البقاء ، أفي الله شك ؟ ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحِّ نَفْسِهِ فَأَوْلَتْكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾  
(الحشر : ٩) .

والاعتناء بالجميل عنوان هذا الكتاب ، ومقدمة هذا الباب ، والغفلة عنه منذ أعوام قد صيرتنا لا نقنع باليسير ، وقد أبرمته المواعيد ، وغيّر رسومه الانتظار ، ومن المنقول « ارحموا السائل ولو جاء على فرس » ، والإسراف في الخير أرجح في هذا المحل من عكسه ، وكان بعض الأجواد يقول وقد أقر : اللهم هب لي الكثير ، فإن حالي لا تقوم على القليل ، وعسى أن يكون النظر له بنسبة الغفلة عنه ، والامتعاض له مكافئاً للإضرار به ، وخلق البحر يغتم لإمداده وإرفاده ، قبل أن يثوب نظر الكفر إلى قطع المدد وسد البحر ، ومن ضيع الخزم ندم ، ولا عذر لمن علم ، والله عز وجل يطع من قبلكم على ما فيه شفاء الصدور ، وجبر القلوب ، وشعب الصدوع ، وما نقص مال من صدقة ، وطعام الواحد كافٍ لاثنتين ، والدين دينكم ، والبلاد بلادكم ، ومحل رباطكم وجهادكم ، وسوق حسناتكم ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٧ ، ٨) ، وقد قلدنا العهد الحفيظ علينا ، المصروف العناية بفضل الله تعالى إلينا ، والله المستعان ، وعليه التكلان ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

وفي اعتقادي أن هذا المكتوب للسلطان أبي فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني ؛ وأن المراد بالمتغلب الوزير عمر بن عبد الله الذي ظفر به أبو فارس المذكور واستقل بالملك بعد محو أثره ، حسبما ذكرناه في غير هذا المحل ؛ والله سبحانه أعلم .

[ ٢ - رسالة أخرى في استنهاض السلطان المريني ]

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه في استنهاض عزم صاحب فاس السلطان المريني لنصرة الأندلس ، ما نصّه : المقام الذي يؤثر حظ الله إذا اختلفت الحظوظ وتعددت المقاصد ، ويشرع الأدنى منه إذا تفاضلت المشارع وتمايزت

الموارد ، وتشمل عادةً حلمه وفضله الشارد ، ويسع وارفُ ظله الصادر والوارد ،  
والغائب والشاهد ، ويعيد من نصر الله للإسلام العوائد ، ويسدُّ الذرائع ويدرُّ  
الفوائد ، مقامُ محل أخينا الذي حسنت في الملك سيره ، وتعاضد في الفضل خبره  
وخبيره ، ودلت شواهد مداركه للحقوق ، وتغمده للعقوق ، على أن الله تعالى  
لا يهمله ولا يدركه ، فسلكُ فخره متسقة درره ، ووجه ملكه شادخة غرره ،  
السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله رفيعاً علاؤه ، هامية  
لديه مننُ الله تعالى وآلؤه ، مزدانة بكواكب السعد سماؤه ، محروسةً بعر  
النصر أرجاؤه ، مكملاً من فضل الله تعالى في نصر الإسلام ، وكبَّت عبدة  
الأصنام ، أمله ورجاؤه ، معظم قدره الذي يحق له التعظيم ، وموقر سلطانه الذي  
له الحسب الأصيل والمجد الصميم ، الداعي إلى الله تعالى باتصال سعاده حتى  
ينتصف من عدو الإسلام الغريم ، ويتاح على يد سلطانه الفتح الجسيم ، فلان ؛  
سلام كريم ، طيب عميم ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي لا يُضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا ينجيب لمن أخلص  
الرجبة إليه أملاً ، وموفي من ترك له حقه أجره المكتوب متمماً مكملاً ،  
وجاعل الجنة لمن اتقاه حق تقاته نزلًا ، ملك الملوك الذي جلَّ وعلا ، وجبار  
الجبابة الذي لا يجِدُون عن قدره محيصاً ولا من دونه مؤثلاً ، والصلاة  
والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي أنزل الله تعالى عليه الكتاب مُفصلاً ،  
وأوضح طريق الرشد وكان مُغفلاً ، وفتح باب السعادة ولولاه كان مُقفلًا ،  
والرضى عن آله وأصحابه ، وعترته وأحزابه ، الذين ساهموا فيما مرَّ وما حلا ،  
وخالقوه من بعد بالسير التي راقَت مجتلى ، ورفعوا عماد دينه فاستقام لا  
يعرف ميسلاً ، وكانوا في الحلم والعمو مثلاً ، والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر  
الذي يلقى نصه صريحاً لا متأولاً ، والصنع الذي يبهر حالاً ومستقبلاً ، والعز  
الذي يرسو جبلاً ، والسعد الذي لا يبلغ أمدأ ولا أجلاً ، فإنَّا كتبناه إليكم  
أصحب الله تعالى ركابكم حليف التوفيق حلاً ومُرتحلاً ، وعرفكم عوارف

اليمن الذي يثير جدلاً ، ويدعو وافد الفتح المبين فيرد<sup>١</sup> مستعجلاً ، من حمراء  
غَرَناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من التشيع  
لمقامكم حرس الله تعالى سلطانه ، ومَهْدَ أوطانه ، إلا الخير الذي نسأل بعده  
تحسين العُقْبِي ، وتوالي عادة الرحمي ، والحمد لله على التي هي أركي ، وسدل  
جناح السّر الأضفي ، وصلة اللطائف التي هي أكفل وأكفي ، وأبرُّ وأوفى ،  
ومقامكم عندنا العُدَّة التي بها نصول ونُرْهَب ، والعمدة التي نُطِيل في ذكرها  
ونُسْهِب ، وقد أوفدنا عليكم كل ما زاد لدينا ، أو فتح الله تعالى به علينا ،  
ونحن مهما شد المَخْتَق بكم نستنصر ، أو تراخى ففي ودكم نستبصر ، أو فتح  
الله تعالى فأبوابكم نهي ونبشر ، وقررنا عندكم أن العدو في هذه الأيام توقف  
عن بلاد المسلمين فلم تصل منه إليها سرية ، ولا بطشت له يد جريّة ، ولا  
افترعت من تلقائه ثنية ، ولا ندري المكيده تُدبّر ، أم آراء تُنفض بحول الله  
وتُتَبّر ، أو لشاغل في الباطن لا يظهر ، وبعد ذلك وردت على بابنا من بعض  
كبارهم ، وزعماء أقطارهم ، مخاطبات يندبون فيها إلى جنوحها للسلم في سبيل  
النصح ، لأياد سلفت مينا لهم قررنا ، ووسائل ذكرها ، فلم يخف عنا  
أنه أمر دُبّر بليّيل ، وخيبة تحت ذيل ، فظهر لنا أن نَسْبُر الغور ، ونستفسر  
الأمر ، فوجهنا إليه - على عادتنا مع سلفه - لنعتبر ما لديه ، وننظر إلى بواطن  
أمره ، ونبحث عن زيّد قومه وعمّره ، فتأتى ذلك وجرّ مفاوضة في الصلح  
أعدنا<sup>٢</sup> لأجلها الرسالة ، واستشعرنا البسالة ، ووازنّا الأحوال واختبرنا ،  
واعترزنا في الشروط ما قدّرنا ، ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل  
بها الأقوات المهمة للانتساف ، وتسكن<sup>٣</sup> ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف ،

١ ق ص : ويرد .

٢ ق : أعدنا .

٣ ص : وتسكين .

ونفرغ<sup>١</sup> الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف ، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته ، حتى يُظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته ، ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أدرنا ، وشموخ الأنف فيما أصدرنا ، إلا ما أشعنا من عزمكم على نُصرة الإسلام ، وارتقاب حقوق الأعلام ، والخفوف إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن الأرض حميةٌ لله تعالى قد اهتزت ، والنفرة<sup>٢</sup> قد غلبت النفوس واستفزت ، واستظهرنا بكتبكم التي تضمنت ضرب المواعد ، وشمرت عن السواعد ، وأن الخيل قد أطلقت إلى الجهاد في سبيل الله الأعينة ، والثنايا سدتها بروق الأسنة ، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون ، والأموال قد سمح بها المسلمون ، وهذه الأمور التي تمتت بقربها أو بعيدها أحوال الإسلام ، والأمانى المعدة لترجية الأيام ، ثم اتصل بنا الخبر الكارث بما كان من حور العزائم المؤمنة بعد كورها ، وتسويق مواعد النصرة بعد استشعار فورها ، وأن الحركة معنّاة إلى مراكش الجهة التي في يديكم زمامها ، وإليكم وإن تراخى الطول ترجع أحكامها ، والقطر الذي لا يفوتكم مع الغفلة ، ولا يعجزكم عن الصولة ، ولا يطلبكم إن تركتموه ، ولا يمنعكم إن طرقتموه وعركتموه ، فسقط في الأيدي الممدودة ، واختلفت المواعد المحدودة ، وخسئت الأبصار المرتقبة ، ورجفت المعازلُ الأشبية ، وساءت الظنون ، وذرقت العيون ، وأكذب الفضلاء الخبر ، ونفوا أن يعتبر ، وقالوا : هذا لا يمكنُ حيث الدين الحنيف ، والملك المنيف ، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم ، وحمّل النصيحة أعناقهم ، هذا المفترض الذي يبعد ، والقائم الذي يقعد ، يأباه الله تعالى والإسلام ، وتأباه العلماء والأعلام ، وتأباه المآذن والمنابر ، وتأباه الهمم والأكابر ، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبيل الذي إن كان باطلاً فهو الظن ، ولله المن ، وإن كان خلافه لرأي ترجح ، وتنفق بقرب الملك وتبجح ، فنحن نوفد كل من

١ ق : ونفرع .

٢ ص : والنمرة .

يقدم إلى الله تعالى بهذا القطر في شفاعته ، ويمد إليه كف ضراعة ، ومن يؤسمُ  
بصلاح وعبادة ، ويقصد في الدين بث<sup>١</sup> إفادة ، يتطرحون عليكم في نقض  
ما أبرم ، ونسخ ما أحكم ، فإنكم تجنون به على من استنصركم عكس ما  
قصد ، وتحلثون عليه ما عقّد ، وهب العذر يُقبل في عدم الإعانة ، وضرورة  
الاستعانة والاستكانة ، أي عذر يُقبل في الاطّراح ، والإعراض الصّراح ؟  
كأن الدين غير واحد<sup>٢</sup> ، كأن هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد ، كأن ذمام  
الإسلام غير جامع ، كأن الله غير راءٍ ولا سامع ، فنحن نسألکم بالله الذي  
تساءلون به والأرحام ، ونأنف لكم<sup>٣</sup> من هذا الإحجام ، ونتطرح عليكم  
أن تركوا حظكم في أهل تلك الجهة حتى يحكم الله بيننا وبين العدو الذي يتكالبُ  
علينا بإدباركم ، بعدما تضاعل لاستنفاركم ، ولا نكلفكم غير اقتراب داركم ،  
وما سامكم المسلمون بها شططاً ، وما حملوكم إلاّ قصداً وسطاً ، وما ذهبتم  
إليه لا يفوت ، ولا يبعد وقد تجاوزت البيوت ، إنّما الفاتت ما وراءكم ، من  
حديث نأنف من سماعه أوداًؤكم ، ودين يشمت به أعداؤكم ، فأسعفوا  
بالشفاعة فيمن بتلك الجهة المراكشية قصدنا ، وحاشا إحسانكم أن يرضى فيه  
ردّنا ، وأنتم بعدُ بالخيار فيما يجريه الله على يديكم من قدره ، أو يلهمكم إليه  
من نصره ، وجوابكم مرتقب بما يليق بكم ، ويحمل بحسبكم ، والله سبحانه  
يصل سعدكم ، ويجرس مجدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى  
وبركاته .

[ ٣ - رسالة على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس ]

ومن إنشاء لسان الدين أيضاً في مخاطبة سلطان فاس والمغرب على لسان

١ ص : بيث .

٢ كأن . . . واحد : سقطت من ص .

٣ لكم : سقطت من ق .

سلطان غرناطة فيما يقرب من الأنحاء السابقة ، ما نصّه :

المقامُ الذي أقمارُ سعدِهِ في انتظامِ واتّساقِ ، وحيادُ عزّه إلى الغاية القصوى ذاتُ استباقِ ، والقلوبُ على حبه ذاتُ اتفاقِ ، وعنايةُ الله تعالى عليه مدينةُ الرِّوَاقِ ، وأيديهِ الجمّةُ في الأعناقِ ، ألزمُ من الأطواقِ ، وأحاديثُ مجده سَمَرِ النوادي وحديثُ الرفاقِ ، مقامُ محلِّ أبينا الذي شأنُ قلوبنا الاهتمامُ بشانه ، وأعظمُ مطلوبنا من الله تعالى سعادةُ سلطانه ، السلطانُ الكذا ابنُ السلطانِ الكذا ابنُ السلطانِ الكذا ، أبقاه الله تعالى والصنائعُ الإلهيةُ تحطُّ ببابه ، والألطفُ الخفيةُ تُعرّسُ في جنبه ، والنصرُ العزيزُ يحفُّ بركابه ، وأسبابُ التوفيقِ متصلةُ بأسبابه ، والقلوبُ الشجيةُ لفراقه مسرورةُ بلبابه ، معظمُ سلطانه الذي له الحقوقُ المحتومةُ ، والفواضلُ المشهورةُ المعلومةُ ، والمكارمُ المسطورةُ المرسومةُ ، والمفاخرُ المنسوقةُ المنظومةُ ، الداعي إلى الله تعالى في وقايةِ ذاته المعصومةُ ، وحفظها على هذه الأمةِ المرحومةُ ، الأميرُ عبدُ الله يوسفُ ابنُ أميرِ المسلمين أبي الوليدِ إسماعيلِ ابنِ فرجِ بنِ نصرٍ : سلامُ كريمٍ ، طيبُ برِّ عميمٍ ، كما سَطَعَتْ في غَيْهَبِ الشدةِ أنوارُ الفرجِ ، وهبَّتْ نواصمُ أُلطافِ الله عاطرةُ الأرجِ ، يخصُّ مقامكم الأعلى ، ورحمةُ الله وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله جالي الظُّلَمِ بعدَ اعتكارها ، ومُقِيلِ الأيامِ من عِثارها ، ومُزَيِّنِ سماءِ الملكِ بشموسها المحتجبةِ وأقمارها ، ومريحِ القلوبِ من وَحْشَةِ أفكارها ، ومنشئِ سحابِ الرحمةِ على هذه الأمةِ بعدَ افتقارها ، وشدةِ اضطرابها واضطرابها ، ومُتَدَارِكِها باللطفِ الكفيلِ بتمهيدِ أوطانها وتيسيرِ أوطارها ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا ومولانا محمدِ رسولهِ صفوةِ النبوةِ ومُخْتَارِها ، ولُبَّابِ مجدها السامي ونِجارها ، نبيِّ الملاحمِ وخائضِ تيّارها ، ومُذْهِبِ رسومِ الفتنِ ومطفىءِ نارها ، الذي لم تَرُعْهُ الشدائدُ باضطرابِ بحارها ، حتى بلغت

١ ص : وفخارها .



كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها ، ووضوح آثارها ، والرضى عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على إحلاء الحوادث وإمرارها ، وباعوا نفوسهم في إعلاء دَعْوَتِهِ الخفيفة وإظهارها ، والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال السعادة واستمرارها ، وانسحاب العناية الإلهية وإسدال أستارها ، حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها ، وتعرض على مثابنتكم ذنوبها راغبة في اغتفارها ، فإننا كتبنا إليكم - كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحى الملوك من مواهب إسعاده ، وعرفكم عوارف الآلاء في إصدار أمركم الرفيع وإيراده ، وأجرى الفلّك الدوّار بحكم مراده ، وجعل العاقبة الحسنى كما وعد به في محكم كتابه المبين للصالحين من عباده - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، وليس بفضل الله الذي عليه في الشدائد الاعتماد ، وإلى كَنَفِ فضله الاستناد ، ثم ببركة جاه نبينا الذي وضع بهديته الرشد ، إلا الصنائعُ التي تُشام بَوَاقِ اللطف من خلالها ، وتخبرُ سيماما بطلوع السعود واستقبالها ، وتدُلّ مخايل يمنها على حسن مآلها ، لله الحمد على نعمه التي نرغب في كمالها ، ونستدرُّ عذب زلالها ، وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه ، والسرور بسعادة أيامه ، والدعاء إلى الله تعالى في إظهاره وإتمامه ، ما لا تنفي العبارةُ بأحكامه ، ولا تتعاطى<sup>١</sup> حَصْرَ أحكامه ، وإلى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه<sup>٢</sup> ، وصان سلطانكم وتولاه ، فقد علم الحاضر والغائب ، وخلص الخلوص الذي لا تغيره الشوائب ، ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب ، وأنا لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعِصْمَة ، وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة ، لا يستقر بقلوبنا القَرَار ، ولا تتأنى بأوطاننا الأوطار ، تشوقاً لما تُتِيحُه<sup>٣</sup> لكم الأقدار ، ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ،

١ ص ق : يتعاطى .

٢ ق : وعلاكم .

٣ ص ق : تشوقاً لما تنتجه .

ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشد على الأوقات ويقوّي، علماً بأن العاقبة للتقوى، وفي هذه الأيام عميت الأنباء، وتكالتت في البر والبحر الأعداء، واختلفت الفصول والأهواء، وعاشت الوراد الأنواء، وعلى ذلك من فضل الله الرجاء، ولو كنا نجد للاتصال بكم سبباً، أو نلقي لإعانتكم مذهباً، لما شغلنا البعد الذي بيننا اعتراض، والعدو بساحتنا في هذه الأيام ربّص، وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء راية خافقة، واقتنى منه في سوق الكساد بضاعة نافقة، الشيخ الأجل الأوفى، الأود الأخلص الأصفى، أبو محمد ابن أحبانا<sup>١</sup> سنّى الله مأموله، وبلغه من سعادة أمركم سُؤلّه، وقد ورد على بابنا، وتحيز إلى اللحاق بجنابنا، ليتيسر له من جهتنا القدوم، ويتأتى له بإعانتنا الغرض المرّوم، فبينما نحن ننظر في تميم غرضه، وإعانته على الوفاء الذي قام بمفترضه، إذ اتصل بنا خبر قرقورتين من الأجفان التي استعتم بها على الحركة، والعزيمة<sup>٢</sup> المقرنة بالبركة، حطت إحداهما بمرسى المنكب والأخرى بمرسى المريّة، في كنف العناية الإلهية، فتلقينا<sup>٣</sup> من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها، والأخبار التي يغني نصحها عن قياسها، وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر، وحرركم المعروفة باليمن والظفر، وأنكم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمن قلوبكم خائفها، ويؤلف طوائفها، ويسكن راجفها، ويصلح أحوالها، ويسكن أهوالها، وأنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور، والسعد الموفور، واليمن الرائق السفور، والأسطول المنصور، فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها، ونهوض طيور الرجاء من وكونها، واستبشار الأمة المحمدية منكم بقرّة عيونها، وتحقق ظنونها، وارتياح البلاد إلى دعوتكم التي ألبستها ملابس العدل والإحسان، وقلدتها قلائد السير الحسن، وما منها إلا من باح بما يخفيه من وجدّه، وجهر

١ ص : أجانا .

٢ ق ص : والعزيمة .

٣ ص : تلقينا .

بشكر الله تعالى وحمده ، وابتهل إليه في تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم  
 قصده ، واستثناس نور سعه ، وكم مظل الانتظار بديون آمالها ، والمطاولة من  
 اعتلالها . وأما نحن فلا تسألوا عن استشعر دنو حبيبه ، بعد طول مغيبه ، إننا  
 هو صدر راجعه فؤاده ، وطرف ألفه رقاد ، وفكر ساعده مراده ، فلما  
 بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى إنجاز ما بذلنا لخدمكم المذكور من الوعد ، واغتنمنا  
 ميقات هذا السعد ، ليصل سببه بأسبابكم ، ويسرع لحاقه بجنابكم ، فعنده  
 خدم نرجو أن ييسر الله تعالى أسبابها ، ويفتح ببيتكم الصالحة أبوابها ، وقد  
 شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالتشيع الكريم الوداد ، ونصل له  
 على بعد المزار ونزوح الأقطار سبب الاعتداد ، ما يغني عن القلم والمداد ، وقد  
 ألقينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد ، وكتبنا إلى من بالسواحل  
 من ولاتنا نخدمهم ما يكون عليه عملهم في بر من يرد عليهم من جهة أبوتكم  
 الكريمة ، ذات الحقوق العظيمة والأيادي الحديثة والقديمة ، وهم يعملون في  
 ذلك بحسب المراد ، وعلى شأكله جميل الاعتقاد ، ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق  
 العوائق الكبيرة ، والموانع الكثيرة ، والأعداء الذين دهييت بهم في الوقت  
 هذه الجزيرة ، ما قدمنا عملاً على اللحاق بكم ، والاتصال ببيتكم ، حتى  
 نوفي لأبوتكم الكريمة حقها ، ونوضح من المسرة طرقها ، لكن الأعذار واضحة  
 وضوح المثل السائر ، والله العالم بالسرائر ، وإلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح  
 لكم من التيسير طريقاً ، ويجعل السعد لكم مصاحباً ورفيقاً ، ولا يعدمكم عناية  
 منه وتوفيقاً ، ويتم سرورنا عن قريب بتعرف أنبائكم السارة ، وسعودكم  
 الدارة ، فذلك منه سبحانه غاية آمالنا ، وفيه أعمال ضراعتنا وسؤالنا ، هذا  
 ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرع البدار ، والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار ،  
 بسعادة ملككم السامي المقدار ، وييسر ما له من الأوطار ، ويصل سعدكم ،

ويحرس مجدكم ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ انتهى .  
وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس  
وسلاطين فاس كثيراً ما يدسُّ لأقارب الملوك القيامَ على صاحب الأمر ، ويزين  
له الثورة ، ويعيدهُ بالإمداد بالمال والعدة ، وقصدُه بذلك كله توهين المسلمين ،  
وإفساد تدبيرهم ، ونسخ الدول بعضها ببعض ، لما له في ذلك من المصلحة ، حتى  
بلغ أبعده الله تعالى من أمله الغاية .

[ ٤ - رسالة إلى السلطان المريني في الاعتذار عن فرار أبي الفضل المريني من غرناطة ]

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ، عن سلطان الأندلس  
إلى سلطان فاس المريني ، يعتذر عن فرار الأمير أبي الفضل المريني الذي كان  
مُعْتَقَلًا بغرناطة ، فتحيل الطاغية في أمره حتى خرج طالباً للملك ، مانصّه :  
المقام الذي شهد الليلُ والنهارُ بأصالة سعادته ، وجرى الفلكُ الدوّارُ بحكم  
إرادته ، وتعود الظفرَ بمن يناوئه فاطرد والحمد لله جريان عادته ، فوليه متحقق  
لإفادته ، وعدوه مرتقب لإبادته ، وحلّل الصنائع الإلهية تَضَفُّوْا على أعطاف  
مَجَادته ، مقامُ محلِّ أحنينا الذي سَهَّمُ سَعده صائب ، وأملُ مَنْ كاده خاسر  
خائب ، وسير الفلكِ المدار في مرضاته دائب ، وصنائعُ الله تعالى له تصحبها  
الألطف العجائب ، فسيان شاهد منه في عصمة وغائب ، السلطانُ الكذا ابن  
السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى مُسَدِّدَ السهم ، ماضي العزم ،  
تجلُّ سعوده عن تصور الوهم ، ولا زال مرهوبَ الحد ممثّل الرسم ، موفور  
الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسَم ، فائزاً بفلج الخصام عند لَدَدِ الخِصم ،  
معظم قدره ، وملترزم بره ، المبتهج بما يسببه الله تعالى له من إعزاز نصره ،  
وإظهار أمره ، فلان : سلام كريم ، طيب برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ،  
ومتابتمكم الفضلى ، التي حازت في الفخر الأمدَ البعيد ، وفازت من التأييد  
والنصر بالخط السعيد ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي فَسَّحَ لملككم الرفيع في العز مَدَى ، وعرفه عوارف  
آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوماً وغداً ، وحرس سماء علائمه بشُهَب من  
قَدَره وقضائه ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً ﴾ (الجن : ٩)  
وجعل نبح أعماله وحُسن مآله قياساً مطَّرداً ، فربَّ مريدٍ ضره ضره نفسه  
وهادٍ إليه أهدي وما هدى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه  
ورسوله الذي ملأ الكون نوراً وهُدَى ، وأحيا مراسم الحق وقد صارت  
طرائق قِدَاداً ، أعلى الأنام يدا ، وأشرفهم مَحْتِداً ، الذي بجاهه نلبس  
أثواب السعادة جُدُداً ، ونظفر بالنعيم الذي لا ينقطع أبداً ، والرضى عن آله  
وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنَّته عمداً ، وأوضحوا من سبيل اتِّباعه مقصداً ،  
وتقبلوا شيمه الطاهرة رُكَّعاً وسُجَّداً ، سيوفاً على من اعتدى ، ونجوماً لمن  
اهتدى ، حتى علت فروعُ ملتته صُعداً ، وأصبح بناؤها مديداً مخلداً ، والدعاء  
لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يتوالى مثنى وموَحِّداً ، كما جمع لملككم ما تفرق  
من الألقاب ، على توالي الأحقاب ، فجعل سيفكم سَفَاحاً وعلمكم منصوراً  
ورأيكم رشيداً وعزمكم مؤيدا ، فإنَّا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم صنعاً  
يشرح للإسلام خلكداً ، ونصراً يقيم للدين الخفيفِ أودا ، وعزماً يملأ أفئدة  
الكفر كهدا ، وجعلكم ممن هياً له من أمره رَشَداً ، ويسرَّ لكم العاقبة الحسنى  
كما وعد في كتابه العزيز والله أصدق مَوْعِداً - من حَمراء غرناطة حرسها  
الله ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استطلاع سعودكم في آفاق العناية ، واعتقاد  
جميل صنع الله في البداية والنهاية ، والعلم بأن ملككم تحدى من الظهور على  
أعدائه بآية ، وأجرى جياذ السعد في ميدان لا يحد بغاية ، وخرق حجاب  
المعتاد بما لم يظهر إلا لأصحاب الكرامة والولاية ، ونحن على ما علمتم من  
السرور بما يهز لملككم المنصور عِطفاً ، ويُسَدِّل عليه من العصمة سجفاً ،  
نقاسمه الارتياح لمواقع نعم الله تعالى نصفاً ونصفاً ، ونعقد بين أبناء مسرته  
وبين الشكر لله حِلْفاً ، ونعدُّ التشيع له ممَّا يُقَرِّبنا إلى الله زُلْفَى ، ونؤمل

من إمداده ونرتقب من جهاده وقتاً يُكفل به الدين ويكفي ، وتروى غل  
النفوس وتشفى .

وإلى هذا وصل الله سعدكم ، ووالى نصركم وعضدكم ، فإننا من لدُنْ  
صدَرَ عن أحيكم أبي الفضل ما صدر من الانقياد لحدّ الآمال ، والاعتراض  
بموارد الآل ، وقال رأيه في اقتحام الأهوال ، وتورط في هفوة حار فيها حيرة  
أهل الكلام في الأحوال ، وناصب من أمركم السعيد جبلاً قضى الله له بالاستقرار  
والاستقبال ، ومن ذا يزاحم الأطواد ويزحزح الجبال ؟ وأخلف الظن مِنّا  
في وفائه ، وأضمر عملاً استأثر عنا بإخفائه ، واستعان من عدو الدين بمُعين  
قلماً يبري لمن استنصر به زُنْد ، ولا خفّق لمن تولاه بالنصر بِنْد ، وإن الطاغية  
أعانه وأنجده ورأى أنه سهم على المسلمين سدّده ، وعَضِبَ للفتنة جرّده ،  
فسخر له الفُلْكَ ، وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك ، فأورده الهلك والظلم  
الحلك ، علمنا أن طيرَفَ سعادته كاب ، وسحاب آماله غير ذات انسكاب ،  
وقدم غيرته لم يستقر من السداد في عرّز ركاب ، فإن نجاح أعمال النفوس مرتبط  
بنيّاتها ، وغايات الأمور تظهر في بداياتها ، وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته  
لا تُجهل ، ومنْ غالب أمر الله خاب منه المُعوّل .

فبينما نحن نرتقب خسار تلك الصفقة المعقودة ، وخمود تلك الشعلة الموقودة ،  
وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الأخبار ، ويُهَيِّدُ طرف المسرات على  
أكف الاستبشار ، ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدار ، عن الود الواضح  
وُضُوح النهار ، والتحقّق بخلوصنا الذي يعلمه عالم الأسرار ، فأعاد في الإفادة  
وأبدى ، وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى ، فعلم منه مالٌ منْ رام  
أن يقده زند الشتات من بعد الالتئام ، ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركود  
القَتَام ، هيهات تلك قلادة الله تعالى التي ما كان يتركها بغير نظام ، ولم يدر

أنكم نصبتم له من الخزم حباله لا يُقْلِيْتها قَنِيص ، وسَدَدْتُم له من السعد سهماً ما له عنه من مَحِيص ، بما كان من إرسال جوارح الأسطول السعيد في مَطَارِه ، حائلاً بينه وبين أوطاره <sup>١</sup> ، فما كان إلا التسمية والإرسال ، ثم الإمساك والقتال ، ثم الاقتيات والاستعمال ، فإيا له من زجر استنطق لسان الوجود فجده <sup>٢</sup> ، واستنصر البحر فخذه ، وصارع القدر فجده <sup>٣</sup> لما جدَّ له ، وإن خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل <sup>٤</sup> غاية بعيدة ، ومنتسب إلى نصبة غير سعيدة ، وشانئ غمرته من الكفار ، خدام الماء وأولياء النار ، تحكمت فيهم أطراف العوالي وصدور الشفار ، وتحصل منهم من تحطاه الحِمام في قبضة الإسار ، فعجبنا من تيسير هذا المرام ، وإخماد الله لهذا الضرام ، وقلنا : تكيف لا يحصل في الأوهام ، وتسديد لا تستطيع إصابته السهام ، كلما قدح الخلاف زنداً أطفأ سعدكم شعلته ، أو أظهر الشتات أملاً أبرأ بمن طائرکم علته ، ما ذاك إلا لنية صدقت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت ، واسترسلت بركتها وسحت ، وجهاد نذرتموه إذا فرغت شواغلکم وتمت ، واهتمام بالإسلام يكفيه الخطوب التي أهمت ، فنحن نهنيكم بمنح الله ومنه ، ونسأله أن يلبسكم من عنايته أوقى جننه ، فأملنا أن تطرد آمالكم ، وتنجح في مرضاة الله أعمالكم ، فمقامكم هو العمدة التي يدفع العدو بسلاحها ، وتبليج ظلمات صفاحها ، وكيف لا نهنيكم بصنع على جهتنا يعود ، وبآفاقنا تطلع منه السعود ، فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذي رسومه قد استقلت واكتفت ، ودَيْمُهُ بساحة الود قد وكفت ، والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ، ولا يعدمكم عناية وسعادة ، وهو سبحانه يعلي مقامكم ، وينصر أعلامكم ، ويهيئ الإسلام أيامكم ، والسلام الكريم

١ ص : أوكاره .

٢ ق : فحده .

٣ ق : فخذه .

٤ ص : مذموماً .

يخصكم ، ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .  
وكان سلطان الأندلس في الأزمان المتأخرة كثيراً ما يشتم أَرَجَ الفَرَجَ في  
سِلْمِ الكفار ومهادنتهم ، حيث لم يقدر في الغالب على مقاومتهم ، ولذلك لما  
قُتِلَ السلطان أبو الحجاج الذي كان لسان الدين كاتبه ووزيره ، وقام بالأمر  
بعده ابنه محمد الغني بالله الذي ألقى مقاليد لسان الدين - أكد أمر السلم ،  
وانتظر ما يبرمه القضاء الجزم ، والقدر الحتم .

#### [ ٥ - رسالة على لسان الغني إلى أبي عنان ]

ومن إنشاء لسان الدين في ذلك على لسان الغني مخاطباً لسلطان فاس والمغرب  
أبي عنان ما صورته :

المقام الذي يغني عن كل مفقود بوجوده ، ويهز إلى جميل العوائد أعطاف  
بأسه وجوده ، ونستضيء عند إظلام الخطوب بنور سعوده ، ونرث من الاعتماد  
عليه أسنى ذخُر يرثه الولد عن آبائه وجلوده ، مقام محل أبينا الذي رَعِي الأذمة  
شانه ، وصلة الرعي سجية انفرد بها سلطانه ، ومواعيد النصر ينجزها زمانه ،  
والقول والفعل في ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه ، وتطابق  
فيهما إسراره وإعلانه ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ،  
أبقاه الله تعالى محروساً من غير الأيام جَنَابُهُ ، موصولةً بالوقاية الإلهية أسبابه ،  
مسدولاً على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه ، مصروفاً عنه من صرف  
القدر ما يعجز عن رده بَوَابُهُ ، ولا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التي تدخرها  
لأولادها أولياؤه وأحبابه ، ويسطر في صحف الفخر ثوابه ، وتشتمل على مكارم  
الدين والدنيا أثوابه ، وتتكفل بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام  
كتائبه وكُتَّابِهِ ، معظمٌ ما عَظُم من حقه السائر من إجلاله وشكر خلاله على  
لاحب طرفه ، المستضيء في ظلمة الخطب بنور أفقه ، الأميرُ عبدُ الله محمد ابن أمير



المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر : سلام كريم ، طيب برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي لا رادّ لأمره ولا معارض لفعله ، مصرف الأمر بحكمته وقدرته وعدله ، الملك الحق الذي بيده مِلاك الأمر كله ، مقدر الآجال والأعمار فلا يتأخّر شيء عن ميقاته ولا يسرّح عن محله ، جاعل الدنيا مناخ قلعة لا يغتبط العاقل بمائه ولا بظله ، وسبيل رحلة فما أكتب ظعنه من حله ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صفوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رُسُلِه ، الذي نعتصم بسببه الأقوى ونتمسك بحبّله ، ونمد يد الافتقار إلى فضله ، ونجاهد في سبيله من كذب به أو حاد عن سبّله ، ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله ، والرضى عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله ، المستولين من ميدان الكمال على خصله ، والدعاء لمقامكم الأعلى بعز نصره ومضاء فصله ، فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها ، وعصمة ترجع عنها سهام النوايب كلّما فوقها الدهر ورماما ، وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مُسمّاها ، وعزّاً يزاحم أجرام الكواكب منتماها - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ونعم الله سبحانه تتواتر لدينا دفعا ونفعا ، وألطفه نعرفها وترأ وشقعا ، ومقامكم الأبوي هو المستند الأقوى ، والمورد الذي تردّه آمال الإسلام فتسروى ، وتهوي إليه أفئدتهم فتجد ما تهوى ، ومثابنتكم العدة التي تأسست مبانيها على البر والتقوى .

وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم ، وأبقى مجدكم ، فإننا لما نعلم من مساهمة مجدكم التي تقتضيها كرام الطباع وطباع الكرم ، وتدعو إليها ذم الرعي ورعي الذم ، نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه ، وإمتاع المسلمين ببقائه ، بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله تعالى بالشهادة التي ألبسه حلتها ، والشهادة التي في أعماله الزكية كتبها ، والدرجة العالية التي حتمها له وأوجبها ، وبما تصير إلينا من أمره ، وضم بنا من نشره ، وسدك على من

خلفه من ستره ، وإنّها لعبرة لمن ألقى السمع ، وموعظة تهز الجمع وترسل  
الدمع ، وحادثة أجمل الله سبحانه فيها الدفع ، وشرح مجملها وإن أخرج اللسان  
هو لها ، وأسلم العبارة قوتها وحوّلها ، أنّه رضي الله تعالى عنه لما برز لإقامة  
سنّة هذا العيد ، مستشعراً شعار كلمة التوحيد ، مظهراً سِمَةَ الخضوع للمولى  
الذي تَضَرَّعَ بين يديه رقابُ العبيد ، آمناً بين قومه وأهله ، متسربلاً في حُلَل  
نعم الله تعالى وفضله ، قرير العين باكتمال عزّه واجتماع شمله ، قد احتسب  
بأقصى استطاعته ، واستظهر بخلُصان طاعته ، والأجلُ المكتوبُ قد حضر ،  
والإرادة الإلهية قد أنفذت القضاء والقدر ، وسجد بعد الركعة الثانية من صلّاته ،  
أتاه أمرُ الله ليقاته ، على حين الشبابُ غضُّ جلابُبه ، والسلاحُ زاخِرُ عُبَابُبه ،  
والدين بهذا القطر قد أُنِعَ بالأمن جنابه ، وأمرٌ من يقول للشيء كُن فيكون  
قد بلغ كتابه ، ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب ، وخلصت  
الرغبات إلى فضله المطلوب ، إلاّ شَقِيَّ قِيضه الله لسعادته غير معروف ولا  
منسوب ، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب ، تحلّل الصفوف المعقودة ،  
وتجاوز الأبواب المسدودة ، وخاض الجموع المشهودة ، والأمم المحشورة  
إلى طاعة الله المحشودة ، لا تدل العين عليه شارةٌ ولا بيزةٌ ، ولا تحمل على  
الحذر من مثله أنفةٌ ولا عزةٌ ، وإنّما هو خبيث ممرور ، وكلب عقور ،  
وحية سمّها وحيٌّ محذور ، وآلة مُصَرِّفةٌ لينفُذَ بها قدر مقلور ، فلما طعنه  
وأثبته ، وأعلق به شَرَكَ الحَيْنِ فما أفلته ، قبض عليه من الخلصان الأولياء  
منّ خبِر ضميره ، وأحكم تقريره ، فلم يُجب عند الاستفهام جواباً يُعقل ،  
ولا عثر منه على شيء عنه يُنقل ، لطفاً من الله أفاد براءة الذمم ، وتعاورته  
للحَيْنِ أيدي التمزيق ، وأتبع شلّوه بالتحريق ، واحتمل مولانا الوالد العزيز رحمه  
الله تعالى إلى القصر وبه ذمّاء لم يلبث بعد الفتكة العمريّة إلاّ أيسر من اليسير ،  
وتخلف الملك ينظر من الطّرف الحسير ، وينهض بالجنّاح الكسير ، وقد عاد جمع  
السلامة إلى التّكسير ، إلاّ أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب بأن أقامنا مقامه

لوقته وحِينِهِ ، ورفع بناء عماد ملكه ولمَّ شَعَثَ دِينِهِ ، وكان جميع من حضر  
المشهد من شريف الناس ومشروفهم ، وأعلامهم ولقيفهم ، قد جمعه ذلك  
الميقات ، وحضر الأولياء الثقات ، فلم تختلف علينا كلمة ، ولا شذت منهم  
عن بيعتنا نفس مسلمة ، ولا أخيف بري ، ولا حُنْدر جري ، ولا فُري فُري ،  
ولا وقع لبس ، ولا استوحشت نفس ، ولا نَبَّضَ للفتنة عرق ، ولا أغفل  
للدين حق ، فاستند النقل إلى نصه ، ولم يعدم من فقيدنا غيرُ شخصه ، وبادرنا  
إلى مخاطبة البلاد نمهدا ونسكُنْها ، ونقرر الطاعة في النفوس ونمكُنْها ، وأمرنا  
الناسَ بها بكف الأيدي ، ورَفَعِ التعدي ، والعمل من حفظ شروط المسألة  
المعقودة بما يُجْدي ، ومَنْ شَرِهَ منهم للفرار ، عاجلناه بالإنكار ، وصرفنا على  
النصارى ما أوصاه مصحبا بالاعتذار ، وخاطبنا صاحب قَشْتَالَة نرى ما عنده في  
صلة السلم إلى أمدها من الأخبار ، واتصلت بنا البيعات من جميع الأقطار ، وعَقَى  
على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار ، واستبَقُوا تطير  
بهم أجنحةُ الابتدار ، جعلنا الله تعالى ممَّنْ قابل الحوادث بالاعتبار ، وكان  
على حُدْر من تصاريف الأقدار ، واختلاف الليل والنهار ، وأعاننا على إقامة  
دينه في هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاغي والبحر الزخار ، وأهْمنا  
من شكره لما يتكفل بالمزيد من نعمه ، ولا قطع عنا عوائد كرمه .

وإن فقدنا والدنا فأنتم لنا من بعدهِ الوالد ، والذخر الذي تكرم منه العوائد ،  
والحُبُّ يتوارث كما ورد في الأخبار التي صحت<sup>٢</sup> منها الشواهد ، ومَنْ أَعَدَّ  
مثلكم لبنيه ، فقد تيسرت من بعد الممات أمانيه ، وتأسست قواعد ملكه وتشيدت  
مبانيه ، فالاعتقاد الجميل مَوْضُوعٌ ، والفروع لها في التشيع إليكم أصول ، وفي  
تقرير فخركم محصول ، وأنتم رِدْء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذي يعينهم

١ ص : للفوار .

٢ ق:ص : وضحت .

بإرفاده ، وينصرهم بإنجاده ، ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده .

وعندما استقر هذا الأمر الذي تبعت المحنة فيه المنحة ، وراقت من فضل الله تعالى ولطفه فيه الصفحة ، وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم وأعيانهم ، وتزاحمت على رقعتها المنشور خطوطُ أيمانهم ، وتأصلت قواعدُ ألفاظها ومعانيها في قلوبهم وآذانهم ، وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خبَرَ سَلَفُنَا والحمد لله وفاء ضمانهم ، بادرنّا تعريفَ مقامكم الذي نعلم مساهمته فيما ساء وسرّ وأحلى وأمرّ ، عملاً بمقتضى الخلوص الذي ثبت واستقر ، والحب الذي ما مال يوماً ولا ازورّ ، وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور ، وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادي السّفور ، وإن كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر لإعلامكم بالأمر ، إلاّ أنّه أمرٌ له ما بعده ، وحادث يأخذ حده ، ونبعث إلى بابكم من شاهد الحال ما بين وقوعها إلى استقرارها رأي العيان ، وتولى تسديد الأمور بأعماله الكريمة ومقاصده الحسان ، ليكون أبلغ في البر وأشرح للصدر وأوعب للبيان ، فوجهنا إليكم وزير أمرنا ، وكاتب سرنا ، الكذا أبا فلان ، وألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى ، واستنادنا من التشيع إليه إلى الركن الوثيق المبنى ، ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأعنى ، والثمرة العذبة المسجنى ، فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد الذي هو أساس بنائنا ، وقامع أعدائنا ، آثرنا توجيهه على توفر الاحتياج إليه ، ومدار الحال عليه ، والمرغوب من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالي ، والخلافة السامية المعالي ، والله عز وجل يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالي ، ويحفظ مجدكم من غير الأيام والليالي ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويوالي نصركم وعضدكم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

١ ق : فضله .

وقوله في هذه الرسالة « فوجهنا إليكم وزير أمرنا - إلى آخره » هو لسان الدين رحمه الله تعالى ، إذ هو كان الوزير إذ ذاك والسفير في هذه القضية ، ومن صفحات هذا الكلام يتضح لك ما نال لسانُ الدين رحمه الله تعالى من الرياسة والجاه ونفوذ الكلمة بالأندلس وبالمغرب رحمه الله تعالى ، وقد أكرمه السلطان أبو عنان في هذه الوفادة وغيرها غاية الإكرام ، وكان المقصود الأعظم من هذه الوفادة استعانة سلطان الأندلس الغني بالله بالسلطان أبي عنان على طاغية النصارى ، كما ألمعنا بذلك في الباب الثاني من القسم الثاني الذي يتعلق بلسان الدين . وكان السلطان أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن معتنياً بالأندلس غاية الاعتناء ، وخصوصاً بجبل الفتح ، حتى إنّه بلغ من اهتمامه به أن أمرَ عليه ولده أبا بكر السعيد ، وهو الذي تولى الملك بعده .

#### [ ٦ - رسالة عن الغني إلى الأمير السعيد ]

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى على لسان سلطانه ما خاطب به الأمير السعيد المذكور إذ قلّده والده جبل الفتح ، وهو :

الإمارةُ التي أشرق في سماء الملك شهابُها ، واتصلت بأسباب الغز أسبابها ، واشتملت على الفضل والطهارة أثوابها ، وأجّلت قِدَاحُ المفاخر فكان إلى جهة الله تعالى انتدابها ، إمارةٌ محلّ أخينا الذي تأسّس على مرضاة الله تعالى أصيلُ فخره ، واتّسم بالمُرابط المجاهد على اقتبال سنه وجيدة عمره ، وبدأ بفضل الجهاد صحيفةَ أجره ، وافتتح بالرباط والصلاح ديوانَ نبيه وأمره ، لما يسّره من سعادة نصّبته وحباه من عز نصره ، الأمير الأجل الأعز الأرفع الأسنى الأطهر الأظهر الأمنع الأصعد الأسمى الموفق الأرضي ، محلّ أخينا العزيز علينا ، المُهداة أبناء مأمول جواره إلينا ، أبي بكر السعيد ابن محلّ والدنا الذي مقاصده للإسلام وأهله على مرضاة الله تعالى جارية ، وعزائمه على نصّر الملة الحنيفة

متبارية ، السلطان الكذا أبو عنان ابن السلطان الكذا أبي الحسن ابن السلطان الكذا  
أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق ، أبقاه الله تعالى سديدة آرائه ناجحة  
أعماله ، ميسرة أغراضه من فضل الله تعالى متممة آماله ، رحيماً في السعد مجاله ،  
يكنفه من الله تعالى ومحل أينا غمام وارفة ظلالة ، هامر نواله ، حتى يرضي  
الله تعالى مصاعه بين يديه ومصاله ، وتمضي في الأعداء أمام رايته المنصورة  
نصاله ، أخوه السرور بقره ، المنظوي على مضمر حبه ، أمير المسلمين محمد  
ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر :  
سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص أخوتكم الفضلى ، وإمارتكم التي آثار فضلها  
بحول الله تتلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله على ما كيف من أظافه المشرقة الأنوار ، ويسره لهذه  
الأوطان بنصرته من الأوطار ، فكلما دجت بها شدة طلع الفرج عليها طلوع  
النهار ، وكلما اضطرب منها جانب أعاده بفضل الله تعالى من أقامه لذلك واختاره  
إلى حال السكون والقرار ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله  
المصطفى المختار ، الذي أكد عليه جبريل صلوات الله عليه حق الجوار ، حتى  
كاد يُلحقه بالوسائل والقرب الكبار ، الذي وصانا بالالتزام ، واتصال اليد  
في نصرة الإسلام ، فنحن نقابل وصاته بالبيدار ، ونجري على نهجه الواضح  
الآثار ، ونرتجي باتباعه الجمع بين سعادة هذه الدار وتلك الدار ، والرضى  
عن آله وأصحابه ، وأنصاره وأحزابه ، أكرم الآل والأصحاب والأحزاب  
والأنصار ، الذين كانوا كما أخبر الله تعالى عنهم على لسان الصادق الأخبّار ،  
رُحماء بينهم أشدّاء على الكُفّار ، والدعاء لإمارتكم السعيدة السعيدية  
بالتوفيق الذي تجري به الأمور على حسب الاختيار ، والعز المنيع الدّمار ،  
والسعد القويم المدّار ، والوقاية التي يأمن بها أهلها من السرار ، فإننا كتبناه إليكم  
— كتب الله تعالى لكم أسنى ما كتب للأمرء الأرضياء الأخيار ، ومتعمكم من  
بقاء والدكم بالعدة العظمى والسيرة الرحمى والجلال الرفيع المقدار — من حمراء

عَرْنَا طة حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله صلى الله عليه وسلم الذي أوضح برهانه إلا الألف باهرة ، وعناية من الله تعالى باطنة وظاهرة ، وبشارة بالقبول واردة وبالشكر صادرة ، والله تعالى يصل لدينا نعمه ، ويوالي فضله وكرمه .

وإلى هذا فإننا اتصل بنا في هذه الأيام ما كان من عناية والدكم محلّ أبينا أبقاه الله تعالى بهذه البلاد المستندة إلى تأميل مجده ، وإقطاعها الغاية التي لا فوقها من حسن نظره وجميل قصده ، وتعيينكم إلى المقام بجبل الفتح إبلاغاً في اجتهاده الديني وجدّه ، فقلنا : هذا خبر إن صدق مُخْبِرُه ، وتحصّل منتظره ، فهو فخر تجددت أثوابه ، واعتناء تفتحت أبوابه ، وعمل عند الله تعالى ثوابه ، فإن الأندلس - عصمها الله تعالى - وإن أنجدته عُدُدُه وأمواله ، ونجحت في نصرها مقاصده الكريمة وأعماله ، لا تدري موقع النظر لها من نفسه ، وزيادة يومه في العناية على أمسه ، حتى يسمح لها بولده ، ويخصها بقرة عينه وفليضة كبده ، فلمّا ورد منه الخبر الذي راقته منه الحبير ، ووضحت من سعادته الغرر ، بإجازتكم البحر ، واختياركم في حال الشيبة الفخر ، وصدق مخيلة الدين فيكم ، واستقراركم في الثغر الشهير الذي افتتحه سيفُ جدّكم واستنقذه سعدُ أبيكم ، سررنا بقرب المزار ، ودنو الدار ، وقابلنا صنع الله تعالى بالاستبشار ، ووثقنا وإن لم نزلْ على ثقة من عناية الله تعالى وعناية محل والدنا بهذه الأقطار ، وحمدنا الله تعالى على هذه الآلاء المشرقة ، والنعم المُغْدِقة ، والصنائع المتألّقة ، بادرنا نهني أُخوتكم أولاً بما يسره الله تعالى لكم من سلامة المجاز ، ثم بما منحكم الله تعالى من فضل الاختصاص بهذا الغرض والامتياز ، فإمارتكم الإمارة التي أخذت بأسباب السماء ، وركبت إلى الجهاد في سبيل الله تعالى جياذ الخيل والماء ، وأصبحت على حال الشيبة شجاً في حلق الأعداء ، ونحن أحقُّ بهذا

١ منه : زيادة من ق .

الهناء ، ولكنها عادة الود وسنة الإخاء ، فالله عزّ وجل يجعله مقدماً ميمون الطائر ، متهلل البشائر ، تنهللُ بصنع الله بعده وجوه القبائل والعشائر ، ويجري خبر سعادتكُم مجرى المثل السائر ، ويشكر محل والدنا فيما كان من اختياره ، ومزيد إثارة ، ويجازيه جزاء من سمح في ذاته بمظنة ادّخاره ، ومذ رأينا أن هذا الغرض لا يجتري فيه بالكتابة ، دون الاستنابة ، وجّهنا لكم من يقوم بحقه ، ويجري من تقرير ما لدينا على أوضح طُرُقِهِ ، وهو القائد الكذا ، ومجددكم يُصنغي لما يلقيه ، ويقابل بالقبول ما من ذلك يؤديه ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويجرس مجدكم ، والسلام ؛ انتهى .

وكان الطاغية الملعون أيام السلطان أبي عنان رحمه الله تعالى نازلَ جبل الفتح ثم كفى الله تعالى شرّه في ذلك التاريخ .

#### [ ٧ - من أبي الحجاج إلى أبي عنان ]

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب أبا عنان سلطان فاس والمغرب وذلك بما نصّه :

المقامُ الذي رمى له الملكُ الأصيلُ بأفلاذه ، وأدّى منه الإسلام إلى ملجئه الأحمى وملاذه ، وكفلت السعودُ بإمضاء أمره المطاع وإنفاذه ، وشأى حلبة الكرم فكان وحيد آحاده وقدّ أفذاذه ، وابتدع غرائب الجود فقال لسان الوجود : نعمت البدعة هذه ، مقامُ محل أخينا الذي أركانُ مجده راسية راسخة ، وغرر عزّه بادية باذخة ، وأعلام فخره سامية شامخة ، وآيات سعده محكمة ناسخة ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاهُ الله تعالى يجري بسعده الفلكك ، ويجلي بنور هديه الحلكك ، ويسطر حسنات ملكه الملكك ، ويشهد بفضل بأسه



ونداه النادي والمعترك . مُعْظَمُ حقوقه التي تأكد فرضها ، المُثَنِّي على مكارمه التي أعيأ الأوصاف البليغة بعضها ، أميرُ المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر : سلام كريم ، طيب برِّ عميم ، ينخص أخوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أمّا بعد حمد الله الذي هيأ لمة الإسلام ، بمظاهرة ملككم المنصور الأعلام ، إظهاراً وإعزازاً ، وجعل لها العاقبة الحسنى بيئتم مقامكم الأسنى تصديقاً لدعوة الحق وإنجازاً ، وسهّل لها بسعدكم كل صعّب المرام وقد سامتها صروف الأيام ليأ وإعوازاً ، وأتاح لها منكم ولياً يسوم أعداءها استلاباً وابتزازاً ، ويسكن آمالها وقد استشعرت انخفازاً ، حمداً يكون على حلل النعم العميمة والآلاء الكريمة طرازاً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي بهرت آياته وضوحاً وإعجازاً ، واستحقت الكمال صفاته حقيقة لا مجازاً ، ونبيّه الذي بين للخلق أحكام دينه الحق امتناعاً وجوازاً ، ويسّر لهم وقد ضلّوا في مفاوز الشك مفازاً ، والرضى عن آله وأصحابه المستولين على ميادين فضائل الدنيا والدين اختصاصاً بها وامتيازاً ، فكانوا غيوثاً إن وجلدوا محللاً وليوثاً إن شهدوا براراً ، والدعاء لمقام أخوتكم الأسمى بنصرٍ على أعدائه تُبدي له الجياد الجرد ارتياحاً والرماح المُلد اهتزازاً ، وعزّ يطأ من أكناف البسيطة وأرجائها المحيطة سهلاً وعزازاً ، ويؤمن يشمل من بلاد الإيمان أقطاراً نازحة ويعمُّ أحوازاً ، وسعد تجول في ميدان ذكره المذاع أطراف أسنة اليراع إسهاباً وإيجازاً ، وفخر يجوب جيوب الأقطار جوب المثل السيّار عراقاً وحجازاً ، ولا زالت كتابُ سعدٍ تنتهز فرص الدهر انتهازاً ، وتوسع مملكات الكفر انتهازاً واحتيازاً ، فإنّا كتبناه إلى مقامكم - كتب الله تعالى لكم سعداً ثابت المراكز ، وعزّاً لا تلين قناته في يد الغامز ، وثناء لا يثني عنان سراه عرض المفاوز ، وصنعاً رحيب الجوانب

رغيب الحواثر - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وفضله ، عز وجل ،  
قد أدال العسر يسراً وأحال القبض بسطاً ، وقرب نوازي الآمال بعد أن تئات  
ديارها شحظاً ، ورأض مركب الدهر الذي كان لا يلين لمن استمطى ، وقرب  
غريم الرجاء في هذه الأرجاء وكان مشتطاً ، والتوكل عليه سبحانه وتعالى قد أحكم  
منه اليقين والاستبصار المبين ربطاً ، ومشروط المزيد من نعمه قد لزم من الشكر  
شرطاً ، ومقامكم هو عُدّة الإسلام إذا جدّ حفاظه ، وظلّه الظليل إذا لفتح  
للكفر شواطئه ، وملجؤه الذي تنام في كنف أمنه أيقاظه ، ووزره الذي إلى  
نصره تمدّ أيديه وتشير أخطاه ، ففي أرجاء ثنائه تسرح معانيه وألفاظه ،  
ولخطب تمجيدته وتحميده يقول قُسه وتحتفل عكاظه ، وتشيعنا إلى ذلك الجنب  
الكريم طويل عريض ، ومقدمات ودنا إياه لا يعترضها نقيض ، وأفلاك  
تعظيمنا له ليس لأوجها الرفيع حضيض ، وأنوار اعتقادنا الجميل فيه يشف سواد  
الخبير عن أوجهها البيض .

وإلى هذا - ألبسكم الله تعالى ثوب السعادة المعادة فضفاضاً ، كما صرف  
ببركة إياتكم الكريمة على ربوع الإسلام وجوه الليالي والأيام وقد ازورت إغراضاً  
وبسطت آمالها وقد استشعرت انقباضاً - فإتنا ورد علينا كتابكم الذي كرم  
أنحاء وأغراضاً ، وجالت البلاغة من طرسه الفصيح المقال رياضاً ، ووردت  
الأفكار من معانيه الغرائب وألفاظه المزرية بدّرر النحور والترائب بحوراً  
صافيةً وحياضاً ، فاجتلتنا منه حلة من حلال الود سابعة ، وحجة من حجج  
المجد بالغة ، وشمساً في فلك السعد بازغة ، الذي بين المقاصد الكريمة وشرحها ،  
وجلا الفضائل العميمة وأوضحها ، فما أكرم شيم ذلك الجلال وأسمحها ،  
وأفضل خلال ذلك الكمال وأرجحها ، حثم فيه على إحكام السلم التي تحوط  
الأنفس والحريم بسياج ، ويُدأوى القطر العليل منها بأنجع علاج ، والحال ذات  
احتياج ، وساحة الجبل عصمه الله تعالى ميدان هياج ، ومتبوّأ أعلاج ،  
ومظنة اختلاف الظنون الموحشة واختلاج ، فحضر لدينا محتمله وزيركم الشيخ

الأجل الأعظم الموقر الأسمى الخاصة الأحظى أبو علي ابن الشيخ الوزير الأجل الحافل الفاضل المجاهد الكامل أبي عبد الله ابن محلي والشيخ الفقيه الأستاذ الأعراف الفاضل الكامل أبو عبد الله ابن الشيخ الفقيه الأجل العارف الفاضل الصالح المبارك المبرور المرحوم أبي عبد الله الفشتالي ، وصل الله سبحانه سعادتكما ، وحرس مجادتهما ، حالّين من مراتب ترفيعنا أعلى محل الإعزاز ، وواردين على أحلى القبول الذي لا تُشَاب حقيقته بالمجاز ، عملاً بما يجب علينا لمن يصل إلينا من تلك الأنحاء الكريمة والأحواز ، فتلقينا ما اشتملت عليه الإحالة السلطانية من الود الذي كرم مفهوماً ونصاً ، والبر الذي ذهب من مذاهب الفضل والكمال الأمد الأقصى ، وقد كان سبقهما صنع الله جلّ جلاله بما أحلف الظنون ، وشرح الصدور وأقر العيون ، فلم يصل إلينا إلا وقد أهلك الله تعالى الطاغية ، ومزق أجزائه الباغية ، نعمة منه سبحانه وتعالى ومنّة ملأت الصدور انشراحاً ، وعمت الأرجاء أفراحاً ، وعنواناً على سعد مقامكم الذي راق غرراً في المكرمات وأوضاحاً ، ومد يده إلى سهام المواهب الإلهية فحاز أعلاها قداحاً ، فتشوّفت نفوس المسلمين إلى ما كانت تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ، وبدت في القضية التي أشرتم بأعمالها الوجوه ، وانبعثت الآمال بما آلت إليه هذه الحال انبعثاً ، والثابت أمور العدو قصمه الله تعالى الثباتاً ، وانتفض غزله من بعد قوته بفضل الله تعالى أنكاثاً ، واحتملت المسألة التي تفضلتم بعرضها وأشرتم إلى فرضها مأخذاً وأبحاثاً ، فألقينا في هذه الحال إلى رسوليكم أعزهما الله تعالى ما يلقيانه إلى مقامكم الأعلى ، ومثاببتكم الفضلى ، وما يتزيد عندنا من الأمور فركائب التعريف بها إليكم محثوة ، وجزئياتها بين يدي مقامكم الرفيع مبثوثة . وقد اضطربت أحوال الكفر وفالت آراؤه ، واستحكم بالشتات داؤه ، وارتجّت بزلزال الفتن

١ ق : الماجد .

٢ ق : فتشوّفت .

أرجاؤه ، وتيسرت آمالُ الإسلام بفضل الله تعالى ورجاؤه ، وما هو إلا السعد  
يذلل لكم صعب العدو ويروضه ، والله سبحانه يهيء لكم فضل الجهاد حتى  
تُقضى بكم فروضه .

وأما الذي لكم عندنا من الخلوص الصافية شرائعه ، والثناء الذي هو الروض  
تأرجح ذائعه ، فأوضح من فلق الصبح إذا أشرقت طلائعه ، جعله الله تعالى في  
ذاته ، ووسيلةً إلى مرضاته ؛ ورسولاكم يشرح لكم الحال بجزئياته ، ويقرر ان  
ما عندنا من الود الذي سطر نور آياته ، وهو سبحانه وتعالى يصل لكم سعداً سامي  
المراتب والمراتي ، ويجمع لكم بعدَ بُعدِ المدى وتمهيد دين الهدى بين نعيم  
الدنيا والنعيم الباقي ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

#### [ ٨ - رسالة عن يوسف النصري ]

وأبين من هذا في القضية كتابٌ آخر من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى  
صورته :

من أمير المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن  
فرج بن نصر ، إلى محل أختنا الذي نُثني على مجادته أكرمَ الثناء ، ونجدد  
له ما سلف بين الأسلاف الكرام من الولاء ، ونُتخِفه من سعادة الإسلام وأهله  
بالأخبار السارة والأنباء ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، الكذا ،  
أبقاه الله تعالى رفيعَ المقدار ، كريمَ المآثر والآثار ، وعرفه من عوارف فضله  
كلّ مُشرق الأنوار ، كفيل بالحسنى وعقبي الدار : سلام كريم ، برّ عميم ،  
يخص جلالكم الأرفع ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على عميم آلائه ، وجزيل نعمائه ، مُيسر الصعب بعد  
إبائه ، والكفيل بتقريب الفرج وإدائته ، له الحمد والشكر ملء أرضه وسمائه ،  
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله الكرام وأنبيائه ، الهادي إلى  
سبيل الرشد وسوائه ، مُطلع نور الحق يجلو ظلّم الشك بضياته ، والرضى

عن آلِه وأصحابه وأنصاره وأحزابه وخُلَفَائه ، السائرين في الدنيا والآخرة تحت لوائه ، الباذلين نفوسهم في إظهار دينه القويم وإعلانه ، والدعاء لمقامكم بتيسير أمله من فضل الله سبحانه ورجائه ، واختصاصه بأوفر الحظوظ من اعتنائه ، فإننا كتبناه إليكم - كتبكم الله تعالى فيمن ارتضى قوله وعمله من أوليائه ، وعرفكم عوارف السعادة المعادة في نهاية كل أمر وابتدائه - من حمراء غرناطة ، حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم الذي أوضح برهانه ، وعظم أمره ورفع شأنه ، ثم بما عندنا من الود الكريم وتجديد العهد القديم لمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه ، إلاّ الخير الهامي السحاب ، واليسر المتين الأسباب ، واليسر المتفتح الأبواب ، والسعد الجديد الأثواب ، ومقامكم معتمد بترفع الجنب ، متعهد بالود الخالص والاعتقاد اللبّاب ، معلوم له من فضل الدين وأصالة الأحساب .

وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم مديد الأطناب ، ثاقب الشهبان ، وأطلع عليكم وجوه البشائر سافرة النقاب ، فإنه قد كان بلغكم ما آلت الحال إليه بطاغية قشتالة الذي كلب على هذه الأقطار الغربية من وراء البحار ، وما سامها من الإرهاق والأضرار ، وأته جرى في ميدان الإملاء والاغترار ، ومُحصّ المسلمون على يده بالوقائع العظيمة الكبار ، وأنه نكث العهد الذي عقده ، وحل الميثاق الذي أكدّه ، وحمله الطمع الفاضح على أن أجلب على بلاد المسلمين بخيله ورجله ، ودَهَمَها بتيار سيّله وقطع ليله ، وأمل أن يستولي على جبل الفتح الذي يدعى منه فتحها ، وطلع للملة المحمدية صُبْحُها ، فضيقه حصاراً ، واتخذ داراً ، وعندما عظم الإشفاق ، وأظلمت الآفاق ، ظهر فينا لقدرة الله تعالى الصنع العجيب ، ونزل الفرج القريب ، وقبيل الدعاء السميع المجيب ، وطرق الطاغية ، جند من جنود الله تعالى أخذه أخذة رابية ، ولم يبق له من باقية ، فهلك على الجبل حتف أنفه ، وغالته غوائل حتفه ، ففرقت جموعه وأحزابه ، وانقطعت أسبابه ، وتعجل لنار الله تعالى مآبه ، وأصبحت البلاد

مستبشرة ، ورحمة الله منتشرة ، ورأينا أن هذه البشارة التي يأخذ منها كل مسلم بالنصيب الوفور ، ويشارك فيما جلبته من السرور ، أنتم أولى من نُحْفِهِ بطيب رِيَّاهَا ، ونطلع عليه جميلَ مُحْيَاهَا ، لما تقرّر عندنا من دينكم المتين ، وفضلكم المبين ، وعملكم من المساهمة على شاكلة صالحى السلاطين ، فما ذلك إلاّ فضل نيتكم للمسلمين في هذه البلاد ، وأثر ما عندكم من جميل الاعتقاد .

وقد ورد رسولنا إليكم القائد أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح ، أعزّه الله تعالى ، مقررّاً ما لديكم من الود الراسخ القواعد ، والخلوص الصافي الموارد ، الواضح الشواهد ، وأثنى على مكارمكم الأصيلة ، وألقى ما عندكم من المذاهب الجميلة ، فقابلنا ذلك بالشكر الذي يتصل سببه ، ويتضح مذهبه ، وسألنا الله أن يجعله ودّاً في ذاته ، ووسيلة إلى مرضاته ، وتعرفنا ما كان من تفضلكم بالطريفة المفتوحة المؤخر ، وما صدّر عن الرئيس المعروف بالناظر من خدام دار الصنعة بالمرية من قبح محاولته ، وسوء معاملته ، فأمرنا بقطع جرابته ، وثقافه بمطمورة القصبه جزاء لحنائته ، ولولا أننا توقفنا أن يكون عظيم عقابه ممّا لا يقع من مقامكم بوقفه ، لمشهور عفافه ورفقه ، بلعلناه نكالاً لأمثاله ، وعبرة لأشكاله ، وقد وجهنا جفنّاً سفريّاً لإيساق الخيل التي ذكرتم ، وإيصال ما إليه من ذلك أشرتم ، ويكمل القصد إن شاء الله تعالى تحت لحظ اعتنائكم ، وفضل ولائكم . هذا ما تزيد عندنا عرفناكم به ، عملاً على شاكلة الود الجميل ، والولاء الكريم الجملة والتفصيل ، فعرّفونا بما يتزيد عندكم يكن من جملة أعمالكم الفاضلة ، ومكارمكم الحافلة ، والله تعالى يَصِيلُ سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

[ ٩ - رسالة في حاجة الأندلس إلى برّ العُدوة ]

ومن إنشاء لسان الدين فيما يتعلّق بالأندلس وانقطاعها ، وأنها لا غنى لها عن العُدوة وغير ذلك ، ما صورته :

المقامُ الذي بنور سعادته تنجلي الغمَّاء وتتصل النعماء ، مَنْ نيتُهُ قد حصل منها لجانب الله تعالى الانتماء ، واتفقت منها المسمياتُ والأسماء ، مقامُ محل أينا الذي تنفياً هذه الجزيرة الغربية أفياء نيته الصالحة وعمله ، وثق بحسن العاقبة اعتماداً على وعد الله تعالى المنزل على خيرة رُسُلِهِ ، وتجتني ثمار النُجج من أفنان آرائه المتألِّقة تألَّق الصبح حالِي رَيْثِهِ وعَجَلِهِ ، وتتعرف حالي المودود والمكروه عارفة الخير والخيرة من قبله ، أبقاه الله تعالى يحسم الأدوية كلما استَشْرَتْ ، ويحلي موارد العافية كلما أمرتْ ، ويعفِّي على آثار الأطماع الكاذبة مهما خدعت بحُلْبِهَا وغرَّتْ ، ويضمن سعدهُ عودةَ الأمور إلى أفضل ما عليه استقرتْ ، معظمم مقامه الذي هو بالتعظيم حقيق ، وموقر ملكه الذي لا يلتبس منه في الفخر والعز طريق ، ولا يختلف في فضله العميم ومجده الكريم فريق .

أمَّا بعدَ حمدِ الله المثير المعاقب ، الكفيل لأهل التقوى بحسن العواقب ، المشيد بالعمل الصالح إلى أرفع المراقي والمرآق ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء فيقضائه وقدره اختلاف المسالك والمذاهب ، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسولنا الحاشر العاقب ، ونبيّه الكريم الرؤوف الرحيم ذي المفاخر السامية والمناقب ، والرضى عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه الذين ظاهروه في حياته بإعمال السُمُر العوالي والبيض القواضب ، وخلفوه في أمته بخلوص الضمائر عند شوب الشوائب ، فكانوا في سماء ملته كالنجوم الثواقب ، والدعاء لمقامكم الأسمى بالسعادة المعادة في الشاهد من الزمن والغائب ، والنصر الذي يقضي بعز الكتاب ، والصنع الذي تطلع من ثناياهُ غرر الصنائع العجائب ، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من الاعتداد بمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه ، وشمل بالتمهيد أوطانه ، إلاّ تشييع ثابت ويزيد ، وإخلاص ما عليه في ميدان الاستطاعة مزيد ، وتعظيم أشرف منه جيد ، وثناء راق فوق رياضه تحميد وتمجيد .

وإلى هذا وصلَّ اللهُ تعالى سعدكم ، وحرس الطاهر الكريم مجدكم ، فقد

وصلنا كتابكم الذي هو على الخلوص والاعتقاد عنون ، وفي الاحتجاج على الرضى والقبول برهان ، تنطق بالفضل فصوله ، وتشير إلى كرم العقد فروعه الزكية وأصوله ، ويحق أن ينسب إلى ذلك الفخر الأصيل فَحْصُولُهُ ، عرفتمونا بما ذهب إليه عيسى بن الحسين من الخلاف الذي ارتكبه ، وسبيل الصواب الذي انتكبه ، وتنبهون<sup>١</sup> على ما حده الحق في مثل ذلك وأوجهه ، حتى لا يصل أحد من جهتنا سببه ، ولا يظاھره مهما ندبه ، ولا يسعف في الإيواء طلبه ، فاستوفينا ما استدعاه ذلك البيان الصريح وجلبه ، وخطه القلم الفصيح وكتبه ، وليعلم مقامكم وهو من أصالة النظر غني عن الإعلام ، ولكن لا بد من الاستراحة بالكلام ، والتنفس بنفثات الأقلام ، أتنا إنما نجري أمورنا مع هذا العدو الكافر الذي رُمينا بجواره ، وبُلينا والحمد لله بمصادمة تيّاره ، على تعداد أقطاره ، واتساع برّاريه وبحاره ، بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق ، وأسواق النفاق غير ذات نفاق ، والجماهير تحت عهد الله تعالى وميثاق ، فمهما تعرفنا أن اثنين اختلفت منهما بالعدوتين عقّد ، ووقع بينهما في قبول الطاعة رد ، ساءنا واقعه ، وعظمت لدينا مواقعه ، وسألنا أن يتدارك الخرق راقعه ، لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا ، وتفرض العدو إلى ضرنا ، فكيف إذا وقعت الفتنة في صقعنا وقطرننا ، إنما هي شعلة في بعض بيوتنا وقعت ، وحادثة إلى جهتنا أشرعت<sup>٢</sup> ، وإن كان لسوانا لفظها فلنا معناها ، وعلى وطننا يعود جناها ، فنحن أحرص الناس على إطفائها وإخمادها ، وأسعى في إصلاح فسادها ، والمثابرة على كنفها واستئسادها ، وما الظن بدار فسد بابها ، وآمال رتت أسبابها ، وجزيرة لا تستقيم أحوال من بها إلا بالسكون ، وسلم العدو المغرور المفتون ، حتى تُفَضِّيَ منه بإعانتكم الديون ، وإن اضطرابها إنما هو داء

١ ق : وتنبهونا .

٢ ق : أشرعت ؛ ص : شرعت .



نستنصر من رأيكم فيه بطيب ، وهَدَفَ خطب نرمة من عزمكم بسهم مصيب ،  
وأمر نضرع في تداركه إلى سميع للدعاء مجيب ، ونحن فيه يد أمام يدكم ، ومقصدنا  
فيه تَبَعَ لقصدكم ، وتصرفنا على حد إشارتكم جار ، وعزمنا إلى منتهى  
مرضاتكم مُتَبَار ، وعَقَدْنَا في مشايعة أمركم غير متوار .

وقد كنا لأول اتصال هذا الخبر ، القبيح العين والأثر ، بادَرْنَا تعريفكم  
بجميع ما اتصل بنا في شأنه ، ولم نطو عنكم شيئاً من إسراره ولا إعلانه ، وبعثنا  
رسولنا إلى بابكم العلي نعتدُّ بسلطانه ، ونرتجي تمهيد هذا الوطن بتمهيد أوطانه ،  
وبادرننا بالمخاطبة مَنْ وجبت مخاطبته من أهل مربلة وأسطبونة نثبت بصائرهم  
في الطاعة ونقويها ، ونعدهم بتوجيه من يحفظ جهاتهم ويحميها ، وعجلنا  
إلى بعضها مدداً من الرماة والسلاح ليكون ذلك عُدَّةً فيها ، وعلمنا ما أوجب  
الله تعالى من الأعمال التي يُزْلِفُ بها ويرتضيها ، وكيف لا نظاهر أمركم الذي  
هو العدة المذخورة ، والفئة الناصرة المنصورة ، والباطل سَرَابٌ يَخْدَعُ ،  
والحق إليه يُرْجَعُ ، والبغي يُرْدي وَيَصْرَعُ ، وكم تقدم في الدهر منتزٍ شدَّ  
عن الطاعة ، وخرج عن الجماعة ، ومخالف على الدول ، في العصور الأول ،  
بهرج الحق زائفه ، ورجمت شهبُ الأسنّة طائفه ، وأخذت عليه الضيقة  
وهادهُ وتناثفه ، فتقلص ظله ، ونبا به محله ، وكما قال يذهب الباطل وأهله ،  
لا سيما وسعادة ملككم قد وطّأت المسالك ومهدتها ، وقهرت الأعداء وتعبدها ،  
وأطفأت جداول سيوفكم النار التي أوقدتها ، وكأنّ بالأمر إذا أعملتم فيها  
رأيكم السديد وقد عادت إلى خير أحوالها ، والبلاد بيؤمن تدبيركم قد شفي ما  
ظهر من اعتلالها ، وعلى كل حال فإنّما نحن على تكميل مرضاتكم مبادرون ، وفي  
أغراضكم الدينية واردون وصادرون ، وإشارتكم التي تتضمن الخير والخيرة  
منتظرون ، عندنا من ذلك عقائد لا يحتمل نصّها التأويل ، ولا يقبل صحيحها  
التعليل ، فلتكن أبوتكم من ذلك على أوضح سبيل ، فشمس النهار لا تحتاج  
إلى دليل ، والله تعالى يُسَنِّي لكم عوائد الصنع الجميل ، حتى لا يدعَ عزمكم

مغضوباً إلاّ ردّه ، ولا ثلماً في ثغر الدين إلاّ سدّه ، ولا هدفاً متعاصياً إلاّ هدّه ، ولا عرفاً من الخلاف إلاّ جدّه ، وهو سبحانه يبقي ملككم ويصل سعده ويعليّ أمره ويحرس مجده ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

### [ ١٠ - رسالة عن أبي الحجاج إلى الرعايا ]

ومن إنشائه رحمه الله تعالى من جملة رسالة على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب الرعايا ، ما نصّه محل الحاجة منه :

وإلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذي جرى في ميدان الأمل جرّي الجُمُوح ، ودارت عليه خمرة النخوة والخيلاء مع الغبوق والصبوح ، حتى طمع بسكر اغتراره ، ومُحصّ المسلمون على يده بالوقائع التي تجاوز منتهى مقداره ، وتوجهت إلى استئصال الكلمة مطامع أفكاره ، ووثق بأنّه يطفىء نور الله بناره ، ونازل جبل الفتح فشد مُخَنَّق حصاره ، وأدار أشياعه في البر والبحر دَوَّرَ السوار على أسواره ، وانتَهز الفرصة بانقطاع الأسباب وانبهاهم الأبواب ، والأمور التي لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ، وتكالب التلث على التوحيد ، وساءت الظنون في هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة والبحور الزاخرة والمرام البعيد ، وإننا صابرنّا بالله تعالى تيار سيّله ، واستضأنا بنور التوكل عليه في جنح هذا الخطب ودُجْنَة لَيْلِهِ ، ولحأنا إلى من بيده نواصي الخلائق ، واعتقلنا من حبله المتين بأوثق العلائق ، وفسحنا مجال الأمل في ذلك الميدان المتضايق ، وأخلصنا لله مَقِيلِ العثار ومؤوي أولي الاضطرار قلوبنا ، ورفعنا إليه أمرنا ووقفنا عليه مطلوبنا ، ولم نقصر مع ذلك في إبرام العزم ، واستشعار الحزم ، وإمداد الثغور بأقصى الإمكان ، وبعث الجيوش إلى ما يلينا من بلاد على الأحيان ، فرحم الله تعالى انقطاعنا إلى كرمه ، والتجاءنا إلى حرمه ، فجلّى بفضله

سبحانه ظلّم الشدة ، ومد على الحرّيم والأطفال ظلال رحمته الممتدة ، وعرفنا عوارف الصنع الذي قدم به العهد على طول المدّة ، ورماه بجيش من جيوش قدرته أغنى عن إيجاف الركاب ، واحتشاد الأحزاب ، وأظهر فينا قدرة ملكه عند انقطاع الأسباب ، واستخلاص العباد والبلاد من بين الظفّر والناّب ، فقد كان جعّجَع على الحق بأباطيله ، وسد المجازَ بأساطيله ، ورمى الجزيرة الأندلسية بشؤبُوب شرّه ، وصيرها فريسة بين غربان بجره وعقبان برّه ، فلم يخلص إلى المسلمين من إخوانهم مرقبة إلاّ على الخطر الشديد ، والإفلات من يد العدوّ العنيد ، مع توفّر العزائم والحمد لله على العمل الحميد ، والسعي فيما يعود على الدّين بالتأييد .

وبينما شفقتنا على جبل الفتح تقيم وتقعّد ، وكَلَبُ الأعداء عليه يُبْرُق ويرعد ، واليأس والرجاء خصمان هذا يقرب وهذا يبعد ، إذ طَلَع علينا البشيرُ بانفراج الأزمة ، وحلّت تلك العزّمة ، وموت شاه تلك الرقعة ، وإبقاء الله تعالى على تلك البقعة ، وأنّه سبحانه أخذ الطاغية أكملَ ما كان اغتراراً ، وأعظم أنصاراً ، وزلزل أرض عزه وقد أصابت قَرَاراً ، وأن شهاب سعه قد أصبح آفلاً ، وعَلِمَ كبره انقلب سافلاً ، وأن مَنْ بيده ملكوت السموات والأرض طرّفه بحتّفه ، وأهلكه برغم أنْفِه ، وأن محلته عاجلها التّبابُ والتّبار ، وعاثت في متازلها النار ، وتمخض عن سوء عاقبتها الليلُ والنهار ، وأن حُماتها يخربون بيوتهم بأيديهم ، وينادي بشتات الشمل لسانُ مناديهم ، وتلاحق الفرسان من جبل الفتح المعقل الذي عليه من عناية الله تعالى رِواق مضرّوب ، والرباط الذي مَنْ حاربه فهو المحروّب ، فأخبرت بانفراج الضيق ، وارتفاع العائق لها عن الطريق ، وبرء الداء الذي أشرق بالريق ، وأن النصرارى دمرها الله تعالى جدت في ارتحالها ، وأسرعت بيجيفة طاغيتها إلى سوء مآلها وحالها ، وسمحت للنار والنهب بأسلابها وأمواها ، فبهرنا هذا الصنعُ الإلهي الذي مهد الأقطار بعد رجفانها ، وأنام العيون بعد سهاد أجفانها ، وسألنا الله تعالى أن يُعيّنا على

شكر هذه النعمة التي إن سلّطت عليها قُوَى البشر فضحتها ، ورجحتها ، ورأينا سرّ اللطائف الخفية كيف سريانه في الوجود ، وشاهدنا بالعيان أنوار اللطائف الإلهية والحدود ، وقلنا : إنّما هو الفتح الأوّل شُفِعَ بثان ، وقواعد الدين الحنيف أيدت من صنع الله تعالى ببُنيان ، اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة ، ومنتك الوافرة ، إنك وليّنا في الدنيا والآخرة ؛ انتهى .

### [ ١١ - رسالة توضح ضيق حال الأندلس ]

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى من أخرى ممّا يتعلّق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته :

وإن تشوقتم إلى أحوال هذا القطر ومنّ به من المسلمين ، بمقتضى الدين المتين والفضل المين ، فاعلموا أنّنا في هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ، ونكابر بجرّاً زخاراً ، ونتوقّع - إلاّ إن وقى الله تعالى - خطوباً كبيراً ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً ، ونلجأ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعداداً به واستظهاراً ، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطاراً ، وينشئ ريح رَوْحِ الله طيبة معطاراً ، فإنّ القومس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع ، ومخالفته لا تستطيع ، رمى هذه الأمة الغربية المنقطعة منهم بجراد لا يُسد طريقها ، ولا يحصى فريقها ، التفتت على أخي صاحب قشتالة وعزمها أن تملكه بدله ، وتبلغه أمله ، ويكون الكل يداً واحدة على المسلمين ، ومناصبه هذا الدين ، واستئصال شأفة المؤمنين ، وهي شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد ، ولا عرّفها نجد ولا وهْد ، وقد اقتحموا الحدود القريبة ، والله تعالى وليّ هذه الأمة الغربية ، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يُقوّي الضعيف ، ويدرأ الخطب المخيف ، ورجّونا أن نكون ممّن قال الله تعالى فيهم ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَمَعُوا لَكُمْ فَانصَبُوا لَهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران : ١٧٣)

وهو سبحانه المرجو في حسن العقبي والمآل ، ونَصْرُ فِئَةِ الْهَدْيِ عَلَى فِئَةِ الضَّلَالِ ، وما قَلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ كَنْزَهُ ، وَلَا ذَلَّ مَنْ اسْتَمَدَ مِنَ اللَّهِ عِزَّهُ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ - الْآيَةَ﴾ (التوبة : ٥٢) ودعاء مَنْ قَبِلَكُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَدَدَ مَوْفُورٍ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مُحَمَّدٌ مَشْكُورٌ ؛ انْتَهَى .

[ ١٢ - من رسالة طويلة ]

ومن أخرى طويلة من جملتها ما صورته :

وقد اتصل بنا الخبر الذي يوجب نصح الإسلام ، ورَعَى الجوار والذّام ، وما جعل الله تعالى للمأموم على الإمام ، إيقاظكم من مَرَاقدكم المستغرقة ، وجمع أهوائكم المتفرقة ، وتثبيتكم إلى مُصَادمة الشدائد المُرْعِدَةِ المبرقة ، وهو أن كبير دين النصرانية الذي إليه ينقادون ، وفي مرضاته يُصادقون ويُعادون ، وعند رؤية صليبه يكبرون ويسجدون ، لما رأى الفتن قد أكلتهم خَضَمًا وَقَضَمًا ، وأوسعهم هَضَمًا ، فلم تُبْقِ عَصَبًا وَلَا عَظْمًا ، ونثرت ما كان نَظْمًا ، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق ، ويرفع ما طرق ، ويرفو ما مَزَّقَ الشتات وخرق ، فرمى الإسلام بأمة عددها القَطْرُ المثل ، وأمرهم وشأنهم الامتثال ، أن يدمشوا لمن ارتضاه من أمتة الطاعة ، ويجمعوا في ملته الجماعة ، وَيَطْلُعُ الكَلَّ عَلَى هَذِهِ الْفِئَةِ الْقَلِيلَةِ الْغَرِيبَةِ بَخْتَةً كَقِيَامِ السَّاعَةِ ، وَأَقْطَعَهُمْ - قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ - الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ ، وَالطَّارِفَ وَالتَّلَادَ ، وَسَوَّغَهُمُ الْحَرِيمَ وَالْأَوْلَادَ ، وَبِاللَّهِ تَعَالَى نَسْتَدْفَعُ مَا لَا نُطِيقُهُ ، وَمَنْهُ نَسْأَلُ عَادَةَ الْفَرْجِ فَمَا سُدَّتْ طَرِيقَهُ ، إِلَّا أَنَا رَأَيْنَا غَفْلَةَ النَّاسِ مُؤَذِّنَةَ الْبَوَارِ ، وَأَشْفَقْنَا لِلدِّينِ الْمُنْقَطِعِ مِنْ وَرَاءِ الْبَحَارِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ مُضْغَعَةً فِي لَهَوَاتِ الْكُفَّارِ ، وَأَرَدْنَا أَنْ نَهْزِكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الَّتِي تَكْحَلُ الْبَصَائِرَ بِمِيلِ الْإِسْتِبْصَارِ ، فَإِنْ جَبَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَوَاطِرَ بِالضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ وَالْإِنْكَسَارَ ، وَنَسَخَ الْإِعْسَارَ بِالْإِيسَارِ ، وَأَنْجَدَ الْيَمِينَ بِأَخْتِهَا الْيَسَارَ ، وَإِلَّا فَقَدْ تَعَيَّنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حِظُّ الْخَسَارِ ، فَإِنْ مَنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ عَدُوٌّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ مِنَ اللَّهِ مَصْرُوفٌ ،

وبالباطل مشغوف ، وبغير العرف معروف ، وعلى الحطام المسلوب عنه ملهوف ،  
فقد تكلّ الشيطان للجبين ، وقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ،  
ومَن نَفذ فيه أو له قدر الله عن أداء الواجب وبذُل المجهود ، وأُفرد بالعبودية  
وجَه الواحد الأحد المعبود ، ووطنَ النفسَ على الشهادة المبوّثة دار الخلود ،  
العائدة بالحياة الدائمة والوجود ، أو الظهور على عدوّه المحشور إليه المحشود ،  
صبراً على المقام المحمود ، وبسبباً من الله تعالى تكون الملائكة فيه الشهود ، حتى  
تعين يد الله في ذلك البناء المهدود ، والسواد الأعظم الممدود ، كان على أمره  
بالخيار المردود ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ - الآية ﴾  
انتهى .

#### [ ضياع المدن الأندلسية ]

وقال صاحب « مناهج الفكر » بعد وصفه لجزيرة الأندلس وأقطارها ،  
ما صورته :

ولم تنزل هذه الجزيرة منتظمة لملكها في سلك الانقياد والوفاق ، إلى أن  
طما بمُتَرَفِيهَا سبيلُ العناد والنفاق ، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مَسْقَطَ  
راسه ، وجعله مَعْقِلاً يَعْتَصِم فيه من المخاوف بأفراسه ، فصار كل منهم يشن الغارة  
على جاره ، ويحاربه في عَقْر داره ، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدوّ في الدين يعادي ،  
ويراوح معاقلمهم بالعَيْث وَيُعَادِي ، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في  
ضمان هدنة مقدّرة . وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مُقَرَّرَة ، كان  
ذلك في الكتاب مسطوراً ، وقَدَرَأ في سابق علم الله مقدوراً : انتهى .

وهذا قاله قبل أن يستولي العدو على جميعها ، والله وارث الأرض ومَن  
عليها وهو خير الوارثين .

ولنرجع إلى ما كنا بصددده من أخذ النصارى قواعد الأندلس فنقول :  
 قد قدمنا أوائل هذا الباب أن طليطلة أعادها الله تعالى من أول ما أخذ الكفار  
 من المدن العظام بالأندلس ؛ قال ابن بسام<sup>١</sup> : لما توالى على أهل طليطلة الفتن  
 المظلمة ، والحوادث المصْطَلِمة ، وترادفَ عليهم البلاء والحلاء ، واستباح  
 الفرنج لعنهم الله تعالى أموالهم وأرواحهم ، كان من أعجب ما جرى من النوادر  
 الدالة على الخذلان أن الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير ،  
 ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها ، فلما كانت السنة التي استولى عليها  
 العدو فيها لم ترفع الغلة من الأندَر حتى أسرع فيها الفساد ، فعلم الناس أن  
 ذلك بمشيئة الله تعالى لأمر أراده ، من شمول البلوى ، وعموم الضراء ، فاستولى  
 العدو على طليطلة ، وأنزل مَنْ بها على حكمه ، وخرج ابن ذي النون منها  
 على أقبح صورة ، وأفظع سيرة ، وراه الناس وبيده إصطراب يأخذ به وقتاً  
 يَرَحَلُ فيه ، فتعجب منه المسلمون ، وضحك عليه الكافرون ، وبسط الكافر  
 العدل على أهل المدينة ، وحبب التنصر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من  
 ذلك ما لا يُطاق حَمَلُهُ ، وشرع في تغيير الجامع كنيسةً في ربيع الأول سنة ست  
 وتسعين وأربعمائة .

ومما جرى في ذلك<sup>٢</sup> اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامي رحمه الله تعالى صار إلى  
 الجامع ، وصلى فيه ، وأمر مُريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج لعنهم الله تعالى  
 وتكاثروا لتغيير القبلة ، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته ،  
 وعصمه الله تعالى منهم ، إلى أن أكمل القراءة وسجد سجدة ، ورفع رأسه ،  
 وبكى على الجامع بكاء شديداً ، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه . وقيل للملك

١ انظر الذخيرة ١/٤ : ١٢٧ ويبدو أن المقرئ ينقل بالمعنى .

٢ المصدر السابق : ١٩٠ .

النصارى : ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك ، فقال : حتى  
 نأخذ قرطبتهم ، وأعد لذلك ناقوساً تأنق فيه وفيما رَصَعَ به من الجواهر ،  
 فأكذبه الله وأزعجه . وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ،  
 فما قصر فيما أثر من إذلال المشركين ، وإرغام الكافرين ، واستدراك أمور  
 المسلمين ؛ انتهى ملخصاً ، وقد مرّ مطولاً .

### [ وقعة بطرنة - ٤٥٦ ]

وكانت قبلها وقعة بطرنة<sup>١</sup> سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن الفرنج  
 - خذلهم الله تعالى - انتدبت منهم قطعة كثيفة ، ونزلت على بِلَنْسِيَّةِ في السنة  
 المذكورة ، وأهلها جاهلون بالحرب ، مغترون بأمر الطعن والضرب ، مقبلون  
 على اللذات من الأكل والشرب ، وأظهر الفرنج الندم على منازلها ، والضعف  
 عن مقاومة مَنْ فيها ، وخدَعوهم بذلك فانخدعوا ، وأطمعوهم فطمعوا ،  
 وكنّوا في عدة أماكن جماعة من الفرسان ، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم ،  
 وخرج معهم أميرهم عبدالعزيز بن أبي عامر ، فاستدرجهم العدو - لعنهم الله تعالى -  
 ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر ، وما نجا منهم إلا من حصَّنه أجله ،  
 وخلص الأمير نفسه ، ومما حُفِظَ عنه أنه أنشد لما أعياه الأمر :

خَلِيلِيَّ لَيْسَ الرَّأْيُ فِي صَدْرٍ وَاحِدٍ      أَشِيرَا عَلَيَّ الْيَوْمَ مَا تَرَيَانِ

وفي أهل بِلَنْسِيَّةِ يقول بعض الشعراء حين خرجوا في ثياب الزينة والترفة :

لَبِسُوا الْحَدِيدَ إِلَى الْوَعْدَى وَلَيْسَتْ      حُلَلُ الْحَرِيرِ عَلَيْكُمْ أَلْوَانُ  
 مَا كَانَ أَقْبَحَهُمْ وَأَحْسَنَكُمْ بِهَا      لَوْ لَمْ يَكُنْ بِبَطْرَنَةِ مَا كَانَ

١ (Paterna) : راجع خبر هذه الوقعة في ابن عذاري ٣ : ٢٥٢ وهو ينقل عن ابن بسام .



قال ابن بسام : وهكذا جرى لأهل طُليطلة ، فإن العدو - خذله الله تعالى - استظهر عليهم ، وقتل جماهيرهم ، وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا إليهم في ثياب الترفه ألف غقارة خارجاً عما سواها .

[ بربرشتر ]

وقال ابن حيان<sup>١</sup> : وكان تغلب العدو - خذله الله تعالى - على بربرشتر قصبية بلد برطانية ، وهي تقرب من سرقسطة ، سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن جيش الأردمليس<sup>٢</sup> نازلها وحاصرها ، وقصّر يوسف بن سليمان بن هُود في حمايتها ، ووكل أهلها إلى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أربعين يوماً ، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته ، واتصل ذلك بالعدو ، فشدّد القتال عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مُدْرَع ، فدهش الناس ، وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة قُتل فيها خمسمائة إفرنجي ، ثم اتفق أن القنّاة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سَرَب موزون<sup>٣</sup> انهارت وفسدت ، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدّت السَرَب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة ، ويشس من بها من الحياة ، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلمّا خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى إن الذي خص بعض مقدّمي العدو لحصنه - وهو قائد خيل رومة - نحو ألف وخمسمائة جارية أبقاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلى

١ انظر الذخيرة ( ٣ : ٥٨ ) في الخبر عن بربرشتر نقلًا عن ابن حيان .

٢ في الذخيرة : جيش الاردمانيين ( Nordmanni ) .

٣ الذخيرة : بتقدير موزون .

والكسوة خمسمائة جمل ، وقُدر من قُتل وأسر بمائة ألف نفس ، وقيل : خمسون ألف نفس ، ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدها فيقول لها : أعطني ما معك ، فتعطيها ما معها من كسوة وحلي وغيره .

قال : وكان السبب في قتلهم أنه خافَ مَنْ يصل لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله ، فشرع في القتل لعنه الله تعالى ، حتى قتل منهم نيفاً وستة آلاف قتيل ، ثم نادى الملك بتأمين مَنْ بقي وأمر أن يخرجوا فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم ، ونزلوا من الأسوار في الجبال للخشية من الازدحام في الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء ، وكان قد تميّز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه وشاروا في نفوسهم ، وانتظروا ما ينزل بهم ، فلما خلت ممّن أسير وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله ، وله الأمان ، وأرهقوا وأزعجوا ، فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الإفرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك ، وأخذ كل واحد داراً بمن فيها من أهلها ، نعوذ بالله تعالى .

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برؤوس الجبال ، وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم ، وبرزوا في صور الهلكى من العطش ، فأطلق سبيلهم ، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة ، فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله .

قال : وكان الفرنج لعنهم الله تعالى ، لما استولوا على أهل المدينة يفتضونَ البكر بحضرة أبيها ، والثيبَ بعين زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ، ومَنْ لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش أعطاهن خوّاله وغلمانه يعيثون فيهن عيثة ، وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة ، ولما عزم ملك الروم

على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبيكار والشييات ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى مَنْ فوقه ، وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفاً وخمسمائة ، ومن الرجالة ألفين ؛ انتهى .

قال ابن حيان : وأختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أولي الألباب بنادرة منها يكتفى باعتبارها عمّا سواها ، وهي أن بعض تجار اليهود جاء ببربشتر بعد الحادثة ملتصقاً فدية بنات بعض الوجوه ممّن نجا من أهلها حصلن في سَهْم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه ، قال : فهديت إلى منزله فيها ، واستأذنت عليه ، فوجدته جالساً مكان رب الدار ، مستويّاً على فراشه ، رافلاً في نفيس ثيابه ، والمجلسُ والسريّر كما تخلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئاً من رياشهما وزينتهما ، ووصافه مضمومات الشعور ، قائمات على رأسه ، ساعيات في خدمته ، فرحبَ بي ، وسألني عن قصّدي ، فعرفته وجهه ، وأشرت إلى وفور ما أبدله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتي ، فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك ! أعرضْ عمّن هنا وتعرّضْ لمن شئت ممّن صيرته لحصني من سبّبي وأسراي أقاربك فيمن شئت منهن . فقلت له : أمّا الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه ، وبقربك أنست ، وفي كنفك اطمأنت ، فسُمتي ببعض من هنا فإنّي أصير إلى رغبتك ، فقال : وما عندك ؟ قلت : العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب ، فقال : كأنك تشهيني ما ليس عندي ، يا مجة<sup>١</sup> ، ينادي بعض أولئك الوصائف ، يريد « يا بهجة » فغيره بعجمته ، قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق ، فقامت إليه وأقبلت بيدّر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلّى ، فكشف وجعل بين يدي العليج حتى كادت تواري شخصه ، ثم قال لها : أدني إلينا من تلك التخوت ، فأذنت منه عدة من قطع الوشي والحز والديباج الفاخر ممّا حار له ناظري وبُهِتَ ،

١ الذخيرة : يا بهجة .

واستردلتُ ما عندي ، ثم قال لي : لقد كثر هذا عندي حتى ما ألد به . ثم حلف بإلهه أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بُدِّل له بأجمعه في ثمن تلك ما سَخَتْ بها يدي ، فهي ابنة صاحب المنزل ، وله حسب في قومه ، اصطفتيتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم ، وقد رد لنا الكرة عليهم ، فصرنا فيما تراه ، وأزيدك بأن تلك الخوذة الناعمة ، وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى ، مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته ، إلى أن أيقظناه من نوماته ، يا فلانة - يناديها بلكنته - خذي عودك تغني زائرنا بشَجْوِكَ ، قال : فأخذت العود ، وقعدت تسويه ، وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارق العليج مسحه ، واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلاً عن العليج ، فصار من الغريب أن حثَّ شربه هو عليه ، وأظهر الطرب منه ، فلما يشت ممّا عنده قمت منطلقاً عنه ، وارتدّت لتجارتي سواء ، واطلّعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به ، فهذا فيه مَنع لمن تدبره ، وتذكر لمن تدكّره .

قال ابن حيان : قد أشفينا بشرح هذه الحادثة الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمّن قبلهم من أثاره ، ولا شك عند ذوي الألباب أن ذلك ممّا دهانا من داء التقاطع وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شفا جُرفٍ يؤدي إلى الهلكة لا محالة ؛ انتهى ببعض اختصار .

وذكر بعده كلاماً في ذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس ، وأنهم يعللون أنفسهم بالباطل ، وأن من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم ، وبعدهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سدّ ثغورهم ، حتى أطلّ عدوهم الساعي لإطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ، ويستقري بسائط بقاعهم ، ويقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومَنّ لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صُموت عن ذكرهم ، لهاة عن بثهم ، ما إن سمع عندنا بمسجد من

مساجلنا أو محفل من محافلنا ، مُذَكَّر لهم أو داع ، فضلاً عن نافر إليهم أو ماشٍ لهم ، حتى كأنهم ليسوا منّا أو كأنّ بثقّهم ليس بمفّضٍ إلينا ، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء ، عجائبُ فاتت التقدير ، وعرضت للتغيير ، والله عاقبة الأمور ، وإليه المصير .

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، فإنّ البثقَ سرى إليهم جميعاً كما ستراه ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله .

وقال قبله : إن بربرشتّر هذه تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة ، من عهد الفتح الإسلامية بجزيرة الأندلس ، فرسخ فيها الإيمان ، وتُدوّرُ رس القرآن ، إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا صدر رمضان من العام ، فصلك الأسماع ، وأطار الأفئدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكلّ شغلًا يشغل الناس في التحدث به ، والتساؤل عنه ، والتصور لحلول مثله ، أياماً لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجكِلِ ، والاعترار بالأمل ، والاستناد إلى أمراء الفرقة الهَمَلِ ، الذين هم منهم ما بين فَشَلٍ ووَكَلٍ ، يصلونهم عن سواء السبيل ، ويُلَبِّسُون عليهم وضوح الدليل ، ولم تزل آفة الناس منذ خُلِقُوا في صنفين هم كالمَلح فيهم الأمراء والفقهاء بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون ، فقد خصّ الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاجِ صِنْفِيهِمْ لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق ذباداً عن الجماعة ، وَجَرِيّاً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صُمُوت عنهم صُوف عمّا أكده الله تعالى عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا ما بين آكل من حَلَوَائِهِمْ ، وخابط في أهوائِهِمْ ، وبين مستشعرٍ مخافتِهِمْ ، أخذ في التَّقِيّة في صدقهم ، وأولئك هم الأقولون فيهم ، فما القولُ في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها ، وما هي إلاّ مُشْفِيّة من بَوَارِها ، ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء ، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلاّ الفرع لحفر الخنادق ، وتعليق الأسوار ، وشدّ الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوّهم عن السوأة

السَّوْأَى من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليه - أمورٌ قبيحات الصور ، مؤذونات الصلور  
بأعجاز الغيِّر :

أمور لو تدبَّرها حكيمٌ إذا انتهى وهَيَّبَ ما استطاعا

[ استرجاع بر بشر ]

ثم قال ابن حيَّان : فلمَّا كان عقب جمادى الأولى سنة ٤٥٧ شاع الخبر  
بقرطبة بـرجوع المسلمين إليها ، وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها ،  
والتهم على أهلها ، لانخراطهم إلى أخيه ، صمَّد لها مع إمداد لحليفه عبَّاد ،  
وسعى لإصمات سوء المقالة عنه ، وقد كتب الله تعالى عليه منها ما لا يحويه إلا  
عفوه ، فتأهَّبَ لقصده بر بشر في جموع من المسلمين ، فجالدوا الكفار بها  
جلاداً ارتاب منه كل حيَّان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان ،  
وحَمِيَّ الوطيسُ بينهم إلى أن نصر الله تعالى أوليائه ، وخذل أعداءه ، وولَّوا  
الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملكوهم أجمعين ،  
إلا من فر من مكان الواقعة ، ولم يدخل المدينة ، فأجبل السيف في الكافرين ،  
واستؤصلوا أجمعين ، إلا من استرق من أصاغرهم ، وقُدِّي من أعاظمهم ،  
وسبَّوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم ، وملكوا المدينة بقدرة الخالق  
البارئ ، وأصيب على منحة النصر المتاح طائفة من حُماة المسلمين الجادين في  
نصر الدين ، نحو الخمسين ، كتب الله تعالى شهادتهم ، وقتل فيه من أعداء الله  
الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فغسلها المسلمون من رجس  
الشرك ، وجلوها من صدأ الإفك ؛ انتهى .

وليت طليطلة البائسة استرجعت كهذه ، ومع هذا فقد غلب العدو بعدُ على  
الكل ، والله سبحانه المرجو في الإدالة .

## [ نطيلة وطرسونة ]

وقال ابن اليسع : أخذ العدو مدينة نطيلة وأختها طرسونة سنة أربع وعشرين وخمسمائة .

## [ بلنسية والقنيطور ]

ولما صار أمر بلنسية إلى الفقيه القاضي أبي أحمد ابن جحاف قاضيها صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فحصره بها القادر بن ذي النون الذي مكّن الأذفونش من طليطلة ، فهجم عليه القاضي في لمة من المرابطين ، وقتله ، ودفع ابن جحاف لما لم يعهد من تدبير السلطان ، ورجعت عنه طائفة الملتئمين الذين كان يعتد بهم ، وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين فيبطله عليه ، وفي أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة رديق الطاغية للاستيلاء على بلنسية ، فدخلها ، وعاهده القاضي ابن جحاف ، واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون ، فأقسم أنها ليست عنده ، فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله ، فاتفق أنه وجدها عنده ، فأحرقه بالنار ، وعاث في بلنسية<sup>١</sup> ، وفيها يقول ابن خفاجة حينئذ :

عاشت بساحتك الظبأ يا دارُ      ومحا محاسنك البلي والنارُ  
فإذا تردّد في جنابك ناظرٌ      طال اعتبارٌ فيك واستعمارُ  
أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها      وتمخضت بخرابها الأقدارُ  
كبت يدُ الحدثان في عرصاتهما      لا أنت أنت ولا الديار ديارُ

وكان استيلاء القنيطور - لعنه الله تعالى - عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وقيل : في التي قبلها ، وبه جزم ابن الأبار قائلاً : فم حصار القنيطور إياها

١ راجع الخبر عن حادثة بلنسية في ابن عذاري ٤ : ٣١ - ٤٢ والخيرة ( ٣ : ٣٠ - ٣٢ ) .

عشرين شهراً ، وذكر أنه دخلها صلحاً ، وقال غيره : إنّه دخلها عنوة ، وأحرقها ، وعاث فيها ، وممن أحرق فيها الأديب أبو جعفر ابن النبي<sup>١</sup> الشاعر المشهور رحمه الله تعالى وعفا عنه ، فوجه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلي ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وتوالى عليها أمراء الملتئمين ، ثم صارت ليحيى بن غانية الملقب حين ولي جميع شرق الأندلس ، فقدّم عليها أخاه عبد الله بن غانية . ولما ثارت الفتنة في المائة السادسة أخرجها منها مروان بن عبد العزيز ، إلى أن قام عليه جيش بلسنسية سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وبايعوا لابن عياض ملك شرق الأندلس ، ففرّ مروان إلى المرية ، ثم رجعت بلسنسية إلى أبي عبد الله ابن مرّديش ملك شرق الأندلس بعد ابن عياض ، وقدّم عليه<sup>٢</sup> أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، إلى أن رجع أبو الحجاج إلى جهة بني عبد المؤمن ، إلى أن ولي عليها السيد أبو زيد عبد الرحمن ابن السيد أبي عبد الله ابن أبي حفص ابن أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي ، فلما ثار العادل بمُرْسِيّة تمنع واعتز ، وأظهر طاعة في باطنها معصية ، ودام على ذلك مع أبي العلاء المأمون ، وكان قائد الأعنة المشار إليه في الدفاع عن بلسنسية الأمير زيان بن أبي الحملات ابن أبي الحجاج ابن مرّديش ، فأخرجه من بلسنسية ، وملكها ، وفرّ السيد إلى النصارى .

#### [ نهاية بلسنسية ]

ولم يزل أمر بلسنسية يضعف باستيلاء العدو على أعمالها إلى أن حصرها ملك برشلونة النصراني ، فاستغاث زيان بصاحب إفريقية أبي زكريا ابن أبي حفص ،

١ دوزي : أبو جعفر البتي وكذلك كتب في التكملة المطبوعة ؛ ولكن سجع ابن سعيد يدل على أن بنه بالنون « كتاب المنه في حلى قرية بنه » وهي من قرى بلسنسية ؛ وقد سبق أن أشرت إلى أن النبي الذي حرقة القنيطور هو غير النبي الذي ترجم له صاحب القلائد .

٢ عليه : سقطت من ص .



وأوفد عليه في هذه الرسالة كاتبه الشهير أبا عبد الله ابن الأبار القضاعي صاحب كتاب « التكملة » و « إعتاب الكتاب » وغيرهما ، فقام بين يدي السلطان منشداً قصيدته السنية الفريدة التي فضحت من بارآها ، وكبأ دونها من جاراها ، وهي <sup>١</sup> :

أدرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا	إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَجَاتِهَا دَرَسَا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسْتَ	فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عَزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
وَحَاشَ مِمَّا تَعَانِيهِ حُشَاشَتَهَا	فَطَالَمَا ذَاقْتَ الْبَلْوَى صَبَاحَ مَسَا
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزْرًا	لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعْسَا
فِي كُلِّ شَارِقَةٍ لِلْأَمِّ بَائِقَةٌ	يَعُودُ مَأْتَمُهَا عِنْدَ الْعَدَا عُرْسَا
وَكُلِّ غَارِبَةٍ إِجْحَافُ نَائِبَةٍ	تُنْفِي الْأَمَانَ حَذَارًا وَالسَّرُورَ أَسَى
تَقَاسِمُ الرُّومِ لَا نَالَتْ مَقَاسِمَهُمْ	إِلَّا عَقَائِلَهَا الْمَحْجُوبَةَ الْأَنْسَا
وَفِي بِلْتَنَسِيَّةٍ مِنْهَا وَقُرْطُبَةٍ	مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
مِدَائِنُ حَلِهَا الْإِشْرَاقُ مَبْتَسَمَا	جَدْلَانِ ، وَارْتَحَلَ الْإِيمَانَ مَبْتَسَا
وَصَيَّرَتِهَا الْعَوَادِي الْعَائِثَاتُ بِهَا	يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضَعْفَ مَا أَنْسَا
فَمَنْ دَسَاكِرَ كَانَتْ دُونَهَا حِرْسَا	وَمَنْ كُنَائِسَ كَانَتْ قَبْلَهَا كُنْسَا
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعَدَا بَيْعَا	وَلِلنَّدَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جِرْسَا
لَهْفِي عَلَيْهَا إِلَى اسْتِرْجَاعِ فَائِثَهَا	مَدَارِسًا لِلْمَثَانِي أَصْبَحَتْ دُرْسَا
وَأَرْبَعًا نَمِمْتَ أَيْدِي الرَّبِيعِ لَهَا	مَا شَتَّتَ مِنْ خَيْلِ عَمَّالِ مَوْشِيَّةٍ وَكُوسَا
كَانَتْ حِدَائِقَ لِلْأَحْدَاقِ مُوْنِقَةً	فَصَوَّحَ النَّضْرَ مِنْ أَدْوَاحِهَا وَعَسَا
وَحَالَ مَا حَوْلَهَا مِنْ مَنَظَرٍ عَجَبٍ	يَسْتَجْلِسُ الرِّكْبَ أَوْ يَسْتَرْكَبُ الْجِلْسَا
سَرْعَانَ مَا عَاثَ جَيْشَ الْكُفْرِ وَاحْرَبَا	عَيْثَ الدَّبَابِ فِي مَغَانِيهَا الَّتِي كَبَسَا

١ أورد ابن خلدون ( ٦ : ٢٨٣ ) هذه القصيدة ، وانظر أزهار الرياض ٢ : ٢٠٧ .

وابتر بزتها مما تحيفها  
 فأين عيش جتيناها بها خضراً  
 محاسنها طاغ أتيح لها  
 ورج أرجاءها لما أحاط بها  
 خلا له الجو فامتدت يدها إلى  
 وأكثر الزعم بالتلث منفرداً  
 صل حبيلها أيها المولى الرحيم فما  
 وأحي ما طمست منها العداة كما  
 أيام صرت لنصر الحق مستبقاً  
 وقمت فيها بأمر الله منتصراً  
 تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم  
 وتقتضي الملك الجبار مهجته  
 هذي رسائلها تدعوك من كذب  
 وافتك جارية بالنجح راجية  
 خاضت خضارة ١ يعليلها ويخفضها  
 وربما سبحت والريح عاتية  
 تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي  
 ملك تقلدت الأملاك طاعته  
 من كل غاد على يميناه مستلماً  
 مؤيد لو رمى نجماً لأثبته  
 تالله إن الذي ترجى السعود له  
 إمارة يحمل المقدار رابتها

تحيف الأسد الضاري لما افترسا  
 وأين عصر جلتيناها بها سلسا  
 ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا  
 فغادر الشم من أعلامها خنسا  
 إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا  
 ولو رأى راية التوحيد ما نبسا  
 أبقى الميراس لها حبلاً ولا مرسا  
 أحييت من دعوة المهدي ما طمسا  
 وبيت من نور ذاك الهدي مقبسا  
 كالصارم اهترأوكالعارض انبجسا  
 والصبح ماحية أنواره الغلسا  
 يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا  
 وأنت أفضل مرجو لمن يشا  
 منك الأمير الرضى والسيد الندسا  
 عبايه فتعاني اللين والشرسا  
 كما طلبت بأقصى شدة الفرسا  
 حفص مقبلة من تربه القلسا  
 ديناً ودنيا فغشاها الرضى لبسا  
 وكل صاد إلى نعماه ملتمساً  
 ولو دعا أفقاً لبتى وما احتبسا  
 ما جال في خلد يوماً ولا هجسا  
 ودولة عزها يستصحب القعسا

١ خضارة : البحر .

بيدي النهار بها من ضوئه شنباً  
 ماضي العزيمة والأيام قد نكلت  
 كأنه البدرُ والعلياء هالته  
 تدبيره وسع الدنيا وما وسعت  
 قامت على العدل والإحسان دولته  
 مبارك هديُه باد سكينته  
 قد نور الله بالتقوى بصيرته  
 برى العصاة وراش الطائعين فقل  
 ولم يغادر على سهل ولا جبل  
 فرُبَّ أصيد لا تلفي به صيداً  
 إلى الملائك ينمى والملوك معاً  
 من ساطع النورِ صاغ الله جوهره  
 له الثرى والثرياً خطتان فلا  
 حسبُ الذي باع في الأخطار يركبها  
 إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته  
 فظلَّ يوطن من أرجائها حرماً  
 بشرى لعبد إلى الباب الكريم حداً  
 كأنما يمتطي واليمن يصحبه  
 فاستقبل السعد وضاحاً أسرته  
 وقبل الجود طفاحاً غواربه  
 يا أيها الملك المنصور أنت لها  
 وقد تواترت الأنباء أنك من

ويطلع الليل من ظلماته لعتسا  
 طلقُ المحيأ ووجه الدهر قد عبسا  
 تحف من حوله شهبُ القنا حرسا  
 وعرف معروفه وآسى الورى وأسا  
 وأنشرت من وجود الجود مارميسا  
 ما قام إلا إلى حسنى وما جلسا  
 فما يبالي طروق الخطب ملتبسا  
 في الليث مفترساً والغيث مرتجسا  
 حياً لقاحاً<sup>١</sup> إذا وافيته بنحسا  
 ورُبَّ أشوس لا تلقى له شوسا  
 في نبعه أثمرت للمجد ما غرسا  
 وصان صيقله أن يقرب الدنسا  
 أعز من خطيه ما سما ورسا  
 إليه حياه أن البيع ما وكسا  
 عصاه محتزماً بالعدل محترسا  
 وبات يوقد من أضوائها قبسا  
 آماله ومن العذب<sup>٢</sup> المعين حسا  
 من البحار طريقاً نحوه يبسا  
 من صفحة فاض منها النور وانعكسا  
 من راحة غاص فيها البحر وانغمسا  
 علياء توسع أعداء الهدى تعسا  
 يُحبي بقتل ملوك الصفر أندلسا

١ الحى اللقاح : الذين لا يدينون للملوك .

٢ ق : المد ؛ والعد : البشر القديمة الغزيرة الماء .

طهر بلادك منهم إنهم نجس      ولا طهارة ما لم تغسل<sup>١</sup> النجسا  
وأوطىء الفيلقَ الجرّارَ أرضهم<sup>٢</sup>      حتى يطأطأ رأساً كلُّ من رأسا  
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت      عيونهم أدمعاً تهمي زكا وخسا<sup>٣</sup>  
هم شيعةُ الأمر وهي الدار قد نهكت      داءً متى لم تباشر حسنمه انتكسا  
فاملأ هنيئاً لك التأييدُ ساحتها      جرّداً سلاهباً أو خطيبةً دعسا  
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه      لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

فبادر السلطان بإعانتهم<sup>٣</sup> ، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم ، من المال والأقوات والكُسى ، فوجدوهم في هوة الحصار ، إلى أن تغلب الطاغية على بِلنسية ، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس ، وكان تغلب العدو على بِلنسية صلحاً يوم الثلاثاء السابع عشر لصفري من سنة ست وثلاثين وستمائة . فهزّت هذه القصيدة من الملك عطفَ ارتياح ، وحركت من جنانه أخفض جناح ، ولشغفه بها وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها ، فجاوبها غير واحد . وحال العدو بين بِلنسية وبينه ، وتعاهد أهلها مع النصراني على أن يسلمهم في أنفسهم ، وذلك سنة سبع وثلاثين وستمائة ، أعادها الله تعالى للإسلام .

[ كتنده - ٥١٤ ]

وقد كانت وقعة كتنده<sup>٤</sup> على المسلمين قبل هذا التاريخ بمدة ، وكتنده - ويقال « قتنده » بالقاف - من حيز دورقة من عمل سرقسطة من الثغر الأعلى ، وكانت

١ قال المقرئ في الأزهار : « نفسل النجسا » هكذا ثبت بالنون كما رأيت في بعض النسخ المتبعة وهو أصوب مما وقع بخط بعضهم بالتاء ، لأن مثله لا يصلح للمخاطبات السلطانية ، ولم يشتهر عند أكثر الناس إلا بالتاء ، والصواب ما قدمته أنه بالنون ، والله أعلم .

٢ الزكا : الزوج ، والحسا : الفرد .

٣ انظر ابن عذاري ٣ : ٣٤٤ - ٣٤٥ ( ط . المغرب ) .

٤ في الخبر عن وقعة كتنده راجع معجم أصحاب الصديقي ( ٧ - ٨ ) ومعجم ياقوت ( قتنده ) .

الهزيمة على المسلمين جبرهم الله تعالى ، قُتل فيها من المطوّعة نحو من عشرين ألفاً ، ولم يُقتل فيها من العسكر أحد ، وكان على المسلمين الأمير إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذي أَلْفَ الفتحُ باسمه « قلائد العقيان » وكانت سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وممن حضرها الشيخُ أبو علي الصديقي السابق الذكر ، وقرينه في الفضل أبو عبد الله ابن الفراء خرجا غازيين ، فكانا ممن فُقد فيها .

وقال غير واحد : إن العسكر انصرف مفلولاً إلى بَلَنْسِيَّة ، وإن القاضي أبا بكر ابن العربيّ كان ممن حضرها ، وسئل مَخْلَصَه منها عن حاله ، فقال : حال من ترك الخباء والعباء ، وهذا مثل عند المغاربة معروف ، يقال لمن ذهب ثيابه وخيامه ، بمعنى أنّه ذهب جميعُ ما لديه .

[ لَوْشَة - ٦٢٢ ]

ودخل العدوّ لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة<sup>١</sup> ، مع السيد أبي محمد البياسي في الفتنة التي كانت بينه وبين العادل ، فعاثوا فيها أشد العَيْث ، ثم ردها المسلمون إلى أن أخذت بعد ذلك كما يأتي .

[ المَرِيَّة - ٥٤٢ ]

ودخل العدوّ مدينة المَرِيَّة يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، عَنَوَة . وجكى أبو زكريا الجمعيدي<sup>٢</sup> عن أبي عبد الله ابن سعادة الشاطبي المعمر أن أبا مروان ابن ورد أتاه في النوم شيخ عظيم الهيئة فرمى يديه في عضديه من خلفه ، وهزه هزّاً عنيفاً حتى أُرعبه ، وقال له قل :

١ سنة ٦٢٣ عند ابن عذاري ( ٣ : ٢٤٩ ) .

٢ الجمعيدي هو يحيى بن زكريا بن علي بن يوسف الأنصاري البلنسي ، توفي سنة ٦١٩ ( التكملة رقم : ٢٠٦٣ ) . وفي ص : الجمعيدي ، وهو خطأ .

ألا أيها المغرورُ ويحك لا تنمُ فقلته في ذا الخلقِ أمرٌ قد انبههم  
فلا بدَّ أن يرزوا بأمر يسوءهم فقد أحدثوا جرماً على حاكم الأمم

قال : وكان هذا في سنة أربعين وخمسمائة ، فلم يمض إلا يسير حتى تغلب الروم على المرية في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، بعد تلك الرؤيا بعامين أو نحوهما ، وهو ممّا حكاه ابن الأبار الحافظ في كتاب « التكملة » له .

### [ ترجمة الرشاطي ]

وفي وقعة المرية هذه استشهد الرشاطي الإمام المشهور<sup>١</sup> ، وهو أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر ، اللخمي الرشاطي ، المريبي ، وكانت له عناية كبيرة بالحديث والرجال والرواة والتواريخ ، وهو صاحب كتاب « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار » أخذه الناس عنه ، وأحسن فيه ، وجمع وما قصر ، وهو على أسلوب كتاب أبي سعد ابن السمعي الحافظ المسمى بـ « الأنساب » . وولد الرشاطي سنة ٤٦٦ بقرية من أعمال مُرسية يقال لها أوريواله - بفتح<sup>٢</sup> الهمزة ، وسكون الواو ، وكسر الراء ، وضم المثناة التحتية . وبعد الألف لام مفتوحة ، وبعدها هاء - وتوفي شهيداً بالمرية عند تغلب العدو عليها صبيحة الجمعة العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ . والرشاطي - بضم الراء ، وفتح الشين المخففة - وذكر هو أن أحد أجداده كان في جسمه شامة كبيرة ، وكانت حاضنته عجمية ، فإذا لاعبته قالت : رُشاطة<sup>٣</sup> ، وكثر ذلك منها ، فقليل له : الرشاطي ؛ انتهى ملخصاً من « وفيات الأعيان » ، وبعضه بالمعنى .

١ سقطت ترجمة الرشاطي من التكملة وهي واردة في معجم أصحاب الصديقي ( رقم : ٢٠٠ ) وابن خلكان ٢ : ٢٩١ - ٢٩٢ وعنه ينقل المقرئ ؛ وتذكرة الحافظ : ١٣٠٧ .  
٢ ابن خلكان : بضم .  
٣ يعني Roseta .

## [ استرداد المرية وضياعها نهائياً ]

وبعد أخذ النصارى المرية هذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين ، واستنقذها الله تعالى على يد الموحدين ، وبقيت بأيدي أهل الإسلام سنين ، وكان أول الولاية عليها حين استولى عليها أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي رجلاً يقال له يوسف ابن مخلوف ، فثار عليه أهل المَريّة وقتلوه وقدّموا على أنفسهم الرميحي ، فأخذها النصارى منه عنوة كما ذكرنا ، وأحصي عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفاً .

وقال ابن حبيش<sup>١</sup> آخر الحفاظ بالأندلس : كنت في قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله تعالى للإسلام ، فتقدّمت إلى زعيم الروم السليطين ، وهو ابن بنت الأذفونش ، وقلت له : إنّي أحفظ نسبك منك إلى هرقل ، فقال لي : قل ، فذكرته له ، فقال لي : اخرج أنت وأهلك ومنّ معك طلقاء بلا شيء .  
وابن حبيش شيخ ابن دحيّة وابن حوْط الله وأبي الربيع الكلاعي ، رحمهم الله تعالى .

ولما أخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين فحصرا النصارى بها ، وزحف إليهما أبو عبد الله ابن مرْدَنيش ملكُ شرق الأندلس محارباً لهما ، فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلاً وخارجاً ، ثم رأى ابنُ مرْدَنيش العارَ على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى ، فارتحل ، فقال النصارى : ما رحل ابنُ مرْدَنيش إلاّ وقد جاءهم مدد ، فاصطلحوا ، ودخل الموحدون المدينة ، وقد خربت وضعفت ، إلى أن أحيا رَمَقَها الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال ، وذلك أن أخته أخذت سبيّة في دخلة عبد المؤمن

١ يعني أبا القاسم الإمام الحافظ عبد الرحمن بن الأنصاري نزيل مرسية ، وحبيش هو خاله نسب إليه ، ولد بالمرية سنة ٥٠٤ وتوفي سنة ٥٨٤ وقد ترجم له كل من ابن الأبار (رقم : ١٦١٧) وابن الزبير (انظر تذكرة الحفاظ : ١٣٥٣) .

لبجانة ، فاحتلت بقصره واعتنت بأخيها ، فولاه بلده ، فصلح به حالها ، وكان جواداً حسن المحاولة كثير الرفق ، واشتهر من ولاتها في مدة بني عبد المؤمن في المائة السابعة الأمير أبو عمران ابن أبي حفص عم ملك إفريقية أبي زكريا .

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة وثار الأندلس على مأمون بني عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود بِمُرُسيّة قام في المرية بدعوة ابن هود أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى ابن الرميمي ، وجدّه أبو يحيى هو الذي أخذها النصراري من يده ، ولما قام بدعوة ابن هود وفد عليه بِمُرُسيّة وولاه وزارته ، وصرف إليه سياسته ، وآل أمره معه إلى أن أغراه بأن يحصن قلعة المرية ، ويجعلها له عدة ، وهو يبغى ذلك عدة لنفسه ، وترك ابن هود فيها جارية تعلق ابن الرميمي بها ، واجتمع معها ، فبلغ ذلك ابن هود ، فبادر إلى المرية ، وهو مضمر الإيقاع بابن الرميمي ، فتغدى به قبل أن يتعشى به ، وأخرج من قصره ميتاً ، ووجهه في تابوت إلى مُرُسيّة في البحر ، واستبدّ ابن الرميمي بملك المرية ، ثم ثار عليه ولده ، وآل الأمر بعد أحوال إلى أن تملكها ابنُ الأحمر صاحبُ غرناطة ، وبقيت في يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدو الكافر عندما طوي بساط بلاد الأندلس كما سننه عليه ، والله غالبٌ على أمره .

### [ شعر في العقاب ]

وما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي في هزيمة العقاب  
بإشبيلية :

وقائلة أراك تُطِيلُ فِكراً      كأنك قد وقفت لدى الحسابِ  
فقلتُ لها أفكر في عقابٍ      غدا سيباً لمعركة العقابِ  
فما في أرض أندلس مُقامٌ      وقد دخلَ البَلا من كلِّ بابِ



[ ابن وزير ]

وقول القائد أبي بكر ابن الأمير ملك شلب أبي محمد عبد الله بن وزير  
يخاطب منصور بن عبد المؤمن وقد التقى هو وأصحابه مع جماعة من الفرنج  
فتناصفوا ، ثم كان الظفر للمسلمين :

ولما تلاقينا جرى الطعنُ بيننا  
وجالَ غرارُ الهندِ فينا وفيهمُ  
فمنا ومنهم طائحونٌ عديدُ  
فمنا ومنهم قائمٌ وحصيدُ  
فلا صدرَ إلا فيه صدرٌ مُشَقَّفُ  
وحولَ الوريدِ للحسامِ ورودُ  
صبرنا ولا كهفِ سوى البيضِ والقنا  
كلانا على حرِّ الجلالِ جليدُ  
ولكن شددنا شدةً فتبلدوا  
ومن يتبلدُ لا يزالُ يجيدُ  
قولوا وللسمرِ الطوالِ بهامهم  
ركوعٌ وللبيضِ الرقاقِ سُجودُ

وكان المذكور من فرسان الأندلس ، وكان ابنه الفاضل أبو محمد غير مقصر  
عنه فروسيةً وقدرًا وأدباً وشعراً ، وولاه ناصر بن عبد المؤمن مدينة قصر أبي  
دانس في الجهة الغربية ، وقتله ابن هود بإشبيلية ، وزعم أنه يروم القيام عليه ،  
ومن شعره قوله في ابن عمرو صاحب أعمال إشبيلية :

لا تياسن من الخلافة بعدما  
تبيأ لدهر هذه أفعاله  
ولي ابن عمرو خطة الأشراف  
يضع النوافج في يدي كتاف

[ ضياع ماردة ]

رجع - ودخل العدو كورة ماردة من محمد بن هود سنة ست وعشرين

١ قد قدمت التعليق على هذا الاسم ، وهو أبو بكر ابن أبي محمد سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير  
القيسي ؛ ومن بني وزير عبد الله بن وزير الذي كان يدافع عن حصن أبي دانس لما كان البرتغاليون  
يحاولون الاستيلاء عليه سنة ٦١٤ .

وسمائه ، وكانت مفتوح المصائب على يده ، أعادها الله تعالى للإسلام ، وهي قاعدة بلاد الجوف في مدة العرب والعجم ، والحضرةُ المستجدةُ بعدها هي مدينة بَطْلَيْوَس ، وبين ماردة وقرطبة خمسة أيام .

### [ المظفر ابن الأفتس وابنه المتوكل ]

وملك بَطْلَيْوَس وماردة وما إليها المظفر محمد بن المنصور بن الأفتس مشهور ، وهو من رجال « القلائد » و « الذخيرة » وهو أديب ملوك عصره بلا مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بـ « التذكرة المظفري » خمسون مجلداً اشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ومثل وخبر وجميع علوم الأدب ، وقال يوماً : والله ما يمنعني من إظهار الشعر إلاّ كوني لا أقول مثل قول أبي العشائر ابن حمدان<sup>١</sup> :

أقرأت منه ما تخطُّ يد الوغى والبيض تشكّل والأسنة تنقُطُ

وقول أبي فراس ابن عمه<sup>٢</sup> :

وجرّنا العوالي في مقام<sup>٣</sup> تحدث عنه ربّاتُ الحجال  
كأنّ الخليل تعلم من عليها ففي بعضٍ على بعضٍ تعالي

فأين هذا من قولي :

أنفتُ من المُدام لأنّ عَقْلِي أعزُّ عَلَيَّ من أنس المدام  
ولم أرتح إلى روض وزهر ولكن للحمائل والحسام

١ يتيمة الدهر ١ : ٢١٠ .

٢ ديوان أبي فراس : ٢٨٤ .

٣ الديوان : وعدت أجر رحمي عن مقام .

إذا لم أملك الشّهوات قهراً فلم أبغي الشفوف على الأنام<sup>١</sup>  
وله رحمه الله تعالى :

يا لحظهُ زدْ فتوراً تزد عليّ اقتداراً  
فالحظُّ كالسيف أمضا ه ما يرقُّ غيراراً

وابنه المتوكل من رجال « القلائد » و « المسهب » وكان في حضرة بطليوس  
كالمتعمد بن عباد بإشبيلية ، قد أناخت الآمال بحضرتيها ، وشدّت رحال الآداب  
إلى ساحتهما ، يتردد أهل الفضائل بينهما كتردد النواصم بين جنتين ، وينظر  
الأدب منهما عن مقتلين ، والمعتمد أشعر ، والمتوكل أكتب .

[ شعر لأبي عبد الله الفازازي ]

رجع - وقال الفاضل الكاتب أبو عبد الله محمد الفازازي ، وقيل : إنّه  
وجدت برقعة في جيبه يوم موته :

الرومُ تضرب في البلاد وتغنمُ والجور يأخذ ما بقى والمغرمُ  
والمال يوردُ كلُّه قشتالة والجنّد تسقط والرعيّة تسلّم  
وذوو التعين ليس فيهم مُسلم إلاّ معين في الفساد مُسلم  
أسفي على تلك البلاد وأهلها الله يلطف بالجميع ويرحم

وقيل : إن هذه الأبيات رُفعت إلى سلطان بلده ، فلمّا وقف عليها قال  
بعدهما بكى : صدق رحمه الله تعالى ، ولو كان حيّاً ضربت عنقه .

١ سقط البيت من ص .

وهذا الفاززي أخو الشاعر الشهير الكاتب الكبير أبي زيد عبد الرحمن الفاززي<sup>١</sup> صاحب « الأمداح » في سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وهو كما قال فيه بعضهم : صاحب القلم الأعلى ، والقيدح الملقى ، أبرع من ألف وصنّف ، وأبدع من قرّط وشنّف ، فقد طاع القلم لبنانه ، والنظم والنثر لبيانه ، كان نسيجَ وحده رواية وأخباراً ، ووحيد نسجه روية وابتكاراً ، وفريد وقته خبراً وإخباراً ، وصدر عصره إيراداً وإصداراً ، صاحب فهوم ، ورافع ألوية علوم ، أما الأدب فلا يُسبق فيه مضماره ، ولا يُشق غباره ، إن شاء إنشاءً أنشى ووشى ، سائل الطبع ، عذب النّبغ ، له في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، بدائع قد خضع لها البيان وسلم ، أعجز بتلك المعجزات نظماً ونثراً ، وأوجز في تحيير تلك الآيات البيّنات فجلا سحرّاً ، ورفع للقوافي راية استظهارٍ تخير فيها الأظهر ، فعجم وعشر وشفع وأوتر ، وأمّا الأصول فهي من فروعه ، في متفرق منظومه ومنتور مجموعته ، وأمّا النسب ، فإلى حفظه انتسب ، وأمّا الأيام والدول ، ففي تاريخه الأواخر والأول ، وقد سبك من هذه العلوم في منتوره وموزونه ، ما يشهد بإضافتها إلى فنونه ، وله سماع في الحديث ورواية ، وفهم بقوانينه ودراية ، سمع من أبي الوليد اليزيد بن عبد الرحمن بن بقمي القاضي ، ومن أبي الحسن جابر بن أحمد القرشي التاريخي ، وهو آخر من حدث عنه ، ومن أبي عبد الله التّجيبّي كثيراً وهو أول من سمع عنه في حياة الحافظ أبي الطاهر السلفي إذ قدم عليهم تليّمسان ، وأجازته الحافظ السهيلي وابن خلف

١ هو عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد اليجنشي الفاززي ، ولد بقرطبة ونشأ بها ثم سكن تلمسان ، وكان عالماً بالحديث متصرفاً في فنونه ، كاتباً شاعراً مجوداً ، مشاركاً في أصول الفقه ، ذا معرفة بعلم الكلام ، تجول ببلاد العدو والأندلس كثيراً ، وغلب عليه شعر الزهد والتصوف ( التكملة رقم : ١٦٤١ ) .

الحافظ وغيرهما ، وولد بعد الحسين والحسمائة ، وتوفي بمراكش سنة ٦٣٧ ،  
رحمه الله تعالى ؛ انتهى ملخصاً .

### [ سقوط ميورقة عن ابن عميرة ]

رجع - ولما ثارت الأندلس على طائفة عبد المؤمن كان الوالي بجزيرة  
ميورقة أبو يحيى ابن أبي عمران التينملي<sup>١</sup> فأخذها الفرنج منه ، كذا قال ابن سعيد ،  
وقال ابن الأبار : إنها أخذت يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة سبع  
وعشرين وستمائة .

وقال المخزومي في تاريخ ميورقة<sup>٢</sup> : إن سبب أخذها من المسلمين أن أميرها  
في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى كان في الدولة الماضية أحد أعيانها ،  
ووليها سنة ست وستمائة ، واحتاج إلى الخشب المجلوب من يابسة ، فأنفذ طريدة  
بحرية وقطعة حربية ، فعلم بها والي طرطوشة ، فجهز إليها من أخذها ، فعظم  
ذلك على الوالي ، وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم ، وكان ذلك رأياً مشؤوماً ،  
ووقع بينه وبين الروم ، وفي آخر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بلغه  
أن مسطحاً من برشلونة<sup>٣</sup> ظهر على يابسة ، ومركباً آخر من طرطوشة انضم إليه ،  
فبعث ولده في عدة قطع إليه حتى نزل مرسى يابسة ، ووجد فيه لأهل جنوة  
مركباً كبيراً ، فأخذه وسار حتى أشرف على المسطح ، فقاتله وأخذه ، وظن أنه  
غالب الملوك ، وغاب عنه أنه أشأم من عاقر الناقة<sup>٤</sup> ، وأن الروم لما بلغهم الخبر

١ ق : التيفلي .

٢ هو أبو المطرف ابن عميرة المخزومي ، وقد ألف كتاباً في كائنة ميورقة قال فيه ابن عبد الملك :  
إنه نحا فيه منحى العماد في الفتح القسي ، فالمقري هنا يلخص وينقل بتصريف . ( انظر كتاب  
« أبو المطرف ابن عميرة » للأستاذ بن شريفة ٢٨٧ - ٢٩١ ) .

٣ ص : برجلونة .

٤ هو قدار الذي يضرب به المثل في الشؤم .

قالوا للملكهم وهو من ذرية أذفونش : كيف يرضى الملك بهذا الأمر ونحن نقاتل بنفوسنا وأموالنا؟ فأخذ عليهم العهد بذلك ، وجمع عشرين ألفاً من أهل البلاد ، وجهّز في البحر ستة عشر ألفاً ، وشرط عليهم حمل السلاح ، وفي سنة ست وعشرين وستمائة اشتهر أمر هذه الغزوة فاستعد لها الوالي ، وميز نيّفاً على ألف فارس من فرسان الحضرة والرعية مثلهم ، ومن الرجال ثمانية عشر ألفاً ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة ، ومن سوء الاتفاق أن الوالي أمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر ، فساقهم وضرب أعناقهم ، وكان فيهم ابنا خاله ، وخالهما أبو حفص ابن سيرى ذو المكانة الوجيّهة ، فاجتمعت الرعية إلى ابن سيرى ، فأخبروه بما نزل ، وعزوه فيمن قُتل وقالوا : هذا أمر لا يطاق ، ونحن كل يوم إلى الموت نساق ، وعاهدوه على طلب الثأر ، وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال ، والناس من خوفه في أهوال ، ومن أمر العدو في إهمال ، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم ، وإذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالي ، وأخبره بأن الروم قد أقبلت ، وأنه عد فوق الأربعين من القلوع ، وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر من جانب آخر وقال : إن أسطول العدو قد تظاهر ، وقال : إنّه عد سبعين شراعاً ، فصح الأمر عنده ، فسمح لهم بالصفح والعبو ، وعرفهم بخبر العدو ، وأمرهم بالتجهز ، فخرجوا إلى دورهم ، كأنّما نُشِرُوا من قبورهم . ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد ، فإنّهم عدوا مائة وخمسين قلعا ، ولما عبر وقصد المرسى أخرج الوالي جماعة تمنعهم النزول ، فباتوا على المرسى في الرّجل والخيل . وفي الثامن عشر من شوال وهو يوم الاثنين ، وقع المصاف ، وانهزم المسلمون ، وارتحل النصارى إلى المدينة ، ونزلوا منها على الحربية الحزينة من جهة باب الكحل ، ولم يزل الأمر في شدة وقد أشرفوا على أخذ البلد ، ولما رأى ابن سيرى<sup>١</sup> أن العدو قد استولى على البلد خرج

١ ق : ابن سيرى .

إلى البادية ، ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالاً شديداً ،  
ولما كان يوم الأحد أخذ البلد ، وأخذ منه أربعة وعشرون ألفاً قتلوا على دم واحد ،  
وأخذ الوالي وعذب ، وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يوماً ، ومات تحت  
العذاب ، وأمّا ابن سيرى فإنه صعد إلى الجبل ، وهو منيع لا يُنال من تحصن  
فيه ، وجمع عنده ستة عشر ألف مقاتل ، وما زال يقاتل إلى أن قُتل يوم الجمعة  
عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وجده من آل جبيلة بن الأيهم  
الغساني ، وأما الحصون فأخذت في آخر رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وفي  
شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين إلى بلاد الإسلام ؛ انتهى ما ذكره ابن  
عميرة المخزومي ملخصاً .

وكان بميُورقة جماعة أعلام وشعراء ، ومن شعر ابن عبد الولي الميورقي ١ :

هل أمانٌ من لحظك الفتانِ      وقوام يميلُ كالخيزرانِ  
مهجتي منك في جحيمٍ ، ولكنَّ      جفوني قد مُتعت في جنانِ  
فتنتني لواحظ ساحرات      لستُ أخشى من فتنة الشيطانِ

[ سعيد بن حكم في منورقة ]

ولما استولى النصارى على ميُورقة في التاريخ المتقدم ثار بجزيرة منورقة ،  
وهي قريبة منها ، الجواد العادل العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي ، وكان وليها  
من قبل الوالي أبي يحيى المقتول ، وتصالح مع النصارى على ضريبة معلومة ،  
واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى ، وضبطها أحسن ضبط ، قال  
أبو الحسن علي بن سعيد : أخبرني أحد من اجتمع به أنه لقي منه برآ حيب إليه  
الإقامة في تلك الجزيرة المنقطعة ، وذكر أنه ركب معه فنظر إلى حمالة سيف

١ ترجمته وشعره في المغرب ٢ : ٤٦٨ .

ضيقة وقد أثرت في عنقه ، فأمر له بإحسان وغنباز ، وكتب معه :

حمالة السيف تُوهي جيدَ حاملها لا سيّما يومَ إسراعٍ وإنجازٍ  
وخيرُ ما استعمل الإنسانُ يومئذٍ لحسمِ علتها إلباسَ غنبازٍ

والغنباز عند أهل المغرب : صنف من الملابس غليظ يستر العنق .  
وأصل أبي عثمان من مدينة طبيرة من غرب الأندلس ، وقد ألفت باسمه  
التأليف المشهورة بالمغرب ككتاب « رَوْحُ الشجر وروح الشعر » وغيره ؛  
وأخذ العدو منورقة بعد مدة .

### [ سقوط عدة مدن ]

وأخذ العدو جزيرة شقر صلحاً سنة تسع وثلاثين وستمائة في آخرها .  
وأخذ العدو - دمره الله تعالى - مدينة سَرَ قَسْطَة يوم الأربعاء لأربع خلون من  
رمضان سنة اثنتي عشرة وخمسمائة .

وكان استيلاء الإفرنج على شرق الأندلس شاطبة وغيرها وإجلاؤهم مَنْ  
يشاركهم من المسلمين فيما تغلبوا عليه منها في شهر رمضان سنة خمس وأربعين  
وستمائة .

وكان استيلاء العدو - دمره الله تعالى - على مدينة قَرْطُبَة يوم الأحد الثالث  
والعشرين لشوال من سنة ست وثلاثين وستمائة .

وكان تملك العدو مَرْسِيَة صلحاً ظهر يوم الخميس العاشر من شوال ، قدم  
أحمد بن محمد بن هود ولد والي مرسية بجماعة من وجوه النصراري ، فملكهم  
إياها صلحاً ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

وحصر العدو إشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة . وفي يوم الاثنين الخامس  
من شعبان للسنة بعدها ملكها الطاغية صاحب قشتالة صلحاً بعد منازلها حولاً كاملاً  
وخمسة أشهر أو نحوها . وقال ابن الأبار في ترجمة أبي علي الشلوبين من « التكملة »



ما صورته : وتوفي بين يدي منازل الروم لإشبيلية ليلة الخميس منتصف صفر سنة خمس وأربعين وستمائة ، وفي العام القابل ملكها الروم .

[ موقعة أنيشة - ٦٣٤ وترجمة أبي الربيع ابن سالم ]

وكانت وقعة أنيجه<sup>١</sup> التي قُتل بها الحافظ أبو الربيع الكلاعي رحمه الله تعالى يوم الخميس لعشر بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة ، ولم يزل رحمه الله تعالى متقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مقبلاً على العدو ينادي بالمنهزمين : أعن الجنة تفرون ؟ حتى قُتل صابراً محتسباً برَدَّ الله تعالى مضجعه ، وكان دائماً يقول : إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها في صغره ، فكان كذلك ، وراثه تلميذه الحافظ أبو عبد الله ابن الأبار بقصيدته الميمية الشهيرة التي أولها<sup>٢</sup> :

ألمًا بأشلاء العُلا والمكارمِ      تقدّ بأطراف القننا والصّوارمِ  
وعوجا عليّها مأرباً وحفاوة<sup>٣</sup>      مصارع خُصّت بالطليّ والجماجمِ  
نُحيّسي وجوهاً في الجنان وجبهة      [ بما لقيت حمراً وجوه الملاحم ]  
[ وأجساد إيمان كساها نجيعها ]<sup>٤</sup>      مجاسد من نسج الطّبيّ واللهازمِ  
وهي طويلة .

ومن شعر الحافظ أبي الربيع المذكور<sup>٥</sup> :

١ انظر الروض المعطار : ( أنيشة ) .

٢ أوردتها ابن عبد الملك في الذيل ؛ : ٩٠ - ٩٥ .

٣ الأصول : ومفازة .

٤ صوبناه عن الذيل بزيادة ما بين مقفين .

٥ الذيل والتكملة ؛ : ٨٨ .

ووافى صباحاً للرشاد مبين  
 وجيش مشيب جهزته منون  
 وكيف ولا يخفى عليه جنين  
 فمن مذهبي أن الرياء يشين  
 كما ريع بالعلق الفقيد ضنين  
 فخطت بقلبي للشجون فنون  
 وآتق مهما لاحظته عيون  
 وأنس خلا منه صفاً وحجون  
 تزيد شيبى كيف بعد يكون  
 وكيف مع الشيب الممض سكون  
 فما لي عراني للمشيب جنون  
 ولم يعلموا أن الحديث شجون

تولت ليالٍ للغواية جُونُ  
 ركاب شبابٍ أزمعت عنك رحلةً  
 ولا أكذب الرحمنَ فيما أُجِنهُ  
 ومن لم يحلَّ أن الرياء يشينه  
 لقد ريعَ قلبي للشباب وفقده  
 وآلني وخطُ المشيب بلمتي  
 وليل شبابي كان أنضَرَ منظراً  
 فأها على عيش تكدر صفوه  
 وبيا ويحَ فودي أو فؤادي كلما  
 حرامٌ على قلبي سكونٌ بغيره<sup>١</sup>  
 وقالوا شباب المرء شعبة جنة  
 وقالوا شجاك الشيب حدثان ما أتى

وقوله<sup>٢</sup> :

وما أحد يارب منك بيذا<sup>٣</sup> أولاً  
 فأوزعها شكراً وأوسعها طولا  
 أقل حلي عليائه يخرسُ القولا  
 فكن قوتي في مطلبي وكن الحولا  
 ولو لقيت نفسي على نيله الهولا

أموى الموالي ليس غيرك لي مولى  
 تبارك وجهٌ وجهت نحوه الملى  
 وما هو إلا وجهك الدائم الذي  
 تبرأت من حولي إليك وقوتي  
 وهب لي الرضى ما لي سوى ذاك مبتغى

وكان - رحمه الله تعالى - حافظاً للحديث ، مبرزاً في نقده ، تام المعرفة

١ الذيل : يقره .

٢ الذيل : ٨٧ .

٣ ق : بنا .

بطرقه ، ضابطاً لأحكام أسانيدهِ ، ذاكراً لرجالهِ ، ربّاناً من الأدب ، خطب ببلنسية ، واستقضى ، وكان مع ذلك من أولي الحزم والبسالة والإقدام والحزالة ، حضر الغزوات وباشّر القتال بنفسه وأبلى بلاء حسناً ، وروى عن أبي القاسم ابن حبيش وطبقته ، وصنف كتباً منها « مصباح الظلم » في الحديث ، و « الأربعون » عن أربعين شيخاً لأربعين من الصحابة ، و « الأربعون السباعيّة » و « السباعيات » من حديث الصديقي ، و « حلية الأمالي في الموافقات والعوالي » و « تحفة الرّواد ونجعة الرّواد »<sup>١</sup> و « المسلسلات » و « الإنشادات » و « كتاب الإكتفاء في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلّم ومغازي الثلاثة الخلفاء » و « ميدان السابقين وحلبة الصادقين المصدقين » في غرض كتاب الاستيعاب ، ولم يكمله ، و « المعجم » فيمن وافقت كنيته [ كنية ] زوجه من الصحابة ، و « الإعلام بأخبار البخاري الإمام » و « المعجم في مشيخة أبي القاسم ابن حبيش » و « برنامج رواياته »<sup>٢</sup> و « جني الرطب في سني الخطب » و « نكتة الأمثال ونقشة السحر الحلال » و « جهد النصيح »<sup>٣</sup> في معارضة المعري في خطبة الفصيح » و « الامتثال لمثال المبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال » و « مفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل بطريقة المعري في ملقى السبيل » و « مجاز فتيا اللحن للاحن الممتحن » مائة مسألة ملغزة ، و « نتيجة الحب الصميم وزكاة المنشور والمنظوم في مثال النعل النبوية على لابستها أفضل الصلاة والسلام » ، قال ابن رشيد : لو قال وزكاة الثير والتنظيم لكان أحسن ، وله كتاب « الصحف المنشرة في القطع المعشرة » و « ديوان رسائله » سفر ، و « ديوان شعره » سفر<sup>٤</sup> ، وكتب إلى الأديب الشهير أبي بحر صفوان بن إدريس المرسي عقب انفصاله من

١ سماه ابن عبد الملك : « تحفة الرواد في العوالي البدلية والاستناد » .

٢ الذيل : مروياته .

٣ الذيل : وجهد النصيح وحظ المنيح .

٤ الذيل : سفير .

وماذا الذي يغني حنيني أو يُجدي  
 محبهم رهن الصباة والوجد  
 ووجدني فساوى ما أُجِنُّ الذي أبدي  
 وشاحٌ بخصرٍ أو سوار على زند  
 وبعض الذي لاقيته من جوى يُردي  
 كأنَّ صروف الدهر كانت على وعد  
 لهُ أبداً شوق إلى سرحتي نجد  
 ضحيت فهل ظلُّ يسكن من وجدني  
 لعلَّ لأنس قد تصرَّم من رَدِّ  
 ونقطف زهر الوصل من شجر الصدِّ  
 كرام السجايا لا يحولون عن عهد  
 ولا كابن إدريس أخي البشر والمجد  
 وذو خلقٍ كالزهر غيب الحيا العِدِّ  
 فمن خلق سبط ومن حسب جعد  
 وفل من عزمي وثلم من حدَّي  
 ألا مذ نأيتم ما يُعيد ولا يُبدي  
 وعيشٌ كما نَمْنَمَت حاشيتي بُرد  
 فيبدو ، ومنَّا الشمل منتظم العقد

أحنُّ إلى نجد ومن حلَّ في نجدِ  
 وقد أوطنوها وادعينَ وخلِّقوا  
 تبيينَ بالبينِ اشتياقي إليهم  
 وضائق عليَّ الأرض حتى كأنَّها  
 إلى الله أشكو ما ألاقى من الجوى  
 فراقُ أخلاءٍ وصدُّ أحبِّة  
 فيا سَرَحَتِي نجد ، نداءً متيمَّ  
 ظمئتُ فهل طلُّ يبرِّد لوعي  
 ويا زمناً قد بانَ غيرَ مُدَمَّم  
 لياليَ نجني الأنس من شجر المني  
 وسقياً لإخوان بأكناف حاجرٍ  
 وكم لي بنجد من سريٍّ ممجدٍ  
 أخو همّة كالزهر في بُعد نيلها  
 تجمَّعت الأضداد فيه حميدة  
 أيا راحلاً أودى بصبري رحيله  
 أتعلم ما يلقي الفؤاد لبُعدكم  
 فيا ليت شعري هل تعود لنا المني  
 عسى الله أن يذني السرور بقربكم

[ ابن العربي ومعركة ٥٢٧ ]

وقال الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي في « أحكام القرآن »<sup>٢</sup> عند تفسير

١ ق : وما أبدي .

٢ انظر أحكام القرآن ج ٢ : ٩٤٣ .

قوله تعالى ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ (التوبة : ٤١) ما صورته : ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله تعالى - سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فجاس ديارنا ، وأسر جيرتنا ، وتوسّط بلادنا في عدّد حدد الناس عدده فكان كثيراً ، وإن لم يبلغ ما حدوده ، فقلت للوالي والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل في الشّرك والشبكة ، فلتكن عندكم برّكة ، ولتكن منكم إلى نصره الدين المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار ، فيحاط به ، فإنّه هالك لا محالة إن يسّرکم الله له ؛ فغلبت الذنوب ، ورجفت بالمعاصي القلوب ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وجاره ، وإن رأى المكيدة بجاره ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ انتهى .  
ولا خفاء أن هذا كان قبل أخذ العدو شرق الأندلس وسرقسطة وميورقة وغيرها ممّا قدمنا ذكره ، والبدايات ، عنوانٌ على النهايات .

#### [ قصيدة الوقشي في مدح أبي يعقوب ]

وقال أبو جعفر الوقشي البلنسي<sup>١</sup> نزيل مالقة يمدح أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي :

أبت غير ماء بالنخيل ورودا	وهامت به عذب الجِمام برودا
وقالت لحاديها أثمّ زيادة	على العشر في وردي له فأزيدا
غلبتك ما هذا القنوع وما أنا	عهدتك لا تثنين عنه وريدا
أنونا إذا ما كنت منه قربية	وضباً إذا ما كان عنك بعيدا
ردي حضرة الملك الظليل رواقه	لعمري ففيها تحمدين ورودا
بجيث إمام الدين يوسع فضله	جميع البرايا مبدئاً ومعيدا

١ البلنسي : سقطت من ق ؛ وقد كان أبو جعفر الوقشي وزيراً لابن هشك ، وهو مدوح الرصافي البلنسي .

أعاد إليها الأنسَ بعد شروده وأحيا لنا ما كان منه أبدا  
وليينَ أيامَ الزمان بعدله وكانت حديداً في الخطوب حديدا  
فلا ليلة إلا يروكك حسنها ولا يوم إلا عاد بفضل عيدا

ومنها يصف حال الأندلس ويبعث على الجهاد :

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى فأبصرَ شملَ المشركين طريدا  
وهل بعدُ يقضى في النصرى بنصرة تغادرهم للمرهقات حصيدا  
ويغزو أبو يعقوبَ في شنتَ ياقب يُعيدُ عميدَ الكافرينَ عميدا  
ويلقي على إفرنجهم عبءَ كللك فيتركهم فوق الصعيد هجودا  
يغادرهم جرحى وقلى مبرحاً ركوعاً على وجه الفلا وسجودا  
ويفتك من أيدي الطغاة نواعماً تبدلن من نظم الحجول قيودا  
وأقبلن في خشن المسوح وطالما سحن من الوشي الرقيق برودا  
وغبترَ منهن الترابُ ترائباً وخلد منهن الهجيرُ خلدودا  
فحقّ لدمعي أن يفيض لأزرق تملكها دُعجَ المدامع سودا  
وياهلف نفسي من معاصم طفلة تجاورُ بالقيد الأليم نهودا  
ويا أسفاً ما إن يزال مُردداً على شملِ أعياد أُعيد بديدا  
وآهاً تمدُّ الصوت منتجياً على خلوّ ديار لو يكون مفيدا

وقال في آخرها ، وهو مما استحسنته الناس :

حملتُ إليه من نظامي قلادة يلقبها أهلُ الكلام قصيدا  
غدتُ يومَ إنشاد القريض وحيدة كما قصدت في المعلوات وحيدا

ولما تمهدت الأندلس لعبد المؤمن وبنيه كان لهم فيها وقائع مع عدو الدين ،  
واجتاز إليها عبدُ المؤمن . ثم لما ولي بعده ملكه ابنه يوسف دخل الأندلس سنة  
٥٦٦ ، وفي صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحدين ، فنزل بإشبيلية ،

فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن مرْدَنيش صاحبُ شرق الأندلس :  
 مُرْسِيَّة وأعمالها وما انضاف إليها ، فحمل على قلبه فمرض فمات ، وشرع  
 السلطان يوسف في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج ، فاتسعت مملكته  
 بالأندلس ، وأغارت سراياه على طُلَيْطَلَة إذ هي قاعدة ملكهم ، ثم إنّه حاصرها  
 فاجتمعت طائفة الفرنج عليه ، واشتد الغلاء في عسكره ، فرحل عنها وعاد إلى  
 حضرة ملكه مراکش المحروسة .

### [ قصيدة في استنهاض الحفصي بعد سقوط بلنسية ]

ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى — دمرهم الله تعالى — على كثير  
 منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثار ، بالنظم والنثار ، فلم ينفعهم  
 ذلك حتى اتسع الخرق ، وأعضل الداء أهلَ الغرب والشرق ، فمن القصائد  
 الموجهة في ذلك قولُ بعضهم لما أخذت بلنسية يخاطب صاحب إفريقية أبا زكريا  
 ابن عبد الواحد بن أبي حفص :

نادتك أندلسٌ فلبَّ نداءها	واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرختُ بدعوتك العليَّة فاحبها	من عاطفاتك ما بقي حوِّبها
واشدد بجلبك جُرْدَ خيلك أزرها	تردد على أعقابها أرزاءها
هي دارك القصوى أوت لإيالة	ضمنت لها مع نصرها إيواءها
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى	سبُل الضراعة يسلكون سواءها
خلعت قلوبهم هناك عزاءها	لما رأت أبصارهم ما ساءها
دُفِعُوا لأبكار الخطوب وعُونِها	فهمُ الغداة يصابرون عناءها
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت	سراءها وقضتهمُ ضراءها
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا	لم يضمن الفتحُ القريبُ بقاءها
رِشُ أيها المولى الرحيم جناحها	واعقد بأرشيّة النجاة رِشاءها

أشفي على طرف الحياة ذمّاؤها  
حاشاك أن تنفي حشاشتها وقد  
طاقت بطائفة الهدى آمالها  
واستشرفت أمصارها لإمارة  
يا حسرتي لعقائل معقولة  
إيه بلنسية وفي ذكراك ما  
كيف السبيل إلى احتلال معاهد  
وإلى ربّي وأباطح لم تعرّ من  
طاب المعرّس والمقيل خلالها  
بأبي مدارس كالطلول دوارس  
ومصانع كسف الضلال صباحها  
راحت بها الورقاء تسمع شدّوها  
عجبا لأهل النار حلكوا جنّة  
أملت لهم فتعجلوا ما أمّلوا  
بعداً لنفس أبصرت إسلامها  
أما العلوج فقد أحالوا حالها  
أهدى إليها بالمكاره جارح  
وكفى أسى أن الفواجع جمّة  
هيئات في نظر الإمارة كفّ ما  
مولاي هاك معادة أنباءها  
جرّد طبّاك لمحو آثار العدا  
واستدع طائفة الإمام لغزوها  
لا غرو أن يعزى الظهور للمّة  
إن الأعاجم للأعارب نهبّة

فاستبق للدين الحنيف ذمّاها  
قصرت عليك نداءها ورجاءها  
ترجو بيحيى المرتضى إحياءها  
عقدت لنصر المستضام لواءها  
شم الهدى نحو الضلال هداها  
يمري الشئون دماءها لا ماءها  
شبّ الأعاجم دونها هيّجاءها  
حلّل الربيع مصيفها وشتاءها  
وتطلعت غررّ المنى أثناءها  
نسخت نواقيس الصليب نداءها  
فيخاله الرائي إليه مساءها  
وغدت ترجع نوحها وبكاءها  
منها تمدّ عليهم أفياءها  
أيامهم لا سوّغوا إملاءها  
فتوكفت عن حزبها إسلاءها  
فمن المطيق علاجها وشفاءها  
للكفر كره ماءها وهواءها  
فمتى يقاوم أسوأ أسوأها  
تخشاه ، ليت الشكر كان كفاءها  
لتنيل منك سعادة أبناءها  
تقتل ضرّاعمها وتسبّ طبّاءها  
تسبق إلى أمثالها استدعاءها  
لم يبرحوا دون الورى ظهراءها  
مهما أمرت بغزوها أحياءها



تالله لو دَبَّتْ لها دبابُها  
ولو استقلتْ عوفها لقتالها  
أرسلْ جوارحها تجنك بصيدها  
هَبُّوا لها يا معشر التَّوْحِيدِ قد  
إنَّ الحفائظ من خلالكمُ التي  
هي نكتة المَحيا فحيَّهلا بها  
أولوا الجزيرة نصرَةً إنَّ العدا  
نُقصت بأهل الشُّرك من أطرافها  
حاشاكمُ أن تضمروا إلغاءها  
خوضوا إليها بحرها يصبحُ لكمُ  
وافي الصريخُ مثوباً يدعو لها  
دار الجهاد فلا تفتكم ساحةُ  
هذي رسائلها تُناجي بالتي  
ولربما أنهت سوابل للنهي  
وفدت على الدار العزيزة تجتني  
مستسقيات من غيوث غياثها  
قدْ أمنت في سبلها أهواءها  
وبحسبها أنَّ الأمير المرتضى  
في الله ما ينويه من إدراكها  
بشرى لأندلس تحبُّ لقاءهُ  
صدق الرواة المخبرون بأنَّهُ  
إن دوخ العربُ الصعابَ مقادة  
فكانُ بفيئلقه العرمرمِ فالقاً  
أنذرهمُ بالبطشة الكبرى فقد

لَطَوَتْ عليها أرضها وسماءها  
لاستقبلت بالمقربات عفاءها  
صيداً ونادٍ لطحنها أرحاءها  
آنَ الهبوبُ وأحرزوا علياءها  
لا يرهبُ الداعي بهن خلاءها  
تجدوا سنَّها في غدٍ وسناءها  
تبغي على أقطارها استيلاءها  
فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها  
في أزمة أو تضمروا إقصاءها  
رَهْواً وجوبوا نحوها بيئاءها  
فلتجملوا قصد الثواب ثواءها  
ساوت بها أحياءها شهداءها  
وقفت عليها ريثها ونجاءها  
من كائنات حملت أنباءها  
آلاءها أو تجتلي آراءها  
ما وَقَعَهُ يتقدَّمُ استسقاءها  
إذ سوغت في ظلِّها أهواءها  
مترقبٌ بفتوحها آناءها  
بكلاءة يَفْدي أبي أكلاءها  
ويحبُّ في ذاتِ الإله لقاءها  
يَشْفِي ضنَّها أو يُعيدُ رُواءها  
وأبى عليها أن تطيع إباءها  
هامَ الأعاجم ناسفاً أرجاءها  
نذرت صوارمهُ الرقاق دماءها

لا يعلم الزمن انتصار مؤيد  
ملك أمد النيرين بنوره  
خضعت جبابرة الملوك لعزّه  
أبقى أبو حفص إمارته له  
سل دَعْوَة المَهْدِيّ عن آثاره  
فغزا عداها واسترقّ رقابها  
قبضت يدها على البسيطة قبضة  
فعلى المشارق والمغرب ميسم  
تطمو بتونسها بحار جيوشه  
وسع الزمان فضاك عنه جلاله  
ما أزمع الإيغال في أكتافها  
دانت له الدنيا وشُمّ ملوكها  
ردّت سعادته على أدراجها  
إن يعتم الدول العزيزة بأسه  
تقع الجلائل وهو راس راسخ  
كالطود في عصف الرياح وقصفها  
سامي النوائب في أعزّ ذؤابة  
بركت بكلّ محلّة بركاته  
كالغيث صبّ على البسيطة صوبه  
ينميه عبد الواحد الأرضى إلى  
في تبعه كرمت وطابت مغرساً  
ظهرت لمحتدها السماء وجاوزت  
فئة كرام لا تكفّ عن الوغى  
وتكبّ في نار القرى فوق الدرا

تسوغ الدنيا به سرّاءها  
وأفاده لألاؤه لألاءها  
ونضت بكفّ صغارها خبيلاءها  
فسما إليها حاملاً أعباءها  
تنبيك أن ظبّاه قمن إزاءها  
وحمي حماها واستردّ بهاءها  
قادت له في قدّه أمراءها  
لهداه شرف وسّمه أسماءها  
فيزور زاخر موجها زوراءها  
والأرض طرّاً ضنكها وقضاءها  
إلاّ تصيد عزّمه زعماءها  
فاحتلّ من رتب العلاء شماءها  
ليل الزمان ونهنت غلّواءها  
فالآن يولي جوده إعطاءها  
فيها يوقع للسعود جلاءها  
لا رهّوها بحشى ولا هوجاءها  
أعلت على قيم النجوم بناءها  
شفعاً يبادر بلها شفعاءها  
فسقى عمائرها وجاد قواءها  
عليها فتمنح بأسها وسخاءها  
وسمت وطالت نضرة نظراءها  
لسراقات فخارها جوزاءها  
حتى تُصرّع حولها أكفاءها  
من عزّة ألويتها وكتباءها

قد خلَقُوا الأيامَ طيبَ خلائقٍ  
يَنْضُونَ في طلبِ النفائسِ أنفُساً  
وإذا انتصوا يومَ الكريمةِ بيضَهُمْ  
لا عذرَ عندَ المكرماتِ لهم متى  
قومُ الأميرُ فمن يقومُ بما لهم  
صفحاً جميلاً أيها الملكُ الرضى  
تقفُ القوافي دونهن حسيرةً  
فعلَّ علياكم تسامحُ راجياً

[ في رثاء طليطلة ]

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها الله تعالى للإسلام :

لثُكُّكَ كيفَ تبتسمُ الثغورُ  
أما وأبي مصابٍ هدًى منه  
لقد قصِمتَ ظهورُ حينَ قالوا  
ترى في الدهرِ مسروراً بعيشِ  
أليس بها أبايُ النفسِ شهيمِ  
لقد خضعت رقابُ كُنَّ غلباً  
وهانَ على عزيزِ القومِ ذلُّ  
طليطلةُ أباحَ الكفرُ منها  
فليسَ مثالها إيوانُ كسرى  
محسنةُ محسنةُ بعيدُ  
ألم تكُ معقلاً للدينِ صعباً  
وأخرج أهلها منها جميعاً

سروراً بعدما سُبِيتَ ثغورُ  
ثبيرُ الدينِ فاتصلَ الثبورُ  
أميرُ الكافرينِ له ظهورُ  
مضى عنا ليطيته السرورُ  
يديرُ على الدوائرِ إذ تدورُ  
وزال عتوُّها ومضى النثورُ  
وسامح في الحريمِ فتي غيورُ  
حماها ، إنَّ ذا نبأ كبيرُ  
ولا منها الخورتنُ والسديرُ  
تناولها ومطلَبُها عسيرُ  
فدلهُ كما شاء القديرُ  
فصاروا حيثُ شاء بهم مصيرُ

وكانت دارَ إيمان وعلم  
 فعادت دارَ كفر مصطفاة  
 مساجدُها كنائسُ ، أيُّ قلب  
 فيا أسفاه يا أسفاه حزناً  
 وينشر كل حسن ليس يطوى  
 أدبيلت قاصرات الطرف كانت  
 وأدركها فتورٌ في انتظار  
 وكان بنا وبالقيينات<sup>١</sup> أولى  
 لقد سخنت بحالتهن عين<sup>٢</sup>  
 لئن غبنا عن الإخوان إنا  
 نذور كان للأيام فيهم  
 فإن قلنا العقوبة أدركتهم  
 فإننا مثلهم وأشد منهم  
 أنامن أن يحل بنا انتقام  
 وأكل للحرام ولا اضطرار  
 ولكن جرأة في عقر دار  
 يزول السر عن قوم إذا ما  
 يطول علي ليلي ، رب خطب  
 خذوا ثار الديانة وانصروها  
 ولا تنهوا وسلوا كل غضب  
 وموتوا كلكم فالموت أولى  
 أصبراً بعد سبي وامتحنان

معالمها التي طمست تنير  
 قد اضطربت بأهلها الأمور  
 على هذا يقر ولا يطير؟  
 يكرر ما تكررت الدهور  
 إلى يوم يكون به النشور  
 مصونات مساكنها القصور  
 لسرب في لواحظه فتور  
 لو انضمت على الكلب القبور  
 وكيف يصح مغلوب قرير  
 بأحزان وأشجان حضور  
 بمهلكهم فقد وفيت النذور  
 وجاءهم من الله النكير  
 نجور وكيف يسلم من يجور  
 وفينا الفسق أجمع والفجور  
 إليه فيسهل الأمر العسير  
 كذلك يفعل الكلب العقور  
 على العصيان أرخيت الستور  
 يطول لهول الليل القصير  
 فقد حامت على القتلى النور  
 تهاب مضارباً منه النحور  
 بكم من أن تجاروا أو تجوروا  
 يلام عليهما القلب الصبور

فَأَمُّ الثَّكَلِ مِذْكَارٌ وَلُودٌ  
نَحُورٌ إِذَا دُهِنَا بِالرِّزَايَا  
وَنَجْبِنُ لَيْسَ نَزَارٌ ، لَوْ شَجَعْنَا  
لَقَدْ سَاءَتْ بِنَا الْأَخْبَارُ حَتَّى  
أَتْنَا الْكُتُبُ فِيهَا كُلُّ شَرٍّ  
وَقِيلَ تَجَمَّعُوا لِفِرَاقِ شَمَلِ  
فَقُلْ فِي خِطَّةٍ فِيهَا صَغَارٌ  
لَقَدْ صَمَّ السَّمِيعُ فَلَمْ يَعُولِ  
تَجَاذَبْنَا الْأَعَادِي بِاصْطِنَاعِ  
فَبَاقٍ فِي الدِّيَانَةِ تَحْتَ خَزِي  
وَأَخْرُ مَارِقٌ هَانَتْ عَلَيْهِ  
كَفَى حَزَنًا بِأَنَّ النَّاسَ قَالُوا  
أَنْتَ كَ دُورَنَا وَنَفَرْنَا عَنْهَا  
وَلَا تَمَّ الضِّيَاعُ تَرُوقٌ حَسَنًا  
وِظَلٌّ وَارْفٌ وَخَرِيرٌ مَاءٌ  
وَيُؤْكَلُ مِنْ فَوَاكِهِهَا طَرِيٌّ  
يُؤَدَى مَغْرَمٌ فِي كُلِّ شَهْرٍ  
فَهَمُّ أَحْمَى لِحُوزَتِنَا وَأُولَى  
لَقَدْ ذَهَبَ الْيَقِينُ فَلَا يَقِينُ  
فَلَا دِينَ ، وَلَا دُنْيَا وَلَكِنْ  
رَضُوا بِالرَّقِّ يَا لِلَّهِ مَاذَا  
مَضَى الْإِسْلَامَ فَابْنِكِ دَمًا عَلَيْهِ  
وَنُحٌّ وَانْدَبٌ رِفَاقًا فِي فَلَائِ  
وَلَا تَجَنَّحْ إِلَى سِلْمٍ وَحَارِبِ

وَأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلَاتٌ نَزُورٌ  
وَلَيْسَ بِمَعْجَبٍ بِقَرٍّ يَحُورٌ  
وَلَمْ نَجِبْنِ لَكَانَ لَنَا زَيْرٌ  
أَمَاتَ الْمُخْبِرِينَ بِهَا الْخَيْرُ  
وَبَشَّرْنَا بِأَنْحَسْنَا الْبَشِيرُ  
طَلِيظَةٌ تَمْلِكُهَا الْكَفُورُ  
يَشِيبُ لِكَرْبِهَا الطِّفْلُ الصَّغِيرُ  
عَلَى نَبِيٍّ كَمَا عَمِيَ الْبَصِيرُ  
فَيَنْجَذِبُ الْمَخُولُ وَالْفَقِيرُ  
تَنْبِطُهُ الشَّوْبِيهَةُ وَالْبَعِيرُ  
مِصَائِبُ دِينِهِ فَلَهُ السَّعِيرُ  
إِلَى أَيْنَ التَّحَوُّلُ وَالْمَسِيرُ  
وَلَيْسَ لَنَا وَرَاءَ الْبَحْرِ دُورٌ  
نَبَاكِرُهَا فَيَعْجِبُنَا الْبُكُورُ  
فَلَا قَرٌّ هُنَاكَ وَلَا حَرُورٌ  
وَيُشْرَبُ مِنْ جِدَاوِلِهَا نَمِيرُ  
وَيُؤْخَذُ كُلُّ صَائِفَةٍ عَشُورُ  
بِنَا وَهُمْ الْمَوَالِي وَالْعَشِيرُ  
وَعَرَّ الْقَوْمَ بِاللَّهِ الْغُرُورُ  
غُرُورٌ بِالْمَعِيشَةِ مَا غُرُورُ  
رَأَاهُ وَمَا أَشَارَ بِهِ مُشِيرُ  
فَمَا يَنْفِي الْجُحَى الدَّمْعُ الْغَزِيرُ  
حَيَارَى لَا تَحْطُّ وَلَا تَسِيرُ  
عَسَى أَنْ يُجْبَرَ الْعِظْمُ الْكَسِيرُ

أُنعمى عن مرآشدنا جميعاً  
ونلقى واحداً ويفرُّ جمعٌ  
ولو أننا ثبتنا كان خيراً  
إذا ما لم يكن صبرٌ جميلٌ  
ألا رجلٌ له رأيٌ أصيلٌ  
يكرُّ إذا السيوف تناولتهُ  
ويطعن بالقتال الخطار حتى  
عظيم أن يكون الناسُ طرّاً  
أذكر بالقراع الليث حرصاً  
يبادرُ خرقها قبل اتساع  
يوسع للذي يلقاهُ صدرأ  
تغصت الحياةُ فلا حياةُ  
فليلٌ فيه همٌ مستكنٌ  
ونرجو أن يتيح الله نصرأ

وما إن منهم إلا بصيرُ  
كما عن قانصٍ فرّت حميرُ  
ولكن ما لنا كرمٌ وخيرُ  
فليس بنافع عددٌ كثيرُ  
به مما نحاذرُ نستجبرُ  
وأين بينا إذا ولت كرورُ  
يقول الرمح ما هذا الخطيرُ  
بأندلسٍ قتيلاً أو أسيرُ  
على أن يقرع البسّض الذكورُ  
لخطبٍ منه تنخسفُ البلورُ  
فقد ضاقت بما تلقى صدورُ  
وودع جيرة إذ لا مجيرُ  
ويومٌ فيه شرٌ مستطيرُ  
عليهم ، إنه نعم النصيرُ

[ فونية الرندي وشيء من شعره ]

ومن مشهور ما قيل في ذلك قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى<sup>١</sup> :

١ هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم ابن علي بن شريف يكنى بأبي الطيب وأبي البقاء ؛ كان فقيهاً حافظاً متفتناً في النثر والنظم ؛ وله مقامات ومختصر في الفرائض وكتاب اسمه الوافي (أو الكافي) في نظم القوافي (منه عدة مخطوطات ، إحداها بالرباط رقم ك : ١٧٣٠) انظر ترجمته في الذيل والتكملة ٤ : ١٣٧ ومسالك الأبيصار ١١ : ٤٨٠ والإحاطة (المخطوطة المغربية : ١٧٩ ونسخة الاسكوريال رقم : ١٦٨٣ ومجلة معهد الدراسات الإسلامية (٢١١ : ٦).

لكلُّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقْصَانُ  
هي الأمور كما شاهدتها دَوْلُ  
وهذه الدار لا تُبقي على أحد  
يمزقُ الدهرُ حتماً كلَّ سابعةٍ  
ويبتضي كلَّ سيفٍ للفناء ولو  
أينَ الملوك ذُوو التيجان من يمنٍ  
وأين ما شاده شدَّادُ في لآرم  
وأين ما حازه قارون من ذهب  
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مردَّ له  
وصار ما كان من مُلكٍ ومن ملكٍ  
دارَ الزمانُ على داراً وقَاتِلِهِ  
كأتما الصعب لم يسهل له سبب  
فجائعُ الدهرِ أنواعٌ منوعَةٌ  
وللحوادثِ سُلوَانٌ يسهلها  
دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاء له  
أصابها العين في الإسلام فامتحنَتْ  
فاسأل بلسانية ما شأن مُرسيةٍ  
وأين قُرْطبة دارُ العلوم ، فكم  
وأين حمصٌ وما تحويه من نُزّه  
قواعد كُنَّ أركان البلاد فما  
تبكي الحنيفة البيضاء من أسف  
على ديار من الإسلام خالية  
حيث المساجد قد صارت كئناس ما  
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة

فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسانُ  
من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ  
ولا يدوم على حال لها شانُ  
إذا نبتت مشرفياتٌ وخرصانُ  
كان ابن ذي يزن والغمد غمدانُ  
وأين منهم أكاليل وتيجانُ  
وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ  
وأين عادٌ وشدَّادٌ وقحطانُ  
حتى قضوا فكأنَّ القوم ما كانوا  
كما حكى عن خيال الطيف وسانُ  
وأمرٌ كسرى فما آواه إيوانُ  
يوماً ولا ملك الدنيا سليمانُ  
وللزمانِ مسراتٌ وأحزانُ  
وما لما حلَّ بالإسلام سلوانُ  
هوى له أحدٌ وانهدَّ شهانُ  
حتى خلت منه أقطارٌ وبلدانُ  
وأين شاطبة أم أين جيتانُ  
من عالمٍ قد سَمَا فيها له شانُ  
ونهرها العذب فيأضُّ وملآنُ  
عسى البقاء إذا لم تبقَ أركانُ  
كما بكى لفراق الإلف هيمانُ  
قد أقفرت ولها بالكفر عميرانُ  
فيهن إلا نواقيس وصلبانُ  
حتى المنابر ترثي وهي عيدانُ

يا غافلاً وله في الدهر موعظة  
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه  
تلك المصيبة أنست ما تقدمها  
يا راكبين عناق الخيل ضامرة  
وحاملين سيوف الهند مرهقة  
وراتعين وراء البحر في دعة  
أعندكم نبأ من أهل أندلس  
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم  
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم  
ألا نفوس أبيات لها همم  
يا من لذلة قوم بعد عزهم  
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم  
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم  
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم  
يا رب أم وطفل حيل بينهما  
وظفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت  
يقودها العليج للمكروه مكرهة  
لمثل هذا يدوب القلب من كمد  
إن كنت في سنة فالدهر يقظان  
أبعد حمص تغر المرء أوطان  
وما لها مع طول الدهر نسيان  
كأنها في مجال السبق عقبان  
كأنها في ظلام النقع نيران  
لهم بأوطانهم عز وسلطان  
فقد سرى بحديث القوم ركبان  
قتلى وأسرى فما يهتر إنسان  
وأنتم يا عباد الله إخوان  
أما على الخير أنصار وأعوان  
أحال حالهم كُفّر وطغيان  
واليوم هم في بلاد الكفر عبدان  
عليهم من ثياب الذل ألوان  
لهالك الأمر واستهوتك أحزان  
كما تفرق أرواح وأبدان  
كأنما هي ياقوت ومرجان  
والعين باكية والقلب حيران  
إن كان في القلب إسلام وإيمان

انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف ، وما اعتمده منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبه ، ومن له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة ، وغالب ظني أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك



بالمشرق والمغرب ، فكأن بعضهم لما أعجبه قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد بينت ذلك في « أزهار الرياض »<sup>١</sup> فليراجع .

وصالح بن شريف الرندي صاحب القصيدة من أشهر أدباء الأندلس ، ومن بديع نظمه قوله<sup>٢</sup> :

سَلِّمْ عَلَى الْحَيِّ بِذَاتِ الْعَرَارِ      وَحَيٍّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الدِّيَارِ  
وَخَلِّ مَنْ لَمْ عَلَى حَبِّهِمْ      فَمَا عَلَى الْعُشَّاقِ فِي الذَّلِّ عَارِ  
وَلَا تَقْصِرْ فِي اغْتِنَامِ الْمُنَى      فَمَا لِيَالِي الْأَنْسِ إِلَّا قِصَارِ  
وَإِنَّمَا الْعَيْشُ لِمَنْ رَامَهُ      نَفْسٌ تَدَارِي وَكُؤُوسٌ تَدَارِ  
وَرَوْحُهُ الرَّاحُ وَرِيحَانُهُ      فِي طَيْبِهِ بِالْوَصْلِ أَوْ بِالْعُقَارِ  
لَا صَبْرَ لِلشَّيْءِ عَلَى ضِدِّهِ      وَالْحَمْرُ وَالْهَمُّ كَمَا وَنَارِ  
مُدَامَةَ مُدْنِيَةِ الْمُنَى      فِي رِقَّةِ الدَّمْعِ وَلَوْنِ النَّضَارِ  
مِمَّا أَبُو رَيْقٍ أَبَارِقَهَا      تَنَافَسَتْ فِيهَا النُّفُوسُ الْكِبَارِ  
مُعَلِّتِي وَالْبِرِّ مِنْ عَلْتِي      مَا أَطِيبَ الْحَمْرَةَ لَوْلَا الْحَمَارِ  
مَا أَحْسَنَ النَّارَ الَّتِي شَكَّلَهَا      كَالْمَاءِ لَوْ كَفَّ شَرَارَ الشَّرَارِ  
وَبِي وَإِنْ عُدِّبْتُ فِي حَبِّهِ      بَعْدَهُ عَلَى اقْتِرَابِ الْمَنَارِ  
ظِيٌّ غَرِيرٌ نَامَ عَنْ لَوْعَتِي      وَلَا أَذُوقُ النَّوْمَ إِلَّا غِرَارِ  
ذُو وَجْنَةٍ كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ      قَدْ بَهَّرَ الْوَرْدُ بِهَا وَالْبَهَارِ  
رَجَعْتُ لِلصَّبُورِ فِي حَبِّهِ      وَطَاعَةِ اللُّهُوِ وَخَلْعِ الْعِبَادِ  
يَا قَوْمُ قُولُوا بِذِمَامِ الْهُوَى      أَهْكَذَا يَفْعَلُ حُبُّ الصَّغَارِ  
وَلَيْلَةٌ نَبَّهْتُ أَجْفَانَهَا      وَالْفَجْرُ قَدْ فَجَّرَ نَهْرَ النَّهَارِ  
وَاللَّيْلُ كَالْمَهْزُومِ يَوْمَ الْوَعَى      وَالشُّهْبُ مِثْلُ الشُّهْبِ عِنْدَ الْفَرَارِ

١ أزهار الرياض ١ : ٤٧ .

٢ بعضها في الإحاطة : ١٨٦ .

كأتما استخفى السها خيفةً  
لذلك ما شابت نواصي الدجى  
وفي الثريا قمرٌ سافرٌ  
كأن عقوداً تثنى به  
كأنها تسبك ديناره  
كأتما الظلماء مظلومة  
كأتما الصبح لمشاقيه  
كأتما الشمس وقد أشرقت  
محمدٌ محمدٌ كاسمه  
أما المعالي فهو قطبٌ لها  
مؤنل المجدي صريح العلاء  
تزهى به لحم وساداتها  
يفيض من جود يديه على  
اليمن من يمينه حكم جرى  
أخ صفا منه لنا واحد  
فإن شكرنا فضله مرة  
ونحن منه في جوار العلاء  
الحافظُ الله وأسمائه

وطولبَ النجمُ بثارٍ فثار  
وطارحَ النسرُ أخاهُ فطار  
عن غرة غير منها السفار  
إذ صار كالعرجون عند السرار  
وكفها يفتل منه السوار  
تحكمَ الفجرُ عليها فجار  
عزٌ غنى من بعد ذل افتقار  
وجهُ أبي عبد الإله استنار  
شخصٌ له في كل معنى يشار  
والقطبُ لا شك عليه المدار  
مهدبَ الطبعِ كريمُ النجار  
وتنمي قيسٌ له في الفخار  
عافيه ما منه تحارُ البحار  
واليسرُ من شيمة تلك اليسار  
فالدهرُ مما قد جنى في اعتذار  
فقد سكرنا من نداء مرار  
تدورُ للسعدِ بنا منه دار  
لذلك الحارِ وذلك الجوار

[ رسالة ابن عميرة إلى ابن الأبار في سقوط بلنسية ]

رجع - وقد رأيت أن أثبت هنا رسالةً خاطب بها الكاتب البارع القاضي  
أبو المطرف ابن عميرة المخزومي الشيخ الحافظ أبا عبد الله ابن الأبار ، يذكر له

١ الإحاطة : بها ماثل .

أخذ العدو مدينة بلنسية وهي<sup>١</sup> :

ألا فَيْسَتْهُ للدهر تَدُنُو بَمَنْ نَأَى      وَبُقْيَا يَرى مِنْهَا خِلاَفَ الَّذِي رَأَى  
ويا مَنْ عَذِيرِي مِنْهُ ، يَتَغَدَّرُ مَنْ أوى      إِلَيْهِ وَلا يَدْرِي سِوَى خُلْفٍ مِنْ أوى<sup>٢</sup>  
ذخائر ما في البر والبحر صيدهُ      فلا لؤلؤاً أبقي عليه ولا أوى

أيها الأخ الذي دُهِشَ ناظري لكتابه ، بعد أن أدهش خاطرني من إغبابه ،  
وسرني من بشره إيماض ، بعد أن ساءني من جهته إعراض ، جرت على ذكره  
الصلة فقوم قِدَحَ نَبَعْتَهَا ، وروى أكناف تلعتها ، وأحدث ذكراً من عهدنا  
الماضي فنقط وجه عروسه ، وشعشع خمر كؤوسه ، وسقى بماء الشيبه ثراه ،  
وأبرز مثل مرآة الغريبة مرآه ، فبورك فيه أحوذياً وصل رحمه ، وكسا منظره  
من البهجة ما كان حرّمه ، وحيّاً الله تعالى منه ولياً على سالف عهدي تمادى ،  
وبشعار ودي نادى ، وبين الإحسان شيمته ، وأبان والبيان لا تنجابُ عنه  
ديمته ، ولا تغلو بغير قلمه قيمته ، واعتذر عن كلمة تمنى تبديلها ، ودعوة  
ذكر وجوم النادي لها ، ثم أرسلها ترجف بوادرها من خيفة ، وتوغر بوغم<sup>٣</sup>  
صدر قلم وصحيفة ، وتندر من ريحانة قريش أن تمنعه عرفها ، وتحديق إليه  
طرفها ، واتقى غارة على غيرة ، من الناجي برأس طيميرة ، ولم يأمن هجران  
المهاجر بعد وصله ، وعكر عكرمة المغطي بلحمه على أبي جهله ، وعند ذكر  
كتيبة خالد أجحم ، وذكر يوم أحاطت به فارس فاستلحم ، فاعتذر عما قال ،  
وأضمر الحذر إلا أن يقال ، فمهلاً أيها الموفي على علمه ، النافث بسحر  
قلمه ، أنتظن منزلتك في البلاغة ومهيبعتها لاحب ، ومنزعا بالعقول لاحب ،  
تسفل وقد ترفعت ، أو تخفى وإن تلفعت ، عرفناك يا سودة ، وشهرت حلّة

١ ورد بعض هذه الرسالة في الروض المطار : ٤٨ .

٢ أوى : وعد .      ٣ في الأصول : رغم ؛ والوغم : الحقد والثرة .

عطاردي الملاحه والجودة ، فلم حين تهب الأخ الأوحده من قصي غطاريفها ، ولو استثار من حفاظها تالدها وطريفها ، لم يذكر يد قومه عند أبيها ، وقد رام خطه أشرف على تأبيتها ، حين أهاب بكم لمهمته ، ودعا منكم أخاه لأمه ، ولولا ذلك لما خلا له وجه الكعبة ، ولا خلص من تلك المضايق الصعبة ، وبأن أعرتموه نجدتكم الموصوفة ، غلب على ما كان بأيدي صوفة ، فكيف نجد اليد عند عمنا ، أو نشخذ أسنة الألسنة لدمنا ، أو كيف نلقاكم بجدنا ، وأبوكم أبو بكر معدنا ، وما تيامنكم إلى سبأ بن يشجب<sup>١</sup> ، وإن أظننا فيه التعجب ، بالذي يقطع أرحامنا ، ويمنع اشتباكنا والتحامنا ، بعد أن شددنا فعالنا بفعالكم ، ورأينا أقدامنا في نعالكم ، ولو شتمت توعدتكم بأسود سؤددكم عند الإقدام ، وإلحاق إلحافكم في ضرب الهام ، لكن نقول إن قومنا لكيرام ، ولو شاءوا كان لنا منهم شيرة وعرام .

وأعود من حيث بدأ الأخ الذي أبته شوقي ، وأتطعم حلاوة عشرته باقية في حاسة ذوقي ، طارحني<sup>٢</sup> حديث موريد جف ، وقطين خف ، فيا لله لأترباب درجوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قصت الأجنحة وقيل طيروا ، وإنما هو القتل أو الأسر أو تسيروا ، فتفرقوا أيدي سبأ ، وانتشروا ملء الوهاد والربي ، ففي كل جانب عويل وزفرة ، وبكل صدر غليل وحسرة ، ولكل عين عبرة ، لا ترقأ من أجلها عبرة ، داء خامر بلادنا حين أتاها ، وما زال بها حتى سجى على موتاها ، وشجا ليومها الأطول كهلها وفتاها ، وأنذر بها في القوم بجران أنيعة<sup>٣</sup> ، يوم أثاروا أسدها المهيجة ، فكانت تلك الحظمة طل الشؤبوب ، وباكورة البلاء المصبوب ، أثكلتنا إخواناً أبكانا نعيمهم ، ولله أحوذيتهم

١ بعد أن ألمع إلى مآثر مخزوم وذكر بعض رجالها ، عاد يتحدث عن قضاة ومواقفها ، ثم تحولها بنسبها إلى يمن .

٢ من هنا في الروض المطار .

٣ يريد أن البهران (أي المرض) الذي أصاب أنيعة كان إنذاراً بما بعده من سقوط بطنسية .

وَالْمَعِيَهُمْ ، ذَاكَ أَبُو رَبِيعِنَا ١ ، وَشَيْخَ جَمِيعِنَا ، سَعِدَ بِشَهَادَةِ يَوْمِهِ ، وَلَمْ يَرِ  
 مَا يَسُوعُهُ فِي أَهْلِهِ وَقَوْمِهِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَخَذَ مِنَ الْأُمِّ بِالْمَخْنَقِ ، وَهِيَ بِلَتْسِيَّةِ ذَاتِ  
 الْحَسَنِ وَالْبَهْجَةِ وَالرُّونْقِ ، وَمَا لَبِثَ أَنْ أُخْرِسَ مِنْ مَسْجِدِهَا لِسَانَ الْأَذَانِ ، وَأَخْرَجَ  
 مِنْ جَسَدِهَا رُوحَ الْإِيمَانِ ، فَبَرِحَ الْخَفَاءُ ، وَقِيلَ : « عَلَى آثَارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَاءُ » ،  
 وَانْعَطَفَتِ النَّوَابِثُ مَفْرَدَةً وَمُرَكَّبَةً كَمَا تَعَطَفَ الْفَاءُ ، فَأَوْدَتِ الْخَفَةَ وَالْحَصَافَةَ ،  
 وَذَهَبَ الْجِسْرُ وَالرُّصَافَةُ ، وَمَزَقَتِ الْحِلَةَ وَالشَّمْلَةَ ، وَأَوْحَشَتِ الْجُرْفَ وَالرَّمْلَةَ ،  
 وَنَزَلَتْ بِالْحَارَةِ وَقَعَةَ الْحَرَّةِ ، وَحَصَلَتِ الْكَنِيسَةُ ٢ مِنْ جَاذِرِهَا وَظَبَائِهَا عَلَى طَوْلِ  
 الْحَسْرَةِ ، فَأَيْنَ تِلْكَ الْخِمَائِلُ وَنَضْرَتِهَا ، وَالْجِدَاوِلُ وَخَضْرَتِهَا ، وَالْأَنْدِيَّةُ وَأَرْجُهَا ،  
 وَالْأَوْدِيَّةُ وَمُنْعَرَجُهَا ، وَالنَّوَاسِمُ وَهَبُوبُ مُبْتَلَّهَا ، وَالْأَصَائِلُ وَشُحُوبُ مَعْتَلَّهَا ،  
 دَارَ ضَاكَمَتِ الشَّمْسُ بُحْرَهَا وَبُحَيْرَتِهَا ، وَأَزْهَارُ تَرَى مِنْ أَدْمَعِ الطَّلِّ فِي  
 أَعْيُنِهَا تَرْدُدُهَا وَحَيْرَتِهَا ، ثُمَّ زَحَفَتِ كَتَيْبَةُ الْكُفْرِ بِزُرْقِهَا وَشُقْرَهَا ، حَتَّى  
 أَحَاطَتْ بِجَزِيرَةِ شَقْرَهَا ، فَأَهَا لَمَسَقَطُ الرَّأْسِ هُوَى نَجْمُهُ ، وَلِفَادِحِ الْخَطْبِ سَرَى  
 كَلْمُهُ ، وَيَا لِحَنَّةِ أَجْرَى اللَّهِ تَعَالَى النَّهْرَ تَحْتَهَا ، وَرَوْضَةِ أَجَادِ أَبِي إِسْحَاقَ ٣ نَعْتَهَا ،  
 وَإِنَّمَا كَانَتْ دَارُهُ الَّتِي فِيهَا دَبٌّ ، وَعَلَى أَوْصَافِ مَحَاسِنِهَا أَكْبَ ، وَفِيهَا أَتَتْهُ  
 مَنِيَّتُهُ كَمَا شَاءَ وَأَحَبَ ، وَلَمْ تَعْلَمْ بَعْدَهُ مَحْبِينَ قَشِيبَهُمْ إِلَيْهَا سَاقُوهُ ، وَدَمَعَهُمْ عَلَيْهَا  
 أَرَاقُوهُ ، وَقَدْ أُثْبِتُ مِنَ النِّظْمِ مَا يَلِيقُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ :

أَقْلَوْا مَلَامِي أَوْ فَقُولُوا وَأَكْثَرُوا      مَلُومُكُمْ عَمَّا بِهِ لَيْسَ يُقْصِرُ  
 وَهَلْ غَيْرُ صَبٍّ مَا تَنِي عِبْرَاتِهِ      إِذَا صَعَدَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَحَدَّرُ  
 يَحْنُ وَمَا يَجِدِي عَلَيْهِ حَيْنُهُ      إِلَى أَرْبَعٍ مَعْرُوفُهَا مَتَنَكُرُ

١ هو أبو الربيع ابن سالم شيخ ابن الأبار الذي استشهد في أنبيجة مقبلا غير مدبر وهو يحض الناس على القتال ، وقد طعن في السن .

٢ يعدد أبو المطرف هنا المعالم البارزة في بلنسية .

٣ يعني ابن خفاجة وهو بلدي أبي المطرف فهما من جزيرة شقر .

ويندبُ عهداً بالمشقرِ فاللوى  
تغيرَ ذاكَ العهدُ بعدي وأهله  
وأقفرَ رَسْمُ الدَّارِ إِلَّا بَقِيَّةً  
فَلَمْ تَبْقَ إِلَّا زَفْرَةٌ لِثَرِّ زَفْرَةٍ  
وإلا اشتياقٌ لا يزالُ يَهْزُنِي  
أقولُ لساري البرقِ في جنحِ ليلةٍ  
تعرضَ مجتازاً فكانَ مذكراً  
أتأوي لقلبٍ مثل قلبك خافقٍ  
وتحملُ أنفاساً كَوْمَضِكِ نارها  
يقرّ بعيني أن أعاين من نأى  
وأن يترأءك الخليطُ الذين همُ  
كفى حزنًا أنا كأهلٍ مُحَصَّبٍ  
وأنّ كلينا من مَشُوقٍ وشائقٍ  
ألا ليت شعري والأمانِيُّ ضلّةُ  
هل النهْرُ عقدٌ للجزيرةِ مثلما  
وهل للصِّبَا ذيلٌ عليه تجرّهُ  
وتلك المغاني هل عليها طلاوةُ  
ملاعبُ أفراسِ الصِّبَابَةِ والصِّبَا  
وقبلي ذاكَ النهْرِ كانت معاهدُ  
بحيث يياضُ الصبحِ أزرارِ جيبه  
ليالٍ بماءِ الوردِ ينضحُ ثوبها  
وبالجبلِ الأدنى هناكَ خُطِي لَنَا  
جَنَابٌ بأعلاهُ بهارٍ ورجسُ  
وموردنا في قلبِ قلتِ كمقلّةِ

وأيّن اللوى منهُ وأيّن المشقرُ  
ومن ذا على الأيامِ لا يتغيرُ  
لسائلها عن مثلِ حالي تُخبرُ  
ضلوعي لها تنقدّ أو تنفطرُ  
فلا غايةُ تدنُّو ولا هو يفتّرُ  
كلانا بها قد بات يبكي ويسهرُ  
بعهد اللوى والشئِ بالشئِ أيذكرُ  
ودمع سفوحٍ مثل قطركِ يقطرُ  
إذا رُفعت تبدو لمن يتنورُ  
لما أبصرته منك عيناى تبصرُ  
بقلبي وإن غابوا عن العينِ حُضِرُ  
بكلِّ طريقٍ قد نفرنا ونفِرُ  
بنارِ اغترابٍ في حشاهُ تسعُرُ  
وقولي ألا يا ليت شعري تخيرُ  
عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهرُ  
فيزورُ عنه موجهُ المتكسرُ  
بما راقَ منها أو بما رقّ تسحرُ  
تروحُ إليها تارةً وثبكرُ  
بها العيشُ مطلولُ الخميّلةُ أخضرُ  
تطيبُ وأردآنُ النسيمِ تُعطرُ  
وطيب هواءٍ فيه مسكٌ وعنبرُ  
إلى اللهبِ لا تكبو ولا تتعثرُ  
فأبيضُ مفرُّ الثنايا وأصفرُ  
حذاراً علينا من قذى العينِ تسرُ

وكم قد هبطنا القاع ندعرو وحشته      ويا حسنه مستقبلاً حين يدعرو  
 نقودُ إليه طائماً كلَّ جارح      له منخرُ رحبٌ وخصرٌ مضمرٌ  
 إذا ما رميناهُ به عبثت به      مؤللةُ الأطراف عنهن تكشرُ  
 تضمُّ لأروى النيقِ حزانَ سهلها      وقد فُقدت فيها مهاةٌ وجؤذُرُ  
 كذلك إلى أن صاح بالقوم صائحٌ      وأنذر بالبين المشتتِ منذرُ  
 وفرقهم أيدي سباً وأصابهم      على غيرَةٍ منهم قضاءً مقدرُ

ونعود إلى حيثُ كنا من تبدد شمل الجيرة ، وطَيَّ بساط الجزيرة : أما شاطبة فكانت من قصبتها شوساء الطرف ، وبيطحائها عروساً في نهاية الظرف ، فتخلتني عن الذروة منْ أخلاها ، وقيل للكافر : شأنك وأعلاها ، فقبل أن تضع الحرب أوزارها ، كَشَطَطَ عنها إزارها ، فاستحلَّ الحرمة أو تأولها ، وما انتظر أقصر المدة ولا أطولها ، وأما تَدُمير فجاد عودها على المهْصُر ، وأمكنت عَدوها من القَصْر ، فداجى الكفر الإيمان ، وناجى الناقوس الأذان ، وما وراءها من الأصقاع التي باض الكفرُ فيها وقرَّخ ، وأنزل بها ما أنسى التاريخ ومنْ أرَّخ ، فوصفكم على الحادثة فيها أتى ، وفي ضمان القدرة الانتصاف من عدوِّ عثا وعتا ، وإننا لنرجوها كرة تفك البلاد من أسرها ، وتجبرها بعد كسرها ، وإن كانت اللوثة العامرية منعت بالقراع ذِمارها ، ورفعت على اليقاع نارها ، فهذه العمرية بتلك المنقبة أخلق ، والعدوِّ لها أهيب ومنها أفرق ، وما يستوي نسب مع البقل نبتت ، وبالمستفيض من النقل ما ثبتت ، وآخر علت سماؤه على اللمس ، ورسا ركنه في الإسلام رُسُو قواعده الخمس ، وكان كما قال أبو حنيفة في خبر المسح : جاءنا مثل الشمس ، والأيام العمرية هي أم الوقائع المحكية ، ومن شاء عدها من اليرموكية إلى الأركية ، وهذه الأيام الزاهرة هي زبدة حلاوتها ، وسجدة تلاوتها ، وإمامتها العظمى أيدها الله تعالى ، تُمهِّلُ الكافر مدَّة إملائه ، ثم تشفي الإسلام من دائه ، وتطهِّر الأرض بنجس دمائه ، بفضل الله تعالى ، المرجو

زيادة نعمه قبلها وآلائه .

راجعت سيدي مؤدياً ما يجب أداؤه ، ومقتدياً وما كلُّ أحدٍ يحسُنُّ اقتداؤه ، وإنّما ناضلت تُعَلِيّاً<sup>١</sup> ، وعهدي بالنضال قديم ، وناظرت جدليّاً ، وما عندي للمقال تقديم ، وأطعتهُ في الجواب ولقرّيجتي يعلم الله تعالى نُكُول ، ورويتي لولا حق المسألة بطير الحوادث المرسلّة عَصْفُ مأكول ، أتم الله تعالى عليه آلاءه ، وحفظ مودّته وولاءه ، ومتع بخُلّته الكريمة أخلاءه ، بمنّه ، والسلام ؛ انتهت الرسالة .

ورأيت في رحلة ابن رشيد لما ذكر أبا المطرّف ما صورته : وأما الكتابة فقد كان حامل لوائها ، كما قال بعض أصحابنا : لأن الله تعالى له الكلام ، كما لأن الحديد لداود عليه السلام ، وأخبرني شيخنا أبو بكر أن شيخه أبا المطرّف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم في النوم ، فأعطاه حزمة أقلام ، وقال : استعن بهذه على كتابتك ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ انتهى .

### [ رسالة ابن الأبار التي أجاب أبو المطرف عنها ]

وبعد كتبي لهذه الرسالة رأيت أن أذكر رسالة الحافظ ابن الأبار التي هذه جوابٌ عنها ، وهي من غرض ما نحن فيه فلنقتبس نور البلاغة منها ، وهي :

سيدي وإن وجمَ لها النادي ، وجمجم بها النادي ، ذلك لصغرها عن كبره في المعارف الأعلام ، وصدورها يوغر صدور الصحائف والأقلام ، وأعيد رِيحانة قريش ، أن تروح من حفيظتها في جيش ، قد هابتها مغاوير كل حيّ ، وأجابتها الغطاريف من قُصَيّ ، تدلف بين يديها كتيبة خالد ، وتحلف لا قدحت نار الهيجاء بزند صالده ، أو تنصف من غامطها ، وتقذف به وسط غُطامطها<sup>٢</sup> ،

١ أي من بني ثعل وهم مضرب المثل في رمي السهام .

٢ الغطامط : الموج المرتفع .



لا جرم أنتي من جرمتي حذر ، وعمّا وضحت به قيمتي للمجد معتذر ، إلا أن يصوح من الروض نبتة وجنّاته ، ويصرح بالقبول حلمه وأناته ، الحديث عن القديم شجون ، والشأن بتقاضي الغريم شؤون ، فلا غرو أن أطارحه إياه ، وأفاتحه الأمل في لُقياه ، ومن لي بمقالة مستقلة ، أو إخالة غير مُخلة ، أبت البلاغة إلا عمادها ، وعلى ذلك فاستنبه عمادها : درجت اللدات والأتراب ، وخرجت الرومُ بنا إلى حيث الأعراب ، أيام دفعنا لأعظم الأخطار ، وفجعنا بالأوطان والأوطار ، فلإلام نداري بَرَح الألم ، وحتّام نساري النجم في الظلم ، جمع أوصاب ما له من انفضاض ، ومضض اغتراب شد عن ابن مُضاض<sup>١</sup> ، فلو سمع الأول بهذا الحادث ، ما ضرب المثل بالحارث ، يا لله من جلاء ليس به يدان ، وثناء قلّمًا يُسفر عن تدان ، وعد الجدلّ العائر لقاءه فأنجز ، ورام الجدلّ الصابر انقضاه فأعجز ، هؤلاء الاخوان ، مكثهم لا يمتع به أوان ، وبينهم كنبت الأرض ألوان ، بين هائم بالسرى ، ونائم في الثرى ، من كل صنديد بطل ، أو منطيق غير ذي خطّ ولا خطّل ، قامت عليه النوادب ، لما تعدت النوائب ، وهجمت بيوتها لمنعاه الجماجم والنوائب ، وأمّا الأوطان المحبّب عهدها بحكم الشباب ، المشبّب فيها بمحاسن الأحباب ، فقد ودّعنا معاهدها ودّاع الأبد ، وأخنى عليها الذي أخنى على لبّد ، أسلمها الإسلام ، وانتظمها الانتثار والاصطلام ، حين وقعت أنسرُها الطائرة ، وطلعت أنحسُها الغائرة ، فغلب على الجدلّ الحزن ، وذهب مع المسكن السكّن :

كزعزع الريح صكّ الدوح عاصفها فلم يدّع من جنّي فيها ولا غصن  
واها وآها يموت الصبر بينهما موت المحامد بين البخل والجبن

أين بكتسية ومغانيتها ، وأغاريد ورقيها وأغانيتها ، أين حلّي رصافتها

١ يريد الحارث بن مضاض الجرمي وله في تفرق جرمهم قصيدة باكية ؛ ولكن أين تفرق قومه ما حل بيلنسية ؟

وجسرها ، ومنزلا عطاها ونصرها ؟ أين أفاؤها تندى غصّارة ، وذكاؤها  
تبدو من خضارة ؟ أين جداولها الطفّاحة وخمائلها ؟ أين جنائبها النفاحة وشمائلها ؟  
شدّ ما عطل من قلائد أزهارها نحرها ، وخلعت شعشعانية ضحاها بجزيرتها  
وبحرها ، فأية حلية لا حيلة في صرفها مع صرف الزمان ، وهل كانت حتى  
بانة إلا روتق الحق وبشاشة الإيمان ، ثم لم يلبث داء عقرها ، أن دبّ إلى جزيرة  
شقرها ، فأمرّ عذبها التّمير ، وذوّى غصنها التّصير ، وخرسّت حمائم  
أدواحها ، وركدت نواسم أرواحها ، ومع ذلك اقتحمت من الأيام دانية ،  
فنزحت قطوفها وهي دانية ، ويا لشاطبة وبطحائها ، من حيف الأيام وإنحائها ،  
والهفاه ثم لهفاه على تدمير وتلاعها ، وجيآن وقلاعها ، وقرطبة ونواديها ،  
وحمص وواديها ، كلتها رعي كلّوها ، ودهي بالتفريق والتمزيق مكلّوها ،  
عض الحصار أكثرها ، وطمس الكفر عينها وأثرها ، وتلك لإبيرة بصدد  
البوار ، وريّة في مثل حلقة السّوار ، ولا مريّة في المريّة وخفضها على الحوار ،  
إلى بنيات ، لواحق بالأمهات ، ونواطق بهاك لأول هاتف بهات .

ما هذا النفخ بالمعمور ؟ أهو النفخ في الصّور ؟ أم التّفنر عارياً من الحج  
المبرور ؟ وما لأندلس أصيبت بأشرافها ، ونقيصت من أطرافها ؟ قوّض عن  
صوامعها الأذان ، وصمّت بالنواقيس فيها الآذان ، أجنّت ما لم تجن  
الأصقاع ؟ أعقّت الحق فحاق بها الإيقاع ؟ كلاب دانت للسّنة ، وكانت من  
البدع في أحسن جنة : هذه المروانية مع اشتداد أركانها ، وامتداد سلطانها ،  
ألقت حُبّ آل النبوّة في حبات القلوب ، وألوت ما ظفرت من خلعه ولا قلعه  
بمطلوب ، إلى المرابطة بأفاصي الثغور ، والمحافظة على معالي الأمور ، والركون  
إلى الهضبة المنيعه ، والروضة المربعة ، من مُعادة الشيعة ، وموالاته الشريعة ،  
فليت شعري بم استوثق تمحيصها ؟ ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها ؟  
الهم غفراً طالما ضرّ ضجر ، ومن الأنباء ما فيه مُزدَجَر ، جرى بما لم نقدره  
المقدور ، فما عسى أن ينفث به المصدور ؟ وربنا الحكيم العليم ، فحسبنا

التفويض له والتسليم ، ويا عجباً لبني الأصفر أنسيت مَرَجَ الصَّفَرِ ، ورميها يوم اليرموك بكل أغلب غَصَنَفَرٍ ؟ دع ذا فالعهد به بعيد ، ومن اتعظ بغيره فهو سعيد ، هلاً تذكرتِ العامرية وغزواتها ، وهابتِ العمرية وهبواتها ، أما الجزيرة بخيلها محدقة ، وبأحاديث فتحها مصدقة ، هذا الوقت المرتقب ، والزمان الذي زجيت له الشهور والحقب ، وهذه الإمامة أيدها الله تعالى هي المنقذة من أسرها ، والمنقذة لسلطانها مراسم نَصْرُها ، فيتاح الأخذ بالنار ، ويتزاح عن الجنة أهل النار ، ويعلم الكافر لمن عَقَبِي الدار .

حاورتُ سيدي بشار الفاجي الفاجع ، وحاولت برء الجوى من جوابه بالعلاج الناجع ، وبودتي لو تقع في الأرجاء مُصَاقِبة ، فترفع من الأرزاء معاينة ، أليس لديه أسوأُ المكلوم ، وتدارك المظلوم ؟ وبيديه أزيمة المنشور والمنظوم : خيال يختر (؟) في إقناع إيراد ، وصوغ ما لم يخطر على قلب زيد ولا بخاطر زياد ، بُسَّتِ الجبال الطوامح فما بستُ وأبو فتحها<sup>١</sup> ، وغيضت البحار الطوافح فمن يعبا بالركايا ومَتَّحها ، أين أبو الفضل ابن العميد من العماد الفاضل ، وصَمَّصامة عمرو من قلمه الفاضل ؟ هذا مِدْرَهْها الذي فعل الأفاعيل ، وأحمدها<sup>٢</sup> الذي سما على إبراهيم وإسماعيل<sup>٣</sup> ، وهما إماما الصناعة ، وهما البراعة والبراعة ، بهما فخرٌ من نطق بالضاد ، وبسببهما حسدت الحروف الصاد ، لكن دفعهم بالراح ، وأعرى مُدْرَعَهُم من المراح ، وشرف دونهم ضعيف القصب على صَمِّ الرماح ، أبقاه الله تعالى وبيانه صادق الأنواء ، وزمانه كاذب الأسواء ، ولا زال مكانه مجاوزاً ذُوَابَةَ الجوزاء ، وإحسانه مكافئاً بأحسن الجزاء ؟ والسلام .

١ يشير إلى أبي الفتح البستي ؛ وفي الأصول : « لما » .

٢ أحمدها : هو أحمد بن عميرة المخزومي ، يريد أنه تفوق في النثر على أولئك الأعلام .

٣ إبراهيم هو الصابي أبو إسحاق ، وإسماعيل هو الصاحب بن عباد .

## [ فصول من درر السمط لابن الأبار ]

وقد عرفت بابن الأبار في « أزهار الرياض » بما لا مزيد عليه ، غير أنني رأيت هنا أن أذكر فصولاً مجموعة من كلامه في كتابه المسمى بـ « درر السمط في خبر السبط » .

قال رحمه الله تعالى<sup>١</sup> : رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، فروع النبوة والرسالة ، ويتابع السماحة والبسالة ، صفوة آل أبي طالب ، وسرارة<sup>٢</sup> بني لؤي بن غالب الذين حباهم<sup>٣</sup> الروح الأمين ، وحلائم الكتاب المبين ، فقل في قوم شرعوا الدين القيسم ، ومنعوا اليتيم أن يقهر والأيم ، ما قد من أديم آدم أطيب من أبيهم طينة ، ولا أخذت الأرض أجمل من مساعيمهم زينة ، لولاهم ما عبد الرحمن ، ولا عهد الإيمان ، وعقد الأمان ، ذؤابة غير أشابة ، فضلهم ما شأنه نقص ولا شابه ، سرارة محلثهم سر المطلوب ، وقرارة محبتهم حبات القلوب ، أذهب الله عنهم الرجس ، وشرف بخلقهم الجنس ، فإن تميزوا فبشريعتهم البيضاء ، أو تميزوا فلعشيرتهم الحمراء ، من كل يعسوب الكتيبة ، منسوب لنجيب ونجيبة ، نجارهُ الكرم ، وداره الحرم ، نمته العرانيين من هاشم إلى النسب الأصرح الأوضح<sup>٤</sup> ، إلى نبعة قرعها في السماء ومغرسها سررة الأبطح ، أولئك السادة أحيي وأقدي ، والشهادة بحبهم أوفى وأودي ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه .

فصل<sup>٥</sup> — ما كانت خديجة لتأتي بخديج<sup>٦</sup> ، ولا الزهراء لتلد إلا أزهار

١ درر السمط : الورقة الأولى .

٢ الدرر : سرارة .

٣ الدرر : حياهم .

٤ الأوضح : سقطت من الدرر .

٥ الدرر : ١٥ .

٦ الخديج : الناقص .

كالسراج ، مثل النحلة لا تأكل إلاّ طيباً ، ولا تضع إلاّ طيباً ، خلدت بنتُ  
خُوَيْلِدٍ ليزكو عقبها من الحاشر العاقب<sup>١</sup> ، ويسمُو مَرَقِبِها على النجم الثاقب ،  
لم تحدِّ بمثلها المهاري ، ولم يلد له غيرها من المهاري ، آمت من بعولتها قبله ،  
لتصل السعادة بجملها حبّله ، ملاك العمل خواتمه ، ربّ ربّات حِجال ، أنفذ  
من فحول رجال :

وما التأيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ<sup>٢</sup>

هذه خديجة من أخيها حزام أحزم ، ولشعار الصدق من شعارات القص  
ألزم ، ركنت إلى الركن الشديد ، وسُدّدت للهدى كما هديت للتسديد ، يوم  
نبيء خاتم الأنبياء ، وأنبيء بالنور المنزل عليه والضياء .

فصل<sup>٣</sup> - وكان قبيل المبعث ، وبين يدي لمّ الشعث ، يثابر على كل حسنى  
وحسنة ، ويجاور شهراً من كل سنة ، يتحرى حِراء بالتعهد ، ويزجي تلك  
المدة في التعبد ، وذلك الشهر المقصور على التبرر ، المقدور فيه رفع التضرّر ،  
شهر رمضان ، المنزل<sup>٤</sup> فيه القرآن ، فيناه ، لا ينام قلبه وإن نامت عيناه ، جاءه  
الملك مبشراً بالنّجح ، وقد كان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت كفلق الصبح ، فغمره  
بالكلاءة ، وأمره بالقراءة ، وكلّما تجسّس له غطّه ثم أرسله ، وإذا أراد الله  
بعبد خيراً غسله :

تريدن إدراك المعالي رخيصة ولا بدّ دون الشّهْد من إبر النحل

كذلك حتى عاذ بالأرق من الفرق ، وقد علقَ فاتحة العلق ، فلا يجري

١ الحاشر العاقب من أسماء الرسول (ص) .

٢ من قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة .

٣ الدرر : ١٨ .

٤ الدرر : الذي أنزل .

غيرها على لسانه ، وكأنما كتبت كتاباً في جنانه .

فصل ١ - ولما أصبح يومُ الأهل ، وتوسط الجبل يريد السهل ، وقد قضى الأجل ، وما نضا الوجل ، نوجي بما في الكتاب المسطور ، ونوهي كما نوهي موسى من جانب الطور ، فعرض له في طريقه ، ما شغله عن فريقيه ، فرفع رأسه متأملاً ، فأبصر الملك في صورة رجل متمثلاً ، يُشرفه بالنداء ، ويهوفه بالاجتباء ، وإنما عضد خبر الليلة بعيان اليوم ، وأري في اليقظة مصداق ما أسمع في النوم ، ليحق الله الحق بكلماته ، وعلى ما ورد في الأثر ، وسرد رُواة السير ، فذلك اليوم كان عيد فطرنا الآن وغير بدع ولا بعيد ، أن يبدأ الوحي بعيد كما ختم بعيد ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ (المائدة : ٣) فبهت عليه السلام لما سمعه وراءه ، وثبت لا يتقدم أمامه ولا يرجع وراءه :

وَقَفَ الهوى بي حيث أنتَ فليس لي مُتَقَدِّمٌ عنه ولا متَأخِرٌ ٢

ثم جعل في الخوف والرجاء ٣ ، لا يقلب وجهه في السماء ، إلا تعرض له في تلك الصورة ، وعرض عليه ما أعطاه الله سبحانه من السورة ، فيقف موقف التوكل ، ويمسك حتى عن التأمل ٤ :

تتوق إليك النفس ثم أردتها حياء ، ومثلي بالحياء حقيق  
أذود سوام الطرف عنك ، وما له إلى أحد إلا إليك طريق

فصل ١ - وَقَطِنْتَ خديجة لاحتباسه ، فأمنت في التماسه ، تزوجوا الودود

١ الدرر : ٢٠ .

٢ البيت مغير القافية وصوابه « متأخر عنه ولا متقدم » وهو لأبي الشيص الخزاعي . (الأغاني : ١٥ :

٣٣٦ والشعر والشعراء : ٧٢٢) .

٣ الدرر : بين الرجاء والخوف .

٤ الشعر للمجنون (ديوانه : ٢٠٧) .

٥ الديوان : أرد سواء .

٦ الدرر : ٢٤ .

الولود ، ولفورها بل لفوزها بعثت في طلبه رُسُلُهَا ، وانبعثت تأخذ عليه شعاب مكة وسُبُلُهَا :

إنَّ المحبَّ إذا لم يُسْتَزَرَ زارا

طال عليها الأمد ، فطار إليها الكمد ، والمحِب حَقِيقَةٌ ، من لا يَفِيقُ فِيقَةً ،  
بالنفس النفيسة سماحُه وجودُه ، وفي وجود المحبوب الأشرف وُجُودُه<sup>١</sup> :

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا      وَإِنْ كَانَ فِيهَا الْخَلْقُ طَرًّا بِلَاقِعٍ  
أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى      وَيَجْمَعُنِي وَالْمَهْمُ بِاللَّيْلِ جَامِعٍ  
نَهَارِي نَهَارِ النَّاسِ حَتَّى إِذَا دَجَا      لِي اللَّيْلُ هَزَنَتْنِي إِلَيْكَ الْمُضَاجِعِ  
لَقَدْ ثَبَّتَ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةً      كَمَا ثَبَّتَ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعِ

فصل ٢ - وبعد لأي ما ورد عليها ، وقعد مضيئاً إليها ، فطفقت بحكم الإجلال  
تمسح أركانها ، وتفسح مجال السؤال عما خلف له مكانه ، فباح لها بالسر المغيب ،  
وقد لاح وسم الكرامة على الطيب المطيب ، فعلمت أنه الصادق المصدوق ،  
وحكمت بأنه السابق لا المسبوق ، اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وما  
زالت حتى أزال ما به من الغمّة ، وقالت : إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة :

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرَفَهُ      وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنْ مَا خَانَنِي الْبَصْرُ  
أَنْتَ النَّبِيُّ وَمَنْ يَحْرَمُ شَفَاعَتَهُ      يَوْمَ الْحِسَابِ فَقَدْ أَزْرَى بِهِ الْقَدْرُ

لا ترهب فسوف تبهر ، وسيبندو أمرُ الله تعالى ويظهر ، أنت الذي سجعت  
به الكهان ، ونزلت له من صوامعها الرهبان ، وسارت بخبر كرامته الركبان ،  
أنت الذي ما حملت أخف منه حامل ، ودرت ببركته الشاة فإذا هي حافل :

١ ينسب الشعر للمجنون (ديوانه : ١٨٥) كما ينسب لابن الدمينية (ديوانه : ٨٨) .

٢ الدرر : ٢٦ .

وأنتَ لما ولدت أشرقْتَ الـ أرضُ وضاعتْ بنُوركِ الأفقِ  
فنحنُ في ذلك الضياء وفي النورِ وسُبلَ الرِّشادِ نخرقُ

فصل ١ - وما لبثت أن غلقت أبوابها ، وجمعت عليها أثوابها ، وانطلقت إلى ورَقَّةَ بنِ نوفل ، تطلبه بتفسير ذلك المَجْمَل ، وكان يرجع إلى عقلِ حَصِيف ، ويبحث عن يَبْعَثُ بالدين الحنيف ، فاستبشر به ناموسا ، وأخبر أنه الذي كان يأتي موسى ، فازدادت إيمانا ، وأقامت على ذلك زماناً ، ثم رأت أن خبر الواحد قد يلحقه التفتيد ، ودرت أن المجتهد لا يجوز له التقليد ، طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فرجعت أدراجها في ارتياد الإقناع ، وألقيت في روعها إلقاء الخمار والقناع ، فهناك وَصَحَ لها البرهان ، وَصَحَ لها ٢ أن الآتي مَلَكٌ لا شيطان :

تدلني عليه الروحُ من عند ربه ينزلُ من جوِّ السَّماءِ ويرفعُ  
نشاوره فيما نريدُ وقصدنا إذا ما اشتهى أنا نطيعُ ونسمعُ

فصل ٣ - سبقت لها من الله تعالى الحسنى ، فصنعت حسناً وقالت حسناً ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، ما فتر الوحي بعدها ، ولا مظل الحقُّ الحيُّ وعدها ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، دانت لحب ذي الإسلام ، فحيأها الملكُ بالسَّلام من الملك السَّلام ، مَنْ كان لله كان الله له ، أغنت غنَاء الأبطال ، فغنأها لسان الحال :

هل تذكرينَ قَدَتِكَ النفسُ مجلسنا يومَ التقينا فلمَ أنطق من الحَصْرِ

١ الدرر : ٣٠ .

٢ الدرر : لديها .

٣ الدرر : ٣٢ .

٤ الدرر : دانت بالحق دين الإسلام .

٥ الدرر : ففتتها .



لا أرفعُ الطرفَ حولي من مراقبةٍ بقيقاً عليّ ، وبعضُ الحزمِ في الحذرِ  
يُسِّرُ لاحتِمالِ الأذى والنصبِ ، فبشرتُ بيتَ في الجنةِ من قصبِ ،  
هل أمنتُ<sup>١</sup> إذ أمنتُ من الرعبِ ، حتى غنيتُ عن الشبعِ بما في الشعبِ :  
لا تحسبِ المجدَ تمراً أنتَ آكله لن تبلُغِ المجدَ حتى تلعقِ الصَّبِرَ<sup>٢</sup>  
وهاً لها احتملتُ عضَ الحصارِ ، وما أطاقتُ فقَدَ المختارِ :

يطولُ اليومُ لا ألقاكُ فيهِ وشهر<sup>٣</sup> نلتقي فيهِ قصير<sup>٤</sup>  
والحبيبُ سَمِعَ المحبَّ وبصره ، وله طولُ محياه وقصره :

أنتَ كلُّ الناسِ عندي فإذا غيبتَ عن عيني لم ألقَ أحد  
مكثتُ للرياسة<sup>٥</sup> مواسيةً وآسيةً ، فثلثتُ في مجبوحةِ الجنةِ مريمَ وآسيةً ، ثم  
رَبعتُ البتُولَ فبرعتُ ، نطقتُ بذلك الآثارَ وصدعتُ ، خيرَ نساءِ العالمينَ أربع .  
فصل<sup>٦</sup> - إلى البتُولِ سِيرَ بالشرفِ التالدِ ، وسيقُ الفخرِ بالأُمِ الكريمةِ والوالدِ ،  
حلتُ في الجليلِ الجليلِ ، وتحلتُ بالمجدِ الأثيلِ ، ثم تولتُ إلى الظلِ الظليلِ :  
وليسَ يصحُّ في الأفهامِ شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ  
وأبيها إن أم أبيها ، لا تجدُ لها شبيهاً ، نثرةِ النبي ، وطلّةِ الوصي ، وذاتِ

١ الدرر : ما أمنت .

٢ الشعر في أمالي القالي ( ١ : ١١٢ ) لبعض العرب .

٣ الدرر : وحول .

٤ البيت لجميل بشينة في ديوانه : ٩٩ وأمالي القالي ١ : ٢٠٢ والزهرة : ٦٠ وروايته : يطول اليوم  
إن شحطت نواها ، وحول . . . إلخ .

٥ الدرر : للرسالة .

٦ الدرر : ٣٧ .

الشرف المستولي على الأمدِ القصبي ، كلُّ ولدِ الرسولِ درَج في حياته ، وحملت هي ما حملت من آياته ، ذلك فضل الله يؤتية من يشاء ، لا فرع للشجرة المباركة من سواها ، فهل جدّوَي أوفر من جدّواها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، حُفَّت بالتطهير والتكريم ، وزُفَّت إلى الكفوِّ الكريم ، فوردا صفو العارفة والمنّة ، وولّدا سيدي شباب أهل الجنة ، عوضت من الأمتعة الفاخرة ، بسيدي الدنيا والآخرة ، ما أثقل نحوها ظهرأ ، ولا بذل غير درعه مهراً ، كان صِفْرَ اليدين من البيضاء والصفراء ، وبجالة لا حيلة معها في إهداء الحلة السّبراء ، فصاهره الشارع وخالته ، وقال في بعضٍ صعلوك لا مال له ، نرفع درجات من نشاء .

### فصل :

أنتهبُ الأيامُ أفلاذَ أحمد      وأفلاذُ مَنْ عاداهمُ تتعدّدُ<sup>٣</sup>  
ويضحى ويظنّما أحمد وبناته      وبنّتُ زيادٍ وردها لا يُصردُ<sup>٤</sup>  
أني دينه في أمه في بلاده      تضيقُ عليهم فسحةٌ تتوردُ<sup>٥</sup>  
وما الدين إلا دين جدّهم الذي      به أصدرُوا في العالمين وأوردوا

انتهى ما سنع لي ذكره من « درر السمط » وهو كتاب غاية في بابه ، ولم أورد منه غير ما ذكرته ؟ لأن في الباقي ما تُشم منه رائحة الشيع ، والله سبحانه يساعه بمنّه وكرمه .

رجع إلى ما كنا بسبيله ، فنقول : قد ذكرنا في الباب الثاني رسالة أبي المطرف ابن عميرة إلى أبي جعفر ابن أمية ، وهي مشتملة على التلهف على الجزيرة الأندلسية ، حين أخذ العدو بكننسية ، وظهرت له مخايل الاستيلاء على ما بقي

١ الدرر : سيد في الدنيا .

٢ صرح باسمه في الدرر - وهو متأوية - ولعل المقري كنى عنه تقوى وورعاً .

٣ في الأصول : تتوّد ، وصوبناه عن الدرر .

٤ انظر الجزء الأول من النفع ص : ٣٠٥ .

من الأندلس ، فراجعها فيما سبق ، وإن كان التناسب التام في ذكرها هنا  
فالمناسبة هناك حاصلة أيضاً ، والله سبحانه الموفق . وذكرنا هناك أيضاً جملة  
غيرها من كلامه - رحمه الله تعالى - تتعلق بهذا المعنى وغيره ، فلتراجع  
ثمة .

[ نهاية الأندلس كما يصورها. كتاب «جنة الرضى» لابن عاصم ]

ورأيت أن أثبت هنا ما رأيته بخط الأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبي عبد  
الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ما صورته ١ :  
حدثني الفقيه العدل سيدي حسن ابن القائد الزعيم الأفاضل سيدي إبراهيم العراف  
أنه حضر مرة لإنزال الطلسم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة  
من غرناطة بسبب البناء والإصلاح ، وأنه عاينه من سبعة معادن مكتوباً فيه :

إيوانُ غرناطةَ الغراءُ معتبرٌ      طِلْسَمُهُ بولاءِ الحالِ دَوَّارُ  
وفارسٌ رُوحُهُ رِيحٌ تدبِّرهُ      من الجِمالِ ، ولكنْ فيه أسرارُ  
فسوف يبقى قليلاً ثم تطرقهُ      دَهْيَاءُ يخرِبُ منها الملكُ والدَّارُ

وقد صدق قائل هذه الأبيات ، فإنه طرقت الدهياء ذلك القطر الذي ليس  
له في الحسن مثال ، ونسَلَ الخطب إليه من كل حدب وانثال ، وكل ذلك من  
اختلاف رؤسائه وكبرائه ، ومقدماته وقضاته وأمرائه ووزرائه ، فكل يرومُ  
الرياسة لنفسه ، ويجر نارها لقرصه ، والنصارى - لعنهم الله تعالى - يضرَبون  
بينهم بالخداع والمكر والكيد ، ويضرَبون عمراً منهم بزَيْد ، حتى تمكنوا من  
أخذ البلاد ، والاستيلاء على الطارف والتلاد . قال الرئيس القاضي العلامة الكاتب  
الوزير أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى في كتابه «جنة الرضى في التسليم

١ انظر هذا الخبر والشعر عن الطلسم في أزهار الرياض ٣ : ٣١٤ .

لما قدر الله تعالى وقضى « ما صورة محل الحاجة منه <sup>١</sup> : ومن استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى - دمرهم الله تعالى - لم يدركوا في المسلمين ثاراً ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل ودياراً ، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف ، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة ، وتخريشهم بالكيد والخلافة بين حُماتها في الفتن المبيرة ، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة ، والآراء لا مفرقة ولا مختلفة ، والعلماء بمعاونة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة ، فالحرب إذ ذاك سجال ، والله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال ، وللممانعة في غرض المدافعة ميدان رَحْب ومَجَال ، وروية وارتجال .

إلى أن قال : وتناولت الأيام ما بين مُهادنة ومقاطعة ، ومضاربة ومقارعة ، ومنازلة ومنازعة ، ومواقفة وممانعة ، ومحاربة وموادعة ، ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين ، وإعمال الخيلة على المؤمنين ، وإضمار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ، وهو يُظهر أنه ساعٍ للوطن في العاقبة الحسنى ، وأنه مُنطَوٍ لأهله على المقصد الأسنى ، ومهتم بمراعاة أمورهم ، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهُورهم ، وهو يُسِرُّ حَسَناً في ارتغائه ، ويُعْمَل الخيلة في التماس هُلْكَ الوطن وابتغائه ، فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال ، وتصدق هذا الكذب بوجهٍ أو بحال ، وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكّر في نفسه ، وعرض هذا المسموع على مدركات حسّه ، وراجع أوليَات عقله وتجربيات حدّسه ، وقاس عدوّه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه ، فأنا أناشده الله هل بات قطُّ بمصالح النصارى وسلطانهم مهتماً ، وأصبح من خطبٍ طرَقهم مغتماً ، ونظر لهم نظر المفكّر في العاقبة الحسنة ، أو قصد لهم قصد المدبر

١ من هنا يشترك النفع مع أزهار الرياض ١ : ٥٠ - ٥٥ في النقل عن كتاب ابن عاصم .

في المعيشة المستحسنة ، أو خطر على قلبه أن يحفظ في سبيل القرية أربابهم وصلبانهم ، أو عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أجباهم ورهبانهم ، فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث ، ولم يشرب قلبه حبّ التلث ، ويكون صادق اللهجة ، منصفاً عند قيام الحجّة ، فسيعرف أن ذلك لم يخطر له قطُّ على خاطر ولا مرّ له ببال ، وأن عكس ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط وبفعله ذا اهتبال ، وإن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبال ، وأشد على قلبه من وقع النبال ، هذا وعقده التوحيد ، وصلاته التحميد ، وملته الغراء ، وشريعته البيضاء ، ودينه الحنيف القويم ، ونبئه الرؤوف الرحيم ، وكتابه القرآن الحكيم ، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم ، فكيف نعتقد هذه المربية الكبرى ، والمنقبة الشهري ، لمن عقده التلث ، ودينه المليث ، ومعبوده الصليب ، وتسميته التصليب ، وملته المنسوخة ، وقضيته المنسوخة ، وختانه التغطيس ، وغافر ذنبه القسيس ، وربّه عيسى المسيح ، ونظره ليس البين ولا الصحيح ، وأن ذلك الرب قد ضُرجَ بالدماء ، وسقي الخلل عوض الماء ، وأن اليهود قتلته مصلوباً ، وأدركته مطلوباً ، وقهرته مغلوباً ، وأنه جزع من الموت وخاف ، إلى سوى ذلك ممّا يناسب هذه الأقاويل السخاف ، فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة ، من الخير مقدار الذرة ، أو يُطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة ؟ اللهم احفظ علينا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتمدين .

ثم قال بعد كلام ما صورته : كانت خزانة هذه الدار النصيرية مشتملة على كل نفيسة من الياقوت ، وبتيمة من الجواهر ، وفريدة من الزمرد ، وثمينة من الفيروزج ، وعلى كل واق من الدرّوع ، وحام من العُدّة ، وماضٍ من الأسلحة ، وفاخر من الآلة ، ونادر من الأمتعة ، فمن عقود فذة ، وسلوك جمّة ، وأقراط تفضل على قرطبي ماريّة نفاسة فائقة وحسناً رائعاً ، ومن سيوف شواذ في الإبداع غرائب في الإعجاب ، منسوبات الصفائح في الطبع ، خالصات الحلّي من التبر ، ومن درّوع مقدرة السرد متلاحمة النسيج ، واقية للناس في يوم

الحرب ، مشهورة النسبة إلى داود نبي الله ، ومن جَوَاشِينٍ سابعة اللبسة ، ذهبية الحلية ، هندية الضرب ، ديباجية الثوب ، ومن بيضات عسجدية الطَّرَق ، جوهرية التنضيد ، زبرجدية التقسيم ، ياقوتية المركز ، ومن مناطق لُجَيْنِيَّة الصَّوْغ ، عريضة الشكل ، مزججة الصفح ، ومن دَرَقٍ لمطية ، مصممة المسام ، لينة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ، ومن قِسيِّ ناصعة الصبغة ، هلالية الخِلْقَة ، منعطفة الجوانب ، زارية بالحواجب ، إلى آلات فاخرة من أتوار<sup>١</sup> نحاسية ، ومنابر بلورية ، وطيافير<sup>٢</sup> دمشقية ، وسبحات زجاجية ، وصحاف صينية ، وأكواب عراقية ، وأقداح طباشيرية ، وسوى ذلك مما لا يحيط به الوصف ، ولا يستوفيه العد ، وكل ذلك التهبه شُواظ الفتنة ، والتقمه تيار الخلاف والفرقة ، فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله ، وتقصّر ديار الملوك المؤتلة النعمة عن بعضه فضلاً عن كَلِّه ؛ انتهى كلامه رحمه الله تعالى<sup>٣</sup> .

رجع - ولما أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومُرْسِيَّة وغيرها انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة والمرية ومالقة ونحوها ، وضاق الملك بعد اتساعه ، وصار تنين العدو يلتقم كل وقت بلداً أو حصناً ، ويهصر من دَوْح تلك البلاد غُصْنًا ، وملك هذا التزرّ اليسير الباقي من الجزيرة ملوك بني الأحمر ، فلم يزالوا مع العدو في تعب وممارسة كما ذكره ابن عاصم قريباً ، وربما أثنوا في الكفار كما علّم في أخبارهم ، وانتصروا بملوك فاس بني مَرِين ، في بعض الأحيان .

ولما قصد ملوك الإفرنج السبعة في المائة الثامنة غرناطة ليأخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مَرِين يستنجدونهم ، وعينوا للرسالة الشيخ

١ ص ق : أتاور ؛ والأتوار : الآنية ، والمفرد تور .

٢ الطيافير : أطباق مستديرة عميقة قاعها مستو وحافاتها مرتفعة .

٣ إلى هنا وقف النقل في أزهار الرياض .

أبا إسحاق ابن أبي العاصي والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي نفع الله تعالى بهم ؛ ثم بعد سفرهم نازل الإفرنج غرناطة بخمسة وثلاثين ألف فارس ونحو مائة ألف راجل مقاتل ، ولم يوافقهم سلطان المغرب ، ففرض الله تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أن كُسِرَ النصراني في الساعة التي كسر خواطيرهم فيها صاحب المغرب ، وظهرت في ذلك كرامة لسيدي أبي عبد الله الطنجالي رحمه الله تعالى .

ثم إن بني الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفار على الجبل كانوا في جهاد وجياد في غالب أوقاتهم ، ولم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتهم الهرم الذي يلحق الدول ، فلما كان زمانُ السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصراني الغالبي الأحمر ، واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبد الله محمد ابن سعد المدعو بالزغَل قد بويغ بمالقة ، بعد أن جاء به القواد من عند النصراني وبقي بمالقة برهة من الزمان ، ثم ذهب إلى أخيه ، وبقي من مالقة من القواد والرؤساء فَوْضَى ، وآل الحالُ إلى أن قامت مالقة بدعوة السلطان أبي الحسن ، وانقضت الفتنة . واستقلَّ السلطانُ أبو الحسن بملك ما بقي بيد المسلمين من بلاد الأندلس ، وجاهد المشركين ، وافتتح عدة أماكن ، ولاحت له بارقة الكرة على العدو الكافر ، وخافوه ، وطلبوا هُدُنْته ، وكثرت جيوشه ، فأجمع على عرضها كلها بين يديه ، وأعدَّ لذلك مجلساً أقيم له بناؤه خارج الحمراء قلعة غرناطة ، وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وثمانمئة ، ولم تنزل الجنود تُعرض عليه كل يوم إلى الثاني والعشرين من محرّم السنة التي تليها ، وهو يوم ختام العرض ، وكان معظم المنتزهين والمتفرجين بالسيكة وما قارب ذلك ، فبعث الله تعالى سيلاً عَرِمَاً على وادي حدَرَه بحجارة وماء غزير كأفواه القرب ، عقاباً من الله سبحانه وتأديباً لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر ، واحتمل الوادي ما على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعاصر وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق ، وبلغ تيار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم ،

ولم يُسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد . وكان بين رؤساء الإفرنج في ذلك الوقت اختلاف ، فبعضهم استقل بملك قرطبة ، وبعض بإشبيلية ، وبعض بشريش ، وعلى ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات ، وركن إلى الراحة ، وأضاع الأجناد ، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورَفَضَ الجهاد والنظر في الملك ، ليقضي الله تعالى ما شاء ، وكثرت المغارم والمظالم ، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه ، وكان أيضاً قد قتل كبار القواد وهو يظن أن النصارى لا يغزون بعدُ البلاد ، ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد . واتفق أن صاحب قشتالة تغلب على بلادها بعد حروب ، وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون ، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد ، والطريق إلى الاستيلاء على البلاد ، وذلك أنه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من بنت عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر ، وكان قد اصطفى على أمهما رومية كان لها منه بعض ذرية ، وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية ، فخيَّف أن يقدم أولاد الرومية ، على أولاد بنت عمه السنية ، وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب ، لميل بعضهم إلى أولاد الحرة ، وبعض إلى أولاد الرومية ، وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمدٍ حدّده وضربوه ، ولما تم أمدُ الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الأولاد ، وتشكى الناسُ مع ذلك بالوزير والعمال لسوء ما عاملوا به الناس من الحيف والجور ، فلم يُصنغ إليهم ، وكثر الخلاف واشتدَّ الخطب ، وطلب الناسُ تأخير الوزير ، وتفاقم الأمر ، وصح عند النصارى - لعنهم الله تعالى - ضَعْفُ الدولة واختلاف القلوب فبادروا إلى الحامة<sup>١</sup> فأخذوها غدرًا آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، وغدوا للقلعة ، وتحصنوا بها ، ثم شرعوا في أخذ البلد ، فملأوا الطرق خيلاً ورجالاً ، وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ، ونهبوا

١ ص ق : الحمة .



الحريم ، والناسُ في غفلةٍ نيامٍ من غير استعداد كالسكارى ، فقتل من قضي الله تعالى بتمام أجله ، وهرب البعض وترك أولاده وحريمه ، واحتوى العدو على البلد بما فيه ، وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عندما بلغهم العلم ، وكان النصارى عشرة آلاف بين ماشٍ وفارس ، وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه ، وإذا بالسرعان من أهل غرناطة وصلوا ، فرجع العدو إلى البلد ، فحاصروهم المسلمون ، وشدّوا في ذلك ، ثم تكاثرو المسلمون خيلاً ورجالاً من جميع بلاد الأندلس ، ونازلوا الحامة ، وطمعوا في منع الماء عن العدو ، وتبين للعامة أن الجند لم ينصحوا ، فأطلقوا ألسنتهم بأقبح الكلام فيهم وفي الوزير ، وبينما هم كذلك إذا بالنذير جاء أن النصارى أقبلوا في جمع عظيم لإغاثة من بالحامة من النصارى ، فأقلع جندُ المسلمين من الحامة ، وقصدوا ملاقاته الواردين من بلاد العدو ، ولما علم بهم العدو ولّوا الأدبار من غير ملاقاته محتجين بقتلتهم ، وكان رئيسهم صاحب قرطبة .

ثم إن صاحب إشبيلية جمع جنداً عظيماً من جيش النصارى الفرسان والرجالة ، وأتى لنصرة من في الحامة من النصارى ، وعندما صح هذا عند العسكر اجتمعوا ، وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد ، والصلاحُ الرجوعُ إلى غرناطة ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج إليه الحصار من العدة والعدد ، فعندما أقلع المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون ، وتشاوروا في إخلاتها أو سكنائها ، واتفقوا على الإقامة بها ، وحصّنها ، وجعلوا فيها جميع ما يحتاج إليه ، وانصرف صاحب إشبيلية ، وترك أجناده ، وفرق فيهم الأموال ، ثم عاد المسلمون لحصارها ، وضيقوا عليها ، وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة عنه ، ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين ، وخاب السعد بذلك بأن شعّر بهم النصارى ، فعادوا عليهم ، وتردّى بعضهم من أعلى الجبل ، وقتل أكثرهم ، وكانوا من أهل بسطة ووادي آش ، فانقطع أملُ الناس من الحامة ، ووقع الإياس من ردها .

وفي جمادى الأولى من السنة تواترت الأخبار أن صاحب قشتالة أتى في جنود لا تُحصَى ولا تحصر ، فاجتمع الناسُ بغرناطة ، وتكلموا في ذلك ، وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصداً أن يضيفها إلى الحامة ، وجاء بالعدة والعدد ، وأغارت على النصارى جملة من المسلمين ، فقتلوا مَنْ لحقوه ، وأخذوا جملة من المدافع الكبار ، ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة ، وناوشوا النصارى ، فأجئوهم إلى الخروج عن الحيام ، وأخذوها وغيرها ، فهرب النصارى ، وتركوا طعاماً كثيراً وآلة ثقيلة ، وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة .

وفي هذا اليوم بعينه هرب الأميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفاً من أبيهما أن يفتك بهما بإشارة حظيته الرومية ثرياً ، واستقرا بوادي آش . وقامت بدعوتهما ، ثم بايعتهما تلك البلاد المرية وبسطة وغرناطة ، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة .

وفي صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع جميع رؤساء النصارى ، وقصدوا قرى مالقة وبلش ، في نحو الثمانية آلاف ، وفيهم صاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب إستجة وصاحب أنتقيرة وغيرهم ، فلم يتمكنوا من أخذ حصن ، ونشوا في أوعار ومضايق وخنادق وجبال ، واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة ، وصار المسلمون ينالون منهم في كل محل ، حتى بلغوا مالقة ، ففر كبيرهم ، ومن بقي أسر أو قتل ، وكان السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب ، وبقي أخوه أبو عبد الله بمالقة ومعه بعض الجند ، وقتل من النصارى في هذه الواقعة نحو ثلاثة آلاف ، وأسر نحو ألفين ، من جملتها خال السلطان وصاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب أنتقيرة وغيرهم ، وهم نحو الثلاثين من الأكابر ، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة ، وبعقب ذلك سافر أهل مالقة لبلاد النصارى ، فكسروا هنالك كسرة شنيعة قُتل فيها أكثر قواد غرب الأندلس .

ولما استقرّ السلطان أبو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن بغرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية تحرك السلطان أبو الحسن على المنكبّ ونواحيها ، وأتى ابنه السلطان أبو عبد الله في جند غرناطة والجهة الشرقية ، والتقوا في موضع يُعرف بالدب ، فكُسر السلطان أبو عبد الله .

ولما سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بأن عمّه بمالقة غم من النصارى أعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غرناطة والشرقية ، وذلك في ربيع الأول من السنة ، إلى أن بلغ نواحي لشانة ، وقتل وأسرَ وغنم ، فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعه كبير قبيرة ، وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار ، فانكسر الجند ، وأسر من الناس كثير وقتل آخرون ، وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبد الله ، ولم يُعرف ، ثم علم به صاحب لشانة ، وأراد صاحب قبيرة أن يأخذه منه ، فهرب به ليلاً ، وبلغه إلى صاحب قشتالة ، ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد ، وتفاءل به ، فقلّما توجه لجهة أو بعث سرّيةً إلاّ وبعثه فيها .

ولما أسر السلطان أبو عبد الله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الأندلس ، وذهبوا لمالقة للسلطان أبي الحسن ، وذهبوا به لغرناطة ، وبايعوه ، مع أنه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره ، وأصابه ضرر ، ولما تعذّر أمره قدّم أخاه أبا عبد الله ، وخلع له نفسه ، ونزل بالمنكبّ ، فأقام بها إلى أن مات ، واستقل أخوه أبو عبد الله المعروف بالزّعّل بالملك بعده .

وأما أبو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن فهو في أسر العدو .

وفي شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو في قوّة إلى نواحي مالقة ، بعد أن كان في السنة قبلها استولى على حصون ، فاستولى هذه السنة على بعض الحصون ، وقصد ذكوان ، فهذّ أسوارها ، وكان بها جملة من أهل الغربية ورندة ، ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة ، فأظفر الله تعالى بهم أهل ذكوان ، فقتلهم جميعاً . ثم طلبوا الأمان وخرجوا .

ثم انتقل في جمادى الأولى إلى رُنْدَة وحاصرها ، وكان أهلها خرجوا إلى نصره ذكوان وسواها ، فحاصر رُنْدَة وهدّ أسوارها ، وخرج أهلها على الأمان ، وطاعت له جميع تلك البلاد ، ولم يبق بغربي مالقة إلاّ مَنْ دخل في طاعة الكافر وتحت ذمته ، وضيق بمالقة ، وفرّق حصصه على بعض الحصون ليحاصروا مالقة ، وعاد إلى بلاده .

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحبُ غرناطة لتحصين بعض البلاد ، وبينما هو كذلك إذا بالخبر جاءه أن محلة العدوّ خارجة لذلك الحصن .  
وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنودُ النصارى على الحصن ، كانوا قد سرّوا إليه ليلاً ، وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين ، فقاتلهم المسلمون من غير تعبئة ، فاختل نظامُ المسلمين ، ووصل النصارى إلى خباء السلطان ، ثم التحم القتال واشتد ، وقوّى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شراً هزيمة ، وقتل منهم خلائق ، وقصر المسلمون خوفاً من محلة سلطان النصارى إذ كانت قادمة في أثر هذه ، ولما رجعت إليهم الفلُول رجعوا القهقريّ ، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات ، وجعلوا ذلك كله بالحصن ، ولم يحدث شيء بعد إلى رمضان ، فتوجه الكافر لحصن قبيل ونازله وهدّ أسواره ، ولما رأى المسلمون أن الحصن قد دُخِلَ طلبوا الأمان ، وخرجوا بأموالهم وأولادهم مؤمنين ، وفرّ الناس من تلك المواضع من البراجلة هاربين ، واستولى العدوّ على عدّة حصون مثل مشاقر وحصن اللوز ، وضيق العدوّ بجميع بلاد المسلمين ، ولم يتوجه لناحية إلا استأصلها ، ولا قصّدَ جهة إلا أطاعته وحصّلها ، ثم إن العدوّ دبّر الحيلة مع ما هو عليه من القوّة ، فبعث إلى السلطان أبي عبد الله الذي تحت أسرِه وكساه ووعده بكل ما يتمناه ، وصرفه لشرقي بسطة ، وأعطاه المال والرجال ، ووعده أن مَنْ دخل تحت حكمه من المسلمين وبايعه من أهل البلاد فإنّه في الهدنة والصلح والعهد والميثاق الواقع بين السلطانين ، وخرج لبلش فأطاعه أهلها ، ودخلت بلش في طاعته ، ونودي بالصلح في الأسواق ، وصرخت

به في تلك البلاد الشياطين ، وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين من غرناطة ، وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى ، وتبعهم بعضُ المفسدين المحبين في تفريق كلمة المسلمين ، وممن مال إلى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة ، ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماستها بتقبيح وتحسين ، إلى أن قام ربصُ البيازين بدعوة السلطان الذي كان مأسوراً عند المشركين ، ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها بين المسلمين لما أَرَادَهُ اللهُ تعالى من استيلاء العدو على تلك الأقطار ، ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة ، وعظم الخطب ، وكانت الثورة ثالث شهر ربيع الأول عام أحد وتسعين وثمانمائة ، ودامت الفتنة إلى منتصف جمادى الأولى من العام ، وبلغ الخبر أن السلطان الذي قاموا بدعوته قديم على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزَّغَل صاحب قلعة غرناطة ، بأن العم يكون له الملك ، وابن أخيه تحت إيلائه بلوشة أو بأي المواضع أحب ، ويكونون بدأً واحدة على عدو الدين ، وبينما هم في هذا إذا بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحنة قوية وعدد وعدد ، ونازل لوشة حيث السلطان أبو عبد الله الذي كان أسيراً ، وضيق بها الحصار ، وقد كان دخلها جماعة من أهل البيازين بنية الجهاد والمعاضدة وليهم ، وخاف أهلُ غرناطة وسواها من أن يكون ذلك حيلة ، فلم يأت لنصرتهم غير البيازين ، واشتد عليهم الحصار ، وكثرت الأقاويل ، وصرحت الألسن بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة ، ودخل على أهل لوشة في ربصهم ، وخافوا من الاستئصال ، فطلبوا الأمان في أموالهم وأنفسهم وأهليهم ، فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك ، وأخذ البلد في السادس والعشرين لجمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة . وهي - أعني لوشة - كانت بلد سلف الوزير لسان الدين ابن الخطيب ، كما ذكرناه مستوفى في غير هذا الموضع . وهاجر أهل لوشة إلى غرناطة ، وبقي السلطان أبو عبد الله الذي كان مأسوراً مع النصراني بلوشة ، فصرح عند ذلك أهلُ غرناطة بأنه ما جاء للوشة إلا ليُدخِلَ إليها العدو الكافر ،

ويجعلها فداء له ، وقيل : إنه سَرَّحَ له حينئذ ابنه إذ كان مرهوناً في الفداء ، وكثر القيل والقال بينهم وبين أهل البيازين في ذلك ، وظهر بذلك ما كان كامناً في القلوب ، ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور .

وفي نصف جمادى الثانية خرج إلى البيرة فهده بعض الأسوار ، وتوعد الناس ، فأعطاه أهله الحصن على الأمان ، فخرجوا وقدموا على غرناطة ، ثم فعل بحصن الملتين<sup>١</sup> مثل ذلك ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، ولما ضاقوا ذرعاً أعطوه بالمقادة على الأمان ، فخرجوا إلى غرناطة وأطاع أهل قلنبيرة من غير قتال ، فخرجوا إلى غرناطة ثم وصل العدو إلى مُنتَ فريد ، فرمى عليهم بالمحرقات وغيرها وأحرق دار العدة ، فطلبوا الأمان ، وخرجوا إلى غرناطة ، وانتقل للصخرة فأخذها ، وحصن هذه الحصون كلها ، وشحنها بالرجال والعدة ، ورتب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة ، ثم عاد الكافر لبلاده ، وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بأن من دخل في حكمه وتحت أمره فهو في الأمان التام ، وأشاعوا أن ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب إفرنسية ، فخرج لبلش وأطاعته ، ثم بعث لمن والاه من البلاد أنه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق ، وأن من دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه ، وأن معه وثائق بخطوط السلاطين ، فلم يقبل الناس ذلك ، إلا القليل منهم مثل أهل البيازين ، فلهجوا بهذا الصلح ، وأقاموا على صحته الدلائل ، وتكلموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح ، مع تمكن الفتنة والعداوة في القلوب ، فبعث له أهل البيازين أنه إذا قدم بهذه الحجج لتلك الجهات اتبعه الناس ، وقاموا بدعوته من غير التباس ، فأتى على حين غفلة ، ولم يكن يظن إتيانه بنفسه ، فأتى البيازين ودخلها ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح ، فلم يقبل ذلك منه أهل غرناطة ، وقالوا : ما بعهد لوشة من قدام . ودخل ربض البيازين سادس شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة ، وعمه بالحمراء .

١ هذا ما ثبت في ص ؛ وفي ق : الملتين ، وفي دوزي : الملتين .

انتقل للقلعة ، واشتد أمر الفتنة ، ثم إن صاحب قشتالة أمَدَّ صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها ، واشتد أمره بذلك ، وعظمت أسباب الفتنة ، وفشا في الناس القتل والنهب ، ولم يزل الأمر كذلك إلى السابع والعشرين من محرّم سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، فعزم أهل غرناطة مع سلطانهم على الدخول على البيازين عتوّة ، وتكلم أهل العلم فيمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعته ، ومن أطاعه عصى الله ورسوله ، ودخلوا على أهل البيازين دخول فِشَل ، ثم إن صاحب غرناطة بعث إلى الأجناد والقواد من أهل بسطة ووادي آش والمرية والمنكبّ وبلش ومالقة وجميع الأقطار ، وتجمعوا بغرناطة ، وتعاهدوا ، وتحالفوا على أن يدهم واحدة على أعداء الدين ، ونصرة من قصده العدو من المسلمين ، وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك فخرج بمحلته قاصداً نواحي بلش ، وكان صاحب البيازين بعث وزيره إلى ناحية مالقة وإلى حصن المنشأة يذكر ويخوف ، ومعه النسخة من عقود الصلح ، فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته ، ودخلوا في إيالته خوفاً من صاحب قشتالة وصوّلته ، وطمعاً في الصلح وصحته ، ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة ، والسبب الحامل لهم على ذلك ، فلم يرجع أهل بلش عمّا عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الأندلس من العهود والمواثيق .

وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلش مالقة ، ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها ، ولما صح عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس ، فأشاروا بالمسير لإغاثة بلش للعهد الذي عقده ، وأتى أهل وادي آش وغيرها وحشود البشرات ، وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة ، ووصل بلش ، فوجد العدو نازلاً عليها برّاً وبحراً ، فنزل بجبل هنالك ، وكثر لفظ الناس ، وحملوا على النصارى من غير تعبئة ، وحين حرّكتهم للحملة بلغ السلطان الرّغْل أن غرناطة بايعت صاحب البيازين ، فالتقوا مع النصارى فثلين وقبل الالتحام انهزموا ، وتبددت جموعهم مع كون

النصارى خائفين وجليين منهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فرجعوا منهزمين ، وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان ، فقصدوا وادي آش ، وعاد النصارى إلى بلش بعد أن كانوا رتبوا جيوشهم للقاء السلطان وأهل غرناطة ، فلما عادوا إلى بلش دخلوا عنوة ربضها ، وضيقوا بها ، وكانت ثورة غرناطة خامس جمادى الأولى .

ولما رأى أهل بلش تكالب العدو عليهم وإدبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الأمان ، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة ، وأطاعت النصارى جميع البلاد التي بشرقي مالقة وحصن قمارش .

ثم انتقل العدو إلى حصار مالقة ، وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين ، وأتى إليها النصارى بالميرة ، ولما نزل بلش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شريش الذي كان مسوراً عندهم ، فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فاره وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادي آش ، وارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة ونازلها برآً وبحراً ، وقاتله أهلها قتالاً عظيماً بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم ، وطال الحصار حتى أداروا على مالقة من البر الخنادق والصور والأجفان من البحر ، ومنع الداخل إليها ، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار . وحاربوا حرباً شديداً ، وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض ، وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام<sup>١</sup> فأكلوا المواشي والخيل والحمير ، وبعثوا الكتب للعدوتين وهم طامعون في الإغاثة فلم يأت إليهم أحد ، وأثر فيهم الجوع . وفشا في أهل نجاتهم القتل ، ولم يُظهروا مع ذلك هلعاً ولا ضعفاً ، إلى أن ضعف حالهم . ويشوا من ناصر أو مغيث من البر والبحر ، فتكلموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممن سواهم ، فعوتبوا على ما صدر منهم وما وقع من الخفاء ، وقيل لهم

١ من الطعام : سقطت من ص .



لما تحقق العدو التجاءهم : تؤمّنونَ من الموت ، وتعطون مفتاح القلعة والحصن ،  
والسلطان ما يعاملكم إلاّ بالخير إذا فعلتم ، وهذا خداع من الكفار ، فلماً تمكن  
العدوّ منهم أخذهم أسرّى ، وذلك أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ،  
ولم يبق في تلك النواحي موضع إلاّ وملكه النصارى .

وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدوّ الكافر إلى الشرقية وبلش التي  
كانت في الصلح ، فاستولى عليها ، واحتجوا بالصلح ، فلم يلتفت إليهم ، وأخذ  
تلك البلاد كلّها صلحاً ، ثم رجع لبلاده .

وفي عام أربعة وتسعين وثمانمائة خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب ،  
واستولى على ما هنالك من الحصون ، ثم نازل بسطة ، وكان صاحب وادي آش  
لمّا تعين العدوّ بمحلته بعث جميع جنده وقوّاده ، وحشّدَ أهل نجدة تلك البلاد من  
وادي آش والمرية والمنكّب والبشرات ، فلماً نزل العدوّ بسطة أتت الحشودُ  
المذكورة ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تقهقر  
العدوّ عن قرب بسطة ، ولم يقدر على منع الداخِل والخارج ، وبقي الأمر كذلك  
رجباً وشعبان ورمضان ومحلات المسلمين نازلة خارج البلد ، ثم إن العدوّ شد الحصار  
وجدّد في القتال ، وقرب المدافع والآلات من الأسوار حتى منع الداخِل والخارج  
بعض منع ، واشتد الحال في ذي القعدة وذي الحجة وقلّ الطّعام ، وفي آخر  
ذي الحجة اختبروا الطّعام في خفية فلم يجدوا إلاّ القليل ، وكانوا طامعين في إقلاع  
العدوّ عند دخول فصل الشتاء ، وإذا بالعدوّ بنى وعزم على الإقامة ، وقوي  
اليأس على المسلمين ، فتكلّموا في الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن ، وظن  
العدوّ أن الطّعام لم يبق منه شيء ، وأن ذلك هو الملجئ لهم للكلام ، وفهموا  
عنه ذلك ، فاحتالوا في إظهار جميع أنواع الطّعام بالأسواق ، وأبدوا للعدوّ  
القوّة مع كونهم في غاية الضعف ، والحرب خدعة ، فدخل بعض كبار  
النصارى للتكلّم معهم وهو عيّن ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس ، وعند  
تحققهم بقاء الطّعام والقوّة أعطوهم الأمان على أنفسهم دون من أعانهم من أهل

وادي آش والمنكبّ والمرية والبشرات ، فإن دفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الأمان ، وإلاّ فلا ، فلم يوافق أهلُ البلد على هذا ، وطال الكلام ، وخاف أهل البلد من كشف السر ، فاتفقوا على أن تكون العقدة على بسطة وادي آش والمرية والمنكبّ والبشرات ، ففعلوا ذلك ، ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدو على شروط شرطوها وأمور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم ، وقبض الخواص مالا ، وحصلت لهم فوائد .

وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة وملكوها ، ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام ، وقالوا لهم : مَنْ بقي بموضعه فهو آمن ، ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالماً ، ثم أخرج العدو المسلمين من البلد ، وأسكنهم بالربّض خوف الثورة ، ثم ارتحل العدو للمرية ، وأطاعته جميعُ تلك البلاد ، ونزل صاحبُ وادي آش للمرية ليلقاه بها ، فلقيه وأخذ الحصون والقلاع والبروج ، وباع له السلطان أبو عبد الله على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحب ، فوعده بذلك ، وانصرف معه إلى وادي آش ، ومكّنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور ، وأطاعته جميعُ البلاد ، ولم يبق غير غرناطة وقراها ، وجميعُ ما كان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طرفة عين ، وجعل في كل قلعة قائداً نصرانياً ، وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالا من عند صاحب قشتالة إكراماً منه لهم بزعمهم ، فتبّاً لعقولهم ، وما ذلك منه إلاّ توفير لرجالهم وعدّته ودفع بالتي هي أحسن ، ثم أخذ برج الملاحه وغيره ، وبناه وحصّنه ، وشحن الجميع بالرجال والذخيرة ، وأظهر الصحبة والصلح مع صاحب وادي آش ، وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكرماً منه وخداعاً ودهاء ، ثمّ بعث في السنة نفسها رسلاً لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما مكّنه عمّه من القلاع والحصون ، ويكون تحت إيالته ، ويعطيه مالاّ جزيلاً على ذلك ، وأي بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه ، قالوا :

وأطمعه صاحبُ غرناطة في ذلك ، فخرج العدو في محلاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة ، وهذا في سر بين السلطانين ، فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامة وأخبرهم بما طلب منه العدو وأن عمّة أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه ، وليس لنا إلا إحدى خصلتين : الدخول تحته ، أو القتال . فاتفق الرأي على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح ، وخرج بمحلته . ثم إن صاحب قشتالة نزل على مرج غرناطة ، وطلب من أهل غرناطة الدخول في طاعته . وإلا أفسد عليهم زروعهم ، فأعلنوا بالمخالفة ، فأفسد الزرع ، وذلك في رجب سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، ووقعت بين المسلمين والعدوّ حروب كثيرة . ثم ارتحل العدو عند الإياس منهم ذلك الوقت ، وهدم بعض حصون ، وأصلح برج همدان والملاحية ، وشحنهما بما ينبغي ، ثم رجع إلى بلاده ، وعند انصرافه نزل صاحب غرناطة بمن معه إلى بعض الحصون التي في يد النصارى ففتحها عنوة ، وقتل من فيها من النصارى ، وأسكنها المسلمين ، ورجع لغرناطة ، ثم أعمل الرحلة إلى البشرات في رجب المذكور ، فأخذ بعض القرى . وهرب من بها من النصارى والمرتدين أصحابهم . ثم أتى حصن أندرش فتمكن منه ، وأطاعته البشرات ، وقامت دعوة الإسلام بها . وخرجوا عن ذمة النصارى . وهناك عمّة أبو عبد الله محمد بن سعد بجملته وافرة ، فقصدهم في شعبان من غرناطة ، واستقرّ عمّة بالمرية . وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات إلى برجة ، ثم تحرك عمّة مع النصارى إلى أندرش فأخذها لرمضان . وخرج صاحب غرناطة لقرية همدان ، وكان برجها العظيم مشحوناً بالرجال والعدة والطعام ، فحاصره أهل غرناطة . ونصبوا عليه أنواعاً من الحرب . ومات فيه خلق كثير منهم ، ونقبوا البرج الأول والثاني والثالث ، وألقوا بهم للبرج الكبير ، وهو القاعة ، فنقبوها ثم أسروا من كان بها ، وهم ثمانون ومائة ، واحتوا على ما هنالك من عدة وآلات حرب .

وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب ، فلما وصل حصن شلوبانية نزله ، وأخذة عنوة بعد حصاره ، وامتنعت القلعة ، وجاءتهم الأمداد من مالقة بجرأ فلم تقدر على شيء ، وضيّقوا بالقلعة ، فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحلتة لمرج غرناطة ، فارتحل صاحب غرناطة عن قلعة شلوبانية ، وجاء غرناطة ثالث شوال ، وبعد وصولهم غرناطة وصل العدو إلى المرج ومعه المرتدون والمدجنون ، وبعد ثمانية أيام ارتحل العدو لبلاده بعد هدم برج الملاحه وإخلائه وبرج آخر ، وتوجه إلى وادي آش ، فأخرج المسلمين منها ، ولم يبق بها مسلم في المدينة ولا الرّيبض ، وهدم قلعة أندرش ، وحاف على البلاد ، ولما رأى ذلك السلطان الزّغّل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد عمّ سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العدو فجاز لوهران ، ثمّ لتلمسان ، واستقر بها ، وبها نسله إلى الآن يُعرفون ببني سلطان الأندلس ، ودخل صاحب قشتالة لأقاصي مملكته بسبب فتنة بينه وبين الإفرنج ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها وأخذها ، وأسر من كان بها من النصارى وأرادت فتياها<sup>١</sup> القيام على النصارى ، فجاء صاحب وادي آش ففتك فيهم .

وفي ذي القعدة من السنة رفع صاحب غرناطة من السند وخلت تلك الأوطان من الانس .

وفي ثاني عشري جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة ، وأفسد الزرع ، ودوخ الأرض ، وهدم القرى ، وأمر ببناء موضع بالسور والحفير ، وأحكم بناءه ، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرّف الهمة إلى الحصار والإقامة ، وصار يُضيق على غرناطة كل يوم ، ودام القتال سبعة أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين ، غير أن النصارى على بعد ، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية

١ ق ص : رفتهيانه .

جبل شلّير ، إلى أن تمكن فصل الشتاء ، وكلب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وقطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرث والسبب ، وضاق الحال ، وبان الاختلال ، وعظم الخطب ، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ، ففرّ ناس كثير من الجوع إلى البشرات ، ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة ، وقل الطعام ، ثم تفاقم الخطب ، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم ، وقالوا : انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم ، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا في هذا المعنى ، وأن العدو يزداد مدّده كل يوم ، ونحن لا مدد لنا ، وكان ظننا أنه يُقلع عنا في فصل الشتاء ، فخاب الظن ، وبنى وأسس ، وأقام ، وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم ، فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفاً على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطاً أرادوها ، وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش : منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنه من حمراء غرناطة والمعقل والحصون ، ويحلف على عادة النصارى في العهود ، وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتنّ عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة ، فانقادوا إليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة ، فقبلها منهم ، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء .

وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم

وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبيل سلطانهم قبل ، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نصّ عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه للملكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه للملكه ، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يُعطون عشر ما لهم والكراء<sup>١</sup> ، وأن لا يؤخذ أحد بدينه غيره ، وأن لا يُقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاتب على من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى<sup>٢</sup> ولا يسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثه ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين . ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ، وأمثال هذا مما تركنا ذكره .

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد ، ولما علم ذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح ، وشملهم حكمه على هذه الشروط ، ثم أمر العدو الكافر ببناء ما يحتاج إليه في

١ ثم ... والكراء : سقطت من ص .

٢ أيام ... النصارى : سقطت من ص .

الحمراء وتحصينها ، وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها ، وصار الطاغية يخلف إلى الحمراء نهاراً ويبيت بمحلته ليلاً إلى أن اطمأن من خوف الغدر ، فدخل المدينة ، وتطوّف بها ، وأحاط خبراً بما يرومه ، ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له وسكناه بأندرش ، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ، ثم احتال في ارتحاله لبر العدو ، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب لصاحب المرية أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدو ، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له ، فصرف في الحين بنص هذا الكتاب ، وركب البحر ، ونزل بمليلة ، واستوطن فاساً ، وكان قبلُ طلبَ الجواز لناحية مراکش ، فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء ووباء .

ثم إن النصارى نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر ، ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ، ثم تعدوا إلى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً ، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم . وهذا كان السبب للتنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت ، وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا الناس ، فلم ينفهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسيياً ، إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر ، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين

يعبد الله في خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المعرة ، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الحالية وبلادها ، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا ، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصف ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس ، ومحبت رسومها ، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله ، واسطة عقدهم ، ومشيد مبانيهم الأنيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة ، وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس ، العائد منها للملكة في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس ، وهو سلطان لسان الدين ابن الخطيب ، وقد ذكرنا جملة من أخباره في غير هذا الموضع ، ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج



[ ابن إسماعيل ] بن يوسف بن نصر بن قيس ، الأنصاري ، الخزرجي ، رحمهم الله تعالى جميعاً .

وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه ، متلهفاً على ما خلفه ، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها ودخلتها ، وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ، ودفن بيازاء المصلّى خارج باب الشريعة وخلف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد وعقب هذا السلطان بفاس إلى الآن ، وعهدي بذريته بفاس سنة ١٠٢٧ ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويُعدّون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

[ رسالة المخلوع أبي عبد الله إلى الشيخ الوطاسي ]

وقد رأيت أن أذكر هنا الرسالة التي كتب بها المخلوع المذكور إلى سلطان فاس الشيخ الوطاسي ، وهي من إنشاء الكاتب المجيد البارع البليغ أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العُقَيْلي رحمه الله تعالى وسماها بـ «الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس» ونصها بعد الافتتاح :

مولى الملوكِ ملوكِ العربِ والعجمِ      رَعِيًّا لِمَا مِثْلُهُ يُرْعَى مِنَ الدَّمِ  
بِكَ اسْتَجْرْنَا وَنَعْمَ الْجَارُ أَنْتَ لِمَنْ      جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْهِ جَوْرَ مُنْتَقِمِ  
حَتَّى غَدَا مَلِكُهُ بِالرَّغْمِ مُسْتَلْبًا      وَأَفْطَعُ الْخَطْبِ مَا يَأْتِي عَلَى الرَّغْمِ  
حُكْمٌ مِنْ اللَّهِ حَتْمٌ لَا مَرْدَ لَهُ      وَهَلْ مُرْدٌ لِحُكْمٍ مِنْهُ مِنْحَمِ  
وَهِيَ اللَّيَالِي وَقَاكَ اللَّهُ صَوْلَتَهَا      تَصُولُ حَتَّى عَلَى الْأَسَادِ فِي الْأَجْمِ  
كُنَّا مُلُوكًا لَنَا فِي أَرْضِنَا دَوْلٌ      نَمْنَا بِهَا تَحْتَ أَفْنَانٍ مِنَ النِّعَمِ

١ وردت هذه الرسالة في أزهار الرياض ١ : ٧٢ - ١٠٢ .

يُرْمَى بِأَفْجَعِ حَتْفٍ مِّنْ بَيْنِ رُمَى  
 وَأَيِّ مَلِكٍ بَظَلَّ الْمَلِكُ لَمْ يَنْمِ  
 بِأَدْمُعٍ مَّزَّجَتْ أَمْوَاهُهَا بَدَمِ  
 يُشْمُ بَوَّ الصَّغَارِ الْأَنْفَ ذَا الشَّمَمِ  
 فَالْمَلِكُ بَيْنَ مَلُوكِ الْأَرْضِ كَالرَّحِمِ  
 وَاعْطَفَ وَلَا تَنْحَرِفَ وَاعْذِرْ وَلَا تَلْمِ  
 نُذَنْبَ وَلَوْ كَثُرَتْ أَقْوَالُ ذِي الْوَحْمِ  
 أَرَادَتْ أَنْفُسُنَا مَا حَلَّ مِنْ نِقَمِ  
 فِي زَاخِرِ بَأْكَفِ الْمَوْجِ مَلْتَمِ  
 طِفْلٍ تَشَكَّى بِفَقْدِ الْأُمِّ فِي الْيَمِّ  
 فَإِنَّ مَحْرُوسَهُ لَحِمٌّ عَلَى وَضْمِ  
 فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ مَرْتَكَمِ  
 أَنْ ابْنَهُ الْبِرِّ قَدْ أَشْفَى عَلَى الرَّجْمِ  
 أَجَارَهُ مِنْ أَعَارِبٍ وَمِنْ عَجَمِ  
 أَسْدَى إِلَيْهِ مِنَ الْآلَاءِ وَالنَّعَمِ  
 وَخُطِّطَ مَسْطُورُهَا فِي اللَّوْحِ بِالْقَلَمِ  
 وَعُدَّتْ أَحْرَارُنَا فِي جَمَلَةِ الْخَدَمِ  
 « ضَيْفِ أَلْمِ بِفَاسٍ غَيْرِ مَحْتَشَمِ »<sup>٤</sup>

فَأَيْقَظَتْنَا سَهَامٌ لِلرَّدَى صَيْبُ  
 فَلَا تَمَّ تَحْتَ ظِلِّ الْمَلِكِ نَوْمَتَا  
 يَبْكِي عَلَيْهِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَعْرِفُهُ  
 كَذَلِكَ الدَّهْرُ لَمْ يَبْرَحْ كَمَا زَعَمُوا  
 وَصِلْ أَوْاصِرٌ قَدْ كَانَتْ لَنَا اشْتَبَكَتْ  
 وَابْسُطْ لَنَا الْخُلُقَ الْمَرْجُوعَ بِاسْطُهُ  
 لَا تَأْخُذْنَا بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ وَلَمْ  
 فَمَا أَطَقْنَا دِفَاعاً لِلْقَضَاءِ ، وَلَا  
 وَلَا رَكُوباً بِإِزْعَاجِ لِسَابِحَةِ  
 وَالْمَرْءُ مَا لَمْ يُعِينَهُ اللَّهُ أَضْيَعُ مِنْ  
 وَكُلِّ مَا كَانَ غَيْرَ اللَّهِ يَحْرُسُهُ  
 كُنْ كَالسَّمْوَالِ إِذْ سَارَ الْهَمَامُ لَهُ  
 فَلَمْ يَبِيعْ أَدْرُعَ الْكَنْدِيِّ وَهُوَ يَرَى  
 أَوْ كَالْمَعْتَى مَعَ الضَّلِيلِ الْارْوَعِ إِذْ  
 وَصَارَ يَشْكُرُهُ شُكْرًا يَكْفِيءُ مَا  
 وَلَا تَعَاتَبَ عَلَى أَشْيَاءٍ قَدْ قُدِّرَتْ  
 « وَعَدَّتْ عَمَّا مَضَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ »<sup>٣</sup>  
 إِيَّاهُ حَنَّانِيكَ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ عَلَى

١ من قول كعب بن زهير :

أَذْنِبَ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ

لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ فَلَمْ

٢ من قول الأعشى :

فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَارِ

كُنْ كَالسَّمْوَالِ إِذْ طَافَ الْهَمَامُ بِهِ

٣ مضمّن من الشعر القديم .

٤ اقتبس صدر بيت المتنبي ، وعجزه « السيف أحسن فعلا منه باللم » .

بنا إليها خطا الوخادة الرُّسْمِ  
 في النفس والأهل والأتباع والحشم  
 والخيل عالكة الأشداق للُّجْمِ  
 ما ابيض من سبل واسود من لم  
 ولا ترى متن لدن غير منحطم  
 سوى على الصون للأطفال والحرم  
 يخالُ جاعها يقتادُ بالخطم  
 أعيبى يداً من يد جالت على رحم  
 ولا طوت صحةً منها على سقم  
 ولأتنا قبلنا في الأعصر الدهم  
 تقعدُ به نكبات الدهر لم يقم  
 بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخدم  
 والبين أقطع للموصول من جلم  
 ركب البلا فقرته أدمع الديم  
 أعيأ جواباً وما بالربع من لرم  
 نرى به غرر الأجاب كالحشم  
 منا الضلوع على برح من الألم  
 دعاء إبراهيم الحجاج للحرم  
 على أساس وفاء غير منهدم  
 في كل فضل وطول عند ظنهم  
 من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم

فأت أنت ، ولولا أنت ما نهضت  
 رحماك يا راحماً ينمي إلى رحماً  
 فكم مواقف صدق في الجهاد لنا  
 والسيف يخضب بالمحمر من علق  
 ولا ترى صدر عصب غير منقصف  
 حتى دهبنا بدهيا لا اقتدار بها  
 فقال من لم يشاهدها فربتما  
 هيهات لو زبنته الحرب كان بها  
 تالله ما أضمرت غشاً ضمائرنا  
 لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت  
 فخاننا عنده الجدد الخؤون ، ومن  
 فاسود ما اخضر من عيش دهمته عدأ  
 وشتت بين شمالاً كان منتظماً  
 فرب مبنى شديد قد أناخ به  
 قمنا لديه أصيلاً نائله  
 وما ظننتنا بأن نبقي إلى زمن  
 لكن رضى بالقضا الجاري وإن طويت  
 لبنيك يا من دعانا نحو حضرته  
 واعط الأمان الذي رصت قواعده  
 خليفة الله وافاك العبيد فكن  
 وبين أسلافنا ما قد علمت به

١ يشير إلى قولهم « أذل من يد في رحم » .

٢ من قول النابغة :

وقفت فيها أصيلاً نائلها عيت جواباً وما بالربع من أحد

وأنت منهم كأصلٍ مُطلعٍ غُصْنًا  
وقد خَطَطَوْتَ خَطَاهُمْ فِي مآثرهم  
وصيتُ مولى الورى الشيخ الإمام غدا  
سلالةُ الأمراءِ الجلَّةِ الكبرا  
بنو مَرِينِ ليوثٍ في عرينِ ابوا  
النازلين من البيضاء وسطِ حِمَى  
والجائسين بدُهُمِ الخيلِ كل ذرا  
يريكَ فارسُهُم إن هزَّ عاملَهُ  
ليثاً على أجدلِ عارٍ منَ أجنحةِ  
في اللامِ يدغمُ منَ عَسَالِهِ أَلِفًا  
أهلُ الحفيظةِ يومِ الروعِ يحفظهمُ  
يا من تطيرُ شرارِ منه محرقةُ  
هُمُ بطائفةِ التلثِ قد فتكوا  
وإن يلثمهمُ يومِ الوغى رهجُ  
تضيءُ آراؤهمُ في كلِّ معضلةِ  
هذا ولو من حياءِ ذاب محتشمُ  
طابت مدائحهمُ إذ طابت أنفسهمُ  
للهِ درهُمُ والسَّحْبُ باخللةِ  
بجيثِ الأفقِ يُرى من لونِ حمرةِ  
هناكَ تنهلُ أيديهمُ بصوبِ حياءِ  
وأنَّ بَيْتِي زياداً طالما ذُكرا  
أحلامُ عادٍ وأجسامُ مطهَّرةُ

١ زياد : النابغة الذبياني .

يرونَ حقّاً عليهم حفظ جوارهمِ  
 فروعهُ بالدواهي لا يراع ، ولا  
 همُّ البحار سماحاً غير أنّ بها  
 وليس يسلم من حتفٍ محاربههمُ  
 كمُ فيهمُ من أميرٍ أوحدٍ ندسُ  
 ولا كسبطِ أبي حسون<sup>١</sup> من حسنتِ  
 هذاكم ابن أبي ذكري الهمام فقلُ  
 خليفة الله حقّاً في خليفته  
 مهما ترَ قسّمتُ منه نيرةً  
 فوجههُ يدجى أو كفهُ بجدى  
 وفضلهُ وله الفضل المين جرى  
 وجودهُ المتوالي للبرية ما  
 إذا ابتغتُ نِعماً منه العفاة له  
 وإنّ يعيس زمانٌ في وجوههمِ  
 وجه تين سِمتُ المكرمات بهِ  
 وراحةٌ لم تزلُ في كلّ آونةٍ  
 لله ما التزمتهُ من نوافلهِ  
 أنسى الخلائف في حلمٍ وفي شرفٍ  
 فجاز معتمداً منهمُ ومعتضداً  
 وناصر الدين في الإقبال فاق ، وفي  
 أفعالُ أعدائه مُعتلةٌ أبداً

فلمُ يُضَرَ نازلٌ فيهم ولم يُضمِ  
 يغمُ منها بما يعرو من الغممِ  
 ما قد أنافَ على الأطوادِ من هممِ  
 حتى يكون إليهمُ ملقي السّلمِ  
 يُقرطسُ الغرض المقصود بالفهمِ  
 أمداحهُ حُسن ما فيه من الشيمِ  
 في أصله المنتقى من مجده العممِ  
 كنائبِ نابٍ في حكمٍ عن الحكمِ  
 تئل بنازله ما جلُّ من نعمِ  
 أهبى من الزهر أو أندى من الديمِ  
 كجري الأمثالِ في الأقطارِ والأممِ  
 وجوده بينها طراً بمنهدمِ  
 لم يسمعوا كلمةً منه سوى نعمِ  
 لم يبصروا غير وجهٍ منه مبتسمِ  
 كما تين سِمتُ الصدقِ في الكلمِ  
 في نيلها راحةُ الشاكي من العدمِ  
 أيامَ لا فرّضَ مفروضٍ بملتزمِ  
 وفي سخاءٍ وفي علمٍ وفي فهمِ  
 وامتاز عن واثقٍ منهمُ ومعتصمِ  
 محبة العلمِ أزرى بابنه الحكمِ  
 متى يرمُ جزمها بالحذفِ تنجزمِ

١ أبو حسون : هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى بن زيان الوطامي ويعرف  
 بابن حسون الباذسي ، بويج بفاس أول مرة سنة ٩٣٢ .

فويل أهل القلى من حية ذكر  
 راموا عداوة من إن شاء غادرهم  
 فسوف يأكلهم من جيشه لجيب  
 وإن الأعراب إذ ساروا لغايته  
 وهم كما قاله ماض «أرى قدمي  
 فقل إذن للمناوي الناو لان أذى  
 له صوارم لو ناجتك ألسنها  
 وأن روحك عن قرب سيقبضه  
 فهو الذي ما له نداء يشابهه  
 يدبر الأمر تدييراً يخلصه  
 ويصر الغيب لحظّ الذهن منه إذا  
 وينعم النظر المفضي بناظيره  
 ذو منطق لم تزل تجلو نتائجه  
 ومسمع ليس يصغي للوشاة فلم  
 فمقله لا توازيه العقول ، وهل  
 إليه جميع الورى من بدو أو حضر  
 شدوا وجدوا ولا تعنوا ولا تنهوا  
 هذا الإمام المريني السعيد له  
 قد أقسمت أنه المنصور ألسنة  
 فشيّعوه ووالوه تروا عجباً  
 والحمد لله إذ أبقي خلافته  
 حرز حريز وعز قائم وندى  
 دامت ودام لها سعد يساعدها  
 فالله عز اسمه قد زانها بحلى

للمتلبّب اللهام المجر ملتقم  
 مثل الأحاديث عن عاد وعن لادم  
 بكلّ قرم إلى لحمانهم قرم  
 لسائرون إلى لقم على لقم  
 بسعيه نحو حنفي قد أراق دمي  
 يا غرّ غرك ما أبصرت في الحلم  
 لبشرك بعمر منك منصرم  
 قبض المسلم ما قد حاز من سلم  
 من كل متصف بالدهي متمسم  
 ممّا عسى أن يرى فيه من الوهم  
 تعمى عن أدراكه الحاظ كل عمي  
 لصوب وجه صواب واضح اللقم  
 عن مبطل بخصام المبطل الخصم  
 يتفق لديه الذي عنهم إليه نمي  
 يوازن الطود ما قد طال من أكم  
 نداء مرتبط بالنصر مرتسم  
 قد لفها الليل بالسواقه الحطم  
 سعد يؤيده في كل مصطدم  
 من نخبة الأوليا مبرورة القسم  
 وتظفروا معه بالأجر والغنم  
 كهفنا لنا من يخيم فيه لم يرم  
 غمر دراك بلا من ولا سام  
 في كل مبتدا منه ومختتم  
 من غرّ أمداحه كالدرّ في النظم

الواهبُ الألفُ بعد الألفِ من ذهب  
 والفاعلُ الفعلُ لم يهَمُّ بهِ أحدٌ  
 ذاكم هو الشيخُ فاعجب إنّه هَرِمٌ  
 وحسبنا أن أيدينا بهِ اعتصمت  
 فما مخالفه يوماً بمضطهدٍ  
 ولا موافيه في جهدٍ بمطرحٍ  
 ولا محيّا محييه بمُنكسِفٍ  
 وما تَكَرَّمه سراً بمُنكسِفٍ  
 وليسَ لامحُ مرآهٍ بمكتسِبٍ  
 ولا مقبِلُ يمناهُ الكَرِيمَةِ في  
 وما وسيلتنا العظمى إليه سوى  
 وإنما هي وما أدراك ما هي من  
 نبينا المصطفى الهادي بخير هدى  
 داعي الورى من أولي خيم وأهل قبرى  
 عليه منّا صلاة الله ما ذُكرتُ  
 وما تشقّع فيها بالشقيع له

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، أنت وليتنا  
 فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك  
 المصير ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ، نعم المولى  
 ونعم النصير .

أما بعد حمد الله الذي لا يُحمد على السراء والضراء سواه ، والصلاة والسلام  
 على سيدنا ومولانا محمد الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح ، يدعو إلى سبيل

١ صدر قصيدة البوصيري المشهورة في مدح الرسول (س) .

كل فلاح ، أولي قلوب غافلة ونفوس سواه ، والرضى عن آله وأصحابه وعترته الأكرمين وأحزابه الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه ، وعزروه ونصروه في حال قربه ونواه ، فيا مولانا الذي أولانا من النعم ما أولانا لا حطاً الله تعالى لكم من العزة رواقاً ، ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصاناً ولا أوراقاً ، ولا زالت مخضرة العود ، مبتسمةً عن زهرات البشائر متحفة بشمرات السعود ، مطورة بسحائب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود ، هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب زمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاطمه كلامكم ، وما الذي يقول مَنْ وجهه خَجِل ، وفؤاده وَجِل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل ، ببيدَ أني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر ، واحترامي إليه أكبر : اللهم لا بريء<sup>١</sup> فأعتذر ، ولا قوي فأنتصر ، لكني مستقيل ، مستنيل مستعتب مستعفر ﴿ وَمَا أَبْرِيءُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (يوسف : ٥٣) ، هذا على طريق التنزل والإنصاف ، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف ، وأما على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق<sup>٢</sup> : « والله إني لأعلم أني إن أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقول ما لم يكن ، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني ، فأقول ما قاله أبو يوسف : صبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . على أني لا أنكر عيوبي فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبي فأنا جبلُ الذنوب ، إلى الله أشكو عَجْرِي وبُجْرِي ، وسقطاتي وغلطاتي ، نعم كل شيء ولا ما يقوله المتقول ، المشنع المهور ، الناطق بضم الشيطان المسؤل ، ومن أمثالهم « سُبَّتِي واصلدق ، ولا تَفْتَرِ ولا تَخْلُق » ، أفمثلي كان يفعل أمثالها ، ويحتمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ؟ وبهلك نفسه ويحبط أعمالها ، عياداً بالله

١ ص ق : لا بريكة .

٢ انظر إمتاع الأسماع : ٢٠٩ مع اختلاف في النص .



من خسران الدين ، وإيثار الجاحدين والمعتدين ، قد ضللت إذآ وما أنا من المهتدين ،  
 وإيسمُ الله لو علمت شعرة في فَوْدَيَّ تميل إلى تلك الجهة لقطعتها ، بل لقطفت  
 ما تحت عمامتي من هامتي وقطعتها ، غير أن الرعاع في كل وقت وأوان ،  
 للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ، كان أحق أو أجهل من أبي ثروان<sup>١</sup> ،  
 أو أعقل أو أعلم من أشجّ بني مروان<sup>٢</sup> ، رَبِّ مَتَّهَم بري ومسربلٍ بسربال  
 وهو منه عمري ، وفي الأحاديث صحيح وسقيم ، ومن التراكيب المنطقية منتج  
 وعقيم ، ولكن ثمّ ميزان عقل ، تُعتبر به أوزان النقل ، وعلى الراجح الاعتماد ،  
 ثمّ إشاعة الأحقاد ، المتصل المتداد ، وللمرجوح الاطّراح ، ثمّ التزام<sup>٣</sup> الصراح ،  
 بعد النقص من الراح ، وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلق إلاّ من  
 عصمه الله تعالى إليه منجذب ، ولقد قُدِّفنا من الأباطيل بأحجار ، ورُمينا بما لا  
 يُرمى به الكفّار ، فضلاً عن الفجّار ، وجرى من الأمر المنقور على لسان زيد  
 وعمرو ما لديكم منه حفظ الجار ، وإذا عظم الإنكاء ، فعلى تكاءة التجلد الاتكاء ،  
 أكثر المكثرون ، وجهد في تعثيرنا المتعثرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا  
 في سلك الملاحدة ، أكفراً أيضاً كفراً ، غفراً<sup>٤</sup> اللهم غفراً ، أعد نظراً يا عبد  
 قيس ، فليس الأمر على ما خيّل لك ليس ، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ، ممن  
 رام محقّقه ومحقّنا ، فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائطين ، فانفتق علينا فتق  
 لم يمكنّا له رتق ، وما كنا للغيب حافظين . وبعد فاسأل أهل الحل والعقد ، والتميز  
 والنقد ، فعند جهينّتهم تلقى الخبر يقينا ، وقد رضينا بحكمهم يؤثمننا فيوبقنا  
 أو يبرئنا فيقينا ، إيه يا من اشرب إلى ملامنا ، وقده حتى في إسلامنا ، رويداً  
 رويداً ، فقد وجدت قوة وأيداً ، ويحك إنما طال لسانك علينا ، وامتد بالسوء

١ هو هبنقة القيسي مضرب المثل في الحق .

٢ هو عمر بن عبد العزيز .

٣ ق ص : الزم .

٤ ص ق : غداً .

إلينا ، لأن الزمان لنا مصغر ولك مكبر ، والأمر عليك مُقبل وعنا مُدبر ، كما قال كاتب الحجاج الموبر ، وعلى الجملة فهبنا صرنا إلى تسليم مقالك جدلاً ، وذهبنا فأقررنا بالخطأ في كل وِرْدٍ وصدَرٍ ، فله درُّ القائل<sup>١</sup> :

إن كنتُ أخطأتُ فما أخطأَ القدر

وكأنَّا بعتسف إذا وصل إلى هنا ، وعدمُ إنصافه يَعَلِّمُه إلنا ، قد ازورَّ متجانفاً ، ثمَّ افترَّ متهانفاً ، وجعل يتمثل بقولهم : إذا عيِّروا قالوا مقادير قدرت ، وبقولهم : المرء يعجزه المحال ، فيعارض الحق بالباطل ، والحالي بالعاطل ، ومنزع بقول القائل : ربَّ مسمع هائل ، وليس تحته [من] طائل ، وقد فرغنا أول أمس من جوابه ، وتركنا الضغن يلصق حرارة<sup>٢</sup> الجوى به . وسلم الآن بما يوسعه تسكيتاً . ويقطعه تبكيتاً ، فنقول له : ناشدناك الله تعالى ، هل اتفق لك قطُّ وعرض ، خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض ؟ مع اجتهادك أثناءه في إصدارك وإيرادك ، في وقوعه على وفق اقتراحك ومُرادك ، أو جميع ما تزاوله بإدارتك ، لا يقع إلاّ مطابقاً لإرادتك ، أو كل ما تقصده وتنويه ، تحرزه كما تشاء وتحويه ؟ فلا بد أن يقر اضطراراً ، بأن مطلوبه يشذ عنه مراراً ، بل كثيراً ما يفلت صيده من أشراكه . ويطلبه فيعجز عن إدراكه ، فنقول : ومسألتنا من هذا القبيل ، أيها النبيه النبيل ، ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ما شينا ، ممّا يسايرنا في غرضنا منه ويماشينا ، كقوله صلّى الله عليه وسلّم « كلّ شيء بقضاء وقدر ، حتى العجز والكيس » وقوله أيضاً « لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدرُوا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدرُوا عليه » أو كما قال ، صلّى الله عليه وسلّم ،

١ هو أبو العتاهية (ديوانه : ٤٤٩) وقيله :

هي المقادير فلمي أو فذر تجري المقادير على غرز الإبر

٢ ص : حرازة .

فأخْلِقْ به أن يلوذ بأكتاف الإحجام ، ويزمّ على نفثة فيه كأنما ألجم بلجام ،  
حينئذ نقول له والحق قد أبان وجهه وجلاله ، وقهره بمجته وعلاه : ليس لك  
من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله ، وفي مُحاجة آدم وموسى ما يقطع لسان  
الخصم ، ويرحضُ عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من درّان الوصم ،  
وكيفما كانت الحال ، وإن ساء الرأيُ والانتحال ، ووقعنا في أوجال وأوحال ،  
فثُلَّ عرشنا ، وطويت فرُشنا ، ونكس لوانا . ومُلك مثنوانا ، فنحن أمثل  
من سوانا ، وفي الشر خيار ، ويد اللطائف تكسر من صوابة الأغيار ، فحتى  
الآن لم نقتد من اللطيف تعالى لطفاً ، ولا عدنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على  
جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفاً ، وإلاّ فتلك بغداد دار السلام ،  
ومتَّبَوْا الإسلام ، المحفوف بفرسان السيوف والأقلام ، مثابة الخلافة العباسية ،  
ومقر العلماء والفضلاء أولي السَّير الأويّسية<sup>١</sup> . والعقول الإياسية<sup>٢</sup> ، قد  
نوزلت بالجيوش ونزلت ، وزوولت بالزحوف وزلزلت ، وتحيّف جوانبها الحيف ،  
ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف ، ولا تسَلّ إذ ذاك عن كيف ، أيام تجلت  
عروس المنية كاشفة عن ساقها مبدية ، وجرت الدماء في الشوارع والطرق  
كالأنهار والأودية ، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتصاة بالعمائم  
في رقابهم والأردية ، وللنجيع سيول ، تخوضها الخيول ، فتخضبها إلى أرساغها ،  
وتهم ظماؤها بوردها فتتكلم عن تجرعها ومساغها ، فطاح عاصمها ومستعصمها ،  
وراح ولم يَعدْ ظالمها ومتظلمها ، وخربت مساجدها وديارها ، واصطلم بالحسام  
أشرارها وخيارها ، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف ، حسبما عرفت أو حسبما  
تعرف ، فلا تك متشككاً متوقفاً ، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين  
من قِفا ، فأين تلك الجحافل ، والآراء المداراة في المحافل ؟ حين أراد الله تعالى

١ نسبة إلى أويس القرني الزاهد .

٢ نسبة إلى إيّاس بن معاوية القاضي الذي يضرب به المثل في الزكّانة .

بإدالة الكفر، لم تُجند ولا قلامه ظفر، إذن فمن سَلَمَتْ له نفسه التي هي رأسُ ماله، وعباله وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله، وكلّ أو جلّ أو أقلّ<sup>١</sup> ربابه، وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه، ثم وجد مع ذلك سبيلاً إلى الخلاص، في حال مياسرة ومساهلة دون تصعب واعتياص، بعدما ظن كل الظن أن لا محيد ولا مناص، فما أحقّه حينئذٍ وأولاه، أن يحمّد خالقه ورازقه ومولاه، على ما أسداه إليه من رِفْدِه وخيره، ومعافاته ممّا ابتلي به كثير من غيره، ويرضى بكل إيراد وإصدار، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار، فالدهر غدّار، والدنيا دار مشحونة بالأكدار، والقضاء لا يُردّ، ولا يُصدّ، ولا يغالب، ولا يطالب، والدائرات تدور، ولا بدّ من نقص وكمال للبدور، والعبء مطيع لا مطاع، وليس يطاع إلاّ المستطاع، وللخالق القدير جلّت قدرته في خليفته علم غيبٍ للأذهان عن مداه انقطاع.

وما لي والتكلف لما لا أحتاج إليه من هذا القول، بين يدي ذي الجلال والمجادة والفضل والطّول؟ فله من العقل الأرجح، ومن الخلق الأسجح، ما لا تلتاط معه تهمني بصفه<sup>٢</sup>، ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عدوّ من نقره، ولا فاز قِدْحُه بظفّره، والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب، وتجرب براحتها إلى المتاعب، وقديماً للأكياس من الناس خدعت، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت، وفعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب تلك التي جبت وجدعت، ولئن رهصت وهصرت، فقد نهت وبصرت، ولئن قرعت وأمعضت، لقد أرشدت ووعظت، ويا ويلنا من تنكرها لنا بمرّة، ورميها لنا في غمرة أيّ غمرة، أيام قلبت لنا ظهر المِجَنّ، وغيم أفقها المصحّي وأدجن، فسرعان ما عايننا حبالها مُنْبَتَّةً، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغتة، فمن استعاذ من شيء

١ ق ص : أعقل . ٢ يريد : لا تعلق بقلبه .

فليستعذ ممتاً صرنا إليه من الحور بعد الكور ، والانحطاط من النجد إلى الغور :

فبيننا نسوس الناس والأمرُ أمرنا إذا نحن فيهم سوقةٌ نتنصفُ<sup>١</sup>  
فأفٍ لَدنيا لا يدوم نعيمها تَقَلَّبُ تارات بنا وتصرفُ

وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً ، وجرعنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً ، ولم  
نفزع إلى غير بابكم المنيع الجنب ، المفتوح حين سُدَّتْ الأبواب ، ولم نلبس غير  
لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب ، وإلى أمه يلجأ الطفل  
لجأ اللهفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف في الأجفان من الأجفان ، ووجهُ الله  
تعالى يبقى وكلُّ مَنْ عليها فانٍ ، وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول : حسبي هذا  
وكفان .

ولا ريب في اشتمال العلم الكريم ، على ما تعارفه الملوك بينها في الحديث  
والقديم ، من الأخذ باليد عند زلّة القَدَم ، وقرع الأسنان وعض البنان من الندم ،  
ديناً تديننت حتى مع اختلاف الأديان ، وعادة اطّردت فيهم على تعاقب الأزمان  
والأحيان .

ولقد عرض علينا صاحب قَشْتَالَة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من  
أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر  
مجاورة الصُّفْر ، ولا سوِّغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهرائي الكفر ، ما وجدنا عن  
ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنا من المطالب المشاغب حُمةً شرّاً لنا لاسعة ،  
وادكرنا أيّ ادكار ، قول الله تعالى المنكير لذلك غاية الإنكار ﴿لَمْ تَكُنْ أَرْضُ  
اللهِ واسِعَةً﴾ وقول الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام  
« أنا بريء من مؤمن مع كافر لا تترأى ناراهما »<sup>٢</sup> وقول الشاعر الحاث على

١ ورد البيتان في قصة حرة بنت النعمان تحاطب فروة بن إلياس بن قبيصة (المحسن والأضداد :

( ١١٥ ) .

٢ نص الحديث : أنا بريء من كل مسلم مع مشرك ، قيل : لم يارسول الله؟ قال : لا ترمى ناراهما .

حث المطية ، المتثاقلة عن السير في طريق منسجاتها البَطِيَّة :

وما أنا والتلددَ نحو نجد وقد غصت تهامة بالرجالِ

ووصلت أيضاً من الشرق إلينا ، كتبُ كريمة المقاصد لدينا ، تستدعي الانحياز إلى تلك الجَنَبَات ، وتتضمن ما لا مزيد عليه من الرغبات ، فلم نخر إلا دارنا التي كانت دار آباءنا من قبلنا ، ولم نرتضِ الانصواء إلا لمن بجبله وصل حبنا ، وبريش نبله ريش نبلنا ، إدلالاً على محل إخاء متوارث لا عن كلاله ، وامتنالاً لوصاة أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالة وجلالة ، إذ قد روينا عن سلف من أسلافنا ، في الإيضاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا ، أن لا يبتغوا إذا دهَمهم داهم بالحضرة المرينية بدلاً ، ولا يجلدوا عن طريقها في التوجه إلى فريقها معديلاً ، فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفجاج ، وركبنا إلى البحر الفُرات ظهر البحر الأجاج ، فلا غرَو أن نردَ منه على ما يقر العين ، ويشفي النفس الشاكية من ألم البين ، ومن توصل هذا التوصل ، وتوسل بمثل ذلك التوسل ، تطارحاً على سدة أمير المؤمنين ، المحارب للمحاربين ، والمؤمن للمستأمنين ، فهو الخليق الحقيقي بأن يسوغ أصفى مشاركته ، ويبلغ أوفى مآربه ، على توالي الأيام والشهور والسنين ، ويخلص من الشبور إلى الحبور ، ويخرج من الظلمات إلى النور ، خروج الجنين ، ولعل شعاع سعادته يفيض علينا ، ونفحة قبول إقباله تسري إلينا ، فتحامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر ، لإنشاد قول الشريف الرضي في الخليفة القادر ٢ :

عطفاً أمير المؤمنين فإتينا في دوحة العلياء لا نتفترق  
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدأ ، كلانا في المعالي معرق  
إلا الخلافة ميزتك ، فإنتي أنا عاطل منها وأنت مطوق

١ ص : افريقيا .

٢ ديوان الرضي ٢ : ٤٢ .

لا بل الأخرى بنا والأحجى ، والأنيح لسعينا والأرجى ، أن نعدل عن هذا المنهاج ، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج ، وينشد ما قال في الشيرازي ابن حجاج<sup>١</sup> :

الناسُ يَفْقدونكَ اضطراراً منهم ، وأفديكَ باختيارٍ  
وبعضُهم في جوارِ بعضٍ وأنتَ حتى أموتَ جاري  
فعشْ نخبزي وعشْ لمائي وعشْ لداري وأهلِ داري

ونستوهب من الوهاب تعالى جلّت أسماؤه ، وتعاضمت نعمائوه ، رحمةً تجعل في يد الهداية أعينتنا ، وعصمةً تكون في مواقف المخاوف جُنَّتنا ، وقبولاً يعطف علينا نوافر القلوب ، وصنعاً يُسني لنا كلَّ مرغوب ومطلوب ، ونسأله وطالما بلّغ السائل سؤالاً ومأمولاً ، متاباً صادقاً على موضوع الندم محمولاً ، ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً ، عن أرض أورثها من شاء من عباده معقبا لهم ومُديلاً ، وسادلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولاً ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح : ٢٣) فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، لم نستطع عن مورده صدوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً . ألا وإن لله سبحانه ، في مقامكم العلي الذي أيده وأعانه ، سرّاً من النصر يترجم عنه لسان من النصل ، وترجع فروع البشائر الصادقة ، بالفتوحات المتلاحقة ، من قاعدته المتأصلة ، إلى أصل ، فيمثله يجب اللباز ، والعياذ ، ولشبهه يحق الالتجاء ، والارتجاء ، ولأمر ما آثرناه واخترناه ، بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه ، ومنه جلّ جلاله نرغب أن يَخير لنا ولجميع المسلمين ، ويؤوينا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع وجناب رفيع أمين ، أمين أمين ، ونرجو أن يكون ربنا ، الذي هو في جميع الأمور حسبنا ، قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا ،

١ من أبيات لابن حجاج في أبي الفضل الشيرازي (البييمة ٣ : ٤٧) .

وساقنا توفيقه وحدانا ، إلى الاستجارة بملك حقي ، كريم وفي ، أعزّ جاراً من أبي دواد ، وأحمى أنفأ من الحارث بن عباد ، يشهد بذلك الداني والقاصي والحاضر والباد ، إن أعاث ملهوفاً فما الأسود بن قنان يُذكر ، وإن أعش حُشاشة هالكٍ فما كعب بن مامة<sup>١</sup> على فعله وحده يُشكر ، جلسه كجلس القعقاع بن شور<sup>٢</sup> ، ومُذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب إلى ثور<sup>٣</sup> ، إلى التحلي بأمهات الفضائل ، التي أضدادها أمهات الرذائل ، وهي الثلاث : الحكمة والعدل والعفة التي تشملها الثلاثة الأقوال والأفعال والشمايل ، وينشأ منها ما شئت من عزم وحزم ، وعلم وحلم ، وتيقظ وتحفظ ، واتقاء وارتقاء ، وصول وطول ، وسماح ونائل ، فبنور حلاه المُشرق ، يفتخر المغربُ على المُشرق ، وبمحتده السامي خطره في الأخطار ، وبيته الذي ذكره في النباهة والنجابة قد طار ، يباهي جميع ملوك الجهات والأقطار ، وكيف لا وهو الرفيع المُستَمي والنَّجار ، الراضع من الطهارة صَفْوَ ألبان ، الناشئ من السراوة وسط أحجار ، في ضِضْصِيء المجد وبجوح الكرم ، وسراوة أسرة المملكة التي أكنافها حرم ، وذوابة الشرف التي مجاذبتها لم تُرَم ، من معشر أي معشر بخلوا إن وهبوا ما دون أعمارهم ، وجبَّسُوا إن لم يحموا سوى ذِمارهم ، بنو مرين ، وما أدراك ما بنو مرين :

سَمُّ العُدَاةِ وآفَةُ الجُرُورِ ؛

النازلونَ بكلِّ معرِكٍ والطيبونَ معاقد الأزرِّ

لهم من الهفوات انتفاء ، وعندهم من السيِّر النبوية اكتفاء ، انتسبوا إلى بر

١ مضرب المثل في الإيثار لأنه آثر صاحبه النمري على نفسه بالماء ومات ظمأ .

٢ يضرب به المثل في حسن المجالسة ، قال الشاعر :

وكننت جليس قعقاع بن شور ولا يشقى بقعقاع جليس

٣ يريد سفيان الثوري ، والرباب مجموعة قبائل فيها ثور وعوف وضبة .

٤ صدر هذا البيت من شعر الخرنق « لا يبعدن قومي الذين هم » .



ابن قيس ، فخرجوا في البرّ عن القيس<sup>١</sup> ، ما لهم القديم المعروف ، قد نفذ في سبيل المعروف ، وحديثهم الذي نقلته رجال الزحوف ، من طرق القنا والسيوف ، على الحسن من المقاصد موقوف ، تحمد من صغيرهم وكبيرهم ذابلهم ولدتهم ، فله آباء أنجبوهم وأمهاة ولدتهم :

### شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ<sup>٢</sup>

إليهم في الشدائد الاستناد وعليهم في الأزمات المعوّل ، ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الخطو الواسع والباع الأطول ، كأنما عناهم بقوله جرول<sup>٣</sup> :

أولئك قومٌ إن بنّوا أحسنوا البنا      وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا  
 وإن كانت التعماء فيهم جزّوا بها      وإن أنعموا لا كدروها ولا كدّوا  
 وتعدّلني أبناء سعدٍ عليّهم<sup>٤</sup>      وما قلتُ إلاّ بالتي علمتُ سعد

وبقوله الوثيق مبناه ، البليغ معناه<sup>٥</sup> :

قومٌ إذا عقّدوا عقداً بلحارهم<sup>٦</sup>      شدوا العناجَ وشدوا فوقه الكربا<sup>٥</sup>

يزيحون عن التزليل كل نازح قاصم ، وليس له منهم عائب ولا واصم ، فهم أحق بما قاله في منقر قيس بن عاصم<sup>٦</sup> :

١ القيس : المقايسة .  
 ٢ عجز بيت لحسان ، صدره « بيض الوجوه كريمة أحسابهم » .  
 ٣ ديوان الخطيئة : ٤١ .  
 ٤ ديوان الخطيئة : ١٦ .  
 ٥ العناج : حبل يجعل في أسفل الدلو تشد به العراقي ، والكرب عقد مثني يشد على العراقي ، والمعنى : إذا عقدوا أوفوا لمن عقدوا وكان عقدهم وثيقاً .  
 ٦ من الحماسة ٦٨٦ ( شرح المرزوقي : ١٥٨٤ ) وروى القتيبي في عيون الأخبار ( ١ : ٢٨٦ ) أنه قال هذا الشعر حين بلغه أن ابن أخيه قتل ابنه .

لا يَفْطَنُونَ لَعَيْبِ جَارِهِمْ<sup>١</sup> وَهُمْ لِحَفْظِ جَوَارِهِمْ فُطْنُ<sup>٢</sup>

حُلامهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جَعَل ، وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل ، ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالأوصاف الملوكية مستعل ، ارفض مَزْنَم منه عن غيث مَلِثٍ يححو آثار اللزبة ، وانشق غيلهم منه عن ليث ضارٍ متقبض على برائته للوثبة ، فقل لسكان الفلا : لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم ، فلا يبالي السرحان المواشي سواء مشى إليها النقرى أو الجفلى<sup>١</sup> ، بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عِرْنين ، ثم يتلغ بعد أشلاءهم المعفرة ابتلاع التين ، فهو هو كما عرفوه ، وعهدوه وألفوه ، أخو المنايا ، وابن جلا وطلّاع الثنايا ، مجتمع أشدّه ، قد احتنكت سنه وبان رشدّه ، جاد مجدّه ، محترم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجلد :

لا يشرب الماء إلاّ من قليب دمٍ ولا يبيت له جارٌ على وجلٍ<sup>٢</sup>

أسديّ القلب آدميّ الرواء ، لابس جلد النمر يزوي العناد والنواء<sup>٣</sup> :

وليسَ بشاويّ<sup>٤</sup> عليه دمامة<sup>٥</sup> إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهمٍ  
ولكنّه يسعى عليه مفاضة<sup>٥</sup> دلاص<sup>٥</sup> كأعيان الجراد المنظم

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين ، والوحي الوحي<sup>٥</sup> للاحقين به خاضعين ، قبل أن تساقوا إليه مقرّنين في الأصفاد ، ويعيا الفداء بنفائس النفوس والأموال على الفاد ، حينئذ بعض ذو الجهل والفدامة ، على يديه حسرة وندامة ، إذا رأى

١ النقرى : الدعوة الخاصة ، والجفلى : العامة ، يعني وحده أو مع جماعة .

٢ البيت لأبي سعيد المخزومي (أمالي القالي ١ : ٢٥٩) .

٣ انظر اللسان (شوه - عين) .

٤ الشاوي : صاحب الشاء .

٥ في ق ص : والوجل والوجل .

أبطال الجنود، تحت خوافق الرايات والبُنود، قد لفحتهم نار ليست بذات خمود، وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عادٍ وثمود، زعقات تؤزّ الكتاب أزاً، وهمزاً محققاً للخيال بعد المد المشيع للأعنة همزاً، وسلاً للهندية سلاً وهمزاً للخطيئة همزاً، حتى يقول النسر للذئب: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ (مريم: ٩٢)، ثق خليفة الله بذاك، في كل من رام أذى رعيتك أو أذاك، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى في ذوي الشقاق والنفاق، الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق، وينصبون حبال البغي والفساد في جميع النواحي والآفاق، فلن يجعلهم الله عز وجل من الآمنين، أتى وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين، ولا يهدي كيد الخائنين، وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم، بعدما زيننا معاطفها باستعفافكم بدرّ ثناء أبهى من در العقد النظيم، منتظمين في سلك أوليائكم، متشرفين بخدمة عليائكم، ولا فقندَ عزة ولا عدمها، من قصد مثابكم العزيزة وخدمها، وإن المرامي على سنائكم، لجدير بجرمتكم واعتنائكم، وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصناً حصيناً، عاش بقية عمره محروساً من الضيم مصوناً، وقد قيل في بعض الكلام: من قعدت به نكاية الأيام، أقامته إغاثة الكرام، ومولانا أيده الله تعالى ولياً ما يرفه إلينا من مكرمة بكر، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف حسن الذكر، ويروي معنعن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر، وغيره من ينام عن ذلك فيوقظ، ويسترسل مع الغفلة حتى يُذكر ويوعظ، وما عهد منذ وجد إلا سريعا إلى داعي الندى والتكرم، بريئاً من الضجر بالمطال والتبرم، حافظاً للجار الذي أوصى النبي، صلى الله عليه وسلم، بحفظه، مستفرغاً وسعه في رعيه المستمر ولحظه، آخذاً من حسن الثناء في جميع الأوقات والآناء بحظه:

١ ص : وغمزاً .

فهو من دَوْحَةِ السَّنَا فَرَعٌ عَزٌّ  
كفَّهُ فِي الْأَحْمَالِ أَغْزَرُ وَبَلٌّ  
حلمه يُسْفِرُ اسْمَهُ لِكَ عَنْهُ  
لَا تَسْلَهُ شَيْئاً وَلَا تَسْتَلُهُ  
فَنَدَاهُ هُوَ الْفُرَاتُ الَّذِي قَدْ  
وَحِمَاهُ هُوَ الْمَنِيْعُ الَّذِي تَرَّ  
فَدَعُوا ذَهَنَهُ يَزَاوِلُ قَوْلِي  
دَامَ يَحْيَا بِكُلِّ صَنَعٍ وَمَنْ

ليس يحتاج مجتنيه لهُزٌّ  
وذراه في الخوف أمنع حرز  
فتفهّم يا مدّعي الفهم لغزّي  
نظرة منه فيك تغني وتجزي  
عام فيه الأنام عوم الإوز  
جع عنه الخطوب مرجع عجز  
فهو أدرى بما تضمّن رمزي  
ويعافى من كل بؤسٍ ورجزٍ

وكانّا به قد عمل على شاكلة جلاله ، من مد ظلاله ، وتمهيد حلاله ، وتلقى  
ورودنا بحسن تهلله واستهلاله ، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله ، وإيرادنا على  
حوض كوثره المُتَرَعِ بزلّاله ، والله سبحانه يسعد مقامه العلي ويسعدنا به في حله  
وارتحاله ، ومآله وحاله ، ويؤيد جنده المظفّر ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه  
واستنزاله ، وهزّ الذوابل لإطفاء ذُبّاله ، وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن يريه  
قرّة العين في نفسه وأهله وخدامه وأمواله ، وأنظاره وأعماله ، وكافة شؤونه  
وأحواله ، وأحق ما نصل بالسلام وأولى ، على المقام الجليل مقام الخليفة المولى ،  
أزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبيائه وأرساله ، سيدنا ومولانا محمد ، صلّى الله  
عليه وسلّم وعلى جميع أصحابه وآله ، صلاة وسلاماً دائمين أبداً موصولين  
بدوام الأبد واتّصاله ، ضامين لمجددهما ومرددهما صلاح فاسد أعماله ،  
وبلوغ غاية آماله ، وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه وفضله وإفضاله ؛ انتهى .

[ ترجمة محمد العربي كاتب الرسالة نقلاً عن الوادي آشي ]

وكاتب هذه الرسالة على لسان السلطان المخلوع ، قال الوادي آشي في حقه ١ :

١ انظر تعريفاً بالفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الله العقيلي العربي صاحب هذه الرسالة في أزهار  
الرياض ١ : ١٠٣ .

إنه إمام الصناعة ، وفارس حلبة القرطاس والبراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة الذي قطف الكمال لما نور ، ورتب محاسن البديع في درر فقره وطور ، وغرف من بحر عجاج ، واقتطف من خاطر وهاج ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي ، وما أحسن قوله فيمن قد ظفر به المسلمون :

ألا ربَّ مغرورٍ تنصّر ضلّةً فحاقَ بهِ شؤمُ الضلالِ وشرُّهُ  
فإن يرتفع عند النصارى بالابتدا فكم عندنا من حرفِ جبلٍ يجره

وقال الوادي آشي أيضاً في موضع آخر ما نصه : ولشاعر العصر ، ومالك زمامي النظم والنثر ، والفقير العالم المتقن المتقن العارف الأوحده النبيه النبيل ، سيدي محمد العربي وصل الله تعالى رفعة قدره ، وحرس من غير الأيام أشعة بدره<sup>١</sup> :

الحبُّ في جُمهورِ أنواره      فأينَ الاخوانُ والاحبابُ  
وأينَ أينَ الاجتماعاتِ ، قدُ      تهَيَّأتْ لهنَّ الاسبابُ  
وأينَ بنتَ الجينِ ؟ مهما بدتْ      طارتَ إليها شوقاً آلبابُ  
وأينَ الالبانُ لأكوابها      في بُرمِ الأرزِ تسكابُ  
واللحمُ بالبسباسِ قدُ ألفتُ      لطبخه في القدرِ الاحطابُ  
والعودُ ذو دندنةٍ يطبّي      آثارها للطارِ دبدابُ  
وملحِ الأصواتِ قد طورحتُ      وجاءَ معبدٌ وزريابُ<sup>٢</sup>  
وفُضَّ للهوِ ختامٌ ولم      يُسدَّ في وجهِ الهوى بابُ  
وقيلَ للوقارِ قمُ قبلَ أنْ      تُسلَبَ عنكَ الآنَ الاثوابُ  
وكلُّ إنسانٍ وما يشتهي      ليسَ على مناهُ حُجابُ

١ قد تقرأ القصيدة معربة بشيء من التعسف ، ولكني أعتقد أنها قد تعد من الشعر الملحون .

٢ سقط هذا البيت من ص .

مسترسلاً ليس له عدلٌ  
في راحة خلعت أرسانها  
فكلُّ بستانٍ قد استأسدت  
وأطلع الترابُ أدواحَه  
لما تحلّت بجلى زهرها  
عرائسٌ ليس لها في سوى  
أيام تبدي ثمرات بدا  
كانه في العينِ ياقوت أو  
هيئات هيئات أمان لها  
ما حوت الرؤوسُ أمثالها  
قد عاق عن ذلك دهرٌ به  
يرومُ الانسانُ غلاباً له  
كلا ولا عليه رقبابُ  
لمثلها تُعصّرُ الاعنابُ  
فيه التواويرُ والاعشابُ  
كانها العرْبُ الاترابُ  
داخلها بالحسنِ الاعجابُ  
مأية أو بينة خطابُ  
في جنباتهن الارطابُ  
كانه في الفمِ جلابُ  
خلبُ برقٍ لك خلابُ  
فكيف تحوينُ الاذنبُ  
تُعدّمُ الافراحُ والاطرابُ  
والدهرُ للانسانِ غلابُ

وقال رحمه الله تعالى لما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة :

بالطبلِ في كلِّ يومٍ وبالتفجيرِ نراعُ  
وليسَ من بعد هذا وذاك إلا القراعُ  
يا ربَّ جبركَ يرجو من هيمض منه الذراعُ  
لا تسلبني صبراً منه لقلبي ادراعُ

وله رحمه الله تعالى في الموشحات اليدُ الطولى ، فمن ذلك قوله :

بدرَ أهلِ الزمانِ الرفيعِ القسدرِ  
لا تزلُ في أمانِ من كسوفِ البدرِ

وله من أخرى :

هَلْ يَصَحُّ الْأَمَانُ      مِنْ شَبِيهِ الْبَدْرِ  
وهو مثل الزمان      مُنْتَمِ لِّلْغَدْرِ  
لَمْ يَغْرَ الْأَغْرَ      غَيْرَ غَمْرِ جَاهِلٍ  
عَيْشُهُ الْخَلْوُ مَرٌّ      وَهُوَ فِيهِ نَاهِلٌ  
وَالصَّبَا الْغَضَّ مَرٌّ      وَهُوَ عَنْهُ ذَاهِلٌ  
مَرشَفُ الْبِهْرْمَانِ      فَوْقَ ثَغْرِ الدَّرِّ  
مَطْمَعٌ لِلْأَمَانِ      بِاقْتِرَابِ الدَّرِّ

وعارض رحمه الله تعالى بهاتين الموشحتين الموشحة المشهورة :

ضاحكٌ عَنْ جُمَانِ      سَافِرٍ عَنْ بَدْرِ  
ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ      وَحَوَاهُ صَدْرِي

وممن عارض هذه الموشحة ابن أرقم إذ قال :

مِيسَمُ الْبِهْرْمَانِ      فِي الْمِحْيَا الدَّرِّي  
صَادَ قَلْبِي وَبَانَ      وَأَنَا لَمْ أُدْرِ

والإنصاف أن معارضة العربي أحسن من هذه .

وله أيضاً معارضتان غير ما تقدم : الأولى قوله :

بَانَ لِي ثَمَّ بَانَ      ذَا خُلُودٍ حُمْرِ  
يَنْشِي مِثْلَ بَانَ      فِي ثِيَابِ خَضْرِ

والثانية قوله :

هَلْ لِمَرَآكَ ثَانَ      فِي سَنَاهُ الدَّرِّي  
أَوْ لِحُوبَايَ ثَانَ      عَنْ هَوَاهَا الْعُدْرِي

يا مليحاً جلا عن حياً جميل  
 همتُ فيه ولا هيمان جميل  
 ملّ قليلاً إلى منْ إليك يميل  
 عاشقٌ فيكَ فانْ كاتمٌ للسرِّ  
 لكَ منه مكان في صميم الصدر

ومن نظم العربي المذكور لما عرض عليه السلطان رياسة كتابه من قصيدة :

أوجهُ سَعْدِي انحطَّ عنه اللثامُ  
 أم أنا في حالي لا عقلَ لي  
 يا لكَ مَرَأَى مَنْ رَأَى حَسَنَهُ  
 كأنما أقبس نور البهائم  
 ابن أبي الحسن الأسرى الذي  
 ضرغامٌ قد أنجبَ شبيهاً له  
 حامى وسامى فأفاعيله  
 دام له النصر الذي جاءه  
 فيا أمير المؤمنين الذي  
 أبشر بجدّة مقبلٍ لم يؤل  
 وعزة لم يُفرضَ بنائها  
 لله منك مَلِكٌ جُنْدُهُ  
 ومنها :

يطرب من مادحه مثلما يطربُ قلب الصبِّ سجعُ الحمام

١ قد : سقطت من ق ص .

٢ ق : الدراري .



في فعل الشعر بأعطسافه ما ليس تفعل بهن المدام  
وإن حكى في حسنه يوسفاً فمدحه يشبه زهر الكمام  
ومنها :

فداره لئست بيغدادهم مع أنها تدعى بدار السلام  
ومنها :

أسأله الإعفاء من كل ما أعجز عن حمل له والتزام  
ومنها :

مستشفعاً له بخير الوري محمد عليه أركى السلام  
ومنها :

وكل إنسان وما اختاره ورب ذي عذر قد أضحى يلام  
وآخرها :

فالحمد لله على أن غدا للشمل بعد الانصداع التثام  
ولنختتم هذه الترجمة بقوله<sup>١</sup> :

جز بالبساتين والرياض فما أبهج مرئيتها<sup>٢</sup> وأحلاه  
واعجب بها للنبات ولتك في أسفله ناظراً وأعلاه  
وقدس الله عند ذاك وقل سبحانه لا إله إلا هو

سبحان وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والحمد لله رب العالمين.

انتهى المجلد الرابع

١ الأبيات في أزهار الرياض ١ : ١٠٣ .

٢ ق : مرآما .



## محتويات المجلد الرابع

٥ - ٣٤٩

### الباب السابع (تمة)

- ٥٠٦٦ - بين أبي بكر ابن القبطرنة وابن صارة . . . . . ٥
- ٤٧٧ - مراسلات شعرية بين أبي بكر الزبيدي والحاجب المصحفي، وشيء من شعر الزبيدي ٧
- ٤٧٨ - تفوق سهل بن مالك في مجلس شعري بستنة . . . . . ٨
- ٤٧٩ - بين ابن مطروح البلنسي وأبي الربيع ابن سالم . . . . . ٨
- ٤٨٠ - أبو أمية ابن حمدون على باب الشلوين . . . . . ٩
- ٤٨١ - هجاء النحلي لابن صمادح وعفو هذا عنه . . . . . ٩
- ٤٨٢ - الرصافي يتشوق إلى بلده بلنسية . . . . . ٩
- ٤٨٣ - شعر لأبي بكر الشلطي . . . . . ١٠
- ٤٨٤ - « لأبي بكر ابن العطار اليايسي . . . . . ١٠
- ٤٨٥ - « لمحمد بن حسن الجبلي النحوي . . . . . ١٠
- ٤٨٦ - « لمحمد بن حرب . . . . . ١٠
- ٤٨٧ - محمد بن اليسع وإهداؤه الورد لعارض الجيش . . . . . ١١
- ٤٨٨ - شعر لأحمد بن أفلح . . . . . ١١
- ٤٨٩ - « لأحمد بن تليد الكاتب . . . . . ١١
- ٤٩٠ - « لإسحاق بن المنادي . . . . . ١٢
- ٤٩١ - « لغالب بن عبد الله الثغري . . . . . ١٢
- ٤٩٢ - « لابن الإمام الغرناطي في هجاء مراکش . . . . . ١٢
- ٤٩٣ - « لابن الحمارة في أبي القاسم ابن عشرة . وموشحة للتطيلي . . . . . ١٣
- ٤٩٤ - بين محمد بن عباد وابن القابلة السبي . . . . . ١٣
- ٤٩٥ - شعر لابن خروف (والصحيح لابن طلحة الصقلي) . . . . . ١٤
- ٤٩٦ - ابن خفاجة وابن عائشة وابن الزقاق في بستان . . . . . ١٤

- ٤٩٧ - ابن زنون وكتاب « التحف والظرف » ومعارضات سينية . ١٥
- ٤٩٨ - شعر لأبي بكر ابن حبيش . . . . . ١٦
- ٤٩٩ - « لأبي بكر ابن يوسف اللخمي . . . . . ١٦
- ٥٠٠ - بين أبي زيد ابن أبي العافية وابن العطار القرطبي . . . . . ١٧
- ٥٠١ - ثلاثة أدباء من مرسية يصلون خلف إمام يخطيء في القراءة . . . . . ١٨
- ٥٠٢ - شعر لابن خفيف في أحذب وصبي . . . . . ١٨
- ٥٠٣ - « لأبي الصلت في الخمول . . . . . ١٨
- ٥٠٤ - « لبعض المعارضة كتب به لأبي العباس ابن مضاء . . . . . ١٩
- ٥٠٥ - « لأبي عبد الله القرطبي يستنجز وعداً . . . . . ١٩
- ٥٠٦ - « لابن هذيل كتب به إلى الغني بالله . . . . . ١٩
- ٥٠٧ - « لابن الزقاق في غلام يهودي . . . . . ١٩
- ٥٠٨ - « لأبي حيان الجياني . . . . . ١٩
- ٥٠٩ - بين أحد أدباء مرسية وأبي العباس ابن سعيد . . . . . ٢٠
- ٥١٠ - شعر للسميسر في قرابة السوء . . . . . ٢٠
- ٥١١ - « لابن خفاجة في الأندلس . . . . . ٢٠
- ٥١٢ - « لبعض الأندلسيين . . . . . ٢٠
- ٥١٣ - « لأبي يحيى ابن هشام القرطبي في خائط . . . . . ٢٠
- ٥١٤ - « لأبي جعفر ابن عبد الولي البنسي . . . . . ٢١
- ٥١٥ - « لأبي العباس القيجاطي . . . . . ٢١
- ٥١٦ - « لابن جحاف البنسي . . . . . ٢٢
- ٥١٧ - « لأبي العباس المالقي . . . . . ٢٢
- ٥١٨ - بين ابن عبد المنعم وأبي عبد الله الشاطبي وابن قوشرة . . . . . ٢٢
- ٥١٩ - ابن الصائغ النحوي يذيل على بيتي الحريري . . . . . ٢٣
- ٥٢٠ - عبادة بمدح أبا بكر والد الوزير أبي الوليد ابن زيدون . . . . . ٢٣
- ٥٢١ - شعر لابن قرمان الزجال ، وترجمة له . . . . . ٢٣
- ٥٢٢ - نقول عن المطمح : . . . . . ٢٥ - ٥٥

- ٢٥ . . . . . 1 - ابن القوطية
- ٢٥ . . . . . 2 - ابن مغيث
- ٢٥ . . . . . 3 - ابن سيده
- ٢٨ . . . . . 4 - أبو محمد غانم المخزومي
- ٢٨ . . . . . 5 - أبو عمر ابن عبد البر
- ٣٠ . . . . . 6 - أبو بكر ابن أبي الدوس
- ٣١ . . . . . 7 - أبو الفضل ابن الأعلم
- ٣٥ . . . . . 8 - يوسف بن هارون الرمادي
- ٤٠ . . . . . 9 - محمد بن هانيء
- ٤٦ . . . . . 10 - ابن فرج صاحب « الحدائق »
- ٤٨ . . . . . 11 - أبو عبد الله ابن الحداد
- ٥١ . . . . . 12 - الأسعد بن بليطة
- ٥٢ . . . . . 13 - عبادة بن ماء السماء
- ٥٣ . . . . . 14 - ابن عائشة
- ٥٥ . . . . . ٥٢٣ - ترجمة ابن أبي خالد اللخمي الإشبيلي عن « تحفة القادم »
- ٥٩ . . . . . ٥٢٤ - شعر للأعمى التطيلي في وصف السفينة
- ٥٩ . . . . . ٥٢٥ - « لابن وهبون في وصف الأسطول
- ٦٠ . . . . . ٥٢٦ - « لابن خفاجة
- ٧٦ - ٦٠ . . . . . ٥٢٧ - قطعة منقولة عن المغرب
- ٦٠ . . . . . 1 - عبيد الله بن جعفر الإشبيلي
- ٦١ . . . . . 2 - علي بن جحدر الزجال
- ٦١ . . . . . 3 - أحمد المقريني الكساد
- ٦٢ . . . . . 4 - أبو القاسم المنيشي
- ٦٢ . . . . . 5 - أبو زيد العثماني
- ٦٢ . . . . . 6 - أبو زكريا الأركشي
- ٦٣ . . . . . 7 - أبو عمران الطرياني
- ٦٣ . . . . . 8 - أبو عمرو ابن حكيم
- ٦٣ . . . . . 9 - علي بن الجعد القرموني
- ٦٤ . . . . . 10 - أبو الحسن ابن لبال

- ٦٤ . . . . . 11 - أبو جعفر الشريشي .
- ٦٤ . . . . . 12 - أبو العباس ابن شيكل الشريشي .
- ٦٥ . . . . . 13 - أبو عمرو ابن غياث .
- ٦٥ . . . . . 14 - ابن عبد العزيز يخاطب ابن عبدون .
- ٦٥ . . . . . 15 - أبو القاسم ابن عبد العزيز .
- ٦٥ . . . . . 16 - أبو عبد الله الجزيري الثائر .
- ٦٦ . . . . . 17 - بين المنصور وعبد الملك الجزيري .
- ٦٧ . . . . . 18 - بين الحجاري وابن حصن الجزيري .
- ٦٨ . . . . . 19 - بين ابن سعيد وأبي العباس ابن بلال .
- ٦٩ . . . . . 20 - أبو الوليد القسطلي .
- ٧٠ . . . . . 21 - أبو كثير الطريقي .
- ٧٠ . . . . . 22 - أبو عامر ابن الجحد .
- ٧٠ . . . . . 23 - أبو عبد الله محمد الشلبي .
- ٧٠ . . . . . 24 - أبو بكر ابن الملح .
- ٧١ . . . . . 25 - أبو القاسم ابن الملح .
- ٧٢ . . . . . 26 - أبو بكر ابن عبد القادر الشلبي .
- ٧٢ . . . . . 27 - أخو ابن السيد البطليوسي .
- ٧٢ . . . . . 28 - أبو بكر ابن الروح الشلبي .
- ٧٣ . . . . . 29 - أبو بكر ابن المنخل الشلبي .
- ٧٣ . . . . . 30 - أبو بكر ابن عمار .
- ٧٣ . . . . . 31 - أبو الفضل ابن الأعلم .
- ٧٤ . . . . . 32 - الرمادي .
- ٧٤ . . . . . 33 - أبو الفضل ابن الأعلم .
- ٧٥ . . . . . 34 - إدريس بن اليمان العبدي .
- ٧٥ . . . . . 35 - بين الهيم وطيفور (مهاجاة) .
- ٧٦ . . . . . 36 - أبو عمران ابن سعيد عند ابن حمدين .
- ٦٩ . . . . . ٥٢٨ - شعر لبعض أهل الأندلس .
- ٧٧ . . . . . ٥٢٩ - رسالة الأعلم الشتمري في معنى « المسهب » .
- ٧٩ . . . . . ٥٣٠ - رسالة الأعلم الشتمري في المسألة الزنبرية وسيبويه .

- ٨٦ . . . . . شعر لأبي إسحاق الإلبيري ٥٣١ -
- ٨٦ . . . . . « لابن صارة في أبي الفضل ابن الأعلم ٥٣٢ -
- ٨٦ . . . . . « لابن هانيء الأندلسي ٥٣٣ -
- ٨٧ . . . . . « للقسطلي في أسطول المنصور ٥٣٤ -
- ٨٧ . . . . . « للجراوي ، وفي معناه لصفوان وابن مجبر ٥٣٥ -
- ٨٨ . . . . . « لبعضهم في الباذنجان ٥٣٦ -
- ٨٩ . . . . . « لابن خروف ٥٣٧ -
- ٨٩ . . . . . « لأبي القاسم ابن هشام ٥٣٨ -
- ٨٩ . . . . . « لبعضهم ٥٣٩ -
- ٩٠ . . . . . « لأبي الوليد الرقشي ٥٤٠ -
- ٩٠ . . . . . « لأبي الحسن ابن عيسى ٥٤١ -
- ٩٠ . . . . . « لأبي ذر الحشني ٥٤٢ -
- ٩٠ . . . . . « لابن أبي خالص الرندي ٥٤٣ -
- ٩٠ . . . . . « لابن مفوز المعافري ٥٤٤ -
- ٩٠ . . . . . « لأبي الوليد ابن زيدون ٥٤٥ -
- ٩١ . . . . . « للهيثم ٥٤٦ -
- ٩١ . . . . . « لابن عياض القرطبي ٥٤٧ -
- ٩١ . . . . . « لأبي الحسين النفزي ٥٤٨ -
- ٩١ . . . . . « لابن صارة ٥٤٩ -
- ٩٢ . . . . . أشعار للمعتمد بن عباد ٥٥٠ -
- ٩٤ . . . . . شعر لابن زيدون في المعتضد ٥٥١ -
- ٩٤ . . . . . « للمعتمد في وصف مجن ٥٥٢ -
- ٩٤ . . . . . مجلس غناء ينذر بنهاية الرشيد ابن المعتمد ٥٥٣ -
- ٩٦ . . . . . المغني السوسي عند المعتضد في مجلس مماثل ٥٥٤ -
- ٩٦ . . . . . شعر للمعتمد بعدما خُلع وسُجن ٥٥٥ -
- ٩٦ . . . . . ابن البانة يزور المعتمد بأغمات ٥٥٦ -

٩٨	.	.	.	.	٥٥٧ - لسان الدين يزور قبر المعتمد
٩٩	.	.	.	.	٥٥٨ - مقطعات لابن زيدون
١٠٠	.	.	.	.	٥٥٩ - شعر للأسعد بن بليظة
١٠٠	.	.	.	.	٥٦٠ - « لابن خلصة المكفوف
١٠١	.	.	.	.	٥٦١ - « لابن الحداد في مدح المعتصم
١٠٢	.	.	.	.	٥٦٢ - « لعبد الجليل بن وهبون
١٠٢	.	.	.	.	٥٦٣ - « لابن أبي وهب الأندلسي
١٠٢	.	.	.	.	٥٦٤ - « لابن اللبابة
١٠٣	.	.	.	.	٥٦٥ - « للقرزاز في مدح ابن صمادح
١٠٣	.	.	.	.	٥٦٦ - أشعار وخمسة لأبي الحسن ابن الحاج
١٠٦	.	.	.	.	٥٦٧ - أشعار لابن خفاجة
١٠٧	.	.	.	.	٥٦٨ - شعر لابن الرفاء
١٠٧	.	.	.	.	٥٦٩ - « لأبي محمد ابن عبد البر
١٠٨	.	.	.	.	٥٧٠ - أشعار للسميسر
١٠٩	.	.	.	.	٥٧١ - شعر لابن شاطر السرقسطي
١٠٩	.	.	.	.	٥٧٢ - « للحصري
١٠٩	.	.	.	.	٥٧٣ - « لابن عبد الصمد
١٠٩	.	.	.	.	٥٧٤ - « لابن عبد الحميد البرجي
١٠٩	.	.	.	.	٥٧٥ - « لعبادة
١١٠	.	.	.	.	٥٧٦ - « لابن المطرف المنجم
١١٠	.	.	.	.	٥٧٧ - « لأبي الحسن ابن اليسع
١١٠	.	.	.	.	٥٧٨ - « للمستنصر وجوابه من ابن عميرة
١١٠	.	.	.	.	٥٧٩ - « لأبي العباس الرصافي
١١١	.	.	.	.	٥٨٠ - « لأبي الربيع ابن سالم
١١١	.	.	.	.	٥٨١ - أشعار لأبي القاسم ابن الأبرش
١١٢	.	.	.	.	٥٨٢ - بيت لابن حريق



- ٥٨٣ - شعر لابن العطار الإشبيلي . . . . . ١١٢
- ٥٨٤ - نقول شعرية من التكملة : . . . . . ١١٢
- 1 - 22 - اللص ، الإليبري ، ابن مسلمة ، ابن أبي ركب ، أبو المعالي الإشبيلي ،  
ابن الأتقر ، ابن فتح الثغري ، ابن نصير ، ابن ميمون ، ابن الحداد ،  
بعض الجزريين ، المعتمد ، البرياني ، السميسر ، أبو الربيع الكلاعي ،  
عبد الحق الإشبيلي ، ابن صارة ، أبو محمد الطائي ، ابن حزم ، أبو  
عبد الله الجبلي ، محمد بن عبد الله الحضرمي
- ٥٨٥ - أشعار لابن الأبار القضاعي . . . . . ١١٩
- ٥٨٦ - كتاب الحلبي التيجانية . . . . . ١٢١
- ٥٨٧ - مقطعات لابن مفوز . . . . . ١٢١
- ٥٨٨ - أشعار لابن مكنون وتصحيح ما نسب إليه خطأ . . . . . ١٢٢
- ٥٨٩ - اتصال صاحب المسهب بعبد الملك بن سعيد . . . . . ١٢٣
- ٥٩٠ - ابن مرزقان يصف شمعة . . . . . ١٢٤
- ٥٩١ - أشعار لأبي الأصبح ابن رشيد الإشبيلي . . . . . ١٢٤
- ٥٩٢ - أشعار لأبي بكر ابن حججاج الغافقي . . . . . ١٢٥
- ٥٩٣ - شعر لأبي وهب ابن عبد الرؤوف النحوي . . . . . ١٢٦
- ٥٩٤ - « للقلفاط . . . . . ١٢٦
- ٥٩٥ - « لابن المبارك الحبيبي . . . . . ١٢٦
- ٥٩٦ - « لأحمد بن عثمان المرواني . . . . . ١٢٦
- ٥٩٧ - « لعبد الله المرواني . . . . . ١٢٧
- ٥٩٨ - « لإبراهيم بن إدريس العلوي . . . . . ١٢٧
- ٥٩٩ - قصة هذيل الإشبيلي مع سائل عريان . . . . . ١٢٧
- ٦٠٠ - حكاية ابن عمار مع شيخ ذي نادرة . . . . . ١٢٧
- ٦٠١ - قصة السارق المشهور بالبازي الأشهب . . . . . ١٢٨
- ٦٠٢ - قصة منصور بن عبد المؤمن مع أحد البنائين . . . . . ١٢٩
- ٦٠٣ - أشعار لأحمد المقرئ الكساد . . . . . ١٢٩
- ٦٠٤ - رأي القرموطي المرسي وقد عرض عليه الأذفونش تغيير دينه . . . . . ١٣٠

- ٦٠٥ - شعر لابن سالم الغرناطي على ألسنة الأطباء . . . . . ١٣٠
- ٦٠٦ - « لابن عمر الإشبيلي الخطيب . . . . . ١٣٠
- ٦٠٧ - « لعبد الرحمن العثماني . . . . . ١٣٠
- ٦٠٨ - « لأبي عمران موسى الطرياني . . . . . ١٣١
- ٦٠٩ - بين مجاهد والمنصور الأصغر . وموقف الوزير التاكرني . . . . . ١٣٢
- ٦١٠ - شاعر يهجو رندة . . . . . ١٣٢
- ٦١١ - شعر لحبلاص الرندي . . . . . ١٣٣
- ٦١٢ - « لابن سعيد في مجلس ذكر فيه صديقه الأندلي . . . . . ١٣٣
- ٦١٣ - « لأرقم لما فناه بنو ذي النون من نسبهم . . . . . ١٣٤
- ٦١٤ - بين ابن سفيان وأبي أمية ابن عصام . . . . . ١٣٤
- ٦١٥ - شعر لابن أرفع رأسه في مجلس المأمون بن ذي النون . . . . . ١٣٤
- ٦١٦ - « لأبي أحمد عبد المؤمن الطليطي . . . . . ١٣٥
- ٦١٧ - « لابن العسال الزاهد . . . . . ١٣٥
- ٦١٨ - أشعار لأبي جعفر الوقشي وشيء من أخباره . . . . . ١٣٥
- ٦١٩ - « لأبي الوليد الوقشي . . . . . ١٣٧
- ٦٢٠ - مروءة أبي الحسين ابن أبي جعفر الوقشي وظرفه . . . . . ١٣٨
- ٦٢١ - أبو الحسين علي بن الحمارة ومهارته في الموسيقى . . . . . ١٣٩
- ٦٢٢ - أمثلة من تبجر أهل الأندلس في العلم . . . . . ١٣٩
- ٦٢٣ - رسالة ابن حبيش في جواز « ماذا » التكريرية دلالة على الحفظ . . . . . ١٤١
- [ ترجمة اليفرني النحوي المعترض على ابن حبيش ] . . . . . ١٤٦
- رجع إلى كلام الأندلسيين . . . . . ١٤٧
- ٦٢٤ - مقطوعتان لصالح بن شريف الرندي . . . . . ١٤٧
- ٦٢٥ - شعر لبعض الأندلسيين . . . . . ١٤٧
- ٦٢٦ - شعر يرجح أنه لأندلسي ، في المقص . . . . . ١٤٧
- ٦٢٧ - مؤلفون يردون على كتاب « المقرب » لابن عصفور . . . . . ١٤٨
- ٦٢٨ - من شعر حازم ومعارضة التجاني له . . . . . ١٤٨
- ٦٢٩ - بين أبي بكر ابن الملح وابنه . . . . . ١٤٨

- ١٤٩ . . . . . قصيدة لابن صفوان المالقي . ٦٣٠
- ١٥٠ . . . . . شعر لابن إدريس القضاعي الاصبهوني . ٦٣١
- ١٥٠ . . . . . قصيدة لمحمد التطيلي الهذلي القرناطي . ٦٣٢
- ١٥٢ . . . . . بين ابن حسداي ويحيى الجزائر في عودته إلى الجزائر . ٦٣٣
- ١٥٣ . . . . . شعر لأبي الحسن ابن الحداد . ٦٣٤
- ١٥٣ . . . . . « لابن مطروح في عزل وال . ٦٣٥
- ١٥٣ . . . . . « لابن الحاج البليقي . ٦٣٦
- ١٥٣ . . . . . « لأبي الحجاج يوسف الفهري الداني . ٦٣٧
- ١٥٤ . . . . . « لبعضهم في الرثاء . ٦٣٨
- ١٥٤ . . . . . « لأبي جعفر البغيل . ٦٣٩
- ١٥٤ . . . . . « لأبي جعفر اللمائي المالقي . ٦٤٠
- ١٥٤ . . . . . « لأبي جعفر ابن طلحة . ٦٤١
- ١٥٤ . . . . . « لأبي جعفر الغساني الوادي آشي . ٦٤٢
- ١٥٥ . . . . . « لأبي بكر ابن بقي . ٦٤٣
- ١٥٥ . . . . . « للمتوكل بن الأفطس ولبعث المشاركة . ٦٤٤
- ١٥٦ . . . . . « لابن خلصة الضرير . ٦٤٥
- ١٥٦ . . . . . « لابن اللبانة . ٦٤٦
- ١٥٦ . . . . . « لابن اليمان العبدي . ٦٤٧
- ١٥٧ . . . . . « لابن الدودين البلنسي . ٦٤٨
- ١٥٧ . . . . . « لابن أبي الحصال . ٦٤٩
- ١٥٧ . . . . . « لغالب الحجام . ٦٥٠
- ١٥٧ . . . . . أشعار لابن عائشة . ٦٥١
- ١٥٨ . . . . . شعر لأبي محمد ابن سفيان . ٦٥٢
- ١٥٨ . . . . . « لابن الزقاق . ٦٥٣
- ١٥٩ . . . . . مقطعات ليحيى السرقسطي . ٦٥٤
- ١٥٩ . . . . . شعر للرصافي في دولاب . ٦٥٥
- ١٥٩ . . . . . « للصابوني . وابن أبي ركب . ٦٥٦

- ١٦٠ . . . . . شعر لبعضهم خاطب به ابن حزم ، وجوابه عليه .
- ١٦٠ . . . . . « للرصافي وخبر عنه .
- ١٦١ . . . . . « لابن مجبر آتهم ابن القطان بانتحاله .
- ١٦٢ . . . . . مجلس فيه أبو بكر ابن طاهر والحشني وأبو حفص ابن عمر .
- ١٦٢ . . . . . صديق أمي لأبي الحسين الصوفي يقول شعراً .
- ١٦٢ . . . . . محاجة بين الوقشي وابن سراج .
- ١٦٣ . . . . . ترجمة أبي الحسن ابن أضحى .
- ١٦٦ . . . . . ذكر جملة من نساء الأندلس :
- ١٦٦ . . . . . 1 - أم السعد بنت عصام الحميري
- ١٦٧ . . . . . 2 - حسانة التميمية .
- ١٦٩ . . . . . 3 - أم العلاء بنت يوسف الحجازية .
- ١٦٩ . . . . . 4 - أمة العزيز .
- ١٧٠ . . . . . 5 - أم الكرام الصادحية .
- ١٧٠ . . . . . 6 - الفسائية البجائية
- ١٧١ . . . . . 7 - المروضية مولاة أبي المطرف ابن غلبون
- ١٧١ . . . . . 8 - حفصة بنت الحاج الركونية
- ١٧١ . . . . . ٦٦٥ - [ استطراد بقصتين ]
- ١٧٢ . . . . . رجوع إلى أخبار حفصة
- ١٧٨ . . . . . ٦٦٦ - [ سلمى بنت القراطيبي ]
- ١٧٨ . . . . . رجوع إلى حفصة
- ١٧٩ . . . . . ٦٦٧ - [ أبو جعفر ابن سعيد ]
- ٢٠٢ . . . . . ٦٦٨ - [ أخيل الرندي ]
- ٢٠٣ . . . . . ٦٦٩ - [ ترجمة اللص ]
- ٢٠٤ . . . . . رجوع إلى أخبار أبي جعفر ابن سعيد
- ٢٠٥ . . . . . رجوع إلى أخبار النساء
- ٢٠٥ . . . . . 9 - ولادة بنت المستكفي .
- ٢١١ . . . . . 10 - اعتماد الرميكية ، زوجة المعتد .
- ٢١٣ . . . . . ٦٧٠ - [ أخبار المعتد ] .

٢٢٨	.	.	.	[ تراجم منقولة عن الفتح ]	٦٧١ -
٢٢٨	.	.	.	١ - ترجمة ابن النبي	
٢٣١	.	.	.	٢ - « ابن لبال »	
٢٣٤	.	.	.	٣ - « عبد المعطي أبي بكر »	
٢٣٦	.	.	.	٤ - « ابن بقي »	
٢٤١	.	.	.	رجع إلى بني عبّاد .	
٢٤٣	.	.	.	[ ابن جاخ والمتضد ]	٦٧٢ -
٢٤٥	.	.	.	رجع إلى أخبار بقية بني عبّاد .	
٢٤٩	.	.	.	[ الراضي ابن المعتمد ]	٦٧٣ -
٢٥٦	.	.	.	[ مدائح ابن اللبانة في بني عبّاد ]	٦٧٤ -
٢٥٩	.	.	.	[ مقتطفات من أخبار المعتمد ]	٦٧٥ -
٢٦٤	.	.	.	[ ابن زيدون عند بني عبّاد ]	٦٧٦ -
٢٧٠	.	.	.	رجع إلى بني عبّاد .	
٢٧١	.	.	.	[ مقطعات لابن حمديس ]	٦٧٧ -
٢٧١	.	.	.	رجع إلى بني عبّاد .	
٢٧٢	.	.	.	[ رجع إلى ذكر الرميكية ]	
٢٧٤	.	.	.	[ عود إلى أخبار المعتمد ]	٦٧٨ -
٢٨٣	.	.	.	رجع إلى أخبار النساء	
٢٨٣	.	.	.	11 - العبادية جارية المعتضد .	
٢٨٤	.	.	.	12 - بثينة بنت المعتمد .	
٢٨٥	.	.	.	13 - حفصة بنت حمدون .	
٢٨٦	.	.	.	14 - زينب المرية .	
٢٨٦	.	.	.	15 - غاية المنى .	
٢٨٧	.	.	.	16 - حمدة بنت زياد المؤدب .	
٢٩٠	.	.	.	17 - عائشة بنت أحمد القرطبية .	
٢٩١	.	.	.	18 - مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري .	
٢٩٢	.	.	.	19 - أسماء العامرية .	
٢٩٢	.	.	.	20 - أم الهناء بنت القاضي ابن عطية .	
٢٩٣	.	.	.	21 - مهجة القرطبية .	

٢٩٣	.	.	.	.	22 - هند جارية أبي محمد الشاطبي
٢٩٤	.	.	.	.	23 - الشلبية
٢٩٥	.	.	.	.	24 - زهون الفرناطية
٢٩٦	.	.	.	.	٦٧٩ - [ ابن قزمان ]
٢٩٧	.	.	.	.	رجع إلى أخبار زهون .
٢٩٨	.	.	.	.	٦٨٠ - مقطعات لابن الزقاق .
٣٠١	.	.	.	.	٦٨١ - شعر للخفاجي .
٣٠١	.	.	.	.	٦٨٢ - مقطوعتان لابن صارة .
٣٠١	.	.	.	.	٦٨٣ - مقطعات لابن العطار .
٣٠٢	.	.	.	.	٦٨٤ - بين ابن خاتمة وابن جزى .
٣٠٣	.	.	.	.	٦٨٥ - شعر للسلطان أبي الحجاج النصري .
٣٠٣	.	.	.	.	٦٨٦ - « لأبي القاسم ابن حاتم .
٣٠٤	.	.	.	.	٦٨٧ - « للفقير محمد بن سعيد الأندلسي
٣٠٤	.	.	.	.	٦٨٨ - « لابن جبير اليحصبي .
٣٠٤	.	.	.	.	٦٨٩ - « لقاضي مالقة إبراهيم البدوي .
٣٠٤	.	.	.	.	٦٩٠ - مصحف في جامع العديس بخط ابن مقلة
٣٠٥	.	.	.	.	٦٩١ - شعر لابن عبدون .
٣٠٥	.	.	.	.	٦٩٢ - « لابن المناصف وآخر
٣٠٦	.	.	.	.	٦٩٣ - « لابن عمّار .
٣٠٦	.	.	.	.	٦٩٤ - « لأبي الوليد الوقشي .
٣٠٦	.	.	.	.	٦٩٥ - « لأبي عبد الله ابن الصفار وغيره
٣٠٦	.	.	.	.	٦٩٦ - « لأبي مروان الجزيري
٣٠٧	.	.	.	.	٦٩٧ - « لحسان المصيبي .
٣٠٧	.	.	.	.	٦٩٨ - « لأبي عمرو بن مهيب
٣٠٧	.	.	.	.	٦٩٩ - « لعبد الله الجذامي .
٣٠٨	.	.	.	.	٧٠٠ - « لعبد الله بن أحمد الملقى قاضي غرناطة .
٣٠٨	.	.	.	.	٧٠١ - « لابن الحسن المدحجي

- ٧٠٢ - شعر لمحمد بن عبد الرحمن الغرناطي في الشعب والقبيلة والعمارة . . . إلخ ٣٠٩
- ٧٠٣ - « لأبي محمد الكلاعي الجلياني وقد دخل على ابن رشد . ٣٠٩
- ٧٠٤ - « لأبي عبد الرحمن ابن جحاف البلنسي . . . . ٣٠٩
- ٧٠٥ - « لأبي محمد ابن برطله . . . . . ٣٠٩
- ٧٠٦ - « وترجمة لأبي بكر ابن حبيش . . . . . ٣١٠
- ٧٠٧ - « لأبي بكر ابن القبطرنة في طلب باز . . . . . ٣١٣
- ٧٠٨ - بين المعتمد وابن عمّار . . . . . ٣١٣
- ٧٠٩ - شعر لذي الوزارتين أبي عيسى ابن لبون . . . . . ٣١٤
- ٧١٠ - خبر الحجاري صاحب المسهب وانصرافه إلى ابن هود . . . . . ٣١٤
- ٧١١ - أشعار في الزهد . . . . . ٣١٥ - ٣٤٩

1 - 70 - ابن خليل ، عبد الحق الإشبيلي ، ابن صالح الكنافي ، ابن النماز ، الإلبيري ، ابن العريف ، ابن الأبرش ، ابن صقر ، ابن الأبار ، ابن عبد ربه ، ابن قاسم ، الأعمى التطيلي ، ابن النماز ، الإلبيري ، ابن أبي ركب ، ابن خميس ، ابن هارون القرطبي ، ابن صارة ، ابن الحاج البكري ، أبو الربيع ابن سالم ، يحيى التطيلي ، مغربي لعله أندلسي ، ابن عبد البر ، ابن عياش ، عبد الوهاب المالقي ، عبد الحق الإشبيلي ، الجلياني ، عبد العليم الطرطوشي ، عبد المحسن البلنسي ، ابن فرج الميرتلي ، غانم المالقي ، ابن العريف ، المحاربي ، غريب الطليطلي ، ابن الطراوة ، أبو الربيع سلام الباهلي ، الزيدي ، ابن الطلاء ، ابن حوط الله ، الهيم الإشبيلي ، ابن افرولة ، ابن مجبر ، أبو الحجاج المنصفي ، ابن الصائغ الأموي ، الحميدي ، ابن محرز ، ابن حزم ، ابن الغزاز ، ابن الزقاق ، ابن صالح الشاطبي ، أيمن الغرناطي ، الزيدي ، فقيه طليبري ، ابن مفاور ، ابن صفوان ، بعض الأندلسيين ، أبو جعفر القيسي ، ابن أبي العاصي ، ابن الزيات ، ابن صارة ، ابن صاحب الصلاة الداني ، أبو الحكم الأموي ، الإلبيري ، ابن خاتمة ، الحميدي ، أبو بكر ابن جبير ، ابن جبير اليحصبي ، القلبي .

## الباب الثامن

في تغلب العدو على الأندلس واستغاثة أهلها معاصريهم لإنقاذها ٣٥٠ - ٥٥٣

٢٥٠	.	.	.	.	ظهور بلاي وخلفائه .
٣٥٢	.	.	.	.	الاستيلاء على طليطلة .
٣٥٤	.	.	.	.	وقعة الزلاقة نقلاً عن الروض وغيره .
٣٧٧	.	.	.	.	دخول الأندلس في طاعة الموحدين
٣٧٨	.	.	.	.	عبد المؤمن بن علي .
٣٧٨	.	.	.	.	يوسف بن عبد المؤمن .
٣٨٠	.	.	.	.	يعقوب المنصور .
٣٨٣	.	.	.	.	محمد الناصر ووقعة العقاب
٣٨٣	.	.	.	.	نهاية الموحدين ✓
٣٨٤	.	.	.	.	ظهور ابن هود وابن الأحمر
٣٨٥	.	.	.	.	الدولة المرينية ✓
٣٨٦	.	.	.	.	رسالة من أبي الحسن المريني إلى الملك الصالح
٣٩٤	.	.	.	.	جواب الملك الصالح من إنشاء الصفدي .
٣٩٩	.	.	.	.	إجازة من الصفدي رواية الرسالتين
٣٩٩	.	.	.	.	أبو الحسن يكتب ثلاثة مصاحف ✓
٤٠٠	.	.	.	.	نبذة من أخبار أبي الحسن المريني .
٤٠٤	.	.	.	.	رسائل لسان الدين ابن الخطيب .
٤٠٤	.	.	.	.	١ - رسالة إلى أحد سلاطين بني مرين .
٤١١	.	.	.	.	٢ - رسالة أخرى في استنهاض السلطان المريني .
٤١٥	.	.	.	.	٣ - رسالة على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس .
٤٢٠	.	.	.	.	٤ - رسالة إلى السلطان المريني في الاعتذار عن فرار أبي الفضل المريني من غرناطة
٤٢٤	.	.	.	.	٥ - رسالة على لسان الغني بالله إلى أبي عنان .
٤٢٩	.	.	.	.	٦ - رسالة عن الغني بالله إلى الأمير السعيد .



٤٣٢	.	.	.	٧ - رسالة على لسان أبي الحجاج إلى أبي عنان
٤٣٦	.	.	.	٨ - رسالة على لسان يوسف النصري .
٤٣٨	.	.	.	٩ - رسالة في حاجة الأندلس إلى بر العنوة
٤٤٢	.	.	.	١٠ - رسالة عن أبي الحجاج إلى الرعايا .
٤٤٤	.	.	.	١١ - رسالة توضح ضيق حال الأندلس .
٤٤٥	.	.	.	١٢ - من رسالة طويلة
٤٤٦	.	.	.	ضبياع المدن الأندلسية :
٤٤٧	.	.	.	طليطلة - ٤٧٨
٤٤٨	.	.	.	وقعة بطرنة - ٤٥٦
٤٤٩	.	.	.	بربشتر - ٤٥٦
٤٥٤	.	.	.	استرجاع بربشتر
٤٥٥	.	.	.	تظيلة وطرسونة
٤٥٥	.	.	.	بلنسية والقنيطور
٤٥٦	.	.	.	نهاية بلنسية .
٤٥٧	.	.	.	قصيدة ابن الأبار السينية
٤٦٠	.	.	.	كتندة - ٥١٤
٤٦١	.	.	.	لوشة - ٦٢٢
٤٦١	.	.	.	المرية - ٥٤٢
٤٦٢	.	.	.	[ ترجمة الرشاطي ]
٤٦٣	.	.	.	استرداد المرية وضياعها نهائياً
٤٦٤	.	.	.	[ شعر في معركة العقاب ]
٤٦٥	.	.	.	[ ابن وزير ]
٤٦٥	.	.	.	ضياع ماردة .
٤٦٦	.	.	.	[ المظفر وابنه المتوكل ]
٤٦٧	.	.	.	[ شعر للفازازي ]
٤٦٨	.	.	.	[ ترجمة الفازازي ]
٤٦٩	.	.	.	سقوط ميورقة نقلاً عن ابن عميرة .
٤٧١	.	.	.	[ سعيد بن حكيم في منورقة ]
٤٧٢	.	.	.	سقوط عدة مدن ( شقر ، سرقسطة ، شاطبة ، قرطبة ، إشبيلية )

٤٧٣	.	.	.	موقعة أنيشة وترجمة أبي الربيع ابن سالم
٤٧٦	.	.	.	[ابن العربي وموقعة ٥٢٧]
٤٧٧	.	.	.	[قصيدة الوثقي في مدح أبي يعقوب]
٤٧٩	.	.	.	[قصيدة في استنهاض الحفصي بعد سقوط بلنسية]
٤٨٣	.	.	.	[قصيدة في رثاء طليطلة]
٤٨٦	.	.	.	[نونية الرندي وشيء من شعره]
٤٩٠	.	.	.	[رسالة ابن عميرة إلى ابن الأبار في سقوط بلنسية]
٤٩٦	.	.	.	[رسالة ابن الأبار التي أجاب أبو المطرف عنها]
٥٠٠	.	.	.	[فصول من درر السمط لابن الأبار]
٥٠٧	.	.	.	نهاية الأندلس عن كتاب «جنة الرضى» لابن عاصم
٥٢٩	.	.	.	[رسالة المخلوع أبي عبد الله إلى الشيخ الوطاسي]
٥٤٨	.	.	.	[ترجمة كاتب الرسالة محمد العربي]



Abu 'l-'Abbās A. al-Maqqarī

# NAFH AT-TĪB

IV

Edited and Annotated

by

Ihsān 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 10

BEIRUT, Lebanon

1968

# نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ

غَضَنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِيبِ

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد القرني التيساني

حقيقه

الدكتور احسان عباس

المجلد الخامس

دار صادر

بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ ۱۹۶۸ م

نفع الطيب

٥





## القسم الثاني

في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب ، وذكر أنبائه التي  
يروق سماعها ويتأرجح نَفْحها ويطيب ، وما يناسبها من  
أحوال العلماء الأفراد ، والأعلام الذين اقتضى  
ذكرهم شجون الكلام والاستطراد ، وفيه  
أيضاً من الأبواب ثمانية ، موصلة  
إلى جنتِ أدبٍ قُطوفُها دانية ،  
وكلُّ غصنٍ منها رطيب



# الإمام الزمزمي

## الباب الاول

في أولية لسان الدين وذكر أسلافه ، الذين ورث عنهم  
المجدَ وارتضع دَرَ أخلافه ، وما يناسب ذلك ممّا لا  
يَعْدِلُ المنصف إلى خلفه

أقول : هو الوزير ، الشهير الكبير ، لسان الدين الطائر الصيّت في المغرب  
والمشرق المُزري عَرَفُ الثناء عليه بالعنبر والعبير ، المثلُّ المضروب في الكتابة  
والشعر والطبّ ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها ومصنّفاته تُخْبِرُ عن ذلك  
ولا يبتك مثل خبير ، علّمُ الرؤساء الأعلام ، الوزير الشهير الذي خدمته  
السيوفُ والأقلام ، وعتيَ بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والإعلام .  
واعترف له بالفضل أصحابُ العقول الراجحة والأحلام .

قال سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم  
بأمر الله محمد بن الأحمر نزيب فاس رحمه الله في كتابه المسمى بـ « فرائد الجمان  
فيمن نظمتني وإياه الزمان » في حق المذكور ما نصه<sup>١</sup> : ذو الوزارتين ، الفقيه  
الكاتب أبو عبد الله ابن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلده لَوْشَةَ عبد الله  
ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله ، ابن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب  
سعيد ، السلماني اللّوشي المعروف بابن الخطيب .

١ هذا نص ما أورده أيضاً في كتابه نثر فرائد الجمان : ٢٤٢ ؛ وانظر أزهار الرياض ١ : ١٨٦ .

وقال القاضي ابن خلدون المغربي المالكي رحمه الله في تاريخه الكبير<sup>١</sup> ،  
عندما أجرى ذكر لسان الدين ، ما نصه : أصل هذا الرجل من لَوْشَة ، على  
مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالمرج ، وعلى  
وادي شنجيل - ويقال شنيل - المخترق<sup>٢</sup> في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال ،  
كان له بها سلك معدود في وزرائها<sup>٣</sup> ، وانتقل أبوه عبد الله إلى غرناطة ،  
واستخدم للملك بني الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ؛ انتهى .

وقال غيره<sup>٤</sup> : إن بيتهم يُعرف قديماً ببني الوزير ، وحديثاً ببني الخطيب ،  
وسعيدٌ جدُّه الأعلى أول من تلقب بالخطيب ، وكان من أهل العلم والدين والخير ،  
وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وحساب  
وأدب ، خبيراً صَدراً ، توفي عام ثلاثة وثمانين وستمائة ، وأبوه عبد الله كان  
من أهل العلم بالأدب والطب ، وقرأ على أبي الحسن البلوطي وأبي جعفر ابن الزبير  
وغيرهما وأجازه طائفة من أهل المشرق ، وتوفي بطريف عام أحد وأربعين  
وسبعمائة شهيداً يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام المذكور مفقوداً  
ثابت الجأش<sup>٥</sup> ، شكر الله فعله .

قلت : وما ذكره هؤلاء أكثره مأخوذ من كلامه عند تعريفه رحمه الله  
بنفسه آخر « الإحاطة » . ولنذكر ملخصه إذ صاحبُ البيت أدري بالذي فيه ،  
مع ما فيه من الزيادة على ما سبق ، وهي تُتمُّ للطلاب أسئلته وتوفيته .

قال رحمه الله<sup>٦</sup> : يقول مؤلف هذا الديوان تغمد الله خَطَلَه في ساعات<sup>٧</sup>

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٣٢ .

٢ ابن خلدون : المنصرف .

٣ ابن خلدون : كان له بها سلف معدودون في وزارتها .

٤ انظر أزهار الرياض ١ : ١٨٦ .

٥ ق : معقود الجأش .

٦ الإحاطة : الورقة ٣٩٨ .

٧ الإحاطة : ساعة .

أضاعها ، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها ، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها : أما بعد حمد الله الذي يغفر الخطيئة ، ويحُثُّ من النفس اللّجوج المطية ، فتحرك ركائبها البّطية ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ميسر سبل الخير الوطيئة<sup>١</sup> ، والرضى عن آله وصحبه منتهى الفضل ومُنَاخ الطّيئة<sup>٢</sup> ، فإنني لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل عليه فضلُ النشاط ، مع الالتزام لمراعاة السياسة<sup>٣</sup> السلطانية والارتباط ، والتفتُ إليه فراقني منه صوان درر ، ومطلع غرر ، قد تخلدت آثارهم مع ذهاب أعيانهم ، وانتشرت مفاخرهم بعد انطواء زمانهم ، نافستهم في اقتحام تلك الأبواب ، ولباس تلك الأثواب<sup>٤</sup> ، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو في الكتاب ، وحرصت على أن أنال منهم قُرباً ، وأخذت أعقابهم أدباً وحباً<sup>٥</sup> ، وكما قيل : ساقى القوم آخرهم شرباً ، فأجريت نفسي مجراهم في التعريف ، وخذوت بها حذوهم في بابي النسب والتصريف بقصد التشريف<sup>٦</sup> ، والله سبحانه لا يعدمني وإياهم واقفاً يترحم ، وركاب الاستغفار بمنكبه يزحّم ، عندما ارتفعت<sup>٧</sup> وظائف الأعمال ، وانقطعت من التكسبات حبال الآمال ، ولم يبق إلاّ رحمة الله التي تنتاش النفوس وتخلصها وتعينها بميسر السعادة وتخصصها ، جعلنا الله ممّن حسنَ ذكره ، ووقف على التماس ما لديه فكره ، بمنّه .

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلماني ،  
قرطبي الأصل ، ثم طليطليه ، ثم لوشيه ، ثم غرناطيه<sup>٨</sup> ، يكنى أبا عبد الله ،

١ الإحاطة : الباهرة الوطيئة .

٢ الإحاطة : الآداب .

٣ الإحاطة : سقلت من ق .

٤ ولباس . . . الأثواب : سقلت من ق .

٥ الإحاطة : وأخذت من أعقابهم أدباً .

٦ الإحاطة : بقصد التعريف .

٧ الإحاطة : عند كتب .

٨ ثم لوشيه ، ثم غرناطيه : سقلت من الإحاطة .

ويلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين .

أوليتي : يُعرف بيتنا في القديم بوزير<sup>١</sup> ، ثم حديثاً بلوشة بيني الخطيب ، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيى بن يحيى الليثي وأمثاله عند وقعة الربض الشهيرة . إلى طليطلة ، ثم تسربوا<sup>٢</sup> محومين على وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه ، فاستقر منهم بالموسطة الأندلسية جملة من النبهاء تضمن منهم ذكر خلق ، كعبد الرحمن قاضي كورة باغه ، وسعيد المستوطن بلوشة الخطيب بها ، المقرون اسمه بالتسويد عند أهلها ، جارياً مجرى التسمية بالمركب في تاريخ الغافقي وغيره ، وسكن عقبهم بها ، وسكن بعضهم متقربين مملكين إياها مختطين جبل التحصن والمنعة فنُسبوا إليها .

وكان سعيد هذا من أهل العلم والخير والصلاح والدين والفضل وزكاء الطعمة<sup>٣</sup> ، أوقفني الوزير<sup>٤</sup> أبو الحكم ابن محمد المنتقيري - وهو بقية هذا البيت وإخباريه - على جدار برج ببعض ربي أملاكنا بلوشة تطؤه الطريق المارة<sup>٥</sup> من غرناطة إلى إشبيلية ، وقال : كان جدك يذبح بهذا المكان فصولاً<sup>٦</sup> من العلم ، ويجهز بتلاوة القرآن ، فيستوقف الرفاق المدبجة الحنين<sup>٦</sup> إلى نعمته ، والخشوع إلى صدقه<sup>٦</sup> ، فتعرس رحالها لصق جداره ، وتريح ظهرها موهنأ إلى أن يأتي على ورده . وتوفي وقد أصيب بأهله وحرمه عندما تغلب العدو على بلده عنوة في خبر طويل . وقفت على مكتوبات من المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود أمير المسلمين بالأندلس في غرض إعانته والشفاعة إلى الملكة زوج سلطان قشتالة بما يدل على تباهته قديماً

١ الإحاطة : بيني وزير .

٢ الإحاطة : تحرفوا .

٣ الإحاطة : النعمة .

٤ الإحاطة : الشيخ المسن الوزير .

٥ الإحاطة : في وسط الطريق المارة .

٦ الإحاطة : لحنين نعمته ولخشوع صدقه .

ويفيد إثارة عبرة ، واستقالة عثرة .

وتخلف ولده عبد الله جارياً مجراه في التجلد والتمعش من حرّ النَّسَب ،  
والتزيي بالانقباض ، والتحلي بالنزاهة ، إلى أن توفي وتخلّف ولده سعيداً جدّاً  
الأقرب ، وكان صدراً خيراً مستولياً على خلال حميدة ، من خط وتلاوة وفقه  
وحساب وأدب ، نafs جبرته بني الطنجالي الهاشميين ، وتحول إلى غرناطة  
عندما شعر بعملهم على الثورة ، واستطلاعهم إلى النزوة التي خَصَدَت الشوكة ،  
واستأصلت منهم الشأفة ، وصاهر بها الأعيان من بني أضحي بن عبد اللطيف  
الهمداني أشرف جند حمص الداخلين إلى الجزيرة في طليعة<sup>١</sup> بلج بن بشر القشيري ،  
ولحقه من جراء منافسيه لما جاهروا السلطان بالخلعان اعتقال أعتبه السلطان بعده ،  
وأحظاه على ثقته ، وولاه الأعمال النبيهة والخطط الرفيعة .

حدثني من أتق به قال : عزم السلطان على أن يُقعد جدّك أستاذاً لولده ،  
فأنفت من ذلك أم الولد إشفاقاً عليه من فظاظة كانت فيه . ثم صاهر القواد من  
بني الجعدالة على أم أبي ، ومنت إلى زوج السلطان بينوة الخزولة<sup>٢</sup> ، فنبه القدر ،  
وانفسحت الحظوة ، وانثال على البيت الرؤساء والقراية ، وكان - على قوة  
شكيمته وصلابة مكسره - مؤثراً للخمول ، محباً في الخير ، حدثني أبي عن أمه  
قالت : قلما تهانأ نحن وأبوك<sup>٣</sup> طعاماً حافلاً لإيثاره به من<sup>٤</sup> كان يكمن بمسجد  
جواره من أهل الحاجة وأحلاف الضرورة ، يهجم علينا منهم بكل وارد ، ويجعل  
يده مع يده<sup>٥</sup> ، ويشركه في أكيلته<sup>٥</sup> ، ملتذاً بموقعها من فؤاده . وتوفي في ربيع  
الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، صهرته الشمس مستسقياً في بعض المحول ،

١ في ص ق : طلعة ، وأثبتنا رواية الإحاطة ، والمشهور : طالمة .

٢ الإحاطة : ومنت على أم السلطان ببني الأخوة .

٣ الإحاطة : مع أبيك .

٤ مع يده : سقطت من ق والإحاطة .

٥ الإحاطة : ويشركه في أكلته .

وقد استغرق في ضراسته ، فدلّت الحنف على نفسه .

وتحلف والدي نابتاً في الترف نبت العليق يكتفه رعني أم تجرّ ذيل نعمة وتحنو  
منه على واحد تحنر عليه النسيم إذا سرى ، ففاته لترّفه حظ كبير من الاجتهاد ؛  
وعلى ذلك فقرأ على الخطيب أبي الحسن البلوطي<sup>١</sup> والمقرئ أبي عبد الله ابن مسمور<sup>٢</sup>  
وأبي جعفر ابن الزبير<sup>٣</sup> خاتمة الجلة ، وكان يفضلّه . وانتقل إلى لوشة بلد سكّفه  
مخصوصاً بلقب الوزارة إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد متخطياً إلى الحضرة هاوياً  
إلى ملك البيضة ، فعضد أمره ، وأدخله بلده ، لدواع يطول استقصاؤها ، ولما  
تم له الأمر سحب ركابه إلى دار ملكه مستأثراً بشقص<sup>٤</sup> عريض من دنياه ، وكان  
من رجال الكمال ، طلقّ الوجه ، مع الظرف ، وتضمن كتاب «التاج المحلى»  
و«الإحاطة» رائقاً من شعره ، وفقيد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سبع  
جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ثابت الجأش ، غير جزوعٍ ولا  
هيابة . حدثني الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة الفقيه أبو عبد الله ابن اللوشي  
قال : كبا بأخيك الطرفُ ، وقد غشي العدو ، وجنّحتُ إلى إردافه ، فأنحدر  
إليه والدك ، وصرفي ، وقال : أنا أولى به ، فكان آخر العهد بهما ؛ انتهى .  
ومما رثي به والدُ لسان الدين وأخوه ما ذكره في الإحاطة في ترجمة أبي  
محمد عبد الله الأزدي إذ قال ما نصه<sup>٥</sup> : ومما كتب إليّ فيما أصابني بطريف :

خَطَبُ أَلَمٍ فَأَذْهَبَ الْأَخَ وَالْأَبَا رَغْمًا لِأَنْفِ شَاءَ ذَلِكَ أَوْ أَبِي  
قَدَرٌ جَرَى فِي الْخَلْقِ لَا يَجِدُ امْرَأً عَمَّا بِهِ جَرَّتِ الْمَقَادِرُ مَهْرَبَا  
إِمَّا جَزَعْتُ لَهُ فَعَدْرٌ بَيِّنٌ قَضَتِ الدَّوَاهِي أَنْ تُحَلَّ لَهُ الْحَبَا

١ الإحاطة : الملوكي .

٢ ق ص : سمون .

٣ وقع بدله في الإحاطة : وأبي إسحاق ابن زروال .

٤ الشقص : الحصة والنصيب .

٥ ترجم لعبد الله الأزدي في الإحاطة الورقة : ٢١٨ ، ولكن الشعر لم يرد في هذه النسخة .



لا كان يومهما الكريه فكم وكم  
 يوم لوى لِيَانَهُ لم يبقَ لا  
 وتجمعت فيه الضلال فقابلت  
 آها لعِزُّ المحتدين صرامة  
 دهم المصاب فعم إلا أنه  
 يا ابن الخطيب خطاب مكرث لما  
 قاسمتك الشجوة المقاسمة التي  
 لم لا وأنت لدي سابق حلبة  
 لا عاد يوم نال منك ولا أنت  
 يني الشهيدين الشهادة إنها  
 وردا على دار النعيم وحورها  
 فاستغن بالرحمن عمم قد نوى

فأجبه بقولي :

أهلاً بمقدمك السني ومرحبا  
 وافيت والدنيا علي كأنها  
 والدهر قد كشف القناع ولم يدع  
 صرف العنان إلي غير مدافع  
 خطب تأويني يضيق لهوله  
 لو كان بالورق الصوادح في الدجى  
 فأترت من ظلماء همي ما دجا

فلقد حباني الله منك بما حبا  
 سم الخياط وطرف صبري قد كبا  
 لي عدة للروع إلا أذها  
 عني ، وأثبت دون نصرتي الشبا  
 رحب الفضا وهي لموقعه الربى  
 ما بي لعاق الورق عن أن تندبا  
 وقدحت من زند اصطباري ما خبا

١ اضطرب ترتيب هذه الأبيات الأربعة في ق .

٢ الدجى : سقطت من ق ص .

فكأنني لَعَبَ الهجيرُ بمهجتي  
لا كان يومك يا طريفُ فظالما  
ورميت دينَ الله منكِ بفادحِ  
وخصصتني بالرزءِ والثكلِ الذي  
لا حُسْنٌ للدنيا لديّ ولا أرى  
لولا التعلُّلُ بالرحيلِ وأنا  
فإذا ركضنا للشيبيةِ أدهماً  
والملقى كسبٌ وفي وِردِ الردي  
لجريتُ طوعَ الحزنِ دونِ نهايةِ  
والصبرُ أولى ما استكان له الفتي  
وإذا اعتمدتَ اللهَ يوماً مَفْرَعاً

وبعثت لي من نفحها نفس الصبا  
أطلعتِ للأمالِ برقاً خلباً  
عمَّ البسيطَ مشرقاً ومغرباً  
أوهى القوى مني وهدَّ المنكبا  
للعيشِ بعدَ أبي وصنوي مأربا  
نُنْضي منَ الأعمارِ فيها مركبا  
حالَ المشيبُ به فأصبح أشهبا  
نهَلَّ الوري من شاء ذلك أو أبا  
وذهبتُ من خَلْعِ التصبرِ مذهبا  
رغماً ، وحقَّ العبدُ أن يتأدباً<sup>٢</sup>  
لم تُلْفِ منه سوى إليه المهتربا

#### [ واقعة طريف ]

واقعة طريف هذه استشهد فيها جماعةٌ من الأكابر وغيرهم ، وكان سببها أن سلطان فاس أمير المسلمين أبا الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس برسم الجهاد ونصرة أهلها على عدوهم ، حسبما جرت بذلك عادة سلفه وغيرهم من ملوك العلوة ، وشمّر عن ساعد الاجتهاد ، وجر من الجيوش الإسلامية نحو ستين ألفاً ، وجاء إليه أهل الأندلس بقصد الإمداد ، وسلطانهم ابن الأحمر ومن معه من الأجناد ، فقضى الله الذي لا مردّ لما قدّره ، أن صارت تلك الجموع مكسّرة ، ورجع السلطان أبو الحسن مفلولاً ، وأضحى حُسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً ، ونجا برأس طِمِرّة

١ ق : وبعثت لي نفس الصباة والصبا .

٢ ق : يتأوبا .

ولجام<sup>١</sup>، ولا تسل كيف، وقُتل جمعٌ من أهل الإسلام، ولُمّة وافرة من الأعلام، وأمضى فيهم حكمه السيف، وأسر ابن السلطان وحرّبه وخدمه، ونهبت<sup>٢</sup> ذخائره، واستولت على الجميع أيدي الكفر والحيف، واشرب العلو الكافر لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريث، وثبتت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الواقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء التي تَضَعُضَع لها ركن الدين بالمغرب، وقرّت بذلك عيون الأعداء، ولولا خشية الخروج عن المقصود لأوردت قصتها الطويلة، وسردت منها ما يحق لسامعه أن يكثر بكاءه وعويله، وقد ألمّ بها الولي قاضي القضاة ابن خلدون المغربي في كتاب «العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»<sup>٣</sup> فليراجعه من أراده في المجلد الثامن من هذا التاريخ الجامع، فإنه ذكر حين ساق هذه الكائنة ما يخرس الألسن ويصم المسامع، والله الأمر من قبل ومن بعد.

### [ واقعة الربض ]

وقول لسان الدين رحمه الله في أولية سلفه «لأنهم انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية - إلى آخره» أشار بذلك إلى واقعة الربض الشهيرة التي ذكرها ابن حبان في تاريخه الكبير المسمى بـ «المقتبس في تاريخ الأندلس» وقص أمرها غير واحد كابن الفرّصي وابن خلدون، وملخصها أن أهل ربض قرطبة ثاروا على الأمير الحكم الأموي، وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى اللبّبي صاحب إمامنا مالك رضي الله عنه وغيره، فكانت النصرّة للحكم، فلما ظفر وقتل من

١ من قول حسان بن ثابت :

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

٢ ق : وأخذت ، وفي ص يياض .

٣ انظر تاريخ ابن خلدون ٧ : ٢٦١ .

شاء أجلي من بقي إلى البلاد ، وبعضهم إلى جزيرة إقريطش ببحر الإسكندرية ،  
وفي قصتهم طول ، وليس هذا محلها .

### [والد لسان الدين]

وقال لسان الدين رحمه الله أيضاً في حق والده ما حاصله<sup>١</sup> : عبد الله بن سعيد  
ابن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السَّلماني أبو محمد ، غرناطي الولادة  
والاستيطان ، لَوْشي الأصل ، طليطليه قرطبيه .

وقال في الإكليل : إن طال الكلام ، وجمحت الأقلام ، كنت كما قيل :  
مادح نفسه يُقرئك السلام ، وإن أجحمت ، فما سدَّيتُ في النناء ولا ألحمت ،  
وأضعت الحقوق ، وخفت ومعاذ الله العقوق ، هذا ولو أتي زجرت طير البيان  
من أوكاره ، وجئت بعون الإحسان وأبكاره ، لما قضيت حقه بعد ، ولا قلت  
إلاّ بالتي علمت سعد<sup>٢</sup> ، فقد كان رحمه الله ذِمراً عزم ، ورجل رخاء  
وأزم ، تروق أنوار خلاله الباهرة ، وتضيء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة  
والظاهرة ، ذكاء يتوقد ، وطلاقة يحسد نورها الفرقد ، وكانت له في الأدب  
فريضة ، وفي النادرة العذبة منادح<sup>٣</sup> عريضة ، تكلمت يوماً بين يديه في مسائل  
من الطب وأنشدته أبياتاً من شعري ورقاعاً من إنشائي فتهلل ، وما برح أن ارتجل<sup>٤</sup> :

الطبُّ والشعرُ والكتابةُ      سماتنا في بني النجابه  
هنّ ثلاثٌ مبلَّغاتٌ      مراتباً بعضها الحجابهُ

١ ترجمة والده في الإحاطة : الورقة ٢٠٠ .

٢ عجز بيت للحطيئة ، وصدده :

وتعدلني أفناء سعد عليهم

٣ في ص ق : منادم ، والتصويب عن الإحاطة .

٤ وردت هذه المقطعات في الإحاطة : الورقة ٢٠٣ وما بعدها .

ووقع لي يوماً بخطه على ظهر أبيات بعثتها إليه أعرض عليه نخطها :

وردت كما صدر النسيمُ بسحرةٍ      عن روضةٍ جاد الغمامُ رباها  
وكأنما هاروتُ أودعَ سِحْرَهُ      فيها وآثرها به وحبَّها  
مصقولةُ الألفاظِ يبهرُ حسنها      فبمثلها افتخر البليغُ وبأهى  
فقررتُ عيناً عند رؤيةِ حسنها      إني أبوك ، وكنتَ أنتَ أباهُ

ومن نظمه قوله :

وقالوا : قد دنا فاصبرُ سشفى      فترياقُ الهوى بعد الديارِ  
فقلت : هبوا بأن الحقَّ هذا      بقلي يَمَمُوا فبمَ اصطباري؟

وقال :

عليكَ بالصمتِ فكم ناطقٍ      كلامُهُ أدَى إلى كَلِمِهِ  
إنَّ لسانَ المرءِ أهدى إلى      غِرَّتِهِ والله من خَصَمِهِ  
يرى صغيرَ الجرمِ مستضعفاً      وجرمُهُ أكبرُ من جرمِهِ

وقال :

أنا بالدَّهرِ يا بنيَّ خيرُ      فإذا شئتَ عَلِمَهُ فتعالاً  
كم مليكٍ قد ارتعى منه روضاً      لم يدافع عنه الردى ما ارتعى لا  
كلُّ شيءٍ تراهُ يَفنى ، ويبقى      ربنا الله ذو الجلالِ تعالى

مولده بغرناطة في جمادى الأولى عام اثنين وسبعين وستمائة ، وفقد يوم  
الوقية الكبرى بظاهر طريف ، يوم الاثنين سابع جمادى الأولى عام واحد وأربعين  
وسبعمائة ، ورثته بقصيدة أولها ٢ :

١ الإحاطة : كما ورد .

٢ راجع الإحاطة : الورقة ٢٠٣ .

وللدهر كفو تسردُّ الذي تُعطي  
فلا بدَّ يوماً أن نحلَّ على الشطِّ  
فلم يغن ربُّ السيفِ عن ربةِ القُرطِ  
ومن أسرع السيرِ الحثيثِ ومن يبطي

سِهَامُ المنايا لا تطيشُ ولا تُخطي  
وإنَّا وإنْ كنَّا على نَسَجِ الدُّنَا  
تساوى على وِردِ الردى كلُّ وِردٍ  
وسِيَانِ ذلِّ الفَقْرِ أو عِزَّةِ الغنى

وهي طويلة .

قال : ورثاه شيخنا أبو زكريا ابن هذيل بقصيدة يقول فيها :

إذا قلتُ آياتاً حسناً من الشعرِ  
وأجريتُ دمعِي لليراعِ عن الخبرِ  
توخَّيتُها عَوْناً على نوبِ الدهرِ  
بداهيةَ دَهْيَاءِ قاصمةِ الظَّهْرِ  
فإن يوفِّ لي دمعِي فقد أخانني صبري  
أبثُّ له هَمِّي وأودِعُهُ سرِّي

إذا أنا لم أرثِ الصديقَ فما عذري  
ولو كان شعري لم يكن غيرَ نُدْبَةٍ  
لما كنتُ أقضي حقَّ صحبته التي  
رمانِي عبدُ اللهِ يومَ وداعِهِ  
قطعتُ رجائي حينَ صَحَّ حديثُهُ  
وهل مؤنسٌ كابن الخطيبِ لو حشني

ومنها :

مُورَّجةُ الأنبياءِ طيبةُ النشْرِ  
على قدرِ ما في الصبرِ من عِظَمِ الأجرِ  
نجيحاً يفوقُ المسكُ في موقفِ الحشرِ  
لها لقيتهُ الحورُ بالبرِّ والبشرِ  
تقول لأهل الفوزِ: لا يُغَلِّكم مهري  
إلى العالمِ الأعلى مع الرفقةِ العُرِّ  
بقطرِ دموعٍ غالباتِ على القطرِ

تولَّى وأخبارُ الجلالةِ بعده  
رضينا بتركِ الصبرِ من بعدِ بَعْدِهِ  
أتى بفتيتِ المسكِ فوق جبينه  
لقد لقي الكفارَ منها بعزيمةِ  
تجلتْ عروساً جنةُ الخلدِ في الوغى  
فكان من القومِ الذين تبادروا  
تعالوا بنا نسقي الأباطحِ والرُّبى

الإحاطة : فإن لم يوفِّ الدمع قد .

ألا لا تلم عيني لسكب دموعها فما سكبت إلا على الماجد الحر  
ومنها :

أخواننا جيداً وفكم أجدد غيركم وسيروا على خف من الحوب والوزر  
على سفير أتم لدار تأخرت وما الفوز في الأخرى سوى خفة الظهر  
وما العيش إلا يقظة مثل نومة وما العمر إلا كالخيال الذي يسري  
على الحق أتم قادمون فشمروا فليس لمخذول هنالك من عذر

وهي طويلة ، تجاوز الله عنا وعنهم أجمعين ؛ انتهى ما لخصته من كلام  
لسان الدين رحمه الله .

[ ترجمة أبي بكر ابن عاصم ]

قلت : على منوال كلامه في تحلية أبيه النبيه نسج الوزير الكاتب الشهير القاضي  
أبو يحيى ابن عاصم القيسي الأندلسي رحمه الله في وصف أبيه القاضي أبي بكر  
ابن عاصم<sup>٢</sup> صاحب « التحفة في علم القضاء » ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن  
عاصم الأندلسي الغرناطي ، قاضي الجماعة ، الرئيس أبو بكر ، ونص المحتاج  
إليه في هذا المحل من كلام ولده قوله رحمه الله : إن بسطت القول ، أو عددت  
الطوول ، وأحكمت الأوصاف ، وتوخيت الإنصاف ، أنفدت الطروس ،  
وكنت كما يقول الناس في المثل من مدح العروس ، وإن أضربت عن ذلك صفحاً  
فلبسما صنعت ، ولشر ما أمسكت المعروف ومنعت ، ولتكم من حقوق الأبوة

١ ص ق : جدواكم .

٢ كان من أكابر فقهاء غرناطة ؛ تولى قضاءها سنة ٨٨٨ ؛ وله مؤلفات عديدة ، منها شرحه على  
تحفة والده في الأحكام ، وكتابه جنة الرضى ، وكتاب الروض الأريض ( انظر ترجمته في أزهار  
الرياض ١ : ١٤٥ ) وسيورد المقرئ نقولا كثيرة عنه .

أضعت ، ومن ثدني للمعقّة رضعت<sup>١</sup> ، ومن شيطان لغمصّة الحق أطعت ، ولم أورد إلاّ الإصلاح ما استطعت ، وإن توسطت واقتصرت ، وأوجزت واختصرت ، فلا الحقّ نصرت ، ولا أفنان البلاغة هصرت ، ولا سبيل الرشد أبصرت ، ولا عن هوى الحسّدة أقصرت ، هذا ولو أني أجهدت ألسنة البلاغة فجهدت ، وأيقظت عيون الإجابة فسهدت ، واستعرت مواقف عكاظ على ما عهدت ، لما قررت من الفضل إلاّ ما به الأعداء قد شهدت ، ولا استقصيت من المجد إلاّ ما أوصت به الفئة الشانئة لخلفها الأبر وعهدت ، فقد كان - رحمه الله - علم الكمال ، ورجل الحقيقة ، وقاراً لا يخف راسيه ، ولا يعرى كاسيه ، وسكوناً لا يطرق جانبه ، ولا يرهب غالبه ، وحلماً لا تزل حصاته ، ولا تهمل وصاته ، وانقباضاً لا يتعدّى رسمه ، ولا يتجاوز حكمه ، ونزاهة لا ترخص قيمتها ، ولا تلين عزيمتها ، وديانة لا تحسر أذيالها ، ولا يشفّ سربالها ، وإدراكاً لا يُفلّ نصله ، ولا يدرك خصّله ، وذهناً لا يخبو نوره ، ولا ينبو مطروره ، وفهماً لا يخفى فلقه ، ولا يهزم فيلقه ، ولا يلحق بحره ، ولا يعطل نحره ، وتحصيلاً لا يفلت قنيصه ، ولا يسام حريصه ، بل لا يحل عقاله ، ولا يصدأ صيقاله ، وطلباً لا تتحد فنونه ، ولا تتعين عيونه ، بل لا تحصر معارفه ، ولا تقصر مصارفه ، يقوم أمّ قيام على النحو على طريقة متأخري النحاة ، جمعاً بين القياس والسمع ، وتوجيه الأقوال البصرية ، واستحضار الشواهد الشعرية ، واستظهار<sup>٢</sup> اللغات والأعرية ، واستبصار في مذاهب المعربة ، محلياً أجياد تلك الأعراب ، من علمي البديع والبيان بجواهر أسلاك ، ومجلياً في آفاق تلك الأساليب ، من فوائده هذين الفنين زواهر أفلاك ، إلى ما يتعلق بذلك من قافية للعروض وميزان ، وما للشعر من بحور وأوزان ، تضلع بالقراءات أكمل اضطلاع ، مع التحقيق والاطلاع ،

١ ولكم . . . رضعت : سقطت من ص .

٢ ق : واستظهاراً .



فيقنع ابنُ الباذش من إقناعه ، ويشرح لابن شريح ما أشكل من أوضاعه ، ويقصر عن رتبته الداني ، ويحوز صدر المنصة من حرز الأمانى ، ويشارك في المنطق وأصول الفقه والعَدَد والفرائض والأحكام مشاركةً حسنة ، ويتقدم في الأدب نظماً ونثراً ، وكتباً وشعراً ، إلى براعة الخط ، وإحكام الرسم ، وإتقان بعض الصنائع العملية ، كتفسير الكتب ، وتزويل الذهب ، وغيرهما . نشأ بالحضرة العلية لا يغيب عن حلقات المشيخة ، ولا يَريمُ عن مظان الاستفادة ، ولا يفتر عن المطالعة والتقييد ، ولا يسأم من المناظرة والتحصيل ، مع المحافظة التي لا تنخرم ولا تنكسر ، والمفاوضة في الأدب ونظم القريض والفكاهة التي لا تقدح في وقار ، انتهى ملخصاً .

وقد أطلال في تعريفه بأوراق عدة ، ثم قال : مولده في الربع الثالث من يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى من عام ستين وسبعمائة كما نقلته من خط ابنه ، ثم قال : وله مسائل متعددة في فنون شتى ضمَّنها كل سديد من البحث وصحيح النظر ، وأما كتبه فالدرُّ النفيس ، والياقوت الثمين ، والرَّوض الأُنْفُ ، والزهر النضير ، نصاعةً لفظٍ ، وأصالة غرض ، وسهولة تركيب ، ومتانة أسلوب ؛ انتهى .

ثم ذكر مشيخته وأطلال ، ثم سرد تأليفه : الأرجوزة المسماة بـ «تحفة الحكام» ، والأرجوزة المسماة بـ «مهيع الوصول في علم الأصول» أصول الفقه ، والأرجوزة الصغرى المسماة بـ «مرتقى الوصول للأصول» كذلك ، والأرجوزة المسماة بـ «نيل المنى في اختصار الموافقات» ، والقصيدة المسماة بـ «إيضاح المعاني في القراءات الثماني» ، والقصيدة المسماة بـ «الأمل المرقوب في قراءة يعقوب» ، والقصيدة المسماة بـ «كنز المفاوض في علم الفرائض» ، والأرجوزة المسماة بـ «الموجز في النحو» ، حاذى بها رَجَزَ ابن مالك في غرض البسط له والمحاذاة لقصده ، والكتاب المسمى بـ «الحدائق» في أغراض شتى من الآداب والحكايات . توفي بين العصر والمغرب يوم الخميس حادي عشر شوال عام تسعة وعشرين

وثنائهما ؛ انتهى كلام الوزير ابن عاصم ، وإنما ذكرته لأن أهل الأندلس يقولون في حقه : إنه ابن الخطيب الثاني ، ولولا خوف الإطالة لذكرت بعض إنشائه ونظمه ، فإنه في الذروة العليا ، وقد ذكرت جملة من ذلك في « أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض » .

ولنرجع إلى الترجمة المقصودة ، فنقول : والسلماني نسبة إلى سلمان - بإسكان اللام على الصحيح - قال ابن الأثير : والمحدثون يفتحون اللام ، وسلمان : حي من مراد من عرب اليمن القحطانيين ، دخل الأندلس منهم جماعة من الشام وسلف لسان الدين رحمه الله تعالى ينتسبون إليهم كما سبق في كلامه ، وهو مشهور إلى الآن بالمغرب بابن الخطيب السلماني ، ولذلك خاطبه شيخه شيخ الكتاب الرئيس أبو الحسن ابن الجياب حين حل مالفقة بقوله <sup>١</sup> :

أيا كتابي إذا ما جئت مالفقة دار المكارم من مثنى ووحدان  
فلا تسلم على ربيع لذي سلم بها وسلم على ربيع لسلمان  
فأجابه لسان الدين رحم الله تعالى الجميع بقوله :

يا ليت شعري هل يقضى تألقنا ويثنى الشوق عن غاياته الثاني  
أو هل يحن على نفسي معذبها أو هل يرق قلبي قلبي الثاني

[ عبد العزيز الفشتالي ونوئته ]

وعلى ذكر نسبة ابن الخطيب لسلمان فقد تذكرت هنا بيتاً أنشدنيه لنفسه صاحبنا الوزير الشهير الكبير البليغ صاحب القلم الأعلى سيدي أبو فارس عبد العزيز الفشتالي <sup>٢</sup> - صبَّ الله تعالى عليه شآبيب رحماه - من قصيدة نونية مدح

١ انظر أزهار الرياض ١ : ٣١٣ .

٢ عبد العزيز بن محمد الفشتالي كان كاتب أسرار الدولة المنصورية ، ترجم له المؤلف في كتابه روضة الآس : ١١٢ - ١٦٣ .

بها سيد الوجود ، صلى الله عليه وسلم ، وتخلص إلى مدح مولانا السلطان المنصور  
بالله أبي العباس أحمد الحسيني أمير المؤمنين صاحب المغرب رحمه الله تعالى ، وهو :  
أولئك فخري إن فخرتُ على الورى ونافسَ بيتي في الولا بيتَ سلمان

وأراد - كما أخبرني - بيت سلمان القبيلة التي منها لسان الملة والدين ابن  
الخطيب رحمه الله تعالى ، أشار إلى ولاء الكتابة للخلافة ، كما كان لسان الدين  
السلماني رحمه الله تعالى كذلك ، وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفارسي رضي الله  
عنه وأرضاه .

وقد رأيت أن أسرد هنا هذه القصيدة الفريدة ، لبلاغتها التي بدت شعراء  
« اليتيمة » و « الخريدة » ، ولأن شجون الحديث الذي جرَّ إليها ، شوقي إلى  
معاهدي المغربية التي أكثرُ البكاء عليها ، بحضرة المنصور بالله الإمام ، سقى الله  
تعالى عيها صوب الغمام ، حيث الشباب غض يانع ، والمؤملُ لم يحجبه مانع ،  
والسلطان عارف بالحقوق ، والزمان وهو أبو الورى لم يشب بره بالعقوق ، والليالي  
مسألة غير رامية من البين بنبال ، والغربة الجالبة للكربة لم تخطر ببال ، ورؤساء  
الدولة الحسينية السنية ساعون فيما يوافق الغرض ويلائم ، والأيام ثغورها بواسم ،  
وأوقاتها أعياد ومواسم ، وأفراح وولائم ، فله فيها عيش ما نسيناه ، وعز  
طلما اقتبسنا نور الهدى من طورسيناه :

مضى ما مضى من حلو عيشٍ ومره كأن لم يكن إلا كأضغاث أحلام  
وهذا نص القصيدة ١ :

هم سَلَبُونِي الصبرَ والصبرُ من شاني وهم حَرَمُوا من لذة الغمضِ أجفاني  
وهم أخفروا في مهجتي ذِمَمَ الهوى فلم يثنهم عن سفكها حييَ الجاني

١ انظر هذه القصيدة في روضة الآس : ١٢٠ .

لئن أترعوا من قهوةِ البينِ أكوسي  
وإن غادرتني بالعراءِ حمولهم  
قف العيسَ واسألْ ربّهم أيةَ مضوا  
وهل باكروا بالسفح من جانب اللوى  
وأين استقلّوا : هل بهضبِ تهامة  
وهلْ سال في بطنِ المسيلِ تشوقاً  
وإذْ زجروها بالعشيّ فهلْ ثنى  
وهل عرسوا في ديرِ عبدونَ أم سرّوا  
سرّوا والدّجى صبغِ المطارفِ فأنثى  
وأدلج في الأسحارِ بيضُ قبابهمْ  
لك الله من ركبٍ يرى الأرضَ خطوةً  
أرحها مطايا قد تمشّى بها الهوى  
ويتمّ بها الوادي المقدّسَ بالحمى  
وأهدِ حلولَ الحجرِ منه تحيةً  
لقد نفحتُ من شيعِ يثربَ نفحةً  
وفتت منها الشرقُ في الغربِ مسكةً  
وأذكرني نجداً وطيبَ عراره  
أحنُّ إلى تلكِ المعاهدِ ، إنَّها  
وأهفو مع الأشواقِ للوطنِ الذي  
وأصبو إلى أعلامِ مكةَ شائقاً  
أهيلَ الحمى ديني على الدهرِ زورةً  
متى يشفني جفني القريحُ بلحظةٍ

فشوقهمْ أضحي سميري وندماني  
لقى إن قلبي جاهدٌ إثرَ أظعاني  
ألجزعِ ساروا مدلحين أم البانِ  
ملاعبَ آرامِ هناكِ وغزلانِ  
أناخوا المطايا أم على كُشبِ نَعمانِ  
نفوسٌ ترامتُ للحمى قبلَ جثمانِ  
أزمتها الحادي إلى شعبِ بوانِ  
يؤمُّ بهم رهبانهمْ ديرَ نجرانِ  
بأحداجهم شتى صفاتِ وألوانِ  
فلُحْنَنَ نجوماً في معارجِ كُثبانِ  
إذا زمّها بُدناً نواعمَ أَسدانِ  
تمشّى الحمياً في مفاصلِ نشوانِ  
به الماء صدأً والكلا نبتُ سعدانِ  
تفاح عرّفاً ذاكِ الرّندِ والبانِ  
فهاجتُ مع الأسحارِ شوقي وأشجاني  
سحبتُ بها في أرضِ دارينَ أرداني  
نسيمُ الصّبا من نحو طيبةَ حيّاني  
معاهدُ راحاتي وروحي وريحاني  
به صحّ لي أنسي الهنيّ وسلواني  
إذا لاح برقٌ من شمامِ وهلانِ  
أحثُّ بها شوقاً لكمْ عزمي الواني  
تُزجُّ بها في نوركمْ عينُ إنساني

ومن لي بأن يدنو لقاكم تعطفاً  
 سقى عهدهم<sup>١</sup> بالخيف عهد<sup>٢</sup> تمده  
 وأنعم في شط<sup>٣</sup> العقيق أراكة  
 وحيثاً ربوعاً بين مروة والصفاء  
 ربوعاً بها تتلو الملائكة<sup>٤</sup> العلا  
 وأول أرض باكرت عرصاتها  
 وعرس<sup>٥</sup> فيها للنبوّة موكب<sup>٥</sup>  
 وأدى بها الروح الأمين<sup>٥</sup> رسالة<sup>٥</sup>  
 هنالك فض<sup>٥</sup> ختمها<sup>٥</sup> أشرف<sup>٥</sup> الورى  
 محمد<sup>٥</sup> خير<sup>٥</sup> العالمين بأسرها  
 ومن بشرت<sup>٥</sup> في بعثه<sup>٥</sup> قبل كونه  
 وحكمة<sup>٥</sup>؛ هذا الكون لولاه ما سمّت<sup>٥</sup>  
 ولا زخرفت<sup>٥</sup> من جنة<sup>٥</sup> الخلد أربع<sup>٥</sup>  
 ولا طلعت<sup>٥</sup> شمس<sup>٥</sup> الهدى غب<sup>٥</sup> دجية<sup>٥</sup>  
 ولا أحذقت<sup>٥</sup> بالمذنبين شفاععة<sup>٥</sup>  
 له معجزات<sup>٥</sup> أخرست<sup>٥</sup> كل<sup>٥</sup> جاحد<sup>٥</sup>  
 له انشق<sup>٥</sup> قرص<sup>٥</sup> البدر شقين<sup>٥</sup> وارتوى<sup>٥</sup>  
 وأنطقت<sup>٥</sup> الأصنام<sup>٥</sup> نطقاً تبرأت<sup>٥</sup>  
 دعا سرحة<sup>٥</sup> عجبنا<sup>٥</sup> فلبت<sup>٥</sup> وأقبلت<sup>٥</sup>

١ روضة الآس : عهدكم .

٢ روضة الآس : سال .

٣ ق ص : ختمه .

٤ روضة الآس : وعلة .

٥ روضة الآس : تسبح فيها الحور مع جمع ولدان .

على كلِّ أفقٍ نازحِ القطرِ أو داني  
 كَسَتْ أوجهُ الغبراءِ بهجةً نَيَّسانِ  
 بها افتضح المرتابُ<sup>١</sup> وابتأس الشاني  
 فبهيات منه سَجَعُ قَسِّ وسَحْبَانِ  
 بما نورُها أسدافَ إفكٍ وبهتانِ  
 همُ سَلَبُوا تيجانها آلَ ساسانِ  
 تراثِ الملوكِ الصَّيدِ من عهدِ<sup>٢</sup> يونانِ  
 فجرَّعه منه مُجاجةً ثَعْبَانِ  
 يناغي الصدى فيهنَّ هاتفُ شيطانِ  
 ووجه الهدى بادي الصبابة للرائي<sup>٥</sup>  
 وأكرمَ كلَّ الخلقِ : عَجْمِ وعربانِ  
 ولو ساجلت سبأً مدائحَ حَسَّانِ  
 لَتُسْقَى بزنِ من أياديك هَتَّانِ  
 وأثقلت الأوزارُ كِفَّةَ ميزاني  
 لما فَتَحَتْ أبوابُ عفوَ وغفرانِ  
 وماستَ على كُتبانها مُلْدُ قَضبانِ  
 يَقُوحُ بمسراها شدا كلَّ تَوْقَانِ  
 وتلوهُما في الفضلِ صهرِكِ عثمانِ  
 ووالى على سبطيك أوفرَ رضوانِ

وضاعتُ قصورُ الشامِ من نوره الذي  
 وقد بهج الأنوا بدَعوته التي  
 وإنَّ كتابَ اللهِ أعظمُ آيةً  
 وعدتني على شأوِ البليغِ بيانهُ  
 نبيُّ الهدى مَنْ أطلعَ الحقَّ أنجماً  
 لعزتها ذلَّ الأكاسرةُ الألى  
 وأحرزَ للدينِ الحنيفيِّ بالطَّبِّي  
 ونقَّع من سُمِّ القنا السمَّ قيصراً<sup>٣</sup>  
 وأضحت ربوعُ الكفرِ والشكِّ بلقماً  
 وأصبحت السَّمْحا ترفُ نضارة  
 أيا خيرَ أهلِ الأرضِ بيتاً ومحتداً  
 فمن للقوافي أن تحيط بوصفكم  
 إليك بَعَثْنَاها أمانيَّ أجْدَبَتِ  
 أجرفني إذا أبدى الحسابُ جرائمِي  
 فأنت الذي لولا وسائلُ عزِّه  
 عليك سلامُ اللهِ ما هَبَّتِ الصَّبَا  
 وحملت في جيبِ الجنوبِ نحيمةً  
 إلى العمرينِ صاحبيك كليهما  
 وحيّاً عليّاً عَرَفُها وأريجُها

١ روضة الآس : الميان .

٢ روضة الآس : ولد .

٣ روضة الآس : سم قيصر .

٤ روضة الآس : والشرك .

٥ الرائي : الناظر .

إليك رسول الله صممت عزيمة  
 وخطبت مني القلب وهو مقلّب  
 فيا ليت شعري هل أزم قلائصي  
 وأطوي أديم الأرض نحوك راحلاً  
 يرتحها فترط الحنين إلى الحمى  
 وهل تمحون عني خطايا اقترفتها  
 وماذا عسى يشي عني وإن لي  
 إذا ندد عن زورك البأس<sup>٢</sup> والعنا  
 عمادي الذي أوطا السماكين أحمصاً  
 متوج أملاك الزمان وإن سطا  
 وقاري أسود الغاب بالصيد مثلها  
 هزبر إذا زار البلاد زثيره<sup>٣</sup>  
 وإن أطلعت غيم القتام جيوشه<sup>٤</sup>  
 صببن على أرض العداة صواعقاً  
 كتائب لو يعلون رضوى لصدعت  
 عديد الحصى من كل أروع معلّم  
 إذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا  
 من اللاء جر عن العدا غصص الردى  
 وفتحن أقطار البلاد فأصبحت

إذا أزمعت فالشحط والقرب سيان  
 على جمرة الأشواق فيك فلباني  
 إليك بداراً أو أقلقل كيراني<sup>١</sup>  
 نواجي المهاري في صحاصح قيعان  
 إذا غرد الحادي بين وغتاني  
 خطأ لي في تلك البقاع وأوطان  
 بالآك جاهاً صهوة العز أمطاني  
 فجود ابنك المنصور أحمد أغناني  
 وأوفى على السبع الطباقي فادناني  
 أحل سيفاً<sup>٣</sup> في معاهد تيجان  
 إذا اضطرب الخطي من فوق جدران<sup>٤</sup>  
 تضائل في أخياسها أسد خفان  
 وأرزم<sup>٥</sup> في مركومه رعد نيران  
 أسلن عليهم بحر خسف ورجفان  
 صفاه الجياد الجرود تعدو بعقبان  
 وكل كمي بالرديني طعان  
 هدتهم إلى أوداجها شهب خرصان  
 وعقرن في وجه الثرى وجه بستان  
 تؤدي الخراج الجزل أملاك سودان

١ ق ص : كيراني ؛ والكيران : جمع كور يعني رحاله .

٢ ق ص : اليأس .

٣ روضة الآس : السيوف .

٤ ق ص : خدران .

٥ ق ص : وأرزم .

٦ روضة الآس : عفر .

إمامُ البرايا من عليّ نجاره  
 دعائمُ إيمانٍ وأركانُ سُوددٍ  
 همُّ العلويون الذين وجوههم  
 وهم آل بيت سيد الله سمكه  
 وفيهم فشا الذكر الحكيمُ وصرحت  
 فروعُ ابن عمِّ المصطفى ووصيه  
 ودوحةُ مجد معشبِ الروضِ بالعلا  
 بمجدهم الأعلَى الصريحِ تشرفت  
 أولئك فخري إن فخرتُ على الوري  
 إذا اقتسمَ المدائحَ فضلَ فخارهم  
 إمامٌ له في جبهةِ الدهرِ ميسمٌ  
 سما فوقَ هاماتِ النجومِ بهمة  
 وأطلعَ في أفقِ المعالي خلافةً  
 إذا ما احتبي فوقَ الأسرّةِ وارتدى  
 توستَ لقمانَ الحجى وهو ناطقٌ  
 وإن هزّه حرُّ الثناء تدفقت  
 أيا ناظرَ الإسلامِ شيمٌ بارقَ المني  
 قضى الله في عليك أن تملكَ الدنيا  
 وأنت تطوي الأرضَ غيرَ مدافعٍ  
 وتملؤها عدلاً يرفُّ لواؤه  
 فكم هنأت أرضَ العراقِ بك العلا  
 فلو شارفتُ شرقَ البلادِ سيوفكم

ومن عترةِ سادوا الوري، آل زيدان  
 ذوو هممٍ قد عرست فوق كيوان  
 بدورٍ إذا ما أحلكتُ شهبُ أزمان  
 على هضبةِ العلياء ثابتَ أركان  
 بفضلهم آياتُ ذكرٍ وفرقان  
 فناهيك من فخرين: قرني وقربان  
 يجودُ بأمواءِ الرسالةِ ريان  
 معدُّ على العرباءِ عادٍ وقحطان  
 ونافسَ بيبي في الولا بيتَ سلمان  
 فقسمي بالمنصورِ ظاهرُ رجحان  
 ومن عزّه في مفرقِ الملكِ تاجان  
 يحومُ بها فوقَ السمواتِ نسران  
 عليها وشاحٌ من علاه وسِمطان  
 على كبرياءِ الملكِ نخوةَ سلطان  
 وشاهدتُ كسرى العدلِ في صدرِ إيوان  
 أنامله عرفاً تدفقَ خلجان  
 وباكراً لروضِ في ذرا المجدِ فينان  
 وتفتحها ما بين سوسٍ وسودان  
 فمن أرضِ سودانِ إلى أرضِ بغدادِ  
 على الهرمينِ أو على رأسِ غمدانِ  
 ووافتُ بك البشريةَ لأطرافِ عمانِ  
 أتاك استلاباً تاجُ كسرى وخاقان



ولو تَشَرَّ الأَملاكَ دَهْرُكَ أَصْبَحَتْ  
 وشايِعَكَ السَّمْنَاخُ يِقْتَادُ طَائِعاً  
 فما المجدُ إلا ما رَفَعَتْ سَمَاكَهُ  
 وهاتيكَ أَبْكَارُ القَوافي جَلِبَتْهَا  
 أَتَتْكَ أَميرَ المُؤمِنينَ كَأَنَّهَا  
 تَعَاظَمْنَ حُسْنًا أن يَقالَ شَبِيهَا  
 فلا زَلتَ لِلدُّنيا تَحوِطُ جَهاثَها  
 ولا زَلتَ بِالنَصرِ العَزيزِ مُؤزَّراً

[ نونية أبي الفتح التونسي ]

انتهت القصيدة التي في تغزلها شرح الحال ، وإعراب عما في ضمير العربية والارتحال ، ولنُعزِّزَها بأختها في البحر والروي ، قصيدة القاضي الشهير الذبيح ، الأديب الذي سلبت النُهي كواعبُ شِعْره إذ أبرزها من خلود الفكر ، الشيخ الإمام سيدي أبو الفتح محمد بن عبد السلام ، المغربي التونسي نزيل دمشق الشام ، صَبَّ اللهُ على ضريحه سجالَ الرحمة والإِنعام ، فإنها نَفثَ مَصدور غريب ، وبث معذور أريب ، فارق مثلي أوطانه وما سلاها ، وقرأ آيات الشجو وتلاها ، وتمنى أن يجود له الدهر برؤية مجتلاها ، وهي قوله رحمه الله وأنشأها بدمشق عام واحد وخمسين وتسعمائة :

سلوا البارق النجديَّ عن سَحْبِ أَجفاني  
 ولا تَسألوا غيرَ الصِّبا عن صِباي  
 فما لي سواها من رسولِ إليكمُ  
 وعمّا بقلبي من لَواعِجِ نيرانِ  
 وشدةِ أشواقي إليكمُ وأشجاني  
 سريعِ السَّرى في سِيرهِ ليس بالواني

١ روضة الآس : جلوتها .

٢ بعد هذا البيت في روضة الآس : ومنها ختاماً .

مكتبة الحرم النبوي الشريف  
 كتاب الأمل في الدنيا والآخرة

فيا طالَ بالأسحارِ ما قد تكلفتُ  
وتنفيسِ كربٍ عن كئيبٍ متيمٍ  
فللهِ ما أذكى شدا نسمة الصبا  
وسارت مسيرَ الشمسِ وهنا فأصبحتُ  
وقد وقفتُ بالشامِ وقفةَ حاملٍ  
لترتاضَ في تلكَ الرياضِ هنيئةً  
وما غربتُ حتى تضاعفَ نشرُها  
فكمْ نحوكمْ حملتُها من رسالةٍ  
وناشدتُها باللهِ إلا تفضلتُ  
تحيةَ مشتاقٍ إلى ذلكَ الحمي  
سقى اللهُ هاتيكَ الديارَ وأهلها  
وحيا ربوعَ الحمي من خيرِ بلدةٍ  
هي الحضرةُ العليا مدينةُ تونسٍ  
لها الفخرُ والفضلُ المينُ بما حوتُ  
لقد حلَّ منها آلُ حفصٍ ملوكها  
وسادوا بها كلَّ الملوكِ وشيدوا  
وكان لهم فيها بهاءٌ وبهجةٌ  
وكان لهم فيها عساكرُ جمّةٌ  
جيوشٌ وفرسانٌ يضيقُ بها الفضا  
وكان لأهلها المفاخرُ والعلا  
وكان على الدنيا جمالٌ بحسنا  
وكانت لطلابِ المعارفِ قبلةً  
وكان لأهلِ العلمِ فيها وجهةٌ  
وكان بواديهما المقدّسِ فتيةً

بإنعاشِ محزونٍ وإيقاظِ وسانٍ  
يحنُّ إلى أهلٍ ويصبو لأوطانٍ  
صباحاً إذا مرّت على الرندِ والبانِ  
من الشرقِ نحو الغربِ تجري بحسبانٍ  
نوافجَ مسكٍ من ظباءِ خراسانٍ  
وتزدادَ من أزهارها طيبَ أردانٍ  
بواسطتي رُوحٍ هناكَ وريحانٍ  
مدوّنةً في شرحِ حالي ووجداني  
بتبليغِ أحبّبي السلامِ وجيراني  
وسكّانهِ والتّازحينِ بأطعانٍ  
سحائبَ تحكي صوبَ مدمعي القاني  
تخبرها قدماً أفاضلُ يونانٍ  
أنيسةُ إنسانٍ رآها بإنسانٍ  
من الأنسِ والحسنِ المنوطِ بإحسانٍ  
مراتبَ تسمو فوق هامةِ كيوانٍ  
بها من مباني العزِّ أفخرَ بنيانٍ  
وحسنُ نظامٍ لا يُعابُ بنقصانٍ  
تصولُ بأسيافٍ وتسطو بمُرّانٍ  
ويحجّجِ عنها الفرسُ من آلِ ساسانٍ  
وكانَ بها حصناً أمانٍ وإيمانٍ  
وحسنُ بنينا من ملوكِ وأعيانٍ  
لما في حماها من أئمةِ عرفانٍ  
وجاهٌ وعزٌّ مجدهُ ليسَ بالقاني  
تقدّسُ باريها بذكرِ وقرآنٍ

وتفوقُ بناديها بلاغَةَ سَحْبَانِ  
 تطولُ بأبطالِ ، وتسطو بشجعانِ  
 وفي كلِّ نوعٍ أهلُ حَذَقٍ وإتقانِ  
 وسلَّتْ عليها سَيْفَ بَغْيٍ وعدوانِ  
 وأقفرَ رِيعُ الأَنَسِ من بعدِ سكانِ  
 كما انتثرتُ يوماً قلائدُ عقيانِ  
 وخيرَ أناسٍ بينِ عُجَمٍ وعربانِ  
 تَضَرَّمُ من خطبِ عَراها بنيرانِ  
 وإنْ حَصَّتي منه المضرُّ بِجِثماني  
 من الشرقِ إلاَّ ألبستُ ثوبَ أحزانِ  
 رمتكَ بها الأقدارُ ما بينَ إخوانِ  
 رزيةً مالٍ أو تفرُّقُ خِلالِ  
 وطالَ مغيبي عنكمُ منذَ أزمانِ  
 مقيمٌ ، وما هَجَرُ الأَحبَّةِ من شاني  
 على صدقها قامتْ شواهدُ برهانِ  
 وبرَّحَ بي طولُ البعادِ وأضناني  
 بشيءٍ منَ الدُّنيا وزُخرفها الفاني  
 بحالٍ ، ولا أنَّ التكاثرَ ألهاني  
 لنغمةِ أَطيارٍ ورنَّةِ عيدانِ  
 ولا جلوةٍ ما بينَ حُورٍ وولدانِ  
 لغيركمُ في سرِّ سرِّي وإعلاني  
 لأذرجِ جسَني في مقاطعِ أبكفاني

ومن أدباءِ النَّظْمِ والنثرِ معشرُ  
 وكانت على الأعداءِ في حومةِ الوغى  
 وما برحتُ فيها محاسنُ جَمَّةُ  
 إلى أن رَمَتْها الحادثاتُ بأسْهُمِ  
 فما لبثت تلكَ المحاسنُ أن عَفَّتْ  
 وشُتَّتْ ذاكَ الشَّمْلُ من بعدِ جَمْعِهِ  
 فأعْظِمُ برُزءَ خصِّ خَيْرِ مدينةِ  
 لعمري لقد كادت عليها قلوبُنَا  
 وقد عمَّنا غَمٌ بعظمِ مصابها  
 وما بَقِيَتْ فيما عَلمناهُ بلدةُ  
 فصبراً أخي صبراً على المحنةِ التي  
 فما الدهرُ إلاَّ هَكَدَا فاصطبرْ له :  
 أحبابنا إن فَرَّقَ الدهرُ بيننا  
 فأني على حفظِ الودادِ وحَقِّكمُ  
 وواللهِ واللهِ العَظِيمِ أليَّةُ  
 لقد زادَ وجدي واشتياقي إليكمُ  
 فلا تحسبوا أني تسلَّيتُ بَعْدَكمُ  
 ولا أتني يوماً تناسيتُ عهدكمُ  
 ولا راقني روضٌ ، ولا هَشَّ مسمعي  
 ولا حلَّ في فكري سواكمُ بخلوةِ  
 ولا اختلجتُ يوماً ضمائرُ مُهْجَتي  
 ولو لم أسَلَّ النفسَ بالقُربِ واللقا

فما أنا في عَوْدِي إِلَيْكُمْ بِأَيْسٍ  
 عَلَيْكُمْ سَلامُ اللهِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ  
 مَدَى الدَّهْرِ ما نَاحَتْ مَطوْقَةٌ وما  
 فما اليأسُ إلاّ من علامةِ كُفْرانِ  
 نَجْمَةٍ صَبَّ لا يَدِينُ بِسُلْوانِ  
 تَعاقبُ بَيْنَ الخَافِقِينَ الجَدِيدانِ

[ فونية ابن الخطيب ]

ولصاحب الترجمة لسان الدين ابن الخطيب قصيدة طنانة بهذا الوزن والقافية ،  
 مدح بها السلطان أبا سالم المريني حين فتح تلمسان ، وقد رأيت إيرادها في هذا  
 الباب ، لما اشتمل عليه آخرها من شرح أمر الاغتراب ، الذي حير الألباب ،  
 وللمناسبة أسباب ، لا تخفى على من له فكر مصيب ، وكلُّ غريب للغريب  
 نسيب ؛ وهي <sup>١</sup> :

أطاعَ لسانِي في مَدِيحِكَ إِحْسانِي  
 فَأُطْلِعُهَا تَفْتَرُ عَنْ شَنْبِ المُنَى  
 كما ابْتَسَمَ النَوَّارُ عَنْ أَدْمَعِ الحِيا  
 كما صَفَقَتْ رِيحُ الشِّمالِ شَمولها  
 تُهَنِّيكَ بِالْفَتْحِ الَّذِي مَعْجَزاتُهُ  
 خَفَقَتْ إِلَيْها وَالْجُفُونُ ثَقِيلَةٌ  
 وَقَدَّتْ إِلى الأَعْداءِ فِيها مَبادِرًا  
 تَمُدُّ بِنوُدِ النَصْرِ مِنْهُمِ ظِلالها  
 جَاحِجَةٌ<sup>٣</sup> غَرُّ الوِجوهِ كَأَنما  
 أَمَدَكَ فِيها اللهُ بِالْمِلإِ العِلا  
 وَقَدْ لَهَجَتْ نَفْسي بِفَتْحِ تِلْمِسانِ  
 وَتُسْفِرُ عَنْ وَجهِ مِنَ السَّعْدِ حِيا<sup>٢</sup>  
 وَجَفَّ بِجَدِّ الوَرْدِ عارِضُ نِيسانِ  
 فبانَ ارْتِياحُ السِّكْرِ فِي غُصْنِ البانِ  
 خوارِقُ لَمْ تُدْخِرْ سِواكَ لِإنسانِ  
 كما خَفَّ شَيْئُ الكَفِّ مِنْ أُسْدِ خَفانِ  
 لِيوْثِ رِجالِ فِي مَنابِ عَقبانِ  
 على كُلِّ مَطعامِ العِشِيَّاتِ مَطعانِ  
 عَمائمُهُمْ فِيها مَعانِدُ تِيجانِ  
 فَجِيشِكَ ، مَها حَقَّقَ الأَمْرُ ، جِيشانِ

١ مطلعها وبعض أسطر من الرسالة التالية في أزهار الرياض ١ : ٢٨٦ .

٢ ق ص : حنان .

٣ الجاحجة : السادة .

لقد جُنيتُ منك الغصونُ إلى جاني  
وكانت على أهليه بيعة رضوانِ  
قضى المشتري فيها بعزلة كيوانِ  
وقوفاً مع المشهورِ من رأيِ يونانِ  
ولم تشكُ فيها الشمسُ من بحسِ ميزانِ  
ولا نازعتُ نوبها كفُ عدوانِ  
فلم يحتجِ الفرغانُ فيها لفرغانِ  
ولو خفقتُ فيها طوابعُ بلدانِ  
وجوبٌ إذا خصتُ سواكُ بإمكانِ  
فقد قاسَ تمويهاً قياسَ سفسطاني  
وعصيانكُ المحذورُ نزعَةُ شيطانِ  
ويُعرفُ مقدارُ الكتابِ بعنوانِ  
وكمُ وُصلةُ ما بين روحِ وجمانِ  
كأنكُ منها بين لحظِ وأجفانِ  
فلا هُدِمَ المبني ولا عُدِمَ الباني  
ونادتُ بكِ الدُّنيا فلم تكُ بالواني  
ولم تكُ في نيلِ الفخارِ بكسلانِ  
ذوائبَ رضوى أو مناكبَ شهلانِ  
هي الحشرُ لا تحصى بعدَ وحسبانِ  
يعمُّ الأفاصي والأداني بطوفانِ  
وأفلاذُ آفاقِ ، وموعدُ رُكبانِ  
تبلدُ منكِ الذهنُ في العالمِ الثاني  
إذا انتظمتُ بالقلبِ منها جناحانِ

لقد جُليتُ منكِ البلادُ لخاطبِ  
لقد كستِ الإسلامَ بيعتكِ الرضى  
ولله من مُلكِ سعيدٍ ونُصبَةٍ  
وسجّلِ حكمِ العدلِ بينَ بيوتها  
فلم تخشِ سهمَ القوسِ صفحةُ بدرها  
ولم يعترضِ مبتزّها قطعُ قاطعِ  
تولى اختيارُ اللهِ حُسْنَ اختيارها  
ولا صرفتُ فيها دقائقُ نسبةِ  
وجوهُ القضايا في كمالكِ شأنها  
ومن قاسَ منكِ الجودَ بالبحرِ والحيا  
وطاعتكُ العظمى بشارةُ رحمةِ  
وحُبكُ عنوانُ السعادةِ والرضى  
ودينُ الهدى جسمٌ وذاتكُ روحهُ  
تضنُّ بكِ الدُّنيا ويحرسكُ العلا  
بنيتُ على أساسِ أسلافكِ العلا  
وصاحتُ بكِ العليا فلم تكُ غافلاً  
ولم تكُ في خوضِ البحارِ بهائبِ  
لقد هزّتُ منكِ العزمُ لما انتضيتهُ  
ولله عينا من رآها محلةً  
وتنورُ عزمِ فارِ في إثرِ دعوةِ  
عجائبُ أقطارِ ، ومألفُ شاردي  
إذا ما سرحتُ اللحظَ في عرصاتها  
جنى حانَ والنصرُ العزيزُ اهتصارهُ

١ المبتز : الكوكب الذي له حظوظ كثيرة ؛ والنوهر : تاسع البروج .

ومن كُثِبَ بيضٍ بدت فوق كُثبانٍ  
 كما قلبت للعَيْنِ أزهارُ سوسانٍ  
 قرارةَ عِزٍّ في مدينةَ كَتانٍ  
 كأنك قد سَخَرْتَ جنَّ سليمانٍ  
 وطأطأ من إجلالها كلُّ إيوانٍ  
 غداةَ بدت منها البيوتُ بخولانٍ  
 لأضحتُ خلاءَ بلقعا بعد عمرانٍ  
 تقرر ذلكَ السيفُ في غمدِ غمدانٍ  
 إذا خيَّمت شرقاً على طُرُقِ أوثانٍ  
 ليوثُ الشرى ما بين تُركِ وعُربانٍ  
 عياني ، وأعياني تعددُ أعيانٍ  
 إذا صَهَلتُ مفتتةً رجُحُ ألحانٍ  
 ويقذفُ من سُمُرِ الرماحِ بشهبانٍ  
 سحائبه من كلِّ عوجاءِ مِرْنانٍ  
 تعجبت من ريحِ تَفَادُ بأرسانٍ  
 وتذعرُ غزلانَ الرمالِ بغزلانٍ  
 أباي النصرُ يوماً أن تلمَّ بأجفانٍ  
 فقلتُ: سيوفُ أم شقائقُ نعمانٍ  
 ولا ينكرُ الأقوامُ نخجلةَ عُربانٍ  
 قد احتفلت أوضاعها منذ أزمانٍ  
 نجيعاً ووافاها الغبارُ بأشنانٍ  
 جزاك على الإحسانِ منك بإحسانٍ  
 وعزمك والنصرُ المؤزرُ إلْفانٍ  
 وسرْحانٍ في غابِ العدا كلُّ سِرحانٍ

فمن سَحِبُ لاحتُ بها شُهْبُ القنا  
 مضاربُ في البَطْحاءِ بيضُ قباها  
 وما إن رأى الرءاونَ في الدهرِ قبلها  
 تفوتُ التفاتَ الطَّرَفِ حالَ اقتبالها  
 فقد أطرقت من خوفها كلُّ بيعةٍ  
 وقد ذُعرَتُ خولانُ بينَ بيوتها  
 فلو رُميتُ مصرُ بها وصعيدُها  
 ولو يمتت سيفَ بن ذي يزنٍ لما  
 تُراعُ بها الأوثانُ في أرضِ رومةٍ  
 وتجفيلُ إجفالِ النعامي ببرقةٍ  
 وعرضاً كيومِ العرضِ أذهلَ هولهُ  
 وجيشاً كقطعِ الليلِ للخيَلِ تحتهُ  
 فيومِضُ من بيضِ الطُّبِّيِ بيوارقِ  
 ويمطرُ من ودقِ السهامِ بحاصبِ  
 وجرداً إذا ما ضمَّرتُ يومَ غايَةٍ  
 تُسابقُ ظلمانَ الفلاةِ بمثلها  
 ودونِ مهبةِ العزمِ منك قواضبُ  
 نظرتُ إليها والنجيجُ لباسُها  
 تفتتحُ ورداً خدُّها حين جردتُ  
 كأنَّ الوغى نادى بها لوليمةٍ  
 فإن طعمتُ بالنصرِ كان وضوءها  
 لقد خلصتُ لله منك سجيَّةُ  
 فسيفكُ للفتحِ المبينِ مصاحبُ  
 فرحُ واغدُ للرحمنِ تحتَ كلاءةٍ

ودُمُ والمُنَى تَدْنِي إِلَيْكَ قَطَافِهَا  
 وَكُنْ وَاثِقاً بِاللَّهِ مُسْتَنْصِراً بِهِ  
 كِفَاكَ الْعِدَا كَافٍ لِلْمَلِكِ كَافِلٌ  
 رَضِيَ الْوَالِدَ الْمَوْلَى أَيْبِكَ عَرَفْتَهُ  
 فَكَمْ دَعْوَةٌ أَوْلَاكَ عِنْدَ انْتِقَالِهِ  
 فَعَرُفْتِ فِي السَّرَّاءِ نِعْمَةً مُنْعِمٍ  
 عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي الْفَخَارَ بِدَعْوَةٍ  
 وَسُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْفَخْرِ قَدْ أَتَتْ  
 وَمَنْ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ فِي ثَبَتِ مَوْقِفٍ  
 إِذَا هُمْ لَمْ يَلْفُتْ بِلَحْظَةٍ هَائِبٍ  
 فَصَاحَةٌ قَسٌّ فِي سَمَاحَةٍ حَاتِمٍ  
 شَمَائِلُ مَيْمُونِ النَّقِييَةِ أَرُوعٌ  
 مَحَبَّتُهُ قَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ  
 هِنِيئاً أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِنِعْمَةٍ  
 لَزَيْتِنْتَ أَجْيَادَ الْمَنَابِرِ بِالتِّي  
 قَلَائِدُ فَتَحَ مِنْ لَكِنْ قَدْرَهَا  
 أَمْوَالِي ، حَيٍّ فِي عِلَاقِ وَسَيْلِي  
 أَبَادِيكَ لَا أَنْسَى عَلَى بَعْدِ الْمَدَى  
 فَلَا جَحْدُ مَا خَوَّلْتَنِي مِنْ سَجِيئِي  
 وَمَهْمَا تَعَجَّلْتَ الْحَقُوقَ لِأَهْلِهَا  
 وَرَكْنِي الَّذِي لَمَّا نَبَا بِي مَتَزَلِي  
 وَعَالَجَ أَيَّامِي وَكَانَتْ مَرِيضَةً  
 فَأَمَّنَّنِي الدَّهْرَ الَّذِي قَدْ أَخَافَنِي

مَيْسَرَ أَوَطَارٍ مَمَهَّدَ أَوْطَانِ  
 فَسُلْطَانُهُ يَعْلُو عَلَى كُلِّ سُلْطَانِ  
 فَضْلِكَ نِضُو مَيْتٍ بَيْنَ أَكْفَانِ  
 وَقَدْ أَنْكَرَ الْمَعْرُوفُ مِنْ بَعْدِ عَرَفَانِ  
 إِلَى الْعَالَمِ الْبَاقِي مِنَ الْعَالَمِ الْفَاقِي  
 وَالْحَفَّتْ فِي الضَّرَّاءِ رَحْمَةٌ رَحْمَانِ  
 مَجْرَدَةٌ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيقِ بَرَهَانِ  
 بِكُلِّ صَاحِحٍ عَنِ عَلِيِّ وَعِثْمَانِ  
 إِذَا مَا التَّقَى فِي مَوْقِفِ الْحَرْبِ صَفْقَانِ  
 وَإِنْ مَنْ لَمْ يَنْفُتْ بِلَفْظَةِ مَنَانِ  
 وَإِقْدَامُ عَمْرٍو تَحْتَ حِكْمَةِ لِقْمَانِ  
 لَهُ قَصَبَاتُ السَّبْقِ فِي كُلِّ مِيدَانِ  
 وَطَاعَتُهُ فِي اللَّهِ عُقْدَةٌ إِيْمَانِ  
 حُبِّيَّتَ بِهَا مِنْ مَطْلُوقِ الْجُودِ مَنَانِ  
 أَتَاحَ لَهَا الرَّحْمَنُ فِي آلِ زَيْتَانِ  
 تَرَفَّعَ أَنْ يُدْعَى قَلَائِدَ عَقِيْسَانِ  
 وَلَطْفَكَ بِي دَأْباً بِمَدْحِكَ أَغْرَانِي  
 نَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ شَرِّ نَسِيَانِ  
 وَلَا كَفْرُ نِعْمَاكَ الْعَمِيمَةِ مِنْ شَانِي  
 فَإِنَّكَ مَوْلَايَ الْحَقِيقُ وَسُلْطَانِي  
 أَجَابَ نِدَائِي بِالْقَبُولِ وَأَوَانِي  
 بِحِكْمَةٍ مَنْ لَمْ يَنْتَظِرْ يَوْمَ بَحْرَانِ  
 وَجَدَّدَ لِي السَّعْدَ الَّذِي كَانَ أَبْلَانِي

وشيكاً وأعطاني فأفعم<sup>١</sup> أعطاني<sup>١</sup>  
 يقبلُ أرداني ، ومن بعدُ أرداني  
 ومعهد أحبابي ومألف جبراني  
 وجم<sup>٢</sup> بها وفري وجل بها شاني  
 وقد عرفت مني شمائل نشوان  
 إذا الحلم<sup>٣</sup> أوطاني بها تُرب أوطاني  
 عليّ خطوب<sup>٣</sup> جمّة ذات ألوان  
 بأنّ خواني كان مجمع خواني  
 عليّ بما لا أرتضي شرّ أعواني  
 وقد فتّ ما ألفتت من يتلافاني  
 بريئاً رماه الدهر في موقف الجاني  
 وإن جهلوا باءوا بصفقة خسران  
 وزنت بقسطاس قويم وميزان  
 هزيمة ردّ أو حطيطة نقصان  
 تحدّق من علو إلى صرح هامان  
 إقالة ذنب أو إنالة غفران  
 وعهدة إسراي وحنة إعلاني  
 بترديد ذكر أو تلاوة قرآن  
 إلى ملكك الأرضي لشمّرت أرداني  
 طلابي ما بعد النهاية أعياني  
 فصحّ أدائي واقتدائي وإتقاني

وحوّلتني الفضل الذي هو أهله  
 تخوّنتي صرف الحوادث فأنثني  
 وأزعجتني من منشي ومبوتني  
 بلادي التي فيها عقدت تماثمي  
 تحدّثني عنها الشمال فتثني  
 وآمل أن لا أستفيق من الكرى  
 تلوّن إخواني عليّ وقد جنّت  
 وما كنت أدري قبل أن يتنكروا  
 وكانت ، وقد حمّ القضاء ، صنائي  
 فلولاك بعد الله يا ملك العلا  
 تداركت مني بالشفاعة منعماً  
 فإن عرف الأقوام حثك وقتوا  
 وإن خلطوا عرفاً بنكر وقصروا  
 وحرمة هذا اللحد بأبي كمالها  
 وقد نمت عن أمري ونبتت همة  
 إذا دانت الله النفوس وأملت  
 فمولاك يا مولاي قبلة وجهي  
 وقفت على مثواه نفسي قائماً  
 ولو كنت أدري فوقها من وسيلة  
 وأبلغت نفسي جهدها غير أنني  
 قرأت كتاب الحمد فيك لعاصم

١ الأعتان : جمع عطن ، يعني الساحة ، وأفعم : ملأ .

٢ جم : كثر وطال .

٣ ص : الحكم .



فدونكها من بحرِ فكري لؤلؤاً      يفصلُ من حسنِ النظامِ بمرجان  
وكانَ رسولُ الله بالشعرِ يعتبي      وكم حُجَّةً في شعرِ كعبٍ وحسان  
ووالله ما وفيتُ قدركَ حقَّهُ      ولكنَّهُ وسعي ومبلغُ إمكاني

[رسالة لسان الدين إلى أبي سالم]

وكتب لسان الدين رحمه الله قبل هذه القصيدة نثراً من إنشائه يخاطب به السلطان أبا سالم المذكور ، وذلك أنه ورد على لسان الدين وهو بشالة سلا كتاب السلطان المذكور بفتح تلمسان ، وكان وروده يوم الخميس سابع عشر شعبان عام واحد وستين وسبعمائة ، ونص ما كتب به لسان الدين :

مولاي فتاح الأقطار والأمصار ، فائدة الأزمان والأعصار ، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار ، قدوة أولي الأيدي والأبصار ، ناصر الحق عند قعود الأنصار ، مُستصرخ الملك الغريب من وراء البحار ، مصداق دعاء الأب المولى في الأصائل والأسحار ، أبقاكم الله سبحانه لا تقف إيالتكم عند حدّ ، ولا تحصى فتوحات الله تعالى عليكم بعدّ ، ولا تفيق أعداؤكم من كدّ ، ميسراً على مقامكم ما عسر على كل أب كريم وجدّ ، عبدكم الذي خلص إبريز عبوديته لملك ملككم المنصور ، المعترف لأدنى رحمة من رحماتكم بالعجز عن شكرها والقصور ، الداعي إلى الله سبحانه أن يقصر عليكم سعادة العصور ، ويذللّ بعز طاعتكم أنف الأسدِ الهصور ، ويبقي الملك في عقبكم وعقب عقبكم إلى يوم ينفخ فيه الصور ، فلان من الضريح المقدس بشالة ، وهو الذي تعددت على المسلمين حقوقه ، وسطع نوره وتلاًلاً شروقه ، وبلغ مجده السماء لما بسقت فروعه ووشجت عروقه ، وعظم ببيوتكم فخره فما فوق البسيطة فخر يفوقه ، حيث الجلال قد رست هضابه ، والملك قد كسيت بأستار الكعبة الشريفة قبابه ، والبيت العتيق قد ألحفت الملاحف الإمامية أثوابه ، والقرآن العزيز ترتل أحزابه ،

١ في الأصول : الأدب ؛ والمعنى أنه صدق فيه دعاء أبيه أبي الحسن .

والعمل الصالح يرتفع إلى الله ثوابه ، والمستجير يخفي بالهبة سؤاله فيجهر بنعرة العز جوابه ، وقد تفيأ من أوراق الذكر الحكيم حديقة ، وخميلة أنيقة ، وحط بجودي الجود نفساً في طوفان العزّ غريقة ، والتَّحَفَ رُفِرَ الهيبة التي لا تهتدي النفس فيها إلاّ بهداية الله تعالى طريقة ، واعتز بعزة الله وقد توسط جيش الحرمة المرينية حقيقة ، إذ جعل المولى المقدس المرحوم أبا الحسن مقدمة وأباه وجده سيقه . يرى برّكم بهذا اللحد الكريم قد طنب عليه من الرضى فُسْطَاطاً ، وأعلق به يدَ العناية المرينية اهتماماً واغْتِبَاطاً ، وحرر له أحكام الحرمة نصّاً جلياً واستنباطاً ، وضمن له حسن العقبي التزمناً واشترطاً ، وقد عقد البصر بطريقة رحمتكم المنتظرة المرتقبة ، ومد اليد إلى لطائف شفاعتكم التي تتكفل بعقّ المال كما تكفلت بعقّ الرقبة ، وشرع في المراح بميدان نعمتكم بعد اقتحام هذه العقبة ، لما شنت الأذنَ البشري التي لم يبقَ طائر إلاّ سجع بها وصدح ، ولا شهاب دُجِنَ إلاّ اقتبس من نورها واقتدح ، ولا صدر إلاّ انشرح ، ولا غصن عطف إلاّ مرّح ، بشرى الفتح القريب ، وخبر النصر الصحيح الحسن الغريب ، فتح تلمسان الذي قلّد المنابر عقود الابتهاج ، ووهب الإسلام منيحة النصر غنيّةً عن الانتهاج . وألحف الخلق ظلاًّ ممدوداً ، وفتح باب الحج وكان مسدوداً ، وأقرّ عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ، وأضرع بسيف الحق جباهاً أبيّةً وخذوداً ، وملككم حق أبيكم الذي أهان عليه الأموال ، وخاض من دونه الأهوال ، وأخلص فيه الضراعة والسؤال ، من غير كد يغمز عطفَ المسرّة ، ولا جهد يكدر صفو النعم الثرة ، ولا حصر ينفضُ به المنجنيق ذؤابته ، ويظهر بتكرار الركوع إنابته .

فالحمد لله الذي أقال العثار ، ونظم بدعوتكم الانتثار ، وجعل ملككم يجدد الآثار . ويأخذ الثار . والعبد يهنيء مولاه . بما أنعم الله تعالى به عليه وأولاه . فإذا أجال العبيدُ قِدَاحَ السرور فللعبد المُعَلّي والرقيب . وإذا استهموا حظوظ الحذل فلبي القسم الوافر والنصيب ، وإذا اقتسموا فريضة شكر الله فلي الحظ

والتعصيب . لتضاعف أسباب العبودية قبلي ، وترادف النعم التي عجز عنها قولي وعملي ، وتقاصر في ابتغاء مكافأتها وجددي وإن تطاول أمني ، فمقامكم المقام الذي نفس الكُربة ، وآس الغربة ، ورعى الوسيلة والقربة ، وأنعش الأرماق ، وفكّ الوثاق ، وأدرّ الأرزاق ، وأخذ على الدهر بالاستقالة العهد والميثاق .

وإن لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء ، ويمثل بين يدي الخلافة العظيمة السنا والسَّاء ، ويمد بسبب اليد إلى تلك السماء ، فقد باشر به اليد التي يمن مولاي لتذكر تقبيلها ، ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الأبوية وتكميلها ، ووقفت بين يدي ملك الملوك الذي أجال عليها القداح ، ووصل في طلب وصالها بالمساء الصباح ، وكان فتحه إياها أبا عُدرة الافتتاح ، وقلت : يهنيك يا مولاي ردّ ضالتك المشودة ، وجبر لقطعك المعرفة المشهودة ، ورد أمتك المودودة ، فقد استحقها وارثك الأرضي ، وسيفك الأمضي ، وقاضي دينك ، وقرّة عينك ، مستنقذ دارك من يد غاصبها ، وراذرتك إلى مناصبها ، وعامر المثوى الكريم ، وسائر الأهل والحريم . مولاي : هذه تلمسان قد طاعت ، وأخبار الفتح على ولدك الحبيب إليك قد شاعت ، والأمم إلى هنائه قد تداعت ، وعدوك وعدوه قد شردته المخافة ، وانضاف إلى عرب الصحراء فخفضته الإضافة ، وعن قريب تتحكم فيه يد احتكامه ، وتسلمه السلامة إلى حِمَامه ، فلتطب يا مولاي نفسك ، وليستبشر رمسك . فقد نمت بركتك وزكا غرسك ، نسأل الله أن يورد على ضريحك من أنباء نصره ما تفتح له أبواب السماء قبولا ، وترادف إليك مدداً موصولاً ، وعددأ آخرته خير لك من الأولى ، ويعرفه بركة رضاك ظعنأ وحلولاً ، ويُضفي عليك منه سراً مسدولاً .

ولم يقنع العبد بخدمة النثر ، حتى أجهد القريحة التي ركضها الدهر فأنضأها ، واستشفها الحادث الجلل فتقضأها ، فلفق من خدمة المنظوم ما يتغمد حلمكم تقصيره ، ويكون إغضاؤكم إذا لقي معرة العتب وليه ونصيره ، وإحالة مولاي

على الله في نفسي جبرها ، ووسيلة عرفها مجده فما أنكرها ، وحرمة بضريح  
مولاي والدِه شكرها ، ويطلع العبد منه على كمال أمله ، ونجح عمله ،  
وتسويغ مقترحه وتميم جذله :

أطاع لساني في مديحك إحساني

إلى آخر القصيدة التي تقدمت .

[ نونية الفقيه عمر الزجال ]

وحيث اقتضت المناسبة جَلَبَ هذه النونيات فلنضف إليها قصيدة أديب  
الأندلس الفقيه عمر صاحب الأرزجال ، إذ هو من فرسان هذا المجال ، وقد وطَّأ  
لها بنثر ، وجعل الجميع مقامة ساسانية ، سماها « تسريح النصال إلى مقاتل  
الفصال » ونصها<sup>١</sup> : يا عماد السالكين ، ومحط<sup>٢</sup> المستفيدين والتبركين ، وثمان  
الضعفاء والمساكين المتروكين ، في طريقك يتنافس المتنافس ، وعلى أعطافك  
تُزهي العباءات وتروق الدلافس<sup>٣</sup> ، وبكتابتك تحيا جوامد الأفهام ، وبمذبتك  
تشرذ ذباب الأوهام ، وفي زنبيلك يدس التالد والطارف ، وبعصاك يهش على  
بدائع المعارف ، الله الله في سالك ، ضاقت عليه المسالك ، وشاد ، رُمي بإبعاد ،  
أدركته متاعب الحرفة ، وأقيم من صف أهل الصفة<sup>٤</sup> ، فلا يجد نشاطا ، على ما  
يتعاطى ، ولا يلقي اغتباطا ، إن حلَّ زاوية أو نزل رباطا ، أقصي عن أهل القرب  
والتخصيص ، وابتلي بمثل حالة برصيص<sup>٥</sup> ، فأحيل عليك ، وتوقفت إقالته على

١ قارن بأزهار الرياض ١ : ١١٧ .

٢ الأزهار : ومحط رحال .

٣ الدلافس : جمع دلفاس ، وقد مر من قبل « دفاس » - وكلاهما صحيح - وهو نوع من الثياب .

٤ أهل الصفة : قوم من فقراء المهاجرين كانوا يأوون إلى صفة المسجد في عهد الرسول لأنه لا مأوى لهم غيرها .

٥ برصيص أو برصيصا : من عباد بني إسرائيل ثم فتنه الشيطان .

توبة بين يديك ، فكاتبك استدعاء ، واستوهب منك هداية ودعاء ، ليمسح  
 على ما سويت ، ويتحمل عنك أشنات ما رويت ، فيلقى الأكفء الظرفاء عزيزاً ،  
 ويباهي بك كل من خاطبك مستجيزاً ، فاصرف إليّ محيا الرضى ، وعدّ من  
 إيناسك للعهد الذي مضى ، ولا تلقي معرضاً ولا معرضاً ، وأصخ لي سمعك  
 كما قدر الله تعالى وقضى :

تعال نجدّها طريقتة ساسان<sup>١</sup>  
 ونصرف إليها من مثار عزائم  
 ونعقد على حكم الوفاء هواءنا  
 ونقسم على أن لا نصدقَ وأشيأ  
 يطوف حولينا ليفسد بيننا  
 على أننا من عالم كلما بدا  
 وحاشاك أن تلقى عن الصلح معرضاً  
 وإني أهمني شؤون كثيرة  
 فأنت إمامي إن كلفت بمذهب  
 سأرعاك في أهل العباءات كلما  
 ويا لابسى تلك العباءات إنها  
 تفرقت الألوان منها إشارة  
 ويا بأبي الفصّال شيخ طريقتة  
 إذا جاء في الثوب المحبر خلته  
 فما تأمن الأبدان آفة لسعها  
 سأدعوك في حالات كيدي وكديتي

نعض عليها ما توالى الجديدان  
 ونخلف عليها من مؤكّد أيمان  
 لنا من أقوال زور وبهتان  
 يروح ويغدو بين إثم وعدوان  
 بمنطق إنسان وخدعة شيطان  
 تعوذ منه عالم الإنس والجان  
 إلى الصلح آلت حرب عبس وذبيان  
 وصلحك أولى ما أقدم من شاني  
 وأنت دليلي إن صدعتُ ببرهان  
 رأيتك في أهل الطيالس ترعاني  
 لباس إمام في الطريقة دهقان  
 بأنك تأتي من حلاك بألوان  
 خلوب لألباب لعوب بأذهان  
 زنبيرة قد مدّ منها جناحان  
 وإن أقبلت في سابغات وأبدان  
 بشيخي ساسان وعمي هامان

١ طريقة ساسان : أي طريقة أهل الكدية .

فإن كان في الأنسابِ منّا تباينٌ  
ألا فادعُ لي في جنح ليلك دعوةً  
لك الطائر الميمون في كلِّ وجهةٍ  
فكم من فقيرٍ بائسٍ قد عرفتهُ  
وكم من رفيع الجاه واليت أنسهُ  
فلو كنتَ للفتح بن خاقان صاحباً  
ولو كنتَ للصابي صديقاً ملاطفاً  
ولو كنتَ من عبد الحميدٍ مقرباً  
ولو كنتَ قد أرسلتها دعوةً على  
ولو كنتَ في يوم الغبيط مراسلاً  
ولو كنتَ في حرب الأمين لطاهراً  
ولو كنتَ في مغزى أبي يوسفٍ لما  
ولو أن كسرى يزدرجدهُ عرفتهُ  
ولو أن لذريقاً وطئت بساطهُ  
وفيما مضى في فاسٍ أوضحُ شاهدٍ  
ولما اعتنى منك السعيدُ بكاتبٍ  
فلا تنسني من أهل ودكٍ إنني

فما تنكرُ الآدابُ أنا نسيانِ  
لِتُسْجِحَ آمالي ويرجعَ ميزاني  
سريتَ إليها غير نكسٍ ولا واني  
فرقتُ عليه نعمةً ذات أفنانِ  
فعاشَ قرير العينِ مرتفع الشانِ  
لما خانهُ المقدور في ليلة الخانِ<sup>١</sup>  
لما قبِلتُ فيه مقالةً بهتانِ<sup>٢</sup>  
لما هزم السفاحُ أشياخَ مروانِ  
أبي مسلمٍ ما حاز أرض خراسانِ  
لبسطامٍ لم تهزمُ به آلُ شيانِ<sup>٣</sup>  
لما هام في يومِ اللقاء ابن ماهانِ<sup>٤</sup>  
رماهُ بَعْدَ رِعبه في تلمسانِ<sup>٥</sup>  
لما لاح مقتولاً على يدِ طحانِ<sup>٦</sup>  
لما أثرتُ فيه مكيدةُ اليانِ<sup>٧</sup>  
غنيّ لدينا عن بيانٍ وتبيانِ  
رأى ما ابتغى من عز ملك وسلطانِ  
أخافُ الليالي أن تطولَ فتنسني

١ الفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمع وجد مقتولاً بخان في مدينة مراکش .

٢ أبو إسحاق الصابي سجنه عضد الدولة .

٣ يوم الغبيط بين تميم وشيبان أسر فيه بسطام بن قيس .

٤ علي بن عيسى بن ماهان قائد جيش الأمين .

٥ يوسف بن يعقوب المريني غزا تلمسان وحاصرها وقتله في أثناء ذلك عبده سعادة .

٦ آخر ملوك الفرس ، هرب من وجه العرب إلى بلخ فقتله هناك طحان .

٧ اليان هو ييليان الذي كاد للذريق وحررض العرب وساعدهم على دخول الأندلس .

ولا خيرَ إن تجعلَ كفاءَ قصيدتي  
فجدُّ بدنانيرٍ ولا تكنِ التي  
فجودك فينا الغيثُ في رملِ عالجٍ  
وما زلتَ من قبلِ السؤالِ مقابلاً  
ولا تنسِ أيتاماً تفضتَ كريمةً  
وتألفنا فيها لقبضِ إتاوةٍ  
وقد جلسَ الطرقونُ بالبعدِ مطرقاً  
عريفيَ يلحاني إذا ما أتيتهُ  
وقد جمعتُ تلكَ الطريقةَ عندنا  
إذا استزلوا الأرواحَ باسمِ تبادرتُ  
وإنْ بجزوا عندَ الحلولِ تأرجتُ  
وإنْ فتحوا الداراتِ<sup>٨</sup> في ردِّ آبي  
فيحسبُ أن الأرضَ حيثَ ارتمتْ به  
وقد عاشرتنا أسرةً كيميويةً  
فله من أعيانِ قومٍ تألفوا

- ١ مدح ابن دراج خيران الصقلبي صاحب المرية بقصيدته « لك الخير قد أوفى بمهدك خيران »  
(ديوانه : ٨٦) والظاهر أنه لم يحزل جائزته عليها .  
٢ أي يريد دنانير حقيقية لا التي تحدث عنها المتنبي حين وصف أشعة الشمس بين الشجر في شعب  
بوان وشبهها بالدنانير .  
٣ يشير إلى قول الشاعر (الفتح ٣ : ٥٨٠) :  
الماء في دار عثمان له ثمن والخبز شيء له شان من الشان  
٤ زاوية المحروق ودار همدان موضعان بفاس .  
٥ الطرقون : كلمة مغربية معناها من بيده قبض ضرائب اللهو والأعراس وما أشبه .  
٦ ميمون وبرقان من الجن .  
٧ اللوبان عند المغاربة ما يعرف عند المشاركة باسم « اللبان » .  
٨ الدارات : حلقات يعقدها شيوخ المشعوذين لكشف السر عند حدوث سرقة أو إباق أو نحو ذلك .

ونحنُ على ما يغفرُ الله إنَّما  
 مع الصبحِ نضفيها عباءةَ صُفَّةِ  
 أتذكرُ في سفحِ العُقَابِ مبيتكم  
 لديكم من الألوانِ ما لم يجيء به  
 وكم شائقٍ منكم إلى عقدِ تَكَّةِ  
 فأطفأتَ قنديلَ المكانِ تَعَمِّدًا  
 وناديت في القومِ الركوبَ فأسرعوا  
 فأقسم بالأيمن لولا تعفُّني  
 فعُدُّ للذي كُنَّا عليه فإن لي  
 فمن يومٍ إذ صيرت وديَّ جانبًا  
 ولا روت الكتابُ بعد نفارنا  
 وما هو قصدي منك إلا إجازةُ  
 وإنك إن سحَّرت لي وأجزتني  
 ولم لا ترويني وأنت أجلُّ من  
 ألا فأجزني يا إمامُ بكلِّ ما  
 ولا تنس للدبَّاعِ نظمًا عرفتهُ  
 ومزدوجاتٍ ينسبون نظامها  
 وألمُ بشيء من خرافاتِ عنبرِ

نروح ونغدو من رباطٍ إلى خانٍ<sup>١</sup>  
 وبالليلِ نلويها زنانيرَ رهبانِ  
 ثمانينَ شخصاً من إناثٍ وذكرانِ  
 طهور ابنِ ذنونٍ ولا عرسُ بورانِ<sup>٢</sup>  
 وكم هائمٍ فيكم على حلِّ هميانِ<sup>٣</sup>  
 وأوماتَ فانقضوا كأمثالِ عقبانِ  
 فريقٌ لنسوانٍ ، وقومٌ لذكرانِ  
 عن سوءٍ لانتحلت عقيدةُ إيماني  
 على الغيرِ إن صاحبتَه حِقْدَ غيرانِ  
 وأعرضت عني ما تناطحَ عترانِ  
 محاورةً من ثعلبانٍ لسرحانِ  
 تخولني التفضيلَ ما بين خلاني  
 لنعم وليِّ صانِ وديِّ وجزاني  
 سقاني من قبلُ الرحيقِ فرواني  
 رويت لمدغليس أو لابنِ قرمانِ  
 فإتكما في ذلك النظمِ سيَّانِ  
 إلى ابنِ شجاعٍ في مديحِ ابنِ بطَّانِ  
 وألْمعُ ببعضٍ من حكاياتِ سوسانِ

١ الأزهار : حان - بالحاء المهملة - .

٢ الإعذار الذنوبي الذي قام به المأمون بن ذي النون ، في الأندلس ، وعرس بوران بنت الحسن بن سهل التي تزوجها المأمون العباسي ، في المشرق ، كلاهما مضرب المثل في البذخ والإسراف .

٣ حذف المقرئ في أزهار الرياض هذا البيت واثنين معه لأن الشاعر أقذع فيها .

٤ ق ص : سجاع .



وإن كنت طالعتَ اليتيمةَ واسيني  
 أجزني بكشفِ الدك<sup>٢</sup> أرضى وسيلةً  
 وناولني المصباحَ فهو لغربتي  
 وألحقَ به شمسَ المعارفِ<sup>٣</sup> إنتي  
 وقد كنتَ قبلَ اليومَ عرفتي به  
 ولا بدَّ يا أستاذَ من أن تميزني  
 وكتبَ ابنُ أحلى كيفَ كانتَ فإنها  
 ولا تنسَ ديوانَ الصبابةِ<sup>٥</sup> والصفاءِ  
 وزهرَ رياضِ في صفوفِ أصحابك  
 كذلكَ فتناولني كتابَ حباب  
 ولي أملٌ في أن أروى رسالةً  
 وحبسَ عليَّ الكوزَ والكاسَ والعصا  
 وصيرَ لي الدلفاسَ أرفعَ لبسةً  
 وقد رقَّ طبعي واعررتني خشيةً  
 وخلَّ مفاتيحَ الطريقةِ في يدي  
 فإني لمَ أخدمكَ إلا بنيةً

بلاميةً في الفحشِ من نظمِ واساني<sup>١</sup>  
 وخيرَ جليسٍ في بساطٍ ودكانٍ  
 ميسرُ أغراضِي ورائدُ سلواني  
 أسائلُ عن إسنادِهِ كلَّ إنسانٍ  
 ولكنني أنسيتهُ بعدَ عرفانٍ  
 بيدِ ابنِ سبعينٍ؛ وفصلِ ابنِ رضوانٍ  
 لوزنِ دقيقِ القومِ أكرمُ ميزانٍ  
 لإخوانِ صدقٍ في الصبا خيرَ إخوانٍ  
 وجبَدَ كساءٍ في مكايِدِ نسوانٍ  
 وزدني تعريفاً بها وببرجانٍ<sup>٦</sup>  
 مضمَّنةً أخبارَ حيٍّ بنِ يقظانٍ  
 فإنكَ مثيرٌ من عِصيٍّ وكيزانٍ  
 فقد جلَّ قدرِي عن حريرِ وكتانٍ  
 تكادُ بها روعي تفارقَ جثمانِي  
 وسوغَ لهم حكمةً مزيدِي ونقصاني  
 وإني لمَ أتبعكَ إلا بإحسانٍ

- ١ الواساني أبو القاسم الحسين بن الحسين وله قصيدة لامية مقذعة في اليتيمة ١ : ٣٥١ يهجو بها المنشأ ابن إبراهيم القرزاز .
- ٢ اسم كتاب لابن شهيد الشاعر ؛ وفي الفهرست ( ٣١٢ ) كتاب الخفة والدك وهو من كتب الشعبة والطلسمات .
- ٣ شمس المعارف للبوني ( - ٦٢٢ ) .
- ٤ يريد به العارف لابن سبعين .
- ٥ اسم كتاب لابن أبي حجلة التلمساني .
- ٦ هكذا في الأصل ، وفي الفهرست لابن النديم ( ٣١٤ ) كتاب « بردان وحباب » لأبي حسان ، وهما كتابان صغير وكبير ، من الكتب المؤلفة في الباه .

فكنُ ليَ بالأسرارِ أفصحَ معلنٍ فإني قد أخلصتُ سرِّي وإعلاني

وليس قصدي - علم الله - بجلب هذه القصيدة ما فيها من المجون ، بل ما فيها من التلميحات التي يرغب في مثلها أهل الأدب والحديثُ شجون ، على أن أمثال هؤلاء الأعلام ، لا يقصدون بمثل هذا الكلام ، إلا مجرد الإحماض ، فينبغي أن ينظر كلامهم الواقفُ عليه بعين الإغضاء عن النقد والإغماض ، ولا يبادر بالاعتراض ، من لم يعلم في الأصول برهان القطع والافتراض ، والله سبحانه المسؤول في التجاوز عن الزلات ، والنجاة من الأمور المضلات ، فغفوه سبحانه وراء جميع ذلك ، والله تعالى المطلع على أسرار الضمائر ، والخبير بما هنالك ، لا رب غيره ، ولا خير إلا خيره .

[ نونية ابن زمرك ]

وحيث ذكرنا هذه القصائد النونية التي اتفق فيها البحر والروي ، وجرت من البلاغة على النهج السوي ، فلا بأس أن نعزها بقصيدة الرئيس الوزير أبي عبد الله ابن زمرك - سماحه الله تعالى - وهي قصيدة ميلادية أنشدها سلطان الأندلس عام خمسة وستين وسبعمائة ، ونجعلها مكفرة لما مر في قصيدة الفقيه عمر من المجون ، ومبلغة للناظرين في هذا التأليف ما يرجون ، والحديث شجون ، وهي قوله<sup>١</sup> :

لعلَّ الصِّبَا إن صافحتَ روضَ نَعْمَانِ      تؤدِّي أمانَ القلبِ عن ظييةِ البانِ  
وماذا على الأرواحِ وهي طليقةٌ      لو احتملتُ أنفاسُها حاجةَ العاني  
وما حالُ من يستودعُ الريحَ سرَّهُ      ويطلبها ، وهي التَّمومُ ، بكتمانِ  
وكالطيفِ أستقره في سِنَّةِ الكرى      وهل تنقَعُ الأحلامُ غلَّةَ ظمآنِ

١ انظر القصيدة في أزهار الرياض ٢ : ٤٢ .

أسائلُ عن نجدٍ ومرمى صباتي  
 وأبدي إذا ریحُ الشمالِ تنفستُ  
 عرفتُ بهذا الحبِّ لم أدرِ سلوةً  
 فیا صاحبي نجوايَ والحبُّ غايةُ  
 وراءَ كما ما اللومُ يثني مقادتي  
 وإني وإن كنتُ الأبيَّ قيادُهُ  
 وما زلتُ أرمي العهدَ فيمن يضيعة  
 فلا تنكرا ما سامني مضضُ الهوى  
 ليَ اللهُ إماماً أومض البرقُ في الدجى  
 وإن سئلَ من غمدِ الغمامِ حُسامه  
 تراءى بأعلامِ الثنيةِ باسماً  
 أسامرُ نجمَ الأفقِ حتى كأننا  
 ومما أناجي الأفقَ أعديهِ بالحوى  
 ويرسلُ صوبَ القطرِ من فيضِ أدمعي  
 وضاعفِ وجدِي رسمُ دارِ عهدتها  
 على حينِ شربِ الوصلِ غيرِ مُصرِّدٍ  
 لئن أنكرتُ عيني الطلولَ فإنها  
 ولم أرَ مثلَ الدمعِ في عرصاتِها  
 ومما شجاني أن سرى الركبُ موهناً  
 غواربُ في بحرِ السرابِ تخالها  
 على كلِّ نضوٍ مثله فكأتما  
 ومن زاجرٍ كوماً مُخطِفةَ الحشا  
 نشاوى غرامٍ يستميلُ رؤوسهم  
 أجاابوا نداءَ البينِ طوعَ غرامهم

ملاعبُ غزلانِ الصريمِ بتعمانِ  
 شمائلَ مرتاحِ المعاطفِ نشوانِ  
 وإني لمسلوبِ الفؤادِ بسُلوانِ  
 فمن سابقِ جلتى مداه ومن واني  
 فإني عن شأنِ الملامةِ في شانِ  
 ليأمرني حبُّ الحسانِ وينهاني  
 وأذكرُ إلفي ما حيتُ وينساني  
 فمن قبل ما أودى بقيسِ وغيلانِ  
 أقلبُ تحتَ الليلِ مقلةً وسنانِ  
 برى كبدي الشوقُ الملمُّ وأضناني  
 فأذكرني العهدَ القديمَ وأبكاني  
 وقد سدلَ الليلُ الرواقَ حليفانِ  
 فأرعى له سُرحَ التجمومِ ويرعاني  
 ويقدحُ زندَ البرقِ من نارِ أشجاني  
 مطالعَ شهبِ أو مراتعِ غزلانِ  
 وصفوُ الليالي لم يكدرَ بهجرانِ  
 تمتُ إلى قلبي بذكرِ وعرفانِ  
 سقى تربها حينِ استهلَّ وأظماني  
 تقادُ به هوجُ الرياحِ بأرسانِ  
 وقد سبحتَ فيه مواخيرَ غربانِ  
 رميَ منها صدرَ المفازةِ سَهْمَانِ  
 توسدُ منها فوقِ عوجاءِ مرنانِ  
 من النومِ والشوقِ المبرحِ سُكرانِ  
 وقد تبلغُ الأوطارَ فرقةَ أوطانِ

يؤمّونَ من قَبْرِ الشَّفِيعِ مَثَابَةً  
إِذَا نَزَلُوا مِنْ طَيِّبَةٍ بِجَوَارِهِ  
بِحَيْثُ عَلَا الْإِيمَانُ وَامْتَدَّتْ ظِلُّهُ  
مَطَالِعُ آيَاتٍ ، مَثَابَةً رَحْمَةً  
هَنَالِكَ تَصْفُو لِلْقَبُولِ مَوَارِدٌ  
هَنَالِكَ تُؤَدِّي لِلسَّلَامِ أَمَانَةٌ  
يَنَاجُونَ عَنِ قَرَبِ شَفِيعِهِمُ الَّذِي  
لِئِنْ بَلَغُوا دُونِي وَخَلَّفْتُ إِنَّهُ  
وَكَمْ عَزْمَةٌ مَلَئَتْ نَفْسِي صَدَقَهَا  
إِلَى اللَّهِ نَشَكُوهَا نَفُوساً أَبِيَّةً  
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَسَاعَدَنِي الْمَنَى  
وَأَقْضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ بِأَنْ أَرَى  
إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ دَعْوَةَ نَازِحِ  
غَرِيبٍ بِأَقْصَى الْغَرْبِ قَبْدَ خَطْوِهِ  
يَجِدُ اشْتِيَاقاً لِلْعَقِيقِ وَبَانِهِ  
وَإِنْ أَوْمَضَ الْبَرْقُ الْحِجَازِيَّ مَوْهِناً  
فِيَا مُوَلِيَّ الرَّحْمَى ، وَيَا مُذْهَبَ الْعَمَى  
بَسَطْتُ يَدَ الْمُحْتَاجِ يَا خَيْرَ رَاحِمِ  
وَسَيْلِي الْعَظْمَى شَفَاعَتِكَ الَّتِي  
فَأَنْتَ حَبِيبُ اللَّهِ خَاتَمَ رِسَالِهِ  
وَحَسْبُكَ أَنْ سَمَّاكَ أَسْمَاءُ الْعَلَاءِ  
وَأَنْتَ لِهَذَا الْكُونِ عِلَّةُ كُونِهِ  
وَلَوْلَاكَ لِلْأَفْلَاقِ لَمْ تَجَلُ نَيْراً  
خِلَاصَةٌ صَفْوِ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمِ

تَطَلَّعُ مِنْهَا جَنَّةٌ ذَاتُ أَفْنَانِ  
فَأَكْرَمُ مُوَلَّى ضَمِّ أَكْرَمِ ضَيْفَانِ  
وَزَانَ حَلِي التَّوْحِيدِ تَعْطِيلِ أَوْثَانِ  
مَعَاهِدُ أَمْلَاقِ ، مَظَاهِرُ إِيْمَانِ  
يُسَقِّتُونَ مِنْهَا فَضْلَ عَفْوٍ وَغَفْرَانِ  
يُحْيِيهِمْ عَنْهَا بَرْوَجِ وَرِيحَانِ  
يُؤْمَلُهُ الْقَاصِي مِنَ الْخَلْقِ وَالِدَانِي  
قَضَاءُ جَرَى مِنْ مَالِكِ الْأَرْضِ دِيَانِ  
وَقَدْ عَرَفْتُ مِنْي مَوَاعِدَ لَيَّانِ  
تَحِيدُ عَنِ الْبَاقِي وَتَغْتَرُّ بِالْقَانِي  
فَأَتْرَكَ أَهْلِي فِي رِضَاهُ وَجِيرَانِي  
أَعَفَّرُ خَدَّيْ فِي ثَرَاهُ وَأَجْفَانِي  
خَفَقُوقِ الْحِشَاءِ رَهْنِ الْمَطَامِعِ هَيْمَانِ  
شَبَابُ تَقْضَى فِي مِرَاحِ وَخُسْرَانِ  
وَيَصْبُو إِلَيْهَا مَا اسْتَجَدَّ الْجَدِيدَانِ  
يَرْدُدُ فِي الظُّلْمَاءِ أَنَّهُ لَهْفَانِ  
وَيَا مُنْجِيَّ الْغَرْقَى ، وَيَا مُنْقَدَّ الْعَانِي  
وَذَنبِيَّ الْجَانِي إِلَى مَوْقِفِ الْجَانِي  
يَلُودُ بِهَا عَيْسَى وَمُوسَى بِنِ عَمْرَانِ  
وَأَكْرَمُ مُخْصِصِ بَزَالْفَى وَرِضْوَانِ  
وَذَاكَ كَمَالُ لَا يَشَابُ بِنَقْصَانِ  
وَلَوْلَاكَ مَا اِمْتَاذَ الْوُجُودُ بِأَكْوَانِ  
وَلَا قَلَّدَتْ لَبَّائِهِنَّ بِشُهْبَانِ  
وَنَكْتَةُ سَرِّ الْفَخْرِ مِنْ آلِ عَدْنَانِ

وسيدُ هذا الخلقِ من نسلِ آدمٍ  
 وكم آيةٌ أطلعت في أفقِ الهدى  
 وما الشمسُ يجلوها النهارُ لمبصرٍ  
 وأكرمُ بآياتِ تحدّيتنا بها  
 وماذا عسى يُشّتي البليغُ وقد أتى  
 فصلّى عليك الله ما انسكبَ الحيا  
 وأيدَ مولانا ابنَ نصرٍ فإنّه  
 أقام كما يرضيك مولدك الذي  
 سمي رسولَ الله ناصرُ دينه  
 ووارثُ سرِّ المجدِ من آلِ خزرجٍ  
 ومرسلها ملءَ الفضاءِ كتابياً  
 حدائقُ خضرٍ والدرعُ غدائرُ  
 تجاوبُ فيها الصاهلاتُ وترتمي  
 فمن كلِّ خوارِ العنانِ قد ارتمى  
 وموردُها ظمأى الكعوبِ ذوابلاً  
 ولله منها والربوعُ مواحيلُ  
 إذا أخلفَ الناسَ الغمامُ وأحلوا  
 إماماً أعادَ الملكَ بعدَ ذهابه  
 فغادرَ أطلالَ الضلالِ دوارساً  
 وشيئها ، والمجدُ يشهدُ ، دولةً  
 وراقَ من الثغرِ الغريبِ ابتسامه  
 لك الخيرُ ما أسنى شماتلك التي

وأكرمُ مبغوث إلى الإنسِ والجانِ  
 بين صباحِ الرشدِ منها ليقظانِ  
 بأجلى ظهوراً أو بأوضحِ برهانِ  
 ولا مثل آياتٍ لمحكمِ فرقانِ  
 ثناؤك في وحيِ كريمٍ وقرآنِ  
 وما سجعتُ ورقاءً في غصنِ البانِ  
 لأشرفُ من يُنمى لملكِ وسلطانِ  
 به سقرَ الإسلامِ عن وجهِ جذلانِ  
 معظّمه في حالِ سرِّ وإعلانِ  
 وأكرمُ من تنمى قبائلُ قحطانِ  
 تدين لها غلبُ الملوكِ بإذعانِ  
 وما أنبتت إلا ذوابلَ مرّانِ  
 جوانبها بالأسدِ من فوقِ عقبانِ  
 به كلُّ مطعامِ العشياتِ مطعانِ  
 ومصدرُها من كلِّ أمّلدَ ريتانِ  
 غمامُ ندّى كفتت بها المحلَ كفّانِ  
 فإنّ نداءهُ والغمامَ لسيانِ  
 إعادةً لا نايي الحسامِ ولا واني  
 وجدّد للإسلامِ أرفعُ بنيانِ  
 محافلها تزهى بيمنِ وإيمانِ  
 وهزّ له الإسلامُ أعطافَ مزدانِ  
 يقصرُ عن إدراكها كلُّ إنسانِ

ذَكَاءَ لِيَاسٍ فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ وَإِقْدَامُ عَمْرٍو فِي بَلَاغَةِ سَحْبَانَ  
أُمُولَآئِي مَا أَسْنَى مَنَاقِبَكَ الَّتِي هِيَ الشُّهْبُ لَا تَحْصَى بَعْدَ وَحْسَبَانِ  
فَلَا زَلَّتْ يَا غَوَاثَ الْبِلَادِ وَأَهْلِيهَا مُبْلَغَ أُوطَارٍ مَمَهَّدَ أُوطَانَ

ولابن زمرك المذكور ترجمة تأتي بها في هذا التأليف إن شاء الله تعالى في محلها ، وهو من تلامذة لسان الدين ، ومن عداد خدامه ، فحين نبا به الزمان ، وتعوّض الخوف بعد الأمان ، كان أحد الساعين في قتله كما سنذكره ، وصرح بدمه وهجوه بعد أن كان ممن يشكره ، وهكذا عادة بني الدنيا يدورون معها حيث دارت ، ويسرون حيث سارت ، ويشربون من الكأس التي أدارت ، وقد تولى المذكور الوزارة عوضاً عن ابن الخطيب ، وصدق طيرٌ عزه بعده على فن من الإقبال رطيب ، ثم آل الأمر به إلى القتل ، كما سعى في قتل لسان الدين ، وكان الجزاء له من جنس عمله ، والمرء يُدان بما كان به يدين ، وعفو الله سبحانه مرجو للجميع في الآخرة ، وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن ينيلنا وإياهم المراتب الفاخرة ، فإنه لا يتعاضمه ذنب ، وليس للكل غيره من رب .

رجع إلى ما كنا بسبيله - وأما لَوْشَةُ التي يُنسب إليها لسان الدين فقد تقدم من كلام ابن خلدون أنها على مرحلة من حضرة غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالمرج ، وقد أجرى ذكرها لسان الدين في الإحاطة وقال : إنها بنت الحضرة ، يعني غرناطة ، وقال ذلك في ترجمة ابن مرج الكحل ، ولذا ذكر الترجمة بكماها تمييزاً للغرض فنقول :

### [ ترجمة ابن مرج الكحل ]

قال رحمه الله ما نصه <sup>١</sup> : محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم ، من

١ ترجمة ابن مرج الكحل منقولة نصاً عن الإحاطة ٢ : ٢٥٢ .

أهل جزيرة شقر ، يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن مرج الكحل .  
 حاله — كان شاعراً مفلحاً غزلاً بارع التوليد رقيق الغزل ، وقال الأستاذ  
 أبو جعفر : شاعر مطبوع حسن الكتابة ذاكر للأدب متصرف فيه ، قال ابن  
 عبد الملك : وكانت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها إجادته ،  
 وكان مبتذل اللباس ، على هيئة أهل البادية ، ويقال : إنه كان أمياً .

من أخذ عنه — روى عنه أبو جعفر ابن عثمان الورداد ، وأبو الربيع ابن سالم ،  
 وأبو عبد الله ابن الأبار ، وابن عسكر ، وابن أبي البقاء ، وأبو محمد ابن عبد الرحمن  
 ابن برطله ، وأبو الحسن الرعيني .

شعره ودخوله غرناطة — قال في عشية بنهر الغنداق من خارج بلدنا لئوشة  
 بنت الحضرة ، والمحسوب من دخلها أنه دخل إلبيرة — وقد قيل : إن نهر الغنداق  
 من أحواز برجة ، وهذا الخلاف داع لذكره<sup>١</sup> — :

عَرَجٌ بِمُنْعَرَجِ الكَيْبِ الأَعْفَرِ	بين الفراتِ وبين شَطِّ الكَوْثِرِ
وَلتَغْتَبِقُنْهَا قَهْوَةٌ ذَهَبِيَّةٌ	من راحتي أَحْوَى المَرَّاشِفِ أَحْوَرِ
وعشيةٍ كم كنتُ أرقبُ وقتها	سمحتُ بها الأيامُ بَعْدَ تَعَذُّرِ
فلننا بهذا ما لنا في روضة	تهدي لنناشِقها شَمِيمَ العَنَبِرِ
والدهرُ من ندمٍ يُسَقِّهُ رأيهُ	فيما مضى فيه بغيرِ تَكْدُرِ
والورقُ تشدو والأراكةُ تنثي	والشمسُ ترفلُ في قميصِ أَصْفَرِ
والروضُ بين مفضضٍ ومذهبٍ	والزهْرُ بين مُدْرَهَمٍ ومدنرِ
والنهرُ مرقومُ الأباطحِ والرُّبى	بمصنَدَلٍ من زهرهِ ومعصفرِ
وكانتُ وكانَ خضرةً شَطَه	سيفٌ يُسَلُّ على بساطِ أَخْضَرِ
وكانتُما ذاكَ الحِبابُ فِرْنْدُهُ	مهما طفا في صفحةِ كالجوهرِ

١ انظر هذه القصيدة أيضاً في أزهار الرياض ٢ : ٣١٥ .

وكأنته ، وجهاتُهُ محفوفةٌ  
نهرٌ يهيمُ بحسنه منَ لم يهيمُ  
بالأس والنعمان ، خدٌ معدرٌ  
ويجيدُ فيه الشعرَ منَ لم يشعرِ  
ما اصفرَّ وجهُ الشمسِ عند غروبها  
إلا لفرقةٍ حُسنِ ذاك المنظرِ

ولا خفاء ببراعة هذا الشعراء ، وقال منها :

أرأتُ جفونكَ مثلهُ من منظرِ  
وجداولٌ كأراقمِ حصاؤها  
ظلُّ وشمسٌ مثلُ خدِ معدرِ  
كبُطونها وجباها كالأظهرِ

وهذا تميم عجيب لم يسبق إليه ، ثم قال منها :

وقرارةٌ كالعشرِ بينَ خميلةٍ  
فكأنتها مشكولةٌ بمصنذلِ  
سالتُ مدانِبها بها كالأسطرِ  
مينَ يانعِ الأزهارِ أو بمعصفرِ  
قد طرّزته يدُ الغمامِ المطرِ  
ملكٌ تجلّى في بساطِ أخضرِ  
يراقُ النواظرَ منه رائقُ منظرِ  
كمَ قادَ خاطرٍ خاطرٍ مستوفزِ  
لو لاح لي فيما تقادم لم أقلُ  
يصفُ النضارةَ عن جنانِ الكوثرِ  
وكم استغزّ جماله من مبصرِ  
« عرج بمنعرج الكئيب الأعفرِ »

قال أبو الحسن الرعيني : وأنشدني لنفسه ٢ :

وعشيةٌ كانت قنيسةً فتيةً  
فكأتما العنقاء قد نصبوا لها  
ألِفوا من الأدبِ الصريحِ شيوخا  
من الانحاء إلى الوقوعِ فُخوخا  
سرَّ السرورِ محدثاً ومصبخا  
يُنسيكَ منها ناسخٌ منسوخا  
والورقُ تقرأ سورةَ الطربِ التي  
شملتَهُمُ آدابهُمُ فتجاذبوا

١ الإحاطة : النظم .

٢ لا يزال النقل عن الإحاطة مستمراً ، وانظر أيضاً برنامج الرعيني .



والنَّهْرُ قد صفحت به نارنجةٌ  
فتخالهم نخلل السماء كواكباً  
خرق العوائد في السرورِ نهارهمُ  
فتمتت من كان فيه منيخا  
قد قارنت بسعودها المريخا  
فجعلت أيباتي له تاريخا  
ومن أبياته في البديهة قوله :

وعندي من مراشفها حديثٌ  
وفي أجفانها السكرى دليلٌ  
تعالى الله ما أجرى دموعي  
وأشجاني إذا لاحت بروقٌ  
يخبرُ أن ريقتهَا مُدامُ  
وما ذقنا ولا زعمَ الهمامُ  
إذا عنت لقلتي الخيامُ  
وأطربني إذا غنت حمامُ

ومن قصيدة :

عذيري من الآمال خابت قصودها  
وقالوا : ذُكرنا بالغنى ، فأجبتهمُ  
يهونُ علينا أن يبيدَ أئاثنا  
وما ضرَّ أصلاً طيباً عدمُ الغنى  
ونالت جزيلَ الحظِّ منها الأخابثُ  
خمولاً وما ذكرُ مع البخلِ ما كُثُ  
وتبقى علينا المكرماتُ الأئاثُ  
إذا لم يغيره من الدهرِ حادثُ

وله يتشوق إلى عمرو بن أبي غياث :

أيا عمرو متى تقضي الليالي  
أبت نفسي هوى إلا شريشاً  
بلقياكم وهن قصصن ريشي  
ويا بُعد الجزيرة من شريشِ

وله من قصيدة :

طقل المساء وللنسيمِ تَضوعُ  
والزهْرُ يضحكُ من بكاء غمامةٍ  
والأنسُ يجمعُ شملنا ويجمعُ  
ريعتُ لشيْمِ سيوفِ برقِ تلمعُ

١ أبي : سقطت من ق .

والنهرُ من طَرَبٍ يصفقُ موجهُ  
فانعمُ أبا عمرانَ والهُ بروضه  
يا شادنَ البانِ الذي دونَ النقا  
الشمسُ يغربُ نورُها ولربما  
إنْ غابَ نورُ الشمسِ لسنا نتقي  
أفلتُ فتابَ سنكَ عنْ إشراقها  
فأمنتُ يا موسى الغروبَ ولم أقلُ

وقال :

أضَرََّ به الليلُ الطويلُ مع البكا  
إذا الليلُ أجرى دمعَه وإذا شكا  
فلم يزلِ الكافورُ للدمِ مُمسكا

ومن بديع مقطوعاته قوله :

مَثَلُ الرزقِ الذي تَطَلُّبُهُ  
أنتَ لا تُدرِكُهُ متبَعاً  
مَثَلُ الظلِّ الذي يمشي مَعَكَ  
فإذا وَلَّيتَ عنه تَبِعَكَ

وقال :

دخلتم فأفسدتم قلوباً بملكها  
وبالجودِ والإحسانِ لم تتخلّفوا  
فأنتم على ما جاء في سورة النمل<sup>٢</sup>  
فأنتم على ما جاء في سورة النحل<sup>٣</sup>

١ من قول الرصافي البلنسي ؛ وسيورده المقرئ :

سقطت ولم تملك يمينك ردها فوددت يا موسى لو أنك يوشع

٢ إشارة إلى الآية الكريمة « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » .

٣ إشارة إلى الآية الكريمة « أينما يوجهه لا يأت بخير » .

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور : رأيت لابن مرج الكحل مَرَجاً  
أحمر قد أجهد نفسه في خدمته ، فلم يُسجَب ، فقلتُ :

يا مَرَجَ كحلٍ ومَنْ هذي المروجُ لهُ ما كان أحوجَ هذا المَرَجَ للكحلِ  
ما حمرةُ الأرضِ من طيبٍ ومن كرمٍ فلا تكنُ طمعاً في رزقها العجلِ  
فإنَّ من شأنها إخلافَ أملها فما تُفارقها كيفيةُ الخجلِ

فقال مجيباً :

يا قائلاً إذ رأى مرجي وحمرةهُ ما كان أحوجَ هذا المَرَجَ للكحلِ  
هو احمرارُ دماءِ الرومِ سيَلها بالببيضِ مَنْ مرَّ من آبائي الأولِ  
أحببتهُ أنْ حكى من قد فتنتُ بهِ في حمرةِ الخلدِ أو إخلافِهِ أُملي

وفاته - توفي ببلده يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول عام أربعة  
وثلاثين وستمائة . ودفن في اليوم بعده .

انتهى ما في الإحاطة في شأن ابن مرج الكحل .

وكتب أبو الحسن علي بن لسان الدين علي أول ترجمته ما نصه : شاعر جليل  
القدر . من مشايخ شعراء الأندلس ، من أهل بَلَنْسِيَة . وسكن جزيرة شقر .  
وكتب على قوله « والنهر مرقوم الأباطح » ما صورته : لم يصف أحدُ النهرَ  
بأرقٍ ديباجةً ولا أظرف من هذا الإمام ، رحمة الله عليه ؛ انتهى كلام ابن لسان  
الدين .

[ رائية شمس الدين الكوفي ]

قلت : وما رأيت رائيةً تقرب من التي لابن مرج الكحل السابقة التي أولها

« عرج بمنعرج الكتيب الأعفر » إلا رائية شمس الدين الكوفي الواعظ ، وهي قوله :

روحُ الزمانِ هو الربيعُ فبكرٍ  
هذا الربيعُ يبيعُ منْ لذاتهِ  
فافرَحُ بهِ فلفرَحَهْ بقدمه  
والكونُ متهجٌ وخفَّاقُ الصبَا  
والغيمُ يبكي ، والأقاحي باسمُ  
والسروُ إن عبثَ النسيمُ فهزْ أء  
وكأنما القداحُ فستقُ فضةِ  
وكأنما المنثورُ في أثوابهِ  
وترى البهارَ كعاشقٍ متخوفٍ  
وكأنما التارنجُ في أوراقهِ ال  
وكأنما الخشخاشُ قومٌ جاءهم  
فثنوا ملابسهم لفرطِ سرورهم  
فتعلقتْ أذيالها بأكفهم  
والطلُّ من فوقِ الرياضِ كأنه  
وترى الرُّبى بالنورِ بين متوجِ  
ورياضها بالزهرِ بين مقترطِ  
والوردِ بين مضعفِ ، ومشفِ  
والزهرِ بين مفضضِ ، ومذهبِ  
والنثرِ بين مطيبِ ، وممسكِ  
والورقِ بين مرجعِ وموجعِ  
ومغردِ ، ومرددِ ، ومعددِ

وانهضُ إلى اللذاتِ غيرَ مُنكَّرِ  
أصنافَ ما تهوى ، فأينَ المشتري ؟  
رفلَ الشقائقُ في القباءِ الأحمرِ  
يحيمي القلوبَ بنشره المتعطرِ  
لبُكائه كتبَسَمِ المُستبشرِ  
طاف الغصونُ يميسُ ميسَ موقرِ  
يُهدي إليكَ أريجَ مسكٍ أذفرِ  
ألوانُ ياقوتِ أنيقِ المنظرِ  
متشوقٍ بادِ بوجهِ أصفرِ  
قنديلُ ، والأوراقُ شبهُ مسحرِ  
خبِرُ يسرهمُ بطيبِ المخبرِ  
كي يخلعوا فرحاً بقولِ المخبرِ  
وتعلقتْ أزياقها بالمنحرِ  
دررُ نثرنَ على بساطِ أخضرِ  
ومدملجِ ، ومخلخلِ ، ومسورِ  
ومطوقِ ، ومنطوقِ ، ومزترِ  
ومكتفِ ، وملطفِ لم يُهضرِ  
ومرصعِ ، ومدرهمِ ، ومدنرِ  
ومعطرِ ، ومصنذلِ ، ومُعشرِ  
ومسجعِ ، ومسجعِ في منبرِ  
ومبددِ في الخلدِ ماءَ المحجرِ

ولكن قصيدة ابن مرج الكحل أعذب مذاقاً ، وكل منهما لم يقصّر ، رحمهما  
الله تعالى ، فلقد أجادا فيما قالاه إلى الغاية ، وليس الخبر كالعيان .

[ عود إلى ابن مرج الكحل ]

ومن نظم ابن مرج الكحل قوله <sup>١</sup> :

الشمسُ يغربُ نورها ، ولربما كسفت ونورك كل حين يسطعُ  
أفلتُ فتاب سنك عن إشراقها وجلا من الظلماء ما يتوقعُ  
فأمنت يا موسى الغروب ولم أقلُ فوددتُ يا موسى لو أنك يوشعُ

ولمّح بهذه الأبيات إلى قول الرّصافي الأندلسي البلّنسي يخاطب من اسمه  
موسى بقصيدة أولها <sup>٢</sup> :

ما مثلُ موضعك ابن رزقٍ موضعُ زهرٍ يرفُ وجدّولٌ يتدفعُ  
ومنها :

وعشيّة لبستُ ثيابَ شحوبها والحوُّ بالغيّم الرقيقِ مقنّعُ  
بلغتُ بنا أمدَ السرورِ تألّفاً والليلُ نحو فراقنا يتطلعُ  
فابللُ بها ريقَ الغبوقِ فقد أتى من دون قرص الشمس ما يتوقعُ  
سقطتُ ولم يملك نديمك ردّها فوددتُ يا موسى لو أنك يوشعُ

قلت : ومن نثر ابن مرج الكحل المذكور ما كتبه إلى أديب الأندلس أبي  
بحر صفوان بن إدريس مراجعاً له بعد نظم ، ونص الجميع :

١ مرت الأبيات ص : ٥٤ .

٢ ديوان الرصافي : ١٠٤ .

يا مَنْ تَبَوَّأَ فِي الْعُلِيَاءِ مَنزِلَةً جَدَّاهُ قَدْ أَسَّسَاهَا أَيَّ تَأْسِيسٍ  
لَمْ يَتْرَكَا فِي الْعِلَاءِ حِظًّا لِلْمَتَمَسِّ سَيِّانٍ هَذَا وَهَذَاكَ ابْنَ إِدْرِيسٍ  
وَإِنِّي كِتَابُكُمْ فَارْتَدَّ لِي جَدِّي وَاعْتَضْتُ مِنْ فِرْطِ أَشْوَاقِي بِتَأْنِيسٍ  
وَاللَّوِي لَوْعَةً تَطْفُو فَيَطْفِئُهَا مَسْكُ الْمَدَادِ وَكَافُورُ الْقِرَاطِيسِ

حرس الله سناءك وسناك ، وأظفر يمينك بيمينك ، وُدِّي الأسلم كما تعلم ،  
وعهدي الأقدم ، لم تنزل له قدم ، وأنا دام عزكم إن أتفق معكم انتساباً فلم  
أتفق في شأو الأدب باعاً ، ولا قاربتكم طباعاً وانطباعاً ، بل بذلك الاتفاق تشرفت ،  
وسموت إلى ذروة العلا واستشرفت ، وأقررت بذلك الفضل واعترفت ، وكرعت  
في مناهله واعترفت ، ولقد وافى كتابكم فقلت لقد نثر الدر من فيه ، وبلغ  
نفسي ممّا كانت تنويه من التنويه :

حديث لَوَّأَنَّ الْمَيْتَ نُودِي بِيَعْضِهِ لِأَصْبَحَ حَيًّا بَعْدَمَا ضَمَّهُ الْقَبْرُ

ولولا ما طالعني وجه من رضاكم وسيم ، وسقاني مزن اهتبالكم ما أروى  
به وأسيم ، وحياتي منكم روض ونسيم ، لما ساعدني الفكر بقسيم ، لا زلتم في  
ظل من العيش وارف ، مرتدين رداء المعارف ، والسلام ؛ انتهى .

[ رسالة صفوان إلى ابن مرج الكحل ]

وكانت مخاطبة صفوان له التي أجب عنها بما نصه :

يا قاطع البیدِ يطويها وينشرها إلى الجزيرة يُنْضِي بُدْنَ الْعَيْسِ  
الثم بها عن أخي حبٍ وذی كلفٍ يدَ العلا والقواني وابنَ إِدْرِيسِ  
وأبلغها إليه تحية كالمسك صدرأ ووردأ ، وكالماء الزلال عذوبة وبردأ ،  
يسري بها إلى دار ابن نسيم ، ويسفر منها بجزيرة شقر وجه وسيم ، وهي وإن

كانت تذيب المسك خجلاً ، وتستفز بصوتها وجلاً ، فما هي إلا خائفة تترقب ،  
وسافرة تكاد تنتقب ، تمشي على استحياء ، وتعثر من التقصير في ذيل إعياء ، هذا  
لأنها جلبت إلى هَجَرَ تمرأ ، وإلى شبام وبيت رأس خمراً ، ولكن على المجد أن يبدي  
في قبول عذرها ويعيد ، لعلمه أنه يتيم من لم يجد إلا الصعيد ، فله الفضل أن لا  
يلفحها بنار التقذ ، ولا يعرضها على ما هنالك من الحل والعقد ، والله يبقي ذكره  
في مقلة الأدب حوراً ، وفي قلب الحسود حوراً ، وبديمه والقوافي طوع قريحته ،  
والأغراض الجميلة ملء تعريضته وتصريحته ، وزهر البيان تطلع في سماء جنانه ،  
وزهر التبيان يونع في أنداء جنانه ، وعذراً إليه فإني كتبت والحامل بمسك زمامه ،  
ويلتفت في اليبداء أمامه ؛ والسلام .

#### [ خطبة نكاح من إنشاء صفوان ]

ومن إنشاء صفوان خطبة نكاح نصها : الحمد لله الذي تطول بالإحسان من  
غير جزاء ولا ثواب ، وألبس المخلوقات من فواضله سوايغ المطارف وكواسي  
الأثواب ، وجاءوا على أقدام الرجاء إلى محال نوافله فوجدوها مفتحة لهم الأبواب ،  
وسألوه كفاية المؤنة فكان الفعل بدل القول والإسعاف بدل الجواب ، خلق البرية  
من غير افتقار ولا اضطرار ، ونقلهم من الطفولية إلى غيرها نقل البدر من التمام  
إلى السرار ، وشرّف هذه الطبقة الإنسانية ، فرزقها الإدراكات العقلية ، والإبانات  
اللسانية ، فضرب سرادق اعتنائه عليها ، وأنشأها من نفس واحدة وجعل منها  
زوجها ليسكن إليها ، ومع صنعه الرفيق بهم اللطيف ، وتنويهه الخاف بأرجائهم  
المطيف ، رزقهم أحسن الصور الحيوانية وأجملها ، وأتاح لهم أمم أقسام الاعتناء  
وأكملها ، وبعث إليهم الرسل صلوات الله عليهم صنعاً منه جميلاً ، ورباً  
للصنعة لديهم وتكميلاً ، فبشروا وأنذروا ، وأمنّوا وحذروا ، وباینوا بين الحرام  
والحلال ، مباينة إدراك البصير بين الكدر والزلال ، ودلوا على السمّ الأهدى ،

ونصبوا أعلام التوفيق والهدى ، ولم يدعوا شيئاً سدى ، بل توازنت بهم مقادير  
 الأقوال والأعمال ، وكانت إشاراتهم شمال الهدايا وأيّ شمال ، فأب كل منسحب إلى  
 الارتباط ، وشد كل موفق على الاعتلاق بحالمهم يدّ الاغتباط ، فصلوات الله الزاكية  
 عليهم ، ونوافح رحمته النامية تغلو وتروح إليهم ، وأتم الصلاة والسلام ، على علكم  
 أولئك الأعلام ، الداعي على بصيرة إلى دار السلام ، السراج المنير ، المبشر النذير ،  
 محمد ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةٌ تؤول بهم إلى فسيح رضوانه ورحبه ،  
 بعثه الله رحمة للعالمين عامة ، وأرسله نعمة للناس موفورة تامة ، فأخذ بحجزاً مصدقيه  
 عن التهافت في مداحض الأقدام ، والتتابع في مزلات الجرأة على العصيان والإقدام ،  
 فأقام الحجة ، وأوضح المحجة ، ودل على المقامات التي تمحض الأولياء ،  
 وأفصح عن الكرامات التي تنقذ الأتقياء ، وقال وأهلاً به من قائل : « تناكحوا  
 فإني مكاثر بكم الأنبياء » حرصاً منه صلوات الله عليه على الزيادة في أهل الإسلام  
 والنماء ، ودفعاً في صدر الباطل بواضح الحق الصادع غيئهب الظلماء ، وحض  
 على ذات الدين الحصان ، وأغرى بالاعتصام والإحصان ، ونصب أعلام النكاح  
 مشيدة المباني ، وجاء بها سنة عذبة المجاني ، وقال : « من تزوج فقد كمل  
 نصف دينه فليتق الله في النصف الثاني » ، وأمر بالنكاح الذي توافقت فيه الطبيعة  
 والشريعة ، ولبته النفوس وهي سريعة ، وأخصبت به ربوة التناسل فهي مروضة  
 مربية ، وسدت به عن اتباع الهوى وارتكاب المحارم الذريعة ، وحفظت به  
 الأنسال والأنساب ، وقاض به نهر الالتتام السلسال المنساب ، إذ لا سبيل لأن  
 يستغني بذاته ، من كان أسير هواه ومأمور لذاته ، وإنما الانفراد والاستغنا ،  
 لمن له الكمال والغنى ، ولا يجوز أن يتعاقب عليه الإنبي ، لا إله إلا هو له السناء  
 والسنا . وإن فلاناً لما ارتقت همته إلى اتباع الصالحات وسمت ، ووسمته التجابة  
 من أعلامها اللائحة بما وسمت ، رأى أن الاعتصام بالنكاح أولى ما حمى به

١ ق ص : يحجز ، والأصوب ما أثبتناه .



دينه ووقاه ، وأهم ما رفع إليه اعتناؤه ورقاه ، فخطب إلى فلان ابنته فلانة خطبة تضافر فيها اليُمن والقبول ، ونفحت بها شمال من الجلد المصمم وقبول ، وارتقى بها إلى اللوح المحفوظ والديوان المكنون عمل مقبول ، فتلقى فلان خطبته بالإجابة ، لما توسم فيه من مخايل النجابة ، حرصاً منه على المساعدة والعون ، واغتناباً بمياسرة أهل الرشد والصّون ، وانعقد النكاح بينهما على بركة الله التي يتضاعف بها العدد القليل وبتزيد ، ويمنه الذي يتنهض به من اعتمده ويتأيد ، وحسن توفيقه الذي يرتبط به من أخلص ضميره ويتقيد ، على أن أصدقها كذا ، تزوّجها بكلمة الله التي علت الكلمات وبهرتها ، وعلى سنة نبيّه التي أحييت الخنيفة وأظهرتها ، وأنقت الملة من أرجاس الجاهلية وطهرتها ، وهداية مهديه التي غلبت الأباطل وقهرتها ، ولتكون عنده بأمانة الله التي هي جنة واعتصام ، وعهدته للزوجات على أزواجهن التي ليس لعروتها انفصام ، وعلى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وتسلسل في ميدان التناصف وأرسان ، وله عليها من حسن العشرة التي هي بحقيق الاتفاق عائدة ، مثل ذلك ودرجة زائدة ، والله تعالى يمهّدُ لهما مهاده نعمته الوثير ، ويخلف منهما الطيب الكثير ، ويرزقهما التوفيق الباعث لطول المرافقة المثير ، بمتّه ونعمته .

[ من رسالة عتاب لصفوان ]

وله رحمه الله من رسالة عتاب : أدام الله سبحانه مدة الأخ الذي أستديم إخاءه ، وإن واجهتني زعازعه أرتقب رُخاءه ، وتجاوزت عن يومه لأمسه ، وأغضيت عن ظلامه لشمسه ، إناء واعتناء ، وإنذاراً وإعذاراً ، ورحم الله من اعتمد على الأفهام ، وعصى أوامر الأوهام ، ورأى الخليفة في المعقول ، لا في المختلق المنقول . وبعد فإنه وصل كلامك بل ملامك ، وكتابتك بل عتابك ، ورسالتك بل بسالتك ، أسمعني بألفاظك العذاب سوء العذاب ، وأرئيتي لمعان

الحُسام من فِقْرِكَ الوسام .

وقال صفوان رحمه الله : اجتمعت مع ابن مرج الكحل يوماً ، فاشتكى إليّ ما يجد لفراقي ، وأطال عتب الزمان في إشامه وإعراقي ، فقلت : إذا تفرقتنا والنفوس مجتمعة ، فما يضر أن الجسوم للرحيل مزمعة ؟ ثم قلت له :

أنت مع العينِ والفؤادِ دنوتَ أو كنتَ ذا بعدِ

فقال وهو من بارع الإجازة :

وأنت في القلبِ في السويدا وأنت في العينِ في السوادِ

وإذ جرى ذكر صفوان فلا حرج أن نترجمه ، فنقول :

#### [ ترجمة صفوان ]

قال في « الإحاطة » ما ملخصه<sup>١</sup> : صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس ، التجيبي المرسبي أبو بحر ، كان أديباً حسيباً ممتعاً من الظرف ريان من الأدب ، حافظاً سريع البلية ترف النشأة ، على تصاون وعفاف ، جميلاً سريعاً ، ممن تساوى حظه في النظم والنثر على تباين الناس في ذلك . روى عن أبيه وخاله وابن عم أبيه القاضي أبي القاسم ابن إدريس ، وأبي بكر ابن مغاور ، وأبي رجال ابن غلبون ، وأبي العباس ابن مضا ، سمع عليه صحيح مسلم ، وأبي القاسم ابن حبيش ، وابن حوط الله ، وأبي الوليد ابن رشد ، وأجاز له ابن بشكوال . وروى عنه أبو إسحاق اليابري ، وأبو الربيع [ ابن النبي وأبو عبد الله ابن أبي البقاء وأبو عمر ]<sup>٢</sup> ابن سالم ، وابن عيشون ، وله تواليف أدبية ،

١ ترجمته في الإحاطة ، الورقة : ١٦٨ .

٢ ما بين معقنين زيادة من الإحاطة .

منها « زاد المسافر » ، وكتاب « الرحلة » ، وكتاب « العجالة » ، سفران يتضمنان  
من نظمه ونثره أدباً لا كفاء له ، وانقرد من تأيين الحسين وبكاء أهل البيت بما  
ظهرت عليه بركته في حكايات كثيرة .

ثم سرد لسان الدين جملة من نظمه إلى أن قال : وقال في غرض الرصافي  
من وصف بلده وذكر إخوانه يساجله في الغرض والرويّ عقب رسالة سماها  
« طراد الجياد في الميدان وتنازع اللدات والأخدان في تقديم مرسية على غيرها  
من البلدان »<sup>١</sup> :

لعلّ رسولَ البرقِ يفتنمُ الأجرأ  
معاملةً أربي بها غيرَ مذنب  
ليستقي من تُدميرَ قطراً محبباً  
ويرضعه<sup>٢</sup> ذوبَ اللجين ، وإنما  
وما ذلكَ تقصيراً بها غير أنه  
خليليّ قوما فاحبسا طُرُقَ الصبأ  
فإنّ الصبأ ريحٌ عليّ كريمة<sup>٣</sup>  
خليليّ أعني أرضَ مرسيةِ المني  
حليّ بل جويّ الذي عبقت به  
ووكري الذي منه درجتُ فليتي  
وما روضةُ الخضراء قد مثلت بها  
بأبهجَ منها والخليجُ مجرة<sup>٤</sup>  
وقد أسكرت أعطافَ أغصانها الصبأ<sup>٥</sup>  
فينثرَ عنيّ ماءَ عبرته نثراً  
فأقضيه دمعَ العينِ عن نقطةٍ بحرا  
يقرب بعين القطر أن تشرب القطرا  
توفيه عيني من مدامعها تبرا  
سجيةً ماء البحر أن يذوي الزهرا  
مخافة أن يحمي بزفرتي الحرى  
بآية ما تسري من الجنة الصغرى  
ولولا توختي الصدق سميتها الكبرى  
نواسمُ آدابي معطرةً نشرا  
فجعت بريش العزم كي ألزم الوكرا  
مجرتها نهراً وأنجمها زهرا  
وقد فضحت أزهار ساحتها الزهرا  
وما كنت أعتد<sup>٤</sup> الصبأ قبلها خمرا

١ الإحاطة ، الورقة : ١٧٢ .

٢ في ص ق : ويقرضه ، والتصويب عن الإحاطة .

٣ الإحاطة : وقد أسكرت ريح الصبابة عاشقاً .

٤ ق ص : أعددت .

هنالك بين الغصن والقطرِ والصبأ  
 إذا نظم الغصنُ الحيا قال خاطري  
 وإن نثرت ريحُ الصبأ زهرَ الرُبى  
 فوائد أسحارٍ هناك اقتبستُها  
 كأنَّ هزيرَ الريحِ يمدحُ روضها  
 أيا زنقاتِ<sup>١</sup> الحسن هل فيك نظرةٌ  
 فأنظرَ من هذي لتلك كأنما  
 هي الكاعبُ الحساء تم حسنها  
 إذا خطبتُ أعطتُ دراهم زهرها  
 وقامتُ بعرس الأنس قينةً أيكها  
 فقلْ في خليجٍ يلبس الحوت درعه  
 إذا ما بدا فيها الهلالُ رأيتهُ  
 وإن لاح فيها البدرُ شبّهتُ مننه  
 وفي جُرْفِي روضٍ هناك تجافيا  
 كأنهما خلأ صفاء تعابيا  
 وكم لي بأبيات الحديدِ عشيةٌ  
 عشايا كأنَّ الدهر غضُّه<sup>٥</sup> بحسنا  
 عليهن أجري خيلَ دمعي بوجنتي

وزهرِ الرُبى ولدتُ آدابي الغرأ  
 تعلّمَ نظامَ النثرِ من ههنا شعرا  
 تعلمتُ حلَّ الشعرِ أسبكه نثرا  
 ولم أرَ روضاً غيره يقرء السحرا  
 فتملاً فاهُ من أزاهرها دُرأ  
 من الجرفِ الأعلى إلى السكة الغرأ<sup>٢</sup>  
 أُغيرُ إذ غازلْتُها أحتها الأخرى  
 وقدتُ لها أوراقها حللاً خضرا  
 وما عادةُ الحساء أن تنقد المهرأ  
 أغاريدها<sup>٣</sup> تسترقص الغصنَ النضرا  
 ولكنّه لا يستطيعُ بها نصرا  
 كصفحة سيفٍ وسمها قُبعة صفرا  
 بشطّ لجين ضمّ من ذهبٍ عشرا  
 بنهرٍ ، يودُّ الأفق لو زاره فجرا  
 وقد بكيا من رقّة ذلك النهرا  
 من الأنس ما فيه سوى أنه مرأ  
 فأجلت بساط البرق أفراسها الشقرا  
 إذا ركبت حمراً ميادينها الصفرا<sup>٧</sup>

١ الزنقات : من متزهات مرسية ، وفي ص ق : رنقات ، وفي الإحاطة : رائعات .

٢ الإحاطة : الخضرا .

٣ الإحاطة : أيكه ، أغادرها .

٤ الإحاطة : بدأ الباب الحديد .

٥ ق ص : عشيات كان الدهر غضاً .

٦ الإحاطة : الأنس .

٧ لم يرد هذا البيت في الإحاطة .

سقتك دموعي ، إنها مزنة ، شكرا  
تفضت أمانيه فخلدتها ذكرا  
تود الثريا أن يكون لها نجرا  
نقا الرملة البيضاء فالنهر فالجسرا  
لما فارقت عيني وجوههم الزهرا  
لما بت أستحلي فراقهم المرأ  
وهل تستجيز العين أن تفقد الشفرا  
أراد بذلك الله أن أعتب الدهرا  
وما عادة المشغوف أن يحمد الهجرا  
مرام يجد الكرب في طيها<sup>٢</sup> شهرا  
وصادأ ونونا قد تقوس واصفرا  
فلا خبيرا منهم لقيت ولا خبرا  
ولكن عراب الخيل لا تحمل الزجرا  
بحيث جعلت الليل في ضربه حبرا  
وطرحا وتجيلا فأخرج لي صفرا  
يطارخي كسرا وما يحسن الجبرا  
فيمدخي سرا ويشمني<sup>٣</sup> جهرا  
وقلت لسرب الشعر لا ترم الفكر  
ومن خلق العذراء أن تألف الخلدرا  
فإن مع العسر الذي يتقى يسرا

أعهدي بالفرس المنعم دوحه  
فكم فيك من يوم أغر محجل  
على مذنب كالبحرا من فرط حسنه  
سقت أدمعي والقطر أيهما انبرى  
وإخوان صدق لو قضيت حقوقهم  
ولو كنت أقضي حق نفسي - ولم أكن -  
وما اخترت هذا البعد إلا ضرورة  
قضى الله أن تنأى بي الدار عنهم  
ووالله لو نلت المنى ما حمدتها  
أيانس باللذات قلبي ودونهم  
ويصحب هادي<sup>٣</sup> الليل راء حروفه  
فديتهم بانوا وضمنوا بكتبتهم  
ولولا علا هماتهم لعتبتهم  
ضربت غبار اليد في مهرق السرى  
وحققت ذاك الضرب جمعا وعدة  
كان زماني حاسب متعسف  
فكم عارف بي وهو يحسن رتبي  
لذلك ما أعطيت نفسي حقها  
فما برحت فكري عذارى قصائدي  
ولست وإن طاشت سهامي بآيس

- ١ الإحاطة : كالجز .
- ٢ الإحاطة : من دونها .
- ٣ الإحاطة : هذا .
- ٤ الإحاطة : فيشتني سرا ويمدني .

وقال يراجع أبا الربيع ابن سالم عن أبيات مثلها ١ :

سقى مضرب الخيمات من عَلمَي نَجْدِ  
وقد كان في دمعي كفاء ، وإنما  
فإن فترت نارُ الضلوعِ هنيهةً  
وإن ضنَّ صوبُ المزنِ يوماً فادمعي  
وإن هطلا يوماً بساحتها معاً  
أرى زفرتي تذكي ودمعي ينهمي  
فهل بالذي أبصرتم أو سمعتم  
لي الله كم أهذي بنجدٍ وأهلها  
وما بي إلى نجدِ نزوعٌ ولا هوى  
وجاءوا بدعوى حَسَنَ الشَّعْرُ زورها  
شغلنا بأبناء الزمان عن الهوى  
إلى الله أشكو ريبَ دهرٍ يغصُّ بي  
لقد صرفت حكمَ الفؤادِ إلى الهوى  
أما تتوقى ويحها أن أصيها  
أما راعها أن زحزحت عن أكارم  
أعاتبها فيهم فتردادُ قسوةٍ  
أما علمت أن القساوةَ نافرت  
إذا وعدت يوماً بتأليفِ شملنا  
وإن عاهدت أن لا تؤلفَ بيننا  
خليلي أعني النَّظْمَ والنثرَ أرسلِ  
قفا ساعداني إنَّهُ حقُّ صاحبِ

أسحُ غماميَ أدمعي والحيا الرغدِ  
يجففها ما بالضلوعِ من الوقدِ  
فسوف ترى تفجيرَه للحيا العدِّ  
تنوبُ كما نابَ الجَمِيعُ عن الفردِ  
فأرواهما ما صابَ من منتهى الودِّ  
نقيضين قاما بالصلاء وبالوردِ  
غمامٌ بلا أفقٍ وبرقٌ بلا رعدٍ ؟  
وما لي بها إلا التوهمُ من عهدِ  
خلا أنهم شتوا القوافي على نجدِ  
فصارت لهم في مصحفِ الحبِّ كالحمدِ  
وللدرعِ وقتٌ ليس يحسنُ للبردِ  
نوابه قد أجمتَ ألسنَ العدِّ  
كما فوضت أمرَ الجفونِ إلى السهدِ  
بدعوةٍ مظلومٍ على جورها يُعدي  
فراقهم دلَّ القلوبَ على حدِّي  
أجيدك هل عاينتَ للحجرِ الصلْدِ  
طباعَ بني الآدابِ إلا من الردِّ  
فألم بعرقوب وما سنَّ من وعدِ  
تذكرتُ آثارَ السَّمْوالِ في العهدِ  
جياذ كما في حلبةِ الشكرِ والحمدِ  
بريء جمامِ الكتمِ من كدَرِ الحِقْدِ

١ لم ترد هذه القصيدة في النسخة التي اعتمدها من الإحاطة .

بآية ما قيدتما ألسن الورى  
فأين بياني أو فأين فصاحتي  
فيا خاطري وف الثناء حقوقه  
ولا تلزمتني بالتكاسل حجة  
نكلت القوافي وهي أبناء خاطري  
لئن لم أصغ زهر النجوم قلادة  
إلى أن يقول السامعون لرفقتي  
أحيي بريآها جناب ابن سالم  
وهي طويلة .

ومن مقطوعاته قوله ١ :

يا قمرأ مطلعهُ أضلعي  
وربما استوقد نار الهوى  
ملكنتي في دولة من صبا  
عندي من جبك ما لو سرت  
له سواد القلب فيها غسق  
فنب فيها لونها عن شفق  
وصدنتني في شرك من حدق  
في البحر منه شعلة لا حرق

وقال :

قد كان لي قلب فلما فارقوا  
وجرت سحب للدموع فأوقدت  
ومن العجائب أن فيض مدامعي  
وشعره الرمل والقطر كثرة ، فلنختمه بقوله :

قالوا وقد طال بي مدى خطتي  
ولم أزل في تجرّمي ساهي :

١ الإحاطة ، الورقة : ١٧٥ وفيها أيضاً القطعتان التاليتان والرسالة التي تتلوها .

أعددت شيئاً ترجو النجاة به ؟ فقلتُ : أعددتُ رحمةَ الله

وكتب يهنيء قاضي الجماعة أبا القاسم ابن بقيّ برسالة منها : لأن محله<sup>١</sup> دام عمره ، وامتلأ<sup>٢</sup> نبيه الشرعي وأمره ، أعلى رتبة وأكرم محلاً ، من أن يتحلّى بخطة هي به تتحلّى ، كيف يهناً بالقعود لسماع دعاوى الباطل ، والمعاناة لإنصاف المَظْطول من الماطل ، والتعب في المعادلة ، بين ذوي المجادلة ، أما لو علم المشوفون إلى خطة الأحكام ، المششرفون<sup>٣</sup> إلى ما لها من التبسط والاحتكام ، ما يجب لها من اللوازم ، والشروط الجوازم ، كبسط الكنف ، ورفع الجنتف ، والمساواة بين العدو ذي الذنب ، والصاحب بالجنّب ، وتقديم ابن السبيل ، على ذي الرحم والقبيل ، وإيثار الغريب ، على القريب ، والتوسع في الأخلاق ، حتى لمن ليس له من خلاق ، إلى غير ذلك مما عِلِمُ قاضي الجماعة أحصاه ، واستعمل خُلُقَه الفاضل أدناه وأقصاه ، بلعلوا خمولهم مأمولهم ، وأضربوا عن ظهورهم ، فنبوه وراء ظهورهم ، اللهم إلاّ من أوتي بسطة في العلم ، ورسا طوداً في ساحة الحلم ، وتساوى ميزانه في الحرب والسلم ، وكان كمولانا<sup>٤</sup> في المماثلة بين أجناس الناس ، فقصاراه أن يتقلد الأحكام للأجر ، لا للتعنيف والزجر ، ويتولاها للثواب ، لا للغلظة في رد الجواب ، ويأخذها لحسن الجزاء ، لا لقبیح الاستهزاء ، ويلتزمها لجزيل الذخر ، لا للإزراء والسخر ، فإذا كان كذلك ، وسلك المتولي هذه المسالك ، وكان مثل قاضي الجماعة ولا مثل له ، ونفع الحق به علله ونفع غلله ، فيومئذ تهتّى به خطة القضاء ، وتعرف ما لله تعالى عليها من اليد البيضاء :

ورحل إلى مراکش في جهاز بنت بلغت التزويج ، وقصد دار الإمارة مادحاً ،

١ الإحاطة : قدره .

٢ الإحاطة : وامتد .

٣ الإحاطة : المشتاقون .

٤ الإحاطة : كقاضي الجماعة .



فما تيسر له شيء من أملة ، ففكر في خيبة قصده ، وقال : لو كنت أمّلت الله سبحانه ومدحت نبيّه ، صلّى الله عليه وسلم ، وآل بيته الطاهرين لبلغت أمني ، بمحمود عملي ، ثمّ استغفر الله تعالى من اعتماده في توجهه الأوّل ، وعلم أن ليس على غير الثاني معوّل ، فلم يكُ إلاّ أن صرف نحو هذا المقصد همته ، وأمضى فيه عزّمته ، وإذا به قد وجّه إليه فأدخل على الخليفة فسأله عن مقصده ، فأخبره مفصّحاً به ، فأنفذه وزاده عليه وأخبره أن ذلك لرؤيا رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، في النوم يأمر بقضاء حاجته ، فانفصل موقى الأغراض ، واستمرّ في مدح أهل البيت عليهم السلام ، حتى اشتهر بذلك . وتوفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وسنه دون الأربعين ، وصلّى عليه أبوه ، فإنه كان بإمكان من الفضل والدين ، رحم الله تعالى الجميع ؛ انتهى كلام ابن الخطيب في حق المذكور ملخصاً .

ولا بأس أن نزيد عليه ما حضر ، فنقول : قال ابن سعيد وغيره : ولد صفوان سنة ستين وخمسمائة ، أو في التي بعدها ، قال : وديوان شعره مشهور بالمغرب ؛ انتهى .

ومن نظمه قوله :

أومضُ ببرقِ الأضلعِ واسكب غمامَ الأدمعِ  
واحزن طويلاً واجزعِ فهو مكانُ الجزعِ  
وانثر دماء المقلتين تألماً على الحسينِ  
وابكِ بدمعِ دونِ عينِ إن قلّ فيضُ الأدمعِ

وهذا من قصيدة عارض بها الحريري في قوله :

خَلَّ ادِّكَارَ الأربُعِ

وله أيضاً مطلع قصيدة فيه :

يا عين سُحِّي ولا تَشِحِّي ولو بدمعٍ بِحَدْفِ عَيْنِ

وقال ابن الأبار : توفي صفوان بمرسية ليلة الاثنين السادس عشر من شوال سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وثكله أبوه ، وصلى عليه ، وهو دون الأربعين إذ مولده سنة إحدى وستين وخمسمائة ، وكان من جلة الكتاب البلاء ، ومهارة الأدباء الشعراء ، ناقداً فصيحاً ، مدركاً جليل القدر ، متقدماً في النظم والنثر ، ممن جمع ذلك ، وله رسائل بديعة ، وقصائد جلييلة ، وخصوصاً في مرثي الحسين رضي الله تعالى عنه .

[ رثاء ناهض الوادي آشي للحسين ]

وقد تذكرت هنا قول ناهض بن محمد الأندلسي الوادي آشي في رثاء الحسين رضي الله تعالى عنه :

أمرنةً سجعتَ بعودِ أراكِ	قولي مولتهُ : علامَ بُكاكِ ؟
أجفأكِ إلفكِ أم بليتِ بفرقةِ	أم لاح برقٌ بالحمى فشجأكِ ؟
لو كان حقاً ما ادعيتِ من الجوى	يوماً لما طرّقَ الجفونَ كراكِ
أو كان روّعكِ الفراقُ إذاً لما	ضنتُ بماءِ جفونها عيناكِ
ولما ألفتِ الروضَ يارجُ عرفهُ	وجعلتِ بين فروعِهِ مغناكِ
ولما اتخذتِ من الغصونِ منصّةً	ولما بددتِ مخصوبةً كفأكِ
ولما ارتديتِ الريشَ برداً معلماً	ونظمتِ من قزحِ سلوكِ طلاكِ
لو كنتِ مثلي ما أفقتِ من البكا	لا تحسبي شكواي من شكواكِ
إيه حمامةُ خبّريني ، إنني	أبكي الحسينَ ، وأنتِ ما أبكاكِ ؟
أبكي قتيلَ الطّفِ فرعَ نبيّنا	أكرمُ بفرعِ النبوةِ زاكي
ويلٌ لقومٍ غادروهُ مضرّجاً	بدمائهِ نضواً صريعِ شكاكِ

متعفراً قد مُزقتُ أشلاؤهُ      فرياً بكلّ مهندي فتاكِ  
 أيزيدُ لو راعيتَ حرمةَ جدّه      لم تقتنص ليثَ العرينِ الشاكي  
 أو كنتَ تُصغي إذ نقرتَ بشغره      قرعتَ صماخكَ أنّهُ المسواكِ  
 أترومُ ويكَ شفاعةً من جدّه      هيهات ! لا ، ومُدبّرِ الأفلاكِ  
 ولسوفَ تُنبذُ في جهنمِ خالداً      ما الله شاء ولاتَ حينَ فكاكِ

وتوفي ناهض المذكور بوادي آش سنة ٦١٥ .

رجع إلى أخبار صفوان بن إدريس - رحمه الله تعالى - فنقول : ومن شعر صفوان قوله :

قلنا وقد شامَ الحسامَ مخوّفاً      رشأُ بعاديةِ الضراغمِ عابثُ  
 هل سيفُهُ من طرفه أم طرفهُ      من سيفه أم ذاك طرفٌ ثالثُ  
 وقوله :

غيري يروعُ بسيفه      رشأُ تشاجعَ ساخرا  
 إن كفَّ عني طرفه      فالسيفُ أضعفُ ناصرا

وقال صفوان المذكور رحمه الله تعالى : حَيَّيتُ بعضَ أصحابنا بزهره سوسن ، فقال :

حيّاً بسوسنةِ أبو بحرٍ  
 فقلت مجيزاً :

نصراء تفضحُ يانعَ الزهرِ  
 عجباً لها لم تُدوها يدهُ      من طولٍ ما مكثت على الصدرِ

وقال أيضاً : ماشيتُ الوزيرَ الكاتبَ أبا محمد ابن حامد يوماً ، فاتفق أن  
قال لأمر تذكّره :

بين الكئيبِ ومنبتِ السدْرِ ريمٌ غدا مثواهُ في صدري  
فقلت أجيّزه :

لوشاحه قلمٌ بلا ألمٍ ولقرطه خفقتُ بلا ذعرٍ  
لو كنتُ قد أنصفتُ مقلتهُ برأتُ هاروتاً من السحرِ  
أو كنتُ أقضي حقّ مرشقه أعرضتُ لا ورعاً عن الحمرِ  
وناولته يوماً وردة مغلقة ، فقال :

ومحمرّة تختالُ في ثوبِ سندسٍ كوجنةٍ محبوبٍ أطلّ عذاره  
فقلت أجيّزه :

كتطريفٍ كفّ قد أحاطتْ بنانها بقلبٍ محبٍّ ليسَ يجبو أواره  
وقال : رأيَ الوزيرَ أبو إسحاق وأنا أقيد أشعاراً من ظهر دفترٍ فقال :  
ماذا الذي يكتبُ الوزيرُ  
قلت :

بدائعٌ ما لها نظيرُ

فقال :

درٌ ولكنّه تنظيمٌ من خيرِ أسلاكه السطورُ

فقلت :

من أظهرِ الكتبِ أقتنيها واخلّ ما تحتوي البحورُ  
بتلك تزهو النحورُ، لكن بهذه تزدهي الصدورُ

ولكن الإنصاف واجب ، هو قال المعنى الأخير نثراً وأنا سبكنه نظماً .  
وقال : جلسنا بعض العشايا بالولجة خارج مرسية ، والنسيم يهبُّ على النهر ،  
فقال أبو محمد ابن حامد :

هبَّ النسيمُ وماء النهرِ يطردُ

فقلت على جهة المداعبة ، لا الإجازة :

ونارُ شوقيَ في الأحشاء تتقدُّ

فقال أبو محمد : ما الذي يجمع بين هذا العجز وذاك الصدر ؟ فقلت : أنا

أجمع بينهما ، ثم قلت :

فصاغ من مائه درعاً مفضضةً وزاد قلبيَ وقدأً للذي يجدُ  
وإنما شبَّ أحشائي لحاجتهِ إذ ليس دون لبيبٍ يُصنعُ الزردُ

وخطرنا بلقنت على ثمرة تهزها الريح فقال أبو محمد :

وسرحةٍ كاللواء تهفو بعطفها هبةُ الرياحِ

فقلت :

كأنَّ أعطافها سقتها كفُ النعامي كؤوس راحِ

فقال :

إذا انتحاها النسيمُ هزَّتْ أعطافها هيزةَ السباحِ

فقلت :

كأنَّ أغصانها كيرامٌ تقابلُ الضيفَ بارتياحِ

ولصفوان رحمه الله :

تحيّة الله وطيبُ السلامُ  
على الذي فتَحَ باب الهدى  
بدر الهدى ، غيم الندى والسدى  
تحيّة تهزأ أنفاسها  
تخصه مني ولا تنثني  
وقدرهم أرفعُ لكنني  
على رسولِ الله خيرِ الأنامِ  
وقال للناس : ادخلوا بالسلامِ  
وما عسى أن يتناهى الكلامِ  
بالمسك ، لأرضي بمسك الختامِ  
عن أهله الصيّد السراةِ الكرامِ  
لم أَلْفِ أعلى لفضةٍ من كرامِ

وقال :

يقولون لي لما ركبتُ بطالتي  
أعندك شيء ترنجي أن تناله ؟  
ركوبَ فتى جمّ الغواية معتدي  
فقلت : نعم عندي شفاعةُ أحمدِ

صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم ، ومجد وعظم ، وبارك وأنعم ،  
ووالى وكمل وأتم .

## الباب الثاني

في نشأته وترقيته ووزارته وسعاداته ، ومساعدة الدهر له ، ثم قلبه له ظهر المَجَنِّ على عاداته في مصافاته ومنافاته ، وارتبائه في شبابه ، وما لقي من لِحْنِ الحاسد ، ذي المذهب الفاسد ، ومحن الكائد المستأسد وآفاته ، وذكر قصوره وأمواله ، وغير ذلك من أحواله في تقلباته ، عندما قابله الزمان بأهواله في بَدْثه وإعادته إلى وفاته .

أقول : كان مولد الوزير لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله كما في الإحاطة في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، وقال الرئيس الأمير أبو الوليد ابن الأحمر رحمه الله : نشأ لسان الدين ابن الخطيب<sup>١</sup> على حالة حسنة سالكاً سبيل<sup>٢</sup> أسلافه ، فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله ابن عبد المولى العواد تكتباً ثم حفظاً ثم تجويداً ، ثم قرأ القرآن أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي ، وقرأ عليه العربية وهو أوّل من انتفع به ، وقرأ على الخطيب أبي القاسم ابن جزّي ، ولازم قراءة العربية والفقّه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله ابن الفخار البيري شيخ النحويين لعهدده ، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن بكر ، وتأدب بالرئيس أبي الحسن ابن الجياب ، ورَوَى عن كثير من الأعيان ، وسرد ابنُ الأحمر المذكور هنا جملة أعلام من مشايخ لسان الدين سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى ، ثم قال : وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى بن هُذَيْل ولازمه ؛ انتهى .

١ انظر أزهار الرياض ١ : ١٨٧ .

٢ الأزهار : سنن .

وقال بعضهم في حق لسان الدين : هو الوزير العلامة المتحلي بأجمل الشمائل وأفضل المناقب ، المتميز في الأندلس بأرفع المراقي وأعلى المراتب ، عكَم الأعلام ، ورئيس أرباب السيوف والأقلام ، جامع أشتات الفضائل ، والمُرَبِّي بحسن سياسته وعظيم رياسته على الأواخر والأوائل ، حائز رتبة رياسة<sup>١</sup> السيف والقلم ، والقائم بتدبير الملك على أرسخ قدم ، صاحب القلم الأعلى ، الوارد من البراعة المنهَلِ الأحملي ، صاحب الأحاديث التي لا تُمَلُّ على كثرة ما تُتلى ، والمحاسن التي صورها على منصة التنويه تجلي ؛ انتهى .

وقال لسان الدين في « الإحاطة » بعد ذكر سلفه رحمهم الله تعالى ، ما ملخصه<sup>٢</sup> : وخلفني - يعني أباه عبد الله - عالي الدرجة ، شهير الخطبة ، مشمولاً<sup>٣</sup> بالقبول ، مكنوفاً بالعناية ، فقلدني السلطان سره ، ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن<sup>٤</sup> ، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة إلى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه ، واثممني على صِوَانِ حضرته<sup>٥</sup> ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه ، ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي ، وأعلى مجلسي ، وقصّر المشورة على نصحي ، إلى أن كانت عليه الكائنة ، فاقتدى في أخوه المتغلب على الأمر به ، فسجل الاختصاص ، وعقد القلادة ، ثم حمّله أهل الشحنة من أهل أعوان ثورته على القبض عليّ ، فكان ذلك ، وتقبّض عليّ ، ونكث ما أبرم من أماني ، واعتقلت بحال ترفيه ، وبعد أن كسبت المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، وختم على الأعلاق ، وأبرد إلى ما ناء<sup>٥</sup> ، واستوصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربات

١ رياسة : سقطت من ق .

٢ الإحاطة : الورقة : ٤٠٠ .

٣ الإحاطة : ولما يجتمع الشباب ويستكمل السن .

٤ الإحاطة : خزائنه وذخيرته .

٥ الإحاطة : وبأدر وأبرد إلى ما نأى .



الأمثال ، في تبحر الغلّة ، وفراة الحيوان ، وغبطة العقار ، ونظافة الآلات ، ورفعة الثياب ، واستجادة العدة ، ووفور الكتب إلى الآنية والفرش والماعون والزجاج والطيب والذخيرة والمضارب والأبنية ، واكتسحت السائمة وثيران الحرث وظهّر الحمولة وقوام الفلاحة والحيل ، فأخذ ذلك البيع ، وتناهبتها الأسواق ، وصاحبها البخس ، ورزأتها الخونة ، وشمل الخاصة والأقارب الطلب ، واستخلصت القرى ، وأعملت الحيل ، وطوقت الذنوب ، وأمد الله تعالى بالعون ، وأنزل السكينة ، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى ، وتعلقت الآمال به وطبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت عند إقالة العثرة والخلص من الهفوة :

تخلصتُ منها نكبة مصحفية لفقداني المنصور من آل عامر

ووصلت الشفاعة في مكتبة بخط ملك المغرب ، وجعل خلاصي شرطاً في العقدة ومسألة الدولة ، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب ، وبالغ ملكه في برّي منزلاً رجباً<sup>١</sup> ، وعيشاً خفصاً ، وإقطاعاً جمّاً ، وجراية ما وراءها مرّمى ، وجعلني بمجلسه صدرأ ، ثم أسعف قصدي في تهيؤ الخلوة بمدينة سلا متوّه الصكوك ، مهناً القرار ، متفقداً باللها والحليع ، مخوّل العقار ، موفور الحاشية ، مخلّى بيني وبين إصلاح معادي ، إلى أن ردّ الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ملكه ، وصير إليه حقه<sup>٢</sup> ، فطالبني بوعد ضربته ، وعمل في القدوم عليه بولده أحكمته ، ولم يوسعني عذراً ، ولا فسح في الترك مجالاً ، فقدمت عليه بولده ، وقد ساءه بإمساكه رهينة ضده ، ونغص مسرة الفتح بعده ، على كل حال من التقشف

١ الإحاطة : خصياً .

٢ الإحاطة : وهياً إليه حقه وصرف إليه كرسيه .

والزهد فيما بيده ، وعزف عن الطمع في ملكه وزهد في رفته ، حسبما قلت  
من بعض المقطوعات :

قالوا لخدمته دعاك محمدٌ فأنفتها وزهدت في التنويه  
فأجبتهم أنا والمهيمينِ كارهٌ في خدمةِ المولى محبٌ فيهِ

عاهدت الله تعالى على ذلك ، وشرحت صدري للوفاء به ، وجنحت إلى  
الانفصال لبيت الله الحرام نشيدة أمني ، ومرمى نيتي وعملي ، فعلق بي ، وخرج  
لي عن الضرورة ، وأراني أن موازرتة أبرُّ القرب ، وراكني إلى عهد بخطه  
فسح لعامين أمد الثواء ، واقتدى بشعيب صلوات الله عليه في طلب الزيادة على  
تلك النسبة ، وأشهد من حضر من العلية ، ثم رمى إليّ بعد ذلك بمقاليد رأيه ،  
وحكم عقلي في اختيارات عقله ، وغطى من جفائي بحلمه ، وحثا في وجوه  
شهوته تراب زجري ، ووقف القبول على وعظي ، وصرف هواي في التحول  
ثانياً وقصدي ، واعترف بقبول نصحي ، فاستعنت الله تعالى ، وعاملت وجهه  
فيه ، من غير تلبس بجرابة ، ولا تشبث بولاية ، مقتصراً على الكفاية ، حذراً  
من النقد ، خامل المركب ، معتمداً على المنسأة ، مستمشياً بخلق النعل ، راضياً  
بغير النبيه من الثوب ، مشفقاً من موافقة الغرور ، هاجراً للزخرف ، صادعاً  
بالحق في أسواق الباطل ، كافئاً عن السخال برائن السباع . ثم صرفت الفكر  
إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه الخطة ، بل بالجزيرة ،  
فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان وعباف الحاشية  
والأمن ورم الثغور وتشمير الجباية وإنصاف الحماة والمقاتلة ومقارعة الملوك  
المجاورة في إثثار المصلحة الدينية والصدع فوق المنابر ضمناً من السلطان بترياق  
سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ما الله تعالى المجازي عليه ، والمعوض

١ ق ص : مستمتاً .

من سهر خلعتة على أعطافه ، وخطر اقتحمته من أجله ، لا للثريد الأعفر ،  
 ولا للجُرد تمرح في الأرسان ، ولا للبدّر تثقل للأكتاد ، فهو الذي لا يضيع  
 عمل من عمل ذكر أو أنثى سبحانه وتعالى . ومع ذلك فلم أعدم الاستهداف<sup>١</sup>  
 للشرور ، والاستغراض للمحنور ، والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون ،  
 شيمة من ابتلاه الله تعالى بسياسة الدهماء ، ورعاية سخطة أرزاق السماء ، وقتلة  
 الأنبياء ، وعبدة الأهواء ، ممن لا يجعل الله تعالى إرادة نافذة ، ولا مشيئة  
 سابقة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يُجمل في الطلب ، ولا يتلبس مع الله بأدب ،  
 ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ، والحال إلى هذا العهد - وهو منتصف  
 عام خمسة وستين وسبعمائة<sup>٢</sup> - على ما ذكرته ، أداله الله بحال السلامة ، وبفياة  
 العافية ، والتمتع بالعبادة ، وربك يخلق ما يشاء ويختار :

وعَلَيَّ أَنْ أَسْعَى وَلِيَّ سِمْ عَلِيَّ إِدْرَاكَ النَّجَاحِ

ولله سبحانه فينا علمٌ غيب<sup>٣</sup> نحن صائرون إليه ، ألحفنا الله لباس التقوى ،  
 وختم لنا بالسعادة ، وجعلنا في الآخرة من الفائزين ، نفثت عن بث ، وتأوهت عن  
 حمى ، ليظهر بعد المنقلب قصدي ، ويدل مكتبي على عقدي ؛ انتهى ، وجلته  
 بلفظه .

وكان - رحمه الله تعالى - عارفاً بأحوال الملوك ، سريع الجواب ، حاضر  
 الذهن ، حاداً النادرة . ومن حكاياته في حضور الجواب ما حكاه عن نفسه قال<sup>٤</sup> :  
 حضرت يوماً بين يدي السلطان أبي عتّان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة ،  
 وجرى ذكرٌ بعض أعدائه ، فقلت ما أعتقده في إطراء ذلك العدو ، وما عرفته

١ الإحاطة : ومع ذلك فقد عادت هيف إلى أديانها من الاستهداف . . . إلخ .

٢ الإحاطة : وهو عام أحد وسبعين وسبعمائة .

٣ الإحاطة : سر عجيب .

٤ أزهار الرياض ١ : ٢٨٧ .

من فضله ، فأنكر عليّ بعضُ الحاضرين ممّن لا يحطّب إلا في جبل السلطان ،  
فصرفت وجهي وقلت : أيدكم الله ، تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من  
السياسة في شيء ، بل غير ذلك أحق وأولى ، فإن كان السلطان غالبَ عدوه  
كان قد غلبَ غير حقير ، وهو الأولى بفخره ، وجلالة قدره ، وإن غلبه  
العدو لم يغلبه حقير ، فيكون أشدَّ للحسرة ، وأكد للفضيحة ، فوافق - رحمه  
الله تعالى - على ذلك واستحسنه ، وشكر عليه ، وخجل المعترض ؛ انتهى .

وكان - رحمه الله تعالى - مبتلىّ بداء الأرق ، لا ينام من الليل إلا التزر  
اليسير جدّاً ، وقد قال في كتابه « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » : العَجَبُ  
مني - مع تألّفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلّف مثله في الطب ، وعملي ذلك - لا  
أقدر على مُداواة داء الأرق الذي بي ، أو كما قال ، ولذا يقال له « ذو العُمَرَيْنِ »  
لأن الناس ينامون في الليل وهو ساهر فيه ، ومؤلفاته ما كان يصنف غالبها إلا  
بالليل ، وقد سمعت بالمغرب بعضَ الرؤساء يقول : لسان الدين ذو الوزارتين ،  
وذو العمرين ، وذو الميتين ، وذو القبرين ؛ انتهى . وسيأتي ما يُعلم منه معنى  
الأخيرين .

### [ التعريف بالسلطان أبي الحجاج ]

وقد عرف - رحمه الله تعالى - بالسلطان أبي الحجاج في « الإحاطة » فقال  
ما حاصله<sup>١</sup> : يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ،  
الأَنْصَارِي الخَزْرَجِي ، أمير المسلمين بالأندلس ، أبو الحجاج ، تولى الملك بعد  
أخيه بوادي السقائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء ثالث عشر ذي  
الحجّة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، وسنّه خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر ،  
أمه أم ولد ، وكان له ثلاثة أولاد كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده ، وتلوه

١ الإحاطة ، الورقة : ٣٦٧ وانظر السحة البدرية : ٨٩ .

أخوه إسماعيل محجوره ، وثالثهم قيس شقيق إسماعيل ، وذكر لسانُ الدين أنه وَزَرَ له بعد شيخه ابن الجياب ، وتولى كتابة سرّه مضافة إلى الوزارة في أخريات شوال عام تسعة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى . وقد عَلِمَ أنّه وزر بعده لابنه محمد كما تقدم ويأتي ، وأما إسماعيل بن أبي الحجاج فهو الذي تغلب على الأمر ، وانتَهز الفرصة في ملك أخيه محمد كما تقدم ، وفيه وفي أخيه قيس حين قُتلا يقول لسان الدين :

بإسماعيل ثم أخيه قيس

البيتين .

وقد ذكر أيضاً - رحمه الله تعالى - حكاية وفاة السلطان أبي الحجاج ما حصله أنّه هجم عليه رجل من عداد المرورين ، وهو في الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فطعنه بخنجر ، وقُبِضَ عليه ، واستُفهم فتكلّم بكلام مخلط ، واحتُمل إلى منزله على فوت لم يستقر به إلاّ وقد قضى ، وأُخرج قاتله إلى الناس فقتل لحينه ، وأُحرق بالنار ، ودفن عشية اليوم المذكور في مقبرة قصره ، ضجيع والده ، وولي أمره ولده محمد ، ورثته في غرض ناء عن الجزالة مختار ولده :

العمْرُ نومٌ ،	والمُنَى أحلامٌ	ماذا عسى أن يستمرّ مقامٌ
وإذا تحققتنا لشيء بدأة	فله بما تقضي العقول تمامٌ	
والنفسُ تجمحُ في مدى آمالها	ركضاً ، وتأبى ذلك الأيامُ	
من لم يُصَبْ في نفسه فمصابه	بجيبه ، نفذتْ بِذا الأحكامُ	
بعد الشيبية كبرةٌ ، ووراءها	هرمٌ ، ومن بعد الحياة حِمامٌ	
ولحكمة ما أشرقتْ شهبُ الدجى	وتعاقبَ الإصباحُ والإظلامُ	
دنياك يا هذا محلّةٌ نقلةٌ	ومُنَاخُ ركبٍ ما لديه مقامٌ	
هذا أميرُ المسلمين ومنّ به	وُجِدَ السّمَاخُ وأعدمَ الإعدامُ	

سُرُّ الأمانة والخلافةِ يوسفُ  
قصده عاديةُ الزمانِ فأقصدتُ  
فُجعتُ به الدنيا وكُدِّرَ شربُها  
أسفاً على الخلقِ الجميلِ كأنما  
أسفاً على العمرِ الحديدِ كأنه  
أسفاً على الخلقِ الرضيِّ كأنه  
أسفاً على الوجه الذي مهما بدا  
يا ناصرَ الثغرِ الغريبِ وأهلهِ  
يا صاحبَ الصدقاتِ في جُنحِ الدجى  
يا حافظَ الحرمِ الذي يظلاله  
مولاي هل لك للقصورِ زيارةٌ  
مولاي هل لك للعبيدِ تذكُّرٌ  
يا واحدَ الآحادِ والعلمِ الذي  
وفاك أمرُ الله حين تكاملتُ  
ورحلتُ عنَا الركبَ خيرَ خليفةٍ  
نعم الطريقُ سلكتَ كان رفيقهُ  
وكسفتُ يا شمسَ المحاسنِ ضحوةً  
وسقاك عيدُ الفطرِ كأسَ شهادةٍ  
وختمتَ عمركَ بالصلاةِ فحببدا  
مولاي كم هذا الرقادُ؟ إلى متى  
أعيدُ التحيةَ واحتسبها قرينةً  
تبكي عليكِ مصانعُ شيدتها  
تبكي عليكِ مساجدُ عمرتها

غيثُ الملوكِ وليثها الضرعامُ  
والعزُّ سامٍ ، والخميسُ لهامُ  
وشكا العراقُ مصابه والشامُ  
بدرُ الدجُنةِ قد جلاه تمامُ  
زهُوُ الحديقةِ زهرُهُ بسامُ  
زهرُ الرياضِ هَمّا عليه غمامُ  
طاشت لنورِ جماله الأفهامُ  
والأرضُ ترجفُ والسماءُ قتامُ  
والناسُ في فُرشِ النعيمِ نيامُ  
سُتِرَ الأرامِلُ واكتسى الأيتامُ  
بعد انتزاحِ الدارِ أو إلثامُ  
حاشاك أن يُنسى لديك ذمامُ  
خَفَقَتْ بعزةِ نصره الأعلامُ  
فيك النهى والجودُ والإقدامُ  
أثني عليكَ اللهُ والإسلامُ  
والزادُ فيه تهجدٌ وصيامُ  
فاليومُ ليلٌ ، والضياءُ ظلامُ  
فيها من الأجلِ الوحيِ مُدامُ  
عمَلٌ كريمٌ سعيه وختامُ  
بين الصفائحِ والترابِ تنامُ  
إن كان يمكنكِ الغداةُ كلامُ  
بيضٌ كما تبكي الهديلَ حَمَامُ  
فالناسُ فيها سُجَّدٌ وقيامُ

تبكي عليك خلّاتقُ أمّنتها  
عاملت وجه الله فيما رُمّنته  
لو كنت تُفدى أو تجار من الردى  
لو كنت تُمنعُ بالصوارم والقنا  
لكنّه أمرُ الإله ، وما لنا  
والله قد كتب الفناء على الورى  
نمّ في جوارِ الله مسروراً بما  
واعلم بأن سليلَ ملكك قد غدا  
سرّ تكنّف منه من خلفته  
كنت الحسامَ وصرت في غمد الثرى  
خلفت أمةَ أحمدٍ لمحمدٍ  
فهو الخليفةُ للورى في عهده  
أبقى رسومك كلّها محفوظةً  
العدلُ والشيمُ الكريمةُ والتقى  
حسبي بأن أغشى ضريحك لائماً  
يا مدفنَ التقوى ويا مئوى الهدى  
أخفيتُ من حزني عليك، وفي الحشا  
ولو أنّي أدبتُ حقك لم يكن  
وإذا الفتى أدى الذي في وسعه

قال لسان الدين : وكتبت في بعض معاهده :

غبت فلا عين ولا مخبر  
يا يوسف أنت لنا يوسف  
ولا انتظار منك مرقوب  
وكلنا في الحزن يعقوب

انتهى ؛ ورحم الله تعالى الجميع بمنه وقد قدمنا ما كتبه لسان الدين على لسان  
سلطانه إلى السلطان أبي عنان في شأن قتل السلطان أبي الحجاج في الباب الثامن من  
القسم الأول .

[ الغني ولسان الدين يلجان للمغرب ]

وقال لسان الدين في كتابه « اللوحة البدرية في الدولة النصرية » في ذكر  
ما يتعلق بخلع سلطانه وقيام أخيه عليه وفي خلال ذلك ، ما نصّه<sup>١</sup> : كان السلطان  
أبو عبد الله عند تصير الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيل قصرأ من قصور أبيه  
بجوار داره<sup>٢</sup> مرقهاً عليه ، متممة وظائفه له ، وأسكن معه أمه وأخواته منها ،  
وقد استأثرت يوم وفاة والده بمال جم من خزائنه الكائنة في بيتها فوجدت السبيل  
إلى السعي لولدها فجعلت تواصل زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن عمه  
الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي الوليد ابن الرئيس أبي عبد الله المباع له بأندرش  
ابن الرئيس أبي سعيد جدهم الذي تجمعهم جرتومته ، وشمّر الصهر المذكور  
عن ساعد عزمه وجده وهو ما هو من الإقدام ، ومداخلة ذؤبان الرجال ، واستعان  
بمن آسفته الدولة ، وهفت<sup>٣</sup> به الأطماع ، فتألف منهم زهاء مائة قصدوا جهة  
من جهات القلعة متسنمين شفاً صعب المرتقى ، واتخذوا آلة تدرك ذروته لنعوذ  
بنية كانت به عن التمام ، وكبسوا حرسياً بأعلاه بما اقتضى صماته ، فاستووا به ،  
ونزلوا إلى القلعة سحور الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائة ،  
فاستظهروا بالمشاعل والصراخ ، وعالجوا دار الحاجب رضوان ، ففضوا أغلاقها  
ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده ، وانتهبوا ما اشتملت عليه داره ، وأسرع طائفة  
مع الرئيس [ الصهر ] فاستخرجت الأمير المعتقل إسماعيل ، وأركبته وقرعت

١ اللوحة البدرية : ١٠٨ .

٢ ق : بجواره .

٣ ص : وهفت .



الطبول ، ونودي بدعوته ، وقد كان أخوه السلطان متحولاً بولده إلى سكنى  
الجنة المنسوبة للعريف لصق داره ، وهي المثل المضروب في الظل الممدود ،  
والماء المسكوب ، والنسيم البليل ، يفصل بينها وبين معقل الملك السور المنيع  
والخندق المصنوع ، فما راعه إلاّ النداء والعجيج وأصوات الطبول ، وهباً  
إلى الدخول إلى القلعة فألقاها قد أخذت دونه شعابها كلتها ونقابها ، وقذفته  
الحراب ، ورشقته السهام ، فرجع أدراجَه ، وسدده الله تعالى في محل الحيرة ،  
ودسّ له عرق الفحول من قومه ، فامتطى صهوة فرس كان مرتبطاً عنده ،  
وصار لوجهه فأعيا المتبّع ، وصبح مدينة وادي آش ، ولم يشعر حافظ قصبتها  
إلاّ به وقد تولج عليها ، فالتفّ به أهلها وأعطوه صفقتهم بالذّب عنه ،  
فكان أملك بها ، وتجهزت الحشود إلى منازلته ، وقد جدد أخوه المتغلب على ملكه  
عقدَ السلم مع طاغية قشتالة باحتياجه إلى سلم المسلمين لجرّاء فتنة بينه وبين  
البرجلونيين من أمته ، واغتبط به أهلُ المدينة ، فذبّوا عنه ، ورضوا بهلاك  
نعمتهم دونه ، واستمرت الحال إلى يوم عيد النحر من عام التاريخ ، ووصله  
رسولُ صاحب المغرب مستنزلاً عنها ومستدعياً إلى حضرته ، لما عجز عن  
إمساكها ، وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من مَعوّل ، فانصرف ثاني يوم  
عيد النحر المذكور ، وتبعه الجمع الوافر من أهل المدينة خيلاً ورجلاً إلى مريلة  
من ساحل إجازته ، وكان وصوله إلى مدينة فاس مصحوباً من البرّ والكرامة  
بما لا مزيد عليه في السادس من شهر محرم فاتح عام أحد وستين وسبعمائة ،  
وركب السلطان للقائه ، ونزل إليه عندما سلم عليه ، وبالغ في الحفاية به ، وكنّت  
قد ألحقت به مُفْلتاً من شَرَك النكبة التي استأصلت المال ، وأوهمت سوء الحال ،  
بشفاعة السلطان أبي سالم قدس الله روحه ، فقامت بين يديه في الحقل المشهود  
يومئذ وأنشدته<sup>١</sup> :

١ وردت هذه القصيدة أيضاً في أزهار الرياض ١ : ١٩٦ .

وهل أعشب الوادي ونمّ به الزهرُ  
 عفت آيها إلا التوهمُ والذكرُ  
 بأكفافها والعيشُ فينانُ مخضَرُ  
 فها أنا ذا ما لي جناحٌ ولا وكرُ  
 ولا نَسَخَ الوصلَ الهنيءَ بها هجرُ  
 ولذاتها دأباً تزور وتزورُ  
 مدّى طال حتى يومه عندنا شهرُ  
 ضرامٌ له في كلِّ جانحة جمرُ  
 وللشوق أشجانٌ يضيقُ لها الصدرُ  
 فعادَ أجاجاً بعدنا ذلك النهرُ  
 وآتسها الحادي وأوحشها الزجرُ  
 بإنجازٍ وعدِ الله ، قد ذهب العسرُ  
 أتى النفعُ من حالٍ أريدَ بها الضرُ  
 وإن يخذلِ الأقوامُ لم يخذلِ الصبرُ  
 نقاباً تساوى عندهُ الحلو والمُرُ  
 وعزماً<sup>٢</sup> كما تمضي المهنّدةُ البثرُ  
 فلا اللحمُ حيلٌ ما حيت ولا الظهرُ  
 فلما رأينا وجهه صدقَ الرجزُ  
 دجا الخطبُ لم يكذب لعزمته فجرُ  
 فلما رأته صدقَ الخبرَ الحبيرُ  
 ولم يتعقبُ مدّةً أبداً جزرُ

سلا هل لديها من مُخبّرةٍ ذكرُ  
 وهل باكرَ الوسميُّ داراً على اللوى  
 بلادي التي عاطيتُ مشمولَ الهوى  
 وجوي الذي ربّي جناحي وكره  
 نبتَ بي لا عن جفوةٍ وملاةٍ  
 ولكنها الدنيا قليلٌ متاعها  
 فمن لي بقربِ العهدِ منها ودوننا  
 والله عينا من رأنا وللأسى  
 وقد بددت درّ الدموع يدُ النوى  
 بكينا على النهرِ الشروبِ عشيّةً  
 أقولُ لأطعاني وقد غالها السرى  
 رويدك بعد العسرِ يسرُ أن أبشري  
 والله فينا سرٌّ غيب ، وربما  
 وإن تحنّ الأيامُ لم تحنّ النهى  
 وإن عركتُ مني الخطوبُ مجرباً  
 فقد عجمت عوداً صلياً على الردى  
 إذا أنت بالبيضاء قررت متزلي  
 زجرنا بإبراهيمَ برء همومنا  
 بمنتجبٍ من آل يعقوبَ كلما  
 تناقلت الركبانُ طيبَ حديثه  
 ندّى لو حواه البحر لذّ مذاقه

١ ق : حتى عندنا يومه .

٢ ق : وغرساً .

وبأسٌ غدا يرتاعُ من خوفه الردي  
أطاعته حتى العُصم<sup>١</sup> في قُنن الرُبي  
قصدناك يا خيرَ الملوك على النوى  
كففتنا بكَ الأيامَ عن غلوائها  
وعُدنا بذاك المجدِ فانصرمَ الردي  
ولمَّا أتينا البحرَ يرهبُ موجهُ  
خلافتك العظمى ومن لم يدنُ بها  
ووصفك يهدي المدحَ قصدَ صوابه  
دعتك قلوبُ المؤمنين وأخلصتُ  
ومدّتْ إلى الله الأكفَ ضراعةً  
وأبسها النعمى ببيعتكَ التي  
فأصبحَ ثغرُ الثغرِ يسمُ ضاحكاً  
وأمنتَ بالسلمِ البلادَ وأهلها  
وقد كانَ مولانا أبوكَ مُصرّحاً  
وكنتَ حقيقاً بالخلافةِ بعده  
وأوحشتَ من دارِ الخلافةِ هالةً  
فردّ عليكَ اللهُ حقكَ إذ قضى  
وقاد إليكَ الملكَ رفقاً بخلقه  
وزادكَ بالتمحيصِ عزّاً ورفعةً  
وأنتَ الذي تُدعى إذا دمَ الردي  
وأنتَ إذا جارَ الزمانُ محكمً  
وهذا ابنُ نصرٍ قد أتى وجناحهُ

وترَفَلُ في أثوابه الفتكةُ البكرُ  
وهشتَ إلى تأميله الأنجمُ الزهرُ  
لتنصفنا ممّا جنى عبدكَ الدهرُ  
وقد رأينا منها التعسّفَ والكبرُ  
ولذنا بذاك العزمِ فانهزمَ الذعرُ  
ذكرنا نذاك الغمرَ فاحتقرَ البحرُ  
فإيمانهُ لغوٌ وعرفانهُ نُكْرُ  
إذا ضلّ في أوصافِ من دونك الشعرُ  
وقد طاب منها السرُّ لله والجهرُ  
فقال لمن الله : قد قضى الأمرُ  
لها الطائرُ الميمونُ والمحتدُ الحرُّ  
وقد كانَ ممّا نابهُ ليس يفتَرُ  
فلا ظبّةٌ تعرّى ولا روعةٌ تعرّو  
بأنك في أبنائه الولدُ البرُّ  
على الفورِ ، لكن كلُّ شيءٍ له قدرُ  
أقامتَ زماناً لا يلوح بها البدرُ  
بأن تشملَ النعمى وينسدلَ السترُ  
وقد عدموا ركنَ الإمامةِ واضطربوا  
وأجرأ ، ولولا السبكُ ما عُرفَ التبرُ  
وأنتَ الذي تُرجى إذا أخلفَ القطرُ  
لك النقضُ والإبرامُ والنهيُ والأمرُ  
مهيضٌ ، ومن عليكَ يلتمسُ الجبرُ

١ ق ص : القسم ، وهو خطأ واضح .

غريبٌ يرجي منك ما أنت أهلهُ  
 ففُزُّ يا أميرَ المسلمين بيعةٍ  
 ومثلُك من يرعى الدخيلَ ومن دعا  
 وخذُ يا إمامَ الحقِّ بالحقِّ ثأرهُ  
 وأنت لها يا ناصرَ الحقِّ فلتقمُ  
 فإن قيل مالٌ ، مالك الدائرُ وافرُ  
 يكفُّ بك العادي ، ويحيا بك الهدى  
 أعدهُ إلى أوطانه عنك راضياً  
 وعاجلُ قلوبِ الناسِ فيه يجبرها  
 وهم يرقبون الفعلَ منك وصفقةُ  
 مرامك سهلٌ لا يؤودك كلفةُ  
 وما العمرُ إلا زينةٌ مستعارةُ  
 ومن باعَ ما يفنى يباق مخلدُ  
 ومن دون ما تبغيه يا ملكَ الهدى  
 وِرَادُ وشُقْرُ واضحاتُ شياتها  
 وشُهْبُ إذا ما ضُمّرت يومَ غارةِ  
 وأسندُ رجالٍ من مَرينٍ مُخيفةُ  
 عليها من الماذي كلُّ مُفاضةِ  
 همُ القومُ إن هبوا لكشفِ مُلمةِ  
 إذا سئلوا أعطوا ، وإن نوزعوا سطوا  
 وإن مُدحوا اهتزوا ارتياحاً كأنهم  
 وإن سمعوا العوراء فروا بأنفسِ

فإن كنت تبغي الفخرَ قد جاءك الفخرُ  
 موثقةٌ قد حلَّ عروتها الغدرُ  
 بيا لمَرينِ جاءه العزُّ والنصرُ  
 ففي ضمنٍ ما تأتي به العزُّ والأجرُ  
 بحقِّ فما زيدُ يرجي ولا عمرو  
 وإن قيل جيشُ ، عندك العسكرُ المجرُ  
 ويسبي بك الإسلامُ ما هدم الكفرُ  
 وطوقه نعماك التي ما لها حصرُ  
 فقد صدَّهمُ عنه التغلبُ والقهرُ  
 تحاولها يملك ما بعدها خسرُ  
 سوى عرضٍ ما إن له في العلا خطرُ  
 تُردُّ ، ولكنَّ الثناء هوَ العمرُ  
 فقد أنجح المسعى وقد ربح التجرُ  
 جياذُ المداكي والمحجَّلةُ الغرُ  
 فأجسامها تبرُّ وأرجلها درُ  
 مطهَّمةٌ غارت بها الأنجمُ الزهرُ  
 عمائمها بيضٌ وآسالها سمرُ  
 تدافعُ في أعطافها اللججُ الخضرُ  
 فلا الملتقى صعبٌ ولا المرتقى وعرُ  
 وإن واعدوا وفوا ، وإن عاهدوا برُّوا  
 نشاوى تمشتُ في معاطفهم خمرُ  
 حرامٌ على هاماتها في الوغى الفرُ

وتبسم ما بينَ الوشيجِ ثغورهم  
 أمولايَ غاضتِ فكري ، وتبلدت  
 ولولا حنانُ منك داركتني به  
 فأوجدتَ مني فائتاً أيَّ فائتٍ  
 بدأتَ بفضلٍ لم أكنُ لعظيمه  
 وطوّقتني النعمى المضاعفةَ التي  
 وأنتِ بتتيميمِ الصنائعِ كافلٌ  
 جزاك الذي أسنى مقامك عصمةً  
 إذا نحنُ أثنيْنَا عليكَ بمدحةٍ  
 ولكننا نأتي بما نستطيعه

وما بين قُضْبِ الدَّوْحِ يتسم الزَّهرُ  
 طباعي ، فلا طبعٌ يعين ولا فِكْرُ  
 وأحييتني لم تبقَ عينٌ ولا أثرُ  
 وأنشرتَ مَيْتاً ضمَّ أشلاءهُ قَبْرُ  
 بأهلٍ ، فجلَّ اللطفُ وانفرجَ الصدرُ  
 يقلُّ عليها مني الحمدُ والشكرُ  
 إلى أن يعودَ الجاهُ والعزُّ والوقرُ  
 يُفكُّ بها عانٍ ويُنْعَشُ مضطربُ  
 فهيهاتَ يحصِي الرملُ أو يحصرُ القطرُ  
 ومن بذلَ المجهودَ حتى لهُ العذرُ

فلا تسأل عن امتعاض وانتفاض ، وسداد أنحاء في التأثير لنا وأغراض ، والله  
 غالب على أمره .

وفي صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين وستين وسبعمائة  
 كان انصرافه إلى الأندلس وقد ألحَّ صاحب قشتالة في طلبه ، وترجع الرأي على  
 قصده ، فقعده السلطان بقبة العرض من جنة المصارة ، وبرز الناس وقد أسمعه<sup>١</sup>  
 البريح ، واستحضرت البنود والطبول والآلة ، وألبس خلعة الملك ، وقيدت  
 له مراكبه فاستقل ، وقد التفَّ عليه كل من جلا عن الأندلس من لدُن الكائنة  
 في جملة كثيفة ، ورأى من رقة<sup>٢</sup> الناس وإجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما  
 قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكوناً وعفافاً وقرباً قد ظلله الله برواق الرحمة ،  
 وعطف عليه وشائج المحبة ، إلى كونه مظلوم العقد ، منتزع الحق ، فتبعته

١ اللحة : القبر .

٢ اللحة : الحصر .

٣ اللحة : أخذهم .

٤ اللحة : وتلا من رنة .

الخواطر ، وحميت عليه الأنفس ، وانصرف لوجهته ، وهو الآن برؤدة  
مستقل بها وبجهاتها [ ومتعلل بألقاب ] ومقتنع برسم وقد قام له برسم الوزارة  
الشيخ القائد أبو الحسن علي بن يوسف ابن كماشة الحضرمي ، وبكتابه الفقيه أبو  
عبد الله ابن زمرك<sup>١</sup> ، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقظ للأمور  
والمعرفة بوجوه المصالح ما لا ينكر ، كان الله لنا وله بفضلُه ؛ انتهى كلام لسان  
الدين ابن الخطيب في « اللوحة البدرية » .

### [ رسالة لسان الدين عن الغني إلى المنصور بن قلاوون ]

وقد علمت أنه بعد هذا التاريخ عاد سلطانه إلى حضرة غرناطة ، واستبد  
بملك الأندلس ، وعاد لسان الدين إليه حسبما أحسن سياق ذلك لسان الدين رحمه  
الله تعالى في كتاب من إنشائه على لسان سلطانه الغني بالله ، وخاطب به ملك  
الحرمين ومصر والشام السلطان المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون ، وقد  
ذكرنا منه ما يتعلق بالأندلس في الباب الثاني من القسم الأول<sup>٢</sup> ، وقال بعد ذلك  
فيما يتعلق بالخلع المذكور ما نصّه : ولما صير الله إلينا تراثهم الهني ، وأمرهم  
السني ، وبناءهم العادي ، وملكهم الجهادي ، أجزانا - وله الطول - على  
سنتهم ، ورفع أعلامنا في هضابهم المشرفة وقُنتنهم ، وحملنا فيهم خير حمل ،  
ونظم بنا لهم أي شَمْل ، وألبس أيامنا سلماً فسح الدارة ، وأحكم الإدارة ،  
وهنا الإمارة ، ومكن العمارة ، وأمن في البحر والبر السيارة والعبارة ، لولا  
ما طرقتهم فينا من تمحيص أجلى عن تخصيص ، وتمحض تبره بعد تخليص  
ومرّام عويص ، نبشكم بثّه ، ونوالي لديكم حثّه ، ونجمع مُنبثّه ، فإن  
في الحوادث ذكراً ، ومعروف الدهر لا يؤمن أن يعود نُكراً ، وشر الوجود

١ اللوحة : وبكتابه الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي المالقي وأبو عبد الله ابن زمرك .

٢ انظر النفع ١ : ٣٢١ - ٣٢٦ .

معاقبٌ بخيره ، والسعيد من انعط بغيره ، والحزم أفضل ما إليه ينتسب ، وعقل التجربة بالمرانة يُكتسب ، وهو أن بعضاً ممن ينسب إلينا بوشائج الأعراق ، لا بمكارم الأخلاق ، ويمتُّ إلينا بالقرابة البعيدة ، لا بالنسبة السعيدة ، ممن كفلناه يتيماً ، وصنّاه ذميماً شتيماً ، وبوّأناه مَبُوءاً كريماً ، بعد أن نشأ حرفوشاً دميماً ، وملعوناً لثيماً ، ونوّهناه من خموله بالولاية ، ونسخنا حكم تسحبته بأية العناية ، داخل أخاً لنا كنا ألزمناه الاقتصار على قصّره ، ولم نجعل أداة تدل على حصّره ، وساعناه في كثير من أمره ، ولم نرتب بزَيْدِهِ ولا عَمْرِهِ ، واغتررنا برّماد علا على جَمْرِهِ ، فاستدعى له من الصعاليك شيعته كل درِبٍ بفك الأغلاق ، وتسرب أنفاق النفاق ، وخارق للإجماع والإصفاق ، وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفُسّاق ، وتسوّر بهم القلعة من ثلم شرع في سدّه ، بعد هدّه ، ولم تكمل الأقدار المميزة في ليلة آثرنا ميبتنا ببعض البساتين خارج قصورنا ، واستنبتنا من يضطلع بأمرنا ، فاستمّ الحيلة التي شرعها ، واقتحم القلعة واقترعها ، وجدّل حرّس النوبة وصرعها ، وكبس محل النائب عنا وجدّد له ، ولم ينشب أن جدّد له ، واستخرج الأخ البائس فنصبه ، وشد به تاج الولاية وعصّبه ، وابتر أمرنا وغصبه .

وتوهم الناسُ أن الحادثة على ذاتنا قد تمت ، والدائرة بنا قد ألت ولقد همت ، فخذل الناصر ، وانقطعت الأواصر ، وأقدم المتناصر ، واقتحمت الأبهاء والمقاصر ، وتفرقت الأجزاء وتحللت العناصر ، وفقد من عين الأعيان النور الباصر ، فأعطوه طاعة معروفة ، وأصبحت الوجوه إليه مصروفة ، وركضنا وسرّعانُ الخيل تقفو أثر منجاتنا والظلام يخفيها ، وتكفي علينا السماء والله يكفيها ، إلى أن خلصنا إلى مدينة وادي آش خلوص القمر من السّرار ، لانملك إلا نفساً مُسلّمة لحكم الأقدار ، ملقية لله مقادة الاختيار ، مسلوبة بموجب الاستقرار ، وناصحنا أهل تلك المدينة فعملوا على الحصار ، واستبصروا في الدفاع عنا أم الاستبصار ، ورَضُوا لبيوتهم المُصحّرة ، وبساتينهم المستبحرة ،

بفساد الحديد وغيث النار ، ولم يرضوا لجوارهم بالإخفار<sup>١</sup> ، ولا لنفوسهم بالعار ، إلى أن كان الخروج عن الوطن بعد خطوب تسبح فيها الأقلام سبْحاً طويلاً ، وتوسعها الشجون شرحاً وتأويلاً ، وتلقي القصص منها على الآذان قولاً ثقيلاً ، وجزنا البحر وضلوع موجة إشفاقاً علينا تخفق ، وأكف رياحه حسرة تصفق ، ونزلنا من جناب سلطان بني مَرين على المَثوى الذي رَحِب بنا ذرعُه ، ودل على كرم الأصول فرعُه ، والكريم الذي وهب فأجزل ، ونزل لنا عن الصهوة وتترل ، وخير وحكم ، ورداً على الدهر الذي تهكم ، واستعبر وتبسم ، وآلى وأقسم ، وبَسْمَلٍ وقدم ، واستركب لنا واستخدم .

ولما بدا لمن وراءنا سيئات ما كسبوا ، وحققوا ما حسبوا ، وطفأ الغناء ورسبوا ، ولم ينشب الشقي الخزي أن قتل البائس الذي موّه بزيفه ، وطوقه بسيفه ، ودل ركب المخافة على خيفه ، إذ أمن المضعوف من كيده ، وجعل ضرغامه بازيماً لصيده ، واستقل على أريكته ، استقلال الظليم على تريكته ، حاسر الهامة ، متنفقاً بالشجاعة والشهامة ، مستظهاً بأول الجهالة والجهامة ، وساءت في محاولة عدو الدين سيرته ، ولما حصحص الحق أنكشفت سريرته ، وارتابت بلجنه المستور جيرته ، وفغر عليه طاغية الروم فمه فالتقمه ، ومد عليه الصليب ذراع فراعاه ، وشد الكفر عليه يده ، فما عضده الله ولا أيده ، وتخمرت ثغور الإسلام بعد انتظامها ، وشكت إليه باهتضامها ، وغصت بأشلاء عباد الله وعظامها ، ظهوراً أوضاعها ، ووكلت السنّة والجماعة ، وانقطعت من الشجح الطماعة ، واشتدت المجاعة ، وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة ، وأجزنا البحر تكاد جهاته تتقاربان تسييراً ، ورياحه لا تعرف في غير وجهتنا مَسيراً ، وكان ماءه ذوب لقي لإكسيراً ، ونهضنا يتقدمنا الرعب ويتقد منا الدعاء ، وتجاوى بنا الإشارة ويحفزنا الاستدعاء .

١ ق ص : بالإخبار ؛ ولعلها « بالإختار » .



وأقصر الطاغية عن البلاد بعد أن ترك ثغورها مهتومة ، والإخافة عليها محتومة ، وطوابعها مفضوضة وكانت بنا محتومة ، وأخذت الخائن الصيحة فاخبتل ، وظهر تهوره الذي عليه جبيل ، فجمع أوباشه السفلة وأوشابه ، وبهزجه الذي غش به المحض وشابه ، وعمد إلى الذخيرة التي صانتها الأغلاق الحريزة ، والمعافل العزيزة ، فملأ بها المناطق ، واستوعب الصامت والناطق ، والوشح والقراطين ، واحتمل عدد الحرب والزينة ، وخرج ليلاً عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعامته الشائلة ، ودولةً بغيه الزائلة ، أن يقصد طاغية الروم بقضه وقضيه ، وأوجهٍ وحضيضه ، وطويله وعريضه ، من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولا أمر عرف حقيقته ، إلا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة ، واستئصال الأمة المسلمة ، فلم يكن إلا أن تحصل في قبضته ، ودنا من مضجع ربضته ، واستشار نصحاءه في أمره ، وحكم الحيلة في جناية غدره ، وشهره بيلده ، وتولى قتله بيده ، وألحق به جميع من أمدّه في غيه ، وظاهره على سوء سعّيه ، وبعث إلينا برؤوسهم فنصبت بمسور غدرها ، وقلدت لبة تلك البنية بشذرها ، وأصبحت عبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين ، وأحق الله الحقّ بكلماته وقطع دابر الكافرين .

وعُدنا إلى أريكة ملكنا كما رجع القمر إلى بيته ، بعد كيته وكيته ، أو العقد إلى جيده ، بعد انتشار فريده ، أو الطير إلى وكره ، مُفلتاً من غول الشرك ومكره ، ينظر الناس إلينا بعيون لم تروا مذغينا من مُحياً رحمة ، ولا طشت عليها بعدنا غمامة رحمة ، ولا باتت للسياسة في ذمة ، ولا ركنت لدين ولا همّة ، فطوبنا بساط العتاب طي الكتاب ، وعاجلنا سطور المؤاخذه بالاضطراب ، وأنسنا نفوس أولي الاقتراف بالاقتراب ، وسهّلنا الوصول إلينا ، واستغفرنا الله لنفسنا ولمن جنى علينا ، فلا تسألوا عما أثار ذلك من استدراك ندم ، ورسوخ قدام ، واستمتاع بوجود بعد عدم ، فسبحان الذي يُمحّص ليثيب ، ويأمر بالدعاء ليجيب ، وينبه من الغفلة ويهيب ، ويجتبي إليه من يشاء ويهدي

إليه من يُنِيب .

ورأينا أن نطالع علومكم الشريفة بهذا الواقع تسيباً للمفاتيحة المعتمدة ،  
وتمهيداً للموالاتة المجددة ، فأخبار الأقطار ممّا تنفقه الملوك على أسماها ،  
وترقّمُ بدائعه هالات أعمارها ، وتستفيد منه حُسنَ السّيَر ، والأمان من الغيَر ،  
وتستعين على الدهر بالتجارب ، وتستدل بالشاهد على الغائب ، وبلادكم  
ينبوعُ الخير وأهله ، ورواقُ الإسلام الذي يأوي قريبه وبعيدهُ إلى ظلّه ، ومطلع  
نور الرسالة ، وأفق الرحمة المثالة ، منه تقدم علينا الكواكب تضرب آباط  
أفلاكها ، وتختلّل مداريها المذهبة غدائر أحلاكها ، وتستعلي البدور ، ثم  
يدعوها إلى المغرب الحدور ، وتطلع الشمس متجردة من كرائم ليلها ، متهادية  
في دركات ميلها ، ثم تسحب إلى الغروب فضلَ ذيلها ، ومن تلقائكم ورد  
العلم والعمل ، وأرعي الحمل .

فنحن نستوهب من مظانّ الإجابة لديكم دعاء يقوم لنا مقام المدد ، ويعدل  
منه الشيء بالمال والعدد ، ففي دعاء المؤمن بظَهْر الغيَب ما فيه ممّا ورد ،  
وإياه سبحانه نسأل أن يدفع عنا وعنكم دواعي الفتن ، وغوائل المحنّ ،  
ويحملنا على سنن السّنن ، ويلبسنا من تقواه أوقى الجُنن ، وهو سبحانه يصل  
لأبوتكم ما تستقل لدى قاضي القضاة رسوهُ ، فتُكتب حقوقه وتُكتب خصومهُ ،  
ولا تكلفه الأيام ولا تسومه ، بفضل الله وعزّته ، وكرمه ومنّته ، والسلام  
الكريم الطيب المبارك بدءاً بعد عود ، وجوذاً إثر جود ، ورحمة الله تعالى  
وبركاته ؛ انتهى .

وللسان الدين ابن الخطيب رحمه الله عن سلطانه المذكور كتاب آخر في هذه  
الكاتبة إلى كبير الموحدين أبي محمد عبد الله بن تفرجين<sup>١</sup> ، ولعلنا نذكره إن

---

١ كتبه ابن خلدون « تافراكين » وتحت الكاف نقطة إشارة إلى أنها في النطق كالجيم  
المصرية .

شاء الله تعالى في الباب الخامس من هذا القسم ، عند تعرُّضنا لبعض نثر لسان الدين  
رحمه الله تعالى .

### [ نقل عن ابن خلدون في خلع الفتي ]

وقد ساق هذه القضية قاضي القضاة الشهير الكبير ولي الدين عبد الرحمن  
ابن خلدون الحضرمي رحمه الله تعالى في تاريخه الكبير في ترجمة السلطان الشهير  
أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني صاحب المغرب ممّا نصّه<sup>١</sup> : الخبر عن  
خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان : لما  
هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة وتُصّب ابنه محمد للأمر  
واستبدّ عليه رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى  
عليه وعلى أمّه من محبته ، فلما عدلوا بالأمر عنه حجّبه ببعض قصورهم ،  
وكان له صهر من ابن عمّه محمد بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد ، فكان يدعو  
سراً إلى القيام بأمره ، حتى أمكنته فرصة في الدولة بخروج السلطان إلى بعض  
منتزهاته برياضه ، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة  
ستين في أوّشاب جمعهم من الطّغام لثورته ، وعمد إلى دار الحاجب رضوان ،  
فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرّمه وبناته وقربوا إلى إسماعيل فرسه وركب ،  
فأدخلوه القصر وأعلنوا بيعته ، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء ، وفرّ السلطان  
من مكانه بمنتزهه ، فلحق بوادي آش ، وغدا الخاصة والعامة على إسماعيل  
فبايعوه ، واستبد عليه هذا الرئيس ابن عمّه فخلعه لأشهر من بيعته ، واستقل  
بسلطان الأندلس . ولما لحق السلطان أبو عبد الله محمد بوادي آش بعد مقتل  
حاجبه رضوان ، واتصل الخبر بالمولى السلطان أبي سالم ، امتعض لمهلك رضوان  
وخلع السلطان رعيّاً لما سلف له في جوارهم ، وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٠٦ وأزهار الرياض ١ : ٢٠٢ .

من أهل مجلسه لاستخدامه ، فوصل إلى الأندلس ، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب ، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله ابن الخطيب كانوا اعتقاله لأول أمرهم لما كان رديفاً للحاجب رضوان وركناً لدولة المخلوع ، فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه ، فأطلقوه ، ولحق مع الرسول أبي القاسم الشريف بسultanه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب ، وأجاز لذي القعدة من سنته ، وقدم على السلطان بفاس ، وأجلّ قدومه ، وركب للقائه ، ودخل به إلى مجلس ملكه ، وقد احتفل ترتيبه ، وغص بالمشيخة والعلية ، ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ، ويستحثه لمظاهرتة على أمره ، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ، ثم سرد ابن خلدون القصيدة ، وقد تقدمت .

ثم قال بعد ما صورته<sup>١</sup> : ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله ، وقد فرشت له القصور ، وقربت الجياد بالمرابك الذهبية ، وبعث إليه بالكسا الفاخرة ، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع ، وحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل ، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدباً مع السلطان ، واستقر في جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس ، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين ما نحن نذكره ؛ انتهى المقصود جملته من كلام ابن خلدون في هذه الواقعة ، وفيه بعض مخالفة لكلام لسان الدين السابق في اللوحة البدرية ، إذ قال فيها : إن الثورة عليهم كانت ليلة ثمان وعشرين من رمضان ، وابن خلدون جعلها ليلة سبع وعشرين منه ، والخطب سهل ، وقال في « اللوحة » إن انصراف السلطان من وادي آش كان ثاني يوم النحر ، وقال ابن خلدون في ذي القعدة ، ولعله غلط من الكاتب حيث جعل مكان الحجّة القعدة .  
ورائية ابن الخطيب التي ذكرها هي من حرّ كلامه وغرّر شعره ، على

١ تاريخ ابن خلدون : ٣٠٩ وأزهار الرياض : ٢٠٣ .

أنه كَلَّه غرر ، إذ جمع فيها المطلوب في ذلك الوقت بأبدع لفظ وأحسن عبارة في ذلك المحفل العظيم ، ولم نزل نسمع في المذاكرات بالمغرب أنه لما انتهى فيها إلى قوله « فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر » قال له بعض مَنْ حضر وعلله أراد الغض منه : أحسنت يا وزير فيما قلت ، وفي وصف الحال والسلطان ، غير أنه بقي عليك شيء ، وهو ذكر قرابة السلطان موالينا بني مَرين وهم مَنْ هم ، ولا ينبغي السكوت عنهم ، فارتجل ابنُ الخطيب حينئذ قوله « ومن دون ما تبغيه - إلى آخره » حتى تخلص لمدح بني مَرين أقارب السلطان بما لا مرمى وراءه ، ثم قال بعد ذلك معترفاً « أمولاي غاضت فكري - إلى آخره » وهذا إن صح أبلغ مما وقع لأبي تمام في سينته حيث قال « لا تنكروا ضَرْبِي له - البيتين » لأن أبا تمام ارتجل بيتين فقط ، ولسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتاً ، مع ما هو عليه من الخروج عن الوطن وذهاب الجاه والمال ، فأين الحال من الحال ؟

وقد كرر ابن خلدون رحمه الله تعالى في تاريخه قضية اعتقال لسان الدين وخلع سلطانه في موضع آخر ، ولندكره وإن سبق بعضه لاشتماله على منشئ الوزير لسان الدين ، وجملة من أحواله إلى قريب من مهلكه ، فنقول<sup>١</sup> : قال رحمه الله تعالى بعد ذكره عبد الله والد لسان الدين وأنه انتقل من لَوْشَة إلى غرناطة ، واستخدم للملك بني الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ، ما محصله : ونشأ ابنه محمد هذا ، يعني لسان الدين ابن الخطيب ، بغرناطة ، وقرأ وتأدب على مشيختها ، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُدَيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرز في الطب ، وانتحل الأدب وأخذ عن أشياخه ، وامتلاً من حول اللسان نظمه ونثره<sup>٢</sup> ، مع انتقاء الجيد منه ، ونبغ<sup>٣</sup> في الشعر والترسيل بحيث لا يجارى فيهما ،

١ انظر تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٣٢ - ٣٣٦ وأزهار الرياض ١ : ٢٠٤ .

٢ ابن خلدون : وامتلاً حوض السلطان من نظمه . . . إلخ .

٣ ابن خلدون : وبلغ .

وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره ، وملاً الدنيا بمدائحهم ، وانتشرت في الآفاق ، فرقاه السلطان إلى خدمته ، وأثبتته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن ابن الجياب شيخ العُدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية ، وكتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه<sup>١</sup> ، فاستبد ابنُ الخطيب برياسة الكتاب ببابه مشاة بالوزارة ولقبه بها ، فاستقل بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الرسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العُدوة ، ثم داخله السلطان في تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالاً ، وبلغ به في المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله ، وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة معزياً بأبيه السلطان أبي الحسن فجعلني في أغراض سفارته ، ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، عدا عليه بعضُ الزعانف في سجوده للصلاة ، وطعنه فأشواه ، وفاظ لوقته ، وتعاورت سيوفُ الموالي الملعوجي هذا القاتل ، فمزقوه أشلاء ، وبويح ابنه محمد لوقته ، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم ، واستبد بالدولة ، وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ، وجعل ابنُ الخطيب رديفاً لرضوان في أمره ، ومشاركاً في استبداده معه ، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمدين منه على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه ، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شعر قدمه بين يدي نجواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خليفةَ الله ساعدَ القدرُ علاكَ ما لاحَ في الدجى قمرُ

١ سقطت هنا جملة تفيد أن ابن الجياب توفي بالطاعون الجارف سنة ٧٤٩ فولى السلطان أبو الحجاج ابن الخطيب رياسة الكتاب . . . إلخ .

ودافعتُ عنكَ كَفُّ قَدْرَتِهِ      ما لَيْسَ بِسَطِيحٍ دَفَعَهُ الْبَشْرُ  
 وَجَهْكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدْرُ دَجَى      لَنَا وَفِي الْمَحَلِّ كَفُّكَ الْمَطْرُ  
 وَالنَّاسُ طَرًّا بِأَرْضِ أَنْدَلُسِ      لَوْلَاكَ مَا أَوْطَنُوا وَلَا عَمَرُوا  
 وَجَمَلَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ وَطَنٌ      فِي غَيْرِ عِلْيَاكَ مَا لَهُ وَطْرُ  
 وَمَنْ بِهِ مَدَّ وَصَلَّتْ جِلْهُمُ      مَا جَحَدُوا نِعْمَةً وَلَا كَفَرُوا  
 وَقَدْ أَهَمَّتْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ      فَوَجَّهُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات ، وأذن له في الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس :  
 ما ترجع إليهم إلاّ بجميع طلباتهم ، ثم أنقل كاهلهم بالإحسان ، وردهم بجميع  
 ما طلبوه ، وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف - وكان معه في ذلك الوفد -  
 لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا ، ومكثت دولتهم  
 هذه بالأندلس خمس سنين ، ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان ، شرکه  
 في جده الرئيس أبي سعيد ، وتحين خروج السلطان إلى منتره خارج الحمراء ،  
 وتسور دار الملك المعروفة بالحمراء ، وكبس رضوان في بيته فقتله ، ونصب  
 للملك إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج بما كان صهره على شقيقته ، وكان  
 معتقلاً بالحمراء ، فأخرجه وباع له ، وقام بأمره مستبدّاً عليه ، وأحس  
 السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان ، فركب ناجياً إلى وادي آش وضبطها ،  
 وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آباؤه بالمغرب ، وقد  
 كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس ، واعتقل الرئيس القائم بالدولة  
 هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه ، وكانت بينه وبين الخطيب ابن  
 مرزوق مودة استحكمت أيام مقامه بالأندلس ، وكان غالباً على هوى السلطان  
 أبي سالم ، فزين له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبوناً على  
 أهل الأندلس ، ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طمحووا إلى ملك  
 المغرب ، فقبل ذلك منه ، وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي

آش إليه ، وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني ، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب وحل معتقله فأطلق ، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش ، وسار في ركاب سلطانه ، وقدموا على السلطان أبي سالم ، فاهتز لقدم ابن الأحمر ، وركب في الموكب لتلقيه ، وأجلسه إزاء كرسيه ، وأنشد ابن الخطيب قصيدته يستصرخ السلطان لنصره ، فوعده ، وكان يوماً مشهوداً ، ثم أكرم مثنوآه وأرغد نزله ، ووفر أرزاقَ القادمين مع ركابه ، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والإقطاع ، ثم استيأس واستأذن السلطان في التجوال بجهات مراكش والوقوف على أعمال الملك بها فأذن له ، وكتب إلى العمال بإتحافه فباروا في ذلك ، وحصل منه على حظ ، وعندما مر بسلا إثر قُفُوله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة ، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن ، وأنشد قصيدة على روي الرأ يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بغرناطة ،  
مطلعها :

إن بان منزلهُ وشَطَّتْ دارُهُ      قامت مقامَ عِيَانه أخبارُهُ  
قسَمَ زمانكَ عِبْرَةً أو عِبْرَةً      هذي ثراه وهذه آثارُهُ

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة فشفّوه ، واستقر هو بسلا متبذراً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة ، ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، وبعث عن مخلفه بفاس من الأهل والولد ، والقائم بالدولة يومئذ الوزير عمر بن عبد الله بن علي ، فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره ، فسُرَّ السلطان لقدمه وردّه إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله . وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية ملك النصارى في ركاب أبيه عندما أحس بالشر

١ فزين له . . . أبي سالم : سقطت كلها سهواً من ص .



من الرئيس صاحب غرناطة ، وأجاز يحيى من هنالك إلى العُدوة ، وأقام  
عثمان بدار الحرب ، فصحب السلطان في مَثْوَى اغترابه هنالك ، وتقلب في  
مذاهب خدمته ، وانحرفوا عن الطاغية عندما يشسوا من الفتح على يده ، فتحولوا  
عنه إلى ثغور بلادهم ، وخاطبوا الوزير عمر بن عبد الله في أن يمكنهم من بعض  
الثغور الغربية<sup>١</sup> التي لطاعتهم<sup>٢</sup> بالأندلس يرتقبون منها الفتح . وخاطبني السلطان  
المخلوع في ذلك ، وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله ذمة مرعية ، وخاصة  
متأكدة ، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله ، وحملته على أن يردَّ عليه  
مدينة رُنْدَة إذ هي من تراث سلفه ، فقبل إشارتي في ذلك ، وتسوَّغها السلطان  
المخلوع ونزل بها ، وعثمانُ بن يحيى في جملته وهو المقدم في بطانته ، ثم غزوا  
منها مالقة ، فكانت ركاباً للفتح ، وملكها السلطان<sup>٣</sup> ، واستولى بعدها على دار  
ملكه بغرناطة ، وعثمانُ بن يحيى متقدِّم القدم في الدولة عريق في المخالصة ،  
وله على السلطان دالة واستبداد على هَوَاهُ ، فلما وصل ابنُ الخطيب بأهل السلطان  
وولده ، وأعادته إلى مكانه في الدولة من علوِّ يده وقبول إشارته ، أدركته الغيرة  
من عثمان ، ونكِرَ على السلطان الاستكفاء به ، وأراه التخوف من هؤلاء  
الأعياص<sup>٤</sup> على ملكه ، فحذره السلطان ، وأخذ في التدبير عليه ، حتى نكبه  
وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة ، وأودعهم المطبق ، ثم  
غربهم بعد ذلك ؛ وخلا لابن الخطيب الجوّ وغلب على هوى السلطان ودفع إليه  
تدبير الدولة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابنُ الخطيب بالحل والعقد ،  
وانصرف إليه الوجوه وعلقت به الآمال ، وغشي بابَه الخاصة والكافة وغصت  
به بطانة السلطان وحاشيته ، فثقنوا في السعايات فيه ، وقد همَّ السلطان

١ ابن خلدون : القريبة .

٢ ابن خلدون : أطاعتهم ؛ الأزهار : لطاغيتهم .

٣ فكانت . . . السلطان : سقطت من ق .

٤ كذا في ابن خلدون ، وفي ق ص : الأعياص ، جيشا وقعت .

عن قبولها ، ونمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب ، فشمّر عن ساعده في التفويض ، واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العُدوة يومئذ في القبض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق ، كانوا قد نصبوه شيخاً على الغزاة بالأندلس لما أجاز من العُدوة بعدما جاس خلالها لطلب الملك ، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية ، وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بني مرّين ، فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود ابن ماساي ، ونزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبعة وستين وسبعائة ، فأكرم نزلهم ، وتوفّي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة فقدم عبد الرحمن مكانه ، وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله ، ففص بما فعله السلطان المخلوع من ذلك ، وتوقع انتفاض أمره منهم ، ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسرُّ بها في بني مرّين ، فجزع لذلك ، وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي وإراحة نفسه من شغبهم على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له العهد بخطه على يد سفيره إلى الأندلس ، وكتبه أبي يحيى ابن أبي مدين ، وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماساي ، فتقبّض عليهما واعتقلهما ، وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية ، وربما تخيل أن السلطان مال إلى قبولها ، وأنهم قد أحفظوه عليه ، فأجمع التحوّل عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور ، وسار إليها في لُمة من فرسانه ، وكان معه ابنه علي الذي كان خالصة للسلطان ، وذهب لِطَيْبَتِهِ ، فلما حاذى جبل الفتح فَرَضَتِ المِجَازَ إلى العُدوة مال إليه ، وسرح إذنه بين يديه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه ، وقد كان السلطان عبد العزيز

١ وأغرى . . . واعتقلهما : سقطت من ابن خلدون ، وفيها تكرار لما سبق .

أوعز إليه بذلك ، وجهاز له الأسطول من حينه فأجاز إلى سبته ، وتلقاه ولأناها بأنواع التكرمة وامتنال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامه من تلمسان ، فاهترت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والقبطة ، ومن دولته بمكان التنويه والعزة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى ابن أبي مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكثر المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وإبداء ما كان كامناً في نفسه من سقطاته ، وإحصاء معايه ، وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها ، ورفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن ابن الحسن فاسترعاها ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضي ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وإمضاء حكم الله فيه ، فصم عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم : هلاً انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جيّاري . ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من أهل الأندلس في جملته ، فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة ورجع بنو ممرين إلى المغرب وتركوا تلمسان سار هو في ركاب الوزير أبي بكر ابن غازي القائم بالدولة ، فترل بفاس ، واستكثر من شراء الضياع وتأتق في بناء المساكن واغتراس الجنان ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى ، واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره ؛ انتهى .

١ ابن خلدون : لفظ المنافسون ؛ ق : المتنافسون .

[ رواية ابن خلدون عن نهاية لسان الدين ]

وقال ابن خلدون في تاريخه ما صورته<sup>١</sup> : كان محمد بن الأحمر المخلوع قد رجع من رُنْدَة إلى ملكه بقرناطة في جمادى من سنة ثلاث وستين ، وقتل له الطاغيةُ عدوّه الرئيس المنتزي على ملكهم حين هرب من قرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع ، واستوى على كرسيه ، واستقلّ بملكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب ، فاستخلصه ، وعقد له على وزارته ، وفوض إليه في القيام بملكه ، فاستولى عليه ، وملك هواه ، وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكانه ، إلى أن نزلت به آفة في رياسته فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة من ولد عمهم السلطان أبي علي ، ويخشونهم على أمرهم ، ولما لحق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب ، واستخلصه لنجواه ، ورفع في الدولة رتبته ، وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة مكان بني عمّه من الأعياص ، فكانت له آثار في الاضطلاع بها ، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه وكان ابن الخطيب<sup>٢</sup> ساعياً في مرضاته عند سلطانه ، فُدس إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساي ، وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره ، وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابنُ الأحمر ، واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز ، وتغير الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم وتنكر له ، فترزع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدم من الوسائل ومهد من السوابق ، فقبله السلطان وأحله من مجلسه محل الاصطفاء والقرب ، وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده فبعثهم إليه ، واستقر في جملة السلطان ، ثم تأكدت العداوة بينه

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٣٧ وأزهار الرياض ١ : ٢٢٤ .

٢ واستخلصه . . . الخطيب : سقطت من ص سهواً .

وبين ابن الأحمر ، فرغَّبَ السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ، ونمي ذلك إلى ابن الأحمر ، فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يُسمع بمثلها انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه ، وأوفد بها رسله يطلب إسلامَ وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونكره . ولما هلك السلطان واستبدَّ الوزير ابن غازي بالأمر تَحَيَّرَ إليه ابن الخطيب وداخله ، وخاطبه ابن الأحمر بمثل ما خاطب به السلطان عبد العزيز ، فليجَّ واستنكف عن ذلك ، وأقبح الرد وانصرف رسوله إليه وقد رهب سطوته ، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول ، وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماساي ، ونهض - يعني ابن الأحمر - إلى جبل الفتح ، فنازله بعساكره ، ونزل عبد الرحمن ببطوية .

ثم ذكر ابن خلدون كلاماً كثيراً تركته لطوله ، وملخصه<sup>١</sup> أن الوزير أبا بكر ابن غازي الذي كان تحييز إليه ابنُ الخطيب ولَّى ابنَ عمِّه محمد بن عثمان مدينة سبتة خوفاً عليها من ابن الأحمر ، ونهض هو - أعني الوزير - إلى منازل عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ببطوية إذ كانوا قد بايعوه ، فامتنع عليه ، وقاتله أياماً ثم رجع إلى تازا ، ثم إلى فاس ، واستولى عبد الرحمن على تازا ، وبينما الوزير أبو بكر بفاس يدبر الرأي إذ وصله الخبر بأن ابن عمِّه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبي سالم ، وهو المعروف بذي الدولتين ، وهذه هي دولته الأولى ، وذلك أن ابن عم الوزير وهو محمد بن عثمان لما تولى سبتة كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح ، وأخذ بِمُخَنَّقِهِ وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب ، فاستعتب له ، وقبح ما جاء به ابن عمِّه الوزير أبو بكر ابن غازي من الاستغلاظ له في شأن ابن الخطيب وغيره ، فوجد ابنُ

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٣٨ - ٣٤١ وأزهار الرياض ١ : ٢٢٦ .

الأحمر في ذلك السبيل إلى غرضه ، وداخله في البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرقبة ، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً ولا يتركهم فوضى وهملات تحت ولاية الصبي الذي لم يبلغ ولا تصح ولايته شرعاً ، وهو السعيد بن أبي فارس الذي بايعه الوزير أبو بكر ابن غازي بتلمسان حين مات أبوه واستبد عليه ، واختص ابن الأحمر أحمد بن أبي سالم من بين أولئك الأبناء لما سبق بينه وبين أبيه أبي سالم من الموات ، وكان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان وحزبه شروطاً : منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح الذي هو محاصر له ، وأن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بني مَرين ليكونوا تحت حَوَظته ، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه ، فانعقد أمرهم على ذلك ، وتقبل محمد بن عثمان شروطه ، وركب من سبتة إلى طنجة ، واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه ، وحمل الناس على طاعته ، واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها فقدموا وبايعوا ، وخاطب أهل جبل الفتح فبايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم ، وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح ، وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته ، فارتحل ابن الأحمر من مالقة إليه ، ودخله ، ومحا دولة بني مَرين ممّا وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس ، وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره . ولما وصل الخبر بهذا كله إلى الوزير أبي بكر ابن غازي قامت عليه القيامة ، وكان ابن عمّه محمد بن عثمان كتب إليه يُسمّوه بأن هذا عن أمره ، فغضب من ذلك ، ولطف ابن عمّه أن ينقض ذلك الأمر ، فاعتلّ له بانعقاد البيعة لأبي العباس ، وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمّه إلى ما رامه منه بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم للأندلس ، وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمّه ، ونهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ، فاهتبل في غيبته ابن عمه محمد بن عثمان ملك المغرب ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة نحو ستمائة ، وعسكر آخر من

الغزاة ، وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمته  
السلطان أحمد ومظاهرتة واجتماعهما على ملك فاس ، وعقد بينهما الاتفاق على  
أن يختص عبد الرحمن بملك سلفه ، فراضيا . وزحف محمد بن عثمان وسلطانه  
إلى فاس ، وبلغ الخبر إلى الوزير أبي بكر بمكانه من تازا ، فانفض معسكره ،  
ورجع إلى فاس ، ونزل بكدية العرائس وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى  
زرهون ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، فاقتل مصافه ، ورجع على عقبه  
مفلولا ، وانتهب عسكره ، ودخل البلد الحديد ، وجأجا بالعرب أولاد حسين  
فمسكروا بالزيتون ظاهر فاس ، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن  
كان معه من العرب الأجلاف ، وشردهم إلى الصحراء ، وشارف السلطان  
أبو العباس أحمد بجموعه من العرب وزناته ، وبعثوا إلى ولي دولتهم ونزار  
ابن عريف بمكانه من قصره الذي اختطه بملوية ، فجاءهم ، وأطلعوه على كامن  
أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق ، فاجتمعوا بوادي النجا ، وتحالفوا  
ثم ارتحلوا إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وبرز إليهم  
الوزير بعساكره ، فانهزمت جموعه ، وأحيط به ، وخلص إلى البلد الحديد  
بعد غصّ الريق ، واضطرب معسكر السلطان أبي العباس بكدية العرائس ونزل  
الأمير عبد الرحمن بإزائه ، وضربوا على البلد الحديد سياجا بالبناء للحصار ،  
وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ، ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر ،  
فأحكموا الحصار ، وتحكموا في ضياع الوزير ابن الخطيب بفاس ، فهدموها  
وعاثوا فيها . ولما كان فاتح سنة ست وسبعين داخل محمد بن عثمان ابن عمته  
الوزير أبا بكر في النزول عن البلد الحديد والبيعة للسلطان ، لكون الحصار قد  
اشتد به ويش وأعجزه المال ، فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن  
التجافي له عن أعمال مراکش بدل سجلماسة ، فمقدوا له على كره ،  
وطوّوا على المكر ، وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان وبايعه ، واقتضى  
عهده بالأمان وتخليه سبيله من الوزارة ، ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد

الجديد سبع المحرم ، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراکش ، واستولى عليها ؛ انتهى .

### [ رواية ابن الأحمر ]

وقال حفيد السلطان ابن الأحمر في تاريخه ما صورته : لما لحق الرئيس أبو عبد الله ابن الخطيب بالمغرب عام اثنين وسبعين وسبعمائة ، وكان من وفاة مجيره والمحامي عنه السلطان عبد العزيز ما ألعنا بذكره ، شدّ الوزير أبو بكر ابن غازي يده على ابن الخطيب بانياً على أشد الأشياء ألا يسلمه لمولانا جدنا مع توقع البغضاء ، واقتدى هذا الوزير بالسلطان عبد العزيز في إعراضه عن العقود الموجهة من الأندلس بالمُقذع من موبقات ابن الخطيب ، ولج في الغلواء ، وسجل موجبات الوفاء ، والبواعث من مولانا جدنا تتزايد ، والأساطيل تتجهز ، والآراء بالقصد الخطير ينتقى منها الصواب ويتخير ، حتى خيم مولانا جدنا بظاهر جبل الفتح ، وكان إذ ذاك راجعاً إلى إيالة المغرب ، فأناخ عليه كلكل الجيش ، وأهمهم نقل الوطأة ولم يبال مولانا جدنا بما أرسلت آناء الليل وأطراف النهار من شآبيب الأنفاط ، والجوار من باب الشطائين قريب ، والحالصة من الثقات مستريب ، والنجاة من تلك الأهوال من الأمر الغريب ، ولم يبق بفرناطة مَنْ له خلوص ، ولا من ترامي به همّة إلا وأعمل السير الحثيث ولحق بمولانا جدنا لحاق المحب بالحبيب ، حتى أهلّ العلم ، والرجاحة والحلم ، ولا كالسيد الإمام الأستاذ أبي سعيد قطب الجملة ، وعميد الملة ، وهو الذي بلغنا نظمه في هذه الوجهة ، وعندما ألقى عصا التسيار في الجهة القريبة من أولي العداوة ، ومن ذلك قصيدته المشهورة التي أولها :

يا جبَلَ الفتح استمَلتْ نَفوسنا فلا قلبَ إلا نحو مَغناك قد سبقُ  
فأرسلتْ إذ جئناك فينا صواعقاً تَخالُ بها جوَّ السماء قد انطبقُ



وقوله في إجابة السفهاء من الهاتفين بالسور موثقاً معجباً رحمة الله تعالى عليه :

وذمُّوا وما يعنون إلا مذمِّماً وأنت - بحمد الله - تدعى محمداً

وقول حامل اللواء الآتي ذكره في تضاعيف الأسماء :

أما مَرَامِكِ في عِرَاضِ البِيدِ فمبَلَّغٌ ما شئتَ من مقصودِ  
والهُجْرُ إنْ ألقته ألسنةُ العِدا يَأباه فضلُ مقامِكِ المحمودِ  
سحقاً لهم سفهاء كلِّ قبيلةٍ شذتْ مقاتلهم عن المعهودِ  
قد ضلَّتِ الأحلامُ منهم رشدها هذا ، ومنك الحلمُ غيرُ بعيدِ  
مع عزيمةٍ لو شئتَ هدَّتْ كلَّ ما قد أحكموا من معلّمٍ ومَشِيدِ

إلى أن قال : الخبر عن اجتماع الأميرين أبي العباس وأبي زيد متصاحبين ومترافقين على استخلاص مدينة فاس من يد الوزير أبي بكر ابن غازي بن الكاس :  
وكتب الرئيس أبو عبد الله ابن زمرك في مخلص هذه الكائنة حث الوزير محمد ابن عثمان السير في وسط عام خمسة وسبعين وسبعمائة ، وتلاقى بسلطانه أبي العباس مع الأمير أبي زيد عبد الرحمن ، واستقلا بالطائفة ، وحصلا من التضييق على السعيد الطفل الصغير وعلى وزيره أبي بكر ابن غازي في متسع الخطة ورحيب ذرع الخلافة ، وتصالحا عن رضی وتسليم منهما ومن أشياعهما على تسليم السعيد إلى اللحاق بمن كان في طنجة من الأمراء ، واتصل السلطان عبد الرحمن بمراكش ، فكان ملكها وجابي أموالها ، وتملك السلطان أبو العباس مدينة فاس وما والى البلاد الساحلة وسواها مما يحتوي عليه ملك المدينة البيضاء برآً وبحراً .

وعبر كاتب الدولة عن المدينة وعن الطفل متملكها بقوله : وإلى هذا فقد ارتفع الالتباس ، واطرد القياس ، وغيرُ خفيٍّ عن ذي عقل سليم ، وذي تفويض للحق وتسليم ، أن دار الملك المريني كمامة بلا زهر ، ورياض بلا نهر ، إن لم يقتعد كرسياها ، من يزين جيدها ويحيد حليها ، وآن أوان البشري لمن يمتعض

للدين ، والآن قلادة الثقوى منوطة بقلم أعلام الملوك المهتمدين ، ثم ذكر ما يطول من فصول ، وربما اشتملت على فصول ، وملخصه مثل ما ذكر ابن خلدون .

[ تمة الخبر عن نهاية لسان الدين نقلاً عن ابن خلدون ]

ثم ساق قاضي القضاة ابن خلدون - بعد ما تقدم جلبه من تاريخه - الكلام على محنة لسان الدين ابن الخطيب ووفاته مقتولاً رحمه الله تعالى فقال ما صورته<sup>١</sup> :  
ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الحديد دار ملكه فاتح ست وسبعين استقل بسطانه ، والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه ، وسليمان بن داود بن اعراب كبير بني عسكر رديفه ، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر - عندما بويع بطنجة - على نكبة الوزير ابن الخطيب وإسلامه إليه ، لما نجي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس ، فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقيه أبو بكر ابن غازي بساحة البلد الحديد ، فهزمه السلطان ولازمه بالحصار ، أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الحديد خوفاً على نفسه ، فلما استولى السلطان على البلد أقام أياماً ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض على ابن الخطيب ، فقبضوا عليه ، وأودعوه السجن ، وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر . وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس متى أعاده الله تعالى إلى ملكه ، فلما استقر إليه سلطانه أجاز إليه سليمان سفيراً عن الوزير عمر بن عبد الله ومقتضياً عهده من السلطان ، فصده الوزير ابن الخطيب عن ذلك ، محتجاً بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من بني عبد الحق ، لأنهم يعسوب زناتة ، فرجع سليمان ، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب ، ثم جاوز الأندلس لمحل إمارته من جبل الفتح فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات

١ تاريخ ابن خلدون ٧ : ٣٤١ وأزهار الرياض ١ : ٢٢٩ .

ينفث كل واحد منهما لصاحبه بما يُحفظه مما كُن في صدورهما . وحين بلغ خبير القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله ابن زمرك ، فقدم على السلطان أبي العباس ، وأحضر ابن الخطيب بالمشور<sup>١</sup> في مجلس الخاصة ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبة ، فعظم النكير فيها ، فوبخ ونكل وامتنحن بالعذاب بمشهد ذلك الملاء ، ثم تُلَّ إلى محبسه ، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأقن بعض الفقهاء فيه ، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلاً ، ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سُفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقاً في محبسه ، وأخرج شلوه من الغد ، فدفن بمقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد على ساقه<sup>٢</sup> قبره طريحاً ، وقد جُمعت له أعواد ، وأضرمت عليه نار ، فاحترق شعره ، واسودَّ بشره ، فأعيد إلى حفرتة ، وكان في ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان ، واعتدوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعال لما يريد .

وكان — عفا الله تعالى عنه — أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتُجهش هوَاتِفُهُ بالشعر يبكي نفسه ، ومما قال في ذلك رحمه الله تعالى :

بَعْدُنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا الْبُيُوتُ	وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ
وَأَنْفَاسِنَا سَكَنْتُ دَفْعَةً	كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهِ الْقُنُوتُ
وَكُنَّا عِظَامًا فَصَرْنَا عِظَامًا	وَكُنَّا نَقُوتُ فَهِيَ نَحْنُ قُوتُ
وَكُنَّا شَمُوسَ سَمَاءِ الْعُلَا	غَرِبْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السَّمُوتُ
فَكَمْ جَدَلْتِذَا الْحَسَامِ الظُّبِي	وَذُو الْبَخْتِ كَمْ جَدَلْتَهُ الْبِخُوتُ

١ تصحفت الكلمة في ق ص ؛ والمشور : القصر لأنه موضع الشورى .

٢ ق وابن خلدون والأزهار : شاقه .

وكم سيقَ للقبرِ في خرقَةٍ فتى ملثت من كُساهِ التَّخوتِ  
فقل للعدا ذهب ابنُ الخطيبِ وفات، ومنَ ذا الذي لا يفوتُ  
ومن كان يفرحُ منهم له فقل: يفرحُ اليومَ من لا يموتُ  
انتهى كلام ابن خلدون في « ديوان العبر » .

[ عن ابن حجر ]

وقال الحافظ ابن حجر في « أنباء الغمر » بعد أن ذكر ما قدمناه على سبيل  
الاختصار ، ما نصّه : واشتهر أنّه — يعني لسان الدين — نظم حين قدّم للقتل  
الأبيات المشهورة التي يقول فيها :

وقلّ للعداة مضى ابنُ الخطيبِ وفات فسبحان من لا يفوت  
فمن كان يشمت منكم بهِ فقل : يشمت اليوم من لا يموت

والصحيح في ذلك ما ذكره صديقه شيخنا ولي الدين ابن خلدون أنّه نظم  
الأبيات المذكورة وهو في السجن ، لما كان يستشعر من التشديد ؛ انتهى .  
ثم حكى ابن حجر عن بعض الأعيان أن ابن الأحمر وجّهه إلى ملك  
الإفرنج في رسالة ، فلما أراد الرجوع أخرج له رسالة لابن الخطيب تشتمل  
على نظم ونثر ، فلما قرأها قال له : مثل هذا كان ينبغي أن لا يُقتل ، ثم بكى  
حتى بل ثيابه ؛ انتهى كلام الحافظ ، وبعضه بالمعنى . فانظر — سدّدك الله تعالى —  
بكاء العدو الكافر على هذا العلّامة ، وقتل إخوانه في الإسلام له على حظ  
نفساني ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا ربّ غيره .

[ تخميس لأبيات لسان الدين ]

قلت : ورأيت بحضرة فاس — حاطها الله تعالى — تخميساً لهذه الأبيات بديعاً

منسوباً إلى بعض بني الصباغ ، وزاد في الأصل بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون من هذه القطعة ، والمزیدُ يشبه نفسَ لسان الدين ابن الخطيب ، فلعل ابن خلدون اختصر منها ، أو لم يقف على الزائد ، ولتثبت جملته تمييزاً للمقصود ، فنقول : قال رحمه الله تعالى<sup>١</sup> :

أيا جاهلاً غرّه ما يفوت وألهاه حالٌ قليلُ الثبوتِ  
تأملُ لمن بعد أنسٍ يقوت<sup>٢</sup> بعدنا وإن جاورتنا البيوتُ  
وجئنا بوعظٍ ونحنُ صموتُ

لقد نلتُ من دهرنا رفعةً تقضتُ كبرقٍ مضى سرعةً  
فهيّاهت نرجو لها رجعةً وأصواتنا سكنتُ دفعةً  
كجهر الصلاةِ تلاهُ القنوتُ

بدا لي من العزّ وجهُ شبابٍ يؤملُ سيّبي وبأسي يُهابُ  
فسرعان مُزقّ ذاك الإهابُ ومدت وقد أنكرتنا الثيابُ  
علينا نسايجها العنكبوتُ

فأهلاً لعزّي تقضتُ مناماً منحنا بهِ الجاهِ قوماً<sup>٣</sup> كراماً  
وكنّا نسوسُ أموراً عظاماً وكنّا عظاماً فصرنا عظاماً  
وكنّا نقوتُ فيها نحنُ قوتُ

١ هذا التخمين في أزهار الرياض ١ : ٢٣١ .

٢ الأزهار : يصوت .

٣ الأزهار : دوماً .

وكنّا لدى الملك حلّي الطلّي فأهاً عليه زماناً خلا  
نُعَوِّضُ من جِسدَةٍ بالبلي وكنّا شمسَ سماءِ العلا  
غربنا فناحت علينا السموت

تعودتُ بالرغمِ صرف الليالي وحمّلتُ نفسي فوقَ احتمالي  
وأيقنتُ أن سوفَ يأتي ارتحالي ومَن كان منتظراً للزوالِ  
فكيفَ يؤمّلُ منه الثبوت

هو الموتُ يا ما له مِن نَبَا يجوزُ الحجابَ إلى مَن أبي  
ويألفُ أخذَ سَيِّ الحُبَا فكم أسلمتُ ذا الحسامِ الطَّبِي  
وذا البختِ كم جدّته البخوت

هُوَ المَوْتُ أفصحَ عن عَجْمَةٍ وأيقظَ بالوعظِ من خفقةٍ  
وسلّى عنِ الحزنِ ذا حرقةٍ وكم سيقَ للقبرِ في حرقةٍ  
ففي ملئتُ من كساه التخوت

تقتضى زمانِي بعيشٍ خصيبِ وعندي لذني انكسارُ المنيبِ  
وها الموتُ قد صبتُ منه نصيبي فقلْ للعدا ذَهَبَ ابنُ الخطيبِ  
وفات ومن ذا الذي لا يفوتُ

مضى ابنُ الخطيبِ كمن قبله ومن بعده يقتضي سُبُلَهُ  
وهذا الردي نائر شَمَلَهُ فمن كانَ يفرحُ منهم له  
فقل: يفرح اليوم من لا يموتُ

هو الموتُ عمٌّ فما للعدا يُسرون بي حين ذقتُ الردى  
ومن فاته اليومَ يأتي غداً سبيلى الحديدُ إذا ما المدى  
تتابع آحادُهُ والسُّبوتُ

أخِيَّ تَوَخَّ طَرِيقَ النِّجَاةِ وَقَدَّمَ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَمَاتِ  
وَشَمَّرَ بِجِدِّ لِمَا هُوَ آتٍ وَلَا تَغْتَرَّرْ بِسِرَابِ الحَيَاةِ  
فإنَّكَ عَمَّا قَرِيبٍ تَمُوتُ

وقد ذكرني قوله رحمه الله تعالى « فمن كان يفرح منهم له - إلى آخره »  
قول بعض العلماء الشاميين :

يا ضاحكاً بمن استقلَّ غباره سيثور عن قدميك ذاك العشيرُ  
لا فارس يجنودها منعت حمى كسرى ، ولا للروم خلد قيصرُ  
جدد مضت عاد عليه وجرهم وتلاه كهلان وعقب حميرُ  
وسطا بغسان الملوك وكندة فلها دماء عنده لا تشارُ  
لعبت بهم فكأنتهم لم يخلقوا ونسوا بها فكأنتهم لم يذكروا

[ فصل في الاعتبار لابن دحية ]

وما أحسن قول أبي الخطاب ابن دحية الحافظ بعد كلام ما صورته<sup>١</sup> :  
وأخذت من طريق خوزستان إلى طريق حلوان ، وقاسيت من الغربية أصناف  
الألوان ، ومررت على مدائن كسرى أنوشروان ، وزرت بها قبر صاحب  
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الزاهد العابد المعمر سَكْمَان ، وأعملت منها السير  
والإغذاذ ، إلى مدينة بغذاذ ، فنظرت إليها معالم وربوعاً ، وأقمت بها مرة عاماً  
ومرة أسبوعاً وأسبوعاً ، وأنا أبدي في ندائهم وأعيد ، والترب قد علا على  
منازلهم والصعيد ، وأسأل عن الخلفاء الماضين وأنشد ، ولسان الحال يجاوبني  
وينشد :

١ انظر كتاب التبراس : ١٦٨ .

يا سائلَ الدارِ عن أناسٍ ليس لهم نحوها معادُ  
مرّت كما مرّت الليالي أين جدّيسٌ وأين عادُ

بل أين أبو البشر آدم الذي خلقه بيده الكبيرُ المتعال ؟ أين الأنبياء من ولده  
والأرسال ، أهلُ النبوة والرسالة ، والوحي من الله ذي الجلالة ؟ أين سيدهم  
محمد الذي فضّله عليهم ذو العزة والجلال ، وجعله شفيعهم مع أمته والناسُ في  
شدائد الأهوال ؟ أين القرون الماضية والأجيال ؟ أين التبابعة والأهवाल ؟ أين  
ملوك همّدان ؟ أين أولو الأبلق الفرد أو غمّدان ؟ أين أولو التيجان والأكاليل ؟  
أين الصيّد والبهاليل ؟ بل أين النمارذة وأكبرهم نمرود إبراهيم الخليل ؟  
أين الفراعنة ومن هو بالسحر عليم ، الذين منهم فرعون موسى الكليم ؟ أين  
ملك الهدنانية<sup>١</sup> هدد بن بدد الكردي ، الذي لم يكن صدره بمفيد له ولا مُجدي ؟  
وقد أخبر الحقُّ جل جلاله عنه أنّه كان يأخذ كل سفينة غصباً ، وزعم المؤرخون  
أنّه كان أيضاً يملأ القلوب رعباً ، ويسوم أصحابه قتلاً وصلباً ، مع الطمع في  
المال ، وعدم النظر في عقبي المال . أين الفرس وملوكها ، وعدلها وعدلها ؟  
أين دارا بن دارا بن بهمان ؟ أين إسكندر بن فلبيس اليوناني الذي غلبه وملك بلاده  
في ذلك الزمان ، وأطاعه جميع ملوك الأقاليم ، وقدر الله به امتحان الخلق ذلك  
تقدير العزيز العليم ؟ أين كسرى وقيصر ؟ غلبهما من الموت الأسد القسور ،  
بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المؤمنين أبو حفص عمّر ، لما ظهرت الملة  
الحنيفية كما ظهرت<sup>٢</sup> الشمس وبدت القمر ، أين أولاد جفنة وملوك غسان ؟  
أين ماديح زياد وحسان ؟ أين هرّم بن سنان ؟ أين الملّاعب بالسنان ؟ أين أولاد  
مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؟ أين بنو عبد المدان ؟ أين أرباب العواصم ؟  
أين قيس بن عاصم ؟ أين العرب العرباء الأمة الفاضلة ، والجماعة المناضلة ؟  
أين أولو الباس والحفاظ ، وذوو الحميّة والإحفاظ ؟ حيث الوفاء والعهد ،

١ في ابن الأثير والتنبيه وابن حوقل : الهدبانية .

٢ ق ص : ظهر .



والحبياء والرّفد ، إلى علوّ الهمم ، والوفاء بالذّمم ، والعطاء الجزل ، والضيف  
والنزّل ، وهبة الافال والبزّل ، وإنها لا تدين عزّاً ولا تُقَاد ، ولا ترام أنفّة  
ولا تُفاد ، أين قريش المغرورون في الجاهلية بالحي اللقاح ، والشعب الرقاح ؟  
أين الماضون من ملوك بني أمية ذوو الألسن الذلق ، والأوجه الطلق والحميّة ؟  
أين خلفاء بني العباس بن عبد المطلب ، الذين شرفهم بالأصالة وليس إليهم  
بالمنجلب ؟ ذوو الشرف الشامخ ، والفخر الباذخ ، والخلافة السنية الرضية ،  
والمملكة العامة المرضية . بلغتنا والله وفاتّهم ، ولم يبق إلا ذكرهم وصفاتهم ،  
قبض ملك الموت أرواحهم قبضاً ، ولم يترك لهم حراكاً ولا نبضاً ، ومزق الدود  
لحومهم قدداً ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ، إلا ما كان  
من أجساد الأنبياء عليهم أفضل التسليم ، فإن الله تعالى حرّم على الأرض أن  
تأكل أجساد الأنبياء ، وقد تكلمتُ على هذا الحديث وأثبتُ أنّه من الصحيح  
لا السقيم ، وخرجت طرقة في كتابي «العلم المشهور»<sup>١</sup> بعون من العزيز الرحيم ،  
فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه ، كم وعظه الدهر وكم وصاه ، يخلط  
الحقيقة بالمحال ، والعاطل بالحال ، ولا توبة حتى يشيب الغراب ، ويألف الدم  
التراب ، فيا لهفي لبعده الدار ، وانقضاض الجدار ، وأنت هامة ليل أو نهار ،  
وقاعد من عمرك على شفا جُرْفِ هار ، تقرأ العلم وتدعيه ، ولا تفهمه ولا  
تعيه ، فهو عليك لا لك ، فأولى لك ثم أولى لك ، أما آن لليل الغي أن تنجلي  
أحلاكه ، ولنظم البغي أن تنتثر أسلاكه ، وأن يستفزع الجاني جنّاه ، ويأسف على  
ما اقترفه وجنّاه ، وأن يلبس عهاده بتأ<sup>٢</sup> ، ويطلق الدنيا بتأ ، ويفر منها فرار  
الأسد ، ويتيقن أنّه لا بدّ من مفارقة الروح الجسد ، نبهنا الله تعالى من سيئات  
غفلاتنا ، وحسن ما ساء من صنائعنا الذميمة وسلاتنا ، وجعل التقوى أحصن  
عددنا وأوثق آلاتنا ، اللهم إليك المآب ، ويبيدك المتاب ، قد واقعنا الخطايا ،

١ هو العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور .

٢ ق ص : ربّنا .

وركبنا الاجرام رواحل ومطايا ، فتب علينا أجمعين ، وأدخلنا برحمتك في  
عبادك الصالحين الطائعين ، وصلى الله على سيد ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة ،  
وصاحب الحوض المورود والمقام المحمود والكرامة ، وعلى آله الطاهرين ،  
وأصحابه أهل الرضوان المنتخبين ، وسلام الله عليه وعليهم إلى يوم الدين ؛ انتهى  
وهو آخر كتابه « الثبراس في تاريخ بني العباس » وذكرته بطوله لمناسبته .  
قلت : وقد سلكت هذا المنحى نظماً في خطبة هذا الكتاب كما مرّ ، وللسان  
الدين رحمه الله تعالى كلام قريب من هذا سيأتي في نثره إن شاء الله تعالى .  
وأقول : إني قد تذكرت هنا قول القائل ١ :

نَطْوِي سُبُوتًا وَأَحَادًا وَنَشْرَهَا      وَنَحْنُ فِي الطَّيِّ بَيْنَ السَّبْتِ وَالْأَحَدِ  
فَعُدَّ مَا شَتَّ مِنْ سَبْتٍ وَمِنْ أَحَدٍ      لَا بَدَّ أَنْ يَدْخُلَ المَطْوِيُّ فِي العَدَدِ  
وقول الآخر :

ألم ترَ أنَّ الدهرَ يومٌ وليلةٌ      يكرآن من سبتٍ عليك إلى سبتٍ  
فقل بلحديد العيش لا بد من بليتى      وقل لاجتماع الشمل لا بد من شتٍ

[ نبذة عن أعداء لسان الدين ]

واعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسألة ، لم يقدر أحد أن يواجهه بما  
يدنس معاليه أو يطمس معاله ، فلما قلبت الأيام له ظهر ميجنتها ، وعاملته  
بمنعها بعد منحها ومنّتها ، أكثر أعداؤه في شأنه الكلام ، ونسبوه إلى الزندقة  
والانحلال من ربة الإسلام ، بتنقص النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، والقول  
بالحلول والاتحاد . والانحراط في سلك أهل الإلحاد ، وسلوك مذاهب الفلاسفة  
في الاعتقاد . وغير ذلك مما أثاره الحقدُ والعداوة والانتقاد ، مقالات نسبوها

١ أزهار الرياض ١ : ٢٣٤ .

إليه خارجة عن السنن السويّ ، وكلمات كدروا بها منتهل علمه الرّويّ ، ولا يدين بها ويفوه إلاّ الضالّ الغويّ ، والظن أن مقامه رحمه الله تعالى من لبسها برّي . وجنابه ساعه الله تعالى عن لبسها عرّي . وكان الذي تولى كبير محتته وقتله . تلميذه أبو عبد الله ابن زمرّك الذي لم يزل مضمرّاً لختله ، فلقد وفقت على خط ابن لسان الدين على أنه تسبب في قتل لسان الدين أبيه ، وسيأتي الإلماع والإمام<sup>١</sup> بابن زمرّك المذكور في تلامذة لسان الدين ، مع أنه - أعني لسان الدين - حلاه في الإحاطة أحسن الحلى ، وصدقه فيما انتحله من أوصاف العلا ، وقد سبق في كلام ولي الدين ابن خلدون أنه قدم على السلطان أبي العباس أحمد المريبي في شأن الوزير ابن الخطيب ، وأخرج إلى مجلس الخاصة ، وامتنحن والمجالس بالأعيان غاصة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعي العبيد ، القاضي أبو الحسن ابن الحسن<sup>٢</sup> النباهي ، فكم قبل يده ، ثم جاهره بعد انتقال الحال ، وجدّد في أمره مع ابن زمرّك حتى قتل لسان الدين ، وانقضت دولته ، فسبحان من لا يتحوّل ملكه ولا يبيد .

وقد سبق فيما جلبناه من كلام ابن خلدون أن القاضي ابن الحسن قدم على السلطان عبد العزيز في شأن لسان الدين والانتقام منه بسبب تلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه بمقتضاها ، فأبى السلطان من ذلك ، وقال : هلاًّ فعلمتم أنتم ذلك حين كان عندكم ؟ وامتنع لدمته أن يتخفّره ، فلماً أراد الله بنفوذ الأمر ، وعدم نفع زيد وعمرو ، توفي السلطان عبد العزيز ، واختلّت الأحوال ، واضطربت بالمغرب نيران الأهوال ، فقدم في شأنه الوزير الكاتب ابن زمرّك خادمه الذي رباها وصنيعته ، فكان ما كان ممّا سبق به الإمام<sup>٣</sup> .

١ ق ص : إلماع الإمام ، وهو محرف .

٢ ق ص : الحسين ، وهو خطأ .

٣ ق ص : بالإمام .

وقد ذكرنا في الباب الأول قول لسان الدين رحمه الله تعالى في قصيدته  
النونية :

تَلَوْنَ إِخْوَانِي عَلِيَّ وَقَدْ جَنَّتْ      عَلِيَّ خَطُوبٌ جَمَّةٌ ذَاتُ أَلْوَانِ  
وَمَا كُنْتُ أُدْرِي قَبْلَ أَنْ يَتَنَكَّرُوا      بِأَنْ خِوَانِي كَانَ مَجْمَعُ خِوَانِي  
وَكَانَتْ وَقَدْ حُمَّ الْقَضَاءُ صِنَائِعِي      عَلِيَّ بِمَا لَا أَرْضِي شَرَّ أَعْوَانِ

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، على أنه قال هذه القصيدة في النكبة الأولى التي  
انتقل فيها مع سلطانه إلى المغرب ، كما مرّ مفصلاً ، وكأنّه عبر عن هذه المحنة  
الأخيرة التي ذهبت فيها نفسه على يد صنائعه الكاتب ابن زمرك والقاضي ابن  
الحسن ، سامح الله الجميع .

ويرحم الله أبا إسحاق التلمساني صاحب الرجز في الفرائض حيث يقول :

الغدرُ في الناس شيمةٌ سلفتُ      قد طالَ بينَ الوريّ تصرّفُها  
ما كلُّ مَنْ قد سرّتْ له نعمٌ      منك يرى قدرها ويعرفها  
بل ربّما أعقبَ الجزاءَ بها      مضرةً عزَّ عنكَ مَصْرِفُها  
أما ترى الشمسَ كيف تعطفُ بالنو      ر على البدرِ وهو يكسِفُها

وقال لسان الدين ، بعد ذكره أن ملك النصارى دون جانجه بن دون الفنش  
استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ولاذ به ،  
ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى ، ولقيه بصخرة عباد من أحواز رُنْدَة ، فسلم  
عليه ، ويقال : إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك طلب بلسان زَنَاته الماء ليغسل  
يده به من قبْلة الفنش أو مصافحته ، ما نصّه<sup>١</sup> : والشيء بالشيء يُدكر ، فأثبت  
حكاية اتفقت لي بسبب ذلك ، أستدعي بها الدعاء ممّن يحسُنْ عنده موقعُها ،  
وهي أن اليهودي الحكيم ابن زرزار على عهد ملك النصارى حفيد هذا الفنش

١ ورد هذا النص في أعمال الأعلام : ٣٣٣ .

المذكور وصل إلينا بغرناطة في بعض حوائجه ، ودخل إليّ بدار سكنائي مجاور القصر السلطاني بجمراء غرناطة ، وعندني القاضي اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة ، وييده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبي الحسن ، وكان محمد هذا قد فرّ إلى صاحب قشتالة ، واستدعي من قبّله إلى الملك ، فسهّل له ذلك ، وشرط عليه ما شاء ، وربما وصله خطابه بما لم يقنعه في إطرائه ، فقال لي : مولاي السلطان دُنْ بطره يسلم عليك ، ويقول لك : انظر مخاطبة هذا الشخص ، وكان بالأمس ككلباً من كلاب بابه ، حتى ترى خسارة الكرامة فيه ، فأخذت الكتاب من يده وقرأته ، وقلت له : « أبلغه عني أن هذا الكلام ما جرك إليه إلا خلوّ بابك من الشيوخ الذين يعرفونك بالكلاب وبالأسود ، وبمن تُغسل الأيدي منهم إذا قبّلوها ، فتتعلم من الكلب الذي تغسل اليد منه ومن لا ، وإن جدّ هذا الولد هو الذي قبّل جدّك يده واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضر النصارى والمسلمين ، ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد للحفيد ، وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه ، وأنت مُعرّض إلى اللجأ إليه فيكافئك بأضعاف ما عاملته به » . فقام أبو الحسن المستقضي يبكي ويقبل يدي ، ويصفني بولي الله ، وكذلك من حضرني ، وتوجّه إلى المغرب رسولاً ، فقصّ على بني مريّن خبر ما شاهده مني وسمعه ، وبالخضرة اليوم ممّن تلتقى منه ذلك كثير ، جعل الله تعالى ذلك خالصاً لوجهه ؛ انتهى .

وقد أثنى لسان الدين في « الإحاطة » على القاضي ابن الحسن المذكور كما سيأتي ، وقال في ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصّه : ثم قدّم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن ، وهو عين الأعيان بمالقّة ، المخصوص برسم التجارة والقيام بالعقد والحل ، فسدّد وقارب ، وحمل الكّلّ ، وأحسن مصاحبة الخطبة والخطبة ، وأكرم المشيخة مع النزاهة ، ولم يقف في حسن التآني على غاية ، فاتفق على رجاحته ، ولم يقف في النصح عند غاية ؛ انتهى . وحين أظلم الجحيم بينه وبين لسان الدين ذكره في « الكتيبة الكامنة » بما يباين ما سبق ، ولقبه بالجعسوس ،

ولم يقنعه ذلك حتى ألف فيه « خلع الرسن في وصف القاضي ابن الحسن » .

### [ كتاب من النباهي إلى لسان الدين ]

وقد وقفت بفاس المحروسة على كتاب مطوّل كتبه ابن الحسن لسان الدين بعد تحوّلّه عن الأندلس ، ونصّ ما تعلق به الغرض هنا<sup>١</sup> :

« فشرعتم في الشراء ، وتشديد البناء ، وتركتم الاستعداد لهاذم اللذات ، هيهات هيهات ، تبنون ما لا تسكنون ، وتدّخرون ما لا تأكلون ، وتؤملون ما لا تدركون ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ (النساء : ٧٨) فأين المهرب ممّا هو كائن ، ونحن إنما نتقلب في قدرة الطالب ، شرقم أو غربتم ، الأيام تتقاضى الدّين ، وتنادي بالنفس الفسّارة إلى أين إلى أين ، ونترك الكلام مع الناقد فيما ارتكبه من تزكية نفسه ، وعدّد ما جلبه من مناقبه ، ما عدا ما هدّد به من حديد لسانه ، خشية اندراجه في نمط من قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من شر الناس من ترّكّه الناس اتّقاء فُحْشِهِ » ولا غيبة فيمن ألقى جلاباب الحياء عن وجهه ، ونرحمه<sup>٢</sup> على ما أبداه أو أهداه من العيوب التي نسبها لأخيه ، واستراح على قوله بها فيه ، ونذكره على طريقة نصيحة الدين بالحديث الثابت في الصحيح عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، وهو قوله : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيُعْطَى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرِحَ في النار » . ويعلم الله أن معنى هذا الحديث الثابت

١ راجع هذا الكتاب في أزهار الرياض ١ : ٢١٢ .

٢ ق ص : وزحمه .

عن النذير الصادق ، هو الذي حملني على نصحتكم ، ومراجعتكم في كثير من الأمور : منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به في التاريخ وأمثاله ، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء وأمواتاً لغير شيء حصل بيدكم وضررتم أنفسكم بما رتبتم لهم من المطالبات بنص الكتاب والسنة قبيلكم ، والرضى بهذه الصفقة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل . وقد قلت لكم غير مرة عن أطراسكم المسوودة بما دعوتهم إليه من البدعة والتلاعب بالشريعة إن حقها التخريق والتحريق ، وإن من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدعكم ، والله الشهيد بأنني نصحتكم وما غششتكم ، وليس هذا القول وإن كان ثقيلاً عليكم بمخالف كل المخالفة لما ذنبتم به من تقدم المواجهة بالملاطفة والمعاملة بالمكارمة ، فليست المداراة بقادحة في الدين ، بل هي محمودة في بعض الأحوال ، مستحسنة على ما بينه العلماء ، إذ هي مقاربة في الكلام أو مجاملة بأسباب الدنيا لصلاحها أو صلاح الدين ، وإنما المذموم المداهنة ، وهي بذل الدين لمجرد الدنيا ، والمصانعة به لتحصيلها ، ومن خالط للضرورة مثلكم ، وزايله بأخلاقه ونصحه مخاطبة ومكاتبة ، واستدل له بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على صحة مقالته ، فقد سلم والحمد لله من مداهنته ، وقام لله تعالى بما يجب عليه في حقكم من التحذير والإنكار مع الإشفاق والوجل .

« وأكثرتم في كتابكم من المنى بما ذكرتم أنكم صنعتم ، وعلى تقدير الموافقة لكم لينتكم ما فعلتم ، فسلمنا من المعرة وسلمتم ، وجل القائل سبحانه ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٣) وقلما شاركتكم أنتم في شيء إلا بأغراض حاصلة في يدكم ، ولأغراض دنيوية خاصة بكم ، فالللام إذن في الحقيقة إنما هو متوجه إليكم ، وأما ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم وكلامكم من التندم على فراق محلكم ، والتعلل بأخبار قطركم وأهلكم ، فتناقض منكم وإن كنتم فيه بغدركم :

أَتَبَّكِي عَلَى لَيْلِي وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا فَكُنْتَ كَأَنَّ غَيْبَهُ وَهُوَ طَائِعٌ  
وَمَا كُلُّ مَا مَنَنْتُكَ نَفْسُكَ مَخْلِيًّا تُلَاقِي ، وَلَا كُلُّ لَهْ أَنْتَ تَابِعٌ  
فَلَا تَبْكِينَ فِي إِثْرِ شَيْءٍ نَدَامَةً إِذَا نَزَعْتَهُ مِنْ يَدَيْكَ النَّوَازِعُ

وعلى أن تأسفكم لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم ، والخروج لا لضرورة  
غالبة عن أوطانكم ، من الواجب بكل اعتبار عليكم ، سيما وقد مددتم إلى  
التمتع بغيرها عينيكم ، ولو لم يكن بهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة إلا ما  
خُصَّت به من بركة الرباط ورحمة الجهاد لكفأها فخرأ على ما يجاورها من سائر  
البلاد ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « رباط يوم في سبيل الله خير من  
ألف يوم فيما سواه » وقال عليه الصلاة والسلام : « الرَّوْحَةُ يروحها العبد في سبيل  
الله والغدوة خير من الدنيا وما فيها » وعلى كل تقدير فإذا لم يكن يا أخي فراركم  
من الأندلس إلى الله وحده بالتوبة المكملة ، والاستغفار مع الانقطاع في أحد  
المواطن المكرمة المعظمة بالإجماع ، وهي طَيْبَةُ أو مكة أو بيت المقدس ، فقد  
خسرتم صفقة رحلتكم ، وتبين أن لغير وجه الله العظيم كانت نية هجرتكم ،  
اللهم إلا إن كنتم قد لاحظتم مسألة الرجل الذي قتل مائة نفس ، وسأل أعلم  
أهل الأرض فأشار عليه بعد إزماع التوبة بمفارقة المواطن التي ارتكب فيها الذنوب ،  
واكتسب بها العيوب ، فأمر آخر ، مع أن كلام العلماء في هذا الحديث معروف .  
ويقال لكم من الجواب الخاص بكم : فعليكم إذاً بترك القيل والقال ، وكسر  
حربة الجدال والقتال ، وقصر ما بقي من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال .  
« ووقعت في مکتوبکم کلمات أوردھا النقد في قالب الاستهزاء والازدراء ،  
والجهالة بمقادير الأشياء ، ومنها « ریح صرصر » وهو لغة القرآن ، و« قاع  
قرقر » وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ثبت في  
الصحيح في باب التغليظ فيمن لا يؤدي زكاة ماله . « قيل : يا رسول الله ،  
والبقر والغنم ؟ قال ؛ ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان



يوم القيامة بَطِّحَ لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها — الحديث الشهير . قال صاحب المعلم : بَطِّحَ لها بقاع قرقر : أي ألقى على وجهه ، والقاع : المستوي من الأرض ، والقرقر : كذلك ؛ هذا ما حضر من الجواب ، وبقي في مكتوبكم حشو كثير من كلام إقذاع وفحش بعيد من الحشمة والحياء رأيت من الصواب الإعراضَ عن ذكره ، وصَوْنُ اليد عن الاستعمال فيه ، والظاهر أنه إنما صدر منكم وأنتم بحال مرض ، فلا حرج فيه عليكم ، أنسأ الله تعالى أجلكم ، ومكن أمنكم ، وسكّن وجلكم ، ومنه جل اسمه نسأل لي ولكم حسنَ الخاتمة ، والفوز بالسعادة الدائمة ، والسلام الأتم يعتمدكم ، والرحمات والبركات من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن وفقه الله ، وذلك بتاريخ أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبعمائة .

وقيد رحمه الله تعالى في مدرج طي هذا الكتاب ما نصّه : « يا أخي — أصلحني الله وإياكم — بقي من الحديث شيء الصوابُ الخروجُ عنه لكم ، إذ هذا أوانه ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه ، وليكون البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله ، وحاصله أنكم عددتم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات ، وقطعتم بنسبة الأمور كلها إلى أنفسكم ، وأنها إنما صدرت عن أمركم وبإذنتكم ، من غير مشارك في شيء منها لكم ، ثم مَنَنْتُمْ بها المنّ القبيح المبطل لعمل بركم على تقدير التسليم في فعله لكم ، ورميتم غيركم بالتقصير في حاله كله ، طريقةً من يبصر القنْدِي في عين أخيه وبدع الجِدْع في عينه ، وأقصى ما تسنى للمحب أيام كونكم بالأندلس تقلد كلفة قضاء الجماعة ، وما كان إلا أن وليتها بقضاء الله وقدره ، فقد تبين لكل ذي عقل سليم أنه لا مُوجِدَ إلا الله ، وأنه إذا كان كذلك كان الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلًا بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه من غير عاضد له على تحصيل مُرادِه ولا مُعين ، ولكنه جَلَّتْ قدرته وعد فاعل الخير بالثواب فضلاً منه ، وأوعد فاعل الشرّ بالعقاب عدلاً منه ، وكأنتي بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة ، وما أحوجكم إلى

تأملها بعين اليقين ، فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من النكاية باستحقاقكم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمر الدينية ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك في جملة مسائل : منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقضي موجباته على كره منكم ، ومنها مسألة ابن أبي العيش المثقف في السجن على آرائه المضلّة التي كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أمره مشافهة بالاستمتاع بها ، فحملتم أحد ناسكم تناول إخراجها من الثفاف من غير مبالاة بأحد ، ومنها أن أحد الفتیان المتعلقين بكم توجهت عليه المطالبة بدم قتيل ، وسبق المدعى عليه للذبح بغير سكين ، فما وسعني بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنّة ، فأنتقم لذلك ، وسجنتم الطالب وليّ الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور ، إلى غير ذلك ممّا لا يسع الوقت شرحه ، ولا يجمل بي ولا بكم ذكره . والمسألة الأخرى أنتم توليتم كبرها حتى جرى فيها القدر بما جرى به من الانفصال ، والحمد لله على كل حال ، وأمّا الرمي بكذا وكذا ممّا لا علم لنا بسببه ، ولا عذر لكم من الحق في التكلّم به ، فشيء قلّم يقع مثله من البهتان ممّن كان يرجو لقاء ربّه ، وكلامكم في المدح والهجو ، هو عندي من قبيل اللغو ، الذي نمرّ به كراماً والحمد لله ، فكثروا أو قلّوا من أي نوع شئتم ، أنتم وما ترضونه لنفسكم ، وما فهت لكم بما فهت من الكلام ، إلاّ على جهة الإعلام ، لا على جهة الانفعال ، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال والأفعال ، فمذهبي غير مذهبكم ، وعندي ما ليس عندكم .

« وكذلك رأيتمكم تكثرون في مخاطباتكم من لفظ الرُقيّة في معرض الإنكار لوجود نفعها ، والرمي بالمنقصة والحمق لمستعملها ، ولو كنتم قد نظرتم في شيء من كتب السنّة وسير الأمة المسلمة نظر مصدق لما وسعكم إنكار ما أنكرتم ، وكتبه بخط يديكم ، فهو قادح كبير في عقيدة دينكم ، فقد ثبت بالإجماع في سورة الفلق أنّها خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنّه المراد بها هو وآحاد

أمته ، وفي أمهات الإسلام الخمس أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى رَقاه جبريل ، فقال : بسم الله يُبْرِيكَ ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شرّ حاسد إذا حسد ، ومن شرّ كلّ ذي عين » . وفي الصحيح أيضاً أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفر ، فمروا بحي من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فلم يضيفوهم ، فقالوا : هل فيكم راقٍ فإن سيد الحي لديغ ، أو مصاب ، فقال رجل من القوم : نعم ، فأثاء فرَقاه بفاتحة الكتاب ، فبرىء الرجل ، فأعطى قطعاً من غم - الحديث الشهير ، قال أهل العلم : فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقية والطب وتعليم القرآن ، وهو قول مالك وأحمد والشافعي وأبي ثور وجماعة من السلف ، وفيه جواز المقارضة ، وإن كان ضد ذلك أحسن ، وفي هذا القدر كفاية . وما رَقَيْتُ قط أحداً على الوجه الذي ذكرتم ، ولا استرقيت والحمد لله ، وما حملني على تبين ما بيته الآن لكم في المسألة إلاّ إرادة الخير التام لجهتكم ، والطمع في إصلاح باطنكم وظاهركم ، فأنتي أخاف عليكم من الإفصاح بالظعن في الشريعة ، ورمي علمائها بالمنقصة على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم منكر علم الجزئيات ، القائل بعدم قدرة الرب جل اسمه على جميع الممكنات . وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناسٍ أعلامٍ قلّما تجوز عليهم - حفظهم الله - المغالطات ، فتأسركم شهادة العدول التي لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة ، أعاذنا الله من درك الشقاء ، وشماتة الأعداء ، وجهْدِ البلاء .

« وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغي في الجنب الرفيع ، جناب سيد المرسلين ، وقائد الغرّ المحجلّين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نُقِلَ عنكم في هذا الباب أشياء منكورة ، يكبر في النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها ، وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بُعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل السلطنة عنكم لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات

لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدُّوَل ما صدر  
 عنكم من العَيْثُ في الأبخار والأموال ، وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار ،  
 وكشف الأستار ، واستعمال المكر ، والحيل والغدر ، في غالب الأحوال للشريف  
 والمشروف ، والخديم والمخدوم . ولو لم يكن في الوجود من الدلائل على صحة  
 ما رضىتم به لنفسكم من الاتسام بسوء العهد والتجاوز المحض وكفران النعم  
 والركون إلى ما تحصّل من الحطام الزائل إلا عملكم مع سلطانكم مولاكم وابن  
 مولاكم أيده الله بنصره وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه وفي الكثير من أهل  
 قطره لكفاكم وَصْمَةٌ لا يغسلُ دَنَسُها البحر ، ولا ينسى عارها الدهر ، فإنّكم  
 تركتموه أولاً بالمغرب عند تلوّن الزمان ، وذهبتم للكديّة والأخذ بمقتضى المقامة  
 الساسانية إلى أن استدعاه الملك ، وتخلصت له بعد الجهد الأندلس ، فسقطتم عليه  
 سقوط الذباب على الحلواء ، وضربتم وجوه رجاله بعضاً ببعض ، حتى خلا لكم  
 الجوّ ، وتمكن الأمر والنهي ، فهمزتم ولزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم . ثم  
 وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء ، مكرراً منكم ، فلمّا بلغتم أرض الجبل  
 انحرقت عن الجادة ، وهربتم بأثقالكم الهروب الذي أنكره عليكم كلّ من  
 بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر في العُدوتين من مؤمن وكافر وبر وفاجر ،  
 فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرفاتكم حازم ، أو يثق بكم في قول أو فعل  
 صالح أو طالح ؟ ولو كان قد بقي لكم من العقل ما تفكرون به في الكيفية التي  
 ختمتم بها عملكم بالأندلس من الزيادة في المغرم وغير ذلك مما لكم وزره ووزر من  
 عمل به بعدكم إلى يوم القيامة حسبما ثبت في الصحيح لحملكم على مواصلة الحزن ،  
 وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأمارة من التورط والتنشب في  
 أشطان الآمال ودسائس الشيطان ، ونعوذ بالله من شرور الأنفس وسيئات الأعمال .  
 « وأما قولكم عن فلان « إنّه كان حشرة في قلوب اللوز » و « إن فلاناً  
 كان برغوثناً في تراب الحمول » فكلام سفساف ، يقال لكم من الجواب عليه :  
 وأنتم يا هذا أين كنتم منذ خمسين سنة مثلاً ؟ خلق الله الخلق لا استظهاراً بهم

ولا استكثاراً ، وأنشأهم كما قدر أحوالاً وأطواراً ، واستخلفهم في الأرض بعد أمة أمماً وبعد عصر أعصاراً ، وكلفهم شرائعه وأحكامه ولم يتركهم هملاً ، وأمرهم ونهاهم ليلوهم أيهم أحسن عملاً ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣) وبكل اعتبار فلا نعلم في نمط الطلبة تدريجاً كان أسمح من تدريجكم ، ونبدأ من كذا فإنه كان كذا وأكثر أهل زمانه تحملاً وتقللاً في نفسه بالنسبة إلى منصبه كان الشيخ أبو الحسن ابن الجياب ، ولكنه حين علم رحمه الله تعالى من نشأتكم وحالتكم ما علم نبد مصاهرتكم وصرف عليكم صداقكم ، وكذلك فعلت بنت جزَي زوج الرهصي معكم ، حسبما هو مشهور في بلدكم ، وذكرتم أنكم ما زلتم من أهل الغنى حيث نقرتم بذكر العرض - وهو بفتح العين والراء ، حطام الدنيا على ما حكى أبو عبيد ، وقال أبو زيد : هو ، بسكون الراء ، المال الذي لا ذهب فيه ولا فضة - وأي مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج من الثقاف على ما كان قد تبقى عنده من مجبى قرية مترايل<sup>١</sup> ؟ ثم من العدد الذي برز قبلكم أيام كانت أشغال الطعام بيدكم على ما شهد به الجمهور من أصحابكم . وأما الفلاحة التي أشرتم إليها فلا حق لكم فيها إذ هي في الحقيقة لبيت مال المسلمين ، مع ما بيدكم على ما تقرّر في الفقهيات ، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حساً ، ولو قبل من أهل المعرفة بكم بعض ما لديهم من سقطاتكم في القال والقيل ، ولم يصرف إلى دفع معرفتها عنكم وجه التأويل ، لكانت مسألتكم ثانية لمسألة أبي الخير ، بل أبي الشر ، الحادثة أيام خلافة الحكيم ، المسطورة في نوازل أبي الأصبح ابن سهل ، فاعلموا ذلك ، ولا تهملوا إشارتي عليكم قديماً وحديثاً بلزوم الصلوات ، وحضور الجماعات ، وفعل الخيرات ، والعمل على التخلص من التبعات ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (لقمان : ٣٣) .

١ قيس : منزائل .

« وقلتم في كتابكم : « أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد ؟ » وقد أذهب الله عنا بركة الملة المحمدية عَيْبَةَ الجاهلية في التفاخر بالآباء ، ولكني أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم : إن كانت الإشارة إلى المجيب بهذا فمن المعلوم المتحقق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أمثال قطره ، قال القاضي أبو عبد الله ابن عسكراً وقد ذكر في كتابه من سلفي فلان بن فلان ، ما نصّه :  
 وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابرأ عن كابر ، استقصى جدّه المنصورُ ابن أبي عامر ، وقاله غيره وغيره ، وييدي من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتتة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس وإلى هذا العهد القريب ما تقوم به الحجّة القاطعة للسان الحاسد والجاحد ، والمنّة لله وحده .  
 وإن كانت الإشارة للغير من الأصحاب في الوقت حفظهم الله فكل واحد منهم إذا نُظر إليه بعين الحق وُجِدَ أقربَ منكم نسباً للخطط المعبرة ، وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب أو مساوياً على فرض المسامحة لكم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
 « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، حرام دمه وماله وعرضه » .  
 « ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول : من كان يا فلان من قومكم في عمود نسبكم نبياً مشهوراً ، أو كاتباً قبلكم معروفاً ، أو شاعراً مطبوعاً ، أو رجلاً نبياً مذكوراً؟ ولو كان يا لوشي وكان ، لكان من الواجب الرجوع إلى التناصف والتواصل والتواضع ، وترك التحاسد والتباغض والتقاطع : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم . ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . وكذلك العجب كل العجب ، من تسميتكم الحربات التي شرعتم في بنائها بدار السلامة ، وهيئات هيئات ، المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء وعناء وفناء ، ولو لم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار في الوقت إلا موت سعيدكم عند دخولها ، لأغناكم عن العلم اليقين بما لها .  
 « وأظهرتم سروراً كثيراً بما قلتم إنكم نلتُم ، حيث أنتم ، من الشهوات التي

١ هو محمد بن علي بن هارون النسائي ( - ٦٣٦ ) ، والإشارة إلى كتاب له عن تاريخ مالمقة .

ذكرتم أن منها الإكثار من الأكل والخرق والقعود بإزاء جارية الماء على نطح  
الجلد ، والإمساك أولى بالجواب على هذا الفصل ، فلا خفاء بما فيه من  
الحسنة والخبائث والخبث ، وبالجملة فسرور العاقل إنما ينبغي أن يكون بما يحمل  
تقدمه من زاد التقوى للدار الباقية ، فما العيش — كما قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم — إلا عيش الآخرة ، فقدموا إن قبلتم وصاة الحبيب أو البغيض بعضاً  
عسى أن يكون لكم ، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم ، هذا الذي قلته لكم ،  
وإن كان لدى من يقف عليه من نمطه الكثير ، فهو باعتبار المكان وما مر من  
الزمان في حيز السير ، وهو في نفسه قول حق وصدق ، ومستند أكثره كتاب  
الله وسنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى سائر أنبيائه . فاحمدوا الله  
العلي العظيم على تذكيركم به إذ هو جار مجرى النصيحة الصريحة ، يسترني الله  
وإياكم ليسرى ، وجعلنا ممن ذكر فانتفع بالذكري ، والسلام . انتهى كلام  
القاضي ابن الحسن النباهي في كتابه الذي خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى .

[ ظهر من إنشاء لسان الدين بتولية النباهي خطة القضاء ]

وأين هذا الكلام الذي صدر من ابن الحسن في حقّه من إنشاء لسان الدين رحمه  
الله تعالى في تولي ابن الحسن المذكور القضاء ، وهو :  
« هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسه ، ودل على ما يرضي الله  
عز وجل التماسه ، وأطلع نور العناية الذي يجلو الظلام نبراسه ، واعتمد بمثابة  
العدل من عرف بافتراع هضبتها ناسه ، وألقى بيد المعتمد به زمام الاعتقاد  
الجميل تروق أنواعه وأجناسه ، وشيد مبنى العز الرفيع ، في قبة الحسب المنيع ،  
وكيف لا والله بانيه ، والمجد أساسه ، أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه  
أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير  
المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر — أيد الله أوامره ، وخلد مفاخره —  
لقاضي حضرته العلية ، وخطيب حمرائه السنية ، المخصوص لديه بترفيح المزية .

المصروف إليه خطابُ القضاة بليالته النصرية ، قاضي الجماعة ، ومصرف الأحكام الشرعية المطاعة ، الشيخ الكذا أبي الحسن ابن الشيخ الكذا أبي محمد ابن الحسن - وصل الله سعادته ، وحرس مجادته ، وسنى من فضله إرادته - عصب منه جبين المجد بتاج الولاية ، وأجال قداح الاختيار حتى بلغ الغاية وتجاوز النهاية ، ما ألقى منه يمين عرابة الرابة ، وأحله منه محل اللفظ من المعنى والإعجاز من الآية ، وحشر إلى مدعاة ترفيعه وجوه البر وأعيان العناية ، وأنطق بتبجيله ، ألسن أهل جيله ، بين الإفصاح والكناية ، ولما كان له الحسب الأصيل الذي شهدت به ورقات الدواوين ، والأصالة التي قامت عليها صحاح البراهين ، والآباء الذين اعتد بمضاء قضائهم الدين ، وطبقت مفاصل الحكم بسيوفهم الحق المبين ، وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين ، فمن فارس حكم أو حكيم تدبير ، وقاض في الأمور الشرعية ووزير ، أو جامع بينهما جمع سلامة لا جمع تكسير ، تعدد ذلك واطّرد ، ووجد مشرع المجد عذبا فوردا ، وقصرت النظراء عن مداه فانفرد ، وفرى الفري في يد الشرع فأشبهه السيف البرد ، وجاء في أعقابهم محييا لما درس ، بما حقق ودرس ، جانيا لما بذر السلف المبارك واغترس ، طاهر النشأة وقورها ، محمود السجية مشكورها ، متحليا بالسكينة ، حالا من النزاهة بالمكانة المكيئة ، ساجبا أذبال الصون ، بعيدا عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون ، فخطبته الخطط العلية ، واغتبطت به المجادة الأولية ، واستعملته دولته التي تتراد أهل الفضائل للرتب ، واستظهرت على المناصب بأبناء التقي والحسب ، والفضل والمجد والأدب ، ممن يجمع بين الطارف والتالد والإرث والمكتسب ، فكان معدودا من عدول قضائها ، وصدور نبهائها ، وأعيان وزرائها ، وأولي آرائها ، فلما زان الله تعالى خلافته بالتمحيص المتحلى من التخصيص ، وخلص ملكه الأصيل كالذهب الإبريز بعد التخليص ، كان ممن



صحب ركابه الطالب للحق بسيف الحق ، وسلك في مظهرته أوضح الطرق ،  
 وجادل من حادّه بأمضى من الحِداد الذلُّق ، واشتهر خبر وفاته في الغرب  
 والشرق ، وصلى به صلاة السفر والحضر ، والأمن والحذر ، وخطب به في  
 الأماكن التي بَعُدَ بذكر الله عهدُها ، وخاطب عنه - أيده الله تعالى - المخاطبات  
 التي حُمدَ قصدُها ، حتى استقل ملكه فوق سريرته ، وابتهج منه الإسلام بأمره  
 وابن أميره ، ونزل الستر على العباد والبلاد ببركة إيلائه ويؤمن تدييره ، وكان  
 المجلس المقرب المحلّ ، والحظي المشاور في العقد والحلّ ، والرسول المؤمن  
 على الأسرار ، والأمين على الوظائف الكبار ، مزين المجلس السلطاني بالوقار ،  
 ومتحف الملك بغريب الأخبار ، وخطيب منبره العالي في الجمععات ، وقارئ  
 الحديث لديه في المجتمعات .

« ثم رأى أيده الله تعالى أن يشرك رعيته في نفعه ، ويصرف عوامل الحظوة  
 على مزيد رفعه ، ويجلسه مجلس الشارع صلوات الله عليه لإيضاح شرعه ، وأصله  
 الوثيق وفرعه ، وقدمه أعلى الله تعالى قدمه ، وشكر آلاؤه ونعمه ، قاضياً في  
 الأمور الشرعية ، وفاصلاً في القضايا الدينية ، بحضرة غرناطة العلية ، تقديم  
 الاختيار والانتقاء ، وأبقى له فخر السلف على الخلف والله سبحانه يمتعه بطول  
 البقاء ، فليتول ذلك عادلاً في الحكم ، مهتدياً بنور العلم ، مسوياً بين الخصوم  
 حتى في لحظه والتفاتة ، متصفاً من الحلم بأفضل صفاته ، مهيباً في الدين ، رؤوفاً  
 بالمؤمنين ، جزلاً في الأحكام ، مجتهداً في الفصل بأمضى حسام ، مراقباً لله ،  
 عزّ وجل ، في النقض والإبرام .

« وأوصاه بالمشورة التي تقدح زناد التوفيق ، والتثبت حتى ينتج قياس  
 التحقيق ، باراً بمشيخة أهل التوثيق ، عادلاً إلى سعة الأقوال عند المضيق ، سائراً  
 من مشورة المذهب على أهدي طريق ، وصية أصدرها له مُصدّر الذكرى  
 التي تنفع ، ويُعلي الله بها الدرجات ويرفع ، وإلاً فهو عن الوصاة غني ، وقصدته  
 قصد سني ، والله عزّ وجل وليُّ إعانتة ، والحارس من التبعات أكناف ديانته ،

والكفيل بحفظه من الشبهات وصيانته .

« وأمر أيده الله تعالى أن ينظر في الأحباس على اختلافها ، والأوقاف على شتى أصنافها ، واليتامى التي انسدت كفالة القضاة على إضعافها ، فيذود عنها طوارق الخلل ، ويجري أمورها بما يتكفل لها بالأمل ، وليعلم أن الله عز وجل يراه ، وأن فلتات الحكم تعاوده المراجعة في أخرها ، فيدرع جنة تقواه ، وسبحان من يقول ﴿ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ .

« فعلى من يقف عليه أن يعرف أمر هذا الإجلال ، صائناً منصبه من الإخلال ، مبادراً أمره الواجب بالامتثال ، بحول الله . وكتب في الثالث من شهر الله المحرم ، فاتح عام أربعة وستين وسبعمائة ، عرف الله سبحانه فيه هذا المقام العلي عوارف النصر المبين والفتح القريب بمنه وكرمه فهو المستعان لا ربّ غيره » ؛ انتهى .

[ ظهير من إنشائه بتولية ابن زمرك كتابة السر ]

ونظير هذا ما أنشأه لسان الدين على لسان سلطانه للكاتب أبي عبد الله ابن زمرك حين تولى كتابة السر ، ونصّه :

« هذا ظهير كريم نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه ، وأفرد له متلو العزّ وجمعه ، وأوتره وشفعه ، وقرّبه في بساط الملك تقريباً فتح له باب السعادة وشرّعه ، وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على مَنْ دون رتبته من أولي صنعته أن يتبعه ، ورعى له وسيلة السابقة عند استخلاص الملك لما ابتزّه الله من يد الغاصب وانتزعه ، وحسبك من زمام لا يحتاج إلى شيء معه ، أمر به أمير المسلمين محمد للكذا الكذا فلان ، وصل الله سعادته ، وحرس مجادته ، أطلع الله تعالى له وجه العناية أبهى من الصبح الوسيم ، وأقطعته جناب الإنعام الجسيم ، وأنشقه آراج اللحظة عاطرة النسيم ، ونقله من كرسي التدريس والتعليم ، إلى

١ ق ص : دمام .

مرقى التنويه والتكريم ، والرتبة التي لا يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم ، وجعل أعلامه جياداً لإجالة أمره العلي ، وخطابه السني ، في ميدان الأقاليم ، ووضع في يده أمانة القلم الأعلى ، جاريّاً من الطريقة المثلى ، على المنهج القويم ، واختصّه بمزية الشفوف على كتاب بابه والتقديم ، لما كان ناهض الفكر في طلبه حضرته زمن البداية . ولم تزل تظهر عليه لأولي التمييز مخايل هذه العناية ، فإن حضر في حلق العلم جلّى في حنّة الحفاظ إلى الغاية ، وإن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة ، والمخاطبات المنقولة ، فاشتهر في بلده وغير بلده ، وصارت أزمة العناية طوعاً يده ، بما أوجب له المزية في يومه وغده .

« وحين رد الله عليه ملكه الذي جبر به جنّاح الإسلام ، وزين وجوه الليالي والأيام ، وأدال الضياء من الإظلام ، كان ممّن وسمه الوفاء وشهره ، وعجم الملك عود خلوصه وخبره ، فحمد أثره ، وشكر ظاهره ومضمّره ، واستصحب على ركابه الذي صحب اليمن سفره ، وأخلصت الحقيقة نفره ، وكفل الله وردّه وصدره ، ميمون النقية ، حسن الضريبة ، صادقاً في الأحوال المرية ، ناطقاً عن مقامه بالمخاطبات العجيبة ، واصلاً إلى المعاني البعيدة بالعبارة القريبة ، مبرزاً في الخدم الغربية ، حتى استقام العماد ، ونطق بصدق الطاعة الحي والجماد ، ودخلت في دين الله أفواجاً العباد والبلاد ، لله الحمد على نعمه الثرة العهاد ، وآلائه المتوالية الترداد ، رعى له أيده الله هذه الوسائل وهو أحقّ من يرهاها ، وشكر له الخدم المشكور مسعاها ، فنص عليه الرتبة الشماء التي خطبها بوفائه ، وألبسه أثواب اعتنائه ، وفسح له مجال آلائه ، وقدمه ، أعلى الله قدمه ، كاتب السر ، وأمين النهي والأمر ، تقديم الاختيار بعد الاختبار ، والاعتباط بخدمته الحسنة الآثار ، وتيمن باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والاستقرار ، وغير ذلك من موجبات الإكبار .

« فليتولَّ ذلك عارفاً بمقداره ، مقتضياً لآثاره ، مستعيناً بالكتِّم لأسراره ، والاضطلاع بما يحمد من أمانته وعفاهه ووقاره ، مُعطيّاً هذا الرسم حقّه من الرياسة ، عارفاً بأنّه أكبر أركان السياسة ، حتى يتأكد الاغتياب بتقريبه وإدناؤه ، وتتوفر أسباب الزيادة في إعلائه ، وهو إن شاء الله غني عن الوصاة فهماً ثاقباً يهتدى بضياته ، وهو يعمل في ذلك أقصى العمل ، المتكفل ببلوغ الأمل . وعلى من يقف عليه من حمّلة الأقلام ، والكتّاب الأعلام ، وغيرهم من الكافة والخدم ، أن يعرفوا قدر هذه العناية الواضحة الأحكام ، والتقديم الراسخ الأقدام ، ويوجبوا ما أوجب من البر والإكرام ، والإجلال والإعظام . بحول الله . وكتب في كذا » . انتهى .

فانظر صانعي الله وإياك من الأغيار ، وكفانا شرّاً من كُفر الصنعة التي هي على النقص عنوان ومعيار ، إلى حال الوزير لسان الدين ابن الخطيب مع هذين الرجلين ، القاضي ابن الحسن والوزير ابن زمرك اللذين تسببا في هلاكه حتى صار أثراً بعد عين ، مع تنويه بهما في هذا الإنشاء وغيره ، وتفيئهما - كما هو معلوم - ظلال خيره ، فقبلاه بالصدر ، وأظهرا عند الإمكان حقد القلب وغيل الصدر ، وسددا لقتله سهاماً وقسيّاً ، وصيراً سبيل الوفاء نسياً منسياً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

[ ظهير ثالث بإضافة الخطابة إلى القضاء للنباهي ]

ومن إنشاء لسان الدين في حق القاضي ابن الحسن أيضاً - حين أضيفت إليه الخطابة إلى القضاء - على لسان سلطانه :

« هذا ظهير كريم أعلى رتبة الاحتفاء واختياراً واختباراً ، وأظهر معاني الكرامة والتخصيص انتقاء واصطفاء وإيثاراً ، ورفع لواء الجلالة على من اشتمل عليه حقيقة واعتباراً ، ورقى في درجات العزّ من طاولها على بحر أنواراً ، ودينياً

كرم في الصالحات آثاراً ، وزكا في الأصالة نجاراً ، وخلصاً إلى هذا المقام العلي السعيد الذي راق إظهاراً وإضماراً ، أمر به وأمضاه ، وأنفذ حكمه ومقتضاه ، أميرُ المسلمين عبد الله محمد ، إلى آخره ، للشيخ الكذا القاضي العدل الأَرْضِي قاضي الجماعة ، وخطيب الحضرة العلية ، المخصوص لدى المقام العلي بالحُظْوَة السنية ، والمكانة الحفية ، الموقر الفاضل ، الحافل الكامل ، المبرور أبي الحسن ، ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل ، الأعز الماجد الأسنى المرفع الأحفل ، الأصلاح المبارك الأكمل ، الموقر المبرور المرحوم أبي محمد ابن الحسن ، - وصل الله عزته ؛ وإلى رفعتة ومبرته ؛ ووهب له من صلة العناية الربانية أمله وبغيته ، - لما أصبح في صدور القضاة العلماء مُشاراً إلى جلاله ، مستنداً إلى معرفته المخصوصة بكماله ، مطرزاً على الإفادة العلمية والأدبية بمحاسنه البديعة وخصاله ، محفوفاً مقعد الحكم النبوي ببركة عدالته وفضل خلاله ، وحل في هذه الحضرة العلية المحل الذي لا يرقاه إلاّ عين الأعيان ، ولا يثوي مهاده إلا مثله من أبناء المجد الثابت الأركان ، ومؤملي العلم الواضح البرهان ، والمبرزين بالماثر العلية في الحسن والإحسان ، وتصدر لقضاء الجماعة فصدرت عنه الأحكام الراجحة الميزان ، والأنظار الحسنة الأثر والعيان ، والمقاصد التي وفّت بالغاية التي لا تستطاع في هذا الميدان - فكم من قضية جلا بمعارفه مُشْكَلها ، ونازلة مبهمّة فتح بإدراكه مقفلها ، ومسألة عرف نكرتها وقرر مهملها ، حتى قرت بعدالته وجزالته العيون ، وصدقت فيه الآمال الناجحة والظنون ، وكان في تصديره لهذه الولاية العظمى من الخير والخيرة ما عسى أن يكون ، كان أحق بالتشفيح لولاياته وأولى ، وأجدر بمضاعفة النعم التي لا تزال تترادف على قدره الأعلى ، فلذلك أصدر له أيده الله هذا الظهير الكريم مشيداً بالترفيح والتنويه ، ومؤكداً للاحتفاء الوجيه ، وقدمه ، أعلى الله قدمه ، وشكر نعمه ، خطيباً بالجامع الأعظم من حضرته ، مضافاً ذلك إلى ولايته ورفيع منزلته ، مرافقاً لمن بالجامع الأعظم - عمره الله بذكره - من عليّة الخطباء ، وكبار العلماء ، وخيار النبهاء الصلحاء . فليتناول ذلك في جمعاته ،

مظهرآ في الخطة أثر بركاته وحسناته ، عاملاً على ما يقربه عند الله من مرضاته ،  
ويظفره بجزيل مَثُوباته ، بحول الله وقوته . انتهى .

فهذا ثناء لسان الدين المرحوم على القاضي ابن الحسن ، وإشادته بذكره ،  
وبإشارته وتدبيره وليّ قضاء القضاة وخطابة الجامع الأعظم بغرناطة ، وهذان  
المنصبان لم يكن في الأندلس في ذلك الزمان من المناصب الدينية أجلُّ منهما .  
ولمّا حصل لسان الدين رحمه الله تعالى ما حصل من النفرة عن الأندلس ، وإعمال  
الحيلة في الانفصال عنها ، لعلمه أن سعايات ابن زَمْرَك وابن الحسن ومَنْ  
يعضدهما تمكنت فيه عند سلطانه ، خلص منها على الوجه الذي قدّمناه ، وشمر  
القاضي ابنُ الحسن عن ساعد أذائته ، والتسجيل عليه بما يوجب الزندقة ، كما  
سبق جميعه مُفَصَّلاً ، فحينئذ أطلق لسانُ الدين عنانَ قلمه في سبِّ المذكور  
وثلبه ، وأورد في كتابه « الكتيبة الكامنة في أبناء المائة الثامنة » من مثالبه  
ما أنسى ما سطره صاحبُ القلائد في ابن باجة المعروف بابن الصائغ - حسبما نقلنا  
ذلك ، أعني كلام الفتح ، في غير هذا الموضع - ولم يقنع بذلك حتى ألف الكتاب  
الذي سمّاه بـ « خلع الرّسن » كما ألمعنا به فيما سبق ، والله سبحانه يتجاوز عن  
الجميع بمنّه وكرمه .

#### [ نماذج من براعة لسان الدين في القدح ]

واعلم أن لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الغاية في المدح والقدح ،  
فتارة على طريق الترسّل ، وطوّراً على غيرها ، وقد أقذع وبالغ رحمه الله تعالى في  
هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال ، وهو أشد من وقع النبال ، ومنه ما وصف به  
الوزير ، الذي كان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر الناصر على سلطان  
ابن الخطيب ، حسبما سبق الإمام بذلك ، والوزير هو إبراهيم بن أبي الفتح الأصلح  
الغوي ، إذ قال في المذكور وفي ابن عمّه محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح العقرب

الردى ، بعد كلام ، ما صورته :

« وما ظنك برجل مجهول الجلد ، موصوم الأبوة ؟ » إلى أن قال : « تنور خبز ، وبركة مرقة ، وثمان حلواء وفاكهة ، مغى في شح النفس ، متهاك في مسترذل الطبع [ . . . ] <sup>١</sup> عليه العذبوط <sup>٢</sup> الغبي ابن عمته بسداجة ، زعموا ، مع كونه قبيح الشكل ، بشيع الطلعة ، إلى أن قال : وفي العشر الأول من رمضان عام واحد وستين وسبعمائة تقبّض على الوزير المشؤوم ، وابن عمته الغوي الغشوم ، وولد الغوي مرسل الظفيرة أبعاد الناس في مهوى الاغترار يختال في السرقة والحلية <sup>٣</sup> ، سم من سم القوارير ، وابتلاء من الله لذوي الغيرة ، يروح نشوان العشيات ، يرقص بين يديه ومن خلفه عدد من الأخلاف <sup>٤</sup> ، يعاقرون النيذ في السكك الغاصة ، وولد العقرب الردى بضده قماءة وتقطباً ، تبو عنهما العيون ، ويبكي منهما الخبز ، كأنهما صمتاً عند المحاوراة وإظلاماً عند الألاء ، من أذلاء بني النضير ، ومهتضمي خيبر ، فتفقفا ملياً ، وبودرٍ بهما إلى ساحل المنكب .

« قال المخبر : فما رأيت منكوبين أقبح شكلاً ، ولا أفقد صبراً ، من ذينك التيسين الحبقين ، صلح الرؤوس ، ضخام الكروش ، مبهوري الأنفاس ، متلجلجي الألسنة ، قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبار منهما شحمة أترجية كأنها ستام الحوار ، لا يثيرون دمعاً ، ولا يستترلون رحمة ، ولا يمهدون عذراً ، ولا يتزودون من كتاب الله آية ، قد طبع الله على قلوبهم ، وأخذهم ببغيهم ، وعجل لهم سوء سعيهم . وللحين أركبوهم وجيراءهم - يعني أولادهم - في جفن غزوي<sup>٥</sup> تحف بهم المساعير من الرجال ، واقتفى بهم أثر قرقورة تحمل حاجاً إلى الإسكندرية تورية<sup>٥</sup> بالقصد ، فلماً لحنوا قذف بهم في لجة بعد استخلاص

١ بياض بمقدار كلمة في ص .

٢ العذبوط : الذي يسلم حين ينزل أثناء المباشرة .

٣ ق : في السرقة والحريز والحلية ؛ والسرقة هو الحرير .

٤ الأخلاف : جمع خلف وهو الردى الذي لا خير عنده .

٥ أي سفينة حربية .

ما ضبثوا به<sup>١</sup> ، وتلكأ الأصلحة الغوي فأثبت بجراحة أشعر بها هديه ، واختلط العقرب الردي فنال من جناب الله سخطاً وضيقاً ، تعالى الله عن نكيره ، فكان فرعون هذا الزمان جبروتاً وعتوّاً وميته ، عجل الله لهم العذاب ، وأغرقهم في اليم .

« فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، فسبحان مَنْ لا تضيع الحقوق مع عدله ، ولا تنفسخ الآماد مع منازعة رداء كبريائه ، مرغم الأنوف ، وقاطع دابر الكافرين ، وفي ذلك أقول مستريحاً ، وإن لم يكن - علم الله تعالى - شاني ، ولا تكرر في ديواني :

وما كنت ممّن يدخلُ العشقُ قلبهٗ ولكنّ ممّن يبصيرُ جفونكِ يعشق<sup>٢</sup>

ومن أمثالهم « مَنْ اسْتَعْضِبَ فلم يغضب فهو حمار » والله سبحانه يقول ومن أصدق من الله قيلاً « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » (الشورى : ٤٠) والعفو أقرب للتقوى ، والقرب والبعد بيده سبحانه . وصدرت هذه الكلمة حين تعرّف إجلائهم في الجفن إلى الإسكندرية ، وبعد ذلك صح هلاكهم :

كنّ من صروف الردي على حذرٍ	لا يقبلُ الدهرُ عُدْرَ مُعْتَدِرٍ
ولا تعولُ فيه على دعةٍ	فأنت في قلعةٍ وفي سفرٍ
فكلُّ ريّ يُفضي إلى ظمأٍ	وكلُّ أمنٍ يدعو إلى غررٍ
كم شامخ الأنف ينثني فرحاً	بالَ عليه زمانه وخرّي
قل للوزير البليدٍ قد ركضتُ	في ربكّ اليوم غارةُ الغيّرِ
يا ابن أبي الفتح نسبةً عكستُ	فلا بفتحٍ أتت ولا ظفرٍ
وزارةً لم يجدُ مقلّدها	عن شؤمها في الوجودِ من وّرٍ
في طالعِ النحاس حُرّت رتبتهَا	وكلُّ شيءٍ في قبضةِ القدرِ

١ ضبثوا به : قبض عليهم بسببه .

٢ البيت للمتنبي من قصيدته « لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي » .



أَيُّ اخْتِبَارٍ لَمْ تَأَلُ نَصَبْتَهُ  
بَاتَ لَهُ الْمُشْتَرَى عَلَى غَيْرِهِ  
يَا طَلَلًا مَا عَلَيْكَ مِنْ عَمَلٍ  
يَا مُفْطِرَ الْجَهْلِ وَالْغَاوَةِ لَا  
يَا دَائِمَ الْحَقْدِ وَالْفِظَاظَةِ لَا  
يَا كَمَدَ اللَّوْنِ يَنْظِفِي كَمَدًا  
يَا عِدْلَ سَرَجٍ يَا دَنًّا مَقْتَعِدٍ  
يَا وَاصِلًا لِلْجِشَاءِ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ  
مِنْ غَيْرِ لُبِّ وَلَا مِرَاقِبَةٍ  
يَا خَامِلًا جَاهُهُ الْفُرُوجُ يَرَى  
كَانُوا نَبِيطًا فِي الْأَصْلِ أَوْ حَبَشًا  
يَا نَاقِصَ الدِّينِ وَالْمَرْوَةِ وَالْعَقَّةِ  
يَا وَلَدَ السَّحْقِ غَيْرَ مَكْتَمٍ  
يَا بَغْلَ طَاحُونَةٍ يَدُورُ بِهَا  
فِي أَشْهُرٍ عَشْرَةَ طَحْنَتَهُمْ  
وَاللَّهِ مَا كُنْتَ يَا مَشُومٌ وَلَا  
وَمَنْ أَبُو الْفَتْحِ فِي الْكِلَابِ وَهَلْ  
قَدْ سَتَرَ الدَّهْرُ مِنْكَ عَوْرَتَهُ  
حَانُوتُ بَزٍّ يَمْشِي عَلَى فُرُشٍ  
لَا مِينَةٌ تُتَّقَى لِمَعْرَكٍ  
وَلَا يَدٌ تَنْتَمِي إِلَى كَرَمٍ  
عَهْدِي بِذَلِكَ الْجَبِينِ قَدْ مَلَّثَتْ

فِي جَسَدٍ لِلنَّحُوسِ أَوْ نَظِيرِ  
وَأَحْرَقَتْ فِيهِ قَرِصَةَ الْقَمَرِ  
يَا شَجْرًا مَا لَدَيْهِ مِنْ ثَمَرٍ  
يُحْسَبُ إِلَّا مِنْ جَمَلَةِ الْبَقْرِ  
يَتَفَرَّقُ مَا بَيْنَ ظَالِمٍ وَبَرِّ  
مِنْ حَسَدٍ يَسْتَطِيرُ بِالشَّرِّ  
مَلَانَ مِنْ رِيَّةٍ وَمِنْ قَدْرِ  
لِ وَرَبِّ الضَّرَاطِ فِي السَّحْرِ  
لِلَّهِ فِي مَوْرِدٍ وَلَا صَدْرٍ  
صَهْرَ أُولِي الْجَاهِ فخرٍ مَفْتَخِرٍ  
مَا عِنْدَهُ عِبْرَةٌ بِمَعْتَبِرٍ  
لِ وَجَرِي اللِّسَانِ بِالْهَدْرِ  
حَدِيثُهُ ، يَا ابْنَ فَاسِدِ الدَّبْرِ  
مَجْتَهِدُ السَّيْرِ مَغْمُضُ الْبَصْرِ  
فِي رَحَى الشُّومِ وَالْبُورِ دُرٍ  
أَنْتَ سِوَى عُرَّةٍ مِنَ الْعُرَرِ  
لِجَاهِلٍ فِي الْأَنَامِ مِنْ خَطِرٍ  
وَكَانَ لِلْيَوْمِ غَيْرَ مُسْتَرٍ  
وَتُورُ عَرَسٍ يَحْتَالُ فِي حَبْرِ  
وَلَا لِسَانَ يُبَيِّنُ عَنْ حَبْرِ  
وَلَا صَفَاءَ يَرِيحُ مِنْ كَدْرِ  
غُضُونُهُ الْغَبْرُ بِالْدمِ الْهَدْرِ

عهدي بذاك القمّ الغليظِ وقد  
أهدتكَ للبحرِ كفُّ منتقم  
يا يُتَمَّ أولادِكَ الصغارِ ويا  
يا تُكَلِّ تلك الصماءِ أمهمُ  
والله لا نالَ من تخلّفه  
والله يا مَسْخُفانُ لا انتقلتَ  
أحفكُ الله بالهوانِ ولا  
ما عوقب الليلُ بالصباحِ وما  
مُدَّ لوقعِ المهتدِ الذّكرِ  
ألقنتك للحوتِ كفُّ مقتدرِ  
حيرتهم بعد ذاكَ في الكبرِ  
وظاعنُ الموتِ غيرُ منتظرِ  
من أملٍ بعدها ولا وطيرِ  
رجلكَ منها إلاّ إلى سقرِ  
رعاكَ فيمن تركتَ من عررِ  
تقدّم البرقُ عارضَ المطرِ

انتهى ؛ وقال مورياً بدم الأخوين ، في شأن سلطان تلك الدولة الذي أضحي  
أثراً بعد عين ٢ :

بإسماعيل ثم أخيه قيسِ  
دمُ الأخوين داوى جرحَ قلبي  
تأذَنَ ليلُ همّي بانبلجِ  
وعالجني ، وحسبك من علاجِ

وهذه تورية بديعة ، لأن الأطباء يقولون : إن من خاصية دم الأخوين النفع  
من الجراح .

وقال رحمه الله تعالى : قلت في رأس الغادر بالدولة حين عرّضَ عليّ :

في غيرِ حفظِ الله من هامةِ  
ما تركتُ حمداً ولا رحمةً  
هامَ بها الشيطانُ في كل وادِ  
في فم إنسانٍ ولا في فؤادِ

وقال أيضاً في تلك الدولة بعد كلام ، ما نصه :

« وانتدب قاضيهم الشيخ التراخي الدبر والفك ، المنحل العصب والعقدة ،

١ ق ص : الحفك .

٢ أزهار الرياض ١ : ٢٧٤ .

المعرق في العمومية ، المشهور بقبول الرشوة ، أبو فلان ابن فلان ، الغريب الاسم والولاية ، ومفتيهم معدن الرياء والهوادة ، والبعد عن التخصص والحشمة ، والمثل في العماة ، والطرف في التهالك على الحطام ، فلان البناء ، المسخر في بناء الحفيرة ، المستخدم في دار ابنه أجيراً ، مختصياً بالطين ، مضابقاً في رمق العيشة ، وحسبك به دليلاً على الحياء وفضل البنوة ، فلفقوا من خيوط العناكب شبهات تقلدوا بها حل العقد الموثق ، ديدنهم في معارضة صلب الملة بالآراء الخبيثة ، يتحكم الوقاح منهم في الحكم الذي نزل به شديد القوى على الذي لا ينطق عن الهوى ، بحسب شهوته ، تحكمه في غزل أمه إثارةً للعاجل ، واسترابةً بالوعيد ، ففسخوا النكاح ، وحلوا محرم البضع للدائل ، وقد تأذن الله بفسخه ، وأجرى دمه نقداً قبل دفع فقهه ، سبحانه حكم الحكام ، وقاهر الظلام ، وباء مشيخةً السوء بلعنة الله وسوء الأحدثوة ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ؛ انتهى .

ومن كلامه في « نفاضة الجراب » ، وقد ذكر وزير المغرب محمد بن علي ابن مسعود ما ملخصه : « وانه مجنون ، أحول العين ، وحش النظره ، يُظن به الغضب في حال الرضى ، يهيج به المرار فيكمن زماناً خلف كلة مرقده ، يُدخل إليه وعاء الحاجتين خوفاً من إصهاره إلى فضاء منزله ، وتوحشه من أهله وولده ، إلى أن تضعف سورة الميرة فيخف أمره ، قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشيبية ، وتوفر داعية الغبطة ، لحف جره الوسواس السوداوي ، نستدفع بالله شر بلائه ، فاستعان مستوزره منه برأي الفضل بن سهل ويحيى بن خالد وأمثالهما ، تدارك الله رمق الإسلام بلطفه » ؛ انتهى .

[ في عتاب ابن أبي رمانة ]

ولما دخل لسان الدين رحمه الله تعالى مدينة مكناسة الزيتون تأخر قاضيها الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي رمانة عن لقائه يوم وصوله ،

١ ق : تعصف ، وهو غير مناسب للمعنى .

فكتب إليه بما نصّه :

جفا ابن أبي رمانة وجهه مقدمي      ونكّب عني معرّضاً وتحاماني  
وحجّب عني حبه غير جاهل      بأنّي ضيف<sup>١</sup> والمبرّة<sup>١</sup> من شاني  
ولكن رأني مغربياً محققاً      وأن طعمي لم يكن حبّ رمانٍ

زيارة القاضي أصلحه الله لثلي ممن لا يخافه ولا يرجوه ، تجب من وجوه :  
أولها كوني ضيفاً ، ممن لا يُعدُّ على الاختبار زيفاً ، ولا تجرُّ مؤانسته حيفاً ،  
فضلاً عن أن تُشرع رحماً أو تسلّ سيفاً ؛ وثانيها أنّي أمتٌ إليه من الطلب  
بنسب ، بين موروث ومكتسب ، وقاعدة الفضل قد قررها الحقُّ وأصلها ،  
والرحم كما علم تدعو لمن وصلها ؛ وثالثها المبدأ في هذا الغرض ، ولكن الواو  
لا ترتب إلاّ بالعرض ، وهو اقتفاء سنن المولى أيده الله في تأنيسي ، ووصفه إياي  
بمقربي وجليسي ؛ ورابعها - وهو عدة كيسي ، وهزبرٌ خيسي ، وقافية  
تجنيسي ، ومقام تلوييني وتلييسي - مودة رئيس هذا الصنف العلمي ورئيسي ،  
فليت شعري ما الذي عارض هذه الأصول الأربعة ، ورجح مذاهبها المتبعة ، إلاّ  
أن يكون عملاً أهل المدينة ينافيها ، فهذا بحسب<sup>٢</sup> النفس ويكفيها ، وإن تعذر  
لقاء أو استدعاء ، وعدم طعام أو وعاء ، ولم يقع نكاح ولا استرعاء ، فلم يتعذر  
عذر يقتضيه الكرم ، والمنصب المحترم ، فالجيلة إلى التماس الحمد ذات استباق ،  
والعرف بين الله والناس باق ، والغيرّة على لسان مثله مفروضة ، والأعمال  
معروضة ، والله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة ، وإن كان لدى القاضي  
في ذلك عذر فليُفدّه ، وأولى الأعذار به أنّه لم يقصده ، والسلام ؛ انتهى .  
وبعني بالمولى السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني ، وبرئيس

١ ص : ضيف .

٢ ص ق : يحسب .

هذا الصنف العلامة الخطيب أبا عبد الله ابن مرزوق ، رحم الله الجميع .

[ رسالته إلى ابن مرزوق ينصحه برفض الدنيا ]

ومن كلام لسان الدين - رحمه الله تعالى - رسالة في أحوال خَدَمَةِ الدولة ومصائرهم ، وتنبههم على النظر في عواقب الرياسة بعين بصائرهم ، عبر فيها عن ذَوِّق ووجدان ، وليس الخبر كالعيان ، وخاطب بها الإمام الخطيب عين الأعيان ، سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ، وكأته - أعني لسان الدين - أشار ببعض فصولها إلى نفسه ، ونطق بالغيب في نكته التي قادته إلى رَمْسِهِ ، وكان ذلك منه عندما أراد التخلّي عن خدمة الملوك ، والتخلي بزينة أهل التصوف والسلوك ، فلم يرد الله أن تكون مهجته نائية عن ساحة الظلمة خارجة ، وأراد سامحه الله وغفر له عَمْرَأَ وأراد الله خارجة ، وصورة ما قال رحمه الله تعالى :

« وأحسست منه - يعني ابن مرزوق - في بعض كتبه الواردة إليّ صاغية إلى الدنيا وحينئذ لما بلاه من غرورها ، فحملني الطور الذي ارتكبته في هذه الأيام - بتوفيق الله - على أن أخاطبه بهذه الرسالة ، وحقها أن يجعلها خَدَمَةَ الملوك ممن ينسب إلى نبل ، ويلم بمعرفة ، مُصْحَفًا يَدْرُسُهُ ، وشعاراً يلتزمه ، وهي » :

« سيدي الذي يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافاة ، ولم تختلف في مدحها الأفعال ولا تغايرت الصفات ، ولا تزال تعترف بها العظام الرُفَات ، أطلقك الله من أسْرِ كلِّ الكون كما أطلقك من أسْرِ بعضه ، وزهّدك في سمائه الفانية وفي أرضه ، وحقر الحظ في عين بصيرتك بما يملكك على رَفْضِهِ ، اتصل بي الخبرُ السار من تركك لشانك ، وإجناء الله تعالى إياك ثمرة إحسانك ، وانجياب ظلام الشدة الحالك ، عن أفق حالك ، فكبرت ، وفي الفرج من بعد الشدة اعتبرت ، لا بسوى ذلك من رضئ مخلوق يؤمر فيأتمر ، ويدعوه القضاء فيبتدر ، إنّما هو فيء ، وظلّ ليس له من الأمر شيء ، ونسأله جل وعلا أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا

١ ص ق: منة .

وبنيها ، وأول معارج نفسك التي تقربها من الحق وتُدنّيها ، وكأنتي والله أحسن  
بثقل هذه الدعوة على سمعك ، ومضادتها ولا حول ولا قوة إلاّ بالله لطبعك ،  
وأنا أنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس الله تعالى في عالم الإنسان ، والآلة لبث  
العدل والإحسان ، والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان ، فأقول :

« ليت شعري ما الذي غبط سيدي بالدنيا ، وإن بلغ من زبرجها الرتبة العليا ،  
ونفرض المثال بحال إقبالها ، ووصل حبالها ، وخشوع جبالها ، وضراعة سبالها ،  
التوّقع المكروه صباحاً ومساءً ، وارتقاب الحوالة التي تدلّل من النعيم البأساء ،  
ولزوم المنافسة التي تعادي الأشراف والرؤساء ؟ ألترتب العتب على التقصير  
في الكتّيب ، وضغينة جارِ الحنّيب ، ولوع الصديق بإحصاء الذنّب ؟ النسبة وقائع  
الدولة إليك وأنت بري ، وتطويقك الموبقات وأنت منها عري ؟ الاستهدافك  
للمضار التي تنتجها غيرة الفروج ، والأحقاد التي تضبطها ركة السروج ،  
وسرحة المروج ، ونجوم السماء ذات البروج ؟ ألتقلدك التقصير فيما ضاقت  
عنه طاقتك ، وصحت إليه فاقتك ، من حاجة لا يقتضي قضاءها الوجود ، ولا  
يكفيها الركوع للملك والسجود ؟ ألقطع الزمان بين سلطان يُعبّد ، وسهام  
للغيوب تكبد ، وعجاجة شرّ تلبّد ، وأقبوحة تخلد وتؤبّد ؟ ألوذير يُصانعُ  
ويُداری ، وذي حجة صحيحة يُجادل في مرضاة السلطان ويُماری ، وعورة  
لا تواری ؟ ألباكرة كل قرن حاسد . وعدوّ مستاسد ، وسوق للإنصاف  
والشفقة كاسد ، وحال فاسد ؟ ألوذود تتراحم بسدّتك مكلفة لك غير ما في  
طوّقك ، فإن لم يقع الإسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟ أجلساء ببابك ،  
لا يقطعون زمان رجوعك وإيابك ، إلاّ بقبیح اغتيالك ، فالتصرفات تمقت ،  
والقواطع توقت ، والألاقي تبثُّ ، والسعايات تحثُّ ، والمساجد يشتكى في  
حلقتها البثُّ ، يعتقدون أن السلطان في يدك بمنزلة الحمار المدبور ، واليتم  
المحجور ، والأسير المأمور ، ليس له شهوة ولا غضب ، ولا أمل في الملك

١ لعلها تصطبّنها .

ولا أرب ، ولا مَوْجدة لأحد كامنة ، وللشر ضامنة ، وليس في نفسه عن رأي  
نقرة ، ولا بلازاء ما لا يقبله نزوة ولا طفرة ، إنَّما هو جارحة لصيدك ، وعان  
في قيدك ، وآلة لتصرف كيدك ، وأنتك علة حيفه ، ومسلط سيفه :

« الشَّرَّارَ يَسْمَلُونَ عِيُونَ النَّاسِ بِاسْمِكَ ، ثُمَّ يَمْزِقُونَ بِالْغَيْبَةِ مَزَقَ جِسْمِكَ ،  
قد تنخلَّهم الوجود أحبُّ ما فيه ، واختارهم السفيه فالسفيه ، إذ الخير يستره الله  
تعالى عن الدول ويخفيه ، ويقنعه بالقليل فيكفيه ، فهم يمتاحون بك وببولونك  
الملامة ، ويفتحون عليك القول ويسدُّون طرق السلامة ، وليس لك في أثناء هذه  
إلا ما لا يعوزك مع ارتفاعه ، ولا يفوتك مع انقشاعه ، وذهاب صداعه ، من  
غذاء يشبع ، وثوب يقنع ، وفراش ينيم ، وخديم يقعد ويقيم ، وما الفائدة  
في فُرُشٍ تحتها جمر الغضا ، ومال من ورائه سُوءُ القضا ، وجاه يخلق عليه  
سيف مُنتَضِي ؟ وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك ، واللجاج حول  
المسقط الذي تعلم أنَّها فيه تهلك ، فكيف تنسب إلى نُبل ، أو تسير من السعادة  
في سُبُل ؟ وإن وجدت في القعود بمجلس التحية ، بعض الأريحية ، فليت شعري  
أي شيء زادها ، أو معنى أفادها ؟ إلا مباكرة وجه الحاسد ، وذو القلب الفاسد ،  
ومواجهة العدو المستاسد ، أو شعرت ببعض الإيناس ، في الركوب بين الناس ،  
ما آلتذت إلا بحلم كاذب ، أو جذبها غير الغرور جاذب ، إنَّما راكبك من  
يُحدِّق إلى الحلية والبيزة ، ويستطيل مدة العزة ، ويرتاب إذا حدثت بخبرك ،  
ويتبع بالتقد والتجسس مواقع نظرك ، ويمنعك من مسابرة أنيسك ، ويحتال  
على فراغ كيسك ، ويضمّر الشرِّ لك ولرئيسك ، وأي راحة لمن لا يباشر قصده ،  
ويمشي إذا شاء وحده ؟ »

« ولو صح في هذه الحال لله تعالى حظ وهبه زهيداً ، وعين الرشد عملاً  
حميداً ، لساغ الصَّاب ، وخفَّت الأوصاب ، وسهَّل المُصاب ، لكن الوقت  
أشغل ، والفكر أوغل ، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية ، واستنفدت منه  
الكمية ، أما ليله ففكر أو نوم ، وعتب بجراء الضرائر ولوم ، وأمَّا يومه فتدبير ،

وقبيل ودبير ، وأمر يعنيا بها ثبير ، وبلاء مُبير ، ولغظ لا يدخل فيه حكم كبير ، وأنا بمثل ذلك خير ؛ ووالله يا سيدي ومن فلق الحب ، وأخرج الأب ، وذراً من مشى ومن دب ، وسمى نفسه الرب ، لو تعلق المال الذي يجره هذا القدح ، ويوري سقيطه هذا القدح ، بأذيال الكواكب ، وزاحمت البدرَ بِدَرُهُُ بالمناكب ، لما ورثه عقب ، ولا خلص به محتقب ، ولا فاز به سافر ولا منتقب ، والشاهد الدول ، والمشائم الأول :

« فأين الرباع المُقتنّاة ؟ وأين الديار المبتناة ؟ وأين الحوائط المغترسات ؟ وأين الذخائر المختلّسات ؟ وأين الودائع المؤمّلة ؟ وأين الأمانات المحمّلة ؟ تأذّن الله بتبيريها ، وإدناء نار التبار من دنانيرها ، فقلّما تلقى أعقابهم إلا أعرء الظهور ، مترمقين لجرابات الشهور ، متعللين بالهباء المنثور ، يُطرَدُون من الأبواب التي حُجِب عنها آباؤهم ، وعُرف منها إباؤهم ، وشم من مقاصيرها عتبرُهم وكبأؤهم ، ولم تساعهم الأيام إلا في إرث محرّ ، أو حلال مقرر ، وربما محقّه الحرام ، وتعدّر منه المرام .

« هذه - أعزك الله - حال قبولها مع الترفيه ، وما لها المرغوب فيه ، وعلى فرض أن يستوفي العمر في العز مُستوفيه ، وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم ، وحوث بغي يبتلع وينتقم ، ومُطَبّق يحجب الهواء ، ويطيل في الترب الثواء ، وثعبان قيد يعض الساق ، وشؤبوب عذاب يمزق الأبخار الرقاق ، وغيلة يهديها الواقب الغاسق ، ويجرعها العدو الفاسق ، فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الأفول والشروق . فهل في شيء من هذا مُغتَبَطٌ لنفس حرة ، أو ما يساوي جرعة حال مرّة ؟ واحسرتنا للأحلام ضلت ، وللأقدام زلت ، ويا لها مصيبة جلّت .

« ولسيدي أن يقول : حكمت باستثقال الموعظة واستجفائها ، ومُرَاوِدَة الدنيا بين خلانها وأكفائها ، وتناسي عدم وفائها ، فأقول : الطبيب بالعلل أدرى ، والشفيق بسوء الظن مُغرّى ، وكيف لا وأنا أقف على السحاءات بخط يد سيدي



من مطارح الاعتقال ، ومثاقف النُوب الثقال ، وخلوات الاستعداد ، للقاء  
الخطوب الشداد ، وتَوْشِي الأسنّة الحِداد ، وحيث يجمل بمثله أن لا يصرف  
في غير الخضوع لله تعالى بنائاً ، ولا يثني لمخلوق عناناً ، وأتعرّف أنها قد ملأت  
الجوّ والدوّ ، وقصدت الجماد والبوّ ، تقتحم أكفّ أُولي الشّمات ، وحفّظت  
المذمّات ، وأعوان النُوب الملمّات ، زيادةً في الشقاء ، وقصداً بريئاً من الاختيار  
والانتقاء ، مشتملة من التجاوز على أغرب من العنقاء ، ومن النفاق على أشهر من  
البلقاء ، فهذا يوصف بالإمامة ، وهذا يُجعل من أهل الكرامة ، وهذا يكلف  
الدعاء وليس من أهله ، وهذا يُطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله ، إلى  
ما أحفّظني والله من البحث عن السموم ، وكتب النجوم ، والمذموم من العلوم ،  
هلاً كان مَنْ ينظر في ذلك قد قوطع بنائاً ، وأعتقد أن الله قد جعل لزمان الخير  
والشر ميقاتاً ، وأنا لا نملك موتاً ولا نشوراً ولا حياتاً ، وأن اللوح قد حصّر  
الأشياء محوّاً وإثباتاً ، فكيف نرجو لما منع منالاً أو نستطيع ممّا قدر إفلاتاً؟  
أفيدونا ما يرجع العقيدة المقررة فتحوّل إليه ، وبينوا لنا الحق نُعوّل عليه .

« الله الله يا سيدي في النفس المرشحة ، والذات المحلاة بالفضائل الموشحة ،  
والسلف الشهير الخير ، والعمر المُشرف على الرحلة بعد حثّ السير ؛ ودّع  
الدنيا لبنيتها فما أوكس حظوظهم ، وأخسّ لحوظهم ، وأقل متاعهم ، وأعجل  
إسراعهم ، وأكثر عناءهم ، وأقصر آناءهم :

ما نَمَّ إلا ما رأيتُ ، وربما تُعني السلامة  
والناسُ إمّا جائرٌ أو حائرٌ يشكو ظلامه  
وإذا أردتَ العزَّ لا ترزأُ بني الدنيا قلامه  
والله ما احتقَبَ الحرّ صُ سوى الذنوب أو الملامه  
هل ثمَّ شكٌّ في المعاد الحقُّ أو يوم القيامة  
قولوا لنا ما عندكم أهلَ الخطابة والإمامه

« وَإِنْ رَمَيْتَ بِأَحْجَارِي ، وَأَوْجَرْتِ الْمَرْءَ مِنْ أَشْجَارِي ، فَوَاللَّهِ مَا تَلْبَسْتِ الْيَوْمَ مِنْهَا بَشِيءَ قَدِيمٍ وَلَا حَدِيثٍ ، وَلَا اسْتَأْثَرْتَ بِطَيِّبٍ فَضْلًا عَنْ خَيْثٍ ، وَمَا أَنَا إِلَّا عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَهَاجِرُ مَرْعَى وَبَيْلٍ ، وَمُرْتَقِبٌ وَعَدْدٌ قَدَرٌ فِيهِ الْإِنْجَازُ ، وَعَاكِفٌ عَلَى حَقِيقَةٍ لَا تَعْرِفُ الْمَجَازُ ، قَدْ فَرَرْتُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يُفَرُّ مِنَ الْأَسَدِ ، وَحَاوَلْتُ الْمَقَاتِعَةَ حَتَّى بَيْنَ رُوحِي وَالْجَسَدِ ، وَغَسَلَ اللَّهُ قَلْبِي — وَاللَّهُ الْحَمْدُ — مِنَ الطَّمَعِ وَالْحَسَدِ ، فَلَمْ أَبْقِ عَادَةً إِلَّا قَطَعْتُهَا ، وَلَا جُنَّةَ لِلصَّبْرِ إِلَّا أَدْرَعْتُهَا ، أَمَا اللِّبَاسُ فَالْصَّوْفُ ، وَأَمَا الزَّهْدُ فِيمَا بِيَدِي الْخَلْقِ فَمَعْرُوفٌ ، وَأَمَا الْمَالُ الْغَنِيظُ فَعَمَلِي الصَّدَقَةُ مَصْرُوفٌ ، وَوَاللَّهُ لَوْ عَلِمْتُ أَنْ حَالِي هَذِهِ تَتَّصِلُ ، وَعُرَاهَا لَا تَنْفَصِلُ ، وَأَنْ تَرْتَبِي هَذَا يَدُومُ ، وَلَا يَجِيرُنِي الْوَعْدُ الْمَحْتَمُومُ ، وَالْوَقْتُ الْمَعْلُومُ ، لَمْتُ أَسْفًا ، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَكَفَى .

« وَمَعَ هَذَا يَا سَيِّدِي فَالْمَوْعِظَةُ تُتَلَقَّى مِنْ لِسَانِ الْوَجُودِ ، وَالْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَطْلُبُهَا بِبَذْلِ الْمَجْهُودِ ، وَيَأْخُذُهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِمَحَلِّهَا الْمَذْمُومِ وَلَا الْمَحْمُودِ . وَلَقَدْ أَعْمَلْتُ نَظْرِي فِيمَا يَكْفِيءُ عَنِّي بَعْضَ يَدِكَ ، أَوْ يَنْتَهِي فِي الْفَضْلِ إِلَى أَمَدِكَ ، فَلَمْ أَرُكَ الدُّنْيَا كِفَاءً هَذَا لَوْ كُنْتُ صَاحِبَ دُنْيَا ، وَأَلْفَيْتُ بِذَلِكَ النَّفْسَ قَلِيلًا لَكَ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلَا تَنْبِيءٍ ، فَلَمَّا أَلْهَمَنِي اللَّهُ لِمَخَاطَبَتِكَ بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ الْمَفْرُغَةِ فِي قَالِبِ الْجَفَاءِ ، لَمَنْ لَا يَثْبِتُ عَيْنَ الصَّفَاءِ ، وَلَا يَشِيْمُ بَارِقَةَ الْوَفَاءِ ، وَلَا يَعْرِفُ قَاذِرَةَ الدُّنْيَا مَعْرِفَةً مِثْلِي مِنَ الْمُتَدَنِّسِينَ بِهَا الْمُتَنَهِّكِينَ ، وَيَنْظُرُ عَوَّارَهَا الْقَادِحَ بَعَيْنِ الْيَقِينِ ، وَيَعْلَمُ أَنَّهَا الْمَوْمَسَةُ الَّتِي حُسْنُهَا زُورٌ ، وَعَاشِقُهَا مَغْرُورٌ ، وَسُرُورُهَا شُرُورٌ ، تَبِينُ لِي أَنْتِي قَدْ كَافَيْتِ صَنِيعَتَكَ الْمُتَقَدِّمَةَ ، وَخَرَجْتَ عَنْ عَهْدَتِكَ الْمُلْتَزِمَةَ ، وَأَمْنَحَضْتُ لَكَ النَّصِيحَ الَّذِي يُعَزِّزُ بَعْدَ اللَّهِ ذَاتَكَ ، وَيَطِيْبُ حَيَاتَكَ ، وَيَجِيْبِي مَوَاتِكَ ، وَيُرِيحُ جَوَارِحِكَ مِنَ الْوَصَبِ ، وَقَلْبِكَ مِنَ النَّصَبِ ، وَيَحْقِرُ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا فِي عَيْنِكَ إِذَا اعْتَبُرْتِ ، وَيَبْلَاشِي عِظَائِمَهَا لَدَيْكَ إِذَا اخْتَبَرْتِ .

« كُلُّ مَنْ تَقَعَ عَيْنَكَ عَلَيْهِ فَهُوَ حَقِيرٌ قَلِيلٌ ، وَفَقِيرٌ ذَلِيلٌ ، لَا يَفْضُلُكَ

بشيء إلا باقتناء رشد أو ترك غي ، أثوابه النبيهة يجردها الغاسل ، وعُرْوَة  
عزّه يفصلها الفاصل ، وماله الحاضر الحاصل ، يعيث فيه الحسام القاصل ، والله  
ما تعين للخلف إلا ما تعين للسلف ، ولا مصير المجموع إلا إلى التلف ، ولا صبح  
من الهياط والمياط ، والسياح والعياط ، وجمع القيراط إلى القيراط ، والاستظهار  
بالوزعة والأشراط ، والخبط والحباط ، والاستكثار والاعتباط ، والغلو  
والاشتطاط ، وبناء الصرح وعمل السآباط ، ورفع العمد وإدارة الفسطاط ،  
إلا أمل يذهب القوة ، ويُنسي الآمال المرجوة ، ثم نفَس يصعد ، وسكرات  
تردد ، وحسرات لفراق الدنيا تتجدد ، ولسان يتقل ، وعين تبصر الفراق  
وتقل ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ (ص : ٦٧) ثم القبر وما  
بعده ، والله مُنجز وعيده ووعده ، فالإضراب الإضراب ، والتراب التراب .

« وإن اعتذر سيدي بقلّة الحلد ، لكثرة الولد ، فهو ابن مرزوق لا ابن  
رزاق ، وييده من التسبب ما يتكفل بإمساك أرقام ، أين النسخ الذي يتبلغ  
الإنسان بأجرته ، في كن حجرته ؟ لا بل السؤال الذي لا عار عند الحاجة بمعرته .  
السؤال والله أقوم طريقاً ، وأكرم رقيقاً ، مِن يدي تمتد إلى حرام ، لا يقوم  
بحرام ، ولا يؤمن من ضرام ، أحرقت فيه الحلل ، وقلبت الأديان والملل ،  
وضربت الأبخار ، ونحرت العشار ، ولم يصل منه على يدي واسطة السوء  
المعشار ، ثم طلب عند الشدة ففضح ، وبان شؤمه ووضّح ، اللهم طهر منها  
أيدينا وقلوبنا ، وبلغنا من الانصراف إليك مطلوبنا وعرّفنا بمن لا يعرف غيرك ،  
ولا يسترفد إلا خيرك ، يا الله .

« وحقيق على الفضلاء إن جنح سيدي منها إلى إشارة ، أو أعمل في اجتلابها  
إضبارة ، أو لبس منها شارة ، أو تشوّف لخدمة إمارة ، أن لا يحسنوا ظنونهم  
بعدها بآبن ناس ، ولا يغتروا بسميّة ولا خلق ولا لباس ، فما عدا عمّا بدا ؟  
تَقَضَى العمر في سجن وقيد ، وعمرو وزيد ، وضر وكيد ، وطراد صيد ،  
وسعد وسعيد ، وعبد وعبيد ، فمتى تظهر الأفكار ، ويقر القرار ، وتلازم

الأذكار ، وتشام الأنوار ، وتستجلى الأسرار ؟ ثم يقع الشهود الذي يذهب معه الإخبار ، ثم يحق الوصول الذي إليه من كل ما سواه الفِرار ، وعليه المدار .

« وَحَقُّ الْحَقِّ الَّذِي مَا سِوَاهُ فَبَاطِلٌ ، وَالْفَيْضُ الرَّحْمَانِي الَّذِي رَبَّاهُ الْأَبَدَ هَاطِلٌ ، مَا شَابَتْ مَخَاطِبِي لَكَ شَائِبَةٌ تَرِيبُ ، وَلَقَدْ مَحَضْتُ لَكَ مَا يَمْحُضُهُ الْحَبِيبُ لِلْحَبِيبِ ، فَتَحَمَّلَ جَفَائِي الَّذِي حَمَلَتْ عَلَيْهِ الْغَيْرُهُ ، وَلَا تَظُنَّ بِي غَيْرَهُ ، وَإِنْ لَمْ تَعْذِرْنِي مَكَاشِفَةَ سَيَادَتِكَ بِهَذَا النَّثِّ ، فِي الْأَسْلُوبِ الرَّثِّ ، فَالْحَقُّ أَقْدَمُ ، وَبِنَاؤُهُ لَا يُهْدَمُ ، وَشَأْنِي مَعْرُوفٌ فِي مَوَاجِهَةِ الْجَبَابِرَةِ عَلَى حِينِ يَدِّي إِلَى رِفْدِهِمْ مَمْدُودَةٌ ، وَنَفْسِي فِي النَّفُوسِ الْمُتَهَافِتَةِ عَلَيْهِمْ مَعْدُودَةٌ ، وَشِبَابِي فَاحِمٌ ، وَعَلَى الشَّهَوَاتِ مَزَاحِمٌ ، فَكَيْفَ بِي الْيَوْمَ مَعَ الشَّيْبِ ، وَنُصْحِ الْجَيْبِ ، وَاسْتِكْشَافِ الْعَيْبِ ؟ إِنَّمَا أَنَا الْيَوْمَ عَلَى كُلِّ مَنْ عَرَفَنِي كَعَلٍّ ثَقِيلٍ ، وَسَيْفِ الْعَدْلِ فِي كَفِي صَقِيلٍ ، أَعْذَلُ أَهْلَ الْهَوَى ، وَليست النَّفُوسُ فِي الْقَبُولِ سِوَا ، وَلَا لِكُلِّ مَرَضٍ دَوَا ، وَقَدْ شَقِيتُ صَدْرِي ، وَإِنْ جَهَلْتُ قَدْرِي ، فَاحْمَلْنِي - حَمَلَكِ اللَّهُ تَعَالَى - عَلَى الْجَادَةِ الْوَاضِحَةِ ، وَسَحَبِ عَلَيْكَ سِتْرَ الْأَبُوتَةِ الصَّالِحَةِ ، وَالسَّلَامِ » .

انتهت الرسالة البديعة في بابها ، الآتية من الموعظة بلبأها ، ذات النصيحة الصريحة التي يتعين على كل عاقل خصوصاً مَنْ يريد خدمة الملوك التمسك بأسبابها .

### [ تعليقات ابن مرزوق وابن لسان الدين على الرسالة ]

قلت : وقد رأيت بخط الإمام العلامة الخطيب ابن مرزوق على هامش قول لسان الدين أوّل الكلام « وأحسست منه في بعض كتبه إلى آخره » ما صورته : تَوَهَّمْ مَا لَا يَقَعُ ، بَلْ لَمَّا تَجَلَّتْ عَنِّي سَحَبُ النَّكْبَةِ وَالْإِمْتِحَانُ جَزِمْتُ بِالرَّحْلَةِ ، وَعَزِمْتُ عَلَى النُّقْلَةِ ، وَنَفَرْتُ عَنِ خِدْمَةِ السُّلْطَانِ ، وَمَلَازِمَةِ الْأَوْطَانِ ، قَالَ ابْنُ

مرزوق : والعجب كل العجب أن جميع ما خاطبني به - أبقاه الله تعالى -  
تحلّني به أجمع ، وابتلي بما منه حدّ ، فكأنّه خاطب نفسه وأفذرّها بما وقع له ،  
فالله تعالى يحسن له الخاتمة والخلاص ؛ انتهى .

وكتب تحت كلام ابن مرزوق هذا بخطه ابنُ لسان الدين عليّ ، ما نصّه :  
صدق والله سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق ، كان الله تعالى له ، قاله ولده ابن  
المؤلف ؛ انتهى .

قلت : وهذا الذي قاله ابن مرزوق كان في حياة ابن الخطيب ، ولذلك دعا  
له بالبقاء ، وبحسن الخاتمة والخلاص ، وقد أسفر الغيب عن محنته ، ثم قتله على  
الوجه الذي وصفه أثناء هذه الرسالة ، إذ قال : وأمّا ضده من عدوّ يتحكم  
وينتقم ، وحوث بغي يبتلع ويلتقم ، ومُطْبِق يحجب الهواء ، ويظيل في التراب  
الثواء ، وثعبان قيد يعض الساق ، وشؤبوب عذاب يمزق الأبخار الرقاق ،  
وغيلة يهدئها الواقب الغاسق ، ويُجرّعها العدو الفاسق ، فصرف السوق ،  
وسلعته المعتادة الطروق ، مع الأفول والشروق . فإنّه رحمه الله تعالى حصل له  
ما ذكر ، ثم اغتاله ليلاً وخنقه في محبسه عدوه الفاسق سليمان بن داود ، كما  
تقدّمت الإشارة إلى ذلك ، فالله تعالى يشبه بهذه الشهادة .

### [ مرثية المنجيني ]

وقد تذكّرت هنا مرثية ابن صابر<sup>١</sup> المنجيني ، وهي :

هل لمن يرْتَجِي البقاء خلودٌ      وسوى الله كلُّ شيءٍ بييدٌ  
والذي كان من ترابٍ وإن عا      ش طويلاً إلى الترابِ يعود  
فمصيّرُ الأنام طرّاً لما صا      ر إليه آباؤهم والجُود  
أين حواً أم أين آدمٌ إذ فا      تهما الملك والشوّا والخلود

١ ص : ابن صاعد .

أين هايلُ أين قابيلُ إذ ه  
 أين نوحُ ومن نجا معه بال  
 أسلمته الأيامُ كالطفلٍ للمو  
 أين عادُ بل أين جنة عاد  
 أين إبراهيمُ الذي شاد بيتَ ال  
 أين إسحاقُ أين يعقوبُ أم أري  
 حسدوا يوسفًا أخاهم فكادوا  
 وسليمانُ في النبوة والملا  
 ذهباً بعدما أطاعَ لذا الخلا  
 وابن عمرانَ بعد آياته التس  
 والمسيحُ ابن مريمٍ وهو روحُ ال  
 وقضى سيدُ النبيين والها  
 وبنوه وآله الطاهرون ال  
 ونجومُ السماءِ منتثراتُ  
 ولنار الدنيا التي توقدُ الصخ  
 وكذا للثرى غداةَ يقوم ال  
 هذه الأمهاتُ نارٌ وتربُ  
 سوف تفتى كما فئنا فلا يب  
 لا الشقيُّ الغويُّ من ثوبِ الأيا  
 ومتى سلَّتِ المنايا سيوفاً

لذا لهذا معاندٌ وحسود  
 فلكُ والعالمون طرّاً فقيد  
 ت ولم يغن عمره الممدود  
 لرمُ ، أين صالح وشمود  
 له فهو المعظم المقصود  
 ن بنوه وعدّهم والعديد  
 ه ومات الحسادُ والمحسود  
 لكِ قضى مثلما قضى داود  
 قُ وهذا له ألين الحديد  
 ع وشقَّ الخضمُّ فهو صعيد  
 له كادت تقضي عليه اليهود  
 دي إلى الحقِّ أحمدُ المحمود  
 زهُرُ صلتى عليهمُ المعبود  
 بعد حينٍ وللهواء ركود  
 رَ خمودٌ وللمياه جمود  
 ناسُ منها تترزلُ وهمود  
 وهواءُ رطبٌ وماءٌ برود  
 قى من الخلقِ والدُّ ووليد  
 مِ ينجو ولا السعيدُ الرشيد  
 فالموالي حصيدُها والعييد

[ العبرة من مراثٍ أخرى ]

وأما قصيدة ابن عبدون الأندلسي التي رثى بها بني الأفطس وذكر فيها

كثيراً من الملوك الذين أبادهم الدهر وطحنهم بـرِحاه وصيرهم أثراً بعد عين  
ففيها ما يوقظ النوام ، وأولها :

الدهرُ يَفْجَعُ بعد العينِ بالأثرِ فما البكاء على الأشباحِ والصُّورِ ؟  
وبالجملة فالأمر كما قال ابن الهبّارية :

الموتُ لا يُبقي أحدَ لا والدًا ولا ولدَ  
مات لبيدٌ ولبيدٌ وخُلدَ الفردُ الصمدُ

﴿ كلُّ من عليها فان ، ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلال والإكرام ﴾ ، اللهم  
اختم لنا بالحسنى ، وردِّنا إليك ردّاً جميلاً .  
وتذكرت هنا أيضاً مرثية على روي مرثية المنجيني السابقة منها :

أين أهلُ الديارِ من قومِ نوحٍ ثمَّ عادٌ من بعدهم وثورودُ  
بينما هم على الأسرةِ والأذِ ماطِ أفضت إلى الترابِ الخدودُ  
ثم لم يَنْقُصِ الحديثُ ولكنْ بعد ذا الوعدُ كلّه والوعيدُ  
وأطبّاءُ بعدهم لحقوهم ضلَّ عنهم سَعَوُطهم واللّدودُ  
وصحيحٌ أضحي يعودُ مريضاً وهو أدنى للموتِ ممن يعودُ

وما أحكم قول السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد المريني يخاطب أخاه  
السلطان أبا الحسن وقد حصره بسجلماسة حتى أخذه قسراً :

فلا يغرّتك الدهرُ الخثونُ فكم أباد منّ كان قبلي يا أبا الحسنِ  
الدهرُ مذ كان لا يُبقي على صفة لا بدّ من فرح فيه ومن حزنِ  
أين الملوكُ التي كانت تهاهمُ أسدُ العرينِ ثووا في اللحدِ والكفنِ  
بعد الأسرةِ والتيجانِ قد مُحيتْ رسومها وعفت عن كل ذي حسنِ  
فاعملْ لأخرى وكنْ بالله مؤتمراً واستغنِ بالله في سرِّ وفي علنِ

واختر لنفسك أمراً أنت أمره كأتني لم أكن يوماً ولم تكن.

ودخل السلطان أبو الحسن سِجْلِمَاسَةَ عَنوَةً على أخيه السلطان أبي علي عمر سنة ٧٣٤ ، وجاء به في الكبّل لفاس ، ثم قتله بالفصد والخنق في ربيع الأول من السنة ، وكان القبض عليه في المحرم ، رحمه الله تعالى .

ومما وجد مكتوباً على قصر بعض السلاطين :

قد كان صاحبُ هذا القصرِ مغتبطاً في ظلِّ عيشٍ يخافُ الناسُ منِ باسِهِ  
فبيئنا هو مسرورٌ بلذته في مجلسِ اللهيِّ مغبوطٌ بجلاسهِ  
إذ جاءهُ بغتةً ما لا مردَّ له فخرٌ ميتاً وزال التاجُ عن راسِهِ

رجع إلى أخبار لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - قلت : وقد زرت قبره مراراً رحمه الله تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذي يقال له باب الشريعة ، وهو يسمى الآن باب المحروق ، وشاهدت موضع دفنه غير مستوي مع الأرض ، بل يُنزل إليه بانحدار كثير ، ويزعم الجبل من عوام فاس أن الباب المذكور إنما سمي بباب المحروق لأجل ما وقع من حرق لسان الدين به حين أخرجه بعض أعدائه من حضرته كما مرّ ، وليس كذلك ، وإتّما سمي باب المحروق في دولة الموحدين ، قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه ، بسبب نثار على الدولة ، فأمسك وأحرق في ذلك المحل ، والله غالبٌ على أمره . وحصل لي من الخشوع والحزن عند زيارة قبره - رحمه الله تعالى - ما لا مزيد عليه ، جعل الله له تلك المحن كفقارة وطُهْرَة ، فإنه كان آية الله علماً وجلالة وحكمة وشهرة .

[ رسالة في العزاء بأبي جعفر ابن جبير ]

وقد تذكرت عند كتيبي هذا المحل رسالة كتبها بعض أئمة المغرب في عزاء



الوزير الشهير أبي جعفر ابن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى إلى بنيه ، وهي مما يصلح أن يوصف بمثلها لسان الدين رحمه الله تعالى ، وفيها عزاء بمن مضى ، ونصّها :

« عزاء يا كواكب الهدى ، في بدركم الذي تحيّفه الردى ، وفجع به الفضل والندى ، فقل للشهب أن تنكدر على فراقه ، وللصبح أن يجبو نور إشرافه ، وللريح أن تمزق صداراً ، وللأهلة أن لا تعرف إبداراً ، وللليل أن يشتمل خميصة الحزن ، وللسماء أن تبكيه بأدمع المزن ، وللرعد أن ينتحب لوفاته ، وللبرق أن يحكي برجفاته أفئدة عفتاه ، وللثريا أن ينضم سوارها ، وللشمس أن تنكسف أنوارها ، وللنثرة أن تنثر كواكبها ، وللجوزاء أن تنفض مناكبها ، وللنيرات أن ترفض مواكبها ، وللرامح أن يبيت أعزّلاً ، وللبرد أن لا يألف منزلاً ، وللمجرة أن يفيض دمعاً نهرها ، وللغميصاء أن يطرد بكاؤها وسهرها ، وللروض أن يفارق إمراعه ، وللأورق أن يهتف بما راعه ، وللغصون أن تنهصر لهفته ، وتتصف أسفاً على حتفه .

« ولكن هو الحِمَام يخل ويخت ، ولا يحفل بمن يتير ، يعدم ما أوجده الكون ، ويذيل من أكنفه الصون ، وأين بنا عن مكافح لا نقاتله ، ورام أرواحنا مقاتله ، لا يد به ناصرة ، وعزمته قاصرة للقياصرة ، ويمينه كاسرة للأكاسرة ، لم يبق من رسم لطسم ، ولا من إحسان لغسان ، ولا من آباد لإياد ، ولا من سلطان لقحطان ، ولا من نجيب لتجيب ، ولا شرف ضخم للخم ، لم يكن له عن اليمينين إقصار ، ومنهم الأنصار ، وهم أسمع للنبي وأبصار ، وعمد إلى المصابيح من مضر يطفئها ، هذا والوحي ينتزل فيها ، ولم يصخ في الصديق ، إلى التصديق ، وأصمى الفاروق برداه ، وحكم فيه أبا لؤلؤة ومُده ، وأمکن صرف الأقدار ، من شهيد الدار ، ولم يرع من عليّ بالبسالة ، والذبل العسالة ، ولا أبقى سبطيه وقد تفقات عنهما بيضة الرسالة ، وأذهب الزبير حوارِي الرسول ، وحظلة وهو بأيدي الملائكة مغسول ، وأفات ابن معاذ ولم

يُجفل بفقوته ، على أنه اهتز العرش لموته ، وأودى بحزمة ومقعدته من النبوة ،  
مقعد الأبوة ، وشفى من عمّار صدور الأسفل ، وأردى مالكا بشربة من  
عسل ، ولم يعبأ بمضاء عمرو ، ولا بحلم معاوية ودهاء عمرو .

« فiale من خطب ، مُودٍ بكل يابس ورطب ، يشرب ماء الأعمار ، ويجعل  
الأحداث منازل الأقمار ، ويلوك السوقة والأملاك ، ولا يبالي أية لأك ، لا  
يقبل شفيحاً ، ولا يغادر منحطاً ولا رفيعاً ، ها هو اعتمد نور عللاً فكسفه ،  
وطود حلم فنسفه ، وأعلق المجد في حباله ، وأقصد الفضل بنباله ، وفتح كنانة ،  
بسهم لم ينثل مثله من كنانة ، فيا طارق الأعين لقد بؤت بأنفس الأعلاق ، ويا  
ناعيه لقد نعيمت باسق الأخلاق ، رُويداً أسائلك ، عمّن لم تَضِعْ لديه وسائلك ،  
أين سماحه وطلاقة ؟ أين كلفه بالحمد وعلاقته ؟ ما الذي ثنى عطفه عن الارتياح ؟  
أم أين عافيه من ذلك الامتياح ؟ أم من يؤلف أمنية كما ألفت السحب أيدي  
الرياح ؟ »

« فيا هبة الحمد اطوي عرْفك فما تنشق ، ويا ربة المجد أقصري طرفك  
فما تعشق ، ويا معشر عفاته ، كيف حيتّم وقد علمتم بوفاته ؟ ويا زُمَر أماله ،  
صفرت أيديكم من إجماله ، ويا أخاير صحابه ، أين مواقع صحابه ؟ ويا بني  
ولائه ، مَنْ يتبوأ مقام علائه ؟ ويا منافسي شيمه ، من يجود بمثل ديمه ؟  
ويا منازعي كرمه ، من يُطيف المعتفين بمثل حرّمه ؟ ويا حاسدي هممه ، مَنْ  
له كحفاظه وذممه ؟ »

« سيدي لقد أضاءت مساعيك وأشرقت ، وأغصت الحاسدين طُراً وأشرقت ،  
وحسبهم أن لم ينتهوا إلا إذا نمت ، ولا نطقوا إلا حين مت ، وليهنّ ملكك  
وصحْبك ، أن أحيتك صنائعك وقد قضيت نحبك ، وإن حمّ فتاؤك ،  
فقد أبقى الحياة الخالدة ثناؤك ' :

١ البيتان من قطعة في الحماسة ( شرح المرزوقي : ٩٥٠ ) للتيمي في منصور بن زياد ، وعند التبريزي  
أن اسمه عبد الله بن أيوب ، من أهل اليمامة .

رَدَّتْ صَنَائِعُهُ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرهَا مَنْشُورٌ  
وَالنَّاسُ مَا مَعَهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ فِي كُلِّ دَارٍ أُنْتَهُ وَزَفِيرٌ

« سيدي ، أما تجيب صرّخة لهفان ، أم عدالك عن الجواب أنتك فان ؟  
سيدي مَنْ لَأَمَلِك ، بيسط أناملك ؟ من للمرّميلات الضرائك ، بإرشادك  
وآرائك ؟ مَنْ لقربائك ، بصلتك وحبائك ؟ من لأخيك ، بمواتق أواخيك ؟  
من لأبنائك ، بلطف أحيائك ؟ انفض شملهم وكان جميعاً ، ونادوك لو نادوا  
منك سميعاً ، هذا كبيرهم يدعوك فلا تجيبه ، وقد فتّ الأضلاع وجيبه ،  
يبكي عند تلك الرّجام ، بأدمع سِجَام ، وقد أهدت الزفرات حشاه ، وألح  
الدمع بجفنه حتى أعشاه ، والأصاغر ما لهم بعدك مفزع ، ورضيعهم تسلب به  
الأنفس رحمة وتترع ، لا يدري ما جزع عليك فيجزع ، لشدّ ما أذابتهم  
وقدّة الأوار ، حين عدموا منك كرم النجوى والجوار ، أفٍ لدهر رماهم  
بالأجوار ، وتركهم أنجماً مسلوّبة الأنوار ، لا جرّم أن يمزونا عليك ويكثرثوا ،  
فلقد تسلّوا عنك ببعض ما ورثوا ، وما ورثتهم غير الحزن والبث ، وأمل في الحياة  
كالهباء المنبث ، كما تتلى محاسنك فاسمع ، طفقت عليك شؤون عيني تدمع ،  
أيا ضريحه ، كيف وجدت ربحه ؟ لقد أرج بك ذلك المعفر ، حتى ما ينافحه  
المسك الأذفر ، وكما ظفرت بوجوده ، فجد كل قبر يجوده ، ففيه سماء ثرة  
وغمام ، ونور انضم عليه منك كمام ، ولو علمت بمن بين جنبيك راقد ، لعلوت  
حتى تلوح في ذراك الفراقد ، ويا دافنيه كيف هلم عليه الرغام ؟ أو لم تنكروا  
على الشمس أن تغام ؟ هيهات لقد سمحتم بإقبار ، عف الشمائل طيب الأخبار ،  
والحداد ، من لا نيزاع في فضله ولا إلحاد ، أي نفس تخدم له التراب مستودعاً ،  
فأضحى عيرنين المكارم مُجدّعاً ؟

فَتَّى مِثْلُ نُصْلِ السِّيفِ مِنْ حَيْثُ جِئْتَهُ لِنَائِبَةٍ نَابَتِكَ فَهِيَ مُضَارِبٌ  
فَتَّى هَمَّةٌ حَمْدٌ عَلَى النَّأْيِ رَابِحٌ وَإِنْ بَاتَ عَنْهُ مَالُهُ وَهُوَ عَازِبٌ

« أما وإن ازدحمت بمهلكه الأوصاب ، وفدح الرزء وجل المصاب ، حتى لا نألف التأساء ، فلقد سر الموت من حيث ساء ، فلقد خلفنا بدهر ما فيه غير مصائب ، ولا يبالي من أقصد سهمه الصائب ، فيا فقيد الندى ما كان أجدرك بالخلود وأخلفك ، ويا جواد عمره ما كان أقصر طلقك ، ثوى حين استوى وتواري ، إذ ملأ الأفق أنوارا ، وكسف حين بلغ الكمال ، فكان كالغصن عندما اعتدل مال ، أو كالشهاب عندما استقام حار :

وكذاك عمر كواكب الأسحار<sup>١</sup>

« هذه اليراعة التحفت بعده الضنى ، والصحف تطوى على جهالة وتحنى ، وعهدي به إن امتطى راحته اليراع ، راع ، أو دبج الأوراق ، راق ، أو استدرّ طبعه السلسال ، سال ، وأي روض أراد ، راد ، ومتى أراغ الإنشاء ، أحسن إن شاء ، فحق للفؤاد أن يستعير بوقده ، وللمدامع أن تسيل دماً على فقده ، بيئد أنه الموت لا بد أن نرد مشرعه ، ونسيف على شرّقه به جرّعه ، فإننا زرع يحصده الذي ازدرعه . وصبراً يا ذوي أرحامه وبنيه ، ومن مر في غلّواء الوجد فالسلوان يثنيه ، وشحاً على أجركم لا يذهب به الجزع ويفنيه ، والله يزلف الفقيد من رحمته ويدنيه ، ويقطفه زهر رضوانه ويجنيه ، ويسر لكم العزاء الأجل برحمته ويُسنيّه ، والسلام » . انتهت .

[ قطع زهدية ]

ويرحم الله القائل :

كلُّ جمعٍ إلى الشتاتِ بصيرُ أيّ صفوٍ ما شابهُ تكديراً؟

١ من مرثية أبي الحسن التهامي في ابنه ، وصدر البيت :

يا كوكباً ما كان أقصر عمره

أنتَ في اللهو والأمانى مقيمٌ  
والذي غرّه بلوغُ الأمانى  
ويك يا نفس أخلصي إن ربّي  
بالبذي أخفتِ الصدورُ بصيرُ  
والمنايا في كلّ وقتٍ تسيرُ  
بسرابٍ وخلبٍ مغرورُ

ولا خفاء على ذوي الأحلام ، من الأعلام ، أن الدنيا أضغاث أحلام<sup>١</sup> :

يندمُ المرءُ على ما فاتهُ  
وتراه فرحاً مستبشراً  
لإنها عندي كأحلام الكرى  
من لباناتٍ إذا لم يقضها  
بالتّي أمضى كأن لم يمضها  
لقريب بعضها من بعضها

وقال أبو منصور أسعد النحوي :

يجمعُ المرءُ ثم يتركُ ما يج  
ليس يحظى إلا بذكرٍ جميلٍ  
معُ من كسبه لغير شكورٍ  
أو بعلمٍ من بعده مأثورٍ

[ شيء من مواعظ ابن الجوزي ]

وقال الإمام الشهير أبو الفرج ابن الجوزي<sup>٢</sup> :

يا ساكن الدنيا تاهت  
وأعيد زاداً للرحمة  
وابك الذنوب بأدمع  
يا من أضاع زمانه  
بانتظر يوم الفراق  
لفسوف يُحدي بالرفاق  
تنهل من سحْب المآق  
أرضيت ما يقنى بباقي

وكان ابن الجوزي المذكور آية الله في كثرة التأليف والكتابة والوعظ

١ تنسب إلى عمران بن حطان وإلى غيره (انظر شعر الخوارج : ١٩) .  
٢ ترجمة ابن الجوزي في وفيات الأعيان ٢ : ٣٢١ وذيل أبي شامة : ٢١ وهذه التفت التي أوردها المقري مأخوذة من الثاني .

والحفظ ، وأقل من كان يحضر مجلسه عشرة آلاف ، وربما حضر عنده مائة ألف ، وقال في آخر عمره على المنبر : كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة ، وتاب على يدي مائة ألف ، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي نصراني ، وأسمع رحمه الله تعالى الناس أكثر من أربعين سنة ، وحدث بمصنفاته مراراً .

وقال الحافظ الذهبي في حقّه : الحافظ الكبير ، الواعظ المقتن ، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في العلوم المتعدّدة ، وعظ من صغره ، وفاق فيه الأقران ونظم الشعر المليح ، وكتب بخطه ما لا يوصف ، ورأى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه ، وحُزِر مجلسه غير مرّة بمائة ألف ، وحضر مجلسه المستضيء مراراً من وراء الستر ؛ انتهى .

ومن كلامه في بعض مجالسه : والله ما اجتمع لأحد أملة ، إلاّ وسعى في تفريقه أجله ، وعقارب المنايا تلسع الناس ، وخدران جسم الأمل يمنع الإحساس . وقال في قوله صلى الله عليه وسلم « أعمار أمّتي من الستين إلى السبعين » إنّما طالت أعمار القدماء لطول البادية ، فلما شارف الركبُ بلدَ الإقامة قيل : حثوا المطي .

وقال في الذين عبدوا العجل : لو أن الله خار لهم ، ما خار لهم .

وقال يوماً وقد طرب أهل المجلس : فهمم فهمم .

وقال في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، بعد أن ذكر أحاديث تدل على خلافته كقوله صلى الله عليه وسلم « مروا أبا بكر فليصل بالناس » وغيره ، ما صورته : فهذه أحاديث تجري مجرى النص ، فهمها الخصوص ، غير أن الرافضة في إخفائها كاللصوص ، فقال السائل : لما قال « أقبلوني » ما سمعنا مثل جواب علي رضي الله عنه « والله لا أقلناك » فقال : لما غاب علي عن البيعة في الأول ، أخلف ما فات بالمدح في المستقبل ، ليعلم السامع والرائي أن بيعة أبي بكر وإن كانت من ورائي ، فهي رائتي ، ومثل ذلك الصّدْر لا يراني .

وقال في قول فرعون ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ (الزخرف : ٥١) .

بما أجراه ، ما أجراه .

وتواجدَ رجل في مجلسه فقال : عجيباً ! كلُّنا في إنشاد الضالة سَوًّا ، فلم  
وجدت وَحَدَّكَ أَلَمْ الْحَوَى ؟ وأنشد :

قد كنتُ الحبَّ حتى شفني      وإذا ما كُتِمَ الداءُ قَتَلُ  
بينَ عينيكِ عِلالاتُ الكرى      فدعِ النومَ لرباتِ الحِجَلِ

ونظر يوماً إلى أقوام يبيكون في مجلسه ويتواجدون فأنشد ١ :

ولم يَهَجِّيَ الظاعنون لهاجتي      حمائمُ ورقٍ في الديارِ وقوعُ  
تداعينَ فاستبكينَ من كان ذا هوى      نوائحُ لم تقطرَ لهنَّ دموعُ  
وكيفَ أُطيقُ العاذلينَ وذكرهم      يؤرِّقني والعاذِلونَ هجوعُ

وقام رجل وتواجد فأنشد :

وما زالَ يشكو الشوقَ حتى كأنما      تنفَسَ من أحشائه وتكلِّمًا  
ويكي فابكي رحمةً لبكائه      إذا ما بكى دمعاً بكيتُ له دما

وأعجبه يوماً كلامه فأنشد :

تردحمُ الألفاظُ والمعاني      على فؤادي وعلى لساني  
تجري بي الأفكارُ في ميدانِ      أراحمُ النجمِ على مكانِ

ووعظ المستضيء يوماً فقال : يا أمير المؤمنين ، إن تكلمتُ خفتُ منك ،  
وإن سكتُ خفتُ عليك ، فأنا أقدمُ خوفي عليك ، على خوفي منك ، لمحبي لدوام  
أيامك ، إن قول القائل « اتق الله » خير من قول القائل : أنتم أهل بيت مغفور  
لكم ، وقال الحسن البصري : لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تبلغ المأمن

١ الأبيات لذي الرمة ، ديوانه : ٣٥٢ .

خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ولم أعيره فأنا الظالم . يا أمير المؤمنين ، كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط ، لثلا ينسى الجياع ، وكان عمر رضي الله عنه يصبر بطنه عام الرمادة فيقول : قرقرى إن شئت أو لا تقرقرى ، فوالله لا شَبِعْتِ والمسلمون جِياع . فتصدق الخليفةُ المستضيء بصدقات كثيرة ، وأطلق مَنْ في السجن .

وقال رحمه الله تعالى لبعض الولاة : اذكر عدل الله فيك ، وعند العقوبة قدرة الله عليك ، وإياك أن تشفي غيظك بسقم دينك .

وقال : الطاعة تبسط اللسان ، والمعاصي تذل الإنسان .

وقال له قائل : ما نمت البارحة من شوقي إلى المجلس ، فقال : نعم ، لأنك

تريد أن تتفرج ، وإنما ينبغي أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت فيه .

وقيل له : إن فلاناً أوصى عند الموت ، فقال : طينٌ سطوحه في كانون .

وقال له قائل : أسبَح أم أستغفر ؟ فقال : الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون

من البخور .

وسأله سائل : ما الذي وقّر في قلب أبي بكر رضي الله عنه ؟ فقال : قوله

ليلة المعراج « إن كان قال فلقد صدّق » فله السبق .

ولما قال له بعضهم « سيفٌ عليّ نزل من السماء فسعفة أبي بكر أين ؟ »

أجابه بقوله : إن سعفةً هزت يوم الردة فأثمرت سبباً جاء منه مثلُ ابن الحنفية

لأَمْضَى من سيوف الهند ، ثم قال : يا عجباً للروافض ، إذا مات لهم ميت

تركوا معه سعفة ، من أين ذا المصطلح ؟

وسئل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أراد أن ينظر إلى ميت يمشي

على وجه الأرض فليُنظر إلى أبي بكر » فقال : الميت يقسم ماله ويكفن ، وأبو

بكر أخرج ماله كله وتخلل بالعباء .

وقال في قوله تعالى ﴿ ونزغنا ما في صدورهم من غلٍ إخواناً ﴾ (الأعراف: ٤٣)



قال علي : إنني والله لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، ثم  
قال أبو الفرج : إذا اصطح أهلُ الحرب فما بال النظارة ؟

وقال : قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سلم على عائشة ، ولم  
يواجهها بالخطاب احتراماً لزوجها ، وواجه مريم لأنها لم يكن لها زوج ، فمن  
يحترمها جبريل كيف يجوز في حقها الأباطيل ؟

قال أبو شامة : وكان ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - مُبتلى بالكلام في  
مثل هذه الأشياء ، لكثرة الروافض ببغداد وتعتهم بالسؤالات فيها ، فكان  
بصيراً بالخروج منها لحسن إشارته .

وانقطع القراء يوماً عن مجلسه فأنشد :

وما الحلبي إلا زينةٌ لتقيصة      يُتمم من حُسن إذا الحسنُ قَصَرا  
وأما إذا كان الجمالُ موفراً      كحسبك لم يحتجْ إلى أن يزورا

وقيل له : لم تعلق موسى عليه السلام بسوف تراني ؟ فأنشد :

إن لم يكن وصلٌ لديك لنا      يشفي الصبابة فليكن وعدٌ

ولما ذكر أن بلالاً - رضي الله عنه - لما منع الطواف بالبيت كان يقف  
من بعيد وينظر إليه ويبكي أنشد :

أمرٌ على منازلهم وإنني      بمن أضحى بها صبٌّ مشوقٌ  
وأومي بالتحية من بعيدٍ      كما يومي بإصبعه الغريقُ

ومن شعر أبي الفرج رحمه الله تعالى :

لعبتَ ومثلك لا يلعبُ      وقد ذهب الأطيبُ الأطيبُ  
وقد كنتَ في ظلماتِ الشبابِ      فلما أضاء انجلي الغيبُ  
ألا أينَ أقرانك الراحلون ؟      لقد لاح إذ ذهبوا المذهبُ

ولنقتصر على هذا المقدار ، ونرجع إلى أحوال لسان الدين رحمه الله تعالى  
وارتحاله ، والاعتبار بحاله ، فنقول :

ومما يناسب أن نذكره في هذا المحل ونثبته فيه ما حكاه العالم العلامة بلدينا  
سيدي أبو الفضل ابن الإمام التلمساني رحمه الله تعالى عن جدي الإمام قاضي  
القضاة سيدي أبي عبد الله المقرئ التلمساني رحمه الله تعالى ، وهو أحد أشياخ  
لسان الدين كما يأتي إن شاء الله ذلك في محله ، قال : كنت مع ذي الوزارتين  
أبي عبد الله ابن الخطيب في جامع إلبيرة من الأندلس إذ مر بنا الاعتبار ، في تلك  
الآثار ، فأنشد ابن الخطيب ارتجالاً<sup>١</sup> :

أقمنا برهةً ثم ارتحلنا      كذلك الدهرُ حالٌ بعد حالٍ  
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاء      وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحالٍ  
ومن سام الزمانَ دَوَّامَ حالٍ      فقد وقَّفَ الرجاءَ على المحالِ

انتهى .

وحكى لسان الدين في « الإحاطة » عن نفسه أنه خطط هذه الأبيات في  
مرحلة نزلها رحمه الله تعالى حسبما يأتي ذلك في شعره .

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

لبسنا فلم نُبلِ الزمانَ وأبلانا      يتابع أخراًنا على الغيِّ أولانا  
ونغترُّ بالآمالِ والعمرُ ينقضي      فما كان بالرُّجعى إلى الله أولانا  
وماذا عسى أن يُنظِرَ الدهرُ من عسا      فما انقاد للزجرِ الحثيثِ ولا لانا  
جزينسا صنيعَ الله شرَّ جزائه      فلم نرعَ ما مِن سابقِ الفضلِ أولانا  
فيا رَبِّ عاملنا بما أنتَ أهلهُ      من العفوِ واجبرُ صدَّعنا أنتَ مولانا

١ انظر أزهار الرياض ١ : ٢٧١ .

وقد حكى غير واحد أنه رحمه الله تعالى ريء بعد موته في المنام ، فقال له  
الرائي : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بيتين قلتها ، وهما :

يا مصطفى من قبل نشأة آدمِ والكونُ لم تُفتحْ له أغلاقُ  
أبرومُ مخلوقٍ ثناءك بعدما أثنى على أخلاقك الخلاقُ ؟

وقد كرر رحمه الله تعالى هذا المعنى في قصيدة في حقه صلى الله عليه وسلم ،  
وشرف وكرم ، ومجد وعظم ، وبارك وأنعم ، وهو قوله :

مَدَحْتِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ فَمَا عَسَى يُثْنِي عَلَى عَلَيْكَ نَظْمُ مَدِيحِي  
وَإِذَا كَتَبُ اللَّهُ أَثْنِي مُفْصِحاً كَانَ الْقُصُورُ قُصَارَ كُلِّ فَصِيحٍ  
وستأتي هذه القصيدة في نظمه إن شاء الله تعالى .

وقد رأيت بالمغرب تخميساً للبيتين الأولين منسوباً للأديب الشهير الذكر  
بالمغرب أبي عبد الله محمد بن جابر الفسافي المكناسي رحمه الله تعالى ، ولا بأس  
أن نورده هنا . وهو قوله رحمه الله تعالى :

يا سائلاً لَصْرِيحِ خَيْرِ الْعَالِمِ يُنْهِي إِلَيْهِ مَقَامَ صَبِّ هَائِمِ  
بِاللَّهِ نَادٍ وَقَلْ مَقَالَةَ عَالِمِ يَا مُصْطَفَى مِنْ قَبْلِ نَشْأَةِ آدَمِ  
وَالْكَوْنُ لَمْ تُفْتَحْ لَهُ أَغْلَاقُ

بِثَنَّاكَ قَدْ شَهِدْتُ مَلَائِكَةَ السَّمَاءِ وَاللَّهُ قَدْ صَلَّى عَلَيْكَ وَسَلَّمَا  
يَا مَجْتَبَى وَمَعْظَمًا وَمَكْرَمًا أَيْرُومُ مَخْلُوقٍ ثَنَاءَكَ بَعْدَمَا  
أَثْنَى عَلَى أَخْلَاقِكَ الْخَلَاقُ

١ أزهار الرياض ١ : ٣١٩ وفيه التخمين التالي أيضاً .

وما أَحْسَنَ قولَ لسانِ الدين - رحمه الله تعالى - بعدما عرّف بنفسه  
وسلفه : وكأني بالحي ممّن ذكر قد التحق بالميت ، وبالقبر قد استبدل من البيت .  
وقال رحمه الله تعالى بعد إيراد جملة من نظمه ما صورته : وقلت والبقاء  
لله وحده ، وبه يحتم الهدر<sup>١</sup> :

عَدُّ عن كَيْتٍ وكَيْتٍ ما عليها غيرُ مَيْتٍ  
كيف تُرْجى حالة البُقْ يا لمصباحٍ وزَيْتٍ

وسياتي ذلك ؛ ولقد صدق رحمه الله تعالى ، ورقى درجته في الجنة .

#### [ تحقيق في نسبة بيتين ]

وأما البيتان الشائعان على ألسنة أهل المشرق والمغرب وأنها قِيلا في لسان  
الدين رحمه الله تعالى ، وبعضهم ينسبهما له نفسه ، فالصحيح خلاف ذلك كما  
سيأتي ، وهما :

قفْ كي ترى مغربَ شمس الضُّحَى بينَ صلاةِ العصرِ والمغربِ  
واسترحمِ الله قتيلاً بها كان إمامَ العصرِ في المغربِ

وشرح بعضهم البيتين فقال : إن قوله « قتيلاً بها » من باب الاستخدام :  
أي قتيلاً بشمس الضحى التي هي المتغزل فيها .

وقد رأيت وأنا بالمغرب بخط الشيخ الأغصاوي أنهما لم يعن بهما قائلهما لسان  
الدين ابن الخطيب ، وإنما هما مقولان في غيره ، ونسبهما ، ونسيت الآن ذلك  
لطول العهد ، والله أعلم .

ويدل على ذلك أنه - رحمه الله تعالى - لم يُقتل بين صلاة العصر والمغرب

١ أزهار الرياض ١ : ٣١٣ .

وإنّما قُتِلَ في جوف الليل كما علّم في محله . على أنّه يمكن بتكلف تأويل ذلك بأنّه قامت لقائلهما قرينة على أنّه بصدد الموت في ذلك الوقت ، وهذا لو ثبت أنّهما قِيلا فيه ، وقد علمت أن الأغصاوي نفى ذلك ، فالله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك .

ثم رأيت في كتاب إسماعيل بن الأحمر في ترجمة بعض العلماء ما نصّه : فمن قوله يرثي الأمراء بالمغرب ، وقد حل رمسه بين صلاة العصر والمغرب :

قفّ كي ترى مغربَ شمسِ العلا بين صلاةِ العصرِ والمغربِ  
واسترحم الله دفيناً به كان ملكَ العصرِ في المغربِ

وهذا ممّا يبعد أنّهما في لسان الدين من وجوه لا تخفى على المتأمل : منها قوله « كان ملك العصر » فإن لسان الدين لم يكن كذلك ، وقد تقدم آنفاً « كان إمام العصر في المغرب » وهو أحسن ؛ لما فيه من التورية البديعة ، والله أعلم .

[ ثلاث قصائد لابن زمرك ]

رجع إلى أخبار لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - وقد عرض عدوّه الرئيس ابن زمرك في بعض قصائده التي مدح بها سلطانه الغني بالله أبا عبد الله ابن نصر بما تسنى له من الظفر بابن الخطيب ، ومن حماه منه ، وهو الوزير ابن الكاس ، على يد من عينه لملك المغرب ، وأعانه بجنده وعضده - كما تقدّم - وهو السلطان أحمد المريني ، فقال من قصيدة عيدية :

يهتي زمانك أعيادٌ مُجدّدةٌ من الفُتوح مع الأيّام تغشاهُ  
غضبتَ للدينِ والدُّنيا بحقّهما يا حبّدا غضبٌ في الله أرضاهُ  
فوقّتَ للغرب سَهْماً راشه قدرٌ وسدّدَ اللهُ للأعداءِ مرماهُ

لقد رمى الغرضَ الأقصى فأصماه<sup>١</sup>  
فليس يَخْلِفُهُ فَتَحُ تَرْجَاهُ  
أنا لله ما يرجو وستاهُ  
للغربِ والشرقِ مِنْهُ ما تَمَنَاهُ  
ومن تردَّى رداءَ الغديرِ أَرَدَاهُ  
فلم تر الشمسَ، شمسَ الهدى، عيناهُ  
لَهُ المرادُ أعشاهُ وأعماهُ  
أن الذي قد كساه العزَّ أعرَاهُ  
ما زلتَ ملجأه الأحمى ومنجَاهُ  
فالسيفُ مهما مضى فالسعدُ أقصاهُ  
وارفعْ من الصبحِ بِنْدًا راق مجلاهُ  
أنصارُ ملككَ، صان الله عليَّاهُ  
وأنس الله بالألطفِ مغناهُ  
لا أهملَ الله سرحاً أنتَ ترعاهُ  
مستزلاً من إله العرشِ رحماهُ  
وأوسع الصنعِ إجمالاً ووفاهُ  
وأنعمَ الله قد عمتْ براياهُ  
ويجزلُ الأجرَ والرحمى مصلاهُ  
لذي المعارجِ والإخلاصِ رِقَاهُ  
وأشرف البرِّ بالإحسانِ زكَّاهُ  
والى لك الله ما أولى ووالاهُ

«سهمٌ أصابَ وراميه بذى سلمٍ»  
من كانَ بِنْدُكَ يا مولاي يَقدُمُهُ  
من كانَ جندك جندُ الله ينصره  
ملكته غربه خلدتَ من ملكِ  
وسام أعداءك الأشقيينَ ما كسبوا  
قل للذي رمدتَ جهلاً بصيرتُهُ  
غطى الهوى عقله حتى إذا ظهرتْ  
هل عندهُ وذنوبُ الغديرِ تُوبِقُهُ  
لو كان يشكرُ ما أوليتَ من نعمِ  
سُلِّ السعودِ واخلُ البيضِ مغمدةً  
واشرعْ من البرقِ نَصلاً راعِ مُصلتُهُ  
فالعُدوتانِ وما قد ضمَّ ملكهُما  
لا أوحشَ الله قطراً أنتَ مالكة  
لا أظلمَ الله أفقاً أنتَ نيرُهُ  
واهنأ بشهرِ صيامِ جاء زائرُهُ  
أهلٌ بالسعدِ فانهلتْ به مننُ  
أما ترى بركاتِ الأرضِ شاملةً  
وعادك العيدُ تُستحلى مواردهُ  
جهزتَ جيشَ دعاءٍ فيه ترفعه  
أفضتَ فيه من النعماءِ أجرُها  
واليتَ للخلقِ ما أوليتَ من نعمِ

١ ضمنه من قول الشريف الرضي :

سهم أصاب وراميه بذى سلم من بالعراق لقد أبعدت مرامك

وأول هذه القصيدة :

هذي العوالمُ لفظُ أنتَ معناهُ  
بحرُ الوجودِ وفلكُ الكونِ جاريةُ  
من نورٍ وجهك ضياء الكونِ أجمعهُ  
عرشٌ وفرشٌ وأملكُ مسخرةُ  
سبحان من أوجدَ الأشياءَ من عدمٍ  
من ينسب النورَ للأفلاكِ قلت له :  
مولاي مولاي بحرُ الجودِ أغرفي  
فالفلكُ تجري كما الأفلاكِ جاريةُ  
وكلهم نعمٌ للخلقِ شاملة  
يا فاتقِ الرثقِ من هذا الوجودِ كما  
كن لي كما كنت لي إذ كنتُ لا عملُ  
وأنت في حضراتِ القدسِ تنقلني  
ما أقبح العبدَ أن ينسى وتذكره  
غُفرانك اللهُ من جهلٍ بليتُ به  
مني عليَّ حجابٌ لستُ أرفعهُ  
فعدُّ عليَّ بما عودتَ من كرمٍ  
ثمَّ الصلاةُ صلاةُ اللهِ دائمةُ  
المجتبى وزنادُ النورِ ما قدحتُ  
والمصطفى وكمامُ الكونِ ما فتقتُ  
ولا تفجرُ نهرٌ للنهارِ علي  
يا فاتحِ الرُّسلِ أو يا ختمها شرفاً

كلُّ يقولُ إذا استنطقته اللهُ  
وباسمك اللهُ مَجْرَاهُ ومُرْسَاهُ  
حتى تَشِيدَ بالأفلاكِ مَبْنَاهُ  
وكلها ساجدٌ لله مولاهُ  
وأوسع الكونِ قبل الكونِ نعماهُ  
من أين أطلعتِ الأنوارُ لولاهُ  
والخلقُ أجمعُ في ذا البحرِ قد تاهوا  
بحرُ السماءِ وبحرُ الأرضِ أشباهُ  
تَبَارَكَ اللهُ لا تحصى عطاياهُ  
في سابقِ العلمِ قد خُطتْ قضاياهُ  
أرجو ، ولا ذنبَ قد أذنبتُ أخشاهُ  
حتى استقرَّ بهذا الكونِ مثواهُ  
وأنت باللطفِ والإحسانِ ترعاهُ  
فمن أفاد وجودي كيف أنساهُ  
إلا بتوفيقِ هدي منكَ ترضاهُ  
فأنت أكرمُ مَنْ أملتُ رحماهُ  
علي الذي باسمه في الذكرِ سمَّاهُ  
ولا ذكاً من نسيمِ الروضِ مسرَّاهُ  
عن زهرِ زهرٍ يروق العينَ مرَّاهُ  
دُرُ الدراري ففطَّاه وأخفَّاهُ  
والله قدسَ في الحالين معناهُ

لم أدخر غير حبّ فيك أرفعهُ  
 صلتى عليك إله أنت صفوته  
 وعمّ بالروح والريحان صحبته  
 وخصّ أنصاره الأعلين صفوته  
 أنصار ملته أعلامُ بيعته  
 وأيد الله من أحميا جهادهم  
 المنتقى من صميم الفخر جوهره  
 العلم والحلم والإفضال شيمته  
 وسيلةً لكريم يوم ألقاه  
 ما طيبت بلذيد الذكر أفواه  
 وجادهم من نعيم الغفو أصفاه  
 وأسكنوا من جوار الله أعلاه  
 مناقب شرفت أنى بها الله  
 وواصل الفخر أخراه بأولاه  
 ما بين نصر وأنصار تهاداه  
 والبأس والجود بعض من سجاياه  
 وهي طويلة ، ولتقتصر منها على ما ذكر .

وقد صرح ابن زمّرك المذكور في قصيدة أخرى مدح بها سلطانه الغني بالله ،  
 وهناه بفتح المغرب على يد السلطان أحمد ، وذكر فيها ظفره بالوزير ابن  
 الكاس ، وهو - أعني ابن الكاس - كان القائم بنصرة لسان الدين ، والمانع  
 له ، والمجير له منهم حين طلبوه منه ، فلما لم يخفر ذمته تمكنت - كما سبق -  
 أسباب العداوة ، وجر ذلك أن أغرى السلطان أحمد على تملك فاس ، واشتروا  
 عليه كما مر القَبْضُ على لسان الدين وإرساله إليهم ، وقد نقلت أنا هذه القصيدة  
 من تأليف لحفيد السلطان الغني بالله ونصُّ محل الحاجة منه : ومن ذلك أيضاً  
 قوله - يعني ابن زمّرك - ههنا لمولانا الجدرحمه الله تعالى بالفتح المغربي للسلطان  
 أبي العباس ابن السلطان أبي سالم المريني<sup>١</sup> :

هي نفحة هبت من الأنصار أهدتك فتح ممالك الأمصار  
 في بشرها وبشارة الدنيا بها مستمتع الأسماع والأبصار  
 هبت على قطر الجهاد فروضت أرجاءه بالنفحة المعطار

١ القصيدة في أزهار الرياض ٢ : ٢٨ - ٣٤ .



وسرّت وأمر الله طيَّ برودها  
مرّت بأدواح المنابر فانبرت  
حتت معارجها إلى أعشارها  
لو أنصفتك لكَلَّت أدواحها  
فتحُ الفتوح أذاك في حُللِ الرضى  
فتحُ الفتوح جنيتَ من أفنانهِ  
كم آيةٍ لك في السعودِ جليّةِ  
كم حكمةٍ لك في النفوسِ خفيةِ  
كم من أميرٍ أمّ بابك فأنشى  
أعطيتَ أحمدَ رايةً منصورّةِ  
أركبته في المنشآتِ كأنما  
من كل خافقةِ الشراعِ مصفقِ  
ألفتَ بأيدي الرياحِ فضلَ عانها  
مثلَ الجيادِ تدافعتْ وتسابقتْ  
للهِ منها في المجازِ سوابحُ  
لما قصدتَ بها مراسيَ سبتةِ  
لما رأته من صُبْحِ عزمكِ غيرةِ  
ورأت جبيناً دونه شمسُ الضُحى  
فأفضتَ فيها من نَدَاكِ مواهباً  
وأريتَ أهلَ الغربِ عزمَ مغربِ  
وخطبتَ من فاسِ الحديدِ عقيلةِ  
ما صدقوا منَ الحديدِ بفتحها  
وتسمّعوا الأخبارِ باستفتاحها  
قولوا لقردي في الوزارةِ غرّه

يهدى البرية صنع لطف البارى  
خطبأؤها مُفْتَنّةَ الأطيارِ  
لما سمعنَ بها حينَ عشارِ  
تلك البشائرُ يانعَ الأزهارِ  
بمعجائبِ الأزمانِ والأعصارِ  
ماشتتَ من نصرٍ ومن أنصارِ  
خلدتَ منها عبرةً استبصارِ  
خفيتَ مداركها عن الأفكارِ  
يُدعى الخليفةَ دعوة الإكبارِ  
بركاتِها تسري من الأنصارِ  
جهزتَه في وجهةِ لزارِ  
منها الجناحُ تطيرُ كلَّ مطارِ  
فتكادُ تسبقُ لمحّةِ الأبصارِ  
من طافحِ الأمواجِ في مضمارِ  
وقفتَ عليك الفخرُ وهي جوارى  
عظفتَ على الأسوارِ عطفَ سوارِ  
محفوفةً بأشعةِ الأنوارِ  
لبتكَ بالإجلالِ والإكبارِ  
حسنتَ مواقعها على التكرارِ  
قد ساعدته غرائبُ الأقدارِ  
لبتكَ طوعَ تسرعِ وبيدارِ  
حتى رأوه في متونِ سفارِ  
والخبرُ قد أغنى عن الأخبارِ  
حلمٌ مننتَ به على مقدارِ

أُسكنته من فاسٍ جنةً ملكها  
حتى إذا كفر الصنيعةَ وازدرى  
جرعت نجل الكاس كأساً مرةً  
كفر الذي أوليته من نعمةٍ  
فطرحته طرَحَ النواةِ فلم يفزُ  
لم يتفقْ لخليفةٍ مثلُ الذي  
لم أدرِ والأيامُ ذاتُ عجائبِ  
ألواءُ صبحٍ في ثبئةٍ مشرقِ  
وشهابُ أفقٍ أم سنانٌ لامعُ  
ومناقبُ المولى الإمامِ محمدِ  
فاقَ الملوكَ بهمةٍ علويةٍ  
لو صافح الكفَّ الخضيبَ بكفه  
والشهبُ تطمعُ في مطالعِ أفقها  
سلْ بالمشارقِ صبحها عن وجهه  
سلْ بالغمائمِ صوبها عن كفه  
سلْ بالبروقِ صفاحها عن عزمه  
قد أحرز الشيمَ الخطيرةَ عندما  
إن يلقَ ذو الإجمامِ صفحةَ صفحهِ  
يا من إذا هبتْ نواسمُ حمدهِ  
يا من إذا افترتْ مباسمُ بشرهِ  
يا من إذا طلعتْ شمسُ سعوده  
قسماً بوجهك في الضياءِ وإنه  
قسماً بعزمك في المضاءِ فإنه

متنعماً منها بدارِ قرارِ  
بمُحقوقِها الحقتَهُ بالنارِ  
دستٌ إليه الحنفَ في الإسكارِ  
لا تأنسُ النعماءُ بالكفارِ  
من عزٍّ مغربهِ بغيرِ فرارِ  
أعطى الإلهَ خليفةَ الأنصارِ  
تردادها يحلو على التذكارِ  
أم رايةٌ في جحفلِ جرارِ  
ينقضُ نجماً في سماءِ غبارِ  
قد أشرقتْ أم هنَّ زهُرُ دراري  
من دونها نجمُ السماءِ الساري  
فخرتْ بنهرٍ للمجرةِ جاري  
لو أحرزتْ منه منبعَ جوارِ  
يفترُّ منه عن جبينِ نهارِ  
تنبيك عن بحرٍ بها زخارِ  
تخبرك عن أمضى شباً وغرارِ  
أمطى العزائمَ صهوةَ الأخطارِ  
فسحَ القبولُ له خطا الأعمارِ  
أزرتْ بعرفِ الروضةِ المعطارِ  
وهبَ النفوسَ وعاتٍ في الإقتارِ  
تُعشي أشعتها قوى الأبصارِ  
شمسٌ تمدُّ الشمسَ بالأنوارِ  
سيفٌ تجرِّدهُ يدُ الأقدارِ

لَسْمَاحُ كَفَنِكَ كَلَمَا اسْتَوْهَبْتُهُ  
لِللَّهِ حَضْرَتُكَ الْعَلِيَّةُ لَمْ تَزَلْ  
كَمْ مِنْ طَرِيدٍ نَازِحٍ قَدَفَتْ بِهِ  
بَلَعْتَهُ مَا شَاءَ مِنْ آمَالِهِ  
صِيرْتَ بِالْإِحْسَانِ دَارَكَ دَارَهُ  
وَالْحَلْقُ تَعْلَمُ أَنَّكَ الْغَوْثُ الَّذِي  
كَمْ دَعْوَةٌ لَكَ فِي الْمُحْوَلِ مَجَابَةٌ  
جَادَتْ بِجَارِي الدَّمْعِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى  
فَاعَادَ وَجْهَ الْأَرْضِ طَلْقًا مَشْرِقًا  
يَا مَنْ مَآثِرُهُ وَفَضْلُ جِهَادِهِ  
حُطَّتْ الْبِلَادُ وَمِنْ حَوْتِهِ ثَغُورُهَا  
فَلَرَبًّا بِكُرِّ الْفَتْوحِ خَطْبَتِهَا  
وَعَقِيلَةَ الْكُفْرِ لَمَّا رُعْتَهَا  
أَذْهَبْتَ مِنْ صَفْحِ الْوُجُودِ كِيَانَهَا  
عَمَرُوا بِهَا جَنَاتِ عَدْنٍ زُخْرِفَتْ  
صَبَّحَتْ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَطْلُولَةٌ  
وَاسْوَدَّ وَجْهُ الْكُفْرِ مِنْ خَزْيٍ مَتَى  
وَلَرَبًّا رَوْضٍ لِقْنَا مَتَاوُدًا  
مَهْمَا حَكَتْ زُهْرُ الْأَسْنَةِ زَهْرَةً  
مَتَوَقَّدُ هُبُّ الْحَدِيدِ بِجَوْهٍ  
فَبِكُلِّ مَلْتَفَتٍ صَقَالٌ مَشْهُرٌ  
فِي كَفِّ أَرْوَعٍ فَوْقَ نَهْدٍ سَابِحٍ  
مِنْ كُلِّ مَنْخَفِرٍ بِلَمْحَةٍ بَارِقٍ  
مِنْ أَشْهَبٍ كَالصَّبْحِ يَطْلُعُ غُرَّةً

يُزْرِي بَغِيثَ الدِّيمَةِ الْمُدْرَارِ  
يَلْقِي الْغَرِيبُ بِهَا عَصَا التَّسْيَارِ  
أَيْدِي النَّوَى فِي الْقَفْرِ رَهْنٌ سَفَارِ  
فَسَلَا عَنْ الْأَوْطَانِ بِالْأَوْطَارِ  
مُتَعَّتَ بِالْحَسَنِ وَعَقْبِي الدَّارِ  
يُضْفِي عَلَيْهَا وَافِي الْأَسْتَارِ  
أَغْرَتْ جَفُونَ الْمُنْزَنِ بِاسْتِعَارِ  
فَرَعَى الرَّبِيعُ لَهَا حَقُوقَ الْجَارِ  
مُتَضَاحِكًا بِمِيسَمِ النَّوَارِ  
تُحْدِي الْقِطَارُ بِهَا إِلَى الْأَقْطَارِ  
وَكَفَى بِسَعْدِكَ حَامِيًا لِدِمَارِ  
بِالْمَشْرِفَةِ وَالْقَنَا الْخَطَّارِ  
أُخْرَسَتْ مِنْ نَاقُوسِهَا الْمَهْدَارِ  
وَمَحَوْتَهَا إِلَّا مِنْ التَّذْكَارِ  
ثُمَّ انْتَهَوْا عَنْهَا دِيَارَ بَوَارِ  
فَأَعْدَتْهَا لِلْحَيْنِ مَوْقِدَ نَارِ  
مَا أَحْمَرَّ وَجْهَ الْأَبْيَضِ الْبِتَّارِ  
نَابَ الصَّهِيلُ بِهِ عَنِ الْأَطْيَارِ  
حَكَتِ السِّيُوفُ مِعَاطِفَ الْأَنْهَارِ  
تَصَلَّى بِهِ الْأَعْدَاءُ لَفْحَ أَوَارِ  
قَدَّاحَ زَنْدٍ لِلْحَفِيفَةِ وَارِي  
مَتَمَوَّجِ الْأَعْطَافِ فِي الْإِحْضَارِ  
حَمَلَ السَّلَاحَ بِهِ عَلَى طَيَّارِ  
فِي مُسْتَهْلٍ الْعَسْكَرِ الْجَرَّارِ

لم يرضَ بالجوزاءِ حَلْيَ عِذارِ  
 وقد ارتنى من بأسه بشرارِ  
 وكساهُ من زهوِ جلالِ نُضارِ  
 غَلَسُ يخالطُ سُدُقَةَ بنهارِ  
 روضُ " تفتحَ عن شقيقِ بهارِ  
 حتى يخالطَ بالدمِ الموارِ  
 غررُ تلوحُ بأوجهِ الأعصارِ  
 بلواءِ خيرِ الخلقِ للكفارِ  
 إذ كان جدك سيدَ الأنصارِ  
 والمصطفونَ لنصرةِ المختارِ  
 سَقَرُوا لَهُ عن أوجهِ الأقمارِ  
 تلقاه معصوباً بتاجِ فخارِ  
 لبسَ المكارمَ وارتدى بوقارِ  
 فهمُ تلافوا أمره بیدارِ  
 نقلَ الرواةُ عواليَ الأخبارِ  
 أودى القصورُ بمئةِ الأشعارِ  
 فخرُوا بطيبِ أرومةِ ونجارِ  
 لما أخذتَ لدينهم بالشارِ  
 ومشرفَ الأعصارِ والأمصارِ  
 ردُّ ناجحِ الإبرادِ والإصدارِ  
 جدلانَ يرفلُ في حلِ استبشارِ  
 حيتك بالأبكارِ من أفكارِ  
 يتعللون به على الأكوارِ  
 منه نسيمُ ثنائكِ المعطارِ

أو أدهمِ كالليلِ إلا أنه  
 أو أحمرِ كالجمرِ يذكي شعله  
 أو أشقرِ حلتى الجمالِ أديمه  
 أو أشعلِ راقِ العيونِ كأنه  
 شُهْبٌ وشُقْرٌ في الطرادِ كأنها  
 عودتها أن ليس تقربُ منها  
 يا أيها الملك الذي أيامه  
 يهتني لواءك أن جدك زاحف  
 لا غرو أن فقت الملوكة سيادة  
 السابقون الأولون إلى الهدى  
 متهللون إذا النزيلُ عراهم  
 من كلِّ وضاحِ الجبين إذا احتجى  
 قد لاث صبحاً فوق بدرٍ بعدما  
 فاسأل بيدرٍ عن مواقفِ بأسهم  
 لهم العوالي عن معالي فخرها  
 وإذا كتابُ الله يتلو حمدهم  
 يا ابنَ الذين إذا تذكروا فخرهم  
 حقاً لقد أوضحت من آثارهم  
 أصبحت وارثَ مجدهم وفخارهم  
 يا صادراً في الفتح عن وردِ المنى  
 واهناً بفتحِ جاء يشتملُ الرضى  
 وإليها ملءُ العيونِ وسامة  
 تجرى حداةُ العيس طيبَ حديثها  
 إن مسهمُ لفتحُ الهجيرِ أبلهم

وتُصمِلُ من أضغى لها فكأنتي عاطيته منها كؤوسٍ عَقَارِ  
 قذفتُ بجورُ الفكرِ منها جوهرًا لَمَّا وصفتُ أناملًا ببحارِ  
 لا زلتُ للإسلامِ سترًا كلما أمَّ الحجيجُ البيتَ ذا الأستارِ  
 وبقيتُ يا بدر الهدى تجري بما شاءتُ عَلاكِ سوابقِ الأقدارِ  
 انتهت .

ولابن زَمْرَك السابق قصيدة أخرى قالها بعد موت لسان الدين ابن الخطيب  
 وخلع السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم الذي قتل ابن الخطيب في دولته ،  
 وكان سلطان الأندلس مؤثلاً للسلطان أحمد المذكور ، ولذلك امتعض لرده  
 للملكه ، فقال ابن زَمْرَك وزير صاحب الأندلس بعد ابن الخطيب هذه القصيدة  
 يمدح بها سلطانه أثناء وجهته لتجديد الدولة الأحمدية المذكورة صدرَ عام تسعة  
 وثمانين وسبعمائة ١ :

هَبَّ النسيمُ على الرياضِ مع السَّحَرِ فاستيقظتُ في الدَّوْحِ أجفانُ الزَّهَرِ  
 ورمى القضيْبُ دراهمًا من نوره فاعتاضَ من طَلِّ الغمامِ بها دُرَّرَ  
 نثر الأزهَرَ بعدما نَظَمَ الندى يا حُسْنِ ما نَظَمَ النسيمُ وما نثرُ  
 قمِّ هاتها والجوِّ أزهَرَ باسمُ شمسًا تحلُّ من الرِّجاجةِ في قمرِ  
 إن شَجَّها بالماءِ كفُّ مديرها ترميه من شُهْبِ الحبابِ بها شررُ  
 نارِيَّةٌ نورِيَّةٌ من ضوئها يقدُّ السراجُ لنا إذا الليلُ اعتكُرُ  
 لم يُبْقِ منها الدهرُ إلا صبغة قد أرعشتُ في الكأسِ من ضعف الكبرِ  
 من عهدِ كسرى لم يُفَضَّ ختامُها إذ كان يدخِرُ كثرها فيما دخِرُ  
 كانت مُدَابَ التبرِ فيما قد مضى فأحالها ذوبَ اللجينِ لمن نظرُ  
 جدَّدَ بها عرسَ الصَّبوحِ فإنها بكرُ تحيها الكرامُ مع البُكرِ

١ انظر أزهار الرياض ٢ : ٣٥ - ٣٨ .

٢ ق ص : يقدح ، واقراً : قدح .

وابلّلُ بها رمتَ الأصيلَ عشيّةً  
محمرّةً مصفرةً قد أظهرت  
من كفّ شفافٍ تجسّدَ نوره  
تهوى البدورُ كماله وتودُّ أن  
قد خطّ نونَ عذاره في خده  
والى عليك بها الكؤوسُ ، وربما  
سُكّرُ الندامى من يديه ولحظه  
حيثُ الهديلُ مع الهديرِ تناغياً  
والقضبُ مالتُ للعناقِ كأنّها  
متلاعباتٌ في الحليّ يتوبُّ في  
والرجسُ المطلولُ يرنو نحوها  
والنهرُ مصقولُ الحسام متى يردُّ  
يجري على الحصباءِ وهى جواهر  
هل هذه أم روضةُ البشرى التي  
لم أدرِ من شغفٍ بها وبهذه  
جاءت بها الأجنانُ ملء ضلوعها  
ومسافرٍ في البحرِ ملء عتانهِ  
قادته نحوك بالخطامِ كأنّه  
وأراه دينُ الله عزّةً أهله  
يا فخرَ أندلسٍ وعصمةَ أهلها  
كم معضلٍ من دائها عاجلته  
ماذا عسى يصف البليغُ خليفةً

والشمسُ من وعدِ الغروبِ على خطرٍ  
خجلَ المريبِ يشوبه وجلُّ الحذرِ  
من جوهرٍ لألاءِ بهجتهِ بهرٍ  
لو أوتيتُ منه المحاسنَ والغررُ  
قلمان من آسٍ هناك ومن شعَرَ  
يسقيك من كأسِ الفتورِ إذا فترُ  
متعاقبٌ مهما سقى وإذا نظرُ  
فالطيرُ تنشداً في الغصونِ بلا وترُ  
وفدُ الأحبّةِ قادمين من السفرِ  
وجناتهنّ الورْدُ حسناً عن خفرِ  
بلواحظِ دمعُ الندى منها أنهرُ  
درعُ الغديرِ مصفّقاً فيه صدرُ  
متكسراً من فوقها مهما عثرُ  
فيها لأربابِ البصائرِ مُعْتَبَرُ  
مَنْ منهما فتنَ القلوبِ ومن سحرَ  
ملء الخواطرِ والمسامعِ والبصرِ  
وافى مع الفتحِ المبينِ على قدرِ  
جَمَلٍ يُساقُ إلى القيادِ وقد نفرُ  
بك يا أعفَّ القادرين إذا قدرُ  
للناسِ سرٌّ في اختصاصك قد ظهرُ  
فشفيتَ منه بالبيدارِ وبالبيدرِ  
والله ما أيامه إلا غررُ

وَرُثْتَ هَذَا الْفَخْرَ يَا مَلِكَ الْهَدْيِ  
 مِنْ شَاءَ يَعْرِفُ فَخْرَهُمْ وَكُلَّهُمْ  
 أَبْنَاؤُهُمْ أَبْنَاءُ نَصْرٍ بَعْدَهُمْ  
 مَوْلَايَ سَعْدُكَ وَالصَّبَاحُ تَشَابَهَا  
 هَذَا وَزَيْرُ الْغَرْبِ عَبْدُ أَبِي  
 كَفَّرَ الَّذِي أَوْلَيْتَهُ مِنْ نِعْمَةٍ  
 إِنْ لَمْ يَمْتِ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْظِهِ  
 رَكِبَ الْفِرَارَ مَطِيَّةً يَنْجُو بِهَا  
 وَكَذَا أَبُوهُ وَكَانَ مِنْ حِمَامِهِ  
 بَلْغَتِهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ شَاهِدُ  
 حَتَّى إِذَا جَحَدَ الَّذِي أَوْلَيْتَهُ  
 فِي حَالِهِ وَاللَّهُ أَعْظَمُ عِبْرَةٍ  
 فَاصْبِرْ تَنْلُ أَمْثَالَهَا فِي مِثْلِهِ  
 رِدْ حَيْثُ شِئْتَ مَسْوَعًا وَرِدَّ الْمَنَى  
 لَا زَلَّ مَحْرُوسًا بَعِينَ كَلَاءَةٍ

ومنها وقد أضاف إليه من التغزل طوع بداره ، وحجة اقتداره ، فقال :

وَالْعُودُ فِي كَفِّ النَّدِيمِ بِسِيرٍ مَا  
 غَنَى عَلَيْهِ الطَّيْرُ وَهُوَ بَدْوْحُهُ  
 عُودٌ ثَوَى حِجْرَ الْقَضِيبِ ، رَعَى لَهُ  
 لَا سِيَّمَا لَمَّا رَأَى مِنْ ثَغْرِهِ  
 وَيُظَنُّ أَنْ عِدَارَهُ مِنْ آسِهِ  
 يَسْبِي الْقُلُوبَ بَلْفُظِهِ وَبِلِحْظِهِ  
 قَدْ قَبِدْتَهُ لِأَنْسَانَا أُوْتَارِهِ  
 تَلْقَى لَنَا مِنْهُ الْأَنَامُ لُ قَدْ جَهَرَ  
 وَالْآنَ غَنَى فَوْقَهُ ظِيٌّ أُغْرَ  
 أَيَّامَ كَانَا فِي الرِّيَاضِ مَعَ الشَّجَرِ  
 زَهْرًا ، وَأَيْنَ الزُّهْرُ مِنْ تِلْكَ الدَّرْرِ  
 وَيُظَنُّ تَفَاحَ الْخُدُودِ مِنَ الثَّمْرِ  
 وَأَفْتِنَسِي بَيْنَ التَّكْلَمِ وَالنَّظْرِ  
 كَالظِّي قُبْدَ فِي الْكِنَاسِ إِذَا نَفَرَ

لم يُبَلِّ قلبِي قبلَ سَمعِ غنائه  
 جسَّ القلوبَ بجسِّه أوتارهُ  
 نمتَ لنا ألحانهُ بجميعِ ما  
 يا صامتاً والعودُ تحتِ بنانه  
 أغنى غناؤك عن مُدامك ، يا ترى  
 باحتَ أناملك اللدانُ بكلِّ ما  
 ومُقاتلٍ ما سلَّ غيرَ لحاظه  
 دانَتْ له منّا القلوبُ بطاعةٍ  
 بمعدّرٍ سلبَ العقولَ وما اعتذرُ  
 حتّى كأنَّ قلوبنا بين الوترِ  
 قد أودعتْ فيه القلوب من الفكرِ  
 يغنيك نطقُ الخُبْرِ فيه عن الخبرِ  
 هل من لحاظك أم بنانك ذا السكّرِ  
 كان المتيمُّ في هواه قد سترِ  
 والرمحَ هزَّ من القوام إذا خطرِ  
 والسيفُ يملكُ ربّه مهما قهرِ

وستُسلم إن شاء الله تعالى بترجمة ابن زمرّك هذا في باب التلامذة ، ونشير  
 هناك إلى كثير من أحواله ، وكيفية قتله مع أولاده وخدمه بمراى ومسمع من  
 أهله ، فكان الجزء من جنس العمل ، وخاب منه الأمل ، إذ لسان الدين قُتل  
 غيلةً بليل غاستق ، على يد مختلس في السجن فاستق ، وأمّا ابن زمرّك فقتل  
 بالسيف جهاراً ، وتناوشته سيوف مخدومه بين بناته إبداء للتشفي وإظهاراً ،  
 وقتل معه من وجد من خدمه وآبانه ، وأبعده الدهر وطالما أدناه . وهكذا الحال  
 في خُدّام الدول وذوي الملك ، أنهم أقرب شيء من الهلّك ، ويرحم الله من  
 قال : إياك وخدمة الملوك فإنّهم يستقلون في العقاب ضرب الرقاب ، ويستكثرون  
 في الثواب ردّ الجواب ؛ انتهى .

رجع إلى ما كتنا فيه من أحوال لسان الدين ابن الخطيب : وكان رحمه الله تعالى  
 قبيل موته - لما توفّي السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني  
 بتلمسان وتغلّب على الأمر الوزير أبو بكر ابن غازي بن الكاس مبيعاً لابن صغير  
 السن من أولاد السلطان عبد العزيز - ألف كتابه المسمى بـ « أعمال الأعلام بمن  
 بويغ من ملوك الإسلام قبل الاحتلام » ومرادُه بذلك تثبيت دولة الوزير الذي  
 أبى أن يخفّر عهده وذمته ، وامتنع أن يمكّن منه أهل الأندلس ، فأكثروا



القائلة في الوزير بسبب مبايعته للصبي ، وبنوا ظاهر الأمر على أن ذلك لا يجوز بالشرع ، وأبدأوا وأعادوا في ذلك ، وأسروا ما كان من أمرهم حسواً في ارتغاء . ومن جملة كلام لسان الدين ابن الخطيب في ذلك الكتاب قوله : فمتى نبسّ أهل الأندلس بإنكار بيعة صبي صغير ، أو نيابة صاحب أو وزير ، فقد عمّوا وصمّوا ، وخطروا بربع الإنصاف فأعرضوا وما ألبوا ، وبما سنوه لغيرهم ذموا ؛ انتهى .

وكان رحمه الله تعالى أَلَّفَ للسلطان عبد العزيز حين انخيازه إليه « المباخر الطيبة في المفاخر الخطيبية » : يذكر فيه نباهة سلفه ، وما لهم من المجد ، وقصده الردُّ على أهل الأندلس المجاهرين له بالعداوة ، القادحين في فخر سلفه . ثم أَلَّفَ للسلطان المذكور كتاب « خلع الرسن في التعريف بأحوال ابن الحسن » لكونه تولّى كبر الحط منه ، والسعي في هلاكه كما مر ، وقال في حق هذا الكتاب : إنّه لا شيء فوقه في الظرف والاستطراف ، يُسْئَلِي الثكالي ، ونستغفر الله تعالى ؛ انتهى .

ومع هذا كلّه لما أنشبت المنية أظفارها لم تنفعه ممّا كتب تيممة ، ونال ما أمّلَ فيه أهل السعاية والنميمة ، وسجلوا عليه المقالات الذميمة ، وقد صار الجميع إلى حكم عدل قادر يجيي من العظم رميمه ، وينصف المظلوم من الظالم ، ويجازي الجاهل والعالم ، ويساوي بين المأمور والآمر ، والشريف والمشروف ، والعزير والحقير والمنكر والمعروف ، وعفوه سبحانه مؤمل بعد ، وهو لا يخلف الوعد ، ومن سبقت له العناية ، لم تضره الجناية .

وقد كان لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - محبباً في العفو حتى إنّه كان إذا جرى لديه ذكر عقوبة الملوك لأتباعهم تشمئز نفسه من ذلك ويقول ما معناه : ما ضرهم لو عفوا ! ورأيت له - رحمه الله تعالى - في بعض مؤلفاته وقد أجرى ذكر استعطاف ذي الوزارتين أبي بكر ابن عمّار للسلطان المعتمد بن عباد حين قبض عليه بقوله :

سجايالك إن عاقبت أندى وأسمحُ  
 وإن كانَ بينَ الخطتين مزيةً  
 وماذا عسى الأعداء أن يتزبدوا  
 وإنَّ رجائي أنَّ عندك غيرَ ما  
 أقلنتي بما بيني وبينك من رضى  
 ولا تلتفتُ قولَ الوشاةِ وزورهم  
 وقالوا : سيجزيه فلانُ بذنبه  
 ألا إنَّ بطشاً للمؤيدِ يرتمي  
 وبينَ ضلوعي من هواه تيممةً  
 سلامٌ عليه كيفَ دار به الهوى  
 وبينه إن رمتُ السلوَّ فإنتسي  
 وعذركَ إن عاقبتَ أولى وأوضحُ  
 فأنت من الأذنى إلى الله أجنح  
 سوى أن ذنبي ثابتٌ ومصححُ  
 يخوضُ عدوي اليومَ فيه ويمرح  
 له نحوَ رَوْحِ الله بابٌ مفتَحُ  
 فكلُّ إناءٍ بالذي فيه يرشح  
 فقلتُ : وقد يغفو فلان ويصفح  
 ولكنَّ حلماً للمؤيدِ يرجح  
 ستشفعُ لو أن الحمامَ يجلحُ  
 إليَّ فيدنو أو عليَّ فيترح  
 أموتُ ولي شوقٌ إليه مبرحُ

ما نصّه : ولا بن عمار كلمات شهيرة تُعالجُ بمراهمها جراحُ القلوب ،  
 وتعفّي على هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب والأجل  
 المحسوب ؛ إلى أن قال : وما كان أجمل بالمعتمد أن يُبقي على جانٍ من عبيده ،  
 قد مكنه الله من عُنقه ، لا يؤمل الحصول على أمره ، ولا يحذر تعصب قبيله ،  
 ولا يزيده العفو عنه إلا ترفعاً وعزّةً وجلالةً وهمةً وذكرًا جميلاً وأجرًا جزيلاً ،  
 فلا شيء أحمى للسيئة من الحسنه ، ولا أقتل للشر من الخير ، ورحم الله الشاعر إذ  
 يقول :

وطعتهمُ بالمكرماتِ وباللها في حيث لو طعنَ القنا لتكسرا

وقد تذكرت هنا قول الأديب أبي عبد الله محمد بن أحمد التجاني رحمه الله  
 تعالى ورضي عنه :

أتعجبُ أن حطتْ يدُ الدهرِ فاضلاً عن الرتبةِ العليا فأصبحَ تحتها

أما هذه الأشجارُ تحملُ أكلها وتُسقطُ منه كلَّ ما طاب وانتهى

[ نكبة أبي جعفر ابن عطية ]

وحكى غير واحد من مؤرخي الأندلس أن الكاتب الشهير الوزير أبا جعفر ابن عطية القُضاعي<sup>١</sup> لما تغير له عبدُ المؤمن وتذاكر مع بعض من أهل العلم أبيات ابن عمار السابقة، قال: ما كان المعتمد إلا قاسي القلب حيث لم تعطفه هذه الأبيات إلى العفو، ووقع لابن عطية المذكور مثل قضية ابن عمار، واستعطف فما نفع ذلك وقتل رحمه الله تعالى، ولنلمَّ بذلك فنقول:

كان أبو جعفر هذا من أهل مراکش، وأصله القديم من طرطوشة، ثم بعد من دانية، وهو ممن كتب عن علي بن يوسف بن تاشفين أمير لمتونة، وعن ابنه تاشفين وإسحاق، ثم استخلصه لنفسه سالبُ ملكهم عبدُ المؤمن بن علي، وأسند إليه وزارته، فنهض بأعبائها، وتجب إلى الناس بإجمال السعي والإحسان فعمت صنائعه، وفشا معروفه، وكان محمودَ السيرة، مبختَ المحاولات، ناجحَ المساعي، سعيدَ المآخذ، ميسرَ المآرب، وكانت وزارته زينةً للوقت، وكمالاً للدولة، وفي أيام توجهه للأندلس وجد حسادُه السبيلَ إلى التدبير عليه والسعي به، حتى أوغروا صدر الخليفة عبد المؤمن عليه، فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي، وانبرى لمطالبة ابن عطية، وجدَّ في التماس عوراته، وتشنيع سقَطاته، وطُرحت بمجلس السلطان أبيات منها:

قُلْ للإمامِ أطلَّ اللهُ مُدَّتَهُ قَوْلًا تَبِينُ لذي لُبِّ حَقَائِقُهُ  
إن الزراجين<sup>٢</sup> قومٌ قد وترتهمُ وطالبُ الثأر لم تؤمن بوائِقُهُ

١ انظر الخبر عن أبي جعفر ابن عطية في المعجب: ٢٦٧ والإحاطة ١: ١٣٢ (ط. السلفية) وقد نقل المقرئ ما جاء في المصدر الثاني، حتى آخر رسالة ابن عطية؛ وإعتاب الكتاب: ٢٢٥.  
٢ الزراجين: لقب أطلقه الموحدون على الملثمين تشبيهاً لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش يقال له الزرجان (نظم الجمان: ٨٥).

وللسوزير إلى آرائهم ميلٌ لذاك ما كثرت فيهم علائقه  
 فبادر الحزم في إطفاء نارهم فربما عاقَ عن أمرٍ عوائقه  
 هم العدوُّ ومنَ والاهمُ كههم فاحذرْ عدوك واحذر منَ يصادقه  
 الله يعلمُ أني ناصحٌ لكم والحقُّ أبلغُ لا تخفى طرائقه

قالوا : ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغير صدره على وزيره أبي جعفر ، وأسرَّ له في نفسه تغييراً ، فكان من أقوى أسباب نكبته .  
 وقيل : أفضى إليه بسر فأفشاه ، وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فقَلِقَ وعَجَّلَ الانصراف إلى مراکش ، فحُجِبَ عند قدمه ، ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسِرَ العمامة ، واستحضر الناسُ على طبقاتهم ، وقُرروا على ما يعلمون من أمره ، وما صار إليه منهم ، فأجاب كل بما اقتضاه هواه ، وأمر بسجنه ، ولف معه أخوه أبو عقيل عطية ، وتوجه في إثر ذلك عبد المؤمن إلى زيارة تربة المهدي محمد بن تُوَمَرْت ، فاستصحبهما منكوبين بحال ثقاف .  
 وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطائف الأدب نظماً ونثراً في سبيل التوسل بتربة إمامهم المهدي عجائب لم تُجدِ شيئاً مع نفوذ قدر الله تعالى فيه .  
 ولما انصرف من وجهته أعادها معه قافلاً إلى مراکش ، فلما حاذى تاقمرت أنفذ الأمر بقتلها بالشَّعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحظة هنالك ، فمضيا لسبيلهما ، رحمهما الله تعالى .

ومما خاطب به الخليفةَ عبد المؤمن مستعظماً له من رسالةٍ تغالَى فيه فعالته المنية ، ولم ينل الأمنية ، وهذه سنَّة الله تعالى فيمن لم يحترم جناب الألوهية ، ولم يحرس لسانه من الوقوع فيما يחדش في وجه فضل الأنبياء على غيرهم وعصمتهم ، قوله ساعه الله :

« تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن في الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت : إن الله تعالى

لم يوح ، في الفلک لنوح ، وبريتُ لِقَدَارِ ثمودٍ نَبلاً ، وأبرمت لحطب نار الخليل حَبلاً ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين ، وقبضت قَبْضَةً من أثر الرسول فنبذتها ، وافترتُ على العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدَارِ النَّدْوَةِ ، وظهرت الأحزاب بالقُصُوى من العُدُوَّةِ ، ودممت كل قرشي ، وأكرمت لأجل وَحْشِي كلَّ حبشي ، وقلت : إن بيعة السقيفة ، لا توجب إمامة خليفة ، وشحذت شَفْرَةَ غلام المغيرة بن شُعْبَةَ ، واعتلقت من حِصَارِ الدار وقتلت أشمطها بشعبة ، وقلت : تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر ، وغادرت الوجّه من الهامة خَضِيماً ، وناولتُ من قَرَعِ سنِّ الحُسَيْنِ قَضِيماً ، ثم أتيت حضرة المعلوم لائثاً ، ونقبّر الإمام المهدي عائداً ، لقد آن لمقاتلي أن تُسْمِعَ ، وتُغْفِرَ لي هذه الخطيئات أجمع ، مع أنني مقترف ، وبالذنب معترف .

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بَرْدٌ قُلُوبٍ هَدَّهَا الْحَقِّقَانُ »

وكتب مع ابن له صغير آخرة :

عطفاً علينا أمير المؤمنين ، فقد  
قد أغرقتنا ذنوبٌ كلُّها بلججٌ  
وصادفتنا سهامٌ كلُّها غرّضٌ  
هيئات للخطبِ أن تسطو حوادثه  
من جاء عندكم يسعى على ثقةٍ  
فالثوبُ يطهر عند الغسلِ من دَرَنِ  
أنتم بذلتُم حياةَ الخلقِ كلهم  
ونحن من بعضٍ من أحيتُم مكارمكم  
وصبيّةٍ كفراخِ الوُرُقِ من صغيرٍ

بانَ العزَاءِ لِفَرَطِ البَثِّ والحَزَنِ  
وعطفةٌ منكمُ أنجى من السفنِ  
ورحمةٌ منكمُ أوقى من الجُنَنِ  
بمن أجارتهُ رحماكمُ من المحنِ  
بنصره لم يَخَفْ بطشاً من الزمنِ  
والطَّرْفُ ينهضُ بعد الركضِ في سَنَنِ  
من دونِ مَنْ عليهمُ لا ولا ثمنِ  
كلتا الحياتينِ من نفسٍ ومن بدنِ  
لم يَألفوا النوحَ في فرَعِ ولا فننِ

قد أوجدتهم أبادٍ منكَ سابقةٌ والكلُّ لولاك لم يوجدَ ولم يكنِ  
فوقعَ عبد المؤمن على هذه القصيدة ﴿الآنَ وقدَ عصبتَ قبيلُ وكنتَ  
مِنَ المُفسدين﴾ (يونس : ٩١) .  
ومما كتب به من السجن :

أنوحُ على نفسي أمَ أنتظِرُ الصفا  
فقد آن أن تُنسى الذنوب وأن تمحى  
فها أنا في ليلٍ من السخطِ حائرٌ ولا أهتدي حتى أرى للرضى صباحا  
وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجو ابن عطية ، فلما أسمعوه ما قالوا ،  
أعرض عنهم ، وقال : ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه .  
وكان لأبي جعفر أخ اسمه عطية قُتل معه ، ولعطية هذا ابن أديب كاتب ،  
وهو أبو طالب عقيل بن عطية ، ومن نظمه في رجل تعشق قبيته كانت ورثت  
من مولاها مالا فكانت تنفق عليه منه ، فلما فرغ المال ملها :

لا تَلحهُ أن ملَّ من جيبها فلم يكن ذلك من ودِّ  
لما رآها قد صفا مالها قال : صفا الوجدُ مع الوجدِ

وكان أبو جعفر ابن عطية من أبلغ أهل زمانه ، وقد حكى أنه مرَّ مع الخليفة  
عبد المؤمن ببعض طرق مراکش ، فأطلت من شباكٍ جاريةٌ بارعة الجمال  
فقال عبد المؤمن :

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال الوزير ابن عطية مجيزاً له :

حوراء تَرنُّو إلى العشاقِ بالمقلِ

فقال عبد المؤمن :

كأنما لحظها في قلب عاشقها

فقال ابن عطية :

سيفُ المؤيدِ عبدِ المؤمنِ بنِ علي

ولا خفاء أن هذه طبقة عالية .

ومن فصول رسالته التي كتب بها عن أبي حَقْص ، وهي التي أورثته الرتبة العلية السنية ، والوزارة الموحّدية المؤمنية ، قوله <sup>١</sup> :

« كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصر الله تعالى المعهود المعلوم ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦) فتحُ بهرّ الأنوار إشراقاً ، وأحدقَ بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى النائمة جُفُوناً وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الألسن لكنه وصفيه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع أشنات الطلب والأرب ، وتقلب في النعم أكرم مُنقلب ، وملاً دلاء الأمل إلى عقن الكرب :

فتحُ تفتحُ أبوابُ السماء لهُ وتبرز الأرض في أثوابها القشْبُ

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة ، كان أولئك الضالون المرتدون قد بطروا عدواناً وظلماً ، واقتطعوا الكفر معنّى واسماً ، وأملى لهم الله تعالى ليزدادوا إثماً ، وكان مقدّمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته ، واستهوى القلوب بمهولاته ، ونصب له الشيطان من حبالاته ، فأتتهُ المخاطبات من بُعد وكثب ، ونسلت إليه الرسلُ من كل حدب ، واعتقدته الخواطر أعجب عجب ، وكان الذي قادهم إلى ذلك ، وأوردهم تلك المهالك ، وُصولُ من كان بتلك السواحل ممّن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام ، آناء الليالي والأيام ، لبسوا التاموس أثواباً ، وتدّرّعوا الرياء جلباباً ، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق باباً .»

١ انظرهما أيضاً في إعتاب الكتاب : ٢٢٧ .

ومنها في ذكر صاحبهم الماسي<sup>١</sup> المدعي للهداية : « فصُرِعَ بحمد الله تعالى لحينه ، وبادرت إليه بوادرُ مَنُونِه ، وأتته وأفادتُ الخطيئاتُ عن يساره ويمينه ، وقد كان يدعي أنه بُشِّرَ بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه ، والنوائب لا تنوبه ، ويقول في سواه قولاً كثيراً ، ويختلق على الله تعالى إفكاً وزوراً ، فلما رأوا هيئة اضطجاعه ، وما خطته الأسنة في أعضائه وأضلاعه ، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه ، هُزِمَ من كان لهم من الأحزاب ، وتساقطوا على وجوههم تساقطَ الذباب ، وأعطوا عن بكرة أبيهم صَفَحَاتِ الرقاب ، ولم تقطر كلومهم إلاّ على الأعقاب ، فامتألت تلك الجهات بأجسادهم ، وأذنت الآجال بانقراض آمادهم ، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم ، فلم يعاين منهم إلاّ من خرّ صريعاً ، وسقى الأرض نجيعاً ، ولقي من أمر الهنديات فظيلاً ، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي ؛ فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما يُنَجِّيه ، اختطفته الأسنة اختطافاً ، وأذاقته موتاً ذُعاًفاً ، ومن لجج في الترامي على لُججِه ، ورام البقاء في ثبَجِه ، قضى عليه شَرَقُه ، وألوى بذقنه غَرَقُه ، ودخل الموحدون إلى البقية الكائنة فيه يتناولون قتالهم طعناً وضرباً ، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولاً عظيماً وكرباً ، حتى انبسطت مراقات الدماء ، على صفحات الماء ، وحكت حمرتها على زرقته حمرة الشفق على زرقة السماء ، وجرت العبرة للمعتبر ، في جري ذلك الدم جري الأبحر » .

وبالجملة فالرجل كان نسيجَ وَحْدِه رَحِمِه الله تعالى وسامحه ، وقضية لسان الدين تشبه قضيته ، وكلاهما قد ذاق من الذل بعد العزْ غُصَّتِه ، وبدل الدهر نصيبه من الوزارة وحصته ، بعد أن اقتعد ذرّوة الأمر ومِنَصَّتِه ، رحم الله تعالى الجميع ، إنّه مجيب سميع .

١ هذا النائر هو محمد بن عبد الله بن هود ، تلقب بالهادي ، وظهر في رباط ماسة بمنطقة السوس ، وكثر أتباعه ، حتى قضى عليه أبو حفص عمر إيتي سنة ٥٤١ .



## اباب الثالث

في ذكر مشايخه الجليّة ، هداة الناس ونجوم الملة ، وما يتعلق بذلك من الأخبار الشافية من العلة ، والمواظب المنجية من الأهواء المضلة ، والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة .

أقول : لا خفاء أن الشيخ لسان الدين رحمه الله تعالى أخذ عن جماعة من أهل العلوة والأندلس عدة فنون ، وحدث عنهم بما يصدق الأقوال ويحقق الظنون .

١ - فمن أشياخه رحمه الله تعالى الفقيه الجليل الشريف النبيه الشهير ، رئيس العلوم اللسانية بالأندلس ، قاضي الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني السبتي<sup>١</sup> ، رحمه الله تعالى ؛ كان هذا الشريف آية الله الباهرة في العربية والبيان والأدب ، ويكفيه فضلاً أنه شرح الخزرجية<sup>٢</sup> ، وافترع هضاب مشكلاتها بفهمه ، من غير أن يسبقه أحد إلى استخراج كنوزها ، وإيضاح رموزها ، وشرح مقصورة أديب المغرب الإمام أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجني الأندلسي التي مدح بها أمير المؤمنين المستنصر بالله أبا عبد الله محمداً الحفصي ، وسمى هذا الشرح بـ « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » ، وهذا

١ ترجمة الشريف السبتي (الشهير بالفرناطي) في الإحاطة ٢ : ١٢٩ ومقدمة رفع الحجب المستورة ، والديباج : ٢٩٠ والمرقبة العليا : ١٧١ .

٢ الخزرجية قصيدة للخزرجي في العروض ، وشرح الشريف عليها يسمى « رياضة الأبى في شرح قصيدة الخزرجي » .

الشرح في مجلدين كبيرين ، وفيه من الفوائد ما لا مزيد عليه ، رأيته بالمغرب ، واستفدت منه كثيراً .

ومن فوائد الشريف المذكور أنه قال فيما جاء من الحديث في صفة وضوء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « فأقبل بهما وأدبر » : إن أحسن الوجوه في تأويله أن يكون قدّم الإقبال تفاعلاً ، ثم فسر بعد ذلك على معنى أدبر وأقبل ، قال : والعرب تقدم في كلامها ألفاظاً على ألفاظ أخرى ، وتلتزمه في بعض المواضع كقولهم : قام وقعد ، ولا تقول : قعد وقام ، وكذلك أكل وشرب ، ودخل وخرج ، وعلى هذا النمط كلام العرب ، فتكون هذه المسألة من هذا ، قال : ويؤيد ما قلناه - وهو موضع النكتة - تفسيره لأقبل وأدبر في باقي الحديث على معنى أدبر ثم أقبل ، ولو كان اللفظ على ظاهره لم يحتاج إلى تفسير ؛ انتهى .  
وحدث رحمه الله تعالى عن جده لأمه قال : كنت بالمشرق ، فدخلت على بعض القرائين ، فألفيت الطلبة يعربون عليه قول امرئ القيس<sup>١</sup> :

كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَدَقِّهِ كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مَزْمَلٍ<sup>٢</sup>

فأنشد ولا أدري هل هي له أو لغيره :

إِذَا مَا اللَّيَالِي جَاوَرَتْكَ بِسَاقِطٍ وَقَدْرُكَ مَرْفُوعٌ فَعَنَّهُ تَرَحَّلِ  
أَلَمْ تَرَ مَا لَاقَاهُ فِي جَنْبِ جَارِهِ « كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مَزْمَلٍ »

وكان بعض الناس ينشد في هذا المقصد قول الآخر :

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ ، فَمَنْ غَدَا مِضَافًا لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا

١ ديوان امرئ القيس : ٢٥ .

٢ شبه الجبل « أباناً » بالرجل الكبير المزمل في بجاد ؛ والبجاد : كساء مخطط ، وقيل في مزمل إنها مخفوضة على الجوار وحتمها الرفع ولذلك قال في البيت التالي « ألم تر ما لاقاه في جنب جاره » .

ولياك أن ترضى بصحبة ساقط  
فتمنحني قدراً من علاك وتحقرا  
فرفع أبو من ثم خفض زملاً  
وبين قولي مغرباً ومحدراً  
وهذا معنى قول الشاعر :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم  
ولا تصحب الأردى فردى مع الردي  
وما أحسن قول أبي بحر صفوان بن إدريس المرسي رحمه الله تعالى :

إننا إلى الله من أناس  
قد خلعوا لبسة الوقار  
جاورتهم فانخفضت هوناً  
يارب خفض على الجوار

ومن نظم الشريف رحمه الله تعالى :

وأحورَ زان خدييه عذار  
سبي الألباب منظره العجائب  
أقول لهم وقد عابوا غرامي  
به إذ لاح للدمع انسكاب  
أبعد كتاب عارضه يرجى  
خلاص لي وقد سبق الكتاب

ومن الغريب في توارد الخواطر ما وجد بخط الأديب البارع المحدث  
الكاتب أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الكبير أبي القاسم ابن جزى الكلبي رحمهما  
الله تعالى - وسأتيان - ما معناه : قلت هذه القطعة :

ومعسول اللمى عادت عذاباً  
على قلبي ثناياه العذاب  
وقد كتب العذار بوجنتيه  
كتاباً حظ قارئه اكتئاب  
وقالوا لو سلوت فقلت خيراً  
وأنتى لي وقد سبق الكتاب ؟

ثم عرضتها على شيخنا القاضي أبي القاسم الشريف بعد نظمها بمدة يسيرة  
فقال لي : قد نظمت هذا المعنى بالعروض والقافية في هذه الأيام اليسيرة ، وأنشدني :

وأحورَ زان خدييه عذار

الآيات السابقة .

وهذا يقع كثيراً ، ومنه ما وقع لابن الرقام حيث قال : من شعر عمي قوله :

جُلُّ في البلادِ تَلُّ عَزَّاً وتكرمةٌ في أي أرضٍ فكنْ تَبْلُغُ منكِ بها  
جُلُّ الفوائدِ بالأسفارِ مَكْتَسَبٌ والله قد قال ﴿فامشوا في مناكبها﴾

فقال له الفقيه ابن حنبل : مثل هذا وقع لأبي حيان إذ قال :

يا نفسُ ما لكِ تهوينِ الإقامةَ في أرضٍ تعذَّرَ كلُّ من منكِ بها  
أما تلوتِ وعَجَزُ المرءِ منقصةٌ في محكمِ الوحي ﴿فامشوا في مناكبها﴾

فحصل العجب من هذا الاتفاق الغريب .

ونقلتُ ممَّن نقل من خط الفقيه محمد بن علي بن الصباغ العقيلي ما صورته :  
كان الشريف الغرناطي - رحمه الله تعالى - آية زمانه ، وأزمنة البيان طوع  
بنانه ، له شرح المقصورة القرطاجنية أغرب ما تتحلَّى به الآذان ، وأبدع ما  
ينشرح له الجنان ، إلى العقل الذي لا يدرك ، والفضل الذي حُمد منه المسلمك .  
حدثني بنادرة جرت بينه وبين مولاي الوالد من أثق به من طلبة الأندلس وأعلامها  
قال : دخل والدك يوماً لأداء الشهادة عنده ، فوجد بين يديه جماعة من الغزاة  
يؤدون شهادة ، فسمع القاضي منهم ، وقال لهم : هل ثمَّ من يعرفكم ؟ فقالوا :  
نعم ، يعرفنا علي الصباغ ، فقال القاضي : أتعرفهم يا أبا الحسن ؟ فقال له : نعم  
يا سيدي ، معرفة محمد بن يزيد ، فما أنكرك عليه شيئاً بل قال لهم : عرف الفقيه  
أبو الحسن ما عنده ، فانظروا من يعرف معه رسم حالكم ، فانصرفوا راضين ،  
ولم يرتهم والذي في شيء من حالهم ، ولا كشف القاضي لهم ستر القضية .  
قال محمد بن علي بن الصباغ : أما قول والذي « معرفة محمد بن يزيد » فإشارة  
إلى قول الشاعر<sup>١</sup> :

١ انظر نور القبس : ٣٣١ حيث يقال إن البيتين لعبد الصمد بن المعذل في هجاء المبرد ، وقيل بل  
هما للمبرد نفسه ، أراد أن يثبت لنفسه نسباً .

أسائلُ عنْ ثَمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ فَكَلْتَهُمْ يَقُولُ وَمَا ثَمَالُهُ  
فَقُلْتُ : مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنْهُمْ فَقَالُوا : الْآنَ زِدْتَ بِهِمْ جِهَالَهُ

فتفتن القاضي رحمه الله تعالى لجودة ذكائه إلى أنه لم يرتن في شيء من معرفتهم ، ممتنعاً من إظهار ذلك بلفظه الصريح ، فكنى واكتفى بذكاء القاضي الصحيح ، رحمهما الله تعالى ؛ انتهى .

ومن فوائد الشريف ما حكاه عنه تلميذه الإمام النظّار أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله تعالى ، ونصه : قال لي الشيخ القاضي الكبير الشهير أبو القاسم الحسيني يوماً وقد جرى ذكر « حتى » التي للابتداء ، وأن معناها التي يقع بعدها الكلام سواء كان ذلك متعلقاً بما قبلها لم يتم دونه أو لا ، بل لا يكون الأمر إلا كذلك ، قال : وقد حدثني بعض الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشفاع رمضان ، فقرأ من سورة الكهف إلى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اتَّبِعْ سَبِيلَ ﴾ (الكهف : ٨٩) فوقف هنالك ، وركع وسجد ، قال : فظننت أنه نسي ما بعد ثم ركع وسجد حتى يتذكر بعد ذلك ويعيد أول الكلام ، فلما قام من السجود ابتداء القراءة بقوله ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ ﴾ (الكهف : ٩٠) فلما أتم الصلاة قلت له في ذلك ، فقال : أليست حتى الابتدائية ؟ قال القاضي الشريف المذكور : فيجب أن يفهم أن الاصطلاح في « حتى » وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذكر ؛ انتهى .

وقال الشاطبي : أنشدني أبو محمد ابن حنبل لنفسه :

شأنُ المحيين في أشجانهم عَجَبٌ      وحالتي بينهم في الحبِّ أعجبها  
قد كنتُ أبعثُ من ريح الصَّبَّارِ سَلاً      تأتي فتطفئُ أشواقي فتذهبها  
والآنَ أرسلُ دمعِي إثرها دِيمَاً      فتلتظي نارُ وجدِي حين أسكبها  
فاعجبُ لنارِ اشتياقي في الحشا وقفت      الرِّيحُ ١ تذهبها والماءُ يلهبها

ثم قال الشاطبي ما نصه : أخذ هذا المعنى فتممه ، من قطعة أنشدناها شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف رحمة الله تعالى عليه ؛ أذكر الآن آخر بيت منها وهو :

يا من رأى النارَ إن تطفأ مخالفةً فبالرياحِ ، وإن توقد فبالماء

وأخذ عن الشريف المذكور رحمه الله تعالى جماعة غير لسان الدين ، من أشهرهم العلامة النظّار أبو إسحاق الشاطبي ، والوزير الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك .

قال حفيد السلطان الغني بالله بن الأحمر رحمه الله تعالى في حق ابن زمرك : إنه كان يتردد الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف ، فأحسن الإصغاء ، وبذل الأئمة البلغاء ، بما أوجب أن رثاه عند الوقوف على قبره بالقصيدة الفريدة التي أولها :

أغرى سراة الحمي بالإطراق

وقال في موضع آخر<sup>١</sup> : ومما بذّ به - يعني ابن زمرك - سبقاً وتبريزاً ، وعرضه على نقّدة البيان فرأت منه كل مذهبة خلصت لإبريزاً ، مرثيته للقاضي المعظم الشريف أبي القاسم الحسيني من شيوخه ، وهي :

أغرى سراة الحمي بالإطراق      نبأ أصمّ مسامع الآفاق  
أسمى به ليل الحوادث داجياً      والصبحُ أصبحَ كاسفَ الإشراقِ  
فُجِعَ الجميعُ بواحدٍ جُمِعَتْ له      شتى العلا ومكارم الأخلاقِ  
هبوا لحكمكم الرصين فإنه      صرفُ القضاء فما له من واقِ  
نقشَ الزمانُ بصرفه في صفحة      كلِّ اجتماعٍ مؤذنٌ بفراقِ  
ماذا ترجي من زمانك بعدما      علقَ الفناء بأنفسِ الأعلاقِ

١ يعني في كتابه الذي ألفه في ابن زمرك ، انظر أزهار الرياض ٢ : ١٦٠ حيث تجد هذه المرثية .

من تحسدُ السبعُ الطباقيُّ علاءهُ  
 إنَّ المنيايا للبرايا غايبةُ  
 لما حسبنا أنْ تُحوَّلَ أبوساً  
 ما كانَ إلاَّ البدرَ طالَ سِرارهُ  
 أنفَ المقامِ معَ الفناءِ نَراهمةُ  
 عدمَ الموافقَ في مرافقةِ ١ الدنا  
 أسفاً على ذلكَ الجلالِ تَقَلَّصَتْ  
 يا آمري بالصبرِ ، عيلَ تصبري  
 وذري اليراعِ تشي بدمعِ مدادها  
 واحسرتنا للعلمِ أقفر رُبُعهُ  
 ركدت رباحُ المعلوات لفقدها  
 كم من غوامضَ قد صدعتَ بفهمها  
 كم قاعدٍ في البيدِ بعدَ ٣ قعودهِ  
 لمن الركايبُ بعدُ بَعْدَكَ تُنتَضِي  
 تَقْلِي الفَلا بمناسمِ مفلولةِ  
 كانتَ إذا اشتكتِ الوجي وتوقفتُ  
 فإذا تَنَسَّمتِ الثناءَ أمامها  
 يا مُزجِي البُدنِ القلاصِ خواقفاً  
 ماتَ الذي ورثَ العلا عن معشرِ  
 رُفِعَتْ لهمُ رِاياتُ كلِّ جلالهِ

عالوا عليه من الثرى بطباقي  
 سبقَ الكرامُ نَحَصَلها بسباقِ  
 كشفتُ عوانُ حروبها عن ساقِ  
 حتى رمتهُ يَدُ الردي بمحاقِ  
 فنوى الرحيلَ إلى مقامِ باقِ  
 فنضى ٢ الركابَ إلى الرفيقِ الباقي  
 أفيأوهُ وعُهدنَ خيرَ رواقِ  
 دعني عدتكَ لواعجُ الأشواقِ  
 وشي القريضِ يروقُ في الأوراقِ  
 والعدلُ جردُ أجملِ الأطواقِ  
 كَسَدَتْ بِهِ الآدابُ بعدَ نفاقِ  
 خفيتَ مداركها على الخذاقِ  
 قَعَدَتْ بِهِ الآمالُ دونَ لحاقِ  
 ما بين شامِ ترتمي وعراقِ  
 تسم الحصى بنجيعها الرقراقِ  
 يهفو نسيمُ ثنائِكَ الحفّاقِ  
 مدّت لها الأعناقَ في الإعناقِ  
 رفقاً بها فالسعيُ في إخفاقِ  
 ورثوا تراثَ المجدِ باستحقاقِ  
 فتميزوا في حلبةِ السَّباقِ

١ ص : عدم المرافق في موافقة ؛ ق : موافقة .

٢ الأزهار : فنى .

٣ الأزهار : فوق .

عَلَّمَ الهداة وقطبُ أعلامِ النُّهى<sup>١</sup>  
 رَقَّتْ سَجَايَاهُ وراقتْ مجتلى  
 كالزَّهْرِ في لألائه ، والبَدْرِ في  
 مهما مدحتُ سواهُ قَيَّدَ وصفهُ  
 يا وارثاً نسبَ النبوةِ جامعاً  
 يا ابنَ الرسولِ وإنما لوسيلةً<sup>٢</sup>  
 وردَ الكتابُ بفضلكم وكما لكم  
 مولايَ إني في عَلاكِ مقصّرٌ  
 ومن الذي يُحصي مناقبَ مجدكم<sup>٣</sup>  
 يهني قبوراً زرتها فلقد ثوت  
 حَظّاً الردى منها سطوراً نصّها :  
 ولحقتَ ترجمَةَ الكتابِ وصدرةُ  
 كمُ من سَراةٍ في القبورِ كأنهم  
 قلُّ للسحابِ اسحبْ ذبولكَ نحوهُ  
 أودى الذي غيثُ العبادِ بكفه  
 إن كان صوبكَ بالمياهِ فدرّها  
 بشرٌ كثيرٌ قد نَعوا لما نعي  
 ألبَسْتَهُمْ ثوبَ الكرامةِ ضافياً  
 يتَفَيَّأونَ ظلالَ جاهكَ كلما  
 عدموا المرافقَ في فراقكَ وانطوى  
 رفعوا سريركَ خافضينَ رؤوسَهُمْ

حَرَمُ العُفاةِ المجتني الأرزاقِ  
 كالشمسِ في بَعْدِ وفي إشراقِ  
 عليائه ، والزَّهْرِ في الإبراقِ  
 وصفاتهِ حَمْدٌ على الإطلاقِ  
 في العلمِ والأخلاقِ والأعراقِ  
 يَرْتَقِي بها أوجَ المصاعدِ راقِي  
 فكفَى ثناءَ الواحدِ الخلاقِ  
 قد ضاقَ عن حصرِ النجومِ نطاقِ  
 عدُّ الحصى والرملِ غيرُ مطاقِ  
 منّا مصونَ جوانحِ وحداقِ  
 لا بُدَّ أنكَ للفناءِ مُلاقِ  
 وفوائدُ المكتوبِ في الإلحاقِ  
 في بطنها درُّ ثوى بحقاقِ  
 والعَبُّ بصارمِ بَرَقكَ الخفاقِ  
 يُزري بواكفِ غيثكَ الغيداقِ  
 درُّ يروّضُ ماحلَ الإملاقِ  
 قاضي القضاةِ وغابَ في الأطباقِ  
 وأرحتَ من كدِّ ومن إرهاقِ  
 لفحتَ سَمومُ الحَظْبِ بالإحراقِ  
 عنهُمُ بساطُ الرفقِ والإرفاقِ  
 ما منهمُ إلا حَليفُ سِياقِ<sup>٣</sup>

١ الأزهار : أعلام الورى .

٢ الأزهار : فضلكم .

٣ السياق : نزع الروح .



لكن مصيرك للنعيم مخلداً  
ومن العجائب أن يرى بحر الندى  
إن يحملوك على الكواهل طالما  
أو يرفعوك على العواتق طالما  
ولئن رحلت إلى الجنان فإتنا  
لو كنت تشهد حزن من خلفته  
إن جن ليل جن من فرط الأسى  
فابعث خيالك في الكرى يبعث به  
أغليت يا رزء التصبر مثلاً  
إن يخلق الأرض الغمام فإنتي

كان الذي أبقى على الأرماق  
طود الهدى يسري على الأعناق  
قد كنت محملاً على الأحداق  
رفعت ظهر منابر وعناق  
نصلى بنار الوجد والأشواق  
لشي عنانك كثرة الإشفاق  
وسوى كلامك ما له من راق  
ميت السرور لثاكل مشتاق  
أرخصت در الدمع في الآماق  
أسقي الضريح بدمعي المهراق

وكانت وفاة الشريف المذكور سنة إحدى وستين وسبعمائة .

قال ابن الخطيب القسطيني<sup>٣</sup> في وفياته : وفي هذه السنة - يعني سنة ٧٦١ - توفي شيخنا قاضي الجماعة بغرناطة حرسها الله تعالى أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسيني ، وكتب لي بالإجازة العامة بعد التمتع بمجلسه ، وله شعر مدون سماه « جهد المقل »<sup>٤</sup> وله الشرح على الخزرجية في العروض ، وأقدم عليها بعد أن عجز الناس عن فكها ، وكان إماماً في الحديث والفقہ والنحو ، وهو على

١ سقط هذا العجز وصدر البيت التالي من ق .

٢ ص ق : أثنى .

٣ نسبة إلى قسطنطينة أو قسطنطينة (بالنون) من مدن الجزائر؛ وابن الخطيب القسطيني هو الإمام العلامة المستد المورخ أبو العباس أحمد بن حسن الشهير بابن الخطيب ويعرف أيضاً بابن قنفذ (توفي سنة ٨١٠) ومن مؤلفاته: كتاب أنس الفقير في ترجمة الشيخ أبي مدين وأصحابه وطبقته (ط. الرباط ١٩٦٥) والوفيات التي جعلها خاتمة على شرحه لقصيد ابن فرح في مصطلح الحديث . (راجع فهرست الفهارس ٢ : ٣٢٣ ونيل الابتهاج : ٥٧ قال : ذكره الونشريسي في وفياته) .

٤ قال لسان الدين في الإحاطة عند الحديث عن شعر الشريف « واقتنيت منه جزءاً خصني به سماه جهد المقل . . . » .

الجملة ممن يحصل الفخر بلقائه ، ولم يكن أحد بعده مثلهُ بالأندلس ؛ انتهى .  
وقال في « الإحاطة » إن مولد الشريف كان سنة سبع وتسعين وستمائة ،  
وإن وفاته سنة ستين وسبعمائة ، وفي وفاته مخالفة لما تقدم ، والله أعلم .

وما أحسن قول الشريف أبي القاسم المترجم به :

حدائقُ أنبتتُ فيها الغواصي ضروبَ النورِ رائقةَ البهاء  
فما يبدو بها النعمانُ إلاَّ نسبناهُ إلى ماء السماء

[ ابن الشريف ]

وكان للشريف أبي القاسم المذكور ابنان نجيبان : أحدهما قاضي الجماعة أبو المعالي ، والآخر أبو العباس أحمد<sup>١</sup> ، قال الراعي في كتابه « الفتح المنير في بعض ما يحتاج إليه الفقير » ما نصه : حكاية تتعلق بالانقطاع ، نسأل الله تعالى العافية :  
وقع للسيد الشريف قاضي الجماعة بغرناطة أبي المعالي ابن السيد الشريف أبي القاسم الحسيني شارح الخرجية ومقصورة حازم نفع الله تعالى بسلفهم الكريم ، وكانت أم السيد أبي المعالي حسينية<sup>٢</sup> فكان شريفاً من الجهتين ، أنه كان قد ترك كبار الوظائف والرياسات ، وتجرد للعبادة ، ولبس المرقعة ، وسلك طريق القوم .  
وكان من الدين<sup>٣</sup> والعلم والتعظيم في قلوب<sup>٤</sup> أهل الدنيا وأهل الآخرة على جانب عظيم ، يشار إليه بالأصابع ، وكان أخوه شيخي وأستاذه أبو العباس أحمد قاضياً بشرقي الأندلس فكان أخوه أبو المعالي المذكور لا يأكل في بيت شقيقه شيئاً لأجل

١ ترجمة أبي العباس أحمد ابن الشريف السبتي في نيل الابتهاج : ٥٨ وقد عرج في الترجمة على ذكر أخيه أبي المعالي ؛ وقد أورد لسان الدين لأبي العباس منها ترجمة في الكتيبة الكامنة : ٣٠١ إلا أنه ذكره بكنيته دون اسمه .

٢ ق : حسنية .

٣ ق : من أهل الدين .

٤ ق : في قلوب الناس .

ذلك ، ولعيشه من خدم السلطان ، وكان إذا احتاج إلى الطعام وهو في بيت أخيه أعطاني درهماً من عنده أشترى له به ما يأكل ، وأقام على هذه الحالة الحسنة سنين كثيرة . ثم إنه دخل يوماً على الفقراء بزاوية المحروق من ظاهر غرناطة ، وكان شيخُ الفقراء بها في ذلك الوقت الشيخَ أبا جعفر أحمد المحدود ، فقال لهم : يا سادتي ، إنه كان معي قنديل أستضيء به ، فقدته في هذه الأيام ، وما بقيت أبصر شيئاً ، فقال له شيخهم المذكور : يا شريف أولُ رجل يدخل علينا في هذا المجلس يجيبك عن مسألتك ، فدخل عليهم رجل من خيارهم من أهل البادية ، فسلم وجلس ، فقال له الشيخ : إن الشريف سأل الجماعة ، فقلت له : أول رجل يدخل علينا يجيبك ، فوفقت أنت ، فأجبه عن مسألته ، فقال له : ما سؤالك يا شريف ؟ فقال : إنه كان لي قنديل أستضيء به ففقدته ، وما بقيت أبصر شيئاً ، فقال له الفقير : هذا لا يصدر إلاّ عن سوء أدب ، أخبرنا بما وقع منك ، فقال له الشريف : ما أعلم أنه وقع مني شيء ، غير أن المباشر فلاناً طلبه السلطان للمصادرة ، فاستخفى منه ، فمررت ببابه يوماً ، فناداني من شقة الباب : يا سيدي اجعل خاطرك معي لله تعالى ، فقلت له : اذكر الذكر الفلاني ، قلت : وأنا أظن أنه أمره بذكر اسمه تعالى اللطيف فإنه سريع الإجابة في تفريج الشدائد والكره ، نص عليه البوني في منتخبه ، وهو مجرب في ذلك ، وقد رواه لي عن بعض مشايخه السيد الشريف أحمد أخوه ، فقال له الفقير : هل كان أذن لك في تلقينه ؟ قال : لا ، قال له الفقير : لا يعود إليك نورك أبداً ؛ لأنك قد أسأت الأدب ، فكان كما قال ، فانقطع وولي بعده قضاء الجماعة ، وعزل عن سخط ، وخدم الملوك ، وأكل طعامهم ، وحالته أولاً وآخراً معروفة بغرناطة ، نسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من المطرودين عن باب رحمته بمنّه وكرمه ؛ انتهى كلام الراعي رحمه الله تعالى .

رجع إلى مشايخ لسان الدين ، رحمه الله تعالى ورضي عنه وسامحه ، فنقول :

٢ - ومن مشايخ لسان الدين الإمام الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن جابر الوادي آشي<sup>١</sup> ، ولد بتونس ، وهو محمد ابن الإمام المحدث معين الدين جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد القيسي ، شيخ ممتع نبيل رحال متقن . قال الخطيب ابن مرزوق : وعاشرته كثيراً سافراً وحضراً ، وسمعت بقراءته وسمع بقراءتي ، وقرأت عليه الكثير ، وقيدت من فوائده ، وأنشدني الكثير ، فأول ما قرأت عليه بالقاهرة بمسجد [ . . . ]<sup>٢</sup> ، وقرأت عليه بمدينة فاس ، وبظاهر قسنطينة ، وبمدينة بجاية وبظاهر المهديّة ، وبمغزلي من تلمسان ، وقرأت عليه أحاديث عوالي من تخريج الدميّاطي ، وفيها الحديث المسلسل بالأولية ، وسلسلته عنه من غير رواية الدميّاطي بشرطه ، ثمّ قرأت عليه أكثر كتاب «الموطأ» رواية يحيى ، وأعجله السفر فأتممته عليه في غير القاهرة ، وحدثني به عن جماعة ، ومعه على الشيخين قاضي القضاة أبي العباس ابن الغماز الخرزجي وهو أحمد بن محمد بن حسن والشيخ أبي محمد ابن هارون وهو عبد الله بن محمد القرطبي الطائي الكاتب المعمر الأديب ، بحق سماعه لأكثره على الأول وقراءته بأجمعه على الثاني ، قال الأول : أخبرنا أبو الربيع ابن سالم بجميع طرقه فيه منها عن ابن مرزوق وأبي عبد الله ابن أبي عبد الله الخولاني عن أبي عمرو عثمان بن أحمد المعافري عن أبي عيسى بسنده ، وقال الثاني : أخبرنا أبو القاسم ابن بقيّ بقرطبة ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الحق عن محمد بن فرج مولى الطلاع عن يونس بتمام سنده .

قال شيخنا : وفي هذا السند غريبتان : إحداهما أنه ليس فيه إجازة ، والثانية أن شيوخه كلهم قرطبيون .

قال ابن مرزوق : قلت ولا غرابة في اتصال سماع الموطأ وقراءته ، فقد

١ ترجمة ابن جابر الوادي آشي في الديباج المذهب : ٣١١ والتعريف : ١٨ وانظر النسخ : ٣٨ : ٢ ، ٦٦٤ .  
٢ بياض في ق ص .

وقع لي على قلة التحصيل متصلاً من طرق ولله الحمد ، وقد رويته عن قرطبي ، وهو أبو العباس ابن العشاء . ثم قرأت عليه كتاب « الشفاء » لعياض ، وحدثني به عن أبي القاسم<sup>١</sup> عن أبي عبد الله ابن أبي القاسم الأنصاري المالقي نزيل سبتة ويُعرف بها بابن حكيم وبابن أخت أبي صالح ، عن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الخزرجي ، عن أبي جعفر أحمد بن حكيم ، عن المؤلف وحدثني به أيضاً عن قاضي الجماعة ابن<sup>٢</sup> أبي الربيع ابن سالم عن أبي جعفر ابن حكيم . ثم قال ابن مرزوق بعد كلام ما صورته<sup>٣</sup> : رويت عنه وأنشدني لأبي محمد ابن هارون :

لا تَطْمَعَنَّ في نفع آلك إنَّهُ  
أقصرُ رويدك إنَّ ما أعلقتهُ  
ضررٌ وقلَّ النفعُ عند الآلِ  
بالآلِ من أهلِ كمثلِ الآلِ

ولابن هارون المذكور :

أقلَّ زيارةَ الأحبا  
فإنَّ المصطفى قدَّ قا  
بِ تزددُ عندهم قربا  
ل « زُرْ غيباً تزدحُباً »

ولابن هارون ؛ أيضاً :

رمانِي بالنوى زمني  
وليلي كلُّهُ فِكْرٌ  
فشمِلُ الأَنسُ مفترقُ  
فقلبي منهُ محترقُ  
وللآدابِ أبناءُ  
وكلُّ منهمُ وجِلُّ  
ببحرِ الفقرِ قد غرقوا  
بما يلقاهُ أو فرِقُ

١ بعد هذه اللفظة بياض في ص بقدر كلمتين .

٢ هنا بياض بقدر ثلاث كلمات في ص .

٣ ما صورته : سقطت من ص .

٤ زاد في ق : المذكور .

يَغْصُ بِرَيْقِهِ مِنْهُ      كَمَا فِي النَّطْقِ أَوْ شَرِقُ  
 وَقَدْ صَفَرَتْ أَكْفَهُمْ      فَلَا وَرَقٌ وَلَا وَرِقُ  
 وَلَطْفُ اللَّهِ مَرْتَقَبٌ      بِهِ الْعَادَاتُ تَنْخَرِقُ

قال ابن مرزوق : وشعره الفائق لا يحصر ، وهو عندي في مجلد كبير ،  
 وولد ابن جابر سنة ٦٧ ، وسمع بمصر على جماعة ، وكتب بخطه كثيراً ، وله  
 معرفة بالحديث والنحو واللغة والشعر ، وله نظم حسن ، وتوفي بتونس سنة ٧٧٩ ،  
 وأخذ القراءات عن ابن الزيات وغيره ، وترجمة الحافظ ابن جابر رحمه الله  
 تعالى واسعة مشهورة ، وقد ذكرناه في غير هذا الكتاب بما جمعناه .

#### [ أشعار لبعض شيوخ لسان الدين ]

ومما أنشده لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض المتصوفة من شيوخه ولم  
 يُسَمِّه قوله :

هَلْ تَعْلَمُونَ مَصَارِعَ الْعِشَاقِ      عِنْدَ الْوَدَاعِ بِلُوعَةِ الْأَشْوَاقِ  
 وَالْبَيْنُ يَكْتُبُ مِنْ نَجِيعِ دِمَائِهِمْ      إِنَّ الشَّهِيدَ بِكُمْ تَوَى بِفِرَاقِ  
 لَوْ كُنْتَ شَاهِدَ حَالِهِمْ يَوْمَ النُّوَى      لَرَأَيْتَ مَا يَلْقَوْنَ غَيْرَ مَطَاقِ  
 مِنْهُمْ كَثِيبٌ لَا يَمِلُ بِكَاءِهِ      قَدْ أَحْرَقَتْهُ مَدَامِعُ الْآمَاقِ  
 وَمَحْرَقُ الْأَحْشَاءِ أَشْعَلَ نَارَهَا      طُولُ الْوَجِيبِ بِقَلْبِهِ الْخِفَاقِ  
 وَمَوْلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ كَلَامَهُ      مِمَّا يِقَاسِي فِي الْهَوَى وَيَلَاقِي  
 خَرَسَ اللِّسَانِ فَمَا يَطِيقُ عِبَارَةَ      أَلَمْ أَلَمْ وَمَا لَهُ مِنْ رَاقِ  
 مَا لِلْمَحَبِّ مِنَ الْمُنُونِ وَقَايَةَ      إِنَّ لَمْ يَتَّجِدْ مَحْبُوبَهُ بِتَلَاقِ  
 مَوْلَايَ عَبْدَكَ ذَاهِبٌ بِغَرَامِهِ      أَدْرِكُ بِفَضْلِكَ مِنْ ذَمَّاهِ الْبَاقِ  
 إِنِّي إِلَيْكَ بِذَلَّتِي مَتَوَسَّلُ      فَاعْطِفْ بِلَطْفٍ مِنْكَ أَوْ إِشْفَاقِ

وهذه الأبيات أوردتها رحمه الله تعالى في «الروضة» في العشق، بعد أن حدّثه وتكلّم عليه، ثمّ أورد عدّة مقطوعات، ثمّ ذكر منها هذه الأبيات كما ذكر. وأنشد لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض أشياخه، وسماه، وأنسيته أنا الآن:

بما بيننا من خلوةٍ معنويةٍ      أرقّ من النجوى وأحلى من السلوى  
 قفي ساعةً في ساحةِ الدارِ وانظري      إلى عاشقٍ لا يستفيقُ من البلوى  
 وكم قد سألتُ الريحَ شوقاً إليكمُ      فما حنّ مسراها عليّ ولا ألقى  
 وقوله أيضاً :

أنستُ بوحدي حتى لو آتني      أتاني الأُنسُ لاستوحشتُ منه  
 ولم تدعِ التجاربُ لي صديقاً      أميلُ إليهِ إلاّ ملتُ عنه  
 وقوله رحمه الله تعالى :

عليكَ بالغرلةِ إنّ الفتي      مَنْ طابَ بالقلّةِ في العزلةِ  
 لا يرتجى عزلةَ والٍ ، ولا      يخشى من الذلّةِ في العزلةِ

٣ - ومن أكابر شيوخ ابن الخطيب رحمه الله تعالى جدي الإمام العلامة قاضي القضاة بحضرة الخلافة فاس المحروسة أبو عبد الله<sup>١</sup>.

قال في «الإحاطة» محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقرّي، يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة بفاس، تلمساني.

أوليته - نقلت من خطه قال: وكان الذي اتخذها من سلفنا قراراً، بعد أن كانت لمن قبله مزاراً، عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرّي صاحب الشيخ

١ ترجمة المقرّي الجد في الإحاطة ٢ : ١٣٦ ونيل الابتهاج : ٢٤٩ وسلوة الأنفاس ٣ : ٢٧١ والتعريف : ٥٩ والمرقبة العليا : ١٩٦ (وانظر الحاشية ٣ ص ٥٥٦ من الجزء الأول).

أبي مدين ، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو أبي الخوامس  
فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن ، وكان هذا  
الشيخ عُرُوي الصلاة ، حتى إنه ربما امتُحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات ،  
ولا استشعر منه شعور ، ويقال : إن هذا الحضور ممّا أدركه من مقامات شيخه  
أبي مدين ؛ انتهى .

[ هل المقرئ الجدل قرشي ؟ ]

وكتب بعض المغاربة على هامش هذا المحل من « الإحاطة » ما صورته :  
القرشي وهم ؛ انتهى . فكتب تحته الشيخ الإمام أبو الفضل ابن الإمام التامساني  
رحمه الله تعالى ما نصه : بل صحيح ، نطقت به الألسن والمكاتبات والإجازات  
وأعربت عنه الحلال الكريمة ، إلا أن البلدية يا سيدي أبا عبد الله والمنافسة تجعل  
القرشية في إمام المغرب أبي عبد الله المقرئ وهماً ، والحمد لله ؛ انتهى .  
قلت : وممن صرح بالقرشية في حقّ الجدل المذكور ابن خلدون في تاريخه  
وابن الأحمر في « نثر الجمان » وفي شرح البردة عند قوله :

لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَنْشُرَهَا

والشيخ ابن غازي ، والولي الصالح سيدي أحمد زروق ، والشيخ علامة  
زمانه سيدي أحمد الونشريسي ، وغير واحد ، وكفى بلسان الدين شاهداً  
مُزَكِّي .

وقد ألّف عالم الدنيا ابن مرزوق تأليفاً استوفى فيه التعريف بمولاي الجدل سمّاه  
« الثُّور البدري في التعريف بالفقيه المقرئ » وهذا بناء منه على مذهبه أنه

١ نسبة إلى عروة ، لعله عروة بن الزبير ، فقد كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء حتى كان يقول  
إني لأسأل الله في صلاتي كل شيء حتى الملح .



— بفتح الميم وسكون القاف — كما صرح بذلك في شرح الألفية عند قوله :

ووضعوا لبعض الاجناس علم

وضبطه غيرهم وهم الأكثرون بفتح الميم وتشديد القاف ، وعلى ذلك عول أكثر المتأخرين ، وهما لغتان في البلدة التي نُسبَ إليها ، وهي مقَرَّة من قرى زاب إفريقية ، وانتقل منها جده إلى تلمسان صحبة شيخه ولي الله سيدي أبي مَدِين رضي الله عنه .

رَجَع إلى تكملة كلام مولاي الجلد في حق أوليته :

قال رحمه الله تعالى بعد الكلام السابق في حق جده عبد الرحمن ، ما صورته :  
ثمَّ اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة ، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار ، واتخذوا طلباً للرحيل ، ورايةً تقدم عند المسير ، وكان ولدٌ يحيى الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال ، فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال ، فكان أبو بكر ومحمد وهما أرومتا نَسَبِي من جميع جهات أمي وأبي بتلمسان ، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة ، وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بإيالاتن فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط<sup>١</sup> والديار ، وتزوجوا النساء ، واستولدوا الإماء ، وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع ، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر ، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ، ويكاتبهما بأحوال التجار وأخبار البلدان ، حتى اتسعت أموالهم ، وارتفعت في الضخامة أحوالهم ، ولما افتتح التكرور كورة إيالاتن وأعمالها أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها ، بعد أن جمع من كان بها منهم إلى نفسه الرجال ، ونصب دونها ودون ملهم القتال ، ثمَّ اتصل بملكهم فأكرم مثواه ،

١ الحوائط : جمع حائط وهو مزرعة النخيل .

وممكنه من التجارة بجميع بلاده ، وخاطبه بالصديق الأحب ، والخلاصة الأقرب ، ثم صار يكتب من بتلمسان يستقضي منهم مآربه ، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة ، وعندني من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبيء عن ذلك ، فلما استوثقوا من الملوك ، تذللت لهم الأرض للسلوك ، فخرجت أموالهم عن الحد ، وكادت نفوت الحصر والعد ، لأن بلاد الصحراء قبل أن يدخلها أهل مصر<sup>١</sup> كان يجلب إليها من المغرب ما لا بال له من السلع ، فتعاوض عنه بما له بال<sup>٢</sup> من الثمن - أي مدبر دنيا ضم جنباً أبي حمو وشمل ثوباه ، كان يقول : لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بنحيث السلع ، ويأتون بالتبر الذي كل<sup>٣</sup> أمر الدنيا له تبع ، ومن سواهم يحمل منها الذهب ، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ، ومنه ما يغير من العوائد ، ويجر السفهاء إلى المفاسد -<sup>٢</sup> . ولما درج هؤلاء الأشياخ جعل أبناؤهم ينفقون ممّا تركوا لهم ، ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم ، وصادفوا توالي الفتن ، ولم يسلموا من جور السلاطين ، فلم يزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمن ، فها أنا ذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فضوله عيشاً ، وأصوله حرمة ، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب ، وأسباب كثيرة تعين على الطلب ، فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة ، فاستوعبت أهل البلد لقاء ، وأخذت عن بعضهم عرضاً وإلقاء ، سواء المقيم القاطن<sup>٣</sup> ، والوارد والظاعن ؛ انتهى كلامه في أوليته ، وقد نقله لسان الدين في « الإحاطة » . وقال مولاي الجدد رحمه الله تعالى : كان مولدي بتلمسان أيام أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمُراسن بن زيان ، وقد وقفت على تاريخ ذلك ، ولكني

١ ق : أهل مقرة .

٢ هكذا وردت هذه العبارة معترضة في الأصول والإحاطة ؛ وأبو حمو المذكور فيها هو موسى بن عثمان بن يغمُراسن ، والمقري قد ولد في زمانه ؛ ويمدحه بأنه كان عارفاً بالتدبير ، قد ضم جنباه وشمل ثوبه امرأاً عارفاً بشؤون التجارة ، حتى كان يتمنى لو أنه بقي في بلاده تاجراً . . . إلخ .

٣ ق : والقاطن .

رأيت الصفيح عنه لأن أبا الحسن ابن مؤمن سأل أبا طاهر السُّلْتَنِي عن سنه فقال :  
 أقبل على شانك ، فإني سألت أبا الفتح ابن زيان عن سنه فقال : أقبل على شانك ،  
 فإني سألت علي بن محمد اللبَّان عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت أبا  
 القاسم حمزة بن يوسف السهمي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت  
 أبا بكر محمد بن عدي المنقري عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت أبا  
 إسماعيل الترمذي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت بعض أصحاب  
 الشافعي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت الشافعي عن سنه فقال :  
 أقبل على شانك ، فإني سألت مالك بن أنس عن سنه فقال : أقبل على شانك ،  
 ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه ؛ انتهى .

قلت : ولما تذاكرت مع مولاي العم الإمام — صب الله تعالى على مضجعه  
 من الرحمة الغمام — هذا المعنى الذي ساقه مولاي الجدد رحمه الله تعالى أنشدني  
 لبعضهم<sup>١</sup> :

أَحْفَظُ لِسَانَكَ لَا تَبْحُ بِثَلَاثَةِ سِنِّ وَمَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ  
 فَعَلَى الثَّلَاثَةِ تُبْتَسَلَى بِثَلَاثَةِ بَمَكْفَرٍ وَبِحَاسِدٍ<sup>٢</sup> وَمَكْذِبِ

قال الونشريسي في حق الجدد ما نصه : القاضي الشهير الإمام العالم أبو عبد الله  
 محمد بن محمد المقرئ ، التلمساني المولد والمنشأ ، القاسمي المسكن ، كان رحمه  
 الله تعالى عالماً عاملاً ظريفاً نبياً<sup>٣</sup> ذكياً نبيلاً فهماً متيقظاً جزلاً محصلاً ؛ انتهى .  
 وقد وقفت له بالمغرب على مؤلف عرف فيه بمولاي الجدد ، وذكر جملة من  
 أحواله ، وذلك أنه طلبه بعض أهل عصره في تأليف أخبار الجدد ، فألف فيه ما  
 ذكر .

١ أوردهما ابن الجوزي في صيد الخاطر : ٣٤٦ قال : وقد أنشدنا محمد بن عبد الباقي البزار .  
 ٢ صيد الخاطر : بموه ومحرف .  
 ٣ نبياً : سقطت من ق .

وقال في « الإحاطة » في ترجمة مولاي الجدد بعد ذكره أوليته ما صورته :  
 حاله — هذا الرجل مشار إليه بالعدوة الغربية اجتهداً ودؤوباً<sup>١</sup> وحفظاً وعناية  
 واطلاعاً ونقلًا ونزاهة ، سليم الصدر ، قريب الغور ، صادق القول ، مسلوب  
 التصنع ، كثير الهشة ، مفرط الخفة ، ظاهر السداجة ، ذاهب أقصى مذاهب  
 التخلتق ، محافظ على العمل ، مثابر على الانقطاع ، حريص على العبادة ، مضابق في  
 العقد والتوجه ، يكابد من تحصيل النية بالوجه واليدين مشقة ، ثم يغافص الوقت  
 فيها ويوقعها دفعةً متبعاً إياها زعقةً التكبير برجفة ينبو عنها سمع من لم تؤنسه بها  
 العادة بما هو دليل على حسن المعاملة وإرسال السجية ، قديم النعمة متصل الخيرية ،  
 مكبّ على النظر والدرس والقراءة ، معلوم الصيانة والعدالة ، منصف في المذاكرة ،  
 حاسر للذراع عند المباحثة ، راحب عن الصدر في وطيس المناقشة ، غير مختار  
 للقرن ولا ضانّ بالفائدة ، كثير الالتفات متقلب الحدقة ، جهير بالحجة بعيد عن  
 المرء والمباهة<sup>٢</sup> ، قائل بفضل أولي الفضل من الطلبة ، يقوم أتم القيام على العربية  
 والفقه والتفسير ويحفظ الحديث ويتهجّر بحفظ التاريخ والأخبار والآداب ،  
 ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجدل والمنطق ، ويكتب ويشعر<sup>٣</sup> مصيباً  
 غرض الإجادة ، ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال ويعتني بالتدوين  
 فيها . شرق وحج ولقي جلةً واضطبن<sup>٤</sup> ، رحلة مفيدة ، ثم عاد إلى بلده فأقرأ به  
 وانقطع إلى خدمة العلم ، فلما ولي ملك المغرب السلطان محالف الصنع ونشيدة  
 الملك وأثير الله من بين القرابة والاخوة أمير المؤمنين أبو عنان اجتذبه ، وخلطه  
 بنفسه واشتمل عليه وولاه قضاء الجماعة بمدينة فاس ، فاستقل بذلك أعظم  
 الاستقلال ، وأنفذ الحق وألان الكلمة وآثر التسديد وحمل الكلل<sup>٥</sup> وخفض الجناح ،

١ ق : ودياً .

٢ ق : والمباهة .

٣ ويشعر : سقطت من ق .

٤ اضطبن : احتقب .

فحسنت عنه القالة ، وأحبه الخاصة والعامة . حضرتُ بعض مجالسه للحكم فرأيت من صبره على اللدِّد وتأتيه للحجج ورفقه بالخصوم<sup>١</sup> ما قضيت منه العجب . دخوله غرناطة - ثمّ لما أُخِّر عن القضاء استعمل بعد لأي في الرسالة ، فوصل الأندلس أوائل جمادى الثانية من عام سبعة وخمسين وسبعائة ، فلمّا قضى غرض رسالته وأبرم عمده وجهته واحتل مالقة في منصرفه بدا له في نَبْد الكلفة واطّراح وظيفة الخدمة وحلّ التقيّد إلى ملازمة الإمرة<sup>٢</sup> ، فتقاعد وشهر غرضه وبتّ في الانتقال طمّح من كان صحبته<sup>٣</sup> ، وأقبل على شأنه ، فخلى بينه وبين همه ، وترك وما انتحله من الانقطاع إلى ربه ، وطار الخبر إلى مُرسله ، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة والعدول عنها بقصد التخلي والعبادة ، وأنكر ما حقه الإنكار من إبطال عمل الرسالة ، والانقباض قبل الخروج عن العهدة<sup>٤</sup> ، فوغر صدره على صاحب الأمر ، ولم يبعد حمله على الظنة والمواطأة على النفرة ، وتجهزت جملة من الخدام المجلّين في مأزق الشبهة المضطّلعين بإقامة الحجّة ، مولين خطة الملام ، مخيرين بين سحائب عادٍ من إسلامه ، مظنة إعلاق النعمة ، وإيقاع العقوبة ، أو الإشادة بسبب إجارته بالقطيعة والمنازدة . وقد كان المترجم به لحق بغرناطة فتندم بمسجدها ، وجأر بالانقطاع إلى الله ، وتوعد من يجبره بنكير من يجير ولا يجار عليه سبحانه ، فأهم أمره ، وشغلت القلوب آبدته<sup>٥</sup> ، وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعة اقتضى له فيها رفع التبعة وتركه إلى تلك الوجهة ، ولما تحصل ما تيسر من ذلك انصرف محفوفاً بعالمي<sup>٥</sup> القطر قاضي الجماعة أبي القاسم الحسيني المذكور قبله والشيخ الخطيب أبي البركات ابن الحاج مسلمين لوروده ،

١ ق ص : الخصوم .

٢ ق : الآخرة ، وللمها أصوب .

٣ ق : صحبه .

٤ من إبطال . . . العهدة : سقطت من ص .

٥ ص ق : بعلمي .

مشافهين بالشفاعة في غرضه ، فانقشعت الغُمة وتنفست الكربة ، واستصحبا من  
المخاطبة السلطانية في أمره من إملائي ما يُذكر حسبما ثبت في الكتاب المسمّى  
بـ « كناية الدكان بعد انتقال السكان » المجموع بسلا ما صورته :

« المقامُ الذي يحبُّ<sup>١</sup> الشفاعة ويرعى الوسيلة ، ويُنجز العِدّة ويتمم الفضيلة ،  
ويُضفي مجده المننَ الجزيلة ، ويعيي حمده المادح العريضة الطويلة ، مقامُ محل  
والدنا الذي كرم مجده ، ووضح سعده ، وصح في الله تعالى عقده ، وخلص في  
الأعمال الصالحة قَصْدُهُ ، وأعجز الألسنة حَمْدُهُ ، السلطان الكذا ابن السلطان  
الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله سبحانه لوسيلة يرعاها ، وشفاعة يكرّمُ  
مسعاها ، وأخلاق جميلة تجيب دعوة الطبع الكريم إذا دعاها ، معظم سلطانه  
الكبير ، وممجد مقامه الشهير ، المشيع لأبوته الرفيعة قولاً باللسان واعتقاداً  
بالضمير ، المعتمدُ منه بعد الله على الملجأ الأحمى والولي النصير ، فلان . سلام  
كريم ، طيب برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأبوتكم الفضلى ، ورحمة  
الله وبركاته .

« أما بعدَ حمدِ الله الذي جعل الخلق الحميد دليلاً<sup>٢</sup> على عنايته بمن حَلَّاه  
حُلَّاه ، وميَّز بها النفوس النفيسة التي اختصها بكرامته وتولاها ، حمداً يكون  
كفوفاً للنعم التي أولاها ، وأعادها ووالاها ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد  
عبده ورسوله المترقي من درجات الاختصاص أرفعها وأعلاها ، الممتاز من  
أنوار الهداية بأوضحها وأجلاها ، مَطَّلَع آيات السعادة يَرُوق مجتلاها ، والرضى  
عن آلِه وصحبه الذين خبر صدق ضمائرهم لما ابتلاها ، وعَسَل ذكرهم في  
الأفواه فما أعذب أوصافهم على الألسن وأحلاها ، والدعاء لمقام أبوتكم حرس  
الله تعالى عُلَّاه ، بالسعادة التي يقول الفتح أنا طلائع الثنايا وابنُ جلاها ، والصنائع

١ ص ق : يحسب .

٢ ق : دلالة .

التي تحترق المفاوزَ بركائبها المبشرات فتفلي فلاها ، فإننا كتبنا إليكم - كتب الله تعالى لكم عزة مشيدة البناء ، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوشَ الثناء ، وقلدكم من قلائد مكارم الأخلاق ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء - من حمراء غرناطة حرسها الله والودُّ باهر السنأ ظاهر السنأ ، مجدّد على الآناء ، والتشيع رحب الدسيسة والفنأ .

« وإلى هذا - وصل الله تعالى سعدكم ، وحرس مجدكم - فإننا خاطبنا مقامكم الكريم في شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبي عبد الله المقرئ خار الله تعالى لنا وله ، وبلغ الجميع من فضله العميم أمله ، جواباً عمّا صدر عن منابثكم فيه من الإشارة الممثلة ، والمآرب المعتملة ، والقضايا غير المهملة ، نُصادركم بالشفاعة التي مثلها بأبوابكم لا يُرد ، وظمأها عن منهل قبولكم لا تحلاً ولا تُصد ، حسبما سنه الأب الكريم والجد ، والقبيل الذي وضع منه في المكارم الرسم والحد ، ولم نصدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق المخيلة ، وتبلج صبح الزهادة والفضيلة ، وجود النفس الشحيحة - بالعرص الأذني - البخيلة ، وظهر تحلّيه عن هذه الدار ، واختلاطه باللفيف والغمار ، وإقباله على ما يعني مثله من صلة الأوراد ومداومة الاستغفار . وكنا لما تعرفنا بإقامته بمالقّة لهذا الغرض الذي شهره ، والفضل الذي أبرزه للعيان وأظهره ، أمرنا أن يعنى بأحواله ، ويُعان على فراغ باله ، ويجرى عليه سيب من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله ، وقلنا ما أتاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله ، ففر من مالقّة على ما تعرفنا لهذا السبب ، وقعد بحضرتنا مستور المتئمي والمتئتب ، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدة لسكنى المتسمين بالخير والمحترفين ببضاعة الطلب ، بحيث لم يتعرف وروده ووصوله إلاّ ممّن لا يؤبه بتعريفه ، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلّة تصريفه .

« ثمّ تلاحق لإرسالكم الحلّة فوجبت حينئذ الشفاعة ، وعرضت على سوق الحلم والفضل من الاستلطاف والاستعطاف البضاعة ، وقررنا ما تحققناه من أمره ،

وانقباضه عن زيد الخلق وعمّره ، واستقباله الوجهة التي من ولّى وجهه شطرها فقد أثر أثيراً ، ومن ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلاً كبيراً وخيراً كثيراً ، وسألنا منكم أن تبيحوا له ذلك الغرض الذي رماه بعزمه ، وقصر عليه أقصى همه ، فما أخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا بسهمه ، ويحصل منه طالب الآخرة على حظه الباقي وقسمه ، ويتوسل الزاهد بزهده والعالم بعلمه ، ويعول البريء على فضله ويثق المذنب بحلمه ، فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان وهو أرب من آراب ، وفائدة من جراب ، ووجه من وجوه إعراب ، فرأينا أن المطل بعد جفاء ، والإعادة ليس يثقلها خفاء ، ولمجدكم بما ضمنا عنه وفاء ، وبادرنا الآن إلى العزم عليه في ارتحاله ، وأن يكون الانتقال عن رضى منه من صفة حاله ، وأن يقتضي له ثمرة المقصد ، ويبلغ طية الإسعاف في الطريق الأقصد ، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلق بجناب الله من مثلكم حاصل ، والدين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلاً ، وطالب كيمياء السعادة بإعانتكم واصل ، ولما مدت اليد في تسويغ حالة هديكم عليها أبدأ بجرّص ، وعلمكم بصرح بمزيتها فلا يعرض ، فكمّلوا أبقاكم الله ما لم تسعنا فيه مشاحة الكتاب ، وألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة فهو أصحّ حديث في الباب ، ووفوا غرضنا من مجدكم ، وخلوا بينه وبين مراده من ترك الأسباب ، وقصد غافر الذنب وقابل التوب بإخلاص المتاب ، والتشمير ليوم العرض وموقف الحساب ، وأظهروا عليه عناية الجناب ، الذي تعلق به أعلق الله به يدكم من جناب ، ومعاذ الله أن تعود شفاعتنا من لدنكم غير مكملة الآراب .

« وقد بعثنا من ينوب عنا في مشافهتكم بها أحمد المناب ، ويقتضي خلاصها بالرغبة لا بالغلاب ، وهما فلان وفلان ، ولولا الأعدار لكان في هذا الغرض إعمال الركاب ، يسبق أعلام الكتاب ، وأنتم تولون هذا القصد من مكارمكم ما يوفر الثناء الجميل ، ويربّي على التأمل ، ويكتب على الود الصريح العقد وثيقة التسجيل ، وهو سبحانه يقيكم لتأييد المجد الأثيل ، وإنالة الرّفد الحزيب ، والسلام



الكريم يخلص مقامكم الأعلى ، ومثابنتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ،  
في الحادي والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة » ؛  
انتهى كلام ابن الخطيب في « الإحاطة » .

وذكر في الريحانة أنه كتب في هذا الغرض ما نصه :

« وإلى هذا فإننا وقفنا على كتابكم الكريم في شأن الشيخ الصالح الفقيه الفاضل  
أبي عبد الله المقري - وفقنا الله وإياه لما يُزلفُ لديه ، وهدانا لما يقرب إليه -  
وما بلغكم بتقاعده بمالقة ، وما أشرتم به في أمره ، فاستوفينا جميع ما قررتم ،  
واستوعبنا ما أجملتم في ذلك وفسرتم ، واعلموا يا محلّ والدنا - أمتنا الله ببقائكم  
الذي في ضمنه اتصال السعادة ، وتعرّف النعم المعادة - أننا لما انصرف عن بابنا  
هو ومن رافقه عن انشراح صدور ، وتكليف جذل بما تفضلتم به وسرور ،  
تعرفنا أنه تقاعد بمالقة عن صحبه ، وأظهر الاشتغال بما يخلصه عند ربه ، وصرف  
الوجه إلى التخلي مشفقاً من ذنبه ، واحتجّ بأن قصده ليس له سبب ، ولا تعين له في  
الدنيا أرب ، وأنه عرض عليكم أن تسمحو له فيما ذهب إليه ، وتقرّوه عليه ،  
فيعجل البدار ، ويمهد تحت إياتكم القرار ، فلما بلغنا هذا الخبر ، لم يخلق الله  
عندنا به مبالاة تُعتبر ، ولا أعددناه فيما يُذكر ، فكيف فيما يُنكر ، وقطعنا أن  
الأمر فيه هيّن ، وأن مثل هذا الغرض لا تلتفت إليه عين ، فإن بابكم غنيّ من  
طبقات أولي الكمال ، مليّ بتسويغ الآمال ، موفور الرجال ، معمور بالفقهاء  
العارفين بأحكام الحرام والحلال ، والصلحاء أولي المقامات والأحوال ، والأدباء  
فُرسان الرويّة والارتجال ، ولم ينقص بفقدان الحصى أعداد الرمال ، ولا يستكثر  
بالقطرة جيشُ العارض المثال ، مع ما علم من إعانتكم على مثل هذه الأعمال ،  
واستمساكم بإسعاف غرض من صرف وجهه إلى ذي الجلال ، ولو علمنا أن  
شيئاً يهيجس في الخاطر من أمر مقامه ، لقابلناه بعلاج سقامه .

« ثمّ لم ينشب أن تلاحق بحضرتنا بارزاً في طور التقلل والتخفيف ، خالطاً

نفسه باللفيف ، قد صار نكرة بعد العلمية<sup>١</sup> والتعريف ، وسكن بعض مواضع المدرسة منقبضاً عن الناس لا يظهر إلاً لصلاة يشهدُ جماعتها ، ودعوة للعباد يخاف إضاعتها ، ثم تلاحق لإرسالكم الجلّة ، الذين تحقّ لمثلهم التجلّة ، فحضرنا لدينا ، وأدوا المخاطبة الكريمة كما ذكر إلينا ، وتكلمنا معهم في القضية ، وتنخّلنا في الوجوه المرضية ، فلم نجد وجهاً أخلص من هذا الغرض ، ولا علاجاً يتكفّل ببرء المرض ، من أن كلفناهم الإقامة التي يتبرك بيؤمن جوارها ، ويعمل على إثارها ، بخلاف ما نخاطب مقامكم بهذا الكتاب الذي مُضمّنهُ شفاعَةٌ يضمن حباؤكم احتسابها ، ويرعى انتماءها إلى الخلوص وانتسابها ، ويعيدها قد أعملت الخطوة أثوابها ، ونقصدكم ومثلكم من يُقصد في المهمة ، فأنتم المثل الذائع في عموم الحلم وعلوّ الهمة ، في أن تصدروا له مكتوباً مكمل الفصول ، مقرر الأصول ، يُذهب الوجل ، ويرفع الحجل ، ويسوّغ من مآربه لديكم الأمل ، ويخلص النية ويرتب العمل ، حتى يظهر ما لنا عند أبوتكم من تكميل المقاصد ، جرياً على ما بذلتم من جميل العوائد ، وإذا تحصل ذلك كان بفضل الله إياه ، وأناخت بعقوة<sup>٢</sup> وعدكم الوفي ركا به ، ويحصل لمقامكم عزه ومجده وثوابه ، وأنتم ممتن يرعى أمور المجد حقّ الرعاية ، ويجري في معاملة الله تعالى على ما أسس من فضل البداية ، وتحقق الظنون فيما لديه من المدافعة عن حوزة الإسلام والحماية ، هذا ما عندنا أعجلنا به الإعلام ، وأعملنا فيه الأقلام ، بعد أن أجهدنا الاختيار وتنخّلنا الكلام ، وجوابكم بالخير كفيل ، ونظركم لنا وللمسلمين جميل ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويجرس مجدكم ، والسلام . انتهى .

قلت : هذه آفة مخالطة الملوك ، فإن مولاي الجد المذكور كان نزل عن<sup>٣</sup> القضاء وغيره ، فلما أراد التخلي إلى ربه لم يتركه السلطان أبو عنان كما رأيت .

١ العلمية : سقطت من ق .

٢ ص ق : عقرة ؛ والعقوة : الساحة .

٣ ق : هارباً من ؛ وسقطت من ص .

وقد ذكر لسان الدين رحمه الله تعالى في « الإحاطة » شيخ مولانا الجلد ، فلنذكرهم من جزء الجلد الذي سماه « نظم اللائي في سلوك الأمالي »<sup>١</sup> ومنه اختصر لسان الدين ما في « الإحاطة » في ترجمة مشيخته فنقول : قال مولاي الجلد رحمه الله تعالى .

١ ، ٢- فممن أخذت عنه ، واستفدت منه ، عكّماها- يعني تلمسان- الشاخوان ، وعالماها الراسخان : أبو زيد عبد الرحمن ، وأبو موسى عيسى ، ابنا محمد بن عبد الله ابن الإمام<sup>٢</sup> ، وكانا قد رحلا في شبابهما من بلدهما برشك<sup>٣</sup> إلى تونس فأخذنا بها عن ابن جماعة وابن العطار واليفرني<sup>٤</sup> وتلك الحلبة ، وأدركا المرجاني وطبقته من أعجاز المائة السابعة ، ثم وردا في أول المائة الثامنة تلمسان على أمير المسلمين أبي يعقوب وهو محاصر لها ، وفقهه حضرته يومئذ أبو الحسن علي بن يخلف التنسي ، وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يبعد ، وارتفع شأنه عند أبي يعقوب ، حتى إنه شهد جنازته ، ولم يشهد جنازة أحد قبله ، وقام على قبره ، وقال : نعم الصاحب فقدنا اليوم ؛ حدثني الحاج الشيخ بعباد تلمسان أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسي في الخليل حوالي روضة الشيخ أبي مدين فقال : كيف تركون الخليل تصل إلى ضريح الشيخ ؟ هلاّ عرضتم هنالك - وأشار إلى حيث المعراض الآن - خشبة ؟ ففعلنا ، فلما قُتل أبو يعقوب وخرج المحصوران أنكرا ذلك ، فأخبرتهما ، فأما أبو زيان - وكان السلطان يومئذ - فنزل وطأ رأسه ودخل ،

١ ق : اللال . . . الامال .

٢ ترجمة ابني الإمام في التعريف : ٢٨ والعبر : ٧ : ١٠٠ والديباج : ١٥٢ ونيل الابتهاج : ١٣٩ ، ١٩٠ ؛ وفيه نقل عن المقرئ الجلد ( انظر ص : ١٤٠ ) .

٣ نيل الابتهاج : تلمسان .

٤٠ نيل الابتهاج : والبطرني .

وأما أبو حَمَوَ - وكان أميراً - فوثب وخلصها . ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين اختصا ابني الإمام ، وكان أبو حمو أشد اعتناء بهما ، ثم بعده ابنه أبو تاشفين ، ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبي الحسن ، إلى أن توفي أبو زيد في العشر الأوسط من رمضان عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر ، فزادت مرتبة أبي موسى عند السلطان ، إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان في أول عام تسعة وأربعين ، وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة فتوجه صحبة ابنه أمير المسلمين أبي عنان إلى فاس ، ثم رده إلى تلمسان ، وقد استولى عليها عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيّان ، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام .

قال لي خطيب الحضرة الفاسية<sup>١</sup> أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عبد الله الرندي : لما أزمع الفقيه ومنّ أطلق معه على القُفُول إلى تلمسان بتُّ على تشييعهم ، فرأيتني كأنني نظمت هذا البيت في المنام :

وعند وداع القوم ودّعتُ سلّوتي وقلتُ لها بيّني فأنتِ المودّعُ

فانتهتُ وهو في فيّ ، فحاولت قريحتي بالزيادة عليه فلم يتيسر لي مثله .

ولما استحكمت ملك أبي تاشفين واستوثق رحل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعمائة فلقيا علاء الدين القونوي ، وكان يبحث إلي لما رحلت فلقيت أبا علي حسين بن حسين بيجاية قال لي : إن قدرت أن لا يفوتك شيء من كلام القونوي حتى تكتب جميعه فافعل ، فإنه لا نظير له ، ولقيا أيضاً جلال الدين القزويني صاحب البيان ، وسمعا صحيح البخاري على الحجار ، وقد سمعته أنا عليهما ، وناظرا تقي الدين بن تيمية ، وظهرا عليه ، وكان ذلك من أسباب محتته ، وكانت له مقالات فيما يذكر<sup>٢</sup> وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين ، حدثني

١ ص : الفارسية يعني حضرة أبي عنان فارس .

٢ نيل الابتهاج : وكانت للثقي المذكور مقالات شنيعة من حمل حديث النزول على ظاهره . . . إلخ .

شيخى العلامة أبو عبد الله الآبلى أن عبد الله بن إبراهيم الزموري أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه<sup>١</sup> :

مَحْصَلٌ فِي أَصُولِ الدِّينِ حَاصِلُهُ      مِنْ بَعْدِ تَحْصِيلِهِ عِلْمٌ بِبِلَادِ دِينِ  
أَصْلُ الضَّلَالَةِ وَالْإِفْكَ الْمُبِينِ ،      فَمَا فِيهِ فَأَكْثَرُهُ وَحْيُ الشَّيَاطِينِ

قال : وكان في يده قضيب ، فقال : والله لو رأيتَه لضربتَه بهذا القضيب هكذا ، ثم رفعه ووضعَه .

وبحسبك ممّا طار لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق أي لما حلت بيت المقدس وعرف به مكاني من الطلب ، وذلك أي قصدت قاضيته شمس الدين بن سالم ليضع لي يده على رسم أستوجب به هنالك حقاً ، فلما أطلت عليه عرفه بي بعض مَنْ معه ، فقام إلي حتى جلست ، ثم سألتني بعض الطلبة بمحضرتَه فقال لي : إنكم معشر المالكية تبيحون للشامي يمر بالمدينة أن يتعدى ميقاتها إلى الجحفة ، وقد قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، بعد أن عين المواقيت لأهل الآفاق « هُنَّ لَهْنٌ ، وَلَمَنْ مَرَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ » وهذا قد مر على ذي الحليفة وليس من أهله فيكون له ، فقلت له : إن النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، قال « من غير أهلهم » أي من غير أهل المواقيت ، وهذا سلبٌ كلي ، وإنه غير صادق على هذا الفرد ، ضرورة صدق نقيضه وهو الإيجاب الجزئي عليه ، لأنه من بعض أهل المواقيت قطعاً ، فلما لم يتناولوه النص رجعنا إلى القياس ، ولا شك أنه لا يلزم أحداً أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به لكن مَنْ ليس من أهل الجحفة لا يمر بميقاته إذا مرَّ بالمدينة ، فوجب عليه الإحرام من ميقاتها ، بخلاف أهل الجحفة ، فإنها بين أيديهم ، وهم يمرون عليها ، فوَقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك ، فلما عرفت أتاني آتٍ من أهل المغرب فقال لي : تعلم أن مكانك في

١ انظر هذا في نيل الابتهاج : ٢٤٥ (ترجمة الآبلى) .

نفوس أهل هذا البلد مكين ، وقدرك عندهم رفيع ، وأنا أعلم انقباضك<sup>١</sup> عن  
ابني الإمام ، فإن سُئلت فانتسب لهما ، فقد سمعتَ منهما ، وأخذتَ عنهما ،  
ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما فتضع من قدرك ، وإنما أنت عند هؤلاء الناس  
خليفتهما ووارث علمهما وأن لا أحد فوقهما<sup>٢</sup> :

وليسَ لما تَبَيَّ يدُ الله هادمُ

وشهدت مجلساً بين يدي السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمّو ذكر  
فيه أبو زيد ابن الإمام أن ابن القاسم مُسلِّد مقيّد النظر بأصول مالك ، ونازعه  
أبو موسى عمران بن موسى المشدّالي ، وادّعى أنه مطلق الاجتهاد ، واحتج له  
بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله ، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة  
قال : فلو تقيّد بمذهبه لم يخالفه لغيره ، فاستظهر أبو زيد بنصّ لشرف الدين  
التملساني مثل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك  
والمزني إلى الشافعي ، فقال عمران : هذا مثال ، والمثال لا تلزم صحته ، فصاح  
به أبو موسى ابن الإمام وقال لأبي عبد الله ابن أبي عمرو : تكلم ، فقال : لا  
أعرف ما قال هذا الفقيه ، الذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد  
المثال فساد الممثل ، فقال أبو موسى للسلطان : هذا كلام أصولي محقق ،  
فقلت لهما وأنا يومئذ حديث السن : ما أنصفتما الرجل ، فإن المُثْلَ كما تؤخذ  
على جهة التحقيق كذلك تؤخذ على طريق التقريب ، ومن ثمّ جاء ما قاله هذا  
الشيخ ، أعني ابن أبي عمرو ، وكيف لا وهذا سيبويه يقول : وهذا مثال ولا  
يتكلم به ، فإذا صح أن المثال قد يكون تقريباً فلا يلزم صحة المثال ولا فساد  
الممثل لفساده ، فهذان القولان من أصل واحد .

١ كذا وفي نيل الابتهاج : أخذك .

٢ نيل الابتهاج : وإن الأمر فوقهما .

وشهدت مجلساً آخر عند هذا السلطان قرىء فيه على أبي زيد ابن الإمام حديث « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » في صحيح مسلم ، فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حنبل السلوي : هذا الملقن محتصر حقيقة ميت مجازاً ، فما وجه ترك مختصر يكتم إلى موتاكم ، والأصل الحقيقة ؟ فأجاب أبو زيد بجواب لم يقنعه ، وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض « التنقيح » فقلت : زعم القراني أن المشتق إنما يكون حقيقة في الحال ، مجازاً في الاستقبال ، مختلفاً فيه في الماضي ، إذا كان محكوماً به ، أما إذا كان متعلقاً بالحكم كما هنا فهو حقيقة مطلقاً إجماعاً ، وعلى هذا التقرير لا مجاز ، فلا سؤال ، لا يقال : إنه احتج على ذلك بما فيه نظر ، لأننا نقول : إنه نقل الإجماع ، وهو أحد الأربعة التي لا يطالب مدعيها بالدليل ، كما ذكر أيضاً ، بل نقول : إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق ، كما أساء اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها ، بل هذا أشنع ، لكونه ممّا علم من الدين بالضرورة ، ثمّ إنّنا لو سلّمنا نقي الإجماع فلنا أن نقول : إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة ، لأن تلقيه قبل ذلك إن لم يدهش فقد يوحش ، فهو تنبيه على وقت التلقين : أي لقنوا منّ تحكّمون بأنه ميت ، أو نقول : إنّما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام ، ألا ترى اختلافهم فيه : هل أخذ من حضور الملائكة ، أو حضور الأجل ، أو حضور الجلاّس ، ولا شك أن هذه حالة خفية يحتاج في نصبها دليلاً على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها ، وهو ما ذكرناه ، أو من حضور الموت ، وهو أيضاً ممّا لا يعرف بنفسه ، بل بالعلامات ، فلمّا وجب اعتبارها وجب كون تلك التسمية إشارة إليها ، والله تعالى أعلم .

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبي زيد « وإذا سلّم الإمام فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف » : إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلم منّ خلفه ، لثلاث يمر بين يدي أحد ، وقد ارتفع عنه حكمه ، فيكون كالدخول مع المسبوق ، جمعاً بين الأدلة ، قلت : وهذا من مَلَحَ الفقيه .

اعترض عند أبي زيد قول ابن الحاجب « ولبن الآدمي والمباح طاهر » بأنه إنما يقال في الآدمي لبان ، فأجاب بالمنع ، واحتج بقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، « اللبن للفحل » وأجيب بأن قول ذلك لتشريكه المباح معه في الحكم ؛ لأن اللبان خاص به ، وليس موضع تغليب ، لأن اللبان ليس بعاقل ، ولا حجة على تغليب ما يختص بالعاقل .

تكلم أبو زيد يوماً في مجلس تدرسه في الجلوس على الحرير ، فاحتج إبراهيم السلوي للمنع بقول أنس : « فقمتم إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبسنا » فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراش فحسب ، لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها ، وذكر حديثاً فيه تغطية الحصير ، فقلت : كلا الأمرين يسمى لباساً ، قال الله عز وجل ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (البقرة : ١٨٧) وفيه بحث .

كان أبو زيد يصحف قول الخونجي في الحمل والمقارنات التي يمكن اجتماعه معها فيقول : « والمفارقات » ولعله في هذا كما قال أبو عمرو ابن العلاء للأصمعي لما قرأ عليه :

وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَابِنٌ بِالضَيْفِ تَامِرٌ

فقال :

وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَا تَنِي بِالضَيْفِ تَامِرٌ

فقال : أنت في تصحيفك أشعر من الخطيئة ، أو كما حكى عمّن صلى بالخليفة في رمضان ولم يكن يومئذ يحفظ القرآن ، فكان ينظر في المصحف ، فصحف آيات : صنعة الله ، أصيب بها من أساء ، إنما المشركون نحس ، وعددها



أباه ، تقيّة الله خير لكم ، هذا أن دعوا للرحمن ولدأ ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يعنيه .

سمعت أبا زيد يقول : إن أبا العباس الغماري التونسي أول من أدخل « معالم » الإمام فخر الدين للمغرب ، وبسبب ما قفل به من الفوائد رحل أبو القاسم ابن زيتون .

وسمعه يقول : إن ابن الحاجب ألف كتابه الفقهي من ستين ديواناً<sup>١</sup> ، وحفظت من وجادة أنه ذكر عند أبي عبد الله ابن قطرال المراكشي أن ابن الحاجب اختصر « الجواهر » فقال : ذكر هذا لأبي عمرو حين فرغ منه فقال : بل ابن شاس اختصر كتابي ، قال ابن قطرال : وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس ، والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلاّ في الشيء اليسير ، فهما أصلاه ومعتمدها ، ولا شك أن له زيادات وتصرفات تنبئ عن رسوخ قدمه وبُعد مداه .

وكان أبو زيد<sup>٢</sup> من العلماء الذين يخشون الله ، حدثني أمير المؤمنين المتوكل أبو عنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد ، فقال له أبو زيد : لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال ، وتصلي ركعتين كما فعل علي بن أبي طالب ، وسأله أبو الفضل ابن أبي مدين الكاتب ذات يوم عن حاله ، وهو قاعد ينتظر خروج السلطان ، فقال له : أما الآن فأنا مشرك ، فقال : أعينك من ذلك ، فقال : لم أرد الشرك في التوحيد ، لكن في التعظيم والمراقبة ، وإلاّ فأني شيء جلوسي ههنا ؟

والشيء بالشيء يُذكر ، قمت ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن

١ ابن الحاجب : عثمان بن عمر بن يونس جمال الدين المصري (٦٤٦ - ) له مختصر في الفقه المالكي يعرف عادة باسم « فرعي ابن الحاجب » أو المختصر الفقهي ومختصر في أصول الفقه يسمى « أصلي ابن الحاجب » وهو مختصر كتابه منتهى السؤل (انظر مقدمة ابن خلدون : ١٠٢٥) .

٢ النص في نيل الابتهاج : ١٤٠ .

ينتظر خروجه ، فقام إلى جانبي شيخ من الطلبة ، وأنشدني لأبي بكر ابن خطاب<sup>١</sup>  
رحمه الله تعالى :

أبصرتُ أبوابَ الملوكِ تَغصُّ بالِ راجينِ إدراكِ العُلا والجاهِ  
مَرَقِبِينَ لها فمهما فَتَحَتْ خَرَّوا لأذقانِ لهم وجِباهِ  
فأنفَتُ من ذاكِ الزحامِ وأشفقتُ نفسي على إنضاءِ جسمي الواهي  
ورأيتُ بابَ الله ليسَ عليه من متزاحمٍ ، فقصدتُ بابَ اللهِ  
وجعلتُهُ من دونهم لي عُدَّةٌ وأنفَتُ من غيبي وطولِ سفاهي

يقول جامع هذا المؤلف: رأيت بخط عالم الدنيا ابن مرزوق على هذا المحل  
من كلام مولاي الجلد مقابل قوله « ورأيت باب الله » ما صورته : قلت ذلك  
لسعته أو لقلته أهله :

إنَّ الكرامَ كثيرٌ في البلاد ، وإن قتلوا ، كما غيرهم قُلٌّ وإن كثروا  
﴿ قُلْ لا يَسْتَوِي الْحَيِّثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ - الآية ( المائدة : ١٠٠ ) انتهى .

رجع إلى كلام مولاي الجلد - قال رحمه الله تعالى ورضي عنه : وحدثني  
شيخ من أهل تلمسان أنه كان عند أبي زيد مرة ، فذكر القيامة وأهوالها فبكي ،  
فقلت : لا بأس علينا وأنتم أمامنا ، فصاح صيحةً ، واسودَّ وجهه ، وكاد يتفجر  
دماً ، فلما سُرِّي عنه رفع يديه وطرفه إلى السماء وقال : اللهم لا تفضحنا مع  
هذا الرجل ، وأخباره كثيرة .

وأما شقيقه أبو موسى فسمعت عليه كتاب مسلم ، واستفدت منه كثيراً ،

١ هو عزيز بن خطاب المرسى كان في أول أمره ناسكاً زاهداً واستمر على هذه الطريقة حتى امتحن  
برياسة بلده سنة ٦٣٦ فخاض في سفك النماء واجترأ على الأموال من غير وجهها إلى أن قتل في  
العام نفسه ( ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ١٤٤ وصلة الصلة : ١٦٥ والتكملة رقم ١٩٥٢ .  
واختصار القديح : ١٢٦ والمغرب ٢ : ٢٥٢ وأعمال الأعلام : ٣١٥ والحلة السراء ٢ : ٣٠٨ ) .

فمما سألته عنه قول ابن الحاجب في الاستلحاق « وإذا استلحق مجهول النسب » إلى قوله « أو الشرع بشهرة نسبه » كيف يصح هذا التسم مع فرضه مجهول النسب؟ فقال : يمكن أن يكون مجهول النسب في حال الاستلحاق ، ثم يشتهر بعد ذلك ، فيبطل الاستلحاق ، فكأنه يقول : ألحقه ابتداءً ودواماً ، ما لم يكذبه أحد ، هذه هي إحدى الحالتين ، إلا أن هذا إنما يتصور في الدوام فقط . ومما سألته عنه أن الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على ما يوهم القطع ، وكثيراً ما ينكشف الأمر بخلافه ، ولو كتبوا مثلاً ظاهر الصحة والجواز والطوع لبرئوا من ذلك ، فقال لي : لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم لم يحمل ذكر الظن ولا ما في معناه احتمال ، فإذا أمكن العلم بمضمونها لم يجز أن يحمل على غيره ، فإذا تعذر كما هاهنا بنى باطن أمرها على غاية ما يسعه فيه الإمكان عادة ، وأجري ظاهره على ما ينافي أصلها ، صيانة لرونقها ، ورعاية لما كان ينبغي أن تكون عليه لولا الضرورة . قلت : ولذلك عقد ابن فتوح وغيره عقود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير ، مع أن ذلك إنما يدرك بما غاية الظن في الحزر والتخمين ، وكانا معاً يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد .

3 - وممن أخذت عنه أيضاً حافظها ومدرسها ومفتيها أبو موسى عمران ابن موسى بن يوسف المشدالي<sup>١</sup> ، صهر شيخ المدرسين أبي علي ناصر الدين<sup>٢</sup> على ابنته ، وكان قد فر من حصار بجاية فنزل الجزائر ، فبعث فيه أبو تاشفين ، وأنزله من التقريب والإحسان بالمحل<sup>٣</sup> المكين ، فدرّس بتلمسان الحديث والفقاه والأصليين والنحو والمنطق والجدل والفرائض ، وكان كثير الاتساع في الفقه والجدل ، مديد الباع فيما سواهما مما ذكر ، سألته عن قول ابن الحاجب في

١ ترجمة أبي موسى المشدالي في نيل الابتهاج : ٢٠٨ .

٢ هو منصور بن أحمد بن عبد الحق ( - ٧٣١ ) ( راجع ترجمته في نيل الابتهاج : ٣٧٧ وعنوان الدراية : ١٣٤ ) .

السهو « فإن أخال الإعراض فمبطل عمدته » فقال : معناه فإن أخال غيره أنه معرض ، فحذف المفعول لجوازه ، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما في معناه من أنّ وأنّ ، قال الله العظيم ﴿ الم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا ﴾ (النكبت : ١ - ٢) قلت : وأقوى من هذا أن يكون المصدر هو المفعول الثاني ، وحذف الثالث اختصاراً للدلالة المعنى عليه : أي فإن أخال الإعراض كائناً ، كما قالوا : نخلت ذلك ، وقد أعربت الآية بالوجهين ، وهذا عندي أقرب ، ومن هذا الباب ما يكتب به القضاة من قولهم « أعلم باستقلاله فلان » أي أعلم فلان مَنْ يقف عليه بأن الرسم مستقل ، فحذفوا الأول ، وصاغوا ما بعده المصدر .

سئل عمران وأنا عنده عما صُبغ من الثياب بالدم فكانت حمرة منه ، فقال : يُغسل ، فإن لم يخرج شيء من ذلك في الماء فهو طاهر ، لأن المتعلق به على هذا التقدير ليس إلا لون النجاسة ، وإذا عسر قلّعه بالماء فهو عَقْو ، وإلاّ وجب غسله إلى أن لا يخرج منه شيء ، قلت : في البخاري قال معمر : رأيت الزهري يصلّي فيما صُبغ بالبول من ثياب اليمن ، وتفسيره على ما ذكره عمران . وكان قد صاهر لقاضي الجماعة أبي عبد الله ابن هربة على ابنته فلم تزل عنده إلى أن توفي عنها .

4 - ومنهم مشكاة الأنوار ، الذي يكاد زيتته يضيء ولو لم تمسه نار ، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حاكم السلوي ، رحمه الله تعالى . ورد تلمسان بعد العشرين ، ثم لم يزل بها إلى أن قُتل يوم دُخِلَتْ على بني عبد الواد ، وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان عام سبعة وثلاثين وسبعمائة .

قال لي الشيخ ابن مرزوق : ابتداء أمر بني عبد الواد بقتلهم لأبي الحسن السعيد ، وكان أسمر لأم ولد تسمى العنبر ، وختم بقتل أبي الحسن ابن عثمان إياهم ، وهو بصفته المذكورة حدّوك النعل بالنعل ، فسبحان من دَقَّتْ حكمته في كل شيء .

ولما وقف الرفيقان أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري ومحمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي في رحلتهما على قبر السعيد بعباد تلمسان تناول ابن الحكيم فحمة ثم كتب بها على جدار هناك :

انظرُ ففنيَّ إليكَ اليومَ مُعْتَبَرٌ إن كنت ممن بعين الفكر قد لحظا  
بالأمس أدعى سعيداً ، والورى خوَّلي واليوم يدعى سعيداً مَنْ بي اتعظا

قال ابن حكيم : كان أول اتصالي بالأستاذ أبي عبد الله ابن آجروم أني دخلت عليه وقد حفظت بعض كتاب « المفصل » فوجدت الطلبة يعربون بين يديه هذا البيت <sup>١</sup> :

عهدي به الحيَّ الجميعَ وفيهمُ قبلَ التفرُّقِ ميسِرٌ ونِدامُ

وقد عُمِّي عليهم خبر « عهدي » فقلت له : قد سدت الحال - وهي الجملة بعده - مسده ، فقال لي بعض الطلبة : وهل يكون هذا في الجملة كما كان في قولك « ضربني زيدا قائماً » ؟ فقلت له : نعم ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

ذكر أبو زيد ابن الإمام يوماً في مجلسه أنه سُئِلَ بالمشرق عن هاتين الشرطيتين ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون ﴾ (الأنفال : ٢٣) فإنهما تستلزمان بحكم الإنتاج لو علم الله فيهم خيراً لتولّوا ، وهو محال ، ثمّ أراد أن يرى ما عند الحاضرين ، فقال ابن حكيم : قال الخونجي : والإهمال بإطلاق لفظ لو وإن في المتصلة ، فهاتان القضيتان على هذا مهملتان ، والمهملة في قوة الجزئية ، ولا قياس عن جزئيتين . فلما اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين وأخبرته بهذا ، وبما أجاب به الزمخشري وغيره ، ممّا يرجع إلى انتفاء تكرر الوسط ، قال لي : الجوابان في المعنى سواء ، لأن القياس على

١ البيت للبيد ، ديوانه : ٢٨٨ .

الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرر الوسط ؛ فأخبرت بذلك شيخنا الآبلي .  
 فقال : إنما يقوم القياس على الوسط ، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من  
 جزئيتين ، ولا سالتين ، إلى سائر ما يشترط ، فقلت : ما المانع من كون هذه  
 الشروط تفصيلاً لمجمل ما ينبنى عليه من الوسط وغيره ، وإلا فلا مانع غير  
 ما قاله ابن حسين ، قال الآبلي : وقد أجبت بجواب السلوي ، ثم رجعت إلى ما  
 قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية لأن الشرطية لا تنتج جزئية ،  
 فقلت : هذا فيما يساق منها للحجة ، مثل ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ﴾  
 (الأنبياء: ٢٢) أما في مثل هذا فلا .

ولما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن ابن فرحون نزيل طيبة على تربتها  
 السلام سأل ابن حكيم عن معنى هذين البيتين :

رأت قَمَرَ السماء فأذكرني لياليَ وصلِّها بالرقمتين  
 كلانا ناظرٌ قَمَرًا ولكن رأيتُ بعينها ورأتُ بعيني

ففكر ثم قال : لعل هذا الرجل كان ينظر إليها ، وهي تنظر إلى قمر السماء ،  
 فهي تنظر إلى القمر حقيقة ، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة ، فقد رأى  
 بعينها لأنها ناظرة الحقيقة ، وأيضاً فهو ينظر إلى قمر مجازاً ، وهو لإفراط  
 الاستحسان لها يرى أن قمر السماء هو المجاز ، فقد رأته بعينه ، لأنها ناظرة  
 المجاز .

قلت : ومن ههنا تعلم وجه الفاء في قوله « فأذكرني » لأنه لما صارت رؤيتها  
 رؤيته ، وصار القمر حقيقة إياها ، كان قوله « رأته قمر السماء فأذكرني »  
 بمثابة قولك أذكرني ، فتأمله فإن بعض مَنْ لا يفهم كلام الأستاذ حقَّ الفهم  
 ينشده « وأذكرني » فالفاء في البيت الأول مبنية على معنى البيت الثاني ، لأنها

مبنية عليه ، وهذا النحو يسمى الإيذان في علم البيان .  
ولما اجتمعنا بأبي الوليد ابن هانيء مقدمه علينا من غرناطة سألت ابن حكيم عن  
تكرار مَنْ في قوله تعالى ﴿سواء مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾  
(الرعد : ١٠) دون ما بعدها ، فقال : لولا تكررها أولاً لتوهم التضاد بتوهم  
اتحاد الزمان ، فارتفع بتكرار الموضوع ، أما الآخر فقد تكرر الزمان ، فارتفع  
توهم التضاد ، فلم يحتج إلى زائد على ذلك ، فقلت : فهلاً اكتفى بسواء عن  
تكرار الموضوع ، لأن التسوية لا تقع إلا بين أمرين ، وإنما الجواب عندي أنها  
تكررت أولاً على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كل واحد منهما أن تقع عليه ،  
ثم اختصرت ثانياً لفهم المراد من التفصيل بالأول مع أمن اللبس ، وقد أجاب  
الزمخشري بغير هذين فانظره .

سألني ابنُ حكيم المذكور عن نسب المجيب في هذا البيت :

ومُهتَهِفِ الأعْطَافِ قَلتَ لَه انْتَسَبَ فَأجَابَ مَا قَتَلَ المُحِبَّ حَرَامُ  
ففكرت ثم قلت : أراه تيميةً ، لإلغائه « ما » النافية ، فاستحسنه مني لصغر  
سنِّي يومئذ .

تذاكرت يوماً مع ابن حكيم في تكملة البلدر بن محمد بن مالك لـ « شرح  
التسهيل » لأبيه ، ففضلت عليه كلام أبيه ، ونازعي الأستاذ ، فقلت :

عهد من الآبا توارثها الأبا

فما رأيت بأسرع من أن قال :

بَنَوُا مَجْدَهَا لَكِن بَنُوهم لَهَا أَبتِي

فبهتُ من العجب<sup>٢</sup> .

١ ص : نظرت ؛ ق : وتكلمت .

٢ ق : التمتع .

وتوفي الشيخ ابن مالك سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وفيها ولد شيخنا عبد المهيمن الحضرمي ، فقيل : مات فيها إمام نحو ، وولد فيها إمام نحو .

سألت ابن حكيم عن قول فخر الدين في أول المحصل « وعندي أن شيئاً منها غير مكتسب »<sup>١</sup> بمعنى لا شيء ولا واحد ، هل له أصل في العربية أو هو كما قيل من بقايا عجمته ؟ فقال لي : بل له أصل ، وقد حكى ابن مالك مثله عن العرب ، فلم يتفق أن أستوقفه عليه ، ثم لم أزل أستكشف عنه كل من أظن أن لديه شيئاً منه<sup>٢</sup> ، فلم أجد من عنده أثارة منه ، حتى مرّ بي في باب الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر الداخلة عليها « كان » من « شرح التسهيل » قوله « فإن تقدم على الاستفهام أحد المفعولين نحو « علمت زيدا أبو من هو » اختير نصبه ، لأن الفعل مسلط عليه ، فلا مانع ، ويجوز رفعه ، لأنه والذي بعد الاستفهام شيء واحد في المعنى فكأنه في حيز الاستفهام ، والاستفهام مشتمل عليه ، وهو نظير قوله : إن أحد إلا يقول ذلك ، وأحد هذا لا يقع إلا بعد نفي ، ولكن لما كان هنا والضمير المرفوع بالقول شيئاً واحداً في المعنى تنزل منزلة واقع بعد نفي ، فعلمت أنه نحا إلى هذا ، لأن شيئاً ههنا والضمير المرفوع بمكتسب المنفي في المعنى شيء واحد ، فكان شيئاً كأنه وقع بعد غير : أي بعد النفي .

سأل ابن فرحون ابن حكيم : هل تجد في التنزيل ست فاءات مرتبة ترتيبها في هذا البيت :

رأى فحباً فرامَ الوصلَ فامتنتُ فسامَ صبراً فأعيا نَيْلهُ فقَصَى

ففكر ثم قال : نعم ﴿ فطافَ عليها طائفٌ من ربِّكَ وهم نائمون - إلى آخره ﴾ (القلم : ١٩) فمنعت له البناء في (فتنادوا) فقال لابن فرحون : فهل عندك غيره ؟ فقال : نعم ﴿ فقال لهم رسولُ الله - إلى آخر السورة ﴾ فمنع له

١ المحصل : ٣ ؛ القول في التصورات وعندي . . . إلخ .

٢ ق ص : عنه .



بناء الآخرة لقراءة الواو ، فقلت : امنع ولا تسند فيقال لك : إن المعاني قد تختلف باختلاف الحروف ، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه ، وأكثر ما وجدت الفاء تنتهي في كلامهم إلى هذا العدد ، سواء بهذا الشرط وبدونه ، كقول نوح عليه السلام : ﴿ فعلى الله توكلتُ - الآية ﴾ (يونس : ٧١) وكقول امرئ القيس :

غشيتُ ديار الحبي بالبكرات

البيتين<sup>١</sup> - لا يقال : فالجب سابع ، لأننا نقول : إنه عطف على « عاقل » المجرد منها ، ولعل حكمة الستة أنها أول الأعداد التامة كما قيل في حكمة خلق السموات والأرض فيها ، وشأن اللسان عجيب .

وقوله في هذا البيت « فجب » لغة قليلة جرى عليها محبوب كثيراً ، حتى استغني به عن محب ، فلا تكاد تجده إلا في قول عنزة :

ولقد نزلتِ فلا تظني غيره<sup>٢</sup> مني بمنزلة المحب المكرم

ونظيره محسوس من حس والأكثر أحس ولا تكاد تجد محسباً ، وهذا التوجيه أحسن من قول القرافي في « شرح التنقيح » : إنهم أجروا محسوسات مجرى معلومات لأن الحس أحد طرق العلم .

سمعت ابن حكيم يقول : بعث بعض أدباء فاس إلى صاحب له :

ابعث إلي بشيء مدار فاس عليه

وليس عندك شيء مما أشير إليه

فبعث إليه ببطة من مري<sup>٢</sup> ، يشير بذلك إلى الرياء .

١ هما قول امرئ القيس :

غشيت ديار الحبي بالبكرات فارمة فبرقة الميرات

فقول فعليت فأكتاف منج إلى عاقل فالجب ذي الأمرات

٢ قد شرحنا من قبل لفظة « مري » ( ج ٣ : ٩٢ ) وأما « البطة » فهي إناء كالقارورة يعمل على شكل بطّة .

وحدث<sup>١</sup> أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الملجوم حضر وليمة ، وكان كثير البلغم ، فوضع بين يديه صهره أبو العباس ابن الأشقر غضاراً من اللون المطبوخ بالمرى لمناسبته لمزاجه ، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء . وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع في الناس ، فناوله القاضي غضار المقروض ، فاستحسن الحاضرون فطنته .

5 - ومنهم عالم الصلحاء ، وصالح العلماء ، وجليس التنزيل ، وحليف البكاء والعريل ، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصي<sup>٢</sup> خطيب جامع القصر الجديد ، وجامع خطبي التحديث والتجويد ، ويسميه أهل مكة البكاء ، ولما قدم أبو الحسن علي بن موسى البحيري سأل عنه ، فقيل له : لو علم بك أذاك ، فقال : أنا آتي من سمعت سيدي أبا زيد الهزميري يقول له لأول ما رآه ولم يكن يعرفه قبل ذلك : مرحباً بالفتى الخاشع ، أسمعنا من قراءتك الحسنة .

دخلت عليه بالفقيه أبي عبد الله السطي في أيام عيد ، فقدم لنا طعاماً ، فقلت : لو أكلت معنا ، فرجونا بذلك ما يرفع من حديث « مَنْ أَكَلَ مَعَ مَغْفُورٍ لَهُ غُفِرَ لَهُ » فتبسم وقال لي : دخلت على سيدي أبي عبد الله الفاسي بالإسكندرية ، فقدم طعاماً ، فسألته عن هذا الحديث ، فقال : وقع في نفسي منه شيء ، فرأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في المنام ، فسألته عنه ، فقال لي : لم أقله ، وأرجو أن يكون كذلك .

وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعيدي بمصافحته أبا العباس أحمد الملم بمصافحته المعمر بمصافحته رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

١ ق : ذكر .

٢ ترجمة المجاصي في نيل الابتهاج : ١٢١ ونقل بعض ما قاله المقرئ الجد فيه .

وسمعه يحدث عن شيخه أبي محمد الدلاصي أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد ، فكان يخصه لدينه وعقله بالنسداء باسمه ، وإنما كان ينطق بماليكه يا ساقى ، يا طباخ ، يا مزين ، فنأدى به ذات يوم : يا فرأش ، فظن ذلك لموجدة عليه ، فلما لم ير أثر ذلك ، وتصورت له به خلوة ، سأله عن مخالفته لعادته معه ، فقال : لا عليك ، كنت حينئذ جنُباً ، فكرهت ذكر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في تلك الحالة .

ومما نقلته من خط المجاصي ثم قرأته عليه فحدثني به قال : حدثني القاضي أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى بن أبي بكر ابن عصفور قال : حدثني جدي يحيى المذكور ، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبي المقرئ بتلمسان ، حدثنا الحافظ أبو محمد - يعني والله أعلم عبد الحق الإشبيلي - أخبرنا<sup>١</sup> أبو غالب أحمد ابن الحسن المستعمل ، أخبرنا أبو الفتوح عبد الغافر بن الحسين بن أبي الحسن ابن خلف الألمي ، أخبرنا<sup>٢</sup> أبو نصر أحمد بن إسحاق النيسابوري ، أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني ، أخبرنا محمد بن علي بن الحسين العلوي ، أخبرنا عبد الله بن إسحاق اللغوي وأنا سألته ، أخبرنا إبراهيم بن الهيثم البلدي ، أخبرنا عبد الله بن نافع بن عيسى بن يونس عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : قال لي جبريل : ألا أعلمك الكلمات التي قالهن موسى حين انفلق له البحر ؟ قلت : بلى ، قال قل : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وبك المستغاث ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال ابن مسعود : فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ثم تسلسل الحديث على ذلك ، كل أحد من رجاله يقول : ما تركتهن منذ سمعتهن من فلان ، لشيخه ، وقد سمعت المجاصي

١ ق : حدثنا ، حيث وقعت .

٢ أخبرنا أبو الفتوح . . . أخبرنا : سقطت من ق .

يكررها كثيراً ، وما تركتهن منذ سمعتهن منه .

وأنشدني المجاصي قال : أنشدني نجم الدين الواسطي ، أنشدني شرف الدين  
الديماطي ، أنشدني تاج الدين الأرموي مؤلف « الحاصل » ، قال : أنشدني الإمام  
فخر الدين لنفسه ١ :

نهاية إقدام العقول عقالٌ وأكثُرُ سعي العالمين ضلالٌ  
وأرواحنا في وحشةٍ من جسمنا ٢ وحاصلُ دنيانا أذى ووبالٌ  
ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا  
وكم من رجالٍ قد رأينا ودولة ٣ فبادوا جميعاً مُسرعينَ وزالوا  
وكم من جبالٍ قد علتْ شرفاتها رجالٌ فماتوا والجبالُ جبالٌ

وتوفي المجاصي في العشر الأخر من شهر ربيع الأول ، عام أحد وأربعين  
وسبعمائة .

6 - ومنهم الشيخ الشريف القاضي الرحلة المعمر أبو علي حسن بن يوسف  
ابن يحيى الحسيني السبتي .

أدرك أبا الحسين ابن أبي الربيع وأبا القاسم العزفي واختص بابن عبيدة وابن  
الشاط ، ثم رحل إلى المشرق فلقي ابن دقيق العيد وحلّبه ، ثم قفل فاستوطن  
تلمسان إلى أن مات بها سنة أربع وخمسين ، أو ثلاث وخمسين وسبعمائة ، قرأ  
علينا حديث الرحمة وهو أول حديث سمعته منه ، حدثنا الحسن بن علي بن عيسى  
ابن الحسن اللخمي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا ٤ علي بن المظفر بن  
القاسم الدمشقي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفرج محمد بن عبد  
الرحمن بن أبي العز الواسطي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو العز

١ وردت الأبيات في ترجمة فخر الدين في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٢٨ .

٢ ابن أبي أصيبعة : عتلة .

٣ ابن أبي أصيبعة : وكم قد رأينا من رجال ودولة .

٤ ق : حدثنا ، حيثما وقت .

عبد المغيث بن زهير ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامي ، وهو أول حديث سمعته منه ( ح ) . قال الحسن بن علي : وحدثنا أيضاً عالياً الحسن بن محمد البكري ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفتوح محمد بن محمد بن محمد بن الجعيد الصوفي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا زاهر بن طاهر ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي الفضائل عبد الوهاب بن صالح عُرْفَ بابن المغرب إمام جامع همدان بها ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو منصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك ، وهو أول حديث سمعته منه ، حفظاً ، أخبرنا أبو الطاهر محمد بن محمد بن محمد بن مخمش<sup>١</sup> الزيادي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا سفيان بن عيينة ، وهو أول حديث سمعته منه ، عن عمرو ابن دينار ، عن أبي قابوس مولى لعبد الله بن عمرو بن العاص ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

( ح ) وحدثني الشريف أيضاً كذلك بطريقه عن السلفي بأحاديثه المشهورة فيه ، وهذا الحديث أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

قال لي الشريف : قال لي القاضي أبو العباس الرندي : لما قدم أبو العباس ابن الغماز<sup>٢</sup> من بلنسية نزل بجاية ، فجلس بها في الشهود مع عبد الحق بن ربيع<sup>٣</sup> ،

١ ابن مخمش : سقطت من ق ؛ وفي ص : مخمش .

٢ هو أحمد بن محمد بن الحسن ابن الغماز الأنصاري نزل بجاية وولي قضاءها وإقامة الصلوات بجامعها الأعظم وتوفي بتونس ( ٦٩٣ ) ، انظر النبريني : ٧٠ - ٧٢ .

٣ لعبد الحق ترجمة مسهبة في النبريني ٣٢ - ٣٦ .

فجاء عبد الحق يوماً وعليه برنس أبيض ، وقد حسنت شارته وكملت هيأته ،  
فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده :

لَبِيسَ البرنسِ الفقيهِ فباهي ورأى أنه المليحُ فتأها  
لو زليخا رأته حين تَبَدَّى لَتَمَنَّتَهُ أن يكونَ فتأها

وبه أن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة ، فنزل الشهود من  
المثذنة وأخبروا أنهم لم يهئوه ، وجاء حفيد له صغير ، فأخبره أنه أهله ،  
فردهم معه ، فأراهم إياه ، فقال : ما أشبه الليلة بالبارحة ، وقع لنا مثل هذا مع  
أبي الربيع ابن سالم ، فأنشدنا فيه :

تواری هلال الأفق عن أعين الوری وأرخی حجاب الغيمِ دونَ محياهُ  
فلما تصدَّى لارتقاب شقيقه تَبَدَّى له دون الأنامِ فحياهُ

سمعت الشريف يقول : أول زجل عمل في الدنيا :

بالله يا طيرُ مدللٌ مرٌّ بي وسطَ القِفارِ  
إياك تجددُ لعاده ترمي حجيرة في داري

7 - ومنهم قاضي جماعتها وكاتب خلافتها وخطيب جامعها ، أبو عبد الله  
محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي<sup>1</sup> ، من ولد عقبة بن نافع الفهري ، نزلها  
سلفه قديماً ، وخلقها بها إلى الآن ، توفي في أواسط سنة خمس وثلاثين وسبعمائة  
وشهد جنازته سلطانها يومئذ أبو تاشفين ، وولى ابنه أبا علي منصوراً مكانه يومئذ ،  
ولما ثقل لسانه دعا ابنه هذا فقال له : اكتب هذين البيتين فلائي نظمتهما على هذه  
الحالة ، فكتب :

إلهي مضت للعمر سبعون حجةً جنيتُ بها لماً جنيتُ الدواهيا

١ ترجمة ابن هدية في المرقبة العليا : ١٣٤ وذكر أن وفاته صدر سنة ٧٣٦ .

وعبدك قد أمسى عليل ذنوبه فجد لي برحمتك، نعم الدوا هيا  
ولما ورد الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد المكوذي من المغرب رفع إليه

قصيدة أولها :

سَرَتْ والدجى لم يبقَ إلا يسيرها نسيمُ صَباً يحبي القلوبَ مسيرها

وفيها الأبيات العجائب التي سارت سير الأمثال ، وهي قوله :

وفي الكيلةِ الحمراء حمراء لو بدتْ لشكلى لوتى تُكلها وتُبورُها  
فما يستوي مثوى لها من سوى القنا خيام، ومن بيضُ الصفاح ستورها  
وما بسوى صدقِ الغرامِ أرومها ولا بسوى زورِ الخيال أزورها

فأحسن إليه ، وكلم السلطان حتى أرسل جرابته عليه ، وقد شهدت المكوذي  
وهذه القصيدة تُقرأ عليه .

8 - ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي<sup>١</sup>.

أدرك ابن زيتون ، وأخذ عن أبي الطاهر ابن سرور وحلّيته ، وعنه أخذت  
شرح المعالم له ، وولي القضاء بتلمسان مرات ، فلم تستفزه الدنيا ، ولا باع القفر  
بالغنى .

9 - ومنهم<sup>٢</sup> أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور<sup>٣</sup> .

قاضي الجماعة بعد ابن أبي عمرو ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، لقي بها

١ سقطت هذه الترجمة من ق .

٢ ق : ومنهم القاضي .

٣ ترجمة ابن عبد النور في التعريف : ٤٦ وجزوة الاقتباس : ١٩٠ ونيل الابتهاج : ٢٤٠ وهو  
ندرومي أي ينسب إلى ندرومة في الشمال الغربي من تلمسان .

جلال الدين القزويني وحلّبته ، وتوفي بتونس في الوباء العام في حدود الخمسين وسبعمائة .

10 - ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسين البروني<sup>١</sup> .

قدم عليها من الأندلس ، فأقام إلى أن مات . سمعته يقول : البقر العدوية كالإبل المهملّة في الصحراء ، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها ، لكن بعد أن تمسك ويستولى عليها .

11 - ومنهم أبو عمران موسى المصمودي ، الشهير بالبخاري .

سمعت البروني يقول : كان الشيخ أبو عمران يدرس صحيح البخاري ، ورفيق له يدرس صحيح مسلم ، فكانا يُعرفان بالبخاري ومسلم ، فشهدا عند قاضٍ فطلب المشهود عليه الإعذار فيهما ، فقال له أبو عمران : أتمكنه من الإعذار في الصحيحين ؟ فضحك القاضي ، وأصلح بين الخصمين .

سألته عمّا ضربه ابن هدية عليه من إباحة الاستياك في رمضان بقشر الجوز فقال لي : نعم ، وبيلع ريقه ، تأول ، رحمه الله تعالى ، أن الخصال المذكورة في السواك إنما تجتمع في الجوز ، فكان يحمل كل ما روى فيه عليه ، وهذا غلط فاحش ، لأن العرب لا تكاد تعرفه ، ونظر إلى ما في البخاري من قوله بعد أن ذكر جواز السواك للصائم « ولا بأس أن يبتلع ريقه » يعني الصائم في الجملة ، فحملة على المستاك بالجوز ، وكان رحمه الله تعالى قليل الإصابة في الفتيا ، كثير المصيبات عليها .

12 - ومنهم نادرة الأعصار : أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النجار<sup>٢</sup> .

١ انظر نيل الابتهاج : ٢٢٨ .

٢ ترجمة ابن النجار في التعريف : ٤٧ ونيل الابتهاج : ٢٣٩ وجذوة الاقتباس : ١٩٠ وسماء ابن خلدون « شيخ التعاليم » وذكر أنه كان إماماً في علوم النجامة وأحكامها وما يتعلق بها .



قال لي العلامة الآبلي : ما قرأ أحد عليّ حتى قلت له : لم أُبقِ عندي ما أقول لك غير ابن النجار .

سمعت ابن النجار يقول : مر عمل الموقتين على تساوي فضلي ما بين المغرب والعشاء والفجر والشمس ، فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثماني عشرة درجة ، وبالفجر لبقائها ، والجارى على مذهب مالك أن الشفق الحمرة ، وأن تكون فضلة ما بين العشاءين أقصر ؛ لأن الحمرة ثانية الغوارب والطوالع ، فتزيد فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمرة والشمس ، فعرضت كلامه هذا على المزوار أبي زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي ، فصوّبه .

وذكرت يوماً<sup>١</sup> حكاية ابن رشد الاتفاق في الخمر إذا تخللت بنفسها أنها تطهر ، واعترضته بما في «الإكمال» عن ابن وضاح أنها لا تطهر ، فقال لي : لا معتبر بقول ابن وضاح هذا ، لأنه يلزم عليه تحريم الخل ، لأن العنب لا يصير خلاً حتى يكون خمرأ ، وفيه بحث .

وذكرت يوماً قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقرابة «وهي أصول وفصول ، وفصول أول أصوله ، وأول فصل من كل أصل وإن علا» فقال : إن تركب لفظ التسمية<sup>٢</sup> العرفية من الطرفين حلت ، وإلا حُرمت ، فتأملته فوجدته كما قال ، لأن أقسام هذا الضابط أربعة : التركب من الطرفين كابن العم وابنة العم مقابله كالأب والبنت ، التركب من قبيل الرجل كابنة الأخ والعم مقابله كابن الأخت<sup>٣</sup> والحالة .

وأنشدت يوماً عنده على زيادة اللام<sup>٤</sup> :

باعدَ أمَّ العَمْرِ من أسيرها . . .

١ قارن بما ورد في نيل الابتهاج : ٢٣٩ .

٢ نيل الابتهاج : بقضية النسبة .

٣ نيل الابتهاج : الأخ .

٤ تمام هذا الرجز : «حراس أبواب على قصورها» .

فقال لي : وما يدريك أنه أراد العَمَرَ الذي أراده المعري بقوله <sup>١</sup> :

وعَمَرَ هِنْدٍ كَأَنَّ اللَّهَ صَوَّرَهُ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ يُعْتَبِي النَّاسَ تَعْنِينَا

وأضاف اللام إليه كما قالوا : أم الحليس ، قلت : ولا يندفع هذا بثبوت كون المعنية تكني أم عمرو ؛ لأن ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخر ، فتكون : أم عمرو ، وأم العمر .

قال ابن النجار : بعث بهذه الأبيات من نظمي إلى القاضي أبي عبد الله ابن هدية فأخرج لغزها :

إنَّ حروف اسمٍ مَن كلفتُ به      خَفَّتْ على كلِّ ناطقٍ بفمٍ -  
سائفةٌ سهلةٌ مخارجها      من أجل هذا تزداد في الكليم -  
صحفهُ ثمَّ أقلبِنْ مصحفهُ      فعلٌ ذكيٌّ مهذبٌ فهمٍ -  
واطلبهُ في الشعرِ جدَّ مطلبه      تجده كالصبحٍ لاحٍ في الظلمِ <sup>٢</sup> -  
فإنَّ تأملتَ بيتَ منهُ على      علمٍ ، وإلاَّ فأنتَ عنهُ عمي

واللغز « سلمان » وموضعه تأملت بت ، وتوفي رحمه الله تعالى بتونس أيام الوباء العام .

13 - ومنهم الأستاذ المقرئ الراوية الرحلة أبو الحسن علي بن أبي بكر ابن سبع بن مزاحم المكناسي .

ورد علينا من المشرق ، فأقام معنا أعواماً ، ثم رحل إلى فاس ، فتوفي بها في الوباء العام ، جمعت عليه السبع ، وقرأت عليه البخاري والشاطبيتين وغير

١ شروح السقط : ١٦٢٦ ، وعبر هند : يعني قرط هند ، وعمرو بن هند : أحد ملوك الحيرة كان يعرف بالعرف وتعني الناس . فقوله في الرجز أم العمر - بإدخال اللام - قد يعني « ذات القرط » .

٢ ق : كالعلم .

ذلك ، فأما البخاري فحدثني به قراءة<sup>١</sup> منه على أحمد بن الشحنة الحجار سنة ثلاثين وسبعمائة ، وكان الحجار قد سمعه على ابن الزبيدي سنة ثلاثين وستمائة ، وهذا ما لا يُعرف له نظير في الإسلام ، وقد قال عبد الغني الحافظ : لا نعرف في الإسلام مَنْ وازاه غير عبد الله بن محمد البغوي في قدم السماع ، فإنه توفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، قال ابن خلاد : سمعناه يقول : أخبرنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني سنة خمس وعشرين ومائتين ، وسمعه ابن الزبيدي على أبي الوقت بسنده ، قال لي ابن مزاحم : هذا طريق كله سماع . وأما الشاطبيتان فحدثني بهما قراءة<sup>٢</sup> عليه لجميعهما عن بدر الدين ابن جماعة ، بقراءتهما عليه عن أبي الفضل هبة الله بن الأزرق ، بقراءتهما عليه عن المؤلف كذلك ، وحدثني بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك ، وغير ذلك .

14 - وممن ورد عليها لا يريد الإقامة بها شيخي وبركتي وقُدوتي أبو عبد الله محمد بن حسين القرشي الزبيدي التونسي<sup>١</sup> .

حدثني بالصحيحين قراءة لبعضهما ومناولة لجميعهما ، عن أبي اليمن ابن عساكر لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور ، وحدثني أيضاً أن أبا منصور العجمي حدثه بمحضر الشيخين والده حسين وعمه حسن وأثنى عليه ديناً وفضلاً أنه أدخل ببعض بلاد المشرق على المعمر<sup>٢</sup> أدخله عليه بعض ولد<sup>٣</sup> ولده ، فألفاه ملفوفاً في قطن ، وسمع له دويلاً كدويّ النحل ، فقيل له : أَلَقَيْتَ رسول الله ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ورأيتَه ؟ قال : نعم ، قلت : ليس في هذا ما يُستراب منه إلاّ الشيخ المعمر ، فإننا لا نعرف حاله ، فإن صح فحدثنا عنه

١ عرف به ابن خلدون في التعريف : ١٤ وقال : كان كبير تونس لمهده في العلم والفتيا وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن الوليين الشهيرين ؛ وذكره ابن بطوطة في رحلته : ١٦ وكانت وفاته سنة ٧٤٠ هـ والزبيدي - بضم الزاي - نسبة إلى قرية ساحل المهديّة .

٢ ولد : سقطت من ق .

ثلاثي ، وقد تركت سنة خمس وأربعين بمصر رجلاً يسمى بعثمان معه تسعون حديثاً يزعم أنه سمعها من المعمر وقد أخذت عنه ، وكتبت منه ، فهذا ثنائي ، وأمر المعمر غريب ، والنفس أميل إلى نفيه .

15 - ومنهم إمام الحديث والعربية ، وكاتب الخلافة العثمانية والعلوية <sup>١</sup> ، أبو محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمي السبتي <sup>٢</sup> .

جمع فأوعى ، واستوهب أكثر المشاهير وما سعى ، فهو المقيم الظاعن ، الضارب القاطن ، سألني عن الفرق <sup>٣</sup> بين علم الجنس واسم الجنس ، فقلت له : زعم الخسرو شاهي أنه ليس بالديار المصرية مَنْ يعرفه غيره ، وأنا أقول : ليس في الدنيا عالم إلاّ وهو يعلمه غيره <sup>٤</sup> ؛ لأنه حكم لفظي أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعَدْلٍ عُمَرَ ونحوه ، فاستحسن ذلك .

وكان ينكر إضافة الحَوْل إلى الله عز وجل ، فلا يميز أن يقال « بحول الله وقوته » قال : لأنه لم يرد إطلاقه ، والمعنى يقتضي امتناعه ؛ لأن الحَوْل كالحيلة أو قريب منها .

وتوفي بتونس أيام الرباء العام .

16 - ومنهم الفقيه المحقق الفَرَضِي المدقق أبو عبد الله محمد بن سليمان بن

١ العثمانية : نسبة إلى عثمان بن يعقوب المريبي ، والعلوية : نسبة إلى علي أبي الحسن المريبي .  
٢ كان والده محمد بن عبد المهيم الحضرمي أبو عبد الله كبير القدر ولي القضاء بسبته لقرابته من رؤسائها بني العزفي سنة ٦٨٣ فقام بالأحكام أجمل قيام ، فلما صار بلده إلى بني نصر أواخر سنة ٧٠٥ صرف إلى غرناطة هو وأقرباؤه فأقام بها مع ابنه الكاتب البار عبد المهيم ، ثم عاد إلى سبته وتوفي سنة ٧١٢ ( المرقبة العليا ١٣٢ - ١٣٣ ) ثم أصبح عبد المهيم الابن كاتباً للسلطان أبي الحسن المريبي وصاحب علامته وكان يعد إمام المحدثين والنحاة بالمغرب ، وعنه أخذ ابن خلدون وغيره ( التعريف : ٢٠ ، ٣٨ ومستودع العلامة : ٥٠ وتاريخ ابن خلدون ٧ : ٢٤٧ وجذوة الاقتباس : ٢٧٩ ونثير الجمان لابن الأحمر والإحاطة : ٣١٥ ) .

٣ ق : سألني الفرق .

٤ وأنا أقول . . . غيره : سقط من ص .

علي السطحي<sup>١</sup> قرأت عليه كتاب الحوفي علماً وعملاً ، قال لي في قول ابن الحاجب « والثمن والثلث والسدس من أربعة وعشرين » : هذا لا يصح ؛ إذ لا يجتمع الثلث والثمن في فريضة ، وقد سبقه إلى هذا الوهم صاحبُ المقدمات ، وسألت عنه ابن النجار فقال لي : إنما أراد المقام لأنه يجتمع مع الثلثين ، والإنصاف أنه لا يحسُن التعبير بما لا تصح إرادة نفسه عن غيره ، فكان الوجه أن يقول : والثلاثان أو ومقام الثلث ، ونحو ذلك ، لأن الثلث إنما يدخل هنا تقديرًا لا تحقيقاً كما في الجواهر ، وانظر باب المدير من كتاب الحوفي ، فإن فيه موافقة السبعة لعدد لا توافقه فهو من باب الفرض ، وعليه ينبغي أن يحمل كلام ابن الحاجب .

17 - 19 - ومنهم الأستاذ أبو عبد الله الرندي ، والقاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي<sup>٢</sup> ، والقاضي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي يحيى ، في كثير من الخلق ، فلنضرب عن هذا .

20 - ومن شيوخي<sup>٣</sup> الصلحاء الذين لقيت بها خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط ، أدرك أبا إسحاق الطيار ، وقد صافحته وأنا صغير ، لأنه توفي سنة تسع وعشرين ، بمصافحته أباه ، بمصافحته الشيخ أبا تميم ، بمصافحته أبا مدين ، بمصافحته أبا الحسن ابن حرزهم ، بمصافحته ابن العربي ، بمصافحته الغزالي ، بمصافحته أبا المعالي ، بمصافحته أبا طالب المكي ، بمصافحته أبا محمد الحريري ، بمصافحته الجُنَيْد ، بمصافحته سرياً ، بمصافحته معروفاً ، بمصافحته داود الطائفي ، بمصافحته حبيباً العجمي ، بمصافحته الحسن البصري ، بمصافحته علي بن أبي طالب ، بمصافحته رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١ السطحي : نسبة إلى قبيلة سطة من بطون أوربة بنواحي فاس وكان أحفظ الناس لمذهب مالك وأفقهم فيه ( انظر ترجمته في التعريف : ٣١ ، ٣٨ ونيل الابتهاج : ٢٤٢ وجلوة الاقتباس : ١٤٢ ) .  
٢ ترجمة الجزولي في نيل الابتهاج : ٢٤٩ وسلوة الأنفاس : ٣ : ٢٧٦ .  
٣ ق : المشايخ .

21 - ومنهم خطيبها المصقع أبو عبد الله محمد بن علي بن الجمال ، أدرك محمد بن رشيد البغدادي<sup>١</sup> صاحب الزهر والوتريات على حروف المعجم والمذهبة وغيرها ، حدثني عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلسه بتلمسان سبعون رجلاً .

22 ، 23 - ومنهم الشقيقان الحاجان الفاضلان أبو عبد الله محمد ، وأبو العباس أحمد<sup>٢</sup> ، ابنا ولي الله أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق العجيسي .

كساني محمد خرقة التصوف بيده ، كما كساه إياها الشيخ بلال بن عبد الله الحبشي خادم الشيخ أبي مدين ، كما كساه أبو مدين ، قال محمد بن مرزوق : وكان مولد بلال سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وخدم أبا مدين نحواً من خمسة عشر عاماً ، إلى أن توفي في عام تسعين وخمسمائة ، ثم عاش بعده أكثر من مائة سنة ، ولبس أبو مدين من يد ابن حرزهم ، ولبس ابن حرزهم من يد ابن العربي ، واتصل اللباس اتصال المصافحة .

24 - ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي الصنهاجي المكتب ، حدثنا عن قاضيهما أبي زيد عبد الرحمن بن علي الدكالي أنه اختصم عنده رجلان في شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر ، وادعى الآخر أنها ضاعت منه ، فأوجب اليمين على المودع عنده ، أنها ضاعت من غير تضييع ، فقال : كيف أضيع وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها ؟ فحكّم عليه بالغرم ، فقيل له في

---

١ محمد بن رشيد البغدادي مجد الدين ( - ٦٦٢ ) يعرف بالوطني لأنه نظم الوتريات وهي قصائد على حروف المعجم تتألف كل واحدة من ٢١ بيتاً في مدح الرسول وأول كل بيت على حرف القافية ، بدأ نظمها بقرنائة سنة ٦٥٢ ثم زاد فيها وعدل منها ، وحج سنة ٦٦١ وقد نشرت باسم « ديوان معدن الإفاضات في مدح أشرف الكائنات » ( بيروت ١٣١٠ ) وعند حاجي خليفة ( ١٩٩٩ ) « ذريعة الوصول إلى زيارة جناب حضرة الرسول » .

٢ انظر نيل الابتهاج : ٢٥١ ، قال التنكيي : وأبو العباس ابن مرزوق هو والد الخطيب ابن مرزوق الجدي ، وأبو عبد الله المذكور عمه .

ذلك ، فقال : تأولت قول عمر « ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع » .

25 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد الغزموني<sup>١</sup> ، مكتبي الأول ،  
ووسيلتي إلى الله عز وجل ، قرأ على الشيخين أبي عبد الله القصري وأبي<sup>٢</sup> حريث  
وحج حجات ، وكان عقد بقلبه أنه كلما ملك مائة دينار عيوناً سافر إلى الحج<sup>٣</sup> ،  
وكان بصيراً بتعبير الرؤيا ، فمن عجائب شأنه فيه<sup>٤</sup> أنه كان في سجن أبي يعقوب  
يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان فيه من أهل تلمسان أيام محاصرته لها ،  
فرأى أبو جمعة ابن علي التلاسي<sup>٥</sup> الجرائحي منهم كأنه قائم على سانية<sup>٦</sup> دائرة  
وجميع قواديسها يصب في نقيز في وسطها ، فجاء ليشرّب ، فلمّا اغترف الماء  
إذا فيه قرث<sup>٧</sup> ودم فأرسله ، ثم اغترف فإذا هو كذلك ، ثلاثاً أو أكثر ، فعدل  
عنه ، فرأى خصه<sup>٨</sup> ماء وشرب منها ، ثم استيقظ وهو النهار فأخبره ، فقال :  
إن صدقت رؤياك فنحن عمّا قليل خارجون من هذا المكان ، قال : كيف ؟  
قال : السانية الزمان ، والنقيز السلطان ، وأنت جرائحي تدخل يدك في جوفه  
فيئالها القرث<sup>٧</sup> والدم ، وهذا ما لا تحتاج معه ، فلم يكن إلاّ ضحوة الغد ، وإذا  
النداء عليه ، فأخرج فوجد السلطان مطعوناً بخنجر ، فأدخل يده فناها القرث  
والدم ، فخاط جراحته ، ثم خرج ، فرأى خصه ماء ، فغسل يديه وشرب ،  
ثم لم يلبث السلطان أن توفي ، وسُرّحوا .  
وتعداد أهل هذه الصفة يكثر ، فلنصفح عنهم ، ولنختم فصل<sup>٨</sup> من لقيته

١ في نيل الابتهاج ( ٢٥٣ ) القرموني .

٢ ق : واين .

٣ وحج . . . الحج : سقطت من ق .

٤ وردت القصة في نيل الابتهاج : ٢٥٣ .

٥ ق : التلاسي .

٦ كذا في الأصلين ، وفي النيل : ساقية .

٧ الخصة : الحوض أو الصهريج ( انظر ملحق المعجم لدوزي ) .

٨ ق : ولنختم المذكورين في فصل . . . إلخ .

بتلمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة أحدهما عالم الدنيا ، والآخر نادرتهما .

26 - أما العالم فشيخنا ومعلمنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي ، التلمساني<sup>١</sup> ، سمع جده لأمه أبا الحسين ابن غلبون المرسي<sup>٢</sup> القاضي بتلمسان ، وأخذ عن فقهاها أبي الحسين التنسي وابن الإمام ، ورحل في آخر المائة السابعة فدخل مصر والشام والحجاز والعراق ، ثم قفل إلى المغرب فأقام بتلمسان مدة ، ثم فرّ أيام أبي حمّو موسى بن عثمان إلى المغرب .

حدثني أنه لقي أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط شقيق شيخنا أبي عثمان المتقدم ذكره ، فشكا له ما يتوقعه من شر أبي حمّو ، فقال له : عليك بالجلب ، فلم يدر ما قال ، حتى تعرض له رجل من غمارة ، فعرض عليه الهروب به ، قال : فخفضت أن يكون أبو حمّو قد دسّه عليّ ، فتنكرت له ، فقال لي : إنما أسير بك على الجبل ، فتذكرت قول أبي إسحاق ، فواطأته ، وكان خلاصي على يده ، قال : ولقد وجدت العطش في بعض مسيري به ، حتى غلظ لساني واضطربت ركبتي ، فقال لي : إن جلست قتلتك لثلاثاً أفترض بك ، فكنت أقوى نفسي ، فمر على بالي في تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس ، وتوسّله به ، فوالله ما قلت شيئاً حتى رُفِع لي غدِير ماء ، فأرَيْته إياه ، فشربنا ونهضنا . ولما دخل المغرب أدرك أبا العباس ابن البناء ، فأخذ عنه ، وشافه<sup>٣</sup> كثيراً من علمائه ، قال لي : قلت لأبي الحسن الصغير : ما قولك في المهدي ؟ فقال : عالم سلطان ، فقلت له : قد أبنت عن مرادي . ثم سكن جبال الموحدّين ، ثم رجع إلى فاس ، فلما افتتحت تلمسان لقيته بها ، فأخذت عنه ، فقال لي الآبلي<sup>٤</sup> :

١ ترجمة الآبلي في التعريف : ٢١ ، ٣٣ والدرر الكامنة ٣ : ٢٨٨ ونيل الابتهاج : ٢٤٤ وجذوة الاقتباس ١٤٤ ، ١٩١ والآبلي - بمد وموحدة مكسورة - نسبة إلى آبلّة (Avila) من بلاد الجوف الأندلسي أي إلى الشمال الغربي من مدريد .

٢ اسمه محمد بن غلبون .

٣ نيل الابتهاج : وسأل . ٤ انظر نيل الابتهاج : ٢٤٥ .



كنت يوماً مع القاسم بن محمد الصنهاجي ، فوردت عليه طومارة من قبيل القاضي  
أبي الحجاج الطرطوشي فيها :

خيراتُ ما تحويهِ مبدولةٌ ومَطَّنَتِي تصحيفُ مقلوبها

فقال لي : ما مطلبه ؟ فقلت : نارنج .

دخل على الآبلي وأنا عنده بتلمسان الشيخ أبو عبد الله الدباغ المالقي المتطبب  
فأخبرنا أن أديباً استجدى وزيراً بهذا الشطر :

ثمَّ حبيب قلماً ينصف

فأخذته فكتبته ، ثم قلبته وصحفته ، فإذا هو : قصبتا ملف شحمي .  
ومر الدباغ علينا يوماً بفاس ، فدعاه الشيخ ، فلباه ، فقال : حدثنا بحديث  
اللظافة ، فقال : نعم ، حدثني أبو زكريا ابن السراج الكاتب بسجلماسة أن أبا  
إسحاق التلمساني وصهره مالك بن المرحل ، وكان ابن السراج قد لقيهما ،  
اصطحبا في مسير ، فأواهما الليلُ إلى مجشر ، فسألا عن طالبه ، فدُلا ، فاستضافاه  
فأضافهما ، فبسط قطيفة بيضاء ، ثم عطف عليهما بنخب ولبن ، وقال لهما : استعملا  
من هذه اللظافة حتى يحضر عشاؤكما ، وانصرف ، فتحاورا في اسم اللظافة  
لأي شيء هو منهما حتى ناما ، فلم يرُعُ أبا إسحاق إلاّ مالك يوقظه ويقول :  
قد وجدت اللظافة ، قال : كيف ؟ قال : أبعدت في طلبها حتى وقعت بما لم يمر  
قط على مسمع هذا البدوي فضلاً عن أن يراه ، ثم رجعت القهقري حتى وقعت  
على قول النابغة :

بمُخَضَّبٍ رَخِصٍ كَأَنَّ بِنَانَهُ عَسَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَّظَافَةِ يُعْقَدُ

فسنح لبالي أنه وجد اللظافة ، وعليها مكتوب بالخط الرقيق اللين ، فجعل

إحدى النقطتين لطاء فصارت اللطافةُ اللظافةُ واللينُ اللينَ وإن كان قد صحَّف  
عنه بغم ، وظن أن يعقد جبن ، فقد قوي عنده الوهم ، فقال أبو إسحاق : ما  
خرجت عن صوبه ، فلما جاء سألاه ، فأخبر أنها اللين ، واستشهد بالبيت كما  
قال مالك .

ولا تعجب من مالك فقد ورد فاساً شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي  
عُرف بابن المسفر<sup>١</sup> ، رسولاً عن صاحب بجاية ، فزاره الطلبة ، فكان فيما  
حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلاماً وقع في تفسير  
سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين ، ويستشكله الشيخ معهم ، وهذا نصه<sup>٢</sup> :  
ثبت في بعض العلوم العقلية أن المركَّب مثلُ البسيط في الجنس ، والبسيط مثل  
المركَّب في الفصل ، وأن الجنس أقوى من الفصل ، فرجعوا به إلى الشيخ الآبلي ،  
فتأمله ثم قال : هذا كلام مصحَّف ، وأصله أن المركب قبل البسيط في الحس ،  
والبسيط قبل المركب في العقل ، وأن الحس أقوى من العقل ، فأخبروا ابن المسفر ،  
فلجَّ ، فقال لهم الشيخ : التمسوا النسخ ، فوجدوه في بعضها كما قال الشيخ ، والله  
يؤتي فضله من يشاء .

قال لي الآبلي : لما نزلت تازى بتُّ مع أبي الحسن ابن برِّي وأبي عبد الله  
الرجالي<sup>٣</sup> ، فاحتجت إلى النوم ، وكرهت قطعهما عن الكلام ، فاستكشفتهما عن  
معنى هذا البيت للمعري :

أقولُ لعبد الله لَمَّا سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس وهاشم

فجعللا يفكران فيه ، فنمت حتى أصبحا ، ولم يجدها ، فسألاني عنه ، فقلت :  
معناه أقول لعبد الله لَمَّا وهى سقاؤنا ، ونحن بوادي عبد شمس : شم لنا برقاً .

١ النص في نيل الابتهاج : ٢٤٥ .

٢ انظر تفسير الفخر الرازي .

٣ ق : البرجالي .

قلت : وفي جواز مثل هذا نظر .

سمعت الآبلي يقول : دخل قطبُ الدين الشيرازي والديبران على أفضل الدين الخونجي ببلده ، وقد تزيّياً بزّي القونوية ، فسأله أحدهما عن مسألة ، فأجابه ، فتعايا عن الفهم ، وقرب التقرير ، فتعايا ، فقال الخونجي متمثلاً :

عَلِيَّ نَحْتُ الْمَعَانِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلِيَّ لَكُمْ أَنْ تَفْهَمَ الْبَقْرُ

فقال له : ضم التاء يا مولانا ، فعرّفهما ، فحملهما إلى بيته .

قلت : سمعت الشيخ شمس الدين الأصبهاني بخانقاه قوصون بمصر يقول : إن شيخه القطب توفي عام أحد عشر وسبعمائة ، وله سبع وسبعون سنة ، وهذا يضعف هذه الحكاية عندي .

سمعت الآبلي يقول : إن الخونجي ولي قضاء مصر بعد عز الدين بن عبد السلام ، فقدم شاهداً كان عز الدين أخّره ، فعذله في ذلك ، فقال : إن مولانا لم يذكر السبب الذي رفع يده من أجله ، وهو الآن غير متمكن من ذكره .

سمعت الشيخ الآبلي يحدث عن قطب الدين القسطلاني أنه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث : مذهب ابن سبعين ، وتملك الططر للعراق ، واستعمال الحشيشة .

سمعت الآبلي يقول : قال أبو المطرف ابن عميرة :

فَضَلَ الْجَمَالَ عَلَى الْكَمَالِ بِوَجْهِهِ فَالْحَقُّ لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ وَسَّطَهُ  
وَبَطَّرَفَهُ سَقَمٌ وَسَحَرٌ قَدْ آتَى مُسْتَظْهِراً بِيَهَا عَلَى مَا اسْتَنْبَطَهُ  
عَجَباً لَهُ بُرْهَانُهُ بِشَرْوِطِهِ مَعَهُ فَمَا مَقْصُودُهُ بِالسَّفْسَطَةِ

قال : فأجابه أبو القاسم ابن الشاط فقال :

عِلْمُ التَّبَايُنِ فِي النُّفُوسِ وَأَنَّهَا مِنْهَا مُغْلَطَةٌ وَغَيْرُ مُغْلَطَةٍ  
فَنَتَى رَأَتْ وَجَهَ الدَّلِيلِ وَفِرْقَةَ أَصْغَتْ إِلَى الشَّبَهَاتِ فَهِيَ مُورِطَةٌ  
فَأَرَادَ جَمْعَهُمَا مَعاً فِي مَلِكِهِ هَذَا بِمَنْتَجَةٍ وَذِي بِمَغْلَبَةٍ

يعني قولهم في التام : هو ما تحمل فيه البرهان الفصل .  
وأخبار الآبلي وأسمعي منه تحمل كتاباً ، فلنقف على هذا القدر منها .

27 - وأما النادرة فأبو عبد الله [محمد] بن أحمد بن شاطر الجمحي المراكشي<sup>١</sup> ، صحب أبا زيد الهزميري كثيراً ، وأبا عبد الله ابن تجلات ، وأبا العباس ابن البناء وأضرابه من المراكشيين ومن جاورهم ، ورزق بصحبة الصالحين حلاوة القبول ، فلا تكاد<sup>٢</sup> تجد من يستثقله ، وربما سُئل عن نفسه فيقول : وليّ مفسود .

قلت له يوماً : كيف أنت ؟ فقال : محبوس في الروح ؛ وقال : الليل والنهار حرسيان : أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، وقد أخذنا بمجامع الخلق يجرّانهم إلى يوم القيامة ، وإنّ مردّنا إلى الله تعالى .

وسمعه يقول : المؤذنون يدعون أولياء الله إلى بيته لعبادته ، فلا يصدّهم عن دعائهم ظلّمة ولا شتاء ولا طين ، ويصرفونهم عن الاشتغال بما لم يبين لهم فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم .

ووجدته ذات يوم في المسجد ذاكراً ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال ﴿ فَهَمُّمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ (الروم : ١٥) فهممت بالانصراف ، فقال : أين تذهب من روضة من رياض الجنة يقام بها على رأسك بهذا التاج ؟ وأشار إلى المنار مملوءاً الله أكبر .

مرّ ابن شاطر يوماً على أبي العباس أحمد بن شعيب الكاتب<sup>٣</sup> وهو جالس

١ ترجمة ابن شاطر في نيل الابتهاج : ٢٤٨ والإحاطة ، الورقة : ١٠٥ والنقل فيهما عن المقرئ الجدي ؛ وتوفي سنة ٧٥٧ هـ .

٢ وأضرابه . . . تكاد : سقطت من ق .

٣ أحمد بن شعيب الجزنائي من أهل فاس ، برع في اللسان والأدب والعلوم العقلية ونظمه السلطان أبو سعيد المريني في حلبة الكتاب وأجرى عليه الرزق مع الأطباء وهلك في الطاعون (سنة ٧٥٠) ؛ نثير فرائد الجمان : ٣٣٥ ونثير الجمان : ٧٠ ونيل الابتهاج : ٦٨ والتعريف : ٤٨ وجنوة الاقتباس : ٤٧ ودرة الحجال : ١ : ٢١ .

في جامع الجزيرة ، طهره الله تعالى ، وقد ذهبت به الكفرة ، فصاح به ، فلما رفع رأسه إليه قال له : انظر إلى مركب عزرائيل هذا ، وأشار إلى نعش هنالك ، قد رفع شراعه ونودي عليه الطلوع يا غزي .

وأكل يوماً مع أبي القاسم عبد الله بن رضوان الكاتب جلجلاناً ، فقال له أبو القاسم : إن في هذا الجلجلان لضرباً من طعم اللوز ، فقال ابن شاطر : وهل الجلجلان إلاّ لوزة دقة ؟

وسئل عن العلة<sup>١</sup> في نضارة الحدائث ، فقال : قُرْبُ عهدها بالله ، فقيل له : فمِمَّ تغير الشيوخ ؟ فقال : من بُعِدَ العهد من الله ، وطول الصحبة مع الشياطين ، فقيل له : فبَحْرُ أفواههم<sup>٢</sup> ؟ فقال : من كثرة ما تَقَلَّ الشياطين فيها .

وكان يسمى الصغير : فأر المصطكي ، قال لي ابن شاطر : لقيت عمي ميموناً المعروف بديبر لقرب موته وقد اصفرَّ وجهه وتغيرت حالته ، فقلت له : ما بالكَ ؟ وكان قد خدم الصالحين ورزق بذلك القبول ، فقال : انسَدَّتِ الزربطانةُ فطلع ، يعني العذرة ، يشير إلى الاحتقان للطبيعة .

أنشدني ابن شاطر قال : أنشدني أبو العباس ابن البناء لنفسه :

قصدتُ إلى الوَجَاةِ في كلامي<sup>٣</sup>

. الأبيات .

وأخبار ابن شاطر عندي تحتل كراسة ، فلنقتنع منها بهذا القدر .

فصل - ولما دخلت تلمسان على بني عبد الواد تهباً لي السفر منها ، فرحلت

١ النص في نيل الابتهاج : ٢٤٨ .

٢ نيل الابتهاج : قيل فقيم نتن أفواههم ؟

٣ تسمية البيت : لعلمي بالصواب في الاختصار

وقد وردت الأبيات في الإحاطة : ١٠٦ .

إلى بجاية ، فلقيت بها أعلاماً درجوا فأمت بعدهم بخلاء بَلَقَمًا .

28 - فمنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي ، عُرِفَ بابن المسفر<sup>١</sup> ، باحثه واستفدت منه ، وسألني عن اسم كتاب الجوهري فقلت له : من الناس من يقول الصحاح بالكسر ومنهم من يفتح ، فقال : إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح ، كما ذكره في باب صح ، قلت : ويحتمل أن يكون مصدر صح كحَتَان .

وكتب إلى بعض أصحابه بجواب رسالة صدره بهذين البيتين :

وصلت صحيفتكم فهزّت معظفي فكأنما أهدت كؤوسَ القرقفِ  
وكانتها نيلُ الأمانِ لخائفٍ أو وصلُ محبوبٍ لصبِّ مُدَنَفِ

29 - ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي يوسف يعقوب الزواوي ، فقيهٌ ابنُ فقيه ، كان يقول : مَنْ عَرَفَ ابنَ الحاجبِ أقرأ به المدونة ، قال : وأنا أقرأ به المدونة .

30 - ومنهم أبو علي حسين بن حسين إمام المعقولات بعد ناصر الدين .

31 - ومنهم خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران ، وكان قد ورد تلمسان وأورد بها على قول ابن الحاجب في حد العلم «صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض» الخاصة إلا أن يزداد في الحد «لمن قامت به» لأنها إنما توجب فيه تمييزاً لا تمييزاً ، وهذا حسن .

32 ، 33 - ومنهم الشيخان أبو عزيز وأبو موسى ابن فرجان ، وغيرهم من أهل عصرهم .

١ ترجمة ابن المسفر في نيل الابتهاج : ٢٣٧ والديباج المذهب : ٣٣٢ وكانت وفاته سنة ٧٤٣ .

34 - ثم رحلت إلى تونس فلقيت بها قاضي الجماعة وفتيها أبا عبد الله ابن عبد السلام<sup>١</sup> ، فحضرت تدرسه ، وأكثرت مباحثته ، ولما نزلت بظاهر قسطينة تلقاني رجل من الطلبة ، فسألني عن هذه الآية ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة : ٦٧) فإن ظاهرها أن الجزاء هو الشرط : أي وإن لم تبلغ فما بلغت ، وذلك غير مفيد ، فقلت : بل هو مفيد ، أي : وإن لم تبلغ في المستقبل لم ينفعك تبليغك في الماضي ، لارتباط أول الرسالة بآخرها ، كالصلاة ونحوها ، بدليل قصة يونس ، فعبّر بانتفاء ماهية التبليغ عن انتفاء المقصود منه ، إذ كان إنما يطلب ولا يعتبر بدونه ، كقوله عليه الصلاة والسلام « لا صلاة إلا بطهور » ، ثم اجتمعت بابن عبد السلام بجامع بوقير من تونس ، فسألته عن ذلك ، فلم يزد على أن قال : هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » ، وقد علمت ما قال الشيخ تقي الدين فيه . قلت : كلام تقي الدين لا يعطي الجواب عن الآية ، فتأمله .

35-41 - وقاضي المناكح أبا محمد الأجمي ، وهو حافظ فقهاؤها في وقته ، والفتية أبا عبد الله ابن هارون شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول ، والخطيب أبا عبد الله ابن عبد الستار ، وحضرت تدرسه بمدرسة المعرض ، والعلامة أبا عبد الله ابن الجياب الكاتب ، والفتية أبا عبد الله ابن سلمة ، والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر وارث طريقة الشيخ أبي محمد المرجاني آخر المذكورين بإفريقية ، ورأيت الشيخ ابن الشيخ المرجاني ، فحدثني أبو موسى ابن الإمام أنه أشبه به من الغراب بالغرأب ، وسيدي أبا عبد الله الزبيدي المتقدم ذكره ، وأوقفني على خطأ في كتاب الصحاح ، وذلك أنه زعم أن السالم جلدة ما بين العين والأنف ، قال : وفيه يقول ابن عمر في ابنه سالم<sup>٢</sup> :

١ ترجمة ابن عبد السلام في نيل الابتهاج : ٢٤٠ والتعريف : ١٩ والديباج المذهب : ٣٣٦ والمرقبة العليا : ١٦١ .  
٢ انظر اللسان (سلم) .

يُديرونني عن سالمٍ وأديرهمُ وجِلْدَةٌ بين الأنف والعين سالم

قال : وهذا أراد عبد الملك حيث كتب إلى الحجاج « أنت مني كسالم »  
وهذا خطأ فاحش ، وكان يلزمه أن يسميها بالعمارة أيضاً ، لقوله عليه السلام  
« عمارة جلدة ما بين عيني وأنفي » وإنما يراد بمثل هذا القرب والتحمداً .

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكرهم ، ثمّ قفّلت  
إلى المغرب يسايرني<sup>٢</sup> رجل من أهل قسنطينة يُعرف بمنصور الحلبي ، فما لقيت  
رجلاً أكثر أخباراً ولا أطرف نوادر منه ، فمما حفظته من حديثه أن رجلاً  
من الأدباء مر برجل من الغرباء ، وقد قام بين ستة أطفال ، جعل ثلاثة عن يمينه  
وثلاثة عن شماله ، وأخذ ينشد :

ما كنتُ أحسبُ أن أبقي كذا أبداً أعيشُ والدَّهرُ في أطرافه حتفُ  
ساسُ بستة أطفالٍ توسّطهمُ شخصي كأحرفِ ساسٍ وسطها ألفُ

قال : فتقدمت إليه وقلت : فأين تعريقة السين ؟ فقال : طالب وربّ الكعبة ،  
ثمّ قال للآخر من جهة يمينه : قم ، فقام يجرّ رجله كأنه مبطول ، فقال : هذا  
تمام تعريقة السين .

41 - 53 - ثمّ رحلت من تلمسان إلى المغرب ، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه  
الحاج أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم الزيناسي ، والشيخ الفقيه  
أبا محمد عبد المؤمن الجاناتي ، والشيخ الفقيه الصالح أبا زرهون عبد العزيز بن محمد  
القيرواني ، والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله الياصوني ، وكان حافظ وقته ،  
والفقيه أبا عبد الله ابن عبد الكريم ، وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عفان  
الجزولي ، والأستاذ أبا العباس المكناسي ، وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس ابن

١ ق : واللحمة .

٢ ق : ولما رحلت منها جعل يسايرني . . . إلخ .



حزب الله ، والأستاذ أبا عبد الله ابن القصار بتلمسان ، ولقيت غير هؤلاء ممن  
يكثُر عددهم ، وكنت قد لقيت بتازي الفقيه أبا عبد الله ابن عطية ، والأستاذ أبا  
عبد الله المجاصي ، والشيخ أبا الحسين الجيار ، وغيرهم <sup>١</sup> .

53 - 67 - ثمّ بلغت بالرحلة إلى أغمات ، ثمّ وصلت إلى سبتة <sup>٢</sup> ،  
فاستوعبت بلاد المغرب ولقيت بكل بلد منّ لا بُدّ من لقائه من علمائه وصلحائه ،  
ثمّ قفّلت إلى تلمسان فأقيمت بها ما شاء الله تعالى ، ثمّ أعملت الرحلة إلى الحجاز ،  
فلقيت بمصر <sup>٣</sup> الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغرناطي ، فرويت عنه ، واستفدت منه  
وشمس الدين الأصبهاني الآخر ، وشمس الدين بن عدلان ، وقرأ عليّ بعض  
شروحه <sup>٤</sup> لكتب المزني ، وناولني إياه ، وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين  
بها ، والشيخ الصالح أبا محمد المنوفي فقيه المالكية بها ، وتاج الدين التبريزي  
الأصم ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم .

ثمّ حججت فلقيت بمكة <sup>٥</sup> إمام الوقت أبا عبد الله ابن عبد الرحمن التوزري  
المعروف بخليل ، وسألته يوم النحر حين وقف بالمشعر الحرام عن بطن محسّر  
لأحرك فيه على الحمل ، فقال لي : تمالاً الناس على ترك هذه السنة ، حتى نسي  
بتركها محلها ، والأقرب أنه هذا ، وأشار إلى ما يلي الجابية التي على يسار المار  
من المشعر إلى منى من الطريق من أول ما يحاذيها إلى أن يأخذ صاعداً إلى منى ،  
وما رأيت أعلم بالمناسك منه ، والإمام أبا العباس ابن رضي الدين الشافعي ، وغير  
واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد .

وبالمدينة أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتي وغيره .

١ ق : من لا يَحتمل هذا المختصر تعدادهم ولا يمكن استيفاؤهم .

٢ ثمّ بلغت . . . سبتة : سقطت من ق .

٣ ق : ثمّ رحلت منها إلى مصر فلقيت . . . إلخ .

٤ ص : شرحه .

٥ ق : ورحلت منها إلى مكة المشرفة فلقيت . . . إلخ .

ثم أخذت على الشام ، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قيسم الجوزية صاحب  
 الفقيه ابن تيمية ، وصدر الدين الغماري<sup>١</sup> المالكي ، وأبا القاسم ابن محمد اليماني  
 الشافعي ، وغيرهم ، وبيت المقدس<sup>٢</sup> الأستاذ أبا عبد الله ابن مثبت ، والقاضي  
 شمس الدين بن سالم ، والفقيه المذكور أبا عبد الله ابن عثمان ، وغيرهم .  
 ثم رجعت<sup>٣</sup> إلى المغرب ، فدخلت سجلماسة ودرعة ، ثم قطعت<sup>٤</sup> إلى الأندلس  
 فدخلت الجبل وأصطبونة ومريلة ومالقة وبلش والحامة ، وانتهت بي الرحلة إلى  
 غرناطة ، وفي علم الله تعالى ما لا أعلم ، وهو المسؤول أن يحملنا على الصراط  
 الأقوم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؛ انتهى كلام جدي  
 رحمه الله تعالى في الجزء الذي ألفه في مشيخته ، وقد لخصه لسان الدين في الإحاطة .

[ ترجمة المقرئ بقلم ابن خلدون ]

ولنذكر هنا زيادات لا بأس بها ، فنقول : ولما ألمّ ولي الدين ابن خلدون  
 بذكر مولاي الجلد في تاريخه الكبير عند تعريفه بنفسه وصفه بأنه كبير علماء  
 المغرب ونص محل الحاجة من تاريخه<sup>٥</sup> : لما رحلت من تونس منتصف شعبان من  
 سنة أربع وثمانين أقمنا في البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية  
 يوم الفطر ، ولعشر ليالٍ من جلوس الملك الظاهر<sup>٦</sup> على التخت واقتعاد كرسي  
 الملك دون أهله بني قلاوون ، وكنا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد

١ ق : العمادي .

٢ ق : ثم جئت بيت المقدس فلقيت .

٣ ق : قفلت .

٤ ق : جئت ؛ وعند هذا الموضع بهامش ص : قف على أن الإمام المقرئ جد المؤلف دخل بلدنا  
 درعة حرسها الله ، مما يدل على نسبة المعلق إلى بلدة درعة بالمغرب .

٥ زاد في ق : أنه قال ؛ والنص في التعريف : ٢٤٦ .

٦ يعني أبا سعيد برقوق بن أنص ( توفي سنة ٨٠١ ) وانظر تاريخ ابن خلدون ٥ : ٤٦٧ .

من سموه لذلك وتمهيداً له ، وأقيمت بإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ، ولم يقدر عامئذٍ . فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة ، فرأيت حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسي الملك ، تلوح القصور والأواوين في أوجه<sup>١</sup> ، وتزهو الخوانق<sup>٢</sup> والمدارس بأفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، وقد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سبيحه ، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات تسبجته<sup>٣</sup> ، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعيم ، وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعُد مداه في العمران ، واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجتهم وتاجرهم بالحديث عنه ، سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرئ فقلت له : كيف هي القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الإسلام ، وسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس<sup>٤</sup> كبير العلماء ببيجاية مثل ذلك ، فقال : كأنما انطلق أهله من الحساب ، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب ، وحضرت صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجي<sup>٥</sup> بمجلس السلطان أبي عنان منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة خمس وخمسين ، وسأله عن القاهرة فقال : أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : إن الذي يتخيله الإنسان فإن ما يراه دون الصورة التي تخيلها لاتساع الخيال على كل محسوس إلا القاهرة<sup>٥</sup> فإنها أوسع من كل ما يتخيل

١ التعريف : جوه .

٢ التعريف : الخوانق .

٣ أحمد بن إدريس البجائي ( انظر ترجمته في الديباج : ٨١ ونيل الابتهاج : ٥٠ ) .

٤ أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي من أهل بجة بالأندلس كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الإنشاء والسرف في دولته ( انظر ترجمته في التعريف : ٦٤ والإحاطة : ٢ : ٢١٥ وجذوة الاقتباس : ١٩٧ ) .

٥ فقال . . . القاهرة : سقطت هذه العبارة سهواً من ق .

فيها ، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك ؛ انتهى كلام ابن خلدون ، ولا يخلو عن فائدة زائدة .

[ فوائده عن المقرئ الجلد ]

ولا بأس أن نورد من فوائده مولاي الجلد ما حضرني الآن : فمن ذلك ما حكاه ابن عبد الرزاق عن ابن قطرال قال <sup>١</sup> : سمع يهودي بالحديث المأثور « نعم الإدام الخلل » فأنكر ذلك ، حتى كاد يصرح بالقدح ، فبلغ ذلك بعض العلماء ، فأشار على الملك أن يقطع عن اليهود الخلل وأسبابه سنة ، قال : فما تمت حتى ظهر فيهم الخلد .

ومنها أنه قال : أنشدني الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد قال : أنشدني الشيخ التقي ابن دقيق العيد لنفسه في معنى لطيف حجازي <sup>٢</sup> :

إذا كنتُ في نجدٍ وطيب نعيمه      تذكّرتُ أهلي باللّوى فمحسّرٍ  
وإن كنتُ فيهم زدتُ شوقاً ولوعة      إلى ساكني نجدٍ وعيلٍ تصبّري  
فقد طال ما بين الفريقين موقفي      فمن لي بنجدٍ بين أهلي ومعشري

ومنها ما حكاه عن عبد الله بن عبد الحق عن ابن قطرال قال <sup>٤</sup> : كنت بالمدينة على ساكنها الصلاة والسلام إذ أقبل رافضي بفحمة في يده ، فكتب بها على جدار هناك :

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ      فَلَا يَجِبُ أَبَا بَكْرٍ وَلَا عَمْرًا

١ قارن بما ورد في نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

٢ انظر الطالع السعيد : ٣٢١ والديوان الملحق : ١٧٣ وطبقات السبكي ٦ : ١٢ .

٣ الطالع : ذيت .

٤ قارن بما في نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

وانصرف ، فألقي علي من الفطنة وحسن البديهة ما لم أعهد مثله من نفسي قبل ، فجعلت مكان يحب « يسب » ورجعت إلى مجلسي ، فجاء فوجده كما أصلحته ، فجعل يلتفت يميناً وشمالاً ، كأنه يطلب من صنع ذلك ، ولم يتهمني ، فلما أعياه الأمر انصرف .

ومنها أنه قال : حدثت أن الزاهد أبا عمرة ابن غالب المرسي نزيل تلمسان وقد لقيت غير واحد من أصحابه ، سأله بعض أن يشهد عقد ابنته ، فتعذر عليه ، فلم يزل به حتى أجاب بعد جهْد ، فحضر العقد ، وطعم الوليمة ، ثم لما حضرت ليلة الزفاف استحضره في ركوبها إلى دار زوجها على عادة أهل تلمسان ، فأجابه مسرعاً ، فقيل له : أين هذا التيسير من ذاك التعسير ؟ فقال : من أكل طعام الناس مشى في خدمتهم ، أو كما قال .

ومنها أنه قال : حدثت أن الفقيه أبا عبد الله ابن العواد العدل بتونس التقى يوماً مع القاضي أبي علي ابن قداح ، وكان ابن العواد شيخاً ، فقال له أبو علي : كبرت يا أبا عبد الله فصرت تمشي كل شبر بدينار ، يُورِّي بكثرة الفائدة في مشيه إلى الشهادة ، فقال له : كنت إذ كنت في سنك أخرج رزقي من الحجر ، يعرض لابن قداح بأنه جيتار ، وكذلك كان هو وأبوه ، رحمهم الله تعالى جميعاً ، وهذا من مزاح الأشراف ، كما جرى بين معاوية والأحنف ، انظر صدر « أدب الكتاب » .

ومنها أنه قال : قال لي الحاج أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الواحد الرباطي : كنا عند الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد ، ففقد أحدنا نعليه ، فقال الشيخ : كنا عند العلكم التبريزي فدخل عليه رجل يدعى بشيراً فكلمه ثم خرج فلم يجد نعليه ، فرجع إلى العلكم وأنشده :

دخلتُ إليكَ يا أملي بَشيراً فلما أن خرجتُ خرجتُ بَشيراً  
أعدتُ يائي التي سقطتُ من اسمي في الحسابِ تُعدُّ عَشراً

وقال رحمه الله تعالى : لما سعى أولاد الشيخ أبي شعيب بالقاضي أبي الحججاج  
الطرطوشي إلى السلطان وأمر بإشخاصه وكثر إرجاف المشيعين فيهم من بعده  
وخرج الأمر على خلاف ما أملوا منه قال في ذلك :

حمدتُ الله في قومٍ أثاروا شروراً فاستحالت لي سرورا  
وقالوا النارُ قد شبتَ فلماً دنوتُ لها وجدتُ النارَ نورا

ومنها ٢ : أنه حكى أن الشيخ أبا القاسم ابن محمد اليميني مدرس دمشق ومفتيها  
حكى له بدمشق أنه قال له شيخ صالح برباط الخليل عليه السلام : نزل بي مغربي  
فمرض حتى طال عليّ أمره ، فدعوت الله أن يفرج عني وعنه بموت أو صحة ،  
فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال : أطعمه الكسكسون ، قال :  
يقوله هكذا بالنون ، فصنعت له ، فكأنما جعلت له فيه الشفاء ، وكان أبو القاسم  
يقول فيه كذلك ، ويخالف الناس في حذف النون من هذا الاسم ، ويقول :  
لا أعدل عن لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قلت : ووجه  
هذا من الطب أن هذا الطعام ممّا يعتاده المغاربة ويشتهونه ، على كثرة استعمالهم  
له ، فربما نبه منه شهوة أو رده إلى عادة .

وقال الجدد رحمه الله تعالى : رأيت بجامع الفسطاط من مصر فقيراً عليه  
قميص إلى جانبه دفاصة قائمة وبين يديه قلسوة ، فذكر لي هنالك<sup>٣</sup> أنها محشوتان  
بالبرادة ، وأن زنة الدفاصة أربعمئة رطل مصرية ، وهي ثلاثمئة وخمسون  
مغربية ، وزنة القلسوة مائتا رطل مصرية ، وهي مائة وخمسة وسبعون مغربية<sup>٤</sup> ،  
فعمدت إلى الدفاصة فأخذتها من طوقها أنا ورجل آخر ، فأملناها بالجهد ، ثم  
أقمناها ، ولم نصل بها إلى الأرض ، وعدت إلى القلسوة فأخذتها من إصبع كان

١ ق : ابن . ٢ قارن بما في نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

٣ زاد في ق : رجل .

٤ وهي ثلاثمئة . . . مغربية : سقطت سهواً من ق .

في رأسها فلم أطق حملها فتركها . وكان يوم جمعة . فلما قضيت الصلاة  
مررنا في جملة من أصحابنا بالفقير ، فوجدناه لابساً تلك الدفاسة في عنقه ، واضعاً  
تلك القلنسوة على رأسه ، فقام إلينا وإلى غيرنا ، ومشى بهما كما يمشي أحدنا  
بثيابه ، فجعلنا نتعجب ، ويشهد بعضنا بعضاً على ما رأى من ذلك ، ولم يكن  
بالعظيم الحلقة .

وقال رحمه الله تعالى : كان الأستاذ ابن حكيم قد بعث إليّ بمحرّر لأبعث  
به إلى من يعرضه للبيع ، ثمّ بلغه أن أحمالاً من المتاع التونسي قد وصلت إلى  
البلد ، فكتب إليّ : الحمد لله الذي أمر عند كل مسجد بأخذ الزينة ، وصلواته  
الطيبة ، وبركاته الصيبة ، على من ختم به شريعته وأكمل دينه ، وعلى آله وأصحابه  
الذين اتبعوه والذين يتبعونه ، وبعد فما تعلق به الإعلام ، أن تعوضوا المحرر  
بإحرام<sup>١</sup> . لا يخفى على مثلكم جنسه ومجانسه ، ومن كلام العرب : كل ثوب  
ولابسه ، وإن أربى على ثمن الأول ثمن الثاني ، فلست عن الزيادة والحمد لله بالوافي .  
ومن فوائده أنه قال : كتب<sup>٢</sup> في صدر رسالة إلى صاحبنا الشيخ الناسك  
أبي علي منصور ابن شيخ عصره وفريد دهره ناصر الدين المشدّالي الشيخ الخاشع  
صاحبنا أبو الحسن علي بن موسى البحيري يذكره شوقه إلى لقائه ، لما كان يبلغه  
عنه ، حتى قدر باجتماعهما بوهران أيام قضاء البحيري بها :

أوحشني ولو اطلعت على الذي لك في فؤادي لم تكن لي موحشا  
يا محرّقاً بالنار قلب محبّه أنسيت أنك مستكن في الحشا

وقال رحمه الله تعالى : أنشدني محمد البليقي قال<sup>٣</sup> : أنشدني ابن رشيد  
قال : أنشدني أبو حفص ابن الخيّمي المصري لنفسه :

١ الإحرام : في المغرب يطلق على لباس مكون من بردة سوداء وطيلسان من الكتان الأسود ( انظر  
رحلة ابن جبير ص : ١٣٤ والتعليقات ص : ٢٨ ) .  
٢ ق : ومن فوائده ما كتب .  
٣ أنشدني . . . قال : سقطت من ق .

لو رأى وَجْهَ حبيبي عاذلي لتفاصلنا على وجه جميل<sup>١</sup>

وقال رحمه الله تعالى : قال لي محمد بن داود بن المكتب قال لي بلال الحبشي خادم الشيخ أبي مدين<sup>٢</sup> : كان الشيخ كثيراً ما ينشد هذا البيت :

اللهَ قُلُّ وذرِ الوجودَ وما حوى إن كنت مرتاداً بصدقٍ مرادٍ

وقال رحمه الله تعالى : دخلت على عبد الرحمن بن عفان الجزولي<sup>٣</sup> ، وهو يجود بنفسه ، وكنت قد رأيته قبل ذلك معافى ، فسألته عن السبب ، فأخبرني أنه خرج إلى لقاء السلطان ، فسقط عن دابته ، فتداعت أركانه ، فقلت : ما حملك أن تتكلف مثل هذا في ارتفاع سنك ؟ فقال : حب الرياسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين .

وقال رحمه الله تعالى : قال لي محمد بن مرزوق : قال لي بعض أصحاب أبي إسحاق الطيار دفين عباد تلمسان : إن أبا إسحاق أقام خمساً وعشرين سنة لا ينام إلا قاعداً ، فسألت ابن مرزوق : لمَ لُقِّبَ بالطيار ؟ فحدثني عن بعض أصحابه أنه نَشَرَ ذات يوم ثوبه في الشمس على بعض السطوح ، ثم قعد هنالك ، فمر به رجلٌ فقال له : طر ، فقال : أعن أمرك ؟ قال : نعم ، فطار حتى وقع على الأرض وما به من باس ، فقال الجدل رحمه الله تعالى بعد هذا ما نصه : فقلت : إذا ما صار الحق للعبد سمعاً وبصراً فسمع به وأبصر أصاخ إلى الأحوال ، واجتلى المعاني ، فيرى من غير مبصر ، ويسمع من غير ناطق ، كما قال الشيخ أبو عبد الله الشوذبي<sup>٤</sup> الحلوي دفين تلمسان :

١ ق : مليح .

٢ ترجمة بلال خادم الشيخ أبي مدين في أنس الفقير : ٩٣ ، وانظر ما تقدم ص : ٢٤٢ .

٣ ترجمة عبد الرحمن الجزولي في نيل الابتهاج : ١٢٩ وفيه ما جاء هنا نقلاً عن المقرئ الجدل . والسلطان الذي خرج للاقائه هو أبو الحسن المريني ، وكانت وفاة الجزولي بعد موقعة طريف سنة ٧٤١ .

٤ تنسب إليه الشوذبية وكان في أول أمره من فقهاء مرسية ثم التف حوله أمثال عزيز بن خطاب وحازم =



إذا نطقَ الوجودُ أصاخَ قومٌ      بأذانٍ إلى نطقِ الوجودِ  
 وذاكَ النطقُ ليسَ بهِ انعجامٌ      ولكنَّ دقَّ عن فهمِ البليدِ  
 فكُن فطِناً تُنادى من قَريبٍ      ولا تكُ من ينادى من بعيدِ

وقال رحمه الله تعالى : حدثت بمصر أن الشيخ سيدي عمر بن الفارض ولع بجمل ، فكان يستأجره من صاحبه ليتأنس به ، فقيل له : لو اشتريته ، فقال : المحبوب لا يُملك ، فسألت : في أي حال كان هذا منه ؟ فقيل لي : في ابتداء أمره ، فقلت : وجدّ اعتبار ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل ﴾ (الغاشية : ١٧) فوقفت به رؤية المعنى فيه عليه ، فأجبه مدلاً ، وطلبه مجلاً .

وقال رضي الله عنه : حفظت من خط أبي زيد والد صاحبنا أبي الحسن : قيل للغزالي : ما تقول في الحلاج ؟ فقال : وما عسى أن أقول فيمن شرب بكأس الصفاء ، على بساط الوفاء ، فسكر وعربد ، فاستوجب من الله الحد ، فكان حده شهادة ، ثم قال بعد هذا : قلت عربد الحلاج في الحضرة لما نسي بسكره أوامره ، فانتصر الظاهر لنفسه لصحة تعلق اسمه ، وسدل الباطن على عنده حجاب الغيرة من إفشاء سره :

على سِمةِ الأسماء تجري أمورهمُ      وحكمةُ وصفِ الذاتِ للحكمِ أجرتِ  
 وقال رحمه الله تعالى : سمعت شيخنا بيت المقدس يقول : تجلى الله على المسجد الأقصى بالجمال ، وعلى المسجد الحرام بالجلال ، وعلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالكمال ، قلت : فذلك يوقف النواظر ، وذلك يملأ الخواطر ، وهذا يفتح البصائر .

وقال رحمه الله تعالى : أخبرني أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عيّن فارس

= وأبي المطرف وغيرهم . والشوذية طريقة صوفية تشبه طريقة ابن عربي إلا أنها أكثر إيجابية ، وقد تورط أصحابها في السياسة وقالوا بأن العلوم الشرعية غير صحيحة في ذاتها ، ولذلك وجدوا مقاومة شديدة ، وحمل عليهم ابن خلدون ولسان الدين .

نصره الله أن جده أمير المسلمين أبا سعيد سأل كاتبه عبد المهيمن الحضرمي عن تهادي أهل الحب التفاح دون الخوخ ، وكلاهما حسن المنظر ، طيب المخبر ، شديد شبه بأخيه . شديد تشبيه الوجنتا به لمتوحيه ، فقال : ما عند مولانا ؟ فقال : أرى ذلك لاشتمال التفاح على الحب الذي يذكر بالحب والهوى ، والخواخ على النوى الذي يذكر اسمه صُفْرَة الجوى .

وقال رحمه الله تعالى : قال لي أبو حيان بالقاهرة : قال لي عمر بن الخيمي : تجاذبتُ أنا ونجمُ الدين بن إسرائيل هذا البيت :

يا بارقاً بأعالي الرقمتينِ بـدا      لقد حكيت ، ولكن فاتك الشنْبُ  
فتحاكنا إلى ابن الفارض . فأشار بأن ننظم قصيدة نضمنها البيت . فنظم ونظمت :

يا مَطْلَباً ليس لي في غيره أربُ      إليك آلى التقضي وانتهى الطلبُ  
فقضى به لي<sup>١</sup> .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن أبا زيد الهزميري بعث إلى أبي عمران التسولي ، وكان كثير الصلاة ، أنه لم يبق بينك وبين الله حجاب إلا الركيعات ، فرجع إليه ما معناه : إن الاتصال كان منها ، فلا كان يوم الانفصال عنها ، يعني من رُزق من باب فليلزمه .

وقال رحمه الله تعالى : كنت بجامع تلمسان ، وإلى جانبي رجل ينتمي إلى طريقة العرفان ، فجعل سائل يشكو الجوع والألم ، فتصدق ذلك الرجل عليه بدرهم . وقال : إياك أن تشكو الرحمن إلى مَنْ لا يرحم ، فقلت : أمره أن

١ انظر أيضاً الفيت المسج ١ : ١١٧ فيما يتصل هذه المعارضة بين ابن الخيمي ونجم الدين بن إسرائيل ، وفي معارضات قصيدة ابن الخيمي أنظر ١ : ١١٨ .

يسأل عزيزاً بمولاه ، ونهاه أن يشكو ذليلاً إلى سواه .  
 وكان الفارابي كثيراً ما يقول : يا رب إليك المشتكى ، حتى إنه يوجد أثناء  
 كلامه في غير موضعه ، فيعجب منه من لا علم عنده بمترعه .  
 وقال رحمه الله تعالى : حُدثت أن الفخر مرّ ببغض شيوخ الصوفية ، فقيل  
 للشيخ : هذا يقيم على الصانع ألف دليل ، فلو قمت إليه ، فقال : وعزته لو عرفه  
 ما استدل عليه ، فبلغ ذلك الإمام ، فقال : نحن نعلم من وراء الحجاب ، وهم  
 ينظرون من غير حجاب .

وقال رحمه الله تعالى : حُدثت أن رجلاً كان يجلس إلى أبي الحسن الحرالي ،  
 وكان يشرب الخمر ، فسكر ذات يوم ، فسقط على زجاجة ، فشجَّ وجهه ،  
 فاختفى إلى أن برىء ، ثم عاد إلى مجالسة الشيخ ، فلما رآه أنشد :

أجريحَ كاساتٍ أرقّتَ نجيعةَها      طلبُ الثّراتِ يعزُّ منه خلاصُ  
 لا تسفكنَ دَمَ الزّجاجةِ بعدها      إنّ الجروحَ كما علمتَ قصاصُ

ففهمها الشاب ، فتاب .

وقال رحمه الله تعالى : كثيراً ما كنت أسمع أبا محمد المجاصي ينشد هذا  
 البيت :

همُ الرجالُ وعيبُ أن يقالَ لمن      لم يتّصفَ بمعاني وصفهمُ رجلُ

ثمَّ بيكي ، وكان أهل البلد يسمونه « البكّاء » وبعضهم « الخاشع » .

ووجدت بخط مولاي الجدد على ظهر كتابه « القواعد » ما نصه : الحمد لله  
 تعالى جده ، قرأت صدر كتاب « زهرة البساتين » للقاسم بن الطيلسان ، ثمّ  
 سمعت ثلاثة أحاديث من أوله ، بل حديثاً وأثراً وإنشاداً من في الشيخ الخطيب  
 الصّالح أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عياش الأنصاري ، ثم تناولت منه  
 جميع الكتاب المذكور ، وأجازنيه بحق سماعه لبعضه ، وتناوله لجميعه من جده

محمد المذكور ، بحق أخذه له عن مؤلفه صهره القاسم المذكور ، وذلك بالمسجد الجامع من مالقة المحروسة ، قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن أحمد المقرري في مئتين وعشرين لشهر ربيع الآخر من عام سبعة وخمسين وسبعمائة .  
 وبخطه رحمه الله تعالى حيث ذكر ما نصه : الحمد لله ، مخالفة القواعد الشرعية للعوائد العرفية ، كإنكار الحشر وفتنة القبر ، ونحوهما من الأمر بالمعروف ، للركون إلى المشهور المألوف ، أو كالتقليد مع الدليل ، الذي ذمه الشرع في محكم التنزيل .

وبخطه أيضاً<sup>١</sup> : الحمد لله ، قد تتابع صفات العام حتى يصير كأنه أشير به إلى شخص بعينه فيختص ، ومن ثم قيل في قول الله عز وجل ﴿ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ ( القلم : ١٠ ) : إنه الأخنس بن شريق ، وفي قوله تعالى ﴿ وَيَلُكُلُ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةً ﴾ ( الهزلة : ١ ) : إنه أمية بن خلف ، وفي قوله تعالى ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ( المذثر : ١١ ) : إنه الوليد بن المغيرة ؛ انتهى .

ووجدت بخطه أيضاً رحمه الله تعالى ما نصه<sup>٢</sup> : الحمد لله ، قال لي المتوكل على الله أبو عنان أمير المؤمنين فارس بن علي : كان جدنا أبو يوسف يعقوب ابن عبد الحق يقول : الولايات ست : ثلاث وفتتها على اختياري : الحجابة ، والقصة ، والشرطة ، وثلاث موكولة إليكم : القضاء ، والإمامة ، والحسبة . ثم قال رحمه الله تعالى : وهذا تديير حسن .

ومن فوائده : حدثني العدل أبو عبد الله محمد بن أبي زرع عن القاضي أبي عبد الله ابن أبي الصبر أنه أمر الوالي بفاس أن يبني فندق الشماعين ، وكان قد خرب ، فتوقف حتى يأذن السلطان ، فقال له : أسلفني ما أبنيه به ، فإن أجاز ذلك السلطان ، وإلا رددته عليك ، ففعل ، فلما طوبل ذكر ما قال له القاضي ،

١ ق : وقال حيث أشير ما نصه . ص : وبخطه أيضاً . . . إلخ .

٢ ق : وكتب رحمه الله ما نصه .

فغضب السلطان وبعث فيه ، فجعل المبعوثون يأتونه واحداً بعد واحد وهو متمهل في وضوئه وإصلاح بزّته ومركوبه ، ثمّ جعل يمشي الهوينا ، فلقية ابنه ، فقال له : أسرع فقد أكثر السلطان من التوجيه إليك ، وهو واجدٌ عليك ، فقال له : مسكين أبو يحيى خاف وثبت على حاله ، فلما كان في الطريق لقي بعض العلماء فتعرض إليه فقال : قل بخفيّ لطفك ، بلطيف صنعك ، بجميل سترك ، دخلت في كنفك ، تشفّعت بنبيك ، فحفظه ، ثمّ طلبه فلم يجده ، فجعل يقول ذلك ، فلما رآه السلطان سكن ما به ، ثمّ سأله عن ذلك برفق ، فقال له القاضي : كرهت الخراب بقرب القرويين وبالشماعين الذي هو عين فاس ، فسألت الوالي ذلك على أيّ أغرم إن لم تجز ، وقلت له : المرجو من السلطان أن يجعله حبساً ، فقال : قد فعلت ، ثمّ بعث إلى الشهود وحبسه على الجامع ، وشكر للقاضي صنيعه ، وصرفه مغبوطاً .

وهذا السلطان هو أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، وتوفي محاصراً لتلمسان في ذي القعدة من عام ستة وسبعمائة . وكان ابتداء حصاره إياها سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وكان جملة الحصار فيما حدثت ألف شهر<sup>١</sup> ؛ انتهى .

ومن فوائده مولاي الجدد رحمه الله تعالى ما حكاه تلميذه أبو إسحاق الشاطبي في كتاب « الإنشادات والإفادات » ونصه : إفادة - حضرت يوماً مجلساً في المسجد الجامع بغرناطة مقدّم الأستاذ القاضي أبي عبد الله المقرّي ، في أواخر ربيع الأول عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، وقد جمع ذلك المجلس القاضي أبا عبد الله والقاضي أبا القاسم الشريف شيخنا والأستاذ أبا سعيد ابن لب والأستاذ أبا عبد الله البلكنسي وذا الوزارتين أبا عبد الله ابن الخطيب وجماعة من الطلبة ،

١ انظر خبر هذا الحصار في الاستقصا ٣ : ٧٩ - ٨٠ . قلت : وقوله « ألف شهر » لا يتفق مع الفترة التي عليها .

فكان من جملة ما جرى أن قال القاضي أبو عبد الله المقرئ : سئلت في مسألة في الأصول لم أجد لأحد فيها نصاً ، وهي تخصيص العام المؤكد بمنفصل ، فأجبت بالجواز محتجاً بقول الله عز وجل ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ (الأعراف : ٣٣) فهذا عام مؤكد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يحل الله من الفواحش إلاّ مسألة الناسي » . انتهى .

ومن الكتاب المذكور ما نصه : إفادة - حدثني الشيخ الفقيه القاضي الجليل الشهير الخطير أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرئ رحمه الله تعالى . وأملاه علينا ، عن العالم الكبير أبي حيان ابن يوسف بن حيان أنه قال : ورد كتاب من الأستاذ أبي عبد الله ابن مثبت الغرناطي إلى صاحب له يسمّى حمزة . وفيه : سئل الشيخ ، قال أبو حيان : يعني وجدت على ظهر نسخة من الفصل بخط عتيق سئل ابن الأخضر بمحضر ابن الأبرش : علّم انتصب قوله :

مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قَلَّتْ سَوْفَ أَنْأَلُهُ

فقال :

ولا تصحب الأردى فردى مع الردي

فقال : سألتك عن إعراب كلمة ، فأجبتني بشرط بيت ، فقال ابن الأبرش : قد أجابك لو كنت تفهم ، قال أبو حيان : ف وقعت عليه لالحين : إن هذا الشطر من قول النابغة :

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنْكَ لِمَتْنِي      وَتَلَّكَ الَّتِي تَصْطَلُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ  
مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قَلَّتْ سَوْفَ أَنْأَلُهُ      وَذَلِكَ مِنْ تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ

يروى « مقالة » بالرفع ، على أنه بدل من « أنك لمتني » الفاعل ، وبالفتح على ذلك إلاّ أنه بناه لما أضافه إلى مبني .

١ ق : وفي .

ومنه : إفادة - حدثني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى قال : سئل أبو العباس ابن البناء رحمه الله تعالى ، وكان رجلاً صالحاً ، في قوله تعالى ﴿ قالوا إنَّ هذان لساحران ﴾ ( طه : ٦٣ ) لِمَ لم تعمل « إنَّ » في « هذان » فقال : لما لم يؤثر القولُ في المقول لم يؤثر العامل في المعمول ، فقال له : يا سيدي هذا لا ينهض جواباً ، فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إنَّ . فقال له : إن هذا الجواب نواراة لا تحتمل أن تحكَّ بين الأكف : انتهى .

ومنه : إفادة - قال لنا الشيخ الأستاذ القاضي أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى : إن أهل المنطق وغيره يزعمون أن الأسماء المعدولة لا تكاد توجد في كلام العرب . وهي موجودة في القرآن . وذلك قوله ﴿ لا فارضٌ ولا بَكْرٌ عَوانٌ بين ذلك ﴾ ( البقرة : ٦٨ ) فإن زعم زاعم أن ذلك على حذف المبتدأ . ودخلت « لا » على الجملة ، وتقديره لا هي فارض ولا هي بكر . قيل له : إن كان يسوغ لك ذلك في هذا الموضع فلا يسوغ في قوله تعالى ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ ( النور : ٣٥ ) فصح أن الاسم المعدول موجود فصيح في كلام العرب .

ومنه : إفادة - حدثنا الأستاذ أبو عبد الله المقرئ . قال : سئل عن قوله تعالى ﴿ وهو الذي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ( الأنبياء : ٢٢ ) لم عاد ضمير من يعقل إلى ما لا يعقل ؟ فقال بعضهم : لما اشترك مع من يعقل في السباحة وهي العوم عومل لذلك معاملته ، قال : وهذا لا ينهض جواباً ، فإن السباحة لما لا يعقل كالحوت ، وإنما لمن يعقل العوم ، لا السباحة ، وأيضاً فالحاقه بما العوم له لازم كالحوت أولى من إلحاقه بما هو غير لازم له ، قال : وأجاب الأستاذ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي بأن الشيء المعظم عند العرب تعامله معاملة العاقل . وإن لم يكن عاقلاً . لعظمه عندهم . وأجبت أنا بأنه لما عوملت في غير هذا الموضع معاملة مَنْ يعقل في نحو قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ( يوسف : ) لصدور أفعال العقلاء عنها أجرى عليها هنا ذلك الحكم للأنس به في موضعه .

ومنه : إفادة - لَقَمَنِي الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقرّي رحمه الله تعالى لقمة بيده المباركة<sup>١</sup> ، وقال : لَقَمَنِي الشيخ أبو عبد الله المسفر قال : لَقَمَنِي أبو زكريا المحياوي قال : لَقَمَنِي أبو محمد صالح قال : لَقَمَنِي الشيخ أبو مدين قال : لَقَمَنِي أبو الحسن ابن حرزهم قال : لَقَمَنِي ابن العربي قال : لَقَمَنِي الغزالي قال : لَقَمَنِي أبو المعالي قال : لَقَمَنِي أبو طالب المكي قال : لَقَمَنِي أبو محمد الجريري قال : لَقَمَنِي الجنيد قال : لَقَمَنِي السقطي قال : لَقَمَنِي معروف الكرخي قال : لَقَمَنِي داود الطائي قال : لَقَمَنِي حبيب العجمي قال : لَقَمَنِي الحسن البصري قال : لَقَمَنِي علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : لَقَمَنِي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . قلت : وبهذا السند صافحته أيضاً رضي الله تعالى عنه<sup>٢</sup> ؛ انتهى . وللمحدثين في هذا السند كلام مشهور ، وانتصر بعضهم لاسادة الصوفية رضي الله تعالى عنهم .

ومنه : إنشادة - أنشدني الشريشي الفقيه أبو عبد الله قال : أنشدني القاضي المقرّي قال : أنشدني الرباطي قال : أنشدني ابن دقيق العيد لنفسه من صدر رسالة كتب بها لبعض إخوانه بالحجاز<sup>٣</sup> :

يهمُّ قلبي طَرَباً عندما  
ويستميل الوجدُ قلبي<sup>٥</sup> وقد  
يا هل أقصّي من ميني حاجتي  
وأرتوي من زمزم فهي لي  
أستلمح البرق الحجازياً  
أصبح لي ثوبُ الحجى زياً  
فأنحَرَ البُدنَ المهارياً  
ألذُّ من ريق المها رياً

١ لقمة بيده المباركة : سقطت من ق .  
٢ انظر سند المصافحة ص : ٢٤١ .  
٣ انظر الديوان الملحق : ١٥٤ والطالع السعيد : ٣٣٢ ولها تحريجات أخرى في الديوان ( هامش : ١٥٣ ) .  
٤ الديوان : تهيم نفسي .  
٥ الديوان : عقلي .



ومنه : إفادة — حدثنا الأستاذ القاضي أبو عبد الله المقرري رحمه الله تعالى قال : رأيت لبعض مَنْ أَلَّفَ على كتاب « الكشاف » للزمخشري فائدة لم أرها لغيره في قوله تعالى ﴿ والراسخون في العلم ﴾ إذ الناسُ يختلفون في هذا الموضوع اختلافاً كثيراً ، فقال قوم : الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، والوقوف عند قوله ﴿ والراسخون في العلم ﴾ ، وقال قوم : إن الراسخين لا يعلمون تأويله ، وإنما يوقف<sup>١</sup> عند قوله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ فقال هذا القائل : إن الآية من باب الجمع والتفريق والتقسيم ، من أنواع البيان ، وذلك لأن قوله تعالى ﴿ هو الذي نزل عليك الكتاب ﴾ هو جمع ، وقوله ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ﴾ تفريق ، وقوله تعالى ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ — إلى قوله تعالى : وابتغاء تأويله ﴾ أحدُ طرفي التقسيم ، وقوله تعالى ﴿ والراسخون في العلم ﴾ الطرفُ الثاني ، وتقديره : وأما الراسخون في العلم فيقولون آمناً به ، وجاء قوله تعالى ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ( آل عمران : ٧ ) اعتراضاً بين طرفي التقسيم ، قال : وهذا مثل قوله تعالى ﴿ وأنا منّا المسلمون — الآية ﴾ ( الجن : ١٤ ) فقوله ﴿ وأنا ﴾ جمع ، وقوله ﴿ منّا المسلمون ومنّا القاسطون ﴾ تفريق ، وقوله ﴿ فمن أسلم ﴾ ﴿ وأما القاسطون ﴾ تقسيم ، وهو من بدیع التفسير ، قلت : ومثله أيضاً قوله تعالى ﴿ يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه — الآيات ﴾ ( هود : ١٠٥ ) ؛ انتهى .

ومنه : إنشادة — أنشدنا الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقرري في القول بالموجب لبعض العلماء في ودیعة :

إن قال قد ضاعت فصدّق أنها ضاعت ، ولكن منك يعني لو تعي  
أو قال قد وقعت فصدّق أنها وقعت ، ولكن منه أحسن موقع

ومنه : إنشادة أيضاً من القول بالموجب لبعض الخنابلة :

يُحِجُّونَ بِالْمَالِ الَّذِي يُجْمَعُونَهُ حَرَاماً إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمَحْرَمِ  
وَيَزْعَمُ كُلُّ أَنْ تَحْطَّ ذُنُوبُهُمْ تَحْطُّ وَلَكِنْ فَوْقَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

ومنه : إفادة - كتب لي بخطه شيخنا الفقيه القاضي الجليل أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى على ظهر « التسهيل » لابن مالك الذي كتبه بخطي بعدما كتب لي بخطه روايته فيه عن أبي الحسن ابن مزاحم عن بدر الدين ابن جماعة عن المؤلف فكتب بعد ذلك ما نصه : قال محمد بن محمد المقرئ : بدر الدين ابن جماعة المذكور يدعى بقاضي القضاة ، على ما جرت به عوائد أهل المشرق في تسمية مثله ، وأنا أكره هذا الاسم محتجاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم « إن أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الملوك ، لا ملك إلا الله » ؛ انتهى ما انتقيته من كتاب « الإنشادات والإفادات » للشاطبي فيما يتعلق بجدي رحمه الله تعالى .

ومن فوائد مولاي الجدي رحمه الله ، مما لم يُذكر فيما سبق ، أنه حكى أن ابن أمجوط المولاه دخل في حلقة أبي عبد الله ابن رشيد بجامع القرويين ، وبين رجله قصبة كأنها فرس ، ويده أخرى كأنها رمح ، فانتهره رجل ، فضربه برمحه على رأسه ، وقال له : اسكت يا ميت ، فأبتهت الناس لكلامه . فقال له الشيخ : يا فقير أنت في حال ونحن في مقال ، وشأن أرباب الأحوال التسليم لأصحاب المقال ، فنظر إليه المولاه وانصرف ، ثم لم ينشب المنتهر أن توفي بعد ذلك بأيام قلائل .

[ أخبار للمقرئ عن ابن شاطر ]

ومنها : قلت لابن شاطر يوماً<sup>٢</sup> : كيف حالك ؟ فقال : محبوس في الروح ،

١ ق : لأرباب .

٢ مر هذا ، انظر ما تقدم ص : ٢٤٨ .

وصدق لأن الدنيا سجن المؤمن . ولا مخلص له من حبسه إلا بمفارقة نفسه .

وقال : سألت ابن شاطر عن معنى قول ابن الفارض :

فلم ألهُ باللاهوت عن حكم مظهري<sup>١</sup> ولم أنسَ بالناسوت موضع حكمتي

فقال : يقول ما أنا بالخلاج ولا ببلعام ، ثم قال مولاي الجد بعد هذا الكلام ما صورته : قلت : وهذا هو الإنسان على الكمال والتمام ، ولقد سمعته يقول في الخلاج : نصف إنسان ، يشير إلى البيت .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى : سمع ابن شاطر إنساناً يقول : الجنة رخيصة ، فقال : كيف تكون رخيصة والله عز وجل يقول ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ (التوبة : ١١١) انتهى . ثم قال مولاي الجد بأثر هذا الكلام : قلت : ما الأنفس والأموال في جنب ما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ لا سيما وفوق هذه الحسنى زيادة الإكرام بالنظر والرضى .

وقال أيضاً : قيل لابن شاطر : صف لنا الدنيا ، فقال : ﴿ كسر ابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ (الندر : ٣٩) الآيتين ، فبلغ ذلك أبا زيد ابن الإمام ، فأنكر عائباً لاستحسان سامعه ، تالياً ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ (المائدة : ١٣) ولقد أصيب المتعسف بأدهى منها وأمر . فإنه أفحم يوماً ببعض أهل النظر فتلا عليه ﴿ فبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (البقرة : ٥٨) على أن له أن يقول : لم أخرج الآية عن مرادها ، فالبهت من انقطاع المعاند ، والكفر من جحد الجاحد ، ولنا أن نقول : التحريف المذموم هو التحويل للإبطال وليس هذا في قصد الممثل الأول بالمثال ؛ انتهى .

وهذا كله على مذهب جمهور المالكية في منع الاقتباس ، وللكلام على ذلك موضع غير هذا ، فليراجع في كتب البيان وغيرها .

١ ق : منطقي .

وقال رحمه الله تعالى : حُدثت أن المتوكل على الله أبا عنان رحمه الله تعالى أعطى ابن شاطر ألف دينار ليحج بها ، فمر بها إلى تلمسان ، فصار يدفع منها شيئاً فشيئاً للمتفرجين بغدير الوريث شرقي عباد تلمسان العلوي ، إلى أن نفدت ، فلماً ورد السلطان أبو عنان تلمسان لقيه بسوق العطارين من منشر الجلد ، فقال له : يا سيدي أبا عبد الله حجّ مبرور ، فقال له : إذا جهلت أصل المال فانظر مصارفه ، ويأبى الله إلا أن يُنفق الخبيث في مثله ، فضحك السلطان وانصرف ؛ انتهى .

وكان لابن شاطر هذا عجائب ، ولم يكن مخللاً بشيء من الحقوق الشرعية ، وكان معتقداً عند أهل وقته ، وكان السلطان أبو عنان على فقهه يعظمه ويصله ويسلم له ، وبات عنده ليلة بقصره ، وكان يدخل القصر ، ولا تحتجب منه الجوارى ، فاحتاج إلى البول ، فبال في قبة في القصر عظيمة ، فانتهرته إحدى الجوارى ، وقالت له : أتبول في قبة مولانا ؟ فقال لها : إن قبة مولانا الخضراء أعظم من هذه ، وأنا أفعل تحتها ما هو أفضح من البول ، وما انتهرني قط ، فذكرت ذلك الجارية للسلطان ، فضحك وعلم أنه يريد السماء . وكان يكتب القرآن والعمدة ولا يغلق حرفاً مجوفاً فإذا غلب على ذلك أصلحه ، حتى حكى أنه سافر لإصلاح حرف مجوف أغلقه سهواً من نسخة كان باعها ، ولم يتذكر ذلك حتى سافر مشترئها ، فما رجع حتى جدّه .

وحكى الشيخ أبو القاسم ابن داود الفخار السلوي أن الشيخ أبا عبد الله الشريف التلمساني صاحب « المفتاح في أصول الفقه » وشارح « الجمل الخونجية » المتوفى عام اثنين وسبعين وسبعمائة دفين المدرسة اليعقوبية من تلمسان المحروسة افتتح شرح العمدة بما نصه : اللهم احمد نفسك عمّن أمرته أن يتخذك وكيلاً ، حمداً عائداً منك إليك ، متحداً بك ، دائماً بدوام ملكك ، لا منقطعاً ولا مفصولاً ،

١ ق : وذكر .

قال : فقال لي أبو عبد الله ابن شاطر : ما هو انفصال عالم الملك ؟ فقلت له : بالضرورة الوقتية ، فقال لي : ما أجهلك ! وأجهل سيدك أبا عبد الله ! وأجهل ابن سودكين<sup>١</sup> الذي أخذ من كتابه هذا الحمد ! إذ قال « لا منقطعاً ولا مفصلاً » بعد قوله « بدوام ملكك » وهو بالضرورة الوقتية ، وهي منقطعة ، فهلاً قال : « دائماً بدوام قيوميتك ، وعظيم قدرك ، ومجدك الأعلى ، وسبوحات وجهك الأكرم ، لا منقطعاً ولا مفصلاً » ، فبلغ ذلك أبا عبد الله الشريف ، فبدله ؛ انتهى . وأخبار ابن شاطر كثيرة ، وقد مر ذكره في كلام مولاي الجد رحمه الله تعالى ، وسيأتي ما ذكره لسان الدين به في « الإحاطة » .

#### [ تمة الفوائد عن المقرئ ]

ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله تعالى ما قاله إثر قول الرازي في التفسير « الحس أقوى من العقل » ونصه : هذا على ما حكاه في المحصل من أن المعقولات فرع المحسوسات ، قال : ولذلك مَنْ فقد حساً فقد فقد علماً كالأكمه والعينين ، ومذهب جمهور الفلاسفة أن اليقينيات هي المعقولات لا المحسوسات ، انظر المحصل ؛ انتهى .

ومن فوائده رحمه الله تعالى أنه قال : أنشدت يوماً الآبلي قول ابن الرومي :

أفنى وأعمى ذا الطيبِ بطبهِ      وبكحلهِ الأحياءِ والبُصراءِ  
فإذا مررتَ رأيتَ من عميانِهِ      أممّاً على أمواتِهِ قرأءِ

فاستعادني حتى عجبت منه ، مع ما أعرف من عدم ميله إلى الشعر ، وانفعاله له ، وظننت أنه أعجب بما تضمنه البيت الأول من غريب اللف والنشر المكرر الذي لا أعرف له ثانياً فيه ، فقال : أظننت أنني استحسنت الشعر ؟ فقلت : مثلك

١ اسماعيل بن سودكين ( ق : شودكين ) النوري ( - ٦٤٠ ) تلميذ ابن عربي وشارح كتبه .

يستحسن مثل هذا الشعر ، فقال : إنما تعرفت منه كون العميان كانوا في ذلك الزمان يقرؤون على المقابر ، فإنني كنت أرى ذلك حديث العهد ، فاستفدت التاريخ . وقال مولاي الجد رحمه الله تعالى <sup>١</sup> : حدثني الآبلي أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الخطيب بتلمسان كان يقول في خطبته : من يطع الله ورسوله فقد رشيد ، بالكسر ، وكان الطلبة يتكرون عليه ذلك ، فلماً ورد عليهم الراوية الرحلة أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري سمعه يقول ذلك ، فأنكر عليه في جملتهم ، وبلغ الخطيب ذلك ، فلم يرجع ، فلماً قفل ابن رشيد من وجهته تلك دخل على الأستاذ أبي الحسن ابن أبي الربيع بسبته ، فهناه بالقدوم ، وقال له فيما قال : رَشِدْت - يا ابن رشيد - ورَشِدْت لغتان صحيحتان ، حكاهما يعقوب في « الإصلاح » <sup>٢</sup> ، ثم قال مولاي الجد <sup>٣</sup> : قلت : هذه كرامة للرجلين أو للثلاثة .

وقال رحمه الله تعالى <sup>٤</sup> : قال طالب لشيخنا الآبلي يوماً : مفهوم اللقب صحيح ؟ فقال له الشيخ : قل زيد موجود ، فقال : زيد موجود ، فقال له الشيخ : أما أنا فلا أقول شيئاً ، فعرف الطالب ما وقع فيه ، فحجل . وهذا الآبلي <sup>٥</sup> تقدم في كلام مولاي الجد رحمه الله تعالى أنه عالم الدنيا ، وهو تلمساني كما تقدم ، قال تلميذه أبو القاسم السلوي الفخار : دخل عليّ شيخنا الآبلي يوماً . وأنا أعجن طين الفخارة ، فقال لي : ما علامة قبول هذه المادة أكمل صورة تردُّ عليها ؟ فقلت : أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جنسها من حجر أو زبل أو غيره . فأدركه وجدٌ عظيم . حتى إنه صاح وقام وقعد ، وبقي هُنَيْبَةً مطرقاً برأسه مفكراً ، ثم قال : هكذا هي النفوس البشرية .

١ ق : ومن فوائده رحمه الله ؛ والقصة في نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

٢ إصلاح المنطق : ٢١٣ .

٣ زاد في ق : قال الآبلي .

٤ النص في نيل الابتهاج : ٢٤٥ .

٥ ق : ووصف الشيخ الآبلي .

قال : وقال لي يوماً ، وقد وجد الصبيان يصوتون بقصَبِ رقاق على الذباب فإذا خرج قتلوه : الغلط الداخل عليه من أي أنواع المغلطات هو ؟ فقلت له : من إيهام العكس ، لما كان كل ذباب مصوتاً ظن أن كل مصوت ذباب ، فاستحسن ذلك .

قلت : وحدثني مولاي العم الإمام شيخ الإسلام سيدي سعيد بن أحمد المقرئ رحمه الله تعالى ، عن شيخه ابن جلال مفتي حضرتي فاس وتلمسان ، أنه كان يحكي أن الغلط جاءه من عدم كلية الكبرى في الشكل الأول ، لأنه ركبه هكذا : هذا مصوت وكل مصوت ذباب ، وقد علمت أنها هنا إنما تصدق جزئية لا كلية ، وإذا كانت جزئية بطل الإنتاج ، لأن ذلك من الضروب العقيمة ؛ انتهى .  
ومن <sup>١</sup> فوائد مولاي الجدد رحمه الله تعالى أنه قال <sup>٢</sup> : سمعت شيخنا الآبلي يقول : ما في الأمة المحمدية أشعر من ابن الفارض .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى <sup>٣</sup> : سمعت شيخنا الآبلي يقول : إنما أفسد العلم كثرة التواليف ، وإنما أذهبه بنیان المدارس ، وكان يتتصف له من المؤلفين والبانين وإنه لكما قال ، غير أن في شرح ذلك طولاً ، وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم ، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير <sup>٤</sup> ، وقد لا يحصل له من العلم إلاّ النزر اليسير ، لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه . ثم صار يشتري أكبر ديوان بأخمس ثمن ، فلا يقع منه أكثر من موقع ما عوّض عنه ، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر ، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر ؛ وأما البناء فلأنه يجذب الطلبة إلى ما يرتب فيه من الجرايات <sup>٥</sup> ، فيقبل بها على من

١ قبلها في ق : رجع .

٢ انظر نيل الابتهاج : ٢٤٥ .

٣ نقل صاحب نيل الابتهاج هذا النص ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

٤ نيل الابتهاج : مالا كثيراً .

٥ نيل الابتهاج : لما فيه من مرتب الجرايات .

يعينه أهل الرياسة للأجراء والإقراء منهم أو ممن يرضى لنفسه الدخول في حكمهم ،  
ويصرفونها<sup>١</sup> عن أهل العلم حقيقة الذين لا يُدْعَوْنَ إلى ذلك ، وإن دُعُوا لم  
يجبوا ، وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم . ثم قال مولاي الجلد رحمه  
الله تعالى : ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغربية أربابها ، ونسبوا  
ظواهر ما فيها إلى أمهاتها ، وقد نبه عبد الحق في « تعقيب التهذيب » على ما يمنع  
من ذلك لو كان مَنْ يسمع - وذيلت كتابه بمثل عدد مسائله أجمع - ثم تركوا  
الرواية فكثرت التصحيف ، وانقطعت سلسلة الاتصال ، فصارت الفتاوى تُنقل  
من كتب مَنْ لا يدري ما زيد فيها ممّا نقص منها ، لعدم تصحيحها ، وقلة  
الكشف عنها . ولقد كان أهل المائة السادسة وصدر السابعة لا يسوّغون الفتوى  
من « تبصيرة » الشيخ أبي الحسن اللخمي لكونه لم يصحح على مؤلفه ولم يؤخذ<sup>٢</sup>  
عنه ، وأكثر ما يُعتمد اليوم ما كان من هذا النمط . ثم انضاف إلى ذلك عدم  
الاعتبار بالناقلين ، فصار يؤخذ من كتب المسخوطين كما يؤخذ من كتب  
المرضيين<sup>٣</sup> ، بل لا تكاد تجد من يفرق بين الفريقين ، ولم يكن هذا فيمن قبلنا ،  
فلقد تركوا كتب البراذعي على نبلها ، ولم يستعمل منها ، على كره من كثير  
منهم ، غير « التهذيب » الذي هو « المدوّنة » اليوم لشهرة مسائله وموافقته في  
أكثر ما خالف فيه المدوّنة لأبي محمد . ثم كثر أهل هذه المائة عن حال مَنْ  
قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والأصول الكبار ، فاقترضوا على حفظ  
ما قلّ لفظه ، ونزّر حظه ، وأفنوا أعمارهم في فهم رموزه ، وحل لغوزه ،  
ولم يصلوا إلى ردّ ما فيه إلى أصوله بالتصحيح ، فضلاً عن معرفة الضعيف من  
ذلك والصحيح ، بل هو حلّ مُقفلٍ ، وفهم أمر مجمل ، ومطالعة تقييدات

١ نيل الابتهاج : ويصرفهم .

٢ نيل الابتهاج : لكونها لم تصحح . . . ولم تؤخذ .

٣ نيل الابتهاج : كالأخذ من المرضيين .



زعموا أنها تستنهض النفوس . فبينما نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ ، أتاحت لنا تقييدات للجهلة ، بل مسودات المسوخ ، فإننا لله وإننا إليه راجعون ، فهذه جملة تهديك إلى أصل العلم ، وتريك ما غفل الناس عنه ؛ انتهى .

ولنصلها بخاتمة<sup>١</sup> تشير إلى حال العلماء أيضاً — اعلم أن شر العلماء علماء السلاطين ، وللعلماء معهم أحوال ؛ فكان الصدر الأول يفرون منهم ، وهم يطلبونهم ، فإذا حضر واحد منهم أفرغوا عليه الدنيا إفراغاً ليقتنصوا بذلك غيره ، ثم جاء أهل العصر الثاني ، فطمحت أنفسهم إلى دنيا من حصل لهم ، ومنعهم قرب العهد بالخير عن إتيانهم ، فكانوا لا يأتونهم ، فإن دعواهم أجابوهم إلا القليل ، فانتقصوا مما كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم ، ثم كان فيمن بعدهم من يأتهم بلا دعوة ، وأكثرهم إن دعي أجاب ، فانتقصوا بقدر ذلك أيضاً ، ثم تطارح جمهور من بعدهم عليهم ، فاستغنوا بهم عن دعاء غيرهم ، لا على جهة الفضل أو محبة المدحة منهم ، فلم يبقوا عليهم من ذلك إلا النزر اليسير ، وصر فوهم في أنواع السخر والخدم إلا القليل ، وهم ينتظرون صرفهم ، والتصريح بالاستغناء عنهم ، وعدم الحاجة إليهم ، ولا تستعظم هذا ، فاعله سبب إعادة الحال جندعة ، عجب الله من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، وهذا كله ليظهر لك سر قول النبي صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه خلفهم » ، قيل : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » وقد قص علينا القرآن والأخبار من أمرهم ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا ، سمعت العلامة الآبلي يقول<sup>٢</sup> : لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل فيهم ، لأننا أتينا أكثر مما أتوا ، يشير

١ ق : وذيلت على ذلك بخاتمة .

٢ انظر نيل الابتهاج : ٢٤٦ .

إلى افتراق هذه الأمة على أكثر مما افترت عليه بنو إسرائيل ، واشتهار بأسهم  
بينهم إلى يوم القيامة ، حتى ضعفوا بذلك عن عدوهم ، وتعدد ملوكهم لاتساع  
أقطارهم واختلاف أنسابهم وعوائلهم ، حتى غلبوا بذلك على الخلافة ، فترعت  
من أيديهم . وساروا في الملك بسير من قبلهم ، مع غلبة الهوى واندراس معالم  
التقوى . لكننا آخر الأمم ، أطلعنا الله من غيرنا على أقل مما ستر منا ، وهو  
المرجوّ أن يتم نعمته علينا ، ولا يرفع ستره الجميل عنا . فمن أشدّ ذلك إتلافاً  
لغرضنا تحريف الكلم عن مواضعه الصحيحة أن ذلك لم يكن بتبديل اللفظ ، إذ  
لا يمكن ذلك في المشهورات من كتب العلماء المستعملة ، فكيف في الكتب الإلهية ،  
وإنما كان ذلك بالتأويل كما قال ابن عباس وغيره ، وأنت تبصر ما اشتملت  
عليه كتب التفسير من الخلاف ، وما حُمّلت الآي والأخبار من التأويلات  
الضعاف . قيل للمالك : لم اختلف الناس في تفسير القرآن ؟ فقال : قالوا بأرائهم  
فاختلفوا ؛ أين هذه من قول الصديق « أيُّ سماء تُظِلُّني ، وأيُّ أرض تُقِلُّني ،  
إذا قلت في كتاب الله عز وجل برأيي ؟ » كيف وبعض ذلك قد انحرف عن سبيل  
العدل إلى بعض الميل ، وأقرب ما يحمل عليه جمهور اختلافهم أن يكون بعضهم  
قد علم بقصد إلى تحقيق نزول الآية من سبب أو حكم أو غيرهما ، وآخرون لم  
يعلموا ذلك على التعيين ، فلما طال بحثهم وظنوا عجزهم أرادوا تصوير الآية  
بما يسكن النفوس إلى فهمها في الجملة ، ليخرجوا عن حدّ الإبهام المطلق ،  
فذكروا ما ذكروه على جهة التمثيل ، لا على سبيل القطع بالتعيين ، بل منه ما لا  
يعلم أنه أريد لا عموماً ولا خصوصاً ، لكنه يجوز أن يكون المراد ، فإن لم يكن  
إياه فهو قريب من معناه ، ومنه ما يعلم أنه مراد لكن بحسب الشركة والخصوصية  
مع جواز أن يكون هو المراد بحسب الخصوصية ، ثم اختلط الأمران . والحق  
أن تفسير القرآن من أصعب الأمور ، فالإقدام عليه جراءة ، وقد قال الحسن<sup>1</sup>

١ ق : قائل .

لابن سيرين : تعبر الرؤيا كأنك من آل يعقوب ! فقال له : تفسر القرآن كأنك شهدت التنزيل ! وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يفسر من القرآن إلا آيات معدودة ، وكذلك أصحابه والتابعون بعدهم ، وتكلم أهل النقل في صحة التفسير المنسوب لابن عباس إليه إلى غير ذلك ، ولا رخصة في تعيين الأسباب والتاسخ والمنسوخ إلا بنقل صحيح أو برهان صريح ، وإنما الرخصة في تفهيم ما تفهمه العرب بطباعها من لغة وإعراب وبلاغة لبيان إعجاز ونحوها ؛ انتهى .

### [ ترجمة المقرئ من نيل الابتهاج ]

ولنرجع إلى بقية أبناء مولاي الجحد رحمه الله ، فنقول : قال صاحب « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ما صورته <sup>١</sup> : محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني الشهير بالمقرئ - بفتح الميم . وتشديد القاف المفتوحة - كذا ضبطه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في كتابه « العلوم الفاخرة » وضبطه ابن الأحمر في فهرسته وسيدي أحمد زروق بفتح الميم وسكون القاف - الإمام العلامة النظار المحقق القدوة الحجة الجليل الرحلة <sup>٢</sup> ، أحد فحول أكابر علماء المذهب المتأخرين الأثبات قاضي الجماعة بفاس ، ذكره ابن فرحون في الأصل ، يعني « الديباج » ، وأثنى عليه ؛ انتهى .

وقال الخطيب ابن مرزوق <sup>٣</sup> : كان صاحبنا المقرئ معلوم القدر ، مشهور الذكر بالخير ، تبعه بعد موته من حسن الثناء وصالح الدعاء ، ما يرجى له النفع به يوم اللقاء ، وعوارفه معلومة عند الفقهاء ، ومشهورة بين الدهماء ؛ انتهى .

١ انظر نيل الابتهاج : ٢٥٠ .

٢ الرحلة : سقطت من نيل الابتهاج .

٣ انظر هذا النقل في نيل الابتهاج أيضاً .

وقال أبو العباس الونشريسي في بعض فوائده : ومَقَرَّة - بفتح الميم ، بعدها قاف مفتوحة مشددة - قرية من قرى بلاد الزاب من أعمال إفريقية ، سكنها سَلَفُهُ ، ثمَّ تحوَّلوا إلى تلمسان ، وبها وُلد الفقيه المذكور ، وبها نشأ ، وقرأ وأقرأ ، إلى أن خرج منها صحبة الركاب المتوكلي العناني أمير المؤمنين فارس عام تسعة وأربعين وسبعمائة إلى مدينة فاس المحروسة ، فولاه القضاء ، فنهض بأعبائه علماً وعملاً ، وحُمدت سيرته ، ولم تأخذه في الله لومة لائم ، إلى أن توفي بها إثر قدومه من بلاد الأندلس في غرض الرسالة لأبي عنان عام تسعة وخمسين وسبعمائة ، ثمَّ نُقل إلى مسقط رأسه تلمسان .

وقال في موضع آخر : إنه توفي رحمه الله تعالى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى عام تسعة وخمسين وسبعمائة ، بمدينة فاس المحروسة ، ثمَّ نُقل إلى تلمسان محل ولادته ومقر أسلافه ، ودفن بها في البستان الملاصق لقبلي داره الكائنة بباب الصرف من البلد المذكور ، وهو الآن على ملك بعض ورثة الشيخ أبي يحيى الشريف ؛ انتهى .

ومن أخبار مولاي الجلد رحمه الله تعالى ، أنه قال<sup>١</sup> : شهدت الوقفة سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، وكانت جمعة ، وقام الخطيب في سابع ذي الحجة في الناس بالمسجد الحرام ، وقال : إن جمعة وقفتم هذه خاتمة مائة جمعة وقف بها من الجمعة التي وقف فيها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في حجة الوداع آخر عشر من الهجرة ، وشاع ذلك في الناس وذاع ، وكان علم ذلك ممّا تواتر عندهم ، والله أعلم ، وهم يزعمون أن الجمعة تدور على خمس سنين ، وهذا مناف لذلك ، واكن كثير منهم ينكر اطِّراد هذا ويقول : إنها قد تكون على خلاف ذلك ، فلا أدري .

١ انظر نيل الابتهاج : ٢٥٢ .

ومنها أنه قال : شهدت شمس الدين بن قيم الجوزية قيم<sup>١</sup> الحنابلة بدمشق ، وقد سأله رجل عن قوله عليه الصلاة والسلام « من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجاباً من النار » كيف إن أتى بعد ذلك بكبيرة ؟ فقال : موت الولد حجاب ، والكبيرة خرق لذلك الحجاب ، وإنما يكون الحجاب حجاباً ما لم يُخرق ، فإذا خُرق فقد زال عن أن يكون حجاباً ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام « الصوم جنة » ما لم يخرقها ، ثم قال : وهذا الرجل أكبر أصحاب تقي الدين ابن تيمية .

ومن أخبار مولاي الجدل الدالة على صرامته ما حكاه ابن الأزرق عنه<sup>٢</sup> : أنه كان يحضر مجلس السلطان أبي عنان لبث العلم ، وكان نقيب الشرفاء<sup>٣</sup> بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من في المجلس إجلالاً له ، إلاّ الشيخ المقرّي ، فإنه كان لا يقوم في جملتهم ، فأحسّ النقيب من ذلك ، وشكاه إلى السلطان ، فقال له السلطان : هذا رجل وارد علينا تركه على حاله إلى أن ينصرف ، فدخل النقيب في بعض الأيام على عادته ، فقام له السلطان على العادة وأهل المجلس ، فنظر إلى المقرّي ، وقال له : أيها الفقيه ، ما لك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره الله وأهل مجلسه إكراماً بلدي ولشرفي ؟ ومن أنت حتى لا تقوم لي ؟ فنظر إليه المقرّي وقال له : أما شرفي فمحقق بالعلم الذي أنا أبته ولا يرتاب فيه أحد ، وأما شرفك فمظنون ، ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة سنة ، ولو علمنا شرفك قطعاً لأقمنا هذا من هنا ، وأشار إلى السلطان أبي عنان ، وأجلسناك مجلسه ، فسكت ؛ انتهى .

١ ق : مقّي ، ونيل الابتهاج : مقيم .

٢ النص في نيل الابتهاج : ٢٥٤ .

٣ نيل الابتهاج : مزوار الشرفاء ؛ والمزوار لقب يعنى المقدم وهو من البربرية « امزوار » فيقال مزوار الأطباء ومزوار الطلبة . . . إلخ . ( انظر معجم دوزي ) .

قال ابن الأزرق : وعلى اعتذاره ذلك بأن الشرف الآن مظنون <sup>١</sup> ، فمن معنى ذلك أيضاً ما يحكى عنه أنه كان يقرأ بين يدي السلطان أبي عنان المذكور صحيح مسلم بحضرة أكابر فقهاء فاس وخاصتهم ، فلماً وصل إلى أحاديث « الأئمة من قريش » قال الناس : إن قال الشيخ « الأئمة من قريش » وأفصح بذلك استوغر قلب السلطان ، وإن ورى وقع في محذور ، فجعلوا يتوقعون له ذلك ، فلماً وصل إلى الأحاديث قال بحضرة السلطان : والجمهور أن الأئمة من قريش ، ثلاثاً ، ويقول بعد كل كلمة : وغيرهم متغلبٌ ، ثم نظر إلى السلطان وقال له : لا عليك ، فإن القرشي اليوم مظنون ، أنت أهل للخلافة ، إذ بعض الشروط قد توفرت فيك والحمد لله ، فلما انصرف إلى منزله بعث له السلطان بألف دينار ؛ انتهى .

قال أبو عبد الله ابن الأزرق : قلت : ويلزم أيضاً من اعتذاره أن قيام السلطان لذي الشرف المحقق بالعلم أولى بالمحافظة <sup>٢</sup> على تعظيم حرمان الله ، وقد روي عن بعض الأمراء أنه تكبر على ذلك ، واستخف بمنزلة من عظم به غيره ، فسلبه الله ملكه وملك بنيته من بعده ؛ انتهى .

ومن أجوبة مولاي الجلد رحمه الله تعالى قوله <sup>٣</sup> : سألني السلطان عمّن لزمته يمين على نفي العلم فحلف جهلاً على البت ، هل يعيد أم لا ؟ فأجبت بإعادتها ، وقد كان من حضر من الفقهاء أفتوا بأن لا تعاد ، لأنه أتى بأكثر ممّا أمر به على وجه يتضمنه ، فقلت له : اليمين على وجه الشك غموس ، قال ابن يونس : والغموس : الحلف على تعمد الكذب ، أو على غير يقين ، ولا شك أن الغموس محرمة منهي عنها ، والنهي يدل على الفساد ، ومعناه في العقود عدم ترتب أثره ؛ فلا أثر لهذه اليمين ، ويجب أن تعاد . وقد يكون من هذا اختلافهم فيمن إذنّها

١ نيل الابتهاج : يكون الشرف الآن مظنوناً .

٢ ق ص ونيل الابتهاج : في المحافظة .

٣ ق : ومن أنبأه أيضاً قوله ؛ والحكاية في نيل الابتهاج : ٢٥٣ .

السكوت ، فتكلمت هل يُجتزأ بذلك ؟ والإجزاء هنا أقرب ، لأنه الأصل ،  
والصمات رخصة لغلبة الحياء ، فإن قلت : البت أصل ، ونفي العلم إنما يعتبر  
عند تعذره ، قلت : ليس رخصة كالصمات .

ومنها أنه قال <sup>١</sup> : سألتني بعضُ الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في  
ملوكهم ، إذ لم يَلِ أمرهم من يسلك بهم الجادة ويحملهم <sup>٢</sup> على الواضحة ، بل  
من يفتّر في مصلحة دنياه <sup>٣</sup> ، غافلاً عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب في مؤمن إلاً  
ولا ذمة ، ولا يراعي عهداً ولا حرمة ، فأجبتُه بأن ذلك لأن الملك ليس في شريعتنا  
وذلك أنه كان فيمن كان قبلنا شرعاً ، قال الله تعالى ممتناً على بني إسرائيل  
﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ ( المائدة : ٢٠ ) ولم يكن ذلك في هذه الأمة ، بل جعل لهم  
خلافة ، قال الله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم  
في الأرض - الآية ﴾ ( النور : ٥٥ ) وقال تعالى ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث  
لكم طالوت ملكاً ﴾ ( البقرة : ٢٤٧ ) وقال سليمان ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً ﴾  
( ص : ٣٥ ) فجعلهم الله تعالى ملوكاً ، ولم يجعل في شرعنا إلاً الخلفاء ، فكان  
أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يستخلفه نصّاً ، لكن فهم  
الناس ذلك فهماً ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر عمر ،  
فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد ، إلى سبيل الخلافة الذي هو  
النظر والاختيار ، ونصّ في ذلك على عهده ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان ،  
فإخراج عمر لها عن بنيه إلى الشورى دليل على أنها ليست ملكاً ، ثم تعين عليٌّ بعد  
ذلك ، إذ لم يبقَ مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، واصطفى الآخرة على  
الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معاوية أول من حوّل الخلافة ملكاً ، والحشونة

١ راجع المصدر السابق .

٢ نيل الابتهاج : سلك ... وحملهم .

٣ نيل الابتهاج : صلاح دنياه .

ليناً ، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم ، فجعلها ميراثاً ، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملكٌ فيها ، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان خليفة لا ملكاً ، لأن سليمان رحمه الله تعالى رغب عن بني أمية إثارةً لحق المسلمين ولئلا يتقلدها حياً وميتاً ، وكان يعلم اجتماع الناس عليه ، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قطُّ إلا خليفة ، وأما الملوك فعلى ما ذكرت إلا من قل ، وغالب أفعاله غير مرضية ؛ انتهى .

وفوائد مولاي الجلد وتُحَفُّهُ وطُرْفُهُ ولطائفه ودقائقه يستدعي استقصاؤها مجلدات<sup>٢</sup> ، فلنكتف بما قدّمناه :

وفي الإشارة ما يغني عن الكلمِ .

[ مؤلفات المقرئ الجلد ]

وأما تأليفه فكثيرة : منها كتاب « القواعد »<sup>٣</sup> اشتمل على ألف قاعدة ومائتي قاعدة ، قال العلامة الونشريسي في حقه : إنه كتاب عزيز العلم ، كثير الفوائد ، لم يسبق إلى مثله ، بيّد أنه يفتقر إلى عالم فلاح ؛ انتهى .  
وقد أشار فيه إلى مأخذ الأربعة ، وهو قليل بهذه الديار الشرقية ، ولم أر منه بمصر إلا نسخة عند بعض الأصحاب ، وذكر أنها من أوقاف رواق المغاربة بالأزهر المعمور ، وأما قول لسان الدين في « الإحاطة » عند تعرضه لذكر تأليف مولاي الجلد ما صورته « ألف كتاباً يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية ، ضمنها كل أصل من الرأي والمباحثة » فهو غير القواعد بلا مِريّة .

١ نيل الابتهاج : موضعها .

٢ ق : وإن تتبعنا أخبار مولاي الجلد وفوائده وأقواله وأفعاله خرجنا بالاستطراد عن المراد ... إلخ .

٣ قارن بما في نيل الابتهاج : ٢٥٥ .



ومنها كتاب «الطَّرْف والتَّحَف»<sup>١</sup> غاية في الحسن والظرف ، قاله الونشريسي وقد وقفت على بعضه فرأيت العجب العجائب .

ومنها «اختصار المحصل» ولم يكمله ، وشرحه لجمل الخونجي ، كذلك<sup>٢</sup> ، ومنها كتاب «عمل من طَبَّ لمن حَبَّ» وهو بديع في بابه ، مشتمل على أنواع : الأول فيه أحاديث حكمية كأحاديث «الشهاب» و«سراج المهتدين» لابن العربي ، والنوع الثاني منه الكليات الفقهية على جملة أبواب الفقه في غاية الإفادة ، والثالث في قواعد وأصول ، والرابع في اصطلاحات وألفاظ ، قال الونشريسي : وقد أطلعني الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الخالق على نسخة من هذا الكتاب ، فتلظفت في استنساخها ، فلم يسمح به ؛ انتهى .

قلت : وقد رأيت هذا الكتاب بحضرة فاس عند بعض أولاد ملوك تلمسان وهو فوق ما يوصف ، وفيه يقول مولاي الجدد رحمه الله تعالى :

هذا كتابٌ بديعٌ في محاسنه      ضمته كل شيء خلتُه حسناً  
فكلُّ ما فيه إن مرَّ الليبُ به      ولم يشمَّ عبيراً شام منه سنناً  
فخذُه واشدد به كفَّ الضنين وذُدْ ،      حتى تحصَّله ، عن جفناك الوسناً

وهذه الأبيات كافية في وصف هذا الكتاب ، إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

[ نقول من كتاب المحاضرات للمقري الجدد ]

ومنها كتاب «المحاضرات» وفيه من الفوائد والحكايات والإشارات كثير ، وقد ملكت منه بالمغرب نسختين ، فلنذكر منه بعض الفوائد ، فنقول : قال رحمه الله تعالى : قيل لصوفي : لم تقول الله الله ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال :

١ نيل الابتهاج : التحف والظرف .

٢ قال التنبكي فيه أيضاً : لم يتم .

نَفْيُ العيب حيث يستحيل العيب عيب ، وهذا إن لم يكن في هذه الكلمة لأنها أفضل ما قالته الأنبياء فهو في كثير من التنزيه الذي يطلقه المتكلمون وغيرهم ، حتى قال الشاشي عنهم : إنهم يتمندلون بأسماء الله عز وجل ، ما عَرَفَهُ من كَيْفِهِ ، ولا وَحَدَهُ من مَثَلِهِ ، ولا عَبَدَهُ من شَبَهِهِ ، المشبَه أعشى ، والمعطلُ أعمى ، المشبه متلوث بفرث التجسيم ، والمعطلُ نجس بدم الجحود ، ونصيبُ المحقِّ ابن خالص وهو التنزيه ، انزل من علو التشبيه ، ولا تَعَلُّ قُلُلَ أَباطيل التعطيل ، فالوادي المقدس بين الجبلين .

أبو المعالي<sup>١</sup> : من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مُشَبَّهٌ ، ومن سكن إلى النفي المحض فهو مُعَطَّلٌ ، ومن قطع بموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحدٌ :

جلَّ رب الأعراض والأجسام      عن صفات الأعراض والأجسام  
جلَّ ربي عن كل ما اكتنفته      لحظات الأفكار والأوهام  
بريء الله من هشام وممن      قال في الله مثل قول هشام

الدقاق : المرید صاحب وَاَلِه ، لأن المراد بلا شَبَه ، وقيل : مثله الأعلى ﴿ ليس كمثل شيء ﴾ .

الجنيد : أشرف كلمة في التوحيد قول الصديق : الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

القشِيرِي<sup>٢</sup> : يعني أن العارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه . غيره : ما عرف الله سوى الله ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك :

كلُّ ما ترتقي إليه بوهمٍ      من جلالٍ وقدرةٍ وسناءٍ  
فالذي أبدع البريةَ أعلى      منه ، سبحانَ مبدع الأشياءِ

١ ق : ومنه ، بسقوط لفظة « أبو المعالي » .

٢ موضع هذه اللفظة في ق ، قال .

سأل<sup>١</sup> المرسي الشافعي عن التوحيد بحضرة الرشيد ، فقال : أن لا تتوهمه ولا تتهمه ، فأبته بشر<sup>٢</sup> .

الشبلي<sup>٢</sup> : من توهم أنه واصل ، فليس له حاصل ، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد ، ومن تواجد فهو فاقد ، ومن أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل<sup>٣</sup> . ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها إلهاداته هواتف الحقيقة : الذي تطلب أمامك ، وما تبرجت ظواهر المكونات إلا نادتك حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر :

ما ينتهي نظري منهم إلى رتب في الحسن إلا ولاحت فوقها رتب

الجريري : ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد .

الحسن<sup>٤</sup> : العجز عن درك الإدراك إدراك :

تبارك الله وارت غيبه حجب<sup>٥</sup> فليس يعرف إلا الله ما الله

دعا<sup>٥</sup> نبي إلى الله عز وجل بحقيقة التوحيد ، فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد . فعجب من ذلك ، فأوحى الله عز وجل إليه : تريد أن تستجيب لك العقول ؟ قال : نعم ، قال : احجبتني عنها ، قال : كيف أحجبتك وأنا أدعو إليك ؟ قال : تكلم في الأسباب ، وفي أسباب الأسباب ، فدعا الخلق من هذا الطريق . فاستجاب له الجحيم الغفير .

ومنه<sup>٦</sup> : سمع أعرابي اختلاف المتكلمين بمسجد البصرة في الإنسان وانتزاع كل واحد منهم الحجة على رأيه ، فخرج وهو يقول :

١ ق : سئل .

٢ ق : ومنه قيل .

٣ جاهل : مكررة في ق .

٤ ق : ومنه .

٥ ق : دعا الخلق .

٦ ق : ومنه قيل .

إن كنتُ أدرى فعليَّ بدَنتهُ<sup>١</sup> مِن كثرة التخليط فيَّ من أنه<sup>١</sup>  
ومَن عجز عن أقرب الأشياء نسبة منه ، فكيف يقدر على أبعد الأمور  
حقيقة عنه ؟ من عرف نفسه عرف ربّه .  
ومنه : دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره<sup>٢</sup> ، وإن كان عندك اعتذاره<sup>٣</sup> .  
لما احتُضِرَ الوليد بن أبان ، قال لبنيه : هل تعلمون أحداً هو أعلم بالكلام  
مني ؟ قالوا : لا ، قال : فإنّي أوصيكم بما عليه أهل الحديث ، فإنّي رأيت  
الحق معهم . وعن أبي المعالي نحوه .  
ومنه : هجر أحمدُ المحاسبيّ لما صنف في علم الكلام ، فقال : إنّما قصدت  
إلى نصر السنّة ، فقال : ألست تذكر البدعة وشبهة البدعة ؟ قلت : من تحقق كلام  
فخر الدين الرازي وجده في تقرير الشُّبه أشد منه في الانفصال عنها ، وفي هذا  
ما لا يخفى .  
ومنه : من آمن بالنظر إلى ظاهر الثعبان كفر بالاستماع إلى خوار العجل ،  
ومن شاهد مجاوزة القدرة الإلهية لنتهى وسع القوة البشرية لم يكثرث بوعيد الدنيا  
ولم يؤثر الهوى على الهدى والتقوى .  
ومنه : علي بن الحسين : من عرف الله بالأخبار ، دون شواهد الاستبصار  
والاعتبار ، اعتمد على ما تلحقه التهم .  
ومنه : قيل لطبيب : بمَ عرفت ربك ؟ قال : بالإلهيلج ، يحفف الحلق ،  
ويلين البطن . وقيل لأديب : بمَ عرفت ربك ؟ قال : بنحلة في أحد طرفيها  
عسل ، وفي الآخر لسع ، والعسل مقلوب اللسع . وسأل الدهرية الشافعي عن دليل  
الصانع ، فقال : ورَقّة الفرصاد تأكلها دودة القر فيخرج منها الإبريسم ،  
والنحل فيكون منها العسل ، والطّبَاء فينعقد في نوافجها المسك ، والشاء فيكون  
منها البعر ؛ فآمنوا كلهم ، وكانوا سبعة عشر .

١ أنه : لغة في أنا ، ومنه قول حاتم : « هذا فزدي أنه » ( الخزانة ٢ : ٣٨٩ ) .

قيل لأعرابي : بم عرفت ربك ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، والروث يدل على الحمير ، وآثار الأقدام تدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وبجار ذات أمواج ، أما يدل ذلك على العليم القدير :

قد يستدل بظاهر عن باطن حيثُ الدخانُ يكونُ موقِدُ نارٍ

قيل لأعرابي : بم عرفت الله ؟ قال : بنقض عزائم الصدور ، وسوق الاختيار إلى حباثل المقدور .

ومنه : الدقاق : لو كان إبليس بالحق عارفاً ، ما كان لنفسه بالإضلال والإغواء واصفاً .

ومنه : التوحيد محو آثار البشرية ، وتجديد صفات الألوهية . الحق واحد في ذاته لا ينقسم ، واحد في صفاته لا يُماثل ، واحد في أفعاله لا يشارك . لو كان موجوداً عن عدم ، ما كان موصوفاً بالقدم . الحياة شرط القدرة ، دلت على ذلك الفطرة . لو لم يكن الصانع حياً ، لاستحال أن يوجد شيئاً . لو لم يكن باقياً ، لكان للألوهية منافياً . لو كان الباري جسماً ، ما استحق الإلهية اسماً . لو كان الباري جوهرأ ، لكان للحيز مفتقراً . العَرَضُ لا يبقى ، والقديم لا يتغير ولا يفنى . لو لم يكن بصفة القدرة موصوفاً ، لكان بِسْمَةِ العجز معروفاً . لو لم يكن عالماً قادراً ، لاستحال كونه خالقاً فاطراً . دلت الفطرة والعبرة ، أن الحوادث لا تحصل إلا من ذي قُدْرَةٍ . لو لم يكن بالإرادة قاصداً ، ما كان العقل بذلك شاهداً . مَنْ تنوع لإيجاده ، دل ذلك على أن الفعل مراده . لو لم يكن بالسمع والبصر موصوفاً ، لكان لضديهما مألوفاً . لو جاز سامع لا سَمْعَ له ، لجاز صانع لا صنع له . لو كان سمعه بأذن ، لافتقرت ذاته إلى ركن . مَنْ صدرت عنه الشرائع والأحكام ، كان موصوفاً بالكلام . ليس في الصفات

١ ق : ربك .

السبع ما لا يتعلّق إلاّ الحياة ، ولا ما يؤثّر إلاّ القدرة والإرادة . كما جاز أن يأمر بما لا يريد جاز أن يريد ما لا يجب . لا يُسأل عمّا يفعل . الواحد كافٍ ، وما زاد عليه متكافٍ . ليس مع الله تعالى موجودات لأن الموجودات كلّها كالظل . من نور القدرة له رتبة التبعية ، لا رتبة المعية .

إنّ من أشرك باللّه جهُولٌ بالمعاني  
أحول العقل ؛ لهذا ظنّ للواحد ثاني

قال جعفر بن محمد : لو كان على شيء لكان محمولاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان مُحدّثاً .

قيل لثمامة بن الأشرس : متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ فقيل : فلم يكفر الكافر ؟ فقال : الجواب عليه .

قال خادم أبي عثمان : قال لي مولاي : يا محمد ، لو قيل لك أين معبودك ما كنت تجيب ؟ قال : أقول بحيث لم يزل ، قال : فإن قيل لك فأين كان في الأزل ؟ فقال : أقول بحيث هو الآن ، فتزع قميصه وأعطانيه .

قيل لصوفي : أين هو ؟ فقال : محقك الله ! أطلب مع العين أين ؟ ومنه : سمعت شيخنا يقول : نقصنا صفة كمال له فينا ، يعني إذا وجب له كل الكمال وجب لنا كل النقص ، وهذا على أنّه ليس في الإمكان أبدع ممّا كان ، وفيه كلام .

ومنه : بلغ أحمد أنّ أبا ثور قال في الحديث «خلق الله آدم على صورته» ، إن الضمير لآدم ، فهجره ، فأناه أبو ثور ، فقال أحمد : أي صورة كانت لآدم يخلقه عليها ؟ كيف تصنع بقوله «خلق الله آدم على صورة الرحمن» ؟ فاعتذر إليه ، وتاب بين يديه .

ومنه : أتى يهودي المسجد فقال : أيكم وصيُّ محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأشاروا إلى الصديق ، فقال : إنني سألك عن أشياء لا يعلمها إلاّ نبي أو وصي

نبي ، قال : سل ، قال : فأخبرني عما ليس لله ، وعما ليس عند الله ، وعما لا يعلمه الله ، فقال : هذه مسائل الزنادقة ، وهم بقتله ، فقال ابن عباس : ما أنصفتموه ، إما أن تجيبوه وإما أن تصرفوه إلى من يجيبه ، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي « اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه » ، فقال أبو بكر : قم معه إلى علي ، فقال له : أمّا ما لا يعلمه الله فقولكم في عزير إنّه ابن الله ، والله عز وجل لا يعلم له ولدًا ، قال في التنزيل ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ - الآيَة ﴾ (يونس : ١٨) وأمّا ما ليس عند الله فالظلم ، وأمّا ما ليس له فالشريك<sup>١</sup> ، فأسلم اليهودي ، فقبل أبو بكر رأس علي ، وقال له : يا مفرج الكربات ، ووردت<sup>٢</sup> مثل هذه المسائل عن الصحابة ، فالله تعالى أعلم .

وقال العتابي لأبي قرّة النصراني عند المأمون : ما تقول في المسيح ؟ قال : من الله ، قال : البعض من الكل على سبيل التجزيء ، والولد من الوالد على طريق التناسل ، والخل من الخمر على وجه الاستحالة ، والخلق من الخالق على جهة الصنعة ، فهل من معنى خامس ؟ قال : لا ، ولكن لو قلت بواحد منها ما كنت تقول ؟ قال : الباري لا يتجزأ ، ولو جاز عليه ولد لجاز له ثان وثالث وهلم جرّاً ، ولو استحال فسد ، والرابع مذهبنا ، وهو الحق .

ومنه : أول ما تكلم به عيسى في المهد أن قال ﴿ إني عبدُ الله ﴾ (مريم : ٣٠) وهو حجة على الغالين فيه ، يقال لهم : إن صدق فقد كذبتم ، وإلا فمن عبدتم ، ولمن ادعيتهم ؟

قال القاضي ابن الطيب للقيس لما وجهه عضد الدولة إلى ملك الروم : لِمَ اتحد اللاهوت بالناسوت ؟ فقال : أراد أن يُنجيَ الناس من الهلاك ، قال :

١ ق : فالشرك .

٢ ص : وروي .

فهل درى أنه يُقتل ويُصلب أولاً؟ فإن لم يدر لم يجوز أن يكون إلهاً ولا ابناً ، وإن درى فالحكمة تمنع من التعرض لمثل ما قلتم لأنه جرى .

سأل القاضي هذا البطرك عن أهله وولده ، فأنكر ذلك النصارى ، فقال :  
تُبرثون هذا ممّا تثبتونه لربكم ؟ سوءةٌ لهذا الرأي ! فانكسروا .

ابن العربي : سمعت الفقراء ببغداد يقولون : إن عيسى عليه السلام كان إذا خلق من الطين كهيئة الطير طار شيئاً ثم سقط ميتاً لأنه كان يخلق ولا يرزق ، ولو رزق لم يبق أحدٌ إلا قال « هو الله » إلا من أوتي هداة .

سأل ابن شاهين الجنيد عن معنى « مع » فقال : مع الأنبياء بالنظر والكلاءة ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ (طه : ٤٦) ومع العامة بالعلم والإحاطة ﴿إِلَّا وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (المجادلة : ٧) فقال : مثلك يصلح دليلاً على الله .

ومنه : سأل قَدْرِي علياً رضي الله عنه عن القدر ، فأعرض عنه ، فألح عليه ، فقال : أَخْلَقَكَ كيف شئت ، أو كيف شاء ؟ فأمسك ، فقال : أترونه يقول كيف شئت ؟ إذن والله أقتله ، فقال : كيف شاء ، قال : أيجيبك كيف تشاء أو كيف يشاء ؟ قال : كيف يشاء ، قال : فيدخلك حيث تشاء أو حيث يشاء ؟ قال : حيث يشاء ، قال : اذهب فليس لك من الأمر شيء .  
أبو سليمان : أدخلهم الجنة قبل أن يطيعوه ، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه ، جل حكم الأزل ، أن يضاف إلى العلل ، سبق قضاؤه فعله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة : ٣٠) وأوقفت مشيئته أمره ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾ (يونس : ٩٩) .

قال الشاذلي : أهبط آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه ، لأنه قال ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يقل في السماء ولا في الجنة .

الأوزاعي : قضى بما نهى ، وحال دون ما أمر ، واضطر إلى ما حرم :

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال لهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ



قال الأوزاعي لغيّلان : مشيئتك مع مشيئة الله عز وجل أو دونها ؟ فلم  
يجب ، فقال هشام بن عبد الملك : فلو اختار واحدة ، فقال : إن قال معها فقد  
زعم أنه شريك ، وإن قال وحدها فقد تفرّد بالربوبية ، قال : لله درك أبا عمرو .  
من بيان عظمتة ﴿ رفيع الدرجات ﴾ ( غافر : ١٥ ) من آثار قدرته ﴿ بديع  
السموات ﴾ ( الرعد : ٢ ) توقيع أمره ﴿ يأمُرُ بالعدلِ والإحسان ﴾ واقع  
زجره ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ ( النحل : ٩٠ ) تنفيذ حكمه  
﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ( البروج : ١٦ ) دستور ملكه ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾  
( الأنبياء : ٢٣ ) .

إياس بن معاوية : ما خاصمت أحداً بعقلي كله إلا القدرية ، قلت لقدري :  
ما الظلم ؟ فقال : أخذ ما ليس لك ، قلت : فإن الله له كل شيء .  
الواسطي : ادعى فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية  
على السر ، تقول ما شئت فعلت .

ومنه : من أقصته السوابق لم تُدنيه الوسائل ، إذا كان القدر حقاً فالحرص  
باطل ، إذا كان الله عز وجل عدلاً في قضائه فمصيبات الخلق بما كسبت أيديهم :

ما عذر معتزليٍّ مَوسِرٍ منعت كفاه معتزليّاً معسراً صَقداً  
أيزعمُ القدرَ المحتوم ثَبَطه إن قال ذاك فقد حلَّ الذي عقداً

ومنه : دخل محمد بن واسع على بلال بن فروة فقال : ما تقول في القدر ؟  
قال : تفكر في جيرانك أهل القبور فإن فيهم شغلاً عن القدر .

وكل من أغرق في نَعْتِه أصبحَ منسوباً إلى العبيِّ

المقادير تبطل التقدير ، وتنقض التدبير .

قال معتزلي لسني : لو أراد ثبوت أحد على الكفر لم يقل ﴿ ليُخْرِجْكُمْ  
من الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ( الأحزاب : ٤٣ ) فقال السني : لو لم يكن الإيمان من

فعله لم يقل ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ .  
 قال نفقور طاغية النصارى لأبي الحسن الشلباني<sup>١</sup> : أنت تقول إن الخير والشر  
 من الله ؟ وذلك لأن النصارى كلهم على مذهب القدرية في الاستطاعة ، قال :  
 نعم ، قال : كيف يعذب عليه ؟ هل كان حقاً عليه أن يخلق ؟ فقال : لم يضطره  
 إلى ما خلق مضطراً .

قيل : نزلت ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ ( الشعراء : ٩٩ ) في القدرية ، لأنهم  
 أضافوا الحول والقوة في الشر إلى البشر فأشركوهم في الخلق ، أما ترى قوله  
 تعالى : ﴿ إن المجرمين في ضلالٍ وسُعُرٍ ﴾ ( القمر : ٤٧ ) إلى قوله تعالى :  
 ﴿ إننا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ( القمر : ٤٩ ) .

كنتُ دهرأ أقولُ بالاستطاعة وأرى الجبر ضلّةً وشناعةً  
 ففقدت استطاعتي في هوى ظبّي ، فسمعاً لمن أحب وطاعه

غيره<sup>٢</sup> :

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبدأ ، وما هو كائن سيكون

غيره<sup>٣</sup> :

تُرِيدُ النفس أن تُعْطَى مُنَاهَا وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا ما يَشَاءُ  
 شفاء الصدور ، في التسليم للمقدور :

إذا لم يكن إلاّ الأسنّة مركب فلا رأي للمضطر إلا ارتكابها

غيره :

١ كذا في ق ص ، ولعل الصواب : « الشباني » - بضم الشين - .

٢ ص : ومنه .

٣ غيره : سقطت من ق ص .

أَيَّ يَوْمِيَّ مِنْ الْمَوْتِ أَفْرُ يَوْمٌ لَا يُقَدَّرُ أَمْ يَوْمٌ قُدِّرُ

إذا كان الداء من السماء ، بطل الدواء .

قال الحائط للوتد : لَمْ تَشْفَيْتَنِي ؟ قال : سل من يَدُقُّتَنِي .

الناس يَلْحَوْنَ الطَّيِّبَ ، وَإِنَّمَا غَلَطَ الطَّيِّبُ إِصَابَةَ الْمَقْدُورِ<sup>١</sup>

قيل لحكيم : أخرج الهمَّ من قلبك ، فقال : ليس بإذني دخل .

نَفْسِي تُتَازَعُنِي فَقُلْتُ لَهَا قَرِي مَوْتٌ يُرِيحُكَ أَوْ صَعُودُ الْمُنْبَرِ

مَا قَدْ قُضِيَ سَيَكُونُ فَاصْطَبِرِي لَهُ وَلَكِ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يُقَدَّرِ

وَلِتَعْلَمِي أَنَّ الْمَقْدَرَ كَائِنٌ لَا بَدَّ مِنْهُ صَبْرْتُ أَوْ لَمْ تَصْبِرِي

ومنه : الهارب من المقدور كالمثقل في كف الطالب . من كان السلطان يطلبه ،

ضاق عليه مذهبه ﴿ وما أنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (الأنعام : ١٣٤ ، يونس : ٥٣ ، هود : ٢٣)

أَسْلَى آيَةٌ فِي التَّنْزِيلِ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ -

إِلَى قَوْلِهِ تَمَالِكُمْ بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (الحديد : ٢٢) .

ومنه : أخلَّ رجلٌ بخدمة صاحب الإسكندرية ، فتغيب ، ثم ظفر به عرفاؤه ،

فقادوه فانساب منهم ، ورمى بنفسه في بئر ، وتحت الإسكندرية أسرابٌ يسير

فيها القائم من أول البلد إلى آخره ، فلم يزل يمشي حتى وجد بئراً صاعدة ،

فتعلق بها ، فإذا هي في دار السلطان ، فأخذه فأدبه ، فانظر كيف فرَّ من قوادة

السلطان مكرهاً ، وأتاه برجله طائماً .

### ذهبَ القضاء بحيلة العقلاء

ومنه : قال يزيد بن المهلب لموسى بن نصير<sup>٢</sup> : أنت أدهى الناس وأعلمهم ،

١ هذا البيت لابن الرومي وقافيته : « الأقدار » .

٢ مر هذا في النسخ ج ١ ، ص : ٢٨٣ .

فكيف طرحت نفسك في يد سليمان ؟ فقال : إن الهدءُ هُدَّ يهتدي للماء في الأرض الفيءاء ، وينصب له الصبيُّ الفخَّ بالدودة أو الحبة فيقع فيه :

ولو جرَّت الأمور على قياسٍ لوقِّيَ شرَّها الفظنُ اللبيبُ

الواسطي : اختيار ما جرى لك في الأزل ، خير من معارضة الوقت .

ابن معاذ : عجبت من ثلاثة : رجل يريد تناول رزقه بتدبيره ، ورجل شغله غدُهُ ، وعالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط .

ومنه : شكى لبعض الأنبياء امرأة كانت تؤذي أهل زمانها ، فأوحى الله إليه : أن فر من قدامها حتى تنقضي أيامها .

ومنه : ابن المعتز : كرمُ الله عز وجل لا ينقض حكمته ، ولذلك لا تقع الإجابة في كل دعوة ﴿ولو اتبعَ الحقُّ أهواءهم﴾ (المؤمنون : ٧١) .

أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أريدُ وقصرَ علمي أن أنالَ المغيِّباً

ومنه : كان ابن مجاهد ينشد لبعضهم :

أيها المعتدي ليطلبَ علماً كلُّ علمٍ عبْدٌ لعلم الكلامِ  
تطلبُ الفقه كي تُصحَّحَ حكماً ثمَّ أغفلت مُنزلَ الأحكامِ

ومنه : قال الأحذب البغدادي للقاضي الباقلاني : هل لله عز وجل أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه ؟ فقال : إن أردتم بالتكليف القول المجرد فقد وجد ، ﴿قلْ كُونُوا حِجَارَةً﴾ (الإسراء : ٥٠) ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ (البقرة : ٢١) ﴿ويدْعُونَ إلى السَّجودِ فلا يستطيعُونَ﴾ (القلم : ٤٢) وإن أردتم به ما يصح فعله وتركه فالكلام متناقض ، وهذا هو الذي نعرفه ، لأن التكليف اقتضاء فعل ما فيه مشقة ، وما لا يُطاق لا يُفعل البتة ، فقال : سئلت عن كلام مفهوم فطرحت في الاحتمالات ، فقال : إنني بينت الوجوه المحتملة ، فإن كان معك شيء فهاته ،

١ لشار : (شرح المختار : ١١٨) .

فقال عضد الدولة : قد صدق ، وما جمعتمكم إلا للفائدة ، لا للمهاترة . ثم قال لقاضيه بشر بن الحسن المعتزلي : تكلم ، فقال : ما لا يطاق على ضربين : أحدهما ما لا يطاق للاشتغال بضده ، وهذا سبيل الكافر ، لا يطبق الإيمان للاشتغال بالكفر ، وأما العاجز فما ورد في الشريعة تكليفه ، ولو ورد لكان جائزاً ، وقد أثنى الله عز وجل على مَنْ سألَهُ أن لا يكلفه ما لا يطيقه فقال ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ (البقرة : ٢٦٨) لأن الله له أن يفعل في ملكه ما يريد .  
ومنه : خرج عمر بن عبد العزيز في سفر ليلاً ، فقال له رجل : انظر إلى القمر ما أحسنه ، فنظر فقال : قد علمت أنك أردت نزوله بالدبران ، ونحن لا نتطير بذلك ولا نعتقده :

إذا عقدَ القضاء عليك أمراً  
فليسَ يحلُّهُ إلا القضاء  
يدبِّرُ بالنجومِ وليسَ يدري  
وربُّ النجمِ يفعلُ ما يشاءُ

[ وقال آخر ] :

ليسَ للنجمِ إلى ض  
رّ ولا نفعَ سبيلُ  
إنما النجمُ على الأو  
قات والسّمّتِ دليلُ

غيره :

من كانَ يخشى زُحلاً أو كانَ يرجو المُشترى  
فإنّي منه - وإن كانَ أخي الأدنى - بَرِي

لما وجّه عضد الدولة القاضي ابن الطيب إلى ملك الروم قال له الوزير ٢ :

١ ق : الدليل .  
٢ أورد القاضي عياض هذا النص في ترجمة الباقلاني في ترتيب المدارك ، وهي متفولة في آخر كتاب التمهيد ( ط . مصر ) ص : ٢٤١ - ٢٥٩ وانظر النص المقصود ص : ٢٥٠ وما بعدها ، والوزير المشار إليه هو أبو القاسم المطهر بن عبد الله .

أخذت الطالع لخروجك ؟ فسأله القاضي عن ذلك ، ففسره له ، فقال : السعد والنحس بيد الله ، ليس للكواكب فيه تأثير ، وإنما وُضعت كتب النجوم ليعلم بها العامة ، ولا حقيقة لها ، فاستحضر الوزير ابن الصوفي ودعاه إلى مناظرة القاضي . فقال : لا أقومُ على المناظرة ، وإنما أقول : إذا كان من النجوم كذا كان كذا ، وأما التعليل فمن علم المنطق ، والذي يتولى المناظرة عليه أبو سليمان المنطقي<sup>١</sup> . فأحضر وأمر<sup>٢</sup> ، فقال هذا القاضي يقول : إذا ركب عشرة أنفس في ذلك المركب الذي في دجلة فالله تعالى قادر على أن يزيد فيهم آخرَ في ذلك الوقت ، فإن قلت له لا يقدر قطعتم لساني ، فأبي معنى لمناظرتي ؟ فقال القاضي للوزير : ليس كلامنا في القدرة ، لكن في تأثير الكواكب ، فانتقل هذا إلى ما ترى لعجزه ، وأنا إن قلت إن الله تعالى قادر على ذلك فلا أقول إنه يخرق العادة الآن ، ولا يجوز عندنا ذلك ، فهو فرار من الزحف ، فقال المنطقي : المناظرة دُرُبة ، وأنا لا أعرف مناظرة هؤلاء القوم ، وهم لا يعرفون مواضعنا ، فقال الوزير : قد قبلنا اعتذارك ، والحق أبلج .

رأس الدين صحة اليقين . من سابق القدر عشر .

وإذا خشيت من الأمور مُقدَّراً و فررت منه فَتَنَحَّوه تتوجه

قيل : لما وقع الوباء بالكوفة فر ابن أبي ليلى على حمار ، فسمع منشداً ينشده :

لن يُسَبِّقَ الله على حمارٍ ولا على ذي منسر طيارٍ

أو يأتي الحتف على مقدارٍ قد يُصْبِحُ الله أمام الساري<sup>٣</sup>

فقال : إذا كان الله أمام الساري فلا مهرب ، ورجع .

- 
- ١ هو محمد بن بهرام السجستاني ( حدود ٣٨٠ ) صاحب كتاب « صوان الحكمة » وأستاذ التوحيدي ، وقد أكثر أبو حيان من ذكر أقواله وأخباره في مؤلفاته .
  - ٢ المدارك : وأمر بمكالمة القاضي .
  - ٣ عيون الأخبار ١ : ١٤٤ لبصري هرب من الطاعون .

ومنه : شكاً بعض الصالحين إلى الخليفة ضرر الأتراك ، فقال : أنتم تعتقدون أن هذا من قضاء الله وقدره ، فكيف أردُّه ؟ فقال : إن صاحب القضاء قال : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (البقرة : ٢٥١) فردهم عنهم .

القدر والطلب كالعديّين على ظهر الدابة كلُّ واحد منهما معين لصاحبه ، فالقدر بالطلب ، والطلب بالقدر .

قيل لعارف : إن كنت متوكلاً فألق بنفسك من هذا الحائط فلن يصيبك إلا ما كتب الله لك ، فقال : إنَّما خلق الله الخلق ليجرّبهم ، لا ليجرّبوه .

الجوهري : كف الله النار عن يد موسى لثلاث بقول النار : طبعي ، واحترق لسانه لثلاث يقول الكليم : مكاني ، وقال غيره : لو لم يقل لنار إبراهيم « سلاماً » لهلك من برد النار .

قيل للجنيد : أنطلب الرزق ؟ قال : إن علمت أين هو فاطلبوه ، قيل : فنسأل الله ؟ قال : إن خشيتم أن ينساكم فذكروه ، قيل : فنلزم البيوت ؟ قال : التجربة منك شك ، قيل : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة . يقول : ليكن تصرفك بإذنه ، لا بشهوتك ، فقد قيل : ترك الطلب يضعف الهمة ، ويذل النفس ، ويورث سوء الظن .

الطرطوشي : القدر والطلب كأعمى ومُتَعَدِّ في قرية ، يحمل الأعمى المقعد ، ويبدلُ المقعدُ الأعمى .

قال رجل لبشر : إنني أريد السفر إلى الشام ، وليس عندي زاد ، فقال : اخرج لما قصدت إليه . فإنه إن لم يعطك ما ليس لك ، لم يمنعك ما لك .

الناس في هذا الباب ثلاثة : فرقة عاملت الله عز وجل على مقتضى شمول قدرته للشر والخير ، وأعرضوا عن الأسباب ، فأدركوا التوكل ، وفاتهم الأدب ، وهم بعض الصوفية . وقد قيل : اجعل أدبك دقيقاً . وعلمك ملحاً ، وهذا

إبليس لم<sup>١</sup> تنفعه كثرة علمه لما دفعته قلة أدبه . وفرقة عاملته على ذلك مع الجَرَيَانِ على عوائد مملكته ، والتصرف بإذنه على مقتضى حكمته ، وهم الأنبياء وخوادم العلماء ، فأصابوا الأدب ، وما أخطأوا التوكل . والفرقة الثالثة - وهم الجمهور - أقبلوا على الأسباب ، ونَسُوا المسبب ، فقَاتهم الأمران ، فهلكوا .  
ومنه : جل الواحد المعروف ، قبل الحدود والحروف .

لقد ظَهَرَتْ فما تخفى على أحد إلاّ على أكرمَه لا يعرف القَمَرَا  
كما بَطَنْتَ بما أبديت من حُجُب وكيف يُبْصِرُ من بالغة استترا

سئل النصيبي عن الرؤية بمجلس عضد الدولة<sup>٢</sup> ، فأنكرها محتجاً بأن كل شيء يُرى بالعين فهو في مقابلتها ، فقال له القاضي ابن الطيب : لا يُرى بالعين ، قال له الملك : فيماذا يُرى ؟ قال : بالإدراك الذي يُحدِّثه الله في العين وهو البصر ، ولو أدرك المرئي بالعين لوجب أن يدرك بكل عين قائمة ، وهذا الأجهر عينه قائمة ولا يرى بها شيئاً .

ومنه : ابن العربي : للصوفية في إطلاق لفظ العشق على الحق تجاوز عظيم ، واعتداء كبير ، ولولا إطلاقه للمحبة ما أطلقناها ، فكيف أن نتعدها ؟  
الدقاق : العشق مجاوزة الحد في الحب ، ولما كان الحق لا يوصف بالحد لم يوصف بال محدود ، إذ لو جُمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ما يستحقه قدرُ الحق من الحب .

خمسة أبهمت ، فلم تعين<sup>٣</sup> لعظم أمرها : الاسم الأعظم ، وساعة الجمعة ، وليلة القدر ، والصلاة الوسطى ، والكبائر - لأن اجتنابها يكفر غيرها ، يعني على أحد الأقوال في المسألة .

١ ق ص : لا .

٢ انظر هذا الخبر في أزهار الرياض ٣ : ٨٢ وترجمة الباقلاني السابقة : ٢٤٩ .

٣ فلم تعين : سقطت من ق .



ومنه : قيل في التسعة والتسعين اسماً : إنها تابعة لاسم الله ، وهو تمام المائة ، فهي عدد درج الجنة ، لما في الصحيح من أن درجها مائة ، بين كل درجتين مسيرة مائة عام ، ولذلك قيل : من أحصاها دخل الجنة ، وهذه الأسماء مفضلة على غيرها مما لا يحصى ، ألا ترى قوله عليه السلام في الصحيح : بأسمائه الحسنی ما علمت منها وما لم أعلم ؟

ذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً منه ، فلم يشر في شيء منها إلى خلقه ، وذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعاً ثلث ذلك العدد فصرح في جميعها بخلقه ، قال ابن عطية : وهذا يدل على أنه غير مخلوق .

أبو علي ابن أبي اللحم : بت ليلة جمعة بمصر في أيام أبي حريش ، وكان يقول بخلق القرآن ، وأبي خلف المعافري ، وكان يقول : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، أفكر عن أيهما آخذ ، فلما نمت أتاني آت فقال لي : قم ، فقمتم ، قال : قل ، فقلت : ما أقول ؟ فقال :

لا والذي رفَعَ السما	ء بلا عِمَادٍ للنظر
فترينت بالساطعا	ت اللامعات وبالقمَر
والماء السبع الطبا	ق بكل مختلف الصور
ما قال خلق في القرا	ن بخلقِه إلا كفر
لكن كلام منزل	من عند خلاق البشر

ثم قال : اكتبها ، فأخذت كتاباً من كتبي وكتبتها فيه ، فلما أصبحت وجدت ذلك بخطي على كتاب من كتبي ، فجلست في البيت إلى الزوال ، ثم خرجت فسألني إنسان عما رأيت البارحة ، فقلت : ما أخبرت أحداً ، فقال : قد شاعت رؤياك في الناس .

الخواص : انتهيت إلى رجل مصروع ، فجعلت أؤذن في أذنه ، فناداني الشيطان من جوفه : دعني أقتله ، فإنه يقول بخلق القرآن .

عمرو بن دينار : أدركت سبعة من الصحابة يقولون : مَنْ قال القرآن مخلوق فهو كافر ، قلت : قال مالك : يستتاب .

ومنه<sup>١</sup> : كان عضد الدولة يحب العلم والعلماء ، فكان مجلسه يحتوي على عدد منهم أكثرهم الفقهاء والمتكلمون ، وكان يعقد لهم مجالس للمناظرة ، فقال لقاضيه بشر بن الحسن : إن مجلسنا خالٍ عن عاقل من أهل الإثبات ينصر مذهبه ، فقال : إنما هم عامة يرون الخير وضده ، ويعتقدونهما جميعاً ، وإنما أراد ذمَّ القوم ، ثم أقبل يمدح المعتزلة ، فقال عضد الدولة : مُحالٌ أن يخلو مذهب طَبَقِ الأَرْض من ناصر فانظر ، قال : بلغني أن بالبصرة شيخاً يُعرف بأبي الحسن الباهلي . وفي رواية بأبي بكر ابن مجاهد ، وشاباً بابن الباقلاني ، فكتب إليهما ، فلما وصل الكتاب قال الشيخ : قوم كفرة - لأن الديلم كانوا رَوَافض - لا يحل لنا أن نطأ بساطهم ، فقال الشاب : كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومَنْ في عصرهم : إن المأمون فاسق لا يحضر مجلسه ، حتى ساق أحمد بن حنبل إلى طرسوس ، وجرى عليه ما عُرِف ، ولو ناظروه لكفّوه عن هذا الأمر ، وتبين له ما هم عليه بالحجة ، وأنت أيضاً أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد . ويقولون بخلق القرآن ونفي الرؤية . وها أنا خارج إن لم تخرج ، قال الشيخ : إن شرح الله صدرك لهذا فاخرج . فرد الله به الكرة .

حُفَظَ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم المتقى والمرسل أمثال المنزل . ثم انتقي من ذلك صحةً وفصاحةً ما يبلغ حجم المصحف أو يربُّني عليه . فهل وجدت فيه ما يشبهه أو ينزع إليه ؟ أشهد أنه من عند الله ، تنزيل من لدنه . أول إعجاز القرآن الجهلُ بنوعه من جنس الكلام ، فإنه لا يدخل في مضممار الشعر ، ولا ينخرط في سلك الحُطَب . ولا المواعظ والمقامات والكتب . ولا في شيء مما يؤلف التخاطب به ، وتعرف فيه طبقات أهل مذهبه . فإن

١ راجع هذا الخبر في أزهار الرياض ٣ : ٧٩ وترجمة الباقلاني السابقة : ٢٤٦ وما بعدها .

لم يتبين ما رسمت لك فاعرض كلامك في كل صنف من هذه الأصناف تجد لنفسك مع فحوله حالة القصور أو المماثلة أو الزيادة ، ولا تجد لكلامك نسبةً إلى القرآن ، بل لا تدري ما تقول إن طُلب منك البيان ، إلا أن تُسلب العقل ، كسليمة وأمثاله ممن ابتلي بالهذيان ، وقد تفتن للدلالة كافر غلبت عليه الجهالة ، انظر السيرة .

الزخشي : ما أعجب شأن الضلال ، لم يرضوا للنبوة ببشر ، وقد رضوا للإلهية بحجر .

سأل القاضي أبا بكر<sup>١</sup> ملك الروم - حين وجهه عضد الدولة إليه - عن انشقاق القمر ، كيف لم يره جميع الناس ؟ فقال : لأنهم لم يكونوا على أهبة ووعده ، قال : فما النسبة التي بينكم وبين القمر حتى لم يره غيركم من الروم وغيرهم ؟ قال : النسبة التي بينكم وبين المائدة حتى رأيتموها دون اليهود والمجوس ، فدعا القسيس ، فأقر للقاضي ، فقال له القاضي : أتقول إن الكسوف يراه جميع أهل الأرض أم أهل الإقليم الذي في محاذاته ؟ قال : لا يراه إلا من في محاذاته ، قال : فما تنكر من لا يرى انشقاق القمر إلا في تلك الناحية ممن تأهّب لذلك ؟ قال : هذا صحيح ، إلا أن الشأن في مثله أن لا ينقل آحاداً ، لكن تواتراً ، بحيث يصل العلم الضروري به إلينا وإلى غيرنا ، وانتفاء ذلك يدل على افتعال الخبر ، فقال الملك للقاضي : الجواب ، فقال : يلزمه في نزول المائدة ما ألزمتنا في انشقاق القمر ، فبهت الذي كفر .

قال ملك الروم للقاضي ابن الطيب في هذه الرسالة : ما تقول في المسيح ؟ قال : روح الله وكلمته وعبده ، قال : تقولون المسيح عبد ؟ قال : بذلك ندين ، قال : ولا تقولون إنه ابن الله ؟ قال : ما اتخذ الله من ولد ، قال : العبد يخلق ويحيى ويرى ؟ قال : ما فعل المسيح ذلك قط ، قال : هذا مشهور في الخلق ،

١ انظر المصدرين السابقين .

قال : لا ، قال : ما قال أحد من أهل المعرفة إن الأنبياء يفعلون المعجزات ، لكن الله تعالى يفعلها على أيديهم تصديقاً لهم ، قال : إن ذلك في كتابكم ، قال : في كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى ، ولو جاز أن يكون ذلك فعل المسيح لجاز أن يقال إن موسى قلبَ العصا ، وأخرج يده بيضاء ، وقلق البحر ، قال : إن الأنبياء من لدن آدم كانوا يتضرعون للمسيح حتى يفعل ما يطلبون ، قال : أفي لسان اليهود عَظْمٌ لا يقولون معه إن المسيح كان يتضرع لموسى ، وكذلك أمة كل نبي ، لا فرق بين الموضوعين في الدعوى .

الجوزي في قوله عليه السلام « يوشك أن ينزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » : إنما كان الإمام منّا لثلاثين بغير الشبهة وَجْهٌ « لا نبيَّ بعدي » . كان بالبصرة يهودي يقرر المتكلمين على نبوة موسى ، فإذا أقرّوا جحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال : نحن على ما اتفقنا عليه ، إلى أن نتفق على غيره ، فسأل أبا الهذيل عن ذلك فقال : إن كان موسى هذا الذي أخبر بمحمد صلى الله عليه وسلم وأقر بشرفه وأمر باتباعه فأنا أقر بنبوته ، وإن كان غيره فأنا لا أعرفه ، فتحير اليهودي ، ثم سأله عن التوراة ، فقال : إن كانت التي نزلت على موسى المذكور فهي حق ، وإلا فهي عندي باطل .

ومنه : قيل للحسن : الملائكة أفضل أم الأنبياء ؟ فقال : أين أنت من هذه الآية ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مُلْكٌ ﴾ (هود : ٣١) .

ومنه : وعن عُمَرَ وعلي - رضي الله عنهما - أن الخضر لقيهما وعلمهما هذا الدعاء ، وذكر فيه خيراً كثيراً لمن قاله في إثر كل صلاة : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا تغلظه المسائل ، ومن لا يتبرم على إلحاح الملحين ، أذفني برَدِّ عَفْوِكَ ، وحلاوة مغفرتك .

ومنه : سمع إياس يهودياً يقول : ما أحق المسلمين ! يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوّطون ، فقال : أوكل ما تأكله تحدّثه ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى يجعل أكثرهُ غذاءً ، قال : فما تنكر أن يجعل

جميع ما يأكل أهلُ الجنةُ غذاءٌ ؟

الرزية كل الرزية ، تضييع أمر المرأة الرندية ، وذلك أنه وردت على تليمان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض ، فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام ، وتلا ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ (المائدة : ٧٥) فأخذ الناس يبشون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها ، فكشفن عنها بكل وجه يمكنهن ، فلم يقفن على غير ما ذكر ، وسئلت : هل تشتهين الطعام ؟ فقالت : هل تشتهون التبن بين يدي الدواب ؟ وسئلت : هل يأتيها شيء ؟ فأخبرت أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش ، فنامت فأتاها آت في النوم بطعام وشراب ، فأكلت وشربت ، فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت ، فبهي على تلك الحال ، تؤتى في المنام بالطعام والشراب إلى الآن ، ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجيء أمها به إذا أتت إليها أربعين يوماً ، فلم بوقف لها على أمر ، بيد أنني أردت أن يزداد في عدد العدول ، ويجمع إليهم الأطباء ، ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ، ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل إليها ، ولا يترك أحد يخلو بها ، وبالجملة يبالغ في ذلك ، ويستندام رعيها عليه سنة ، لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغي في فصل دون فصل ، ثم يكتب هذا في العقود ، ويُشاع أمره في العالم ، وذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذي هو أضر الأحكام على الشريعة ، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة ، وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ، ويبطل التأثير والتولد ، ويوجب أن الاقترانات بالعادات ، لا بالزوم ، وعند الأسباب ، لا بها ، إلى غير ذلك ، إلا أنني لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبليغه إلى من لم يفهم ما قلت ، ومن لم يرفع به رأساً ، لإيثار الدنيا على الدين ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة ، وحدثني غير واحد

من الثقات ممن أدرك عائشة الجزيرية أنها كانت كذلك ، وأن عائشة بنت أبي يحيى اختبرتها أربعين يوماً أيضاً ، وكم من آية أضيفت<sup>١</sup> ، وحجة نُسبت . هذا مما لم يُعرف مثله قبل المائة الثامنة ، وكذلك الوباء العام القريب فروطه ، يوشك أن يطول أمره ، فينسى ذكره ، ويُكذب المحدث به إذا انقضى عصره ، وكم فيه أيضاً من أدلة ، على أصول الملة .

ومنه : قال شيخ صالحى الفقهاء في عصرنا بفاس أبو زرهون عبد العزيز ابن محمد القيروانى رحمه الله تعالى : مات فقير عندنا بالمثدنة<sup>٢</sup> ، فوجدوا عنده ربطة من دراهم ، فوضعوها عند المؤذن ، فلما نزل ليلحده سقطت من جيبه في القبر ، ولم يشعر حتى واره ، فكشف عنه ، فإذا الدراهم قد لصقت ببدنه درهماً إلى درهم كالنجوم ، فحاول قَلَعَ واحد منها فقامت معه قطعة من لحمه ، وتبعها من ذلك المحلّ ریح منتنة ، قال الشيخ : فاطلعت على ذلك وشاهدته ثم ردوا التراب عليه وانصرفوا .

قال عبد الله بن إدريس لغيلان الممرور : متى تقوم الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، غير أنه من مات فقد قامت قيامته ، قال : فالمصلوب يعذب عذاب القبر ؟ قال : إن حقت عليه الكلمة ، وما تدري لعسل جسده في عذاب لا تدرکه أبصارنا ولا أسماعنا ، فإن لله لطفاً لا يدرك ، وانظر الحديث «فلولا أن لا تدافنوا للدعوت الله أن يُسمعكم ما أسمع من عذاب القبر» .  
ومنه : المازري : مسألة التكفير بالمال مشكلة ، وقد اضطرب فيها قول مالك وهو إمام الفقهاء ، والقاضي أبي بكر وهو إمام المتكلمين .

الغزالي : لا يقطع بتكفير الفلاسفة إلاّ في ثلاث مسائل : قدم العالم ، ونفي العلم بالجزئيات ، وإنكار المعاد البدني وتوابعه القطعية .

١ ق : أضيفت .

٢ ق : عند باب المثدنة ؛ ص : عندنا بالبادية .

أصل الفلاسفة اعتقاد المحسوسات معقولات ، والمعتزلة اعتقاد المشهورات  
 قطعيات ، ومن ثم قيل لهم : مخنثة الفلاسفة .  
 لا يكفي التقليد في عقائد التوحيد ، لا فرق بين إنسان يتقاد ، وبهيمة تُقاد .  
 ومنه : كان أبو هاشم من أفسق الناس ، فجلس ذات يوم يعيب الإرجاء  
 وكان في المجلس مرجيء ، فأنشد :

يَعْيِبُ القول بالإرجاء حتى يرى بعض الرجاء من الجرائر  
 وأعظم من ذوي الإرجاء ذنباً وَعَيْدِي يُصِرُّ على الكبائر

كان مالك ينشد كثيراً ١ :

وخير أمور الدين ما كان سنّةً وشراً الأمور المحدثاتُ البدائعُ

ابن عقيل : يشبه أن يكون واضح الإرجاء زنديقاً ، فإن صلاح العالم في  
 إثبات الوعيد واعتقاد الجزاء ، فلما لم يمكن هذا المائت جحد الصانع لمخالفة  
 العقل ، أسقط فائدة الإثبات ، وهي الحشية والمراقبة ، وهدم سياسة الشريعة ،  
 فهم شر طائفة على الإسلام .

سئل مالك عن أشراً الطوائف ، فقال : الروافض .

بينما ابن المعلم شيخ الرافضة في بعض مجالس المناظرة مع أصحابه أقبل ابن  
 الطيب فقال : جاءكم الشيطان ، فسمعه على بعد ، فلما جلس إليهم تلا عليهم  
 ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ (مريم : ٨٣) .  
 مالك : أهل السنّة من لا لقب له : لا خارجي ، ولا قدرى ، ولا رافضي .  
 البديع ٢ :

يقولون لي : ما تحب الوصي فقلت : الثرى بضم الكاذب

١ ق : كثيراً ما ينشد .

٢ ديوان بديع الزمان : ٨ ( ط . مصر ١٩٠٣ ) .

أحبُّ النبيَّ وآلَ النبيِّ وأختصُّ آلَ أبي طالبٍ  
وأعطي الصحابةَ حقَّ الولاءِ وأجرِي على السننِ الواجبِ  
فإن كان نَصَباً ولاءً للجميعِ فإني كما زعموا ناصبي  
وإن كان رَفْضاً ولاءً للجميعِ فلا برحَ الرفضِ من جانبي  
أحبُّ النبيَّ وأصحابَهُ فما المرءُ إلاَّ معَ الصاحبِ  
أيرجو الشفاعةَ مَنْ سَبَّهم بل المثلُ السوءُ للضاربِ  
يوقَى المكارهَ قلبُ الجبانِ وفي الشُّبهاتِ يدُ الحاطبِ

أخذ البيت الخامس من قول الشافعي :

إن كانَ رَفْضاً حبُّ آلِ محمدٍ فليشهد الثَّقَلانِ أني رافضي

ومنه : أبو حنيفة : لقيت عطاء فقال لي : ممن أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة ، فقال : من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ؟ قلت : نعم ، قال : فممن أنت منهم ؟ قلت : ممن يؤمن بالقدر ، ولا يسب السلف ، ولا يكفر بالذنب ، قال : عرفت ، فالزم .

ومنه : الإرادة تطلق على المحبة ، وعلى قصد أحد الجائزين بالتخصيص ، وكل واحد من المعنيين يوجد بدون الآخر ، أمّا الأول فكقوله :

تريد النفس أن تُعْطَى منها

وهو ظاهر ، وأما الثاني فكقصد المتوعد بالإهلاك إلى أمر عبده الذي أمره بأمر<sup>٢</sup> لينظر امثاله ، ولدقة الفرق بينهما ضل المعترلة في أمرهما فقالوا : إن الله عزّ وجل لا يريد المعاصي ، لأنه لا يجب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، قال عمار بن ياسر يوم صِفِّين :

١ الديوان : ولاء الوصي .

٢ ق ص : أمر أن يأمره .



صدق اللهُ وهو للصدِّقِ أَهْلٌ وتعالى رَبِّي وكان جليلاً  
رَبٌّ عَجَلٌ شهادةً لي بقتلِ في الذي قد أحبَّ قتلاً جميلاً

ومنه : العبدري : قَتَلَ الحُسينَ دعا إلى حرب ، وأخذ بثأره كذابٌ ثَقيفٌ ،  
ونوّه باسمه أعداء ملّة جدّه بنو عبِيدٍ ليقْتَص من قضية بمثلها ، فيقرأ الفهم  
سورة تلك الصورة ، ويتهجى اللبيب حروف تلك الحروب ، فيعلم أن الكل  
آلات مستعملات ، حسبما اقتضاه العلم القديم .

ومنه ١ : أبو العباس الأبياني : ثلاث لو كُتبت على ظفر لوسعهن ، وفيهن  
خير الدنيا والآخرة : اتَّبِع لا تبتدِع ، اتضع لا ترتفع ، اتزع لا تتسع .  
ومنه : كانت سَكينة بنى إسرائيل في التابوت ، فغلبوا عليها ، وسَكينة هذه  
الأمّة في القلوب ، فغلبوا بها ، استحفظوا كتابهم فحرفوا من أحكامه ووصفه ،  
وحفظ كتابنا فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومنه : في الصحيح : كان أبو ذر يُقسّم قسماً أن ﴿ هذان خصمان  
اختصموا في ربّهم ﴾ (الحج : ١٩) نزلت في الذين برزوا يوم بدر : حمزة وعلي  
وعبيدة وعتبة وشيبة والوليد ، قلت : ففي الآية شهادة من الله تعالى لعلي بالجنة  
والشهادة ، أما الجنة فبنصّها ، وأما الشهادة فلأنته وصاحبيه استشهدوا ٢ ،  
وخصمهم قتلوا ، فهي رادّةٌ على الخوارج قطعاً .

ومنه : جاز أبو بكر ابن نافع بالكُرخ أيام الديلم وقوة الرفض ، فقالت له  
امرأة : سيدي أبا بكر ، فقال : لبيك يا عائشة ، فقالت له : متى كان اسمي  
عائشة ؟ فقال : أيقتلونني وتخلصين ؟

وفي آخر هذا الكتاب ما صورته : فهذه جملة تراجم ، وفيها مقنّع لمن  
أراد المحاضرة ، أو تميم مجالس المناظرة ، وكان الفراغ من جمعها في آخر

١ ق : قال .

٢ ق ص : فلأن صاحبيه استشهدا .

يوم من شعبان المكرّم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ؛ انتهى ما تعلق به الغرض من بعض كلام مولاي الجدد رحمه الله تعالى في كتابه « المحاضرات » .

ولنرجع إلى سرّد بقية تواليه رحمه الله تعالى فنقول : ومنها « شرح لغة قصائد المغربي الخطيب » ، و « مقالة في الطلعة المملكة » ، و « شرح التسهيل » ، و « النظائر » ، و « كتاب المحرك لدعاوى الشر من أبي عنان » ، و « إقامة المرید » ، و « رحلة المتبتل » ، وحاشية بديعة جدّاً على مختصر ابن الحاجب الفقهي ، فيها أبحاث وتدقيقات لا توجد في غيرها ، وقد وقفت عليها بالمغرب ، ومن أشهر كتبه في التصوف كتاب « الحقائق والرقائق » وهو من الحسن بمكان لا يُلحَق ، وقد شرحه الشيخ الصالح شيخ شيوخ<sup>٢</sup> شيوخنا سيدي أحمد زروق رضي الله عنه ونفعنا به .

#### [ نقول من كتاب الحقائق والرقائق للمقري ]

وقد سنح لي أن أسرد هنا شيئاً من هذا الكتاب الفذ في بابه فنقول : قال فيه مولاي الجدد رحمه الله تعالى : هذا كتاب شفعت فيه الحقائق بالرقائق ، ومزجت المعنى الفائق باللفظ الرائق ، فهو زبدة التذكير ، وخلاصة المعرفة ، وصفوة العلم ، ونقاوة العمل ، فاحتفظ بما يوحيه إليك فهو الدليل ، وعلى الله قصد السبيل .

حقيقة - عمل قوم على السوابق ، وقوم على اللواحق ، والصوفي منّ لا ماضي له ولا مستقبل ، فإن كان زجاجياً فبخٍ بخ .  
رقيقة - من لم يجد ألم البعد ، لم يجد لذّة القرب ، فإن اللذة هي التخلص من الألم .

١ ص : الطلقة .

٢ شيوخ : سقطت من ق .

حقيقة — لما انطبعت الصور في مرآة الخيال قال العقل : أنا الملك المكوكب ،  
فقلت الرياضة : الزمني وتعرف قدرك ، فإذا العقل عَقَل .  
رقية — من ضحك في نوم الغفلة بكى عند الانتباه ، فإن الأضغاث أضداد .  
حقيقة — أثر الزهد عَقَلَ دنَّ سقراط على سراج غوطة أبي نصر ، فقيل :  
فأين اعتبار ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ ﴾ ؟ فقال : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾  
(الذاريات : ٢١) .

رقية — طالب الدنيا يخاف الفَوْت ، وصاحبها يترقب الزوال ولو بالموت ،  
فإذا حمي الوطيس ، وحجج الرئيس ، أنشأ الزاهد بينهما ينشد :

عزيز النفس لا ولد يموتُ ولا أنس يحاذرهُ يفوتُ

حقيقة — العابد طالبُ رياضةٍ وحرمة ، والزاهد صاحب نفاسة وهمة ،  
والمعنى للعارف يعادي في الله تعالى ويوالي ، ويرضي الله ولا يبالي .  
رقية — مَنْ سابق سبق ، ومن رافق ارتفق ، ومن لاحق التَّحَقَّ ،  
والعجز والكسل مقدمتا الحيبة ، و :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

حقيقة — العمل دواء القلب ، وإذا كان الدواء لا يصلح إلاّ إذا كان على  
حمية البدن ، فكذلك العمل لا ينجح إلاّ بعد صوم النفس ، فارق نفسك وتعال .  
رقية — مثل دواعي الخير والشر في الإنسان كمثل الخلط الفاعل والقوة  
الدافعة في العليل ، تغلب القوة فيسكن الخلط فيجد الراحة ، وعن قليل يتحرك  
فيجد الألم .

حقيقة — العمل على السلامة مسألة ، وعلى الغنيمة تجارة ، وعلى الأمر قرض ،  
فيضعف له أضعافاً كثيرة .

رقية — تطهر من أدناس هواك ، وتزين بلباس تقواك ، وقم لمسجد انقطاعك

على قدم شكواك ، وأحرم بتوجيه قلبك إلى قبلة نجواك ، تجد الحق عندك  
وليس بسواك .

حقيقة - وجد العارف فجاد بنفسه ، فوجد الله عنده ، وتواجد المرید  
فحاكى ، ومن لم يَبْكُ تَبَاكِي .

رقية - زكّ نفسك لقلبك ، تَزَكُّ عند ربك ، بعِها منه رخيصة ، فهي  
على ثمنها لديه حريصة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى... ﴾ ( التوبة : ١١١ ) .  
حقيقة - الزوال وقتُ المناجاة ، فظهر قلبك قبله من الحاجات ، وإياك  
والحظ ، فذهاب نقطته أسرع من اللحظ .

رقية - الزاد لك وهو مكتوب ، والزائد عليك وهو مسلوب ، فأجمل في  
طلب المضمون ، ولا تلزم نفسك صَفَقَةَ المغبون .  
حقيقة - أمر بالتوكّل لتتقصر الطرف عليه ، وأذن في التسبب لتتصرف منه  
إليه ، فذاك مخبر بحقيقة التفرد ، وهذا مظهر لحكمة التعبد .

رقية - الملك أبو الدنيا ، وهو مع ذلك محبوس فيها ، تبهم عليه الأبواب ،  
ويستدعي الحراس والحجاب ، فإذا خرج حَدَقَتْ إليه الأَحوال ، وأحدقت  
بجهازه الحفظ ، أي حَظَّ حَظًّا من فقد نعمة ﴿ فامشُوا في مَنَابِئِهَا وَكُلُّوا  
مِنْ رِزْقِهِ ﴾ ( الملك : ١٥ ) .

حقيقة - قال صاحب الزهر الأنيق : علامات المحبة أربع : الإفلاس ،  
والاستثناس ، والأنفاس ، والوسواس . قلت الإفلاس التجرد إلاّ عنه كالخليل ،  
والاستثناس التوحش إلاّ منه كالكلب ، والأنفاس والوسواس صلة الاسم وعائده .  
رقية - ذكر مذكر بمالقة ، فقام الخطيب الشيخ الولي أبو عبد الله الساحلي  
بهذا البيت :

ليت شعري أفي زمامِ رضاكم كُتِبَ اسمي أم في زمامِ الهوانِ

١ ق : ذمام ؛ والزمام : الديوان .

وكنت يوماً مع السلطان والجنّد يُعرضون عليه ، وكان يسقط ويثبّت ، وأنا  
أتفكر في البيت ، حتى خفت أن أفتضح ، فقلت : واهمّاه من هذا الإبهام !  
ثم كدت أخلِّدُ بقبح العمل إلى الأرض فينشلني<sup>١</sup> حسن الظن بالله عز وجل  
فأنهض :

إن المقاديرَ إذا ساعدت ألحقت العاجز بالحازم<sup>٢</sup>

حقيقة - إذا قابل إبرة القلب مغناطيس الحسن صبا فانجذب ، فإذا اتصل  
عشقى فانقطع ، فإذا انجذت في فبقي ، حاشا الصوفي أن يموت .  
رقيقة - افتخر الغراب بإقامة قرآن الفجر ، فقيل : حتى تغسل بول الشيطان  
من أذنك ، فطرب الديك فرحاً بالفوز ، وندب العصفور ترحاً على الفوت .  
حقيقة - الحلوة بيت الاعتبار ، وفي بيته يؤتى الحكيم ، وباب هذا البيت  
العلم ﴿ واتتوا البيوت من أبوابها ﴾ (البقرة : ١٨٩) .

رقيقة - واقع فقير هتاة ، ثم دخل خلوته ، فبدت له نفسه بوجه مؤمسة ،  
فقال : ما أنت ؟ قالت : أم الحياة ، فقال : ما أجمل أن تبدل هاؤك همزة ،  
فقلت : إذن لم تصنع ما شئت ، فانتبه لقرع العتاب<sup>٣</sup> ، فتاب .  
حقيقة - القلب إيوان الملك ويسعني ، وعز الملك يأنف عن ذل المزاحمة ،  
أنا أغنى الشركاء عن الشرك .

رقيقة - لما وضع البسطامي أوزار حُوبه ، فكّ طابع الصحيفة عن قلبه ،  
فلم يجد بها غير الطفرى ، فصاح بنفسه لك البشرى ، انزل طيفور عما تريد ،  
ليس في الدار أبو يزيد .

حقيقة - قال شيخنا أبو هادي يوماً لأصحابه : بماذا يرتقي العبد عن مقامه إلى

١ ص : فينشلني .

٢ ص : بالقادر .

٣ ق : الباب .

مقام أعلى منه ؟ قالوا : بفضل الله ورحمته ، فقال : إنَّما سألتكم عن السبب الخاص بهذا الأمر ، قالوا : ما عند الشيخ ؟ قال : يخلق الله له همة فيرتقي بها إلى رتبة أُسْمَى من رتبته .

ومن هذا الكتاب :

حقيقة - التفتُّ إلى مواهب الملوك تجدهم إنما يوسعون فيما قد يسترجعون ، فأما العلماء وكل من يعطي بحق فإنما يعطون بقصد ﴿ ولا تمدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ (طه : ١٣١) واصبر نفسك دونهم فعن قريب تنصرف عنهم .

رفيقة - قلت لقلبي : كيف تجدك ؟ فقال : أمَّا مِنْ أَمَّارَتِكَ ففني عناء الجهاد ، وأمَّا مِنْ لَوَّامَتِكَ فعلى جمر الصبر ، قلت : فمتى الراحة ؟ قال : إذا اطمأنت النفس ، فاضمحل الوهم وغاب الحس .

حقيقة - قَطَّعُ السَّوَى طهارةُ المنيب ، ولا يقبل الله صلاةً بغير طهور ، وكتابه النحيب ، والمكاتب عبدٌ ما بقي عليه ، وبابه الدخول على الحبيب .  
نظر رجل إلى امرأة عفيفة فقالت : يا هذا غضَّ بصرك عما ليس لك ، تفتتح بصيرتك فترى ما هو لك .

رفيقة - لما حنكت الطينة بتمر<sup>١</sup> الجنة ، وغذيت بلبانها ، فطرت على محبتها - انظروا إلى حب الأنصار التمر - فلم تطق الفطام عنها .

وتأبى الطباعُ على الناقل<sup>٢</sup>

فذاك ما تجد من الحنين إلى التلاق ، والأنين على الفراق ، والشغف بمدح العابر ، وذم الغابر ، وفي ذلك<sup>٣</sup> :

١ ق ص : بشر .

٢ شطر بيت لأبي الطيب وصدرة : يراد من القلب نسيانكم .

٣ البيت للمعري من قصيدته : « علاني فإن بيض الأمانى . . . » .

كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشفلنا بدم هذا الزمان  
 وإن لم تعرف عصرًا خاليًا ، ولا خلأً نائيًا ، لم يمر عليك مما تشتهيهِ ، أطيّبُ  
 مما أنت فيه <sup>١</sup> :

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحينئذٍ أبدأ لأول منزلٍ  
 ومنه :

حقيقة - قيل : عرض الكليم بطلب القوت في رحلة الهجرة ﴿ إنّي لما أنزلتَ  
 إليّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ (القصص : ٢٤) فحمل على كاهل ﴿ إنّ أبي يدعوكَ ﴾  
 (القصص : ٢٥) وصرح في سفر التأديب ﴿ لو شئتَ لانتخذتَ عليه أجرًا ﴾  
 (الكهف : ٧٧) فحمل على كاهل ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْنِكَ ﴾ (الكهف : ٧٨)  
 قلت : لما تمحض الطلب له اكتفى ، فلما تعلق حق الغير به وفي ، ولذلك  
 قضى أبا المرأتين الأجلين .

رقيقة - كان خرق السفينة لإراءة لكرامة ﴿ فاقدفيه في اليمّ ﴾ (طه : ٣٩)  
 في مرآة ﴿ وكان وراءهم ملكٌ ﴾ (الكهف : ٧٩) .

وربما صحت الأجسام بالعلل <sup>٢</sup>

وقتلُ الغلام إشارة إلى اشتمال قتله ﴿ فقضى عليه ﴾ (القصص : ١٥) على  
 رحمة ﴿ فنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ (طه : ٤٠) برمز ﴿ فخشينا أن يرهقهما ﴾  
 (الكهف : ٨٠) والمحن الصم حبال المنح ، وإقامة الجدار لإثارة لفتوة ﴿ فسقى لهما ﴾  
 ليخفف له جناح ﴿ إنّي لما أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ (القصص : ٢٤) فيستظل من  
 حر ﴿ لو شئتَ لانتخذتَ عليه ﴾ (الكهف : ٧٧) في نية ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْتِي  
 وبينك ﴾ (الكهف : ٧٨) .

١ البيت لأبي تمام .

٢ عجز بيت المتنبي وصدوره : « لعل عتبك محمود عواقبه » .

حقيقة - قيل لمحمد بن حسن الزبيدي التونسي وأنا عنده بها : كيف لم يصبر الكليم وقد ناط الصبر بالمشيئة ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ (الكهف : ٦٩) وقد جاء في الصحيح في قصة سليمان عليه السلام « لو قال إن شاء الله لكان كما قال » والمقام الموسوي أجلّ ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه : ٤١) وطلابه أفضل؟ ما جميع أعمال البرّ والجهاد في طلب العلم إلاّ كبصقة في بحر ، فقال : كان موسى على علم من علم الله ، وهو علم المعاملة ، لا يعلمه الخضر ، وكان الخضر على علم من علم الله لا يعلمه موسى ، فلم يظن أن ما لم يحط به خبراً ياباه حكم الظاهر ، وإلاّ كيف يلتزم الصبر عليه ، وقد أمر بصرف الإنكار إليه ؟ ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا﴾ (طه : ٩٢) بل لم يعتد مثله من ملاقة المشاق ، فيما كان عليه الخضر من اختراق الآفاق ، وركوب الطباقي ، فما علقه بقوله ، فقد صدقه بفعله ، وما لم يستطع عليه صبراً ، فلم يدخل في التزامه اعتقاداً ولا ذكراً .

رقية - قال لي عبد الرحمن بن يعقوب المكتّب : كان عندنا بالساحل سائح هَجِيرَاه : إلهي بسطت لي أملي ، وأحصيت عليّ عملي ، وغيبت عني أجلي ، ولا أدري إلى أيّ الدارين يُذهب بي ، لقد أوقفتني موقف المحزونين ما أبقيتني . حقيقة - تنازع القلبُ والنفسُ الخُلُقَ ، فقسما بينهما قاضي العقل ، فمن باع منهما حظه فلا شُفُوعَة لصاحبه عليه .  
ومنه :

حقيقة - الحجب ثلاثة : فحجاب الغيرة منع ، وحجاب الحيرة دفع ، وحجاب الغفلة قطع ﴿أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف : ١٧٩) . رقيقة - اللحم أيام التشريق مكروه ، وكل لذّة عند أرباب الدنيا كاللحم عندك أيام الأضحى ، فلا ترينك الغفلة عن شرك زيادة النعمة عندك . حقيقة - الفقر إلى الله الاستغناء به عمّا سواه ، وهوية الرضى بالله أن لا يخطر بالبال إلاّ .



ومنه :

حقيقة - التلون مجون ، تارة طرباً وطوراً<sup>١</sup> شجون ، والتمكن معرفة ،  
وأين الحال من الصفة ؟

رقية - قال لي محمد بن عبد الواحد الرباطي : قال لي محمد بن عبد السيد  
الطرابلسي : دخلت على أبي الحسن الحرالي فقلت له : كيف أصبحت ؟ فأنشد :

أصبحت ألطف من مرّ النسيم سرى على الرياض يكاد الوهم يؤلني  
من كل معنّى لطيفٍ أحسني قدحاً وكلّ ناطقة في الكون تطربني

حقيقة - قال الطالب : الوقت سيف ، وقال الواصل : بل مقت ، فتلا  
العارف ﴿ قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام : ٩١) .  
رقية - لصاحب الوقت يومان :

يوم بأرواح يُباع ويشتري وأخوه ليس يُسام فيه بدرهم

وفصل الفضل<sup>٢</sup> بينهما :

وما تفضل الأيام أخرى بذاتها ولكنّ أيام الملاح ملاح

ومنه :

حقيقة - قال لي الشيخ أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي بعباد تلمسان :  
قال لي أبو عبد الله ابن حيون : إنّه وجد على ظهر كتاب بخط عتيق : قال أبو  
يزيد البسطامي : يظهر في آخر الزمان رجل يسمى شعيباً ، لا تدرك له نهاية ،  
قالا : وهو أبو مدّين ، قلت : وقف بظاهره مع الشريعة ، وذهب بباطنه مع  
الحقيقة ، فما انقطع لصحة البداية ، ولا رجع لعدم الغاية .

١ ق : وتارة .

٢ ق : وفصل القضاء .

رقيقة - قمت ببعض الأسحار ، على قدم الاستغفار ، وقد استشعرت  
الصباية ، واستدثرت الكتابة ، فأملى الجنان على اللسان ، بما نفت في روعه روح  
الإحسان :

منكسر القلب بالحنايا يدعوك يا مانح العطايا  
أفعددهُ الذنب عن رفيق حثوا لرضوانك المطايا

ومنه ، إثر حقيقة في شأن الحلاج ما نصّه ، ثم قلت :

ولرب داع للجمال أطعته وأبى الجلال عليّ أن أتقدما  
فأطعت بالعصيان أمرهما معاً وجنحت للتسليم كيما أسلما

ومنه :

حقيقة - قلت للسر : ما لك تحس من خلف الموانع ؟ فقال : خرق شعاعي  
سور العوائق ، ثم انعكس إلي بصور الحقائق ، فأصبحت كما قيل :

كأنّ مرآة عين الدهر في يده يرى بها غائب الأشياء فلم يغب

رقيقة - الليل رداء الرهبة ، تهاب الجبان [فيه] الأبطال ، وتنتقي الحواس  
دونه الخيال ﴿ إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً وأقومُ قبلاً ﴾ (المزمل : ٦) .  
حقيقة - النهار معاش النفس ، فهو استعداد ﴿ إن لك في النهار سبباً  
طويلاً ﴾ (المزمل : ٧) والليل ريش الأنس ، فهو معاد ﴿ واذكُر اسمَ ربك  
وتبتل إليه تبتلاً ﴾ (المزمل : ٨) فهذا جمع وذلك فرق ، والحال أسرع ذهاباً  
من البرق .

ومنه :

حقيقة - إن أكبرت النفس حالها ، فذكرها أصلها ومآلها ، فإنها تصغر  
عند ذلك ، وتستقيم بك على أرض المسالك « احثوا التراب في وجوه المدّاحين »  
﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ (طه : ٥٥) .

رقية — إنما يتعاضم من يجد الحقارة من نفسه ، ويتوهم المهانة عند أبناء  
جنسه ، فلذلك تراه مغمزاً للعيون ، مهمزاً للظنون ؛ من أسرَّ سريرة حسنة كساه  
الله رداءها .

رقية — رأيت الملوك لا يُشَمَّتُونَ ، ولا يُدْعَى لهم إلا بما يتعلق بأغراض  
الدنيا ، وأكثر ذلك مما تحيل عقوده العوائد ، فعلمت أن الدنيا ضد الآخرة .

حقيقة — من لم يفرَّ خور وذلك الجبن ، من خاف أدلج ورجا ، من لم يكرَّ  
تمنَّ وتلك الزمانة ﴿ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ (النساء : ٧٢) .

رقية — سمعت أبا محمد المجاصي يقول : رويت بالسند الصحيح أن عابداً  
رابطَ ببعض الثغور مدة فكان كلما طلع الفجر يسمع من ينشد دون أن يرى شيئاً<sup>١</sup> :

لولا رجال لهم سرد يصومونا وآخرون لهم ورد يقومونا  
لزلت أرضكم من تحتكم غضباً فإنكم قومٌ سوء لا تبالونا

حقيقة — ما حمد الله حق حمده ، إلا من عرفه حق معرفته ، وذلك مما لا  
ينبغي لغيره « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

رقية — قلت :

أشيم البرق من بين الثايا وأشتمَّ العير من الثناء  
فأبدو تارةً وأغيب أخرى مثارَ الشوق مثنيَّ الحياء

حقيقة — تحقق الحامد بكمال الذات فغاب عن حسه في بحار العظمة ، وتعلق  
الشاكر بجمال الفعل فوقف مع نفسه بسوق النعمة ، فهذا تاجر ﴿ لئن شكرتم  
لأزيدنكم ﴾ (إبراهيم : ٧) وذاك ذاكر ﴿ وما بكم من ﴾ (النحل : ٥٣) .  
ومنه :

حقيقة — الصبر مطية المرید ، والرضى سجية المراد ، فهذا يقوم للأمر ،  
وذاك يسعى للأجر .

١ قارن بما في التكملة : ٨٤٢ .

رقية - الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والصبر بغير حساب ،  
والرضى بالرضى ، وذلك سِدْرَةٌ المنتهى .  
حقيقة - النفس الأمانة أبدا لا تملك إلا بلطائف الحيل ، والمطمئنة ذكول  
لا تنفلت إلا ممّن غفل ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبَابُ ﴾ (يوسف : ١٣) .  
رقية - الدنيا معشوق الطالب ، عاشق الهارب ، هذا يستخدمها ، وذلك  
يخدمها ، يبني الخادم المسجد ليقال ، ويعمره المخدوم لينال ، فعلى الخادم السعي  
من غير جدوى :

وليس لرحل حطّه الله حامل

وللمخدوم الجَدْوَى بغير سعي :

وليس لما تَبَنَى يدُ الله هادم

إن السعادة أصلها التخصيص

حقيقة - الجمال ريش ، والحسن صورة ، والملاحة روح ، فذلك ستره  
عليك ، وهذا سرّه فيك ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوْحِي ﴾ (الحجر : ٢٩) .  
رقية - أعطي يوسف شطر الحسن ، يعني حسن آدم ، لأنه إن لم يكن في  
الإمكان أبدع ممّا كان فقد خلقه الحق بيده في أحسن تقويم ، ثم نفخ فيه من  
روحه لتمّ علة الأمر بسجود التحيّة والتكريم ، فكان كما قال من أنزل عليه الفرقان  
« خلق الله آدم على صورة الرحمن » فآدم إذاً كمال الحسن ، وإلاّ فهو المراد ، لأن  
الشر ، يقتضي الحصر ، والنصف ، ينزع عن الوصف ، وأعطي محمد صلى الله  
عليه وسلّم كمال الجمال ، فما أبصره أحد إلا هابه ، وتمام الملاحة فما عرفه  
شخص إلا أحبّه ، مع أنباء نوره في الآباء ، بأن أبوة المعنى لسيد نجباء الأبناء ،  
كما قال العارف عمر :

وإني وإن كنتُ ابنَ آدمَ صورةً فلي فيه معنَى شاهدٌ بأبوتِي

حقيقة - لا يثنيك الخوف عن قرع الباب فتأس ، فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يدنيك الرجاء من الفترة فتأمن ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فإن لم تستطع بعد الحرص أن تعدل ، فلا تمل كل الميل مع النفس ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ (يوسف : ٥٣) .

رقية - ارفع قصتك في رقة الإقبال على كف الرجاء ، خافضاً من طرف الحياء وصوت الإدلال ، عاكفاً في زاوية الانكماش من وراء ستر الخوف ، يخرج عليك حاجب القدر من باب الكرم بتوقيع ﴿ فاستجبنا له ﴾ (الأنبياء : ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٠) .

ومنه :

حقيقة - صدق مجاهدة الفاروق أيقظ الوسنان ، وطرد الشيطان ، وأرضى الرحمن ، ففاز بسلامة « ما سلكت فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير فجك » ؛ وحقق مشاهدة الصديق أسمع من ناجي ، فحاز غنيمة « لو كشف الغطاء ما ازداد يقيناً » .

رقية - ذهب أبو بكر في السابقين ، ولحق عمر بأهل اليقين ، فما أدرك الصديق أداء التصلية ، حتى استدرك الفاروق قضاء التقفية :

ولو كنت في أهل اليمين مُنعماً بكيّت على ما فات من زمن الصبا

حقيقة - النص سلاح ، والنظر مطية ، والاتباع جنة ، والورع نجاة ، والخلاف فتنة ، والبدع مهالك ، وخير الأمور أوسطها .

ومنه :

حقيقة - تخير المساعد ، واختبر المصاعد ، وليكن همك في سفرك منك معرفتك كيف ترجع إليك ، فلن يحقق صفة الربوبية ، من لم يتحقق نعت العبودية .

١ ص : أوسطها ؛ ق : أوسطها .

رقيةة - حدثت أن سيدي أبا الحسن الشاذلي لما أزمع على التحول من طيبة على من بها الصلاة والسلام ، أوقف فعله على إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فرآه في منامه فقال : توحشنا يا علي ؟ فأخذ يعتل ، فأذن له ، وقال : إذا جئت مصر فاقرأ عز الدين بن عبد السلام مني السلام ، قال : فلما التقينا بلغته المألكة سرًا ، فلم تظهر نفسه لذلك ، فلما قام المززم قال :

صدّق المحدث والحديث كما جرى وحديث أهل الحب ما لا يفترى

فاستغفر الشيخ ، ثم كذب نفسه ، ثم حط للتسليم رأسه .

حقيقة - الوهم شيطان القلب يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وسائر الجهات لمراقبة ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ ( الأنعام : ٦٥ ) فمن ثم كان أشد تقلباً من المِرْجَل على النار ، فإذا ذكر الله سكن ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ( الرعد : ٢٨ ) .

رقيةة - فرق القلب من ذكر الله خَوْفَ ﴿ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ( الحج : ٣٥ ) ثم سكن لذكره رجاء ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ﴾ ( الرعد : ٢٨ ) فعاد داء تقشعر منه دواء ﴿ ثُمَّ تَلَيْنَ ﴾ فنق بلائمه :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء

ثم هتف بمنادمه :

وداوني بالتي كانت هي الداء

حقيقة - العبودية صفة نفسك ، لأنها حال أحد العبيد ، والعبودية صفة قلبك ، لأنها ملكة واحد العباد ، والعبادة قصد وجهك ، لأنها نعت الفردوس من العباد .

١ المألكة : الرسالة .

ومنه :

حقيقة — إنما تزيد في الدنيا بقدر ما تنقص من الآخرة ، فإن تشييد الجدار على قدر الانتقاص الجليل .

رقيقة — من جر لنفسه جار على قلبه ، فلا تجوز شهادته عند ربّه ، لأن العدل من ترك العدول والميل .

حقيقة — لا تقدمنّ إلا بدليل وإذن ، واحذر ما لا ينفع ما استطعت فقد تم ، انظر فلا حرج إن جهلت ما لم تكلف علمه ، وأخاف عليك سوء عاقبة الهجوم .

رقيقة — إذا اهتر العرش بالسحر لدعاء أهل ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾ (السجدة : ١٦) انبعث من نسيمه ما أغشاهم طيبه الراحة ﴿ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾ (الأنفال : ١١) وأهبّ المستغفر من نومه لإدراك فضل ﴿ رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (المائدة : ١١٩ ، والمجادلة : ٢٢ ، والبيّنة : ٨) .

حقيقة — دع الغريب وما يريب ، واركب الجادة ، ولا تسلك بُنيّات الطريق ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) .

ومنه :

حقيقة — سفر المرید تجارة ، وسفر العارف عمارة ، فهذا يرحل للإقامة عند الحقيقة ، وذلك يطلب الاستقامة على الطريقة .

رقيقة — إياك أيها المصلي لنا ، أن تلتفت إلى غيرنا ، وأقبل علينا بصدق نيتك ، وناجنا بخلوص سريرتك ، فقد قمنا بينك وبين قبيلتك ، وناجيناك بلسان تلاوتك ، فإن غبت عنا ، فلست منا .

حقيقة — الشطح كناية ، والكرامة عناية ، والاعراض جناية ، فإياك ولم ؟ فإن عرفت فاتّبع ، وإن جهلت فسلم .

١ ق : حسب .

رقية - الليل معاد الأنس ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلاً ﴾  
 (المزمل : ٦) والنهار معاش النفس ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ فهذا نشاط  
 رغبة يتسع في مناكبه المجال ، وتعتور على مراكبه الأحوال ، وذلك حجاب رهبة  
 تهوي إليه الأوجال ، وتجتمع فيه هموم الرجال ، ألا ترى كيف تهاب الجبان  
 دونه الأبطال ، وتتقي الحواس خلفه الخيال ؟ كما قال :

نهاري نهار الناس حتى إذا دجا لي الليل هزّني إليك المضاجعُ  
 أفضّي نهاري بالحديث وبالثنى ويمعني وهمّ بالليل جامعُ

حقيقة - حُجِبُ الطالب أربعة : فحجاب الغيرة قاذع ، قيل لبعضهم : أتحب  
 أن تراه ؟ فقال : لا ، قيل : ولم ؟ قال : أجلُّ ذلك عن نظر مثلي ، وحجاب التيه  
 قاعم ، نزل فقير على ابن عجوز ، فبينما هي تصلح له الطعام غشي على الفتى ،  
 فسألها الفقير فقالت له : إنّه يهوى ابنة عم له بتلك الخيمة ، فخطرت ،  
 فاشتم غبار ذيلها ، فذهب الفقير ليخطبها عليه ، فقالت : إذا لم يُطِقْ غبار  
 ذيلي فكيف يستطيع أن يشاهدني ؟ وحجاب الحيرة دافع ، ومن ثم حلا لأرباب  
 الغيبة ، قال بعضهم : يا دليل الحائرين ، زدني تحيراً ، ومر على أصحاب الرغبة  
 والرهبة ، كما قال :

قد تحيرت فيك خذ بيدي يا دليلاً لمن تحير فيكا

وحجاب الغفلة قاطع ، كان بعضهم يقول : إن عذبتني بشيء فلا تعذبني  
 بذلّ الحجاب . ونظر آخر إلى امرأة فوق عليه سهم فعوره وعليه مكتوب :  
 نظرت بعين العورة فرميناك بسهم الأدب ، ولو نظرت بعين الشهوة لرميناك  
 بسهم القطيعة .

رقية - حدثت أن ابن الفارض دخل على الشيخ عز الدين وقد ذهب به  
 التفكير فيما له عند الله عزّ وجل ، فكاشفَه بأن أنشده من قصيدة له :



لك البشارة فأخْلَعُ ما عليكَ فقد ذكرت ثم على ما فيك من عِوَج

فبدرته البشاشه ، وأظن أن قد خلع قُمَاشه .

حقيقة — وقفتُ ذات يوم بالجبانة ، واستفهمت اسمي هل عرف منها مكانه ، فأملى بعد هنيهة من نظمه ، ما وقفت منه على حقيقة مبلغ علمه :

كل ميت رأته عَيْني فإِنِّي ذلك الميت إن نظرت بقلبي  
وجميع القبور قبوري لولا جهل نفسي بما لها عند ربي

رقيقة — أهم ما على السالك مراعاة قلبه ، أن يتلف في قلبه ، فذلك فساد حاله ، وذهاب رأس ماله ، تزوَج فقير فلبس ثياب العرس ، فطلب قلبه فلم يجده ، فصاح : خُلِّقاني ، فأعطوه ، فأخذها وخرج .

حقيقة — حُجِبُ المطلوب ثلاثة : فحجاب التيه جمال ، كما قال العارف

عمر :

ته دلالةً فأنت أهلٌ لذاكا ونحكّم فالحسن قد أعطاك

وحجاب العزة جلال :

همت بآتياننا حتى إذا نظرتُ إلى المِرآةِ نهاها وجهها الحسنُ

وحجاب الكبرياء كمال ، أنشدت لرابعة :

أحبكَ حين حبّ الهوى وحباً لأنكَ أهلٌ لذاكا

فأمّا الذي هو حبُّ الهوى فشغلي بذكركَ عمن سواكا

وأما الذي أنت أهلٌ له فأن ترفع الحُجْبَ حتى أراكا

وما الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمدُ في ذا وذاكا

١ ص : ولي .

وهذا معنى ما في الصحيح « وما بين أهل الجنة وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » .

ومنه :

حقيقة – الآثار منصّة التجلي ، فمن لم يزر مهلب ﴿ ويتفكرون ﴾ زار عمير ﴿ يعمرون ﴾ وبطل رصد الحجاج .

رقيقة – من تفكر تذكر ، ومن تذكر تبصر ، فإن أكمل وقف ، وإن قصر انصرف ﴿ إننا هديناه السبيل ﴾ (الإنسان : ٣) .

حقيقة – الوحدة فهم ، والتوحيد علم ، والاتحاد حكم ، والائتينية وهم .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل<sup>١</sup>

ومنه :

حقيقة – أهم ما على السالك مراعاة قلبه ، أن يتلف في قلبه ، فإن ذلك فساد حاله ، وذهاب رأس ماله ، رؤي فقير ينادي في السوق : ارحموا صوفياً ذهب رأس ماله ، فقيل له : وهل للصوفي رأس مال ؟ فقال : نعم ، كان لي قلب ففقدته .

ومنه :

حقيقة ١ – تنازع القلب والنفس الخلق ، فترافعا إلى العقل ، فقسمه بينهما ، فانفردت النفس بالهوى ، والقلب بالتقوى ، فصُرِفَت طرفهما إلى الجهتين ، وقطعت الشفعة فيهما بين الفئتين .

ومنه ، عند ختم الكتاب ، ما نصه :

حقيقة – لا يودع السر إلا عند أهله ، ولا يذيعه إلا من ضاق ذرعاً بحمله ،

١ مر هذا آنفاً ص : ٣١٦ .

فإن عدا مودعه الرمز فقد زل ، وإن تعدى مذيعه الغمز فقد ضل .

رقيقة - الحسن خلق ، والجمال خلق ، وحسن الأدب في الظاهر عنوان  
حسن الأدب في الباطن ، وحيث هو الجمال هو الجميل .

حقيقة - تحقق العلماء بالتوحيد فاستشعروا ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾  
(الصفات : ٩٦) لكنهم اعتبروا خلق السبب والابتلاء به ، فتصرفوا بدلالة الإذن في  
مذهبه ، فاستقاموا على طريقة الأدب ، ولم يفتهم فضل التوكل ، ولم تتسع معارف  
الزهاد لما عرفوا المسبب بكيفية الانصراف إلى السبب منه ، لدقة الفرق بينه وبين  
الانصراف عنه ، فوقفوا مع التوكل للعذر ، ولم يستعملوا أدب الجريان مع ابتلاء  
الأمر ، وعكف الغافلون على ظاهر السبب ، فقاتهم التوكل والأدب ﴿ أُولَئِكَ  
كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف : ١٧٩) .

رقيقة - ألفت لعبد الحق الإشبيلي بيتاً هو عندي أفضل من قصيدة ، وهو :

قد يُساق المراد وهَوَّ بعيد ويريد المريد وهو قريب

ومن أراد معرفة قدر هذا البيت فليتل ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي  
إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (الشورى : ١٣) .

حقيقة - أشرف أسمائك ما أضافك إليه ، وأكرم صفاتك ما دل فيك عليه ١ .

لا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبَدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي  
ولا تصفني بالهوى عندها فعندها تحقيقُ أنبائي

رقيقة :

أعزُّ بمن سَوَدَاءُ قلبي مَغْرِبٌ لخياله ، وسَوَادُ عيني مَشْرُقٌ  
إن غاب عن سِرِّي فعنه لم يغبُ أو عن عياني فهو فيه محقُّ

١ مر البيت الأول فيما تقدم المجلد ٢ : ١٩٣ .

والعينُ تعجزُ أن ترى إنسانها والقلبُ بالروح اللطيفُ مصدِّقٌ

صُنَّ عينك عن قلبك لربك ، وقلبك عن نفسك لحبك ، ونفسك عن طبعك لوليك ، وطبعك عن هواك لعدوك ، وهواك عمَّن سواك ، وقد كنت من نسل الجنة ، وكان بينك وبين البلاء أوقى جنة ، لطف الله تعالى بي وبكم في مجاري أحكامه ، ويسرنا أجمعين للعمل بموجبات إكرامه ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم لقائه ؛ انتهى ما تعلق به الغرض من كتاب « الحقائق والرقائق » لمولاي الجدد الإمام ، سقى الله عهده صوب الغمام . وما ذكرته من كلامه غيَّض من فيض ، وقُلُّ من كثر ، ويكفي من الحلي ما قلَّ وستر العتق .

ولنذكر بعض نظمه رحمه الله تعالى ، وقد تقدم بعضه أثناء ما سبق من كلامه رضي الله عنه ، فراجعه إن شئت .

[ من شعر المقرئ الجدد ]

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى ما في الإحاطة ونصه<sup>١</sup> : نقلت من ذلك قوله : « هذه لمحة العارض ، لتكملة ألفتها ابن الفارض ، سلب الدهر من فرائدها مائة وسبعة وسبعين ، فاستعنت على ردها بحول الله المعين » .

من فصل الإقبال :

رفضتُ السَّوَى وهو الطَّهارة عندما  
تَلَقَّعْتُ في مِرْطِ الهوى وهو زيني  
وجئتُ الحمى وهو المصلَّى ميمماً  
بوجهةِ قلبي وجهها وهو قبلي  
وقمتُ وما استفتحتُ إلا بذكرها  
وأحرمتُ إحراماً لغير تحلَّة  
فديني إن لاحت ركوعٌ ، وإن دنتُ  
سجودٌ ، وإن لاهت قيامٌ بحسرة<sup>٢</sup>

١ الإحاطة ٢ : ١٤٦ .

٢ ص : بكرة ؛ ق : بكرة .

على أننا في القرب والبعد واحد  
وكم من هجير خضت ظمآن طويأ  
وفيها لقيت الموت أحمر والعدا  
وبيني وبين العذل فيها منازل  
ولما اقتسمنا خطتينا فحامل  
خلا مسمعي من ذكرها فاستعدته  
وكم لي على حكم الهوى من تجلد  
يقول سميري والأسى سالم الأسى  
لو أن مجوساً بت موقد نارها  
ولو كنتُ بجرأ لم يكن فيه نضحة  
فلا ردم من نقب المعاول آمن  
فمم تقول الأسطقسات منك أو  
فإن قام لم يثبت له منك قاعد  
فما أنت يا هذا الهوى؟ ماء أو هوا  
وإني على صبري كما أنا واصف  
أقل الضنى أن عج من جسمي الضنى  
وأيسر شوقي أنني ما ذكرتها  
وأخفى الجوى قرع الصواعق منك في  
وأسهل ما ألقى من العذل أنني  
وأوج حظوظي اليوم منها حضيضها

١ ق : القضا .

٢ ق : الأمة .

٣ ق : في جوى نجى .

٤ ق : أقل .

وأجزُ أمري أنَّ دهرِي كَلَهُ  
أروحُ وما يلقي التأسفَ راحي  
وكالبِيضِ بِيضِ الدهرِ والسُّمْرِ سَوْدُهُ  
وشأنُ الهوى ما قد عرفتُ ولا تَسَلُ  
سقامٌ بلا براءٍ ، ضلالٌ بلا هدى  
ولا عتبٌ فالأيامُ ليسَ لها رضَى  
ألا أيها اللوامُ عني قَوْضُوا  
ولا تعذُّلوني في البُكاءِ ولا البكى  
فما سلسلتُ بالدمعِ عيني إن جنتُ  
تجلى وأرجاءُ الرجاءِ حوالكُ  
فلم يستبنُ حتى كَأني كاسفٌ<sup>٢</sup>

#### ومن فصل الاتصال :

وكم موقفٍ لي في الهوى خُضتُ دونه  
فجاوزتُ في حدِّي مجاهدتي له  
وحلَّ جمالي في الجلالِ ، فلا أرى  
وغبتُ عن الأغيارِ في تيهِ حيرتي<sup>٣</sup>  
وكاتبُ ناسوتي بأمارَةِ الهوى  
وعلمُ يقيني صارَ عيناً حقيقةً  
وبدلتُ بالتلونِ تمكينَ عزةٍ  
وقد غبتُ بعدَ الفرقِ والجمعِ موقفي

١ ق : فحنت .

٢ ق : حبي له كل كاشف .

٣ الإحاطة : حالي .

لبسطي وقبضي بسطُ وجه البسيطة  
وفي ملكوت النفس أكبرُ عبرة  
مع الشكرِ إذ لم يحظ فيه مثنوي  
وأكني إذا هم صرّحوا بالخبيّة  
كنوع ، ففصلُ النوعِ علّةُ حصي  
إلى أن أجدي حيلتي ترك حيلتي  
مريداً وحرفٌ في مقام العبودة  
فتُجمع سدّ حرق التشتت  
وأقضي على قلبي برعي الرعيّة  
وبالقلب منه منزلاً فيه حلت  
وأوجب الاسترقاقُ تسليم شفعة  
ويا قلبُ لا تجزع ظفرت بوحدّة

وكم جُلّتُ في سَمّ الخياطِ وضاق بي  
وما اخترتُ إلا دنّ سقراط زاهداً  
وفقري مع الصبرِ اصطفتُ على الغنى  
وأكمُّ حبي ما كنى عنه أهله  
ولائي في جنسي ومنه لوأحدُ  
تسببتُ في دعوى التوكلِ ذاهباً  
وآخرُ حرفٍ صار مني أولاً  
تعرفتُ يوم الوقفِ منزل قومها  
فأصبحتُ أقضي النفسَ منها مني الهوى  
فبايعتها بالنفسِ داراً سكنتها  
فخلّص الاستحقاقُ نفسي من الهوى  
فيا نفسُ لا ترجعُ تقطع بيننا

### ومن فصل الإدلال :

أبادتُ فؤادي من سناها بلفحة  
تبدتُ لها فيك القران وقرت  
سماعي أعين ، حالي أبين ، قائل اصمت  
وتلويُنُ أحوالي وتمكينُ رتبتي  
مراقي نهايات ، مراسي تثبت  
تقربُ أشواقٍ تبعداً حسرتي  
مباني بدايات ، مثاني تلفت  
وردٌ سلاماً ، والرقيبُ بغفلة

تبدتُ لعيني من جمالك ملحّة  
ومررتُ بسمعي من حديثك ملحّة  
ملامي بن ، عذري استبن ، وجدّي استعن  
فمن شاهدي سخطُ ، ومن قائل رضى  
مرامي إشارات ، مراعي تفكر  
وفي موقفي والدارُ أقوتُ رسومها  
معاني أمارات ، مغاني تذكير  
وبثُ غرام ، والحبيبُ بحضرة

١ ق : وتبعد .

٢ ق : غرامي . . . سلامي .

ومطلعُ بدرٍ في قضيبٍ على نقاً  
 ومكمنُ سحرٍ بأبلي له بما  
 ومنبتُ مسكٍ من شقيقِ ابنِ منذرٍ  
 ووصفُ اللآلي في اليواقيتِ كلما  
 سل السلسيل العذبَ عن طعمِ ريقه  
 ورمآنُ كافورٍ علكته طوابعُ  
 ولطفُ هواءٍ بين حقفٍ وبانةٍ  
 لقد عزَّ عنك الصبرُ حتى كأنه  
 وأنت وإن لم تُبقِ مني صبايةً  
 وكلُّ فصيحٍ منك يسرِّي لمسمعي  
 تهونُ عليَّ النفسُ فيك ، وإنها  
 فإن تنظيرني بالرضى تُشفِّعني  
 وإن تذكريني والحياةُ بقيدها<sup>٢</sup>  
 وإن تذكريني بعدما أسكنُ الثرى  
 صليبي وإلا جددي الوعدَ تدركي  
 فما أمُّ بؤ هالكٍ بتنؤفةٍ  
 فلما رأته لا يناعُ خليفها  
 بكتُ كلما راحتُ عليه وإنها  
 بأكثرَ مني لوعةً غيرَ أنتي  
 فرحتُ كما أغدو إذا ما ذكرتها

فويقَ محلِّ عاطلٍ دون دُجينةٍ  
 حوتُ أضلعي فعلُ القنا السّمهريةِ  
 على سوسنٍ غضَّ بجنةٍ وجنةٍ  
 تُعلُّ بصرفِ الراحِ في كلِّ سحرَةٍ  
 ونكهته يجبرك عن علمِ خبيرةٍ  
 من الندِّ لم تحملُ به بنتُ مزنةٍ  
 ورقّةُ ماءٍ في قواريرِ فضةٍ  
 سُرابةٌ لحظٍ منك للمتلفتِ  
 مني النفسِ لم تقصدُ سواك بوجهةٍ  
 وكلُّ مליحٍ منك يبدو لمقلتي  
 لتكرمُ أن تغشى سواك بنظرةٍ  
 وإن تُظفريني باللقا تُطفِّعني  
 عدلتُ لأمني مني بميني  
 تجلّتُ دجاهُ عند ذاك وولّتِ  
 صبايةً نفسٍ أيقنتُ بتفلّتِ<sup>٣</sup>  
 أقيم لها خلفَ الحلابِ فدرتِ  
 إذا هي لم ترسِلُ عليه وضنتِ  
 إذا ذكرته آخرَ الليلِ حنتِ  
 رأيتُ وقار الصبرِ أحسنَ حليةٍ  
 أطامنُ أحشائي على ما أجنّتِ

١ ص ق : يبدي .

٢ ص ق : تعيدها .

٣ ق : بتعلة .



هوى ونوى نيل الرضى منك بغيتي  
أصلّ السلا ، أرمي الخلا بين عبرتي  
لقد أصلت الأحشاء نيران لوعة<sup>١</sup>  
«على الغصن ماذا هيّجت حين غنت»  
غرامي من ذكّري عهدود تولّت  
«جواي الذي كانت ضلوعي أكنّت»  
وصلتُ بها قلبي فصل<sup>٢</sup> وصلّت  
«حجازيةً لو جنّ طرفٌ لجت»  
وكيف بدت أسراره خلف ستره  
«وللنفس لما وطنت كيف ذلّت»  
يُسامي بأعلام العلا كلّ رتبة<sup>٣</sup>  
«فلما توافينا ثبت وزلت»  
على نحر قربانٍ لدى قبر شيبه  
«فلما توائفنا شددت وحلت»

أهونُ ما ألقاهُ إلا من القلي  
أخوض الصلا ، أظفي العلا والعلولا  
«ألا قاتل الله الحمامة غدوة»  
وقاتل مغناها وموقف شجوها  
«فغنت غناء أعجيباً فهيجت»  
فأرسلت الأجفان سُحباً وأوقدت  
«نظرتُ بصحراء البريقين نظرة»  
فيا لهما قلباً شجيباً ونظرة  
«وواعجباً للقلب كيف اعترافه»  
وللعين لما سوئلت كيف أخبرت  
«وكنا سلكننا في صعودٍ من الهوى»  
إلى مستوى ما فوقه فيه مستوى  
«وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا»  
مؤكدّةً بالنذر أيامَ عهده

ومن فصل الاحتفال :

وأقصدُ حجاً بيتها بتحلّة  
له نشأني الأولى على كلّ فطرة  
تجدّها لشملي مسلماً بتشتت  
قضيتُ ولم يقضِ المنى صدقُ توبة

أزورُ اعتماراً أرضها بتنسك  
وفي نشأني الأخرى ظهرت بما علت  
ولولا خفاء الرمز من لا ولن ولم  
ولولم يجدد عهدنا عقدُ خلّة

١ ما وضعته بين قوسين صغيرين هو تضمين من قصائد تائية مختلفة بعضها لأعراب وبعضها من تائية  
كثير عزة .  
٢ ق ص : فصل .  
٣ ق ص : زينة .

بعثتُ إلى قلبي بشيراً بما رأيتُ  
فلمَّ يَعُدُّ أن شامَ البشارةَ شامَ ما  
فيا لك من نورٍ لو أنَّ التفاتةً  
تحدث أنفاسُ الصَّبَا أن طيبها  
وتنبئ آصالُ الربيع عن الربى  
وتخبر أصواتُ البلابل أنها  
فهذا جمالي منك في بُعد حسرتي  
تبدى وما زال الحجابُ ولا دنا  
له كلُّ غيرٍ في تجليهِ مظهرٌ  
تجلي دليلٍ ، واحتجابُ تنزهٍ  
فما شئتَ من شيء وآليت أنه  
وفي كلِّ خلقٍ منه كلُّ عجيبةٍ  
وفي كلِّ خافٍ منه مكنٌ حكمةٍ  
أراه بقلب القلبِ واللغزِ كامناً  
وفي طي أوفاقِ الحسابِ وسرِّ ما  
وفي نَفَسَاتِ السحرِ في العُقَد التي  
يصور شكلاً مثلَ شكلٍ ويعتلي  
وفي كلِّ تصحيفٍ وعضوٍ بذاته  
وفي خضرةِ الكُمونِ تزجي شرابهُ  
وفي شَجَرٍ قد خوِّفتَ قطع أصلها  
وفي النخلِ في تلقيحه واعتبر بما

على قدمِ عيناى منه فكفَّت  
جفا الشام من نور الصفاتِ الكريمة  
تُعارضُ منه بالنفوسِ النفيسة  
بما حملته من حرّاقة حُرقة  
وأشجاره أن قد تجلَّت فجلَّت  
تغنت بترجيبي على كل أيقة  
فكيف به إن قربتني بحلّة  
وغاب ولم يفقده شاهدُ حضرتي  
ولا غير إلا ما محت كف غيرة  
وإثباتُ عرفانٍ ، ومحو تثبت  
هو الشيء لم تحمدُ فجارِ أليتي  
وفي كلِّ خلقٍ منه كلُّ لطيفةٍ  
وفي كلِّ بادٍ منه مظهرٌ جلوةٍ  
وفي الزجرِ والقالِ الصحيح الأدلة  
يتم من الأعداد فابدأ بستة  
تَطوُّعُ لها كلُّ الطباع الأبية  
عليه بأوهامِ النفوسِ الحبيثة  
اختلاجٌ ، وفي التقويم مجلى لرؤية  
مواعيدُ عرقوبٍ على إثر صفرة  
فبان بها حملٌ لأقرب مدة  
أتى فيه عن خيرِ البرية واسكت

وفي الطابع السبتي<sup>١</sup> والأحرف<sup>١</sup> التي  
وفي صنعة الطلسم والكيمياء<sup>٢</sup> وال  
وفي حرز أقسام المؤدب محرز<sup>٣</sup>  
وفي سيمياء الحاتمي ومذهب إد  
وفي المثل<sup>٣</sup> الأولى وفي النحل الألى  
وفي كل ما في الكون من عجب وما  
فلا سر<sup>٤</sup> إلا وهو فيه سريرة<sup>٤</sup>  
سل الذكر عن إصناف أصناف ما انبئ<sup>٤</sup>  
وعن وضعها في بعضها وبلوغ ما  
فلا بد<sup>٤</sup> من رمز الكنوز الذي الحجى  
ولولا سلام<sup>٤</sup> ساق<sup>٤</sup> للأمن خيفتي  
ولو لم تداركني ولكن بعطفها  
ولو لم تؤانسني عنا قبل لم ولم  
ونعم<sup>٤</sup> أقامت<sup>٤</sup> أمر<sup>٤</sup> ملكي بشكرها  
ومن فصل الاعتقال :

سرت<sup>٤</sup> بفؤادي إذ سرت فيه نظرتي  
وذلك لما أطلع الشمس في الدجي  
يمانية<sup>٤</sup> لو أنجدت حين أنجدت  
وسارت ولم تن العنان بعطفة  
محيًا ابنة الحين في خير ليلة  
لما أبصرت عينك حيًا كميت

١ الإحاطة : في الأحرف .

٢ ق : والكيمياء وفي .

٣ الإحاطة : المثل .

٤ الإحاطة : ابنتي .

لأضحمة في نصحتها قدمُ بني  
ألمتُ فحطتُ رحلها ثم لم يكنُ  
فلو سمحتُ لي بالفتاة وحلّ من  
ولكنها همتُ بنا فتذكرتُ  
أجلتُ خيالاً إنّي لا أجله  
على أتّي كلّي وبعضي حقيقةً  
وجنسي وفصلي والعوارضُ كلّها  
وجسمي ونفسي والحشا وغرامهُ  
وفي كلّ لفظٍ عنه ميلٌ لمسمعي  
ودهري به عيدٌ ليومِ عروبةٍ  
ووقتي شهودٌ في فناء شهادتهُ  
أراهُ معي حساً ووهماً وإنه  
وأسمعه من غير نطقٍ كأنه  
ملاّتُ بأنوارِ المحبةِ باطني  
وجلّيتُ بالإجلالِ أرجاءَ ظاهري  
فأنت الذي أخفيه عند تَسْتَرِي  
فته أحتملُ، واقطعُ أصلُ، واعلُ أستفلُ  
فقلبي إن عاتبته فيك لم أجدُ  
ونفسي تنبو عن سواك نفاسةً  
تعلقتُ الآمالُ منك بفوق ما  
وحامتُ حوليها وما وافقتُ حمى  
فلو فاتني منك الرضى ولحقتني

لكلّ نجاشي بها حصنَ ذمة  
سوى وقفة التوديع حتى استقلت  
مهاوي الهوى والهون جدّ تفلّتي  
قضاء قضاء الحسن قدماً فصدتُ  
ولم أنتسبُ منه لغير تعلّة  
وباطلُ أوصافي وحقُّ حقيقتي  
ونوعي وشخصي والهواءُ وصورتي  
وعقلي وروحانيّتي القدسيّة  
وفي كلّ معنى منه معنى لوعتي  
وأمرّي أمرّي والورى تحت قبضتي  
ولا وقتَ لي إلا مشاهدُ غيبة  
مناطُ الثريا من مدارك رؤيتي  
يلقن سمي ما تؤسوسُ مهجتي  
كأنك نورٌ في سرارِ سريرتي  
كأنك في أفقي كواكبُ زينة  
وأنت الذي أبديه في حين شهرتي  
ومرّ أمثلُ، وامللُ أميلُ، وارمُ أثبت  
لعتبي فيه الدهرَ موقعَ نكتة  
فلا تنمي إلا إليك بمنّة  
أرى دونه ما لا ينالُ بحيلة  
سحائبُ يأسٍ أسطرتُ ماءَ عبرتي  
بعضوٍ بكيتُ الدهرَ قوتَ فضيلة

بكيتُ على ما كان من أسقية  
 أرى كلَّ حيٍّ كلَّ حيٍّ وميت  
 أجدُ عنده علماً يردُّ غلتي  
 فقل كيف أرجو عنده بُرءٍ علي  
 وفي ابنِ طُفَيْلٍ لاحتثاثِ مطيبي  
 من الله - سعيٌ بينهم طول مدتي  
 وأيقظني من نوم جهلي وغفلي  
 بتركٍ فلي من رغبةٍ ربحُ رهبة  
 وأنقذته من أسرٍ حبِّ الأسرة  
 وألقتُ بِلِعامِ التفاني بهوة  
 وفعلي محمودٌ ، بكلِّ محلة  
 وأجلسني بعد الرضى فيه جلتي  
 وصرتُ حبيباً في ديار أحبي  
 مُبلِّغٌ نفسي منهم ما تَمَنَّتِ

ولو كنتُ في أهل اليمين منعماً  
 وكم من مقامٍ قمتُ عنك مسائلاً  
 أتيتُ بفارابٍ أبا نصرها فلم  
 ولم يدر ما قولي ابنُ سينا سائلاً  
 فهل في ابنِ رُشدٍ بعد هذين مرتجى  
 لقد ضاع - لولا أن تداركني حمى  
 فقيضَ لي نهجاً إلى الحقِّ سالكاً  
 فحصنتُ أنظارَ الجنيدِ جنيدها  
 وكسرتُ عن رجلِ ابنِ أدَهَمٍ أدهما  
 وعدتُ على حلاجٍ سكري بصلبه  
 فقولي مشكور ، ورأيي ناجح  
 رضيتُ بعرفاني فأعليتُ للعلا  
 فعشتُ ولا ضيراً أخافُ ولا قِلي  
 فها أناذا أُمسي وأصبح بينهم

ومن نظمه أيضاً ما حكى عنه في « الإحاطة » إذ قال : وأنشدني قوله في  
 حال قبض ، وقيدتها عنه <sup>١</sup> :

ومنك قبضتُ الطرفَ أستشعر الدلا  
 ويحجمُ بي الخوفُ الذي خامر العقلا  
 وتُظلمُ أرجائي فلا أنقلُ الرجلا  
 بنفسي أن لا أستقبلَ وأن أصلى  
 وإن تكنِ الأخرى فأولى بي الأولى

إليك بسطتُ الكفَّ أستنزلُ الفضلا  
 وها أناذا قد قُمتُ يقدمني الرجا  
 أقدِّمُ رجلاً إن يضيءَ برقُ مطمعٍ  
 ولي عَشْرَاتُ لست أملُ إن هوتُ  
 فإن تدركني رحمةٌ أنتعشُ بها

١ الإحاطة ٢ : ١٥٥ .

ومن نظمه رحمه الله تعالى<sup>١</sup> :

وجدٌ تُسَعَّرُهُ الضلوعُ وما تبرده المدامعُ  
همٌّ تحركه الصَّبَا بهُ والمهابةُ لا تُطَاوَعُ  
أملٌ إذا وصل الرجا أسبابهُ فالموتُ قاطعُ  
بالله يا هذا الهوى ما أنت بالعُشاقِ صانعُ

وقال رحمه الله تعالى كما في « الإحاطة » : ومما كتبت به لمن بلغني عنه  
بعضُ الشيء<sup>٢</sup> :

نحن . إن تسأل بناسٍ . معشرٌ أهلُ ماءٍ فجرتَه الهممُ  
عربٌ من بيضهم أرزاقهم ومن السميرِ الطوالِ الخيم  
عرّضت أحسابهم أرواحهم دون نيلِ العرضِ وهي الكرم  
أورثونا المجدَ حتى إننا نرتضي الموتَ ولا نزدحم  
ما لنا في الناس من ذنبٍ سوى أننا نلوي إذا ما اقتحموا

وقال : مما قلته مديلاً به قول القاضي أبي بكر ابن العربي :

أما والمسجدِ الأقصى وما يتلى به نصّاً  
لقد رقصتُ بناتُ الشوقِ بينَ جوانحي رقصاً

قولي :

فأقلع بي إليه هوى جناحاً عزمه قُصّاً  
أقلَّ القلبَ واستعدى على الجثمانِ فاستعصى  
فقتُ أجولُ بينهما فلا أدنى ولا أقصى

١ ص : قال : ومما قلته من الشعر ، وانظر الإحاطة : ١٥٥ .

٢ انظر هذه القطعة وما يليها في الإحاطة ٢ : ١٥٥ - ١٥٦ .

قال رحمه الله تعالى : ومما قلته في التورية بشأن راوي المدونة :

لا تعجبينَ لظبيِّ قد دَها أسداً      فقد دَها أسداً من قبلُ سحنونُ  
ومن نظم مولاي الجلاممّا لم يذكره في « الإحاطة » قوله حسبما ألفي بخطه  
على ظهر نسخة من تأليفه « القواعد » :

ناديت والقلب بالأشواقِ محترقُ      والنفس من حيرةِ الإبعادِ في دَهشِ  
يا معطشي من وصالٍ كنتُ آملُهُ      هل فيك لي فرَجٌ إن صحتُ واعطشي  
ومن نظمه ما أسنده الونشريسي إليه :

خالِفُ هواكَ وكن لعقلك طائعاً      تجدِ الحقيقةَ عند طرفِ الناظرِ  
ومنه مما نسبه له المذكور ، ورأيت من ينسبها لغيره :

لمّا رأيناك بعد الشيبِ يا رَجُلُ      لا تستقيمُ وأمرَ النفسِ تمتلُ  
زدنا يقيناً بما كُنّا نصدقُهُ      بعد المشيبِ يشبُّ الحرصُ والأملُ

وفي « الإحاطة » في ترجمة شعره ما صورته قال : ومما قلته من الشعر ،  
وبه نختم الكلام ٢ :

أنبتَ عوداً لنعماءٍ بدأتَ بها      فضلاً وألبستها بعد الامحا الورقا  
فظلَّ مستشعراً مستدثراً أرجأ      ريانَ ذا بهجةٍ يستوقفُ الحدقا  
فلا تشنه بمكروهِ الجحى فلكم      عودته من جميلٍ من لدنِ خلُقا  
وانفِ القذى عنه واثِرِ الدهرِ منبته      وغذّه برجاؤِ واسقِه غدقا  
واحفظه من حادثاتِ الدهرِ أجمعها      ما جاء منها على ضوءٍ وما طرقا

١ ق : نسبها .

٢ الإحاطة ٢ : ١٥٦ .

انتهى ما قصدته من ترجمة مولاي الجلد على ما اقتضاه الوقت ، ولو أرسلت عينان القلم في شأنه لضاق هذا الديوان عن ذلك ، ويرحم الله شيخ شيوخ شيوخنا عالم المغرب سيدي أبا العباس الونشريسي ثم التلمساني نزيريل فاس صاحب « المعيار » وغيره إذ قال في تأليفه الذي عرّف فيه بمولاي الجلد لما سأله بعضهم في ذلك ، وذكر ما حضره ، ما نصه : ولقد استوفى شيخ شيوخنا المحقق النظار أبو عبد الله ابن مرزوق الحفيد ترجمة المقرئ في كتاب سماه « النور البدرى في التعريف بالفقيه المقرئ » وقد تقدمت الإشارة إلى أن اسم هذا التأليف مبني على أن المقرئ بفتح الميم وسكون القاف ، وقد علمت ما في ذلك ممّا مضى .

قلت : وقد ملكت بفاس مجلداً ضخماً بخط مؤلفه ، وهو أحد علماء مدينة فاس ، ألفه برسم مولاي الجلد ، وسماه بـ « الزهر الباسم » وأطال فيه في مدح مولاي الجلد ، والثناء عليه ، والتنويه بقدره ، وذكر محاسنه ، ولم يحضرني الآن لكوني تركته مع جملة كتبي بالمغرب ، وقد تعلق بحفظي ما قاله في أوله من جملة أبيات :

إذا ذُكِرَتْ مفاخرُ أهلِ فاسِ      ذكرنا مَنْ أتى من تلمسانِ  
وقلنا هل رأيتُ في قضاةِ      شبيهاً للفقيهِ العَدَلِ ثاني

إلى أن قال :

ونفسُ العلمِ إن شانتُ لشخصِ      فما للمقرئِ في العلمِ شاني

[ تلامذة المقرئ الجلد ]

وقد أخذ عنه رحمه الله تعالى جماعة أعلام مشهورون ، منهم لسان الدين ابن الخطيب ذو الوزارتين ، والوزير أبو عبد الله ابن زمرك ، والأستاذ العلامة أبو عبد الله القيجاطي الآية في علم القراءات ، والشيخ الفقيه القاضي الرحال



الحاج أبو عبد الله محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي الزموري الدار المعروف بنقشابو ، والولي ابن خلدون صاحب التاريخ ، وفي بعض المواضع يعبر عنه بصاحبنا ، وفي بعضها بشيخنا ، والنظار أبو إسحاق الشاطبي ، والعلامة أبو محمد عبد الله بن جُزَيّ ، والحافظ ابن علاق ، وغيرهم ممن يظول تعداده ، ولا كالشيخ الولي الشهير الكبير العارف بالله سيدي محمد بن عباد الرندي<sup>١</sup> شارح حكم ابن عطاء الله فإنه ممن يفخر مولاي الجدر رحمه الله تعالى بكون مثله تلميذاً له ، ولا بأس أن نورد ترجمته تبركاً به في هذا الكتاب ، ولولم تقتضه المناسبة التي راعيناها في هذا التأليف ، فكيف وقد اقتضته ؟ فنقول :

#### [ ترجمة تلميذه ابن عباد الرندي ]

قال في حقه صاحبه الشيخ أبو زكريا السراج ، ما صورته : شيخنا الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الخاشي ، الإمام العالم المصنف السالك العارف المحقق الرباني ذو العلوم الباهرة ، والمحاسن المتظاهرة ، سليلُ الخطباء ، ونتيجة العلماء ، أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه الواعظ الخطيب البليغ العلم الحظي الوجيه الحسيب الأصيل أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عباد ، كان حسن السمّت ، طويل الصمت ، كثير الوقار والحياء ، جميل اللقاء ، حسن الخلق والخلق ، عالي الهمّة متواضعاً ، معظماً عند الخاصة والعامة ، نشأ ببلده رُندة على أكمل طهارة ، وعفاف وصيانة ، وحفظ القرآن ابن سبع سنين ، ثم تشاغل بعدُ بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية ، حتى رأس فيها وحصل معانيها ، ثم أخذ في طريق الصوفية والمباحثة على الأسرار الإلهية حتى أُشير إليه . وتكلم في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات وألّف فيه تواليف عجيبة وتصانيف

١ ترجمة ابن عباد الرندي في نيل الابتهاج : ٢٨٧ نقلا عن فهرسة السراج وابن الخطيب القسطيني مؤلف أنس الفقير ( و ترجمة ابن عباد فيه ص : ٧٩ ) .

بديعة غربية<sup>١</sup> ، وله أجوبة كثيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين ، ودرس كتباً وحفظها أو جُلِّتها كشهاب القضاء والرسالة ومختصر ابن الحاجب وتسهيل ابن مالك ومقامات الحريري وفصيح ثعلب وغيرها . وقوت القلوب : أخذ ببلده رُنْدَة عن أبيه القرآن وغيره . وعن خاله الشيخ الفقيه القاضي عبد الله الفريسي العربية وغيرها . وعن الشيخ الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن أبي الحسن الرُنْدِي حرف نافع ، وعرض عليه الرسالة ، وبتلمسان وفاس عن السيد الشريف الإمام العالم العلامة المحقق أبي عبد الله التلمساني الحسني جُمَل الخونجي تفهماً وغيره . وعن الشيخ الفقيه القاضي العالم أبي عبد المقري كثيراً من المختصر الفرعي لابن الحاجب وفصيح ثعلب وبعض صحيح مسلم كلها تفهماً . وعن الشيخ الفقيه العالم أبي محمد عبد النور العمراني الموطأ والعربية . وعن الإمام العالم أبي عبد الله الآبلي « الإرشاد » لأبي المعالي وجميع كتاب ابن الحاجب الأصلي وعقيدة ابن الحاجب تفهماً . وعن الشيخ الفقيه الحافظ أبي الحسن الصرصري بعض « التهذيب » تفهماً . وعن الشيخ الأستاذ المقرئ الصالح أحمد بن عبد الرحمن المجاصي - شهر بالمكناسي - كثيراً من جُمَل الزجاج وتسهيل ابن مالك . وعن الشيخ الفقيه الصالح أبي مهدي عيسى المصمودي جميع كتاب ابن الحاجب والحاجبية له أيضاً تفهماً ، وتفقه على الفقيه العالم أبي محمد الوانغيلي في كتاب ابن الحاجب الفقهي وأخذ عنه حرف نافع . وعن الشيخ الفقيه الصالح المدرس بالحلفاويين أبي محمد عبد الله الفشتالي كثيراً من « التهذيب » ، وعن قاضي الجماعة وخطيب الحضرة أبي عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي كثيراً من « التهذيب » تفهماً . وكذا عن غيرهم : ولقي بسلا الشيخ الحاج الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر . وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة . قال : قصدتهم لوجدان السلامة معهم . ثم رحل لطنجة فلقى بها الشيخ الصوفي أبا مروان عبد الملك . قال : لازمته كثيراً

١ غربية : سقطت من ق ص ونيل الابتهاج .

وقرأت عليه وسمعت منه . وأنشأني من شعره وشعر غيره . وترددت بيبي  
وبينه مسائل في إقامته بسلاً . وانتفعت به عظيماً في التصوف وغيره . وأجازني  
إجازة عامة . مولده برُنْدَة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمئة . وتوفي بعد العصر يوم  
الجمعة ثالث رجب عام اثنين وتسعين وسبعمئة . وحضر جنازته الأمير فمّن  
بعده . وهمّت العامة بكسر نعشه تبركاً به ، ولم أرَ جنازة أحفل ولا أكثر خلقاً  
منها . وراثه الناس بقصائد كثيرة ؛ انتهى كلام السراج .

وقال غيره في حقه : محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن  
محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عبّاد . النفزي نسباً . الرُنْدي بلداً .  
الشهير بابن عبّاد ، الفقيه الصوفي الزاهد الولي العارف بالله تعالى .

وقال في حقه الشيخ ابن الخطيب القسطنطيني في كتابه «أنس الفقير وعز  
الحقير»<sup>١</sup> : هو الخطيب الشهير . الصالح الكبير . وكان والده من الخطباء .  
الفصحاء النجباء . ولأبي عبد الله هذا عقل وسكون . وزهد بالصلاح مقرون .  
وكان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبي عمران [ موسى ] العبدوسي رحمه الله  
تعالى . وهو من أكابر أصحاب ابن عاشر . ومن خيار تلامذته . وأخذ عنه .  
وله كلام عجيب في التصوّف . وصنف فيه . كما هو الآن يقرأ على الناس مع  
كتب التذكير . وله في ذلك قلم انفرد به ، وسلم له فيه بسببه . ومن تصانيفه  
« شرح كتاب الحكم » لابن عطاء الله في سفر . رأيتُه وعلى ظهر نسخة منه مكتوب :

لا يبلغُ المرءُ في أوطانه شرفاً حتى يكيّلَ ترابَ الأرضِ بالقدمِ

ومن كلامه فيه : الاستئناس بالناس . من علامات الإفلاس . وفتح باب  
الأنس بالله تعالى الاستيحاش من الناس . ومن كلامه فيه : من لازم الكون وبقي  
معه وقصر همته عليه ولم تفتح له طريق الغيوب الملكوتية . ولا خلص بسره إلى

١ انظر هذا المصدر ص : ٧٩ .

فضاء مشاهدة الوجدانية ، فهو مسجون بمحيطاته ، ومحصور في هيكل ذاته . إلى غير ذلك من كلامه . وكان يحضر السماع ليلة المولد عند السلطان ، وهو لا يريد ذلك ، وما رأته قط في غير مجلس جالساً مع أحد وإنما حظ من يراه الوقوف معه خاصة ، وكنت إذا طلبته بالدعاء احمر وجهه واستحيا كثيراً ، ثم يدعو لي ، وأكثر تمتعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير ، ويتولى أمر خدمته بنفسه ، ولم يتزوج ولم يملك أمة ، ولباسه في داره مرقعة ، فإذا خرج سترها بشوب أخضر أو أبيض ، وله تلامذة كلهم أختيار مباركون ، وبلغني عن بعضهم أنه تصدق حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهباً ، وهو الآن إمام جامع القرويين بفاس وخطيبه ، وأكثر قراءته في صلاة الجمعة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ وأكثر خطبته وعظ ، ومثله من يعظ الناس ، لأنه اتعظ في نفسه ، وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : يا عيسى ، عِظْ نَفْسَكَ فَإِنْ اتَعَطْتَ فَعِظِ النَّاسَ ، وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مِنِّي ، ذكره الغزالي ، وعهدي به أنه على صفة البلاء ، الصادقين النبلاء ، كثر الله مثله في الإسلام ؛ انتهى .

قلت : وقد زرت قبره مراراً بفاس ، ودعوت الله تعالى عنده ، وهو عند أهل فاس بمثابة الشافعي عند أهل مصر ، ومن من الله سبحانه عليّ أني سكنت محله لما توليت الخطابة والإمامة بجامع القرويين من فاس المحروسة مُضيفين إلى الفتوى ، والدار المعلومة للخطيب بالجامع المذكور إلى الآن تُعرف بدار الشيخ ابن عباد ، وأقيمت على ذلك خمس سنين وأشهرًا ، ثم قوّضت الرحال للمشرق ، وها أنا إلى الآن فيها ، والله ييسر الخير حيث كان .

وقال الشيخ سيدي أحمد زروق في شأن الشيخ ابن عباد : إنّه ولد برُنْدَة ، وبها نشأ في عَقَافِ وَصُونٍ ، ثم رحل لفاس وتلمسان فقرأ بهما الفقه والأصول والعربية ، ثم عاد فصحب بمدينة سَلَا أَفْضَلَ أهل زمانه علماً وعملاً سيدي أحمد

ابن عاشر ، نفعنا الله به ، فأظهر الله تعالى عليه من بركاته ما لا يحفى على متأمل ، ثم نُقل بعد وفاة الشيخ فجعل خطيباً بجامع القرويين من مدينة فاس ، وبقي بها خمس عشرة سنة خطيباً ، فتوفاه الله تعالى بها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، ودفن بكدية البراطل من داخل باب الفتوح . وكان رضي الله عنه ذا صمت وسمت ، وتجمل وزهد ، معظماً عند الكافة ، مُعَوِّلاً في حل المشكلات على فتح الفتح العليم :

ومن عِلْمِهِ أَنْ لَيْسَ يُدْعَى بِعَالِمٍ وَمَنْ فَقَرَهُ أَنْ لَا يُرَى يَشْتَكِي الْفَقْرَ  
وَمَنْ حَالَهُ أَنْ غَابَ شَاهِدُ حَالِهِ فَلَا يَدْعَى وَصَلَاً وَلَا يَشْتَكِي هَجْرًا

كذا رأيت بخط مَنْ أُنقِ به في تعريفه مختصراً مع زيادة ما تحققت ، وكتبته شاهدة بكماله علماً وعملاً ، فهي كافية في تعريفه ، وكان الذي طلبه في وضع الشرح على الحكم سيدي أبو زكريا السراج الذي أكثر رسائله له وسيدي أبو الربيع سليمان بن عمر ؛ انتهى .

وقال في موضع آخر : سيدنا العارف المحقق الخطيب البليغ نسيحٌ وَحْدِهِ ، ومقدم من أتى من بعده ، أبو عبد الله ، قرأ بفاس وتلمسان العربية والأصول والفقہ ككتاب الإرشاد ومختصر ابن الحاجب الفقهي والأصلي وتسهيل ابن مالك ، وتوفي بفاس ، وقبره بها مشهور ، ومزيتته معروفة شرقاً وغرباً ، وقد كتب مسائل معروفة أكثرها لسيدي يحيى السراج ، وله كتب الشرح مع سيدي سليمان بن عمر الذي قال في حقه : إنه ولي بلا شك ، بطلبهما لذلك ، ورأيت كتاباً في الإمامة سماه « تحقيق العلامة في أحكام الإمامة » فذكرته لشيخنا القوري رحمه الله تعالى ، وكان معنياً بكتبه معوِّلاً عليها في حاله ، فقال : أظنه لوالده سيدي إبراهيم ، وقد كان خطيباً بالقصبة إذ كانت عامرة ، وله خطب عظيمة الفصاحة ، حسنة الموقع ؛ انتهى .

وقال الشيخ أبو يحيى ابن السكاك : أما شيخي وبركتي أبو عبد الله ابن عبّاد

رضي الله عنه فإنه شرح الحكم وعقد درر منشورها في نظم بديع ، وجمعت من إنشائه مسائل مدارها على الإرشاد إلى البراءة من الحول والقوة ، فيها نبذ كأنفاس الأكابر ، مع حسن التصرف في طريق الشاذلي ، وجودة تنزيله على الصور الجزئية ، وبسط التعبير ، مع إنهاء البيان إلى أقصى غاياته ، والتفنن في تقريب الغامض إلى الأذهان بالأمثلة الوضعية ، فقرب بها حقائق الشاذلية تقريباً لم يسبق إليه ، كما قرب الإمام ابن رشد مذهب مالك تقريباً لم يسبق إليه ، وكان مع ذلك آية في التحقق بالعبودية والبراءة من الحول والقوة وعدم المبالاة بالمدح والذم ، بل له مقاصد نفيسة في الإعراض عن الخلق ، وعدم المبالاة بهم ، وأعظم أخلاقه التي لا يصبر عنها ويضطرب لها غاية الاضطراب أن يحضر حيث ينسى الحق ، لا سيما إن كان نسيان الحق بالنسبة إليه ، فهو الذي يُقْلِقُه ، ويضيق صدره على اتساعه ووفور انشراحه عن ذلك ، ولقد ذكر بعض من كان من أخص الناس به ومنقطعاً إليه أحوال رجال الرسالة القشيرية والحليّة وما منحوا من المواهب ، قال : فلما مات الشيخ واستبصرت ما أشاهده منه من أفعال تدل على القطع بصديقيته لاح لي أن تلك الصفات التي يذكر مشخصة فيه ، نشاهدها عياناً ، ولو لم أر الشيخ لقلت : إنني لم أر كمالاً ، وعلى الجملة فهو واحد عصره بالمغرب . ذكر لي عن قطب المعقول بالمغرب والمشرق الأبلي أنه كان يشير إليه في حال قراءته عليه ، أعني الشيخ ابن عباد ، ويقول : إن هناك علماً جماً لا يوجد عند مشاهير أهل ذلك الوقت ، إلا أنه كان لا يتكلم رضي الله عنه ، وشهد له المقطوع بولايتهم بالتقدم ، وأقروا له بالشيخوخة ، وتبركوا به ، كسيدي سليمان اليازغي<sup>١</sup> وسيدي محمد المصمودي وسيدي سليمان بن يوسف ابن عمر الأنفاسي<sup>٢</sup> وأمثالهم ، وكان شيخه الحجّة الورع أحمد بن عاشر يُشيدُ بذكره ، ويقدمه على سائر أصحابه ، ويأمرهم بالأخذ عنه ، والانتفاع به ،

١ ق : البازغي ، وهو خطأ . ٢ انظر سلوة الأنفاس ٣ : ١٥٦ .

والتسليم له ، ويقول : ابن عباد أمة وحده ، ولا شك أنه كذلك كان ، أعني غربياً فإن العارف غريب الهمّة بعيد القصد ، لا يجد مساعداً على قصده . وكان الغالب عليه الحياء من الله تعالى ، والتنزل بين يدي عظمته ، وتنزله نفسه منزلة أقل الحشرات ، لا يرى لنفسه مزية على مخلوق ، لما غلب عليه من هيبة الجلال وعظمة المالك وشهود المنّة ، نظاراً إلى جميع عباد الله تعالى بعين الرحمة والشفقة والنصيحة العامة ، مع توفية المراتب حقّها ، والوقوف مع الحدود الشرعية ، واعتبارهم من حيث مُراد الله تعالى بهم ، هذا دأبه مع الطائع والعاصي ما لم يظهر له من أحد مخايل حب التعظيم والمدح والتجبر على المساكين ورؤية الحق إذ هي دعوى لا تليق بالعبد ، ومن كانت هذه صفته فقد وصل حد الخذلان ، بل هي علامة تقارب القطع على أنه شقي مُسلم إلى غضب الله تعالى ومقته ، أعاذنا الله تعالى منه . وكان من حال هذا السيد تألف قلوب الأولاد الصغار ، فهم يحبونه محبة تفوق محبتهم لأبائهم وأمهاتهم ، فينتظرون خروجه للصلاة وهم عدد كثير ، يأتون من كل أوب ومن المكاتب البعيدة ، فإذا رأوه ازدحموا على تقبيل يده . وكذا كان ملوك زمانه يزدحمون عليه ، ويتذللون بين يديه . فلا يحفل بذلك . وذكر لي بعض تلامذته أن أقواله تشبه أفعاله ، لما منحه الله تعالى من فنون الاستقامة ، مع ما في كلامه من النور والجلالة التي استفزت أبواب المشاركة . بحيث صار لهم بحث عريض<sup>٢</sup> على تواليقه : انتهى كلام ابن السكالك . وله من التواليف : الرسائل الكبرى ، والصغرى<sup>٣</sup> ، وشرح الحكم ، ونظمها في ثمانمائة بيت من الرجز .

وحدث الشيخ أبو مسعود الهراس قال : كنت أقرأ في صحن جامع القرويين

١ ق ص : لا تشبه .

٢ ق : تحريض .

٣ طبع هذان الكتابان أولهما بفاس سنة ١٣٢٠ والثاني بيروت سنة ١٩٥٨ .

والمؤذنون يؤذنون بالليل ، فإذا أبو عبد الله ابن عبّاد قد خرج من باب داره ، وجاء يطير في الصحن كأنه جالس متربع حتى دخل في البلاط الذي حول الصوّمة ، ثم مشيت فوجدته يصلي حول المحراب ، وسأله السراج عن أبي حامد الغزالي ، فقال : هو فوق الفقهاء وأقل من الصوفية . ومما نقل من خطّه رحمه الله تعالى ولا يدري هل هي له أم لا :

الحزمُ قبل الغزمِ فاحزمِ واعزمِ . وإذا استبان لك الصوابُ فصمِّمِ .  
 واستعمل الرفقَ الذي هو مكسبٌ ذكر القلوبِ وجُدْ وأجمِلْ واحلم  
 واحرسْ وسرّ واشجعْ وصلْ وامنْ وصلِ واعدلْ وأنصفْ وارعْ واحفظْ وارحم  
 وإذا وعدتْ فعدْ بما تقوى على إنجازهِ وإذا اصطنعتْ فتمم

وذكر الشيخ الفقيه الخطيب القاضي الحاج الرحيل أبو سعيد ابن أبي سعيد السلوي أنّه رأى في حائط جامع القرويين أبياتاً مكتوبة بفحم بخط الشيخ أبي عبد الله ابن عباد وهي<sup>١</sup> :

أيتها النفسُ إليه اذهبي فجه المشهورُ من مذهبي  
 مفضضُ الثغرِ له نقطةٌ من عنبرٍ في خده المذهب  
 أيا سني التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

قال الشيخ أبو سعيد : فاستشكلت هذه الأبيات لما اشتملت عليه من التغزل ، وذكر الخال والحد والثغر ، ومقام الشيخ ابن عباد يجمل عن الاشتغال بمثل هذا ، فلقيت يوماً أبا القاسم الصيرفي ، فذاكرته بالقصة ووجه الإشكال فيها ، فقال لي : مقامك عندي أعلى من أن تستشكل مثل هذا ، هذه أوصاف ولي الله القائم بأمر الله المهدي ، فشكرته على ذلك ؛ انتهى .

١ قد مرت هذه الأبيات ج ٤ ص : ١٤ منسوبة خطأ لابن خروف وهي لابن طلحة الصقلي ، وانظر مايجي ص : ٤٨٢ .



قلت : رأيت بخط الونشريسي إثر هذه الحكاية ما نصه : قلت في صحة هذه الحكاية عن الشيخ نظر ، لما احتوت عليه من تعبير الحسن ، وقدر الشيخ وورعه أعلى من هذا ، فهذان إشكالان ، والله أعلم .

وحكى<sup>١</sup> أن الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى لما احتضر جعل رأسه في حجر أبي القاسم هذا ، وأخذ في قراءة آية الكرسي إلى قوله ﴿الحي القيوم﴾ ثم يقول : يا الله يا حي يا قيوم ، فيلقنه من حضر ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ فيمتنع الشيخ من قراءتها ويقول : يا الله يا حي يا قيوم ، فلما قربت وفاته سُمع منه هذا البيت وكان آخر ما تكلم به :

ما عودوني أحبائي مقاطعةً بل عودوني إذا قاطعتهم وصلوا

ولما توفي الشيخ ابن عباد رضي الله عنه في التاريخ المتقدم حضر جنازته السلطان أمير المسلمين أبو العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم وأهل البلدتين - يعني فاساً الجديدي التي هي مسكن السلطان وخواص أتباعه ، وفاساً العتيق التي هي محل الأعلام والخاص والعام من الناس في ذلك القطر ، إذ هي إذ ذاك حضرة الخلافة وقبة الإسلام في المغرب - وتقدم بعده للإمامة والخطبة بجامع القرويين نائبه أيام مرضه الشيخ الصالح الورع أبو زيد عبد الرحمن الزرهوني حسبما قاله الجاديري رحمه الله تعالى .

وحكى الونشريسي رحمه الله تعالى أن الشيخ ابن عباد كَلَّمَ ابن دريدة الوالي في مَظْلَمَة ، فلم يقبل ، فلما كان يوم الجمعة ونزل السلطان أبو العباس للصلاة بجامع القرويين وراء الشيخ ابن عباد ، قال الشيخ في خطبته : من الأمور المستحسنة ، أن لا يبقى الوالي سنة ؛ انتهى .

وللشيخ ابن عباد خطب مدونة بالمغرب مشهورة بأيدي الناس ، ويقروؤون

منها ما يتعلق بالمولد النبوي الشريف بين يدي السلطان تبركاً بها ، وكذا يقرؤونها في المجتمعات في المواسم ، كأول رجب وشعبان ونصفهما والسابع والعشرين منهما ، كرمضان ، وقد حضرت بمراكش المحروسة سنة عشر وألف قراءة كراسة الشيخ في المولد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بين يدي مولانا السلطان المرحوم أحمد المنصور بالله الشريف الحسيني رحمه الله تعالى ، وقد احتفل لذلك المولد بأمر يستغرب وقوعها ، جازاه الله تعالى عن نيته خيراً ، وقد أشرت إلى ذلك في كتابي الموسوم بـ «روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس» وسردت جملة من القصائد والموشحات في وصف ذلك الصنيع<sup>١</sup> ، ورحمة الله وراء الجميع .

رجع إلى مشايخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى فنقول :

٤ - ومنهم : الشيخ الفقيه القاضي بمكناسة الزيتون أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد<sup>٢</sup> ، ذكره في «نفاضة الجراب» وقال : إنه لقيه بمكناسة الزيتون سنة إحدى وستين وسبعمائة ، وكان من أهل المعرفة والحصافة<sup>٣</sup> ، قائماً على كتاب أبي عمرو ابن الحاجب في مذهب مالك ، وكان ممتازاً به فيما دون تلمسان ، قرأه على الشيخين عكّمي الأفق المغربي أبي موسى وأبي زيد ابني الإمام عالمي تلمسان والمغرب جميعاً ، قال لسان الدين في «النفاضة» : وتصدر المذكور لإقرائه الآن ، فما شئت من اضطلاع ، ومعرفة واطلاع ، وقيد جزءاً نبيلاً على فتوى الإمام القاضي أبي بكر ابن العربي المسماة بالحكاكة ، وسماه

١ نقص هذا المصدر من أوله ، ولكن ما تبقى من ص ٥ - ١٤ يدل على ما يشير المؤلف إليه .

٢ ترجمة عبد الحق بن سعيد في نيل الابتهاج : ١٦٤ نقلا عن الروض المحتون عن نفاضة الجراب ، وقال كان حياً سنة ٧٦١ هـ .

٣ نيل الابتهاج : والفصاحة .

« الخادمة<sup>١</sup> على الرسالة الحاكمة » أجاد فيه وأحسن ، وقرأت عليه بعضه وأذن في تحمله ؛ انتهى .

٥ - ومن أشياخ لسان الدين الذين لقيهم بمكناسة الزيتون الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الونشريسي ، له عناية بفروع الفقه ، وولي القضاء بقصر كتامة .

٦ - ومنهم الفقيه الفاضل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف<sup>٢</sup> ، المتصدر لقراءة كتاب الشفاء النبوي ، لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير من نظرائه قراءة منه إياها على أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل الصباغ ، وشاركه في قراءتها على الإمام أبي عبد الله الآبلي .

٧ - ومنهم الفقيه المدرك الأستاذ في فن العربية : أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي<sup>٣</sup> ، قال لسان الدين : حضرت مذاكرته في مسألة أعوزت<sup>٤</sup> عليه ، وطال عنها سؤاله ، وهي قول الشاعر :

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ما لم يروا عنده آثار إحسان

وصورة السؤال : كيف [ صح ] وقوع أفعال بين شيئين لا اشتراك بينهما في الوصف ؛ إذ وقع الشاعر « أكيس » بين الناس وبين أن يمدحوا ، وهو مؤول بالمصدر وهو المدح ، ولا يوصف بذلك ؛ انتهى .

قلت : الإشكال مشهور ، والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر ، وقد

١ نيل الابتهاج : الخارجة ، وفي التجارية : الجازمة .

٢ ترجمة ابن أبي عفيف في نيل الابتهاج : ٢٤٨ نقلا عن نفاضة الجراب .

٣ ترجمة عمر الونشريسي في نيل الابتهاج : ١٧٨ نقلا عن نفاضة الجراب وتوفي بفاس سنة ٨١٠ ( عن الروض الهتون لابن غازي ) .

٤ ق : رسالة أغورت .

أشار إليه أبو حيان في « الارتشاف » وجماعة آخرون في قول بعض المؤلفين كصاحب التلخيص « أكثر من أن تُحصَى » ولولا السامة لذكرت ما قيل في ذلك ، وخلاصة ما قالوه أن في الكلام تقديراً ، والله أعلم .

٨ - وممن لقيه لسان الدين بمكناسة الزيتون الفقيه العدل الأخباري الأديب المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي الحلي ، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، وهو كاتب عاقد للشروط ، ناظم نائر مشارك في فنون من العلم ، مؤلف ، وقد ذكرنا في غير هذا المحل ما دار بينه وبين لسان الدين من المحاوراة والمراجعة ، فليراجع ، قال لسان الدين رحمه الله تعالى : ناولني المذكور تأليفه الحسن الذي سماه « المنهل المورود في شرح المقصد المحمود » شرح فيه وثائق الجزيري فأرسي بياناً وإفادة وإجادة ، وأذن لي في حمله عنه ، وهو في ثلاث مجلدات ، وأنشدني كثيراً من شعره .

٩ - ومنهم القاضي بها أبو عبد الله ابن أبي رمانة<sup>١</sup> ، قال لسان الدين : لقيته بمكناسة ، وكان من أهل الحياء والحشمة ، وذوي السذاجة والعفة ، ثم ذكر ما داعبته به حين تأخر عن لقائه ، وقد ذكرنا ذلك في غير هذا الموضع .

١٠ - وممن لقيه لسان الدين بمكناسة الفقيه العدل أبو علي الحسن بن عثمان ابن عطية<sup>٢</sup> الونشريسي ، قال : وكان فقيهاً عدلاً من أهل الحساب ، والقيام على الفرائض ، والعناية بفروع الفقه ، ومن ذوي السذاجة والفضل ، ويقرض الشعر ، وله أرجوزة في الفرائض مبسطة العبارة مستوفية المعنى ؛ انتهى . وقال ابن الأحمر في حقه : هو شيخنا الفقيه المفتي المدرس القاضي الفرضي الأديب ، الحاج أبو علي ابن الفقيه الصالح أبي سعيد عثمان التجاني المنعوت

١ هو محمد بن علي بن أبي رمانة المكناسي قاضي مكناس (الديباج : ٢٤٩) وانظر ص : ١٤٣ .  
٢ نيل الابتهاج : ٨٩ نقلا عن نفاضة الجراب وعن ابن الأحمر ؛ والمقري ينقل عن التنبكي .

بالونشريسي ، أجازني عامة ، أخذ عن الفقيه المفتي الأديب الخطيب المعمر  
القاضي المحدث الراوية خاتمة المحدثين بالمغرب أبي البركات ابن الحاج البلفيقي ،  
انتهى .

ومولده في حدود أربع وعشرين وسبعمائة .

وذكر صاحب « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي إفريقية  
والأندلس والمغرب » جملةً من فتاويه وقال في وثائقه ، وقد أجرى ذكره ،  
ما صورته : إن بلدنا الشيخ القاضي العلامة أبا علي الحسن وقعت له قضية مع  
عدول مكناسة ، وذلك أن السلطان أبا عنان فارساً كان أمر بالاقتصار على عشرة  
من الشهود بمدينة مكناسة وكتب اسم الشيخ أبي علي هذا في العشرة ، فشق ذلك على  
بعض شيوخ العدول المؤخرين لحدائثة سن أبي علي ، فلما علم تشغيبهم صنع  
رجزاً ورفعاه إلى مقام المتوكل على الله أبي عنان نصه :

نبدأً أولاً بحمدِ اللهِ ونستعينهُ على الدِّواهي  
ثم نُوالي بالصلاة والسلامِ على نبيِّ اِ دونه كلِّ الأنامِ  
وبعد ذا نَسألُ ربَّ العالمينُ أن يَهَبَ النصرَ أميرَ المؤمنينُ  
خليفةَ الله أبا عنانِ لا زال في خيرٍ وفي أمانِ  
ملكه الله من البلادِ من سوسِ الأقصى إلى بغدادِ  
ويسرَّ الحجازَ والجهادا وجعل الكلَّ له مهادا  
يا أيها الخليفةُ المظفرُ دونك أمري إنَّه مُفسَّرُ  
عبدكم نجلُ عطيةِ الحسنِ قد قيل لا يشهدُ إلا إن أسنَّ  
وهو في أمركمُ المعهودِ من جملةِ العشرةِ الشُّهودِ  
نصَّ عليه أمركمُ تعيينا وسنهُ قاربَ أربعينا ٢

١ ق ونيل الابتهاج : على النبي .

٢ ق : الأربعينا .

مع الذي ينتسب العبد إليه      من طلب العلم وبجته عليه  
على الفرائض له أرجوزة<sup>١</sup>      أبرزَ في نظامها لإبريزه<sup>٢</sup>  
ومجلس له على الرسالة<sup>٣</sup>      فكيف يبرجو حاسد زواله<sup>٤</sup>  
حاشا أمير المؤمنين ذاكَا      وَعَدْلُهُ قد بلغ السَّمَاكَا  
وعلمه قد طَبَّقَ الآفَاكَا      وحلمه قد جاوزَ العرَاكَا  
وجوده مُشتهرٌ في كلِّ حَيٍّ      قَصَرَ عن إدراكه حاتمُ طيٍّ

وحكى بعضُ الحفاظ أنه لما بلغت الأبيات السلطانَ أمر بإقراره على ذلك ،  
وقد وقفتُ على رَجَزِهِ المذكور ، وله شرح عليه لم أره ، والظاهر أنه ممتن  
تدبج معه لسان الدين ، رحم الله الجميع ؛ وهو معدود في جملة من لقيه .

١١ - ومن مشايخ لسان الدين رحمه الله ذو الكرامات الكثيرة والمقامات  
الكبيرة ، سيدي الحاج أبو العباس أحمد بن عاشر الصالح<sup>١</sup> المشهور ، كان لسان  
الدين - رحمه الله تعالى - حريصاً على لقائه بسلاً أيام كان بها ، وقد لقيه ، ولم  
يتملَّ منه لشدة نفوره من الناس ، خصوصاً أصحاب الرياسة ، ولذا قال لسان  
الدين ، لما ذكر أنه لقيه في « نفاضة الجراب » ، ما صورته : يسرَّ الله لقاءه على  
تعذره : انتهى .

وسترجم الولي المذكور في نظم لسان الدين حيث وصفه بقوله :

بوليَّ الله فابدأ وابتدر

وقبره الآن بسلاً محطُّ رجاء<sup>٢</sup> الطالبين ، وكعبة قصد الراغبين ، تلوح عليه  
أنوار العناية ، وتستمد منه أنواء الهداية ، وهو على ساحل البحر المحيط بخارج  
مدينة سلا المحروسة ، وقد زرته والله الحمد عند توجهي إلى حضرة مراکش

١ ترجمة أحمد بن عاشر في نيل الإبتهاج : ٤٨؛ وأنس الفقير : ٧ وكانت وفاته سنة ٧٦٥ .

٢ ق : رحال .

سنة ألف وتسع ، والناس يشدون الرحال إليه من اقطار المغرب ، فنعنا الله تعالى به ، وأعاد علينا من بركاته ، بجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

رجع إلى مشايخ لسان الدين الوزير ابن الخطيب رحمه الله تعالى .

١٢ - ومنهم الأستاذ المحقق العلامة الكبير النحوي الشهير أبو عبد الله

محمد بن علي الفخار البيري ، رحمه الله تعالى<sup>١</sup> .

كان شيخ النحاة بالأندلس غير مدافع . وأخذ عنه خلق كثيرون كالشاطبي أبي إسحاق صاحب شرح الألفية والوزير ابن زمرّك وغيرهما ، وقد حكى عنه مسائل غريبة تلميذه الشاطبي ، وقال لسان الدين في «الإحاطة» في ترجمة مشيخته ما صورته : ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير والمعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله ابن الفخار البيري ، الإمام المجمع على إمامته في فن العربية ، المفتوح عليه من الله تعالى فيها حفظاً واطلاعاً واضطلاعاً ونقلًا وتوجيهاً بما لا مطمع فيه لسواه ؛ انتهى .

ولنورد بعض فوائده ابن الفخار فنقول :

ومن فوائده ابن الفخار المذكور التي حكاهما عنه الشاطبي قوله : حدثني أن بعض الشيوخ كان إذا أتى بإجازة يشهد فيها سأل الطالب المجاز عن لفظ إجازة ما ورنه وما تصريفه ؟ ثم قال الشاطبي : ولما حدثنا بذلك سألتناه عنها فأملى علينا ما نصه : وزن إجازة في الأصل إفعالة ، وأصلها إجازة فأعلت بنقل حركة الواو إلى الجيم حملاً على الفعل الماضي استقلاً ، فتحركت الواو في الأصل وانفتح ما قبلها في اللفظ ، فانقلبت ألفاً ، فصارت إجازة - بألفين - فحذفت الألف الثانية عند سيبويه لأنها زائدة والزائد أولى بالحذف من الأصلي ، وحذفت

١ ترجمة ابن الفخار في الكتيبة الكامنة : ٧٠ والإحاطة (الورقة : ٢٧) إلا أن كنيته فيها «أبو بكر» ؛ وبغية الوعاة : ٨٠ وغاية النهاية ٢ : ٢٠٠ وكانت وفاته سنة ٧٢٣ .

الأولى عند الأخفش لأنها لا تدل على معنى وهو المد ، وقول سيويه أولى ، لأنه قد ثبت عوض التاء من المحذوف في نحو « زنادقة » والتاء زائدة ، وتعويض الزائد من الزائد أولى من تعويض الزائد من الأصلي ، للتناسب ، ووزنها في اللفظ عند سيويه إفعلة وعند الأخفش إفالة لأن العين عنده محذوفة ؛ انتهى .

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى : لما توفي شيخنا الأستاذ الكبير ، العلم الخطير ، أبو عبد الله ابن الفخار سألت الله عز وجل أن يريني في المنام فيوصيني بوصية أنتفع بها في الحالة التي أنا عليها من طلب العلم ، فلما نمت في تلك الليلة رأيت كأنني أدخل عليه في داره التي كان يسكن بها ، فقلت له : يا سيدي أوصني ، فقال لي : لا تعترض على أحد ، ثم سألتني بعد ذلك في مسألة من مسائل العربية كالمؤنس لي ، فأجبت عنها ، ولا أذكرها الآن ؛ انتهى .

وقال الشاطبي أيضاً ما صورته : حدثنا الأستاذ الكبير الشهير أبو عبد الله محمد بن الفخار شيخنا - رحمه الله تعالى - قال : حدثني بسببته بعض المذاكرين أن ابن خميس لما ورد عليها بقصد الإقراء بها اجتمع إليه عيون طلبتها ، فألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال ، فحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم : أنتم عندي كرجل واحد ، يعني أن ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد ، وهو ابن أبي الربيع ، فكأنه إنما يخاطب رجلاً واحداً ازدرأء بهم ، فاستقبله أصغر القوم سنّاً وعلماً بأن قال له : إن كنت بالمكان الذي تزعم فأجيني عن هذه المسائل من باب معرفة علامات الإعراب التي أذكرها لك ، فإن أجبت فيها بالصواب لم تحفظ بذلك في نفوسنا لصغرها بالنظر إلى تعاطيك من الإدراك والتحصيل ، وإن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد ، وهي عشر : الأولى أنتم يا زيدون تغزون ، والثانية أنن يا هندات تغزون ، والثالثة أنتم يا زيدون ويا هندات تغزون ، والرابعة أنن يا هندات تخشين ، والخامسة



أَنْتِ يَا هِنْدَ تَخْشَيْنَ ، وَالسَّادِسَةُ أَنْتِ يَا هِنْدَ تَرْمِينَ ، وَالسَّابِعَةُ أَنْتِ يَا هِنْدَاتِ تَرْمِينَ ، وَالثَّامِنَةُ أَنْتِ يَا هِنْدَاتِ تَمْحُونُ أَوْ تَمْحِينَ ، كَيْفَ تَقُولُ ؟ وَالتَّاسِعَةُ أَنْتِ يَا هِنْدَ تَمْحِينَ أَوْ تَمْحُونَ ، كَيْفَ تَقُولُ ؟ وَالْعَاشِرَةُ أَنْتِ يَا هِنْدَ تَمْحُونَ أَوْ تَمْحِينِ ، كَيْفَ تَقُولُ ؟ وَهَلْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ كُلُّهَا مَبْنِيَةٌ أَوْ مَعْرَبَةٌ أَوْ بَعْضُهَا مَبْنِيٌّ وَبَعْضُهَا مَعْرَبٌ ؟ وَهَلْ هِيَ كُلُّهَا عَلَى وَزْنِ وَاحِدٍ أَوْ عَلَى أَوْزَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ؟ عَلَيْنَا السُّؤَالُ وَعَلَيْكَ التَّمْيِيزُ لِنَعْلَمَ الْجَوَابَ ، فَهَيْتَ الشَّيْخَ ، وَشَغَلَ الْمَحَلَّ بِأَنْ قَالَ : إِنَّمَا يُسْأَلُ عَنْ هَذَا صِغَارِ الْوُلْدَانِ ، قَالَ لَهُ الْفَتَى : فَأَنْتَ دُونَهُمْ إِنْ لَمْ تَجِبْ ، فَانْزِعْ الشَّيْخَ ، وَقَالَ : هَذَا سُوءُ أَدَبٍ ، وَنَهَضَ مَنْصَرَفًا ، وَلَمْ يَصْبِحْ إِلَّا بِمَالِقَةَ مُتَوَجِّهًا إِلَى غَرْنَاطَةَ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَمْ يَزَلْ بِهَا مَعَ الْوَزِيرِ ابْنِ الْحَكِيمِ إِلَى أَنْ مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ؛ انْتَهَى .

ثُمَّ قَالَ الشَّاطِبِيُّ : وَالْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلِ مَا يُذَكَّرُ : أَمَّا الْجَوَابُ عَنْ « تَغْزُونَ » الْأُولَى فَإِنَّهُ مَعْرَبٌ ، وَوَزْنُهُ أَصْلًا تَفْعَلُونَ ، وَلَفْظًا تَفْعُونَ ، وَعَنْ الثَّانِيَةِ فَمَبْنِيٌّ لِلْحَاقِ تَوْنِ الْإِنَاثِ وَوَزْنُهُ تَفْعَلْنَ ، وَعَنْ الثَّلَاثَةِ عَلَى التَّغْلِبِ فَعَلِي رَدَّهُ لِلأُولَى يَلْحَقُ بِالأُولَى ، وَلِلثَّانِي كَالثَّانِي ، وَأَمَّا « تَخْشَيْنَ » مِنَ الرَّابِعَةِ فَمَبْنِيٌّ لِلنُّونِ وَوَزْنُهُ تَفْعَلْنَ ، وَعَنْ الْخَامِسَةِ فَمَعْرَبٌ ، وَوَزْنُهُ أَصْلًا تَفْعَلِينَ ، وَلَفْظًا تَفْعِينَ ، وَأَمَّا « تَرْمِينَ » مِنَ السَّادِسَةِ فَمَعْرَبٌ ، وَوَزْنُهُ أَصْلًا تَفْعَلِينَ ، وَلَفْظًا تَفْعِينَ ، وَمِنَ السَّابِعَةِ مَبْنِيٌّ لِلنُّونِ ، وَوَزْنُهُ تَفْعَلْنَ ، وَأَمَّا « تَمْحُونَ وَتَمْحِينَ » مِنَ الثَّامِنَةِ فَهِيَ لُغَتَانِ ، وَهُمَا مَبْنِيَّانِ لِلنُّونِ ، وَالتَّاسِعَةُ لَا يُقَالُ إِلَّا « تَمْحِينَ » بِأَلْيَاءِ خَاصَّةٍ لِتَتَّفِقَ اللَّغَتَانِ ، وَوَزْنُهَا تَفْعِينَ كَتَخْشَيْنَ ، وَأَمَّا تَمْحِيَانِ مِنَ الْعَاشِرَةِ فَعَلِي لُغَةِ الْبَاءِ لَا إِشْكَالَ وَعَلَى الْوَاوِ فَيُظْهِرُ مِنَ الْكَلَامِ النَّحْوِيِّينَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِالْوَاوِ ؛ انْتَهَى .

وَقَدْ أوردَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ عَالِمُ الدُّنْيَا سَيِّدِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْزُوقٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي شَرْحِهِ الْوَاسِعِ الْعَجِيبِ الْمُسَمَّى بِ« تَمْهِيدِ الْمَسَالِكِ إِلَى شَرْحِ أَلْفِيَةِ ابْنِ مَالِكٍ » وَنَصَّ مَحَلَّ الْحَاجَةِ مِنْهُ : وَقَدْ حَكِيَ أَنَّ بَعْضَ طَلَبَةِ سَبْتَةَ أوردَ

على أبي عبد الله ابن خميس عشر مسائل من هذا النوع ، وهي : أنتم يا زيدون  
تَغزُون ، وأنتم يا هندات تَغزُون ، وأنتم يا زيدون ويا هندات تَغزُون ، وأنتم  
يا هندات تَحشِين ، وأنتم يا هند تَحشِين ، وأنتم يا هند تَرَمِين ، وأنتم  
يا هندات تَرَمِين ، وأنتم يا هندات تَمحُون أو تَمحِين ، كيف تقول؟ وأنتم  
يا هند تَمحُون أو تَمحِين ، كيف تقول؟ وأنتم تمحوان أو تمحيان ، على  
لغة من قال مَحَوْتُ ، كيف تقول؟ وهل هذه الأمثلة كلها مبنية أو معربة  
أو مختلفة؟ وهل وزنها واحد أو مختلف؟ قالوا : ولم يُجِبْ بشيء ، قلت :  
ولعله استسهل أمرها ، فأما المثال الأول فمعرب ، ووزنه تَفَعْلُون  
كَتَنظُرُونَ ، إذ أصله تَغزُون . فاستثقلت ضمة الواو التي هي لام  
فحذفت ، ثم حذفت الواو أيضاً لالتقائها ساكنة مع واو الضمير ، وكانت أولى  
بالحذف لأن واو الضمير فاعل . ولغير ذلك مما تقدم بعضه ، وأما الثاني  
فمبني ووزنه تَفَعْلَن كَتَحْرُجَن . وأما الثالث فكالأول إعراباً ووزناً لأن  
فيه تغليب المذكر على المؤنث ، وأما الرابع فمبني ووزنه تَفَعْلَن مثل تَفْرَحَن  
لأنه لما احتيج إلى تسكين آخر الفعل لإسناده إلى نون جماعة النسوة رُدَّت  
الياء إلى أصلها لأنها إنما قلبت ألفاً لتحركها . وانفتاح ما قبلها ، والآن ذهبت  
حركتها لاستحقاقها السكون ، وأما الخامس فمعرب ووزنه تَفَعْلِين كَتَفْرَحِين .  
وأصله تَحشِين ، فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت  
لالتقائها ساكنة مع ياء الضمير ، وترك فتحة الشين دالة على الألف ، وأما السادس  
فمعرب ووزنه تَفَعْلِين كَتَضْرِبِين ، وأصله تَرَمِين . حذفت كسرة الياء  
لاستثقالها ، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير . وأما السابع  
فمبني ووزنه تَفَعْلَن كَتَضْرِبَن . وأما الثامن والتاسع فمضارع محي ورد  
بالأوزان الثلاثة ، فمن قال يَمحُو قال في المضارع من جماعة النسوة تَمحُون  
مثله من غزا بناء ووزناً ، ومن قال يَمحِي قال فيه تَمحِين كترَمِين بناء

ووزناً ، ومن قال يَمْحَى قال فيه تَمْحِينٌ كَتَخْشِينِ بِناء ووزناً ، ويقال في المضارع للواحدة على اللغة الأولى تَمْحِينٌ كَتَدْعِينِ إعراباً ووزناً وتصريفاً . وقد تقدم في كلام المصنف ، وعلى الثانية كما يقال لها من رَمَى إعراباً ووزناً وتصريفاً ، وعلى الثالثة كما يقال لها من تَخَشَى أيضاً ، وقد تقدما ، وليس ما وقع في السؤال كما نقل من خط بعض الشارحين أنه يقال فيها تَمْحَوْنَ كَتَفْرَحْنَ بشيء ، وأمر التثنية ظاهر : انتهى بحروفه .

وما قاله رحمه الله تعالى في الاعتذار عن ابن خميس هو اللائق بمقامه ، فإن مكان ابن خميس من العلوم غير منكر ، وقد مدحه ابن خطاب بقوله :

رَقَّتْ حواشي طبعك ابن خميسِ      فهفا قريضك لي وهاج رسيبي  
ولمثلة يصبو الحليم ويمتري      ماء الشئون به وسير العيسِ  
لك في البلاغة ، والبلاغة بعضُ ما      تحويه من أثر ، محل رئيسِ  
نظم ونثر لا تُبارى فيهما      عززت ذاك وذا بعلم الطوسي

يعني أبا حامد الغزالي .

### [ ترجمة ابن خميس ]

وقال لسان الدين ابن الخطيب في « عائد الصلة » في حق أبي عبد الله محمد ابن خميس التلمساني المذكور ما صورته<sup>١</sup> : كان رحمه الله تعالى نسيجاً وحده زهداً وانقباضاً وبأولاً<sup>٢</sup> وهمة ، حسن الشيبة ، جميل الهيئة . سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيداً عن الرياء ، عاملاً على السياحة والغزلة . عارفاً بالمعارف القديمة ،

١ ترجمة ابن خميس ( محمد بن عمر بن محمد بن عمر الحجري الرعيي ) في أزهار الرياض ٢ : ٣٠١ وبغية الوعاة : ٨٦ .  
٢ أزهار الرياض : وأدباً .

مضطرباً بتفاريق النحل ، قائماً على العربية والأصليين ، طبقة الوقت في الشعر ،  
 وفحل الأوان في المطول ، أقدر الناس على اجتلاب الغريب ، ثم ذكر من أحواله  
 جملة ، إلى أن قال : وبلغ الوزير أبا عبد الله ابن الحكيم أنه يروم السفر ، فشق  
 ذلك عليه ، وكلفه تحريك الحديث بحضرتة ، وجرى ذلك ، فقال الشيخ : أنا  
 كالدّم بطبعي أتحرك في كل ربيع ؛ انتهى .

وقال ابن خاتمة في «مزية المربة على غيرها من البلاد الأندلسية» : إنّه  
 نظم في الوزير ابن الحكيم القصائد التي حليت بها لبّات الآفاق ، وتنفت  
 عنها صدور الرفاق ، وكان من فحول الشعراء ، وأعلام البلغاء [ يصرف  
 العويص ] ويرتكب مُستصعبات القوّافي ، ويطير في القريض مطار ذي القوادم  
 الباسقة والحوافي ، حافظاً لأشعار العرب وأخبارها ، وله مشاركة في العقليات ،  
 واستشراف على الطلب ، وقعد لإقراء العربية بحضرة غرناطة ، ومال بأخرة  
 إلى التصوّف والتجوال ، والتحلي بحسن السمت وعدم الاسترسال ، بعد  
 طي بساط ما فرط له في بلده من الأحوال . وكان صنّع اليدين ، حدثي  
 بعض من لقيت من الشيوخ أنه صنع قدحاً من الشمع على أبداع ما يكون في  
 شكله ولطافة جوهره وإتقان صنعته ، وكتب بدائرة شفته :

وما كنتُ إلا زهرةً في حديقةٍ تبسّمُ عني ضاحكاتُ الكمامِ  
 فقلّبتُ من طورٍ لطورٍ فيها أنا أُقبِلُ أفواهَ الملوكِ الأعظمِ

وأهداه خدمةً للوزير أبي عبد الله ابن الحكيم .  
 وأنشدنا شيخنا القاضي أبو البركات ابن الحاج ، وحكى لنا قال : أنشدني  
 أبو عبد الله ابن خميس ، وحكى لي قال : لما وقفت على الجزء الذي ألفه ابن  
 سبعين وسمّاه «الفقرية» كتبتُ على ظهره :

الفقر عندي لفظٌ دقٌّ معناهُ مَنْ رامه من ذوي الغاياتِ عنّاهُ  
 كم من غبي بعيد عن تصوّره أراد كشف معنّاهُ فعمّاهُ

وأشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان ابن ليون غير مرة قال : سمعت أبا عبد  
الله ابن خميس ينشد ، وكان يُحسب أنهما له ، ويقال : إنهما لابن الرومي :

ربّ قومٍ في منازلهم عُرِّرَ صاروا بها غُرِّرا  
ستر الإحسان ما بهم سترى لو زال ما سترّا

ثم قال ابن خاتمة : وقد جمع شعره ودونه صاحبنا القاضي أبو عبد الله محمد  
ابن إبراهيم الحضرمي في جزء سماه « الدر النفيس في شعر ابن خميس » وعرف  
به صدره ، وقدم ابن خميس المرية سنة ست وسبعمائة فنزل بها في كنف  
القائد أبي الحسن ابن كاشة من خدام الوزير ابن الحكيم ، فوسّع له في الإيثار  
والمبرة ، وبسّط له وجه الكرامة طلق الأسيرة ، وبها قال في مدح الوزير  
المذكور قصيدته التي أولها :

العُشِّيُّ تَعِيْبًا وَالتَّوَابِغُ عَنْ شُكْرِ أَنْعُمِكَ السَّوَابِغُ<sup>١</sup>

ووجه بها إليه [ من المرية ] وهي طويلة ، ومنها :

ودسائِعُ ابن كاشةٍ مع كل بازغةٍ وبازغٍ  
تأتي بما تهوى النغاة نغٍ من شهيّات اللغاة

ومنها :

ما ذاق طعمَ بلاغةٍ من ليس للحوشيِّ ماضغٍ

ويقال : إن الوزير اقترح عليه أن ينظم قصيدة هائية ، فابتدأ منها مطلعها ،

وهو قوله :

١ العشي : جمع أعشى وهو لقب لعدة شعراء منهم الأعشى الكبير وأعشى همدان وغيرهما ، وكذلك  
النوابع : جمع نابغة وهو يطلق على عدة شعراء .

لمن المنازل لا يجيب صداها مُحِيَّتْ معالمها وصَمَّ صداها

وذلك آخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبعمائة ، ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفي رحمه الله تعالى ، فكان آخر ما صدر عنه من الشعر وقد أشار معناه إلى منعه ، وأذن أولاه بحضور أخراه ، وكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلاً ضحوة يوم الفطر مُسْتَهْلَ شَوَّال سنة ثمان وسبعمائة ، وهو ابن نيف وستين سنة ، وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم ، أصابه قاتله بحقده على مخدومه ، وكان آخر ما سمع منه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (غافر : ٢٨) واستفاض من حال القاتل أنه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه ، فكان بصيحه ويستغيث : ابن خميس يطلبني ، ابن خميس يضربني ، ابن خميس يقتلني ، وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال ، نعوذ بالله من الورطات ، ومواقعات العثرات : انتهى ملخصاً .

وحكى غيره أن بعضهم كتب بعد قوله « لمن المنازل لا يجيب صداها » ما نصه : لابن الحكيم ، ومن بديع نظم ابن خميس قوله<sup>١</sup> :

تراجعُ من دنياك ما أنت تاركُ      وتسألها العُدْبِي وها هي فاركُ  
تؤمل بعد التَّركِ رَجْعَ ودادها      وشرَّ وداد ما تودُّ التَّرائكُ  
حلاك منها ما حلاك في الصِّبَا      فأنتَ على حلوائه متهاكُ  
تظاهِرُ بالسُّلوانِ عنها تجملاً      فقلبك محزونٌ وثغرك ضاحكُ  
تنزهتُ عنها نحوةً لا زهادةً      وشعرُ عِدَارِي أسودُ اللونِ حالِكُ

وهي طويلة طنانة ، وفي آخرها يقول :

فلا تدعون غيري لدفع مُلْمَةِ      إذا ما دهى من حادثِ الدهرِ داهك<sup>٢</sup>

١ أزهار الرياض : ٣٠٥ .

٢ داهك : طاحن كاسر .

وما إن لييت المجد بعدي سامك<sup>١</sup>  
 بما أورثني حيمير<sup>٢</sup> والسكاسك  
 وطيب ثنائي لاصق<sup>٣</sup> بي صائك<sup>٤</sup>  
 وقد شمطت مني اللحى والأفانك<sup>٥</sup>  
 إذا عاد للدنيا عقيل<sup>٦</sup> ومالك

فما إن<sup>٧</sup> لذلك الصوت غيري سامع<sup>٨</sup>  
 يَغصُّ ويشجى نهشل<sup>٩</sup> ومجاشع<sup>١٠</sup>  
 تفارقني الروح التي لست غيرها  
 وماذا عسى ترجو لدآتي وأرتجي  
 يعود لنا شرح الشباب الذي مضى

ومما اشتهر من نظمه قوله<sup>١١</sup> :

كأنه في جُنح ليلى ذبال<sup>١٢</sup>  
 وعبرتي في صحن خدي أسال<sup>١٣</sup>  
 وجفن عيني أرقاً وانهمال<sup>١٤</sup>  
 وأدمع تنهل<sup>١٥</sup> مثل العزال<sup>١٦</sup>  
 ما لذة الحب سوى أن يقال  
 فزلة العالم ما إن تُقال  
 تُقصر الليل إذا الليل طال  
 تمنعها الذمة من أن تُنال  
 والتبر لونا ، والهوى في اعتدال  
 والبكر لا تعرف غير الحجال  
 على سنا البرق وضوء الهلال

أرق عيني بارق<sup>١٧</sup> من أثال<sup>١٨</sup>  
 أثار شوقاً في ضمير<sup>١٩</sup> الحشا  
 حكى فؤادي قلقاً واشتعال<sup>٢٠</sup>  
 جوانح<sup>٢١</sup> تفتح نيرانها  
 قولوا وشاة الحب ما شتم<sup>٢٢</sup>  
 عذراً للوامي<sup>٢٣</sup> ولا عذراً لي  
 قم نظرد<sup>٢٤</sup> الهم بمشمولة<sup>٢٥</sup>  
 وعاطها صفراء ذميثة<sup>٢٦</sup>  
 كالمسك ريحاً ، واللحمى مطعماً  
 عتقها في الدن<sup>٢٧</sup> حمأرها  
 لا تُثقب المصباح<sup>٢٨</sup> لا واسقي

١ سامك : رافع للقواعد مغل للبناء .

٢ صائك : لاصق .

٣ الأفانك : جمع أفنيك وهو مجمع اللحيين ؛ وفي ص ق : الأفانك .

٤ قارن بأزهار الرياض : ٣٠٦ .

٥ أزهار : من صميم ؛ ق : من .

٦ العزالي : الروايا أو القرب .

٧ أزهار : أعذر لوامي .

٨ أنقب المصباح : جعل ضوءه ساطعاً .

فالعيشُ نومٌ ، والردى يقظةٌ  
 خذها على تنعيم مسطارها<sup>١</sup>  
 في روضةٍ باكرٌ وسَمِيَّها  
 كأنَّ فآرَ المسكِ مفتوحةً  
 مِن كَفِّ ساجي الطرفِ الحَاظِها  
 مَنْ عاذري والكلُّ لي عاذرٌ  
 من خَلْبِي الوعدِ كذَابِه  
 كآته الدهرُ وأيُّ امرئٍ  
 أما تراني آخذاً ناقضاً  
 ولم أكن قطُّ له عائباً  
 يَأبى ثراءَ المالِ علمي ، وهل  
 وتأنفُ الأرضُ مقامي بها  
 لولا بنو زِيانَ ما لذَّ لي الـ  
 همٌ خوفوا الدهرَ وهم تحقَّفوا  
 لقيتُ<sup>٢</sup> من عامرهم سيداً  
 وكعبةً للجرودِ منصوبةً  
 حذَّها أبا زيانَ من شاعري  
 يلتقطُ الألفاظَ لقطَ النوى  
 مجارياً مهيار في قوله

وقصيدة مهيار مطلعها<sup>٤</sup> :

- ١ المسطار : الحمرة أول ما تعصر .  
 ٢ أوال : الاسم القديم للبحرين .  
 ٣ أزهار : ألقىت .

٤ انظر ديوان مهيار ج ٣ ص : ١٦٦ .



ما كنت لولا طمعي في الخيال<sup>١</sup> أنشد ليلى بين طول الليال<sup>٢</sup>

ومن نظم ابن خميس قوله<sup>١</sup> :

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِمِثْلِ عَيْنِي جُودِرِ  
عَنْ نَاصِعِ كَالدَّرِّ أَوْ كَالْبَرْقِ أَوْ  
تَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ لَمَاهَا نَظْفَةٌ  
لَوْ لَمْ يَكُنْ خَمْرًا سُلْفًا رَيْقُهَا  
وَكَذَاكَ سَاجِي جَفْنَهَا لَوْ لَمْ يَكُنْ  
لَوْ عُجِبْتَ طَرَفِكَ فِي حَدِيقَةِ خَدِّهَا  
لَرْتَعْتَ مِنْ ذَلِكَ الْحَمَى فِي جَنَّةِ  
طَرَفَتِكَ وَهَنًا وَالنَّجُومُ كَأَنَّهَا  
وَالرَّكْبُ بَيْنَ مَصْعَدٍ وَمَصُوبٍ  
بِيضًا إِذَا اعْتَكَرَتْ ذَوَائِبُ شَعْرَهَا  
سَرَحَتْ غَلَاثِلُهَا فَقَلْتُ سَبِيكَةَ  
مَنْحَتِكَ مَا مَنَعْتِكَ يَقْظَانًا فَلَمْ  
وَكَأَنَّمَا خَافَتْ بُغَاةَ وَشَاةَا  
وَيَجْزَعُ ذَلِكَ الْمَنْحَى أَدْمَانَةً  
وَتَحِيَّةٍ جَاءَتْكَ فِي طَيِّ الصَّبَا  
جَرَّتْ عَلَى وَاذِيكَ فَضْلَ رَدَائِهَا  
هَاجَتْ بِلَابِلَ نَازِحٍ عَنِ إِفْهِ  
وَإِذَا نَسِيتَ لِيَالِي الْعَهْدِ الَّتِي

وتبسمت عن مثل سمنطي جوهر  
كالطلع أو كالأقحوان مؤشراً  
بل خمرة لكننها لم تعصر  
تزرري وتلعب بالنهى لم تخطر  
فيه مهنتد لحظها لم يحذر  
وأمنت سطوة صدغها المنمر  
وكرعت من ذاك اللعى في كوثر  
حصاء دري في بساط أخضر  
والنوم بين مسكن ومنقر  
سقرت فأزرت بالصباح المسفر  
من فضة أو دمية من مرمر  
تحلف مواعدها ولم تتغير  
فأنتك من أردافها في عسكر  
تعطو<sup>٢</sup> فتسطو بالهزبر القصور  
أذكى وأعطر من شميم العنبر  
فعرفت فيها عرف ذلك الإذخبر  
مشوق ذاك الحشا متسعر  
سلفت لنا فتذكريها تذكري

١ قارن بأزهار الرياض ٢ : ٣١٤ .

٢ أدمانه : ظبية ذات لون أسمر ؛ تعطو : تتناول ورق الشجر فتضع فيهها .

رحنا تغتينا ونرشفُ ثغرها والشمسُ تنظرُ مثل عين الأخرز  
والروضُ بين مفضضٍ ومعسجدٍ والجو بين مُمسكٍ ومعصفر

وكان السلطان أمير المؤمنين أبو عنان المريني - رحمه الله تعالى - كثير  
العناية بنظم ابن خميس وروايته ، قال رحمه الله تعالى : أنشدنا القاضي خطيب  
حضرتنا العلية أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق بقصر المصارة يمينه الله قال : أنشدنا  
بلفظه شيخُ الأدياء وفحل الشعراء ، أبو عبد الله ابن خميس لنفسه <sup>١</sup> :

أُتِبْتُ ولكنْ بعد طولِ عتابِ وفرطِ بلحاجٍ ضاع فيه شبابي  
وما زلتُ والعلياءُ تُعني غريمها أعللُ نفسي دائماً بمتابِ  
وهيهات من بعدِ الشبابِ وشرِّحه يلذُّ طعامي أو يسوِّغُ شرابي  
خُدعتُ بهذا العيش قبلَ بلائه كما يُخدعُ الصادي بلمعِ سرابِ  
تقولُ هو الشَّهْدُ المشورُ جهالةً وما هو إلا السمّ شيبَ بصابِ  
وما صحب الدنيا كبكرٍ وتغلبِ ولا ككليب ريء فحلُّ ضرابِ  
إذا كعتِ الأبطالُ عنها تقدموا أعاريبَ غراً في متونِ عرابِ  
وإن ناب خطبٌ أو تفاقم مُعْضِلٌ تلقاه منهم كلُّ أصيدِ نابِ  
تراعتُ بلساسِ مخيلةٍ فرصةٍ تأت له في جيئةٍ وذهابِ  
فجاء بها شوهاءُ <sup>٢</sup> تنذرُ قومها بتشديدِ أرقامٍ <sup>٣</sup> وهدمِ قبابِ  
وكان رُغَاءُ السَّقْبِ في قومٍ صالحِ حديثاً فأنساه رُغَاءُ سرابِ  
فما تسمعُ الآذانُ في عرصاتهم سوى نوحِ ثكلىٍ أو نعيبِ غرابِ  
وسل عُرْوَةُ الرَّحَّالِ عن صدقِ بأسه وعن بيته في جعفرِ بنِ كلابِ  
وكانت على الأملاكِ منه وفادةٌ إذا آبَ منها آبَ خيرِ مآبِ

١ أزهار الرياض ٢ : ٣١٦ .

٢ شوهاء : صفة للطننة .

٣ الأرقام : الحجارة فوق القبور .

يَجِيرُ عَلَى الْحَيْنِ قَيْسٍ وَخَنْدِفٍ  
زَعَامَةٌ مَرْجُوٌّ النِّوَالِ مُؤَمَّلٍ  
فَمَرٌّ يُزَجِّجُهَا حَوَاسِرَ ظُلْمًا  
إِلَى فِدَاكَ وَالْمَوْتُ أَغْرَبُ غَايَةٍ  
تَبَرَّضَ صَفْوَةَ الْعَيْشِ حَتَّى اسْتَشْفَهَ  
فَأَصْبَحَ فِي تِلْكَ الْمَعَاطِفِ نَهْزَةً  
وَمَا سَهَمَهُ عِنْدَ النِّضَالِ بِأَهْزَعٍ  
وَلَكِنَّهَا الدُّنْيَا تَكَرَّرُ عَلَى الْفَتَى  
وَعَادَتَهَا أَنْ لَا تَوْسُطَ عِنْدَهَا  
فَلَا تَرْجُ مِنْ دُنْيَاكَ وَدَاً وَإِنْ يَكُنْ  
وَمَا الْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ إِلَّا اجْتِنَابُهَا  
أَبَيْتُ لَهَا، مَا دَامَ شَخْصِي، أَنْ تُرَى  
فَكَمْ عَطَلْتُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَاعِبٍ  
وَكَمْ عَقَّرْتُ مِنْ حَاسِرٍ وَمُدْجَجٍ  
إِلَيْكُمْ بَنِي الدُّنْيَا نَصِيحَةً مُشْفِقٍ  
طَوِيلِ مِرَاسِ الدَّهْرِ جَذَلِ مِمَّا حَكَ  
تَأْتَتْ لَهُ الْأَهْوَالُ أَدْهَمَ سَابِقًا  
وَلَا تَحْسَبُوا أَنْتِي عَلَى الدَّهْرِ عَاتِبٌ  
وَمَا أَسْفِي إِلَّا شَبَابٌ خَلَعْتَهُ

- ١ قشب حباب : سم حية ؛ والإشارة إلى قصة عروة الرحال الذي أجاز لطيمة النعمان وقتله البراض الكنانى فجر ذلك إلى حروب الفجار ، وهو خبر مشهور في كتب الأيام والأمثال .
- ٢ أزهار : المصاع .
- ٣ تطور : تقرب .
- ٤ النقاب : الخير الذي يضع الأمور مواضعها أو لديه قوة حدس .

وعمرٌ مضى لم أحلّ منه بطائلٍ  
 لياليَ شيطاني على الغيِّ قادرٌ  
 عكسنا قضايانا على حكم عادنا  
 على المصطفى المختارِ أركى تحيةً  
 فتلك عتادي أو ثناءً أصوغه  
 سوى ما خلا من لوعة وتصابي  
 وأعذبُ ما عندي أليمٌ عذاب  
 وما عكسها عند النهي بصواب  
 فتلك التي أعتدُّ يومَ حساب  
 كدرٌ سحابٍ أو كدرٌ سخابٌ

ومن مشهور نظم ابن خميس قوله<sup>٢</sup> :

عجبا لها أيدوقُ طعمَ وصالها  
 وأنا الفقيرُ إلى تَعَلِّةِ ساعةٍ  
 كم ذادَ عن عيني الكرى متألِّقٌ  
 يسمو لها بدرُ الدجى متضائلاً  
 وابنُ السبيلِ يحجى يقبسُ نارها  
 يعتادني في النوم طيفُ خيالها  
 كم ليلةٌ جادتُ به فكأنما  
 أسرى فغطّ لها وعطلَ شهبها  
 وسوادُ طرته كجنجحِ ظلامها  
 دَعَنِي أَشْمٌ بالوهم أدنى لمعةٍ  
 ما رآدَ طرفي في حديقةٍ خدّها  
 أنسبَ شعري رقٍّ مثلَ نسيمها  
 وانقلُ أحاديثَ الهوى واشرحْ غري  
 مَنْ ليس يأملُ أن يمرَّ بياها  
 منها ، وتمنعي زكاةَ جمالها  
 يبدو ويخفي في خفي مطاها  
 كتضاؤلِ الحسناءِ في أسماها<sup>٣</sup>  
 ليلاً فتمنحهُ عقيلةً ماها  
 فتصيني الحاظُها بنباها  
 زُفَّتْ عليّ ذُكاءٌ وقت زوالها  
 بأبي شدّا العطارِ من معطالها  
 وبياضُ غرته كضوء هلالها  
 من ثغرها وأشمٌ مسكةٌ خالها  
 إلا لفتنته بحسنِ دلالها  
 فشمولُ راحكٍ مثلُ ريحِ شمالها  
 بَ لغاتها واذكرُ نقاتِ رجالها

١ السحاب : القلادة .

٢ أزهار الرياض : ٣١٩ .

٣ استعاره من قول أبي تمام :

كسيت سباب لومه فضاءلت كتضاؤل الحسناء في الأطار

وإذا مررت برامة فتوق من  
 وانصب لمغزها حباله قانص  
 وأسئل جداولها بفيض دموعها  
 أنا من بقية معشر عركتهم  
 أكرم بها فئة أريق نجيعها  
 حلت مدامة وصلها وحلت لهم  
 بلغت بهيرميس غاية ما نالها  
 وعدت على سقراط سورة كأسها  
 وسرت إلى فاراب منها نفحة  
 ليصوغ من ألحانه في حانها  
 وتغلغل في سهرورد فأسهرت  
 فخبأ شهاب الدين بما أشرقت  
 ما جن مثل جنونه أحد، ولا  
 وبدت على الشوذي منها نشوة  
 بطلت حقيقته وحالت حاله  
 هذي صبابتهم ترق صباية  
 وهي طويلة .

قال السلطان أبو عنان رحمه الله تعالى ° : أخبرني شيخنا الإمام العالم العلامة

١ من قول زهير في معلقته :

« فتمركم عرك الرحي بثفالها . . . . . البيت »

٢ يشير إلى الفارابي الفيلسوف وقدرته في الموسيقى .

٣ فيه إشارة إلى السهروردي المتصوف . ٤ انظر هامش ٤ ص : ٢٦٠ .

٥ أزهار الرياض : ٣٢٢ .

وحيد زمانه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الابلي رحمه الله تعالى ، قال : لما توجه الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاق التنسي من تلمسان إلى بلاد المشرق اجتمع هناك بقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ، فكان من قوله له : كيف حال الشيخ العالم أبي عبد الله ابن خميس ؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف ، ويُطِنّب في ذكر فضله ، فبقي الشيخ أبو إسحاق متعجباً ، وقال : من يكون هذا الذي حَلَيْتُموه بهذا الحلّي ولا أعرفه ببلده ؟ فقال له : هو القائل :

عجباً لها أيدوق طعم وصالها

قال : فقلت له : إن هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم ، إنما هو عندنا شاعر فقط ، فقال له : إنكم لم تنصفوه ، وإنّه لحقيق بما وصفناه به .  
قال السلطان : وأخبرنا شيخنا الآبلي المذكور أن قاضي القضاة ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له تعلق موضع جلوسه للمطالعة ، وكان يخرجها من تلك الخزانة ، ويكثر تأملها والنظر فيها ، ولقد تعرفت أنه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضي القضاة تقي الدين المذكور لم يقرأها حتى قام إجلالاً لها ؛ انتهى .

وكان ابن خميس رحمه الله تعالى — بعد مفارقة بلده تلمسان ، سقى الله أرجاءها أنواء نيسان — كثيراً ما يتشوق لمشاهدها ، ويتأوه من تذكره لمعاهدها ، وينشد القصائد الطنانة في ذلك ، سالكاً من الحنين إليها المسالك ، فمن ذلك قوله <sup>١</sup> :

تَلِمَسَانُ لَوْ أَنَّ الزَّمَانَ بِهَا يَسْخُو      مَنَى النَّفْسَ لَا دَارَ السَّلَامِ وَلَا الْكَرْخُ  
وَدَارِي بِهَا الْأُولَى الَّتِي حِيلَ دُونَهَا      مَثَارُ الْأَسَى لَوْ أَمَكْنَ الْحَنْقَ اللَّيْخُ <sup>٢</sup>

١ أزهار الرياض : ٢٢٣ ، وهي قصيدة مليئة بالغريب تعمداً ولذا احتاجت ألفاظها إلى شرح ، فاضطررنا إلى الخروج عن خطتنا في الإقلال من الشروح اللفظية .

٢ الليخ : الاحتيال والضرب والقتل .

وعهدي بها والعمري في عنفوانه  
 قرارة تيام ، ومعنى صبابة  
 إذ الدهر مثنى العنان منتهنه  
 ليالي لا أصغي إلى عدل عاذل  
 معاهد أنس عطبت فكأنتها  
 وأربع ألاف عفا بعض آياها  
 فمن يك سكراناً من الوجد مرة  
 ومن يقتدح زنداً لموقد جدوة  
 أنسى وقوفي لاهياً في عيراصها  
 وإلا اختيالي ماشياً في سماطها  
 وإلا فعدوي مثلما ينفر الطلا  
 كأنني فيها أردشير بن بابك  
 وإخوان صدق من ليداتي كأنهم  
 وعاء لما يلقي إليهم من الهدى  
 هم القوم كل القوم سيان في العلا  
 مَضَوْا ومضى ذلك الزمان وأنسه  
 وماء شبابي لا أجين ولا مطخ<sup>١</sup>  
 ومعهد أنس لا يلذ به لطخ  
 ولا ردع يثني من عناني ولا ردخ<sup>٢</sup>  
 كأن وقوع العدل في أذني صمخ<sup>٣</sup>  
 ظواهر ألفاظي تعمدها النسخ  
 كما كان يعرف بعض ألواحنا اللطخ  
 فلئنني منه طول دهرني للمتخ<sup>٤</sup>  
 فزند اشتياقي لا عفار ولا مرخ  
 ولا شاغل إلا التودع والسيخ<sup>٥</sup>  
 رخيلاً كما يمشي بطرته الرخ<sup>٦</sup>  
 وليدأ، وحجلي مثلما ينهض الفرخ  
 ولا ملك لي إلا الشبيبة والشرخ  
 جاذر رمل لا عجاف ولا بزخ<sup>٧</sup>  
 وعن كل فحشاء ومنكرة صلخ<sup>٨</sup>  
 شباهم الفرعان والشيخة السلخ<sup>٩</sup>  
 ومر الصبا والمال والأهل والبذخ

١ الأجين : المتغير طعمه ؛ المطخ : الذي تكاثرت فيه الدعائيس .

٢ الردخ : الردع .

٣ الصمخ : الضرب في صمخ الأذن .

٤ الملتخ : الذي اشتد سكره .

٥ السيخ : الفراغ .

٦ الرخ : حجر حر الحركة من أحجار الشطرنج .

٧ الأبزخ : المقعنس ، أي الذي برز صدره ودخل ظهره .

٨ الصلخ : جمع أصلخ وهو التام الصمم .

٩ الفرعان : الطويلو الشعر ، والصلخ : الصلغ .

كأن لم يكن يوماً لأقلامهم بها  
 ولم يك في أرواحها<sup>٢</sup> من ثنائهم  
 ولا في مجيئ الشمس من هديهم سنأ  
 سعيتم بني عمور في شت شملنا  
 دعيتم إلى ما يرتجي من صلاحكم  
 تعاليتم عجباً فطم عليكم  
 وأوغلتم في العجب حتى هلكتم  
 كفاكم بها سجنأ طويلاً وإن يكن  
 فكم فئة منا ظفرتم بنيلها  
 كأنكم من خلفها وأمامها  
 فللسوق منها القيد إن هي أغربت  
 كأن تحتها من شدة القلق القطأ  
 وأقرب ما تهذي به الهلك والتوى  
 فماذا عسى نرجوه من لم شعئها

صرير<sup>١</sup> ، ولم يُسمع لأعبيهم جبخ<sup>١</sup>  
 شميم<sup>٢</sup> ولا في القضب من لينهم ملخ<sup>٣</sup>  
 ولا في جبين البدر من طيبهم ضمخ<sup>٤</sup>  
 فما تجرؤكم ربح ولا عيشنا ربح<sup>٥</sup>  
 فردكم عنه التعجرف والجمخ<sup>٥</sup>  
 عباب له في رأس عليائكم جلك<sup>٦</sup>  
 جماح غواة ما ينهنهم قفخ<sup>٦</sup>  
 هلاك لكم فيها فهبي لكم فح<sup>٧</sup>  
 بأبشارها من حجن أظفاركم برخ<sup>٧</sup>  
 أسود غياض وهي ما بينكم أرخ<sup>٨</sup>  
 وللهام إن لم تعط ما رعت النقخ<sup>٩</sup>  
 ومن فوقها من شدة الحذر الفتخ<sup>٩</sup>  
 وأيسر ما تشكو به الذل والفتخ<sup>١١</sup>  
 وقد حز منها الفرع واقتلع الشلخ<sup>١٢</sup>

- ١ الجبخ : قمعة الكعاب في الميسر .
- ٢ ق : أدواها .
- ٣ الملخ : الطراوة والثني .
- ٤ الربح : الوقوع في الشدة .
- ٥ الجمخ : العجرفة .
- ٦ الجلك : اكتساح السيل للوادي ؛ والقفخ : الضرب على الرأس .
- ٧ البرخ : قطع اللحم ، وشبه أظفارهم بالسيوف .
- ٨ الأرخ : الفتي من البقر .
- ٩ النقخ : الضرب على الهام .
- ١٠ الفتخ : جمع فتخاء وهي صفة العقاب .
- ١١ الفنخ : فتح الرأس أو ضربه بالمصا .
- ١٢ الشلخ : الأصل والعرق .



وما يطمع الراجون من حفظ آيها  
زعانف أنكاد لثام عناكل<sup>١</sup>  
ولمّا استقلّوا من مهاوي ضلالهم  
دعاهم أبو يعقوب للشرف الذي  
فلّم يستجيبوه فذاقوا وباهم<sup>٢</sup>  
وما زلت أدعو للخروج عليهم<sup>٣</sup>  
وأبدل في استصالحهم جهد طاقتي  
تركت لينا سبتة كل نّجعة<sup>٤</sup>  
وآليت أن لا أرتوي غير مائها  
وأن لا أحطّ الدهر إلا بعقرها  
فكم نقتت من غلّة تلکم الأضا  
وحسي منها عدلها واعتدالها  
وأملکها الصید المتأولة الألی  
كواكب هدي في سماء رياسة  
ثواقب أنوار تري كل غامض<sup>٥</sup>

وقد عصفت فيها رياحهم النبخ<sup>٦</sup>  
متى قبضوا كفاً على إثره طخّوا<sup>٧</sup>  
وأوموا إلى أعلام رشدهم زخّوا<sup>٨</sup>  
يذل له رضوى ويعنو له دمخ<sup>٩</sup>  
وما لامرى عن أمر خالقه نغ<sup>١٠</sup>  
وقد يسمع الصم الدعاء إذا أضخّوا<sup>١١</sup>  
وما لظنايب ابن سابحة قفخ<sup>١٢</sup>  
كما تركت للعز أهضامها شمخ<sup>١٣</sup>  
ولو حل لي في غيره المن والمدخ<sup>١٤</sup>  
ولو بوأتني دار إمرتها بلخ<sup>١٥</sup>  
وكم أبرأت من علة تلکم اللبخ<sup>١٦</sup>  
وأبحرّها العظمى وأريافها النفخ<sup>١٧</sup>  
لعزهم تعنو الطراخمة البلخ<sup>١٨</sup>  
تضيء فما يدجو ضلال ولا يَطخّوا<sup>١٩</sup>  
إذا الناس في طخياء غيهم التخّوا<sup>٢٠</sup>

- ١ النبخ : جمع أنبخ وهو الجافي الغليظ .
- ٢ العنكل : الصلب ، وفي ق ص : لأم عناكل ؛ وطح الشيء : ألقاه من يده فأبعده .
- ٣ زخ : اندفع في الوهدة .
- ٤ دمخ : اسم جبل .
- ٥ النغ : السير العنيف .
- ٦ الظنبوب : عظم الساق ؛ القفخ : الكسر أو الشدخ .
- ٧ المدخ : نوع من العسل .
- ٨ الأضاة : الغدير أو البحيرة ؛ اللبخ : نوع من الشجر ينفع ورقه في التداوي .
- ٩ الطراخمة : المتكبرون ؛ البلخ : المتعجرفون .
- ١٠ طخا الضلال : اشتدت ظلمته .
- ١١ الطخياء : الظلمة الشديدة ؛ التخ : حار واضطرب .

وروضات آداب إذا ما تأرجت  
بجامر ندى في حدائق نرجس  
وأبحر علم لا حياض روية  
بنو العزفين الألى من صدورهم  
إذا ما فتى منهم تصدى لغاية  
رياسة أختيار وملك أفاضل  
إذا ما بدا منا جفاء تعطفوا  
نزورهم حذآ نحافاً فننثي  
يربوتنا بالعلم والحلم والنهى  
وما الزهد في أملاك لحم ولا الثقى  
وإلا فقي رب الخورتقى غنية  
تطلع يوماً والسدير أمامه  
وعن له من شيعه الحق قائم  
فأصبح يجتاب المسوح زهاده  
وفي واحد الدنيا أبي حاتم لنا

تضائل في أفياء أفنانها الرمخ<sup>١</sup>  
تم ولا لفتح يصيب ولا دخ<sup>٢</sup>  
فيكبر منها النضح أو يعظم النضح  
وأيديهم تملاً القراطيس والطرخ<sup>٣</sup>  
تأخر من ينحو وأقصر من ينحو  
كرام لهم في كل صالحة رضح<sup>٤</sup>  
علينا ، وإن حلت بنا شدة رخوا  
وأجمالنا دلح وأبداننا دلخ<sup>٥</sup>  
فما خرجنا بز ولا حدنا برخ<sup>٦</sup>  
بيدع ، وللدنيا لزوق بمن يرخو  
فما يومه سر ولا صيته رضح<sup>٧</sup>  
وقد نال منه العجب ما شاء والجفخ<sup>٨</sup>  
بجحة صدق لا عيام ولا وشخ<sup>٩</sup>  
وقد كان يؤذي بطن أحمصه النخ<sup>١٠</sup>  
دواة ، ولكن ما لأدوائنا نتخ<sup>١١</sup>

- ١ الرمخ : الشجر المجتمع .
- ٢ الدخ : لغة في الدخان .
- ٣ الطرخ : الأحواض ، والمفرد طرخة .
- ٤ الرضح : النوال .
- ٥ الأحذ : الضامر ؛ الدلوح : المتناقل لنقل حمله ؛ والدلوح : السمين .
- ٦ البرز : الأبتزاز ؛ البرخ : القهر .
- ٧ الرضح : خير تسمعه ولا تستيقنه .
- ٨ الجفخ : التنفج والتكبر .
- ٩ العيام : القدم العيي ؛ الوشخ : الضعيف .
- ١٠ النخ : نوع من البسط .
- ١١ التنخ : الانزعاج .

يرى أنها في ثوب نخوته لتخ<sup>١</sup>  
 فلم يشنه عنها اجتذاب<sup>٢</sup> ولا مصخ<sup>٣</sup>  
 وكان لها من كفه الطرح<sup>٤</sup> والطح<sup>٥</sup>  
 كمن في يديه من معاناتها نبخ<sup>٦</sup>  
 كمن حظه<sup>٧</sup> منها التمجع<sup>٨</sup> والتنجع<sup>٩</sup>  
 ونصلج<sup>١٠</sup> حتى ما لآذاننا صمخ<sup>١١</sup>  
 ولا لقضاء الله تقص<sup>١٢</sup> ولا فسح<sup>١٣</sup>  
 يساد<sup>١٤</sup> بها إلا وأنت لها سنخ<sup>١٥</sup>  
 لدرتها في كل سامعة<sup>١٦</sup> شخ<sup>١٧</sup>  
 فما لهم كسب<sup>١٨</sup> سواها ولا نخ<sup>١٩</sup>  
 دماء<sup>٢٠</sup> ، وفي أعماق أعظمهم مخ<sup>٢١</sup>  
 ومرعاهم<sup>٢٢</sup> وزخ<sup>٢٣</sup> ومرعيهم<sup>٢٤</sup> ولخ<sup>٢٥</sup>  
 فما دون ما تبغون وحل<sup>٢٦</sup> ولا زلخ<sup>٢٧</sup>  
 فما غربكم جف<sup>٢٨</sup> ولا غرفكم وضع<sup>٢٩</sup>  
 وتيهوا على من رام شأوكم<sup>٣٠</sup> وانخوا<sup>٣١</sup>

تخلتي عن الدنيا تخلي عارف  
 وأعرض عنها مستهيناً لقدرها  
 فكان له من قلبها الحب والهوى  
 وما معرض عنها وهي في طلابه  
 ولا مدرك ما شاء من شهواتها  
 ولكننا نعمى مراراً عن الهدى  
 وما لامرئ عما قضى الله مزحل<sup>١</sup>  
 أبا طالب لم تبق شيمة<sup>٢</sup> سودد<sup>٣</sup>  
 لسوغت<sup>٤</sup> أبناء الزمان أيادياً  
 وأجريتها فيهم عوائد<sup>٥</sup> سودد<sup>٦</sup>  
 غدتهم غواديا فهي في عروقهم  
 وعمتهم حزناً وسهلاً فأصبحوا  
 بني العزفين ابلغوا ما أردتم<sup>٧</sup>  
 ولا تقعدوا عن أراد سجالكم  
 وخلوا وراء كل طالب غاية<sup>٨</sup>

- ١ الترخ : كاللطح أي البقعة في الثوب .
- ٢ المصخ : جذب الشيء وانتراعه .
- ٣ الطخ : قذف الشيء بعيداً .
- ٤ التبخ : قروح في اليد .
- ٥ التمجع : الاكتفاء بقليل من لبن أو تمر ؛ التنجع : الزهد فيها .
- ٦ نصلج : نصاب بالصم ؛ والصمخ : صمخ الأذن .
- ٧ الشخ : صوت الشخب .
- ٨ الوزخ : نوع من الشجر ؛ والولخ : الطويل من العشب .
- ٩ الزلخ : المزلق .
- ١٠ الغرب : الدلو ؛ الجف : الذي تشن ؛ الغرف : انتشار الماء ؛ وضع : قليل .
- ١١ سقط هذا البيت من ق .

ولا تَذَرُوا الجوزاء تعلقو عليكمُ  
لأفواهِ أعدائي وأعينِ حُسدي  
دَعَوْها تهادى في ملاءة حسنها  
يمانسةً زارتِ يمانينَ فانثنتُ  
ففي رأسها من وطءِ أسلافكم شدخُ  
إذا جليت خائيتي الغضُّ والفضخُ  
ففي نفسها من مدحِ أملاكها مدخُ<sup>١</sup>  
وقد جدَّ فيها الزهوُ واستحكمتِ الزمخُ<sup>٢</sup>

وقد بسط في «الإحاطة» ترجمة ابن خميس المذكور ، ومما أنشد له قوله<sup>٣</sup> :

سلّ الرّيحَ إن لم تسعدِ السفنَ أنواءُ  
وفي خفقانِ البرقِ منها إشارةٌ  
تمرُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ  
وللأذنِ إصغاءٌ وللعينِ إكلاءُ<sup>٤</sup>  
وللنجمِ مهما كان للنجمِ إصباؤُ  
وفي ردِّ إهداءِ التحيّةِ إهداءُ  
قتادٌ كما شاءت نواها وسلاءُ<sup>٥</sup>  
ففي مرّةٍ بي من جوى الشوقِ إبراءُ  
عيونٌ لها في كلِّ طالعةٍ راءُ  
ببعضِ اشتياقي لو تمكّنَ إنباءُ  
وقد أخلقتُ منها ملاءَ وأملاءُ  
إذا ما مضى قيظٌ بها جاء إهراءُ<sup>٦</sup>  
سلّ الرّيحَ إن لم تسعدِ السفنَ أنواءُ  
وفي خفقانِ البرقِ منها إشارةٌ  
تمرُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ  
وللأذنِ إصغاءٌ وللعينِ إكلاءُ  
وللنجمِ مهما كان للنجمِ إصباؤُ  
وفي ردِّ إهداءِ التحيّةِ إهداءُ  
قتادٌ كما شاءت نواها وسلاءُ  
ففي مرّةٍ بي من جوى الشوقِ إبراءُ  
وكيف خلوصُ الطيفِ منها ودونها  
وإنتي لمشتاقٌ إليها ومُنْبِيءُ  
وكمّ قائلٍ تفتى غراماً بحبّها  
لعشرةِ أعوامٍ عليها تجرّمتُ

١ المدخ : العظمة .

٢ الزمخ : الكبر وشموخ الأنف .

٣ أزهار الرياض : ٣٣٦ وفيها يذكر ما حل ببلده من تلمسان لدى حصار يعقوب بن عبد الحق لها .

٤ الإكلاء : ترديد البصر .

٥ أزهار : إسرائ .

٦ السلاء : الشوك .

٧ الإهراء : شدة البرد التي تهرأ الأجسام .

يطنبُ فيها عاثنون وخرَّبُ  
 كأنَّ رماحَ الناهبين لملكها  
 فلا تبغين فيها مناخاً لراكب  
 ومن عجب أن طال سُقْمِي ونزْعُها  
 وكم أَرْجَعُوا غيظاً بها ثم أَرْجَأُوا  
 يرددها عيَّابُها الدهرَ مثلما  
 فيا متزلاً نال الردى منه ما اشتهى  
 وهل للظى الحرب التي فيك تلتظي  
 وهل لي زمانٌ أرتجي فيه عودةً

ومنها :

أحنُّ لها ما أطَّتِ النَّيبُ حولها  
 فما فاتها مني نزاعٌ على النوى  
 كذلك جدي<sup>٥</sup> في صحابي وأسرني  
 ولولا جوارُ ابنِ الحكيم محمد  
 حماني فلم تتبَّ محلي نوائبُ  
 وأكفا بيتي في كفالة جاهه  
 يؤمّون قصدي طاعةً وحبّةً

وما عاقها عن موردِ الماءِ أظماءُ  
 ولا فاتني منها على القربِ إجشاءُ<sup>٤</sup>  
 ومن لي به في أهلٍ ودِّي إن فاؤوا  
 لما فات نفسي من بني الدهر إقماءُ<sup>٦</sup>  
 بسوءٍ ولم ترزأ - فؤادي أرزاء  
 فصاروا عبيداً لي وهم لي أكفاءُ<sup>٧</sup>  
 فما عفته عافوا وما شتته شاؤوا

١ أزهار : وتناء ؛ وهم المقيمون بالمكان .

٢ الأبداء : الأنصباء من الجزور عند المتياسرين .

٣ الإطناء : الداء .

٤ الإجشاء : تحرك النفس بالشوق .

٥ ق : وجدي .

٦ الإقماء : الإذلال والتحقير .

٧ أكفا البيت : ستره .

دعاني إلى المجد الذي كنتُ آملاً  
وبوأتي من هضبة العزِّ تلعةً  
يشيعني منها إذا سرتُ حافظُ  
ولا مثل نومي في كفالة غيره  
بغِيضِهِ لِيثٍ أو بمرقبِ خالبٍ  
إذا كان لي من نائب الملك كافلُ  
وإخوانُ صدقٍ من صنائعِ جاهه  
سراعٌ لما يُرجى من الخيرِ عندهم  
إليك أبا عبدِ الإلهِ صنعتها  
مبرأةٌ ممّا يعيبُ لزومتها  
أذعتُ بها السرَّ الذي كان قبلها  
وإن لم يكن كلُّ الذي كنتُ آملاً  
ومن يتكلفُ مفحماً شكرَ منةٍ  
إذا منشدٌ لم يكنِ عنك ومنشئُ

فلم يك لي عن دعوة المجد إبطاء  
يناجي السُّها منها صعودٌ وطأطاء<sup>١</sup>  
ويكلؤني منها إذا نمتُ ككلاء<sup>٢</sup>  
وللذئبِ إمامٌ وللصلِّ إيماء  
تُبزُّ كُسا فيه وتُقطعُ أكساء  
ففي حيثما هو متُّ كينٌ وإدفاء  
يبادرني منهم قيامٌ وإيلاء  
ومِن كلِّ ما يخشَى من الشرِّ أبراء  
لزوميةٌ فيها لوجدي إفشاء  
إذا عاب إكفاءٌ سواها وإبطاء  
عليه لأحناءِ الجوانحِ إضناء  
وأعوزَ إكلاءٍ فما عازَ إكماء<sup>٣</sup>  
فما لي إلى ذلك التكلفِ إلهاء  
فلا كان إنشادٌ ولا كان إنشاء

رجع إلى ترجمة ابن الفخار وفوائده :

قال الشاطبي : حدثنا الأستاذ الكبير أبو عبد الله ابن الفخار قال : جلس بعضُ الطلبة إلى بعضِ الشيوخ المقرئين ، فأتى المقرئ بمسألة الزوائد الأربع في أول الفعل المضارع ، وقال : يجمعها قولك « أنيت » فقال له ذلك الطالب : لو جمعتها بقولك « أنيت » لكان أملح ، ليكون كل حرف تضعيف ما قبله ، فاهمزة لواحد وهو المتكلم ، والنون لاثنتين وهما : الواحد ومعه غيره ، والواحد

١ الطأطاء : المنهبط من الأرض .

٢ الكلاء : الحافظ .

٣ الإكماء : كثرة الكمأة .

المعظم نفسه ، والياء لأربعة : للواحد الغائب ، وللغائبين ، وللغائبين ،  
 وللغائبات ، والتاء لثمانية : للمخاطب ، وللمخاطبتين ، وللمخاطبتين ، والمخاطبة ،  
 والمخاطبتين ، والمخاطبات ، وللغائبة ، وللغائبتين ، فاستحسن الشيخ ذلك منه .  
 وحكى الشاطبي أيضاً أن شيخه ابن الفخار أورد عليهم سؤالاً ، وهو :  
 كيف يجمع بين مسألة رجل أوقع الصلاة بثوب حرير اختياراً وبين قوله :

جرى الدميان بالخبر اليقين

فلم ينقدح لنا شيء ، فقال : الجواب أن الأوّل ممنوع عند الفقهاء شرعاً ،  
 ورد اللام في دم في التثنية ممنوع عند النحاة قياساً ، وكلاهما في حكم المدوم  
 حساً ، وإذا كان كذلك كان الأوّل بمنزلة مَنْ صَلَّى بادي العورة اختياراً ،  
 فتلزمه الإعادة ، وكان الثاني بمنزلة ما باشَرَ فِيهِ عَيْنِ دَمٍ علم التثنية ، فتلزمه  
 الفتحة ، وإن كان أصلها السكون ، قال : وهذه المسألة تشبه مسألة ابن جني في  
 الخصائص ، قال ١ : أَلْقَيْتُ يَوْمًا عَلَى بَعْضٍ مِنْ كَانَ يِعْتَادُنِي مَسْأَلَةَ فَقَلْتُ لَهُ :  
 كيف تجمع بين قوله :

لَدُنْ بَهْرٌ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ

وبين قوله « اختصم زيد وعمرو » ؟ فلم ينقدح له فيها شيء ، وعاد مستفهماً ،  
 فقال له : اجتماعهما أن الواو اقتصر به على بعض ما وضع له من الصلاحية الملازمة  
 مطلقاً ، والطريق اقتصر به على بعض ما كان يصلح له ٢ .

قال الشاطبي : وحدثني أيضاً قال : كان لقاضي القضاة علماً وجزالة أبي  
 جعفر ولد يقرأ عليّ بمالقة ، وكان ابناً نبياً فهماً ونبلاً ، فسأل مني يوماً مسألة

١ الخصائص ٣ : ٣١٩ والبيت لساعدة بن جؤية الهذلي في وصف الريح .  
 ٢ الخصائص : فقلت اجتماعهما من حيث وضع كل منهما في غير الموضع الذي بدى له ، وذلك أن  
 الطريق خاص وضع موضع العام .

يذكرها لأقرانه ، وكان معجباً بالفرائب ، فجرى على لساني أن قلت له : **بَيْنَ** على **زَيْدٍ** فعلٌ أمرٌ وفاعلٌ ، والأصل **ابْنَيْنِ** على زيد ، ثم سهل بالنقل والحذف ، على قياس التسهيل ، فصار **بَيْنَ** كما ترى ، فأعجب بالمسألة حتى ناظر فيها ليلة أباه ، وكان أنحى نحاة أهل عصره ، فأعجب مما يرى من ابنه من النبل والتحصيل ، فبلغت المسألة الشيخ الأستاذ أبا بكر ابن الفخار رحمه الله تعالى ، فاعتنى بها ، وحاول في استخراج وجه من وجوه الاعتراض على عادة المصلحين من طلبة العلم ، فوجد في «مختصر العين» أن الكلمة من ذوات الواو ، ولم يذكر صاحب المختصر غير ذلك ، ولم يكن رحمه الله تعالى رأى قول أبي الحسن اللحياني في نواته : لأنه مما يتعاقب على لامه الواو والياء فيقال : **بَسَى** **يَبَسَى** بأوَّ وبَيَّأ ، كما يقال شأى يشأى شأواً وشأياً ، فلم يقدم شيئاً على أن اجتمع بالقاضي المذكور فقال له : ألم تسمع ما قال فلان **بَيْنَ** على زيد وإنما هو **يُونَ** على زيد ؛ لأنه من ذوات الواو ، ونص على ذلك صاحب المختصر ، وحمله على أن يرسل إلي ويردني عن ذلك الذي قلته في المسألة ، واجتمعت أنا معه ، وحدثني بما جرى له مع الأستاذ ابن الفخار ، فذكرت له ما حكاه أبو الحسن اللحياني في نواته ، وما قاله ابن جني في «سر الصناعة» فسُرَّ بذلك ، وأرسل بعد إلى الأستاذ ابن الفخار ، وذكر له نص اللحياني وقول ابن جني وجمع القاضي بيننا ، وعقد في قلوبنا مودة ، فكان الأستاذ ابن الفخار يومئذ يقصدني في منزلي وفي المواسم ، ويستشيرني في أموره على سبيل التأنيس ، رحمة الله عليه ، فأواه على فقد الناس أمثاله .

وقال الشاطبي أيضاً : أنشدني الفقيه الأستاذ الكبير أبو عبد الله ابن الفخار رحمه الله تعالى ، وقال : ألقى في سري بيت لم أسمعه قط في السادس عشر من شهر رجب عام ستة وخمسين وسبعمائة :

١ هاهنا كناه أبا بكر فكان له كنيته .



لتكن راجياً كما أنت ترجو ولأرَبِي من الذي أنت راجي

قال الشاطبي : وقرر لنا الأستاذ ابن الفخار المذكور يوماً توجيه قول أبي الحسن الأخفش في كسرة الذال من نحو يومئذٍ إنها إعرابية لا بنائية ، إذ لم يذكر أحد وجهَ هذا المذهب قبل ، قال ابن جني : إن الفارسي اعتذر له بما يكاد يكون عذراً ، فلما تم التوجيه قلت له وأنا حينئذ صغير السن : هب أن الأمر على ما قاله الأخفش من أن الكسرة إعرابية ، فما يصنع ببناء الزمان المضاف إلى « إذ » في أحد الوجهين والإضافة إلى المفرد المعرب تقتضي الإعراب دون البناء ؟ فتعجب من صدور هذا السؤال مني لصغر سني ، وأجاب عنه بأنه قد يذهب السبب ويبقى حكمه ، كما قاله ابن جني في اسم الإشارة في ترجمة سيويه « هذا عِلْمٌ ما الكلم من العربية » على أن يكون سيويه وضعه غير مشير به وتركه مبنياً ، وأزال سبب البناء ، ونظّرَ ذلك بباب التسوية على ما هو مقرر في موضعه ، قال : ونظير ذلك ما قرر من إضافة حيث إلى المفرد مع بقاء البناء فيما ذكره الزمخشري ، وذلك قوله :

أما ترى حيثُ سهيلٌ طالعا

وقوله أنشدنا ابن الأعرابي لبعض المحدثين :

ونحن سَعَيْنَا بالبلايا لمعقلٍ وقد كان منكم حيثُ لي العمائم

وقد كان حقها أن تعرب لزوال سبب البناء ، وهو الإضافة إلى جملة ، وحصول سبب الإعراب وهو الإضافة إلى المفرد ، ولكنه لم يعتبر النادر ، وأبقى الحكم الشائع .

وقال الشاطبي أيضاً : كان شيخنا ابن الفخار يأمرنا بالوقوف على قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ قَالُوا الْآنَ ﴾ ونبتدى ﴿ جئت بالحق ﴾ وكان يفسر لنا معنى ذلك قولهم الْآنَ أي فهمنا وحصل البيان ، ثم قيل : جئت بالحق ، يعني في كل

مرة ، وعلى كل حال ، وكان - رحمه الله تعالى - يرى هذا الوجه أولى من تفسير ابن عصفور له من أنه على حذف الصفة ، أي : بالحق البين ، وكان يحافظ عليه .

وقال الشاطبي : أنشدني صاحبنا الفقيه الأجلُّ الأديب البارِع أبو محمد ابن حنبلٍ لنفسه أبياتاً ، أنشدنيها يوم عيد على قبر سيدنا الإمام الأستاذ الكبير الشهير أبي عبد الله ابن الفخار يرثيه بها :

أيا جدّاً قد أحرز الشرف المحضاً      بأن صار مثوى السيد العالم الأَرْضِي  
عجبتُ لما أحرزتهُ من معارفٍ      وشتى معالٍ لم تزلْ تعمُرُ الأَرْضَا  
طويّت عليه وهو عينُ زمانه      فيا جفنَ عينِ الدهرِ كم تؤثر الغمضا  
فحيك من صوب الحيا كلُّ ديمةٍ      تُديمُ له في الجنةِ الرفعَ والخفضا  
فها نحنُ في عيدِ الأسي حول قبره      وقوفاً لنقضي من عيادته الفرضا  
كئيل الذي كنا وقوفاً ببابه      بُعيدَ الأمانِي زائرِين له أيضا  
ومنا سلامٌ لا يزالُ يخصُّهُ      يذكره من بعض أشواقنا البعضا

[ترجمة ابن حنبل]

قلت : وابن حنبل المذكور له باع مديد في العلم والأدب ، وهو أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن حنبل ، ومن نظمه قوله :

أبتِ المعارفُ أن تُنالَ براحةً      إلا براحةٍ ساعدِ الحدِّ  
فإذا ظفرت بها فلست بمدركٍ      أربأً بغير مُساعدِ الحدِّ

وقوله رحمه الله :

١ انظر ترجمة ابن حنبل في مستودع العلامة : ٧٤ ، وكان ابن حنبل كاتب علامة السلطان عبد الرحمن المريني فقيهاً عارفاً بالنوازل .

كم من صديقٍ حالٍ في ودِّهٍ      ولم أزل أزويه عن محضيه  
حضوره عَيْنٌ على ودِّهٍ      وغيبه عينٌ على بغضه  
ولم أكن أجهلُ هذا ولا      عجزتُ أن أجري على قرضه  
لكنَّ من قد سرَّتي بعضه      أحبُّ أن أصفحَ عن بعضه

وقوله رحمه الله يوم عيد ، وهو مما ألهج به أنا كثيراً :

يقولون لي خَلَّ عَنْكَ الْأَسَى      ولذَّ بالسُّرُورِ فذَا يَوْمُ عِيدِ  
فقلتُ لهم وَالْأَسَى غَالِبٌ      ووجدني يحیی وشوقي يزيدُ  
توعَّدني مَالِكِي بالفراقِ      فكيف أُسرُّ وعيدي وعيدُ

وقوله رحمه الله :

حبيبٌ زارني في الليل سرّاً      فأحيا نَفْسَ مَشْتاقٍ إِلَيْهِ  
وعَلَّني بنشرِ المسكِ مِنْهُ      وحيَّاني بصفحةٍ وَجَنَّتِيهِ  
وعانقني عناقَ الودِّ صَفْحاً      وفارقني فيا لَهْفِي عَلَيْهِ

رجع - وتوفي الأستاذ سيوييه زمانه أبو عبد الله محمد بن علي بن الفخار  
أستاذ الجماعة بفرناطة ليلة الاثنين ثاني عشر رجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة  
رحمه الله تعالى .

رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى .

١٣ - ومنهم <sup>١</sup> الأستاذ ابن العواد - قال في « الإحاطة » <sup>٢</sup> : قرأت كتاب  
الله عز وجل على المكتب نسيجاً وَحَدِّهِ ، في تحمل المنزل حق حملة ، تقوى  
وصلاحاً وخصوصية وإتقاناً ونعمة وعناية وحفظاً وتبحراً في هذا الفن ،

١ ق : ومن مشايخه .

٢ انظر مخطوطة الإحاطة ، الورقة : ١١ ؛ أول فصل « المشيخة » .

واضطلاعاً بغرائبه ، واستيعاباً لسقطات الأعلام ، الأستاذ الصالح أبي عبد الله ابن عبد الولي العواد تكتيباً ثم حفظاً ثم تجويداً ، على مَقْرَإِ أَبِي عَمْرٍو ، ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة ، ومطية الفنون ، ومفيد الطلبة ، الشيخ الخطيب المتفمن أبي الحسن علي القيحاوي ، فقرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أول من انتفعت به ؛ انتهى .

١٤ - ومن أشياخه رحمه الله الشيخ العلامة أبو عبد الله ابن بيش ، وله رحمه الله تعالى نظم جيد ، فمنه قوله ملغزاً في مسطرة الكتابة :

ومقصورة خلفَ الحجابِ وسرُّها      مُضَاعٌ ، فما يلقاك من دونها سترُ  
 لها جثةٌ بيضاءُ أسبلَ فوقها      ذوائبُ زانتها ، وليس لها شَعْرُ  
 إذا ألْبستِ مثلَ الصباحِ وبرِّقِعتِ      رأيتَ سوادَ الليلِ لم يَمَحُه الفجرُ  
 عقيلةٌ صَوْنٌ لا يفرِّقُ شملها      سوى من أهمته الخطابةُ والشَعْرُ

وقوله في ترتيب حروف الصحاح :

أساجعةٌ بالواديين تبوئي      ثماراً جنتها حالياتٌ خواضبُ  
 دعي ذكرَ روضِ زاره سقي شربه      صباحَ ضحى طيرٍ ظمأءَ عواصبُ  
 غرامُ فؤادي قاذفٌ كلَّ ليلةٍ      متى ما نأى وهناً هداهُ يراقبُ

وله جواب عن البيتين المشهورين :

يا ساكناً قلبي المعنى      وليس فيه سواك ثاني  
 لأي معنى كسرت قلبي      وما التقى فيه ساكنان ؟

فقال :

نَحَلتني طائِعاً فؤاداً      فصار إذ حُرِّتهُ مكاني  
 لا غرورَ إذ كان لي مضافاً      أني على الكسرِ فيه باني

وقد ذكرت ذلك في غير هذا الموضوع مع زيادة بلفظ لسان الدين ، فليراجع في الباب الخامس من هذا الكتاب .

١٥ - ومن أشياخ<sup>١</sup> لسان الدين رحمه الله تعالى قاضي الجماعة الصدر المتفنن أبو عبد الله ابن بكر<sup>٢</sup> ، قال في «الإحاطة» : قرأت على قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن بكر رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

وقاضي الجماعة عند المغاربة هو بمعنى قاضي القضاة عند المشاركة ، فليعلم ذلك . وابن بكر المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن بكر بن سعيد الأشعري الملقب ، من ذرية أبي موسى الأشعري ، كان من صدور العلماء ، وأعلام الفضلاء ، سداجة ونزاهة ومعرفة وتفناً ، فسيح الدرس ، أصيل النظر ، واضح المذهب ، مؤثراً للإنصاف ، عارفاً بالأحكام والقراءة ، مبرزاً في الحديث تاريخاً وإسناداً وتعديلاً وجرحاً ، حافظاً للأنسب والأسماء والكنى ، قائماً على العربية ، مشاركاً في الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب ، مخفوض الجناح حسن الخلق عطوفاً على الطلبة ، مُحِبّاً في العلم والعلماء ، مُطَرِّحاً للتصنع ، عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر<sup>٣</sup> عزيز النفس نافذ الحكم ، تقدم ببلده مالمقة ، ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ، ثم ولي القضاء بها فأعز الخطة وترك الشوائب<sup>٤</sup> ، وأنفذ الحق ملازماً للقراءة والإقراء ، محافظاً

١ ق : مشايخ .

٢ ترجمة ابن بكر في نيل الابتهاج : ٢٣٤ نقلا عن الإحاطة ، والمرقبة العليا : ١٤١ - ١٤٧ ووقع في سرد مشيخة لسان الدين من الإحاطة « ابن أبي بكر » وهو خطأ ؛ وقد ترجم ابن الخطيب له أيضاً في « عائد الصلة » وعنه ينقل النباهي . وقد أطنب النباهي في الثناء عليه وقال إنه من جمع بين الدراية والرواية ، وكان لا يأكل إلا عند حاجته للأكل ولا ينام إلا إذا غلبه النوم ولا يتكلم بغير العلم إلا عن ضرورة وشبهه في قضائه بسحنون بن سعيد .

٣ كذا في الأصلين ونيل الابتهاج ؛ وربما كانت « باذ » .

٤ الشوائب : سقطت من ص ق ؛ وفي نيل الابتهاج : وترك الهوادة ، وهو أدق وأنسب .

للأوقات ، حريصاً على الإفادة ، ثم ولي القضاء بغرناطة المحروسة<sup>١</sup> سنة ٧٣٧ ، فقام بالوظائف وصدع بالحق وبهَرَجَ الشهود فزيف منهم ما ينيف على سبعين ، واستهدف بذلك إلى مُعاداة ومناضلة خاض تَبَجَّها وصادم تيارها ، غير مُبالٍ بالمغبة ولا حافل بالتبعة ، فنال لذلك من المشقة والكيد العظيم ما نال مثله ، حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلاً ولا يطمئن على حاله ، وجرت له في ذلك حكايات ، إلى أن عزم عليه الأمير أن يرد للعدالة بعض من آخره ، فلم يجد في قناته مغمَراً ولا في عودِه معجماً ، وتصدر لبث العلم بالحضرة يقرئ فنوناً جمّة ، فنفع وخرَجَ وأقرأ القرآن ودرّس الفقه والأصول والعربية والفرائض والحساب ، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على انشراح صدر وحفظ تجمل وخفض جناح ، قال القاضي ابن الحسن<sup>٢</sup> : إنّه كان صاحب عزم ومضاء ، وحكم صادع وقضاء أحرق قلوب الحسدة ، وأعز الحطة بإزالة الشوائب ، وذَهَبَ وفَضَّصَ الحق بمعارفه ، ونفذ في المشكلات ، وثبت في العضلات ، واحتج وبكت ، وتفقه ونكت . وحدثنا صاحبنا أبو جعفر الشقوري قال<sup>٣</sup> : كنت جالساً بمجلس حكمه ، فرفعت إليه امرأة رقعة مضمّنها أنها محبة في مطلقها ، وتبتغي الشفاعة لها في ردها ، فتناول الرقعة ، ووقع على ظهرها بلا مُهْلَة : الحمد لله ، من وقف على ما بالقلوب فليُصِخ لسماعه إصاخة مغيث ، وليشفع للمرأة عند زوجها<sup>٤</sup> تأسيّاً بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لبريرة في مُغيث<sup>٥</sup> ، والله يسلم لنا العقل والدين ، ويسلك بنا سبيل المهتدين ، والسلام من كاتبه .

١ لعل اللفظة هنا يقابلها لفظة « محرم » في نيل الابتهاج .

٢ هذا موافق لما في نيل الابتهاج نصّاً ولكنه عن المرقبة العليا بالمعنى .

٣ انظر المرقبة العليا : ١٤٥ .

٤ المرقبة : مفارقها .

٥ بريرة : جارية عائشة ، ومغيث زوجها . فلما أعتقت بريرة وهو ما زال على الرق اختارت مفارقتها فجاء إلى النبي يبكي ويسأله أن يشفع له عندها .

قال الشقوري : قال لي بعض الأصحاب : هلاً كان هو الشفيع لها ، فقلت : الصحيح أن الحاكم لا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه على المنصوص .  
قرأ ابن بكر المذكور على الأستاذ ابن أبي السداد الباهلي<sup>١</sup> القرآن جمعاً وإفراداً والعربية والحديث ، ولازمه وتأدب به ، وعلى الشيخ الصالح أبي عبد الله ابن عياش<sup>٢</sup> كثيراً من كتب الحديث ، وسمع عليه جميع صحيح صحيح مسلم إلا دولة واحدة ، وأخذ عن الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير والخطيب ابن رشيد والولي الصالح أبي الحسين ابن فضيلة والأستاذ أبي عبد الله ابن الكماد<sup>٣</sup> ، وأجازه العدل الراوية أبو فارس عبد العزيز بن الهواري وأبو إسحاق<sup>٤</sup> التلمساني ؛ ومن أهل إفريقية المعمر أبو محمد ابن هارون ومحمد بن سيد الناس ؛ ومن أهل مصر الشرف الدمياطي ، وجماعة من أهل الشام والحجاز ، فُقِدَ رحمه الله تعالى في المصاف يوم المناجزة بطريف ، زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها ، وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يقدر ، وقال له : انصرف هذا يوم الفرح ، إشارة لقوله تعالى ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (آل عمران : ١٧٠) وذلك ضحى يوم الاثنين ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ رحمه الله تعالى .

١٦ - ومن أسياف لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ أبو إسحاق ابن أبي يحيى الشهير الذكرك في المغرب ، وقد عرف به في « الإحاطة » في اسم إبراهيم من ترجمة الغرباء بما نصّه : إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي ، من أهل تازى - يكنى أبا سالم ، ويعرف بابن أبي يحيى<sup>٦</sup> .

١ اسمه عبد الواحد بن أبي السداد .

٢ هو محمد بن عياش الخزرجي ؛ وفي النيل : أبي عبد الله ابن حريث .

٣ هو محمد بن أحمد بن داود اللخمي (الديباج : ٢٩٨) .

٤ زاد في ق : ابن .

٥ ق : وفاته .

٦ ترجمة ابن أبي يحيى في المرقبة العليا : ١٣٦ وجنوة الاقتباس : ٨٤ والإحاطة : ١ : ٢١٧ والمقري ينقل عن الإحاطة .

حاله من الكتاب المؤتمن<sup>١</sup> - كان هذا الرجل قيماً على « التهذيب » و« رسالة ابن أبي زيد » ، حسن الإقراء لهما ، وله عليهما تقييدان نبيلان قيدهما أيام قراءته لياهما على أبي الحسن الصغير ، حضرت مجالسه بمدرسة عدوة الأندلس من فاس ، ولم أر في متصدري بلده أحسن تدريساً منه ، كان فصيح اللسان ، سهل الألفاظ ، موفياً حقوقها ، وذلك لمشاركته الحضر فيما بأيديهم من الأدوات ، وكان مجلسه وقفاً على التهذيب والرسالة ، وكان - مع ذلك - سَمحاً فاضلاً ، حسن اللقاء ، على خلق بائنة على أخلاق أهل مصره ، امتحن بصحبة السلطان ، فصار يستعمله في الرسائل ، فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعاً لا في راحة دنيا ولا في نصيب آخرة ، ثم قال : وهذه سنة الله فيمن خدم الملوك ، ملتفتاً إلى ما يعطونه ، لا إلى ما يأخذون من عمره ، وراحته أن يبوء بالصفقة الخاسرة ، لطف الله بمن ابتلي بذلك وخلصنا خلاصاً جميلاً .

ومن كتاب « عائد الصلة » : الشيخ الفقيه الحافظ القاضي ، من صدور المغرب<sup>٢</sup> ، مشاركة في العلم ، وتبحراً في الفقه ، كان وجيهاً عند الملوك ، صحبتهم وحضر مجالسهم واستعمل في السفارة ، فلقيناه بفرناطة ، وأخذنا بها عنه ، تام السراوة حسن العهد مليح المجالس أنيق المحاضرة ، كريم الطبع صحيح المذهب .

تصانيفه - قيد على المدونة بمجلس شيخه أبي الحسن كتاباً مفيداً ، وضم أجوبته على المسائل في سفر ، وشرح كتاب « الرسالة » شرحاً عظيم الإفادة . مشيخته - لازم أبا الحسن الصغير ، وهو كان قارئ كتب الفقه عليه ، وجل انتفاعه في التفقه به ، وروى عن أبي زكريا ابن يس<sup>٣</sup> ، قرأ عليه كتاب

١ الكتاب « المؤتمن » من تأليف أبي البركات ابن الحاج البلفيقي وسيأتي ذكره في ترجمته ص :

. ٤٨٦

٢ في الأصلين : العلم ، والتصويب عن الإحاطة .

٣ الإحاطة : ابن أبي ياسين .



«الموطأ» إلا كتاب المكاتب وكتاب المدبر فإنه سمعه بقراءة الغير ، وعن أبي عبد الله ابن رشيد ، قرأ عليه «الموطأ» و «شفاء» عياض ، وعن أبي الحسن ابن عبد الجليل السدراتي ، قرأ عليه «الأحكام الصغرى» لعبد الحق ، وأبي الحسن ابن سليمان ، قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد ، وعن غيرهم .

وفاته - فلج بأخرة فالتزم منزله بفاس يزوره السلطان ومنّ دونه ، وتوفي بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .  
وقال ابن الخطيب القسطنطيني : إن ابن أبي يحيى المذكور توفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة<sup>١</sup> ؛ انتهى .

١٧ - ومن أشياخ لسان الدين الطنجالي الهاشمي ، وهو محمد بن أحمد<sup>٢</sup> . قال في «عائد الصلة» : كان على سنن سلفه كثرة حياء وسمة صلاح وشدة انقباض وإفراط وقار وحشمة ، بدد الكهولة على حدائة سنة في باب الورع والدين والإغراق في الصلاح والخير ، وتقدم خطيباً ثم قاضياً ببلده ، فأظهر من النزاهة والعدالة ما يناسب منصبه ، ففرغ الناس إليه في كائنة الوباء العظيم بأموالهم ، وقلدوه عهود صدقاتهم ، فاستقر في يده من المال الصامت والحلى والذخيرة والعدة ما تضيق بيوت أموال الملك عنه وصرف ذلك مصارفه ، ووضع وفق عهوده ، فلم يتلبس منه بنقير ولا قِطْمير ، وكان مُدْرِكاً أصيل الرأي ، قائماً على الفرائض والحساب ، ثم تخرج وطلب الإعفاء فأسعف به على حال ضنائة ، وفي ذلك يقول قريبه صاحبنا الفقيه القاضي أبو الحسن ابن الحسن يخاطبه<sup>٣</sup> :

١ وقال النباهي : في حدود ٧٤٩ .

٢ ترجمته في المرقبة العليا : ١٥٥ .

٣ يعني النباهي صاحب المرقبة العليا ، وقصيدته ص : ١٥٨ .

لك الله يا بَدْرَ السَّمَاحَةِ<sup>١</sup> والبِشْرِ  
ولا سِيَمًا لَمَّا وُلِيَتْ أُمُورُهَا  
وَدَارَتْ قَضَايَاهَا عَلَيْكَ بِأَسْرَهَا  
فَقَمْتَ بِهَا خَيْرَ الْقِيَامِ مَصْمَمًا  
فَسَرَّ بِكَ الْإِسْلَامُ يَا ابْنَ حَمَامَةٍ  
تَعِيدُ عَلَيْكَ الْحَمْدَ أَلْسُنُ حَاظِلًا  
لِذَلِكَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَهُ  
فَأُحْيِيَتْ رَسْمَ الْعِلْمِ بَعْدَ مَمَاتِهِ  
وَلَكِنَّكَ اسْتَعْفَيْتَ عَنْهُ تَوَرُّعًا  
فَكَمْ مِنْ وَلِيٍّ فَرَّ عَنْهُ لِعَلْمِهِ  
فَزَادَ اتِّصَالَاتُ عِزُّهُ بِاجْتِنَابِهِ  
جَرِيَتْ عَلَى نَهْجِ السَّلَامَةِ فِي الَّذِي  
وَأَرْضَاكَ مَوْلَاكَ الْإِمَامُ بِفَضْلِهِ  
فَأَنْتَ عَلَى الْحَالِينَ أَفْضَلُ مَنْ قَضَى  
لَمَّا حُزَّتْ مِنْ شَتَّى الْمَعَالِي الَّتِي بِهَا  
صَدُورِ مَقَامَاتِ الْمَعَارِفِ كُلِّهَا  
هَمَّ النَّفْرُ الْأَعْلُونَ مِنْ آلِ هَاشِمٍ  
وهي طويلة : انتهى .

١٨ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الإمام الخطيب الرئيس  
سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق<sup>٣</sup> ، ولنلخص ترجمته من « الإحاطة » وغيرها .

١ المرقبة : السعادة .

٢ المرقبة : وتحفظ ما يرضيك

٣ ترجمة ابن مرزوق في التعريف : ٤٩ ونيل الابتهاج : ٢٧٢ والديباج : ٣٠٥ وتاريخ ابن  
خلدون : ٧ : ٣١٢ والإحاطة : الورقة : ٣١ ؛ والدرر الكامنة : ٣ : ٤٥٠ ( ط . القاهرة ) .

فنقول : هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني ، يكنى أبا عبد الله ، ويلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين . قال أبو الحسن علي بن لسان الدين ابن الخطيب في حقّه : سيدي وسند أبي ، فخر المغرب ، وبركة الدول وعلم الأعلام ، ومستخدم السيوف والأقلام ، ومولى أهل المغرب على الإطلاق . أبواه الله تعالى وأمتع بحياته وأعاني على ما يجب في حقّه . قاله تربيته وولده علي ابن المؤلف . انتهى . يعني ابن الخطيب . وقال لسان الدين : هذا الرجل من طُرْف دهره ظرفاً وخصوصية ولطافة ، مليح التوسل ، حسن اللقاء ، مبدول البشر ، كثير التودد ، نظيف البزّة ، لطيف التأتي ، خير البيت ، طلق الوجه . خلّوب اللسان ، طيب الحديث ، مقدر الألفاظ ، عارف بالأبواب ، درّب على صحبة الملوك والأشراف ، متّفاض<sup>١</sup> لإيثار السلاطين والأمراء يسحرهم بخلافة لفظه . ويفتّلهم في الذرّوة والغارب بتنزله ، ويهتدي إلى أغراضهم الكمينية بحذقه . ويصطنع غاشيتهم بتلفه ، ممزوج الدّعابة بالوقار والفكاهة بالنسك والحشمة بالبسط ، عظيم المشاركة لأهل وده والتعصب لإخوانه ، آلف مألوف كثير الأتباع والعُلق . مسخر الرقاع في سبيل الوساطة ، مُجدي الجاه ، غاص المنزل بالطلبة ، منقاد للدعوة ، بارع الخط أنيقه<sup>٢</sup> ، عذب التلاوة متسع الرواية ، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير ، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف ، فلا يَعدُّ والسّداد في ذلك ، فارس منبر غير جزوع ولا هيب ، رحل إلى المشرق في كَنَف حشمة من جناب والده رحمه الله تعالى فحج وجاور ولقي الجليّة ، ثم فارقه وقد عرف بالمشرق حقّه ، وصرف وجهه إلى المغرب ، فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميره اشتمالاً خلطه بنفسه ، وجعله مفضى سره وإمام جمّعه وخطيب منبره وأمين رسالته ، فقدم في غرضها على الأندلس أواخر عام ثمانية وأربعين

١ الإحاطة : متعاط ؛ ص : متفاض .

وسبعمائة ، ولما حالت بالأمر المذكور الحال استقر بالأندلس مقلتاً من النكبة ، في وسط عام اثنين وخمسين وسبعمائة ، فاجتذبه سلطانها رحمه الله وأجراه على تلك الوتيرة فقلده الخطبة بمسجده في السادس لصفري عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، وأقعدته للإقراء بالمدرسة من حضرته ، وفي أخرَيَات عام أربعة وخمسين صرّف عنه جفنَ برة في أسلوب طماح ودالة وسبيل هَوّى وقحة ، فاغتم الفترة وانتهز الفرصة ، وأنفذ في الرحيل العزمة وانصرف عزيز الرحلة مغبوط المنقلب ، فاستقر بباب ملك المغرب أمير المؤمنين أبي عنان فارس في محل تجلة وبساط قرب ، مشترك الجاه مجدي التوسط ناجع الشفاعة ، والله يتولاه ويزيده من فضله .

مشيخته - من كتابه المسمى « عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من استجازني <sup>١</sup> من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز » : فممن لقيه بالمدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام الإمام العالم العلامة عز الدين أبو محمد الحسن ابن علي بن إسماعيل الواسطي ، صاحب خُطّتي الإمامة والخطابة بالمسجد الكريم النبوي ، وأفرد جزءاً في مناقبه . والشيخ <sup>٢</sup> الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبادي ، تحمل عن عفيف الدين أبي محمد عبد السلام بن مزروع وأبي اليمن وغيره . والشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم ، ونائب الإمامة والخطابة به ، ومنشد الأمداح النبوية هنالك <sup>٣</sup> . والشيخ الصالح الثقة المعمر محيي الدين أبو زكريا يحيى بن محمد المغراوي التونسي سمع ابن حامل والتوزري . والشيخ نور الدين أبو الحسن علي ابن محمد الحجار الفرائش بحرم رسول الله والوقاد به ، وكان مقصوداً من كل قُطر . والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني نائب القضاء بالمدينة . والشيخ الإمام

١ الإحاطة : من سمعت عنه .

٢ الشيخ : سقطت من ق واستعيض عنها بلفظة « منهم » حيث وقعت في سرد مشيخة ابن مرزوق .  
٣ إلى هنا وقعت نسخة الإحاطة في تعداد شيوخه ، ولا ريب في أن ذلك يدل على الإيجاز المخل في هذه النسخة .

قاضي القضاة بالمدينة شرف الدين بن محرز الإخميمي بن الأسيوطي . والشيخ الصالح  
 عز الدين خالد بن عبد الله الطواشي . والشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله  
 المعيشي ، سمع ابن مزروع البصري وغيره . والشيخ بهاء الدين موسى بن سلامة  
 الشافعي المصري ، الخطيب بالمسجد الكريم بها . والشيخ الخطيب أبو طلحة الزبير  
 ابن أبي صعصعة الأسواني . والشيخ عفيف الدين المطري . والشيخ الأديب أبو  
 البركات أيمن بن محمد بن محمد إلى أربعة عشر ابن أيمن التونسي المجاور . والشيخ  
 أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي المجاور . والشيخ أبو فارس  
 عبد العزيز بن عبد الواحد بن أبي ركبون التونسي ، وقرأ بها على أبيه القرآن  
 العظيم ، قال : وكانت قراءتي عليه بالمدينة عند قبره عليه الصلاة والسلام .  
 وبمكة شرفها الله تعالى الشيخ المعمر الثقة شرف الدين أبو عبد الله عيسى  
 ابن عبد الله الحجبي المكي ، المتوفى وقد قارب المائة . والشيخ زين الدين أحمد  
 ابن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي .  
 والشيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمي . وشيخ شيوخ رباط  
 الأعجام حيدر بن عبد الله المقرئ . والشيخ مقرئ الحرم برهان الدين إبراهيم  
 ابن مسعود بن إبراهيم الأيلي المصري . والشيخ مصلح الدين الحسن بن عبد الله  
 العجمي . والإمام الصالح أبو الصفاء خليل بن عبد الله القسطلاني التوزري .  
 والشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد الله بن أسعد الشافعي الحجّة ، انتهت إليه  
 الرياسة العلمية والخطط الشرعية بالحرم . والشيخ فخر الدين عثمان بن أبي بكر  
 النويري المالكي . والشيخ الإمام المدرس بالحرم شهاب الدين أحمد بن الحرازي  
 اليمني . والشيخ قاضي القضاة نجم الدين محمد بن جمال الدين بن عبد الله بن  
 المحب الطبري . والشيخ جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن براجين ،  
 القشيري التلمساني ، وقرأ بها على أبيه وأبسه بها الحرقة . والشيخ الملك  
 شرف الدين عيسى بن محمد بن أبي بكر بن أيوب . والشيخة فاطمة بنت محمد  
 ابن محمد بن أبي بكر بن أيوب . والشيخة فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن

محمد بن إبراهيم الطبري المكية . والشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيى بن سلمان ،  
 المراكشي السفاح . والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر  
 عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكتاني قاضي القضاة بالديار المصرية .  
 وبمصر الشيخ علاء الدين القونوي . والتقي السعدي . وقاضي القضاة  
 القزويني وهو شهير الذكر رفيع القدر . وقاضي القضاة البرهان الحنفي .  
 والشرف أفضى القضاة الإخميمي . والشيخ المحدث المسند البدر محمد بن محمد  
 الفارقي . والقطب الحافظ أبو محمد ابن منير . والشهاب أحمد الجوهري الحلبي .  
 والمعلم الشرف يحيى المقدسي بن المصري . والشيخ محسن القرشي . والشهاب الحنبلي .  
 وفتح الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس  
 اليعمري . والشيخ المسند شمس الدين أبو بكر بن سيد الناس أخوه . والإمام  
 أبو حيان . والحافظ النسابة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن طي  
 ابن حاتم بن خيش الزبيرى المصري . يبلغ شيوخه نحواً من ألفي شيخ .  
 والشيخ الشمس بن عدلان . والشهاب البوشي المالكي . والشيخ المتصوف تاج  
 الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثعلب المصري مدرس المالكية . والشمس  
 ابن كتشغري الخطابي الصيرفي . والعماد ابن النجم الدمياطي . والتاج الأشعري .  
 والتقي الثعلبي . والفتح بن عبد القوي . والشمس الورجمي . والتقي الأشموني .  
 والعلامة التقي السبكي . والمعروف ابن بنت الشاذلي . وأبو الحسن التميمي .  
 والبرهان الخيمي . والشمس الأسواني . والبرهان الحكري . والشمس بن جابر  
 الوادي آشي . وأبو محمد عبد الكريم الطوسي . وأبو فارس الزروالي التونسي .  
 وصالح بن عبد العظيم بن يونس . وأبو عبد الله ابن القماح . والتاج التبريزي .  
 والشيخ محمود الأصبهاني . والشرف المغيلي . والبرهان السفاقي .  
 ومن النساء الشيخة المسندة ست الفقهاء فاطمة بنت محمد الفيومي البكري .  
 وببليس أسد الدين يوسف بن داود الأيوبي من أبناء الملوك .  
 ومن الشاميين بالقدس علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب ، وخطيب

القدس النور ابن الصائغ المقدسي ، ومحمد بن علي بن مثبت الأندلسي ، والبرهان الجعبري إمام الخليل .

ومن أهل دمشق البرهان بن الفرکاح ، والشمس بن مسلم قاضي الحنابلة .  
وبالإسكندرية أحمد المرادي بن العشاب ، وأبو القاسم ابن علي بن البراء ،  
والناصر بن المنير .

وبطرابلس الخطيب أبو محمد جابر بن عبد الغفار .  
وبتونس الزبيدي ، والقاضي ابن عبد الرفيح . والقاضي ابن عبد السلام ،  
وابن راشد ، وأبو موسى هارون ، والمحدث أبو عبد الله التلمساني ، والحافظ  
أبو زكريا يحيى بن عصفور التلمساني نزيل تونس . وأبو محمد ابن سعد الله بن  
أبي القاسم بن البراء .

وببلاد الحريد الشيخ الخطيب أبو عبد الملك ابن حيون .  
وبالزواب ابن أبي ١ ، والشيخ أبو محمد ابن راشد .  
وبجاية الإمام النظار المجتهد أبو علي ناصر الدين المشدالي ، والحافظ فقيه  
زمانه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يلبخت الزواوي ، والشيخ الفقيه أبو عبد  
الله الخطيب المسفر .

وبتلمسان الشيخان الإمامان ابنا الإمام ، وقاضي القضاة بها أبو عبد الله ابن  
هدية ، والخطيب أبو محمد المجاصي ، والشريف أبو علي حسن بن يوسف بن  
يحيى الحسيني ، والشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي المعروف بابن  
إسحاق الخياط ٢ وغيرهم ٣ .

محتته ٤ - اقتضى الخوض الواقع بين يدي تأميل الأمير أبي الحسن رحمه الله

١ بعدها بياض في ص .  
٢ الخياط : سقطت من ص ق .  
٣ اضطربت نسخة ق كثيراً في تعداد هؤلاء الشيوخ ، وكان فيها سقط كثير في ألقابهم .  
٤ ق : ثم قال لسان الدين : ولما اقتضى . . . إلخ ؛ قلت ومن هنا يعود النص فيلنتقي مع ما في نسخة الإحاطة .

تعالى عودة الأمر إليه وقد ألقاه اليم إلى الساحل بمدينة الجزائر أن قبض عليه بتلّسان أمراؤها المتوثبون عليها في هذه الفترة من بني زيّان ، إرضاء لقبيلهم المتهم بمدخلته ، وقد رحل عنهم دسيماً من أميرهم عثمان بن يحيى ، فصرف مأخوذاً عليه طريقه ، منتهباً رحله ، متتهكة حرمة ، وأسكن قرارة مُطبّق عميق القعر مقفل المسلك حريز القفل ، ثاني اثنين ؛ انتهى ملخصاً .

ورأيت بخط ابن مرزوق على قوله « وقد رحل عنهم دسيماً - إلى آخره » ما نصّه : لم أرحل عنهم إلا بإذهم ، واقتراحهم عليّ في الإصلاح بينهم ، لكنهم غدروا تقيّة على أنفسهم ، قاله ابن مرزوق ، انتهى ، وكتب تحته ولدُ ابن الخطيب ما صورته : نعم ما ترى .

وعند الله تجتمع الخصوم

انتهى .

رجع إلى كلام لسان الدين في حقه - قال بعد الكلام السابق ما ملخصه : ولأيام قتل ثانيه ذبحاً بمقربة من شفا تلك الركبة ، وانقطع أثره ، وأيقن الناس بفوات الأمر فيه ، ولزمان من محنته ظهرت عليه بركة سلفه في خبر ينظر بطرفه إلى الكرامة فنجاً ولا تسل كيف ، وخلصه الله خلاصاً جميلاً ، وقدم على الأندلس ، والله ينفعه بنيته ؛ انتهى .

وكتب ابنُ مرزوق على هذا المحل ما نصّه : لم يكن المقتولُ - حين قُتل - معي ، ولا قُتل ذبحاً ، قاله ابن مرزوق ، انتهى . وكتب بعضُ علماء مصر تحته ما نصّه : هذه دعوى ، والمؤرخ أعرف ، انتهى ، فكتب آخر بعد هذا ما نصّه : أتخبرني عني ؟ انتهى .

رجع - ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره ما صورته : ركب مع السلطان



بخارج الحمراء أيام ضربت اللوز قباها البيض ، وزينت الفحص العريض ،  
والروض الأريض ، فارتجل في ذلك :

انظرُ إلى النُوَّارِ في أغصانِهِ  
يحكي النجومَ إذا تبدَّتْ في الحلكِ  
حيّاً أميرَ المسلمينَ وقال : قد  
عميتُ بصيرةً من بغيرك مثلكِ  
يا يوسفاً حزت الجمالَ بأسره  
فمحاسنُ الأيامِ تُومي هيتَ لكِ  
أنت الذي صعدتَ به أوصافُهُ  
فيقالُ فيه : ذا ملِكٌ أو ملكُ

إلى أن قال : ومن الشعر المنسوب إلى محاسنه ما أنشد عنه وبين يديه ليلة الميلاد  
المعظم من عام ثلاثة وستين وسبعمئة<sup>١</sup> :

قلْ لنسيمِ السَّحَرِ      لله بلِّغْ خبيري  
إن أنت يوماً بالحمى      جررتَ فضلَ المثرى  
ثم حثتَ الخطوَّ من      فوقِ الكئيبِ الأعفرِ  
مستقرباً في عَشْبِهِ      مخفيً وطءُ المطرِ  
تروي عن الضحك في الـ      روضِ حديثِ الزَّهرِ  
مخلِّقَ الأذيالِ بالـ      عبيرِ أو بالعنبرِ  
وصفٌ بلحيرانِ الحمى      وجددي بهم وسهري  
وحقَّهم ما غيرتُ      ودِّي صروفُ الغيرِ  
لله عهدٌ فيه قد      ضيَّبتُ حميدَ الأثرِ  
أيامُهُ هي التي      أحسبها من عمري  
ويا لليلٍ فيه ما      عيبَ بغيرِ القصرِ  
العمرُ فينانٌ ووج      هُ الدهرُ طلقُ الغررِ  
والشملُ بالأحبابِ من      ظومٍ كتنظمِ الدررِ

١ لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة .

صفو<sup>١</sup> من العيش بلا  
ما بين أهل تقطف<sup>٢</sup> ال  
وبين آمال<sup>٣</sup> تبي  
يا شجرات الحي<sup>٤</sup> ح  
إذا أجال الشوق<sup>٥</sup> في  
خرجت<sup>٦</sup> من خدي حدي  
وقلت<sup>٧</sup> يا خد<sup>٨</sup> أرو<sup>٩</sup> من  
عهدي بحادي الركب<sup>١٠</sup> كما  
والعيس<sup>١١</sup> تجتاب<sup>١٢</sup> الفلا  
تخط<sup>١٣</sup> بالأخفاف<sup>١٤</sup> مظ  
قد عطفت<sup>١٥</sup> عن مبيد<sup>١٦</sup>  
قسي<sup>١٧</sup> سير<sup>١٨</sup> ما سوى ال  
حتى إذا الأعلام<sup>١٩</sup> ح  
واستبشر<sup>٢٠</sup> النازح<sup>٢١</sup> بال  
وعين<sup>٢٢</sup> الميقات<sup>٢٣</sup> لا  
فالناس<sup>٢٤</sup> بين محرم<sup>٢٥</sup>  
لييك<sup>٢٦</sup> لبيك<sup>٢٧</sup> إل  
ولاحت<sup>٢٨</sup> الكعبة<sup>٢٩</sup> بي  
مقام<sup>٣٠</sup> إبراهيم<sup>٣١</sup> وال  
واغتم<sup>٣٢</sup> القوم<sup>٣٣</sup> طوا  
وأعقبوا<sup>٣٤</sup> ركعتي<sup>٣٥</sup> ال  
وعرفوا<sup>٣٦</sup> في عرفا<sup>٣٧</sup>

شائبة<sup>٣٨</sup> من كدر<sup>٣٩</sup>  
أنس<sup>٤٠</sup> جني<sup>٤١</sup> الثمر<sup>٤٢</sup>  
ح<sup>٤٣</sup> القرب<sup>٤٤</sup> صافي<sup>٤٥</sup> الغدر<sup>٤٦</sup>  
يآك<sup>٤٧</sup> الحيا<sup>٤٨</sup> من شجر<sup>٤٩</sup>  
تلك<sup>٥٠</sup> المغاني<sup>٥١</sup> فكري<sup>٥٢</sup>  
ث<sup>٥٣</sup> الدمع<sup>٥٤</sup> فوق<sup>٥٥</sup> الطرر<sup>٥٦</sup>  
دمعي<sup>٥٧</sup> صحاح<sup>٥٨</sup> الجوهر<sup>٥٩</sup> ي  
ورقاء<sup>٦٠</sup> عند<sup>٦١</sup> السحر<sup>٦٢</sup>  
واليعملات<sup>٦٣</sup> تنبري<sup>٦٤</sup>  
لموم<sup>٦٥</sup> البري<sup>٦٦</sup> وهو بري<sup>٦٧</sup>  
والتفتت<sup>٦٨</sup> عن حور<sup>٦٩</sup>  
هزم<sup>٧٠</sup> لها<sup>٧١</sup> من وتر<sup>٧٢</sup>  
لمت<sup>٧٣</sup> الحفي<sup>٧٤</sup> البشري<sup>٧٥</sup>  
قرب<sup>٧٦</sup> ونيل<sup>٧٧</sup> الوطر<sup>٧٨</sup>  
سفر<sup>٧٩</sup> نجاح<sup>٨٠</sup> السفر<sup>٨١</sup>  
بالحج<sup>٨٢</sup> أو معتمر<sup>٨٣</sup>  
ه<sup>٨٤</sup> الخلق<sup>٨٥</sup> باري<sup>٨٦</sup> الصور<sup>٨٧</sup>  
ت<sup>٨٨</sup> الله<sup>٨٩</sup> ذات<sup>٩٠</sup> الأثر<sup>٩١</sup>  
مأمن<sup>٩٢</sup> عند<sup>٩٣</sup> الذعر<sup>٩٤</sup>  
ف<sup>٩٥</sup> القادم<sup>٩٦</sup> المبتدر<sup>٩٧</sup>  
سعي<sup>٩٨</sup> استلام<sup>٩٩</sup> الحجر<sup>١٠٠</sup>  
ت<sup>١٠١</sup> كل<sup>١٠٢</sup> عرف<sup>١٠٣</sup> أذفر<sup>١٠٤</sup>

البري : التراب .

ثم أفاض الناسُ سه  
فوقفوا وكبروا  
وفي منى نالوا المنى  
وبعد رمي الجمر  
أكرم بذاك السفرِ وال  
يا فوزه من موقف  
حتى إذا كان الودا  
فأي صبرٍ لم يخن  
وأى وجدٍ لم يطير  
ما أفجعَ بينَ لقا  
ثم ثنوا نحو رسو  
فعاينوا في طيبة  
رأوا رسول الله واس  
نالوا به ما أملاوا  
على الضجيعين أبي  
زيارة الهادي الشفي  
فأحسن الله عزا  
ربع ترى مستنزل ال  
وملتقى جبريل بال  
وروضة الجنة بي  
منتخب الله ونح  
والمنتقى والكون من  
إذ لم يكن في أفق  
يا في غدٍ للمشعر  
قبل الصباح المسفر  
وأيقنوا بالظفر  
ت كان حلق الشعر  
له وذاك السقر  
يا ربحه من متجر  
ع وطواف الصدر  
أو جلدٍ لم يغدر  
وسلوة لم تهجر  
ب الواله المستعبر  
ل الله سير الضمير  
لألاء نور نسير  
تشفوا بلثم الجدر  
وعرجوا في الأثر  
بكر الرضى وعمير  
ع جنة في المحشر  
قاصدٍ لم يزر  
آي به والسور  
هادي الزكي العنصر  
ن روضة ومنبر  
تار الورى من مضر  
ملايس الخلق عري  
من زحلٍ ومشري

ذو المعجزات الغرأه  
 يشهد بالصدق له  
 والضبُّ والظبي إلى  
 من أطعم الألف بصا  
 والجيش رَوَّاه بما  
 يا نكتة الكون التي  
 يا حجة الله على ال  
 يا أكرم الرسل على ال  
 يا من له التقدم ال  
 يا من لدى مولده  
 ليوان كسرى ارتج إذ  
 وموقد النارِ ظفي  
 يا عمدتي يا ملجئي  
 يا من له اللواء وال  
 يا منقذ الغرقى وهم  
 إن لم تحقق أمني  
 صلّى عليك الله يا  
 صلى عليك الله يا  
 يا ويح نفسي كم أرى  
 واحسرتي من قلة ال  
 يحجتي والله بال  
 يا حسنها من خطب  
 يا حسنها من شجر

ثالِ النجوم الزهر  
 منها انشاق القمر  
 نطق الحصى والشجر  
 ع في صحيح الخبر  
 ء الراحة المنهمر  
 فانت متال الفكر  
 رائح والمبتكر  
 له وخير البشر  
 حق على التأخر  
 المقدس المطهر  
 ضاءت قصور قيصر  
 كاته لم يسعر  
 يا مفزعي يا وزي  
 حوض وورد الكوثر  
 رهن العذاب الأكبر  
 بؤت بسعي المخسر  
 ثمال كل معسر  
 نور الدجى المعتكر  
 في غفلة من عمري  
 زاد وبعد السفر  
 برهان وعظ المنبر  
 لو حركت من نظري  
 لو أورقت من ثمر

أؤمِّلُ الأوبةَ والـ  
أسوفُ العزمَ بهِ  
من صَفَرٍ لرجبٍ  
ضيعتُ في الكبرة ما  
وليس ما مرَّ من الـ  
وقلِّما أن حُمِدتُ  
ولي غريمٌ لا يتي  
يا نفسُ جدتي قد بدا  
واتعظي بمن مضى  
ما بعد شَيْبِ الفودِ من  
أنت وإن طال المدى  
وليس من عذري يقي  
يا ليت شعري والمي  
هل أرتجي من عودةٍ  
فأبردَ الغلَّةَ من  
مقتدياً بمن مضى  
نالوا جوارَ الله وه  
أرجو بإبراهيم مو  
فوعده لا يمتري  
وهو الإمام المرتضى  
أكرمُ من نال العُلا  
ممهدُ الملك وسيد  
خليفةُ الله الذي  
وكان منه الخبْرُ في الـ

أمرُ بكفُّ القدرِ  
من شهرٍ لشهرٍ  
من رجبٍ لصفري  
أعدده في صغري  
أيامٍ بالمتظري  
سلامةٌ في غررِ  
في طلبِ المنكسرِ  
الصبحُ ألا فاعتبري  
وارتدعي وازدجري  
مرتقبِ فشمري  
في قلعةٍ وسقري  
مُحجَّةَ المعتذري  
تسرقُ طيبَ العمرِ  
أو رجعةً أو صدرِ  
ذاك الزُّلالِ الحَصيرِ  
من سلفِ ومعشرِ  
و الفخرُ للمفتخرِ  
لانا بلوغَ الوطري  
في الصدق منه مُمتري  
والخيرُ ابنِ الخيرِ  
بالمرهفاتِ البُتري  
فالحقُّ والليثُ الحري  
فاق بحسنِ السيرِ  
علياءِ وفقِ الخبَرِ

فصدق التصديقُ من	مراة للتصويرِ
ومستعينُ الله في	وردٍ له وصدَرَ
فاقَ الملوكَ الصَّيدَ بالـ	مجدِ الرفيعِ الخطرِ
فأصبحتُ ألقابهم	منسيةٌ لم تُذكرِ
وحازَ منه أوحدٌ	وصفَ العديدِ الأكثرِ
برأيه المأمونِ أو	عسكره المظفرِ
بسيفه السفاحِ أو	بعزمه المقندرِ
بالعلمِ المنصورِ أو	بالذابلِ المنتصرِ
يا ابنَ الإمامِ الطاهرِ الـ	سبرَ الزكيِّ السيرِ
مدحكُ قد علمَ نظـ	م الشعرِ من لم يشعرِ
جهدُ المقلِّ اليومَ من	مثلي كوسعِ المكثِرِ
فإن يُقصرَ ظاهري	فلم يقصرَ مضمري

قلت : قول لسان الدين في حق هذه القصيدة « إنها من الشعر المنسوب إلى محاسنه » فيه تعريضٌ خفي بأن هذه القصيدة يحتمل أن تكون قيلت على لسانه حسبما جرت عادة الأكابر والرؤساء أن يُنسب إليهم ما ليس من كلامهم في نفس الأمر ، وليس الواقع عندي كذلك ، لأن باع ابن مرزوق في النظم والنثر مديد ، فأنى يقصر عن هذا القصيد ؟ ومن يصدر منه على البديهة قوله :

انظر إلى النوار في أغصانه

الآيات السابقة في اللوز - لا يُستغرب منه مثل هذا ، ولذا كتب ابن لسان الدين على قول والده « من الشعر المنسوب إلى محاسنه » ما صورته : حضرت إنشائها وإنشادها ليلة الميلاد الشريف في التاريخ المذكور ، واستحسنها شعراء العُدوتين ، وهي مما لا ينكر على مدارك سيدي أبي عبد الله ورسوخه في علم

النظم والنثر ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .  
وكتب بعضهم على قوله في هذه القصيدة :

أيامه هي التي أعدّها من عمري

ما نصّه : ولت والله ، انتهى ؛ فكتب ابن مرزوق بعده ما نصّه : لكنّها  
بدلت بخير منها والحمد لله ، وحسنت الخاتمة ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم  
تسليماً ؛ انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على قوله :

وقلّما أن حمِدَتُ سلامةً في غررِ

ما نصّه : كذلك كان ، وليت والذي رحمه الله تعالى كذلك ؛ انتهى .  
وكتب على قوله « برأيه المأمون - إلخ » ما نصّه : لو كان له رأي مأمون<sup>١</sup>  
ما نزل على قلعة الملك لسكنى القصبة بدخيلة طلب الراحة ، فضربت عنقه ،  
وكانت الراحة منه ؛ انتهى .

وكتب بعض اثر هذا ما صورته : القدر لا يغالب ، الحذر ينفع ما لم يأتك  
القدر ، فإذا أتى قدر ، لم ينفع حذر ؛ انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على قوله « فلم يقصر مضمري » ما صورته :  
صدق والله ؛ انتهى .

ثم قال لسان الدين<sup>٢</sup> : ووردتُ باب السلطان الكبير العالم أبي عنان فبَلَوْتُ من  
مشاركته وحميد سعيه ما يليق بمثله ، ولما نكبه لم أقصر عن ممكن<sup>٣</sup> حيلة في أمره ،  
فلما هلك السلطان أبو عنان وصار الأمر لأخيه المتلاحق من الأندلس أبي سالم بعد

١ ص ق : الميمون .

٢ عاد اللقاء مع نسخة الإحاطة ، الورقة : ٣٥ .

٣ ص : حميد .

الولد المسمى بالسعيد كان ممن دانت له الطاعة ، وأناخ راحلة الملك ، وحكَبَ  
ضَرَعَ الدولة<sup>١</sup> ، وخطب عروس الموهبة ، فأنشَبَ ظفوره في مَتَاتٍ معقود من  
لادن الأب ، مشدود من لادن القرابة<sup>٢</sup> ، فاستحکم عن قرب ، واستغلظ عن  
كتب ، فاستولى على أمره وخلطه بنفسه ولم يستأثر عنه بيثه<sup>٣</sup> ، ولا انفرد بما  
سوى بضع أهله ، بحيث لا يقطع في شيء إلا [ به و ] عن رأيه ، ولا يمحو  
ويثبت إلا واقفاً عند حدّه ، فغشيت بابه الوفود وصُرفت إليه الوجوه ووقفت  
عليه الآمال ، وخدمته الأشراف وجلبت إلى سُدَّتِه بضائع العقول والأموال ،  
وهادته الملوك فلا تحدو الحدأة إلا إليه ، ولا تحط الرحال إلا لديه ، إن حضر  
أجرى الرسم وأنفذ الأمر والنهي لحظاً أو سراراً أو مكاتبة ، وإن غاب ترددت  
الرقاع واختلفت الرسل ، ثم انفرد أخيراً ببيت الحلوة ومنتبذ المناجاة من دونه  
معصّب<sup>٤</sup> الوزراء وغايات الحجاب<sup>٥</sup> ، فإذا انصرف تبعته الدنيا وسارت بين  
يديه الوزراء ووقفت ببابه الأمراء ، قد وسع الكلّ لحظّه وشملهم بحسب الرتب  
والأحوال رعيه ، ووسم<sup>٦</sup> أفذاذهم تسويده ، وعقدت بينان عليتهم بنانه ، لكن  
رضى الناس الغاية التي لا تدرك ، والحسد بين بني آدم قديم ، وقبيل الملك  
مباين لمثله ، فطُويت الجوانح على سُل ، وحُئيت الضلوع على بث ، وأغضيت  
الجفون على قَدَمِي ، إلى أن كان من نكبته الثالثة ما هو معروف ، جعلها الله له  
طهوراً . ولما جرت الحادثة على الدولة بالأندلس وكان لحاق جميعنا بالمغرب  
جنيت ثمرة ما أسلفته من وده ، فوقى الكيل وأشرك في الجاه وأدرّ الرزق ورفع

١ الإحاطة : وأجاب موسم الدعوة .

٢ في ص ق : التقرب .

٣ الإحاطة : بشيء .

٤ ص ق : مصطف .

٥ الإحاطة : الحجابات .

٦ الإحاطة : ووسع .



المجلس ، بعد التسبب في <sup>١</sup> الخلاص والسعي في الجبر ، جبره الله تعالى ، وكان له أحوج ما يكون إلى ذلك ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشراء : ٨٩) انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على هذا المحل ما صورته : هذا لسان أبي عليه في الغيبة والحضور ؛ انتهى .

ومما خاطبه به لسان الدين مهنتاً<sup>٢</sup> من طريق القدوم على الأبواب المريئية ، مفلتاً من البلية بشفاعته ، ما نصّه : سيدي الذي إليه انقطاعي وانحياشي ، وملاذي وملجئي الذي يستر خلاصي وسنتي انتياشي ، ومنعمي الذي جبر جناحي وأنبت رياشي ، ومولى هذا الصنف العلمي ولا أحاشي ، كتبه صنع نعمتكم الخالصة الحرة ، ومسترق فضلكم الذي تألفت<sup>٣</sup> منه في ليل الخطوب الغرة<sup>٤</sup> ابن الخطيب لطف الله به من كذا ، وقد شدّ إلى إبلاغ النفس عذرها في مباشرة تقبيل اليد التي لها اليد العظمى ، والسجية الرُحْمَى ، فلکم طوقت من نعمي ، وجبال النعم قد أثقلت الظهر ، واستغرقت السرّ والجهر ، فبأي لسان أو بأي بنان ، ولا أثر بعد عيان ، تقابل نعمة تداركت الرمق وقد أشفى ، وأبقت الدماء والشروع في استئصالها لا يخفى ، فيا لك من فرد هزم ألفا ، ووعد نصر لم يعرف خُلُفاً ، ونية خلصت تبغي إلى الله زُلْفَى ، لقد صدع بها مولاي غريبة في الزمن ، بالغاً حسن صنعها صنعاء اليمن ، مترفة عن الثمن ، وإن لم يقم بها مثله وإلاّ فمنّ ، فليهن سيدي ما ذاع لمجده<sup>٥</sup> بها من فخر ، وما قدم يوم تزل الأقدام من ذخّر ، وما جلب للمقام المولوي الإبراهيمي من طيب ذكر ، واستفاضة حمد وشكر ،

١ الإحاطة : تسبب ؛ ض : بعد التسبب للخلاص .

٢ مهنتاً : سقطت من ص .

٣ ق ص : تألفت .

٤ ق : غرة .

٥ ص ق : من مجده .

لقد ارتهن دعاء الحافي والناعل ، والدالُّ على الخير شريك الفاعل ، والذي أحيا النفس جدير برد عدتها ، وإنجاز عدتها ، وأنا قد قويت بجاهكم وإن كنت ضعيفاً ، واستشعرت سعداً جديداً وقدرأ منيفاً ، وأيقنت أن الله عز وجل كان بي لطيفاً ، إذ هيا لي من رحمة ذلك المقام المولوي على يدكم نصراً عزيزاً ، وبوآني من جاهه حرزاً حريزاً ، وقد استأسدت الأعداء ، وأعضل الداء ، وأعمل الاعتداء ، وعز الفداء ، فانفرج الضيق ، وتيسرت للخير الطريق ، وساغ الريق ، ونجا الغريق ، غريبة لا تمثل إلا في الحلم ، ولطيفة فيها اعتبار لأولي العلم ، اللهم جاز سيدي في نفسه وولده<sup>١</sup> ، وحاله وبلده ، ومعه بعد طول عمره وانفساح أمده ، وكن له نصيراً أحوج ما يكون إلى نصر ، واجعل له سعة من كل حصر ، واقصُر عليه جاه كل قصر ، كما جعلت ذاته فوق كل ذات وعصره فوق كل عصر . وليعلم سيدي أن من أراد بي<sup>٢</sup> منافسة وحسداً ، وزأر عليَّ أسداً ، لما استقل على الكرسي جسداً ، من غير ذنب تين ، ولا حد تعين ، أصابه من خلاصي المقيم المقعد ، ووعد النفس بأمل أخلف منه الموعد ، لما استنقذني الله برحمته من بين ظفره ونابه ، وغطاني بستر جنابه ، وكثرتني في العيون على قلة ، وأعزني بعز نصره على حال ذلة ، لم يدع حيلة إلا نصبها أمامي ، ليحبط ذلك<sup>٣</sup> المقام الكريم ذمامي ، ويكدر جمامي ، ويستدرك حِمامي ، وزعم أن بيده على البعد زمامي ، وبأبى ذلك رأيٌ يفرق بين الحق وضده ، وعدل لا يخرج الشيء عن حده ، فنبهت سيدي خوفاً أن تتجه حيلة ، أو تفسد وسيلة ، وأنا قادم بالأهل والولد ليعمل في رب الصنيعة على شاكلة الحمد الذي هو له أهل ، فما بابتدائه جهل ، ولا يختلف في عظم ما أسداه غر ولا كهل ، ولا يُنبه مثله على تميم ، وإجزال فضل عميم ، ومؤانسة غريب ، وصلة

١ ص : في ولده .

٢ ق : أرادني .

٣ ص : بذلك .

نصر عزيز وفتح قريب ، بحول الله تعالى .

وقال<sup>١</sup> لسان الدين بعد ما سبق نقله عنه في حق ابن مرزوق : ولما انقضى أمر سلطانه رحمه الله تعالى متجنى عليه<sup>٢</sup> بسببه ، محمولاً عليه من أجله ، تقبّض<sup>٣</sup> عليه وأجمع الملاء على قتله ، وشد اعتقاله ، وطُلبَ بالمال العريض وانتهت أمواله واعتقلت رباعه .، وجُنِبَتْ مَرَآكِبُهُ ، واصطفيت أمهات أولاده ، وتمادى به الاعتقال والشدة ، إلى أن عادته عوائد الله في الخلاص من الشدة ، والانتياش من الورطة ظاهرةً عليه بركةُ سلفه ، قائمة له حجة الكرامة<sup>٤</sup> في أمره .

حكى أمير المسلمين سلطاننا أعزه الله قال : عرض لي والدي رحمه الله تعالى في النوم فقال : يا ولدي ، اشفع في الفقيه ابن مرزوق ، فقبّلت يده ، واقتضيت حفظه ، وحكيت داعيته ، وعينت للوجهة في ذلك قاضي الحضرة ، فكان في ذلك ابتداء الفرج . . .

وحدثني<sup>٥</sup> الثقة من خدام السلطان أبي عنان عنه مخبراً عن نفسه لما نفس عنه من نكبته ، وأجاره من سخطته ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرني بذلك ، وكفى بها جاهاً وحرمةً ، قلت : فترك سبيله ، وأتبع له ركوب البحر إلى البلاد الشرقية بأهله وولده ، فسار في كنف الستر ، وتحت جناح الوقاية ، في وسط رجب من عام أربعة وستين وسبعمائة من ساحل باديس ، صحب الله وجهته ، وختم عصمته ؛ انتهى ما لخصته من كلام لسان الدين بلفظه<sup>٦</sup> .

١ ق : ثم قال .

٢ عليه : سقطت من ق ص .

٣ ق ص : فقبض .

٤ ق ص : قائمة لهم حجة . . . لهم .

٥ ق : وذكر .

٦ بلفظه : سقطت من ق .

ورأيت علي هامش هذا المحل من « الإحاطة » بخط المذكور ما صورته :  
أقول وأنا ابن مرزوق المسمى فيه : إنني قد وصلت إلى تونس المحروسة في شهر  
رمضان من سنة خمس وستين ، فلقيت بها من المبرة والكرامة والوجاهة فوق  
ما يعهده أمثالي ، ووليت خطابة جامع ملكها ، وتدریس أم المدارس فيها ،  
وهي المعروفة بمدرسة الشماعين ، كل ذلك تحت رعاية وعناية وملازمة لمجلس  
ملكها ، إلى أن توفي سنة إحدى وسبعين ، ثم مع ولده وابن أخيه ، إلى أن  
رحلت في البحر في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ، فحللت بالديار  
المصرية ، ولقيت من ملكها الذي لم أر في الملوك مثله حليماً وفضلاً وحياءً وجوداً  
وتلفظاً ورحماً ، السلطان المالك الملك الأشرف ناصر الدين والدنيا شعبان بن  
حسين ، فأحسن لي وأجرى علي وعلى أولادي ما قام به الحال ، وقلدني دروساً  
ومدارس ، وأهلني للمثول بين يديه ، والحال مستمر على ذلك حتى الآن ،  
وذلك من فضل الله ومعهود إحسانه ، والمرجو من الله حسن العاقبة ، وكتب في  
رمضان سنة خمس وسبعين ؛ انتهى .

وكتب بعده أبو الحسن علي بن لسان الدين رحمهما الله تعالى ما صورته :  
صدق ، وهو فوق ذلك كله ، فقدره معروف ، ولطالما كان ملك المغرب يفتخر  
به ، فصار يفتخر بتقليد الدروس :

والدهر لا يُبقي علي حالة

انتهى .

قال في « الإحاطة »<sup>١</sup> : ولما شرح كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله  
تعالى واستبحر فيه ، وأكثر النقل وبذل الجهد ، طلب<sup>٢</sup> أهل العُدوتين نظم

١ انظر الإحاطة ، الورقة : ٤٨ .

٢ ق : طلب منه .

مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور ، وإطراء مؤلفه ، فانتال عليه من ذلك الطمّ والرّمّ ، بما تعددت منه الأوراق<sup>١</sup> ، واختلفت في الإجادة وغيرها الأرزاق ، إيثاراً لغرضه ، ومبادرة من كل الجهات لإسعاف أربه ، وطلب مني أن ألمّ في ذلك بشيء فكتبت<sup>٢</sup> له في ذلك :

شفاء عياضٍ للصدورِ شفاءً	فليس بفضلٍ قد حواه خفاءً
هدية برّ لم يكن لمديلتها	سوى الأجرِ والذكرِ الجميلِ كفاءً
وفى لنبيّ الله حق وفائه	وأكرمُ أوصافِ الكرامِ وفاءً
وجاء به بجرأ يقولُ بفضلِهِ	على البحرِ طعمٌ طيبٌ وصفاءً
وحقُّ رسولِ الله بعد وفاته	رعاه ، وإغفالُ الحقوقِ جفاءً <sup>٣</sup>
هو الذخرُ يغني في الحياة عتاده	ويترك منه للبنين رفاءً
هو الأثر المحمودُ ليس يناله	دثورٌ ، ولا يُخشى عليه عفاءً
حرصتُ على الإطنابِ في نشر فضلِهِ	وتمجيده لو ساعدتني فاءً

واستزاد من هذا الغرض الذي<sup>٥</sup> لم يقنع فيه بالقليل ، فبعثت إليه من محل انتقالي من مدينة سلا حرسها الله تعالى :

أزاهيرُ رياضٍ <sup>٦</sup>	أم شفاءً لعياضٍ
جدلُ الباطلِ للحد	ق بأسيافٍ مواضٍ
وجلا الأنوارِ برّها	نأ بحقٍ واقراضٍ

١ الإحاطة : من ذلك النظم ما تعددت به . . . إلخ .

٢ ق : فنظمت .

٣ سقط هذا البيت من ص ، ووقع هو والذي بعده قبل الثالث في ق ؛ وما هنا يشبه ترتيب الإحاطة .

٤ ص ق : بحر .

٥ ق : ثم لم يكتف في هذا النمط الذي . . . إلخ .

٦ الإحاطة : هي أزهار الرياض ؛ ولم يورد من القصيدة في الإحاطة إلا أربعة أبيات .

وشفى من يشتكي الغ  
 أي بنيانٍ مقالٍ  
 أي عهدٍ ليس يرمى  
 ومعانٍ في سطورٍ  
 وشفاءً لصدورٍ  
 حرر القصدَ فما شيء  
 يا أبا الفضلِ أدرِ أنَّ الـ  
 فاز عبدٌ أقرض اللـ  
 وجبت غرُّ المزايا  
 لك يا أصدقَ راوٍ  
 لرسولِ الله وفيه  
 خير خلق الله في حا  
 سدد<sup>١</sup> الله ابنَ مرزو  
 زبدة العرفان ، معنـي  
 فتولى بسطَ ما أج  
 ساهراً لم يدرِ في استخ  
 إن يكن ديناً على الأ  
 دام في علوٍ ومن عا  
 ما وشى الصبحُ الدياجي  
 لمة في زرقِ الحياضِ  
 آمنٌ خوفَ انقضاضِ  
 بانتكاثٍ وانقضاضِ  
 كأسودٍ في غياضِ  
 من ضنى الجهلِ مراضِ  
 نَ بنقضٍ واعتراضِ  
 له عن سعيك راضِ  
 ه برجحانِ القراضِ  
 من طوالٍ أو عراضِ  
 لك يا أعدلَ قاضِ  
 تَ بجدٍ وانتهاضِ  
 ل وفي آتٍ وماضِ  
 ق إلى تلك المراضِ  
 كلُّ نسكٍ وارتياضِ  
 حلت من غيرِ انقباضِ  
 لاصه طعمَ اغتماضِ  
 يأم يا قدحانَ التقاضي  
 داه. يهوي في انخفاضِ  
 بسوادٍ في بياضِ

ثم نظمت له أيضاً في الغرض المذكور ، والإكثار من هذا النمط في هذا<sup>٢</sup>  
 الموضوع ليس على سبيل التبجح بإجاده وغرابته ، ولكن على سبيل الإشادة

١ ص ق : سود .

٢ ق ص : في غير هذا .

بالشرح المشار إليه ، فهو بالغ غاية الاستبحار<sup>١</sup> :

حيثَ يا مَحْتَطَّ سَبْتِ بنِ نوحِ  
وحملَ الرِّيحانُ رِيحَ الصَّبَا  
دارَ أبي الفضلِ عِياضِ الذي  
يا ناقلَ الآثَارِ يُعْتَى بها  
طِرْفُكَ في الفضلِ بَعِيدِ المدى  
كفأكَ<sup>٢</sup> إعجازاً كتابُ الشفا  
لله ما أَجزلتَ فينا بِهِ  
روضٌ من العلمِ هَمَى فوقه  
فمن بيانِ الحقِّ زهرٌ ندى  
تأرَّجَ العَرَفُ وطابَ الجنى  
وحلَّةٌ من طيبِ بخيرِ الورى  
ومَعَلَمٌ للسِّدِينِ<sup>٣</sup> شيدته  
فَقُلْ لهامانَ كذا أو فلا  
في أحسنِ التَّقْوِمِ أنشأته  
فعمره المكتوبُ لا يَنْقُضِي  
كأنه في الحفلِ رِيحُ الصَّبَا  
ما عذرٌ مشغوفٍ بخيرِ الورى  
عجبتُ من أكبادِ أهلِ الهوى  
إن ذُكِرَ المحبوبُ سالتُ دماً

بكلِّ مزنٍ يغتدي أو يروحُ  
أمانةً فيك إلى كلِّ روحِ  
أضحتَ برِيتاهُ رياضاً تفوحُ  
وواصلاتٍ في العلمِ جَرِيّ الجُمُوحِ  
طِرْفُكَ للمجدِ شديدُ الطمُوحِ  
والصبحُ لا يُنكَرُ عندَ الوضوحِ  
من منحةٍ تقصرُ عنها المُنُوحُ  
من صَيَّبَ الفكرِ الغمامُ السُفُوحِ  
ومن لسانِ الصدقِ طيرٌ صَدُوحُ  
وكيف لا يثمرُ أو لا يفوحُ  
في الجيبِ والأعطافِ منها نضوحُ  
فهذه الأعلامُ منها تلوحُ  
يا من أضلَّ الرشدَ تبني الصرُوحُ  
خلقاً جديداً بينَ جسمٍ وروحِ  
إذا تقضىَ عمرَ سامٍ ونوحِ  
وكلَّ عِطْفٍ فهو غصنُ مَرُوحِ  
إن هاجَ منه الذكرُ أن لا يبوحُ  
وقد سطا البعدُ وطالَ التزُوحُ  
ما هنَّ أكبادٌ ولكن جروحُ

١ الاستبحار : سقطت من ق .

٢ ق ص : كذلك .

٣ ق : في الدين .

يا سيدَ الأوضاعِ يا مَنْ لَهُ  
 بسيدِ الأرسالِ فضلُ الرجوحِ  
 يا مَنْ لَهُ الفضلُ على غيره  
 والشمسُ تخفى عندِ إشراقِ يوح<sup>١</sup>  
 يا خيرَ مشروحٍ وفَى واكتفى  
 من ابنِ مرزوقٍ بحيرِ الشروحِ  
 فتحُ من الله حَبَاهِ بِهِ  
 ومن جنابِ الله تأتي الفتوحُ

ثم قال : وعلى الجملة والتفصيل ، فهذا الرجل نسيحٌ وحده شهرة وجلالة  
 وخصالاً وأبوةً سالحة ، تولاه الله وكان له ، وانصرف بجملته إلى بلاد المشرق  
 عام أربعة وستين وسبعمائة ، تولاه الله تعالى وأسعد مُنْقَلَبِهِ ؛ ومولده بتلِمْسان  
 عام أحد عشر وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين .

#### [ تراجم أخرى لابن مرزوق ]

ولتزد في هذه الترجمة على ما ذكره فنقول : قال ابن خلدون : صاحبنا  
 الخطيبُ أبو عبد الله ابن مرزوق ، من أهل تلمسان ، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي  
 مَدِينِ بالعُبَاد ، ومتوارثين تربته من لدن جدهم خادمه في حياته ، وكان جده  
 الخامس أو السادس أبو بكر ابن مرزوق معروفاً بالولاية فيهم ، ونشأ محمد هذا  
 بتلِمْسان ، ومولده فيما أخبرني عام عشرة وسبعمائة ؛ انتهى .  
 وهو مخالف<sup>٢</sup> لما ذكره لسان الدين فيما مرّ عنه<sup>٣</sup> .

ثم قال ابن خلدون : وارتحل مع والده إلى الشرق سنة ثلاث عشرة ، وسمع  
 ببجاية على الشيخ ناصر الدين<sup>٤</sup> ، ولما جاور أبوه بالحرمين رجع إلى القاهرة ، فأقام  
 وبرع في الطلب والرواية ، وكان يجيد الخطين ، ورجع سنة ثلاث وثلاثين<sup>٥</sup> إلى

١ يوح : الشمس ، ولعل الصواب : « والبدر يخفى » .

٢ يعني تاريخ مولده .

٣ ق : فيما يروى عنه .

٤ وسمع . . . الدين : لم يرد في التعريف ، والنص منقول عنه باختصار كثير .

٥ التعريف : سنة خمس وثلاثين .



المغرب ، ولقي السلطان أبا الحسن محاصراً لتلمسان ، وقد شيد بالعبّاد مسجداً عظيماً وكان عمّه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم في العبّاد ، وتوفي ، فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمّه ، وسمعه يخطب على المنبر ، ويشيد بذكره ويثني عليه ، فحلي بعينه فقربه ، وهو مع ذلك يلازم ابني الإمام ، يأخذ نفسه بلقاء الأفاضل والأكابر والأخذ عنهم ، وحضر مع السلطان وقعة طريف ، ثم استعمله في الرسالة إلى الأندلس ، ثم إلى ملك قشتالة في تقرير الصلح ، واستنقاذ ولده المأسور يوم طريف ، ورجع بعد وقعة القيروان مع زعماء النصاري ، فرجع إلى المغرب . ووفد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمّه حَظِيّة أبي الحسن . ثم رجع إلى تلمسان ، وأقام بالعبّاد ، وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت ، والسلطان أبو الحسن بالجزائر ، وقد حشد هناك ، فأرسل أبو سعيد ابن مرزوق المذكور إليه سرّاً في الصلح ، فلما اطلع أخوه أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه ، فبعثوا من حبس ابن مرزوق ، ثم أجازوه البحر إلى الأندلس ، فترد على أبي الحجاج سلطانها بقرناطة ، فقربه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء ، فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه أبو عنان سنة أربع وخمسين بعد مهلك أبيه واستيلائه على تلمسان وأعمالها ، فقدم عليه ، ورعى له وسائله ونظّمه في أكابر أهل مجلسه ، ثم بعثه لتونس على ملكها سنة ثمان وخمسين ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى ، فرددت الخطبة ، واختفت بتونس ، ووشي إلى السلطان أبي عنان أنّه كان مطلعاً على مكانها ، فسخطه لذلك وأمر بسجنه ، فسجن مدة ، ثم أطلقه قبل موته .

ولما استولى أبو سالم على السلطنة أثره ، وجعل زمام الأمور بيده ، فوطىء الناس عقبه ، وغشي أشراف الدولة بابه ، وصرفوا إليه الوجوه . فلما وثب عمر بن عبد الله بالسلطان آخر عام اثنين وستين حبس ابن مرزوق ، ثم أطلقه

بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله ، فمنعه منهم ، ثم لحق بتونس سنة أربع وستين ، ونزل على السلطان أبي إسحاق وصاحب دولته أبي محمد ابن تافراكين ، فأكرموه وولوه الخطابة بجامع الموحدين ، وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو يحيى سنة سبعين وولي ابنه خالد ، ثم لما قتل السلطان أبو العباس خالداً واستولى على السلطنة ، وكان بينه وبين ابن مرزوق شيء ليله مع ابن عمه محمد صاحب بجاية ، عزله عن الخطبة ، فوجم لها ، فأجمع الرحلة إلى المشرق ، وسرحه السلطان ، فركب السفينة ، ونزل بالإسكندرية ، ثم ارتحل إلى القاهرة ، ولقي أهل العلم وأمراء الدولة ، ونفقت بضائعه عندهم ، وأوصلوه إلى السلطان الأشرف ، فولاه الوظائف العلمية ، فلم يزل بها موقراً الرتبة ، معروف الفضيلة ، مرشحاً لقضاء المالكية ، ملازماً للتدريس ، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين ؛ انتهى ملخصاً .

وقال الحافظ ابن حجر : لأنه لما وصل تونس أكرم إكراماً عظيماً ، وفوضت إليه الخطابة بجامع السلطان وتدرّس أكبر المدارس ، ثم قدم القاهرة ، فأكرمه الأشرف شعبان ، ودرّس بالشيخونية<sup>١</sup> والصرغتمشية والنجمية ، وكان حسن الشكل ، جليل القدر ، مات في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين ؛ انتهى .

وقال ابن الخطيب القسطيني : هو شيخنا الفقيه الجليل الخطيب ، توفي بالقاهرة ، ودفن بين ابن القاسم وأشهب ، وله طريق واضح في الحديث ، ولقي أعلاماً ، وسمعنا منه البخاري وغيره في مجالس ، ولمجلسه لباقة وجمال ، وله شرح جليل على « العمدة » في الحديث ؛ انتهى .

وكتب بخطه<sup>٢</sup> بلدينا أبو عبد الله ابن العباس التلمساني ما نصّه : نقلت من خط بعض السادات كتبه للإمام زعيم العلماء الحفيد ابن مرزوق أنّه وجد بخطّ جده

١ ص : بالسويوية .

٢ ص : ووجد بخط .

الخطيب ابن مرزوق لما ثقفه عمر بن عبد الله على يد الشيخ أبي يعقوب كتب ما نصّه : الحمد لله على كل حال ، خرّج الطبري في منسكه<sup>١</sup> وأبو حفص الملاي في سيرته عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهم ، قالوا : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على البنية التي بأعلى مكة ، وليس بها يومئذ مقبور ، فقال : يبعث الله من ههنا سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، فقال أبو بكر : من هم يا رسول الله ؟ قال : هم الغرباء من أمّتي الذين يُدفنون ههنا ، ففي هذا الموضع دُفِنَ والذي رحمه الله تعالى ، وبعد سماعه لهذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه ، أفتراه لا يشفع فيمن أقال عشرة ولده ؟ أفما يشتري هذا بأموال الأرض ؟ أفلا يرعى لي ثمانية وأربعين منبراً في الإسلام شرقاً وغرباً وأندلساً ؟ أفلا يرعى لي أنه ليس اليوم يوجد من يُسنَد أحاديث الصحاح سماعاً من باب إسكندرية إلى البرين والأندلس غيري ونحو من مائتين وخمسين<sup>٢</sup> شيخاً ؟ والله ما أعلمه ، لكن حرمني الله تعالى ، نبتت الاشتغال به ، وآثرت اتباع الهوى والدنيا ، فهويت ، اللهم غفرانك ! أفلا يرعى لي مجاورة نحو اثني عشر عاماً وختم القرآن في داخل الكعبة ، والإحياء في محراب النبي صلى الله عليه وسلم ، - والإقراء بمكة ، ولا أعلم من له هذه الوسيلة غيري ؟ أفلا يرعى لي الصلاة بمكة وغرّبت بينكم<sup>٣</sup> ، ومخنتي في بلدي ، على محبتكم وخدمتكم ، من ذا الذي خدّمكم من الناس يخرج على هذا الوجه ؟ أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله من ذنوبي ، وذنوبي أعظم ، وربّي أعلم ، وربّي أرحم ، والسلام ؛ انتهى .

١ ص : مناسكه .

٢ ص : مائة وخمسين .

٣ ق : فيكم .

ففي هذا دليل على عظم قدره ومكانته في الدين والدنيا .

قلت : ولقد رأيت مصحفه بتلمسان عند أحفاده ، وعليه خطه الراق الذي أعرفه ، وهو يقول : قرأت في هذا المصحف تجاه الكعبة المشرفة اثني عشر ألف ختمة ؛ انتهى .

ومع هذا فقد نسي في المصحف المذكور لفظة إليك من قوله تعالى ﴿ ينقلب إليك البصر ﴾ حتى كتبه بخطه فوق السطر حفيدُه العلامة سيدي أبو عبد الله محمد ابن مرزوق ، رحم الله الجميع .

قال الخطيب المذكور رحمه الله تعالى في بعض تعاليقه ما صورته : ومن أشياخ والدي سيدي محمد المرشدي ، لقيه في ارتحالنا إلى الشرق ، وحين حملي إليه وأنا ابن تسع عشرة سنة نزلنا عنده ، ووافقنا صلاة الجمعة ، ومن عاداته أن لا يتخذ للمسجد إماماً ، وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء من لا يمكن اجتماع مثلهم في غير ذلك المشهد ، قال : فقرب وقت الصلاة ، فتشوف من حضر من الفقهاء والخطباء إلى التقديم ، فإذا الشيخ قد خرج فنظر يميناً وشمالاً وأنا خلف والدي ، فوقع بصره علي ، فقال لي : يا محمد ، تعال ، قال : فقممت معه حتى دخلت معه في موضع خلوة ، فباحثني في الفروض والشروط والسنن ، قال : فتوضأت وأخلصت النية ، فأعجبه وضوئي ، ودخل معي إلى المسجد ، وقادني إلى المنبر ، وقال لي : يا محمد ، أرق المنبر ، فقلت له : يا سيدي ، والله لا أدري ما أقول ، فقال لي : أرق ، وناولني السيف الذي يتوكأ عليه الخطيبُ عندهم ، وأنا جالس مفكر فيما أقول إذا فرغ المؤذنون ، فلما فرغوا ناداني بصوته ، وقال لي : يا محمد قم ، وقل بسم الله ، قال : فقممت ، وانطلق لساني بما لا أدري ما هو ، إلا أنني كنت أنظر إلى الناس ينظرون إلي ويخشعون من موعظتي ، فأكملت الخطبة ، فلما نزلت قال لي : أحسنت يا محمد ،

١ ق : وكتب .

قِرَاكَ عِنْدَنَا أَنْ نُوَلِّيكَ الْخِطَابَةَ ، وَأَنْ لَا تُخْطِبَ بِخُطْبَةِ غَيْرِكَ مَا وَلَيْتَ وَحْيِي ،  
 ثُمَّ سَافَرْنَا فَحَجَّجْنَا ، وَأَرَادَ وَالِدِي الْجَوَارِ ، وَأَمْرُنِي بِالرُّجُوعِ لِأَوْنَسِ عَمِي  
 وَقِرَابَتِي بِتَلْمَسَانَ ، وَأَمْرُنِي بِالْوُقُوفِ عَلَى سَيْدِي الْمُرْشِدِي هُنَاكَ ، فَوَقَفْتُ عَلَيْهِ  
 وَسَأَلْتَنِي عَنْ وَالِدِي ، فَقُلْتُ لَهُ : يُقَبَّلُ أَيْدِيكُمْ ، وَيَسْلَمُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالَ لِي :  
 تَقْدِمُ يَا مُحَمَّدُ ، وَاسْتَنْدِ إِلَى هَذِهِ النَّخْلَةِ ، فَإِنْ شَعِبِيًّا - يَعْنِي أَبَا مَدِينٍ - عَبَدَ  
 اللَّهُ عِنْدَهَا ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثُمَّ دَخَلَ خَلُوتَهُ زَمَانًا ، ثُمَّ خَرَجَ فَأَمْرُنِي بِالْجُلُوسِ بَيْنَ  
 يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ ، أَبُوكَ مِنْ أَحِبَابِنَا وَإِخْوَانِنَا ، إِلَّا أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ ، إِلَّا  
 أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ ، فَكَانَتْ هَذِهِ إِشَارَةً إِلَى مَا امْتَحَنْتَ بِهِ مِنْ مَخَالِطِي أَهْلَ الدُّنْيَا  
 وَالتَّخْلِيطِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ مَتَشَوِّشٌ مِنْ جِهَةِ أَبِيكَ ، تَتَوَهَّمُ أَنَّهُ  
 مَرِيضٌ ، وَمِنْ بَلَدِكَ ، أَمَّا أَبُوكَ فَبَخِيرٌ وَعَافِيَةٌ ، وَهُوَ الْآنَ عَنْ يَمِينِ مَنْبَرِ رَسُولِ  
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَنْ يَمِينِهِ خَلِيلُ الْمَالِكِيِّ ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَحْمَدُ قَاضِي  
 مَكَّةَ ، وَأَمَّا بَلَدُكَ ، فَسَمَّيْتُ اللَّهَ ، فَحَظَّ دَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ قَامَ فَقَبَضَ إِحْدَى  
 يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى وَجَعَلَهُمَا خَلْفَ ظَهْرِهِ يَطُوفُ بِتِلْكَ الدَّائِرَةِ ، وَيَقُولُ : تَلْمَسَانَ ،  
 تَلْمَسَانَ ، حَتَّى طَافَ بِتِلْكَ الدَّائِرَةِ مَرَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ لِي : يَا مُحَمَّدُ ، قَدْ قَضَى  
 اللَّهُ الْحَاجَةَ فِيهَا ، فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ يَا سَيْدِي<sup>٢</sup> ؟ فَقَالَ : سَتَرَ اللَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى  
 مَنْ فِيهَا مِنَ الذَّرَارِيِّ وَالْحَرِيمِ ، وَيَمْلِكُهَا هَذَا الَّذِي حَصَرَهَا ، يَعْنِي السُّلْطَانَ  
 أَبَا الْحَسَنِ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَهُمْ ، ثُمَّ جَلَسَ وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لِي : يَا خَطِيبُ ،  
 فَقُلْتُ : يَا سَيْدِي عَبْدُكَ وَمَمْلُوكُكَ ، فَقَالَ لِي : كُنْ خَطِيبًا ، أَنْتَ الْخَطِيبُ ،  
 وَأَخْبَرْتَنِي بِأُمُورٍ ، وَقَالَ لِي : لَا بَدَّ أَنْ تُخْطِبَ بِالْجَامِعِ الْغُرْبِيِّ ، وَهُوَ الْجَامِعُ  
 الْأَعْظَمُ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، ثُمَّ أَعْطَانِي شَيْئًا مِنْ كَعِيكَاتِ صِغَارٍ ، زَوَّدْتَنِي بِهَا ، وَأَمْرُنِي  
 بِالرَّحِيلِ .

١ فكانت . . . محمد : سقطت من ص .

٢ ق : يا سيدي كيف .

وأما خير تلمسان فدخلها المريني كما ذكر ، وستر الله من فيها من الذراري  
والحرير ، وكان هذا المرشدي يتصرف في الولاية كتصرف سيدي أبي العباس  
السبي ، نفعنا الله بهما .

وللخطيب ابن مرزوق المذكور تأليف : منها شرحه الجليل على العمدة  
في خمسة أسفار ، جمع فيه بين ابن دقيق العيد والفاكهاني مع زوائد ، وشرحه  
النفيس على الشفاء ، ولم يكمل ، وشرحه على الأحكام الصغرى لعبد الحق ،  
وشرحه على ابن الحاجب الفرعي ، سماه «إزالة الحاجب لفروع ابن الحاجب»  
وله غيرها ، وديوان خطب بالغرب مشهور كقصيدته التي قالها في نكته بتلمسان ،  
وأولها :

رفعتُ أموري لباري التَّسَمِّ ومُوجِدِنَا بعد سَبَقِ العَدَمِ

ومن نظمه عند وداعه أهل تونس :

أودعكم وأثني ثم أثني على ملكٍ تطاول بالجميل  
وأسألُ رغبةً منكم لربي بتيسيرِ المقاصدِ والسبيل  
سلامُ الله يشملنا جميعاً فقد عزم الغريبُ على الرحيل

ومن نظم أبي المكارم منديل بن أجروم يُسلي المذكور عندما سجن بعد  
قتل السلطان أبي سالم ، رحمهم الله أجمعين :

يا شمسَ علمٍ أفلكتَ بعدَ ما أضاعت المشرق والمغربا  
حُجِبَتِ قَسْرًا عن عيون الوري والشمسُ لا يُنكرُ أن تحجبا

وهو بيت علم وولاية وصلاح لعمته وجده وأبيه وجد أبيه ، ولولديه محمد  
وأحمد وحفيده عالم الدنيا البحر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق ،  
وولد حفيده المعروف بالكفيف ، وحفيد حفيده المعروف بالخطيب ، وهو آخر  
المذكورين منهم فيما نعلم .

قلت : كان مرادي أن أعرف بجميعهم ، ولكني خشيت الطول <sup>١</sup> ، فلنلمّ بذكر الحفيد عالم الدنيا ، وابنه العلامة المشهور بالكفيف ، لأنه - أعني الكفيف - والد أم جدي أحمد ، لأتي أحمد بن محمد بن أحمد ، فوالدة الجد أحمد بنت الكفيف المذكور ، وهو - أعني الكفيف - محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب الرئيس أبي عبد الله بن مرزوق المتقدم الذكر <sup>٢</sup> ، وكان الكفيف إماماً عالماً علامة ، ووصفه <sup>٣</sup> ابن داود البلوي بأنه الشيخ الإمام ، علّم الأعلام ، فخر خطباء الإسلام ، سلالة الأولياء ، وخلف الأتقياء الأرضياء ، المسند الراوية المحدث العلامة المتفنن القدوة الحافل الكامل ، وأخذ العلم عن جماعة : منهم عالم الدنيا أبوه ، قرأ عليه الصحيحين والموطأ وغير ما كتاب من تأليفه وغيرها ، وتفقه عليه وأجازته عموماً ، وعن عالمي تلمسان أبي الفضل ابن الإمام والعقباني ، وغيرهما والجبائي <sup>٤</sup> والثعالبي ، والنظار أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم المشدالي ، وقاضي الجماعة ابن عقاب وحافظ الإسلام ابن حجر العسقلاني ، وكل هؤلاء أجازوه ، وقرأ عليهم مشافهة ، إلا ابن حجر فمكاتبة . ومولده غرة ذي القعدة عام أربعة وعشرين وثمانمائة ، نصف ليلة الثلاثاء ، ومن شيوخه العلامة ابن العباس التلمساني وغيره .

وقال السخاوي : قدم الكفيف مكة سنة إحدى وستين وثمانمائة ، وسمعت

سنة إحدى وسبعين وثمانمائة أنه في الأحياء ؛ انتهى .

وأخذ عنه جماعة أئمة كالسنوسي صاحب العقائد الشهيرة وغيرها ،

والونشريسي صاحب « المعيار » ، والعلامة أبي عبد الله ابن العباس ، وحلاه بشيخنا

١ ق : التطويل .

٢ ترجمة ابن مرزوق الكفيف في نيل الابتهاج : ٣٥٤ وعنه ينقل المقرئ ؛ والضوء اللامع ٩ : ٤٦٠ .

٣ ق : وعرف به .

٤ هو أحمد بن محمد بن عيسى ( نيل الابتهاج : ٦٢ ) ؛ وفي ق ص : الجبائي .

ومفيدنا علم الأعلام وحجة الإسلام آخر حفاظ المغرب ، وقال : قرأت عليه الصحيحين وبعض مختصري ابن الحاجب الفرعي والأصلي ، وحضرت عليه جملة من التهذيب وبعض الخونجي وغيرها ، وأخذ عنه بالإجازة عالم فاس ابن غازي حسبما ذكره في كتابه المسمى بـ « التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال الساكن والناد » .

وقال بعض الحفاظ : إن وفاته عام أحد وتسعمائة بتلمسان . وزرت قبره مراراً ، رحمه الله تعالى ؛ ونقل عنه المازوني في نوازله المسماة بـ « الدررة المكنونة في نوازل مازونة » .

#### [ ابن مرزوق الحفيد ]

وأما والده<sup>١</sup> عالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق الشهير بالحفيد<sup>٢</sup> فهو البحر الإمام المشهور الحجة الحفاظ العلامة المحقق الكبير النظار المطلع المصنف المنصف التقي الصالح الناصح الزاهد العابد الورع البركة الخاشع الخاشي النبيه القدوة المجتهد الأبرع الفقيه الأصولي المفسر المحدث الحفاظ المسند الراوية الأستاذ المقرئ المجود النحوي اللغوي البياني العروضي الصوفي الأواب الولي الصالح العارف بالله ، الآخذ من كل فنّ بأوفر نصيب ، الراعي في كل علم مرعاه<sup>٣</sup> الخصيب ، حجة الله على خلقه ، المفتي الشهير الرحلة الحاج ، فارس الكراسي والمنابر ، سليل الأكابر ، سيد العلماء الأخيار ، وإمام الأئمة وآخر الشيوخ ذوي الرسوخ ، بدر التمام الجامع بين المعقول والمنقول والحقيقة والشريعة بأجل<sup>٤</sup> محصول ، وآخر النظار الفحول ، شيخ المشايخ ، صاحب التحقيقات البديعة والاختراعات الأنيقة ، والأبحاث الغريبة ، والفوائد الغزيرة ، المتفق على علمه وصلاحه

١ ق : أبوه .

٢ ترجمة ابن مرزوق الحفيد في نيل الابتهاج : ٣٠٤ ؛ والضوء اللامع ٧ : ٥٠ .



وهدبه ، الذكي الفهامة القدوة الذي لا يسمح الزمان بمثله أبداً ، أوحده الأفراد  
 في جميع الفنون الشرعية ، ذو المناقب العديدة والأحوال السديدة ، شيخ الإسلام  
 وإمام المسلمين ومفتي الأنام ، الذي له القدم الراسخ في كل مقام ضيق ، والرحب  
 الواسع في حل كل مشكل مقفل ، صاحب الكرامات والاستقامات ، السني السني  
 الحريص على تحصيل السنة ومجانبة البدعة ، السيف المسلول على أهل البدع  
 والأهواء الزائغة ، الذي أفاض الله تعالى على خلقه به بركته ، ورفع بين البرية  
 محله ودرجته ، ووسع على خليقته به نخلته ، معدن العلم وشعلة الفهم ، وكيمياء  
 السعادة وكنز الإفادة ، ابن الشيخ الفقيه العالم أبي العباس أحمد ، ابن الإمام العلامة  
 الرئيس الكبير الخطيب الحافظ الرحلة الفقيه المحدث الشهير شمس الدين محمد ،  
 ابن الشيخ العالم الصالح الولي المجاور أبي العباس أحمد ، ابن الفقيه الولي الصالح  
 الخاشع محمد ، ابن الولي الكبير ذي الكرامات والأحوال الصالحة محمد بن أبي بكر  
 ابن مرزوق العجيسي التلمساني : كان رحمه الله تعالى آية الله في تحقيق  
 العلوم ، والاطلاع المفرط على النقول ، والقيام التام على الفنون بأسرها ، أما  
 الفقه فهو فيه مالك ، ولأزمة فروعه حائز ومالك ، فلو رآه الإمام قال له :  
 تقدم ، فلك العهد والولاية فتكلم ، فمَنك يُسَمَعُ فقهي وفروعي ، ومثلك  
 مَن راعى ما ينبغي فرُوعي ، أو ابن القاسم لقرَّبه عيناً ، وقال له : طالما دفعت  
 عن المذهب عيناً وشيناً ، أو المازري ، لعلم أنه بمنظرته حري ، أو الحافظ  
 ابن رشد ، لقال : هلم يا حافظ الرشد ، أو اللخمي لأبصر منه محاسن « التبصرة » ،  
 أو القرطبي لنال منه « التذكرة » ، أو القرافي لاستفاد منه قواعد المقررة ،  
 أو ابن الحاجب لاستند إلى بابه في كشف الإشكالات المحررة ، إلى ما انضم  
 إلى ذلك من معرفة التفسير ودرره ، والاضطلاع بمقائق التأويل وغرره ، فلو

رآه مجاهد ، لعلم أنه في التحقيق خير جاهد<sup>١</sup> ، أو مقاتل ، لقال : مثلك طبّق من الفهوم الكلى وأصاب المقاتل ، أو الزمخشري لعلم أنه كشاف الخفيات على الحقيقة ، وقال لكتابه : تنحّ لهذا الخبر عن سلوك الطريقة ، أو ابن عطية ، لركب في الرحلة إلى الاستفادة منه المطية ، أو أبو حيان لفرق في نهره ، ولم تسيل له نقطة من بجره ، إلى الإحاطة بالحديث وفنونه . والاطلاع على أسانيده ومتونه ، ومعرفة منكره ومعروفه ، ونظم أنواعه ووصف صنوفه ، إذ إليه الرحلة انتهت في رواياته ودراياته ، وعليه المعول في حل مشكلاته وفتح مقفلاته ، وأما الأصول<sup>٢</sup> فالعضد ينقطع عند مناظرته ساعده ، والسيف يكلّ عند بحثه حده حتى يترك ما عنده ويساعده ، والبرهان لا يهتدي معه لحجة ، والمقترح لا يركب في بجره لجة . وأما النحو فلو رآه محمود<sup>٣</sup> لتلجلج في قراءة « المفضل » ، واستقل ما عنده من القدر المحصل ، أو الرماني لاشتااق إلى مفاكته وارتاح ، واستجدى من ثمار فوائده وامتاح ، أو الزجاج لعلم أن زجاجه لا يقوم بجواهره ، وأنه لا يجري معه في هذا العلم إلا في ظواهره . بل لو رآه الخليل ، لقال : هذا هو المقصد الخليل ، وأثنى عليه بكل جميل ، وقال لفرسان النحو : ما لكم إلى حقوق عربيته من سبيل<sup>٤</sup> ، وأما البيان فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح ، وصاحب المفتاح لا يهتدي معه إلى الفتح ، والقزويني يلقي علومه لإيضاح المعاني ، والسعد يرقى بمفهومه في مطالع المثاني ، وكم له من مناقب ، تنحط عن منالها الثواقب ، ومواهب ، تجلو بأنوارها الغياهب ، وأما زهده<sup>٥</sup>

١ نيل الابتهاج : لعلم أنه في علوم القرآن العزيز مجاهد ؛ قلت : وفي نص المقرئ بعض تغيير لما ورد في نيل الابتهاج .

٢ ق : الكلام .

٣ يعني الزمخشري .

٤ ق ص : وقال في شأن النحو والكلام إلى حقوق بيته من سبيل ، وهو مضطرب ؛ وفي النيل : وقال . . . إلى حقوقه من سبيل .

٥ ق : ورعه وزهده .

وصلاحه فقد سارت به الركبان ، واتفق عليه الثقلان ، فمن وصفه بالبحر ، فقل له : دون علمه البحر ، أو البدر فما يصل خلقه البدر ، أو الدر فأني يشبه منطقه الدر ، وبالجمله فالوصف يتقاصر عن صفاته وفضلاء عصره لا يرتقون إلى صفاته ، فهو شيخ العلماء في أوانه ، وإمام الأئمة في عصره وزمانه ، شهد بنشر علومه العاكف والبادي ، وارتوى من بحار تحقيقاته الظمان والصادي :

حلف الزمان ليأتين<sup>١</sup> بمثله حثت<sup>٢</sup> يمينك يا زمان فكفّر<sup>٣</sup> .

هكذا وصفه بعض العلماء ، وهو فوق ذلك كله .  
وقال في حقّه بلدينا الشيخ أبو الفرج ابن أبي يحيى الشريف التلمساني رحمه الله تعالى : هو شيخنا الإمام العالم العليم ، جامع أشات العلوم الشرعية والعقلية حفظاً وفهماً وتحقيقاً راسخ القدم ، رافع لواء الإمامة بين الأمم ، ناصر الدين بيده ولسانه وبنانه وبالقلم ، محيي السنّة بالفعال والمقال والشيم ، قطب الوقت في الحال والمقام والنهج الواضح والسبيل الأمم<sup>١</sup> ، مستمر على الإرشاد والهداية ، والتبليغ والإفادة ، والرواية والدراية والعناية ، ملازم الكتاب والسنّة على نهج الأئمة المحفوظين من البدع في زمن لا عاصم فيه من أمر الله إلا من رحم ، ذو همة عليّة ورتبة سنية وأخلاق مرضية وفضل وكريم ، إمام الأئمة وعلم<sup>٢</sup> الأمة الناطق بالحكم ومنير الظلم ، سليل الصالحين ، وخلاصة مجد الثقي والدين ، نتيجة مقدمات المهتدين ، حجة الله على العلم والعالم ، جامع بين الشريعة والحقيقة ، على أصح طريقة ، متمسك بالكتاب لا يفارق قرينه ، الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد ، اتصلت به فأويت<sup>٣</sup> منه إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وقصرت توجهي عليه ، ومثلت بين يديه ، فأنزلي<sup>٤</sup> - أعلى الله قدره - منزلة ولده رعاية للذمم ، وحفظاً على الود الموروث من القديم ، فأفادني من بحار علمه ما تقصّر عنه العبارة

١ نيل الابتهاج : الأقوم .

٢ نيل الابتهاج : وعالم .

ويكلّ دونه القلم ، فقرأت عليه جملة من تفسير القرآن ومن الحديث صحيح البخاري بقراءتي وقراءة غيري مراراً وصحيح مسلم كذلك وسنن الترمذي وأبي داود بقراءتي ، والموطأ سماعاً وتفقهاً و«العمدة» ، ومن علم الحديث أرجوزته «الحديقة» وبعض الكبرى وهي «الروضة» تفقهاً ، ومن العربية نصف «المقرب» تفقهاً وجميع سيبويه كذلك ، وألفية ابن مالك ، وأوائل «شرح الإيضاح» لابن أبي الربيع ، وبعض «المغني» لابن هشام ، وفي الفقه «التهذيب» كلفه تفقهاً ، وابن الحاجب الفرعي ، وبعض مختصر الشيخ خليل ، و«التلقين» ، وثلاثي الجلاب ، وجملة من «المتيطة» ، و«البيان» لابن رشد ، وبعض الرسالة ، وكل ذلك قراءة تفقه ، وتفقهت عليه من كتب الشافعية في «تبيين» الشيرازي و«وجيز» الغزالي من أوله إلى كتاب الإقرار ، ومن كتب الحنفية «مختصر القدوري» تفقهاً ، ومن كتب الحنابلة «مختصر الخراقي» تفقهاً ، ومن أصول الفقه «المحصول» ، و«مختصر» ابن الحاجب ، و«التنقيح» ، وكتاب «المفتاح» بلحدي ، وقواعد عز الدين ، وكتاب «المصالح والمفاسد» له ، و«قواعد» القرافي ، وجملة من «النظائر والأشباه» للعلائي ، و«إرشاد» العميدي ، ومن أصول الدين «المحصل» و«الإرشاد» تفقهاً ، وفي القراءات قصيدة الشاطبي تفقهاً ، وابن بري<sup>١</sup> ، وفي البيان «التلخيص» و«الإيضاح» و«المصباح» ، وكلّها تفقهاً ، وفي التفقه<sup>٢</sup> «الإحياء» للغزالي سوى الربع الأخير منه ، وأبسنى خرقة التصوف كما ألبسه أبوه وعمّه ، وهما ألبسهما أبوهما جده ؛ انتهى ملخصاً<sup>٣</sup> .

وكتب المذكور تحت هذا ما نصّه : صدق السيد بن السيد أبو الفرج المذكور فيما ذكر من القراءة والسماع والتفقه وبرّاً ، وقد أجزته في ذلك كلفه ، فهو

١ ق ص : وابن العمدة .

٢ نيل الابتهاج : وفي التصوف .

٣ ملخصاً : سقطت من ق .

حقيق بها مع الإنصاف وصدق النظر ، جعلني الله وإياه ممن علم وعمل لآخرته  
واعتر ، قاله محمد بن مرزوق ، انتهى .

وقال تلميذه الولي أبو زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي<sup>١</sup> : قدم علينا بتونس  
شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق فأقام بها ، فأخذت عنه كثيراً ، وسمعت عليه  
جميع الموطأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر ابن شيخنا محمد القلشاني<sup>٢</sup> ، وختمت  
عليه أربعينيات النووي ، قرأها عليه في منزله قراءة تفهم ، فكان كلما قرأت  
عليه حديثاً يعلوه خشوع وخضوع ، ثم يأخذ في البكاء ، فلم أزل أقرأ وهو  
يبكي إلى أن ختمت الكتاب ، وكان من أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكر الله ،  
وأجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية ، واشتهر ذكره في البلاد ،  
فكان يذكره تطرز المجالس ، وجعل الله تعالى حبه في قلوب العامة والخاصة  
فلا يُذكر في مجلس إلا والنفوس مشوقة<sup>٣</sup> إلى ما يحكى عنه ، وكان في التواضع  
والإنصاف والاعتراف بالحق في الغاية وفوق النهاية ، لا أعلم له نظيراً في ذلك  
في وقته ، ثم ذكر كثير آجداً من الكتب مما سمعه عليه ، وأطال في ذلك .

وقال في موضع آخر : هو سيدي الشيخ الإمام الحبر الهمام ، حجة أهل  
الفضل في وقتنا وخاتمهم ، ورحلة النقاد وخلصتهم ، ورئيس المحققين  
وقادتهم ، السيد الكبير ، والذهب الإبريز ، والعلم الذي نصبه التمييز<sup>٤</sup> ،  
ابن البيت الكبير ، والفلك الأثير ، ومعدن الفضل الكثير ، سيدي أبو عبد الله  
محمد ابن الإمام الجليل الأوحى الأصيل ، جمال الفضلاء ، سليل الأولياء ، أبي  
العباس أحمد ، ابن العالم الكبير ، العلم الشهير تاج المحدثين وقادة المحققين ،  
أبي عبد الله محمد بن مرزوق .

١ ترجمة الثعالبي في نيل الابتهاج : ١٤٨ .

٢ من أكابر علماء تونس (٨٤٨ - ) ؛ انظر النيل : ١٨٠ .

٣ نيل الابتهاج : متشوقة .

٤ ق : نصب على التمييز .

وقال أيضاً في موضع آخر : هو شيخني الإمام العَلَمَ الصدر الكبير ، المحدث الثقة المحقق بقية المحدثين ، وإمام الحفظة الأقدمين والمحدثين ، سيد وقته وإمام عصره وورع زمانه وفاضل أقرانه ، أعجوبة أوانه وفاروق زمانه ، ذو الأخلاق المرضية ، والأحوال الصالحة السنية ، والأعمال الفاضلة الزكية ، أبو عبد الله .  
وقال في حقه المازوني في أول نوازله : شيخنا الإمام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ، ذو التواليف العجيبة ، والفوائد الغربية ، مستوفي المطالب والحقوق ، أبو عبد الله ابن مرزوق .

وقال تلميذه الحافظ العلامة أبو عبد الله التنسي عند ذكره : إن إمامنا مالكا سئل عن أربعين مسألة فقال في ست وثلاثين « لا أدري ، وجنّة العالم لا أدري » ما نصّه : ولم نر فيمن أدركنا من شيوخنا من تَمَرَّنَ على هذه الخصلة الشريفة ويكثر استعمالها غير شيخنا الإمام العلامة رئيس علماء المغرب على الإطلاق أبي عبد الله محمد بن مرزوق .

وقال الشيخ أبو الحسن القلصادي في رحلته : أدركت<sup>١</sup> كثيراً من العلماء والعباد والزهاد والصلحاء ، أولاهم في الذكر والتقديم<sup>٢</sup> الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا أبو عبد الله ابن مرزوق ، حلّ كَنَفَ العلم والعلا ، وجل قدره في الجِلَّةِ الفُضَّلَا ، قطع الليالي ساهراً ، وقطف من العلم أزهاراً ، فأثمر وأورق ، وغرّب وشرق ، حتى توغل في فنون العلم واستغرق ، إلى أن طلع للأبصار هلالاً لأن الغرب مطلعته ، وسما في النفوس موضعه وموقعه ، فلا ترى أحسن من لقائه ، ولا أسهل من إلقائه ، لقي الشيوخ الأكابر ، وبقي حمده متعرفاً<sup>٣</sup> من بطون الكتب وألسنة الأقلام وأفواه المحابر ،

١ نيل الابتهاج : أدركت بتلسان .

٢ ق : والتقدم .

٣ نيل الابتهاج : متعرفاً ؛ وفي ص : وبقي عمره .

وكان رضي الله عنه من رجال الدنيا والآخرة ، وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلاً ونهاراً من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علم وفيا وتصنيف ، وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهورة<sup>١</sup> ، وكانت له بالعلم عناية تكشف بها العماية ، ودراية تعضدها الرواية ، ونباهة تكسب النزاهة ، قرأت عليه - رضي الله عنه - بعض كتابه في الفرائض وأواخر إيضاح الفارسي وشيئاً من « شرح التسهيل » وعرضت عليه إعراب القرآن وصحيح البخاري والشاطبيتين وأكثر ابن الحاجب الفرعي والتلقين وتسهيل ابن مالك والألفية والكافية وابن الصلاح في علم الحديث ومنهاج الغزالي وبعض الرسالة وغيرها ، ثم توفي يوم الخميس بمصر رابع عشر شعبان عام اثنين وأربعين وثمانمائة وصلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة ، وحضر جنازته السلطان فمن دونه ، ولم أر مثلها قبل ، وأسف الناس لفقده ، وآخر بيت سمع منه قبل موته :

إن كان سَفَكُ دمي أَقْصَى مرادكمُ      فما غَلَّتْ نَظْرَةٌ منكم بسفك دمي  
انتهى ملخصاً .

وفي فهرست ابن غازي في ترجمة شيخه أبي محمد الورياجلي<sup>٢</sup> ما صورته :  
وممن لقي من شيوخ تلمسان المحروسة الإمام العَلم العلامة الصدر الأجل الأوحده  
المحقق النظَّار الحجة العالم الرباني أبو عبد الله محمد بن مرزوق ، وقد حدثني بكثير  
من مناقبه وصفة إقرائه ، وقوة اجتهاده ، وتواضعه لطلبة العلم ، وشدته على  
أهل البدع ، وما اتفق له مع بعضهم ، إلى غيرها من شيمه الكريمة ، ومحاسنه  
العظيمة ؛ انتهى .

وقال بعضهم في حقّه : إنّه كان يسير سيرة سلفه في العلم والتخلق والحلم  
والشفقة وحب المساكين ، آية الله في الفهم والذكاء والصدق والعدالة والنزاهة

١ نيل الابتهاج : مشهودة .

٢ ص : الورياطي ؛ وهو خطأ .

وأتباع السنّة في الأقوال والأفعال ، ومحبة أهلها في جميع الأحوال ، مبغضاً لأهل البدع ومحبباً سدّ الذرائع ، وله كرامات ؛ انتهى .

أخذ العلم عن جماعة أجلاء ، فمنهم العلامة السيد عبد الله الشريف التلمساني ، وعالم المغرب القاضي سيدي سعيد العقباني التلمساني ، والولي العابد الصالح أبو إسحاق سيدي إبراهيم المصمودي ، وأفرد ترجمته بتأليف ، وعن عمه وأبيه ، ويروي عن جده بالإجازة وابن عرفة وأبي العباس القصار التونسي<sup>٢</sup> ، وبفاس عن النحوي أبي حيان وأبي زيد المكودي ، وجماعة غيرهما ، وبمصر عن السراج البلقيني ، والزين الحافظ العراقي ، والشمس الغماري ، والسراج ابن الملقن ، وصاحب القاموس ، والمحّب ابن هشام ابن صاحب « المغني » ، والنور النويري ، والولي ابن خلدون ، والقاضي التنسي ، وغيرهم .

(وأخذ عنه جماعة) كالثعالبي ، والقاضي عمر القلشاني ، وابن العباس [ والعلامة ] نصر الزواوي ، والولي سيدي الحسن أبركان ، وابنه ، وأبي البركات الغماري ، وأبي الفضل المشدالي ، وقاضي غرناطة أبي العباس ابن أبي يحيى الشريف ، وإبراهيم بن فائد ، وأبي العباس الندرومي ، وابنه الكفيف ، وسيدي علي بن ثابت ، والشهاب بن كحيل التجاني ، والعلامة أحمد بن يونس القسطيني ، والعلامة يحيى بن يدّير<sup>٣</sup> ، وأبي الحسن القلصادي ، والشيخ عيسى بن سلامة البسكّري ، وغيرهم ، كالحافظ التنسي التلمساني .

قلت : وسندي إليه عن عمي الإمام سيدي سعيد المقرّي ، عن الشيخ أبي عبد الله التنسي ، عن والده الحافظ أبي عبد الله محمد التنسي المذكور ، عن ابن مرزوق المذكور بكل مروياته وتأليفه .

وقال السخاوي في حقّه : هو أبو عبد الله ، يُعرف بحفيد ابن مرزوق ، وقد

١ ص : وأما شيوخه فمنهم ... إلخ .

٢ ق ص : القط والتونسي ؛ وأثبت ما في نيل الابتهاج .

٣ ق ص : زيد .



يختص بابن مرزوق ، وقد تلافى على عثمان الزروالي ، وانتفع في الفقه بأبي عبد الله ابن عرفة ، وأجازه أبو القاسم محمد بن الحشاش ومحمد بن علي الحفار الأنصاري ومحمد القيحاوي ، وحج قديماً سنة تسعين وسبعمئة رقيقاً لابن عرفة ، وسمع من ابن<sup>١</sup> البهاء الدماميني والنور العقيلي بمكة ، وفيها قرأ البخاري على ابن صديق ، ولازم المحب<sup>٢</sup> ابن هشام في العربية ، وكذا حج سنة تسع عشرة وثمانمئة ، ولقيه الزيني رضوان بمكة ، وكذا لقيه ابن حجر ؛ انتهى .

وأما تواليفه فكثيرة منها شروحه الثلاثة على البردة ، وسمي الأكبر «إظهار صدق المودة في شرح البردة» واستوفى فيه غاية الاستيفاء ، وضمنه سبعة فنون في كل بيت ، والأوسط ، والأصغر المسمى بـ «الاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب» ، ومنها «الغاية القراطيسية<sup>٣</sup> في شرح الشقراطيسية» و «المفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية» ورجز في علوم الحديث سماه «الروضة» ومختصره في رجز سماه «الحديقة» ورجز في الميقات سماه «المقنع الشافي» مشتمل على ألف وسبعمئة بيت ، و «نهاية الأمل في شرح الجمل» أي جمل الخونجي ، و «اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة» وهو أجوبة عن مسائل في فنون العلم وردت عليه من علامة قفصة أبي يحيى ابن عقيبة فأجابه عنها ، و «المعراج إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج» في كراسة ونصف ، أجاب به أبا القاسم ابن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية ، و «أنوار اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين» وهو حديث أول حلية أبي نعيم في شأن البدلاء وغيرهم ، و «الدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي» ، و «النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص» في سبعة كراريس ، ردَّ به على عصره الإمام أبي

١ ابن : سقطت من نيل الابتهاج .

٢ ص ق : المجد .

٣ نيل الابتهاج : والمفاتيح القراطيسية .

٤ نيل الابتهاج : ونور .

الفضل قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصوفية لما صوب العقباني صنيعهم وخالفه هو ، و « مختصر الحاوي في الفتاوي » لابن عبد النور ، و « الروض البهيح في مسائل الخليج »<sup>١</sup> و « أنوار الدراري في مكررات البخاري » [ وأرجوزة نظم تلخيص ابن البناء ] ورجز تلخيص المفتاح ، نظمه في حال صغره ، ورجز « حرز الأمانى » ورجز جمل الخونجي ، ورجز اختصار ألفية ابن مالك ، وتأليفه في مناقب شيخه المصمودي ، وتفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء ، وهذه كلها تامة .

وأما ما لم يكمل من تأليفه فالمتجر الربيع والسعي الرجيع والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح ، وروضة الأريب في شرح التهذيب ، والمترع النبيل في شرح مختصر خليل ، شرح منه كتاب الطهارة في مجلدين ، ومن الأفضية إلى آخره في سفرين ، وإيضاح السالك على ألفية ابن مالك ، إلى اسم الإشارة أو الموصول مجلد كبير في قدر شرح المرادي ، وشرح شواهد شراح الألفية إلى باب « كان » مجلد ، وله خطب عجيبة .

وأما أجوبته وفتاويه على المسائل المنوعة فقد سارت بها الركبان شرقاً وغرباً ، بدواً وحضراً ، وقد نقل المازوني والونشريسي منها جملة وافرة .

ومن تأليفه أيضاً عقيدته المسماة « عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد » و « الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات » و « الدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم » و « إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم » وذكر السخاوي أن من تواليفه شرح ابن الحاجب الفرعي ، وشرح التسهيل ؛ انتهى .

ومولده كما ذكره في شرحه على البردة ليلة الاثنين رابع عشرين<sup>٢</sup> ربيع الأول عام ستة وستين وسبعمائة ، قال : حدثني أمي عائشة بنت الفقيه الصالح

١ زاد في نيل الابتهاج : في أوراق نصف كراس . ٢ ص : رابع عشر من .

القاضي أحمد بن الحسن المديوني ، وكانت من الصالحات ألفت مجموعاً في أدعية اختارتها ، وكانت لها قوة في تعبير الرؤيا اكتسبتها من كثرة مطالعتها لكتب الفن ، أنه أصابني مرض شديد أشرفت منه على الموت ، ومن شأنها وأبيها أنهما لا يعيش لهما ولد إلا نادراً ، وكانوا أسموني أبا الفضل أول الأمر ، فدخل عليها أبوها أحمد المذكور ، فلما رأى مرضي وما بلغ بي غضب وقال : ألم أقل لكم لا تسموه أبا الفضل ، ما الذي رأيتم له من الفضل حتى تسموه أبا الفضل ؟ سموه محمداً ، لا أسمع أحداً يناديه بغيره إلاّ فعلت به وفعلت ، يتوعد بالأدب ، قالت : فسميناك محمداً ، ففرج الله عنك ؛ انتهى .

ومن فوائده ما حكى في بعض فتاويه قال : حضرت مجلس شيخنا العلامة نخبة الزمان ابن عرفة رحمه الله تعالى أول مجلس حضرته فقراً ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ (الزخرف : ٣٦) فجرى بيننا مذاكرات راثقة ، وأبحاث حسنة فائقة ، منها أنه قال : قرىء (يعشو) بالرفع و (نُقِيصٌ) بالجزم ، ووجهها أبو حيان بكلام ما فهمته ، وذكر أن في النسخة خلافاً ، وذكر بعض ذلك الكلام ، فاهتديت إلى تمامه فقلت : يا سيدي ، معنى ما ذكره أن جزم (نُقِيصٌ) بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط ، وإذا كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لفظه لفظ الشرط بذلك فما يشبه لفظ الشرط أولى بتلك المعاملة ، فوافق رحمه الله تعالى وفرح - كما أن الإنصاف كان طبعه - وعند ذلك أنكر عليّ جماعة من أهل المجلس وطالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط ، فقلت : نصهم على دخول الفاء في خبر الموصول في نحو « الذي يأتيني فله درهم » من ذلك ، فنازعوني في ذلك ، وكنت حديث عهد بحفظ التسهيل ، فقلت : قال ابن مالك فيما يشبه المسألة : وقد يجزم متسبب عن صلة الذي تشبيهاً بجواب الشرط ، وأنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر :

١ ق : متوعداً

كذلك الذي يبغى على الناس ظالماً تُصِبُهُ على رَغْمٍ عواقبُ ما صَنَعُ  
فجاء الشاهد موافقاً للحال ؛ انتهى بنقل تلميذه المازوني .

وقد ذكر الشيخ<sup>١</sup> ابن غازي الحكاية في فهرسته في ترجمة شيخه الأستاذ  
الصُّغَيْرِ ، وفيها بعض مخالفة لما تقدم ، فلنَسْقُه ، قال : حدثني أنه بلغه عن  
ابن عرفة أنه كان يدرِّس من صلاة الغدَاة إلى الزوال ، يُقْرئ فنوناً ، ويبتدئ  
بالتفسير ، وأن الإمام ابن مرزوق أول ما دخل عليه وجده يفسر هذه الآية  
﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ فكان أول ما فاتحه أن قال له : هل يصح  
كون ( من ) هنا موصولة ؟ فقال ابن عرفة : كيف وقد جزمت ؟ فقال له :  
تشبيهاً لها بالشرط ، فقال ابن عرفة : إنَّما يقدم على هذا بنص من إمام أو شاهد  
من كلام العرب ، فقال : أمَّا النص فقول التسهيل كذا ، وأمَّا الشاهد فقول  
الشاعر :

فلا تحفِرَنَّ بئراً تريدُ أخاً بها فإنك فيها أنت من دُونِهِ تَقَعُ  
كذلك الذي يبغى على الناس ظالماً تُصِبُهُ على رَغْمٍ عواقبُ ما صَنَعُ

فقال ابن عرفة : فأنت إذاً ابنُ مرزوق ، قال : نعم ، فرحب به ؛ انتهى .  
وهو خلاف ما تقدم ، والأول أصوب لنقل غير واحد أن جزم الموصولات إنَّما  
يكون في الجواب ، لا في الشرط ، والله تعالى أعلم .

وفي بعض المجاميع أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انقضى<sup>٢</sup> المجلس .  
ومن فوائده أنه كان يصرف لفظ « أبي هريرة » بناء على أن جِءَ العَلَمَ  
غيرُ علم ، وخالفه أهل فاس في ذلك لما بلغهم ، ومال الأستاذ الصغير والحافظ  
التفوري<sup>٣</sup> إلى منع الصرف لوجوه ليس هذا موضعها ، ومنها قول ابن مالك :

١ الشيخ : سقطت من ق .

٢ نيل الابتهاج : انفصل .

٣ ص : القدوري ؛ ق : النويري .

## ولاضطرار كَبَنَاتِ الأوبر

فإنه مؤذن بأن جزء العَلَمِ عَلَمٌ ، وقد أَلَفَ في المسألة ابن العباس [ التلمساني ] تأليفاً سماه « الاعتراف في ذكر ما في لفظ أبي هريرة من الانصراف » ؛ انتهى .  
ومن نظمه رحمه الله تعالى :

بلدُ الجِدَارِ ما أمرَ نَوَاهَا      كلفَ الفؤادُ بِجِبْهَا وهوَاها  
يا عاذلي كنْ عاذري في جِبْهَا      يكفيك منها ماؤها وهوَاها

ويعني ببلد الجدار تلمسان ، ولذلك قال في رجز في علم الحديث ما صورته :

ومنْ بها أهلُ ذكاءٍ وفطنٌ      في رابعٍ منَ الأقاليمِ قُطْنٌ  
يكفيك أن الداودي بها دُفِنٌ      مع ضجيجهِ ابن غزلونَ الفَظْنُ

قلت : وحدثني عمي الإمام سيدي سعيد المقرئ - رحمه الله تعالى - أن العلامة ابن مرزوق لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية طلب منه أهل تونس أن يقرأ لهم في التفسير بحضرة السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وعينوا له محل البدء ، فطالع فيه ، فلما حضروا قرأ القارئ غير ذلك ، وهو قوله تعالى ﴿ فمثلته كمثل الكلب - الآية ﴾ (الأعراف : ١٧٦) وأرادوا بذلك إفحام الشيخ والتعريض به ، فوجم هنيهة ، ثم تفجر بينابيع العلم إلى أن أجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة ، وساقها أحسن مساق ، وأنشد عليها الشواهد ، وجلب الحكايات ، حتى عدَّ من ذلك جملة ، ثم قال في آخرها : فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله ، غير أن فيه واحدة ذميمة ، وهي إنكاره الضيف ، ثم افترق المجلس ، وأخبرني أنه أطل في ذلك المجلس من الصبح إلى قرب الظهر ، وقد طال عهدي بالحكاية ، وإنما نقلتها بمعناها من حفظي ، وهي من الغرائب ، ولولا الإطالة لذكرت ما وقع له مع بعض علماء برصه في الحجاز حسبما ذكره في مناقب شيخه المصمودي ، رحم الله الجميع .

رجع إلى ذكر مشايخ لسان الدين ، فنقول :

١٩ - ومن مشايخ لسان الدين الرئيس أبو الحسن علي بن الحبيب<sup>١</sup> ، وهو كما في « الإحاطة » علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن ، الأنصاري الغرناطي ، أبو الحسن ، قال : وهو شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ . ومن مشايخه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي ، وخلق ، قال : وقد دونت شعره ، فمن معشراته قوله في حرف الجيم :

جربناً على الزلّات غير مفكّرٍ	جباناً على الطاعات غير معرّجٍ
جمعت لما يفنى اغتراراً بجمعه	وضيقت ما يبقى ، سجيةً أهوجٍ
جنوناً بدارٍ لا يدومُ سرورها	فدعها سدّي ، ليست بعُشكٍ فادرُجي <sup>٢</sup>
جياذك <sup>٣</sup> في شأو الضلالِ سوابقُ	تفوتُ مدى سنّ الوجيه وأعوجٍ
جهلت سبيلَ الرشدِ فاقصدُ دليله <sup>٤</sup>	تجدُ دارَ سعدٍ بابها غيرُ مُرتجٍ
جنابُ رسولِ سادِ أولادِ آدمٍ	وقُربَ في السبعِ الطباقي بمعرّجٍ
جمالُ أنارِ الأرضِ شرقاً ومغرباً	فكلُّ ستاً من نوره المتبلج <sup>٥</sup>
جلا صدأَ المرتابِ أن سبّحَ الحصى	لديه بنطقٍ ليس بالمتلجلجِ
جعلتُ امتداحي والصلاةَ عليه لي	وسائلَ تُحظيني بما أنا مرتجِ

وقال من الأغراض الصوفية السلطانية :

هاتِ اسقني صِرْفاً بغيرِ مزاجِ راحي التي هي راحتي وعلاجي

١ ترجمة ابن الحبيب في الكتيبة الكامنة : ١٨٣ ونيل الابتهاج : ١٩٣ ونثر فرائد الجمان : ٢٣٩ (رقم : ٦) ودرة الحجال ٢ : ٤٣٥ والديباج المذهب : ٢٠٧ والإحاطة : ٢٣٠ (وهي موجزة) .

٢ ليس بعشك فادر جي : مثل يقال في من يدخل نفسه في ما لا يعنيه .

٣ ص ق : جيادي .

٤ سقط البيت من ق .

إن صبَّ منها في الزجاج قطرة  
وإذا الخليجُ أصاب منها شربةً  
وإذا المريدُ أصاب منها جرعةً  
تاهت به في مهمه لا يهتدي  
يرتاح من طربِ بها فكأنما  
هبت عليه نسمةٌ قدسيةٌ  
فإذا انثنى يوماً وفيه بقيةٌ  
وإذا تمكن منه سكرٌ معرّبٌ  
قصرت عبارةً فيه عن وجدانه  
أعشاهُ نورٌ للحقيقة باهرٌ  
رام الصعود بها لمركز أصله  
فلئن أمدت برحمة وسعادةٍ  
وليرجعن بنعمة موفورةٍ  
ولئن تخطاهُ القبول لما جنى  
ما أنت إلا درةٌ مكنونةٌ  
فاجهد على تخليصها من طبعها  
واشدد يدك معاً على جبل التقي  
ولدى العزيز اسطُ بساط تذل  
هذا الطريق له مقدمتان صا  
فاجمع إلى ترك الهوى حمل الأذى  
حرفان قد جمعا الذي قد سطروا  
والمشربُ الأصفى الذي من ذاقه  
أن لا ترى إلا الحقيقة وحدها

شفَّ الزجاجُ عن السنن الوهاج  
حاجاه بالسرِّ المصون مُحاجي  
ناجاه بالحقِّ المبين مُناجي  
فيه لتأويبٍ ولا إدلاج  
غنته بالأرمال والأهزاج  
في قيءٍ بابٍ دائم الإرتاج  
سارت به قصداً على المنهاج  
فليصبرن لمصرع الحلاج  
فغدا يفيضُ بمنطقٍ لجلاج  
فراه يخطُّ في الظلام الداجي  
فرمت به في بحرها الموج  
فليخلصن من بعد طول هياج  
ما شيبَ عذبُ شرابها بأجاج  
فليرجعن نكساً على الأدرج  
قد أودعت في نطفة أمشاج  
تعرج بها في أرفع المعراج  
فإن اعتصمت به فأنت الناجي  
وإلى الغني أمدد يد المحتاج  
دقتان أنتجتا أصح نجاج  
واقنع من الإسهاب بالإدماج  
من بسط أقوالٍ وطول حجاج  
فقد اهتدى منه بنور سراج  
والكلُّ مضطربٌ إليها لاجي

هذي بدائعُ حكمةٍ أنشأتها  
وسِعَ الأنامَ بفضلِهِ وبعَدلِهِ  
من آلِ نصرٍ نخبَةِ الملكِ الرضى  
من آلِ قبيلةِ ناصرِي خيرِ الورى  
ماذا أقولُ وكلُّ قولٍ قاصرٌ  
منه لباغِي العُرفِ درٌّ فاخرٌ  
دامتِ سعودك في مزيدٍ والمي  
بإشارةِ المولى أبى الحجاجِ  
وبحلمِهِ وبجودِهِ الثَّجَّاجِ  
أمنُ المروعِ هُمُ وغيثُ الراجي  
والخلقُ بين تخاذلٍ ولجاجِ  
في وصفِ بحرٍ زاخرِ الأمواجِ  
ولمن يعادي الدينَ هَوَلٌ فاجي  
تأتيك أفواجاً على أفواجِ

وقال من المطولات :

لمن المطايا في السرابِ سوابجا  
عُوجٌ كأمثالِ القسيِّ ضوامرٌ  
تَقْلِي القفلةِ غوادياً وروائحا  
يرمين في الآفاقِ مَرْمَى نازحا

وقال يمدح ، ويصف مصنعا سلطانياً<sup>١</sup> :

زارت تجرُّ بنخوة<sup>٢</sup> أذيالها  
فالشمسُ من حسدِها مصفرةٌ  
وافتك تمزجُ لينها بقساوةٍ  
كم رمتَ على الأرجاءِ عند مسيرها  
ما واصلتك محبةً وتفضلاً  
لكن توقعتِ السلوَّ فجددتُ  
فَوَحَّبَهَا<sup>٣</sup> قَسَمًا يحقُّ برورهُ  
هيفاء تخلصُ بالنِّفارِ دلالها  
إذ قَصَّرتُ عن أن تكونَ مثالها  
قد أدرجتُ طيَّ العتابِ نوالها  
صحَّتْ دلائلُ لم تُطقْ إعلاها  
أرجأ كأنَّ المسكَ فتَّ خلاها  
لو كان ذلك لواصلتُ إفضالها  
لك لوعةٌ لا تنقي ترحالها  
لتجشمنك في الهوى أهوالها

١ انظر نثير فرائد الجنان : ٢٤١ .

٢ نثير : تجر بنخوة .

٣ ق : فوحقها .



حَسَنَتْ نَظْمَ الشَّعْرِ فِي أَوْصَافِهَا  
 يَا حُسْنَ لَيْلَةٍ وَصَلَهَا ، مَا ضَرَّهَا  
 لَمَّا سَكْرَتْ بِرَيْقِهَا وَجَفُونِهَا  
 هَذَا الرَّيْبُ أَتَاكَ يَنْشُرُ حَسَنَهُ  
 وَاخْلَعُ عَذَارَكَ فِي الْبَطَالَةِ جَاهِحًا  
 فِي جَنَّةٍ تَجْلُو مَحَاسِنَهَا كَمَا  
 شَكَرْتَ أَيَادِي اللَّهِ شُكْرَ الْوَرَى  
 وَصَمِيمِهَا أَصْلًا وَفِرْعَا ، خَيْرَهَا  
 الطَّاهِرَ الْأَعْلَى الْأَمِينِ الْمُرْتَضَى  
 حَازَ الْمَعَالِي كَابِرًا عَنِ كَابِرٍ  
 إِنْ تَلَقَّه فِي يَوْمٍ بِذَلِّ هَيْبَتِهِ  
 أَوْ تَلَقَّه فِي يَوْمٍ جَرِبَ عِدَاتِهِ  
 مَلِكٌ إِذَا مَا صَالَ يَوْمًا صَوْلَةً  
 فَبَسِيْبِهِ وَبَسِيفِهِ نَلَّتْ الْمُنَى  
 الْوَاهِبُ الْآلَافِ قَبْلَ سَوَالِهَا  
 الْقَاتِلُ الْآلَافِ قَبْلَ قِرَاعِهَا  
 إِنْ قَلْتَ بِحَجْرٍ كَفَّهُ قَصَّرْتَ إِذْ  
 مَلَأَ الْبَسِيطَةَ عَدْلُهُ وَأَمَانَهُ  
 وَسَقَى الْبَرِيَّةَ فَيضُ كَفِيهِ فَقَدْ  
 جَمَعَ الْعُلُومَ عُنَايَةً بِعِيُونِهَا  
 مَقْوَلَهَا مَعْقُولَهَا ، وَأَصُولَهَا  
 فَإِذَا عُفَاتِكَ عَايِنُوكَ تَهَلَّلُوا  
 إِذْ قَبَّحَتْ لَكَ فِي الْهَوَى أفعالها  
 لَوْ أَتَبَعْتُ مِنْ بَعْدِهَا أَمْثَالَهَا  
 أَهْمَلْتُ كَأَسْكَ لَمْ تُرِدْ إِعْمَالَهَا  
 فَافْسَحْ لِنَفْسِكَ فِي مَدَاهِ مَجَالِهَا  
 وَأَقْرِنْ بِأَسْحَارِ الْهِنَا أَصَالَهَا  
 تَجْلُو الْعُرُوسُ لَدَى الزَّفَافِ جَمَالَهَا  
 شَرَفَ الْمُلُوكِ هِمَامِهَا مَفْضَالَهَا  
 ذَاتًا وَخُلُقًا ، سَمَّحَهَا بِذَاتِهَا  
 بِحَرَ الْمَكَارِمِ غَيْثِهَا سَلْسَالَهَا  
 وَجَرَى لَغَايَاتِ الْكِرَامِ فَنَالَهَا  
 تَلَقَّ الْعَنَائِمَ أَرْسَلَتْ هَطَّالَهَا  
 تَلَقَّ الضَّرَاعِمَ فَارَقَتْ أَشْبَالَهَا  
 خَلَّتْ الْبَسِيطَةَ زُلْزَلَتْ زَلْزَالَهَا  
 وَاسْتَعْجَلَتْ أَعْدَاؤَهُ أَجَالَهَا  
 فَكْفَى الْعَفَاةَ سَوَالِهَا وَمِطَالَهَا  
 فَكْفَى الْعِدَاةَ قِرَاعِهَا وَنَزَالَهَا  
 شَبَّهَتْ بِالْمَلْحِ الْأَجَاجِ نَوَالَهَا  
 فَالْوَحْشُ لَا تَعْدُو عَلَى مَنْ غَالَهَا  
 عَمَّ الْبِلَادَ سَهُولَهَا وَجِبَالَهَا  
 آدَابِهَا وَحَسَابِهَا وَجِدَالَهَا  
 وَفِرْعَوِيَّهَا ، تَفْصِيلِهَا إِجْمَالَهَا  
 لَمَّا رَأَوْا مِنْ كَفِّكَ اسْتَهْلَالَهَا

وإذا عُداتك أبصروك تيقنوا  
 بددت شملهم بيض صوارم  
 وأبجت أرضهم فأصبح أهلها  
 فتحت إمارتك السعيدة للورى  
 وبنت مصانع رائقات ذكّرت  
 وأجلها قدراً وأرفعها مدى  
 هو جنة فيها الأمير مخلد  
 ولأرض أندلس مفاخر أنتم  
 فحيتهم أرجاءها ، وكفيتهم  
 فبال نصر فاخرت لا غيرهم  
 بمحمد ومحمد ومحمد  
 فهم الألى ركبوا لكل عظمة  
 وهم الألى فتحوا لكل ملمة  
 متقلدون من السيوف عضابها  
 الراكبون من الجياد عرابها  
 أولي عهد المسلمين ونخبة ال  
 إن العباد مع البلاد مقرة  
 فتفك عانيها ، وتحمي سربها

أنّ المنية سلّطت ربها  
 روّيت من علق الكماة نصالها  
 خوراً تغادر نهباً أموالها  
 أبواب بشرى واصلت إقبالها  
 دار النعيم جناتها وظلالها  
 هذا الذي سامى النجوم وظالها  
 بلغت إمارته بها آمالها  
 أربابها أضيفتم سربها  
 أعداءها ، وهديتهم ضلالها  
 لم تعتمد من قبلهم أقبالها  
 قصرت على الخصم الألد نضالها  
 جرداً كسين من النجيع جلالها  
 باباً أزاح بفتحه إشكالها  
 متأبطون من الرماح طولها  
 والضاربون من العدا أبطالها  
 أملاك صفوة محضها وزلالها  
 بفضائل لك مهدت أحوالها  
 وتفيد حلاً دائماً جهالها

وقال يرثي ولده أبا القاسم رحمهما الله تعالى :

هو البين حتماً ، لا لعل ولا عسى  
 فما بال نفسي لم تفيض عنده أسى  
 وما لفؤادي لم يذب منه حسرة  
 فتباً لهذا القلب سرعاناً ما قسا

١ نثر : جزراً .

وما لحنوني لا تفيضُ مُورِداً  
وما للساني مفصحاً بخطابه  
أمنٌ بعد ما أودعتُ روحي في الثرى  
وبعد فراقِ ابني أبي القاسم الذي  
أؤملُ<sup>٢</sup> في الدنيا حياةً وأرتضي  
فأهاً وللمفجوع فيها استراحةً  
على عمُرٍ أنيتُ فيه بضاعتي  
ظلتُ به في غفلةٍ وجهالةٍ  
إلى الله أشكو برح حزني فإنه  
وهدةً خطبٍ نازلتي عشيّةً  
فقد صدّعتُ شملي وأصمتُ مقاتلي<sup>٤</sup>  
ثبتُ لها صبراً لبشدة وقعها  
وأطمعُ أن يلقى برحمته الرضى  
أبا القاسم اسمع شكوى والدك الذي  
وقفتُ فؤادي مذرحت على الأسي  
وقطعتُ آمالي من الناس كلهم  
تواريت يا بدري وشمسي وناظري  
وخلقت لي عيناً من الثكل فادحاً  
أحقاً ثوى ذلك الشبابُ فلا أرى  
فيا غصناً نضراً ثوى عندما استوى  
ويا نعمةً لما تبلغتها انقضت

١ ق : ليقبسا .

٢ ق ص : آمل .

٣ ص : خزيان .

٤ ق : مفاصي .

لَوَدَّعَثَهُ وَالدمْعُ تَهْمِي سَحَابُهُ  
 وَقَبِلْتُ فِي ذَاكَ الْجَبِينِ مَوْدَعًا  
 وَحَقَقْتُ مِنْ وَجْدِي بِهِ قَرَبَ رِحْلَتِي  
 فَيَا رَحْمَةً لِلشَّيْبِ يَسْبِكِي شَبِيبَةً  
 فَلَوْ أَنَّ هَذَا الْمَوْتَ يَقْبَلُ فِدِيَةً  
 وَلَكِنَّ حَكْمًا مِنْ اللَّهِ وَاجِبًا  
 تَعْمَدُكَ الرَّحْمَنُ بِالْعَفْوِ وَالرَّضَى  
 وَأَلَّفَ مِنَّا الشَّمْلَ فِي جَنَّةِ الْعُلَى

وكتب إلى القاضي الشريف وهو بوادي آش :

أَهْزَلًا وَقَدْ جَدَّتْ بِكَ اللَّمَّةُ الشَّمْطَا  
 أَغْرَكَ طَوْلُ الْعَمْرِ فِي غَيْرِ طَائِلٍ  
 رَوِيدًا فَإِنَّ الْمَوْتَ أَسْرَعُ وَافِدٍ  
 فَإِذَا ذَاكَ لَا تَسْطِيعُ إِدْرَاكَ مَا مَضَى  
 تَأَهَّبْ فَقَدْ وَافَى مَشِيئِكَ مَنْذِرًا  
 فَوَافَقْتَ مِنْهُ كَاتِبَ السَّرِّ وَاشْيَاءَ  
 مَعْمَى كِتَابِ فَكُّهُ « أَحْذَرُ » فَهَذِهِ  
 وَإِنْ طَالَمَا خَاضَتْ بِهِ اللَّجَجَ الَّتِي  
 وَمَا زَلْتِ فِي أَمْوَاجِهَا مَتَقَلِّبًا  
 فَقَدْ أَوْشَكَتْ تَلْقِيكَ فِي قَعْرِ حَفْرَةٍ  
 وَلَسْتَ عَلَى عِلْمٍ بِمَا أَنْتَ بَعْدَهَا

وَأَمَّا وَقَدْ سَاوَرْتِ يَا حَيَّةَ رَقَطَا  
 وَسَرَّكَ<sup>١</sup> أَنْ الْمَوْتَ فِي سِيرِهِ أَبْطَا  
 عَلَى عُمْرِكَ الْفَانِي رَكَابِهِ حَطًّا<sup>٢</sup>  
 بِجَالٍ ، وَلَا قَبْضًا تَطِيقُ وَلَا بَسْطًا<sup>٣</sup>  
 وَهِيَ هِيَ فِي فَوْدَيْكَ أَحْرَفَهُ حَطًّا ؛  
 لَهُ الْقَلَمُ الْأَعْلَى يَخْطُ بِهِ وَخَطَا  
 سَفِينَةٌ هَذَا الْعَمْرِ قَارِبَتِ الشُّطَا  
 خَبَطَتْ . بِهَا فِي كُلِّ مَهْلَكَةٍ خَبَطَا  
 فَأَوْنَةٌ رَفْعًا وَأَوْنَةٌ حَطًّا  
 تَشَدُّ عَلَيْكَ الْجَانِبِينَ بِهَا ضَغَطَا  
 مُلَاقٍ ، أَرْضَوَانَا مِنْ اللَّهِ أَمْ سَخَطَا

١ ص : وغرك .

٢ سقط البيت من ق .

٣ وقع البيت بعد تاليه في ق .

٤ وقع البيت ثالثاً في ص .

وأعجبُ شيءٍ منك دعواك في النهي  
 قسّطتَ عن الحقِّ المبينِ جهالةً  
 وطاوعتَ شيطاناً تجيبُ إذا دعا  
 تنأى عن الأخرى، وقد قربتَ مدى  
 وتمنحها حباً وفرطَ صباية  
 فهأ أنت تهوى وصلها وهي فاركٌ  
 صراطُ هدى نكبتَ عنه عمايةً  
 فما لك إلا السيدُ الشافعُ الذي  
 دليلٌ إلى الرحمن ، فانهجُ سبيلهُ  
 محبته شرطُ القبولِ ، فمن خلتُ  
 وما قبيلتُ منه لدى الله قرابةً  
 به الحقُّ وضاحٌ ، به الإفكُ زاهقٌ  
 هو الملجأُ الأحمى ، هو الموثل الذي  
 لقد مازجتُ روعي محبتهُ التي  
 إليك ابنَ خيرِ الخلقِ بنتَ بديهةٍ  
 وحيدةَ هذا العصرِ وافتُ وحيدةً  
 وتلوا آياتِ التشييعِ إنها  
 لك الشرفُ الماثورُ يا ابنَ محمد  
 إلى شرفي دينٍ وعلمٍ تظاهرا  
 ورهطك أهلُ البيتِ ، بيتِ محمدٍ  
 بعثتَ به عقداً من الدرِّ فاخراً  
 وأهديتُ منها للسيادةِ عادةً

وهذا الهوى المردي على العقلِ قد غطى  
 وقد خالفتك النفسُ فادعت القسطا  
 وتقبّلُ إن أغوى ، وتأخذ إن أعطى  
 تداني من الدنيا، وقد أزمعت شحطا  
 وما منحتُ إلا القتادةَ والخِرطاً  
 وتأملُ قرباً من حماها وقد شطاً  
 ودار ردى أوعيت في سُحتها سوطاً  
 له فضلُ جاهٍ كل ما يرتجي يعطى  
 فمن حاد عن نهج الدليلِ فقد أخطأ  
 صحيفتهُ منها فقَدَ فقَدَ الشرطا  
 وما زكت الأعمالُ ، بل حبّطتُ حبطا  
 به الفوزُ مرجوٌ ، به الذنبُ قد حُطّاً  
 به في غدٍ يستشفع المذنبُ الخطأ  
 بقلبي خُطتُ قبل أن أعرف الخطأ  
 تُقبّلُ تبجيلاً أناملك السبطا  
 لتبسطَ من شتى بدائعها بسطا  
 لموثقةً عهداً ومحكمةً ربططاً  
 وحسبك أن تُنمى إلى سبطه بسطا  
 تبارك من أعطى وبورك في المعطى  
 فأعظمُ به بيتاً ، وأكرمُ به رهطاً  
 وذكرُ رسولِ الله دُرتهُ الوُسْطى  
 نظمتُ من الدرِّ الثمينِ بها سِمْطاً

١ هذه قراءة ص ؛ وفي ق : شحما شرطاً .

وحاشيتها من كل ما شأنها ، فإن  
وفي الطيين الطاهرين نظمتهُ  
عليك سلامُ الله ما ذرَّ شارقُ  
تَجَعَّدَ حُوشِي تَجَدُّ لفظها سبطا  
فساعدَها من أجل ذلك حرفُ الطا  
وما رددت ورقاء في غصنٍ لفظا

وقال :

للهِ عَصْرُ الشَّابِ عَصْرًا  
حَفِظْتُ مَا شَتُّ فِيهِ حَفْظًا  
حَتَّى إِذَا مَا الْمَشِيبُ وَافِي  
لَا تَعْتَنُوا بَعْدَهَا بِحَفْظِ  
فَتَحَّ لِلخَيْرِ كُلِّ بَابِ  
كُنْتُ أَرَاهُ بِلَا ذَهَابِ  
نَدَّ وَلَكِنْ بِلَا إِيَابِ  
وَقِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ

وقال :

يَا أَيُّهَا الْمَسْكُ الْبَخِيلُ  
أَنْفَقْ وَثِقْ بِالْإِلَهِ تَرْبِحْ  
وَقَدِّمِ الْأَقْرَبِينَ وَاذْكُرْ  
إِلْهُكَ الْمَنْفِقُ الْكَفِيلُ  
فَلِمَنْ إِحْسَانُهُ جَزِيلُ  
مَا رُوِيَ أَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ

وقال :

وقائلة لِمَ عراك المشيبُ  
فقلت لها لم أشيب كبرةً  
وما إن بعهد الصبا من قديمٍ  
ولكنه الهمة نصف الهرم

وقال :

أيعتادني سقمٌ وأنت طيبُ  
يقيني أن الله جلَّ جلاله  
وتبعدُ آمالي وأنت قريبُ  
يقيني فراجي الله ليس يخيبُ

وقال :

هي النفسُ إنْ أنتَ ساحتها  
رمتُ بك أقصى مهاوي الخديعة

وإن أنتَ جشمتها خُطَّةٌ  
فإن شئت فوزاً فناقضْ هواها  
ولا تعبانَ ببيعادها  
وقال :

من أنت يا مولى الورى مقصودهُ  
فليشهدنك له فؤادٌ صادقٌ  
وليفنينَ عن نفسه ورسومه  
وليحفظنهُ بارقٌ يرقى بهِ  
حتى يظلَّ وليس يدري دهشةُ  
لكنه ألقى السلاحَ مسلماً  
فلقد تساوى عنده إكرامهُ

وقال ملغزاً في حجل<sup>١</sup> :

حاجيتُ<sup>٢</sup> كلَّ فطينٍ لبيبٍ  
ذاتِ كراماتٍ فررها قربةُ  
تشرکہا في الاسمِ أنثى لم تزلْ  
وقد جرى في خاتمِ الوحي الرضى  
وهو إذا ما الفاءُ منه صُحِّفتْ  
فهاكها واضحةٌ أسرارها  
وقال أيضاً في آب :  
ما اسمٌ لأنثى من بني يعقوبِ<sup>٣</sup>  
فزورها أحقُّ بالتقريبِ  
حافظةٌ لسرها المحجوبِ  
لها حديثٌ ليس بالمكذوبِ  
صبغُ الحياءِ لا الحياءِ المسكوبِ  
فأمرها أقربُ من قُريبِ

١ الكتيبة الكامنة : ١٨٩ .

٢ الكتيبة : خاطبت .

٣ يعقوب : ذكر الحجل .

٤ يعني فاء الكلمة وهو حرف الحاء .

حاجيتكم ما اسمٌ عَلَّمٌ ذو نسبةٍ إلى العجمِ  
 يخبرُ بالرجعةِ وهِ وراجعٌ كما زعمُ  
 وصفُ الحبيبِ هو بالةِ صحيفٍ أو بلدٌ قَسَمُ  
 دونكه أوضح من نارٍ على رأسِ علمِ

وقال في كانون :

وما اسمٌ لسمينِ ولم يجمعهما جنسُ  
 فهذا كَلَمًا يأتي فبالآخرِ لي أنسُ  
 وهذا ما له شخصٌ وهذا ما له حسُ  
 وهذا ما له سَوَمٌ وهذا قيمتهُ فلسُ  
 وهذا أصله الأرضُ وهذا أصله الشمسُ  
 وهذا واحدٌ من سبِمةٍ تحيا بها النفسُ  
 فمن محموله الجنُّ ومن موضوعه الإنسُ  
 فقد بانَ الذي ألغز تُمًا في أمره لبسُ

وقال في سلمٍ :

ما اسمٌ مركَّبٌ مفيدُ الوضعِ مستعملٌ في الوصلِ لا في القطعِ  
 يُنصَبُ لكن أكثر استعمالِ من يُعنى به في الخفضِ أو في الرفعِ  
 هو إذا حَقَّقْتَهُ مغيراً<sup>١</sup> تراهُ شمالاً لم يزلْ ذا صدعِ  
 فالاسمُ إن طلبته تجده في خامسةٍ من الطوالِ السبعِ<sup>٢</sup>  
 وهو إذا صَحَّفْتَهُ يعربُ عن مكسَّرٍ في غيرِ بابِ الجمعِ<sup>٣</sup>

١ الكنية : وهو إذا صفرته مخففاً .

٢ إشارة إلى الآية « أو سلماً في السماء » (الأنعام : ٢٥) .

٣ إذا صحف « سلم » أصبح « يثلثم » أي يتكسر .



له أخٌ أفضلٌ منه لم تزلْ آثاره محمودةٌ في الشرع<sup>١</sup>  
 هما جميعاً من بني النجارِ والأفـ  
 ضلُّ أصلٌ في حينِ الجذع<sup>٢</sup>  
 لا سيّما لكلِّ زاكي الطبعِ  
 فهما قد سَطَعَتْ أنوارُهُ  
 وقال في مائدة :

حاجبتُ كلَّ فطينٍ نظارِ  
 وفي كتابِ الله جاء ذكرُها  
 ما اسمٌ لأنثى من بني النجارِ  
 فقلّما يغفلُ عنها القاري  
 في خَبرِ المهديِّ فاطلبها تجدُ  
 إن كنتَ من مطالعي الأخبارِ  
 ما هي إلا العيدُ عيدُ رحمةِ  
 ونعمةِ ساطعةِ الأنوارِ  
 يشركها في الاسمِ وصفٌ حسنٌ<sup>٣</sup>  
 من وصفِ قُضْبِ الروضةِ المعطارِ<sup>٣</sup>  
 فهما كالشمسِ في وقتِ الضُّحى  
 قد شَفَّ عنها حُجُبُ الأستارِ

ثم قال لسان الدين : وأما نثره فمطولات عرفت بما تحللها من الأحوال  
 متونها ، وقلّت لمكان البديهة والاستعجال عيونها ، وقد اقتنصت جزءاً منها سميت  
 « تافه من جم ونقطة من يم » وولد بغرناطة في جمادى الأولى عام ثلاثة وسبعين  
 وستمائة ، وتوفي ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من شوال عام تسعة وأربعين  
 وسبعمائة ، وأنشدت من نظمي في رثائه خامس يوم دفنه على قبره هذه القصيدة :

ما لليراع خواضِعَ الأعناقِ طَرَِقَ النعيِّ فهن في إطراقِ  
 وكأتما صَبَغَ الشحوبُ وجوها  
 ما للصحائفِ صَوَّحَتْ روضاتها أسفاً وكنَّ نضيرةَ الأوراقِ  
 ما للبيانِ كُؤوسُهُ مهجورةٌ غفلَ المديرُ لها ونامَ الساقِ

١ أخوه هو المنبر .

٢ من بني النجار : من صنع النجار .

٣ أي أن قُضْبِ الروض تميم فهي « مائدة » أي متمايلة .

ما لي عدمتُ تجلّدي وتصبري  
 خطبُ أصابَ بني البلاغةِ والحجبي  
 أمّا وقد أودى أبو الحسن الرضى  
 كنزُ المعارفِ لا تبيدُ نفودُهُ  
 منَ اللبدائعِ أصبحتُ سمر السرى  
 منَ الليراعِ يجيلُ منَ خطيّها  
 قُضِبُ ذوابلُ مشمراتُ بالمنى  
 منَ للرقاعِ الحمرِ يجمعُ حسنُها  
 تغتالُ أحشاءُ العدوِّ كأنها  
 وتهزُّ أعطافَ الوليِّ كأنها  
 منَ للفتونِ يجيلُ في ميدانها  
 منَ للحقائقِ أبهتُ أبوابها  
 منَ للمساعيِ الفرّ تقصدُ جاهه  
 كم شدّ من عقْدٍ وثيقِ حكمه  
 رَحِبُ الذراعِ بكلِّ خطبِ فادحِ  
 صعبُ المقادةِ في الهوادةِ والهوى  
 ركبُ الطريقِ إلى الجنانِ وحورها  
 فاعجبُ لأنسٍ في مظنةِ وحشةِ  
 أمطيّباً بمحامدِ العملِ الرضى  
 ما كنتُ أحسبُ قبلَ نعشكُ أن أرى  
 ما كنتُ أحسبُ قبلَ دفنكُ في الثرى  
 يا كوكبَ الهدى الذي من بعدهِ  
 يا واحداً مهما جرى في حلبةِ

والصبرُ في الأزمانِ من أخلاقِ  
 شبُّ الزفيرِ به عن الأطواقِ  
 فالفضلُ قد أودى على الإطلاقِ  
 يوماً ولا تفتى على الإنفاقِ  
 ما بينَ شامِ للورى وعراقِ  
 سمّ العدا ومفتاحِ الأرزاقِ  
 وأراقمُ ينفثنُ بالترباقِ  
 خجلَ الحدودِ وصبغةِ الأحداقِ  
 صفحاتُ داميةِ الفرارِ رفاقِ  
 راحُ مشعشةُ براحه ساقِ  
 خيلَ البيانِ كريمةِ الأعراقِ  
 للناسِ يفتحها على استغلاقِ  
 حرماً فينصرها على الإخفاقِ  
 في الله أو أفتى بجلِّ وثاقِ  
 أعيتُ رياضتهُ على الخداقِ  
 سهلُ على العافينِ والطُّراقِ  
 يلقينه بتصافحِ وعناقِ  
 ومقامِ وصلِ في مقامِ فراقِ  
 ومكفناً بمكارمِ الأخلاقِ  
 رضوى تسيرُ به على الأعناقِ  
 أن اللهودَ خزائنُ الأعلامِ  
 ركدةِ الظلامِ بهذه الآفاقِ  
 جلّى بغرةِ سابقِ السباقِ

يا ثاوياً بطنَ الضريحِ وذكره  
يا غوثَ من وصلَ الصريحَ فلم يجدْ  
ما كنتَ إلا ديمةً منشورةً  
ما كنتَ إلا روضةً مطورةً  
يا مزماً عنا العشيَّ ركابُهُ  
رفقاً أبانا جلَّ ما حملتنا  
واسمخُ ولو بمزارٍ لقيا في الكرى  
وإذا اللقاءُ تصرمت أسبابُهُ  
عجباً لنفسٍ ودعتك وأيقنتُ  
ما عذرها إن لم تقاسمك الردى  
إن قصرتُ أجفاننا عن أن تُرى  
واستوقفتُ دهشاً فإنَّ قلوبنا  
ثقُ بالوفاءِ على المدى من فتيةٍ  
سَجَعَتْ بما طوقتها من منةٍ  
تبكي فراقك خلوةً عمَّرتها  
أمّا النناءُ على علاك فذائعُ  
واللهُ قد قرَنَ النناءَ بأرضه  
جادت ضريحك ديمةً هطالةً  
وتغمدتك من الإلهِ سعادةً  
صبراً بتي الحِيَابِ إنَّ فقيدكم  
وإذا الأسى لفتح القلوب أوارهُ

أبدأ رفيقُ ركائبِ ورفاقِ  
في الأرضِ من وَّزَرَ ولا من واقِ  
من غيرِ إرعادٍ ولا إبراقِ  
ما شئتَ من ثمرٍ ومن أوراقِ  
هلاًّ ثويتَ ولو بقدر فوآقِ  
لا تنسَ فينا عادةَ الإشفاقِ  
تُبقي بها منّا على الأرماقِ  
كان الخيالُ تعلّةَ المشتاقِ  
أن ليس بعد نواكٍ يوم تلاقي  
في فضلِ كأسٍ قد شربتَ دهاقِ  
تبكي النجيعَ عليك باستحقاقِ  
نهضتُ بكلِّ وظيفةِ الآماقِ  
بك تقتدي في العهدِ والميثاقِ  
حتى زرتُ بحمامِ الأطواقِ  
بالذكرِ في طَفَلٍ وفي إشراقِ  
قد صحَّ بالإجماعِ والإصفاقِ  
بثنائه من فوق سبعِ طباقِ  
تبكي عليه بواكفِ رِقراقِ  
تسمو بروحك للمحلِّ الراقي  
سيرٌ مقدّمهُ بما هو لاقِ  
فالصبرُ والتسليمُ أيُّ رواقِ

وأُشد في هذا الغرض الفقيه أبو عبد الله ابن جرّي :

ألم تر أن المجدد أقوت معالمه  
 هوى من سماء العلوات هلالها  
 وثلثت من الفخر المشيد عروشهُ  
 وعطّل من حلّي البلاغة قسّتها  
 أجلّ إنّه الخطبُ الذي جلّ وقعه  
 وإلا فما للنوم طار مطاره  
 وما لصباح الأتس أظلم نوره  
 وما لدموع العين فضّت كأنّها  
 قضى الله في قطب الرياسة أن قضى  
 ومن قارع الأيام سبعين حجة  
 وفي مثلها أعيا النطاسيّ طبه  
 تساوى جوادٌ في ردها وباخل  
 وما نفعت ربّ الجياد كرامهُ  
 وكلُّ تلاقٍ فالفراقُ أمامه  
 وكيف مجالُ العقلِ في غير منقذ  
 ليّبك علياً مستجيرٌ بعدله  
 ليّبك علياً مائحٌ بجرّ علمه  
 ليّبك علياً مُظهرٌ فضل نصّحه  
 ليك علياً معترفٌ جود كفته  
 ليك علياً ليله وهو قائم  
 ليك علياً فضل كل بلاغة  
 وشخصٌ ضئيلٌ الجسم يرهبُ نفثه

فأطنابهُ قد قوّضت ودعائمه  
 وخانت جوادَ المكرمات قوائمه  
 وفلّت من العزّ المنيع صوارمه  
 وعُرّي من جود الأنامل حاتمهُ  
 وتلّم غرب الدين والعلم هاجمه  
 وما للزيم الحزن قصّت قوادمه  
 وما لمحيا الدهر قطب باسمه  
 فواقع زهرٍ والجفون كرائمهُ  
 فشتت ذاك الشمل من هو ناظمهُ  
 ستنبو غرراه ويندق قائمه  
 وضلّ طريق الحزم في الرأي حازمه  
 فلا الجود وأقيه، ولا البخل عاصمه  
 ولا منعت منه الغني كرائمهُ  
 وكلُّ طلوعٍ فالغروب ملازمهُ  
 إذا كان باني مصنع هو هادمهُ  
 يُصاخ لشكواه ويمنع ظالمهُ  
 يُروى بأنواع المعارف هائمهُ  
 يُحلاّ عن ورد المآثم حائمهُ  
 يواسيه في أمواله ويقاسمه  
 يكابده أو يومه وهو صائمهُ  
 يخلده في صفحة الطرس راقمه  
 ليوث الشرى في خيسها وضراغمهُ<sup>١</sup>

١ في هذا البيت كناية عن القلم .

تكفل بالرزق المقدّر للورى  
يسده سهماً وينضوه صارماً  
إذا سال من شقيه سائل حيره  
ليك عليه اليوم من كان باكياً  
تقلد منه الملك عصب بلاغة  
وقلده منى الوزارة فاكتمى  
ففي يده وهو الزعيم بحقها  
سخي على العافين سهل قياده  
إذا ضلت الآراء في ليل حادث  
وقام بأمر الدين والمملك حامياً  
وقد كان نيط العلم والحلم والتقى  
ودوخ أعناق الليالي بهمة  
وزاد على بعد المنال تواضعاً  
سقى الغوادي؛ أي علم وحكمة  
وما زال يستسقى بدعوتك الحيا  
بكت فقدك الكتاب إذ كان شملهم  
وطوّقتهم بالبر ثم سقيتهم  
ويكيك مني ذاهب الصبر موجع  
فتى نال منه الدهر إلا وفاءه  
عليل الذي زرت عليه جيوبه  
فقد كنت ألقى الخطب منه بجنة  
سأصبر مضطراً وإن عظم الأسى  
وأهديك إذ عز اللقاء تحية

إذا الله أعطى فهو في الناس قاسمه  
ويشرعه رحماً فكل يلائمه  
بما شاء منه سائل فهو عالمه  
فتلك مغايبه خلكت ومعالمه  
يقد السلوقي المضاعف صارمه  
بها ألمعي حازم الرأي عازمه  
براعته والمشرقي وخاتمه  
أبي على العادين صعب شكائمه  
رأها برأي يصدع الخطب ناجمه  
فذل معاديه وضل مراغمه  
به وهو ما نيطت عليه ثائمه  
بيت ونجم الأفق فيها يزاحمه  
أبى الله إلا أن تم مكارمه  
ودين متين ذلك القبر كائمه  
وها هو يستسقى لقبرك ساجمه  
يؤلفه من دوح فضلك ناعمه  
نداك فكنت الروض ناحت حائمه  
توقد في جنبيه للحزن جاحمه  
فما وهنت في حفظ عهد عزائمه  
قريح الذي شدت عليه حزائمه  
تعارض دوني بأسه وتصادمه  
أحارب حزني مرة وأسأله  
وطيب ثناء كالعبير نواسمه

وأُشَدُّ الفقيه القاضي أبو جعفر ابن جزِيّ قصيدة أولها :

أبشكما والصبرُ للعهدِ ناكثُ حديثاً أملتُهُ عليَّ الحوادثُ

وأُشَدُّ القاضي أبو بكر ابن علي القرشي قصيدة أولها :

هي الآمالُ غايتها نفاذُ وفي الغاياتِ تمتازُ الجيادُ

وأُشَدُّ الفقيه الكاتب القاضي أبو القاسم ابن الحكم قصيدة أولها :

ليَسَعَ الحِجَى والحلمَ مَنْ كان ناعياً ويرعَ العُلا والعلمَ من كان راعياً

قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض ، فكان هذا التأين غريباً لم يتقدم به عهد بالحضرة لكونها دار ملك ، والتجلة في مثل هذا مقصورة على أولي الأمر ؛ انتهى ما لخصته من ترجمته في « الإحاطة » .

ولتزد فنقول : ومن أغازه في الدرهم :

ما بغيضٌ إلى الكرام خصوصاً وحيبٌ إلى الأنامِ عموماً  
فاعجبوا منه كيف يحمي ويحمي ويكفُّ العدا ويغني العديماً  
إن تغيرَ شطريه فالأولُ اسمٌ ويكونُ الثاني كبيرَ أناسٍ  
فإذا ما قلبتَ أولَ شطري ردّاً منطوقَ لغزه مفهوماً  
وإذا ما قلبتَ ثانيَ شطري كان كفاً وليس كفاً رقيماً  
قلبه بعد حذفك الفاء منه هو شيءٌ يحلّلُ التحريماً  
أو صغيرٌ مستحسنٌ لم يؤدّبْ إن تعلّمه يقبلُ التعليماً  
فلتبيّنْ ما قلتهُ ولتعيّنْ وبه فلتنقِمْ مقاماً كريماً

وقال في المسك :

ما طاهرٌ طيبٌ ولكنْ  
 من الطُّبَّاءِ الحسانِ لكنْ  
 نصٌّ حديثُ الرسولِ فيه  
 تصحيفُهُ بعدَ حذفِ حرفٍ  
 ما أصله من ذوي الطهارة  
 إذا تأملتَه ففارة  
 شهادةٌ تقضي بِشارة  
 منزك الأهلُ العماره

يعني مبنى .

وقال في فلك :

ما اسمٌ لشيءٍ مُرتقي  
 إذا حذفتَ فاءه  
 في مغربٍ ومشرقٍ  
 كان لك الذي بقي

وقال أيضاً في الفنار :

ما اسمٌ إذا حذفتَ منه  
 فإنه ابنةُ الزنا  
 فاءه المنوعة  
 مضافةً لأربعة

يعني ابنة الزناد ، وهي النار .

وقال في النوم :

ما اسمٌ مسماهُ به  
 وإن دخلتَ البيتَ بالتص  
 وإن أردتَ شبهه  
 بينه فهو في كتا  
 يُسقطُ حُكْمَ التكليفِ  
 حيفِ حقِّ التعنيفِ  
 فقلُّبه بالتصحيفِ  
 ب الله بادي التعريفِ

وقال في غزال :

حاجيتكم ما اسمٌ شيءٍ  
 له محاسنٌ شتى  
 يروقُ في الوصفِ حسنا  
 منها فرادى ومثنى

له بل الشعرُ أنثى  
 أتاك حرفاً لمعنى<sup>٢</sup>  
 زال الذي منه<sup>١</sup> يعنى  
 فالقتلُ أدهى وأفنى  
 ولغوُ صبّ معنى  
 جهادُ فيه تَسَنَّى  
 قد فاق عقلاً وذهنا

.....  
 مهما تَنَلَهُ بحذف  
 إن زال أولُ حرفٍ  
 أو زالَ ثانيه منه<sup>١</sup>  
 أو زالَ ثالثه فه  
 أو زالَ رابعه<sup>٢</sup> فال  
 فأوضحِ القصدَ يا مَنْ

وقال في النمل :

ما حيوانٌ اسمه<sup>١</sup>  
 وهو إذا قلبته  
 وإن تصحّف اسمه  
 قد جاء في الذكر الحكيم<sup>٢</sup>  
 لمن به أنتَ عليم<sup>٣</sup>  
 فبعضُ أوصافِ اللثيم

وقال في دواة :

وما أنثى بها رَعِيُ الرعايا  
 وتقصدُها بنوها من رضاعٍ  
 لها اسمٌ إن أزلت النقطَ منه  
 وإن أبدلتَ آخره بهمزٍ  
 وإن بدلتَ أوله بنونٍ  
 فأوضحُ ما رمزناه بفكرٍ

وإمضاء المنايا والقضايا  
 إذا انبعثوا لإبرامِ القضايا  
 فعذُ بالله من شرِّ البلايا  
 فقد أبرأتَ نازلةَ الشكايا  
 أتيتَ ببعضِ أرزاقِ المطايا  
 سديدِ القصدِ مُبدٍ للخفايا

وقال في سفينة :

ما ذاتُ نفعٍ وغنَاءٍ عظيمٍ  
 لها حديثٌ في الزمانِ القديمِ<sup>١</sup>

بياض في ق ص .

تبدل هذا العجز مع العجز التالي في ق .



أوحى بها الله إلى عبده  
وعاها فيما مضى صالح<sup>١</sup>  
وفي كتاب الله ترددها  
إن أنت صحفتَ أسماها تلقه  
أو هو فعل<sup>٢</sup> لك فيما مضى  
فهاكه قد لاح برهانه  
وقال أيضاً في المسك :

كتبتُم كثيراً ولم تكتبوا  
فما اسمُ جرى ذكره في الكتابِ  
ففيها مُصحفٌ مقلوبه  
وليست بغادية فاعلموا  
كهذا الذي سُبِّله واضحة<sup>١</sup>  
فإن شئت فاقرا الفاتحة<sup>٢</sup>  
يعبر عن حالة صالحه<sup>١</sup>  
ولكنها أبداً رائحه<sup>٢</sup>  
ويعني بقوله في الفاتحة قوله أول الأبيات « كتبتُم » فافهم .

وقال في صقر :

حاجيتكم ما اسمُ لبعض السباع<sup>١</sup>  
وعكسه إن شئت عكساً له  
وإن تصحفتَ بعد قلب له  
فبين الإلغازَ وارفع لنا  
تصحيفه<sup>٢</sup> ما لك فيه انتفاع<sup>١</sup>  
يوجد لكن عند دور السماع  
فمذهب يعزى لأهل النزاع<sup>٢</sup>  
بنور فكرٍ منك عنه القناع

وقال في الحوت :

ما حيوان<sup>١</sup> في اسمه إن اعتبرته فنون<sup>٢</sup>

١ يشير إلى أن الرجل الصالح عاب السفينة التي كانت لغلامين يتيمين كما جاء في سورة الكهف .  
٢ تصحيف صقر بعد قلبه هو « رفض » أي مذهب الرفض .

أحرفه ثلاثة<sup>١</sup> والكل منها هو نون  
 إن أنت صحفت اسمه  
 أو أبيض أو أسود  
 قلب اسمه مصحفاً  
 كانت به فيما مضى  
 أودع فيه زمناً  
 فهাকে كالنار في الـ  
 الكلب منها هو نون  
 فما جناهُ المذنبون<sup>١</sup>  
 أو صفة النفس الخؤون  
 عليه دارت السنون  
 عبرة قوم يعقلون  
 سر من السر المصون  
 زندي له فيها كمن

وقال في لبن :

أفديك ما اسم إذا ما  
 وإن تصحفت بعكس  
 والاسم يعرب عما  
 في النحل يلفى ولكن  
 فليس للنحل أصل  
 فهাকে قد تبدى  
 صحفته فهو سبع  
 ففيه للقطب شرع  
 لديه ري وشبع  
 لا يتقى فيه لسع  
 ولا لها فيه فرع  
 لحجبه عنه رفع

وقال في القلم :

ومأموم به عرف الإمام  
 له إذ يرتوي طيشان صاد  
 ويذري حين يستسقي دموعاً  
 كما باهت بصحبته الكرام  
 ويسكن حين يعروه الأوام  
 يرقن كما يروق الإبتسام

وله - رحمه الله تعالى - كثير من هذا ، ولم أر أحداً أحكم الإلغاز مثلما  
 أحكمه ابن الجياب المذكور ، ولولا الإطالة<sup>٢</sup> لذكرت منها ما يستدل به على

١ تصحيف حوت هو « حوب » أي الذنب .

٢ ق : خشية الإطالة .

صحة الدعوى ، وفيما ذكرنا كفاية .

ومن نظم الرئيس ابن الجياب المذكور في رثاء عمر بن علي بن عتيق القرشي

الهاشمي الغرناطي قوله :

قُضِيَ الأمرُ فإِنا نَفْسُ اصْبِرِي      صَبِرَ تَسْلِيمٍ لِحُكْمِ القَدْرِ  
وعِزَاءُ يا فِؤادِي إِنَّهُ      حُكْمُ مَلِكٍ قَاهِرٍ مَقْتَدِرٍ  
حِكْمَةٌ أَحْكَمُها تَدْبِيرُهُ      نَحْنُ مِنْها فِي سَبِيلِ السَّفَرِ  
أَجَلٌ مَقْدَرٌ لَيْسَ بِمَسْ      تَقْدَمُ يَوْمًا وَلَا مَسْتَأْخِرُ  
أَحْسَنَ اللهُ عِزَاءَ كُلِّ ذِي      خَشْيَةٍ لِرَبِّهِ فِي عَمْرِ  
فِي إِمَامِنَا التَّقِيِّ الخَاشِعِ      الطَّاهِرِ الذَّاتِ الزَّكِيِّ النُّبِيِّ  
قَرَشِيِّ هَاشِمِيِّ مُنْتَقِي      مِنْ صَمِيمِ الشَّرَفِ المَطْهَرِ  
يَشْهَدُ اللَّيْلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ      دَائِمُ الذِّكْرِ طَوِيلُ السَّهْرِ  
فِي صَلَاةٍ بَعَثَ وَفُودَها      زَمْرًا لِلْمَصْطَفَى مِنْ مَضَرِ  
قَائِمًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا      لَطْلُوعِ فَجْرِهِ المُنْفَجِرِ  
جَمَعَ الرَّحْمَنُ شَمْلَنَا غَدًا      بِجَبِيبِ اللهِ خَيْرِ البَشَرِ  
وَتَلَقَّتْهُ وَفُودُ رَحْمَةِ اللهِ      إِذِ تَأْتِي بِالرَّضَى وَالبُشْرِ

قلت : هذا النظم - وإن برد بما فيه من الزحاف - فله من الوعظ وذكر

الله ورسوله صلى الله عليه وسلم خير لحاف .

قال لسان الدين : ولما نظم القاضي أبو بكر ابن شبرين بيت الكتابة ومألف

الجملة هذين البيتين :

ألا يا محبَّ المصطفى زدْ صِباةً      وضمَّحْ لسانَ الذِّكْرِ مِنْكَ بِطِيبِهِ  
ولا تَعْبَانُ بِالْمَبْطِلِينَ فَإِنَّمَا      عَلامَةُ حُبِّ اللهِ حُبُّ حَبِيبِهِ

وأخذ الأصحاب في تذييل ذلك ، قال الشيخ الرئيس أبو الحسن ابن الجياب

حمه الله تعالى ورضي عنه :

فَمَنْ يَعْمُرُ الْأَوْقَاتَ طَرّاً بِذِكْرِهِ  
وَمَنْ كَانَ عَنْهُ مَعْرُضاً طَوَّلَ ذِكْرَهُ  
وقال أبو القاسم ابن أبي العافية :

أليس الذي جلتى دجى الجهل هديه  
ومن لم يكن من ذاته شكر منعم  
بنور أقمنا بعده نهدي به  
فمشهده في الناس مثل مغيبه  
وقال أبو بكر ابن أرقم :

نبيُّ هَدَانَا مِنْ ضَلَالٍ وَحَيْرَةٍ  
فَهَلْ يَنْكُرُ الْمَلْهُوفُ فَضْلَ مَجِيرِهِ  
إلى مرتقى سامي المحلّ خصيبه  
ويغمطُ شاكي الداء شُكْرَ طَبِيبِهِ  
فانتهى القول إلى الخطيب أبي محمد ابن أبي المجد فقال :

ومن قال مغروراً حجابك ذكره  
وذكرُ رسولِ الله فرضٌ مؤكّدٌ  
فذلك مغمورٌ طريدٌ عيوبه  
وكلُّ محقٍّ قائلٌ بوجوبه  
وقال يوماً الشيخ أبو الحسن ابن الجياب تجربة للخاطر على العادة :

جاهد النفس جاهداً فإذا ما  
وليكنَّ حُكْمُهَا الْمَسْدَدُ فِيهَا  
فنيتُ منكَ فهو عينُ الوجودِ  
حُكْمَ سَعْدٍ فِي قَتْلِهِ لِلْيَهُودِ  
فأجابه أبو محمد ابن أبي المجد بقوله :

أيها العارفُ المعبّرُ ذوقاً  
إنَّ حالَ الفناء عن كلِّ غيرِ  
عن معانٍ عزيزةٍ في الوجودِ  
كقمامِ المراد غيرِ المریدِ  
كيف لي بالجهادِ غيرَ مُعَانٍ  
وعدويّ مظاهرٍ بجنودِ

ولو أنتي حكمتُ فيمن ذكرتم      حكمَ سعدٍ لكنتُ جدَّ سعيدِ  
فأراها حجابةً بي فتوناً      وأراني في حبِّها كيزيدِ  
سوف أسلو بنصحكم عن هواها      ولو أبدتُ فعلَ المحبِّ الودودِ  
ليس شيء سوى إلهيكَ يبقى      واعتبر صدقَ ذا بقولِ ليدي

[ ترجمة ابن أبي المجد ]

وابن أبي المجد المذكور هو عبد الله بن عبد البر بن علي بن سليمان بن محمد بن محمد بن أشعب الرعيي<sup>٢</sup> ، من أرجدونة من كورة رية ، يكنى أبا محمد ويعرف بابن أبي المجد ، كان من أعلام الكورة سلفاً وصلاحاً ونية في الصالحين ، كثير الإيثار بما تيسر ، هليح التخلق ، حسن السمّت ، طيب النفس ، حسن الظن ، له حظ من الأدب والفقه والقراءات والفرائض ، وخوض في التصوف ، قطع عمره خطيباً وقاضياً ببلده ووزيراً ، قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير وابن فضيلة المعافري وابن رشيد ، وأجازه طائفة كبيرة ، توفي ليلة النصف من شعبان عام تسعة وثلاثين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى .

[ رجع إلى ابن الجياب ]

ومن نظم ابن الجياب ما كتب على باب المدرسة العلمية بقرناطة :

يا طالبَ العلم هذا بابهُ فُتِحَا      فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضُحِي  
واشكرْ مجيرك من حلٍّ ومرتحلٍ      إذ قرَّبَ اللهُ من مرماكَ ما نرْحَا  
وشرفتُ حضرةُ الإسلامِ مدرسةً      بها سبيلُ الهدى والعلم قد وضحا

١ يشير إلى قول ليبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

٢ ترجمة ابن أبي المجد في الكتيبة الكامنة : ٥٢ ؛ وفي ص : ابن أبي أشعث .

أعمالُ يوسفَ مولانا ونيتِه - قد طرّزتُ صحفاً ميزانها رجحا  
ومنه قوله :

أبى الله إلاّ أن تكون اليدُ العليا وإن هي عضتْها بنوبِ نوابِ  
لأندلسٍ من غيرِ شرط ولا ثنيا فصيرتِ الشهدَ المشورَ بها شرياً  
فما عدمتُ أهلَ البلاغةِ والحجى يقيمون فيها الرسمَ للدين والدنيا  
إذا خطبوا قاموا بكلِّ بليغةٍ تجلّي القلوبَ الغُلفَ والأعينَ العميا  
وإن شعروا جاءوا بكلِّ غريبةٍ تحالُ النجومَ النيراتِ لها حلتيا  
فأسألُ في الدنيا من الله ستره علينا وفي الأخرى إذا حانت اللقيا

وقال أبو الحسن ابن الجياب :

أرى الدهرَ في أطوارهٍ متقلباً فلا تأمننَّ الدهرَ يوماً فتُخذعا  
فما هو إلا مثلما قال قائلٌ : «مِكْرٌ مِفْرٌ مقبلٌ مدبرٌ معا»

وحكي أنه أهدى له الفقيه ابن قطبة رماناً ثم دخل عليه عائداً ، فلما رآه  
قال له : يا فقيه ، نعم بالهدنة زمانك ، أراد : نعمت الهدية زمانك ، وكان هذا قبل  
موته من مرضه ببسير ، وهو ممّا يدل على ثبوت ذهنه حتى قرب الموت ، ساعه  
الله تعالى .

ومن نثر ابن الجياب رحمه الله تعالى ما كتبه عن سلطانه إلى بعض سلاطين  
وقته ، وهو السلطان أبو سعيد المريني صاحب فاس ، ونصّه : «المقامُ لدى الملك  
المنصور الأعلام ، والفضل الثابت الأحكام ، والمجد الذي أشرقت به وجوه  
الأيام ، والفخر الذي تُتدارسُ أخباره بين الركن والمقام ، والعز الذي تعلو به  
كلمة الإسلام ، مقام محل الأب الواجب الإكبار والإعظام ، السلطان الكذا أبقاه

الشري : الحنظل .

الله في ملك منبع الذمار ، وسعد باهر الأنوار ، ومجد رفيع المقدار ، وسلطان عزيز الأنصار ، كريم الآثار والآثار ، كفيل بالإعلاء لدين الله والإظهار ؛ مُعَظَّم مقامه وموقره ، ومُجِلُّ سلطانه ومُكَبِّرُه ، المثني على فضله الذي أربى على ظاهره مضمرة ، الشاكر لمجده الذي كرم أثره ، المعتدّ بأبوته العلية في كل ما يقدمه ويؤخره ، ويورده ويصُدِّره ، الداعي إلى الله تعالى بطول بقائه في سعد سامٍ مظهره ، حامٍ عسكره ، فلان : سلام كريم ، طيب عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ورحمة الله وبركاته .

« أما بعدَ حمد الله الذي أولاكم ملكاً منصوراً ، وفخراً مشهوراً ، وأحيا بدولتكم العلية لمكارم الأخلاق ذكراً منشوراً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي اختاره بشيراً ونذيراً ، وشرح بهديته صُدُوراً ، وجعل الملأ الأعلى له ظهيراً ، والرضى عن آله وصحبه الذين ظاهره في حياته ، وخلفوه في أمته بعد وفاته ، فنالوا في الخالين فضلاً مسطوراً ، وأجرأ موفوراً ، والدعاء لمقامكم الأعلى أسماء الله تعالى بنصر لا يزال به الإسلام محبباً محبوراً ، وسعد يملأ أرجاء البسيطة نوراً ، فكتبته كتب الله لكم عوائد السعادة ، وحبابكم من آلائه بالحسنى والزيادة ، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، وليس - بفضل الله سبحانه ثم ببركة مقامكم أيد الله تعالى سلطانه - إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله .

« وأما الذي عند معظم أمركم من الإعظام لمقامكم والإكبار ، والثناء المررد المجدد على توالي الأعصار ، والشكر الذي تتلى سُورُه آناء الليل والنهار ، والعلم بما لكم من المكارم التي سار ذكرها في الأقطار أشهر من المثل السيّار ، والاعتداد بسلطانكم العليّ في الإعلان والإسرار ، والاستناد إلى جنابكم الكريم في الأقوال والأفعال والأخبار ، فذلك لا يزال بحمد الله تعالى محفوظاً ملحوظاً بعين الاستبصار ، والله ولي العون على ذلك بفضلله وطوّله .

« وإلى هذا أيد الله تعالى سلطانكم ، ومهد أوطانكم ، فقد تقدمت مطالعة

مقامكم أسماء الله أن ملك قشتالة دسّ من يتحدث في عقد صلح يعود بالهدنة على البلاد ، ويرتفع به عنها مكابדתه من جهة الأعداء ، وقدّرنا أولاً أن ذلك ليس على ظاهر الحال فيه ، وأنه يبدي به غير ما يُخفيه ، ولكن جرينا معه في ذلك المضمار قصداً للتشوف<sup>١</sup> على الأخبار ، فلما دار الحديث في هذا الحكم ، ظهر منه أنه قد جنح للسلم ، وكان خديمتنا نقروز بحكم الاتفاق قد ورد إشيلية لبعض أشغاله ، فاستحضره وأخذ معه في أمر الصلح وشرح أحواله ، وأعادته إلى معظمكم ليستفهم ما عنده ، ويعلم مذهبهم وقصدهم ، فأعيد إليه بأنه إن أراد المصالحة على صلح والده مع هذه الدار النصرانية من غير زيادة على شروط تلك القضية ، ولا يعرض لاسترجاع معقل من المعائل التي أخلصت من يد النصرانية ، وأن يكون عقده على الجزيرة الخضراء ورندة وغيرهما من البلاد الأندلسية ، فلا بد من مطالعة محل والدنا السلطان أمير المسلمين أبي سعيد أيده الله واستطلاع ما يراه ، وحينئذ نعمل بحسب نظره الجميل ومقتضاه ، وأكد على نقروز في أنه إن انقاد لهذا الأمر فليعقد معه هدنة لأمدٍ من الدهر بقدر ما يتسع لتعريفكم بهذه الحال وإعلامكم ، ويستطلع فيها نظر مقامكم ، فما هو إلا أن عاد يوم تاريخ هذا بكتاب ملك قشتالة ، وقد أجاب إلى الصلح وانقاد إليه ، على حسب ما شرط عليه ، وأعطى مهادنة مدة شهر فبرير ليعرّف فيها مقامكم ، ويعلم ما لديه ، ووافق ذلك وصول الشيخ الفقيه الأجلّ أبي عبد الله ابن حبشية أعزه الله من بابكم الكريم أسماء الله ، فأخذ معه في هذا القصد ، واستفهم عمّا لديه من مقامكم في ذلك من الإمضاء أو الرد ، فذكر أنّكم قد أذنتم لمعظكمكم في عقد السلم على ما يراه من الأحكام ، إذ ظهر فيها المصلحة لأهل الإسلام ، فلما عرف مذهبكم الصالح ، وقصدكم الناجح ، رأى أن يوجه إلى ملك النصارى من يخلص معه حال الصلح ، على ما يعود إن شاء الله

١ ق : قصد التشوق .



تعالى على المسلمين بالنُّجح ، وقدم تعريفكم بما دار من الحديث بين يدي جوابه الوافد على مقامكم صحبة الفقيه أبي عبد الله أعزه الله تعالى ، ولا يخفى على مقامكم حاجة هذه البلاد في الوقت إلى هُدُنَّة يستدرك بها رَمَقُها ممَّا لقيته من جهد الحرب ، وما حل بها في هذه السنين من القحط والجَدْب ، فالصلاحُ بحمد الله في هذه الحال بادي الظهور ، وإلى الله عاقبة الأمور .

« هذا ما تريد لدى معظم مقامكم ، وما يتريد بعدُ فليس إلا المبادرة إلى مطالعتكم وإعلامكم ، وما كان إمساك الفقيه أبي عبد الله ابن حبشية في هذه الأيام إلا لانتظار خبر الصلح ، حتى يأتيكم به مستوفى الشرح ، وما هو قد أخذ في الرجوع إلى بابكم الأسمى ، والقدوم إلى حضرتكم العظمى ، والله يصل سعودكم ، ويحرس وجودكم ، ويبلغكم أملككم ومقصودكم ، والسلام . »  
ومن إنشاء ابن الجياب رحمه الله تعالى في الغزاة بالسلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد الصدر :

« أما بعد حمد الله الواحد القهار ، الحي القيوم حياة لا تنقيد<sup>١</sup> بالأعصار ، القادر الذي كل شيء في قبضة قدرته محصور بحكم الاضطرار ، الغني في ملكوته فلا يلحقه لاحق الافتقار ، المرید الذي بإرادته تصريف الأقدار ، وتقدير الآجال والأعمار ، العالم الذي لا تعزب عن علمه خفايا الأسرار ، وخبايا الأفكار ، مالك الملك وأهله ، ومدبر الأمور بحكمته وعدله ، تذكرة لأولي الألباب وعبرة لأولي الأبصار ، خالق الموت والحياة لينقلنا من دار الفناء إلى دار القرار ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار ، الذي نهدي بهديه الكريم في الإيراد والإصدار ، والإحلاء والإمرار ، في الشدة والرخاء ، والسراء والضراء ، سيره الكريمة الآثار ، ونتعزى بالمصيبة به عما دَهَمَ من المصائب الكبار ، ونقدم منه إلى ربنا شفيحاً ماحياً للأوزار ، وآخذاً بالحُجْر عن النار ،

١ ق : تنفذ .

ونعلم أننا باتتباع سبيله نسعد سعادة الأبرار ، وبإقامة ملته وحماية شرعته ننال مرضاة الملك الغفار ، والرضى عن آله وصحبه ، وأوليائه وحزبه ، الذين ظاهره في حياته على إقامة الحق الساطع الأنوار ، وختلّفوه في أمته قائمين بالعدل حامين للذّمار ، والدعاء لمحل أئبنا والدكم قدس الله روحه ، وبرّد ضريحه ، بالرحمة التي تتعهد روضته التي هي أذكى من الروض المعطار ، والرضوان الذي يتبوأ به مَبْوأ صدق في الملوك المجاهدين الأخيار ، ولقاكم الأعلى بسعادة المقدار ، وتمهيد السلطان وبلوغ الأوطار ، فإنّا كتبناه - كتب الله لكم عوائد النصر ، وزبط على قلبكم بالصبر - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى عندما تحقّق لدينا النبأ الذي فتّ في الأعضاء ، وشب نار الأكباد ، والحادث الذي هدّ أعظم الأطواد ، وزلزل الأرض الراسية الأوتاد ، والواقع الذي لولا وجودكم لمحارم الأجواد ، وعطل رسوم الجهاد ، وكسا الآفاق ثوب الحداد ، والخطب الذي ضاقت له الأرض بما رحبت ، وأمّرت الدنيا بما عذبت ، من وفاة محل أئبنا أكبر ملوك المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، والدكم ألحفه الله تعالى برُود رضاه ، وجعل جنته نُزله ومثواه ، ونفعه بما أسلف من الأعمال الكريمة ، وما خلده من الآثار العظيمة ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون تسليماً لما قضاه ، ورضى بما أنفذه وأمضاه ، وعند الله نحتسب منه والداً شقيقاً ، حانياً رقيقاً ، لم يزل يولي الحميل قوله وفعله ، ويصل لنا من أسباب عنايته ما اقتضاه فضلُه ، وما هو أحق به وأهله .

« وكنا طولَ حياته لم نجد أثراً لفقد الوالد ، لما أولانا من جميل العوائد ، وكرم المقاصد ، جزاه الله أحسن جزائه ، وأعاننا على توفية حقه وأدائه ، ولمثل هذه المصيبة - ولا مثل لها - تُظلم الأرجاء ، ويضيق الفضاء ، وتبكيه مُسوّمة الجياد ، ومعالم الجهاد ، والسيوف في الأغماد ، وشتى العباد والبلاد ، فلا تسألوا كيف هو عندنا موقع هذا الخطب العظيم ، والحادث المُتّعد المقيم ، والرزية التي لا رزية مثلها ، والحادثة التي أصيبت بها الملة وأهلها ، فوجدنا لفقده

يتضاعف مع الآناء ، ويتجدد تذكّار ما أسلف من أعمال الملوك الفضلاء ، ولكنه أمرٌ حتمٌ ، وقضاء من الله جزمٌ ، وسبيل يسلك عليها الأول والآخر ، والآتي والغابر ، وليس إلا التسليم ، لما حكم به الحكيم العليم .

« ولما انتهى إلينا هذا النبأ الذي ملأ القلب حسرة والعين عبّرة ، وتوارت شتى الأنباء ، وغلب اليأس فيها على الرجاء ، وجدنا له ما يوجد لفقد الأب الذي ابتدأ بالإحسان والإجمال ، وأولى عوارف القبول والإقبال ، ولكنه ما أطفأ نار ذلك الوجد ، وجبرَ كسر ذلك الفقد ، إلا ما منَّ الله به علينا وعلى المسلمين من تقلدكم ذلك الملك الذي بكم سمعت معاملة ، وقامت مراسمه ، وعليكم انعقد الإجماع ، وبولايتكم استبشرت الأصقاع ، وكيف لا تستبشر بولاية الملك الصالح الخاشع الأبواب ، صاحب الحرب والمحراب ، عدّة الإسلام ، وعلم الأعلام ، من ثبت فضائله أوضح من مَحْيَا النهار ، وسارت مكارمه في الآفاق أشهر من المثل السيار .

« وقد كان محل أبيننا والدكم رضي الله عنه لما علم من فضائلكم الكريمة الآثار ، وما قتمت به من حقّه الذي وفيموه توفية الصلحاء الأبرار ، ألقى إليكم مقاليد سلطانه ، وآثر إليكم أثر قبوله ورضوانه ، حتى انفصل عن الدنيا وقد ألبسكم من أثواب رضاه ما تنالون به قرّة العين ، وعز الدارين ، والظفر بكلتا الحسينين ، فتلك المملكة بحمد الله تعالى قد قام بها حامي ذِمّارها ، وابنُ خيارها ، ومطلع أنوارها ، الملك الرضي العدل الطاهر ، قوّم الدياجي وصوصّام الهواجر ، حسنة هذا الزمان ، ونخبة ذلك البيت المؤسس على التقوى والرضوان ، فالحمد لله على أن جبر بكم صدع الإيمان ، وانتضى منكم سيفاً مسلولاً على عبدة الصلبان ، وأقرّ بكم ملك آباؤكم الملوك الأعظم ، وتدارك بولايتكم أمر هذا الرزء المتفاقم ، فإن فقدنا أعظم مفقود ، فقد ظفرنا بأكرم مقصود ، وما مات من أبقى منكم سلاله ظاهرة تحيي سنن المعالي والمكارم ، وتعمل على شاكلة أسلافها الأكارم ، فتلك المملكة قد أصبحت بحمد الله ونور سعدكم في أرجائها طالع ، وسيف

بأسكم في أعدائها قاطع ، وعزمكم الأمضى لأمرها جامع مانع ، قد أوت منكم إلى الملجأ الأحمى ، واستمسكت بآياتكم العظمى ، وعرفت أنكم ستبدون فيها من آثار دينكم المتين ، وفضلكم المبين ، ومعاليتكم القاطعة البراهين ، ما يملؤها عدلاً وإحساناً ، وتبلغ به آمالها مثني ووحداً ، فهنيئاً لنا ولها أن صارت في ملككم ، وأن تشرفت بملككم ، وألقت مقاليدها إلى من يحمي حماها ، ويدفع عداها ، وليهن ذلك المقام الأعلى ما أولاه من العز المكين ، وما قلده من الملك الذي هو نظام الدنيا والدين ، وأن أعطاه راية الجهاد فتلقاها باليمين ، لينصر بها ملة الرسول الصادق الأمين ، فله الفخر بذلك على جميع السلاطين .

« وأما هذه البلاد الأندلسية - حماها الله - فهي وإن فقدت من السلطان الأعلى أبي سعيد أكرم ظهير ، ووقع مصابه منها بمحل كبير ، فقد لجأت منكم إلى من يحميها ، ويكف بأس أعاديها ، ويبتغي مرضاة خالقها فيها ، فملككم بحمد الله تعالى مقتبل الشباب ، جديد الأثواب ، عريق الأنساب ، أصيل الأحساب ، ومجدكم جارٍ على أعراقه جرّي الجياد العراب .

« وإنا لما ورد علينا هذا النبأ معقباً بهذه البشرى ، ووفد علينا ذلك الخبر مردفاً بهذه المسرة الكبرى ، علمنا أن الله سبحانه قد رآب ذلك الصّدع بهذا الصنع الجميل ، وتلافى ذلك الخطب بهذا الخير الجزيل ، فأخذنا من مساهمتكم في الأمور النصيب الوافر ، ورأينا أن آمالنا منكم قد جلت عن محيّاها السافر ، وعيننا للوفادة على بابكم لينوب عنا في العزاء والهناء عين الأعيان الفضلاء ، ووجه القواد والكرماء . »

ولنتصر على هذا المقدار من كلام الرئيس ابن الجياب ، رحمه الله تعالى ؛ ويظهر لي أن نظمه أعلى طبقة من نثره ، وعلى كل حال فهو لا يتكلف نظماً ولا نثراً ، رحمه الله تعالى ورضي عنه وعامله بمحض فضله .

٢٠ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الفقيه الكاتب البارع العلامة

النحوي اللغوي صاحب العلامة بالمغرب الشهير الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي<sup>١</sup> قال في « الإحاطة » فيه ما ملخصه : عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمي ، أبو محمد ، شيخنا الرئيس ، صاحب القلم الأعلى بالمغرب .

من « الإكليل » : تاج الفرق ، وفخر المغرب على المشرق ، أطلع منه نوراً أضاعت له الآفاق ، وأثر منه بذخيرة حملت أحاديثها الرفاق ، ما شئت من مجد سامي التصاعد والمراقب ، عزيز عن لحاق النجم الثاقب ، وسلف زينت سماؤه بنجوم المناقب ، نشأ بسبته بلده بين علم يقيده ، وفخر يُشيدُه ، وطهارة يلتحف مطارفها ، ورياسة يتفياً وارِفها ، وأبوه رحمه الله تعالى قطبٌ مدارها ، ومقام حجتها واعتمارها ، فسلك الوُعُوث من المعارف والسهول ، وبدءَ على حداثة سنه الكهول ، فلما تحلى من الفوائد العلمية بما تحلّى ، واشتهر اشتهار الصباح إذا تجلّى ، تنافست فيه همم الملوك الأخير ، واستأثرت به الدول على عاداتها في الاستثثار بالذخاير ، فاستقلت بالسياسة ذراعه ، وأخذم الذوايل والسيوف يَراعُه ، وكان عين الملك التي بها يبصر ، ولسانه الذي يسهب به أو يختصر ، وقد تقدمت له إلى هذه البلاد الوفاة ، وجلّت به عليها الإفاة ، وكتب عن بعض ملوكها ، وانتظم في عقودها الرفيعة وسلوكها ، وله في الآداب الراهية الحافقة ، والعقود المتناسقة ، ومشيخته حافلة تزيد عن الإحصاء ، وشعره منحط عن محله من العلم والشهرة ، وإن كان داخلاً تحت طَورِ الإجابة ، فمن ذلك قوله :

تراعى سُحَيْراً والنسيمُ عليلٌ      وللنجمِ طرفٌ بالصباحِ كليلٌ  
وللفجرِ نهرٌ خاضه الليلُ فاعتلتُ      شوى أدهمِ الظلماءِ منه حُجُولُ  
بريقٌ بأعلى الرقمتين كأنه      طلائعُ شهبٍ في السماءِ تجولُ

١ قد مر التعريف بعبد المهيمن الحضرمي وذكر مصادر ترجمته (ص : ٢٤٠) من هذا الجزء .

فمزقَ ساجي الليلِ منه شَرَّارُهُ  
 تبسمُ ثغرُ الروضِ عندِ ابتسامه  
 ومالتُ غصونُ البانِ نَشْوَى كَأَنها  
 وغنتُ على تلكَ الغصونِ حمائمُ  
 إذا سَجعتُ في لحنها ثم قرقرتُ  
 سقى الله ربعا لا تزالُ تشوقني  
 وجادَ رُباه ، كلما ذرَّ شارِقُ  
 وما لي أَسْتسقي الغمامَ ومدمعي  
 وعاذلةٍ باتتُ تلومُ على السرى  
 تقولُ إلى كم ذا فراقٌ وغربةُ  
 ذريني أَسعي للتي تُكسِبُ العلا  
 فإمّا تريني من ممارسةِ الهوى  
 وفوقَ أنابيبِ اليراعةِ صَعْدَةٌ  
 ولولا السرى لم يجتَلِ البدرُ كاملا  
 ولولا اغترابُ المرءِ في طلبِ العلا  
 ولولا نوالُ ابنِ الحكيمِ محمدِ  
 وزيرُ سما فوقَ السماكِ جلالَةٌ  
 من القومِ : أمّا في الندى فإنتهم  
 حَوّوا أشرفَ العلياءِ إرثاً ومكسباً  
 وما جونةُ هطالةُ ذاتُ هيدبِ  
 لها زَجَلٌ من رعدِها ولوامعُ  
 كما هدرتُ وسطَ القلاصِ وأرسلتُ  
 بأجودَ من كَفِّ الوزيرِ محمدِ

وخرقَ سِرَّ الغيمِ منه نصولُ  
 وفاضتُ عيونُ للغمامِ همولُ  
 يُدارُ عليها من صباهُ شمولُ  
 لهن حفيفُ فوقها وهديلُ  
 يطيحُ خفيفٌ دونها وثقيلُ  
 إليه رسومٌ دونها وطلولُ  
 من الودقِ هَتانُ أجشُ هطولُ  
 سَفوحُ على تلكَ العراضِ همولُ  
 وتُكثِرُ من تَعذّأها وتطيلُ  
 ونأيٌ على ما خَبَلتُ ورحيلُ  
 سناءً وتبقي الذكرَ وهو جميلُ  
 نحيلاً فحدُّ المشرقيّ نحيلُ  
 تزينُ ، وفي قدّ القنّاةِ ذبولُ  
 ولا باتَ منه للسهودِ نزيلُ  
 لما كان نحوَ المجدِ منه وصولُ  
 لأصبحَ ربيعُ المجدِ وهو مُحيلُ  
 وليس له إلا النجومَ قبيلُ  
 هضابُ ، وأمّا في الندى فسَيولُ  
 وطابتُ فروعُ منهمُ وأصولُ  
 مرّتها شمالُ حَرَجَفُ وقبولُ  
 من البرقِ عنها للعيونِ كلولُ  
 شقاشقها عندِ الهياجِ فُحولُ  
 إذا ما توالّتُ للسنينِ مُحولُ

ولا روضةٌ بالحسن طيبةُ الشدا  
وقد أذكيت للزهر فيها مجامرُ  
وفي مُقلِ النوارِ للطلِّ عبرةٌ  
بأطيبَ من أخلاقِهِ الغرُّ كلما  
حويتَ أبا عبدِ الإلهِ مناقباً  
فغرناطةٌ مصرٌ وأنتَ خصيئها  
فذاك رجالٌ حاولوا درَكَ العلا  
تخيرك المولى وزيراً وناصحاً  
وألقي مقاليدَ الأمورِ مفوضاً  
وقام بحفظِ الملكِ منك مؤيدٌ  
وساس الرعايا منك أشوسُ باسلٌ  
وأبلغُ وقاد الجبينِ كأنما  
تيمم به العلياءُ حتى كأنها  
له عزَماتٌ لو أُعيرَ مضاءها  
سرى ذكره في الخافقين فأصبحتُ  
وأعدى قريضي جودهُ وثنائهُ  
إليك أبا فخرَ الوزارةِ أرقلتُ  
فليتُ إلى لقبك ناصيةَ الفلا  
تسدّني سهماً لكلِّ نسيئةٍ  
وقد لفظتني الأرضُ حتى رمتُ إلى  
فقيدتُ أفراسي به وركائبي  
وقد كنتُ ذا نفسٍ عزوفٍ وهمةٍ  
وتهوى العلا حظي وتغري بضده

نيمٌ عليها إذخرُ وجليلُ  
تعطّرُ منها للنسيمِ ذبولُ  
تردها أجفانها وتجميلُ  
تفاهمُ خطبُ للزمانِ يهولُ  
تفوتُ يدي من رامها وتطولُ  
ونائلُ يملكُ الكريمةَ نيلُ  
بيخلُ ، وهل نال العلاءُ بجحيلُ ؟  
فكان له ممّا أراد حصولُ  
إليك فلم يعلمُ يمينك سؤلُ  
نهوضُ بما أعيأ سواك كفيلُ  
مبيدُ العدا للمعتفين منيلُ  
على وجتيةٍ للنصارِ مسيلُ  
بُشِينتُهُ في الحبِّ وهو جميلُ  
حسامٌ لما نالتَ ظُباهُ فلؤلُ  
إليه قلوبُ العالمين تميلُ  
فأصبح في أقصى البلادِ يجولُ  
برحلي هوجاءُ النجاءِ ذلؤلُ  
بأيدي ركابِ سيرهن ذميلُ  
ضوامرُ أشباهُ القسيِّ نحولُ  
ذراكِ برحلي هوجلُ وهجولُ  
ولدتُ مقامٌ لي به وحلولُ  
عليها لأحداثِ الزمانِ ذُحولُ  
لذلك اعترته رقعةٌ ونحولُ

وتأبى لي الأيامُ إلاَّ إدالةً فصونكَ لي ، إنَّ الزمان مُدِيلُ  
فكلُّ خضوعٍ في جنابك عزةٌ وكل اعتزاز قد عداكَ حُمُولُ

وقال :

أبتُ همّتي أن يراني امرؤٌ على الدهرِ يوماً لهُ ذا خضوعٍ  
وما ذاك إلاَّ لأنّي اتقيتُ بعزَّ القناعةِ ذُلَّ الخشوعِ

مولده بسبته عام ستة وسبعين وستمائة ، وتوفي بتونس ثاني عشر شوال  
عام تسعة وأربعين وسبعمائة في الطاعون ، وكانت جنازته مشهورة رحمه الله  
تعالى ؛ انتهى .

وحكي أن السلطان أبا الحسن المريني سبَّ الشيخَ عبدَ المهيمن الحضرمي  
بمجلس كتابه ، فأخذ عبد المهيمن القلم وكسره ، وقال : هذا هو الجامع بيني  
وبينك ، ثم إن السلطان أبا الحسن ندم ، وأفضل عليه ، وخجل ممّا صدر منه  
وأحسن إليه .

وكان عبد المهيمن ينطق بالكلام مُعْرَباً . ويرتفع نسبه إلى العلاء بن الحضرمي  
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصل سلفه من اليمن ، وكان جدهم  
الأعلى عبدون لحقه الضميم ببلده ، فارتحل إلى المغرب ، فترل سبته .

ولعبد المهيمن الحضرمي شيوخ أجلاء كابن أبي الربيع النحوي وابن الشاط  
وابن مسعود وغيرهم . وكان ذا سعد وسؤدد حسن الخط ، رأيت خطه بإجازته  
لأبي عبد الله ابن مرزوق وغيره . وكان عالي الهمة سرياً ، أعطى المنصب  
حقه ، وكان لا يَحْتَمِل الضميم واحتقار العلم ، وكان سريع الجواب : حكي أن  
القاضي المليبي وأبا محمد عبد المهيمن الحضرمي المذكور صاحب العلامة للسلطان  
أبي الحسن حضرا مجلس السلطان ، فجرى ذكر الفقيه ابن عبد الرزاق ، فقال  
المليبي : جمع من الفنون كذا ، حتى وضع يده على أبي محمد عبد المهيمن ، وقال



مخاطباً للسلطان : ويكتب لك أحسن من ذا ، فوضع عبد المهيمن يده على المليبي وقال : نعم يا مولاي ، ويقضي لك أحسن من ذا .

وقال ابن الخطيب القسطيني الشهير بابن قنفذ في وفياته ما نصّه : وفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة توفي الشيخ الراوية المحدث الكاتب أبو محمد عبد المهيمن ابن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد الحضرمي ، السبتي ، ومن أشياخه الأستاذ ابن أبي الربيع وابن الغماز وابن صالح الكناني وغيرهم من الأعلام ؛ انتهى . وقال غيره : إن والد عبد المهيمن توفي غرة صفر سنة اثني عشرة وسبعمائة ، رحمه الله تعالى .

وحكي أن الشيخ أبا محمد عبد المهيمن ذكر يوماً بني العزفي فأثنى عليهم ، فقال له أحد الحسينين ، وكان بينهم شيء : إنهم كانوا لا يحبون أهل البيت ، فكيف حبك أنت لهم ؟ يعني لأهل البيت ، فقال : أحبهم حب التشريع ، لا حب التشيع ؛ انتهى .

قيل : يعني بالعزفين أهل الدولة الثانية ، وأما أهل الأولى فكانوا من المختصين بمحبة الآل ، وهم أحدثوا بالمغرب تعظيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام .

ومن أغرب ما وقع للرئيس عبد المهيمن الحضرمي من التشبيه قوله :

لقد راقني مرأى سجلماسة الذي يقرُّ له في حسنه كلُّ منصفٍ  
كأن رؤوس النخل في عرّصاتها فواتحُ سوراتٍ بأخرِ مصحفٍ

وهذا من التشبيه العقيم الذي لم يُسبق إليه فيما أظن . وكان سبب قوله ذلك أن السلطان أمير المسلمين أبا الحسن المريني لما تحرك لقتال أخيه السلطان أبي علي عمر بسجلماسة فظفر به استمطر أنواء أفكار الكتاب وغيرهم في تشبيه النخل ، فقال عبد المهيمن ما مر ، فلم يترك مقالاً لقاتل .

وقد أنشد الحافظ ابن مرزوق الحفيد قال : أنشدني شيخنا ولي الدين الرئيس

أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي لشيخه الرئيس أبي محمد عبد المهيم  
الحضرمي السبتي رحمه الله تعالى قوله :

يُجَفِّي الْفَقِيرَ وَيَغْشَى النَّاسُ قَاطِبَةً      بَابَ الْغَيْ ، كَذَا حُكْمُ الْمَقَادِيرِ  
وَإِنَّمَا النَّاسُ أَمْثَالُ الْفَرَاشِ ، فَهَم      يُلْفَوْنَ حَيْثُ مَصَابِيحُ الدَّنَائِرِ

قلت : ورأيت هذين البيتين في كتاب « رَوْحُ الشَّحْرِ وَرَوْحُ الشَّعْرِ » للعالم  
الكتاب ابن الجلاب منسوبين لأبي المتوكل الهيم بن أحمد السكوني الإشبيلي ،  
قال : أنشدني أبو الحجاج الحافظ قال : أنشدني الهيم ، فذكر البيتين ، وكان  
تاريخ وفاته قبل أن يخلق عبد المهيم ، فتعين أن البيتين ليسا من نظمه ، وإنما  
تمثل بهما ونسبتهما له وهم لا محالة ، والله أعلم .

وأما ما اشتهر على الألسنة بالمغرب من أن أبا حيان مدح عبد المهيم بقوله :

ليس في الغربِ عالمٌ      مثلَ عبدِ المهيمِ  
نحن في العلمِ أسوة      أنا منه وهو مِنِّي

فقد نسه ابن غازي إلى أبي حيان كما اشتهر ، لكن تاريخ مرور أبي حيان  
بالمغرب كان قبل ظهور عبد المهيم بلا خفاء ، وهو عندي محمول على أحد  
أمرين : أن المراد عبد المهيم جد عبد المهيم المذكور ، أو أن أبا حيان كتب  
باليبتين من مصر بعدما ظهر عبد المهيم وصارت له الرياسة بالمغرب إذ أبو حيان  
عاش إلى ذلك الزمان بلا ريب ، ولذا لما ذكر لسان الدين ابن الخطيب في كتابه  
« الكتيبة الكامنة في أبناء أهل المائة الثامنة » الشيخ أبا حيان قال : وهذا الرجل  
طالت حياته حتى أجاز ولدي .

ولعبد المهيم المذكور أخبار غير ما قدمناه منع منها الاختصار . وقد ألف  
الخطيب ابن مرزوق باسم ولده وله فهرسته المشهورة ، وحلاه في صدرها أحسن

١ ولد : سقطت من ق .

حلية ، وهو أهل لذلك . وقد ذكره مولاي الجلد في شيوخه كما تقدم ، وقال فيه :  
إنه إمام الحديث والعريية ، وكاتب الدولة العثمانية والعلوية ، فليراجع ذلك فيما  
سبق في ترجمة الجلد .

وأبو سعيد ابن عبد المهيمن كان عالي الهمة كآبائه ، ولما بويع السلطان أبو  
عنان طلب منه أن يكون مرتسماً في جملة كتّاب بابه ، فامتنع ، وقال : لا أكون  
تحت حكم غيري ، وعنى بذلك أن أباه كان رئيس الكتّاب ، فكيف يكون هو  
مرؤوساً بغيره ؟ فلم ترض همته رحمه الله تعالى إلا برتبة أبيه أو الترك ، وارتحل  
أبو سعيد محمد المذكور ، وكان فقيهاً عالماً ، من فاس لسببته إلى أن توفي بها سنة  
٧٨٧ ، وكان قليل الكلام ، جميل الرّواء ، حسن الهيئة والبزة والشكل ، روى  
عن والده وعن الحجار وكتب له سنة ٧٢٤ ، وروى عن الفقيه أبي الحسن ابن  
سليمان والرحالة ابن جابر الوادي آشي وابن رشيد وغيرهم .

وابن أبي سعيد هذا اسمه عبد المهيمن كجدّه ، وكان صاحب القلم الأعلى ،  
روى عن أبيه وجدّه وغيرهما ، رحم الله الجميع .

٢١ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الإمام العلامة قاضي الجماعة  
أبو البركات ابن الحاج البلفيقي<sup>١</sup> : نادرة الزمان ، وشاعر ذلك الأوان ، وهو محمد  
ابن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن الشيخ الولي أبي إسحاق ابن الحاج البلفيقي ، وكان  
أبو البركات أحد رجال الكمال علماً ومجداً وسؤدداً موروثاً ومكتسباً ، وقد  
عرف به في « الإحاطة » بترجمة مد فيها النفس ، وكتب ابنه علي أول الترجمة  
ما صورته :

رحمك الله تعالى يا فقيه الأندلس وحسيبها وصدورها وشيخها ، وبرّد  
ضريحك ، فلله ما أفدت من نادرة واكتسبت من فائدة ؛ انتهى .

١ قد ذكرنا مصادر ترجمة ابن الحاج البلفيقي في المجلد الأول من النفع (ص : ٥١٦) .

وحكى في «الإحاطة»<sup>١</sup> أنه لما استسقى وحصلت الإجابة أنشده لسان

الدين :

ظَمَيْتُ إِلَى السَّقِيَا الْأَبَاطِحُ وَالرُّبَى      حَتَّى دَعَوْنَا الْعَامَ عَامًا مُجْدِبًا  
وَالغَيْثُ مُسَدُولُ الْحِجَابِ ، وَإِنَّمَا      عَلِمَ الْغَمَامُ قَدُومَكُمْ فَتَأَدَّبَا

ثم ذكر في «الإحاطة» تأليف أبي البركات وشعره ، إلى أن قال حاكيًا عن أبي البركات ما صورته : ومما نظمته وقد أكثروا من التعجب للازمتي البناء وحضر الآبار<sup>٢</sup> :

فِي احْتِفَارِ الْأَسَاسِ وَالْآبَارِ      وَانْتِقَالِ التَّرَابِ وَالْحَيَارِ  
وَقَعُودِي مَا بَيْنَ رَمْلٍ وَآجٍ      رِيٍّ وَجِصٍّ وَالطُّوبِ وَالْأَحْمَارِ  
وَأَمْتَهَانِي بُرْدِيٍّ بِالطَّيْنِ وَالْمَا      ءِ وَرَأْسِي وَلِحِيَّتِي بِالغُبَارِ  
نَشُوءٌ لَمْ تَمْرُقْ عَلَى قَدِّ      بِ خَلِيعٍ وَمَا هَا مِنْ خُمَارِ  
مِنْ غَرِيبِ الْبِنَاءِ أَنْ بَنِيهِ      مَتَعْبُونَ يَهُوونَ طَوْلَ النَّهَارِ  
يَبْتَغُونَ الْوَصَالَ مِنْ صَانِعِهِ      وَالْبَدَارَ إِلَيْهِ كُلَّ الْبَدَارِ  
فَإِذَا حَلَّ فِي ذَرَاهِمُ تَرَاهِمُ      يَشْتَهُونَ مِنْهُ بَعِيدَ الْمَزَارِ  
مَنْ عَدِيرِي مِنْ لَائِمٍ فِي بِنَائِي      وَهُوَ لِي التَّرْجَمَانُ عَنْ أَخْبَارِي  
لَيْسَ يَدْرِي مَعْنَاهُ مِنْ لَيْسَ يَدْرِي      أَنْ مَا عِنْدَهُ عَلَى مَقْدَارِ  
أَقْتَدِي بِالذِّي يَقُولُ بِنَاهَا      ذَلِكَ الْخَالِقُ الْحَكِيمُ الْبَارِي  
وَبِمَنْ يَرْفَعُ الْقَوَاعِدَ مِنْ يَدِي      تِ عَتِيقٍ لِلْحَجِّ وَالزُّوَارِ  
وَبِمَنْ كَانَ ذَا جِدَارٍ وَقَدْ كَا      نِ أَبُوهُ مِنْ صَالِحِي الْأَبْرَارِ  
وَبِمَا قَدْ أَقَامَهُ الْخَضْرُ الْمُخْ      صُوصُ عُلَمَاءِ بِيَاظِنِ الْأَسْرَارِ

١ الإحاطة ٢ : ١٠٣ .

٢ لم يرد هذا في الإحاطة .

كان تحت الجدار كثرًا ، وما أدراك ما كان تحت كثر الجدار ؟  
 وبمن قد مضى من آبائي الع فالذي قد بنوه نبي له مث  
 قد بنينا من المساجدِ دهرًا مثلما قد بنيتُ للمجدِ أمثا  
 فاللبياني لسانُ حالي ولي في روحُ أعمالنا المقاصدُ ، لكن  
 فعمى من قضي بينانِ هذي ال

ثم قال في « الإحاطة » بعد كلام : ومن نظمه في الإنحاء على نفسه ،  
 واستبعاد وجود المطالب في جنسه ، قال مما نظمته يوم عرفة عام خمسين  
 وسبعمائة وأنا مترو في غار ببعض جبال المرية ١ :

زعموا أن في الجبال رجالاً صالحين قالوا من الأبدال  
 وادعوا أن كل من ساح فيها فسيلقاهم على كل حال  
 فاخترقنا تلك الجبال مراراً ونعال طوراً ودون نعال  
 ما رأينا بها خلاف الأفاعي وشباً عقرب كمثل النبال  
 وسباع يجرون بالليل عدواً لا تسلي عنهم بتلك الليالي  
 ولو أننا كنا لدى العدو الأخ وى رأينا نواجذ الرئبال  
 وإذا أظلم الدجى جاء إبلي س إلبنا يزور طيف خيال  
 هو كان الأنيس فيها ولولا ه أصيبت عقولنا بالخيال  
 خل عنك المحال يا من تعنى ليس يلقي الرجال غير الرجال

وجمع شعره وسماه « العذب والأجاج من كلام أبي البركات ابن الحاج »

وسمى أبو القاسم الشريف ما استخرجه منه بـ « اللؤلؤ والمرجان من بحر أبي البركات  
ابن الحاج يستخرجان » .

ومن نظم الشيخ أبي البركات ابن الحاج قوله رحمه الله تعالى :

ألا ليت شعري هل لما أنا أرتمي من الله في يوم الجزاء بلاغٌ  
وكيف لمثلي أن ينالَ وسيلةً لها عن سبيلِ الصالحين مراغ  
وكم رمتُ دهري فتحَ بابِ عبادةٍ يكونُ بها في الفائزين مساغ  
فكدتُ ولم أفعلُ وكيف وليس لي المعينانِ فيها صحةٌ وفراغ  
لأصبحتُ من قومٍ دعاهم إلى الرضى منادي الهدى فاستنكروه فراغوا  
أباغ ترى أخراه من يزدهيه من زخارفِ دُنياه الدنية باغ  
ويضربُ صفحاً عن حقيقة ما طوت فيلبيه زورٌ قد أتته مُصاغ  
إذا ما بدا للرشد نهجُ بيانهِ يُراعُ به عن وحشةٍ فبراغ  
فياربِّ برِّد العفويهِ لي إذا غلتُ من الحرِّ في يوم الحساب دماغ  
فمن حرقٍ للنفس فيه لواعج ومن خجلٍ للوجدِ فيه صباغ  
وعظتُكِ نفسي لو أنبتِ، وفي الذي وعِظتِ به لو ترعوينَ بلاغ

وأشد القاضي أبو البركات في هذا الرويِّ قولَ شيخه الأستاذ أبي علي ابن  
سليمان القرطبي :

ألا هل إلى ما أرتضيه بلاغٌ وكيف يُرى يوماً إليه فراغٌ  
وقد قطعتُ دوني قواطعُ جمّةٌ أراع لها مهما جرّت وأراعُ  
وما لي إلا عفوّ ربِّ وفضلَه ففيه إلى ما أرتجيه بلاغٌ

وكان القاضي أبو البركات من بيت كبير علماء وصلحاء وزهداً، وجدّه الإمام  
الولي العارف سيدي أبو إسحاق ابن الحاج أشهر من نار على علم ، وقبره مشهور  
بمراكش وقد زرته بها ، وله كرامات مشهورة .

وحكى في « مزية المرية » من كراماته جملة ؛ قال حفيدهُ الشيخُ أبو البركات :  
دخلت على الشيخ الصالح العابد المجتهد الحاج أبي عبد الله محمد بن علي البكري ،  
المعروف بابن الحاج ، في منزله بالمرية عائداً قال : أظنّه في مرضه الذي مات  
فيه ، فقال حين سألته عن حاله : ادعُ لي ، فقلت له : يا سيدي ، بل أنت تدعو لي ،  
فقال لي : شرح الله صدرك ، ونور قلبك بنور معرفته ! فمن عرف الله لم يذكر  
غيره ، فقد حكى سيدي أبو جعفر ابن مكنون عن جدك قال : كنت مع سيدي  
أبي إسحاق ابن الحاج بمراكش فقال لي : هل ترى في المنام شيئاً ؟ فقلت : نعم ،  
أرى كأنّي في المرية أمشي من الدار<sup>١</sup> إلى المسجد ، ومن كذا إلى كذا ، فأعرض  
عني وقال : ألا ترى إلاّ الله ؟ قال : ثم مر به في أثناء كلامه ابنه محمد ، فقال لي :  
رأيت هذا ؟ والله ما أدري أن لي ابناً حتى يمر بي ، ولا أذكره إذا غاب عني ،  
ولا أرى إلاّ الله ؛ انتهى .

ومن تأليف أبي البركات رحمه الله تعالى كتاب ذكر فيه أخبار سلفه رضي  
الله عنهم ، وذكر جملة من كرامات جده سيدي أبي إسحاق المذكور ، فنعنا  
الله به .

ومن شعر جده المذكور قوله :

ألا كرمَ الله البلادَ بخطبةِ  
رعايتهم فرضٌ على كلِّ مسلمٍ  
إذا ما سألتَ الله شيئاً فسلِّ بهمُ  
همُ حسانُ الدهرِ لا نأبهمُ خطبُ  
وحبُّهمُ حقاً قدَّ أوجبهُ الربُّ  
فتعظيمهم قربٌ ، وغيبتهمُ حربُ

وقوله :

شكا فشكا قلبي خبالاً مبرحاً  
وما التقتِ الأسرارُ إلاّ بجامعٍ  
على غير علم كان مني بشكواهُ  
من النعتِ سلطانُ الحقيقةِ سواهُ

١ من الدار : سقطت من ق .

فيا فرحةَ المجهودِ إن بات سرُّهُ  
ومن أجله قد كان بالبعدِ راضياً  
بدا فبدتْ أعلامُ ضدِّين في الهوى  
برؤيته فارقتُ موتي لبعده  
فها أنا حيٌّ ميتٌ بلفائه  
إذا لم تكن أنت الحبيبَ بعينهِ  
وأكذب ما يُلقي الفتى وهو صادقٌ

وقوله رضي الله تعالى عنه :

الحبُّ في الله نورٌ يُستضاء به  
جنبُّ أخوا حدثٍ في الدين ذا غيرِ  
حاشا الديانةَ أن تُبنى على خبَلٍ  
إنَّ الحقائقَ لا تبدو لمبتدعٍ  
تالله لو أبصرتُ عيناه أو ظفرتُ  
حقق ترى عجباً إن كنت ذا أدبٍ  
إنَّ الطريقةَ في التنزيلِ واضحةٌ  
فافهم هُديتْ هُدى الرحمنِ واهدِ به

وقوله صدرَ رسالة وجه بها إلى ابنه محمد أيام قراءته بإشبيلية :

إذا شئت أن تحظى بوصلي وقربتي  
وسابقٌ إلى الخيراتِ واسلكُ سبيلها  
فجنبَّ قرينَ السوءِ واصرمُ حباله  
وحصلَّ علومَ الدينِ واعرفُ رجاله

وكان رحمه الله تعالى كثيراً ما يتمثل بيّتي مهيار الديلمي ، وهما :

ومن عَجَبِ أنِّي أحنُّ إليهمُ  
وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي



وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

وحدث القاضي أبو البركات حفيده عن ابن خميس التلمساني المتقدم الذكر قال :  
سمعت بعض الأشياخ يقول : كان الشيخ أبو إسحاق البليقي الكبير يقول :  
اجتمع لنا في الله أربعون ألف صاحب .

وحكى الشيخ أبو البركات المذكور عن الشيخ الصالح الحاج الصوفي أبي  
الأصبع ابن عزرة قال : هذه صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أخذتها عن  
رأبك الشيخ الصالح الحاج أبي عبد الله محمد بن علي بن الحاج مشافهة ، وقال  
لي : إنها صلاة أبي إسحاق ابن الحاج جدك ، وهي : اللهم صل على محمد وعلى  
آل محمد صلاة دائمة مستمرة تدوم بدوامك ، وتبقى ببقائك ، وتخلد بخلودك  
ولا غاية لها دون مرضاتك ، ولا جزاء لقاتلها ومصلها غير جنتك والنظر إلى  
وجهك الكريم .

ونقل أبو البركات المذكور عن جده أنه كان يستفتح مجلسه بالمرية بهذا  
الدعاء : اللهم اجعلنا في عياد منك منيع ، وحصن حصين ، وولاية جميلة ،  
حتى تبلغنا آجالنا مستورين محفوظين ، مبشرين برضوانك يوم لقائك ، قال : وفي  
وسط الدعاء وآخره : واكفنا عدونا إبليس ، وأعداءنا من الجن والإنس بعافيتنا  
وسلامتنا .

وكان الشيخ رضي الله عنه يواصل أربعين يوماً . ومن مآثره أنه بنى ثمانية  
عشر جباً في مواضع متفرقة ونحو عشرين مسجداً وبني أكثر سور حصن  
بلكفيق ، كل ذلك من ماله .

وقال رضي الله عنه في بعض رسائله : الصوفي عبارة عن رجل عدل تقي  
صالح زاهد ، غير منتسب لسبب من الأسباب ، ولا مُخِلّ بأدب من الآداب ،  
قد عرف شأنه وزمانه ، وملكت مكارم الأخلاق عنانه ، لا ينتصر لنفسه ،  
ولا يتفكر في غده وأمهه ، العلم خليله ، والقرآن دليله ، والحق حفيظه ووكيله ،

نظره إلى الخلق بالرحمة ، ونظره إلى نفسه بالحذر والتهمة ؛ انتهى .  
وأحوالُ هذا الشيخ عجيبة ، وكراماته شهيرة ، وإتّما ذكرنا هذا التّزّر  
اليسير تبرّكاً بذكره رضي الله عنه في هذا الكتاب ، وتطفلاً على رب الأرباب  
أن ينفعنا بأمثاله ويحقق لنا النّجاة والمتاب ، إنّه على ذلك قدير .

رُجع إلى أخبار أبي البركات - ولما وقع بينه وبين ابن صفوان ما يقع بين  
المتعاصرين رد عليه ابن صفوان ، فانتصر لأبي البركات بعضُ طلبته بتأليف سماه  
« شواظ من نار ونحاس يُرْسَلُ على مَنْ لم يعرف قدره وقدر غيره من الناس »  
وهو قدر رسالة الشيخ أو أطول ، وألّفي على ظهره بخط الشيخ أبي البركات  
ما صورته :

قد شيع الكلبُ كما ينبغي من حجرٍ صلّد ومن مقرّعٍ  
فإن يعدّ من بعدِ ذا للذي قد كان منه فهو ممّن نُعي

ومن بديع نظم الشيخ أبي البركات رحمه الله تعالى قوله :

يلومونني بعد العذارِ على الهوى ومثلي في وجدي له لا يُقنَدُ  
يقولون أمسكُ عنه قد ذهب الصّبَا وكيف أرى الإمساكَ والحيطُ أسودُ

وقوله في المجينات :

ومصفرة الخدين مطوية الحشا على الجبين والمصفرُ يؤذنُ بالخوفِ  
لها بهجة كالشمس عند طلوعها ولكنها في الحين تغربُ في الجوفِ

وفي هذين البيتين تورية متعددة .

وحدث القاضي أبو البركات أنّه لما أراد الانصراف عن سبّته قال له السيد  
الشريف أبو العباس رحمه الله : متى عزمت على الرحيل ؟ فأنشد أبو البركات :

أما الرحيلُ فدُونََ بعدَ غدٍ فمَنى تقولُ الدارُ تجمعنا  
فأنشد الشريف رحمه الله تعالى :

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً بهِ إن كان تفريقُ الأُحبةِ في غدٍ

وحكي أن السيد أبا العباس الشريف المذكور ساير القاضي أبا البركات في بعض أسفاره زمن الشباب ببر الأندلس - أعاده الله تعالى - فلما انتهيا إلى قرية تربيانة ، وأدركهما النصب ، واشتد عليهما حرُّ الهجير ، نَزَلَا وأكلا من باكر التين الذي هناك ، وشربا من ذلك الماء العذب ، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلاً بظلّها ، ثم التفت إلى السيد أبي العباس وقال :

ماذا تقولُ فدتك النفسُ في حالي يَفنى زمانِي في حلٍّ وترحالٍ  
وأرتج عليه ، فقال لأبي العباس : أجز ، فقال بديهاً :

كذا النفوسُ اللواتي العزُّ يصحبها لا ترتضي بمقامٍ دونَ آمالٍ  
دعها تسرُّ في الفياضِ والقفارِ إلى أن تبلغَ السؤلَ أو موتاً بتجوالٍ  
الموتُ أهونُ من عيشٍ لدى زمنٍ يُعَلِي اللثيمَ ويدني الأشرفَ العالي

ولما أوقع الشيخ أبو البركات على زوجه الحرة العربية أم العباس عائشة بنت الوزير المرحوم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الكتاني ثم المغيلي طليقة كتب نسختها بما نصّه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وعلى آل محمد ، يقول عبد الله الراجي رحمته محمد المدعو بأبي البركات ابن الحاج خار الله له ولطف به : إن الله جلت قدرته لما أنشأ خلقه على طبائع مختلفة وفرادى شتى ، ففيهم السخي والبخيل ، والشجاع والحبان ، والغبي والفتن ، والكيس والعاجز ، والمسامح والمناقش ، والمتكبر والمتواضع ، إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق ، كانت العشرة لا تستمر بينهم إلاّ بأحد أمرين : إما بالاشتراك في الصفات أو في

بعضها ، وإمّا بصَبْرٍ أحدهما على صاحبه إذا عدم الاشتراك ، ولَمَّا علم الشارع أن نبي آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق ليستريح إليه مَنْ عِيلَ صبره على صاحبه ، توسعةً عليهم ، وإحساناً منه إليهم ، فلأجل العمل على هذا طلق كاتبُ هذا عبد الله محمد المذكور زوجته الحرة العربية المصونة عائشة ابنة الشيخ الوزير الحسيب النزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر المقدس المرحوم أبي عبد الله محمد المغيلي ، طليقة واحدة ، ملكت بها أمر نفسها دونه ، عارفاً قدره ، قصد بذلك إراحتها من عشرته ، طالباً من الله أن يعني كُلاًّ من سَعَتَه ، مُشهداً بذلك على نفسه في صحته وجواز أمره يوم الثلاثاء أوّل يوم من شهر ربيع الثاني عام أحد وخمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

ومن نوادره رحمه الله تعالى أنّه لما استتاب بعض قضاة المرية الفقيه أبا جعفر المعروف بالقرعة في القضاء بخارج المرية من عمله فاتفق أن جاء بعض الجنّانين بفحص المرية يشتكي من جائحة أو أذاية أصابت جنانه ، ففسدت غلته لذلك ، فأخذ ذلك الجنّان قرعة وأشار إليها متشكياً ، وقال : هذه القرعة تشهد بما أصاب جناني ، فقال الشيخ أبو البركات عند ذلك : غريبتان في عام واحد : القرعة تقضي ، والقرعة تشهد .

وكان له رحمه الله تعالى من هذا النمط كثير .

وقال رحمه الله تعالى : نظمت صبيحة يوم السبت السابع والعشرين لرجب عام خمسة وأربعين وسبعمائة ، وقد رأيت في النوم كأنّي أريد إتيان امرأة لا تحلُّ لي ، فيأتي رقيب فيحول بيني وبين ذلك المرأة بعد المرة ، قولي :

ألا كرم الله الرقيب فإنه كفاني أموراً لا يحلُّ ارتكابها  
وبالغ في سدّ الذريعة فاغتندي يلاحظني نوماً ليخلقَ بابها

وقال رحمه الله : أنشدني شيعي أبو عبد الله ابن رشيد عند قراءتي عليه

شرحه لقوافي أبي الحسن حازم ، وقد باحثه يوماً ، مناقشة في بعض ألفاظه من الشرح المذكور :

تسامح ولا تستوفِ حقك كله وأغضِ فلم يستوفِ قطُّ كريمٌ  
ومن نظم الشيخ أبي البركات قوله :

ألا خلَّ دمعَ العينِ يَهْمِي بِمَقَلَّتِي لفرقة عينِ الدمعِ وقف على الدم  
فللماء فيه رنةٌ شَجِينَةٌ كرنئةٌ مسلوبِ الفؤادِ متيم  
وللطيرِ فيه نعمةٌ مَوْصِلِيَةٌ تذكرنِي عهدَ الصبا المتقدم  
وللحسن أعمارٌ به يوسُفِيَةٌ تردُّ إلى دينِ الهوى كلَّ مسلم  
وله رحمه الله تعالى :

ما كلُّ من شدَّ على رأسهِ عمامةً يحظى بسمتِ الوقارِ  
ما قيمةُ المرءِ بأثوابهِ السرُّ في السكانِ لا في الديارِ

وله سماحه الله تعالى : <sup>عجوة</sup>أبو البركات ابن الكاج البليضي

إذا ما كنتُ السرَّ عن أودُه توهَّم أنَّ الودَّ غيرُ حقيقي  
ولم أخفِ عنه السرَّ من ضنَّةٍ به ولكنني أخشى صديقَ صديقي

وله وقد جلس في حلقة بعض المشايخ واستدبر بعض الفضلاء ولم يره ، بسبته :

إن كنتُ أبصرتك لا أبصرتُ بصيرتي في الحقِّ برهانها  
لا غرو أنِّي لم أشاهدكمُ فالعينُ لا تبصرُ إنسانها

وممَّا يعجبه رحمه الله من قوله ، قال في «الإحاطة» ويحق أن يعجبه :

تطالبني نفسي بما ليس لي به يدانِ فأعطيها الأمانَ فتقبلُ

عجبتُ لخصمٍ لِحَجِّ في طلباتهِ يَصالحُ عنها بالمحالِ فيفصلُ  
وممّا أورد له في «الإحاطة» وذكر أنه لو رحل راحلٌ إلى خراسان لما  
أتى إلاّ بهما :

رعى الله إخوانَ الحيّاةِ إنهم كَفَوْنَا مَووناتِ البقاءِ على العهدِ  
فلو قد وَقَوْا كنا أسارى حقوقهم نراوحُ ما بين النسيئةِ والنقدِ

وقد تمثل القاضي أبو البركات في مخاطبة له لسان الدين بقول القائل :

أيتها النفس إليه اذهبي فجه المشهورُ من مذهبي  
أيأسني التوبةَ من حبه طلوعُهُ شمساً من المغربِ

وحكى غير واحد منهم ابن داود البلوي أن القاضي أبا البركات لما عزم على  
الرحلة إلى المشرق كتب إليه ابنُ خاتمة بما صورته :

أشَمَسَ الغربِ حقاً ما سمعنا بأنك قد سثمت من الإقامة  
وأنك قد عزمت على طلوعِ إلى شرقِ سموتَ به علامه  
لقد زلزلتَ منا كلَّ قلبٍ بحقِّ الله لا تُقيمِ القيامةَ

قال الحاكي : فحلف أبو البركات أن لا يرحل من إقليم فيه من يقول مثل  
هذا ؛ انتهى . يشير بقوله «لقد زلزلت - إلخ» إلى طلوع الشمس من  
مغربها .

قلت : ولما عزمت على هذه الرحلة كتب إليّ بعضُ أصحابنا المغاربة  
بالآيات المذكورة متمثلاً ، ولم أرجع عن العزم ، والله غالب على أمره .  
قال الوزير لسان الدين رحمه الله تعالى : وما أحسن قول شيخنا أبي البركات  
معتدراً عن زرقة عينيه :

حَزَنْتُ عليك العينُ يا مَعْتَى الهوى فالدمع منها بعد بُعدك ما رَقَا

ولذلك ما ظهرت بلون أزرقٍ أو ما ترى ثوبَ الماتمِ أزرقاً

قال رحمه الله تعالى : وهو من الغريب .

وقال بعض الشيوخ : كنت أقرأ على الشيخ أبي البركات التفسير ، فنسيت ذات ليلة السُّقْر الذي كنت أقرأ فيه بمنزلي ، فاتفق أن حضر الجامع الصحيح للبخاري ، فقال الشيخ بعد أن أردت القراءة عليه من أوله : افتح في أثناء الأوراق ولا تعين ، وما خرج لك من ترجمةٍ بلجهةِ اليمين فاقرأها ، ففعلت ، فإذا غزوة أحد ، فقرأت الحديث الأول من الباب ، وهو عن عقبة بن عامر ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : إني بين أيديكم فرط ، وأنا شهيد عليكم ، وإن موعدكم الحوض ، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا ، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها ، قال : فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الشيخ قوله « صلى على قتلى أحد » لفظ الصلاة يطلق لغةً على الدعاء ، وشرعاً على الأفعال المخصوصة المعلومة ، وإذا دار اللفظ بين الشرعي واللغوي فحملة على الشرعي أولى حتى يدلّ الدليلُ على خلافه ، فقوله « صلى على قتلى أحد » يحتمل الصلاة الشرعية ، ويكون ذلك منسوخاً إذ قد تقرر أنه لا يُصَلَّى على شهيد المعترك ولا على من قد صُلِّي عليه ، ولمن يعارضه أن يقول : إن قتلى أحد متفرقون في أماكن ، فلا تتأني الصلاة الشرعية عليهم ، إذ الصلاة الشرعية إنما تتأني لو كانوا مجتمعين ، والجواب أنهم وإن كانوا متفرقين تجمعهم جهة واحدة ، وليس بُعد ما بينهم بحيث لا تتأني معه الصلاة عليهم ، هذا ، وإن احتمل حملة على الصلاة اللغوية . وقوله « كالمودع للأحياء والأموات » أما وداعه للأحياء فلا إشكال فيه ، وأما الأموات فمعنى وداعه لهم وداع الدعاء لهم ، لأنه إذا مات فقد حيل بينه وبين

الدعاء لهم ، فلا جرم يودعهم بالدعاء لهم قبل أن يحال بينه وبين ذلك . وقوله صلى الله عليه وسلم « إنني بين أيديكم » أي أتقدم قبلكم ، وقوله صلى الله عليه وسلم « بين أيديكم فرط » أي متقدم ، وبين إذا أضيفت إلى الأيدي تُستعمل فيما قبل زمانك وفيما بعده ، والمعنى هنا في قوله « بين أيديكم » أي أتقدم قبلكم . وقوله صلى الله عليه وسلم « وأنا شهيد عليكم » فيه وجهان ، أحدهما : أن يخلق الله في قلبه علماً ضرورياً يميز به بين البر والفاجر ، فيشهد بما خلق الله في قلبه من ذلك ، إذ لا تكون الشهادة إلا على أمر مشاهد ، ومعلوم أنه لم يشاهد ما فعل بعده من أمته فيخلق الله له علماً بذلك ؛ الوجه الثاني : أن يخبره الله تعالى بذلك كما في حديث الحوض : لَيُذَادَنَّ عَنْهُ أَقْوَامٌ كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرَ الضَّالَّ فَأَقُولُ : أَلَا هَلُم ، أَلَا هَلُم ، فَيَقَالُ : إِنْتَهَمُ قَدْ غَيَّرُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ : فَسَحَقًا فَسَحَقًا فَسَحَقًا ؛ فشهد بما أخبره الله تعالى به ، وهو نظير ما روي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣) من أن قوم نوح يقولون : كيف تشهدون علينا وزمانكم متأخر عن زماننا ؟ فيقولون : لأن الله تعالى قص علينا أخباركم في كتابه ، فقال ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ - إِلَى آخِرِهِ ﴾ (نوح : ١) . وقوله صلى الله عليه وسلم « وإن موعدكم الحوض ، وإنني لأنظر إليه من مقامي هذا » نظره صلى الله عليه وسلم إلى الحوض فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون نظره إليه بقلبه ، إذ كان قد أطلعَه الله عليه ليلة الإسراء ، فصار مرتسماً في قلبه ، فيكون نظره إليه بعين قلبه ، كما يرتسم في قلب أحدنا شكل بيته وما فيه من المتاع والثياب وغير ذلك ؛ الثاني : أن يكون الله تعالى قد كشف له عنه ، فيكون نظره إليه بعينه مشاهدة . وقوله صلى الله عليه وسلم « وإنني لست أخشى عليكم أن تشركوا » إن قيل : كيف قال ذلك وقد ارتد عن الإسلام من ارتد من العرب بعده ؟ فالجواب أنه إنما خاطب بذلك مَنْ لم يشرك من أصحابه ومن بعدهم من التابعين وغيرهم من أمته ، ولم يراع رعايَ العرب



وجُهاً لهم ، إذ لا اعتبار بهم لاحتقارهم . وقوله عليه الصلاة والسلام « ولكني  
أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » قد وقع ما خشي منه عليه الصلاة والسلام  
من المنافسة في الدنيا ، فكان كما ذكر صلى الله عليه وسلم ؛ انتهى .

وحدث الشيخ أبو البركات قال : كنت ببجاية بمجلس الإمام ناصر الدين  
المشدلي أيام قراءتي عليه ، وقد أفاض طلبة مجلسه بين يديه : هل الملائكة أفضل  
أم الأنبياء ؟ فقلت : الدليل لأن الملائكة أفضل أن الله أمرهم بالسجود لآدم ،  
قال : فجعل الطلبة ينظر بعضهم إلى بعض ، حتى قال لي بعضهم : استند يا سيدنا ،  
كأنه يقول : استند إلى حائط ليزول هوس رأسك ، وكانت عبارتهم في ذلك ،  
وكل منهم يقول لي نحو ذلك إزرأ ، وقال لي الإمام ناصر الدين : أبصر فإنهم  
يقولون لك الحق ، وكانت لغته أن يقول : أبصر ، قال : فقلت : أتقولون إن  
أمر الله للملائكة بالسجود لآدم أمر ابتلاء واختبار ؟ قالوا : نعم ، قلت : أفيُختبر  
العبد بتقبيل يد سيده ليرى تواضعه ؟ قالوا : لا ، فإن ذلك من شأن العبد دون  
أن يؤمر ، بل السيد يختبر تواضعه بأن يؤمر بالسجود للعبد ، قلت : فكذا الملائكة ،  
لو أمرت بالسجود لأفضل منها لكان بمنزلة أمر العبد بالسجود لسيده ، قال :  
فكأنما ألقمتهم حجراً .

قال الشيخ أبو البركات : وهذه كحكاية أبي بكر ابن الطيب مع بعض رؤساء  
المعتزلة ، وذلك أنه اجتمع معه في مجلس الخليفة ، فناظره في مسألة رؤية الباري ،  
فقال له رئيسهم : ما الدليل أيها القاضي على جواز رؤية الله تعالى ؟ قال : قوله  
تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فنظر بعض المعتزلة إلى بعض وقالوا : جنَّ القاضي ،  
وذلك أن هذه الآية هي معظم ما احتجوا به على مذهبهم ، وهو ساكت ،  
ثم قال لهم : أتقولون إن من لسان العرب قولك « الحائط لا يبصر » ؟ قالوا : لا ،  
قال : أتقولون إن من لسان العرب « الحجر لا يأكل » ؟ قالوا : لا ، قال : فلا يصح  
إذاً نفي الصفة إلا عما من شأنه صحة إثباتها له ، قالوا : نعم ، قال : فكذلك  
قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ لولا جواز إدراك الأبصار له لم يصح نفيه عنه ،

فأذعنوا لما قال ، واستحسنوه .

وقال الشيخ أبو البركات : كنت ببجاية ، وقدم علينا رجل من فاس برسم الحج يُعرف بابن الحدّاد ، فركب الناس في الأخذ عنه والرواية لما يحمله كُـلٌّ صعبٍ وذلول ، مع أنه لم تكن منزلته هناك في العلم ، فعجبت لذلك ، حتى قلت لبعض الطلبة : لقد أخذتموه بكلتا اليدين ، ولم أركم مع مَنْ هو أعلى قدراً منه كذلك ، فقالوا لي : لأنه قدم علينا ونحن لا نعرفه ، وهو في زي حسن ، بخادم يخدمه ، يظن مَنْ يراه أن أباه من أعيان أهل بلده ، فسألناه أحيّ أبوه أم لا ؟ قال : بل حيّ ، قلنا : أهو من أهل العلم ؟ قال : لا ، هو دلال في سوق الخدم ، فلذلك آثرناه على مَنْ هو فوقه في العلم ، قال : فقلت لهم : حق له أن ترتفع منزلته ويعلو صيته لتخلقه وفضله .

وفوائد أبي البركات كثيرة .

ومن تواليفه « المؤمن على أبناء الزمن » كتاب مفيد جداً . وهو رضي الله عنه من ذرية العباس بن مرداس السُّلَمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقال الشيخ أبو البركات : ذكر لي أن الفقيه الكاتب أبا الحسن ابن الجياب يحدثني ، ولا أذكر الآن أنني قلت ذلك ، ولكنني لما سمعته علمت أنه ممّا من شأنه أن أقوله وهو أنني قلت : مثلُ العالم مثل رجل يصبُّ ماء في قفة ، إن واظب على صب الماء بقيت القفة ملاءً ، وإن ترك صب الماء بقيت القفة لا شيء فيها من الماء : فكذلك العالم : إن واظب على طلب العلم بقي العلم لم ينقص منه شيء ، وإن ترك الطلب ذهب علمه : انتهى .

ونقلت ممّن رأى كلامَ ابن الصباغ في ترجمة أبي البركات ما نصّه : لما ورد مدينة فاس في غرض الهناء والعزاء على أمير المسلمين أبي بكر السعيد ابن أمير المؤمنين أبي عنان : وأبصر الدار غاصة بأرباب الدولة الفاسية ولم يعدم منها عدا شخصه ، والولدُ على أريكة أبيه أنشد :

لَمَّا تَبَدَّلَتِ الْمَجَالِسُ أَوْجُهًا      غَيْرَ الَّذِينَ عَهَدْتُ مِنْ جُلُوسَاتِهَا  
وَرَأَيْتَهَا مَحْفُوفَةً بِسُورِ الْأَلَى      كَانُوا حُمَاةَ صُدُورِهَا وَبَنَائِهَا  
أَنْشَدَتْ بَيْتًا سَائِرًا مُتَقَدِّمًا      وَالْعَيْنُ قَدْ شَرِقَتْ بِجَارِي مَائِهَا  
« أُمَّ الْقَبَابُ فَإِنَّهَا كَقَبَابِهِمْ      وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا »

وأظن أنه<sup>١</sup> تمثل بالأبيات في سره ، وإلا فيبعد أن يقولها في ذلك الحفل لما في ذلك من التعرض للهلك ، والله سبحانه أعلم .

وحكى بعضهم أنه كان جالساً في دهليز بيته مع بعض الأصحاب : فدخلت زوجته من الحمام وهي بغير سراويل لقرب الحمام من البيت ، فأنكشف ساقها ، فدخل خلفها مسرعاً ، وغاب ساعة ثم خرج وأنشد :

كَشَفَّتْ عَلَى سَاقٍ لَهَا فَرَأَيْتَهُ      مَتَلَأْتُهَا كَالْجَوْهَرِ الْبَرِاقِ  
لَا تَعْجَبُوا إِنْ قَامَ مِنْهُ قِيَامِي      إِنْ الْقِيَامَةَ يَوْمَ كَشَفِ السَّاقِ

وله في خديم اسمه يحيى احتجم بحجمة واحدة :

أَرَانِي يَحْيَى صَنْعَةً فِي قَفَائِهِ      مُهَذَّبَةً لَمَّا تَبَادَرَ لِلْبَابِ  
أَرَى<sup>٢</sup> الْخَمْسَ فِيهَا لَا تَفَارِقُ سَاعَةً      فَصَوَّرَ بِالْمَوْسَى بِهَا شَكْلَ مَحْرَابِ

وتوفي الشيخ القاضي أبو البركات المذكور بشوال سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى .

٢٢ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الحكيم العلامة التعاليمي ، الشاعر البليغ ، أعجوبة زمانه في الاطلاع على علوم الأوائل ، أبو زكريا يحيى بن هذيل<sup>٣</sup> وقد قال في « الإحاطة » في حقه<sup>٤</sup> ما ملخصه : يحيى

١ ق : وأظنه .

٢ ص ق : رأى .

٣ ترجمة ابن هذيل في الإحاطة ، الورقة : ٣٨١ ونشير فرائد الجمان : ٣٢٠ ( رقم : ١٣ ) والكتيبة

الكامنة : ٧٣ ( ووردت ترجمته خطأ تحت اسم ابن شقرال ) والدرر الكامنة : ٤ : ٤١٢ .

٤ في حقه : سقطت من ق .

ابن أحمد بن هذيل التجيبي ، أبو زكريا ، شيخنا ؛ جرى ذكره في « التاج المحلى » بما نصّه : دُرّة بين الناس مُغفلة ، وخزّانة على كل فائدة مقلّدة ، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة ، أبدع من رتب التعاليم وعلمها ، وركض في الألواح قلمها ، وأتقن من صور الهيئة ومثلها ، وأسس قواعد البراهين وأثلّها ، وأعرف مَنْ زاول شكايّة ، ودفع عن جسم نكايّة ، إلى غير ذلك من المشاركة في العلوم ، والوصول من المجهول إلى المعلوم ، والمحاضرة المستفزة للحلوم ، والدعابة التي ما خالغ العذار فيها بالملّوم ، فما شئت من نفس عذبة الشيم ، وأخلاق كالزهر من بعد الدّيسم ، ومحاضرة تتحف المجالس والمحاضر ، ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضر ، وله أدب ذهب في الإجادة كل مذهب ، وارتدى من البلاغ بكل رداء مُذهب ، والأدب نقطة من حوضه ، وزهرة من زهرات روضه ، وسيمر له في هذا الديوان ما يبهر العقول ، ويحاسنُ برؤائه ورائق بهائه الفيرندُ المصقول ، فمن ذلك ما خرجته من ديوانه المسمى بالسليمانيات والعزّيات<sup>١</sup> قوله :

ألا استودع الرحمن بديراً مكملًا	بفاسٍ من الدربِ الطويلِ مطالعُهُ
ففي فلّك الأزرارِ يطلعُ سعدهُ	وفي أفقِ الأكبادِ تُلقي مواقعهُ
يصيرُ مرآه منجمٌ مقلتي	فتصدقُ في قطعِ الزجاءِ قواطعهُ <sup>٢</sup>
تجسمُ من ماء الملاحَةِ <sup>٣</sup> خده	وماءُ الحيا فيه ترَجْرَج مائعه
تلونُ كالحريراءِ في خَجالاته	فيحمرُّ قانيه وبييضُ ناصعه
إذا اهتر غنّي حليّه فوق نحره	كفصنِ النقا غنّتْ عليه سواجعه
يؤكدُ حتفَ الصبِّ عاملُ قدره	وتعطفُ من واو العذارِ توابعه

١ ص : بالسليمانية ؛ الكتيبة : السليمانيات والعربيات ، والقصيدية في الكتيبة : ٧٧ .

٢ القطع : من اصطلاحات المنجمين بمعنى النقص أو سوء الطالع .

٣ الكتيبة : نور الملاحَة .

٤ في ق ص : يذكر ؛ ويؤكد : مناسبة للتلاعب النحوي في البيت .

أعدّ الورى سيفاً كسيفٍ لحاظه فهذا هو الماضي وذاك مضارعه<sup>١</sup>

وقال :

وصالك هذا أم تحيةُ بارقِ وأناديك والأشواق تُركِضُ جمرها<sup>٢</sup>  
وهجرك أم ليل السليمِ لتائقِ وأبارقَ ثغرٍ من عُدَيْبِ رُضابِه  
بصفحةٍ خدِّي من دموعِ سوابقِ قَصَّتْ مهجتي بين العذيبِ وبارقِ

ومنها :

فلا تتعبن ریح الصبا في رسالةٍ متى طعمت عيني الكرى بعد بُعدكم  
ولا نخجل الطيف الذي كان طارقي فإني في دعوى الهوى غيرُ صادقِ

وقال :

بدا بدرتيم فوقه الليل عَسَعَسَا وحنة أنس في صباحٍ تنفَسَا  
حوى النجم قرطاً والدراري مُقَلَّدَا وأسبل من مسك الذوائب حِنْدَسَا  
كان سنّا الإصباح رام يزورنا وخاف العيون الرامقات فغَلَسَا  
أتى يحمل التوراة ظيماً مزنراً لطيف الثشي أشنب الثغر العسا  
وقابل أحبار اليهود بوجهه فبارك ربِّي<sup>٣</sup> عليه وقدَسَا  
فصير دمعي أعيناً شرب سبطه وعمرى تيهاً والجوانح مقدَسَا

ومنها :

رويت ولوعي عن ضلوعي مسلسلاً فأصبحتُ في علم الغرام مدرسا  
نفى النوم عني كي أكون مسهداً فأصبحتُ في صيد الخيال مهندسا

١ ق ص : يضارعه .

٢ الكتيبة : حمرها .

٣ الربى : الخبر من أحبار اليهود (Rabbi) .

غزالٌ من الفردوس تسقيه أدمعي      ويأوي إلى قلبي مقيلاً ومكنسا  
طغى وردٌ خديه بجنّاتٍ صدّعه      فأضعفه بالآس نبتاً وما أسا

وهذا البيت محال على معنى فِلاحِيّ ، قال أهل الفلاحة : إن الآس إذا  
اغترس بين شجر الورد أضعفه بالخاصية .

وقال رحمه الله تعالى ورضي عنه ٢ :

نام طفلُ النبتِ في حجرِ النعامي      لاهتراز الطلّ في مهد الخزامي  
وسمّا ٣ الوسميُّ أغصانَ النقا      فهوتُ تلثمُ أفواهَ الندامي  
كحلّ الفجرُ لهم جفنَ الدجى      وغدا في وجنة الصبح لثاما  
نحسب البدرَ محيّا ثملي      قد سقّته راحةُ الصبح مُداما  
حوله الزهرُ كؤوسٌ قد غدت      مسكةُ الليلِ عليهن ختاما  
يا عليلَ الريحِ رفقا عتني      أشفِ بالسقم الذي حزّت سقاما  
أبلغنُ شوقي عريّبا باللوى      هيمتُ في أرضٍ بها حلّوا غراما  
فرشوا فيها من الدرّ حصي      ضربوا فيها من المسك خياما  
كنت أشفي غلةً من صدّكم      لو أذنتمُ لحفوني أن تناما  
واستفدتُ الرّوحَ من ريح الصبا      لو أتتُ تحملُ من سلمى سلاما  
وقال منها أيضاً :

نشأتُ للصبِّ منها زفرةٌ      تسكبُ الدمعَ على الرّبع سجاما  
طرب البرقُ مع القلب بها      وبها الأتاتُ طارحن الحماما

١ ق ص : لحنان .

٢ الكنية : ٧٤ والنثر : ٣٢٢ وقد سبقت أبيات منها في المجلد : ٣ ص : ٣٥٧ .

٣ الكنية والنثر : وسقى ؛ والمقابلة بين « سما » و « هوت » .

٤ الكنية والنثر : الشهب .

طلل لا تشفي الأذنُ بهِ  
ترك الساكنُ لي من وصله  
نزعاتُ من سليمانَ بها  
شادنُ يرعى حُشاشاتِ الحشا  
وهو للعينين قد ألقى كلاما  
ضمةَ الجدران لثماً والتزاما  
فهم القلبُ معانيها فهاما  
حسبُ حظي منه أن أرعى الذماما  
وقال ١ :

أأرجو أماناً منك واللحظُ غادرُ  
ومنها :

أعدَّ سليمانُ أليمَ عذابه  
أشاهد منه الحسنَ في كلِّ نظرةٍ  
دعتُ للهوى أنصارُ سحرِ جفونه  
إذا شقَّ عن بدر الدجى أفقَ زرهِ  
وفي حرَم السلوانِ طابتُ خواطري  
وقد يتزعُّ القلبُ المبلَى ٥ لسلوة  
يقابلُ أغراضِي بضدِّ مُرادها  
ونار اشتياقي صعدتْ مُزَنَ أدمعي  
وقد كنت باكي العين والبينُ غائبُ  
لطائر قلبي فهوَ للبين صائرُ ٣  
وناظرُ أفكاري بمغناه ٤ ناظرُ  
قلبي له عن طيب نفسٍ مهاجرُ  
فإنِّي بتمويه العواذل كافرُ  
وقلبي لما في وجنتيه مجاورُ  
كما اهترَّ من قطرِ الغمامة طائرُ  
ولم يدِرْ أنَّ الضدَّ للضدِّ قاهرُ  
فمُضمرُ سرِّي فوقَ خديَّ ظاهرُ  
فقل لي كيف الدمع ٦ والبين حاضرُ

١ الكتيبة : ٧٥ .

٢ الكتيبة : قلبي .

٣ الكتيبة : صابر .

٤ الكتيبة : لمناه .

٥ الكتيبة : الشجي .

٦ الكتيبة : فقل كيف حال الدمع .

وليس النوى بالطبع مرآ ، وإنما لكثرة ما شقت عليه المرائر<sup>١</sup>

وقال :

يا بارقاً قاد الخيال فأومضاً  
ذاك الذي قد كنت تعهدُ نائماً  
لا تحسبني معرضاً عن طيفه  
لكن منامي عن جفوني أعرضاً

ومنها :

عجب الوشاة لمهجتي أن لم تذب  
خفيت لهم من سر صبري آية  
لله درك ناهجاً سبل الهوى  
أمنت نملًا فوق خدك سارحاً

وقال في المدح :

حريص على جرّ الذوائب والقنا  
ويعتق الأبطال ، لولا سقوطها  
إذا اختطفتهم كفه فسروجهم  
مجال ، وهم في راحتهم فرائس

وقال يمدح السلطان أبا الوليد ابن نصر عند قدومه من فتح أشكر<sup>٢</sup> :

بجيث البنود الحمر والأسد الورد  
وتحت لواء النصر ملك هو الوري  
كثائب سكان السماء لها جند<sup>٣</sup>  
تضيق به الدنيا إذا راح أو يغدو

١ أخذه من قول الشاعر :

وما اخضر ذلك الحال نبتاً وإنما لكثرة ما شقت عليه المرائر

٢ يريد السلطان إسماعيل بن فرج ، هاجم حصن أشكر سنة ٧٢٤ ، وأشكر من عمل بسطة ، وفي

ق ص : أشكو ؛ وانظر الكتيبة : ٧٧ - ٧٩ .

٣ حذف بعد هذا البيت أبياتاً مثبتة في الكتيبة .

٤ الكتيبة : الشرع . . . الهدى .



تَأْمَنَتِ الْأَرْوَاحُ فِي ظِلِّ بَنَدِهِ  
فَلَوْ رَامَ إِدْرَاكَ النُّجُومِ لَنَالَهَا

ومنها :

بِعَيْنِي بَحْرُ النَّعَمِ تَحْتَ أَسْنَةِ  
سَمَاءِ عَجَاجٍ وَالْأَسْنَةُ شُهِبَهَا  
وظنوا بأن الرعد والصعق في السما  
عجائب أشكال سما همرس بها  
ألا إنها الدنيا تريك عجائباً

وقال وهو معتقل :

تَبَاعَدَ عَنِّي مَنزَلٌ وَحَيْبٌ  
وَإِنِّي عَلَى قَرَبِ الْحَيْبِ مَعَ النَّوَى  
لَقَدْ بَعَدَتْ عَنِّي دِيَارٌ قَرِيبَةٌ  
أَعَاشِرُ أَقْوَامًا تَقْرَأُ نَفُوسَهُمْ  
إِذَا شَعَرُوا مِنْ جَارِهِمْ بِتَأْوِهِ  
فَلَا ذَاكَ يَشْكُوهُمْ هَذَا تَأْسَفًا  
كَأَنِّي فِي غَابِ اللَّيْثِ مَسَالِمٌ  
تَحْكَمُ فِيهَا الدَّهْرُ وَالْعَقْلُ حَاضِرٌ  
وَلَوْ مَالٌ بِالْجَهَالِ مَيْلَتَهُ بِنَا  
رَفِيقٌ بِمَنْ لَا يَنْشِي عَنْ جَرِيمَةٍ  
وَيُطْمَعْنَا مِنْهُ بَوَارِقُ خَلْبٌ

وَهَاجَ اشْتِيَاقِي وَالْمَزَارُ قَرِيبٌ  
يَكَادُ إِذَا اشْتَدَّ الْأَيْنُ يُجِيبُ  
عَجِبْتُ لِحَارِ الْجَنْبِ وَهُوَ غَرِيبٌ  
فَلِلَّهِمْ فِيهَا عِنْدَ ذَاكَ ضُرُوبٌ  
أَجَابَتْهُ مِنْهُمْ زَفْرَةٌ وَنَحِيبٌ  
لِكُلِّ أَمْرٍ مِمَّا دَهَاهُ نَصِيبٌ  
يُرْوَعُنِي مِنْهُ الْغَدَاةَ وَثُوبٌ  
بِكُلِّ قِيَاسٍ وَالْأَدِيبُ أَدِيبٌ  
لِحَاءِ بَعْذِرٍ : إِنَّ ذَا الْعَجِيبِ  
بَطُوشٌ بِمَنْ مَا أَوْبَقْتَهُ ذُنُوبٌ  
نَقُولُ عَسَاهُ يَرْعَوِي فَيُؤُوبُ<sup>٢</sup>

١ ص : لإبانه .

٢ ق : فيتوب .

إذا ما تشبثنا بأذيالِ بُردهِ  
أدار علينا صولجاناً ، ولم يكن

ومنها :

أيا دهرُ إنِّي قد سئمتُ هدِّي في  
إذا خفق البرقُ الطروقُ أجابه  
وإن طلع الكفُّ الخضيبُ بسحرةِ  
تذكرني الأسحارُ داراً ألفتها  
إذا علقت نفسي بليِّتٍ وربما  
دعوتك ربي والدعاء ضراعةُ  
لئن كان عقبي الصبر فوزاً وغبطةُ  
أجرني فإنَّ السهمَ منك مصيبُ  
فؤادي ودمعُ المقلتين سكوبُ  
فدمعي بحناءِ الدماءِ خضيبُ  
فيشتدُّ حزني والحمام طروبُ  
تكاد تفيضُ أو تكادُ تذوبُ  
وأنت تناجي بالدعا فتجيبُ  
فإنِّي على الصبرِ الجميلِ دروبُ

قال : وبعثت إليه هدية من البادية ، فقال يصف منها ديكاً :

أيا صديقاً جعلته سنّدا  
طلبتُ منكم سرّيدكاً<sup>٢</sup> خنثاً  
صيّرَ مني مؤرخاً ولكم  
قلتُ له : آدمٌ أتعرّفه  
نوحٌ وطوفانُهُ رأيتهما ؟  
فقلت : هل لي بجرهمِ خيرٌ ؟  
فقلت : قحطانُ هل مررت به ؟  
فقلت : صف لي سباً وساكنها

فراح فيما أحبه وغدا  
وجثمُ لي مكانه لبّدا  
ظلتُ في علمه من البلّدا  
قال : حفيدي بعصرنا ولدا  
قال : علونا بفيضه أحدا  
فقال : قومي وجيرتي السعدا  
قال : نفثنا ببرده العُقدا  
فعند هذا تنفس الصّعدا

١ ق : الأشجار .

٢ السريدك : تصغير سردوك وهو الديك .

فقال : كم لي بدجنهم سحرأ  
فقلت : هاروت هل سمعت به؟  
فقلت : كسرى وآل شرعته؟  
ولّوا وصاروا وها أنا لبد  
ديك إذا ما انثى لفكرته  
يرفلُ في طيلسانه وهأ  
إذا دجا الليلُ غابَ هيكله  
كأنما جلتار لحيته  
كانَ حصناً علا بهامته  
يرنو بياقوتي لواحظه  
كانَ منجالي ذوائبه  
وعوسجٌ مدّ من مخالبه  
فذاك ديكٌ جلت محاسنه  
يطلبني بالذي فعلتُ به  
وجّهتهُ محنةً لآكله  
من صرخة لي وللثوم هدا  
فقال : ريشي لسهمه نفدا  
فقال : كنا بيجشه وفدا  
فهل رأيتم من فوقهم أحدا  
رأى وجوداً طرائقاً قددا  
قد صير الدهرُ لونه كدا  
كانَ حبراً عليه قد جمدا  
برجانِ جازا من الهواءِ مدى  
أعدّه للقتال فيه عدا  
كأنما اللحظُ منه قد رمدا  
قوسُ سماٍ من أضله بعدا  
طغى بها في نقاره وعدا  
له صراخٌ بين الديوكِ بدا  
فكم فللنا بلبتته مُدى  
والله ما كان ذلك منك سدى

ولم نزل بعدُ نستعدي عليه بإقراره بقتله، ونطلبه بالقود عند تصرفه بالعمل،  
فيوجه الدية لنا في ذلك رسائل .

وقال في غرض أبي نوّاس :

طرقنا دُيورَ القومِ وهنأ وتغليسا  
وقد رفعوا الإنجيلَ فوق رؤوسهم  
فما استيقظوا إلا لصكةٍ بابهم  
وقد شرفوا الناسوت إذ عبدوا عيسى  
وقد قدسوا الروحَ المقدسَ تقديسا  
فأدهش رهباناً وروع قسيسا

وقام بها البطريقُ يسمي ملبياً  
 فقلنا له أماً فإننا عصابةٌ  
 وما قصدنا إلا الكؤوسَ وإنما  
 ففتحت الأبوابُ بالرحبِ منهمُ  
 فلما رأى رقييَ أمامي ومزهري  
 وقام إلى دنٍ يفضُّ ختامه  
 وطاف بها رطبُ البنانِ مزدرُ  
 سلفاً حواها القارُ لبساً فخلتها

ومنها :

إلى أن سطا بالقومِ سلطانُ نومهمُ  
 وثبتُ إليه بالعناقِ فقال لي :  
 كتبتُ بدمعِ العينِ صفحةَ خده  
 فبئس الذي احتلنا وكدنا عليهمُ  
 فبتنا يرانا الله شرَّ عصابةٍ

ورأسُ فتيلِ الشمعِ<sup>٢</sup> نكسُ تنكيسا  
 بحقِ الهوى هبُ لي من الضمِّ تنفيسا  
 فطلَّسَ حبرَ الشعرِ كتبيَ تطليسا  
 وبئس الذي قد أضمرُوا قبلَ ذا بيسا  
 نطيعُ بعضيانِ الشريعةِ إيليسا

وقال بديهة في غزالة من النحاس ترمي الماء على بركة :

عنتُ لنا من وحشٍ وجرةَ ظبيةً  
 وأظنُّها إذ حددتُ آذانها  
 حيثُ بقرني رأسها إذ لم تجدُ  
 حتتُ على الندمانِ من إفلاسهم  
 لله درُّ غزالةٍ أبدتُ لنا

جاءت لوردِ الماءِ ملءِ عنانها  
 ريعتُ بنا فتوقفتُ بمكانها  
 يومَ اللقاءِ تحيةً بينانها  
 فرمتُ قضيبَ بلجينها لحنانها<sup>٣</sup>  
 درُّ الحبابِ تصوغهُ بلسانها

١ ق ص والكتيبة : زقي ؛ ولعله الرق - بالراء المهملة - ليطابق المزهر .

٢ ق ص : قبيل السمع ؛ والتصويب عن الكتيبة .

٣ سقط البيت من ق .

قال لسان الدين : وفُليجَ المذكور ، فلزم منزلي لمكان فضله ووجوب حقه ، وقد كانت زوجه توفيت ، وصحبه عليها وجَد ، فلما ثقل وقربت وفاته استدعاني وكاد لسانه لا يبين ، فأوصاني وقال :

إذا متُّ فادفني حذاء حليلتي      يخالطُ عظمي في الترابِ عظامها  
ولا تدفنتني في البقيعِ فإنتي      أريدُ إلى يوم الحساب الترامها  
ورتبْ ضريحي كيفما شاءه الهوى      تكونُ أمامي أو أكونُ أمامها  
لعل إله العرش يجبرُ صدعتي      فيسْعلي مقامي عنده ومقامها

ومات رحمه الله تعالى في الخامس والعشرين لذي قعدة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ودفن بجذاء زوجه كما عهد رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

ومن نظم ابن هذيل :

وظبي زارني والليلُ طفلاً      إلى أن لاح لي منه اكتهالُ  
وألقى الشكَّ من وصلٍ فقلنا      بليلِ الشكِّ يُرْتَقَبُ الهلالُ

٢٣ - ومن أشياخ لسان الدين : الشيخ أبو بكر ابن ذي الوزارتين ، وهو - أعني أبا بكر - الوزير الكاتب الأديب الفاضل المشارك المتفنن المتبحر في الفنون أبو بكر محمد ابن الشيخ الشهير ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم الرندي<sup>٢</sup> ، ومن نظمه قوله<sup>٣</sup> :

تصبرُ إذا ما أدركتك ملامةٌ      فصنْعُ إلهِ العالمين عجيبُ  
وما يلحقُ الإنسانَ عارٌ بنكبةٍ      ينكَبُ فيها صاحبٌ وحيبُ

١ ق ص : أي .

٢ ترجمة أبي بكر ابن الحكيم في الإحاطة ٢ : ١٩٩ والكتيبة الكامنة : ١٩٥ .

٣ الإحاطة : ٢٠٦ والكتيبة : ١٩٥ .

٤ الإحاطة والكتيبة : يدرك .

ففي من مضى للمرء ذي العقل أسوة<sup>١</sup> وعيش كرام الناس ليس يطيب<sup>٢</sup>  
ويوشك أن تهمي سحائبُ نعمة فيخصب ربع<sup>٣</sup> للسرور جديب<sup>٤</sup>  
إهلك يا هذا قريب لمن دعا وكل<sup>٥</sup> الذي عند القريب قريب<sup>٦</sup>

قال ابن خاتمة : وأنشدني الوزير أبو بكر مقدّمه على المربة غازياً مع الجيش المنصور ، قال : أنشدني أبي :

ولمّا رأيتُ الشيبَ حلّ<sup>٧</sup> بمفرقي نذيراً بترحال الشبابِ المفارقِ  
رجعتُ إلى نفسي فقلت لها انظري إلى ما أرى ، هذا ابتداء الحقائقِ

[ ترجمة أبي عبد الله ابن الحكيم ]

وبيتهم بيت كبير ، وأخذ عن غير واحد وعن والده ، وهو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد<sup>١</sup> بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى ، اللخمي ، الرندي ، الكاتب البليغ الأديب الشهير الذكر بالأندلس ، وأصل سلفه من إشبيلية من أعيانها ، ثم انتقلوا إلى رُنْدَة في دولة بني عباد ، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم<sup>٢</sup> لطفه ، وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر إثرَ قفوله من الحج في رحلته التي رافق فيها العلامة أبا عبد الله ابن رشيد الفهري ، فألحقه السلطان بكتابه ، وأقام يكتب له في ديوان الإنشاء إلى أن توفي هذا السلطان وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله المخلوع فقلده الوزارة والكتابة ، وأشرك معه في الوزارة أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني ، فلمّا توفي أبو سلطان أفردهُ السلطان بالوزارة ، ولقبه ذا الوزارتين ،

١ الإحاطة : محمد بن محمد .

٢ هذه ترجمة والد أبي بكر ابن الحكيم عن الإحاطة ٢ : ٢٧٩ .

وصار صاحب أمره إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلًا نفعه الله تعالى غُدْوَةً يوم الفطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة ، وذلك لتاريخ خلع سلطانه وخلافة أخيه أمير المسلمين أبي الجيوش مكانه ، ومولده برُندة سنة ستين وستمائة .

وكان رحمه الله تعالى علمًا في الفضيلة والسرارة وكمّار الأخلاق ، كريم النفس واسع الإيثار ، متين الحرمة عالي الهمة ، كاتبًا بليغًا أديبًا شاعرًا ، حسن الخط يكتب خطوطًا على أنواع كلّها جميلة الانطباع ، خطيبًا فصيح القلم زاكي الشيم ، مؤثرًا لأهل العلم والأدب برّاً بأهل الفضل والحسب ، نفقت بمدته للفضائل أسواق ، وأشرقت بإمداده للأفاضل آفاق . ورحل للمشرق كما سبق ، فكانت إجازته البحر من المرية ، فقضى فريضة الحج ، وأخذ عن لقي هنالك من الشيوخ ، فمشيخته متوافرة ، وكان رفيقه - كما مرّ - الخطيب أبا عبد الله ابن رشيد الفهري ، فتعاونوا على هذا الغرض ، وقضيا منه كل نفل ومفترض ، واشتركا فيمن أخذنا عنه من الأعلام ، في كل مقام ، وكانت له عناية بالرواية وولوع بالأدب ، وصباية باقتناء الكتب ، جمع من أمهاتها العتيقة ، وأصولها الرائقة الأنيقة ، ما لم يجمعه في تلك الأعصر أحد سواه ، ولا ظفرت به يده ، أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق ابن أبي العاصي ، وتدبج معه رفيقه أبو عبد الله ابن رشيد وغير واحد ، وكان ممدحاً ، وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي والرئيس أبو الحسن ابن الجياب ، وناهيك بهما .

ومن بديع مدح ابن الجياب له قصيدة رائقة يهنيه فيها بعيد الفطر منها في أولها :

يا قادمًا عمت الدنيا بشائرهُ أهلاً بمقدمك الميمون طائرهُ  
ومرحباً بك من عيد تحفُّ به من السعادة أجناد تظافرهُ

قدمت فالحلقُ في نعمي وفي جدلِ  
والأرضُ قد لبستُ أثوابَ سندسها  
حاكت يد الغيثِ في ساحاته حُللاً  
فلاح فيها من الأنوارِ باهرها  
وقام فيها خطيبُ الطيرِ مرتجلاً  
موشِيٌّ ثوب طواه الدهرُ آونةً  
فالغصنُ من نشوةٍ يثني معاطفه  
وللكمام انشقاقٌ عن أزاهرها  
لله يومك ما أزكى فضائله  
فكم سريرةٍ فضلٍ فيك قد خبثت  
فافخر بحقٍ على الأيام قاطبةً  
فأنت في عصرنا كابن الحكيم إذا  
يلتأخ منه بأفق الملك نورٌ هدى  
مجدٌ صميمٌ على عرش السماك سما  
وزارةُ الدين والعلم الذي رفعت  
وليس هذا ببدعٍ من مكارمه  
يلقى الأمورَ بصدرٍ منه مُنشرحٍ  
راعى أمورَ الرعايا مُعملاً نظراً  
والملكُ سَيَّرَ في تدبيره حكماً  
سياسةُ الحلم لا بطشٌ يكدرها  
لا يصدرُ الملك إلا عن إشارته  
تجري الأمورُ على أقصى إرادته  
وكم مقامٌ له في كلِّ مكرمةٍ

أبدى بك البشرَ باديه وحاضره  
والروضُ قد بَسَمَت منه أزاهره  
لَمَّا سقاها دراكاً منه باكره  
وفاح فيها من التَّوارِ عاطره  
والزهرُ قد رُصِّعت منه منابره  
فها هو اليومَ للأبصار ناشره  
والطيرُ من طربٍ تشدو مزاهره  
كما بدت لك من خلٍّ ضمائره  
قامت لدين الهدى فيه شعائره  
وكم جمالٍ بدأ للناس ظاهره  
فما لفضلك من ندىٍ يظايره  
قيستُ بفخرٍ أُولي العُليا مفاخره  
تضائلُ الشمسُ مهما لاح زاهره  
طالت مبانیه واستعلت مظاهره  
أعلامه والندى الفياض زاخره  
ساوتُ أوائله فيسه أواخره  
بجرٍّ وآراؤه العظمى جواهره  
كمثلِ عليهٍ معدوماً نظائره  
تنالُ ما عجزت عنه عساكره  
فهو المهيبُ وما تخشى بوادره  
فالرشدُ لا تتعداهُ مصايره  
كأنما دهره فيه يشاوره  
أنستُ مواردَه فيها مصادره



ففضلها طَبَّقَ الآفاقَ أجمعها  
 فليس يحجده إلا أخو حسدٍ  
 لا ملكَ أكبرُ من ملك يدبره  
 يا عِزَّ أميرٍ به اشتدت مضاربه  
 تُثني البلادُ وأهلوها . بما عرفوا  
 بشرى لآمله الموصولِ مأملة  
 فالعلمُ قد أشرفت نوراً مطالعه  
 والناسُ في بُشْرِ ، والملك في ظفْرِ  
 والأرضُ قد ملئت أمنأ جوانبها  
 والى أبياديه من منى وموحدة  
 فكلَّ يومٍ تَلَقَّانَا عَوَارِفُهُ  
 فمن يؤدي لما أولاه من نعمٍ  
 يا أيها العيدُ بادرْ لِمَ راحتته  
 وافخرْ بأن قد لقيت ابن الحكيم على  
 ولّى الصيامُ وقد عظمتَ حرمتُهُ  
 وأقبلَ العيدُ فاستقبلْ به جذلاً  
 كأنه مثلٌ قد سار سائره  
 يرى الصباحُ فيعشى منه ناظره  
 لا ملك أسعدُ من ملك يوازره  
 يا حُسْنَ ملكٍ به ازدانت محاضرهُ  
 ويشهدُ الدهرُ آتيه وغابره  
 تَعَسَّأَ لحاسده المقطوعِ دابره .  
 والجودُ قد أسبلت سحاً مواطرهُ  
 عالٍ على كلِّ عالي القدر قاهرهُ  
 بيمنٍ من خلصت فيها سرائره  
 تُساجِلُ البحرَ إن فاضت زواجرهُ  
 كساه أمواله الطولى دفاتره  
 شكراً ولو أن سحباناً يظاهرهُ  
 فلثمها خيرُ مأمولٍ تبادره  
 عصرٍ يباريك أو دهرٍ تفاخرهُ  
 فأجرهُ لك وافية ووافره  
 واهناً به قادماً عمت بشائره

ومن نثر ذي الوزارتين آخر إجازة ما صورته : وها أنا أجري معه على حسن  
 معتقده ، وأكيله في هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تودده ، وأجيز له ولولديه  
 أقر الله بهما عينه ، وجمع بينهما وبينه ، رواية جميع ما نقلته وحملته ،  
 وحسنُ اطلاعه يُفصل من ذلك ما أجملته ، فقد أطلقت لهم الإذن في جميعه ،  
 وأبحت لهم الحمل عني ولهم الاختيار في تنويعه ، والله سبحانه يخلص أعمالنا لذاته ،  
 ويجعلها في ابتغاء مرصاته ، قال هذا محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامداً لله  
 عز وجل ، ومصلياً .

ومن شعر ذي الوزارتين ابن الحكيم قوله<sup>١</sup> :

ما أحسنَ العقلَ وآثارَهُ      لو لازم الإنسانُ إشارَهُ  
يَصُونُ بالعقلِ الفتيَ نَفْسَهُ      كما يصونُ الحرُّ أسرارَهُ  
لا سيّما إن كان في غربَةٍ      يحتاج أن يعرفَ مقدارَهُ

وقوله رحمه الله<sup>٢</sup> :

إنتي لأعسرُ أحياناً فيلحقني      يسرُّ من الله إن العسرَ قد زالا  
يقولُ خير الوري في سنّةٍ ثبتتُ      « أنفقْ ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالاً »

وهو من أحسن ما قال رحمه الله .

ومن شعر ذي الوزارتين المذكور قوله<sup>٣</sup> :

فقدتُ حياتي بالعراقِ ومَن غدا      بحالِ نوّى عمن يُحبُّ فقد فقدتُ  
ومن أجلِ بعدي عن ديارِ ألفتها      جحيمُ فؤادي قد تَلَطَّى وقد وَقَدتُ

وقد سبقه إلى هذا القائل :

أواري أواري بالدموعِ تجلّداً      وكم رمتُ إطفاءَ اللهبِ وقد وقد  
فلا تعذّلوا مِن غابَ عنه حبيبهُ      فمن فقدَ المحبوبَ مثلي فقد فقد

كذا رواه ابن خاتمة . ورواه غيره هكذا :

أواري أواري والدموعُ تبينه

وهو الصواب ، قال ابن خاتمة : وأنشدني رئيس الكتاب الصدرُ البليغ

١ الإحاطة : ٢٩٤ . قلت : وورد في المجلد ٣ : ٣٤٧ منسوباً لصالح بن شريف البرندي .

٢ المصدر نفسه .

٣ المصدر نفسه .

الفاضل أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري ، قال : أنشدني رئيس  
الكتاب الجليل أبو محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمي ، قال : أنشدني رئيس  
الكتاب ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم رحمه الله :

صحَّ الكتابَ وعنهِ واختمَ على مكتنتهِ  
واحذرْ عليه من مخا لسةِ الرقيبِ بجفنهِ  
واجعلْ لسانك سجنهُ كيلا تُررى في سجنهِ

قال ابن خاتمة : وفي سند هذه القطعة نوع غريب من التسلسل .  
وحكى أن ذا الوزارتين المذكور لما اجتمع مع الجليل الفقيه الكاتب ابن  
أبي مدين أنشده ابن أبي مدين<sup>١</sup> :

عشقتكمُ بالسمعِ قبل لقاكمُ وسمَعُ الفتى يَهْوَى لعمري كطرفهِ  
وحببني ذكركُ الجَلِيسِ إليكمُ فلما التقينا كنتمُ فَوْقَ وَصْفِهِ  
فأنشد ذو الوزارتين ابن الحكيم :

ما زلتُ أسمعُ عن عليكَ كلَّ سَنًا أبهى من الشمسِ أو أجلى من القمرِ  
حتى رأى بصري فوق الذي سمعتُ أذني فوفَّقَ بين السمعِ والبصرِ  
ويعجبني في قريب من هذا المعنى قولُ الحاج الكاتب أبي إسحاق الحساوي<sup>٢</sup>  
رحمه الله :

سحرُ البيانِ بناي صار يعقدهِ والنَّقْثُ في عقدهِ من منطقي الحسنِ  
لا أنشدُ المرءَ يلقاني ويصبرني أنا المُعَيَّدِي فاسمعُ بي ولا ترني  
رجع - وقال لسان الدين في «عائد الصلة» في حق ذي الوزارتين ابن الحكيم

١ الإحاطة : ٢٩٤ .

٢ ص : الحساوي .

ما صورته<sup>١</sup> : كان رحمه الله فريداً دهره سماحةً وبشاشةً ولوذعيةً وانطباعاً ، رقيق الحاشية ، نافذ العزمة ، مهترراً للمديح ، طلقاً للآمل ، كهفناً للغريب ، برمكي المائدة ، مهتبي الحلوى<sup>٢</sup> ، ريان من الأدب ، مضطلعاً بالرواية ، مستكثراً من الفائدة ، يقوم على المسائل الفقهية ، ويتقدم الناس في باب التحسين والتفويض ، ورفع راية الحديث والتحديث ، نفع بضاعة الطلب ، وأحيا معالم الأدب ، وأكرم العلم والعلماء ، ولم تشغله السياسة عن النظر ، ولا عاقه تديرُ الملك عن المطالعة والسماع ، وأفرط في اقتناء الكتب حتى ضاقت تصوره عن خزائنها ، وأثرت أنديته من ذخائرها ، قام له الدهرُ على رجل ، وأخدمه صدور البيوتات وأعلام الرياضات ، وخوطب من البلاد النازحة ، وأمل في الآفاق النائية ؛ انتهى المقصود منه .

ومن أحسن ما رثي به الوزير ابن الحكيم رحمه الله قولُ بعضهم :

قتلوكَ ظلماً واعتدوا في فعلهم حدَّ الوجوب  
ورموكَ أشلاءً ، وذا أمرٌ قضتَه لك الغيوب  
إن لم يكنْ لك سيدي قبرٌ فقبرك في القلوب

وقال لسان الدين في « الإحاطة » في حق رحلة ذي الوزارتين ابن الحكيم ما صورته<sup>٣</sup> : رحل إلى الحجاز الشريف من بلده على فتاء سنة أول عام ثلاثة وثمانين وستمائة ، فحج وزار ، وتجوّل في بلاد المشرق متجعاً عوالي الرواية في مظانها ، ومنقراً عنها عند مُسنّي شيوخها ، وقيد الأناشيد الغريبة والأبيات المرقصة ، وأقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم ، فأخذ بها

١ الإحاطة : ٢٧٩ .

٢ كذا في الإحاطة ؛ وفي ق ص : الخلوة .

٣ الإحاطة : ٢٧٩ .

عن جماعة ، وانصرف إلى المدينة المشرفة ، ثم قفلَ مع الراكب الشامي إلى دمشق ، ثم كر إلى المغرب ، لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا رَوَى أو رَوَى ، واحتل رُنْدَةَ حرسها الله أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة ، فأقام بها عيناً في قرابته ، وعلماً في أهله ، معظماً لديهم ، إلى أن أوقع السلطان بالوزراء من بني حبيب الوقيلة البرمكية وورد رُنْدَةَ في أثر ذلك ، فتعرض إليه وهناك بقصيدة طويلة من أوليات شعره أولها<sup>١</sup> :

هل إلى ردة عشيّات الوصالٍ سببٌ أم ذاك من ضرب المجال ؟

فلما أنشدها إياه أعجِبَ به وبحسن خطّه ونصاعة ظرفه ، فأثنى عليه ، واستدعاه إلى الوفادة على حضرته ، فوفد آخر عام ستة وثمانين ، فأثبتته في خواصّ دولته ، وأحظاه لديه ، إلى أن رفاه إلى كتابة الإنشاء ببابه ، واستمرت حاله معظمّ القدر مخصوصاً بالمزية ، إلى أن توفي السلطان ثاني الملوك من بني نصّر ، وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله ، فزاد في إحظائه وتقريبه ، وجمع له بين الكتابة والوزارة ، ولقبه بذي الوزارتين ، وأعطاه العلامة ، وقلده الأمر ، فبعد الصيت وطاب الذكر ، إلى أن كان من أمره ما كان ؛ انتهى ملخصاً . وقال في « الإحاطة » بعد كلام طويل في ترجمته : قال شيخنا الوزير أبو بكر ابن الحكيم ولده : وجدت بخطّه رحمه الله تعالى رسالة خاطب بها أخاه الأكبر أبا إسحاق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها<sup>٢</sup> :

ذكَرَ اللّوَى شوقاً إلى أقمارهِ فقَضَى أَسَى أو كاد من تذكارِه  
وعلا زفيرُ حريقِ نارِ ضلوعِهِ فرمى على وجنّاته بشرارهِ<sup>٣</sup>

١ أورد في الإحاطة : ٢٨٩ - ٢٩١ جملة من أبياتها .

٢ الإحاطة : ٢٩٢ .

٣ سقط الشطر الثاني من ق .

وقد ذكرناها في غير هذا المحل .

وقال مما يكتب على قوس<sup>١</sup> :

أنا عُدَّةٌ للدين في يدٍ من غدا  
أحكى الهلال وأسهمي في رجمها  
قد جاء في القرآن أنني عُدَّةٌ  
وإذا العدو أصابه سهمي فقد  
لله منتصراً على أعدائه  
لمن اعتدى تحكي رجوم<sup>٢</sup> سماه  
إذ نصَّ خيرُ الخلق محكم آيه  
سبق القضاء بهلكه وفنايه

قال لسان الدين<sup>٣</sup> : ومن توقيعه ما نقلته من خط ولده ، يعني أبا بكر ، في كتابه المسمى بـ «الموارد المستعذبة» وكان بوادي آش الفقيه الطرائفي<sup>٤</sup> ، فكتب إلى خاصة والدي أبي جعفر ابن داود ، قصيدة على روي السين ، يتشكى فيها من مشرف بلدهم إذ ذاك أبي القاسم ابن حسان منها :

فيا صقيّ أبي العباس كيف ترى  
ولّوه إن كان ممّن ترتضون به  
وأنت أكيسُ من فيها من آكياسٍ ؟  
فقد دنا الفتحُ للأشرافِ في فاسِ

ومنها يستطرد ذكر ذي الوزارتين :

للشرق فضلٌ فمنه أشرقَتْ شُهْبُ  
فوقع عليها رحمه الله تعالى :

إن أفرطتْ بآبن حسان غوائله  
وإن تزلّ به في جورةٍ قدم  
فالأمر يكسوه ثوبَ الذكر والباسِ  
كان الجزاء له ضرباً على الراسِ

١ الإحاطة : ٢٩٥ .

٢ الإحاطة : نجوم .

٣ الإحاطة : ٢٩٥ .

٤ كذا في ق ص ؛ وفي الإحاطة : الطريفي .

فقد أقامني المولى بنعمته لِبَيْتٍ أَحكامه بالعدلِ في الناسِ

ثم أطل في أمره ، إلى أن قال في ترجمة قتله ما صورته <sup>١</sup> : واستولت يد الغوغاء على منازلها ، شغلهم بها مدبر الفتنة خيفةً من أن يعاجلوه قبل تمام أمره ، فضاع بها مال لا يُكتب ، وعروض لا يُعلم لها قيمة من الكتب والذخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والحرفي ، وأخضرت ذمته ، وتعدى به عدوه القتل إلى المثلة ، وقانا الله مصارع السوء ، فطيف بشلوه ، وانتهب ، فضاع ولم يقبر ، وجرت فيه شناعة كبيرة ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى المقصود منه .

رجع :

٢٤ - ومن مشايخ لسان الدين الأستاذ أبو الحسن علي القيجاطي <sup>٢</sup> .

وقال في حقه في « الإحاطة » ما محصله : علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكناني ، القيجاطي ، أبو الحسن ، أوجد زمانه علماً وتخلقاً وتواضعاً وتفناً ، ورد على غرناطة مستدعيً عام اثني عشر وسبعمائة ، وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ فنوناً من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب . وولي الخطابة ، وناب عن بعض القضاة بالحضرة ، مشكور المأخذ حسن السيرة عظيم النفع ، وقصده الناس وأخذوا عنه ، وكان أديباً لَوذَعِيّاً فكهاً حلواً ، وهو أول أستاذ قرأت عليه القرآن والعربية والأدب إثر قراءة المكتب . وله تأليف في فنون وشعر ونثر . فمن شعره قوله <sup>٣</sup> :

روضُ المشيبِ تفتحتُ أزهارهُ حتى استبانَ ثُغامهُ وبهارهُ

١ انظر الإحاطة : ٣٠١ .

٢ ترجمة أبي الحسن القيجاطي في الكتيبة : ٣٧ والديباج : ٢٠٧ ونيل الابتهاج : ٢٩٢ وبغية الوعاة : ٣٤٤ والإحاطة ، الورقة : ٣٢٣ ، وقد أوجز الترجمة في النسخة التي اعتمدت عليها وحذف أشعاره .

٣ الكتيبة : ٣٨ .

ودجى الشبابِ قد استبان صباحهُ  
 فأتى حمامٌ لا يعافُ وقوعهُ  
 والعمرُ مثل البدرِ يبدو حسنه  
 ما للإخاءِ تقلصت أفاؤه  
 والحرُّ يصفحُ إن أخلَّ خليله  
 فتراه يدفعُ إن تمكنَ جاههُ  
 ولأنت تعلم أني زمنَ الصبا  
 ولأنت تعلم أني زمنَ الصبا  
 والهجر ما بين الأحبة لم يزل  
 ولكم تجافى عن جفاء خليله  
 ولكم أصرَّ على التدابرِ مدبرُ  
 فأقام كالكسعيِّ بانَ نهارهُ  
 أنكرتم من حقِّ معترفٍ لكم  
 والشرعُ قد منع التقاطعَ نصه  
 والسنُّ سنُّ تورعٍ وتبرعٍ  
 ما يومنا من أمسنا قدك اتئدُ  
 هلاً حظرتم أو حذرتم منه ما  
 عجباً لمن يجري هواه لغايةٍ  
 يأتي ضحى ما كان يأتيه دجى  
 فيعدُّ ما تفى به حسناتهُ  
 فالنفسُ قد أجزته ملءَ عنانها  
 والمرء من إخوانه في جنةٍ  
 واليمنُ قد مدت إليه يمينه

وظلامه قد لاح فيه نهاره  
 ومضى غرابٌ لا يخافُ مطارَه  
 حيناً ويعقب بعد ذلك سراره  
 ما للصفاء تكدرت آثاره  
 والبرُّ يسمعُ إن تجرأ جاره  
 وتراه ينفعُ إن علا مقداره  
 ما زلتُ زناداً والحياء سواره  
 ما زلتُ ممن عفا فيه إزاره  
 تركُ الكلام أو السلام مثاره  
 فظنُّ ، وقد ظفرت به أظفاره  
 أفضى إلى ندمٍ به إصراره  
 أو كالفردق فارقته نواره  
 بالحق ما لا ينبغي إنكاره  
 قطعاً ، وقد وردت به أخباره  
 وتسرع لتشرع تحتارَه  
 ذهب الشبابُ فكيف يُنفى عاره  
 حقُّ عليكم حظُّه وحذاره  
 محدودةٍ إضماره مضماره  
 فكأته ما شاب منه عذاره  
 ويعيدُ ما تبقى به أوزاره  
 يشتدُّ في مضمارها إحضاره  
 بل جنةٍ تجري بها أنهاره  
 واليسرُ قد شدت عليه يساره



شعرٌ به أشعرتُ بالنصح الذي يهديه من أشعاره إشعاره  
ولو اختبرتمْ نقده بمحكمة لامتاز بهرجه ولاح نُضاره  
هذا هدىً فيه اقتده تنلِ المنى أو أنت في هذا وما تختاره  
وعليكم مني سلامٌ مثلما أرجتُ بروضٍ يانعٍ أزهاره  
وقال من قصيدة رثائية<sup>١</sup> :

حَمَامٌ حِمَامٌ فوق أيلك الأسي تشدو تهيجُ من الأشجان ما أوجدَ الوجدُ  
وذلك شجواً في حناجرنا شجاً وذلك هزلٌ في ضمائرنا جيدُ  
أرى أرجلَ الأرزاءِ تشتد نحونا وأيديها تسعى إلينا فتمتدُ  
ونحن أولو سهوٍ عن الأمرِ ما لنا سوى أملٍ إيجابنا عنده جحدُ  
فإن خطرتْ للمرءِ ذكرى بخاطرٍ فتسيحةُ الساهي إذا سُمِعَ الرعدُ  
مصابٌ به قُدتْ قلوبٌ وأنفسٌ لدينا إذا في غيره قطعتْ بردُ  
تلين له الصمُّ الصلابُ وتنهمي عيونٌ ويبيكي عنده الحجرُ الصلدُ  
فلا مقلةٌ ترنو ، ولا أذنٌ تعي ولا راحةٌ تعطو ، ولا قدَمٌ تعدو  
وقد كان يبدو الصبرُ منا تجلداً وهذا مصابٌ صبرنا فيه ما يبدو

مولده عام خمسين وستمائة ، وتوفي بغرناطة ضحى السبت في السابع والعشرين لذي حجة عام ثلاثين وسبعمائة ، وحضره السلطان فمَن دونه ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

٢٥ - ومنهم العلامة شيخ الشيوخ أبو سعيد فرج بن لب<sup>٢</sup> .

قال في « الإحاطة » في حقه ما محصله : فرج بن قاسم بن أحمد بن لب ،

١ الكتيبة : ٣٨ .

٢ ترجمة فرج بن لب في الكتيبة : ٦٧ ونيل الابتهاج : ٢١١ وبغية الوعاة : ٣٧٢ والإحاطة ، الورقة : ٣٥٦ ، وقد غمز منه لسان الدين في الكتيبة بعد أن أثنى عليه في الإحاطة .

قال ابن الصباغ : من شعر ابن لب يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إذا القلبُ ثارُ آثارِ أدكارا      لقلبي فأذكى عليه أوارا  
ترومُ جفوني لنارِ الهوى      خموداً فتهمي دموعاً غزارا  
فمساءُ جفوني يسحُ انهمالاً      ونارُ فؤادي تهيجُ استعارا  
أطيلُ العويلَ صباحاً مساءً      كثيراً ولستُ أطيقُ اضطبارا  
رقيتُ مراقيَ للحبِ شتى      فأفنى مراراً وأحيا مرارا  
أحنُ اشتياقاً لريحِ سرتِ      وأبدي هياماً لبرقِ أنارا  
حنيناً وشوقاً إلى معلّم      حوى شرفاً خالداً لا يجارى  
به أسكنَ اللهَ أسمى الورى      نبيّاً كريماً وصحباً خيارا  
هو المصطفى المنتقى المجتبي      أرى معجزاتٍ وآياً كبارا  
يحقُّ علينا ركوبُ البحارِ      وجنوبُ القفارِ إليه ابتدارا

ومنها :

فيا فوزَ مَنْ فاز في طيبةٍ      بلثمُ المغاني جداراً جدارا  
وألصقَ خدّاً على تربها      وأكملَ حجّاً بها واعتمارا  
وأهدى السلامَ لخير الأنامِ      على حينِ وافي عليه مزارا  
فيا هادي الخلقِ دارَ نعيمِ      تناهتُ جمالاً وطابتُ قرآرا  
لأنت الوسيلةُ والمرتجى      ليومِ يُرى الناسُ فيه سكارى  
وما هم سكارى ، ولكنهم      دهتهم دواهٍ فهاموا حيارى  
ترى المرءَ للهول من أمه      ومن أقربيه يُطيل الفرارا  
وكلُّ يخافُ على نفسه      فيكسوه خوفُ الإله انكسارا  
فصلى الإله ، رسول الهدى ،      عليك ، وأبقى هداك منارا  
وقدّسَ ربّي ثرى روضةٍ      يعمُّ الجهاتِ سناها انتشارا

أعير شذا المسك منها الثرى بل المسكُ منه شذاه استعاراً  
هنيئاً لمن بهداك اهتدى ومغناك وافى ، وإياك زارا

وقصد رحمه الله تعالى بهذه القصيدة معارضة قصيدة الشهاب محمود التي  
نظمها بالحجاز في طريق المدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام ، وهي طويلة ،  
ومطلعها :

وَصَلَّنا السَّرى وَهَجَرنا الديارا وَجئناكَ نظوي إلیكَ القِفارا

وقد تبارى الشعراء في هذا الوزن وهذا الروي ، ومنه القصيدة المشهورة :

أقول وآنت بالحيِّ نارا

ولابن لب رحمه الله تعالى الفتاوى المشهورة .

وقال في « الإحاطة » في حقه ما محصله : فرج بن قاسم بن أحمد بن لب  
التغلبى غرناطي أبو سعيد ، من أهل الخير والطهارة والذكاء والديانة وحسن  
الخلق ، رأس بنفسه وبرز بمزية إدراكه وحفظه ، فأصبح حامل لواء التحصيل  
وعليه مدار الشورى وإليه مرجع الفتوى ، لقيامه على الفقه ووزارة علمه وحفظه ،  
إلى المعرفة بالعربية واللغة ، ومعرفة التوثيق والقيام على القراءات والتبريز في  
التفسير ، والمشاركة في الأصولين والفرائض والأدب ، وجودة الحفظ ؛ وأقرأ  
بالمدرسة النَّصْرِيَّة في الثامن والعشرين لرجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة ،  
معظماً عند الخاصة والعامة ، مقروناً اسمه بالتسويد ، قعد للتدريس ببلده على  
وفور الشيوخ ، وولي الخطابة بالجامع . قرأ على القيجاطي ، والعربية على ابن  
الفخار ، وأخذ عن ابن جابر الوادي آشي . فمن شعره في النسب :

خذوا للهوى من قلبي اليوم ما أبقي فما زال قلبي كله للهوى رقاً

دعوا القلب يصل في لظى الوجدِ نارَهُ  
 سلوا اليومَ أهلَ الوجدِ ماذا به لقوا  
 فإن كان عبدٌ يسأل العتقَ سيداً  
 بدعوى الهوى يدعو أناسٌ وكلّهم  
 فطرقُ الهوى شتى ولكنَّ أهلهُ  
 وكم جمعت طرقُ الهوى بين أهلها  
 بسيماء الهوى تسمو معارفُ أهله  
 فمن زفرةٍ تزجي سحائبَ عبرةٍ  
 إذا سكتوا عن وجدهم أعربت به

وقال في وداع شهر رمضان :

أزمنت يا شهرَ الصيامِ رحيلاً  
 أجيدك قد جدت بك الآن رحلةً  
 نزلت فأزمنت الرحيلَ كأنما  
 وما ذاك إلا أن أهلك قد مضوا  
 تفكرت في الأوقات<sup>٢</sup> ناشئة التقي  
 وهي طويلة .

وكان موجوداً عند تأليف « الإحاطة » رحمه الله تعالى ؛ انتهى بالمعنى .  
 وقال الحافظ ابن حجر : إنه صنّف كتاباً في الباء الموحدة ، وأخذ عند  
 شيخنا بالإجازة قاسم بن علي المالقي ، ومات سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ؛ انتهى .  
 وقال تلميذه المنتوري ما نصّه : من شيوخه الشيخ الأستاذ الخطيب المقرئ

١ ترقى : تصعد ، وترقأ : تسكن وتكف عن البكاء .  
 ٢ ق : الأوقات .

المفتن المفتي أبو سعيد ابن لب ، مولده سنة إحدى وسبعمائة ، وتوفي ليلة السبت لسبع عشرة ليلة مضت من ذي الحجة عام اثنين وثمانين ؛ انتهى .  
وهو مخالف لما سبق عن ابن حجر ، لكن صاحب البيت أدرى ، إذ المتتوري تلميذه ، ونحوه للشيخ أبي زكريا السراج في فهرسته ، إذ قال : شيخنا الفقيه الخطيب الأستاذ المقرئ العالم العلم الصدر الأوحده الشهير ، كان شيخ الشيوخ وأستاذ الأستاذين بالأندلس ، إليه انتهت فيها رياسة الفتوى في العلوم ، كان أهل زمانه يَقِفُونَ عند ما يشير إليه ، قرأ على أبي علي القينجاطي بالسبع ، وتفقه عليه كثير في أنواع العلوم ، ولازمه إلى أن مات ، وأجازة عامة ، وعليه اعتمد ، وأخذ عن أبي جعفر ابن الزيات ، وأبي إسحاق ابن أبي العاصي ، وابن جابر الوادي أشي ، وقاضي الجماعة أبي بكر ، سمع عليه البخاري ، وتفقه عليه ، وقرأ عليه أكثر عقيدة المقترح نفهماً ، وبعض « الإرشاد » وبعض التهذيب ، وعن أبي محمد ابن سلمون ، والبركة أبي عبد الله الطنجالي الهاشمي ، وأجازة ؛ انتهى بمعناه .

وبالحملة فهو من أكابر علماء المالكية بالمغرب حتى قال المواق فيه : شيخ الشيوخ أبو سعيد ابن لب ، الذي نحن على فتاويه في الجلال والحرام ؛ انتهى .  
وقلّ من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته ، فمن أخذ عنه الشاطبي ، وابن علاق ، وأبو محمد ابن جزّي ، والأستاذ القينجاطي ، والأستاذ الحفار ، والشيخ الوزير ابن الخطيب السلماني ، والكاتب ابن زمّرك ، في خلق كثير من طبقتهم ، ثم من الطبقة الثانية أبو يحيى ابن عاصم ، وأخوه القاضي أبو بكر ابن عاصم ، والشيخ أبو القاسم ابن سراج ، والمتتوري ، في خلق لا يُحْصَوْنَ .  
وله نوايف ، فمنها شرح جُمَل الزجاجة ، وشرح تصريف التسهيل ،

وكتاب «ينبوع عين الثرة»<sup>١</sup> في تفریع مسألة الإمامة بالأجرة ، وله فتاوى مدونة بأيدي الناس ، وممن جمعها الشيخ ابن طركاظ الأندلسي ، وله كتابة في مسألة الأدعية إثر الصلوات على الهيئة المعروفة ، وقد رد عليه في هذا التأليف تلميذه أبو يحيى ابن عاصم الشهيد في تأليف نبيل انتصاراً لشيخه أبي إسحاق الشاطبي ، رحم الله تعالى الجميع .

٢٦ - ومن أسيخ لسان الدين ابن الخطيب أبو القاسم ابن جزّي ، فني «الإحاطة»<sup>٢</sup> ما ملخصه : محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزّي ، الكلبي ، أبو القاسم ، من أهل غرناطة ، وذوي الأصالة والنباهة فيها ، شيخنا ، وأصل سلفه من ولبة من حصن البراجلة ، نزل بها أولهم عند الفتح صحبة قريبهم أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، وعند خلع دولة المرابطين كان لجدّهم يحيى رياسة وانفراد بالتدبير ، وكان رحمه الله تعالى على طريقة مثلى من العكوف على العلم ، والاقتصار على الاقتيات من حرّ الشب ، والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين ، فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس . مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث . حفظةً للتفسير ، مستوعباً للأقوال ، جماعة للكتب ، ملوكي الخزانة ، حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، قريب الغور ، صحيح الباطن ، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حدّاته سنة ، فاتفق على فضله ، وجرى على سنن أصالته . قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير العربية والفقّه والحديث والقرآن ، وعلى ابن الكماد . ولازم الخطيب أبا عبد الله ابن رشيد وطبقتهم كالحضرمي وابن أبي الأحوص وابن برطال وأبي عامر ابن ربيع الأشعري والولي أبي عبد الله

١ نبيل الابتهاج : الشرح .

٢ ترجمة أبي القاسم ابن جزّي في الكتبية : ٤٦ ، وأزهار الرياض ٣ : ١٨٤ ، والديباج : ٢٩٥ ، ونبيل

الابتهاج : ٢٣٥ ، والمقري يتقل هنا وفي الأزهار عن الإحاطة .

الطنجالي وابن الشاط .

وله تواليف منها « وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم » و « الأنوار السنّية في الكلمات السنّية » و « الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار » و « القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية » و « التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية » وكتاب « تقريب الوصول إلى علم الأصول » وكتاب « النور المبين في قواعد عقائد الدين » وكتاب « المختصر البارع في قراءة نافع » وكتاب « أصول القراء الستة غير نافع » وكتاب « الفوائد العامة في لحن العامة » إلى غير ذلك ممّا قيده في التفسير والقراءات وغير ذلك ، وله فهرسة كبيرة اشتملت على جملة كبيرة من علماء المشرق والمغرب .

ومن شعره قوله في الأبيات الغينية ذاهباً مذهب المعري وابن المظفر والسلفي وأبي الحجاج ابن الشيخ وأبي الربيع ابن سالم وابن أبي الأحوص وغيرهم من علماء المشرق والمغرب :

لكلّ بني الدنيا مُرَادٌ ومَقْصَدٌ      وإن مرادي صحةٌ وفراعُ  
لأبلغَ في علم الشريعةِ مبلغاً      يكونُ به لي للجنانِ بَلاغُ  
ففي مثل هذا فلينافسْ أولو النهي      وحسيّ من دارِ الغرورِ بَلاغُ  
فما الفوزُ إلا في نعيمٍ مؤبدٍ      به العيشُ رَغْدٌ والشرابُ يُساعُ

وقال :

أرومُ امتداحِ المصطفى فيردني      قصوريّ عن إدراكِ تلكِ المناقبِ  
ومن لي بحصرِ البحرِ والبحرِ زاحرُ      ومن لي بإحصاءِ الحصى والكواكبِ  
ولو أنّ أعضائي غدت ألسناً إذاً      لما بلغتُ في المدحِ بعضَ مآربي  
ولو أنّ كلّ العالمين تألّفوا      على مدحه لم يبلغوا بعضَ واجبِ  
فأمسكُ عنه هيبَةً وتادباً      وعجزاً وإعظاماً لأرفعِ جانبِ

وَرَبٌّ سَكُوتٍ كَانَ فِيهِ بِلَاغَةٌ وَرَبٌّ كَلَامٍ فِيهِ عَتَبٌ لِعَاتِبِ

وقال :

يا ربّ إن ذنوبي اليوم قد كثرتُ  
فما أطيقُ لها حصراً ولا عدداً  
وليس لي بعذابِ النَّارِ من قبَلِ  
ولا أطيقُ لها صبراً ولا جَلدًا  
فانظر إلهي إلى ضعفي ومسكنتي  
ولا تذبقتني حرّاً الجحيمِ غداً

وقال :

وكم من صفحة كالشمس تبدو  
فيسلي حسنُها قلبَ الحزينِ  
غضضتُ الطرفَ عن نظري إليها  
محافظةً على عِرضي وديني

مولده يوم الخميس تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وستمائة ، وقد  
وهو يحرّض الناس يوم الكائنة بطريف ضحوة يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى  
عام أحد وأربعين وسبعمائة ، وعقبه ظاهر بين القضاء والكتابة ؛ انتهى .

[ شعر لابن لؤلؤة ]

وأذكرني روي الغين الصعب قولَ الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن  
يوسف السكوني الأندلسي المعروف بابن لؤلؤة رحمه الله ورضي عنه :

أمن بَعْدِ ما لاح المشيبُ بمفرقي  
أميلُ لزورٍ بالغرورِ يُصاغُ  
وأرتاحُ للذاتِ والشيبُ منذرُ  
بما ليسَ عنه للأنامِ مراغُ  
ومن لم يمتْ قبل المماتِ فإنّه  
يُراغُ بهولٍ بعده ويراغُ  
فياربّ وفقني إلى ما يكونُ لي  
به للذي أرجوكَ منه بلاغُ

توفي المذكور بالطاعون سنة ٧٥٠ ، وكان خطيباً بحصن قمارش رحمه  
الله تعالى .



[ من نظم ابن جزري ]

ومن نظم ابن جزري المذكور قوله :

أيا من كفتُ النفس عنه تعففاً وفي النفس من شوقي إليه لهيبُ ( غرامُ )  
ألا إنَّما صبري كصبر ، وإنَّما على النفس من تقوى الإله رقيبُ ( بلحامُ )

وهما من التخيير المعلوم في فن البديع .

وقول لسان الدين رحمه الله تعالى « وله عقب ظاهر بين القضاء والكتابة »  
يريد به بنيه البارع أبا بكر والعلامة أبا عبد الله والقاضي أبا محمد عبد الله .

[ تراجم أولاد ابن جزري ]

ولندكرهم فنقول : أما أبو بكر أحمد<sup>١</sup> فهو الذي أَلَّفَ أو أبوه « الأنوار  
السنية » وهو من أهل الفضل والنزاهة وحسن السَّمْتِ والهمَّة واستقامة الطريقة ،  
غرب في الوقار ، ومال إلى الانقباض ، وله مشاركة حسنة في فنون من فقه وعربية  
وأدب وخط ورواية وشعر تسمو ببعضه الإجادة إلى غاية بعيدة ، وقرأ على والده  
ولازمه ، واستظهر ببعض تأليفه ، وتفقه وتأدب به ، وقرأ على بعض معاصري  
أبيه ، ثم ارتسم في الكتابة السلطانية لأول دولة السلطان أبي الحجاج ابن نصر ، وولي  
القضاء ببرجة وبأندرش ثم بوادي آش ، مشكور السيرة معروف النزاهة .

ومن شعره :

أرى الناسَ يُولُون الغيَّ كرامة وإن لم يكن أهلاً لرفعة مقدار  
ويلوون عن وجه الفقير وجوههم وإن كان أهلاً أن يلاقى بإكبار  
بَنُو الدهر جاءتهم أحاديثُ جمّة فما صححوا إلا حديث ابن دينار

١ ترجمة أبي بكر ابن جزري في الإحاطة ١ : ٨ ؛ والكتيبة : ١٣٨ وأزهار الرياض ٣ : ١٨٧ .

ومن بديع نظمه الصادر عنه تصديره أعجاز قصيدة امرئ القيس بن حجر الكندي بقوله ١ :

أقول لعزمي أو لصالح أعمالي  
أما واعظي شيبُ سما فوقَ لمي  
أنار به ليلُ الشبابِ كأنه  
نهاني عن غيِّ وقال مُنبِّهاً  
يقولون غيِّرهُ لتنعمَ برهتهُ  
أغالطُ دهري وهو يعلمُ أنني  
ومؤنسُ نارِ الشيبِ يقبحُ لهوه  
أشيخاً وتأتي فعلَ مَنْ كان عمره  
وتشغفكَ الدنيا وما إن شغفتها  
ألا إنها الدُّنيا إذا ما اعتبرتها  
فأين الذين استأثروا قبلنا بها  
ذهلتُ بها غيًّا فكيف الخلاصُ من  
وقد علمتُ مني مواعدَ توبتي  
ومدُ وثقتُ نفسي بحبِّ محمدٍ  
وأصبحَ شيطانُ الغَوَايةِ خاسئاً  
ألا ليت شعري هل تقولُ عزائمي  
فأنزل داراً للرسولِ نزيلها  
فطوبى لنفسٍ جاورتُ خيرَ مرسلٍ  
ومن ذكره عندَ القبولِ تعطرتُ  
جوارُ رسولِ اللهِ محمدُ مؤثَّلُ

(ألا عيمٌ صباحاً أيها الطَّلَلُ البالي)  
(سُمُو حَبَابِ الماءِ حالاً على حال)  
(مصاييحُ رهبانٍ تُشَبُّ لفقَّال)  
(ألست ترى السُّمَّارَ والناسَ أحوالي)  
(وهل يعمنُ من كان في العصر الخالي)  
(كبرتُ وأن لا يحسنُ الهوَّ أمثالي)  
(بأنسةٍ كأنها خطُّ تمثال)  
(ثلاثين شهرًا في ثلاثة أحوال)  
(كما شغفَ المهنوءَ الرجلُ الطالي)  
(ديارٌ لسلمي عافياتٌ بذئ خال)  
(لتأموا فما إن من حديثٍ ولا صال)  
(لعوبٍ تنسِّي إذا قمت سربالي)  
(بأنَّ الفتي يهذي وليس بفعال)  
(هصرتُ بغصنٍ ذي شماريخٍ ميال)  
(عليه قَتامُ سيءِ الظنِّ والبال)  
(لخيلي كُرِّي كرةً بعد إجحفال)  
(قليلُ همومٍ ما يبيتُ بأوجال)  
(بيثربَ أدنى دارها نظرٌ عالي)  
(صبأً وشمالاً في منازلٍ قُفَّال)  
(وقد يدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي)

١ القصيدة في المصادر السابقة جميعاً .

ومن ذا الذي يثني عنانَ السرى وقد  
 ألم ترَ أن الظبيةَ استشفعتُ بِهِ  
 وقالَ لها عودي فقالتُ لَهُ نعم  
 فعادتُ إليه والهوى قائلٌ لها  
 رثي لبعيرٍ قال أزمع مالكي  
 وثورٍ ذبيح بالرسالةِ شاهدٍ  
 وحنَّ إليه الجذعُ حنةَ عاطشٍ  
 وأصلين من نخلٍ قد التأمَا له  
 وقبضة تربي منه ذلتُ لها الطُّبي  
 وأضحى ابن بجحشٍ بالعسيبِ مقاتلاً  
 وحسبك من سوطِ الطفيلِ إضاءةٌ  
 وبذتُ به العجفاء كلَّ مطهمٍ  
 ويا خسفَ أرضٍ تحت باغيه إذ علا  
 وقدْ أحمَدتُ نارُ لفارسٍ طالما  
 أبان سبيلَ الرشدِ إذ سُبِلُ الهدى  
 لأحمدَ خيرِ العالمين انتقيتها  
 وإنَّ رجائي أن ألاقيهُ غداً  
 فأدركُ آمالي وما كلُّ أملٍ

ولا خفاء ببراعة هذا النظم ، وإحكام هذا النسخ ، وشدة هذه العارضة .

[ قصيدتان لحازم ]

قلت : وقد أذكرني هذا التصدير قصيدة الأديب حازم صاحب المقصورة ،

إذ صدرَ قصيدة امرئ القيس « قفا نيك » ولذكرها هنا ، قال رحمه الله تعالى<sup>١</sup> :

لعينيك قل إن زرتَ أفضلَ مرسلٍ  
وفي طيبةٍ فانزلْ ولا تغشَ منزلاً  
وزرْ روضةً قد طالما طابَ نشرها  
وأثوابك اخلعْ مُحرمًا ومصداً  
لدى كعبةٍ قد فاضَ دمعي لبعدها  
فيا حاديَ الآبالِ سِرْ بي ولا تقلْ  
فقد حلفتُ نفسي بذاكِ وأقسمتُ  
فقلتُ لها لا شكَّ أني طائع  
وكم حَمَلتُ في أظهرِ العزمِ رحلها  
وعاتبَتِ العجزَ الذي عاقَ عزمها  
نبيُّ هدىٍ قد قال للكفرِ نورهُ  
تلا سوراً ما قولها بمعارضٍ  
لقد نزلتُ في الأرضِ ملةً هديه  
أتتُ مغرباً من مشرقٍ وتعرضتُ  
ففازتُ بلادُ الشرقِ من زينةٍ بها  
فصلتني عليه الله ما لاح بارقُ  
نبيُّ غزا الأعداءِ بين ثلاثعٍ  
فكم ملكٍ وافاه في زيٍّ منجدٍ  
وكم من يمانٍ واضحٍ جاءه اكتسى

( قفا نيك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ )  
( بسقط اللوى بين الدخولِ فحول )  
( لما نسجتُها من جنوبٍ وشمالٍ )  
( لدى السرِّ إلا لبسةً المتفضل )  
( على النحرِ حتى بلَّ دمعي محملي )  
( عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزل )  
( عليَّ وآلتِ حلفةً لم تحل )  
( وأنكٍ مهما تأمري القلبِ يفعل )  
( فيا عجباً من رحلها المتحمل )  
( فقالت لك الويلات إنك مُرجلي )  
( ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلي )  
( إذا هي نصَّتهُ ولا بمعطل )  
( نزولَ اليماني ذي العيابِ المحمّل )  
( تعرَّضَ أثناءِ الوشاحِ المفصل )  
( بشقٍّ وشقٍّ عندنا لم يحول )  
( كلمعَ اليدينِ في حبيِّ مكلل )  
( وبين إكامٍ ، بُعداً ما متأمل )  
( بمنجردٍ قيِّدِ الأوابدِ هيكل )  
( بضافٍ فوقَ الأرضِ ليس بأعزل )

١ ديوان حازم : ٨٩ وأزهار الرياض ٣ : ١٧٨ وتسمى هذه القصيدة « حديقة الأزهار وحقيقة الانتخار في مدح النبي المختار » .

(بجيد مُعِمّ في العشيّة مخول)  
 (كما زلّت الصفواء بالمتزل)  
 (كبير أناس في بجاد مزمل)  
 (لنا بطن حقف ذي ركام عقتل)  
 (إذا جاش فيه حميه غلي مرجل)  
 (ولا تبعدينا من جنّاك الملال)  
 (بسهميك في أعشار قلب مقتل)  
 (تراثها مصقولة كالسجنجل)  
 (يقولون لا تهلك أسي وتجمل)  
 (لدى سمّرات الحمي ناقف حنظل)  
 (بصبح وما الإصباح منك بأمثل)  
 (وبات بعيني قائماً غير مرسل)  
 (متى ما ترقّ العين فيه تسهّل)  
 (أمال السليط بالذبال المقتل)  
 (بناظرة من وحش وجرة مطفل)  
 (أثيث كقنّو النخلة المتعكل)  
 (وارخاء سرحان وتقريب تتفل)  
 (يكبّ على الأذقان دوح الكنهيل)  
 (كجلمود صخر حطه السيل من عل)  
 (وهل عند رسم دارس من مؤول)  
 (جواحرها في صرة لم تزيل)  
 (إذا ما اسبكرت بين درع وجول)  
 (نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضّل)

ومن أبطحي نيط منه نجاده  
 أزالوا بيدٍ عن بروجهم العدا  
 وفادوا طباهم لا بفتك فتى ولا  
 وفضي جموعاً فدفداً جامعاً بها  
 وأحموا وطيساً في حنين كأنه  
 ونادوا بنات النبع بالنصر أمري  
 وممن له سدوت سهمين فاضربي  
 فما أغنت الأبدان درع بها اكتست  
 وأضحت لوالها ومالكها العدا  
 وقد فرّ منصاع كما فر خاضب  
 وكم قال يا ليل الوغى طلت فانبج  
 فليت جوادي لم يسر بي إلى الوغى  
 وكم مرتق أوطاس منهم بمسرج  
 وقرطه خيرصاً كمصباح مسرج  
 فيرون لهادٍ فوق هاديه طرفه  
 ويسمع من كافورتين بجاني  
 ترفّع أن يُعزّي له شدّ شادن  
 ولكنّه يمضي كما مرّ مزبد  
 ويغشى العدا كالسهم أو كالشهاب أو  
 جيد أعادت رسم رسم دارساً  
 وريعت بها خيل القياصر فاخفت  
 سبت عرباً من نسوة العرب تستبي  
 وكم من سبايا الفرس والصفير أسهرت

وحزن بدوراً من ليالي شعورها  
 وأبقت بأرض الشام هاماً كأنها  
 وما جف من حبّ القلوب بغورها  
 لخضراء ما دبّت ولا نبتت بها  
 شدا طيرها في مثمر ذي أرومة  
 فشدت بروض ليس يذبل بعدها  
 وكم هجرت في القيظ تحكي ذوارعاً  
 وكم أدلجت والقتر يهفو هزيزه  
 وخضن سيولاً فيضن بالبيد بعدما  
 وكم ركزوا رحماً بدعص كأنه  
 فلم تبين حصناً خوف حصنهم العدا  
 فهدت بعضب شيب بعد صقاله  
 وجيش بأقصى الأرض ألقى جيرانه  
 يدك الصفا دكاً ولو مر بعضه  
 دعا النصر والتأييد راياته اسحي  
 لواء منير النصل طاو كأنه  
 كأن دم الأعداء في عدّباته  
 صحاب برّوا هام العداة وكم قروا  
 وكم أكثروا ما طاب من لحم جفرة  
 وكم جبن من غرباء لم يسق نبتها  
 حكى طيب ذكراهم ومُر كفاحهم  
 لأمداح خير الخلق قلبي قد صبا  
 فدع من لأيام صلحن له صبا

(تضلّ العقاصُ في مثنى ومرسل)  
 (بأرجائها القصوى أنابيشُ عنصُل)  
 (وقيعانها كأنه حبُّ فلفل)  
 (أساريعُ ظبي أو مساويكُ إسحل)  
 (وساقُ كأنبوبِ السقيّ المذلل)  
 (بكل مُغارِ القتلِ شدت بيذبل)  
 (عذارى دوارٍ في ملاء مذيل)  
 (ويلوي بأثوابِ العنيفِ المثل)  
 (أثرن غباراً بالكديد المركل)  
 (من السيلِ والغشاءِ فلكة مغزل)  
 (ولا أطمأ إلا مشيداً بجندل)  
 (بأمراسِ كتانٍ إلى صمّ جندل)  
 (وأردفَ أعجازاً وناءً بكلكل)  
 (وأيسره عالي الستارِ ويذبل)  
 (على أثريتنا ذيلَ مرطٍ مرحل)  
 (منارةٌ مُمسي راهبٍ متبل)  
 (عصارةٌ حنّاءٍ بشيب مرحل)  
 (صفيّ شواءٍ أو قدير معجل)  
 (وشحمٍ كهذابِ الدمقسِ المفتل)  
 (دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل)  
 (مداك عروسٍ أو صلابة حنظل)  
 (وليس فؤادي عن هواها بمُنسل)  
 (ولا سيما يومٍ بدارةٍ جلجل)

وأصبح عن أمّ الخويرث ما سلا  
وكن في مديح المصطفى كمدبج  
وأملّ به الأخرى ودياك دعُ فقد  
وكن كنيث للفؤاد منابث  
ينادي إلهي إنّ ذنبي قد عدا  
فكن لي مجيراً من شياطين شهوة  
وينشد دنياه إذا ما تدلت  
فإن تصلي حلي بخير وصلته  
وأحسن قطع الحبل منك وبتته  
أيا سامعي مدح الرسول تشقوا  
وروضة حمد للنبي محمد  
ويا منّ أبي الإصغاء ما أنت مهتد  
فلو مطلقاً أنشدتها لفظها ارعوت  
ولو سمعته عضم طود أمالها

وقد عرفت بحازم هذا في «أزهار الرياض» وذكرت جملة من نظمه  
ومن بارع ما وقع له قوله<sup>١</sup> :

أدير المدامة فالنسيم مؤرّج  
والأرض قد لبست برودَ جماها  
والنهرُ مما ارتاح معطفه إلى  
يمسي الأصيل بعسجدي شعاعه  
وتروم أيدي الريح تسلب ما اكتسى  
فارتح لشرب كؤوس راح نورها  
والرروضُ مرقومُ البرودِ مدبجُ  
فكأتما هي كاعبُ تبرجُ  
لُقيا النسيم عبابه متموجُ  
أبدأً يوشى صفحهُ ويدبجُ  
فتزيده حسناً بما هي تنسجُ  
بل نارها في مائها تتوهجُ

١ ديوان حازم : ٢٨ وأزهار الرياض ٣ : ١٧٤ .

أو كأس خمرٍ من لَمَاهُ تُمَزَّجُ  
 قلبَ الخليِّ إلى الهوى وتهيجُ  
 ومثالثاً طبقاتها تتدرجُ  
 للقلبِ منه محركٌ ومهيجُ  
 للأنس دهرٌ للهومِ مفرجُ  
 فرحاً وأصبح من سرورٍ بهزجُ  
 والحيِّ للسرَّاءِ منه أحوجُ  
 عطاك فيه الكأسَ ظبيُّ أدعجُ  
 عبَلٌ وخصرٌ ذو اختصارٍ مُدمجُ  
 ولصفحةٍ منه بدتُ تتأججُ  
 من تحتها يتأدُّ أو يتموجُ  
 غصنٍ تحمَّلهُ كئيبٌ رجرجُ  
 قلبُ الخليِّ إلى الهوى يستدرجُ  
 شيطانٍ بينهما المنى تستنجُ  
 قد حلَّ وهو يشبُّها ويؤججُ  
 والعيسُ تحدى والمطايا تُحدجُ  
 قد حازها دون الجوانح هودجُ  
 قمرٌ منيرٌ بالهلالِ متوجُ  
 بضيائه تسري الركابُ وتُدأجُ  
 تطفي غليلاً في الحشا يتأججُ  
 فأجبتهم خلتوا اللواعجُ تلعجُ  
 عبراتنا بحرٌ يبحرُ يمرجُ  
 ما بيننا طوراً ، وطوراً يُرتجُ

واسكرُ بنشوةٍ لحظٍ من أحبيته  
 واسمعُ إلى نعماتِ عودِ تطيبي  
 بيمٌ وزيرٌ يسعدانِ مثانياً  
 من لَمٍ يهيجُ قلبه هذا فما  
 فأجبتُ فقد نادى بألسنِ حاله  
 طربتُ جماداتٌ وأفصحَ أعجمُ  
 أفيضلُ الحيِّ الجمادُ مسرةً  
 ما العيشُ إلا ما نَعِمْتُ به وما  
 ممن يرووك منه ردفٌ مردفُ  
 فإذا نظرتَ لطرَّةٍ ولغرَّةٍ  
 أيقنتُ أن ثلاثهن وما غدا  
 ليلٌ على صبحٍ على بدرٍ على  
 كأسٌ ومحبوبٌ يظلُّ بلحظه  
 يا صاحٍ ما قلبي بصاحٍ عن هوى  
 وبمهجتي الظبيُّ الذي في أضلعي  
 ناديتُ حادي عيسه يوم النوى  
 قف أيها الحادي أودع مهجةً  
 لما توافقنا وفي أحداجها  
 ناديتهم قولوا لبدركم الذي  
 يجيي العليل بلفظةٍ أو لحظةٍ  
 قالوا نخافُ يزيدُ قلبك لاعجاً  
 وبكيتُ واستبكيتُ حتى ظلَّ من  
 وبقيتُ أفتحُ بعدهم بابَ المنى



وأقول يا نفسُ اصبري فعسى النوى  
 بصبحٍ قربٍ ليلها يتبلج  
 فترقب السراء من دهرٍ شجا  
 والدهرُ من ضدٍ لصدٍ يخرجُ  
 وترجُ فرجةً كلَّ همٍ طارقٍ  
 فلكلِّ همٍ في الزمانِ تفرجُ  
 وتذكرت هنا جيمية ابن قلافس ، وهي ١ :

عَرَضَتْ لمعرضِ الصباحِ الأبلجِ  
 حوراءُ في طرفِ الظلامِ الأدعجِ  
 فتمزقتُ شيمُ الدُّجى عن غرَّتِي  
 شمسين في أفقٍ وكلَّةِ هودجِ  
 ووراءِ أستارِ الجمولِ لواحظُ  
 غازلن معتدلَ الوشيجِ الأعوجِ  
 من كلِّ مبتسمِ السنانِ إذا جرى  
 دمَعُ النجيجِ من الكميِّ الأهوجِ  
 ولقد صحبتُ الليلَ قلَّصَ بردهُ  
 لعبابِ بحرِ صباحه المتموجِ  
 وكانَ متشرَّ النجومِ لآلئِ  
 نُظمتُ على صرحٍ من الفيروزجِ  
 وسهرتُ أرقبُ من سهيلِ خافقاً  
 متفرداً ، وكأنه قلبُ الشجي  
 واستعبرتُ مقلَّ السحابِ فأضحكتُ  
 منها ثغورَ مَفوفٍ ومدبَّجِ

ولنَعُدْ إلى ذكرِ أبي بكرِ ابنِ جُزي فنقول :

وله تقييد في الفقه على كتاب والده المسمى بالقوانين الفقهية ، ورجز في  
 الفرائض ، وإحسانه كثير ، وتقدم قاضياً للجماعة بخصرة غرناطة ثامن شوال  
 عام ستين وسبعمائة ، ثم صُرف عنها ، ثم لما توفي الأستاذ الخطيب العالم الشهير  
 أبو سعيد فرج بن لب - رحمه الله تعالى - وكان خطيب الجامع الأعظم بغرناطة ،  
 ولي عوضاً عنه أستاذاً وخطيباً عام اثنين وثمانين وسبعمائة ، فبقي في الخطابة ثلاثة  
 أعوام ، ثم توفي ، وأظن وفاته آخر عام خمسة وثمانين وسبعمائة ، رحمه الله  
 تعالى .

وأما أخوه أبو عبد الله محمد<sup>١</sup> فهو الكاتب المجيد ، أعجوبة الزمان ، وتوفي بفاس رحمه الله تعالى عام ثمانية وخمسين وسبعمائة ، وقيل - وهو الصواب - : إن وفاته آخر شوال من السنة قبلها حسبما ألفيته بخط بعض أكابر الثقات بداره من البيضاء ، وهي فاس الجديدة ، قرب مغرب يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شوال من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، وكان دفنه يوم الأربعاء بعد صلاة العصر وراء الحائط الشرقي الذي بالجامع الأعظم من المدينة البيضاء ، وكان مولده في شوال من عام واحد وعشرين وسبعمائة ؛ انتهى .

قال الأمير ابن الأحمر في « نثر الجمان » : أدركته ورأيت ، وهو من أهل بلدنا غرناطة ، وكان أبوه أبو القاسم محمد أحد المفتين بها عالم الأندلس الطائفة فتياه منها إلى طرابلس ، وقتل شهيداً بطريف بعد أن أبلى بلاء حسناً ، وأبو عبد الله ابنه هذا كتب بالأندلس في حضرة ابن عم أئينا أمير المسلمين أبي الحجاج يوسف ، وله فيه أمداح عجيبة ، ولم يزل كاتباً في الحضرة الأحمرية النصرية إلى أن امتحنه أمير المسلمين أبو الحجاج ؛ انتهى .

ويغني ابن الأحمر بهذا الامتحان أنه ضربه بالسيّاط ، من غير ذنب اقترفه بل ظلمه ظلماً ميبناً ، هكذا ألفيته في بعض المقيدات .

ثم قال ابن الأحمر : فقوض الرجال عن الأندلس ، واستقر بالعدوة ، فكتب بالحضرة المرينية لأمر المسلمين أبي عنان ، إلى أن توفي بها رحمه الله تعالى . وكان رحمه الله تعالى طلع في سماء العلوم بداراً مشرقاً ، وسارت براعته مغرباً ومشرقاً ، وسما بشعره فوق الفرقدين ، كما أربى بنثره على الشعري والبطين ، له باع مديد في التاريخ واللغة والحساب ، والنحو والبيان والآداب ، بصير بالفروع والأصول والحديث ، عارف بالماضي من الشعر والحديث ،

١ ترجمة أبي عبد الله ابن جزى في الإحاطة ٢ : ١٨٦ وأزهار الرياض ٣ : ١٨٩ ونثير الفرائد : ٢٩٢ (رقم : ٨) والكتيبة الكامنة : ٢٢٣ ونثير الجمان ، الورقة : ٧٨ .

إن نظم أنسك أبا ذؤيب برقته ، ونُصيباً بمنصبه ونخوته ، وإن كتب أربى على ابن مقله بخطه ، وإن أنشأ رسالة أنسك العماد بحسن مساقها وضبطه ، وهو رب هذا الشأن ، وفارس هذا الميدان ، ومع تفتنه في الشعر فهو في العلوم قد نبغ ، وما بلغ أحد من شعراء عصره منه ما بلغ ، بل سلموا التقدم فيه إليه ، وألقوا زمام الاعتراف بذلك في يديه ، ودخلوا تحت راية الأدب التي حمل ، إذ ظهر ساطع براعته ظهور الشمس في الحمل ، أنشدني لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل عم أينا ابن جدنا الرئيس الأمير أبي سعيد فرج هذه القصيدة البارعة ، وحذف منها الرءاء المهملة :

قسماً بوضاح السنن الوهاج	من تحت مسدول الذوائب داج
وبأبلج بالمسك خطت نونه	من فوق وسانن الواحظ ساجي
وبحسن خدي دبحت صفحاته	فغدت تحاكي مذهب الدياج
وبمبسم كالعقد نظم سلكه	ولعمى حكى الصهباء دون مزاج
وبمنطق تصبو القلوب لحسنه	أنسى المسامع نعمة الأزجاج
وبمائس الأعطاف تشبه الصبا	فيميس كالخطي يوم هياج
ومنعم مثل الكتيب يقبله	مستضعف يشكو من الإدماج
وبمؤعد للوصل أنجز فجأة	من بعد طول تمنع والحاج
وبأكؤس أطلعن في جنح الدجي	شمس السلافة في سماء زجاج
وحداتق سحب السحاب ذبوله	فيها وبات لها النسيم يناجي
وجداول سلت سيوفاً عندما	فجئت بجيش للصبا عجاج
وبأقحوان قد تضاحك إذ بكت	عين الغمام بمدمع ثجاج
وقدود أغصان يلمن كأنها	تحفي حديثاً بينها وتناجي
وحمامي يهتفن شجنوا بالضحى	فهد يلهن لذي الصباة شاجي

إن المعالي والعوالي والندى  
 ملكٌ تتوجُّ بالمهابةِ عندما  
 وأفاضَ حكمَ العدلِ في أيامه  
 هو منقذُ العاني ، ومُغني المعتضي  
 ماضي العزيمة ، والسيوفُ كليله  
 علم الهدى ، والناسُ في عمياء قد  
 غيَّبُ الندى ، والسحبُ تبخل بالحيا  
 ليثُ الوغى ، والخيلُ تزجي بالقنا  
 يتشعُّ الإظلامُ إذ يبدو له  
 من آل قيلةٍ من ذؤابةٍ سَعدها  
 حيثُ العلاءُ ممدودةُ الأطنابِ لم  
 والأعوجياتُ السوابقُ تمتطى  
 والبيضُ والأسلُ العواملُ تقتضي  
 مجدٌ ليوسفَ جمعتُ أشناته  
 مولاي هاك عقيلةٌ تزهو على  
 إنشاءً عبدٍ خالصٍ لك حبهُ  
 آوى إلى أكنافِ نعمك التي  
 سباقُ ميدانِ البلاغةِ والوغى  
 جانبُ أختِ الزاي منها عامداً  
 فافتحْ لها بابَ القبولِ وأولِ مَنْ

والبأس طوعُ يدَي أبي الحجاجِ  
 لم يستجزُ في الدين لبسَ التاجِ  
 فالحقُّ أبلغُ واضحُ المنهاجِ  
 ومذلُّ العاتي ، وغوثُ اللاجي  
 طلقُ المحيَّا ، والخطوب دواجي  
 ضلّوا لوقع الحادِثِ المهتاجِ  
 والمحلُّ يُبدي فاقة المحتاجِ  
 والبيضُ تنهلُ في دم الأوداجِ  
 وجهٌ كمثل الكوكب الوهاجِ  
 أعلى بني قحطانَ دونَ خِلاجِ  
 تخلقُ معالمها يدُ الإنهاجِ  
 فتظللُ الآفاقَ سحَبَ عجاجِ  
 مُهَجَ الكماةِ بأبلغ الإزعاجِ  
 أعياء سواه بعدَ طول علاجِ  
 أخواتها كالغادة المغناجِ  
 ومن العبيدِ مُدَاهنٌ ومُداجي  
 ليستُ إليه صلاتها بخداجِ  
 لشعابِ كلِّ منهما ولاجِ  
 فأتتُ من الإحسانِ في أفواجِ  
 أهداكيها ما بيتغي من حاجِ

ثم قال ابن الأحمر : وأنشدني أيضاً لنفسه يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله  
 أبا عنان فارس ملك المغرب<sup>١</sup> :

إنَّ قلبي لعُهْدَة الصبر ناكثٌ  
 أضرم النارَ في فؤادي وولّي  
 ورماني من مقلتيه بسهمٍ  
 كم عدولٍ أتى يُناظرُ فيه  
 ويمينٍ آلتها بالتسلي  
 جبر الله صدعَ قلبٍ عميدٍ  
 فهو يهفو إلى البروقِ ويروي  
 سلبته الأشجانَ إلاّ بقايا  
 وبكاءٍ على عهودٍ مَوَاضٍ  
 لستُ وحدي أشكو بليلةٍ وجدي  
 يا مضيعَ العهودِ واللهُ يعفو  
 غرّني منك والجمالُ غرورٌ  
 مُقَلٌّ يقتسمنَ أعشارَ قلبي  
 كيف غيرتَ بانتراحك حالي  
 فرطُ حبي وفرطُ بخلك آلى  
 ونسدى فارسٍ وحسبك ردّاً  
 ملك البأس والندى ، فهو بالسيه  
 محرزُ المجدِ والثناء ، فهذا  
 أوطأُ الشهبِ رجله وترقى  
 فدرّارٍ تسري وما لحقتهُ  
 وله المقرّباتُ لا بل هي العقه

عن غزّال في عُقْدَة السحرِ نافيثُ  
 قائلاً لا تخفُ فإنّي عابثُ  
 ثم قال : اصطبرُ لثانٍ وثالثُ  
 كان تعذّلهُ على الحبِّ باعثُ  
 فقضى حسنهُ بأنّي حانثُ  
 صدعتُ شملهُ صروفُ الحوادثُ  
 عن نسيم الصبّا ضعافُ الأحادثُ  
 من أماني جبالهنّ رثائثُ  
 ملأت صدرهُ هموماً حدائثُ  
 إن داء الغرام ليس بجادثُ  
 عنك أنتى ارتضيتَ خطةَ ناكثُ ؟  
 وظبّي اللحظِ في القلوبِ عوابثُ  
 بالرضى مني ، اقتسامَ الموارثُ  
 وتغيرتَ لي ، ولستَ بحارثُ ؟  
 أنّ عينيك بالفتورِ نوافثُ  
 قول من قال سدّاً بابَ البواعثُ  
 وبالسّيّبِ عاثثُ أو غاثثُ  
 سائرٌ في الورى ، وذلك لاثثُ  
 صاعداً في سموه غيرَ ماكثُ  
 ونجومٌ خلف القصورِ لوابثُ  
 بانُ من فوقها الليوثُ الدلاهِثُ ٢

١ يشير إلى قول الشاعر : « تغير لي في من تغير حارث » انظر المجلد الأول : ٢٦ .

٢ الدلاهِثُ : جمع دلهات وهو المقدام .

مطلعاتٌ من كلِّ نعلٍ هلالاً  
 إن تراقن فالجبالُ الرواسي  
 والمواضي كأنها قد أُعيرتُ  
 هي نارٌ محرّقاتُ الأعادي  
 فيردنَ الوغى ذكوراً عطاشاً  
 من معانيه قد رأينا عياناً  
 خلقتُ كالنسيم مرّ سحيراً  
 في سبيل الإله يُقضي ويُدني  
 شرفُ الملك منه سامٌ وحامٌ  
 هاكها من بناتِ فكري بكرةً  
 ذاتَ لفظ لا يعتريه اختلالُ  
 زعماءُ القريض أبقوا بقايا  
 من أراد انتقادها فهني هذي

فلهذا تجلودجى كلُّ حادثُ  
 أو تسابقن فالغيوثُ الحثائثُ  
 حدّةَ الذهن منه عند المباحثُ  
 وهي ماءٌ مطهراتُ الحبائثُ  
 ثم يصدرنَ ناهلات طوامثُ  
 كلُّ فضل ينصّه من يحدثُ  
 بالأزاهير في البطاح الدماثُ  
 ويوالي في ذاته ويناكثُ  
 ففدته سامٌ وحامٌ ويافثُ  
 ليس يسموها من الناس طامثُ  
 ومعان لا تنتحيها المباحثُ  
 كنتُ دون الورى لهنّ الوارثُ  
 عرضة البحث فليكن جدّ باحثُ

ورأيت بخط ابن الصباغ العقبلي<sup>١</sup> على هامش قوله « وندى فارس وحسبك  
 رداً... البيت » ما نصّه : ما أبدع تخلّصه للمدح وأطبعه ؛ فإنه أشار إلى قول  
 الشاعر راداً عليه بالتبكيك ، ومعقباً له بالتعنيت<sup>٢</sup> :

قالوا : تركت الشعر قلت : ضرورة  
 مات الكرام فلا كريم يرتجى  
 بابُ السّماحةِ والملاحاةِ مُغلّقتُ  
 منه النوالُ ولا مليحٌ يُعشقُ

وقيل : إن السلطان أبا عنان أطلّ من برج يشاهد الحرب بين الثور والأسد  
 على ما جرت به عادة الملوك ، فقال ابن جزى المذكور في وصف الحال :

١ انظر الأزهار : ١٩٤ .  
 ٢ الشعر للغزي (ابن خلكان ١ : ٤١ والخريدة ١ : ٦ ، قسم الشام) .

لله يومٌ بدارِ الملكِ مرَّ بهِ من العجائبِ ما لم يجرِ في خلدِي  
لاحَ الخليفةُ في برجِ العلا قمرًا يشاهدُ الحربَ بينَ الثورِ والأسدِ

ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله :

أبا حسن إن شئتَ الدهرُ شملنا فليسَ لودٍ في الفؤادِ شتاتُ  
وإن حُلَّتْ عن عهدِ الإخاءِ فلم يزلْ لقلبي على حفظِ العهودِ ثباتُ  
وهبني سرتُ مني إليك إساءةٌ ألمٌ تتقدمُ قبلها حسناتُ

وقوله وهو بحالٍ مرض :

إن يأخذ السُّقْمُ من جسمي مأخذه وأصبحَ القومُ من أمري على خطري  
فإنَّ قلبي بحمدِ الله مرتبطُ بالصبرِ والشكرِ والتسليمِ للقدرِ  
فالمرءُ في قبضةِ الأقدارِ مصرفه للبرِّ والسقمِ أو للنفعِ والضررِ

وحكي أن الفقيه الرحال أبا إسحاق إبراهيم بن الحاج النميري بقي في خلوته  
جميع شهر رمضان المعظم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، فلما خرج في يوم  
عيد الفطر أنشده صهره أبو عبد الله ابن جزى المذكور لنفسه :

ما سرَّارُ البدورِ إلا ثلاثُ فلماذا أرى سرَّاركَ شهرا  
أتعجَّلْتَه سرَّاراً لِعِمامٍ ثم تبقى في سائرِ العامِ بدرا

وحكي أنه كتب للرئيس صاحب القلم الأعلى والعلامة بفاس أبي القاسم  
ابن رضوان يطلب منه شراب سکنجبین ، وقصد التصحيف بقوله : « أَحْسِنُ  
زان بيتك نجيبٌ تُسرُّ به برٌّ مرضي » تصحيفه : أحب شراب سکنجبین شره  
برُّ مَرَضِي ، قال : فجاءني ابن رضوان بقوله : إن برك نقيس ، تصحيفه  
مقلوباً : يشفيك ربنا .

ومن نظم ابن جزى المذكور قوله :

رعى الله عهداً بالمرية ما أرى به أبدأ ما عشتُ في الناسِ بالناسي  
وكيف ترى بالله صحبة معشرٍ مجاهدٍ بعضٌ منهمُ وابن عباسٍ

وقوله في الزاوية التي أنشأها السلطان أبو عنان :

هذا محلُّ الفضلِ والإيثارِ والرفقِ بالسكَّانِ والزوارِ  
دارٌ على الإحسانِ شيدتْ والتقى فجزاؤها الحسنى وعقبى الدارِ  
هي ملجأٌ للواردين وموردٌ لابن السبيل وكلُّ ركبٍ ساري  
آثار مولانا الخليفة فارسٍ أكرمُ بها في المجدِ من آثارِ  
لا زالَ منصورَ اللواءِ مظفراً ماضي العزائم ساميَ المقدارِ  
بنيتُ على يدِ عبدهم وخديمِ با بهمُ العليُّ محمدُ بنِ جدارِ  
في عام أربعةٍ وخمسينَ انقضتْ من بعد سبعِ مئينَ في الأعصارِ

ومن نظمه قوله مورياً :

وما أنسى الأحبةَ يوماً بانوا تخوضُ مطيهمُ بحرَ الدموعِ  
وقالوا : اليومَ منزلنا الحنايا فقاتُ : نعم ، ولكن من ضلوعي

وقوله مورياً أيضاً :

وربَّ يهوديٍّ أتى متطبياً ليأخذ ثاراتِ اليهودِ من الناسِ  
إذا جسَّ نبضَ المرءِ أودى بنفسه سريعاً ، ألم تسمع بفتكةِ جسَّاسِ؟

وقوله :

من أي أشجاني التي جنتِ النوى أشكو العذابَ وهنَّ في تنوعِ  
من وصلي الموقوفِ أو من هجريِّ الموصولِ أو من نومي المقطوعِ

١ الأزهار : حين .



أو من حديثِ تولهي وتولعي خبراً صحيحاً ليس بالموضوع  
يَرَوِيهِ خُدَيِ مَسْنَدًا عَنِ أَدْمَعِيِّ عَنِ مَقْلَتِي عَنِ قَلْبِي الْمَفْجُوعِ  
وأول هذه القصيدة :

ذَهَبَتْ حُشَاشَةُ قَلْبِي الْمَصْدُوعِ . بَيْنَ السَّلَامِ وَوَقْفَةِ التَّوْدِيْعِ .  
وقد ضمن شطرها الفقيه عبيد شارح الحلبة<sup>٢</sup> ، إذ قال من قصيدة مطلعها :  
أَهْمِي دَمُوعَكَ سَاعَةَ التَّوْدِيْعِ . يَا مَقْلَتِي مَمْرُوجَةً بِنَجِيْعِ .  
بقوله :

يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ عَيْسُهُمْ وَتَرَحَّلُوا « ذَهَبَتْ حُشَاشَةُ قَلْبِي الْمَصْدُوعِ »  
وقوله :

بِخُدَيِ وَجَسْمِي وَالْفُؤَادِ وَأَدْمَعِي شُهُودٌ بِهِمْ دَعَايَ الْغَرَامِ تُصَحِّحُ  
وَمَنْ عَجِبَ أَنْ رَجَّحَ النَّاسَ نَقْلَهُمْ وَكَلَّمَهُمْ ذُو جِرْحَةٍ فِيهِ تَقْدَحُ  
فَجَسْمِي ضَعِيفٌ ، وَالْفُؤَادَ مَخْلَطٌ وَدَمْعِي مَطْرُوحٌ ، وَخُدَيِ مَجْرَحُ  
وقوله :

يَا مُحْيَاً كَتَبَ الْحَسَنُ بِهِ أَحْرَفًا أَبْدَعَ فِيهَا وَبَرَعُ  
مِيمٌ تُغَرُّ ، ثُمَّ نُونٌ حَاجِبٌ ثُمَّ عَيْنٌ هِيَ تَتِمِّمُ الْبِدْعُ  
أَنَا لَا أَطْمَعُ فِي وَصْلِكَ لِي وَعَلَى وَجْهِكَ مَكْتُوبٌ « مَنَعُ »

ثم قال ابن الأحرر : ومن إنشائه البارع مورياً بالكتب ، ورفعها لأمير المؤمنين

١ هذه : سقطت من ص .

٢ ق : الحلية .

المتوكل على الله أبي عَنان فارس رحمه الله تعالى يهنيه ببلبال والده ولي عهده الأمير  
أبي زيان محمد من مرض<sup>1</sup> :

ماذا عسى أدبُ الكتاب يوضحُ من خصال مجدك وهو الزاهرُ الزاهي  
وما الفصيح بكلياتٍ موعبها كافٍ فيأتي بأنباءٍ وإنباهٍ

أبقى الله تعالى مولانا الخليفة ولسعاده القِدْحُ المُعلّى ، ولزاهر كماله التاج  
المحلّى ، تجلّى من حلاه نزهة الناظر ، ويسير بعلاه المثل السائر ، ويتسق من سناه  
العقد المنظم ، ويتضح بهداه القَصْدُ الأَمَم ، ولا زالت مقدمات النصر له  
مبسوطة ، ومعونة السعد بإشارته مَنْوطة ، وهدايته متكفلة بإحياء علوم الدين ،  
وإيضاح منهاج العابدين ، وإرشاده يتولى تنبيه الغافلين ، ويأتي من شفاء الصدور  
بالنور المبين ، وميقات الخدمة ببابه مطمح الأنفس ، وما يخص الجود من كفه  
بغية الملتمس ، قد حكم أدب الدين والدنيا بأنك سراج الملوك ، لما أنت عوارفك  
بالمشروع السلسل ومعارفك بنظم السلوك ، ووضحت معالم مجدك وضوح أنوار  
الفجر ، وزهت بعدلك المسالك والممالك زَهُوَ خريدة القصر ، فلك في جمهرة  
الشرف النسب الوسيط ، ومن جمل المآثر الخلاصة والبيسط ، وسبل الخيرات  
لها برعايتك تيسير ، ومحاسن الشريعة لها بتحصيلك تحبير ، وأنت حجة العلماء ،  
الذي تقصر عن تقصي مآثره فِطْنُ الأذكياء ، إن انبَهَمَ التفسير ففي يديك  
مِلاك التأويل ، أو اعتاص تفريع الفقه فعندك فصل البيان له والتحصيل ، وإن  
تشعب التاريخ فلديك استيعابه ، أو تطاول الأدب ففي إنجاز بيانك اقتضابه ،  
وإن ذكر الكلام ففي انتقائك من برهانه المحصول ، أو المنطق ففي موجز آمالك  
لُبَابُه المنخول ، وليس أساس البلاغة إلاّ ما تأتي به من فصل المقال ، ولا جامع

1 ليس من السهل التعريف بكل هذه الكتب التي وري بها في هذه الرسالة ، لأن ذلك يتطلب تطويلا  
لا تتحمله هذه الخواشي ، فليراجعها القارئ في فهرست الكتب حيث نورد كل كتاب مقترنا  
باسم مؤلفه .

الخير إلا ما حزته من تهذيب الكمال ، ولذلك صارت خدمتك غاية المطلوب ،  
وحبك قوت القلوب ، ولا غرو إن كنت من العلياء درتها المكنونة ،  
فأسلافك الكرام هم جواهرها الثمينة ، بحماستهم أصيبت مقاتل الفرسان ،  
وبجودا جودهم تسنى ربي الظمان ، وبتسهيل عدلهم وضحت شعب الإيمان ،  
وأنت المنتقى من سمط جمانهم ، والواسطة في قلائد عقيانهم ، عنك تؤثر سيرة  
الاكتفاء ، وعن فروعك السعداء تروى أخبار نجباء الأبناء ، فهم لمماكتك العلية  
بهجة مجالسها ، وأنس مجالسها ، وقطب سرورها ، ومطالع نورها ، وولي  
عهدك درتهم الخطيرة ، وذخيرتهم الأثيرة ، لا زال كامل سعاده بطول مقامك  
محكماً ، وحرز أمانيه بالجمع بين الصحيحين حبك ورضاك معلماً ، وقد وجبت  
التهنئة بما كان في حيلة برئه من التيسير ، وما تهباً في استقامة قانون صحته من  
نُجْح التدبير ، ولم يكن إلا أن بعدت به عنك المسالك ، وأعوز نور طرفه تقريب  
المدارك ، وتذكر ما عهده من الإيناس الموطأ جنبابه عند أفضل مالك ، فورِي  
من شوقه سقط الزند ، والتهب في جوانحه قبس الوجد ، فأمددته من دعائك  
الصالح بجلية الأولياء ، فظفر لما شارف مشارق الأنوار من حضرتك بالشفاء ،  
وقد حاز إكمال الأجر بذلك العارض الوجيز ، وكان له كتشبيب الإبريز ،  
وها هو قادم بالطالع السعيد ، آيب بالمقصد الأسنى من الفتح والتمهيد ، يطلع بين  
يديك طلوع الشهاب ، ويسم عن مُفَصَّل الثناء في الهناء بذلك زهر الآداب ،  
فأعد له تحفة القادم من إحسانك الكامل ، واخصه بالتكملة من إيناسك الشامل ،  
فهو الكوكب الدرّي المستمد من أنوارك السنية ، وفي تهذيب شمائله إيضاح  
للخلق الكريمة الفارسية ، لا زالت تزدان بصحاح مآثرك عيون الأخبار ، وتتعطر  
بنفحة الزهر من ثنائك روضة الأزهار ، وتلى من محامدك الآيات البيئات ،  
وتتوالى عليك الألفاظ الإلهيات ، بمنّ الله سبحانه وفضاه ، والسلام الكريم

يعتمد المقام العلي ، ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ انتهى .

وللمذكور عدة مقطعات يوري فيها بأسماء الكتب ، فمنها قوله :

ظبي هو الكاملُ في حسنه      وثره أبي من العقدِ  
جماله المدهشُ لكنما      أخلاقه تحكي صبا نجدِ

وقوله أيضاً :

لك الله من خلِّ حَبَّاني برقعة      حَبَّتني من آياتها بالنوادرِ  
رسالة رمز في الجمال نهايةً      ذخيرة نظمٍ أتخفتُ بالجواهرِ

وقوله :

قصتي في الهوى المُدَوَّنة الـ      كبرى وأخبار عشقي المبسوطة  
حجتي في الغرام واضحةٌ إذ      لم تزل مهجتي بوجدٍ منوطة

[ نماذج من التورية بأسماء الكتب ]

وتذكرت بالتورية بأسماء الكتب قول الأرجاني :

لما تألقت بارقاً من ثغره      جادت دموعي بالسحاب المطرِ  
فكان عقد الدر حلّ قلائد الـ      عقيان منه على صحاح الجوهري

وقول لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

وظبي لأوضاع الجمال مدرسٍ      عليمٍ بأمرار المحاسن ماهرِ  
أرى جيده نصّ المحلّي ، وقررت      ثناياه ما ضمتُ صحاح الجواهرِ

١ ق : وله .

وقول ابن خاتمة :

ومُعَطَّرَ الأنفاسِ بِبِسْمٍ دَائِماً  
من لم يشاهد منه عقداً جواهرٍ  
عن درّ ثغري زانه ترتيبُ  
لم يدرِ ما التنقيحُ والتهذيبُ  
وقوله أيضاً :

سَفَّهَنِي عاذلي عليه  
فقلت معتلاً أو صحيحاً  
وقال لي ودُّهُ عليلُ  
يودعه عينهُ الخليلُ

وقوله أيضاً :

حاز الجمالَ بصورةِ قمريةٍ  
وحوى الكمالَ بصورةِ عمريّةٍ  
تجلو عليكَ مشارقَ الأنوارِ  
تتلو عليكَ مناقبَ الأبرارِ

وقول الرئيس أبي محمد<sup>١</sup> عبد المهيمن الحضرمي<sup>٢</sup> :

من اغتدى موطئاً أكنافه  
وقابل استذكاره بالمنتقى  
صحَّ له التمهيدُ في أحواله  
من رأيه المختارِ من أعماله  
وأضحت المسالكُ الحسنى له  
تدني تقصياً قصَى آماله  
وسار من مشارق الأنوارِ في  
أدنى المدارك إلى إكماله

ولما وقف على هذه القطعة الفاضل أبو علي حسين بن صالح بن أبي دلامة  
عارضها وزاد ذكر القبس والمعلم<sup>٣</sup> :

١ أبي محمد : سقطت من ق .

٢ انظر أزهار الرياض ٣ : ٢٠١ .

٣ الأزهار ٢٠٢ وابن أبي دلامة هذا هو والد يحيى كاتب العلامة للسلطان أبي العباس المريني (مستودع  
العلامة : ٧٥) .

قل للموطأ للورى أكنافه  
وإذا اكتفى بالمتقى استذكاره  
ومسالكُ الحسنى تؤديه إلى  
ويلوحُ من قبس الهدايةِ رشدهُ  
بُشراه بالتمهيدِ في الأحوالِ  
وفى له المختار في الأعمالِ  
أقصى التقصي من قُصَى الآمالِ  
من معلمِ التفصيلِ والإجمالِ

رجع إلى ابن جُزَي ، ومن نظمه :

يادوحَةَ الأنس من بطحاءِ وأسِجَةِ  
إذ نجتلَى أوجهَ الإيناسِ مسفرةً  
هل من سبيلٍ إلى أيامك الأولِ  
ونجتني ثمرَ اللذاتِ والغزلِ

ومن نظمه رحمه الله تعالى عند خروجه إلى بلاد المغرب ، وورَى بكتابي  
« تحفة القادم » و « زاد المسافر » فقال :

وإني لمن قومٍ يهونُ عليهمُ  
يطيرون مهما ازورَّ للدهرِ جانبُ  
وما كلُّ نفسٍ تحملُ الذلَّ ، إني  
إذا أنا لم أظفرُ بزادِ مسافرٍ  
ورود المنايا في سبيلِ المكارمِ  
بأجنحة من ماضياتِ العزائمِ  
رأيتُ احتمالَ الذلِّ شأنَ البهائمِ  
لديكم فعند الناسِ تحفةُ قادمِ

وزاد المسافر لصفوان ، والتحفة لابن الأبار .

ومن نظمه قوله :

نصبَ الحبال للورى بالحسنى إذ  
وأماله عني العواذلُ غيلةً  
رفعَ اللثامَ وذيله مجرورُ  
فهو الممالُ وقابي المكسورُ

وقوله أيضاً :

تلك الذؤابة ذُبت من شوقي لها  
يا قلبُ فانجُ وما إخالك ناجياً  
والأحظُّ يحميها بأيِّ سلاحِ  
من فتنةِ الجعديِّ والسفاحِ

وقوله أيضاً :

وعاشقٍ صلّى ومحرا به  
قالوا تعبدت فقلت نعم<sup>١</sup>  
وجهُ غزالٍ ظلَّ بهواهُ  
تعبداً يُفهمُ معناهُ

وقوله رحمه الله تعالى :

لا تعدُّ صنفاً إن ذهبت لصاحب  
أوما ترى الأشجارَ مهما ركبتُ  
تَعْتَدُهُ لكنَّ تَخِيَّرُ وانتقِ  
إن خولفتُ أصنافها لم تعلقِ

وقوله رحمه الله تعالى :

أيتها النفسُ قفي عندما  
فمن يكنُّ يرضى بمساواه  
ألزمتِ ، فعلاً كان أو قولاً  
إلا إذا أهملاهُ المولى

وقوله أيضاً :

لولا ثلاثٌ قد شغفت بِحبِّها  
وهي الروايةُ للحديث ، وكتِّبُهُ ،  
ما عَفْتُ في حوضِ المنيةِ موردي  
والفقهُ فيه ، وذاك حسبُ المهدي

وأما أخوهما القاضي أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم بن جُزي فهو الإمام العالم العلامة المعمّر ، رئيس العلوم اللسانية ، قال في « الإحاطة »<sup>٢</sup> : هذا الفاضل قريعُ بيت نبيه ، وسلف شهير ، وأبوة خير ، وأخوة بليغة وخوولة ، أديب حافظ قائم على فن العربية ، مشارك في فنون لسانية ، ظرف في الإدراك ، جيسد النظم ، مطواع القريحة ، باطنه نبل وظاهره غفلة ، قعد للإقراء ببلده غرناطة معيداً ومستقلاً ، ثم تقدم للقضاء بجهات نبيهة على زمن الحداثة ، أخذ عن والده

١ ص ق : لهم نعم .

٢ ترجمة عبد الله بن جزي في الإحاطة ، الورقة : ٢٠٤ والكتيبة : ٩٦ ونيل الابتهاج : ١٢٩ .

الأستاذ الشهير الشهيد أبي القاسم أشياء كثيرة ، وعن القاضي أبي البركات ابن الحاج ، وقاضي الجماعة الشريف السبتي ، والأستاذ البياني ، والأستاذ الأعراف أبي سعيد ابن لب ، والشيخ المقرئ أبي عبد الله ابن بيش ، وأجازته رئيس الكتاب أبو الحسن ابن الجياب ، وقاضي الجماعة أبو عبد الله [ ابن بكر ، وأبو محمد ابن سلمون ، والقاضي ابن شبرين ، والشيخ أبو حيان ، وقاضي الجماعة أبو عبد الله ]<sup>١</sup> المقرئ ، وأبو محمد الحضرمي ، وجماعة آخرون ، وشعره نبيل الأغراض ، حسن المقاصد ؛ انتهى المقصود منه .

وممن أخذ عنه العباس البقفي شارح البردة ، والقاضي أبو بكر ابن عاصم ، وبالإجازة الإمام ابن مرزوق الحفيد ، وغيرهم .

وقد عرف ابن فرحون في « الديباج المذهب » بأبيه الشهيد أبي القاسم وأخيه القاضي أبي بكر دونه ، وعرف ابن الخطيب في « الإحاطة » بأبيه وأخويه أبي بكر وأبي عبد الله ، وفيما ذكرنا من أمرهم كفاية .

ومما نسبته الوادي آشي لأبي محمد عبد الله بن جزري قوله :

يا من أتاني بَعْدَهُ بعدما عاملته بالبرِّ واللطفِ  
إنِّي تأملت وقد سرنِي بجملةٍ من سورة الكهفِ

وله أيضاً<sup>٢</sup> :

لقد قطعتَ قلبي يا خليلي بهجرٍ طال منك على العليلِ  
ولكن ما عجبٌ منك هذا إذ التقطعُ من شأنِ الخليلِ

رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى .

١ ابن بكر . . . أبو عبد الله : سقط من ق ص وأكملناه من الإحاطة ونبيل الابتهاج .

٢ يا من . . . وله أيضاً : سقط كله من ق .



٢٧ - ومنهم القاضي الأديب جملة الظرف أبو بكر ابن شبرين<sup>١</sup> :

وقد استوفى ترجمته في « الإحاطة » وذكره أيضاً في ترجمة ذي الوزارتين ابن الحكيم بأن قال بعد حكايته قتل ابن الحكيم ما صورته<sup>٢</sup> : وممن رثاه شيخنا أبو بكر ابن شبرين رحمه الله تعالى بقوله :

سقى الله أشلاءً كرمُنَ على البلي  
ومما شجاني أن أهينَ مكانها  
ألا اصنعُ بها يا دهرُ ما أنت صانعُ  
سفكتَ دماً كان الرقوءُ نواله  
بكفِّي سبنتي<sup>٣</sup> أزرقِ العينِ مطرق  
لنعم قتيلُ القومِ في يومِ عيده  
ألا إنَّ يومَ ابنِ الحكيمِ لمثكلُ  
فقدناه في يومِ أغرَّ محجلِ  
سمتُ نحوه الأيامُ وهو عميدها  
تعاورتِ الأسيافُ منه ممدحاً  
وخانته رجلٌ في الطوافِ به سعتُ  
وجُدلُ<sup>٤</sup> لم يحضره في الحيِّ ناصرُ  
وما غَضَّ من مقدارها حادثُ البلاء  
وأهمل قدرُ ما عهدناه مهملًا  
فما كنتَ إلا عبدها المتدلا  
لقد جئتما شنعاءَ فاضحةَ الملا  
عدا فغدا في غيِّه متوغلاً  
قتيلُ تَبَكِّيهِ المكارمُ والعُلا  
فؤادي ، فما ينفكُ ما عشتُ مثكلا  
ففي الحشرِ نلقاه أغرَّ محجلاً  
فلم تشكرِ النعمى ولم تحفظِ الولا  
كريماً سما فوق السماكين مزحلا  
فناء بصدرِ للعلوم تحملا  
فمَن مبلغُ الأحياءِ أن مهلهلا

١ ترجمة ابن شبرين في الإحاطة ٢ : ١٧٦ والمرقبة العليا : ١٥٣ والكتيبة : ١٦٦ .

٢ انظر الإحاطة ٢ : ٣٠٢ .

٣ ق ص : سبت ؛ السبنتي : النمر ، والشطر من قصيدة تنسب للشماخ في رثاء سيدنا عمر (رض) والبيت :

وما كنت أعشى أن تكون وفاته

بكفي سبنتي أزرق العين مطرق

( انظر طبقات ابن سلام : ١١١ ) .

٤ ص : وجندل ؛ والإشارة إلى قول الشاعر :

من مبلغ الأحياء أن مهلهلا  
أضحى قتيلًا في الفلاة مجندلا

تُبَارِكُ ما هبَّت جنوباً وشمالاً  
 له فأرى للرب منه مقبلاً  
 فبالأمس ما كان العمادَ المؤملاً  
 وقد ظلَّ في أوج العلامتِ مؤقلاً  
 بدمعٍ إذا ما أمحل العام أخضلاً  
 ولم ندرِ ماذا منهما كان أطولاً  
 له كان يهدي الحي والملا الألى  
 من الناس حتماً أو تقدم مقبلاً  
 كريم إذا ما أسبغ العرف أجزلاً  
 على حامل القرآن يتلى مفصلاً  
 مكارمُه في الأرض مسكاً ومسدلاً  
 وضعنا لديه كلَّ إصرٍ على علأ  
 وما كان في حاجتنا متعللاً  
 يميناً لقد غادرت حزنأ مؤثلاً  
 عليك صلاةٌ فيه يشهدا الملا  
 وسنتها محفوظةٌ لن تبدلاً  
 سعيداً حميداً فاضلاً ومفضلاً  
 تلاقي يبشرى وجهك المتهللاً  
 فما ودع القلبُ العميدُ وما قلى<sup>٢</sup>  
 وكتب له ذخراً عتيداً وموثلاً  
 ولم يدكرُ ذاك الندى والفضلأ

يدُ الله في ذاك الأديمِ ممزقاً  
 ومن حزني أن لست أعرف مَلحداً  
 رويدك يا مَنْ قد غدا شامتاً به  
 وكنا نغادي أو نراوحُ بابه  
 ذكرناه يوماً فاستهلت جفوننا  
 ومازجَ منا الحزنُ طولَ اعتبارنا  
 وهاج لنا شجواً تذكرُ مجلسٍ  
 به كانت الدنيا تؤخرُ مدبراً  
 لتبك عيونُ الباقيات على فتى  
 على خادمِ الآثارِ تتلى صحائحا  
 على عضدِ الملك الذي قد تضوعتْ  
 على قاسمِ الأموالِ فينا على الذي  
 وأتى لنا من بعده مُتعللاً  
 ألا يا قصيرَ العمرِ يا كاملَ العلا  
 يسوءُ المصلتى أن هلكتَ ولم تقم  
 وذلك لأن الأمر فيه شهادة  
 فيأ أيها الميتُ الكريم الذي قضى  
 لتهنك من ربِّ السماء شهادة  
 رثيتك عن حبِّ ثوى في جوانحي  
 ويا ربَّ من أوليته منك نعمة  
 تناساك حتى ما تمرُّ بياله

١ من قول الشماخ أيضاً :

جزى الله خيراً من أمير وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

٢ من الآية القرآنية « ما ودعك ربك وما قلى » .

يرابضُ في مثواك كلَّ عشيّةٍ      صفيفَ شواءٍ أو قديراً مُعجلاً<sup>١</sup>  
لحى الله من ينسى الأذمة رافضاً      ويذُهلُ مهما أصبح الأمر مشكلاً  
حنانيك يا بدرَ الهدى فلشَدَّ ما      تركت بدور الأفق بعدك أفلاً  
وكنت لآمالي حياةً هنيئةً      فغادرتَ مني اليوم قلباً مقتلاً  
فلا وأبيك الخيرِ ما أنا بالذي      على البعد يتسنى من ذمامك ما خلا  
فأنت الذي آوتني متغرباً      وأنت الذي أكرمتني متطفلاً  
فأليتُ لا ينفكُ قلبي مكمداً      عليك ولا ينفكُ دمعي مُسبلاً

وكتب ابن لسان الدين على هامش هذه القطعة ما صورته : شكر الله وفاءك يا ابن شبرين وقدس لحدك ، وأين مثلك في الدنيا حسناً ووفاءً وعلماً ؟ لا كما صنع ابن زمرك في ابن الخطيب مخدومه ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .

٢٨ - ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ الأستاذ العلامة العلم الأوحى الصدور المصنف المحدث الأفضل الأصلح الأورع الأتقى الأكل أبو عثمان سعد ابن الشيخ الصالح التقي الفاضل المبرور المرحوم أبي جعفر أحمد بن ليون ، التجيبي<sup>٢</sup> ، رضي الله تعالى عنه ، وهو من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح ، وله توالييف مشهورة ، منها اختصار « بهجة المجالس » لابن عبد البر ، واختصار « المرتبة العليا » لابن راشد القفصي ، وكتاب في الهندسة ، وكتاب في الفلاحة ، وكتاب « كمال الحافظ وجمال الالفاظ في الحكم والوصايا والمواعظ » ، وكان مولعاً باختصار الكتب ، وتوالييفه تزيد على المائة فيما يذكر ، وقد وقفت منها بالمغرب على أكثر من عشرين . ومما<sup>٣</sup> حكى عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلاً طوالاً فقال لمن

١ من قول امرئ القيس « صفيف شواء أو قدير معجل » .

٢ ترجمة ابن ليون في التكملة : ٨٦ (باسم سعيد) ونيل الابتهاج : ١٠٥ والإحاطة ، الورقة : ٣٦٥ .

٣ ق : وقد .

حضره : لو رآه ابن ليون لاختصره ، إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب .  
ومن تواليفه كتاب « نفتح السحر في اختصار رُوح الشجر<sup>١</sup> وروح الشعر »  
لابن الجلاب الفهري ، رحمه الله ، ومنها كتاب « أنداء الدير في الوصايا والمواعظ  
والحكم » وكتاب « الأبيات المهذبة في المعاني المقربة » وكتاب « نصائح الأحباب  
وصحائح الآداب » أورد فيه مائتي قطعة من شعره تتضمن نصائح متنوعة ،  
ولنتقح منها نبذة فنقول : منها في التحريض على العلم قوله رحمه الله تعالى :

زاحمٌ أولي العلم حتى      تُعتدَّ منهم حقيقةً  
ولا يردك عجزٌ      عن أخذ أعلى طريقه  
فإن من جدَّ يعطى      فيما يجب لحوقه

وقوله :

شفاء داء العيِّ حسنُ السؤالِ      فاسألْ تُلْ علماً ، وقلْ لا تبالْ  
واطلبْ فلاستحياءُ والكبرُ من      موانعِ العلمِ فمسا إن يُنالْ

وقوله :

« علمت شيئاً وغابت عنك أشياء »<sup>٢</sup>      فانظر وحقَّقْ فما للعلم إحصاءُ  
للعلم<sup>٣</sup> قسمان : ما تدري ، وقولك لا      أدري ، ومن يدعي الإحصاء هذاءُ

وقوله :

من لم يكن علمه في صدره نشبت      يدهُ عند السؤالات التي تردُ  
العلمُ ما أنت في الحمام تحضُّرهُ      وما سوى ذلك التكليفُ والكمدُ

١ ق : دوح الشجر ؛ ص : روح السحر .

٢ عجز بيت لأبي نواس ، وصدره : « فقل لمن يدعي في العلم فلسفة » .

٣ ق : العلم .

وقوله :

الدرسُ رأسُ العلمِ فأحرصْ عليه فكلُّ ذي علمٍ فقيرٌ إليه  
من ضيَعَ الدرسَ يرى هاذياً عند اعتبارِ الناسِ ما في يديه  
فِعزَّةُ العالمِ مِن حفظِهِ كعزَّةِ المُنفِقِ فيما عليه

وقال<sup>١</sup> رحمه الله تعالى في غير ما سبق :

ثلاثٌ مهلكاتٌ لا محالَةٌ هوى نفسٍ يقودُ إلى البطالةِ  
وشحٌ لا يزالُ يُطاعُ دأباً وعُجبٌ ظاهرٌ في كلِّ حاله

وقال :

اللَّهُ مَنقَصَةٌ بِصاحِبِهِ فأحذرْ مذلةَ مؤثرِ اللّهِ  
واللغوُ نَزَةٌ عنه سمعَكَ لا تجنحْ له ، لا خيرَ في اللغوِ

وقال :

لا تملأْ على صديقكَ وادراً عنه ما اسطعتَ من أذىِ واهتضامِ  
ما تناسى الذمَّامَ قطُّ كريمٌ كيف ينسى الكريمُ رعيَّ الذمامِ  
تُطعمُ الكلبَ مرةً فيحامي عنك ، والكلبُ في عدادِ اللثامِ

وقال :

احذرْ مؤاخاةَ الدنيءِ فإنها عارٌ يشينُ ويورثُ التضريرا  
فالماءُ يخبثُ طعمهٌ لنجاسةٍ إن خالطته ويُسَلِّبُ التطهيراً

وقال :

١ ق : وقوله ، وكذلك جرى في كثير من المواضع .

تحفظ من الناس تسلم ولا  
تكن في تقربهم ترغب  
ولا ترك الحزم في كل ما  
تريد ، ولا تبغ ما يصعب

وقال :

إخوانك اليوم إخوان الضرورة لا  
تثق بهم يا أخي في قول أو فعل  
لا خير في الأخ إلا أن يكون إذا  
عرتك نائبة يقيمك أو يسلي

وقال :

طلب الإنصاف من قبل  
لا تناقش وتغافل  
قلما يحظى أخو الإذ  
إنصاف فسهل  
فالليب المتغافل  
صاف في وقت بطائل

وقال :

من خافه الناس عظموه  
ومن يكن فاضلاً حليماً  
فامرر وكن صارماً مبيراً  
وأظهروا برة وشكرة  
فإنما حظهم المصرة  
يهبك من قد تخاف شره

وقال :

إن تبغ عدلاً فما ترضى لنفسك من  
تفعله مع أحد تكن أحمق  
وكل ما ليس ترضاه لنفسك لا  
قول وفعل به أعمل في الورى تسد

وقال :

حسي الله لقد ضللت بنا  
عجبا أن الهوى هون وأن  
عن سبيل الرشده أهواء النفوس  
نؤثر الهون وإذلال الرؤوس

وقال :

من يُخَفُّ شَرَّهُ يُؤَفِّ الكرامَةَ  
وأخو الفضلِ والعفافِ غريبٌ  
ويوالى الرعايَةَ المستدامَةَ  
يحملُ الذلَّ والجفا والملامَةَ

وقال :

دع من يسيءُ بك الظنونَ ولا  
من لم يحسنَ ظنَّه أبداً  
تحفلُ به إن كنتَ ذا همَّةٍ  
بك فاطرِحُه تكتفي همَّة

وقال :

نزَّةٌ لسانك عن قولٍ تُعابُ به  
لا تبغِ غيرَ الذي يعينك واطرحِ الـ  
وارغبُ بسمعك عن قيلٍ وعن قالٍ  
فضولَ تحيا قريرَ العينِ والبالِ

وقال :

كثرةُ الأصدقاءِ كثرةُ غُرمٍ  
فاغتنِ بالبغضِ قانعاً وتغافلِ  
وعتابٌ يُعيني وإدخالُ همٍ  
عنهم في قبيحِ فعلٍ وذمٍ

وقال :

ذلُّ المعاصي ميةٌ يا لها  
عزُّ التقي هو الحياةُ التي  
من مية لا ينقضي عارها  
ذو العقلِ والهمَّةِ يختارها

وقال :

لا تسمعُ يوماً صديقك قولاً  
إنَّ بَرَّ الصديقِ لا شكَّ منه  
فيه غضبٌ ممن يحبُّ الصديقُ  
لصديقِ الصديقِ أيضاً فريقُ

١ ص من لا

وقال :

للجار حقٌ فاعتمدْ بِرَّةُ  
فالله قد وصَّى به فاعترفْ  
واحملْ أذاه مغضياً ساتراً  
زللتهُ الباطنَ والظاهراً

وقال :

سالمَ الناسَ ما استطعتَ وداري  
ضُرُّكَ الناسَ ضُرَّ نفسك يَجْتَنِي  
أخسرُ الناسَ أحقُّ لا يداري  
لا يقومُ الدخانُ إلاَّ لِنَارِ

وقال :

النصحُ عندَ الناسِ ذنبٌ فدَعْ  
الناسُ أعداءُ لنُصَّاحهم  
نُصحَ الذي تخافُ أن يهجرَكَ  
فاتركَ هُدَيْتَ النصحَ فيمن تركَ

وقال :

تجري الأمورُ على الذي قدَّ قُدِّرا  
فارضَ الذي يجري القضاءُ به ولا  
ما حيلةٌ أبدأ تردُّ مُقدِّرا  
تضجرُ فمنَ عدمِ الرضى أن تضجرا

وقال :

أخوك الذي يحميك في الغيبِ جاهداً  
وينشرُ ما يرضيك في الناسِ معلناً  
ويستر ما تأتي من السوءِ والقبحِ  
ويغضي ولا يألُو من البرِّ والنصحِ

وقال :

لا تصحبِ الأردى فردى معَه  
فالحبلُ إن يُجرَّزَ على صخرةٍ  
وربما قد تفتني متزعَّه  
أبدى بها طريقةً مُشرَّه

وقال :



ما فات أو كان لا تندم عليه فما  
ارجع إلى الصبرِ تغمُّ أجره وعسى  
يفيدُ بعد انقضاء الحادثِ الندمُ  
تسلو به فهو مسلاةٌ ومغتنمُ  
وقال :

السخطُ عند النائباتِ زيادةٌ  
من لم يكن يرضى بما يُفضى فيا  
في الكربِ تُنسي ما يكونُ من الفرجِ  
لله ما أشقى وأصعبَ ما انتهجُ  
وقال :

إن تبغِ الإخوانَ ما إن تجدُ  
فلا تنهما وعزُّهما  
أخاً سوى الدينارِ والدرهمِ  
تعشُ عزيزاً غيرَ مستهضمِ  
وقال :

من يستهن بصديقه  
برُّ الصديق مهابةٌ  
يُعنِ العدوَّ على أذاته  
للمرءِ تُخْمِلُ من عُداته  
فاحفظُ صديقك ولتكنُ  
تبدي المحاسنَ من صفاته

وقال :

نعوذُ بالله من شرِّ اللسانِ كما  
يجني اللسانُ على الإنسانِ ميته  
نعوذُ بالله من شرِّ البرياتِ  
كم لسانٍ من آفاتِ وزلاتِ  
وقال :

من لم يكن مقصده مدحةً  
حبة المدحة رقُّ بلا  
فقد أتى بجوحة العافية  
عتق ، وذلُّ يا له داهية  
ذمماً أصاب العيشة الراضية  
من لا يبالي الناسَ مدحاً ولا

وقال :

شراً إخوانك مَنْ لا تهدي فيه سيلا  
يُظهرُ الودَّ ويخفي مكره داء دخيلا  
يتقي منك اتقاء وهو يُوليك الحميلا

وقال :

قوامُ العيش بالتدبير فاجعلْ لعيشك منه في الأيام قسطا  
وخذ بالصبرِ نفسك فهو عزٌّ تلوذُ به إذا ما الخطبُ شطأ

وقال :

العيشُ ثلثُ فطنةٍ والغيرُ منه تغافلُ  
فتغافلِ أن كنتَ امرأ إيثارَ عيشك تاملُ

وقال :

ينفذُ المقدورُ حتماً لا يُردُّ فعلامَ الحرصُ دأباً والكمندُ  
أرحَ النفسَ تعشرُ في غبطةٍ وكيلاً الأمرُ إلى الله فقندُ

وقال :

زرٌّ من تحبُّ وزره ثم زره ولا تملِّ واجعله دأباً موضعَ النظرِ  
لولا متابعةُ الأنفاسِ ما بقيتْ روحُ الحياة ولا دامتْ مدى العُمُرِ

وقال :

لا تتركِ الحزمَ في شيءٍ فإنَّ به تمامَ أمركَ في الدنيا وفي الدينِ  
من ضيَعَ الحزمَ تصحبه الندامةُ في أيامه ويرى ذلَّ المهاوينِ

وقال :

كن إذا زرتَ حاضرَ القلبِ واحذرْ  
لا تثقلْ على جليسٍ وخففْ  
أن تُمِلَّ المزورَ أو أن تُطِيلَا  
إنَّ من خَفَّ عُدَّ شخصاً نبيلَا

وقال :

من خلا عن حاسدٍ قد  
إنما الحاسدُ كالنَّا  
لا عدمتنا حاسداً في  
مات في الأحياء ذكره  
ر لعود طاب نشره  
نعمة ليست تسره

وقال :

حبيبك من يغارُ إذا زللتنا  
يسرُّ إن اتصفت بكلِّ فضلٍ  
ومن لا يكثرُ بك لا يبالي  
ويغلظُ في الكلام متى أسأتنا  
ويحزنُ إن نقصت أو أنتقصتنا  
أحدث عن الصواب أم أعتدلتنا

وقال :

لن لمن تخشى أذاهُ  
إنما الدنيا مدارا  
والقه في باب داره  
ة فمن تخشاه داره

وقال :

حسدُ الحاسدِ رحمةُ  
إنما الحاسدُ يشكو  
لا عدمتنا حاسداً في  
لا يرى إلا لينعمة  
حرّاً أكبادٍ وغمّة  
نعمة تكثرُ همّة

وقال :

تبديلُ شخصٍ بشخصٍ  
خسرانُ الاثنينِ جُمْلَه

فاشدد يدبك على مَنْ  
عرفت، وارتفع مَحَلَّةُ  
فإنَّ قَطَعَ خَيْلِي  
بَعْدَ التَّوَاصُلِ زَلَّةُ

وقال :

أنت بخير ما تركت الظهور  
والقال والقبيل وطرق الشور  
من خاض بجرأ فهو لا بدَّ يب  
تلقُ ومن يجزُّ يُصِبُه العثور  
سلامةُ المرء اشتغالُ بما  
يهتمُّ لنفسه من أمور

وقال :

أنت حرٌّ ما تركت الطمعا  
وعزيزٌ ما تبعت الورعا  
وكفى بالعزُّ مع حريةِ  
شرفاً يختاره مَنْ قنعا

وقال :

خلُّ بُنَيَاتِ الطَّرْقِ  
ووافقِ الناسِ تَقْنُ  
من خالفَ الناسَ أتى  
أعظمَ أبوابِ الحُمُقِ  
فكنْ مع الناسِ فتر  
كُ جملةِ الناسِ خُرُقُ

وقال :

لا تَصِقْ صدرًا بحاسدُ  
فهو في نارٍ يكابدُ  
من يرى أنكَ خيرُ  
منه تعرُّوهُ شدائدُ  
إنما الحاسدُ يشقى  
وهو لا يحظى بعائدُ<sup>٢</sup>

١ ق : واعر ف .

٢ ق ص : بفائد .

وقال ١ :

من يستمع في صديقٍ قولَ ذي حسدٍ  
يهابك الناس ما تُدني الصديقَ فإن

وقال :

كم من أخٍ صحبتهُ  
خشيتُ ، إن فارقتهُ  
والنفسُ عنه راغبه  
بالهجرِ ، سوء العاقبه

وقال :

إذا كانت عيوبك عند نقدٍ  
متى سلمت من النقدِ البرايا  
تعدُّ فأنت أجدرُ بالكمالِ  
وحسبك ما تشاهدُ في الهلالِ

وقال :

إذا انطوتِ القلوبُ على فسادٍ  
فلا تنطقُ وقلبك فيه شيءٌ  
فإن الصمتَ سترٌ أي ستر  
بغير الحقِّ ، واحذر قولَ شرِّ

وقال :

إن كنتَ لا تنصرُ الصديقَ فدعْ  
سماعُ عرضِ الصديقِ منقصةٌ  
سماعكَ القولَ فيه واجتنبِ  
لا يرتضيها الكريمُ ذو الحسبِ

وقال :

أنت في الناس تقاسُ  
فاصحبِ الأخيارَ تعلو  
بالذي اخترتَ خليلاً  
وتتلُّ ذكراً جميلاً

١ وقعت القطعة بعد التي تليها في ق .

صحبةُ الحاملِ تكسو منَ يواخيه خمولا

وقال :

اسمعُ يزكُ السماحُ إنَّ السماحَ رباحُ  
لا تلقَ إلا ببشرٍ فالبشرُ فيه النجاجُ  
تقطيبك الوجهُ جدُّ أجلُّ منه المزاحُ

وقال :

منَ كنتَ تعرفه كُنْ فيه متئداً يكفيك من خُلُقهِ ما أنتَ تعرفهُ  
لا تبغِ من أحدي عرفته أبداً غيرَ الذي كنتَ منه قبيلُ تألفهُ

وقال :

حاسب حبيكَ كالعدوِّ تدُمُ لهُ ولكِ المحبةُ . فالتناصفُ روحُها  
من كان يغمضُ في حقوقِ صديقهِ نقصتُ مودتَهُ وشيبَ صريحُها

وقال :

تعاقلُ في الأمورِ ولا تناقشُ فيقطعك القريبُ وذو المودَّةُ  
مناقشةُ الفسى تجي عليه وتبدله من الراحاتِ شدةُ

وقال :

إن شئتَ تعرفُ نعمةَ الله التي أولاك فانظرُ كلَّ منَ هو دونكا  
لا تنظرِ الأعلى فتنسى ما لذي لكِ ومنَ منَ الضعفاءِ يستجدونكا

وقال :

عجباً أن ترى قبيحَ سواكا وتُعادي الذي يرى منك ذاكَا

لو تناصفت كنت تنكر ما فيه  
ك وترضى الوصاة ممن نهاكا  
وقال :

جرب الناس ما استطعت تجدهم  
فالسعيد السعيد من أخذ العف  
لا يرى الشخص منهم غير نفسه  
و دارى جميع أبناء جنسه  
وقال :

فرط حب الشيء يعمي ويصم  
نقص عقل أن يغطي حسك الح  
فليكن حبك قصداً لا يصم  
ب أو يلهيك عن أمر مهم  
وقال :

سلم و غص<sup>١</sup> احتسابا  
النقد نار<sup>٢</sup> تخلي  
فذا هو اليوم أسلم  
في القلب جمر<sup>٢</sup> تضرم  
عن عيب غيرك تسلم  
فاطو اعتراضك واغفل  
وقال :

عدة<sup>١</sup> الكرم عطية  
المطل<sup>٢</sup> تحريض العدا  
لا مطلق في عدة الكرم  
وذلك من فعل اللثيم  
ت فإنه عمل ذميم  
فدع المطال إذا وعد  
وقال :

من تناسى ذنوبه قتلته  
وأبانت عنه الولي الحميما

١ ص : وأغص .

٢ ق ص : تخلي . جمر .

ذكرك الذنب نفرة<sup>١</sup> عنه تبقي لك إنكار فعله مستديماً

وقال :

عجباً لمادح نفسه لا يهتدي  
لتنقُصِ بُبْدِيهِ فِيهِ مَدْحُهَا  
مَدْحُ الْفَتَى عِنْدَ التَّحَدُّثِ نَفْسَهُ  
ذَكَرَى مَعَايِبَهُ فَيَدْرَى قَبْحَهَا

وقال :

من حسنت أخلاقه عاش في  
ومن تسؤ للخلق أخلاقه  
نعى وفي عزٍ هنيء وود<sup>١</sup>  
يعش حقيراً في هموم وكد

وقال :

من كان يحمي ناسه [صار ذا  
ومن يكن يخذل أحبابه  
عزٍ و]<sup>٢</sup> هابته نفوس البشر  
هان ، ومن هان فلا<sup>٣</sup> يُعتبر

وقال :

قارب وسدد إذا ما كنت في عمل  
ما حالف القصد في كل الأمور هوى  
إن الزيادة في الأعمال نقصان  
نفس ، وكل هوى شوم وحرمان

وقال :

بقدر همته يعملو الفتى أبداً  
هيات يعملو فتى خمول همته  
لا خير في حامل الهمات ممتهن  
يقوده لابتذال النفس والمهن

١ ص : هنيئاً يود .

٢ سقط من ق ص ، وأكملناه من المطبوع .

٣ ص : فما .



وقال :

اصحبُ ذوي الحدة وارغبُ عن الـ  
وانظرُ إلى قول نبيِّ الهُدَى  
خبيثُ فالصحةُ ذا داؤها  
«خيارُ أمتي أحداؤها»

قال :

ما صديقُ الإنسان في كلِّ حالٍ  
لا تُعوّلُ على سواه فتغدو  
يا أخي غيرَ درهمٍ يقتنيه  
خائبَ القصدِ دون ما تبغيه

وقال :

يستفزُّ الهوى للإنسان حتى  
ويرى الرشدَ غيرَ رشدٍ ، ويغدو  
لا يرى غيرَ محنةٍ أو ضلالٍ  
يحسبُ الحقَّ من ضروبِ المحالِ

وقال :

لا تبالغُ في الشرِّ مهما استطعتا  
فانقلابُ الأمورِ أسرعُ شيءٍ  
وتغافلُ واحلم إذا ما قدرتا  
وتجازي بضعفٍ ما قدرتا

وقال :

مثلُ عواقبِ ما تأتي وما تذرُ  
لا تُقدِّمَنَّ على أمرٍ بلا نظري  
واحذرُ فقد ترتجي أن ينفع الحذرُ  
فإنَّ ذلك فعلٌ كلُّه خطرُ  
وانظرُ وفكرُ لما ترجو توقُّعه  
فعمدةُ العاقلِ التفكيرُ والنظرُ

وقال :

حافظُ على نفسك من كلِّ ما  
يشينها من خللٍ أو زللٍ

١ هكذا في ص ؛ وفي ق : ما فعلتا .

واحرص على تخليصها بالذي تنجو به من قولٍ أو من عملٍ

وقال :

سكرُ الولاية ما لهُ صَحْوُ  
يهدي الفتي أيامَ عزَّتْها  
فحذارٍ لا تفرركِ صولتها  
وكلامها وحراكها زَهُوُ  
فإذا تقصّتْ نابه شَجْوُ  
وزمانها فثبوتها مَحْوُ

وقال :

دَعِ الجِدالَ ولا تحفلُ به أبدا  
سَلِّمْ تعشُ سالماً من غيرِ متعبةٍ  
فإنَّه سببٌ للبغضِ ما وُجدا  
قريرَ عينٍ إذا لم تعترض أحدا

وقال :

إذا ترى المبتلى اشكر أن نجوتَ ولا  
وخف من أن تبلى كما ابتلى فتري  
تَشَمَّتْ به ولتَسَلْ من ربك العافية  
كما تراه وما تقيك من واقية

وقال :

العمرُ ساعاتٌ تقصّي فلا  
واعمل لما أنت له صائرٌ  
ولا تكن تأوي لدنيا وقل  
تُقَصِّها في السهو والغفاه  
ما دمت من عمرك في مهله  
لا بدّ لا بدّ من النقلة

وقال :

كن رقيقاً إذا قدرت حليماً  
لا تظنّ الزمانَ يبقي على من  
وتغافلٌ تسلك طريقاً قويماً  
سرّه أو ينيل عزّاً سليماً

١ ص : متبعة .

إن للدهر صولةً وانقلاباً ولهذا نعيمه لن يدوماً

وقال :

من لم يكن ينفعُ في الشدةِ  
لا تعتمدُ إلاّ أخا حرمةِ  
ولا تترى من يهزأُ في ودهِ  
فلا تكنُ معتمداً وُدّهْ  
إن نابَ خطبُ تلّفهِ عُدّهْ  
ولا تترى في معضلِ جدّهْ

وقال :

أخوك الذي تليفه في كلِّ معضلِ  
ويسترُ ما تأتي من القبحِ دائماً  
يدافعُ عنك السوءَ بالمالِ والعرضِ  
وينشرُ ما يرضي وإن سؤته يعضي

وقال :

لا تنهَ عما أنت فاعلهُ  
وابداً بنفسك فانها فإذا  
وانظُرْ لما تأتيه من ذنبِ  
تقفو الصوابَ فأنت ذو لبِّ

وقال :

ليس الصديقُ الذي يلقاك مبتسماً  
إنَّ الصديقَ الذي يولي نصيحته  
ولا الذي في التهاني بالسرورِ يُرى  
وإن عرّتْ شدةٌ أغنى بما قدرا

وقال :

عجباً لمستوفٍ منافعَ نفسه  
ما ذاك إلاّ عُدْمُ إنصافٍ ومَنْ  
ويرى منافعَ من سواه تصعبُ  
عدمَ التناصفِ كيف يرجو يُصحبُ

وقال :

مَنْ عدمَ الهمةَ في راحةٍ  
من أمره يكرمُ أو يهتضمُ

وإنما يشقى أخو همةٍ فإنَّ الانكاد بقدرِ الهممِ

وقال :

قلّما تنفعُ المداراةُ إلاّ عند أهل الحفظِ والأحسابِ  
منْ يداري اللّثيمَ فهو كمن يسـ

وقال :

ديناك هذي عرّضٌ زائلٌ تفنُّنُ ذا الغرّةِ والغفلةِ  
فاعملْ لأخراكَ وقدمْ لها ما دمتَ من عمرك في مهلهِ

وقال :

نصيحةُ الصديقِ كترٌ فلا تردّ ما حييتَ نصحَ الصديقِ  
وخذْ من الأمورِ ما ينبغي ودعْ من الأمورِ ما لا يليقُ

وقال :

أنت حرٌّ ما لم يقيدك حُبُّ الهوى كلّه هوانٌ وشغلٌ  
أو تكن في الورى يُرى لك ذنبُ والمعاصي ذلٌّ يعانى وكربُ

وقال :

هونٌ عليك الأمورا تعشُّ هنيئاً قريبا  
واعلم بأنّ اللبالي تبلي جديداً خطيرا  
وتستبيحُ عظيماً ولا تجير حقيرا

وقال :

ألفُ صديقٍ قليلٌ والودُّ منهم جميلٌ

كما عدوٌ كثيرٌ  
فلا تُضَيِّعْ صديقاً  
إذ ضرةٌ لا يزولُ  
فالنفعُ فيه جليلٌ

وقال ١ :

دع الحسودَ تعاتبه لظي حسده  
ما للحسودِ سوى الإعراضِ عنه وأن  
حتى تراه لقي يموت من كده  
يبقى إلى كربه في يومه وغده

وقال :

الناسُ حيثُ يكونُ الجاهُ والمالُ  
وعَدَّ عمن يقولُ العلمُ قصدَهُمُ  
انظُرْ لماذا همُ يسعونُ جهدهمُ  
بينَ لك الحقُّ لا يعرفوه إشكال

وقال :

توسطُ في الأمورِ ولا تجاوزُ  
كلا الطرفينِ مذمومٌ إذا ما  
إلى الغاياتِ فالغاياتُ غيُّ  
نظرتِ وأخذُك المذمومَ عيُّ

وقال :

عاملٌ جميعَ الناسِ بالحسنى  
ولا تسيءُ يوماً إلى واحدٍ  
إن شئتَ أن تحظى وأن تهنا  
فتجمع الراحةَ والأمنًا

وقال :

لا تفكرْ فلأموْرٍ مدبّرٌ  
أنت عبدٌ وحكمٌ مولاك يجري  
وارضَ ما يفعل المهيمنُ واصبرُ  
بالذي قد قضى عليك وقَدَّرُ

١ سقط البيتان من ق .

وقال :

إذا رأيتَ القبيحا فقلْ كلاماً مليحاً  
وأغضِ واسترْ وسلِّمْ  
تعشْ هنيئاً وتلقِ  
براً وشكراً صريحاً

وقال :

من ينكرِ الإحسانَ لا تولِه  
البدرُ في السباخِ ما إنْ له  
ما عِشْتَ إحساناً فلا خيرَ فيه  
نفعُ فذرهُ فهو فعلُ السفيةُ

وقال :

من لم يكنْ ينفعُ في ودِّه  
ودُّ بلا نفعٍ عناءُ فلا  
دعه ولا تُقِمْ على عهدِه  
تُعنْ بشيءٍ حادٍ عن حدِّه

وقال :

دُرٌّ معَ الدهرِ كيفما  
ودعِ الخدقَ جانباً  
دار إن شئتَ تَصْحَبُه  
ليس بالخدقِ تغلُّبُه  
وحدارِ انقلابه  
فكثيرٌ تغلُّبُه

وقال :

من ليس يغني في مغيب عنك لا  
بثني عليك وأنت معه حاضرٌ  
تحفل به فودادهُ مدخولُ  
فإذا تغيبُ يكونُ عنك يميلُ

وقال :

دع نصحَ من يعجبه رأيهُ  
ومن يرى يُنجمه سعيهُ

النصحُ إرشادٌ فلا تولِه  
لا يقبلُ النصحَ سوى مهتدٍ  
إلا فتىً يحزنه غيبُهُ  
يقودهُ لرشدهِ هديُهُ

وقال :

البختُ أفضلُ ما يؤتى: الفتى فإذا  
يكفيك في البختِ تيسيرُ الأمورِ وأن  
يفوتهُ البختُ لا ينفكُ يتضعُ  
يكونَ ما ليس ترضى عنك يندفعُ

وقال :

افعلِ الخيرَ ما استطعتَ ففعلُ الـ  
وتواضعُ تملُّ علاءَ وعزاً  
خيرِ ذكرٌ لفاعليه وذُخْرُ  
فاتضاعُ النفوسِ عزٌّ وفخرُ

وقال :

صديقُ المرءِ درهمُهُ  
ففسنهُ ما استطعتَ ولا  
به ما دام يُعظِمُهُ  
لذا تغدو فترحمُهُ  
تكنُ في اللهوِ تعدمهُ  
ففقراً المرءِ ميتتهُ

وقال :

لا تقربْ ما استطعتَ حلَّ عدوِّ  
وتحفظْ منه وداره وانظرْ  
فخليلُ العدوِّ حلفُ عداوةِ  
هل ترى من سيماه إلا القساوةِ

وقال :

لا تُعدِ ذكرَ ما مضى فهو أمرٌ  
وتكلم فيما تريدُ من الآ  
قد تقضى وقد مضى لسبيله  
في ودبرُ الشيء قبل حلولةِ

وقال :

قساوةُ المرءِ من ثقائه فإذا  
يلينُ سادَ بلا أين ولا نصَبِ

لا يرحمُ اللهُ إلا الراحمين ، فمن يرحمُ ينل رحمةً في كلِّ منقلبٍ

وقال :

جاء بالسّماحِ إذا ما جئتَ في غَرَضٍ  
سماحةُ المرءِ تنبي عن فضيلتهِ  
ففي العبوسِ لدى الحاجاتِ تصعيبُ  
فلا يكنُ منك مهما اسطعتَ تقطيبُ

وقال :

لا تسامحُ يوماً دنيئاً إذا ما  
إنَّ قصدَ الدنيَّ إنزالُ أهلِ الـ  
قال في فاضلٍ كلاماً رديئاً  
فضلٍ حتى يرى عليهم علياً

وقال :

خذُ من القولِ بعضه فهو أولى  
ربما تأخذُ الكلامَ بجدٍ  
وتحفظُ ممّا يقولُ العُداءُ  
فاحترزُ من غرورِ الأقوالِ واعلمُ  
وهو هزلٌ قد نَمَقْتَهُ عِدَاتُ  
أنَّ الأقوالِ بعضها كذباتُ

وقال :

نافسِ الأخبيارَ كيما  
لا تكنْ مثلَ سرّابٍ  
تحرزَ المجدَ الأثيلا  
فلتكنْ ذكراً جميلا  
ريءٍ لم يشفِ غليلا  
إنما أنت حديثٌ

وقال :

الصمتُ عزٌّ حاضرٌ  
فإذا نطقتَ فلا تكُ  
وسلامةٌ من كلِّ شرٍّ  
وحدارٍ ممّا يتنقى  
شرٌّ واجتنبْ قولَ الهذُرِ  
وحدارٍ من طرقِ الغرورِ



وقال :

سَلَامَةُ الْإِنْسَانِ فِي وَحْدَتِهِ °  
مَا بَقِيَ الْيَوْمَ صَدِيقٌ وَلَا °  
وَأَنَسُهُ فِيهَا وَفِي حِرْفَتِهِ °  
مَنْ تَرْتَجِي النُّصْرَةَ فِي صَحْبَتِهِ °  
مَنْ ابْتَلَى بِالنَّاسِ فِي مَحْنَتِهِ °  
فَقَرًّا فِي بَيْتِكَ تَسْلَمُ ° وَدَعًّا °

وقال :

مَطَاوَعَةُ النِّسَاءِ إِلَى النَّدَامَةِ °  
فَلَا تَطْعِ الْهَوَى فَيَهِنَ ° وَاعْدِلْ °  
وَتَوَقَّعْ فِي الْمَهَانَةِ وَالغَرَامَةِ °  
فَفِي الْعَدْلِ التَّرَضِّي وَالسَّلَامَةِ °

وقال :

كَانَتْ مَشَاوِرَةُ الْإِخْوَانِ فِي زَمَنِ °  
وَالآنَ قَدْ يَخْدَعُ الَّذِي تَشَاوَرَهُ °  
قَوْلُ الْمَشَاوِرِ فِيهِمْ غَيْرُ مَتَّهِمٍ °  
إِشْمَاتًا أَوْ حَسَدًا يُلْقِيكَ فِي النَّدَمِ °  
يَهْدِيكَ لِلرُّشْدِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْكَلِمِ °  
فَاضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِيمَا أَنْتَ تَقْصِدُهُ °

وقال :

عَدٌّ عَمَّنْ يِرَاكَ تَصْغُرُ عَنْهُ °  
إِنَّ مَنْ لَا يِرَاكَ فِي النَّاسِ خَيْرًا °  
وَتَحْفَظُ مِنْ قَرْبِهِ وَأَبْنَهُ °  
مَنْهُ فَالْخَيْرُ فِي التَّحْفِظِ مِنْهُ °

وقال :

رِزَانَةُ الْمَرْءِ تُعْلِي قَدْرَهُ أَبَدًا °  
فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ مِنْ طَيْشٍ تُعَابُ بِهِ °  
وَطَيْشُهُ مُسْقَطٌ لَهُ وَإِنْ شَرُفًا °  
وَإِنْ تَكُنْ حَزْتَ مَعَهُ الْعِلْمَ وَالشَّرْفَا °

وقال :

الْصِدْقُ عِزٌّ ° فَلَا تَعْدِلْ ° عَنِ الصِّدْقِ °  
وَاحْذَرْ مِنَ الْكُذْبِ الْمَذْمُومِ فِي الْخَلْقِ °

١ ق : منه .

من لازم الصدق هابته الورى وَعَلَا فالزمه دأباً تفزُ بالعزُّ والسبقِ

وقال :

ليسَ التفضل يا أخي أن تحسنا لأخٍ يجازي بالجميلِ من الثنا  
إنَّ التفضلَ أن تجازيَ من أسا لك بالجميلِ وأنت عنه في غنى

وقال :

من واصل اللذاتِ لا بُدَّ أن تعقبه منها النداماتُ  
فخذ من اللذاتِ واتركُ ولا تسرفُ ففي الإسرافِ آفاتُ

وقال :

دع معجباً بنفسه في غيه ولبسه  
لا يقبلُ النصحَ لها من نخوةٍ برأسه  
فخلَّه لكيدهِ وَعُجِبِهِ بنفسه

وقال :

عتبُ الصديقِ دلالةٌ منه على صدق المودَّةِ  
فإذا يقولُ فقصدته الـ تتزيهُ عما قام عنده  
فاحلمُ إذا عتب الصديقُ ولا تخيبُ فيك قصده

وقال :

تُرْتَجَى<sup>١</sup> في النوائبِ الإخوانُ هم لدى كل شدةٍ أعوانُ  
فإذا لم يشاركوا فسواة هم والاعداءِ كيفما قد كانوا

١ ص : يرتجى .

وقال :

انصر أخاك على علاته أبدأ  
ولا تدعه إلى الإشمت مطرّحاً  
تُهَبّ وتسلّك سبيل العز والظفر  
فإنّ ذلك عين الذلّ والصغر

وقال :

من عزّ كانت له الأيامُ خادمةً  
ومن بين أولفت فيه المدى وأرت  
تريه آماله في كلّ ما حين  
له النوائب في أثوابها الجون

وقال :

حلّ المنجم بيّهدي في غوايته  
لو كان للنجم حكم لم تجد أحداً  
واقصد إلى الله ربّ النجم والفلك  
يخالف النجم إلاّ أنهدّ في درك

وقال :

حماية المرء لمن يصحب  
لا خيرَ فيمن لا يرى ناصراً  
تدلّ أنّ أصله طيبُ  
صديقه وهو له يُنسبُ

وقال :

يا عاتباً من لا له همة  
هل يسمع الميت أو يبصر الـ  
ألا اتّشدّ إلى متى تعبُ  
أعمى ؟ محالٌ كلُّ ما تطلبُ

وقال :

لا يعرف الفضل لأهل الفضل  
هيهات يدري الفضل من ليس له  
إلا أولو الفضل من أهل العقل  
فضلٌ ، ولو كان من أهل النبل

وقال :

لا تطلب المرء بما اعتدت من أخلاقه والمرء في وهن  
تنقل الأخلاق لا شك مع تنقل الحالات والسن

وقال :

لا تعامل ما عشت غيرك إلا بالذي أنت ترتضيه لنفسك  
ذاك عين الصواب فالزمه فيما تبتغيه من كل أبناء جنسك

وقال :

باعد الناس يوالوكا واعتزل عنهم يهابوكا  
فإذا ما تصطفيتهم وقعوا فيك وعابوكا

وقال :

إياك لا تخذل الصديقا وارع له العهد والحقوقا  
نصرته ما قدرت عزز تمهده للعلا طريقا  
فلا تسامح به عدوا وكن له ناصرا حقيقا

وقال :

حدث جليسا ما أصغى إليك ، فإن تراه يُعرضُ فاقطعُ عنه وانصرف  
خففُ فقد يُضجِرُ الذي تجالسه طولُ المقام أو التحديثُ في سرف

وقال :

جماعُ الخيرِ في تركِ الظهورِ وإظهارِ التواضعِ والبرورِ  
وفي أصدادها من غيرِ شكٍ جميعِ وجوهِ أنواعِ الشرورِ

وقال :

حبة الدرهم طبعُ البشرُ  
وقسُ على نفسك في بذله  
فاقتنعَ من المرءِ بما قد حضرُ  
تقفُ على تحقيقِ عينِ الحبرِ

وقال ١ :

لا يَلْتَمُ غيرَ نفسه كلُّ من قد  
ينظرُ العاقلُ الأمورَ فيأبى  
عرَّضَ النفسَ أن تُهانَ فذلاً  
أن يُرى منه غير ما هو أولى

وقال :

أعدُّرُ الناسَ من أتته المضرَّةُ  
مثل من ٢ غصَّ بالشرابِ ف  
من أخٍ كان يرتجي منه نصرةً  
كان المهلكَ فيما رجاه يدفعُ ضرةً

وقال :

سَلِمَ تعشُّ سألماً مما يقالُ  
نقد الفتي غافلاً عن عيبه  
من يعترضُ يعترضُ في كلِّ حالٍ  
لا يرتضى عند ٣ أرباب الكمالِ

وقال :

تواضعُ المرءُ ترفيعُ لرتبته  
في نخوةِ الكبرِ ذلٌّ لا اعتزازَ له  
وكبره ضعةٌ من غير ترفيعِ  
وفي التواضعِ عزٌّ غير مدفوع ٤

وقال :

١ سقط البيتان من ق .

٢ ق ص : كصدر .

٣ ق : عنه .

٤ ق : مرفوع .

إياك لا تنكرُ فضيلةَ كلِّ من  
تدري فضيلته فترمي بالحسدُ  
إنكارها يجني عليك تنقُصاً  
ويزيده شرفاً يديمُ لك الكمدُ

وقال :

انصر أخاك ما استطعت فإنما  
تعتزُّ بالإخوانِ ما عزَّوا  
من يخذلِ الإخوانَ يخذلُ نفسه  
ويهنُّ وما لهوانه عزُّ

وقال :

إذا جزاك بسوءٍ منَّ أسأت له  
فذاك عدلٌ وما في العدل من زللِ  
جزاء سيئةٍ بالنصِّ سيئةٌ  
لا حيفَ في ذاك في قولٍ ولا عملِ

وقال :

نفسٌ وشيطانٌ ودينا والهوى  
يا ربِّ سلِّم من شرورِ الأربعةِ  
أنت المخلصُ من رجاك وإتني  
أرجوك فيما أتقي أن تدفعه

وقال :

لا تعظِّم يا أخي نف  
سك إن شئت السلامةُ  
من يعظِّم نفسه يجز  
نِ امتهاناً وملامه  
فتواضع تلقَ عزاً  
واحتفاء وكرامه

وقال :

دع لذةَ الدنيا فمن يُبتلى  
بجها ذاقَ عذابَ السمومِ  
لذاتها حلمٌ ، وأيامها  
لمحٌ ، ولكن كم لها من همومِ  
حبةُ الدنيا هلاكٌ ، فمن  
يرومها أهلكه ما يرومِ

وقال :

كلُّ خَلٍّ يَعدُّ ما أنت تُخطي  
إنما الخللُ من تناسي خطايا  
لا تعول على صفاء وداده  
ك ويبقى له جميلُ اعتقاده

وقال :

من عامل الناسَ بالإنصافِ شاركهم  
إنصافك الناسَ عدلٌ لا تزال به  
في ما لهم وأحبّوه بلا سببٍ  
تعلو إلى أن تُرى في أرفع الرتبِ

وقال :

قلُّ جميلًا إن تكلمتَ ولا  
من يقلُّ خيرًا ينلُ خيرًا ، ومن  
تقل الشرَّ فعقبى الشر شرَّ  
يقُل الشرَّ إذا يخشى الضررُ

وقال :

إذا التأمتَ أمورك بعضَ شيءٍ  
فما في غربتهِ الإنسانِ خيرٌ  
بأرضك فاستقمُ فيها ولازمُ  
وما بالغبيةِ الدنيا تلايمُ

وقال :

إلى متى تسرح مُرّخي العنانِ  
ارجعْ إلى الله وخسلْ الهوى  
قل يا أخي حتى متى ذا الحرانِ  
فما الهوى يا صاحِ إلا هوانِ  
قد أنذر الشيبُ فهل ساعِ  
أنت قمصغٍ للذي قد أبانِ ؟

وقال :

من يكفرِ النعمةَ لا بدّ أن  
ومن يكنُ يشكرها معلناً  
يُسلبها من حيثُ لا يشعرُ  
دامتْ له نائمةٌ تكثُرُ

وقال :

اعذرْ أخوا الفقير في أن يضيق ذرعاً بنفسه  
الفقير موتٌ ، ولكن من للفقير برمهسه ؟  
إنَّ الفقيرَ لميتٌ ما بين أبناء جنسه

وقال :

كما تدينُ أنت يا صاحبي تدان فاعمل عملَ الفاضلِ  
أنت كما أنت فخلَّ الذي تُزيِّنُ النفسُ من الباطلِ  
وأين أنت ثمَّ أنت أدري ذا حسبك فاحذرْ زللَ العاقلِ

وقال :

مالك ما أنفقتَهُ قربةً لله ، والباقي حساب عليك  
فقدِّمِ المالَ تَرِدُ آمناً من بعده وهو ثوابٌ لديك

وقال :

دع مدحَ نفسك إن أردت زكاءها فبمدحِ نفسك من مقامك تسقطُ  
ما أنت تخفضُها يزيد علاؤها والعكس ، فانظر أيما لك أحوطُ

وقال :

ذو النقصِ يصحبُ مثله فالشكل يألف شكله  
فاصحبْ أخوا الفضلِ كيما تقفو بفعلك فعله  
أما ترى المسك دأباً يكسبُ طيباً محله

وقال :

من عيني المرء يبدو ما يكتمه حتى يكون الذي يرعاه يفهمه



ما يضمُرُ المرءُ يبدو من شمائلِهِ  
لناظرٍ فِيهِ يهْدِيهِ تَوْسَمُهُ  
وقال :

إِنَّمَا الدُّنْيَا خِيَالٌ وَأَمَانِيهَا خِبَالٌ  
جَبْهَا سَكْرٌ ، وَلَكِنْ فَتَنَةٌ عَنْ هَوَاهَا  
وَصَلَهَا مَا إِنْ يُنَالُ فَهَوَى الدُّنْيَا ضَلَالٌ

وقال :

قَلَّمَا يُؤْذِيكَ مِنْ لَا يَعْرِفُكَ  
لَا تَتَّقِ بِالْوَدِّ مَنْ تَصْطَفِي  
فَتَحْفَظُ مِنْ صَدِيقٍ يَأْلَفُكَ  
كَمْ صَدِيقٍ تَصْطَفِيهِ يَتْلَفُكَ

وقال :

لَا تَضْجَرَنَّ فِي الْأُمُورِ وَأَرْضَ بَمَا  
مَا قَدَّرَ اللَّهُ لَا مَرَدَّ لَهُ  
يَقْضِي بِهِ اللَّهُ فَهَوَ مَكْتَبٌ  
فَمَا يَفِيدُ الْعَنَاءَ وَالْتِعَابُ

وقال :

تَنْزَةٌ عَنْ دُنْيَاتِ الْأُمُورِ  
فَأَشْرَافُ الْأُمُورِ لَهَا جَمَالٌ  
وَحَذٌ بِالْحَزْمِ فِي الْأَمْرِ الْخَطِيرِ  
وَوَخْطَرٌ فِي الْبِهَاءِ وَفِي الظُّهُورِ  
وَفِي سَفْسَافِهَا لَا شَكَّ وَهَنْ  
وَتَمْهِينٌ يَشِينُ مَدَى الدُّهُورِ

وقال :

مَنْ يُبْتَلَى مِنْ أَهْلِهِ بِمَنْغَصٍ  
مَنْ أَزْمَتْ بِالْوَجْهِ مِنْهُ قَرْحَةٌ  
يَصْبِرُ ، فَمَا أَحَدٌ بغيرِ مَنْغَصٍ  
يَعْزَمُ عَلَى ضَرَرٍ يَشِينُ مَخْصَصٍ

وقال :

مَنْ كَانَ فِي عِزَّتِهِ دَارِهِ  
وَكُرِّرِ الْمَشْيَ إِلَى دَارِهِ

قَبْلُ يَدَأُ تَعَجُزُ عَنْ قَطْعِهَا وَلَيْنُ لِمَنْ تَخْشَى مِنْ أَضْرَارِهِ

وقال :

لَا تَتَّبِعِ النِّعْمَةَ مِنْ جَائِعٍ لَمْ يَرَهَا قَبْلُ لِأَبَائِهِ  
لَا يَرِشْحُ الْإِنَاءُ مَا لَمْ يَكُنْ مَلَانٌ قَدْ أَفْعَمَ مِنْ مَائِهِ

وقال :

مَرُوءَةُ الْمَرْءِ رَأْسُ مَالِهِ وَصُونُهُ أَشْرَفُ اعْتِمَالِهِ  
مَنْ لَمْ يَصْنُ نَفْسَهُ تَرَدَّى وَزَالَ عَنِ رَتْبِهِ اكْتِمَالِهِ

وقال :

تَرَكَ الْمَطَامِعُ عِزَّهُ وَالْيَأْسُ أَهْنَا وَأَنْزَرَهُ  
هَيْهَاتَ يَعْتَرُّ مُثْرَى أَصْحَى لِلْأَطْمَاعِ نَهْرَهُ  
نِزَاهَةُ النَّفْسِ عِزٌّ مَا ذَلَّ مِنْ يَتَسْرَهُ

وقال :

تَعْظِيمُكَ النَّاسَ تَعْظِيمٌ لِنَفْسِكَ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ طُرًّا وَالْأَوْلَادِ  
مَنْ يُعْظِمُ النَّاسَ يَعْظُمُ فِي النَّفُوسِ بِلَا مَسْؤُونَةٍ وَيَنْتَلِ عِزَّ الْأَعْرَاءِ

وقال :

اقْتَنِعْ مِنَ النَّاسِ بِمَقْدَارِ مَا يَعْطُونَ لَا تَتَّبِعْ مِنْهُمْ مَزِيدَ  
حَسْبِكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ قَدْرُ مَا يَعْطِيكَ فَالْأَطْمَاعُ مَا إِنْ تَفِيدُ

وقال :

لَيْنٌ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ صَعَابًا وَتَوَاضَعُ لَهَا تَجِدُهَا قَرَابًا

دارٍ من شئتَ تنتفعُ منه واتركُ  
لا تكنُ تأخذُ الأمورَ بعُنفٍ  
صولةَ الكبرِ فهَيَّ نَجِي عذابا  
من يعاني الأمورَ بالعنفِ خابا  
وقال :

سامحِ الناسَ إن أسأؤوا إليكا  
ما ترى كيف أنتَ تعصي ومولا  
وتغافلُ إذا تجنَّوا عليكا  
ك يزيدُ الإنعامَ دأباً لديكا  
وقال :

اغتم ساعة الأُنسِ  
ليس للمرءِ من الذن  
وانسَ ما كان بالامسِ  
من يكن حلفَ همومِ  
يا سوى راحة نفسِ  
باعَ دنياه بيخسِ

وقال :

حُبُّكَ الشيءُ يُغَطِّي قبحه  
لا يرى المحبوب إلا حسناً  
فتراه حسناً في كلِّ حالٍ  
كان قبحٌ فيه مع ذا أو جمالٍ  
لا يرى المحبوب إلا في كمالٍ  
حتمَّ الحب على ذي الحب أن

وقال :

يحسبُ الناقصُ أنَّ الناسَ قد  
لا يرى الناقصُ إلا أنه  
غفلوا عن حاله في ضَعْفِهِ  
كاملٌ من نعته في صفته  
أن يرى النقصَ الذي في جهته<sup>٢</sup>  
غَلَطُ المرءِ يغطِّي عقله

وقال :

١ ق : ختم .  
٢ ق : وجهته .

أيامُ عمركَ هذي  
فاحرصْ على الخيرِ فيها  
فإنما أنتَ طيفٌ  
ساعاتها رأس مالِكْ  
قبلَ أوانِ ارتحالِكْ  
تجتابُ سُبُلَ المهالكِ

وقال :

تجدُّ الناسَ على النقصِ ولا  
زمنُ الباطلِ وافى أهلهُ  
وكذاك الناسُ أشباهُ الزمنِ  
تجدُّ الكاملَ إلا مَنْ ومنْ

وقال :

قلْ جميلاً إذا أردتَ الكلاما  
إنَّ قولَ القبيحِ يورثُ بغضاً  
وصغراً عندَ الورى وملاما  
تجنِّ عزاً مهناً مستداما

وقال :

حَسَنَ الظنِّ تعشُ في غبطةٍ  
من يظنُّ سوءَ يُجزى مثله  
قلتما يُجزى قبيحٌ بحسنِ  
إنَّ حُسْنَ الظنِّ من أوقى الجُننِ<sup>١</sup>

وقال :

إن تبغِ إخوانَ الصفاءِ فهمْ  
إخوانك اليومَ كأزمانهمْ  
تحت الترابِ انتقلوا للقبورِ  
مشتبهون في جميعِ الأمورِ

وقال :

ومستقيحٍ من أخٍ خلَّةٌ  
كأعمى يخافُ على أعورٍ  
وفيه معايبُ تُستردلُ  
عثاراً وعن نفسه يغفلُ

١ في المطبوعة : أقوى الفطن .

وقال :

من يبتغِ الودَّ من الناسِ  
أغضِ عن الناسِ تنلَّ ودَّهمْ  
يكنُ لما قالوه بالناسِ  
إنك لا تَغنى عن الناسِ

وقال :

أعيت مع الناسِ الحيلُ  
في أيِّ وجهٍ أمَلوا  
وبار فيهمُ العملُ  
يخبُّ منهمُ الأملُ  
فأثيرِ العزلةِ عن  
هم تنجُ من كلِّ خللُ

وقال :

لا ترجُ غيرَ الله في شيءٍ تنلُ  
الله أعظمُ من رجوتُ فثقُ به  
ما تبتغيه وتكفِ كلَّ تخوُّفِ  
فهو الذي أعطى وأنجى من كُفِي

وقال :

توسلُ إلى الله في كلِّ ما  
تنلُ ما تحبُّ كما تبتغي  
تحبُّ بمحبوبه المصطفى  
وحسبك جاهاً به وكفى

انتهى ما لخصت واخترت من الكتاب المذكور .

وهذه نبذة من كتابه<sup>١</sup> « الأبيات المهذبة في المعاني المقربة » فمن ذلك قوله :

اكنم السرَّ واجعلِ الصدرَ قَبْرَهُ  
أنت ما لم تبسحْ بسركِ حرِّ  
لا تبسحْ ما حيت منه بذرَّة  
فإذا بحت صرتَ عبداً بمرَّة  
من يرد أن يعيشَ عيشاً هنيئاً  
يتحفظُ ممّا عسى أن يضرَّه

١ ق : كتاب .

وقال :

عداوةُ العاقلِ معُ عسرها  
يمكنُ الأحقُّ من نفسه  
لا يحفظُ الأحقُّ خلاً ولا  
يرضاهُ للصحةِ إلاَّ شقي  
آمنُ من صداقةِ الأحقِّ  
عمداً ومن أحبابه يتقي

وقال :

إذا أمنتَ في الدنيا اعتباراً  
بعادُ عن تدانٍ ، وافتقارُ  
حياةٍ كلَّها أضغاثِ حلمٍ  
وعيشٌ ظلُّه مثلُ السرابِ  
رأيتَ سرورها رهنَ انتخابِ  
عن استغنا ، وشيبُ عن شبابِ

وقال :

من تره يسرفُ في ماله  
فذلك المغبونُ في رأيه  
يتلفُه في لذةٍ وانهماكُ  
يسلكُ بالنفسِ سبيلَ الهلاكِ

وقال :

من لا يرى نفسه في الناس قاصرةً  
ومن يكنُ راضياً عن نفسه أبدأ  
آدابُ الإنسانِ تحقيقاً تواضعه  
عن الكمالاتِ لم يكمل له أدبُ  
فذاك غيرُ عن الآدابِ محتجبُ  
وجريه دائماً على الذي يجبُ

وقال :

يحقُّ الحقُّ حتماً دون شكّ  
صريحُ الحقِّ قد يخفى ولكن  
وإن كره المشكِّكُ والمُلدِّ  
بُعَيْدَ خفائه لا شكَّ يبدو

وقال :

كُلُّ ما قد فات لا ردَّ له  
فلتكنْ عن ذاك مصروفَ الطمعِ

أيعودُ الحسنُ من بعد الصِّبَا قَلَمًا أدبرَ شيءٌ فرجعُ

وقال :

اغتم غفلةَ الزمانِ وبادرُ لذةَ العيشِ ما بقيتَ سليماً  
أمرُ هذي الحياةِ أيسرُ من أن تغتدي فيه لائماً أو مكلوماً

وقال :

لا تغررتك صولةُ الجاهِ يوماً أو تظننَّ أنها تتمادى  
صولةُ الجاهِ لفتحِ نارٍ ولكن كلُّ نارٍ لا بد تُلْفَى رماداً

وقال :

تَنَحَّ عن الناسِ مهما استطعتَ ولا تكُ في الناسِ بالراغبِ  
من اعتمدَ الناسَ يشقى ولا يرى غيرَ متقدي عائبِ

وقال :

لا تقل يوماً أنا فتقاسي محننا  
من يعظمُ نفسه يلقَ هوناً وعنا  
شرُّ ما يأتي الفقي مدحُه لو فطنا

وقال :

الناسُ إخوانُ ذي الدنيا وإن قبحتُ أفعالُه ، وغدا لا يعرفُ الدينا  
يعظّمونَ أبا الدنيا وإن عثرتُ يوماً به أولعوا فيه السكاكينا

وقال :

العدلُ روحٌ به تحيا البلادُ كما هلاكها أبداً بالبحورِ ينحتمُ

الجورُ شَيْنٌ بهِ التعميرُ منقطعٌ  
والعدلُ زينٌ بهِ التمهيدُ ينتظمُ  
يا قاتلَ اللهِ أهلَ الجورِ كم خربتُ  
بهم بلادٌ وكم بادتُ بهم أُممُ

وقال :

اليأسُ أسلى وأغنى  
من نيلٍ ما يُتَمنى  
يسلو أخو اليأسِ حتى  
يهنَّا ولا يتعنى  
لليأسِ بردٌ فمن لم  
يدقهُ لم يتهنَّا

وقال :

إذا عظمتَ نفسُ امرئٍ صارَ قدرُهُ  
حقيراً ، وحيثُ احتلَّ فالذلُّ صاحبهُ  
يسودُ ويعلو ذُو التواضعِ دائماً  
ويحظى كما يرضى وتُقضى مآربهُ

وقال :

وُدُّ من يصطفيك للنفعِ زورُ  
والجميلُ الذي يريك غرورُ  
إنما الودُّ وُدٌّ من ليس يخشى  
فيك ممن يلومُ أو من يَصيرُ

وقال :

اشكرُ لمن والاك معروفاً  
تكنُ بفضلِ النفسِ معروفاً  
شكرُ أخي المنَّةِ عدلٌ فكُنْ  
بالعدلِ مهما اسطعتَ موصوفاً  
من يكفرِ الإحسانَ لا بدَّ أن  
يُلقيَ عن الإحسانِ مصروفاً

وقال :

حَسَبُ الإنسانِ مالهُ  
وهو في الدنيا كمالهُ  
يُضجرُ الفقرُ أنا الحلأُ  
سم وإن طالَ احتمالُه  
عزةُ المرءِ غناهُ  
وبه تحسنُ حالُه



وقال :

لا تصاحبُ أبداً مَنْ  
عقله غيرُ متينٍ  
إنَّ نقصَ العقلِ داءٌ  
يُنْتَقَى مثلَ الجُحونِ  
صحبةُ الأحمقِ عارٌ  
لاحقٌ في كلِّ حينٍ

وقال ١ :

وافيقُ الناسِ إن أردتَ السلامهٗ  
من يوافقُ يعشُ هنيئاً قريراً  
فتوقُّ الخلفَ واحذرْ أذاهُ  
إنَّ روحَ الوفاقِ روحُ كرامتهٗ  
أمناً من أذيةٍ وملامهٗ  
فركوبُ الخلفِ عمدٌ ندامهٗ

وقال :

ظلماتُ الخطوبِ مهما ادطمَّتْ  
أريحَ النفسَ لا تبتِ حليفَهمِ  
يَجْلُها كالصباحِ فَجْرٌ انفراجِ  
كم همومٍ فيها السرورُ يفاجي

وقال :

من لم يكنْ يقصدُ أنْ يُحمدا  
من يبتغي المدحةَ لا بدَّ أنْ  
عيشُ الفتي في تركِ تقيده  
يعشُ هنيئاً وينلُ أسعداً  
يلحقه الذلُّ وأن يجهداً  
وموته البحتُ إذا قُيدا

وقال :

قلْ لأهلِ الحاجاتِ مهما ابتغَوْها  
إن تريدوا الحاجاتِ من غيرِ بطءِ  
حسبكم ما أتى من التنيهِ  
فاطلبوها عند الحسانِ الوجوهِ

١ سقطت هذه القطعة من ق .

وقال :

خذِ الأمورَ برفقٍ واتَّئدْ أبدأ  
الرفقُ أحسنُ ما تؤتى الأمورَ به  
من يصحبُ الرفقَ يستكملُ مطالبه  
إياكَ من عَجَلٍ يدعو إلى وَصَبِ  
يصيبُ ذو الرفقِ أو ينجو من العطبِ  
كما يشاءُ بلا أينٍ ولا تعبِ

وقال :

من يتبغي السؤددَ لا بدَّ أن  
يصعبُ إدراكُ المعالي فمن  
لا يحصلُ السؤددُ هيناً ولا  
يرهقهُ الجهدُ فلا يضجرِ  
يرمُ لحاقَ بعضها بصبرِ  
يظفرُ بالبغيةِ إلاَّ جري

وقال :

عاش في الناس من درى قدر نفسه  
علمُ الانسانِ قدره نُبلُ عقلِ  
ثمَّ دارى جميعَ أبناءِ جنسه  
وذكاءُ بينٍ عن فضلِ حدسه

وقال :

عظَّم الناسَ تنلُ تعظيمهم  
من يبرَّ الناسَ بتحقيرِ يكنُ  
لا يفرنكُ إهمالُ امرئ  
واجتنبُ تحقيرهم فهو الردى  
عندهم مؤذى حقيراً أبدا  
ربما يؤذي الذبابُ الأسداء

وقال :

حبُّ الرياسةِ يا لهُ من داء  
طلبُ الرياسةِ فتَّ أعضادَ الورى  
إن الرياسةَ دونَ مرتبةِ التقي  
كم فيه من مِحَنٍ وطولِ عناء  
وأذاقَ طعمِ الذلِّ للكبراء  
فإذا اتَّقيتَ علوتَ كلَّ علاء

وقال :

لا تركننَّ إلى بشرٍ إن شئتَ تأمنُ كلَّ شرٍّ  
ذهبَ الذين إذا ركذتَ لهم أمنتَ من الضررِ  
لم يبقَ إلا شامتٌ أو من يضرُّ إذا قدَرَ

وقال :

خلَّ رأيَ الجهالِ ما استطعتَ واتبعُ  
لا تحذُ عن مشورةٍ في مهمِّ  
رأيِ أهلِ الصلاحِ نورٌ يجلي  
رأيَ أهلِ الحلومِ والتجريبِ  
فهي مما تنمي حياةَ القلوبِ  
ظلمةَ الكربِ في ليالي الخطوبِ

وقال :

لا يرتضي بالدونِ إلا امرؤُ  
الموتُ خيرٌ من حياةِ الفتي  
روحُ حياةِ المرءِ في عزه  
مقصرٌ ذو همةٍ خاملةٍ  
مهتضماً ذا رتبةٍ سافلهٍ  
من ذلِّ مات الميتةَ العاجلهِ

وقال :

استغنِ عمَّن تشاءُ  
فإن ظفرتَ بحرِّ  
فإن ظفرتَ بحرِّ  
فإن ظفرتَ بحرِّ  
فإن ظفرتَ بحرِّ  
فإن ظفرتَ بحرِّ

وقال :

خذُ من صديقك قدر ما يعطيك  
من يبيعُ مقدارَ الذي يحتاجه  
شأن الألى رزقوا الحجى أن يقنعوا  
لا تبغِ أزيدَ واحذر أن يجفوكا  
من أخيه يبتغى خيباً متروكا  
فابغِ القناعةَ إنها تغنيك

وقال :

هُنْ إِذَا عَزَّ أَخُوكَا      وَاخْشَى أَنْ يَقْرَضَ فَيْكَا  
إِنَّ مِنْ عَانِدٍ أَقْوَى      مِنْهُ قَدْ ضَلَّ سَلُوكَا  
نَقْصُ عَقْلِ أَنْ تَعَادِي      بَشَرًا لَا يَتَّقِيكََا

وقال :

تَزْرَهُ مَا حَيَّيْتَ عَنِ الْقَبِيحِ      وَخَالَفَ مَنْ بَرَى رَدَّ النَّصِيحِ  
وَخَذَ بِالْحَزْمِ مَهْمَا اسْطَعْتَ وَاحْذَرِ      مَنْ أَنْ يُلْقِيكَ حَزْمُكَ فِي فَضُوحِ  
فَلَا تَعْدِلْ عَنِ الْحَقِّ التَّفَاتَا      لِغَيْرِ الْحَقِّ مِنْ بَعْدِ الْوَضُوحِ

وقال :

لَا تَخَفْ فِي الْحَقِّ لَوْ مَا      صِدْقُهُ يُنْجِيكَ حَتْمَا  
يُنْجِي الْحَقُّ وَيَبِيدُو      نَوْرَهُ لَا يَتَعَمَّى  
شَأْنُ ذِي الْحَقِّ اهْتِدَاء      وَأَخُو الْبَاطِلِ أَعْمَى

وقال :

عَامِلٌ بِجِدِّ جَمِيعِ النَّاسِ تَحْظَ بِهِ      وَجَنْبُ الْهَزْلِ إِنْ الْهَزْلَ يُرْدِيكََا  
الْجِدُّ أَحْسَنُ مَا تَبْدِيهِ مِنْ خُلُقٍ      وَالْجِدُّ أَشْرَفُ مَا فِي النَّاسِ يُعْلِيكََا  
مِنْ لَازِمِ الْجِدِّ هَابَتُهُ النَّفُوسُ وَمَنْ      يَهْزِلُ يَكُنْ أَبَدًا فِي النَّاسِ مَهْتُوكَا

وقال :

كَفَاكَ اللَّهُ شَرًّا مِنْ اصْطَفَيْتَا      وَضُرُّ مَنْ اعْتَمَدْتَ وَمَنْ عَرَفْتَا  
جَمِيعُ النَّاسِ مَوْتِي عَنْكَ إِلَّا      مَعَارِفَكَ الَّذِينَ لَهُمْ رَكْتَا  
تَحَقَّقْ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ صَدِيقٍ      وَكُنْ فِي الْغَيْرِ دَهْرَكَ كَيْفَ شِئْنَا

وقال :

من كان يرغبُ عن أحبابه ويرى  
يُدُنِّي العدوُّ فلا تدنو مودته  
فاحفظْ صديقك واحذرْ أن تعاديهُ  
تقريبَ أعدائه لا شكَّ يهتَضَمُ  
هيهات كلُّ مُعادٍ قربهُ ندمُ  
إنَّ الصديقَ إذا عاديته يصِمُّ

وقال :

جاملٌ عدوك كي يلبسَ حقه  
واحفظْ صديقك ما استطعت فإنه  
أدرى بطُرقِ الضرِّ من أعدائك  
فيكفَّ بعضَ البعضِ من إيدائك

وقال :

إذا ظفرتَ بمن أنحنى عليك فخذْ  
إنَّ المسيءَ إذا جازيتهُ أبداً  
يعينه أو يريه أنه سَقَطَا  
بالحلمِ فيه ودَعْ ما منه قد فرطا  
بفعله زده في غيِّه شططا  
العفو أحسنُ ما يُجزَى المسيءُ به

وقال :

قاتلٌ عدوك بالفضائلِ إنَّها  
كسبُ الفضائلِ عِدَّةٌ تُعليك في  
فأحرصْ على نيلِ الفضائلِ جاهداً  
أعدى عليه من السهامِ التُقَدِّ  
رُتِبَ بها سبيلَ السعادةِ تحتذي  
إنَّ الفضيلةَ صعبةٌ في المأخذِ

وقال :

وَعَدُّ الكَرِيمِ وِفَاءٌ  
مَّا حَالَ قَطُّ كَرِيمٌ  
فَأَنْجِزِ الوَعْدَ مَهْمَا  
تَجْنِيهِ كَيْفَ تَشَاءُ  
وَلَا تُنَاهِ التَّوَاءُ  
وَعَدَتَ فَهُوَ الزَّكَاةُ

وقال :

ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ  
رأسُ الغنى تركُ المطامعِ عن  
إنَّ الغنى في النفس إن تُرَضِ  
فازهدْ تعشْ أغنى البريةِ في  
زهدٍ بلا ميلٍ ولا غَرَضِ  
عزٍّ بلا همٍّ ولا مَضَضِ

وقال :

زمنُ الفضائلِ قد مضى لسبيله  
ركدتُ رباحُ الجددِ بعد هبوبها  
ولوى بطيبِ العيشِ وَشكُّ رحيله  
هيئات ما زمنُ الكرامِ وما همُّ  
وعلا فريقُ الهزلِ بعد خموله  
ذهبوا وجدَّ الدهرُ في تحويله

وقال :

مروءةُ المرءِ ثوبُهُ  
ثوبه المرءِ يعلو  
والعُري في الناس عيبُهُ  
من لم يصنْ ثوبه لم  
قدرأ ويحفظُ قربه  
يُصنْ وإن لاحَ شبيهُهُ

وقال :

لا تصخُ ما بقيتَ حيّاً لقولِ  
واطرحُ ما أتاك منه وجنبُ  
ليس يجني عليك إلا المضرَّةُ  
من يرى بالفضولِ واتقِ ضرَّةُ

وقال :

ثقيلُ تراهُ النفسُ في العينِ كالقذى  
تثيرُ غمومَ المرءِ رؤيةُ وجهه  
وكالجبلِ الراسي على الصدرِ والقلبِ  
وتشكوجفاه الأرضِ شكوى ذوي الكربِ

وقال :

أما ترى الأشجارَ مصفرةً  
أوراقها كالشمسِ عند المغيبِ

ما هي إلا صفرة أذنتُ بأنتها ترحلُ عما قريبُ

وقال :

كُلُّ ما نَحَبُ وتَشْتَهِي ودَعِ الطيبِ وما يَرى  
حَفِظُ الغِذاءِ مَشَقَّةٌ لَيْسَتْ تَرُدُّ مَقْدَرًا  
كَمْ عُدَّ من مَتَحَفِظٍ كَمْ صَحَّ مَعن قَصْرًا  
كُلُّ التَّحْفِظِ زائِدٌ لا بَدَّ مِمَّا قُدِّرًا

وقال :

من كان يَأْكُلُ ما اشْتَهَى ويرى مَخالِفَةَ الطيبِ  
سَيَرَى مَضْرَةَ ما أَتَى بَطْرًا ويندم عن قَريبِ  
إِنَّ التَّحْفِظَ في الأمو رِ لَشِيمَةُ الفِطَنِ اللَّيْبِ  
من لَمْ يَكُنْ مَتَحَفِظًا يَخْطِي ويَبْعُدُ أن يُصِيبَ

وقال :

وللِحَمَامِ حاءات إذا ما ظفرتَ بها عثرتَ على النعيمِ  
فحِئَاءِ وَحِكاكَ مُجيدٌ وقل حَجَرٌ يَمُرُّ على الأديمِ  
وحوضٌ مَفْعَمٌ ماءً لذيذاً وحجَامٌ على النهجِ القويمِ  
وللحلقِ الحديدِ حينَ تَمَى وأطيبها حديثُ أخِ كَرِيمِ

وقال في الغزل ، وهي آخر كتابه المذكور :

الله أكبرُ جَلَّتْ فِتنَةُ البَشْرِ بنورِ غُرَّتِكَ المُغْنِي عن البصرِ  
شمسٌ تَطَلَّعُ في أفقِ الجِمالِ لها نورٌ تَأَلَّقَ في داجٍ من الشَّعَرِ  
ووردةٌ الخلدِ في أبرادِ سَوَسْنِها شقائقُ زانها التَّغْلِيفُ بالدرِ

ومسكة الحال فوق الحدّ شاهدة بأنّ إبداعها إحكامٌ مقتدر

وهذه نبذة من كتابه «أنداء الدّيم في المواعظ والوصايا والحكم» وكل ما فيه كالذي قبله من نظمه رحمه الله تعالى ، فمن ذلك قوله رحمه الله :

العلمُ نورٌ وهدىً فكنْ بجِدِّ طالبه  
واحرصْ عليه واعتمدْ فيه الأمورَ الواجبه  
مَنْ لازمَ العلمَ علا على الأنامِ قاطبه

وقال :

خالِفِ النفسَ عندَ قصدِ هواها تَبَقَّ ما عِشْتَ سالماً من أذاها  
فاتَّبِعْ الهوى هَوَانٌ وَلَكِنْ هانَ للنفسِ كي تنالَ مُناها

وقال :

من يخالف في شيءٍ الناسَ يَرْجِعْ هَدَقاً للسهامِ من كلِّ راشِقْ  
كنْ معَ الناسِ كيف كانوا، ووافقْ إنَّ من لا يوافقُ الناسَ ماتقْ

وقال :

أرحِ النفسَ تنفَعْ بِحياتِكَ واغنمِ العيشَ قبلَ يومِ وفاتِكَ  
واطرحِ عيبَ مَنْ سواك ، وسالمْ جملةَ الناسِ يغفلوا عن أذاتِكَ  
واعتبرْ بالذين بادوا ، وبادرْ ما يدانيك من سبيلِ نجاتِكَ

وقال :

سالمِ الناسَ ما استطعتْ ، وجاملْ مَنْ يعاديك إن أردتَ السلامةَ  
وتزّهْ عن القبيحِ وجنّبْ من يرى بالفضولِ واحذرْ كلامه



وقال :

صديقي أنتَ ما أبقى بخيرٍ وموتي غيرُ محتاجٍ إليكِ  
فإن أحتجُ إليكَ فأنتَ مني بريءٌ لا صداقةَ لي عليكِ

وقال :

من أنتَ عنه غنيٌّ كن فيه مثلَ اعتقاده°  
فإن يكنُ منه ودٌّ فجازهِ بوداده°  
وإن يكنُ منه بُعدٌ فخله لبعاده°

وقال :

عليكَ بنفسك لا تشتغلْ بشيءٍ سواها واخلُ الضُّمُولُ°  
تعشْ رائحَ القلبِ في غبطةٍ فلا من يضرُّ ولا من يقولُ°

وقال :

اتركِ الفكرَ في الأمورِ ودعها فكما قُدِّرَتْ تكونُ الأمورُ  
كلُّ فِكْرٍ وكلُّ رأيٍ وحزمٍ غيرُ مُجْدٍ إذا جرى المقدورُ

وقال :

هونٌ عليكِ خطوبَ الدهرِ إن لها واصلبرٌ فإنَّ لحسنِ الصبرِ عاقبةً°  
نهايةً والتناهي عنده الفرجُ بصبِحها ظلمةُ المكروبِ تنبجُ°

وقال :

احذرِ البخلَ إنهُ شرُّ خلقٍ يتحلَّى به وشرُّ طريقه°  
من يجدُ غيرَ مُسْرِفٍ فهو في الناسِ موفَّى تُثني عليه الخليفة°

وقال :

الذلُّ في طلبِ الإفادةِ عزَّةٌ  
إنَّ التعزَّزَ في الذي تحتاجه  
فاحرصْ على نيلِ الإفادةِ ترشُّدِ  
كبرٌ ، وكبرُ المرءِ أفبحُ مقصدِ

وقال :

دعْ من عرفتَ ولا تشددْ عليه يدأ  
أما ترى البلدَ الذي نشأتَ به  
ودارهٍ وتحفظُ منه ما بقيا  
محقرًا كلما أصبحتَ معتليا  
وغيره من بلادِ الله قاطبة  
يلعيك ، لا سيما إن كنتَ متقيا

وقال :

يَنبغي للذي تحلَّى بعقلٍ  
بينَ أيدي الملوكِ أو في فلاةٍ  
أن يَرى كالبازيِّ مدةَ عُمُرِهِ  
خيفةً من شرورِ أبناءِ دهرِهِ

وقال :

العزلُ يَضْحِكُ ذُلَّهُ  
فإذا وليتَ فسرُ على  
من تبه سلطانِ الولايةِ  
واحذرْ كيودَ ذوي السعايةِ  
وهجِ الدماثةِ والرعايةِ  
واقصدْ مداراةَ الورى

وقال :

لا تقبلِ الحكمَ على بلدةٍ  
رياسةُ المرءِ على الأهلِ والـ  
نشأتَ فيها ؛ إنه يُحَقِّدُ  
جيرانِ والخلانِ لا تُحَمِّدُ

وقال :

هي الدنيا إذا فكَّرتَ فيها  
رأيتَ نعيمها سُمًّا نقيعا

فإنَّ لسمِّها قتلاً ذريعاً      فلا تحفلُ بها واحذرْ أذاها  
وبادرْ في حياتك أن تطيعا      ولا تأسفْ على ما فات منها

وقال :

سالمًا من شرور كل البرية      كنْ وحيداً ما عشتَ تحيا بخيرِ  
دهره لا تعرّوهُ منهم أذية      إنَّ من لا يخالطُ الناسَ يبقى

وقال :

لصديقٍ ولا لغيرِ صديقٍ      لا تبسُخْ ما حيتَ يوماً بسرِّ  
يدّربه العدا ومن في الطريقِ      إنَّ سرّاً يجاوزُ الصدرَ فاشِ

وقال :

تَنمِ ذكراً وتعتلي مقدارا      لا تصاحبْ ما عشتَ إلا الكبارا  
يكتسي منه مهنةً واحتقارا      إنَّ منْ ماشى في طريقِ حقيراً  
فهو يعديك ذلّةً وصغارا      فتحفّظْ من أن تواخي دنيّاً

وقال :

فتحفّظْ من محدثاتِ الأمورِ      محدثاتُ الأمورِ أردى الشرورِ  
واجتهدْ أن تُرَبّي مع الجمهورِ      إنّما المحدثاتُ غيٌّ فدعها  
ويرى نفسه بغيرِ نظيرِ      كلُّ من يتبعِ الحوادثَ يشقى

وقال :

من تفضلتَ عليه      أنتَ لا شكَّ أميرُهُ  
ومن احتجتَ إليه      أنتَ بالرغمِ أسيرُهُ  
ومن استغنيتَ عنه      أنتَ في الدنيا نظيرُهُ

وقال :

لم يبقَ من يُطْمَعُ في وُدِّهِ  
الناسُ أشباهُ ذئابٍ فهل  
من يتبغي اليومَ صديقاً كما  
كلاً ولا من تُرْتَضَى صحبتهُ  
يُعلَمُ ذنبُ حسنتُ عشرتهُ  
يرضى فقد زلَّتْ به بغيتهُ

وقال :

فاعلُ الخيرِ موقى كلِّ ما  
ليس يخشى فاعلُ الخيرِ أذى  
يتقي من ضرِّه أو من فتنةِ  
إنَّ فعلَ الخيرِ أوقى جنةِ

وقال :

تحفظُ من صديقك في أمورٍ  
من اعتمد الصديقَ ولم يبالِ  
فربتَما يضرُّ بك الصديقُ  
يُصبهُ الضرُّ وهو به خليقُ

وقال :

لا تركزنَّ لمخلوقٍ وكنْ أبداً  
ولا تملْ لسواه ما حيتَ فمن  
ممن توكلَ في الدنيا على اللهِ  
يرجو سوى اللهِ هاوٍ حبلُهُ واهي

وقال :

طلبُ الغايةِ اتباعُ غوايهُ  
من يكنْ راضياً بما يتسنى  
فاعتمد في الأمورِ تركَ النهايةِ  
عاشَ عيشَ الملوكِ دونَ أذابهِ

وقال :

لا تعتمدْ أبداً على مخلوقٍ أن  
تبغِ النجاحَ وتقصدِ الرشدا

ق : النجاة .

من يرجُ غيرَ الله يُحرِّمُ رشدهُ  
ويذلُّ وهو نخبٌ قصدا  
وقال :

سفرُ المرءِ قطعةٌ من عذابهُ  
إنما العيشُ للفتى بين أهليه  
من يُردهُ بخيرِ الله يُكفي<sup>١</sup>  
فيه تخليقُ جسمه وثيابهُ  
وخلاته وفي أحبابه  
كربَ تجواله وذلَّ اغترابهُ  
وقال :

سلِّم ولا تعترض يوماً على أحدٍ  
من يعترضُ يعترضُ لا شكَّ وهو حرٌّ  
إن شئتَ تسلِّمُ من حقدٍ وأضرارٍ  
بذاك فالشرُّ مقدارٌ بمقدارٍ  
وقال :

إنَّ الصديقَ لَعَوْنٌ  
فلا تسيءْ لصديقٍ  
فالمرءُ قِيلَ كثيرٍ  
في كلِّ ما تبتغيه  
واحذرْ وقوعك فيه  
بنفسه وأخيه  
وقال :

افعلِ الخيرَ ما استطعتَ تنلْ ما  
فاعلُ الخيرِ آمنٌ ليس يخشى  
تبتغيه من الثناء الجميلِ  
صرفاً دهرٍ ولا حلولَ جليلِ  
وقال ٢ :

يحقُّ الحقُّ حتماً دون شكِّ  
وإن كرهَ المشككُ والمليدُ

١ هذه رواية ص ؛ وفي ق : يكفيه .  
٢ سقط البيتان من ق ، لأنها وردا ص : ٥٧٨ .

صريحُ الحقِّ قد يخفى ، ولكنْ  
بُعِيدَ خفائِهِ لا شكَّ يبدو

وقال :

إن شئتَ عزّاً دائماً فاسلك سبيل من اقتنع  
إنَّ القناعةَ عزّةٌ والذلُّ عاقبةُ الطمعِ  
المرء إن قنعَ اعتلى قدراً وإن طمعَ اتضع

وقال :

استعنْ في الأمورِ بالكتمانِ وتحفظْ من شرِّ كلِّ لسانِ  
كلُّ ما لا يُدرى من أمرِكَ فضلٌ ليسَ فيه شيءٌ من الخسرانِ

وقال :

مَنْ مالَ عنكَ بشبرٍ ميلٌ أنت عنه بميلِ  
فالله يغنيك عنه فمَنْه كلُّ جميلِ  
فليسَ في الودِّ خيرٌ معَ تركِ حُسنِ القبولِ

وقال :

لا تقطعنَ صديقاً وإن يضقَ بكَ صدرا  
واحرصْ عليه وزده إن يجفُّ بيراً وشكرا  
فإنَّ قَطَعَ صديقٍ لا شكَّ يعقبُ ضرّاً

وقال :

خلِّ التأنقَ في اللباسِ وسرِّ على نهجِ الأفاضلِ في اختصارِ الملابسِ  
إنَّ التأنقَ في اللباسِ يكثرُ الِحسادَ والأعداءَ للمتلبسِ  
فالبسْ كمثلِ الناسِ لا تخرجُ عن الِ معتادِ في شيءٍ فتخطي أو تُسي

وقال :

لا تحقرنَّ عدوًّا  
واحذره ما اسطعتَ واجهدْ  
ولو يَكُونُ كذَرَّةً  
أن لا تحرك شره  
إنَّ البعوضةَ تؤذي الـ  
مملوكَ فوقَ الأسيرةِ

وقال :

ما أهنأ الإنسانَ في عيشه  
الذلُّ في الغربةِ يا كَرِبها  
ما بينَ أهليه وفي منزله  
وكربَ مَنْ قُوَّضَ عن معقله  
وفي اقتلوا أو اخرجوا شاهدُ  
ساوى خروجِ المرءِ مع مقتله

وقال :

المالُ يسترُ عيبَ المرءِ فاقتنه  
من ضيِّعَ المالَ أبدى عيبه وجنى  
واحفظه تبقَ موقىَّ مدةَ الزمنِ  
تمهينه أبدأً من كلِّ ممتهنِ

وقال :

سريرةُ المرءِ تُبديها شمائله  
فاجعل سريرتك التقوى ترى أملاً  
حتى يرى الناسُ ما يخفيه إعلاناً  
في كلِّ ما أنتَ تبغيه وبرهاناً

وقال :

ما تَمَّتِ الدنيا لشخصٍ ولا  
عادتها الفتكُ بيمينِ رامها  
أملَ ذا فيها سوى مَنْ فُتِنَ  
فإنَّ من غرَّ بها قد غيبنُ  
فلا تغرنك بلداتها

وقال :

لا يكن عندك الخديمُ نديماً  
إنَّ قدرَ الخديمِ دونَ النديمِ

من ينادمُ خديمه يتأذى  
إنما يُصلِحُ الخديمَ ابتعادُ  
وَيصيرُ الخديمُ غيرَ خديمٍ  
واشتغالُ بشأنه المعلومِ

وقال :

تثبتت في الأمورِ ولا تبادرُ  
قبيحٌ أن تبادرَ ثم تُخطي  
لشيءٍ دونَ ما نظرتِ وفكرتِ  
وترجعَ للثبوتِ دونَ عذرِ

وقال :

كن في زمانك كيف يرضى أهله  
فإذا ترى الحمقى نحاتقٍ معنهمُ  
لا تعدُّ طورهم ولا تبدلِ  
وإذا ترى العقلاء فلتتعقلِ  
من لم يكنُ أبداً كأهلِ زمانه  
يشقى ، ولا يحظى بنيلِ مؤملِ

وقال :

الفاضلُ اليومَ غريبٌ بلا  
إن غاب لم يحضرْ وإن قال لم  
عَوْنٍ على شيءٍ من الحقِّ  
يُسمعُ ولم يؤبه بما يُلقى  
ما أضيعَ الفاضلَ يا ويحهُ  
كأنه ليسَ من الخلقِ

وقال وهو آخر « أنداء الديم » :

العزُّ عاقبةُ التقى  
فإذا اتقيتَ علوتَ في  
والذلُّ عاقبةُ الرياسةِ  
أهلِ المجادة والنفاسةِ  
وإذا رأستَ نزلتَ في  
طرقِ التخلقِ والسياسةِ  
فلتخترِ التقوى ولا  
ترأسَ فتخطيكَ الكياسةِ

وكان تاريخ فراغه من كتاب « أنداء الديم » نصف شعبان عام واحد وثلاثين

وسبعمائة .

ولنذكر بعض أناشيده التي كان ينشدها أهل مجلسه ببلد قصبه المرية أعادها



الله تعالى ، فما أنشده رحمه الله تعالى لأبي العباس أحمد بن العريف صاحب  
« محاسن المجالس »<sup>١</sup> :

من لَمْ يشاور عالماً بأصوله      فيقينه في المشكلاتِ ظنونُ  
من أنكر الأشياءِ دونَ يقينِ      وثبتَ فمعاندٌ مفتونُ  
الكلُّ تذكاريٌّ لمن هو عالمٌ      وصوابُها بمحالتها معجونُ  
والفكرُ غواصٌ عليها مخرجٌ      والحقُّ فيها لؤلؤٌ مكنونُ

وأنشد رحمه الله تعالى من وجادة :

أعوذُ بالله من أناسٍ      تشيخوا قبلَ أن يشيخوا  
أحدوذبوا وانحتوا رياءً      فاحذرهمُ إنهمُ فخوخُ  
وأنشد لنفسه رحمه الله تعالى :

أقللِ العشرةَ تُغبطُ      إنَّ مَنْ أكثرَ ينحطُ  
وعليكِ الصدقَ واحذري      أن تُرى في القولِ تشتطُ  
والزمِ الصمتَ إذا ما      خفتَ أن تلحي فتغلطُ  
فعلى الفاضلِ يُلْفَى      كلُّ مفضولٍ مُسلطُ

وأنشد لنفسه أيضاً :

جَنَّةُ العالمِ « لا أدري »      إذا ما احتاجَ جَنَّةُ  
فإذا ما تركَ الجنَّةَ      بانَّتْ فيه جَنَّةُ  
فالزمِ الجنَّةَ تسلماً      إنما الجنَّةُ جَنَّةُ

وأنشد للحلاج رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> :

١ لم ترد في محاسن المجالس (ط . باريس ١٩٣٣) .

٢ ديوان الحلاج : ٦٢ .

يا بدرُ يا شمسُ يا نهارُ أنت لِنسا جنةٌ ونارُ  
تجنُّبُ الإثمِ فيك إثمٌ وخشيةُ العارِ فيك عارُ  
يخلعُ فيك العذارَ قومٌ فكيف منْ لا له عذارُ

وأنشد مما يُنسبُ للحلاج أيضاً :

سقمي في الحب عافيتي ووجودي في الهوى عدمي  
وعذابٌ ترتضون به في فمي أحلى من النعمِ  
ما لضرِّ في محبتكم عندنا والله من ألمِ

وأنشد لسيدي أبي العباس ابن العريف في « محاسن المجالس » وهي أحسن  
ما قيل في طول الليل<sup>١</sup> :

لست أدري أطل ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلّى  
لو تفرغتُ لاستطالة ليلي ولرعي النجوم كنت مُخللاً  
إن للعاشقين عن قصرِ اللي ل وعن طوله من الفكر شغلاً

وأنشد رحمه الله تعالى مما أنشده بعض الوعاظ الغرباء :

عانقتُ لامَ صُدغها صادٌ لثمي فأرتها المرأة في الخدِّ لصاً  
فاسترابتُ لما رأته ثمَّ قلتُ أكتاباً أرى ولم أَرَ شخصاً  
قلتُ بالكشط ينمحي، قالتُ اكشطُ بالثنايا وتابعِ الكشط مصّاً  
ثمَّ لما ذهبُ أكشطُ قلتُ كان لصاً فصارَ والله فصّاً  
قلتُ إنَّ الفصوصَ تُطبعُ باللهٍ مِ على خدِّ كلِّ منْ كان رخصاً

وأنشد لابن خفاجة :

١ انظر محاسن المجالس : ٨٩ وليست الأبيات لابن العريف .

وأغرى كاد لطافةً وطلاقةً ينسابُ ماءً بيننا مسكوبا  
 قد قام في سطر الندامى فاستوى فحسبته ألفاً به مكتوبا  
 وأكبَّ يشربها وتشرب ذهنه فرأيتُ منه شارباً مشروبا  
 مشمولاً بينا ترى في كفه ماءً ترى في خده أهوبا  
 وأنشد لابن عبد ربه صاحب العقد مما نسب له الفتح في « مطمح الأنفس

ومسرح التأنس » ١ :

يا لؤلؤاً يسبي العقولَ أنيقا ورشاً بتقطعِ القلوبِ رفيقا  
 ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله درأاً يعودُ من الحياءِ عقيقا  
 وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهه ألفتَ وجهك في سناه عريقا  
 يا من تقطعَ خصره من رقّةٍ ما بالُ قلبك لا يكون رقيقا

وأنشد لابن عبد ربه أيضاً :

ودعّتي بزفرةٍ واعتناقٍ ثم قالتُ : متى يكونُ التلاقي ؟  
 وتصدتُ فأشرق الصبحُ منها بينَ تلك الجيوبِ والأطواقِ  
 يا سقيمَ الجفونِ من غيرِ سُقمٍ بينَ عينيكَ مصرعُ العشاقِ  
 إنَّ يومَ الفراقِ أفضعُ يومٍ ليتني متُّ قبلَ يومِ الفراقِ

وأنشد له أيضاً :

هيجَ البينُ دواعي سقمي وكسا جسمي ثوبَ الألمِ  
 أيها البينُ أقلني مرةً فإذا عُدتُ فقد حلَّ دمي  
 يا خليّ الذرعِ نم في غبطةٍ إنَّ من فارقتَهُ لم ينمِ  
 ولقد هاجَ قلبي سقماً حبُّ من لو شاء داوى سقماً

١ أكثر هذه القطع أورده المقرئ في الأجزاء السابقة ، انظر ٣ : ٥٦٤ .

وأنشد للمُصْحَفِي ١ :

صفراء تطرق في الزجاج ، فإن سرتُ  
عبثَ الزمانُ بجسمها فتسترتُ  
خفيتُ على شرَّابها فكأنما  
في الجسم دبَّتْ مثلَ صيلٍ لادغِ  
عن عينه برداء نور سايفِ  
يجدونَ ريتاً في إناء فارغِ

وأنشد لابن شهيد ٢ :

هَبَّ مِنْ رِقْدَتِهِ مَنْكَسِراً  
يَمْسَحُ النَّعْسَةَ عَنْ عَيْنِي رَشاً  
شَرِبْتُ أَعْطَافَهُ خَمْرَ الصَّبَا  
رَشاً بِلِ غَادَةٍ مَمْكُورَةٍ  
أَحْحَتَ ٣ مِنْ عَضْتِي فِي نَهْدِمَا  
فَأَنَا الْمَجْرُوحُ مِنْ عَضَّتِهَا  
مَسِيلٌ لَكُمْ مُرْخٌ لِلرَّدَا  
صَائِدٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسْدَا  
وَسَقَاهُ الْحَسَنُ حَتَّى عَرَبِدَا  
عَمَّتْ صَبْحاً بَلِيلُ أَسْوَدَا  
ثُمَّ عَضْتُ حُرّاً وَجْهِي عَمْدَا  
لَا شَفَانِي اللَّهُ مِنْهَا أَبَدَا

وأنشد لصفوان بن إدريس :

حَمَى الْهَوَى قَلْبَهُ وَأَوْقَدُ  
وَقَالَ عَنْهُ الْعَنْزُولُ سَالُ  
وَبِاللَّوَى شَادِنٌ عَلَيْهِ  
عَلَّهُ رَيْقُهُ بِخَمْرِ  
لَا تَعْجَبُوا لِانْهَامِ طَرْفِي  
أَنَا لَهُ كَالَّذِي تَمَنَّى  
إِنْ بَسَمَلْتُ عَيْنَهُ لَقَتَلِي  
فَهَوَّ عَلَى أَنْ يَمُوتَ أَوْ قَدُ  
قَلَدَهُ اللَّهُ مَا تَقَلَّدُ  
جَيْدٌ غَزَالٍ وَلِحْظُ فَرْقَدُ  
حَتَّى انْتَشَى طَرْفُهُ فَعَرَبِدُ  
فَجَيْشٌ أَجْفَانُهُ مُؤَيَّدُ  
عَبْدٌ ، نَعَمٌ ، عَبْدُهُ وَأَزِيدُ  
صَلَّى فَوَادِي عَلَى مُحَمَّدُ

٢ انظر ج ٣ : ٣٥٨ ، ٤٤٣ .

١ انظر ج ١ : ٥٩٤ ، ٦٠٤ .

٣ في ق ص : أحجمت ؛ وآثرنا رواية الذخيرة ، وقد صوبناه في موضعه من قبل .

٤ ق ص : خدي .

وأنشد لأبي علي إدريس بن اليماني :

عَلَّقْتَهُ شَادِنًا صَغِيرًا      وَكُنْتُ لَا أَعْشَقُ الصَّغَارَا  
يُسْفِرُ عَنْ مُسْتَنِيرِ وَجْهِ      صَيَّرَ جَنَحَ الدَّجَى نَهَارَا  
لَمْ أَرَ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ مَاءً      أَضْرَمَ فِيهِ الْحَيَاءُ نَارَا

وأنشد للرمادي ، أو لابن بُرْد القرطبي ١ :

لَمَّا بَدَا فِي لَازُور      دِيَّ الْحَرِيرِ وَقَدْ بَهَّرَ  
كَبَّرْتُ مِنْ فَرْطِ الْجَمَا      لِ وَقَاتُ : مَا هَذَا بَشَّرَ  
فَأَجَابَنِي : لَا تُنْكِرُوا      ثُوبَ السَّمَاءِ عَلَى الْقَمَرِ

وأنشده من وجادة :

يَا ذَا الَّذِي عَدَّبَ مَحْبُوبِهِ      أَنْخَتَ عَيْسَ الْعَزْمِ مَعْنَى الْهَوَانِ  
لَمْ يَنْبِتِ الشَّعْرُ عَلَى خَدِّهِ      بِلِ دَبِّ فِي أَصْدَاغِهِ عَقْرَبَانَ  
رَفَقًا عَلَى نَفْسِكَ لَا تَفْنَهَا      فَجَوْهَرُ الْأَنْفَسِ دَرٌّ يُصَانُ

وأنشد من « حديقة » ابن يربوع :

غَزَا الْقُلُوبَ غَزَالٌ      حَجَّتْ إِلَيْهِ الْعَيْونُ  
حُطَّتْ بِجَنْدِيهِ نُونٌ      وَأَخِيرُ الْحَسَنِ نُونٌ

وأنشد من وجادة :

أَوْدَعُ فُؤَادِي حُرْقًا أَوْ دَعِ      ذَاتَكَ تُؤَدِّي ، أَنْتَ فِي أَضْلَعِي  
وَارِمِ سَهَامَ اللَّحْظِ أَوْ كُفِّهَا      أَنْتَ بِمَا تَرْمِي مَصَابٌ مَعِي  
مَوْعِهَا قَلْبِي ، وَأَنْتَ الَّذِي      مَسْكَنُهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ

١ انظر ما تقدم ج ٣ ص : ٥٤٦ .

وأنشد من «حديقة» ابن يربوع :

يخطُّ الشوقُ شخصك في ضميري  
وتدنيك الأمانى من فؤادي  
فلا تذهب فإنك نور عيني  
على بُعد التزاور خطَّ زورِ  
دنوَّ البرقِ من لمح البصيرِ  
إذا ما غبت لم تطرفْ بنورِ

وأنشد للوزير المصحفي :

لعينيك في قلبي عليَّ عيونُ  
لكن كنت صبّاً مخلقاً في يد الهوى  
نصيبي من الدنيا هواك ، وإنه  
وبين ضلوعي للشجون فنونُ  
فحبُّك غضٌّ في الفؤادِ مصونُ  
عذابي ، ولكتي عليه ضنينُ

وأنشد لصالح بن شريف :

آيتها العادل بالله اتندُ  
هي أجفاني فذرّها تنهمي  
لا تظنّ الحبَّ شيئاً هيئاً  
أنت خلوْ وأنا صبُّ شجِ  
فاترك اليوم ملامي إنّه  
أنا أسلو عن حبيبي ساعةً  
لك قلبٌ في ضلوعي أو كبدُ  
هي أحشائي فدعها تنقد  
ليس في الحبّ قياسٌ يطردُ  
فإذا حدثت عني قلّ وزد  
يتركُ الشيء إذا ما لم يفد  
يا عدولي ، قل هو الله أحدُ

وأنشد له أيضاً :

وافي وقد زانه جمالُ  
ثلاثةٌ ما لها شبيهُ :  
فمن رآه رأى رياضاً  
فيه لعشاقه اعتذارُ  
الوجهُ والحدُّ والعدارُ  
الوردُ والآسُ والبهارُ

وأنشد من «حديقة» ابن يربوع :

عليك بإكرامٍ وبرٍّ لسته  
من الناسِ واحذرْ شرهم وتوقّه

طيبٌ وحجّامٌ وشيخٌ وشاعرٌ وصاحبُ ديوانٍ ومن يتفقهُ  
وأُشدّ لبعض الصوفية :

ما ترى عند أحقّ في أمورٍ توسّطاً  
بل تراه في أمره مُفَرِّطاً أو مُفَرِّطاً

وأُشدّ لبعض الأدباء<sup>١</sup> :

الصبرُ أولى بوقارِ الفتى من قلقِ يهتكِ سترَ الوقارِ  
من لازمِ الصبرِ على حالةٍ كانَ على أيامِهِ بالخيارِ

ولنقتصر من ترجمة ابن ليون على هذا القدر ، فقد حصلت الإطالة ، بل  
ونكتفي من مشايخ لسان الدين بمن ذكرنا ، ولنورد ما في الإحاطة في ترجمة  
مشيخته وإن تكرر مع ما تقدم ، ونصّه :

[ ثبت عام بشيوخ لسان الدين ]

المشيخة<sup>٢</sup> - قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب نسيح وحده في تحمل  
المنزّلِ حق حملة تقوى وصلاحاً وخصوصية وإتقاناً ونعمة وعناية وحفظاً وتبحراً  
في هذا الفن وإطلاعاً لغرائبه ، واستيعاباً لسقطات الأعلام الأستاذ الصالح أبي  
عبد الله ابن عبد الولي العواد تكتيباً ثم حفظاً ثم تجويداً إلى مقرءات أبي عمرو ورحمة  
الله عليهما ، ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة ومطية الفنون ، ومفيد الطلبة الشيخ الخطيب

١ هما لغاتم المالقي ، انظر ٣ : ٣٩٨ ، ٤ : ٢٨ .

٢ الإحاطة ، الورقة : ٤٠٣ .

المتفنن أبي الحسن علي القيجاطي فقرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أول من انتفعت به ، وقرأت على الخطيب الحسيب الصدر أبي القاسم ابن جززي رحمه الله تعالى ، ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير ، والمعتمد عليه العربية ، على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله ابن الفخار البيري الإمام المجمع على إمامته في فن العربية المفتوح عليه من الله فيها حفظاً واطلاعاً ونقلًا وتوجيهاً بما لا مطمع فيه لسواه ، وقرأت على قاضي الجماعة الصدر المتفنن أبي عبد الله ابن بكر رحمه الله ، وتأدبت بالشيخ<sup>١</sup> الرئيس صاحب القلم الأعلى الصالح الفاضل أبي الحسن ابن الحلياب ، ورويت عن الكثير ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية ، كالمحدث أبي عبد الله ابن جابر ، وأخيه أبي جعفر ، والقاضي الشهير<sup>٢</sup> الشيخ بقية السلف شيخنا أبي البركات ابن الحاج ، والشيخ المحدث الصالح أبي محمد ابن سلمون ، وأخيه القاضي أبي القاسم ابن سلمون ، وأبي عمرو ابن الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير ، وله رواية عالية ، والأستاذ اللغوي أبي عبد الله ابن بيش ، والمحدث الكاتب أبي الحسن التلمساني المسن ، والحاج أبي القاسم ابن المهني المالقي<sup>٣</sup> ، والعدل أبي محمد السعدي<sup>٤</sup> ، يحمل عن الإمام ابن دقيق العيد ، والقائد الكاتب ابن ذي الوزارتين أبي بكر ابن الحكيم والقاضي المحدث الأديب جملة الظرف أبي بكر ابن شبرين ، والشيخ أبي عبد الله ابن عبد الملك ، والخطيب أبي جعفر الطنجالي ، والقاضي أبي بكر ابن منظور ، والرواية أبي عبد الله ابن حزب الله ، كلهم من مالقة ، والقاضي أبي عبد الله المقرري التلمساني ، والشريف أبي علي حسن بن يوسف ، والخطيب الرئيس أبي عبد الله ابن مرزوق ، كلهم من تلمسان ، والمحدث الفاضل الحسيب أبي العباس ابن يربوع والرئيس أبي محمد الحضرمي

١ ق : على الشيخ .

٢ ق : الشهيد .

٣ الإحاطة : والشيخ الحاج أبي القاسم ابن البناي .

٤ الإحاطة : والعدل أبي محمد ابن النقري ؛ ص : التبدي ، وغير واضحة في ق .



السبتيين ، والشيخ المقرئ أبي محمد ابن أيوب المالقي آخر الرواة عن ابن أبي الأحوص ، وأبي عثمان ابن ليون من أهل المرية ، والقاضي أبي الحجاج المنتشاقري من أهل رُنْدَة ، وطائفة كبيرة<sup>١</sup> من المعاصرين تحملاً وتدبجاً ومن أهل العدو الغربية والمشرق وإفريقية الكثير بالإجازة ، وأخذت الطب والتعاليم والمنطق ، وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا ابن هذيل ، ولازمته ، هذا على سبيل الإلماع ، ولو تفرغت لذكر أفذاذهم<sup>٢</sup> نخرج هذا التأليف<sup>٣</sup> عما وُضع له ، انتهى كلامه في « الإحاطة » .

وقد ذكرت في هذا الباب زيادة في بعض التراجم على ما في « الإحاطة » على ما اقتضاه الحال ، إذ ذلك لا يخلو من فائدة زائدة ، وحكمة بالخير عائدة . ولو لم يكن في هذا الكتاب غير هذا الباب لكان كافياً ، لاشتماله على تصوف وحيكم وكرامات وآداب ووصايا وإنشادات وغيرها ، مما يغني عن خبره العيان ، ويشتاق إلى الوقوف عليه ذوو الملكة في البيان ، ولو لم يشتمل إلا على المدائح النبوية التي فيه لتمت محاسنه ، والله سبحانه وتعالى ينفع به ، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه .

### انتهى المجلد الخامس

١ ق : كثيرة .

٢ الإحاطة : لذكرهم .

٣ الإحاطة : التقييد .



## محتويات المجلد الخامس

### القسم الثاني

في التعريف بلسان الدين . . .

### الباب الأول

٧ - ٧٤

في أولية لسان الدين وذكر أسلافه

٧	.	.	.	.	.	.	أوليته نقلاً عن ابن الأحمر
٨	.	.	.	.	.	.	» » ابن خلدون
٨	.	.	.	.	.	.	» » غيرهما
٨	.	.	.	.	.	.	» » لسان الدين نفسه من « الإحاطة »
١٢	.	.	.	.	.	.	مراث في والد لسان الدين .
١٤	.	.	.	.	.	.	واقعة طريف .
١٥	.	.	.	.	.	.	واقعة الربض .
١٦	.	.	.	.	.	.	ترجمة والد لسان الدين .
١٩	.	.	.	.	.	.	ترجمة أبي بكر ابن عاصم
٢٢	.	.	.	.	.	.	عود إلى والد لسان الدين
٥٠ - ٢٢	.	.	.	.	.	.	قصائد نونية .
٢٢	.	.	.	.	.	.	نونية عبد العزيز الفشتالي
٢٩	.	.	.	.	.	.	نونية أبي الفتح التونسي
٣٢	.	.	.	.	.	.	نونية لسان الدين ورسالته إلى أبي سالم
٤٠	.	.	.	.	.	.	نونية الفقيه عمر الزجال .
٤٦	.	.	.	.	.	.	نونية ابن زمرك

٥٠	.	.	.	.	.	تعريف بلوشة بلد لسان الدين
٥٠	.	.	.	.	.	ترجمة ابن مرج الكحل
٥٥	.	.	.	.	.	رائية شمس الدين الكوفي المشبهة لرائية ابن مرج الكحل
٥٧	.	.	.	.	.	عود إلى ابن مرج الكحل
٥٨	.	.	.	.	.	رسالة صفوان إلى ابن مرج الكحل
٥٩	.	.	.	.	.	خطبة نكاح من إنشاء صفوان
٦١	.	.	.	.	.	من رسالة عتاب لصفوان
٦٢	.	.	.	.	.	ترجمة صفوان بن إدريس
٧٠	.	.	.	.	.	رثاء ناهض الوادي آشي للحسين
٧١	.	.	.	.	.	رجع إلى أخبار صفوان

### الباب الثاني

١٨٨ - ٧٥ في نشأة لسان الدين وترقيه وما لقي من مكابد حتى وفاته

٧٥	.	.	.	.	.	عن ابن الأحمر في حق لسان الدين
٧٦	.	.	.	.	.	عن بعضهم في حق لسان الدين
٧٦	.	.	.	.	.	نقل عن ترجمة لسان الدين بقلمه
٧٩	.	.	.	.	.	من حضور الجواب لدى لسان الدين
٨٠	.	.	.	.	.	التعريف بالسلطان أبي الحجاج
٨٤	.	.	.	.	.	بلجوه الغني بالله ولسان الدين إلى المغرب نقلاً عن اللوحة البديرية
٩٠	.	.	.	.	.	رسالة على لسان الغني بالله إلى المنصور بن قلاوون
٩٥	.	.	.	.	.	نقل عن ابن خلدون في خلع الغني بالله
٩٧	.	.	.	.	.	نقل آخر عن ابن خلدون
١٠٤	.	.	.	.	.	رواية ابن خلدون عن نهاية لسان الدين
١٠٨	.	.	.	.	.	رواية ابن الأحمر
١١٠	.	.	.	.	.	تممة الخبر عن نهاية لسان الدين نقلاً عن ابن خلدون

١١٢	عن ابن حجر
١١٢	تخميس لأبيات لسان الدين التائية
١١٥	فصل في الاعتبار من كتاب النبراس لابن دحية
١١٨	نبذة عن أعداء لسان الدين
١٢٠	موقف لسان الدين جعل القاضي النباهي يقبل يده
١٢١	ثناء لسان الدين على القاضي النباهي
١٢٢	كتاب من النباهي إلى لسان الدين بعد التغيير
١٢٥	زيادة بيان من النباهي في مدرجة الكتاب
١٣١	ظهير من إنشاء لسان الدين بتولية النباهي القضاء
١٣٤	ظهير من إنشائه بتولية ابن زمرك كتابة السر
١٣٦	ظهير ثالث بإضافة الخطابة إلى القضاء للنباهي
١٣٨	نماذج من براعة لسان الدين في القدرح
١٤٣	عتاب لسان الدين لابن أبي رمانة
١٤٥	رسالته إلى ابن مرزوق بالتخلي عن الدنيا
١٥٢	تعليقات ابن مرزوق وابن لسان الدين على الرسالة
١٥٣	مرثية المنجنيقي
١٥٤	العبرة من مرث أخرى
١٥٦	رجع إلى أخبار لسان الدين
١٥٦	رسالة في الغراء بأبي جعفر ابن جبير
١٦٠	قطع زهدية
١٦١	شيء من مواعظ ابن الجوزي
١٦٦	رجعة إلى أحوال لسان الدين
١٦٨	تحقيق في نسبة بيتين
١٦٩	ثلاث قصائد لابن زمرك
١٨٠	رجع إلى أحوال لسان الدين
١٨٣	نكبة أبي جعفر ابن عطية

## الباب الثالث

١٨٩ - ٢٠٥

في ذكر مشايخه الجليلة

١٨٩	.	.	.	.	.	١ - محمد بن أحمد الحسيني السبتي
١٩٨	.	.	.	.	.	[ ابنا الشريف السبتي ]
٢٠٠	.	.	.	.	.	٢ - محمد بن جابر الوادي آشي
٢٠٢	.	.	.	.	.	[ أشعار لبعض شيوخ لسان الدين ]
٢٠٣	.	.	.	.	.	٣ - المقرئ الجلد محمد بن محمد بن أحمد
٢٠٤	.	.	.	.	.	[ هل المقرئ الجلد قرشي ؟ ]
٢٠٥	.	.	.	.	.	كلام المقرئ الجلد في أوليته
٢٠٩	.	.	.	.	.	دخوله غرناطة
٢١٥	.	.	.	.	.	[ شيوخ المقرئ الجلد ]
٢١٥	.	.	.	.	.	2، 1 - ابنا الإمام ✓
٢٢٣	.	.	.	.	.	3 - أبو عمران المشدالي
٢٢٤	.	.	.	.	.	4 - أبو إسحاق السلوي
٢٣٠	.	.	.	.	.	5 - أبو محمد المجاصي ✓
٢٣٢	.	.	.	.	.	6 - أبو علي الحسيني السبتي
٢٣٤	.	.	.	.	.	7 - ابن هدية القرشي
٢٣٥	.	.	.	.	.	8 - ابن أبي عمرو التميمي
٢٣٥	.	.	.	.	.	9 - ابن عبد النور
٢٣٦	.	.	.	.	.	10 - أبو عبد الله البروني
٢٣٦	.	.	.	.	.	11 - أبو عمران المصمودي
٢٣٦	.	.	.	.	.	12 - أبو عبد الله ابن النجار
٢٣٨	.	.	.	.	.	13 - أبو الحسن ابن مزاحم المكناسي
٢٣٩	.	.	.	.	.	14 - أبو عبد الله الزبيدي التونسي
٢٤٠	.	.	.	.	.	15 - <u>عبد المهين الحضرمي</u>
٢٤٠	.	.	.	.	.	16 - أبو عبد الله السطفي

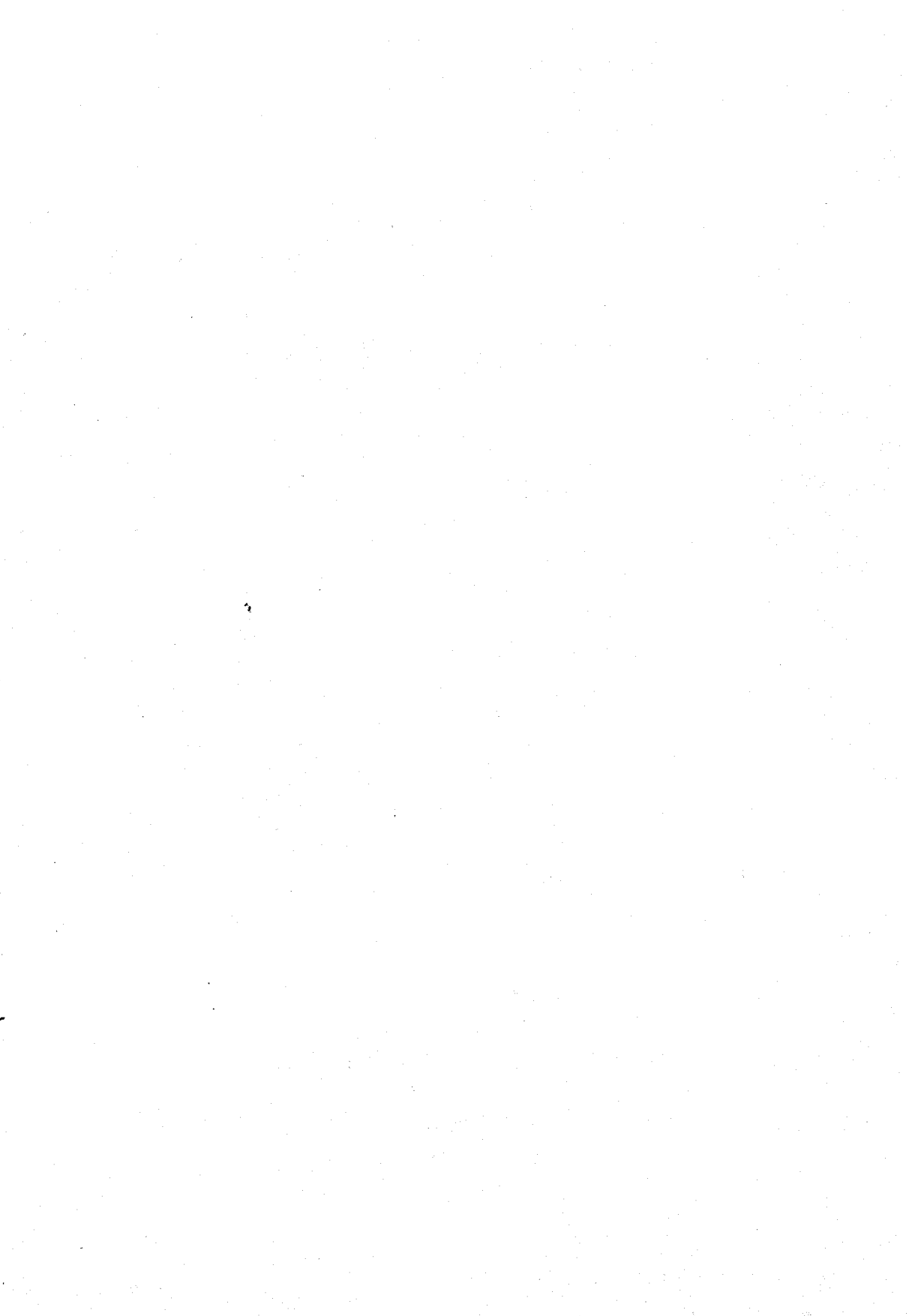
٢٤١	.	.	.	.	17 - أبو عبد الله الرندي
٢٤١	.	.	.	.	18 - أبو عبد الله الخزولي
٢٤١	.	.	.	.	19 - أبو إسحاق ابن أبي يحيى
٢٤١	.	.	.	.	20 - أبو عثمان الخياط
٢٤٢	.	.	.	.	21 - أبو عبد الله ابن الجمال
٢٤٢	.	.	.	.	22 - أبو عبد الله ابن مرزوق
٢٤٢	.	.	.	.	23 - أبو العباس ابن مرزوق
٢٤٢	.	.	.	.	24 - أبو زيد ابن علي الصنهاجي
٢٤٣	.	.	.	.	25 - أبو عبد الله الغزموني
٢٤٤	.	.	.	.	26 - أبو عبد الله الآبلي
٢٤٨	.	.	.	.	27 - أبو عبد الله ابن شاطر
٢٥٠	.	.	.	.	28 - أبو عبد الله الباهلي
٢٥٠	.	.	.	.	29 - أبو عبد الله الزواوي
٢٥٠	.	.	.	.	30 - أبو علي حسين بن حسين
٢٥٠	.	.	.	.	31 - أبو العباس ابن عمران
٢٥٠	.	.	.	.	32 - أبو عزيز ابن فرجان
٢٥٠	.	.	.	.	33 - أبو موسى ابن فرجان
٢٥١	.	.	.	.	34 - أبو عبد الله ابن عبد السلام
٢٥١	.	.	.	.	35-67 - سرد بأسماء بقية الشيوخ
٢٥٤	.	.	.	.	[ ترجمة المقرئ الجدد عن ابن خلدون ]
٢٥٦	.	.	.	.	[ فوائد عن المقرئ الجدد ]
٢٧٠	.	.	.	.	[ أخبار للمقرئ عن ابن شاطر ]
٢٧٣	.	.	.	.	[ تنمة الفوائد عن المقرئ ]
٢٧٩	.	.	.	.	[ ترجمة المقرئ من نيل الابتهاج ]
٢٨٤	.	.	.	.	[ مؤلفات المقرئ الجدد ]
٢٨٥	.	.	.	.	[ نقول من كتاب المحاضرات له ]
٣١٠	.	.	.	.	[ بقية مؤلفاته ]
٣١٠	.	.	.	.	[ نقول من كتاب الحقائق والرفائق له ]
٣٢٨	.	.	.	.	[ من شعر المقرئ الجدد ]
٣٤٠	.	.	.	.	[ تلامذة المقرئ الجدد ]

- ٣٤١ . . . . . [ ترجمة تلميذه ابن عباد الرندي ]
- ٣٥٠ . . . . . رجع إلى مشايخ لسان الدين
- ٣٥٠ . . . . . ٤ - عبد الحق بن سعيد بن محمد
- ٣٥١ . . . . . ٥ - يونس بن عطية الونشريسي
- ٣٥١ . . . . . ٦ - محمد بن أبي عفيف .
- ٣٥١ . . . . . ٧ - عمر بن عثمان الونشريسي
- ٣٥٢ . . . . . ٨ - أبو جعفر الأوسي الخباز
- ٣٥٢ . . . . . ٩ - أبو عبد الله ابن أبي رمانة
- ٣٥٢ . . . . . ١٠ - الحسن بن عثمان بن عطية الونشريسي
- ٣٥٤ . . . . . ١١ - أبو العباس أحمد بن عاشر
- ٣٥٥ . . . . . ١٢ - أبو عبد الله ابن الفخار البيري
- ٣٥٩ . . . . . [ ترجمة أبي عبد الله ابن خميس ]
- ٣٧٨ . . . . . رجع إلى ترجمة ابن الفخار وفواتده
- ٣٨٢ . . . . . [ ترجمة ابن حذلم ]
- ٣٨٣ . . . . . رجع إلى مشايخ لسان الدين
- ٣٨٣ . . . . . ١٣ - الأستاذ ابن العواد
- ٣٨٤ . . . . . ١٤ - أبو عبد الله ابن بيش
- ٣٨٥ . . . . . ١٥ - أبو عبد الله ابن بكر
- ٣٨٧ . . . . . ١٦ - ابن أبي يحيى التسولي
- ٣٨٩ . . . . . ١٧ - محمد بن أحمد الطنجالي الهاشمي
- ٣٩٠ . . . . . ١٨ - أبو عبد الله ابن مرزوق الخطيب
- ٤١٢ . . . . . [ تراجم أخرى لابن مرزوق عن غير الإحاطة ]
- ٤١٩ . . . . . [ ابن مرزوق الكفيف ]
- ٤٢٠ . . . . . [ ابن مرزوق الحفيد ]
- ٤٣٤ . . . . . رجع إلى ذكر مشايخ لسان الدين
- ٤٣٤ . . . . . ١٩ - أبو الحسن علي بن الحياض
- ٤٥٧ . . . . . [ ترجمة ابن أبي المجد الرعيني ]



٤٥٧	رجع إلى ابن الجياب
٤٦٤	٢٠ - أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي
٤٧١	٢١ - أبو البركات ابن الحاج البلقيني
٤٨٧	٢٢ - أبو زكريا يحيى بن هذيل
٤٩٧	٢٣ - أبو بكر ابن الحكيم الرندي
٤٩٨	[ ترجمة أبي عبد الله ابن الحكيم ]
٥٠٧	٢٤ - أبو الحسن علي بن إبراهيم القيجاطي
٥٠٩	٢٥ - أبو سعيد فرج بن لب
٥١٤	٢٦ - أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزّي
٥١٦	[ شعر لابن لؤلؤة ]
٥١٧	[ من نظم ابن جزّي ]
٥١٧	[ ترجمة أبي بكر أحمد بن جزّي ]
٥١٩	[ قصيدتان لحازم القرطاجي ]
٥٢٥	[ عود إلى ذكر أبي بكر ابن جزّي ]
٥٢٦	[ أبو عبد الله ابن جزّي ]
٥٣٦	[ نماذج من التورية بأسماء الكتب ]
٥٣٨	رجع إلى ابن جزّي
٥٣٩	أبو محمد ابن جزّي
٥٤٠	رجع إلى مشايخ لسان الدين
٥٤١	٢٧ - أبو بكر ابن شبرين
٥٤٣	٢٨ - أبو عثمان ابن ليون التجيبي
٦٠٣	خاتمة في سرد المشيخة





Abu 'l-'Abbas A. al-Maqqari

# NAFH AT-TĪB

V

Edited and Annotated

by

Ihsān 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 10

BEIRUT, Lebanon

1968

# نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ  
غَضَنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِّيبِ

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد القرني التيساني

حققه

الدكتور احسان عباس

المجلد السادس

دار صادر  
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ - ۱۹۶۸ م







## الإمام الميرزا الميرزا

### الباب الرابع

في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية ، وثناء غير واحد من أعلام أهل عصره عليه ، وصرف القاصدين وجوه التأميل إليه ، واجتلائهم أنوار رياسته الجليلة ، وكتبهم بعض المؤلفات باسمه ، ووقوفهم عند إشارته ورسه ، وما يضاهاه ذلك في حظه وقسّمه ، وسعيهم بين يديه .

اعلم — سلك الله بي وبك الطريق الأقوم الأقوى ، وحلّى صدور جميعنا بزينة التقوى — أن لسان الدين ذكر في كتبه كالإحاطة ونفاضة الجراب وغيرهما جملة ممّا خاطبه به الملوك وغيرهم ، من تبجيل وتنويه ، ولندكر بعض ذلك من كتبه ومن غيرها تميمًا للمقصود وتبليغًا لنفوس الناظرين في هذه العجالة ما تؤمله وتنويه .

[ ١ - ظهير من أبي زيان المريني لسان الدين ]

فمن ذلك ما ذكره في «الإحاطة» من إكرام السلطان أبي زيان المريني ابن الأمير أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن له ، وسرد ما كتب له به من قوله : هذا ظهير ، إلى قوله : أيده الله ونصره ، وستى له الفتح المبين ويسّره ،

وبعده ما صورته<sup>١</sup> : « للشيخ الفقيه الأجل الأسنى ، الأعز الأخطى الأرفع الأجد  
الأسنى الأوحده الأنوه الأرقى ، العالم العلم الرئيس الأعراف المتفنن الأبرع  
المصنف المفيد الصدر الأحنف الأفضل الأكل أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير  
الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأجد الوجيه الأنوه الأحنف الأفضل الحسيب  
الأصيل الأكل المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب ، قابله أيده الله بوجه القبول  
والإقبال ، وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال ، ورعى له خدمة السلف  
الرفيع الجلال ، وما تقرر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال ، وأمر في جملة  
ما سوغه من الآلاء الوارفة الظلال ، الفسيحة المجال ، بأن يحدد له حكم ما بيده  
من الأوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية<sup>٢</sup>  
في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مجبى مدينة سلا حرسها الله  
في كل شهر ، ومن حيث جرت العادة أن يتمشى له ، ورفع الاعراض بياها  
فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه ، وفيما يستفيده  
خدامه<sup>٣</sup> بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك ،  
فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف<sup>٤</sup> ، ولا يتوجه فيه إليه بتكليف ،  
يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديداً تاماً ، واحتراماً عاماً ،  
أعلن بتجديد الخطوة واتصالها ، وإتمام النعمة وإكمالها ، من تواريخ الأوامر  
المذكورة إلى الآن ، ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام ، واتصال الأيام ، وأن  
يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السخر مهما  
عرضت ، والوظائف إذا افترضت ، حتى يتصل له تالد العناية بالطارف ،

١ ورد هذا الظهير في الاستقصا ٤ : ٤٨ .

٢ العشرية : لعلها العاشرية وهي ما كان في كل دينار منها عشرة دراهم ( انظر « عاشر » في ملحق  
المعاجم لدوزي ) .

٣ ق : خدمه .

٤ الوظيف أو الوظيفة : الضريبة المقررة .

وتتضاعف أسباب المنن والعوّارف ، بفضل الله ، وتحرّر له الأزواج<sup>١</sup> التي يحرثها بتالمغت من كل وجيبة<sup>٢</sup> وتحاشي من كل مغرم أو ضريبة ، بالتحريير التام بحول الله وعونه ، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه ، وليُمضِر ما أمضاه ، إن شاء الله ، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، وكتب في التاريخ<sup>٣</sup> ؛ انتهى .

وقوله « وكتب في التاريخ » هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان ، يكتب بقلم غليظ ، وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة « صح في التاريخ »<sup>٤</sup> .

### [ ترجمة أبي زيان المريبي ]

وقد عرّف لسان الدين في « الإحاطة » بهذا السلطان بما نصّه : محمد بن يعقوب أبي عبد الرحمن بن علي أمير المسلمين بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أمير المسلمين بالمغرب إلى هذا العهد ، يكنى أبا زيان<sup>٤</sup> ، وصل الله نصره على عدوّ الدين ، وأرشدته إلى سنن الخلفاء المهتدين .

حاله - فاضل سكون منقاد ، مشغول بخاصة نفسه ، قليل الكلام ، حسن الشكل ، درّب بركض الخيل ، مفوض للوزراء ، عظيم التأثري لأغراضهم ، ووكل الأمور لمن استكفاه منهم ، استقدم من أرض النصراري بالأندلس وقد فر

١ الأزواج : هي ما يسمى في المشرق « الأفدنة » ، أخذت من زوج البقر للحرث أي ( الفدان ) .  
٢ الوجيبة : الضريبة .

٣ قال ابن الأحرر عند تعريفه العلامة : « فإذا رأيت الصلك المريبي وعلامة : كتب في التاريخ المؤرخ به ، فهي بخط يد السلطان ، وإذا كانت : وكتب في التاريخ ، فهي بخط يد صاحب العلامة ( مستودع العلامة : ٢١ ) .

٤ بويغ أبو زيان الملقب بالمتوكل ١١ صفر سنة ٧٦٣ وقتل غرقاً في السانية التي بروض الغزلان ٢٢ ذي الحجة سنة ٧٦٧ وسنه ٢٨ سنة ودفن بجامع قصره ( روضة السرين : ٣٢ وانظر الاستقصا : ٥١ : ٤ ) .

إليهم خوفاً على نفسه ، فسمح به ملك الروم بعد اشتراط واشتراط ، فكان وصوله إلى مدينة الملك بفاس يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفري عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، ودخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الأعظم كوكب المشتري من الكواكب السيارة ، وقد كان الوزير قيم الأمر والمثل في الكفاية والاضطلاع بالعظيمة عمر بن عبد الله بن علي اليباباني<sup>١</sup> لما ثار بعمه السلطان أبي سالم رحمه الله تعالى وأقام الرسم بأخيه المعتوه المدعو بأبي عمر استدعى هذا المترجم به ، وقد نازله الأمير عبد الحليم ابن عمهم ، وتوجه عنه رسوله أثناء الحصار لما رأى الأمر لا يستقيم بمن نصبه ، فتلطف فيه إلى طاغية النصارى ، واستعان بالسلطان أبي عبد الله ابن نصر ، وقد جمعتهما إيالته ، فتم له اللحاق بالمغرب ، وانصرف الأمير عبد الحليم إلى سجلماسة فتملكها ، وتم الأمر للأمير أبي زيان يقوم به عنه وزيره ومستدعيه المذكور مصنوعاً له في خدمته ، أعانه الله تعالى وأصلح حاله وأحوال الخلق على يديه ، ووفدت عليه من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولي<sup>٢</sup> :

لَمَنْ عَلِمَ فِي هَضْبَةِ الْمَلِكِ خِفَاقُ      أفاقت به من غَشِيَةِ الْمَرْجِ آفاقُ  
تُقِلُّ رِيَّاحَ النَّصْرِ مِنْهُ غَمَامَةٌ      تَمُدُّ لَهَا أَيْدِيَّ وَتَخَضَعُ أَعْنَاقُ  
وَبِيعَةُ شُورَى أَحْكَمِ السَّعْدِ عَقْدَهَا      وَأَعْمَلُ إِجْمَاعَ عَلَيْهَا وَإِصْفَاقُ  
قَضَى عَمْرٍ فِيهَا بِحَقِّ مُحَمَّدٍ      فَسُجِّلَ عَهْدُ لِلْوَفَاءِ وَمِيثَاقُ  
أَحْلَمًا تَرَى عَيْنَايَ أُمُّ هِيَ فِتْرَةٌ      أَعْنَدَكَا فِي مَشْكَلِ الْأَمْرِ مِصْدَاقُ  
وَفَاضٌ<sup>٣</sup> لِفَضْلِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ تُبْتَغَى      وَجَمِيعَاتٌ لَا تَرِيبُ وَأَسْوَاقُ  
وَسَرْحٌ تَهْنِيهِ الْكَلَاءَةُ بِالْكَلا      وَفَلَحٌ لِسَقِي الْغَيْثِ قَامَ لَهُ سَاقُ

١ راجع أخبار هذا الوزير في العبر ٧ : ٣١٩ ، ٣٢٣ .

٢ انظر القصيدة في الاستقصا ٤ : ٤٦ - ٤٨ .

٣ الوفاض : جمع وفضة وهي المكان الذي يمسك الماء ؛ وفي ص : رفاض .

وقد كان طيفُ الحلم لا يعمل الخطأ  
 وللغيثِ إمساكٌ وفي الأرضِ رَجَّةٌ  
 فكلُّ فريقٍ فيه للبغي رايةٌ  
 أجلُ إنَّه من آلِ يعقوبٍ وارثٌ  
 له من جناحِ الروحِ ظلٌ مسجفٌ  
 أطلَّ على الدنيا وقد عادَ ضوءُها  
 فأشرقت الأرجاء من نورِ ربها  
 فمِن ألسُنِ اللهِ بالشكر أعلنت  
 وليس لأمرِ أبرمِ اللهُ ناقضٌ  
 محمدٌ قد أحْيَيْتَ دينَ محمدٍ  
 ولو لم تَثْبُ غطى على شفقِ الضُّحى  
 فأيمِنُ بمشحونٍ من الفلكِ سابحٍ  
 أقلك والدأماءُ تُظْهَر طاعة  
 إلى هدفِ السعدِ أنبرى منه والدجى  
 فحُطَّت لتقويمِ القوامِ جداولٌ  
 تبارك من أهداك للخلقِ رحمة  
 هو اللهُ يبلو الناسَ بالخيرِ فتنةً  
 سمَّتْ منك أعناقُ الورى لخليفة

١ سقط البيت من ق .

٢ الرستاق : معربة عن الفارسية بمعنى الناحية أو الكورة .

٣ الخط : الرسو في الميثاء ، والإيساق : مصدر أوسق بمعنى ملاء بالأحمال .

٤ الدأماء : البحر .

٥ يعني بالجداول : الجداول الفلكية ، والأوفاق : جمع وفق وهو المربع الذي يقسم إلى « خانات » ترتب فيها الأرقام .

تفيضُ على العافين أم هي أرزاق  
 فلم يُجدِ إطنابٌ ولم يُغنِ إغراق  
 غمامٌ ندَى إن أخلف الغيث غيداق  
 بدورٌ لها في ظلمة الروح إشراق  
 ففيها جتنى ملء الأكف وإبراق  
 وجدك قد فاق الملوك وإن فاقوا  
 لآلىء والمجدُ المؤثّل نساق  
 هم الأصل في العلياء والناس ألقاق  
 فإن حاربوا راعوا وإن سلموا راقوا  
 فهم للمعالي والمكارم عشاق

وقالوا بنانٌ ما استقلّ بكفته  
 وأطنب فيك المادحون وأغرقوا  
 ألت من القوم الذين أكفهم  
 ألت من القوم الذين وجوههم  
 رياض إذا العافي استظل ظلالها  
 أبوك وليُّ العهد لو سالم الردى  
 فمن ذا له جدّ كجدك أو أب  
 وحسبُ العلا في آل يعقوب أنهم  
 أسودُ سروحٍ أو بدور أسرة  
 يطولُ لتحصيل الكمالِ سهادهم

ومنها :

تُزّرُ على أعناقهم منه أطواقُ  
 ولم تدرِ ما ضمت من الذكر أوراق  
 ومن دون ما أمّوه للفتح أغلاق  
 جريرة من أبدى لك الغدر أخلاق  
 وتهفو حلوم القوم والقوم حدّاق  
 ولله إرفاد عليّهم وإرفاق  
 خزائنه ما ضرها قط إنفاق  
 وإن حشدت طسّم وعاد وعملاق  
 تخومٌ بمخط الصليب وأعماق  
 وللروح إرعاد عليك وإبراق  
 مواهب جود غيئها الدهر دفاق  
 فأنّت كريم طهرت منك أعراق

لئن نسيت إحسان جدك فرقة  
 أجازت خروج ابن ابنه عن ترائه  
 ومين دون ما راموه لله قدرة  
 خذ العفو وابدل فيهم العرف ولتسع  
 فربّما تنبو مهنّدة الطّبي  
 وما الناس إلا مذنب وابن مذنب  
 ولا ترج في كلّ الأمور سوى الذي  
 إذا هو أعطى لم يضرّ منع مانع  
 عرفت الردى واستأثرت بك للعدا  
 فيسرّ ليسرى وأحيا بك الورى  
 فجازِ صنيع الله وازدد بشكره  
 وأوف لمن أوفى وكاف الذي كفى

وتهنيك يا مولى الملوك خلافة  
 فقد بلغت أقصى المنى بك نفسها  
 فلا راعٍ منها السرب للدهر راعٍ  
 أمولاي راعٍ الدهر سربي وغالتي  
 وليس لكسري غيرك اليوم جابر  
 ولي فيك ودًا واعتدادٌ غرسته  
 وقد عيل صبري في ارتقابي خليفة<sup>١</sup>  
 وأنت حسامُ الله والله ناصر  
 وأنت الأمان المستجار من الردى  
 وأهونُ ما تُرجى لديك شفاعة<sup>٢</sup>  
 ودونكها من ذائعِ الحمدِ مخلصٍ  
 إذا قالَ أما كلُّ سمعٍ لقوله  
 ودُمٌ خافقُ الأعلامِ بالنصر كلما  
 شجتها تباريح إليك وأشواق  
 وكم فازَ بالوصلِ المهني مشتاق  
 ولا نال منها جِدَّةَ السعدِ إخلاق  
 فطرتي مذعورٌ وقلبي خفاق  
 ولا ليدي إلا بمجدك أعلاق  
 فراقت به من يانعِ الحمد أوراق  
 تحلُّ به للضرِّ عني أوهاق<sup>٢</sup>  
 وأنت أمينُ الله والله رزاق  
 إذا راعٍ خطبٌ أو تُوِّعَ إملاق  
 إذا لم يكن عزمٌ حثيث وإرهاق  
 له فيك تقييد يروق وإطلاق  
 فمُصنِّعٌ ، وأما كلُّ أنفٍ فنشاق  
 ذهبت لمسعى لم يكن فيه إخفاق

وُعدتُ منه ببر كثير ، واحترام شهير .

دخوله غرناطة - لحق بها مُفلتاً عند القبض على قرابته وبني عمته وتقريبهم  
 إلى مصارعهم ، فكان وصوله في رمضان من عام خمسين وسبعمائة ، ثم رابه  
 رائب لحق لأجله بصاحب قشتالة ، وأقام في جملته إلى حين استدعائه المتقرر  
 آنفاً ، وهو لهذا العهد أمير المسلمين بالمغرب ، أعانه الله تعالى على الخير ،  
 وأطلق به يده ، وأهمه لما يرضى منه بفضله وكرمه ؛ انتهت الترجمة .

ورأيت على هامش هذا المحل من « الإحاطة » بخط الخطيب الشهير الإمام

١ ق : أصل .

٢ الأوهاق : جمع وهق وهو الأنشودة .

أبي عبد الله ابن مرزوق التلمساني رحمه الله ما صورته : توفي - يعني السلطان  
أبا زيان - مغتالاً عام ستة وستين على يد مظاهره الخائن عمر بن عبد الله  
ابن علي الوزير ، ردّاه في بئر ، وأشاع أنّه أفرط في السكر ، وألقى نفسه في  
البئر المعروفة برياض الغزلان ، وباع لعمّه عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ،  
فسلطه الله عليه ، وأخذ حقوق الخلائق على يديه ، فقتله غيلة بعد أن كان تغلب  
عليه ، فأعمل الحيلة في قتله ، واستمر ملك عبد العزيز ظاهراً ظافراً قد جمع  
بين المغرب إلى أقصاه وبين ملك تلمسان وقد شرّد أهلها كلّ مُشرّد ، فعندما  
أقبلت الدنيا عليه ، واستقام ملكه ، وكاد يلحق ملك أبيه أو يزيد مات رحمه  
الله تعالى ، قيل : مطعوناً ، وقيل غير ذلك ، وذلك في حدود أربع وسبعين ،  
وولي ولده ، ثم عزّل بابن عمّه أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، وحاز ملك  
المغرب إلى حين كتب هذا سنة سبع وسبعين وسبعمائة ؛ انتهى ما ألفيته بخط  
سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق .

ورأيت تحته بخط ابن لسان الدين أبي الحسن علي ما صورته : رحمة الله عليك  
يا عمر بن عبد الله بن علي ، فلقد كنت غسلت ملك المغرب من درّان كبير ،  
وقمت على ملك هو وضعف شهير ، وشهّرت سيف الحق ، على الزواكرة  
الخرق ، فابتهج منبر الدين ؛ انتهى .

ومراده بهذا الكلام الرد على ابن مرزوق في ذمّه للوزير عمر ، وقوله  
« الزواكرة » لفظ يستعمله المغاربة ، ومعناه عندهم المتلبس الذي يُظهر النسك  
والعبادة ، ويبطن الفسق والفساد ، وعند الله تجتمع الخصوم .



[ ٢ - رسالة من أبي سالم إلى لسان الدين ]

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول :

ومما خوطب به ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، من قبل سلطان المغرب المستعين بالله أبي سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد البسملة والصلاة<sup>١</sup> :

« من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق ، أيد الله أمره وأعز نصره ، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأخطى الأوجه الأنوه الصدر الأحفل المصنف البليغ الأعراف الأكل أبي عبد الله ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكل المرحوم المبرور أبي محمد ابن الخطيب ، وصل الله عزته ووالى رفعته ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

« أما بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى ، والرضى عن آله وصحبه أعلام الإسلام وأئمة الرشد والهدى ، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعني بالنصر الأعز والفتح الأسنى ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمل ، ونُجِّحَ القول والعمل - من منزلنا الأسعد بصفة وادي ملوية يمنه الله ، وصُنِعَ اللهُ جميل ، ومنه جزيل ، والحمد لله ، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة برعني الوسائل ، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالجناب العلي ، المولوي العلوي ، جدد الله تعالى عليه ملابس عُقْرانه ، وسقاهُ غِيُوثَ رحمته وحنانه ؛

١ وردت هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ٢٩ - ٣٠ وأزهار الرياض ١ : ٢٨٢ .

وما أهديتم إلينا من التقرب لدينا ، بخدمة ثراه الطاهر ، والاشتمال بمطارف حرمة السامية المظاهر .

« وإلى هذا وصل الله حُظوتكم ووالى رفعتكم ، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابلُ بالإسعاف المستعذب ورْدُهُ ، فوقفنا على ما نصَّه ، واستوفينا ما شرحه وقصَّه ، فأثرنا حُسْنَ تَلطُفكم في التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجنب العزيز علينا ، وفي الحين عَيْنًا لكمال مطلبكم ، وتمام مأربكم ، والتوجه بخطابنا في حقكم ، والاعتماد بوقفكم ، خديمينا أبا البقاء ابن تاشكورت<sup>١</sup> وأبازكريا ابن فرقاچه ، أنجدهما الله وتولاهما ؛ وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم ، بعد التأكيد عليهما فيه ، وشرح العمل الذي يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابسُطوا له جملة آمالكم ، وإننا لندرجو ثواب الله في جبر أحوالكم ، وبرء اعتلالكم ، والله سبحانه وتعالى يَصِلُ مبرّتكم ، ويتولى تكرمتمكم ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ كتب في الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة . »

[ ٣ - جواب لسان الدين ]

فراجعه ابن الخطيب بما نصَّه<sup>٢</sup> : « مولاي خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض عن حجة ، ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله تعالى عالي الدرجة في المنعمين ، وافيرَ الحظ عند جزاء المحسنين ، وأراغم ثمرة برّ أبيكم في البنين ، وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الأليم مَنْ أراد في مثابتكم بالحداد ، عبدكم الذي ملكتم رقه ،

١ الاستقصا والأزهار : تاشكورت .

٢ انظر هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ٣٠ - ٣١ والأزهار ١ : ٢٨٤ .

وأوتيم غربته ، وسترتم أهله وولده ، وأسنتيم رزقه ، وجبرتم قلبه ، يُقبَّل  
موطىء الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف  
النصر ، الفارعة هَضْبَةَ العز ، المعملة الخطو في مجال السعد ، وميسراً الحظ  
ابن الخطيب ، من شالة<sup>٢</sup> التي تأكد بملككم الرضي احترامها ، وتجدد برعيكم  
عهدنا ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق بحسناتكم نورها .

« وقد ورد على العبد الجوابُ المولوي البر الرحيم ، المنعم المحسن بما  
يليق بالملك الأصيل والقدر الرفيع والهمة السامية والعزة القعاء ، من رَعِي  
الدخيل والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الأب الكريم ، فثاب الرجاء  
وانبعث الأمل وقوي العَضُدُ وزار اللطف ، فالحمد لله الذي أجرى الخير  
على يدكم الكريمة ، وأعانكم على رعي ذمام الصالحين ، المتوسَّل إليكم أولاً  
بقبورهم ومتعبداتهم وتراب أجدادهم ، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق  
أجمعين الذي تسبب<sup>٣</sup> في وجودكم ، واختصكم بحبّه ، وغمركم بلطفه وحنانه ،  
وعلمكم آداب الشريعة ، وأورثكم ملك الدنيا ، وهياتكم دعواته بالاستقامة  
إلى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساح البقاء ، وفي علومكم المقدسة ما  
تضمنت الحكاياتُ عن العرب من النعرة<sup>٤</sup> عن طائر داستَ أفرأخه ناقة في  
جوار رئيس منهم ، وما انتهى إليه الامتعاظُ لذلك ممّا أهنت فيه الأنفس  
وهلكت الأموال ، وقُصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم  
من عرب تامسنا ، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ  
أولاً إلى رُحماكم بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم الحرية

١ ق والاستقصا : ومسير .

٢ شالة : تعد اليوم من ضواحي الرباط ، وفيها قبور المريفيين . وإليها لجأ لسان الدين عندما نبت  
به الأندلس .

٣ ق : الذي هو سبب .

٤ ق : النعرة ؛ الاستقصا : النعرة .

على بندها؟ ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين خافق القلب واهي الفزعة ، يتغطي بردائه ، ويستجير بعليائه ، كأنني تراميتُ عليهم في الحياة أمام الذعر الذي يُذهل العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقادته ، ما من يوم إلاّ وأجهرُ بعد التلاوة : يا ليعقُوب ، يا لمَرين ، نسأل الله تعالى أن لا يقطع عني معروفكم ، ولا يسلبني عنايتكم ، ويستعملني ما بقيت في خدمتكم ، ويتقبل دعائي فيكم .

« ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعت بإزائه ، وقلت : يا مولاي ، يا كبير الملوك ، وخليفة الله ، وبركة بني مرين ، صاحب الشهرة والذكر في المشرق والمغرب ، عبدك المنقطع إليك ، المترامي بين يدي قبرك ، المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك ، ابن الخطيب ، وصله من مولاة ولدك ما يليق بمقامه من رعي وجهك ، والتقرب إلى الله تعالى برعيك ، والاشتهار في مشرق الدنيا وغربها ببرك ، وأنتم من أنتم من إذا صنع صنعة كلها ، وإذا من منة تمها ، وإذا أبدى بدأ أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقضة ، وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك ، حتى يتم أملي ، ويخلص قصدي ، وتحف نعمتك بي ، ويطمئن إلى مأمك قلبي .

« ثم قلت للطلبة : أيها السادة ، بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التأليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم ، فأمّنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم ، واندفعت في الدعاء والتوسل الذي نرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه ، وخاطب العبد مولاة شاكرأ لنعمته مشيداً بصنيعته مسروراً بقبوله ، وشأنه من التعلق والتطرح شأنه حتى يكمل القصد ويتم الغرض ، معمور الوقت بخدمة يرفعها ، ودعاء يردده ، والله المستعان » انتهى .

١ ص ف : يا آل يعقوب ، يا آل مرين ؛ ولا خلاف .

[ ٤ - رسالة من لسان الدين إلى أبي سالم ]

وكان تقدم من لسان الدين كتاب للسلطان المذكور ، وكان ما سبق من كتاب السلطان جواباً له ، وذلك بعد رجوع لسان الدين من مراكش واستقراره في مدينة سلا برباط شالة مدفن السلاطين من بني مرين ، ومنهم السلطان أبو الحسن والد السلطان أبي سالم المذكور ، ونص الكتاب<sup>١</sup> :

« مولاي المرجو لإتمام الصنيعة وصيلة النعمة وإحراز الفخر ، أبقاكم الله تعالى تُضْرَبُ بِكُمْ الأمثال في البر والرضى وعلو الهمة ورعي الوسيلة ، مُقْبَلٌ موطئ قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب من الضريح المقدس بشالة ، وقد حط رحل الرجاء في القبة المقدسة ، وتدمم<sup>٢</sup> بالتربة الزكية ، وقد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إياه من الوجهة المباركة وزيارة الربط المقصودة والترب العظمة ، وقد عزم أن لا يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعي حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم ، والتماس شفاعته في أمر سهّل عليكم لا يجر إنفاد مال ولا اقتحام خطر ، إنمّا هو إعمال لسان ، وخط بنان ، وصرف عزم ، وإحراز فخر وأجر ، وإطابة ذكر ، وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر ممّا يفتح الله تعالى فيه ، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب ، وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب - يعني ابن مرزوق - سنّي الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم : أنت يا فلان والحمد لله ممّن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر ، جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين .

١ قارن بما ورد في الاستقصا ٤ : ٢٤ وأزهار الرياض ١ : ٢٧٧ .

٢ الاستقصا : وتيمم .

« وقد تقدم تعريفُ مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسباً أداه من حَضَرَ ذلك المشهد من خدامكم ، والعبدُ الآن يعرض عليكم الجواب ، وهو أتى لما فرغت من مخاطبته بمرأى من الملا الكبير ، والجمل العفير ، أكببت على اللحد الكريم داعياً ومخاطباً ، وأصغيت بأذني عند قبره ، وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله ، فكأنني به يقول لي : قل لمولاي : يا ولدي وقرة عيني المخصوص برضاي وبري ، و [من] ستر حريمي ورد ملكي وصان أهلي وأكرم صنائعي ووصل عملي ، أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويُقبِلَ عليك ، الدنيا دار غرور ، والآخرة خير لمن اتقى :

وما الناس إلا هالك وابن هالك<sup>١</sup>

« ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ، ومثلك من ذكر فتذكر ، وعرف فما أنكر ، وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبري ، وتهمم بي ، وسبق الناس إلى رثائي ، وأنشدني ومجدي وبكائي ، ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك ، وعفّر وجهه في تربّي ، وأملني لما انقطعت مني آمال الناس ، فلو كنتُ يا ولدي حيّاً لما وسّعني أن أعمل معه إلا ما يليق بي ، وأن أستقل فيه الكثير ، وأحتقر العظيم ، لكن لما عجزت عن جزائه وكلمته إليك ، وأحلتها يا حبيب قلبي عليك ، وقد أخبرني أنه سلبُ المال ، كثير العيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن ، وأمل أن ينقطع بجواري ، ويستتر بدخيلي وخدمتي ، ويرد عليه حقه بخدمتي ، ووجهي ووجوه من ضاجعني من سلفي ، ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتي ، وقد كنت تشوّفت إلى استخدامه في الحياة حسباً يعلمه حبيبنا الخالص المحبة ، وخطيبنا العظيم المزينة القديم القربة ، أبو عبد الله ابن مرزوق ، فأسأله يذكرك ،

١ صدر بيت لأبي نواس ، وتامه : « وذو نسب في الهالكين عريق » .

واستخيره بخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات ، إلى أن نلتحق جميعاً برضوان الله تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء ، وله يا ولدي ولد نجيب يخدم بيابك ، وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك ، وقد استقر بدارك قراره ، وتعين بأمرك مرتبه ودرجته<sup>١</sup> ، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب ، هذه رغبتني منك ، وحاجتي إليك ، واعلم أن هذا الحديث لا بد له أن يُذكر ويُتحدث به في الدنيا وبين أيدي الملوك والكبار ، فأعمل ما يبقى لك فخره ، ويتخلد ذكره ، وقد أقام مجاوراً ضريحي ، تالياً كتاب الله تعالى علي ، منتظراً ما يصله منك ويقرؤه علي ، من السعي في خلاص ماله ، والاحتجاج بهذه الوسيلة في جبره ، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة ، فالله الله يا إبراهيم ، اعمل ما يسمع عني وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛ انتهى .

« والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمة وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء حاجته ، ولتعلموا وتحققوا أنني لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء ، وأخذت حسائف<sup>٢</sup> الملوك الأعزة ممن وراء النهر من الططر وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنتهم الله تعالى مي من غير عهد بعد أن بلغهم تدممي بهذا الدخيل ، ومقامي بين هذه القبور الكريمة . ما وسع أحداً منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التي لا يُغفلها الكبار للكبار إلا الجود الذي لا يتعقبه البخل ، والعفو الذي لا تفسده المؤاخذة ، فضلاً عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى بمواليتكم ، فهو فاضل ، وابن ملوك أفاضل ، وحوله أكياس<sup>٣</sup> ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم ، لا سيما مولاي والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم ، فقد كان يتبنتي مولاي أبا الحجاج ، ويشمله بكنفه ، وصارخه بنفسه ، وأمدّه بأمواله ،

١ الدشار : المزرعة أو الأرض المستأجرة ، والجمع دشر .

٢ الحسائف : العداوات والضغائن .

ثم صيرَّ الله تعالى ملكه إليكم ، وأنتم من أتم ذاتاً وقبيلاً ، فقد قرَّرت يا مولاي عينُ العبد بما رأَتْ في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعددكم ، زادكم الله تعالى من فضله ؛ ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوّه .

« وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان ، وتعلقي بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم ، وشهرة حرمة شالة معروفة ، حاش لله أن يضيعها أهلُ الأندلس ، وما توسل إليهم قط بها إلا الآن ، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ، وأملي منكم أن يتعين من بين يديكم خديم ، بكتاب كريم ، يتضمن الشفاعة في رد ما أخذني ، ويخبر بمشوّاي مترامياً على قبر والدكم ، ويقرر ما ألزمتكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منه عادة المكارمة بجلّ هذه العقدة ، ومن المعلوم أنني لو طلبت بهذه الوسائل من صلب ..... ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن ، فالحياء والحشمة يأتیان العذر عن هذا في كل ملّة ونحلة .

« وإذا تمّ هذا الغرضُ - ولا شك في إتمامه بالله تعالى - تقع صدقتكم على القبر الكريم بي وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدّه ، ومدح النبي صلى الله عليه وسلّم ليلة المولد في جواره وبين يديه ، وهو غريب مناسب لبركم به ، إلى أن أحجّ بيتَ الله بعناية مقامكم ، وأعود داعياً مثنياً مستدعياً للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب ، وأتعوِّض من ذمتي بالأندلس ذمّة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتي ، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظراً ثمنه ممّا يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعي أيضاً لوالدكم ممّا لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه ، وها أنا أرتقب جوابكم بما لي عندكم

١ غريب : يعني أنه عمل بديع .



من القبول ، ويسعني مجدكم في الطلب وخروج الرسول لاقتضاء هذا  
الغرض ، والله سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به ، والسلام . وكتب في  
الحادي عشر من رجب عام أحد وستين وسبعمائة .

وفي مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة ١ :

مولايَ ها أنا في جوارِ أبيكا . فابذلْ من البرِّ المقدَّرِ فيكا  
أسمعهُ ما يرضيه من تحت الثرى . واللهُ يُسمعكَ الذي يرضيكا  
واجعلْ رضاهُ إذا نهَدتَ كتيبةً . تُهدي إليك النصرَ أو تهديكا  
واجبر بجبري قلبه تنل المني . وتطالع الفتح المبين وشيكا  
فهو الذي سنَّ البرور بأُمَّه . وأبيه فاشرعْ شرعه لبنيكا  
وابعث رسولك منذراً ومخذراً . وبما تؤملُ نيلهُ يأتيكا  
قد هزَّ عزمك كلَّ قطرٍ نازحٍ . وأخاف مملوكاً به ومليكا  
فإذا سموتَ إلى مرَّامٍ شاسعٍ . فغصونه ثمرَ المني تجنيكا  
ضمنتُ رجالُ الله منك مطالبي . لما جعلتك في الثواب شريكا  
فلئن كفيت وجوهها في مقصدي . ورعيتها بركاتها تكفيكا  
وإذا قضيت حوائجي وأريتني . أملاً فربك ما أردت يريكا  
واشدُّدْ على قولي يداً فهو الذي . برهانه لا يقبل التشكيكا  
مولاي ما استأثرتُ عنك بمهجتي . إتي ومهجتي التي تفديكا  
لكن رأيتُ جنابَ شالة مغنماً . يُضفي عليَّ العزَّ في ناديكَا  
وفروضُ حَقك لا تفوتُ فوقتها . باقٍ إذا استجزيته يجزيكا  
ووعدتني وتكرَّر الوعدُ الذي . أبت المكارمُ أن يكون أفيكا  
أضفى عليك الله سترَ عنايةٍ . من كلِّ محذورِ الطريق يقيكا

ببقائك الدنيا تُحاطُ وأهلها فاللهُ جلَّ جلاله يُبقيكما  
فلمَّا وصل الكتاب إلى السلطان أجابه بما مر آنفًا .

ورأيت بخط الفقيه الأديب المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي  
نزيل تلمسان على هامش قول ابن الخطيب في هذه الرسالة « ولا شك عند عاقل  
أنكم إن انحللت عروة تأميلكم - إلخ » ما صورته : كذلك وقع آخر الأمر ،  
وكان الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في  
محرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، فرحم الله تعالى ابن الخطيب ، العاقل اللبيب ،  
وغفر له برحمته ؛ انتهى .

وممَّا خاطب به لسان الدين السلطان أبا سالم في الغرض المتقدم قوله :

عن بابِ والدك الرضي لا أبرحُ  
ضربتُ خيامي في حماه فضببتي  
حتى يراعى وجهه في وجهي  
أيسوغُ عنْ مثواه سيري خائباً  
أنا في حماه وأنتَ أبصرُ بالذي  
في مثلها سيفُ الحميةِ يُنتَضَى  
وعسى الذي بدأ الجميلَ يعيده

يأسو الزمانُ لأجلِ ذا أو يجرحُ  
تجني الجحيمَ به وبهمني تسرحُ  
بعناية تشفي الصدورَ وتشرحُ  
ومنابرُ الدنيا بذكرك تصدحُ  
يرضيه منك فوزنُ عقلك أرجحُ  
في مثلها زئدُ الحفيظة يُقدحُ  
وعسى الذي سدَّ المذاهبَ يفتحُ

[ ترجمة أبي سالم المريبي ]

وقد عرّف في « الإحاطة » بالسلطان أبي سالم فقال بعد كلام : أملاك المسلمين ،  
وحماة الدين ، وأمرء المغرب الأقصى من بني مرّين ، غيوث المواهب وليوث العرين ،  
ومعتمد الصريخ وسهام الكافرين ، حفظ الله تعالى على الإسلام والمسلمين ظلهم ،  
وزين ببذور الدنيا والدين هالتهم ، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم أو من

أقاربهم ، فما عسى أن يُطْنِبَ اللسانُ في مدحهم ؟ وأين تقع العبارة ؟ وماذا<sup>١</sup> يحصر الوصف ؟ إلى أن قال : وفاته — وفي ليلة العشرين من ذي القعدة<sup>٢</sup> من عام اثنين وستين وسبعمائة<sup>٣</sup> ثار عليه بدار الملك وبلد الإمارة المعروف بالبلد الجديدي من مدينة فاس الخائنُ الغادرُ مخلفه عليها عمر بن عبد الله بن علي نسمة السوء ، وجملة الشؤم ، والمثل البعيد في الجراءة على الله تعالى ، وقد اهتبل غيرة انتقاله إلى القصر السلطاني بالبلد القديم متحولاً إليه حذراً من قاطع<sup>٤</sup> فلكي كان يحذر منه ، استعجله بضعف نفسه ، وأعانه على فرض صحة الحكم به ، وسد الباب في وجهه ، ودعا الناس إلى بيعة أخيه المعتوه ، وأصبح حائراً بنفسه ، يروم ارتجاع أمر ذهب من يده ، ويطوف بالبلد يلتمس وجهاً إلى نجاح حيلة ، فأعياه ذلك ، ورشقت من معه السهام ، وفرّت عنه الأجناد والوجوه ، وأسلمه الدهر ، وتبرأ منه الجدد ، وعندما جنّ عليه الليل فر لوجهه ، وقد التفّ عليه الوزراء ، فسفّهت حلومهم ، وقالت آراؤهم ، ولو قصدوا به بعض الجبال المنيعة لولوا أوجههم شطر مظنة الخلاص ، واتصفوا بإبلاغ الأعداء ، ولكنهم نكلوا عنه . ورجعوا أدراجهم وتسلّوا راجعين إلى يد غادر الجملة ، قد سلبهم الله سبحانه لباس الحياء والرجولية وتأذن الله تعالى لهم بعدُ بسوء العاقبة . وقصد بعض بيوت البادية وقد فضحه نهارُ الغد ، واقتفى المتبعة أثره حتى وقعوا عليه ، فسيق إلى مَصْرَعِه ، وقُتِل بظاهر البلد ثاني اليوم الذي غدر به فيه ، جعلها الله تعالى له شهادةً ونقعه ؛ فلقد كان ° بقية البيت وآخر القوم دماًئةً وحياءً ، وبعداً عن

١ ق : وما .

٢ ص : قعدة .

٣ قال ابن الأحمر : وقتل رحمه الله تعالى وأنا أنظر إليه وأتوجع وأبكي يوم الخميس ٢١ لذي

القعدة سنة ٧٦٢ وله ٢٨ سنة (روضة النسرين : ٣٠) .

٤ القاطع والقطع في مصطلح المنجمين ما يدل على نحس وخسارة .

٥ انظر أزهار الرياض ١ : ٢٧٠ .

الشرور ، وزكواً للعافية ، وأنشدت على قبره الذي ووريت به جثته بالقلعة من  
ظاهر المدينة قصيدةً أدبتُ فيها بعض حقّه :

بي الدنيا بني لمع السرابِ « لدوا للموت وابنوا للخرابِ »

انتهى المقصود من الترجمة .

وكان يصف لسان الدين بمقرَّبِي وجليسي ، كما سبقت الإشارة إليه من كلام  
لسان الدين فيما خاطب به ابن أبي رمانة ، والله يسبل على الجميع رداء عفوه  
سبحانه .

وقد تقدم أنه شفع لابن الخطيب عند أهل الأندلس ، ولذلك قال يخاطبهم :

سَمِيَّ خَلِيلِ اللَّهِ أَحْيَيْتَ مُهْجَتِي وَعَاجَلْتَنِي مِنْكَ الصَّرِيخُ عَلَى بُعْدِ  
فَإِنْ عَشْتُ أُبْلِغُ فَيْكَ نَفْسِي عَذْرَاهَا وَإِنْ لَمْ أَعْشُ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ مِنْ بَعْدِي

[ نناء المغاربة والمشاركة على لسان الدين ]

وقال الرئيس الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر في حق ابن  
الخطيب ما صورته<sup>١</sup> : هو شاعر الدنيا ، وعَلِمَ المفرد والتُنْيَا ، وكاتب الأرض ،  
إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه في الكَتَبِ ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من  
تقدم في الماضي ، وسيف مِقْوَلِهِ ليس بالكَهَامِ إذ هو الماضي ، وإلَّا فأنظر  
كلام الكَتَّابِ الأول من العصبية ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة ،  
للبراعة ، بالبراعة ، وبه أُسكت صائلهم ، وما حُمِدَتْ بُكْرُهُمْ وَأَصَائِلُهُمْ ،  
للجزالة المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العُدوتين ،  
ورئيس الدولتين ، بالإطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية ، لكن

١ هذا نص ما قاله في نثير فرائد الجمان ٢٤٢ وانظر أزهار الرياض ١ : ١٩١ .

صِلَّ لسانه في الهجاء لسع ، ونجاد نطقه في ذلك اتسع ، حتى صدمني ، وعلى القول فيه أقدمني ، بسبب هجوه في ابن عمي ملك الصقع الأندلسي ، سلطان ذلك الوطن في النفر الجنسي ، المعظم في الملوك بالقول الجني والإنسي ، ثم صفحت عنه صفحة القادر ، الوارد من مياه الظفر غير القاذر ، لأن مثلي لا يليق به إظهار العورات ، ولا يجمل له تتبع العثرات ، أتباعاً للشرع في تحريم الغيبة ، وضرباً عن الكريهة وإثباتاً لحظوظ النقيبة الرغبة ، فما ضره لو اشتغل بذنوبه ، وتأسف على ما شربه من ماء اللهو بذنوبه<sup>١</sup> ، وقد قال بعض الناس : من تعرض للأعراض ، صار عرضُه هدفاً لسهام الأعراس ؛ انتهى .

ومثل هذا في لسان الدين لا يقدر ، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح<sup>٢</sup> ، وعلى تقدير صدور ما يخذش وجه جنابه الرفيع ، فالأولى أن ينشد :

وإذا الحبيبُ أتى بذنْبٍ واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيع

وممن أثنى على لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - بعضُ أكابر علماء تلمسان ، ولم يحضرنى الآن اسمه ، في تأليف عرف فيه بالشيخ العلامة سيدي أبي عبد الله الشريف التلمساني وابنيه العالمين أبي يحيى وسيدي عبد الله ، فقال بعد كلام في حق الشريف ما نصّه : وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره ، وأكثرهم تعظيماً له ، حتى إن العالم الشهير لسان الدين ابن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة ، والتأليف البديعة ، كلّمَا ألف تأليفاً بعثه إليه ، وعرضه عليه ، وطلب أن يكتب عليه بخطه ، وكان الشيخ الإمام الصدر المقتي أبو سعيد ابن لب شيخ علماء الأندلس وآخرهم كلّمَا أشكلت عليه مسألة كاتبه بها ، وطلب منه بيان ما أشكل عليه ، مقرأً له بالفضل ؛ انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

١ الذنوب : الدلو .

٢ عجز بيت ، وصدرة : « هجوت زهيراً ثم إني مدحته » .

رجع :

وكتب لسان الدين ابن الخطيب متمثلاً بشيخه الأوحى قاضي الجماعة أبي البركات ابن الحاج البليقي رحمهما الله تعالى<sup>١</sup> :

أيتها النفس إليه اذهبي فحُبّه المشهور من مذهبي  
أيأسني التوبة من حُبّه طلوعه شمساً من المغرب

ويغلب على ظني أنه خاطبه بذلك عند قدومه ، أعني لسان الدين ، من المغرب إلى الأندلس ، والله تعالى أعلم .

وكان قاضي القضاة برهان الدين الباعوني الشامي<sup>٢</sup> ، كثير الثناء على لسان الدين رحمه الله تعالى ، لأنه تلقى أخباره من قاضي القضاة ابن خلدون حسبما ذكرناه في غير هذا الموضع ، ولقد رأيت بخطه على هامش بعض تأليف لسان الدين في الإنشاء ما نصّه : هذا بليغ إلى الغاية ؛ انتهى .

وكتب أثره بعض أكابر علماء المشرق ما نصّه : هذا خط العلامة قاضي القضاة برهان الدين الباعوني ، وهو شديد الاعتناء والمدح للمصنف ابن الخطيب الأندلسي ، معظم له ولإنشائه ، وهو خليق بالتعظيم ، جدير بمزيد التمجيد والتكريم ، وكيف لا وهو شاعر مُفْلِقٌ ، وخطيب مِصْتَقِعٌ ، وكاتب مترسل بليغ ، لولا ما في إنشائه من الإكثار ، الذي لا يكاد يخلو من عثار ، والإطناب . الذي يُفْضِي إلى الاجتناب ، والإسهاب ، الذي يَقْدُ الإهاب ، ويورث الالتهاب ؛ انتهى .

١ قد تقدم القول في البيتين ونسبتهما ج ٤ : ١٤ ؛ ٥ : ٣٤٨ ، ٤٨٢ .

٢ هو إبراهيم بن أحمد الباعوني ( - ٨٧٠ ) الصفدي المولد الدمشقي الدار ، كان ينمت بقاضي القضاة مع أنه رفض تولي القضاة ، وله ديوان شعر ومؤلفات أخرى ( الضوء اللامع ١ : ٢٦ والبدر الطالع ١ : ٨ ونظم العقيان : ١٣ ) .

قلت : وهذا الانتقاد غير مُسَلِّم ، فإن لسان الدين وإن أظنّب وأسهب ، فقد سلك من البلاغة أحسنَ مذهب ، ويرحم الله تعالى العلامة البرهان الباعوني المذكور أعلاه ، إذ كتب بخطّه في آخر بعض تأليف لسان الدين في الإنشاء ما صورته : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعوني لطف الله تعالى به : الحمد لله على ما ألهم من البيان وعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم ، وقفتُ على هذا الكتاب من أوله إلى آخره ، وعمتُ من بحر بلاغته في زاخره ، وعددته من مناقب مؤلفه ومفاخره ، فإنه برز فيه غاية التبريز ، وأتى بما هو أحسن من الذهب الإبريز ، لا بل هو أبهى من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، وعمجت من تلك الألقاظ ، المشبهة لسحر الألقاظ ، ورقة المعاني ، المحكمة المباني ؛ انتهى .

فانظر - أيدك الله تعالى - بعين الإنصاف إلى كلام هذا الفاضل ، المنصف الكامل ، وقِسْه مع كلام ذلك المنتقد المتعصب الناقص الحامل ، مع أن الكلام الذي تعرض له ذاك بالقدح ، هو الذي تصدى له الباعوني بالمدح ، وكل إناء بالذي فيه ينضح ، وإنّما يعرف الفضل لأهل الفضل أهل الفضل ، والأمر أجلى من أن يقام عليه دليل وأوضح .

رجع إلى ما كتبنا بصدده :

وقال الوزير ابن عاصم عندما أجرى ذكر سلطان ابن الخطيب أمير المسلمين الغني بالله بعد كلام كثير ما صورة محل الحاجة منه : وكان هذا السلطان من نيل الأغراض على أكمل ما يكون عليه مثله ممن نزع غرقاً في قوس الخلافة ، حكى لي شيخنا القاضي أبو العباس الحسيني أن كبير ولده الأمير أبا الحجاج طلب من الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب أن يطلب من أبيه الغني بالله أن يبادر بإعذاره ، إذ كان قد جاوز سنّ الإثغار ، دون إعدار ، لمكان ما لحق والده من التمحيص وغير ذلك من الحوادث المهمة ، فأسعده الشيخ بذلك . وقال

لغني بالله : يا مولانا إن سيدي يوسف وكتني على طلب إعذاره من مولانا نصره الله على ما يليق بك وبه ، فقال له الغني بالله : حسبي الله ، وسكت سكتة لطيفة تُشعر بفصل الكلام بعضه من بعض ، ثم قال : ونعم الوكيل ! فعدّها الأكياس من مدارك نُبيله ، ومحاسن قوله وفعله ؛ انتهى .

قلت : هذا من السلطان في حق لسان الدين غاية التبجيل ، أعني قوله « ونعم الوكيل » فأين هذا من سماع كلام أعدائه فيه بعد ، حتى آل أمره إلى النحس بعد ذلك السعد ؟ وسقاه دهره بعد الحلاوة ما مر ، ولم يكن قتله إلا بتسبب السلطان المذكور كما مر :

ثلاثةٌ ليسَ لها أمانُ البحرُ والسلطانُ والزمانُ

[ ٥ - رسالة ابن خاتمة إلى لسان الدين ]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى <sup>١</sup> : ولما قضى الله عز وجل بالإدالة ، ورجعنا إلى أوطاننا من العُدوة ، واشتهر عني ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة ، والتهيه على السلطان والدولة ، والتكبر على أعلى رتب الخدمة ، وتطارحت على السلطان في استنجاز وعد الرحلة ، ورغبت في تبرئة الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة ، خاطبني - يعني أبا جعفر ابن خاتمة - بعد صدرٍ بَلَغَ من حسن الإشارة وبراعة الاستهلال الغاية بقوله : « وإلى هذا يا سيدي وعمل تعظيمي وإجلالي ، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم ، وضاعف في العز درجات ارتقائكم ، فإنه من الأمر الذي لم يغب عن رأي العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ، أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطيراز مُلكها ، وقِلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام

١. انظر الإحاطة ١ : ١٢٤ وأزهار الرياض ١ : ٢٦٥ .



زينتها على العموم والخصوص ، ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ،  
 وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبّ مارستانها ، والذي عليه عقد إدارتها ،  
 وبه قوام إمارتها ، فلديه يحلّ المشكل ، وإليه يُلجأ في الأمر المعضّل ، فلا غرو أن  
 تتقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحذق نحوكم الأذهان والأفكار ، ويؤزجر عنكم  
 السانح والبارح ، ويستنبأ ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح ، استقراء  
 لمرامكم ، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم ، واستكشافاً عن مرامي سهاهكم ،  
 لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق ، وظهوركم في ملتجع بروق ،  
 واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق ، حتى تستقر بكم الديار ، ويلقي  
 عصاه التسيار ، ولها العذر في ذلك إذ صدّعها بفراقكم لم يندمل ، وسرورها  
 بلقائكم لم يكتمل ، ولم يبرأ بعدُ جناحها المهيبض ، ولا جمّ ماؤها المغيض ،  
 ولا تميزت من داجيها لياليها البيض ، ولا استوى نهارها ، ولا تألقت أنهارها ،  
 ولا اشتملت نعمائوها ، ولا نُسيت غمّائوها ، بل هي كالناقة ، والحديث العهد  
 بالمكارة ، يستشعر نفس العافية ، ويتمسح منكم باليد الشافية ، فبحنانكم عليها ،  
 وعظيم حرمتمكم على من لديها ، لا تشوبوا لها عذب المُجّاج بالأجاج ، وتفطموها  
 عمّا عودت من طيب المزاج ، فما لدائها وحياة قربكم غير طبكم من علاج .  
 « وإني ليخطر بخاطري محبة فيكم ، وعناية بما يعينكم ، ما نال جانبكم  
 صانه الله تعالى بهذا الوطن من الجفاء ، ثمّ أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم  
 الوفاء ، وأن الوطن لإحدى المواطنين الأظّار التي يحقّ لها جميل الاحتفاء ، وما  
 يتعلّق بكم من حرمة أولياء القرابة وأوداء الصفاء ، فيغلب على ظني أنكم لحسن  
 العهد أجنح ، وبحقّ نفسكم عن حقّ أوليائكم أسمح ، وليّتي هي أعظم قيمة  
 من فضائلكم أو هبّ وأسجّح ، وهب أن الدرّ لا يحتاج في الإثبات ، إلى شهادة  
 النحور واللبّات ، والياقوت غني في المكان ، عن مظاهرة القلائد والتيجان ،  
 أليس أنّه أعلى للعيان ، وأبعد عن مكابرة البرهان ، تألّفها في تاج الملك أنوشروان ؟  
 فالشمس وإن كانت أم الأنوار ، وجلاء الأبصار ، مهما أغمى مكانها من الأفق

قيل : أليلٌ هو أم نهار ، وكما في علمكم ما فارق ذوو الأرحام ، وأولو الأحلام ، مواطن استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم ، واستبدال دار خير من دارهم ، ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعبيد ، وما فوقه مرابط جهاد ، ومعاهد ألوية في سبيل الله ومضارب أوتاد ، ثم يبوأ ولده مبوأ أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيد أنظاركم المسددة من رأي فائل ، وسعي طويل لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد ؛ وهي طويلة .

[ ٦ - من لسان الدين إلى ابن خاتمة ]

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : فأجبت بقولي ١ :

لَمْ فِي الْهَوَى الْعَذْرَى أَوْ لَا تَلْمُ فَالْعَذْلُ لَا يَدْخُلُ أَسْمَاعِي  
شَأْنَكَ تَعْنِيفِي وَشَأْنِي الْهَوَى كُلُّ أَمْرٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

أهلاً بتحفة القادم ، وريحانة المنادم ، وذكر الهوى المتقادم ، لا يصغّر الله مسراك ، فما أسراك ، لقد جبت إليّ من همومي ليلا ، وجست رجلاً وخيلاً ، ووفيت من صاع الوفاء كيلاً ، وظننت بي الأسف على ما فات ، فأعملت الالتفات ، لكيلاً ٢ ، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدي ، أو كانت اللمة السوداء من عُددي ، ما أفلت أشراكي المنصوبة لأمثالك ٣ ، حول المياه وبين المسالك ، ولا علمت ما هنالك ، لكنك طرقت حمي كسعته الغارة الشعواء ، وغيرت

١ الإحاطة ١ : ١٢٦ والأزهار ١ : ٢٦٧ .

٢ هذا من الاكتفاء ، فهو يشير إلى الآية الكريمة « لكي لا تأسوا على ما فاتكم . . . الآية » .

٣ نثر بيت الشريف الرضي :

لو كانت اللمة السوداء من عددي يوم الغنيم لما أفلت أشراكي

رَبَّعَهُ الْأَنْوَاءَ ، فمخمد بعد ارتجاعه ، وسكت أذینُ دجاجه ، وتلاعبت الرياحُ  
الهُوجُ فوق فيجاجة ، وطال عهدهُ بالزمنِ الأوَّلِ ، وهل عند رسمِ دَارسٍ من  
مُعَوَّلٍ ؟ وحيّاً الله نَدْباً إلى زيارتي نَدَبَكَ ، وبآدابه الحكيمية أدَبَكَ :

فكان وقد أفادَ بكَ الأمامي كمن أهدى الشفاء إلى العليل

وهي شيمَة بوركِت من شيمَة ، وهبة الله تعالى قبله من لدن المشيمَة ،  
ومَن مثله في صلةِ رعي ، وفضلِ سعي ، وقولِ رعي ١ :

قَسَمًا بالكواكب الـ زَهْرٍ والزُهْرُ عاتمه  
إِنَّمَا الْفَضْلُ مِلَّةٌ خُتِمَتْ بِابْنِ خَاتَمِهِ

كساني حلة فضله ، وقد ذهب زمان التجمّل ، وحمّلي شكره وكتدي  
أواه عن التحمل ، ونظرني بالعين الكليلَة عن العيب ، فهلاًّ أجاد التأمّل ، واستطلع  
طِلْعَ نَشْيِ ٢ ، ووالى في مبرك المعجزة حثي ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾ :

ولو تُرِكَ الْقَطَا لَيْلاً لِنَامَا ٣

وما حال شمل وتده مفروق ، وقاعدته فروق ، وصُواع بني أبيه مسروق ،  
وقلب قَرَحِهِ من عَضَّةِ الدهرِ دامٍ ، وجمرة حسرته ذات احتدام ، هذا وقد  
صارت الصغرى ، التي كانت الكبرى ، لمشيب لم يدع أن هجم لمّا نجم ، ثم  
تهلّل عارضه وانسجم :

لا تجمعي هَجْرًا عَلَيَّ وَغَرَبَةً فَالهِجْرُ فِي تَلْفِ الْغَرِيبِ سَرِيعٌ

١ ق ص : ومرعى .

٢ النث : ما يذيعه المرء من سر .

٣ من أمثالهم ؟ وصدده : «ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا» يريد أن وراء إثارة القطا في الليل أمراً رهيباً . انظر فصل المقال : ٣٠٥ - ٣٠٦ .

نظرت فإذا [ الجنب ناب ، و ]<sup>١</sup> النفس فريسة ظفُر وناب ، والمال أكيلة  
انتهاب ، والعمر رهن ذهاب ، واليد صفر من كل اكتساب ، وسوق المعاد  
مترامية ، والله سريع الحساب :

ولو نُعطي الخيار لما افترقنا ولكن لا خيارَ معَ الزمان

وهب أن العمر جديد ، وظلّ الأمن مديد ، ورأي الاغتيال بالوطن شديد ،  
فما الحجّة لنفسي إذا مرت بمطّارح جفوتها ، وملاعب هفوتها ، ومثاقف  
قتاتها ، ومظاهر عزّها ومناها ، والزمان وكُود ، وزناد الكون غير صلُود :

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرّةً تركته حين يُجرّ جبلٌ يَفْرَقُ<sup>٢</sup>

ثم إن المرغب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وهب ، والعارض قد  
اشتبه ، وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة ، وأسمائه على الحوار مخفوضة ،  
والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة ، والتوبة بفضل الله عز وجل  
منقودة ، والمعاملة سامرية ، ودروع الصبر سابرية ، والاقتصاد قد قرت العين  
بصحبته ، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته ، فإذا راجعها مثلي من بعد الفراق ،  
وقد رقتي لدغتها ألف راق ، وجمعتني بها الحجر ، ما الذي تكون الأجرة ؟  
جل شاني ، وإن رضي الوامق وسخط الشاني ، إني إلى الله تعالى مهاجر ،  
وللعرض الأدنى هاجر ، ولأطعان السرى زاجر ، لنجد إن شاء الله تعالى وحاجر ،  
لكن دعائي للهوى ، إلى هذا المولى المنعم هوى ، خلعت نعلي الوجود وما خلعت ،  
وشوقي أمرني فأطعته ، وغالبٌ والله صبري فما استطعته ، والحال أغلب ،  
وعسى أن لا يخيب المطلب ، فإن يسر رضاه فأمر كمل ، وراحل احتمل ، وحادٍ  
أشجى الناقة والجمال ، وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العلائق ، والتسليم

١ انفردت بها ص ، ووردت في المصدرين المذكورين .

٢ البيت لصالح بن عبد القدوس (تاريخ بغداد ٩ : ٣٠٤) .

بعقامي لائق :

ما بينَ غَمَضَةِ عَيْنٍ وانتباهتها يُصَرِّفُ الأَمْرُ من حالٍ إلى حالٍ

وأما تفضيله هذا الوطن ليُمنَ طَيْرِهِ ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ،  
وعمران رُبَاهِ ووِهَادِهِ ، بأشلاء عِبَادِهِ وزُهَادِهِ ، حتى لا يفضلهُ إلا أحدَ الحرمين ،  
فحقُّ بَرِيءٍ من الميّن ، لكنني للحرمين جنحت ، وفي جوِّ الشوقِ إليهما سنحت ،  
فقد أفضتُ إلى طريقِ قَصْدِي محجته ، ونصرتني والمنة لله تعالى حُجَّتِهِ ، وقصد  
سيدي أسنى قصد توخّاه الحمد والشكر ، ومعروف عرف به النكر ، والآمال  
من فضل الله بعدُ تُمْتَارُ ، والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ودعاؤه بظهر الغيب  
مدد ، وعدة وعدد ، وبره حالِي الظعن والإقامة معتمَل معتمد ، ومجال المعرفة  
بفضله لا يحصره أمد ، والسلام ؛ انتهى .

ومن خط ابن الصباغ ما صورته : يكفي ابنَ خاتمة الغايةُ التي سلمها له  
إمام الطريقة ، وواحدها الفذ على الحقيقة ، حيث قال :

إنما الفضلُ ملةٌ خُتِمَتْ بابن خاتمة

ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة وطُلب منه أن يعود فأبى وأنشد :

تَقَضَّى في الكتابة لي زمانٌ كشأن العبدِ يَنْتَظِرُ الكتابةُ  
فمنَّ الله من عِتْقِي بما لا يطيقُ الشكرُ أن يملا كتابه  
وقالوا هل تعود فقلت كلا وهل حرٌّ يعود إلى الكتابه

فانظر حُسْنَ هذه التورية العجيبة ؛ انتهى .

[ رسالة ابن خاتمة إلى ابن جزري ]

ولابن خاتمة يخاطب ابن جزري : يا أخي الذي سما ودُّه أن يُجازي ،

وسيدي الذي علا مجده عن أن يُوازي ، وصل الله تعالى لك أسباب الاعتلاء والاعتزاز ، وكافاً ما لك من الاختصاص بالفضائل والامتياز ؛ أما إنّه لو وسع التخلف عن جواب أخ أعز ، ولم يجب التكلف عمن قد عجز ، لفطيت عجزني عن عين تعجيزك ، ولما تعاطيت المثول بين يدي مناهرك أو مجيزك ، لكنّه في حكم الود المكنون المكنوز ، ممّا لا يحل ولا يجوز ، فلکم الفضل في الإغضاء عن عاجز ، دعاه حكم التكلف إلى القيام مقام مُناجز ، وإن لم يكن ذلك عند الإنصاف ، وحميد الأوصاف ، من السائغ الجائر ، فعن جهد ما بلغ وليك إلى هذه الأحواز ، ولم يحصل الحقيقة إلّا على المجاز . أمّا ما ذهبتم إليه من تخميس القصيدة التي أعجزت ، وبلغت من البلاغة الغاية التي عزت مُناهضتُها وأعوزت ، فلم أكن لأستهدف ثانياً لمضاضة الإعجاز ، وأسجل على نفسي بالإفلاس والإعواز ؛ انتهى .

وكتب قبلها قصيدة زائية أجابه بها عن قصيدة زائية ، التزم فيها ابنُ جزري ترك الراء ، لأنّه كان أُلثغ يبدلها غيناً ، رحم الله تعالى الجميع .  
وقال لسان الدين في ترجمة ابن خاتمة المذكور<sup>١</sup> : إنّه الصدر المتفنن المشارك ، القوي الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الذهن ، الكثير الاجتهاد ، الموفور الأدوات ، المعين الطبع ، الجيد القريحة ، الذي هو حسنة من حسنات الأندلس ، أحمد بن علي بن خاتمة ، من أهل المرية .

[ ٧ - رسالة من ابن خاتمة إلى لسان الدين ]

إلى أن قال : «وممّا خاطبني به بعد إمام الركاب السلطاني ببلده وأنا صحبته ، ولقائه إيّاي بما يلقي به مثله من تأنيس وبر ، وتودد وتردد :

يا من حصلت على الكمال بما رأيت عيناى منه من الجمال الرائع

١ انظر الإحاطة ١ : ١١٤ ، ١١٦ .

قمرٌ يروقُ وفي عِطافِيْ بَرْدِهِ      ما شئتَ من كرمٍ ومجدٍ بارِعٍ  
أشكو إليك من الزمانِ تحاملاً      في فَنصِ شَمَلٍ لي بقربكِ جامعٍ  
هَجَمَ البعادِ عليهِ ضنّاً باللِّقا      حتى تَقَلَّصَ مثلَ برقٍ لامِعٍ  
فلو آتَيْتُ ذُو مَدَّهِبٍ لشفاعةِ      ناديتُهُ يا مالكي يا شافعي

« شكواي إلى سيدي ومُعَظَمِي - أقر الله تعالى بسنائه أعين المجد ، وأدرَ بثنائه  
ألسنَ الحمد - شكوى ظمآنِ صُدَّ عن القَرَّاحِ العَدْبِ لأوّلِ ورودِهِ ، والهيمانِ  
رد عن استرواحِ القربِ لمعضلِ صدوده ، من زمانِ هجمِ عليّ بإبعاده ، على حينِ  
إسعاده ، ودهمني بفراقِهِ ، غبَّ إنارةِ أفقي به وإشراقِهِ ، ثم لم يكفِهِ ما اجترَمَ في  
ترويعِ خياله الزاهرِ ، حتى حرم عن تشييعِ كماله الباهرِ ، ففُطِعَ عن توفيةِ حقِّهِ ،  
ومُنِعَ من تأديةِ مستحقِّهِ ، لا جَرَمَ أَنَّهُ أنفَ لشعاعِ ذُكائِهِ ، من هذه المطالعِ  
النائيةِ عن شريفِ الإنارةِ ، وبخلِ بالإمتاعِ بذكائِهِ ، عن هذه المسامعِ النائيةِ  
لطفِ العبارةِ ، فراجعِ أنظارِهِ ، واسترجعِ معارِهِ ، وإلا فعهدي بغروبِ  
الشمسِ إلى الطلوعِ ، وأن البدرِ يتصرفُ بين الإقامةِ والرجوعِ ، فما بال هذا  
النيرِ الأسعدِ ، غَرَبَ ثمَّ لم يطلعِ من الغدِ ، ما ذاكِ إلا لعدوىِ الأيامِ وعدوانِها ،  
وشأنِها في تغطيةِ إساءتها وجهِ إحسانِها ، وكما قيل : عادت هيف إلى أديانِها ،  
أستغفر الله أن لا يعد ذلك من المغفَرِ ، في جانبِ ما أولت من الأثرِ ، التي أزرى  
العيانِ فيها بالأثرِ ، وأرَبى الخُبِرَ على الخُبِرِ ، فقد سرت متشوقاتِ الخواطرِ ،  
وأقرتِ مستشرفاتِ النواظرِ ، بما حوت من ذلكم الكمالِ الباهرِ ، والجمالِ  
الناضرِ ، الذي قيد خطا الأبصارِ ، عن التشوِّفِ والاستبصارِ ، وأخذ بأزِمَةِ  
القلوبِ ، عن سبيلِ كلِّ مأمولٍ ومرغوبٍ ، وأتى للعينِ ، بالتحوُّلِ عن كمالِ  
الزَيْنِ ؟ أو بالطرفِ ، بالتَّنقُلِ عن خلالِ الظرفِ ؟ أو للسمعِ من مرادِ ، بعد

ذلكم الإصدار الأدبي والإيراد ، أو للقلب من مراد ، غير تلکم الشيم الرافلة من ملابس الكرم في حُلل وأبراد، وهل هو إلاّ الحسن جُمع في نظام ، والبدر طالع لتمام ، وأنواع الفضل ضمها جنس اتفاق والثام ، فما ترعى العين منه في غير مرعى خصيب ، ولا تستهدف الأذن بغير سهم في حلق البلاغة مصيب ، ولا تستطلع النفس سوى مطلع له في الحسن والإحسان أوفر نصيب ، لقد أزرى بناظم حلاه فيما يتعاطاه التقصير ، وانفسح مدى علاه بكل باع قصير ، وسفه حلم القائل إن الإنسان عالم صغير ، شكراً للدهر على يد أسداها بقرب مزاره ، وتحفة أهداها بمطلع أنواره ، على تغاليه في ادخار نفائسه وبخله بنفائس ادخاره ، لا غرو أن يضيق عنا نطاق الذكر ، ولا يتسع لنا سوار الشكر ، فقد عمت هذه الأقطار بما شاءت من تحف بين تحفٍ وكرامة ، واجتنت أهلها ثمرة الرحلة في ظل الإقامة ، وجرى لهم الأمر في ذلك مجرى الكرامة .

« ألا وإن مفاتيحي لسيدي ومعظمي - حرس الله تعالى مجده ، وضاعف سعده - مفاتيحة من ظفر من الدهر بمطلوبه ، وجرى له القدر على وفق مرغوبه ، فشرع له إلى أهله باباً ، ورفع له من خجله جلباباً ، فهو يكلف بالاقترام ، ويأنف من الإحجام ، غير أن الحصر عن درج قصده يقيته ، والبصر يبهرج نقده فيقعده ، فهو يُقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، ويجدد عزماً ثم لا يتحرى ؛ فإن أبطأ خطابي فلواضح الأعذار ، ومثلکم من قبل جليات الأقدار ، والله سبحانه يصل لكم عوائد الإسعاد والإسعاف ، ويحفظ بكم ما للمجد من جوانب وأكناف ، إن شاء الله تعالى . وكتب في عاشر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة » ؛ انتهى .

ومن خاتمة رسالة من إنشاء ابن خاتمة المذكور : فلنصرف عنان البطالة عن الإطالة ، ونسلم على السيادة الطاهرة الأصالة ، بأطيب تسليم ، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم .



ومن نظم ابن خاتمة المذكور<sup>١</sup> :

هو الدهرُ لا يُبقي على عائذٍ به      فمن شاء عيشاً يصطبرُ لنوائبه  
فمن لم يُصَبْ في نفسه فمُصابه      بفوتِ أمانيهِ وفقدِ حبابه

ومنه قوله :

ملاكُ الأمرِ تقوى الله ، فاجعلْ      تُقاه عُدَّةً لصلاحِ أمرِك  
وبادرْ نحو طاعتهِ بعزمٍ      فما تدري متى يقضى بعمرِك

[ ٨ - رسالة أخرى من ابن خاتمة إلى لسان الدين ]

وقال لسان الدين : وكتب إلي - يعني ابن خاتمة المذكور - عقب انصرافه من غرناطة في بعض قدماته عليها ما نصّه<sup>٢</sup> : ممّا قلته بديهة عند الإشراف على جنابكم السعيد ودخوله مع النفر الذين أتخفتهم سيادتكم بالإشراف عليه ، والدخول إليه ، وتنعيم الأبصار في المحاسن المجموعة لديه ، وإن كان يوماً قد غابت شمسهُ ، ولم يتفّق أن كمل أنسه ، وأنشدته حينئذ بعض من حضر ولعلّه لم يبلغكم ، وإن كان قد بلغكم ففضلكم يحملني في إعادة الحديث :

أقولُ وعينُ الدّمعِ نصبُ عيوننا      ولاحَ لبستانِ الوزارةِ جانبُ  
أهذي سماءُ أم بناء سما به<sup>٣</sup>      كواكبُ غصّتْ عن سناها الكواكبُ  
تناظرتِ الأشكالُ منه تقابلاً      على السعدِ وسطى عقده والحبابُ  
وقد جرتِ الأمواهُ فيه مجرةً      مذانبها شهبٌ لهن ذوائبُ  
وأشرفَ منِ علياه بهوُ تحفه      شماسي زجاجٍ وشيها متناسبُ

١ القطعتان في الإحاطة : ١٢٢ - ١٢٣ .

٢ المصدر السابق : ١٢٣ والكتيبة : ٢٤٤ .

٣ الإحاطة : سمازه .

يطلّ على ماء به الآسُ دائراً<sup>١</sup> كما افتراً ثغراً أو كما اخضرّ شاربُ  
هنالك ما شاء العلّا من جلاله بها يزدهي بستانها والمراتبُ

ولما أحضر الطعام هنالك دعي شيخنا القاضي أبو البركات فاعتذر أنّه صائم  
قد بيّته من الليل ، فحضرني أن قلت :

دعونا الخطيبَ أبا البركات لأكلِ طعامِ الوزيرِ الأجلِ  
وقد ضمّنا في نداءه جناناً به احتفل الحسنُ حتى كملُ  
فأعرض عنّا لعذرِ الصيامِ وما كلَّ عذري له مستقلُ  
فإنّ الجنانَ محلُّ الجزاءِ وليس الجنانُ محلُّ العملُ

وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخنا أبا البركات ، فقال لي :  
لو أنشدتنيها وأنتم بعد لم تفرغوا منه لأكلت معكم ، برأ بهذه الأبيات ، والحوالة  
في ذلك على الله تعالى ؛ انتهى .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور في فرّان :

ربّ فرّانِ جلا صفحتَه لهُبُ الفُرنِ جلاءِ العسجدِ  
يضرّمُ النارَ بأحشاءِ الورى مثلما يضرّمُ في المستوقدِ  
فكانَ الوجه منه خُبزةً فوقها الشعرُ كقدرِ أسودِ

[ أحمد بن صفوان ]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى<sup>٢</sup> : ولما قدمت مالقة آيياً من السفارة إلى  
ملك المغرب محفوفاً بفضل الله تعالى وجميل صنّعه ، موقى المآرب ، مصحّباً

١ ق : دائر .

٢ انظر ترجمة ابن صفوان في الإحاطة ١ : ١٠٠ والكتيبة : ٢١٦ .

بالإعانة ، لقيني على عادته مهنيًا ، يعني أحمد بن صفوان أحد أعلام مالقة وبقية  
أدبائها وصدور كتبها ، وأنشدني معيداً في الود مبدياً ، وضمن غرضاً له تعجل  
قضاه والحمد لله تعالى :

قدمت بما سرّ النفوس اجتلاؤه  
قدوماً بخيرٍ وافرٍ وعنايةٍ  
ورفعةٍ قدرٍ لا يداني محلّها  
عنيتَ بأمرِ المسلمين فكلّتهم  
بلغتَ الذي أمّلتَه من صلاحهم  
فيا واحداً أغنتَ عن الجمع ذاتهُ  
تشوّقتُ الملكُ الذي بك فخره  
فلا زال مُزداناً بحليك جودهُ  
وخصّصتَ من ربّ العبادِ بنعمةٍ  
وعشتَ عزيزاً في النفوسِ محبباً  
وقد جاءني داعي السرورِ مؤدياً  
ولي بعدَ هذا مأربٌ متوقفٌ  
هزرتُ له عطفَ البطرنيّ راجياً  
ولم يدرِ أيّ من علائكَ منتضٍ  
يصمم إن هزّته كفتي لمعضلٍ  
فحقّقْ له دامتِ سعودك حرمتي  
وشاركْ محبباً خالصاً لك حبهُ  
وصلِّ بجزيلِ الرعيّ حبلَ ذمامه  
بقيتَ وصنعُ الله يدي لك المنيّ  
بجرمةٍ من حقّتْ سيادتهُ على

فهنيتَ ما عمّ الجميعَ هناؤه  
وعزّ مَشيدٍ بالمعالي بناؤه  
رفيعٌ وإن ضاهى السماك اعتلاؤه  
بما يرتجيه قد توالى دعاؤه  
فأدركتَ مأمولاً عظيماً جزاؤه  
وقام بأعباء الأمورِ غناؤه  
وأنتَ حقيقاً حسنهُ وبهاؤه  
ولا زال موفوراً عليك اصطفاؤه  
ينيلُكها تخصيصهُ واحتفاؤه  
يلبّي بتبجيلٍ وبرٍّ نداؤه  
لحقّ هناءَ قرّضٍ عينِ أداؤه  
على فضلك الرحبِ الجنبِ قضاؤه  
له النجعُ فاستعصى وخاب رجاؤه  
حساماً كفيلاً بالنجاح انتضاؤه  
فيكفي العنا تصميّمه ومضاؤه  
لديك يرحني مَطْلُه والتواؤه  
قديماً كريماً عهدُه ووفاءه  
يصلُك جزيلاً شكره وثناؤه  
ويوليك من مصنوعه ما تشاؤه  
بني آدم والخيرُ منه ابتداؤه

وجمعت<sup>١</sup> ديوان شعره أيام مقامي بمالقة عند توجيهي صحبة الركاب السلطاني إلى إصراخ الخضراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وقدمت صدره خطبة ، وسميت الجزء بـ « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » .

[ ٩ - إجازة ابن صفوان للسان الدين ]

وطلبت منه أن يجيزني وولدي عبد الله رواية ذلك عنه ، فكتب بخطه الراق بظهر المجموع ما نصّه : الحمد لله مستحق الحمد ، أجبته سؤال الفقيه الأجل الأفضل السري الماجد الأوحد الأحفل الأديب البارح الطالع في أفق المعرفة والنباهة ، والرفعة المكيّنة والوجاهة ، بأبهى المطالع ، المصنف الحافظ العلامة الحائز في فني النظم والنثر ، وأسلوب الكتابة والشعر ، رتبة الرياسة والإمامة ، محليّ جيد العصر بتأليفه الباهرة الرؤاء ، ومجلّي محاسن بنيه الراقية على منصة الإشادة والأنباء أبي عبد الله ابن الخطيب ، وصلّ الله تعالى سعادته ، وحرس مجادته ، وسنّى من الخير الأوفر ، والصنع الأبهى ، مقصده وإرادته ، وبلغه في نجله الأسعد ، وابنه الراقى بمحتده الفاضل ومنشئهِ الأطهر محلّ الفرقد ، أفضل ما يؤمل نحلته إياه من المكرمات وإفادته ، وأجزت له ولابنه عبد الله المذكور أبقاهما الله تعالى في عزّة سنية الخلال ، وعافية ممتدّة الأفياء وارفة الظلال ، رواية جميع ما تقيد في الأوراق المكتتب على ظهر أوّل ورقة منها من نظمي ونثري ، وما توليت إنشاءه ، واعتمدت بالارتجال والرواية اختياره وانتقاه ، أيام عمري ، وجميع ما لي من تصنيف وتقييد ، ومقطوعة وقصيد ، وجميع ما أحمله عن أشياخي رضي الله تعالى عنهم من العلوم ، وفنون المنثور والمنظوم ، بأي وجه تأدّى ذلك إليّ ، وصح حملي له وثبت إسناده لديّ ، إجازة تامة ، في ذلك كلّه عامة ، على سنن الإجازات الشرعي ، وشرطها

١ الإحاطة : ١٠٥ .

المأثور عند أهل الحديث المرعي ، والله ينفعني وإياهما بالعلم وحمله ، وينظمننا جميعاً في سلك حزبه المفلح وأهله ، ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله ؛ قال ذلك وكتبه بخط يده الفاتية العبدُ الفقير إلى الله الغني به أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان ، ختم الله تعالى له بخير ، حامداً الله تعالى ، ومصلياً ومسلماً على نبيه المصطفى الكريم ، وعلى آله الطاهرين ذوي المنصب العظيم ، وصحابته البررة أولي الأثره والتقديم ، في سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ انتهى .

[ ١٠ - من العذري إلى لسان الدين ]

وكتب الفقيه أبو جعفر ابن عبد الملك العذري من أهل سبته إلى لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض الأغراض :

لأنني بمجديك لم أزل مُسْتَيْقِنًا      أن لا يهدم بالتغير ما بتي  
 إذ أنت أعظم ماجد يعزى له      صفح وأكرم من عفا عن جنبي  
 وكتب أيضاً :

إن كان دهري قد أساء وجارا      فذمام مجديك لا يضيع جارا  
 فلأنت أعظم ملجلج يُنْجِي إذا      ما الدهرُ أنجد موعداً وأغارا

[ ١١ - رسالة من لسان الدين إلى ابن نفيس ]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبتُ الشيخَ الشريفَ الفاضلَ أبا عبد الله ابن نفيس صحبة ثمن مسكن اشتريته منه ، وكان قد أهداني فرساً عتيقاً :

جُرُيت يا ابن رسول الله أفضل ما      جزى الإلهُ شريف البيت يوم جزى

إن أعجزَ الشكرُ منِّي منَّةً ضعفت عن بعضِ حَقِّك شُكْرُ الله ما عجزا

« سيدي ، أبقى الله شرفك تشهد به الطباع ، إذا بعدت المعاهد المقدسة والرباع ، وتعترف به الأبصار والأسماع ، وإن جحدت عارضها الإجماع ، بأي لسان أثنى ؟ أم أي الأفنان أهصر وأجني ؟ أم أي المقاصد الكريمة أعني ؟ أمطيت جوادك المبارك ، وأسكنت دارك ، وأوسعت مطلبي اصطبارك ، وهضمت حَقِّك وبوّأت جوارك ، ووصلت للغرباء إيثارك ، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم ، لا أقف في تعدادها عند حدٍ إلى خير جد ، فإن أعان الدهر على مجازاة ، وإن ترفع كرمك عن موازاة ، فحاجة نفس قضيت ، وأحكام آمال أمضيت ، وإن اتصل العجز فعين على القذى أغضيت ، ومناصل عزم ما انتضيت ، وعلى كل حال فالثناء ذائع والحمد شائع ، واللسان والحمد لله طائع ، والله مشترٍ ما أنت بائع ٢ ، وقد وجهت من يحاول لسيدي ثمن ما اكتسبه مجده ، وسقّر عنه حمده ، والعقيدة بعد التراضي ، وكمال التقاضي ، وحميد الصبر وسعة التقاضي ، وكونه الخصم والقاضي ، أنه هبة سوغها لإنعامه ، وأكلة هناها مطعمه ، نسأل الله تعالى أن يعلي ذكره ، ويتولى شكره ، ويُنمِّي ماله ، ويرفع قدره ، والولد جاره الغريب الذي برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة قاصرة ، وتجربة غير منجدة على الدهر وناصره ، قد جعلته وديعة في كرم جواره ، ووضعته في حجر إيثاره ، فإن زاغ فيده العليا في تبصيره ، ومؤاخذته بتقصيره ، ومن نَبّه مثله نام ، ومن استنام إليه بمهمة أكرم بمن إليه استنام ، وإن تشوف ٣ سيدي لحال محبه فمطلق للدنيا من عقال ، ورافض أثقال ، ومؤمل اعتياض بخدمة الله تعالى وانتقال » انتهى .

١ وهضمت . . . عند حد : سقطت من ق .

٢ والحمد . . . بائع : سقطت من ق .

٣ ق : تشوق .

وقال رحمه الله تعالى : ممّا خاطبت به صدر الفضلاء الفقيه المعظم أبا القاسم  
ابن رضوان بما يظهر داعيته من فحواه :

مرضت فأيامي لديك مريضة وبرؤك مقرون ببراء اعتلالها  
فلا راع تلك الذات للضر رافع ولا وسمت بالسقم غرّ خلاها

« وردت علي من فثي التي إليها في معرك الدهر أنحيز ، وبفضل فضلها في  
الأقدار المشتركة أتميز ، سحّاءة سرّت وساءت ، وبلغت من القصدين ما شاءت ،  
أطلع بها سيدي صنيعة ودّه من شكواه على كل عابث في السويداء ، موجب  
اقتحام البيداء ، مضرم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلاّ القليل ، ولا  
من إفصاح لسانه إلاّ الأنين والأليل ، ونوى مدت الغير ضرورة يرضها الخليل ،  
فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع متقبل أعماله ،  
أو أمل ضويق في فذلكة آماله ، لكنني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ،  
وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطّ يبهر والحمد لله تعالى ويروق ،  
واللفظ الحسن تومضُ في حبره للمعنى الأصيل برُوق ، فقلت : ارتفع الوصب ،  
وردّ من الصحة المعتصب ، وآلة الحس والحركة هي العصب ، وإذا أشرق سراجُ  
الإدراك دل على سلامة سكيظه ، والروح خليط البدن والمرء بخليظه ، وعلى  
ذلك فلا يقنع بليد احتياطي إلاّ الشرح ، ففيه يسكن الظمأ البرح ، وعذراً عن  
التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزندُ القلق  
في مثلها أورى ، والشفيقُ بسوء الظن مغرّى ، وسيدي هو العمدة التي سلمت  
لي الأيام فيها ، وقالت : حسب آمالك وكفيها ، فكيف لا أشفق ، ومن أنفق من عينه  
فأنا من عيني لا أنفق ، والله لا يحبط سعيمي في سؤال عصمتها ولا يخفق ، ويرشد  
إلى شكره على ما وهب منها ويوفق ، والسلام الكريم على سيدي البر الوصول ،

الذي زكّت منه الفروع لما طابت الأصول ، وخلص من وده لابن الخطيب  
المحصول ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

[ ١٣ - جواب ابن رضوان ]

قال : فراجعني حفظ الله سيادته بما نصّه :

متى شئت أُلقي من علائك كلّ ما ينيل من الآمال خير منالها  
كبرء اعتلال من دعائك زارني وعادات برّ لم ترمّ عن وصالها

« أبقي الله ذلك الجلال الأعلى متطولا بتأكيد البر ، متفضلاً بموجبات الحمد  
والشكر ، ورَدَّتني سحائه المشتملة على معهود تشريفه ، وفضله الغني عن  
تعريفه ، متحفيماً في السؤال ، عن شرح الحال ، ومُعلنأ بما تحلى به من كرم  
الجلال ، والشرف العال ، والمعظم على ما يسرّ ذلك الجلال الوزاري الرياسي  
أجراه الله تعالى على أفضل ما عَوَدَه ، كما أعلى في كل مكرمة يده ، ذلك ببركة  
دعائه الصالح ، وحبّه المخيم بين الجوانح ، والله سبحانه المحمود على نعمه ،  
ومواهب لطفه وكرمه ، وهو سبحانه المسؤول أن يهبني لسيدي قرّار الخاطر ،  
على ما يسره في الباطن والظاهر ، بمنّ الله تعالى وفضله ، والسلام الكريم على  
جلاله الأعلى ورحمة الله وبركاته ، كتبه المعظم الشاكر الداعي للذاكر المحب  
ابن رضوان ، وفقه الله تعالى ، في ذي الحجّة ختام عام واحد وستين وسبعمائة » ؛  
انتهى .

[ ١٤ - من لسان الدين إلى الجنان ]

وقال رحمه الله تعالى : وفاتحته - يعني الشيخ الجنان - محرّكاً قريحته ومستثيراً

ما عنده ، بقولي :



إن كانت الآدابُ أضحتُ جَنَّةً فلقَدْ غدا جَنَانُهَا الجَنَانُ  
أقلامه القُضْبُ اللَّدَانُ بدَوَّحِهَا والزهرُ ما رَقَمْتَهُ منه بنانُ  
وذكر بعد البيتَين سَجْعاً بليغاً .

[ ١٥ - جواب الجنان ]

ثمَّ قال : فراجعني الجنان بما نصَّه :

يا خاطبَ الآدابِ مهلاً فقد ردَّكَ عن خطبتِها ابن الخطيبُ  
هل غيره في الأرض كفاء لها وشرطها الكفاةُ قولُ مصيبُ  
أصبح للشرطِ بها معرساً فاستفتِ في الفسخ فهل من مجيبُ

أيها السيد الذي يُتنافس في لقائه ويتعالى ، ويصادم بولائه صرف الزمان  
ويتعالى ، وتُستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه ، وتُفتنَّص شوارد العلوم  
بروايات كلامه فكيف بمداناة عيانه ، جلوتَ عليَّ من بنات فكرك عقائل نواهد ،  
وأقمت بها على معارفك الجمَّة دلائل وشواهد ، واقتنصت بِشرك بديهتك من  
المعاني أو ابدَ شوارد ، وفجرتَ من بلاغتك وبراعتك حياضاً عذبة الموارد ،  
ثمَّ كلفتني من إجراء طالعي<sup>١</sup> في ميدان ضليعها ، مقابلة الشمس المنيرة بسراج  
عند طلوعها ، فأخلدت<sup>٢</sup> إخلاذ مهيبض الجناح ، وفررت فرار الأعزل عن شاكي  
السلاح ، وعلمت أنني إن أخذت نفسي بالمقابلة ، وأدليت دلو قريحتي للمُساجلة ،  
كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها ، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها ،  
وإن رضيت من القريحة بسجيتها ، وأظهرت القدرَ الذي كنت امتحنتُ من  
ركبتها ، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين ، ونبت عن أسْمى دواوينهم

١ ق ص : طالعي .

٢ ق ص : فأخذت .

كما تنبو عن الأشيب عيون العين؛ ثم إن أمرك يا سيدي لا يُحَلُّ وثيق مبرمه ، ولا  
يَحِلُّ نسخ محكمه ، فامتثلته امتثال من لم يجد في نفسه حزجاً من قضائك ، ورجوت  
حسن تجاوزك وإغصائك ، أبقاك الله تعالى قطباً لفلك المكارم والمآثر ، وفصلاً  
لحاتم المحامد والمفاخر ، والسلام « انتهى .

### [ ترجمة ابن الجنان ]

والجنان المذكور<sup>١</sup> مغربي من مكناسة الزيتون ، وهو الشيخ الفقيه العدل  
الأديب الأخباري المشارك ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي ،  
الجنان ، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، كاتب عاقل ناظم نادر مشارك  
في فنون من العلم ، له تصنيف حسن في ثلاث مجلدات سماه « المنهل المورود  
في شرح المقصد المحمود » شرح فيه وثائق أبي القاسم الجزيري المالكي ، فأربنى  
على غيره بياناً وإفادة ، قال في « نفاضة الجراب » : وناولني إياه ، وأذن لي  
في حملي عنه ، وأنشدني كثيراً من شعره ، فمن ذلك ما صدر به رسالة يهنيء  
بها ناقهاً من مرّص<sup>٢</sup> :

البسِ الصِّحَّةَ بُرداً قشيباً      وارشفِ النعمةَ ثغراً شنيباً  
واقطفِ الآمالَ زهراً نضيراً      واعطفِ الإقبالَ غصناً رطيباً  
إن يكنْ ساءك وَعَكْ تَقْضَى      تجدِ الأجرَ عظيماً رحيباً  
فانتعشْ في دهرنا ذا سرورٍ      يصبحِ الحاسدُ منه كثيباً

### [ مقطعات وقصائد تكتب على المباني ]

وقال أيضاً لسانُ الدين في النفاضة : قرأت بالدور الخشبي في الدار التي

١ انظر ترجمته في نيل الابتهاج : ٥٠ .

٢ الأبيات في المصدر المذكور .

نزلت بها بمكناسة الزيتون أبياتاً منقشة استحسنتها لسهولةها فأخبرني أنها من نظمه ، وهي :

انظر إلى منزلٍ متى نظرت  
عينك يعجبك كل ما فيه  
ينبئ عن رفعةٍ للملكه  
وعن ذكاء الحجى لبانيه  
يناسب الوشي في أسافله  
ما يرقم النقش في أعاليه  
كأنه روضةٌ مدبجة  
جاد لها وابل بما فيه  
فأظهرت للعيون زخرفها  
ووافقتها على تجليسه  
فهو على بهجةٍ تلوح به  
ورونق الجمال بيديه  
يشهد للساكنين أن لهم  
من جنة الخلد ما يحاكيه

قلت : قد تذكرت هنا ، والشيء بالشيء يُذكر ، ما رأيته مكتوباً على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياتي ، وهي من بدائع الدنيا ، وهو :

انظر بعينك بهجتي وسنائي  
وبديع شكلي ، واعتبر فيما ترى  
من نشأتي بل من تدفق مائي  
صاف كذوب الفضة البيضاء  
قد حف بي أزهارُ وشيٍ نمت  
فغدت كمثل الروض غيب سماء

وما أنشده بعض أهل العصر في المغرب بقصد أن يرسم في الأستار المذهبة المحكمة الصنعة التي جعلها السلطان المنصور أبو العباس الشريف الحسيني رحمه الله تعالى لكي يستر بها النواحي الأربع من القبة الكبيرة بالبديع ، وتسمى هذه الستور عند أهل المغرب بالحائطي ، ففي الجهة الأولى :

متع جفونك من بديع لباسي وأدر على حسني حمياً الكاس

هذي الرُّبى والروضُ من جَرَعاتِها  
 أنَّى لروضٍ أن يروقَ بهاؤهُ  
 فالروضُ تغشاه السوامُ ، وإنما  
 ممّا اغتذى<sup>١</sup> بالعارضِ البجّاس  
 مثلي وأن يجري على مقياس؟  
 تأوي إلى كنفى ظباء كناس  
 وعلى الجهة الثانية :

من كلِّ حَسَنّا كالقُضيب إذا انثى  
 ولقد نشرتُ على السماكِ ذوايبي  
 وجرتُ ذيلي بالمجرّةِ عابثاً  
 ما نبطَ مثلي في القبابِ ولا ازدهت  
 تُزري بغصنِ البانةِ الميَّاسِ  
 ونظرتُ من شَرَر إلى الكنَّاس  
 فخرأُ بمخترعي أبي العبَّاس  
 بفتى سواه مراتبٌ وكراسي  
 وعلى الجهة الثالثة :

ملكٌ تقاصرتِ الملوكُ لعزه  
 غيَّثُ المواهبِ بحرُ كلِّ فضيلةِ  
 فردُ المحاسنِ والمفاخرِ كلَّها  
 ملكٌ إذا وافى البلادَ تَارجتُ  
 ورماهمُ بالذلِّ والإتعاسِ  
 ليثُ الحروبِ مسعَر الأوطاسِ  
 قطبُ الجمالِ أخو الندى والباسِ  
 منه الوهادُ بعاطرِ الأنفاسِ  
 وعلى الجهة الرابعة :

وإذا تطلَّعَ بدرُهُ من هالةِ  
 أيامهُ غرراً تجلَّتْ كلَّها  
 لا زال للمجدِ السنيّ يشيده  
 ما مال بالغصنِ النسيمُ وحببتُ  
 يُعشي سناهُ نواظرَ الجلاسِ  
 أبهى من الأعيادِ والأعراسِ  
 ويقيمُ مبناه على الآساسِ  
 دُررُ الندى في جيده الميَّاسِ

وما أنشدنيهِ بعضُ العصريين من المغاربة لصاحبنا المرحوم الفقيه الكاتب

١ في ص : علماً اغتذى ؛ ق : على ما اغتدى .

المحقق أبي محمد الحسن بن أحمد المسفيوي المراكشي<sup>١</sup> أحد مشاهير الكتّاب  
بباب أمير المؤمنين المنصور بالله أبي العباس الشريف الحسيني ملك المغرب ، صبَّ  
الله تعالى على الجميع أمطار الرضوان ممّا كتب في بعض مباني صاحبنا الوزير  
العلامة الأجل سيدي عبد العزيز الفشتالي رحمه الله تعالى ، وهو :

أجلِ الملقى من قِداحِ سُرُوري	وأدرِ كؤوسَ الأُنسِ دونِ شروري
خلعتُ على عِطْفِ البهاءِ محاسني	فكستُ به الآفاقَ ثوبَ حبور
وتناسقَ الوشْيِ الموقوفِ حلّتي	نسقَ الشذورِ على نحرِ الحور
شأوَ القصورِ قصورها عن رتبة	لي بالسنا الممدودِ والمقصور <sup>٢</sup>
في المبتنى المراكشي وأفقه	أزرى على الزوراءِ والحابور
أعلى مقامي البارِعُ الأسمى الذي	قد حاز سبقَ النظمِ والمثور
فإذا أقلّ بنائه أعلامه	نفتت <sup>٣</sup> عقودَ السحرِ بين سطور
عبدُ العزيزِ أخو الجلالةِ كاتبُ	سِرِّ الخليفةِ أحمدَ المنصور
لا زالَ في يمنٍ وأمنٍ ما شدّت	ورُقٌّ بروضٍ بالندى ممطور

وبعضه كتبه بالمعنى من حفظي لطول العهد ، والغاية في هذا الباب ما أنشدنيه  
لنفسه الوزير أبو فارس عبد العزيز الفشتالي المذكور ، وهي جملة من قصائد  
كتبت في المباني الملوكية المنصورية بالحضرة المراكشية ، حاطها الله تعالى ، فمنها  
ما كتب خارج القبة الحمسينية أي التي فيها خمسون ذراعاً بالعمل ، وذلك قوله  
رحمه الله تعالى على لسان القبة<sup>٤</sup> :

- ١ ترجم له المقرئ في روضة الآس : ١٦٣ وأورد جملة من شعره ، وانظر درة المجال : ١ : ١٢٨  
وله قصائد في مناهل الصفا .  
٢ يريد : بالسنا (مقصوراً) وبالسنا (ممدوداً) .  
٣ ق : نقشت .  
٤ وردت القصيدة في روضة الآس : ١٣٨ - ١٣٩ .

وأصبح قرص الشمس في أذني قرطاً  
 ونيطت بي الجوزاء في عنقي سمطاً  
 نثير جمان قد تتبعته لقطاً  
 جعلت على كيوان رحلي منحطاً  
 خليجاً على نهر المجررة قد غطى  
 إليه وفود البحر تغرف ما أنطى  
 وقد رقرقت حصباؤه حية رقطاً  
 وغيد تجراً من خمائلها مِرطاً  
 جنى الزهر لاح في ذوائبها وخطاً  
 كما مال نشوان تشرّب إسفطاً  
 سواء لديها الغيث أسكب أم أخطأ  
 بحاراً غدا عرض البسيط لها شطاً  
 هي الشمس لا تخشى كسوفاً ولا غمطاً  
 سنا البدر حلّ من نجوم السما وسطاً  
 على جسمها الفضي نهرأ بها لطفاً  
 نقوشاً كأنّ المسك ينقطها نقطاً  
 فإنتي لها في الحسن درتتها الوسطى  
 عذارى نضت عنها القلائد والريطا  
 وأجمل في تنعيمها النحت والحرطا  
 قوارير أفلاك السماح بها ضغطاً  
 بأكنافه رحل العلاء والمهدى حطاً

سموت فخر البدر دوني وانحطاً  
 وصغت من الإكليل تاجاً لمفرقي  
 ولاحت بأطواق الثريا كأنها  
 وعديت عن زهر النجوم لأنني  
 وأجريت من فيض السماحة والندی  
 عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت  
 تنفض ما بين الغروس كأنه  
 حوالبه من دوح الرياض خرائد  
 إذا أرسلت لدن الفروع وفتحت  
 يرنحها مرّ النسيم إذا سرى  
 يشق رياضاً جادها الجود والندی  
 وسالت بسلسال اللجين حياضه  
 تطلع منها وسط وسطاه دمية  
 حكّت وحباب الماء في جنباتها  
 إذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها  
 توسمت فيها من صفاء أديمها  
 إذا اتسقت بيض القباب قلادة  
 تكنني بيض الدمي فكأنها  
 قدود ولكن زانها الحسن عريها  
 نمت صعداً تيجانها فتكسرت  
 فيا لك شأواً بالسعادة أهلاً ٢

١ ص ق : تجرر ، ولا يصلح للوزن .

٢ ص : شأو ... أهل .

تطوفُ بمغناها أماني الوري شوطا  
 حنايا قباب لا الكتيب ولا السقطا  
 ووُسْدن فيه الوشي لا السدْر والأرطى  
 إذا مازجته السحْبُ عاد بها خلطا  
 إلى كل أنف عَرَفُ غيره قسْطا  
 أو اوينُ كسرى الفرسِ تعبطه غبطا  
 على خير من يعزى لخير الوري سبطا  
 وتُرسى سفانٌ للعلا حيثما وطًا  
 يفلتُ هاماتِ العدا بالظبي خبْطا  
 ذوائبُ أرض الزنج من ضوئها شُمْطا  
 جرت قبلها الأقدارُ تسبقها فُرْطا  
 جعلن ضمانَ الفتحِ في عقدها شرطًا  
 سناكبها أَبَقَتْ مثلاً بها خطًا  
 فيعتاضُ من قبضِ الزمانِ بها بسطا  
 زمامٌ يقود الفرسِ والرومِ والقبطا  
 يحوط جهات الأرض من رعيه حوطًا

وكعبةٌ مجد شادها العزُّ فانبرت  
 ومسرحَ غزلان الصريمِ كناسها  
 فليكن به ما طاب لا الأثل والخمطا  
 تراهُ من المسكِ الفتيتِ مدبراً  
 وإن باكرته نسمةٌ سحرًا سرى  
 أقرت لهُ الزهراءُ والخلدُ وانتقتُ  
 جنابُ رواقُ المجدِ فيه مطنّبُ  
 إمامٌ يسيرُ الدهرُ تحت لوائه  
 وفتاحُ أقطارِ البلادِ بفيلقِ  
 تطلعُ من خرصانه الشهبُ فانثنتُ  
 كتابُ نصرٍ إن جرت للممةُ  
 إذا ما عقدنَ رايةَ علويةً  
 فما للسما تلكَ الأهلهُ إنما  
 يطاوعُ أيدي المعلواتِ عنانها  
 يدُ لأميرِ المؤمنينِ بكفها  
 أدارَ جداراً للعلا وسرادقاً

وقوله مما كتب بيتهوها بمرمر أسود في أبيض ٢ :

لله بهوٌ عزٌّ منه نظيرُ  
 رُصِفَتْ نقوشُ حلاه رَصِفَ قلائدُ<sup>٣</sup>  
 فكأنتها والتبر سالَ خلالها  
 لما زها كالروضِ وهو نصيرُ  
 قد نضدتها في النحورِ الحورِ  
 وشيٌ وفضَّةُ تربها كافور

١ روضة الآس : نسمة لسرى بها .

٢ روضة الآس : ١٣٦ .

٣ ق : قلادة .

قد زان حُسنَ طرازها تشجير  
 أنماطِه نورٌ به ممطور  
 سيانٍ فيه خورنقٌ وسدير  
 يرتدٌ وهو بحسنه محسور  
 حركاتٌ سجعٍ صافحته دبور  
 ملكَ النفوسَ بحسنها تصوير  
 يسري إلى الأرواح منه سرور  
 وأسودٍ يُسلي لهن صغير  
 وأظلمها فللكٌ بضيءٍ منير  
 تطفوا عليها اللؤلؤ المشور  
 باهى نجومَ الأفقِ وهي تنور  
 حيثُ التفتَ كواكبٌ وبدور  
 فخرُ الورى وإمامها المنصور  
 وأقله فوقَ السماك سرير  
 رُميت بححفها اللُهامُ الكور  
 جيشٌ على جسرِ الفراتِ عبور  
 حقنَ الدماءَ وعَفَّ وهو قدير  
 سيفُ العُلا ، لكنّه مطرور  
 ولجيشه يومَ التزال ثبير  
 طوقٌ على جيدِ العُلا مزور  
 يغدو عليه بها المسا وبكور

وكانَ أرضَ قراره ديباجة  
 وإذا تصعد نده نوءاً ففي  
 شأو القصورِ قصورها عن وصفه  
 فإذا أجلتَ اللحظَ في جنباته  
 وكانَ موجَ البركتين أمامه  
 صُفتَ بصفقتها تماثلُ فضة  
 فتديرُ من صفو الزلالِ معتقاً  
 ما بين آسادٍ يهبجُ زئيرها  
 ودحتُ من الأنهارِ أرضَ زجاجة  
 راقتُ فمن حصباها وفواقع  
 يا حُسنه من مَصْنَعٍ فيهاؤه  
 وكأتما زهرُ الرياضِ بجنبه  
 ولدسته الأسمى تحيّرَ رصفه  
 ملكٌ أناف على الفراقِدِ رتبة  
 قطبُ الخلافةِ تاجُ مفرقِ دولة  
 وجرى إلى أقصى العراقِ لرعيها  
 نجلُ النبيِّ ابنُ الوصيِّ سليلُ مَنْ  
 بحرُ الندى ، لكنّه متموجٌ  
 طودٌ يخفُّ لحلمه ووقاره  
 دامتُ معاليه ودام ومجده  
 وتعاهدته عن الفتوحِ بشائرٌ

١ ق والروضة : يطفو .

٢ الروضة : لرعيها .



ما دام منزلُ سعده يرقى به<sup>١</sup> نصرٌ يرفُّ لواؤه المنشور  
ومشت<sup>٢</sup> به مرحاً جيداً مسرةً<sup>٣</sup> وأدار كاسَ الأُنس فيه سمير

وقوله مما كتب بداخل القبة المذكورة<sup>٤</sup> :

جمالُ بداعي سحر العيونا      ورونقُ منظري بهر الجفونا  
وقد حسنت نقوشي واستطارت      سنّاً يُعشي عيونَ الناظرينا  
وأطلع سمكي الأعلى نجوماً      ثواقبَ لا تغورُ الدهرَ حيناً  
وجوي من دخانِ الندّ ألقى      على أرضي الغياهبَ والدُّجوناً  
علوتُ دوائرَ الأفلاكِ سبعاً      لذلك الدهرَ ما ألفتُ سكونا  
فصغتُ من الأهلّةِ والحنايا      أساورَ والخلاخلِ والبُرينا  
تكنّفي حياضَ مائحاتٍ      أمامي والشمالَ أو اليميناً  
يُقيدُ حسنُها الطرفَ انفساحاً      ويجري الفلكَ فيها والسفينا  
تدافعَ نهرُها نحوي فلمّا      تلاقى البحرُ في جري دفيناً  
ترى شهبَ السماءِ بهنَّ غرقى      فتحسبها بها الدرّ المصوناً  
وقد نشرَ الحجابُ على سماها      لآلئِ تزدري العقدَ الثميناً  
فخرتُ وحقّ لي لما اجتبانِي      لمجلسه أميرُ المؤمنينا  
هو المنصورُ حائرُ خصلِ سبقي      وباني المجدِ بنياناً مكينا  
وليثُ وغى إذا زار امتعاضاً      يروعُ زئيره هنداً وصينا  
إذا أمتُ كتابُهُ الأعادي      بعن برعِهِ جيشاً كميناً

١ الروضة : يرتاده .

٢ ق : وجرت .

٣ روضة الآس : ١٣٥ .

٤ ص : جنحها .      ٥ ص : ويكري .

٦ ق : نثر .

يديرُ عليهمُ من كلِّ حربٍ  
 إمامٌ بالمغربِ لاحَ شمساً  
 بقيتَ بذي القصورِ الغرِّ بدرأ  
 تحفَّ بكم عواكفُ عند بابي  
 لك البشري أميرَ المؤمنين ادُ  
 تدقُّهم رحىً أو منجنونا  
 بها الشرقُ اكتسى نوراً مبينا  
 تلوحُ بأفقهن مدى السينا  
 ملائكة كرام كاتبونا  
 خلوها بسلام<sup>١</sup> آميننا

وقوله في بعض المباني المنصورية<sup>٢</sup> :

معاني الحسنِ تظهرُ في المغاني  
 مشابه في صفاتِ الحسنِ أضحتُ  
 بكلِّ عمودِ صبحٍ من لحينِ  
 مفصَّلة القُدودِ مثلثاتِ  
 تردَّتْ سابريَّ الحسنِ يزري  
 وتعطو الخيزرانةَ من دُماها  
 لمجدك تنتمي لكنْ نماها  
 يدينُ لك ابنُ ذي يزنٍ ويعنو  
 غدتُ حرماً ولكن حلَّ فيها  
 مبانٍ<sup>٣</sup> بالخلافةِ آهلاتِ  
 هي الدنيا وساكنها إمامُ  
 قصورٌ ما لها في الأرضِ شبه  
 ظهورَ السحرِ في حدِّقِ الحسانِ  
 تمتُّ بها المغاني للغواني  
 تكونُ في استقامةِ خوطِ بان  
 مواصلةِ العناقِ من التداي  
 بحسنِ السابريِّ الحسرواني  
 بسالفةِ القطيعِ البرهماني  
 إلى صنعاء ما صنع اليدان  
 لها غمندانُ في أرضِ اليمان  
 لوفدكم الأمانُ مع الأمانِ  
 بها يتلو الهدى السبعَ المثاني  
 لأهل الأرضِ من قاصٍ وداني  
 وما في المجدِ للمنصورِ ثاني

وقوله رحمه الله تعالى مما كتب في المصرية<sup>٤</sup> المطللة على الرياض المرتفعة

١ الروضة : مع سلام .

٢ روضة الآس : ١٣٣ .

٣ ق : منازل .

٤ المصرية : منزل بيني شبه علي .

على القبة الخضراء من بديع<sup>١</sup> المنصور ، وكان إنشاؤها في جمادى الأولى من عام خمسة وتسعين وتسعمائة<sup>٢</sup> :

باكر لديّ من السرورِ كؤوسا      وارضِ النديمَ أهلةً وشموسا  
واعرجُ على<sup>٣</sup> غرّي المنيفِ سماؤها      تلقى الفراقداً في حمائي جلوسا  
وإذا طلعتْ بأوجِها قمرَ العُلا      لا ترتضي غيرَ النجومِ جليسا  
شَرِقَ القصورُ بريقها لما اجتلتُ      مني على بسطِ الرياضِ عروسا  
واعترضتُ بالمنصورِ أحمدَ ضيفماً      ورَداً تحيّرَ من بديعي خيسا  
ملكٌ أرى كلَّ الملوكِ ممالكاً      لعُلاه والدُّنيا عليه حيسا  
دامت وفودُ السعدِ وهي عواكفُ      تصلُّ المقيلاً لديّ والتعريسا  
وهناك يا شرفَ الخلافةِ دولةً      تلقى برايتها طلائعَ عيسى

وقوله من جملة قصيدة من نظم ما تقدم لم أستحضر أولها<sup>٤</sup> :

سلبت تماثيلها الحجى لما اغتدت      تزهو بحسنِ طرازها تذهيبا  
ولقد تشامخَ في العلو سماكها      فجرى على الفلكِ المنيرِ جنيبا  
وسما إلى الشهبِ الزواهرِ فاغتنى الـ      إكليلُ منها تاجها المعصوبا  
هذا البديعُ يعزّ شبه بدائعِ      أبدعتهن به فجاء غريباً  
أضنى الغزاةَ حسنه حسداً لذا      أبدى عليها للأصيلِ شحوبا  
وانقضتِ الزهرُ المنيرةُ إذ رأتهُ      زهرَ الرياضِ به ينور عجبيا  
شيدتهن مصانعاً وصنائعاً      أنجزن وعدكَ للعُلا المرقوبا

- ١ البديع : أحد المنشآت الثلاث التي بناها المنصور ، والاثنان الآخران هما : المسرة والمشتهى .  
٢ روضة الآس : ١٣٤ .  
٣ الروضة : إلى .  
٤ هذا ما قاله أيضاً في الروضة : ١٣٥ وزاد هناك : « ولعلي أجد أولها إن شاء الله فألحقه بها » وانظر القصيدة في مناهل الصفا ٢ : ٢٨١ .

وجريت في كل الفخار لغاية  
 فانعم بملكك فيه دام مؤبداً  
 وإليكها عذراء فكر أهديت  
 ونظمت من درر البلاغة عقدها  
 ورفعتها لمقامكم تمشي على اس  
 فأنت على شرف لكم فتوقفت  
 شفعت إليك بحب جدك أحمد  
 دامت بك الدنيا يروق جمالها  
 وكلاكُم اللهُ العظيمُ كلاءةً  
 أدركتها أو ما مست لغوبا  
 تجني به فنّ النعيم رطيبا  
 وجعلت مدحك مهراً الموهوبا  
 فنّدا يروقُ بجيدها ترتيبا  
 تحيا فيزعجها الولا ترغيبا  
 لما رأت ذاك الجلال مهيبا  
 لتُنيلها منك الرضى المرغوبا  
 وإلى القيامة أمركم مرهوبا  
 يرعى بها خلقاً لكم وعقيبا

[ رسالة من الفشتالي إلى المؤلف ]

ومحاسن صاحبنا المذكور في النظم والنثر يضيق عنها هذا التأليف ، وكنت  
 أثبتُ منها جملة في غير هذا الموضع .  
 ولما أحس بعزمي على الرحلة إلى الحجاز ، واقتضائي من سلطان المغرب في  
 وعده لي بها النجاز ، كتب إليّ من حضرة مراکش وأنا حينئذٍ بفاس ، ما  
 صورته بعد سطر الافتتاح :

يا نسمّة عطّست بها أنف الصبا  
 هبّي على ساحات أحمد وشرحي  
 وصفي له بالمنحنى من أضلعي  
 بان الأعبة عنه ، حيّ قد توى  
 فمساك تُسعِدُ يا زمانُ بقرهم  
 فتضمختُ بغيرها قننُ الرّبي  
 شوقي إلى لقياه شرحاً مُطنّبنا  
 قلباً على جمر الغضا متقلّبا  
 منهم ، وآخرُ قد نأى وتغيّبا  
 فأقول أهلاً باللقاء ومرحبا

« السيادة التي سواها الله من طينة الشرف والحسب ، وغرس دوحته الطيبة  
 بمعدن العلم الزاكي المحتد والنسب ، سيادة العالم الذي تمشي تحت علم فتياه

العلماء الأعلام ، وتخضع لفصاحته وبلاغته صَيَارِفَةُ النثر والنظام ، وحملة الأقلام ، كلما خطأً أو كتَبَ ، وإذا استطار بفكره الوقاد سواجع السجع انثالت عليه من كل أوكارها ونسلت من كل حدب ، وحكت بانسجامها السيل والقطر في صبب ، الفقيه العالم العَلَم ، والمحصل الذي ساجلت العلماء لتدرك في مجال الإدراك شأوه فلم ، سيدنا الفقيه الحافظ حامس لواء الفتيا ، ومالك المملكة في المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثنيا ، أبو العباس سيدي أحمد بن محمد المقرئ أبقاه الله تعالى للعلم يفتن أبكاره ، ويحني من روضه اليانع ثماره ، سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتبه المحب الشاكر عن ودّ راسخ العِماد ، ثابت الأوتاد مزهر الأغوار والأنجاد ، ولا جديد إلا الشوق الذي تحن إلى لقياكم ركائبه وترتاح ، وتحوُمُ على مورد الأنس بكم حوم ذات الجناح على العذب القراح ، جمع الله تعالى الأرواح المؤتلفة على بساط السرور وأسيرة الهنا ، وأتاح للنفوس من حُسن محاضرتكم قطفَ المشتهى وهو غصن الحنّ .

« وقد اتصل بالمحب الودود الرقيم الذي راق من سواد النقش وبياض الطرس شيباته ، وأرانا معجز أحمد فبهرت آياته ، وخبأ سقطُ الزند لما أشرقت من سماء فكركم آياته ، فأطربنا بتغريد طيور همزاته على أغصان ألفاته ، وعودنا بالبيع المثاني بنانا أجادت نثر زهراته على صفحاته ، ثم مررنا بتضاعيفه بسوق الرقيق ، فرمنا السلوك على منحاها فعُمّي علينا الطريق ، وقلنا : واهاً على سوق ابن نبابة وكساد رقيقها ، واستلاب البهجة عن نفيس دررها وأنيقها ، لا كسوق نفق فيها سوق الغزل ، وعلا كعب الرامح والأعزل ، وتضافر على سحر النفوس والآباب هاروت الجدد وماروت الهزل ، وقد ألقينا السلاح وجنحنا للسلم ، وتهبأنا للسياحة فوقنا بساحل اليم ، وسلمنا لمن استوت به سفينة البلاغة على الجودي ، فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهامة والعمي ، وقلنا : ما لنا وللإنشاء ، فهو فضل الله يؤتيه من يشاء .

« وعدراً أيها الشيخ عن البيت الذي عطست به أنف الصبا فقذفت به البديهة

من الفم ، وشرقت به صدرُ قناة القلم ، كما شرقت صدر القناة من الدم .  
« وأما ما تحمّل الرسول من كلام ، في صورة ملام ، لا بل مدام ، أترع  
به من سلاف المحبة كأسٌ وجام ، فلا وربك ما هي إلاّ نفحة نفحت ، لا سموم  
لفحت ، هزنا بها جذع أدبكم كي يتساقط علينا رطباً جنياً ، ويهمني  
ودّقه على الربيع المحيل من أفكارنا وسُمياً وولياً ، فجاد وأروى ، وأجاد  
فيما روى ، وأحيا من القرائح ميتاً كان حديثاً يُروى ، وطرساً بين أنامل الأيام  
يُنشر ويطوى ، أحيا الله تعالى قلوبنا بمعرفته ونواسم رحمته ، وعرج بأرواحنا عند  
الممات إلى المحل الأنخص بالمؤمن من حضرته . وأهدي السلام ، المزري بمسك  
الختام ، إلى الفقيهين الأمجدين ، الصدرين الأنجدين ، الفذين التوأمين ، الفاضلين  
المجيدين ، فارسي البراعة والبراعة ، ورثيسي الجماعة في هذه الصناعة ، رضيحي  
لبان الأدب وواسطي عقده ، ومُجِيلِي قِدْحِهِ المعلّى ومُورِيِي زَنْدِهِ ،  
المتعين بشميم عرّاره ورندِهِ ، الكارعين بالبحر الفياض من هزله وجده ،  
الآتين بالجنس والفصل من رسمه وجده ، الكاتب البارح أبي الحسن سيدي علي  
ابن أحمد الشامي ، والكاتب البليغ أبي عبد الله سيدي محمد بن علي الوجدي<sup>١</sup> ،  
وأقرّر لهما الود المستحکم المعاهد ، الصافي المناهل العذب الموارد ، وأنّي قائم  
بورد الثناء عليكم وعليهما لدى المقام العلي ، الإمامي الناصري ، دام سلطانه ،  
وتمهدت أوطاره وأوطانه .

« ونُنهي إليكم أن الفقيه المحبّ الأستاذ سيدي محمد بن يوسف<sup>٢</sup> طَلَّقُ  
اللسان بالشكر ، صادق على أيلك الثناء عن تلکم السيادة بما واليتموه به من جزيل  
الإحسان ، وقابلتموه به عند الورود والصدر من البشر والكرامة وجميل الامتنان ،  
والسلام التام مُعاد عليكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبه وجب الكتّب إليکم ،

١ ترجمة الوجدي في روضة الآس : ٧١ وانظر ص ( لب ) من المقدمة .

٢ راجع المجلد الثاني ص : ٤٧٠ .

والله سبحانه يرفعكم ، في يوم الخميس موافق عشرين من محرم الحرام فاتح  
سبعة وعشرين وألف ، المحب الودود الشاكر عبد العزيز بن محمد الفشتالي لطف  
الله تعالى به ، وخار له بمنه وكرمه « انتهى .

ومن أراد شيئاً من أخباره فعليه بكتابي الموسوم بـ « روضة الآس العاطر  
الأنفاس في ذكر من لقينه من أعلام مراكش وفاس » وقد بلغتني وفاته رحمه  
الله تعالى وأنا في مصر بعد عام ثلاثين وألف ، رحمه الله تعالى ؛ فلقد كان أوحده  
عصره ، حتى إن سلطان المغرب كان يقول : إن الفشتالي نفتخر به على ملوك  
الأرض ، ونباري به لسان الدين ابن الخطيب ، رحم الله تعالى الجميع .

[ تعريف بأبي الحسن الشامي ]

والشامي الذي أشار إليه هو من أعيان أهل فاس وذوي البيوت بها ، وجدته  
قدم من الشام على حضرة فاس ، فشهروا بنوه بالنسبة إلى الشام ، وقد بلغتني وفاته  
أيضاً بعد الثلاثين بعد الألف ، وقد أجاب عن الأبيات البائية التي خاطبني بها  
الوزير سيدي عبد العزيز الفشتالي المذكور رحم الله تعالى الجميع بقوله :

نَمَّتْ نَوَافِحُ عَرَفِ أَنْفَاسِ الصَّبَا	فَنَمَى بِهَا رَوْضُ الْوُدَادِ وَأَخْصَبَا
نَثَرَتْ جَوَاهِرَ سَلْكُهَا فَتَوَجَّجَ الـ	غَصْنُ النَّضِيرِ بِدَرِّهَا وَتَعْصَبَا
وَرَمَتْ مَحَاجِرَ مَنْحَتِي ذَاكَ الْحَمَى	فَعَدَا بِهَا خَيْفُ الْقُلُوبِ مَحْصَبَا
وَرَوَتْ أَحَادِيثَ الْغَرَامِ صَحِيحَةً	فَشَفَّتْ فَوَادِئَ مِنْ بَعَادِكَ مَوْصَبَا
لَا غَرَوُ أَنْ طَارَتْ حَشَاشَةٌ لِبَّهْ	طَرِبَا فَمَا خَلِنَا الْغَرَامِ كَمَنْ صَبَا
لَا زَلَمُ وَالزَّهْرُ يَنْشَقُّ عَرَفَكُمْ	وَالزَّهْرُ تَحْسَدُ مِنْ كَمَالِكَ مَنْصَبَا

ولنُؤمِّسِكُ عِيَانِ الْبِنَانِ ، ونرجع إلى ما كنا بصدده من شأن لسان الدين  
ابن الخطيب المريع منه بمزج البلاغة والفصاحة جنان الجنان ، فنقول والله سبحانه  
ولي التوفيق والإمداد ، وليس إلاّ عليه الاعتماد :

[ ١٦ - بين ابن الجياب ولسان الدين ]

وقال ابن الصباغ العقيلي<sup>١</sup> : كان أبو الحسن ابن الجياب رئيس كتاب الأندلس وهم رؤساء غيرهم ، واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب اختصاصاً تاماً ، وأورثه رتبة من بعده ، وعهد بها إليه ، مشيراً بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور عمره ، وتدرّب بذكائه حتى استحق أزمته فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور ، ونال التي لا فوقها من الحظوة ، وبعد الصيت وسعادة البخت ، اتفق له يوماً بعدما عزم النصراني على ورود البلد وضاعت به الصدور ، فأثمد ابن الجياب بديهاً بمحضر الكتاب :

هذا العدو قد طغى وقد تعدى وبغى

وقال لابن الخطيب : أجزأ عبد الله ، فأنشده بديهاً :

وأظهرَ السلمَ وقدَ أسَرَ حَسَنًا في ارتِغَا  
فبلغَ الرحمنُ سيءَ الفِ النصرِ فيه ما ابتغى  
وردّه ردًّا ثمَّ سوَّ دِ والفصيلُ قد رَغَا  
حتى يرى وليمةً لكلِّ مرهوبِ الثغَا

فقال ابن الجياب : هكذا وإلا فلا ، وعجب الحاضرون من هذه البديهة ؛

انتهى .

[ ١٧ - قصيدتان للبلوي يخاطب بهما لسان الدين ]

ومما خوطب به لسان الدين قول الفقيه أبي يحيى البلوي المري<sup>٢</sup> رحم الله

الجميع :

١ أزهار الرياض ١ : ١٩٢ .

٢ ص : المري .



عللوني ولتو بوعد محال  
 واعلموا أنتي أسير هواكم  
 قدموعي من بينكم في انسكاب  
 يا أهيل الحمى كفاني غرامي  
 من مجيري من لحظ ريم ظلوم  
 ناعم الطرف أسهر الجفن مني  
 بابلي اللحاظ أصمى فؤادي  
 وكسا الجسم من هواه نحولاً  
 ما ابتدى في الوصال يوماً بعطف  
 ليس لي منه في الهوى من مجير  
 علم الدين عزه وسناه  
 هو غيث الندى ، وبحر العطايا  
 إن وشى في الرقاع بالنقش قلنا  
 أو دجا الخطب فهو فيه شهاب  
 أو نبا الأمر فهو في الأمر غضب  
 لست تلقى مثاله في زمان  
 قد نأى بي حبي له عن ديار  
 لكن اشتقت أن أرى منه وجهاً  
 وكما همت فيه ألم كفاً  
 ها كهابن الخطيب عذراء جاءت  
 وتوفي حق الوزارة عمّن

وصلوني ولتو بطيف خيال  
 لست أنفك دائماً عن عقال  
 وفؤادي من هجركم في اشتعال  
 لا تزيدوا حسبي بما قد جرى لي  
 حلل الهجر بعد طيب الوصال  
 طال منه الجفا بطول الليالي  
 ورماه من غنجه بنال  
 قصده في النوى بذاك انتحالي  
 مذروى في الغرام باب اشتغالي  
 غير تاج العلا وقطب الكمال  
 ذروة المجد ، بدر أفق الجلال  
 هو شمس الهدى ، فريد المعالي  
 صفحة الطرس حليت بالآلي  
 زانه الصبح في ظلام الضلال  
 صادق العزم عند ضيق المجال  
 جل في الدهر يا أخي عن مثال  
 لا لجدوى ولا لتيئل نوال  
 نوره فاضح لنور الهلال  
 جاد لي بالنوال قبل السؤال  
 تلثم الأرض قبل شيع النعال  
 هو ملك لها على كل حال

ومن نظمه قوله يخاطبه مهنتاً في إعداره أولاده بعد نثر نصه : يعتذر عن  
 خدمة الإعدار ، ويصل المدح والثناء على بُعد الدار ، بتاريخ الوسط من شهر

شعبان عام تسعة وأربعين وسبعمائة :

ولئن نأى وِطَي وشطّ مَزاري  
تقضي الأمانى عادة الأعصار  
وأحطّ رحلي عندَ بابِ الدار  
متشمرّاً فيه بفضلِ إزاري  
ويرى جلالاً شاع في الأقطار  
فيفوزُ بالإعظام والإكبار  
يسمو ويعلو في ذوي الأقدار  
نلتَ المنى بتلطفِ ووقار  
حسبُ الصميمِ العِدُّ يومَ فِخار  
في الفرقدين النيرين لساري  
أملانِ مَرَجْوَانِ في الإعصار  
فرعانِ من أصلِ زكا ونجار  
ينميها نورٌ من الأنوار  
جمُ الفضائلِ طيبُ الأخبار  
فكأنّما خُلِقا من الأزهار  
خلعتُ عليه رقةَ الأسحار  
أو وقعُ دُرٌّ من نخورِ جَواري  
فالروضُ غيبُ الواكفِ المدرار  
فتريكَ نظمِ الدرِّ في الأسطار  
ظلتُ تفتحُ ناصراً النُّور

لا عُدْرَ لي عن خدمةِ الإعدارِ  
أو عاقبي عنه الزمانُ وصرفه  
قد كنتُ أرغبُ أن أفوزَ بخدمتي  
بادي المسرةِ بالصنيعِ وأهله  
من شاء أن يلقي الزمانَ وأهله  
فليأتِ حيّ ابن الخطيبِ مليياً  
كم ضمّ من صيدِ كرامٍ قدرُهم  
إن جئتُ ناديه فنبّ عني وقل  
يا من له الشرفُ القديمُ ومن له ال  
يهنيك ما قد نلتَ من أملِ به  
نجلاك قطبا كلِّ مجدٍ باذخِ  
عبد الإله وصنوه قمر العُلا  
ناهيك من قمرين في أفقِ العلا  
زاكي الأرومةِ مُعرقٌ في مجده  
رقتُ طباعه وراق جماله  
وحلتُ شمائلُ حسنه فكأنّما  
فإذا تكلمتُ قلتُ طلّ ساقطُ  
أو قَتَّ حبر المسك في قرطاسه  
تتسمُ الأقلامُ بينَ بنانه  
فتخالُ من تلك البنانِ كماً

تلقاهُ فيأضّ الندى مهللاً  
 بجرُّ البلاغة قسُّها وإيادها  
 إن ناظرَ العلماء فهو إمامهم  
 أربى على العلماء بالصيت الذي  
 ما ضره أن لم يجيء متقدماً  
 إن كان آخره الزمان لحكمة  
 الشمس تُحجبُ وهي أعظمُ نيرٍ  
 يا ابن الخطيب خطبتها لعلاكمُ  
 جاءتك من خجل على قدم الحيا  
 وأتت تؤدي بعض حق واجب  
 مدّت يد التطفيل نحو علاكمُ  
 فابذل لها في النقد صفحك إنما  
 لا زلت في دعةٍ وعزٍّ دائم

يلقاك بالبشرى والاستبشار  
 سبحانه حبرٌ من الأحبار  
 شرفُ المعارف ، واحدُ النظار  
 قد طارَ في الآفاق كلَّ مطار  
 بالسبقِ يُعرفُ آخرُ المضمار  
 ظهرت وما خفيت كضوء نهار  
 وترى من الآفاق إثر دراري  
 بكرةً تزفُّ لكم من الأفكار  
 قد طيبت بثنائك المعطار  
 عن نازح الأوطان والأوطار  
 فتوشحت من حلكم بنضار  
 تشكو من التقصير في الأشعار  
 ومسرّةٍ تتسرى مع الأعمار

[ ترجمة أبي يحيى البلوي ]

قال لسان الدين في حق المذكور في « الإحاطة » : هو محمد بن محمد بن عبد  
 الواحد بن محمد البلوي ، من أبناء النعم وذوي البيوتات ، كثير السكون والحياء ،  
 آل به ذلك أخيراً إلى لوثة لم يستفق منها ، لطّف الله به ، حسن الخط ، مطبوع  
 الأدب ، سيال الطبع معينه ، وناب عن بعض القضاة ، وهو الآن رهين ما ذكر  
 يتمنى أهله موته ، والله ولي المعافاة .

وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصّه : من أولي الاتصال ، بأولى الخلال  
 البارة والحصال ، خطأ رائقاً ، ونظماً بمثله لائقاً ، ودعابة يسترها تجهم ،

١ ق : به .

وسكوناً في طيه إدراك وتفهم ، غني بالدراية والتقيد ، ومال في النظم إلى بعض التوليد ، وله أصالة نبتت في السرو عروقتها ، وتألفت في سماء المجادة بروقها ، وتصرف بين النيابة في الأحكام الشرعية ، وبين الشهادات العلمية المرعية ؛ انتهى . ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين علي هامش هذا المحل من « الإحاطة » ما صورته : رحمة الله عليه ما أعذب حلاوته ، وأعظم مروءته ، وأكرم أصالته ، وبنو البلوى ذوو حسب ، وأهل نعيم ، وتربية ملوكية ، حياهم الله وبياتهم ! قال ذلك حبيهم وأخوهم علي بن الخطيب ؛ انتهى .

[ ١٨ - من ابن مرزوق إلى لسان الدين ]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى عند ذكر الخطيب الرئيس أبي عبد الله محمد ابن مرزوق التلمساني ما صورته : ولما قدمت على مدينة فاس في غرض الرسالة خاطبني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصه :

يا قادماً وافى بكلّ نجاحِ	أبشُرْ بما تلقّاه من أفراحِ
هذي ذرى ملكِ الملوكِ فلذّ بها	تنلّ المنى وتفزّ بكلّ سماحِ
مغنى الإمامِ أبي عنانِ يَمَمَنُ	تظنّفَرُ ببحرٍ في العُلا طفاحِ
مَنْ قاسَ جودَ أبي عنانِ في الندى	بسواهُ قاسَ البحرَ بالضّحاحِ
ملكٌ يفيضُ على العفاةِ نواله	قبلَ السّؤالِ وقبلَ بسطةِ راحِ
فلجودِ كعبِ وابنِ سَعْدِي <sup>٢</sup> في الندى	ذكرٌ مَحاه عن نداءه ماحي
ما إن سمعتُ ولا رأيتُ بمثلهِ	منَ أريحي للندى مرتاحِ
بسطةِ الأمانِ على الأنامِ فأصبحوا	قدَ الحفوا منه بظلّ جناحِ
وهمى على العافينَ سيبُ نواله	حتى حكى سحَّ الغمامِ الساحي

١ ص : بمنزلة .

٢ ابن سَعْدِي : أوس بن حارثة الطائي .

فَنَوَّالُهُ وَجَلَّالُهُ وَفَعَّالُهُ  
 وبه الدنيا أضحت تروقُ وأصبحت  
 من كانَ ذا تَرَحٍّ فرؤيةُ وجهه  
 فانهض أبا عبد الإلهِ تفرُّ بما  
 لا زلت تترشفُ الأمانى راحةً  
 فاقَتِ وأعيَتِ ألسنَ المدَّاحِ  
 كلُّ المنى تنقادُ بعدَ جماحِ  
 متِلافةُ الأحرانِ والأتراحِ  
 تبغيه من أملٍ ونيلِ نجاحِ  
 من راحةِ المولى بكلِّ صباحِ

فالحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تحصى ، حمداً يؤمُّ به جميعنا المقصد الأسمى فيبلغ الأمد الأقصى ، فطالما كان معظم سيدي للأسى في خيال ، وللأسف بين اشتغال بال ، واشتغال بئسبال ، ولقد ومكم على هذا المقام المولوي في ارتقاب ، ولمواعيدكم بذلك في تحقق ، وقوعه من غير شك ولا ارتياب ، فها أنت تجتلي من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرات صباحاً ، وتتلقي أحاديث مكارمه ومواهبه مُسنّدة صباحاً ، بحول الله تعالى ، وليسيدي الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه ولحامه ، فهو من بعض ما لدى المعظم من إحسان مولاه وإنعامه ، ولعمري لقد كان وافداً على سيدي في مستقره مع غيره ، فالحمد لله الذي يستر في إيصاله ، على أفضل أحواله .

[ ١٩ - جواب لسان الدين ]

فراجعته بما نصّه :

راحتَ تذكرفني كؤوسَ الراحِ  
 وسرتَ تدلُّ على القبولِ كأنما  
 حسناء قد غنيتَ بحسنِ صفاتها  
 أمستَ تحضُّ على اللياذ بمن جرت  
 والقربُ يخفضُ للجنوحِ جناحي  
 دلَّ النسيمُ على انبلاجِ صباحِ  
 عن دُمْلُجٍ وقلادةٍ ووشاحِ  
 بسعودِهِ الأفلامُ في الألواحِ

١ ص : ولمواعيدكم . . . محقق .

بخليفة الله المؤيد فارس  
 ما شئت من شيم ومن همم غدت  
 فضل الملوك فليس يدرك شأوه  
 أنسى بني عباسهم بليوائه  
 وغدت مغاني الملك لما حلها  
 وحياة من أهداك تحفة قادم  
 ما زلت أجعل ذكره وثناءه  
 ولقد تمازج حبه بجوارحي  
 ولو أنني أبصرت يوماً في يدي  
 فالآن ساعدني الزمان وأيقنت  
 إيه أبا عبد الإله ، وإنه  
 أما إذا استنجدتني من بعد ما  
 فإليكها مهزولة وأنا امرؤ

شمس المعالي الأزهر الوضاح  
 كالزهر أو كالزهر في الأدواح  
 أنتى يقاس الغمر بالضحاح  
 منصور ، أو بحسامه السفاح  
 تزهى ببدر هدى وبحر سماح  
 في العرف منها راحة الأرواح  
 روعي وريحاني الأريج وراحي  
 كتمازج الأجسام بالأرواح  
 أمري لطرت إليه دون جناح  
 من قربه نفسي بفوز قداحي  
 لنداء ود في علاك صراح  
 ركدت لما جنت الخطوب رياحي  
 قررت عجزى واطرحت سلاحي

« سيدي أبقاك الله لعهد تحفظه ، وولي بعين الوفاء تلتحظه ، وصلتي  
 رقتك التي أبدعت ، وبالحق من مولى الخليفة صدعت ، وألفتني وقد سطت  
 بي الأوجال ، حتى كادت تلتف الرحال ، والحاجة إلى الغذاء قد شممت كشح  
 البطين ، وثانية العجاوين قد توقع فوات وقتها وإن كانت صلاتها صلاة الطين ،  
 والفكر قد غاض معينه ، وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يعينه ، فغزتي  
 بكتيبة بيان أسد لها هصور ، وعلمها منصور ، وألفاظها ليس فيها قصور ،  
 ومعانيها عليها الحسن مقصور ، واعتراف مثلي بالعجز في المضايق حول ومئة ،  
 وقول « لا أدري » للعالم فكيف لغيره جنة ، لكنها بشرتي بما يقل لمؤديه  
 بدّل النفوس وإن جلت ، وأطلعتني من السراء على وجه تحسده الشمس  
 إذا تجلت ، بما أعلمتني به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله في

عبده ، وصدق المَخِيْلَة في كرم مجده ، وهذا هو الجود المَحْض ، والفضل الذي شكره هو الفرض ، وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات مَنْ يبدأ بالنوال ، من قبل الضَّرَاعَة والسؤال ، من غير اعتبار للأسباب ولا مجازاة للأعمال ، نسأل الله تعالى أن يبقي منها على الإسلام أَوْفَى الظلال ، ويُبْلِغها من فضله أقصى الآمال ، ووَصَلَ ما بعثه سيدي صحبتها من الهدية ، والتحفة الودية ، وقبلتها امتثالاً ، واستجلبت<sup>١</sup> منها عِتْقاً وجمالاً ، وسيدي في الوقت أنسب لاتخاذ ذلك الجنس ، وأقدر على الاستكثار من إناث البهْم والإنس ، وأنا ضعيف القدرة ، غير مستطيع على ذلك إلا في الندرة ، فلو راء سيدي ورأيه سداد ، وقصده فضل ووداد ، أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة ، مع وجود الحقوق المترتبة ، لبَسَطَ خاطرِي وجمَعَه ، وعمل في رفع المؤونة على شاكلة حالي معه ، وقد استصحبت مركوباً يشقّ عليّ هجره ، ويناسب مقامي شكله ونَجْرَه ، وسيدي في الإسعاف على الله أجره ، وهذا أمر عرض ، وفرض فرض ، وعلى نظره المعوّل ، واعتماد إغضائه هو المعقول الأوّل ، والسلام على سيدي من معظم قدره ، وملتزم برّه ، ابن الخطيب ، في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي قعدة خمس وخمسين وسبعمائة ، والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجناف ، وظنّ أنّه الطوفان ، واللحاق في غدها بالباب المولوي مؤمل بحول الله « انتهى .

[ ٢٠ - من البرجي إلى لسان الدين ]

وكتب القاضي أبو القاسم البرّجي<sup>٢</sup> لسان الدين في غرض الشفاعة لبعض قرابته قوله<sup>٣</sup> :

١ ص ق : واستجلبت .

٢ ترجمة البرجي في الإحاطة ٢ : ٢١٥ والكتيبة : ٢٥٠ ونيل الابتهاج : ١٧٢ .

٣ الكتيبة : ٢٥١ .

أيا سابقاً في مجال البراعة • وفارس مَيِّدان أهل اليراعة •  
 ومَنْ بَدْرُهُ في سماء المعالي • يزينُ بوصفِ الكمالِ ارتفاعه  
 بما لكَ في الفضلِ من حُجَّة • ومن إمرةٍ في ذويه مُطاعه  
 قضاءكَ في معسرٍ حلَّ دَينُ • عليه فأرجاؤه قد أضاعه  
 وقد كان يبغى لديكم شفيعاً • توسطَ عندكمُ في شفاعه  
 على أنه في اقتضاء الودادِ • يوفى موازينه أو صُواعه  
 وما هو في سوقِ تقرِظكم • ونشرِ حلاككم بمزجتي البضاعه

« كتبت يا سيدي - أدام الله تعالى علاكم ، وحرس مجدكم الطاهر وسناكم -  
 وأنا بين خجلٍ مفحم ، وعجلٍ مقحم ، أتذكرُ تسويفي بلقائكم ، حين  
 سمح الدهر باقترابكم ، فأحجم وأفكر في أن إحجامي عند ذلك بإرجائي ،  
 عسى أن يكون وفق رجائي ، أفاتني المقصود فأرى الخزم في أن أقدم ، وموقفها  
 بين يديكم فلان ، يطالبني مطالبة الغريم ، وأروم مطاله فلا يبرح ولا يتريم ،  
 والانقياد في زمام طاعته مما توجه المروءة بعدما أوجه الشارع إذ جعل له حظاً  
 في الأبوة ، وقد أعلقتة من ذمام علائكم بالحبل المتين ، وأنزلته من حماكم  
 ببربوة ذات قرارٍ ومعين ، فإن أعرتموه من لحظكم الجميل طرفَ اهتبال ،  
 وأقبلتموه من اعتنائكم الجزيل وجّه إقبال ، فقد عاد دهره بعد النفار مواتياً ،  
 ونزل على أهل المهلب شاتياً ، ومجدكم كفيل بتبليغ أمله ، وتوسيع جذله ،  
 وذلكم يدٌ على معظمكم شكرها ، وعلى الله أجرها » انتهى .

[ ترجمة أبي القاسم البرجي ]

والبرجي المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم ،  
 الغساني البرجي ، يكنى أبا القاسم ، من أهل غرناطة ، قال في « الإحاطة » :  
 هو فاضل مجتهد على فضله ، صالح الأبوة ، طاهر النشأة ، بادي الصيانة والعفة ،



طرف في الخير والحشمة ، صدر في الأدب ، جم المشاركة ، ثاقب الفهم ، جميل العشرة ، ممتع المجالسة ، حسن الشعر والخط والكتابة ، فذ في الانطباع ، صنّاع اليد<sup>١</sup> ، محكم لعمل الكثير من الآلات العلمية ، ويجيد تفسير الكتب ، رحل إلى العُدوة ولقي جلة ، وتوسّل إلى ملكها مجدّد الرسم ومعتام أولي الشهرة وعامر دست الشعر والكتابة ، أمير المسلمين أبي عنان ، فاشتمل عليه ، ونوّه به وملاً بالخير يده ، فاقتنى جِدّة وحُظوة ، وذكر أ وشهرة ، وانقبض مع استرسال الملك لفضل عقله ، حتى تشكى إلى سلطانهِ بَثّ ذلك عند قدميهِ عليه ، وآثر الراحة ، وجهد في التماس الرحلة الحجازية ، ونبذ الكل ، وقصر الخطوة<sup>٢</sup> ، وسلا الخطوة ، فأسعفه سلطانه بغير ضه ، وجعل حبْلَ همّة<sup>٣</sup> على غاربه ، وأصحبه إلى النبي الكريم صلوات الله عليه رسالةً من إنشائه وقصيدة من نظمه ، وكلاهما يعلن في الخلفاء ببعده شأوه ، ورسوخ قَدَمِ علمه ، وعراقة البلاغة في نسب خصله ، ولما هلك وولي ابنه [ قدمه ] قاضياً بمدينة<sup>٤</sup> ملكه وضاعف له التنويه ، فأجرى الخطوة على سبيل من السداد والتزاهة ، ثم لما ولي السلطان أبو سالم عمّه أجراه على الرسم المذكور ، واستجلى المشكلات بصدقه ، وهو الآن بحاله الموصوفة مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدد مفاخره .

شعره - ثبت في كتاب « نفاضة الجراب » من تأليفنا عند ذكر المدعى الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر من أنشد ليلتذ من الشعراء ما نصّه : وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي جملة السذاجة<sup>٥</sup> وكرم الخلق وطيب النفس وخذن العافية وابن الصلاح والعبادة ونشأة القرآن

١ الإحاطة : اليمين .

٢ ص : الخطو .

٣ ق والإحاطة : نعمه .

٤ قدمه . . . بمدينة : سقطتا من ق ، ولفظة « قدمه » سقطت من ص .

٥ ص : الشذاجة .

المتحيز إلى حزب السلامة المنقبض عن الغمار العزوف عن فضول القول والعمل  
جامع المحاسن الأشتات<sup>١</sup> من عقل رصين وطلب متمع وأدب نقاوة ويد صناع أبو  
القاسم ابن أبي زكريا البرجي، فأشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة  
الفريدة<sup>٢</sup>:

أصغى إلى الوجد لما جدّ عاتبه  
لم يعط للصبر من بعد الفراق يداً  
لولا النوى لم يبت حرّان مكتئباً  
يستودع الليل أسرار الغرام وما  
لله عصرٌ بشرقي الحمى سمحت  
يا جيرة أودعوا إذ ودّعوا حرّفاً  
يا هل ترى تجمع<sup>٣</sup> الأيام ألفتنا  
ويا أهيل ودادي، والنوى قدّف  
هل ناقض العهد بعد البعد حافظه  
ويا ربوع الحمى لا زلت ناعمة  
يا من قلب مع الأهواء منعطف  
يسئمو إلى طلب الباقي بهمه  
وقنته المرء بالمألوف معضلة  
أبكي لعهد الصبا والشيب يضحك بي  
ولن ترى كالهوى، أشجاه سالفه  
وهمة المرء تغليه وترخصه

صَبَّ لَهُ شُغْلٌ عَمَّنْ يَعَاتِبُهُ  
فَضْلٌ مِّنْ ظِلِّ إِرْشَادٍ يَخَاطِبُهُ  
يَغَالِبُ الْوَجْدَ كَتْمًا وَهُوَ غَالِبُهُ  
تَمْلِيهِ أَشْجَانُهُ فَالِدَمْعُ كَاتِبُهُ  
بِالْوَصْلِ أَوْقَاتُهُ لَوْ عَادَ ذَاهِبُهُ  
يَصَلِّي بِهِمَا مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ ذَاتِبُهُ  
كِعَهْدِنَا أَوْ يَرُدُّ الْقَلْبَ سَالِبُهُ  
وَالْقُرْبُ قَدْ أَهَمَّتْ دُونِي مَذَاهِبُهُ  
وَصَادِعُ الشَّمْلِ يَوْمَ الشَّعْبِ شَاعِبُهُ  
يَبْكِي عَهْدَكَ مُضْنَى الْجَسْمِ شَاحِبُهُ  
فِي كُلِّ أَوْبٍ لَهُ شَوْقٌ يَجَازِبُهُ  
وَالنَّفْسُ بِالْمَيْلِ لِلْفَاقِي تَطَالِبُهُ  
وَالْأَنْسُ بِالْإِلْفِ نَحْوَ الْإِلْفِ جَازِبُهُ  
يَا لِلرِّجَالِ سَبَّتْ جِدِّي مَلَاعِبُهُ  
وَلَا كُوْعِدِ الْمُنَى، أَحْلَاهُ كَازِبُهُ  
مَنْ عَزَّ نَفْسًا لَقَدْ عَزَّتْ مَطَالِبُهُ

١ الأشتات : ثبتت في ق ص وسقطت من الإحاطة .

٢ القصيدة في الإحاطة وبعضها في الكتيبة .

٣ الكتيبة : ترجع .

ما هانَ كسبُ المعالي أو تناولها  
 لولا سُرى الفلكِ السامي لما ظهرت  
 في ذمّةِ الله ركبٌ للعلا ركبوا  
 يرمون عرضَ الفلا بالسير عن عُرْضٍ  
 كأنهم في فؤادِ الليلِ سِرٌّ هوى  
 شدّوا على هبِ الرمضاء وطأهم  
 وكتفوا الليل من طولِ السرى شططاً  
 حتى إذا أبصروا الأعلامَ مائلةً  
 بحيثُ يأمنُ مَنْ مولاهُ خائفُهُ  
 فيها وفي طيبةِ الغراءِ لي أملٌ  
 إن أنسَ ٢ لا أنسَ أياماً بظلهما  
 شوقى إليها وإن شطّ الزارُ بها  
 إن ردها الدهر يوماً بعدما عبثت  
 معاهدُ شرفتِ بالمُصطفى فلها  
 حمدُ المُجتبى الهادي الشفيعِ إلى  
 أوفى الورى ذمماً ، أسماهمُ همماً  
 هو المُكملُ في خَلْقٍ وفي خَلْقٍ  
 عنايةً قبلَ بدءِ الخلقِ سابقهٗ  
 جاءتْ تُبشّرنا الرّسلُ الكرامُ به  
 أخباره سرُّ علمِ الأولين وسلُّ  
 تطابقتْ الكونُ في البُشرى بمولده

بل هانَ في ذاكَ ما يلقاهُ طالبُهُ  
 آثارهُ ولما لاحتْ كواكبُهُ  
 ظهرَ السرى فأجابتهم نجائبُهُ  
 طيَّ السجلِ إذا ما جسدٌ كاتبُهُ  
 لولا الضّرامُ لما خفّتْ جوانبه  
 فغاص في لُجّةِ الظلماءِ راسبه  
 فخلّفوه وقد شابتْ ذوائبُهُ  
 بجانبِ الحرمِ المحميّ جانبُهُ  
 من ذنبهِ وينالُ القصدَ راغبه  
 يُصاحبُ القلبَ منه ما يُصاحبه  
 سقى ثراهُ عَميمُ الغيثِ ساكبه  
 شوقُ المقيمِ وقد سارتْ حياتُهُ  
 في الشملِ منّا يدها لا نُعاتبه  
 من فضلِهِ شرفٌ تعلو مراتبه ٣  
 ربّ العبادِ أمينُ الوحي عاقبه  
 أعلامُ كرمًا ، جلتْ مناقبه  
 زكّتْ حلاهُ كما طابتْ مناسبه  
 من أجلِّها كانَ آتيةً وذاهبه  
 كالصّبحِ تبدؤُ تباشيراً كواكبه  
 بديرِ تيماء ما أبداه راهبه  
 وطبقتْ الأرضَ أعلاماً تجاوبه

١ سقط البيت من ص .

٢ ق ص : لا أنس ؛ الإحاطة : لم أنس .

٣ ص : مراتبه .

فالجنُّ تهتفُ إعلاتاً هواتفه  
 ولمْ تزل عصمةُ التأييد تكفه  
 سرى وجنحُ ظلامِ الليلِ منسللٌ  
 يَسْمُو لكلِّ سماءٍ منه منفردٌ  
 لمتهمي وَقَفَ الروحُ الأمينُ بهِ  
 لقابِ قوسينِ أو أدنى فما علمتُ  
 أراهُ أسراراً ما قد كان أودعه  
 وآبَ والبدرُ في بحرِ الدجى غرقٌ  
 فأشرفتُ بسناهُ الأرضُ واتبعتُ  
 وأقبلَ الرشيدُ والتاحتُ زواهره  
 وجاءَ بالذكري آياتٍ مَقْصَلَةٌ  
 نُورٌ مِنَ الحِكمِ لا تخبو سواطعُه  
 لَهُ مَقَامُ الرُّضِيِّ المَحْمُودِ شاهِدُهُ  
 والرُّسُلُ تحتَ لواءِ الحمدِ يقدمها  
 لَهُ الشِّفَاعَاتُ مقبولاً وسائلُها  
 والحوضُ يروي الصدى من عذب مورده  
 محامدُ المُصْطَفَى لا يَنْتَهِي أبدأ  
 فضلٌ تكفَّلَ بالدَّارينِ يوسِعُها  
 حسي التوسلُ منها بالذي سمحتُ  
 حيَّاهُ من صلواتِ الله صَوْبُ حَيَا  
 وخالِدَ اللهُ ملكَ المُستعِينِ بهِ  
 إمامُ عدلٍ بتَقْوَى اللهِ مشتملٌ  
 مسدِّدُ الحِكمِ ، مَيِّمُونُ نقيبته

والجنُّ تقذفُ إحراقاً ثوابه  
 حتى انجلى الحقُّ وانزاحتُ شوائبه  
 والنجمُ لا يهتدي في الأفقِ ساربه  
 عَنِ الأَنامِ وجِبْرَائِيلُ صاحبه  
 وامتاز قُرباً فلا خَلَقٌ يقاربه  
 نفسٌ بمقدارِ ما أولاهُ واهبه  
 في الخلقِ والأمرُ باديه وغائبه  
 والصُّبْحُ لما يُوْبُ للشرقِ آيبه  
 سُبُلُ النَّجاةِ بما أبدتْ مذاهبه  
 وأدبرَ الغيُّ فانجابتْ غياهبه  
 يُهْدِي بها من صِراطِ اللهِ لاجِبُه  
 بحرٌ مِنَ العِلْمِ لا تَفِي عَجائبُه  
 في موقفِ الحِشرِ إذ نابت نوابه  
 محمَّدٌ أَحْمَدُ السَّامِي مَرَاتِبُه  
 إذا دهى الأمرُ واشتدتْ مصاعبه  
 لا يشتكي غلَّةَ الظَّمآنِ شارِبُه  
 تعدادُها ، هل يَعُدُّ القَطْرَ حاسبه ؟  
 نُعْمِي ورُحْمِي فلا فَضْلٌ يُناسِبُه  
 به القوافي وجلَّتْها غرائبه  
 تُحْدِي إلى قبره الزاكي نجائبه  
 مؤيِّدَ الأمرِ مَنصُوراً كُتائبُه  
 في الأمرِ والنهي يرضيه يراقبه  
 مظفَّرُ العزمِ ، صدقُ الرأْيِ صائبه

مُشَمَّرٌ لِلتَّقَى أَذْيَالَ مَجْتَهِدٍ  
 قَدْ أَوْسَعَتْ أَمَلَ الرَّاجِي مَكَارِمُهُ  
 وَفَازَ بِالْأَمْنِ مَجْبُوراً مُسَالِمَهُ  
 كَمْ وَافِدٍ أَمَلَ مَعْهُودَ نَائِلِهِ  
 وَمُسْتَجِيرٍ بَعِزٍّ مِنْ مِثَابَتِهِ  
 وَجَاءَهُ الدَّهْرُ يَسْتَرْضِيهِ مَعْتَدِراً  
 لَوْلَا الْخَلِيفَةُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَنْبَهَمَتْ  
 سَمَتْ لِنَيْلِ تَرَاثِ الْمَجْدِ هَمَّتْ  
 يَنْمِيهِ لِلْعِزِّ وَالْعَلِيَا أَبُو حَسَنِ  
 مِنْ آلِ يَعْقُوبَ حَسْبَ الْمَلِكِ مَفْتَحِراً  
 أَطْوَادُ حِلْمٍ رَسَا بِالْأَرْضِ مَحْتَدُهُ  
 تَحْفَظُهَا مِنْ مَرَيْنِ أَبْحَرُ زَخَرَتْ  
 بِكُلِّ نَجْمٍ لَدَى الْهَيْجَاءِ مُلْتَهَبِ  
 أَكْفَهُمْ فِي دِيَاجِيهَا مَطَالَعُهُ  
 يَا خَيْرَ مَنْ خَلَصَتْ لَلَّهِ نَيْتُهُ  
 جَرَّدَتْ وَالْفِتْنَةُ الشَّعْوَاءِ مُلْبَسَةُ  
 وَخَضَّتْهَا غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَكَلٍ  
 صَبِرْتَ نَفْساً لِعَقْبِي الصَّبْرِ حَامِدَةُ  
 فَلِيهِنَّ دِينَ الْهُدَى إِذْ كُنْتَ نَاصِرَهُ  
 لَا زَالَ مَلِكِكَ وَالتَّأْيِيدُ يَخْدُمُهُ  
 وَدَمَتْ فِي نِعَمٍ تَصْفُو مَلَابِسُهَا  
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَا

جَرَّارُ أَذْيَالَ سُحْبِ الْجُودِ سَاحِبِهِ  
 وَأَحْسَبْتُ رَغْبَةَ الْعَاقِي رَغَائِبُهُ  
 وَبَاءَ بِالْخِزْيِ مَقْهُوراً مُحَارِبِهِ  
 أَثْنِي وَأَثْنَتْ بِمَا أَوْلَى حَقَائِبِهِ  
 عَزَّتْ مَرَامِيهِ وَانْقَادَتْ مَآرِبِهِ  
 مُسْتَغْفِراً مِنْ وَقُوعِ الذَّنْبِ تَائِبِهِ  
 طُرُقُ الْمَعَالِي وَنَالَ الْمَلِكَ غَاصِبِهِ  
 وَالْمَلِكُ مِيرَاثُ مَجْدٍ وَهُوَ غَاصِبِهِ  
 سَمِحُ الْخِلَاقِ مُحَمَّدٌ ضَرَائِبِهِ  
 بِيَابِ عِزِّهِمْ السَّامِي تَعَاقِبِهِ  
 وَزَاحَمَتْ مِنْكَبَ الْجُوزَا مَنَاكِبِهِ  
 أَمْوَاجُهَا وَغَمَامٌ ثَارَ صَائِبِهِ  
 يَنْقُضُ وَسَطَ سَمَاءِ النَّقْعِ ثَائِبِهِ  
 وَفِي نَحُورِ أَعَاذِيهِمْ مَغَارِبِهِ  
 فِي الْمَلِكِ أَوْ خَطَبِ الْعَلِيَاءِ خَاطِبِهِ  
 سَيْفًا مِنْ الْعِزِّ لَا تَنْبُو مِضَارِبِهِ  
 وَقَلَّمَا أَدْرَكَ الْمَطْلُوبَ هَائِبِهِ  
 وَالصَّبْرُ مَذْكَانَ مُحَمَّدٍ عَوَاقِبِهِ  
 أَمْنٌ يُوَالِيهِ أَوْ خَوْفٌ يَجَانِبُهُ  
 تَقْضِي بِخَفْضِ مُنَاوِيهِ قَوَاضِيهِ  
 فِي ظِلِّ عِزِّ عَلَاءٍ تَصْفُو مِشَارِبِهِ  
 سَارَتْ إِلَيْهِ بِمُشْتَاقٍ رَكَابِهِ

ومن شعره ما قيده لي بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة المرينية الفقيه الرئيس  
الصدر المتقن أبو زيد ابن خلدون<sup>١</sup> :

صحا القلبُ عمّا تعلمين فأقلعا  
وأصبح لا يُلّوي على حدّ منزلٍ  
وأضحى من السلوان في حرزٍ معقلٍ  
يردُّ الجفونَ التّجلّ عن شرفاته  
عزيزٌ على داعي الغرام انقياده  
أهابَ به للشيبِ أنصحُ واعظٍ  
وسافر في أفقِ التّفكيرِ والحجى  
لعمري لقد أنصيتُ عزمي تطلباً  
وخضتُ عبابَ البحرِ أخضرَ مُزبداً  
وعظّلَ من تلك المعاهدِ أربعا  
ولا يتّبعُ الطرفَ الخليّ المودّعا  
بعيدٍ عن الأيام أن يتعضعا  
وإن لحظتُ عن كل أجيّدٍ أتلتعا  
وكان إذ ناداه للوجدِ أمطعا  
أصاخ له قلباً منيباً ومسمعا  
زواهره لا تبرحُ الدهرَ طلّعا  
وقضيتُ عمري رقبةً وتطلّعا  
ودستُ أديمَ الأرضِ أغبرَ أسفعا

وقال حسبما قيده المذكور<sup>٢</sup> :

ناهُ النّهى بَعْدَ طولِ التّجاربِ  
وخاطبتهُ دهرُهُ ناصحاً  
فأضحى إلى نُصحِهِ واعياً  
وأصبح لا تسييه الغواني  
ولاحَ لهُ منهجُ الرشدِ لاجبِ  
بألسنةِ الوعظِ من كلّ جانبِ  
والغى حديثَ الأمانى الكواذبِ  
ولا تزدريه حظوظُ المناصبِ

ثم قال في «الإحاطة» : وإحسانه كثير في النثر والنظم والقصار والمطولات ،  
واستعمل في السفارة إلى ملك مصر وملك قشتالة ، وهو الآن قاضي حضرة الملك

١ الإحاطة : ٢٢٠ .

٢ المصدر السابق : ٢٢١ والكتيبة : ٢٥١ وقد حولت في ق إلى وزن الطويل مثل « ولاح له نهج  
من الرشد لاجب » أو « وخاطبه دهر له كان ناصحاً » . . . إلخ .

نسيجُ وَحَدِّهِ فِي السَّلَامَةِ وَالتَّخَصُّصِ وَاجْتِنَابِ فَضُولِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، كَانَ  
اللَّهُ لَهُ ؛ انْتَهَى .

وكتب ابن المصنف بهامش ترجمة المذكور من « الإحاطة » ما صورته :  
سيدي وشيخي علامة المغرب اليوم ، وحائز رتبة العليّة من خطابة وقضاء وعلامة  
وهو أحق بها ، لخلاله الحميدة ، أبواه الله تعالى ، قاله محبه علي بن الخطيب ؛  
انتهى .

وكتب على القصيدة الميلادية المتقدمة ما نصّه : رويتها عنه ، وسمعتها من  
لفظه ، وأجازني إياها بتلمسان ؛ انتهى .

وكتب على حاشية قصيدته « صحا القلب - إلى آخره » ما صورته : سمعتها  
من لفظ سيدي وشقيق روجي الإمام العلامة الرائس أبي زيد ابن خلدون بالأندلس  
أمتع الله به تعالى ؛ قال ذلك أخوه علي بن الخطيب ؛ انتهى .

#### [ ٢١ - مخاطبات ابن زمرك للسان الدين ]

وقال في « الإحاطة » في ترجمة ابن زمرك ما صورته ١ : وشعره مترامٍ إلى  
هدَفِ الإِجَادَةِ ، خَفَاجِي التَّرْعَةِ ، كَلَفَ بِالْمَعَانِي الْبَدِيعَةَ وَالْأَلْفَاظِ الصَّقِيلَةَ ،  
غَزِيرِ الْمَادَةِ ، فَمَنْ ذَلِكَ مَا خَاطَبَنِي بِهِ وَهِيَ مِنْ أَوَّلِ مَا نَظَمَهُ قَصِيدَةً مَطْلَعُهَا :

أَمَّا وَانصِدَاعِ النُّورِ مِنْ مَطْلَعِ الْفَجْرِ

يقول فيها بعد أبيات :

لَكَ اللَّهُ مِنْ فَذِّ الْجَلَالَةِ أَوْحِدٍ      تَطَاوَعَهُ الْآمَالُ فِي النَّهْيِ وَالْأَمْرِ  
لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي طَالَ فَخْرُهُ      عَلَى الْمُرْهَفَاتِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ السَّمْرِ  
يَقْلُدُ أَجْيَادَ الطُّرُوسِ تَمَائِمًا      بَصِنْفِي لَالٍ مِنْ نِظَامٍ وَمِنْ نَثْرٍ

١ الإحاطة ٢ : ١٨٤ وانظر القصيدة في الكتيبة : ٢٨٤ وأزهار الرياض ٢ : ١٦٤ .

يُقلُّ بحوراً من أناملك العشر  
يطرزه وشي العذار من الخبر  
بالوية حُمُرٍ وبالصُّحفِ الحمر  
تَحُوكُ بها وشي الربيع يدُ القَطْر  
فيرقص غصنُ البانِ في حُللِ خُضر  
من السوسنِ الغضِّ المختَمِ بالتبر  
ويُمنعُ ثغرُ النورِ بالذابلِ النُصر  
وترزى نجومُ الزَّهرِ منها على الزُّهر  
تنفَسُ ثغرُ الزهرِ عن عنبرِ الشَّجر  
وأبهرَ حسناً من شماتلك الغُرُّ  
وتفرقُ منه الأسدُ في موقفِ الذعر  
تأججَ منه العُصبُ في بلحّةِ البحر  
ترقرقُ ماءُ البِشْرِ في صفحةِ البدر  
يضيقُ نطاقُ الوصفِ فيه عن الحُصر  
فغرناطةٌ تختالُ تيهاً على مصر  
وفاخرتِ الأملاكُ منك بنو نصر  
وغرّةٌ وضَّاحِ المكارمِ والنَّجْر  
فعرَّ حِمى الإسلامِ بالطيِّ والنَّشْر  
فِيُتلى سناء الملكِ بالمدِّ والقصر  
وتضطربُ الآراءُ من كل ذي حجْر  
وأطلعت آراء قبسنَ من الفجر  
فعن رأيكَ اليمونِ تظفرُ بالنصر  
وتسحبُ أذيالَ الفخارِ على النسر

تَهَيَّبَكَ القُرطاسُ فاحمرَّ إذ غدا  
كأنَّ رياضَ الطَّرسِ خدٌ مورَّدُ  
فشارةُ هذا الملكِ رائقةُ الحُلَى  
وما روضةٌ غناء عاهدَها الحيا  
تُعْتِي قيانُ الطيرِ في جنباتها  
تمدُّ لأكواسِ العَرارِ أناملًا  
ويحرسُ خدَّ الوردِ صارمُ نهرها  
يفاخِرُ مرآها السماء محاسناً  
إذا مسحت كفُ الصِّبا جفنَ نورها  
بأعطرَ من ربا ثنائك في السرى  
عجبتُ لهُ يحكي خلالَ خَميلةٍ  
إذا أضمرت من بأسها الحربُ جاحماً  
وإن كَلَحَ الأبطالُ في حومةِ الوغى  
لك الحسبُ الوضَّاحُ والسوددُ الذي  
تَشَرَّفَ أفقُ أنتَ بدرُ كماله  
تكلَّلَ تاجُ المَلِكِ منك محاسناً  
بعزمة مضمونِ السعادةِ أوحدٍ  
طوى الحيفَ منشورَ اللواء مؤيداً  
ومدَّ ظلالَ الأمنِ إذ قصرَ العدا  
إذا احتفلَ الإيوانُ يومَ مَشُورَة  
صدعتُ بفصلِ القولِ غيرَ منازعٍ  
فإن تظفرِ الحيلُ المغيرةُ بالضحي  
فلا زلتَ للعلياءِ تحمي ذمارها



وللعلم فخر الدين والفتك بالعدا  
 فيهنك عيدُ الفطر من أنت عيدهِ  
 جبرت مَهِيضاً من جناحي ورشته  
 وبوأتني من ذروة العزّ معتلى  
 وسوغني الآمالَ عذباً مسلسلًا  
 فدهري عيدٌ بالسرور وبالمنى  
 فأصبحتُ مغبوطاً على خيرِ نعمةٍ  
 وبأوتَ به يا ابن الخطيب على الفخر  
 ويثني بما أوليتَ من نِعمٍ غُرّ  
 وسَهَلتَ لي من جانبِ الزمنِ الوعرِ  
 وشرّفتني من حيثُ أدري ولا أدري  
 وأسميتَ من ذكرِي ورفعتَ من قدرِي  
 وكلُّ ليالي العمرِ لي ليلةُ القدرِ  
 يقلُّ لأدناها الكثيرُ من الشكرِ  
 وهي طويلة ؛ انتهى .

قلت : هذا الرئيس ابن زمرّك صرح هنا بأنّه بجاه لسان الدين ابن الخطيب أدرك من العز ما أدرك ، ثم انقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته وبها أشرك ، وحرك من دواعي قتله ما حرك ، وكم من صديق لك ضرّك ، وعَقَقَكَ بعدما برّك ، وساءك إثر ما سرّك ، ولذا رأيت بخط ابن لسان الدين علي هامش قوله في هذه القصيدة « ومد ظلال الأمن - إلخ » ما صورته : هذا مدحه لحاه الله ؛ وعلى قوله « وبوأتني من ذروة العزّ - إلخ » ما مثاله : هكذا شهادتك لحقه ، ثمّ تحوّلَكَ عنه ، وكفر نعمته ، اغرب أخزأك الله ؛ انتهى .

وكتب بهامش أول ترجمته من « الإحاطة » ما نصّه : أتبعه الله خزيًا ، وعامله بما يستحقّه ؛ فبهذا ترجمه والذي مولاه الذي رفع من قدره فيه ، ولم يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شرّ مَنْ أَحْسَنًا إليه .

وكتب أيضاً تحت هذا ما مثاله : هذا الوغد ابن زمرّك من شياطين الكتاب ابن حداد بالبيازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضرباً فمات من ذلك ، وهو أخسُّ عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة ، وأخملهم شكلاً ، استعمله أبي في الكتابة السلطانية ، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شرّ ، وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي ربّاه وأدّبّه واستخدمه ، حسبما هو معروف ،

وكفانا الله شرًّا من أحسننا إليه وأساء إلينا ؛ انتهى .  
 وقد ألمنا بترجمته في هذا الكتاب في باب تلامذة لسان الدين فلترجع هنالك .  
 ومما كتب به ابن زمّرك المذكور إلى لسان الدين ابن الخطيب جواباً عن  
 رسالة قوله <sup>١</sup> :

حَيْتُ صَباحاً فَأَحيتُ ساكِنِي القَصَبَةِ  
 قَضِي البَيانُ لَهَا أنْ لا نَظيرَ لَهَا  
 ناجتُ طَليحَ سُرَى لا يَستَفيقُ لَهَا  
 فحَرَكَتُهُ عَلى فَنكِ الكِلالِ بِهِ  
 وَأذكَرتُ عَهْدَ مُهَديها عَلى شَحَطِ  
 ما كَنتُ أَسْمَعُ من دَهرِي بِجوهرِ  
 سَلِ أَدَمِ الصَّبِّ من أَعدى السَحابِ بِها  
 فَاللهُ يَحْفَظُ مَهديها وَيشكرِ  
 مَنْ كانَ وارِثَ آدابِ يَشعشعِها  
 هُوَ المَلادُ مَلادُ النَاسِ قاطِبَةَ

وَاسْتَرَجَعْتَ أنفُساً بِالشوقِ مُغْتَصِبَةَ  
 فَأَحْرَزتُ من مَعاني خَصلِهِ قَصبَةَ  
 هَدَّتُ جوارِحَهُ واستَوَهنتُ عَصبَةَ  
 وَأذَبتُ بِسرورِ المَلتَقى نَصبَةَ  
 فَعاوَدَ القَلبَ من تَذكارِهِ وَصَبَةَ  
 لو كانَ يَسمحُ لي بِالقَلبِ مَنَ غَصبَةَ  
 وَقَلبِهِ بِجِمارِ الشوقِ مَنَ حَصبَةَ  
 فوجِها بِعِصابِ الحَسنِ قَدَ عَصبَةَ  
 بِالفِرضِ لِانِّي في لِارِثي لَهَا عَصبَةَ  
 سَبِحانَ مَنَ لِغِياثِ الخَلقِ قَدَ نَصبَةَ

وخاطبه كذلك بقوله <sup>٢</sup> :

يَكلَني مَولاي رَجَعَ جِوابِهِ  
 أَجيبُكَ لِلفِضْلِ الَّذي أنْتَ أَهلُهُ  
 فَأَنتَ الَّذي طَوقتَني كُلَّ مَنَةٍ  
 وَأَنتَ الَّذي أَعدى الزَمانَ كِمالَهُ  
 فلا زَلتَ لِلفِعلِ الجَميلِ مُواصِلاً

وما لَتعاطي المُعجِزاتِ وما لَيا  
 وأَكتُبُ مِمّا قَدَ أَفَدتُ الأَمالِيا  
 وأَحسبتُ آمالي وأَكسبتُ مالِيا  
 وصَيرتُ أَحرارَ الزَمانِ مَوالِيا  
 ولا زَلتُ لِالشَكرِ الجَزيلِ مَوالِيا

١ الأزهار ٢ : ١٦٦ .

٢ الكنية : ٢٨٨ والأزهار ٢ : ١٦٧ .

وخاطبه كذلك بقوله ١ :

طالعتها دون الصِّباحِ صباحاً  
ولقد رأيتُ، وما رأيتُ كحُسْنِها  
عذراءُ أرضعها البَيانُ لِبِانَهُ  
فأتتْ كما شاءت وشاءَ نَجِييها  
لا بل كمثلِ الروضِ باكره الحيا  
وطوت بساطَ الشوقِ مني بعدما

وخاطبه كذلك بقوله ٢ :

ذروني فإتني بالعلاء خبيرُ  
وكم بت أطوي الليلَ في طلبِ العلاءِ  
بعزمٍ إذا ما الليلُ مدَّ رواقه  
أخو كلفٍ بالمجدِ لا يستفزّه  
إذا ما طوى يوماً على السرِّ كَشْحَه  
وإتني وإن كنتُ الممنعَ جارهُ  
وما تعزبني فترةٌ في مدى العلاءِ  
وفي السَّرْبِ من نجدٍ تعلقتُ ظييةً  
وتمنعُ ميسورَ الكلامِ أنا الهدى  
أسكَّانَ نجدِ جادها واكفُ الحيا  
ويا سكني بالأجرعِ الفردِ من منى  
ذكرتك فوقَ البحرِ والبعدِ بيننا

١ الأزهار ٢ : ١٦٧ .

٢ الأزهار ٢ : ١٦٧ .

وأومضَ خَفَاقُ الذُّؤَابَةِ بَارِقُ  
ويهفو فُوَادِي كَلِمَا هَبَّتِ الصَّبَا  
ووالله ما أدري أذْكَرُكَ هَزَّتِي  
فَمَنْ مُبْلَغٌ عَنِي التَّوَى مَا يَسُوءُهَا  
بِأَنَّا غَدَاً أَوْ بَعْدَهُ سَوْفَ نَلْتَقِي  
إِلَى كَمْ أَرَى أَكْبَى وَوَجْدِي مَصْرَحُ  
أَمْنَجِدَ آمَالِي ، وَمَغْلَى كَاسِدِي  
أَنْسَى ، وَلَا أَنْسَى ، مَجَالِسُكَ الَّتِي  
نَزُورُكَ فِي جَنَحِ الظَّلَامِ وَنَنْشِي  
عَلَى أَتْقِي إِنْ غَبْتُ عَنْكَ فَلَمْ تَغِبْ  
نُورُحُ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَعِنْدَهَا  
فَظَلُّكَ فَوْقِي حَيْثَمَا كُنْتُ وَارْفُ  
وَعَدْرًا فَإِنِّي إِنْ أَطَلْتُ فَإِنَّمَا

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك :

وَحَقِّكَ مَا اسْتَطَعْت بَعْدَكَ غَمْضَةً  
وَعَارِضْتُ مَسْرَى الرِّيحِ قَلْتُ لَعَلَّهَا  
إِلَى أَنْ بَدَا وَجْهُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ  
فَقَلْتُ لِقَلْبِي اسْتَشْعِرِ الْأَنْسَ وَابْتَهِجْ  
وَسِرِّ فِي ضِمَانِ اللَّهِ حَيْثُ تُوَجِّهْتُ  
مِنَ النَّوْمِ حَتَّى آذِنَ النُّجْمُ بِالْغُرُوبِ  
تَمُّ بَرِيًّا مِنْكَ عَاطِرَةٌ الْمُهْبُوبِ  
مَحْيَاكَ إِذْ يَجْلُو بَغْرَتَهُ الْخَطُوبُ  
فَإِنْ تَبَعْدِ الْأَجْسَامُ لَمْ تَبَعْدِ الْقُلُوبُ  
رَكَابُكَ لَا تَخْشَى الْخَوَادِثَ أَنْ تَتُوبَ

قلت : هذه غاية في معناها ، لولا خروجها عن القواعد في ترتيب قافيتها ومبناها ، فانظر إلى تحوله عن لسان الدين بعد هذه المدائح ، ونسبته إليه بعده القبائح ، والإنسان خوآن ، إلا النادر من الإخوان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال في « الإحاطة » في ترجمة ابن سلبطور ما نصّه : ومما خاطبني به :

تالله ما أورى زنادَ القلقِ  
 أيقنتُ بالحَيْنِ فلولا نفحةُ  
 لكننتُ أفضي بتلظّي زفرةٍ  
 فآه من هَوْلِ النوى وما جئى  
 يا حاكى الغصنِ انثى متوجّجاً  
 الله في نفسٍ مُعنتى أقصدتُ  
 أتى على أكثرها برحُ الأسى  
 ولو بلامِ خيالٍ في الكرى  
 فربّ زورٍ من خيالٍ زائرٍ  
 شقيتُ من برحِ الأسى لو أنّ منّ  
 ففي معاناةِ الليالي عائقُ  
 وفي ضمانٍ ما يُعاني المرء من  
 هذا لعمرى معَ أتى لم أبت  
 فقد أخذتُ من خطوبِ غدرها  
 فخرُ الوزارة الذي ما مثله  
 ومذ أرائيه زمانى لم أبل  
 لا سيّما منذُ حططتُ في حمى  
 أيقنتُ أتى في رجائي لم أخب  
 ندبٌ لهُ في كلِّ حُسنِ آيةٍ

سوى بريقٍ لاح لي بالأبرقِ  
 نجديةٌ منكم تلافى رمقى  
 وحسرةٍ بين الضلوعِ تلتقي  
 على القلوبِ موقفُ التفرقِ  
 بالبدرِ تحت لمةٍ من غسقِ  
 من لاعجِ الشوقِ بما لم تُطيقِ  
 دع ما مضى منها وأدرك ما بقي  
 إن ساعدَ الجفنِ رقيبُ الأرقِ  
 أقرّ عيني وإن لم يصدقِ  
 أصبح رقتي في يديه مُعنتي  
 عن التصابي وفنونِ العلقِ  
 نوابِ الدهرِ مشيبُ المفرقِ  
 منها بشكوى روعةٍ أو فرقِ  
 بابن الخطيبِ الأمنِ ممّا أتقي  
 بدرٌ علا في مغربٍ أو مشرقِ  
 من صرّفه بمُرعدٍ أو مُبرقِ  
 مقامه الأمتع رحلَ أينقي  
 وأنّ مسعى بغيتي لم يُخفيقِ  
 تناسبتُ في الخلقِ أو في الخلقِ

١ سقطت هذه الكلمة من ص ، وفي ق : سماء .

في وجهه مسحة بشر إن بدت  
 تعتبر الأبصار في الألاء ما  
 كالدهر في استينائه وبطشه  
 إن بخل الغيث استهلت يده  
 وإن وشت صفحة طرس انجلي  
 بمثلها من حبرات أخجلت  
 ماراتق في الآذان أشناف سوى  
 تود أجباد الغواني أن يرى  
 فسئل به هل آده الأمر الذي  
 إذا رأى الرأي فلا يخطئه  
 ليه أبا عبد الإله هاكها  
 خذها إليك بكر فكر يزدرى  
 لازلت مرهوب الجنب مرتجى  
 مبلغ الآمال فيما تبغى

تبهرجت أنوار شمس الأفق  
 عليه من نور السماح المشرق  
 كالسيف في حد الطي والرونق  
 بوابل من غيث جود غدق  
 ليل دجاها عن سنا مؤتلق  
 حواشي الروض خدود المهرق  
 ملتقطات لفظه المفرق  
 حليها من در ذاك المنطق  
 حمل في شرح الشباب المونق  
 يمن اختيار للطريق الأوفق  
 عذراء تحو في وجوه السبق  
 لديك بالأعشى لدى المعلق  
 موصول عز في سعود ترتقي  
 مؤمن الأغراض مما تتقي

[ ترجمة ابن سلبطور ]

وابن سلبطور هو : محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمي .  
 قال في « الإحاطة » : من أهل المرية ، يكنى أبا عبد الله ، من وجوه بلده  
 وأعيانه ، نشأ نبيه البيت ساحباً بنفسه وبماله ذيل الخطوة ، متحلياً بمحصل  
 من خط وأدب ، وزيراً متجنداً ظريفاً ، درباً على ركوب البحر وقيادة  
 الأساطيل ، ثم انحط في هواه انحطاطاً أضاع مروءته واستهلك عقاره وهدأ  
 بيته ، وأجلاه أخيراً إلى اللحاق بالعدوة فهلك بها .  
 وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصه : مجموع شعر وخط ، وذكاء عن

درجة الظرفاء غير منقطّ ، إلى مجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحمي والميت ، نشأ في حجر الترفّ والنعمة ، محفوظاً بالمالية الجمّة ، فلما عقل عن ذاته ، وترعرع بين لِداته ، أجرى خيول لذاته ، فلم يدع منها ربّعاً إلا أفقره ، ولا عقاراً إلا عقره ، حتى حطّ بساحلها ، واستولى بسفر الإنفاق على جميع مراحلها ، إلاّ أنّه خلص بنفس طيّبة ، وسراوة سماؤها صيّبة ، وتمتّع ما شاء من زير ويم ، وتأنّس لم يُعطِ القيادة لهمّ ، وفي عفو الله سعة ، وليس مع التوكل عليه ضعة .

شعره - من شعره قوله يمدح السلطان ، وأنشدها إيّاه بالمضارب من وادي الغيران عند قدومه المريّة :

أثغرُك أم سِمِطٌ من الدرّ يُنظّمُ      وريقُك أم مسكٌ به الراح تُختَمُ  
ووجهُك أم بادٍ من الصبح نيرٌ      وفرعُك أم داجٍ من الليل مُظلمُ  
أعلل منك الوجد والليل مُتلفي      وهل ينفعُ التعليلُ والخطبُ مؤلمُ  
وأفنعُ من طيفِ الحَيالِ بزورةٍ      لو أنّ جفوني بالمنامِ تنعمُ

ثم سرد لسان الدين القصيدة ، وهي طويلة .

ثم قال : ومن شعره مديلاً على البيت الأخير حسبما نُسب إليه ببلده :

نامتُ جفونُك يا سؤلي ولم أنمِ      ما ذاك إلا لفرطِ الوجدِ والسقمِ  
أشكو إلى الله ما بي من محبتكم      فهو العليمُ بما ألقى من الألمِ  
« إن كان سفكُ دمي أقصى مرادكم      فما غلّت نظرةٌ منكم بسفكِ دمي »

ومما يُنسب إليه كذلك :

قفْ بي ونادِ بين تلك الطلُولِ      أينَ الألى كانوا عليها نزولُ  
أينَ ليالينا بهم والمنى      نجنيه غضاً بالرضى والقبولِ

لا حَمَلُوا بعضَ الذي حَمَلُوا يومَ تولتُ بالقيابِ الحُمُولِ  
إن غبتمُ يا أهلَ نجدٍ ففِي قَلْبِي أنتم وذلوعِي حُلُولُ<sup>١</sup>

ثم قال : ناب في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي الرنداحي ، وولي أسطول المنكب<sup>٢</sup> برهة ، وتوفي بمراكش عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[ ٢٣ - من ابن راجح إلى لسان الدين ]

وقال لسان الدين : كتب إليَّ أبو عبد الله ابن راجح التونسي بما يظهر من أبياته ، وهي :

أما والذي لي في حُلاك من الحمد  
لقد أشعرتني النفسُ أنك مُعرضٌ  
فإن زلةً مني بدتُ لكَ جهرةً  
ومالك ملاكي لديَّ من الردِ  
عن المسرفِ الآتي لفضلك يستجدي  
فصفحاً فما والله أذنبتُ عن قصدِ

[ ٢٤ - جواب لسان الدين ]

فراجعتُه بقولي :

أجلُّكَ عن عتبٍ يغضُّ من الودِّ  
ولكنني أهدي إليك نصيحتي  
إذا مقولُ الإنسانِ جاوزَ حدَّهُ  
فأصبح منه الجدُّ هزلًا مذمماً  
فما استطعتَ قبضاً للعنانِ فإنَّه  
وأكرمُ وجهَ العذرِ منك عن الردِّ  
وإن كنتُ قد أهديتها ثم لم تُجدِ  
تحوّلتِ الأغراضُ منه إلى الضدِّ  
وأصبح منه الهزلُ في معرضِ الجدِّ  
أحقُّ السجايا بالعلاء وبالجدِّ

١ ق : نزول ؛ ص : حمول .

٢ هذه رواية ص ؛ وفي ق : المبكم .



[ ترجمة ابن راجح ]

وقال في « الإحاطة » في حق ابن راجح المذكور ما محصّله <sup>١</sup> : محمد بن علي ابن الحسن بن راجح ، الشريف الحسيني باعترافه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الزمر: ٧ ، والإسراء: ١٥ ، والأنعام: ١٦٤) تونسي ، أبو عبد الله ، يُعرف بابن راجح ، صاحب رُوءاء وأبهة <sup>٢</sup> ، نظيف البزة ، فاره المركب ، مطفف مكيال الإطراء ، جَمُوحٌ في إيجاب الحقوق ، مترامٍ إلى أقصى آمام التوغّل ، سخي اللسان بالثناء ثرثاره ، مرسلٌ لعنانه في كل المحافل ، متواضع متودد فكه مطبوع حسن الخلق عذب الفكاهة ، مخصوص حيث حلّ من الملوك والأمراء بالآثرة ، وممّن دونهم بالمداخلة والصحبة ، ينظم الشعر ، ويحاضر بالأبيات ، ويقوم على تاريخ بلده ، ويتابر على لقاء أهل المعرفة ، والأخذ عن أولي الرواية ، قدم الأندلس عام خمسين وسبعمائة مفلتاً من الوقعة بالسلطان أبي الحسن ، فمهد له سلطانها كَنَفَ برّه ، وآواه إلى سَعَةِ رعيه ، وتأكدت بيني وبينه صحبة .

[ ٢٥ - من لسان الدين إلى ابن راجح ]

كتبتُ إليه أولَ قدومه بما نصّه أخذو حذو أبيات ذكر أن شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطبه بها :

أَمِنْ جَانِبِ الْغَرْبِيِّ نَفْحَةُ بَارِحِ	سَرَتْ مِنْهُ أَرْوَاحُ الْجَوَارِحِ فِي الْجَوَارِحِ ؟
قَدَحَتْ بِهَا زَنْدَ الْغَرَامِ وَإِنَّمَا	تَجَافَيْتُ فِي دِينِ السَّلْوِ لِقَادِحِ
وَمَا هِيَ إِلَّا نَسْمَةٌ حَاجِرِيَّةٌ	رَمَى الشُّوقُ مِنْهَا كُلَّ قَلْبٍ بِقَادِحِ
رَجَحْنَا لَهَا مِنْ غَيْرِ شَكِّ كَأَنَّهَا	شَمَائِلُ أَخْلَاقِ الشَّرِيفِ ابْنِ رَاجِحِ

١ ق : حاصله .

٢ ق : وبديهة .

وصبراً ، مُغارِ الفتلِ في كلِّ فادحٍ  
 طرازُ نُضارٍ في برودِ المدائحِ  
 حبا الله منه كلُّ صدرٍ بشارحِ  
 صحائفه أنست مضاء الصفائحِ  
 وجزلٌ كما راعتك صولةُ جارحِ  
 وخوضِ خضمِّ القولِ منه بسابعِ  
 أسنةُ حربٍ للعيونِ اللوامحِ  
 ولا ذهبت منه بحكمة ناصحِ  
 وقد غصَّ بالشَّمِّ الأنوفِ الحجاجحِ  
 خواتمه موصولةٌ بالفواتحِ  
 لمراكٍ من فوقِ الربى والبطائحِ  
 برحلك في قفرٍ عن الأنسِ نازحِ  
 وساعدها السعدانُ وسطِ الأباطحِ  
 بمعرضِ سوءِ فهي ناقةُ صالحِ  
 بطوعِ القوافي وانبعاثِ القرائحِ  
 وموردِ ظمآنٍ وكعبةِ مادحِ  
 أرحتِ السرى من كلِّ غادٍ ورائحِ

فتى هاشمٍ سبقاً إلى كلِّ غايةٍ  
 أصيلُ العلاجمُ السيادةُ ، ذكره  
 وفرقانُ مجدٍ يصدعُ الشكَّ نورهُ  
 وفارسُ ميدانِ البيانِ إذا انتضى  
 رقيقٌ كما راقنتك نعمةُ ساجعِ  
 إذا ما احتبى مستحضراً في بلاغةٍ  
 وقد شرعتُ في مجمعِ الحقلِ نحوه  
 فما ضعفتُ منه لصولةِ صادعِ  
 تذكرتُ قساً قائماً في عكاظه  
 ليهنك شمسُ الدينِ ما حزت من علا  
 رعى الله ركباً أطلع الصبحَ مسفراً  
 والله ما أهدته كَوْماءُ أوضعتُ  
 أقولُ لقمي عندما حطَّ كورها  
 ذروها وأرضِ الله لا تعرضوا لها  
 إذا ما أردنا القولَ فيه فمن لنا  
 بقيت مئى نفسٍ وتحفةُ قادمِ  
 ولا زلت تلقى البرَّ والرحبَ حيثما

[ ٢٦ - جواب ابن راجح ]

فأجابني بما نصّه :

تعادُ لمفؤودٍ عن الحيّ نازحِ  
 غليلُ غليلٍ للتواصلِ جانحِ

أمينُ مطلعِ الأنوارِ لمحةُ لامحِ  
 وهل بالمئى من مَوردِ الوصلِ يرتوي

١ ق : الحصل .

فيا فيض عينِ الدمعِ مالكَ والحمى  
 مرابعُ آرامي وموردُ ناقي  
 سقى الله ذاكَ الحميَّ ودَقاً فإنه  
 وأبدى لنا حُورَ الخيامِ تُزْفُ في  
 ترى حيَّ تلكَ الحورِ للهورِ مهيعٌ  
 ويا دوحةَ الريحانِ هل لي عودة  
 وهل أنتِ إلا حلةٌ حاتمةٌ  
 أقامَ بها الفخرَ الخطيبُ منابراً  
 وشقَّعَ بالإنجيلِ حمدَ مدبجهِ  
 وفرَّقَ بالفرقانِ كلَّ فريضة  
 وهل هو إلا للبريةِ مرشدٌ  
 فبشرى لسانَ الدينِ ساد بك الورى  
 متى قلتَ لم تتركْ مقالاً لقائل<sup>١</sup>  
 فمن حامَ بالحمي الذي أنتَ ربُّه  
 يحقُّ له أن يشفعَ الحمدَ بالثنا  
 ويا فوزَ ملكِ دمتَ صدرَ صدوره  
 بأرائكَ اللاتي تدلُّ على الهدى  
 ملكتَ خصالَ السبقِ في كلِّ غايةٍ  
 مطامح<sup>٢</sup> آمالٍ لأشرفِ همّةٍ  
 فدونكها يا مهدي المدحِ مدحةٌ

ورنده الحمى والشيخَ شيخَ الأشايحِ  
 فسقياً لها سقياً لناقةِ صالحِ  
 حمى لمحاتِ العينِ عن لمحِ لامحِ  
 حلُّ الحسن والحسنى وحلِّي الملامحِ  
 يدلُّ ، وهل حسمٌ لداء التبارحِ  
 لعفْرِ عفارِ الأنسِ بين الأباطحِ  
 تغصّ نواديبها بغادٍ ورائحِ  
 لترتيلِ آياتِ التدى والمنايحِ  
 وأوترَ بالتوراةِ شفعَ المدائحِ  
 نأت عن رشادِ فيه محضُ النصائحِ  
 لكلِّ هدىً هادٍ لأرجحِ راجحِ  
 وأورى الهدى للرشدِ أوضحِ واضحِ  
 وإن لم تقلْ لم يُغنِ مدحٌ لمادحِ  
 وعامَ ببحرٍ من عطايك طافعِ  
 ويغدو بذاك البحرِ أسبحِ سابحِ  
 وبشرى له قد راح أربحِ رليح<sup>٣</sup>  
 وتبدي لمن خصصت سبيلَ المناجحِ  
 ومُلكتَ ما ملكت يا ابن الجحاجحِ  
 أقلُّ مراميهما أجلُّ المطامحِ  
 أُجبتُ بها عن مدحِ أشرفِ مادحِ

١ من قول حسان في مدح ابن عباس :

بملتقطات لا ترى بينها فصلاً

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل

٢ سقط البيت من ص .

٣ ق : مطالب .

تُهَنِّيكِ بِالْعَامِ الَّذِي عَمَّ مَدْحُهُ  
فَخُذْهَا سَمِيَّ الْفَخْرِ يَا خَيْرَ مَسْبَلٍ  
وَدُمَّ خَاطِبَ الْعُلِيَّا بِهَا خَيْرَ خَاطِبٍ  
مَوَاهِبُ هَاتِيكَ الْبِحَارِ الطَّوَافِحِ  
عَلَى الْخَلْقِ لِإِغْضَاءِ سُتُورِ التَّسَامُحِ  
وَأَتَوْقَ تَوَاقٍ وَأَطْمَحَ طَامِحِ

[ بقية ترجمة ابن راجح ]

ثمَّ قال لسان الدين : توفي يوم الخميس ثالث شعبان سنة خمس وستين  
وسبعمائة ، وقد ناهز السبعين ، ودفنناه بروضتنا بباب البيرة ، وأعفي شارب الشعر  
من ثاني<sup>١</sup> مقصِّه ، عفا الله تعالى عنا وعننا ؛ انتهى .

قلت : رأيت بخط البدر البشتكي في اختصاره لإحاطة لسان الدين وسمَّاه  
بـ « مركز الإحاطة » في هذا المحل ما نصَّه : قال كاتبه : لو وفق الله تعالى هذا  
الرجل لم يجب عن مثل تلك الحائية بهذا الهدء ، ولعل ما في كتاب أبي البركات  
الذي اسمه « شعر من لا شعر له » أنزل من هذه الطبقة ؛ انتهى .

وقد أشار لسان الدين لهذا بقوله السابق : وأعفي شارب الشعر من ثاني<sup>١</sup> مقصِّه ،  
فله دره من لوذعي زان خاتم البراعة بفصِّه ، فلکم له من عبارة وجيزة يقضي  
بها ما لم يستطع غيره أن يعبر عنه بإطنابه ، فعلى كل من يروم التعبير ، عمَّا في  
الضمير ، أن يتمسك بأطنابه .

وقال ابن خاتمة : حدثني الشريف الأديب أبو عبد الله ابن راجح التونسي  
مقِّدمه علينا بالمرية قال : سجن القاضي أبو عبد الله ابن عبد السلام شاباً وسيماً  
لحقّ تعين عليه ، فأنشدته مداعباً :

أقاضي المسلمين حكمتَ حكماً غداً<sup>٢</sup> وجهُ الزمانِ له عبوساً

١ ص : ناي .

٢ ق : بدا .

سجنت على الدراهم ذا جمال ولم تسجنه إذ غصَبَ النفوسا  
فأجاني بأن قال : إنما شكاه لي أربابُ الدراهم ، دون أرباب النفوس ؛  
انتهى .

رجع إلى ما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى :

[ ٢٧ - من العشاب إلى لسان الدين ]

وممّا خاطبه به أبو عبد الله العشاب<sup>١</sup> التونسي في بعض الأعياد قوله :

يُيْمَنُ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ مُحَمَّدٍ      تِيْمَنَ هَذَا الْقَطْرُ وَانْسَجَمَ الْقَطْرُ  
أَفْضَلَ عَلَيْنَا مِنْ جَزِيلِ عَطَائِهِ      بِحُورٍ أْتَدِيمُ الْمَدَى لَيْسَ لَهُ جَزْرُ  
وَآتَسْنَا لَمَّا عَدَمْنَا مَغَانِيًا      إِذَا ذُكِرْتَ فِي الْقَلْبِ لَيْسَ لَهَا ذَعْرُ  
هَنِيئًا بَعِيدِ الْفَطْرِ يَا خَيْرَ مَاجِدٍ      كَرِيمٍ بِهِ تَسْمُو السِّيَادَةُ وَالْفَخْرُ  
وَدَمَّتْ مَدَى الْأَيَّامِ فِي ظِلِّ نِعْمَةٍ      تَطِيعُ لَكَ الدُّنْيَا وَيَعْنُو لَكَ الدَّهْرُ

[ ٢٨ - من محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي إلى لسان الدين ]

وقال لسان الدين في ترجمة ابن عبد الملك المراكشي ما صورته : وخاطبني  
بقوله :

وَلِيَّتَ وَلايَةَ أَحْسَنَتْ فِيهَا      لِيُعْلَمَ أَنَّهَا شَرُفَتْ بِقَدْرِكَ  
وَكَمْ وَالِ أَسَاءَ فَقِيلَ فِيهِ      ذَنِّي الْقَدْرِ لَيْسَ لَهَا بِمَدْرِكَ  
وقال أيضاً يخاطبني في المعنى :

١ ق : الفشتالي .

٢ ص : من ذكرها .

وليتَ فقيل أحسنَ خيرُ والِ ففاق مَدَى مداركها بفضلهُ  
وكم والِ أساءَ فقيلَ فيهِ دَنَا فمَحَا محاسِنَها بفعلهُ

[ ترجمة ولد ابن عبد الملك ]

وفي « الإحاطة » ما محصله أن المذكور محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأنصاري الأوسي ، كان شديد الانقباض ، محجوب المحاسن ، تنبو العين عنه جهامة ووحشة ظاهر وغرابة شكل ، وفي طي ذلك أدب غض ، ونفس حرّة ، وحديث ممتع ، وأبوّة كريمة ، أحد الصابرين على الجهد ، المستمسكين بأسباب الحشمة ، الراضين بالخصاصة ، وأبوه قاضي القضاة نسيجُ وحنده الإمام العالم التاريخي المتبحر في الآداب ، تقلبت به أيدي الليالي بعد وفاته لتبعة سلطت على نَشَبه ، فاستقر بمالقة مقدوراً عليه ، لا يهتدي لمكان فضله إلا من عثر عليه ، ومن شعره قوله :

من لم يصنْ في أملٍ وجهَهُ عنك فصنْ وجهك عن ردهِ  
واعرفْ لهُ الفضلَ وعرفْ لهُ حيثُ أحلَّ النفسَ من قصدهِ

ثم قال : توفي في ذي القعدة عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

[ ٢٩ - من المكودي إلى لسان الدين ]

ومما مُدِح به لسان الدين قولُ أبي عبد الله محمد المكودي الفاسي رحمه الله تعالى :

رُحماكَ بي فلقدْ حَلَدتْ في حَلَدِي هوى أكابدُ منه حُرقةَ الكبدِ  
حللتَ عقْدَ سلوِي عن فؤادي إذ حللتَ منه محلَّ الروح من جسدي  
مراكَ بدري ، وذكراك التذاذُ فمي ودين حبك إضماري ومعتقدي

ومن جمالك نورٌ لآحَ في بصري  
لا تحسبنَ فؤادي عنكَ مصطبراً  
وهاكَ جسمي قد أودى النحولُ به  
بما بطرفكَ من غُنْجٍ ومن حَوَرٍ  
كنُ بينَ طرفي وقلبي منصفاً فلقد  
فقال لي : قد جعلتَ القلبَ لي وطناً  
وكيف تطلبُ عدلاً والهوى حَكَمُ  
من لي بأغيدَ لا يرثي لذي شجنٍ  
ما كنتُ من قبلِ إذعاني لسطوته  
إن جاد بالوعدِ لم تصدقْ مواعده  
شكوته عِلتي منهُ فقال : ألا  
فقلتُ : إن شئتَ برثي أو شفا ألمي  
وإن بخلتَ فلي مولى يجودُ على

وخرج بعد هذا إلى مدح لسان الدين فأطال وأطاب ، وكيف لا وقد ملأ  
من إحسانه الوطاب ، رحم الله تعالى الجميع .

[ ٣٠ - من اليتيم إلى لسان الدين ]

وقال لسان الدين : كتبت إلى أبي عبد الله اليتيم<sup>١</sup> أسألُ منه ما أثبت في  
كتاب « التاج » من شعره ، فكتب إليَّ بهذه الأبيات :

أما الغرامُ فلمَ أُخْلِلْ بمذهبهِ فلمِ حَرَمْتَ فؤادي نيلَ مطلبهِ

١ هو محمد بن علي بن محمد العبدري ، وسينقل المقرئ ترجمته عن التاج فيما يلي ، وبمضها مثبت أيضاً  
في الكتيبة : ٥٩ .

يا معرضاً عن فؤاد لم يزل ككفياً  
 قطعت عنه الذي عودته فغدا  
 أيام وصلك مبدول ، وبرك بي  
 وسمع ودك عن إفك العواذل في  
 لا أنت تمنعني نيل الرضى كرمأ  
 لله عرفك ما أذكى تنسمه  
 أنت الحبيب الذي لم أتخذ بدلاً  
 يا ابن الخطيب الذي قد فقت كل سنا  
 محمد الحسن في خلق وفي خلق  
 حضرت أو غبت ما لي عن هواك غنى  
 سيان حال التداني والبعاد ، وهل  
 يا من أحسن ظني في رضاه وما  
 إن كان ذنبي الهوى فالقلب مني لا

بجته ، ذا حذارٍ من تجنبه  
 وحظه من رضاه برق خلبيه  
 مجدّد ، قد صفا لي عذب مشربه  
 شغلٍ وبدرُ الدجى ناسٍ لمغربه  
 ولا فؤادي بوانٍ في تطلبه  
 لو كنت تمنحني استنشاق طيبه  
 منه وحاشا لقلبي من تقلبه  
 أزال عن ناظري إظلام غيبه  
 أكملت باسمك معنى الحسن فازه به  
 لا ينقص البدر حسناً في تغيبه  
 لمبصر البدر نيل في ترقبه؟  
 ينفك يهدي قبيحاً من تغضبه  
 يصغي لسمع ملامٍ من مؤنّب

[ ٣١ - من لسان الدين إلى اليتيم ]

فأجبت بهذه الرسالة ، وهي ظريفة في معناها : « يا سيدي الذي إذا رفعت  
 راية ثنائته تلقيتها باليدين <sup>٢</sup> ، وإذا قُسمت سيهاً وداده على ذوي اعتقاده كنت  
 صاحب الفريضة <sup>٣</sup> والدين ، دام بقاؤك لطرفة تبيديها ، وغريبة تردفها بأخرى  
 تليها ، وعقيلة بيان تجليها ، ونفس أخذ الحزن بكظمها ، وكلف الدهر  
 بشت نظمها ، تؤنسها وتسليها ، لم أزل أشد على بدائعك يد الضنين ، وأقتني

١ ص : نأيت .

٢ فيه إشارة إلى قول الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

٣ الفريضة : الإرث أو الحصة منه .



درر كلامك ، ونفثات أقلامك ، اقتناء الدر الثمين ، والأيام بلقائك تعدّ ولا تُسعد ، وفي هذه الأيام انثالت عليّ سماؤك بعد قحط ، وتواترت لدي الآؤك على شحط ، وزارتي من عقائل بيانك كلُّ فاتنة الطرف ، عاطرة العرف ، رافلة في حلل البيان والظرف ، لو ضربت بيوتها بالحجاز ، لأقرت لها العربُ العاربة بالإعجاز ، ما شئت من رصف المبني ، ومطاوعة اللفظ لغرض المعنى ، وطيب الأسلوب ، والتشبث بالقلوب ، غير أن سيدي أفرط في التنزل ، وخطل المخاطبة بالتغزل ، وراجع الالتفات ، ورام استدراك ما فات ، ويرحم الله تعالى شاعر المعرفة فلقد أجاد في قوله ، وأنكر مناجاة الشوق بعد انصرام حوله<sup>١</sup> :

أبعد حوّلٍ تناجي الشوقَ ناجيةً هلاًّ ونحن على عشرٍ من العشرِ<sup>٢</sup>

« ولقد تجاوزت في الأمد ، وأنسيت أخبار صاحبك عبد الصمد ، فأقسم بالفياتِ القدود ، وهمزات الجفون السود ، وحامل الأرواح مع الألواح ، بالغدوِّ والرّواح ، لولا بُعدُ مزارك ، ما أمنت غائلة ما تحت إزارك ، ثم إنني حققت الغرض ، وبجحت عن المشكل الذي عرّض ، فقلت : للخواطر<sup>٣</sup> انتقال ، ولكل مقام مقال ، وتختلف الحوائج باختلاف الأوقات ، ثم رفع اللبسَ خبرُ الثقات » .

ومنها - « وتعرفت ما كان من مراجعة سيدي لحرفة التكتيب والتعليم ، والحنين إلى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، وإن لاحظ

١ من قصيدته التي مطلعها :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السرير  
لعل بالجرع أعواناً على السهر

(شروح السقط : ١١٤) .

٢ الناجية : الناقة السريمة ؛ والعشر : شجر ، وأراد به هنا المكان الذي ينبت فيه .

٣ ق : للخاطر .

اللاحظ ، ما قال الجاحظ<sup>١</sup> ، فاعترض<sup>٢</sup> لا يرد<sup>٣</sup> ، وقياس لا يطرد<sup>٤</sup> ، حبذا والله عيش<sup>٥</sup> التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجديب ، معاهدة الإحسان ، ومشاهدة الصور الحسان<sup>٦</sup> . يميناً إن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وإنتي لأنظر منهم كلما خطرت على المكاتب ، أمراء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدرّة ، متقطب الأسرة ، متمر للوارد تنمر الهرة ، يغدو إلى مكتبه ، كالأمير في موكبه ، حتى إذا استقل في فرشه<sup>٣</sup> ، واستوى على عرشه ، وترنم بتلاوة قالونه وورثه<sup>٧</sup> ، أظهر للخلق احتقاراً ، وأزرى بالجبّال وقاراً ، ورفعت إليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم ، فتقول : كسرى في إيوانه ، والرشيد في أوّانه ، أو الحجاج بين أعوانه ، فإذا استولى على البدر السّرّار ، وتبين للشهر الغرّار ، تحرك إلى الخرج ، تحرك العود إلى الفرج ، أستغفر الله ممّا يشقّ على سيدي سماعه ، وتشمئز من ذكره طباعه ، شيم اللسان ، خلط الإساءة بالإحسان ، والغفلة من صفات الإنسان ، فأبي عيش كهذا العيش ؟ وكيف حال أمير هذا الجيش ؟ طاعة معروفة ، ووجوه إليه مصروفة ، فإن أشار بالإنصات ، لتحقق القصّات ، فكأنما طمس على الأفواه ، ولأم بين الشفاه ، وإن أمر بالإفصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحف به كما حف بالبيت الحجيج ، وكم بين ذلك من رشوة تدس ، وغمزة لا تحس ، ووعد يستنجز ، وحاجة تستعجل وتحفز ، هنا الله سيدي ما خوّله ، وأنساه بطيب أخراه أوّله ، وقد بعثت بدعائبي هذه مع إجلال قدره ، والثقة بسعة صدره ، فليتلقها بيمينه ، ويفسح لها في المرتبة بينه وبين خدينه ، ويفرغ لمراجعتها وقتاً من أوقاته عملاً بمقتضى دينه ، وفضل يقينه ، والسلام .

١ يومئ إلى أن الجاحظ قد ذم ملمي الصبيان ، ويداعب ابن اليتيم في عودته إلى هذه الحرفة .

٢ ومشاهدة . . . الحسان : سقطت من ق .

٣ ق : استقبل على فرشه .

٤ قالون وورش : مقرنان اختص كل منهما بقراءة من القراءات .

[ ترجمة أبي عبد الله اليتيم ]

ثم قال : ومن المداعبة التي وقعت إليها الإشارة ما كتب به إليه صديقه أبو علي ابن عبد السلام :

أبا عبد الإله نداء خيل  
وفي جاء يمنحك النصيحة  
إلى كم تألف الشبان غياً  
وخذلاناً، أما تخشى الفضيحة؟

فأجابه بقوله :

فديتك صاحب السمة المليحة  
ومن قلبي وضعت له محلاً  
نأيت فدمع عيني في انسكاب  
وطرفي لا يتأخ له رقاد  
وزاد تشوقي أبيات شعري  
ولم تقصد بها جدّاً ، ولكن  
فقلت : أتألف الشبان غياً  
ففيهم حرفتي وقوام عيشي  
وأمرني فيهم أمر مطاع  
وتعلم أنني رجل حضور  
ومن طابت أرومته الصريحة  
فما عنه يحل بأن أزيحه  
وأكبادي لفرقتكم فريحه  
وهل نوم لأجفان جريحه  
أنت منكم بالفاظ فصيحه  
قصدت بها مداعبة وقيحه  
وخذلاناً ، أما تخشى الفضيحة ؟  
وأحوالي بخلطتهم نجيحة  
وأوجههم مصاييح صبيحه  
وتعرف ذلك معرفة صبيحه

ثم قال لسان الدين - بعد إيراد ما مر - ما صورته : ولما اشتهر المشيب بعارضه ولمته ، وخضر الدهر بعهود صباه وأذيمته ، أقلع واسترجع ، وتألم لما فرط وتوجع ، وهو الآن من جلة<sup>٢</sup> الخطباء طاهر العريض والثوب ، خالص

١ سقط هذان البيتان من ق .

٢ ق : جملة .

من الشُّوب ، بادٍ عليه قبول قابل التوب ، وتوفِّي في أخريات صفر سنة  
 خمسين وسبعمائة في الطاعون ، رحمه الله تعالى وغفر له ؛ انتهى .  
 واليتم المذكور هو أبو عبد الله محمد بن علي العبدري المالقي ، وفي حقّه  
 يقول لسان الدين في «التاج» ما مثاله : هو مجموع أدوات حسان ، من خط ونبغة<sup>١</sup>  
 لسان ، أخلاقه رَوْضٌ تتضوّع نسَماته ، وبشره صبح تتألّق قَسَماته ، ولا تخفي  
 سِماته ، يُقَرِّطِسُ أغراض الدعابة ويُضْمِيها ، ويفوق سهام الفكاهة إلى  
 مرآمِها ، فكلّما صدرت في عصره قصيدة هازلة ، أو أبيات منحطة عن  
 الإجادة نازلة ، خَمَسَ أبياتها وذيلها ، وصرّف معانيها وسيّلها ، وتركها سَمَرَ  
 الندمان ، وأضحوكه الأزمان ، وهو الآن خطيبُ المسجد الأعلى بمالقة ،  
 متحلّ بوقار وسكينة ، حالّ من أهلها بمكانة مكينة ، لسهولة جانبه ، واتضح  
 مقاصده في الخير ومداهبه ، واشتغل لأوّل أمره بالكتيب ، وبلغ الغاية في التعليم  
 والترتيب ، والشباب لم ينصل خضابُه ، ولا سلّت للمشيب عِضابه ، ونفسه  
 بالمحاسن كلفة صبّة ، وشأنه كلة هوى ومحبّة ، ولذلك ما خاطبه بعضُ  
 أودائه ، وكلاهما رمى أخاه بدائه ، حسبما يأتي خلال هذا المقول وفي أثناءه ؛  
 انتهى .

وذكر نحو ما تقدّم ذكره ، سامح الله الجميع بفضله .

[ ٣٢ - مخاطبة الكرسوطي لسان الدين ]

وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي  
 القاسمي<sup>٢</sup> نزيل مالقة ما صورته : وأنشدني وأنا بمالقة أحاول لَوثَ العمامة ،  
 وأستعين بالغير على الإحكام لها :

١ ق : من حفظ ونبغة .

٢ ترجمة الكرسوطي في الإحاطة ، الورقة : ٥٠ وفي البيتان .

أمعمماً قمرأ تكامل حُسْنُهُ أربى على الشمسِ المنيرة في البها  
لا تلتمس ممّن لديك زيادة فالبدرُ لا يمتارُ من نور السُّها

[ ترجمة ابي عبد الله الكرسوطي ]

قال لسان الدين : وهو فقيه محدث متكلم ، ألف كتاباً منها « الغرر في تكميل الطُّرر » طُرر أبي إبراهيم الأعرج ، ثم كتاب « الدرر في اختصار الطُّرر » المذكور ، وتقييدان على الرسالة كبير وصغير ، ولخص « التهذيب » لابن بشير ، وحذف أسانيد المصنّفات الثلاثة ، والتزم إسقاط التكرار ، واستدرك الصحاح الواقعة في الترمذي على البخاري ومسلم ، وقيد على مختصر الطليطي ، وشرع في تقييد على قواعد الإمام أبي الفضل عياض بن موسى برسم ولدي ، ويصدر منه الشعر مصدرأ لا تكنفه منه العناية ، وكانت له اليد الطولى في عبارة الرؤيا ، ومولده بفاس عام تسعين وستمائة ؛ انتهى ملخصاً .

[ ٣٣ - مخاطبة ابن الزبير لسان الدين ]

وقال في ترجمة أبي عمرو ابن الزبير ما صورته : وممّا خاطبني به عند إياي  
من العُدوة في غرض الرسالة قوله :

نوالي الشكرَ للرحمن فرضاً  
وكم لله من لطفٍ خفيّ  
بمقدمك السعيدِ أتت سعودٌ  
فيا بشرى لأندلس بما قد  
ويا لله من سفرٍ سعيد  
ورحتَ بنيةٍ أخلصتَ فيها  
وثبتَ لنصرة الإسلامِ لما  
على نعيمٍ كستَ طولاً وعرضاً  
لنا منه الذي قد شا وأمضى  
ننال بها نعيمَ الدهرِ محضاً  
به والاك بارينا وأرضى  
قدّ أقرضك المهيمنُ فيه قرضاً  
فأبتَ بكلّ ما يبغى ويرضى  
علمت بأنّ الأمر إليك أفضى

لقد أحييتَ بالتقوى رُسُوماً  
وقمتَ بسنةِ المختارِ فينا  
ورضتَ من العلومِ الصَّعبِ حتى  
فرايكَ راجحاً فيما تراهُ  
تدبِّرُ أمرَ مولانا فيلقى الـ  
فأعقبنا شفاءً وانبساطاً  
ومن أضحى على ظلمٍ وأمسى  
أبا عبدِ الإلهِ إليك أشكرو  
ومن نَعَمَّاكَ أَسْتَجِدِي لِبَاساً  
بقيتَ مؤملاً تُرجى وتُخشي

كما أرضيتَ بالتمهيدِ أرضاً  
تُمَهِّدُ سَنَةً وتُقيمُ فرضاً  
جنيتَ ثمارها رَطْباً وِغْضاً  
وعزمتَ من مواضي الهندِ أمضى  
مسيءٍ لديكَ إشفافاً وإغضاً  
وقد كانتِ قلوبُ الناسِ مرضى  
يَرِدُ إن شاء من نَعَمَّاكَ حوضاً  
زماضي حين زاد الفقرُ عَضاً  
تُفِيضُ به عليَّ الجاهَ فيضاً  
ومثلك من إذا ما جاد أرضى

#### [ ترجمة أبي عمرو ابن الزبير ]

وأبو عمرو المذكور هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، أبوه الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير أستاذ الزمان شيخ أبي حيان وغيره ، وقال في « الإحاطة » في حقه : إنَّه فكه حسن الحديث ، ركَّضَ طرفَ الشيبية في ميدان الراحة منكباً عن سنن أبيه وقومه ، مع شفوف إدراك ، وجودة حفظ ، كانا يُطعمان والده في نجاته ، فلم يعدم قادحاً ، شرقَ فنال حظوة ، وجرت عليه خطوب ، ثمَّ عاد إلى الأندلس ، فتطور بها ، وهو الآن قد نال منه الكبر يزجي لوقته<sup>١</sup> بمالقة متعللاً برمتق من بعض الخدم المخزنية<sup>٢</sup> ، استجاز له والده الطم والرم من أهل المغرب والشرق ، وبضاعته في الشعر مُزجاة ، ثم قال : مات تاسع المحرم عام خمسة وستين وسبعمائة ؛ انتهى .

١ ق : الوقت .

٢ المخزنية : نسبة إل المخزن وهو الدولة .

## [ ترجمة أبي يحيى الأكلحل ]

وقال في ترجمة أبي يحيى محمد بن أحمد بن محمد بن الأكلحل ما صورته :  
 شيخ هيدوري<sup>١</sup> الذقن ، خدوع الظاهر ، خلوب اللفظ ، شديد الهوى إلى  
 الصوفية ، والكلف بإطراء أهل الخير ، من بيت صَوْن وحشمة ، متقدم في  
 معرفة الأمور العلمية ، خائض في غمار التصوّف ، وانتحال كيمياء السعادة ،  
 راكب متن دعوى عريضة في مقام التوحيد ، تكذبها أحواله الراهنة ، لمعاصرة  
 خلقه على الرياضة ، واستيلاء الشره ، وغلبة سلطان الشهوة ، والمشاحة أيام  
 الولاية ، والسباب<sup>٢</sup> الشاهد بالشدّة ، والحلف المتصل بياضَ اليوم في ثمن  
 الخردلة باليمين التي فيها فساد الأنكحة ، والغضب الذي يقلب العين .

## [ ٣٤ - مخاطبة الأكلحل للسان الدين ]

خاطبني بين يدي نكبتة ولم أكن أظن الشعر ممّا تلوكة جَحَفَلْتَهُ<sup>٣</sup> ، ولكنّه  
 من أهل الكفاية :

رجوتك بَعْدَ الله يا خيرَ مُنْجِدِ	وأكرمَ مأمولٍ وأعظمَ مُرْفِدِ
وأفضلَ مَنْ أَمَلْتُ لِلْحَادِثِ الَّذِي	فقدتُ به صبري وما ملكت يدي
وحاشا وكلاًّ أن يخبِئَ مؤملي	وقد علقتُ بابن الخطيب محمد
وما أنا إلاّ عبدُ نعمته التي	عهدتُ بها يُمْنِي وإِنْجَاحِ مقصدي
وأشرفُ من حَضَّ الملوک على التُّقى	وأبدى لهم رشداً نصيحةً مرشدِ

١ ق : هيدري ؛ ولعلها هيدوري من قولهم هدر النبت إذا كثر وطال .

٢ ص : والسيد ولعلها محرفة عن « والسب » .

٣ الجحفلة للداية بمنزلة الشفة للإنسان .

٤ ق : رشد النصيحة .

وساس الرعايا الآن خيرَ سياسةٍ  
 وأعرض عن دنياه زهداً وإنها  
 وما هو إلاّ الليث والغيثُ إن أتى  
 وبحرُ علومٍ درهُ كلماتُهُ  
 صقيلُ مرائي الفكرِ ربُّ لطائفٍ  
 بديعُ عروج النفس للملا الذي  
 شفيقُ رفيق دائم الحلم راحمُ  
 صفوحُ عن الجاني على حين قدرةٍ  
 أيا سيدي يا عمدي عند شدي  
 حنانيك والطُفُ بي وكن لي راحماً  
 رجاك رجاء للذي أنت أهله  
 وأمك مضطراً لرحماك شاكياً  
 وعندى افتقارٌ لا يزالُ مواصلاً  
 ترفقُ بأولاد صغار بكاؤهم  
 وليس لهم إلاّ إليك تطلّعُ  
 أنلهم أيا مولاي نظرة مشفقٍ  
 وعاملٍ أخا الكرب الشديدِ برحمة  
 ولا تنظرن إلاّ لفضلك ، لا إلى  
 وإن كنتُ قد أذنبتُ إني تائبُ  
 بقيتَ بخيرٍ لا يزال وعزةٍ  
 وستخرك الرحمن للبعد ؛ إنّه

ثم قال : وهو الآن من مسطري الأعمال على تهوّر واقتحام كبرة<sup>٢</sup> ، من

١ سقط البيت من ص .

٢ ق : كبرة .



خط لا غاية وراءه في الركافة ، كما قال المعري <sup>١</sup> :

تمشت <sup>٢</sup> فوقه حمرُ المنايا ولكن بعدما مُسِخَتْ نمالا <sup>٣</sup>

[ ٣٥ - مخاطبة ابن عياش للسان الدين ]

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عياش بن مشرف الأمي :  
لأنه من أهل الأصالة والحسب ، ظهرت منه على حداثة السن أبيات ، ونُسب  
إليه شعر توسّل به ، وتصرف في الإشراف ، فحمدت سيرته ، وكتب إلي  
بقوله :

سَقَرَتْ شَمُوسُ الْيَمَنِ وَالْإِقْبَالِ      وبدت بدورُ السعدِ ذاتِ كمالِ  
لِقُدُومِ سَيِّدِنَا الْوَزِيرِ مُحَمَّدِ      أعزّزْ بهِ من سيدي مفضلِ  
قَمْرٌ تَجَلَّى بَيْنَ زُهْرٍ تَجْتَلِي      يهدي لفعلِ الخيرِ لا الإضلالِ  
سِرَّامًا لَا تَكْتَرُ ، فَلَأَنْتِ فِي      حفظِ الإلهِ الواحدِ المتعالي  
بِرًّا وَبِحِرًّا لَا تَخَافُ مُلَمَّةً      وعدوّ ذاكِ خلفَ ظهرِكِ صالي  
لَا يَسْتَقِرُّ لَهُ قَرَارٌ بَعْدَكُمْ      ممّا يحلُّ بهِ من الأوجالِ  
وَالآنَ تَرْجِعُ سَالِمًا وَمَبْشَرًا      ببلوغِ كلِّ مسرةٍ ومنالِ  
وهي طويلة ، نَمَطُهَا متخلف عن الإجادة ، وهي من مثله ممّا يُسْتَظَرَفُ ؛  
انتهى .

[ ٣٦ - مخاطبة أبي عبد الله الوادي آشي للسان الدين ]

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد العراقي الوادي آشي : فاضل

١ شروح السقط : ١٠٤ .

٢ السقط : ودبت .

٣ البيت في وصف السيف ؛ أي أن إفرنده وكأنما دبّت فوقه النمل .

الأبوة ، بادي الاستقامة ، حسن الأخلاق ، تولّى أعمالاً ، كتب إلي وقد أبى  
عملاً عرض عليه بقوله :

أَصْنَتُ أَلْفًا ثُمَّ أَنْطَقُ بِالْخَلْفِ وَأَفْقَدُ أَلْفًا ثُمَّ أَنْسُ بِالْخَلْفِ  
وَأَمْسِكُ دَهْرِي ثُمَّ أَفْطِرُ عَلَنَمًا وَيُمَحِّقُ بَدْرِي ثُمَّ أَلْحَقُ بِالْخَسْفِ  
وَعَزَمْتُ لَا كُنْتُ بِالذَّلِّ عَامِلًا وَلَوْ أَنَّ ضَعْفِي يَنْتَهِي بِي إِلَى الْخَتْفِ  
فَإِنْ تَعْمَلُونِي فِي تَصْرِفِ عِزَّةٍ وَعَدَلٍ وَإِلَّا فَاحْسَمُوا عِلَّةَ الصَّرْفِ  
بِقِيَمٍ وَسُحْبِ الْعَفْوِ مِنْكُمْ تَظَلِّي وَحِظْ ثَنَائِي دَائِمًا ثَانِي الْعِطْفِ

[ ٣٧ - مخاطبة أبي محمد الأزدي للسان الدين ]

وقال في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي ما صورته : وخاطبني  
لما وليت خطة الإنشاء وغيرها في أواخر عام تسعة وأربعين وسبعمائة بما نصّه :  
حُشَاشَةُ نَفْسٍ أَعْلَنْتْ لِمَذِيبِهَا بِتَذْكَارِ أَيَّامِ الْوَصَالِ وَطَيْبِهَا  
وَنَادَتْهُ رَحْمَى أَحْيَيْهَا نَفْسَ مَدْنَفٍ تَمُوتُ إِذَا لَمْ تَحْيَيْهَا بِوَجِيهِهَا  
فَدَاوٍ بِقَرَبٍ مِنْكَ لِأَعِجَ وَجَدَهَا وَفِيضَ أَمَاقِيهَا ، وَطُولَ نَحْيِهَا  
وَقَدْ بَلَغْتَ حَدَّ آبِهِ صَحَّ فِي الْهَوَى وَأَحْكَامِهِ ثَوْبُ الضَّنَى فِي نَصِيبِهَا  
وَهَلْ يَتَدَاوَى دَاءُ نَفْسٍ تَعِيْسَةَ إِذَا كَانَ يَوْمًا دَاوَاهَا مِنْ طَيْبِهَا  
لَعَلَّ أَوَارِ الْوَجْدِ تَحْمَدُ نَارُهُ فَيَرِدَ عَنْهَا مَا بَهَا مِنْ لَهْيِهَا  
إِلَيْكَ حَدَاهَا الشَّقُّ يَا بَدْرَهَا الَّذِي يَعْزُّ عَلَيْهَا مِنْهُ طَوْلُ مَغْيِهَا  
سَلَكْتَ بِهَا سَبِيلَ الْهَوَى فَهِيَ تَبْتَغِي لِفَاكٍ وَتَبْغِي غَفْلَةً مِنْ رَقِيبِهَا  
أَجْبَهَا بِإِبْقَاءِ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا سَتَفِي إِذَا مَا لَمْ تَكُنْ بِمَجْيِهَا  
وَمِلَّ نَحْوَهَا بِالْوَدِّ فَهِيَ قَدْ أَدَعَتْ كَمَا تَدْعُنُ الْأَقْلَامُ لِابْنِ خَطْبِهَا  
وَحِيدِ الزَّمَانِ الْمَاهِرِ الْبَاهِرِ الْحَلِيِّ وَجَهْدِ آدَابِ الْعُلَا وَأَدْيِهَا  
إِمَامُ مَعَالِيهَا ، وَبِحُرِّ عُلُومِهَا وَبَدْرُ دِيَاجِيهَا ، وَصَدْرُ شَعُوبِهَا

مُصَرَّفُهَا كَيْفَ انْتَهت وَمَعِيدُهَا  
وَرَافِعُ أَعْلَامِ الْبِلَاقَةِ وَالَّذِي  
وَحَامِلُ رَايَاتِ الرِّيَاسَةِ رَفْعَةً  
مِنَ الْغُرِّ مَمَّنْ أَوْجَبَتْ لَشَبَابِهَا  
مِنْ أَبْنَاءِ أَرْبَابِ الْمَتَابِرِ وَالْأُولَى  
خِلَالَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ طُودِ الْحَجِيِّ أَبِي  
أَجَادٍ وَأَجْدَى فَاسَلُ عَنْ ذِكْرِ طِيءٍ  
فَقِي كُلِّ مَا يَيْسِدِي مُحَمَّدٌ عِبْرَةٌ  
تَجِيبُ الْقَوَافِي إِنْ دَعَا بِبَعِيدِهَا  
تَخَيَّرَ أَخْلَاقَ الْكِرَامِ فَلَمْ يَكُنْ  
تَقْدَمُ فِي دَارِ الْخِلَافَةِ حَاجِبًا  
وَقَامَ لَهَا فِي سَاحَةِ الْعَزِّ كَاتِبًا  
فَأَبْدَى مِنْ أَنْوَاعِ الْفَضَائِلِ أَوْجُهًا  
هَنِيئًا بِهِ يَمْنًا بِأَسْعَدِ مَائِلِ  
فَلِلسَعْدِ تَأْثِيرٌ يَجِيءُ إِذَا جَرَى  
أَمْوَقَدَ نَارِ الْفِكْرِ يَقْدَحُ زَنْدَهَا  
حَدَانِي إِلَيْكَ الْحُبُّ قَدِيمًا وَمَالٌ بِي  
فَقَدَّمَتَهَا نِظْمًا قَوَافِي قَصْرَتْ  
وَكُنْتُ كَمَنْ وَافَى لَدَى الدَّارِ بِالْحَصَى  
فَصَلَّهَا وَخَذَ بِالْعَفْوِ فِيهَا فَلَمْ أَصِلْ

[ قطع من شعر الأزدي ]

وصاحب هذا النظم من أهل بلش ، وله اقتدار على النظم والنثر ، قال في

« الإحاطة » ما محصّله : ومما وقع له أثناء مقامات وأغراض تشهد باقتداره مهملًا :

رعى الله عهداً حوى ما حوى  
أراهم أموراً حلاً وردها  
ولما حلا الوصلُ صالوا له  
وأوردتهم سرّاً أسرارهم  
وما أملّ طال إلاّ وهى  
وأهل الودادِ وأهل الهوى  
وأعظاهمُ السؤلَ كلاًّ سوا  
وراموه مأوى وماءِ رِواً  
وردّ إلى كلّ داءِ دوا  
وما أملّ صال إلاّ هوى

وقال معجزة :

بثُّ بِنِي يَبْتِي فَيضُ جَفَنِي  
فَتَنَّتَنِي بَغْجِ ظِي تَجَنِي  
بِزّةٌ زِينَتُ قَضِيبِ تَشَنِي  
خَفْتُ تَشْتِيَتَ بِنِي فَجَفَنِي  
شَغَفِي شَفَتِي فَشَبَّتُ بِنِي  
تَبَتْنِي نَقْضَ نِي تَجَنِي  
قُضِيَتَ بَغِيَتِي فَفَزْتُ بِنِي  
ثَقَّةٌ تَنَشِي فَخَيْبَ ظَنِي

وقال كلمة وكلمة :

الهوى شفتي وأهمل جفني  
أحورُ شَبَّ حَرَّ بِي لَمَّا  
حاكمٌ يُتَقَى ولا ذنبَ إلاّ  
ماله ينقضُ العهودَ فيشجي  
لم يجزُ وصله فبتُ محالاً  
أدمعاً تنثني دماً بتثني  
نقضَ العهدِ بينَ طولِ تجني  
شغفٌ لم يخبُ لسعاه ظني  
ولها ينثي مُسَهَّدَ جفنِ  
يقتضي حلَّ بغيتي كلُّ فن

وقال يرثي ديكاً فقده ، ويصف الوجد الذي وجدّه ، ويبكي عدم أذانه ،

إلى غير ذلك من مستظرف شانه :

أودى به الختفُ لَمَّا جاءه الأجلُ ديكاً فلا عِوَصُ منه ولا بدّلُ

قد كان لي أملٌ في أن يعيشَ فلم  
فقدته فلعمري إنها عظةٌ  
ما كانَ أبدعَ مرآهُ ومنظرهُ  
كأنَّ مطرفَ وشيٍ فوقَ ملبسه  
كأنَّ إكليلَ كسرى فوقَ مفرقه  
مؤقتٌ لم يكنْ يُعزى له خطأ  
كأنَّ زرقالاً فيما مرَّ علكمه  
يرحلُّ الليلُ ، يجيي بالصراخ فما  
رأيته قد وهت منه القوى فهو  
لو يُفتدى بديوكِ الأرضِ قلَّ له  
قالوا الدواء فلم يغنِ الدواء ولم  
أملتُ فيه ثواباً أجرَ محتسبٍ

وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النصرين ، وقد نظر إلى شلير  
وقد تردى بالثلج وتعمم ، وكمل ما أراد من بزه وتمم ، أن ينظم في وصفه ،  
فقال بديها :

وشيح جليل القدر قد طال عمرهُ  
عليه لباسٌ أبيضٌ باهرُ السنَا  
فظوراً تراهُ كله كاسياً به  
وطوراً تراهُ عارياً ليس يكتسي  
وكم مرَّت الأيامُ وهو كما ترى  
وذاك شليرٌ شيخٌ غرناطة التي

وما عنده علمٌ بطول ولا قصرُ  
وليس بثوبٍ أحكمته يدُ البشرُ  
وكسوته فيها لأهلِ النهى عبرُ  
بحرٌّ ولا بردٌ من الشمسِ والقمرُ  
على حاله لم يشكُ ضعفاً ولا كبرُ  
لبهجتها في الأرضِ ذكرٌ قد اشتهرُ

١ يريد إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقال وقد وضع صحيفة في الرصد اسمها الزرقلة  
(أو الزرقالة) .

بها ملك سامي المراقي ، أطاعه كبارُ ملوك الأرضِ في حالة الصغر  
 تولاه ربُّ العرشِ منهُ بعصمةٍ تقيه مدَى الأيامِ من كلِّ ما ضررُ  
 وتوفّي المذكور في بلده بلش في طاعون عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

[ ٣٨ - من لسان الدين إلى ابن رضوان ]

وقال في « الإحاطة » في ترجمة صاحب القلم الأعلى بالمغرب أبي القاسم  
 ابن رضوان النجاري<sup>١</sup> ما صورته : ولما ولي الإنشاء بيباب ملك المغرب ظهر  
 لسلطاننا بعض قصور في المراجعات ، فكتبت إليه<sup>٢</sup> :

أبا قاسم<sup>٣</sup> لا زلتَ للفضلِ قاسماً      بميزان عدل ينصرُ الحقَّ من نصَّرُ  
 مدادك وهو المسك طيباً ومنظراً      وإلاّ سوادُ القلبِ والقوَد والبصرُ  
 عهدناه في كلِّ المعارفِ مطبئاً      فما باله في حرمةِ الود مختصرُ  
 أظنّك من ليلِ الوصالِ انتخبته      إلينا ، وذاك الليلُ يوصفُ بالقصَّرُ  
 أردنا بكَ العذرَ الذي أنتَ أهلهُ      ومثلك لا يرُمّي بعِي ولا حصَّرُ

[ ٣٩ - جواب ابن رضوان ]

فراجعي ، ولا أدري أهي من نظمه أم نظم غيره :

- ١ هو صاحب كتاب « الشهب اللامعة في السياحة النافعة » وترجمته في الإحاطة ، الورقة : ٢٤٤  
 والكتيبة : ٢٥٤ ونيل الابتهاج ١٢٣ والتعريف ٤١ ( و ص : ٢٠ ) وفهرسة السراج ( ك :  
 ١٢٤٢ د : ٢٦٤٣ ) الورقة : ١٣٩ ، ١٤٨ ومستودع العلامة : ٥٢ ونثير الجمان ، الورقة :  
 ٦٥ ( نسخة دار الكتب ) وجذوة الاقتباس : ٢٤٧ وقد كتبنا عنه دراسة مفصلة ( نشرت في كتاب  
 العيد الصادر ببيروت سنة ١٩٦٧ ) .  
 ٢ الأبيات وجوابها في الكتيبة : ٢٥٦ .  
 ٣ كناه في الإحاطة بأبي محمد .

حقيقاً أبا عبد الإله بك الذي  
 وإن الذي نبهت مني لم يكن  
 ورب اختصار لم يشين نظم ناظم  
 وعذرك عني من محاسنك التي  
 ومن عرف الوصف المناسب منصفاً  
 لمذهبه في البر يتضح الأثر  
 نؤوماً وحاشا الود أن أغمط الأثر  
 ورب اقتصار لم يعب نثر من نثر  
 نظام حلاها في الممدوح ما انتثر  
 تأتي له نهج من العذر ما دثر

[ ترجمة ابن رضوان ]

وهو عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النجاري ، من أهل مالقة ، صاحب العلامة العلية والقلم الأعلى بالمغرب ، قرأ على جماعة منهم بتونس قاضي الجماعة ابن عبد السلام ، قال في « التاج » فيه أيام لم يفهق حوضه ، ولا أزهرو روضه ، ما نصّه : أديب أحسن ما شاء ، ومتح قلبه فملاً للدلو وبّلاً الرشاء ، وعانى على حدائته الشعر والإنشاء ، وله ببلده بيت معمور بفضل وأمانة ، ومجد وديانة ، ونشأ هذا الفاضل على أتم العفاف والصون ، فما مال إلى فساد بعد الكون ، وله خط بارع ، وفهم إلى الغوامض مسارع ، وقد أثبت من كلامه ، ونفقات أعلامه ، كل محكم العقود ، زار بابنة العنقود ، فمن ذلك قوله ١ :

لعلكما أن ترعيا لي وسائلاً      فبالله عوجا بالركاب وسائلاً

ومنها :

لقد جار دهري إذ نأى بمطالبي      وظلّ بما أبغي من القرب ماطلا  
 عتبت عليه فاغتندي لي عاتباً      وقال : أصخ لي لا تكن قطّ عاذلاً  
 أتعبني أن قد أفدتك موقفاً      لدى أعظم الأملاك حلماً وناثلاً

١ القصيدة في الإحاطة : ٢٤٦ - ٢٤٨ .

ملك حباه الله بالخلق الرضى وأعلى له في المكرمات المنازل  
وهي طويلة .

ومن نظم ابن رضوان المذكور<sup>١</sup> :

تبرأت من حولي إليك وأيقنت برحماك آمالي أصح يقين  
فلا أرهب الأيام إذ كنت ملجأ وحسي يقيني باليقين يقيني

وكلفه أبو عنان وصف صيد من غدیر فقال من أبيات<sup>٢</sup> :

ولرب يومٍ في حِمَاكَ شهدته والترح ناشرةٌ عليك ظلها  
حيثُ الغديرُ بريك من صفحاته درعاً تجيدُ به الرياحُ صقالها  
والمنشآتُ به تديرُ حبالاً للصيد في حيلٍ تديرُ حبالها  
وتُريك إذ يلقي بها اليمُّ الذي أخفتُ جوانحه وغاب خلالها  
فحسبتها زرداً وأن<sup>٣</sup> عوالياً تركتُ به عند الطعانِ نصالها

وقال فيه أيضاً :

أبصرتُ في يومِ الغديرِ عجائباً جاءت بآياتِ العجائبِ مُبصرةً  
سمكاً لدى شبكٍ فقل ليلٌ بدت فيه الزواهرُ للتواظُرِ نيره  
فكانَ ذا زردٍ تضاعفَ نسجه وكانَ تلك أسنةٌ متكره

ومما نظمه عن أمر الخلافة المستعينية ليُكتب في طرّة قبة رياض الغزلان

١ الإحاطة : ٢٥٠ والكتيبة : ٢٥٩ .

٢ الكتيبة : ٢٥٧ .

٣ ق ص : لو أن .

٤ ق : فكانه .



هذا محلُّ المني بالأمنِ معمورٌ  
 مأوى النعيم به ما شئت من ترف  
 ويطلع الروضُ منهُ مصنعاً عجباً  
 ويسطعُ الزهرُ من أرجائه أرجاً  
 مغنى السرور سقاه الله ما حملتُ  
 انظر إلى الروضِ تنظرُ كلَّ معجبةٍ  
 مرَّ النسيم به يبغي القيرى فقرى  
 وهامت الشمسُ في حسنِ الظلالِ به  
 والدوحُ ناعمةً تهتز من طرب  
 كأنما الطيرُ في أفنائها صدحتُ  
 والنهرُ شقَّ بساطَ الروضِ تحسبه  
 ينسابُ للجنةِ الخضراءِ أزرقه  
 هذي مصانعُ مولانا التي جمعتُ  
 وهذه القبة الغراء ما نظرت  
 ولا بصورها في الفهم ذو فِكْرٍ  
 ولا يرام بحصرِ وصفٍ ما جمعتُ  
 فيها المقاصيرُ تحميها مهابته  
 كأنها الأفقُ تبسُدو النيراتُ به  
 وينشأُ المزنُ في أرجائه وله  
 وينهمي القطرُ منه وهو منسكبُ

مَنْ حلّه فهو بالآمالِ محبورُ  
 تهوى محاسنهُ الولدانُ والخور  
 يضاحكُ النورَ من لألائه النور  
 ينافحُ الندى نثرٌ منه منشور  
 غرُّ الغمامِ وحلتهُ الأزاهير  
 مما ارتضاه لرأي العينِ تحبير  
 دراهمَ النورِ تبديدٌ وتثير  
 ففترقتُ فوقها منه دنائير  
 همساً ، وصوتُ غناء الطيرِ مجهور  
 بشكرِ مالِكها ، والفضلُ مشكور  
 سيفاً ولكنهُ في السلمِ مشهور  
 كالأيمِ جدّ انسياً وهو مذعور  
 شملَ السرور ، وأمرُ السعدِ مأمور  
 لشكلها العينُ إلا عزّ تنظير  
 إلا ومنه لكلّ الحسنِ تصوير  
 من المحاسنِ إلا صدّ تقصير  
 لله ما جمعتُ تلك المقاصير  
 ويستقيمُ بها في السعدِ تسيير  
 من عنبرِ الشحرِ إنشَاءً وتسخير  
 ماءً من الوردِ يذكو منه تقطير

وتخفق الريحُ منهُ وهي ناسمةُ  
ويشرقُ الصبحُ منه وهو من غُررِ  
وتطلعُ الشمسُ فيه من سَنَا ملكِ  
لله منهُ إمامٌ عادلٌ بهرتُ  
غيثُ السماحِ وليثُ البأسِ فالتقَ به  
قُلٌّ للمُبَارِي وإن لم تلقَه أبدأ  
فخر الأنامِ أحلَّ الفخرَ منزله  
إذا أبو سالم مولى الملوكِ بدأ  
فأيّ خطبٍ يخافُ الدهرَ آملهُ  
بشراكِ بشراكِ يا نجلَ الخلافةِ ما  
لكِ الخلودُ بعزِّ الملكِ في نعمِ  
فانعمِ هنيئاً بِلَدَاتِ مواصلةِ  
لا زلتَ تلقى المنيّ في غبطةِ أبدأ  
وقال وكتب به على قلم فضة :

إذا شهدتُ بالنصرِ خَطِيئَةَ القَنَا  
كفى شاهداً مني بفضلكِ ناطقاً  
وقال وكتب به على سكين :

أروحُ بأمرِ المستعِينِ وأغتدي  
ويفعلُ في الأقلامِ حَدِّي مصلحاً  
لإذهابِ طغيانِ البراعِ الرواقمِ  
كفعلِ ظُبي أسيافهِ في الأقالمِ  
قال : ومما كتب به على قصيدة عيدية :

لمّا رأيتُ هدايا العيْدِ أعظَمُها  
هديةُ الطيبِ في حُسنِ وتعجيبِ

ولم أجدُ في ضروبِ العاطراتِ شذا  
أهديتُ نحوكَ منهُ كلَّ ذي أرجٍ  
وفي القبولِ منالُ السعدِ فالقُ بهِ  
وقال في رجل يلقب بالبعير :

وذي لقب عنتَ لهُ عندَ صحبه  
دَعَوَهُ بِعَيْراً فاستشاطَ فقالَ مَهْ  
فقلتُ لهُ عُدْ نحوهم لتعودَ من  
فقال وقد غصَّ الفضاؤُ بصوته  
لئن عدتُ نادوني بعيراً كثلها  
وقال ٢ :

وبخيلٍ لَمَّا دعوه لسُكنى  
قال لي مخزنٌ بداري فيه  
قلتُ وُفِّقْتُ للصوابِ فحاذرُ  
لا تعرِّجُ على الجنانِ بسُكنى  
وقال رحمه الله تعالى في مركب :

يا ربَّ منشأةُ عجبتُ لشأنها  
سكنتُ بجنبيها عصابةُ شدة  
فتحرَّكتُ بإرادةٍ مَعُ أنها  
وقد احتوتُ في البحرِ أعجبَ شأنِ  
حلَّتْ محلَّ الروحِ في الجثمانِ  
في جنسها ليستُ من الحيوانِ

١ يوري بكلمة « العود » وهو البعير أيضاً . وفي ص : لا تمس .  
٢ الأبيات في الإحاطة : ٢٥٤ وكذلك القطعتان التاليتان . والثانية منهما في الكتيبة : ٢٥٨ .  
٣ يوري بملك التي تعني المال ، وملك هو خازن النار .

وَجَرَّتْ كَمَا قَدْ شَاءَهُ سُكَّانُهَا      فَعَلِمْتُ أَنَّ السَّرَّ فِي السُّكَّانِ

وقال رحمه الله تعالى :

وذي خُدَعٍ دَعَوُهُ لِاسْتِغْثَالِ      وما عرفوه غثاً من سمينِ  
فأظْهَرَ زَهْدَهُ وَغَنَى بِمَالِ      وجيشُ الحِمْصِ مِنْهُ فِي كَمِينِ  
وَأَقْسَمَ لَا فَعَلْتُ يَمِينَ خَبِّ      فَيَا عَجَباً لِحِلَافِ مَهِينِ  
يَغْرُ بِبِيسَرِهِ وَيَمِينِ حَنْثِ      لِيَأْكُلَ بِالْيَسَارِ وَبِالْيَمِينِ  
وهو الآن بحاله الموصوفة ؛ انتهى .

[ ٤٠ - مخاطبة أبي بكر ابن عبد الملك للسان الدين ]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبني أبو بكر عبد الرحمن بن عبد  
الملك مستدعياً إلى إعدار ولده بقوله :

أريدُ من سيدي الأعلى تَكَلَّفَهُ      إلى الوصولِ إلى داري صباحَ غدِ  
يزيدني شرفاً منه وَيَبْصُرُ لِي      صناعةَ القاطعِ الحِجَامِ فِي وَوَلَدِي  
فأجبتُه :

يا سيدي الأوحد الأسمى ومُعْتَمِدِي      وذا الوسيلةِ من أهلي ومن بلكدي  
دعوتَ في يومِ الاثنينِ الصَّحَابَ ضَحِي      وفيهِ ما ليسَ في سبتٍ ولا أحدِ  
يومُ السَّلامِ عَلَى المولى وَخِدمتِهِ      فاصْفَحْ وَإِنْ عَثَرْتَ رَجُلِي فَخُذْ بِيَدِي  
والعذرُ أَوْضَحُ مِنْ نارِ عَلَى عِلْمِ      فَعَدُّ إِنْ غَبْتُ عَنْ لَوْمِ وَعَنْ فَنَدِ  
بقيتَ في ظلِّ عيشٍ لَا نَفَادَ لَهُ      مصاحباً غيرَ محصورٍ إلى أمدِ

١ التورية في السكان من المثل « الشان في السكان لا في المكان » والسكان أيضاً « دقة السفينة » .

[ ترجمة أبي بكر ابن عبد الملك ]

وأبو بكر المذكور أصله من باغنة ، ونشأ بلوشة ، وهو محسوب من الغرناطين .

وفي « التاج » في حقه ما صورته : فارضٌ هاجي ، مُداهنٌ مداجي ، أخبث من نظر من طرف خفي ، وأغدر من تلبس بشعارٍ وفي ، إلى مكيدة ميثوثة الحبائل ، وإغراء يقطع بين الشعوب والقبائل ، من شيوخ طريقة العمل ، المتقلبين من أحوالها بين الصَّحْوِ والثمل ، المتعللين برسومها حين اختلط المرعيُّ بالهمَل ، وهو ناظمٌ أرجاز ، ومستعمل حقيقة ومجاز ، نظم مختصر السيرة ، في الألفاظ اليسيرة ، ونظم رجزاً في الزجر والقال ، نبه به تلك الطريقة بعد الإغفال ؛ انتهى .

قال : ومن شعره :

إنَّ الولايةَ رفعةٌ لكنَّها أبدأ إذا حقَّقتها تنقلُ  
فانظرُ فضائلَ من مضى من أهلِها تجدُ الفضائلَ كلَّها لا تعزلُ  
توفِّي بالطاعون بغرناطة عام خمسين وسبعمئة ؛ انتهى .

[ ٤١ - مخاطبة أبي سلطان لسان الدين ]

وقال في ترجمة أبي سلطان عبد العزيز بن علي الغرناطي بن يشت ما صورته :  
ومما خاطبني به قوله :

أطلتُ عتَبَ زمانٍ فلَّ من أمني وسُمَّته الِدمَّ في حلِّ ومرتحلٍ  
عابتهُ ليلينَ العتبُ جانبَهُ فما تراجعَ عن مَطلِّ ولا بحلِّ

١ ترجمته في الإحاطة ، الورقة : ٣١٥ .

فعدتُ أمتحه العتبي ليشفقَ لي  
فالعتبُ عندي كالعتبي فليستُ أرى  
فقلتُ للنفسِ كُفّي عن معاتبَةٍ  
من يعتلقُ في الدنيا بآبنِ الخطيبِ فقد  
قالتُ فمنَ لي بتقريبي لخدمته  
فقال للناسِ كُفّوا عن محادثتي  
قد اشتغلتُ عن الدنيا بآخرتي  
وقد رعبتُ وما أهملتُ من منح  
ولستُ أرجعُ للدنيا وزخرفها  
ألستُ تبصرُ أطماري وبعدي عن  
فقلتُ ذلك قولُ صحِّ مجملهُ  
ما أنتُ جالبُ أمرٍ تستعين به  
ولا تحلّ حراماً أو تحرمَ ما  
ولا تبعَ آجلَ الدنيا بعاجلها  
وأين عنك الرشا إن ظلمتَ تطلبها  
هل أنتُ تطلبُ إلاّ أن تعودَ إلى  
فما لأوحدِ هذا الكونِ قاطبةً  
لم يلتفتُ نحوَ ما تبغيه من وطيرِ  
إن لمْ تقعْ نظرةٌ منه عليك فما  
فدونك السيدَ الأعلى فمطلبكم  
فقد خبّرتُ بني الدنيا بأجمعهم  
فما رأيتُ له في الناسِ من شبه  
وقد قصدتُك يا أسمى الورى همماً  
فما سواك لما أمّلتُ من أملِ

فقال لي إن سمعي عنك في شغلِ  
أصغي لمدحك إذ لم أصغِ للعدلِ  
لا تنفسي وجوابِ صيغٍ من وجلِ  
سما عن الذلِّ واستولى على الجذلِ  
فقد أجابَ قريباً من جوابك لي  
فليسَ ينفعكم حولي ولا حيلي  
وكان ما كان من أيامي الأولِ  
فكيف يختلط المرعي بالهملِ  
من بعد شيبِ غدا في الرأسِ مشتعلِ  
نيلِ الحظوظِ وإغذاذي إلى أجلي  
لكنّ من شأنه التفصيل للجمالِ  
على المظالمِ في حالٍ ومقتبلِ  
أحلّ ربك في قولٍ ولا عملِ  
كما الولاةُ تبعُ اليومَ بالوشلِ  
هذا لعمرى أمرٌ غير منفعلي  
كتب المقام الرفيع القدر في الدولِ  
وأسمح الخلقِ من حافٍ ومنتعلِ  
ولم يسُدّ الذي قد بان من خللِ  
يصفو لديك الذي أمّلت من أملِ  
قد نيظّ منه بفضلٍ غير منفصلِ  
من عالمٍ وحكيم عارفٍ وولي  
قلّ النظرُ له عندي فلا تسألِ  
وليس لي عن حمى عليك من حولِ  
وليس لي عنك من زيغٍ ولا ميلِ

فانظرُ لحالي فقد رَقَّ الحسود لها  
 ودمٌ لنا ولدينِ الله ترفعُهُ  
 لا زلتَ معتلياً عن كلِّ حادثةٍ  
 واحسمَ زمانةَ ما قد ساءَ من عللِ  
 ما أعقبتُ بُكْرُ الإصباحِ بالأصلِ  
 كما علتُ ملّةُ الإسلامِ في المللِ  
 انتهى .

### [ ترجمة عبد العزيز أبي سلطان ]

والمذكور هو عبد العزيز بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن يشت ، من غرناطة ، يكنى أبا سلطان ، قال في « الإحاطة » في حقّه : فاضل حيي حسن الصورة بادي الحشمة ، فاضل البيت سريّه ، كتب في ديوان الأعمال فأتقن ، وترقى إلى الكتابة السلطانية ، وسفر في بعض الأغراض الغربية ، ولازم الشيخ أبا بكر عتيق بن مقدم من مشيخة الصوفية بالخرصة فظهرت عليه آثار ذلك في نظمه ومقاصده ، فمن نظمه ما أنشده ليلة الميلاد المعظم :

القلبُ يعشقُ والمدامعُ تننطقُ  
 إن كنتُ أكمّ ما أكنُّ من الجوى  
 وتدلُّني عندَ اللقا وتملّقي  
 فلكم سترتُ عن الوجودِ محبتي  
 ولكم أمّوهُ بالطلولِ وبالكني  
 ظهر الحبيبُ فلستُ أبصرُ غيره  
 ما في الوجودِ تكثُرٌ لمكثُرٍ  
 فمتى نظرتُ فأنتَ موضعُ نظرتي  
 يا سائلي عن بعضِ كنه صفاته  
 فاسلكُ مقاماتِ الرجالِ محققاً  
 مرزقٌ حجابَ الوهمِ لا تحفلُ به  
 برحَ الحفاءِ فكلُّ عضوٍ مننطقُ  
 فشحوبُ لوني في الغرامِ مصدقُ  
 إنّ المحبَّ إذا دنا يتملّقُ  
 والدمعُ يفضحُ ما يُسرُّ المنطقُ  
 وأنحوضُ بحرَ الكتمِ وهو الأليقُ  
 فبكلِّ مرثيٍّ أرى يتحققُ  
 إنّ المكثُرَ بالأباطلِ يعلقُ  
 وميَ نطقتُ فما بغيرك أنطقُ  
 كلُّ اللسانِ وكلُّ عنه المنطقُ  
 إنّ المحققَ شأوه لا يلحقُ  
 فالوهمُ يسترُ ما العقولُ تحققُ

فالعجزُ عن طلب المعارفِ موبقٌ  
 ذاك الجنابَ ، فبابه لا يُغلقُ  
 والغِ السّوى إن كنتَ منها تفرّقُ  
 وصعقتَ خوفاً فالمكلمُ يصعقُ  
 تلقَ الذي قيّدتَ وهو المطلقُ  
 إنَّ العوائقَ بالمكارهِ تطرقُ  
 إنَّ العوائدَ بالتجرّدِ تخرقُ  
 فالسيفُ من بثِّ الحقائقِ أصدقُ  
 سرٌّ بمكنونِ الكتابِ مصدقُ  
 سرُّ الوجودِ وغيثُه المتدفقُ  
 أنوارهُ في هديها تتألقُ  
 ولنصّه سرُّ الكتابِ يصدقُ  
 إلا إليه فكلُّ سترٍ يُخرقُ  
 رُتبُ الوجودِ وكعّ عنه السّبِقُ  
 أمدٍ تناهى ما إليه مَسْبِقُ  
 قطبُ الجمالِ وغيثُه المتدفقُ  
 كلُّ الوجودِ بجودهِ يتعلّقُ  
 والذكرُ فهو عن الهوى لا ينطقُ  
 وأجلّهم سبقاً وإن هم أعنقوا  
 فالذلُّ والإذعانُ عندك ينفقُ  
 فالقلبُ من عظم الخطايا يَمَلِّقُ

واخلصْ إذا شئتَ الوصولَ ولا تتلْ<sup>١</sup>  
 إنَّ التحلّي في التحلّي فاقصدْ  
 ولتقتبسْ نارَ الكليمِ ولا تخفْ<sup>٢</sup>  
 ومتى تجلّي فيك سرُّ جماله  
 دع رتبةَ التقليدِ عنك ولا تنهْ  
 واقطعْ حبالَ علائقِ وعوائقِ  
 جرّدْ حسامِ النفسِ عن جفنِ الهوى  
 فإذا فهمتَ السرَّ منك فلا تبسّحْ  
 بالذوقِ لا بالعلمِ يدركُ علمنا  
 وبما أتى عن خيرٍ من وطىءِ الثرى  
 خيرُ الوري وابنِ الذبيحينِ الذي  
 منْ أخبرَ الأنبياءَ قبلُ ببعثه  
 رُفعتْ له الحجبُ التي لم ترتفعْ  
 ورقي مقاماً قصّرتَ عن كنهه  
 وطيءِ البساطِ تدلّلاً وجرى إلى  
 إنسانٍ عينِ الكونِ مبلغُ سرّه  
 سرُّ الوجودِ ونكتةُ الدهرِ الذي  
 من جاء بالآياتِ يسطعُ نورها  
 يا سيّدَ الأرسالِ غيرَ مدافعِ  
 بالفقرِ جئتكَ موثلي لا بالغنى  
 فاجبر كسيرَ جرائرِ وجرائمِ

١ لا تتل : لا تقصر .

٢ ق : ريبة .



أرجوك يا غوث الأنام فلا تدع  
حاشاك تطرد من أذاك مؤملاً  
ومحبي تقضي بأتك منقذي  
يا هل تساعدني الأمانى والمئى  
إن كان ثبطني القضا بمقيدي  
ولئن ثوى شخص بأقصى مغرب  
فعليك يا أسنى الوجود تحية  
وعلى صحابتك الذين تأتقوا  
وعلى الألى آووك في أوطانهم  
أعظم بأنصار النبي وحزبه  
من مثل سعد أو كقيس نجله  
أكرم بهم وبمن أتى من سرهم  
من مثل نصر أو بنيه ملوكنا  
بمحمد نجل الخليفة يوسف  
مولى الملوك وتاج مفرق عزهم  
ملك يرى أن التقدم مغم  
تروى أحاديث الوغى عن بأسه  
ملك البسالة والمكارم والنهى  
ملك قلب عداه منه مهابة  
مولاي يا أسى الملوك ومن غدت  
لا تقطعوا عني الذي عودتم  
لا تحرموني مطلبي فمحبي  
فانعم بردي في بساطك كاتباً  
فاسلم أمير المسلمين لأمة

باب الرضى دوني يسد ويغلق  
فلأنت لي مني أحن وأرفق  
مما أخاف فما بغيرك أعلق  
وأحل حيث سنا الرسالة يشرق  
فعنان عزمي نحو مجدك مطلق  
فتشوقني مني إليك يشرق  
من طيب نفتحها البسيطة تعبق  
رتب الكمال ومثلهم يتأق  
نالوا بذلك رتبة لا تلحق  
وبمن أتى بعباءة يتعلق  
عرف السيادة من حماهم ينشق  
عز النظر فمجدهم لا يلحق  
كل الأنام لعزهم يملق  
عز الهدى فحماء ما إن يطرق  
وأجل من تحدى إليه الأينق  
مهما تعرض موكب أو فيلق  
فالسيف يسند والعوالي تطلق  
فعداته منه تغص وتفرق  
فمغرب من خوفه ومشرق  
عين الزمان إلى سناه تحدق  
فالعبد من قطع العوائد يشفق  
تقضي لسعيي أنه لا يخفق  
وأعد لما قد كنت فهو الأليق  
أفواههم ما إن بغيرك تنطق

واهناً بها من ليلة نبوية جاءت بأكرم من به يتعلق  
صلّى عليه الله ما هبت صباً واهتز غصن في الحديقة مورك  
ثم قال : وهو الآن بحالته الموصوفة ؛ انتهى .

[ ٤٢ - رسالة من النباهي للسان الدين ]

ومما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ما حكاه في « الإحاطة » في  
ترجمة القاضي أبي الحسن النباهي ، إذ قال ما نصّه : وخاطبني بسبته وأنا يومئذ  
بسلاً بقوله : يا أيتها الآية البالغة وقد طُمست الأعلام ، والغرة الواضحة وقد  
تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة وقد ذهب الكرام ، أبقاكم الله تعالى البقاء  
الجميل ، وأبلغكم غاية المراد ومُنتهى التأمل ، أبقى الله أن يتمكن المقام بالأندلس  
بعدكم ، وأن يكون سكون النفس إلا عندكم ، سر من الكون غريب ،  
ومعنى في التشاكل عجيب ، أختصر لكم الكلام ، فأقول بعد التحية والسلام :  
تفاقت الحوادث ، وتعاضمت الخطوب الكوارث ، واستأسدت الذئاب الأخابث ،  
ونكث الأكثر من ولد سام وحام ويافث ، فلم يبق إلا كاشح باحث ، أو مكافح  
عابث ، ويا ليت شعري من الثالث ؟ فحينئذ وجهت وجهي للفاطر الباعث ،  
ونجوت بنفسي لكن منجى الحارث ، وقد عبرت البحر كسير الجناح ،  
دامي الجراح ، وإنّي لأرجو الله سبحانه بحسن نيتكم أن يكون الفرج قريباً ،  
والصنع عجيباً ، فعصادي أعان الله على القيام بواجبه ، هو الركن الذي ما زلت  
أميل على جوانبه ، ولا تزيدني الأيام إلا بصيرة في الإقرار بفضلته والاعتداد به ،  
وقد وصلني خطاب سيدي الذي جلتى الشكوك بنور يقينه ، ونصح النصح  
اللائق بعلمه ودينه ، وكأنّه نظر إلى الغيب من وراء حجاب ، فأشار بما أشار به  
على سارية عمر بن الخطاب ، ومن العجب أنني عملت بمقتضى إشارته ، قبل  
بلوغ إضبارته ، فله ما تضمّنه مكتوبكم الكريم من الدر ، وحرره من الكلام

الحر ، وايم الله لو نجسم لكان مَلَكًا ، ولو تنسم لكان مسكًا ، ولو قبس لكان شهابًا ، ولو لبس لكان شابًا ، فحلَّ مني علم الله تعالى محل البرء من المريض ، وأعاد الأنس بما تضمنته من التعريض ، والكلم المُرْزِيَّة بِقِطْعِ الرَوْضِ الأَرِيضِ ، فقبلته عن راحتكم ، وتخيلت أنه مُقِيمٌ بساحتكم ، ثم وردتُ مَعِينَهُ الأَصْفَى ، وكلت من بركات مواعظه بالمكيال الأوفى ، وليست بأول أيادكم ، وإحالتكم على الله فهو الذي يجازيكم ، وبالحملة فالأمور بيد الأقدار ، لا إلى المراد والاختيار :

وما كلُّ ما ترجو النفوسُ بِنافعٍ ولا كلُّ ما تخشى النفوسُ بضرِّارٍ

انتهى .

قلت : أين هذا الكتاب من الذي قدمناه عنه في الباب الثاني ، حين أظلم بينه وبين لسان الدين الجوهري وعطفه إلى مهاجته ثاني ، وسَقَرَ في أمره إلى العُدْوَةَ ، واجتهد في ضرره بعد أن كان له به القدوة ، وقد قابله لسان الدين بما أذهب عن جفنه الوَسَنَ ، وألف فيه كما سبق « خَلَعُ الرَسَنِ » .

[ ترجمة النباهي ]

على أنه عرّف به في « الإحاطة » أحسن تعريف ، وشرّفه بجملة أجمل تشريف ، إذ قال ما ملخصه<sup>١</sup> : علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله ابن الحسن بن محمد بن الحسن الجذامي المألقي أبو الحسن ، ويُعرف بالنباهي ، هذا الفاضل قريعُ بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عفا للنشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، خاطب للشيخوخة ، مستعجل للشيبة ، ظاهر الحياء ، متحرّك مع السكون ، بعيد الغرور ، مرهف الجوانب

١ قارن بما كتبه عنه في الكتيبة : ١٤٦ بعد أن تغيرت النفوس .

مع الانكماش ، مقتصد في الملبس والآلة ، متظاهر بالسذاجة ، بريء من النوك والغفلة ، يقظ للمعاريض ، مهتدٍ إلى الملاحن ، طرف في الجود<sup>١</sup> ، حافظ مقيّد طلعة إخباري ، قائم على تاريخ بلده ، شرع في تكميل ما صنف فيه ، ملازم للتقييد والتطير<sup>٢</sup> ، منقّر عن الإجازات والفوائد ، استفدت منه في هذا الغرض وغيره كثيراً ، حسن الخط ، ناظم ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير ، استظهر محفوظات منها « النوادر » للقالي ، وناهيك به محفوظاً مهجوراً ، ومسلماً غفلاً ، فما ظنك بسواه ، نشأ ببلده حرّ الطعمة فاضل الأبوة ، وقرأ به ، ثم ولي القضاء بملتماس<sup>٣</sup> ثم بيلش وعملها ، فسيح الخطّة مطلق الجراية ، بعيد المدى في باب التزاهة ، ماضياً غير هيوب ، حتى أربى في الزمن القريب على المحتنكين ، وغبّر في وجوه أهل الدربة ، وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا ، جارية على المسائل المشهورة ، ثم نُقل منها إلى النظر في أمور الحل والعقد بمالقة مضافة إليه الخطط النبيلة ، وصدر له منشور من إملائي ، إلى أن قال في ترجمة نظمه : قال نظمت سمح الله تعالى لي قطعتين مؤطّأً فيهما على البيتين المشهورين ، إحداهما :

بنفسي من غزلان حزوي غزالة  
تصيدُ بلحظ الطرف من رام صيدها  
مُعطرّةُ الأنفاس رائقةُ الحلّي  
« إذا رمتُ عنها سلوةً قال شافعُ »  
جمالُ محيّاها عن النسك زاجرُ  
ولو أنه النسرُ الذي هو طائرُ  
هاها بقلبي في المهامه سائرُ  
من الحبّ : ميعاد السلو المقابرُ

والأخرى :

وقائلةٍ لما رأتُ شيبَ لمي  
لئن ملّتَ عن سلمى فعذرک ظاهرُ

١ ق : المجون .

٢ التطير : التقييد في طرر الكتب .

٣ ق : بملتمامو .

زمانُ التصابي قد مَضَى لسيّله  
فقلتُ لها : كلا وإن تلفَ الفتى  
وهل لك بعد الشيبِ في الحبِّ عاذرُ  
« سيبقى لها في مضمِر القلب والحشا  
فما لهاها عند مثلي آخرُ  
سريرةٌ ودَّ يومَ تُبلى السرائرُ »

وكتب على مثال النعل الكريم ، وأهداه لمزمع سفر :

فديتك لا يهدى إليك أجل من  
ومن ذلك الباب المثالُ الذي أتى  
حديث نبيّ الله خاتمِ رُسُلِهِ  
ومن فضله مهما يكن عند حاملٍ  
به الأثرُ المأثورُ في شأنِ نعله  
ولا سيما إن كان ذا سَفَرٍ به  
له نال ما يهواه ساعة حملهِ  
فقد ظفرتُ بمانه بالأمنِ كلِّهِ  
مثالاً كريماً لا نظيرَ مثله  
مَثَلُهُ

وقال مراجعاً عن أبيات يظهر منها غرضها :

إذا كنتَ بالقصدِ الصَّحيحِ لنا تهوى  
ولا تتبَّعْ أهواءَ نفسك والتفتْ  
فسلمَ لنا في حكمتنا ودعِ الشكوى  
وكم من محبِّ في رضانا وحبِّنا  
لنا حيثُ كنّا في الرخاءِ وفي التلّوا  
رأنا عياناً عينَ معنى وجودِهِ  
محا كلَّ ما يبدو سوانا له مَحْواً  
وقال تحكّمٌ كيف شئت بما ترى  
فعاجَ عن الشكوى وفوّضَ في البلوى  
محلَّ اختصاصِ نال منه المنى صَفْواً  
رضيتُ بما تقضي وهمتُ بما تهوى  
لحاقاً بهم فاسلكِ طريقهمُ الأضوا  
فإن كنتَ ترجو في الصباية والهوى  
لنا في الهوى تحيا حياة أولي التقوى  
فحلَّ لدينا بالخلوصِ وبالرضى  
ديونك منّا دون مَطْلٍ ولا دعوى  
فإن كنتَ ترجو في الصباية والهوى  
بجمرِ الصفاِ الصرْفِ الزلالِ لكي تروى  
هنالك تُؤتَى ما تريدُ وتقتضي  
وتشربُ من عينِ اليقينِ وتغذي

١ الأواء : الشدة .

وقال :

لا تلجان لمخلوق من الناس  
وثق بربك لا تياس تجد عجباً  
من يافت كان أصلاً أو من الياس  
فلا أضرب على عبد من الياس

وقال :

فديتك لا تصحب لثيماً ، ولا تكن  
فلا عهد يرعى ، لا ، ولا نعمة يرى  
مُعِيناً لَهُ إِنَّ اللّٰثِيْمَ خَوْنُ  
ولا سرّ خلّ عن عداه يصون

وقال يخاطب أبا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان :

لك الله قلبي في هوك رهين  
ملكك بحكم الفضل كلّي خالصاً  
وروحى غني إن رحلت ظعن  
وملكك للحجر الصريح يزين  
فهب لي من نطقي بمقدار ما به  
فقد شملتنا من رضاك ملابس  
أعنت على الدهر الغشوم ولم تزل  
وقصّر من لم تعلم النفس أنه  
وإني بحمد الله عنه لفي غنى  
أبى لي مجد عن كرام ورثته  
ونفس سمت فوق السماكين همة  
ولما رأته عيني محياك أقسمت  
وعادها الأنس الذي كان قد مضى  
بجيت نشأنا لابسين حلى التقى  
أما وسنا تلك الليالي وطيبها  
وفتيان صدق كالشموس وكالحيا  
لئن نرحت تلك الديار فوجدنا  
وإني صبر عن سواك يصون  
وقوفاً بباب للكريم يهين  
وما كل نفس بالهوان تدين  
بأنك للفعل الجميل ضمين  
برية إذ شرخ الشباب خدين  
وكل بكل عند ذاك ضنين  
ووجد غرامي ، والحديث شجون  
حديثهم ما شئت عنه يكون  
عليها له بين الضلوع أنين

إذا مرَّ حينٌ زاده الشوقُ جِدَّةً  
 وأنتى بمسلاها ، وللبين لذعةُ  
 لقد عبثتُ أيدي الزمانِ بجمعنا  
 وبعدُ التقينا في محلٍّ تغرَّبُ  
 فقابلتَ بالفضلِ الذي أنتَ أهله  
 وغبتَ وما غابت مكارمك التي  
 يميناُ لقد أوليتنا منك نعمةُ  
 ويقصرُ عنها الوصفُ إذ هي كلُّها  
 ولما قدمتَ الآن زاد سرورنا  
 لأنك أنتَ الروحَ منا وكلِّنا  
 ولو كان قدر الحبِّ فيك لقاؤنا  
 ولكن قصدنا راحةَ المجد جهدنا  
 هينئاً هينئاً أيها العلم الرضى  
 لك الحسنُ والإحسانُ والعلمُ والتقى  
 وكم لك في بابِ الخلافة من يدٍ  
 وقامتُ عليها للملوك أدلةُ  
 فلا وجهَ إلا وهو بالبشرِ مُشرقُ  
 بقيتَ لرَبِّ الفضلِ تحمي ذماره  
 ودونك يا قطبَ المعالي بُنيَّةُ  
 أنتك ابنَ رضوانٍ تمتُّ بודהا  
 فخلُّ انتقادَ البحثِ عن هفواتها  
 وخذها على علائها فحديثها

وهو بحاله الموصوفة ؛ انتهى باختصار .

ولما كتب لسان الدين الى شيخه الرئيس الكاتب أبي الحسن الحبيب قصيدة أولها :

أمستخرجاً كَنَزَ العقيقِ بآماقي      أناشدك الرحمنَ في الرَّمَقِ الباقي  
فقد ضعفتُ عن حملِ صبريَ طاقتي      عليك وضاعتُ عن زفيرِ أطواقي

وهي طويلة أجابه عنها بقوله :

سقاني فأهلاً بالمدامة<sup>٢</sup> والساقِ      ولا نَقَلَ إِلَّا من بدائعِ حكمةِ  
فقد أنشأتُ لي نشوةً بعد نشوةِ      فمن خطَّها الفاني<sup>٣</sup> متاعِ لناظري  
أعادتُ شبابي بعد سبعين حجةً      وما كنتُ يوماً للمدامةِ صاحباً  
ولا خالطتُ لحمي ولا مازجتُ دمي      وهذا على عهدِ الشبابِ ، فكيف لي  
تبصَّرُ فحكما القهوتينِ تخالفا      وشتان ما بين المدامينِ فاعتبرُ  
فتلك تهادى بين ظلمٍ وظلمةِ      أيا علمِ الإحسانِ غيرِ منازعِ

سُلاًفاً بها قام السرورُ على ساقِ      ولا كأسٍ إلا من سطورٍ وأوراقِ  
تمدَّ بروحانيةِ ذاتِ أذواقِ      وسمعي ، وحظ الروح من خطها الباقي  
فأثوابُهُ قد جُدَّتْ بعد إخلاقِ      ولا قبلتها قطُّ نشأةُ أخلاقي  
كفى شرَّها مولاي فالفضلُ للواقي      بها بعد ماءٍ للشيبيةِ مُهراقِ ؟  
فكم بين إثباتِ لعقلٍ وإزهاقِ      فكم بين إنجاحِ لسعيٍ وإخفاقِ  
وهذي تهادى بين عدلٍ وإشراقِ      شهادةَ إجماعٍ عليها وإصفاقِ<sup>٤</sup>

١ انظر الكتيبة : ١٨٦ .

٢ الكتيبة : بالسقاية .

٣ الكتيبة : الباهي .

٤ الكتيبة : وإطباق .



فضائلك الحسنى عليّ تواترتُ  
خزائنُ آدابٍ بعثتَ بدورها  
ولا مثلَ بكرٍ حرّةٍ عربيّةٍ  
فأقسم ما البيضُ الحسانُ تبرجتُ  
بدورٌ بدتُ من أفق أطواقها على  
فناظرٍ منها الأقحوانُ ثغورها  
وناسبَ منها الوردُ خدّاً مورداً  
وألبن من صنعاءٍ وشياً منمنماً  
بأحلى لأفواهٍ ، وأبهى لأعين  
رأيتُ بها شهبَ السماء تنزلت  
ألا إنَّ هذا السحرُ لا سحرُ بابلٍ  
لقد أعجزتُ شكري فضائلُ ماجدٍ  
تقاضى ديونَ الشعرِ مني منبهاً  
فلو نشر الصادان من ملحدَيْهما  
فخذُ بزمامِ الرفقِ شيخاً تقاصرتُ  
فلا زلتُ تحيي للمكارم رسمها

بمنهمرٍ من سحُب فكرك غيّداقِ  
إليّ ولم تمننْ بخشية إنفاقِ  
زكيةِ أخلاقِ كريمةِ أعراقِ  
تناجيك سرّاً بين وحيّ وإطراقِ  
رياض شدتْ في قطبها ذاتُ أطواقِ  
وقابل منها نرجسٌ سحرّاً أحداقِ  
سقاها الشبابُ النَّضْرُ بورك من ساقِ  
وحلّين من درّ نفاثسِ أعلامِ  
وأحيى لألبابٍ ، وأشهى لعشاقِ  
إليّ تحييني تحيةً مشتاقِ  
فقد سحرت قلبي المعنى فَمَنْ راقِ  
أبرّ بأحبابٍ وأوفى بميثاقِ  
رويدك لا تعجلْ عليّ بإرهاقِ  
لإنصافِ هذا الدّينِ إذا بإملاقِ<sup>٢</sup>  
خطاه وعاهده بمعهودِ إشفاقِ  
وقدرك في أهل العُلا والنهي راقِ

قال : وكتبت إليه في غرض العتاب قصيدة أولها :

أدرنا وضوء الأفق قد صدع الفضا  
مدامة عتب بيننا نقلها الرضى  
فله عينا من رآنا وللحيا  
حيّ بافاق البشاشة أومّصا

١ الكنية : حسن .

٢ الصادان : الصابي أبو إسحاق والصاحب بن عباد .

نفرُّ إلى عدلِ الزمانِ الذي أتى  
ونأسو كلومَ اللفظِ باللفظِ عاجلاً

فراجعني عنها بهذه القصيدة :

ونبراً من جورِ الزمانِ الذي مضى  
كذا قدحُ الصهباءِ داوى وأمراضاً

وإن جرّةُ واشٍ بزورٍ تَمضمضاً  
ولكنّها كانت طلائعَ للرضى  
على معهدِ الحبِّ الصميمِ فروضاً  
وإن ظنَّ سيفاً للقطيعةِ مُنتَضِياً  
أتى ملكُ الرُحْمى عليها فيبيضاً  
ليرمى بوسواسِ الوشاةِ فيرفضاً  
تخلصَ من أدراهِ فتحمضاً  
سناها بأفاقِ البسيطةِ قد أضاً  
أينفى شعاعُ الشمسِ قد ملأ الفضا؟  
معاقدَ حبِّ أحكمتها يدُ القضا  
لتشييدِ مبناها الوثيقِ تعرّضاً  
على البرِّ والتسكينِ والحبِّ حرّضاً  
يقلّبُ منها القلبَ في موقدِ الغضا  
ويا ولدي البرِّ الزكيّ إن ارتضى  
على ما ارتضى حكمَ المحبةِ واقتضى  
أطالَ مداهِ في البيانِ وأعرضاً  
كزورةِ خيلٍ بعدما كان أعرضاً  
تناظرُ حسناً مذهباً ومفضضاً  
مدى العمرِ في وصفي لها وهو ما انقضى  
فذا الليلُ مسوداً وذا الصبحُ أبيضاً

ألا حبذا ذلك العتابُ الذي مضى  
أغارت له خيلٌ فما ذعرت حمى  
تألت منه بارقٌ صابٌ مزنةُ  
تلاًلاً نوراً للصدقةِ حافظاً  
فإن سودَ الشيطانُ منه صحيفةُ  
وما كان حبُّ أحكمِ الصدقِ عهدهُ  
أعيدُ وداداً زاكيَ القصدِ وافيأ  
ونيةَ صدقٍ في رضى الله أخلصتُ  
مِن الآفكِ الساعي ليعضي نورها  
وكيف يحلّ المبتلون بيفكهم  
تعرض بيغي هدمها فكأنه  
وحرّضَ في تنفيره فكأنما  
وأوقد ناراً فهو يصلى جحيمها  
أيا واحدي المعدود بالألف وحده  
بعثت من الدرِّ النفيسِ قلائدأ  
نتيجةُ آدابِ وطبعِ مهذبِ  
ولا مثل بكرٍ باكرتني أنفا  
هي الروضةُ الغناءُ أينع زهرها  
أو الغادةُ الحسناءُ راقت فينقضي  
تطابقَ منها شعرها وجبينها

أَوْ الشُّهُبُ مِنْهَا زِينَةٌ وَهَدَايَةٌ  
أَتَتْ بِبَدِيعِ الشَّعْرِ طَوْرًا مَصْرُوحًا  
وَمَهَّدَتْ الْأَعْدَارَ دُونَ جَنَائِدِ  
لَكَ اللَّهُ مِنْ بَرٍّ وَفِيٍّ وَصَاحِبِ  
لِسَانِكَ فِي شُكْرِي مَفِيضٌ تَفْضُلًا  
وَقَلْبِكَ فَاضَتْ فِيهِ أَنْوَارُ خَلْتِي  
وَقَصْدُكَ مَشْكُورٌ، وَعَهْدُكَ ثَابِتٌ  
فَهَلْ مَعَ هَذَا رِيبةٌ فِي مودَةٍ  
فَتَقِ بُولَائِي إِنْ تَنِي لَكَ مَخْلَصٌ  
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا

وقال لسان الدين : من غريب ما خاطبني به قوله ١ :

أَقْسَمُ بِالْقَيْسِينَ وَالنَّابِغَتَيْنِ  
وَبَابِنِ حُجْرٍ وَزُهَيْرِ وَابْنِهِ  
ثُمَّ بَعْشَاقِ الثَّرِيَا وَالرِّقَّةِ  
وَبَأَبِي الشَّيْصِ وَدَعْبَلٍ وَمَنْ  
وَوَلَدِ الْمُعْتَزِّ وَالرُّضِيِّ وَالْإِ  
وَإِخْتَمَ بِقُسِّ وَبِسُحْبَانٍ وَإِنْ  
وَحَلَبْتِي نَثْرَهُمْ وَنَظْمَهُمْ  
إِنَّ الْخَطِيبَ ابْنَ الْخَطِيبِ سَابِقُ  
رَاقِنِي الصَّحِيفَةَ الْحَسَنَاءَ الَّتِي  
تَجْمَعُ مِنْ بَرَاعَةِ الْمَعْنَى إِلَى

وشاعري طيبي المولدين  
والأعشىين بعد ثم الأعميين  
يسات وعزة ومي وبثين  
كشاعري خزاعة المخضرمين  
سري ثم حسن وابن الحسين  
أوجب حق أن يكونا أولين  
في مشرق أقطارهم والمغربين  
بنثره ونظمه للحلبتين  
شاهدت فيها المكرمات رأي عين  
براعة الألفاظ كلنا الحسينين

أشهدُ أنك الذي سبقتَ في      طريقَيِ الآدابِ أقصى الأمدِينِ  
شعرٌ حوى جزالةً ورقّةً      تصاغُ منه حلّةٌ للشّعريينِ  
رسائلٌ أزهارها منثورةٌ      سرورُ قلبٍ ومتاعٌ ناظرينِ  
يا أحوذياً يا نسيجَ وحدهِ      شهادةٌ تزهرتُ عن قولِ مِينِ  
بقيتَ في مواهبِ الله الّهي      تقرُّ عينيكِ وتملأُ اليدينِ  
. انتهى .

[ ٤٤ - من سعيد الغرناطي إلى لسان الدين ]

وحكى لسان الدين أن سعيد بن محمد الغرناطي الغساني استعار منه كتاباً ،  
فأرسله إليه وعلى ظهره هذه الأبيات :

هذا كتابٌ كلّه معجمٌ      أفحمني معناهُ إفحاماً  
أعجمه منشئه أوّلاً      وزاده الناسخُ إعجاماً  
أسقط من إجماله جملةً      وزاد في التفصيلِ أقساماً  
وغيرَ الألفاظَ عن وضعها      وصيرَ الإيجادَ إعداماً  
فليس في إصلاحه حيلةٌ      تُرجى ، ولو قوبل أعواماً

ولم أقف على جواب لسان الدين له عنها ، والله تعالى أعلم .  
وولد سعيد المذكور سنة ٦٩٩ .

[ ٤٥ - مخاطبات بين ابن البناء ولسان الدين ]

ومما خوطب به لسان الدين لما تقلد الكتابة العليا قولُ أبي الحسن علي بن  
محمد بن علي بن البناء الوادي أشي رحمه الله تعالى :

هو العلاء جرى باليمن طائرُهُ      فكان منك على الآمالِ ناصرُهُ

ولو جرى بك ممتداً إلى أمد  
لقد حباه منيع العز خالقه  
فليزه فخرأ فما خلق يعارضه  
لله أوصافك الحسنى لقد عجزت  
هيات ليس عجباً عجز ذي لسن  
هل أنت إلا الخطيب ابن الخطيب ومن  
فإن يقصر عن الأوصاف ذو أدب  
يا ابن الكرام الألى ما شب طفلهم  
مهلاً عليك فما العلياء قافية  
ولا المكارم طرساً أنت راقمه  
ماذا على سابق يسري إلى سنن  
سر حيث شئت من العلياء متثداً  
أنت الإمام لأهل الفخر إن فخرُوا  
ما بعد ما حزته من عزة وعلاً  
نادت بك الدولة النصري محتدها  
حلتيتها برداء البر مرتدياً  
فالمملك يرفل في أبراده مراحاً  
فاهناً بها نعمة ما إن يقوم لها  
وليهنها أنها ألفت مقالدها  
فإنه بدر تم في مطالعها

لأعجز الشمس ما آبت عساكره  
بفاضل منك لا تحصى مآثره  
ولا علاء مدى الدنيا يفاخره  
من كل ذي لسن عنها خواطره  
عن وصف بحر رمى بالدر زاخره  
زانت حلتي الدين والدنيا مفاخره  
فما بدا منك في التقصير عاذره  
إلا وللمجد قد شدت مآزره  
ولا العلاء بسجع أنت ناثره  
ولا المناقب طباً أنت ماهره  
إن كان من رفته خل يسايره  
فما أمامك سباق تحاذره  
أنت الجواد الذي عزت أوافره  
شأو يطارد فيه المجد كابره  
نداء مستنجد أزرأ يوازره  
وصبح يمنك فجر السعد سافره  
قد عمت الأرض إشراقاً بشائره  
من اللسان ببعض الحق شاكره  
إلى زكي زكت منه عناصره  
قد طبقت الأرض بالأنوار ناثره

وقال لسان الدين : وأهدى إلي قباقب خشب جوز وكتب معها :

هاكها ضمراً مطايا حسانا  
نشأت في الرياض قصباً ليدانا  
وثوت بين روضةٍ وغديرٍ  
مرضعاتٍ من النَمير لبانا

لابسات من الظلال بروداً  
ثمّ لمّا أراد إكرامها الله  
قصدت بابلك العليّ ابتداراً  
دونها القُضْبُ رقةً وليانا  
وسنّى لها المنى والأمانا  
ورجّت في قبولك الإحسانا

قال : فأجبتة :

قد قبلنا جياذك الدُّهمَ لمّا  
أقبلتْ خلفَ كلِّ حِجرٍ تبعٍ  
فعنينا برعيها وفسحنا  
وأردنا امتطاءها فاتخذنا  
قدمتْ قبلها كتيبة سحرٍ  
مثلما تجنّبُ الجيوشُ المذاكي  
لم يرقْ مقلتي ولا راق قلبي  
من يكنْ مُهندياً فمثلك يهدي  
أن بلونا منها العتاق الحسانا  
خلعتْ وصفها عليه عيانا  
في ربوع العلا لها ميدانا  
من شراك الأديم فيها عنانا  
من كتاب سبّت به الأذهانا  
عدّةً للقاء مهما كانا  
كعلاها براعةً وبيانا  
لم أجدُ للثنا عليك لسانا

وقال لسان الدين : ومن أبدع ما هز به إلى إقامة سوقه ، ورعي حقوقه ،

قوله :

يا معدنَ الفضلِ موروثاً ومكتسباً  
بياب مجدكم الأسمى أخو أدبٍ  
ذلّ الزمانُ له طوراً قبلتْغه  
والآن أركبه من كلِّ نائبةٍ  
فحملته دواعي حبكم وكفى  
فهّلْ سرى نسمةً من جاهكم فيها  
وكلّ مجدٍ إلى عليائه انتسبا  
مستصرخٌ بكمُ يستنجدُ الأدبا  
من بعض آماله فوق الذي طلبا  
صعبُ الأعتة لا يألو به نصبا  
بذاك شافعُ صدقٍ يبلغ الأربا  
خليفةُ الله فينا يمحطر الذهبا

وقال لسان الدين في « الإكليل » في حق المذكور ما صورته : فاضل يروك وقاره ، وصقر بعد مطاره ، قدم من بلده يروم للحاق بكتّاب الإنشاء وتوسل بنظم أنيق ، ونسيب في نسب الإجابة عريق ، تُعرب براعته عن لسان ذليق ، وطبع طليق ، وذكاء بالأثرة خليق ، وبينما هو يُلحَم في ذلك الغرض ويُسدي ، ويعيد وييدي ، وقد كادت وسائله أن تنجح ، وليل رجائه أن يصبح ، اغتاله الحِمام ، وخانت الأيام ، والبقاء لله تعالى والدوام ، توفي بالطاعون في عام واحد وخمسين وسبعمائة وسنه دون الثلاثين ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[ ٤٦ - رسالة من لسان الدين إلى سلطان تونس ]

ولما خوطب لسان الدين من سلطان تونس بما لم يحضرني الآن أجاب عنه بما نصه : « المقام الإمامي الإبراهيمي المولوي المستنصري الحفصي ، الذي كرم فرعاً وأصلاً ، وشرف جنساً وفصلاً ، وتلمى في ظلّ رعاية المجد ، من لدن المهتد ، كرماً وخصلاً ، وصرفت متجردة الأقلام ، إلى مثابة خلافته المنصورة الأعلام ، وجوه عبارة الكلام ، فاتخذ من مقام إبراهيم مُصلّي ، مقام مولانا أمير المؤمنين الخليفة الإمام أبي إسحاق ابن مولانا أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين ، أبقاه الله تعالى تهوي إليه الأفتدة كلما انتشت بذكره ، وتنافس الألسنة في إحراز غاية حمده وشكره ، وتكفل الأقدار بإنفاذ نبيه وأمره ، وتغرى عوامل عوامله بحذف زيد عدوه وعمره ، ويتبرع أسمر الليل وأبيض النهار بإعمال بيضه وسُمره ، ولا زال حُسامه الماضي يغني يومه في النصر عن شهره ، والروض يحيه بمباسم زهره ، ويرفع إليه رُقع الحمد بينان قضبه الناشئة من معصم نهره ، وولي الدنيا والآخرة يمتعنا بهما بعد الإعانة على مهّره ، يُقبَلُ بساطه المعوّد الاستلام بصفحات الحدود ، الرافع

عماده ظلُّ العدل الممدود ، عبدُ مقامه المحمود ، وواردٌ غمَّر إنعامه غير المتزور ولا المثمود ، المثني على نعمه العميمة ، ومنححه الجسيمة ، ثناء الروض المجود ، على العهود ، ابن الخطيب ، من باب المولى الموجب حقّه ، المتأكد الفروض ، الثابت العهود ، المعتدّ منه بالود الجامع الرسوم والحدود ، والفضل المتوارث عن الآباء والجدود ، يسلم على مثابتها سلام متلو على مثلها إن وجد المثل في الثاني ، ويعوِّذ كما لها بالسبع المثاني ، ويدعو الله تعالى لسلطانها بتشديد المباني ، وتيسير الأماني ، وينهي إلى علوم تلك الخلافة الفاروقية المقدّسة بمناسبة التوحيد ، المستولية من مدارك الآمال على الأمد البعيد ، أن مخاطبتها المولوية تاهت على الملوك فارعة العلا ، مزعفرة الحلل والحلى ، ذهبية المجلى ، تفيد العز المكين ، والدنيا والدين ، وتُرعى في الآباء والبنين ، على مر السنين ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسْرُّ النَّاطِرِينَ﴾ (البقرة : ٦٩) وقد حملت من مدحها الكريم ما أخفى للمملوك من قرة عين ، ودرة زين ، جبين الشرف الوضاح ، ومستوجب الحق على مثله من الخلق بالنسب الصّراح ، والغرر والأوضاح ، والأرج القوّاح ، فاقتنى دره النفيس ، ووجد المروع<sup>١</sup> في جانب الخلافة التنفيس ، وقرأه لما قرأه التعظيم والتقدّيس ، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَِّّي أُلْقِيَّ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ﴾ (النمل : ٢٩) وإن لم يكن بلقيس ، أعلى الله تعالى تلك اليد مطوّقة الأيادي ، ومخجلة الغمائم والغواصي ، وأبقاها عامرة النوادي ، غالبية الأعادي ، وجعل سيفها السفاح ورأيها الرشيد وعلمها الهادي ، ووصل ما ألطف به رعيها من أشتات بر بلغت ، وموارد فضل سوّغت ، أمدتها سعادة المولى بمدد لم يضر معه البحر الهائل ، ولا العدو الغائل ، وأقام أودّها عند الشدائد الفلّك المائل ، لا بل الملك الذي له إلى الله الوسائل ، وحسب الجفن رسالتكم الكريمة لحظاً فصان وأكرم ، وعوذة فتعوّذ بها وتحرم ، وتولى المملوك تنفيق عروضها

١ ص : المروج .



بانسراح صدره ، وعلى قدره ، فوقعت الموقع الذي لم يقعه سواها ، فأما الخيل فأكرم مئواها ، وجُعِلت جنان الصون مأواها ، ولو كسيت الربيع المزهرة حلاً ، وأوردت في نهر المجرة علاً ونهلاً ، وقلدت النجوم العواتم صحلاً ، ومسحت أعطافها بمندبل النسيم ، وألحفت بأردية الصباح الوسيم ، وافترشت لمربطها الحشايا ، وأقضمت حبات القلوب بالعشايا ، لكان بعض ما يجب ، لحقها الذي لا يجحد فضله ولا يحتجب ، وما عداها من الرقيق والفتيان ، رعاة ذلك الفريق تكفله الاستحسان ، وأطبب الاعتقاد وإن قصر اللسان ، تولى الله تعالى تلك الخلافة بالشكر الذي يُحسبُ العطاء ، والحفظ الذي يُسبَلُ الغطاء ، والصنع الذي ييسر من مطا الأمل الامتطاء ، وأما ما يختص بالملوك فقد خصه بقبوله تبركاً بتلك المقاصد التي سددها الدين ، وعددها الفضل المبين ، وأنشد الخلافة التي راق من مجدها الجبين :

قلدتني بفرائد أخرجتها من بحر جودك وهو ملتطمُ الثبج  
ورعيت نسبتهما فإن سبيكة مما يلائم لونها قطع السبج

والمملوك بهذا الباب النصري أعزّه الله تعالى على قدم خدمة ، وقائم بشكر منة لكم ونعمة ، وحاضر في جملة الأولياء بدعائه وحبه ، ومتوسل في دوام بقاء أيامكم ونصر أعلامكم إلى ربّه ، وإن بعد بجسمه فلم يبعد بقلبه ، والسلام الكريم ، الطيب البر العميم ، ينحصها دائماً متصلاً ، ورحمة الله تعالى وبركاته « انتهى .

[ ٤٧ - مخاطبة من ابن البربري المألقي إلى لسان الدين ]

ومما خوطب به لسان الدين قول أبي الحسن علي بن يحيى الفزاري المألقي

١ ص : جنات .

المعروف بابن البربري ، وكان ممن يمدح الملوك والكبراء :

لِيَابِكَ أُمَّ الْأَمْلُونِ وَيَمْتُوا  
وَمِنْ رَاحَتِي كَفِيكَ جَدُوكَ تَنْهَمِي  
وَأَنْتَ لَمَّا رَامُوهُ كَعْبَةُ حَجَّهُمْ  
يَطُوفُونَ سَبْعًا حَوْلَ بَابِكَ عِنْدَمَا  
فِيْمَنَّاكَ يَمْنٌ لِلرَّعَايَا وَمِنَّةٌ  
وَلَقِيَاكَ بِشْرٌ لِلنَّفُوسِ وَجَنَّةٌ  
فِيهَا وَاحِدَةُ الْأَزْمَانِ عِلْمًا وَمَنْصِبًا  
وَمَنْ وَجْهَهُ كَالْبَدْرِ يَشْرُقُ نُورُهُ  
وَمَنْ ذَكَرَهُ كَالْمَسْكَ فَضْضٌ خَتَامُهُ  
لَقَدْ حَزَّتْ فَضْلَ السَّبْقِ غَيْرَ مَنَازِعٍ  
حَوِيَتْ مِنَ الْعُلِيَاءِ كُلِّ كَرِيْمَةٍ  
وَبَاهِيَّتِ أَقْلَامَ الْأَنَامِ بِرَاعَةٍ  
إِذَا فَآخَرَ الْأَعْجَادُ يَوْمًا فَإِنَّمَا  
وَإِن سَكْتُوا كُنْتَ الْبَلِيغَ لَدَيْهِمْ

ومنها :

فِيَا صَاحِبِي نَجْوَايَ عُوجًا بِرَامَةٍ  
وَقَوْلَا لَهُ عَبْدٌ يَبَابِكَ يَرْتَجِي  
فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا عُلَاكَ وَسِيْلَةٌ  
فَجَدُّ بِالذِّي يَرْجُوهُ مِنْكَ فَمَا لَهُ  
بَقِيَتْ وَنَجْمُ السَّعْدِ عِنْدَكَ طَالِعٌ  
عَلَى رَبِّعِهِ حَيْثُ النَّدَى وَالتَّكْرِمُ  
قَضَاءُ لُبَانَاتٍ لَدَيْكَ تَتَمَّمُ  
وَلَا شَيْءَ أَسْمَى مِنْ عِلَاكَ وَأَعْظَمُ  
كَعْقَدِ ثَمِينٍ مِنْ ثَنَائِكَ يُنْظَمُ  
يُضِيءُ لَهُ بَدْرٌ وَتَشْرُقُ أَنْجَمُ

توفي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

وممّا خوطب به قولُ أبي القاسم قاسم بن محمد الحرالي المالقي القاضي  
بانقيرة<sup>١</sup> قبل وفاته :

وأفضلَ موصوفٍ بكلِّ المحامدِ	عليك قصرتُ المدحَ يا خيرَ ماجدِ
وموردَ جودٍ قد كفى كلَّ واردِ	ويا كهفَ ملهوفٍ، وملجأَ خائفِ
محاسنها أزكى وأعدلُ شاهدِ	لقد شهّرتِ بالمجدِ منك شمائلُ
حُبّيت به ، أعظِمُ بها من محامدِ	وكلُّ الذي يبدو من الفضلِ بعضُ ما
تُنادي هلمُّوا فرتمُ بالمساعدِ	إذا أمّلتِ منك المكارمُ ألفتِ
فمثلكم يبغي فيا سعدَ قاصدِ	عطاؤكم جزلُ فمن أمّلَ الغنى
وأصلُ زكيُّ الفرعِ عذبُ الموردِ	وراثتُ مجدي كابرأ بعد كابرِ

[ ترجمة أبي القاسم الحرالي ]

وتوفي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ، وفي حقّه يقول في  
« الإكليل » : مشمر في الطلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحذاق ،  
منتحل للعربية ، جادّ في إحصاء خلافها ، ومُعاطاة سُلّافها ، وربما شرست في  
المذاكرة أخلاقه ، إذا بُهّرتْ أعلّاقه ، ونوزع تمسّكه بالحجّة واعتلاقه .  
وقال لسان الدين في ترجمة شعر المذكور : إنّه ضعيف مهزول ؛ انتهى .

[ ٤٩ - رسالة من المنتشاقري إلى لسان الدين ]

وممّا خوطب به قول أبي الحجاج يوسف بن موسى الجذامي المنتشاقري  
من أهل رُنْدَة ، ونصّه :

حبّاك فؤادي نيلَ بشرى وأحياكا وحيدُ بادابٍ نفائسَ حيّاكا

١ انقيرة (Antequera) تبعد عن مالقة حوالي ٦٠ كيلومتراً شمالاً .

بدائعُ أبدَها بديعُ زمانه فطاب بها يا عاطرَ الروض ريبًا كما  
 أمهدبها أودعت قلبي علاقةً وإن لم يزل مُغرّبي قديمًا بعليًا كما  
 إذا ما أشار العصرُ نحو فريده فياك يعنّي بالإشارة إيا كما  
 لأتخفي لفيك أسنى مؤملي وهل تُحفّةٌ في الدهر إلا بليًا كما  
 وأعقت إتخافي فرائدك التي وجوبُ ثناها يا لساني أعيا كما

ووصل هذا النظم بنثر صورته : « خصصتني أيها المخصوص بمآثر أعيا  
 عدّها وحصرها ، ومكارم طيب أرواح الأزاهر عطرها ، وسارت الركبان  
 بشائها ، وشملت الخواطر محبة علائها ، بفرائدك الأنيقة ، وفوائدك المزرية جمالا  
 على أزهار الحديقة ، ومعارفك التي زكت حقًا وحقيقة ، وهدت الضالّ عن  
 سبيل الأدب مهتبعه وطريقه ، وسبق تحفتك أعلى التحف عندي وهو مأمول  
 لقاءك ، والتمتع بالتماح ستاك الباهر وسنائك ، على حين امتدت لذللكم اللقاء  
 أشواق ، وعظم من فوت استنارتي بنور محيّاك إشفاقي ، وتردد لهجي بما يبلغني  
 من معاليك ومعانيك ، وما شاده فكرك الوقاد من مبانك ، وما أهلت به بلاغتك  
 من دراسه ، وما أضفيت على الزمان من رائق ملبسه ، وما جمعت من أشناته ،  
 وأحييت من أمواته ، وأيقظت من سناته ، وما جاد به الزمان من حسناته ،  
 فلترداد هذه المحاسن من أنباتك ، وتصرف الألسنة بشنائك ، عقلت النفس من  
 هواها بأشد علاقة ، وجنحت إلى لقاءك جنوح والهة مشتاقه ، والحوادث الجارية  
 تصرفها ، والعوائق الحادثة كلما عطفت أملها إليه لا تتحفها به ولا تعطفها ،  
 إلى أن ساعد الوقت ، وأسعد البخت ، بلقائكم في هذه السفرة الجهادية ، وجاد  
 إسعاف الإسعاد من أميتي بأسنى هدية ، فلقيتكم لقيًا خجل ، ولمحت  
 أنواركم لمحة على وجل ، ومحبي في محاسنكم الرائقة ، ومعاليكم الفائقة ، على

١ ق ص : أضيفت .

ما يعلمه ربنا عزّ وجل ، وتذكرت عند لقائكم المأمول ، إنشاء قائل يقول :

كانت مساءلةُ الركبانِ تخبر عن محمد بن الخطيب أطيّب الخبير  
حتى التقينا فلا والله ما سمعتُ أذني بأحسنَ ممّا قد رأى بصري

قسمٌ لعمري أقوله وأعتقده ، وأعتده وأعتمه ، فلقد بهرت منك المحاسن ،  
وفُقتَ من يُحاسن ، وقصّر عن شأوك كلُّ بليغ لسن ، وسبقتَ فطنتك  
النارية النورية بلاغة كل فطين ، وشهد لك الزمان أنك وحيدُه ، ورئيس  
عصيته الأدبية وفريده ، فبورك لك فيما أنلت من الفضائل ، وأوتيت من آيات  
المعارف التي بها نور الغزاة ضائل ، ولا زلت ترقى في مراتب المعالي ، موقى  
صروف الأيام والليالي « انتهى .

[ ٥٠ - رسالة لسان الدين إلى المنتشاقري ]

وهذا الخطاب جواب من المذكور لكلام خاطبه به لسان الدين نصّه :

حمدتُ على فرطِ المشقةِ رحلةً أتاحتُ لعينيّ اجتلاءً محيّاكا  
وقد كنتُ بالتذكارِ في البعدِ قانعا وبالريحِ إن هبتْ بعاطرِ ريباكا  
فحلّتْ لي النعمى بما أنعمتْ به عليّ فحيّاها الإلهُ وحيّاكا

« أيها الصدر الذي بمخاطبته يُباهى ويتشرف ، والعلم الذي بالإضافة إليه  
يتعرف ، والروض الذي لم يزل على البعد بأزهاره الغضة يُتّحف ، دمت  
تتراحم على موارد ثنايك الألسن ، ويروي الرواة من أنبائك ما يصح ويحسن ،  
طالما مالت إليك النفوسُ منّا وجنحتْ ، وزجرت الطائر الميمون من رقاعك  
كلّما سنحتْ ، فالآن اتضح البيان ، وصدق الأثر العيان ، ولقد كنّا للمقام  
بهذه الرحال نرتمض ، ويجنُّ الظلام فلا نغتمض ، هذا يقلقه إصفار كيسه ،  
وهذا يتوجّع لبعد أنيسه ، وهذا تروعه الأحوال ، وتضجره بتقلباتها الأحوال ،

فمن أنّة لا تنفع ، وشكوى إلى الله تعالى تُرفع ، فلمّا ورد بقدمك البشير ،  
وأشار إلى ثنية طلوعك المشير ، تشوفت النفوس الصّدّة إلى جلائها وصقّالها ،  
والعقول إلى حلّ عقّالها ، والأنفس المُفحّمة إلى فصل مَقّالها ، ثم إن الدهر  
راجع التفاته ، واستدرك ما فاته ، فلم يسمح من لقائك إلا بلمحة ، ولا بعث  
من نسيم روضك بغير نفحة ، فما زاد أن هيّج الأشواق فالتهبت ، وشنّ  
غاراتها على الجوانح فانتهبت ، وأعلّ القلوب وأمراضها ، ورمى ثغرة الصبر  
فأصاب غرَضها ، فإن رأيت أن تنفّس عن نفسٍ شد الشوق مُخنّقها ،  
وكدّر مشارب أنسها وأذهب روتقها ، وتتحف من آدابك بدرر ثقتي ، وروضة  
طيبة الجحّي ، فليست ببدع في شيمك ، ولا شاذة في باب كرمك ، ولولا شاغل  
لا يبرح ، وعوائق أكثرها لا يُشرح ، لنافست هذه السحاة في القوم عليك ،  
والثول بين يديك ، فتشوئي إلى اجتلاء أنوارك شديد ، وتشيعي إلى إبلاء الزمان  
جديد « انتهى .

### [ ترجمة أبي الحجاج المتشاقري ]

ووصف لسان الدين في « التاج المحلّي » أبا الحجاج المذكور بما صورته<sup>١</sup> :  
حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتوبة الزمان الجمّ الذنوب ، ما شئت من أدب  
يتألّق ، وفضل تتعطر به النسّمات وتتخلّق ، ونفس كريمة الشمائل والضرائب ،  
وقريحة يقذف بحرّها بدرر الغرائب ، إلى خشية لله تعالى تحول بين القلوب  
وقرارها ، وتثني النفوس عن اغترارها ، ولسان يبوح بأشواقه ، وجفن يسخو  
بدرر آماقه ، وحرص على لقاء كل ذي علم وأدب ، ومن يمتّ إلى أهل الديانة  
والعبادة بسبب ، سبق بقطره الحلبّة ، وفرع من الأدب الهضبة ، ورفع الراية ،

١ انظر ترجمة أبي الحجاج المتشاقري في الكتيبة : ١١٩ ؛ وهذه النسبة الى متشافر ( Monte - Sacro )  
في مقاطعة أكشونة .

ويبلغ في الإحسان الغاية ، فطارت قصائده كلَّ المطار ، وتغنّى بها راكب الفلّك وحادي القطار ، وتقلد خُطّة القضاء ببلده ، وانتهت إليه رياسة الأحكام بين أهله وولده ، فوضحت المذاهبُ بفضل مذهبه وحُسن مقصده ، وله شيمة في الوفاء تعلّم منها الآس ، ومؤانسة عذبة لا تستطيعها الأكواس ، وقد أثبت من كلامه ما تتحلّى به مراتب المهارق ، ويجعل طيبه فوق المفارق ، وكنت أتشوق إلى لقائه ، فلقيته بالمحلة من جبل الفتح لقياً لم تبل صدّي ، ولا شفّت كمدّاً ، وتعذر بعد ذلك لقاءه ، فخاطبته بهذه الرقعة :

حمدت على فرط المشقة رحلة

فذكر لسان الدين ما قدمنا إلى آخره .

وقد أورد جملة من مطولاته وغيرها ومؤلفاته ، ولنلخص بعض ذلك فنقول :  
ومن شعر أبي الحجاج المذكور يمدح الجهة الكريمة النبوية ، مُصدراً بالنسب لبسط الخواطر النفسانية ، قوله :

لما تنهى الصبُّ في تشويقه	درُّ الدموعِ اعتاضها بعقيقه
متلهفٌ وفؤادهُ متلهبٌ	كيف البقا بعد احتدامِ حريقه
متموجٌ بحرِّ الدموعِ بجده	أنّى خلاصٌ يرتجى لغريقه
متجرعٌ صابَ النوى من هاجر	ما إن يحنُّ للاعجاتِ مشوقه
يسبي الخواطرَ حسنه ببيديه	يُصبي النفوسَ جماله بأنيقه
قيدُ النواظرِ إذ يلوحُ لرامقِ	لا تشي الأحداقُ عن تحديقه
لبسدرٍ لمحتُه كبشر ضيائه	للمسكِ نَفحة كشرِ فتيقه
سكرتُ خواطرُ لاجمه كأنهم	شربوا من الصهباءِ كأسَ رحيقه
عطشوا لثغري لا سبيلَ لريقه	إلا كلمحهمُ للمعِ بريقه

١ ق : تتجلى .

لو رقَّ إشفاقاً لحالِ رقيقه  
 مثلُ السلوِّ ولا أنا بمطيقه  
 فأثارَ شجوةَ مشوقه بمشوقه  
 ويحقُّ أن يبكي أخو تفريقه  
 لم أقضِ للمولى أكيدَ حقوقه  
 أقبحُ بنسخِ بروره بعقوقه  
 لو كنتُ مزدجراً لشيءِ بروقه  
 يصلُ النسيجَ لوزره بشهيقه  
 ويرومُ من مولاه رتقَ فتوقه  
 علَّ الرضى يحيه دركُ لحوقه  
 نسخاً لحكمِ صبوحة وغبوقه  
 وسلكتُ إيثاراً سواءَ طريقه  
 عرضتُ تُسامُ لرابحٍ في سوقه  
 من حزبٍ من نال الرضى وفريقه  
 هتكَ الدجى بضياته وشروقه  
 بشرٌ لصدقِ الفضلِ في تحقيقه  
 ولسابقِ فضلٍ على مسبوقة  
 يحيي الفؤادَ بسيره وطروقه  
 سببَ انتعاشِ الروح طيبُ خلقه  
 من خوفها قلبي حليفِ خفوقه  
 ذخراً لصدماتِ الزمانِ وضيقة  
 فوزُ الأنامِ يصحُّ في تصديقه  
 من هاشمِ زاكي النجار عريقه  
 والدينُ نظمه لدى تفريقه

ما ضرَّ مولى عاشقوه عبيده  
 عنه اصطباري ما أنا بمطيعه  
 سجَعَ الحمامُ بشوقِ ترجيعِ الهوى  
 وبكتُ هديلاً راعها تفريقه  
 وبكاءُ أمثالي أحقُّ لأنتي  
 وغفقتُ في زمنِ الشبابِ المنقضي  
 وبدا المشيبُ وفيه زجرُ ذوي النهى  
 حسبي ندامةُ آسفٍ ممّا جنى  
 ويروم ما خرم الهوى زمن الصبا  
 ويرددُ الشكوى لديه تذلاً  
 فيصحُّ من سكرِ التصابي سكره  
 لو كنتُ يمتُّ التقي وصحبته  
 لأفدتُ منه فوائداً وفرائداً  
 لله أربابُ القلوبِ فإنهم  
 قاموا وقد نام الأنام فنورهم  
 وتأنسوا بحبيهم فلهم به  
 قصّرتُ عنهم عندما سبقوا المدى  
 لولا رجاءُ تلمحٍ من نورهم  
 وتأرجحُ يستافُ من أرواحهم  
 لفنيتُ من جرّاً جرّائري التي  
 ومعى رجاءُ توسلٍ أعدده  
 حبي ومدحي أحمد الهادي الذي  
 أسمى الورى في منصبٍ وبمنسبٍ  
 الحقُّ أظهره عقيبَ خفائه



وفى هُده ضلالةً من جائر  
سبحان مرسله إلينا رحمةً  
والمعجزاتُ بدت بصدقِ رسوله  
كالظبي في تكليمه، والجذعِ في  
والنارِ إذ خمدتُ بنورِ ولادةِ  
والزادُ قلَّ فزاد من بركاته  
ونبوعُ ماءِ الكفِّ من آياته  
والنخلُ لما أن دعاه مشى له  
والأرضُ عاينَها وقد زويت له  
وكذا ذراعُ الشاةِ قد نطقتُ له  
ورمى عداه بكفِّ حصبا فانشنت  
وعليه آياتُ الكتابِ تنزلت  
وأذيق من كأسِ المحبةِ صرفها  
حاز السناء وناله بعروجهِ  
ولكم له من آيةٍ من ربهِ  
يا خيرةَ الأرسالِ عند إلهه  
علقتُ آمالي بجاهك عدّةً  
وعلقتُ من جبلِ اعتمادِ عمدةً  
ولئن غدوتُ أحميدَ ذنبي لآتني  
وكسادُ سوقي مذ لحأت لبابكم  
ويحنُّ قلبي وهو في تغريبه  
وتزيد لوعته متى حثَّ السرى  
وأرى قشيبَ العمرِ أمسى بالياً

مستوثقٌ بيغوثه ويعوقه  
يهدى ويهْدَى الفضلُ من توفيقه  
وحقيقه بالمأثرات خليقه  
تحنيه ، والبدرِ في تشقيقه  
وأجاج ماءً قد حلا من ريقه  
فكفى الجيوشَ بتمره وسويقه  
وسلامُ أحجارِ غدت بطريقه  
ذا سرعةٍ بعدوقه وعروقه  
فقريب ما فيها رأى كسقيقه  
نطقَ اللسانِ فصيحِه وذليقه  
هرباً كمدعورِ الجنانِ فروقه  
تُتلى بعلو جلاله وبسوقه  
سبحان ساقيه بها ومذيقه  
جاز السماءَ طباقها بخروقه  
وعنايةٍ ورعايةٍ بحقوقه  
يا محرزَ العلى على مخلوقه  
والقصدُ ليس يخيبُ في تعليقه  
لتمسكي بقويته ووثيقه  
أرجو بقصدك أن أرى كطليقه  
يقضي حصولَ نفوذه ونفوقه  
لمزاره لرُباكِ في تشريقه  
حادٍ حداً بجماله وبنوقه  
ومرورَ دهري جدّاً في تمزيقه

وأخافُ أن أقضي ولم أقضِ المُنى  
 فمتى أخطُ على اللوى رحلي وقد  
 وأمرغُ الخدين في تربِ غدا  
 وأعيدُ إنشائي وإنشادي الثنا  
 حتّى أميلُ العاشقين تطرباً  
 وتحيّةُ التسليم أبلغُ شافعٍ  
 ولذي الفخار وذي الحلى ووزيره  
 مني السلامُ عليهم كالزهرِ في

وقال<sup>١</sup> :

بنفوذِ سهمٍ منيتي ومُروقه  
 بلغتُ ركابي للحمى وعقيقه  
 كالمسكِ في أرجِ شذا منشوقه  
 ببديعِ نظمٍ قريحتي ورقيقه  
 كالغصنِ مرَّ صَباً على ممشوقه  
 وثنا المديحِ حديثه وعقيقه  
 صديقه وأخي الهدى فاروقه  
 تأليفها والزهرِ في تأنيقه

هواكم بقلبي ما لمحكمه نسخُ  
 ومن نشأتني ما إن صحّت منه نشوتي  
 عليه حياتي مُدّ تَمادت وميتي  
 ولي خلدٌ أضحي قنيص<sup>٢</sup> غرامه  
 قتلتُ سلوي حين أحييتُ لوعتي  
 وأغدو إلى سعدى بكرخِ علاقتي  
 وناصحُ كتمي؛ إذ زكت بيئاته<sup>٣</sup>  
 وأرجو بتحقيقي هواكم بأن أفي  
 وما الحبُّ إلا ما استقلَّ ثبوته

ومِنَ أجليه جفني بدمعه يسخو  
 سواءً به عصر المشيب<sup>٤</sup> أو الشرخُ  
 وبعي إذا بالصُور يتفقُ النفخُ  
 ولا شَرَكٌ يدني إليه ولا فحُ  
 وما اجتيجَ بالإقرار في حالتي لطحُ  
 وقصدي قصدي ليس سعدى ولا الكرخُ  
 يجولُ عليه من دموع الأسي نضخُ  
 فعهدٌ ولا نقضُ ، وعقدٌ ولا فسحُ  
 لبناهُ رصٌ في الجوانحِ أو رسخُ<sup>٥</sup>

١ القصيدة في الكتيبة : ١٢١ .

٢ ق والكتيبة : الشباب .

٣ ق ص : يبيض .

٤ الكتيبة : وما صح جسي .

٥ ق ص : أدركت ؛ ص : بيناته .

٦ ق : رض . . . أو رضخ .

إذا مسلكٌ لم يستقمْ بطريقه  
 بدا لضميري من سناكم تلمحٌ  
 على عودِ ذاك الملح ما زلتُ نادياً  
 يدي بأيديكم وقلبي شاغل

سلكتُ اعتدالاً مثلما يسلك الرخُ  
 فبخٌ لعقلٍ لم يطرُ عندها بخٌ  
 كما تندب الورقاء فارقها الفرخُ  
 فمن فكرتي نسجٌ ومن أعملي نسجٌ

وقال :

إليكَ تحنُّ الثُجْبُ والثُجْبَاءُ  
 تحبُّ بركابٍ تحبُّ وصولها  
 فأنفاسُها ما إن تبي صعداؤها  
 همُ عاجلوا إذ عجل السيرُ داءهم  
 فعدتُ ودوني للحبيبِ ترحلوا  
 له وعليه حبٌ قلبي وأدمعي  
 بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها  
 شذا نصحها والملحُ منها كأنه  
 فيا حادياً غنّى وللركب حادياً  
 بسكع فسل عما أقاسي من الهوى  
 وفي عالج منّي بقلبي لاعجُ  
 وللرقتين أرقمُ الشوقِ لادعُ  
 أماكن تمكينٍ وأرضٍ بها الرضى

فهم وهَيَ في أشواقهم شركاءُ  
 لأرضٍ بها بادٍ سناً وسناء  
 وأنفسُهُم من فوقها سعداءُ  
 وأشباهُ مثلي مُدْتَقُونَ بِطَاءُ  
 وما قاعدٌ والراحلون سواءُ  
 وقد صحَّ لي حبٌ وسحَّ بكاءُ  
 وإن تكُ أرضاً فالحبيب سماءُ  
 ذكاء عبير والضياء ذكاءُ  
 عناني بعدَ البعد عنك عناءُ  
 وسلُّ بقاءٍ إذ يلُوح قباءُ  
 فهل لي علاجٌ عنده وشفاءُ  
 ودرياقه أن لو يُباح لقاءُ  
 وأرجاء فيها للشوق رجاءُ

وقال ١ :

أدبُ الفتى في أن يرى متيقظاً  
 فإذا تمسكَ بالهوى يهوي بهِ  
 لأوامرٍ من ربّه ونواهٍ  
 والحبلُ منه لمن تيقنَ واهٍ

١ هذه المقطوعة واثنتان تاليتان في الكتيبة : ١٢٢ .

وقال :

يا من بدُنياه ظلّ في الحجِ  
تطمعُ في إرثك الفلاحِ وقد  
حقّقَ بأنّ النجاةَ في الشاطي  
كن حذراً في الذي طمعتَ بهِ  
أضعتَ ما قبله من أشرطِ  
من حجبِ نقصِ وحجبِ إسقاطِ

وقال :

تُرى شعروا أتي غبطُ نُسَيْمَةٍ  
كما قابلتُ زهرَ الرياضِ وقبّلتُ  
ذكَتُ بتلاقي الروضِ غيبَ الغمامِ  
ثغورَ أفاحيهِ بلا لومٍ لائمِ

وقال :

ورَدَ المشيبُ مبيّضاً بورودهِ  
يا ليتَهُ لو كان بيّضَ بالتُّقى  
ما كان من شعرِ الشيبيةِ حالكا  
إنَّ المشيبَ غدا رداءً للردى  
ما سوّدتهُ ماثمٌ من حالكا  
فإذا علاك أجدتُ في ترحالكا

وقال ١ :

لوعةُ الحبِّ في فؤادي تعاصتُ  
كيفَ يبّرا من علةٍ وعليها  
أن تُداوى ولوّ أتى ألفُ راقِ  
فانسكابُ الدموعِ جارٍ فجارٍ  
زائدٌ علةُ النوى والفراقِ  
والتهابُ الضلوعِ راقِ فراقِ

ومن غرائب الاتفاق أنّه قال : كنت جالساً بين يدي الخطيب أبي القاسم  
التاكروني صبيحة يوم بمسجد مالقة ، فقال لنا في أثناء حديثه : رأيت البارحة  
في عالم النوم كأنّ أبا عبد الله الجليلاني يأتي بي شعر في يده ، وهما :

١ الكتيبة : ١٢٢ .

كلُّ علمٍ يكون للمرء شُغلاً بسوى الحقِّ قَادِحٌ في رشاده  
فإذا كان فيه لله حِظٌّ فهو ممَّا يُعِدُّه لمعاده

قال : فلم ينفصل المجلس حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجلياني ،  
والبيتان معه ، فعرضهما على الشيخ ، فأخبره أنه صنعهما البارحة ، فقال له كل  
من في المجلس : أخبرنا بهما الشيخ قبل مجيئك ، فكان هذا من العجائب .  
ولأبي الحجاج المذكور تواليف ، منها كتاب « ملاذ المستعين في بعض  
خصائص سيد المرسلين » أربعون حديثاً ، وكتاب « تخصيص القرب وتحصيل  
الأرب » و « قبول الرأي الرشيد في تخميس الوتريات النبوية لابن رشيد »  
و « انشاق النسمات النجدية واتساق النزعات الجدية » و « غرر الأمانى المسفرت  
في نظم المكفّرات » و « النفحات الرّندية واللمحات الرّندية » مجموع شعره ،  
و « حقائق بركات المنام في مرأى المصطفى خير الأنام » و « الاستشفاء بالعدة  
والاستشفاع بالعمدة في تخميس البردة » و « توجع الراثي في تنوع المرثي »  
و « اعتلاق السائل بأفضل الوسائل » و « ملح البهيج ونفح الأريج » في ترجيز  
كلام الشيخ أبي مدين من عبارات حكمية وإشارات صوفية ، وكتاب « تجريد  
رؤوس مسائل البيان والتحصيل لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصيل » وفهرسة  
روايته ، ورجز ذكر مشايخ أبي عمر الطنجي ، وكتاب « أرج الأرجاء في مزج  
الخوف والرجاء » أربعون حديثاً في الرجاء والخوف .

وكان رحمه الله تعالى حياً حين ألف لسان الدين « الإحاطة » رحم الله تعالى

الجميع .

ورأيت على ظهر أول ورقة من « الريحانة » بخط الإمام الكبير الشهير الشيخ  
إبراهيم الباعوني الدمشقي رحمه الله تعالى ما نصّه : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد  
الباعوني - غفر الله ذنوبه ، وسرّ عيوبه ، وبلّغّه من فضله مطلوبه - صاحبُ  
كتاب الريحانة ، آية من آيات الله سبحانه ، لوجه أدبه طلاقة ، وللسانه ذلاقة ،

وللقلوب به علاقة ، وفي خطّه غلاقة ، يعرفها مَنْ عرف اصطلاحه بمطالعه ،  
وينفتح له باب فهمها بتكرير مراجعته ، فليتأمل الناظر إليه ، والمقبل عليه ، ما  
فيه من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، بل الآيات البواهر ، وليسبح الله تعالى تعجباً  
من قدرته جل وعلا ، ومواهبه التي عذب ماؤها النَمِيرُ وحلا ، وليقل عند  
تأمل دره النّظيم ﴿ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ  
الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد : ٢١) ؛ انتهى .

وقوله رحمه الله تعالى « وفي خطّه غلاقة » ليس المراد به إلا صعوبة الخط  
المغربي على أهل المشرق حسبما يُعلم ممّا بعده ، وإلاّ فإن خط لسان الدين رحمه  
الله تعالى محمود عند المغاربة ، ولتقتصر من هذا الغرض على ما ذكر ، فإن تبعه  
يطول ؛ إذ هو بحر لا ساحل له .

[ نقل من الروض الأريض لابن عاصم ]

وكان لسان الدين رحمه الله تعالى مؤثراً لقضاء حاجة مَنْ أمّله ، وقصد  
بابه وأمّ له ، سواء كان من أودائه ، أو من أعدائه ، وقد ذكر الوزير الرئيس  
الكتاب أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى عنه في ذلك حكاية في أثناء كلام  
رأيت أن أذكر جملة لما اشتمل عليه من الفائدة ، وهو أنه ذكر في ترجمة  
شموس العصر من ملوك بني نصر من كتابه المسمّى بـ «الروض الأريض» في  
اسم السلطان الذي كان ابن الخطيب وزيره ، وهو الغني بالله محمد بن يوسف بن  
إسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجي ، بعد كلام ما صورته<sup>١</sup> : كان قد جرى  
عليه التمحيص الذي أزعجه عن وطنه إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بني  
مَرِين ، فأفادته الحنكة والتجربة هذه السيرة التي وقف شيوخنا على حقيقتها ،  
وانتهجوا واضح طريقتها ، وبلغتنا منقولة بألسنة صدقهم ، معبراً عنها في عرف

١ أزهار الرياض ١ : ٥٨ - ٦٠ .

التخاطب بالعادة ، فلم يكن الوزير الكيس والرئيس الجهد يجران من الاستقامة على قانون ، ولا يطرّدان من الصواب على أسلوب ، إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والمطابقة لما ثبت من العوائد ، وكان ذوو النبل من هذه الطبقة وأولو الخدق من أرباب هذه المهن السياسية يتعجبون من صحة اختياره لما رسم ، وجودة تمييزه لما قصد ، ويرَوْن المفسدة في الخروج عنها ضربة لازب ، وأن الاستمرار على مراسمها أكد واجب ، فيتحرونها بالالتزام كما تُتحرى السنن ، ويتوخونها بالإقامة كما تُتوخى الفرائض ، وسواء تبادر لهم معناها ففهموه ، أو خفي عليهم وجه رسمها فجهلوه ، حدثني شيخنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسيني أن الرئيس<sup>١</sup> أبا عبد الله ابن زمرك دخل على الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله ابن زمرك ، قال الشريف : فأمضاها كلها له ، ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب : لا ، والله يارئيس أبا عبد الله لا أذن في هذا ، لأننا ما استقمنا في هذه الدار إلا بحفظ العوائد .

ثم قال صاحب الروض : فلما تأذّن الله تعالى للدولة بالاضطراب ، واستحكم الوهن بتمكن الأسباب ، عدل عن تلك القواعد الراسخة ، واستخف بتلك القوانين الثابتة ، فنشأ من المفاسد ما أعوز رقعته ، وتعدد وتره وشفعه ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه ، وتعذر فيه الدواء الذي يُرجى نفعه ، وكان قد صحبه من الجدد ما ستى آماله ، وأنجح بإذن الله تعالى أقواله وأعماله ، فكان يجري الأمر على رسم من السياسة واضح ، ونظر من الآراء السديدة راجح ، ثم يحفه من الجدد سياج لا يفارقه إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله ، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروعه وأصوله ؛ انتهى كلام ابن عاصم .

١ ص : الرئاس ، حيثما وقعت .

وإذ جرى ذكره فلا بأس أن نلمع بشيء من أحواله ، لأن أهل الأندلس كانوا يسمونه ابن الخطيب الثاني ، فنقول :

[ ترجمة أبي يحيى ابن عاصم ]

هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلح الناثر الحجة ، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ، ومالك خدم البراعة بالاسترقاق ، أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم ، القيسي الأندلسي الغرناطي ، قاضي الجماعة بها ، كان - رحمه الله تعالى - من أكابر فقهاؤها وعلماؤها ورؤسائها ، أخذ عن الإمام المحقق أبي الحسن ابن سمعت ، والإمام القاضي أبي القاسم ابن سراج ، والشيخ الراوية أبي عبد الله المنتوري ، والإمام أبي عبد الله البياني ، وغيرهم ، ومن تأليفه شرح تحفة والده ، وذكر فيه أنه ولي القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، ومنها كتاب « جنة الرضى في التسليم لما قدر الله تعالى وقضى » وكتاب « الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريضة » كأنه ذيل به إحاطة لسان الدين ابن الخطيب ، وله غير ذلك ، وقد أطلت الكلام في ترجمته من كتابي « أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل للنفس به ارتياح وللعقل ارتياض »<sup>١</sup> .

ووصفه ابن فرج السبتي بأنه الأستاذ العليم الصدر المفتي القاضي رئيس الكتاب ، ومعدن السماحة ، ومنبع الآداب ؛ انتهى .

[ نموذج من نثر ابن عاصم ]

وقد تقدم بعض كلامه فيما مرّ ، ومن بديع نثره الذي يسلك به نهج ابن

١ انظر ص : ١٤٥ وما بعدها من الجزء الأول من أزهار الرياض .



الخطيب رحمه الله تعالى قوله من كلام جللت جملته في «أزهار الرياض» ،  
واقتصر هنا على قوله بعد الحمدلة الطويلة ما صورته<sup>١</sup> : «أما بعدُ فإن الله على  
كل شيء قدير ، وإِنَّه بعباده لخبير بصير» ، وهو لمن أهل نيتهُ ، وأخلص  
طويتهُ ، نعم المولى ونعم النصير ، بيده الرفع والخفض ، والبسط والقبض ،  
والرشد والغبي ، والنشر والطي ، والمنح والمنع ، والضر والنفع ، والبطء والعجل ،  
والرزق والأجل ، والمسرة والمساءة ، والإحسان والإساءة ، والإدراك والقوت ،  
والحياة والموت ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وهو الفاعل على  
الحقيقة وتعالى الله عما يقول الآفكون ، وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين  
كله ولو كره المشركون ، وإن في أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له  
قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعبرة لمن يفهم قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ  
مَا يَشَاءُ﴾ (الحج : ١٨) و﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة : ١) بينما الدسوت  
عامرة ، والولاة أمرة ، والفئة مجموعة ، والدعوة مسموعة ، والإمرة مطاعة ،  
والأجوبة سمعاً وطاعة ، وإذا بالنعمة قد كُفِرَتْ ، والذمة قد خُفِرَتْ .  
إلى أن قال : والسعيد من اتعظ بغيره ، ولا يزيد المؤمن عمره إلاّ خيراً  
جعلنا الله تعالى ممنّ قضى عمره بخيره ، وبينما الفرقة حاصلة ، والقطيعة فاصلة ،  
والمضرة واصلة ، والحبل في انبتات والوطن في شتات ، والخلاف يمنع رعِي  
مات ، والقلوب شتى من قوم أشتات ، والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه ،  
ويلحظه لحظ الخائف على هضمه ، والآخذ بكظّمه ، ويتوقع الحسرة أن يأذن  
الله بجمع شمله ونظّمه ، على رغم الشيطان ورغمه ، وإذا بالقلوب قد اختلفت ،  
والتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت ، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله تعالى  
وازدلفت ، والمتضرعة إلى الله تعالى قد ابتهلت ، في إصلاح الحالة التي سَلَفَتْ ،  
فألقت الحرب أوزارها ، وأدنت الفرقة النافرة مزارها ، وجلت الألفة الدينية

١ أزهار الرياض : ١ : ١٦٠ .

أنوارها ، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ، ورفعت الوحشة الناشئة أظفارها ،  
أعدارها ، وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها ، وغضت الفئة المتعرضة أبصارها ،  
وأصلح الله تعالى أسرارها ، فجمعت الأوطان بالطاعة ، والتزمت نصيحة الدين  
بأقصى الاستطاعة ، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة ، وألقت إلى الإمامة الفلانية  
يَدَ التسليم والضراعة ، فتقبلت فيآتهم ، وأحمدت جيآتهم ، وأسعدت  
آمالهم ، وارتضيت أعمالهم ، وكملت مطالبهم ، وتمت مآربهم ، وقضيت  
حاجاتهم ، واستمعت مناجاتهم ، وألستهم بالدعاء قد انطلقت ، ووجهتهم في  
الخلوص قد صدقت ، وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت ، وأكفهم بهذه  
الإمامة الفلانية قد اعتلقت ، وكانت الإدالة في الوقت على عدوِّ الدين قد ظهرت  
وبرقت ، إلى أن قال : وكفَّت القدرة القاهرة ، والعزة الباهرة ، من عدوان  
الطاغية غوائل ، بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل ،  
ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود ،  
﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) دليلٌ على ما سوَّغ من  
الكرم والجلود ؛ انتهى المقصود منه ، وهو كلام بليغ ، ومن أراد جملة فعلية  
بأزهار الرياض .

[ من نظم ابن عاصم ]

ومن نظم ابن عاصم المذكور قوله مخاطباً شيخه قاضي الجماعة أبا القاسم  
ابن سراج ، وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة ، فظن أنه يستخبره عن سر من  
أسرار السلطان ، فأعدّه معترداً ، ولم يصدق الظن :

فديتك لا تسأل عن السرّ كاتباً      فتلقاه في حالٍ من الرشدِ عاطلِ  
وتضطره إمسا لحالة خائنِ      أمانتهُ أو خائضِ في الأباطلِ  
فلا فرّقَ عندي بين قاضٍ وكاتبِ      وشيِّ ذا بسرٍّ أو قضى ذا بباطلِ

[ قصيدة لابن الأزرق في مدحه ]

ومن بديع ما نُظِمَ في مَدْحِ الرَّئِيسِ أَبِي يَحْيَى ابْنِ عَاصِمِ الْمَذْكَورِ قَوْلُ الْعِلَامَةِ  
ابْنِ الْأَزْرَقِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

خَضَعْتُ لِمُعْطَفِهِ الْغُصُونُ الْمَيْسُ  
ذُو مَبْسَمٍ زَهْرُ الرَّبِيِّ فِي كَسْبِهِ  
وَمُورَدٌ مِنْ وَرْدِهِ أَوْ نَارِهِ  
فَالْوَرْدُ فِيهِ مِنْ دَمُوعِي يَرْتَوِي  
كَبَلْتُ مَحَاسِنَهُ فَقَدْ نَاضِرُ  
صَعْبُ التَّعْطَفِ بِالْغَرَامِ حَبِيَّتُهُ  
غَرَسَ التَّشَوُّقُ ثُمَّ أَغْرَى الْوَجْدَ بِي  
مَا كُنْتُ أَشْقَى لَوْ حَلَلْتُ بِجَنَّةِ  
الْحَاطِظُ وَرُضَابُهُ وَعِذَارُهُ  
وَلِيَالِ أَنْسٍ قَدْ أَمَنْتُ بَيْنَ مَنْ  
أَطْلَعَتْ شَمْسَ الرَّاحِ فِيهَا فَاهْتَدَى  
صَفْرَاءُ كَالْعَقِيَانِ فِي الْأَلْوَانِ لِأَنَّ  
صُبَّتْ شَقِيْقًا فَاسْتَحَالَتْ نَرْجَسًا  
وَحَبَابَهَا يَغْنَى بِأَسْنَى جَوْهَرٍ  
يُجَلِّي بِهَا لِلْغَمِّ مِنْهَا حِنْدِسًا  
حَتَّى إِذَا عَمَشَتْ مِرَاةُ الْبَدْرِ مِنْ  
نَادِيَتِهِ وَسَنَا الصَّبَاحِ مُحْصَحْصَ  
يَا مَطْلِعَ الْأَنْوَارِ زَهْرًا يَجْتَنِي  
بِكَ مَجْلِسُ الْأَنْسِ اطمأنَّ وَبَابِنِ عَا  
بَدْرٌ بِأَنْوَارِ الْهُدَى مَطْلِعُ

وَرَنَا فَهَامٌ بِمَقْلَتِيهِ الرَّجْسُ  
مُتَنَافِسٌ عَنْ طِيْبِهِ مُتَنَفِسُ  
يَتَنَعَّمُ الْقَلْبُ الْعَمِيدُ وَيَأْسُ  
وَالنَّارُ فِيهِ مِنْ ضُلُوعِي تُقْبَسُ  
وَلِوَاظِحُ نُجْلٌ وَثَغْرُ الْعَسِ  
فَالْحَبُّ يُحْنِي وَالتَّعْطَفُ يُحْبِسُ  
فَالْوَجْدُ يُغْرَى وَالتَّشَوُّقُ يُغْرَسُ  
مِنْ وَصْلِهِ تَحِيًّا لَدَيْهَا الْأَنْفَسُ  
حُورٌ بِهَا أَوْ كُوثَرٌ أَوْ سِنْدَسُ  
وَاشٍ يَنْمُ وَمَنْ رَقِيبٌ يَحْرَسُ  
عَاشٍ إِلَيْنَا فِي الدَّجَى وَمُغْلَسُ  
نَدْمَانٍ كَالشُّهْبَانِ مِنْهَا أَكْوَسُ  
فِي مَزْجِهَا فَمُورَدٌ وَمُورَسُ  
أَنْفَى لَغَمِّ الْمَعْدَمِينَ وَأَنْفَسُ  
قَمَرٌ عَلَيْهِ مِنَ الذُّوَابَةِ حِنْدَسُ  
صَبْحٌ بَدَا تَلْقَاهُ إِذْ يَتَنَفَسُ  
يَنْجَابُ عَنْهُ مِنَ الظَّلَامِ مَعْسَسُ  
وَمَشْعَعُ الصَّهْبَاءِ نَارًا تُلْمَسُ  
صِمِّ اطمأنَّ مِنَ الرِّيَاسَةِ مَجْلِسُ  
غَيْثُ بَأَشْتَاتِ الْهَدَى مُتَبَجِّسُ

حامى فلم نرتع لخطب يعترى  
 شيم مهذبة ، وعلم راسخ  
 لو كان شخصاً ذكره لدا على  
 ذاكم أبو يحيى به تحمى العلا  
 بيت على عمد الفخار مطنّب  
 خيم وعرس في حماه فكم حوى  
 إنا لنغدو هيماً فينيلنا  
 حتى أقمنا والأمانى منهضا  
 لم ندر قبل يراعيه وبنانه  
 هن اليراع بها يؤمن خائف  
 مهما انبرت فهي السهام يورى لها  
 يشفى بمأمله الشكى المعترى  
 فتقص حين تشق منها ألسن  
 من كل وشاء بأسرار النهى  
 قد جمع الأضداد في حركاته  
 عطشان ذورى ، ييس مثمر ،  
 لله من تلك اليراع جواذب  
 روضنا شماس القول في أوصافها  
 وإليها حللاً تشابه نسجها  
 واهناً بعيد باسم متهلل  
 وأحبس لواء الفخر موقوفاً فإن

ووفى فلم نخفل بدهر يبخص  
 ومكارم هتن ، ومجد أقدس  
 أعطافه من كل حمد ملتبس  
 وبه خلال الفخر طراً تحرس  
 مجد على متن السماك مؤسس  
 فيه المراد نخيم ومعرس  
 رياً ويوحشنا النوى فيؤنس  
 ت وابتسنا والزمان معبس  
 أن الدوابل بالغمائم تبجس  
 ويحاط مذعور ، ويغنى مفلس  
 وقع لأغراض البيان مقرطس  
 يحيا بمأمنه الحمام المؤيس  
 وتسير حين تقط منها أروس  
 درب بإظهار السرائر بهجس  
 فلذا اطراد فخاره لا يعكس  
 غضبان ذو صفح ، فصيح أخرس  
 للسحر منك كأنها المغنيطس  
 فهي التي راضت لنا ما يشمس  
 مثلي يفصلها ومثلك يلبس  
 وافك يجهر بالسرور ويهمس  
 الحمد موقوف عليك محبس

قلت : وعندي الآن شك في صاحب هذه القصيدة ، هل هو قاضي الجماعة  
 بغرناطة محمد بن الأزرق أو ابن الأزرق الثاني القائل فيما يكتب على السيف :

إن عمّت الأفقَ من نقع الوغى سَحْبٌ فَشِمٌ بها بارقاً من لمع إيماضي  
وإن نوتَ حركاتُ النصرِ أرضَ عِدَاً فليس للفتحِ إلاّ فعليَ الماضي  
والله سبحانه أعلم .

[ رسالة ابن عاصم إلى ابن تركاط ]

ومن إنشاء الرئيس ابن عاصم المذكور ما كتب به يخاطب الكاتب أبا القاسم  
ابن تركاط ، وهو : « القضاء - حفظ الله تعالى كمالك ، وأنجح آمالك - إذا  
لم يحطه العدلُ من كلا جانبيه سبيلٌ معوجٌ ، ومذهب لا يوافق عليه مُناظر  
ولا ينصره محتجٌ ، كما أنه إذا حاظه العدل جادة للنجاة ، وسببٌ في حصول  
رحمة الله تعالى المرتجاة ، وسوق لنفاق بضاعة العبد المُزجاة ، وأجمل العدل  
ما تحلى به في نفسه الحكم ، وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة  
والحكيم ، حتى يكون عن البغي رادعاً ، وبالقسط صادعاً ، ولأنف الأنفةِ  
من الإذعان للحق جادعاً ، وأنت أجلك الله تعالى على سعة اطلاعك ، وشدة ساعد  
قيامك بالطريقة واضطلاعك ، ممن لا يُنَبَّه على ما ينبغي ، ولا يرد على طلبته  
من الإنصاف المبتغي ، فلك في الطريقة القاضوية التبريز ، وأنت إذا كان غيرك  
الشبهَ الذهبُ الإبريز ، ولعلمية عدلك التوشية بالنزاهة والتطريز ، وليتني كنت  
لمظهرك الحكمي حاضراً ، وإعلام القضاء بأرائك المرتضاة محاضراً ، والوازع  
قد تمرّسَ بالخصوم ، وجعل المتصدي للإذن في محل المخصوم ، وأنت حفظك  
الله تعالى قد قمت من غلظ الحجاب بالمقام المعصوم ، ومثلت من سعة المنزل  
في الفضل والطول كالشهر المعصوم ، والباب قد سُد ، وداعي الشفاعة قد رُد ،  
والميقات للإذن قد حُد ، ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشد ، حتى إذا قضي  
الواجب ، وأذن في دخول الخصمين الحاجب ، وكبح السابقين إلى الحد الذي

لا يَعْدُونَهُ ، وحفز<sup>١</sup> إيماءه مَنْ تَعَدَاهُ أو وقف دونه ، وقد حصل باللحظ واللفظ التساوي ، وأنتج المطالب الأربعة هذا اللازم المُساوي ، ومجلسك قد رجح وقاره برَضْوَى ، ومجتلاك قد فضح نوره البدر الأضواء ، وقد امتزت عن سواك من القضاة بمراسم لا تليق بجملتهم معارفها ، وتخصّصت عنهم بملايس تعج عجيباً من جذامهم مَطَارِفُهَا<sup>٢</sup> ، بحيث تحدّ لخلع النعلين حدّاً لا يتجاوز طُوَاهُ ، وتسد في بعض الأوقات الباب سدّاً لا تُرْقِعُ بالمحاجر كُوَاهُ<sup>٣</sup> ، وتفصل بين الحصين أحياناً بالنية<sup>٤</sup> دون الكلام ولكل امرئ ما نَوَاهُ .

« وهذه أعانك الله تعالى مكملات من العدل في الحكم وقف عياض دون تحقيق مناطها ، وأعيت ابن رُشدٍ فلم يهتد ببيانه ولا تحصيله لاستنباطها ، فما بال النازحة<sup>٥</sup> عنك حسّاً ومعنى ، النازلة من تقاضي دَيْنِكَ بمنزلة المطول المعنى ، المعتقلة من ملكة رفق بحيث أقصاها لاعج الشوق ، المعذبة من الصباية فيك بما شبَّ عَمَرُهُ عن الطوق ، تتنفس الصعداء مما تشاهده منك من مبتدعات الجور ، وتردد البكاء على ضياع ما استعار الحسن لصفاتها من النجد والغور ، وتقضي العجب ممّا تسمع من عدلك الذي لم تجتلّ لمحةً من نوره ، ومن حلمك الذي أشقاها<sup>٦</sup> فلم تحضر لدكة طُورِهِ ، وتستصوب أنظار النحاة في منع التهيئة والقطع في العامل ، وتستجلب اصطلاح العروضيين في المديد والبسيط دون الطويل والكمال ، فهلاًّ راجعت فيها النظر ، وأنجزت لها الوعد المنتظر ، وكففت من

١ ص : وأحفز ؛ ق : وأحقر .

٢ إشارة إلى قول الشاعرة :

شكا الخز من روح وأنكر ريحه وعجت صجيحاً من جذام المطارف

٣ من قول الشاعر : « ورقن الكوى بالمحاجر » وأصله قول المثقب العبيدي « وثقبن الوصاص للعيون » .

٤ ق ص : بالبينة .

٥ أخذ يتحدث هنا - بضمير المؤنث - عن رسالة لم يحفل القاضي برد جوابها .

٦ ص : أشقاها المجد .

عيونها دموعاً مستهلة ، واجتليت من جبينها الوضاح ما أحجل بدوراً مشرقة  
وأهلة ، ولم تحوجها إلى أن ينطق قرينها<sup>١</sup> الروحاني بالشعر على لسانها ولسانك ،  
ولم تضطرها في هذه المعاملة إلى ما لا ترتضيه من كفر إحسانك ، والعدر أظهر ،  
والبرهان أبهر ، وخلافك في العالم أشهر ، وأنت إن لم يكن ما يعصم الله تعالى منه  
لمقتضى الطبيعة أقهر .

« وقد أدرجتُ لك في طي هذا ما يصل إلى يدك ، وتلهج به في يومك وغدك ،  
منتظرة منك إطفاء الجوى بالجواب ، ومحو ما سبق من الخطأ بالخطاب ، إن شاء  
الله تعالى ، والله تعالى يصل سعادته ، ويحفظ مجادته ، ومعاد السلام من الشاكر  
الذاكر ابن عاصم وفقه الله تعالى في أوائل ذي الحجة عام خمسة وأربعين وثمانمائة »  
انتهى ، وهو مما لم أذكره في « أزهار الرياض » .

#### [ ظهير بتقديم ابن عاصم للنظر في أمور الفقهاء ]

ولنذكر هنا الظهير الذي جلبته فيها<sup>٢</sup> بتقديم المذكور للنظر في أمور الفقهاء  
وغيرهم ، ونصّه : هذا ظهير كريم إليه انتهت الظواهر شرفاً علياً ، وبه تقررت  
المآثر برهاناً جلياً ، وراقت المفاخر قلائد وجلياً ، وتميزت الأكابر الذين افتخرت  
بهم الأقلام والمحابر ، اختصاصاً مولوياً . فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت ،  
وتوالت المنشورات وتجددت ، أكبر<sup>٣</sup> مرسوم تم في الاعتقاد نظراً خطيراً ،  
وأحكم في التفويض أمراً كبيراً ، وأبرم في الاستخلاص عزماً أيّساً . اعتمد  
بمسطوره العزيز ، واختص<sup>٤</sup> بمنشوره الذي تلقاه اليُمنُّ بالتعزيز ، من لم يزل

١ قرينها : سقطت من ق .

٢ فيها : يعني في أزهار الرياض ؛ انظر ج : ١ ص : ١٧٢ .

٣ ق : أكرم .

٤ ق : واختبر .

بالتعظيم حقيقاً ، وبالإكبار خليقاً ، وبالإجلال حريراً . فهو شهير لم يزل في  
 الشهرة سابقاً ، هادٍ لم يزل بالهدى ناطقاً ، بليغ لم يزل بالبلاغة درياً ، عظيم  
 لم يزل في النفوس معظماً ، علم لم يزل في الأعلام مقدماً ، كريم لم يزل في الكرام  
 سنياً . اشتملت منه محافل الملك على العقد الثمين ، وحاتت به المشورة في الكنف  
 المحوط والحرم الأمين ، فكان في مشكاة الأمور هادياً ، وفي ميدان المرشد  
 جرياً . فإلى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص ، وإلى مرتبته تنتهي مراتب  
 الاختصاص ، فيمن حاز خصلاً ، وزين حَفلاً ، وشرف ندياً . واستكمل  
 همماً ، واستحمل قلماً ، واستخدم مشرفياً . فله ما أعلى قدر هذا الشرف ،  
 الجامع بين المتلد والمطرف<sup>١</sup> ، السابق في الفضل أمداً قصياً . الحال من الاصطفاء  
 مظهرأ ، الفارع من العلاء منبرأ ، الصاعد من العز كرسيأ . حاز الفضل لإرثاً  
 وتعصياً ، واستوفى الكمال حقاً ونصياً ، ثناء أرجه كالروض لو لم يكن  
 الروض ذابلاً وهدياً . نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلاً ، ومجد علوه كالسها  
 لو لم يكن السها خفياً . فما أشرف الملك الذي اصطفاه ، وكل له حق التقريب  
 ووفاه ، وأحلته قرارة التمكين ، ومن اختصاصه بالمكان المكين ، فسبق في  
 ميدان التفويض وشأى<sup>٢</sup> ، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى ، صادعاً بالحق  
 إماماً علماً ، موضحاً من الدين نهجاً أمماً ، هادياً من الواجب صراطاً سوياً . بانياً  
 للمجد صرحاً مُشيداً ، مشهراً للعدل قولاً مؤيداً ، مبرماً للخير سبباً قوياً . فالله  
 تعالى يصل لمقام هذا الملك الذي طلع في سمائه بدرأ دونه البدر ، وصدراً تلوذ  
 به الصدور ، سعداً لا تمطله الأيام في تقاضيه ، ونصراً يمضي به نصل الجهاد فلا  
 يزال ماضيه ، على الفتح مبنياً . ويوالي له عزاً يدود<sup>٣</sup> عن حرم الدين ويمنحه  
 تأييداً<sup>٣</sup> يصبح في أعناق الكفر حديث سيفه قطعياً .

١ ق : والطارف .

٢ الأزهار : وسما ؛ ق : وشاء .

٣ هكذا في الأزهار ؛ وفي ص : وخيفة وتأيداً ، واللفظتان على الرفع في ق .



أمر به مرسوماً عزيزاً لا تبلغ المرسومات إلى مداه ، ولا يبدي آثار الاختصاص مثل ما أبداه ، عبد الله أمير المسلمين محمد الغالب بالله أيد الله تعالى مقامه ، ونصر أعلامه ، وشكر إنعامه ، ويسر مرامه ، لإمام الأئمة وعلم الأعلام ، وعماد ذوي العقول والأحلام ، وبركة حملة السيوف والأقلام ، وقدوة رجال الدين وعلماء الإسلام ، الشيخ الفقيه أبي يحيى ابن كبير العلماء ، شهر العظماء ، حجة الأكاير والأعيان ، مصباح البلاغة والبيان ، قاضي القضاة وإمامهم ، أوجد الجليّة وطود شمامهم ، الشيخ الفقيه أبي بكر ابن عاصم أبقاه الله تعالى ، ومناطق الشكر له فصيحة اللسان ، ومواهب الملك به معهودة الإحسان ، وقلائد الأيادي منه متقلدة بجيد كل إنسان ، قد تقرر والمفاخر لا تُنسب إلا لبنيها ، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيد أركانها وبينها ، والكمال لا يُصفي شربه ، إلا لمن يؤمن سرّبه ، أن هذا العلم الكبير ، الذي لا يفي بوصفه التعبير ، علم بآثاره يقتدى ، وبأنظاره يهتدى ، وبإشارته يستشهد ، وبإدارته يسترشد ، إذ لا أمد علو إلا وقد تخطاه ، ولا مركب فضل إلا وقد تمطاه ، ولا شارقة هدى إلا وقد جلاها ، ولا لبة فخر إلا وقد حلّأها ، ولا نعمة إلا وقد أسداها ، ولا حرمة إلا وقد أبدأها ، لما له في دار الملك من الخصوصية العظمى ، والمكانة التي تسوغ النعمى ، والرتب التي تسمو العيون إلى مرتقاتها ، وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتلقاها ، حيث سر الملك مكتوم ، وقرطاسه محتوم ، وأمره محتوم ، والأقلام قد روضت الطروس وهي ذاوية ، وقسمت الأرزاق وهي طاوية ، شقت ألسنتها فنطقت ، وقطت أرجلها فسبقت ، وبيست فأثمرت إنعاماً ، ونكست فأظهرت قواماً ، وخطت فأعطت ، وكتبت فوهبت ، ومشقت فرفقت ، وأبرمت فأنعمت ، فكم يسرت الجبر ،

١ ص : على (علا) .

٢ ق : وقطت .

وعفرت الهزبر ، وشئتت المسامع ، وكيفت المطامع ، وأقلت فيما ارتفع  
من المواضع ، وأحلت لما امتنع من المراضع ، فهي تنجز النعم ، وتحجز النقم ،  
وتبث المذاهب ، وتحث المواهب ، وتروض المراد ، وتنهض المراد ، وتحرس  
الأكناف ، وتغرس الأشراف ، مصيخة لنداء هذا العماد الأعلى ، طامحة لمكانه  
الذي سما واستعلى ، فيما يملئ عليها من البيان الذي يقر له بالفضل ، الملك الضليل ،  
ويشهد له بالإحسان ، لسان حسان ، ويحكم له بيري القوس<sup>١</sup> ، حبيب بن أوس ،  
ويهم بما من الأساليب عنده ، شاعر كنده ، ويستمر سحبه الشرة ، فصيح  
المعرة ، إلى منثور تزيل الفقر فقرة ، وتدرّ الرزق درره ، لو أنهبي إلى قس  
إياد لشكر في الصنعة أبياده ، واستمر سحبه وغواديه ، أو بلغ إلى سحبان  
لسحره ، وما فارقه عشيته ولا سحره ، ولو رآه الصابي لأبدى إليه من صوته  
ما أبدى ، أو سمعه ابن عباد لكان له عبدا ، أو بلغ بديع الزمان لهجر بدائه ،  
واستنزر بضائه ، أو أحف به البستي لاتخذه بستانا ، أو عرض على عبد الحميد  
لأحمد من صوبه هتانا ، فأعظم به من عال لا ترقى ثنيته ، ولا تحاز مزيته ،  
ولا يرجم أفته ، ولا يكتم حقه ، ولا ينام له عن اكتساب الحمد ناظر ، ولا  
ينقاس به في الفضل مناظر ، وهل تقاس الأجادل بالبعث ، أو الحقائق بالأضغاث ؟  
ألا وإن بيته هو البيت الذي طلع في أفته كل كوكب وقاد ، ممن وشج  
به للعلوم اتقاء وانتقاد ، وترامى به للمدارك ذكاء وانتقاد ، فأعظم بهم أعلاماً  
وصدوراً ، وأهلاً وبدوراً ، خلدت ذكرهم الدواوين المسطرة ، وسرت في  
محامدهم الأنفاس المعطرة ، إلى أن نشأ في سمائهم هذا الأوح ، الذي شهرة  
فضله لا تجحد ، فكان قمرهم الأزهر ، ونيرهم الأظهر ، ووسيلة عقدهم  
الأنفس ، ونتيجة مجدهم الأقدس ، فأبعد في المناقب أماده ، ورفع الفخر وأقام  
عماده ، وبني على تلك الأساس المشيدة ، وجرى لإدراك تلك الغايات البعيدة ،

١ ق : براء النفوس .

فسبق وجلتى ، وشتف بذكره المسامع وحلتى ، ورفع المشكل ببيانه ، وحرر  
 الملتبس ببرهانه ، إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أفاقه الأصعد<sup>١</sup> ، وبوأه عزيز  
 ذلك المقعد ، فشرّف الخطّة ، وأخذ على الأيدي المشتطة ، لا يراقب إلا ربّه ،  
 ولا يضمّر إلا العدل ووجهه ، والمجلس السلطاني أسماه الله تعالى يختصه بنفسه ،  
 ويفرغ عليه من حلال الاصطفاء ولبسه ، ويستمطر فوائده ، ويجرب بأنظاره  
 حقوق الملك وعوائده ، فكان بين يديه حكماً مَقْسِطاً ، ومقسماً لحظوظ  
 الإنعام مَقْسِطاً ، إلى أن خصّه بالكتابة المولوية ، ورأى له ذلك حق الأولوية ،  
 إذ كان والده المقدس نعمّ الله تعالى ثراه ، ومنحه السعادة في أخراه ، مشرّف ذلك  
 الديوان ، ومعلي ذلك الإيوان ، يجبر رقاغ الملك فتروق ، وتلوح كالشمس  
 عند الشروق ، فحلّ ابنه هذا<sup>٢</sup> الكبير شرفاً ، الشهير سلفاً ، مرتبته التي سمّت ،  
 وافترت به عن السعد وابتسمت ، فسحبت به للشرف مطارف ، وأحرزت به  
 من الفخر التالد والطارف ، فهو اليوم في وجهها غرّة ، وفي عينها قرّة ، والله  
 هو في ملاحظة الحقائق ورعيها ، وسمع الحجج ووعيها ، فلقد فضل بذلك أهل  
 الاختصاص ، وسبقهم في تبين ما يشكل منها وما يعتاص ، إذ المشكلة معه  
 جليلة الأغراض ، والآراء لديه آمنة من مأخذ الاعتراض ، فكم رتبة عمرها  
 بدويها ، فأكسبها تشريفاً وتنويها ، وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن ، ومن عبّر  
 منهم وقطن ، مع أقدارهم السامية ، ومعاليهم التي هي للزهر مسامية ، إنتما  
 رقتهم وساطته التي أحسنت ، وزينت بهم المجالس وحسنت ، فيه<sup>٣</sup> أمضوا  
 أحكامهم ، وأعملوا في الأباطيل احتكامهم ، وكتبوا الرسوم ، وكتبوا  
 الخصوم ، وحلوا دسّت القضاء ، وسلوا سيف المضاء ، وفي زمانه تخرّجوا ،

١ ق : الأسد .

٢ ص : ذلك .

٣ كذا في ص ق ؛ وفي الأزهار : فيه .

وفي بستانه تأرجوا ، ومن خلقه اكتسبوا ، وإلى طرقة انتسبوا ، وعلى موارد  
حاموا ، وحول فوائده قاموا ، وبتعريفه عرفوا ، وبتشريفه شرفوا ، وبصفاته  
كلفوا ، وبعرفاته وقفوا ، فأمنوا مع انسكاب سحب إفادته من الجذب ،  
وقاموا بذلك الفرض بسبب ذلك التدب ، وهل العلماء وإن عمّت فوائدهم ،  
وانتظمت بيجاد الأذهان فرائدهم ، إلا من أنواره مستمدون ، وإلى الاستفادة  
من أنظاره ممتدون ، وببركاته معتدون ، وبأسبابه مشتدون ، فيه اجتنبت من  
أفنان المنابر ثمراتهم ، وتأرجت في روضات المعارف زهراتهم ، وبه عمروا  
الحلق ، واثلق من أنوارهم ما اثلق ، إذ كل من اصطناعه محسوب ، وإلى  
بركته منسوب ، فهو بدرهم الأهدى ، وغيثهم الأجدى ، وعقدهم المقتنى ،  
وروضهم المجتنى ، وبدر منازلهم ، وصدر محافظهم .

وعلى ما أعلى المقام المولوي من مكانه ، وقضى به من استمكانه ، واعتمد  
من إبراهيم ، وأبرم من اعتماده ، ومهد من لإكرامه ، وكرم من مهاده ، واختص  
من علاه ، وأعلى من اختصاصه ، واستخلص من حلاه ، وحلا من استخلاصه ،  
ووفى من تكريمه ، وكرم من وفائه ، واصطفى من مجده ، ومجد من اصطفاؤه ،  
وقدم من براعته ، وحكم من يراعته ، وشقق من كتابته ، وأنطق من خطابته ،  
وسجل من أنظاره ، وعجل من اختياره ، فذكا ذكره ، وسطا سطره ، وأمعن  
معناه ، وأغنى مغناه ، أشار أيده الله تعالى باستئناف خصوصيته وتجديدها ،  
وإثبات مقاماته وتجديدها ، لتعرف تلك الحدود فلا تتخطى ، وتكبر تلك  
المراتب فلا تستعطي ، فأصدر له شكر الله تعالى لإصداره ، وعمر بالنصر داره ،  
هذا المنشور الذي تأرج بمحامده نشره ، وتضمن من مناقبه البديع فراق  
طيه ونشره ، وغدا وفرائد المآثر لديه موجدة مكونة ، وأصبح للمفاخر مالكا  
لما أتى به مدونه ، وخصه فيه بالنظر المطلق الشروط ، الملازم للتفويض ملازمة

١ ق : مكنونه ؛ ص : مكنونه .

الشرط للمشروط ، المستكمل الفروع والأصول ، المستوفي الأجناس والفصول ، في الأمور التي تختص بأعلام القضاة الأكابر ، وكتّاب القضاة ذوي الأقالام والمحابر ، وشيوخ العلم وخطباء المنابر ، وسائر أرباب الأقالام القاطن منهم والعاير ، بالحضرة العلية ، وجميع البلاد النصرية ، تولى الله تعالى جميع ذلك بمعهود ستره ، ووصل لديه ما تعود من شفع اللطف ووتره ، يحوط مراتبهم التي قُطفت من روضاتها ثمرات الحكم وجُنِيَت ، ويراعي أمورهم التي أقيمت على العوائد وبُنِيَت ، وحقوقهم التي حُفِظت لهم في المجالس السلطانية ورُعيَت ، ويحل كل واحد منهم في منزلته التي تليق ، ومرتبته التي هو بها خَلِيق ، على ما يقتضي ما يعلم من أدواتهم ، ويخبر من تباين ذواتهم ، ويرشّح كل واحد إلى ما استحقّه ، ويؤتي كل ذي حق حقه ، اعتماداً على أغراضه التي عدلت ، وصدحت على أفنانها من الأفواه طيور الشكر وهدّكت ، واستناداً في ذلك إلى آرائه ، وتفويضاً له في هذا الشأن بين خلصاء الملك وظهّرائه ، وذلك على مقتضى ما كان عليه أعلام الرياسة الذين سبقوا ، وانتهضوا بهمهم واستبقوا ، كالشيخ الرئيس الصالح أبي الحسن ابن الجيّاب ، والشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب ، رحمهما الله تعالى .

فليقم أبقاه الله تعالى بهذه الأعمال التي سمّت واعتزّت ، ومالت بها أعطاف العدل واهتزّت ، وسار بها الخبر حيث السرى ، وصار بها الحق مشدود العرى ، وعلى جميع القضاة الأمضياء ، والعلماء الأرضياء ، والخطباء الأولياء ، والمقرئين الأزكياء ، وحملة الأقالام الأحظياء ، أن يعتمدوا هذا الولي العماد في كل ما يرجع إلى عوائدهم ، ويختص في دار الملك من مراتبهم وفوائدهم ، وما يتعلّق بولاياتهم وأمنياتهم ، ويبلق بمقاصدهم ونياتهم ، فهو الذي يسوغهم المشارب ، ويبلغهم المآرب ، ويستقبل العلي بالعلي ، والعاطل بالخلي ، والمشكل بالجلي ، والفرق بالتاج ، والمقدمة بالإنتاج ، وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد أقرهم على ولاياتهم وأبقاهم ، ولقاهم من حفظ المراتب مارقاهم ، فليجربوا

على ما هم بسبيله ، وليهتدوا بمرشد هذا الاعتناء ودليله ، وكتب في صفر عام  
سبعة وخمسين وثمانمائة ؛ انتهى .

قلت : وإنما أتيت به لوجوه : أحدها ما يتعلق بلسان الدين إذ وقعت  
الإشارة إلى مرتبته في آخره ، والثاني ما اشتمل عليه من الإنشاء الغريب ، والثالث  
معرفة حال الرئيس أبي يحيى ابن عاصم وتمكّنه من الرياسة ، لأننا بنينا هذا الكتاب  
على ذكر ما يناسبه من أبناء أهل المغرب ، لكون أهل هذه البلاد المشرقية ليس  
لهم بها عناية ، والرابع أن بعض أكابر شيوختنا ممن ألف في طبقات المالكية  
لما عرّف بأبي يحيى ذكره في نحو أسطر عشرة ، وقال : هذا الذي حضرني من  
التعريف به ، والخامس أن ابن عاصم المذكور كما قاله الوادي أشي وغيره كان  
يدعى في الأندلس بابن الخطيب الثاني ، ويعنون بذلك البلاغة والبراعة والرياسة  
والسياسة .

### رجع إلى أخبار لسان الدين فنقول :

وأما كتب التأليف باسم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فقد قال في «الإحاطة» لما  
أجرى ذكر ذلك ما صورته: وأما ما رفع إليّ من الموضوعات العلمية ، والوسائل  
الأدبية ، والرسائل الإخوانية ، لما أقامني الملك صنماً يعتمد ، وخيالاً إليه  
يستند ، صادرة عن الأعلام ، وحملة الأعلام ، ورؤساء النثر والنظام ، فجَمَّ  
يضيق عنه الإحصاء ، ويعجز عن ضم نشره الاستقصاء ، وربما تضمّن هذا الكتاب  
كتاب «الإحاطة» منه كثيراً ، ومنظوماً كثيراً ، ودرّاً كثيراً ، جرى في أثناء الأسماء ،  
وانتمى إلى الإيجاد أكرم الانتماء ، غفر الله تعالى لي ولقائله ، فما كان أولاني  
ولياه بستر زوره ، وإغراء الإضراب بغروره ، فأهون بما لا يتفجع ، وإن ارتفع  
الكلم الطيب لا يرفع ، اللهم تجاوز عنا بفضلك وكرمك ؛ انتهى .

وقد تقدم في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي القاسي  
نزيل مالقة وصاحب التأليف العديدة أنه ألف تقييداً على قواعد الإمام القاضي

أبي الفضل عياض رحمه الله تعالى برسم ولد لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله  
تعالى ، وكذلك غير واحد من أهل عصره ، قصدوه بالنظم والنثر ، وهي سنة  
الله سبحانه وتعالى في عباده ، إذ السلطان سوق يُجَلَّب إليها ما ينفق فيها ، والله  
سبحانه وتعالى وليُّ المكافأة ، لا ربَّ غيره ، ولا مأمول سواه<sup>١</sup> ؛ انتهى .

---

١ ص : ولا . . . سواء : سقطت من ص ؛ وإلى هنا انتهت نسخة ص ، وفي آخرها « انتهى الجزء  
الثالث من نفع الطيب تاريخ الإمام العالم العلامة أحمد المقرئ المالكي » .

## الباب الخامس

في إيراد جملة من نثره الذي عبّق أريجُ البلاغة من نفحاته ، ونظّمه الذي تألّق نور البراعة من لمحاته وصفحاته ، وما يتصل به من أزجاله وموشحاته ، ومناسبات رائقة في فنون الأدب ومصطلحاته .

اعلم - سلك الله تعالى بي وبك أوضح محجّة ، وجعلنا ممّن انتحى صوب الصواب ونهجه - أن هذا الباب ، هو المقصود بتأليف هذا الكتاب ، وغيره كالتبّع له ، وها أنا أذكر ما حضرني الآن من بنات أفكار لسان الدين التي هي بالمحاسن متقنة ، وللبدائع متعلة ، فأقول :

أما نثره فهو البحر الزخار ، بل الدر الذي به الافتخار ، وناهيك أن كتبه الآن في المغرب قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يصلّون ، وسوق دررهم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم ويحلون ، وخصوصاً كتابه «ريحانة الكتاب ونجعة المتاب» فإنه ، وإن تعددت مجلداته ، على فن الإنشاء والكتابة مقصور ، وقد اشتمل على السلطانيات وغيرها ومخاطباته لأهل المشرق والمغرب على لسان ملوك الأندلس الذين علّم بلاغتهم منصور ، وقد تركت نسختي منه في المغرب ، ولو حضرني لكفتني عن هذه الفوائد التي أتعبت خاطرني في جمعها من مقيداتي التي صحبتها معي ، وهي قليلة .

وقد مرّ في هذا الكتاب جملة من نثره ونظمه ، والذي نجلبه هنا زيادة على

ما سبق .

وقال رحمه الله تعالى في «الإحاطة» عند ترجمة نثره ما صورته : وأما النثر



فبحر زاخر ، ومدى طوله مستاخر ، وإنك لم يفخر عليك كفاخر ، وقد مرّ  
منه في تضاعيف هذا الديوان كثير ، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مُشير ؛ انتهى .

١ - فمن ذلك قوله في غرض التحميد ممّا افتتح به الكتاب في التاريخ المتضمن  
دولة بني نصر<sup>١</sup> : « الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك ، ودول الأملاك كأنجم  
الأحلاك ، تطلعها من المشارق نيرة ، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة ، ثم تذهب  
بها غائرة متغيرة ، السائق<sup>٢</sup> عَجَل ، وطبع الوجود مرتجِل ، والحِي من الموت  
وجِل ، والدهر لا معتذر ولا خَجَل ، بينما ترى الدّست عظيم الزحام ،  
والموكب شديد الالتحام ، والوزعة تشير ، والأبواب يقرعها البشير ، والسرور  
قد شمل الأهل والعشير ، والأطراف تلمها الأشراف ، والطاعة يشهرها الاعتراف ،  
والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف ، والرايات تُعقّد ، والأعطيات  
تُنقّد ، إذ رأيت الأبواب مهجورة ، والدسوت لا مؤمّلة ولا مزورة ، والحركات  
قد سكنت ، وأيدي الإدالة قد تمكنت ، فكأنما لم يسمر سامر ، ولا نهى  
ناه ولا أمر أمر ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ﴾  
(الكهف : ٤٥) .

٢ - ومن نثره قوله في استدعاء إمداد وحضّ على الجهاد : « أيها الناس  
رحمكم الله تعالى ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قضمه الله تعالى  
ساحتهم ، ورام الكفر خذله الله تعالى استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت  
إليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى ، وأنتم  
المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم الغريب فلا  
تحضروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد فقد تعين ،

١ يريد كتاب اللحة البدرية ، انظر مقدمته ص : ٩ .

٢ اللحة : السابق .

الجارّ الجارّ فقد قرر الشرع حقه وبيّن ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جدّدوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، واسوا بأنفسكم وأمواكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تنادىكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله سبحانه يقول فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم ﴾ (الصف : ١٠) ومما صح عنه قوله « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرّمهما الله على النار » لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا » ، أدركوا رمقَ الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته ، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده :

ماذا يكون جوابكم لنييكم وطريقُ هذا العذرِ غير ممهدٍ  
 إن قال لم فرطتم في أمي وتركتموهم للعدو المعتدي  
 تالله لو أنّ العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذلك السيّد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحميّة في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبابك وأوليائك ، يا خير الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً . انتهى .

٣ - ومن ذلك قوله في صداق أمره السلطان بإنشائه لكبير الشرفاء بفاس في فصل منه تضمن ذكر أوليتهم واستيطانهم لتلك المدينة ما صورته :  
 « فضرب بفاس - عمرها الله تعالى - حلته ، وأورث منها بالبقعة الزكية

الرفيعة سراته وجليته ، فنبؤأوا من ذلك الغور ، المعشب الروض الأرج التور ،  
هالة سعد ، وأفق برق ورعد ، ودست وعيد ووعد ، يتناقلون رُتَبَ الشرف  
الصريح كابرآ عن كابر ، ويروي مسلسل المجد عن بيتهم الرفيع الجد كل حريص  
على عوالي المعالي مئابِر :

فالكفُّ عن صلّةٍ ، والأذن عن حسنٍ والعينُ عن قرّةٍ ، والقلبُ عن جابرٍ  
حيث الأنوف الثَّمُّ والوجوه الغرُّ ، والعزة القعساء والنسب الحر ، والقواطم في  
صدف الصون من لدن الكون كأنهن الدر ، آل رسول الله ونعم الآل ، والموارد  
الصادقة إذا كذب الآل ، ومن إذا لم يُصَلِّ عليهم في الصلاة حَيِّطَتْ منها الأعمال ،  
طلبيّة الراكب ، ونشدة الطالب ، وسراة لؤي بن غالب ، وملتقى نور الله  
تعالى ما بين فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب . انتهى ، وهو طويل لم يحضرنى  
منه الآن سوى ما ذكرته .

٤ - ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى : كتبت إلى بعض السادة الفضلاء ،  
وقد بلغني مرضه أيام كان الانزعاج عن الأندلس إلى الإيالة المرينية<sup>١</sup> :  
« وردت علي من فتني التي إليها في معركة الدهر أتميز ، وبفصل فضلها في  
الأقدار المشتركة أتميز ، سحابة سرت وساءت ، وبلغت من القصدين<sup>٢</sup> ما  
شاءت ، أطلع بها سيدي صنيعه وده من شكواه على كل عابث في السويداء ، موجب  
اقتحام البيداء ، مضرم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل ، ولا من  
إفصاح لسانه إلا الأنين والأليل ، ونوى مدت لغير ضرورة يرضاها الخليل ،  
فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع في تقبل أعماله ،  
أو أمل ضويق في فذلكة آماله ، لكني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ،  
وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطَّ يبهر والحمد لله تعالى ويروق ،

١ مر في الباب الرابع ص : ٤٣ أن هذا النص من رسالة خاطب بها أبا القاسم ابن رضوان .

٢ ق : القصد .

واللفظ الحسن تومض في حبره للمعنى الأصيل بروق ، فقلت : ارتفع الوصَب ، وردَّ من الصحة المغتصَب ، وآلة الحس والحركة هي العصب ، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سليله ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى ذلك فبليد احتياطي لا يقنعه إلاّ الشرح ، فبه يسكن الظمأ البرح ، وعُذراً عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزندُ القلق في مثلها أورى ، والشفيق بسوء الظن مُغرى ، والسلام .

٥ - ومن نثر لسان الدين ما ذكره في «الإحاطة» في ترجمة أبي عبد الله الشُّدَيْد وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري الجبائي الأصل ثم المالقي إذ قال ما صورته<sup>١</sup>:

« جملة جمال<sup>٢</sup> من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله ، بلبل دَوْح السبع المثاني ، وماشطة عروس أبي الفرج ابن الجوزي ، وآية صُقْعُه ونسيج وحده في حسن الصوت وطيب النغمة ، اقتحم لذلك دسوت الملوك ، وجر أذيال الشهرة<sup>٣</sup> ، عذب الفكاهة ، ظريف المجالسة ، قادراً على المحاكاة ، متسوراً حمى الوقار ، مليئاً داعي الانبساط ، قُلد شهادة الديوان بمالقة فكان مُغار حَبْل الأمانة ، شامخ مارن النزاهة ، لوحاً للألقاب ، وعزّزت ولايته ببعض الألقاب النبيهة ، وهو الآن الناظر في أمور الحِسْبَة ببلده ، ولذلك خاطبته برقعة أداعبه بها وأشير إلى أصداده بما نصه :

يا أيها المحتسبُ الجزلُ ومن لديه الجدُّ والهزلُ  
يهنيك والشكرُ لمولى الورى ولايةٌ ليس لها عزلُ

كتبت أيها المحتسب ، المتمي إلى النزاهة المنتسب ، أهنيك ببلوغ تمنيك ، وأحذرك

١ الإحاطة ، الورقة : ١٢ .

٢ الإحاطة : مجموع خلال .

٣ الإحاطة : الصحة .

من طمع نفس بالغرور تمنيك ، فكأنني بك وقد طافت بركابك الباعة ، ولزم  
أمرك السمع والطاعة ، وارتفعت في مصانعتك الطماعة ، وأخذت أهل الريب  
بغته كما تقوم الساعة ، ونهضت تقعد وتقيم ، وسطوتك الريح العقيم ، وبين  
يديك القسطاس المستقيم ، ولا بد من شرك يُنصب ، وجماعة على ذي جاه تعصب<sup>١</sup> ،  
ودالة يمت بها الجناب الأخصب ، فإن غضضت طرفك ، أمنت على الولاية  
صرفك ، وإن ملأت ظرفك<sup>٢</sup> ، رحلت عنها حرفك ، وإن كففت فيها كفك ،  
حفك العز فيمن حفك ، فكن لقالبي المجبنة قالياً ، ولحوت السلة سالياً ، وأبد  
لدقيق الحواري زهد حواري ، وازهد فيما بأيدي الناس من العواري ، وسر  
في اجتناب الحلواء ، على السبيل السواء ، وارفض في الشواء ، دواعي الأهواء<sup>٣</sup> ،  
وكن على الهراس<sup>٤</sup> وصاحب ثريد الراس شديد المراس ، وثب على طبيخ الأعراس  
ليثاً مرهوب الافتراس ، وأدب أطفال الفسوق في السوق ، لا سيما من كان قبل  
البلوغ والبسوق ، وصمم على استخراج الحقوق ، والناس أصناف فمنهم خسيس  
يطمع منك في أكلة ، ومُستعد عليك بوكرة أو ركلة ، وحاسد في مطية تُركب  
وعطية تُسكب ، فاخفض للحاسد جناحك ، وسدّد إلى حربه رماحك ، وأشبع  
الحسيس منهم مرقه فإنه حنق ، ودُس له فيها عظماً لعله يخنق ، واحفر لشريرهم  
حفرة عميقة ، فإنه العدو حقيقة ، حتى إذا حصل ، وعلمت أن وقت الانتصار  
قد اتصل ، فأوقع وأوجع ولا ترجع ، وأولياءه من الشياطين<sup>٥</sup> فافجع ، والحق<sup>٥</sup>  
أقوى ، وأن تعفو أقرب للتقوى ، سدّدك الله تعالى إلى غرض التوفيق ، وأعلّقك

١ الإحاطة : تتصّب .

٢ ملأ ظرفه : كناية عن قبول الهدية والرشا .

٣ الإحاطة : وارفض في الشوا دواعي الهوى .

٤ الهراس : صانع الهريسة .

٥ الإحاطة : من حزب الشيطان .

من الحق بالسبب الوثيق ، وجعل قدومك مقروناً برخص اللحم والزيت والدقيق « ؛  
انتهى .

٦ - ومما كتب به لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي بن موسى  
ابن رحو بن عبد الله بن عبد الحق من مدينة سلا ما نصه :

« يا جملةَ الفضلِ والوفاءِ ما بمعاليك منْ خَفَاءِ  
عندي بالودِّ فيكَ عقدٌ صَحَّفَهُ الدَّهْرُ باكتفاءِ  
ما كنتُ أقضي حلاكَ حقاً لو جئتُ مدحاً بكلِّ فاءِ  
فأولِّ وجهَ القبولِ عذري وحسبك<sup>١</sup> الشكُّ في صفاءِ

سيدي الذي هو فصل جنسه ، ومزية يومه على أمسه ، فإن افتخر الدين من أهلك  
ببدره افتخر منك بشمسه ، رحلت على المنشل والقرارة ، ومحل الصبوة والفرارة ،  
فلم تتعلق نفسي بذخيرة ، ولا عهد جيرة خيرة<sup>٢</sup> ، كتعلقها بتلك الذات التي  
لطفت لطافة الراح ، واشتملت بالمجد الصُّراح ، شفقة أن تصيبها معرة والله تعالى  
يقبها ، ويحفظها ويبقيها ، إذ الفضائل في الأزمان الرذلة غوائل ، والضد عن ضده  
منحرف بالطبع ومائل ، فلما تعرفت خلاص سيدي من ذلك الوطن ، وإلقاءه  
وراء الفرضة<sup>٣</sup> بالعطن ، لم تبق لي تعلية ، ولا أحرصتني له علة ، ولا أوتي جمعي  
من قلة ، فكتبت أهنيء نفسي الثانية بعد هناء نفسي الأولى ، وأعترف للزمان  
باليد الطولى ، فالحمد لله الذي جمع الشمل بعد شتاته ، وأحيا الأنس بعد مماته ،  
سبحانه لا مبدل لكلماته ، وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدي ونصيبه ، فلا  
يستطيع حادث أن يصيبه ، وأنا أخرج له عن بث كمين ، ونصح أنا به قمين ،

١ ق : وجنب .

٢ خيرة : سقطت من ق .

٣ ق : العرصة .

بعد أن أسبرَ غوره ، وأحبرَ طوره ، وأرصد دوره ، فإن كان له في التشريق أمل ، وفي ركب الحجاز ناقة وجمل ، والرأي فيه قد نجحت منه نية وعمل ، فقد غني عن عرف البقرات ، بأزكى الثمرات ، وأطفأ هذه الجمرات ، برمي الجمرات ، وتأنس بوصل الشرى ووصل السراة ، وأنا به إن رضيني أرضى مُرافق ، ولواء عزي به خافق ، وإن كان على السكون بناؤه ، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه ، فأمرٌ له ما بعده ، والله يحفظ من الغير سعده ، والحق أن تحذف الأبهة وتختصر ، ويحفظ اللسان ويغضّ البصر ، وينخرط في الغمار ، ويخلّي عن المضمار ، ويجعل من المحذور مداخلة من لا خلاق له ، ممن لا يقبل الله تعالى قوله ولا عمله ، فلا يكتم سرّاً ، ولا يتطوق من الرجولة زراً ، ويرفض زمام السلامة<sup>١</sup> ، وترك العلامة على النجاة علامة ، وأما حالي فكما علمتم مُلّازم كين<sup>٢</sup> ، ومهبط تجربة وسن<sup>٣</sup> ، أزجي الأيام ، وأروم بعد التفرق الالتئام ، خالي اليد ، مليء القلب والخلد ، بفضل الواحد الصمد ، عامل على الرحلة الحجازية التي اختارها لكم ولنفسي ، وأصل في التماس الإعانة عليها يومي بأمني ، أوجب ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من ود قررته الأيام والشهور ، والخلوص المشهور ، وما أطلت في شيء عند قدومي على هذا الباب الكريم إطالتي فيما يختص بكم من موالاته ، وبذل مجهود القول والعمل في مرضاته ، وأما ذكركم في هذه الأوضاع فهو ممّا يقر عين المجادة ، والوظيفة التي ينافس فيها أولو السيادة ، والله يصل بقاءكم ، وييسر لقاءكم ، والسلام « انتهى .

٧ - ومن نثر لسان الدين ما أثبتته في « الإحاطة » في ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ الذي تكرر نقلنا منه في هذا التأليف :  
ولنذكر الترجمة بجملتها فنقول : قال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » ما نصه : « عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن

١ ق : الصعبة زمان السلامة .

إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نبهاء ثوار الأندلس ، ويُنسب سلفهم إلى وائل بن حجر ، وحاله عند القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة ، انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك ، فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين محمد بن الحسن ، وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة ، وتصرف جدُّ المترجم به في القيادة . وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصي الزي ، عالي الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوي الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مغرَى بالتجلة ، جواد حسن العشرة ، مبدول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رعي خلال الأصاله ، مفخر من مفاخر التحوم المغربية . قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال ، والعربية على المقرء الزواوي وغيره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن المحدث أبي عبد الله ابن جابر الوادي آشي ، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله ابن عبد السلام ، وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطي ، والرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي ، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الآبلي وانفع به ، انصرف من إفريقية منشئه بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة ، وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة ، عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، وعرف فضله ، وخطبه السلطان مُنْفَقُ سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان ، واستحضره بمجلس المذاكرة فعرف حقه وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ، ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التأني ، وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك ، فأغروا به

١ ق : واستقدمه واستحضره .



السلطان إغراء عَصَدَه ما جُبِل عليه عهدئذٍ من إغفال التحفظ ممّا يريب لديه ، فأصابته شدة تخلصه منها أجله<sup>١</sup> ، كانت مغربة في جفاء ذلك الملك وهناة جواره ، وإحدى العواذل لأولي الهوى في القول بفضله وعدم الخشوع وإهمال التوسل وإيادة المكسوب في سبيل النفقة والإرضاخ على زمن المحنة وجار المنزل الخشن ، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده ، فأعته قيّم الملك لحينه ، وأعادته إلى رسمه ، ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم ، وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حُظوته ، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات محرر السهام نبيه الرتبة ، إلى آخر أيامه . ولما ألت الدولة مقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر ، وله إليه وسيلة وفي حليه شركة وعنده حق ، رابه تقصيره عمّا ارتقى إليه أمله ، فساء ما بينهما بما آل إلى انفصاله عن الباب المريبي ، وورد على الأندلس في أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة ، واهتز له السلطان ، وأركب خاصته لتلقيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخر عنه بيراً ومؤاكلة ومراكبة ومطايبة وفكاهة .

٨ - وخاطبني لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرني الآن ، فأجبت عنها بقولي<sup>٢</sup> :

حللت حلول الغيث في البلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل  
 يمينا بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهدأ والكهل  
 لقد نشأت عندي للقياك غبطة<sup>٣</sup> تنسي اغتباطي بالشبية والأهل  
 أقسمت بمن حجت قريش لبيته ، وقبر صُرفت أزمة الأحياء لميته ، ونور ضُربت  
 الأمثال بمشكاته وزيتته ، لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمانة السنية ، والعارفة

١ ق : الأجل .

٢ أوردها ابن خلدون في التمرين : ٨٢ .

الوارفة ، واللطيفة المطيفة ، بين رجح الشباب يقطرُ ماء ويرفُ نماء ، ويغازل  
عيون الكواكب فضلاً عن الكواعب إشارة وإيماء ، بحيث لا الوخط يلمُ بسياج  
لمته ، أو يقدهح ذُبالةً في ظلمته ، أو يقوم حواريه في ملته ، من الأحابش وأمته ،  
وزمانه رَوْح وراح ، ومغدى في النعيم ومراح ، وقصف صراح ، ورقى وجراح ،  
وانتحاب واقتراح ، وصدور ما بها إلاّ انشراح ، ومسرات تردفها أفرح ، وبين  
قدومك خليع الرسن ، ممتعاً والحمد لله باليقظة والوسن ، محكماً في نسك الجنيد  
أو فتك الحسن ، ممتعاً بظرف المعارف ، مائلاً أكف الصيارف ، ماحياً بأنوار  
البراهين شبّه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن راقني<sup>١</sup> زمنه ، وأعياني ثمنه ،  
وأجرت سحائب دمي دمنه ، فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي ، وملّكي  
أزمة آرابي ، وغبطني بمائي وترابي ، ومألف أترابي ، وقد أغصني بلذيد شرابي ،  
ووقع على سطورهِ المعتبرة إضرابي ، وعجلتُ هذه مُعَبَّطَةً بمناخ المطية ،  
ومتهى الطية ، وملتقى السعود غير البطية ، وتسي الآمال الوثيرة الوطية ، فما  
شتت من نفوس عاطشة إلى ربّك ، متجملة بزيبك ، عاقلة خطي مهريّك ، ومولى  
مكارمه نشيدة أمثالك ، ومظان مثالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل  
مجدك في التخلف عن الإصحار<sup>٢</sup> ، لا بل اللقاء من وراء البحار ، والسلام .

٩ - ولما استقر بالحضرة جرت بيني وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه ،  
وأوضح الأدب مذاهبه ، فمن ذلك ما خاطبته به وقد تسرّى جارية رومية اسمها  
هند صبيحة الابتاء بها :

أوصيك بالشيخ أبي بكره<sup>١</sup>      لا تأمنن<sup>٢</sup> في حالة مكره<sup>٣</sup>  
واجتنب الشك إذا جئته<sup>٤</sup>      جنبك الرحمن ما تكره<sup>٥</sup>

١ ق والتعريف : شافعي .

٢ الإصحار : الخروج لتلقيه خارج البلد .

سيدي لا زلت تتصف بالوالج ، بين الخلاخل والدمالج ، وتركض فوقها ركض الهمالج ، أخبرني كيف كانت الحال ، وهل حطت بالقاع من خير البقاع الرحال ، وأحكم بمرود المراودة الاكتحال ، وارتفع بالسقيا الإجمال ، وصح الانتحال ، وحصحص الحق وذهب المحال ، وقد طولعت بكل بشرى وبشر ، وزفت هند منك إلى بشر ، فله من عشية ، تمتعت من الربيع بفرش مؤشية ، وأبدلت منها أي آساد وحشية ، وقد أقبل ظبي الكناس ، من الديماس ، ومطوق الحمام ، من الحمام ، وقد حسنت الوجه الجميل التطرية ، وأزيلت عن الفرع الأنيث الأبرية ، وصقلت الحدود فكأنها الأمرية<sup>١</sup> ، وسلطت الدالك على الجلود ، وأغرقت النورة بالشعر المولود ، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللمس ، ولا تنالها البنان<sup>٢</sup> الخمس ، والسحنة يجول في صفحتها الفضية ماء النعيم ، والمسواك يلبي من ثينة التنعيم ، والقلب يرمى من الكف الرقيم<sup>٣</sup> بالمقعد المقيم ، وينظر إلى نجوم الوشوم فيقول : إني سقيم ، وقد تفتح ورد الخضر ، وحكم لزنبي الضفيرة بالظفر ، واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر ، ورش بماء الطيب ، ثم أعلق بباله دخان العود الرطيب ، وأقبلت الغادة ، يهديها اليمن وتزفها السعادة ، فهي تمشي على استحياء ، وقد ذاع طيب الريا وراق حسن المحيا ، حتى إذا نزع الحف ، وقبلك الأكف ، وصخب المزمار وتجاوب الدف ، وذاع الأرج ، وارتفع الحرج ، وتجوّز اللوى والمنعرج ، ونزل على بشر بزيارة هند الفرج ، اهتزت الأرض وربت ، وعوصيت الطباع البشرية فأبت ، ولله در القائل<sup>٤</sup> :

ومرّت فقالت : متى نلتقي ؟ فهشّ اشتياقاً إليها الخبيثُ  
وكاد يمزقُ سربالهُ فقلت : إليك يساقُ الحديثُ

١ لعل الأبرية جمع برى بمعنى التراب ؛ والأمرية : المرايا جمع مرآة .

٢ البنان : سقطت من ق .

٣ الرقيم : المزين .

٤ ينسب البيتان لبشار (فصل المقال : ٤٦) وفي الثاني منهما المثل «إليك يساق الحديث» .

فلما انسدل جنح الظلام ، وانتصفت من غريم العشاء الأخيرة فريضة السلام ،  
 وخاطت خيوط المنام عيون الأنام ، تأتّى دنو الجلسة ، ومسارقة الجلسة ، ثم عضه  
 النهد ، وقبله الفم وألحد ، وإرسال اليد من النجد إلى الوهد ، وكانت الإمالة القليلة  
 قبل المد ، ثم الإفاضة فيما يغبط ويرغب ، ثم الإماطة لما يشوش ويشغب ، ثم  
 إعمال المسير ، إلى السرير<sup>١</sup> :

وصرنا إلى الحسى ، ورقّ كلامنا ورُضتُ فذلتُ صعبةً أيّ إذلالِ

وهذا بعد منازعة للأطواق يسيرة ، يراها الغيد من حسن السيرة ، ثمّ شرع  
 في التكة ، ونزع الشكة<sup>٢</sup> ، وتهيئة الأرض العزاز<sup>٣</sup> عمل السكة ، ثمّ كان الوحي  
 والاستعجال ، وحمي الوطيس والمجال ، وعلا الجزء الخفيف ، وتضافرت  
 الحصور الهيف ، وتشاطر الطبع العفيف ، وتواتر التقييل ، وكان الأخذ الوبيل ،  
 وامتاز الأنوك من النبيل ، ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل ، فيا لها من نعم  
 متداركة ، ونفوس في سبيل القحة متهالكة ، ونفّس يقطع حروف الخلق ،  
 وسبحان الذي يزيد في الخلق ، وعظمت الممانعة ، وكثرت باليد المصانعة ، وطال  
 التراوغ والتراور ، وشكّي التحاور ، وهنالك تختلف الأحوال ، وتعظم الأهوال ،  
 وتخسر أو تربح الأموال ، فمن عصاً تنقلب ثعباناً مبيئاً ، ونونة<sup>٤</sup> تصير تينياً ،  
 وبطل لم يهمله المعترك الهائل ، والوهم الزائل ، ولا حال بينه وبين قرنه الحائل ،  
 فتعدى فتكة السليّك إلى فتكة البرّاض ، وتقلد مذهب الأزارقة من الخوارج  
 في الاعتراض<sup>٥</sup> ، ثم شق الصف ، وقد خضب الكف ، بعد أن كان يصيب البوسى

١ البيت لامرئ القيس ، ديوانه : ٣٢ .

٢ نزع الشكة : سقطت من ق .

٣ العزاز : الصلبة .

٤ النونة : السكة ؛ وفي العبارات كنايات تنطوي على الغمز والسخرية .

٥ الاعتراض : عدم المبالاة بالقتل في حال الخروج أو الإقدام على القتل الجماعي .

بطعته ، وبيوء بمقت الله ولعنته :

طعنت ابن عبد الله طعنة ثائر لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها<sup>١</sup>

وهناك هدأ القتال ، وسكن الجبال ، ووقع المتوقع فاستراح البال ، وتشوف إلى مذهب الثنوية من لم يكن للتوحيد بمبال ، وكثر السؤال عن المبال ، بما بال ، وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دمه ، يسيل على قدمه :

إني له عن دمي المسفوك معتذر أقول حَمَلْتُهُ في سفكه تعباً<sup>٢</sup>

ومن سنان<sup>٣</sup> عاد عناناً ، وشجاع صار جباناً ، كلما شابهته شائبة ريبه ، أدخل يده في جيبه ، فأنجحرت الحية ، وماتت الغريزة الحية ، وهناك يزيغ البصر ، ويخذل المنتصر ، ويسلم الأشر ، ويغلب الحصر ، ويحفّ اللعاب ، ويظهر العاب<sup>٤</sup> ، ويخفق الفؤاد ، ويكبو الجواد ، ويسيل العرق ، ويشند الكرب والأرق ، وينشأ في محل الأمن الفرّاق ، ويدرك فرعونَ الفرق ، ويقوى اللجاج ويعظم الحرق ، فلا تزيد الحال إلاّ شدة ، ولا تعرف تلك الخائحة المؤمنة إلاّ ردة :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولٌ ما يجني عليه اجتهاده<sup>٥</sup>

فكم مغرى بطول اللبث ، وهو من الخبث ، يؤمّل الكرّة ، ليزيل المعرّة ، ويستنصر الخيال ، ويعمل باليد الاحتيال :

إنك لا تشكو إلى مصمّتٍ فاصبر على الحمل الثقيل أو مت<sup>٦</sup>

١ البيت لقيس بن الخطيم ، ديوانه : ٧ .

٢ ق : التعبا .

٣ عطف على قوله فيما سبق : « فمن عصا تنقلب . . . إلخ » .

٤ ق : اللعاب ؛ والعباب : العيب .

٥ ق : فأكثر .

٦ المصمت : الذي يهتم إذا شكوت إليه ؛ وهذا من الأمثال ، ( انظر اللسان - صت - ) .

ومعتذر بمرض أصابه ، جرّعه أوصابه ، ووجع طرقه ، جلب أرقه ، وخطيب  
أرتج عليه أحياناً ، فقال : سيحدث الله بعد عسر يسراً وبعد عي بيانا ؛ اللهم إنا  
نعوذ بك من فضائح الفروج إذا استغلقت أقفالها ، ولم تتسم بالنجيع أغفالها ، ومن  
معزّات الأقدار ، والنكول عن الأبيكار ، ومن التزول عن البطون والسرر ،  
والجوارح الحسنة الفرر ، قبل ثقب الدرر ، ولا تجعلنا ممن يستحيي من البكر  
بالغداة ، وتعلم منه كلال الأداة ، وهو مجال فضحت فيه رجال ، وفراش  
شكيت فيه أوجال ، وأعملت روية وارنجال ، فمن قائل :

أرفعه طوراً على إصبعي      ورأسه مضطرباً أسفله  
كالخنس المقتول يلتقى على      عودٍ لكي يُطرح في مزبلته

وقائل :

عدمتُ من أيري قوى حسه      يا حسرة المرء على نفسه  
تراه قد مال على أصله      كحائطٍ خرَّ على أسفه

وقائل :

أيحسدني إبليسُ داءين أصبحا      برجلي ورأسي دُملاً وزكاما  
فليتهدما كانا به وأزيدُهُ      رخاوةَ أيرٍ لا يطيقُ قياما  
إذا نهضتُ للنيك أزبابُ معشري      توسدَ إحدى خصيتيه وناما

وقائل :

أقولُ لأيري وهو يرقب فتكةً      به : خبتَ من أيرٍ وعالتك داهيه  
إذا لم يكن للأيرِ بختٌ تعذرت      عليه وجوهُ النيكِ من كل ناحيه

وقائل :

تعقّف فوقَ الخصيتين كأنه      رشاء إلى جنبِ الركيّة ملتفٌ

١ ق : ونالتك .

كفرخ ابن ذي يومين يرفع رأسه إلى أبيه ثم يدركه الضعف  
وقائل :

تكرّش أيري بعدما كان أملسا وكان غنياً من قواه فأفلسا  
وصار جوابي للمها إن مررت بي «مضى الوصل لإمنية تبعث الأسي»  
وقائل :

بنفسي من حبيته فاستخفّ بي ولم يخطر الهجران يوماً على بالي  
وقابلي بالغور والنجد بعدما حططت به رحلي وجردت سربالي  
وما أرتجي من موسر فوق تكة عرضت له شيئاً من الحشف البالي

هموم لا تزال تُبكي ، وعلل الدهر تُشكي ، وأحاديث تُقص وتُحكي ، فإن  
كنت أعزك الله سبحانه من النمط الأوّل ، ولم تقل :

وهل عند رسم دارس من معول<sup>١</sup>

فقد جنيت الثمر ، واستطبت السّم ، فاستدع الأبواق من أقصى المدينة ، واخرج  
على قومك في ثياب الزينة<sup>٢</sup> ، واستبشر بالوفود ، وعرف المسمع عازفة الجود ،  
وتبجح بصلابة العود ، وإنجاز الوعود ، واجن رمّان النهود ، من أغصان القدود ،  
واقطف بينان اللّم أقاح الثغور وورد الخدود ، وإن كانت الأخرى فأخف الكمد ،  
وارضَ الثمد ، وانتظر الأمد ، وأكذب التوسم ، واستعمل التيسم ، واستكتم  
النسوة ، وأفضّ فيهنّ الرشوة ، وتقلد المغالطة وارتكب ، وجرى على قميصه  
بدم كذب ، واستنجد الرحمن ، واستعن على أمرك بالكتمان :

١ صدر هذا البيت « وإن شفاني عبدة مهراقة » وهو من معلقة امرئ القيس .

٢ يشير إلى زهوه كأنه قارون .

لا تُظْهَرَنَّ لِعَاذِلٍ أَوْ عَاذِرٍ حَالِيكَ فِي الضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ<sup>١</sup>  
فَلرَحْمَةُ الْمُتَفَجِّعِينَ حَرَارَةٌ فِي الْقَلْبِ مِثْلَ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ

وانتشق الأرج ، وارتقب الفرج ، فكم غمام طما ﴿وما رميت إذ رميت ولكن  
الله رمى﴾ (الأنفال : ١٧) واملِكْ بعدها عِنَانِ نَفْسِكَ حَتَّى تَمَكِّنَكَ الفُرْصَةَ ،  
وترفع إليك القصة ، ولا تشره إلى عمل لا تفيء منه بتمام ، وخذ عن إمام ،  
ولله درُّ الحارث بن هشام<sup>٢</sup> :

الله يعلمُ ما تركتُ قتالهم حتى رموا مهري بأشقر مزبدٍ  
وعلمتُ أني إن أقاتل دونهم أقتلُ ، ولم يضرر عدوي مشهدي  
ففررتُ منهم والأجبةُ فيهم طمعاً لهم بعقابِ يومٍ مفسدٍ

واللبانات تلين وتجمح ، والمآرب تدنو وتنزح ، وتحرن ثمّ تسمع ، وكم من  
شجاع خام<sup>٣</sup> ، ويقظ نام ، ودليل أخطأ الطريق ، وأضلّ الفريق ، والله عز وجل  
يجعلها خلة موصولة ، وشملاً أكنافه بالخير مشمولة ، وبنية أركانها لركائب اليُمن  
مأمولة ، حتى تكثر خدم سيدي وجواريه ، وأسرته وسراريه ، وتصفو عليه نعم  
باريه ، ما طورِد قنيص ، واقتحم عيص ، وأدرك مرام عويص ، وأعطي زاهد  
وحرم حريص ؛ والسلام .

[ بقية ترجمة ابن خلدون عن الإحاطة ]

توَالِيهِه — شرح البردة شرحاً بديعاً دل به على انفساح ذرعه ، وتفنن إدراكه

١ ق : السراء والضراء .  
٢ قالها حين فر عن أصحابه يوم بدر وعيره حسان بالفرار بقوله :  
إن كنت كاذبة الذي حدثني فنجوت منجى الحارث بن هشام  
وانظر حماسة البحري : ٤٠ .  
٣ خام : حاد وجبن .



وغزارة حفظه ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازي ، وبه داعبته أول لقيه ، فقلت له : لي عليك مطالبة فإنك لخصت محصلي ، وألّف كتاباً في الحساب ، وشرع في هذه الأيام في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه في الكمال .

وأما نثره وسلطانياته السجعية فخلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع ، يفرغ عنها يراعه الجريء ، شبيهة البداءات بالخواتم ، في نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة ، واسترسال الطبع .

وأما نظمه فهض لهذا العهد قدماً في ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه فانتال عليه جوّه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة .

خاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة أولها ١ :

أسرفن في هجري وفي تعذبي	وأطلسن موقف عبرتي ونحبي
وأبين يوم البين وقفة ساعة	لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الطاعنين وغادروا	قلبي رهين صباية ووجيب
غربت ركائبهم ودمعي سافح	فشرقت بعدهم بماء غروبي <sup>٢</sup>
يا ناقماً بالعتب غلّة شوقهم	رحماك في عدلي وفي تأنيبي
يستعذب الصب الملام وإنتي	ماء الملام لدي غير شرب <sup>٣</sup>
ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى	لولا تذكر منزل وحبيب
أهفو إلى الأطلال كانت مطلعاً	للبدري منهم أو كناس ريب

١ القصيدة في التعريف : ٧٠ .

٢ الغروب : الشئون ، أي مجاري الدموع .

٣ الشريب : العذب ؛ وفي التعريف : شروب .

عبثت بها أيدي البلى وترددت  
تبلى معاهدها وإن عهدها  
وإذا السديار تعرضت لمتيم  
ليه على الصبر الجميل فإنه  
لم أنسها والدهر يئني صرفه  
والدار موقنة محاسنها بما  
يا سائق الأظعان تعتسف الفلا  
متهافتاً عن رحل كل مدلل  
تتجاذب النفحات فضل رداه  
إن هام من ظلم الصباية صحبه  
أو تعرض مسراهم سدف الدجي  
في كل شعب مئنة من دونها  
هلاً عطف صدورهن إلى التي  
فتوم من أكناف يرب مأمناً  
حيث النبوة آياها مجلوة  
سر غريب لم يحجبه الثرى

في عطفها للدهر آي خطوب  
ليجدها وصفي وحسن نسبي  
هزته ذكراها إلى التشيب  
ألوى بدین فؤادي المنهوب  
ويغض طرفي حاسد ورقب  
لبست من الأيام كل قشيب  
وتواصل الإسآد بالتأويب  
نشوان من أين ومس لغوب  
في ملتقاها من صبا وجنوب  
نهلوا بمورد دمعه المسكوب  
صدعوا الدجي بغرامه المشوب  
هجر الأمانى أو لقاء شعوب  
فيها لبانة أعين وقلوب  
يكفيك ما تخشاه من تريب  
تلو من الآثار كل غريب  
ما كان سر الله بالمحجوب

ومنها بعد تعديد معجزاته صلى الله عليه وسلم :

يا سيد الرسل الكرام ضراعة  
عاقنت ذنوبي عن جنابك والمي  
لا كالألى صرفوا العزائم للتقى  
تقضي مني نفسي وتذهب حوبي  
فيها تعلني بكل كذوب  
فاستأثروا منها بخير نصيب

١ الإسماء : سير الليل ، والتأويب : سير النهار .

٢ الحوب : الإثم .

في الله بين مضاجع وجنوب  
 صفحاً جميلاً عن قبيح ذنوبي  
 فيفضل جاهك ليس بالسيب  
 يا خير مدعو وخير مجيب  
 فيما لذكرك من أريج الطيب  
 في مدحك القرآن كل مطيب  
 تُسدي إلي الفوز بالمرغوب  
 وأحط أوزاري وإصر ذنوبي  
 إنضاء كل نجيسة ونجيب  
 ما شئت من خبب ومن تقرب  
 أنفاس مشتاق إليك طروب  
 حنوا لمغناها حنين النيب  
 إرث الخلافة في بني يعقوب  
 يغشى مثار النقع كل سيب<sup>١</sup>  
 من كل خوار العنان<sup>٢</sup> لعوب  
 في منتدى الأعداء غير معيب  
 والعز شيمة مرتجى ومهيب

لم يخلصوا لله حتى فرّقوا  
 هب لي شفاعتك التي أرجو بها  
 إن النجاة وإن أتيت لامرئ  
 إنني دعوتك واثقاً بإجابتي  
 قصرت في مدحي فإن يك طيباً  
 ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى  
 يا هل تبلغني الليالي زورة  
 أحو خطيئاتي بإخلاصي بها  
 في فتية هجروا المنى وتعودوا  
 يطوي صحائف ليلهم فوق الفلا  
 إن رتم الحادي بذكرك رددوا  
 أو غردت الركب الخلي بطيبة  
 ورثوا اعتساف البيد عن آباتهم  
 الطاعنون الخيل وهي عوابس  
 والواهبون المقربات صوافساً  
 والمانعون الجار حتى عرضهم  
 تُخشى بوادهم ويرجى حلمهم

ومنها :

تُزجى بريح العزم ذات هبوب  
 يصدعن ليل الحادث المرهوب

سائل به طامي العباب وقد سرى  
 تهديه شهب أسنة وعزائم

١ السيب : شمر عرف الفرس .

٢ خوار العنان : لين العطف .

حتى انجَلَّتْ ظَلَمُ الضلالِ بسعيهِ  
يا ابنَ الأُلى شادوا الخِلافَةَ بالتَّقَى  
جمعوا بحفظِ الدينِ آيَ مناقبِ  
للهِ مجدُكَ طارفاً أو تالداً  
كمْ رهبةً أو رغبةً لكِ والعلا  
لا زلتِ مسروراً بأشرفِ دولة  
تحبيي المعالي غادياً أو راحماً

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان إليه وفيها الزرافة<sup>٢</sup>:

قدحتُ يدُ الأشواقِ من زندي  
ونبذتُ سلواني على ثقّة  
ولربِّ وصلٍ كنتُ آملُهُ  
لا عهدَ عندَ الصبرِ أطلبُهُ  
يلحى العَدولُ فما أعنفُهُ  
وأعارضُ النفحاتِ أسألها  
يَهدي الغرامُ إلى مسالكها  
يا سائقَ الوجناء معتسفاً  
أرحِ الركابَ ففي الصبّا نبأ  
وسلِّ الربوعَ برامةٍ خيراً  
ما لي تلام على الهوى خلقي  
لأبيتُ إلا الرشدَ مذ وضحتُ  
نعمَ الخليفةُ في هدَى وتقَى

وهفتُ بقلبي زفرةً الوجدِ  
بالقربِ فاستبدلتُ بالبعدِ  
فاعتضتُ منه مؤلمَ الصدِّ  
إنَّ الغرامَ أضاعَ من عهدي  
وأقولُ ضلَّ فأبتغي رشدي  
برَدِ الجوى فتزيدُ في الوقدِ  
لتعلّي بضعيفٍ ما تُهدي  
طَيِّ الفلاةِ لِطِيَةِ الوجدِ  
يغني عن المستنّةِ الجردِ  
عن ساكني نجدٍ وعن نجدِ  
وهي التي تأبى سوى الحمدِ  
بالمستعينِ معالمُ الرشدِ  
وبيناءِ عزِّ شامخِ الطودِ

١ ق : المطلوب .

٢ التعريف : ٧٤ ، وانظر الاستقصا ٤ : ٣٥ .

نَجَلُ السَّرَاةِ الْغُرَّ شَانَهُمْ كَسْبُ الْعَلَا بِمَوَاهِبِ الْوَجْدِ  
ومنها :

لِللَّهِ مِنِّي إِذْ تَأَوَّبَنِي إِذْ تَأَوَّبَنِي  
شَهْمٌ يَقْلُ بَوَاتِرًا قَضْبًا  
أُورِيْتُ زَنْدَ الْعِزْمِ فِي طَلْبِي  
وَوَرَدْتُ عَنْ ظِلِّ مَنْهَالِهِ  
هِيَ جَنَّةُ الْمَأْوَى لِمَنْ كَلَفَتْ  
لَوْ لَمْ أَعْلَ بَوْرِدِ كَوَثَرِهَا  
مَنْ مَبْلِغٌ قَوْمِي وَدُونَهُمْ  
أَتَى أَنْقَتُ عَلَى رَجَائِهِمْ  
ذَكَرَاهُ وَهُوَ بِشَاهِقٍ فَرَدِ  
وَجُمُوعَ أَقْيَالٍ أُولَى أَيْدِ  
وَقَضَيْتُ حَقَّ الْمَجْدِ مِنْ قَصْدِي  
فَرُوِيْتُ مِنْ عَزِيٍّ وَمَنْ رِفْدِ  
أَمَالَهُ بِمَطَالِبِ الْمَجْدِ  
مَا قَلْتُ هَذَا جَنَّةُ الْخَلْدِ  
قُدْفُ النَّوَى وَتَنُوقَةُ الْبَعْدِ  
وَمَلَكْتُ عَزَّ جَمِيعَهُمْ وَحَدِي

ومنها :

وَرَقِيمَةَ الْأَعْطَافِ حَالِيَةً  
وَحَشِيَّةِ الْأَنْسَابِ مَا أَنْسَتْ  
تَسْمُو بِجَيْدِ الْبَالِغِ صُعْدًا  
طَالَتْ رُؤُوسَ الشَّامِحَاتِ بِهِ  
قَطَعْتُ إِلَيْكَ تَنَائِفًا وَصَلْتُ  
تَخْدِي عَلَى اسْتِصْعَابِهَا ذُلًّا  
بِسَعُودِكَ اللَّائِي ضَمَنْ لَنَا  
جَاءَتْكَ فِي وَفْدِ الْأَحَابِشِ لَا  
وَافَوْكَ أَنْضَاءُ تُقَلِّبُهُمْ  
كَالطَيْفِ يَسْتَقْرِي مَضَاجِعَهُ  
مَوْشِيَّةٍ بَوْشَائِعِ الْبُرْدِ  
فِي مَوْحَشِ الْبِيدَاءِ بِالْقَرْدِ  
شَرَفَ الصُّرُوحِ بِغَيْرِ مَا جَهْدِ  
وَلِرَبَّمَا قَصَّرَتْ عَنِ الْوَهْدِ  
إِسَادَهَا بِالنَّصِّ وَالْوَحْدِ  
وَتَبَيْتُ طَوْعَ الْقَنْ وَالْقَدِّ  
طُولَ الْحَيَاةِ بِعَيْشَةٍ رَغْدِ  
يَرْجُونَ غَيْرَكَ مُكْرِمَ الْوَفْدِ  
أَيْدِي السُّرَى بِالْغُورِ وَالنَّجْدِ  
أَوْ كَالْحَسَامِ يُسَلُّ مِنْ غَمْدِ

١ ومنها : سقطت من ق .

يشنون بالحسنى التي سبقت  
ويرون لحظك من وفادتهم  
يا مستعينا جل في شرف  
جازاك ربك عن خلقته  
وبقيت للدنيا وساكنها  
من غير إنكار ولا جحد  
فخراً على الأتراك والهند  
عن رتبة المنصور والمهدي  
خير الجزاء فنعم ما تسدي  
في عزة أبدأ وفي سعد

وقال يخاطب عمر بن عبد الله مدبر ملك المغرب :

يا سيد الفضلاء دعوة مشفق  
ما لي وللإقصاء بعد تعلق  
وأرى الليالي رنقت لي صافياً  
ولقد خلصت إليك بالقرب التي  
ووثقت منك بأي وعد صادق  
وسما بنفسي للخليفة طاعة  
حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم  
رغمت أنوفهم بنجح وسائل  
وبغوا بما نعموا علي خلافتي  
لا تطمعنهم بيدل في التي  
أنتى أضام وفي يدي القلم الذي  
ولي الحصائص ليس تأبى رتبة  
قسماً بمجدك وهو خير ألية  
إني لتصطحب الهوم بمضجعي  
عظفاً علي بوحدتي عن معشر  
أغدو إذا باكرتهم متجلداً  
حيران أوجس عند نفسي خيفة

نادى لشكوى البت خير سمع  
بالقرب كنت لها أجل شفيع  
منها فأصبح في الأجاج شروعي  
ليس الزمان لشمها بصدوع  
أنتي المصون وأنت غير مضيع  
دون الأنام هواك قبل نزوع  
فصددتهم عنّي وكنت منيعي  
وتقطعت أنفاسهم بصنعي  
حسداً فراموني بكل شنيع  
قد صننتها عنهم بفضل قنوعي  
ما كان طبعه لهم بمطيع ؟  
حسبي بعلمي ذاك من تفريعي  
أعتدّها لفؤادي المصدوع  
فتحول ما بيني وبين هجوعي  
نقت الإباء صدودهم في روعي  
وأروح أعر في فضول دموعي  
فتسر في الأوهام كل مروع

أطوي على الزفراتِ قلباً آدهُ  
ولقد أقولُ لصرفِ دهرِ رابي  
مهلاً عليكِ فليس خطبك ضائري  
إني ظفرتُ بعصمةٍ من أوحدي  
حملُ الهومِ تجولُ بين ضلوعي  
بحوادثِ جاءت على تنوعِ  
فلقد لبست له أجنّ دروعِ  
بذّ الجميعَ بفضلهِ المجموعِ

وقال يخاطب بعض الوزراء في حال وحشة<sup>١</sup> :

هنيئاً بصومٍ لا عداه قبولُ  
وهنيئها من عزةٍ وسعادةٍ  
سقى الله دهرأ أنت إنسانُ عينه  
فعصرك ما بين الليالي مواسمُ  
وجانبك المأمولُ للوجودِ مَشْرَعُ  
عساک وإن ضمّ الزمانُ منوّلي  
أجرني وليس الدهرُ لي بمسلمِ  
وأوليتني<sup>٢</sup> الحسنى بما أنا آملُ  
ووالله ما رُمْتُ الترحلَ عن قلبي  
ولا رغبةً عن هذه الدارِ لأنها  
ولكن نأى بالشعبِ عني حبابُ  
يهيجُ بهنَّ الوجدَ أني نازحُ  
عزیزٌ عليهنَّ الذي قد لقيته  
توارتُ بأبائني البقاعُ كأنني  
وبشري بعيد أنت فيه منيلُ  
تتأبَعُ أعوامٌ بها وفصولُ  
ولا مسَّ ربّاً في حماك محولُ  
لها غررٌ وضاحّةٌ وحجولُ  
يحومُ عليه عالمٌ وجهولُ  
فرسمُ الأمانِ من سواك محيلُ  
إذا لم يكن لي في ذراك مَقِيلُ  
فمثلك يولي راجياً ونبيلُ  
ولا سَخَطٌ للعيشِ فهو جزيلُ  
لظليلٌ على هذا الأنامِ ظليلُ  
دعاهنَّ<sup>٣</sup> خطبُ للفراقِ طويلُ  
وأنّ فؤادي حيث هنَّ حلولُ  
وأنّ اغترابي في البلادِ بطولُ  
تُخْطِفُ أو غالت ركابي غولُ

١ هو الوزير عمر بن عبد الله ، ويستجير بصديقه ورفيقه الوزير مسعود بن رحو بن ماسي ،

والقصيدة في التعريف : ٧٧ .

٢ التعريف : وأولني .

٣ التعريف : شجاهن .

فطارت بقلبي أنةٌ وعويلٌ  
 يُمَثَّلُ لي نويٌ بها وطولٌ  
 كريمٌ، وما عهد الكرم يحولٌ  
 فلا قرَّبني للقاء حمولٌ  
 مرادي ولم تعطِ القيادة ذلولٌ؟  
 وساء صباحٌ بينها وأصيلٌ  
 زمانٌ بنيلِ المعلواتِ بخيلٌ  
 ويؤسني لِيَانٌ منه مطولٌ  
 ففي كبدي من وقعهنَ فلولٌ  
 تكادُ له صُمُّ الجبالِ تزولٌ  
 يصانعُ واشٍ خوفها وعدولٌ  
 تجودُ بنفسي زفرةٌ وغليلٌ  
 تحيلُ الليالي سلوتي وتزِيلُ  
 عهدتُ به أن لا يُضامَ نزيلٌ  
 مداهُ وأنَّ الله سوف يُبدِلُ  
 وإن هان أنصارٌ وبان خليلٌ

ذكرك يا مَنَى الأحبَّةِ والهوى  
 وحييتُ عن شوقِ رَبِّكَ كأنما  
 أحبابنا والعهدُ بيني وبينكم  
 إذا أنا لم تُرضِ الحمولَ مدامعي  
 لإلامَ مُقامي حيثُ لم تردِ العلا  
 أجادبِ فضلِ العمر يوماً وليلةٌ  
 وينهبُ فيما بين يأسٍ ومطمعٍ  
 تُعلطني منه أمانِ خوادعٍ  
 أما لليال لا تردُ خطوبها  
 يروغني من صرفها كلُّ حادثٍ  
 أداري على رعمِ العدا لا لريبةٍ  
 وأغدو بأشجاني عليلًا كأنما  
 ولاني وإن أصبحتُ في دار غربةٍ  
 وصدتني الأيامُ عن خيرِ منزلٍ  
 لأعلمُ أنَّ الخيرَ والشرَّ ينتهي  
 وأني عزيزٌ بابنِ ماسي مكثُرٌ

وقال يمدح ١ :

أو عن جنابك للأماني معدلٌ  
 عزمًا كما شحذ الحسامَ الصيقلُ  
 والغيثُ حيثُ العارضُ المتهللُ  
 تُعنى بها زُهرُ النجومِ وتحفلُ

هل غيرُ بابيكَ للغريبِ مؤملُ  
 هي همةٌ بعثتُ إليك على التوى  
 متبوءاً الدُنْيَا ومنتجعُ المنى  
 حيثُ القصورُ الزاهراتُ منيفةٌ

١ قالها يمدح أبا العباس سلطان تونس عندما قدم إليه نسخة من كتابه « العبر » ، انظر التعريف : ٢٣٣ .



حيثُ الخيامُ البيضُ يرفعُ للعلأ  
 حيثُ الحمى للعزّ دون مجالهِ  
 حيثُ الكرامُ ينوبُ عن نارِ القيرى  
 حيثُ الجيادُ أملتْهُنَّ بنو الوغى  
 حيثُ الوجوهُ الغرُّ قنّعها الحيا  
 حيثُ الملوكُ الصيّدُ والتقرُّ الألى  
 والمكرماتِ طرافُها المتهدلُ  
 ظلُّ أفاءته الوشيجُ الذبيلُ  
 عرّفُ الكيأءِ بجيهمُ والمتدلُ  
 ممّا أطلالوا في المغارِ وأوغلوا  
 والبشرُ فوق جبينها يتهللُ  
 عزّ الجوارُ لديهمُ والمترلُ

وأنشد السلطان أبا عبد الله ابن الحجاج لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم عام  
 أربعة وستين وسبعمائة هذه القصيدة<sup>٢</sup> :

حيّ المعاهدَ كانت قبلُ تحييني  
 إن الألى نرحت داري ودارهمُ  
 وقتتُ أنشدُ صبراً ضاعَ بعدهمُ  
 أمثلُ الرّبّعِ من شوقٍ وألثمهُ  
 وينهبُ الوجدُ مني كلّ لؤلؤةٍ  
 سقّت جنوني مغاني الرّبّعِ بعدهمُ  
 قد كان للقلبِ عن داعي الهوى شغل  
 أحبابنا هل لعهدِ الوصلِ مدّكرُ  
 ما لي وللطيفِ لا يعتادُ زائرهُ  
 يا أهلَ نجدٍ وما نجدُ وساكنها  
 أعندكمُ أنتي ما مرّ ذكركمُ  
 أصبو إلى البرقِ من أنحاء أرضكمُ  
 بواكفِ الدمعِ يروها ويظمني  
 تحمّلوا القلبَ في آثارهمُ دوني  
 فيهمُ وأسألُ رسماً لا يناجيني  
 وكيفَ والفكرُ يديهِ ويقصيني  
 ما زالَ جفني عليها غيرَ مأمونِ  
 فالدمعُ وقفُّ على أطلاله الجونِ  
 لو أنّ قلبي إلى السلوان يدعوني  
 منكمُ وهل نسمةٌ منكمُ تحييني  
 وللتسيمِ عليلاً لا يسداويني  
 حسناً سوى جنة الفردوس والعينِ  
 إلاّ انشيتُ كأنّ الرّاحَ تشيني  
 شوقاً ، ولولاكمُ ما كان يصيبي

١ التعريف : في ساحاته .

٢ التعريف : ٨٥ .

يا نازحاً والمني تُدنيه من خَلْدِي  
أسلى هواك فؤادي عن سواك وما  
ترى الليالي أنستك أدكاري يا  
ومنها :

أبعد مرّ الثلاثين التي ذهبتُ  
أضعتُ فيها نفيساً ما وردت به  
واحسرتي من أمانٍ كلتها خُدَعُ  
ومنها في وصف المشور<sup>١</sup> المبني لهذا العهد :

يا مصنعاً شيدتُ منه السعودُ حمى  
صرحٌ يحارُ لديه الطرفُ مفتتناً  
بُعداً لإيوان كسرى إن مشوركِ  
ودع دمشق ومغناها فقصركِ ذا  
ومنها في التعريض بالوزير الذي كان انصرافه بسببه :

من مبلغ غني الصحب الألى جهلوا  
أني أويتُ من العليا إلى حرَمٍ  
وأنتي ظاعناً لم ألقَ بعدهمُ  
لا كالتّي أخضرتُ عهدي ليالي إذ  
سقياً ورعياً لأيامي التي بظفرتُ  
أرتادُ منها ملياً لا يماطلني  
ودّي وضاع حماهم إذ أضاعوني  
كادتُ مغانيه بالشرى تحيبي  
دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكي  
أقلبُ الطرفَ بين الخوفِ والهونِ  
يداي منها بحظّ غير مغبونِ  
وعداً وأرجو كريماً لا يعنيني

١ المشور : المكان الذي يجلس فيه السلطان للحكم .

ومنها :

وهاكـ منها قوافـ طيها حكم  
تلوح إن جليت درأ ، وإن تليت  
عانيتُ منها بجهدِي كلَّ شاردةٍ  
يمنعُ الفكرَ عنها ما تقسّمهُ  
لكنْ بسعدك ذلتْ لي شواردها  
بقيتَ دهرَكَ في أمنٍ وفي دعةٍ  
مثلُ الأزاهرِ في طيِّ الرياحينِ  
ثنِي عليكَ بأنفاسِ البساتينِ  
لولا سعودك ما كانت تواتيني  
من كلِّ حزنٍ بطيِّ الصدرِ مكنونِ  
فرضتُ منها بتحييرٍ وتزيينِ  
ودام ملكك في نصرٍ وتمكينِ

وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجة والخطوة قد استعمل في السفارة إلى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه .

مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين في حق ابن خلدون .

[ تعليق للمقري والباعوني ]

قلت : هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادئ أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذي نقلنا منه في مواضع وسماه « ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » ورأيتُه بفاس وعليه خطه في ثماني مجلدات كبار جداً ، وقد عرّف في آخره بنفسه ، وأطال ، وذكر أنه لما كان بالأندلس وحظي عند السلطان أبي عبد الله شمس من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوض الرحال ولم يرض من الإقامة بحال ، ولعب بكرته صوالحة الأقدار ، حتى حل بالقاهرة المعزية واتخذها خير دار ، وتولى بها قضاء القضاة وحصلت له أمور ، رحمه الله تعالى .

وكان - أعني الولي ابن خلدون - كثير الثناء على لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى .

ولقد رأيت بخط العالم الشهير الشيخ إبراهيم الباعوني الشامي فيما يتعلق بابن خلدون ما نصّ محل الحاجة منه : تقلبت به الأحوال حتى قدم إلى الديار المصرية ، وولي بها قضاء قضاء المالكية ، في الدولة الشريفة الظاهرية ، وصحبته - رحمه الله تعالى - في سنة ٨٠٣ عند قدومه إلى الشام صحبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق في فتنه تمرلنك عليه من الله تعالى ما يستحقه ، وأكرمه تمرلنك غاية الإكرام ، وأعادته إلى الديار المصرية ، وكنت أكثر الاجتماع به بالقاهرة المحروسة للمودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين ابن الخطيب ، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الأسماع ، ويعتقد على استحسانه الإجماع ، وتتناصر عن إدراكه الأطماع ، فرحمة الله تعالى عليهما ، وأزكى تحياته تهدي إليهما . ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان ، وله من النظم والنثر ما يزري بعقود الجمان ، مع الهمة العلية ، والتبحر في العلوم الثقيلة والعقلية ، وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة ٨٠٧ ، سقى الله تعالى عهده ، ووطناً في الفردوس مهّده . قاله وكتبه الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن أحمد الباعوني الشافعي ، غفر الله تعالى له زلله ، وأصلح خلله ؛ انتهى .

١٠ - ومن نثر لسان الدين ما ذكره في « الإحاطة » في ترجمة يحيى بن إبراهيم ابن يحيى البرغواطى من بني الترجمان ، ولنذكر الترجمة بجملتها لاشتمالها على ما ذكر وغيره في حق المذكور بعد قوله « إنه من بني الترجمان » ما صورته : « عزف عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين ، وصحبة الفقراء المتجردين ، وكان نسيجَ وَحْدِهِ في طلاقة اللسان ، حافظاً لكل غريبة من غرائب الصوفية ، يتكلم في مشكلاتهم ، حفظ « منازل السائرين » للهروي ، وتائية ابن الفارض ؛ مليح الملبس ، مترفع عن الكُديّة ، حسن الحديث ، صاحب شهرة ، ومع ذلك

فمغضوض منه ، محمول عليه ، لما جبل عليه من رفض الاصطلاح ، واطّراح التغافل ، مؤلّع بالنقد ، والمخالفة في كل ما يطرق سمعه ، مرشحاً ذلك بالجدل المبرم ، ذاهباً أقصى مذاهب القحّة ، كثير الفلتات ، نالته بسبب هذه البلية محن ، ووُسم بالرهق في دينه مع صحة العقل ، وهو الآن عامر الرباط المنسوب إلى اللجام على رسم الشياخة ، عديم التابع ، مهجور الفناء ، قيد الكثير من الأجزاء منها في نسبة الذنب إلى الذاكر جزء نبيل غريب المأخذ ، ومنها فيما أشكل من كتاب أبي محمد ابن الشيخ ، وصنف كتاباً كبير الحجم في الاعتقادات جلب فيه كثيراً من الحكايات ، رأيت عليه بخط شيخنا أبي عبد الله المقرّي ما يدل على استحسانه . ومن البرسام الذي يجري على لسانه ، بين الجدل والقحة والجهالة والمجانة ، قوله لبعض خدام باب السلطان وقد ضويق في شيء أضجره منقولاً من خطّه — بعد ردّ كثيرٍ منه للإعراب — ما نصه : الله نور السموات من غير نار ولا غيرها ، والسلطان ظلٌّ له وسراجُه في الأرض ، ولكل منهما فرّاش مما يليق به ويتهافت عليه ، فهو تعالى محرق فرّاشه بذاته ، مغرقهم بصفاته وسراجُه ، وظله هو السلطان محرق فرّاشه بناره ، مغرقهم بزيتِه ونواله ، فقرّاش الله تعالى ينقسم إلى حافّين ومسبّحين ومستغفرين وأمناء وشاخصين ، وفرّاش السلطان ينقسمون إلى أقسام لا يشدّ أحدهم عنها ، وهم وزغة ابن وزغة ، وكلب ابن كلب ، وكلب مطلقاً ، وعار ابن عار ، وملعون ابن ملعون ، وقط ، فأما الوزغة فهو المغرق في زيت نواله المشغول بذلك عما يليق بصاحب النعمة من النصيح وبذل الجهد ، والكلب ابن الكلب هو الكيس المتحرز في تهافته من إحراق وإغراق يعطي بعض الحق ويأخذ بعضه ، وأما الكلب مطلقاً فهو المواجه وهو المشرّد للسفهاء عن الباب المعظم التليل النعمة ، وأما العار ابن العار فهو المتعاطي في تهافته ما فوق الطوق ، ولهذا امتاز هذا الاسم بالرياسة عند العامة إذا مر بهم جلف أو متعاطم يقولون : هذا العار ابن العار ، يحسب نفسه رئيساً ، وذلك لقرب المناسبة ؛ فهو موضوع لبعض الرياسة ، كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة ، وأما الملعون

ابن الملعون فهو المغالط المعاند المشارك لربه المنعم عليه في كبريائه وسلطانه ، وأما القط فهو الفقير مثلي المستغني عنه لكونه لا تختص به رتبة ، فتارة في حجر الملك ، وتارة في السنداس<sup>١</sup> ، وتارة في أعلى الرتب ، وتارة محسن ، وتارة مسيء ، تُغفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة ، إذ هو من الطوائف ، متطيرٌ بقتله وإهانته ، تياه في بعض الأحيان بعزة يجدها من حرمة أبقاها له الشارع ، وكل ذلك لا يخفى . وأما الفَرَّاش المحرق فهو عند الدول نوعان : تارة يكون ظاهراً وحصته مسح المصباح وتصفية زيتيه وإصلاح فتيله وستر دخانه ومسايسة ما يكون من المطلوب منه ، ووجود هذا شديد الملازمة ظاهراً ، وأما المحرق الباطن فهو المشار إليه في دولته بالصلاح والزهد والورع فيعظمه الخلق ويترك لما هو بسبيله ، فيكون وسيلة بينهم وبين ربهم وخليفته الذي هو مصباحهم ، فإذا أراد الله تعالى إهلاك المروءة وإطفاء مصباحها تولى ذلك أهل البطالة والجهالة ، وكان الأمر كما رأيتم ، والكل فَرَّاش متهافت ، وكلٌّ يعمل على شاكلته » .

١١ — قال الوزير لسان الدين : وطلب مني الكتّاب عليه بمثل ذلك ، فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره ، واستدعاء لفكاهة انزعاجه ، ما نصه :

« وقفت من الكتاب المنسوب لصاحبنا أبي زكريا البرغواطي على برسام محموم ، واختلاط مدموم ، وانتساب زنج في روم ، وكان حقه أن يتهيب طريقاً لم يسلكها ، ويتجنب عقية لم يملكها ، إذ المذكور لم يتلق شيئاً من علم الأصول ، ولا نظر من الإعراب في فصل من الفصول ، إنما هي قِحة وخلاف ، وتهاون بالمعارف واستخفاف ، غير أنه يحفظ في طريق القوم كل نادرة ، وفيه رجولية ظاهرة ، وعنده طلاقة لسان ، وكفاية قلماً تتأني لإنسان ، فإلى الله نضرع أن يعرفنا مقادير الأشياء ، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء ، وقد قلت مرتجلاً من أول نظرة ، واجتراء بقليل من كثرة :

١ السنداس : بيت الراجحة .

كلُّ جارٍ لغايةٍ مرَّجوةٌ فهو عندي لم يعدُّ حقَّ الفتوةِ  
وأراك اقتحمتَ ليلاً بهيماً موبحاً منك ناقةٌ في كوةِ  
لا اتِّباعاً ولا اختراعاً أتتنا إذْ نظرنا عروسكَ المجلوةِ  
كلُّ ما قلتَهُ فقد قاله لنا سٌ مقالاً آياتهُ متلوةِ  
لم تردُّ غيرَ أن أبحتَ حمى الإءِ رابٍ في كلِّ لفظةٍ مروةِ  
نسألُ الله فكرةً تلزمُ العقه ل إلى حشمةٍ تحوطُ المروةِ  
وعزيزٌ عليَّ أن كنتَ يحيى ثم لم تأخذ الكتابَ بقوةِ

١٢ - ومن بديع نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه لسلطان تامسان  
إثر قصيدة سينية حازت قصب السبق ، ولثبت الكل هنا فنقول : قال الإمام  
الحافظ عبد الله التنسي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ، عندما جرى ذكر أمير  
المسلمين السلطان أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يعقوب اسن بن  
زيان رحمه الله تعالى ، ما صورته : وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن  
الخطيب كثيراً ما يوجه إليه بالأمداح ، ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة ،  
وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه ، فجعلها مقدمة بين يدي نجواه ، لتمهد له  
مشواه ، وتحصل له المستقر ، إذا ألجأه الأمر إلى المفر ، فلم تساعده الأيام ، كما  
هو شأنها في أكثر الأعلام ، وهي هذه :

أطلعنَ في سدِّفِ الفروعِ شموسا ضحكَ الظلامُ لها وكان عبوسا  
وعطفنَ قُضباً للقدودِ نواعماً بوئنَ أدواحِ النعيمِ غروسا  
وعدئنَ عن جهرِ السلامِ مخافةَ الـ واشي فجئنَ بلفظه مهروسا  
وسفَّرنَ من دهشِ الوداعِ وقومُ هُنَّ إلى الترحلِ قد أناخوا العيسا  
وخلصنَ من خللِ الحجالِ إشارةً فتركنَ كلَّ حجالها مخلوسا  
لم أنسها من وحشةٍ والحيُّ قد زجرَ الحمولَ وآثرَ التغليسا

١ أزهار الرياض ١ : ٢٥٠ وبغية الرواد ٢ : ٢٨٧ .

عَوْجُ الرِكَائِبِ تَسَامُ التَّخْيِيسُ ١  
 وَقَفْتُ عَلَيْهِ وَحُبِسْتُ تَحْيِيسًا  
 بَعْضُ النُّوَى قَدْ بَحَسْتُ تَبْحِيسًا  
 فَعَرَضْتُ دِرًّا لِلدَّمُوعِ نَفِيسًا  
 وَلَكَمْ تَرَأَى آهْلًا مَسْأُوسًا  
 عَمَّنْ يَحْسُ بِهِ وَكَانَ أُنَيْسًا  
 لَا يَقْتَضِي وَرْدًا وَلَا تَعْرِيسًا  
 لَا فَرَقَ بَيْنَهُمَا إِذَا مَا قِيسًا  
 حَرْفًا فَيَشْفِي بِالْمَزِيدِ نَيْسًا ٢  
 ظَلْنَا عَكُوفًا عِنْدَهُ وَجُلُوسًا  
 وَنَدِيرٌ مِنْ شَكْوَى الْغَرَامِ كَوْوسًا  
 وَإِذَا سَمِعْتَ فَلَا تَحْسُ حَيْسًا  
 وَقَدْ اقْتَضَتْ نِعْمَاهُ أَنْ لَا بُوسًا  
 تَلَيْتُ بِمَغْنَاهُ عَلِيَّ عَرُوسًا  
 دَرَسَتْ مَغَانِي الْأَنْسِ فِيهِ دَرُوسًا  
 مِنْ رَوْنَقِ الْبَشْرِ الْبَهِيِّ عُبُوسًا  
 فِي مِثْلِهَا إِلَّا لآيَةِ عَيْسِي  
 فَإِذَا قَضَى يَسْتَأْنَفُ التَّدْرِيسًا  
 لَا سَيْمًا فِي بَابِ نَعْمٍ وَيَيْسًا  
 مِنْ صَبْغِهَا حَتَّى يُرَى مَرْمُوسًا  
 فَإِذَا عَرَاهُ الْخَطْبُ كَانَ يُوُوسًا

لَا الْمَلْتَقَى مِنْ بَعْدِهَا كَثَبٌ وَلَا  
 فَوَقَفْتُ وَقِفَةَ هَائِمٍ بِرِحَاؤُهُ  
 وَدَعَوْتُ عَيْنِي عَاتِبًا وَعَيُونَهَا  
 نَافَسْتُ يَا عَيْنِي دَرًّا دَمُوعَهُمْ  
 مَا لِلْحَمَى بَعْدَ الْأَحْبَةِ مَوْحِشًا  
 وَلِسِرْبِهِ حَوْلَ الْخَمِيلَةِ نَافِرًا  
 وَلَاظِلَّهُ الْمُرُودِ غَمْرٌ قَلْبِيهِ  
 حَيْثَنُهُ فَأَجَابَنِي رَجْعُ الصَّدَى  
 مَا إِنْ يَزِيدُ عَلَى الْإِعَادَةِ صَوْتُهُ  
 نَضَبَ الْمَعِينِ وَقَلَصَ الظِّلُّ الَّذِي  
 تَتَوَاعَدُ الرَّجْعِيُّ وَتَغْتَنِمُ اللَّقَا  
 فَإِذَا سَأَلْتَ فَلَا تَسْأَلُ مَخْبِرًا  
 عَهْدِي بِهِ وَالدهرُ يَتَحَفُّ بِالْمِي  
 وَالعَيْشُ غَضُّ الرَّيْعِ وَالذُّنْيَا قَدْ أَجِ  
 أَتْرَى يَعِيدُ الدهرُ عَهْدًا لِلصَّبَا  
 أَوْطَانُ أَوْطَارٍ تَعَوَّضَ أَفْقَهَا  
 هِيَهَاتَ لَا تَغْنِي لَعْلٌ وَلَا عَسَى  
 وَالدهرُ فِي دَسْتِ الْقَضَاءِ مَدْرَسُ  
 تَفْتَنُ فِي جُمَلِ الْوَرَى أَبْحَاثُهُ  
 وَسَجِيَّةُ الْإِنْسَانِ لَيْسَ بِنَاصِلِ  
 يَغْتَرُّ مَهْمَا سَاعَدَتْ أَمَالَهُ

١ ق ص : التخييس ، والتصويب عن الأزهار والبغية ؛ التخييس : تذليل الدابة .

٢ النيسيس : غاية الجهد ؛ قلت ولعل الصواب « رسيسا » .



يوماً وقدَّسها الهدى تقدِّيساً  
هلعتُ إذا كَثُرَتْ<sup>١</sup> إليها البوسى  
بضمانِ عزٍّ لم يكن ليخيساً<sup>٢</sup>  
تغشيتُ من سردِ اليقينِ لبوساً  
من ضرِّه وأذاهُ عُدْتُ بموسى  
ليشاً ويعلمُ بالزئيرِ الخيساً  
لنا اختبرتُ الليثَ والعريساً  
فتخلفَ الأسدَ الهزبرَ فريساً  
أبدأُ فيجلو الظلمةَ الحنديساً  
وسما فطأطأتِ الجبالُ رؤوساً  
مثلتُ بأيديِ الحالينِ بسوساً<sup>٤</sup>  
وتراهُ بأساً في الهياجِ بئيساً  
إنْ أوطأ الجُرْدَ العتاقَ وطيساً  
للسالكينِ أبانَ منه دريساً<sup>٥</sup>  
لبسَ الكمالَ فزَيْنَ الملبوسا  
والسؤددَ المتواترَ القُسدَ موسا  
والعلمُ ليسَ يعارضُ الناموسا  
تَسْتَخْبِرُ الترييعَ والتسديسا  
كم يخاضُ بجرأ لا يخاضُ ضروسا

فَلَوْ أَنَّ نَفْساً مُكِنَّتْ مِنْ رَشْدِهَا  
لَمْ تَسْتَفْزَرْ رَسُوخَهَا النعمى ولا  
قُلْ لِلزَّمَانِ إِلَيْكَ عَنْ مُتَدَمِّمٍ  
فَإِذَا اسْتَحَرَّ جِلَادُهُ فَأَنَا الَّذِي اسد  
وَإِذَا طَغَى فِرْعَوْنُهُ فَأَنَا الَّذِي  
أَنَا ذَا أَبُو مَثْوَاهُ<sup>٣</sup> مَنْ يَحْمِي الْحَمِي  
بِحَمِي أَبِي حَمَوِ حَطَطْتُ رِكَائِي  
أَسَدُ الْهِيَاجِ إِذَا خَطَا قَدُماً سَطَا  
بَدْرُ الْهُدَى يَا بِي الضَّلَالِ ضِيَاؤُهُ  
جِبَلُ الْوَقَارِ رَسَا وَأَشْرَفَ وَاعْتَلَى  
غَيْثُ النِّوَالِ إِذَا الْغَمَامُ حَلُوبَةٌ  
تَلَقَّاهُ يَوْمَ الْأَنْسِ رَوْضاً نَاعِماً  
كَمْ غَمْرَةٌ جَلَّتْ وَكَمْ خُطْبٌ كَفَى  
كَمْ حِكْمَةٌ أَبَدَتْ وَكَمْ قَصْدٌ هَدَى  
أَعْلَى بَنِي زَيْبَانَ وَالْقَدُّ الَّذِي  
جَمَعَ الْبُؤْسَ وَالْبَأْسَ وَالشَّيْمَ الْعَلَا  
وَالْحَلْمُ لَيْسَ يَبَيِّنُ الْخَلْقَ الرُّضَى  
وَالسَّعْدُ يَغْنِي حِكْمَهُ عَنِ نَصْبَةٍ  
كَمْ رَاضٍ صَعْباً لَا يَرِاضُ مُعَاصِباً

١ ق : كثرت .

٢ خاس : خفر العهد . ٣ البغية : نادى أبا مثواه .

٤ البسوس : التي تتطلب إيساساً أي تسكيناً كي تدر .

٥ الدريس : الطريق الخفي .

بَلَغَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا مَتَهَلًّا  
 يَا خَيْرَ مَنْ خَفَقَتْ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ  
 وَأَجَلَ مِنْ حَمَلْتَهُ صَهْوَةٌ سَابِحٍ  
 قَسَمًا بَعْنِ رَفَعِ السَّمَاءِ بَغِيرَ مَا  
 وَدَحَا الْبَسِيطَةَ فَوْقَ لُجَجٍ مُزْبِدٍ  
 حَتَّى يَهَيْبَ بِأَهْلِهِ الْوَعْدُ الَّذِي  
 مَا أَنْتَ إِلَّا ذَخْرٌ دَهْرَكَ دَمَتْ فِي الْإِ  
 لَوْ سَاوَمْتَهُ الْأَرْضُ فَيْكَ بِمَا حَوَتْ  
 حَلْفٌ ٣ الْبُرُورُ بِهَا أَلِيَّةٌ صَادِقٌ  
 مَنْ قَاسَ ذَاتَكَ بِالذَّنُوبِ فَإِنَّهُ  
 لَا تَسْتَوِي الْأَعْيَانُ فَضْلَ مَزِيَّةٍ  
 لِعَنَاءِ التَّخْصِصِ سِرٌّ غَامِضٌ  
 مِنْ أَنْكَرَ الْفَضْلِ الَّذِي أَوْثِقَتْهُ  
 مِنْ دَانَ بِالْإِخْلَاصِ فَيْكَ فَعَقَدَهُ  
 وَالْمَتَمِّي الْعَلَوِيِّ عَيْصُكَ لَمْ تَكُنْ  
 بَيْتُ الْبَتُولِ وَمَنْبَتُ الشَّرْفِ الَّذِي  
 أَمَّا سِيَاسَتُكَ الَّتِي أَحْكَمْتَهَا  
 فَلَوْ أَنَّ كَسْرَى الْفَرَسِ أَبْصَرَ بَعْضَهَا  
 لَوْ سَارَ عَدْلُكَ فِي السَّنِينَ لَمَا اشْتَكَتْ

وَعَلَا السُّهَاءَ وَاسْتَسْفَلَ الْبَرْجِيسَا ١  
 لِلتَّصْرِ تَمْطَرُهُ أَجَشٌّ بِجِيسَا ٢  
 إِنْ كَرَّ ضَعُضِعَ كَرُّهُ الْكُرْدُوسَا  
 عَمَدٍ وَرَفَعَ فَوْقَهَا إِدْرِيسَا  
 مَا إِنْ يَزَالُ عَلَى الْقَرَارِ حَيْيسَا  
 حَشْرَ الرَّئِيسِ إِلَيْهِ وَالْمَرْؤُوسَا  
 صَوْنَ الْحَرِيزِ مُتَمَعًا مَحْرُوسَا  
 لَرَأَكَ مُسْتَأْمًا بِهَا مَبْخُوسَا  
 وَيَمِينُ مَنْ عَقَدَ الْيَمِينَ غَمُوسَا  
 جَهْلَ الْوِزَانِ وَأَخْطَأَ التَّقْيِيسَا  
 وَطَبِيعَةَ فَطَرَ الْإِلَهَ وَسُوسَا ٤  
 مِنْ قَبْلِ ذَرَّةِ الْخَلْقِ خَصَّ نَفُوسَا  
 جَحَدَ الْعِيَانِ وَأَنْكَرَ الْمَحْسُوسَا  
 لَا يَقْبَلُ التَّمْوِيَةَ وَالتَّلْيِيسَا  
 لَتَرَى دَخِيلًا فِي بَنِيهِ دَسِيسَا  
 تَحْمِي الْمَلَاتِكُ دُوحَهُ الْمَغْرُوسَا  
 وَرَمَيْتَ بِالتَّقْصِيرِ أَسْطَالِيسَا  
 مَا كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يُعْدِي سُوسَا ٥  
 بَحْسًا ، وَلَمْ يَكُ بَعْضُهُنَّ كَيْيسَا

١ البرجيس : المشتري .

٢ الجيس : المتدفق بفرارة .

٣ ق والبغية : كلف .

٤ السوس : الخليفة والسحبة .

٥ يعدي سوسا : يتجاوز السوس ، منطقة تستر ؛ وفي الأزهار : يعد سوسا أي ذا سيامة .

ولو الجوارى الحنّس انتسبت إلى  
 قُدّت الصعاب فكلُّ صعبٍ سامحٌ  
 تلقى الليوث وللقتامِ غمامةٌ  
 وكأنها تحت الدروعِ أراقمٌ  
 ما لابنِ مامةٍ في القديمِ وحاتمٍ  
 من جاء منهم مثلَ جودكِ كلِّما  
 أنت الذي افتكَّ السفينَ وأهله  
 أنت الذي أمددتَ نعرَ الله بالص  
 وأعنتَ أندلساً بكلِّ سبيكةٍ  
 وشحينةٍ بالبرِّ في سبيلِ الرضى  
 إن لم تجرَّ بها الخميسَ فطالما  
 وملأتَ أيديها وقد كادت على  
 صدقتَ للآمالِ صنعةَ جابرٍ  
 والحلِّ والتقطيرِ والتصعيدِ وال  
 فسبكتَ من آمالها مالا ، ومن  
 بهتوا فلما استخبروا لم ينكروا  
 وتُدِيرُ من قلبِ السطورِ سبائكاً  
 ونحوتَ نحوَ الفضلِ تعضدُ منه بال  
 وجبرتَ بعدَ الكسرِ قومكِ جاهداً

إقدامِ عزمكِ ما خسنَ خنوساً<sup>١</sup>  
 لك بالقيادِ وكانَ قبلُ شَموساً  
 قدَحَ الصفيحِ وميضها المقبوساً  
 ينظرونَ من خللِ المغافرِ شوساً  
 ضربَ الزمانُ بجودهم ناقوساً  
 حسبوا المكارمَ كسوةً أو كيساً  
 إذ أوسعتُ سبيلُ الخلاصِ طموساً  
 دقاتِ تَبْلِيسُ كَرَّةً لإليسا  
 موسومةٍ لا تعرفُ التَّدليسا  
 والبرِّ قاربِ قاعها القاموساً  
 جهزتَ فيها للنوالِ خميساً  
 حكمَ القضاءِ تُشافهُ التَّقليسا  
 وكفيتها التشميعِ والتشميساً<sup>٢</sup>  
 تخميرِ والتصويلِ والتكليساً<sup>٣</sup>  
 أوراقها ورقاً ، وكنَّ طُروساً  
 وزناً ولا لونا ولا ملموساً  
 منها ومن طبعِ الحروفِ فلوساً  
 مسموعِ ما ألفتِ منه مقيساً  
 تُغني العديمَ وتُطلقُ المحبوساً

١ هذا البيت والذي بعده سقطا من ق .

٢ ذكر جابر بن حيان وأردف ذلك بذكر بعض المصطلحات الكيميائية ؛ فالتشميع : تليين الشمع ،  
 والتشميس : تعريض المواد للشمس .

٣ الحل : التحليل الكيميائي ؛ والتقطير والتصعيد متشابهان . والتصويل : جعل الرواسب طافية  
 وهو تال للتكليس .

ونشرت راية عزهم من بعد ما  
أحكمت حيلة برئهم بلطافة  
وفلكت من حد الزمان وإنه  
وشحذت حداء كان قبل مثلماً  
لم ترج إلا الله جل جلاله  
قدمت صباحاً فاستضأت بنوره  
ما أنت إلا فالح متيقن  
ومتاجر جعل الأريكة سهوة  
ما إن تباع أو تشاري واثقاً  
والعزم يفرع النجوم بناؤه  
ومقام صبرك واتكالك مذكور  
ومن ارتضاه الله وفق سعيه  
ما ازددت بالتمحيص إلا جدة  
ولطالما طرق الحسوف أهلة  
ثم انجلت قسماتها عن مشرق  
خذها إليك على النوى سينية  
إن طوولت<sup>٢</sup> بالدر من حول الطل  
لولاك ما أصغت لخطبة خاطب  
قصدت سليمان الزمان وقاربت  
لي فيك ود لم أكن من بعد ما  
كم لي بصحة عقده من شاهد

دال الزمان فسامها تنكيسا  
قد أعجزت في الطب جالينوسا  
أوحى وأمضى من غرار الموسى  
ونعشت جداء كان قبل تعيسا  
في شدة تكفى وجرح يوسى  
ووجدت عند الشدة التنفيسا  
بالنجح تمرر ممرعاً ويبيسا  
عربية والمتكا القربوسا  
بالربح إلا المالك القدوسا  
مهما أقام على الثقى تأسيسا  
بجديسه الشبلي أو طساووسا  
فراى العظيم من الحظوظ خيسا  
ونضوت من خلع الزمان لبيسا  
ولطالما اعترض الكسوف شموسا  
للسعد ليس بحاذر تنعيسا  
ترضى الطباق وتشكر التجنيسا  
يوماً تشكت حظها الموكوسا  
ولعنست في بيتها تعيسا  
في الخطو تحسب نفسها بلقيسا  
أعطيت صفقة عهده لأخيسا  
لا يحذر التجريع والتدليس

١ البغية : الأمور .

٢ البغية : طوقت .

يقفو الشهادة باليمين ، وإنه  
لا يستقرُّ قرارُ أفكاري إلى  
وأرى تجاهك مستقيم السيرِ لا  
هي دينُ أيامي فإن سَمَحَتْ بهِ  
لا زالَ صنعُ اللهِ مجنوباً إلى  
مُتتَابِعاً كَتتَابِعِ الأيَامِ لا  
فلو أنصفتك إِيالةُ الملكِ التي  
قرنتُ بذكركَ والدعاءَ لكَ الذي  
القلبُ أنتَ لها رئيسُ حياتها

لمؤمنٌ من أن يُعدَّ فسيساً  
أن أستقرَّ لدى عُلَاكَ جليسا  
قصدِ الذي أعملتُه معكوسا  
لم يبق من شيءٍ عليه يوسى  
مَثوَاكَ يهدي البشرَ والتأنيسا  
يَذرُ التعاقبَ جمعةً وخميسا  
رُضتَ الزمانَ لها وكانَ شريسا  
تختارهُ التسبيحَ والتقديسا  
لم تُعتبرَ مهما صلحتَ رئيسا

ثم قال الحافظ التنسي رحمه الله تعالى بعد سرد هذه القصيدة ما معناه : إن  
لسان الدين ابن الخطيب حدًا في هذه القصيدة السنية حدّو أبي تمام في قصيدته  
التي أولها ٢ :

أَقشِبَ رَبْعَهُمُ أَرَاكَ دَرِيسَا      تَقْرِي ضِيوفَكَ لَوْعَةً وَرَاسِيَا

واختلس كثيراً من ألفاظها ومعانيها ؛ انتهى .

ووصل لسان الدين هذه القصيدة بنثرٍ بديعٍ نصه :

« هذه القصيدة - أبقى الله تعالى أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل  
المجموع ، والثناء المسموع ، والملك المنصور الجموع - نفثة من باح بسر  
هواه ٣ ، ولبي دعوة الشوق العابث بلبه وقد ظفر بمن يهدي خبر جواه ، إلى  
محل هواه ، ويختلس بعث تحيته ، إلى مثير أريحيته ، وهي بالنسبة إلى ما يعتقد

١ الفيس : الضعيف ؛ وفي ق ص : قيسا .

٢ ديوانه ٢ : ٢٦٢ .

٣ البغية : سر حبه .

من ذلك الكمال ، الشاذ عن الآمال ، عنوانٌ من كتاب ، وذواق من أوقار ذات أفتاب ، وإلاّ فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه ، أو يكافئ إحسانها إحسانه ، أو يستقل بوصفها يراعه ، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه ؟ ولا مكابرة بعد الاعتراف ، والبحر لا ينفدُ بالاغتراف ، لا سيما وذاتكم اليومَ والله تعالى يبقئها ، ومن المكاره يبقئها ، وفي معارج القرب من حضرة القدس يرقئها ، يا قوته اختارها واعتبرها ، ثمّ ابتلاها بالتمحيص في سبيل التخصيص واختبرها ، وسيكة أخلصها مسجرتها ، فخلصها بتسجيده من الشوب ، وأبرزها من لباب الذوب<sup>١</sup> ، وقصرت عن هذه الأثمان ، وسرّ بصدق دعواه البهرمان<sup>٢</sup> ، ليفاضل بين الجهم والصيّب ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ (الأنفال : ٢٧) فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة ، وعرفكم بنفسه في حال الشدة ، ثمّ فسح لكم بعد ذلك في المدة ، لتعرفوه إذا دال الرخاء ، وهبت بعد تلك الزعازع الريحُ الرُخاء ، وملاكم من التجارب ، وأوردكم من أطفاه أعذب المشارب ، ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلاته ، ولم يسلبكم إلاّ حقيراً عند أولياته ، وأعادكم المعاد المُطهر ، وألبسكم من أثواب اختصاصه المُعلم المشهر ، فأتم اليوم بعين العناية ، بالإفصاح والكناية ، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالحناية ، فإن كان الملك اليوم عالماً يدرس ، وقوانين في قوّة الحفظ تُغرس ، وبضاعة برصد التجارب تُحرس ، فأتم مالك دار هجرته المحسوبة ، وأصمعي شعوبه المنسوبة ، إلى ما حزتم من أشتات الكمال ، المُربّية على الآمال ، فالييت علوي المتسب ، والملك بين الموروث والمكتسب ، والجود يعترف به الوجود ، والدين يشهد به الركوع والسجود ، والبأس تعرفه التهائم والنُجود ، والخلق يحسده الروض المسجود ، والشعر يغترف من عذب نمير ، ويصدق ما قال : بدىء بأمرٍ وختم بأمرٍ ، وإن مملوككم حوم

١ ق : أخلصها وشجرها فخلصتها الشخيرة من الشوب وأبرزتها من لباب الذوب ؛ وكذلك هي في أصول الأزهار ؛ وفي البنية : خلصها وشجرها فخلصتها السخيرة من الشوب . . . الخ .  
٢ البنية : يصدق دعوته البرهان ؛ والبهرمان : العصفور .

من بابكم على العذب البرود ، فعاقه الدهر عن الورود ، واستقبل أفقه ليحقق الرصد ، ولكنه أخطأ القصد ، ومن أخطأ الغرض أعاد ، ورجا من الزمان الإسعاد ، فربما حُبِيء نصيب ، أو كان مع الخواطيء سهم مصيب<sup>١</sup> ، وكان يؤمل صحة ركاب الحجاز ، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز ، وقطعت القواطع التي لم ينلها الحساب ، ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب ، ومن طلب الأيام أن تجري على اقتراحه ، وجب العمل على اطراحه ، فإنما هي البحر الزاخر ، الذي لا يدرك منه الآخر ، والرياح متغيرة ، والسفينة الحائرة ، فتارة يتعذر من المرسى الصرف ، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتد الطرف ، هذا إن سلمها عطبها ، وأعفي من الوقود حطبها ، ولقد علم الله جل جلاله أن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب ، ممن يجبر كسر القلوب ، فإنه مما انعقد على كماله الإجماع ، وصح في عوالي معاليه السماع ، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع ، أخلاقاً هذبها الكرم الوضاح ، وسجية كلف بها الكمال الفضح ، وحرصاً على الذكر الجميل وما يتنافس فيه إلا من سمته همته ، وكرمت ذممه ، وألفت الخلد رمه ، إذ الوجود سراب ، وما فوق التراب تراب ، ولا يبقى إلا عمل راق ، أو ذكر بالجميل يسطر في أوراق ، حسبما قلت من قصيدة كتبها على ظهر مكتوب موضوع أشار به من كانت له طاعة ، فوفت بمقرحه استطاعة :

يمضي الزمان وكلُّ فانٍ ذاهبٌ	إلا جميلُ الذكرِ فهو الباقي
لم يبقَ من إيوانِ كسرى بعد ذا	كـ الحفلِ إلاّ الذكر في الأوراقِ
هل كان للسفاح والمنصور والـ	مهديّ من ذكر على الإطلاقِ
أو للرشيدِ وللأمينِ وصنوه	لولا شباة يراعة الوراقِ
رجع التراب إلى التراب بما اقتضتْ	في كلّ خلقتِ حكمة الخلاقِ

١ أصله من المثل « مع الخواطيء سهم صائب » .

إلاّ الشّناء الخالد العطر الشّدا يهدي حديث مكارم الأخلاق

والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب ، أن يمكنها من حسن المناب ، فتحتظى بحلول  
ساحته ، ثمّ بلمّ راحته ، ثمّ بالإصغاء ، ولا مزيد للابتغاء ، إلى أن ترتفع الوساطة ،  
وتغني عن التركيب البساطة ، ويُنسى الأثر بالعين ، ويحسن الدهر قضاء الدين ،  
ونسأل الذي أغرى بها القريحة ، ولم يجعل الباعث إلاّ المحبة الصريحة ، أن يبقي  
تلك المثابة زينةً للزمان ، وذخراً مكنوفاً باليمن والأمان ، مظلاًّ برحمة الرحمن ،  
بفضله وكرمه ؛ انتهى .

١٣ - وممّا كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى إلى الشيخ الرئيس الخطيب  
شيخه أبي عبد الله ابن مرزوق رحمه الله تعالى حين كانت أزمّة أمر المغرب بيده  
أيام السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني رحم الله تعالى الجميع ، ما  
صورته :

« سيدي بل مالكي بل شافعي ، ومُنْتَشِلِي<sup>١</sup> من الهفوة ورافعي ، وعاصمي  
عند تجويد حروف الصنائع ونافمي ، الذي يجاهه أجزلت المنازل قيراي ، وقضت  
أولاي والمئة لله تعالى أخراي ، وأصبحت وقول الحسن<sup>٢</sup> هجيراي :

علقتُ بجبلٍ من حبالِ محمدٍ      أمنتُ به من طارقِ الحدّثانِ  
تغطيتُ من دهري بظلّ جناحه      فعيني ترى دهري وليس يراني  
فلو تُسألُ الأيامُ ما اسمي ما درتُ      وأين مكاني ما عرفن مكاني

وصلت مكناسة حرسها الله تعالى حداني حدو نذاك ، سحائب لولا الخصال المبرة  
قلت : يداك<sup>٣</sup> ، وكان الوطن لاغتيابه بجوارِي ، أو ما رآه من انتياب زوآري ،

١ ق : ومنشلي .

٢ يعني أبا نواس ، والأبيات في ديوانه : ٩٧ .

٣ ق : قبلت يداك ؛ فاقضى التصويب ، والمبرة : الزائدة على خصال السحائب هنا .



أوغر إلى بهت يقطع الطريق ، وأطلع يده على التفريق ، وأشرق القوافل مع كثرة الماء بالريق ، فلم يسع إلاّ المقام أياماً قعوداً في البر وقياماً ، واختياراً لضروب الأُنس واعتيماً ، ورأيت بلدة معارفها أعلام ، وهوأؤها برد وسلام ، ومحاسنها تعمل فيها السنة وأقلام ، فحياً الله تعالى سيدي فلکم من فضل أفاد ، وأنس أحياء وقد باد ، وحفظ منه على الأيام الذخر والعَتَاد ، كما ملكه زمام الكمال فاقتاد ، وأنا أظارح عليه في صِلَات تَفَقَّدِهِ ، وموالاته يده ، بأن يُسهمني في فرض مخاطبته مهما خاطب معتبراً بهذه الجهات ، ويصحبني من مناصحته بكَوُوس مسرة يعمل فيها هالك وهات ، فالعز بعزه معقود ، والسعد بوجوده موجود ، ومنههكُ السرور بسروره مورود ، والله عز وجل يُبقيه بقاء الدهر ، ويجعل حُبّه وظيفة السر وحمّده وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزهر ، ويصل لنا تحت إيلته العام بالعام والشهر بالشهر ، آمين آمين « انتهى .

١٤ - وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى صاحب الأشغال بالمغرب أبا عبد الله ابن أبي القاسم بن أبي مَدِين يهنيه بتقلد المنصب من رسالة قوله :

تعودُ الأمانِيُّ بعدَ انصرافِ      ويعتدلُ الشِيءُ بعدَ انحرافِ  
فإن كان دهرُكَ يوماً جتِي      فقد جاء ذا خجلٍ واعترافِ

طلع البشير أبقاك الله تعالى بقبول الخلافة المرينية ، والإمامة السنية ، خصها الله تعالى ببلوغ الأمانة ، على تلك الذات التي طابت أرومتها وزكت ، وتأوّهت العلياء لتذكر عهدها وبكت ، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارث الذي تركت ، فلولا العذر الذي تأكدت ضرورته ، والمانع الذي ربما تقررت لديكم صورته ، لكنك أول مشافه بالثناء ، ومصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ، بنقود الحمد لله والثناء ، وهي طويلة .

١٥ - وممّا خاطب به رحمه الله تعالى قاضي الجماعة وقد نالته مشقة

جرَّها غلطُ الخدَّامِ السَّوءِ واشتراكِ الأسماءِ ، أعتبه عندها السلطانُ وخلع عليه  
وأشاد بقدره بما نصه :

تعرفتُ أمراً ساعني ثمَّ سرَّني وفي صحَّةِ الأيامِ لا بد من مرَّضٍ  
تعمدك المحبوبِ بالذاتِ بعدما جرى ضده ، والله يكفيه بالعرضِ

في مثلها سيدي يُحمَّد الاختصار ، وتُقصِّر الأنصار ، وتُصرف الأبصار ،  
إذ لم يتعين ظالم ، ولم يتبين يقظ ولا حالم ، وإنما هي هدية أجر ، وحقيقة وصل  
أعقبت مجاز هجر ، وجرح جُبَّار ، وأمر ليس به اعتبار ، ووقية لم يكن فيها  
إلا غُبَّار ، وعثرة القدم لا تُنكَّر ، والله سبحانه يُحمَّد في كلِّ حالة ويُشكَّر ،  
وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يشبَّه شائب ، وحسن الولاية لم يعبه عائب ، والرعي  
دائب ، والجاني تائب ، فما هو إلا الدهر الحسود ، لمن يسود ، خَمَشَ بيد ثمَّ  
سرها ، ورمى عن قوس ما أصلحها - والحمد لله - ولا أوترها ، إنما باء بشينه ،  
وجنى من مزيد العناية محنة عينه ، ولا اعتراض على قدر ، أعقب بحظ معتذر ،  
وورد نَعَصَ بكدر ، ثمَّ أنَّسَ بإكرام<sup>٢</sup> صدر ، وحسبنا أن نحمد الدفاع من  
الله تعالى والذب ، ولا نقول مع الكعظم إلا ما يُرضي الرب ، وإذا سابق أولياء  
سيدي في مضممار ، وحماية ذمار ، واستباق إلى بر وابتدار ، بجهد اقتدار ،  
فأنا ولا فخر متناول القصبية ، وصاحب الدَّين من بين العصبية<sup>٣</sup> ، لما بلوت من  
بر أوجه الحسب ، والفضل الموروث والمكتسب ، ونصح وضح منه المذهب ،  
وتنفيق راق منه الرداء المُذْهَب ، هذا مُجْمَلُ وبيانه إلى وقت الحاجة مؤخَّر ،  
ونبذة شره لتعجيلها يراعُ مسخَّر ، والله سبحانه يعلم ما أنطوي عليه لسيدي من  
إيجاب الحق ، والسير من إجلاله على أوضح الطرق ، والسلام ؛ انتهى .

١ ق : وتطرف .

٢ ق : بأكرم .

٣ العصبية : الأقرباء من جهة الأب .

١٦ - وقال رحمه الله تعالى : خاطبتُ بعضَ الفضلاء بقولي ممّا يظهر  
من الجملة غرضه :

تعرفتُ قُرْبَ الدارِ ممّن أُحِبُّهُ فكنْتُ أُجِدُّ السيرَ لولا ضرورة  
لأتلُوَ من آيِ المحامدِ سورةً وأبصرَ من شخصِ المحاسنِ صُورةً

كنت أبقاك الله تعالى لاغتباطي بولائك ، وسروري بلقائك ، أود أن أطوي إليك  
هذه المرحلة ، وأجدّد العهد بلُصِيَاكِ المؤمّلة ، فمنع مانع ، وما ندرني في الآي  
ما الله صانع ، وعلى كل حال فشأنني قد وضح منه سبيل مسلوك ، وعلمه مالك  
ومملوك ، واعتقادي أكثر ممّا تسعه العبارة ، والألفاظ المستعارة ، وموصّلها  
ينوب عني في شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة ، المتصفّة بالعفاف  
والطهارة ، والسلام .

١٧ - وقال سامحه الله تعالى يخاطب السلطان أبا عبد الله ابن نصر جبره الله  
تعالى عند وصول ولده من الأندلس :

الدهرُ أضيّقُ فُسْحَةَ من أن يُرى بالحزنِ والكمَدِ المضاعفِ يُقطعُ  
وإذا قَطَعْتَ زمانه في كربة ضيعتَ في الأوهامِ ما لا يرجعُ  
فاقنعُ بما أعطاك ربكَ واغتم منه السرورَ وخلّ ما لا ينفعُ

مولاي الذي له المتنّ ، والخلّلق الجميل والخلّلق الحسن ، والمجد الذي وضع  
منه الستنّ ، كتبه عبدك مهنتاً بنعم الله تعالى التي أفاضها عليك ، وجلبها إليك ،  
من اجتماع شملك ، بنجلك ، وقضاء دينك ، من قرة عينك ، إلى ما تقدم  
من إفلاتك ، وسلامة ذاتك ، وتمزق أعدائك ، وانفرادك بأودائك ، والزمن ساعة  
في القيصّر ، لا بل كلمّح البصر ، وكأني بالبساط قد طوي ، والتراب على  
الكل قد سوي ، فلا تبقى غبطة ولا حسرة ، ولا كربة ولا يسرة ، وإذا نظرت

ما كنت فيه تجدك لا تنال منه إلا أكلة و فراشاً ، و كيناً و ريشاً ، مع توقع الوقائع و ارتقاب الفجائع ، و دعاء المظلوم و صداع الجائع ، فقد حصل ما كان عليه التعب ، و أمن الرهب ، و وضح الأجر المذهب ، و القدرة باقية ، و الأدعية راقية<sup>١</sup> ، و ما تدري ما تحكم به الأقدار ، و يتمخض عنه الليل و النهار ، و أنت اليوم على زمانك بالخيار ، فإن اعتبرت الحال و اجتنبت المحال ، لم يخف عليك أنك اليوم خير منك أمس ، من غير شك و لا لبس ، و كان من أملي التوجه إلى رؤية و لدكم ولكن عارضتني موانع ، و لا ندري في الآتي ما الله تعالى صانع ، فاستنبت هذه في تقبيل قدّمه ، و الهناء بمقدمه ، و السلام .

١٨ — و قال رحمه الله تعالى : قلت أخاطب محمد بن نوار ، و قد أعرس بنت مزوار الدار السلطانية ، و هو معروف بالوسامة و حسن الصورة :

إن كنت في العرسِ ذا قصورٍ فلا حضورٌ ولا دخاله<sup>٢</sup>  
 ينوبُ نظمي منابَ تيسٍ والنثرُ عن قفّة النخاله<sup>٣</sup>

هناك الله سبحانه دعاء و خبراً ، و ألبسكم من السرور حبيراً ، و عوذكم بالحمس ، حتى من عين الشمس ، فلعمري لقد حصلت النسبة ، و رضيت هذه المعيشة الحسبة ، و من يكن المزوار ذواقه<sup>٣</sup> ، كيف لا يشق البدر أطواقه ، و ينشر القبول عليه رواقه ، و أنتم أيضاً بركان جمال ، و بقية رأس مال ، و يمين في الانطباع و شمال ، بمنزلكم اليوم بدرٌ و هلال ، و لعقد التوفيق بفضل الله تعالى استقلال ، فأنا أهنيكم بتسّي أمانيكم ، و السلام .

١٩ — و قال رحمه الله تعالى مخاطباً عميد مراكش المتميز بالرأي و السياسة

١ كذا في ق ، و لعلها أن تقرأ « واقية » .  
 ٢ الدخالة : الهدية .  
 ٣ لست مطمئناً إلى أن اللفظة صحيحة .

والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجاني عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي  
الهنثاني<sup>١</sup> :

تقولُ ليَ الأَطعانُ والشوقُ في الحشا      لهُ الحُكْمُ يمضي بين ناهٍ وأمرٍ  
إذا جبلَ التوحيدِ أصبحتَ فارعاً      فخيِّمَ قَرارَ العَيْنِ في دارِ عامرٍ  
وزُرُ تربةَ المَعْلومِ إنَّ مزارها      هو الحجُّ يُفْضي نحوهُ كلُّ ضامرٍ  
ستَلقي بمتوى عامرٍ بن محمدٍ      ثغورَ الأمانِ من ثنايا البشائرِ  
وللهِ ما تبلوهُ من سَعَدٍ وجهِهِ      وللهِ ما تلقاهُ من يُمنِ طائرِ  
وتستعملُ الأمثالُ في الدهرِ منكما      بخيرِ مَزورٍ أو بأغبطِ زائرِ

لم يكن همي أبقاك الله تعالى مع فراغ البال ، وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام  
والليال ، إذ الشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهر مطيع سميع ، إلا  
زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان ،  
وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية ، وكانت إليه العودة ومنه البداية ،  
فلما حُمَّ الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الواقع ، وأصبحت ديار  
الأندلس وهي البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياي المواقع ، وقوي العزم وإن  
لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفاً ، والتمست  
الإذن حتى لا نرى في قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند  
للعزم مقدوح ، والله سبحانه يحقق السؤل ، ويسهل بمتوى الأمائل المثول ، ويهييء  
من قبل هتاتة القبول ، بفضله .

٢٠ — وللسان الدين ابن الخطيب مقامة عظيمة بديعة وصف بها بلاد الأندلس

١ كان أبو ثابت عامر بن محمد الهنثاني كبير جبل درن والبلاد المراكشية ، وقد وفد على أبي زيان  
ابن أبي عبد الرحمن فأكرمه سنة ٧٦٣ ، فلما عاد إلى بلده كان كأنه حاكم مستقل فيها ، وكان  
ذلك فاتحة انتقاضات كثيرة إلى أن هلك عامر على يد السلطان عبد العزيز ، كما يذكره المقرئ في  
ما يلي (ص: ٢١٩) وهذه القصيدة والرسالة في الاستقصا ٤ : ١٧ ومشاهدات لسان الدين : ١٢٠ .

والعدوة ، وأتى فيها من دلائل براعته بالعجب العُجاب ، وقد تركتها مع كتيبي  
 بالمغرب ، ولم يحضرني منها الآن إلاّ قوله في وصف مدينة سبتة ما صورته :  
 « قلت : فمدينة سبتة ، قال <sup>١</sup> : عروس المجلى ، وثنية الصباح الأجلى ،  
 تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر في المرأة الصقيلة ، واختص  
 ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ، وإذا قامت بيض أسوارها ، وكان جبل بنيونش <sup>٢</sup>  
 شمّامة أزهارها ، والمنارة منارة أنوارها <sup>٣</sup> ، كيف لا ترغب النفوس في جوارها ،  
 وتهيم <sup>٤</sup> الخواطر بين أنجادها وأغوارها ؟ إلى المينا الفلّكية ، والمراقي <sup>٥</sup> الفلّكية ،  
 والركية الزكية ، غير المتزورة ولا البكية ، ذات الوقود الحزل ، المعد للأزل ، والقصور  
 المقصورة على الجدد والهزل ، والوجوه الزهر السّحن ، المصنون بها عن المحن ،  
 دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحرب الناشبة ، والأسطول المهوب ، المحذور  
 الأهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والأثر المعروف المنسوب ، كرسى  
 الأمراء والأشراف ، والوسيلة ، لخامس أقاليم <sup>٦</sup> البسيطة ، فلا حظّ لها في الانحراف ،  
 بصرة علوم اللسان ، وصنعاء الحُلل الحسان ، وثمرّة امتثال قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ  
 يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (النحل : ٩٠) الأمانة على الاختزان ، القويمة المكيال  
 والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل العصير والحريير والكتّان ، وكفاها  
 السكنى بينونش في فصول الأزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان ،  
 والمدفن المرحوم ، غير المرحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة  
 الحلوم ، إلاّ أنها فاغرة أفواه الجنوب ، للغيث المصبوب <sup>٧</sup> ، عرضة للرياح ذات

١ انظر هذا النص في مشاهدات لسان الدين : ١٠١ .

٢ بنيونش ( Baliunech ) : قرية إلى الغرب من سبتة .

٣ المشاهدات : شوارها .

٤ المشاهدات : وتعيم .

٥ المشاهدات : والمراسي .

٦ ق : الأقاليم .

٧ ق : المصبوب .

الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب ، وناهيك بحسنة تُعدُّ من الذنوب ، فأحوال أهلها رقيقة ، وتكلّفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة ، فهم يمصون البلالة مصّ المحاجم ، ويجعلون الخبز في الولايم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم ، وراعي الحديد بالمطر الساجم ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة ، الشك عندي في مكة والمدينة « انتهى .

وقد سلك في هذه المقامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتفنية ، ووفّأها من المدح وضده أكمل توفية ، وعكس هذه الطريقة في « نفاضة الجراب » فوصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع ، مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القُرَاب .

٢١ - فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينة « مكناسة الزيتون » :  
وأطّلت مدينة مكناسة في مظهر النجد ، رافلة في حلل الدوح ، مبتسمة عن شنب  
المياه العذبة ، سافرة عن أجمل المراد ، قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى ،  
قيد النص وفذلكة الحسن ، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضماً  
من بلد دارت به المداشر<sup>١</sup> المغلّة ، والتفت بسوره الزياتين المفيدة ، وراق بخارجه  
للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف ، ورحب ساحة والتفاف شجرة  
ونباهة بنية وإشراف ربوة ، ومثلت بإزائها الزاوية القُدّمي المعدة للوراد<sup>٢</sup> ،  
ذات البركة النامية ، والمثذنة السامية ، والمرافق المتيسرة ، يصاحبها الخان البديع  
المنصب الحصين الغلّقى الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض يتغنون من فضل الله

١ المداشر : القرى أو المزارع .

٢ ق : للوراد .

تعالى ، تقابلها غرباً الزاوية الحديثة المرية برونق الشيبية ومزية الجدة والانفساح  
وتفنن الاحتفال ، إلى أن قال : وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم ، كلفت  
بها الملوك اجلة الهمم ، وأخذها التنجيد ، فجاءت فائقة الحسن ، ما شئت من  
أبواب نحاسية ، وبرك فياضة تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية ، وفيها خزائن  
الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين ، وتفضل هذه المدينة كثيراً من  
لِداتها بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداومة البر  
لجوار ترابها سليماً من الفساد معافى من العفن ، إذ تقام ساحات منازلها غالباً  
على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث ويصحبها التعمير وتتجافى عنها  
الأرض ، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمّة ، قال ابن عبدون من أهلها والله دره :

إن تفتخر فاسٌ بمسا في طيِّها وبأنهها في زيِّها حسناء  
يكفيك من مكناسة أرجاؤها والأطيان : هواؤها والماء

ويُسَامَتها شرقاً جبل زرهون ، المنبجس العيون ، الظاهر البركة ، المتزاحم  
العمران ، الكثير الزياتين والأشجار ، قد جلله سكرأ ورزقاً حسناً ، فهو عنصر  
الخير ، ومادة المجبى ، وفي المدينة دور نبيهة ، وبنى أصيلة ، والله سبحانه  
ولي من اشتملت عليه بقدرته ، وفيها أقول :

بالحسن من مكناسة الزيتون قد صحَّ عُدْرُ الناظرِ المفتونِ  
فضلُ الهواءِ وصحةُ الماءِ الذي يجري بها وسلامةُ المخزونِ  
سَحَتْ عليها كلُّ عينِ ثرةٍ للمزنِ هاميةِ الغمامِ هتونِ  
فاحمرَّ خدُّ الوردِ بينَ أباطحِ وافترَّ ثغرُ الزهرِ بينَ غصونِ  
ولقد كفاها شاهداً مهما ادعتْ قصبَ السباقِ القربُ من زرهونِ  
جبلٌ تضحكتِ البروقُ بجوهِه فبكتْ عذابُ عيونهِ بعيونِ



وكأنما هو بربري فاقسد<sup>١</sup> في لوحه والتين والزيتون  
 حبيبت من بلد خصيب أرضه مثنوى أمان أو مناخ أمون  
 وضفت عليك من الإله عناية<sup>٢</sup> تكسوك ثوبتي أمنة وسكون

٢٢ - وقد وصفها في مقامة البلدان على منوال السجع فقال<sup>١</sup> : مكناسة  
 مدينة أصيلة ، وشعب للمحاسن وفصيلة ، فضّلها الله تعالى ورعاها ، وأخرج  
 منها ماءها ومرعاها ، فجانبها مريع ، وخيرها سريع ، ووضعها له في فقه  
 الفضائل تفرّيع ، اعتدل فيها الزمان ، وانسدل الأمان ، وفاقت الفواكه فواكهها  
 ولا سيما الرمان ، وحفظ أقواتها الاختزان ، ولطفت فيها الأواني والكيزان ،  
 ودنا من الحضرة جوارها ، فكثرت قصّادها من الوزراء وزوّارها ، وبها المدارس  
 والفقهاء ، ولقصبتهما الأبهة والمقاصير والأبهاء .

[ تعليق للمقري ]

ويعني بالحضرة مدينة فاس المحروسة لأنها إذ ذاك كرسي الخلافة ، ومكناسة  
 مقر الوزارة ، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التي فيها كرسي الخلافة بالحضرة .  
 قلت : دخلت مكناسة هذه مراراً عديدة ، وقد أبلى الدهر محاسنها التي كانت  
 في زمان لسان الدين<sup>٢</sup> ابن الخطيب جديدة ، واستولى عليها الخراب ، وتكدر منها  
 بالفتن الشراب ، وعاث في ظاهرها الأعراب ، وفي باطنها سمسرة الفتنة العائقة  
 عن كثير من الآراب ، حتى صار أهلها حزينين ، لبس كثير من أهلها ثياب  
 البعد عنها والبين ، والله تعالى يجبرُ حالها ، ويعقب بالخصب إجمالها ، ويرحم الله  
 تعالى ابن جابر إذ قال :

لا تنكرن الحسن من مكناسة فالحسن لم يبرح بها معروفا  
 ولئن محت أيدي الزمان رسومها فلربما أبقّت هناك حروفا

١ كذا في ق ، ولعلها « ناقد » .

٢ انظر مشاهدات لسان الدين : ١٠٩ .

على أن ضواحيها كانت في زمان لسان الدين ماوى للمحاربين والاصوص ، ومثوى  
للأعراب الذين أعضل داؤهم بأقطار المغرب على العموم والخصوص ، ولذلك  
يقول لسان الدين رحمه الله تعالى :

مكناسة حُشِرَتْ بها زُمُرُ العدا فمدى بريدٍ فيه ألفُ مريدٍ  
من واصل للجوع لا لرياضة أو لابسٍ للصوف غير مُريدٍ  
فإذا سَلَكَتْ طريقَهَا متصوفاً فانو السلوكَ بها على التجريدِ

وما أشار إليه رحمه الله تعالى فيما سبق من ذكر الزاوية القُدُمى والجديدة أشار  
به إلى زاويتين بناهما السلطان أبو الحسن المريني الكثير الآثار بالمغرب الأقصى  
الأوسط والأندلس ، وكان بنى الزاوية القُدُمى في زمان أبيه السلطان أبي سعيد  
والجديدة حين تولى الخلافة ، وله في هذه المدينة غير الزاويتين المذكورتين عدّة  
آثار كثيرة جميلة من القناطر والسقايات وغيرها ، ومن أجل ماآثره بها المدرسة  
الجديدة ، وكان قدّم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ، ولما أخبر  
السلطان بتمام بنائها جاء إليها من فاس ليراها ، فقعده على كرسي من كراسي  
الوضوء حول صهريجها ، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها ،  
فغرّقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها ، وأنشد :

لا بأسَ بالغالي إذا قيلَ حَسَنٌ ليسَ لما قرَّتْ بهِ العينُ ثَمَنٌ

وهذا السلطان أبو الحسن أشهر ملوك بني مرين ، وأبعدهم صيتاً ، وكان قد ملك  
رحمه الله تعالى المغرب بأسره وبعض الأندلس ، وامتد ملكه إلى طرابلس الغرب ،  
ثمّ حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل أعراب إفريقيا ، فغدره  
بنو عبد الواد الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان ، وانتهزوا الفرصة فيه ، وهربوا  
إلى الأعراب عند المصافة ، فاختل مصافه ، وهُزِمَ أقبح هزيمة ، ورجع إلى تونس  
مغلوباً ، وركب البحر في أساطيله ، وكانت نحو الستمائة من السفن ، ففضى الله  
تعالى أن غرقت جميعاً ، ونجا على لوح ، وهلك من كان معه من أعلام المغرب ،

وهم نحو أربعمائة عالم<sup>١</sup> ، منهم السطحي شارح الحوفي ، وابن الصباغ الذي أُملي في مجلس درسه بمكناسة على حديث « يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْر<sup>٢</sup> » أربعمائة فائدة . قال الأستاذ أبو عبد الله ابن غازي رحمه الله تعالى : حدثني بعضُ أعيان الأصحاب أنه بلغه أن الفقيه ابن الصباغ المذكور سُمِعَ بمنصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاتب لنفسه<sup>٣</sup> :

يا قلبُ كيفَ وقعتَ في أشراكهم      ولقد عهدتُكَ تحذُرُ الأشركا  
أرضيَ بذلِّ في هَوَى وصبايةٍ      هذا لعمرُ اللهِ قدْ أشقاكا

ومات رحمه الله تعالى غريقاً في أسطول السلطان أبي الحسن المريني على ساحل تدلس<sup>٥</sup> هو والفقيه السطحي والأستاذ الزواوي وغير واحد في نكبة السلطان أبي الحسن المعروفة .

ومن نظم ابن الصباغ المذكور في العلاقات المعبرة في المجاز وفي المرجحات له قوله رحمه الله تعالى :

يا سائلاً حَصَرَ العلاقاتِ التي      وضعُ المجازِ بها يسوغُ ويحملُ  
خُذْهَا مرتبةً وكلُّ مقابلٍ      حكمُ المقابلِ فيه حقاً يحملُ  
عن ذكر ملزومٍ يعوّضُ لازمٌ      وكذا بعلتهِ يعاضُ معللُ  
وعن المعممِ يستعاضُ مخصّصٌ      وكذلك عن جزءِ ينوبُ المكملُ  
وعن المحلِّ ينوبُ ما قد حلّه      والحذفُ للتخفيفِ ممّا يسهلُ  
وعن المضافِ إليهِ نابَ مضافه      والضدُّ عن أضدادهِ مُستعملُ

١ عرف ابن خلدون في كتاب التعريف ببعض من كان في صحبة أبي الحسن من العلماء ، وانظر كلامه عن ابن الصباغ ص : ٤٥ .

٢ النغير : تصغير نغر وهو طائر صغير أحمر المنقار .

٣ ورد البيتان دون نسبة في مشارق أنوار القلوب : ٦٠ .

٤ مشارق : أبدأً تعالى الله ما .

٥ تدلس : مدينة على ساحل الجزائر .

والشبه في صفة تبيين وصوره  
والشيء يسمى باسم ما قد كانه  
وضع المجاور في مكانه جاره  
واجعل مكان الشيء آتته، وحىء  
ومعرف عن مطلق وبه انتهت  
وبكثرة وبلاغة ولزومه  
ومن المقيد مطلق قد يُبدلُ  
وكذلك يُسمى بالبدل المبدلُ  
وبهذه حكمُ التعاكس يكملُ  
بمنكّرٍ قَصْدَ العموم فيحصلُ  
وبحلّها حكمُ التداخل يشملُ  
لحقيقة رجحانه يتحصّلُ

انتهى كلام شيخ شيوخ شيوخنا الإمام أبي عبد الله محمد بن غازي رحمه الله تعالى .  
وقد حكى ابن غازي المذكور عن شيخه القوري عن شيخه ابن جابر أن ابن  
الصباغ المذكور اعترض على القاضي ابن عبد السلام التونسي ، قال : لما لقي ابن  
الصباغ بتونس اعترض عليه ابن الصباغ أربع عشرة مسألة لم ينفصل عن واحدة  
منها ، بل أقرّ بالخطأ فيها ، إذ ليس ينبغي اتصاف بالكمال ، إلاّ لربي الكبير  
المتعال ؛ انتهى .

وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبّي رحمه الله تعالى في « شرح مسلم » عند  
تكلمه على أحاديث العين ما معناه أن رجلاً كان بتلك الديار معروفاً بإصابة العين ،  
فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين ، وكانت  
كثيرة نحو الستمائة ، فنظر إليها الرجل العائن ، فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل  
ما يشاء ، ونجا السلطان برأسه ، وجرت عليه محن ، واستولى ولده السلطان أبو  
عنان فارس على ملكه ، وكان خلّفه بتلمسان ، ولم يزل في اضطراب حتى ذهب  
إلى سجلماسة ، ومنها خلاص إلى جبل هنتاة قرب مراکش ، فذهب إلى حربه  
ابنه السلطان أبو عنان فارس بجيوشه ، وأناخ على الجبل بكتلكه ، ولم تخفر أهل  
هنتاة جواره لديهم ، ولا كبيراهم عامر بن محمد وأخوه ، وصبروا على الحصار  
وخراب الديار ، وحرقت الأماكن ، حتى مات هناك رحمه الله تعالى ونُقل بعدُ  
إلى شالة سلا ممدفن أسلافه ، ومن أراد الوقوف على أخباره فعليه بكتاب الخطيب

ابن مرزوق الذي ألفه فيه وسماه « المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن » .

ولما ذهب لسان الدين ابن الخطيب إلى عامر بن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور ، وقد ألمّ بذكر ذلك في « نفاضة الجراب » إذ قال : وشاهدت بجبل هنتاة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله تعالى ، حيث أصابه طارق الأجل ، الذي فصل الخطبة ، وأصمت الدعوة ، ورفع المنازعة ، وعايته مرفعاً عن الابتدال بالسكنى مفترشاً بالحصباء ، مقصوداً بالابتهاال والدعاء ، فلم أبرح يوم زيارة محل وفاته أن قلت :

يا حسنها من أربُعٍ وديارِ أضحت لباغي الأمنِ دارَ قرارِ  
وجبالٍ عزٍّ لا تذُلُّ أنوفها إلا لعزِّ الواحدِ القهارِ  
ومقرِّ توحيدٍ وأسِّ خلافةٍ آثارها تُنبئني عن الأخبارِ  
ما كنتُ أحسبُ أنْ أنهارَ الندى تجري بها في جملةِ الأنهارِ  
ما كنتُ أحسبُ أنْ أنوارَ الحجى تلتاحُ في قُننٍ وفي أحجارِ  
مَحَّتْ جوانبها البرودُ ، وإن تكنْ شبتُ بها الأعداءُ جدوةَ نارِ  
هدَّتْ بناها في سبيلِ وفائها فكأنها صرعى بغيرِ عفارِ  
لما توعدّها على المجدِ العدا رضيتْ بعَيْثِ النارِ لا بالعارِ  
عمرتْ بجِلَّةِ عامرٍ وأعزّها عبدُ العزيزِ بمرهفِ بتارِ  
فرسا رهانِ أحرزا قصبَ الندى والبأسِ في طلقٍ وفي مضمارِ  
ورثا عن النَّدْبِ الكبيرِ أبيهما مَحْضَ الوفاءِ ورفعةَ المقدارِ  
وكذا الفروعُ تطولُ وهي شبيهةُ بالأصلِ في ورقٍ وفي أثمارِ  
أزرتْ وجوهُ الصَّيْدِ من هنتاةِ في جوها بمطالعِ الأقمارِ  
للهِ أيُّ قبيلةٍ تركتْ لها آلِ نظراءِ دعوى الفخرِ يومَ فخارِ

نصرت أميرَ المسلمينَ وملكه<sup>١</sup> وارت<sup>١</sup> علياً عندما ذهب الردى  
 وتحاذلَ الجيشُ اللّهامُ واصبحَ الـ  
 كفرت صنائعه فيتمّ دارها  
 وأقامَ بينَ ظهورها لا يتقي  
 فكأنها الأنصارُ لما أتست<sup>٢</sup>  
 لما غدا لحظاً وهم أجفانه<sup>٢</sup>  
 حتى دعاهُ اللهُ بينَ بيوتهم  
 لو كان يمنعُ من قضاء الله ما  
 قد كان يأملُ أن يكافئ بعض ما  
 ما كان يقنعه لو امتدّ المدى  
 فيعيدُ ذاكَ الماءَ ذائبَ فضةٍ  
 حتى تفوزَ على النوى أوطانها  
 حتى يلوحَ على وجوه وجوههم  
 ويسوغُ الأملَ القصيَّ كرامها  
 ما كان يرضى الشمسَ أو بدر الدجى  
 أو أن يتوجَّ أو يقلدَ هامها  
 حتى على المولى ابنه ليثارُ ما  
 فلمثلها ذخيرَ الجزاءِ ، ومثله<sup>٣</sup>  
 وهو الذي يقضي الديونَ وبره<sup>٣</sup>  
 حتى تحجَّ محمّة رفعا بها

قدّ أسلمته عرائمُ الأنصارِ  
 والروعُ بالأسماعِ والأبصارِ  
 أبطالُ بينَ تقاعدٍ وفرارِ  
 مستظهِراً منها بعزّ جوارِ  
 وقَعَ الردى وقد ارتمى بشرارِ  
 فيما تقدّمَ غربةَ المختارِ  
 نابتَ سفارهمُ عن الأشفارِ  
 فأجابَ ممثلاً لأمرِ البارى  
 خلصتُ إليه نوافذُ الأقدارِ  
 أولوهُ لولا قاطعُ الأعمارِ  
 إلاّ القيامُ بحقتها من دارِ  
 ويعيدُ ذاكَ التربّ ذوبَ نضارِ  
 من ملكه بجلائلِ الأوطارِ  
 أثرُ العناية<sup>٣</sup> ساطعَ الأنوارِ  
 من غير ما ثنيا ولا استعصارِ  
 عن درهمٍ فيهم ولا دينارِ  
 ونحورها بأهليّةٍ ودراري  
 بذلوهُ من نصرٍ ومن إشارِ  
 من لا يضيعُ صنائعَ الأحرارِ  
 يرضيه في علنٍ وفي إسرارِ  
 علّمَ الوفاءَ لأعينِ النظارِ

١ المشاهدات : آوت ؛ ق : وأوت . . . بعدما .

٢ ق : أن سبت .

٣ المشاهدات : الرعاية .

فيصير منها البيتُ بيتاً ثانياً للطائفتين إليه أيّ بدارِ  
تغني قلوبُ القومِ عن هدي بهِ ودموعُهُم تكفي لرمي جمارِ  
حييت من دارٍ تكفل سعيها ال محمود بالزئفي وعقبى الدارِ  
وضفت عليك من الإله عنايةً ما كرت ليل فيك إثر نهارِ

ويعني بالمولى ابنه السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن .

ومن العجائب أن الرئيس عامر بن محمد الذي جرى في هذه الأبيات ذكره كان يؤمل يابواثه للسلطان أبي الحسن ونصرته له وعدم إخفار ذمته فيه أن ينال من أولاده الملوك بذلك عزاً مستطيلاً ورياسة زائدة على ما كان فيه ، فقضى الله تعالى أن كان حثفه على يد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، إذ نازله بجنوده ، وحاصره بمعتقله ، حتى استولى عليه وقتله ، حسبما استوفى ذلك الشيخ الرئيس قاضي القضاة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي نزير مصر في تاريخه الكبير الذي سماه بـ «كتاب العبر وديوان المتبدل والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» فمن شاء فليراجعه ثمّة .

وكان الرئيس أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاقي المذكور خرج على السلطان عبد العزيز بالسلطان المعتمد على الله أبي الفضل محمد ابن أخي السلطان عبد العزيز المذكور ، فكان من قتله ما ذكر ، والله غالب على أمره .

ولنرجع إلى ما كنا فيه من نثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى عنه ، فنقول :

٢٣ - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في كتابه «أعمال الأعلام»

ما صورته :

«وفي غرضي إذا من الله تعالى بانفراج الضيقة الوقتية ، ومُعَاوَدَةِ الأزمان الهنية ، والنصبة النقية ، أن نصنف في التاريخ كتاباً مبنياً على التطويل ، مستوعباً

للكثير والقليل ، نسميه «بضاعة المهولين في أساطير الأولين» يكون هذا الكتاب بالنسبة إليه الحصاة من الرمال ، والقطرة من الغيث المثال ، بإعانة ذي القدرة والجلال ؛ انتهى .

٢٤ - ومن كلامه رحمه الله تعالى : فما استبعد المرام ، مَنْ قصد الكرام ، وما فقد الإيناس ، من أمّل الناس ؛ انتهى .

وقد سلك لسان الدين رحمه الله تعالى في كثير من كتبه كـ «الكتيبة الكامنة» و «التاج المحلّي» و «الإكليل الزاهر» وغيرها تحلية الأعلام من حملة السيوف والأقلام ، بالكلام المسجع الآخذ بحظه من الإتقان على طريقة صاحب «القلائد» و «المطمح» أبي نصر الفتح بن عبيد الله المدعو بابن خاقان بليغ الأندلس غير مدافع وعلى نهج مباريه ابن بسّام صاحب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وهو كتاب ينبغي أن يراجع ، وقد رأيت أن آتي بشيء من كلام لسان الدين فيما ذكر ، ونلّم بعد تحليته بالتعريف بحال مَنْ حلاه من الأعلام ، بحسب ما من به ويسره لي الملك العلام ، سبحانه وتعالى ، فنقول :

٢٥ - قال لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض كتبه في وصف بعض من عرف به ما نصه : أي نفس صافية من الكدر ، وصدّر طيب الورد والصدّر ، ودوحة عهد تندى أوراقها ، وميشكاة فضل يستطلع إشراقها ، تمسك برضاع الكأس ، يرى ذلك من حسن عهده ، وقسم لحظاته بين آس الرياض وورده ، فلما حوّم حمامه للوقوع ، وكاد يقوّض رحله عن الربوع ، وشعر بجبائل المنية تعلقه ، وسرعان خيل الأجل تزهقه ، أقلع عن فنه ، وأمر بسفك دنته ، ولجأ إلى الله تعالى بأوبته ، وضرع إلى الله تعالى في قبول توبته وغفران حوبته ، فكان ذلك عنوان الرضى ، وعلامة عفو الله تعالى عمّا مضى ، دخلت عليه في مرضه ، وأشرتُ باستعمال الدواء المسمّى بلحية التيس عند الأطباء ، فاستعمله ، فوجد بعض خفة .



٢٦ - وقال في آخر : كثيف الحاشية ، معدود في جنس السائمة والماشية ،  
تُلّيت على العمال به سورة الغاشية ، تولّى الأشغال السلطانية فدُعرت الجبابة  
لولايته ، وقامت قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا : جاءت  
الدابة تكلمنا وهي لإحدى الشروط ، من رجل صائم الحشوة ، بعيد من المصانعة  
والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخاطبة : لا ميساس ، وعلى مسافة نجهه ،  
وتجهّم وجهه ، فكان خالطاً إساءته بإحسانه ، مشتغلاً بشانه ، غاضباً من عنان  
لسانه ، عهدي به في الأعمال يقدرّ فيها ويدبّر ، ويرجح ويعبر ، ويحبط ويتبّر ،  
وهو مع ذلك يكبّر ، ويحسّن من الأزمنة ويقبّح ، وهو يسبّح ، ولما شرع في  
البحث والتنقير ، والمحاسبة على القِطْمير والنقير ، أتاه قاطع الأجل ، فحنّ  
ركابه فأقضى العجل ، وصدرت عنه أبيات خضّم فيها وقضم ، وحصل تحت  
القدر المشترك مع من نظم .

٢٧ - وقال في آخر : كودن حلبة الآداب ، وسنّور عبد الله بيع بقيراط  
لما شاب<sup>١</sup> ، هام بوادي الشعر مع منّ هام ، واستمطر منها الجهام ، فجاء بأبيات  
أوهى من بيت العنكبوت نسجاً ، ومقاصد لا تبين قصداً ولا نهجاً ، وله بيت  
معمور بقصاة أكابر ، فرسان أقلام ومحابر ، وعمال قادوا الدهر بأزمة أزمتهم ،  
وفرعوا الزهر بهمتهم ، وتكاثرت عليه رحمه الله الإحن ، وتعاورته المحنّ ،  
وتصرّف آخر عمره في بعض الأعمال المخزنية فتعلّل بنزر القوت ، إلى الأجل  
الموقوت .

٢٨ - وقال في آخر : معدود في وقته من أدبائه ، ومحسوب في أعيان بلده  
وحسبائه ، كان رحمه الله تعالى من أهل العدالة والخير ، سائراً على منحج الاستقامة

١ يشير إلى قول بعضهم :

كسنور عبد الله بيع بدرهم صغيراً فلما شب بيع بقيراط  
انظر الحيوان ٥ : ٣١٥ وتعليق الجاحظ على البيت ، والحاشية رقم : ٤ .

أحسن السّير ، وله أدب لا يقصر عن السداد ، وإن لم يكن بطلاً فمن يكثر  
السواد ، قد أثبت له ما عثرت عليه ، ممّا ينسب الناس إليه .

٢٩ - وقال في آخر : معتر غير قانع ، ومنجع كل شهيم وخانع ، نشأ  
ببلده مالفة أبرع من أورد اليراعة في نِقْس ، وهز غصنها في روضة طِرْس ،  
إلاّ ما كان من سخافة عقله ، وقعوده تحت المثل « اخْبِرْ تَقْلِهْ » ، لا يرتبط إلى  
رتبة ، ولا ينتمي إلى عَصْبَة ، ولا يتلبّس بسمت ، ولا يستقيم من أمت ،  
أخبرني مَنْ عني بجزبه ، وذِكْر عِبْرِه ، من صباه إلى كبره ، أنه رشح في بعض  
الدول ، وعرض لاكتساب الخيل والحَوَل ، وخُلعت عليه كسوة فاخرة ،  
وشارة بزهر الرياض ساخرة ، فانقاد طَوْع حرمانه ، ونبذ صفقّة زمانه ، وحمله  
فرطُ النّهم ، على أن ابتاع في حجره طعاماً كثير الدّسم ، وأقبل وأذباله منه  
تقطر ، كما اختلفت باللبن الأشطر ، فطرّد ونُبذ ، وطُرِح بعدما جُبذ ، لقيته  
بمالقة وقد قلب له زمانه عينيه ، وسقط في يديه ، فانتابني بأمداحه ، وتعاورني  
بأجاجة وقراحه .

٣٠ - وقال في آخر : أديبٌ نار فكره تتوقد ، وأريب لا يُعترض كلامه  
ولا يُنقَد ، أما الهزل فهو طريقته المثلى ، ركض في ميدانها وجلّتي ، وطلع في  
أفقها وتجلّتي ، فأصبح علمَ أعلامها ، وعابر أحلامها ، إن أخذ بها في وصف  
الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألمّ بالربيع وفصله ، والحبيب ووصله ؛ والروض  
وطيبه ، والغمام وتقطيبه ، شقّ الجيوب طرباً ، وعلّ النفوس شرباً وضرباً ،  
وإن ابغى لاعتلال العشية ، في فرش الربيع الموشية ، ثمّ تعدّها إلى وصف  
الصّبوح ، وأجهز على الزق المجروح ، وأشار إلى نغمات الورق ، يرفلن في  
الحلل الزُّرق ، وقد اشتعلت في عنبر الليل نارُ البرق ، وطلعت بنودُ الصّباح في

١ الأمت : الاعوجاج .

شرفات الشرق ، سَلَبَ الحليم وقاره ، وذكر الخليع كأسه وعقاره ، وحرك الأشواق بعد سكونها ، وأخرجها من وكونها ، بلسان يتزاحم على موارد الخيال ، ويتدفق من حافته الأدب السيال ، وبيان يقيم أود المعاني ، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المباني ، ويكسو حلل الإحسان جسوم المثلث والمثاني ، إلى نادرة لمثلها يشار ، ومحاضرة يُجنى بها الشهد ويُشار ، وقد أثبت من شعره المعرب وإن كان لا يتعاطاه إلا قليلاً ، ولا يجاور إلا تعليلاً ، أبياتاً لا تخلو عن مسحة جمال على صفحاتها ، وهبّة طيب يتمّ في نفحاتها .

٣١ - وقال أيضاً في آخر : ظريفُ السجية ، كثير الأريحية ، ارتحل من لورقة فتحها الله تعالى واتخذ المريّة داراً ، وألّفَ بها استقراراً ، إلى أن دعاه بها داعيه ، وقام فيها ناعيه .

٣٢ - وقال في وصف آخر : شيخ أخلاقه لينة ، ونفسه - كما قيل في نفس المؤمن - هَيّئة ، ينظم الشعر عذباً مسافه ، محكماً اتسافه ، على فاقة ، وحال ما لها من إفاقة ، أنشد المقام الكريم بظاهر بلده قصيدة استغرب منه منزعها ، واستعذب من مثله مشرعها .

٣٣ - وقال في آخر : من أئمة أهل الزمام ، خليق برعني المتات والذمام ، ذو خط كما تفتح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام ، كان ببلده رحمه الله تعالى بدار إشرافه محاسباً ، ودرة في لجة الإغفال راسباً ، صحيح العمل ، يلبس الطروس من براعته حُسنَ الحلل ، وله شعر لا بأس به ، ولا خفاء بفضل مذهبه .

٣٤ - وقال في آخر : خير من استبق إلى داعي الفلاح استباقاً ، وانتمى إلى القوم الذين هم في الآخرة أطولُ أعناقاً ، وإن كانوا في الدنيا أضيقُ أرزاقاً ، مردد أذكار ، ومُسَبَّح أسحار ، وعامر مثذنة ومنار ، كان ببلده مؤذناً بجامعها ،

ومؤقتاً بأَمْ صوامعها ، ومعتبراً فيمن كان بها من السدنة ، ومن مثله قوله : فكأنما  
قربَ بدنة ، وله لسان مخيف ، وشعر سخيف ، توشح بحليته ، وجعله وسيلة  
كديته .

٣٥ - وقال في آخر : عظيم الهيبة حسن اللقاء ، أغرب في حسن المداراة  
من العنقاء ، استمر عمره للحكم ، وصبر على حجج الصم والبكم ، وأفرط  
في هشته وهزته ، وتنزل عن نخوة القضاء وعزته ، وله سلف في القضاء عالي  
المراقب ، مزاحم للنجم الثاقب ، وقد أثبت من شعره ما تيسر إثباته ، ونجح  
بروض هذا المجموع نباته .

٣٦ - وقال في آخر : قاضٍ توارث كل جلالة ، عن كلاله ، وجمع في  
العلم الحسب ، بين الموروث والمكتسب ، أشرق بجيدٍ معمٍ في العشرة مخول ،  
وألفت عليه مقاليدها من منقول ومتأول ، إلى نزاهة لا تغرها البيضاء ولا الصفراء ،  
وحلم لا تستهويه السعاية ولا يستفزه الإغراء ، ووقار يستخف الجبال الراسية ،  
ونظر يكشف الظلم الغاشية ، تولى قضاء الحضرة فأنفذ الأحكام وأمضاها ، وشام  
سيوف الجزالة وانتضاها ، ولبس أثواب النزاهة والانقباض فما نضاها ، وسلك  
الطريق التي اختارها السلف وارتضاها ، فاجتمعت الأحوال المفترقة عليه ، وصرف  
الثناء أعنة الألسن إليه ، ثم كرّ إلى بلده ، واستقر خطيباً بقرارة أهله وولده .

٣٧ - وقال في آخر : مُتَمِّمٌ إلى معرفة ، متصف من الذكاء بأحسن صفة ،  
أقرأ ببلده علم اللسان ، وما حاد عن الإحسان ، وعانى الشعر فنظم قوافيه ، وما  
تكلف فيه ، وعلى غزارة مادته ، ووضوح جادته ، فشعره قليل البشاشة ، ذاهبُ  
الحشاشة ، وذو الإكثار ، كمثل العنار ، وله سلف يخوض في الحقائق ، ويتنحل  
بعض الكلام الرائق .

٣٨ - وقال في آخر : مُتَمِّمٌ لدين وعفة ، وإلى نفس بالعرص الأذني

مستخفّة ، ممّن نزع إلى سلوك ورياضة ، ويفيض في طريق القوم بعض إفاضة .

٣٩ - وقال في آخر : ممّن يتشوق إلى المعارف والمقالات ، ويرتاح إلى الحقائق والمحالات ، ويشتمل على نفس رقيقة ، ويسيرُ من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعاني من الشعر ما يشهد بنُبله ، ويُستظرف من مثله .

٤٠ - وقال في آخر : مشمر في الطلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحُدّاق ، منتحل للعربية جاداً في إحصاء خلافها ، ومعاطاة سلافها ، وربما شرست في المذاكرة أخلاقه ، إذا بُهرجت أعلاقه ، ونوزع تمسكه بالحجة واعتلاقه ، ورحل إلى المغرب فاستجدى بالشعر سلطانه ، ثم راجع أوطانه .

٤١ - وقال في آخر : منتمٍ إلى زهد ، باذل في التماس الخير الجهد ، نظمه لا يخلو من حلاوة ، ومعانيه في طريقه عليها بعض طُلاوة .

٤٢ - وقال في آخر : كاتب سجلات لا يساجلُ في صحة فصولها ، وتوقيع فروعها على أصولها ، وكلما طلب بالنظم القريحة ، وأعمل الفكرة الصريحة ، مع إقلاله ، وعدم استعماله ، أجابت ولبّت ، وتنسّمت رباحها وهبّت .

٤٣ - وقال رحمه الله تعالى وسامحه في بعض العدول الصوفية الأخيار ، الذين وحدوا الله وفنّوا عن سائر الأغيار : خير عدل ، وممّن له وقار وفضل ، متّسم بخير ، معرض عن غير ، مشتمل بصفات مرضية ، مُلم بالنظم في الطريقة الصوفية .

وللسان الدين رحمه الله تعالى ركض في هذا الميدان لا يجازى فيه ، وثبوت فضل لا يستند إلى دليلٍ جاحده ونافيه .

٤٤ - وقال رحمه الله تعالى في كتابه « التاج المحلّي في مساجلة القِدْح

المعلّي « في ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمي المريبي<sup>١</sup> ، ما صورته :  
لُجُّ معرفة لا يَغِيضُ ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويفيض ، نشأ ببلده مشمراً عن  
ساعد اجتهاده ، وسائرأ في قُنن العلم ووهاده ، حتى أبنع روضه ، وفهق حوضه ،  
ثم أخذ في راحة ذاته ، وشام بارق لذاته ، ثم سار في البطالة سير الجَموح ،  
وواصل الغبوق بالصَّبوح ، حتى قضى وطره ، وسثم بطره ، وركب الفُلك ،  
وخاض اللجج الحُلك ، واستقر بمصر على النعمة العريضة ، على شك في قضاء  
حجة الفريضة ، وهو اليوم بمدرستها الصالحية نبيه المكانة ، معدود في أهل العلم  
والديانة ؛ انتهى .

وقال في « الإحاطة » في حق المذكور ما نصه : من خط شيخنا أبي البركات  
في الكتاب « المؤمن على أبناء أبناء الزمن » : كان سهلاً سلكس القيادة ، لذيد  
العشرة ، دمت الأخلاق ، ميالاً إلى الدّعة ، نفوراً عن النصب ، يركن إلى فضل  
نباهة وذكاء يحاسب بهما عند التحصيل والدراسة والدؤوب على الطلب ؛  
من رجل يجري من الألمان على مضمار لطيف ، ولم يكن له صوت رخيم يساق<sup>٢</sup>  
انطباعه في التلحين ، فجبر ذلك بالأوتار ، وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ما  
لاذ به الظرفاء منهم ، واستعمل بدار الأشراف بالمرية ، فأحكم تلك الطريقة في  
أقرب زمان ، وجاء زمامه يروق من ذلك العمل من شأنه ، ثم نهضت به همته  
إلى أرفع من ذلك ، فسار إلى غرناطة ، فقرأ بها العربية وغيرها ، وانخرط في  
سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة ، ثم رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة  
فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها علة كان يشكوها ، وأخذ في إقراء العربية بها ،  
وعُرف بها إلى أن صار يدعى بأبي عبد الله النحوي . قال شيخنا المذكور : ورأى  
في صغره فارة أنثى فقال : هذه قرينة ، فلقب بذلك ، وصار هذا اللقب أغلب

١ انظر ترجمته في الكتيبة : ٨٨ وبغية الوعاة : ٦٠ والدرر : ٤ : ١٠٣ ( ط . القاهرة ) .

٢ ق : يصادق .

عليه من اسمه ومعرفته .

ثم قال لسان الدين في حق المذكور ما ملخصه : إنه قرأ بالخطبة على الخطيب أبي علي القيحاوي وطبقته ، وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبي حيان ، وانتفع بجاهه ، نقل إلينا الحاج الحافظ أبو جعفر ابن غصن من شعره حسبما قيده عنه بمصر :

بُعْدُ المزارِ وَلَوْعَةُ الأشواقِ      حَكَمًا بِفَيْضِ مَدَامِعِ الآمِقِ  
وَحْفُوقُ نَجْدِيّ النسيمِ إِذَا سَرَى      أَذْكَى لَهيبَ فَوَادِي الحَفَاقِ  
أَمْعَلِي أَنّ التَّواصلَ فِي غَدِ      مِنْ ذَا الَّذِي لَعْدَ فِدَيْتِكَ باقِ  
إِنَّ اللَّياليَ سَبَقُ إِذْ أَقْبَلْتُ      وَإِذَا تَوَلَّيْتُ لَمْ تُنَلِّ بلِحاقِ  
عَجَّ بِالْمَطِيِّ عَلَى الحِمَى ، سَقَى الحِمَى      صَوَّبَ الغمامِ الواكِفِ الرِّقراقِ  
فِيهِ لَدَى القَلبِ السَّليمِ ودادَةٌ      قَلْبٌ سَلِيمٌ ما لَه مِنْ راقِ  
قَلْبٌ غَدادَةٌ فراقِهِم فارقَتَهُ      لا كانِ فِي الأيامِ يَوْمُ فراقِ  
يا سارياً وَاللَّيلُ ساجٍ عاكِفٌ      يَتَقَرِّي الفِلا بِنِجائبِ وِناقِ  
عَرَجَ عَلَى مَثوَى النَبِيِّ مُحَمَّدٍ      خَيْرِ البَرِيَّةِ ذِي المَقامِ الراقِ  
وَرَسولِ رَبِّ العالِمِينَ وَمَنْ لَه      حَفْظُ العهودِ وَصحَةُ المِثاقِ  
الظاهِرُ الآياتِ قامَ دَليلُها      وَالطاهِرُ الأَخلاقِ والأَعراقِ  
بَدَرٌ اهُدى وَهُوَ الَّذِي آياتُهُ      وَجِيبُهُ كَالشَّمسِ فِي الإِشراقِ  
الشافعُ المَقبولُ مَنْ عَمَّ الوَرى      بِالجودِ والإِرفادِ والإِرافاقِ  
الصادِقُ المأمونُ أَكْرَمُ مرسَلِ      سارتُ رِسالَتُهُ إِلى الآفاقِ  
أَعلى الكرامِ نَدَى وَأَبسطِهِم يَدَا      قَبضتُ عِنانَ المجدِ بِاستِحقاقِ  
وأشدَّ خَلقِ اللَّهِ إِقداماً إِذا      حَمَى الوطيسُ وَشمرتُ عَن ساقِ  
أَمْضاهُمُ وَالخيلُ تَعَثُرُ فِي الوعى      وَتَجولُ سَبْحاً فِي الدَّمِ المِهراقِ

١ القصيدة في الكتيبة : ٨٨ - ٩٠ .

من بعد إشرارك مضي ونفاق  
 ظل ظليل وارف الأوراق  
 ما ناله كسف ونكس محاق  
 أمن السفين غوائل الإيساق  
 لثنت عن الإنجاد والإعراق  
 ذابت نفوسهم من الإشفاق  
 والجاه والشرف القديم الباقي  
 سحُب النوال تدرُّ بالأرزاق  
 وربت ربي الإيمان وهو الساق  
 وهدى وتأديب بحسن سياق  
 مرمي الفخار وغاية السباق  
 كم آية فُقدت وهُنَّ بواق  
 فلق الصباح وكان ذا إفلاق  
 لمقام صدق فوق ظهر براق  
 حتى تجاوزهن سبع طباق

مَنْ صيرَ الأديانَ ديناً واحداً  
 وأحلنا من حرمة الإسلام في  
 لو أن للبدر المنير كماله  
 لو أن للبحرين جود يمينه  
 لو أن للأساد شدة بأسه  
 لو أن للآباء رحمة قلبه  
 ذو العلم والحلم الخفي المنجلي  
 آياته شهبٌ وغرٌّ بنانه  
 ماجت فتوح الأرض وهو غياها  
 ذو رافة بالمؤمنين ورحمة  
 وخصال مجد أفردت بالخصل في  
 ذو المعجزات الغر والأي التي  
 ثنت المعارض حائراً لما حكى  
 يقظ الفؤاد سرى وقد هجع الوري  
 وسما وأملك السماء تحفته

ومنها :

وانبت من هذا الوري بطلاق  
 إنني من الأعمال ذو إملاق  
 تختال بين الوخذ والإعناق  
 تطوي الفلا ممتدة الأعناق  
 وتقودهن أزمنة الأشواق  
 وهي القسي برين كالأفواق  
 وسيع الوري بالنائل الدفاق

يا ذا الذي اتصل الرجاء بحبله  
 حبي إليك وسيلتي وذخيرتي  
 وإليك أعملت الرواحل ضمراً  
 نجباً إذا نشدت حلتي تلك العلا  
 يحدو بهن من النحيب مردد  
 غرض إليه فوقتنا أسهماً  
 فأنتجها بفنائك الرحب الذي



وقيرى مؤمك الشفاعة في غد  
وعليك يا خير الأنام تحية  
تأرج الأرجاء من نقاتها  
ومنها :

وكفى بها هبة من الرزاق  
تحي النفوس بنشرها الفتاق  
أرج الندي بمدحك المصدق

قسماً بطيب تراب طيبة ؛ إنه  
وبشأن مسجدها الذي يرجى به  
لأجود فيه بأدمع أسلاكها  
أغدو بتقبيل على حصائه  
ومنها :

مسك الأنوف وإمد الأحداق  
لعميل الرحمن أي نفاق  
منظومة بترائب وتراق  
وعلى كرائم جدره بعناق

وعليك ذا النورين تسليم له  
كفو النبي وكفو أعلى جنة  
وكفاه ما في الفتح جاء ومصحف  
وعلى أبي السبطين من سبق الألى  
الظاهر الظهر ابن عم المصطفى  
مبدي القضايا من وراء حجابها  
يغزو العداة بغلظة فيهدهم  
راياته لا شيء من عقابها  
وعلى كرام ستة عشر بهم  
ما بين أروع ماجد نيرائه  
وأخي حروب صده رشق القنا  
ما غردت شجوا مطوقة وما  
وعلى القرابة والصحابة كلهم

نور يلوح بصفحة المهرق  
حيزت له بشهادة وصداق  
في الفتح يحمده وفي الإطباق  
سبقوا إلى الإسلام يوم سباق  
شرف على التخصيص والإطلاق  
ومفتح الأكماء عن أعلاق  
بصوارم تفري الفقار رفاق  
بمطار يوم وغي ولا بمطاق  
عند النظام لآء النساق  
جنح الظلام تشب للطراق  
عما قدود مثلهن رفاق  
شقت كمام الروض عن أطواق  
والتابعين لهم ليوم تلاق

وذكر في «الإحاطة» غير هذه .

٤٥ - وقال لسان الدين في «التاج» في ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادي  
أشي<sup>١</sup> ما صورته : ناظم أبيات ، وموضح غرر وشيات ، وصاحب توقيعات  
وقيعات ، وإشارات ذوات شارات ، وكان شاعراً مكثراً ، وجواداً لا يخاف  
عثراً ، دخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه ، بعد انتشار سلكه ، وخروج  
الحضرة عن ملكه ، واستقراره بوادي آش مروع البال ، متعللاً بالآمال ،  
وقد بلغه دخول طبرنش<sup>٢</sup> في طاعته ، فأنشده من ساعته :

خُذْهَا إِلَيْكَ طبرنشا شَفَعُ بِهَا وادي الأشا  
والأمُّ تأتي بنتها والله يفعل ما يشا

ومن نوادره العذبة ، ما كتبه إليه يطلب منه الحسبة :

أنلني أيا خير البرية خطة<sup>٣</sup> ترفعي قدراً وتكسبني عزاً  
فاعتز في أهلي كما اعتز ببدق<sup>٤</sup> على سفرة الشطرنج لما انثنى فرزا

فوقع له بما ثبت في ترجمته ؛ انتهى .

٤٦ - وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد الله ابن العطار المزني ما  
صورته : ممّن نبع ونجب ، وحق له البر بذاته ووجب ، تحلّى بوقار ، وشعشع  
للأدب كأس عقار ، إلا أنه احترم في اقتبال ، وأصيب للأجل بنبال ؛ انتهى .

٤٧ - وقال في «الإكليل» في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد  
ابن علي بن يحيى بن خاتمة الأنصاري المزني<sup>٣</sup> ، ما صورته : ممّن ثكلته البراعة ،  
وفقدته البراعة ، تأدب بأخيه وتهذب ، وأراه في النظم المذهب ، وكساه من  
التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقتضى واقتدى ، وراح في الحلبة واغتدى ، حتى

١ ترجمته في الدرر ٤ : ١٣٣ (ط . القاهرة) .

٢ طبرنش (Tabernas) شرقي المرية . ٣ ترجمته في الدرر ٤ : ٢٠١ .

نبيل وشدا ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأما خطه فقيد الأبصار ، وطرفة  
من طرف الأمصار ، واعتبط يانع الشبية ، مخضراً الكتبية ، مات عام خمسين  
وسبعمائة .

وأورد له في « الإحاطة » قوله :

وَمَضَى الْبَرْقُ فَنَارَ الْقَلْقُ      وَمَضَى النَّوْمُ وَحَلَّ الْأَرْقُ  
مَذَى تَذَكَّرْتُ لِأَيَّامٍ خَلَّتْ      ضَمَّنَا فِيهَا الْحَمَى وَالْأَبْرُقُ  
وَعَشِيَّاتٍ تَقَضَّتْ بِاللَّوَى      فِي حَيَاةِ الدَّهْرِ مِنْهَا رَوْنُقُ  
إِذْ شَبَابِي وَالتَّصَابِي جُمِعَا      وَرِيَاضُ الْأَنْسِ غَضَّ مَوْرُقُ  
شَتَّ يَوْمُ الْبَيْنِ شَمْلِي لَيْتَ مَا      خَلَقَ الْبَيْنَ لِقَلْبٍ يَعَشُقُ  
أَهٍ مِنْ يَوْمٍ قَضَى لِي فِرْقَةً      شَابَ مِنِّي يَوْمَ حَلَّتْ مَفْرُقُ

وقوله ١ :

الرَّفْعُ نَعْتُكُمْ لَا خَائِكُمْ أَمَلُ      وَالْحَفْضُ شِيمَةٌ مِثْلِي وَالهُوَى دَوْلُ  
هَلْ مِنْكُمْ لِي عَطْفٌ بَعْدَ بَعْدِكُمْ      إِذْ لَيْسَ لِي مِنْكُمْ يَا سَادَتِي بَدَلُ

قلت : البيت الثاني غاية في معناه ، وأما الأول فسافل وإن أسس على الرفع مبناه ،  
والله أعلم .

٤٨ — وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم  
ابن عيسى بن داود الحميري المالقي ٢ ما صورته : علّم من أعلام هذا الفن ،  
ومشعشع راح هذا الدن ، مجموع أدوات ، وفارس براعة ودواة ، ظريف  
المنزع ، أنيق المرأى والمسمع ، اختص بالرياسة فأدار فلك إمارتها ، واتسم

١ البيتان في الدرر الكامنة .

٢ انظر أيضاً ترجمته في الكتبية : ١٥٨ والدرر ٤ : ٢٧١ (ط . القاهرة) .

باسم كتابتها ووزارتها ، ناهضاً بالأعباء ، صاعداً في درج التقريب والاجتباء ،  
مصانعاً دهره في راح وراحة ، أويأ إلى فضل وسماحة ، وخصب ساحة ، كلما  
فرغ من شأن خدمته ، وانصرف عن رب نعمته ، عقد شرباً ، وأطفأ من الاهتمام  
بغير الأيام حرباً ، وعكف على صوت يستعيده ، وظرف يبيده ويعيده ، فلما  
تقلبت بالرياسة الحال ، وقوضت منها الرحال ، استقر بالمغرب غريباً ، يقلب  
طرفاً مستريباً ، ويلحظ الدنيا تبعة عليه وثرريباً ، وإن كان لم يُعدم من أمرائه حظوة  
وتقريباً ، وما برح يبوح بشجنه ، ويرتاح إلى عهود وطنه ، ومما أعرب به ،  
عن براعة أدبه ، قوله <sup>١</sup> :

« يا نازحينَ ولم أفارق منهمُ      شوقاً تأججَ في الضلوعِ <sup>٢</sup> ضرامهُ  
غيبتمُ عن ناظريّ وشخصكمُ      حيث استقرّ من الضلوعِ مقامهُ  
رمتِ النوى شملي فشتتَ نظمه <sup>٣</sup>      والبينُ رامٍ لا تطيشُ سهامهُ  
وقد اعتدى فينا وجدّ مبالغاً      وجرتُ بمحكمٍ جوره أحكامهُ  
أترى الزمانَ مؤخرّاً في مدّتي      حتى أراهُ قد انقضتْ أيامهُ »

تحملها يا نسيم نجدية النفحات ، وجدية اللفحات ، تؤدي عني إلى الأحبة نفحها  
سلاماً ، وتورد عليهم لفحها برّداً وسلاماً ، ولا تقل كيف تحملني ناراً ، وترسل  
على الأحبة مني إعصاراً ، كلاً إذا أهديتهم نحية إيناسي ، وأنسوا من جانب  
هبوبك نار ضرام أنفاسي ، وارتاحوا إلى هبوبك ، واهتزوا في كف مسرى  
جنوبك ، وتعللوا بك تعليلاً ، وأوسعوا آثار مهبك تقيلاً ، أرسلها عليهم  
بليلاً ، وخاطبهم بلطافة تطلقك تعليلاً ، ألم تروني كيف جئتكم بما حماني  
عليلاً :

١ الكتيبة : ١٦١ ؛ والبيتان الأولان في الدرر : ٢٧٢ .

٢ الكتيبة : في الفؤاد .

٣ ق : شله .

كذلك تركته<sup>١</sup> ملقَى بأرضٍ له فيها التعللُ بالرياحِ  
 إذا هبَّت إليه صبا إليها وإن جاءته من كلِّ النواحي  
 تساعده الحمامُ حين يبكي فما ينفكُ موصولَ النواحي<sup>٢</sup>  
 يخاطبهنَّ مهما طِرْنَ شوقاً أما فيكنَّ واهبةُ الجناحِ

ولولا تعلله بالأماني ، وتحدث نفسه بزمان النداني ، لكان قد قضى نجه ، ولم  
 أبلغكم إلا نعيه أو نذبه ، لكنه يتعلل من الآمال بالوعد الممتول ، ويتطرح  
 باقتراحاته على الزمن المجهول ، ويحدث نفسه وقد قنعت من بروق الآمال بالخلب ،  
 ووثقت بمواعيد الدهر القلب ، فيناجيتها بوحى ضميره ، وإيماء تصويره :  
 كيف أجذك يوم الالتقاء بالأحباب ، والتخلص من ربة الاغتراب ، أبائنة  
 الحضور أم بادية الاضطراب ، كأني بك وقد استفزك وله السرور ، فصرفك  
 عن مشاهدة الحضور ، وعانتك غشاوة الاستعبار للاستبشار ، عن اجتلاء محيا  
 ذلك النهار :

يومٌ يُداوي زماناتي من آزماني أزال تنغيصَ أحياني فأحياني  
 جعلتُ لله نذراً صومهُ أبداً أفي به وأوقتي شرطَ إيماني  
 إذا ارتفعنا وزال البعد وانقطعتُ أشطانُ دهرٍ قد التفتَ بأشطاني  
 أعدهُ خيرَ أعيادِ الزمانِ إذا أوطاني السعدُ فيه ترب أوطاني

أرأيت كيف ارتياحي إلى التذكار ، وانقيادي إلى معللات توهمات الأفكار ؟  
 كأن البعد باستغراقها قد طويت شقته ، ونهبت عني مشقته ، وكأني بالتخيل بين  
 تلك الحمامات أنسم صباها ، وأتسم رباها ، وأجتني أزهارها ، وأجتلي أنوارها ،  
 وأجول في خمائلها ، وأتعمم ببكرها وأصائلها ، وأطوف بمعلمها ، وأنتشق

١ الكتيبة : غريب بعدكم .

٢ الكتيبة : التياح .

أزهار كمامها ، وأصبح بأذن الشوق إلى سجع حمامها ، وقد داخلني الأفراح  
ونالت مني نشوة الارتياح ، ودنا السرور لتوهم ذهاب الأتراح ، فلما أفقت  
من غمرات سكري ، ووثبت من هفوات فكري ، وجدت مرارة ما شابه لي  
في استغراق دهري ، وكأني من حينئذٍ عاجلت وقفة الفراق ، وابتدأت منازعة  
الأشواق ، وكأنما أغمضني النوم ، وسمح لي بتلك الفكرة الحلم :

ذَكَرَ الدِّيارَ فَهاجَهُ تَذكارُهُ      وَسَرَتْ بِهِ مِنْ حِينِهِ أَفكارُهُ  
فاحتلَّ منها حيث كان حلولُهُ      بالوهمِ منها واستقرَّ قرارُهُ  
ما أقربَ الآمالَ من غَفَوَاتِهِ      لو أنها قُضِيَتْ بها أوطارُهُ

فإذا جئتُها أيها القادم والأصيلُ قد خلع عليها بُرداً مُورساً ، والربيع قد مدَّ على  
القيعان منها سندساً ، فاتخذها - فديتك - معرّساً ، واجرر ذبولك فيها متبخترأ ،  
وبث فيها من طيب نفحاتك عنبرأ ، وافتق عليها من نوافج أنفاسك مسكا أذفرأ ،  
واعطف معاطف بانها ، وأرقصْ قُضْبَ ريجانها ، وصافح صفحات نهرها ،  
ونافحْ نفحات زهرها ، هذه كلها أمارات ، وعن أسرار مقاصدي عبارات ،  
هنالك تنتعش بها صُبابات ، تعالج صبابات ، تتعلل بإقبالك ، وتعكف على لثم  
أذيالك ، وتبدو لك في صفة الفاني المتهالك ، لاطفها بلطافة اعتلالك ، وترفق  
بها ترفق أمثالك ، فإذا مالت بهم إلى هواك الأشواق ، ولَوَوْا إليك الأروس  
والأعناق ، وسألوك عن اضطرابي في الآفاق ، وتقلبي بين الإشام والإعراق ،  
فقل لهم : عرض له في أسفاره ، ما يعرض للبدر في سراره ، من سرار السرار ،  
ولحاق المحاق ، وقد تركته وهو يسامر الفرقدين ، ويساير النيرين ، وينشد إذا  
راعه البين :

وقد نكونُ وما يُخشى تفرُّقنا      فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا

لم يفارق وعشاء الأسفار ، ولا ألقى من يده عصا التسيار ، يتهاداه الغور والتجد ،

ويتداوله الإرقال والوَخْدُ ، وقد لفحته الرَّمْضاءُ ، وسثمه الإنضاءُ ، فالجهاث  
تلفظه ، والآكام تَبْهَظُه ، يحمل همومه الرواسم ، وتحياته البواسم :

لا يستقرُّ بأرضٍ حين يبلغها ولا له غير حدِّ العيسِ إيناسُ

ثم إذا استوفوا سؤالك عن حالي ، وتقلَّبي بين حلِّي وترحالي ، وبلغت القلوب  
منهم الخناجر ، وملأت الدموع المحاجر ، وابتلت ذبولك بمائها ، لا بل تضرجت  
بدمائها ، فحيثهم عني تحية منفصل ، ووداعٍ مرتحل ، ثم اعطف عليك ركابك ،  
ومهد لهم جنابك ، وقل لهم إذا سألتني عن المنازل بعد سكانها ، والربوع بعد  
ظعن أظعانها ، بماذا أجيبه ؟ وبماذا يسكن وجيبه ، فسيقولون لك هي البلاقع  
المقفرات ، والمعارف التي أصبحت نكرات :

صَمَّ صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطقِ السائلِ

قل لهم : كيف الروض وآسُه ؟ وعمَّ تتأرج أنفاسُه ؟ عهدي به والحمام يردد به  
أسجاعه ، والذباب يغني به هزجاً فيحك بذراعه ذراعه ، وغصونه تعتنق ، وأحشاء  
جداوله تصطقق ، وأسحارُه تنسم ، وأصاله تتوسم ، كما كانت بقية نضرته ،  
وكما عهدتها أليفة خضرته ، وكيف التفاته عن أزرق نهره ، وتأنقه في تكليل  
إكليله بيانع زهره ، وهل رقَّ نسيمُ أصائله ، وصفت موارد جداوله ؟ وكيف  
انفساح ساحاته ، والتفاف دوحاته ؟ وهل تمتدَّ كما كانت مع العشي فينانةُ  
سرحاته ، وعهدي بها المديدة الظلال ، المزعفرة السربال ؟ وهل تحدق الآن به  
عيون نرجسه ، ويمد بساط سندسه ؟ وأنتى منه مجالس لِداتي ، ومعاهد غدواتي  
وروحاتي ، إذ أباري في المجون لمن أباري ، وأسابق إلى اللذات كلَّ من أباري ،  
فسيقولون لك : ذوتَ أفنانه ، وانقصت أغصانه ، وتكدَّرت غدранه ، وتغير  
رَوْحُه ورِيحانه ، وأفقرت معالنه ، وأخرست حمائمه ، واستحالت حُللُ  
خمائله ، وتغيرت وجوه بكَرِهه وأصائله ، فإن صلَّصلَ حنين رعد فعن قلبي

لفراقه خَفَقَ ، وإن تَلَألاً برقٌ فَعَنُ حَرَّ حشاي ائتلق ، وإن سَحَّتِ السحب  
فمساعدَة لِحَفِي ، وإن طال بكاؤها فعَنِي ، حيَّها الله تعالى منازل ، لم تنزل بمنظوم  
الشمَل أو اهل ، وحين انتثرت نثرت أزهارها أسفاً ، ولم تن الریح من أغصانها  
مِعْطَفاً ، أعاد الله تعالى الشمَل فيها إلى محكم نظامه ، وجعل الدهر الذي فرقه  
يتأتق في إحكامه ، وهو سبحانه يجبر الصَّدع ، ويعجل الجمع ، إنَّه بالإجابة  
جدير ، وعلى ما يشاء قدير .

إيه بُيِّ كيف حال من استودعتهم أمانتك ، وألزمتهم صوتك وصيانتك ،  
وألبيتهم نسبك ، ومهدت لهم حسبك ، الله في حفظهم فهو اللائق بفعالك ،  
المناسب لشرف خللك ، ارع لهم الاغتراب لديك ، والانتقطاع إليك ، فهم  
أمانة الله تعالى في يديك ، وهو سبحانه يحفظك بحفظهم ، ويوالي بلحظك أسباب  
لحظهم ، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال ، فنِعِمُّ الله تعالى ممتدة الظلال ، وخيراته  
وارفة السربال ، لولا الشوق الملازم ، والوجدُ الذي سكن الحيازم .

٤٩ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي بكر محمد بن محمد بن عبد الله  
ابن مقاتل المالقي<sup>١</sup> ما نصه : نابغة مالقية ، وخَلَفَ وبقية ، ومغربي الوطن أخلاقه  
مشرقية ، أزمع الرحيل إلى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المتفرق ، فلما  
توسطت السفينة اللُّجَج ، وقارعت الثَّبَج ، هال عليها البحر فسقاها كأس  
الحمام ، وأولدها قبل التمام ، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على  
نوره سوادها ، من جملة الطلبة والأدباء ، وأبناء السراة الحساء ، أصبح كل  
منهم مطيعاً ، لداعي الردى وسميعاً ، وأحيوا فرادى وماتوا جميعاً ، فأجروا  
الدموع حزناً ، وأرسلوا العبرات عليهم مُزناً ، وكأن البحر لما طَمَسَ سبيل  
خلاصهم وسدّها ، وأهال هضبة سفينتهم وهدّها ، غار على نفوسهم النفيسة  
فاستردّها ، والفقير أبو بكر مع إكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره ، لم أظفر من أدبه

١ ترجمته في الدرر ٤ : ٣١٣ ( ط . القاهرة ) .



إلاّ بالقليل التافه ، بعد وداعه وانصرافه ، فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عاثراً .

ومهفهف هافي المعاطفِ أَحْوَرُ  
زَلَّتْ لَهُ قَدَمٌ فَأَصْبَحَ عَاثِرًا  
لو كنتُ أعلمُ ما يكونُ فرشتُ في  
ذلكَ المكانِ الحدِّ والأشْفارا  
فضحتُ أشعةُ نوره الأقمارا  
بينَ الأنامِ لَعَاً لَذاكَ عِثارا  
وقال :

أيا لبني الرقاء تنضي طبأؤهم  
لقد قطع الأحشاء منهم مهفهف  
يسدد إذ يرمي قسي حواجب  
وتسقمي عيناهُ وهي سقيمة  
ويذبلُ جسمي في هواهُ صبايةُ  
جفونَ طبأهم فالقوادُ كليمُ  
له التبرُ خدِّ واللُّجَيْنُ أديمُ  
وأسهُمُها من مقلتيه تسومُ  
ومن عجبِ سقمِ جناهُ سقيمُ  
وفي وصلهِ للعاشقين نعيمُ

كان غرقه في أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى .

٥٠ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد الشديّد المالقي ما نصه : شاعرٌ مُجيدٌ حَوَكُ الكلامِ ، ولا يقصر فيه عن درجة الأعلام ، رحل إلى الحجاز لأول أمره فطال بالبلاد المشرقية ثواؤه ، وعميت أنباؤه ، وعلى هذا العهد وقفت له على قصيدة بخطه غرضها نبيل ، ومرعاها غير وبيل ، تدل على نفّس ونفّس ، وإضاءة قبّس ، وهي :

لنا في كلِّ مكرمةٍ مقامُ  
ومن فوقِ النجومِ لنا مقامُ  
ومنها :

رَوينا من مياهِ المجدِ لما  
فنحن همُ ، وقلُّ لي من سوانا  
لنا الأيدي الطّوالِ بكلِّ صوبِ  
ونحنُ اللابسونَ لكلِّ درعِ  
وردناها وقد كثرَ الزحامُ  
لنا التقديمُ قدماً والكلامُ  
يُهزُّ به لدى الروعِ الحسامُ  
يصيبُ السَّمَرَ منهنَّ انثلامُ

بأندلس لنا أيامُ حرب  
توى منها قلوبَ الرومِ خوفاً  
حمينا جانبَ الدينِ احتساباً  
وتحتَ الرايةِ الحمراءً مناً  
بنو نصر وما أدراك ما هم  
لهم في حربهم فتكات عمرو  
يقولُ عداتهمُ مهما ألتوا  
إذا شرعوا الأسنّةَ يومَ حرب  
كانَ رماحهم فيها نجومٌ  
أناسٌ تُخلفُ الأيامُ ميتاً  
رأينا من أبي الحجاجِ شخصاً  
موقىَ العرضِ محمودُ السجايا  
يجولُ بذهنه في كلِّ شيءٍ  
قويمُ الرأيِ في نوبِ الليالي  
لهُ في كلِّ معضلةٍ مضاءٌ  
رؤوفٌ قادرٌ يُغضي ويغفو  
تطوفُ بيتِ سؤددهِ القوافي  
وتسجدُ في مقامِ علاهُ شكرياً  
أفارسها إذا ما الحربُ أختتْ  
ومطرها إذا ما السَّحْبُ كفتْ  
لكَ الذكْرُ الجميلُ بكلِّ قطري  
لقد جُبْنَا البلادَ فحيثُ سرنا  
فضلتْ ملوكها شرقاً وغرباً  
فأنتَ لكلِّ معلوٍ مدارٌ

موافقهن في الدنيا عظامُ  
يخوفُ منه في المهدي الغلامُ  
فها هو لا يهان ولا يضامُ  
كتائبُ لا تطاق ولا ترامُ  
أسودُ الحربِ والقومُ الكرامُ  
فللأعمارِ عندهم انصرامُ  
أتونا ما من الموتِ اعتصامُ  
فحققُ أن ذاك هو الحِمامُ  
إذا ما أشبهَ الليلَ القتامُ  
بجِيٍّ منهم فلهم دوامُ  
على تلك الصفاتِ له قيامُ  
كريمُ الكفِّ مقدمُ همامُ  
فيدركهُ وإن عزَّ المرامُ  
إذا ما الرأيُ فارقه القوامُ  
مضاءُ الكفِّ ساعدها الحسامُ  
وإن عظمَ اجتناءُ واجترامُ  
كما قد طافَ بالبيتِ الأنامُ  
ونعمَ الركنُ ذلك والمقامُ  
على أبطالها ودنا الحِمامُ  
وكفُّ أخي الندى أبداً غمامُ  
لك الشرفُ الأصيلُ المستدامُ  
رأينا أن ملكك لا يرامُ  
وبتَ لملكها يقظاً وناموا  
وأنتَ لكلِّ مكرمةٍ إمامُ

جَعَلْتَ بلادَ أندلس إذا ما      ذُكِرْتَ تغارُ مصرُ والشَّامُ  
 مكانُ أنتَ فيه مكانُ عزِّ      وأوطانُ حلتَ بها كرامُ  
 وهبتك من بناتِ الفكرِ بكَراً      لها من حُسْنِ لقياكِ ابتسامُ  
 فنزّه طرفَ مجدك في حلاها      فللمجدِ الأصيلِ بها اهتمامُ

٥١ - وقال في « الإكليل » في ترجمة الشريف محمد بن الحسن العمراي من أهل فاس ما صورته : كريم الانتماء ، متظلل بأغصان الشجرة السماء ، من رجل سليم الضمير ، ذي باطن أصفى من الماء النسيم ، له في الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله ، ومضاء نصوله .

وذكر في « الإحاطة » أن الشريف المذكور توفي في حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة .

٥٢ - وقال في « الإكليل » في ترجمة محمد بن أحمد بن إبراهيم المرادي العشاب ، وهو قرطبي الأصل تونسي المولد والمنشأ ، ما صورته : جواد لا يُتعاطى طلقه ، وصُحِّح فضل لا يماثل فلقه ، كانت لأبيه رحمه الله تعالى من الدول الحفصية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة في العقد والحل ، ولم يزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل إلى الحجابة ، ونشأ ابنه هذا مقضي الديون ، مفسدئ بالأنفس والعيون ، والدهر ذو ألوان ، ومارقُ حرب عوان ، والأيام كُرات تُتلقف وأحوال لا تتوقف ، فالوى بهم الدهر وأنحى ، وأغام جوهم بعقب ما أصحى ، فشملمهم الاعتقال ، وتعاورتهم النُوب الثقال ، واستقرت بالمشرق ركابه ، وحطتْ به أقتابه ، فحجج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعمّر ، وعكف على كتاب الله تعالى فجودّ الحروف ، وقرأ المعروف ، وقيد وأسند ، وتكرر إلى دور الحديث وتردد ، وقدم على هذا الوطن قدوم النسيم البليل ، على كبد العليل ، ولما استقر به قراره ، واشتمل على جفنه غراره ، بادرت إلى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته ، فاجتليت للسر شخصا ، وطالعت ديوان الوفاء مُستقصى ،

١ ترجمته في الدرر ٤ : ٤٦ ( ط . القاهرة ) .

وشعره ليس بمخائد عن الإحسان ، ولا غفل عن النكت الحسان ؛ انتهى .

٥٣ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر بن علي ابن إبراهيم المليكشي<sup>١</sup> ما صورته : كاتب الخلافة ، ومُشعشع الأدب الذي يزري بالسُّلَافَة ، كان بطل مجال ، وربّ روية وارتجال ، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عَطَنَه ، فتلوم تلومَ النسيم بين الحمائل ، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ، ولبت مدة إقامته تحت جراية واسعة ، وميرة<sup>٢</sup> يانعة ، ثم آثر قُطْرَه ، فولّى وجهه شطره ، واستقبله دهره بالإنابة ، وقلده خُطّة الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحُطَّت رحاله ، وله شعر أنيق ، وتصوّف وتحقيق ، ورحلة إلى الحجاز سعيها في الخير وثيق ، ونسبها في الصالحات عريق ، ومن شعره قوله :

رَضِي نلتِ ما ترضين من كل ما يهوى  
وصفحاً عن الجاني المسيء لنفسه  
بما بيننا من خلكوة معنوية  
قفي أتشكى لوعةَ البين ساعةً  
قفي ساعةً في عرصةِ الدار وانظري  
وكم قد سألتُ الريحَ شوقاً إليكم  
فيا ريحُ حتى أنتِ ممّن يغارُ بي  
خلقتُ ولي قلبٌ جليدٌ على النوى  
فلا توقفيني موقفَ الذلّ والشكوى  
كفاه الذي يلقاه من شدّةِ البلوى  
أرقّ من النجوى وأحلى من السلوى  
ولا يكُ هذا آخرَ العهد بالنجوى  
إلى عاشقٍ ما يستفيقُ من البلوى  
فما حنّ مسراها عليّ ولا ألوى  
ويا نجدُ حتى أنتِ تهوى الذي أهوى  
ولكنّ على فقدِ الأحيّةِ لا يقوى

وحدث بعض من عني بأخباره ، أيام مقامه بمالقة واستقراره ، أنه لقي بيباب الملعب من أبوابها ظييةً من ظبيات الإنس ، وقينة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نصالها ، حتى همّت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن

١ ترجمته في نيل الابتهاج : ٢٣٧ ورحلة البلوي (الوزقة : ٢٢) والدرر ٤ : ٢٢٦ (ط. القاهرة).

٢ ق : وميرة .

المَيَّاد ، فأبقي على نفسه وأمسك ، وأنيفَ من خلع العِذار بعدما تنسك ، وقال :

لم أنسَ وقفنا ببابِ الملعبِ      بين الرجا واليأس من متجنبِ  
وعَدتُ فكنتُ مراقباً لحديثها      يا ذلَّ وقفه خائف مرقبِ  
وتدللتُ فذللتُ بعد تعززي      يأتي الغرامُ بكلِّ أمرٍ معجبِ  
بدويةٌ أبدى الجمالُ بوجهها      ما شئتُ من خدِّ شريكِ مذهبِ  
تدنو وتبعدُ نفرةً وتجنياً      فتكادُ تحسبها مهاة الرَّبِّربِ  
ورنتُ بلحظِ فاتنٍ لك فاترِ      أنضى وأمضى من حسامِ المضربِ  
وأرتكَّ بابلُ سحرها يجفونها      فسبتُ ، وحق لمثلها أن تستبي  
وتضحكتُ فحكَّتْ بِنيرِ ثغرها      لمعانَ نورِ ضياءِ برقِ خُلبِ  
بمنظَّمٍ في عقدِ سمطيِّ جوهرِ      عن شبه نورِ الأقحوانِ الأشنبِ  
وتمايلتُ كالغصنِ أخضله الندى      رِيَّانَ من ماءِ الشبيةِ مخضبِ  
تثنيه أرواحُ الصبابةِ والصبَا      فتراهُ بينَ مشرقِ ومغربِ  
أبتِ الروادفُ أن تميلَ بميله      فرستُ وجالَ كأنه في لولبِ  
متوجاً بهلالِ وجهِ لاحِ في      خللِ السحابِ لحاجبِ ومحجبِ  
يا من رأى فيها محباً مغرماً      لم ينقلبِ إلا بقلبِ قلبِ  
ما زالَ مذوً ولتى يحاولُ حيلةً      تدينه من نيلِ المني والمطلبِ  
فأجالَ نارَ الفكرِ حتى أوقدتُ      في القلبِ نارُ تشوقِ وتلهبِ  
فتلاقتُ الأرواحُ قبلَ جسومها      وكذا البسيطُ يكونُ قبلَ مركبِ

وقال :

أرى لك يا قلبي بقلبي محبةً      بعثتُ بها سرِّي إليك رسولا  
فقابلهُ بالبشرى ، وأقبلُ عشيةً      فقد هبَّ مسكياً النسيمِ عليلا  
ولا تعتذر بالقطرِ أو بللِ الندى      فأحسنُ ما يأتي النسيمُ بليلا

توفي عام أربعين وسبعمائة بتونس ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

٥٤ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر العبدري التونسي الشاطبي الأصل<sup>١</sup> ، ما نصه : غَدِيُّ نعمة هامية ، وقريع رتبة سامية ، صُرفَتْ إلى سلفه الوجوه ، ولم يبق من إفريقية إلا مَنْ يخافه ويرجوه ، وبلغ هو مدة ذلك الشرف ، الغاية من الترف ، ثم قلب الدهر له ظهر المِجَنِّ ، واشتد به الحُمار عند فراغ الدنِّ ، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوط مُبيرة ، وشدة كبيرة ، فامتزج بسكانه وقُطَّانَه ، ونال من اللذات به ما لم ينله في أوطانه ، واكتسب الشمائل العذاب ، وكان كابن الجَهْم بُعث إلى الرصافة ليرقَّ فذاب ، ثم حوِّم على وطنه تحويم الطائر ، وألمَّ بهذه البلاد إمام الخيال الزائر ، فاغتمت صفقة وده لحين وروده ، وخطبت موالاته على انقباضه وشروده ، فحصلت منه على درة تُقْتَتِي ، وحديقة طيبة الجَنِّي ، أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا بيره :

لكلِّ أناسٍ مذهبٌ وسجيةٌ      ومذهبٌ أولادِ النظامِ المكارمِ  
إذا كنتَ فيهم ثاوياً كنتَ سيداً      وإن غبتَ عنهم لم تنلِكَ المظالمِ  
أولئك صحبي لا عدمت حياتهم ،      ولا عدموا السعدَ الذي هو دائمٌ  
أغنتني بذكرهم وطيب حديثهم      كما غرَّدتْ فوق الغصونِ الحمامِ

وقال :

أحببتنا بمصرٍ لو رأيتم      بكائي عند أطرافِ النهارِ  
أكنتم تشفقون لفرطِ وجدي      وما ألقاهُ من بُعدِ الديارِ

٥٥ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي القاسم محمد بن أبي زكريا يحيى ابن أبي طالب عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي السبتي<sup>٢</sup> ، ما صورته : فرع تأود من الرياسة في دَوْحة ، وتردد بين غدوة في المجد وروحة ، نشأ والرياسة العزفية

١ ترجمته في الدرر ٤ : ١٩٨ ( ط . القاهرة ) .

٢ الدرر : ٥٢ .

تعله وتنهله ، والدهر ييسر أمله الأقصى ويُسهله ، حتى اتسقت أسبابُ سعده ،  
وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده ، فألقت إليه رحالها وحطَّتْ ، ومتعته بقرها بعدما  
شطَّتْ ، ثمَّ كَلِحَ له الدهر بعدما تبسم ، وعاد زَعَزَعاً نسيمةً الذي كان يتنسم ،  
وعاق هلاله عن تيمِّه ، ما كان من تغلب ابن عمِّه ، واستقر بهذه البلاد نازح الدار ،  
بحكم الأقدار ، وإن كان نبيه المكانة والمقدار ، وجرت عليه جراية واسعة ،  
ورعاية متتابعة ، وله أدب كالروض باكرتهُ الغمام ، والزهر تفتحت عنه  
الكمام ، رفع منه راية خافقة ، وأقام له سوقاً نافقة ، وعلى تدفق أنهاره ،  
وكثرة نظمه واشتهاره ، فلم أظفر منه إلاّ باليسير التافه ، بعد انصرافه ؛ انتهى .

٥٦ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن [عبد الرحمن]

المكودي الفاسي ما نصه : شاعر لا يُتقاصى ميدانه ، ومرعى بيان رفّ غضاهُ وأينع  
سعده ، يدعو الكلام فيهِطِيع لداعيه ، ويسعى في اجتلاب المعاني فتنجح مساعيه ،  
غير أنه أفرط في الانهماك ، وهوى إلى السمكة من أوج السمّاك ، قدم على هذه البلاد  
مفلتاً من رهق تلمسان حين الحصار ، صفر اليمين واليسار من اليسار ، فلَّ  
هوى أنحى على طريفه وتلاده ، وأخرجه من بلاده ، ولما جدَّ به البين ، وحلَّ هذه  
البلدة بحال تقتحمها العين ، والسيف بهزته لا بحسن بزته ، دعوانه إلى مجلس أعاره  
البدر هالته ، وخلع عليه الأصيلُ غلالته ، وروض تفتّح كمامه ، وهوى عليه غمامه ،  
وكأس أنس تدور ، فتتلقى نجومها البدور ، فلما ذهبَتِ المؤانسةُ بنجمله ، وتذكر  
هواه ويوم نواه حتى خفنا حلول أجله ، جذبنا للمؤانسة زمامه ، واستسقيناه منه  
غمامه ، فأمتع وأحسب ، ونظر ونسب ، وتكلم في المسائل ، وحاضر بطرف  
الآبيات وعيون الرسائل ، حتى نشر الصباح رايته ، وأطلع النهار آيته ، فمما  
نسبه إلى نفسه وأنشدناه قوله :

غرامي فيكَ جَلَّ عن القياسِ      وقد سقيتنيه بكلِّ كأسِ  
ولا أنسى هواكَ ولو جفاني      عليكَ أقاربي طرّاً وناسي

ولا أدري لنفسي من كمالٍ سوى أني لعهدك غيرُ ناسي

وقال :

بَعَثْتِ بِخَمْرٍ فِيهِ مَاءٌ وَإِنَّمَا      بَعَثْتَ بِمَاءٍ فِيهِ رَائِحَةُ الْخَمْرِ  
فَقَلَّ عَلَيْهِ الشُّكْرُ إِذْ قَلَّ سَكْرُنَا      فنحن بلا سكرٍ ، وأنت بلا شكرٍ

٥٧ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي عبد الله محمد بن

محمد بن محمد بن بيش العبدري الغرناطي<sup>١</sup> ما صورته : معلم مدرّب ، مسهل مقرب ، له في صنعة العربية باعٌ مديد ، وفي هدفها سهم سديد ، ومشاركة في الأدب لا يفارقها تسديد ، خاصي المنازع مختصرها ، مرتب الأحوال مقررها ، تميز أول وقته بالتجارة في الكتب فسُلِّطَتْ منه عليها أرضة آكلة ، وسهم أصاب من رميتها الشاكلة ، أثرى بسببها وأترب ، وأغنى جهة وأفقر أخرى ، وانتقل لهذا العهد الأخير إلى سكنى مسقط رأسه ، ومنبت غرسه ، وجرت عليه جراية من أحباسها ، ووقع عليه قبول من ناسها ، وبها تلاحق به الحمام ، فكان من ترابها البداية وإليها التمام ، وله شعر لم يقصر فيه عن المدى ، وأدب توشح بالإجادة وارتدى ، أنشدني بسبته تاسع جمادى الأولى عام اثنين وخمسين وسبعمائة يجيب عن بيتي ابن العفيف التلمساني :

يا ساكناً قلبي المعنى      وليسَ فيه سواك ثاني  
لأيّ معنى كسرتَ قلبي      وما التقى فيه ساكنانِ

فقال :

نَحَلَّتْني طائماً فؤاداً      فصار إذ حُرِّتُهُ مكاني  
لا غرو إذ كان لي مضافاً      أني على الكسرِ فيه باني

وقال يخاطب الشريف أبا العباس وأهدى أقلاماً :

١ انظر أيضاً ترجمته في الكنية: ٩٠ وبغية الوعاة: ١٠٠ والدرر ٤: ٣٥٨ (ط. القاهرة) وراجع ما تقدم في النفع ٥: ٣٨٤.



أناملك الغرُّ التي سيبُ جودها  
 أتني منها تحفةٌ مثلُ حدِّها  
 هي الصفرُ لكن تعلمُ البيضُ أنها  
 مهذبةُ الأوصالِ ممشوقةٌ كما  
 فقبلتها عشراً ومثلتُ أنتي  
 يفيض كفيض المزنِ بالصيبِ القطرِ  
 إذا انتضيتُ كانت كرهفةِ السمرِ  
 محكّمةٌ فيها على النفعِ والضرِّ  
 تصوغ سهام الرمي من خالصِ التبرِ  
 ظفرتُ بلثمٍ في أناملكِ العشرِ

وقال في ترتيب حروف الصحاح :

أساجعةٌ بالواديينِ تبوّئي  
 دعي ذكرَ روض زاره سقي شربه  
 غرامُ فؤادي قاذفٌ كلَّ ليلةٍ  
 ثماراً جنتها حالياتٌ خواضبُ  
 صباح ضحى طيرٌ ظمأءُ عواصبُ  
 متى ما نأى وهناً هواهُ يراقبُ

مولده في حدود ثمانين وستمائة ، وتوفي بغرناطة في رجب عام ثلاثة وخمسين  
 وسبعمائة ؛ انتهى .

قلت : رأيت بخط الجلال السيوطي على هامش جوابه عن بيتي ابن العفيف  
 التلمساني ما صورته : قلت : في هذا البيت تصريح بأن المضاف إلى الباء مبني على  
 الكسر ، وهو رأي مرجوح عند النحاة ، ذهب إليه الجرجاني ، والصحيح أنه  
 معرب ، على أن ذلك لا يحتاج إلى جواب كما يظهر بالتأمل ، قاله عبد الرحمن  
 السيوطي ؛ انتهى . ويعني بذلك أن الساكنين إنما يُكسر أحدهما ، لا محلهما ،  
 والله سبحانه أعلم .

٥٨ - وقال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن  
 هانيء اللخمي السبتي ، وأصله من إشبيلية ، ما صورته : علم تشير إليه الأكف ،  
 ويُعمَلُ<sup>٢</sup> إلى لقاءه الحافر والخف ، رفع للعربية ببلده رايةً لا تتأخر ، ومرج

١ الكتبية : أو خالص .

٢ الإحاطة : وينقل .

منها لجة تزخر ، فانفسح مجالُ درسه ، وأثمرت أنواع غرسه ، فركض ما شاء ومرح ، ودوّن وشرّح ، إلى شمائل يملك الظرف زمامها ، ودعابة راشت الخلاوة سهامها ، ولما أخذ المسلمون في مُنازلة الجبل وحصاره ، وأصابوا الكفر منه بجارحة إبصاره ، ورموا بالشُّكل فيه نازح أمصاره ، كان ممّن انتدب وتطوّع ، وسمع النداء فأهطع ، فلازمه إلى أن نفذ لأهله القوت ، وبلغ من فسحة الأجل الموقوت ، فأقام الصلاة بمحراه ، وحيّاه وقد غير محياه طول اغترابه ، وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الإسلام في قرابه ، أو يعلق أصل الدين في ترابه ، وانتدب إلى الحصار ربه وتدرّع ، ودعاه أجله فلبّى وأسرع ، ولما هدر عليه الفنيق ، وركع إلى قبلة المنجنيق ، أصيب بحجر دوّم عليه كالجراح المحلّق ، وانقض إليه انقضاض البارق المتألق ، فاقتنصه واختطفه ، وعمد إلى زهره فاقتطفه ، فمضى إلى الله تعالى طوع نيّته ، وصحبته غرابة المنازع حتى في أمنيته ؛ انتهى .

وقد جوّد ترجمته في «الإحاطة»<sup>١</sup> وقال : إنّه ألّف كتاباً منها شرح «تسهيل الفوائد» لابن مالك ، مبدع تنافس الناس فيه ، وكتاب «الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة» ، وكتاب «إنشاد الضوال وإرشاد السوّال» في لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب «قوت المقيم»<sup>٢</sup> ودوّن ترسيل أبي المطرّف ابن عميرة وضمه في سفرين ، وله جزء في الفرائض ، وحدثني شيخنا الشريف القاضي أبو القاسم قال : خاطبت ابن هانيء بقصيدة من نظمي أولها :

هاتِ الحديثَ عن الركبِ الذي شَخَصَا

فأجابني بقصيدة على رويها ، أولها :

لولا مشيبٌ بفودي للفؤادِ عصي أنضيتُ في مهمه التشيبِ لي قُلُصَا

١ ترجمته في الورقة : ٦٠ وقد نقل فيها ما قاله في الإكليل .

٢ وكتاب . . . المقيم : سقط هذا من الإحاطة .

وكفأ توهماً ربعاً للحبيب قصا  
أيدي الأمانى بها ما شتته فقصا  
من الإجابة لم يجمع ولا نكصا  
من الشوارد ما لولاه ما اقتنصا  
لم يرض إلا بأبكار النهى قنصا  
مدح به قد غلا ما كان قد رخصا  
ذاتاً ومنتسباً أعزز بها قمصا  
وجرع الكاشح المغرى بها غمصا  
لولا أباديه بيع الحمد مرتخصا  
ولم يكن قابلاً في مدحه الرخصا  
يردي ويرضي بها الحساد والخلصا  
حسنية تستبي من حل أو شخصا  
بالبخت ينقاد للإنسان ما عوصا  
ود إذا شئت ودأ للورى خلصا  
إن كنت تأخذ من درّ النحور حصي

واستوقفت عبراتي وهي جارية  
مسائلاً عن لياليه التي انتهت  
وكنت جاريتُ فيه من جرى طلقاً  
أصاب شاكلة المرمي حين رمى  
ومن أعد مكان النبل نبل حجى  
ثم انفى ثانياً عطف النسب إلى  
فظلت أرقلُ فيها لبسة شرفت  
يقولُ فيها وقد خولت منحتها  
هذي عقائلُ وافتُ منك ذا شرف  
فقلتُ هلاً عكست القول منك له  
وقلتُ ذي بكرُ فكرُ من أخي شرف  
لها حلّى حسنيات على حل  
خولتها وقد اعتزت ملابسها  
خذها أبا قاسمٍ مني نتيجةً ذي  
جاءت تجاوبُ عما قد بعثت به  
وهي طويلة .

ومما ينسب إليه :

ولقبل ما عهدي بها مقصورة  
لم يرض ذاك فكيف دون ضرورة

ما للنوى مدت لغير ضرورة  
إن الخليل وإن دعت ضرورة

وقال مضمناً للثاني :

وجه من أهوى فلو مي مستحيل

لا تلمني عاذلي<sup>١</sup> حين ترى

١ الإحاطة : خلي يا عاذلي .

لو رأى وجهه حبيبي عاذلي لتفارقنا على وجه جميل

وأجاب الشريف المذكور عن قصيدة مهموزة بقوله :

يا أوحـد الأـدبـاء أو يا أوحـد الـفضلاء أو يا أوحـد الشـرفاء  
من ذا تراه أحقّ منك إذا التوت أدبٌ أرقُّ من الهواء وإن تشا  
وألذُّ من ظلم الحبيب وظلمه ما السحرُ إلا ما تصوغُ بنائه  
طرق الحجاج بأن يجيب ندائي فمن الهواء والماء والصهباء  
بالظاء مفتوحاً وضمّ الظاء ولسانه من حلية الإنشاء

وهي طويلة يقول فيها بعد جملة أبيات :

لله نفثة سحرٍ ما قد شدت لي من نفث سحرك في مشاد ثناء  
عارضت صفواناً بها فأريت<sup>١</sup> ما يستعظم الراوي لها والرائي  
لو راء لؤلؤك المنظم لم يفز بوأتي منها أجل مبراً  
وسما بها اسمي سائراً فأنا بما أسديت ذو الأسماء في الأسماء  
وأشدت ذكرى في البلاد فلي بها طول الثناء وإن أطلت ثوائي  
ولقومي الفخر المشيد بنيته<sup>٢</sup> يا حسن تشيد وحسن بناء  
فليهن هانهم<sup>٢</sup> يد بيضاء ما إن مثلها لك من يد بيضاء  
حليت آياتاً له لحمية<sup>٢</sup> تجلى على مصرية غراء  
فليشمخوا أنفاً بما أوليتهم يا محرز الآلاء بالإيلاء

ووصلها بئر نصح : « هذا بُنيَّ - وصل الله سبحانه لك ولي بك علو المقدار ،

١ ق : فأرتك .

٢ : فلتنها بهم .

وأجرى وفق إرادتك وإرادتي لك جاريات الأقدار - ما سَنَحَ به الدهن الكليل ،  
واللسان الفليل ، في مراجعة قصيدتك الغراء ، الجالبة السراء ، الآخذة بمجامع  
القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المَهَيِّعِ والأسلوب ، المتحلية بالخلي  
السنية ، العريقة المنتسب في العلا الحسنية ، الجالية لصدل القلوب ران عليها الكَسَلِ ،  
وخانها المسعدان السؤل والأمل ، فمتى حامت المعاني حولها ، ولو أقامت حولها ،  
شكت ويلها وعَوَّها ، وحرمت من فريضة الفضيلة عَوَّها ، وعهدي بها والزمان  
زمان ، وأحكامها الماضية أمانى مقضية وأمان ، تتوارد أَلْفَها ، ويجمع إجماعها  
وخلافها ، ويساعدها من الألفاظ كل سهل ممتنع ، مفترق مجتمع ، مستأنس  
غريب ، بعيد الغور قريب ، فاضح الخُلَى ، واضح العلا ، وضاح الغرة والجبين ،  
رافع عمود الصبح المين ، أيد من الفصاحة بأيادٍ ، فلم يحفل بصاحبي طيبيء  
وإياد ، وكسي نِصاعة البلاغة ، فلم يعبا بهمَّامِ وابن المراغة ، شفاء المحزون ،  
وعلم سر المحزون ، ما بين منثور والموزون ، والآن لا ملهج ولا مبهج ، ولا  
مرشد ولا منهج ، عكست القضايا فلم تُنتج ، فتبلد القلب الذكي ، ولم يرشح  
القلم الزكي ، وعم الإفحام وغم الإحجام ، وتمكن الإكداء والإجبال ، وكورت  
الشمس وسيرت الجبال ، وعلت سامة ، وغلبت ندامة ، وارتفعت ملامة ،  
وقامت لنوعي الأدب قيامة ، حتى إذا ورد ذلك المَهْرَقِ ، وفرع غصنه المورق ،  
وتغنى به الحمام الأورق ، وأحاط بعداد عداته الغصص والشرق ، وأمن من ذلك  
الغصب والسرَقِ ، وأقبل الأمن وذهب لإقباله الفَرَقِ ، نفخ في صور أهل المنظوم  
والمنثور ، وبُعْث ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور ، وتراءت للأدب صور ،  
وعمرت للبلاغة كور ، وهَمَّتْ للبراعة دِرَر ، ونظمت البراعة دِرَر ، وعندها تبين  
أنك واحد حلبة البيان ، والسابق في ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القَدَم ، وأقر  
لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوحي نِصاعة أَلْفَها أجدتها حين أوردتها ، وأسلتها

حين أرسلتها ، وأزنتها حين وزنتها ، وبراعة معان سلكتها حين ملكتها ، وأرويتها حين رويتها أو رويتها<sup>١</sup> ، وأصلتها حين فصلتها أو وصلتها ، ونظام جعلته يجسد البيان قلباً ، ولمعصمه قلباً ، وهصرت حدائقه غلباً ، واركتبت رويته صعباً<sup>٢</sup> ، ونثار أتبعته له خديماً ، وصيرته لمدير كأسه نديماً ، ولحفظه ذمامه المدامي أو مدامه الذمامي مديماً ، لقد فتنني حين أتتني ، وسببتني حين أطبتني ، فذهبت خفتها بوقاري ، ولم يرعها بعد شيب عذاري ، بل دعت للتصابي فقلت مرحباً ، وحللت لفتنتها الحبا ، ولم أحفل بشيب ، وألفت مارد تصابي نصيب<sup>٣</sup> ، وإن كنتا فرسي رهان ، وسابقي حلبة ميدان ، غير أن الجلدة بيضاء ، والمرجوا الإغضاء بل الإرضاء . بُني كيف رأيت للبيان هذا الطوع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ؟ أين صفوان بن إدريس ، ومحل دعواه بين رحلة وتعريس ؟ كم بين ثغاء بقر الفلاة وبين الليث ذي الفريس ؟ كما أي أعلم قطعاً وأقطع علماً ، وأحكم مضاء وأمضي حكماً ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارضة بها قصيدته ، المتسخة بها فريدته ، لذهب عرضاً وطولاً ، ثم اعتقد لك اليد الطولى ، وأقر فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك العلاقات والأطماع ، ونسي كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربه من تلك الأليّة . بُني وهذا من ذلك الجري في تلك المسالك ، والتبسط في تلك المآخذ والمثار ، أينزع غيري هذا المتزع ؟ أم المرء بنفسه وابنه مولع ؟ حيّا الله الأدب وبنيه ، وأعاد علينا من أيامه وسنيه ، ما أعلى منازعه ، وأكبي منازعه ، وأجل مآخذه ، وأجهل تاركة وأعلم آخذه ، وأرق طباعه ، وأحق أشياعه وأتباعه ، وأبعد طريقه ، وأسعد فريقه ، وأقوم نهجه ، وأوثق نسجه ، وأسمح ألفاظه ، وأفصح عكاظه ، وأصدق معانيه وألفاظه ، وأحمد نظامه ونثاره ،

١ حين . . . رويتها : سقطت من ق .

٢ أشار إلى صعوبة القافية ، وإن كانت همزية ، وهي غير صعبة .

٣ يشير إلى قول نصيب (الأغاني ١٦ : ١٠٩) :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النثر الصغار

وأغنى شعاره ودثاره ، فعائبه مطرود ، وعاتبه مصفود ، وجاهله محصود ، وعالمه محسود ، غير أن الإحسان فيه قليل ، ولطريق الإصابة فيه علم ودليل ، مَنْ ظفر بهما وصل ، وعلى الغاية القصوى منه حصل ، ومن نكب عن الطريق ، لم يُعَدَّ من ذلك الفريق ، فليَهْنِكْ أيها الابن الذكي ، البرُّ الزكي ، الحبيب الحفي ، الصفيّ الوفي ، أنك حاملُ رايته ، وواصل غايته ، ليس أولوه وآخروه لذلك بمنكرين ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، ولولا أن يطول الكتاب ، وينحرف الشعراء والكتاب ، لفاضت ينابيع هذا الفضل فيضاً ، وخرجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضاً ، قرَّتْ عيونُ أودِائك ، وملكت غيظاً صدور أعدائك ، ورقيت درج الآمال ، ووقيت عين الكمال ، وحفظ منصبك العالي ، بفضل ربك الكبير المتعالي ، والسلام الأتم الأتم الأكمل الأعم ، يخلصك به من طال في مدحه إرقالك وإغذاذك ، وراد روض حمدك وابلك وطلُّك ورذاذك ، وغدت مصالح سعيه في سعي مصالحك ، وسينفعك بحول الله وقوته وفضله ومنته مُعَاذُكَ ، ووسمت نفسك بتلميذه فسمت نفسه بأنه أستاذك ، ابن هانيء ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكانت وفاته شهادة في أواخر ذي القعدة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، ورثاه شيخنا أبو القاسم الحسيني بقصيدة أثبتت في اسمه منها :

سقى الله بالخضراء أشلاء سؤددٍ تضمنهنَّ التُّربُ صوبَ الغمام

ورثاه شيخنا أبو بكر ابن شبرين فقال :

قد كان ما قال البريدُ فاصبرُ فحزنك لا يفيدُ

أودى ابن هانيء الرضى فاعتادني للثكل عيدُ

بحرُ العلومِ وصدورها وعميدُها إذ لا عميدُ

١ ق : طريق .

قد كان زيناً للوجو  
 العلمُ والتحقيقُ والتَّ  
 تَنَدَى خِلاَقَهُ فِقلْ  
 مُغْضٍ عَنِ الإِخْوَانِ لا  
 أودى شَهِيداً بِأذلاً  
 لمْ أنسَهُ حِينَ المعَا  
 ولهُ صِبوْبٌ فِي طِلا  
 لله وقتٌ كان يَ  
 أيامَ تَغْدُو أو نرو  
 وإذا المشيخةُ جُثْمٌ  
 ومرادنا جَمُّ النِبا  
 لهفي على الإِخْوَانِ وال  
 لو جئتُ أوطاني لأذ  
 ولراع نفسي شيبُ مَنْ  
 ولطُفتُ ما بينَ اللحو  
 سرعانَ ما عاثَ الحِما  
 كم رُمْتُ إعمالَ المَسِي  
 والآنَ أخلفتِ الوعو  
 ما للفتى ما يبتغي  
 أعلى القديمِ الملكِ يا  
 يا بينُ قد طالَ المدى

د فيه قد فُجِيعَ الوجودُ  
 وفيقُ والحسبُ التَلِيدُ  
 فيها هي الروضُ المِجودُ  
 جهمُ اللقَاءُ ولا كَنودُ  
 مجهودهُ ، نِعَمَ الشَهِيدُ  
 رفُ باسمِهِ فينا تُشِيدُ  
 ب العلمِ يتلوهُ صِعودُ  
 ظمنا كما نُظِمَ الفَريدُ  
 حُ وسَعِينَا السعيُ الحَمِيدُ  
 هضباتُ حِلمٍ لا تَمِيدُ  
 تِ وعيشنا خَصِرٌ بِرودُ  
 أترابِ كلهم فقيدُ  
 كرنِي التَهائمِ والنَّجودُ  
 غادرتُهُ وهو الوليدُ  
 د وقد تكاثرتِ اللحو  
 مٌ ونحنُ أيقاظُ هِجودُ  
 رِ فقيدتُ عزمي قيودُ  
 دُ ، وأخلفتُ تلكَ البرودُ  
 فالله يفعلُ ما يريدُ  
 ويلاهُ يَعرَضُ العبيدُ ؟  
 أبرقُ وأرعدُ يا يزيدُ ١

١ أخذه من قول الكميث :

أرعد وأبرق يا يزيد د فما وعيدك لي بضائر



ولكلّ شيء غايةً  
 إليه أبا عبدٍ إلا  
 أين الرسائلُ منك تأ  
 أين الرسومُ الصالحا  
 أنعمُ مساء لا تخطي  
 وأقدمُ على دارِ الرضى  
 والقرّ الأحبّة حيث دا  
 حتى الشهادة لم تفت  
 لا تبعدنْ وعداً لو أنّ  
 فلئن بليتٍ فإنّ ذك  
 تالله لا تنسكَ أذ  
 وإذا تسومح في الحقو  
 جادت صدك غمامة  
 وتعهدتك من المهية  
 ولربما لان الحديدُ  
 ودوننا مرمى بعيدُ  
 تينا كما نسقَ العقودُ  
 ت؟ تصرمت أين العهودُ  
 لك البشائرُ والسعودُ  
 حيث الإقامة والخلودُ  
 رُ الملك والقصرُ المشيدُ  
 لك فنجمك النجم السعيدُ  
 البدء في الدنيا يعودُ  
 رك في الدنا غصنٌ جديدُ  
 لدية العلاما اخضرٌ عودُ  
 ق فحقتك الحقُّ الأكيدُ  
 يرمي بها ذاك الصعيدُ  
 من رحمة أبدأ وجودُ

وقوله أول هذه الرسالة «عارضت صفوان بها ، إلى آخره» يعني بذلك همزية صفوان بن إدريس المشهورة بين أدباء المغرب ، ولندكرها لإفادة للغرض ، وهي :

جادَ الرُّبى من بانه الجرعاء  
 فالدمعُ يقضي عندها حقّ الهوى  
 خلت الصدورُ من القلوب كما خلت  
 ولقد أقولُ لصاحبي وإنما  
 يا صاحبي ولا أقلّ إذا أنا  
 نوءان من دمعي وغيم سماء  
 والغيمُ حقّ البانة الغناء  
 تلك المقاصرُ من مها وظباء  
 ذخيرَ الصديقُ لا كد الأشياء  
 ناديتُ من أن تُصغيا لندائي

حتى يُرى كيف انسكابُ الماء  
 نُمضي بها حكماً على الظرفاء  
 حتى تبسّم زهره لبكائي  
 أن المدامعُ أصدقُ الأنواء  
 والدّهْرُ ناسخُ شدةِ برحاء  
 خفّاقَةِ الأغصانِ والأفياء  
 ما فيه سخنةُ أعينِ الرُقباء  
 قدّ قلدّتْ بلآءِ الأنداء  
 عني عذارِ الآسَةِ الميساء  
 رمّدتْ ألمَ بمقلّنةِ زرقاء  
 زهُرُ النجومِ تلوحُ بالخضراء  
 للروضِ يخبره بطولِ بقاء  
 بدراهمِ الأزهارِ رميَ سخاء  
 للعُذرِ عنه نعمةُ الورقاء  
 كالخودِ في موشيةِ خضراء  
 طرباً وقهقه منه جريّ الماء  
 فكأنه قد كان في الإغفاء  
 وكلاهما سببٌ لطولِ عناء  
 إن الرقاعَ لنحفةُ النهاء  
 إن الكتابَ تحيةُ الخلطاء  
 أن البطائقَ أكوسُ الصهباء  
 وجررتُ أذيالي من الخيلاء  
 وجعلتُ مهديه من التدماء  
 كأساً وراء البحرِ والبيداء

عوجاً نجاري الغيثِ في سقي الحمى  
 ونسُنّ في سقي المنازلِ سنة  
 يا منزلاً نشطتُ إليه عبرتي  
 ما كنتُ قبلَ مزارِ ربّك عالماً  
 يا ليت شعري ، والزمانُ تنقلُ  
 هلّ نلتقي في روضةِ موشيةِ  
 وننالُ فيها من تألّفنا ولو  
 في حيث أتعت الغصونُ سوالفأ  
 وبسدتْ ثغورُ الياسمينِ فقبّلتُ  
 والوردُ في شطّ الخليجِ كأنه  
 وكأنّ غصنُ الزهرِ في خضرِ الرُبّي  
 وكأنّما جاء النسيمُ مبشراً  
 فكساهُ خِلعةَ طيبهِ ورمى له  
 وكأنّما احتقر الصنيعُ فبادرتُ  
 والغصنُ يرقصُ في حلى أوراقهِ  
 وافترّ ثغرُ الأقحوانِ بما رأى  
 أفديه من أنسٍ تصرّمَ فانقضى  
 لم يبقَ منه غيرُ ذكرى أو منى  
 أو رقعة من صاحبِ هي تحفةُ  
 كبطاقةِ الوشقي إذ حيّاً بها  
 ما كنتُ أدري قبلَ فضّ ختامها  
 حتى نثيتُ معاطفي طرباً بها  
 فجعلتُ ذاك الطرسَ كأسَ مُدامة  
 وعجبتُ من خلٍ يعاطي خلّه

ورأيتُ رونقَ خطِّها في حُسْنها  
فوحقَّها من تسعِ آياتٍ لقد  
فكأنني موسى بها ، وكأنَّها  
لو جاء فكرُ ابنِ الحسينِ بمثلها  
سوداءُ إذْ أبصرتها لكنها  
ولقد رأيتُ وقد تأوَّبني الكرى  
أنَّ السَّماءَ أتى إليَّ رسولها  
بالفرقدينِ وبالثريا أدرجا  
فكنى بذلكِ الطَّرسِ من كافورةٍ  
قسماً بها وبنظْمها وبنثرها  
وعلمتُ أنكِ أنتِ في إبداعها  
لا ما تعاطتُ بابلُ من سحرها  
ولقد رميتُ لها القيادَ وإنها  
وطلبتُ من فكري الجوابَ فعقتي  
فلذا تركتُ عروضا ورويا  
ويَعْتَنها أليفةٌ همزيةٌ  
علمتُ بقدركِ في المعارفِ فانبرتُ

كالوشي نَمَّقَ معصمِ الحسناء  
جاءت بتأييدي على أعدائي  
تفسيرُ ما في سورةِ الإسراءِ  
صحتُ نبوتُهُ لدى الشعراءِ  
كم تحتها لك من يدِ بيضاء  
في حيثُ شابتُ لَمَّةُ الظُّلْماءِ  
بهديَّةٍ ضاعتُ بها أرجائي  
في الطيِّ من كافورةٍ بيضاء  
وبنظْمِ شعركِ من نجومِ سماءِ  
لقد انتحتني ملءُ عينِ رجائي  
لفظاً وخطاً معجزُ النبلاءِ  
لا ما ادعاهُ الوشيُّ من صنعاءِ  
لقضيةٍ أعيَّتْ على البلغاءِ  
وكبا بكفِّ الذَّهْنِ زَنْدُ ذكائي  
وهجرتُ فيها سنَّةَ الأدباءِ  
خدعاً لفكرِ جامعِ إبيائي  
من نخلةٍ تمشي على استحياءِ

انتهت القصيدة ، ومن خط ناظمها صفوان نقلتها .

رجع :

٥٩ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي في « التاج » ما صورته : طويل القوادم والخوافي ، كَلِّفَ على كبر سنه بعقائل القوافي ، شاب في الأدب وشبَّ ، ونشق ريح البيان لما هبَّ ، فحاول رقيقه وجزَّله ، وأجاد جدّه وأحكم هزله ، فإن مدح ،

صَدَح ، وَإِنْ وَصَف ، أَنْصَف ، وَإِنْ عَصَف ، قَصَف ، وَإِنْ أَنْشَأَ وَدَوَّن ، وَتَقَلَّبَ فِي أَفَانِينَ الْبَلَاغَةِ وَتَلَوَّنَ ، أَفْسَدَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَكَوَّنَ ، فَهُوَ شَيْخُ الطَّرِيقَةِ الْأَدْبِيَّةِ وَفَتَاهَا ، وَخَطِيبُ حَفَلِهَا كُلَّمَا أَتَاهَا ، لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ مِنْ أَغْرَاضِهَا غَرَضٌ ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ مِنْهَا مَفْرُضٌ ، وَلَمْ تَزَلْ بُرُوقُهُ تَتَأَلَّقُ ، وَمَعَانِيهِ بِأَذْيَالِ الْإِحْسَانِ تَتَعَلَّقُ ، حَتَّى يَبْرُزَ فِي أَبْطَالِ الْكَلَامِ وَفِرْسَانِهِ ، وَذُعُرَتِ الْقُلُوبُ بِسَطْوَةِ لِسَانِهِ ، وَأَلْقَتْ إِلَيْهِ الصَّنَاعَةَ زَمَامَهَا ، وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ أَحْكَامُهَا ، وَعَبَّرَ الْبَحْرَ مُتَجَعِّمًا بِشَعْرِهِ ، وَمَنْفَقًا فِي سَوْقِ الْكِسَادِ مِنْ سَعْرِهِ ، فَأَبْرَقَ وَأَرْعَدَ ، وَحَذَّرَ وَأَوْعَدَ ، وَبَلَغَ جِهْدَ إِمْكَانِهِ ، فِي التَّعْرِيفِ بِمَكَانِهِ ، فَمَا حَرَكَ وَلَا هَزَّ ، وَذَلَّ فِي طَلْبِ الرَّفْدِ وَقَدْ عَزَّ ، وَمَا بَرِحَ أَنْ رَجَعَ إِلَى وَطَنِهِ الَّذِي اعْتَادَهُ ، رَجُوعَ الْحَدِيثِ إِلَى قَتَادَةَ ، وَقَدْ أُثْبِتَ مِنْ نَزْعَاتِهِ ، وَبَعْضَ مَخْتَرَعَاتِهِ ، مَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ بَاعِهِ ، وَنَهْضَةِ ذِرَاعِهِ ، فَمِنْ النِّسَبِ قَوْلُهُ :

مَا لِلْمَحَبِّ دَوَاءً يُذْهِبُ الْأَلْمَا      عَنْهُ سِوَى لِمٍ فِيهِ ارْتِشَافٌ لِمَى  
وَلَا يَرِدُ عَلَيْهِ نَوْمٌ مَقْلَتَهُ      إِلَّا الدَّنُورَ إِلَى مَنْ شَقَّه سَقْمَا  
يَا حَاكِمًا وَالْهُوَى فِينَا يُؤَيِّدُهُ      هَوَاكَ فِيَّ بِمَا تَرْضَاهُ قَدْ حَكْمَا

ثمَّ سردها . وقال في المديح :

إِلَيْكَ جَدَّ بِي التَّسْيَارُ تَأْمِيلًا      فلي على فضلك المأمولِ تعويلا  
الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا لَا كِفَاءَ لَهُ      بِسَعْدِ أَيَامِكَ المأمولُ قد نيلا  
يَا رَاغِبًا مَرْتَجَاهُ دَفْعُ مَعْضَلَةٍ      فصبره بصروفِ الدهرِ قد عيلا  
أَلْمٌ بِمُحْضَرَةٍ مَلِكٍ كُلُّ مُفْتَخِرٍ      بالملكِ يوليهِ بالتعظيمِ ترسيلا  
فَرَعٌ مِنَ الدُّوْحَةِ النَّصْرِيَّةِ اجْتَمَعَتْ      فيه الفضائلُ تَمِيمًا وَتَكْمِيلًا  
لَدَيْهِ مِمَّا لَدَى الصَّدِيقِ تَسْمِيَةٌ      وَمِيسَمٌ وَكِفَاهٌ ذَاكَ تَفْضِيلًا

وهي طويلة ؛ انتهى .

٦٠ - وقال لسان الدين في «الإكليل» في ترجمة أبي الحسن علي بن إبراهيم ابن علي بن خطاب السكاك من أهل غرناطة ، ما صورته : متسور على بيوت القريض ، في الطويل من الكلام والعريض ، ممن أطاعته براعة الخط ، وسلّمت لأقلامه رماحُ الخطّ ، عانى كتابة الشروط لأول أمره ، ثمّ أظنّت به محتته على توفّر خصاله ، ونُبيل خلاله ، وهو الآن من كتّاب ديوان الحساب ، يتعلّل من الأمور المخزنية ببعض الألقاب ؛ انتهى .

٦١ - وقال في «التاج» في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحق ابن الصباغ العقيلي الغرناطي<sup>١</sup> ما صورته : اللّسن العارف ، الناقد لجواهر المعاني كما يفعل بالسكة الصيارف ، والأديب المجيد ، الذي تحلّى به للعصر النحرُ والجليد ، إن أجال جياذ براعته فضح فرسان المهارق ، وأخجل بين بياض طرسه وسواد نِقْسهِ الطرّر تحت المفارق ، وإن جلا أبحار أفكاره ، وأثار طير البيان من أوكاره ، سلب الرحيق المقدّم فضل إسكاره ، إلى نفس لا يفارقها ظرف ، وهمة لا يرتد إليها طرف ، وإبانة لا يُفْل لها غرّب ولا حرف ، وله أدب غض ، زهره على مجتنيه منفض ، كتبت إليه أستنجز وعده في الإنحاف برائقه ، والإمتاع بزهر حدائقه ، قولي :

عندي لموعدك افتقارٌ محرجٌ      وعهودك افتقرت إلى إنجازها  
والله يعلم فيك صدق مودتي      وحقيقة الأشياء غير مجازها

فأجابني بقوله :

يا مُهدي الدرّ الثمين منظماً      كليماً حلال السحر في إنجازها  
أدركت حَلَباتِ الأوائل وانيساً      ورددت أولاهها على أعجازها

١ انظر ترجمته أيضاً في الكتيبة : ٢٢٨ .

أحرزت في المضمارِ خصل سباقها ولأنتَ أسبقهم إلى إحرازها  
 حلّيتَ بالسمطينِ مني عاطلاً وبعثتَ من فكري فتاة مفاها  
 فلا تجزى مواعدي مستطفلاً فاسمحْ ، وبالإغضاء منك فجازها

وقال في «الإحاطة» في حق المذكور : إنه من أهل الفضل والسرارة والرجولة  
 والجزالة ، فذئ في الكفاية ، ظاهر السداجة والسلامة ، مُصعّب لأضداده ،  
 شديد العصبية لأولي وداده ، يشتمل على خلال من خط بارع وكتابة حسنة وشعر  
 جيد ومشاركة في فقه وأدب ووثيقة ومحاضرة ممتعة ، ناب عن بعض القضاة  
 وكتب الشروط ، وارتسم في ديوان الجند ، وكتب عن شيخ الغزاة أبي زكريا  
 يحيى بن عمر على عهده ، ثم انصرف إلى العُدوة سابع عشر جمادى الأولى من  
 عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فارتسم في الكتابة السلطانية منوهاً به مستعملاً في  
 خدم مجدية بان غناؤه فيها وظفرت كفايته ؛ انتهى .

وقد وصفه بصاحبنا ، ثم قال : ومن شعر المذكور قوله :

ليت شعري ، والهوى أملٌ وأماني الصبُّ لا تقفُ  
 هل لذاك الوصلِ مرتجعٌ أو لهذا الهجرِ منصرفٌ ؟

وقال :

وظي سبي بالطرفِ والعطفِ والجيد<sup>١</sup> وما حاز من عُنجٍ ولينٍ ومن غيدٍ  
 أشرتُ إليه بالدنوِّ مداعباً فقال : أيدنو الظبي من غابة الأسد ؟

وقال في مبدل قصيدة مطولة :

حديثُ المغاني بعدهنَّ شجون<sup>٢</sup> وأوجهُ أيامِ التباعدِ جُونُ

١ الكتبية : زها بالطرف ... والطلا .

٢ ق : شجون .

لحنا الله أيامَ الفراقِ فكم شجّتُ  
وحياً دياراً في رُبِّي أغرناطة  
لأرخصتُ فيها من شبابي ما غلا  
خليليَّ - لا أمرُ - بأربُعها قيفا  
ألم ترياني كلما ذرّاً شارقُ  
إذا لم يساعدي أخُ منكما فلا  
أليسَ عجبياً في البريةِ مَنْ له  
فلا تثقنْ من ذي وفاءِ بعهدِهِ  
لقليبي عذراً في فراقِ ضلوعِهِ  
ومن تركَ الحزمَ المعينَ فإنّه  
رعى الله أيامي الوثيقَ ذمامها  
ولم أرَ مثلَ الدهرِ أمّا عدوّهُ  
ولولا أبو عمرو وجودُ بنانهِ

وقال :

زار الخيالُ ويا لها من لذّة  
ما زلتُ أَلُمُّ مَبَسِّمًا منظومه  
وأضَمَّ غصنَ البانِ من أعطافِهِ  
لكنّ لَدَاتِ الخيالِ مَنَامُ  
درٌّ ومورده الشهيُّ مُدَامُ  
وأشمُّ مسكاً فُضَّ عنه ختامُ

مولده عام ستة وسبعمائة ، وتوفي بفاس ، وقد تخلّفه السلطان كاتب ولده عند  
توجهه لإفريقية في العشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة ، رحمه الله  
تعالى .

١ ق : فخب .

وقد وهم لسان الدين في شهر وفاة المذكور ، وإنما الصواب أنه توفي يوم  
الأحد ثامن شوال ، فاعلم ذلك ، والله سبحانه أعلم .

رجع :

٦٢ - وقال في « التاج المحلّي في مساجلة القيدح المعلّي » وفي « الإكليل  
الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر » وغيرهما ممّا ثبت في حلّي  
رؤساء الكتاب ، وحاملي ألوية الآداب ، في ترجمة شيخه ابن الجياب<sup>١</sup> ، ما نصه :  
« صدر الصدور الجلّة ، وعلم أعلام هذه الملتّة ، وشيخ الكتابة وبانيها ، وهاصر<sup>٢</sup>  
أفتان البدائع وجانيها ، اعتمده الرياسة فناء بها على جبل ذراعه ، واستعانت به  
السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شبة يراعه ، فتنياً للعناية ظلاًّ ظليلاً<sup>٣</sup> ،  
وتعاقبت الدول<sup>٢</sup> فلم ترّ به بديلاً<sup>٣</sup> ، من ندب على علوه متواضع ، وحبر لثدي  
المعارف راضع ، لا تمرّ مذاكرة<sup>٣</sup> في فنّ إلاّ وله فيه التبريز ، ولا تُعرض جواهر  
الكلام على محكات الأفهام إلاّ وكلامه الإبريز ، حتى أصبح الدهر راوياً لإحسانه  
وناطقاً بلسانه ، وغرب ذكره وشرق ، وأشأم وأعرق ، وتجاوز البحر الأخضر  
والخليج الأزرق ، إلى نفس هذبت الآداب شمائلها ، وجادت الرياضة خمائلها ،  
ومراقبة لربه ، واستنشاق لروح الله من مهبته ، ودين لا يُعجم عوده ، ولا  
تحلف وعوده ، وكل ما ظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلّي بها العين ، أو إشارة  
كما سبك اللّجّين ، فهي إليه منسوبة ، وفي حسناته محسوبة ، فإنما هي أنفس<sup>٣</sup>  
راضها بأدابه ، وأعلقها بأهدابه ، وهذب طباعها ، كالشمس تلقي على النجوم  
شعاعها ، والصور الحميلة ، ترك في الأجسام الصقيلة انطباعها ، وما عسى أن أقول

١ انظر المجلد ٥ : ٤٣٤ .

٢ الكتيبة : دول العدل .

٣ الكتيبة : لا يمر الكلام .



في إمام الأئمة ، ونور الدياجي المدهمة ، والمثل السائر في بُعد الصيت وعلو الهمة ، وقد أثبت من عيون قصائده ، وأدبه الذي علق الإحسان في مصايد ، كل وثيق المعنى ، كريم المجنى جامع بين حصافة اللفظ ولطافة المعنى ؛ انتهى .  
والمذكور له ترجمة في هذا الكتاب في باب مشيخة لسان الدين فلترجع .

٦٣ - وقال في « الإكليل » في حق عمر بن علي بن غفرون الكلبي من أهل منتفريد<sup>١</sup> ما صورته : شيخ خدم ، قام له الدهر فيها على قدم ، وصاحب تعريض ، ودهاء عريض ، وفائز من الدول النصرية بأياد بيض ، أصله من حصن منتفريد ، خدم به الدولة النصرية عند انتزاع أهله ، وكان ممن استنزهم من حزنه إلى سهله ، وحكم الأمر الغالبي في يافعه وكهله ، فكسب حظوة أرضته ، ووسيلة أرففته وأمضته ، حتى عظم جاهه وماله ، وبسقت آماله ، ثم دالت الدول ، وتنكرت أيامه الأول ، وتغلب من يجانسه ، وشقي بمن كان ينافسه ، فجفّ عوده ، والتأثت سعوده ، وهلك والحمول يُظِلّه ، والدهر يقوته من صُبابه حرث كان يستغله ، وله شعر لم يتقنه النظر ، ولا وضحت منه الغرر ، توفي في ذي الحجة عام أربعة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

٦٤ - وقال في « الإكليل » في حق قاسم بن محمد بن الجدد الفهري المري ما صورته : هو من أئمة أهل الزمام ، خليق برعني الذمام ، ذو حظ كما تفتح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام ، كان يبلده حاسباً ، ودراً في بلحة الإغفال راسباً ، صحيح العمل ، يُلبس الطروس من براعته أسنى الحلل ، قال بمدح السلطان :

أرى أوجه الأيام قد أشرقت بِشِرا      فقل لي رعاك الله ما هذه البشرى  
وما بال أنفاس الخزامى تعطرت      فأرجت الأرجاء من نفحها عطرا

١ ق : منتفريد ؛ ومنتفريد ( Montefrio ) تقع شمال مدينة لوشة واسمها القديم ( Mons Frigidus ) .

ونقبت الشمس المنيرة<sup>١</sup> وجهها قصوراً عن الوجه الذي أنجبل البدرا

وهي طويلة ، توفي المذكور عام خمسين وسبعمائة بالطاعون .

٦٥ - وقال في « الإكليل » في حق أبي عثمان سعيد الغساني ما صورته :  
هو ممن يتشوق إلى المعرفة والمقالات ، ويتسق إلى الحقائق والمُحالات ، ويشتمل  
على نفس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعاني من الشعر  
ما يشهد بنُبله ، ويُستظرف من مثله ؛ انتهى .

٦٦ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي الحجاج يوسف بن علي  
الطرطوشي<sup>١</sup> ما صورته : روض أدب لا تعرف الدواء أزهاره ، ومجموع فضل لا  
تخفى آثاره ، كان في فنون الأدب مُطلق الأعنة ، وفي معاركه ماضي الظبي  
والأسنة ، فإن هزل ، وإلى تلك الطريقة اعتزل ، أبرم من الغزل ما غزل ،  
وبزل من دنان راحه ما بزل ، وإن صرف إلى المغرب غمرب لسانه ، وأعاره  
لمحة من إحسانه ، أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه ، ورَدَ على الحضرة  
الأندلسية والدنيا شابة ، وريح القبول هابتة ، فاجتلى محاسن أوطانها ، وكتب عن  
سلطانها ، ثم كَرَّ إلى أوطانه وعطف ، وأسرع اللحاق كالبارق إذا خطف ،  
وتوفي عن سنّ عالية ، وبرود من العمر غالية .

٦٧ - وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن المتأهل العذري من  
أهل وادي آش ما صورته<sup>٢</sup> : رجل غليظ الحاشية ، معدود في جنس السائمة  
والماشية ، تليت على العمال به سورة الغاشية ، وليّ الأشغال السلطانية فذعرت  
الجباة لولايته ، وأيقنوا بقيام قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا :  
جاءت الدابة تكلمنا وهي إحدى الشروط ، من رجل صائم الحُشوة ، بعيد عن  
المصانعة والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخالطة لهم : لا مساس ، عهدي

١ ترجمته في الدرر ٥ : ٢٤٢ وفيه : مات بعد ٧٤٠ .

٢ قد مرت هذه الفقرة ( رقم : ٢٦ ) .

به في الأعمال يحبط ويُبْتَبَّر ، وهو يهَلِّل ويكَبِّر ، ويحسِّن ويقبِّح ، وهو يسبِّح ، وقال يخاطب بعض أمراء الدولة :

عمادي ، ملاذي ، موثلي ، ومؤملي      ألا انعم بما ترضاهُ للمتأهلِ  
وحقق بنيل القصد منك رجاءهُ      على نحو ما يرضيك يا ذا التفضلِ  
فأنت الذي في العلم يُعرف قدرهُ      بخير زمان فيه لا زلتَ تعتلي  
فهئيتَ يا معنى الكمالِ برتبةٍ      تقرأ لكم بالسبقِ في كلِّ محفلِ

توفي عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

وتذكرت بقوله « ويحسن ويقبح ، وهو يسبح » قول الآخر :

قد بلينا بأمرٍ ظلم الناس وسبَّح  
فهو كالجزارِ فيهم يذكُرُ الله ويذبح

رجع :

٦٨ - وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله ابن باق<sup>١</sup> من « التاج » ما صورته : مدير أكوس البيان المعتق ، ولعوب بأطراف الكلام المشقق ، انتحل لأول أمره الهزل من أصنافه ، فأبرز درر معانيه من أصدافه ، وجنى ثمرة الإبداع لحين قطفه ، ثم تجاوزه إلى المغرب وتخطاه ، فأدار كأسه المترع وعاطاه ، فأصبح لفنيه جامعاً ، وفي فلكيه شهاباً لامعاً ، وله ذكاء يطير شرره ، وإدراك تبليج غرره ، وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض ، وعلى ذلاقة لسانه ، وانفساح أمد إحسانه ، فشديد الصباية بشعره ، مغفل لسعره ؛ انتهى .  
والمذكور هو محمد بن إبراهيم بن علي باق الأموي ، مرسى الأصل ، غرناطي النشأة ، مالقي الاستيطان .

وقال في « عائد الصلة » : كان رحمه الله تعالى كاتباً أديباً ذكياً لودعياً يجيد

١ ترجمته في الدرر ٣ : ٣٧٦ ( ط . القاهرة ) .

الخط ويرسل النادرة ، ويقدم على العمل ، ويشارك في الفريضة ، وبذء السبأق في الأدب الهزلي المستعمل بالأندلس ، غير زماناً من عمره محارفاً للفاقة يعالج بالأدب الكؤدية ، ثم استقام له الميسم ، وأمكنه البخت من امتطاء غاربه ، فأنشبت الحظوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد وحاسب ومدير تجر ، فأثرى ونما ماله ، وعظمت حاله ، عهد عندما شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين ، لتصرف في وجوه من البر ، فتوهم أنها كانت زكاة أمسك بها ؛ انتهى .  
وقال أيضاً : أخبرني الكاتب أبو عبد الله ابن سلمة أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله في رويته :

أحرز الخصل من بني سلمة	كاتبٌ تخدمُ الطَّيْبِي قَلَمَهُ
يحملُ الطَّرْسُ من أنامله	أثرَ الحسنِ كلِّما رَقَمَهُ
وتمدُّ البيانَ فكرته	مرسلاً حيث يممت ديمه
خصَّني متحفاً بخمسٍ إذا	بسمِ الروضِ فُقِنَ مَبْتَسِمَهُ
قلت أهدى زهر الرُّبِّي خضلاً	فإذا كلُّ زهرةٍ كَلَمَهُ
أقسم الحسنُ لا يفارقها	فأبرَّ انتقاؤها قسَمَهُ
خطَّ أسطارها ونمَّقها	فأتتْ كالعقودِ منتظمة
كاسياً من حلاه لي حُللاً	رسمها من بديعِ ما رسمه
طالباً عند عاطشٍ نهلاً	ولديه الغيوثُ منسجمه
يتغني الشعرَ من أخي بله	أخرسَ العبيِّ والقصورُ قَمَهُ
أيها الفاضلُ الذي حفظت	ألسنُ المدحِ والثنا شيمه
لا تكلفُ أخاكَ مقترحاً	نشرَ عارٍ لديه قد كتّمه
وابقَ في عزةٍ وفي دعة	ضافي العيشِ واردةً شيمه
ما نى العصنُ عطفه طرباً	وشدا الطيرُ فوقه نَعَمَهُ

ورأيت على هامش هذه القصيدة بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين ما صورته :

نعم ما خاطب به شيخنا وبركة أهل الأندلس وصدر صدورهم أبا عبد الله ابن سلمة ، ومن لفظه سمعتها بالقاهرة ، وإنما لمن النظم العالي المتسق نسق الدرّ في العقود ، رحمه الله تعالى ، قاله ابن المؤلف ؛ انتهى .

وقرأ ابن باق المذكور على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير والخطيب أبي عثمان ابن عيسى ، وتوفي بمالقة في اليوم الثامن والعشرين لمحرّم فاتح عام اثنين وخمسين وسبعمائة ، وأوصى بعد أن يحفر قبره بين شيخيه الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي وأبي عثمان ابن عيسى أن يُدفن به ، وأن يُكتب على قبره هذه الأبيات :

ترحمّ على قبر ابن باق وحيّه	فمن حقّ ميتٍ الحيّ تسليمٌ حيّه
وقل آمن الرحمن روعةً خائف	لتفريطه في الواجبات وغيّه
قد اختار هذا القبر في الأرض راجياً	من الله تخفيفاً بقدر وليّه
فقد يشفعُ الجارُ الكريمُ لجاره	ويشملُ بالمعروف أهل نديّه
وإني بفضلِ الله أوثقُ واثقٍ	وحسي وإن أذنبتُ حبُّ نبيّه

انتهى .

٦٩ - وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن سالم ابن فضيلة المعافري المري<sup>١</sup> المدعو بالتوّ من « الإكليل » ما نصه : شيخ أخلاقه لينة ، ونفسه كما قيل هينة ، ينظم الشعر سهلاً مساقه ، محكماً اتساقه ، على فاقة ، ما لها من إفاقة ، أنشد المقام السلطاني بظاهر بلده قوله :

سرت ريحٌ نجد من ربّي أرضِ بابلِ	فهاجتُ إلى مسرى سُراها بلابلي
وذكرني عَرَفُ النسيمِ الذي سرى	معاهدَ أجيابِ سِراةِ أفاضلِ
فأصبحتُ مشغوفاً بذكر منازلِ	ألفتُ ، فواشوقِي لتلك المنازلِ
فيا ريحُ هُبِّي بالبطاحِ وبالرُبّي	ومرّي على أغصانِ زهرِ الخمائلِ
وسيري بجسمي لتي الروحُ عندها	فروحي لديها من أجلِّ الوسائلِ

١ ترجمته في الدرر ٣ : ٣٦٧ ( ط . القاهرة ) .

وقولي لها عني مُعَنَّكَ بالنوى      له شوقٌ معمودٌ وعبرةٌ ثاكلِ  
فيا بأبي هيفاء كالغصنِ تنثني      تقدُّ بقدرٍ كاد يتقدُّ مائلِ  
وهي طويلة .

ومن شعر المذكور قوله من قصيدة :

بَهَّرَتْ كشمسٍ في غلالةٍ عسجدِ      وكبدرٍ تمَّ في قضيبِ زبرجدِ  
ثمَّ انثنتُ كالغصنِ هزَّتُهُ الصَّبَا      طرباً فتزري بالغصونِ الميِّدِ  
حوراءُ بارعةُ الجمالِ غريرةٌ      تزهي فتزري بالقضيبِ الأملدِ  
إن أدبرتْ لم تُبقي عقلَ مدبرٍ      أو أقبلتْ قتلتْ ولكن لا تدي

قال القاضي أبو البركات ابن الحاج : وابتلي المذكور باختصار كتب الناس ، فمن ذلك مختصره المسمى « الدرر الموسومة في اشتقاق الحروف المرسومة » وكتاب حكايات يسمى « دوحة الجنان وراحة الجنان » وغير ذلك .

قال أبو البركات : وسألته عن مولده ، فقال : لي اليوم ستون سنة ، وقال ذلك ليلة الخميس السابع والعشرين لذي قعدة عام أربعين وسبعمائة ، وتوفي آخر رمضان من عام تسعة وأربعين ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

رجع :

٧٠ - قال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة الكاتب صاحب العلامة أبي العباس أحمد بن علي الملياني المراكشي ما نصه : الصارم الفاتك ، والكاتب الباتك ، أي اضطراب في وقار ، وتجهّم تحته أنس العقار ! اتخذه ملك المغرب صاحب علامته ، وتوجه تاج كرامته ، وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بثار عمه ، ويطوّقهم دمه بزعمه ، ويقصر على الاستنصار منهم بنات همه ، إذ سَعَوْا فيه حتى اعتقل ، ثم جدوا في أمره حتى قُتل ، فرصد كتاباً إلى مراكش

يتضمن أمراً جَزَماً ، ويشمل من أمور الملك عَزَماً ، جعل فيه الأمر بضرب رقابهم ، وسبني أسبابهم ، ولما أكد على حامله في العَجَل ، وضايقه في تقدير الأجل ، تأتت حتى علم أنه قد وصل ، وأن غرضه قد حصل ، فرأى إلى تلمسان وهي بحال حصارها ، فاتصل بأنصارها ، حالاً بين أنوفها وأبصارها ، وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجمت الظنون في آثاره ، ثم وصلت الأخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، فتركها شنيعة على الأيام ، وعاراً في الأقاليم على حملة الأعلام ، وأقام بتلمسان إلى أن حلَّ مُخَنَّق حصرها ، وأزبل هميان الضيقة عن حصرها ، فلحق بالأندلس ولم يعدم برآ ، ورعياً مستمراً ، حتى أتاه حِمَامه ، وانصرفت أيامه ؛ انتهى .

والمذكور ترجمه في « الإحاطة »<sup>١</sup> بقوله : صاحب العلامة بالمغرب ، الكاتب الشهير البعيد الشأو في اقتضاء الترة ، المثل المضروب في الهمة ، وقوة الصريمة ، ونفاذ العزيمة .

حاله - كان نبيه البيت ، شهير الأصالة ، رفيع المكانة ، على سجية غريبة من الوقار والانقباض والصمت ، آخذاً بحظ من الطب<sup>٢</sup> ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضاً للشعر ، تذهب نفسه فيه كل مذهب .

وصمته - فتك فتكة شهيرة أساءت الظن بحملة الأعلام على ممر الدهر ، وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة .

شعره - من شعره الذي يدل على بأوه ، وانفساح خطاه في النفاسة وبُعْد شأوه ، قوله :

العزُّ ما ضُرِبَتْ عليه قباي والفضلُ ما اشتملت عليه ثيابي

١ انظر ج ١ : ١٤٩ ، والإعلام بمن حل مراکش ١ : ٣٧٣ .

٢ ق : الطلب ؛ وأثبتنا ما في الإحاطة .

والزهْرُ ما أهداهُ غصنُ براعتي      والمسكُ ما أبداهُ نِقْسُ كتابي  
 فالمجدُ يمنعُ أن يزاحمَ موردي      والعزمُ يأبى أن يضامَ جنابي  
 فإذا بلوتُ صنيعَةً جازيتها      يجميلُ شكري أو جزيلُ ثوابي  
 وإذا عقدتُ مودةً أجريتها      مجرى طعامي من دمي وشرابي  
 وإذا طلبتُ من الفراقِدِ والسُّها      ثأراً فأوشكُ أن أنالَ طلابي

وفاته - توفي بغرناطة يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة  
 ودُفن بجبانة باب البيرة ، تجاوز الله تعالى عنه ؛ انتهى .

رجع إلى نثر ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

٧١ - فمن ذلك قوله في « الروضة » في ترجمة « ضخام الغصون من  
 شجرة السر المصون » ما صورته : وهي التي أفاءت الظل الظليل ، وزانت المرأى  
 الجميل ، وتكفلت لمحاسن الشجرة الشماء بالتكفيل ، وتتعدد إلى غصون المحبوبات ،  
 وأقسام موضوعاتها المكتوبات ، وغصن المحيين ، أصنافهم المرتبين ، وغصن  
 علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصبّة ، وغصن الأخبار المنقولة ، عن ذوي  
 النفوس المصقولة ، وعند تعين هذه الأغصان المقسومة ، كمل شكل الشجرة  
 المرسومة ، والسرحة الموصوفة الموسومة ، ففاءت الظلال ، وكرمت الحلال ،  
 فحيبي من تفرد وتوحد ، واستظل من استهدى واسترشد ، ووقف الهائم فخطب  
 وأنشدا :

يا سَرَحَةَ الحَيِّ يا مَطُولُ      شَرَحُ الذي بيننا يطولُ  
 عندي مقالٌ فهل مقامٌ      تُصغينَ فيه لما أقولُ  
 ولي ديونٌ عليكِ حلَّتْ      لو أنهُ ينفعُ الحلولُ

١ أورد منها بيتين في النضح ٣ : ٥٠٦ ونسبهما لابن براق .



ماضٍ من العيشِ كان فيهِ متزلّنا ظلُّكِ الظليلُ  
زالَ وماذا عليهِ ماذا يا سرّحَ لو لم يكنْ يزولُ  
حيّا عن المذنبِ المعنىِ منبتكِ القَطْرُ والقَبولُ

وقال رحمه الله تعالى : فصول في المعرفة تغازل بها عيون الإشارة ، إذا  
قصرت عن تمام المعنى ألسنُ العبارة ، والله درُّ القائل :

وإذا العقولُ تقاصرت عن مدركٍ لم تتكلَّ إلاّ على أذواقها

المعرفة اختراق المراتب الحسية ، والنفوس الجنسية ، والعقول القدسية ،  
والبروز إلى فضاء الأزل ، إذا فني من لم يكن وبقي من لم يزل ، مع عمران المراتب ،  
ورؤية الجائز في الواجب :

ومن عجبٍ أني أحزنُ إليهمُ وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي  
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

المعرفة مقام يأتلف من جمع مفروق ، وأفول وشروق ، وسلّ عروق ، ورد  
مسروق ، حتى يذهب الكيف والأين ، ويتعين العين ، فيجمع العدد ويحمل ،  
وينحى السوى ومع ذلك لا يهمل :

للعيدا منك نصيبُ ولك السهمُ المصيبُ  
إتما يومك يوماً ن : خصيبُ وعصيبُ

المعرفة مقام سامي المنعرج ، عاطر الأرج ، يتقل من السّعة إلى الحرج ، ومن  
الشدّة إلى الفرج :

طريقك لا تخفى به إن تتبعتُ خطاك ولا يخفى مبيتك فيه  
متاعك منشورٌ على كل خيمةٍ ورؤياك أمنٌ من ترفعُ تبه

المعرفة عين إن لم تبصر أجزاءها ، أحسن الله عزاءها ، وحقيقة إن لم يجعل الفراق  
إزاءها ، كانت الغيرة أجزاءها ، فهي دائرة مركزها يجمع ، ومحيطها في التفريق  
يطمع ، يستقل الملك أجمع ، ويرى من يرى ويسمع من يسمع :

بُعْدُ المحيطِ من المحدّدِ واحدٌ والكلُّ في حقِّ الوجودِ سواءٌ  
والحقُّ يعرفُ ذاتهُ من ذاتهِ صحَّ الهوى فتلاشتِ الأهواءُ

المعرفة صعود ونزول ، ووقوف ووصول ، فلا الوصول عن البداية يقطع ،  
ولا البداية عن النهاية تمنع :

من له الأمرُ أجمعُ كلُّ ما شاء يصنعُ  
حصلَ القصدُ واستقرَّ فلم يبقَ مطمعُ

العارف في البداية يشكر الراع والساجد ، ثمّ يعذر الواحد المتواجد ، ثمّ يرجم  
المنكر الجاحد ، فإذا انتهى وردّ العدد إلى الواحد ، قال لسان حاله :

من رأى لي نشيدةً أو على عينها أثرُ  
فله الحكم قل له ذهبَ العينُ والأثرُ

إلى أن قال : قال الرئيس : العارف هشّ بش بسّام ، فيجل الصغير من تواضعه  
مثلما يجل الكبير ، ويبسط من الخامل مثلما يبسط من النبيه ، ثمّ علل فقال :  
وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق ، وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق ، إني لأجد  
ريح يوسف ٢ :

لمعت نارهم وقد عسعس الليلُ وضجّ الحادي وحرّ الدليلُ  
فتأمّلتها وقلتُ لصحبي هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا

١ ق : الغزة .

٢ انظر مشارق أنوار القلوب : ٧٢ وهما من قصيدة للسهروردي .

العارف شجاع ، وكيف لا وهو بمغزل عن هيبة الموت ، وجواد ، وكيف لا وهو بمغزل عن صحبة الباخل ، وشفّاح ، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تخرجها زلة بشر ، ونساء للأحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق ، وقالوا : مَنْ عرف الله تعالى صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله رب العالمين .

الشبلي : ليس لعارف علاقة ، ولا لمحِب شكوى ، ولا لعبد دعوى ، من عرف الله سبحانه انقطع ، بل خرس وانقمع ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ؛ انتهى .

٧٢ - وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة : الفرع الصاعد إلى الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ، إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجريم شريف ، وأفنان ذوات ألوان ، قنوان وغير قنوان ، وطلّغ نضيد ، وجنّى سعيد ، فالقشر الحدود والرسوم ، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسوم ، والفنون التي يقوم عليها والعلوم ، والجرم ظاهر الخلق المقسوم ، وعلاجه كما تعالج الجسوم ، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم ، وقلبه الرياضة والغصون المقامات فيها المقام المعلوم ، ومادتها السلوك الذي بتدرّيج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم ، والزهرات اللوائح والطواع والبواده التي لها الهجوم ، والواردات التي تدوم أو لا تدوم ، ثمّ الجنى وهو الولاية التي كان الغارس عليها يحوم ؛ انتهى .  
ثمّ فصلّ الكل رحمه الله تعالى فليراجع من أراه .

٧٣ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه على لسان سلطانه للأمير يلبيغا الخالصكي<sup>١</sup> ، وهو : « إلى الأمير المؤمن على أمر سلطان المسلمين ،

١ كان مدبر الدولة أيام المنصور محمد والأشرف شعيان ، قتله غلمانا لعسفه وظلمه سنة ٧٦٨ .

المقلد بتدبيره السيد قلادة الدين ، المثني على رسوم بره لمقامه لسان الحرم الأمين ،  
الآوي من مرضاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى الربوة ذات القرار  
والمعين ، المستعين من الله تعالى على ما تحمّله وأمله بالقوي المعين ، سيف الدعوة ،  
ركن الدولة ، قوام الملة ، مؤمل الأمة ، تاج الخواص ، أسد الجيوش ، كافي  
الكفاة ، زين الأمراء ، علم الكبراء ، عين الأعيان ، حسنة الزمان ، الأجل  
المرفع الأسنى الكبير الأشهر الأسمى الحافل الفاضل الكامل المعظم الموقر الأمير  
الأوحد يلغا الخاصكي ، وصل الله له سعادة تشرق غرّتها ، وصنائع تسح فلا  
تشحّ درتها ، وأبقى تلك المثابة قلادة الله تعالى وهو درتها .

« سلام كريم ، طيب برّ عسيم ، يخص إمارتكم التي جعل الله تعالى الفضل  
على سعادتها أمانة ، واليسر لها شارة ، فيساعد الفلك الدوار مهما أعملت إدارة ،  
وتمتثل الرسوم كلما أشارت إشارة .

« أما بعد حمد الله تعالى الذي هو يعلمه في كل مكان ، من قاص ودان ،  
وإليه توجه الوجوه وإن اختلفت السّير وتباعدت البلدان ، ومنه يلتمس الإحسان ،  
وبذكرة ينشرح الصدر ويظمن القلب ويمرح اللسان ، والصلاة والسلام على  
سيدنا ومولانا محمد رسول العظيم الشان ، ونبيّه الصادق البيان الواضح البرهان ،  
والرضى عن آله وأصحابه وأحزابه أحلاس الخليل ، ورهبان الليل ، وأسود الميدان ،  
والدعاء لإمارتكم السعيدة بالعز الرائق الخبر والعيان ، والتوفيق الوثيق البنيان ،  
فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم حظاً من فضله وافرأ ، وصنعاً عن محبّة  
السرور سافرأ ، وفي جو الإعلام بالنعيم الجسام مسافرأ - من حمراء غرناطة  
حرسها الله تعالى دار ملك الأندلس دافع الله سبحانه عن حوزتها كيد العداة ،  
وأتحف نصلها ببواكر النصر المهداة ، ولا رائد إلا الشوق إلى التعارف بتلك  
الأبواب الشريفة التي أنتم عنوان كتابها المرقوم ، وبيت قصيدها المنظوم ، والتماس  
بركتها الثابتة الرسوم ، وتقرير المثول في سبيل زيارتها بالأرواح عند تعذره  
بالجسوم ، وإلى هذا فإننا كانت بين سلفنا تقبّل الله تعالى جهادهم ، وقدم

نفوسهم ، وأمن معادهم ، وبين تلك الأبواب كما عرفتم من عدلها وإفضالها ، مراسلةً نيمٌ عَرَفُ الخلوص من خلالها ، وتسطع أنوار السعادة من آفاق كما لها ، وتلمح من أقطار طروسها محاسن تلك المعاهد الزاكية المشاهد ، وتُعرب عن فضل المذاهب وكرم المقاصد ، اشتقنا إلى أن نجددها بحسن منابكم ، ونواصلها بمواصلة جنابكم ، ونغتم في عودها الحميد مكانكم ، ونؤمل لها زمانكم ، فخاطبنا الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجيلة من التقصير ، وجيلة من الناقد البصير ، ونؤمل الوصول في خفارة يدكم التي لها الأيادي البيض ، والموارد التي لا تغيض ، ومثلكم من لا تخيب المقاصد في شمائله ، ولا تضحى المآمل في ظل خمائله ، فقد اشتهر من حميد سيركم ما طبّق الآفاق ، وصحب الرفاق ، واستلزم الإصفاق ، وهذه البلاد مباركة ، ما أسلف أحد فيها مشاركة ، إلا وجدها في نفسه ودينه وماله وعباله ، والله سبحانه أكرم منّ وفي لامرئ بمكياله ، والله عز وجل يجمع القلوب على طاعته ، وينفع بوسيلة النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي نعول على شفاعته ، ويبقى تلك الأبواب ملجأ للإسلام والمسلمين ، وظلاً لله تعالى على العالمين ، وإقامة لشعائر الحرم الأمين ، ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين ، ويجعلكم ممّن أنعم الله تعالى عليه من المجاهدين ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ انتهى .

٧٤ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في قضية امتناع بعض الموثقين من أكل طعامه بمدينة سلا ، وقد صدر به كتابه المسمى بـ « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » وهذا نصه : أما بعد حمد الله الذي قرر الحكم وأحكمه ، وبين الحلال من الحرام بما أوضحه من الأحكام وعلمه ، ونوع جنس المعاش وقسمه ، وماز كل نوع منه ووسمه ، فأثبتته متفاوتاً في درجات التفضيل ورسومه ، والصلاة والسلام على مولانا محمد رسوله الذي فضّله على الأنبياء وقربه وطهر من دنس الشبهات شيمه ، فما استعمله في غير طاعته ولا استخدمه ، ولا أعمل في سوى

البر والهدى بَنَانَه ولا قَدَمَه ، والرَضَى عن آلِه وأصحابه الذين رَعَوْا ذِمَمَه ،  
واستمطروا دِيَمَه ، وتواصوا من أجله بالبر وتواصوا بالمرحمة ، فهذا كتابُ  
« مثلِي الطريفة في ذم الوثيقة » دعا إلى جمعه قلة الإنصاف من المُدَاهِن والمُعاصِر ،  
والمباهت في مدرك النور الباصر ، ورضى مظنة النَّيْلِ منهم بالباع القاصر ، والمناضلة  
عن الحمى الذي لم يؤيده الحق بالولي ولا بالناصر ، ولوضعه حكاية ، ولنفتته  
شكاية ، إذ معرفة الأشياء بعلمها مما يتشوق إليه ، ويحرص عليه ، وهو أني لما  
قدمت على مدينة فاس حرسها الله تعالى ، مستخلصاً بشفاعة الخلافة ، ذات الإنافة ،  
مستدعيّ برسالة الإيالة ، ذات الجلالة ، فانسحب والمنة لله السر ، وانفسح الفتر ،  
وشفع من النعم الوتر ، واقتدى المرؤوس بالرئيس ، وتنافس الأعلام في التأنيس ،  
واتصل الاحتفاء والاستدعاء ، وانتخب الموعى والوعاء ، وأخذ أعقاب الطيبات  
الوضوء والطيب والدعاء ، تعرفت فيمن جمعته الأخوينة ، والمداعي المتعينة ،  
برجل من نيهاء موثقيها غرّني بمخيلة البشاشة التي يستفزُّ بها الغريب ، ويستخلص  
هوى من لم يعمل التجريب ، فأنتست بمكانه ، واستظهرت على ما يعرض من  
مكتب بدكانه ، وشأنِي في الاغتباط بمن عرفت شاني ، فليست للمِقة بشاني ،  
واسترسالي ، حتى لمن أسالي ، طوع عنائي :

أفادتكم النعماء مني ثلاثةٌ ضميري ويتلوهُ يدي ولساني

ولم يكُ إلاّ أن حللت بمدينة سلا حرسها الله تعالى مقصود المحل وإن رغم الدهر  
الذي رمى فأقصد ، معتمداً بفتوحات الله تعالى وإن أرتج الباب بزعمه وأوصد ،  
مُصحِباً بمدد عنايته وإن كمن وأرصد ، لا يمر فاضل إلاّ عرّج على مثنوي ، وأتى  
من البر فوق هواي ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، وتعرفت عن صاحبي  
الفاسي أنه قدم علينا من سخر عملية فلا لها الدر المنهوبة ، وتحللها المسبعة المرهوبة ،  
واغتنى الأطعمة التي مرّقَتْها الدموع ، ومطبختها الحمى المروع ، واستقر  
بالمدينة بعد أن لان وصرع ، وجدل وصرع ، نافق البقلة كاسد الورع ،

ونزل بمثوى خمول ، ومحطّ مجهول ، وكَتَفَ ممقوت ، وجوار لا يبخل بغيبة ولا يسمح بقوت ، فبادرت استدعاه بفاضل من الطلبة ممّن يتلقى به الوارد ، ويقتاد الشارد ، وقد أغرب بقراءة الاحتفاء والاحتفال ، وأجنب الإغفاء والإغفال ، وجهزت السرايا إلى التماس نعم الله تعالى فحلت الأنفال ، فلماً عرض عليه الدعوة تعجرف ونفر ، ولماً مسح عطفه بالاستئزال نزا وطفّر ، حتى بهت الرسول كما بهت الذي كفر ، وآب يحمل عذراً بلرداً ، واحتجاجاً شاردأ ، فأقطعت جانب شماسه ، وخليت بينه وبين وسواسه ، ومن الغدّ قَصَدَني فاعتذر ، وأكثر الهذّر ، ولم ينبت الله النبات الحسن شيئاً ممّا بَدَرَ ، وكان جوابي إياه ما نصه :

أبيتم دعوتي إمّا لبأوي	وتأبي لومه مثلي الطريقة
وبالمختار للناس اقتداء	وقد حضر الوليمة والعقيقة
وغير غريبة أن رقّ حرّ	على منّ حاله مثلي رقيقة
وإمّا زاجر الورع اقتضاها	ويأبى ذلك دكان الوثيقة
وغشيان المنازل لاختيار	يطلب بالخليلة والدقيقة
شكرت غيلة كانت مجازاً	لكم وحصلت بعد على الحقيقة

وذاع خبرها فقلبت عنها الجنوب ، وكلف بها الطالب والمطلوب ، وهشّ إلى المراجعة عنها أحد الموثقين بسلا ممّن يحوم حول حمى الإدراك ، ويروم درجة الاختصاص ببعض الفنون والاشترك ، وله في الأدب مساس ، وجلب الباس ، بما نصه :

رسولك لم يبين لي عن طريقه	تقرب من حديقتك الأنيقه
فلا بأو لدي ولا إباء	ولكن ساء في الغرض الطريقة
وهب أني أسأت فكم صديق	تدلّل واعتدى فجفا صديقه

فلا عجبٌ فديتَ لرفقِ حرٍّ يسكنُ عندَ خجلتهِ رفيقه°  
 وإني فيكَ معتقدٌ ، ولكن أرى الأيامَ حاقدةً حنيقه°  
 على ذي الودِّ فيمن ودَّ حتى يفارقهُ وإن أضحي رفيقه°

فراجعته بما نصه لما أسلفته من جزاء مصاعه ، وكلتُ له بصاعه :

من استغضبت من هذي الخليقة° بمغضبةٍ بإنكارِ خليقته°  
 ولم يغضبُ فتيسُ أو حمارٌ مجازاً ، لا ، لعمرى ، بل حقيقته°  
 بعثتُ بمرسلٍ لك مع عتيقي فلم تطعِ الرسولَ ولا عتيقه°  
 وطوقتَ السفيرَ الذنبَ لما عجلتَ به ولم تُبلعه ريقه°  
 إمامُ جماعةٍ وقرعُ تقوى ومُبلغُ حجةٍ ، وحفيظُ سيقه°  
 فبؤتَ بها على الأيامِ داءً عُضالاً لا تفيقُ عليه فيقه°  
 وقد عارضتَ عذركَ باعترافٍ فزدتَ مذمةً تسمُ الطريقة°  
 وهل بعدَ اعترافٍ من نزاعٍ وهل بعدَ افتصالٍ من وثيقه°  
 ومن جهلِ الحقوقِ أطاعَ نفساً ببحرِ الجهلِ راسبةً غريقه°  
 ومنجى نيقةٍ أمرٌ بعيدٌ إذا نصبَ المهندسُ منجنيقه°

فأمسك حيثنذ وأقصر ، ورأى الأمر يطول فاختصر ، إلا أنه نمي لي عنه قوله :  
 إن دكان الوثيقة إن نافي الورع فبغير بلده ، وأذهلته لذة لدده ، عما هو بصدده ،  
 فارتهنت له أن أنصر الدعوى بما يسلمه المنصف المساهل ، وينكره الأرعن الجاهل ،  
 وتشدد به المنازل والمناهل ، والمعالم والمجاهل ، مستنداً إلى الحكم الشرعي ، والسنة  
 المرعي ، والمشاهدة والحس ، وشهادة الجن والإنس .

١ السيقة : لعلها صورة اشتقاقية من السوق أو السياق بمعنى المهر الذي يساق إلى المرأة في صداقتها ؛  
 وبما يقرب هذا المعنى أن الرجل الذي وجهت إليه الأبيات من كتاب الوثائق .



## ولو تُركَ القَطَا ليلًا لنا ما

والله يجعله موقظاً من السنّات ، وازعاً عن كثير من الهنات ، وينفع فيه بالنية فإنما الأعمال بالنيات ، وما أنا أبتدىء وعلى الله الإعانة ، وبحوله وقوته الإفصاح والإبانة .

قلت : ينحصر الكلام فيه في سبعة أبواب ، الباب الأول : في جواز الإجارة فيها عند العلماء ، الباب الثاني : في الشركة المستعملة بين أربابها ، الباب الثالث : في محلها من الورع إن سوّغها الفقه ، الباب الرابع : في منزلتها من الصنائع والمهن ، الباب الخامس : في أحوال متحلّيها من حيث العلم غالباً ، الباب السادس : في أحوالهم من جهة استقامة الرزق وانحرافه ، الباب السابع : في رد بعض ما يحتاج به فيها . انتهت الخطبة المقتطعة من تأليف لسان الدين رحمه الله تعالى .

وهذا التأليف في نحو كراسة ، وقال في آخره ما صورته : فإن قيل : ترك الأجر وقبول العوض في هذا الأمر يدعو إلى تعطيله ، فيفقد الناس منفعة هذه الطريقة وغنائها ، قلت : الإنصاف فيها اليوم أن لو كان متوليها يرتزق من بيت المال وأموال المصالح والأوقاف التي تسع ذلك ، وحال الجماهير في فقدانها والاضطرار إليها ورفع أمورهم بها إلى السلطان ورغبتهم في نصب من يتولى ذلك حالهم في فقدان أئمة الصلاة في المساجد الراتبية في جريانه من بيت المال بعلّة التزامهم وارتباطهم فقط ، حسبما نقل الإجماع فيه القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله تعالى ومنع الارتزاق من غيره إجماعاً ، وقد كان بالمدن المعتبرة من بلاد الأندلس — جبرها الله تعالى — ناس من أولي التعفف والتعين ، كبنّي الجدي بإشبيلية وبنّي الخليل وغيرهم بغيرها ، يتعيشون من فضول أملاكهم ، ووجائب رباعهم ، ويقعدون بدورهم عاكفين على بر ، متنايين لرواية وفتيا ، يقصدهم الناس في الشهادة فيجاملونهم ، ويُبْركون على صفقاتهم ، ويهدونهم إلى سبيل الحق فيها من غير أجر ولا كلفة ، إلاّ الحفظ على المناصب ، وما يجريه السلطان من الحرمة

والتفقد<sup>١</sup> في الضرورة ، وما يهديهم الناس من الإطراء والتجلة ، والله سبحانه ينيلهم من الأجر والثوبة ، وبلغني اليوم أن حالها بمدينة سجلماسة ينظر إلى هذا الحال من طرف خفي ، ولم يفسد بها كل الفساد ، وكذلك لم نزل نتعرف أن الأمر في شأنها بمدينة تونس أقرب ، وبعض الشر أهون من بعض ، ولو بقيت بحالها لوجب تقرير فضلها وتقريظ منتحلها ، فالصدق أنجي ، والحق عند الله أحجى ، والله عز وجل يستعملنا فيما يرضيه ، ويلطف بنا فيما يجريه علينا من أحكامه وما يقضيه ، ويجعلنا ممن ختم له بالحسنى ، ويقربنا إلى ما هو أقرب من رحمته وأدنى ، وصلوات الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ؛ انتهى .

وكتب على ظهر الورقة الأولى من هذا التأليف شيخ شيوخنا الإمام الكبير المؤلف الشهير سيدي أحمد الونشريسي رحمه الله تعالى ما صورته : الحمد لله ، جامعُ هذا الكلام المقيد هذا بأول ورقة منه قد كدّ نفسه في شيء لا يعني الأفاضل ، ولا يعود عليه في القيامة ولا في الدنيا بطائل ، وأفنى طائفة من نفيس عمره في التماس مساوىء طائفة بهم تُستباح الفروج ، وتملك مشيدات الدور والبروج ، وجعلهم أضحوكة لذوي الفتك والمجانة ، وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة ، سامحه الله تعالى وغفر له ، قال ذلك وخطّه يميني يديه عبيد ربه أحمد بن يحيى بن محمد بن علي الونشريسي خار الله سبحانه له ؛ انتهى ما ألفيته . وقد كان لسان الدين رحمه الله تعالى كثيراً ما يعرض ويصرح بهجو بعض أهل سلا أو كلهم حتى قال :

أهلُ سلا صاحتُ بهم صائحهُ غاديةٌ في دورهم رائحهُ  
يكفيهمُ من عَوَزِ أتهمُ ريجانهُمُ ليستُ له رائحهُ

والله المرجو للعفو عن الزلات .

٧٥ - ومن ثمر لسان الدين رحمه الله تعالى خطبة كتابه في المحبة الذي ما

١ ق : والنفقة .

ألف في فنه أجمع منه ، ولنوردها فإن فيها دلالة على فضله وعظم قدر الكتاب ، وهي : « اللهم طيبّ بريحان ذكرك أنفاسَ أنفسنا الناشقة ، وعلّل بجزيرال حبك جوانح أرواحنا العاشقة ، وسدد إلى أهداف معرفتك نبالَ نبلنا الراشقة ، واستخدم في تدوين حمدك شبا أعلامنا الماشقة ، ودلّ على حضرة قدسك خطرات خواطرنا الذائقة ، وأبين لنا سبيلَ السعادة التي جعلتَ فيها الكمال الأخير لهذه الأنفس الناطقة ، واصرفنا عند سلوكها عن القواطع العائقة ، حتى نأمن مخاوف أجبالها الشاهقة ، وأحزابها المنافقة ، وأوهامها الطارئة الطارقة ، وبرازخها القاسية الغاسقة ، فلا تسرق بضائعنا العوائدُ السارية السارقة ، ولا تحجبنا عنك العوارض الجسمية اللاحقة ، ولا الأنوار المغلظة البارقة ، ولا العقول المفارقة ، يا من له الحكمة البالغة والعناية السابقة ، وصلّ على عبدك ورسولك محمد درة عقود أحبابك المتناسقة ، وجالب بضائع توحيدك النافقة ، المؤيد بالبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة ، ما أطلعت أفلاك الأدواح زهراً أزهارها الرائقة ، وحدث قطار السحاب حداً رعوها السائقة ، وجمعت ریح الصبا بين قدود أغصانها المتعاقبة .

«أما بعد ، فإنه لما ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف الله حدودها ، الصادقة بنصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وعودها - وصلّ الله تعالى عوائد صنعه الجميل لديها ، وأبقاها دار إيمان إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومنّ عليها - «ديوانُ الصبابة» وهو الموضوع الذي اشتمل من أبطال العشاق على الكثير ، واستوعب من أقوالهم الحديثة والقديمة كلّ تنظيم ونثير ، وأسدى في غزل غزله وألم ، ودلّ على مصارع شهدائهم من وقف وترحم ، فصدّق الخبر المخبر ، وطمت اللجة التي لا تُعبر ، وتأرّج من مسراه المسكُ والعنبر ، وقالت العشاق عند طلوع قمره : الله أكبر :

مررت بالعشاقِ قد كبروا وكان بالقربِ صبيّ كرمٍ

١ كتاب من تأليف شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة .

فقلت : ما بالهم ؟ قال لي : ألقى للحب كتاب كريم

ولا غرو أن أقام بهذه الآفاق ، أسواق الأشواق ، وزاحم الزفرات في مسالك  
الأطواق ، وأسأل جواهر المدامع من بين أطباق تلك الحقائق<sup>١</sup> ، وفنك نسيمها  
الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق :

جنى النسيم علينا وما تبيئتُ عذرةً  
إذ صيرَ الخلقَ نجداً والأرضَ أبناءَ عذرةً

فوقع للحجة المصرية التسليم<sup>٢</sup> ، وقالت ألسنة الأقلام معربة عن ألسنة الأقاليم :

سلمتُ لمصرَ في الهوى من بلدٍ يهديه هواؤه لدى استنشاقه  
من ينكرُ دعوايَ فقلْ عني له تكفي امرأةُ العزيزِ من عشاقه

فغمر المحافل والمجالس ، واستجلس الراكب واستركب الجالس ، يدعو الأدب  
إلى مادبته فلا يتوقف ، ويلقي عصا سحره المصري فتلقف ، ما شئت من ترتيب  
غريب ، وتطريب من بنان أريب ، يشير إلى الشعر فتتقاد إليه عيونه ، ويصبح  
بالأدب الشريد فتلبيه فنونه ، وأنهى خبره للعلوم المقدسة ، ومدارك العز الموطدة  
المؤسسة ، سما به الجحد صُعداً إلى المجلس السلطاني مقر الكمال ، ومطمح الأبصار  
والآمال ، حيث رفارف العز قد انسدت ، وموازن القسط قد عدلت ، وفصول  
الفضل قد اعتدلت ، وورق أوراق المحامد قد هدلت ، مجلس السلطان المجاهد ،  
الفتاح الماهد ، المتحلي في ريعان العمر الحديد ، والملك السعيد ، بجلى القانت  
الزاهد ، شمس أفق الملة ، وفخر الخلفاء الجلّة ، بدر هالات السروج المجاهدة ،  
أسد الأبطال البارزة إلى حومة الهياج الناهدة ، معشي الأبصار المشاهدة ، مظهر  
رضى الله تعالى عن هذه الأمة الغريبة عن الأنصار والأقطار ، من وراء أمواج<sup>٣</sup>

١ ق : الأطباق . ٢ كذا قال ، ولكن ابن حجلة منبري المولد ، استوطن القاهرة .

٣ أمواج : سقطت من ق .

البحر الزخار ، باختياره لها واعتيامه ، ومُلبسها برود اليُمن والأمان ببركة أيامه ،  
ومن أطلع الله تعالى أنوار الجمال من أفق جبينه ، وأنشأ أمطارَ السماح من غمام  
يمينه ، وأجرى في الأرض المثل السائر بحلمه وبسالته ودينه ، أمين الله تعالى على  
عهدة الإسلام بهذا القطر وابن أمينه وابن أمينه ، فخر الأقطار والأمصار ، ومطمح  
الأيدي وملحم الأبصار ، وسلالة سعد بن عبادة سيد الأنصار ، ومن لو نطق  
الدين الحنفي لحيّاه وقدّاه ، أو تمثل الكمالُ صورةً ما تعدّاه ، مولانا السلطان  
الإمام العالم العامل المجاهد أمير المسلمين أبو عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين أبي  
الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر الأنصاري  
الخرزجي ، جعل الله تعالى ثغراً الثغر مبتسماً عن شنب نصره ، والفتح المبين  
مذخوراً لعصره ، كما قصر آداب الدين والدنيا على مقاصير قصره ، وسوّغه  
من أشنات مواهب الكمال ما تعجز الألسن عن حصره ، ولا زالت أفنان الأفلام  
تتحف الأقاليم بجنيّ فنون هــصـره ، فخصته عينُ استحسانه أبقاه الله تعالى بلحظة  
لحظ ، وما يُلقّاها إلاّ ذو حظّ ، وصدرت إليّ منه الإشارة الكريمة بالإملاء في  
فته ، والمنادمة على بنت دته ، وحسب الشحم من ذي ورم والله سبحانه يجعلني  
عند ظنه ، ومتى قورن المثري بالمثرب ، أو وُزن المشرق بالمغرب ؟ شتان بين من  
تُجلى الشمس منه فوق منصتها ، وبين من يشره أفقه الغربي لابتلاع قرصتها ،  
لكني امتثلت ، ورشت ونثلت ، ومُكرهاً لا بطلاً مثّلت ، وكيف يتفرغ  
للتأليف ، ويتبرع للوفاء بهذا التكليف ، من حمل الدنيا في سن الكهولة على  
كاهله ، وركض طرف الهوى بين معارفه ومجاهله ، واشترى السهر بالنوم ،  
واستنفد سواد الليل وبياض اليوم ، في بعث يجهز ، وفرصة تنهز ، وثغر للدين  
يُسد ، وأزر للملك يشد ، وقصة ترفع ، ووساطة تنفع ، وعدل يحرص على  
بذله ، وهوى يجهد في عدله ، وكريم قوم ينصف من نذله ، ودين تزاح الشوائب  
عن سبّله ، وسياسة تشهد للسلطان بنبله وإصابة نبله ، ما بين سيف وقلم ،  
وراحة وألم ، وحرب وسلّم ، ونشر علّم أو علم ، وجيش يعرض ، وعطاء

يُفْرَضُ ، وقرض حسن لله تعالى يُفْرَضُ ، في وطن توافر العدو على حصره ،  
 ودار به دَوْر السوار على خصره ، وملك قصر الصبر والتوكل على قصره ، وعددُ  
 نسبه من العدد العظيم الطاقة ، الشديد الإضاقة ، نسبةُ الشعرة من جلد الناقة ،  
 وبالله نستدفع المكروه ، وإليه نمد الأيدي ونصرف الوجوه ، وسألت منه - أيده  
 الله تعالى - القنوع بما يسره الوقت ، مما لا يناله المقت ، والذهاب بهذا الغرض  
 لما يليق بالترب والسن ، ويؤمن من اعتراض الإنس والجن ، وما كنت ممن  
 أثر على الجلد الهزل ، واعتاض من الغزل الرقيق الغزل بشيمة الجزل ، ولا آتف  
 من ذكر الهوى بعد أن خُصتُ غماره ، واجتنيت ثماره ، وأقمت مناسكه ورميت  
 جماره ، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة ، فالهوى أول تيمة قلّدتني الداية ،  
 والترب التي عرفتها في البداية ، وأنا الذي عن عروته نُبتُ ، وبُعثتُ إلى الرصافة  
 لأرقّ فذُبتُ ، إلى أن تبين الرشد من الغي ، وصار النشر إلى الطي ، وتصايح  
 ولدان الحيّ ، كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم كما منّ عليّ :

جزى الله عني زاجرَ الشيب خير ما جزى ناصحاً فازت يدايَ بخيره  
 ألقتُ طريقَ الحبّ حتى إذا انتهى تعوضتُ حبّ الله عن حبّ غيره

حال السواد بحال الفؤاد ، وصوّح المرعى فانقطعت الرؤاد ، ونهاني ازورار خيال  
 الزوراء ، والتفات عاذل الشيب عن المقلة الحوراء ، وكيف الأمان ، وقد طلع  
 منه النذير العريان ، يدل على الخبر بخبره ، وينذر بهاذم اللذات على أثره ، والله  
 در القائل :

دعيتي عينك نحو الصبا دعاء يردد في كل ساعة  
 فلولا ، وحقك ، عذر المشيب لقلت لعينيك : سمعاً وطاعة

ولولا أن طيف هذا الكتاب الوارد طرّق مضجعي وقد كاد يبدو الحاجب ،  
 ويضيع من الفرض الواجب ، ويعجب من نوم الغفلة العاجب ، لجرّيت معه في

ميدانه ، وعقدتُ بناني بينانه ، وتركتُ شاني وإن رغم الشاني لشانه ، وقلت  
معتذراً عن التهويم في بعض أحيانه :

أهلاً بطيفك زائراً أو عائداً      تفديك نفسي غائباً أو شاهداً  
يا مَنْ على طيف الخيالِ أحالي      أتظنُّ جفني مثل جفحك راقداً  
ما نمتُ ، لكنّ الخيالِ يلمُّ بي      فيجله طرفي فيُطرقُ ساجداً

ومن العصمة أن لا تجد ، هلاًّ قبل المشيب ، ومع الزمن القشيب ، وقبل أن تمخض  
القربة ، وتبني الخانقاه والتربة ، وتؤنس بالله الغربية ، وعلى ذلك فقد أثر ، وباء  
قلبي المعثر ، اللهم لا أكثر :

وبدا له من بعد ما اندمك الهوى      برقٌ تألّق موهناً لمعائه  
يبدو كحاشية الرداء ودونهُ      صعبُ الذرا متمنّعُ أركانهُ  
فبدا لينظر كيف لاح ، فلم يطقُ      نظراً إليه ورددت أشجانهُ  
فالنارُ ما اشتملتُ عليه ضلوعهُ      والماءُ ما سمحتُ به أجفانهُ

وجعلت الإملاء على حمل مؤازرته أيده الله تعالى علاوة ، وبعد الفراغ من ألوان  
ذلك الخوان حلاوة ، وقلت أناطب مؤلف كتاب « الصباية » بما يعتمده جانب  
إنصافه ، ويغطي على نقصٍ إن وقع فيه كمال أوصافه :

يا مَنْ أدار من الصباية بيننا      قدحاً يئمّ المسكُ من ريباهُ  
وأتى بريحان الحديث فكلّما      سمح النديمُ براحه حيّاهُ  
أنا لأهيم بذكر مَنْ قتل الهوى      لكن أهيمُ بذكر من أحياهُ

وعنّ لي أن أذهب بهذا الحب المذهب المتأدي إلى البقاء ، الموصل إلى ذروة السعادة  
في معارج الارتقاء ، الذي غايته نعيم لا ينقضي أمده ، ولا ينفد مدده ، ولا  
يُفصل وصله ، ولا يفارق الفرع أصله ، حب الله المبلغ إلى قربه ، المستدعي لرضاه

وجبه ، المؤثر بالنظر إلى وجهه ، ويا لها من غاية ، الملقى رَحْلَ المتصف به بعد قطع بحار الفناء على ساحل الولاية .

« وكنت وقفت من الكتب المؤلفة في المحبة على جملة منها كتاب يشهده العوام ويستخفه الهوام ، ورسالة ابن واصل رسالة مهذارة ، تطفو من دارة إلى دارة ، في مطاردة هر وفارة ، وكتاب ابن الدباغ القيرواني<sup>١</sup> كتاب مفرقع ، ووجه المقصود منه متبرقع ، وكتاب ابن خلصون وهو أعد لها لولا بداوة تَسِيمُ الخُرطوم ، وتناسب الجمل المخطوم ، فكنت بما ذكر لا أقنع ، وأقول ما أصنع ، فالله يعطي ويمنع :

قلتُ للساخِرِ الذي رفعَ الأنفَ واعلى  
أنتَ لم تأمنِ الهوى لا تُعَيِّرُ فتُبْتلى

شعر :

وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذُقْتُهُ فعمجتُ كيف يموت من لا يعشق<sup>٢</sup>  
ومن المنقول : لا تُظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك .

بلاني الحبُّ فيكَ بما بلاني فشاني أن تفيض غروب شاني

أجل بلاني بالعرض الذي هو من القلوب سر أسرارها ، ومن أفنان الأذهان بمنزلة أزهارها ، ومن الموجودات وأطوارها قطبٌ مدارها ؛ ليكون كتابي هذا المقدم على المأزق المهلك ، المتشعب بما لا يملك ، وأن يقنع الانصاف ، فعسى أن يشفع الإنصاف ، والاقتراف ، يدرؤه الاعتراف ، أنا عند المنكسرة قلوبهم ، ولا تجود يد ، إلا بما تجد ، وكل يُنْفِقُ ممّا آتاه الله :

وابنُ اللبّونِ إذا ما لُزَّ في قرَنٍ لم يستطعُ صولةَ البُزلِ القناعيسِ<sup>٣</sup>

١ لعله يشير إلى كتاب « مشارق أنوار القلوب » لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ ( - ٦٩٦ ) . وقد نشره الأستاذ هـ . ريتير ( دار صادر : ١٩٥٩ ) .

٢ البيت للمتنبّي من قصيدته التي مطلعها « أرق على أرق ومثلي يأرق » .

٣ البيت لجرير ، ديوانه : ٢٥٠ .



وعسى الذي أنطق شوقاً ، أن ينطق ذوقاً ، والذي حرك سفلاً أن يحرك فوقاً ،  
والذي يسره مقالاً ، أن يكفيه حالاً .

فأولُ الغَيْثِ طَلٌّ \* ثم ينسكب

الحرب أول ما تكون بلحاجة\*

وإنَّ الحرب أولها الكلام<sup>١</sup>

نحمد الله سبحانه على الكلف بهذه الطريقة ﴿وما يُلَقَّأها إلا ذو حظٍّ عظيم﴾  
(فصلت : ٢٥) وللأرض نصيب من كأس الكرم<sup>٢</sup> :

أليسَ قليلاً نظرةٌ إن نظرتها إليكِ ؟ وكلا ليس منكِ قليلُ

فاتني أن أرى الديارَ بطرفي \* فلعلِّي أرى الديارَ بسمعي<sup>٣</sup>

وعلى ذلك فذهبت في ترتيبه أغرب المذاهب ، وقرعت في التماس الإعانة  
باب الجواد الواهب ، وأطلعت فصوله في ليل طلوع نجوم الغياهب ، وعرضت  
كاتب العزيمة عرضاً ، وأقرضت الله قرصاً ، وجعلته شجرة وأرضاً ، فالشجرة  
المحبة مناسبة وتشبيها ، وإشارة لما ورد في الكتب المنزلة وتنبئها ، والأرض النفوس  
التي تغرس فيها ، والأغصان أقسامها التي تستوفئها ، والأوراق حكاياتها التي  
تحكيها ، وأزهارها أشعارها التي تحييها ، والوصول إلى الله تعالى ثمرتها التي ندخرها  
بفضل الله ونقتنيها ، شجرة لعمر الله يانعة ، وعلى الزعازع متمانة ، ظلها ظليل ،  
والطرف عن مداها كليل ، والفائز يجنأها قليل ، رست في التخوم ، وسمت

١ صدره : فإن النار بالعودين تذكى ؛ يرد في رسالة لنصر بن سيار يستنجد بها الخليفة الأموي  
عند ظهور المسودة .

٢ عكس قول الشاعر : وللأرض من كأس الكرام نصيب ، وكذلك ثبت النص في ق .

٣ البيت للشريف ، ديوانه ١ : ٦٥٨ وديوان الصباية : ٤٩ .

إلى النجوم ، وتزهت عن أعراض الجسوم ، والرياح الحسوم ، وسقيت بالعلوم ،  
وغذيت بالفهوم ، وحملت كمائها بالزهر المكتوم ، ووفيت ثمرتها بالغرض  
المروم ، فاز من استأثر بجنائها ، وتعنّى من عني بلفظها دون معناها ، فمن استصبح  
بدونها استضاء بسناها ، ما أبعدها وما أدناها ، عيناً ملأت الأكفّ بغناها ، كم  
بين أوراقها من قلب مقلّب ، وفي هوائها من هوّى مغلّب ، وكم فوق أفنانها من  
صادح ، وكم في التماس سقيطها من كادح ، وكم دونها من خطب فادح ،  
ولأربابها من هاجٍ ومادح ، تنوّعت أسماؤها ، ولم تنوع أرضها ولا سماؤها ،  
فسميت نخلة تهر وتجنّي ، وزيتونة مباركة يُستصبح بزيتها الأسنى ، وسِدرة إليها  
ينتهي المعنى ، أصلها للوجود أصل ، وليس لها كالشجر جنس ولا فصل ، وتربتها  
روح ونفس عقل ، وشرفها يعضده بديهة ونقل ، يحط الهائمون بفنائها ، ويصعد  
السالكون حول بنائها ، تخرق السبع الطباقي ببراقيها ، وتمحى ظلّم الحس بنور  
إشراقها ، فسبحان الذي جعلها قُطب الأفلاك ، ومدافن الأضواء والأحلاك ،  
ومغرد طيور الأملاك ، وسبب انتظام هذه الأسلاك ، لم يحلّ فيها طريد بعيد ،  
ولا انصف بصفاتها إلا سعيد ، ولا اعتلق بأوجها هاوٍ في حضيض ، ولا بمحض  
برهانها متخبط في شرك نقيض ، ولا تعرّض لشيّم بوارقها متمم بسمة بغيض ،  
الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ومنه نستزيد  
الاستغراق في بحارها ، والاستنشاق لنواسم أسحارها ، والاستدلال بذرى أفنانها  
عليه ، والوصول بسبب ذلك إليه ، إنه ولي ذلك سبحانه ، فطاب لعمرى المنبت  
والنابت ، وسما الفرعُ الباسق ورسا الأصل الثابت ، وفاءت الأفنان ، وزخرفت  
الحنان ، وتعددت الأوراق والزهرات والأغصان ، ولم أترك فنناً إلاّ جمعت  
بينه وبين مناسبه ، ولا فرعاً إلاّ ضمّمته إلى ما يليق به ، واستكثرت من الشعر  
لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عذبات أفنانها ، ويؤدي إلى الأنوف  
روائح بستانها ، وهو المزمار الذي ينفخ الشوق في يراعته ، والغزيمة التي تُنطق  
بجنون الوجد من ساعته ، وسلعة ألسن العشاق ، وترجمان ضمير الأشواق ،

ومجتلى صور المعاني الرقاق ، ومكامن قناص الأذواق ، به عبر الواجدون عن وجدهم ، ومشى المحبون إلى قصدهم ، وهو رسول الاستلطاف ، ومنزل الألفاظ ، اشتمل على الوزن المطرب ، والجمال المعجب المغرب ، وكان للأوطان مركباً ، ولانفعال النفوس سبباً ، فلا شيء أنسب منه للحديث في المحبة ، ولا أقرب للنفوس الصبّة ، واجتلبت الكثير من الحكايات وهي نوافل فروض الحقائق ، ووسائل مجالس الرقائق ، ومراوح النفوس من كد الأفكار ، وإحماض مسارح الأخبار ، وحظ جارحة السمع من منح الاعتبار ، وبعض الجواذب لنفوس المحيين ، والبواعث لهمم السالكين ، وحجتها واضحة بقوله تعالى ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ (هود : ١٢٠) في القرآن المبين ، ونقلت شواهد من الحديث والخبر تجري صحاحها مجرى الزكاة من الأموال ، والخواطر من الأحوال ، ويجري ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال ، ليكون هذا الكتاب لعموم خيره ، مسرّحاً للفاره وغيره ، ويجد كل ميداناً لسيره ، وملتقطاً لطيره ، ومحكماً لغيره ، فمن فاق كلف بأصوله ، ومن قصر قنع بفصوله ، ومن وصل حمد الله تعالى على وصوله ، وسميته « روضة التعريف بالحلب الشريف » ويحتوي على أرض زكية ، وشجرات فلكية ، وثمرات ملكية ، وعيون غير بكية .

« والحب حياة النفوس الموات ، وعلة امتزاج المركبات ، وسبب ازدواج الحيوان والنبات ، وسر قوله عز وجل ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ (الأنعام : ١٢٢) ليس كالحب الذي دون فيه المدونون ، ولعبت بكرّة أقباسه صوالج الجنون ، وقاد الهوى أهله بجبل الهون ، وسأقت فيه المنى للمنون ، حين نظرت النفوس من سفلى الجنيتين ، ورضيت الأثر عن العين ، وباعت الحق بالمين ، ولم تحصل إلاّ على خفي حنين ، وارجمنا لعشاق الصور ، وسبّاق ملاعب الهوى والهور ، لقد كلفوا بالزخارف الحائنة الحائلة ، والمحاسن الزائفة الزائلة ، وسليح الجبانة ، وبضائع الإهانة ، أزمان التمتع بهم قصيرة ، والأنكاد عليهم مغيرة ، فتراهم ما بين طعين بعامل

قَدِّ ، ومضْرَج بدمِ خَدِّ ، وأسيرِ ثغرٍ قد أعوز فداؤه ، وسقيمِ طَرْفٍ قد  
أعضلِ داؤه ، وما شئت من ليلٍ يُسهر ، ونداءٍ به يُجهر ، وجُيوبٍ تُشق ، وبصائرٍ  
تخطف أبصارها إذا لمع البرق ، ونواسمٍ تحمّل التحيات ، وخلع أيلكٍ تتلقى  
بخلع الأريحيات ، وربما اشتد الختل ، وأصابت النَّبل فكان الخبل ، قلوبٍ اشتغلت  
عن الله فشغلها الله بغيره ، وهبَّ الحبَّ الجسmani لا تبعث عليه شهوة بهيمية ،  
ولا تدعو إليه قوّة وهميّة ، أليست الداعية مرتفعة ، والباعثة منقطعة ، وصورة  
الحسن دائرة ، وأجزاؤه المتناظمة متناثرة؟ أليس الجراب العنصري عائداً إلى أصله؟  
أليس الجنس مفارقاً لفصله؟ ولله دَرٌّ علي رضي الله تعالى عنه ، وقد نظر إلى قدح  
الماء وقد أراد أن يشرب ، وعن الاعتبار أعرب ، فقال : كم فيك من خَدِّ  
أسيل ، وطرفٍ كحيل ! فأواه مكررة مردّدة ، وواهفاه معادة مجددة ، على  
قلبٍ أصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ، ويقول يا  
ليتني لم أشرك بربي أحداً ، وحسبنا مرارة الفراق ذلاً ، وفقد النقد قلاً ، والغفلة  
عن الله شتاءً محتوماً ، والكتابة على الفاتت شوماً :

صدّتي عن حلاوةِ التشيعِ اتَّقائي مرارةِ التوديعِ  
لم يقمُ أنسٌ ذا بوحشةِ هذا قرأيتُ الصوابَ تركَ الجميعِ

وإن كانت الشهوة فأخسس بها داعية ، وإلى الفضيحة ساعة ، حسبك من حمار  
يعلن بنداء المحبة نهاقه ، ويقذفه على السباق اهتياجه إلى السفاد واشتياقه ، أسير  
خَبال ، وصريرِ مَبال ، أولى له ثمّ أولى لو تأمل محاسن الجسوم ما أكذب رائدها  
المُطري ، وأخبث زخرفها المُغرّي ، وأقصر مدة استمتاعها ، وأكثر المساعي  
تحت قناعها :

على وجهٍ مميّ مسحةٌ من ملاحهٍ وتحت الثيابِ العارُ لو كان بادياً<sup>١</sup>  
ما ثمّ إلاّ أنفاسٌ تركد وتخبث ، وعلل تنشأ وتحدث ، وزخارف حسن تُعاهد ثمّ

١ ينسب لذي الرمة (ديوانه : ٦٧٥) وقيل بل وضع على لسانه .

تنكث ، وتركيبٌ يطلبه التحليل بدّينه ، ويأخذ أثره بعد عينه ، وأنس يُفقد ،  
واجتماع كأن لم يُعقد ، وفراق إن لم يكن فكأن قد :

ومن سرّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقادا

\* \* \*

منغصّ العيش لا يأوي إلى دعةٍ من كان ذا بلدٍ أو كان ذا ولدٍ  
والساكن النفس من لم ترضَ همته سكنى مكانٍ ولم يسكن إلى أحدٍ

وقلت وقد مات سكن عزيز عليّ أيام التغرب بسلا عظم جزعي عليه :

يا قلبُ كم هذا الجوى والخفوتُ ذمّاءك استبقِ لثلاثٍ يفوتُ  
فقالَ لا حولَ ولا قولَ لي قد كان ما كان فحسي السكوتُ  
فارقني الرشدُ وفارقتهُ لمسا تعشقتُ بشيء يموتُ

والزمان لا يعتبر ، وحاصله خبر ، والحازم من نظر في العواقب ، نظر المراقب ،  
وعرف الإضاعة ، ولم يجعل الحلم بضاعة ، إنما الحب الحقيقي حبٌّ يُصعدك  
ويرقيك ، ويخلدك ويبقيك ، ويطعمك ويسقيك ، ويخلصك إلى فنة السعادة ممّا  
يشقيك ، ويجعل لك الكون روضاً ، ومشرب الحق حوضاً ، ويُجنّيك زهر المني ،  
ويُغنّيك عن أهل الفقر والغنى ، ويخضع التيجان لنعلك ، ويجعل الكون متصرف  
فعلك ، ليس إلاّ الحب ، ثمّ الوصل والقرب ، ثمّ الشهود ، ثمّ البقاء بعدما  
اضمحلّ الوجود ، فشفيت الآلام ، وسقط الملام ، وذهبت الأضغاث والأحلام ،  
واختصر الكلام ، وجميت الرسوم وخفيت الأعلام ، ولن الملك اليوم والسلام ،  
فالخذر الخذر ، أن يُعجل النفس سيرها ، ويفارق القفصَ طيرها ، وهي بالعرّض  
الفاني متبّطة ، وبنائي الثقيل مرتبّطة ، وبصحبة الفاني مغتبّطة ﴿ أن تقول نفسُ

يا حسرتا على ما فرطتُ في جنبِ الله وإن كنتُ لمن الساخرين . أو تقولَ لو أنَّ  
الله هداني لكنتُ من المتقين . أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أنَّ لي كرامةً  
فأكونَ من المحسنين ﴿ (الزمر: ٥٦-٥٨) وفي ذلك قلت :

أعشاقَ غيرِ الواحدِ الأحدِ الباقي  
جُننتم بما يفنى وتبقى مضاضةً  
وترتبطُ بالأجسامِ نفساً حياتُها  
فلا هي فازتُ بالذي علقَتْ بهِ  
فراقٌ وقسرٌ وانقطاعٌ وظلمةٌ  
كأنِّي بها من بعد ما كُشف الغطا  
تقلَّبُ كفيهاً بجيظٍ موصلٍ  
فلا تطعموها السمَّ في الشهدِ ضلَّةً  
بما اكتسبتُ تسعى إلى مستقرها  
وليسَ لها بعدَ التفرقِ حيلةٌ  
ولو كان مرمى الحزن منها إلى مدى  
فجدُّوا فإنَّ الأمرَ جدُّ ، وشمروا  
ولا تطلقوا في الحسِّ نبيَّ عنانها  
ودُسُّوا لها المعنى رويداً وأيقظوا  
ومهما أفاقتُ فافتحوا لاعتبارها  
وعاقبةَ الفاني اشرحوا وتلطَّفوا  
فإن سكرتُ واستشرفت عند سكرها  
أطيلوا على روض الجمالِ خطورها  
وخلَّوا لهيبَ الشوقِ يطوي بها الفلا  
فما هو إلاَّ أن تحطَّ رحالها

جنونكمُ واللهِ أعياءُ على الراقي  
تعذبُ بينَ البينِ مهجةً مشتاقِ  
مباينةُ الأجسامِ بالجوهرِ الراقي  
ولا رأسَ مالٍ كان ينفعها باقي  
قيني البعدَ من نيلِ السعادةِ يا وائي  
صريعةُ أحزانٍ لذيعةُ أشواقِ  
رشيقةُ قَدِّ دونَ سبعةِ أطباقِ  
فذلكَ سمٌّ لا يسداوى بدرياقِ  
فإمَّا بوفرٍ مُحسبٍ أو بإملاقِ  
سوى ندمٍ يذري مدامعَ آماقِ  
لهانِ الأسي ما بينِ وخذٍ وإعناقِ  
بفضلِ ارتياضٍ أو بإصلاحِ أخلاقِ  
وشيموا بها للحقِّ لمحةً لإشراقِ  
بصيرتها من بعدِ نومٍ وإغراقِ  
مصارعِ أبوابٍ وأقفالِ أغلاقِ  
بأخلاقها المرضي تطفُّفِ إشفاقِ  
لماهيَّةِ المسقَى ومعرفةِ الساقِ  
إلى أن يقومَ الوجدُ فيها على ساقِ  
إلى الوجدِ في مسرى رموزِ وأذواقِ  
بمئوى التجلّي والشهودِ بإطلاقِ

وتفنى إذا ما شاهدت عن شهودها . وقد فنيَ الفاني وقد بقيَ الباقي  
هنالك تلقى العيشَ تضيفو ظلاله وتنعمُ من عينِ الحياةِ برقراقِ  
وما قسِمُ الأرزاقِ إلاَّ عجيبةً فلا تطردِ السؤالَ يا خيرَ رزاقِ

وقد أخذ الكلام في هذا الافتتاح حدّه ، وبلغ النهر مدّه ، فلأخذ أثر هذا الذي  
سردت ، في تقرير ما أردت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؛  
فنقول : ينقسم هذا الموضوع إلى أرض ، وشجر غض ، وكلُّ منها ميسور جدّة ،  
وفنّ على حدّة ، ما شئت من مرأى ومستمتع ، فمن شاء أفرد ومن شاء جمّع ،  
فلنبدأ بالأرض والفلاحة ، والتكسير والمساحة ، وتعيين حدود تلك الساحة ، ثمّ  
نأتي بالشجرة التي تؤمل جناها ، وننظر إناها ، ونجعل الزاد المبلغ معناها ،  
قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

برنامج هذا الكتاب الذي يحصر الأجناس والفصول ، ويردُّ الفروع إلى  
الأصول ، ويسر الباحث عن مسأله بسبب الوصول ، بحول الله وقوته :

خطبة الأعراس ، وتوطئة الغراس ، وتنحصر في جملتين :

الجملة الأولى: في صفة الأرض وأجزائها، وجعل الاختيار يلائمها، وفيها رتب:

الرتبة الأولى – رتبة الأطباق المفروضة ، والاعتبارات المعروضة ، وفيه

مقدمة وأطباق :

المقدمة في تعيين الأرض المذكورة .

الطبق الأول : طبق القلب .

الطبق الثاني : طبق الروح .

الطبق الثالث : طبق النفس .

الطبق الرابع : طبق العقل .

الرتبة الثانية – رتبة العروق الباطنة ، والشعب الكامنة ، وفيها فصول :

- الفصل الأول : في العروق المعدنية .
- الفصل الثاني : في المقررات العينية .
- الفصل الثالث : في المدبرات البدنية .
- الفصل الرابع : في البحوث البرهانية .

الجملة الثانية : في صفة الفلاحة والعمل ، المتكفل فيها بنيل الأمل ، وفيها اختيارات :

- الاختيار الأول : فيما يصلح للاعتماد من هذه الأرض ، وفيه فصول :
- الفصل الأول : في أرض النفس المطمئنة .
- الفصل الثاني : في أرض النفس الأمارة .
- الفصل الثالث : في أرض النفس اللوامة .

الاختيار الثاني : في محركات العزيمة ، لاعتماد هذه الأرض الكريمة ، وفيه فصول :

- الفصل الأول : في الجذب وما يتصل بذلك .
- الفصل الثاني : في الوعظ المثمر لليقظة .
- الفصل الثالث : في ذم الكسل .

الاختيار الثالث : يشتمل على جلب الماء لسقي هذه الأرض من عين العلم في جدولي العقل المحرر والنقل المقرر ، وفيه مقدمة في فضل العلم وتعدد أجناسه ، وفصول :

- الفصل الأول : في جدول العقل .
- الفصل الثاني : في جدول النقل .
- الفصل الثالث : في مقدار الماء المجلوب ، للفلاح المطلوب .
- الفصل الرابع : في غبار التكوين ، وسبب التلوين .



الاختيار الرابع : في الحرث ، وإخراج لبَن هذه الفلاحة من بين الدم والقرث ، وفيه أقسام :

أولها : القلب الأول .

ثانيها : القلب الثاني الذي عليه المعول .

ثالثها : في سكة الازدراع والتعمير ، وهو مظنة التشمير .

الاختيار الخامس : في تنظيف الأرض المعتمرة من الأرض الحبيثة ، والجدر المعرضة والشعب المذمومة ، وفيه فصول :

الفصل الأول : في إزالة شكوك تسبق إلى المعتقد غالباً .

الفصل الثاني : في قلع الشجر التي تضر بهذه الأرض وتعاديها بالطبع .

الاختيار السادس : في أمور ضرورية تلزم لهذه الفلاحة ، وفيه فصول :

الفصل الأول : في أمراض يُشرع في علاجها ، مما يرجع لطبع الأرض

ومزاجها .

الفصل الثاني : في اختيار أنواعها وأجزائها .

الفصل الثالث : في أقوال تليق بأفحاص الفلاح وإصحاره ، عند ملاحظة

عجائب الكون وآثاره .

الفصل الرابع : في الوقت المختار لغراسة الأسباب ، في الحب اللباب ،

وتنحصر في مقدمة علمية ، وجرثومة جرمية : المقدمة العلمية في ترتيب المحبة

والمعرفة ، الجرثومة الجرمية تنقسم إلى بيان يعطي الصورة ، ويشرح الضرورة ،

وإلى بطن وظهر ، وسر وجهر ، وباسط ، وبرزخ واسط ، فالباطن الشرع

والنقل ، وينقسم إلى أصول :

الأصل الأول : الكلام في النبوة من حيث النقل .

الأصل الثاني : في الإيمان والاعتبار العامي .

الأصل الثالث : فيما يتبع ذلك من اليقظة والتوبة في حق غير المحتاج إلى ذلك .

الأصل الرابع : في تقرير العناية والتوفيق في حق غير المحتاج إلى ذلك .  
الأصل الخامس : في الموعدة والسماع من حيث تهذيب الجميع ، والظاهر  
الطبع والعقل ، وينقسم إلى أصول :

الأصل الأول : جزء الفلسفة العلمي والعملي .  
الأصل الثاني : سلامة الفطرة في حق المستغني عن ذلك .

الأصل الثالث : في معرفة الجمال والكمال .

الأصل الرابع : في الاعتبار الخاصي .

الأصل الخامس : السلوك بالفكر .

الأصل السادس : في التشبيه بالمبدأ الأول ، باسط الذكر الباسط ، والبرزخ  
الواسط ، الصاعد من التخوم ، إلى النجوم ، وهو من أخص الأشياء بباطن  
الشجرة ، وأصولها المعتبرة ، ويشتمل على مقدمة وثلاثة أصول :

الأصل الأول : الأدعية والأذكار ، وله عشر شعب .

الأصل الثاني : أصل الأسماء ، وهي أصول الأرض والسماء ، وله تسع

وتسعون شعبة .

الأصل الثالث : أصل السيمياء ، وهو الذي عفن بعضه وبقي الانتفاع ببعضه .

العمود المشتمل على القشر والعود ، والجحى المسعود ، ينقسم قسمين :  
قشر وخشب ، ودر مخشك ، والقشر ظاهر يكسر ويخذو ، وباطن ينمي  
ويغذو ، فظاهرة الذي يكسر ويخذو يتضمن الكلام في المحبة وأقسامها من حيث  
اللسان ، لا من حيث نوع الإنسان ، وباطنه الذي ينمي ويغذو يتضمن الثناء على  
المحبة طبعاً وعقلاً ، وشرعاً ونقلاً .

الحشب الذي يتخذ منه النشب ينقسم إلى أقسام :

القسم الأول : في الحدود والمعرفات ، والأسماء الدالة عليها والصفات .

القسم الثاني : معقول معناها ، المتجلي فيه نور سناها .

القسم الثالث : ارتباطها بالمقامات ، واختصاصها فيها بالكرامات .  
القسم الرابع : تبين ضرورتها ، وإيضاح مزيتها .  
الفرع الصاعد في الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ،  
إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجِرم شريف .  
القشر : الحدود للمعرفة والرسوم ، وخواص العارف الذي هو المعروف بها  
والموسوم ، وينقسم إلى فصول :

الفصل الأول : في حدود المعرفة ورسومها وما قيل فيها .

الفصل الثاني : في أوصاف العارف .

الفصل الثالث : في تفضيل العارف .

الفصل الرابع : في علوم العارف .

والجِرم الشريف ، من الفرع المنيف ، ينقسم إلى ظاهر ، وباطن ، وقلب .  
فالظاهر ينقسم إلى أقسام : الكلام في الأخلاق ومنشئها وطباعها بحسب القوى  
النفسانية وإفراطها وتفریطها واعتدالها وعلاجها ، وفيه المجاهدات .  
والباطن يتضمن الكلام في أن النظر إلى وجه الله تعالى هو السعادة الكبرى  
بكل نظر واعتبار .

والقلب قلب الغصن يتضمن الرياضة والسلوك على المقامات كلها ، ويتفرع

منه عشرة غصون :

الغصن الأول : غصن فروع البدايات .

الغصن الثاني : غصن فروع الأبواب .

الغصن الثالث : غصن فروع المعاملات .

الغصن الرابع : غصن فروع الأخلاق .

الغصن الخامس : غصن فروع الأصول .

الغصن السادس : غصن فروع الأدوية .

الغصن السابع : غصن فروع الأحوال .  
الغصن الثامن : غصن فروع الولايات .  
الغصن التاسع : غصن فروع الحقائق .  
الغصن العاشر : غصن فروع النهايات ، ولكل فروع أوراق ، ويلحق به صورة السلوك بالذكر حتى يتأتى الوصول ، وعلى المقصود الحصول ، والكلام على زهرات الطوالع واللوائح والبوادر والواردات ، ونختم بالختى ، المقترن بنيل المنى ، وهي الولاية .

تفرع ضخام الغصون ، من شجرة السر المصون ، وهي :  
غصن المحبوبات وأقسامها ، وتنقسم إلى أربعة أفنان :  
الفن الأول : فن الرب المحبوب .  
الفن الثاني : فن العبد المحبوب .  
الفن الثالث : فن الدنيا المحبوبة .  
الفن الرابع : فن الآخرة المحبوبة .  
غصن المحبين ، وأصنافهم المرتبين ، ينقسم إلى مقدمة بيان ، وستة أفنان :  
الفن الأول : في رأي الفلاسفة الأقدمين .  
الفن الثاني : في رأي أهل الأنوار والإشراقين .  
الفن الثالث : في رأي الحكماء الإسلاميين .  
الفن الرابع : في رأي المكملين بزعمهم المتممين .  
الفن الخامس : في أهل الوحدة المطلقة من المتوغلين .  
الفن السادس : في الصوفية سادة المسلمين .  
غصن علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصبّية ، وينقسم إلى ثلاثة أفنان :  
الفن الأول : فيما يرجع إلى حقوق المحبوب .  
الفن الثاني : فيما يرجع إلى باطن المحب .

الفن الثالث : فيما يرجع إلى ظاهره .

غصن اختيار المحبين في ميدان جهادهم ، وتباين أحوال أفرادهم ، وهو  
ثلاثة أفنان :

الفن الأول : فن المجاهد الصريح .

الفن الثاني : فن المنبت الجريح .

الفن الثالث : فن الصريح الطريح .

جوائح الشجرة ، ومضار فلاحتها المعتبرة ، وينقسم إلى جوائح من نسبتها ،  
بالنظر إلى ماؤها وتربُّتها ، وإلى ما هو راجع إلى الخواطر - وهي على عدد الرياح -  
وإلى ما سببه غفلة الفلاح ، عذر الطائر الصادح ، على فرض القادح ، ووجود  
الهاجي والمادح .

صورة الشجرة ذات الحسن الباهر ، واجتني والأزهار ، وآثارها للحسن  
الظاهر ، بفضل المرید القاهر ، لا إله إلاّ هو سبحانه له الحمد ؛ انتهت الخطبة  
التي تدل على ما وراءها .

وقال رحمه الله تعالى في آخر هذا الكتاب ما نصه : ونختم الكلام في هذه  
الشجرة والاستدلال على شرف هذه الفلاحة الضمنية بهذه الأبيات :

فلاحتنا لها القِدْحُ المَعْلَى      وَسَرْحَتْنَا الضَّمِينَةُ لِلنَّجَاحِ  
أَلَسْتَ تَرَى مَنَادِي الحَمْسِ نَادِي      بِمِخْتَلَفِ الجِهَاتِ أَوْ النَوَاحِي  
يَرِدُ فِي الأَذَانِ لِكُلِّ وَاغٍ      عَلَى الأَذَانِ حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ

وهذا طائر على الشجرة صادح ، ولاحق كادح ، ومعتذر إن قدح قادح ،  
وتعارض هاج ومادح . قال المؤلف : ولا بد لنا من دري صادح على هذه الأفنان ،  
وشاد يهيج أشجان الجنان ، ويشير شجو الرأفة والحنان ، ويبين مجال الضرورة  
لذوي الانصاف ، بكرم الأوصاف ، والناظرين إلى الهنات بعيون الإنصاف ،  
فيرحم من قد كان شره التقد ، ويعذر من تشوف لاستضعاف هذا القصد ،

والأعداء التي تقرر عنا هذا الطائر عديدة ، ومبدئة في الصدق معيدة ، وقريبة من الحق لا بعيدة ، فمنها أن هذا الفرض اليوم بأكثر الأرض ، ميدانٌ عدم فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله من يُجبل كما يجب جواداً ، ونفيرٌ لا يبيحه إلا من يكثر سواداً ، قد طُمت الأعلام ، وسقط الحمد والملام ، وما لجرح بميت إيلام ، فمدلول هذا الفن بهذه التخوم عنقاء مغرب ، وإكسير يحدث عنه غير واصل ولا مجرب ، إنما يرجع فيه إلى كتب مُقفلة ، وأغراض مغفلة ، وما عسى أن يعول المسكين مثلي على قاصر إدراكه ، مع اقتسام باله واشترائه ؟ قصر العلم والعمل ، فاختلط المرعيُّ والهمسك ، وأخفق المسعى وخاب الأمل ، ومنها شواغل الدنيا التي اختطفت من المكاتب ، وموّهت بالمراتب ، ولقيت بالوزير والكاتب ، وأقامت العبدَ الذي لا يملك شيئاً مقام العاتب ، ومن كان بهذه المثابة وإن عدَّ يقظاً حازماً ، ونحريراً عالماً ، فإنما هو غريق ، وتائه لا يبدو له طريق ، ولا ينسأغ له ريق ، ولا يُطفأ ببرد اليقين منه حريق ، ولا يربح عليه من قصاد الله تعالى فريق ، ونستغفر الله ، فالذي ألهم لهذه العيوب ، يتكفل بإصلاح القلوب ، ومكاشفة الغيوب ، وإن كانت النفوس للحق جاحدة ، فما أمري إلا واحدة :

لا تعجبنَّ لطالب نالَ العلاء كهلاً وأخفق في الزمان الأوّل  
فالحمرُ تحكّم في العقولِ مُسنّةٌ وتُداسُ أوّلَ عصرها بالأرجلِ

ومنها الاشتغال بالهتدَر ، عن العلم والنظر ، منذ أزمان عديدة ، ومُدَد مديدة ، فلم يبقَ ممّا حُصّل ، وإليه ممّا في الزمان القديم توصل ، إلا رسم بلقع ، وسملٌ ما له مُرَقّع ، ومنها أنني لم أنتدب إلى هذا الوظيف الذي قلّ من يتعاطاه ، ويشير قطاه ، ويقتعد مطاه ، من تلقاء نفسٍ جاهلة ببعده مداه ، ومطل جدهاه ، ومطالبة مدعيه بما كسبت منه يدهاه ، فلا يتجاوز طوره ولا يتعداه ، وإن طالب الحق من شرط وصوله ، سلب فصوله ، وحالة موته ، وانقطاع حسه فضلاً عن صوته ،

٢ ق : شمل .

١ ق : بجبل .

لكني خُضْتُ على عدم السباحة غمراً ، وامثلت مع سقوط الاستطاعة أمراً ،  
وجئتُ بما في وسعي انقياداً وامثالاً ، ومثلت مثلاً ، فضرورتي بفضل الله تعالى  
مشروحة ، والدعوى عن كنفني مطروحة ، وعلى ذلك فقد علم الذي يعلم الأسرار ،  
ويقرّب الأبرار ، ويقيل العثار ، ويقبل الأعذار ، أن مدة الاشتغال به لم تجاوز  
شهرين اثنين ، بين كتب وكم ، وابتداء وختم ، مع ما يتخلل الزمان من حمل  
لو رُمي به رَضوى لتدَعَدَع ، أو أنزل على ثبير لخشع من خشية الله تعالى  
وتصدع : مداراة عدو قد تكالب على الإسلام ، وسياسة سواد صم عن الملام ،  
وتعدى حدود النهى والأحلام ، وارتقاب هجوم جيش الآجال وراية الشيب  
من الأعلام ، وقد أندر بالفجر انقشاع الظلام ، وكاد يصعد الخطيب فينقطع  
الكلام ، جعلت لنقله حصة من جنح الظلام الغاسق ، والليل الواسق ، وعاطيت  
حميّه نديم الفارق<sup>١</sup> ، وتعرضت لاقتناص خياله الطارق ، وسرقته من أيدي الشواغل  
والليل معين السارق ، ولم يعمل فيه عبد القيس<sup>٢</sup> نظراً مُعاداً ، ولا أنجز من تصحيحه  
علم الله تعالى ميعاداً ، إنما هو كراس يفرغ من تسويده رجراج الحبر ، مختلط  
الترب بالتبر ، فيدفع ملمومُ الماسخ ، إلى يد الناسخ ، وكلفة المتناقل ، إلى كف  
الناقل ، وتُقذف صحيفته من الزبرة إلى الصاقل ، إذ كان الأمر — أيده الله تعالى  
ونفعه — حريصاً على تعجيل المعارضة ، ومتحريراً سبيل الشرع في هذه المصارفة  
والمقارضة ، والجفن المشرق يعلن بالتبريح ، وبتنظر مساعدة الريح ، فمن وقف  
عليه من فاضل أنار الله بصيرته ، وجبل على الإنصاف سيرته ، أو مَنْ كان من  
أهل الله الذي يعلم أن ما سوى الله تعالى ظل وقيء ، ويتحقق معنى قوله ﴿ ليس  
لك من الأمر شيء ﴾ ، فقد أوجب الإنصاف أن يمحوا اقترافي باعترافي ، ويغطي  
أوصافي بإنصافي ، والرحماء يرحمهم الرحمن ، وقد عذر القنبرة سليمان ، ومع

١ كذا ، ولعل صوابه « العاتق » أي الخمر القديمة أو الشراب الجيد .

٢ حقه أن يقول عبد قيس ، لإشارته إلى قول الشاعر :

أعد نظراً يا عبد قيس فإنما أضاءت لك النار الحمار المقيدا

الاستسلام الأمان ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله . ولا بأس أن يُعْرَضَ بتلك  
الأخوينةِ الخصبيةِ المثوى والمروج ، والحمل والفروج ، وفي السماء البروج ،  
وفي الأرض الفروج ، والأعرج يُستندر منه العروج ، وتمد الأيدي المستعملة  
في التقصير ، إلى الولي النصير والناقد البصير . اللهم استر بسترِكَ فضائِحنا المخلفّة ،  
وقبائِحنا المجمعّة المؤلّفة ، فهو كله تحويمٌ حولَ حِمَاكَ ، وذنذنة يا كريم بيباب  
رُحْمَاكَ ، وزند أنت قدَحْتَهُ ، وتألّقتُ بَارِقِ أَنْتِ أَلْحْتَهُ ، فصلِ السبب يا واصل  
الأسباب ، واجعلنا ممّن تذكّر فنفعتَه الذكْرَى وما يتذكر إلاّ أولو الألباب ،  
اللهم دُلّ نفوسنا الحائرة على عين الخبر ، واجذبها إلى المؤثر بزمام الأثر ، اللهم  
اجبر الضالة المُشْقَلَةَ الظهر ، وارفع عنها ملكةَ القهر ، وحيطة الدهر ، والسفر من بلد  
السر إلى بلد الجهر ، اللهم أعلق بعروة الحق أيدينا الخابطة ، وأظفر بعدو الهوى عزائمنا  
المرابطة ، اللهم أوصلِ سبينا بسبيك ، واحملنا إليك بك ، لا إله إلاّ أنت ، وصلِّ  
على عبدك ونبيك محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله والصحابة أجمعين « انتهى .  
وقال - رحمه الله تعالى - آخرَ بعضِ تراجم هذا الكتاب ما صورته :  
خاتمة تشتمل على إشارات ، وتختال من الحق في شارات ، قال بعض من يظاً  
بمطية السلوك ، حِمَى الملوك ، وينقض زوايا الغيوب ، عن المطلوب ، ببصر  
بصائر القلوب : شهدت أصناف المحبين والعشاق ، على اختلاف البلاد وتباين  
الآفاق ، لا أدري أقال كشفاً وشهوداً ، أو فرضاً أو وجوداً ، أو يقظة أو هجوداً ،  
وقد ركضوا مطايا الأشواق ، وضربوا آباطها بعصي المشارب والأذواق ،  
وتزوّدوا أزواد الحقائق ، وودعوا أحباب العوائد والعلائق ، وتساهلوا في  
المحجوب اعراض العوائق ، وتفاضلوا في اختيار الجوادِّ واقترحام المضايق ، والطرق  
إلى الله تعالى عدد أنفاس الخلائق ، فمن خابط عَشْوَاء ، ومسقط أهواء ، يقول :

يا ليتَ أنِّي أوقدُ النارا      فإنَّ منَّ يهواك قد حارا<sup>١</sup>

١ حور في قول عدي بن زيد :

يا لبينى أوقدي النارا      إن من تهوين قد حارا



فيجيبه الصدى :

ومن طلب الوصول لدار ليلي بغير طريقها وقع الضلالُ  
ومثبت بحيث لا يبدو عكس ، ولا يُقتص خف ولا قدم ، في مفازة وجودُ  
من حلّها عدَم ، وهو يصيح :

بأبي وأمي والذي ملكت يدي أفدي الذي يهدي الطريقَ اللاحبا  
ثم يقول :

ولقد سرّيتُ إليك لكنّ حين لم يكن الدليلُ أجلَّ قصد السالك  
ومن طاوٍ نفذ زاده ، وفرغ مزاده ، قد استسلم ، وعجز أن يتكلم ، ولسان  
حاله ينشد :

إذا أنت لم تزرع وأبصرتَ حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذرِ  
وراكضٍ يقطع الدوّ ، ويعرف الجوّ ، يثبت الأعلام الخافية ، ويقصد  
الموارد الصافية والظلال الضافية ، حاديه أمله ، ودليله علمه والراحلة عمله ،  
ينشد بأعلى صوته :

قربَ اللقاء فكيف لا ترتاحُ للقاء سكانِ الحمى الأرواحُ  
وفرانقٍ يركض البريد ، ويصحب التفريد ، بلغ الطيّبة ، وأناخ المطيّة ،  
قبل وصول الرفقة البطيّة :

سرى سلخ شهر في فؤاق حلوبةٍ فله ما أنأى سراهُ وما أدنى  
﴿ لو اطلعتَ عليهم لوآيتَ منهم فراراً ولملئتَ منهم رعباً ﴾

(الكهف : ١٨) .

وقلت :

نهضوا وقد جنّ الدجى وتخالفت سبلُ الردى فمسدّون وضلّلُ

سلي عن المنبت حين تقطعت  
 قوم سَطَّتْ بهم السباعُ ، وفرقةُ  
 لفح الهجيرُ وجوههم بسعيه  
 وجماعةُ ركبوا المفاوز دائماً  
 وركائبُ جعلوا الدليل أمامهم  
 والليلُ متلقةً ، ومدَرَجَةُ الهوى  
 والواصلون هم القليل وكيف لا  
 يا رحمةً للعاشقين تفحّموا  
 طارت بهم أشواقهم فعقولهم  
 عذراً لكم يا أهل عُدْرَةَ شأنكم  
 أسبابه تيهاً ولا من يسألُ  
 عطشوا ، وأين من الظّماء المنهلُ؟  
 فتهافتوا بيلالةٍ وتعلّلوا  
 عثروا على أثر فشطّ المنزلُ  
 وسرّوا ففازوا بالذي قد أمّلوا  
 لا يستقلُّ بها المطيُّ الدليلُ  
 قفر ومسبحةٌ وليل النيلُ  
 خطر النوى وعلى الشدائد عولوا  
 معقولةٌ عن شأنها لا تعقل  
 سلّمتُ فيه لكم فقولوا وافعلوا

حتى إذا خرجوا إلى قضاء القدر المشترك ، وأفلت من أفلت من الشرك ،  
 وسلم من قتيل المعترك ، وأشرفوا بركاب الآمال ، على ثنية الجمال ، زعقوا  
 بإزاء الباب ، ونادوا من وراء الحجاب :

كُلُّ كَتَى عَن شَوْقِهِ بِلِغَاتِهِ وَلِرَبِّمَا أَبْكِي الْفَصِيحَ الْأَعْجَمُ

وأوصلوا رقاغ شكواهم ، بسرّ هواهم ، وبرزوا صفّاً ، واستظهروا  
 بشفعائهم التي ظنوا أنها لا تخفى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾  
 (الزمر: ٣) وقد تعينت الأوصاف وتميزت ، وانتبذت الأوصاف ونجيزت ،  
 والعشاق نجت وسلمت ، مذ علمت ، منهم الصقوة والمجان ، والخرافيشُ  
 والبهلوان ، ممّن يعول على ذراعه ، وملء كُمَّتَهُ وصواعه ، وطول باعه ،  
 وصلابة طباعه ، وسلطنة لسانه ، وامتزاج إساءته بإحسانه ، شأنه البحث عن  
 المحبوب ، مع الشروق والغروب ، والتوصل إلى وصله المطلوب ، بالحركة  
 الرشيقة واللفظ الخلوب ، ومن اتّسم بإذاعة الأسرار ، وصحبة الشرار ،

واللسان المهذار ، حُسِبَ من الأغيار ؛ ومنهم بُدَاة ، ليس لهم إلاّ المُنادمة أداة ،  
تعذر عليهم تمييز المحبوب فغلطوا ، وعكفوا على تزئيه فأفروا :

ربما ضرَّ عاشقٌ معشوقاً ومن البرِّ ما يكونُ عقوقاً

وغلبت على سجيّتهم السلامة ، ولم تنلهم لعدم الموضّل والمعرف الملامة ،  
وليس للقبول عليهم علامة ؛ ومنهم مَنْ شعاره الحشمة ، ولزيمه العفاف  
والعصمة ، أو لو الحياء والوقار ، والكمّ للأسرار ، ومخالطة الأبرار ، والتوسل  
إلى المحبوب بالافتقار ، وصفاء الضمائر من الأكدار ، لا تختلجهم الشواغل ،  
ولا يطرق سراهم الواغل<sup>١</sup> ، أغتتهم الشواهد عن الدعوى ، وأصمّتهم الرضى عن  
الشكوى ، وتقسّمت معاملاتهم الآداب ، وصحّ منهم إلى مراتب المراقبة  
الانتداب ، والناقد بصير ، وكلام النيات قصير ؛ ومنهم المغلوب الحال ،  
المحمول من فوق الرحال ، رَقَصَ وشطح ، وسكر فانتضح ، فهو بلخ الرفقة ،  
وملوع الحرقه ، دعني وعبيدي بلخ ، فإنه يضحكني سبع مرات في اليوم ؛  
ومنهم من لم يأخذه نعت ، ولا تعين له فوق ولا تحت ، ولا حمد ولا مقت ،  
ولا حين ولا وقت ، لو نطق لقال : أنا المعلوم الموجود ، والشاهد المشهود  
﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتِ ثَمُودُ﴾ (هود : ٩٥) .

قضى وصلها لي ، وابتلاكم بحبها وهل يأخذُ الإنسانُ غيرَ نصيبه

ولم يكن إلا أن خرجت الرقاع ، وفُضِّلَتِ البقاع ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ  
مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران : ٢٥) .

فكان في رقعة طائفة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وما كان لبشرٍ  
أن يكلمه الله إلاّ وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسلاً

١ الواغل : المتطفل على الشراب ، يكتي به عن الدخيل في فريق أهل الحياء من السالكين .

فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴿ (الشورى: ٥١) قلدتم العقل وله طَوْرٌ ، ورأيتم الحركاتِ لا يتناهى لها دور ، وعالم الجزئيات لا يُسْبِرُ له غَوْرٌ ، وَحَوْرُ المعادِ في بعض الفروض لا يكونُ له كَوْرٌ ١ ، وياشَرُّ ما أصبحتم في المعاد الأول تعتقدونه ، أن جعلتم التصرف في عالم الملك لمن دونه ، قفوا مكانكم ، ولوموا أنفسكم ودعوا شأنكم ٢ .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ ارجِعُوا وَرَاءَ كُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ (الحديد: ١٣) أساطين الحكمة المشرقية ، وفَرَاشِ الأنوار الحقيقية ، دعونا من استكثار الأنوار ، واحتشاد الأطوار ، الحقُّ نورٌ إرشادٍ لا يطيقُ حُسْنَ ذاته ، إلا من ركب ظهر شتاته ، فارفعوا الكلف ، واذكروا مجرى من تقدم وسلف .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام: ٩١) لَمْ تَرَكَوا البراهين على أصلها ، ولا ناسبتهم جنسَ هذه الموضوعات بفصلها ، وأثرتم شغباً طويلاً ، وأوسعتم المُتَشابه تأويلاً ، ولم تعتمدوا من العقل دليلاً ، ولا وقفتم في مجازات العقول قليلاً ، وهَوَّلتُم باصطلاح غيركم تهويلاً ، وادعيتُم الشهود ولم يجعل الله تعالى في الاحتجاج به إلا للأنبياء سبيلاً ، وبنيتُم الحقائق على قياسٍ ونظر ، من غير عين للعقل والنقل ولا أثر :

رُبَّ خَيْلٍ أَدَارَ فِيَّ اعْتِقَادًا      لَمْ أَكُنْ قَبْلَهُ عَرَفْتُ بَفَنَّةً  
حَكَمْتُ نَفْسَهُ عَلَى عِلْمٍ غَيْبِي      جَعَلَ اللَّهُ بَاطِنِي عِنْدَ ظَنَّةً

وعسى أن تكونوا ممن أخطأ في اجتهاده فأثيب ، واستغفر فسمع « لا

١ الحور : النقصان ، والكور : التمام .

٢ ق : ولوموا مكانكم والزموا شأنكم .

تَشْرِب « ، فمترتكم صحيحة ، والمقاصد من التبعة مريجة ، إذا كانت صريحة ، ولولا الافتيات ، لوضحت في ميدان السبق لكم الشيات ، لكن شانكم<sup>١</sup> الهذيان ، وقُلبت منكم بضعفائكم من المتأخرين الأعيان ، كابن قسي<sup>٢</sup> وابن برجان<sup>٣</sup> ، فترأوا من أتباعكم المُطيفة ، وأحزابكم المخيفة ، وأخلصوا فعل الأنصار يوم قتال بني حنيفة ، وحبذا الحكم المقتدي ، ومن يهد الله فهو المهتدي ، واكتبوا الألسن عن طلاقها وذلاقتها ، ولا تكلفوا العقول فوق طاقتها ، فلا بد من توقيف وتسليم ، وفوق كل ذي علم عليم ، وإذا عيتم فاثبتوا ، أو نطق إنسان فاسكتوا ، ولا ترضوا أن تُكتبوا مع الذين كُبتوا ، ولكم الحظ السني ، والوصل الهني .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وما خلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الأنبياء : ١٦) ذهب بوجودكم العدم ، وابتلع حدوثكم القديم ، ورضيتم بالإشراف ، في الاستشراف ، والتوغُّلُ لِتَرْيِمِ الانحراف ، ومن جعل الحسَّ وَهْمًا ، فقد كابر العيان ظلمًا ، والعقل الذي غلظكم هو آلةُ حكمكم ، وأداة علمكم ، والعالم أوثق من أن تكون تمويه راقش ، والوجودُ المطلقُ أبسطُ من أن يصير أبا بَرَأَقَشِ<sup>٢</sup> ، ثمَّ ما لكم والتبجح والتشيع<sup>٣</sup> ، والتعقب والتتبع ، ولم يغن العراك ، ووقع في ثمرتكم الاشتراك ، فالفيلسوف يتحد بالعلة القريبة من الخلق ، ثمَّ يتلاشى في ذات الحق ، والحكيم يَجُوزُ إلى عين الحق رتبة الفناء المطلق ، والمتشرع قد

١ ابن قسي : ثار في أعقاب دولة المرابطين وتسمى تلك الثورة « ثورة المريدين » وكان شيخاً من مشايخ الصوفية وهو صاحب كتاب خلع النعلين ، وقد انتشرت طريقته بشلب وكثر خوض أتباعه في الكتب التصوفية وموضوعات الغلاة من الباطنية ؛ وأبو الحكم ابن برجان أيضاً من المتصوفة ، وقد غربه علي بن يوسف اللمتوني وتوفي بمراكش سنة ٥٣٧ (انظر أعمال الأعلام : ٢٤٨ - ٢٥٢) .

٢ أبو بَرَأَقَشِ : رمز للتلون ، وهو اسم طائر يتنفس فيتغير لونه .

٣ التشيع : أن يدعي المرء ما لا يحسن .

عضده ونصره ، « كُنتَ سَمِعَهُ وَبَصَرَهُ » ، وإن كان معظم القول المذر ،  
ففيكم بعدُ نظر .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا  
لِنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (النكبات : ٦٩) أنتم الأحياء ،  
ولكم يُفتح من الجنان الأبواب ، ركبتم ظهور الأعمال ، وركب غيركم  
ظهور الآمال ، وفزتم بسحب الأذيال ، ومن دونكم يحوك عناكب الخيال ،  
فبدايتكم الأساس الوثيق ، الذي يبني عليه التحقيق ، ونهايتكم إليها ينتهي الطريق ،  
وبها يحط فريق الله تعالى ونعم الفريق ، أولكم المقرب المدرب ، وأوسطكم  
الفرد المعرب ، وآخركم الولي المقرب ، حضرتم بذكر محبوبكم حتى غبتم ،  
فهنئاً لكم طبتم ، حواسٌ مسدودة ، وخيوط أفكار كلها ممدودة ، ومشاهد  
مشهودة ، ومغلطات تتجاوز حُرَّاسها ، وقواطع معترضة بجملٍ مِرَّاسها ، إلى  
أن لا توجد تَقِيَّة ، ولا تبقى بقية ، عند تجلي المعالم الخفية ؛ لو اشتمل العلم على  
عملكم ، لكان الكلُّ من هملكم ، بحيث تتعين المراتب وتميز ، وتقرر  
المشارب وتتحيز ، فلا يعترض قاطع إلا وقد علم شأنه ، وتعين وقته ومكانه ،  
ولا تمثل غاية إلا ودرجها محدودة ، ومراحلها معدودة ، ومشاهدتها قبل دخول  
الطريق مشهودة ، فهناك تُطَوَّى المراحل ، ويلوح في اللَمحة القريبة الساحل ،  
ويأمن طول الطريق الواصل .

وكان في رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم وأدخلوا ، من بعد ما تخيروا  
للإصطفاء وانتخلوا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ  
وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ،

واللهُ سميعٌ عليمٌ ﴿ (آل عمران : ٣٣ ، ٣٤) أنتم الأحياب ، ولباب الألباب ، وبوساطتكم اتصلت بين النفوس وبين الحق الأسباب ، لولاكم لم يُفتح الباب ، فلا يصل إلّا مَنْ أوصلتم ، ولا يُحجب إلّا من قطعتم وفصلتم ، أنتم الرعاة والخلق الحمل ، وأنتم الدعاة لمن يريد نَيْلَ الأمل ، مُهدت لكم سُرُرُ القرب تمهيداً ، وبُعِثتم إلى الناس ليوحدوا الله توحيداً ﴿ ولتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة: ١٤٣) فطوبى لمن أصاخ منكم إلى نِدا ، واستضاء بنور هُدى ، صلواتُ الله عليكم أبداً ، أنتم أولو الأولوية المعقودة ، والعساكر المحشورة المحشودة ، ورؤساء أهلِ المحبّة ، وأدلّاء مبتغي الوسيلة والقُربى ، ومسالككم قد بينتها الصحفُ المنزلة ، والملائكة المرسلّة ، ودخلت على العذارى خُدورها ، وعمت السماء وبدورها ، وأغنت عن تقرير نخلها المكاتبُ المائجة بالصبيان ، والسنن المعقودة لها حلق التبيان ، والقواعد المفترضة على الأعيان ، والخزائن المرصوفة بعلوم الأديان ﴿ اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة: ٣) وقيل لأتباعهم من الجمهور ، وأقطاب فلکِهم المشهور : على قدر أتباعكم ، مناقل أبوابكم ، وبحسب اقتدائكم ، يكون سماع ندائكم ، والمهادُ لمن وَثَرَهُ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٧) وتأخيركم في التوقيع هو التقديم ، و« ساقى القوم آخرهم شرباً » مثلٌ قديم ، قال المخبر : فرأيت وجوههم قد تهلت ، ونوآسم المسرّات نحوهم قد أقبلت ؛ ومَنْ سواهم من خالص وزائف ، بين راجٍ وخائف . وسمعت أن طائفة استُدعيت بحثٍ حفيّ ، وأدخلت من باب خفيّ ، قيل لهم : هم أصحاب الخبر المكتوم ، وأرباب المقام غير المعلوم ، جعلنا الله تعالى منهم برحمته :

ولولا الحبُّ ما قطعُوا الفيافي      ولولا الحبُّ ما قطعُوا البحارا  
فدَعَهُمْ      والذي ركبوا إليه      وبحثاً عن خلاصك واختبارا

فلا تشغل بحبّ ديار لَيْلى ولكن حبّ من سكن الديارا<sup>١</sup>

وقال قبل هذه الخاتمة بعد كلام كثير ما نصّه : وقد أتينا على ما شرطنا من تقرير ما أمكن من هذه الآراء ، وهم ما بين سابق للخيرات ومقتصد وظالم لنفسه ، ومع ذلك مُحِبّون ، وعلى آثار الحبيب مُكَبِّون ، ما كلّ طريقٍ تُوَصِّل ، ولا كل تجارة على الربح تحصّل ، ومن العشاق مهجور ومطرود ، وموصل وموعود ، ومغبوط ومحسود ، ومحروم ومجدود ، ومرحوم ومردود :

يا غايّتي ، ولكلّ شيء غاية ، والحبّ فيه تأخّرٌ وتقدّمٌ  
قلّ لي بأيّ وسيلةٍ يحظى بما يرجوه غيري من رضاك وأحرّم

ورقة : ولكلّ دائرة مفروضة ، وهالة حول قَمَرِ الحقّ معروضة ، تعود الخطوط من محيطها المُسَدَّد ، إلى مركزها المحدد : فالفيلسوف يروم التثبيت بالعلّة الأولى ، ويعني بها ذات الحق ، أو أن يتحد بالثانية ، وهي مرآة وجه الحق ؛ والإشراقيّ يروم التّجَوُّهُرُ بنور الأنوار المعبر عنه بالحق ، والاتصال به إمّا بواسطة من الحق أو بغير واسطة من الحق ؛ والحكيم أن يؤديه فكره إلى الحق ، ثم يفتنى في الحق ، ثم يبقى بالحق ، والمتشرّع أن يُجَنِّ في جنة الحق ، ويحصل على جوار الحق ، وينظر إلى جوار الحق ؛ وصاحب الوحدّة المطلقة أن يكون المتفرّق عين الحق ، فسبحان الحق ، المعبود بالحق ، الموجد الجمع في الفَرَق ، لا إله إلا هو . وزيد في هذا المحض الذي كثر في قربه الدعداع<sup>٢</sup> ، وطال على الرؤوس منه الصُّداع ، ما تفرد له المقالة المختصرة ، والعناية الميسرة ، بحول مَنْ لا حول ولا قوّة إلاّ به . انتهى .

وقال رحمه الله تعالى في عد ما عدد من فرق الاعتزال ما نصّه :

١ حور قول الشاعر :

وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

٢ الدعداع : العدو فيه بظه والتواء .



الحبُّ حرَّكهم لكلِّ جدالٍ      والحُبُّ أقحمهم على الأهوالِ  
 والحبُّ قاطعٌ بينهم وأصلَّهم      عن نيلِ ما راموه كلَّ ضلالِ  
 والحبُّ أنشأ فيهمُ عصبيةً      بالقيلِ أضرم نارها والقَالِ

ولإنما استكثرنا من ذكرهم عبرة لمن تأمل حركاتِ هذا الفَراشِ المختلفِ  
 الآراءِ عن ذُبَالِ الحقِّ ، يبتغون إليه الوَسِيلَةَ ، قومٌ بالطاعة ، وقومٌ بالمعصية ،  
 وما منهم إلا مُدَّعٍ في المحبَّةِ متهاك ، حريصٌ على السعادة بزَعْمِهِ ﴿ وجوهٌ ﴾  
 يومئذٍ خاشعةٌ عاملةٌ ناصيةٌ ﴿ (الفاشية : ٢) ممَّن قصد الحق فأخطأه ، وأراد  
 الصوابَ فضلَّ عنه ، واشتهر بالحكمة بعدُ في الملة الإسلامية جماعةٌ  
 بالمشرق والأندلس ، فمن المشاركة : أبو الفرج ١ ، ويعقوب الكندي ،  
 وحُنين بن إسحاق ، وثابت بن قرَّة ، فكان عندهم مباشرتها من حيث الترجمة  
 والمزاولة ، إلى أن قال : ومن أهل الأندلس : محمد بن مسعدة السرقسطي ،  
 وأحمد بن طاهر الطرطوشي ، ويحيى بن عمران القرطبي ، وطُفَيْل بن  
 عاصم ، وكلَّيب بن همام البياسي ، والحسن بن حرب الداني ، وابن مسرة ،  
 ومسلمة المجريطي ، وأبو بكر ابن الصائغ ، وأبو بكر ابن طُفَيْل ، وأبو  
 الوليد ابن رُشد ٢ ، وكلُّ هؤلاء المتقدمين والمتأخرين محب عاشق مستهلك ،  
 قال الشاعر :

وعليٌّ أن أسعى وليِّس عليٌّ إدراكُ النجاحِ

حيارى يَمِيدُ بِهِمْ شَجْوُهُمْ      كأنهم ارتَضَعُوا الخندريسا

١ أبو الفرج هو عبد الله بن الطيب وسترجم له بعد صفحات .  
 ٢ قد جمع لسان الدين هنا عدداً من المشتغلين بالحكمة من الأندلسيين وإذا استثنينا آخر خمسة  
 ذكرهم وجدنا البقية ممن لم يعرفوا معرفة واضحة .

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفقى أتته الرزايا من وجوه الفوائد<sup>١</sup>  
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ،  
إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ  
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود : ١١٨) ﴿ فَرِيقًا هَدَى ، وَفَرِيقًا حَقَّ  
عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ (الأعراف : ٣٠) ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ ، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ  
أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنعام : ١٤٩) والخلق قد مدوا أبصارهم وآمالهم ، وتحركوا طوعاً  
وكرهاً يَعِشُونَ إلى نور الله تعالى ، فمن أعمى أصم لا يسمع ولا يبصر ،  
وأعمى فقط يجترىء عن العيان بالمخبر ، وأحول يبصر الشيء شيئين ، والواحد  
اثنين ، كما قال الشاعر :

أحوى الجفون له رقيبٌ أحولُ الشيء في إدراكه شيئانِ  
فيلوحُ في عينيَّ منه واحدٌ ويلوحُ في عينيه منه آثنانِ  
يا ليته ترك الذي أنا مبصرٌ وهو المخيرُ في الحبيب الثاني

وضعيف لا يبصر من بعيد ، وأجهر لا يبصر من قريب ، وأعشى تكثر في  
عينيه الأشعة ، وربما تندر ، وزرقاء اليمامة :

سبحان من قَسَمَ الحظوظَ ظَ فلا عتابَ ولا ملامه<sup>٢</sup>  
أعشى وأعمى ، ثمَّ ذو بصري ، وزرقاء اليمامة  
لولا استقامة من هذا هُ لما تبينت العلامة  
ومجاورُ الغرر المخيِّفِ له البشارةُ بالسلامه

أقام سبحانه الحجّة ، وفرق بين الأمر والإرادة ، وأعطى الكفاية من القدرة  
﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد : ٢٦) اقتصرنا من هذا البحرِ

١ البيت لأبي فراس الحمداني ، ديوانه : ٨٣ وفيه : « إذا كان غير الله للمرء عدة . »

٢ قد أورد المقرئ هذه القصيدة في المجلد الأول : ٧ وانظر مقدمة المحقق : ١٤ .

على نقطة ، ومن هذا الودّاق على قَطْرَة :

ومن يَسُدُّ طريقَ العارضِ الهَطِيلِ ؟<sup>١</sup>

عَدُّ الحصى والقَطْرِ ليس يُرامُ

وذكرنا الرسل والأنبياء والأتباع ذكراً من غير تبويب ولا تعيين ، لشياع آرائهم ، والعلم بمقاصد مللهم ، وأغراض دعواتهم ، من توحيد الله تعالى وتزيمه وصفاته وأسمائه ، وكيف يُحشر الناس ليوم لا ريب فيه ﴿ ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ ﴾ (الجنّة : ٢٢) وتعليم طرق النجاة ، وإيضاح سبيل الله تعالى ، والتحذير من الغفلة عمّن إليه الرجعى ، وله الآخرة والأولى ، والتخويف من كل ما يقطع عنه ، والترغيب فيما يوصل إليه ، وشأن الرياضة والتدرّج في أحوالها حتى تنتقل من الظواهر إلى البواطن ، وتَسْرِي في الخلف من السلف ، والندب إلى الاقتصار على الضرورة والقناعة بالبلاغ ، وتبين الرسم فيها ، والتعيين لحدودها ، قد تضمنت ذلك كلّ آياتُ الله التي تكفل بحفظها ، وسنة رسوله التي قَيَّضَ مَنَاحِلَ الصدق لتصحیح نقلها ، فالمكاتب — والمنّة لله تعالى — مائة ، والمدارس حافلة ، فما لنا والإطالة في الموجود الذائع ، والمشهور الشائع :

والشمسُ تكبرُ عن حَلِّي وعن حُلِّ

فهي الدراريُّ في التقليدِ بالدرر

ما أغنى الشمس عن مدحِ المادحِ ، تحصيلُ الحاصلِ عتاءِ ﴿ هوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) .

فلنذكر بعضَ أرباب الآراء من قريب وبعيد ، وخلق جديد ، على صورة

١ للمتنبّي ، وصدّره : وما ثنّك كلام الناس عن كرم .

المثال المفروض وليكون كعرض الحبوب الذي تجزىء منه الحفنة عن الحفنة ،  
والقربة عن القرية<sup>١</sup> ، ونقتصر على اليسير لإقامة الترتيب ، وإحكام التبويب ،  
وليرى الواقف عليه أننا قد نفصنا الزوايا ، ورشفنا الروايا ، وامتكنا العظام<sup>٢</sup> ،  
واستقصينا النظام ، حرصاً على نشيدة الحق أن تعقل ، وعلى الطباع أن تنقل ،  
وعلى المرثي الصّدثة أن تُصقل ، وعلى صورة النجاة أن تمقل ، ونسأل الله تعالى  
هداية توصل إليه ، لا إلهَ إلا هو الرحمن الرحيم ؛ انتهى .

وقال رحمه الله تعالى فيما قبل هذا الكلام بكلام ما صورته : غصن المحبين ،  
وأصنافهم المرتبين ، ويشتمل على مقدمة بيان ، وستة أفنان .

فالمقدمة ... فنقول : أصناف المحبين والعشاق كثير ، وهبَاء نثير ،  
وجرّاد أثارها مثير ، بحيث يَشُقُّ إحصاؤهم ، ولا يتأتى استقصاؤهم :

فقلتُ كما شاءت وشاء لها الهوى : قَتِيلُكَ ، قالت : أَيُّهُمُ فِهِمُ كَثْرُ<sup>٣</sup>؟  
ثمَّ مدَّ النَّفْسَ بما لا يقتضي المقام الاختصاري ذكره في هذا الموضع .

وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة ، وهي الخاتمة التي تنبه النفوس  
الصّبّة ، على حكم المحبّة ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ  
عَن بَيْتِنَا ﴾ (الأنفال : ٤٢) بعد كلام ما صورته : فِقر في معنى هذه الخاتمة فيها  
حِكْم تنثال ، وتجري مجرى الأمثال :

المحبّة بحر بعيد الشط ، وخطّ والفناء منتهى الخط ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ  
— إلخ ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

المحبّة مَهْوَى بعيد ، ومَجَال وعد ووعيد ، مرجلٌ يغلي ، ثم خيال  
يولي ، وليس له حد عليه يعول .

المحبّة ظهر لا يركبه ، مَنْ يرى الموت فيتنكبه ، ولا يعلوه ، مَنْ يأتي

١ يريد أن يباع الحبوب يعرض منها نموذجاً مثل ملء حفنة أو قربة .  
٢ امتك العظم : امتص ما في داخله .  
٣ البيت لأبي فراس ، ديوانه : ٢١١ .

إلى وادي الفناء فيسلوه ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ (البقرة : ٢٤٩) كم قَصَمَت  
المحبة من ظهر ، وكم سرَّ صيرت إلى جَهْر ، أولها العار المشهور ، وآخرها  
الطي المنشور ، ثم الموت ثم النشور ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ  
الكتاب﴾ (الزمر : ٦٩) .

المحبة أنس يستدرج ، ثم شوق يُلجم ويُسرج ، ثم فناء يزعج ، عن  
الوجود ويخرج :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائم

المحبة كاس ، كم جردت من كاس ، وآس ، مَنْ شَمَمَه لم يجد من آس :

متى أرتجي يوماً شفائي من الضنى إذا كان من يجني عليّ طيبي

تراحم أنفاس المحبين على خَطَرَات الصبَا ، تراحم الهباء على مطارح شعاع  
الدبَا ، فلولا بليها لالتهبت ، وتعليل عليها لتلك الأرقام لذهبت :

عليلةٌ في حواشي مرطها بكللٌ يُهدى لكلّ عليلٍ منه إنبال

المحبة رقة ، ثم فكرة مسترقة ، ثم ذوق ، يطير به شوق ، ثم وجَل  
لا يبقى معه طوق ، ثم لا تحت ولا فوق :

أينما كنتُ لا أخلفُ رحلاً مَنْ رآني فقد رآني ورحلي

الهوى هوان ، وحيام له ألوان ، دمع ساجم ، ووجد هاجم ، وهيام  
لا يبرح ، ثم وراءه ما لا يُشرح :

قال : بمنّ جنّ؟ وهل في الورى ما يبعثُ الحبْلَ سوى حبه ؟

مَنْ اقتحم بحر الهوى ، هوى . لا تدخل في بحر الهوى حتى تشاور صبرك ،  
وتجاور قبرك ، فإن كنت منّا أو فرحُ سلام .

الهوى طريق ، ولسلوكة فريق . الزاد سر مكتوم ، ووفاء معلوم :

وللميادينِ أبطالٌ لها خلُقوا وللدّواوينِ حُسابٌ وكتابٌ

الحبُّ حجٌّ ثانٍ ، لا يثني نفسَ المرید عنهُ ثانٍ ، طريقُهُ التجريدُ ، وزاده  
الذكرُ ، وطوافه المعرفةُ ، وإفاضته الفناءُ ﴿ فإذا أفضتم من عَرَقاتِ فاذا كُروا  
اللهِ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ ، واذكُروه كما هداكم ، وإن كنتم من  
قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (البقرة: ١٩٨) .

الغرامُ ، صعب المَرَامِ ، والدخولُ فيه حرامٌ ، ما لم يكن فيه شروطُ كرامٍ .  
من عرف ما أخذ ، هان عليه ما ترك ﴿ وربُّكَ يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾  
(القصص: ٦٨) ظهر الهوى طريقاً سهلاً ، فكثرت التائهون جهلاً :

إذا لَمْ يَكُنْ عونٌ من الله للفقى أتته الرزايا من وجوه الفوائدِ  
والعكس :

قد ينجبُ المحبوبَ في مكروهاها مَنْ ينجبُ المكروهَ في المحبوبِ<sup>٢</sup>

وقال الشيخ<sup>٣</sup> :

هو الحبُّ فاسلمٌ بالحشا ما الهوى سَهْلٌ فما اختاره مُضْنَى بهِ وله عَقْلٌ  
وعشٌ خالياً فالحبُّ راحتهُ عَناءٌ وأولُّهُ سَقَمٌ وآخِرُهُ قَتْلٌ  
نصَحْتُكَ علماً بالهوى والذي أرى مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يجلو  
فمن لم يمت في حبه لم يعيش بهِ ودون اجتناء النحلِ ما جنتِ النحلُ  
طريق القوم مَبْنِيَّةٌ على الموت ، وإليه الإشارة بقوله « موتوا قبل أن  
تموتوا » . بيدي لا بيد عمرو ، وقال بعضهم : رأيت ربَّ العزة فقلت : يا ربِّ  
بِمَ أصِلُ إليك ؟ قال : فارق نفسك وتعال :

١ انظر ما تقدم ص : ٣١٠ .

٢ البيت للسان الدين نفسه من بائية طويلة ستأتي عند ذكر شعره .

٣ هو ابن الفارض ، انظر ديوانه : ١٣٤ وديوان الصباية : ٢٥ .

رَفُضُ السَّوَى فَرَضٌ عَلَى الْعَيْنِ لَا تَخْلُظَنَّ الْحَقَّ بِالْمَيِّنِ  
وَالْأَيْنُ وَالْكَيفُ سَوَى ظَاهِرٍ فَاسْتَعْنِي عَنِ كَيْفٍ وَعَنِ أَيْنٍ

الخشب ، الذي يُتَّخَذُ مِنْهُ النَّشْبُ ، ينقسم إلى أقسام ، وأجزاء جسام :  
القسم الأول : في الحدود والمعرفات ، والأسماء الواقعة والصفات <sup>١</sup> .

وللسان الدين رحمه الله تعالى في المواعظ اليدُ الطولى ؛ قال في الروضة في الفصل  
الثاني في محركات العزيمة - وهي اليقظة - ما نصّه : قلت : والمحركات المشتركة  
في باعث اليقظة كثيرة : منها الوعظ السائق بمقود الشارد عن الله تعالى إلى مَرَبِطِ  
التوبة ، ومحرك العزيمة يُرَدِّدُ أذانه على نُوَامِ أهل الكهف ، وقد ضرب نومُ  
الغفلة على آذانهم ، حتى يحول بينهم وبين آذانهم ، ويركبهم ظهر الرياضة التي تُلحِقهم  
بالمجذوبين من إخوانهم ، ولَمَّا كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا هُوَ الْمَانِعُ عَنِ الشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ  
العمل ، والقاطع به بعده لم يجد أساة خبل الهوى وجنون الكسل أنجعَ من رقى  
العذل والتأنيب ، وتقبيح المحبوب ، سيّما إذا انزعجت نبال نبلة عن حنيات  
ضلوع الصدق ، وقال بعضهم : الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب :

أوقدِ النَّارَ مِنْ رِسَالَةٍ لَيْلَى وَاحْذِرِ السَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دَمُوعِي

ولا تعدلِ الوعظِ البليغِ باللسانِ الفصيحِ ، والقلبِ القَرِيحِ ، فإذا رأيتِ  
الأرضَ قد اهترت وربّت ، وهضابَ القُلُوبِ القاسية قد ثقلت ، فشمّرْ  
للغراسِ والزراعِ عن الذراعِ ، واغتمِ السراعِ والإسراعِ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَا حُكَّ فَاغْتَنِمِهَا فَإِنَّ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سَكُونًا

حفر لها ماء يريها بدأة \* \* \* واضمن لها حوضاً وإن لم تحفر  
واربأ بنفسك عن تسامحِ بائعٍ \* \* \* واغتم إذا سامتك شهوةَ مشتري

قالوا : الوعظ يضرب وجه النفس عن التثبط في بساط اللذات ، وينقل

١ الخشب . . . والصفات : هذه العبارة مقحمة هنا وقد وردت ص : ٢٩٤ .

خطواتها عن الخطو في ملعب الخطبثات ، ويمثل لها الصبر عياناً ، وبين العواقب المحجوبة بياناً ، ويُنشئ سحاب الحزن في أجواف أجزائها ، ويذكرها بآلها وانتهاها ، ويعرض عليها مصارع فنائها ، وخراب بنائها ، وفراق حبايبها وأبنائها ، عند نزول هاذم اللذات بفنائها ، فترجع إلى الله تعالى بحكم الاضطرار أفكارها ، وتخشع من خيفة الله تعالى وجلاله أبصارها .

والوعظ يكون بلسانين ، ويوجد فنين : لسان حال ، ولسان مقال ، وربما كان لسان الحال أبلغ ، وهو يُسَمَّعُ مِنَ الْقُبُورِ الْمَوْحِشَةِ ، والقصور الخالية ، والعظام البالية ، وفيه حكايات وأخبار ، ولسان المقال كقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ، وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ (إبراهيم : ٤٥) وهو سبيل الله تعالى التي بعث بها النبيين ، وضمن فصولها الكتاب الميين ، والسوط الذي يحمل على الأوبة ، ويسوق ذود المتطهرين إلى غدير التوبة ، ونحن نجعله هيئمة بين يدي الفراسة ، لتركية النفوس إن صدق حكم الفراسة ، فمن ذلك ما صدر عني على لسان واعظ :

« الحمد لله الولي الحميد ، المبدئ المعيد ، البعيد في قربه من العبيد ، القريب في بُعدة فهو أقرب من جبل الوريد ، محيي ربوع العارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومغني نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى العراض الزهيد ، ومخلص خواطر المحققين من سجون دجون التقييد ، إلى فسح التجريد ، نحمده وله الحمد المنتظمة درره في سلوك الدوام وسموط التأيد ، حمد من نزه أحكام وحدانيته ، وأعلام فردانيته ، عن مرابط التقليد ، ومخاطب الطبع البليد ، ونشكره شكر من افتتح بشكره أبواب المزيد ، ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو شهادة نتخطى بها معالم الخلق إلى حضرة الحق على كبد التفريد ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وقد لكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنشور الإدلال ،



وإقطاع الكمال ، بين مقام المُرَاد ومقام المُرِيد ، الذي جعله السبب الأوصل في نجاته الناجي وسعادة السعيد ، وخاطبَ الخلائق على لسانه الصادق بحجتي الوعدِ والوعيد ، فكان ممّا أوحى به إليه ، وأنزل الملك به عليه ، من الذكر الحميد ، ليأخذ بالحُجَزِ والأطواق من العذاب الشديد ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلمُ ما توسوسُ بهِ نفسهُ ، ونحنُ أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ ﴾ (ق : ١٦) إلى قوله (حديد) ، صلى الله عليه وعلى آله صلاةٌ تقومُ ببعض حقه الأكيد ، وتسري إلى تربته الزكية من ظهور المواجهِ الجاثية على البريد<sup>١</sup> :

قعدتُ لتذكيرٍ ولو كنتُ منصفاً لذكرتُ نفسي فهي أحوجٌ للذكرى  
إذا لم يكنْ مني لِنفسيَ واعظٌ فيا ليتْ شعري كيفُ أفعلُ في الأخرى

آه ! أيُّ وعظ بعد وعظِ الله تعالى يا أحببنا يُسمَع ؟ وفي ماذا وقد تبين الرشد من الغي يطعم ؟ يا من يُعطي ويمنع ، إذا لم تقم الصنيفة فماذا نصنع ؟ اجتمعنا بقلوبنا يا من يفرق ويجمع ، ولينْ حديدًا بنا نار خشيتك فقد استعاذ نبيك صلى الله عليه وسلم من قلبٍ لا يخشع ، ومن عينٍ لا تدمع ، اعلموا — رحمكم الله — أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه الملكوان<sup>٢</sup> ، فإن الحق نور لا يضره أن يصدر من الحامل ، ولا يقصر بمحموله احتقارُ الحامل ، وأنتم تدرون أنكم في أطوار سفر لا تستقر لها دون الغاية رحلة ، ولا تتأتى معها إقامة ولا مهلة ، من الأصلاب ، إلى الأرحام ، إلى الوجود ، إلى القبور ، إلى النشور ، إلى إحدى داري البقاء ، أي الله شك ؟ فلو أبصرتمْ مسافراً في البرية يبني ويفرش ، ويمهد ويعرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وتعجبون من ركافة عقله ؟

١ يريد مواجد المشتاقين إلى زيارة قبره عليه السلام .

٢ الملوان : الليل والنهار .

ووالله ما أموالكم ولا أولادكم وشواغلكم عن الله التي فيها اجتهادكم إلا بقاء سقّر في ققّر ، أو إعراس في ليلة نقّر ، كأنكم بها مطرحة تعبر فيها المواشي ، وتنبو العيون عن خيرها المتلاشي ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٢٨) . ما بعد المقيّل إلا الرحيل ، ولا بعد الرحيل إلا المتزل الكريم أو المتزل الوبيل ، وإنكم تستقبلون أهوالاً سكرات الموت بواكير حسابها ، وعتب أبوابها ، فلو كشف الغطاء عن ذرة منها لذهلت العقول وطاشت الأبواب ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (فاطر : ٥) . أفلا أعددتُم لهذه الورطة حيلة ، وأظهرتم للاهتمام بها مخيلة ؟ أتعويلاً على عفوه مع المقاطعة وهو القائل في مقام التهديد ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ؟ (إبراهيم : ٧) أمناً من مكّره مع المنابذة ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٩) أطمعاً في رحمته مع المخالفة وهو يقول ﴿ فَسَأَكْتُوبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) أمشاقه ومعاندة ﴿ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ؟ (الحشر : ٤) أشكاً في الله ؟ فتعالوا نعيد الحساب ، ونقرر العقد وننصف بدعوة الحق أو غيرها ، من اليوم تفقد عقد العقائد عند التساهل بالوعيد ، فالعامي يدمي الإصبع الوجعة ، والعارف يضمدها مبدأ العصب :

هكذا هكذا يكون التعامي هكذا هكذا يكون الغرور

﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (يس : ٢٠) وما عدا عما بدا ؟ ورسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم « الكيس مَنْ دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق مَنْ أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » فعلام بعد هذا المعول ؟ وماذا يتأول ؟ اتقوا الله سبحانه في نفوسكم وانصحوها ، واغتنموا قرص الحياة واربحوها ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾

(الزمر : ٥٦) وتنادي أخرى ﴿ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (الشورى : ٤٤) وتستغيث أخرى ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ فَتَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (الأعراف : ٥٣) وتقول أخرى ﴿ رَبِّ أَرْجِعْهُ ﴾ (المؤمنون : ٩٩) فرحم الله مَنْ نظر لنفسه ، قبل غُرُوب شمسهِ ، وقَدَّمَ لُغده من أمسه ، وعلم أن الحياة تَجْرُ إلى الموت ، والغفلة تقود إلى الفوت ، والصحة مَرَكِب الألم ، والشيبة سفينة تقطع إلى ساحل الهَرَم . وإن شاء قال بعد الخطبة : إخواني ، ما هذا التواني ، والكلف بالوجود الفاني عن الدائم الباقي والدهر يقطع الأمان ، وهازم اللذات قد شرع في نقض المباني ؟ ألا معتبر في عالم هذه المعاني ؟ ألا مرتحل عن مغاير هذه المغاني ؟

ألا أذنُ تُصْغِي إليَّ سميعةُ      أحدثها بالصدقِ ما صنع الموتُ  
مددتُ لكم صوتي فأواه حسرة      على ما بدا منكم فلم يسمع الصوت  
هو القدرُ الآتي على كلِّ أمة      فتوبوا سراعاً قبل أن يقع الفوت

يا كلفاً بما لا يدوم ، يا مَقْتُوناً بغرور الوجود المهدوم ، يا صريع جدار الأجل المهدوم ، يا مشغلاً بينان الطرق قد ظهر المُنَاخ وقَرُبَ القُدُوم ، يا غريقاً في بحار الأمل ما عساک تعوم ، يا معلل الطعام والشراب ولمع السراب ، لا بد أن تهجر المشروب وتترك المطعوم . دخل سارق الأجل بيت عمرك فسلب النشاط وأنت تنظر ، وطوى البساط وأنت تكرب ، واقتلع جواهر الجوارح وقد وقع بك النهب ، ولم يبق إلا أن يجعل الوسادة على أنفك ويقعد :

لو خفَّفَ الوجدُ عني      دعوتُ طالبِ ثاري

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ (المؤمنون : ١٠٠) كيف التراخي والفوت مع الأنفاس ينتظر ؟ كيف الأمان وهاجم الموت لا يبقى ولا يدّر ؟ كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صحَّ الخبر ؟ مَنْ فكر في كرب الخُمار تنغصت عنده

لذة النبيذ ، مَنْ أَحَسَّ بَلَّغَطِ الحريقِ فوق جداره لم يُصْغِ بصوته لنعمة العود ،  
مَنْ تيقن بذلَّ العزلة هان عليه ترك الولاية :

ما قامَ خيركَ يا زمان بشره أولى لنا ما قتلَ منك وما كفى

أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه أن ضع يدك على  
متنِّ ثور ، فبعدد ما حاذته من شعره تعيش سنين ، فقال : يا رب وما بعد ذلك ؟  
قال : تموت ، قال يا رب فالآن :

رأى الأمرَ يُفْضِي إلى آخرِ فَصَيَّرَ آخره أولًا

إذا شعرت نفسك بالميل إلى شيء فاعرض عليها غصة فراقه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ  
هَلَكَ عَن بَيْتَةٍ وَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ﴾ (الأنفال : ٤٢) فالمفروح به هو المحزون  
عليه ، أين الأحباب ؟ مروا ، فيا ليت شعري أين استقروا ؛ استكانوا والله  
واضطروا ، واستغاثوا بأوليائهم ففروا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضروا ، فالمنازل  
من بعدهم خالية خاوية ، والعروش ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضل  
متشابهة متساوية ، والمسكن تندب في أطلالها الذئاب العاوية :

صِحْتُ بِالرَّبْعِ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ يَمْضِي الغريبُ  
ويجنبُ الدارِ قبرٌ جديدٌ منه يُسْتَسْقَى المَكَانُ الجديبُ  
غاضُ قلبي فيه عِنْدَ التماحي قَلْتُ هذا القبرُ فيه الحبيبُ  
لا تسلُ عن رجعتي كيف كانت إِنْ يَوْمَ البينِ يَوْمٌ عَصيبُ  
باقترابِ الموتِ عَلَّتْ نفسي بعدَ ألفي كلُّ آتٍ قريبُ

أين المعمّر الخالد ؟ أين الولد أين الوالد ؟ أين الطارف أين التالد ؟ أين المجادل  
أين المجالد ؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم : ٩٨)  
وَجُوهٌ علاهن الثرى ، وصحائف تُفَضُّ ، وأعمال على الله تُعْرَضُ . بحث الزهاد

والعباد ، والعارفون والأوتاد ، والأنبياء الذين يَهْدَى بهم العباد ، عن سبب الشقاء الذي لا سعادة بعده ، فلم يجدوا إلا البعد عن الله تعالى ، وسببه حب الدنيا « لن تجتمع أمتي على ضلالة » :

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلِي      فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلِي مِنْ حَبِيبٍ  
وَمَاذَا أُرْتَجِي مِنْ وَصْلِ لَيْلِي      سَتَجْزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبٍ

وقالوا : ما أورد النفس الموارد وفتح عليها باب الختف إلا الأمل ، كلما قومتها مثاقف الحدود فتتح لها أركان الرخص ، كلما عقدت صوم العزيمة أهداها طرف الغرور في أطباق : حتى ، وإذا ، ولكن ، وربما ، فأفرط القلب في قلبها حتى أفطر :

ما أوبقَ الأنفسَ إلا الأملُ      وهو غرورٌ ما عليه عملُ  
يفرضُ منه الشخصُ وهماً ما له      حالٌ ولا ماضٍ ولا مستقبلُ  
ما فوق وجه الأرضِ نفسُ حيةٍ      إلا قد انقضتْ عليها الأجلُ  
لو أنهم من غيرِها قد كوتوا      لامتلاً السهلُ بهم والجبلُ  
ما ثم إلا لقمٌ قد هيئتُ      للموتِ ، وهو الآكلُ المستعجلُ  
والوعدُ حقٌ والورى في غفلةٍ      قد خودعوا بعاجلٍ وضلُّوا  
أين الذين شيدوا واغترسوا      ومهدوا وافرشوا وظلُّوا  
أين ذوو الراحةِ زادت حسرةً      إذ جنبوا إلى الثرى وانتقلوا  
لم تدفعِ الأحبابُ عنهم غيرَ أن      بكوا على فراقهم وأعولوا  
الله في نفسك أولى من له      ذخرت نصحاً وعتاباً يقبلُ  
لا تتركها في عمى وحيرةٍ      عن هولٍ ما بين يديها تغفلُ  
حقرُ لها الفاني وحاول زهدُها      وشوقها إلى الذي تستقبلُ  
وفدُ إلى الله بها مضطرةً      حتى ترى السيرَ عليها يسهلُ

١ ق : بعد .

هو الفناء والبقاء بعده والله عن حكمته لا يُسألُ  
يا قُرَّةَ العينِ ويا حَسْرَتَها يومَ يُوقَى الناسُ ما قد عملُوا

يا طرداء المخالفة ، إنكم مُدْرَكُونَ فاستبقوا باب التوبة ، فإن ربّ تلك  
الدار يجير ولا يجار عليه ، فإذا أمتم فاذكروا الله كما هداكم ، يا طَفِيلِيَّةَ  
الهمّة ، دُسُّوا أنفسكم بزُمر التائبين وقد دُعُوا إلى دعوة الحبيب ، فإن لم  
يكن أكل فلا أقل من طيب الوليمة ، قال بعض العارفين : إذا عقد التائبون  
الصلح مع الله تعالى انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ  
بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ (الزمر : ٦٩) . معاني هذا المجلس والله نسيم سحر ،  
إذا استنشقه مخمور الغفلة أفاق ، سَعَوْتَ هذا الوعظ ينغص إن شاء الله زَكَمَةَ  
البطالة ، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ، إكسير هذا الكتاب يقلب بحكمة  
جابر القلوب المنكسرة عَيْنَ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ،  
وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ (الأنعام : ٣٦) إلهي دلنا من حيرة يضلّ فيها - إلاّ إن  
هديت - الدليل ، وأجرنا من غمرة وكيف إلا بإعانتك السبيل ؟ نفوس صدىء  
على مرّ الأزمان منها الصَّقِيل ، ونبا يجنوبها عن الحق المقييل ، وأذان أنهضها  
القول الثقيل ، وعثرات لا يقيلها إلاّ أنت يا مقيل العثار يا مقيل ، أنت حسبنا  
ونعم الوكيل ؛ انتهى .

ومن مواظ لسان الدين رحمه الله سبحانه ما أورده في الروضة إثر ما سبق ،  
إذ قال : إخواني صمّت الآذان والنداء جهير ، وكذب العيان والمشار إليه  
شهير ، أين الملك وأين الظهير ؟ أين الخاصة أين الجماهير ؟ أين القبيل والعشير ؟  
أين كسرى بن أردشير ؟ صدق والله الناعي وكذب البشير ، وغشّ المستشار  
واتهم المشير ، وسئل عن الكلّ فأشار إلى التراب المشير :

خذ من حياتك للممات الآتي وبتدار ما دام الزمان مُؤاتي  
لا تغتررْ فهو السرابُ ببقيةٍ قد خودعَ الماضي بهِ والآتي

يا من يؤملُ واعظاً ومذكراً  
هلاًّ اعتبرتَ ويا لها من عبرةٍ  
قف بالبقيعِ ونادٍ في عرصاته  
درجوا ولستَ بخالدٍ من بعدهم  
والله ما استهلكتَ حياً صارخاً  
لا فوتَ عن دركِ الحمامِ هاربٍ  
كيف الحياةُ لدارجٍ متكلفٍ  
أسقماً علينا معشرَ الأمواتِ لا  
ويغرنا لمعُ السرابِ فنغتدي  
والله ما نصَحَ امرءاً من غشه

يوماً ليوقظهُ من الغفلاتِ  
بمدافنِ الآباءِ والأمماتِ  
فلكممٌ بها من جيرةٍ وليداتِ  
متميزٍ عنهم بوصفِ حياةِ  
إلاّ وأنتَ تُعدُّ في الأمواتِ  
والناسُ صرعى معركِ الآفاتِ  
سنةِ الكرى بمدارجِ الحياتِ  
ننفعُ عن شغلٍ بهاكِ وهاتِ  
في غفلةٍ عن هاذمِ اللذاتِ  
والحقُّ ليسَ بخافتِ المشكاةِ

يا من غدا وراح ، وألف المراح ، يا من شرب الراح ، ممزوجة بالعب  
القراح ، وقعد لعيان صروف الزمان مقعد الأفراح ، كأنك والله باختلاف  
الرياح ، وسماع الصباح ، وهجوم غارة الاجتياح ، فأديل الحفوت من الارتياح ،  
ونُسيت أصوات الغناء برنات الرياح ، وعوضت عررُ الثوب القباح ، من غرر  
الوجوه الصُّباح ، وتناولت الجسومَ الناعمة أيدي الاطِّراح ، وتنوسيت العهود  
الكريمة بمر المساء عليها والصبح ، وأصبحت كُماة النطاح ، من تحت البطاح ،  
وخملت المهتدة والرماح ، ذليلة من بعد الجراح :

ولو كان هَوَلُ الموتِ لا شيءَ بعده      لهان علينا الأمرُ واحتقر الهولُ  
ولكنه حَشْرٌ ونَشْرٌ وجنَّةٌ      ونارٌ ، وما لا يستقلُّ به القولُ

يا مشتغلاً بداره ورمَّ جداره ، عن إسراعه إلى النجاة وبيداره ، يا من  
صاح بإنذاره شيبُ عذاره ، يا من طرفٍ عينٍ اعتذاره بأقذاره ، يا من قطعه  
بُعدُ مزاره وثقلُ أوزاره ، يا معتلفاً<sup>٢</sup> ينتظر هجوم جزّاره ، يا مختلساً للأمانة

٢ ق : معلقاً .

١ ق : صرف .

يرتقبُ مفتش ما تحت إزاره ، يا من أمعن في خمر الهوى خَفُ من إسكاره ،  
يا من خالف مولى رِقَمَه تَوَقَّ من إنكاره ، يا كلفاً بعارية تُرَدُّ ، يا مفتوناً  
بأنفاس تُعَدُّ ، يا معولاً على الإقامة والرحال تُشَدُّ ، كأتى بك وقد أوثق الشدَّة ،  
وألصق بالوسادة الخدَّ ، والرجلُ تقبض والأخرى تمدُّ ، واللسان يقول ﴿ يا ليتنا  
نُرَدُّ ﴾ (الأنعام : ٢٧) :

إنَّا إلى الله وإنَّا له ما أشغلَ الإنسانَ عن شأنِهِ  
يرتاحُ للأثوابِ يزُهَى بها والحيطُ مغزولٌ لأكفانِهِ  
ويخزنُ الفلسَ لورائِهِ مُستنفداً مبلغَ أكوانِهِ  
قوضُ عن الفاني رحالَ امرئٍ مدَّ إليه عينَ عرفانِهِ  
ما ثمَّ إلا موقِفٌ زاهدٌ قد وكَّلَ العدلُ بميزانِهِ  
مُفَرِّطٌ يشقى بتفريطِهِ ومحسنٌ يُجزى بإحسانِهِ

يا هذا خفي عليك مَرَضٌ اعتقادك فالتبس الشحمُ بالورَم ، جهلت قِيمَ  
المعادنِ فبِعَتَ الشبَّهَ بالذهب ، فسَدَ حِسُّ ذوقك فتفككت بحفظه ، أين  
حرصك من أجلك ؟ أين قولك من عملك ؟ يدركك الحياء من الطفل فتتحمى  
حمى الفاحشة في البيت بسببه ، ثم تواقعها بعين خالق العين ، ومُقَدِّر الكيف  
والأين ، تالله ما فَعَلَ فَعَلَكَ بمعبوده ، مَنْ قَطَعَ بوجُوده ﴿ ما يَكُونُ مِنْ  
تَجْوَى ثَلَاثَةِ - إله عليم ﴾ (المجادلة : ٧) تعود عليك مَسَاعِي الجوارح التي  
سخرها لك بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فتبخل منها في سبيله بفلس ،  
وأحدُ الأمرين لازم : إمَّا التَّكْذِيبُ ، وإمَّا الحماقة ، وجمعك بين الحالتين  
عجيب ، يرزقك السنين العديدة من غير حق وَجَبَ لك ، وتسيء الظن به في  
يوم ؛ توجب الحق ، وتعتذر بالغفلة ، فما بال التماذي ؟ تعرّف بالذنب فما

١ ق : فيه ، ولعلها « قيمة » .

٢ ق : حسن .



الحجة في الإصرار ؟ ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا تَكِيداً ﴾ (الأعراف : ٥٨) يا مدعي النسيان ماذا فعلت بعد التذكير ؟ يا معتدراً بالغفلة أين ثمرة التنبيه ؟ يا مَنْ قطع بالرحيل أين الزاد ؟ يا ذُبابة الحرص كم ذا تلجج في ورطة الشهد ؟ يا نائماً مِلْءَ عَيْنَيْهِ حَدَارِ الْأَجَلِ قَدْ أَنْذَرَ ، يا ثَمَلِ الاغترار قَرُبَ خُمَارِ النَّدَمِ ، تَدَّعِي الحِذْقَ بِالصَّنَائِعِ وَتَجْهَلُ هَذَا القَدْرَ ، تَبْدُلُ النِّصْحَ لِغَيْرِكَ وَتَغشُ نَفْسَكَ هَذَا الغِشَّ ، أَنْدَمَلْ جَرِحُ تَوْبَتِكَ عَلَى عَظْمٍ ، قَامَ بِنَاءِ عَزْمَتِكَ عَلَى رَمْلِ ، نَبَتَ خَضِرَاءَ دَعْوَتِكَ عَلَى دِمْنَةٍ ، عَقَدْتَ كَفْلَكَ مِنَ الحَقِّ عَلَى قَبْضَةِ مَاءٍ ﴿ أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (فاطر : ٨) إذا غام جو هذا المجلس ، وابتدأ رش غمام الدموع ، قالت النفس الأمارة : حوالينا لا علينا ، فدالت رياح الغفلة ، وسحابُ الصيف هفاف ، كلما شدّ طفل العزيمة على دِرَّةِ التوبة صانَعَتَهُ ظَنْرُ الشهوة عن ذلك بعصفور ، إذا ضيق الخوف فُسْحَةَ المهل سرق الأمل حدود الجار ، قال بعض الفضلاء : كانوا إذا فقدوا قلوبهم ، تفقدوا مطلوبهم ، ولو صدق الواعظُ لأثر ، اللهم لا أكثر :

طبيبٌ يداوي الناسَ وهو عليلٌ

والخطب جليل ، والمتفطن قليل ، فهل إلى الخلاص سبيل ؟ اللهم انظر إلينا بعين رحمتك التي وسعت الأشياء ، وشملت الأموات والأحياء ، يا دليلَ الحائرين دُلِّنا ، يا عزيز ارحم دُلِّنا ، يا وليَّ من لا وليَّ له كُنْ لنا كلتنا ، إن أعرضتَ عنا فمن لنا ؟ نحن المذنبون وأنت غفار الذنوب ، فقلِّبْ قلوبنا يا مقلِّبَ القلوب ، واسترْ عيوبنا يا ستارَ العيوب ، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب ؛ انتهى .

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في المواعظ ما خاطب به بعض من استدعى منه الموعدة ، ونصّه :

إذا لم أنح يوماً على نفسي التي      بجرّاتها أحيبتُ كلَّ حبيبِ  
وقد صحَّ عندي أنَّ عاديةَ الردي      تدبُّ لها والله كلَّ ديبِ  
فمنّذا الذي يبكي عليها بأدمعي      إذا كنتُ موصوفاً برأي لبيبِ

كم قد نظرت إلى حبيب تغار من إرسال طرفك بكتاب الهوى إلى إنسانه ،  
وقد ذبلت بالسقم نرجسة لحظه ، وذوت وردة خده ، واصفرت لمغيب الفراق  
شمسُ حسنه ، وهو يجود بنفسه التي كان يبخلُ منها بالنفس ، يخاطب بلسان  
حاله مترجماً : « وليت الفجل يهضمُ نفسه » ، وأنت على أثر مسحه إلى دسّت  
الحكم ﴿ وما أدري ما يُفعلُ بي ولا بكم ﴾ ( الأحقاف : ٩ ) .  
ومنها : تالله لو لم يكن المخبر صادقاً لنشب بحلق العيش بعده شوكة الشك :

ولو أنا إذا متنا تركنا      لكان الموتُ راحةً كلُّ حيٍّ  
ولكننا إذا متنا بعثنا      ونُسأل بعده عن كلِّ شيءٍ

فالحازم من بتر الآمال طوعاً ، وقال : بيدي لا بيد عمرو ﴿ يا أيها  
الناسُ إنَّ وعدَ الله حقٌّ فلا تغرّبتمُ الحياةَ الدُّنيا ولا يغرّبتمُ بالله  
الغرور ﴾ ( فاطر : ٥ ) .

وقال أمير الوعاظ رحمه الله تعالى :

وبضدّها تتبينُ الأشياءُ<sup>١</sup>

يا مقتولاً ما له طالب ثار ، بريدُ الموت مُطلقُ الأعينة في طلبك ، وما  
يحميك حصن ، ثوبُ حياتك منسوج من طاقات أنفاسك ، والأنفاس تستلب  
ذرات ذاتك ، وحركات الزمان قوينة في النسج الضعيف ، فيا سرعة التمزق ،  
يا رابطاً مناه بخيط الأمل ، إنّه ضعيف الفتل ، صياد التلف قد بثَّ الصقور ،  
وأرسل العقبان ، ونصب الأشرار ، وقطع المواد ، فكيف السلامة ؟ تها

١ عجز بيت للمتنبّي ، وصدّره : « ونذيمهم وبهم عرفنا فضله » .

لِسُرْعَةِ المَوْتِ وَأَشَدِّ مَنَها قَلْبَ القَلْبِ ، لَيْتَ شَعْرِي لَمَّا يُووِلُ الأَمْرُ ؟  
فَوَاللَّهِ لَا أُدْرِي أَيَّغَلِبُنِي الهَوَى إِذَا جَدَّ جِدُّ البَيْنِ أَمْ أَنَا غَالِبُهُ  
فَإِنْ أُسْتَطِعَ أَغْلَبُ وَإِنْ يَغْلِبُ الهَوَى فَمِثْلَ الَّذِي لَا قَيْتُ يُغْلَبُ صَاحِبُهُ

مَرَكَبُ الحَيَاةِ يَجْرِي فِي بَحْرِ البَدَنِ بِرُخَاءِ الأَنْفَاسِ ، وَلَا بَدَأَ مِنْ عَاصِفٍ قَاصِفٍ  
بِفُلْكَهَ وَيَغْرَقُ الرِّكَابَ :

فَاقْضُوا مَآرِبِكُمْ عِجْالاً إِنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الأَسْفَارِ<sup>١</sup>

وَقَالَ : كَأَنَّكَ بِحَرْبِ التَّلْفِ قَدْ قَامْتَ عَلَى سَاقٍ ، وَأَنْهَزْتَ جُنُودَ الأَمَلِ ،  
وَإِذَا بِمَلِكِ المَوْتِ قَدْ بَارَزَ الرُّوحَ يَجْذِبُهَا بِحِطَّاطِيْفِ الشَّدَائِدِ مِنْ قِيَانِ العُرُوقِ ،  
وَقَدْ شَدَّ كَتَافَ الذَّبِيحِ ، وَحَارَ البَصْرَ لَشِدَّةِ الهَوْلِ ، وَمَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ عَنِ اليَمِينِ  
قَدْ فَتَحُوا أَبْوَابَ الجَنَّةِ ، وَمَلَائِكَةُ العَذَابِ عَنِ اليَسَارِ قَدْ فَتَحُوا أَبْوَابَ النَّارِ ،  
وَجَمِيعَ المَخْلُوقَاتِ تَسْتَوَكِفُ الخَبْرَ ، وَالكَوْنُ كُلُّهُ قَدْ فَاءَ عَلَى صَيِّحَةٍ : سَعِدَ  
فَلَانٌ ، أَوْ شَقِيَ فِلَانٌ ، فَهَنَالِكَ تَنْجَلِي أَبْصَارِ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ  
ذِكْرِي ، وَيُحْكُ ! تَهَيَّأْ لَتِلْكَ السَّاعَةِ ، حَصِّلْ زَاداً قَبْلَ الفَوْتِ :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَّارِ نَجْدِي فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَّارِ

مِثْلُ لَعِينِكَ سُرْعَةُ المَوْتِ ، وَمَا قَدْ عَزَمْتَ أَنْ تَفْعَلَ حِينَئِذٍ فِي وَقْتِ الأَسْرِ  
فَافْعَلْهُ فِي وَقْتِ الإِطْلَاقِ ، وَقَالَ أَبُو العَتَاهِيَةِ<sup>٢</sup> :

خَانَكَ الطَّرْفَ اتَّئِدُ<sup>٣</sup> أَيُّهَا القَلْبُ الجَمُوحُ  
فَدَوَاعِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ دُنُوسٌ وَنَسْرُوحُ  
كَيْفَ إِصْلَاحُ قُلُوبٍ إِنَّمَا هُنَّ قُرُوحُ

١ البيت لأبي الحسن التهامي ، من قصيدته « حكم المنية في البرية جاري » ، ديوانه : ٢٨ .

٢ ديوان أبي العتاهية : ٩٧ .

٣ الديوان : الطموح .

أَحْسَنَ اللهُ بِنَا  
فإذا المشهور منّا  
كَمْ رأينا مِنْ عزيز  
صاح منه برحيل  
موتُ بعض الناس في الأر  
سيصير المرء يوماً  
بين عَيْنَيَّ كلَّ حي  
كلنا في غفلة وال  
لبي الدنيا من الدن  
رُحْن في الوشي وأصبح  
كلُّ نطاحٍ من الده  
نُح على نفسك يا مس  
لتنوحنَّ ولو عمّ

أنَّ الخطايا لا تفوح  
بين ثوبيه فضوح  
طويت عنه الكشوح  
طائرُ الدهر الصدوح  
ض على بعض فتوح  
جسداً ما فيه روح  
علم الموت يلوح  
دهرٌ يغدو ويروح  
يا غبوقٌ وصبح  
من عليهنَّ المسوح  
ر له يوماً تطوح  
كين إن كنت تنوح  
رت ما عمّر نوح

وقال في المعنى ١ :

لمن طلل أسائله  
غداة رأيتُه تنعى  
وكنت أراه مأهولاً  
وكلُّ لاعتساف الده  
وما متملك إلا  
فيصرع من يصارعه  
ينازل من يه به

مُعْطَلَةٌ مناهلُه  
أعاليه أسافلُه  
ولكن باد آهلُه  
ر معرضة مقاتله  
وريب الدهر شامله  
ويتضل من يناضله  
وأحياناً يخاتله

١ ديوانه : ٢٢٧ .

٢ الديوان : وما من ملك .

وأحياناً يؤخِّره  
كفأكَ به إذا نزلتْ  
وكم قد عَزَّ من ملك  
ويثني عَطْفَهُ مَرَحاً  
فلَمَّا أن أتاه الحقُّ  
فخَفَضَ<sup>٢</sup> عينَهُ للمو  
فما لَبِثَ السَّيَاقُ بهِ  
فجهَّزه إلى جدثٍ  
ويصيحُ شاحِطَ المَثْوَى  
مُخَمَّشَةً نوادِبُهِ  
وكمْ قَدَّ طالَ من أملٍ  
رأيتُ الحقَّ لا يخفي  
لَا فانظرُ لِنَفْسِكَ أيُّ  
لمتزل وحادَّةٍ بينَ ال  
قصيرِ السَّمَكِ قد رَضِمَتْ<sup>٣</sup>  
بعيدِ تجاورِ الجيرا  
أَيَّتْهَا المقابرِ في  
ومن كُنَّا نتاجرُهُ  
ومَن كُنَّا نُعَاشِرُهُ  
ومَن كُنَّا نُشَارِبُهُ

وتاراتٍ يعاجلُهُ  
على قومٍ كَلَاكُلُهُ  
تحفُّ به قبائلُهُ<sup>١</sup>  
وتُعجِبُهُ شَمَائِلُهُ  
ولَّى عَنَّهُ باطلُهُ  
تِ واسترختَ مفاصلُهُ  
إلى أن جاء غاسلُهُ  
سيكُرُ فيه خاذلُهُ  
مُفَجَّعَةً ثَوَاكُلُهُ  
مسلَبَةً حلائلُهُ  
فَلَمَّ يدركهُ أملهُ  
ولا تخفي شوَاكُلُهُ  
زادِ أنتَ حامِلُهُ  
مقابرِ أنتَ نازلُهُ  
عليكَ بهِ جنادلُهُ  
ن ضيقةٌ مدَاخلُهُ  
لكِ من كُنَّا ننازلُهُ  
ومن كُنَّا نعاملُهُ  
ومَن كُنَّا نداخلُهُ  
ومَن كُنَّا نُؤَاكِلُهُ

١ الديوان : قتالهُ .  
٢ الديوان : فمض .  
٣ الديوان : رصت .

وَمَنْ كُنَّا نُفَاخِرُهُ وَمَنْ كُنَّا نُطَاوِلُهُ  
 وَمَنْ كُنَّا نَرَاقِبُهُ وَمَنْ كُنَّا نُرَايِلُهُ  
 وَمَنْ كُنَّا نُكَارِمُهُ وَمَنْ كُنَّا نَجَامِلُهُ  
 وَمَنْ كُنَّا لَهُ الْفَأْ قَلِيلًا مَا نُرَايِلُهُ ١  
 وَمَنْ كُنَّا لَهُ بِالْأَمِّ سِ إِخْوَانًا نَوَاصِلُهُ ٢  
 فَحَلَّ مَحَلَّةً مَنْ حَلَّ هَا صُرِمَتْ حَبَائِلُهُ  
 أَلَا إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْ هَلُّ وَالْخَلْقُ نَاهِلُهُ  
 أَوَاخِرُ مَنْ تَرَى تَفْيِي كَمَا فَنِيَتْ أَوَائِلُهُ  
 لِعَمْرِكَ مَا اسْتَوَى فِي الْأَمِّ سِرِّ عَالِمُهُ وَجَاهِلُهُ  
 لِيَعْلَمَ كُلُّ ذِي عَمَلٍ بِأَنَّ اللَّهَ سَائِلُهُ  
 فَاسْرِعَ فَائِزًا بِالْخَيْبِ سِرِّ قَائِلُهُ وَفَاعِلُهُ

ثم قال لسان الدين رحمه الله تعالى ، بعد ما سبق ، ما صورته : وهذا الغرض  
 بحر ، ويكفي من خزائنه عرض ، ومن بيت ماله قرض ، إن شاء الله تعالى .  
 ثم قال : تنبيه يشتمل على سؤالين : أحدهما أن يقال : الوعظ غير مناسب  
 للمحبة ، إذ لا يحصل إلا بعد الفراغ واليقظة ، الثاني : أن يقال : عظمم الحسرة  
 لفراق عالم الحس ، وأطلتم في قشور ، فنجيب عن الأول : إننا لم نجلب الوعظ  
 إلا بين يدي تأميل حضور المحبة ، فكأنه يجري مجرى الأسباب ، فإن الغرض  
 به وجهة النفس من جو السرور ، واللعب بالزور ، إلى جو الحزن والارتماض ،  
 ومن هنالك تأخذ بخطامها أيدي الاضطرار ، فتحصل اليقظة ثم التوبة ، ومنها  
 يستقيم الطريق في منازل السائرين إلى الحق :

١ ق : نزاوله ، والتصويب عن الديوان .

٢ الديوان : ومن كنا بلا مين أحاييناً ...

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغِبَتْها وإذا تُرِدُّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ<sup>١</sup>

وعند ذلك يُطَوِّى بساط الزجر والوعظ<sup>٢</sup> ، ويمدّ بساط الاعتبار والحب ، إن شاء الله تعالى ، فإنها كالتكلى بطبعها لما فارقتَه من عنصر نور الله تعالى والعوالم الروحانية التي هي الشعار والدثار ، والأمل والدار ، والحياة والجمال ، والوجود والكمال ، وإن كانت لا تشعر بالسبب ، ولا تستحضر ذكر العلة ، فإذا ذُكر الفراق أتتْ ، أو تُنوشد الآثار حنّتْ ، ويطرقها الحزن عند الألحان الشجية ، وتحس بعض الأحيان بالمواجد العشقية :

وقالوا أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ لقبر ثوى بين اللوى والدكادك<sup>٣</sup>  
فقلت لهم : إن الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كله قبر مالك

وعن الثاني : إن كثيراً من النفوس لا تشعر بوجود عالم الحس ، فضلاً عن النظر فيه ، وإن شعرت بذلك عد منها نبلاً ، ومَنْ كان بهذه المثابة لا سبيل لندائه إلا من باب القشور ﴿ أولئك ينادونَ من مكانٍ بعيدٍ ﴾ (فصلت : ٤٤) إلى أن يتأتى النداء من باب الله تعالى بفضل الله تعالى ، فالنفوس الشخصية غير متساوية ، وهي بهوى الهوى هاوية ، فالقريبُ منها يُجذبُ بالأنامل ، والبعيدُ بالجزل الكوامل ، وعلى قدر المحمول تكون قوة الحامل :

يضع الهناء مواضع النقب<sup>٤</sup>

يكفي اللبيب إشارةً مكتومةً وسواه يدعى بالنداء العالي  
وسواهما بالزجر من قبل العصا ثمَّ العصا هي رابعُ الأحوال

١ لأبي ذؤيب الهذلي ، ديوان الهذليين ١ : ١١ .

٢ والوعظ : سقطت من ق .

٣ البيتان لمتعم بن نورية في رثاء أخيه مالك .

٤ من أمثالهم ؛ وهو شطر بيت لدريد بن الصمة ، وصدوره : « متبذلاً تبدو محاسنه » .

وقال رحمه الله تعالى في فصل ذم الكسل ، ما صورته : ونحن نجلب بعض  
 الأمثال في ذمّه ، ممّا يسهل حفظه ، ويجب لحظه ، فمن ذلك : الكسل مزلقّة  
 الريح ، ومسخرة الصبح . إذا رقدت النفسُ في فراش الكسل استغرقها نوم  
 الغفلة ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك : ١٠) .  
 الندامة في الكسل كالسم في العسل . الكسل آفة الصنائع ، وأرضة في البضائع .  
 العجز والكسل ، يفتحان الخمول ولا تسلسل . الفلاح إذا ملّ الحركة ، عدم  
 البركة :

ظهران لا يبليغان المرء إن ركبنا باب السعادة : ظهر العجز، والكسلُ

وفي اغتنام الأيام : من أضاع الفرصة ، تجرع الغصة . إن كان لك من  
 الزمان شيء فالحال ، وما سواه فمُحال . تارك أمره إلى غد ، لا يُفْلح للأبد .  
 الإنسان ابن ساعة ، فليحطها من إضاعته . التسويف سُمُّ الأعمال ، وعدو  
 الكمال . لم يُحرم المبادر ، إلا في النادر . ما درجت أفراخُ ذلِّ إلا من وكر  
 طماعة ، ولا بسقت فروعُ ندمٍ إلا من جرثومة إضاعه . العزم سوق ، والتاجر  
 الجسور مرزوق . من وثق بعهد الزمان ، علقت يدها بجبل الحرمان . الربح  
 في ضمن الخسارة ، والمضيق أولى بالخسارة .

ومن أمثالهم - في نظر الإنسان لنفسه ، قبل غروب شمسهِ - قولهم : اعلم  
 أن كلَّ حكيم صانع إذا فكر في أمره ونظر في العواقب علم أنه لا بد يوماً أن  
 يخرب دكانه الذي هو محل بضاعته ، وتنحل أنقاضه ، وتكل أدواته ، وتضعف  
 قوته ، وتذهب أيام شبابه ، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان ، واستغنى  
 عن السعي ، فإنه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر ، ولا إلى أدوات مجددة ،  
 فليتجر بما اقتناه ويشغل بالانتفاع والالتذاذ بما كسبت يده ، وهذه حالة  
 النفس بعد خراب الجسد ، فبادر واجتهد واحرص واستعجل ، وتزوّد قبل



خراب دكانك وهدم بيته ، فإن خير الزاد التقوى ، قال حسّان<sup>١</sup> :

إذا أنتَ لم ترحل بزاد من التَّقَى وأبصرت بعد اليوم من قد تزودا  
نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثلِهِ ولم تتَرَصِدْ مثلَ ما كان أرصدا

قال أبو الفرج ابن الطيب البغدادي<sup>٢</sup> في اغتنام الوقت في كتابه « في السياسة والآراء الفاضلة » : يجب أن تعيد وتمثل ، فإن الفكر مضطرب متشوش بكثرة نوازع النفس واختلاف قواها ، والعمى في بعض الأوقات ، فإذا سنع للنفس وقتاً فاضل بصفاء جوهرها ، وأبرمت قانوناً أو صورة متوسطة فاضلة ، يجب أن يقيد بذلك وقت سعد ربما لا يعاود أو يعاود ؛ انتهى .

٧٦ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان سلطانه إلى شيخ الموحدين بتونس ابن تافراجين ، يخبره بالتمحيص الجاري عليه ، ونصّه : « من أمير المسلمين أيده الله ونصره ، وأعلى أمره وأظهره ، إلى ولينا في الله تعالى الذي له القَدَمُ الرفيع المناصب ، والمجدُّ السامي الذوائب ، والسياسة التي أخبارها سَمَرُ الركبان وحدُّوُ الركائب ، الشيخ الجليل الكبير ، الشهير الخطير ، الهمام الأمضى ، الرفيع الأعلى ، الأجدُّ الأوحد ، الأسعد الأصعد ، الأوفى الظاهر الطاهر الفاضل الباسل الأرضى الأنقى المعظم الموقر المبرور ، علّم الأعلام ، سلالة أكابر أصحاب الإمام ، مُعيد دولة التوحيد إلى الانتظام ، أبي محمد عبد الله ابن الشيخ الجليل الكبير الشهير الماجد الخطير الرفيع الأسعد

١ كذا والمشهور أن هذين البيتين من قصيدة الأعشى التي نظمها في مدح الرسول وحالت فريش بينه وبين الوفاة عليه ، ومطلها « ألم تغمض عيناك ليلة أرمدا » .

٢ أبو الفرج عبد الله بن الطيب عراقي فيلسوف اعتنى بشرح الكتب القديمة في المنطق والحكمة من تأليف أرسطوطاليس وكتب جالينوس الطبية ( قيل توفي سنة ٤٣٥ ) . ومن تلامذته ابن بطلان ( الففطي :

٢٢٣ ، وابن أبي أصيبعة ١ : ٢٣٩ ) .

الأجد الحبيب الأصيل الأمضى الأرضى الأفضل الأكمل المعظم المقدس<sup>١</sup> المرحوم  
أبي العباس تافراجين ، وصلّ الله تعالى له عزة تناسب شهرة فضله ؛ وسعادة  
تتكفل له في الدارين برفعة محله : سلام كريم يخص مجادتكم الفاضلة ، ورتبتكم  
الحافلة ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

« أمّا بعدَ حمدِ الذي يُمَحَّصُ لِيُثِبَ ، ويأمر بالاستقالة لِيُجِيبَ ،  
ويُعَقِّبَ ليلَ الشدة بصبح الفرج القريب ، ويجني من شجر التوكل عليه ،  
والتسليم إليه ، ثمر الصنع العجيب ، ويظهر العبر مهما كسر ثم جَبَرَ لكل ذي  
قلب منيب ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي نلجأ إلى ظل شفاعته  
في اليوم العَصِيبِ ، ونستظهر بجاهه على جهاد عبدة الصليب ، ونستكثر عددَ  
بركاته في هذا الثغر الغريب ، ونصُولُ منه على العدو بالحبيب ، والرضى عن  
آله وصحبه نجوم الهداية من بعد الأمانة من الأفول والمغيب ، فإنّا كتبناه  
إليكم - كتب الله لكم عزة متصلة ، وعِصْمَةَ بالأمان من نوب الزمان متكفلة -  
من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، ولا زائدَ بفضل الله تعالى الذي لطف  
وجبَرَ ، وأظهر في الإقالة وحسن الإدالة العِبرَ ، ممّن كتب الله تعالى له العقبي  
لما صَبَرَ ، إلا الخبرُ الذي كسا الأعطافَ الحِبرَ ، والصنع الذي صدّق خبره  
الخبر ، والحمد لله تعالى كثيراً كما هو أهله فلا فضل إلاّ فضله ، ولما كانتكم  
عندنا المحلّ الذي قررت شهرة فضلكم قواعده ، وأعلت مصاعده ، وأثبت التواتر  
شواهد ، إذ لا تزال نتحف بسيركم التي في التدبيرات تُقْتَفَى ، وعلم يُسَرِّدُ به  
إذا العلم اختفى ، والسبيل عفا ، وإن تلك الدولة بكم استقام أودها ، وقامت  
والحمد لله عمُدُها ، وإنكم رعيتم في البنين حقوق آبائهم ، وحفظتم عليها ميراث  
عليائهم ، ولو لم تتصل بنا أنباؤكم الحميدة ، وآراؤكم السديدة ، بما يفيد العلم  
بفضل ذاتكم ، ويغري قوى الاستحسان بصفاتكم ، لغبطنا بمخاطبتكم

١ ق : القدوة .

ومفاتحتكم ، ما نجدُهُ من الميل لكم طبعاً وجبيلةً ، من غير أن نعتبر سبباً أو علةً ، فالتعارف بين الأرواح لا يُنكر ، والحديث الكريم يؤيد من ذلك ما يُنقل ويُذكر<sup>١</sup> .

«وبحسب ذلك نطلعكم على غريب ما جرى به في ملكنا القدر ، وحيث بلغ الورد وكيف كان الصّدْر ، وربما اتصلت بكم الحادثة التي أكفأها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاذياً ، ولا برح في جوانب إحسانها راحاً وغادياً ، يتيم حجرها الكافل ، ورضيع درّها الحافل ، الشقي الخاسر ، الخائن الغادر ، محمد بن إسماعيل بن محمد المستجير بنسبنا من لؤم غدره ، الخفية عنا حيلُ مكره لحمول قدره ، إذ دَعاه محتومُ الحين ليهلك إلى أن يهلك ، وسوّلت له نفسه الأمارة بالسوء أن يُملك أخانا الخاسر ثم يملك ، وسبحان الذي يقول ﴿يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود : ٤٦) ، وكيف تم له ما أبرمه من تسوّر الأسوار ، واقتحام البوّار ، وتملك الدار ، والاستيلاء على قطب المدار ، وأتانا كَتَفَتْنَا عصمةُ الله تعالى بمتحولنا الذي كان به ليلتذ محل ثواننا ، وكفّت القدرة الإلهية أكفّ أعدائنا ، وخلصنا غلاباً بحالٍ انفرادٍ إلاّ من عناية [ الله ] ونعم الرفيق ، وصدّق اللّجاء إلى رحمة الله تعالى التي ساحتها عن مثلنا لا تضيق ، مهما تنكّر الزمان أو تفرق الفريق ، وشرذمةُ الغدر تأخذ علينا كلّ فج عميق ، حتى أويّنا من مدينة وادي آس إلى الجبل العاصم ، والحجة المرغمة أنفَ المخاصم ، ثم أجزّنا البحر بعد معاناة خطوب ، وتجهّم من الدهر وقطوب ، وبلا الله هذا الوطنَ بمن لا يرجو لله وقاراً ، ولا يألُو شعائره العظمة احتقاراً ، فأضرمه ناراً ، وجلّل وجوهه خزيّاً وعاراً ، حتى هتك الباطل حِمَاه ، وغير اسمه ومُسَمَاه ، وبدّد حاميته المتخيرة وشدّتها ، وسخّم دواوينه التي حصّها الترتيب والتجريبُ وهذّبها ، وأهلك نفوسها وأموالها ، وأساء لولا

١ يشير إلى الحديث «الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف . . . إلخ» .

٢ ق : فمهما .

تَدَارِكُ اللهُ تَعَالَى أَحْوَالَهَا .

«ولمّا تأذن جل جلاله في إقالة العِثَارِ ، ودرك الثار ، وأنشأت نواسمَ رضاه  
إدامة الاستغفار ، ورأينا قلادة الإسلام قد آن انتشارها ، والملة الحنيفة كادت  
تذهب آثارها ، ومساائل الخلاف يتعدد مُثَارَهَا ، وجعلت الملتان نحونا تشير ،  
والملك يأمل أن يوافيه بقدمونا البشير ، تحركنا حركة خفيفة تشعر أنّها حركة  
الفتح ، ونهضنا نبتدر ما كتب الله تعالى من المنح ، وقد امتعض لنا الكونُ بما  
حمل ، واستخدم الفُلك نفسه بمشيئته تعالى واكتمل ، وكاد يقرب لقرى ضيفنا  
الثورُ والحَمَل ، وظاهرنا محلُّ أخينا السلطان الكبير الرفيع المعظم المقدس أبي  
سالم الذي كان وطنه مأوى الجنوح ، ومهَبَّ النصر الممنوح - رحمة الله تعالى  
عليه - مظهرةً مثله من الملوك الأعظم ، وختم الجميل بالجميل والأعمال  
بالخواتم ، وأنفَ حتى عدوُّ الدين لنعمتنا المكفورة ، وحقوقنا المحجوبة المستورة ،  
فأصبح بعد العدو حبيبا ، وعاد بعد الإباية مُنيبا ، وسخر أساطيله تخضيفا على  
الإجازة وترغيبا ، واستقبلنا البلاد وبحر البشر يزخر مَوْجُهُ ، وملك الإسلام قد  
خرَّ على الحضيض أَوْجُهُ ، والرومُ مستوليةٌ على الثغور ، وقد ساءت ظنون  
المؤمنين بالعقبى والله عاقبة الأمور ، والحبيثُ الغادر الذي كان يموه بالإقدام قد  
ظهر كذب دَعْوَاهُ ، وهان مَثْوَاهُ ، وتورط في أشراكِ المندمة تورطَ مثله  
ممن اتّبع هواه ، وجحد نعمة مولاه ، فلولا أن الله ، عزّ وجلّ ، تدارك  
جزيرة الأندلس بركابنا ، وعاجل أوارها بانسكابنا ، لكانت القاضية ، ولم ترها  
من بعد تلك الريح العقيم من باقية ، لكننا والفضل لله تعالى رفعا عنها وطأة  
العدوِّ وقد ناء بكلّكَل ، وابتزناه منها أيّ مشربٍ ومأكل ، واعتزنا عليه  
بالله تعالى الذي يعز ويذل ، ويهدي ويضل ، فلم نساعه في شرط يجرُّ غَضاضة ،  
ولا يخلّف في القلوب مضاضة ، وخضنا بحر الهول ، وبرثنا إلى الله تعالى ربنا  
عن القوة والحول ، وظهرت للمسلمين ثمرة سريرتنا ، وما بذلنا في مصانعة

العدوّ عن الإجهاز عليهم من حسن سيرتنا ، فقويت فينا أطماعهم ، وانعدت  
على التحرّم بنا إجماعهم .

«وقصدنا مالقة بعد أن انثالت الجهة الغربية ، وأذعنت المعافل الأبيّة ،  
فيسّر الله تعالى فتحها ، وهياً منحها ، ثمّ توالّت البيّعات ، وصرخت بمآذن  
البلاد الدّعاة ، واضطرب أمر الخائن وقد دلفت المخاوف إليه ، وحسب كلّ  
صيّحة عليه ، فاقترضت نعامته الشائلة ، ودولة بغية الزائلة ، وآراؤه الفائلة ، أن  
ضم ما أمكنه من ذخيرة مكنونة ، وآلة للملك مَصُونَة ، واستركب أوباشه الذين  
استباح الحقّ دماءهم ، وعرف الخلق اعتزاهم للغدر وانتماءهم ، وقصد  
سلطان قَشْتالة من غير عهد ولا وثيقة ، ولا مثلى طريقة ، ولا شيمة بالرّعني  
خليقة ، لكن الله ، عزّ وجل ، حمّله على قدمه ، لإراقة دمه ، وزين الوجود  
بعدمه ، فلحّين قدمه عليه راجياً أن يستفزيه بعرض ، أو يحيل صحة عقده  
المبرم إلى مرّض ، ومؤملاً هو وشيعته الغادرة كرّة على الإسلام مُجَهِّزة ،  
ونصرة لمواعيد الشيطان مُنْجِزة ، تقبّض عليه وعلى شيعته ، وصمّ عن سماع  
خديعته ، وأفحش بهم المُثْلة ، وأساء بحسن رأيه فيهم القِتْلة ، فأراح الله تعالى  
بإبادتهم نفوس العباد ، وأحيا بهلاكهم أرواق البلاد .

«وحشّنا السير إلى دار ملكنا فدخّلناها في اليوم الأغر المعجّل ، وحصلنا  
منها على الفتح الإلهي المعجّل ، وعدنا إلى الأريكة التي بنا بنا عنها التمحيصُ  
فما حسباه إلاّ سراراً أعقبه الكمال ، ومرضاً عاجله الإبلال ، فثابت للدين  
الآمال ، ونجحت الأعمال ، وبذلنا في الناس من العفو ما غفّر الذنوب ، وجبّر  
القلوب ، وأشعنا العفو في القريب والقصيّ ، وألبسنا المريب ثوب البريّ ،  
وتألّفنا الشارد ، وأعدبنا الموارد ، وأجرينا العوائد ، وأسئنا الفوائد ، إلا  
ما كان من شِرْذِمة عظمت جرّآثرهم ، وخبّثت في معاملة الله تعالى سرائرهم ،  
وعُرف شوْمُهم ، وصدق من يكُومهم ، فأقصيناهم وشرّدناهم ، وأجلّيناهم

عن هذا الوطن الجهادي وأبعدناهم .

« ولما تعرّف سلطان قَشْتَالَة باستقلالنا، واستقرارنا بحضرة الملك واحتلالنا،  
بادر يُعرّف بما كان من عمله فيمن لَحِقَ به من طائفة الغدّر ، وإخوان  
الخدیعة والمكر ، وبعث إلینا برؤوسهم ، ما بین رئيسهم الشقيّ ومرؤوسهم ، وقد  
طفأ على جدّ أول السیوف حبّابُها ، وراق بجنّاء الدماء خِضابها ، وبرز الناسُ إلى  
مشاهدتها معتبرین ، وفي قدرة الله تعالى مستبصرین ، ولدفاع الناس بعضهم ببعض  
شاکرین ، وأحقّ الله تعالى الحقّ بكلماته وقطّع دابر الكافرین ، فأمرنا بنصب  
تلك الرؤوس بمسورِ الغدر الذي فرعته ، وجعلناها علماً على عاتق العمل السیئ  
الذي اخترعته ، وشرعنا في مُعالجة العلم ، وأفضنا على العباد والبلاد حُكْمَ  
السلم ، فاجتمع الشمل كأحسن أحواله ، وسكن هذا الوطن بعد زلزاله ،  
وأفاق من أهواله .

« ولعلمنا بفضلکم الذي قضایاه شائعة ، ومُقدّماته ذاتعة ، أخبرناکم به على  
اختصار ، واجتزاء واقتصار ، لیسر دینکم المتین بتماسک هذا الثغر الأقصى  
بعد استرساله ، وإشرافه على سوء مآله ، وكنتنا نخاطب محلّ أخینا السلطان الجلیل  
المعظّم الأسعد الأوحّد الخلیفة أمير المؤمنین أبي إسحاق ابن الخلیفة أمير المؤمنین  
المعظّم المقدس أبي یحیی ابن أبي بكر ابن الأئمة المهتدين والحلفاء الراشدين  
— وصَلَّ الله تعالى أسباب سعّده وحرس أکناف مجده — لولا أنّنا تعرّفنا  
کونه في هذه المدة مقيماً بغير تلك الحضرة التونسية ، فاجتزأنا بمخاطبة جهنکم  
السنية ، وبین سلفنا وسلفکم من الود الراسخ البنیان ، والکریم الأثر والعیان ،  
ما يدعو إلى أن یكون سببُ المخاطبة مَوْصُولاً ، وآخرة الود خیراً من الأولى ،  
لکن الطريق جمّ العوائق ، والبحر مفروق البوائق ، وقَبُولُ العذر بشواغل

١ ق : معروف .

القطر بالفضل لائق ، ومُرَادنا أن يتصل الودُّ ، ويتجدّد العهد ، والله عز وجل يتولى أمور المسلمين بمتوارد إحسانه ، ويَجْمَع قلوبهم حيث كانوا على طاعة الله تعالى ورضوانه ، وهو سبحانه يُطِيل سعادتكُم ، ويحرس مجادتكُم ، ويُنْجِح إدارتكُم ، وَيُسَنِّي إرادتكُم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

٧٧ - ومن ثمره رحمه الله تعالى ما أنشأه عن سلطانه الغني بالله ، وذلك قوله : « يا أيها الناس ، ضاعف الله تعالى بمزيد النعم سروركم ؛ وتكفل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر الغريب أموركم ؛ أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم ، المترادفة بيمينه وسعادته نعمُ الله تعالى عليكم ، أمتع الله تعالى الإسلام ببقائه ، وأيده على أعدائه ، ونصره في أرضه بملائكة سمائه ، وأن الله تعالى فَتَحَ له الفتح المبين ، وأعزَّ بحركة جهاده الدين ، وبيَّض وجوه المؤمنين ، وأظفره باطريرة البلد الذي فجع المسلمين بأسرهم فجيرةٌ تثير الحمية ، وتحرك الأنفس الأبيّة ، فانتقم الله تعالى منهم على يده ، وبلغه من استئصالهم غاية مقصده ، فَصَدَّقَ من الله تعالى لأوليائه وعلى أعدائه الوعدُ والوعيد ، وحكم بإبادتهم المبدئ المعيد ﴿ وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ؛ إنَّ أخذَه أليمٌ شديدٌ ﴾ (هود : ١٠٢) وتَحَصَّلَ من سببه بعدما رويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة ، لم يُسْمَعْ بمثُلها في المُدَدِ المديدة ، والعهود البعيدة ، ولم يُصَبَّ من إخوانكم المسلمين عددٌ يُذكر ، ولا رجل يُعتبر ، فتح هني ، وصنع سني ، ولطف خفي ، ووعد وفي ، فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته ، وقِفُوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته ، وقابلوا نِعْمَه بالشكر يَزِدْكم ، واستبصروا في الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ، واغبتوا بهذه الدولة المباركة التي لم تَعْدَمُوا من الله تعالى معها عيشاً خصيباً ، ولا رأياً مُصيباً ، ولا نصراً عزيزاً ولا فتحاً قريباً ، وتضرعوا في بقائِها ، ونصّر لوائِها ، إلى مَنْ لم يزل سميعاً للدعاء مجيباً ، والله عز وجل

يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا أولي الأمر منكم توفيقاً وسعادة ، والسلام الكريم يخصصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته من مُبْلِغ ذلك فلان « انتهى .

٧٨ - ومن نثر لسان الدين - رحمه الله تعالى - ما أنشأه عن سلطانه الغني بالله تعالى - حين وصله ابنه الذي كان بفاس - يخاطب سلطان فاس ، ما نصّه : « المقام الذي تقلّد نافلة الفضل شَقْعاً ، وجود سورة الكمال إفراداً وجمَعاً ، واستولى وجمَع بيرة المنع ، والتهنئة والفتح ، فأحرز أصلاً وفرعاً ، واستحق الشكر عقلاً وشرعاً ، وأغرى أيدي جوده ، بالقصد الذي هو حظُّ وليه من وجوده ، فأثار من جيش اللقاء نَقْعاً ، ووسَط به جمَعاً ، مقام محل أخينا الذي أقلام مقاصده درية بحسن التوقيع ، وعيون فضله مذكاة لإحكام الصنيع ، وعدّبات فخره تهفو بذروة العلم المنيع ، ومكارمه تتفنن فيها مذاهب التنوع ، أبقاه الله تعالى وألسن فضله ناطقة ، وأقيسة سعده صادقة ، وألويته بالنصر العزيز خافقة ، وبضائع مكارمه في أسواق البر نافقة ، وعصائب التوفيق لركائب أغراضه موافقة ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، وأخوتكم كريم ، طيب برّ عميم ، ينخص مقامكم الأعلى ، وطريقتكم المثلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، مُجِلُّ قدركم ، وملتم برکم ، وموجب حمدكم وشكركم ، فلان .

« أمّا بعد حمد الله تعالى الذي جعل الشكر على المكرمات وقفاً ، ونهج منه بإزائها سيلاً لا تلتبس ولا تخفى ، وعقد بينه وبين المزيد سيباً وحلماً ، وجعل المودة في ذاته ممّا يُقَرَّبُ إليه زُلْفَى ، مريح تجارة من قصد وجهه بعمله حتى يرى الشيء ضعفاً ، وناصر هذه الجزيرة من أوليائه الكرام السيرة بمن يوسعها فضلاً وعطفاً ، ومدني ثمار الآمال فتتمتع بها اجتناء وقطفاً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي الكريم ، الرؤوف الرحيم ،



الذي مدّه من الرحمة على الأمة سجّفاً ، وملاً قلوبها تعاطفاً وتعارفاً ولطفاً ،  
القائل « مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ » ووعد مَنْ عامل الله تعالى بربح المقاصد  
السنية ، وعداً لا يجد خُلُفاً ، والرضى عن آله وأصحابه الذين كانوا من بعده  
للإسلام كَهَفًا ، وعلى أهله في الهواجر ظِلًّا ملتفًا ، غيوثُ الندى كلما  
شامُوا سَمَاحًا وليوث العدى كلما شَهِدُوا زَحْفًا ، والدعاء لمقام أخوتكم  
الأسعد بالنصر الذي يكف من عُدُوَانِ الكفر كَفًّا ، والمجد الذي لا يغادر  
كتابه من المفاخر التي ترك الأول للآخر حَرَفًا ، وإلى هذا - أيدكم الله بنصر  
من عنده ، وحكم للملكم الأسمى باتصال سعده ، وأنجز في ظهوره على من  
عاند أمره سابق وعده - فَإِنَّا نقرر لدى مقامكم وإن كان الغني بأصالة عقّله ،  
عن اجتلاء الشاهد ونقله ، وجلاء البيان وصقله ، أن الهدايا وإن لم تحل العين منها  
كما حلت ، أو تناولها الاستنزارُ فما نبهت في لحظ الاعتبار ولا جلت ، أو كانت  
زَيْفًا كلما أغري بها الاختبار قلّت ، لا بد أن تترك في النفوس مَيْلًا ، وأن  
تستدعي من حسن الجزاء كَيْلًا ، وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نَيْلًا ،  
وأَيُّ دليل أوضح مَحَجَّةً ، وأبين حجةً ، من قوله صلى الله عليه وسلم  
« تهادوا تحابوا » من غير تبين مقدار ، ولا إعمال اعتبار ، ولا تفرقة بين  
لحين ولا نُضَارٍ ؟ فكيف إذا كانت الهدية فليذة الكبد التي لا يلد العيش بعد  
فراقها ، ولا تضيء ظلّم الجوانح إلا بطلوع شمسها وإشراقها ، وجمع الشمل  
الذي هو أقصى آمال النفوس الآلفة ، والبواطن المصاحبة للحنين المحالفة ، لا سيما  
إذا اقتعدت محل الهناء ، بالفتح الرائق السناء ، وحقّت بها من خلفها وأمامها  
صنائع البر وقومة الاعتناء ، فهناك تفخر ألسن الثناء ، وتتطابق أعلام الشكر  
السامية البناء .

« وإِنَّا ورد علينا كتابُكم الذي سَطَّرَه البر وأملاه ، وكَتَفَه اللَّحْظُ  
وتَوَلَّاهُ ، ووَشَّحَه البيانُ وحَلَّاهُ ، مهنتاً بما منح الله جلّ جلاله من رد الحق ،  
وتعيين الجمع ورفع الفرق ، وتطويق الأمان وأمان الطوق ، وإسعاد السعد ،

وبلوغ القصد ، وقطع دابر من جحد نعمة الأب والجد ، وسل سيف البغي  
 دامي الحد ، والحمد لله تعالى حمداً يلهمه ويتيح ، ونسأله إمداداً يسوغه ويبيحه ،  
 على أن أحسن العُقبي وأعقب الحسني ، وأرى النعم بين فرادى ومثني ،  
 وجمع الشمل الذي قد تبدد ، وجدد رسم السعادة لهذا القطر فتجدد ، وأخذ  
 الظالم فلم يجد من مَحيص ، وجمع لنا الأجر والفخر بين تخصيص وتمحيص ،  
 وقتلد برؤوس الفَجرة الغدرة الفرضة التي فرعوها ، وأطفأ بمراق دمائهم  
 نار الضلالة التي شرعوها ، وكتب لقبيلكم الفضل الذي يُحمد ويُشكر ، والحق  
 الذي لا يُجحد ولا يُنكر ، فلقد أوى لما تبرأت الخُلصان ، وتحفني عندما  
 تنكر الزمان ، وسبب الإدالة ، وطاوع الأصالة والجلالة ، حتى فرج الله تعالى  
 الكربة ، وآس الغربية ، وأقال العثرة وتقبل القرية ، له الحمد على آلائه ،  
 وصلة نعمائه ، ملء أرضه وسماائه .

« ووصل صحبته الولد مكنوفاً بجناح اللطف ، ممهّداً له ببركتكم مهادُ  
 العطف ، فبرزنا إلى تلقيه تنويهاً لهديتكم وإشادة ، وإبداء في برکم وإعادة ،  
 وأركبنا الجيش الذي آثرنا حين استقلالنا عرضه ، وقررنا بموجب الاستحقاق  
 فرضه ، فبرز إلى الفضاء الأفصح حسن الترتيب ، سافراً عن المرأى العجيب ،  
 ولولا الحنان الذي تجده النفوس للأبناء وتستشعره ، والشوق إلى اللقاء الذي  
 لا يحده منصف ولا يُنكره ، لما شق علينا طول مقامه في حجركم ، ولا ثواؤه  
 لصق أريكة أمركم ، فجواركم محل لاستفادة رسوم الإمارة ، وتعلم السياسة  
 والإدارة ، حتى يرد علينا يقدمُ كتيبة جهادكم ، ويقود إلينا طليعة نصركم إيانا  
 وإمدادكم ، فنحن الآن نشكر مقاصدكم التي اقتضى الكمال سياقها ، وزين  
 المجد آفاقها ، وقدّرها فأحكم طباقها ، ونقرر لديكم أن حظنا من ودادكم ،  
 ومحلتنا من جميل اعتقادكم ، حظّ بان رجحانه وفضله ، ولم يتأت بين من  
 سلف من السلف مثله ، من الصحبة في المنزل الحسني وهي الوسيلة ، وفي رعيتها

تظهرُ الفضيلة ، والاشتراك في لازم الوصول إلى الحق ، وضم أشتات الخلق ،  
 والمودة الواضحة الطرق ، إلى ما بين السلف ، من الود الآمن بدْرُهُ من الكلف ،  
 المذخورة أذِمَّتُهُ للخلف ، فإذا كانت المعاملة جارية على حسبه ، وشعبها راجعة  
 إلى مذهبه ، جنى الإسلام ثمرة حافلة ، واستكفى الدينُ إيالة كافلة ، فالله ، عزَّ  
 وجلَّ ، يمهّد البلاد بيمن تدبيركم ، ويُجْري على مهَيِّع السدادِ جميعَ  
 أموركم ، ويجعلكم ممّن زين الجهاد عواتق أعماله ، وكان رضى الله تعالى  
 عنه أقصى آماله ، حتى تُرَبِّي مآثركم على مآثر أسلافكم الذين عرف هذا الوطن  
 الجهادي إمدادهم ، وشكر جهادهم ، وقبل الله تعالى فيه أموالهم وأولادهم ،  
 وحَسَنَ من أجله معادهم .

« وقد حضر بين يدينا رسولكم الذي وجهتم الولد - أسعده الله تعالى - لنظره ،  
 وتخبرتموه لصحبة سفره ، فلان ، وهو من الأمانة والفضل ، والرّجاحة والعقل ،  
 بحيث طابق اختياركم ، واستحقَّ إيثاركم ، فأظن في تقرير ما لديكم من  
 عناية بهذه الأوطان عينت الردف ، وضربت الوعد ، وأخلصت في سبيل الله تعالى  
 القصد ، وغير ذلك ممّا يؤكد المودة المستقرة الأركان ، المؤسسة على التقوى  
 والرضوان ، فأجبنه بأضعاف ذلك ممّا لدينا لكم ، وقابلنا بالثناء الجميل قولكم  
 وعملكم ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرُسُ مجدكم ، والسلام الكريم  
 بخصمكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته . »

٧٩ - ومن ذلك ما كتبه - رحمه الله تعالى - على لسان الأمير سعد ابن  
 سلطانه الغني بالله تعالى إليه وهو :

« مولاي ومولى كبيرى ومولى المسلمين ، ورحمتي المتكفلة بالسعد الرائق  
 الجين . يقبلُ قَدَمَكُم التي جعل الله تعالى العزَّ في تقبيلها ، والسعد في اتباع  
 سبيلها ، عبْدُكم الصغير في سنه ، الكبير في خدمتكم وخدمة كبيره في حياتكم  
 بفضل الله تعالى ومَنَّتِه ، الهاشُّ لتمريرِ وجهه في كتابكم حسن الذراع ، المنبئة طباعه

عن العبودية الكامنة بالبيدار إلى ذلك والإسراع ، عبدكم وولدكم سعد ، كتبه من بابكم ، المحوط بعز أمركم ، المتحف إن شاء الله تعالى بأبناء نصركم ، وقد وصل إلى عبدكم تشريفكم السابغ الحلل ، وتنويهكم المبلغ غايات الأمل ، وخط يدكم الكريمة وغمامة رحمتكم الهامية الدائمة ، فيا له من عز أثبت لي الفخر في أبناء الملوك ، وسار بي من الترشيح لرتب حظوتكم على المنهج المسلوك ، قرّر من عافية مولاي وسعادته ، واقتران السعود حيث حل بوفادته ، ما تكفل ببلوغ الآمال ، وتم لسان الحال في شكر الله تعالى لسان المقال ، والله تعالى يديم أيام مولاي حتى يقوم بحق شكر النعم لسائنه ، وتؤدي بعده جوارحه من الدفاع بين يدي سلطانه ما يسر به سلطانه ، وبعث جوابه منقولاً ليد حامله من يده ليهيئ تقبيل اليد الكريمة بحال تأكيد ، ويقرر ما لعبده إلى وجهه الكريم من شوق شديد ، ويعرف شمول نعمة الله تعالى ونعمته لمن ببابه من خدم وحرم وعبيد ، ويمد يد الرغبة لمولاه في صلة الإنعام بتشريفه ، وإعلامه بتزايدات حركته وتعريفه ، ففي ضمن ذلك كل عز مشيد ، وخير جديد ، وينتهي تحية أهل منزل مولاي على اختلافهم بحسب منازلهم من نعمة لحظه ، التي يأخذ منها كل بحظه ، والسلام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته .

٨٠ - وقال رحمه الله تعالى : ومن ثري ما خاطبت به السلطان على لسان ولده من مالمقة ، وقد وصلت به إليه من المغرب :

« مولاي الذي رضى الله تعالى مقرون برضاه ، والنجاح مسبب عن نيته ودعاه ، وطاعته مرتبطة بطاعة الله ، أبقى الله تعالى عليّ بكم ظلّ رحماه ، وغمام نعماه ، وزادني من مواهبه هداية في توفية حقه الكبير فإن الهدى هدى الله : يقبل مواطىء أقدامكم التي ثراها شرف الحدود وفخر الجباه ، ويقرر من عبوديته ما يسجل الحق مقتضاه ، ويسلم على مثابة رحمتكم السلام الذي يحبه الله تعالى ويرضاه ، ولدكم وعبدكم يوسف ، من منزل تأييدكم

بظاهر مالقة، حرسها الله، والوجود ألسنٌ بالعزّ بالله ناطقة، والأعلام والشجر  
ألويةٌ بالسعد خافقة، وأنواع التوفيق متوافقة، وصنائع اللطيف الحبير  
مصاحبة مرافقة.

«وقد وصل يا مولاي لعبدكم المفتخر بالعبودية لكم ما بعث به عليّ مقامكم،  
وجادت به سحائب إنعامكم، ولمن تحت حجة ستركم المسدول، وفي ظل  
اهتمامكم الموصول، ولمن ارتسم بخدمة أبوابكم الشريفة من الخدام، وأولي  
المراقبة والالتزام، ما يضيّق عنه بيانُ العبارة، ويفتضح فيه لسانُ القول والإشارة،  
من عنايات سنية، ونعم باطنة وجليّة، وملاحظة مولوية، ومقاصد ملكية، فما  
شئت من قباب مذهبة، وملابس منتخبة، وأسرة مرتبة، ومحاسن لا مستورة  
ولا محجبة، واللواء الذي نشرتم على عبدكم ظلّه الظليل، ومددتم عليه جناح العز  
الجليل، جعله الله تعالى أسعد لواء يسير في خدمتكم، ومد عليّ وعليه لواء  
حرمتمكم، حتى يكون لجهادي بين يديكم شاهداً، وبالنصر العزيز والفتح  
المبين عليكم عائداً، ولطائفة الخلوص لأمركم قائداً، ولأولياء بابكم هادياً  
ولأعدائكم كائداً.

«واتفق يا مولاي أن كان عبدكم قد ركب مغتتماً برد اليوم، ومؤثراً للرياضة  
في عقب النوم، والتف عليه الخدام، والأولياء الكرام، فلما عدنا تعرضت  
لنا تلك العنايات المجلوة الصور، المتلوة السور، وقد حشر الناس، وحضرت  
منهم الأجناس، فعلا الدعا، وانتشر الثنا، وراقت الأبصار تلك الهمة  
العليا، فنسأل الله تعالى يا مولاي أن يكافئ مقامكم بالعز الذي لا يتبدل،  
والنصر الذي يُستأنف ويُسْتَقْبَل، والسعد الذي مُحْكَمه لا يتأوّل، والعبد  
ومن له على حال اشتياق للورود على أبوابكم الرفيعة المقدار، وارتياح لقرب  
المزار:

وأبرحُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دنتِ الديارُ من الديارِ

« والعمل على تيسير الحركة متصل ، والدهر لأوامر السعد محتفل ، بفضل  
الله تعالى ، والسلام على مقام مولاي مقام الشفقة والرحمة ، والمنّة والنعمة ،  
ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

٨١ - ومن لإنشاء لسان الدين في تولية الأمير يوسف المذكور مشيخة  
الغزاة على لسان السلطان والده ما نصّه :  
« هذا ظهير كريم فاتح بنشر الألوية والبُنود ، وقوَدِ العساكر والجنود ،  
وأجال في ميدان الوجود ، جياذ البأس والحدود ، وأضفى ستر الحماية والوقاية  
بالتهايم والنجود ، على الطائفين والعاكفين والرُكع السجود ، عقد للمعتمد به  
عقد التشريف ، والقدر المنيف ، زاكي الشهود ، وأوجب المنافسة بين مجالس  
السروج ومضاجع المهود ، وبشر السيوف في الغمُود ، وأنشأ ریح النصر آمنة  
من الحمود ، أمضى أحكامه ، وأهد العزّ أمامه ، وفتح من زهر السرور والخبور  
كمامه ، أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا  
أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر - أيد الله تعالى أمره وخلد ذكره -  
لكبير ولده ، وسابق أمده ، وريحانة خلدّه ، وياقوتة الملك على يده ، الأمير  
الكبير الطاهر الظاهر الأعلى ، واسطة السلك ، وهلال سماء الملك ، ومصباح  
الظلم الحلك ، ومظنة العناية الأزلية من مدير الفلّك ومجري الفلك ، عنوان سعده ،  
وحسام نصره وعضده ، وسمي جده ، وسلالة فضله ومجده ، السعيد المظفر  
الهمام الأعلى الأمضى ، العالم العامل الأرضى ، المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج  
يوسف ، ألبسه الله تعالى من رضاه عنه حللاً لا تخلق جدتها الأيام ، ولا  
تبلغ كنهها الأفهام ، وبلغه في خدمته المبالغ التي يسرّها الإسلام ، وتسبح  
في بحار صنائعها الأفلام ، وحرّس معاليها الباهرة بعينه التي لا تنام ، وكفنه  
بركته الذي لا يضمام ، فهو الفرع الذي جرى بحصله على أصله ، وارتسم  
نصره في نصله ، واشتمل حده على فصله ، وشهدت ألسن خلاله ، برفعة

جلاله ، وظهرت دلائلُ سعادته ، في بدء كل أمر وإعادته ، لماً صرف وجهه إلى ترشيحه ، لافتراع هضاب المجد البعيد المدى وتوشيحه ، بالصبر والحلم والبأس والندی ، وأرهدف منه سيفاً من سيوف الله تعالى لضرب هام العدا ، وأطلعه في سماء الملك بَدْرَ هُدَى ، لمن راح وغدَا ، وأخذه بالآداب التي تقيم من النفوس أودا ، وتبذر في اليوم فتجني غدا ، ورقاه في رتب المعالي طوراً فطوراً ، ترقى النبات ورقاً ونوراً ، ليجده بحول الله تعالى يداً باطشة بأعدائه ، ولساناً مُجيباً عند ندائه ، وطراراً على حُلّة علالته ، وغماماً من غمام آلائه ، وكوكباً وهاجاً بسَمائه ، وعقد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده ، قبل أن ينتقل عن مهده ، وظلّله بجناح رايته ، وهو على كَتِدِ دابته ، واستركب جيش الإسلام ترحيباً بوفادته ، وتنوياً بمجاداته ، وأثبت في غرض الإمارة النصرية سهم سعادته ، رأى<sup>1</sup> أن يزيده من عنايته ضروراً وأجناساً ، ويتبع أثره ناساً فناساً ، قد اختلفوا لساناً ولباساً ، واتفقوا ابتغاء لمرضاة الله والتماساً ، ممن كرم انتماؤه ، وزُينت بالحسب العدّ سماؤه ، وعُرف غناؤه ، وتأسّس على المجدادة بناؤه ، حتى لا يدع من العناية فناً إلاّ وجلبه إليه ، ولا مقادة فخر إلاّ جعلها في يديه ، ولا حُلّة عزّ إلاّ أضفى ملابسها عليه .

و [لما] كان جيش الإسلام في هذه البلاد الأندلسية - أمّن الله سبحانه خلاها ، وسكن زلزالها ، وصدق في رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء آمالها - كلفَ همته ، ومَرَعَى ذمته ، وميدان اجتهاده ، ومتعلق أمل جهاده ، ومعرج إرادته ، إلى تحصيل سعادته ، وسبيل خلاله ، إلى بلوغ كماله ، فلم يدع له علة إلاّ أزاحها ، ولا طلبية إلاّ أجال قِداحها ، ولا عزيمة إلاّ أورى اقتداحها ، ولا رغبة إلاّ فسحّ ساحها ، آخذاً مُدوّنته بالتهذيب ، ومصافه بالترتيب ، وآماله بالتقريب ، محسناً في تلقّي الغريب ،

١ هذا جواب «لما» في السطر الأول اعلاه .

وتأنيس المريب ، مستنجزاً له وبه وعد النصر العزيز والفتح القريب ، ورفع عنه لهذا العهد نظر مَنْ حَكَمَ الأغراض في حُماته ، واستشعر غروق الحسائف لتشذيب كمامته ، واشتغل عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته ، وجلب جباته ، وثمر مالِه وتوفير أقاته ، ذاهباً أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته ، فانفجح الضيق ، وخلص إلى حسن نظره الطريق ، وساغ الريق ، ورضي الفريق ، رأى - والله الكفيل لنجح رأيه ، وشكر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه - أن يجهد لهم اختياره ، ويحسن لديهم آثاره ، ويستنيب فيما بينه وبين سيوف جهاده ، وأبطال جلاده ، وحماة أحوازه ، وآلات اعتزازه ، مَنْ يجري مَجْرَى نفسه النفيسة في كل مَبْنَى ، ويكون له لفظ الولاية وله - أيده الله تعالى - المعنى ، فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكتاب ، ومقادة الجنائب ، وأجمّة الأبطال ، ومزونة الودقِ المَطال ، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نساء الملوك الكرام ، وأعلام الإسلام ، وسائر قبائل بني مَرين ، ليوث العَرين ، وغيرهم من أصناف القبائل ، وأولي الوسائل ، ليعوط جماعتهم ، ويعرف بتفقدِه إطاعتهم ، ويستخلص لله تعالى ولأبيه - أيده الله تعالى - طاعتهم ، ويشرف بإمارته مواكبهم ، ويزين بهلاله الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم ، تقدماً أشرق له وجه الدين الخنيف وتهلل ، وأحسن باقتراب ما أمل ، فلك خيل اختيال ومَرّاح ، وللأسل السُمُر اهتزاز وارتياح ، وللصدور انشراح ، وللآمال مَعْدَى في فضل الله تعالى ورواح .

« فليتول ذلك - أسعده الله تعالى - تولى مثله ممن أسرة الملك أسرته ، وأسوة النبي صلوات الله تعالى عليه أسوته ، والملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب العربي منجد لطيب طبعه ، آخذاً أشرافهم بترفيح المجالس بنسبة أقدارهم ، مغرباً حسن اللقاء بإيثارهم ، شاكرراً غنائهم ، مستدعيّاً ثنائهم ، مستدرراً لأرزاقهم ، موجباً المزية بحسب استحقاقهم ، شافعاً لديه في رغباتهم المؤمّلة ، ووسائلهم المتحمّلة ، مسهلاً الإذن لو فودهم المتلاحقة ، منفقاً لبضائعهم النافقة ،



مؤنساً لغرمائهم ، مستجلباً أحوال أهلهم وآبائهم ، مميّزاً بين أغفالم ونبهائهم .  
« وعلى جماعتهم - رعى الله تعالى جهادهم ، ووفر أعدادهم - أن يطيعوه  
في طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ، ويكونوا يداً واحدة على دفاع أعداء الله تعالى  
وأعدائه ، ويشدوا في مواقف الكريمة أزره ، ويمثلوا نهيه وأمره ، حتى يعظم  
الانتفاع ، ويشور الدفاع ، ويخلص المِصال لله تعالى والمِصاع ، فلو وجد - أيده  
الله تعالى - غايةً في تشريفهم لبلغها ، أو موهبة لسوّغها ، لكن ما بعد ولده  
العزیز عليه مذهب ، ولا وراء مباشرتهم بنفسه معزّب ، والله تعالى منجج  
الأعمال ، ومبلغ الآمال ، والكفيل بسعادة المال .

« فمن وقف على هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمنه من أمر مطاع ،  
وفخر مستند إلى إجماع ، ووجوب اتباع ، وليكن خير مرعسيّ لخير راع ،  
بحول الله تعالى .

« وأقطعه - أيده الله تعالى - ليكون بعض المواد لأزواد سفره ، وسماط  
نقره ، في جملة ما أولاه من نعمه ، وسوّغه من موارد كرمه ، جميع القرية  
المنسوبة إلى عرب عنان ، وهي المحلة الأثيرة ، والمنزلة الشهيرة ، تنطلق عليها  
أيدي خُدّامه ورجاله ، جارية مجرى صريح ماله ، محررة من كل وظيفة  
لاستغلاله ، إن شاء الله تعالى ، فهو المستعان سبحانه ، وكتب في كذا » انتهى .

٨٢ - وكتب لسان الدين - رحمه الله تعالى - في شأن تقليد الأمير سعد

أخي المذكور الأصغر منه سنّاً ما صورته :

« هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعقد منه في سبيل الله تعالى  
لواء منصوراً ، وأعطى المعتمد به باليُمن كتاباً منشوراً ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ  
مَحْظُوراً ﴾ (الإسراء: ٢٠) وأطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهز سُفوراً ، ويسطع  
نوراً ، وأقر عيوناً للمسلمين وشرح صدوراً ، ووعد الأهله أن تصير بإمداد  
شمس الهدى إياها بدوراً ، وبشّر الإسلام بالنصر المنتظر ، والفتح الرائق الغرر ،

مواسط وثغوراً ، وأتبع حماة الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية فأسعد بها أمراً  
 وأكريم بها مأموراً ، أمر به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه ، أمير المسلمين  
 عبد الله محمد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحجاج ابن أمير  
 المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر ، أعلى الله  
 تعالى رايته وسدد رأيه ، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه ، لقرّة عينه ، ومقتضى  
 حقّه من العدو ودّينّه ، وغصن دَوْحِه ، وآية لَوْحِه ، ودرّة قِلاَدته ،  
 ودُرِّيّ أَفلاكِ مَجادته ، وسيفِ نصره ، وهلالِ قِصْرِه ، وزينةِ عصره ،  
 ومتقبلِ هديه ورشده ، ومَظنّةِ إشراقِ سعده ، وإنجازِ وعده ، ولده الأسد ،  
 وسليل ملكه المؤيد ، الأمير الأجلّ الأعزّ الأسنى الأطهر الأظهر الأعلى ،  
 لابس أثواب رضاه ونعمته ، ومنحة الله لنصره وخدمته ، ومظهر عزّه وبعد  
 همته ، التقى الرضيّ العالم العامل الماجد حامي الحمى تحت ظل طاعته ، وكافي  
 الإسلام الذي يأمن من إضاعته ، المحرز مزايا الأعمار الطويلة حظّاً الشهر في يومه  
 وحظ اليوم في ساعته ، الموقر المهيب المؤمل المعظم أبي النصر سعد عرفه الله  
 تعالى ببركة سعد بن عبادة جده ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأعظم  
 بمجده ، ووزيره في حلّه وعقده ، وأجنائه ثمرة النصر الذي كناه به ووصل  
 سببه بسببه فما النصر إلا من عنده ، وأنتج له الفتح المبين من مقدمتي نصره  
 وسعده ، لما صرف وجهه عنايته إليه في هذه البلاد الأندلسية التي خلص الله أفرادها  
 وانقطاعها ، وتمحض - لأن تكون كلمة الله هي العليا - قِراعُها ، وصدق  
 مِصالها في سبيله جلّ وعلا ومصاعها ، إلى ما يمهد أرجاءها ، ويحقق رجاءها ،  
 من سلم يعقد ، ولا يعدم الحزم معه ولا يفقد ، وعطاء ينقد ، ورأي لا يتعقب  
 ولا ينقد ، وحرّب تُضمّر له الجياد ، ويُعتقل الأسلُ المياد ، وكان الجيشُ  
 رَوْضَ أمله الذي في جنّاه يسرح ، ومرمى فكره الذي عنه لا يبرح ، فديوانه  
 ديوان أمانيه الذي تسهب فيه وتشرح ، أسهمه من سياسته أوفى الحظوظ

وأَسْنَاهَا ، وقَصَرَ عَلَيْهِ لفظَ العنَايةِ ومعنَاهَا ، ووقفَ عَلَيْهِ مَوْحِدَهَا وَمَثْنَاهَا ،  
فأزاحَ عِلَّهُ ، وَأَحْيَا أَمَلَهُ ، وَأَنْشَأَ جَدَّكَ ، ورفعَ عَنْهُ منَ لم يَبْذُلُ الجِدْلَ لَهُ ،  
ولا أَخْلَصَ لِلَّهِ فِيهِ عَمَلَهُ .

« واختارَ لِقِيَادَةِ مَقَانِبِهِ المَنْصُورَةَ ، وإِمَارَةَ غَزَوَاتِهِ المَبْرُورَةَ ، أَقْرَبَ النَّاسِ  
إِلَى نَفْسِهِ نَسَبًا ، وَأَوْصَلَهُمْ بِهِ سَبَبًا ، وَأَحَقَّهُمْ بِالرَّتَبِ المُنِيفَةِ والمَظَاهِرِ الشَّرِيفَةِ ،  
ذَاتًا وَأَبًا ، وَحَدًّا وَشَبًّا ، وَأَمَرَهُ عَلَى أَشْرَافِهِ ، وَدَلَّ بِهِ الْأَنْفَالَ عَلَى أَعْرَافِهِ ،  
وَصَرَفَ إِلَيْهِ آمَالَهُ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي أَسْنَتِهِ يَمِينَهُ وَفِي أَعْنَتِهِ شِمَالَهُ ، وَعَقَدَ عَلَيْهِ  
أَلْوِيْتَهُ الخَافِقَةَ لِعِزَّةِ نَصْرِهِ ، وَرَأَى الظُّهُورَ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى جَنَى فِهْيَأَهُ لِهَضْرِهِ ،  
وَأَدَارَ هَالَةَ قِتَامِ الجِهَادِ عَنِ قَرْبِ بَالِوَالِدَةِ عَلَى بَدْرِهِ ، وَنَبَّهَ نَفُوسَ المُسْلِمِينَ عَلَى  
جَلَالَةِ قَدْرِهِ ، وَقَدَّمَ لَهُ عَلَى الكِتَابَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ عَسْكَرِ الغَزَاةِ المَشْتَمَلَةِ عَلَى الْأَشْيَاحِ مِنْ  
أَوْلَادِ يَعْقُوبِ كِبَارِ بَنِي مَرِّينَ ، وَسَائِرِ قِبَائِلِهِمُ المَكْرَمِينَ ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ القِبَائِلِ  
المُحْتَرَمِينَ ، يَنْوِبُ عَنِ أَمْرِهِ فِي عَرَضِ مَسَائِلِهِمْ ، وَقِرَى وَافِدِهِمْ ، وَإِجْرَاءِ  
عَوَائِدِهِمْ ، تَقْدِيمًا تَهْلِيلًا لَهُ الْإِسْلَامَ وَاسْتِشْبَارًا ، وَتَيَقُنَ الظَّفَرَ فَاسْتَبَصَرَ ، لِمَا عِلِمَ  
بِمَنْ اسْتَنْصَرَ ، فَلِيخْلُصُوا لَهُ فِي طَاعَتِهِ الكَبْرَى الطَّاعَةَ ، وَلِيَعْلَقُوا بَيْنَانِ نِدَائِهِ بِنَانِ  
الطَّمَاعَةِ ، وَيُؤْمَلُوا عَلَى يَدَيْهِ نَجْحَ الوَسِيلَةِ إِلَى مَقَامِهِ وَالشَّفَاعَةِ ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ  
اِخْتِصَاصَهُمْ بِهِ هُوَ العِنْوَانُ عَلَى رَفْعِ مَحَالِمِهِ لَدَيْهِ ، وَعِزَّةُ شَأْنِهِمْ عَلَيْهِ ، فَلَوْ وَجَدَ  
هَضْبَةً أَعْلَى لَفَرَعَهَا لَهُمْ وَعَلَاهَا ، أَوْ عِزَّةً أَعَزَّ لِحِلَالِهَا ، أَوْ قِبَلَةً أَرْكَى لَصَرَفَ  
وَجْهَهُمْ سَطْرَهَا وَوَلَاهَا ، حَتَّى تَجْنِي ثَمْرَةَ هَذَا القَصْدِ ، وَتَعُودَ بِالسَّعْدِ حَرَكَةَ  
هَذَا الرِّصْدِ ، وَتَعْلُو ذُوَابَةَ هَذَا المَجْدِ ، وَتَشْهَدَ بِنَصْرِ الدِّينِ عَلَى يَدِهِ أَلْسِنَةُ الغَوْرِ  
وَالنَّجْدِ ، بِفَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

« وَعَلَيْهِ — أَسْعَدَ اللَّهُ الدَّوْلَةَ بِاسْتِعْمَالِهِ مَكَاغِبًا بِأَعْلَامِهَا ، وَزِينًا لِأَيَامِهَا ، وَسِيْفًا  
فِي طَاعَةِ إِمَامِهَا — أَنْ يَقْدَمَ مِنْهُمْ فِي مَجْلِسِهِ أَهْلُ التَّقْدِيمِ ، وَيُقَابِلُ كِرَامَهُمُ بِالتَّكْرِيمِ ،  
وَيَسْتَدْعِي آرَاءَ مَشَائِحِهِمْ فِي المَشْكَالَاتِ فِي أُمُورِ الحَرْبِ ، وَيَغْضِي جَفُونَ عِزَائِمِهِمْ  
فِي مَوْقِفِ الصَّبْرِ وَالنَّصْرِ ، وَيَتَفَقَّدُهُمْ بِإِحْسَانِهِ عِنْدَ الغِنَاءِ ، وَيُقَابِلُ حَمِيدَ سَعْيِهِمْ

بالثناء ، على هذا يعتمد وبحسبه يعمل ، وهو الواجب الذي لا يُهمل ، وقصده  
بالإعظام والإجلال ، والالتقياد الذي يعود بالآمال ، ويُنجح الأعمال ، بحول الله  
تعالى متقبل ، وكتب في كذا « انتهى .

٨٣ - ومما اشتمل على نظم لسان الدين ونثره ما كتب به من سلا إلى  
سلطانة الغني بالله تعالى ، وقد بلغه ما كان من صنع الله سبحانه له [وعودته إلى  
سلطانة] :

« هنيئاً بما خوئلت من رفعة الشان  
وأن خصصك الرحمنُ جلَّ جلالهُ  
أغار على كرسيه بعضُ جنه  
فلما رآها فتنةً خراً ساجداً  
وهب لي ملكاً بعدها ليسَ ينبغي  
فأتاهُ لما أن أجابَ دعاءهُ  
وإن كان هذا الأمرُ في الدهرِ مفرداً  
فقابلُ صنيعِ الله بالشكرِ واستعنُ  
وحقُّ الذي سماكَ باسمِ محمد  
لما بلغَ النعمى عليكَ سروره  
فإني أنا العبدُ الصريحُ انتسابه  
إذا كنتَ في عزِّ ومُلكٍ وغبطة

وإن كرهَ الباغي وإن رَغِمَ الشَّاني  
بمعجزةٍ منسوبةٍ لسليمانِ  
فألقَتْ له الدنيا مقالداً إذعانِ  
وقال إلهي امننْ عليّ بغفرانِ  
تقلُّده بعدي لإنسٍ ولا جانِ  
من العزِّ ما لم يُؤتِ يوماً لإنسانِ  
فأنتَ له لما اقتديت به الثاني  
به وأجزِ إحسانِ الإلهِ بإحسانِ  
لَو أن الصِّبا قد عادَ منه بريعانِ  
أليَّةٌ وافٍ لا أليَّةٌ خوَّانِ  
كما أنتَ مولاي العزيزِ وسلطاني  
فقد نلتُ أوطاري وراجعتُ أوطاني

« مولاي الذي شأنه عَجَب ، والإيمانُ بعناية الله تعالى به قد وَجَب ، وعزه  
أظهره مَنْ برداءِ العزةِ احتجب ، إذا كانت الغاية لا تُدرَك ، فأولى أن تسلّم  
وتترك ، ومنة الله تعالى عليك ليست ممّا يشرح ، قد عقل العقل فما يبرح ، وقيد  
اللسان فما يرتعي في مجال العبارة ولا يسرح ، اللهم ألهمنا على هذه النعمة شكراً

ترضاه ، وإمداداً من لَدُنْكَ نتقاضاه ، يا الله يا الله . سعود أنارت بعد أفول  
شهابها ، وحياة كَرَّتْ بعد ذهابها ، وأحباب اجتمعت بعد فراقها ، وأوطان  
دَنَّتْ بعد بُعْدِ شامها من عراقها ، وأعداء أذهب الله تعالى رَسْمَ بغيهم  
ومَحَاه ، وبُغَاةِ أدار عليهم الدهر رحاه ، وعباد أعطوا من كشف الغم ما  
سألوه ، ونازحون لو سئَلُوا في إتاحة القرب بما في أرقامهم لبذلوه ، وسبحان  
الذي يقول ﴿ ولو أننا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ  
دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ ﴾ (النساء : ٦٦) فليهن الإسلامَ بياضُ وجهه بعد اسوداده ،  
وتغلبَ إيالة مَنْ لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر على بلاده ، وعودة الملك المظلوم  
إلى معتاده ، واستواء الحق النائي جنبه فوق مهاده ، ورد الإرث المغصوب إلى  
مستحقّه عن آبائه وأجداده . والحمد لله الذي غسل عن وجه الأمة الحنيفية العار ،  
وأنقذ عُهدتها وقد ملكها الذعار ، فرد المُعار ، وأعيد الشّعار ، نحمدك اللهم  
حمداً يليق بقدسك ، لا بل لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

« والعبد يا مولاي قد بهرت عقْلَه آلاء الله تعالى قبلك ، فالفكر جائل واللسان  
ساكت ، والعقل ذاهل والطرف باهت ، فإن أقام رَسْمًا للمخاطبة فقلم مرح  
وركض ، وطِرْسُ هز جناح الارتياح ونفض ، ليس هذا المرّام ممّا يرام ،  
ولا هذه العناية التي تحار فيها الأفهام ، ممّا تُصْنِي غرضه السّهام ، فنسأل  
الله تعالى أن يجعل مولاي من الشاكرين ، وبأحكام تقلبات الأيام من المعتبرين ،  
حتى لا يغرّه السّراب الخادع ، والدهر المرغم للأنوف الخادع ، ولا يرى في  
الوجود غير الله من صانع ، ولا معطٍ ولا مانع ، ويمتعه بالعرز الحديد ، ويوفقه  
للنظر السديد ، ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد ، والسلام » انتهى .

٨٤ - وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى أبا عبد الله ابن عمر

التونسي قوله :

« سيدي الذي عهدته لا يُنسى ، وذكره يُصبح في ترديده بالحميل ويُمسَى ،

أبقاكم الله تعالى تجلون من السعادة شمساً ، وتصرفون في طاعته لساناً فرداً وبناناً  
 خمسا : وصلني كتابكم الأشعث الأغر ، ومقتضبيكم الذي أضغاثه لا تُعبر ،  
 شاهدةً بعدم الاعتناء أوضاعه ، معدوماً إمتاعه ، قصيراً في التعريف بالحال  
 المشوّف إليها باعه ، مضمناً الإحالة على خليّ من معناها ، غير ملتبسٍ  
 بموحدها ولا مثناها ، سألته كما يسأل المريضُ عمّاً عند الطبيب ، ويحرص  
 الحبيبُ على تعرّف أحوال الحبيب ، فذكر أنه لم يتحمل غير تلك السّحابةِ  
 المغنيةِ في الاختصار ، المجحفة بحظّي الأسماع والأبصار ، فهمتُ بالعب ،  
 على البخيل بالكتب ، ثم عذرت سيدي بما يعترني مثله من شواغل تطرق ،  
 وخواطر تومض وتبرق ، وإذا كان آمناً سيره ، مهناً سيره ، فهو الأمل ،  
 ويُفنع هذا المجمل ، وإن كان التفسير هو الأكل ، وما ثمّ ما يعمل ، وودّه  
 في كل حال وده ، والله سبحانه بالتوفيق يمدّه ، والسلام .

وكانت للسان الدين رحمه الله تعالى مخاطبات كثيرة لسلطان الدولة وأعيانها ،  
 دلّت على قوة عارضته في البلاغة ، وقد ألعنا بجملة منها في هذا الكتاب في مواضع  
 ولم نكثّر منها طلباً للاختصار أو التوسط بحسب ما اقتضاه الباعث في الحال ،  
 والله سبحانه وتعالى يبلّغ الآمال ، ويزكي الأعمال .

٨٥ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه عن السلطان أبي الحجاج

يوسف بن نصر إلى سيد العالمين صلى الله عليه وسلّم لإثر نظم ، ونصّ الكَل هو :

إذا فاتني ظلّ الحمى ونعيمه	فحسبُ فؤادي أن يهبَ نسيمه
ويُقنعني أني به متكتف	فزمزمه دمعِي ، وجسمي حطيمه
يعود فؤادي ذكرُ مَنْ سَكنَ الغضا	فيُقعدهُ فَوْقَ الغَضا ويقيمهُ
ولم أرَ شيئاً كالنسيم إذا سرى	شفى سَقَمَ القَلبِ المشوقِ سقيمهُ
نعللُ بالتذكار نفساً مشوقة	نديرُ عليها كأسه ونديمهُ

وما شفّيتي بالغور قد مرّح  
ولا سهرت عيني لبرق نية  
براني شوق للنبي محمد  
ألا يا رسول الله ناداك ضارع  
مشوق إذا ما الليل مدّ رواقه  
إذا ما حديثك عنك جاءت به الصبا  
أيجهر بالتجوى وأنت سمعها  
وتعوزه السقيا ، وأنت غيائه  
بنورك نور الله قد أشرق الهدى  
لك أنهل فضل الله بالأرض ساكباً  
ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى  
لك الخلق الأرضي الذي جلّ ذكره  
يجلّ مدى عليك عن مدح مادح  
ولي يا رسول الله فيك وراثته  
وعندي إلى أنصار دينك نسبة  
وكان بودّي أن أزور مبعوثاً  
وقد يجهد الإنسان طرف اعترامه  
وعذري في تسويف عزمي ظاهر  
عدتني بأقصى الغرب عن تربك العدا  
أجاهد منهم في سبيلك أمة  
فلولا اعتناء منك يا ملجأ الورى  
فلا تقطع الحبل الذي قد وصلته

ولا شافني من وحش وجرة ريمه  
من الثغر يبدو موهناً فأشيمه  
يسوم فؤادي برّحه ما يسومه  
على النأي محفوظ الوداد سليمه  
تهم به تحت الظلام همومه  
شجاه من الشوق الحثيث قديمه  
ويشرح ما يخفي وأنت عليه  
وتتلفه الشكوى ، وأنت رحيمه  
فأقماره وضاحه ونجومه  
فأنواؤه ملتفة وغيومه  
خليل الذي أوطاها وكليمه  
ومجدك في الذكر العظيم عظيمه  
فموسر در القول فيك عديمه  
ومجدك لا ينسى الذمام كريمه  
هي الفخر لا يخشى انتقالاً مقيمه  
بك افتخرت أطلاله ورسومه  
ويعوزه من بعد ذلك مرسومه  
إذا ضاق عذر العزم عمن يلومه  
جلالقة الثغر الغريب ورومه  
هي البحر يعي أمرها من يرومه  
لريع حماه واستبيح حريمه  
فمجدك موفور النوال عميمه

وَأَنْتَ لَنَا الْغَيْثُ الَّذِي نَسْتَدْرُهُُ  
وَلَمَّا نَأَتْ دَارِي وَأَعُوذُ مَطْمَعِي  
بَعَثْتُ بِهَا جَهْدَ الْمَقْلِّ مَعَوْلًا  
وَكَلْتُ بِهَا هَمِي وَصَدَقَ قَرِيحِي  
فَلَا تَنْسِنِي يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى  
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ مَا ذَرَّ شَارِقُ  
وَأَنْتَ لَنَا الظِّلُّ الَّذِي نَسْتَدِيمُهُُ  
وَأَقْلَقْنِي شَوْقٌ يَشْبُ جَحِيمُهُُ  
عَلَى مَجْدِكَ الْأَعْلَى الَّذِي جَلَّ خَيْمُهُُ  
فَسَاعَدْنِي هَاءَ الرَّوِيِّ وَمِيمُهُُ  
فَمَثَلُكَ لَا يَنْسَى لَدَيْهِ خَدِيمُهُُ  
وَمَا رَاقَ مِنْ وَجْهِ الصَّبَاحِ وَسِيمُهُُ

« إلى رسول الحق إلى كافة الخلق ، وغمام الرحمة الصادق البرق ، الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق ، خاتم الأنبياء ، وإمام ملائكة السماء ، ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء ، شفيع أرباب الذنوب ، وطبيب أدواء القلوب ، والوسيلة إلى علاّم الغيوب ، نبي الهدى الذي طهر قلبه ، وغفر ذنبه ، وخصم به الرسالة ربه ، وجرى في النفوس مجرى الأنفاس حبه ، الشفيع المشفع يوم العرض ، المحمود في ملائكة السماء والأرض ، صاحب اللواء المنشور يوم النشور ، والمؤتمن على سير الكتاب المسطور ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور ، المؤيد بكفاية الله وعصمته ، الموفور حظّه من عنايته ونعمته ، الظل الخفاق على أمته ، من لو حازت الشمس بعض كماله ما عدت إشراقاً ، أو كان للأباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقاً ، فائدة الكون ومعناه ، وسر الوجود الذي يبهر الوجود سناه ، وصفيّ حضرة القدس الذي لا ينام قلبه إذا نامت عيناه ، البشير الذي سبقت له البشرية ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، ونزل فيه ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ﴾ (الإسراء : ١) من الأنوار من عنصر نوره مستمدة ، والآثار تخلق وآثاره مستجدة ، من طوي بساط الوحي لفقده ، وسد باب الرسالة والنبوة من بعده ، وأوتي جوامع الكلم فوفقت البلغاء حسرى دون حدّه ، الذي انتقل في الغرر الكريمة نوره ، وأضاءت لميلاده مصانع الشام وقصوره ، وطفقت الملائكة تبيته وفودها وتزوره ، وأخبرت الكتب



المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته ، وأخذ عهد الإيمان به على مَنْ اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته ، المَفْرَعُ الأَمْنَعُ يوم الفزع الأكبر ، والسَّنَدُ المعتمد عليه في أهوال المحشر ، ذو المعجزات التي أثبتتها المشاهدة والحس ، وأقرَّ بها الجنُّ والإنس ، من جماد يتكلَّم ، وجذع لفرقه يتألَّم ، وقمر له ينشق ، وحَجَرَ يشهد أن ما جاء به هو الحق ، وشمس بدعائه عن مسيرها تجبس ، وماء من بين أصابعه يتبجس ، وغمامٍ باستسقائه يَصُوب ، وطَوِيٍّ بصق في أجاجها فأصبح ماؤها وهو العذب المشروب ، المخصوص بمناقب الكمال وكمال المناقب ، المسمى بالخالش العاقب ، ذو المجد البعيد المرامي والمراقب ، أكرم من رُفِعَتْ إليه وَسِيْلَةُ المعترف المغترب ، ونجحت لديه قُرْبِيَّةُ البعيد المقرب ، سيد الرسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذي فاز بطاعته المحسنون ، واستُنْفِدَ شفاعته المذنبون ، وسَعِدَ باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، صلى الله عليه وسلَّم ما لَمَعَ بَرَقٌ ، وهَمَعَ وَدَقٌ ، وطلعت شمس ، ونَسَخَ اليومُ أَمْسَ :

« مِنْ عَتِيقِ شَفَاعَتِهِ ، وَعَبْدِ طَاعَتِهِ ، الْمُعْتَصِمِ بِسَبَبِهِ ، الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ ثُمَّ بِهِ ، الْمُسْتَشْفِي بِذِكْرِهِ كَلَّمَا تَأَمَّ ، الْمُفْتَحِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ كَلَّمَا تَكَلَّمُ ، الَّذِي إِنْ ذَكَرَ تَمَثَّلَ طُلُوعُهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَآلِهِ ، وَإِنْ هَبَّ النَّسِيمُ الْعَاطِرُ وَجَدَ فِيهِ طَيْبَ خِلَالِهِ ، وَإِنْ سَمِعَ الْأُذَانَ تَذَكَرَ صَوْتَ بِلَالِهِ ، وَإِنْ ذَكَرَ الْقُرْآنَ اسْتَشْعَرَ تَرْدُدَ جَبْرِيلَ بَيْنَ مَعَاهِدِهِ وَخِلَالِهِ ، لِأَنَّهُ تَرُبُّهُ ، وَمَوْمِلُ قَرْبِهِ ، وَرَهينُ طَاعَتِهِ وَحُبِّهِ ، الْمُتَوَسِّلُ بِهِ إِلَى رِضَى اللَّهِ رَبِّهِ ، يَوْسُفُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ نَصْرٍ :

« كَتَبَهُ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالِدْمَعُ مَاحٍ ، وَخَيْلُ الْوَجْدِ ذَاتُ جِمَاحٍ ، عَنْ شَوْقٍ يَزِيدُ كُلَّمَا نَقَصَ الصَّبْرُ ، وَانْكَسَارُ لَا يُتَاحُ لَهُ إِلَّا بَدُنُو مَزَارِكِ الْجَبْرِ ، وَكَيْفَ لَا يُعْيِي مَشَوْقَكَ الْأَمْرُ ، وَتَوَطَّأَ عَلَى كِبَدِهِ الْجَمْرُ ، وَقَدْ مَطَلَّتِ الْأَيَّامُ بِالْقُدُومِ عَلَى تَرْبِكَ الْمُقَدَّسَةِ اللَّحْدِ ، وَوَعَدَتْ الْأَمَالَ وَدَانَتْ بِإِخْلَافِ الْوَعْدِ ، وَانْصَرَفَتْ الرَّفَاقُ وَالْعَيْنُ بِنُورِ ضَرْيَحِكَ مَا اكْتَحَلَتْ ، وَالرَّكَائِبُ إِلَيْكَ

ما رَحَلَتْ ، والعزائم قالت وما فعلت ، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تَسْرَحْ ، وطُيُورُ الآمال عن وكور العجز لم تَبْرَحْ ، فيا لها من معاهدَ فاز مَنْ حَيَّاهَا ، ومشاهد ما أعطَرَ رِيَّاهَا ، بلاد نِيطت بها عليك التمام<sup>١</sup> ، وأشرق بنورك منها النجودُ والتهاثم ، ونزل في حُجْرَاتِهَا عليك الملك ، وانجلي بضياء فرقائك فيها الخلك ، مَدَارِسُ الآيات والسور ، ومَطَالع المعجزات السافرة الغرر ، حيث قضيت الفروض وحتمت ، وافتتحت سورة الرحمن وختمت ، وابتدئت الملة الخفيفة وتمت ، ونُسخت الآيات وأحكمت :

« أما والذي بعثك بالحق هادياً ، وأطلعك للخلق نوراً بادياً ، لا يطفىء غلتي إلا شربك ، ولا يسكن لوعي إلا قربك ، فما أسعدَ مَنْ أفاض من حرم الله إلى حرمك ، وأصبح بعد أداء ما فرضتَ عن الله ضيفَ كرمك ، وعقر الخدَّ في معاهدك ومعاهد أسرتك ، وتردد ما بين داريّ بعثك وهجرتك ، وإنتي لما عاقتني عن زيارتك العواقب ، وإن كان شغلي عنك بك ، وعدتني الأعداء فيك عن وصل سبي بسببك ، وأصبحت بين بحرٍ تتلاطم أمواجه ، وعدو تتكاثف أفواجه ، ويحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه - في طائفة من المؤمنين بك ووطنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم ، ورفعوا إلى مصارحتك رؤوسهم ، واستعدبوا في مرضاة الله تعالى ومرضاتك بوسهم ، يطيطون من هيعة إلى أخرى ، ويلتفتون والمخاوف عن يمتي ويسرى ، ويقارعون وهم الفئة القليلة جمعاً كجموع قيصر وكسرى ، لا يبلغون من عدو هو الذرُّ عند انتشاره ، عُسْرَ معشاره ، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا ، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا ، فيا له من سِرْبِ مَرُوع ، وصريخ إلا منك ممنوع ، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع ، وصيبة حُمُر

١ نثر فيه قول الأعرابي :

بلادها نيطت علي تمانني وأول أرض مس جلدي تراها

الخواصل ، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل ، والصليبُ قد تمطى فمدّ  
ذراعيه ، ورفعتِ الأطماع بضبّعيه ، وقد حُجبتُ بالقَتَامِ السماء ، وتلاطمت  
أمواج الحديد ، والبأس الشديد ، فالتقى الماء ، ولم يبق إلا الذَّمَاء ، وعلى ذلك  
فما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون ، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى  
تكاد تشاهده العيون ، إلى أن نلقاك غداً إن شاء الله تعالى وقد أبلينا العذر ،  
وأرغمنا الكفر ، وأعمَلنا في سبيل الله تعالى وسبيلك البيض والسَّمَرُ — استنبتُ  
رقعتي هذه لتطير إليك من شوقي بجناح خافق ، وتسعد من نبيتي التي تصحبها برفيق  
مُوافق ، فتؤدّي عن عبدك وتبلغ ، وتعفر الخدّ في تُربك وتمرّغ ، وتطيّب  
برياً معاهدك الطاهرة وبيوتك ، وتقف وقوف الخضوع والخشوع تجاه تابوتك ،  
وتقول بلسان التملّق ، عند التشبث بأسبابك والتعلق ، منكسرة الطرف ، حذراً  
بَهْرَجُها من عدم الصرف : يا غياث الأمة ، وغمام الرحمة ، ارحم غربتي  
وانقطاعي ، وتعتمد بطوئك قصر باعي ، وقو على هيبتك خورَ طباعي ، فكم  
جُزّت من لج مهول ، وجُبت من حزون وسهُول ، وقابلُ بالقَبول نيابتي ،  
وعجّل بالرضى إجابتي ، ومعلوم من كمال تلك الشيم ، وسجايا تيك الديم ،  
أن لا يخيب قَصْدُ من حَطَ بفنائها ، ولا يظماً واردٌ أكبَّ على إناثها .

« اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة ، وأعطيته لواء  
الحمد يسيرُ آدمُ فمن دونه تحت ظلاله المنشورة ، وملكت أمته ما زوي له من  
زوايا البسيطة المعمورة ، وجعلتني من أمته المجبولة على حُبّه المفطورة ، وشوقني  
إلى معاهده المبرورة ، ومشاهده المزورة ، ووكلت لساني بالصلاة عليه ، وقلبي  
بالحين إليه ، ورغبتني بالتماس ما لديه ، فلا تقطع منه أسبابي ، ولا تحرمني  
من حبه ثوابي ، وتداركني بشفاعته يوم أخذ كتابي .

« هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت داره ، وشطّ مزاره ، ولم يجعل بيده

١ استنبت : جواب « لما » التي وقعت قبل سطور عديدة .

اختياره . فإن لم تكن<sup>١</sup> للقبول أهلاً فأنت للإغضاء والسماح أهل ، وإن كانت ألفاظها وعرة فجنابك للقاصدين سهل ، وإن كان الحب يتوارث كما أخبرت ، والعروق تدرس حسبما إليه أشرت ، فلي بانتسابي إلى سعدٍ عميدٍ أنصارك مزية ، ووسيلة أثيرة حفية ، فإن لم يكن لي عمل ترتضيه فلي نيّة ، فلا تنسني ومنّ بهذه الجزيرة المفتحة بسيف كلمتك ، على أيدي خيار أمتك ، فإنّما نحن بها وديعة تحت بعض أفعالك ، نعوذ بوجه ربك من إغفالك ، ونستشق من ريح عنايتك نَفْحَةً ، ونرتقب من مُحِيّا قبولك لمحة ، ندافع بها عدوّاً طغى وبنى ، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى ، فمواقف التمحيص قد أعيت منّ كتب وورّخ ، والبحر قد أصمت من استصرخ ، والطاغية في العُدوان مستبصر ، والعدو محلّق والولي مقصر ، وبجاهك ندفع ما لا نطق ، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق ، فلا نفردنا ولا تهملنا ، وناد ربك فينا ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا ﴾ (البقرة : ٢٨٦) ، وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم ، وربك يقول لك وقوله الحق ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفال : ٣٣) والصلاة والسلام عليك يا خير منّ طاف وسعى ، وأجاب داعياً إذا دعا ، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك ، صلاة تليق بجلالك ، وتحق لكمالك ، وعلى ضجيعيك وصديقيك ، وحببيك ورفيقيك ، خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك ، وصهرك ذي النورين المخصوص ببرك ونحلتك ، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك ، بدر سمائك ووالد أهلتك ، والسلام الكريم عليك وعليهم كثيراً أثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته ، وكتب بحضرة جزيرة الأندلس غرناطة ، صانها الله تعالى ووقاها ، ودقّع عنها ببركتك كيدَ عِداها » انتهت الرسالة .

٨٦ - وكتب أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم على لسان مخدومه

١ الضمير يعود إلى « وسيلة » ويعني بها الرسالة .

السلطان الغني بالله محمد ابن السلطان أبي الحجاج - رحم الله تعالى الجميع -  
ما صورته :

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبُ  
مَدَلُّ بِأَسْبَابِ الرَّجَاءِ وَطَرْفُهُ  
يَكْلَفُ قُرْصَ الْبَدْرِ حَمْلَ تَحِيَّةٍ  
لَتَرْجِعَ مِنْ تِلْكَ الْمَعَالِمِ غَدْوَةً  
وَيَسْتَوْدِعُ الرِّيحَ الشَّمَالَ شَمَائِلًا  
وَيَطْلُبُ فِي جِيبِ الْحَيُوبِ جَوَابَهَا  
وَيَسْتَفْهَمُ الْكَفَّ الْخَضِيبَ وَدَمْعَهُ  
وَيَتَّبِعُ آثَارَ الْمَطِيِّ مَشِيعًا  
إِذَا أَثَرَ الْأَخْفَافِ لَاحَتَ مَحَارِبًا  
وَيَلْقِي رِكَابَ الْحَجِّ وَهِيَ قَوَافِلُ  
فَلَا قَوْلَ إِلَّا أَنَّهُ وَتَوَجَّعُ  
غَلِيلُ وَلَكِنْ مِنْ قَبُولِكَ مِنْهَلُ  
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي وَالْأَمَانِي ضَلَّةً  
أَيُنْجَدُ نَجْدٌ بَعْدَ شَحْطِ مَزَارِهِ  
وَتُقْضَى دِيُونِي بَعْدَمَا مَطَّلَ الْمَدَى  
وَهَلْ أَقْضِي دَهْرِي فَيَسْمَحُ طَائِعًا  
وَيَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ لِحَوْمِي مُورِدُ  
وَلَكِنَّكَ الْمَوْلَى الْجَوَادُ وَجَارُهُ  
وَكَيْفَ يَضِيقُ الذَّرْعُ يَوْمًا بِقَاصِدِ  
وَمَا هَاجَنِي إِلَّا تَأَلَّقُ بَارِقِ

وَأَنْتَ ، عَلَى بَعْدِ الْمَزَارِ ، قَرِيبُ  
غَضِيضٌ عَلَى حَكْمِ الْحَيَاءِ مَرِيبُ  
إِذَا مَا هَوَى وَالشَّمْسَ حِينَ تَغِيبُ  
وَقَدْ ذَاعَ مِنْ رَدِّ التَّحِيَّةِ طِيبُ  
مَنْ الْحَبَّ لَمْ يَعْلَمْ بِهِنَ رَقِيبُ  
إِذَا مَا أَطَلَّتْ وَالصَّبَاحُ جَنِيبُ  
غَرَامًا بِخَنَاءِ النَّجِيعِ خَضِيبُ  
وَقَدْ زَمَزَمَ الْحَادِي وَحَنَّ نَجِيبُ  
يَخْرُ عَلَيْهَا رَاكِعًا وَبِنِيبُ  
طِلَاحٌ وَقَدْ لَبَّى النَّدَاءَ لَيْبُ  
وَلَا حَوْلَ إِلَّا زَفْرَةٌ وَنَجِيبُ  
عَلِيلٌ وَلَكِنْ مِنْ رِضَاكَ طِيبُ  
وَقَدْ تَخْطِئُ الْأَمَالَ ثُمَّ تَصِيبُ  
وَيَكْتُثِبُ بَعْدَ الْبَعْدِ مِنْهُ كَثِيبُ  
وَيَنْفُذُ بَيْعِي وَالْمَبِيعُ مَعِيبُ  
وَأَدْعُو بِحُظِي مَسْمَعًا فَيُجِيبُ  
لَدَيْكَ ؟ وَهَلْ لِي فِي رِضَاكَ نَصِيبُ ؟  
عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ لَيْسَ يَخِيبُ  
وَذَاكَ الْجَنَابُ الْمُسْتَجَارُ رَحِيبُ  
يَلُوحُ بِفَوْدِ اللَّيْلِ مِنْهُ مَشِيبُ

ذكرتُ به ركبَ الحجاز وجيرةً  
 فبتُ وجفتي من لآليءِ دمعِهِ  
 ترتخني الذكري ويهفو بي الجوى  
 وأحضرُ تَعليلاً لشوقي بالمُنَى  
 مرامي ، لو أعطى الأمانى ، زورةً  
 فقولُ حبيبٍ إذ يقول تشوقاً  
 تعجبتُ من سيفي وقد جاور الغضا  
 وأعجبُ أن لا يورقَ الرمحُ في يدي  
 فيا سرحَ ذاك الحيّ لو أخلفَ الحيا  
 ويا هاجرَ الجوّ الجديبِ تلبثاً  
 ويا قادحَ الزندِ الشّاحِ ترفقاً  
 أيا خاتمَ الرسلِ المكينِ مكانهُ  
 فوادي على جمرِ البعادِ مقلّبُ  
 فوالله ما يزدادُ إلا تلهباً  
 فليلتُهُ ليلُ السّليمِ ويومُها  
 هواي هُدَى فيك اهتديتُ بنوره  
 وحسبي على أني لصحبك مُنتم  
 عدتُ عن مغانيك المشوقة للعدا  
 حِرَاصُ على إطفاء نورٍ قد حثتُهُ  
 فكم من شهيدٍ في رضاك مجدّلٍ  
 تمرُّ الرياحُ الغُفْلُ فوق كلومهم  
 بنصرِكَ عنك الشغلُ من غيرِ منةٍ

أهابَ بها نحو الحبيبِ مهيبُ  
 غنيّ وصبري للشجونِ سليبُ  
 كما مال غصنُ في الرياضِ رطيبُ  
 ويطرُقُ وجدٌ غالبُ فأغيبُ  
 يبتُ غرامُ عندها ووجيبُ  
 عسى وطنُ يدنو إليّ حبيبُ  
 بقلبي فلم يسبكه منه مذيبُ  
 ومن فوقه غيثُ المشوقِ سكبُ  
 لأغناك من صوبِ الدموعِ صيبُ  
 فعهدِي رطبُ الجانبينِ خصيبُ  
 عليك فشوقي الخارجِي شيبُ  
 حديثُ الغريبِ الدارِ فيك غريبُ  
 يُماحُ عليه للدموعِ قلبُ  
 أبصرتَ ماءً ثارَ عنه هيبُ  
 إذا شدَّ للشوقِ العصابُ عصبُ  
 ومنتسبي للصحبِ منك نسيبُ  
 وللخزرجيينِ الكرامِ نسيبُ  
 عقاربُ لا يخفي هنّ ديبُ  
 فمستلبُ من دونه وسليبُ  
 يظله نسرٌ وينسبُ ذيبُ  
 فتعقبُ من أنفاسِها وتطيبُ  
 وهلّ يتساوى مشهدٌ ومغيبُ

فإن صحَّ منك الحظُّ طاوَعَتِ المُنَى  
ولولاك لم يُعجَمَ من الروم عودها  
وقد كانتِ الأحوالُ ، لولا مراغِبُ  
فما شتتَ من نصرٍ عزيزٍ وأنعمِ  
منابرُ عزِّ أذنَ الفتحُ فوقها  
نقُودُ إلى هيجائها كلِّ صائلِ  
ونجتابُ من سرِّدِ اليقينِ مدارعاً  
إذا اضطربَ الخطيُّ حولَ غدِيرِها  
فعدراً وإغصاءً ولا تنسَ صارخاً  
وجاهك بعدَ الله نرجو ، وإنه  
عليك صلاةُ الله ما طيبَ الفضا  
وما اهترَّ قدَّ للغضونِ مرثعُ

ويبعدُ مرمَى السهمِ وهو مُصيبُ  
فعودُ الصليبِ الأعجميِّ صليبُ  
ضمنتَ ووعدُ بالظهورِ ، تُريبُ  
أثابَ بهنَّ المؤمنينِ مُثيبُ  
وأفصحَ للعضبِ الطريرِ خطيبُ  
كما ريعَ مكحولُ اللحاظِ ريبُ  
يكفُّها من يَحْتَيِ ويثيبُ  
يروقكَ منها لجسَّةٌ وقضيبُ  
بعزكَ يرجو أن يجيبَ مجيبُ  
لحظُ مليءٌ بالوفاءِ رغبُ  
عليك مطيلٌ بالثناءِ مطيبُ  
وما افترَّ ثغرُ للبروقِ شنيبُ

« إلى حجة الله تعالى المؤيدة ببراہین أنواره، وفائدة الكون ونكته أدواره، وصفوة نوع البشر ومنتهى أطواره ، إلى المجتبي وموجود الوجود لم يتغن بمطلق الوجود عديمه ، المصطفى من ذرية آدم قبل أن يكسو العظام أديمه ، المحتوم في القيد ، وظلمات العدم ، عند صدق القدام ، تفضيله وتقديمه ، إلى وداعة النور المنتقل في الجباه الكريمة والغرر ، ودرة الأنبياء التي لها الفضل على الدرر ، وغمام الرحمة الهامية الدرر ، إلى مختار الله تعالى المخصوص باجتماعه ، وحببيه الذي له المزية على أحبائه ، وذرية أنبياء الله تعالى آبائه ، إلى الذي شرح صدره وغسله ، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله ، وأتم عليه إنعامه الذي أجزله ، وأنزل عليه من الهدى والنور ما أنزله ، إلى بشرى المسيح والذبيح ، ومن لهم التجر الرياح ، المنصور بالرعب والريح ، المخصوص

بالنسب الصريح ، إلى الذي جعله في المَحُولِ غمّاماً ، وللأنبياء إماماً ، وشقّ صدره لتلقّي روح أمره غُلاماً ، وأعلّم به في التوراة والإنجيل إعلّاماً ، وعلم المؤمنين صلاةً عليه وسلاماً ، إلى الشفيح الذي لا تُردُّ في العَصاة شفاعته ، والوجيه الذي قرنت بطاعة الله تعالى طاعته ، والرؤوف الرحيم الذي خلصت إلى الله تعالى في أهل الجرائمِ ضرّاعته ، صاحب الآيات التي لا يسعُ ردها ، والمعجزات التي أربى على الألفِ عدها ، فمن قمر شقّ ، وجذع حن له وحق ، وبنان يتفجّر بالماء ، فيقوم برّيّ الظماء ، وطعامٍ يُشبعُ الجمعَ الكثير يسيره ، وغمام يُظلّلُ به مقامه ومسيره ، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض ، وأول من تنشقُّ عنه الأرض ، ووسيلة الله تعالى التي لولاها ما أقرض القرض ، ولا عرف النفل والقرض ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال من ذي الجلال ، الشاهد بصدقه صحفُ الأنبياء وكتب الأرسال ، وآياته التي أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال ، صلى الله عليه وسلّم ما ذرّ شارق ، وأومض بارق ، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق ، صلاة تتأرجح على شذا الزّهر ، وتبتلج عن سنا الكواكب الزّهر ، وتردد بين السر والجهر ، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدهر :

« من عبد هداه ، ومستقري مَوَاقِع نداءه ، ومزاحم أبناء أنصاره في متداه ، وبعض سهامه المفوقة إلى نخور عدها ، مؤمّل العتق من النار بشفاعته ، ومحرز طاعة الجبّار بطاعته ، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله تعالى وإضاعته ، متخذ الصلاة عليه وسائل نجاة ، وذخائر في الشدائد مُرتجاة ، متاجر بضائعها غير مُزجاة ، الذي ملأ بحبه جوانح صدره ، وجعل فكره هالة لبدره ، وأوجب حقه على قدر العبد لا على قدره ، محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي ، نسيب سعد بن عبادة من أصحابه ، وبوارق سحابه ، وسيوف نصرته ، وأقطاب دار هجرته ، ظلّله الله تعالى يوم الفرع الأكبر من رضاك عنه بظلال الأمان ، كما أثار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان ، وجعله



من أهل السياحة في فضاء حُبِّكَ والهيمنان :

« كتبه إليك يا رسولَ الله — والبراع تفتضي الهيبة صفرة لونه ، والمداد يكاد أن يحول سواد جَوْنَه ، وورقة الكتاب يخفق فؤادُها حرصاً على حفظ اسمك الكريم وصَوْنَه ، والدمعُ يقطر فتتقط به الحروف وتفصل الأسطر ، وتوهمُ المثلُ بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر ، عن قلب بالبعد عنك قَرِيح ، وجفن بالبكاء جريح ، وتأوّه عن تبريح ، كلما هبَّ من أرضك نسيم ريح ، وانكسار ليس له إلا جَبْرُك ، واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك ، وإن يُقْضَ قَبْرُك ، وكيف لا يسلم في مثلها الأسي ، ويوحش الصباح والمسا ، ويرجفُ جبلُ الصبرِ بعدما رَسَا ، لولا لعلَّ وعسى ، فقد سارتِ الركبانُ إليك ولم يُقْضَ مَسِير ، وحومت الأسرابُ عليك والجنحُ كَسِير ، ووعدت الآمال فأخلفت ، وحلفت العزائم فلم تَفِ بما حلفت ، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل ، إلاّ على التمثيل ، ولا من المعالم الملتمة التنوير ، إلاّ على التصوير ، مهبطُ وحي الله تعالى ومنتزل أسمائه ، ومتردّد ملائكة سمائه ، ومدافن أوليائه ، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه ، رزقي الله تعالى الرضى بقضائه ، والصبرَ على جاحم البعد ورمضائه — من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك ، ومسحبة رجلك يا رسولَ الله وخيِّلك ، وأنأى مطارح دعوتك ومساحب ذيلك ، حيث مصافّ الجهاد في سبيل الله وسبيلك قد ظللها القتام ، وشُهْبَانُ الأسنّة أطلعها منه الإعتام ، وأسواقُ بيعِ النفوسِ من الله تعالى قد تعدد بها الأيامى والأيتام ، حيث الجراحُ قد تحلت بعسجد نجيعها النحور ، والشهداء تحفُّ بها الحور ، والأمم الغربية قد قطعها عن المدد البحور ، حيث المباسم المُفْتَرَّة ، تجلوها المصارع البرّة ، فتحببها بالعرء ثغورُ الأزاهر ، وتندبها صَوَادِحُ الأدواحِ برنات تلك المزاهر ، وتحلّي السحابُ أشلاءها المعطّلة من ظلّها بالجواهر ، وحيث الإسلام من عدوّه المكاييد بمنزلة

قطرةٍ من عارضِ غمام ، وحصاةٍ من ثبيرٍ أو شمام ، وقد سدت الطريق ،  
وأسلم الفراقُ الفریق ، وأغصَّ الریق ، ويشسَّ من الساحل الغریق ، إلا أن  
الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بجبل الله تعالى وحبك ، المهتدية بأدلة سبلك ،  
سالم والحمد لله تعالى من الانصداع ، محروسٌ بفضل الله تعالى من الابتداع ،  
مقدودٌ من جديد الملة ، معدومٌ فيه وجودُ الطوائف المضلّة ، إلا ما يخص  
الكفر من هذه العلة ، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه يجمع القلة .  
« ولهذا الأيام يا رسول الله أقام الله تعالى أودّه برآً بوجهك الوجيه ورعياً ،  
وإنجازاً لوعدك وهو الذي لا يخلف وعداً ولا يخيب سعيّاً ، وفتح لنا فتوحاً  
أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب ، وبشّرنا منه تعالى بغفر التقصير ورفع  
الثريب ، ونصرنا وله المنّة على عبدة الصليب ، وجعل لألفنا الرُدَيْني  
ولامنا السردِي حكم التغليب ، وإذا كانت الموالي التي طوّقت الأعناق مِننُها ،  
وقررت العوائد الحسان سيرها وسننها ، تبادر إليها نوابها الصرحاء وخدامها  
النصحاء بالبشائر ، والمسرات التي تشاع في العشائر ، وتجلو لديها نتائج أيديها ،  
وغايات مباديها ، وتتحافها وتهادياها ، بمجاني جناتها وأزاهر غَوَادياها ، وتطرف  
محاضرها بطرفِ بوادياها ، فبابك يا رسولَ الله أولى بذلك وأحقّ ، ولك  
الحق الحق ، والحرُّ منّا عبْدُك المسرّوق ، حسيماً سجّله الرق ، وفي رضاك  
من كل من يلتمس رضاه المطمع ، ومثوأك المتجمّع ، وملوك الإسلام  
في الحقيقة عبيد سُدَّتْك المؤمّلة ، وخوألُ مَثابتك المحسنة بالحسنات المجملّة ،  
وشهب تعشو إلى بدورك المكملّة ، وبعض سيوفك المقلّدة في سبيل الله تعالى  
المحمّلة ، وحرّسة مهادِك ، وسلاح جهادِك ، وبروق عهادِك .

« وإن مكفول احترامك الذي لا يخفر ، وربّي إنعامك الذي لا يكفر ،  
وملتحف جاهك الذي يحى ذنبه بشفاعتك إن شاء الله تعالى ويغفر ، يطالع  
روضة الجنة المفتحة أبوابها بمثوأك ، ويفاتح صوّان القدس الذي أجنّك وحوأك ،

وينثر بضائع الصلاة عليك بين يدي الضريح الذي طَوَّك ، ويعرض جنى ما  
غرست وبنرت ، ومصداق ما بشرت به لما بشرت وأندرت ، وما انتهى إليه  
طلتُ جهادك ، ومصَّبُ عهادك ، لتقرَّ عينُ نصحك التي أنام العيونَ الساهرةَ  
هجوَّعها ، وأشيعَ البطونَ وروَّاهَا ظمؤها في الله تعالى وجوَّعها ، وإن كانت  
الأمر بمراى من عيَّن عنايتك ، وغيبها متعرف بين إفصاحك وكنائتك ، ومجمله  
يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلَّغ وسيلتي إليك ، هو أن الله سبحانه لما عرفني  
لطفه الخفي في التمحيص ، المقتضي عدم المحيص ، ثم في التخصيص ، المغني  
بعيانه عن التنصيص ، وفق بركاتك السارية رحمتها في القلوب ، ووسائل  
محبتك العائدة بنيل المطلوب ، إلى استفادة عظة واعتبار ، واغتنام إقبال بعد إدبار ،  
ومزيد استبصار ، واستعانة بالله تعالى وانتصار ، فسكن هبوب الكفر بعد إعصار ،  
وحلَّ مخنق الإسلام بعد حصار ، وجرت على سنن السنَّة بحسب الاستطاعة  
والمنة السيرة ، وجبرت بجاهك القلوب الكسيرة ، وسهلت المآرب العسيرة ،  
ورفع بيد العزة الضيِّم ، وكشف بنور البصيرة الغيِّم ، وظهر القليل على الكثير ،  
وباء الكفرُ بخطة التعثير ، واستوى الدينُ الحنيفُ على المهاد الوثير ، فاهتبلنا  
يا رسول الله غيرة العدو وانتهزناها ، وشمنا صوَّارم عزة العدو وهزَّزناها ،  
وأزحنا علل الجيوش وجهزناها .

« فكان ممَّا ساعد عليه القدر ، والخطبُ المبتدر ، والورد الذي حُسنَ بعده  
الصدَّر ، أننا عاجلنا مدينة بُرغهُ<sup>١</sup> ، وقد جرَّعت الأختين مالمقة ورندة ،  
من مدائن دينك ، ومزابين ميادينك ، أكواس الفِراق ، وأذكرت مثل مَنْ  
بالعراق ، وسدت طرق التزاور عن الطُّراق ، وأسالت المسيلَ بالنجيج  
المُراق ، في مراصد المراد والمُراق ، ومنعت المراسلة مع هدير الحمام ، لا بل  
مع طيِّف المنام عند الإلام ، فيسرَّ الله تعالى اقتحامها ، وألحمت بيض الشفار

١ برغه (Burgo) بين مالقة ورندة .

في زُرُق الكفار إلحامها ، وأزال بَشْرُ السيف من بين تلك الحروف إقحامها ، فانطلق المَسْرَى ، واستبشرت القواعدُ الحَسْرَى ، وهدمت بطريقها المخيف مصارع الصرعى ومثاقف الأَسْرَى ، والحمد لله على فتحه الأَسْنَى وَمَنَحِهِ الأَسْرَى، ولا إله إلا هو منقَلٌ قيصر وكسرى، وفتح مغلقتهما المنبعة قَسْرًا ؛ واستولى الإسلام منها على قرار جنات ، وأم بنات ، وقاعدة حصون ، وشجرة غصون ، طهرت مساجدها المغتصبة المكروهة ، وفجع بحفظها الفيل الأفيل وأبرهة ، وانطلقت بذكر الله الألسنة المدرّهة ، وفاز بسبق ميدانها جياذك الفرهة ، هذا وطاغية الروم على توفّر جموعه ، وهَوَلُ مرثيه ومسموعه ، قريبٌ جوارهُ ، بحيث يتصل خُوَارُه ، وقد حرك إليها الحنين حوَارُه .

« ثم نازل المسلمون بعدها شجاء الإسلام الذي أعيا النطاسيَّ علاجُه ، وكرك<sup>١</sup> هذا القطر الذي لا تُطاول أعلامه ولا تصاول أعلاجه ، وركاب الغارات التي تطوي المراحل إلى مكابدة المسلمين طي البرود ، وحجر الحيات التي لا تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود، ومُنَغَّصُ الورود في العذب المورود ، ومُقْضِصُ المضاجع ، وحلم الهاجع ، ومجهز الخطب الفاجيء الفاجع ، ومستدرك فاتكة الراجع ، قبل هبوب الطائر الساجع ، حصن آشر<sup>٢</sup> حماه الله تعالى دعاء لا خبراً ، كما جعله للمتفكرين في قدرته معتبراً ، فأحاطوا به إحاطة القلادة بالعيد ، وأذلوا عزته بعزة ذي العرش المجيد ، وحفت به الرايات يَسِمُهَا وَسَمُكُ ، ويلوح في صفحاتها اسمُ الله تعالى واسمُكُ ، فلا ترى إلا نفوساً تتراحم على مَوْرَدِ الشهادة أسرابها ، وليوثاً يَصْدُقُ في الله تعالى ضرابُها ، وأرسل الله عليها رَجْزاً إسرائيلياً من جرّاد السهام ، تشد آياته عن الأفهام ،

١ شبهه بحصن الكرك ، وكان ذا شأن ومنعة في الحروب الصليبية .

٢ حصن آشر (Iznajar) في الجنوب الشرقي لحصن روضة (Rute) على ضفة راند من روافد شنيل ؛ وقد صحف في ق فكتب « أشب » .

وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام ، من بعد الاستغلاق والاستبهام ، وقد عبثت جوارح صخوره في قنائص الهام ، وأعيا صَعْبُهُ على الجيش اللُّهُام ، فأخذ مسائغَهُ النقصُ والنقبُ ، ورَعَا فوق أهله السَّقْبُ<sup>١</sup> ، ونُصِبَت المعارج والمرَاقِي ، وقُرِعَت المناكب والترَاقِي ، واغتم الصادقون مع الله تعالى الحظ الباقي ، وقال الشهيد السابق : يا فوز استبَاقِي ، ودخل البلد فألحم السيف ، واستُلبَ البَحْتُ والزيف ، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامك في أبراجها المشيدة ، وظفر ناشدُ دينك منها بالنشيدة<sup>٢</sup> ، وشكر الله تعالى في قصدها مساعي النصائح الرشيدة ، وعمل ما يرضيك يا رسول الله في سدِّ ثَمَمِهَا ، وصَوَّن مستلمها ، ومُداوَاة أَلَمِهَا ، حرصاً على الاقتداء في مثلها بأعمالك ، والاهتداء بمِشكَاة كمالك ، ورتب فيها الحماة تشجِي العدوِّ ، وتصل في مرضاة الله تعالى ومرضاتك برواحها الغُدُوِّ .

« ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة<sup>٣</sup> بنت حاضرة الكفر إشبيلية التي أظلمتها بالجناح الساتر ، وأنامتها في ضَمَان الأمان للحُسام الباتر ، وقد وتر الإسلام من هذه المومسة البائسة بوتر الواتر ، وأحفظَ منها بأذى الوقاح المهاثر ، لما جرَّته على أسراه من عمل الخاتل الخاتر ، حَسَبَ المنقولِ لا بل المتواتر ، فطوى إليها المسلمون المدى النازح ، ولم تشكُ المطيُّ الروازح ، وصدق الجِدُّ جَدَّهَا المازح ، وخفقت فوق أوكارها أجنحةُ الأعلام ، وغشيتها أفواجُ الملائكةِ الموسومة وظلالُ الغمام ، وصابت من السهام ودَقَّ الرَّهَام ، وكاد يكفي السهام على الأرض ارتجاج أجوائها بكلمة الإسلام ، وقد صَمَّ خاطبُ عروس الشهادة

١ السقب : ولد الناقة وفي العبارة إشارة إلى ما حل يقوم صالح عندما عقروا الناقة ، فيقال في المثل لتصوير الهلاك « رغا فوقهم السقب » .  
٢ النشيدة : الضالة التي تنشد أي تطلب .  
٣ إطريرة ( Utrera ) إلى الجنوب الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٩ كيلومتراً ، وقد ضبعت بكسر الهززة وسكون الطاء .

عن الملام ، وسمح بالعزيز المصون مباح الملك العلام ، وتكلم لسان الحديد الصامت وصمت إلا بذكر الله لسان الكلام ، ووفت الأوتار بالأوتار ، ووصل بالخطي ذرع الأبيض البتار ، وسلطت النار على أربابها ، وأذن الله تعالى في تبار تلك الأمة وتبأبها ، فنزلوا على حكم السيف آفاقاً ، بعد أن أتلفوا بالسلح إتلافاً ، واستوعب المقاتلة كتافاً ، وقرنوا في الجدل أكتافاً أكتافاً ، وحملت العقائل والخرائد ، والولدان والولائد ، إركاباً من فوق الظهور وإردافاً ، وأقلت منها أفلاك الحمول بدوراً تضيء من ليالي المحاق أسدافاً ، وامتلأت الأيدي من المواهب والغنائم ، بما لا يصوره حلم النائم ، وتركت العوافي تنداعى إلى تلك الولائم ، وتفتن من مطاعمها في الملائم ، وشنت الغارات على حمص فجملت خارجها مغاراً ، وكست كبار الروم بها صغاراً ، وأجحرت أبطالها إجحاراً ، واستاقت من التعم ما لا يقبل الحصر استبحاراً .

«ولم يكن إلا أن عدل القسم ، واستقل بالقول العزيز الرسم ، ووضع من التوفيق الوسم ، فكانت الحركة إلى قاعدة جيان قيعة الظل الأبرد ، ونسيجة المنوال المفرد ، وكناس الغيد الحرد ، وكرمي الإمارة ، وبجر العمارة ، ومهوى هوى الغيث الهتون ، وحزب التين والزيتون ، حيث خندق الجنة تدنو لأهل النار مجانيه ، وتشرق بشواطئ الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانيه ، والقلعة التي تختمت بنان شرفاتها بخواتيم النجوم ، وهمت من دون سحابها البيض سحائب الغيث السجوم ، والعقيلة التي أبدى الإسلام يوم طلاقها ، وهجوم فراقها ، سمة الوجوم لذلك المهجوم ، فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوادعة ، وأجابت منادي دعوتك الصادقة الصادقة ، وحبستها بالفادحة الفادحة ، فغصت الربى والوهاد بالتكبير والتهليل ، وتجاوبت الخيل بالصهيل ، وانهالت الجموع المجاهدة في الله تعالى انهيال الكتيب المهيل ، وفهمت نفوس العباد المجاهدة في الله تعالى حق الجهاد معاني التيسير من ربها والتسهيل ، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل ، وأربت المحلات المسلمة على التأميل ، ولما صبحتها

النواصي المقبلة الغرر، والأعلام المكتبة الطرر، برز حاميتها مُصْحَرِين<sup>١</sup>،  
 وللحوزة المستباحة منتصرين، فكأثرهم من سرعان الأبطال رَجَلُ الدِّبَابِ<sup>٢</sup>،  
 ونَبَّتُ الوهاد والرُّبَى، فأقحموهم من وراء السور، وأسرت أقلام الرماح  
 في بسط جددهم المكسور، وتركت صرعاهم ولائم للنسور، ثم اقتحموا رَبَضَ  
 المدينة الأعظم ففرعوه، وجدّوا مَنْ دافع عن أسواره وصرَعُوهُ، وأكواس  
 الختوف جرَعُوهُ، ولم يتصل أولى الناس بأخراهم، ويحمد بمخيم النصر العزيز  
 سُراهم، حتى خذل<sup>٣</sup> الكافر الصبرُ وأسلم الجلد، ونزل على المسلمين النصر  
 فدُخِلَ البلد، وطاح في السيل الجارف الوالد منه والولد، وآتهم المطرف والمتلد،  
 فكان هولاً بعيداً الشناعة، وبعثاً كقيام الساعة، أعجل المجانيق عن الركوع  
 والسجود، والسلام عن مطاولة النجود، والأيدي عن ردم الخنادق والأغوار،  
 والأكبش عن مناطق الأسوار، والنفوط عن إصعاق الفجار، وعمد الحديد،  
 ومعاول البأس الشديد، عن نقب الأبراج ونقض الأحجار، فهيلتِ الكتبان،  
 وأبيد الشيب والشبان، وكسرت الصُّلبان، وفجع بهدم الكنائس الرهبان،  
 وأهبطت النواقيسُ من مرآقيها العالية وصروحها المتعالية، وخلعت ألسنتها  
 الكاذبة، ونقل ما استطاعته الأيدي المجاذبة، وعجزت عن الأسلاب ذوات  
 الظهور، وجلل الإسلام شعار العزّ والظهور، بما خلت عن مثله سوائف الدهور  
 والأعوام والشهور، وأعرست الشهداء ومن النفوس المبيعة من الله تعالى نخل  
 الصدقات والمهور، ومن بعد ذلك هُدم السور، ومحيت عن محيطه المحكم  
 السطور، وكاد يسير ذلك الجبلُ الذي اقتعدته المدينة ويدك ذلك الطور، ومن  
 بعد ما خرب الوجار، عُقرت الأشجار، وعُقر النار، وسلطت على بنات

١ مصحرين : بارزين .

٢ الرجل : الجماعة ، والدبا : الجراد .

٣ في ق : جذل ، وصوبناه .

٤ ق : الأشلاء .

التراب والماء النار ، وارتحل عنها المسلمون وقد عمتها المصائب ، وأصمى لبيتها  
 السهمُ الصائب ، وجللتها القشاعيمُ العصائب ، فالذئاب في الليل البهيم تغسل ،  
 والضباع من الحدب البعيد تنسل ، وقد ضاقت الجدُلُ عن المخائق ، وبيع  
 العريضُ الثمين بالدائق ، وسبكت أسورة الأسوار ، وسويت الهضاب بالأغوار ،  
 واكتسحت الأحوازَ القاصيةَ سرايا الغوار ، وحجبت بالدخانِ مطالعُ الأنوار ،  
 وتحلفت قاعتها عبرة للمعتبرين وعظة للناظرين ، وآية للمستبصرين ، ونادى لسان  
 الحمية ، يا لثارات الإسكندرية ، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين ، وأحقَّ الله  
 الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين .

« ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى ، ولدتها الحزينة عليها العبرى ، مدينة  
 أبدة<sup>١</sup> ذات العمران المستبعر ، والربض الحرق المصحح ، والمباني الشَّم الأنوف ،  
 وعقائل المصانع الجمّة الحلي والشنوف ، والغاب الأنوف ، بلدة التجر ، والعسكر  
 المسجّر ، وأفق الضلال الفاجر الكذب على الله تعالى الكاذب الفجّر ، فخذل  
 الله تعالى حاميتها التي يعي الحسبانَ عدّها ، وسجّر بحورها التي لا يرام مدّها ،  
 وحقّت عليها كلمة الله تعالى التي لا يستطاع ردّها ، فدُخلت لأول وهلة ،  
 واستوعب جمّها والمنة لله تعالى في نهلة ، ولم يكف السيف من عليها ولا مهلة ،  
 فلما تناولها العفا والتخريب ، واستباحها الفتح القريب ، وأسندَ عن عوآليها  
 حديثُ النصر الحسن الغريب ، وأقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب ،  
 وأضربت مسايها<sup>٢</sup> لهول المصاب ، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذي عظم  
 صيته ، والعز الذي سما طرفه واشرب لبنته ، والعزم الذي حُمد مسراه  
 ومبيته ، والحمد لله ناظم الأمر وقد راب شتيته ، وجابر الكسر وقد أفات  
 الجبر مفيته .

١ أبدة ( Ubeda ) - بتشديد الباء - إلى الشمال الشرقي من جيان .

٢ المساييف : جمع مسيف ، ويعني بها لسان الدين في الأرجح ، المدهاك ( أي السطر من البناء ) .



« ثم كان الغزو إلى أم البلاد، ومثوى الطارف والتلاد، قرطبة، وما قرطبة؟  
المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسي  
الذي بعصاه رُعي الحمل، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والحمل،  
والأفق الذي هو لشمس الخلافة العَبْشَمِيَّة<sup>١</sup> الحمل، فخيم الإسلام بعقوتها<sup>٢</sup>  
المستباحة، وأجاز نهرها المعبي على السباحة، وعم دَوْحها الأشب بواراً،  
وأدار المحلات بسورها سواراً، وأخذ بِمُخْتَقِهَا حِصَاراً، وأعمل النصر بشجر  
بصلها<sup>٣</sup> اجتناءً ما شاء واهتصاراً، وجدل من أبطالها من لم يرض انجحاراً، فأعمل  
إلى المسلمين لإصحاراً، حتى فرغ بعض جهاتها غلاباً جهاراً، وزفعت الأعلام إعلماً  
بعز الإسلام وإظهاراً، فلولا استهلال الغوادي، وأن أتى الوادي، لأفضت  
إلى فتح الفتوح تلك المبادي، ولقضى تَفْتَهُ العاكف والبادي، فاقضى  
الرأي - ولذنب الزمان في اغتصاب الكفر إياها متاب، تعمل يبشراه بفضل  
الله تعالى أقتاد وأقتاب، ولكل أجل كتاب - أن يرأض صعبها حتى يعود  
ذلولاً، وتُعْفَى معاهدها الآهلة فتترك طُلولاً، فإذا فجع الله تعالى بمارج النار  
طوائفها المارجة، وأباد بخارجها الطائفة والدارجة، خَطَبَ السيف منها أم<sup>٤</sup>  
خارجة<sup>٥</sup>، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ومفارق الهضاب بالهشيم قد شابت،  
والغلات المستغلات قد دعا بها القصلُ فما ارتابت، وكأن صحيفة نهرها لما

١ العبشمية : نسبة إلى عبد شمس .

٢ العقوة : الساحة . وفي ق : بعقرتها .

٣ ق : فأعمل النصر . . . نصها ؛ والمراد أن النصر حطم رماحها .

٤ التفت في الحجج : الحلق والتقصير وقص الأظفار ونحر البدن وغير ذلك مما يفعله الحاج إذا حل من  
إحرامه ، والمراد أنه استوفى حجه ، فكئى به لسان الدين عن بلوغ غاية الأرب .

٥ أم خارجة : كانت سريعة الخطبة ولذلك قيل في المثل « أسرع من نكاح أم خارجة » وقد شبه قرطبة  
بها لتداول الغلبة عليها دهرأ بعد دهر ، والمج ابن شهيد إلى هذا حين تغزل بقربطبة فقال :

زنت بالرجال على سنها فيا حبذا هي من زانية

أضمرت النار في<sup>١</sup> ظهرها ذابت ، وحيته فرّت أمام الحريق فانسابت ، وتحلفت لغمامم الدخان عمائم تلويها برؤوس الجبال أيدي الرياح ، وتشرها بعد الركود أيدي الاجتياح ، وأغربت بأقطارها الشاسعة ، وجهاتها الواسعة ، جنود الجوع ، وتوعدت بالرجوع ، فسلب أهلها لتوقع الهجوم متزور المهجوع ، فأعلامها خاشعة خاضعة ، وولّدانها لثديّ البؤس راضعة ، والله سبحانه يُوفِدُ بخر فتحتها القريب ركابَ البُشرى ، وينشر رحمته قبلكنا نشرًا .

«ثم تنوّعت يا رسول الله لهذا العهد أحوالُ العدو تنوّعاً يوهم إفاقتهم من الغمرة ، وكادت فتنته تؤذّن بجمود الجمرة ، وتوقّع الواقع ، وحذّر ذلك السمّ الناقع ، وخيف الحرق الذي يحار فيه الراقع ، فتمرفنا عوائد الله سبحانه ببركة هدايتك ، وموصول عنايتك ، فأنزل النصر والسكينة ، ومكّن العقائد المكيّنة ، فثابت العزائم وهبّت ، واطّردت عوائد الإقدام واستتبت ، وما راع العدو إلا خيل الله تعالى تجوس خلاله ، وشمس الحق توجب ظلاله ، وهُدَاك الذي هَدَيْت يُدْحِضُ ضلاله ، ونازلنا حصني قنبيل والحائر<sup>٢</sup> ، وهما معقلان متجاوران يتناجى منهما الساكن سراراً ، وقد اتخذنا بين النجوم قرّاراً ، وفصل بينهما حسام النهر يروق غراراً ، والتفّ معصمه في حلّة العصب وقد جعل الجسر سواراً ، فخذل الصليبُ بذلك الثغر منّ تولّاه ، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه ، وتبرجت عروسُ الفتح المبين بمجّلاه ، والحمد لله تعالى على ما أولاه .

ثم تحركنا على تفتة<sup>٣</sup> تعدّي ثغر الوسطة على عدوّه المساور في المضاجع ، ومصبحة بالفاجيء الفاجع ، فنازلنا حصن روضة الآخذ بالكظم ، المعترض بالشجّا اعراض العظم ، وقد شحنه العدو مددأ بثيساً ، ولم يألُ اختياره رأياً ولا تليساً ، فأعيا داؤه ، واستقلت بالمدافعة أعداؤه ، ولما أتلع إليه جيد المنجنيق ،

١ ق : حافي ، ولعلها : حامي .

٢ ق : والموائر .

٣ على تفتة : على أثر .

وقد برك عليه بروك الفتيق ، وشد عصام العزم الوثيق ، لجأ أهله إلى التماس  
العهود والمواثيق ، وقد غصوا بالريق ، وكاد يذهب بأبصارهم لمعانُ البريق ،  
فسكناه من حامية المجاهدين بمن يحمي ذماره ، ويقرر اعتماره ، واستولى أهل  
النفور إلى هذا الحد على معاقل كانت مستغلقة ففتحوها ، وشرعوا أرشيشة الرماح  
إلى قلوب قلوبها ففتحوها .

« ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفضُ عن الأعراف مراكم الغبار ، وترخي عن  
آباط خيلها شدَّ حزمِ المغار ، حتى عاودت النفوسُ شوقها ، واستتبع ذوقها ،  
وخطبت التي لا فوقها ، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية ، والمدارك  
المتصعبة على الأفكار المتعاصية ، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذي  
منه طرقَ وادعُه ، ومطلع الحق الذي صدعَ الباطلَ صادعُه ، وثنية الفتح التي  
برقَ منها لامعه ، ومشرف الهجوم الذي لم تكن لتعثر على غيره مطامعه ، وفرضة  
المجاز التي لا تنكر ، ومجمع البحرين في بعض ما يذكر ، حيث يتقارب الشيطان ،  
ويتوازي الخطان ، وكاد أن تلثمي حلقتنا البطان ، وقد كان الكفرُ قدَرٌ قدَرُ  
هذه الفرضة التي طرق منها حِمَاه ، ورماه الفتح الأول بما رماه ، وعلم أن لا  
تتصل أيدي المسلمين بإخوانهم إلا من تلقائها ، وأنه لا يعدم المكروه مع بقائها ،  
فأجلب عليها برجله وخيئه ، وسد أفق البحر بأساطيله ، ومراكب أباطيله ،  
بقطع ليلته ، وتداعى المسلمون بالعدوتين إلى استنقاذها من لهواته ، أو إمساكها  
من دون مهواته ، فعجز الحول ، ووقع بملكه إياها القول ، واحتازها قهراً ،  
وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهراً ، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم ،  
واسودت الوجوه لخبرها الهاجم ، وبكتها حتى دموع الغيث الساجم ، وانقطع  
المدد إلا من رحمة من يُنقَس الكروب ، ويفري بالإدالة الشروق والغروب ،  
ولما شكنا بشبا الله تعالى نحَرها ، وأغصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض  
تُكاثِر نجم السماء برها وبحرها ، ونازلناها نذيقها شديد التزال ، ونحجتها  
بصدق الوعيد في سبيل الاعتزال ، رأينا بأوآ لا يظاهر إلا بالله تعالى ولا يُطال ،

وممنعةً يتحاماها الأبطال ، وجناباً روضه الغيث الهطّال ، أما أسواقها فهي التي أخذت النجد والغور ، واستعدت بجدال الجلاذ عن البلاد فارتكبت الدور<sup>١</sup> ، تحوز بجرأ من العمارة ثانياً ، وتشكك<sup>٢</sup> أن يكون الإنس لها بانياً ، وأما أبراجها فصفوف وصفوف ، تزين صفحات المساييف منها أنوف ، وآذان لها من دوامغ الصخر شُوف ، وأما خندقها فصخر مجلوب ، وسورٌ مقلوب ، فصَدَقَتْها المسلمون القتال بحسب محلّتها من نفوسهم ، واقتران اغتصابها بيوهم ، وأقول شموهم ، فرشقوها من النبال بظلاله تحجب الشمس فلا يشرق سَنَاهَا ، وعرجوا في المراقي البعيدة يفرعون مبنها ، ونفوسها أنقَاباً ، وحصونها عقاباً ، ودخلوا مدينة البنة<sup>٣</sup> بِنْتِهَا غلاباً ، وأحسبوا السيوف استلالاً والأيدي اكتساباً<sup>٤</sup> ، واستوعب القتل مقاتلتها السابغة الجُنن ، البالغة المن ، فأخذهم الهول المتفاقم ، وجدلوا كأنهم الأراقم ، لم تفلت منهم عين تطرف ، ولا لسان يلبى من يستطلع الخبر أو يستشرف .

« ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سواراً على سورها ، وتجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها ، وأدنوا إليها بالضروب من حيل الحروب ، بروجاً مشيدة ، ومجانيق توثق حبالها منها نشيدة ، وخفقت بنصر الله تعالى عدّبات الأعلام ، وأهدت الملائكة مدد السلام ، فخذل الله تعالى كفّارها ، وأكهنهم<sup>٤</sup> شفارها ، وقلم بيد قدرته أظفارها ، فالتمسوا الأمان للخروج ، ونزلوا على مرّاق العروج ، إلى الأباطح والمروج ، من سمائها ذات البروج ، فكان بروزهم إلى العراء من الأرض ، تذكرة بيوم العرّض ، وقد

١ أي أنها وقعت في قضية دور (وهو من مصطلح المنطق) بسبب ما استعدت به من جدال المجالدة ؛ ولا ريب أن التلاعب بمصطلح أهل المناظرة هنا واضح .  
 ٢ في ق : البنية ؛ والمقصود أن هذه المدينة «البنة» هي بنت الجزيرة الخضراء أي هي من توابعها .  
 ٣ يقابل هنا بين الاحتساب - وهو ما كان لوجه الله تعالى - وبين الاكتساب .  
 ٤ أكهم : أكلّ عن الضرب .

جلل المقاتلة الصغار ، وتعلق بالأمان النساء والصغار ، وبودرت المدينة بالتطهير ، ونظقت المآذن العالية بالأذان الشهير ، والذكر الجهير ، وطرحت كفارها الثمائل عن المسجد الكبير ، وأزرى باللسنة النواقيس لسان التهليل والتكبير ، وأنزلت عن الصروح أجرامها ، يعيي الهدام<sup>١</sup> مرامها ، وألقي منبر الإسلام بها مجفواً فأنست غربته ، وأعيد إليه قربه وقربته ، وتلا واعظ الجمع المشهود ، قول منجز الوعود ومُورق العود ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْر تَتَّيْب ، وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (هود : ١٠٢) فكان الدمع يُغرق الآماق ، والوجد يُستأصل الأرقام ، وارتفعت الرغبات ، وعلت السيات ، وجيء بأسرى المسلمين يرسفون في القيود الثقال ، وينسلون من أحداق الاعتقال ، فضكت عن سوقهم أساود الحديد ، وعن أعناقهم فلَكَاتُ البأس الشديد ، وظلّوا بجناح اللطف العريض المديد ، وترتبت في المقاعد الحامية ، وأزهرت بذكر الله تعالى المآذن السامية ، وعادت المدينة لأحسن أحوالها ، وسكنت من بعد أهوالها ، وعادت الجالية إلى أموالها ، ورجع إلى القطر شبابه ، وردّ على دار الإسلام بابه ، واتصلت بأهل لا إله إلاّ الله أسبابه ، فهي اليوم في بلاد الإسلام قلادة النحر ، وحاضرة البر والبحر ، أبقى الله تعالى عليها وعلى ما وراءها من بيوت أمتك ، ودائع الله تعالى في ذمتك ، بكلمة دينك الصالحة الباقية ، وسدّل عليه أستار عصمته الواقية ؛ وعدنا والصلاة عليك شعار البروز والقفول ، وهجيراً الشروق والأفول ، والجهاد يا رسول الله الشأن المعتمد ، ما امتدّ بالأجل الأمد ، والمستعان الفرد الصمد .

« ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلّغ وسيلتي إليك ، بلغ من هذا

١ الهدام : الآلات .

القطر المرتدي بجاهك الذي لا يذل من ادَّرَعَه ، ولا يضل من اهتدى بالسبيل الذي شرعه ، إلى أن لاطَفْنَا ملكُ الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها ، ورفع التماثيل ببيوت الله تعالى ونصبها ، فانجاب عنها بتورك الحلك ، ودار بإدالتها إلى دعوتك الفلك ، وعاد إلى مكاتبتها القرآن الذي نزل به على قلبك الملك ، فوجبت مطالعةُ مقرِّك النبويِّ بأحوالِ هذه الأمةِ المكفولةِ في حجرك ، المفضلة بإدارة تجرك ، المهتدية بأنوار فجرِكَ ، وهل هو إلا ثمراتُ سعْيِكَ ، ونتائج رَعْيِكَ ، وبركة حبك ، ورضاك الكفيل برضى ربك ، وغمام رعدك ، وإنجاز وَعَدك ، وشعاع من نور سعدك ، وبدْرٍ يجنى رَيْعه من بعدك ، ونصر رايتك ، وبرهان آيتك ، وأثر حمايتك ورعايتك .

« واستنبتُ هذه الرسالة ماثحةً ببحرِ الندى الممنوح ، ومُفاتيحةً بابِ الهدى بفتح الفتوح ، وفارعة المظاهرِ والصروح ، وملقية الرحل بمتنزل الملائكة والروح ، لتمدُّ إلى قبولك يدَ استمناح ، وتطيرَ إليك من الشوق الحثيث بجناح ، ثم تقف موقف الانكسار ، وإن كان تجرُّها آمناً من الخسار ، وتُقدِّم بأنس القربة ، وتحجم بوحشة الغربية ، وتتأخَّر بالهيبه ، وتُجْهش لطول الغيبة ، وتقول : ارحم بُعدَ داري ، وضعف اقتداري ، وانتزاح أوطاني ، وخلوِّ أعطاني ، وقلة زادِي ، وفراغ مزادِي ، وتقبَّلْ وسيلةَ اعترافي ، وتغمَّدْ هفوةَ اعترافي ، وعجِّلْ بالرُضَى انصراف متحملي لانصرافي ، فكم جُبْتُ من بحر زاخر ، وقفَّرْ بالركاب ساخر ، وحاش لله تعالى أن يجيب قاصدك ، أو تتخطاني مقاصدك ، أو تطردني موائدك ، أو تضيقَ عني عوائدك ، ثم تمدَّ مقتضيةً مزيد رحمتك ، مستدعيةً دعاء مَنْ حضر من أمتك ، وأصحبتهها يا رسولَ الله عرضاً من النواقيس التي كانت بهذه البلاد المفتحة تعيق الإقامة والأذان ، وتسمع الأسماع الضالة والأذان ، مما قبيلَ الحركة ، وسالم المعركة ، ومكَّن من نقله الأيدي المشتركة ، واستحق بالقدوم عليك والإسلام بين يديك السابقة في الأزل البركة ، وما سواها فكانت جبلاً عَجَزَ عن نقلها الهدام ، فنسخ وجودها الإعدام ، وهي يا

رسول الله جنى من جنائك ، ورطبٌ من أفنانك ، وأثرٌ ظهر علينا من مسحةِ  
حنانك .

« هذه هي الحال والانتحال ، والعائقُ أن تشدَّ إليك الرحال ، ويعمل الرحال ،  
إلى أن نلتاق في عَرَصات القيامة شفيحاً ، ونحلَّ بجاهك إن شاء الله تعالى محلاً  
رفيعاً ، ونقدمَ في زُمرة الشهداء الدامية كلومهم من أجلك ، الناهلة غلغلمهم في  
سَجْنِكَ ، ونبتهل إلى الله تعالى الذي أطلعك في سماء الهداية سراجاً ، وأعلى  
لك في السبع الطبايق معراجاً ، وأم الأنبياء منك بالنبي الخاتم ، وقفَى على آثار  
نجومها المشرقة بقمرك العاتم ، أن لا يقطع عن هذه الأمة الغربية أسبابك ، ولا  
يسدَّ في وجوهها أبوابك ، ويوقفها لاتباع هداك ، ويثبت أقدامها على جهاد  
عِداك ، وكيف تعدم ترفيها ، أو تخشى بَخْساً وأنت موقيةها ، أو يعذبها الله  
تعالى وأنت فيها ؟ وصلاة الله وسلامه تحط بفنائك رحال طيبها ، وتهدر في ناديك  
شقاشقُ خطيبها ، ما أذكر الصباحُ الطلُّقُ هداك ، والغمامُ السكْبُ نَداك ،  
وما حنَّ مشتاق إلى لثَمِّ ضريحك ، وبَلَّيتُ نسمات الأسحار عمّا استرقت من  
ريحك ، وكتب في كذا . انتهت الرسالة ، وفيها ما لا يخفاء به من براعة لسان  
الدين ، رحمه الله تعالى وقدس روحه الطاهرة ، آمين .

٨٧ - وممّا علق بحفظي من ثمره رحمه الله تعالى أثناء رسالة في الغزاه  
خاطب بها ملك المغرب قوله بعد كلام : أين مروان بن الحكم ودهاؤه ،  
وعبد الملك بن مروان وبهاؤه ، والوليد وبنأؤه ، وسليمان وغذاؤه ، وعمر بن  
عبد العزيز وثناؤه ، ويزيد ونساؤه ، وهشام وخيلاؤه ، والوليد وندماؤه ،  
والجعدي وآراؤه ، أم أين السفاح وحسامه ، والمنصور واعتزامه ، والمهدي  
وإعظامه ، والهادي وإقدامه ، والرشيد وأيامه ، والأمين وندامه ، والمأمون  
وكلامه ، والمعتمم وإسراجه وإلحامه ؟ انتهى .

وقد تقدم كلام أبي الخطاب ابن دحية في هذا المعنى بطوله في الباب الثاني من هذا القسم ، فليراجع ثمة ١ .

[ للمقري محاكياً لسان الدين ]

قلت : وقد تقدم في الخطبة نظمي لمثل هذا ، وقد كنت نسجت على منوال لسان الدين وأنا بالمغرب نثراً مما لم يحضرني منه الآن غير قولي : أين الإسكندر ويونانه ، وشداد وبنيناه ، والنمرود وعدوانه ، وفرعون وهامانه ، وقارون وطغيانه ، وكسرى أنوشروان وإيوانه ، وقيصر وبطارقته وأعوانه ، وسيف ابن ذي يزن وغمندانه ، والمنذر ونعمانه ؟ إلى أن قلت : وأين أبو بكر رضي الله تعالى عنه وثباته ، وعمر رضي الله تعالى عنه ووثباته ، وعثمان رضي الله تعالى عنه ورهبته ، أم أين علي رضي الله تعالى عنه وشجاعته وعلمه ، وأين معاوية رضي الله تعالى عنه وحمله ، وأين يزيد وظلمه ؟

ثم ذكرت ما تقدم لسان الدين ، وقلت بعده : وأين الواثق وغاناؤه ، والمتوكل ومواليه وأولياؤه وأبناؤه ، والمنتصر وآماله ، والمعز وجماله ، والمستعين وعماله ، والمهتدي وأعماله ، والمعتمد وذكاؤه وإحاطته بالأخبار واشتماله ، والمقتدر ونساؤه وإهماله ؟ إلى أن قلت : وأين بنو عبيد وضلالهم ، وبنو بويه وجلالهم ، وبنو سلجوق ونظامهم ، وبنو سامان وإعظامهم ، وبنو أيوب وصلاحهم ، والجراكسة ومبائيتهم وسلاحهم ؟

ثم قلت في ملوك المغرب : وأين عبد الرحمن الداخل وأمراؤه ، والناصر وزهراؤه ، والحكم ووزراؤه ، والمؤيد وظهراؤه ، أم أين المنصور بن أبي عامر وغزواته ومواليه ، والمظفر وأدواته ومعاليه ، أم أين بنو حمود



وعُلاهم ، وأوصافهم وحِلاهم ، وبنو جَهْوَرٍ وحَزْمِهِمْ ، وبنو باديس وعَزْمِهِمْ ، وأين مُعْتَصِدُ بَنِي عَبَّادٍ ، ومُعْتَمِدُهُمُ الَّذِي سَنَا كَرَمَهُ لِلْمُعْتَفِينَ بادٍ ، وبنو ذِي النونِ وَمَزِيَّتُهُمْ ، وبنو صُمَادِحٍ ومرِيَّتُهُمْ ، وبنو الأَفْطُسِ وبنو هودٍ ، وما كان لهم من المكارم في الحفل المشهود ، وأين لَمْتُونُهُ ، وصبرهم الَّذِي ركبوا مُتُونُهُ ، أم أين الموحِّدون وناصرهم ومنصورهم ، ومصانعهم وقصورهم ، أم أين بنو الأحمرِ وغرناطتهم ، وإزالتهِمُ عن حوزة الدين أدناسَ المعتدين وإماطتَهُمْ ، وجَعْلُهُمُ الأُمُورَ لِمِثْلِ ابنِ الحَكِيمِ ولسانِ الدينِ وإِنَاطَتَهُمْ ، أم أين بنو مَرِينٍ وفارسهم ، ومغانيمهم ومدارسهم ، وأين بنو زِيَّانٍ ومنازلهم الشاهقة ، وأشجار عَزْمِهِمُ الباسقة ، وأين الحَفْصِيَّونَ ، ومستنصرهم الَّذِي قضى للمعالي الديون ، وأبو فارس ، الَّذِي شُنِفَتْ بِأَخْبَارِهِ آذَانُ الطُروسِ والفهارس ؟ طحنت والله تعالى الجميعَ رَحَى المُنونِ ، وتَأَيَّمَتِ الأَزْوَاجُ ويتمُّ البنون ، وطالت الأيامُ والسُنونُ ، وبقيت القصورُ العالية خالية ، والرسومُ المتكاثرة دائرة ، والسلوكُ المنظومة متناثرة ، وعن قريب يقف الكَلْبُ بين يدي ربِّ الأرباب ، في يوم تَدَهَلُ فيه الألباب ، وتنقطع إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسباب ، ويقتنص للمظلوم من الظالم ، وتنبهم للنجاة الطرقُ والمعالم ، وتُبَلَى السرائرُ لدى مَنْ هو بها عالم ، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا ، وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران : ٣٠) يوم يحكم الله تعالى في الخلق ، بالحق ، حسبما سبق في علمه إذ جعلهم قريباً وبعيداً ، وشقيماً وسعيداً ، اللهم اجعلنا في ذلك اليوم الصعب ممَّن فاز بالنجاة ، وحاز شفاعة نبيك ومُصْطَفَاكَ ذِي الحُرْمَةِ والجِاهِ ، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ؛ انتهى .

رجع لنثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

٨٨ - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به سلطان المغرب

أبا زِيَان لما تمَّ له الأمر ، وهو مشتمل على نظم ونثر ، ونصّه :

يا ابن الخلائف يا سميَّ محمدٍ  
أبشُرْ فأنت مجدُّدُ الملكِ الذي  
من ذا يعاندُ منكَ وارثه الذي  
ألقْتَ إليكَ يدُ الخلافةِ أمرها  
هذا وبينكَ للصريحِ وبينها  
من كانَ هذا الصنعُ أوَّلَ أمره  
مولايَ عندي في علاكَ محبةٌ  
قلبي يحدّثني بسألكَ جابرٌ  
بثرى جدودك قد حطّطتُ حقيبي  
وبذلْتُ وسعي واجتهادي مثلما  
فهو الولي لدى الذي اقتحم الردى  
وولي جدكَ في الشدائدِ عندما  
فاستهد منه النَّصحَ واعلم أنه  
إن كنت قد عجلت بعضَ مدائحِي

يا من علاه ليس يحضُر حاصِرُ  
لولاك أصبح وهو رَسْمٌ دائِرُ  
بعوده فلكُ المشيئةِ دائِرُ  
إذ كنت أنت لها الوليُّ الناصرُ  
حربٌ مضرّسةٌ وبحرٌ زاجرُ  
حسنتَ له العقبى وعزَّ الآخِرُ  
واللهُ يعلمُ ما تُكِنُّ ضمائرُ  
كسري ، وحظي منك حظُّ وافِرُ  
فوسيلني لعلاك نورٌ باهرُ  
يلقي للملكِ سيفَ أمركَ عامرُ  
وقضى العزيمة وهو سيِّفٌ باترُ  
خذلت علاه قبائلٌ وعشائرُ  
في كلِّ معضلةٍ طيبٌ ماهرُ  
فهي الرياضُ ، وللرياض بواكرُ

« مولانا ، وعمدة ديننا ودياننا ، الذي سخر الله تعالى البر والبحر بأمره ،  
وحكم فوق السموات السبع بعز نصره ، وأغنى يوم سعده عن سلّ السلاح  
وشهره ، وفتق عن زهر الصنع الجميل كمامة تسليمه وصبوره ، وقبض له في  
علم غيبه وزيراً مذخوراً لشدّ أزره ، وقوّد الملك إليه على حال حصّره ،  
الخليفة الإمام ، الذي استبشر به الإسلام ، وخفقت بعزه الأعلام ، ولاح بدرُ  
مُحيّاه فافتضّ الظلام ، المقتدي بالنبي الكريم سميّه في المرشد التي تألقت منها  
الصبح ، والمقاصد التي لازمها النّجح ، والتمحيص الذي نبع منه المنعُ ، حتى

في الهجرة التي جاءه بعدها الفتح ، أبو زيان ابن مولانا السلطان ولي العهد ترشياً ومالاً ، ومؤمل الإسلام تقلداً للمذهب الصريح وانتحالاً ، وأمير المسلمين لو أوسع القدر إمهالاً ، ووُسْطَى عقد البنين خلائق متعددة وخِلالاً ، المتحف بالشهادة ولماً يعرفُ بدره هلالاً ، المعوّض بما عند الله تعالى سعادة ألبسته سربالاً ، وأبلغته من رضوان الله تعالى آمالاً ، أبي عبد الرحمن ابن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء ، وعنصر الصبر والوفاء ، وستر الله تعالى المسدول على الضعفاء ، والمجاهد في سبيل الله تعالى بنفسه وماله ، المنيف على مراكز النجوم بهمه وآماله ، المقدس أبي الحسن ابن موالينا الخلفاء الطاهرين والأئمة المرضيين ، من قبيل بني مَرين ، وصفوة الله تعالى في هذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين ، وزينة الدنيا وعمدة الدين ، هنأه الله تعالى ما أورثه من سرير الملك الأصيل ، وخوّله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والتفصيل ، وتوجه من تاج العزة القعساء عند اشتباه السبيل ، وعوّضه من قبيل الملائكة عند تشتت القبيل ، وجعل قدمه الراسخة ، وآياته الناسخة ، وربّوته السامية الباذخة ، وغرة نصره الشاذخة ، وأوزعه شكر آلائه ، في الخلاص من ملكة أعدائه ، وخطر البحر وعدوان مائه ، وغول السفر ، وارتكاب الغرر ، وثبات أقدام أوليائه الذين ما بدّلوا تبديلاً ، ولا ارتضوا لقبيلة طاعته بعد أن ولوا وجوههم شطّرها تحويلاً ، بل صبروا صبراً جميلاً ، وباعوا نفوسهم تميمًا لعقدة إيمانهم وتكميلًا .

« يسلم على مقامكم الذي وسم السعد مشرق جبينه ، وذُخِرَتْ قُبُلُ الطاعة ليمينه ، وأقسم الدهر بمظاهرة أمره السعيد فبراً - والشكرُ لله تعالى - في يمينه ، عبدكم الذي اعتلق منكم بالوسيلة الكبرى ، وقرّب بملككم عيناً وشرح صدرا ، وبذل الجهد وإن قل قُدرةً وقدرا ، والتمس لكم الدعاء علناً وسراً ، ابنُ الخطيب الذي حَطَّ رَحْلَ اقتصاده بتراب الملوك الكرام جدودكم ، محارِب

١ شدخت الغرة : سالت فلمات الوجه دون أن تصل العينين .

بركم وأسباب وجودكم ، وآبائكم الذين في مظاهرتهم ورعيتهم يظهر للناس مخايل هداكم وتدرُّ سحائبُ جودكم ، ملتحقاً منذ سنتين بأصونة قبورهم وثيابها ، مستظلاً بأفئيتها المعظمة وقباياها ، ممرغاً خده بترابها ، مؤاصلاً الصراخ يا لمرين ويا ليعقوب متطارحاً على أبوابها ، فلم يُتسحِ الله تعالى له نعمة ترعى الضيف وتحمي الدخيل ، أو حميةً تدفعُ الضيم وتشفي الغليل ، إلا على يديكم يا أيها الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبطل الميدان في موقف الهول العظيم ، المدخور لنصر المظلوم وإنصاف الغريم ، وإجالة أقلام الفتح بفتح الأقاليم .

« كتبه مهنتاً بما سنّى الله تعالى لملككم من الصنع الذي خرق حجاب العادة ، وأرى إعجاز السعادة ، معجلاً ذلك بين يدي المبادرة إلى لثم بساطكم الذي شرف وجوهها بلثمه الوجوه ، وتخشاهُ الأملاك الجبابرةُ وترجوه ، وأداء الواجب من القيام بمنظوم ثنائه في الحقل المشهود ، وإبلاغ لسان الحمد وسع الجهود ، وإلقاء ما عند العبد من خلوص وجنوح ، وحب واضح أي وضوح ، فوليُّ دعوتكم الشيخ أبو ثابت أعزه الله تعالى يقرره ، ويبين مجمله ويفسره ، والعبد واثق بفضل الله تعالى على يديكم ، وملتمس النصر لديكم ، وقاطعٌ أن طلبته بكم تتسسى ، وأنكم سبب عاقبته الحسنى ، إما بالظهور على الوطن الذي تجرأ به المنقلبُ على ملككم ، ومدّ اليد إلى نثر سلككم ، ونقص لإرثكم المسلم المحرر ، وزلزل وطنكم المؤسس على الطاعة المقرر ، وأضرم النار في بساطكم وجبالكم ، وأطلق يد الفتنة على بيوت أموالكم متكرراً عليكم بالقلة ، متعزراً بالذلة ، جانياً على داركم بما لا تبيحه الملة ، أو بالشفاعة الجازمة إن لم يتأذن الله تعالى في الانتصاف ، والله يجعلُ الظهورَ بكم من الأوصاف ، ويعينكم على جبر الكسير ، وتيسير الأمر العسير ، ويهينكم منيحة الملك الكبير ، ويبقي كلمته في عقبكم بعد تملؤ التعمير ، والسلام » .

٨٩ - وله رحمه الله تعالى في مخاطبة السلطان أبي زيان المذكور: « المولى الذي طوق المنن ، وأحيا السنن ، وأنبت الله تعالى حبه في القلوب النبات الحسن ، ناظم كلمة الدين بعد انتشارها ، ومُقِيل عثارها ، والآخذ بثارها ، والمخلد لآثارها ، السلطان أبو زيان . . . إلخ - أبقاكم الله تعالى عالي القدم ، منصور العَلَم ، ظاهراً على الأمم ، مقصود الحمى كالركن الملتزم . عبدُ مقامكم الذي آوَيْتموه غريباً ، وأنستموه مريباً ، وأنلتموه على عدوه الدهرِ نصراً عزيزاً وفتحاً قريباً ، فلم يخش دركاً وثريراً ، ولا عدم حظوة وشفقة ونعمة وتقريباً ، ابن الخطيب عن ثناء يعطر الآفاق ، ويرقم الأوراق ، ويخلق الجيوب والأطواق ، وحب بهر نوراً وراق ، وجاس اشتهاره الشام والعراق . ويطالع العبدُ محل مولاه الذي خلّف ببابه قلبه وولده ، وصبره وجلده ، وصير وطنه داره الحقيقيةً وبلده ، أنه لما قدم على محل أخيه ، المعتد بما أودع الله تعالى من الخلال الشريفة فيه ، مولاي ابن مولاي أبي عبد الله - كفل الله تعالى جميل رعيه وكرم عهده ، وحكم بإعلاء جدّه ومضاء حدّه - رَعَى الوسيلة ، وصدّق المخيلة ، وجلا عند اجتلاء مخاطبتكم أسارير الفضيلة ، فلم يدعُ حقاً إلا صرفه ، ولا نكرة إلا عرفه ، ولا نعمة إلا أولاه ، وما ذاك يا مولاي وإن تعددت الرسائل والأذمة ، وادّكرت القربُ بعد أمة ، إلا بوصاتكم التي لا تُهمل ، وحرمتكم التي لا تُجهل ، وعطف مقامكم الذي اشتهر ، واعتنائكم بعدكم الذي راق وبهّر ، فالعبد عبدكم بكل اعتبار ، وخديمكم وإن نأت الدار ، ومحسوب على نعمه مقامكم الرفيع المقدار ، والأمل في مقامكم غير منقطع السبب ، والأهل والولد تحت كنف مقامكم الأصيل الحسب ، حتى يمنّ الله تعالى بحج بيته وزيارة رسوله على يديكم ، ويكون قضاء هذا الوطر منسوباً إليكم ، وبعد هذا يستقرّ القرار ، حيثُ يختار من يخلق ما يشاء ويختار ، بحول الله تعالى .

والعبد يذكر مولاه بما بشره به بين يدي وداعه ، وبمرأى وزيره السعيد واستماعه ، من انجلاء الحركة عن عزه وظهوره ، ونجاح أحواله واستقامة أموره ، ويهنيه بصدق الوعد ، وإمطار الرعد ، وظهور السعد ، وهي وسيلة إذا عدت الوسائل ، وروعت الذمم الجلائل ، ومثل مولاي من رعى وأبقى ، وسلك التي هي أبر وأتقى ، وما قصر عنه القلم من حق مولاي فالرسول أعزه الله تعالى يتممه ، وما قصر عنه الرسول فالله تعالى يعلمه ، وهو جلّ وعلا يديم أيام مولاي ويبقي مجده ، ويصلّ سعده ، والسلام « انتهى .

٩٠ - ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى شيخ الدولة يحيى بن رحو<sup>١</sup> قوله : « سيدي الذي له المزية العظمى ، والمحلّ الأسمى ، شيخ قبيل بني مرّين ، وقطب مدار الأحرار على الإجمال والتعيين ، والمتميز بالدهاء والرّجاحة ، والمعرفة الفسيحة الساحة ، والصدقة المباحة ، وشروط الصوفية من ترك الأذى ووجود الراحة ، أسلّم على ذاتكم الظاهرة التي بخلت الأزمان والله أن تأتي بنظيرها ، وتنافست الدول في تكبيرها ، وسارت المواكب الملوكية بمسيرها ، وأنت الألسن بفضلها وخيرها ، وأقرر لديها أنني أعددت من معرفتها بالأندلس كترألم أنفق منه إلى اليوم وزناً ، إعداداً له وخزناً ، إذ لا يخرج العتاد الكبير إلا عن حاجة وفاقة ، ولا ترد اليد إلى الذخيرة إلا في إضاعة وعجز طاقة ، وما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلي جهلاً بقيمتها العالية ، وإزراء بجهتها الكافية ، لكن نابت عن يدها أيد ، وكفى عن ابتدالها ما كف الله تعالى من عمرو وزيد ، والآن أقرر أنني قد كادت حاجتي إلى ذلك العتاد أن تتمحض ، وزبدته أن تتمحض ، إذ هو حظي من رعيّ ذلك القبيل الذي قصرت عليه رياسته ، والوزير

١ هو يحيى بن عمر بن رحو ، ولاء يوسف بن إسماعيل رياسة الجند المغربي بعد أبي ثابت عامر بن عثمان ( سنة ٧٤١ ) ، وهذه هي وظيفة شيخ الفزاة بالأندلس ، وقد بقي يحيى في هذه الوظيفة حتى سنة ٧٦٤ حين قبض عليه السلطان النصري وسجنه واستلبه جاهه ( الممعة البديرة : ١١٨ ) .

الذي من رأيه تستمد سياسته ، وإذا وَفَدَ خاصة هذه المدينة مُهتَبِينَ ، وبشكر  
إيائته الكريمة مُثْنِينَ ، فخيمته ظلٌ ظليلٌ ، ومشاركته معتمدي في الكثير فكيف  
ولا غرض لي إلاّ في القليل ، وعندني أن رَعِيَهُ لمثلي لا يفتقر إلى وسيلة تجلب ،  
ولا ذِمَامَ يحسب ، فمثله من قدر قدر الهناء ، وشد أعلام الحمد والثناء ، سامية  
البناء ، وعرف أن الدنيا على الله تعالى أحقر الأشياء ، وقد رفعت أمري كله  
بعد الله تعالى إلى رأيك ، وغنيت عن سعبي لنفسي بجميل سعيك ، والسلام .

٩١ - وممّا خاطب به لسان الدين شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق  
التلمساني رضي الله تعالى عنه قوله شافعاً : « يا سيدي أبقاكم الله تعالى مَحَطّاً  
الآمالِ وقِبْلَةَ الوجوه ، وبلّغ سيادتكم ما تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ،  
وكلاً بعين حفظه ذاتكم الفاخرة ، وجعل عز الدنيا متصلاً لكم بعز الآخرة ،  
بعد تقبيل يديكم التي يدها لا تزال تُشكر ، وحستها عند الله تعالى تُذكر ،  
أنهي إلى مقامكم أن الشيخ الكذا أبا فلان - مع كونه مستحقّ التجلّة بهجرةٍ  
إلى أبوابكم الكريمة قدّمّت ، ووسائل من أصالة وحشمة كرمت ، وفضل  
ووقار ، وتنويه للولاية أن كانت ذات احتقار ، وسن اقتضى الفضلُ بره ،  
وأدب شكر الاختبار عليه وسرّه - له بمعرفة سلفكم الأرضي وسيلة مرعية ،  
وفي الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية ، وتوجه إلى بابكم ، والتمسك  
بأسبابكم ، والمؤمل من سيدي ستره بجناح رعيه في حال الكبرة ، ولحظه  
بطرف المبرة ، إمّا في استعمال يليق بذوي الاحتشام ، أو سكون تحت رعي  
واهتمام ، وإعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام ، وهو أحق الغرضين بالتزام ،  
وإحالة سيدي في حفظه رسم مثله ، على الله تعالى الذي يجزي المحسنين بفضله ،  
ومنه نسأل أن يديم أيام المجلس العليّ محروساً من النوائب ، مُبلّغ الآمالِ  
والمآرب ، والمملوكُ قد قرّر شأنه في إسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة إليكم ،  
والتحسب في هذه الأبواب عليكم ، وتقليب القلوب بيد الله تعالى الذي يعطي

ويمنع ، ويملك الأمر أجمع ، والسلام .

٩٢ - وكتب إليه أيضاً في الشفاعة بما نصّه : « سيدي الأعظم ، وملاذي الأعصم ، وعروة عزي الوثقى التي لا تُفصم ، أبقاك الله تعالى بقاء آثارك آية للجز تأمر الدهر فيأتمر ، ويلبي بفنائك الطائف والمعتمر ، بأيّ لسان أنبي على فواضلك وهي أمتهات المينن ، وطُرفُ الشام واليمن ، ومقامات بديع الزمن ، والتحف المرتفعة عن الثمن ؟ فحسبي دعاء أردده وأواليه ، وأرتقب مطلوب الإجابة من مُقدّمه وتاليه ، وإن تشوّف المنعم للحال الموقوف خيرهُ بمشيئة الله تعالى على جميل سَعْبِهِ ، الموسّد على وطاء لطفه المغشّي بغطاء رعيه ، قلبٌ خافق ، وقلبٌ مؤمن يجول به وسواسٌ منافق ، وقد تجاوز موسى مجمع البحرين ، وأصبح سريّ بابه سريّ العين ، ولقد كانت مراحلُ الرّمَلِ قصيرةً قبل أن يكسبها زجلي ثِقَلَ الحركة ، ويخلط خاصّي في وظائفها المشتركة ، وليت أمري برز إلى طرف ، وأفضى إلى منصرف ، وربما ظفر آيس بما يرجوه ، وبرز المحبوب من المكروه ، والله تعالى لا يفضّح جاه الكتاب الذي أحيا وأنشر ، وحيّاً وبشر ، وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت مثابكم المحشر ، وموصل كتابي ، ينوبُ في تقبيل اليد العليا منّابي .

« وليعلم سيدي أن هذا القطر على شهرته ، وتألّق مشتره وزهرته ، إذا انتحل كرامه ، وعهد الفضل لم يبق إلا انصرامه ، فهو لبابه المتخير ، وزلاله الذي لا يتغير ، أصالةٌ معروفة ، وهمّةٌ إلى الإيثار مصروفة ، ونُبلاً على السنّ والكبرة ، ورجوليةٌ خليقة بصلة الحرمة والمبرة ، والوسيلة لا تُطرح ، والمعنى الذي لا يفسّر لوضوحه ولا يُشرح ، وهو انتماؤه إلى جناب سيدي حديثاً وقديماً ، واعترافه بنعمه مديراً لها ومديماً ، والله تعالى يوفي من إيثار سيدي حظّه ، ويجدّد لديه رعيه ولحظه ، حتى يعود خافقاً علىكم إقباله ، معلماً ببردُ اهتباله ، مسروراً



يبلوغ آماله ، فلعمري إن محلّ ولايته لكفّي ، وإنّ عهد أمانته لونيّ ، وإن عامل جدّه لظاهر وخفيّ ، وما يفعله سيدي من رعيّه ، وإنجاح سعيّه ، محسوب من مناقبه ، ومعدود في فضل مذاهبه ، والسلام الكريم يخلصكم ورحمة الله وبركاته « انتهى .

وقد تكررت في كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه الله تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظماً ونثراً ؛ إذ كان - أعني ابن مرزوق - رئيس الدولة ، ومعتمد الجليّة ، وسبق منّا التعريفُ ببعض أحواله في باب مشايخ لسان الدين ممّا جرّته المناسبة ، فليرجع إليه منّ أرادّه ، والله تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة .

٩٣ - وممّا اشتمل على نثر لسان الدين ونظمه ما خاطب به الرئيس أبا زيد ابن خلدون ، لما ارتحل من بحر المرية واستقر ببلد بسكرة عند رئيسها أبي العباس ابن مزنيّ ، صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا ، وقد تقلّد كتابة صاحب تليمان ، ووصل الكتاب عنه من إنشائه ، وهذه صورة ما كتبه لسان الدين رحمه الله تعالى ١ :

بنفسي وما نفسي عليّ بهينة	فيتزلّي عنها المكاسُ بأثمان ٢
حبيبٌ نأى عنيّ وصمّم لا يني	وراش سهامَ البينِ عمداً فأصماني
وقد كان همُّ الشيبِ ، لا كان ، كافياً	فقد آدني لما ترحلَ همان
شرعتُ له من دمعِ عينيّ مورداً	فكدّرَ شربي بالفراقِ وأظماني
وأرعيته من حُسنِ عهدي جميمة	فأجذبَ آمالي وأوحشَ أزماني
حلفتُ على ما عنده لي من رضّي	قياساً بما عندي فأحنثَ أيماي
وإني على ما نالني منه من قليّ	لأشتاقُ من لقياه نُغبةَ ظمآن

١ وردت هذه الرسالة في التعريف : ١٠٤ .

٢ المكاس : المشاحة في الثمن .

سألتُ جنوني فيه تقرباً عرشه      فقسْتُ بجنّ الشوقِ جنّ سليمانِ  
 إذا ما دعا داعٍ من القومِ باسمه      وثبتُّ وما استبْتُ شيمَةَ هيمانِ  
 وتالله ما أصغيتُ فيه لعاذلٍ      تحاميته حتى ارعوى وتحاماني  
 ولا استشعرتُ نفسي برحمة عابدٍ      تُظللُّ يوماً مثلهُ عبدَ رحمنِ  
 ولا شعرتُ من قبله بتشوقٍ      تخلل منها بينَ روحِ وجثمانِ

أما الشوقُ فحدثتُ عن البحرِ ولا حرجَ ، وأما الصبرُ فسلُّ به أيةُ درجَ ،  
 بعد أن تجاوز اللوى والمنعرجَ ، لكن الشدة تعشقُ الفرجَ ، والمؤمن ينشَقُ  
 من رَوْحِ الله تعالى الأرجَ ، وأتى بالصَّبْرَ ، على إبر الدبَّيرَ ، لا بل الضربِ  
 الهبرِ ، ومطاوله اليوم والشهرَ ، حتى حكم القهرَ ؟ وهل للعين أن تسلو سلو  
 المقصرَ ، عن إنسانها المبصرَ ، أو تذهل ذهول الزاهدَ ، عن سرّها الرائي والمشهدِ ؟  
 وفي الجسد بَضْعَةٌ يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ،  
 وإذا كان الفراق هو الحِمام الأولَ ، فعلامَ الموعولِ ؟ أعيّتْ مُراوضة الفراقِ ،  
 على الراقِ ، وكادت لوعة الاشتياقِ ، أن تُفْضي إلى السِّياقِ :

تركتُموني بعد تشييعكم      أوسعَ أمرَ الصبرِ عصيانا  
 أقرعُ سني ندماً تارة      وأستميحُ الدمعَ أحياناً

وربما تعلتُ بغشيانِ المعاهد الخالية ، وجددتُ رسومَ الأسى بمباكرةِ  
 الرسومِ البالية ، أسأل نونَ النوى عن أهليه ، وميمَ الموقدِ المهجور عن مُصْطليه ،  
 وثناء الأثافي المثلثة عن منازل الموحدين ، وأحار بين تلك الأطلال حيرة الملحدين ،  
 لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين ، ككَلِفْتُ لعمر الله بسالٍ عن جفوني المؤرقة ،  
 ونائم عن همومي المتجمعة المتفرقة ، ظعنَ عن مكال ، لا متبرماً مني بشرٍ  
 خلال ، وكدّر الوصل بعد صفائه ، وصرّج النصل بعد عهد وفائه :

١ الهبر : الذي يهبر أي يقطع .

أَقِيلَ اشْتِيَاقاً أَيَّهَا الْقَلْبُ رَبِّمَا رَأَيْتَكَ تُصْنِفِي الْوَدَّ مِنْ لَيْسَ جَازِيَا<sup>١</sup>  
 قَهَا أَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ بَدَمٍ أَسْأَلُهُ ، وَأَنْهَلَ فِيهِ أَسَى لَه<sup>٢</sup> ، وَأَعْلَلَ بِذِكْرَاهِ قَلْباً<sup>٣</sup>  
 صَدَعَهُ ، وَأَوْدَعَهُ مِنَ الْوَجْدِ مَا أَوْدَعَهُ ، لَمَّا خَدَعَهُ ، ثُمَّ قَلَاهُ وَوَدَّعَهُ ، وَأَنْشَقَ  
 رِيَّاهُ أَنْفَ ارْتِيَا حِ قَدْ جَدَّعَهُ ، وَأَسْتَعْدِي بِهِ عَلَى ظَلَمِ ابْتَدَعَهُ :

خَلِيلِيَّ هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا قَتِيلًا بَكِيٍّ مِنْ حَبِّ قَاتَلَهُ قَبْلِي<sup>٤</sup>  
 فَلَوْلَا عَسَى الرَّجَاءُ وَلَعَلَّهُ ، لَا بَلَّ شَفَاعَةَ الْمُحَلِّ الَّذِي حَلَّه ، لَمَزَجْتُ الْحَنِينَ  
 بِالْعَتَبِ<sup>٥</sup> ، وَبَثَّتْ كِتَابِيهِ كَمَنَاءٍ فِي شَعَابِ الْكُتُبِ ، تَهَزُّ مِنَ الْأَلْفَاتِ رَمَاحاً خُزُرَ  
 الْأَسْتَةِ ، وَتَوَتَّرَ مِنَ النُّونَاتِ أَمْثَالُ الْقَيْسِيِّ الْمُرْتَةِ ، وَتَقَوَّدَ مِنْ بِيَاضِ الطَّرْسِ  
 وَسَوَادِ النَّقْسِ بُلُقًا تَرْدِي<sup>٦</sup> فِي الْأَعْتَةِ ، وَلَكِنَّهُ أَوَى إِلَى الْحَرَمِ الْأَمِينِ ، وَتَفِيئًا  
 ظِلَالِ الْجَوَارِ الْمُؤْمِنِ مِنْ مَعْرَةِ الْعَوَارِ عَنِ الشَّمَالِ وَالْيَمِينِ ، حَرَمِ الْخِلَالِ الْمَرْزِيَّةِ ،  
 وَالظَّلَالِ الْيَزْيِيَّةِ ، وَالْمَهْمِ السَّنِيَّةِ ، وَالشَّيْمِ الَّتِي لَا تَرْضَى بِالْدُونِ وَلَا بِالْدَيْئَةِ ،  
 حَيْثُ الرَّفْدِ الْمَمْنُوحِ ، وَالطَّيْرِ الْمِيَامِنِ يُزْجَرُ لَهَا السُّنُوحِ ، وَالْمَثْوَى الَّذِي إِلَيْهِ -  
 مَهْمَا تَقَارَعَ الْكِرَامِ عَلَى الضِّيْفَانِ ، حَوْلَ جَوَابِي الْجَفَانِ - الْمَيْلُ وَالْجَنُوحِ :

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَوْرًا ، وَمَنْ فَلَقَ الصَّبَاحَ عَمُودًا<sup>٧</sup>  
 وَمَنْ حَلَّ بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ فَقَدْ اطمأنَّ جَنَبُهُ ، وَتَغَمَّدَ بِالْعَفْوِ ذَنْبَهُ ، وَلِلَّهِ دَرُّ  
 الْقَائِلِ حَيْثُ يَقُولُ :

- 
- ١ البيت للمتنبى بعد فراقه لسيف الدولة وحلوله عند كافور .
  - ٢ التعريف : وأندب في ربيع الفراق ، أسى له .
  - ٣ التعريف : وأشكو إليه حال قلب .
  - ٤ البيت بلحميل بثينة ، ديوانه : ١٧٦ .
  - ٥ التعريف : لنشرت ألوية العتب .
  - ٦ تردى : تمشي الرديان ، وهو نوع من المشي دون العدو .
  - ٧ البيت لأبي تمام (ديوانه : ٨١ ط . بيروت) .

فوحقّه لقد انتدبتُ لوصفه بالبُخلِ لولا أنْ حمصاً داره  
بلد متى أذكره تهتجُ لوعي وإذا قدحتَ الزندَ طار شراره

اللهم غفراً ، لا كُفراً ، وأين قرارة النخيل ، من مَثَوَى الأكلف البخيل ،  
ومكذبة المخيل ؟ وأين ثانية هَجَرَ ، من متبولاً من ألد وفَجَرَ ؟

من أنكرَ غيثاً منشؤه في الأرضِ وليسَ بمُخلفها  
فبنانُ بني مَزْنِي مُزْنٌ تنهلُ بلطفِ مُصْرَفها  
مُزْنٌ مذ حلَّ بيسكرةٍ يوماً نطقتِ بمُصحَفها<sup>١</sup>  
شكرتُ حتى بعبارتها وبمعناها وبأحرفها  
ضحكتُ بأبي العباس من أ أيامِ ثنايا زخرفها  
وتنكرتُ الدُّنيا حتى عُرِفَتْ منه بمعرفها

بل نقول : يا محلّ الولد ﴿ لا أقسمُ بهذا البلدِ وأنتَ حلٌّ بهذا البلدِ ﴾  
(البلد: ٣، ٢) لقد حلَّ بَيْنُكَ عُرَى الجلدِ ، وخلق الشوق بعدك يا ابن خلدون  
في الصميم من الخلدِ ، فحيّاً الله تعالى زمناً شُفِيَتْ برُقى قربك<sup>٢</sup> زَمَانَتُهُ ،  
واجتليتُ في صدف مجدك جمَانَتُهُ ، ويا من لمشوق لم تقض من طول خلتك  
لِبَانَتُهُ<sup>٣</sup> ، وأهلاً بروض أظلت أشتات معارفك بانته ، فحمامته بعدك تندب ،  
فيساعدها الجُنْدُبُ ، ونواسيمُهُ ترقُّ فتتغاشى ، وعشياته تتخافت وتتلاشى ،  
ومزْنُهُ باك ، ودَوْحُهُ في مآتم ذي اشتباك ، كأن لم تكن قَمَرَهالاتِ قبابه ،  
ولم يك أنسك شارع بابهِ ، إلى صفوة الظرف ولُبابهِ ، ولم يسبح إنسانُ عينك في  
ماء شبابه ، فلهفي عليك من درة اختلستها يدُ النوى ، ومَطَّل بردّها الدهر  
ولَوَى ، ونَعَقَ الغرابُ بينها في ربوع الجَوَى ، ونطق بالزجر فما نطق عن

١ مصحف بسكرة : بشكره أو تشكره .

٢ التعريف : في قربك .

٣ التعريف : وقصيت في مرعى خلتك لبانته .

الهوى ، وبأي شيء نعتاضُ منك أيتها الرياض ، بعد أن طمى نهرك<sup>١</sup> الفياض ،  
وفهّقتِ الحياض ؟ ولا كان الشائء المشنوء ، والجربُ المهنوء ، من قِطْع  
ليلٍ أغار على الصبح فاحتمل ، وشارك في الدمّ الناقّةَ والجمل ، واستأثر جنحه  
ببدر النادي لما كمل ، نشر الشراع فَرَاع ، وأعمل<sup>٢</sup> الإسراع ، كأنّما هو  
تمساح النيل ضايق الأحاب في البرهة ، واختطف لهم من الشط نزهةَ العينِ  
وعينَ الزهمة ، ولجّجَ بها والعيون تنظر ، والغمر عن الاتّباع يحظر ، فلم  
يُقدّرُ إلاّ على الأسف ، والتماح الأثر المشفّ ، والرجوع بملء العيّبة  
من الخيبة ، ووقر الحسرة<sup>٣</sup> من الحسرة ، وإنّما نشكو إلى الله البثّ والحزن ،  
ونستمطر من عبارتنا المزن ، وبسيف الرجاء نصُول ، إذا شرّعت لليأس  
النصول :

ما أقدرَ الله أن يُدني علي شَحَطٍ مَن دارُهُ الحزنُ ممّن داره صُولُ<sup>٤</sup>

فإن كان كلّم الفراق رغبياً<sup>٥</sup> ، لما نويت مغيباً ، وجللت الوقت الهنيء  
تشغيلاً ، فلعلّ الملتقى يكون قريباً ، وحديثه يروى صحيحاً غريباً .  
إيه ثقة<sup>٦</sup> النفس كيف حال تلك الشمائل ، المزهرة الخمائل ؟ والشيم ،  
الهامية الديم ، هل يمر بيها لمن راعت بالبعد باله ، وأخذت بعاصف البين  
ذُبالة ، أو ترثي لشؤونٍ شأنها سَكَبٌ لا يفتّر ، وشوق بيتُ جبال الصبر وبيتر ،  
وضنّى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء وتستر ، والأمر أعظم والله يستر ، وما  
الذي يضيرك ؟ صينَ من لفتح السّمومِ نضيرُك ، بعد أن أضرمتَ وأشعلت ،

١ نهرك : سقطت من ق .

٢ التعريف : وواصل .

٣ الجسرة : الناقّة ؛ والوقر : الحمل .

٤ البيت لحندج بن حندج المري ، (حماة المرزوقي : ١٨٣١) .

٥ الجرح الرغب : الواسع .

٦ التعريف : إيه سيدي .

وأوقدت وجعلت ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، أن تترفق بدماء ، أو تردّ  
 بنُجْبَةِ ماء ، أرماقَ ظمَاء ، وتتعاهد المعاهد بتحية يُشَمُّ منها شذا أنفاسك ، أو  
 تنظر إلينا على البعد بمُقَلَّة حَوْرَاء من بياض قرطاسك وسواد أنفاسك ، فربما  
 قنعت الأنفسُ المحبة بنجبال زُور ، وتعللت بنوالٍ متزور ، ورضيت لما لم تصدِ  
 العنقاء بزرزور :

يا من ترحلَ والنسيمُ لأجلِهِ      تشتاقُ إن هبتَ شذا رِيّاهَا  
 تحيي النفوس إذا بعثت تحية      فإذا عزمْتَ اقرأ ﴿ومن أحياءها﴾<sup>١</sup>

ولكن أحييت بها فيما سلف نفوساً تفديك - والله تعالى إلى الخير يهديك -  
 فنحن نقول معشر مرديك : ثنّ ولا تجعلها بيضة الديك<sup>٢</sup> ، وعذراً فإنني لم  
 أجترّ على خطابك بالفقر الفقيرة ، وأدلت لدى حجراتك برفع العقيرة ، لا عن  
 نشاط بعثت مرمُوسه ، ولا اغتباط بالأدب تغري سياسته سُوسه ، وانبساط  
 أوحى إليّ على الفترة ناموسه ، وإنّما هو اتفاق جرّته نفثة المصدور ، وهيناء  
 الجربِ المجدور ، وخارق لا مخارق<sup>٣</sup> ، فثم قياس فارق ، أو لحن غني به بعد  
 الممات<sup>٤</sup> مفارق ، والذي سببه<sup>٥</sup> ، وسوّغ<sup>٦</sup> منه المكروه وحسبه ، ما اقتضاه  
 الصنوي يحيى - مدّ الله تعالى حياته ، وحرّس من الحوادث ذاته - من خطاب  
 ارتشف به لهذه القريحة بثلاتها ، بعد أن رضي علّالتها ، ورشح إلى الصّهر  
 الحضرمي سلاتها ، فلم يسع إلا إسعافه ، بما أعافه ، فأملت مُجيباً ، ما لا

١ إشارة إلى الآية الكريمة : ومن أحياءها فكأنما أحيأ الناس جميعاً (المائدة : ٣٢) .  
 ٢ من قول يشار :

قد زرتنا مرة في العمر واحدة      ثني ولا تجعلها بيضة الديك

٣ التعريف : وإن تعلل به مخارق .

٤ التعريف : بعد البعد .

٥ التعريف : والذي هيأ هذا القدر وسببه .

٦ التعريف : وسهل .

يُعدّ في يوم الرهان نجيباً ، وأسمعتُ وِجيباً ، لما ساجلتُ بهذه الترهات سحرأً  
عجيباً ، حتى إذا أَلَفَ القلمُ العريان سَبَّحَه ، وجمع برذون الغرارة فلمَّ  
أَطِقَ كَبَّحَه ، لم أَّفَقَ من غَمْرَة غلوه ، وموقف متلوه ، إلا وقد تَحَيَّرَ إلى  
فئتكَ معترأً بل معترأً ، واستقبلها ضاحكاً مُفترأً ، وهشَّ لها برأً ، وإن كان  
لونهُ من الوجَلِ ١ مُصْفَرأً ، وليس بأوّل من هجر ، في التماس الوصل ممّن  
هَجَرَ ، أو بعث التمر إلى هَجَرَ ، وأي نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام ،  
وإجالة جِياد الأَقلام ، في محاورَة الأعلام ؟ بعد أن حال الجَرِيض ، دون القريض ٢ ،  
وشغل المريض ، عن التعريض ، واستولى ٣ الكسَلُ ، ونصّلت الشعرات البيض  
كأنّها الأسَلُ ، تروع برقط الحيات ، سِرْبَ الحياة ، وتطرق بذوات الغُرُزِ  
والشَيَاتِ ٤ ، عند البيات ، والشيب الموت العاجل ، وإذا ابيضَ زَرَعٌ صَبَّحَتْه  
المناجل ، والمعتبر الآجل ، وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده ، حُكِمَ في الظاهر  
بإبعاده ، وأسرّه في مَلَكَةِ معاده ، فأغضَ أبقاك الله واسمح ، لمن قَصَرَ عن  
المَطْمَح ، وبالعين الكليلَة فالمح ، واغتم لباسَ ثوب الثواب ، واشفَ بعض  
الجوى بالحواب ، تولاك الله تعالى فيما استضفت وملكت ، ولا بعدت ولا  
هلكت ، وكان لك أيةً سلكت ، ووَسَمَك من السعادة بأوضح السمات ، وأتاح  
لقائك من قبل الممات ، والسلام الكريم يعتمد جلال ولدي ، وساكن خَلَدِي ،  
بل أخي وإن عتبتهُ ٥ وسيدي ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

قلت : هذه الرسالة الرافلة في حلل البلاغة لم أر مثلها ولم أقف عليه ، فرحم  
الله تعالى لسان الدين ووجه سحائب الرحمة إليه ، فلقد كان آيةً الله في النظم

١ التعريف : الخجل .

٢ هذا مثل ؛ والجريض : ما يعترض في الخلق من غصص ، أي حال العائق دون قول الشعر ،  
ويتصل بقصة عبيد بن الأبرص ويوم البؤس عند النعمان .

٣ التعريف : وغلب حتى .

٤ ذوات الفرر والشيات هي الخيل .

٥ التعريف : وإن اتقيت عتبه .

والنثر وجميع العلوم على اختلافها .

٩٤ - وكما خاطب الولي ابن خلدون مخاطب أخاه أبا زكريا يحيى حسبما قال في بعض كتبه : ومما خاطبت به الفقيه أبا زكريا ابن خلدون ، لما ولي الكتابة عن السلطان أبي حمّو سلطان تلمسان من بني زيان واقترن بذلك نصر وصنع غبطته به وأشدّتُ به قصد تنفيقه وإنهاضه لديه : «نخص الحبيب الذي هو في الاستظهار به أخ وفي الشفقة عليه ولّد ، والولي الذي ما بعد قرب مثله أمل ولا على بُعد جلد ، والفاضل الذي لا يخالف في فضله ساكن ولا بلد ، أبقاه الله تعالى وفاز فوزه وعصمته لها من توفيق الله سبحانه عمد ، ومورد سعادته المسوغ لعادته لا غور ولا ثمد ، ومدى إمداده من خزائن إلهام الله تعالى وسداده ليس له أمد ، وحمى فرح قلبه بمواهب من ربه أن يطرقه كمد .

« تحية مُحلّه ، من صميم قلبه بمحلّه ، المنشئ رواق الشفقة ، مرفوعاً بعمد المحبة والمقّة ، فوق ظعنه وحلّه ، مؤثره ومُجِلّه ، المعني بدقّ أمره وجِلّه ، ابن الخطيب ، من الحضرة الجهادية غرناطة ، صان الله تعالى خلالها ، ووقى هجير هجر الغيوم ظلّالها ، وعمر بأسود الله تعالى أغيالها ، كما أغرى بمن كفر بالله تعالى صيالها ، ولا زائد إلاّ من من الله تعالى تصوب ، وقوة يسترد بها المغصوب ، ويخفض الصليب المنصوب ، والحمد لله تعالى الذي بحمده يُنال المطلوب ، وبذكره تطمئن القلوب ، ومودتكم المودة التي غذتها تُديّ الخلوص بلبانها ، وأحلتها حلائل المحافظة بين أعينها وأجفانها ، ومهدت موات أخواتها الكبرى أساس بنيانها ، واستحقت ميراثها مع استصحاب حال الحياة إن شاء الله تعالى واتصال زمانها ، واقتضاء عهود الأيام بيمينها وأمانها ، والله درُّ القائل :

فإن لم يكنّها أو تكنّه فإنّه أخوها غدّته أمّه بلبانها<sup>١</sup>

١ البيت لأبي الأسود الدؤلي (ديوانه في نفائس المخطوطات ٢ : ٣٧) وكان له غلام يتاجر إلى الأهواز ويشرب الخمر .



« وصل الله تعالى ذلك من أجله وفي ذاته ، وجعله وسيلة إلى مرضاته ، وقربة تنفع عند اعتبار ما روعي من سنن الجبار ومفترضاته .

« وقد وصل كتابكم الذي فاتح بالريحان والروح ، وحلّ من مرسوم الولاء محلّ البَسْمَلَة من اللوح ، وأذن لنوافح الثناء بالبوح ، يشهد عدله بأنّ البيان يا آل خلدون سكن من مثواكم دارَ خلود ، وقدح زنداً غير صلود ، واستأثر من محابركم السيادة ، وقُضِبَ أقلامكم الميادة الميالة ، بأبٍ مُنْجِبٍ وأم ولود ، يقفو شانيه غير المشنوّ ، وفصيله غير الجرب ولا المهنوّ ، من الخطاب السلطاني سفينة مُنْوَحٍ ١ ، إن لم نقل سفينة نوح ، ما شئت من آل أزواج ، وزُمَرَ من الفضل وأفواج ، وأمواج كرم تطفو فوق أمواج ، وفنون بشارت ، وإهطاع قبائل وعشائر ، وضربٍ للمسرّات أعيان الشائر ، فقلّته هو من قلم راعي نَسَبَ القنا فوصل الرحم ، وأنجد الوشيج والملتحم ، وساق بعصاه من البيان الذود المزدحم ، وأخاف من شدّة عن الطاعة مع الاستطاعة فقال ﴿ لا عاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ (هود : ٤٣) ولو لم يوجب الحقّ برّقه ورعده ، ووعيده ووعدّه ، لأوجبه يمنه وسعده ، فلقد ظهرت مَخَالِبُ نُجْحِهِ ، علاوة على نصحه ، ووضحت محاسن صُبْحِهِ ، في وحشة الموقف الصعب وقبحه ، وصلّ الله تعالى له عوائد منحه ، وجعله إقليداً كلّما استقبل باب أمل وكَلَّه الله تعالى بفتّحه .

« أمّا ما قرّره ولاؤكم من حب زكا على حبة القلب حبّه ، وأنبته النبات الحسن ربّه ، وساعده من الغمام سكّبه ، ومن النسيم اللدن مهبّه ، فرسم ثبت عند الوليّ نظيره ، ومن غير معارض يَضِيرُهُ ، وربما أربى بتذييل مزيد ، وشهادة ثابت ويزيد ٢ ، ولم لا يكون ذلك ، وللقلب على القلب شاهد ؟ وكونها

١ المنوح : العطايا .

٢ ثابت ويزيد : من أعلام التابعين الثقات كأن تقول : ثابت البناني ويزيد بن الأسود ؛ ثم يلمح إلى قول جميل :

إذا قلت ما بي يا بشينة قاتلي من الوجد قالت ثابت ويزيد

أجناداً مُجَنَّدَةً لا يحتاج تقريره إلى ماهد وجهه جاهد ، ومودة الأخوة سبيلها  
 لاحب ، ودليلها للدعوة الصادقة مصاحب ، إلى ما سبق من فضل ولقاء ،  
 ونظافة سقاء ، واعتقاد ، لا يُرَاعَ سِرُّهُ بذنب انتقاد ، واجتلاء شهاب وقّاد ،  
 لا يحوج إلى إيقاد ، إنّما عاق عن مواصلة ذلك نوى شَطَّ منها الشطن ، وتشذيب  
 لم يتعين معه الوطن ، فلما تعين ، وكاد الصبحُ أن يتبين ، عاد الوَمِيضُ دِيَجُوراً ،  
 والثماد بجرأً مسجوراً ، إلى أن أعلق الله تعالى منكم اليدَ بالسبب الوثيق ، وأحلَّكم  
 مَنجَى نيق<sup>١</sup> ، لا يخاف من منجنيق ، وجعل يراكم لسعادة موسى<sup>٢</sup> معجزة  
 تأتي على الخبر بالعيان ، فتخرّ لثعبانها سَحْرَةَ البيان :

أيجبى سقى حيث لُحِتَ الحيا	فَنَعَمَ الشباب ونعمَ الوكون
وحياً يراكم مِن آية	فقد حركَ القومَ بعد السكون
دعوتَ لخدمة موسى عصاه	فجاءت تَلَقَّفُ ما يَأفكُون
فأذعنَ من يدعي السحر رَغْماً	وأسلمَ من أجلها المشركون
وساعدك السعدُ فيما أردت	فكانَ كما يَنبغي أن يَكُون

«فأنتم أولى الأصدقاء بصلّة السبب ، ورعيّ الوسائل والقرب ، أبقاكم الله  
 تعالى وأيدي الغبطة بكم عالية ، وأحوال تلكم الجهات بدركم المهمات حالية ،  
 وديمُ المسرات من إنعامكم المُبِرّات على معهود المبرات متوالية .  
 » وأما ما تشوقتم إليه من حال وليكم فأمل متقلص الظل ، وارتقابٌ لهجوم  
 جيش الأجلِ المطلّ ، ومُقام على مساورة الصلّ ، وعمل يكذب الدعوى ،  
 وطمأنينة تنتظر الغارة الشعنوا ، ويد بالمدخور تفتح ، وأخرى تجهد وتمنح ،  
 ومرض يزور فيثقل ، وضعف عن الواجب يعقل ، إلا أن اللطائف تستروح ،

١ النيق : الطويل من الجبال .

٢ موسى : هو السلطان أبو حمو .

والقلب من باب الرجاء لا يبرح ، وربما ظفر البائس ، ولم تطَّرد المقاييس ،  
تداركنا الله تعالى بعفوه ، وأوردنا من منهل الرضى والقبول على صفوه ، وأذن لهذا  
الخرق في رَفْوِهِ .

« وأما ما طلبتم من انتساخ ديوان ، وإعمال بنان في الإتحاف ببيان ، فتلك  
عهود لديّ مهجورة ، ومعاهد لا مُتَعَهِّدَة ولا مَزُورَة ، شغل عن ذلك حوضٌ  
يعلو لجهه ، وحرص يُقْضَى من لغظ المانح عجبُه ، وهول جهادٍ تَسَاوَى جُمَادِيَاهُ  
وَرَجَبُهُ ، فلولا التماسُ أجر ، وتعلُّلُ بربح تجر ، لقلت : أهلاً بذات  
النحيين <sup>١</sup> ، فلئن شكت ، وبذلت المصون بسبب ما أمسكت ، فلقد ضحكت  
في الباطن ضعف ما بكت ، ونستغفر الله تعالى من سوء انتحال ، وإيثار المزاح  
بكل حال ، وما الذي ينتظر مثلي ممن عرف المآخذ والمثارك ، وجرب لما بلا  
المبارك ، وخبر مساءة الدنيا الفارك ؟

« هذا أيها الحبيب ما وسعه الوقت الضيق ، وقد ذهب الشباب الرّيتي ،  
فليسمح فيه معهود كمالك ، جعل الله تعالى مطاوعة أمالك ، مطاوعة يمينك  
لشمالك ، ووطأً لك موطأً العزّ بباب كل مالك ، وقرن النّجح بأعمالك ،  
وحفظك في نفسك وأهلك ومالك ، والسلام » انتهى .

٩٥ - ومن مخاطبات لسان الدين لصاحب العلامة أبي القاسم ابن رضوان :

« قد كنت أجهدُ في التماس صنيعة      نفساً شهابُ ذكائها وقادُ  
وأقولُ لو كان المخاطب غيركم      عندَ الشدائد تذهبُ الأحقادُ

« سيدي ، أبقاكم الله تعالى علّم فضل وإنصاف ، ومجموع كمال أوصاف :  
كلام النية قصير ، والله تعالى بحسنات الأقوال والأفعال بصير ، وإليه بعد هذا الخطاب  
كلّ رجعى منا ومصير ، وليس لنا إلاّ هو مولّى ونصير ، وهذا الرجل سيدي الخطيبُ

١ يكتفي عن كثرة الشغل لقولهم في المثل : « أشغل من ذات النحيين » والنحي : ظرف السمن .

أبو عبد الله ابن مرزوق - جيره الله تعالى - بالأمس كنا نقف ببابه ، ونتمسك بأسبابه ، ونتوسل إلى الدنيا به ، فإن كنا قد عرفنا خيراً وجبت المشاركة ، أو كفافاً تعينت المتاركة ، أو شراً اهتلت غرة الهدى الأتفسُ المباركة ، واتصفتُ بصفة من يُعصى فيسمح ، ويُسأل فيمنح ، ويعود إلى قبيح بالفعل الجميل ، ويُحسبُ يدَ التأميل ، ومع هذا فلم نندر إلاّ خيراً كَرُمَ منه المورد والمصرف ، ومن عرف حجة على من لا يعرف ، وأنتم في الوقت سراج علم لا يخبو ستاه ، ومجموع تخلّق عرفنا منه ما عرفناه ، وهذه هي الشهرة التي تُغتَم إذا سمرت ، والهنة التي تُحَبَّر عليها النفسُ إذا نفرت ، حتى لا تجد بعونِ الله تعالى عارضاً يَعُوقها عن الخير ، وسبيل الكمال الأخير ، والأجر في استيفاء كتاب الشفاعة ، وتحريّ المقاصد النفاة ، وتنفيق البضاعة ، قد ضمنه مَنْ وَعَدَ بقيام الساعة ، والجزاء على الطاعة وغير الطاعة ، وهذه المشاركة تسجيل لفضلكم قبلي ، وهي في الحقيقة لي ، فكيف والله تعالى يرى عملكم وعملي ، والمتروك حقير ، والوجود إلى رحمة من رحمات الله تعالى فقير ، والسلام « انتهى .

٩٦ - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في مخاطبة شيخ العرب

مبارك بن إبراهيم رحمه الله تعالى<sup>١</sup> :

« ساحاتُ دارِكِ للضيافِ مَبَارِكُ      وبضوءِ نارِ قِرَاكِ يُهْدِي السالكُ  
ونوالِكِ المَبْدُولُ قد شملَ الوري      طرّاً ، وفضلِكِ ليسَ فيه مشارِكُ  
قلْ للذي قال الوجودُ قد انطوى      والبأسُ ليسَ لهُ حسامُ فاتكُ  
والجودُ ليسَ لهُ غمامُ هاظلُّ      والمجدُ ليسَ لهُ همامُ باتكُ<sup>٢</sup>  
جمع الشجاعةِ والرجاحةِ والندی      والبأسَ والرأيَ الأصيلَ مَبَارِكُ

١ وردت هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ١٣ - ١٥ .

٢ الباتك : القاطع .

للدين والدنيا وللشيم العلاء  
 عند الهياج ربيعة بن مكدّم  
 ورث الجلالة عن أبيه وجدّه  
 فجياده للآملين مراكب  
 فإذا المعالي أصبحت مملوكة  
 يا فارس العرب الذي من بيته  
 يا من يبشّر باسمه قصّاده  
 أنت الذي استأثرت فيك بغبطني  
 لا زلت نوراً يهتدي بضياؤه  
 ويخصّ مجدك من سلامي عاطر  
 والجود إن شحّ الغمام السافك  
 في الفضل والتقوى الفضيل ومالك<sup>١</sup>  
 فكأنهم ما غاب منهم هالك  
 وخيامه للقاصدين أرائك  
 أعناقها بالحق فهو المالك  
 حرّم لها حجّ به ومناسك  
 فلهم إليه مسارب ومسالك  
 وسواك فيه مآخذ ومتارك  
 من جنّه للروع ليل حالك  
 كالمسك صاك به الغوالي صائك<sup>٢</sup>

الحمد لله تعالى الذي جعل بيتك شهيراً ، وجعلك للعرب أميراً ، وجعل  
 اسمك فالاً ، ووجهك جمالاً ، وقربك جاهاً ومالاً ، وآل رسول الله صلى الله  
 عليه وسلّم لك آلاً ، أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمرائها ، وقُطِبَ سيادتها  
 وكبرائها ، وأهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى ، ومكرمة لا يضل  
 المتصف بها ولا يشقى ، إذ جعل خيمتك في هذا المغرب على اتساعه ، واختلاف  
 أشياعه ، مأمناً للخائف ، على قياس<sup>٣</sup> المذاهب والطوائف ، وصرف الألسنة  
 إلى مدحك والقلوب إلى حبك ، وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربك ، ولقد  
 كنت أيام تجمعي وإيّاك المجالس السلطانية على معرفتك متهاكاً ، وطوع الأمل  
 سالكاً ، لما يلوح لي على وجهك من سيما المجد والحياء ، والشيم الدالة على العلياء ،  
 وزكاء الأصول وكرم الآباء ، وكان والدي - رحمه الله تعالى - قد عين للقاء

١ الفضيل بن عياض ومالك بن دينار (وقد يكون : مالك بن أنس) .

٢ الغوالي : الطيوب ، مفرداً غالية ؛ صاك : خلط ومزج .

٣ الاستقصا : على كثرة .

خال السلطان قريبيكم لما توجه في الرسالة إلى الأندلس نائباً في تأنيسه عن مخدومه ،  
ومنوّهاً حيثُ حلّ بقدمه ، واتصلت بعد ذلك بينهما المهاداة والمعرفة ، والوسائل  
المختلفة ، فعظُم لأجل هذه الوسائل شوقي إلى التشرف بزيارة ذلك الجنب الذي  
حُلولُه شرف وفخر ، ومعرفته كنز وذخّر ، فلماً ظهر الآن لمحل الأخ الكذا  
القائد فلان اللحاقُ بك ، والتعلق بسبيك ، رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض  
المؤمل بعضي والله تعالى ييسر في البعض ، عند تقرير الأمنِ وهدنة الأرض ،  
وهذا الفاضل بركة حيثُ حلّ لكونه من بيت أصالة وجهاد ، وماجداً وابنَ  
أجداد ، ومثلك لا يُوصَى بحسن جواره ، ولا يُنَبّه على إيثاره ، وقبيلك في  
الحديث - من العرب - والقديم ، وهو الذي أوجب لها مزيةَ التقديم ، لم يفتخر  
قطُّ بذهبٍ يجمع ، ولا ذخيراً يُرْفَع ، ولا قصر يبنى ، ولا غرس يُجْتى ،  
إنّما فخرها عدوّ يُغْلَب ، وثناء يجلب ، وجزورٌ ينحر ، وحديث يذكر ،  
وجود على الفاقة ، وسماحة بحسب الطاقة ، فلقد ذهب الذهب ، وفي النشَب ،  
وتمزقت الأثواب ، وهلكت الخيلُ العِرابُ ، وكلُّ الذي فوق التراب تراب ،  
وبقيت المحاسنُ تروى وتنقل ، والأعراضُ تجلى وتُصقل ، والله درُّ الشاعر  
إذ يقول :

وإنّما المرءُ حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى<sup>١</sup>

هذه مقدمة إن يسّر الله تعالى بعدها لقاء الأمير ، فيجلى اللسان عما في  
الضمير :

ومدحي على الأملاك مدح ، وإنّما رأيتك منها فامتدحت على وسمي  
وما كنتُ بالمهدي لغيرك مدحتي ولو أنه قد حلّ في مفرق النجم<sup>١</sup>

١ من مقصورة ابن دريد (ص : ١١٥) .

٩٧ - ومن ذلك ما خاطب به شيخه الخطيب سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ،

وهو :

« راشَ زماني وبرَى نسلهُ  
فكنتَ لي من وقعها جنةُ  
ولو قهرتَ الموتَ أمتنتني منهُ  
وأدخلتني الجنةُ  
فكيفَ لا أنشرها منّةُ  
قد عرَفَتها الإنسُ والجنّةُ »

« بماذا أُخاطب به تلك الجلالة ، فيتيسر الخطاب وتحصل الدلالة ، أسيدي ويشركني فيه ، من قال لا إله إلا الله بفيه ؟ أو بروح حياتي ، ومقدم ماهية ذاتي ، وذخري الكبير الكثير ، لا بل فللكي الأثير ، وهو تضيق على الولد والأهل ، وتعدي المراتب المحدودة من الجهل ، فلم يبق إلا الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان ، وهي بعض دلالات الإنسان ، أفدت الإكسير ، وجبرت الكسير ، ورويت يا أبا العلا<sup>١</sup> التيسير ، وغمرت بالكرم وأمن حمام الحرم الظعن والمسير ، فمن رام شكر بعض<sup>٢</sup> أياديك فلقد شد حقايب الرحال ، إلى نيل المحال ، والحق أن نكّل جزاك ، لمن جعل إلى المجد اعتزاك ، ونولي شكرك وثناك ، إلى من عمر بما يرضيه من الرفق بالخلق وإقامة الحق إنّاك ، وندعو منك بالبقاء إلى الروض المتجود ، وغمام الجود ، وإمام الرُكّع السُّجود ، لا بل لنور الله تعالى المشرق على التهاثم والنُّجود ، ورحمته المبثوثة أثناء هذا الوجود .

« وليعلم سيدي أن النفس طماعة جماعة ، وسراب آمالها بحارُه لماعة ، فلا تفيق من كد ، ولا تقف عند حد ، سيّما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد ، ولم يَسرُ منها في عالم الغيب البريد ، ولا تجلت لها السعادة التي يجذب بها المراد ويشمّر لها المرید ، إلى أن يتأتى عمّا دون الحق المحيد ، ويصح التوحيد ،

١ ق : يا ابن العلاء .

٢ بعض : سقطت من ق .

وقد مثلت الآن خصماً ، توسعُ ظهر استظهارى بالتسليم قَصْماً ، وتقول :  
المال عديلي عند القيمة ، وطبيبي في الأحوال السقيمة ، وهو نتيجة كدّي عند  
الأقيسة العقيمة ، ومن استخلصني على شرفي إذا تفاضلت الجواهر ، وتبينت  
للحق المظاهر ، وتعينت المراتب التي يقتعدها على رأي البراهمة النور الاصفهندي  
والنور القاهر ، فخلاصُ المال طَوْعُ يديه ، وهو كما قال الله تعالى أهْوَنُ  
عليه ، فألاطفها ، حتى تلين معاطفها ، وأخادعها ، حتى تلوي أخادعها ، وأقول :  
قد وقع الوعد ، وأشرق السعد ، ولان الجعد ، وسكن الرعد ، والله تعالى الأمر  
من قبلُ ومن بعد ، فنجيني : العمر المنام ، وأيام الجاه والقدرة قد يحق لها  
الاغتنام ، وهمُّ العاقل إلى وقته الحاضر مصروف ، و « إذا لم يغير حائطه »  
مثل معروف ، وفي الوقت زبون يرجي به استخلاصُ الحقوق ، ويُسْتَبْعَد وقوع  
العقوق ، فإن رأى مولاي أن يَشْفَعِ المنّة ، ويقرع باباً ثانياً من أبواب الجنة ،  
قبل أن يشغل شاغل ، أو يكدر الأكل والشرب وارش أو واغل ، أو يثوب  
للمتعدي نظر في اللجاج ، أو يُدَسَّ له ما يحمله على الاحتجاج ، - و « أو »  
متسع متاطها ، فسيح استنباطها ، كثير هياطها ومياطها - فهو تمام صنيعته التي  
لم ينسج على منوالها الأحرار ، ولا اهتدت إلى حسنيتها الأبرار ، ولا عرف بدرُ  
مجدها السرار ، فإليه كان الفرار ، والله تعالى ثم له خلص الاضطرار ، ويستقر  
تحت دخيله القرار ، وتطمئن الدار ، فإن ما ابتداء به من عزّ ضرب على الأيدي  
العادية منه حكمُ الحكام ، وفارع الهِضاب والآكام ، على ملا ومجمع ،  
ومرأى من الخلق ومسمع ، يقتضي اطراد قياس العزة القعساء ، وسعادة  
الإصباح والإمساء ، وظهور درجات الرجال على النساء ، فهو جاه حارت  
فيه الأوهام وهذه أذياله ، ومن ركب حقيقة أمرها هان عليه خياله ، والمال  
ماله ، والعيال عياله ، والوجود سريع زياؤه ، والجزاء عند الله تعالى مكياؤه ،

١ الوارش : المتطفل على الآكلين ؛ والواغل : المتطفل على الشاربين ؛ وفي ق : واش .



وعروض المنصوب باقية الأعيان<sup>١</sup> ، مستقلة الشجر قائمة البنيان ، تمنع عن شرائها قاعدة الأديان ، وغيرها من مكيل وموزون ، بين مأكول ومخزون ، والكتب مُلقاة بالقاع ، مطرحة بأحبث البقاع ، فإن تَأْتَى الجَبْر ، وإلا فالصَّبْر ، على أنْ وَعَدَ عمادي لا يفارقُ الإنجاز ، ومكرمه التي طوقها قد بلغت الشام والحجاز ، وحقيقة التزامه تباين المجاز ، وآية مجده تستصحب الإعجاز ، ولله در إبراهيم بن المهدي يخاطب المأمون ، لما أكذب في العفو عنه الظنون :

وَهَبْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبْلَ ذَلِكَ مَا لِي إِذْ قَدْ وَهَبْتَ دَمِي<sup>٢</sup>

وقد كانت هذه المنقبة غريبة فعززتها بأختها الكبرى ، وفريدة فجئت بأخرى ، وشفعت وثرأ ، أبقاك الله تعالى لتخليد المناقب ، وإعلاء المراتب ، وجعل أخص نعلك تاجاً للنجم الثاقب ، وتكفَّل لك في النفس والولد بحسن العواقب :

آمِينَ آمِينَ لَا أَرْضِي بِوَاحِدَةٍ حَتَّى أَضِيفَ إِلَيْهَا أَلْفَ آمِينَ<sup>٣</sup>

وأما تنبيه سيدي على إنشاء رزق ، وتقرير رفق وكعب ، فلا أنبه حاتماً وكعباً ، أن يملأ قعباً ، لمن خاض بجرأ أو ركب صعباً ، هذا أمر كفانيه الكافي ، وداء كوخز<sup>٤</sup> الأشافي ، أذهبه الشافي ، والسلام « انتهى .

٩٨ - ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان السلطان قوله :

« هذا ظهير كريم ، مُضَمَّنُهُ استجلاء لأمر الرعية واستطلاع ، ورعاية

- ١ يشير لسان الدين هنا إلى ما أخذ منه بالأندلس ، من عروض ومكيلات وموزونات وكتب . . . إلخ ؛ ويقول إن أعيان العروض (من شجر ومبان) لا تزال شاهدة .  
٢ الأغاني ١٠ : ١٢٥ وروايته : « رددت مالي ولم تمنن علي به ؛ وقبل ردك مالي . . . إلخ » .  
٣ انظر المجلد ١ : ١٧٥ .  
٤ ق : لوخز ؛ والأشافي : جمع إشفى وهو المخرز .

كرمت منها أجناس وأنواع ، وعدل بهر منه شعاع ، ووصايا يجب لها إهطاع ،  
أصدرناه للفقير فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله ، رأينا أنه أحقّ من نقلده  
إهمّ الأكيد ، ونرمي به من أغراض البرّ الغرض البعيد ، ونستكشف به أحوال  
الرعايا حتى لا يغيب عنا شيء من أحوالها ، ولا يتطرق إليها طارق من أهوالها ،  
وينهي إلينا الحوادث التي تنشأ فيها لإنهاء يتكفل بحياطة أبقارها وأموالها .

« وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا حاطها الله تعالى فيجمع الناس في مساجدهم ،  
ويندبهم من مشاهدتهم ، ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم ، وإحساب  
أموالهم <sup>١</sup> ، ومكابدتنا المشقة في مداراة عدوهم الذي نعلم من أحواله ما غاب  
عنهم دفعه الله تعالى بقدرته ، ووقى نفوسهم وحرّمهم من معرّته ، ولما رأينا  
من انبئات الأسباب التي تؤمل ، وعجز الحيل التي كانت تعمل ؛ ويستدعي  
إنجادهم بالدعاء ، وإخلاصهم فيه إلى رب السماء ، ويسأل عن سيرة القواد ،  
وولاية الأحكام بالبلاد ، فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه ، ويقصّها عليه ، ليبلغها  
إلينا ، ويوفدها مقررة الموجبات لدينا ، ويختبر ما افترض صدقة للجبل ، وما  
فضل عن كريم ذلك العمل ، ليعين إلى بناء الحصن بجبل فاره يسرّ الله تعالى لهم  
في إتمامه ، وجعل صدقتهم تلك مسكة ختامه ، وغيره مما افترض إعانة  
للمسافرين ، وإنجاداً لجهاد الكافرين ، فيعلم مقداره ، ويتولى اختباره <sup>٢</sup> ، حتى  
لا يجعل منه شيء على ضعيف ، ولا يعدل به لمشروف عن شريف ، ولا تقع  
فيه مضايقة ذي الجاه ، ولا مُخادعة غير المراقب لله ، ومتى تحقّق أن غنياً  
قُصّر به عن حقّه ، أو ضعيفاً كلف منه فوق طوّقه ، فيجبر <sup>٣</sup> الفقير من الغني ،

١ ق : آمالم .

٢ ق : اختباره .

٣ ق : فيجبر .

وَيَجْرِي مِنَ الْعَدْلِ عَلَى السَّنَنِ السَّوِيِّ ، وَيَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّ هَذِهِ الْمَعُونَةُ ١ وَإِنْ كَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَحَلِّ ضَرُورَتِهَا يَسِيرَةً ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَضَاعِفُهَا لَهُمْ أضعافاً كَثِيرَةً ، فَلَيْسَتْ مِمَّا يُلْزَمُ ، وَلَا مِنَ الْمَعَاوَنِ الَّتِي بَتَكَرَّرِهَا يُجْزَمُ ؛ وَيَنْظُرُ فِي عَهْدِ التَّوْفِيقِ يَصْرِفُهَا فِي مَصَارِفِهَا الْمَتَبِينَةِ ، وَطَرَفِهَا الْوَاضِحَةِ الْبَيِّنَةِ .

« وَيَتَفَقَّدُ الْمَسَاجِدَ تَفَقُّدًا يَكْسُو عَارِيهَا ، وَيَتِمُّ مِنْهَا الْمَأْرَبُ تَتَمِيمًا يُرْضِي بَارِيهَا ، وَيَنْدُبُ النَّاسَ إِلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِصِبْيَانِهِمْ ، فَذَلِكَ أَصْلُ أَدْيَانِهِمْ ، وَيَحْذَرُهُمُ الْمَغْيِبَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَعْشَارِهِمْ ، فَالزَّكَاةُ أُخْتُ الصَّلَاةِ وَهُمَا مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ بِأَقْصَى الْجِدِّ وَالْإِعْتِرَامِ ، وَرَفَعْنَا عَنْهُمْ رَسْمَ التَّعْرِيفِ نَظْرًا إِلَيْهِمْ بَعَيْنِ الْإِهْتِمَامِ ، وَقَدَمْنَا الثَّقَاتَ لِهَذِهِ الْأَحْكَامِ ، وَجَعَلْنَا الْحَرَصَ ٢ شَرْعِيًّا فِي هَذَا الْعَامِ ، وَفِيمَا بَعْدَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَعْوَامِ .

« وَمَنْ أَهَمَّ مَا أَسْتَدْنَاهُ إِلَيْهِ ، وَعَوَّلْنَا فِيهِ عَلَيْهِ ، الْبَحْثُ بِتِلْكَ الْأَحْوَازِ عَنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَالسَّائِرِينَ مِنَ السَّبِيلِ عَلَى غَيْرِ السَّوَاءِ ، وَمَنْ يُنْبِزُ بِفَسَادِ الْعَقْدِ ، وَتَحْرِيفِ الْقَصْدِ ، وَالتَّلْبِيسِ بِالصُّوفِيَّةِ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مِنْ أَهْلِ الْفَسَادِ ، وَالذَّاهِبِينَ إِلَى الْإِبَاحَةِ وَتَأْوِيلِ الْمَعَادِ ، وَالْمُؤَلِّفِينَ بَيْنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ ، وَالْمَتَّبِعِينَ لِمَذَاهِبِ الضَّلَالِ ، فَهَمَّاهُ عَثْرٌ عَلَى مُطَوَّقٍ بِالتَّهْمَةِ ، مَنْبِزٌ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَلْيَشِدْ ثِقَافَهُ شَدًّا ، وَيَسُدْ عَنْهُ سَبِيلَ الْخِلَاصِ سَدًّا ، وَيَسْتَرِعِي فِي شَأْنِهِ الْمَوْجِبَاتِ ، وَيَسْتَوْعِبِ الشَّهَادَاتِ ، حَتَّى يَنْظُرَ فِي حَسْمِ دَائِهِ ، وَيَعَاجِلِ الْمَرَضَ بِدَوَائِهِ ، فَلْيَتَوَلَّ مَا ذَكَرْنَا نَائِبًا بِأَحْسَنِ الْمَنَابِ ، وَيَقْصِدْ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى رَاجِيًّا مِنْهُ جَزِيلِ الثَّوَابِ ، وَيَعْمَلْ عَمَلًا مَنْ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً لِيَجِدَ ذَلِكَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ .

« وَعَلَى مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوَادِ وَالْأَشْيَاحِ وَالْحُكَّامِ أَنْ يَكُونُوا مَعَهُ يَدًّا وَاحِدَةً

١ المعونة : الضريبة ، والجمع معاون .

٢ الحرص : تحمُّين الكرم والنخيل خاصة ؛ وفي ق : الحرص .

على ما حررنا في هذه الفصول ، من العمل المقبول ، والعدل المبذول ، ومن قصر  
عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضى من مقتضياته ، فعقابه عقاب من عصي  
أمر الله وأمرنا فلا يلم إلا نفسه التي غرته ، وإلى مصرع النكير جرته ، والله  
تعالى المستعان « انتهى .

٩٩ - ومن ذلك ما خاطب به تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني لما  
قصدها عقب ما شرع في جواره وتوسل إلى أغراضه بذلك إلى ولده رحم الله  
تعالى الجميع :

« السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذي عرف فضله الإسلام ،  
وأوجبت حقه العلماء الأعلام ، وخفقت بعزه نصره الأعلام ، وتنافست في  
إنفاذ أمره ونهيه السيوف والأقلام . السلام عليك أيها المولى الذي قسم زمانه  
بين حكم فصل ، وإمضاء نصل ، وإحراز خصل ، وعبادة قامت من اليقين على  
أصل . السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية ، ومُشجع البطون الجائعة وكاسي  
الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارسة ، ومُكْتَب الكتائب الغازية  
في سبيل الله تعالى والسرايا السارية . السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم ،  
وملتقى أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم ، ومفوض الأمر في الشدائد  
إلى السميع العليم ، ومُعمل البنان الطاهر في اكتاب الذكر الحكيم . كرم الله  
تعالى تربتك وقدسها ، وطيب روحك الزكية وآنسها ، فلقد كنت للدهر جمالاً ،  
وللإسلام ثمالاً ، وللمستجير مجيراً ، وللمظلوم ولياً ونصيراً ؛ لقد كنت للمحارب  
صدراً ، وفي المواكب بدرأ ، وللمواهب بحرأ ، وعلى العباد والبلاد ظلاً ظليلاً  
وسراً ؛ لقد فرعت أعلام عزك الثنايا ، وأجزلت همتك للملوك الأرض الهدايا .  
كأنك لم تعرض الجنود ، ولم تنشر البنود ، ولم تبسط العدل المحدود ، ولم توجد  
الجدود ، ولم تزين الرُكع السجود ، فتوسدت الثرى ، وأطلت الكرى ، وشربت  
الكأس التي يشربها الورى ، وأصبحت ضارع الحد ، كليل الحد ،

سالكاً سنن الأب والجد ، لم تجد بعد انصرام أجلك ، إلا صالح عملك ، ولا أصبحت لقبرك ، إلا رابح تجرك ، وما أسلفت من رضاك وصبرك ، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك ، ويَجُودَ بسحاب الرحمة ترابك ، وينفعك بصدق اليقين ، ويجعلك من الأئمة المتقين ، ويعلي درجتك في عَالِيَيْن ، ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين .

« وليهنك أن صير الله تعالى ملكك من بعدك ، إلى نير سعدك ، وبارق رعَدك ، ومنجز وعدك ، أرضي ولدك ، وريحانة خلدك ، وشقة نفسك ، والسَّرحة المباركة من غرسك ، ونور شمسك ، وموصل عملك البر إلى رمسك ، فقد ظهر عليه أثر دعواتك ، في خلواتك وأعقاب صلواتك ، فكلمتك والمنة لله تعالى باقية ، وحسنتك إلى محل القبول راقية ، يرعى بك الوسيلة ، ويتمم مقاصدك الجميلة ، أعانه الله تعالى ببركة رضاك على ما قلده ، وعمر بتقواه يومه وغده ، وأبعد في السعد أمده ، وأطلق بالخير يده ، وجعل الملائكة أنصاره والأقدار عُدده .

« ولانتي أيتها المولى الكريم ، البر الرحيم ، لما اشتراني ، وراشني وبراني ، وتعبدني بإحسانه ، واستعمل في استخلاصي خط بنانه ، ووصية لسانه ، لم أجد مكافأة إلا التقرب إليك وإليه برثائك ، وإغراء لساني بتخليد عليائك ، وتعفير الوجنة في حرمك ، والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك ، ففتحت الباب في هذا الغرض ، إلى القيام بحقك المفترض ، الذي لولاه لاتصلت الغفلة عن أدائه وتمادت ، فما يبست الألسن ولا كادت ، متحيزاً بالسبق ، إلى أداء هذا الحق ، بادئاً بزيارة قبرك الذي هو رحلة الغرب ما نويته من رحلة الشرق ، وما أعرضت عنه فأقطعه أثر مواقع الاستحسان ، وقد جمع بين الشكر والتنويه والإحسان ، والله سبحانه يجعله عملاً مقبولاً ، ويبلغ فيه من القبول مأمولاً ، ويتغمد من ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصيبة ، والتحيات الطيبة ، فنعم الملوك الكبار ،

والخلفاء الأبرار ، والأئمة الأخيار ، الذين كرمت منهم السيِّر وحسنت الأخبار ،  
وسعد بعزماهم الجهادية المؤمنون وشقي الكفَّار ، وصلوات الله تعالى عوداً  
وبدءاً على الرسول الذي اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار ، وعلى آله  
وأصحابه الذين هم السادة الأبرار ، وسلم تسليماً » انتهى .

١٠٠ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وممَّا خاطبت به الوزير المتغلب  
على الملك بالمغرب ما نصّه :

« لا ترجُ إلاّ اللهَ في شدّةٍ وثِقْ بهِ فَهوَ الذي أيدَكَ  
حاشاك أن ترجُوَ إلاّ الذي في ظلمةِ الأحشاء قد أوجدك  
فاشكره بالرحمةِ في خلقه ووجهك ابسطْ بالرضى أويديك  
واللهُ لا تُهملُ الطافهُ قلادةِ الحقِّ الذي قلَّدك  
ما أسعدَ الملكَ الذي سُسِّتَه يا عُمَرَ العدلِ ، وما أسعدك

« نخص الوزير الذي بهر سعده ، وحمد في المضاء قصده ، وعول على الشيم  
التي اقتضاها مجده ، وأورثه إياها أبوه وجدّه ، الوزير عمر الكذا ابن الشيخ الكذا ،  
أبقاه الله تعالى ثابت القَدَم ، خافق العَلَم ، شهير آ حديثُ سعده في الأمم ، مثلاً  
خبرُ بسالته وجلالته في العرب والعجم .

« تحية معظم مجده الكبير ، المستند إلى عهده الوثيق وحسبه الشهير ؛ المسرور  
بما ستّاه الله تعالى له من نُجْحِ التدبير ، والنصر العديم النظير ، وإنجاده إيتاه  
عند إسلام النصير ، وفراق القبيل والعشير ، ابن الخطيب ، واليدُ ممدودة إلى  
الله تعالى في صلّة سعد الوزير - أبقاه الله تعالى - ودوام عصمته ، واللسان يطنب  
ويسهب في شكر نعمته ، والأمل متعلق بأسبابه الكريمة وأذمته ، وقد كان  
شيّعه مع الشفقة التي أذابت الفؤاد ، وألزمت الأرق والسهاد ، على علم بأن  
عناية الله تعالى عليه عاكفة ، وديم آلائه لديه واكفة ، فإن الذي أقدره وأيده

ونصره ، وأنفذت مشيئته ما دبَّره ، كفيل بإمداده ، ومكّيّ بإسعاده ، ومرجّو لإصلاح دنياه ومَعاده ، وفي أثناء هذه الأراجيف استولى على معظم وزارته الجزع ، وتعاورته الأفكار تأخذ وتدعّ ، فإنّي كما يعلم الوزير أعزّه الله تعالى منقطع الأسباب ، مستوحش من الجهة الأندلسية على بُعد الجَناب ، ومستعدّي عليّ بكوفي من المعدودين فيمن له من الخُلصان والأحباب ، فشرعت في نظريّ أحصلُ منه على زوال اللبس ، وأمان النفس ، واللحاق بمأمن يرعاني برعي الوزير ، بخلال ما يدبر الأمر منّ له التدبير ، ففي أثنائه ، وتمهيد أساس بنائه ، ورَدّ البشير بما سنّاه الله تعالى لسيدي وجابر كسري ، ومنصفي بفضل الله تعالى من دهري ، من الصنع الذي ظهر ، وراق نوره وبهرّ ، فأمنتُ وإن لم أكن ممّن جئني ، وحفتني المسرات بين فرادى وثئني ، وانشرح بفضل الله تعالى صدري ، وزارتي النعم والتهاني من حيث أدري ولا أدري ، ووجهت الولد الذي شملته نعمة الوزير وإحسانه ، وسبق إليه امتنانه ، نائباً عني في تقبيل يده وشكر يده ، والوقوف ببابه ، والتمسك بأسبابه ، آثرته بذلك لأمر : منها المزاولة فيما كان يلزمني من إخوته الأصاغر ، وتدريبه على خدمة الجلال الباهر ، وإفرادي له بالبركة ، ولعائق ضعف عن الحركة ، وبعد ذلك أشرعُ بفضل الله تعالى في العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العلية ، عارضاً من ثنائها ما يكون وفق الأمنية ، ورُبّ عمل أغنى عنه فضل نية ، والسلام الكريم على سيدي ورحمة الله تعالى وبركاته .

١٠١ - قال : وكتبت إليه أيضاً على أثر الفتح الذي تكيف له :

« سيدي الذي أُسرَّ بسعادته ، وظهور عناية الله تعالى به في إبدائه وإعادته ، وأعلم كرم مَجادته ، وأعترف بسيادته ، الوزير الميمون الطائر ، الجاري حديثُ سعده ومَصْناؤه مجرى المثل السائر ، أبقاه الله تعالى عزيز الأنصار ، جارية يمين نقيبته حركة الفلّك الدوّار ، معصوماً من المكاره بعصمة الواحد القهار ؛

معظمُ سيادته الرفيعة الجانِب ، وموقرَ وزارته الشهيرة المناسب ، الداعي إلى الله تعالى بطول بقائه في عزّ واضح المذاهب ، وصنع واكف السحائب ، ابنُ الخطيب ، عن الذي يعلم سيدي من لسان طَلَّقُ بالثناء ، ويد ممدودة إلى الله تعالى بالدعاء ، والتماس لما يعدُّ من جزيل النعماء ، والفتح الذي تفتح له أبواب السماء ، وقد اتصل ما سنّاه الله تعالى له من النصر والظهور ، والصنع البادي السفور ، لمّا التقى الجمعان ، وتهوديت أكواس الطّعان ، وتبين الشجاع من الجبان ، وظهر من كرات سيدي وبسالته ما تحدث به ألسنة الركبان ، حتى كانت الطائفةُ لحزبه ، وظهرت عليه عناية ربّه ، فقلت : الحمد لله الذي جعل سعدَ عمادي متّصلَ الآيات ، واضح الغرر والشّيات . وقد كنتُ بعثتُ أهنته بما قدم من صنع جميل ، وبلوغ تأميل ، فقلت : اللهم أهد علينا التّهاني تتّرى ، واجعل الكبرى من نعمتك السالفة بنعمتك الرادفة الخالفة هي الصغرى ، واجمعْ له بين نعم الدنيا والأخرى ، والناس - أبقى الله تعالى سيدي - لهم مع الاستناد إليك جهات ، وأمور مشبهات ، إلا المحب المشيخ فجهتك هي التي آنت الغربية ، وفرّجت الكربة ، ووعدت بالخير ، وضمنت عاقبة الضير ، وأنا أرتقب ورود التعريف المولوي على عبيده بهذه المدينة وأصلُ إن شاء الله تعالى لمباشرة الهناء ، وقرّة العين بمشاهدة الآلاء ؛ والله عزّ وجلّ يديم سعادة سيدي ويطيل بقاءه ، ويرادف قبلكه نعمه وآلاءه ، بفضلّه « انتهى .

١٠٢ - وقال : وممّا خاطبت به المذكور وأنا ساكن بسلا :

« أيا عُمَرَ العدلِ الذي مَطَّلَ المدى  
ويا صارمَ الملكِ الذي يستعدّه  
هتّتَ عينكَ اليقظي من الله عصمةً  
وهل أنت إلا الملكُ والدينُ والدُّنا  
إذا نالَ منك العينَ ضرّاً فإنّما  
بوعدِ الهدى حتى وفيت بدَيْنه  
لدفعِ عِداه أو لمجلسِ زينِه  
كفتَ وجهَ دينِ الله موقعَ شينِه  
ولا يلبس الحقّ المُبينَ بمِمينِه  
أصيب به الإسلام في عينِ عينِه



« الوزير الذي هو للدين الوزر الوافي ، والعلم السامي المراقب والمراقبي ، والحلي المقلد فوق الترائب والترابي ، والكنز المؤمل والذخر الباقي ، حجب الله تعالى العيون عن عين كمالك ، وصير الفلك الدوار مطية آمالك ، وجعل اتفاق اليمن مقروناً بيمينك ، وانتظام الشمل معقوداً بشمالك .

« اعلم أن مطلق لسان الثناء على مجدك ، والمستضيء على البعد بنور سعدك ، ومعقود الرجاء بعروة وعدك ، لا يزال في كل ساعة يسحبُ الفلك فيه ذيلها ، ويعاقب يومها وليلها ، مُصنعي الأذن إلى نبي يهدي عنك لله تعالى دفاعاً ، أو يمد في ميدان سعدك باعاً ، وأنت اليوم النصير على الدهر الظلوم ، وآسي الكُلولوم ، وذو المقام المعلوم ، فتعرفت أن بعض ما يتلاعب به بين أيدي السادة الخدام ، وتفككه به المثاقفة والأفدام<sup>١</sup> ، من كرة مرسله الشهاب ، أو نارنجة ظهر عليها من اسمها صبغة الالتهاب ، حومت حول عينك لا كدّر صفاؤها ، ولا هُدْم فوق مهاد الدعة والأمن إغفاؤها ، فرعت حول حماها ، ورامت أن تصيب فخيّب الله تعالى مرماها :

نرى السوء مما نتقي فنهابه<sup>٢</sup> وما لا نرى مما بقي الله أكثر<sup>٣</sup>

«قلت : مكروه أخطأ سهمه ، وتنبيه من الله تعالى لمن نبيل عقله وفهمه ، ودفاع قام دليله ، وسعد أشرق جليله ، وأيام أعربت عن إقبالها ، وعصمة غطت بسربالها ، وجوارح جعل الله تعالى الملائكة تحرسها ، فلا تغتالها الحوادث ولا تفرسها ، والفتن يشعر بالشيء وإن جهل أسبابه ، والصوفي يسمع من الكون جوابه ، فبادرت أهنته تهنته من يرى تلك الجوارح الكريمة أعز عليه من جوارحه ، ويرسل طير الشكر لله تعالى في مساقط اللطف الخفي ومسارحه ،

١ المثاقفة : أهل الثقافة أي الذين يصارعون الحيوانات المتوحشة ؛ والأفدام : الحمقى .

٢ مر هذا البيت وقصته بين الأمير عبد الرحمن ووزيره الزجاجي في المجلد ٣ ص : ٦١٣ ، ٥٣٩ .

وسأله سبحانه أن يجعلك عن النوائب حجراً لا يقرب ، وربك رباً لا يخرب ، ما سبَّح الحوتُ ودبَّ العقرب ، ثم إنَّني شفعت الهناء ووترته ، وأظهرت السرور فما سترته ، بما ستأه لتديريك من مسألة تكذبُ الإرجاف ، وتغني عن الإيجاف ، وتخصب للإبل العجاف ، وتريح من كيد ، وتفرغ إلى مجادلة عمرو وزيد ، وكأني بسعدك قد سدَّال الأمان ، وعدل الزمان ، وأصلح الفاسد ، ونفق الكاسد ، وقهر الروح المستاسد ، وسرَّ الحبيب وساء الحاسد ، والسلام » انتهى .

١٠٣ - ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به الرئيس عامر ابن محمد بن علي الهنتاتي معزياً له عن أخيه عبد العزيز :

« أبا ثابتٍ كنْ في الشدائدِ ثابتاً      أعيدُكَ أن يُلْفَى حُسودُكَ شامِتا  
عزاؤُكَ عن عبد العزيزِ هو الذي      يليقُ بعزِّ منكَ أعجزَ ناعِتا  
فدوحتُكَ الغنَاء طالتْ ذوائِباً      وسرَّحتُكَ الشَّمَاء طابتْ منابِتا  
لقد هدَّ أركانَ الوجودِ مُصابُهُ      وأنطقُ منه الشَّجْوُ من كان صامِتا  
فمن نَفَسٍ حرّاً أوثقُ الحزنُ كظمها      ومن نَفَسٍ بالوجدِ أصبحَ خافِتا  
هو الموتُ للإنسانِ فصلٌ لحدِّهِ      وكيف ترَجِّي أن تصاحبَ ماتِتا  
وللصبرِ أولى أن يكونَ رجوعنا      إذا لم نكنْ بالحزنِ ترَجِّعُ فاتِتا

« اتصلَ بي أيُّها الهمام ، وبدر المجد الذي لا يفارقه التمام ، ما جتته على عيائِكَ الأيام ، واقتنصه مُحلِّق الردى بعد أن طال الحيام ، وما استأثر به الحِمَام ، فلم يغنِ الدفاع ولا نفع الذِّمام ، من وفاة صنوك الكريم الصفات ، وهلاك وَسْطى الأسلاك ، وبدر الأحلاك ، ومجير الأملاك ، وذهاب السَّمَح الوهَّاب ، وأنا لذيغُ صِلِّ القراق ، الذي لا يفيق بألف راق ، وجريح سَهْم

١ الحجر : المنوع المحمي .

البين ، ومجاري العيون الحارية بدمع العين ، لفقد أنيس سهّل عليّ مَمَضُّ النكبة ،  
 ونحى ليث الخطب عن فريستي بعد صدق الوثبة ، وآنسي في الاغتراب ،  
 وصحني إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغري خير الكفالة ، وعاملني من حسن  
 العشرة بما سجّل عقد الوكالة ، انتزعه الدهر من يدي حيث لا أهل ولا وطن ،  
 والاغترابُ قد ألقى بعطن ، وذات اليدِ يعلم حالها من يعلم ما ظهر وما بطن ،  
 ورأيت من تطارح الأصاغر على شلّو الغريب ، النازح عن النسيب والقريب ،  
 ما حملني على أن جعلت البيت له ضريحاً ، ومدفنأً صريحاً ، لأخدع من يرى  
 أنه لم يزل مقيماً لديه ، وأن ظلّ شفقتة منسحبٌ عليه ، فأعيا مصابي عند ذلك  
 القرع ، وأعظم الظمأ البرح ، ونكأ القرع القرع ، إذ كان ركنأً قد بنته لي يد  
 معرفتك ، ومتصفاً في البرّ بي والرعي لصاغيتي بكريم صفتك ، فوالهفا عليه من  
 حسام ، وعز سام ، وأيادٍ جسام ، وشهرة بين بني حام وسام ، أي جمالٍ خلقت ،  
 ووجه للقاصد طلق ، وشيم تطمح للمعالي بحق ، وأي عضد لك يا سيدي الأعلى  
 لا يهين إذا سطا ، ولا يقهقر إذا خطا ، يوجب لك على تحليه بالشبية ، ما توجه  
 البنوة من الهيبة ، ويرد ضيفك آمناً من الخيبة ، ويسد ثغرك عند الغيبة ، ذهبت  
 إلى الجزع فرأيت مصابه أكبر ، ودعوت بالصبر فولّتي وأدبر ، واستنجدتُ  
 الدمع فنضب ، واستصرخت الرجاء فأنكر ما روى واقتضب ، وبأي حزن يلتقي  
 عبد العزيز وقد جلّ فقده ، أو يطفأ لآعجه وقد عظم وقّده ، اللهم لو بكى  
 بندي أياديه ، أو بغمائم غواديه ، أو بعُباب واديه ، وهي الأيام أي شامخ  
 لم تهده ، أو جديد لم تبليه وإن طالت المدة ؟ فرقت بين التيجان والمفارق ،  
 والحدود والنمارق ، والطلّي والعقود ، والكأس وابنة العنقود ، فما التعلّل بالفان ،  
 وإنما هي إغفاءة أجفان ، والتشبث بالحبائل ، وإنما هو ظلّ زائل ؟ والصبر على  
 المصائب ، ووقوع سهمها الصائب ، أولى ما اعتمد طلاباً ، ورجع إليه طوعاً  
 أو غلاباً ، فأنا يا سيدي أقيمُ رسم التعزية ، وإن بُوتُ بمضاعف المرزية ، ولا  
 عتب على القدر ، في الورد من الأمر والصدّر ، ولولا أن هذا الواقع ممأ لا

يجدي فيه الخُلصان ، ولا يغني فيه اليراع ولا الخرصان ، لأبلى جهده من أقرضتموه معروفاً ، وكان بالتشيع إلى تلك الهضبة معروفاً ، لكنّها سوقٌ لا ينفقُ فيها إلا سلعة التسليم ، للحكيم العليم ، وطَيّ الجوانح على المضض الأليم ، ولعمري لقد خلدت لهذا الفقيد وإن طمس الحِمام محاسنه الوضاحة ، لمّا كبس منه الساحة ، صحفاً منشّرة ، وثغوراً بالحمد موثّرة ، يفخر بها بتّوه ، ويستكثّر بها مكتسبو الحمد ومُقْتَنُوهُ ، وأنتم عماد البازة ، وعلم المفازة ، وقطب المدار ، وعامر الدار ، وأسد الأجمّة ، وبطل الكتيبة الملجمة ، وكافل البيت ، والستر على الحي والميت ، ومثلك لا يهدى إلى نهجٍ لاجب ، ولا ترشده نار الحياجب ، ولا ينبه على سنن نبيّ كريم أو صاحب ، قدركَ أعلى ، وفضلك أجلى ، وأنت صدر الزمان بلا مدافع ، وخير معلّم لأعلام الفضل ورافع ، وأنا وإن أخرت فرض بيعتك لما خصّصتي من المصاب ، ونالني من الأوصاب ، ونزل بي من جور الزمان الغصّاب ، ممّن يقبل عُذْرَهُ الكرم ، ويسعه الحرم المحترم ، والله سبحانه الكفيل لسيدي وعمادي بقاء يكفل به الأبناء وأبناء الأبناء ، ويعلي لقومه رُتَبَ العزّ ساميةَ البناء ، حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده ، ولا يحسّ بعضّ زمانٍ مع جوده ، ويقر عينه في ولده وولد ولده ، ويجعل أيدي مُناويه تحت يده ، والسلام .

١٠٤ - وخاطبه لسانُ الدين أيضاً بما نصّه :

« سيدي الذي هو رجل المغرب كلّه ، والمجمعُ على طهارة بيته وزكاه أصله ، علم أهل المجد والدين ، وبقيّة كبار الموحّدين .  
 « بعدَ السلامِ الذي يجب لتلك الجلالة الراسخة القواعد ، السامية المصاعد ، والدعاء لله أن يفتح لك في مضيقات هذه الأحوال مسالك التوفيق ، وبمسكك من عصمته بالسبب الوثيق ، أعرّفك أن جبلك اليوم وقد عظم الرّجفان ، وفاض التنور وطفى الطوفان ، تؤمل النفوسُ الغرقيّ جُودِيّ جوده ، وتغتنب غاية

الاعتباط بوجوده . ووالله لولا العلاتقُ التي يجبُ لها الالتزام ، ما وقع على غير قصدك الاعتزاز ، والله تعالى يمدك بإعانتة على تحملِ القُصَّاد ، ويُبقي محلك رفيعَ العماد كثيرَ الرماد ، ويجعل أبا يحيى خلفاً منك بعد عمر النهاية البعيد الآماد ، ويُبقي كلمة التوحيد فيكم إلى يوم التناد . وحامله القائد الكذا معروف النباهة والجهاد ، ومحلّه لا ينكر في الفؤاد ، لما اشتبهت السبل ، والتبسَ القول والعمل ، لم يجد أنجي من الركون إلى جنابك ، والتمسكُ بأسبابك ، والانتظام في جملة خواصك وأحبابك ، حتى ينبلج الصبح ، ويظهر النُجج ، ويعظم المنح ، ويكون بعد هجرته الفتح ، ومثلُكم من قُصدٍ وأملٍ ، وأنضي إليه المطي وأعمل ، وأما الذي عندي من القيام بحق تلك الذات الشريفة ، والقول بمنابها المنيفة ، فهو شيء لا تفي به العبارة ، ولا تؤديه الألفاظ المستعارة ، والله تعالى المسؤول في صلة عز سيدي ودوام سعده ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته « انتهى .

١٠٥ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ومما خاطبتُ به شيخ الدولة - وقد استقل من مرض - ما نصّه :

« لا أعدم الله دار الملك منك سنّاً يجلى به الخالكان الظلم والظلمُ  
وأشدتكَ الليالي وهي صادقة « المجد عوفي إذ عوفيت والكرمُ »<sup>١</sup>

« من علم - أعلى الله تعالى قدرك - أن المجد جواد حلاك شيبته ، لا بل الملك بدر أنت آياته ، لا بل الإسلامُ جسمٌ أنت حياته ، دعا منك بالبقاء لمجد يروق بك جبينه ، ومثلك تيره وتزيينه ، ولدين تعامل الله تعالى بإعزازه وتدنيه ، فلقد ألت نفوسُ المؤمنين لآلامك ، ووجم الإسلامُ لتوقع إسلامك ، وخفقت الأعلام لتأخر إطرافك بمصالح الملك وإعلامك ، فإنما أناملُ الدين والدنيا متشبهة بأذيال أيامك ، ورحالُ الأملِ نجيمةٌ بين حلالك وخيامك ،

١ صدر بيت للمتنبي ، وعجزه « وزال عنك إلى أعدائك الأمل » .

فإذا قابلت الأشرافُ نِعَمَ الله تعالى بشكر ، ورمت الغفلة عن ذلك بنكر ، فاشكره  
 جلَّ وعلا بملء لسانك وجنانك ، واجرِّ في ميدان حمده مطلقاً من عنانك ، على  
 ما طوّقك من استرقاق حرّ ، وإفاضة أيادي غرّ ، واقتناء عسجدٍ من الحمد  
 ودرّ ، وإتاحة نفعٍ ودفعِ ضرّ ، وإدالة حلوٍ من مرّ ، وكنّ على ثقةٍ من مدافعةِ  
 الله تعالى عن حماك ، وعزّ تبليغ ذوائبه السّماك ، ورزقٍ يحره فألّ متماك ،  
 ودونك مجلسَ الإمامة فقدّ تديره بزمامك ، وحظوة الخلافة فاستحقّها  
 بوسائلك القديمة وذمامك ، ومحاسن الدولة فاجلّها على منصة إمامك ، ورسوم  
 البر فأغرّ بها عينَ اهتمامك ، وذروة المنبر فأمضِ بها ظبّة حسامك ، وأجنّ  
 الآملين زهرَ الأيادي البيض من كمامك ، فيا عز دولة بك - يا جملة  
 الكمال - قد استظهرت ، وأذلت المعاند وقهرت ، وبإعمال آرائك اشتهرت ،  
 فراقت فضائلها وبهّرت : جزالةٌ كما شقّ الجوّ جارح ، ولطافةٌ كما طارح  
 نعمَ التأليفِ مطارح ، وفكر في الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم والعدل  
 شارح ، ومكارم محت آثار الكرماء ونسخت ، وحلّت عقود أخبار الأجواد  
 في الأعصار وفسخت ، فلم تدع لفضل الفضلِ ذكراً ، وتركت معروف  
 يحيى بن خالدٍ نكراً ، لا بل لم يبق لكعب ، من علو كعب ، وأنست دعوة  
 حاتم ، بأيّ ماحٍ وخاتم ، قُصاره شيءٌ حوّار ، ومنع حوّار ، وعقرُ ناب ،  
 عند اقشعرار جناب ، وأين يقع من كبرٍ قدّر ترفع عن الكبر ، وجودٍ خضب  
 الأيدي بحناء التبر ، وعزّ استخدم الأسلّ الطوّال يبراع أقلّ من الشبر ،  
 وحقنّ الدماء المُرّاة بإرّاعة نجيع الحبر ، وفكّ العيقال ، ورفع الثوبَ الثقال ،  
 وراعَ الذرّة والمثقال ، وعزّ الزمانُ فأقال ، ووجد لسان الصدق فقال .

« أقسمُ بيارىء النسم ، وهو أبرُّ القسم ، ما فازت بمثلك الدول ، ولا ظفرت  
 بمثلك الملوك الأواخر والأول ، ولو تقدّمت لم يضربْ إلاّ بك المثل ، ولم  
 يقع إلا على سنّتك وكتابك والإجماع المنعقد على آدابك العمل ، والملوك لما شام  
 مالكة برّق العافية ، وتدرّع بالألطف الخافية ، كتب مبشراً باهتاء ، ومذيعاً

ما يجبُ من الحمد والثناء ، وشاكراً ما له بوجوده من الاعتناء ، فقد باذر ركن الدين بالبناء ، وأبقى السر والمنّة على الآباء والأبناء ، فسأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك ، ووسطى السلوك ، وسلالة أرباب المقامات والسلوك ، ويبقيك وحصّة الصحة وافرة ، وغرّة العزة القعساء سافرة ، وغادة عادة السعادة غير نافرة ، وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غائمة ظافرة ، ما زحفت للصباح شهبُ المواكب ، وتفتحت بشطّ نهر المجرة أزهار الكواكب ، والسلام « انتهى .

١٠٦ — ومن ذلك ما خاطب به سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ، جواباً عن كتابه ، وقد استقر خطيب السلطان بتونس :

« ولما أن نأت منكم ديارٌ وحال البعدُ بينكمُ وبينِي  
بعثتُ لكم سواداً في بياضٍ لأنظركم بشيء مثل عيني

« بم أفاتحك يا سيدي ، وأجلّ عُددي ؟ [ كيف أهدي ] سلاماً ، فلا أحذر ملاماً ؟ أو أنتخبُ لك كلاماً ، فلا أجد لتبعية التقصير في حقك الكبير إيلاماً ؟ إن قلت : نحية كسرى في الثناء وتبّع ، فكلمة في مرتع العجمة تربع ، ولها المصيف فيه والمربع ، والجميم والمنبع ، فتروى متى شاءت وتشيع ، وإن قلت : إذا العارض خطر ، ومهما همى أو قطر ، سلام الله يا مطراً ، فهو في الشريعة بطر ، وركبة خطر ، ولا يرعى به وطن ولا يقضى به وطر ، وإنما العرق الأوشج ، ولا يستوي البان والبنفسج ، والعوسج والعرفج :

سلام وتسليم وروحٌ ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج<sup>٢</sup>

١ من قول الشاعر :

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام  
٢ البيت لابن الرومي من قصيدته في رثاء يحيى بن عمر العلوي ومظلمها :  
أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج  
والسجسج : البرود .

«وما كان فضلك ليمنعني الكفرانُ أن أشكره ، ولا لينسني الشيطانُ أن أذكره ، فأتحذ في البحر سبباً<sup>١</sup> ، أو أسلك غير الوفاء مذهباً ، تأبى ذلك - والمنته لله تعالى - طيباع ، لها في مجال الرعي باع ، وتحقيق وإشباع ، وسوائم من الإنصاف ، ترعى في رياض الاعتراف ، فلا يطرقتها ارتياع ، ولا تخيفها سباع ، وكيف نجحد تلك الحقوق وهي شمسُ ظهيرة ، وأذان عقيرة<sup>٢</sup> جهيرة ، فوق مئذنة شهيرة ، آدت الأكتادَ لها ديون تستغرقُ الدم ، وتسرقُ حتى الرمم ، فإن قضيت في الحياة فهي الخطّة التي نرتضيها ، ولا نقنع من عامل الدهر المساعد إلاّ أن ينفذ مراسمها ويُمضيها ، وإن قُطع الأجل فالغني الحميد - من خزائنه التي لا تبيد - يقضيها ، ويرضي من يقتضيها . وحيّا الله تعالى أيها العلم السامي الجلال ، زمتاً بمعرفتكَ المبرة على الآمال ، برّ وأحف ، وإن أساء بفراقك وأجحف ، وأعرى بعدما ألحف ، وأظفر باليتيمة المذخورة للشدائد والمزايين<sup>٣</sup> ، ثم أوحش منها أصوثة هذه الخزايين ، فأب حنين الأمل بخفيّه ، وأصبح المغرب غريباً يقلبُ كفيّه ، ونستغفر الله تعالى من هذه الغفلات ، ونستهديه دليلاً في مثل هذه الفلكوات ، وأي ذنب في الفراق للزمن ، أو لغرابِ الدّمّن ، أو للرواحل المدبجة ما بين الشام إلى اليمن ، وما منها إلا عبد مقهور ، وفي رمة القدر مبهور ، عقد والحمد لله مشهور ، وحجّة لها على النفس اللوامة ظهور ، جعلنا الله تعالى ممّن ذكر المسبب في الأسباب ، وتذكّر ﴿ وَمَا يَدَّكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة : ٢٦٩ ، آل عمران : ٧) ، قبل غلق الرهن وسد الباب ، وبالجملة فالفراق ذاتي ، ووعده مائيّ ، فإن لم يكن فكأن قدّ ، ما أقرب اليوم من الغد ، والمرء في الوجود غريب ، وكل آت قريب ، وما من مقام إلا لزيال ، من غير احتيال ، والأعمار مراحل والأيام أميال :

١ ناظر إلى الآية القرآنية : « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر . . . » .

٢ العقيرة : الصوت .

٣ المزايين : يريد أن الدرّة تتخذ لأموال الزينة .



نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَيْبِ نَصِيْبِكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ ١

« جعل الله تعالى الأدب مع الحق شائنا ، وأبعد عنا الفراق الذي شائنا ،  
وإني لأسر لسيدي بأن رعى الله تعالى صالح سلفه ، وتداركه بالتلافي في  
تلقفه ، وخلص سعادته من كلفه ، وأحله من الأمن في كنفه ، وعلى قدرها  
تصاب العلياء ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء .

« هذا ، والخير والشر في هذه الدار ، المؤسسة على الأكدار ، ظلال  
مضمحلان ، فقد ارتفع ، ما ضرَّ أو نفع ، وفارق المكان ، فكأنه ما كان ،  
ومن كلمات الملوك ، البعيدة عن السلوك ، إلا أن يشاء ملك الملوك ٢ :

خذ من زمانك ما تيسر واترك بجهدك ما تعسر  
ولرب مجمل حالة ترضى به ما لم يفسر  
والدهر ليس بدائم لا بد أن يسوء إن سر  
واكم حديثك جاهداً شمت المحدث أو تحسر  
والناس آية الزجا ج إذا عثرت به تكسر  
لا تعدم التقوى فمن عدم الثقى في الناس أعسر  
وإذا امرؤ خسر الإل ه فليس خلق منه أخسر

« وإن لله تعالى في رعيك لسراً ، ولطفاً مستمراً مستقراً ، إذ ألقاك اليم إلى  
الساحل ، فأخذ بيدك من ورطة الواحل ، وحرك منك عزيمة الراحل ، إلى الملك  
الحلال ، فأدالك من إبراهيمك سمياً ، وعرفك بعد الوالي وسمياً ، ونقلك  
من عناية إلى عناية ، وهو الذي يقول وقوله الحق ﴿ ما ننسخ من آية -  
الآية ﴾ (البقرة : ١٠٦) .

١ من قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة .

٢ الأبيات في مشاهدات لسان الدين : ١١٥ .

«وقد وصل كتاب سيدي محمد - والحمد لله - العواقب ، ويصف المراقي التي حلها والمراقب ، وينشر المفاخر الحفصية والمناقب ، ويذكر ما هياه الله تعالى لديها من إقبال ، ورخاء بال ، خصيصي اشتمال ، ونشوة آمال ، وأنه اغبط وارتبط ، وألقى العصا بعدما خبط ، ومثل تلك الخلافة العلية من تزين الذات المخصوصة من الله تعالى بتشريف الأدوات بميزان تمييزها ، وتفرق بين شبه المعادن وإبريزها ، و «شبه الشيء» مثل معروف<sup>١</sup> ، ولقد أخطأ من قال : الناس ظروف ، إنما هم شجرات ربيع في بقعة ماحلة ، وإبل مائة لا تجد فيها راحلة<sup>٢</sup> ، وما هو إلا اتفاق ، ونجح للمسلك وإخفاق ، وقلما كذب إجماع وإصفاق ، والجليس الصالح لرب سياسة أمل مطلوب ، وحظ إليه مجلوب ، وإن سئل أطرف ، وعمر الوقت ببضاعة أشرف ، وسرق الطباع ، ومد في الحسنات الباع ، وسلى في الخطوب ، وأضحك في اليوم القطوب ، وهدى إلى أقوم الطرق ، وأعان على نواب الحق ، وزرع له المودة في قلوب الخلق ، زاد الله تعالى سيدي لديها قرباً أثيراً ، وجعل فيه للجميع خيراً كثيراً ، بفضلته وكرمه .

«ولعلمي بأنه - أبقاه الله تعالى - يقبل نصحي ، ولا يرتاب في صدق صبحي ، أعبطه بمشواه ، وأنشده ما حضر من البديهة في مسارة هداه ونجواه :

بمقام إبراهيم عذو واصرف به      فكراً ثورق عن بواعث تنبري  
فجواره حرم وأنت حمامة      ورقاء والأغصان عود المنبر  
فلقد أمنت من الزمان وربيه      وهو المروع للمسيء وللبري

«وإن تشوف سيدي فلعمر وليه لو كان المطلوب دنيا لوجب وقوع الاجتراء،

١ من قول المتنبي :

وشبه الشيء منجذب إليه      وأشبهنا بدنينا الطغام

٢ من حديث الرسول (ص) : «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة» .

ولاغبت بما تحصل في هذه الجزور ، المبيعة في حانوت الزور ، من السهام الوافرة  
الأجزاء ، فالسلطان - رعاه الله تعالى - يوجب ما فوق مزية التعليم ، والولد  
- هداهم الله تعالى - قد أخذوا بحظّ قلّ أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصة  
والعامّة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم ، وترك لما بالأيدي وتسليم ، وتدبير  
عاد على عدوّها بالعذاب الأليم ، إلا من أبدى السلامة وهو من إبطان الحسد  
بجالّ السليم ، ولا ينكر ذلك في الحديث ولا في القديم ، ولكن النفس منصرفة  
عن هذا الغرض ، نافضة يدّها من الغرض ، قد فوّتت الحاصل ، ووصلت في  
الله تعالى القاطع وقطعت الواصل ، وصدقت لما نصح الفؤدّ الناصل ، وتأهّبت  
للقاء الحمام الواصل ، وقلت :

انظر خضابَ الشباب قد نصّلا      وزائرَ الأنسِ بَعْدَهُ انفصلا  
ومطلبي والذي كَلِفْتُ بِهِ      حاولتُ تحصيله فما حصّلا  
لا أملٌ مُسْعَفٌ ولا عمَلٌ      ونحن في ذا والموتُ قد وصّلا

«والوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء في الأصائل والأسحار ، إلى مُقِيل العِثار ،  
شديدُ الافتقار ، والله عزّ وجلّ يَصِلُ لسيدي رَعِي جوانبه ، ويتولى  
تيسير آماله من فضله العميم ومآربه ، وأقرأ عليه من التحيات ، المحملة  
من فوق رحال الأريحيات ، أزكاها ، ما أوجع البرقُ الغمامَ فأبكأها ، وحسد  
الروضُ جمالَ النجوم الزواهر فقاسها بمباسم الأزهار وحكاها ، واضطبن  
هرمُ الليل عند الميل عصا الجوزاء وتوكأها ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

١٠٧ - ومما خاطب به لسان الدين - رحمه الله تعالى - ابن مرزوق  
المذكور قوله :

١ اضطبن العصا : وضعها تحت ضبته ليتوكأ عليها ، والضين : ما بين الخاصرة ورأس الورك .

«سيدي ، وعمادي ، كَشَفُ قناعِ النصيحة من وظائف صديق ، أو خديم لصيق ، وأنا بكلتا الجهتين حقيق ، ويتلجلج في صدري كلام أنا إلى نَفْثته ذو احتياج ، ولو في سبيل هياج ، وخرقِ سياج ، وخوضِ دِياجٍ ، وقد أصبحت سعادتي عن أصل سعادتك فرعاً ، فوجب النصحُ طبعاً وشرعاً ، فليعلم سيدي أن الجاه ورطة ، والاستغراق في تيار الدول غلطة ، وبمقدار العلو — إلا أن يقي الله تعالى — تكون السقطة ، وأنه — والله تعالى يعصمه من الحوادث ، وبقية من الخطوب الكوارث — وإن تبعه الجُمُّ فهو مفرد ، وبسهام الحسدة مُقصد ، وأن الذي يقبَلُ يده ، يُضمَرُ حسده ، وما من يوم إلا والعِللُ تستشري ، والحيلُ تريش وتبْري ، وسمومُ المكايِدِ تسري ، والعينُ الساهرة تطرقُ العينَ النائمة من حيث تدري ولا تدري ، وهذا الباب الكريم مخصوص بالزيادة والبركة ، وخصوصاً في مثل هذه الحركة ، فثم ظواهر تُخالف السرائر ، وحيثُ تصيبُ في الجوّ الطائر ، وما عسى أن يتحفظ المحسود ، وقد عوت الكلابُ وزارت الأسود ، وإن ظن سيدي أن الخطة الدينية تذب عن نفسها ، أو تنفع مع غير جنسها، [فذلك] قياسٌ غير صحيح ، وهبوب الريح ، وإنما هي درجة فوق الوزارة والحجابه ، ودهر يدعى فيبادر بالإجابة ، وجاه يجر على القليل الأذيال ، ويفيدُ العزّ والمال ، وبحرٌ هال ، وصدور تحمل الجبال ، وإن قطع بالأمان ، من جهة السلطان ، لم يؤمن أن يقع فيه ، والله سبحانه يقيه ، ويمتّع به ويُسقيهِ ، ما البشر بصدده ، والحي يجري إلى أمده ، فيستظهر الغير بقبيل ، ويجري من التغلب على سبيل ، ويبقى سيدي — والله تعالى يعصمه — طائراً بلا جناح ، ومحارباً دون سلاح ، ينادي من مكان يثق بودة في طَلَل ، ويقرع سن النادم والأمر جَلَل ، ومثله بين غير صنفه — ممّن لا يتصف بظرف ، ولا يلتفت إلى الإنسانية بظرف ، ولا يعبد الله تعالى ولو على حَرْف — محمول عليه من حيث الصنفية ، معتمد بالعداوة الخفية ، وإن ظن غير هذا فهو مخدوع مسحور ، ومفتون مغرور ، وبالفكر في الخلاص تفاضلت النفوس ، واستُدْفِعَ البوس ، وله وجوه كلّها متعذر

الحصول ، دونه بيضُ النصول ، إلا ما كان من الغرض الذي بان فيه بعد الجِدِّ الفُتور ، وعدل عنه وقد أخذ الدستور ، وتيسرت الأمور ، وتقررت الأيمان والنور ، فإنه عَرَضَ قريب وسفر قاصداً ، ومَسَعَى لا ينفق فيه سيدي من ماله درهم واحد ، ووطنٌ لِحركتهِ راصد ، لا يمنع عليه أهله ، ولا يستصعب سَهله ، وأميره جبره الله تعالى يتطرح في تعيينكم لاقتضائه ، وإحكام آرائه ، وتأمين خائفه ، واستقدام أصنافه وطوائفه ، وتتحركون حركة العز والتنويه ، والقدر النبیه ، لا يُعوزكم ممن وراءكم مَطْلَب ، ولا يُلغى عن مخالفتكم مذهب ، ولا يكدر لكم مشرب .

« وتمر أيام وشهور ، وتظهر بطون للدهر وظهور ، وتُفتح أبواب ، وتُسبب أسباب ، من رجوع يتأتى بعد السكون والفتور ، وقد سكنت الخواطر وتنوعت الأمور ، أو مقام تمهد به البلاد ، ويعمل في ترتيب الصلة الحسنة الاجتهاد ، وتستغرق في هذا الغرض الآماد ، ويتأتى ان حدث وتراكم حادث الاستقلال والاستبداد ، تنهت في الأعمار ، ويكون لمن ينتقل به على الشرق والغرب الخيار ، أو التحكم في ذخيرة سما منها المقدار ، وذُهل عند مشاهدتها الاعتبار ، وخزانة الكتب بجملتها وفيها الأمهات الكبار ، قد تجاوزت عنها الحاجة وعُدِم إليها الاضطرار ، والربع الذي يُسَوِّغ بالشرع والعقار ، فهذا كله حاصل ، وثم ضامن لا يتهم وكافل ، وعهود صبغتها غير ناصل .

« وبالجمله فالوطن لأغراض الملك جامع ، وللقاصده من المقام أو الانتقال مطيع وسامع ، وإن توقع إثارة فتنة ، أو ارتكاب إحنة ، فالأمر أقرب ، وحاله المتيسرُ أغرب ، وهذه الحجّة في تلمسان غير معتبرة ، وأجوبتها مقررة ، وقدم رسول الطاغية وإعانتها تحصل في الغالب ، على هذه المطالب ، وبالجمله فالدنيا

١ من الآية الكريمة ( التوبة : ٤٢ ) « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » .

قد اختللت ، والأقدامُ قد زلت ، والأموال قد قلت ، وشيبة الدهر ولتت ،  
 وذلك القطر على علته أحكم لمن يرومُ الجاهَ وأمنع ، وأجدى بكل اعتبار  
 وأنفع ، وقد حصرتُ لاستخلاصكم إياه الآلةُ التي لا تتأتى في كل زمان ،  
 وتبهاً إمكان أيِّ إمكان ، واقتضيت أيمان ، وعرضت سلع تقلُّ لها أثمان ،  
 وارتهنت الوفاء مروءاتٍ وأديان ، وتحقق بذلك القطر الفساد الذي اشتهر به  
 مأموره وأموره وأميره ، والمنكر الذي يجب على كل مسلم تغييره ، فإن شئت شرعاً  
 فالحكم ظاهر ، أو طبعاً فالطبع حاضر ، وما ثمَّ عاذل بل عاذر ، والمؤونة  
 التي تلزم أقل من أن تكون ثمن بعض الحصون ، فضلاً عن الشجرة ذات  
 الغصون ، وما يُستهلك في هذا الغرض شيء له خطر ، ولا يُستنقذ من الصحيفة  
 سطر ، واليد محكمة بكلِّ أو شطر .

«وما يخص المملوك من هذا الأمر إلا استنقاذ نَشَب ، واستخلاص مؤمِّل  
 بين موروث ومكتسب ، وبعيد أن لا ينعر له في زمن من الأزمان ، فلا بدَّ في  
 كل وقت من أعيان ، ومروءات وأحساب وأديان ، والله سبحانه كل يوم هو في  
 شان ، وأما خدمة دوله فهي عليَّ حرام ، لا ينجح لي فيها أن أعتمدها مرام ،  
 وكأنتي بالمشرق لاحتق ، ولأنفاسه الذكية ناشق ، فما هي إلا أطماع ، سرابها  
 لماع ، فإذا انقطعت ، انفسحت الدنيا واتسعت ، ومعاش في غمار ، أو عكوف  
 في كسر دار ، لمداومة استقالة واستغفار ، والله ما تُوهَّم أن من بتلك البلاد  
 يستنسر بُغائهُ عليكم ، أو يحتقر ما لديكم ، فقد ظهر الكائن ، وتطابق المخبر  
 والمعان ، فسبحان من يقوي الضعيف ويهين المخيف ، ويجري يد المشروف  
 والشريف ، والهمم بيد الله تعالى يُنجدُها ويخذلها ، والأرضُ في قبضته يرعاها  
 ويهملها .

«هذا بثٌ لا يسع إفساؤه ، وسر إن لم يُطوَّ سقط به على السرحان شاؤه ،

١ أصل المثل «سقط العشاء به على سرحان» ، ولعل القراءة الصحيحة : «عشاؤه» .

وفيه ما ينكره الأمر ، وتتعلق به الظنون وتعمل الخواطر ، فتدبروه واعتبروه ،  
 وبعقلكم فاستبروه ، ثم غطوه بالإحراق واستروه ، والله تعالى يرشدكم للتي  
 هي أسد ، ويحملكم على ما فيه لكم العز السرمد ، والفخر الذي لا ينفد ،  
 والسلام « انتهى .

١٠٨ - وقال رحمه الله تعالى : ومما صدر عني ما أجبته به عن كتاب  
 بعث به إليّ الفقيه الكاتب عن سلطان تلمسان أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي  
 الثغري :

« حَيًّا تِلْمَسَانَ الْحَيَّا فَرُبَّوعَهَا      صَدَفٌ يَجُودُ بِدَرِّهِ الْمَكْنُونِ  
 مَا شَتَّ مِنْ فَضْلِ عَمِيمٍ إِنْ سَقَى      أُرْوَى وَمِنْ لَيْسَ بِالْمَمْنُونِ<sup>١</sup>  
 أَوْ شَتَّ مِنْ دِينٍ إِذَا قَدَحَ الْهَدَى      أُرْوَى وَدُنْيَا لَمْ تَكُنْ بِالْدُونِ  
 وَرَدَّ النَّسِيمُ لَهَا بِنَشْرِ حَدِيقَةٍ      قَدْ أَزْهَرَتْ أَفْئَانَهَا بِفَنُونِ  
 وَإِذَا حَبِيْبَةٌ أَمْ يَحْيَى أَنْجَبَتْ      فَلَهَا الشَّفُوفُ عَلَى عَيُونِ الْعَيْنِ

« ما هذا النسر ، والصف والحشر ، واللف والنشر ، والفجر والليالي العشر ،  
 شدًّا كما تنفست دارين ، وسطور رقم حللها التزيين ، وبيان قام على إبداعه  
 البرهان المبين ، ونقّس ، وشي به طرس ، فجاء كأنه عيون العين ، لا بل  
 ما هذه الكتاب الكتبية التي أطلعت علينا الأعنة ، وأشرعت إلينا الأسنّة ، وراعت  
 الإنس والجنّة ، فأقسم بالرحمن ، لولا أنّها رفعت شعار الأمان ، وحيّت  
 بتحية الإيمان ، لراعت السّرّب ، وعاقّت الدود أنّ يردّ الشّرّب ، أظنّها مدد  
 الجهاد قدّم ، وشاردّ العرب استعمل في سبيل الله واستخدم ، والمتأخّر على ما  
 فاته ندم ، والعزم وجد بعدما عدم ، نستغفر الله ، إنّما هي رقاع الرفاع<sup>٣</sup> ،

١ ورّى لسان الدين في هذه الرسالة عن أمور وحاطها بالغموض ولذا طلب أن تحرق الرسالة .

٢ المن : الفضل ؛ والممنون : المقطوع .

٣ ق : رقاع رقاع ؛ والرفاع : رفع الحب بعد الحصاد .

وَصَلَاتُ صَلَاةٍ لَيْسَ فِيهَا سَبَقٌ وَلَا إِرْبَاعٌ<sup>١</sup> ، وَبِقَاعٌ<sup>٢</sup> لَهَا بَطْلٌ الطَّبَاعِ الْكَرِيمَةِ  
 انْتِفَاعٌ ، وَالْحَانَ بَيَانٌ يَعْضِدُهَا إِيقَاعٌ ، وَدَرٌ مَنْسُوقٌ ، وَرَطْبٌ لِنَخْلِهَا بُسُوقٌ ،  
 وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ : الْمَلِكِ سَوْقٌ<sup>٣</sup> ، وَمَنْ نَصِيرُ الشَّيْخِ عَلَى كِتَابَةٍ تَعْقِبُهَا كِتَابَةٌ ،  
 وَاقْتِضَاءٌ وَجِيئَةٌ مِنْ ذِي غَلَّةٍ غَيْرِ نَجِيئَةٍ ، بَيْنَا هُوَ يَكَابِدُ مِنْ مَرَاجِعَةِ الْحَيِّ مِنْ  
 حَضْرَمُوتِ الْمَوْتِ ، وَلَا يَكَادُ يَرْجِعُ الصَّوْتُ ، إِذْ صَبَحَتْهُ قَيْسٌ<sup>٤</sup> وَهِيَ الَّتِي شَدَّتْ  
 عَنِ الْقِيَّاسِ ، وَأَجْحَمَتْ عَنِ مَبَارِزَتِهَا أَسْوَدَ الْأَخْيَاسِ<sup>٥</sup> ، فَلَوْلَا امْتِثَالُ أَمْرٍ ،  
 وَصَبْرٌ عَلَى جَمْرٍ ، لِأَعَادَ مَا حَكِي فِي مَبَارِزَةِ الْوَصِيِّ عَنِ عَمْرٍو<sup>٤</sup> ، فَتَحَرَّجَ مِنْ  
 الْخَطْلِ ، وَبَيَّنَّ عُدْرَ الْمَكْرَهِ عَنِ مَنَاجِزَةِ الْبُطْلِ ، أَلَمْ يَدْرِ قَائِدُ رَعِيْلِيهَا ، وَزَائِرُ  
 غَيْلِيهَا ، أَنْتِي أُمَّتٌ بَدْمَةٌ مِنْ عَمِيدِهِ لَا تُخْفَرُ ، وَأَنْ ذَنْبٌ إِضَافَتِي لَهُ  
 لَا يُغْفَرُ ، وَحَقُّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُجْحَدُ وَلَا يُكْفَرُ :

لَمَّا رَأَتْ رَايَةَ الْقَيْسِيِّ زَاخِفَةً  
 قَلْتُ الْوَعْيِي لَيْسَ مِنْ رَأْيِي وَلَا عَمَلِي  
 قَدْ كَانَ ذَاكَ وَرِنَاتُ الصَّهْلِيلِ ضَحِيَّ  
 وَالْآنَ قَدْ صَوَّحَ الْمَرْعَى وَقَوَّضَتِ الْ  
 قَالَتْ أَلَسْتَ شَهَابَ الدِّينِ تَضْرَمُهَا  
 وَإِنَّ أَحْسَنَ مِينَ هَذَا وَذَا وَزَرَ  
 هُوَ الْحَمِيُّ لِأَبِي حَمُوَ اسْتَجْرَهُ فَفِيهِ  
 وَاللَّهِ لَوْ أَهْمَلَ الرَّاعِي النَّقَادَ بِهِ  
 إِلَيَّ رَيْعَتْ وَقَالَتْ لِي وَمَا الْعَمَلُ ؟  
 لَا نَاقَةٌ لِي فِي هَذَا وَلَا جَمَلٌ  
 تَهَزُّ عِظْفِي كَأَنْتِي شَارِبٌ ثَمِلٌ  
 خِيَمَاتِ وَالرَّكْبَ بَعْدَ اللَّبْثِ مُحْتَمِلٌ  
 حَاشَا الْعَلَا أَنْ يُقَالَ : اسْتَنُوقَ الْجَمْلُ  
 بِمَثَلِهِ فِي الدَّوَاهِي يُبْلَغُ الْأَمَلُ  
 هُ الْأَمْنُ مَنْسَدَلٌ وَالْفَضْلُ مَكْتَمَلٌ  
 مَا خَافَ مِنْ أَسَدٍ خَفَّانٍ بِهِ هَمَلٌ<sup>٥</sup>

١ الإرباع : الإسراع . وفي ق : إرقاع .

٢ هو من المثل : « الملك سوق يحمل إليها ما نفق فيها » .

٣ ق : الأجناس .

٤ الوصي : علي بن أبي طالب ، ومبارزته لعمر بن الخطاب - فيما روي - تدل على أن عمر لم يكن

من أرباب المبارزة وإنما من أهل الحيلة والدهاء .

٥ النقاد : الغم ؛ وخفان : اسم موضع .



تكونُ من قوم موسى إن قَصَّوْا عدلوا  
هُمُ الجبالُ الرواسي كلما حملوا  
فقلتُ : كان لكِ الرحمن بعدي ما  
فها أنا تحت ظلّ منه يلحفني  
فقلّ لقيس لقد خاب القياسُ فلا  
دامتْ له ديمُ النعمى مُساجلةً  
وآمنتْ شمسُ علياه الأفولَ إلى  
وإن تقاعدَ دهرٌ جائرٌ حملوا  
هُمُ البحارُ الطوامي كلما حملوا  
سواهُ معتمدٌ والرأيُ معتمَلُ  
والشملُ مني بسترِ العزّ يشتمَلُ  
تُدْ كُوا المصاعَ وتحت الليل فاحتملوا  
يمناه ، تنهملُ اليمنى فتنهملُ  
طيّ الوجودِ فلا شمسٌ ولا حمَلُ

« ولو خوى - والعود بالله - نجم هذا المتات ، ولم يتصف السبب - وحاشاه -  
بالاتصال ولا بالانبات ، فمرعى العدل مكفول ، وسبب الرفق موصول ،  
وإن اشتجرت نُصُول ، والهرمُ تأبى الأبطالُ التتزل إلى نزاله ، والناسكُ  
التائبُ يدينُ ضربُ الغاراتِ باعتزاله ، إلاّ مَنْ أعرق في مذهبِ الخارجي  
الأخرق ، نافع بن الأزرق ، وحسبي ، وقد ساء كسبي ، أن أترك الخطر  
لراكبه ، وأخلى الطريق لمن يبني المنارَ به ، ونسير بسير أمثالي من الضعفاء ،  
ونكفّ فهو زمان الانكفاء ، ونسلم مخطوبةَ هذا الفن إلى الأكفاء ، ونقول :  
بالبنين والرفاء ، فقد ذهب الزمن المذهب ، وتبين المذهب ، وشاخ البازي  
الأشهب ، وعتادُ العمر يُنهب ، ومرهب الفوت من فوقِ القود يرهب ،  
اللهمّ ألهمّ هذه الأنفسَ رُشدَها ، وأذكرها السكرات وما بعدها .  
« إليه أخي والفضلُ وِصفك ونعتك ، والزيفُ يُبهرجه بحتك ، وسهامُ  
اليراعة افردتْ بها برّيك وتحتك ، واصلتني رسالتك البرة ، بل غمامتك  
الثرة ، وحيثني تُغور فضلك المُفترّة ، فعظمت بورودها المسرة ، جددت  
العهدَ بمحبوب لقائك ، وأنهت ظامي الاستطلاع في سقائك ، واقتضت تجديداً  
الدعاء ببقائك ، إلاّ أنّها ربّما ذُهلّت عند وداعك ، وأبهر عقلها نورُ إبداعك ،

١ ق : ولو جرى ... المتاب ... بالانتياب .

فلم تَلْقَنِ الوصية ، وسلكت المسالك القَصِيَّةَ ، وأبعدت من التطوُّفِ ،  
وجاءت بتبغني من أسرار التصوِّفِ ، ومتى تُقَرَّنُ هيبَةُ السبعِ الشدادِ ، بحانوتِ  
الحدَّادِ ، أو تنظر أحكام الاعتكافِ ، بدكَّانِ الإسكافِ ، أو يُتَعَلَّمُ طبعُ  
المثقالِ ، بحانوتِ البقالِ ؟ والظنُّ الغالبُ - وقد تلتبس المطالبُ - أنكم أمرتموها ،  
لما أصدرتموها ، بإعمالِ التشوِّفِ ، فطردت حكم الإبدالِ ، غائبة عما يلزم من  
الجدالِ ، وسمَّت الشين صاداً ، وعينت لزرع الوصيةِ حصاداً ، والله تعالى  
يجعل المحبَّ عند ظنِّ من نظر بمرآته ، أو وصَفَه ببعض صفاته ، وهي تزلقُ  
عن صفاته ، فالتصوِّفُ أشرفُ ، وظلاله أُوْرَفُ ، من أن يناله كلفُ بباطلِ ،  
ومغرورُ بسرابِ ماطلِ ، لا بربابِ هاطلِ ، ومفتونٌ بحالِ حالٍ أو عاطلِ ، ومن  
قال ولم يتصف بمقاله ، فعقله لم يَرِمَ عن عقاله ، وجبالُ أُنقاله ، مانعة له  
عن انتقاله .

«وعلى ذلك، وبعد تقرير هذه المسالك ، فقد عمرت يدها كيلا تعود بها صِفراً  
بعد إعمال السفر ، أو ترى أنها قد طولبت بذنب الغلط المغتفر ، وأصبحت  
المراجعة بمجلس وعظٍ فتحت به باب الحرج ، إلى إنكار الإمام أبي الفرج<sup>١</sup> ،  
وفنُّ الوعظ لما سأل الأخ هو الصديق المسعد ، والمُبْرِقُ قبل غمام رحمته  
والمُرْعِدُ ، والله در القائل : لستَ به ولم تبعد ، والاعتراضُ بعدُ مُلَازِمٌ ،  
لكنَّ الإسعافَ لقصده لازم ، وعامله عند الاعتلال بالعدر جازم ، وإغضاؤه  
ملتَمَسٌ ، وفضله لا يجبو منه قَبَسٌ ، وعدراً أيتها الفاضل ، وبعد الاعتذار ،  
عن القلم المِهْذَارِ ، وإغفال الحدار ، اقرأ عليهم من طيب السلام ، ما يُخْجَلُ  
أزهار الكمام عقب الغمام ، ورحمة الله تعالى مِن مُمْلِيهِ على الكاتب ، ولعلها  
تفتأ من عَتَبِ العاتب ، ابنِ الخطيب : فإتي كتبه والليلُ دامس ، وبحرُ

١ يعني أبا الفرج ابن الجوزي لشهرته في الوعظ .

الظلامِ طامس ، وعادة الكسل طبعٌ خامس ، والنافخُ بشكوى البرد هامس ،  
والذبالُ المُنادم خافت ، لا يهتدي إليه الفَرَاشُ التهافت ، يقومُ ويقعد ،  
ويقيق ثم يردد ، ويزفر ثم يخمد ، وربما صار ورقةَ آس ، أو مبضعَ آس ،  
وربما أشبه العاشقَ في البُوح بما يخفيه ، وظهوره من فيه ، فتميله الآمال وتلويهِ ،  
وتميته النواسم الهفافة بعدما تحييه ، والمطر ، قد تعذَّرَ معه الوطرُ ، وساقه الخطر ،  
وفعل في البيوتِ المتداعية ما لا يفعل التركُ والطرطُ ، والنشاطُ ، قد طوي منه  
البساط ، والجوارحُ بالكلالِ تعتذر ، ووظائفُ الغدِ تنتظر ، والفكرُ في الأمور  
السلطانية جائل ، وهي بحر هائل ، ومثلي مَقنوعٌ منه باليسير ، ومعدورٌ في قِصرِ  
الباع وضعفِ المسير ، والسلام » انتهى .  
وهي من البلاغة في الذروة .

١٠٩ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله : وممّا صدر عني في  
السياسة : « حدثت من امتاز باعتبار الأخبار ، وحاز درجةَ الاشتهار ، بنقل  
حوادثِ الليل والنهار ، وولج بين الكمامم والأزهار ، وتلطف لحجل الورد  
من تبسم البهار ، قال : سهر الرشيد ليله ، وقد مال في هجر النبيذ ميله ، وجهد  
ندماؤه في جلب راحته ، وإلام النوم بساحته ، فشحت عهادهم ، ولم يُغنِ  
اجتهادهم ، فقال : اذهبوا إلى طُرُقِ سمّائها ورسمها ، وأمهاثِ قسمها ،  
فمن عثرتم عليه من طارقِ ليل ، أو غثاء سيل ، أو ساحبِ ذَيْل ، فبلغوه ،  
والأمنة سوغوه ، واستدعوه ، ولا تدعوه ، فطاروا عَجالي ، وتفرقوا  
ركباناً ورجالا ، فلم يكن إلا ارتدادُ طرف ، أو فُواقِ حرف ، وأتوا بالغنيمة  
التي اكتسحوها ، والبضاعة التي ربحوها ، يتوسطهم الأشعث الأغر ، واللجُّ  
الذي لا يُعبّر : شيخٌ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، سبَلته مُشمطة ،

١ الفواق : فترة ما بين الحلبتين ؛ والحرف : الناقة .

وعلى أنفه من القبع<sup>١</sup> مَطَّة ، وعليه ثوب مرقوع ، لطير الحرق عليه وقوع ،  
يُهَيِّنُ بِذِكْرِ مَسْمُوعٍ ، وَيُنْبِئُ عَنْ وَقْتِ مَجْمُوعٍ ، فَلَمَّا مَثَلَ سَلَمٌ ، وَمَا  
نَبَسَ بَعْدَهَا وَلَا تَكَلَّمَ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ فَتَقَعَدَ ، بَعْدَ أَنْ انْشَمَرَ وَابْتَعَدَ ، وَجَلَسَ ،  
فَمَا اسْتَرَقَ النَّظَرَ وَلَا اخْتَلَسَ ، لِأَنَّمَا حَرَكَةُ فِكْرِهِ ، مَعْقُودَةٌ بِزِمَامِ ذِكْرِهِ ،  
وَلِحِظَاتِ اعْتِبَارِهِ ، فِي تَفَاصِيلِ أَحْبَابِهِ ، فَابْتَدَرَهُ الرَّشِيدُ سَائِلًا ، وَانْحَرَفَ إِلَيْهِ  
مَائِلًا ، وَقَالَ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ فَقَالَ : فَارِسِيُّ الْأَصْلِ ، أَعْجَمِيُّ الْجَنَسِ عَرَبِيُّ  
الْفَصْلِ ، قَالَ : بَلَدُكَ وَأَهْلُكَ وَوَلَدُكَ ؟ قَالَ : أُمَّا الْوَلَدُ فَوَلَدُ الدِّيَّانِ ، وَأُمَّا  
الْبَلَدُ فَمَدِينَةُ الْإِيَّانِ ، قَالَ : النَّحْلَةُ ، وَمَا أَعْمَلْتَ إِلَيْهِ الرَّحْلَةَ ؟ قَالَ : أُمَّا الرَّحْلَةُ  
فَالْإِعْتِبَارُ ، وَأُمَّا النَّحْلَةُ فَالْأَمْرُ الْكُبَّارُ ، قَالَ : فَنَنْكَ ، الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ دَنْكَ ؟  
فَقَالَ : الْحِكْمَةُ فَتِي الَّذِي جَعَلْتَهُ أَتِيرًا ، وَأَضْجَعْتَ فِيهِ فَرَاشًا وَتِيرًا ، وَسَبَّحَانَ  
الَّذِي يَقُولُ ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة : ٢٦٩)  
وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَتَبَعَ ، وَلِي فِيهِ مُصْطَفٍ وَمُرْتَبِعٍ ، قَالَ : فَتَعَاضِدُ جَدَلُ  
الرَّشِيدِ وَتَوْفَرُ ، كَأَنَّمَا أَغْشَى وَجْهَهُ قِطْعَةٌ مِنَ الصَّبْحِ إِذَا أُسْفِرَ ، وَقَالَ : مَا رَأَيْتَ  
كَاللَّيْلَةِ أَجْمَعَ لِأَمَلٍ شَارِدٍ ، وَأَنْعَمَ بِمُؤَانَسَةِ وَارِدٍ ، يَا هَذَا إِنِّي سَائِلُكَ ، وَلَنْ تَحْيَبَ  
بَعْدُ وَسَائِلُكَ ، فَأَخْبَرَنِي مَا عِنْدَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي بُلِينَا بِحَمْلِ أَعْبَائِهِ ، وَمُنِينَا  
بِمَرَاوِضِ إِبَائِهِ ، فَقَالَ : هَذَا الْأَمْرُ قِلَادَةٌ ثَقِيلَةٌ ، وَمِنْ خُطَّةِ الْعِجْزِ مُسْتَقِيلَةٌ ،  
وَمِفْتَخَرَةٌ لِسَعَةِ الذَّرْعِ ، وَرَبَطُ السِّيَاسَةِ الْمَدِينَةِ بِالشَّرْعِ ، يَفْسُدُهُ الْحُكْمُ فِي  
غَيْرِ مَحَلِّهِ ، وَيَكُونُ ذَرِيعَةً إِلَى حَلِّهِ ، وَيُصْلِحُهُ مِقَابِلَةُ الشَّكْلِ بِشَكْلِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ  
سَبْعًا آكِلًا تَدَاعَتْ سَبَاعٌ إِلَى أَكْلِهِ .

« فَقَالَ الْمَلِكُ : أَجْمَلْتَ فَفَصَّلَ ، وَبَرَّيْتَ فَفَصَّلَ ، وَكَلَّمْتَ فَأَوْصَلَ ،  
وَإِنْزِلِ الْحَبَّ لِمَنْ يُحَوِّصِلُ ، وَاقْسِمِ السِّيَاسَةَ فَنُونًا ، وَاجْعَلِ لِكُلِّ لِقَبِّ قَانُونًا ،  
وَإِبْدَأْ بِالرَّعِيَّةِ ، وَشَرُوطِهَا الْمَرْعِيَّةِ .

١ القبع : الصياح أو الإعياء والانبهار .

« فقال : رعيتك ودائع الله تعالى قبلك ، ومرآة العدل الذي عليه جبلك ، ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانة الله تعالى التي وهب لك ، وأفضل ما استدعيت به عونك فيهم ، وكفايته التي تكفيهم ، تقويم نفسك عند قصد تقويمهم ، ورضاك بالسهر لتقويمهم ، وحراسة كهلمهم ورضيعهم ، والترفع عن تضييعهم ، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها ، أخذاً يحوط ما لها ، ويحفظ عليها كما لها ، ويقصر عن غير الواجبات آملها ، حتى تستشعر عيبتها رأفتك وحنانك ، وتعرف أوساطها في النصب امتنانك ، وتحذر سفلتها سنانك ، وحظر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها ، وسد فيها سبل الذريعة ، وأقصر جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة ، وامنع أغنياءها من البطر والبطالة ، والنظر في شبهات الدين بالتمشدد والإطالة ، وليقل فيما شجر بين الناس كلامها ، ويرفض ما تنبذ به أعلامها ، فإن ذلك يسقط الحقوق ، ويرتب العقوق ، وامنعهم من فحش الحرص والشه ، وتعاهدهم بالمواعظ التي تجلو البصائر من المره ، واحملهم من الاجتهاد في العمارة على أحسن المذاهب ، وانتههم عن التحاسد على المواهب ، ورضهم على الإنفاق بقدر الحال ، والتعزي عن الفات فرده من المحال ، وحذر البخل على أهل اليسار ، والسخاء على أولي الإعسار ، وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر ، وامنعهم من تأويلها منع القاهر ، ولا تطلق لهم التجمع على من أنكروا أمره في نواديهم ، وكف عنهم أكف تعديهم ، ولا تبخ لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم ، ولتكن غايتهم ، فيما توجهت إليه إبايتهم ، ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم ، لإنهاء إلى من وكتته بمصالحهم من ثقاتك ، المحافظين على أوقاتك ، وقدم منهم من أمنت عليهم مكره ، وحمدت على الإنصاف شكره ، ومن كثر حياؤه من التائب ، وقابل الهفوة باستتابه المنيب ، ومن لا يتخطى عندك محله الذي حله ، فربما عمد إلى المبرم فحلته ، وحسن النية لهم

بجهد الاستطاعة ، واغتفر المكاره في جنب حسن الطاعة ، وإن ثار جرادهم ،  
واختلف في طاعتك مرآدهم ، فتحصن لثورتهم ، واثبت لفورتهم ، فإذا سالوا  
وسلوا ، وتفرقوا وانسلوا ، فاحتقر كثرتهم ، ولا تقل عثرتهم ، واجعلهم  
لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا ، ولا ترك لهم على حلمك انكالا .

« ثم قال : والوزيرُ الصالحُ أفضلُ عددك ، وأوصلُ مددك ، فهو الذي يصونك  
عن الابتذال ، ومباشرة الأندال ، ويثبُ لك على الفرصة ، وينوبُ في تجرع  
الغصّة ، واستجلاء القصة ، ويستحضرُ ما نسيتهُ من أمورك ، ويغلبُ فيه الرأي  
بموافقة مأمورك ، ولا يسعه ما تمكّنك المسامحة فيه ، حتى يستوفيه ، واحذر  
مصادمة تياره ، والتجوز في اختياره ، وقدمِ استخارة الله تعالى في إثارة ،  
وأرسل عيون الملاحظة على آثاره ، وليكن معروفاً بالإخلاص لدولتك ، معقود  
الرضى والغضب برضاك وصورلتك ، زاهداً عما في يديك ، مؤثراً لكل ما  
يُزلفُ لديك ، بعيد الهمة ، راعياً للأذمة ، كامل الآلة ، محيطاً بالإيالة ،  
رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبيه الحي والميت ، مؤثراً للعدل  
والإصلاح ، درياً بحمل السلاح ، ذا خبرة بدخل المملكة وخرجها ، وظهرها  
وسرجها ، صحيح العقد ، متحرزاً من النقد ، جاداً عند لهوك ، متيقظاً في حال  
سهوك ، يلينُ عند غضبك ، ويصليُ الإسهابَ بمقتضبك ، قلقاً من شكره  
دونك وحمده ، ناسباً لك الإصابة بعَمَدِه ، وإن أعياء عليك وجودُ أكثر هذه  
الخلال ، وسبق إلى تقضها شيء من الاختلال ، فاطلبُ منه سكونَ النفس  
وهدونها ، وأن لا يرى منك رتبة إلا رأى قدره دونها ، وتقوى الله تعالى تفضلُ  
شرف الانتساب ، وهي للفضائل فذلّة الحساب ، وساوٍ في حفظ غيبه  
بين قربه ونأيه ، واجعل حظه من نعمتك موازياً لحظك من حسنِ رأيه ، واجتنب  
منهم من يرى في نفسه إلى الملك سيلاً ، أو يقودُ من عيصه للاستظهار عليك  
قبيلاً ، أو من كاتر مالك ماله ، أو من تقدم لعدوك استعماله ، أو من سمّت  
لسواك آماله ، أو من يعظّم عليه إعراضُ وجهك ، ويهمةُ نادرُ نجهك ،

أو من يداخلُ غيرَ أحبابك ، أو من ينافسُ أحداً ببابك .

«وأما الجند فاصرف التقديمَ منهم للمقاتلة ، والمكايدة والمخاتلة ، واستوفِ عليهم شرائط الخدمة ، وخذهم بالثبات للصدمة ، ووفِّ ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة ، وتعاهدهم عند الغناء بالعلفة والطعمة ، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه ، وطاب في الذب عن ظنك ثناؤه ، وولَّ عليهم النباه من خيارهم ، واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم ، ولا توطئهم الدعة مهاداً ، وقدمهم على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً ، ولا تليّن لهم في الإغماض عن حسن طاعتك قياداً ، وعودهم حُسنِ المواساة بأنفسهم اعتياداً ، ولا تسمح لأحدٍ منهم في إغفال شيء من سلاح استظهاره ، أو عُدّة اشتهاره ، وليكن ما فضل من شبتهم وربتهم ، مصروفاً إلى سلاحهم وزيتهم ، والتزيد في مراكبهم وغلمانهم ، من غير اعتبار لأثمانهم ، وامنعهم من المستغلات والمتاجر ، وما تكسب به غير المشاجر ، وليكن من القوار اكتسابهم ، وعلى المغانم حسابهم ، كالجوارح التي تفسد باعتيادها ، أن تطعم من غير اصطيادها .

«واعلم أنّها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان ، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان ، ويملك حركاتها بالتقويم ، وربتها بالميزان القويم ، ومن تثق بإشفاقه على أولادها ، ويشري رضى الله تعالى بصره على طاعته وجلادها ، فإذا استشعرت لها هذه الخلال تقدمتك إلى مواقف التلف ، مطيعة دواعي الكلف ، واثقة منك بحسن الخلف ، واستبق إلى تمييزهم استباقاً ، وطبقهم طباقاً ، أعلاها من تأملت منه في المحاربة عنك أخطاراً ، وأبعدهم في مرضاتك مطاراً ، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزمًا ووقاراً ، واستهانة بالعظائم واحتقاراً ، وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية جواراً ، إذا أجدت اختباراً ، وأشدّهم على مماثلة من مارسه من الخوارج عليك اصطيباراً ، ومن بلا في الذي عنك لإحلاء وإمراراً ، ولحقه الضر في معارض الدفاع

عنك مراراً ، وبعده مَنْ كانَتْ محبته لك أزيد من نجدته ، وموقعُ رأيه أنفع من موقعِ صعدته ، وبعدهما مَنْ حَسَنَ انقيادهُ لأمرائك ، وإحماده لآرائك ، ومَنْ جعل نفسه من الأمر حيث جعله ، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله . واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه في الانتفاع ، ولم يستحي من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع ، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائده ، وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك ، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله ، وأظهر الكراهية لحاله .

«وأما العمال فإنهم ينبئون عن مذهبك ، وحالمهم في الغالب شديدة الشبه بك ، فعرفهم في أمانتك السعادة ، وألزمهم في رعيته العادة ، وأنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم في الانصاف ، بالعدل والإنصاف ، وأحلهم من الحفاية ، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية ، وقفهم عند تقليد الأرجاء ، مواقف الخوف والرجاء ، وقرّر في نفوسهم أن أعظم ما به إليك تقربوا ، وفيه تدرّبوا ، وفي سبيله أعجموا وأعربوا ، إقامة حقّ ودحض باطل ، حتى لا يشكو غريمٌ مَطلّ ماطل ، وهو آثر لديك من كل ربابِ هاطل ، وكفهم من الرزق الموافق ، عن التصدي لذيء المرافق ، واصطنع منهم من تيسرت كلفته ، وقويت للرعايا ألفتة ، ومن زاد على تأميلة صبره ، وأربى على خبره خبره ، وكانت رغبته في حسن الذكر ، تشفّ على بنات الفكر ، واجتنب منهم من يغلب عليه التخرق في الإنفاق ، وعدم الإشفاق ، والتنافس في الاكتساب ، وسهّل عليه سوء الحساب ، وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية ، دون التقصي والكفاية ، ومن كان منشؤه حاملاً ، ولأعباء الدناءة حاملاً ، وابغِ مَنْ يكون الاعتذار في أعماله ، أوضح من الاعتذار في أقواله ، ولا يفتنك ممن قلده اجتلابُ الحظّ المقنع ، والتنفقُ بالسعي المسمع ، ومخالفة السنن المرعية ، واتباعه رضاك بسخط الرعية ، فإنه قد غشك ، من حيث بلك ورشك ، وجعل من يمينك



في شمالك ، حاضر مالك ، ولا تُضْمَنَ عاملاً مال عمله ، وحُلِّ بينه فيه وبين  
أمله ، فإنك تميّتُ رسومك بحياه ، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه ،  
ولا تجمع لهُ بين الأعمالِ فيسقط استظهارك ببلد على بلد ، والاحتجاج على  
والد بولد ، واحرصُ على أن يكونَ في الولاية غريباً ، ومنتقلهُ منك قريباً ،  
ورهيئةً لا يزال معها مريباً ، ولا تقبلُ مصالحته على شيء اختانه ، ولو برغبة  
فتّانه ، فتقبلِ المصانعةَ في أمانتك ، وتكونَ مشاركاً لهُ في خيانتك ، ولا  
تُطِلْ مدة العمل ، وتعاهد كشف الأمور ممّن يرعى الهمل ، ويبلغ الأمل .  
«وأما الولد فأحسنِ آدابهم ، واجعل الخير دابهم ، وخفّ عليهم من  
إشفاقك وحنانك ، أكثر من غلظة جنانك ، واكتمْ عنهم ميلك ، وأفضْ فيهم  
جودك ونيلك ، ولا تستغرقْ بالكلفِ بهم يومكَ ولا ليلتكَ ، وأثبهُمُ  
على حُسْنِ الجواب ، وسبّقْ لهم خوفَ الجزاء على رجاء الثواب ، وعلمهم  
الصبرَ على الضرائر ، والمهلة عند استخفاف الجرائر ، وخذهم بحسن السرائر ،  
وحبب إليهم مراسِ الأمور الصعبة المراس ، وحسُنِ الاصطناع والاحتراس ،  
والاستكثار من أولي المراتب والعلوم ، والسياسات والحلوم ، والمقام المعلوم ،  
وكرهَ إليهم مجالسة الملهين ، ومصاحبة الساهين ، وجاهد أهواءهم عن عقولهم ،  
وحذّر الكذب على مقولهم ، ورشّحهمُ إذا آنت منهم رُشداً أو هدياً ،  
وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثدياً ، لتمرّتهم على الاعتياد ، وتحملهم على  
الازدياد ، ورُضهمُ رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم ،  
وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم ، وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت ، واقدها  
إذا هجمت ، قبل أن يظهر تضعيفها ، ويقوى ضعيفها ، فإن أعجزتك في الصغر  
الحيل ، عظم الميل :

إنَّ العُصونَ إذا قومتها اعتدلت ولنَّ تكلينَ إذا قومتها الحشبُ

وإذا قدروا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، إياك أن تيرطنهم في

مكانك ، جهد إمكانك ، وفرقهم في بلدانك ، تفریق عبدانك ، واستعملهم في بعوث جهادك ، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك ، فإن حَضَرَكَ تشغلهم بالتحاسد ، والتباري والتفاسد ، وانظر إليهم بأعين الثقات فإن عين الثقة ، تُبْصِرُ ما لا تبصر عين المحبة والمقبة .

«وأما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع ، وتبصر وتسمع ، فرُضُّهُم بالصدق والأمانة ، وصُنُّهُم صَوْنُ الحُمانَةِ ، وخذهم بحسن الانقياد إلى ما آثرته ، والتقليل مما استكثرته ، واحذر منهم من قويت شهواته ، وضاعت عن هواه لهواته ، فإن الشهوات تنازعكَ في استرقاقه ، وتشاركك في استحقاقه ، وخيبرهم من ستر ذلك منه بلطف الحيلة ، وآداب الفساد محيلة ، وأشرب قلوبهم أن الحق في كل ما حاولته واسترلته ، وأن الباطل في كل ما جانبته واعتزلته ، وأن من تصفح منهم أمورك فقد أذنب ، وباين الأدب وتجنب ، وأعط من أكددته ، وأضقت منه ملكه وشدته ، روحة يشتغل فيها بما يعنيه ، على حسب صعوبة ما يعانیه ، تغططهم فيها بمسارحهم ، وتجم كليلة جوارحهم ، ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذي لا يبطر أعلامهم ، ولا يؤسف الأصغر فيفسد أحلامهم ، ولا ترم محسنهم بالغاية من إحسانك ، واترك لمزيدهم فضلا من رفقك ولسانك ، وحذر عليهم مخالفتك ولو في صلاحك ، بحد سلاحك ، وامنعهم من التوايب والتشاجر ، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر ، واستخلص منهم لسرك من قلت في الإفشاء ذنوبه ، وكان أصبر على ما ينوبه ، ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك ، أكثر من رغبته في إحسانك ، وضبطه لما تقلد من وديعتك ، أحب إليه من حسن صنيعتك ؛ وللسفارة عنك من حلا الصدق في فمه ، وآثره ولو باختطار دمه ، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمله ، وعني بلفظه حتى لا يهمله ، ولمن تودعه أعداء دولتك من كان مقصور الأمل ، قليل القول صادق العمل ، ومن كانت

قسوته زائدة على رحمته ، وعظمه في مرضاتك آثر من شحمته ، ورأيه في الحذر سديد ، وتحرزه من الحيل شديد ؛ ولخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعه ، وامتد في حسن السجية باعه ، وأمن كيده وغدره ، وسلم من الحقد صدره ، ورأى المطامع فما طمع ، واستثقل إعادة ما سمع ، وكان بريئاً من الملل ، والبشر عليه أغلب الخلال ، ولا تؤنسهم منك بقبیح فعل ولا قول ، ولا تؤيسهم من طول ، ومكن في نفوسهم أن أقوى شفعاثهم ، وأقرب إلى الإجابة من دعائهم ، إصابة الغرض فيما به وكلوا ، وعليه شكلوا ، فإنك لا تعدم بهم انتفاعاً ، ولا يعدمون لديك ارتفاعاً .

«وأما الحرم فهن مغارس الولد ، ورياحين الخلد ، وراحة القلب الذي أجهدته الأفكار ، والنفس التي تقسمها الإحماد إلى المساعي والإفكار ، فاطلب منهم من غلب عليهم من حسن الشيم ، المترفة عن القيم ، ما لا يسوءك في خلدك ، أن يكون في ولدك ، واحذر أن تجعل لفكر بشرٍ دون بصيرٍ إليهن سبيلاً ، وانصب دون ذلك عذاباً وبيلاً ، وأرعين من النساء العجز من بانث في الديانة والأمانة سبله ، وقويت غيرته ونبله ، وخذهن بسلامة النيات ، والشيم السنيات ، وحسن الاسترسال ، والخلق السلسال ، وحدرن عليهن التغامز والتغاير ، والتنافس والتخاير ، وآس بينهن في الأغراض ، والتصامم عن الإعراض ، والمحابة بالأعراض ، وأقل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك ، وأسبل لحرمتك ، ولتكن عشرتك هن عند الكلال والملال ، وضيق الاحتمال ، بكثرة الأعمال ، وعند الغضب والنوم ، والفراغ من نصب اليوم ، واجعل مبيتك بينهن تنم بركاتك ، وتستتر حركاتك ، وافصل من ولدت منهم إلى مسكن تختبر به استقلالها ، وتعتبر بالتفرد خلالها ، ولا تطلق لحرمة شفاعته ولا تديراً ، ولا تنط بها من الأمر صغيراً ولا كبيراً ، واحذر أن يظهر على خدمهن في خروجهن عن القصور ، وبروزهن من أجمة الأسد الهصور ، زي بارع ، ولا طيب للأتوف مسارع ، واخصص بذلك من طعن في السن ، ويشس من الإنس

والجن ، ومن توفّر النزوع إلى الخيرات قبله ، وقصر عن جمال الصورة ورُسم بالبلّته .

« ثمّ لما بلغ إلى هذا الحد حمي وطيس اسخفاره ، وختم حزبهُ باستغفاره ، ثم صمت مليّاً ، واستعاد كلاماً أوليّاً .

« ثم قال : واعلم يا أمير المؤمنين - سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته وعصمك من الزمان وآفته - أنتك في مجلس الفصل ، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل ، في طائفة من عز الله تعالى تذبُّ عنك حُماها ، وتدافع عن حوزتك كتابها ، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزري منه بضاعة ، أو يهجم بك رضاك على إضاعة ، ولتكن قدرتك وقفاً على الاتصاف ، بالعدل والإنصاف ، واحكم بالسوية ، واجنح بتدبيرك إلى حسن الروية ، وخفّ أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين ، أو تستفزك العجلة في أمر لم يتبين ، وأطع الحجة ما توجهت إليك ، ولا تحفل بها إذا كانت عليك ، فانقيادك إليها أحسنُ من ظفرك ، والحق أجدى من نفرك ، ولا تردنّ النصيحة في وجه ، ولا تقابل عليها بنجّه ، فتمنعها إذا استدعيتها ، وتُحجب عنك إن استوعبتها ، ولا تستدعها من غير أهلها ، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها ، واحرص على أن لا يتقضي مجلس جلسته ، أو زمن اختلسته ، إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة ، أو وثقت منه في معادك بفائدة .

« ولا يزهدنك في المال كثرته ، فتقل في نفسك أثرته ، وقس الشاهد بالغائب ، واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب ، فالمال المصون ، أمنع الحصون ، ومن قل ماله ، قصرت آماله ، وتهاون بيمينه شماله ، والملك إذا فقد خزينه ، أخنى على أهل الجدة التي تزينه ، وعاد على رعيته بالإجحاف ، وعلى جبايته بالإلحاف ، وساء معتاد عيشه ، وصغر في عيون جيشه ، ومَنّوا عليه بنصره ، وأنفوا من الاقتصار على قصره ، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه ، وتربط آمال أهل السلاح به ، والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه ، فتجمع

بالشهوات بين إتلافك وإتلافه ، واستأنس بحسن جوارها ، واصرف في حقوق الله تعالى بعض أطوارها ، فإن فَضَّلَ المالُ عن الأجل فأَجَّلَ ، ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عزّ وجلّ ، وما ينفق في سبيل الشريعة ، وسد الذريعة ، مأمول خَلَفَهُ ، وما سواه فمتعين تَلَفَهُ .

« واستخلص لنواديك الغاصة ، ومجالسك العامة والخاصة ، من يليق بولوج عَتَبِهَا ، والعروج لرتبها ، أمّا العامية فمن عظم عند الناس قدره ، وانشرح بالعلم صدره ، أو ظهر يساره ، وكان لله تعالى إخبائته وانكساره ، ومن كان للفتيا منتصباً ، وبتاج المشورة معتصباً ، وأمّا الخاصية فمن رَقَّت طباعه ، وامتد فيما يليق بتلك المجالس باعه ، ومن تبحر في سير الحكماء ، وأخلاق الكرماء ، ومن له فضل سافر ، وطبع للدنية منافر ، ولديه من كل ما تستر به الملوك عن العوام حظ وافر ، وصف ألبابهم بمحصول خيرك ، وسكّن قلوبهم بيمُن طيرك ، وأغْنِيَهُمْ ما قدرت عن غيرك . واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألّقة ، والمصاييح المتعلقة ، وعلى قدر تَعَاهَدَهَا تَبَدَّلُ من الضياء ، وتجلو بنورها صُورَ الأشياء ، وفرغها لتجبير ما يزين مدتك ، ويحسّن من بعد البلاء جِدَّتْكَ ، وبعباية الأواخر ذكرت الأوّل ، وإذا محيت المفاخرُ خربت الدول .

« واعلم أن بقاء الذكر مشروطٌ بعمارة البلدان ، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان ، فاحرص على ما يوضح في الدهر سُبُلَكَ ، ويحجز المزية على من قبلك ، وأن خير الملوك من ينطق بالحجّة وهو قادر على القَهْر ، ويبدل الإنصاف في السر والجهر ، مع التمكن من المال والظّهر ، ويسار الرعية جمال للملك وشرف ، وفاقتهم من ذلك طرف ، فغلبَ أليقَ الحالين بمحلك ، وأولاهما بظعنك وحلّك .

« واعلم أن كرامة الجور دائرة ، وكرامة العدل متكاثرة ، والغلبة بالخير

سيادة ، وبالشر هوادة ، واعلم أن حسن القيام بالشريعة يحسمُ عنك نكايَةَ  
الخوارج ، ويسمو بك إلى المعارج ، فإنها تقصدُ أنواع الخدع ، وتورِي بتغيير  
البدع ، وأطلق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء ، وألسنة اللقيفِ من  
الضعفاء ، واستشعر عند نكته شعارَ الوفاء .

«ولتكنْ ثقتك بالله تعالى أكثرَ من ثقتك بقوة تجدها ، وكتيبة تنجدها ،  
فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تُكتسب ، ويمهد لك مع الأوقات نصراً لا يحتسب .  
«والتمس أبدأً سلمَ من سالمك بنفيس ما في يدك ، وفضلْ حاصلَ يومك  
على مُنتظرِ غدك ، فإن أبي وضحتْ محبتك ، وقامت عليه للناسِ بذلك حجتك ،  
فللنفوس على الباغين مِثْل ، ولها من جانبه نَيْل ، واستهد في كلِّ يومٍ سيرةَ  
من يناويك ، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك ، وأكذبْ بالخير ما  
يُشيعه من مساويك ، ولا تقبل من الإطراء إلا ما كان فيك فضل عن إطالته ،  
وجدٌ يُزري على بطالته ، ولا تلقَ المذنبَ بحميتك وسبِّك ، واذكر عند  
حركة الغضب ذنوبك إلى ربك ، ولا تنسَ أن ربَّ المذنب أجلسك مجلسَ  
الفصل ، وجعل في قبضتك ريشَ النصل . وتشاغلْ في هدنة الأيام بالاستعداد ،  
واعلم أن التراخي مندرٌ بالاستعداد ، ولا تهملْ عَرْضَ ديوانك ، واختبارَ  
أعدائك ، وتحصينَ معانك وقلاعك . وعمُّ إياك بحسن اطلاعك ، ولا تشغل  
زمنَ الهدنة بلذاتك ، فتجني في الشدة على ذاتك ، ولا تطلقْ في دولتك ألسنةَ  
الكهانة والإرجاف ، ومطاردة الآمال العجاف ، فإنه يبعثُ سوء القول ، ويفتحُ  
باب العوّل ، وخذ على المدرسين والمتعلمين ، والعلماء والمتكلمين ، حملاً  
الأحداث على الشكوك الخالجة والمزلات الواجحة ، فإنه يفسدُ طباعهم ،  
ويغري سباعهم ، ويمدّ في مخالفة الملة باعهم ، وسُدَّ سبيلَ الشفاعات فإنها  
تفسد عليك حُسْنَ الاختيار ، ونفوسَ الحيار ، وابدل في الأسرى من حُسْنِ  
ملكك ما يرضي مَنْ مَلَكك رقابها ، وقلدك ثوابها وعقابها ، وتلقَ به  
نهارك بذكر الله تعالى في ترفعك وابتذالك ، واختم اليوم بمثل ذلك .

« واعلم أنك مع كثرة حُجَابِكَ ، وكثافة حِجَابِكَ ، بمنزلة الظاهر للعيون ، المطالب بالديون ، لشدة البحث عن أمورك ، وتعرف السر الخفي بين أمرك ومأمورك ، فاعمل في سرِكَ ما لا تستبجُ أن يكونَ ظاهراً ، ولا تأنف أن تكونَ به مُجَاهراً ، وأحكِمَ بَرِيكَ في الله ونَحْتِكَ ، وخَفَ مَنْ فَوْقَكَ يَخْفَ مَنْ تَحْتِكَ ، واعلم أن عدوك من أتباعك من تناسيت حسنَ قَرَضِهِ ، أو زادت مؤونته على نصيبه منك وفَرَضِهِ ، فأصمت الحجاج ، وتوقَّ اللجاج ، واسترب بالأمل ، ولا يحملنك انتظامُ الأمورِ على الاستهانة بالعمل ، ولا تحقرن صغير الفساد ، فيأخذَ في الاستشاد ، واحبس الألسنة عن التخالي باغتيابك ، والتشبث بأذيال ثيابك ، فإن سوء الطاعة ينتقلُ من الأعين الباصرة ، إلى الألسنِ القاصرة ، ثم إلى الأيدي المتناصرة ، ولا تثقُ بنفسك في قتالِ عدوِّ ناواك ، حتى تظفرَ بعدوِّ غضبيكَ وهواك ، وليكن خوفك من سوء تدبيرك ، أكثرَ من عدوك الساعي في تبيرك<sup>١</sup> ، وإذا استترلت ناجماً<sup>٢</sup> ، أو أمنت نائراً هاجماً ، فلا تقلده البلد الذي فيه نَجَمَ ، وهمى عارضه فيه وانسجم ، يعظم عليك القدح في اختيارك ، والغض من إيثارك ، واحترز من كيده في حورك ومأمك<sup>٣</sup> ، فإنك أكبر همّه وليس بأكبر همك ، وجمل المملكة بتأمين الفلوات ، وتسهيل الأقوات ، وتجديد ما يتعاملُ من الصرفِ في البياعات ، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات ، ولا تبخس عيار قيم البضاعات ، ولتكن يدك عن أموال الناس محجورة ، وفي احترامها إلا عن الثلاثة مأجورة : مال مَنْ عدا طورهُ طورهُ أهله ، وتخارق في الملابس والزينة ، وفضول المدينة ، يرومُ معارضتك بجهله ؛ ومَنْ باطنَ أعداك ، وأمنَ اعتداك ؛ ومَنْ أساء جوارَ رعيتك بإخساره ، وبذل الأذاية فيهم بيمينه ويساره .

١ التتبير : الهلاك .

٢ الناجم : النائر .

٣ الحور : العودة ؛ والمأم : القصد .

وأضرَّ ما مُنيتَ به التعادي بين عبدانك ، أو في بلد من بلدانك ، فسُدَّ فيه الباب ، واسأل عن الأسباب ، وانقلهم بوساطة أولي الألباب ، إلى حالة الأحباب ، ولا تطوّق الأعلام أطواق المنون ، بهواجس الظنون ، فهو أمر لا يقفُ عند حد ، ولا ينتهي إلى عدّ ، واجعلْ ولدك في احتراسك ، حتى لا يطمعَ في افتراسك .

« ثم لما رأى الليلَ قد كاد ينتصف ، وعموده يريدُ أن ينقصف ، ومجال الوصايا أكثر مما يصف ، قال : يا أمير المؤمنين ، بحرُ السياسة زاخر ، وعمر المتمتع بناديك مستاخر ، فإن أذنتَ في فنّ من فنون الأنسِ يجذبُ بالمقاد ، إلى راحة الرقاد ، ويَعْتِقُ النفسَ بقدرة ذي الجلال ، من ملكة الكلال . » فقال : أمّا وقد استحسنّا ما سردت ، فشأنك وما أردت .

« فاستدعى عوداً فأصلحه حتى حمده ، وأبعد في اختباره أمدّه ، ثم حرك بجمّه ، وأطال الجس ثمّه ، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات ، ويصدع الحصاة ، ويستفزّ الحليم عن وقاره ، ويستوقف الطير ورزقُ بنيه في منقاره ، وقال :

صاح ما أعطرَ القبولَ بنمّه	أتراها أطالت اللبثَ ثمّه
هي دارُ الهوى متى النفس فيها	أبدَ الدهرِ والأمانِ جمّه
إن يكنْ ما تارَّجَ الجوُّ منها	واستفاد الشذا وإلا فمّمّه
مَن لطرفي بنظرة ولأنفسي	في رباها وفي ثراها بشمّه
ذُكرَ العهدُ فانتفضتْ كأنّي	طرفتني من الملائك لّمّه
وطنٌ قد نصّيتُ فيه شباباً	لم تُدتس منه البرود مدمّمّه
بنتُ عنه والنفسُ من أجل من قد	خلّفتهُ خلاله مُغتّمّه
كان حلماً فويحُ من أملَ الدّه	رَ وأعماه جهلّه وأصمّه
تأملُ العيشَ بعد أن خلقَ الجس	م وبنائنه عسيرُ المرمّه ؟
وغدت وقرّةُ الشيبه بالشيبه	ب على رغم أنفها معتمّه



فَلَقَدْ فَازَ سَالِكٌ جَعَلَ الدَّهَ إِلَى اللَّهِ قَصْدَهُ وَمَأْتَهُ  
مِنْ يَبِيتٍ مِنْ غُرُورِ دُنْيَا بِهِمْ يَلْدَغُ الْقَلْبَ أَكْثَرَ اللَّهُ هَمَّهُ

ثمَّ أَحَالَ اللَّحْنَ إِلَى لَوْنِ التَّنْوِيمِ ، فَأَخَذَ كُلُّ فِي النِّعَاسِ وَالتَّهْوِيمِ ، وَأَطَالَ  
الْحَسْنَ فِي التَّقْيِيلِ ، عَاكِفًا عَكُوفَ الضَّاحِي فِي المَقْيِيلِ ، فَخَاطَ عَيْونَ القَوْمِ ،  
بِجَيُوطِ النُّومِ ، وَعَمَّرَ بِهِمُ المَرَاقِدَ ، كَأَنَّمَا أَدَارَ عَلَيْهِمُ الفِرَاقِدَ ، ثُمَّ انصَرَفَ ،  
فَمَا عَلِمَ بِهِ أَحَدٌ وَلَا عَرَفَ ، وَلَمَّا أَفَاقَ الرَّشِيدَ جَدًّا فِي طَلْبِهِ ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِمُنْقَلَبِهِ ،  
فَأَسْفَ لِفِرَاقِهِ ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيدِ حِكْمِهِ فِي بَطُونِ الأَوْرَاقِ ، فَهَبِيَ إِلَى اليَوْمِ تَتَلَّى  
وَتُنْقَلِ ، وَتَجَلَّى القُلُوبَ بِهَا وَتُصْقَلِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ « انتهى .

قال في « الإحاطة » بعد إيراد نبذة من نثره ما صورته : فهذا ما حضر من  
المنثور وحفظه عندي من الإجابة ضعيف ، وغرضه كما شاء الله تعالى سخيف ،  
لكن الله سبحانه بعباده لطيف ؛ انتهى .

١١٠ - ومما علق بحفظي من نثره قوله في تحليته لبعض أهل زمانه : هو  
إمام الفئدة ، وعين أعيان هذه المائة .

١١١ - وقوله في وصف فاس<sup>١</sup> : نعم العرين ، لأسود بني مرين ، ذات  
المشاهد التي منها مطرح الجنة ومسجد الصابرين :

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الحَمَامَةُ طَوْقَهَا      وَكسَاهُ ريشَ جَنَاحِهِ الطَّاوُوسُ<sup>٢</sup>  
فَكَأَنَّهَا الأَنْهَارُ فِيهِ مُدَامَةٌ      وَكَأَنَّ سَاحَاتِ الدِّيَارِ كَوْوَسُ

جمعت ما ولد سام وحام ، وكثر الالتئام والالتحام ، واشتد الزحام ، إلى

١ انظر مشاهدات لسان الدين : ١١٠ - ١١١ والمقري ينقل من حفظه فلذلك اختلف ما أورده عن  
النص الأصلي في عدة مواضع ، لا حاجة للإشارة إليها .

٢ مر البيتان والقول في نسبتها في المجلد ١ : ١٦٩ .

أن قال : يلتقى الرجل أبا مثواه فلا يدعو له لبيته ، ولا يُطعمه من بقله وزيته ؛  
لا يطرق الضيف حِمَاهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسمَاهم ﴿إلاّ الذين آمنوا  
وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ (ص : ٢٤) .

١١٢ - وقوله في وصف مراکش المحروسة : ذات المقاصر والقصور ،  
ومأوى اللّيث الهَصُور ، ومسكن الناصر والمنصور ، إلى أن قال : ومارها  
في الفلاة ، بمنزلة وآلي الولاة . ثمّ بعد كلام : إلاّ أن خرابها هائل ، وزحامها  
حرب وائل ، وعقاربها كثيرة الدبيب ، منغصة لمضاجعة الحبيب ؛ انتهى ما  
كتبته من حفظي لطول العهد .

١١٣ - وقال رحمه الله تعالى في وصف مدينة بسطة<sup>١</sup> من كلام لم يحضرنى  
جميعه الآن : محل خصيب ، ومنزل رحيب ، وكفاها مسجد الجنة دليلاً على  
البركة وباب المسك دليلاً على الطيب ، ولها من اسمها نصيب ، إذ هي بحر الطعام ،  
وينبوع العيون المتعددة بتعدّد أيام العام ؛ انتهى .

### [ في ذكر بسطة ]

ولما أجرى ذكر بسطة الإمام أبو الحسن القلصادي<sup>٢</sup> في رحلته قال : سقى  
الله تعالى أرجاءها المشرقة ، وأغصانها المورقة ، شأيب الإحسان ، ومهدها  
بالهدنة والأمان ، دار تحجل منها الدور ، وتتناصر عنها القصور ، وتقرّ لها  
بالقصور ، مع ما حوته من المحاسن والفضائل ، من صحّة أجسام أهلها وما طُبعوا

١ المشاهدات : ٣١ .

٢ أبو الحسن القلصادي علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي نزيل غرناطة ، آخر من له التواليف  
الكثيرة من أئمة الأندلس ( إذ توفي سنة ٨٩١ ) . وقد ترجم له المقرئ في الراحلين إلى المشرق  
( ج ٢ : ٦٩٢ ) .

عليه من كرم الشمائل ، وحسبك فيها من عدم الحرج ، أن داخلها باب الفرج ؛  
ثم قال : والله در القائل :

دارٌ مشى الإتقانُ في تنجيدها حتى تناسبَ روضها و بناؤها  
مرقومةُ الجنباتِ ذاتُ قرارةٍ يمتدُّ قُدَّامَ العيونِ فضاؤها  
ما زال يضحكُ دائماً نوارها في وجهِ ساحتهِ ويلعبُ ماؤها

ولبعض أصحابنا فيها وهو الأديب الكاتب أبو عبد الله ابن الأزرقي :

في بسطةٍ حيثُ الأباطحُ مشرِّفةٌ أضحتُ جفوني بالمحاسنِ مُغلِّقةٌ  
وله أيضاً في تورية :

قلْ لمنْ رامَ النوى عن وِطْنِ قَوْلَةٍ ليسَ بها من حَرَجِ  
فَرَجِ الهَمِّ بسكنى بسطةٍ إنَّ في بسطةِ بابِ الفَرَجِ

رجع :

١١٤ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به السلطان على لسان

جدته ، وهو :

« إلى قرّة أعيننا وأعين المؤمنين ، وقلدة كبدنا الذي نصل للقائه الحنين بالحنين ،  
وعزنا الذي حللنا من كنفه بالحرم الأمين ، وسرنا الذي خلفنا برضاه من أفقده  
الدهر من كرم البنين ، ووارثنا المستأثر بعدنا بطول السنين ، أمير المسلمين  
الأسعد المؤيد الموفق الطاهر البر الرحيم الأرضى الكافل الفاضل حفيدنا محمد  
ابن ولدنا الرضى وواحدنا الكريم الحفي السلطان الكبير الجليل السعيد الطاهر الطاهر  
المقدس ، جعل الله تعالى من عصمته لزيماً يرافقه ، وأجرى القدر بما يوافق ،  
وحفظ عليه الكمال الذي تناسب فيه خلقه وخلائقه ، والبر الذي حسنت فيه  
طرقه وطرائقه .

« من المستظلة بظلال رضاه وبرّه ، المبتهلة إلى الله تعالى في عزّ نصره ، وسعادة أمره ، الداعية إلى الله تعالى أن يسترها في الحياة وما بعدها بستره ، وما يفضّل عمرها من عمره ، جدته الثائقة إليه ، كتبت من كتّفه العزيز بحمّرائه العلية عن الخير الدائم بدوامه ، واليسر الملازم ببركة أيامه ، ولا زائد بفضل الله تعالى إلا الشوق إليه ، وتحويم الكبد الخافقة خفوق رايته عليه ، وتجهيز مواكب الدعاء المقبول من خلفه ومن بين يديه .

« وقد وصل كتابه العزيز الوفاة والوصول ، الكريم الجُمْلُ والفصول ، مُطْلَعُ وجهِ السرورِ والجذل ، ومُهْدِي قَصِيّ الأمل ، ومجددُ العهدِ بحديثه الذي في ضمنه شفاء الغُللِ ، وبرء العِللِ ، مُهْدِيّاً تحفة عافيته وهي الهدية التي جلت عن المكافاة ، وترفعت عن المجازاة ، إنّما يجازي عليها مَنْ يصل بفضله عادتها ، ويوالي بعد الإبداء إعادتها . ووصفتم يا ولدي ما عرفتم من نعم الله تعالى التي انثالت عليكم سحابها ، وعنايته التي يلقي ركابكم تسهاها وترحابها ، واستبشار الجهات بقدمكم الميمون ، واجتلاء وجهكم الذي فيه للإسلام قرّة العيون ، وكيف لا يكون ذلك وأنتم ذخريهم العزيز ، وحرزهم الحريز ، والندرة التي خلصها من معادن سلفكم الذهب الإبريز ، في أيامكم والحمد لله نامت أجنابهم ، وتكيف أمانهم ، نسأل الله تعالى أن يديم لنا ولهم نعمة بقائكم ، ويُعلي الدين بعلوكم في معارج العز وارتقائكم ، فقابلنا ما قرره سلطانكم بالحمد والثناء ، والشكر المتصل على الآناء ، ومحضتكم من خالص الدعاء ، ما يتكفل لكم بالحسنى وما وعد الله تعالى من نيل الرجاء ، وتمهيد الأرجاء ، وأصدرت هذا الجواب لكم مصدر الهناء ، بنعم الله تعالى المُعْدقة والآلاء ، ونسأل من فضلكم وبركم صلة التعريفِ بمثل هذه الأخبارِ السارة والأنباء ، وإتحافنا بمثلها مع الصباح والمساء ، وإن كان مجدكم غنياً عن الشبه لمثل هذه الأشياء ، أدام الله تعالى لكم أسباب البقاء ، وكان لكم في كلّ حال ، من إقامة وارتحال ، بعزة وجهه وقدرته » انتهى .

ويرحم الله تعالى لسان الدين ابن الخطيب ، فإنه يعبر في كل مقام بما يليق ، فتارة يترقى في أدراج البراعة ، وطوراً يهتك عنان البراعة .

### [ شعر لسان الدين ]

وأما شعر لسان الدين رحمه الله تعالى فهو من النهاية في الحسن ، وقد قدمنا في هذا الكتاب منه نبذة في أثناء نثره وكلامه الذي جلبناه ، وفي مواضع غيرهما ، جملة مفيدة من شعره رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » ما نصّه : الشعر — ولنثبت جملة من مطولاته ، ونثله بشيء من مقطوعاته ، ونقدم من المطولات أمداح رسول الله صلى الله عليه وسلم تبركاً بها ، فمن ذلك قولي<sup>١</sup> :

هل كنت تعلم في هبوبِ الريحِ	نفساً يوجبُ لاعجَ التبريحِ
أهدتك من شيخِ الحجازِ تحيةً	فاحت لها عرضَ الفجاجِ الفيحِ
بالله قل لي كيف نيرانُ الهوى	ما بينَ ريحِ في الفلاةِ وشيخِ
وخضيةِ المنقارِ تحسبُ أنها	نهلتُ بموردِ دمعي المسفوحِ
باحتُ بما تخفي وناحتُ في الدجى	فرايتُ في الآماقِ دَعْوَةَ نوحِ
نطقتُ ، بما يخفيه قلبي ، أدمعي	ولطالما صمتتُ عن التصريحِ
عجباً لأجفانِ حملنَ شهادةً	عن خافتِ بينَ الضلوعِ جريحِ
ولقلما كتبتُ رُؤاةً مدامعي	في صفحتها حليةَ التجريحِ
جاد الحمى بعدي وأجرعَ الحمى	جودٌ تكلُّ به متونُ الريحِ
هنّ المنازلُ ، ما فؤادي بعدها	سال ، ولا وجدي بها بمريحِ
حسي وكوعاً أن أزورَ بفكرتي	زوارها والجسمُ رهنُ نزوحِ <sup>٢</sup>

١ الإحاطة ، الورقة : ٤١٣ .

٢ الإحاطة : رهن ضريح .

وأحثَّ فيها من جناح جنوحِي  
 لولا وميضاً بارقٍ وصفيحِ  
 ورقٍ تفلَّبها بنانٌ شحيحِ  
 وطمتُ رميتُ عبابها بسبوحِ  
 مسحتُ بوجهِ للصبحِ صبيحِ  
 وزجرتُ للآمالِ كلَّ سنحِ  
 والصبحُ فيه تخلصي لمديحِ  
 بعنانِ كلِّ مولدٍ وصريحِ  
 وأمينه الأرضي على ما يوحِي  
 ضاءتُ أشعتها بصفحةِ يوحِ  
 راقتُ بها أوراقُ كلِّ صحيحِ  
 مثلوا بساحةِ بابه المفتوحِ  
 جمَّ الهباتِ عن الذنوبِ صفوحِ  
 في ملعبِ للترهاتِ فسحِ  
 والليلُ يعثرُ في فضولِ مسوحِ  
 والركبُ بينَ مؤسَدٍ وطريحِ  
 إن أصبحتُ لبني أنا ابن ذريحِ  
 اليمنُ فيها والأمانُ لروحِي  
 يا خيرَ مؤتمنٍ وخيرَ نصيحِ  
 أكونُ تجرِي فيك غيرَ ربيعِ  
 أو أن أرى مسعاي غيرَ نجيحِ  
 يوماً فوجهُ العفوِ غيرُ قبيحِ

فأثَّ فيها من حديثِ صبابي  
 ودُجَنَّةٍ كادتُ تفضلُ بها السرى  
 رعشتُ كواكبُ جوها فكأنتها  
 صابرتُ منها لجةً مهما ارتمت  
 حتى إذا الكفُّ الخضيبُ بأفقها  
 شمتُ المنى وحمدتُ إدلاجَ السرى  
 فكأنتما ليلى نسيبُ قصيدتي  
 لما حطَّطتُ لخيرٍ من وطىءِ الثرى  
 رحمتي إله العرشِ بينَ عبادهِ  
 والآيةُ الكبرى التي أنوارها  
 ربُّ المقامِ الصدقِ والآي التي  
 كهفُ الأنامِ إذا تفاقمَ معضِلُ  
 يردون منه على مثابةِ راحمِ  
 لهفي على عمري مضى أنضيتُهُ  
 يا زاجرَ الوجناءِ يعتسفُ الفلا  
 يصلُ السرى سبقاً إلى خيرِ الورى  
 لي في حمى ذلكَ الضريحِ لبانةُ  
 وبمهبطِ الروحِ الأمينِ أمانةُ  
 يا صفوةَ الله المكينِ مكانهُ  
 أقرضتُ فيك الله صدقَ محبتي  
 حاشا وكلاً أن تخيبَ وسائلي  
 إن عاقَ عنك قبيحُ ما كسبتُ يدي

١ يوح : اسم الشمس .

واخجلتي من حلبة الفكر التي  
 قصرت خطاها بعدما ضمرتها  
 مدحتك آيات الكتاب فما عسى  
 وإذا كتابُ الله أثني مفضحاً<sup>١</sup>  
 صلتى عليك الله ما هبت صباً  
 واستأثر الرحمنُ جلَّ جلاله

وأشدتُ السلطانَ ملكَ المغرب ليلة الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين  
 وسبعائة هذه القصيدة :

تألتُ نجدياً فأذكرني نجداً  
 وميضُ رأى بُردَ الغمامة مُغفلاً  
 تبسمُ في بحريته<sup>٢</sup> قد تجهمتُ  
 وراودَ منها فاركاً قدَ تنعمتُ  
 وأغرى بها كفَّ الغلابِ فأصبحتُ  
 فحلتها الحمراء من شفق الضحى  
 لك الله من برقٍ كأنَّ وميضه  
 تعلم من سكانه شيمَ الندى  
 وتوجَّ من نوأرها قننَ الربى  
 لسرعانَ ما كانتُ مناسفَ للصبا  
 بلادُ عهدنا في قرارها الصبا  
 إذا ما النسيمُ اعتلَّ في عرصاتِها

١ الإحاطة : مفهماً .

٢ البحرية : صفة للسحابة .

إذا ما استثيرت أرضها أنبتت وجدا  
 إذا التمحتها العين عاقدت السهدا  
 حديث الهوى العذري صيره عبدا  
 فيثني إذا ما هبَّ عَرَفُ الصبا قدَا  
 على كبدي إلا وجدت لها بردا  
 وقلَّ على الأيام مَنْ يحفظ العهدا  
 إذا استقبلت مسرى الصبا اشتعلت وقدَا  
 تجوسُ خلالَ الصبرِ كان لها بندا  
 ذمائي وأن يستأصل العظم والجلدا  
 وقد وقع التسجيلُ من بعد ما أذى  
 فله عينا من رأى الجوهراً الفردا  
 وأجهده ركضُ الأسي فجرى ورّدا  
 ليرجعه فاستنَّ في إثره قصدا  
 فكان حماماً في المسير بها هدى  
 فلجَّ ولم يرقب سواعاً ولا ودَا  
 فأعقبها دمعاً وأورثها سهدا  
 وأكني بدعد في غرامي أو سَعْدِي  
 فأذهل نفساً لم تُبْنِ عنده قصدا  
 وأعمل في رمل الحمى النصَّ والوحدَا  
 لديّ فكان الصبرُ أضعفها جندا  
 فصدّني المقدورُ عن وجهي صدَا  
 ولم تُلْتَفَتْ دعواه فاستوجب الردَا

فكم في مجاني وردها من علاقة  
 إذا استشعرتها النفس عاهدت الجوى  
 ومن عاشقٍ حرّ إذا ما استماله  
 ومن ذابل يحكي المحين رقة  
 سقى الله نجداً ما نضحتُ بذكرها  
 وآنسَ قلبي فهو للعهد حافظ  
 صبورٌ وإن لم يبقَ إلا ذبالة  
 صبورٌ إذا الشوقُ استجادَ كتيبة  
 وقد كنتُ جلدأقبل أن يذهب النوى  
 أأجدُ حقَّ الحبِّ والدمعُ شاهدُ  
 تنائر في إثر الحمول فريده  
 جرى يققاً في ملعب الخدّ أشهباً  
 ومرنحل أجريتُ دمعِي خلفه  
 وقلتُ لقلبي طيراً إليه برقعِي  
 سرقتُ صواع العزم يوم فراقه  
 وكحللتُ عيني من غبار طريقه  
 لي الله كم أهذي بنجد وحاجر  
 وما هو إلا الشوقُ نارَ كينه  
 وما بي إلا أن سرى الركب موهناً  
 وجاشت جنود الصبر واليين والأسى  
 ورمتُ نهوضاً واعتزمت مودعاً  
 رقيقٌ بدت للمشترين عيوبه



تخلف مني ركبٌ طيبةً عانياً  
مُخَلَّفٌ سربٌ قد أُصيبَ جناحهُ  
نشدتك يا ركبَ الحجاز ، تضاءلت  
وجمَّ لك المرعى وأذعنتِ الصَّوى  
إذا أنتَ شافهتَ الديارَ بطيبة  
وآتستَ نوراً من جنابِ محمدٍ  
فنبُّ عن بعيدِ الدارِ في ذلك الحمى  
وقلْ يا رسولَ الله عبدٌ تقاصرتُ  
ولم يستطعُ من بعد ما بَعُدَ المدى  
تداركهُ يا غوثَ العبادِ برحمةٍ  
أجار بك الله العبادَ من الردى  
حمى دينك الدنيا وأقطعك الرضى  
وطهرَ منك القلبَ لما استخصه  
دعاهُ فما ولى ، هداهُ فما غوى  
تقدمتَ مختاراً ، تأخرتَ مبعثاً  
وعلةُ هذا الكونِ أنت ، وكلُّ ما  
وهل هو إلا مظهرٌ أنت سرُّهُ  
ففي عالمِ الأسرارِ ذاتك تجتلي  
وفي عالمِ الحسِّ اغتديتَ ميوماً  
فما كنتَ لولا أن ثبتَ هدايةُ  
فماذا عسى يُثني عليك مُقَصِّرٌ  
بماذا عسى يجزيك هاوٍ على شقاً  
عليك صلاةُ الله يا كاشفَ العمى

١ ق : جناحه .

أما آن للعاني المعنى بأن يُفدى  
وطرن فلم يسطع مراحاً ولا مغدى  
لك الأرضُ مهما استعرض السهبُ وامتدَّ  
ولم تفتقد ظلاً ظليلاً ولا وردا  
وجئتَ بها القبرَ المقدسَ واللحدا  
يجلِّي القلوبَ الغلُفَ والأعينَ الرمدا  
وأذِرْ بهِ دمعاً وعقرَ بهِ خدّاً  
خطاهُ وأضحى من أحبته فرداً  
سوى لوعة تعتادُ أو مدحة تُهدى  
فجودك ما أجدى وكفك ما أندى  
وبوأهم ظلاً من الأمنِ ممتداً  
وتوجك العليا وألبسك الحمدا  
فجلَّلهُ نوراً وأوسعَه رشداً  
سقاهُ فما يظما ، جلاهُ فما يصدأ  
فقد شملتُ علياؤك القبَلُ والبعدا  
أعاد فأنتَ القصدُ فيه وما أبدا  
ليمتاز في الخلقِ المكبُّ من الأهدى  
ملامحَ نورٍ لاحَ للطورِ فأنهداً  
لتشفي من استشفى وتهدي من استهدى  
من الله مثل الخلقِ رسماً ولا حدّاً  
ولم يألُ فيك الذكرُ مدحاً ولا حمداً  
من النارِ قد أوردته بعدها الخلداً  
ومُدَّهَبَ ليلِ الروع وهو قد اربداً

إلى كم أراني في البطالة كأنما  
تقتضى زماني في لعل وفي عسى  
حسام جبان كلما شيم نصله  
ألا ليت شعري هل أراني ناهداً  
رضيع لبان الصدق فوق شملة  
فتهدى بأشواق السراة إذا سرت  
إلى أن أخط الرحل في تريك الذي  
وأطفئ في تلك الموارد غلتي  
لمولدك اهتز الوجود فأشرقت  
ومن رعبه الأوثان خرت مهابة  
وغاض له الوادي وصبح عزه  
رعى الله منها ليلة أطلع الهدى  
وأقرض ملكاً قام فينا بحقتها  
وحيتاً على شط الخليج محلة  
وجاد الغمام العدى فيها خلائفاً  
علياً وعثماناً ويعقوب ، لا عدا  
حموا وهم في حومة البأس والندى  
ولله ما قد خلقوا من خليفة  
إذا ما أراد الصعب أغرى بنيله  
وكم معتد أردى وكم تائه هدى  
أبا سالم دين الإله بك اعلى  
قدم من دفاع الله تحت وقاية  
ودونكها مني نتيجة فكرة  
ولو تركت مني الليالي صباية

وعمري قد ولّى ، ووزري قد عدّا  
فلا عزمة تمضي ولا لوعة تهدا  
تراجع بعد العزم والترم الغمدا  
أقود القلاص البدن والضامر النهدا  
مضمرة وسدت من كورها مهدا  
وتحدى بأشعاري الركاب إذا تحدى  
تضوع ندّا ما رأينا له ندّا  
وأحسب قرباً مهجة شكت البعدا  
قصور بيصرى ضاءت الهضب والوهدا  
ومن هوله إيوان كسرى قد انهدّا  
بيوتاً لنار الفرس أعدمها الوقدا  
على الأرض من آفاقها القمر السعدا  
لقد أحرز الفخر المؤئل والمجددا  
يحالف من ينتابها العيشة الرغدا  
مآثرهم لا تعرف الحصر والعدّا  
رضى الله ذاك النجل والأب والجدّا  
فكانوا الغيوث المستهلة والأسدا  
حوى الإرث عنهم والوصية والعهدا  
صدور العوالي والمطهمة الجردا  
وكم حكمة أخفى ، وكم نعمة أبدى  
أبا سالم ظل الإله بك امتدّا  
كفالك بها أن تسحب الخلق السردا  
إذا استرشت للنظم كانت صفّاً صلدا  
لأجهدتها ركضاً وأرهقتها شدا

ولكنه جهد المقل بلغته وقد أوضح الأعداء من بلغ الجهدا  
وقلت أخطب السلطان الملك الكبير العالم أبا عنان على أثر انصرافه من بابه رحمه  
الله تعالى :

أبدى لداعي الفوز وجه منيب  
كلف الجنان إذا جرى ذكر الحمى  
والنفس لا تنفك تكلف بالهوى  
رحل الصبا فطرح في أعقابه  
أترى التفزل بعد أن ظعن الصبا  
أنتى المثلي بالهوى من بعد ما  
لبس البياض وحل ذروة منبر  
قد كان يسترني ظلام شيبتي  
وإذا الحديدان استجدأ ألبيا  
سلي عن الدهر الخوون وأهله  
مقلب الحالات فاجبر ثقله  
فكل الأمور إذا اعترتك لربها  
قد نجأ المحبوب في مكروها  
واصبر على مضض الليالي لأنها  
واقنع بحظ لم تنله بحيلة  
يقع الحريص على الردى ولكم غدا  
من رام نيل الشيء قبل أوانه  
فإذا جعلت الصبر مفزع معضل  
وإذا استعنت على الزمان بفارس

وأفاق من عدل ومن تأنيب  
والبان حن له حنين النيب  
والشيب يلحظها بعين رقيب  
ما كان من غزل ومن تشيب  
شأني الغداة أو النسب نسيبي  
لاوخط في الفودين أي ديب  
مني ووالى الوعظ فعل خطيب  
والآن يفضحني صباح مشبي  
من لبسة الأعمار كل قشيب  
تسل المهلب عن حروب شيب  
مهما أعدت يدا إلى تقلب  
ما ضاق لطف الرب عن مريب  
من يحبأ المكروه في المحبوب  
لحوامل سيكدن كل عجب  
ما كل رام سهمه بمصيب  
ترك التسبب أنفع التسبب  
رام انتقال يكلم وعسب  
عاجلت عله بطب طيب  
لبي نداءك منه خير مجيب

١ فارس هو السلطان أبو عنان .

بخليفة الله الذي في كفه  
 المنتقى من طينة المجد الذي  
 يرمي الصعاب بصعبه فيقودها  
 ويرى الحقائق من وراء حجابها  
 من آل عبد الحق حيث توشحت  
 أسد الشرى سرج الورى فمقامهم  
 إما دعا الداعي وثوب صارخاً  
 شهب ثواقب في سماء عجاجة  
 ما شئت في آفاقها من رامج  
 عجت سيوفهم لشدة بأسهم  
 نظموا بلبات العلاء واستوسقوا  
 تروي العوالي والمعالى عنهم  
 من كل موثوق به إسناده  
 فأبو عنان عن علي نصه  
 جاءوا كما اتسق الحساب أصالة  
 متجسداً من جوهر النور الذي  
 متألقاً من مطلع الحق الذي  
 قل للزمان وقد تبسم ضاحكاً  
 هي دعوة الحق التي أوضاعها  
 هي دعوة العدل الذي شمل الورى  
 لو أن كسرى الفرس أدرك فارساً  
 لما حلت بأرضه مستملياً

غيث يروض ساح كل جديب  
 ما كان يوماً صرفه بمشوب  
 ذللاً على حسب الهوى المرغوب  
 لا فرق بين شهادة ومغيب  
 شعب العلاء وربت بأي كتيب  
 لله بين محارب وحروب  
 ثابوا وأموا حومة الثوب  
 مأثورها قد صح بالتحريب  
 يبدو وكف بالنجيع خضيب  
 فتبسمت والجو في تقطيب  
 كالرمح أنبوباً على أنبوب  
 أثر الندى المولود والمكسوب  
 بالقطع أو بالوضع غير معيب  
 للنقل عن عثمان عن يعقوب  
 وغدا فذلك ذلك المكتوب  
 لم ترم يوماً شمسه بغروب  
 هو نور أبصار وسر قلوب  
 من بعد طول تجهم وقطوب  
 جمعت من الآثار كل غريب  
 فالشاة لا تخشى اعتداء الذيب  
 ألقى إليه بتاجه المعصوب  
 ما شئت من بر ومن ترحيب

١ فذلك : جمع فذلكة وهي محصل الحساب .

تومسي بثغرٍ للسلامِ شَنِيبِ  
 حتى حططتُ بمرفأِ التقريبِ  
 والعدلِ تحتِ سرادقِ مضروبِ  
 يمضي القضاءِ بحدّه المرهوبِ  
 والدينِ والدُّنيا على ترتيبِ  
 للنّاسِ من دررِ الهدى بضروبِ  
 غِبَّ انثيالِ العارضِ المسكوبِ  
 كالسيفِ مصقولِ الفرندِ مهيبِ  
 دارَ القرارِ بما اقتضته ذنوبي  
 لا تنقضي ترحّاتهِ ونحبي  
 وتفيضُ في وقتِ الغروبِ غروبي  
 شجوي وجانحةِ الأصيلِ شحوبي  
 لنعيمها من غيرِ مسٍّ لغوبِ  
 أنضاءِ مسغبةٍ وفكٍّ خطوبِ  
 يتعلّلونَ بوعدكِ المرقوبِ  
 بجنابِ عزٍّ من علاكِ رحيبِ  
 أو ليسَ صُبْحكُ منهمُ بقريبِ؟  
 حدَرَ العدا يرنو بطرفِ مُريبِ  
 أن لا يخيبَ لديكِ ذو مطلوبِ  
 ماضي الشبا مسترجعُ المغصوبِ  
 من كلِّ قعدةٍ مُجربِ وجنيبِ  
 وتجيّبُ صاهلةً رغاءِ نجيبِ

شمل الرضى فكأنَّ كلَّ أقاحه  
 وأتيتُ في بحرِ القري أمَّ القري  
 فرأيتُ أمنَ الله في ظلِّ الثقي  
 ورأيتُ سيفَ الله مطرورَ الشبا  
 وشهدتُ نورَ الحقِّ ليسَ بأقلِ  
 ووردتُ بحرَ العلمِ يقذفُ موجهُ  
 لله مِن شيمٍ كأزهارِ الرُّبى  
 وجمالِ مرأى في رداءِ مهابة  
 يا جنةً فارقتُ من غرفاتها  
 أسفي على ما ضاعَ من حظّي بها  
 إن أشرقتُ شمسٌ شرقتُ بعبرتي  
 حتى لقد علّمتُ ساجعةَ الضحى  
 وشهادةُ الإخلاصِ توجبُ رجعتي  
 يا ناصرَ الدينِ الحنيفِ وأهلهُ  
 حقُّ ظنونَ بنيه فيكِ فإنهمُ  
 ضاقتُ مذاهبُ نصرهمُ فتعلّقوا  
 ودجا ظلامُ الكفرِ في آفاقهمُ  
 فانظروا بعينِ العزِّ من ثغرِ غدا  
 نادتكِ أندلسٌ ومجدكِ ضامنُ  
 غصَبَ العدوِّ بلادها وحسامكِ الـ  
 أرضِ السوابحِ في المجازِ حقيقةً  
 يتأوّدُ الأسلُ المثقّفُ فوقها

١ المطرور : المشوذ ؛ الشبا : الحد .

والنصرُ يُضحكُ كلَّ مِسمِ غرة  
والرومِ فارمِ بكلِّ نجمِ ثاقبِ  
بنو ابلِ السُّلبِ التي تركتُ بني  
وأضفَ إلى لامِ الوغى ألفَ القنا  
إن كنتَ تعجمُ بالعزائمِ عودها  
ولكَ الكتابُ كالحماثلِ أطلعتُ  
فمرنَّحُ العطفينِ لا من نشوةٍ  
يبدو سدادُ الرأيِ في راياتها  
وترى الطيورَ عصائباً من فوقها  
هذبتها بالعرضِ يُذكرُ يومه  
وهي الكتابُ إن تنوسِي عَرَضها  
حتى إذا فرضَ الجلالُ جداله  
قدَّمتَ سالبةَ العدوِّ وبعدها  
وإذا توسطَ وصلُ سيفكَ عندها  
وتبرأَ الشيطانُ لما أنُ علا  
الأرضُ إرثُ والمطامعُ جمَّةٌ  
وخلائفُ التقوى همُ ورآها  
لكأنني بكَ قد تركتُ ربوعها  
وأقمتَ فيها مأتماً لكنَّه  
وتركتَ مفلتها بقلبِ واجبِ  
تبكي نوادبها ويتقلنَ الخطأ

واليمنُ مَعقودٌ بكلِّ سيبِ  
يُذكي بأربعها شواظَ لهيبِ  
زيانَ بينَ مجدَلِ وسليبِ  
تظهرُ لديكَ علامةُ التغليبِ  
عودُ الصَّليبِ اليومَ غيرُ صليبِ  
زهرَ الأسنَةِ فوقَ كلِّ قضيبِ  
ومورِدُ الحدينِ غيرُ مريبِ  
وأموها تجري على تجريبِ  
لحلولِ يومِ في الضلالِ عصبِ  
عَرَضُ الوري للموعِدِ المكتوبِ  
كانتَ مُدَوَّنةً بلا تهذيبِ  
ورأيتَ ربحَ النصرِ ذاتَ هبوبِ  
أخرى بعزِّ النصرِ ذاتَ وجوبِ<sup>١</sup>  
جزأي قياسكَ فزتَ بالمطلوبِ  
حزبُ الهدى من حزبه المغلوبِ  
كلُّ يهشُّ إلى التماسِ نصيبِ  
فإليكها بالحظِّ والتعصيبِ  
ققرأ بكرَّ الغزوِ والتعقيبِ<sup>٢</sup>  
عرسُ لنسري بالفلاةِ وذيبِ  
رهباً وخذتُ بالأسى مندوبِ  
من شلوٍ طاغيةٍ لشلوٍ سليبِ

١ يومي إلى المدونة في الفقه المالكي ، وتهذيب المدونة للبرادعي .

٢ في هذا البيت وما بعده إشارات إلى المصطلح المنطقي .

٣ التعقيب : العودة ثانية ، وهو من قولهم « قده معقب » أي يعاد إلى الخريطة مرة بعد مرة .

جعلَ الإلهُ البيتَ منكَ مثابَةً  
 فإذا ذكرتَ كأنَّ هَبَّاتِ الصَّبَا  
 لولا ارتباطُ الكونِ بالمعنى الذي  
 قلنا لعالمك الذي شرفتهُ  
 ولأجلِ قطركَ شمسها ونجومها  
 تبدو بمطلعِ أفقها فضيَّةً  
 مولاي أشواقِي إليكَ تهزني  
 بحلِي عُلَاكَ أَطَلَّتْهَا وَأَطْبَتْهَا  
 طالبتُ أفكارِي بفرضِ بديها  
 متنبئُ أنا في حلِي تلكَ العلي  
 والطبعُ فحلُّ ، والقريحةُ حرَّةُ  
 هابتُ مقامكَ فاطبَّيتُ<sup>٢</sup> صعاها  
 لكنني سهلتُها وأدلتُها  
 إن كنتُ قد قاربتُ في تعديلها  
 عذري لتقصيري وعجزِي ناسخُ  
 مَنْ لَمْ يَدِنْ لِهـِ فَيْكَ بِقَرَبَةٍ  
 للعاكفينَ وأنتَ خيرُ مُثِيبِ  
 فَضَّتْ بِمَدْرَجِهَا لَطِيمَةً<sup>١</sup> طيبِ  
 قَصُرَ الحِجْبِي عن سرِّه المحجوبِ  
 حسدِ البسيطُ مزيَّةَ التركيبِ  
 عدلتُ من التشريقِ للتغريبِ  
 وتغيبُ عندكَ وهي في تذهيبِ  
 والنارُ تفضحُ عَرَفَ عودِ الطيبِ  
 ولكم مُطِيلٍ وهو غيرُ مُطِيبِ  
 فوقتُ بشرطِ الفورِ والترتيبِ  
 لكنَّ شعري فيكَ شعراً حبيبِ  
 فاقبلهُ بَيْنَ نَجِيَّةٍ وَنَجِيبِ  
 حتى غدتُ دُلُلاً على التدريبِ  
 من كلِّ وحشيِّ بكلِّ ريبِ<sup>٣</sup>  
 لا بدَّ في التعديلِ من تقريبِ<sup>٤</sup>  
 ويحلُّ منك العفوُّ عن تريبِ  
 هو من جنابِ الله غيرُ قريبِ

ولما احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب ، وتشتمل على أوصافٍ من ذكر الحلبة التي أرسلها ، والطلبة التي

١ الطيمة : وعاء الطيب أو قافلة تحمل طيوباً .

٢ اطببت : استمعت .

٣ الوحشي : اللفظ الوحشي ؛ والريبب : المريب المألوف في البيت يعني به القول ؛ ولعل فيه إشارة بعيدة إلى وحشي قاتل حمزة وإلى الريبب مثل عمر بن أبي سلمة الذي كان ريبب النبي (ص) .

٤ التعديل والتقريب من مصطلحات الحساب والفلك .

نصبها في الهواء للفرسان يرسلون العصي إليها ، والثيران التي أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها في صورة القرط من آذانها ، وهي آخر النظم في الأغراض السلطانية ، قصر الله تعالى ألسنتنا على ذكره ، وشغلها به عن غيره :

شَحَطْتُ وَفَوَدُ اللَّيْلِ بَانَ بِهِ الْوَاخِطُ  
أَتَاهُ وَلِيدُ الصَّبْحِ مِنْ بَعْدِ كِبَرَةٍ  
كَأَنَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ أَعْشَارُ سُورَةٍ  
وَقَدْ وَرَدَتْ نَهْرَ الْمَجْرَةِ سِحْرَةٍ  
وَقَدْ جَعَلْتُ تَقْلِي بِأَمْلِهَا الْفَلَا  
يَحْفُ عِبَابُ اللَّيْلِ عَنْهَا جَوَاهِرًا  
فَسَارَتْ خِيَالًا مِثْلَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ  
سَرَتْ سَلْحَ شَهْرٍ فِي تَلْفَتِ مَقْلَةٍ  
لِيَ اللَّهِ مِنْ نَفْسِ شِعَاعٍ وَمَهْجَةٍ  
وَنَقْطَةٍ قَلْبٍ أَصْبَحَتْ مِنْشَأَ الْهُوَى  
فَأَقْسَمُ لَوْلَا زَاغِرُ الشَّيْبِ وَالنَّهْيِ  
لَرَبِيعِ لَهَا الْأَحْرَاسُ مَنِّي بِطَارِقِ  
تَسَاقَلَهُ كَوَّمَاءُ سَامِيَةِ الذَّرَا  
وَلَوْلَا النَّهْيُ لَمْ تَسْتَهِنْ سُبُلَ الْهُدَى  
وَلَوْلَا عَوَادِي الشَّيْبِ لَمْ يَبْرَحِ الْهُوَى  
وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدٌ  
يَنْوِبُ عَنِ الْإِصْبَاحِ إِنْ مَطَّلَ الدَّجَى

وَعَسَكَرَهُ الزَّنْجِيُّ هَمَّ بِهِ الْقَبْطُ  
أَيُولَدُ أَجْنَا نَاحِلُ الْجِسْمِ مَشْطُ  
وَمِنْ خَطَرَاتِ الرَّجْمِ أَثْنَاءَهَا مَطُ  
غَوَائِصَ فِيهِ مِثْلَمَا تَفْعَلُ الْبَطُ  
وَيُرْسَلُ مِنْهَا فِي غَدَائِرِهِ مَشْطُ  
فِيكَثْرُ فِيهَا النَّهْبُ لِلْحَيْنِ وَاللَّقْطُ  
مِنْ الْبَثِّ وَالشُّكُوى بَيِّنٌ لَهُ لَغْطُ  
عَلَى قَتَبِ الْأَحْلَامِ تَسْمُو وَتَنْحَطُ  
إِذَا قُدْحَتْ لَمْ يَجِبُ مِنْ زَنْدِهَا سَقْطُ  
وَعَنْ نَقْطَةٍ مَفْرُوضَةٍ يَنْشَأُ الْخَطُّ ٢  
وَنَفْسٌ لَغَيْرِ اللَّهِ مَا خَضَعَتْ قَطُ  
مَفَارِقُهُ شَمْطُ وَأَسْيَافُهُ شُمْطُ  
وَيَقْدِفُهُ شَهْمٌ مِنَ النَّيْقِ مَنْحَطُ  
وَكَادَ وَزَانُ الْحَقِّ يَدْرِكُهُ الْغَمْطُ  
يَهْتَجُهُ نَوْءٌ عَلَى الرَّمْلِ مَخْطُ  
هَالَتْ بِحَارِ الرَّوْعِ وَاحْتَجَبَ الشُّطُ  
وَيُضْمَنُ سَقِي السَّرْحِ إِنْ عَظُمَ الْقَحْطُ

١ الأجنأ - وهو مهموز الآخر - الأحدب .

٢ قد مر بنا استخدام لسان الدين لمعارفه في الشعر ، وهو هنا يظهر شيئاً من معرفته الهندسية .



إذا بُدِّلَ المعروفُ أو نُصِبَ القسطُ  
وساموه في مَرَقَى الجلالةِ فانحطوا  
وما رسموا فوق الطروسِ وما خطوا  
فأونّةٌ يسخو ، وأونّةٌ يسطو  
بحكمةٍ مَنْ في كفه القبضُ والبسطُ  
كما مُزجتُ بالباردِ العذبِ إسفنطُ<sup>١</sup>  
ويا فخرَ ملكٍ كنتَ أنتَ له سبطُ  
فأيُّ سلاحٍ ما المجنُّ وما اللمطُ<sup>٢</sup>  
أناختَ على الإسلامِ تجني وتشتطُ  
ونادى بأهلها التّبارَ فلم يُبسطوا  
ولا يكملُ البُحرانُ أو ينضجُ الخلطُ  
ولمّا يقعَ منها النزولُ ولا الهبطُ<sup>٣</sup>  
وهيهاتِ أينَ الأثلُ منها أو الحمطُ  
ومن راسفٍ في القيدِ أزقه الضغطُ  
أماناً كما يصفو على الغادةِ المرطُ  
فيُسمعُ من بعد السهادِ لها غَطُّ  
تراحمَ مرتادٍ عليها ومختطُ  
وجاء فصَحَّ العقدُ واستوثقَ الربطُ  
وأذعنَ مُعتاصُ ، وأقصرَ مشتطُ

تقرُّ له الأملاكُ بالشيَمِ العلا  
أرادوه فارتدّوا ، وجاروه فانتوا  
تُبرُّ على المداحِ غُرُّ خلاله  
تعلمَ منه الدهرُ حالِيه في الورى :  
ويجمعُ بين القبضِ والبسطِ كفه  
خلاتقٌ قد طابتَ مذاقاً ونفحةً  
أسبطَ الإمامَ الغالسيَّ محمّدِ  
وقتلكَ أواقى الله من كلِّ غائلِ  
لقد زلزلتَ منك العزائمُ دولةً  
إيالةً غدرِ ضيعَ الله ركنها  
على قَدَرِ جلّى بك الله بؤسها  
وكانوا نعيمَ الجنتينِ تفيأوا  
فقد عوّضوا بالأثلِ والحمطِ بعدها  
فمن طائحٍ فوق العراءِ مجدّلِ  
وأتحفَ منك الله أمةَ أحمدِ  
أنمتَ على مَهْدِ الأمانِ عيونها  
وصمَّ صدى الدنيا فلما رحمتها  
وأحكمتَ عقْدَ السلمِ لم تألُ بعده  
وأيقنَ مراتبُ ، وأصبحَ نافرُ

١ الإسفنط : اسم للخمر .

٢ اللمط : الدرق اللطية ، منسوبة إلى لمطة من قبائل المغرب .

٣ استوحى في هذا البيت والذي يليه الآية الكريمة « لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان . . . الآية »

(سبأ : ١٥) .

والله مَبْنَاكَ الذي معجزاتُه  
 وَأُنْسَتْ غَرِيبَ الدارِ مسقطَ رأسه  
 تناسبتِ الأوضاعُ فيكَ وأحكمتْ  
 فجاء على وفق العلاءِ رائقُ الحلَى  
 والله إعدارٌ دعوتَ لهُ الورى  
 تقودهم الزُلْفَى ، ويدعوهم الرضى  
 وأغریتْ بالبهيمِ العلاجَ تحفياً  
 أتتْ صورةً معلولةً عن مزاجها  
 قضيتْ بها دينَ الزمانِ ، ولم يزلْ  
 وأرسلتْ يومَ السَّبْقِ كلَّ طِمِيرَةٍ  
 رَتَتْ عن كحيلِ كالغزالِ إذا رنا  
 وقامتْ على منحوتةٍ من زبرجدٍ  
 وكلَّ عتيقٍ من تماثلِ رومسةٍ  
 وطاعنةٍ نحرَ السكاكِ أعانها  
 تَلَقَّفَ حَيَاتِ العَصِيَّ إذا هوتْ  
 أزرَتْ بها بحرَ الهواءِ سفينةً  
 وطاردتْ مقدمَ الصَّوَارِ بجارجٍ  
 متينُ الشَّوَا في رأسه سَمَهْرِيَّةٌ  
 وقد كان ذا تاجٍ فلما تعلقا  
 وجيءَ بشبلِ الملكِ ينجدُ عزمه  
 سمحتْ به لم ترعَ فرطَ ضنانه  
 فأقدمَ مختاراً ، وحكمَ عاذراً

سَمَتُ أن توافيها الشفاهُ أو الخَطُّ  
 ومن دون فرخيه القتادةُ والخِرْطُ  
 على قَدَرٍ حتى الأرائكُ والبُسْطُ  
 كما سُمِّطَ المنظومُ أو نُظِمَ السمطُ  
 فهبوا لداعيه المهيبِ وإن شطُّوا  
 ويحدوهم الحصبُ المضاعفُ والغبْطُ  
 فلم يُذخِرَ الشيءَ الغريبُ ولا السمطُ  
 وأصلُ اختلافِ الصورةِ المزجُ والخلطُ  
 أكدَ كذوبَ الوعدِ يلوي ويشطُّ  
 كما قذفَ الملمومةَ النارُ والنفطُ  
 وأوفتْ بهادِ كالظليمِ إذا يعطو  
 تخطُّ على الصَّمِّ الصِّلابِ إذا تخطو  
 تأتقُ في استخطاطه القسُّ والقمطُ  
 على الكونِ عرقٌ واشجٌ ولحى سُبْطُ  
 فثعبانها لا يستقيمُ لهُ سرطُ  
 على الجوى لا الجوديُّ كان لها حطُ  
 يُصابُ به منه الصمَّاخُ أو الإبْطُ  
 مقصرةٌ عنهنَّ ما يُنبِتُ الخطُّ  
 بسامعتهِ زانهُ مهما قرطُ  
 عليه الحفاظُ الجعدُ والخلقُ السبْطُ  
 وفي مثلها من سنة يتركُ القرطُ  
 ولم يشتملَ مسكٌ عليه ولا ضبطُ

ولو غير ذات الله رامته نَضَنَّصَتْ  
 وأسد نزال من ذؤابة خزرج  
 جلادهم مثنى إذا اشتجر الوغى  
 كتاب أمثال الكتاب تتالياً  
 دليلهم القرآن ، يا حبذا الهدى  
 وبيض كأمثال البروق غمامها  
 ولكنه حكم يطاع سنة  
 ورُبَّتْ نَقْصٌ للكمال ماله  
 فهنيته صنعا ودمت مملكا  
 ودون الذي يهدي ثناؤك في الورى  
 رضيت ومن لم يرض بالله حاكماً  
 حياتك للإسلام شرط حياته  
 قنأ كالأفاعي الرقط أو دونها الرقط  
 بهاليل لا روم القديم ولا قبط  
 كأن رعاء بالعضاه لها حبط  
 فمن بيضها شكل ، ومن سمرها نقط  
 ورهطهم الأنصار ، يا حبذا الرهط  
 إذا وشحت سحب القتام دم عبط  
 وأعمال بر لا يليق بها الحبط  
 ولا غرو فالأقلام يصلحها القط  
 عزيزاً تشيد المعلوات وتخط  
 من الطيب ما تهدي الألو والقسط  
 ضلالاً فله الرضى وله السخط  
 ولا يوجد المشروط إن عُدَّ الشرط  
 هذا كاف في المطولات لنجلب منها عرضاً يدل على جوبها ، ونحف منها أنفس  
 الظرفاء بمطلوبها ، منقولة من الكتاب المسمى بـ « أبيات الأبيات » ومن الكتاب  
 المسمى بـ « الصيِّب والجهام » .

فمن التورية على طريقة المشاركة قولى ٢ :

مضجعي فيك عن قتادة يروي      وروى عن أبي الزناد فؤادي  
 وكذا النوم شاعر فيك أمسى      من دموعي بهيم في كل وادي  
 ومن هذا الباب أيضاً :

١ الألو : العود يتبخر به ؛ والقسط : عود هندي أيضاً يدخل في البخور والطيب .  
 ٢ راجمت أكثر هذه المقطعات على نسخة الإحاطة ولكنها لم ترد على الترتيب الذي جاءت فيه في النسخ ؛  
 ولست أرى حاجة إلى شرحها في الحواشي ؛ وانظر أيضاً أزهار الرياض ١ : ٣٠٤ - ٣١٣ فقد  
 ورد أكثرها هنالك ؛ وكذلك نثير فرائد الجمال : ٢٤٨ - ٢٥٦ .

ولمّا رأّت عزمي حثيثاً على السّرى  
أتت بصحاحِ الجوهريّ دموعها  
وقد رابها صبري على موقفِ البينِ  
فعارضت من دمعي بمختصرِ العينِ  
وفي هذا المعنى :

كُتبتُ بدمعِ عيني صَفْحَ خَدَيّ  
ورابَ الحاضرِين ، فقلتُ : هذا  
وقد منع الكرى هجرُ الخليلِ  
كتابُ العَيْنِ يُنسَبُ للخليلِ  
ومن الأغراضِ الظريفة فيها :

تعجلت وخط الشيب في زمنِ الصبّا  
فمهما رأيتُم شبيبةً فوق مفرقي  
لخوضي غمارَ الهمِّ في طلبِ المجدِ  
فلا تنكروها إنّها شبيبةُ الحمدِ  
ومن التورية بالنجوم ، والكاتب بيته بيت شرفه :

بأوتُ على زمي همّةً فأعتبني الزمنُ العاتبُ  
وشرفني الله في موطني وفي بيته يشرف الكاتبُ

وأبدع منها قولِي لمن يدعى بشمس الدين :

قلْ لشمسِ الدينِ وقِيّتَ الرديّ لم يدعْ سقمُكَ عندي جلدًا  
رَمِدَتْ عَيْنُكَ هذا عَجَبٌ أوعينُ الشمسِ تشكو الرّمدا

وقلت في غرض التورية بما يظهر من الأبيات :

أقلّ الألى كانوا نجو ما للورى فالكونُ مظلمُ  
وتساكر الناسُ الحديدِ ث الحقّ وافتقدَ المعلمُ  
أنا كاتبُ السلطانِ ما طالعتُ قطُّ كتابَ مُسلمِ  
إلاّ سخاماً قادحاً في الدينِ واللهُ المسلمُ

وفي معنى الدعابة مع بعض الطلبة :

قال لي عندما أتى بجدال  
ولساني بيدلُ الدالَ تاءً  
التمسُ مخرجاً يوافقُ قولي  
وشكوكِ على أصولِ الدينِ  
عاجزُ في الأمورِ عن تبينِ  
قلت: أحسنتَ يا جلالَ التينِ

وفي التورية :

اذمُ ذوي التطفيلِ مهما أتى  
يمشي على رجليه مع أنهُ  
وإن تكنُ أجملتهم فاعنه  
من جنس من يمشي على بطنه

وقلت :

أفقدَ جفنيَّ للذيدَ الوسنُ  
عذارهُ المسكيُّ في خدّه  
من لم أزل فيه خليعَ الرَسَنُ  
أنبتهُ الله النباتَ الحسنُ

وقلت في رثاء من اسمه حسن :

أشكو إلى الله من ثبي ومن شَجَبِي  
أصابتِ الحسنَ العينُ التي رشقتُ  
لم أجنِ من محنتي شيئاً سوى محنِ  
وعادةُ العينِ لا تُصمِي سوى الحسنِ

وفي الشيب :

تَفِرُّ عن الشيبِ الغواني تَعَزُّزاً  
بدا وَضَحاً في جدة العمرِ شانياً  
كما يعتريها إن رأتُ سامَ أبرصا  
فمن سام شيخاً فهو قد سام أبرصا

وقلت في السها من النجوم الجوفية :

قالوا : السها بادي النحول كأنه  
أتراه يشكو؟ قلت : هذا ممكنُ  
متسراً تبدو مخايلُ خوفه  
والله يَعْلَمُ دارَهُ من جوفه

وقلت :

عابوا وقالوا : بساقه شَعْرٌ  
قلت : انظروا ورد روضِ وجنته  
لقد عداه الكمالُ من ساقِ  
وكلُّ وردٍ مُشَوِّكُ الساقِ

وقلت في التضمين :

رُفِعَتْ قِصَّةُ اشْتِياقي لِيحْيِي  
ورمى بالكتاب ضعفَ اهْتِبالِ  
فَزَوَى الوِجْهَ رافِضاً للفتوهِ  
قلت يحمي خُدَّ الكتابِ بقوهِ

وقلت :

وذي حَيْكِلٍ يُعْمِي التَّقِيَّةَ أمرُهُ  
يدبُّ شَبولَ اللَّيْثِ ، واللَّيْثُ سَاهِرٌ  
مكابِدُهُ في بِلْحَةِ اللَّيْلِ تَسْبِحُ  
ويسرقُ نَابَ الكَلْبِ ، والكَلْبُ يَنْبِحُ

وقلت :

لَمَّا رَأَوْا كَلْفِي بِهِ وَدَرَوْا  
قالوا الفتي حلوٌ فقلتُ لهم  
مقدار ما لي فيه من حُبِّ  
طلعتُ حلاوته على قلبي

وقلت ، ولهما حكاية :

وذي زوجة تشكو فقلتُ له : اسقها  
فقال : أبتَّ شربَ الدواءِ بطبَّعها  
دواءً من الحَبِّ المِلِينِ للبَطْنِ  
فقلت : اسقها إن عافت الشربَ بالقرنِ

وقلت :

لعنوا بَرِيًّا من خبائثِ ظَنِّهِمْ  
والله لا أوطأتُ ساقِي سوقِهِمْ  
فالله يلعنُ أهلَ سوقِ العنبرِ  
أبدَ الزمانِ فتلكِ سوقِ آلِ عَنبرِ

ومن الفكاهات :

ولمّا دعانيّ داعي الهوى وأخلف ما كنتُ أمَلتُهُ  
ولم يبقَ غير البكا حيلةً بكيتُ بمقدارِ ما نلتُهُ

وقلت ، وقد رُفِعَ للسلطان باكورة بنفسج :

قدم البنفسجُ وهو نعم الواردُ قد نَمَّ منهُ إليّ طيبٌ زائدُ  
فسألته : ما باله ؟ فأجابني والحقُّ لا يُبغى عليه شاهدُ  
أقبلتُ أطلبُ من بنانِ محمدِ صلةً فعادَ عليّ منه عائدُ

وقلت من التشبيه :

سهرنا وفي سير النجومِ اعتبارنا إلى أن ضفا لليلِ من فوقنا رَينطُ  
فخلنا شهابَ الرجمِ لإبرةَ خائطِ مسوحاً وما يبقى من الذنبِ الخيطُ

وقلت أودع صديقاً أنستُ به :

فلاحةٌ مثلي ممقوتةٌ وإن أعجبَ البدءُ منها وراقُ  
زرعتُ اللقواءَ وعالجتهُ فلم أستفدْ منه إلاّ الفراقُ

ومن تضمين المثل :

لا تهيجُ بالذكرِ في كبدي نارَ وجدٍ شقَّ محتملُهُ  
ويقولُ الناسُ في مثلِ لا تحركُ من دنا أجلُهُ

ومن المدح :

عَجَباً لراحتكِ الملتةِ بالندى أن لا تكونَ على الغمامِ غماما  
يهني ووجهكِ نورهُ متألّقُ والقطرُ إن سَحَبَ السحابُ أغاما

ومن أبيات المدح :

ومطلع الجود في الدنيا وقد أفلا  
لم يسمع الناس يوماً من لسانك لا

يا ناصر الدين لما قلَّ ناصرُهُ  
لولا التشهد والتردادُ منك له

ومن أوصاف صنيع سلطاني :

هشَّت إليه الشُّهُبُ في آفاقها  
شدَّت لتخدم فيه عقْدَ نطاقها

ماذا أحدثتُ في صنيعِ خلافة  
فكأنما الجوزاءُ حين تعرَّضتْ

ومن قصيدة في وصف قرس :

خفيّاً على سرِّ الفؤادِ المكتّمِ  
أهميمٌ يوجدني فيه وهو ابنُ ملجَمِ

فبَوَّأتهُ من مهجتي مُتَبَوِّأً  
ويا عَجَباً مني وفرط تشيبي

ومن الحماسة في التورية بالمنطق<sup>١</sup> :

ورأيتُ ریحَ النصرِ ذاتِ هبوبِ  
أخرى بعزِّ النصرِ ذاتِ وجوبِ  
جُزْأَيَّ قياسِ فزتِ بالمطلوبِ

حتى إذا فرضَ الجلالُ جدالهُ  
قَدَّمَتِ سَالِبَةَ العدوِّ وبعدها  
وإذا توسَّطَ حدُّ سيفك عندها

وفي خاتمة قصيدة :

السبقُ يُعرِّفُ آخرَ المضمَارِ  
فلربَّ كثرَ في أساسِ جدارِ

ما ضرَّني إن لم أجيء متقدِّماً  
ولئن غدا ربَّعُ البلاغةِ بلقِّعاً

ومن المدح :

رأياً يفرِّقُ بين الرأي والرشدِ  
وكفِّه هُدًى حيرانٍ ورِيَّ صَدِّ

إن أبهمَ الخطبُ جلتى في دُجنته  
وإن عتا الدهرُ أبدى من أسرته

١ مرت الأبيات في البائية التي مدح فيها أبا عنان ، انظر ما تقدم ص : ٤٥٨ .



وإن نظرت إلى لألاء غُرَّتِه يوم الهياج رأيتَ الشمسَ في الأسدِ

ومن الأوصاف في قصيدة :

كم ليالٍ بتُّ في ظلِّمائها أمطى من نارِ شوقي فُرُشا  
وكأنَّ النَّجمَ شَرِبْتُ ثَمْلًا واصلَ الثَّملةَ حتى ارتعشا

ومن التورية بالكفتين من الحيل العددية :

لا عدلَ في الملكِ إلاَّ وهوَ قد نصبه وصيرَ الخلقَ في ميزانه عَصَبَه  
والكفتانِ ترى من كفه درتا أن تخرجَ العددَ المجهولَ للطلبه  
وفي رجلٍ يحتملُ على الولاية<sup>١</sup> :

حلفتُ لهم بأنك ذو يسارٍ وذو ثقةٍ وبرٍّ في اليمينِ  
ليستندوا إليك بحفظِ مالٍ فتأكلَ باليسارِ وباليمينِ

وقلت ، ولهما حكاية تظهر من الأبيات :

قلتُ لما استقلَّ مولاي زرعِي ورأى غلَّةَ الطعامِ قليله  
دمنتي لانتجاعِي الحرثِ كلتُ فهيَ اليومَ دمنةٌ وكليله

ومما صدرتُ به كتاباً لأحد الفضلاء :

يا مَنْ تقلَّدَ للعلاءِ سلوكا والفضلُ صيرَ نهجَهُ مسلوكا  
كاتبتي متفضلاً فملكنتي لا زلتُ منك مكاتباً مملوكا

وقلت في غرضٍ يظهر منه :

١ يتفق لسان الدين وابن رضوان في هذه التورية ، انظر ما تقدم ص : ١١٢ .

جلس المولى لتسليم الورى  
فلذا ما سألوا عن يومنا  
ولفصل البرد في الجو احتكام  
قلت : هذا اليوم بردٌ وسلام  
وقلت من التورية :

يا مالكي بخلال  
أضمرت قلبي ناراً  
تُهدي إلى القلب حيره  
يا مالك بن نُويره  
وقلت في التورية :

أضاف إلى الجفون السود شعراً  
فقلت أميرُ هذا الحسن تزكو ال  
كجنع الليل أو صبغ المداد  
أجورُ له بتكثير السواد  
وقلت أيضاً :

بأبي بدرٌ غزاني  
فأنا اليوم شهيدُ ال  
مستيحاً شرح صدري  
حباً من غزوة بدرِ  
وقلت ، ولهما حكاية :

أيا ليلةً بالخصب لم تألُ شهرةً  
فأمن قلبُ اللوز من علةِ النوى  
كما اشتهرت في فضلها ليلةُ القدرِ  
وأصبحَ فيها التينُ منشرحِ الصدرِ  
ومن النزعات المشرقية في التورية :

يا قائدي نحو الغرام بمقلنةٍ  
ماذا جنيت عليَّ من مفضِ الهوى  
نفقت حلاوتها بكلِّ فوادي  
اللهُ ينصفُ منك يا قوادي

١ ق : ولها .

٢ ق : من غمة .

ومن هذا النَّمطِ المشرقي :

وقالتُ حَلَقْتُ الكسَّ مني بنوْرَةَ  
ألا فابلغي عني فديتكَ واصدقي

ومنها :

قال لي والدموعُ تنهلُ سَحَاباً  
بك ما بي فقلتُ مولاي عافا  
أنا جفني التريحُ يروي عن الأءِ  
مش ، والجفنُ منك عن مكحولِ

ومن أبيات التورية أو ما داخلته :

في مصرِ قلبي من خزائنِ يوسف  
حَلَيْتُ شعري باسمه فكأنهُ  
حَبُّ وعيرُ مدامعي تمتازره  
في كلِّ قَطْرِ حَلَهُ ديناره

ومن المدح أيضاً ولا أستحضر لقبه :

رأيتُ بكفككَ اعتبارا  
فقلتُ وقد عجبتُ منها  
بأساً وندى ما إن يبارى  
يا بحرُ متى تدعو نوارا

وقلتُ ممّا يجري مجرى الحكم :

إنَّ الهوى لشكايةٌ معروفةٌ  
والنفسُ إن ألفتُ مرارةَ طعمه  
صبرُ التصبرِ من أجلِّ علاجها  
ضمنتُ بذلكَ له صلاحَ مزاجها

ومن الغرائب في الأوصاف :

كأنما الروضُ مَلَكٌ  
باهى به جُلَساءهُ

١ ق : سبياً .

يرضى التَّدِيمُ فمهما سقى الرياض كساهُ

وفي غرض النَّسِيبِ :

أصْبَحَ الخلدُ منكَ جَنَّةَ عدنِ  
مجتَلَى أعينِ وشمِّ أنوفِ  
ظَلَّتْهُ من الجفونِ سيوفُ  
جَنَّةِ الخلدِ تحتَ ظلِّ السيوفِ

وقلت في النَّسِيبِ :

أرسلتُ طرفي في حُلاكِ بنظرةٍ  
هي كانت السببَ الغريبَ لما بي  
وأراكَ بالعبراتِ قد عاقبتها  
ليسَ الرسولُ بموضعٍ لعقابِ

ومن تحسين القبيحِ :

وأحوَّلَ يعدي القلبَ سهمُ جفونه  
فتضحى صحیحات القلوب به مرضى  
رأى الحسنُ أنَّ اللحظَ منه مهتدٌ  
فحرقهُ كيما يكونَ له أمضى

ومن التزعات الحسنة :

من لي بذكرى كلِّما أوجزتها  
تمحو سُلُويَ واشتياقي تنبتُ  
وسحابُ دمعٍ كلِّما أمطرته  
غير القتادِ بمضجعي لا يُنبِتُ

ومن النَّسِيبِ :

جاء العِذارُ بظلِّ غيرِ ممدودِ  
فمتهى الحسنِ منه غيرُ محدودِ  
ناديتُ قلبي إذ لاحتْ طلائعُه  
يا صبرَ أيوبَ هذا درعُ داودِ

وفي نقيضه :

ما ضرَّ منِّي أنْ أخلقتُ موعودي  
وروض خذك أضحي ذاوي العُودِ  
وقال قوسُ عِذارٍ فوقَ صفحتِه  
سفينة الحسنِ قد حطَّت على الجودي

ومن التضمين :

يا مَنْ بِأَكْنافِ فُوادي رَبِّعْ<sup>١</sup>      قد ضاقَ بي عن حبِّكَ المتسعُ  
ما فيكَ لي جدوى ولا أرعوي      « شحُّ مطاعٌ وهوى متبعٌ »

ومن الأغراض المخترعة :

أنكرتُ لما أطلَّ عارضُهُ      فقال لي حين رابه نظري  
ألم تقل لي بأنِّي قَمَرٌ      فانظر إلى وبرِ أرنبِ القمرِ

ومن التضمين :

يا كوكبَ الحسنِ يا معناهُ يا قَمَرَهُ      يا روضَهُ المتناهي الرَّبيعِ يا ثَمَرَهُ  
أمرني بسلوِّ عنك ممتنعِ      « مأمورٌ حسنك لما يقض ما أمره »

وقلت :

لما رضيتَ بفرقي وبعادي      وصرمتَ آمالي وختَ ودادي  
لأعنتُ أمَّ الصبرِ فيكَ وبعده      ورثتُ للأشجانِ كثرَ فُوادي  
فالصبرُ مني أجنبيُّ بعدها      ولواعجُ الأشجانِ من أولادي

ومن الأغراض المشرقية :

سار بي للأمير يشكو اعتراضي      يوسفُ والشهودُ أبناءُ جِنسِهِ  
قال لي ما تقول قلتُ مجيباً      لم نخفُ من نكاله أو لجسِهِ  
حصَّصَ الحقُّ يا خوندُ فدعني      أنا راودتُ يوسفاً عن نفسه

ومن الأوصاف :

١ ق : رتج .

بتنا نطارحُ همَّ القحطِ ليلتنا  
وكانَ يحمَدُ ما كُنَّا نكابدهُ  
وأيدَ الهَمَّ والسَّهدُ البراغيثا  
منَ المشقَّةِ لو أنَّ البراغيثا

وفي قريب من المعنى :

وقالوا بَدَتْ منكمْ على الجسمِ حمرةٌ  
عَدَّتْ نحونا ليلاً ومن بعدنا اغتدتْ  
فقلتُ براغيثُ لكمْ رَقَطونَا  
كما رَقَصَتْ في القلْوِ بزرِ قَطونَا

ومن التضمين :

قال جَوادي عندما  
إلى متى تهزني  
هزتُ همزاً أعجزه  
﴿ويلٌ لكلِّ همزة﴾

وفي رثاء السلطان أبي الحجاج رحمه الله تعالى :

غبتَ فلا عينٌ ولا مخبرُ  
يا يوسفُ أنتَ لنا يوسفُ  
ولا انتظارُ منكْ مرقوبُ  
وكلُّنا في الحزنِ يعقوبُ

وقلت ، ولهما حكاية :

طالَ حزني لنشاطِ ذاهبِ  
وشبابِ كان يندى نضرةً  
كنتُ أسقى دائماً من حانه  
نزلَ الثلجُ على ريحانه

وقلت ، وقد أعجبنى نشاطُ ولدي :

سرقَ الدهرُ شبابي من يدي  
وحمدتُ الأمرَ إذْ أبصرتهُ  
ففؤادي مُشعرٌ بالكمدِ  
باعَ ما أفقدني من ولدي

١ ق : وشباب كان يندى من يدي .

وقلت ، ولهما حكاية :

قلتُ للشيبِ لا يَرَبِّكَ جَفَائِي      في اختصاري لك البرور ومقتك  
أنتَ بالعتبِ يا مشيبيَ أُولَى      جثني غَفْلَةً وفي غيرِ وقتك

ومما خططته في رملةٍ نزلتها :

أَقَمْنَا بِرُهَةً ثُمَّ ارْتَحَلْنَا      كذاك الدهرُ حالٌ بعد حالٍ  
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاءٍ      وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحالٍ  
ومن سام الزمانَ دوامَ أمرٍ      فقد وقف الرجاء على المحالِ

وقلت أيام مقامي بسلا :

أيا أهلَ هذا القَطْرِ سَاعِدَهُ القَطْرُ      بليتُ فدلوني لمن يُرْفَعُ الأمرُ  
تشاغلُ بالدنيا ونمتُ مفرطاً      وفي شغلي أو نومي سُرِقَ العمرُ

وقلت ، والبقاء لله وحده ، وبه نختم الهذر :

عدَّ عن كَيْتٍ وكَيْتٍ ما عليها غيرُ مَيْتٍ      ما عليها غيرُ مَيْتٍ  
كيفَ ترجو حالةَ البقِ يا لمصباحٍ وزيتٍ      يا لمصباحٍ وزيتٍ

انتهى ما نقلته من « الإحاطة » من ترجمة نظمه ، وبعض ما ذكر هنا قد تقدّم ، وكرّرتّه لكونه بلفظه في الإحاطة ، وقد ذكرت أثناء الأبواب غير هذا الباب من نظم لسان الدين - رحمه الله تعالى - كثيراً ، ولنعرّز ذلك هنا بذكر ما لم يتقدّم ذكره ، إذ نظمه بحر لا ساحل له ، ولذا كتب ابنه أبو الحسن على هذا المحل من الإحاطة ما صورته : ولوالدي أيضاً المترجم به - رحمه الله تعالى - في سكنين الأضاحي لسلطانته أبي الحجاج يوسف بن نصر فيما يكتب بالسكين المضحية :

ليَ الفخرُ إن أبصرني أو سمعتَ بي      على كلِّ مصقولِ الغرارينِ مرهفِ  
كفائيَ فخرًا أنُ تَرانيَ قَائمًا      بسنةِ إبراهيمَ في كَفِّ يوسفِ

ومقطوعاته كثيرة لم يتضمن هذا الديوان منها إلا القليل بسبب الاختصار ، ومن أراد الوقوف على جملتها فعليه بكتاب « الصيِّب والجهام » في شعره ، رحمه الله تعالى ، قال ذلك ولده علي ، لطف الله تعالى به آمين ؛ انتهى .

فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى <sup>١</sup> :

عسى خطرة بالركبِ يا حاديَ العيسِ      على الهضبة السماء من قصر باديسِ <sup>٢</sup>  
لنظفَرَ من ذاكَ الزلالِ بعلّةِ      وننعمَ في تلكَ الظلالِ بتعريسِ  
حبستُ بها ركبِي فواقًا ، وإنما      عقدتُ على قلبي بها عقدَ تحييسِ <sup>٣</sup>  
لقد رسختُ أيَّ الجوى في جوانحي      كما رسخ الإنجيلُ في قلب قسيسِ  
بميدانِ جنمي للسهادِ كتيبةُ      تغير على سرح الكرى في كراديسِ  
وما بي إلا نفحةُ حاجريةُ      سرت والدجى ما بين وهنٍ وتغليسِ  
ألا نَقَسُ يا ريح من جانبِ الحمى      تُنقَسُ من نار الجوى بعض تنفيسِ  
ويا قَلْبُ لا تُلُقِ السلاحَ فربما      تعذَرَ في الدهرِ اطرادُ المقاييسِ  
وقد تُعْتِبُ الأيتامُ بعدَ عتابها      وقد يعقب الله النعيمَ من البوسِ  
ولا تخش لِحِ الدمعِ يا خطرة الكرى      إلى الجفن بل قيسي على صرح بلقيسِ  
تقولُ سليمي ما لجسْمِكَ شاحبًا      مقالة تَأْنِيبِ يُشَابُ بتأنيسِ  
وقد كنتَ تَعْطُو كلما هبت الصبا      بريانَ في ماء الشبية مغموسِ  
ومَن رابحَ الأيتامَ يا ابنةَ عامرِ      بجوِّبِ الفلا راحت يداهُ بتفليسِ

١ الإحاطة : ٤٢١ وأزهار الرياض ١ : ٢٣٤ .

٢ قصر باديس : فرضة بالمغرب تقابل مالقة من الديار الأندلسية .

٣ التحييس : الوقف الدائم .



فلا تحسبي والصدقُ خيرٌ سجيّةٌ  
وقفراءُ أمّا ركبُها فمضللٌ  
سحبنا بها من هَضْبَةٍ لقرارةٍ  
إذا ما نهضنا عن مقبلِ غزاةٍ  
أردنا بها كأساً دهاقاً من السرى  
وحانة خمّار هَدانا لقصدها  
تطلّع ربانيّتها من جداره  
بكرنا وقتلنا إذ نزلنا بساحه  
أيا عابد الناسوت إنّا عصابةٌ  
وما قصّدنا إلاّ المقامِ بجناةٍ  
فأنزلتنا قوراء في جنباتها<sup>١</sup>  
بدرنا بها طين الختام بسجدةٍ  
ودار العذارى بالمدام كأنها  
وصارفتنا فيها نُصاراً بمثله  
وقمنا نشاوى عندما متّع الضحى  
فقال لبشّ المسلمون ضيوفنا  
وهلّ في بني مثنوك إلاّ مبرزٌ  
إذا همزّ عسّال اليراعة فاتكأ  
يقلبُ تحت النقعِ مقلةً ضاحكٍ

ظهورَ النوى إلاّ بطون النواميس<sup>١</sup>  
ومربعها من آنس غير مأنوسٍ  
ضلالاً وملنا من كِناسٍ إلى خيسٍ  
نزلنا فعرّسنا بساحةٍ عريسٍ<sup>٢</sup>  
أملنا بها عند الصباح من الروسِ  
شميمٌ الحميا واصطكاكُ التواقيسِ  
يهيّمُ في جنحِ الظلامِ بتقدّيسِ  
عن الصافناتِ الجردِ والضمّرِ العيسِ  
أتينا لتثليثِ بلي ولتسديسِ  
وكم ألبسَ الحقّ المين بتكليسِ  
محارب شتى لاختلافِ النواميسِ  
أردنا بها تجديدَ حسرةٍ إبليسِ  
قطيعٌ تهادى في رباش الطواويسِ  
كأنا ملأنا الكاس ليلاً من الكيسِ  
كما نهضتْ غلبُ الأسود من الخيسِ  
أما وأبيك الخبر ما نحن بالبيسِ  
بجلبةٍ شورى أو بملقّةٍ تدريسِ  
أسال نجيعَ الخبرِ فوق القراطيسِ  
إذا التفتَ الأبطالُ عن مُقلِّ شوسِ

١ لعل صوابها : « النواويس » .

٢ العريس : عرين الأسد .

٣ ق : فوراً على جنباتها ، والتصويب عن أزهار الرياض والإحاطة .

٤ الأزهار : قفا تهادى ؟ وسقط البيت من الإحاطة .

سبينا عُقار الرومِ في عقرِ دارها<sup>١</sup> بجليّةِ تمويهٍ وخدعةٍ تدليسٍ  
لئن أنكرتْ شكلي ففضلي واضحٌ وهل جائرٌ في العقل إنكارٌ محسوسٍ  
رسبت بأقصى الغربِ ذخرَ مضنةٍ وكم درةٌ علياء في قاعِ قاموسٍ  
وأغرّيت سُوسي بالعذيب وبارق على وطن داني الجوار من السوسِ

ومن أبدع ما صدر<sup>٢</sup> عن لسان الدين رحمه الله تعالى لاميته المشهورة التي خاطب  
بها السلطان حين عاد من المغرب إلى الأندلس ، وأعاد الله تعالى عليه ملكه الذي  
كان خُلِع منه ، ويقال : إن السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالحمراء  
لعجائبها ، وإنها إلى الآن لم تنزل مكتوبة بتلك القصور التي استولى عليها العدو  
الكافر ، أعادها الله تعالى للإسلام ، وأول هذه القصيدة :

الحقُّ يعلو والأباطلُ تسفلُ<sup>٣</sup> والله عن أحكامه لا يُسألُ

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمتها للسلطان - أسعده الله تعالى - وأنا بمدينة  
سلا ، لما انفصل طالبا حقه بالأندلس ، كان صنُعُ الله تعالى براعة استهلالها ،  
ووجهت بها إليه إلى رُندة قبل الفتح ، ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاء بنذري  
وسميتها « المنح الغريب في الفتح القريب » ومنها :

وإذا استحالتْ حالةٌ وتبدلتْ<sup>١</sup> فاللهُ عزَّ وجلَّ لا يتبدلُ  
واليسرُ بعدَ العسرِ موعودٌ بهِ<sup>٢</sup> والصبرُ بالفرجِ القريبِ موكلُ  
والمستعدُّ لما يؤملُ ظافرٌ<sup>٣</sup> وكفاك شاهدٌ « قيدا وتوكلا »<sup>٣</sup>  
أحمدٌ والحمدُ منك سجيّةٌ بجليتها دونَ الوري تتجملُ  
أما سعودك فهي دونَ مُنازعٍ عقدٌ بأحكامِ القضاء مسجلُ

١ الإحاطة والأزهار : خانها .

٢ انظر أزهار الرياض ١ : ٢٦٢ .

٣ يشير إلى الحديث « اعقلها وتوكل » .

بغريها يتمثل المتمثل  
وهفت من الروح الهضاب المثل  
قد تنقص الأشياء مما تكمل  
والله يأمر بالتساب ويقبل  
بإساءة قد سرك المستقبل  
أرضاك فيما قد جناه الأول  
لما ارتضى بك قيماً لا تغزل  
وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

ولك السجايا العر والشيم التي  
ولك الوقار إذا تزلزلت الرئي  
عوذ كمالك ما استطعت فإنه  
تاب الزمان إليك مما قد جنى  
إن كان ماضٍ من زمانك قد مضى  
هذا بذلك فشقق الجاني الذي  
والله قد ولاك أمر عباده  
وإذا تغمذك الإله بنصره

ومنها :

متن العباب فأى صبرٍ يجمل  
والريح تقطع للزفير وترسل  
تخال في برد الشباب وترفل  
من يعلم الأنثى وماذا تحمل

وظعت عن أوطان ملكك راكباً  
والبحر قد حنيت عليك ضلوعه  
ولك الجوارى المنشآت قد اغتدت  
جوفاء يحملها ومن حملت به

ومنها :

سدّ الثنية عارض مهتلل  
يرمي الجلاد به أغر محجل  
وإذا تغنى للصهيل فلبسل  
أذن مشقة وطرف أكحل  
من لطفه وكأنما هو هيكل

صبحتهم غرر الجياد كأنما  
من كل منجرد أغر محجل  
زجل الجناح إذا أجد لغاية  
جيد كما التفت الظليم وفوقه  
فكأنما هو صورة في هيكل

١ سقط هذا البيت من ق .

٢ الأزهار : لغارة .

ومنها :

وخليج هندٍ راقٍ حُسْنُ صفائه  
غرقتُ بصفحته النمالُ وأوشكتُ  
فالصرحُ منه مُمرِّدٌ ، والصفحُ مذ  
وبكلُّ أزرَقٍ إنْ شكَّتْ الحَاظهُ  
متأوِّدٌ أعطافُهُ في نشوَةِ  
عجباً له أنَّ النجيجَ بطرفِهِ

ومنها :

لله موقفك الذي وثبائه  
والخيلُ خطٌّ ، والمجالُ صحيفةٌ  
والبيضُ قد كُسرَتْ حروفُ جفونها  
لله قومك عند مشجر القنسا  
قومٌ إذا لَفَحَ الهجيرُ وجوههم

وهي طويلة لم يحضرنى الآن منها سوى ما كتبه .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله ٢ :

يا إمامَ الهدى وأيَّ إمامٍ  
أنتَ عبدُ الحليمِ ، حلمك نرجو  
أوضحَ الحقِّ بعد إخفاء رسمِهِ  
فالمسمى له نصيبٌ من اسمه

وقال يخاطب عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن سلطان إفريقية  
مودعاً ٣ :

١ الأزهار : مصدل .

٢ أزهار الرياض ١ : ٢٦١ .

٣ المصدر نفسه .

أبا مالك أنتَ نجلُ الملوكِ      غيوثُ الندى وليوثُ النزالِ  
ومثلكَ يرتاحُ للمكرماتِ      وما لكَ بين الورى من مثالِ  
عزيزُ بأنفسنا أنْ نرى      ركابكَ مؤذنةً بارتحالِ  
وقد خبرتُ منك خُلُقاً كريماً      أنافَ على درجاتِ الكمالِ  
وفازتُ لديكِ بساعاتِ أنسٍ      كما زار في الليل طيفُ الخيالِ  
ولو لا تعللُنا أننا      نزورك فوق بساطِ الجلالِ  
ونبلغُ فيك الذي نبتغي      وذاك على الله سهلُ المنالِ  
لما فترتُ أنفُسُ من أسَى      ولا برحتُ أدمعُ في انهمالِ  
تلقَّتْكَ حيث حللتُ السعودُ      وكان لك الله في كلِّ حالِ

وتوفي أبو مالك المخاطب بهذا في بلاد الجريد سنة ٧٥٠ .

ومن نظم ابن الخطيب قوله لما أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى<sup>١</sup>:

ماذا أحدث عن بحر سبحتُ به      من البحارِ فلا إثمٌ ولا حرجُ  
دحاهُ مبتدعُ الأشياءِ مستويأً      ما إن به دركٌ كلاً ولا درجُ  
حتى إذا ما المنارُ الفردُ لاحَ لنا      صحت ابشري يا مطايا جاءك الفرجُ  
قربتِ من عامرٍ داراً ومنزلةً      والشاهد العدل هذا الطيب والأرجُ

وقال رحمه الله تعالى<sup>٣</sup>:

كأنا بتامسنا نجوسُ نخلالها      وممدودها في سيرنا ليس يقصرُ  
مراكبُ في البحرِ المحيطِ تجبطنُ      ولا جهةً تدري ولا البرَّ تبصرُ

١ الأزهار : احتلت .

٢ أزهار الرياض : ٢٦٥ .

٣ المصدر نفسه .

وقال ساعده الله تعالى ، وهو مكتوب بالمدرسة التي بناها السلطان أبو الحجاج ابن نصر رحمه الله تعالى <sup>١</sup> :

ألا هكذا تُبنى المدارسُ للعلمِ      وتبقى عهودُ المجدِ ثابتةَ الرسمِ -  
ويُقصد وجه الله بالعملِ الرضى      وتجنّى ثمار العزِّ من شجر العزمِ -  
تفاخر مني حضرة الملكِ كلِّما      تقدم خصم في الفخار إلى خصمِ -  
فأجدى إذا ضنَّ الغمامُ من الحيا      وأهدى إذا جنَّ الظلام من النجمِ -  
فيا ظاعناً للعلمِ يطلبُ رحلةً      كفيت اعتراض البيد أو لبحج اليمِ -  
بباني حطَّ الرحلَ لا تنوِّ وجهةً      فقد فزت في حال الإقامة بالغنمِ -  
فكم من شهابٍ في سماويِّ ثاقبٍ      ومن هالة دارتْ على قمرٍ تمِّ -  
يفيضون من نورٍ مبینٍ إلى هدَى      ومن حكمة تجلو القلوب إلى حكمِ -  
جزى الله غني يوسفأ خیر ما جزى      ملوك بني نصر عن الدين والعلمِ -

وقال رحمه الله تعالى <sup>٢</sup> : مررت يوماً مع شيخنا أبي البركات ابن الحاج ببعض مسالك غرناطة حرسها الله تعالى فأنشدني من نظمه :

غرناطة ما مثلها حضرة °      الماء والبهجة والحضرة °

واستجازني رحمه الله تعالى ، فقلت :

سكانها قد أسكنوا جنة °      فهم يلقون بها نضرة °

وقال في تورية طيبة <sup>٣</sup> :

لاني وإن كنتُ ذا اعتلالٍ      رثتُ القوى بينَ الهزالِ

١ أزهار الرياض : ١ : ٢٧٢ .

٢ المصدر نفسه .

٣ أزهار الرياض : ١ : ٢٧٤ .

في عارضِ التيسِ لي شفاءً فكيف في عارضِ الغزالِ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق موثقاً على بيت  
المشاركة في العذار<sup>١</sup> :

أما والذي تُبلى لديه السرائرُ  
غدوتُ لضيمِ ابنِ الريبِ فريسةً  
إذا التمسْتُ كفيّ لديه جرائبي  
وما كان ظني أن أنالَ جرابيةً  
متى جاد بالدينارِ أخضرَ زائفساً  
وقد أخرج التعتيتُ كيسَ مرارتي  
تذكرتُ بيتاً في العذارِ لبعضهم  
« وما أخضرَ ذاك الحدُّ نباتاً ، وإنما  
وجاهُ ابنِ مرزوقٍ لديّ ذخيرةٌ  
ولو كان يدري ما دهاني لساءه

لما كنت أرضى الحسفَ لولا الضرائرُ  
أما ثار من قومي لنصري نائرُ  
كأني جانٍ أوبقتُهُ الجرائرُ  
يحكمم من جرّائها في جائرُ  
ودارتهُ دارتُ عليها الدوائرُ  
ورقتُ لبلوأيّ النفوسُ الأخيرُ<sup>٢</sup>  
له مثلٌ بالحسن في الأرض نائرُ  
لكثرة ما شقتُ عليه المرائرُ  
وللشدة العظمى تُعدُّ الذخائرُ  
وأنكرَ ما صارتُ إليه المصائرُ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحد الشرفاء<sup>٣</sup> :

أعياء اللقاءِ عليّ إلا لمحّةٌ  
فجعلتُ بابك عن يمينك نائباً  
فإذا وجدتك نلتُ ما أملتُهُ  
أو لم أجذك فقد شفيتُ غليلاً

في جملة لا تقبل التفصيلاً  
أهديه عند زيارتي تقبلاً  
أو لم أجذك فقد شفيتُ غليلاً

ولما دخل رحمه الله تعالى مدينة أنفا<sup>٤</sup> ، ومر منها على دار عظيمة تنسب إلى والي

١ المصدر نفسه .

٢ اضطربت هذه اللفظة في ق ، وأثبتنا ما في أزهار الرياض .

٣ أزهار الرياض ١ : ٢٧٥ .

٤ أنفا : هي الدار البيضاء الحديثة في المغرب .

جبايتها عبّو من بني الترجمان قارون قومه وغني صفه ، قال ١ :

قد مررنا بدار عبّو الوالي وهي ثكلى تشكو صروف الليالي  
أقصدت ربّها الحوادث لما رشقته بصائبات نبال  
كان بالأمس والياً مستطيلاً وهو اليوم ما له من وال

وقال في الشيخ ابن بطّان الصنهاجي ٢ :

لله درك يا ابن بطّان فما لشهير جودك في البسيطة جاحد  
إن كان في الدنيا كريم واحد يزن الجميع فأنت ذاك الواحد  
أجريت فضلك جعفرأ يحيا به ما كان من مجد فذكرك خالد  
فالقوم منك تجمّعوا في مفرد ولد كما شاء العلاء ووالد  
وهي الليالي لا تزال صروفها يشقى بموقعها الكريم الماجد  
وبمستعين الله يصلح منك ما قد كان أفسده الزمان الفاسد

وقال رحمه الله تعالى وقد انتابه البرغوث ٣ :

زحفت ٤ إلي ركائب البرغوث نمّ الظلام بركبها المحثوث  
بالحبة السوداء قابل مقدمي لله أي قرى ، أعد ، خبيث  
كسحت بهن ذباب سرح تجلدي ليلاً فجلّ الصبر جد رثيث  
إن صابرت نفسي أذاه تعبّدت أو صحت منه أنفت من تخنيث  
جيشان من ليل وبرغوث فهل جيش الصباح لصرختي بمغيث

١ أزهار الرياض ١ : ٢٨٨ .

٢ المصدر نفسه .

٣ أزهار ص : ٢٨٩ .

٤ ق : رجعت .



وقال يخاطب الوالي محمد بن حسون بن أبي العلاء ، وصدّر بها رسالة ١ :

لم يُبق لي جودُ الولايةِ حاجةً  
بعد اللقاء أولو الفضائلِ بغيي  
أجملتُهُ وتشوّفتُ لبيانه  
وخصصتُ بالإلقاء غيركَ غيرَةً  
للبست يا ابن أبي العلاء قُشِبَ الملا  
إن دون الفضلاء فضلاً معلماً  
تُثني عليك رعيّةُ أمالها  
أرعيتُها هملاً فلم يطرق لها  
من كنتَ واليه تولّتهُ العلاء  
في الأمن أو في الجاه أو في المال  
ورأيتُ هذا القصدَ شرطَ كمال  
هممٌ فكنتَ مفسراً الإجمال  
وجعلتُ ذكركَ شاهدَ الأعمال  
وتركتَ أهلَ الأرض في أسمال  
فلقد أتيتَ عليه بالإكمال  
في أن تفوزَ يداك بالآمال  
بمنيع سورك طارقُ الإهمال  
ومن اطّرحتَ فما له من والي

وقال في عثمان بن يحيى بن عمر بن روح ٢ :

أسميَ ذي النورين وجهك في الوغى  
شمس الضحى حلّت بليث عرين  
إن تفتخر بمرين أرضُ العدوِّ الـ  
مقصوى فإنك أنتَ فخرُ مرين

وقال رحمه الله تعالى عند وقوفه على مراکش واعتباره بما صار إليه أمرها ٣ :

بلدٌ قد غزاهُ صَرفُ الليالي  
وأباحَ المصونَ منه مُبيحُ  
فالذي خَرَ من بناه قَتيلُ  
والذي خَرَ منه بعضُ جريحُ  
وكانَ الذي يزورُ طيبُ  
قد تأتي له بها التشريحُ  
أعجمتُ منه أربعُ ورسومُ  
كانَ قديماً بها اللسانُ الفصيحُ

١ أزهار : ٢٨٩ .

٢ المصدر نفسه .

٣ أزهار : ٢٩٠ .

كم معان غابت بتلك المغاني  
وملوك تعبدوا الدهر لما  
دوخوا نازح البسيطة حتى  
حين شبت لهم من البأس نار  
أثر ينسب المؤثر لما  
ساكن الدار روحها، كيف يبقى

وجمال أخفاه ذلك الضريح  
أصبح الدهر وهو عبد صريح  
قال ما شاء ذابيل و صفيح  
ثم هبت لهم من النصر ريح  
طال بعد الدنو منه النزوح  
جسد بعدما تولت الروح ؟

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحمد بن يوسف حفيد الولي الصالح سيدي أبي محمد صالح النائم في ظل صيته رحمه الله تعالى<sup>١</sup> :

يا حفيد الولي يا وارث الفخ  
لك يا أحمد بن يوسف جينا  
ر الذي نال في مقام وحال  
كل قطر يعيي أكف الرجال

وقال في « نفاضة الجراب » : لما خرجت من آسفي<sup>٢</sup> سرت إلى منزل ينسب إلى أبي خدو ، وفيه رجل من بني المنسوب إليه اسمه يعقوب ، فألطف وأجزل ، وآنس في الليل ، وطلبني بتذكرة ثبت عندي معرفته فكتبت له<sup>٣</sup> :

نزلنا على يعقوب نجل أبي خدو  
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى  
فعرّفنا الفضل الذي ما له حد  
فلم يبق لحم لم ننتله ولا زبد  
يلقاه منا البر والشكر والحمد  
يحق علينا أن نقوم بحقه

وقال :

ألقي إلى الأيام فضل مقادتي  
فتجنبي ما بين كد وإرهاق

١ أزهار : ٢٩٨ .

٢ آسفي : بالمغرب على ساحل الاطلنطي ، والسين منها مفتوحة أو ساكنة .

٣ المصدر نفسه .

وأُتلف بين الخلق والرزق فكرتني  
إذا كنتُ بالإثراء لي في تملقٍ  
ولستُ بخلاقٍ ولستُ برزاقٍ  
رضيتُ بعز النفس في عز لإملاقٍ

وقال :

لك الملك ملك الحسن فاقض بنا الذي  
إذا ما كسرت اللحظ من تحت حاجبٍ  
تشاء فما يُعصى لأمركَ واجبهُ  
تحكّم في الأبواب كسرى وحاجبهُ

وقال :

سألنا ربيعَ العامِ للعامِ رحمةً  
فقلنا وقد ردَّ الوجوهَ ولم يُبَلِّ  
فضنَّ ولم يسمحْ بذرةٍ إنعامٍ  
قليلُ الحيا قُبِّحتَ والله من عامٍ

وقال :

تخوته صرفُ الزمان وهَل ترى  
هو الدهر ذو وجهين يومٍ وليلةٍ  
بقاءٍ لحيٍّ أو دواماً على أمرٍ  
ومن كان ذا وجهين يعتبُ في غدرٍ

وقال رحمه الله تعالى في شجر الجوز :

انظر إلى ينعي وحسنِ بسُوقي  
يجلو اللواحظَ منظري حسناً كما  
يهفو النسيمُ بقديّ المشوقِ  
يجلو ثُغورَ الغايات عروقي

وقال رحمه الله تعالى في ساقٍ :

كيف آمتما على الشربِ ظيباً  
راح يسقي فصّبَّ في الكأس نزرأ  
لحظهُ في القلوبِ غيرُ أمينِ  
ثقةً منهُ بالذي في العيونِ

وقال يخاطب السلطان<sup>١</sup> :

١ أزهار : ٢٩٨ .

أنتَ للمسلمين خيراً عمادٍ  
لو رأى ما شرعتَ للخلقِ فيه  
لجزى ملكك المبارك خيراً  
فاشكر الله ما استطعتَ بفعلٍ  
كلُّ ملكٍ يُرى بصحبة أهلِ الـ  
فإذا ما ظفرتَ منهم بإكسيه  
والبرايا تبيدُ والملك يفتي

وقال رحمه الله تعالى :

ما لي أهدبُ نفسي في مطامعها  
إذا استعنتُ على دهري بتجربةٍ  
والنفسُ تأنفُ تهذي وتهذي بي  
تأبى المقاديرُ تجربي وتجري بي

وقال :

من لا نصيبَ لصحبته في خيره  
فاقصدُ أباه متى أردتَ وقل له  
وإذا سعى لم يقضِ حاجةَ غيره  
الله يُلهمهُ العزاء بأيره

وقال رحمه الله تعالى :

أمُستخرجاً كثرَ العقيق بآماني  
فقد ضعفتُ عن حمل صبري طاقتي  
أناشدك الرحمنَ في الرمتي الباقي  
عليك وضافتُ عن زفيري أطواقي

وقال رحمه الله تعالى :

إذا لم أشاهد منك قبل مني  
فحسنُ عزائي حيل بيني وبينه  
نهايةَ آمالي وغاية غاياتي  
وقرة عيني لم تحلَّ بمرآتي  
وشهودك أمني من عُداةِ خواطري  
وقربك حِرْزي من توفِّع آفاتِ

فإن لم يكن وصل<sup>١</sup> فهبها إشارة<sup>٢</sup> فيا حُسنَ شاراتي بها من إشارات  
وقال رحمه الله تعالى يخاطب الدنيا :

دُنْيَا خدعت الذي سَقَرْتِ له      عن صفحةٍ لم يحل بها كَرَمُ  
سَرَقْتِ حَظَّ الإله من يده      فهانَ ما كانَ منه يُحْتَرَمُ  
هذا الذي نالَ منك ليسَ له      منقطعٌ دائمٌ ومنصرمٌ  
وهبهُ نالَ الذي أرادَ أما      بينَ يديه المشيبُ والمَهرَمُ

ولمَّا أورد رحمه الله تعالى قول القائل<sup>١</sup> في وصف الدنيا :

كلِّمَّا أنبَتَ الزَّمانُ قنَاةً      ركبَ المرءُ في القنَاة سنانا  
وكأنَّا لم نرضَ فيها بريئاً      بـِ الدهرِ حتى أعانه من أعانا

قال أثره ما نصّه : والحق ما قلته من أبيات تناسب ذلك ، ولا حول ولا  
قوة إلا بالله :

والله إن لم يُداركها وقد وحلت      بلمحةٍ أو بلطفٍ من لدنه خفي  
ولم يجدْ بتلافيها على عجلٍ      ما أمرها صائرٌ إلا إلى التلفِ  
فحب الدنيا رأس كل بلية ، ولولاه لم تزل النفس صافية عالية عن سجيتها  
الأولية .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله :

إن رأى الحقُّ فيك منه بقیةً      فاتقِ البعدَ فيه حقَّ التقيّة  
وإذا لم يكن لذاتك رسمٌ      قائمٌ تلكَ حالة حَقِيّة

وقوله رحمه الله تعالى :

١ هو المتنبي ، من قصيدة له مطلعها « صحب الناس قبلنا ذا الزمانا » .

وإن أشكلت يوماً فخذها كما هيا  
إذا قمتَ بالباقي فما زلتَ باقيا

فسامحْ إذا ما لم تفدكَ عبارةٌ  
وتلخيصٌ ما دندنتَ بالقولِ حوله

وقال رحمه الله تعالى ١ :

ملايحَ نورٍ لاجَ للطُّورِ فانهداً  
لتشفي من استشفى وتهدي من استهدى  
من الله مثلَ الخلقِ رسماً ولا حداً

ففي عالمِ الأسرارِ ذاتكَ تجتلي  
وفي عالمِ الحسِّ اغتديتَ ميوماً  
فما كنتَ لولا أن أتيتَ هداية

وهذه الأبيات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال رحمه الله تعالى :

مرَّ الليالي وما ذا البثُّ والحزَنُ  
ولا حبيبٌ ولا خلٌّ ولا سكنُ  
إذا لصارَ رماداً تحتك الغصنُ

حَمَامَةَ البانِ ما هذا البكاء على  
لا منزلٌ بنتَ عنه أنتَ تندبُهُ  
لو كنتَ تنفثُ عن شوقٍ مُنيتَ به

وقال رحمه الله تعالى مضمناً :

وإلا فمغنى القومِ عنكَ بعيدُ  
إذا لم ترد شيئاً فأنتَ مریدُ

أمطُ عنكَ مهما اسطعتَ كلَّ إرادةٍ  
تكونُ مریداً ثمَّ فيكَ إرادةٌ

وقال رحمه الله تعالى :

قضياً لعبوا بالرجاء وبالباسِ  
طروباً بحملِ المشرفة والكاسِ  
جمالَ رُوءاءٍ في تأرُجِ أنفاسِ  
إذا ما سفحتُ الحبرَ في صفحِ قرطاسِ

تعلَّقته من دوحَةِ الجودِ والباسِ  
ضروباً بضربِ للبراعةِ والقنا  
يذكرنيه الصبحُ عند انصداعه  
ويبدو لعيني شَعْرُهُ وجبينُهُ

١ انظر ص : ٤٥٣ .

وقال رحمه الله تعالى :

أحبُّ لِحَبِّهَا جَمَلِي وَرَحَلِي      وَعَزَمِي وَالْقَتَادَةَ وَالطَّرِيقَا  
وَمَنْ أَحْشَاهُ مِنْ سَبْعٍ وَلِصِّ      فَكَيْفَ فَرِيقَهَا ؟ سَلَمُوا فَرِيقَا !  
وَكَيْفَ أَحْصَى بِاسْمِ الْحَبِّ إِنْ لَمْ      أَحَبَّ لِأَجْلِهَا إِلَّا صَدِيقَا

وقال رحمه الله تعالى : وقلت من قصيدة :

أَنَا نَسَخَةُ الْأَكْوَانِ أَدْمَجُ خَطَّهَا      فَسِرُّ ذَوِي التَّحْقِيقِ فِي طَيِّ أَوْرَاقِي  
فَمِنْ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ لِيْلِي وَظَلْمَتِي      وَمِنْ عَالَمِ الْأَرْوَاحِ نُورِي وَإِشْرَاقِي

وقال رحمه الله تعالى :

مَوْلَايَ مَوْلَايَ إِنْ أَرْضَاكَ بَدَلُ دَمِي      فَقَدْتُ أَتَيْتُ بِهِ أَسْعَى عَلَى قَدَمِي  
وَإِنْ تَعَاظَمَ ذَنْبٌ قَدَّ جَنَّتُهُ يَدِي      وَطَالَ قَرَعِي عَلَيْهِ السَّنُّ مِنْ نَدَمِ  
فَهَبَّهُ لِي وَاعْتَفَرَ مَا كَانَ مِنْ خَطِي      وَزَلَّةٍ وَارَعَ لِي حَبِي عَلَى الْقَدَمِ

وقال رحمه الله تعالى من قصيدته العينية السلوية التي وجهها إلى سلا أيام  
خلف بها أهله وولده :

بُولِي اللهُ فَابْدَأْ وَابْتَسِرْ      وَاحِدِ الْآحَادِ فِي بَابِ الْوَرَعِ

[ ترجمة الولي ابن عاشر ]

قلت : هذا الولي هو العارف بالله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر أحد  
الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب ، وقد زرت قبره بسلا عام تسعة  
وألف ، وهو أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر<sup>١</sup> ، الأندلسي ، نزيل سلا ، الولي  
الزاهد المشهور بالمناقب والأحوال .

١ انظر ترجمة ابن عاشر في نيل الابتهاج : ٤٣ والمقري ينقل عنه ؛ وأنس الفقير : ٩ .

قال ابن عرفة : ما أدركت مبرزاً في زماننا هذا إلا الشيخ أبا الحسن المنتصر  
وأحمد بن عاشر بسلاً ؛ انتهى .

وقال بلدينا أبو عبد الله ابن سعد التلمساني في كتابه « النجم الثاقب فيما  
لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان أحدَ الأولياء الأبدال ، معدوداً في كبار  
العلماء ، مشهوراً بإجابة الدعاء ، معروفاً بالكرامات ، مقدماً في صدور الزهاد ،  
منقطعاً عن الدنيا وأهلها ، ولو كانوا من صالحى العباد ، ملازماً للقبور في الخلاء  
المتصل ببحر مدينة سلا ، منفرداً عن الخلق ، لا يفكر في أمر الرزق ، وله أخبار  
جليلة ، وكرامات عجيبة مشهورة ، ممن جُمع له العلم والعمل ، وألقي عليه  
القبول من الخلق ، شديد الهيبة ، عظيم الوقار ، كثير الخشية ، طويل التفكير  
والاعتبار ، قصده أمير المؤمنين أبو عنان ، وارتحل إليه عام سبعة وخمسين  
وسبعمائة ، فوقف ببابه طويلاً ، فلم يأذن له ، وانصرف وقد امتلأ قلبه من  
حبّه وإجلاله ، ثم عاود الوقوف ببابه مراراً فما وصل إليه ، فبعث له  
بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته ، فأجابته بما قطع رجاءه  
منه ، وأيس من لقائه ، واشتد حزنه ، وقال : هذا ولي من أولياء الله تعالى حجبته  
الله عنا ؛ انتهى .

ولما أجرى ذكره لسان الدين في « نفاضة الجراب » قال ما ملخصه :  
ولقيت من أولياء الله تعالى بسلاً الولي الزاهد الكبير المنقطع القرين ، فراراً عن  
زهرة الدنيا ، وعزواً عنها ، وإغفاء في الورع ، وشهرة بالكشف ، وإجابة الدعوة  
وظهور الكرامة ، أبا العباس ابن عاشر ، يسر الله تعالى لقاءه على تعذره لصعوبة  
تأتيه ، وكثرة هيبته ، قاعداً بين القبور في الخلاء ، رث الهيئة ، مُطْرِق اللحظ ،  
كثير الصمت ، مفرط الانقباض والعزلة ، قد فرّ من أهل الدنيا وتطارحهم ،  
فهو شديد الاشمئزاز من قاصده ، مُجَرَّمز للوثبة من طارقه ، نفع الله تعالى به .  
وقال ابن الخطيب القسطيني الشهير بابن قنفذ : لقيته بسلاً سنة ٧٦٣ ،  
وهو على أتم حال في الورع ، والفرار من الأمراء ، والتمسك بالسنة ، وهو الشيخ



الفقيه الولي ، توفي في سنة خمس وستين وسبعمائة ؛ انتهى .  
وممن انتفع به ونال بركته الولي العارف بالله سيدي أبو عبد الله ابن عبّاد  
شارح الحكم ، وقد ترجمناه في هذا الكتاب .

وقال ابن عباد المذكور في رسائله : وقد كنت قديماً خرجت في يوم مولده  
صلى الله عليه وسلّم صائماً إلى ساحل البحر ، فوجدت هناك سيدي الحاج ابن عاشر  
رحمه الله تعالى وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه ، فأرادوا مني الأكل ،  
فقلت : إنّي صائم ، فنظر إلي سيدي الحاج نظرة منكّرة ، وقال لي : هذا يوم  
فرح وسرور يُستقبّح في مثله الصوم كالعيد ، فتأمّلت قوله فوجدته حقّاً ، وكأنّه  
أيقظني من النوم ؛ انتهى .

وقال ابن قنفذ السابق في رحلته ما صورته : وكان ابن عاشر رحمه الله تعالى  
فريداً في الورع ، ميسراً عليه في ذلك أتم تيسير ، محفوظاً من كل ما فيه شبهة ،  
كثير النور من الناس ، وخصوصاً أصحاب الولاية في الأعمال ، وخرجت على  
يده تلامذة نجباء أختار ، وطريقه أنّه جعل « إحياء علوم الدين » بين عينيه ، واتبع  
ما فيه بجدّ واجتهاد ، وصدق وانقياد ، وكان الحجّة في ذلك الطريق ، وأول  
اجتماعي به تفرّ مني ، فحبستّه بيدي وهزّزته ، فتبسم ووقف معي ، وسألني  
عن نسبي ، ودعا لي ، وطلبتّه بما يطعمني ، فاعتذر لي بالإقلال ، ثم قال : أمهل ،  
فدخل وأخرج لي حبّات تين يابسة في يده اليمنى ، وغطاها باليد اليسرى ، ودفعها  
إليّ ، وضحك معي ، وعجب الحاضرون من ليانته وانشراحه معي ، لأنّه  
لا ينسب إلى أحد ، وحصل لي بذلك فخر لا يدري قدره إلاّ مَنْ حاول بعضه  
معه ، وقصدني كثير من الخواص فسألني عن مجلسي معه وما وقع من جوابه  
وسؤاله ، وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل إليه في عام سبعة وخمسين وسبعمائة  
على لقائه فلم يقدر عليه بوجه ، وحجبه الله تعالى حتى تبعه يوم جمعة من الجامع  
الأعظم على قدمه ، والناس ينظرونه ، وهو لم يره ، فرجع ، ولم يكن قوته إلاّ  
من نسخ العمدة في الحديث ، وكيف يبيعهها ، ولمن يبيعهها ، ولا يأخذ إلا قيمتها ،

ولم تزل حالته وبركته في زيادة إلى أن توفي سنة ٧٦٥ ، وسأله بعض الأخيار بمحضري عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني ؛ لوجود ذلك من بعضهم ، فقال : المسلم الذي له هذه الدرجة يرى من العاهة ، والنصراني لا يرى ، ثم قال : وهل يرى الفقيه من العاهة ؟ فقال له : نعم ، ثم نظر يمينا وشمالاً ليجد صاحب عاهة يأتي بالعيان ، فلم يجد أحداً ، وكأته اغتاض لهذا السؤال ، ثم أخرج يده وقال : يأتي لمن يقعد عن الحركة ، فيحبسه بيده ، ويقومه وقد ذهب ألمه بعد أن جثا إلى الأرض في الصفة ، ثم قال : وسئل بعضهم عن هذا ، وكان السائل نصرانياً في زي المسلم ، فقال له : الفرق بينهما سقوط الزنار من وسطك ، قال : فسقط ، وفضحه الله تعالى ، وأسلم بسبب ذلك ؛ انتهى كلام ابن قنفذ القسطيني ، رحمه الله تعالى .

وترجمة ولي الله تعالى سيدي الحاج ابن عاشر - نفعنا الله تعالى ببركاته - متسعة جداً ، وكراماته ومناقبه لا نبلغ لها حداً ، ولا نطبق لها عدداً ، وإنما ألمعنا بذكره قصداً للتبرك به ، والله ولي التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

رجع إلى نظم لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، فنقول : ومن مداعباته رحمه الله تعالى قوله :

ومولع بالكتب يتساعها بأرخص السوم وأغلاه  
في نصف الاستذكار أعطيته مختصر العين فأرضاه

ويعني بمختصر العين الزبيدي فافهم ، وقال رحمه الله تعالى من قصيدة :

ووالله ما اعتل الأصيل ، وإنما تعلم من شجوي فبان اعتلاله

وهذا غاية في المبالغة وحسن التعليل .

وقال رحمه الله تعالى<sup>١</sup> : وقفت على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمات في حركة  
 راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية ، باعشها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار ،  
 عام واحد وستين وسبعمائة ، وهو بمقبرة أغمات في نَشْرَ من الأرض ، وقد  
 حَفَّتْ به سِدْرَةٌ ، وإلى جنبه قبر « اعتماد » حظية مولاة رُمَيْك ، وعليهما  
 هيئة التغرب ومعاناة الحمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ،  
 فأنشدت في الحال :

قد زرتُ قبرك عن طوعٍ بأغماتِ رأيتُ ذلكَ من أولى المهماتِ  
 لم لا أزوركُ يا أئدى الملوكِ يداً ويا سراجَ الليالي المدهماتِ  
 وأنت من لو تخطى الدهر مَصْرَعَه إلى حياتي بلحادثٍ فيه أبياتي  
 أنافَ قبرك في هَضْبٍ يميّزهُ فَتَنَّتْجِه حَفِيَّاتُ التحياتِ  
 كرمتَ حياً وميتاً واشتهرتَ عللاً فأنتَ سلطانُ أحياءٍ وأمواتِ  
 ما ريء مثلك في ماضٍ ، ومعتقدي أن لا يُرى الدهرَ في حالٍ ولا آتِ

وقد تقدّم هذا في القسم الأول في الباب السابع منه ، وكررته هنا ، والله

الموفق .

وقال رحمه الله تعالى مورياً حين أكل مشرفُ الدار القابضَ ، أي أكل

ماله<sup>٢</sup> :

مُشْرِفُ دارِ الملكِ ما باله منتفخِ الجوفِ شكاً نافضاً<sup>٣</sup>  
 فقيلَ لي ليسَ بهِ علةٌ لكنَّهُ قد أكلَ القابضاً<sup>٤</sup>

١ أزهار الرياض ١ : ٢٩٧ ، وانظر الأبيات في الجزء ٤ : ٩٨ .

٢ أزهار : ٣٠٠ .

٣ النافض : الحمى .

٤ القابض - في المصطلح الأندلسي - المال المقبوض .

وقال ١ :

يا نفسُ لا تصغي إلى سلوةٍ      كم أخلف الموعدَ عرقوبُ  
وأنتَ يا قلبي وصاك لإدِّ      راهيمُ بالحزنِ ويعقوبُ

وقال في السعيد أبي بكر ابن السلطان أبي عنان :

أميرٌ كأنَّ قميرَ الدُّجى      أفاض الضياءَ على صفحتيه  
تملاً قلبي من حبه      غداةً نظرتُ بعيني إليه  
فلا بسطَ الدهرُ كف الردي      لذلك الشخيصِ وذاك الوجيه

وقال يخاطب الخطيب ابن مرزوق :

تعلمَ طيفوري خلالَ سميتهِ      وإن كان منسوباً إلى غير بسطام<sup>٢</sup>  
وجاء فقيرَ الوقتِ لابسَ خرقة      فليس براضٍ غيرَ صحبة صوام  
فديتك لا تردُّدُهُ عنك نجيباً      ودرسهُ يا مولاي قصّة بلعام<sup>٣</sup>

وقال : ممّا كتبت به إلى ابن مرزوق المذكور ، وقد وصل ولده إلى سلا  
ومنع ابن الخطيب عن لقائه عذرُ مرضٍ ، وكان نزوله بزواية النساك :

صدّقي عن لقاء نجلك عذرٌ      يمنعُ الجسمَ عن تمامِ العبادة  
واختصرتُ القرى لأن حطّ رحلاً      في محلّ الغنى ودار الزّهاده  
ولتو آني احتفلتُ لم يُعين الده      سرُّ ولا نلتُ بعضَ بعضِ أراده  
وعلى كلِّ حالةٍ فقصوري      عادةً إذ قبولك العذرَ عاده

١ هذه المقطوعة والعشر التالية لها في أزهار الرياض ٣٠٠ - ٣٠٤ .

٢ الطيفور : طبق عليه طعام أو مائدة صغيرة ، وفي الإسبانية (Ataifor) ، وانظر الحاشية : ٢  
من ج ٤ : ٥١٠ ، وطيفور اسم أبي يزيد البسطامي .

٣ بلعام اسمه مشتق من البلع فهو يوري بذلك .

لا عدت الرضى من الله والحسد فى كما نصَّ وَحْيُهُ والزِيادة

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبى الحسن بشالة لاستنهاض عزمته فى قضاء

غرضه :

برئت لله من حَوَلي ومن حِيالي  
أصبحتُ ما لي من عطفِ أُوَمَله  
ما كنتُ أحسبُ أن أرمى بقاصيةِ  
من بعد ما خلصتُ نحوى الشفاعةُ ما  
إن كنتُ لستُ بأهلٍ للذي طمحتُ  
فكيفَ يُلغى ولا تُرعى وسيلته  
من بعد ما اشتهرتُ حالي به وسرتُ  
والرسلُ ترى ولا تخفى نتائجها  
ولا لليلي من صبحِ أطالعه  
لو أنتي بابين مرزوقٍ عقدتُ يدي  
لكان كربي قد أفضى إلى فرجِ  
المحتُ بالعتبِ لم أحذرُ مواقعه  
ولست أجد ما خوَّلتُ من نعم  
ولست أبأس من وعدٍ وعدتُ به

إن نام عني وليي فهو خيرٌ ولي  
من غيره فى مهماتٍ ولا بدَلِ  
للهمجر أقطعُ فيها جانبَ الأملِ  
بين العُلا والُدجى والبيض والأسلِ  
إليه نفسى وأهوى نحوه أُملي  
دخيلُ قبرِ أميرِ المسلمين علي  
بها الركائبُ فى سهلٍ وفى جبلِ  
عندَ التأملِ من قولٍ ولا عملِ  
كأنَّ همي قد مدَّ الدُّجَّةَ لي  
وكان محتكماً فى خيرةِ الدولِ  
وكان حزني قد أوفى على جدِّ لي  
« أنا الغريقُ فما خوفاً من البلبلِ »  
لكنها النفسُ لا تنفكُ عن أملِ  
« وإتما خلقَ الإنسانُ من عَجَلِ »

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبى الحجاج :

أمولاي إنَّ الشعرَ ديوانُ حكمةٍ  
وقد وُجدَ المختارُ فى الحفلِ مُنصَّباً  
يفيد الغنى والعزَّ والجاهَ من كانا  
لهُ وحباً كعباً عليهِ وحسانا

١ الأزهار : الفلا .

بذلك ديواناً صحيحاً فديوانا  
وفاروقه الأدنى إليه وعثمانا  
وكرمنا بالقرب منهم وحيانا  
خطاباً وشعراً يستقران تبياناً  
فروضاً روض القول سحاً وتهاناً  
به فعل المختار ديناً وإيماناً  
وتقضي بما يرضيه سرّاً وإعلاناً  
فصنعة نظم القول أرفعه شانا

وفيما رواه الناقلون وأثبتوا  
بأن أبا بكر خليفته الرضى  
وأن علياً قدس الله جمعهم  
لهم في ضروب القول إذ هم فحوله  
وفاض على أهل القريض نوالهم  
وأنت أحق الناس أن تفعل الذي  
فما زلت تهدي في البرية هديه  
وإن قيل قدر المرء ما هو محسن

وقال موريا :

ولكنها للواردين عذاب  
فدمعي «عقيق» بالجفون مذاب

بنفسي حبيب في ثناياه «بارق»  
إذا كان لي منه عن الوصل «حاجر»

وقال :

في نار هجرك دائماً وقعوده  
فعلام يقضى في العذاب خلوده

عذبت قلبي بالهوى فقيامه  
ولقد عهدت القلب وهو موحد

وقال في التجنيس :

تداعت مبانيها وهمت بأن تهى  
تئامى وهل أسلو حياتي وأنت هي  
ولم تنهه عنه النهى كيف ينتهى

دعوتك للود الذي جتباته  
وقلت لعهد الوصل والقرب بعدما  
ومن شام من جو الشبية بارقاً

وقال :

والقلب من فرق التوديع قد وجبا  
عني الحبيب ولم تقض الذي وجبا

ناديت دمي إذ جد الرحيل بهم  
سقطت يا دمع من عيني غداة نأى

وقال :

شليراً لعمرى أساء الجوارَ وسدَّ عليَّ رحيبَ الفضا  
هو الشيخُ أبردُ شيءٍ يُرى إذا لبس البرنسَ الأبيضَا

وقال : قلت أخاطب بعض من أدل عليه وما أولاني بذلك :

إذا قمتَ قلْ بعقيب الكرى إلهي أنتَ إله الورى  
تباركتَ أنشأتهم من تراب وأنشأتني بينهم من خرا

قلت : ولا خفاء ببشاعة هذا ، فحذفه أولى من إثباته .

وقال يداعب بعض أصحابه :

شيخُ رباطٍ إن أتى شادنٌ خلوته عند انسدادِ الظلامِ  
أدلى وقد أبصره دَلَّوه وقال يا بشراي هَذَا غلامٌ

وقال في غرض يظهر :

لم أجد فيه لينَ بثِّ لقلبي وقبولاً لحجتي واعتذاري  
ثقلَ الله ظهره بعِيالٍ سوَدَ الله وجهه بعدارٍ

وقال من قصيدة :

أخذتَ وأمواجُ الردى متلاطمةً بضبيعي يا نجل الوصي وقاطمه

وقال :

ووجه غرستُ الوردَ فيه بنظرةٍ فيا ليتَ كفتي مُتعتَ بجنتي غرسي  
كانَ سوادَ الخالِ في وجناته علامةُ مولانا على أحمرِ الطرس  
وبينهما في باطن الأمرِ نسبةٌ لذلك أمضيتُ الغرامَ على نفسي

وقال يشير إلى بعض طبقات الغناء :

ضرب الفقيه فقلت ذاك غريبة  
فدنا إليّ وقال قد أصرفتكم  
ما كان ذلك منه بالمعلوم  
من ضربتي بغريبة المزموم

وفي آخر سنة أربع وسبعين وجّه إلى السلطان أبي حمّو سلطان تلمسان أبياتاً لزومية في غرض الهناء ، وهي :

وقف الغرام على ثناك لساني  
فكأتما شكري لما أوليته  
أنا شيعّة لك حيث كنت ، قضية  
ولقد تشاجرت الرماح فكنت في  
ورويت غرّاً مآثر أسندتها  
ولأنت أولى بالنتيغ شيمة  
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى  
جبرت بجبرك كل نفس حرة  
وبدّت سعودك مستقيماً سيرها  
فاستقبل السعد المعاود سافراً  
وابغ المزيد بشكر ربك ولتثق  
فالشكر يقتاد المزيد ركائباً  
ثمّ السلام عليك يزري عرفه

رعيّاً لما أوليت من إحسان  
شكرُ الرياض لعارض النيسان  
لم يختلف في حكمها نفسان  
ميدان نهرك فارس الفرسان  
لعلاك بين صحاح وحسان  
لم تتفق لسواك من إنسان  
بين الوري في مطلع شمسان  
وشدا بشكر الله كل لسان  
وعلت فقرّ أمامها النحسان  
عن أيّ وجه للرضي حسان  
بمضاعف الإنعام والإحسان  
تتاب بابك منه في أرسان  
طيباً بعرف العود والبلسان

وقال ٢ :

١ ق : بذكر .

٢ أزهار : ٣٠٤ .



بحقّ ما بيننا يا ساكني القصبهٗ ردّوا عليّ حياتي فهي مغتصبهٗ  
ماذا جنيتم على قلبي بينكم وأنتم الأهل والأحباب والعصبهٗ

قلت : ولعل ابن زمرّك قال أبياته التي على هذا الروي المذكورة في غير هذا  
الموضع من هذا الكتاب جواباً لهذه حين كان ابن زمرّك من جملة أتباع لسان  
الدين رحم الله تعالى الجميع .

وقال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ١ :

حين ساروا عني وقد خنقّني عبراتٍ قد أعربت عن ولّوعي  
صحتُ من ينصرُ الغريبَ؟ فلماً لم أجدُ ناصراً بلعتُ دموعي

وقال :

قالَ لي والدموعُ تنهلُ سُحباً في عراضٍ ٢ من الحدودِ محولٍ  
بكَ ما بي فقلتُ مولاي عافا كَ المعافي من عبّرتي ونحولي  
أنا جفني القريح يروي عن الأء مش والجفنُ منك عن مكحولٍ

وقال :

أشكو لبسه الحريقَ وقد حمى عني لَماه المشتَهى وريحهٗ  
يا ريقه حيرتني ومطلتي ما أنتَ إلا باردٌ يا ريقهٗ

وقال فيمن ركب البحرَ وماد ٣ :

ركب السفينةَ واستقلَّ بأفقهَا فكأنما ركبَ الهلالَ الفرقدُ

١ أزهار : ٣٠٥ وكذلك القطعة التالية والتي بعدها .

٢ ق والأزهار : عراض .

٣ أزهار : ٣٠٦ والقطعة التي تليها أيضاً .

وشكوا إليه بميده فأجبتهم لا غرو إن ماد القضيبي الأملدُ  
وقال عندما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجهاً إلى الأندلس لطلب  
حقه :

ولما حثت السيرَ والله حاكم      للملك في الدنيا بعزٍّ وفي الأخرى  
حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى      ينقل من بيضاء إلاً إلى حمراء  
ويعني بالبيضاء فاساً الحديدية ، وبالحمراء حمراء غرناطة .  
وتذكرت هنا أن بعض علماء الأندلس ، وأظنه أبا عبد الله ابن جزبي ، لما  
رمدت عينُ بعض أهل فاس سأله عنها ، فقال :

يا سيدي عيني قد      أودى قذاها بالأنس  
فانظرُ إليها ترها      دار ملك الأندلس

يعني حمراء ، فأجابه بقوله :

وقيت مما تشكي      من القذى والوصب  
ما رمدت عينك بل      عين العلاء والأدب  
فلتحمدن أن لم تكن      دار ملك المغرب

يعني بيضاء ، وهذا من غريب ما يحاضرُ به .

رجع - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى :

أجاد براعُ الحسنِ خطَّ عذاره      وأودعه السرَّ المصون الذي يدري  
ولم يفتر فيه لحمٍ وطابعٍ      فمبسمه أغناه عن طابع السرِّ

١ هذه القطعة والقطع العشر التالية في أزهار الرياض ٣٠٧ - ٣١٠ .

وقال في غرناطة :

أحبيك يا معنى الكمال<sup>١</sup> بواجب  
تقسّم منك الترب قومي وجيرتي

وقال في غرض بنحو المشاركة :

رموا بالسلو حليف الغرام  
أعوذ بعزك يا سيدي  
وأدمعه كالحيسا الهاطل  
لذلي من دعوة الباطل

وقال :

يا ليل طلّت ولم تجد بتسم  
هلاً رحمت تغربي وتفرقي  
وأريتني خلّق العبوس النادم  
لله ما أفساك يا ابن الخادم

وقال في مروحة سلطانية :

كأنني قوس الشمس عند طلوعها  
وإلا كما هبت بمحتدم الوغى  
وقد قدمت من قبلها نسمة الفجر  
بنصر ولكن من بنود بني نصر

وقال يخاطب شيخه ابن الحيات :

بين السهام وبين كتّيبك نسبة  
وإذا أردت لها زيادة نسبة  
فبها يصاب من العدو المقتل  
هذي وهذي في الكنانة تجعل

وقال يتغزل ، وفيه معنى غريب :

إنّ اللحاظ هي السيوف حقيقة  
لم يدع غمد السيف جفناً باطلاً  
ومن استراب فحجتي تكفيه  
إلا لشبه اللحظ يغمد فيه

١ أزهار : أحبك يا معنى الكمال .

قيل : وأحسن منه قول غيره :

إنَّ العيونَ التُّجِّلَ أمضى موقِعاً من كلِّ هِنديٍّ وكُلِّ يَماني  
فَفضِّلُ العُيونَ على السِيفِ بأنَّها قتلْتُ ولمْ تُخْرَجْ من الأَجفانِ

وأصل ما قال لسان الدين قول الأول :

بينَ السِيفِ<sup>١</sup> وعِينيه مناسِبةٌ من أَجلها قيل للأغْمادِ أَجفانُ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في الساعة ، وتسميها المغاربة المنجاة :

تأمَّلِ الرَمْلَ في المنجانِ منقطعاً يجرِي وقدرُهُ عُمراً منكَ منتها  
واللهِ لو كان وادي الرَمْلِ<sup>٢</sup> ينجده ما طالَ كامله إلا وقد ذهب

وقال :

أقولُ لعاذلي لَمَّا نَهاني وقد وجدَ المقالة إذ جَفاني  
علمتَ بأنَّه مرُّ التجي وفاتكَ أَنه حلوُ اللسانِ

وقال في غرض صوفي :

لا تنكروا إن كنتُ قد أَحبيتكم أو أنتي استولى عليَّ هواكم  
طوعاً وكرهاً ما ترون فإنتي طففتُ الوجودَ فما وجدت سواكم

وقال يمدح ، وفيه تورية :

وإن نَظَرْتُ إلى الألاءِ غُربتهِ يومَ الهياجِ رأيتَ الشمسَ في الأسدِ

وقال ممّا يُكتب على طاق الماء بباب القبّة<sup>٣</sup> :

١ ق : اللعاظ .

٢ ق : الأرض .

٣ هذه القطعة والقطع الثلاث بعدها في الأزهار ٣١٢ - ٣١٣ .

أنا طاقٌ تزهر بيَ الأيامُ  
وتبدَّيتُ للنواظر محمرا  
تعبتُ في بدائعي الأفهامُ  
بأَ كأنَّ الإناءَ فيَّ إمامُ  
جئتُ للشربِ حان مني سلامُ  
واقفٌ للصلاة حتى إذا ما

وقال في ذلك أيضاً :

يا صانعيَ اللهِ ما أحكمته  
أحكمتَ تاجي يومَ صغتَ رقوشه  
فلأنتَ بينَ العالمينَ رئيسُ  
فصبتَ إليه مَفارقَ ورؤوسُ  
وأقمتَ في محرابه فكأنته  
مجلى إناءِ الماءِ فيه عروسُ

وقال في المشيب<sup>١</sup> :

أنتى لثلي بالهوى من بعد ما  
لبس البياضَ وحلَّ ذرورةَ منبرٍ  
للوخط في الفودين أيّ ديبٍ  
مني ووالى الوعظَ ، فعلَ خطيبٍ

وقال رحمه الله تعالى :

والله ما جان على ماله  
والناسُ في خيرٍ وفي ضدهِ  
أو جاهه من ذبّ عن عرضهِ  
همُ شهداءُ الله في أرضهِ

وقال<sup>٢</sup> :

إلهي بالبيت المقدس والمسيحي  
وبالموقف المشهود يا رب في مني  
وبالمصطفى والصحب عجل إقالي  
صدعتُ وأنتَ المستغاثُ جنابه  
وجمع إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا  
إذا ما أسأل الناسُ من خوفك الدمعا  
وأنجح دعائي فيك يا خير من يدعى  
أقبل عثرتي يا موثلي واجبر الصدعا

١ البيتان من بائته التي تقدمت ص : ٤٥٥ .

٢ أزهار الرياض ١ : ٢٧١ .

وقال رحمه الله تعالى في بنيونش سبعة<sup>١</sup> :

بنيونش<sup>٢</sup> أسنى الأماكنِ رقةً  
هي جنة الدنيا التي من حلّها  
قالوا القروءُ بها فقلتُ فضيلةً  
وأجلُّ أرضِ الله طراً شانا  
نال الرضى والروحَ والريحانا  
حيوانها قد قارب الإنسانا<sup>٣</sup>

وفي بنيونش هذه يقول أبو عبد الله ابن مجبر<sup>٤</sup> :

بنيونش "جنة" ولكن  
وجنة الخلد لا يراها  
طريقها يقطعُ النياطا  
إلا فتى يقطعُ الصراطا

وقال ابن الخطيب رحمه الله تعالى<sup>٥</sup> :

إنّ الهوى لشكاية معروفة  
والنفس إن ألفت مرارة طعمه  
صبر التصبر من أجلّ علاجها  
يوماً ضمنّت لها صلاح مزاجها

وقال رحمه الله تعالى<sup>٦</sup> :

ولمّا رأيت عزمي حيثاً على السرى  
أنت بصحاح الجوهري دموعها  
وقد رابها صبري على موقفِ البين  
فقابلت من دمعي بمختصر العين

وقال رحمه الله تعالى :

تذكرتُ عهداً كان أحلى من الكرى  
وأقصر من إمام طيف خياله

١ أزهار الرياض ١ : ٣٤ .

٢ الأزهار : بليونش ، وهي لغة في بنيونش .

٣ ذكر في الاستبصار : ١٣٨ أن على قرية بليونش جبلا عظيماً فيه القردة .

٤ وردا في أزهار الرياض ( ٣٤ ) منسوبين للقاضي عياض .

٥ مر البيتان في ما تقدم ص : ٤٧١ .

٦ مر البيتان في ما تقدم ص : ٤٦٤ .

فيا ليت شعري مَنْ أتاح لي المني  
وعذَّب بالي هل أمرٌ بياله  
وقال رحمه الله تعالى :

عيني جنت فعلام تحرق أضلعي  
يا قلب لا تدهشك نيران الهوى  
فاصبر على ما حملوا تنل المني  
بالسبك أدرك نقشه الدينار  
وقال رحمه الله تعالى :

وما كان إلا أن جنى الطرف نظرة  
وما العدل أن يأتي امرؤ بجزيرة  
غدا القلب رهناً في عقوبة ذنبه  
فيؤخذ في أوزارها جار جنبه  
وقال رحمه الله تعالى :

برى جسدي فيكم غرام ولوعة  
فلولا أنني ما اهتدى نحو مضجعي  
ولوشئت في طي الكتاب لزرتكم  
إذا سكن الليل البهيم ثور  
خيالكُم بالليل حين يزور  
ولم تدر عني أحرف وسطور  
وقال رحمه الله تعالى :

بلد تحف به الرياض كأنه  
وكانما واديه معصم غادة  
وجه جميل والرياض عذاره  
ومن الجسور المحكمات سواره

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا حمو صاحب تليمان ويشكره على  
ما كان أعان به أهل الأندلس<sup>١</sup> :

لقد زار الجزيرة منك بحر  
يمد فليس تعرف منه جزراً

١ هذه القلعة والتي تليها في أزهار الرياض : ٢٦١ .

أعدت لها بعهدك عهدَ موسى      سميكَ فهي تتلو منه ذكرا  
أقمت جدارها وأفدتَ كترأ      ولو شئت اتخذت عليه أجرا

وقال أيضاً :

وقالوا الجزيرة قد صوّحت      فقلتُ غمامَ الندى تنتظرُ  
إذا وكفتُ كفُ موسى بها      غماماً يعودُ الجنبُ الحضرُ

وقال رحمه الله تعالى عقب الإياب من الرحلة المراكشية<sup>١</sup> :

أفادتُ وجهتي بنّادك مالا      قضى ديني وأصلحَ بعضَ حالي  
ومتعتُ الخواطرُ بانسراحِ      وأطرفتِ النواظرُ باكتحالِ  
وأبتُ خفيفَ ظهرٍ ، والمطايا      بجاهك تشتكي ثقلَ الرحالِ  
وشاني للمعالم غيرُ شانِ      وحالي بالمكارم جدُّ حالِ  
فحبُّ علاكَ إيماني وعقدي      وشكرُ نداك ديني وانتحالي  
كما قد صحَّ لله انقطاعي      بتأميلي جنابك وارتحالي  
وما يبقى سوى فعلٍ جميلِ      وحالُ الدهر لا تبقى بحالِ  
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاء      وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحالِ  
ومنَ سامَ الزمانَ دوامَ أمرِ      فقد وقفَ الرجاء على المحالِ

وقال رحمه الله تعالى في الضرّاعة إلى ربّه ، والاعتراف بذنبه<sup>٢</sup> :

مولايَ إن أذنبتُ يُنكرُ أن يُرى      منك الكمالُ ومنّي النقصانُ ؟  
والعفوُ عن سببِ الذنوبِ مسبَّبُ      لولا الجنايةُ لم يكنُ غفرانُ

١ أزهار : ٢٧١ .

٢ أزهار : ٢١١ .



وقال رحمه الله تعالى ١ :

سلامٌ على تلك المربع إلتها  
ويا آسة المغنى انعمي فطلما  
معاهدُ الأتي وعهدُ صحابي  
سكبتُ على مثواك ماء شبابي

وقال ساعه الله تعالى :

أموطني الذي أزعجتُ عنه  
لئن أزعجتُ عنك بغير قصدٍ  
ولم أرزأ به مالا ولا دم  
فقبلي فارق الفردوس آدم

ومن ميلادياته رحمه الله تعالى قوله ٢ :

ما على القلب بعدكم من جناح  
وعلى الشوق أن يشبَّ إذا  
جيرة الحبي ، والحديث شجون  
أترون السلو خامر قلبي  
ولو أني أعطى اقتراحي على ال  
ضايقتني فيكم صروف الليالي  
وسقتني كأس الفراق دهاقا  
واستباحت من جدتي وقتائي

أن يرى طائراً بغير جناح  
بأنفاسكم نسيم الصباح  
والليالي تلين بعد الجماح  
بعدكم ؟ لا وفالق الإصباح  
أيام ما كان بعدكم باقتراحي  
واستدارت علي دور الوشاح  
في اغتياق مواصل واصطباح  
حرماً لم أخله بالمستباح

ومنها :

يا ترى والنفوس أسرى أمان ٣  
هل يباح الورود بعد زيادٍ  
ما لها من وثاقها من سراح  
أو يتاح اللقاء بعد انتزاح

١ أزهار : ٦ .

٢ أزهار : ٢٣٧ والإحاطة : ٣١٥ .

٣ الإحاطة : الأمان .

وإذا أعوزَ الجسمَ التلاقي نَابَ عَنْهُ تَعَارَفُ الأرواحِ

وهي طويلة لم يحضرنى منها الآن سوى ما ذكرته .

وقد حذا حذوها الفقيهُ الكاتبُ أبو زكريا يحيى بن خلدون أخو قاضي  
القضاة ولي الدين بن خلدون صاحب التاريخ ، فقال في مولد عام ثمانية وسبعين  
وسبعمائة ، واستطرد لمدح السلطان أبي حمّو موسى صاحب تلمسان الذي تقدم  
ذكره قريباً :

ما على الصبِّ في الهوى من جناحٍ  
وإذا ما المحبُّ عيلَ اضطراباً  
يا رعى الله بالمحصبِ ربّماً  
كم أدرنا كأسَ الهوى فيه مزحاً  
هل إلى رسمه المحيلِ سبيلٌ  
نسألُ الدارَ بالخليطِ ونسقي  
أي شجو عاينتُ بعد نواها  
أهلَ ودي إن رابكم برحٌ وجدي  
فاسألوا البرقَ عن خفوقِ فؤادي  
يا أهيلَ الحمى نداء مشوقٍ  
طلما استعذبَ المدامعَ ورذاً  
عاده بالطلولِ للشوقِ عيدٌ  
من لقلبٍ من الجوى في ضرامٍ  
ولصبٍ يهيجهُ الذكرُ شوقاً  
وليالٍ قضيتُ للهوِ فيها

أن يُرى حِلْفَ عبرةٍ وافتضاحِ  
كيف يُصغي إلى نصيحةٍ لاحِ  
آذنتُ عهدهُ النوى بانتراحِ  
ربّ جدٍ من الجوى في المزاحِ  
يا حُدَاةَ المطيِّ تلكَ الطَّلَاحِ  
ذلكَ الرِّبْعَ بالدموعِ السِّفَاحِ  
من أسى لازمٍ وصبرٍ مُزاحِ  
من صبا بارقٍ وبرقٍ لياحِ  
والصبا عن سقامِ جسمي المتاحِ  
ما له عن هوى الدُّمى من بَرّاحِ  
في هواكم عن كلِّ عذبٍ قَرّاحِ  
من حَمَامٍ بدوحنٍ صداحِ  
ولجفنٍ من البكا في جراحِ  
فهو سكرأ يرتادُ من غيرِ راحِ  
وطرأ والشبابُ ضافي الجناحِ

راکباً في الهوى ذلولَ تصابِ  
 ونجومُ المني تنيرُ إلى أن  
 أي مسرّي حمدتُ لم أخلُ منه  
 واخساري يومَ القيامةِ إن لم  
 لم أقدمُ وسيلةً فيه إلا  
 سيد العالمين دنياً وأخرى  
 سيد الكون من سماء وأرض  
 زهرة الغيب مظهر الوحي معنى ال  
 آية المكرماتِ قطبُ المعالي  
 أولُ الأنبياءِ تخصيصَ زلّفي  
 صفوة الخلق أرفعُ الرسلِ قدرأ  
 من ميلاده بمكة ضاعت  
 وخبّت نارُ فارسٍ وتداعت  
 من رقى في السماء سبعا طباقاً  
 ودنا منه قاب قوسينِ قرباً  
 من هدى الخلق بين حميرٍ وسودٍ  
 من يجيرُ الوري غداً يوم يجزي  
 من إلى حوضه وظلّ لواه  
 أحمدُ المجتبي حبيباً ، وأتى  
 في أناجيله المسيحُ تلاه  
 ولكم حجة وبرهان صدق  
 إن في النجم والنبات لآيات  
 معجزات فتن المدارك ووصفاً

ساحباً في الغرام ذيلَ مراحِ  
 روعَ الشيبُ سرّبها بالصباحِ  
 بسوى حسرةٍ وطولِ افتضاحِ  
 يغفر الله زلّتي واجتراحي  
 حبّ خير الوري الشفيح الماحي  
 أشرف الخلق في العلا والسماحِ  
 سرّه بين غايةٍ وافتتاحِ  
 نور كنه المشكاة والمصباحِ  
 مصطفى الله من قريش البطاحِ  
 آخر المرسلين بعث نجاحِ  
 وسراج الهدى وشمس الفلاحِ  
 من قرى قيصر جميع الضواحي  
 من مشيد الإيوان كل النواحي  
 ورأى آي ربه في انضاحِ  
 ظافراً في العلا بكل اقتراحِ  
 وجلا ليل غيهم بالصباحِ  
 كل عاصٍ وطائع باجتراحِ  
 يلجأ الناس بين ظامٍ وضاحي  
 فوق عز الحبيب مرّمي طماحِ ؟  
 باسمه ، والكليم في الألواحِ  
 في سماع أتى بها والتماحِ  
 بهرت والجماد والأرواحِ  
 وحساباً كالزهر أو كالصباحِ

يا رِوَاةَ القْرِیضِ والشَّعْرِ عَجْزاً  
إِنَّمَا حَسَبْنَا الصَّلَاةُ عَلَیْهِ  
يَا إلهی بِحَقِّ أَحْمَدَ عَفْوَاً  
وَأَدَمُ دَوْلَةَ الخَلِیْفَةِ مُوسَى  
مَفخَرُ المَلِكِ مُسْتَقَرُّ المَزَايَا  
نَاصِرُ الحَقِّ خَاذِلُ الجُورِ عَدْلًا  
یَتَلَقَّى النَّدَى بِوَجْهِ حَبِیبِی  
وَلَهُ المَكْرَمَاتُ إِرثًا وَلِبْسًا  
مَنْ عَلَا بِأَذْخِ وفَخْرِ صَمِیمِ  
وَأَحَادِیثَ فی المَعَالِی حَسَانِ  
عَاقِدُ صَفْقَةِ العُلَا کُلِّ حَیْنِ  
لِلنَّدَى وَالهُدَى یَبْرُحُ ویغْدُو  
مَلِكٌ تَشْرِقُ الأَسْرَةُ مِنْهُ  
وَإِذَا مَا عَلَا بِعَالِی العَوَالِی  
لِیَسَّ الدَّهْرُ مِنْهُ حِلَّةٌ حَسَنِ  
وَعَلَى عَاتِقِ الخِلَافَةِ مِنْهُ  
وَرِثَ المَلِكِ شَاخِئًا عَن سِرَاةِ  
مَنْ بَنَى القَاسِمِ الذِّینَ تَحَلَّوْا  
فَرَعَوْا هِضْبَةَ الخِلَافَةِ مَجْدًا  
نَشَرُوا رَايَةَ المَقَاخِرِ حَمْدًا  
يَا إِمَامًا بَدَّ المَلُوكَ جِلَالًا  
أَنْتَ شَمْسُ الكَمَالِ دَمَتْ عَلَیْهَا  
وَبَنُوكَ الأَعْلُونَ أَنجَمٌ سَعْدِ  
وَأَبُو تَاشَفِینَ بَدْرٌ مَنِیرِ

ما عسى تدركون بالأمداح  
وهي للفوز آيةُ استفتاح  
عن ذنوب جنيتهن قباح  
ذي المعالي المبينة الأوضح  
مظهر اللطف ذو التقى والصلاح  
متلجأ الخائفين بحر السّماح  
ويلاقي العدا بئاس صفاح  
حاز حمداً بها معلّى القيداح  
وكمال بحت ومجد صراح  
رويت عنه في العوالي الصّحاح  
فاتر فيه سعيه بالربّاح  
أي مغدّى إلى العُلا ومراح  
في سماء السرير نور صباح  
صهوة الجرد فهو لث الكفاح  
وثى للسرور عطف مراح  
طرز فخر سبي النهى بالتماح  
شيدوا ركنه بأيدي الصفاح  
بالمعالي واستأثروا بالفلاح  
رفعوا سقفه على الأرماح  
خافق النور بالرّبي والبِطاح  
وجمالاً فديت بالأرواح  
في اغتباق من المنى واصطباح  
زاهرات بنورك الوضاح  
زانه الله بالخلال الصّباح

أكمل العالمين خلُقاً وخلُقاً أشرف الناس في الندى والكفاح  
وبكم زينت سماء المعالي واهتدى الناس في الدجى والصبح

وكان السلطان أبو حمّو المدوح بهذه القصيدة يحتفل ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله .

ومن احتفاله له ما حكاه شيخُ شيوخ شيوخنا الحافظ سيدي أبو عبد الله التنسي ثم التلمساني في كتابه « راحُ الأرواح فيما قاله المولى أبو حمّو من الشعر وقيل فيه من الأمداح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح » ونصّه : أنه كان يُقيم ليلة الميلاد النبوي - على صاحبه الصلاة والسلام - بمشورة من تلمسان المحروسة مدعاة حفيظة يحشر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من تمارق مصفوفة ، وزرّابي مَبَثُوثة ، وبُسْطُ مَوْشَاة ، ووسائد بالذهب مغطاة ، وشمع كالأسطوانات ، وموائد كالهالات ، ومباخر منصوبة كالقبايا ، يخالها المبصرُ تبراً مذاب ، ويقاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنّها أزهار الربيع المنمنمة ، تشتهيها الأنفُس وتستلذها النواظر ، ويخالط حسن رِيّها الأرواح ويخامر ، رُتّبَ الناسُ فيها على مراتبهم ترتيبَ احتفال ، وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال ، وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكفّرات<sup>١</sup> ترغّب في الإقلاع عن الآثام ، يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، وبالتقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجاة قد زخرت كأنّها حلّة يمانية ، لها أبواب موجفة<sup>٢</sup> على عدد ساعات الليل

١ المكفّرات : أشعار تقال في التزهيد فتكفر ما كان من عبث ، وهي تشبه « المحصنات » .  
٢ الأزهار : مرتجة .

الزمانية ، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب<sup>١</sup> من أبوابها ، وبرزت منه جارية صُورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويُسرّأها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة ، هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح ، ونداء المنادي حيّ على الفلاح ؛ انتهى .

وقال التنسي المذكور في كتابه المسمى : « نظم الدر والعقيان في شرف نبي زَيّان وذكر ملوكهم الأعيان » ما نصّه : وكان السلطان أبو حنمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلّم ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يقيم مدّعاة<sup>١</sup> يحشر لها الأشراف والسوقة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون وبأيديهم مباخر ومرشات ينال كلّ منها بمحطه ، وخزانة المنجاة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة ، بأعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه ، ويختله فيهما أرقم خارج من كوة بجدر الأيكة صاعداً<sup>٢</sup> ، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُورين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان ، بفي كل واحد منهما صنجة صُفّر يلقيها إلى طست من الصفر مجوّف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرنّ ، وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة الذهبية ، وتبرز منه جارية محترمة كأظرف ما أنت راء ، يئمنها لإضبارة فيها اسم ساعتها منظوماً ، ويسرّأها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة ، والمُسْمِع قائم ينشد

١ المدعاة : الدعوة .

٢ الأزهار : صعداً .

أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يوثق آخر الليل بموائد كالهالات دَوْرًا ، والرياض نَوْرًا ، وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم<sup>١</sup> على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين ، وتلدُّ بسماع أسمائها الآذان ، ويشتره مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بغرثان ، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتداء جلوسه فيه ، وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح . على هذا الأسلوب تمضي ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته ، أعلى الله تعالى مقامه في عليين ، وشكر له في ذلك صنيعه الجميل آمين . وما من ليلة مولد مرت في أيامه إلا ونظم فيها قصيداً في مديح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أول ما يتبدى المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظماً ؛ انتهى وهو أتم مساقاً مما في « راح الأرواح » .

ولا بأس أن نلمَّ ببعض المقطوعات التي أنشأها الكاتب أبو زكريا يحيى ابن خلدون المذكور على لسان جارية المنجاة في مخاطبة السلطان أبي حمو معلمة بما مرّ من ليل ، ففي مضي ساعتين قوله<sup>٢</sup> :

أخليفةَ الرحمن والملكُ الذي	تعنو لعزّ علاه أملاكُ البشرُ
لله مجلسك الذي يحكي علاً	بك مالكي أفق السماء لمن نظر
أوما ترى فيه النجومَ زواهرأ	وجهُ الخليفة بينهن هو القمر
والليلُ منه ساعتان قد انقضتْ	تثني عليك ثنا الرياضِ على المطر
لا زال هذا الملكُ منصوراً بكمُ	وبلغتْ مما ترتجي أسنى الوطر

وقوله في مضي ثلاث ساعات :

١ الأزهار : الطمام .  
٢ وردت هذه المقطعات في بنية الرواد ٢ : ٢١٩ - ٢٢٢ وأزهار الرياض ١ : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

أمولايَ يا ابنَ الملوكِ الألى  
تولت ثلاث من الليلِ أبقت  
قدم حجةَ الله في أرضه  
وقوله في مضي ست ساعات :

يا ماجداً وهو فرداً  
ست من الليل ولت  
دامت لياليك حتى  
تخاله في عساكراً  
ما إن لها من نظائر  
إلى المعادِ نواضر

وقوله في مضي ثمان ساعات :

يا أكرم الخلقِ ذاتاً  
مرت ثمان وأبقت  
فيهنَّ كانَ شبابي  
ولتى بها الدهر عني  
فالله يبيحك مولى  
وأشرف الناسِ أسرة  
في القلبِ مني حشرة  
أخا نعيمٍ وتضرة  
تُرى لها بعدُ كره  
يطيل في السعدِ عمرة

وقوله في مضي عشر ساعات :

يا مالك الخير والخيل التي حكمت  
هذا الصبح وقد لاحت بشائره  
لله عشر من الساعات باهرة  
كذا تمر ليالي العمرِ راحلة  
نمسي ونصبح في هو نسر به  
له بعض على الأيام مقتبيل  
والليل ودعنا توديع مرتحل  
مضين لا عن قلى منا ولا ملل  
عنا ونحن من الآمال في شغل  
جهلاً وذلك يُدنيننا من الأجل

١ البنية : يا واحداً في علاه من نابه في صاكر .



والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفا  
يا ليت شعري غداً كيف الخلاصُ به  
يا ربُّ عَقْوِكَ عما قد جَنَّتْهُ يدي  
يا ربُّ وانصر أميرَ المسلمين أبا  
وأبقى في العزِّ والتمكين مدتهُ  
عليه إذ مرَّ في الآثام والزللِ  
ولم تقدِّمُ لهُ شيئاً من العملِ  
فليس لي بجزاء الذنبِ من قبَلِ  
حمو الرضى وأنله غايةَ الأملِ  
وأعلِّ دولته الغراء على الدولِ

انتهى المجلد السادس



## محتويات المجلد السادس

### الباب الرابع

١٦٣ - ٥

في مخاطبات الملوك والأكابر للسان الدين

- |    |   |   |   |   |  |
|----|---|---|---|---|--|
| ٥  | . | . | . | . | ١ - ظهر من أبي زيان المريني للسان الدين    |
| ٧  | . | . | . | . | [ترجمة أبي زيان المريني]                   |
| ١٣ | . | . | . | . | ٢ - رسالة من أبي سالم إلى لسان الدين       |
| ١٤ | . | . | . | . | ٣ - جواب لسان الدين                        |
| ١٧ | . | . | . | . | ٤ - رسالة من لسان الدين إلى أبي سالم       |
| ٢٢ | . | . | . | . | [ترجمة أبي سالم المريني]                   |
| ٢٤ | . | . | . | . | [ثناء المغاربة والمشاركة على لسان الدين]   |
| ٢٨ | . | . | . | . | ٥ - رسالة ابن خاتمة إلى لسان الدين         |
| ٣٠ | . | . | . | . | ٦ - من لسان الدين إلى ابن خاتمة            |
| ٣٣ | . | . | . | . | [رسالة ابن خاتمة إلى ابن جزري]             |
| ٣٤ | . | . | . | . | ٧ - رسالة من ابن خاتمة إلى لسان الدين      |
| ٣٧ | . | . | . | . | ٨ - رسالة أخرى من ابن خاتمة إلى لسان الدين |
| ٣٨ | . | . | . | . | [أحمد بن صفوان]                            |
| ٤٠ | . | . | . | . | ٩ - إجازة ابن صفوان للسان الدين            |
| ٤١ | . | . | . | . | ١٠ - من العُدري إلى لسان الدين             |
| ٤١ | . | . | . | . | ١١ - رسالة من لسان الدين إلى ابن نفيس      |
| ٤٣ | . | . | . | . | ١٢ - من لسان الدين إلى ابن رضوان           |
| ٤٤ | . | . | . | . | ١٣ - جواب ابن رضوان                        |
| ٤٤ | . | . | . | . | ١٤ - من لسان الدين إلى الجنان              |
| ٤٥ | . | . | . | . | ١٥ - جواب الجنان                           |
| ٤٦ | . | . | . | . | [ترجمة الجنان أحمد الأوسي]                 |
| ٤٦ | . | . | . | . | [مقطعات وقصائد تكتب على المباني]           |

٥٦	.	.	.	.	[رسالة من الفشتالي إلى المؤلف]
٥٩	.	.	.	.	[تعريف بأبي الحسن الشامي]
٦٠	.	.	.	.	١٦ - بين ابن الجياب ولسان الدين
٦٠	.	.	.	.	١٧ - قصيدتان للبلوي يخاطب بهما لسان الدين
٦٣	.	.	.	.	[ترجمة أبي يحيى البلوي]
٦٤	.	.	.	.	١٨ - رسالة من ابن مرزوق إلى لسان الدين
٦٥	.	.	.	.	١٩ - جواب لسان الدين
٦٧	.	.	.	.	٢٠ - من البرجي إلى لسان الدين
٦٨	.	.	.	.	[ترجمة أبي القاسم البرجي]
٧٥	.	.	.	.	٢١ - مخاطبات ابن زمرك للسان الدين
٨١	.	.	.	.	٢٢ - من ابن سلبطور إلى لسان الدين
٨٢	.	.	.	.	[ترجمة ابن سلبطور]
٨٤	.	.	.	.	٢٣ - من ابن راجح إلى لسان الدين
٨٤	.	.	.	.	٢٤ - جواب لسان الدين
٨٥	.	.	.	.	[ترجمة ابن راجح]
٨٥	.	.	.	.	٢٥ - من لسان الدين إلى ابن راجح
٨٦	.	.	.	.	٢٦ - جواب ابن راجح
٨٨	.	.	.	.	[بقية ترجمة ابن راجح]
٨٩	.	.	.	.	٢٧ - من العشاب إلى لسان الدين
٨٩	.	.	.	.	٢٨ - من محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي إلى لسان الدين
٩٠	.	.	.	.	[ترجمة محمد بن محمد بن عبد الملك]
٩٠	.	.	.	.	٢٩ - من المكودي إلى لسان الدين
٩١	.	.	.	.	٣٠ - من أبي عبد الله اليتيم إلى لسان الدين
٩٢	.	.	.	.	٣١ - من لسان الدين إلى اليتيم
٩٥	.	.	.	.	[ترجمة أبي عبد الله اليتيم]
٩٦	.	.	.	.	٣٢ - مخاطبة الكرسوطي لسان الدين
٩٧	.	.	.	.	[ترجمة أبي عبد الله الكرسوطي]
٩٧	.	.	.	.	٣٣ - مخاطبة ابن الزبير لسان الدين
٩٨	.	.	.	.	[ترجمة أبي عمرو ابن الزبير]
٩٩	.	.	.	.	[ترجمة أبي يحيى الأكل]
٩٩	.	.	.	.	٣٤ - مخاطبة الأكل لسان الدين

١٠١	.	.	.	.	٣٥ - مخاطبة ابن عياش لسان الدين
١٠١	.	.	.	.	٣٦ - مخاطبة أبي عبد الله الوادي أشي لسان الدين
١٠٢	.	.	.	.	٣٧ - مخاطبة أبي محمد الأزدي لسان الدين
١٠٣	.	.	.	.	[قطع من شعر الأزدي]
١٠٦	.	.	.	.	٣٨ - من لسان الدين إلى ابن رضوان
١٠٦	.	.	.	.	٣٩ - جواب ابن رضوان
١٠٧	.	.	.	.	[ترجمة ابن رضوان]
١١٢	.	.	.	.	٤٠ - مخاطبة أبي بكر ابن عبد الملك لسان الدين
١١٣	.	.	.	.	[ترجمة أبي بكر ابن عبد الملك]
١١٣	.	.	.	.	٤١ - مخاطبة أبي سلطان الغرناطي لسان الدين
١١٥	.	.	.	.	[ترجمة عبد العزيز أبي سلطان]
١١٨	.	.	.	.	٤٢ - رسالة من النباهي لسان الدين
١١٩	.	.	.	.	[ترجمة النباهي]
١٢٤	.	.	.	.	٤٣ - مخاطبات بين لسان الدين وابن الجياب
١٢٨	.	.	.	.	٤٤ - من سعيد الغرناطي إلى لسان الدين
١٢٨	.	.	.	.	٤٥ - مخاطبات بين ابن البناء ولسان الدين
١٣١	.	.	.	.	[ترجمة ابن البناء]
١٣١	.	.	.	.	٤٦ - رسالة من لسان الدين إلى سلطان تونس
١٣٣	.	.	.	.	٤٧ - مخاطبة من ابن البربري المالقي إلى لسان الدين
١٣٥	.	.	.	.	٤٨ - مخاطبة من الحرالي إلى لسان الدين
١٣٥	.	.	.	.	[ترجمة أبي القاسم الحرالي]
١٣٥	.	.	.	.	٤٩ - رسالة من المنتشاقري إلى لسان الدين
١٣٧	.	.	.	.	٥٠ - رسالة من لسان الدين إلى المنتشاقري
١٣٨	.	.	.	.	[ترجمة أبي الحجاج المنتشاقري]
١٤٦	.	.	.	.	[تعليق الباعوني على كتاب الريحانة]
١٤٦	.	.	.	.	[نقل من الروض الأريض لابن عاصم]
١٤٨	.	.	.	.	[ترجمة أبي يحيى ابن عاصم]
١٤٨	.	.	.	.	[نموذج من نثر ابن عاصم]
١٥٠	.	.	.	.	[من نظم ابن عاصم]
١٥١	.	.	.	.	[قصيدة لابن الأزرق في مدح ابن عاصم]
١٥٣	.	.	.	.	[رسالة ابن عاصم إلى ابن طركاط]

١٥٥

[ظهر بتقديم ابن عاصم للنظر في أمور الفقهاء]

١٦٢

التأليف باسم لسان الدين وولده .

## الباب الخامس

في إيراد جملة من نثر لسان الدين وشعره وموشحاته

٤٤٨ - ١٦٥

نثر لسان الدين .

- ١٦٥ . . . . . ١ - فاتحة كتاب « اللوحة البدرية »
- ١٦٥ . . . . . ٢ - قطعة له في الحوض على الجهاد
- ١٦٦ . . . . . ٣ - صداق لكبير الشرفاء بفاس
- ١٦٧ . . . . . ٤ - كتاب إلى بعض السادة ( ابن رضوان ) لمرض ألمّ به
- ١٦٨ . . . . . ٥ - من ترجمة أبي عبد الله الشديد في الإحاطة
- ١٧٠ . . . . . ٦ - كتاب إلى علي بن بدر الدين الطوسي
- ١٧١ . . . . . ٧ - من ترجمة ابن خلدون في الإحاطة
- ١٧٣ . . . . . ٨ - جواب لسان الدين عن رسالة لابن خلدون
- ١٧٤ . . . . . ٩ - رسالة لسان الدين في مداعبة ابن خلدون حين تسرى جارية رومية
- ١٨٠ . . . . . بقية ترجمة ابن خلدون عن الإحاطة
- ١٩١ . . . . . [تعليق للمقري والباعوني]
- ١٩٢ . . . . . ١٠ - من ترجمة يحيى البرغواطي
- ١٩٤ . . . . . ١١ - تعليق لسان الدين على كتاب ألفه البرغواطي
- ١٩٥ . . . . . ١٢ - رسالة إلى أبي حمّو مرفقة بقصيدة سينية
- ٢٠٤ . . . . . ١٣ - رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب أيام أبي سالم
- ٢٠٥ . . . . . ١٤ - رسالة في تهنئة ابن أبي مدين صاحب الأشغال
- ٢٠٦ . . . . . ١٥ - رسالة إلى قاضي الجماعة بسبب غلط أحد الخدام
- ٢٠٧ . . . . . ١٦ - رسالة إلى بعض الفضلاء يعتذر عن الذهاب إليه
- ٢٠٧ . . . . . ١٧ - رسالة إلى أبي عبد الله ابن نصر حين وصل ولده الأندلس
- ٢٠٨ . . . . . ١٨ - رسالة في تهنئة ابن نوّار حين تزوج بنت المزوار
- ٢٠٨ . . . . . ١٩ - رسالة إلى عامر بن محمد الهنتائي عميد مراکش

- ٢١٠ . . . . . من مقامة له في البلدان يصف مدينة سبتة
- ٢١١ . . . . . من « نفاضة الحراب » في وصف مكناسة الزيتون
- ٢١٣ . . . . . وصف مكناسة في مقامة البلدان
- ٢١٣ . . . . . [تعلق للمقري]
- ٢١٧ . . . . . [زيارة لسان الدين لقبر السلطان أبي الحسن وقصيدته في رثائه]
- ٢١٩ . . . . . نبذة من كتاب « أعمال الأعلام »
- ٢٢٠ . . . . . من كلامه ؛ وطريقته في كتابة التراجم
- ٢٢٠ . . . . . ٤٣ - ٢٥ - تقول متفرقة من نثره في كتب التراجم
- ٢٢٥ . . . . . ٤٤ - عن التاج في ترجمة ابن لب الأمي
- ٢٣٠ . . . . . ٤٥ - عن التاج في ترجمة ابن عبد الرحيم الوادي آشي
- ٢٣٠ . . . . . ٤٦ - عن الاكليل في ترجمة ابن العطار المزني
- ٢٣٠ . . . . . ٤٧ - « محمد بن علي ابن خاتمة »
- ٢٣١ . . . . . ٤٨ - « ابن داود الحميري »
- ٢٣٦ . . . . . ٤٩ - « ابن مقاتل المالقي »
- ٢٣٧ . . . . . ٥٠ - « الشديد المالقي »
- ٢٣٩ . . . . . ٥١ - « ابن الحسن العمراني »
- ٢٣٩ . . . . . ٥٢ - « محمد المرادي العشاب »
- ٢٤٠ . . . . . ٥٣ - « أبي عبد الله المليكشي »
- ٢٤٢ . . . . . ٥٤ - « أبي عبد الله العبدري »
- ٢٤٢ . . . . . ٥٥ - « أبي القاسم العزفي »
- ٢٤٣ . . . . . ٥٦ - « أبي عبد الله المكودي »
- ٢٤٤ . . . . . ٥٧ - من نثره في ترجمة ابن بيش العبدري
- ٢٤٥ . . . . . ٥٨ - عن الإكليل في ترجمة أبي عبد الله ابن هاني السبتي
- ٢٥٣ . . . . . [همزية صفوان]
- ٢٥٥ . . . . . ٥٩ - عن التاج في ترجمة أبي محمد الأزدي
- ٢٥٧ . . . . . ٦٠ - عن الإكليل في ترجمة أبي الحسن السكاك
- ٢٥٧ . . . . . ٦١ - عن التاج في ترجمة ابن الصباغ العقيلي
- ٢٦٠ . . . . . ٦٢ - عن التاج والإكليل في ترجمة ابن الجياب
- ٢٦١ . . . . . ٦٣ - عن الإكليل في ترجمة ابن غفرون الكلبي
- ٢٦١ . . . . . ٦٤ - « ابن الجلد الفهري »

٢٦٢	.	.	.	٦٥ - عن الإكليل في ترجمة أبي عثمان الغساني
٢٦٢	.	.	.	٦٦ - « » « » « » أبي الحجاج الطرطوشي
٢٦٢	.	.	.	٦٧ - « » « » « » ابن المتأهل العنزي
٢٦٣	.	.	.	٦٨ - عن التاج وعائد الصلة في ترجمة ابن باق
٢٦٥	.	.	.	٦٩ - عن الإكليل في ترجمة ابن فضيلة المعافري
٢٦٦	.	.	.	٧٠ - عن الإكليل والإحاطة في ترجمة أبي العباس الملياني
٢٦٨	.	.	.	٧١ - صورة من نثره في روضة التعريف
٢٧١	.	.	.	٧٢ - صورة أخرى من روضة التعريف
٢٧١	.	.	.	٧٣ - من رسالة له إلى يلبغا الخاصكي
٢٧٣	.	.	.	٧٤ - صدر كتابه المسمى « مثل الطريقة في ذم الوثيقة »
٢٧٨	.	.	.	[تعليق الوتشرسي على هذا الكتاب]
٢٧٩	.	.	.	٧٥ - خطبة كتابه في المحبة
٢٩١	.	.	.	[برنامج كتابه في المحبة]
٣٠٠	.	.	.	[نماذج مختارة من كتابه في المحبة]
٣١٥	.	.	.	[نماذج منه في الوعظ]
٣٢٧	.	.	.	[قصيدتان لأبي العتاهية]
٣٣٠	.	.	.	[هل يناسب الوعظ المحبة]
٣٣٢	.	.	.	[فصول في ذم الكسل واغتنام الوقت]
٣٣٣	.	.	.	٧٦ - رسالة إلى ابن تافراجين على لسان السلطان
٣٣٩	.	.	.	٧٧ - رسالة إلى الشعب في البشارة بفتح لإطرية
٣٤٠	.	.	.	٧٨ - رسالة عن السلطان إلى سلطان فاس
٣٤٣	.	.	.	٧٩ - رسالة على لسان الأمير سعد ابن الغني بالله
٣٤٤	.	.	.	٨٠ - رسالة على لسان ولد السلطان من مالقة
٣٤٦	.	.	.	٨١ - ظهير في تولية الأمير يوسف مشيخة الغزاة
٣٤٩	.	.	.	٨٢ - ظهير في تقليد الأمير سعد مشيخة الغزاة
٣٥٢	.	.	.	٨٣ - رسالة كتبها من سلا إلى الغني بالله
٣٥٣	.	.	.	٨٤ - رسالة إلى أبي عبد الله ابن عمر التونسي
٣٥٤	.	.	.	٨٥ - رسالة على لسان أبي الحجاج إلى رسول الله (ص)
٣٦٠	.	.	.	٨٦ - رسالة على لسان الغني بالله إلى رسول الله (ص)
٣٧٩	.	.	.	٨٧ - من رسالة له في الغزاة
٣٨٠	.	.	.	[للمقري محاكياً لسان الدين]



٣٨٢	.	.	.	٨٨ - مخاطبة للسلطان أبي زيّان لما تمّ له الأمر
٣٨٥	.	.	.	٨٩ - مخاطبة أخرى للسلطان أبي زيّان
٣٨٦	.	.	.	٩٠ - مخاطبة ليحيى بن رحوّ
٣٨٧	.	.	.	٩١ - <u>مخاطبة لابن مرزوق الخطيب</u>
٣٨٨	.	.	.	٩٢ - رسالة إلى ابن مرزوق في الشفاعة
٣٨٩	.	.	.	٩٣ - رسالة إلى أبي زيد ابن خلدون
٣٩٦	.	.	.	٩٤ - رسالة إلى أبي زكريا ابن خلدون
٣٩٩	.	.	.	٩٥ - رسالة إلى أبي القاسم ابن رضوان
٤٠٠	.	.	.	٩٦ - رسالة إلى شيخ العرب مبارك بن إبراهيم
٤٠٣	.	.	.	٩٧ - رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب
٤٠٥	.	.	.	٩٨ - ظهير على لسان السلطان
٤٠٨	.	.	.	٩٩ - مخاطبة تربة السلطان أبي الحسن المريني
٤١٠	.	.	.	١٠٠ - رسالة إلى وزير المغرب
٤١١	.	.	.	١٠١ - رسالة أخرى إليه على أثر فتح
٤١٢	.	.	.	١٠٢ - رسالة ثالثة إليه من سلا
٤١٤	.	.	.	١٠٣ - رسالة إلى عامر بن محمد الهنتاني في التعزية بأخيه
٤١٦	.	.	.	١٠٤ - رسالة أخرى إليه
٤١٧	.	.	.	١٠٥ - رسالة إلى شيخ الدولة وقد أبلّ من مرض
٤١٩	.	.	.	١٠٦ - رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب
٤٢٣	.	.	.	١٠٧ - رسالة أخرى إلى ابن مرزوق
٤٢٧	.	.	.	١٠٨ - <u>جواب عن كتاب من سلطان تلمسان</u>
٤٣١	.	.	.	١٠٩ - مقامة في السياسة
٤٤٥	.	.	.	١١٠ - من نثره «عبارة واحدة»
٤٤٥	.	.	.	١١١ - من نثره في وصف فاس
٤٤٦	.	.	.	١١٢ - من نثره في وصف مراکش
٤٤٦	.	.	.	١١٣ - من نثره في وصف بسطة
٤٤٦	.	.	.	[في ذكر بسطة للقاصدي]
٤٤٧	.	.	.	١١٤ - رسالة إلى السلطان على لسان جدته
٥١٧ - ٤٤٩	.	.	.	شعر لسان الدين
٤٤٩	.	.	.	مطولات عن الإحاطة

٤٦٣	.	.	.	.	مقطعات عن الإحاطة
٤٧٥	.	.	.	.	مختارات أخرى من غير الإحاطة
٤٩١	.	.	.	.	[ترجمة الولي ابن عاشر]
٤٩٤	.	.	.	.	رجع إلى نظم لسان الدين
٥١٠	.	.	.	.	[قصيدة لأبي زكريا ابن خلدون]
٥١٣	.	.	.	.	[احتفالات أبي حمو بالمولد النبوي]
٥١٥	.	.	.	.	[مقطوعات لأبي زكريا ابن خلدون على المنجاة]

# نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِن  
غَيْصِنِ الْأَنْدَلِيسِ الرَّطِّيبِ

تأليف  
الشيخ أحمد بن محمد القرني التيساني

حقيقته  
الدكتور اجسان نجاس

المجلد السابع

دار صادر  
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ - ۱۹۶۸ م

نفع الطيب

٧



# الرياضة الرياضية

## الباب الخامس

(تمة)

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فنقول :

وأما مَوْسِحَاتِهِ وَأَزْجَالَهُ فَكثيرة ، وقد انتهت إليه رياسة هذا الفن ، كما صرح بذلك قاضي القضاة ابن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير ، ولنذكر بعضَ كلامه ، إذ لا يخلو من فائدة زائدة ، قال رحمه الله تعالى ما ملخصه<sup>١</sup> : وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قُطْرِهِمْ ، وتهدبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التتميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سَمَوْهُ بالموشح ، ينظمونه أسماً أسماً وأغصاناً وأغصاناً ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويُسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعدُ إلى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يُفعل في القصائد ، وتجاوزوا<sup>٢</sup> في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناسُ وحمدوه<sup>٣</sup> الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه ، وكان المخترعُ

١ انظر مقدمة ابن خلدون: ١٣٢٧ وأصل هذا النص نفسه ورد في «المقتطف من أزهار الطرف» لابن

سعيد ، وراجع أزهار الرياض ٢ : ٢٠٨ .

٢ المقدمة : وتجاروا .

٣ المقدمة والأزهار : جملة .

لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذ عنه ذلك ابنُ عبد ربه صاحب العقد ، ولم يُذكر لهما مع التأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القرّاز شاعر المعتصم بن صّماح صاحب المَريّة ، وقد ذكر الأَعلم البَطْلَيْوَسِي أَنه سمع أبا بكر ابن زُهْر يقول : كلُّ الوشّاحين عيال على عبادة القرّاز فيما اتفق له من قوله :

بَدْرُ تَمِّ شمس ضُحى غصن نَقَا مسك شَمِّ  
 ما أَمِّ ما أوضحا ما أوزقا ما أَمِّ  
 لا جَرَمَ مَنْ لِحَا قَدُ عَشِقَا قد حرم

وزعموا أَنه لم يسبق عبادة وشاحٌ من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصلياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طَلَيْطَلَة ، قالوا : وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول :

العودُ قد ترنمُ بأبدعِ تلحينٍ وشقّتِ المذانبُ رياضَ البساتين  
 وفي انتهائه حيث يقول :

تَخْطِرُ ولم تَسْلَمْ عَسَاكَ المأمون مَرُوعَ الكتائبِ يحيى بن ذي النون  
 ثمَّ جاءت الحَلْبَة التي كانت في مدة الملتئمين فظهرت لهم البدائع ، وفرسان حلبتهم<sup>١</sup> : الأعمى التطيلي ، ثمَّ يحيى بن بَقِي ، وللتطيلي من الموشحات المذهبة قوله<sup>٢</sup> :

١ المقتطف : وفرسان رمان حلبتهم .

٢ ديوان الأعمى : ٢٧٢ .



كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَبْرِي وَفِي الْمَعَالِمِ أَشْجَانُ  
وَالرَّكْبُ وَسَطَ الْفَلَاحِ بِالْحُرْدِ السَّوَامِ قَدْ بَانُوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل<sup>١</sup> هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشّاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنقَ فيها، فتقدم الأعمى التُّطيلي للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جُمان سافر عن بدر  
ضاقَ عنه الزمان وحواهُ صدري

خرَّق ابنُ بقي موشحته وتبعه الباقر<sup>٢</sup>.  
وذكر الأعلام البطلانيّ<sup>٣</sup> أنه سمع ابن زُهْر يقول: ما حسدت قطُّ  
وشاحاً على قول إلاّ ابن بقي حين وقع له<sup>٤</sup>:

أما ترى أحمدُ في مجدِه العالِي لا يُلحَق  
أطلعُه المغربُ فأرنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما من الوشّاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض، وكان في عصرهم أيضاً الحكيم أبو بكر ابن باجة صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخلومه ابن تيفلويت<sup>٥</sup> صاحب سرقسطة فألقى عليه بعض موشحته:

- ١ المتكلف: وسمت غير واحد من الأشياخ . . . إلخ .
- ٢ راجع هذه القصة في المجلة ٣ : ٤٠٤ .
- ٣ المتكلف: وسمت الأعلام البطلانيّ يقول . . . إلخ .
- ٤ انظر هذه الموشحة في ديوان التُّطيلي: ٢٧٠-٢٧٢ وهي في خار الطراز: ٦٣ مضمومة لابن بقي .
- ٥ المتكلف: أنه لا ألقى على بعض قينات ابن تيفلويت . . . إلخ .

جرّ الذيلَ أيّما جرّاً [ وصيلِ السكرَ منك بالسكر ]<sup>١</sup>

فطرب الممدوح لذلك ، وختمها بقوله :

عقد الله رايةَ النصرِ لِأَميرِ العِلا أبي بكرِ

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلوبيت صاح : واطرباه ! وشقّ ثيابه ، وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمسي ابنُ باجة لداره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه .

ثم قال ابن خلدون بعد كلام : واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف ، إلى أن قال : وابن هرديوس<sup>٢</sup> الذي له :

يا ليلةَ الوصلِ والسعودِ بِاللهِ عودي

وابن مؤهل<sup>٣</sup> الذي له :

ما العيدُ في حلّةٍ وطاقٍ وشمّ طيبٍ  
ولإنما العيدُ في التلاقي مع الحبيبِ

وأبو إسحاق الزويلي<sup>٤</sup> .

١ زيادة من المقتطف .

٢ ترجم له في المغرب ( ٢ : ٢١٠ ) وسماه أحمد بن هرودس بتقديم الواو على الدال ؛ وكنيته أبو الحكم ؛ وفي التحفة ( ٥٤ ) أنه إبراهيم بن علي بن هرودس ؛ وقال إنه من أهل حصن مرشافة من عمل المرية وتوفي بمراكش سنة ٥٧٢ ؛ وسماه في التكملة أيضاً إبراهيم ( ص : ١٥٤ ) وأورد له صاحب المغرب موشحة ( ٢ : ٢١٥ ) هي التي أورد هنا مطلقها ؛ وأغلب الظن أن الصواب في نسبه « هرديوس » بتقديم الدال وهي لفظة بربرية ترمز إلى الفجولة . والأرجح أن اسمه « أحمد » لقوله يخاطب أحمد بن عبد الملك بن سعيد « يا سمي » ( انظر النسخ ٤ : ٢٠١ ) .

٣ ذكره في المغرب ٢ : ٣٩٠ باسم « ابن موهد » وأورد له موشحة وقال إنه شاطبي سكن مرسية ومدح ابن مردنيش .

٤ في المقدمة والأزهار : الدويني ، وما أثبتناه هو ما ورد في المقتطف .

قال ابن سعيد : سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : إنّه دخل على ابن زُهر ، وقد أسنّ ، وعليه زيُّ البادية ، إذ كان يسكن بحصن سبتة ، فلم يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس<sup>١</sup> ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها :

كحلُّ الدجى يجري من مقلةِ الفجرِ على الصباحِ  
ومعصمُ النهْرِ في حُللِ خضرٍ من البطاحِ

فتمحرك ابن زُهر ، وقال : أنت تقول هذا ؟ قال : اختبر ، قال : ومن تكون ؟ فأخبره ، فقال : ارتفع ، فوالله ما عرفتك .  
قال ابن سعيد : وسابقُ الحَلْبَةِ التي أدركتُ هو أبو بكر ابن زُهر ، وقد شرقت موشحاته وغرّبت ، قال : وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : قيل لابن زُهر : لو قيل لك : ما أبدع ما وقع لك في التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

ما للموتِ من سكرهِ لا يُفِيقُ يا لهُ سكران  
[ مِنْ غَيْرِ خمرٍ ما للكئيبِ المَشُوقُ يندُبُ الأوطان ]  
هلْ تُستعادُ أيّامُنَا بالخليجِ وتيالِينَا  
إذْ يُستفادُ مِنْ التَّسِيمِ الأريجِ مسكُ دارِينَا  
وإذْ يكادُ حسنُ المَكَانِ البهيجِ أنْ يُحيِينَا  
نهرِ أظْلَه دَوْحِ عَيْهِ أُنيقِ مؤنقِ فينان  
والماءِ يَجْرِي وعائِمٌ وغريقٌ من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون ، إلى أن قال : وبعد هؤلاء ابن حزمون بمُرْسِيّة ، ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه ، فأنشده موشحة لنفسه ، فقال له ابن حزمون : ما الموشح بموشح حتى يكون عارياً من التكلف ، فقال :

١ المقتطف : فجلس حيث وجد .

على مثل ماذا؟ فقال : على مثل قولي :

يا هاجري هل إلى الوصال منك سبيل  
أو هل يرى عن هواك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بفرناطة ، قال ابن سعيد : كان والذي يعجب  
بقوله :

إن سبيل الصباح في الشرق عاد بجرأ في أجمع الأفق  
فتداعت نوابد الورق أتراها خافت من الغرق  
فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشيلية لذلك العهد أبو الحسن ابن الفضل ، قال ابن سعيد عن والده :  
سمعت سهل بن مالك يقول له : يا ابن الفضل ، لك على الوشاحين الفضل ،  
بقولك :

واحسرتي لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى  
وأفردت بالرغم لا بالرضى وبت على جمرات الغضا  
أعائق بالفكر تلك الطلول وألم بالوهم تلك الرسوم

قال : وسمعت أبا بكر ابن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته  
غير ما مرة فما سمعته يقول « لله درك » إلا في قوله :

قسماً بالهوى لذي حجرٍ ما لليل المشوق من فجرٍ  
خمد الصبح ليس يطرد  
ما لليلى فيما أظن غد  
صح يا ليل أنك الأبد

أو تقضت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسري

ومن موشحات ابن الصابوني قوله :

ما حالُ صبِّ ذي ضنِّي واكتئابُ      مرضهُ يا ويلتاهُ الطَّيِّبُ  
عامَلهُ محبوبهُ باجتئابُ      ثمَّ اقتدى فيه الكرى بالحبيبُ

جفا جفوني النومُ لكنني      لم أبكهِ إلاّ لفقد الخيال  
وذو الوصالِ اليوم قد غرّني      منه كما شاء وشاء الوصال  
فلستُ باللائم من صدّتي      بصورة الحقِّ ولا بالمحال

واشتهر ببر العُدوة ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة :

يد الإصباحُ قد قدحتُ      زنادَ الأنوار      من مجامرِ الزهرِ

وابن خزر البجائي ، وله من موشحة :

ثغرُ الزمانِ موافقُ      حيّاك منهُ بابتسامُ

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبته من بعدها<sup>١</sup> :

هل درّى ظنّي الحمى أن قد حمى      قلب صبّ حلّه عن مكنسِ  
فهو في حرّ وخفقٍ مثلما      لعبت ریحُ الصبا بالقبسِ

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر  
الأندلس والمغرب لعصره فقال :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى      يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ  
لم يكنْ وصلكُ إلا حلماً      في الكرى أو خلسة المختلسِ

١ انظر ديوان ابن سهل : ٢٨٣ وهي الموشحة التي شرحها الأفراني في كتاب سماه « الملك السهل  
في شرح توشيح ابن سهل » . يقول الأفراني : وقد وقفت على أزيد من اثني عشرة موشحة بما  
هو عرض به توشيح ابن سهل .

إذ يقود الدهر أشتات المني  
زُمراً بين فرادى وثنا  
والحيا قد جَلَلِ الروضَ سنا  
فثغورُ الزهرِ مِنْهُ تبسمُ  
يَنْقلُ الخطوَ على ما يرسمُ  
مثلما يدعو الوفودَ الموسمُ

وروى النعمانُ عن ماء السَمَا  
فكسَاهُ الحسنُ ثوباً معلماً  
كيف يروي مالكٌ عن أنسٍ  
يزدهي مِنْهُ بأبهي ملبسٍ

في ليلٍ كتمتُ سرَّ الهوى  
مالَ نجمِ الكأسِ فيها وهوى  
بالدجى لولا شمسُ الغررِ  
مستقيمَ السيرِ سَعَدَ الأثرِ  
أنَّهُ مرَّ كلمحِ البصرِ  
وطرَّ ما فيه من عيبِ سوى

حينَ لَدَّ الأنسِ شيئاً أو كما  
غارَتِ الشَّهبُ بنا أو ربما  
هجم الصبحُ هجومَ الحرسِ  
أثرتِ فينا عيونُ الرجسِ

أي شيءٍ لامرئٍ قد خلصا  
تنهبُ الأزهارُ منه الفُرصا  
فيكونُ الروضُ قد مكنَ فيه  
أمنتُ من مكره ما تنقيه  
وخلأ كلُّ خليلٍ بأخيه  
فإذا الماءُ تناجى والحصى

تبصرُ الوردَ غيوراً برما  
وترى الآسَ لبيبا فهما  
يكتسي من غيظه ما يكتسي  
يسرقُ السَّمعَ بأذنتي فرسٍ

يا أهيل الحَيِّ من وادي الغضا  
ضاق عن وجددي بكم رحبُ الفضا  
وبقلبي سَكَنَ أنتم به  
لا أبالي شرقه من غربه  
تُعْتَقُوا عانيكم من كربه  
فأعيدوا عهدَ أنسٍ قد مضى

واتقوا اللهَ وأحيوا مغرما  
حبس القلبَ عليكم كرما  
يتلاشَى نفساً في نفسٍ  
أفترضونَ عفاءَ الحبسِ

وبقلبي منكم مقربُ  
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ  
قَدَّ تَسَاوَى مُحْسَنٌ أَوْ مَذْنَبُ  
بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهُوَ بَعِيدُ  
شَقْوَةَ الْمُغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ  
فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدُ

ساحرُ الْمُقَلَّةِ مَعْسُولُ اللَّمَى  
سَدَدَ السَّهْمِ وَسَمَى وَرَمَى  
جَالَ فِي النَّفْسِ مَجَالَ النَّفْسِ  
فَقَوَّادِي نُهْبَةَ الْمُفْتَرَسِ

إِنْ يَكُنْ جَارٌ وَخَابَ الْأَمَلُ  
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيْبٌ أَوَّلُ  
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثِلُ  
وَقَوَّادُ الصَّبِّ بِالشُّوقِ يَذُوبُ  
لَيْسَ فِي الْحَبِّ لِمُحِبِّبِ ذُنُوبِ  
فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَّاهَا وَقُلُوبِ

حَكَمَ اللَّحْظَ بِهَا فَاحْتَكَمَا  
مَنْصَفَ الْمَظْلُومِ مَمَّنْ ظَلَمَا  
لَمْ يَرِاقِبْ فِي ضَعَافِ الْأَنْفُسِ  
وَمَجَازِي الْبِرِّ مِنْهَا وَالْمُسِي

مَا لِقَلْبِي كَلَّمَا هَبَّتْ صَبَا  
كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مَكْتَبَا  
جَلَبَ الْهَمَّ لَهُ وَالْوَصْبَا  
عَادَهُ عِيدٌ مِنَ الشُّوقِ جَدِيدُ  
قَوْلُهُ : «إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدُ»  
فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدِ جَهِيدُ

لَاعَجٌ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرَمَا  
لَمْ يَدْعُ فِي مُهْجَتِي إِلَّا ذَمَا  
فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَبْسِ  
كِبْقَاءِ الصَّبْحِ بَعْدَ الْغَلَسِ

سَلَّمِي يَا نَفْسُ فِي حَكْمِ الْقَضَا  
دَعَكَ مِنْ ذِكْرِي زَمَانَ قَدْ مَضَى  
وَاصِرِي فِي الْقَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الرِّضَى  
وَاعْمَرِي الْوَقْتَ بَرُّجْمِي وَمَتَابِ  
بَيْنَ عُنْتِي قَدْ تَقَضَّتْ وَعَتَابِ  
مَلْهَمِ التَّوْفِيقِ فِي أُمَّ الْكِتَابِ

الكَرِيمِ الْمُتَنَهَى وَالْمُنْتَمَى  
يَنْزِلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا  
أَسَدِ السَّرْحِ وَبَدْرِ الْمَجْلِسِ  
يَنْزِلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدْسِ

إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين ، ولا أدري لِمَ لَمْ يكملها ، وتامها قوله :

مصطفى الله سَمِيَّ الْمُصْطَفَى      الغني بالله عَن كُلِّ أَحَدٍ  
مَنْ إِذَا مَا عَقَدَ الْعَهْدَ وَفِي      وإذا مَا فَتِيحَ الْخَطْبُ عَقْدُ  
من بَنِي قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَكَفَى      حَيْثُ بَيْتُ النَّصْرِ مَرْفُوعُ الْعَمَدِ

حَيْثُ بَيْتُ النَّصْرِ مُحَمَّدِي الْحَمِي      وَجَنَى الْفَضْلِ زَكِيُّ الْمَغْرَسِ  
وَالهُوَى ظِلُّ ظَلِيلٍ خَيْمًا      وَالنَّدَى هَبَّ إِلَى الْمَغْرَسِ

هَا كَهَا يَا سَبَطَ أَنْصَارِ الْعُلَا      وَالذِّي إِنْ عَثَرَ الدَّهْرُ أَقَالَ  
غَادَةً أَلْبَسَهَا الْحَسَنُ مُلَا      تَبْهَرُ الْعَيْنَ جِلَاءً وَصِقَالَ  
عَارِضَتْ لَفْظًا وَمَعْنَى وَحَلَى      قَوْلٍ مِنْ أَنْطَقَهُ الْحُبُّ فَقَالَ :

« هَلْ دَرَى ظَبِي الْحَمِي أَنْ قَدْحَمِي      قَلْبَ صَبَّ حَلَّهْ عَن مَكْنَسِ »  
« فَهُوَ فِي خَفَقِ وَحَرِّ مَثَلْمَا      لَعِبْتُ رِيحَ الصَّبَا بِالْقَبَسِ »

ثمَّ قال ابن خلدون : وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عاتوه من الموشحات ، ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري التي اشتهرت شرقاً وغرباً ، وأولها :

[يا /] حَيْبِي أَرْفَعُ حِجَابَ النُّورِ      عَن الْعَذَارِ  
تَنْظُرُ الْمَسْكَ عَلَى كَافُورِ      فِي جَلَنَارِ

كَلْبِي      يَا سَحْبُ تَيْجَانِ الرَّبِّي      بِالْحُلِّي  
وَاجْعَلِي      سِوَارَهَا مَنَعُطَ الْجَدُولِ

ولمَّا شاع فنَّ التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق



كلامه وتصريح أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً<sup>١</sup> ، واستحدثوا فنّاً سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد ، فجعأوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال ، بحسب لغتهم المستعجمة ، وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قزمان ، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس<sup>٢</sup> ، لكن لم تظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها ، واشتهرت رشاقتها ، إلا في زمانه ، وكان لعهد المثلثين ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، قال ابن سعيد : رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب ، قال : وسمعت أبا الحسن ابن جحندر الإشبيلي<sup>٣</sup> إمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة ، وقد خرج إلى منتره مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عريش ، وأمامهم تمثال أسد من رُخام يصب الماء على صفائح من الحجر ، فقال :

وعريشٌ قد قام على دكان بحال رواق  
 وأسدٌ قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق  
 وفتح فمو بحال إنسان به الفواق  
 وانطلق من ثم على الصقاح وألقى الصياح

١ يؤخذ من هذا أن ابن خلدون يرى أسبقية الموشح على الزجل ، وهو أمر يخالف طبيعة الأشياء ، لأن الزجل في أصله أغنية شعبية ، وإنما يعني ابن خلدون أن الزجل أحرز « مكانة أدبية » بعد شيوع الموشح .

٢ ظهر من الزجالين ابن نمارة وابن راشد قبل ابن قزمان ولكنه خالف طريقة القدامى - كما يسميهم - واختار العودة بالزجل إلى سهولة الأغنية الشعبية ورقتها .

٣ هو علي بن جحندر (المغرب ١ : ٢٦٢ واختصار القدح : ١٧٢) قال ابن سعيد : أكثر اشتهاؤه بالانطباع في الزجل ، وجالسته كثيراً بإشبيلية ، وطال عمره حتى جاوز التسعين ومات سنة ٦٣٨ .

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبي الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية ، ويتتاب  
نهرها .

إلى أن قال ابن خلدون : وجاءت بعدهم حكمة كان سابقها مدغليس<sup>١</sup> ،  
وقعت له العجائب في هذه الطريقة ، فمن قوله في زجله المشهور :

ورذاذٌ دقٌ ينزلُ      وشعاعُ الشمسِ يضربُ  
فترى الواحدُ يفضضُ      وترى الآخرُ يذهبُ  
والنباتُ يشربُ ويسكرُ      والغصونُ ترقصُ وتطربُ  
وتريدُ نجي إلينا      ثم تستحي وترجع

ومن محاسن أزجاله قوله :

### لاح الضياء والنجوم سكارى

ثم قال : وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية ابن جحدر الذي فضل على الزجالين  
في فتح ميسورة بالزجل المشهور الذي أوله :

من يعاند التوحيد بالسيف يحق أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد : لقيته ولقيت تلميذه البعبع<sup>٢</sup> صاحب الزجل المشهور الذي  
أولُه :

ليتي إن ريت حبيبي      أقتل أذنو بالرسىلا  
لش أخذ عنق الغزيريل      وسرق فم الحجيللا

١ اسمه أحمد بن الحاج ، وكان في دولة بني عبد المؤمن ، وهو شيخ الزجالين بعد ابن قزمان ( المغرب  
٢ : ٢١٤ ) وقد أورد له ابن سعيد ( ٢ : ٢٢٠ ) زجلين وله في العاقل الحالي أزجال ( ١٨ -  
٢٥ ) وأخرى منقولة عن سفينة ابن مباركشاه ( العاقل ٢٠٤ - ٢١٤ ) وانظر النفع ٣ : ٣٨٥ .  
٢ ق : البعبع .

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهّل بن مالك إمام الآداب ، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع ، فمن محاسنه في هذه الطريقة :

امزج الأكواس° واملاي نَجْدَد° ما خُلِقَ المال° إلا أن يُبَدَد°

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الشثري منهم :

بين طلوع° وبين نزول° اختَلَطَتْ الغزول°  
ومضى من لَمْ يَكُنْ° وبقي مَنْ لَمْ يَزُول°

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى :

البعْدُ عَنَّا يا ابني أعظم° مصابيبي° وحين حَصَلَ لي قربك سَيَّبْتَ أقاربي

انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون ، وقد أطال رحمه الله تعالى في هذا المقصد ، ولمْ أَرِدْ إيراد جميع كلامه لطوله وعدم تعلق الغرض به ، وفيما ذكرته منه كفاية لتعلقه بأمر لسان الدين رحمه الله تعالى ، وشهادته له أنه شاعر الإسلام غير مدافع ، وأنه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية والتوشيفية .

[ ترجمة ابن باجة من القلائد ]

وأبو بكر بن باجة الذي أشار إليه ابن خلدون : هو أبو بكر ابن الصائغ الشجبي السرقسطي ، الذي قال في حقه لسان الدين في « الإحاطة » : إنه آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ، وكان بينه وبين الفتح بن خاقان صاحب « القلائد » معاداة فلذلك هجاه في القلائد ، وجعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما نصّه ١ : الأديب أبو بكر ابن الصائغ ، هو رَمَدُ عين ٢ الدين ، وكمَدُ نفوس

١ القلائد : ٣٠٠ - ٣٠٦ . ٢ القلائد : جفن .

المهتدين ، اشتهر سُخْفًا وجنوناً ، وهَجَرَ مفروضاً ومسنوناً ، فما يتشرع ، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهرَ من جنابة ، ولا أظهرَ مخيلةً إنابةً ، ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فواده بتواري في جدت ، ولا أقرَ بباريه ومصوره ، ولا قرَّ عن تباريه في ميدان تهوره ، الإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذ وراء ظهره ثانيَ عِظْفِهِ ، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واقتصر على الهَيْثَةِ ، وأنكر أن تكون لهُ إلى الله تعالى فيثئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهي والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ( القصص : ٨٥ ) فهو يعتقد أن الزمان دَوْرٌ ، وأن الإنسان نبات أو تور ، حِمَامَه تمامه ، واختطافه قِطَافَه ، قد محي الإيمان من قلبه فما له فيه رَسْمٌ ، ونسي الرحمن لسانه فما يمر له عليه اسم ، وانتمت نفسه إلى الضلال وانتسبت ، ونفت ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ( غافر : ١٧ ) ، فقصر عمره على طَرَبٍ وهو ، واستشعر كلَّ كبر وزهو ، وأقام سوق المويستقى ، وهام بمحادي القطار وسقا ، فهو يعكف على سماع التلاحين ، ويقف عليه كل حين ، ويعلم بذلك الاعتقاد ، ولا يؤمن بشيء قادنا إلى الله تعالى في أسلس مقاد ، مع منشا وخيم ، ولؤم أصل وخيم ، وصورة شوها الله تعالى وقبحها ، وطلعة إذا أبصرها الكلب نبحها ، وقذارة يؤدي البلاد نفسها ، ووضارة يحكي الحداد دتسها ، وفند لا يعمر إلا كنفه ، ولد لا يقوم إلا الصعاد جنفه ، وله نظم أجاد فيه بعض إجادة ، وشارف الإحسان أو كاده ،

فمن ذلك ما قاله في عبد حبشي كان يهواه ، فاشتمل عليه أسراً سَعَرَ حَشَاهُ ،  
ونقله إلى حيث لم يعلم مَشَوَاهُ ، فقال :

يا شائقي حيث لا أسطيعُ أدركهُ      ولا أقولُ غداً أغدو فألقاهُ  
أما النهارُ فليلي ضمَّ شملته      على الصِّباحِ فأولاهُ كأخراهُ  
أغرَّ نفسي بآمالٍ مزوَّرةٍ      مِنها لقاؤكَ والأَيَّامُ تأباهُ

وله فيه لما بلغه موته ، وتحقق عنده فَوْتُهُ :

ألا يا رزقُ والأقدارُ تجري      بما شاءت نِشَا أو لا نِشَاءُ  
هَلْ أَنْتَ مُطَارِحِي شَجْوِي فَتَدْرِي      وأدري كيفَ يحتملُ القَضَاءُ  
يقولون الأمورُ تَكُونُ دوراً      وهذا فقدُه فَمَتَى اللِقَاءُ

وله في الأمير أبي بكر ابن إبراهيم قدس الله تعالى تربته ، وآنس غربته ،  
مدائح انتظمت بلبَّات الأوان ، ونظمت على كل شئت من الإحسان ، فمن  
ذلك قوله :

توضَّحَ في الدجى طرفُ ضَرِيرُ      سناً بلوى الصريمةِ يَسْتَطِيرُ  
فيا بأبي ولم أبذلُ يسيراً      وإن لم يكفهم ذاك الكثيرُ  
بريقٌ لا تقلُّ هو ثغرُ سلمى      فتأثمُ ، إته حُوبٌ وزورُ  
فكيف وما أطلَّ الليلُ منه      ولا عبت بساحته الخمورُ  
تراعى بالسدير فزاد قلبي      من البرحاء ما شاء السديرُ  
فلولا أنَّ يومَ الحشرِ يقضي      عليَّ بحكمِ مولى لا يَجُورُ  
دعوتُ على المشقَّر أن يجازي      بما تجزى به الدار الغرورُ

ومنها :

لقد وسع الزمان عليه عدوى      وضرَّ بِشِبْلِهِ اللَّيْثُ الهَصُورُ  
وقلبنا الزمان فلا بَطُون      تضمنتِ الوفاء ولا ظهور  
سوى ذكرٍ أطارحه فلولا      أميرٌ لقد عفا لولا الأمير  
همامٌ جوده يصفُ السَّواري      وسطوته يُعَيِّرُهَا الهجير  
وقلنا نحن كيفَ وراحته      بحورٌ يلتظي فيها سعي  
فهَلْ فيما سمعت بهِ خصام      يكون الحصم فيه هو العذير

وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه المائة ويراها ، ويجود أبدأ ثراها ،  
فلما ولي الثغر والشرق لم يغفله من رعي ، ولم يكلِّه<sup>١</sup> إلى شفاعة وسعي ،  
وحمله على ما كان يعتقد فيه من المقت ، واستعمله على ما كان يقتضيه خلُقُ  
الوقت ، من إقامة الوعد<sup>٢</sup> ، وتسويغه كل نعيم رغد ، وتغليب حجة داحضة ،  
وإنهاض عثرة غير ناهضة ، فتقلد وزارته ودولته تزهى منه بأندى من الوسمي  
المبتكر ، وأهدى من النجم في الليل المعتكر ، وألويته تيمس زهواً ميس الفتاة ،  
ورعيته تبتهج بملكه ابتهاج حبيي بابن المومة<sup>٣</sup> ، ومذاهبه يبسطها الفضل وينشرها ،  
وكتائبه لا يكاد العدو يعشرها ، فجاش إليه وانبرى ، وراش في تنكيلهم وبرى ،  
وأقطعهم ما شاء من مُقَابِحتِه ، وأسمعهم ما يصم بين ختمه ومفاتيحه ، فوغرتُ

١ القلائد : لم يغفلها . . . ولم يكلها ؛ والضمير عائد على « المائة » .

٢ القلائد : من إقامة كل وغد . ق : من إقامة وعد .

٣ كذا ؛ وفي القلائد : ابتهاج جابر بعهد البوابة ، وفي النصين خطأ في اسم العلم ، أما البوابة  
والمومة فيدلان على شيء واحد هو الأرض المتسمة ؛ وأرى أن الإشارة إلى من اسمه « جرير » وهو  
المشهور باسم « المتلمس » إذ يقول في ذكر البوابة :

لن تسلكي سبل البوابة منجدة      ما عاش عمرو وما عمرت قابوس  
والبوابة هنا ثنية في طريق نجد .

صلورهم السليمة ، واعتلت صحة ضمائرهم بنفوسهم الأليمة ، ولم يزل يأخذ في الإضرار بهم ولا يدع ، ويعلن به ويصدع ، حتى تفرق ذلك الجمع ، وألقاه بين بصر السباب والسمع ، وأفرد الدولة من ولاتها ، وجردّها من حماتها ، فاستعجل العدو بذلك واستشري ، وزأر منه على سرقسطة ليث شري ، ولما رأى الشرقد ثار قتامه ، وبدا من ليله إعتامه ، ارتحل واحتمل ، وقال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل ، وأقام ببلنسية يشفي نفسه ، ويستوفي أنسه ، ونجوم سعدما كل يوم غائرة ، والعدو يتربص بها أسوأ دائرة ، ويروم منازلها ثم يدع الاقتحام ، ويريد التقدم إليها فيؤثر الإحجام ، تهيأ لذلك الملك السري ، والليث الجري ، وفي خلال هذه المحاولة ، وأثناء تلك المطاولة ، عاجل الأمير أبا بكر حمامه ، واستسر فيها تمامه ، وأجته الثرى ، وحاز منه بدر دجئة وليث شري ، فعطلت الدنيا من علاء وجود ، وأطلت عليها بقلده حوادث أجذبت تهاتها والنجد ، وفيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجماً ، ويبيت به الأمى لسامعه ضجياً :

أيتها الملك قد لعصري نعى المج      د نواعيك يوم قمنا  
 كم تقارعت والخطوب إلى أن      غادرتك الخطوب في الترب رهنا  
 غير أنني إذا ذكرتك والدهم      سر إخال اليقين في ذلك ظناً  
 وسألنا متى اللقاء فقبل ال      حشر قلنا : صبراً إليه وحزناً

وكثيراً ما يُغير هذا الرجل على معاني الشعراء ، وينبذ الاحتشام من ذلك بالعراء ، ويأخذها من أربابها أخذ غاصب ، ويعوضهم منها كل هم ناصب ، فهذا مما أظال به كد أبي العلاء وغمه ، فإنه أخذه من قوله يرثي أمه<sup>١</sup> :

١ يريد أنه كان بدمراً كاملاً فأصابه السرار .

٢ شروح السقط : ١٤٦٠ ، ١٤٦٨ .

فيا ركبَ المنونِ أَلَا رسولٌ<sup>١</sup> يبلِّغُ روحَهَا أَرْجَ السلامِ  
سألتُ متى اللقاءَ فقليلَ حتى يقومَ الهامدونَ من الرِّجَامِ

ولما فانت سرقسطة من يد الإسلام ، وباتت نفوس المسلمين فرقا منهم في  
يد الاستسلام ، ارتاب بقبح أفعاله ، وبريء من احتذائه بتلك الآراء وانتعاله ،  
وأخافه ذنبه ، ونبا عن مضجع الأمن جنبيه ، فكراً إلى الغرب ليتوارى في  
نواحيه ، ولا يترامى لعين لائمه ولاحيه ، فلما وصل شاطبة حضرة الأمير  
إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وجدّ باب نفاذه وهو مبهم ، وعاقه عنه مدلول<sup>١</sup>  
عليه ملهم ، فاعتقله اعتقالاً شفى الدين من آلامه ، وشهد له بعقيدة إسلامه ،  
وفي ذلك يقول ، وهو معقول ، ويصرح بمذهبه الفاسد ، وغرضه المستاسد :

حَقَّقْصُ عَلَيْكَ فَمَا الزَّمَانُ وَرِيئُهُ شَيْءٌ يَدُومُ وَلَا الْحَيَاةُ تَدُومُ  
وَأَذْهَبُ بِنَفْسٍ لَمْ تَضَعْ لِتَحْلُهَا حَيْثُ احْتَلَّتْ بِهَا وَأَنْتَ عَلِيمٌ  
يَا صَاحِبِي لَفْظًا وَمَعْنَى خَلْتَهُ مِنْ قَبْلُ حَتَّى بَيَّنَّ التَّقْسِيمُ  
دَعُوكَ مِنْ مَعْنَى الْإِحْيَاءِ ثَقِيلَهُ وَأَنْبَذَ بِذَلِكَ الْعَبَاءَ وَهُوَ ذَمِيمٌ  
وَأَسْمَحُ وَطَارِحِي الْحَدِيثَ فَإِنَّهُ لَيْلٌ كَأَحْدَاثِ الزَّمَانِ بِيَمٍ  
خَذَنِي عَلَى أَثَرِ الزَّمَانِ فَقَدْ مَضَى بُوْسٌ عَلَى أُنْسَائِهِ وَنَعِيمٌ  
فَعَسَى أَرَى ذَلِكَ النَّعِيمَ وَرَبَّهُ مَرِحٌ وَرَبُّ الْبُوْسِ وَهُوَ سَقِيمٌ  
هِيَهِاتُ سَاوَتْ بَيْنَهُمْ أَجْدَانَهُمْ وَتَشَابَهَ الْمَحْسُودُ وَالْمَحْرُومُ

ولما خلاص من تلك الحباله ونجا ، وأثار من سلامته ما كان دجا ، احتال  
في إخفاء ماله ، واستيفاء آماله ، فأظهر الوفاء للأمير أبي بكر بالثناء له والتأبين ،  
وتداهيه في ذلك واضح مستبين ، فإنه وصل بهذه التزعة من الحماية إلى حرم ،

١ القلائد : شبحان مدلول .



وحصل في ذمة ذلك الكرم ، واشتمل بالرعي ، وأمن من كل سعي ، فافتنى  
 قياناً ، ولقنهن أعاريض من القريض وركب عليها ألحاناً أشجى من النوح ،  
 ولطف بها إلى إشادة الإعلان باللوعة والبسوح ، فسلك بها أبداع مسلك ، وأطلعها  
 نيرات ما لها غير القلوب من فللك ، فمن ذلك قوله :

إنَّ غراباً جرى بيئِنِهِمْ      جاوَبَهْ بالثِيَّسَةِ الصَّرْدُ  
 طاروا فيها أنت بعدهم جسدٌ      قد فارق الروحَ ذلك الجسدُ  
 واكتموا صُبْحَةً بيئِنِهِمْ      فبئس والله ما الذي اعتمدوا

وكفوله :

سلامٌ وإلمامٌ ووسميّ مزنةٌ      على الحدّثِ النَّائِي الذي لا أزوره  
 أحقّاً أبو بكرٍ تقضى فلا يرى      تردُّ جماهيرَ الوفودِ ستوره  
 لئن أنست تلك القبورُ بلحده      لقد أوحشت أنصاره وقصوره

ومن قفة عقله وتزارته ، أنه في مدة وزارته ، سقر بين الأمير أبي بكر  
 رحمه الله تعالى وبين عماد الدولة بن هود رحمه الله تعالى بعد سعايات عليه أسلفها ،  
 وذخائر كانت له على يديه أتلّفها ، فوافاه أوغَرَ ما كان عليه صدرّاً ، وأصغر  
 ما كان لديه قدرّاً ، قال به ذلك الانتقال ، إلى الاعتقال ، فأقام فيه شهوراً  
 يعاوزه الحمام بمقلة شوهاء ، وتنازله الأوهام بفطرتة الورهاء ، وفي ذلك يقول :

لعلك يا يزيد علمت حالي      فتعلم أيّ خطبٍ قد لقيتُ  
 وإني إن بقيتُ بمثل ما بي      فمن عجب الليالي أن بقيتُ  
 يقولُ الشامتون شقاءً بخت      لعمرو الشامتين لقد شقيتُ  
 عندهم الأمان من الليالي      وسالمهم بها الزمن المقيتُ  
 وما يدرون أنهم سيستقوا      على كره بكأسٍ قد سقيتُ

وعزم عماد الدولة يوماً على قتله ، وألزم المرقبين به التحيُّلَ على ختله ،  
فمني إليه الأمر الوَعْرُ ، وارتمى به في بلج اليأس الذعر ، فقال :

أقولُ لنفسي حينَ قابلَها الردى فراغتُ فراراً منه يُسرَى إلى يمني  
قيرِي تحمدي بعضَ الذي تكرهينه فقدَ طالما اعتدتِ الفرارَ إلى الأهنا

ثم قضى له قدر قضى بإنظاره ، وما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره ،  
ويعهل الفاجر حكمةً من الله تعالى وعلماً و﴿ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا ﴾  
(آل عمران : ١٧٨) ؛ انتهى نص القلائد .

[ ثناء الفتح على ابن باجة ]

وأين هذا من تحليته له في بعض كتبه بقوله فيه ما صورته : نور فهم ساطع ،  
وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت  
من طيب ذكره الأمصار ، وقام أوانُ المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فتناً  
وتهدل ، وعطل بالبرهان التقليد ، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد ،  
إذا قدح زئدُ فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل  
شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبُعد الفساد من كونها ، والتحقيق ،  
الذي هو للإيمان شقيق ، والجد ، الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يودُّ  
عُطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبآت  
والنحور ، وتداعيه مع نفاسة جوهرها البحور ، وقد أثبت منه ما تهوى الأعين  
النَّجْلُ أن يكون إثمها ، ويزيل من النفوس حزنها وكدها ، فمن ذلك قوله  
يتغزل :

أَسْكَانَ نَعْمَانَ الْأَرَكَ تَيَقَّنُوا بِأَنْتَكُمُ فِي رَيْعِ قَلْبِي سُكَّانُ

ودوموا على حفظِ الودادِ فطالما  
 سلوا الليلَ عني إذ تناءتِ دياركم  
 وهل جرّدتِ أسيافُ برقِ سماتكم  
 بلينا بأقوامٍ إذا استُحفظوا خانوا  
 هل اكتحلتُ لي فيه بالنومِ أجفان  
 فكانتُ لها إلا جفوني أجفان  
 وله :

أتأذنُ لي آتي العقيقَ اليمانيا  
 وهلّ داركم بالخزن قفراءٍ إنتي  
 فيا مكرّعَ الوادي أما فيك شربةٌ  
 ويا شجراتِ الجزعِ هل فيك وقفةٌ  
 وأسائلُهُ ما للمعالي وما ليا  
 تركتُ الهوى يقتاد فضل زاميا  
 لقد سالَ فيك الماءَ أزرقَ صافيا  
 وقد فاء فيك الظلُّ أخضرَ ضافيا  
 وأورد له في «المطمح» أنّه استأذن على المستعين بالله ، فوجده محجوباً، فقال :

من مبلغٍ خيرَ إمامٍ نشأ  
 قولَ امرئٍ لو قاله للصفاء  
 عبدك بالبابِ له خجلةٌ  
 لو أنّها بالرجسِ أحمرًا  
 ذا عزةٍ وسامياً قدراً  
 أثبتَ فيه ورقاً خضراً

وحكى غير واحد أنّه مات له سَكَن كان يهواه ، فبات مع بعض أصحابه  
 عند ضريحه ومثواه ، وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل ،  
 فزور في نفسه بيتين في خطاب القمر أتقنهما ولحنهما ، حتى إذا كان قبيل وقت  
 الكسوف بقليل تغنى فيهما بذلك الصوت المشجي ، واللحن يسوق الشوق  
 ويُرْجِي ، وهما :

شقيقك غيب في لحدِهِ  
 فهلاً كسفت فكان الكسوفُ  
 وتُشرقُ يا بدرُ من بعده  
 حداداً لبست على فقده

فكسف القمر في الحال ، وعدت هذه من نوادره التي جيدُ الأخبار بفرائدها  
 حال ، سامحه الله تعالى .

ثم رأيت في « الإحاطة »<sup>١</sup> نسبة ذلك لغيره ونصه : محمد بن أحمد بن الحداد ، الوادي آشي ، يكنى أبا عبد الله .

حاله - شاعر مفلح ، وأديب شهير ، مشار إليه في التعاليم ، منقطع القرين منها في الموسيقى ، مضطلع بفك المعتمى ، سكن المرية ، واشتهر بمدح رؤسائها من بني صُمادح ، وقال ابن بَسَّام : كان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة ، وبحر خبر وسيرة ، وديوان تعاليم مشهورة ، وضح في طريق المعارف وضوح الصبح المتهلل ، وضرب فيها بقدرح ابن مُقبِل<sup>٢</sup> ، إلى جلالته مقطع ، وأصالة منزع ، ترى العلم يتم على أشعاره ، ويبين في منازعه وآثاره .

تأليفه - ديوان شعره كبير معروف ، وله في العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية .

بعض أخباره - حدثت بعض المؤرخين مما يدل على ظرفه أنه فقد سكناً عزيزاً عليه ، وأحوجت الحاجة إلى تكلف سلوة ، فلما حضر الندماء ، وكان قد رصد الحسوف القمري ، فلما حقق أنه ابتداء أخذ العود وغنى « شقيقك غيب - إلى آخره » وجعل يرددتها ويخاطب البدر ، فلم يتم ذلك إلا واعترضه الحسوف ، وعظم من الحاضرين التعجب .

ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره : وقال<sup>٣</sup> :

أقبلن في الخبرات يقصرن الخطا ويرين في حُللِ الوراشين القطا<sup>٤</sup>  
سرب الجوى لا الجوى عود حسنه أن يرتعي حبَّ القلوب ويلقطا

١ الإحاطة ٢ : ٢٥٠ .

٢ ينسب القدرح إلى الشاعر ابن مقبل لأنه أجاد وصفه (ديوانه : ٢٨ - ٢٩) .

٣ لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة ؛ وهي في الذخيرة ٢/١ : ٢١٩ .

٤ الوراشين : جمع ورشان وهو من الطيور المغردة .

مالت معافهنّ من سكر الصبا  
وبسقط العلمين أوضح معلّم  
ما أخجلّ البدر المنير إذا مشى  
ومنها في المدح :

يا وافردي شرق البلاد وغربها  
ورأيتما ملك البرية فاهنا<sup>٢</sup>  
يدمي<sup>٣</sup> نخور الدارين إذا ارتأى  
ووردتما أرض المريّة فاخططا  
أكرمتما خيل الوفادة فاربطا  
ويذلّ عزّ العالمين إذا سطا

انتهى المقصود منه ، وأورد له في الإحاطة قصيدة ثانية أولها :

حديثك ما أحلى ، فزيدي وحديثي

وهي طويلة .

وكتب عليها ابن المؤلف ما صورته : سمعتها من لفظ شيخي أبي جعفر  
ابن خاتمة بالمريّة في سنة خمس وستين وسبعمائة ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .

رجع إلى أخبار ابن الصائغ ، ومن نظمه قوله :

ضربوا القباب على أقاحي روضة  
وتركت قلبي سار بين حمولهم  
هلاّ سألت أميرهم هل عندهم  
لا والذي جعل الغصون معافاً  
ما مرّ بي ريح الصبا من بعدهم  
خطر النسيم بها ففاح عبيرا  
دامي الكلوم يسوق تلك العيرا  
عان يفكّ ولو سألت غيورا  
لهم وصاغ الأقحوان ثغورا  
إلا شهقت له فعاد سعيرا

١ الذخيرة : والحوط ، ق : والحدود .

٢ الذخيرة : قاطباً .

٣ الذخيرة : يرمي .

وتوفي ابن الصائغ في شهر رمضان سنة ٥٢٣ ، وقيل : سنة خمس وعشرين ، مسموماً في باذجان بمدينة فاس ، وهو تُجِيبِي بضم التاء وفتحها ، وباجة : بالباء الموحدة ، وبعد الألف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة ، وهي القصة بلغة الفرنج ، وسَرَفُسطة - بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين الثانية وبعدها طاء مهملة - مدينة كبيرة بالأندلس ، استولى عليها العدو سنة ٥١٢ .

وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة »<sup>١</sup> إن ابن الصائغ كان عالماً فاضلاً ، له تصانيف في الرياضات والمنطق ، وإنه وَزَرَ لأبي بكر الصحراوي صاحب سَرَفُسطة ، ووزر أيضاً ليحيى بن يوسف ابن تاشفين عشرين سنة بالمغرب ، وإن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ، ونجحت على يديه الآمال ، فحسده الأطباء والكتّاب وغيرهم ، وكادوه ، فقتلوه مسموماً ؛ انتهى .

وأُشِدُّ لَهُ بَعْضُهُمْ :

همُ رحلوا يومَ الخميسِ عشيّةً فودّعَتْهُمُ لَمَّا اسْتَقَلُّوا وودعوا  
ولمَّا تولّوا ولتِ النفسُ مَعَهُمْ فقلتُ: ارجعي قالت: إلى أين أرجع  
إلى جسَدٍ ما فيه لحمٌ ولا دمٌ وما هوَ إلا أعظمُ تنقعق  
وعينين قد أعماهما كثرةُ البُكا وأذنٍ عَصَتْ عُدَّأَها ليس تسمع

وقد ذكر بعضهم في تعزيز بيتي الحريري : أنه لابن الصائغ الأندلسي ، وليس هو بهذا فيما أعلم :

انقدَّ مَهوى أزرِهِ فانثى مَهَ يا عدولي في الذي انقدَّ مَهَ  
مندمةٌ قَتَلُ المعنى فلا ترسلُ سهامَ اللحظِ تأمّنُ دمهَ

١ هو تاريخ كبير مرتب على حسب السنين انتهى فيه إلى سنة ٧٢٤ ؛ وتوفي ركن الدين بيبرس المنصوري اللواداري سنة ٧٢٥ .

[ ترجمة الفتح عن الإحاطة ]

رجع إلى ابن باجة - وقد ذكر لسان الدين في « الإحاطة » سبب العداوة بينه وبين الفتح في ترجمة الفتح ولذا كررها بنصه فنقول<sup>١</sup> : قال رحمه الله تعالى :  
الفتح بن محمد بن عبيد الله ، الكاتب ، من قرية تُعرف بقلعة الواد<sup>٢</sup> من قرى  
يَحْصُب ، يكنى أبا نصر ، ويُعرف بابن خاقان .

حاله - كان آية من آيات البلاغة لا يُشَقَّ غُبارُه ، ولا يُدْرِكُ شأوه ، عذب  
الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعباً بأطراف الكلام ، معجزاً في باب  
الحلى والصفات ، إلا أنه كان محارفاً مقدوراً عليه ، لا يعمل من المعارقة والقَصْف ،  
حتى هان قَدْرُهُ ، وابتذلت نفسه وساء ذكره ، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس  
إلا ودخله مسترفداً أميره واغلاّ في عليته ، قال الأستاذ في « الصلة » : وكان  
معاصراً للكاتب أبي عبد الله ابن أبي الخصال ، إلا أن بطالته أخذت به عن  
مرتبته . وقال ابن عبد الملك<sup>٣</sup> : قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض  
محمراً ، فتنسم بعضُ حاضري المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضي بذلك ،  
فاستثبت<sup>٤</sup> وحدّه حدّاً تاماً ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير  
وعمامة ، فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه : عزمت على إسقاط القاضي أبي  
الفضل من كتابي الموسوم بـ « قلائد العقيان » ، قال : فقلت : لا تفعل ، وهي  
نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : قصتك معه من الجائر أن تُنسى ،  
وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يجده قد ذكرت

١ الإحاطة ، الورقة : ٣٥٣ .

٢ الإحاطة : بصخرة الولد ، وهماش إحدى نسخ الذيل والتكملة : من قرية شرقي قلعة يحصب تعرف  
بشجرة الولد . ق : بقرية الواد .

٣ قلت انظر الذيل والتكملة ٥ : ٥٣٠ .

٤ الذيل : فاستثبت في استنكاهه ؛ وفي الإحاطة : فاستتابه .

فيه مَنْ هو مثله ودونه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك ، فيقال له ،  
فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر ، قال : فثنين ذلك ، وعلم صحته وأقر  
اسمه .

وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقه على ابن باجة أبي بكرٍ آخِرِ فلاسفة  
الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به وتكذيبه إيّاه في مجلس إقرائه ،  
إذ جعل يُكثِرُ ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ووصف حلياً ، وكان يبدو من  
أنفه فضلة خضراء اللون - زعموا - فقال له : فمن تلك الجواهر إذن الزمردة  
التي على شاربك ؟ فثلبه في كتابه بما هو معروف ، وعلى ذلك فأبو نصر نسيحُ  
وَحَدِّه ، غفر الله تعالى له .

مشيخته - روي عن أبي بكر : ابن سليمان بن القصيرة وابن عيسى ابن  
اللبانة ، وأبي جعفر ابن سعدون الكاتب ، وأبي الحسن ابن سراج ، وأبي خالد ابن  
بشتغير ، وأبي الطيب ابن زرقون ، وأبي عبد الله ابن خلصة الكاتب ، وأبي عبد  
الرحمن ابن طاهر ، وأبي عامر ابن سرور ، وأبي محمد ابن عبدون ، وأبي الوليد  
ابن حجاج ، وابن دريد الكاتب .

تواليفه - ومصنفاته شهيرة : منها « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس »  
والمطمح أيضاً ، وترسيله مدون ، وشعره وسط ، وكتابته فائقة .

شعره - من شعره قوله ، وثبت في قلائده ، يخاطب أبا يحيى ابن الحاج ١ :

أكعبة علياء وهضبة سُودد      وروضة مجد بالمفاخر تُمطرُ  
هنيئاً لملك زار أفقك نوره      وفي صفحته من مضائق أسطرُ  
وانتي خلفاق الجناحين كلما      سرى لك ذكر أو نسيم مُعطرُ  
وقد كان واش هاجنا لتهاجر      فبت وأحشائي جوى تنفطرُ

١ انظر أيضاً القلائد : ١٨٠ والمطرب : ١٨٩ .



فهل لك في ودِّ ذَوِيكَ ظاهراً وباطنه يتنَّدى صفاءً ويقطرُ  
ولست بعلقٍ بيعٍ بخساً وإنَّني لأرفعُ أعلاقِ الزمانِ وأخطرُ  
فروجع عنه بما ثبت أيضاً في قلائده مما أوَّلُه :

ثبتَ أبا نصرٍ عنائي ، وربما ثنتُ عزمةَ السهمِ المصممِ أسطرُ

نثره - ونثره شهير ، ونثبت له من غير المتعارف من السلطانيات ظهيراً كتبه  
عن بعض الأمراء لصاحب الشرط ، ولا خفاء بإدلاله وبراعته : كتاب تأكيد  
اعتناء ، وتقليد ذي منة وغناء ، أمر بإنفاذه فلان ، أيده الله تعالى ، لفلان  
ابن فلان ، صانه الله تعالى ، ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها ، ويضرح<sup>١</sup>  
ما تكاثف من العدو وأن في جنباتها ، تنويهاً أحظاه بعلائه ، وكساه رائق ملاءه ،  
لما علمه من سنائه ، وتوسمه من غنائه ، ورجاه من حسن منابه ، وتحققه من  
طهارة ساحته وجنابه ، وتيقن - أيده الله تعالى - أنه مستحق لما ولاه ، مستقل<sup>٢</sup>  
بما تولاه ، لا يعتربه الكسل<sup>٣</sup> ، ولا تثنيه عن المضاء الصوارم والأسل ، ولم  
يكل الأمر منه إلى وكل ، ولا ناطه بمناط عجز ولا فشل ، وأمره أن يراقب  
الله تعالى في أوامره ونواهيته ، وليعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه ، وسائله عما  
حكم به وقضاه ، وأنفذه وأمضاه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ  
يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار : ١٩) فليتقدم إلى ذلك بحزم لا يحمد توقده ، وعزم  
لا ينفد تفقده ، ونفس مع الخير ذاهبة ، وعلى متن البر والتقوى راكبة ، ويقدم  
للاحتراس من عرف اجتهاده ، وعلم أرقه في البحث وسهاده ، وحمدت  
أعماله ، وأمن تفريطه وإهماله ، ويضم إليهم من يحدو حنوهم ، ويقفو شأوهم ،

١ يضرح : يزيل وينسل ؛ وفي ق : ويصوح .

٢ مستقل : حامل للعبه ؛ وفي الإحاطة : مشتغل .

٣ الإحاطة : الكلل .

ممن لا يشراب بمناحيه ، ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه ، وأن يُدْهِكِي  
العيون على الجنّاة ، وينفي عنها لذيد السنّات ، ويفحص عن مكانهم ، حتى  
يغص بالريق<sup>١</sup> نفس آمنهم ، فلا يستقر بهم موضع ، ولا يفر منهم خب ولا  
مُوضِع ، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه ، وبث السؤال في مواضع  
تصرفه ومواطنه ، فإن لاحت شبهة أبدائها الكشف والاستبراء ، وتعدّها البغي  
والافتراء ، نكّله بالعقوبة أشدّ نكال ، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال ،  
بعد أن يبلغ إناه ، ويقف في طرفه مداه ، وحدّه له أن لا يكشف بشرة إلا في حد  
يتعين ، وإن جاءه فاسق أن يتبين ، وأن لا يطمع في صاحب مال موفور ، وأن  
لا يسمع من مكشوف في مستور ، وأن يسلك السنّ المحمود ، ويتزه عقوبته من  
الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود ، وإذا انتهت إليه قصّة مشكلة آخرها إلى  
غده ، فهو على العقاب أقدر منه على رده ، فقد يتبين في وقت ما لا يتبين في وقت ،  
والمعالجة<sup>٢</sup> بالعقوبة من المقت ، وأن يتغمد هفوات ، ذوي<sup>٣</sup> الهيئات ، وأن  
يستشعر الإشفاق ، ويخلع التكبر فإنّه ملابس أهل النفاق ، وليحسن لعباد الله  
تعالى اعتقاده ، ولا يرفض زمام العدل ولا مقّاده ، وأن يعاقب المجرم قدر  
زلته ، ولا يعتر عند ذلّته ، وليعلم أن الشيطان أغواه ، وزين له مشوّاه ،  
فليشفق من عثاره ، وسوء آثاره ، وليشكر الله تعالى على ما وهبه من العافية ،  
وألبسه من ملابسها الضافية ، ويذكره جلّ وعلا في جميع أحواله ، ويفكر في  
الحشر وأهواله ، ويتذكر وعداً ينجز فيه ووعيداً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا  
عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا  
بَعِيدًا﴾ (آل عمران : ٣٠) والأمير أيده الله تعالى ولي له ما عدل وأقسط ، وبرىء  
منه إن جار وقسّط ، فمن قرأه فليقف عند حدّه ودرسه ، وليعرف له حق

١ الإحاطة : ينهض بالروح .

٢ الإحاطة : والمجمل .

٣ الإحاطة : أولي .

قطع الشرّ وحسّمه ، ومن وافقه من شريف أو مشروف ، وخالفه في نهي عن منكر أو أمر بمعروف ، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبآل خبّله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وكتب في كذا .

وفاته - بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام تسعة<sup>١</sup> وعشرين وخمسائة ، ألفي قتيلاً ببيت من بيوت فندق أحد فنادقها ، وقد ذُبح وعُثب به ، وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من قتله ؛ انتهى نص الإحاطة .

### [ ترجمة الفتح عن المغرب ]

وقال في « المغرب » ما ملخصه<sup>٢</sup> : فخر أدباء إشبيلية بل الأندلس : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي ، صاحب « القلائد » و « المطمح » ، ذكره الحجاري في المسهب ، الدهر من رواة قلائده ، وحملة فرائده ، طلع من الأفق الإشبيلي شمساً طبّقَ الآفاق ضياؤها ، وعمّ الشرق والغرب سناها وسناؤها ، وكان في الأدب أرفعَ الأعلام ، وحسنة الأيام ، وله كتاب « قلائد العقيان » ومن وقف عليه لا يحتاج في التنبيه على قدره إلى زيادة بيان ، وهو وأبو الحسن ابن بسّام الشتمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قسّ وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناً في الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشّقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به ممّا عُرف من أجله بابن خاقان ، لكان أحدَ كتّاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولي على الرهان ، وإنّما أُخِلَّ به ما ذكرناه ، مع كونه اشتهر بدم

١ الإحاطة : سبعة .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٥٤ وبين ما أورده المقرئ وما جاء في المغرب اختلاف كبير ، هذا مع أن المقرئ يصرح بأنه يلخص .

أولي الأحساب ، والتمريرين بالطعن على الأدباء والكتّاب ، وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجة ، فوجد في فندق بحضرة مراکش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه ، وتركه مقتولاً وفي دبره وتد ، والله سبحانه يتغمده برحمته .

ومن شعره قوله من أبيات في المدح :

إلى أين ترقى قد علوت على البدرِ      وقد نلت غاياتِ السيادةِ والقدرِ  
وجدّت إلى أن ليس يذكرك حاتمٌ      وأغنيت أهل الجذب عن سبل القطرِ  
وكم رام أهل اللومِ باللومِ وقفه      وبحرك مدّ لا يؤول إلى جزرِ  
ولو لم يكن فيك السماحُ جيلةً      لأثر ذلك اللوم فيك مع الدهرِ

وذكره ابن الإمام في « سمط الجمان » وأنشد له :

لله ظبي من جنابك زارني      يختالُ زهواً في ملاءِ مراحِ  
ولي التماسك في هواه كأنه      مروانُ خافَ كتائبَ السفاحِ  
فخلعتُ صبري بالعرأ ونبذته      وركبتُ وجدي في عنانِ جماحِ  
أهدى لي الوردَ المضعفَ خدُهُ      فقطفته باللحظِ دون جنّاحِ  
وأردتُ صبراً عن هواه فلم أطقُ      وأريتُ جيداً في خلالِ مزاحِ  
وتركتُ قلبي للصبابة طائراً      تهفؤُ به الأشواقِ دون جنّاحِ

وذكره ابن دحية في « المطرب » ونعته بـابن خاقان ، قال : والشيخ أبو الحجاج اليباسي ينكر هذا ، وقيل : إنما قيل له ابن خاقان لما تقدم ذكره في كلام الحجاري ، وقال ابن دحية : إنه قُتل ذبحاً بمسكنه في فندق بيت من حضرة مراکش صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، أشار بقتله علي بن يوسف بن تاشفين .

وقال أبو الحسن ابن سعيد : رأيت فضلاء الأندلس ينتقدون على الفتح أول افتتاحه في خطبة قلائده « الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا ، وشاد مثواه في أجننتنا » لكون ما تضمنته الفقرة الأولى أصوب مما تضمنته الفقرة الثانية ، والصواب ضد ذلك ؛ انتهى .

وقال ابن الأبار في « معجم أصحاب الصديقي »<sup>١</sup> : إنّه لم يكن مرضياً ، وحذفه أولى من إثباته ؛ انتهى . ولذا لم يذكره في التكملة .

وقال ابن خاتمة : إنّه لم يُعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب . وما حكاه في « الإحاطة » من تاريخ وفاته مخالف لما حكاه ابن الأبار أنه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسائة ، قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به . وحكى ابن خلكان<sup>٢</sup> قولاً آخر أنه توفي سنة خمس وثلاثين وخمسائة ، قيل : وهو خطأ ، على أنه حكى القول الآخر أيضاً .

ودفن بباب الدباغين ، رحمه الله تعالى .

وقد قيل : إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أخي إبراهيم الذي ألف برسمه « قلائد العقيان » .

وقد ذكر ابن خلكان أن المطمح ثلاث نسخ : صغرى ، ووسطى ، وكبرى ، والذي قاله ابن الخطيب وابن خاتمة وغير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط : صغرى ، وكبرى ، ولعله الصواب ، إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

ومن تأليف الفتح « راية المحاسن وغاية المحاسن » ومجموع في ترسيبه ، وتأليف صغير في ترجمة ابن السيد البَطْلَيْوَسِي نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد<sup>٣</sup> .

١ انظر المعجم : ٣٠٠ (رقم : ٢٨٥) .

٢ وفيات الأعيان ٣ : ١٩٤ .

٣ هذا التأليف نقله المقرئ في أزهار الرياض ٣ : ١٠٣ - ١٤٩ ؛ وذكر ابن عبد الملك له مؤلفاً اسمه « حديقة المآثر » ولم أجده مذكوراً عند غيره .

[ رسائل للفتح ]

١ - ومن بديع إنشاء الفتح المذكور ساعه الله تعالى قوله : أطال الله تعالى بقاء الوزير الأجل ، عتادي الأسرى ، وزنادي الأورى ، وأيامه أعياد ، وللسعد في زمانه انقياد ، أما أنا - أدام الله تعالى عزه - فجوي عاتم ، وأعيادي ماتم ، وصبّحي عشاء ، وما لي إلا من الخطوب انشاء ، أبيت بين فؤاد خافق و طرف مُسَهَّد ، نائي المحلّة من مزار العود ، حين لا أرى الروض المنور ، ولا أحس سُهَيْلاً إذا لاح ثم تَهَوَّر<sup>١</sup> ، وقد بعدت دار إليّ حبيبة ، ودنت مني حوادثُ بأدناها تؤذّي الشيبة ، وأي عيش لمن لزم المفاوز لا يريمها ، حتى ألقه ريمها ، قد رمته النواذب فما اتقى ، وارتقت له الجوائح في وُجُور المرتقى ، يُواصل النوى ولا يهجر سبراً ، ولا يزجر في الإراحة طيراً ، قد هام بالوطن ، هيام ابن طالب بالحوض والعطن ، وحنّ إلى تلك البقاع ، حينه إلى أثلاث القاع<sup>٢</sup> ، ولا سبيل أن يشعب صدر بينه شاعب ، أو تكلمه أحجار للدار وملاعب ، وليس له إلى أين يجنح ، ولا يرى أمله يسّتح ، قد طوى البلاد وبسطها ، وتطرّف الأرض وتوسطها ، ولم يُلّف مقيلاً ، ولا وجد مقيلاً ، إلى الله أشكو ما أقاسي وأقاصي ، ويده الأقدام والنواصي ، ولقاؤه موعد كلّ موعد ، وكل معمر سيدركه يوماً حِمام الموعد ، وأنفذته وقد صدرت عن فلانة بعد أهوال لقيتها ، وأنكال سقيتها ، وسفر لقيت منه نصباً ، وكدر أعقبني وصباً ، وإلى متى يعتزني السعد؟ والله الأمر من قبل ومن بعد ؛ انتهى .

١ ق : تنور ، وصوابه « تفور » .

٢ يشير إلى يحيى بن طالب الحنفي حين اغترب عن وطنه اليمامة إلى العراق وافتقر ، وهو يقول في الحنين إلى أثلاث القاع :

أيا أثلاث القاع من بطن توضح حنيني إلى أفيانكن طويل

وقد شرح ياقوت قصته في معجم البلدان ( قرقرى ) .

٢ - وكتب رحمه الله تعالى من رسالة : سيدي لا عدمت ارتفاقاً ، ولا حُرمتَ تكييفاً من السعد وانفاقاً ، أنا الآن مشتغلُ البال ، لا أفرق بين الإعراض والإقبال ، وعند تفرغي أوجه لك ما حضر ، ومثلك أرجأ الأمر وأنظر ، وفي علم الله تعالى لو أمكنتني حملتك على كاهل ، وأوردتك منه أعذب المناهل ، وأبحت لك السعد نغراً ترشفه ، وخلعته برُداً عليك تلتحفه ، لكن الزمان لا يجد ، وصروفه لا تنجد ، وعلى أي حال فلا بد أن تجد قبرك ، وتحمد سُرّاك ، إن شاء الله تعالى .

٣ - وكتب إلى أبي بكر بن علي<sup>١</sup> عند ولايته لإشبيلية : أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجلّ أبي بكر للأرض يتملكها ، ويستدير بسعده فلتكها ؛ استبشر الملك وحق له الاستبشار ، وأوماً إليه السعد في ذلك وأشار ، بما اتفق له من توليتك ، وحقق عليه من ألويتك ، فلقد حُبّي منك بملك أمضي من السهم المسدّد :

#### طويل نجاد السيف رَحْب المقلد

يُقدِّم حيث يتأخر الذابل ، ويكرم إذا بخل الوابل ، ويحمي الحمى كربيعة ابن مُكْدَم ، ويسقي الظبي نجيماً كلون العندَم ، فهيناً للأندلس لقد استردت عهد خلفائها ، واستمدت تلك الإمامة بعد عفائها ، حتى كان لم تمر أعاصرها ، ولم يمت حكمها ولا ناصرها ، اللذان عمرا الرُصافة والزُهرا ، ونسكحا عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفية مهراً ، والله تعالى أسأله انتصار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك ، حتى يكون عَصْرُكَ أعجب من عصرهم ، ونصْرُكَ أعزّ من

١ أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين أكبر أبناء علي وكان يعرف ببيكور (تصغير تحب) ، نشأ في إشبيلية ، وكان مؤدبه أبو مروان ابن زهر ، وقد ولي أمر المدينة سنة ٥١٨ هـ وعزل عنها سنة ٥٢٢ هـ .

نصرهم ، والسلام ؛ انتهى .

٤ - وقال بعضهم : من أحسن ما رأيت له قوله : معاليك أشهر رؤسوماً ، وأعطر نسيماً ، من أن يغرب شهاب مسعاهها ، أو يجذب لرائد مرعاهها ، فإن نيهتك فإنما نيهت عمراً ١ ، وإن استترتك فإنما أستنير قمرأ ، والأمير أيده الله تعالى أجل من أعتصم في ملكه ، وأنظم في سلكه ، فإنه حسام بيد الملك ، طلاقته فيرنده ، وشهامته حده ، وقضيب ، في دوحة الشرف رطيب ، بشره زهره ، وبره ثمره ، وقد توسمت نارك لعلّي أفوز منها بقبس ، أو تكون كنار موسى بالوادي المقدس ، وعسى الأمل أن تلو بكم قداحه ، ويشف من أفقكم مصباحه ، فجرد - أيديك الله تعالى - صارم عزم لا تغل غروبه ، واطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه ؛ انتهى .

ولنذكر بعض كلامه في « المطمح » لغرابته في هذه البلاد الشرقية بخلاف « القلائد » فإنها موجودة بأيدي الناس فيه .

#### [ نماذج من تراجم المطمح ]

١ - قال رحمه الله تعالى في ترجمة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي ٢ :  
إمام اللغة والإعراب ، وكعبة الآداب ، أوضح منها كل إبهام ، وفضح دون الجهل بها محل الأوهام ، وكان أحد ذوي الإعجاز ، وأسعد أهل الاختصار والإيجاز ، نجم الأندلس في إقبالها ، والأنفس أول تهتمها بالعلم واهتبالها ، فنفتت له عندهم البضاعة ، واتفقت على تفضيله الجماعة ، وأشاد الحكم بذكره ، فأورى بذلك زناد فكره ، وله اختصار « العين » للخليل ، وهو معدوم

١ أخذه من قول يشار في مدح عمر بن العلاء :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم ثم

٢ المطمح : ٥٣ - ٥٥ .



النظير والمثل ، و « لحن العامة » و « طبقات النحويين » وكتاب « الواضح »  
 وسواها من كل تأليف مُخْجَلٍ لَمَن أتى بعده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع ،  
 كأنما يتفجر من خاطره يَنْبُوعٌ ، وقد أثبت له منه ما يقترح ، ولا يطرح ،  
 فمن ذلك قوله :

كيف بالدينِ القديمِ      لك من أمِّ تميمِ  
 ولقد كانَ شفاءً      من جوى القلبِ السقيمِ  
 يُشرقُ الحسنُ عليها      في دجى الليلِ البهيمِ

وكتب مراجعاً :

أغرقتني في بحورِ فكري      فكذتُ منها أهوتُ لَمَّا  
 كلفتنني غامضاً عويصاً      أَرجمُ فيه الظنونَ رجماً  
 ما زلت أسرو السجوفَ عنه      كأنني كاشفٌ لظلمًا  
 أقربُ من ليلِهِ ، وأنأى      مستبصراً تارة وأعمى  
 حتى بدا مشرقُ المحيَا      لَمَّا اعتلى طالعاً وتمًا  
 لله من منطوقٍ وجيزٍ      قد جلَّ قدرًا وجلَّ فهما  
 أخلصتَ لله فيه قولاً      سلّمتَ لله فيه حكما  
 إذ قلتَ قولَ امرئِ حكيمٍ      مراقبٍ للإلهِ علما  
 اللهُ ربِّي وليُّ نفسي      في كلِّ بوسٍ وكلِّ نَعْمَى

وكتب إلى أبي مسلم ابن فهد وكان كثير التكبر ، عظيم التجبر ، متغيراً<sup>٢</sup>  
 لسانه ، مقفراً من المعالم جنانه :

١ المطح : غما .  
 ٢ المطح : متفراً .

أبا مسلم ، إنَّ الفتى بفؤاده  
وليس رُواء المرء يغني قلامة  
ومِقْوَالِه لا بالمراكب والتبسِ  
إذا كان مقصوراً على قصر النفسِ  
وليس يفيدُ الحلم والعلم والحجى  
أبا مسلم طول القعود على الكرسي

واستدعاه الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين فعجل إليه وأسرع ، فأمرع من  
آماله ما أمرع ، فلما طالت نَوَاه ، واستطلت عليه لَوَعْتُهُ وجَوَاه ، وحنَّ  
إلى مستكنه بإشبيلية ومثواه ، استأذنه في اللحوق بها فلوّمه ولتواه ، فكتب إلى  
من كان يألفه ويهواه :

ويحك يا سلّم لا تُرَاعِي      لا بدّ للبين من مساعٍ  
لا تحسبني صبرتُ إلاّ      كصبرِ ميتٍ على التراعِ  
ما خلق الله من عذابٍ      أشدّ من وقفة الوداعِ  
ما بينها والحمام فرقٌ      إلا المناحات في النواعي  
إن يفرق شملنا وشيكاً      من بعد ما كان في اجتماعِ  
فكلُّ شملٍ إلى افتراقٍ      وكلُّ شعبٍ إلى انصداعِ  
وكلُّ قربٍ إلى بعادٍ      وكلُّ وصلٍ إلى انقطاعِ

٢ - وقال - ساعه الله تعالى - بعد ترجمة السلطان بالمرية المعتصم بن صّمدح  
ما نصّه : ابنه عز الدولة أبو مزوان عبد الله <sup>١</sup> ، فتي الراح المعاقيرُ لدنانها ، المهتصر  
لأغصان الفتوة وأفنانها ، المهجر لفلاة الظباء والآرام ، المشهر في باب  
الصّبابة والغرام ، نشأ في حجر أبيه نديم قهوة ، ومُدِّيم صبوة ، وخديم  
شهوة ، لا يريم كاساً ، ولا يروم إلا اقتضاء وانتكاساً ، ما شهد قتلاً ولا  
قتالاً ، ولا تقلد صارماً إلا مختللاً ، قد أمن منه جنان الجبان ، وعدت له غصون  
البان ، وما زال مرتضعاً لأخلاف البطالة ، مقتطعاً ما شاء من إطالة ، متوغلاً

١ لم ترد هذه الترجمة في المطبع المطبوع .

في شباب الفتاك ، متغلغلاً في طريق الانتهاك ، إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيراً عندما بدت له وجوه الفتنة تُسْفِر ، ومعاهد الهدنة تُقْفِر ، مع أكامل أصحابهم نُفْصانه ، وذوي أديان جعلهم خُلْصانه ، يسمعون بواذر بدآذته ، وينظرون مناكر لذاذته ، قالت سفْرتَه إلى الاعتقال ، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال ، فجاء كالمهر لا يعرف لجاماً ، وصار حبيسَ قوم لا يألونه استعجاماً ، وحين شالت نعامته ، وسالت عليه ظلامته ، كتب إلى أبيه :

أبعدَ السنا والمعالِي خمولُ      وبعد ركوبِ المذاكي كُبُولُ  
ومن بعد ما كنتُ حرّاً عزيزاً      أنا اليومَ عبدٌ أسيرٌ ذليلُ  
حللتُ رسولاً بغرناطة      فحلَّ بها فيَّ خطبٌ جليلُ  
وثُقِّفْتُ إذ جتتها مرسلًا      وقبليَ كان يُعزُّ الرَسُولُ  
فقدتُ المريّةَ أكرمُ بها      فما للوصولِ إليها سَبِيلُ

فراجعهُ أبوه بقطعة منها :-

عزيزٌ عليٌّ ونوحِي دليلُ      علي ما أقاسي ودمعي يسيلُ  
وقطعتِ البيضُ أغمادها      وشقتُ بُنودٌ وناحتُ طولُ  
لئن كنتُ يعقوبَ في حزنه      ويوسفَ أنتَ فصبرٌ جميلُ

ولم يزل يتحيل في تخلصه ، وأخذه من يد مُقْتَنِصِه ، فسُرِقَ وحراسه منه بمكان السلك من النحر ، وطرق به على ثبج البحر ، فوافى المريّة ، وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية ، فهنيء المعتصم بخلاصه ، وبقي مستقرّاً بعِراضِه ، إلى أن أخلوها ، ومضوا لطلبة ما نووها ، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر ، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذمة كانت بينهما وأواصر ، وأقام معه سَميرَ لُوه ، وأمير سهوه ، إلى أن انقرض أمدُه ، وطواه سروره لا كمدُه ، فلم يُرَ إلا

خالعاً لعذاره ، طالعاً في ثنيات اغتراره ، غير مكثرت باتضاعه ، ولا منحرف  
 عن ارتشاف الغيِّ وارتضاعه ، وبدامنه في هذه الحال ندى كاثراً به السحاب ،  
 وظاهر بسببه الصُّحاب ، وتخدّم الأوطار ، وتقدم لذوي الرتب فيها والأخطار ،  
 [ تقدماً ] حسن من ذكره ، وأولع الألسن بشكره ، فارتفع عنه الكدح ، وشفّع  
 له في الدم ذلك المدح ، وكان نظمه بديع الوصف ، رفيع الرّصف ، وقد أثبت  
 له ما يشهد بإجادته وإحسانه ، شهادة الروض بجود نيسانه .

أخبرني ابن القطان أنه سائر الأمير يحيى بن أبي بكر إلى طليطلة في جيوش  
 فاضت سيلاً ، وخاضت المطايا قتامها ليلاً ، وكان ملكاً لم يُعقد على مثله  
 لواء ، ولم يحتو على شبهه حواء<sup>١</sup> ، جمال مُحياً ، وكمال علياً ، وحسن شيم ،  
 وبعد همم ، أغنى العفاة ، وأحيا الرفات ، وألغى الأجواد ، وأنسى كعب  
 ابن مامة وابن أبي دؤاد ، فلما شارف طليطلة وكشفها ، واشتفّ بلانتها  
 وارتشفها ، وضرب بكنفها مضاربه ، وأجال بساحتها زنجه وأغاربه ، سقط  
 أحد ألويته عن يد حامله ، وانكسر عند عامله ، فطائفة تفاعلت ، وطائفة تطيرت ،  
 وفرقة ابتهجت ، وأخرى تغيرت ، فقال :

لَمْ يَنْكَسِرْ عَوْدُ اللِّوَاءِ لِطَيْرَةٍ يُخْشَى عَلَيْكَ بِهَا وَأَنْ تَأْوَلَا  
 لَكِنْ تَحَقَّقْ أَنَّهُ يَنْدُقُ فِي نَحْرِ الْعِدَا وَلَدَى اللُّغَى فَتَعَجَّلَا

وأخبرني أخوه رفيع الدولة أن ابن اللبانة كتب إليه والخلع قد نضا لبوسه ،  
 وقصر بوسه ، وكدر صفاءه ، وغدر وفاءه ، وطوى ميدان جوده ، وأذوى  
 أفنان وجوده ، قوله<sup>٢</sup> :

يَا ذَا الَّذِي هَزَّ أَمْدَاحِي بِجَلِيَّتِهِ وَعَزَّهْ أَنْ يَهْزَ الْمَجْدَ وَالْكَرْمَا

١ الحواء : مضرب الأعراب .

٢ مر البيتان وجوابهما في النفع ج ٣ : ٣٩٦ .

واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذ عكسَه لأيام المني سلماً  
فدَعَتَه دواعي الندى ، وأولعته بالجداء في ذلك المدى ، فتحيل في برّ طبعه ،  
وكتب معه :

المجدُ ينجل من تقديك في زمنٍ ثناهُ عن واجب البرّ الذي علما  
فدُونك التّرَمينِ مُصْفٍ مودَتَه حتى يوفيكَ أيامَ المني سلماً

٣ - ابنه الثاني : رفيع الدولة أبو يحيى ابن المعتصم :

من بيت<sup>١</sup> إماره ، والى السعد طوافه<sup>٢</sup> بها واعتماره ، عمرت أنديته ،  
ونشرت به رايات الغزّ وألويته ، إلى أن خوى كوكبهم ، وهوى مرقبهم ،  
فتفرقوا أيادي سبأ ، وفرقوا من وقع الأسنّة والظبي ، وفارقوا أرضاً كأرض  
غَسّان ، ووافقوا أياماً كيوم أهل اليمامة مع حَسّان ، بعدما خامرت النفوس  
مكارمهم مخامرة الرحيق ، وأمهمُ الناس من كل مكان سحيق ، وانتجعوا  
انتجاع الأنواء ، واستطعموا في المحلّ والأواء ، وصالوا بالدهر وسَطّوا ،  
وبين النهي والأمر فيه خَطّوا ، ورفيع الدولة هذا فجر ذاك الصباح ، وضوء  
ذلك المصباح ، وغصن تلك الدوّحة ، ونسيم تلك النفحة ، لم يمتهن والدهر قد  
بذله ، ولا ترك الانتصار والأمر قد خذله ، فالتحف بالصون وارتدى ، وراح  
على الانتباض واغتدى ، فما تلقاه إلا سالكاً جَدّداً ، ولا تراه إلا لابساً سُودداً ،  
وله أدب كالروض المَجُود إذا أزهَر ، ونظم كزهر التهائم والنجود بل كالصبح  
إذا أسفر واشتهر ، أوقفه على التسيب ، وصرفه إلى المحبوبة والحبيب ، فمن ذلك  
قوله<sup>٣</sup> :

١ الملمح : ثنية .

٢ الملمح : حبه .

٣ انظر أيضاً بعض هذه المقطعات في الحلة ١ : ٨٣ - ٨٤ .

ما لي وللبدن لم يسمح بزورته  
إن كان ذلك لذنب ما شعرت به

وله أيضاً :

يا عابدَ الرحمنِ كم ليلة  
إذ كنت كالغصنِ ثننته الصَّبَاً  
أرقتني وجداً ولمْ تشعرِ  
وصحن ذلك الخدَّ لم يشعرِ

وله أيضاً :

وأهيفَ لا يلوي على عتبِ عاتبِ  
يحكم فينا أمره فنطيعه  
ويقضي علينا بالظنونِ الكواذبِ  
ونحسب منه الحكم ضربة لازبِ

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

وعَلِقْتَهُ حَلْوَى الشَّمَائِلِ مَا جَنَأَ  
ما زلتُ أنصفه وأوجبُ حقَه  
خنتَ الكلامِ مرثعَ الأعطافِ  
لكنَّهُ يَأبَى مِنَ الْإِنصَافِ

وله أيضاً :

حبيبٌ متى ينأى عن العينِ شخصُه  
ويسكن ما بين الضلوعِ إذا بدا  
يَكَادُ فَوَادِي أَنْ يَطِيرَ مِنَ الْبَيْنِ  
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي تَمَائِمَ مِنْ عَيْنِ

وله أيضاً :

أفدتي أبا عمرو وإن كان جانياً  
فما كان ذلك الود إلا كبارقِ  
عليّ ذُنوباً لا تُعَدُّدُ بِالْعَتَبِ<sup>١</sup>  
أضواء لعيتي ثمَّ أظلم للقلبِ<sup>٢</sup>

١ المطح : بالبهت .

٢ المطح : في الوقت .

وله وقد بلغه موثي ، وثحقق عنده فوني ١ :

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك المحابر والأقلام والطرس  
ما كنت أحسب يوماً قبل ميتته أن البلاغة والآداب تخلص  
واستأذن ليلة على أحد الأمراء وأنا عنده في أسنى موضع ، وأبى مطلع ،  
وجوانب حقدِه بين يديّ محتلة ، وسحائب رفده عليّ منهلّة ، وكان  
أجمل من مقلّ ، وأكل من من المهد إلى سرير الملك قد نُقل ، وكتب  
إليّ يهيني بقدم من سفر :

قدمت أبا نصر على حال وحشة فجاءت بك الآمال واتصل الأنس  
وقررت بك العينان واتصل المنى وفازت على يأس بيغيتها النفس  
فأهلاً وسهلاً بالوزارة كلها ومن رأيه في كل مظلمة شمس

٤ - وقال في المطمح في ترجمة الوزير أبي الوليد ابن حزم ٢ : واحد دونه  
الجمع ، وهو للجلالة بصر وسمع ، روضة علاه رائقة السنا ، ودوحة بهاه  
طيبة الخنى ، لم يتزر بغير الصون ، ولم يشتهر بفساد بعد الكون ، مع نفس  
برئت من الكبر ، وخلصت خلوص التبر ، مع عفاف التحف به بروداً ،  
وما ارتشف به نغراً بروداً ، فعفت مواطنه ، وما استرابت ظواهره ولا بواطنه ،  
وأما شعره ففي قالب الإحسان أفرغ ، وعلى وجه الاستحسان يلقي ويبلغ ،  
وكتب إليه ابن زهر :

أبا الوليد وأنت سيد مدحج هلاً فككت أسير قبضة وعده  
وحياة من أمد الحياة بوصله وذهابها حتماً بأيسر صدّه

١ لم ترد في المطمح .

٢ المطمح : ٣١ - ٣٤ .

لَأَقَاتِلَنَّكَ إِنْ قَطَعْتَ بِمُرْهَفٍ مِّنْ جَفْنِهِ وَبِصَعْدَةٍ مِّنْ قَدِّهِ

فراجعه أبو الوليد :

لَبَّيْكَ يَا أَسَدَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا مِنْ صَادِقِ عَيْثِ الْمَطَالُ بُوْعَدِهِ  
يَمْضِي بِأَمْرِكَ سَاءَ أَوْ سَرَّ الْقَضَا وَيَقُلُّ حَدَّ النَّائِبَاتِ بِحَدِّهِ  
إِيهِ وَوَأَفَقْتُ الصَّبَا فِي مَعْرُضِ ذَهَبِ الْمَشِيبِ بِهَزْلِهِ وَبِجَدِّهِ

٥ - وقال في المطمح في ترجمة أبي بكر الغساني ، ما صورته <sup>١</sup> :

صليب العود ، مهيب الوعود ، لو دعني له الأسد الورْد لأجاب ، ولو رمي  
بذكره الليلُ البهيم لانجاب ، ولو قعدت بين يديه الأطواد لتحرك سكونها ،  
ولو عصته الطيور ما آوتها وكونها ، مع وقار نخاله يدبُّلاً ، وفخار يفضح  
بلبلاً ، وشيِّم لو كانت بالروض ما ذوى ، أو تقاسمت في الخلق ما رمد  
أحد بعدما شوى ، وسجايًا تنجلي عنها الظلماء ، كأن مزاجها غسل وماء ؛ انتهى .  
وهذا الغساني هو صاحب تفسير القرآن وقد عرّف به في «الإحاطة»  
فليراجع ثمة .

٦ - وقال أيضاً في المطمح ما صورته : أبو عامر ابن عقال <sup>٢</sup> .

كان له ببني قاسم تعلق ، وفي سماء دولتهم تألّق ، فلما خوت نجومهم ،  
وعقّت رسومهم ، انحط عن ذلك الحصوص ، وسقط سقوط الطائر المقصوص ،  
وتصرف بين وجود وعدم ، وتحرف قاعداً حيناً وحيناً على قدّم ، وفي  
خلال حاله ، وأثناء انتحاله ، لم يدع حفظه <sup>٣</sup> من الحبيب ، ولا ثنى لحظه

١ لم ترد هذه الترجمة في المطمح المطبوع .

٢ المطمح : ٨٦ - ٨٧ وكتبه فيه «ابن عقال» وقد مر في غير موطن من هذا الكتاب «ابن عيال»  
ويتصفح كثيراً «ابن غتال» ... إلخ .

٣ المطمح : حفظاً .



عن الغزال الريب ، ولم يزل يطير ويقع ، والدهر يخرق حاله ويرقع <sup>١</sup> ، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى أعلى ربوة <sup>٢</sup> ، وأراه <sup>٣</sup> أبهى حظوة ، فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير والإنشا ، وترك الدهر قلق الحشا ، وتسم منزلة لا يتسمنها إلا من تطهر من درته ، وجمع إحسانه في ميدان حرته ، والحظوظ أقسام لا تسام ، والدنيا إنارة وإعتام <sup>٤</sup> :

ولو لم يعَلْ إلا ذو محلِّ . تعالى الجيش وانحطَّ القتام <sup>٥</sup> .

وقد أثبت عنه بعض ما انتقته ، والذي أخذته مباين لما أبقيته ، فمن ذلك قوله :

يا ويح أجسام الأنا	م لما تطيق من الأذى
خلقت لتقوى بالغذا	ء وسقمها ذاك الغذا
وتنال أيام السلا	مة بالحياة تلذذا
فإذا انقضى زمن الصبا	ورمى المشيب فأنفذا
وجد السقام إلى المفا	صل والجوانح منفذا
ويقول مهما يعط شي	ئاً ناولوني غير ذا

وحذا في هذه القصيدة حدو الصابي في قوله <sup>٦</sup> :

وجع المفاصل وهو أي	سر ما لقيت من الأذى
رد الذي استحسنه	والناس من حظي كذا
والعمر مثل الكاس ير	سب في أواخرها القذى

١ المطح : يخفض . . . ويرقع .

٢ المطح : إلى أسى ذروة .

٣ المطح : ورداه .

٤ زاد في المطح : وصفاء يطلوه قتام .

٥ البيت للمتنبى (شرح الواحدي : ١٦٢) .

٦ البيمة ٢ : ٣٠٠ .

وله يعتذر عن زيارة اعتمادها ، ومواصلة اعتقادها ، فعاقته عنها حوادث  
لوتته ، وعدته عن ذلك وثنته :

بينما كنتُ راجياً للقائه      والتشفتي بالبشر من تلقائه  
وترقتُ من سماء نزاعي      قمر- الأنس طالعاً من سمائه  
إذ دهاني اعتراضُ خطبِ ثنائي      عن غمام يشفي الغليل بمائه  
فتدلّهُ وانزويتُ حياءً      منه والعدر واضح لسناته

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة  
خمس عشرة وخمسمائة : وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جوازُه - أيده  
الله تعالى - من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه ،  
وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه ، وصار حيه ميّتا ، وهذره صمتاً ،  
وجباله لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً ، وضعف تعاطيه ، وعقد السلم بين  
موجه وشاطيه ، فعبر آمناً من هواته ، متملكاً لصهواته ، على جواد يقطع  
الجو سباحاً ، ويكاد يسبق البرق لمتحاً ، لم يحمل لجاماً ولا سرجاً ، ولا عهد  
غير اللجة الخضراء مرجاً ، عنانه في رجله ، وهذب العين يحكي بعض شكله ،  
فلله هو من جواد ، له جسم وليس له فؤاد ، يخرق الهواء ولا يرهبه ، ويركض  
الماء ولا يشربه .

٧ - وقال في ترجمة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبلي<sup>١</sup> ،

ما نصّه :

من ثنية شرف وحسب ، ومن أهل حديث وأدب ، إمام في اللغة متقدم ،  
فارع لرتب الشعر متسنّم ، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ، ثم عاد

المطح : ٥٠ .

وقد توجَّع بالمعارف المفرِّق ، وأقام بقرطبة علماً من أعلامها ، ومتسناً لترفعها وإعظامها ، تؤثره الدُّول ، وتصطفيه أملاكها الأول ، ما زال فيها مقيماً ، ولا يرح عن طريق أمانيتها مستقيماً ، إلى أن اغتيلَ في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولاً في فراشه ، مذهولاً كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه ، وقد أثبتُّ من محاسنه ما يعجب السامع ، وتُصغى إليه السامع ، فمن ذلك قوله :

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم<sup>١</sup> على ما به منهم حين الأباعر  
وأصبر عن أحباب قلب ترحلوا<sup>٢</sup> ألا إن قلبي سائر غير صابر

ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم ، اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم ، فلما رأى تلك الكثرة ، وما له عندهم من الأثرة ، قال :

لأتي إذا حضرتني ألفُ محبرة<sup>٣</sup> يكتبن حدثني طوراً وأخبرني  
نادت بمفخري الأقلام<sup>٤</sup> معلنة<sup>٥</sup> هذي المفاخر لا قعبان من لبن

وكتب إلى ذي الوزارتين أبي الوليد ابن زيدون :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار<sup>٦</sup> وقل منّا ومنك اليوم زوار<sup>٧</sup>  
وبيننا كل ما تدر به من ذمم<sup>٨</sup> وللصبا ورق خضر وأنوار<sup>٩</sup>  
وكل عتب وإعتاب جرى فله<sup>١٠</sup> بدائع حلوة عندي وآثار<sup>١١</sup>  
فاذكر أخطاك بخير كلما لعبت<sup>١٢</sup> به الليالي فإن الدهر دوّار<sup>١٣</sup>

٨ - وقال في ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبي عمر أحمد بن عبد

ربه ٢ :

١ سقط هذا البيت من ق .

٢ المطمح : ٥١ - ٥٣ وبعض مقطعات ابن عبد ربه وردت في الأجزاء السابقة .

عالم ساد بالعلم ورأس ، واقتبس به من الخطوة ما اقتبس ، وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره ، واستطار شرر الذكاء فكره ، وكانت له عناية بالعلم وثقة ، ورواية له متسفة ، وأما الأدب فهو - كان - حجته ، وبه غمرت الأفهام بلحته ، مع صيانة وورع ، وديانة ورد ماءها فكرع ، وله التأليف المشهور الذي سماه «العقد» ، وحماه عن عثرات النقد ، لأنه أبرزه مُثَقَّف القناة ، مرهف الشبابة ، تقصُر عنه ثواب الألباب ، وتبصر السحر منه في كل باب ، وله شعر انتهى متنها ، وتجاوز سيماك الإحسان وسماه .  
أخبرني ابن حزم أنه مرَّ بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لبّه ، وأهلب قلبه ، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رُشَّ بماء من أعاليه ، فاستدعى رقعة ، وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة :

يا مَنْ يَضُنُّ بصوت الطائرِ الغردِ      ما كنت أحسبُ هذا الضنَّ في أحدٍ  
لو أنَّ أَسْماعَ أهلِ الأرضِ قاطبةً      أصغتْ إلى الصوتِ لم ينقصْ ولم يزد  
فَلا تَضنَّ على سمعي ومُنَّ بهِ      صوتاً يجولُ مجالَ الروحِ في الجسدِ  
أما التَّيِّدُ فإنِّي لست أشربه      ولا أجيئكَ إلا كِسرتي بيدي

وعزَمَ فتى كان يتألّفه ، وخامره كلفه ، على الرحيل في غدّه ، فأذهبت عزمته قوى جلدّه ، فلمّا أصبح عاقته السماء بالأنواء ، وساقته مكرهاً إلى الثواء ، فاستراح أبو عمر من كمدّه ، وانفسح له من التواصل ضائق أمده ، فكتب إلى المذكور ، العازم على البكور :

هَلَّا ابتكرتَ لبينِ أنتَ مبتكرُ      هيهات يا أبى عليكَ اللهُ والقَدَرُ  
ما زلتَ أبكي حِذارَ البينِ ملتهاً      حتى رثي لي فيكَ الريحُ والمطرُ  
يا بَرْدَهُ من حيا مُزِنِ على كبدِ      نيرانها بغليلِ الشوقِ تستعُرُ  
أليتُ أن لا أرى شمساً ولا قمرأ      حتى أراك فأنّتَ الشمسُ والقمرُ

ومن شعره الذي صرّح به تصريح الصب ، وبرّح فيه وقائع اسم الحب ،  
قوله :

الجسمُ في بلدٍ والروحُ في بلدٍ      يا وحشةَ الروح بل يا غربةَ الجسدِ  
إن تبك عيناك لي يا مَنْ كلفتُ بهِ      من رحمةٍ فهما سهماك في كبدي  
ومنه قوله :

ودّعني بزفرةٍ واعتناقٍ      ثمّ نادتُ متى يكونُ التلاقي  
وبدتُ لي فأشرق الصبحُ منها      بين تلك الجيوبِ والأطواقِ  
يا سقيمَ الجفونِ من غيرِ سقمٍ      بينَ عَيْنَيْكَ مصرعَ العشاقِ  
إنّ يومَ الفراقِ أفضعُ يومٍ      ليّني متُّ قبلَ يومِ الفراقِ  
وله أيضاً :

يا ذا الذي خطّ الجمالُ بحدّه      خطّينِ هاجا لوعةً وبلا بلا  
ما صحّ عندي أنّ لحظك صارمٌ      حتى لبستَ بعارضيك حمائلًا

وأخبرني بعضهم أن الخطيب أبا الوليد ابن عيال<sup>٢</sup> حج ، فلما انصرف ،  
تطلّع إلى لقاء المتنبي واستشرف ، ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها ، وحلّة فخر لا  
يحتسبها ، فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلاً ، ثمّ  
قال : أنشدني للمليح الأندلس ، يعني ابن عبد ربّه ، فأنشده :

يا لؤلؤاً يسبي العقولَ أنيقاً      ورشاً بتقطيعِ القلوبِ رفيقاً  
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلهِ      درأً يعودُ من الحياءِ عقيقاً

١ المطح : بزورة .  
٢ كذا هنا وفي بعض أصول المطح : ابن عقال .

وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وجهه      أبصرتَ وجهك في سناه غريقاً  
يا مَنْ تَقطعُ خَصْرَهُ من رِقَّةٍ      ما بالُ قلبك لا يكونُ رقيقاً

فلمّا أكمل إنشادها استعادها منه ، وقال : يا ابن عبد ربّه ، لقد تأتيتك  
العراق حبّوا .

وله أيضاً :

ومُعَدَّرَ نَقَشَ الجِمالُ بِحُطِّهِ      خَدّاً لهُ بدمِ القلوبِ مضرّجاً  
لَمّا تيقنَ أنَّ سيفَ جفونه      من نرجسٍ جعل النّجادَ بنفسجاً

وله أيضاً :

وساحبة فَضَّلَ الذبولِ كأنّها      قَضيبٌ من الریحانِ فوقَ كَثيبِ  
إذا ما بدت من ثغرها قال صاحبي      أطعني وخُذْ مِنِ وصلها بنصيبِ

وله أيضاً :

هَيَجَ الشوقُ دواعيَ سقمي      وكسا الجسمَ ثيابَ الألمِ  
أيتها البينُ أقلني مرّة      فإذا عُدتُ فقد حلّ دمي  
يا خليّ الذرّعِ نمّ في غبطة      إنَّ من فارقته لم ينمِ  
ولقد هاجَ بجسمي سقماً      حُبُّ من لو شاء داوى سقمي

وبلغ سنّ عَوْفِ بنِ مُحَلِّمٍ<sup>١</sup> ، واعترف بذلك اعتراف متألّم ، عندما وهتّ  
شدته ، وبليت جدّته ، وهو آخر شعر قال ، ثمّ عثر في أذبال الردي وما  
استقال :

١ هو القائل :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمي إلى ترجمان

كِلَانِي لِمَا بِي عَاذِلِي كَفَانِي طَوِيْتُ زَمَانِي بِرُهْمَةٍ وَطَوَانِي  
 بَلِيْتُ وَأَبَلَيْتُ اللَّيَالِي مُكْرَهًا وَصَرْفَانِ لِلْأَيَّامِ مَعْتُورَانِ  
 وَمَا لِي لَا أَبْلِي لِسَبْعِينَ حِجَّةً وَعَشْرًا أَنْتَ مِنْ بَعْدِهَا سَنَتَانِ  
 فَلَا تَسْأَلَانِي عَنْ تَبَارِيحِ عَلْتِي وَدُونِكَمَا مَنِّي الَّذِي تَرِيَانِ  
 وَإِنِّي بِحَوْلِ اللَّهِ رَاجٍ لِفَضْلِهِ وَلِي مِنْ ضَمَانِ اللَّهِ خَيْرَ ضَمَانِ  
 وَلَسْتُ أَبَالِي مِنْ تَبَارِيحِ عَلْتِي إِذَا كَانَ عَقْلِي بَاقِيًا وَلِسَانِي

وفي أيام إقلاعه عن صَبُونِهِ ، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوبتته ، وانثنائه عن  
 مجون المجون إلى صفاء توبته ، محص أشعاره في الغزل بما ينافيها ، ونصل من  
 قوادمها وخوافيها ، بأشعار في الزهد على أعاريضها وقوافيها ، منها القطعة  
 التي أولها :

هَلَّا ابْتَكْرَتَ لِيِنَّ أَنْتَ مُبْتَكِرٌ

محصها بقوله :

يَا رَاقِدًا لَيْسَ يَعْضُو حِينَ يَقْتَدِرُ مَاذَا الَّذِي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ تَنْتَظِرُ  
 عَيْنٌ بِقَبْلِكَ إِنَّ الْعَيْنَ غَافِلَةٌ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا سَقِرٌ  
 سَوْدَاءٌ تَزْفَرُ مِنْ غَيْظٍ إِذَا سَفَرَتْ لِلظَّالِمِينَ فَلَا تَبْقِي وَلَا تَذُرُ  
 لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرُ الْمَوْتِ مَوْعِظَةٌ لَكَانَ فِيهِ عَنِ اللَّذَاتِ مُزْدَجَرٌ  
 أَنْتَ الْمَقُولُ لَهُ مَا قَلْتُ مُبْتَدَأًا : هَلَّا ابْتَكْرَتَ لِيِنَّ أَنْتَ مُبْتَكِرٌ

٩ - وقال في ترجمة أبي القاسم المنيشي ، ما صورته ١ :

أبو القاسم المنيشي ، أحد أبناء ٢ حضرة إشبيلية المقلِّين ، الناهضين بأعباء

١ المطمح : ٨٨ والنص مختلف عما أورده المقرئ .

٢ المطمح : أنساء .

الضرائر المستقلّين ، لم يزل يَعْشُو لكل ضوء ، ويتتبع مَصَاب كل نَوْء ،  
 فيوماً يَحْصِب ويوماً يُجْدِب ، وآونة يفرح وأخرى ينتدب ، إلى أن صدقت  
 مخايله ، فرمقت بخوته وتحايله ، وأتى من العجب ، بمنسدل الحُجُب ، ومن  
 الأشر ، ما لم يأت من بشر ، وما تصرف إلاّ في أنزل الأعمال ، ولا تعرّف  
 إلاّ بأخون العمال ، لم يقرّع ربّوة ظهور ، ولم يقرع باب رجل مشهور ،  
 وله أدب ولتسن ، ومذهب فيهما يُسْتَحْسَن ، لكنّه نكب عن المقطع الجزل ،  
 وذَهَب مذهب الهزل ، إلا في النادر فر بما جدّ ، ثم أخلق منه ما استجدّ ، وعاد  
 إلى دَيْدَنه ، عودة أبي عبادا إلى واواته ومُدنه ، وأخذ في ذلك الغرض ، وليس  
 شرط كتابي بداءه ، ولا أن يقف حذاءه ، وقد أثبت له ما هو عندي نافع ،  
 ولغرض كتابي موافق ، فمن ذلك قوله :

يا رَوْضَةً باتت الأنداءُ تخدمُها      أتى النسيمُ وهذا أولُ السَّحَرِ  
 إن كانَ قدْكَ غصناً فالتراءُ بِهِ      مثلُ الكمامِ قد زُرَّتْ على الزهرِ  
 اربأ بجديك عن وردٍ وعن زهرٍ      واغنِ بقرطيك عن شمسٍ وعن قمرِ  
 يا قاتلَ الله لحظي كم شقيتُ بِهِ      من حيثُ كان نعيمُ الناسِ بالنظرِ

وله من رثاء في والدتي رحمة الله عليها :

يا ناصحي غيرَ مفتاتٍ ولا شجنٍ      على النَّصائحِ والنُّصاحِ مفتاتُ  
 لا أستجيبُ ولو ناديتُ من كَثَبِ      قد وقدتني تعلاتٌ وعلاتُ  
 إن كانَ رأيك في برِّي وتكرمي      بحيثُ قد ظهرتُ منه علاماتُ  
 لا ترضَ لي غيرَ شجوي لا أفارقهُ      فدَاكَ اختارهُ والناسُ أشتاتُ

ومنها :

يا ذا الوزارة من مثني وواحدةٍ      لله ما اصطنعتُ منكِ الوزاراتُ

١ أبو عباد هو معبد المفتي ، وطنه الحان له تسمى حصون معبد .



لله منك أبا نصر أخو جلد  
أستودعُ اللهَ نوراً ضمته كفنٌ  
قضتُ وليتُ شباي كان موضعها  
مضتُ ولما يقمُ من دُونها أحدٌ  
إذا أَلَّتْ مَلَمَّاتٌ مَهَمَّاتٌ  
كما تُؤَارِي بدورَ الَمِّ هالاتٌ  
هيهات ؛ لو قُضِيَتْ تلكَ اللَّبَّاتُ  
هَلَاً وقد أَعذرتُ فيها المِروءاتُ  
وله يُصِفُ زرزوراً :

أَمْبِرُ ذاكَ أَم قُضِبُ  
يُخْتالُ في بُردِتي شِبابُ  
كَأَنما ضَمَّخَتْ عليه  
أُخْرَسُ لَكنهُ فَصيحُ  
يُفرِعُهُ مُصْتَفَعُ خَطيبُ  
لَمْ يَتوضَحْ بِها مَشيبُ  
أُبرادَهُ مَسكَةٌ وطيبُ  
أُبسلُهُ لَكنهُ لَيبُ  
صعبٌ على أَنَّهُ أَرِيبُ  
جَهْمٌ على أَنَّهُ وَسِيمُ

١٠ - أبو الحسن البرقي ١ :

بلنسي الدار ، نفيسي المقدار ، ما سمعت له بشرف ، ولا علمت له بسلق ،  
ولا اطلعت منه على غير سرف ، ورد إشيلية سنة تسع وتسعين وأربعمائة ٢ ،  
واتصل بابن زُهْر ، فناهيك من حظ في أكتافه جال ، ومن لحظ فيما أراده أجال ،  
ومن أمل استوفر ، وحظ مسك أذفر ، ومن وجه جاه له أسفر ، سلك به ساحة  
الرغائب ، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب ، وقال فما نبذت مقالته ، وأقال  
فما قيِّدَتْ إقالته ، وكان حلو المجالسة ، مجلِّو الموانسة ، ذا نَشَب وافر ،  
ومذهب في المساهمة سافر ، إلا أَنَّهُ كان كلفاً بالفتيان ، مُعَنَّى بهم في كل  
الأحيان ، ونيف على السبعين وهو برداء الصبوة مرتد ، وبعترتها معتد ،  
مع أدب زهرته تَرَفٌ ، وكأنه بحر والألباب منه تغترف ، وقد أثبت له بعض

١ المطمح : ٨٩ .

٢ المطمح : سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ما وجدت له في الغلمان ، وأنشدت له في تلك الأزمان ، فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

إن ذكرت العقيقَ هاجك شوقٌ      رُبَّ شوقٍ يهيجُهُ الادِّكارُ  
يا خليليَّ حدثاني عن الرِّكِّ      بِ سُحيرٍ أأنجدوا أم أغاروا  
شغلونا عنِ الوداعِ وولوا      ما عليهِم لو ودَّعوا ثمَّ ساروا  
أنا أهواهُمُ على كلِّ حالٍ      عدلوا في هواهُمُ أم جاروا

وعلق بإشيلية فتى يُعرف بابن المكر ، وبات من حبه طريحاً بين أيدي السواس والفكر ، لا يمشي إلا صَبّاً ، ولا يفشي إلا غراماً وحبّاً ، وما زال يقاسي لوعته ، مفاصةً يناجي بها صرعته ، ويكابد جواه ، ويلازم هواه ، حتى اكتسى خدّه بالعدار ، وانمحت عنه بهجة آذار ، فسلا من كلفه ، وتصدى ذلك لمواصلته بصلفه ، فقال :

الآنَ لَمَّا صَوَّحَتْ وجنَّتهُ      شوكتاً وأضحتْ سلوةَ العشاقِ  
واستوحشتُ منه المحاسنُ واكتستُ      أنوارُ وجهكِ واهنَ الأخلاقِ  
أسميتُ تبذلُ لي الوصالَ تصنعاً      خلقُ اللثيمِ وشيمةُ المذَّاقِ  
هلاً وصلتَ إذ الشمائلُ قهوةٌ      وإذ الحيّا روضةُ الأحداقِ  
يا كم أطلتَ غرامَ قلبٍ مُوجعٍ      كم قدَّ ألبَّ إليكِ بالأشواقِ  
ما كنتَ إلا البدرَ ليلةً تمه      حتى قضتُ لكِ ليلةً بمحاقِ  
لاحَ العِذارُ فقلْتُ وجدُّ نازحٌ      إنَّ ابنَ دايةٍ مؤذنٌ بفراقِ

وله فيه مناقضاً لذلك الغرض ، معارضاً للوعة سلوه الذي كان عرض :

يلومون في ظبيِّ ترايدَ حُسْنُهُ      بخطَّينِ خطَّاً لوعتي وغراميا

١ ابن داية : الغراب .

وقد كنتُ أهوى خدّه وهوَ عاطلٌ فكيفَ وقد أضحى لعينيَ حالياً

وله أيضاً في مثله :

أجبلُ الطرفِ في خدِّ نضيرٍ يرددُ ناظريَ نظريَ إليهِ  
إذا رمِدَتُ بحمرتهِ جفونيَ شفاها منهُ إمددُ عارضيهِ

١١ - أبو الحسن علي بن جودي<sup>١</sup> :

برَزَّ في الفهمِ ، وأحرزَ منه أوفرَ سَهْمِ ، وعانى العلومَ بقريحةِ ذكِيَّةِ ،  
وواخى بنفسِ في المعارفِ زكيةِ ، وله أدبٌ واسعٌ مداهُ ، يانعٌ كالروضِ بللّه  
نداهُ ، ونظمٌ أرقٌ من دمعِ العاني ، ولطيفُ المعاني ، وأعَبَقَ من نفسِ الخمائلِ ،  
في أكفِّ الصبَا والشمائلِ ، ونثرَ كالزهرِ المَطْلُولِ ، أو السلكِ المحلولِ ، إلا  
أنّه سَهَا فأسرفَ ، وزها بما لا يعرفُ ، وتصدى إلى الدينِ بالافتراءِ ، ولم يراقبِ  
اللهَ تعالى في ذلكِ الاجتراءِ ، واشتهرتِ عنهُ في ذلكِ أقوالٌ سَدَّدَ إلى المِلَّةِ نصالها ،  
وأبدى بها ضلالها ، فعظُمَت به المحنةُ ، وكنتَ له في كلِّ نفسٍ إحْنَةً ، وما زال  
يتدرّجُ فيها وينتقلُ ، حتى عثرَ وما كاد يستقلُ ، فمرَ لا يُلَوِّي على تلكِ النواحيِ ،  
وفرّاً لا يثنِي إلى لوائِمِ ولواحيِ ، وما زال يركبُ الأهواءَ ويخوضُها ، ويدللُ  
النفسَ بها ويروضُها ، حتى أَسَمَحَت ببعضِ الإسماحِ ، وكفَّت عن ذلكِ الجُمُوحِ ،  
واستقرَ عندَ أبي مالكٍ فأواه ، ومهدَّ له مثنواه ، وجعله في جملةِ من اختصَ من  
المبطلينَ ، واستخلصَ من المعطلينَ ، فكثيراً ما يصطفِيهم ، ولا يدري أيدُ خَرَمِهم  
أم يفتنِيهم ، وقد أثبتَ لهُ ما يبهرُ سامعاً ، ويظهرُ برقاً لامعاً ، فمن ذلكِ قوله :

أحنُّ إلى رِيحِ الشمالِ فإنّها تذكُرنا نجداً وما ذِكرُنا نجداً  
تعرُّ على رِبْعِ أقامَ به الهوى وبدلَ من أهليهِ جامئةً رُبداً

١ المَطْمَحُ : ٩٠ وبين النصين اختلاف .

فأرشفَ اللَّحميَا وأعتقَ القَدَا  
فيا لَيْتَ شعري هل تُفَضِّي لُبَانَهُ  
خليلي لا والله ما أحملُ الهوى  
وإن كنتُ في غير الهوى رجلاً جَلْدَا  
وقوله أيضاً :

لساكن نجد قد نَحَمَلَهَا الركبُ  
سلِ الركبَ عن نجدٍ فإنَّ تَحِيَّةَ  
خفافاً وما للريح مرجعُها رَطْبُ  
وإلا فما بالُ المطيِّ على الوجي  
وقوله أيضاً :

فبالغرب من نهوى له البلد الغربا  
إذا ارتحلتَ غربية فاعرضا لها  
بأرضين شتَى لا مزاراً ولا قربا  
لقد ساءنا أنا بعيدٌ وأنا  
وإما أمورٌ باعثاتٌ لنا كربا  
يفجعنا إما بعسادٍ مبرحٍ  
فيا ليت لم ندرِ اللَّيالي ولا الخطبا  
ظعننا على حكم اللَّيالي وخطبها  
دياراً وقرباً والأصادق والصبا  
وكنتُ أرجي الدهر بعد الذي مضى  
إليك ولمْ تحدُ الحداةُ لنا ركبا  
أحقاً يسيرُ الركبُ لم ترتحلُ بنا  
وقوله أيضاً :

بتدميرِ ذكرى ساعدتها المدامعُ  
لقد هيَّجَ النيرانَ يا أمَّ مالكٍ  
ولا أنا أن يدنو مع الليل طامعُ  
عشيّة لا أرجو لقاءك عندها  
وقوله أيضاً :

نعالجُ شوقاً ما هناك هانيا  
حننتُ إلى البرق اليماني ، وإنما  
تحيتنا إن كنتَ تلجأ لاقيا  
فيا راكباً يطوي البلادَ تحمّلنُ  
سقى الله يا فيحاء تلك اللَّيالي  
ليالينا بالجزعِ جزعٍ محجرٍ  
أحيي بها تلك الرسوم البوالي  
وما ضرَّ صحبي وقفةٌ بمحجرٍ

وله أيضاً :

خليلي من نجدٍ فإنَّ بنجدهم مَصيفاً لبيت العامريِّ ومَرَبَعاً  
ألا رجعا عنها الحديثُ فإتني لأغبطُ من ليلى الحديثِ المرجعاً  
عزيزُ علينا يا ابنةَ القومِ أتنا غريبانِ شتى لا نطيقُ التجمعا  
فريقُ هوى منّا يمانٍ ومُشتمٌ يحاولُ يأساً أو يحاولُ مطمعا  
كأنا خلقتنا للنوى وكأتما حرامٌ على الأيامِ أن تتجمعا

ووجدت له في بعض نسخ «المطمح» قوله أيضاً<sup>١</sup> :

سقى دارك اللائي ببطنٍ مُحَصَّبٍ مثاكيلَ من وفدِ الغمامِ المرتحِ  
ألمَ تعلمي يا فتنةَ القلبِ أنتي تطارحتُ من حيي لكم كل مطرحِ  
إذا نعبتُ غربانُ دارٍ وجدنتي وشوقي مقيمٌ بين ناءٍ ونزحِ

وله أيضاً :

ألا خبر وللبلوى ضروبُ وفيك لكلٍ مشتاق حبيبُ  
حباك الله بالنعمى فنوناً وجرَّ لكم مع النعمى خطوبُ  
متى تقضي بحسفتك الليالي وتعصفُ فيكم ريحُ هبوبُ  
فإنكم تجرون المنايا وتعمرُ من مجانيكم قلوبُ

وقد ذكر في «المطمح» له تخميساً جارياً على ألسنة الناس إلى الآن ، وهو :

أيا ساكنين بأرضِ اللوى وصالكم لسقامي دوا  
وعافاكم الله من ذا الجوى ملكم فؤادي فصار الهوى  
علي رقيبٌ رقيبٌ رقيبٌ

١ وردت هذه القطعة في ق بعد القطعة التي أولها « إذا ارتحلت غريبة . . . » .

ولمّا تبدّت لهم حالتي وما حرّك الهجرُ من زفرتي  
بَكَوْا رحمةً لي من ساعتي فقلتُ متى الوصلُ يا سادتي  
فَقَالُوا قَرِيبٌ قَرِيبٌ قَرِيبٌ

وهو وإن لم يكن في ذروة البلاغة فقد ذكرته لأنه مطروق بالمغرب عند أهل  
التلاحين وغيرهم .

ولنذكر بعض نص خطبة المطمح ، قال رحمه الله تعالى فيه : أمّا بعد حمد  
الله الذي أشعرنا إيماناً<sup>١</sup> وإلهاماً ، وصبر لنا أفهاماً ، ويسر لنا بزود آداب ،  
ونشّرنا للانبعاث لإثباتها والانتداب ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه  
رحمة ، ونبأه منة منه ونعمة ، وسلّم تسليمياً ، فإنه كان بالأندلس أعلام ،  
فتنوا بسحر الكلام ، ولقوا منه كل تحية وسلام ، فشعشعوا البدائع وروّقوها ،  
وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ، ثم هَوَّوْا في مهاوي المنايا ، وانطووا بأيدي  
الرزايا ، وبقيت مآثرهم الحسان ، غير مثبتة في ديوان ، ولا مجملة في تصنيف  
تحتلي فيه العيون ، وتحتني منه زهر الفنون ، إلى أن أراد الله تعالى إظهار إعجازها ،  
واتصال صدورها بأعجازها ، فحللت من الوزير أبي العاصي حكيم بن الوليد  
عند من رَحَّبَ وأهَّلَ ، وأَعَلَّ بمكارمه وأهمل ، وندبني إلى أن أجمعها في  
كتاب ، وأدركني من التنشط إلى إقبال ما ندب إليه ، وكتابة ما حث عليه ،  
فأجبت رغبته ، وحليت بالإسعاف لبّته ، وذهبت إلى إبدائها ، وتخليد عليائها ،  
وأملت منها في بعض أيام ، ثلاثة أقسام ، القسم الأول : يشتمل على سرّد غرر  
الوزراء ، وتناسق درر الكتاب والبلغاء . القسم الثاني : يشتمل على محاسن أعلام  
العلماء ، وأعيان القضاة والحكماء . القسم الثالث : يشتمل على ذكر محاسن  
الأدباء ، النوابغ النجباء ؛ انتهى .

١ إيماناً : سقطت من ق والمطمح .

وهذه خطبة «المطمح الصغير» ، وأما الكبير والأوسط فضمنهما ذكر الملوك والسلاطين حسبما نقلنا بعضه فيما مر من هذا الكتاب ، على أننا نقلنا بعضاً من الصغير أيضاً ، فليعلم ذلك من يقف على هذا الكتاب ، ومن له أدنى ممارسة ، وليراجع من الترجمة الفرق بين كلامه في الصغير وغيره ، وبالجملة فما رأيت ولا سمعت أحلى من عبارة الفتح رحمه الله تعالى في تحلية الناس ، ووصف أيام الأئس ، وليس الخبر كالعيان ، وقد سردنا بعض كلامه في « القلائد » وفي « المطمح » .

### [ قطعة من الموشحات ]

ولنرجع الآن إلى ما كنا بصدده من أمر التوشيح ، فنقول : وتام موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين هو قوله :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى	قلب صبّ حله عن مكسـ
فهو في حرّ وخفقٍ مثلما	لعبت ريح الصبا بالقبسـ
يا بلوراً أطلعت يوم النوى	غرراً تسلك بي نهج الغرر
ما لقلبي في الهوى ذنبٌ سوى	منكم الحسنُ ومن عيني النظر
أجنتي اللذاتِ مكلومَ الجوى	والتناذي من حبيبي بالفكر
كلّما أشكوهُ وجدأ بسما	كالرّبي بالعارض المنبجسـ
إذ يقيمُ القطرُ فيها ماأما	وهي من بهجتها في عرسـ
غالبٌ لي غالبٌ بالتؤده	بأبي أفديه من جافٍ رقيق
ما رأينا مثلَ ثغرِ نضدّه	أقحواناً عصرت منه رحيق
أخذتُ عيناهُ منه العريده	وفؤادي سكره ما إن يفيق

فاحمُ الجُمَّةِ معسولُ اللّمي	أكحلُ اللّحظِ شهبيُّ اللّعسِ
وجّهه يتلو « الضحى » مبتسما	وهو من إعراضه في « عبس »
أيتها السائلُ عن ذُلِّي لديه	لي جزاء الذنبِ وهو المذنبُ
أخذت شمسُ الضحى من وجنتيه	مشرقاً للصبّ فيه مغربُ
ذَهَبَتْ أدمعُ أجفاني عليه	وله خدّ بلحظي مذهبُ
يطلعُ البدرُ عَليّهِ كلّما	لاحظتُهُ مقلتي في الخُلّسِ
ليت شعري أيّ شيء حرّما	ذلك الوردَ على المغرسِ
كلّما أشكو إليه حرّقي	غادرتني مقلّتهاه دنيفا
تركتُ الحافظهُ من رمّقي	أثرَ النملِ على صمّ الصفا
وأنا أشكرهُ فيما بقي	لستُ الحاهُ على ما أتلفا
فهو عندي عادلٌ إن ظلّما	وعذولي نطقهُ كالخرسِ
ليس لي في الحبّ حكمٌ بعدما	حلّ من نفسي محلّ النّفسِ
منهُ للنّار بأحشائي اضطرامٌ	يلتظي في كل حين ما يشا
وهي في خديه بردٌ وسلامٌ	وهي ضرٌّ وحرّيقٌ في الحشا
أتقي منه على حكمِ الغرامِ	أسدَ الغابِ وأهواه رشا
قلت لما أن تبدّى مُعلّما	وهو من الحافظه في حرّسِ
أيتها الآخذُ قلبي مغنّما	اجعلِ الوصلَ مكانَ الخُمسِ

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخري المغاربة فقال :

يا عُرَيْبَ الحمي من حيّ الحمي	أنتمُ عيادي وأنتم عُرُسي
لم يجلّ عنكم ودادي بعدما	حلّمتم لا وحياة الأنفُسِ



مَنْ عَذِيرِي فِي الَّذِي أَحْبَبْتَهُ  
بَدْرٍ تَمَّ أَرْسَلَتْ مُقَلَّتُهُ  
إِنْ تَبَدَّى أَوْ تَنَتَّى خَلْتَهُ  
غَصْنٍ بَانَ فَوْقَهُ شَمْسٌ ضُحِي

تَطْلُعُ الشَّمْسُ عِشَاءً عِنْدَمَا  
وَتَرَى اللَّيْلَ أَيْضًا مَنَهْزِمًا  
وَتَرَى الصَّبْحَ أَيْضًا فِي الْعَلَسِ  
وَتَجْلِي مِنْهُ بِأَبْيِ مَلْبَسِ

يَا حَيَاةَ النَّفْسِ صِلْ بَعْدَ النَّوَى  
قَدْ بَرَاهُ السَّقْمُ حَتَّى ذَا الْهَوَى  
أَهْ مِنْ ذِكْرِ حَيْبٍ بِاللَّوَى  
وَالهَأَ مُضْنَى شَدِيدِ الشَّغْفِ  
كَأَدَا أَنْ يُفْضِي بِهِ لِلتَّلْفِ  
وَزَمَانَ بِالْمُنَى لَمْ يَسْعَفِ

كُنْتُ أَرْجُو الطَّيْفَ يَا حِلْمًا  
هَلْ يَعُودُ الطَّيْفُ صَبَاً مَغْرَمًا  
عَائِدًا يَا نَفْسُ مِنْ ذَا فَيَأْسِي  
سَاهِرًا أَجْفَانَهُ لَمْ تَنْعَسِ ١

هَمْتُ فِي أَطْلَالِ لَيْلِي وَأَنَا  
مَا مَرَادِي رَامَةٌ وَالْمَنْحَى  
إِنَّمَا سَوْلي وَقَصْدِي وَالْمُنَى  
لَيْسَ فِي الْأَطْلَالِ لِي مِنْ أَرْبِ  
لَا وَلَا لَيْلِي وَسَعْدِي مَطْلَبِي  
سَيِّدُ الْعُجْمِ وَتَاجُ الْعَرَبِ

أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ طَهَ مِنْ سَمَا  
خَاتَمُ الرِّسْلِ الْكَرِيمِ الْمُتَمَى  
الشَّرِيفُ ابْنُ الشَّرِيفِ الْكَيْسِ ٢  
طَاهِرُ الْأَصْلِ زَكِيُّ النَّفْسِ

وقال في مباراة هذه الموشحات السابقة :

لَا تَلْمَنِي يَا عَذُولِي تَأْتَمَا  
مِثْلَمَا شَرَحُ غَرَامِي عِلْمَا  
مَا تَرَى جِسْمِي بِسَقْمٍ قَدْ كَسِي  
حَيْثُ أَشْكُو وَحِشَةً مِنْ مَوْسِ

١ ق : هل يرى في جنح ليل الفليس .

٢ ق : وحظي بالنور لما أن كسي .

ظبي أنسٍ عن فؤادي نفرا  
 وعذولي في هوى الحب فرى  
 أنت أعمى يا عذولي ما ترى  
 وله ثغرى إذا ما ابتسما  
 وثناياه كدرٍ نظما  
 كم ترى سحراً بجفنيه بدا  
 ليس سحرٌ مقلتي هذا سدى  
 خيفةً أوجس قلبي ، وغدا  
 يا إله العرش يا رب السما  
 قلبي الوهان يشكو ألما  
 أدعج الجفن بعينه حور  
 وهو للصدر بوجه قد قمر  
 في غزالٍ قد غزاني بالنظر  
 من معاني حسنه رق الغزل  
 آخذٌ بالروح مني كلما  
 يقنص الأسد بلحظه قد رمى  
 يا رعى الله زماناً سلفاً  
 مثل دينارٍ وها قد صرفاً  
 فاعذروا القلب الذي قد شغفا  
 بدر تم أهيف حلو اللمي  
 كسلافٍ عهداً قد قدما  
 وفؤادي مكتوب من صده  
 بملام مذنبى عن وده  
 يانع الورد بدا من خده  
 كبروقٍ أومضت في الغلس  
 فضياها في الدجى كالبس  
 لفؤاد في الهوى أضحى ككليم  
 يا فؤادي إن شفى السحر السقيم  
 راحلاً صبري ، وها شوقي مقيم  
 يا عليماً بضمير الأنفس  
 من جفا ظبي أغن أكيس  
 بلويلات تقضت بانشرائح  
 في الذئب العيش مع حب وراح  
 بحبيب ما له عنه برائح  
 ريقه شهد شهى اللعس  
 تنجلي في كأسها كالعرس

قهوةٌ بكرٌ عجوزٌ عفتُ  
هي لما في زجاجٍ أشرقتُ  
جددتُ بسطاً وكم قد مزقتُ  
زمناً في دنها من قبلِ نوحِ  
شمسُ راحِ غرّبتُ في كلِ روحِ  
قلبَ صبّ في غبوقٍ وصبوحِ

حلفَ الحمّارُ عنها قسماً  
فاسقني صِرْفاً ولا تمزجُ بما  
راحه كم أذهبتُ من عبسِ  
أنها بالملكث كادت تتسي

في رياضٍ قد شدا شحرورهُ  
وانظم الشملَ ودع مثورهُ  
وإذا الطلّ بدا شبورهُ  
عاطنيتها بين أكنافِ الشجرِ  
حول وردٍ وأقاحٍ وزهرِ  
كللَ الأوراقَ منه بالدررِ

ما ترى الريحانَ عبداً خدماً  
جلس النسرينُ لكن ربّما  
حيثُ أضحي واقفاً في المجلسِ  
استحّت منه عيونُ النرجسِ

فتتزه في رياضٍ خضري  
وانتشق عرّفَ زهورٍ عطري  
وشدا الزهرِ كسك أذفرِ  
وغصونٍ غرّدت فيها هزار  
ياسمين زينتُهُ الجلتنار  
واقبل العذر لابن البزدار

طامعٌ في رحمةِ الله وما  
يا إلهي جُد علينا كرماً  
خابَ عبدٌ طامعٌ لم يئأسِ  
يا كريماً قبل أخذ الأنفُسِ

رجع إلى موشحات ابن الخطيب :

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : ومما قلته من الموشحات التي  
انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها :

١ الموشحة في أزهار الرياض ١ : ٣١٤ وهي في مدح السلطان يوسف أبي الحجاج .

رُبَّ لَيْلٍ ظَفَرْتُ بِالْبَدْرِ وَنَجِسْتُ السَّمَاءَ لَمْ تَلِدِي

حَفِظَ اللَّهُ لَيْلَنَا وَرَعَى

أَيَّ شَمَلٍ مِنَ الْهَوَى جَمَعَا

غَفَلَ الدَّهْرُ وَالرَّقِيبُ مَعَا

لَيْتَ نَهْرَ النَّهَارِ لَمْ يَجْرِ حَكَمَ اللَّهُ لِي عَلَى الْفَجْرِ

عَلَّلَ النَّفْسَ يَا أَخَا الْعَرَبِ

بِحَدِيثِ أَحْلَى مِنَ الضَّرْبِ

فِي هَوَى مَنْ وَصَالَهُ أُرْبِي

كَلَّمَا مَرَّ ذَكَرَ مَنْ تَلَدِي قَلْتُ يَا بَرْدَهُ عَلَى صَدْرِي

صَاحَ لَا تَهْتَمُ بِأَمْرِ غَدٍ

وَأَجْزُ صَرَفَهَا بَدَأَ يَدٍ

بَيْنَ نَهْرٍ وَبَلْبَلٍ غَرْدٍ

وَعَصُونَ تَمِيلُ مِنْ سُكْرِ أَعْلَتِ يَا غَمَامُ بِالشُّكْرِ

يَا مُرَادِي وَمَتْنِي أُمِّي

هَانَا عَسَجْدِيَّةَ الْحَلَلِ

حَلَّتْ الشَّمْسُ مَنَزَلَ الْحَمَلِ

وَبُرُودُ الرِّيحِ فِي نَشْرِ وَالصَّبَا عَنَبِيَّةُ النَّشْرِ

غَرَّةُ الصَّبَحِ هَذِهِ وَضَحَتْ

وَقِيَانُ الْغُصُونِ قَدْ صَدَحَتْ

وَكَأَنَّ الصَّبَا إِذَا تَفَحَّتْ

وهفا طيبها عن الحَصْرِ مدحة في علا نبي نصرِ

هم ملوك الورى بلا ثنيا  
مهتوا الدين زينوا الدنيا  
وحمى الله منهم العليا

بالإمام المرفَعِ الحَطْرِ والنعام المبارك القطرِ

إنما يوسفٌ إمام هدى  
حاز في العلواتِ كلَّ مدى  
قلِّ للدهرِ بملكه سعدا

افتخرَ جملةً على الدهرِ كافتخار الربيعِ بالزهرِ

يا عماد العلاء والمجدِ  
أطلع العيدُ طالع السعدِ  
ووفى الفتحُ فيه بالوعدِ

ونجّلت فيه على القصرِ غررٌ من طلائعِ النصرِ

فتنهأ من حسنه البهيجِ  
بجياة النفوسِ والمهجِ  
واستمعها ودع مقال شجي

قسماً بالهوى لذي حجرِ ما لليلِ المشوق من فجرِ

ومن بديع موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله<sup>١</sup> :

١ الموشحة في أزهار الرياض ١ : ٣١٥ - ٣١٦ .

كم ليوم الفراق من غُصَّةٍ  
نرفعُ الأمرَ فيهِ والقِصَّةُ  
في فؤاد العبيدِ  
للوليِّ الحميدِ

رحل الركبُ يقطعُ البيدا  
كلُّ وجنَّاء تُتلعُ الجيدا  
بسفين النياق  
وتبذُّ الرفاق  
فهي ذاتُ اشتياق  
حسبتُ ليلةَ اللقا عيدا

صائماتُ لا تقبلُ الرُخصه  
فهي مُدُّ أملتُهُ مختصه  
قبَّلَ فطرٍ وعيدِ  
بجهادِ جهيدِ

ومنه في آخره :

يا إمامَ العلاءِ والفخرِ  
هاكها لا عدمتَ في الدهرِ  
ذا السنا المبهجِ  
آملاً يَسرُجي  
بمقالِ شجي  
عارضتُ قولَ بائعِ التمرِ

غَرَّبوكِ الجِمالُ يا حَفْصَه  
من سِجلماسهٍ ومن قَفْصَه  
مِن مَكَانِ بَعِيدِ  
وبِبلادِ الجَرِيدِ

وقد ألفت - رحمه الله تعالى - في هذا الفن كتابه المسمى بـ « جيش التوشيح »  
وأتى فيه بالغرائب ، وذيلَ عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العَلم الشهير المنفرد  
في عصره بجيازة قصب السبق في البلاغة سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي - رحمه  
الله تعالى - بكتاب سماه « مدد الجيش »<sup>٢</sup> واستهلته بقوله : حمداً لمن أمدَّ  
جيش محمد بعترته . وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة ،

١ هذه الحُرْجَة قد تُقرأ معرِبة وغير معرِبة .

٢ انظر روضة الآس : ١٦٢ .

وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسيني -  
 رحمة الله تعالى ورضوانه عليه - ما زاده زِينًا ، وأخبرني - رحمه الله تعالى -  
 أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من  
 ثلاثمائة موشح ، ولا حرج في إيراد بعضها هنا ، فمنها قول أحد الوافدين من  
 أهل مكة على عتبة السلطان مولانا المنصور<sup>١</sup> ، وهو رجل يقال له « أبو الفضل  
 ابن محمد العقاد » وقد عارض بها موشحي لسان الدين وابن سهل السابقتين<sup>٢</sup> :

لَيْتَ شعري هل أروِّي ذا الظما      من لَمَى ذاكَ الثُّغَيْرِ الألعسِ  
 وترى عينايَ ربّاتِ الحمى      باهياتِ بقُدودِ مُيسِ

يُدخلون السَّقمَ من دار اللوى      كَلِمَ الهجرُ فؤادي وأسر  
 هدًى من ركنِ اصطباري والقوى      مُبدلاً أجفانَ نومي بالسَّهر  
 حين عزَّ الوصلُ عن وادي طُوى      هملتُ أعينُ دمعي كالطر

فعاكم أن تجودوا كرما      بلقاكم في سوادِ الحنْدِسِ  
 وتداووا قلبَ صبِّ مغرما      من جراحاتِ العيونِ النُّعَسِ

كلّما جنّ ظلامُ الغَسَقِ      هزّني الشوقُ إليكمُ شغفا  
 واعتراني من جفاكم قلقي      مُدّ تذكرتُ جياداً<sup>٣</sup> والصففا  
 وتناهتْ لوعتي من حرّقي      ثمّ زادَ الوجدُ في التلّفا

١ يعني السلطان أحمد المنصور الذهبي أبا العباس ابن محمد الشيخ المهدي السعدي ، وهو من أعظم  
 سلاطين السعديين ؛ انتصر على البرتغاليين في موقعة وادي المخازن سنة ٩٨٦ وفتح السودان ،  
 واهتم ببناء المساجد والمستشفيات وشجع العلوم ؛ توفي سنة ١٠١٢ (راجع مناهل الصفا للفشتالي ،  
 والجزء الخامس من الاستقصا والأعلام للشيخ العباس ابن إبراهيم) .

٢ وردت الموشحة في روضة الآس : ١٤ .

٣ جياد : يعني جبل أجياد بمكة .

فانعموا لي ثم جودوا لي بما  
ساعة<sup>١</sup> لي من رضاكم مغنما  
يُطْفَأُ نيران الجوى ذي القيسِ  
وتداوي جثتي مع نفسي

كنت قبلَ اليوم في زهوٍ ونيه  
ومني ظبيٌّ يلاحدني وجتيه  
مع أحبائي بسلحِ ألبُ  
مشرقُ الشمسِ وأخرى مغربُ  
فرماني بسهامٍ من يديه  
ضاربُ العينِ قلبي منعِبُ

لستُ أرجو للقاهم سلماً  
أحمد المحمود حقاً من سما  
غير مدحي للإمام الأراسِ  
الشريف ابن الشريف<sup>٢</sup> الكبيسِ  
ومنها قول بعض المراكشيين<sup>٣</sup> :

واخجلتُ للصباح  
ساقٍ بديرُ الكؤوسا  
والشمسِ إذ لاحَ جؤذَرُ  
تضيءُ خمراً وتزهَرُ

تقادمَت في الدنانِ  
في لونها البهرماني<sup>٤</sup>  
من عهدِ نوحِ ترووقِ  
تُدارُ فينا وتعبقُ  
قدْ أطلقت من عنانِ  
مِنَ عن صَبُوحِ يرفقُ

يسمى بها من ملاحِ  
بالحسنِ يُصبي الجليسا  
مَنْ كان باللحظِ يُسكرُ  
ويستخسف الموقرُ

١ خرج عن الإعراب ضرورة .

٢ الروضة : الكرم ابن الكرم .

٣ انظر روضة الآس : ٢٩ .

٤ ق والروضة : البرهمني .



بشيرٌ كامنٌ وجدٍ	في قلبِ كلِّ سقيم
يسطو علينا بقدِّ	يزري بغصن قويم
أشقى بعشقي ووُدِّي	في جنَّةٍ ونعيم
من ذي الوجوه الصِّباحِ	يا شادناً غنّ واذكر
وهات لحناً نصيباً	نرويه عنك ونأثر
في مدحٍ من سادِ طفلاً	هذي البرايا وفاقا
من حاز مجداً وفضلاً	بين الأنعام وفاقا
في عدله قال قولاً	يسري فيعدو العراقا
في أحمدٍ ذي السباحِ	في الشرق والغرب ينصّر
أحيا الهدى والنفوسا	وذلك ملةٌ قيصر
تراه مسلماً وحرماً	من رأيه في جنوده <sup>١</sup>
يختالُ لم يبع عجباً	من عزّه في بروده
يهوى المعالي كسباً	ويقتنيها بجوده
فخار أهل البطاحِ	وعزّ من قد تمصّر
شناهُ يملا الطروسا	عن صورة المجدِ عبر
ملكٌ نبي في البديعِ	منازلاً كالدراري
فيا له من صنيعِ	الروض والماء جاري
فقلُّ بصوت رفيعِ	إذ بان فجرُ النهارِ

١ قافية هذا الفصن دون هاء في الروضة .

أهدى نسيمُ الصباحِ مسكاً شميماً وعنبر  
وجيء بها خندريسا من خدِّ ساقيه تُعصر

ومن موثحات السلطان المنصور المذكور<sup>١</sup> :

ريّانُ من ماء الصبّا أهيفُ وممتلي البردِ

كالغصنِ هزته الصبّا فوق الرُّبى الشهبِ  
قد قلتُ لِمَا أن سبى بحُسْنِه يسبى  
من عينه سلَّ ظبي وغمدها قلّبي

أسرّني ماضي الشبّا أوطفُ مرئحُ القدِّ

يا فاضحَ الروض سنا بل محجلَ البدرِ  
وقاطعي ظلماً عنا ومنّ مقرّه صدري  
إن لم تكن شمس دُنا فإنها تجسري

علقتُه من الظبّا أسجفُ يسطوعلى الأسدِ

قلتُ لهُ وقد نهّدُ وجدّ في حربى  
وغلبَ الظبى الأسدُ ففازَ بالغلبِ  
الشمس برُجها الأسدُ فاسعَ إلى قلّبي

ولم يحضرنى الآن تماماً .

ومنها قوله يعارض لسان الدين وابن الصابوني<sup>٢</sup> :

١ روضة الآس : ٥٦ .

٢ روضة الآس : ٥٧ .

وليلي الشعور إذ تسري ما لنهر النهار من فجرٍ

حبّذا الليلُ طال لي وحدي  
لو تراني جعلته بُردي  
فاطميّاً في خلعة الجعدي

هي ليلي أختُ بني بشرٍ فأين أنت يا أبا بدرٍ

كم سقطنا أطفَ من طلٍّ<sup>١</sup>  
واجتمعنا وما درى ظلّي  
واسترحنا من كاشحٍ نذلٍ

ربّ ليلٍ ظفرت بالبدرٍ ونجوم السماء لم تدرِ<sup>١</sup>

وبنفي مهفهفٌ ألى  
ومطيعٌ وغرّني لَمّا  
سألته<sup>٢</sup> وقانعي ممّا

في رباط قسمتي صدري لحنينٍ وناظري بدرٍ

وهلالٍ في حسنه اكتملا  
هو شمسٌ وأصلحي الحملا  
قام يشدو وينثي في ملا<sup>٣</sup>

قسماً بالهوى لذي حجرٍ ما لليل المشوق من فجرٍ<sup>٤</sup>

١ هذا القفل للسان الدين .

٢ الروضة : يا عفاي ، وسقطت اللفظة من ق .

٣ الروضة : في علا .

٤ هذا القفل لابن الصابوني .

[ من مقطعات المنصور ]

ثم عنّ لنا أن نورد هنا جملةً من مقطوعات مولانا السلطان المنصور ممّا تلقيناه عنه أيام كوننا في إيالته الشريفة؛ فمن ذلك قوله زاداً على من قال في ابن أبي الحديد<sup>١</sup> :

لقد أتى بارداً ثَقِيلاً      ولم يبرثْ ذاكَ من بعيدِ  
فهو كما قد علمتْ شيءٌ      أشهرُ ما كان في الحديدِ

ما صورته :

لقد أتى صارماً صَقِيلاً      ولم يبرثْ ذاكَ من بعيدِ  
شديدَ بأسٍ متى يعادي      وشدةُ البأسِ في الحديدِ

ومن نظمه قوله<sup>٢</sup> :

للهِ تَمَرٌ طَيِّبٌ      وافى على البشرى انطوى  
يا حُسْنَهُ مجتمعاً      يجلو لنا بلا نوى

وقوله معمياً في «قمر» على طريقة الاكتفاء :

مُعذبي أعجزني نيلُهُ      من لي بمن مسكنُهُ في السما  
لَمْ أنسَ إذ قالَ ألا تكفني      قلتُ بمن بالطرفِ قلبي رمي

وقوله :

تبدى وزنُ الشوقِ تقدحُهُ النوى      فتوقدُ أنفاسي لظاه وتضرمُ  
وهشَّ لتوديعي فأعرضتُ مشفقاً      على كبدِ حَرَّى وقلبٍ يقسمُ

١ قال المقرئ إنهما لمؤلف «طي الفلك الدائر على المثل السائر» ولكنه لا يتذكر اسمه (الروضة : ٤٧).  
٢ أكثر هذه المقطعات وردت في روضة الآس : ٣٦ - ٥٢ وفي مناهل الصفا ٢ : ٢٠٧ - ٢١٤ .

ولولا ثواه بالحشا لأهنتها  
فاعجب لآسادِ الشرى كيف أحجمت<sup>١</sup>  
ولكنها تُغزى إليه فتكرمُ  
على أنه ظيُّ الكناسِ ويقدمُ

وقال قدس الله تعالى روحه مورياً :

إنَّ يوماً لناظري قد تبدَّى  
قالَ جفني لصنوه لا تلاقي  
فتملّتي من حُسْنِهِ تكحيلًا  
إنَّ بَيْتِي وبينَ لِقياكِ ميلا

وقد تبارى خُدّامُ حضرة هذا السلطان في تخميس هذين البيتين ، ومن أشهر ذلك قول الأستاذ الحافظ سيدي أحمد الزموري رحمه الله تعالى ، وكان يصلي بالسلطان التراويح :

ورقيبٍ يسرردُ اللَّحظَ ردًا  
سأه الطرف مذ جنى الخدَّ وردا  
ليس يرضى سوى ازديادي بَعْدًا  
إنَّ يوماً لناظري قد تبدَّى  
فتملّتي من حُسْنِهِ تكحيلًا

وتصدى مِنْ فَحْشِهِ في اسْتِباقِ  
أَيَّاسِ العَيْنِ من لحاظِ ائْتِلاقِ  
يَمْنَعُ اللَّحظَ من جَنِّي واعتناقِ  
قالَ جفني لصنوه لا تلاقي  
إنَّ بَيْتِي وبينَ لِقياكِ ميلا

ومن نظم السلطان المذكور ، وهو من أوليات شعره ، قوله في وردة مقلوبة بين يدي محبوبه :

ووردة شَقَعَتْ لي عند مرْتَهِي  
كانَ خضرتها من فوقِ حمرتها  
راقتُ وقد سجدتُ لفاترِ الحدقِ  
قالَ أيضاً من أولياته :

١ الروضة : كيف تحجم .

ما خلاصي من سهامِ كامنه<sup>١</sup>  
وغزالي بعدَ خوفي آمنه<sup>٢</sup>

شادن نَمَّ عليه عَرَفُهُ<sup>١</sup>  
أَحْلَالَ<sup>٢</sup> فيه أتِي خائفُ

وقال في وصف رقيب ملازم :

فأين تَوَلَّى الطرفُ مني<sup>٢</sup> يراه  
وصالي هلالٌ والسوادُ صداه

رقيبِي كأنَّ الأرضَ مرآةً شخِصِهِ  
مقيمٌ بوجهِ الوصلِ حتى كأنَّما

وقال :

ولمَّ يتلقَّ ناظراي سواك<sup>٣</sup>  
إذا فُتَّ طرفي علَّ الأنفَ يراك

أيا روضةً ضنَّتْ عليَّ بزهرها  
أبيحي لتَنفسي من شدَّاكِ بقاءها

وقال أيضاً :

لثلا يرى الشمسَ الرقبية لي طرفُ  
غريقاً ونقطاتِ العبيرِ بهِ كَلَّفُ

على جدولٍ غطَّتْ عليهِ بشعرها  
فبتُ أرى في جدولٍ بدرَ وجهها

وقال :

به فتولَّى بالظُّبِّي وهو يبعدُ  
وعلَّمْ غزلانِ النقا كيف تشردُ

طرقتُ حِمَاهُ والأسودُ خَوَادِرُ<sup>١</sup>  
فعلمتُ آسادَ الشرى كيف تقدمُ

وقال :

وأتى يعلِّني برعني كواكبه<sup>١</sup>  
والبينُ مُزنيُّ الصباحِ كواك به<sup>٢</sup>

لمَّا نأى المحبوبُ رِقَّ لي الدُّجى  
أولى غرابِ البينِ ردك يا حشا

١ الروضة : نفعه .

٢ اقرأ بخطف الياء وجعلها حركة كالكرة على النون .

٣ الروضة : سنالك .

وقال معمياً باسم حَظِيَّتِهِ الشهيرة الحسن والإحسان « نسيم » :

يا هلالاً طلوعهُ بينَ جفني      وغزالاً كناسهُ بينَ جنبي  
إنَّ سهماً رميتَ غادر همّاً      لو تناهى ما شكَّ آخرُ قلبي

ورأيت بخطه على هذا المحل ما صورته : قولي « إنَّ سهماً » تنصيص ، و « غادر همّاً » إسقاط ، وهو إشارة لإسقاط « همّاً » من هذا الاسم ، وقولي « لو تناهى » انتقاد ، والانتقاد : الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الاسم المطلوب ، كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس ، ويعني به الحرف الأول من الكلمة ، والقلب والجوف والحشا والخصر ، ويراد به الوسط ، والآخر والمنتهى والختام ، ويقصد به آخر الكلمة ، فقولي « لو تناهى » معناه أنه أخذ لفظة هم غير متناه ، فبقيت الميم من همّاً ، وقولي « ما شكَّ آخر قلبي » انتقاد أيضاً ، وأردت بآخر قلبي الياء ، ويسمى أيضاً التسمية ، وهو : أن تذكر الاسم وتريد المسمى ، أو تذكر المسمى وتريد الاسم ، وقد تم الاسم .  
واعلم أنهم لم يشترطوا في استخراج الاسم<sup>١</sup> بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها ، بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصة فإذا وقع ذلك فمن المحسنات<sup>٢</sup> ، ويسمى العمل « التذييلي<sup>٣</sup> » . انتهى كلامه على البيتين في اسم نسيم .

وقال في اسم « غزال » وقد جمع تعميتين ولغزاً :

وأملدَ مطويّ الحشا زال ردفه      فلا خصر إلاّ إن تصورته وهما<sup>٣</sup>  
بنصف اسمه يرمي القلوبَ وعكس ما      بقي أبدأً أذنَ المحبِّ به أصمى

١ الروضة : الكلمة .

٢ ق : التذييل .

٣ سقطت اللفظتان من ق ، وأثبتتهما من الروضة .

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت به بعمل الترادف غصن ، و « مطوي الحشا » انتقاد ، و « زال ردفه » قضيت به غرضين ، أزلت به النون بعمل الإسقاط الباقي بعد طيّ الصاد التي بوسطه ، وأثبتته - أعني « زال » - في موضعها : أي النون من غصن ، والحال أن الصاد محذوفة ، وذلك بعمل الانتقاد ، وأوضح ذلك بقولي « فلا خصر » وإن كنت لا أحتاج إليه ، لتلا يكون في البيت شيء خارج عن التعمية ؛ انتهى تفسيره ، رحمه الله تعالى .  
 ويعني بقوله « بنصف اسمه يرمي القلوب » غز ؛ لأنه نصف غزال ، ويعني بقوله « وعكس ما بقي إلى آخره » لفظة « لا » لأنها مقلوب ما بقي وهو « ال » .

وقال في اسم « سلاف » على منهاج ما تقدم :

وأحورَ وسنانِ الجفونِ كأنما سقى لحظة من ريقٍ فيه بقرقفٍ  
 نضاً صارماً لا قلَّ صارم لحظة تزايد فيه منذ سل تلاه في

وفسره بقوله : قولي « تلاه في » من طريق التسمية ، و « في » من العمل التذييلي وهو أن يأتي بالكلمة بحركاتها وسكناتها ، وهي من المحسنات كما سبق .  
 وقال في اسم « آمنة » من التعمية أيضاً :

من شقائي قنصته وهو خشفٌ في رضاه عن الملوك ابتدلتُ  
 أملدُ منه مذ تحلل خصرٌ وتثنى عن حبه ما عدلتُ

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت الألف بعمل التشبيه ، و « خصر منه » انتقاد ، وأردت بالخصر وسط لفظة « منه » وتحلله : أن ينحل السكون الذي على النون ، وقولي « وتثنى » أي الألف من التثنية ، لا التثني ، فتم الاسم

١ الروضة : لم أقل ف أن قلت فات فهمت .



بمركباته وعدده ؛ انتهى تفسيره .

وقال وقد ليس منصورية من النوع الذي يقال له « قلب حجر » ، والمنصورية :  
نوع ليس معروفاً بالمغرب استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه :

وصَفُّوا اشتياقي للحبيب وسرَّهم قولُ الحبيبِ أنا أنا فيه  
فكُنِّي له حجرٌ ، فقلت مغالطاً للعاذلِ المؤذي أنا فيه

قال : وفي هذين البيتين عدة من المحسنات غير التعمية : منها جناس التركيب  
المسمى بالملفق ، وحدهُ : بأن يكون كل من الركنين مركباً من كلمتين ، وهذا  
هو الفرق بين الملتقى وبين المركب ، وقلَّ مَنْ فرق بينهما ، ومنها الانسجام ،  
ومنها الاستخدام . وعهدي بالفقيه علي بن منصور الشيطمي تعرض إلى شرحهما  
بكراسة . والتعمية في هذين البيتين بالعمل الحسابي وهو كثير ، إلا أن هذا  
العمل أحسبني أبا عنترته إذ لم أره لغيري ، ومادة التعمية فيه « أنا أنا فيه » ، قلبي  
له حجر « فقولي « أنا أنا فيه » معناه أن تضرب « أنا » في ه ، وقولي « في ه »  
نص في الضرب ، ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيماني وحقك ،  
وقولي « قلبي له حجر » بعمل القلب بصير « رجح » فصار المجموع « هيماني  
وحقك يرجح » ، وفيه التورية ، و « هيماني وحقك » الخارج من هذا الضرب  
فيه تهكم بالواشي ، فهو من المحسنات أيضاً ، أعني قوله « وحقك » ، ويصلح  
أن تسمى هذه التعمية بالافتنان ، لأن الافتنان عندهم : أن يقن الشاعر فيأتي  
بفتن متضادين من فنون الشعر في بيت واحد ، وهذا وقع التضاد فيه في كلمة  
واحدة ، فظاهر « أنا أنا فيه » يضاد « هيماني وحقك يرجح » الذي يخرج بطريق  
الحساب ، فافهمه ، ويمكن استخراج تعمية أخرى من قولي للعاذل المؤذي  
« أنا فيه » ؛ انتهى .

والاستخدام الذي أشار إليه هو في قوله « أنا فيه » أي في هذا الثوب المسمى بقلب حجر ، كما دلت عليه الحكاية ، وأما المعنى الثاني لقوله « أنا فيه » فظاهر . وقال وقد قطف وردة من روض المسرة في زمن الرجس :

وافى بها البستانُ صنوكَ وردةً      يقضي بها لما مَطَلَّتْ وعوده  
أهدى البهارَ محاجراً وأتى بها      في وقته كيما تكونَ خدودا  
فبعثتها مرتادةً بنسيمها      تشي من الروضِ النضيرِ قُدُودا

وقال :

لي حيبٌ يأتي بكلِّ غريبٍ      هو عندي مُنَكَّرٌ ومعرَّفٌ  
لستُ أشكو لصيرفيٍ ونحوي      أنه بي نَحَا وفيَّ تصرَّفٌ  
فعلهُ فيَّ لازمٌ متعدِّدٌ      ومزيدٌ مجردٌ ومضعَّفٌ

وقال :

لا وطيفِ علمِ السيفِ فقد      في قوامِ كفننا الخطَّ نهدٌ  
ووميضِ لاحِ لَمَسَا بسمتُ      فأرتنا منه دُرّاً أو برَدٌ  
ما هلالُ الأفقِ إلا حاسدٌ      منه حسناً وعلاءٌ وغيدٌ  
ولذا عاش قليلاً ناحلاً      كيف لا يتقنى نحولاً من حسدٌ

وقد ضمنَّ قوله « ما هلال الأفق » أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد على حضرته من بيت المقدس فقال :

قسماً بالبيت والركن الذي      طابَ حجاً واستلاماً للأبد  
« ما هلالُ الأفقِ إلا حاسدٌ »      منه حسناً وعلاءٌ وغيدٌ

وقد اتفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية ، هو والعقاد المكي

السابق والشريف المدني ، وهو رجل وافد من أهل المدينة انتمى إلى الشرف ،  
فقال إمام الدين : يا أمير المؤمنين ، إن المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال  
شَدَّ أهلها إليك الرحال : هذا مكِّي ، وذاك مدني ، وأنا مقدمي ، ثم أنشد<sup>١</sup> :

إنَّ أمير المؤمنين أحمدُ      بحرُ الندى وفضله لا يُجحدُ  
فطيةٌ ومكةٌ أهلهما      والمسجدُ الأقصى بذاك شهدوا

رجع إلى نظم المنصور ، وقال :

وكيفَ بقلبٍ في هواه مقلَّبٍ      وأنتى له بين الضلوعِ مقامُ  
فيا شادناً يرعى الحشائنتَ بالحشا      أما لمحلِّ أنتَ فيه ذِمَامُ

وقال يخاطب رئيس كتّابه صاحبنا سيدي عبد العزيز الفشتالي السابق الذكر :

يا كاتباً ألفاظه      تغرس<sup>٢</sup> روضاً ذا فن  
إنَّ جوابي للذي      يشكو دناه اردد حزن

وقال مؤرباً بمصانعه الثلاثة : البديع ، والمسرة ، والمشتهى :

بستانُ حسنك أبدعتَ زهراته      ولكم نبيتُ القلبَ عنه فما انتهى  
وقوامُ غصنك بالمسرةِ ينثني      يا حسنه رمانةٌ للمشتهى

ولولا خوف الإطالة المُميلة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور  
— رحمه الله تعالى — بعض ما أؤدي به حقه ، سقى الله تعالى عياده ، وقد  
بسطت الكلام على السلطان المذكور في كتابي « روضة الآس العاطرة الأنفاس  
في ذكر من لقيته من أعلام مراکش وفاس ». وأطال الكلام على ترجمته صاحبنا

١ الروضة : ١٤ .

٢ الروضة : إذا كتب يفرس .

الوزير الكبير الشهيد سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي في كتابه المسمى بـ « مناهل الصفا في فضائل الشرفا » وعهدي به أكل منه ثماني مجلدات ، وهو مقصور على دولة السلطان المذكور وذويه ، وألف كاتب أسرارهِ الرئيس أبو عبد الله محمد بن عيسى فيه كتاباً سماه « المملود والمقصور من سنا السلطان المنصور » وهذه التسمية وحدها مطربة ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى التوشيح :

كتب إليّ بعضُ أذكى الأصحاب الأعيان موشحاً يملحنى به في آخره  
عارض به موشح لسان الدين السابق الذي أوله :

جارك الغيثُ إذا الغيثُ همى يا زمان الوصلِ بالأندلسِ

ونصه :

عطرَ الأرجاء لما نَسَمَا وأنت شمسُ الضحى تنسخُ ما  
شَمَّالٌ للصبح عندَ الفلَسِ يقرأ الليلُ لنا من عَبَسِ

طافَ بالكأسِ من الزهرقى فن الألبابَ لما التفتا  
موتعُ بالصدِّ عني مذقتي وأنا ما بينَ حتّى ومتى  
واحتنى منهُ ببعضِ الشفةِ صدّه تيهُ الهوى عن ألقى

وكؤوسُ الراحِ بينَ الندما خمرةٌ صفراءُ في البلور ما  
أرجتُ بالعرفِ أفقَ المجلسِ أشبهَ الحانَ بروضِ الرجسِ

بادرِ اللذةِ واجمعُ شملها ذي عيونِ ناعساتٍ كم لها  
بمِدامٍ وغلامٍ مُطربِ من فنونِ السحرِ ما يلعبُ بي  
وافرِ الأردافِ عانى حملها ناحلِ الحصرِ ، وذا من عجبِ

كَلِمَا أُتْرِعَ كَأْسًا قَالَ مَا  
فَابْدِلِ الْجَهْدَ وَكُنْ مَغْتَنِمًا  
أَنْتَ بِالشَّارِي حَيَاةَ الْأَنْفَسِ  
لِنَفْسِ النَّفْسِ طَيْبَ الْأَنْفَسِ

فُرِّصُ الْأَيَّامِ كُنْ مَتَهَيِّزًا  
وَرِحَابَ الْأَنْسِ لُحْجٌ مَتَجَزِّيًا  
مَبْتَدَاهَا قَبْلَ حَذْفِ الْخَبْرِ  
قَبْلَ أَنْ تَمْضِيَ كَلِمَحَ الْبَصْرِ  
وَاجِرٍ مِنْ زَهْرِ الْهَوَى مَحْرَزًا  
مِنْ جَنَائِبِ هَجُومِ الْكَبْرِ

لَا تَخْفُ لَوْمًا وَيَمُّ حَيْثَمَا  
مَا مَضَى أَنْسٌ وَوَأْفَى مِثْلَمَا  
لَا حَتَّ اللَّذَاتُ كَالْمَخْتَلَسِ  
كَانَ ذَا الدَّهْرِ لَنَا بِالْحَرَسِ

لِلرِّيَاضِ إِذْ هَبْتُ تَرَى بُلْبُلَهَا  
وَخَلُودُ الْوَرْدِ قَدْ كَلَلَهَا  
لَا شَتِيَاقِ الْوَرْدِ مِثْلَ الْفُكْلِ  
دَمْعٌ طَلَّ لِأَشْتِيَاقِ الْبَلْبَلِ  
وَقَلُودُ الْبَانِ قَدْ قَامَ لَهَا  
مَانِعُ الْوَصْلِ بِحَدِّ الْأَسْلِ

وَالرُّبَى فَاحَتْ تَحَاكِي خَدَمَا  
جِيهًا زُرَّرَ بِالزَّهْرِ كَمَا  
وَعَلِيهِنَّ ثِيَابُ السَّنْدِسِ  
زُرَّ بِالْفِضَّةِ ثَوْبُ الْأَطْلَسِ

وَجَلَا الرُّوضُ لَنَا أَشْجَارَهُ  
وَتَرَى فِي جِيدِهَا نُورَهُ  
مَائِسَاتٍ فِي قَبَاءِ أَخْضَرِ  
يَتَلَلًا كَعُقُودِ الْجَوْهَرِ  
خَلَعَ اللَّيْلُ بِهِ أَطْمَارَهُ  
فَقَدَا كَالصَّبْحِ بَاهِي الْمَنْظَرِ

وَبَقَايَاهُ زَهَتْ فِيهِ أَمَا  
كَعِدَارٍ فِي مَحِيَّا عَلَمَا  
فِي شِفَاهِ الْعَيْدِ حُسْنُ اللَّعَسِ  
فَبَدَا لِلغَيْرِ لَا الْمَتَمَسِ

جَبَدَا الصَّبُورَةَ أَيَّامَ الصَّبَا  
فَإِذَا أَيْقَظَهَا دَهْرٌ صَبَا  
وَعِيُونَ الشَّيْبِ فِي سَهْوِ الْوَسَنِ  
لِصُرُوفِ حَدِّ شَفْرِيهَا وَسَنِ  
جَرَدَ الشَّيْبُ لَنَا بَيْضَ الشَّبَا  
وَاقْتَضَى شَرْحَ شَبَابِ وَطَنِ

وغدا الإنسانُ شيخاً هَرِمًا  
فاتَ إذ ماتَ فيقضي ندمًا  
واعتراه لاعجٌ من وجَسٍ  
واغتنامُ الوقتِ شغلَ الكَيِّسِ

لا تدعُ عُمركَ يمضي هَدَرًا  
وارقَ بالجهدِ من السؤلِ الذرا  
أنتَ إذ ذاكَ جَبانٌ غافلٌ  
واجتهدْ والضرعُ ضخْمٌ حافلٌ  
إنما الأيامُ أمثالُ الشرى  
والجرىءُ الشهمُ ليثٌ باسلٌ

ووحوشُ الإنسِ تسمى مغنما  
تركَ الوهمَ وخاضَ الظلما  
باردًا لئلاسدِ المفترسِ  
ولهُ العزمُ أضأ كالقبسِ

ليسَ يحظى بالمئى إلا الذي  
كانَ للراحةِ كالمبتدِ  
كابدَ الأهوالِ حتى ظفرا  
من وراءَ الظهرِ أتى ظهرا  
مثلما قد باتَ ذا طرفِ قَدِي  
يقطعُ الليلَ جميعاً سهرا

في طِلابِ العلمِ حتى علما  
أحمدَ الناصبِ فينا علما  
أنه يملا بروحِ القدسِ  
للتقى فاز به من يأتي

حلَّ في مصرَ وإن كان العُلا  
ورياضُ الفضلِ لما أن علا  
قد عفتُ لما اعترها في خكلٍ  
نقعُ جهلٍ جفَّ منهن البلل  
ازدرتْ أغصانها حتى خلا  
قاعها من عذب ما يشفي العلل

نفرت إذ حلَّ فيها كالسما  
حوله الطلابُ كالشهبِ سما  
وهو بدرٌ بكمالِ مكسِ  
قدرها من نورهِ المقتبسِ

أيها الطالبُ للعلمِ اتدُ  
إن ترم نيلَ المرجى فاجتهدُ  
ليسَ إلا بابهُ ينفعا  
في اتباعِ للذي يرفعا  
منهُ واتركُ حاسداً يدفعكا  
عِلْمُ مَنْ يعملُ أكسيرٌ فزد

والزَمِ الأَعْتَابَ وانزِلْ بالحَمَى  
باعتقادٍ فَازَ من قَد لثَمَا  
مذ حَبَّرتُ النَّاسَ طَرّاً نظراً  
لم أَجدُ إلا مَقالاً صَدراً  
غَيْرَ ما يَمْلِيهِ فَانظُرْ لَتَرى  
بِيدِيعِ التَّنْقِيحِ لَمَّا نظماً  
وَأتى بِخَضَعِ جَمْعِ العِلْمَا  
إِنَّمَا المَجْدُ الرَفِيعُ المِمتطِي  
يَدَعُ المَرْفُوعَ كالمَنْهَبِ  
نَاطِراً في أَمْرِهِ بالأَحْوَطِ  
كَلَّ من أَمٍّ حَمَاهُ قَد حَمَى  
فَإِذَا جَرَّدَ مِنْهُ انفِصَمَا  
جَبَدَا المَغْرِبُ قَطِراً بِالسَّنَا  
قَطْرُهُ الشَّامِخُ قَد أَهْدَى لَنَا  
كَلَّ من فَاتَتْهُ أُسْبَابُ المُنَى  
قَل لِمَن يَرْتَجُو سِوَى المَذْكُورِ مَا  
لَا ، وَلَا النَّاسُ سِوَا إِنَّمَا  
لُدَّ بِشَهْمٍ فَازَ مِنْ أُمَّلِهِ  
أَثَقَلَ السُّودُ إِذِ حَمَلَهُ  
وَحِمَاهُ الأَمْنُ ، من أَمٍّ لَهُ

خَالَعِ الرِّبْقَةَ من قَوْلِ المَسِي  
نَعْلَهُ وَالكِبْرُ شَأْنُ المَبْلِسِ  
لِمَنَاطِ الأَمْرِ في هَذَا الزَّمَانِ  
عَن دَعَاوِ أَخْلَفَتْ عِنْدَ العِيَانِ  
دُرَّرَ الأَلْفَاظِ في سِمِطِ البَيَانِ  
بُهَيْتَ المُنطِيقِ مِثْلَ الأَحْرَسِ  
نَحْوَ ذَا المَفْرُودِ في المَلْتَمَسِ  
أرؤسِ الآسَادِ قسراً مِثْلَ ذَا  
ثُمَّ لِلنَّازِلِ يُعْلِي مِثْلَ ذَا  
خَافِضِ الطَّرْفِ عَلى حَرِّ القَدَى  
بِحُسامِ العِزْمِ هَشَّ المَلْمَسِ  
جَلَمَدُ الصَّخْرِ بِذَاكَ المِيسِ  
فَضْلُهُ يَبْهَرُ بِدَرِّ الأَفْقِ  
سَيِّدَا قَد فَاقَ شَمْسَ المِشْرِقِ  
بِعُـلَاهِ لِلرَّيَا يَرْتَقِي  
يَنْبُتُ الزَّهْرُ بِأَرْضِ اليَسِ  
رَأْيُ مَنْ سِوَاهُمْ في هِوسِ  
بِنِوَالِ فَاقَ سَحَّ الهَامِلِ  
وَقَرَّ فَضْلَ مُسْتَبِينِ شَامِلِ  
بَلِغِ القِصْدِ ، فَبِشْرِ الأَمَلِ

بحره الوافرُ بالعلم طما كاملَ الأمدادِ لم يمتبسِ  
نال منهُ الناسُ حتى عمما مشرقاً والغربَ للأندلسِ  
رجع إلى موشحات لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ،  
فمن المنسوب إلى محاسنه قوله :

قد حرّكَ الجلجلُ بازي الصباح والفجرُ لاح  
فيا غراب الليلِ حثَّ الجناح

وهذا مطلع موشح بديع له لم يحضرني الآن تمامه ؛ لكوني تركته وجملة من  
كلام لسان الدين في كتبي بالمغرب جبرها الله تعالى عليّ ، وهو معارض للموشح  
الشهير الذي أوله :

بنفسحُ الليلِ تذكّى وفاح بينَ البطاح  
كأنه يسقى بمسك وراح

وهذا المنحى هو الذي سلكه الجمالُ ابنُ نُبّاة<sup>١</sup> إذ قال مادحاً لجلال الدين  
الخطيب رحم الله تعالى الجميع :

ما سَحَّ محمرُّ دموعي وساحُ على الملاح  
إلاّ وفي قلبي المعنى جراح

بي من بتي الأتراك حلّو الشبابِ مرُّ السطّا  
عشقتهُ حينَ عدمتُ الصّوابِ مِن الخطّا  
تَشكُّو حشا الغزلان منهُ التهابُ إذا عطا  
وربّما تَشكُّو الغصُونُ اكتابُ إذا خطّا

١ هو محمد بن محمد بن محمد ابن نبّاة الفارقي وله ترجمة مسهبة في الوافي ١ : ٣١١ - ٣٣١ ولم  
ترد الموشحة هنالك أو في ديوانه .



ما ماسَ ذاكَ الغصنُ بينَ الوشاحِ      إلا وراح  
 قولُ عدُولي كلَّهُ في الرياحِ  
 آهاً لصبِّ دمعهِ حيثُ كانُ      دمعُ أريقِ  
 هذا أسيرٌ في وجوهِ الحسانِ      وذا طليقِ  
 أرقَ جِسمي بالضنَى يومَ بانُ      بدرُ الفريقِ  
 فها أنا اليومَ لهُ يا فلانُ      عبدُ رقيقِ  
 يزيدُ أجفاني ندىً وارتياحِ      نهى اللّواحِ  
 مثلُ جلالِ الدينِ يومَ السّماحِ  
 حبرٌ لهُ في الخلقِ ذكراً جميلٌ      لا يُفترى  
 ماحٍ على غيظِ الغمامِ البّخيلِ      محلّ التّرى  
 ما رأيتُ العينَ لهُ من مثيلِ      ولا ترى  
 يوقدُ في أوطانِهِ للنزِيلِ      نارَ القريِ  
 شرارها في الكيسِ حمراً صحاحِ      لها اقتداحِ  
 لكنّها في القلبِ عذبٌ قراحِ  
 يا مالكَ العِلْمِ وفيضَ الندى      جُزت المدى  
 فابتقَ وكلُّ العالمينَ الفيدا      دعِ العيدا  
 أنتَ الذي أصبحَ غيثَ الجدا      صبحَ الهدى  
 كم يُفتنى منكَ وكم يُفتدى      ويُجتدى  
 علمٌ جليٌّ ونوالٌ صراحِ      صفو مباحِ  
 يروي بهِ راوي الرّجا عن رباحِ

ومُغْرَمٍ لا يَخْتَشِي مِنْ رَقِيبٍ ولا عذولٍ  
 معلق القلب بشجوٍ عَجِيبٍ ولا وصولٍ  
 يَسْكُرُ لكنْ بصفاتِ الحَيِّبِ لا بالشَّمولِ  
 لما رنا الظبي وماسَ القَصِيبِ أضحى يقولُ  
 كم ينتضي جفنك وعطفك صِفاحٍ على رماح  
 ما ذي محاسنٍ ذي خزاينٍ سلاح

ومن الموشحات الصادرة من المشاركة المعارضة للمغاربة قولُ عثمان البلطي  
 يمدح القاضي الفاضل :

وبلاه من رَوَّاعٍ بجوره يَقبُضي  
 ظيُّ له إغذاذٌ منه الجفا حَظِّي

ولم أقف على تمامها ، وقد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة ، وهو :

عقاربُ الأصداغُ في السوسنِ الغضِّ  
 تَسْبِي تَقَى من لاذِ بالنسكِ والوعظِ  
 مِنْ قَبْلُ أن يَعدو عليَّ لَمَّ أحسبُ  
 أن تَخضعُ الأسدُ لجؤذرِ السريدِ  
 ظيُّ له خَدٌّ مُفَضَّضٌ مُذهبُ  
 وشادنٌ يَبسُدو في صدغه عَقْرِبُ

١ في ق : المظلي والتصويب عن معجم الأدباء ( ١٢ : ١٤١ ) وقال نسبة إلى بلط التي تقارب الموصل  
 وذكرها في معجم البلدان بالياء . وعثمان بن عيسى البلطي انتقل إلى دمشق وعلم في الزبداني ولما فتح  
 صلاح الدين مصر انتقل إليها وفيها توفي سنة ٥٩٩ بعد أن كان يدرس النحو ويقريء القرآن ؛  
 وقد أورد ياقوت موشحته ص : ١٤٧ كما أوردها ابن شاعر في القوات ٢ : ٦٧ في ترجمة  
 البلطي .

رَقَّةُ زَهْرِ الْبَاغِ<sup>١</sup> فِي جِسْمِهِ الْفِضِي  
وَقِسْوَةُ الْأَفْلَازِ فِي قَلْبِهِ الْفِظُّ

مَهْفَهْفٌ بَدَعُ أَصْبَحْتُ مَغْرَى بِهِ  
قَلْبِي لَهُ رَبْعٌ لَوْ كُنْتُ فِي قَلْبِهِ  
أَصَابِنِي صَدْعٌ مُذْ لَجَّ فِي عَتَبِهِ  
السَّهْدُ وَالسَّمْعُ حَظِّي مِنْ قَرَبِهِ

وَالْعَيْنُ لَا يَنْسَاغُ لَهَا جَنَى الْغَمَضِ  
وَالدَّمْعُ ذُو إِغْذَاذٍ نَاهِيكَ مِنْ حَظِّ

ومن أحسن ما للمشاركة من التوشيح قولُ الشهاب العزازي يعارض أحمد  
ابن حسن الموصل<sup>٢</sup> :

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَكَأْسَ الْعَقَارِ دُونَ اسْتَارِ  
عَلَّمْتَمَانِي كَيْفَ خَلَعَ الْعِدَارِ

اغْتَمِ اللَّذَاتِ قَبْلَ الذَّهَابِ  
[ وَجُرَّ أَذْيَالُ الصَّبَا وَالشَّبَابِ ]<sup>٣</sup>  
وَاشْرَبْ فَقَدْ طَابَتْ كُؤُوسُ الشَّرَابِ

عَلَى خُدُودِ تَنْبُتِ الْجَلَنَارِ ذَاتَ احْمَرَارِ  
طَرَزَهَا الْحَسَنُ بِأَسِ الْعِدَارِ

١ الباغ : الحديقة .

٢ انظر المنهل الصافي ١ : ٣٤٤ وتوشيح التوشيح : ١٠٩ .

٣ سقط هذا الشطر من ق .

الراح لا شك حياة النفوس  
فحل منها عاطلات الكؤوس  
واستجلها بين الندامى عروس

تُجلى على خطاياها في إزار من النصار  
حبابها قام مقام النصار

أما ترى وجه الهنا قد بدا  
وطائر الأشجار قد غردا  
والروض قد وشاه قطر الندى

فكملت اللهو بكأس تدار على افرار  
مباسم النوار غب القطار

اجن من الوصل ثمار المني  
وأوصل الكأس بما أمكنا  
مع طيب الريقة حلو الجني

بمقلة أفتك من ذي الفقار ذات احوار  
متصورة الأجنان بالانكسار

زار وقد حل عهود الجفا  
وافتر عن ثغر الرضى والوفا  
فقلت والوقت لنا قد صفا

يا ليلة أنعم فيها وزار شمس النهار  
حييت من بين الليالي القصار

ويعجبي من موشحات الغزالي المذكور قوله ١ :

ما على من هام وجداً بذوات الحلى  
متلى بالحدق السود وبيض الطلى

باللوى ملى حسن لديوني لوى  
كم نوى قتلي وكم عذبي بالنوى  
قد هوى في حبه قلبي بحكم الهوى

واصطفى نار تجنيه ونار القلى  
كيف لا يتدوب من هام بريم الفلا

هل ترى بجمعنا الدهر ولو في الكرى  
أم ترى عيني محبباً من لجسمي برى  
بالسرى يا حادبي ركب يليلي سرى

عللاً قلبي بتذكار اللقاء عللاً  
وانزلنا دون الحمى ، حي الحمى منزلاً

بي رشا دمني بسرّي في هواه فشا  
لو يشا برّد ميني جمرات الحشا  
ما مشى إلا انشئ في سكره وانتشى

عطلا من الحميا يا مدير الطلا  
ما حلا إذا أدار الناظر الأكحلا

١ المنهل الصافي ١ : ٣٤٥ .

هَلْ يَلَامُ	مَنْ غَلَبَ الْحُبُّ عَلَيْهِ فَهَامَ
مُسْتَهَامٌ	بِفَاتِرِ اللَّحْظِ رَشِيقِ الْقَوَامِ
ذِي ابْتِسَامٍ	أَحْسَنَ نِظْمًا مِنْ حَبَابِ الْمَدَامِ
لَوْ مَلَا	مَنْ رَيْقَهُ كَأَسَا لِأَحْيَا الْمَلَا
أَوْ جَلَا	وَجْهًا رَأَيْتَ الْقَمَرَ الْمُجْتَلَى
لَوْ عَفَا	قَلْبُكَ عَمَّنْ زَلَّ أَوْ مِنْ هَفَا
أَوْ صَفَا	مَا كَانَ كَالْجَلْمَبِ أَوْ كَالصَّفَا
بِالْوَفَا	سَلَّ عَنْ قِي عَذْبَتِهِ بِالْجَفَا
هَلْ خَلَا	فُؤَادَهُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَلَا
أَوْ سَلَا	أَوْ خَانَ ذَاكَ الْمَوْثِقَ الْأَوْلَا

وقوله أيضاً يعارض الموصلي ١ :

مَا سَلَّتِ الْأَعْيُنُ الْفَوَاتِرُ	مَنْ غَمَدِ أَجْفَانِهَا الصَّفَاحِ
إِلَّا أَسَالَتْ دَمَ الْمَاجِرُ	مَنْ غَيْرِ حَرْبٍ وَلَا كَفَاحِ
تَاللَّهِ مَا حَرَّكَ السَّوَاكِنُ	غَيْرُ الظُّبَاءِ الْجَاذِرِ
لَمَّا اسْتَجَاشَتْ بِكُلِّ طَاعِنٍ	مَنْ الْقُدُودِ النَّوَاضِرِ
وَفُوقَتْ أَسْهَمَ الْكِنَانِ	مَنْ كَلَّ جَفْنَ وَنَاظِرِ
عُرْبٌ إِذَا صَحَنَ بِالْعَامِرِ	بَيْنَ سَرَايَا مِنَ الْمَلَا
طَلَّتْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاجِرِ	طَلَائِعُ تَحْمَلُ السَّلَا

١ المنهل الصافي ١ : ٣٤٧ .

أَحْيَبُ بِمَا تَطْلَعُ الْجُيُوبُ  
من أَمْرٍ مَا لَهَا مَغِيبُ  
هِيَ هَاتِ أَنْ تَعْدَلَ الْقُلُوبُ  
لَمَّا تَوْشَحْنَ بِالْغَدَائِرِ  
فَانْهَزِمِ اللَّيْلُ وَهُوَ عَائِرُ  
وَأَهْيَفِ نَاعِمِ الشَّمَائِلِ  
فَيَسْتَنِي كَالْقَضِيبِ مَائِلِ  
لَهُ عِذَارٌ كَالنَّدَى سَائِلِ  
شُقَّتْ عَلَى نَبْتِهِ الْمَرَائِرُ  
تَكَلُّ فِي وَصْفِهِ الْخَوَاطِرُ  
ظَبِيٌّ إِلَى الْإِنْسِ لَا يَمِيلُ  
الْحَسَنُ قَالُوا وَلَمْ يَقُولُوا  
وَطَرْفَهُ النَّاعِسُ الْكَحِيلُ  
أَذَلَّ بِالسَّحَرِ كُلِّ سَاحِرِ  
يَجُولُ فِي بَاطِنِ الضَّمَائِرِ  
أَمَا تَرَى الصَّبْحَ قَدْ تَطَلَّعَ  
وَالْبَدْرَ نَحْوَ الْغُرُوبِ أَسْرَعَ  
وَالْبَرْقَ بَيْنَ السَّحَابِ يَلْمَعُ  
وَتَحْسَبُ الْأَنْجَمَ الزُّوَاهِرِ  
فَانْهَزِمِ النَّهْرُ وَهُوَ سَائِرُ

١ المنهل : في ذيله .

وموشحة الموصلية التي عارضها الغزالي هي قوله ١ :

رنا بأجفانه الفواتر	لمّا انثنى واحدٌ الملاح
فسلّ من طرفه بواتر	وهزّ من عطفه رماح
ناظره جرّد المهتد	وغمده منّي الحشا
وعامل القدّ فهو أملد	يطعن للقلب <sup>٢</sup> إن مشى
والعارض القائم المزد	لفتنة الناس قد نشا
والحاجب القوس <sup>٣</sup> ، بالفواتر	لنبّله في الحشا جراح
ومشرف الصدغ فهو جائر	سلطانه للدما أباح
فجفنه <sup>٤</sup> الفاتك <sup>٥</sup> الكيناني	من ثعل <sup>٣</sup> رأس لي نبال
وهو الخفاجي <sup>٤</sup> قد غزاني	ووجهه من بني هلال
عبّسي <sup>٤</sup> لحظ له سباني	جسم زيدي <sup>٤</sup> بالدلال
والردف يدعى من آل عامر	وواضح الصلّت من صباح
وخصره من هشيم <sup>٤</sup> ضامر	يلور من حوله وشاح
فوجهه <sup>٤</sup> جنّة وكوثر	رُضابه العذب لي حلا
والنار في وجتيه تسمر	حياها خاله <sup>٥</sup> اصطل
عجبت <sup>٤</sup> من خاله المعنير	إذ يعبد <sup>٤</sup> النار كيف لا

١ المنهل الصافي ١ : ٣٥٠ .

٢ المنهل : في القلب .

٣ المنهل : من مقل ؛ وثعل : قبيلة مشهورة بالرماية .

٤ المنهل : هشيم .

٥ ق : وأخال خياها .



يُحَرِّقُ <sup>١</sup> بِالنَّارِ وَهُوَ كَافِرٌ	وَمَا سَقَى رَيْقَهُ الْقِرَاحُ
كَامِلٌ حَسَنٌ مَعْنَاهُ وَافِرٌ	بَسِيطٌ وَوَصْفٌ كَالْمَسْكِ فَاحٌ
مَا اخْضَرَ <sup>٢</sup> نَبَتَ الْعَذَارِ إِلَّا	بِأَسِهِ سَيْجٌ <sup>١</sup> الشَّقِيقُ
وَهُوَ كَنَمَلٍ سَعَى وَوَلَّى	وَلَمْ يَجِدْ <sup>٢</sup> لِلْجَنِيِّ طَرِيقَ
مِنْ رَيْقَةٍ الْبَدْرِ إِذْ تَجَلَّى	فِي هَالَةِ الْعَارِضِ الْأَيْقِ
لَمَّا تَبَدَّى بِالْوَجْهِ دَائِرٌ	وَحَبَّرَ الْعَقْلَ حِينَ لَاحَ
شَقٌّ عَلَى خَدِّهِ الْمَرَاثِرُ	وَقَطَعَ الْأَنْفُسَ الصَّاحِ
وَرُبَّ <sup>٣</sup> يَوْمٍ أَنَى وَحَيًّا	كَالشَّمْسِ وَالنَّجْمِ وَالْقَمَرِ
بِالْكَأْسِ وَالرَّاحِ وَالْمَحْيَا	ثَلَاثَةٌ تَفْتَنُ الْبَشَرَ
وَقَالَ قَوْمٌ يَا نَدِيمُ هَيَّا	أَقْضِ بِنَا لَذَّةَ الْوَطْرِ
فَالْحَمْرُ تُجَلِّي عَلَى الْمَزَاهِرِ	مِنْ اغْتِبَاقٍ إِلَى اصْطِبَاحِ
وَطَافَتِ الرَّاحُ بِالْمَجَامِرِ	مِنْ عَنَبِ الزَّهْرِ فِي الْبَطَاحِ

وَمِمَّا يُطْرَبُنِي مِنَ الْمَوْشِحَاتِ قَوْلٌ<sup>٢</sup> بَعْضُهُمْ :

مَا بِي شَمُولٌ إِلَّا شَجُونٌ	مَزَاجُهَا فِي الْكَاسِ دَمْعٌ هَتُونٌ
لِلَّهِ مَا بَدَّرَ	مِنْ الدَّمْعِ
صَبًّا قَدْ اسْتَعْبِرَ	مِنْ السُّلُوعِ
أَوْدَى بِهِ جَوْذَرٌ	يَوْمَ الطَّلُوعِ <sup>٣</sup>

١ المنهل : يبهج .

٢ هذه الموشحة لابن بقي (دار الطراز : ٦٧) .

٣ دار الطراز : يوم البقيع .

فهو قَتِيلٌ لا بل طَعِينٌ بين الرجا والياسُ له سنون<sup>١</sup>

جرحت للحينِ  
وحيلَ ما بيني  
لا شكَّ بالبينِ  
كفني بكفني  
وبينَ لثني  
يكونَ حتفي

حال الرحيلُ ولي ديونُ إن رَدَّها العباسُ فهو الأمينُ

أما ترى البدرا  
قد اكتسى خضرا  
إذا اثني نضرا  
بدر السعود  
من البرود  
من القُود

أضحى يقولُ متُ يا حزينُ قد اكتسى بالأسِ الياسمينُ

قلتُ وقد شردُ  
وأياسُ العودُ  
صدَّ فلما صد  
النومَ عني  
السقمُ مني  
قرعتُ سني

جسمي نخيلٌ لا يستبينُ يطلبُهُ الجلاسُ حيثُ الأينُ

تجاوز الحدَّ  
وكلفَ السهدا  
قلتُ وقد مدَّ  
قلبي اشتياقا  
من لا أطاقا  
لبي رواقا

لبي طويلٌ ولا معينُ يا قلبَ بعضِ الناسِ أما تليينُ

١ دار الطراز : سنون .

## الباب السادس

في مصنفاته في الفنون ، ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون ،  
وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المتون

اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمتُ نحوُ الستين ، وكلها في غاية البراعة ،  
بِحيث إنّه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به ، بل وكثير من غير أهل  
عصره رحمه الله تعالى ، وقد وقفت بالمغرب على كثير منها ، وفيها أقول مضمناً  
ببعض تغيير :

تصانيفُ الوزيرِ ابنِ الخطيبِ      الذُّ من الصِّبا الغَضِّ الرِّطيبِ  
فأيةُ راحةٍ ونعيمِ عيشٍ      توازي كُتبه أم أيُّ طيبِ

قال رحمه الله تعالى في تعريفه بنفسه آخر « الإحاطة » ما صورته<sup>١</sup> :

التوايف : « التاج المحلى في مساجلة القدح المحلى » ، و [ « الكتيبة الكامنة في  
أدباء المائة الثامنة » ]<sup>٢</sup> ، و « الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر »  
ثم « النقاية بعد الكفاية » هذا في نحو القلائد والمطمحين لأبي نصر الفتح بن محمد ،  
و « طرفة-العصر في دولة بني نصر » في أسفار ثلاثة ، و « بستان الدول » موضوع  
غريب ما سُمع بمثله ، قلَّ أن شدَّ عنه فن من الفنون ، يشتمل على شجرات

١ الإحاطة ، الورقة : ٣١٢ .

٢ سقط ذكر الكتيبة الكامنة من ق ، وهو الأصوب لأن المقري سيستدرك ذكره من بعد بين الكتب  
التي لم تذكر قبلا .

عشر : أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوزارة ، ثم شجرة الكتابة ، ثم شجرة القضاء والصلاة ، ثم شجرة الشرطة والحسبة ، ثم شجرة العمل ، ثم شجرة الجهاد ، وهي فرعان : أسطول ، وخيول ، ثم شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجمين والبيازرة والبياطرة والفلاحين والندماء والشرطنجيين والشعراء والمغنين ، ثم شجرة الرعايا ، وتقسيم هذا كله غريب يرجع إلى شجَب ، وأصول ، وجراثيم ، وعمد ، وقشر ، ولحاء ، وغصون ، وأوراق ، وزهرات ثمرة ، وغير ثمرة ، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء بالصيغ اسم الفن المراد به ، وبرنامجه صورة بستان ، كل منه نحو من ثلاثين مفرأ ، ثم قطعَ عنه الحادثُ على الدولة ، وديوان شعري في سفرين سميته « الصيَّب والجهام والماضي والكهام » ، والنثر في غرض السلطانيات كثير ، والكتاب المسمى بـ « اليوسفي في صناعة الطب » في سفرين كبيرين ، كتاب منمع ، و « عائد الصلة » وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير ، في سفرين ، وكتاب « الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة » كتاب كبير في أسفار تسعة ، هذا متصل بآخرها ، و « تخلص الذهب في اختيار عميون الكعب الأدييات الثلاثة » ، و « جيش التوشيح » في سفرين ، ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كيادة الدولة « نفاضة الجراب في علاة الاغتراب » موضوع جليل في أربعة أسفار ، وكتاب « عمَلُ مَنْ طَبَّ لِنَ حَب » ومترلته في الصناعة الطيبة بمتزلة كتاب أبي عمرو ابن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية ، لا نظير له ، ومن الأراجيز المسماة « رقم الحلل في نظم الدول » والأرجوزة المسماة « الحلل المرقومة في اللع المنظومة » ألفية من ألف بيت في أصول الفقه ، والأرجوزة المسماة بـ « المعلومة » معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة في العلاج من الرأس إلى القدم

إذا أضيفت إلى رجز الرئيس أبي علي كملت بها الصناعة كمالاً لا يشينه نقص ، والأرجوزة المسماة بـ « المعتمدة في الأغذية المفردة » والأرجوزة « في السيامة المدنية » ، إلى ما يشذ عن الوصف كالرجز « في عمل الترياق الفاروقى » ، و « الكلام على الطاعون المعاصر » ، و « الإشارة » ، و « قطع السلوك » ، و « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » حتى في الموسيقى والبيطرة والبيزرة ، هذر كَشَفَ به الحجاب ، ولعب بالنفس الإيجاب ، وضاع الزمان ولا تئيل بين الرد والقبول والنفي والإيجاب ، والله در القائل - وهو المؤلف ١ - :

والكونُ أشراكُ نفوسِ الورى طوبى لنفسٍ حرةٍ فازت  
إن لم تحزْ معرفةَ اللهِ قد أورطها الشيءُ الذي حازت

وكلُّ ميسرٍ لما خلُقَ له ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العلي العظيم ؛ انتهى ما له في آخر « الإحاطة » بحروفه .

قلت : ولنذكر ما تأخر تأريخه عن الإحاطة أو أشير إليه فيها مجملًا فنقول : من أشهر تواليفه رحمه الله تعالى كتاب « ربحانة الكتاب ونجعة المتاب » في عدة مجلدات ، وهو داخل في قوله السابق في الإحاطة : والنثر في غرض السلطانيات كثير ؛ وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير في أغراض شتى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصدقاتهم وغير ذلك من أحوالهم وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى ، وذكر في صدره خطب بعض كتبه ، وفي آخره بعض مقاماته وتجليته لأهل عصره ، وغير ذلك ، وبالجملة فهو كتاب مفرد في بابيه .

وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه الله تعالى في كتابه « نثر فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان » ما صورته ٢ : لابن الخطيب

١ وهو المؤلف : زيادة من ق ، لم ترد في الإحاطة .

٢ نثر فرائد الجمان : ٢٤٤ وأزهار الرياض : ١٨٩ .

الأوضاع المصنّفات ، التي آذانُ إحسانها هي المُصَرَّطات المُشَنَّفَات ، منها في التصوف ، الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر. الشوف « روضة التعريف بالحب الشريف » ؛ انتهى ، وسرَدَ غير هذا الكتاب ممّا قدمنا ذكره وغيره .

وهذا الكتاب - أعني « روضة التعريف » - غريب المترع ، وعارض به « ديوان الصباية » لابن أبي حجلة صاحب « السكردان » ، وضمنه من التصوف وعبارات أهله العجب العُجاب ، وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المُطلقة ، وبذلك سجل عليه أعداؤه في نكبته الآخرة التي ذهبت فيها نفسه ، وتَسَبَّوه إلى مذهب الحلول وغيره ، ممّا ذكره يطول حسبنا ألمعنا بذلك فيما سبق ، وقد جعل هذا الكتاب شجرة ذات أفنان وعمود ، مشتمل على القشر والعود ، وأوراق ، وصورة طائر فوقها ، ولم أر في فنّه مثله ، جازاه الله تعالى عن نيته ؛ فإنّه في الحب الشريف الرباني ، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته .

ومن تواليفه رحمه الله تعالى غير ما سبق « اللوحة البدرية في الدولة النصرية » وكتاب « السحر والشعر » و « معيار الأخبار » و « مفاضلة مالقة وسلا » و « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » وقد ذكرهما في الريحانة بنصهما ، وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه ، و « المسائل الطبية » في مجلد ، و « الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة » ورسالة « تكوّن الجنين » و « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » وكتاب « الوزارة » و « مقامة السياسة » و « الغيرة على أهل الحيرة » و « حمل الجمهور على السّن المشهور » و « الزبدة المخوضه » و « الرد على أهل الإباحة » و « سد الذريعة في تفضيل الشريعة » و « تقرير الشبه وتحرير الشبه » و « استتزال اللطف الموجود في سر الوجود » و « أبيات الأبيات » فيما اختاره رحمه الله تعالى من مطالع ما له من الشعر ، و « فُتات الخوان ولقط الصوان » في سفر يتضمن المقطوعات فقط ، و « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ، و « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » جمع فيه نظم ابن صفوان ، و « أعمال الأعلام فيمن بويح قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك

من شجون الكلام» و«الباخر الطيبة في المفاخر الخطيبة» و«خلع الرسن في أمر القاضي ابن الحسن» وتدين شعر شيخه ابن الحياض، وجمع نثر المذكور وسماه «تافه من جمّ ونقطة من يسمّ» وشرحه لكتاب نفسه «رقم الحلل في نظم الدول»؛ فهذا ما حضرني علمه من تواليف لسان الدين رحمه الله تعالى، فأما «البيزرة» ففي مجلد، وأما «البيطرة» فكذلك في مجلد جامع لما يرجع إليه من محاسن الخيل وغير ذلك، وأما «رجز الأصول» فقد شرحه قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور، وأما «رقم الحلل في نظم الدول» فهو في غاية الحلاوة والعبوبة والجزالة، وقد كنت بالمغرب أحفظ أكثره، فنسيته الآن، وابتدأه بقوله:

الحمدُ لله الذي لا ينكره من سرّحت في الكائنات فكره

وعلق بمحفظي الآن منه قوله في الوليد بن يزيد:

ثمّ الوليدُ بنُ يزيدَ العائثُ قد نُقلت من فعله خبائثُ  
وفي آخر دولة بني أمية قوله:

وصارَ قصرَ الملك من أميةٍ أقفَرَ ريباً من ديار ميةٍ

وفي الأمين:

باعَ العُلا بشادِنِ وكاسِ وصحبةِ الشيخِ أبي نُواسِ

وفي المعتصم:

وهو الذي تألّف الأتراكا فنصّبوا لقومه الأشراكا

ومن أبيات هذا الكتاب قوله:

وَيَنْفَسُدُ الْمَلِكُ بِالِاحْتِجَابِ كَذَاكَ بِالزَّهْوِ وَبِالِإِعْجَابِ

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك :

وأفقرت من ملكه أوطانهُ سبحان من لا ينقضي سلطانه

### [ معلومات عن كتاب الإحاطة ]

وأما كتاب « الإحاطة » فهو الطائر الصيت بالشرق والمغرب ، والمشاركة أشد إعجاباً به من المغاربة ، وأكثر لهجاً بذكره ، مع قلته في هذه البلاد الشرقية ، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكي<sup>١</sup> ، وسمّاه « مركز الإحاطة في أدباء غرناطة » وهو في مجلدين بخطه ، رأيت الأخير منهما بمصر ، وقال في آخره ما نصّه : هذا آخر ما أردت إيرادَه ، وفوّتُ أبرادَه ، من كل طرفه وتحفة وفائدة أدبية ونادرة تاريخية ، في كتاب « الإحاطة بتاريخ غرناطة » ، ولما كان الممول عليه ، والباعث الداعي إليه ، ذكر أدبائه ، ومآثر علمائه ، سمّيته « مركز الإحاطة بأدباء غرناطة » والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقيرُ إلى عفوَ ربّه محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكي ، لطف الله تعالى به بمنّه وكرمه ، مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ انتهى . وقد جعل كل أربعة أجزاء من الأصل في مجلد ، إذ هو في مجلدين كما سبق ، ونسخة الأصل في ثمانية مجلّدات ، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها . ولما وقف سلطان الأندلس من كتاب « الإحاطة » نسخة على بعض مدارس غرناطة كتب ابنُ عاصم حجة الوقفية بخطه ، ولتبتها لما فيها من الفوائد ، قال

١ هو محمد بن إبراهيم بن محمد أبو البقاء بدر الدين الأنصاري البشتكي المشقي الأصل المتوفى بالقاهرة سنة ٨٣٠ (انظر الفقه لللاج ٦ : ٢٧٧ وطالع البحر ١ : ٨٠) .



الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي نزيل تلمسان المحروسة : كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، والفائقة الكمال ، من « الإحاطة بتاريخ غرناطة » المحبسة على المدرسة اليوسفية ، من الحضرة العلية ، بخط قاضي الجماعة ، ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة ، صدر البلغاء ، وحلم العلماء ، ووحيد الكبراء ، وأصيل الحسباء ، الوزير الرئيس المعظم أبي يحيى ابن عاصم - رحمة الله تعالى عليه - ما نصه : الحمد لله الجاعل الاستدلال بالأثر على المؤثر مما سلمه الأعلام ، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام ، وهو الحجّة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام ، وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عرّضت الأوهام ، وحسبك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلة ، وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلة ، فحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقبول ، ويستنبط المهتدي لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول ، وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلة مالك على سواء سبيل ، ومستم من صحة النظر إلى أكرم قبيل ، فلا خفاء أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - من أثر هذه الدولة النصرانية أدامها الله تعالى بكل اعتبار ، ومآثرها التي هي عبرة لأولي الألباب وذكرى لذوي الأبصار ، أما الأول فلأن الأنبياء التي أظهرت بهجتها ، وأوضحت حجتها ، وشرفت مقصدها ، وكرمت مصعدها ، إنما هي مناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خلفائها الأعلام ، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف والأقلام ، وأفذاذ حفاظة الدين والدنيا ، والشرف والعليا ، والملك والإسلام ، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك ، ويتنظم نظم الجمان في ذلك السلك ، من حياطة قلعتهما ، وأصالة منعهما ، وقديم اختطاطها ، وكريم جهادها ورباطها ، وحسن ترتبها ووضعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهل ربّعها ، وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ممن انتابها

من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل ، وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوة ، ومُبدع محاسنها المجلوة ، وناقل صورتها من الفعل إلى القوة ، إنمّا هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية الكريمة ، ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الدائمة ، فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف ، على الانصاف ، فأخلاف هذه المكارم النصرية أروعته ، وعناياتها الجميلة أسمته فوق الكواكب ورفعتّه ، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، ومن كريم تشریفها اكتسب ، والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قدره ، بل أفقّه الذي أشرق فيه بدره ، والتشريفات السلطانية التي فتحت لها باللها ، وأحلت من مراني العز فوق السها ، وأمكنت الأيدي من الذخائر والأعلاق ، وطوقت المني كالقلائد في الأعناق ، وقلدت الرياسة والأفلام أقلام ، وثنت الوزارة والأعلام أعلام ، فبهرت أنواع المحاسن ، ووُرِدَ معينُ البلاغة غيرُ المطروقِ<sup>١</sup> ولا الآسن ، وبرعت التوايف في الفنون المتعدّدة ، واشتهرت التصانيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأذمة المتأكّدة ، إذ أظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتبه الإجمال ، فلننفضح الآن بما قصّد ، ولنحقق من أنجم السعادة ما رصّد ، وذلك أن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الغالب بالله المؤيد بنصره أبي عبد الله محمد ابن الخلفاء النصريين ، أيده الله ونصره ، وسنّى له الفتح المبين ويّسره ، ما أثر لم يُسبق إليها ، ومكارم لم يجر أحد ممن وسم بالكرم عليها ، بلحالة قدرها ، وضخامة أمرها ، من ذلك هذا المقصد الذي أثير لها كالكتاب المذكور وسواه ، ممّا هو واحد في فنه وفد في معناه ، عقّد في جميعها التحسيس على أهل العلم والطلبة بحضرتة العليا هنالك ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ، والله تعالى ينفع بهذا المقصد الكريم ، ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم ، وهذه النسخة في اثني عشر سقراً متفقة الخط والعمل ، اكتب هذا

١ المطروق : الماء الذي يالت فيه الدواب .

على ظهر الأول منها ، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة ، عرف الله تعالى بركته بمنته ؛ انتهى .

وكان لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - أرسل في حياته نسخة من « الإحاطة » إلى مصر ، ووقفها على أهل العلم ، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء ، وقد رأيت منها المجلد الرابع ، وهذا نص وقفيته : الحمد لله وحده ، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي - نفع الله تعالى به - عن موكله مصنفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السلماني - فسحَّ الله تعالى في مدته ، وفتح لنا وله أبواب رحمته ، ومنحنا وإياه من رفده وعطيته ، وأسكننا وإياه أعالي جنته - جميع هذا الكتاب « تاريخ غرناطة » - ، وهو ثمانية أجزاء ، هذا رابعها ، عن مصنفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره ، وهو أنه فوض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلها ، وشؤونه جميعها ، والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها ، تفويضاً تاماً على العموم والإطلاق ، والشمول والاستغراق ، لم يستثن شيئاً مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه ، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بغير الإسكندرية المحروس - أدام الله تعالى أيامه - كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربيعي المالكي ثبوته مؤرخ بثالث ذي الحجة عام سبعة وستين وسبعمائة ، وفقاً شرعياً على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخاً ومطالعة ، وجعل مقره بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء ، رحم الله تعالى واقفها ، وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة ، حرسه الله تعالى ، ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة ، فلا يحل لأحد ، يؤمن بالله العظيم ، ويعلم أنه صائر إلى ربه الكريم ، أن يطله ولا شيئاً منه ،

ولا يبدله ولا شيئاً منه ، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنما إثمه على الذين  
يبدلونه ، إن الله سميع عليم ، ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور  
جملة الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،  
وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام  
ثمانية وستين وسبعمائة ؛ انتهى .

وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء ، فمن  
ذلك ما كتبه الحافظ المقرئ المؤرخ ، ونصّه : انتقى منه داعياً لمؤلفه أحمد  
ابن علي المقرئ في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة .

وما رقمه الحافظ السيوطي ونصّه : الحمد لله وحده ، طالعت على طبقات  
النحاة واللغويين ، وكتبه عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين  
وثمانمائة ؛ انتهى

وبعد هذين ما صورته : انتقى منه داعياً لمؤلفه محمد بن محمد القوصوني  
سنة أربع وخمسين وتسعمائة .

وبعد ما صورته : أنهاه نظراً وانتقاء علي الحموي الحنفي ، لطف الله به .  
وبخط مولانا العارف الرباني علامة الزمان وبركة الأوان سيدي الشيخ محمد  
البكري الصديقي ما نصّه : طالعت مبتهجا برياضة الموقفة ، وأزهار معانيه  
المشرقة ، مرتقياً في درج كلماته الطباب سماه الاقتباس ، مقتنياً من لطائفه درراً  
وجواهر بل أحاشيها بنلك القياس ، كتبه محمد الصديقي غفر الله له ؛ انتهى .

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب كابن  
دُقماق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر ، ومن المغاربة ابن المؤلف  
أبي الحسن علي [ ابن ] الخطيب ، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ،  
والعلامة أبي الفضل ابن الإمام التلمساني ، والنحوي الراعي ، والشيخ الفهامة الشهير  
بجبي العجيمي شارح الألفية وصاحب التأليف ، وغير هؤلاء ممن يطول

تعدادهم ، رحم الله تعالى جميعهم .

وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغني بالله تعالى الذي كان ابن الخطيب وزيراً له ثم انفصل عنه حسبما تقدم إلى ما يتعلق بكتاب « الإحاطة » في جملة كلام نصّه : وتلقينا ممن نثق به أن الكاتب المجيد الأصيل حسباً ، البارع أدباً ، أبا عبد الله ابن جزّي وقدّ على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فأكرم جنابه ، وكمل من تقرّيبه واصطناعه آرايه ، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسي ، وصاح بمن عدّله :

### أيا وَيَحَ الشجّي من الخلي

وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه ، ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه ، فلم يكن شيء من الكلام إلّا قال الإحسان وأنا معه ، استوعب ما شاء ، وأبدع في كل ما نقل سواء كان شعراً أو إنشأه ، لكن سابق آجله منعت من الإمتاع بمجمله ومفصله ، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فعين لتعريف صاحب المغرب بالكاتبة خاص الدولة ورئيس الحملة أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فوقف من تاريخ ابن جزّي على شاطئ نهر فياض ، وانتشق من ورقاته أزهار رياض ، وحمله النظر في بدائمه على أن يأخذ في جمع كتابه المسمى بـ « الإحاطة فيما تيسر من تاريخ غرناطة » ووجد لذلك موجباً أغراه بجمعه ، وهو أن الشيخ الحجّة الشاعر المفلح أبا إسحاق ابن الحاج وقدّ على الأندلس بعد جوبه في الآفاق ، وترحلة إلى ما وراء الشام والعراق ، وإعلامه أنه يذهب في بداية تاريخ مذهب ابن جزّي وغيره ، وكان وحيداً في فنون الآداب ، والمساجلة لأعلام الكتاب ، وبمحكم الاتفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان وجدّ الحاجب الخطير أبا

النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم من ذلك المسمى ، وبأن وقته دون طموحه إلى عادته من المرقب الأسمى ، فأنتج الانتباز من تلك الرياسة الخطيبية أن ألقى الخطبة على جلاله مقدارها ، وتوضّح أنوارها ، في مرتقى إجلالها وإكبارها ، وأخذ في تأليف « الإحاطة » مستدعياً تصحيح الموالد والوفيات ، والأسماء والمسميات ، ومستكثراً من طُرف المصنّفات ، ليتم قصده من الإطناب ، ونقله العيون الراققة من كل كتاب ، وألقى جميع مقاصده ، والمعظم من تنظيم فرائده ، بيد الشيخ العمدة معلم الحملة منا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أبي عبد الله الشريشي ، قدس الله تعالى ضريحه ، وهذا الشيخ الذي لم يجاوز سن الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولى من المبيضات نقله ، وأحكم جنسه وفصله ، وانحتم على مجلدات ستة . ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس بعودة جدنا الغني بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروع من كتاب « الإحاطة » بالأصول ، وأنجز من التبحر فيه الوعد المطول ، ووضعت بحائقه سعيد السعداء نسخته المتممة من اثني عشر سفيراً ؛ انتهى كلامه .

وقد علمت أن المكتوب في الوقفية كما مر ثمانية مجلدات ، لا اثنا عشر ، فلعل ذلك الاختلاف بسبب الكبر والصغر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .  
والكاتب أبو عبد الله ابن جزّي الذي أشار إليه قد عرفنا به فيما سبق فليراجع .

[ ترجمة ابن الحاج النميري ]

وأما العلامة ابن الحاج ، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضي النميري ، ويُعرف بابن الحاج الغرناطي ، قال

في الإحاطة<sup>١</sup> : نشأ على عفاف وطهارة ، وبر وصيانة ، وبلغ الغاية في جودة الخط ، وارتسم في كتاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، مع حسن سمت ، وجودة أدب وخط ، وظهور كفاية ، يقيد ولا يفتر<sup>٢</sup> ، ويروي الحديث مع الطهارة والتزاهة ، مليح الدعابة ، طيب الفكاهة ، شرق وحج وتطوف وقيد واستكثر ودون رحلة سفره ، وناهيك بها طرفة ، وقفل لإفريقية ، وخدم بعض ملوكها ، وكتب ببجاية ، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن ، ثم كتب عن صاحب بجاية ، ثم تنزه عن الخدمة ، وانقطع بتربة الشيخ أبي مدّين مؤثر الجمول ، ذاهباً مذهب العكوف بباب الله تعالى ، حجة على أهل الحرص والتهاوت ، ثم جبر على الخدمة عند أبي عنان ، ثم أفلت عند موته فلحق بالأندلس ، وتلقّى ببرّ وتنويه وعناية ، وولي القضاء بقرب الحضرة ، وهو الآن من صدور القطر وأعيانه ، متوسط الاكتهال ، روى عن مشيخة بلده واستكثر ، وأخذ في رحلته عن ناس شتى ، وألف تواليف منها « إيقاظ الكرام بأخبار المنام » وجزء في بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة ، و « نزهة الحدق في ذكر الفرق » وكتاب « اللباس والصحبة في جمع طرق المتصوفة » المدعي أنه لم يجمع مثله ، وجزء في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت بالمشرق ، وجزء في الأحكام الشرعية سمّاه بـ « الفصول المقتضية في الأحكام المنتخبة » ورجز في الجدال ، ورجز صغير في الحجب والسلاح ، ورجز صغير سمّاه بـ « مئآت القوانين في التورية والاستخدام والتضمين » ، مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وامتنحن بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين ، ثم فكّه الله تعالى ؛ انتهى ملخصاً .

وأخذ عنه جماعة كالقاضي أبي بكر ابن عاصم صاحب « التحفة » وغيره ، وهو من الأدباء المكثرين ، وكان عندي بالمغرب مجلد من رحلته التي بنحطه ،

١ الإحاطة ١ : ١٩٣ والمقري يتقل ملخصاً .

٢ الإحاطة : وهو في أثناء هذه الحال يقيد ولا يفتر .

وقد أتى فيه بالعجب العُجاب ، وتمهر في الحديث على طريقة أهل المشرق ،  
لأنه لقي جماعة من الحفاظ كالذهبي والبرزالي والمزي ، وناهيك بالثلاثة ،  
وغيرهم ممن يطول تعداده ، وله النظم الرائق ، العذب الجامع بين جزالة المغاربة  
ورقة المشاركة ، كما ستراه ، فمن نظمه يمدح الحفاظ جمال الدين يوسف بن  
الزكي عبد الرحمن المزي ، وقد أبصره على أسرته دار الحديث الأشرفية بدمشق :

جمالُ الدينِ للإقراءِ يعلو      أسرته إذا اصطفَّ الرجالُ  
فمدَّ جليته محاسنه بدا لي      محيياً في أسرته الجمالُ

ضمن قول المعري :

أهلٌ فبشّرَ الأهلين منه      محيياً في أسرته الجمالُ

وقوله في الحفاظ علم الدين أبي القاسم محمد بن يوسف البرزالي :

نوى النوى علم الدين الرضى فأنا      من بعد فرقة بالشام ذو ألم  
فلا تكلمي على حيي دمشق فقد      أصبحت فيها زماناً صاحب العلم

وقال فيه أيضاً :

نوى النوى علم الدين الرضى فدكت      نارُ اشتياقي حتى استعظموا ألمي  
فقلت : إني من قوم شعارهم      جودٌ ، فلا تنكروا ناري على العلم

وقال في الحفاظ شمس الدين الذهبي :

رحلت نحو دمشق الشام مبتغياً      رواية عن ذوي الأحلام والأدب  
ففرزت في كتب الآثار حين غدت      تُروى بسلسلة عظمى من الذهب (ي)



وقال في الحافظ المزّي أيضاً :

جَمالُ الدين أضْحى في دمشقِ إماماً نحوه طالَ الذمِيلُ  
فلَمْ أعدم بمنزله جَميلاً فحيثُ هوَ الجمالُ هوَ الجميلُ

وقال حين بُدوره على الأمير الصالح المحدث الجليل قطب الدين أبي إسحاق إبراهيم ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق ابن السلطان الملك الرحيم بدر الدين بن لؤلؤ بن عبد الله النوري صاحب الموصل ليروي عنه :

إلى قَصْدِ قُطْبِ الدينِ وافيتُ عندَما أقمْتُ على الترحالِ في الشرقِ والغربِ  
وأصبحتُ كالأفلاكِ في السيرِ والسرى فها أنا في مصرٍ أدورُ على القطبِ

وقال في قاضي القضاة العالم الشهير صاحب التفسير عماد الدين الكندي ، وهو ممن أخذ عنه بشر الإسكندرية :

ولما اختبرتُ ذواتِ الورى تمجبتُ من حسنِ ذاتِ العمادِ  
فقتلكَ التي لَمْ أكنُ مبصراً مَدَى عُمري مثلها في البلادِ

وقال في القاضي وجيه الدين يحيى بن محمد الصنهاجي :

أضحى وجيهُ الدينِ أسبقَ سابقٍ في العلمِ والعلياءِ والخلقِ النبيه  
عجب الورى من سبقه وتعجبوا فأجبتهم لا تنكروا سبقَ الوجيه

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى قوله :

قد قارب العشرينَ ظي لَمْ يكنْ ليرى الورى عن جبهه سُلوانا  
وبدا الربيعُ بخده فكاتما وافى الربيعُ ينادم النعمانا

وقوله :

وعارضٍ في خده نباته بحسه بين الورى يسحرنا  
أجرى دموعي إذ جرى شوقاً له فقلت ﴿ هذا عارضٌ مطرنا ﴾

وقال وقد توفي أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس وولي ابنه أبو حفص  
عمر بعد قتله لإخوته :

وقالوا أبو حفص حوى الملك غاصباً وإخوته أولى وقد جاء بالتكبر  
فقلت لهم كفوا فما رضي الورى سوى عمرٍ من بعد موت أبي بكر  
وقال :

أتوني فعبأوا من أحبُّ جمالهُ وذاك على سمع الحب خفيفُ  
فما فيه عيبٌ غير أن جفونهُ مِرَاضٌ، وأنَّ الحصر منه ضعيفُ  
وقال<sup>١</sup> :

أيا عجباً كيف تهوى الملوك محلي وموطن أهلي وناسي  
وتحسُدني وهي مخدومة وما أنا إلا خديمٌ بفاس  
وقال :

لي المدح يروى منذ كنتُ كأنما تصورتُ مدحاً للورى وثناء  
وما لي هجاءٌ فاعجبني لشاعري وكاتبٍ سرِّ لا يقيمُ هجاءُ

وقال في حقِّه القاضي أبو البقاء خالد البلوي<sup>٢</sup> : نقلت من خط سيدي ورفيقي  
وصديقي إمام المسلمين ، برهان الدين ، أبي إسحاق ابن إبراهيم بن عبد الله بن  
الحاج وأكثره ممَّا كان أنشدنيه قديماً من نظمه في التورية قوله :

ومهاة تقولُ إن هي كَلَّتْ ودعا للمزاح خلُّ مَمازج

١ انظر أيضاً تاج المفرق ، الورقة : ٢٢١ .  
٢ عندما عاد البلوي من رحلته ووصل قسنطينة ( سنة ٧٤٠ ) نزل عند صديقه ابن الحاج ( تاج المفرق ،  
الورقة : ٢٠٩ ) .

وازرِ الردفَ إنَّ في الأزرِ مني رَمَلَ بَبْرينِ يا طيبُ وعالج

وقوله :

وزوض ممحِلِ جَدْبِ المراعي سَريعِ القِيطِ وَقَدَأُ والتهابا  
حكى ابن أبي ربيعة لا شُجُوناً ولكن كونه يهوى الربابا

وقوله :

وظبي طرّاً عارضُهُ وأعنى عذاراً بعدُ يزهو باخضرار  
رأى سقماً بمقلته فوافي بأسٍ عاد لكن من عذار

وقوله :

أتوني بنمامٍ من الروضِ يافعٍ سقته الغواصي كلَّ أسجَمَ مدْرارٍ  
فلا غرو إن أصليته نار زَفَرْتِي وحكم على النمام اللقاء في النارِ

وقوله :

هذه الشمسُ بالحجابِ توارتُ بعدَ نورٍ لها ورحبٍ وبشرٍ  
وأتى الليلُ بالنسيمِ عليلًا فهو يمشي من أفضه لابن زُهرٍ

يعني بذلك الوزير الكبير الشهير الطبيب ابن زهر الإشبيلي الأندلسي ، فإنه كان وحيد دهره في الطب ، فجاءت التورية بسبب ذلك محكمة إلى الغاية .  
وقال أبو إسحاق النميري المذكور :

أيا ضوءَ الصباحِ ارفُقْ بِصَبِّ تسيلُ دموعه في الخلدِ سَيْلاً  
وكنْتُ بليلاً ليلاء طالتُ فما أنا في الوري مجنون ليلاً

١ كتبتاها هكذا لتناسب التورية في « ليلاء » .

وقال يخاطب شيخه سيف الدين :

لمولاي سيف الدين في الفقه بيننا      مقامُ اجتهادٍ ليسَ يلحقهُ الحيفُ  
فتقليده فرضٌ على أهل عصرنا      ولا عَجَبٌ عندي إذا قلَّد السيفُ

وقال :

رعى الله معطارَ التَّسِيمِ فَإِنَّهُ      رأى من غصونِ البانِ ما شاء من عطفِ  
وأبدى حديثَ الغيثِ وَهُوَ مُسَلَّسٌ      لذاكَ لعمرى ليسَ يخلو من الضعفِ

وترشحت التورية بكون المحدثين يقولون « الحديث المسلسل لا يخلو من الضعف ، ولو في الترام التسلسل ، مع كون متن الحديث صحيحاً » كما قرر في محله .

وقال رحمه الله تعالى :

نظرتُ إلى روضِ الجمالِ بوجهه      وسَقَيْتَهُ دمعاً به العينُ تكلفُ  
فصحَّ حديثُ الحسنِ عن وردِ خدِّها      وإن كانَ أضحى وهو راوٍ مضعفُ

وقال رحمه الله تعالى :

بدا عارضُ المحبوبِ فاحمرَّ خجلةً      وأهدى لنا ورداً بهِ الحسنُ ناهضُ  
فقلتُ لهُ لا تنكرِ الوردَ ناضراً      فقد سالَ في خدِّك من قبلُ عارضُ

وقال :

النومُ عن إنسانٍ عيني نافرٌ      كالوحشِ ليسَ يقاربُ الإنسانُ  
والدمعُ منها فاض طوفاناً فلا      عجبٌ إذا ما غرَّقَ الأجفانا

وقال رحمه الله تعالى :

بَكَتْ شَجناً ففاض الدمع بِحِكي يتامى الدرُّ إذ يَهْوِي تُوَاما  
وسَلَّتْ من محاجرِها سِيوفاً فخفتُ على المحاجرِ واليتامى

وقال القاضي خالد البلوي رحمه الله تعالى : من نظم صاحبنا أبي إسحاق ابن  
الحاج النميري يخاطب شيخه وشيخنا أيضاً صاحبَ ديوان الإنشاء الإمامَ جمالَ  
الدين إبراهيم ابن الإمام العلامة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قس الفصاحة  
شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي ، وقد تقرب إليه في قصد الرواية عنه :

إلى ابنِ شهابِ الدين طالَ تغرَّبِي فلما سَرَتْ عَيْسي لَهُ وركابي  
رويتُ حديثَ الفضلِ عنهُ فصَحَّ لي كما شئتُ مروياً عن ابنِ شهابِ

وقوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور :

أشبهتَ والدكَ الرضى في فضلِهِ وأخذتَهُ عنهُ بخيرِ منابِ  
وملكتُني فحديثُ فضلِكَ في الورى عَنْ مالِكٍ يروى عن ابنِ شهابِ

وقال رحمه الله تعالى :

لعمركَ ما ثغره باسمٌ ولكنهُ حَبَبٌ لآعبُ  
ولو لم يكن ريقُهُ مسكراً لما دار من حوله الشاربُ

وقال رحمه الله تعالى ملغزاً في القلم :

سألتكَ ما واشٍ يراد حديثُهُ ويهوى الغريبُ النازحُ الدارِ إفصاحَهُ  
تراهُ مدى الأيَّامِ أصفراً ناحلاً كمثلِ عليلٍ وهو قد لازمُ الراحةُ

وقال وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء ببعض الثغور وشرب منها :

تعجبتُ من ثغرِ هذي البلادِ ومولايَ مِنْ عَيْنِها شاربُ  
فلهِ ثغرٌ أرى شارباً وعينٌ بدا فوقها حاجبُ

وقال :

وحمرء في الكأسِ مشمولةٌ      تحت على العود في كل بيت  
فلا غرو أن جاني سابقاً      إلى الأنس خلّ يثّ الكميث

وقال :

بروضتنا الظمياء طالَ اكتئابنا      فله غيثٌ ميّتَ آمالنا أحيا  
وأشبهَ مهياراً فهاتك عينه      تفيضُ إذا شام البروق على ظميا

وقال :

اثنان عرّاً فلم يظفر بنيلهما      وأعوزامن هباني الدهر مطلبه  
أخ مودته في الله صادقةٌ      ودرهم من حلالٍ طاب مكسبه

وقال مورياً بالقائد نافع على ما اختاره البخاري وجماعة أن أصح الأسانيد  
مالك عن نافع :

عن نافعٍ أسنيدٌ حديثٌ أحبّي      يا مالكا رقي بحسن صنائع  
فأجلُ إسنادٍ وخيرُ روايةٍ      عندي روايةُ مالكٍ عن نافعٍ

وقال :

إنّي لأعجبُ من فعالك في الهوى      لما حللت بحسن ذاتك ذاتي  
ونفيت نومي ثم أثبت الأسي      فجمعت بين النفي والإثبات

وقال :

ألا معصمٌ للصب من وشي معصمٍ      أطلتُ إليه نظرة المتوسم  
فأبقت به عيني حلّي من سوادها      وبعض سوادٍ وسط قلبي المتيم

وليس خضاباً ما علاه ، وإنما جرى فيه بعد الدمع ما عزّ من دمي  
ولم يعد منّي اللون لونٌ سواده خلا أنّي أشقى وقيل له : انعم  
وقال وقد جاء الشاعر المفلح أبو العباس أحمد بن عبد المنان بيت الكتاب وفي  
عينه خضرة :

أيا أحمدُ المرتضى للعلا ومنّ حاز في صنعِهِ كلَّ زينِ  
تراويت في العلم روضاً نضيراً فلا تنكرون خضرةً حولَ عينِ  
وله فيه :

لك الخيرُ عدُمُ السبكِ أبدل ناظري  
فلا تنكروا ما راع من ذلك إنني  
ولا عجب إن أعوز السبكُ صائغاً  
وقال فيمن يُعرف بالصهال :

ألا ربّ فرسانٍ توافوا فأدركوا مع الليل أوتاراً لهم دون إمهالِ  
وأجروا بصهالٍ كثيراً كما ابتغوا فلا تنكروا الإجراء منهم بصهالِ  
ولما كتب الرئيس الكاتب الخليل أبو عبد الله العزفي مداعباً :

يا عصبية كلّ فتى منهم علمٌ فرغم من كتبكم رُدُّوا القلمُ

أجابه ابن الحاج المذكور بقوله :

ألا احتسبوا ما قد أعرتم لفتية تكترّمكم بالصفح عن فعلهم قاضي  
ولا تطمعوا في الردّ فالناس كلّهم رأوا أنّ مولانا له القلمُ الماضي

وقال الوادي آشي : نقلت من خط الكاتب العلامة الصدر البارح الحاج

القاضي الناظم النائر الجامع للمحاسن والمفاخر أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج  
النميري ما نصّه : كتب إليّ الفاضل النخبة أبو الفضل ابن رضوان متمثلاً  
بقول المأمون :

ملك الثلاثُ الآنساتُ عناني

فكتبت إليه في التورية :

هتيتاً لك البشريّ بهنّ قدم كما      تريدُ بنعمي للسعادةِ جامعَه  
وإن كنتَ من أهل الصلاحِ فلا تكن      بمائلٍ قلبٍ منك عن حبِّ رابعَه  
فأجابني بقوله :

ياسيدي ذكّرتني بالرابعه      لعلها لكلّ خيرٍ جامعَه  
إنّي أخافُ أن تكونَ باقعه      فتفركَ المغازلَ المطاوعَه

ولابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة :

لمن الخيامُ سَطَّتْ بيضِ صفاحِ      وارتُ سواداً غالٍ كلِّ صباحِ  
إن مزُقتُ رُفعتُ بنقعِ كئائبِ      أو قوُضتْ عُمُدتُ بسُمرِ رماحِ

وله في رثاء الطيب ابن عمار ، واقترح عليه ذلك ابن جزّي :

ألا أسعدا عيني على السهدِ والبكا      فقد واصلَ السهد المبرِّحُ تذكاري  
وأبدى الردي فتكّ ابن عبادِ آذسطا      فلا غرو أن أبكي لفقدي ابن عمّارِ

وقال ممّا يكتب في الترس :

أنا الترسُ قد أنشأتُ بالأمرِ عدّة      ليوم جهادٍ مُطلعٍ غرّةِ النصرِ



فلاقوا بني الأعداء في زحفهم ولا  
ولا تنكروا ستري لقتلِ حاملي  
تبالوا بقرع الزرقِ والبيضِ والسمري  
ففي اسمي كما شاهدتمُ أحرفُ السري

وله يبيي السلطان أبا عنان أمير المؤمنين المريني بالإبلال من المرض :

مطالبُ إلا أنتهنّ مواهبُ  
شفاءُ أمير المؤمنين وإنه  
وكم قلتُ غاب البدرُ والشمسُ ضلّةً  
ولم يغبيا لكن شكا الضرّ فارسُ  
لك الله يا خيرَ الملوكِ وخيرَ منّ  
وقتلٌ لمن وافى بشيراً نفوسنا  
أقول بجرّد الخيلِ قباً بطونُها  
طوالعٍ من تحتِ العجاجِ كأنها  
مُحجّلةٌ غراً كأنّ رعالها  
من الأعوجياتِ الصوافنِ ترتمي  
هنيئاً فقد صحَّ الإمام الذي به  
ومستأصلُ الفلّ المغدُّ جياذهُ  
ومن حطّم السّمير الطوالِ كعوبُها  
وكرّ على أرضِ العدا بفوارسٍ  
كأنّ ظبأهم في الهياجِ أكفّهم  
كأنّ رماحَ الخطّ أحسابهم ، وما  
هم ما هم ، حدثت عن البحر أو بني  
من البيتِ شادت قيسُ عيلانٍ فخره  
وأحيا له ملكُ الخليفةِ فارسٍ

قضى الله أن تقضى ، فنعّم المطالبُ  
لأكرم من تُحدي إليه الركائبُ  
ورأنت على قلبي الموممُ النواصبُ  
وأوحش منه مجلسَ الملكِ غائبُ  
تحنُّ له حتى العتاقُ الشواذبُ  
فما هي إلا بعضُ ما أنت واهبُ  
معقدةً منها لحربِ سبابُ  
نعامُ بكُشبانِ الصّريمِ خواصبُ  
بحارٍ جرت فيها الصّبا والجنائبُ  
إذا رجفت يومَ القراعِ مقانبُ  
تُقلّ السيوفُ المرهفاتُ القواصبُ  
لضربٍ كما ترغو الفحولُ الضواربُ  
بطعنٍ كما امتاح الركيمةَ شاربُ  
كأنّهم في الحربِ أسدٌ غوالبُ  
تجوّدُ وأرواحُ العداةِ مواهبُ  
حوتُ من نفوسِ المعتدينِ مناقبُ  
مربّينٍ فنهجُ القولِ أبلجُ لاحبُ  
فظالّت معاليه وطابّت مناسبُ  
مأثرَ غاليتها السّياي الذواهبُ

كريمٌ فلا الحادي النجائب محققٌ  
 أرى بذله النعمى ففضت مكاسبٌ  
 أنامله يروي الورى صوبُ جودِها  
 وكم خلت برقاً في الدجى نورَ بشره  
 فأخجلني أنتي أرى البرقَ خلْباً  
 أعزني أميرَ المؤمنين بلاغةً  
 وأنطقُ لساني بالبيان معلماً  
 وكيف ترى لي بعدُ في الجودِ رغبةً  
 وقد شبت الآمال إذ شبت ثم إذ  
 بلغت بك الآمالَ حتى كأنها  
 عجبت وما تولى ، وأوليت مُعجِباً  
 وحسي دعاءً لو سكتُ كُفَيْتُهُ  
 وما أنا إلا عبدك المخلصُ الذي  
 فخذها تبثُ العذرَ لا المدحَ ؛ إنّه  
 بقيت بقاء الدهرِ ملكك قاهرٌ  
 وعوفيت من ضرّ وأعطيت أجره

وقال رحمه الله تعالى :

ولولا ثلاثُ جاء جبريلُ سائلاً  
 مقاماتُ إسلامٍ أزيدُ بفعله  
 لخير الورى عنها لا تدرتُ فقداً  
 ثواباً وإيماناً أديمَ وإحساناً

وقال رحمه الله تعالى : أنشدني السلطانُ أميرُ المؤمنين أبو عنان فارس ابن  
 أمير المسلمين أبي الحسن المريني رحمه الله تعالى لنفسه :

يا مَلَمًا بأَرْضِ تِلْكَ الْبِلَادِ حَيَّ فَاسًا وَحَيَّ أَهْلَ الْوَدَادِ  
إِنْ تَنَاءَتْ بِشَخْصِهَا عَنِ عِيَانِي فَحَمَاهَا مُصَوَّرٌ فِي فَوَادِي

[ قصائد في مدح تلمسان وفاس ]

قلت : تذكرت بهذا البحر والروي والغرض قولَ الفقيه الكاتب العلامة  
الناظم النائر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري كاتب سلطان تلمسان أمير  
المسلمين أبي حمّو موسى بن يوسف الزياني يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة :

أَيُّهَا الْحَافِظُونَ عَهْدَ الْوَدَادِ جَدُّوَا أَنْسَنَا بِيَابِ الْحِيَادِ  
وَصَلُّوْهَا أَصَائِلًا بِلِيَالِ كَلَّالٍ نُظْمِنَ فِي الْأَجْيَادِ  
فِي رِيَاضٍ مُتَضَّدَاتِ الْمَجَانِي بَيْنَ تِلْكَ الرَّبِّيِّ وَتِلْكَ الْوَهَادِ  
وَبُرُوجِ مُشِيدَاتِ الْمَبَانِي بَادِيَاتِ السَّنَا كَشْهَبِ بَوَادِ  
رَقٍّ فِيهَا النَّسِيبُ مِثْلَ تَسْيِيهِ وَصَفَا النَّهْرُ مِثْلَ صَفْوِ وَدَادِي  
وَزَهَا الزَّهْرُ وَالْغُصُونُ ثَثَّتْ وَتَغَنَّتْ عَلَيْهِ وَرُقٌّ شَوَادِ  
وَانْبَرَى كُلُّ جَدُولٍ كَحَسَامِ عَارِيِ الْغَمْدِ سِنْدِسِي النَّجَادِ  
وِظْلَالُ الْغُصُونِ تَكْتَبُ فِيهِ أَحْرَفًا سَطَّرَتْ بِغَيْرِ مَدَادِ  
تُذَكِّرُ الْوَشْمَ فِي مِعَاصِمِ خَوْدِ نَصَبَتْ فَوْقَهُ ذَوَاتِ امْتِدَادِ  
وَكُوُوسِ الْمُنَى تُدَارُ عَلَيْنَا بَحْيِ عَفَّةٍ وَتَقْلُ اعْتِقَادِ  
وَاصْفَرَارُ الْأَصِيلِ فِيهَا مُدَامٌ وَصَفِيرُ الطَّيُورِ نِعْمَةٌ شَادِ  
كَمْ غَدَوْنَا بِهَا لِأَنْسٍ وَرَحْنَا جَادَهَا رَائِحٌ مِنَ الْمَزْنِ غَادِ  
وَلَكُمْ رُوحَةٌ عَلَى النَّوْحِ كَادَتْ أَنْ تَرِيحَ الصَّبَا لَنَا وَهَوَّ غَادِ  
رَقَّتِ الشَّمْسُ فِي عَشَائِهِ حَتَّى أَحْدَثَتْ مِنْهُ رَقَّةً فِي الْجَمَادِ  
جَدَّدَتْ بِالْغُرُوبِ شَجْوًا غَرِيبَ هَاجَهُ الشُّوقُ بَعْدَ طَوْلِ الْبِعَادِ

غرسَ الحبَّ غرسَهَا في فؤادي  
 وعهودَ الصبا بصوبِ العهاد  
 ومرآدَ المني ، ونيلَ المراد  
 ومجرُّ القنا ، ومُجرى الجياد  
 وخصُوصاً على ربي العباد  
 كهفُ ضحَّاكها على كلِّ ناد  
 ونما وهُدُها على كلِّ واد  
 حسنُها أنْ تلك دعوى زياد  
 من حلاها فهمتُ في كلِّ وادي  
 زينةَ الحلي عاظمَ الأجياد  
 وحماها من كلِّ باغ وعاد  
 فالنهاياتُ عنده كالمبادي  
 مظهرٌ للعُلا رفيعَ العماد  
 جميعاً بفرارِ الظبيِّ وغرِّ الأيادي  
 راحتاهُ عنِ السحابِ الغوادي  
 عائداتٍ على العُفاةِ بَواد  
 أبحرُ عَذْبَةَ على الوَرَاد  
 فتلافى بهِ تلافَ العبياد  
 كالحيا ضامناً حياةَ البلاد  
 باهراتٍ من طارفِ وتلاد  
 شهدَ المجدُّ أنها كالشهاد  
 وغمامَ الندى وبدرَ النادي

يا حيا المزنِ حياها من بلادِ  
 وتعاهدتُ معاهدَ الأُنسِ منها  
 حيثُ مغنى الهوى ، وملهى الغواني  
 ومقرَّ العُلا ، ومرقى الأمانى  
 كلُّ حسنٍ على تلمسانَ وَقَفُ  
 ضحكُ النورُ في رُباها وأرَبى  
 وسما تاجُها على كلِّ تاجِ  
 يدعي غيرها الجمالَ فيقضي  
 وبشعري فهمتُ معنى عُلاها  
 حضرةُ زانها الخليفةُ موسى  
 وحبَّها بكلِّ بذلٍ وعدل  
 ملكٌ جاوزَ المدى في المعالي  
 معقِلٌ للهدى منبعُ النواحي  
 قاتلُ المحلِّ والأعداي  
 كلما ضنتُ السحابُ أغنتُ  
 كم هباتٍ لهُ وكم صدقاتِ  
 فأيادي خليفةَ الله موسى  
 ركبَ الجودِ في بسيطِ يديه  
 جلُّ باريه ملجأُ للبرايا  
 جلُّ مَنْ خصَّهُ بتلكَ المزايا  
 شيمٌ حلوةُ الجنى وسجايا  
 يا إمامَ الهدى ، وشمسَ المعالي

لكَ بَيْنَ الْمُلُوكِ سِرٌّ خَفِيٌّ      ليسَ مَعْنَاهُ لِلْعُقُولِ بِيَادِ  
 فَكَأَنَّ الْبِلَادَ كَفُكِّكَ مَهْمَا      كَانَ فِيهَا مِنْ يَتَمَيَّ لِعِنَادِ  
 قَبِضْتَ كَفُكَّ الْبِنَانِ عَلَيْهِ      فَأَتَى بِالْإِذْعَانِ حِلْفَ انْقِيَادِ  
 بِكُمْ تَصْلَحُ الْبِلَادُ جَمِيعاً      إِنَّ آرَاءَكُمْ صِلَاحُ الْبِلَادِ  
 لَمْ تَزَلْ دَائِماً تَحْنُ إِلَيْكُمْ      كَحَنِّينِ السَّقِيمِ لِلْعُودَادِ  
 لَوْ أُعِينَتْ بِمَنْطِقِ شُكْرَتِكُمْ      مِثْلَ شُكْرِ الْعَفَاةِ لِلْأَجْوَادِ  
 قَدْ أَطَاعَتْكُمْ الْبِلَادُ جَمِيعاً      طَاعَةً أَرْغَمَتْ أَنْوْفَ الْأَعَادِ  
 فَأَرْجَحُوا الْجِيَادَ أَنْعَبْتُمُوهَا      وَأَقْبَرُوا السُّيُوفَ فِي الْأَغْمَادِ  
 وَاهْتَأَوْا خَالِدِينَ فِي عِزِّ مَلِكٍ      قَائِمِ السَّعْدِ دَائِمِ الْإِسْعَادِ  
 وَإِلَيْكُمْ مِنْ مَدْهَبَاتِ الْقَوَافِي      حِكْمًا سَهَّلْتَ لِيَانَ الْمَقَادِ  
 كُلَّ بَيْتٍ مِنَ النِّظَامِ مُشِيدٍ      عَطَّرَ الْأَفْقَ بِالثَّنَاءِ الْمَجَادِ  
 ذُو ابْتِسَامٍ كَزَهْرِ رَوْضِ مَجُودٍ      وَانْتِظَامِ كَسَلِكِ دَرِّ مَجَادِ

ولأبي المكارم منديل ابن الإمام الشهير صاحب « المقدمة الآجرومية » قصيدة  
 في المنحى وافقت قصيدة الثغري في البحر وبعض المطلع ، فلا ندري أيهما  
 نسج على منوال الآخر : إذ هما متعاصران ، إلا أن ذاك قالها في تلمسان ، وهذا في  
 مدينة فاس ؛ وهي :

أيها العارفون قَدَّرَ الصُّبُوحَ      جَدِّدُوا أَنْسَنَا بِيَابِ الْفَتْوحِ

يعني بِيَابِ الْفَتْوحِ أَحَدَ أَبْوَابِ فَاسَ ، كَمَا أَنَّ بَابَ الْجِيَادِ فِي كَلَامِ الثُّغْرِيِّ  
 أَحَدُ أَبْوَابِ تَلْمَسَانَ .

ثم قال ابن آجروم بعد المطلع :

جدُّوا ثمَّ أنسنا ثمَّ جدلوا  
 حيثُ شابتُ مفارقُ اللوزِ نوراً  
 وبدا منه كلُّ ما احمرَّ يحكي  
 وكانَ الذي تساقطَ مِنْهُ  
 وإذا ما وصلتمُ للمصلَّى  
 وبطيفُورها فطُوفوا لكيما  
 ولتقيموا هناكَ لمحَّةَ طرفِ  
 ثمَّ حطوا رحالكم فوقَ نهرِ  
 فوقَ حافاته حدائقُ خضرٌ  
 وكانَ الطيورَ فيها قيانٌ  
 وهي تدعوكمُ إلى قبةِ الجوى  
 فيه ما تشتهون من كلِّ تورٍ  
 وغصونٍ تهيجُ رقصاً إذا ما  
 فأجيبوا دعاءها أيها السر  
 واجنحوا للمجون فهو جديرٌ  
 واخلموا ثمَّ للتصابي عذاراً  
 وإذا شتمُّ مكاناً سواه  
 فاجمعوا أمركم لنحو خليجِ  
 عطرت جانبيه كفُّ الغواصي  
 قل لمهيارَ إن شممت شذاها  
 أين هذا الشذا الذكي من القي  
 حبذا ذلك المهادُ مهاداً  
 ثمَّ من ذلك المهاد أفيضوا  
 يسرح الطرفُ في مجالٍ فسبح  
 وتساقطن كاللَّجين الصريح  
 شفقاُ مزقتهُ أيدي الريح  
 نَقَطُ لُحْنٍ من دمٍ مسفوح  
 فلتحلوا بموضع التسيح  
 تبصروا من ذرآه كلَّ سطوح  
 لتردُّوا به ذمَّاءِ الروح  
 كلَّ في وصفه لسانُ المديح  
 ليس عنها لعاشقٍ من نزوح  
 هفتت بين أعجمٍ وفصيح  
 زِ هَلُمُّوا إلى مكانٍ مليح  
 مغلقٍ في الكمام أو مفتوح  
 سمعت صوتَ كلِّ طيرٍ صدُوح  
 بٌ واخلُّوا مقالَ كل نصيح  
 وخلقٍ من مثلكم بالخنوخ  
 إنَّ خلَعَ العذارِ غيرُ قبيح  
 هو أجلى من ذلكم في الوضوح  
 جاء كالصلِّ من قفار فسبح  
 بشدا عرَفِ زهرها المنوح  
 قول مستخبرٍ أخِي تجريح  
 صومِ والرندِ والغضا والشَّيح  
 بين دانٍ من الرُّبى ونزُوح  
 نحو هَضْبٍ من الهموم مريح

فيه للحسن دَوْحَةٌ وروايا  
وحجارٌ تدعى حجارَ طبولٍ  
تنثرُ الشمسُ ثمَّ كلَّ غدوً  
وسوى منَّ هناك يسبي عقولاً  
وعيون بها تفرَّ عيونُ  
فرشت فوقها طنافسُ زهرٍ  
كلَّما مرَّ فوقهنَّ طليحُ  
فانهضوا أيها المحبُّون مثلي  
هكذا يربحُ الزمانُ وإلا

وما أحسن قول الكاتب الثغري بمدح تلمسان والسلطان المذكور آنفاً :

تاهت تلمسانُ بحسنِ شبابها  
فالبشر يبدو من حجابِ ثغورها  
قد قابلتُ زهرَ النجوم بزهرها  
حسنت بحسنِ مليكها المولى أبي  
ملكٌ شمائله كزهرِ رياضها  
أعلى الملوك الصيِّدِ من أعلامها  
غارَتْ بفرَّة وجهه شمسُ الضحى  
والبدرُ حينَ بدتْ أشعتها له  
للهِ حضرته التي قد شرفَتْ  
فاللثمُ في يُمناه يُبلغها المنى

وبدا طرازُ الحسنِ في جلبابها  
متبسماً أو من ثغورِ حبابها  
وبروجها يبروجها وقبابها  
حمو الذي يحمي حمى أربابها  
ونداه فاضَ بها كفيضِ عبابها  
وأجلتها من صفوها ولُبابها  
وتنقبت خجلاً بثوبِ ضبابها  
حسناً تضاءلَ نوره وخبأ بها  
خُدَّامها فسَمَوْا بخدمة بابها  
والمدحُ في علياه من أسبابها

وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي حمو ،

ووصف بلاد تلمسان ، وأجاد فيها إلى الغاية ، وهي ١ :

قم مبصراً<sup>٢</sup> زمنَ الربيعِ المقبلِ  
وانشقْ نسيمَ الروضِ مطلولاً وما  
وانظرْ إلى زهرِ الرياضِ كأنه  
في دولةٍ فاضتْ يداها بالندى  
بسطتْ بأرجاءِ البسيطةِ علها  
سلطانها المولى أبو حمو الرضى  
تاهتْ تلمسانُ بدولتهِ على  
راقتْ محاسنها ورقٌ نسيما  
عرجَ بمنعرجاتِ بابِ جياها  
ولتغدُ للعبادِ منها غدوةً  
وضريحُ تاجِ العارفينِ شعبيها  
فمزاره للدين والدُّنيا معاً  
وبكهفها الضحَّاك قفٌ متنزهاً  
وتمشٌ في جنباتها ورياضيها  
تسليك في دوحاتها وتلاعها  
وبربوةِ العشاقِ سلوةٌ عاشقِ  
بنواسمٍ وبواسمٍ من زهرها  
فلو امرؤُ القيسِ بن حجرِ راءها

تَرَ ما يسرُّ المُجتني والمُجتلي  
أهداك من عَرَفٍ وعُرْفٍ فأقبل  
درُّ<sup>٣</sup> على لباتِ ربّاتِ الحلي  
وقضتْ بكلِ مئى لكلِّ مؤمل  
وسطتْ بكلِّ معاندٍ لم يعدل  
ذو المنصبِ السامي الرفيعِ المعتلي  
كلَّ البلادِ بحسنِ منظرها الحلي  
فحلا بها شعري وطاب تغزلي  
وافتحَ بها بابَ الرجاءِ المُقفلِ  
تصبحُ همومُ النفسِ عنك بمعزل  
زُرهُ هناكَ فحببدا ذاكَ الولي  
تُمحى ذنوبك أو كربك تنجلي  
تسرحُ نفوسك في الجمالِ الأجلِ  
واجنحْ إلى ذاكَ الجنابِ المخضلِ  
نغمُ البلابلِ واطرادُ الجدلِ  
فتنتِ وألحاظِ الغزالِ الأكلِ  
تهديك أنفاساً كعَرَفِ المندلِ  
قدماً تسلّى عن معاهدِ مأسلِ

١ القصيدة في بغية الرواد ١ : ١٣ .

٢ البغية : نجتل .

٣ البغية : درر .

٤ البغية : جفونك .



ما كان محتفلاً بحومة حومل  
 فهوي عنها الدهر ليس بمنسل  
 جادته أخلاف الغمام المسبل  
 وبه تسلّ وعنه دأباً فاسأل  
 أحسن به عطلاً وغير معطل  
 أو كالحسام جلاه كف الصيقل  
 وجماله في كل عين قد جلي  
 وبعذب منه لها المبارك فانهل  
 أحلى وأعذب من رحيق سلسل  
 ترى تلمسان العلية من عئل  
 أحسن بتاج بالبهاء مكلل  
 نحو المصلّي ميلة التمهّل  
 أجل النواظر في العناق الحفّل  
 لعبً بذاك الملعب المتسهّل  
 وكلاهما في جريه لا يأتي  
 عطفاً على الثاني عنان الأول  
 قيد النواظر فتنة المتأمل  
 أو أشهب كشهاب رجم مرسل  
 سامٍ معمٍ في السوابق مخول  
 أو أشقر يزهو بعرفٍ أشعل  
 كالصبح، بورك من أغر محجل  
 مهما ترقّ العين فيه تسهل  
 كالأسد تنقض أنقضاض الأجل  
 حامو الذمار أولو القحار الأطول

أو حامٍ حول فنائها وظبائها  
 فاذا كر لها كلفي بسقط لوائها  
 كم جاد لي فيها الزمان بمطلب  
 واعمد إلى الصفصيف يوماً ثانياً  
 واد تراه من الأزاهر خالياً  
 ينساب كالأيام انسياباً دائماً  
 فزاله في كل قلب قد حلا  
 واقصد بيوم ثالث فوارة  
 تجري على درّ لجيناً سائلاً  
 واشرف على الشرف الذي بإزائها  
 تاج عليه من المحاسن بهجة  
 وإذا العشيّة شمسه مالت فمل  
 وبلعب الخيل الفسيح مجاله  
 فلحلبة الأشراف كل عشيّة  
 فترى المجلي والمصلي خلفه  
 هذا يكرّ وذا يفرّ فيثني  
 من كل طرف كل طرف يستبي  
 ورّد كأن أديمه شفق الدجى  
 أو من كميّت لا نظير لحسنه  
 أو أحمر قاني الأديم كعسجد  
 أو أدهم كالليل إلا غرة  
 جمع المحاسن في بديع شياته  
 عقبان خيل فوقها فرسانها  
 فرسان عبد الواد آساد الوغى

فإذا دنت شمسُ الأصيلِ لغربها  
 من بابٍ ملعبها لبابِ حديدها  
 وتأنَّ من بعدِ الدخولِ هنيهةً  
 فهو المؤمِّلُ والديارُ كنايةً  
 فإذا أميرُ المؤمنين رأته  
 فالمجدُ لفظٌ في الحقيقةِ مجملٌ  
 بشرى لعبدِ الوادِ بالملكِ الذي  
 بأعزهم جاراً ، وأمنهم حمىً  
 بالعادلِ المستنصرِ المنصورِ وال  
 وكفاهمُ سعداً أبو حمو الذي  
 وبحسن نيته لهم ويجده  
 ذو الهمة العلياً التي آثارها  
 بحر الندى الأحلّ وفخر المتدى  
 ينهلُ منه لنا الجدا وبه الدجى  
 هنيء به زمنَ الربيعِ وقل له  
 وعلى علاه من صنيعه فضله

وكأنه عارض بهذه القصيدة قطعة في بحرها وروياها في مدح مدينة فاس  
 لبعض العلماء ، وأظنه القاضي المزدغي ، وهي :

يا فاسُ حيا الله أرضك من ثرى  
 يا جنة الدنيا التي أريت على  
 غرفاً على غرفٍ ويجري تحتها  
 وبساتنٌ من سندسٍ قد زُحرفتُ  
 وبجامع القروين شرف ذكره  
 وسقاك من صوب الغمام المسبيلِ  
 حمصٍ بمنظرها البهي الأجلِ  
 ماء ألدُّ من الرحيق السلسلِ  
 يجداول كالأيم أو كالقيصلِ  
 أنس بذكراه يهيج تلملي

وبصّحته زمن المصيف عجائب<sup>١</sup> فمع العشي<sup>٢</sup> الغرب فيه استقبل  
واشرب بتلك الليلة<sup>١</sup> الحسناء به واكرع<sup>٣</sup> بها عني فديتك وانهل

وقد تمثل لسان الدين رحمه الله تعالى في مدينة فاس بقول القائل<sup>٢</sup> :

بكد أعارته الحمامة طوقها وكساه ريش جناحه الطاووس<sup>٣</sup>  
فكأنما الأنهار فيه مدامة<sup>٤</sup> وكان ساحات الديار كؤوس<sup>٥</sup>

وما أحسن قوله - أعني لسان الدين - في مدح تلمسان<sup>٣</sup> :

حيًا تلمسان الحيا فربوعها صدف<sup>١</sup> يجود بدره المكنون  
ما شئت من فضل عميم إن سقى أروى ومن ليس بالمنون  
أوشئت من دين إذا قدح الهدى أورى ودنيا لم تكن بالدون  
وردّ النسيم لها بنشر حديقة قد أزهرت أفنانها بفنون  
وإذا حبيبة أم يجبي أنجبت<sup>٢</sup> فلها الشفوف على عيون العين

يعني بحبيبة أم يجبي عين ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها ، وكانت  
جارية بالقصور السلطانية ، ولم تنزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم ، والبقاء  
لله تعالى وحده .

وممن مدح تلمسان الحاج<sup>٣</sup> الطيب أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير  
بالتلاسي رحمه الله تعالى ، إذ قال<sup>٤</sup> :

سقى الله من صوب الحيا هاطلاً وبلاً ربوع تلمسان التي قدرها استعلى

١ قد شرحنا الليلة ، هامش : ١ مجلد : ١ ص : ٢٠٦ .

٢ مر البيتان والقول في نسبتها ، المجلد : ١ ص : ١٦٩ وانظر مشاهدات لسان الدين : ١١١ .

٣ أزهار الرياض : ١ ص : ٧ .

٤ أورد له صاحب بنية الرواد عدداً من القصائد والموشحات في الجزء الثاني ؛ وهذه القصيدة في الجزء

الأول ص : ١٧ .

ربوعٌ بها كانَ الشبابُ مُصاحبي  
فكم نلتُ فيها من أمانِ قصيةِ  
وكم غازلتني الغيدُ فيها تلاعياً  
وكم لَيْلَةً بَيْتْنَا عَلَى رِغْمِ حاسدِ  
وكم لَيْلَةً بَيْتْنَا بِصَفْصِيفِهَا الَّذِي  
وكديةُ عشاقِ لها الحسنُ يَنْتَهِي  
نَعَمَ ، وغديرُ الجوزةِ السالبُ الحجى  
ومنه ومنَ عينِ أمِ يحيى شرابنا  
وعبادها ما القلبُ ناسِ ذمامه  
به شيخُنا المذكورُ في الأرضِ ذكره  
لها بَهْجَةٌ تُزْرِي عَلَى كُلِّ بِلْدَةٍ  
فيا جَنَّةَ الدُّنْيَا الَّتِي راقِ حُسْنُهَا  
ولا عجبٌ أن كنتِ في الحسنِ هكذا  
ولاحتَ لدينا فيكَ منه محاسنُ  
مطاعٌ شجاعٌ في الوغى ذو مهابةِ  
كريمٌ حَكِيمٌ حاتميُّ نواله  
له راحةٌ كالغَيْثِ يَنْهَلُ وَدَقُّهَا  
هوَ المَلِكُ الأَرْقَى هوَ المَلِكُ الرَضَى  
ومنَ هذه الأوصافِ فيه تجمعتْ  
إمامٌ حَبَاهُ اللهُ مَلِكاً مُؤَزَّراً  
مِنَ الزَّابِ وإفاناً عزيزاً مظفراً

جررتُ إلى اللذاتِ في دارها الذبلا  
وكم مَتَحَ الدهرُ الضنينُ بها النبلا  
وكم من عذولٍ لا أُطِيعُ له قولاً  
نديرٌ كؤوسِ الوصلِ إذ بالصفا تُمَلَا  
تسامى على الأنهارِ إذ عدم المثلأ  
يعود المسنُّ الشيخُ من حسنِها طفلاً  
نعمتُ بها طفلاً وهمتُ بها كهلاً  
لأنهما في الطيبِ كالليلِ بل أحلتى  
به روضةٌ للخيرِ قد جعلتْ حِلاً  
أبو مدينِ أهلاً به دائماً أهلاً  
بِتِاجِ عَلَيْهَا كالعروسِ إذا تُجلى  
فحازتْ على كلِّ البلادِ به الفضلاً  
وموسى الإمامِ المرتضى فيكَ قد حلأ  
كانَ سناها حاجبُ الشمسِ إذ جلتى  
حسامٌ على الباغينِ في الأرضِ قد سلأ  
سعيدٌ حميدٌ يصدقُ القولَ والفعلاً  
وصارمٌ نصرٌ مرهفٌ الحد لا فلأ  
هو المَلِكُ الأَسْنَى هو المَلِكُ الأَعْلَى  
حقيقاً على كلِّ المعالي قد استولى  
فلا ملكٌ إلا لعزته ذلاً  
يجرُّ من النصرِ المنوطِ به ذبلاً

بدت ليلك الغرب شدة بأسه  
 فبادره بالصلح خوف فواته  
 فكان بحمد الله صلحاً مهتاً  
 له في المعالي رتبة لا ينالها  
 لطاعته كل الأنام تبادرت  
 أحساده موتوا فإن قلوبكم  
 لقد جبر الله البلاد بملكه  
 فلا زال هذا الملك فيه مخلداً  
 وإنعامه للمعتنين وما أولى  
 وسأله إذ كان ذلك به أولى  
 به طابت الدنيا وجزنا به السبلا  
 سواه وكُتِبَ في فضائله تُتلى  
 فيا سعد من وافى ويا ويح من ولى  
 يجر الغضا مما بها أبدأ تصلى  
 به مُلِكتُ أمناً ، به مُلِكتُ عدلاً  
 وصارمه الأمضى وخادمه الأعلى

ومما مُدحت به تلمسان قول الإمام الصوفي أبي عبد الله محمد بن خميس  
 الذي قلنا ذكره في هذا الكتاب وبعض ما يتعلق به ، وذكرنا أيضاً فيما مر  
 بعض أمداحه لها ١ :

تلمسان جادتك السحاب الروائح ٢  
 وسح على ساحات باب جياها  
 يطير فؤادي كلما لاح لامع  
 ففي كل شفر من جفوني مائع  
 فما الماء إلا ما تسح مدامعي  
 خليلي لا طيف لعلوة طارق  
 نظرت فلا ضوء من الصبح ظاهر  
 بحضكما كفا الملام وسامحا  
 ولا تعذلاني واعتراني فقلما  
 وأرست بيواديك الرياح اللواقح  
 ملث يصافي تربها ويصافح  
 وينهل دمعي كلما ناح صادح  
 وفي كل شطر من فؤادي قادح  
 ولا النار إلا ما تُجِن الجوانح  
 بليل ولا وجه لصبحي لائح  
 لعيني ولا نجم إلى الغرب جانح  
 فما الخلل كل الخلل إلا المسامح  
 يرد عاني عن عليّة ناصح

١ وردت القصيدة في بنية الرواد ١ : ١١ .  
 ٢ البنية : الدوالح .

وكيف أطيع الكتم والدمع فاضح  
 وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح  
 تُساعدني فيها المتى والمنائح  
 وطرف إلى تلك الميادين جامح  
 وتهفو بها الأحلام وهي بوارح  
 وطير مجانيها شواد صوادح  
 وتبكيهم منهم عيون نواضح  
 كما فاح من مسك اللطيمة فائح  
 تغص بها تلك الرُبي والأباطح  
 نوازع لكنّ الجسم نوازح  
 فسعيك مشكور وتجرك رابح  
 أنافع فيها روضه وأفواح  
 لإنسان عيتي من صفاه صفائح  
 عليه فينا ما يقول المكاشح  
 فإني سكران بجبك طافع  
 فذاك غزالي في عبابك سابح  
 بمثل حلاه تستحث القرائح  
 وأصفي من الدمع الذي أنا سافح  
 لعرضي كما قال النصيح لناصح  
 يُقال فلان ضيق الصدر بائح  
 وكم صالح مثلي غدا وهو طالح  
 وأي مقال ليس لي فيه مادح

كنت هواها ثم برح بي الأسي  
 لساقية الرومي عندي مزبة  
 فيكم لي عليها من غدو وروحة  
 فطرف على تلك البساتين سارح  
 تحار بها الأذهان وهي ثواقب  
 طباء مغانيها عواط عواطف  
 تقتلهم فيها عيون نواظر  
 على قرية العباد متي تحية  
 وجاد ثرى تاج المعارف ديمة  
 إليك شعيب بن الحسين قلوبنا  
 سعبت فما قصرت عن نيل غاية  
 نسبت وما أنسى الوريطة ووقفه  
 مطلاً على ذاك الغدير وقد بدت  
 أماوك أم دمي عشية صدقت  
 لئن كنت ملاناً بدمعي طافحاً  
 وإن كان مهُرّي في تلاعك سائحاً  
 قراح أتى ينصب من رأس شاهق  
 أرق من الشوق الذي أنا كاتم  
 أما وهوى من لا أسميه إنني  
 أبعث صيامي واعتكافي وخلوتي  
 لبعث رشادي فيه بالغي ضلّة  
 وأي مقام ليس لي فيه حاسد

أَلَا قُلْ لِفِرْسَانِ الْبَلَاغَةِ أَسْرَجُوا  
 أَيْحَمَلُ ذِكْرِي عِنْدَهُمْ وَهُوَ نَابَهُ  
 بَدُورٌ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ كَوَامِلُ  
 تَرَكْتِكَ سَوْقَ الْبِزِّ لَا عَنْ تَهَاوُنٍ  
 وَإِنِّي وَقَلْبِي فِي وِلَائِكَ طَامِعٌ  
 أَيَا أَهْلَ وَدِّي وَالْعَشِيرُ مُؤَمِّنٌ  
 وَهَلْ ذَلِكَ الظُّبْيُ النَّصَاحِيُّ لِلَّذِي  
 كُنَيْتُ بِهَا عَنْهُ حَيَاءٌ وَحَشْمَةٌ  
 فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنِّي الْمَكَافِي الْمَكَافِحُ  
 وَيُغْمَطُ شَجْوِي عِنْدَهُمْ وَهُوَ شَائِعُ  
 وَأَسْدٌ إِذَا لَاحَ الصَّبَاحُ كَوَالِحُ  
 وَكَيْفَ وَظِي سَانِحٌ فَيْكَ بَارِحُ؟  
 وَنَاطِرٌ وَهَمِي فِي سَمَاطِكَ طَامِعُ  
 أَتَقْضِي دِيُونِي أَمْ غَرِيمِي فَالِحُ  
 يَقْطَعُ مِنْ قَلْبِي بَعَيْنِيهِ نَاصِحُ  
 وَوَجْهُ اعْتِدَارِي فِي الْقَضِيَّةِ وَاضِحُ

[ تعريف بتلمسان ]

وتلمسان هذه هي مدينتنا التي عُلِّقَتْ بِهَا التَّمَائِمُ ، وقد نزلها من سلفنا عبد  
 الرحمن بن أبي بكر المقرئ بن علي صاحب الشيخ أبي مدين ، الذي دعا له  
 ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة  
 أخبارهم ، وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء ، حسبما قال ابن مرزوق :

كفئك منها ماؤها وهوؤها

وقال الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون في كتابه « بغية الرواد في أخبار  
 بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشاخنة الأطواد » بعد كلام في شأن البربر ، ما  
 صورته<sup>١</sup> : ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن ،  
 كلمة مركبة من « تلم » ومعناه تجمع ، و « سن » ومعناه اثنان : أي الصحراء  
 والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الآبلي ، رحمه الله تعالى ، وكان

١ بغية الرواد ١ : ١٩ / ٩ .

حافظاً بلسان القوم ، ويقال « تلمشان » ، وهو أيضاً مركَّب من « تلم »<sup>١</sup> ومعناه لها ، و « شان » أي لها شأن ، وهي مدينة عريقة في التمدن ، لذيدة الهواء ، عذبة الماء ، كريمة المنبت ، اقتعدت بسفح جبل ، ودُوَيْنَ<sup>٢</sup> رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب ، عروساً فوق منصّة ، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ويطل منها<sup>٣</sup> على فحص أفيح معد للفلاحة تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهارى ، وتقر في بطونه عند تلميث الغمام بطون العذارى<sup>٤</sup> ، وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة ، والصروح الشاهقة ، والبساتين الرائقة ، ممّا زخرفت عروشه ، ونمقت غروسه ، ونوسبت أطواله وعروضه ، فأزرى بالخورنق ، وأحجل الرصافة ، وعبث بالسدير . وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن ، تتجاذبه أيدي المذانب والأصراب المكفورة<sup>٥</sup> ، خلّالها ، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية النور والحمامات ، فيفعم الصهاريج ، ويفهق الحياض ، ويسقي ريعه<sup>٦</sup> خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب ، فهي التي سحرت الألباب رواء ، وأصبت النّهى جمالاً<sup>٧</sup> ، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا ، إلى أن قال : فأنا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إيّاه عندي<sup>٨</sup> :

ما جنةُ الخلدِ إلا في منازلكمُ      وهذه كنتُ لو خيِّرتُ أختارُ

- 
- ١ البغية : تل .
  - ٢ البغية : ودون .
  - ٣ البغية : تطل منه .
  - ٤ البغية : العذارى . والعذارى : الأراضي التي لم توطأ .
  - ٥ المكفورة : المستورة .
  - ٦ البغية : يساتئها .
  - ٧ جمالا : سقطت من البغية .
  - ٨ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٤ .



لا تَتَقَوُّوا بعدها أن تدخلوا سَقَرًا فليس تُدْخَلُ بعد الجَنَّةِ النارُ

وتوسطت قطراً ذا كَوْرٍ عديدة تعمرها أمشاج البربر والعرب ، مَرِيعة الجنبات ، منجبة للحيوان والنبات ، كريمة الفلاحة ، زاكية الإضابة ، فربما انتهت في الزَّوْجِ الواحد منها إلى أربعمائة مد كبير ، ثم أطال في ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه في الكتاب المذكور .

ومما يُنسب للسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها ما صورته :  
تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف ، كأنها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من اللوحات حشمة وأعلاجه ، عبّادها يدها وكهفها كفها ، وزيتها زيانها ، وعيناها أعيانها ، هواها المقصود بها فريد ، وهواؤها المملود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد ، حجبتها أيدي القلعة عن الجنوب ، فلا نُحولَ فيها ولا شحوب ؛ خزائنُ زرع ، ومسرح ضرع ، فواكهها عديدة الأنواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رفاق رفاع ، إلاّ أنها بسبب حب الملوك ، مطمعة للملوك ، ومن أجل جمعها الصيّد في جوف الفرا ، مغلوبة للأمرأ ، أهلها ليست عندهم الراحة ، إلاّ فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، إلا لمن أقام رسم الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب ، إلا فيما بين الأقارب ، ولا شطارة ، إلا فيمن ارتكب الخطارة ؛ انتهى .

وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتاباً ممتعاً أسميته «أنواء نيسان في أبناء تلمسان» وكتبت بعضه ، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار ، وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف منند الرّواق ، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها ، ثم ارتحلت بنية الحجاز ، وجعلت إلى الحقيقة المجاز ، وما أنا ذا إلى الآن في البلاد المصرية ، وفي علم الله تعالى ما لا تعلم ، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم ، والله تعالى يحتم لنا بالحسنى بجاه نبيّه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم .

وبها ولدت أنا وأبي وجددي وجد جدي ، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلْتُ عنها في زمن الشيبية إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف ، إلى أن ارتحلْتُ عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف ، ودخلت مصر برجب من عام ثمانية وعشرين وألف ، والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف ، وأبْتُ منها إلى مصر أواخر شوال من العام ، وشرعت في هذا المؤلف بالقعدة من العام .

### [ ترجمة أبي مدين ]

وقد تخرَّج بتلمسان من العلماء والصلحاء ما لا ينضب ، ويكفيها افتخاراً دَفَنُ وليِّ الله سيدي أبي مدين بها ، وهو شعيب بن الحسين الأندلسي ، شيخ المشايخ ، وسيد العارفين ، وقدوة السالكين ، قال الشيخ أبو عبد الله محمد ابن التلمساني في كتابه « النجم الثاقب فيما لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان الشيخ سيدي أبو مدين فرداً من أفراد الرجال ، وصدرأ من صدور الأولياء الأبدال ، جمَع الله له علم الشريعة والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هادياً وداعياً للحق ، فقصده بالزيارة من جميع الأقطار ، واشتهر بشيخ المشايخ ، وذكر التادلي وغيره أنه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات ، وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته : كان أبو مدين زاهداً فاضلاً عارفاً بالله تعالى ، خاض بحار الأحوال ، ونال أسرار المعارف ، خصوصاً مقام التوكل ، لا يُشَقُّ غباره ، ولا تُجهل آثاره ، قال التادلي : كان مبسوطاً بالعلم ، مقبوضاً بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم له بذلك ، أخبرني مَنْ شهد وفاته أنه رآه

١ انظر نيل الابتهاج : ١٠٧ فأكثر هذه الترجمة منقول عنه .

في آخر الرمتق يقول : الله الحق . وكان من أعلام العلماء ، وحفاظ الحديث ، خصوصاً جامع الترمذي ، وكان يقوم عليه ، ورواه عن شيوخه عن أبي ذر ، وكان يلزم كتاب « الإحياء » ويعكف عليه ، وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت ، وله مجلس وعظ يتكلم فيه ، فتجتمع عليه الناس من كل جهة ، وتمر به الطيور وهو يتكلم فتقف تسمع ، وربما مات بعضها ، وكثيراً ما يموت بمجلسه أصحاب الحب ، تخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال ، وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه جميلاً ، ويخصه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل ، قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ الحافظ أبي الحسن ابن حرزهم ، وعلى الفقيه الحافظ العلامة أبي الحسن ابن غالب . وذكر عنه أنه قال : كنت في أول أمري وقراءتي على الشيخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أنخذه ماوى للعمل بما فُتح به عليّ ، فإذا خلوت به تأتيني غزاة تأوي إليّ وتؤنسني ، وكنت أمرئ في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس ، فيدورون حولي ، ويصبصون لي ، فيينا أنا يوماً بفاس إذا برجل من معارفي بالأندلس سلم علي ، فقلت : وجبت ضيافته ، فبعت ثوباً بعشرة دراهم ، فطلبت الرجل لأدفعها له ، فلم أجده هنالك ، فخليتها معي ، وخرجت لخلوتي على عادي ، فمررت بقريتي ، فتعرض لي الكلاب ، ومنعوني الجواز ، حتى خرج من القرية من حال بيني وبينهم ، ولما وصلت لخلوتي جاءتني الغزاة على عادي ، فلما شممتني ففرت عني ، وأنكرت علي ، فقلت : ما أوتي علي إلا من أجل هذه الدراهم التي معي ، فرميتها ، فسكنت الغزاة ، وعادت لحالها معي ، ولما رجعت لفاس جعلت الدراهم معي ، ولقيت الأندلسي ، فدفعتها إليه ، ثم مررت بالقرية في خروجي للخلوة ، فدار بي كلابها وبصبصوا على عادي ، وجاءني الغزاة فشممتني من

١ انظر أيضاً التادلي : ٣٢٠ .

مفرقي لقدمي ، وأنست بي كعادتها ، وبقيت كذلك مدة ، وأخبار سيدي أبي يعزى ترد عليّ ، وكراماته يتداولها الناس وتُنقل إليّ ، فملاً قلبي حبه ، فقصدته مع جماعة الفقراء ، فلماً وصلنا إليه أقبل على الجماعة دوني ، وإذا حضر الطعامُ منعي من الأكل معهم ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فأجهدتني الجوع ، ونجرت من خواطر ترد عليّ ، ثم قلت في نفسي : إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان ، فقام ، ومرغت وجهي فقت وأنا لا أبصر شيئاً ، وبقيت طول ليلتي باكياً ، فلماً أصبح دعاني وقرّني ، فقلت له : يا سيدي ، قد عميت ولا أبصر شيئاً ، فمسح بيده على عيني ، فعاد بصري ، ثم مسح على صدري ، فزالت عني تلك الخواطر ، وفقدت ألم الجوع ، وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته ، ثم استأذنته في الانصراف بنية أداء القرىضة ، فأذن لي وقال : ستلقى في طريقك الأسد فلا يرعك فإن غلب خوفه عليك قتل له : بجرمة يدنورا إلا انصرفت عني ، فكان الأمر كما قال . فتوجه الشيخ أبو مدين للشرق وأنوارُ الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء ، وتعرّف في عرفة بالشيخ سيدي عبد القادر الكيلاني ، فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيراً من الحديث ، وألبسه خرقة الصوفية ، وأودعه كثيراً من أسراره ، وحلاه بملابس أنواره ، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ، ويعدّه أفضل مشايخه الأكابر .

وعن بعض الأولياء قال : رأيت في النوم قائلاً يقول : قل لأبي مدين : بُث العلم ولا تُبال ، ترتع غداً مع العوالي ، فإنك في مقام آدم أبي الدراري ، فقصصتها عليه فقال لي : عزم على الخروج للجهال والفيافي حتى أبعث عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بي عن هذا العزم ، وتأمرنني بالجلوس ، فقولك « ترتع غداً مع العوالي » إشارة لحديث « حلق الذكر مراتع أهل الجنة » ، والعوالي : أصحاب عليين ، ومعنى قوله « أبي الدراري » أن آدم أعطي قوة على النكاح

١ التشوف : يلنور .

وأمر به ، ولم يجعل له قوّة على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا ببثّه وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفّقين .  
وكان يقول : كراماتُ الأولياء نتائج معجزات نبينا صلى الله عليه وسلّم ، وطريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى بسنده عن الجنيد عن سري السقطي عن حبيب العجمي بالسند إلى رب العزة جل جلاله .

وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال : سمعت سيدي أبا مدين يقول : أوقفني ربي عز وجل بين يديه وقال لي : يا شعيب ماذا عن يمينك ؟ قلت : يا رب عطاؤك ، قال : وعن شمالك ؟ قلت : يا رب قضاؤك ، فقال : يا شعيب قد ضاعفت لك هذا ، وغفرت لك هذا ، فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك .  
وعن سيدي أبي العباس المرسي : جلّنتُ في ملكوت الله تعالى ، فرأيت سيدي أبا مدين متعلّقاً بساق العرش وهو يومئذ أشقر أزرق ، فقلت له : وما علومك ؟ وما مقامك ؟ فقال : علومي أحد وسبعون علماً ، وأما مقامي فراجع الخلفاء ، ورأس السبعة الأبدال .

وسئل رضي الله عنه عما خصّه الله تعالى به ، فقال : مقامي العبودية ، وعلومي الألوهية ، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومه سري وجهري ، وأضاء بنوره برّي وبحري ، فالمقرب من كان به عليمًا ، ولا يسمو إلّا من أوتي قلباً سليماً ، الذي يسلم ممّا سواه ، ولا يكون في الوعاء إلّا ما جعل فيه مولاه ، فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرّ مرّ السحاب ﴾ (النمل : ٨٨) .

وسئل عن الحياء ، فقال : أوّلّه دوام الذكر ، وأوسطه الأتس بالمذكور ، وأعلاه أن لا ترى شيئاً سواه .

واختلف أهل مجلسه : هل الخضر ولي أم نبي ؟ فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبيّ صلى الله عليه وسلّم تلك الليلة فقال صلى الله عليه وسلّم : الخضر نبي ، وأبو مدين ولي .

وذكر التادلي<sup>١</sup> وغيره أن رجلاً جاءه ليعترض عليه ، فجلس في الحلقة ، فأخذ صاحبُ الدولة في القراءة ، فقال له أبو مدين : أمهل قليلاً ، ثم التفت للرجل ، وقال له : لِمَ جئت ؟ فقال : لأقتبس من نورك ، فقال له : ما الذي في كحك ؟ قال له : مصحف ، فقال له : افتحه واقراء في أول سطر يخرج لك ، ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف : ٩٢) فقال له أبو مدين : أما يكفئك هذا ؟ فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله .

وذكر صاحب «الروض» عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال : مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب ، فرأى أسداً افترس حماراً وهو يأكله ، وصاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة ، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد ، وقال لصاحب الحمار : أمسك الأسد واستعمله في الخدمة موضع حمارك ، فقال له : يا سيدي أخاف منه ، فقال : لا تخف ، لا يستطيع أن يؤذيك ، فمرّ الرجل يقوده والناسُ ينظرون إليه ، فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال له : يا سيدي هذا الأسد يتبعني حيث ذهبتُ ، وأنا شديد الخوف منه ، لا طاقة لي بعشرته ، فقال الشيخ للأسد : اذهب ولا تعد ، ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم .

ومن مشهور كراماته أنه كان ماشياً يوماً على ساحل ، فأسره العدو ، وجعلوه في سفينة فيها جماعة من أسرى المسلمين ، فلما استقرت في السفينة توقفت عن السير ، ولم تتحرك من مكانها ، مع قوة الريح وساعدها ، وأيقن الروم أنهم لا يقدرّون على السير ، فقال بعضهم : أنزلوا هذا المسلم فإنه قسيس ، ولعله من أصحاب السرائر عند الله تعالى ، وأشاروا له بالترول ، فقال : لا أفعل إلاّ إن أطلقتم جميع منّ في السفينة من الأسارى ، ففعلوا أن لا بد لهم من ذلك ،

فأنزلوهم كلهم ، وسارت السفينة في الحال .  
ومن كراماته أنه لما اختلف طلبة بجاية في حديث « إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة » وأشكل عليهم ظاهره : إذ بموت مؤمنين يستحقان كل الجنة ، فجعوا إليه وهو يتكلم على رسالة القشيري ، فكاشفهم في الحال بلا سؤال ، وقال لهم : المراد أنه يعطى نصف جنته هو ، فيكشف له عن مقعده ليتنعم به وتقر عينه ، ثم النصف الآخر يوم القيامة .

وكان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل .  
وذكر تلميذه الصالح سيدي عبد الخالق التونسي عنه أنه قال : سمعت برجل يسمى موسى الطيار يطير في الهواء ويمشي على الماء ، وكان رجل يأتيني عند صدع الفجر فيسألني عن مسائل لا يفهمها الناس ، فوقع ليلة في نفسي أنه موسى الطيار الذي سمعت به ، وطال عليّ الليل في انتظاره ، فلما طلع الفجر نقر الباب رجل ، فإذا هو الذي يسألني ، فقلت له : أنت موسى الطيار ؟ فقال : نعم ، ثم سألني وانصرف ، ثم جاءني مع رجل آخر فقال لي : صلينا الصبح ببغداد ، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح<sup>١</sup> ، فأعدنا معهم ، وجلسنا<sup>٢</sup> حتى صلينا الظهر ، وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر ، فقال لي صاحبي هذا : نعيد معهم ، فقلت : لا ، فقال لي : ولم أعدنا الصبح بمكة ؟ فقلت له : كذلك كان شيخي يفعل ، وبه أمرنا ، فاختلفنا وأتينك للجواب ، فقال أبو مدين : فقلت لهم : أما إعادة الصبح بمكة فلائنها بها عين اليقين ، وببغداد علم اليقين . وعين اليقين أولى من علم اليقين ، وصلاتكم الظهر بمكة - وهي أم القرى - فلذلك لا تعاد في غيرها ، قال : فقننا به وانصرفا .

وكان استوطن بجاية ويقول : إنها معينة على طلب الحلال ، ولم يزل بها

١ ق : فوجدناهم في الظهر في صلاة الصبح .

٢ نيل الابتهاج : فبقينا .

يزداد حاله على مر الليالي رفعة ، ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق ،  
ويخبر بالوقائع والغيوب ، إلى أن وَشَى به بعضُ علماء الظاهر عند يعقوب  
المنصور ، وقال له : إننا نخاف منه على دولتكم ، فإن له شَبَهًا بالإمام المهدي ،  
وأتباعه كثيرون بكل بلد ، فوقع في قلبه وأهمته شأنه ، فبعث إليه في القدوم  
عليه ليختبره ، وكتب لصاحب بجاية بالوصية به والاعتناء ، وأن يُحْمَل خير  
محمل ، فلما أخذ في السفر شق على أصحابه وتغيروا وتكلموا<sup>١</sup> ، فسكنهم  
وقال لهم : إن مني قريت ، وبغير هذا المكان قدرت ، ولا بد لي منه ، وأنا  
شيخ كبير ضعيف<sup>٢</sup> ، لا قدرة لي على الحركة ، فبعث الله تعالى مَنْ يَحْمِلني إليه  
برفق ، ويسوقني إليه أحسن سوق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني ، فطابت  
نفوسهم ، وذهب بوسهم ، وعلموا أنه من كراماته ، فارتحلوا به على أحسن  
حال ، حتى وطئوا به حَوَزَ تلمسان ، فبدت له رابطة العباد ، فقال لأصحابه :  
ما أصلحه للرقاد ، فمرض مرض موته ، فلما وصل وادي يسر اشتد به المرض ،  
ونزلوا به هناك ، فكان آخر كلامه : الله الحق .

وتوفي رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وخمسائة ، فحُمِل إلى العباد ،  
مدفن الأولياء الأوتاد ، وسمع أهل تلمسان بجزائره ، فكانت من المشاهد العظيمة ،  
والمحافل الكريمة ، وفي ذلك اليوم تاب الشيخ أبو علي عمر الحباك ، وعاقب الله  
تعالى السلطان ، فمات بعده بسنة أو أقل .

ونقل المعتنون بأخباره أن الدعاء عند قبره مستجاب ، وجربه جماعة ، وقد  
زرته مئين من المرات ، ودعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله .

وقد أطل في ترجمته التادلي في كتابه «التشوف لرجال التصوف»<sup>٣</sup> وقد

١ وتكلموا : سقطت من نيل الابتهاج .

٢ نيل الابتهاج : وقد كبرت وضعت .

٣ انظر هذا الكتاب ص : ٣١٦ - ٣٢٥ .



أفردها ابن الخطيب القسطنطيني بتأليف سماه « أنس الفقير » .  
ومن كلامه : من رُزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم ، ومن اشتغل بطلب  
الدنيا ابتلي فيها بالذل ، ومن لم يجد من قلبه زاجراً فهو خراب .  
وقوله : بفساد العامة تظهر ولادة الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجة  
الدين الفتانون .

وقوله : من عَرَفَ نفسه لم يَغْتَرَّ بثناء الناس عليه ، ومن خدم الصالحين  
ارتفع ، ومن حرمه الله تعالى احترامهم ابتلاه الله بالمقت من خلقه ، وانكسار  
العاصي خير من صولة المطيع .

وقوله : من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق .  
وسئل عن المحو والشيخ ، فقال : المحو من شهدت له ذاتك بالتقديم ، وسرك  
بالاحترام والتعظيم ، والشيخ مَنْ هُداكَ بأخلاقه ، وأيدك بإطراقه ، وأنار  
باطنك بإشراقه ، إلى غير ذلك من كلامه النير ، وهو بحر لا ساحل له .

وله نظم كثير مشهور بأيدي الناس ، ومما يُنسب له قوله :

بكت السحابُ فأضحكت لبكائها	زهرَ الرياضِ وفاضتِ الأنهارُ
وقد آقبلتُ شمسُ النهارِ بجملةٍ	خَضْرًا ، وفي أسرارها أسرار
وأتى الربيعُ بنجيله وجنوده	فتمتعتُ في حسنه الأَبْصار
والوردُ نادى بالورودِ إلى الجنى	فتسابقَ الأَطيارُ والأشجار
والكأسُ ترقصُ والعقارُ تشعشتُ	والجوُّ يضحكُ والحبيبُ يُزار
والعودُ للغيدِ الحسانِ مجابٌ	والطارُ أخفى صوتَهُ المزمار
لا تحسبوا الزمرَ الحرامَ مرادنا	مزمارنا التَّسبيحُ والأذكار
وشرابنا من لطفه ، وغناؤنا	نعم الحبيبُ الواحدُ القهار
والعودُ عاداتُ الجميل ، وكأسنا	كأسُ الكياسة ، والعقارُ وقار

فتألفوا وتطيبوا واستغنموا قبل المات فدهركم غدّار  
والله أرحمُ بالفقير إذا أتى من والديه فإنه غفّار  
ثمّ الصلاةُ على الشقيعِ المصطفى ما رتّمت بلغاتها الأطيّار

وإنّما ذكرت ترجمة سيدي الشيخ أبي مدين للتبرك به ، ولكونه شيخ  
جدي ، فأنا في بركته لقول جدي : إنّه دعا له ولذريته بما ظهر قبوله ، ولأنّنا  
ذكرنا في هذا التّأليف كثيراً من أبناء أبناء الدنيا ، فأردنا كفارة ذلك بذكر  
الصالحين ، والله الموفّق بمنّه وكرمه ، آمين .

## الباب السابع

في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستهدين به على المنهاج ، الملتقين أنواع العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهوم من سراج الوهاج

اعلم أن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرون ، إلا أنه لم يُرزق السعادة في كثير منهم ، بل بارزوه بالعداوة واجتهدوا في إيصال المكروه إليه .

١ - فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك<sup>١</sup> ، وارث مرتبته من بعده ، ومقتعد أريكة سعده ، وقد ألمع به في « الإحاطة » وكان إذ ذاك من جملة أتباعه ، إذ قال ما محصله : محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن زمرك .

أصله من شرقي الأندلس ، وسكن سلفه ربض<sup>٢</sup> البيازين من غرناطة ، وبه ولد ونشأ ، وهو من مفاخره .

حاله - هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبتها ، مختصر مقبول هش خلوب ، عذب الفكاهة حلو المجالسة ، حسن التوقيع خفيف الروح

١ ترجمة ابن زمرك في الإحاطة ٢ : ٢٢١ - ٢٤٠ والكتيبة : ٢٨٢ ونيل الابتهاج : ٢٨٢  
وثير فرائد الجمال : ٣٢٧ والتعريف : ٢٧٤ وجذوة الاقتباس : ١٨٤ والدرر الكامنة ٤ :  
٤١٢ وأزهار الرياض ٢ : ٧ - ٢٠٦ ، وقد نقل بعض ما أورده ابن الخطيب في الإحاطة ، وما  
جاء عنه في كتاب مستقل لابن الأحمر ، وسيكرر هذا في ترجمته هنا ، ولهذا أجريت المقارنة  
بين ما ورد في النسخ والأزهار دون أن أشير إلى كل موضع على حدة .

٢ ق : روض .

عظيم الانطباع شره المذاكرة ، فطن بالمعارض حاضر الجواب ، شعلة من شعل الذكاء تكاد تستخدم جوانبه ، كثير الرقة فكه غزل مع حياء وحشمة ، جواد بما في يده مشارك لإخوانه ، نشأ عفاً طاهراً ، كلفاً بالقراءة عظيم الدؤوب ، ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ظاهر النبل ، بعيد مدى الإدراك جيد الفهم ، فاشتهر فضله وذاع أرجه وفشا خبره ، واضطلع بكثير من الأغراض وشارك في كثير من الفنون ، وأصبح متلقف كرة البحث وصارخ الحلقة [ وسابق الحلبة ] ومظنة الكمال ، ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع وخاض لجة الحفظ ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق ، ونصب نفسه للناس متكلماً فوق الكرسي المنصوب ، وفوق المحفل المجموع ، مستظهراً بالفنون التي بعدد فيها شأوه من العربية والبيان [ واللغة ] وما يقذف به في لج النقل من الأخبار والتفسير ، متشوقاً مع ذلك إلى السلوك مصاحباً للصوفية آخذاً نفسه بارتياض ومجاهدة ، ثم عانى الأدب فكان أملك به ، وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد ، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ، ثم عن السلطان ، وعرف في بابه بالإجادة . ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس ، واستقر بالمغرب ، أنس له وانقطع إليه ، وكر في صحبة ركابه إلى استرجاع حقه ، فلفظ منه محله وخصه بكتابة سره ، وثابت الحال ودالت الدولة وكانت له الطائلة ، فأقره على رسمه معروف الانقطاع والصاغية كثير الدالة ، مضطلعاً بالخطة خطأ وإنشاء ولسناً ونقداً ، فحسن منابه واشتهر فضله وظهرت مشاركته وحسنت وساطته ، ووسع الناس تخلفه ، وأرضى للسلطان حملة ، وامتد في ميدان النظم والنثر باعه ، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة ، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد ، أعانه الله تعالى وسدده .

شيوخه - قرأ العربية على الأستاذ رحلة المغرب في فنها أبي عبد الله ابن الفخار ،  
ثم على القاضي الشريف إمام الفنون اللسانية أبي القاسم محمد بن أحمد الحسيني ،  
والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد ابن لب ، واختص بالفقيه الخطيب  
الصدر المحدث أبي عبد الله ابن مرزوق فأخذ عنه كثيراً من الرواية ، ولقي  
القاضي الحافظ<sup>١</sup> أبا عبد الله المقرئ عندما قدم على الأندلس وذاكره ، وقرأ  
الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي ، ويروي عن جملة منهم القاضي  
أبو البركات ابن الحاج ، والمحدث أبو الحسين ابن التلمساني ، والخطيب أبو  
عبد الله ابن اللوشي ، والمقرئ أبو عبد الله ابن بيش ، وقرأ بعض الفنون العقلية  
بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلوني<sup>٢</sup> التلمساني ، واختص  
به اختصاصاً لم يخل فيه من استفادة مران وحنكة في الصنعة .

شعره - وشعره مترام إلى هدف الإجادة ، خفاجي النزعة ، كلف بالمعاني  
البديعة والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة ، فمن ذلك ما خاطبني به ، وهو من أول  
ما نظمته قصيدة مطلعها :

أما وانصداع النور من مطلع الفجر

وهي طويلة .

ومن بدائعه التي عقم عن مثلها قياس قيس ، واشتهرت بالإحسان اشتها  
الزهد بأويس<sup>٣</sup> ، ولم يخل مجاربه ومباريه إلا بويح ويونس ، قوله في إعدار  
الأمير ولد سلطانه المنوه بمكانه ، وهي من الكلام الذي عنيت الإجادة بتذهيبه  
وتهذيبه ، وناسب الحسن بين مديحه ونسيبه :

١ ق : الحافظ القاضي .

٢ سقطت هذه اللفظة من الإحاطة .

٣ هو أويس القرني من أوائل الزهاد في العصر الأموي .

مَعَاذِ الْهَوَى أَنْ أَصْحَبَ الْقَلْبَ سَالِيَا  
دَعَانِي أَعْطِ الْحَبَّ فَضْلَ مَقَادِنِي  
وَدُونَ الَّذِي رَامَ الْعَوَاذِلُ صَبُوءًا  
وَقَلْبًا إِذَا مَا الْبَرْقُ أَوْمَضَ مَوْهِنًا  
خَلِيلِي لَنِي يَوْمَ طَارِقَةِ النَّوَى  
وَبِالْخَيْفِ يَوْمَ الْفَرِّ يَا أُمَّ مَالِكِ  
وَذِي أَشْرٍ عَذِبِ الثَّنَائِيَا مَخْصَرِي  
أَحُومٌ عَلَيْهِ مَا دَجَا اللَّيْلُ سَاهِرًا  
يَضِيءُ ظِلَامُ اللَّيْلِ مَا بَيْنَ أَضْلَعِي  
أَجِيرَتَنَا بِالرَّمْلِ وَالرَّمْلُ مَنَزَلُ  
وَلَمْ أَرَ رَبْعًا مِنْهُ أَقْضَى لُبَانَةً  
سَقَتْ طَلَّهُ الْغُرَّ الْغَوَادِي وَنَظَّمَتْ  
أَبْتَكُمُ أَنِّي عَلَى النَّسَائِي حَافِظُ  
أَنَاشِدِكُمْ وَالْحُرُّ أَوْفَى بَعْدِهِ  
هَلِ الْوَدُّ إِلَّا مَا تَحَامَاهُ كَاشِحُ  
تَأْوَبِي وَاللَّيْلُ يُذَكِّي عَيْونَهُ  
وَقَدْ مَثَلَتْ زُهْرُ النُّجُومِ بِأَفْقِهِ  
خَيْالٌ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ أَلْمُ بِي  
عَجِبْتُ لَهُ كَيْفَ اهْتَدَى نَحْوَ مَضْجَعِي  
رَفَعْتُ لَهُ نَارَ الصَّبَابَةِ فَاهْتَدَى  
وَمِمَّا أَجَدَّ الْوَجْدَ سَرَبٌ عَلَى النَّقَا

وَأَنْ يَشْغَلَ الْوَأَمُّ بِالْعَدْلِ بَالِيَا  
وَيَقْضِي عَلَيَّ الْوَجْدُ مَا كَانَ قَاضِيَا  
رَمْتُ بِي فِي شِعْبِ الْغَرَامِ الْمَرَامِيَا  
قَدَحْتُ بِهِ زَنْدًا مِنَ الشُّوقِ وَارِيَا  
شَقِيتُ بِنِ لَوْ شَاءَ أَنْعَمَ بَالِيَا  
تَخَلَّفَتْ قَلْبِي فِي حَبَالِكِ عَانِيَا  
يَسْقِي بِهَ مَاءَ النَّعِيمِ الْأَقَابِيَا  
وَأَصْبَحُ دُونَ الْوَرْدِ ظَمَّانَ صَادِيَا  
إِذَا الْبَارِقُ النَّجْدِي وَهَنًا بَدَا لِيَا  
مَضَى الْعَيْشُ فِيهِ بِالشَّبِيَةِ حَالِيَا  
وَأَشْجَى حَمَامَاتٍ ، وَأَحْلَى مَجَانِيَا  
مِنَ الْقَطْرِ فِي جِيدِ الْغُصُونِ لَأَلِيَا  
ذَمَامَ الْهَوَى لَوْ تَحْفَظُونَ ذَمَامِيَا  
وَلَنْ يَعْدَمَ الْأَحْسَانُ وَالْخَيْرُ جَازِيَا  
وَأَخْفَقَ فِي مَسَاعَاهُ مَنْ جَاءَ وَاشِيَا  
وَيَسْحَبُ مِنْ ذَيْلِ الدُّجْنَةِ ضَافِيَا  
حَبَابًا عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ طَافِيَا  
فَأَذْكَرْنِي مَنْ لَمْ أَكُنْ عَنْهُ سَالِيَا  
وَلَمْ يُبْقِ مِنِّي السَّقَمُ وَالشُّوقُ بَاقِيَا  
وَخَاضَ لَهَا عَرْضَ الدُّجْنَةِ سَارِيَا  
سَوَانِحُ يَصْقَلْنَ الطَّلِيَّ وَالرَّاقِيَا

نزعن عن الألحاظ كلَّ مسدِّدٍ  
ولما تراءى السَّرْبُ قلتُ لصاحبي  
حذاركَ من سقمِ الجفونِ فإنه  
وإنَّ أميرَ المسلمينَ محمّداً  
تضيءُ النجومَ الزاهراتِ خلالهُ  
معال إذا ما النجمُ صوبَ طالباً  
يسابقُ علويَّ الرياحِ إلى التدى  
ويغضي عن العوراءِ إغضاءَ قادرٍ  
همامٍ يروعُ الأسدَّ في حومةِ الوغى  
مناقبُ تسمو للفقارِ كأنما  
إذا استبقَ الأملاكُ يوماً لغايةٍ  
بهرتَ فأخضيتَ الملوكَ وذكرها  
جلوتَ ظلامَ الظلمِ من كلِّ معتدٍ  
هديتَ سبيلَ اللهِ من ضلِّ رشدهُ  
أفدتَ وحييَ الملكِ ممّا أفدتهُ  
وقد عرّفتَ منها مرينٌ سوايقاً  
وكان أبو زيّانَ جيّداً معطلاً  
لكَ الخيرُ لم تقصدُ بما قد أفدتهُ  
لما تكبيرُ الأملاكِ غيركَ أمراً  
ولا تشتكي الأيامُ من داءِ فتنه  
وأندلساً أوليتَ ما أنتَ أهلُهُ  
تلاقيتَ هذا الثغرَ وهو على شفا  
ومن بعد ما ساءتَ ظنونُ بأهلها

فغادرنَ أفلاذَ القلوبِ دواميسا  
وأيقنتُ أنّ الحبَّ ما عشتَ دانيسا  
سيعُدي بما يعيبي الطيبَ المداويا  
ليُعدي نداءهُ السازياتِ الهواميسا  
وينفثُ في روعِ الزمانِ المعاليا  
مبالغها في العزِّ حائقَ وانيسا  
ويفضحُ جدوى راحتيه الغواديا  
ويرجعُ في الخلمِ الجبالِ الرواسيا  
كما راعتِ الأسدُّ الظباءَ الجوازيا  
تجاري إلى المجدِ النجومَ الجواريا  
أبيتَ وذاك المجدَ إلاّ التناهيا  
ولا عجبٌ فالشمسُ تخفي الدراريا  
ولا غرواً أن تجلو البدورُ الدياجيسا  
فلا زلتَ مهدياً إليه وهاديا  
وطوقتَ أشرافَ الملوكِ الأياديا  
تُقرُّ لها بالفضلِ أخرى اللبالييا  
فزيّنته حتى اغتدى بكَ حاليسا  
جزاءً ولكن همتة هي ما هيا  
ولا ترهبُ الأشرافُ غيركَ ناهيا  
فقد عرفتُ منكَ الطيبَ المداويا  
وأوردتها ورداً من الأمنِ صافيا  
وأصبحتَ من داءِ الحوادثِ شافيا  
وحاموا على وردِ الأمانِ صواديا

فما يأمولون العيش إلاّ تعللاً  
 عطفت على الأيام عطفة راحم  
 فأنس من تلقائك الملك رُشدة  
 وقتت على الإسلام نفساً كريمة  
 فرأي كما انشق الصباح ، وعزيمة  
 وكانت رماح الخطأ خُصماً ذوابلاً  
 وأوردت صفح السيف أبيض ناصعاً  
 لك العزم تستجلي الخطوب بهديه  
 إذا أنت لم تفخر بما أنت أهله  
 ويهتِك دون العيد عيد شرعته  
 أقمت به من فطرة الدين سنة  
 صنع تولى الله تشييد فخره  
 تودّ النجوم الزهر لو مثلت به  
 وما زال وجه اليوم بالشمس مشرقاً  
 على مثله فليعقد الفخر تاجه  
 به تغمر الأنواء كل مضموه  
 ويوسف فيه بالجمال مقنع  
 وأقبل ما شاب الحياة مهابة  
 وأقدم لا هيابة الحفل واجماً  
 شمائل فيه من أبيه وجدّه  
 فيا علقاً أشجى القلوب لو أننا  
 جريت فأجريت الدموع تعطفاً  
 وكم من وليّ دون بابك مخلص

ولا يعرفون الأمن إلاّ أمانيا  
 وأبستها ثوب امتنانك ضافيا  
 ونال بك الإسلام ما كان راجيا  
 تصدّ عدوّاً عن حِمَاهُ وعاديا  
 كما صقل القين الحسام اليمانيا  
 فأهلت منها في الدماء صواديها  
 فأصدرته في الروح أحمر قانيا  
 ويلقى إذا تنبو الصوارم ماضيا  
 فما الصبح وضّاح المشارق عاليا  
 نبث به في الخافقين التهانيا  
 وجددت من رسم الهداية عافيا  
 وكان لما أوليت فيه مجازيا  
 وقضت من الزلفى إليك الأمانيا  
 سروراً به والليل بالشهب حاليا  
 ويسمو به فوق النجوم مراقيا  
 ويحدو به من كان بالفقر ساريا  
 كأنّ له من كل قلب مناجيا  
 يقلب وجه البدر أزهراً باهيا  
 ولا قاصراً فيه الخطا متوانيا  
 ترى العزّ فيها مستكناً وباديا  
 فدينك بالأعلاق ما كنت غاليا  
 وأطلعت فيها للسرور نواشيا  
 يفديه بالنفس النفيسة واقيا



وصيد من الحيين أبناء قبيلة  
 بهليل غر إن أعدوا لغارة  
 فوالله لولا أن توخيت سنة  
 لكان بها للأعوجيات جولة  
 وترك أوصال الوشيج مقصداً  
 ولما قضى من سنة الله ما قضى  
 أقضنا نهني منك أكرم منعم  
 فيهنى صفاح الهند والبأس والندی  
 وبني البنود الخافقات فإنها  
 كآني به يشقي الصوارم والطبي  
 كآني به قد توج الملك يافعاً  
 وقضى حقوق الفخر في ميعة الصبا  
 وما هو إلا السعد إن رمت مطلعاً  
 فلا زلت يا فخر الخلافة كافلاً  
 ودمت قريبر العين منه بغبطة  
 نظمت له حرر الكلام تائماً  
 لآل بها تبأى الملوك نفاسة  
 أرى المال يرميه الجليدان بالليل

تكف الأعادي أو تُبیدُ الأعاديا  
 أعادوا صباح الحي أظلم داجيا  
 رضيت بها أن كان ربك راضيا  
 تُشيب من الغلب الشباب النواصيا  
 وبيض الطبي حمر المتون دواميا  
 وقد حسدت منه النجوم المساعيا  
 أبي لعميم الجود إلا تواليا  
 وسمر العوالي والعناق المذاكيا  
 سيعقدها في ذمة النصر غازيا  
 ويحطم في الأمم الصلاب العواليا  
 وجمع أشات المكارم ناشيا  
 وأحسن من دين الكمال التقاضيا  
 وسددت سهماً كان ربك راميا  
 ولا زلت يا خير الأئمة كافيا  
 وكان له رب البرية واقيا  
 جعلت مكان الدر فيها القوافيا  
 وجلت لعمرى أن تكون لآليا  
 وما إن أرى إلا المحامد باقيا

وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وقد الأحابيش  
 بهدية من ملك السودان ، ومن جملتها الحيوان الغريب المسمى بـ « الزرافة » ، فأمر  
 من يُعاني الشعر من الكتاب بالنظم في ذلك الغرض ، فقال وهي من بدائمه :

لولا تألُّقُ بارقِ التذكارِ  
لكنهُ مهما تعرَّضَ خافقاً  
وعلى المشوقِ إذا تذكَّرَ معهداً  
أمدكري غرناطةَ حَلَّتْ بها  
كيف التخلُّصُ للحديثِ وبيننا  
هذا على أنَّ الثغرُ مركبي  
فلكم أقمْتُ غداةَ زُمَّتْ عيسُهُم  
وظفقتُ أستقري المنازلَ بعدهم  
إنَّا بني الآمالِ نخدعنا المني  
نتجشمُ الأهوالَ في طلبِ العلا  
لا يحرزُ المجدَ الخطيرَ سوى امرئٍ  
إمّا يُفاخرَ بالعتادِ ففخرُهُ  
مستبصرٌ مرمى العواقبِ واصلٌ  
فأشدُّ ما قادَ الجهولَ إلى الردي  
ولربَّ مربدٍ الجوانحِ مزبدٍ  
فُتقتُ كمامتُ جناحه عن أنجمٍ  
مَثَلتْ على شاطيِ المجرَّةِ نرجساً  
وكانتْما بدرُ التمامِ يحنَّه  
وكانتْما خمسُ الثريا راحةً  
أسرجتُ من عزمي مصابيحاً بها

١ ق : ودوننا .

٢ ق : انفساح .

٣ ق والإحاطة : يمطي ، والصواب ما في الأزهار .

٤ ق : جملة .

وارتاعَ من بازي الصباحِ غرابُهُ  
ومنها :

وغريبةٍ قطعتُ إليك على الوفي  
تُنسيه طيبتهُ التي قد أمَّها  
يقتادها من كلِّ مشتملِ الدجى  
تشدو بحمدِ المستعينِ حُداتها  
إنَّ مسَّهمْ لفتحِ الهجيرِ أبلَّهمْ  
خاضوا بها لبحجِّ الفلا فتخلَّصتُ  
سلمتُ بسعدك من غوائلِ مثلها  
وأنتك يا ملكَ الزمانِ غريبةُ  
موشيةُ الأعطافِ رائقةُ الحلَى  
راقَ العيونَ أديمها فكأنهُ  
ما بينَ مبيضٍ وأصفرٍ فاقعِ  
يحكي حدائقَ نرجسٍ في شاهقِ  
تحدوا قوائمَ كالجذوعِ وفوقها  
وسمتُ بجيدٍ مثلِ جذعِ مائلِ  
تستشرفُ الجدرانَ منه ترائباً  
ناهتُ بكلكلها وأتلعَ جيدها  
خرجوا لها الحِمَّ الغفيرَ ، وكلهمْ  
كلُّ يقولُ لصحبه قوموا انظروا  
ألقتُ بيابك رحلها ولطالما  
علمت ملوكَ الأرضِ أنك فخرها

١ كذا في جميع الأصول ، ولعلها « تجذو » يريد : تنصب .

يتبؤونَ بهِ وإن بَعُدَ المدى  
فأرفعُ لواءَ الفخرِ غيرَ مدافعِ  
واهنأ بأعيادِ الفتوحِ نحولاً  
وإليكها من روضِ فكري نفحةً  
في فصلِ منطقتها ورائقِ رسمها  
وتميلُ مَنْ أصغى لها فكأنني

وأنشد السلطان في ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ما فرغ  
من البنية الشهيرة ببابه رحمه الله تعالى :

تأملَ أطلالَ الهوى فتألما  
أخو زفرةٍ حاجتَ له نارَ ذكرةٍ  
وسيما الجوى والسقمِ منها تعلمنا  
فأنجدَ في شِعْبِ الغرامِ وأتهدما

وسرد لسان الدين هذه القصيدة بطولها ، وهي تقارب التسعين بيتاً ، ثم قال  
ما نصه : وأنشد السلطان في وجهة للصيد أعملها ، وأطلق أعنة الجياد في ميادين  
ذلك الطراد وأرسلها ، قوله :

حيّاكِ يا دارَ الهوى من دارِ  
وأعاد وجهَ رباكِ طلقاً مشرقاً  
أمدكُري دارَ الصبابةِ والهوى  
عاطيتني عنها الحديثَ كأنما  
إيه وإن أذكيتَ نارَ صبابتي  
يا زاجرَ الأظعانِ وهي مشوقةٌ  
حنّتُ إلى نجدٍ وليستُ دارها  
شاقّتُ به برقَ الحمى واعتادها

نوء السّمكِ بديمةِ مِدْزارِ  
متضاحكاً بمباسمِ النّوارِ  
حيثُ الشباب يرفُ غصنٌ<sup>١</sup> نُضارِ  
عاطيتني عنها كؤوسَ عُقارِ  
وقد حنّتَ زندَ الشوقِ بالتذكارِ  
أشبهتها في زفرةٍ وأوارِ  
وصبّتُ إلى هِنديّةِ والغارِ  
طيفُ الكرى بمزارها المزوارِ<sup>٢</sup>

١ الأزهار : حسن .

٢ كذا في الإحاطة ؛ وفي الأزهار :

لكنها شامت به برق الحمى واعتادها طيف الكرى بمزار

هل تُبلِّغُ الحاجاتِ إن حملتها  
 عرضُ بذكري في الخيامِ وقلْ إذا  
 عارٌ بقومك يا ابنةَ الحيين أن  
 أمتعتِ ميسورَ الكلامِ أبا الهوى  
 وأبان جاريَ الدمعِ عذراً هيأه  
 هذا وقومك ما علمتُ خلاهم  
 الله في نفسٍ شعاعٍ كلما  
 بالله يا لمياء ما منع الصبا  
 يا بنتَ مَنْ تشدو الحداةُ بذكره  
 ما ضرَّ نسمةَ حاجرٍ لو أنها  
 هلْ بأنه من بعدنا متأوِّدٌ  
 وهل الظباءُ الآنساتُ كهعدنا<sup>١</sup>  
 يفتكن من قاماتها ولحاظها  
 أشعرتُ قلبي حُبَّهنَّ صبا<sup>٢</sup>  
 وعلى الكتيبِ سوانحَ حمرِ الحلى  
 أدنى الحجيجِ مزارهنَّ ثلاثةً  
 لكنَّ يومَ النَّصرِ جُدنَ لنا بما  
 يا ابن الألى قد أحرزوا خصلَ العلا  
 وتوبُ عن صوبِ الغمامِ أكفَّهم  
 من آلِ سعدٍ رافعي علمِ الهدى

إنَّ الوفاءَ سجيَّةُ الأحرارِ  
 جئتَ العقيقَ مُبلِّغَ الأوطارِ  
 تلوِي الديونَ وأنتِ ذاتُ يسارِ  
 وبخلتِ حتى بالخيالِ الساري؟  
 لكن أضعتِ له حقوقَ<sup>١</sup> الجارِ  
 أوفى الكرامِ بذمةٍ وجوارِ  
 هبَّ النسيمُ تطيرُ كلَّ مطارِ  
 أن لا تهبَّ بعرفك المعطارِ  
 متعلِّين به على الأكوارِ  
 أهدتُ لنا خبراً من الأخبارِ؟  
 متجاوبٌ مترنمٌ الأطيَّارِ؟  
 يصرعنَّ أسدَ الغابِ وهي ضوارِ؟  
 بالمشرفيَّةِ والقنا الخطارِ  
 فرميتني من لوعي بجمارِ  
 بيضُ الوجوهِ يُصدنُ بالأفكارِ  
 بمي لو أن مني ديار<sup>٣</sup> قرارِ  
 عودتنا من جفوةٍ ونفارِ  
 وسَموا بطيبِ أرومةٍ ونجارِ  
 وتوبُ أوجُهمُ عن الأعمارِ  
 والمصطفين لنصرةِ المختارِ

١ الأزهار : أضعت حقوق ذلك .

٢ الأزهار : كهدها .

٣ الإحاطة : بدار .

٤ الأزهار : فضل .

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم  
وجهٌ كما حَسَرَ الصباحُ نقابهُ  
جددت دون الدينِ عزمة أروع  
حُطت البلاد ومن حوته نُغورها  
لله رحلتك التي نلنا بها  
أوردتنا فيها لجودك مورداً  
وأفصت فينا من نذاك مواهباً  
أضحكت نُغَرَ الثغر لما جثتهُ  
حتى الفلاة تقيم يومَ وددتها  
وسرت عُقابُ الجوّ تهديك الذي  
والأرضُ تعلم أنك الغوثُ الذي  
ولرب ممتدّ الأباطحِ موحشٍ  
همَلِ المسارحِ لا يُرَاعُ قنيصهُ  
سرحتُ عنانُ الريحِ فيه وربما  
باكرته والأفقُ قد خلع اللججى  
وجرى به نهرُ النهارِ كمثل ما  
عرّضتُ به المستنفراتُ<sup>٢</sup> كأنها  
أتبعنها غررَ الجيادِ كواكباً  
والهادياتُ يؤمها عبلُ الشوى<sup>٣</sup>

ومشرفَ الأعصارِ والأمصارِ  
ويدُّ تمدُّ أناملًا يبحارِ  
جددت منها سنة الأنصارِ  
وكفى بسعدك حامياً للذارِ  
أجرَ الجهادِ ونزهةَ الأبصارِ  
مستعذبَ الإيرادِ والإصدارِ  
حَسَنْتَ مواقعها على التكرارِ  
وخصصتهُ بخصائصِ الإيثارِ  
سُننِ القرى بثلاثةِ الأنوارِ  
تصطادُ من وحشٍ ومن أطيّارِ  
تُضفي عليها وافيَ الأستارِ  
عالي الرُبى متباعدِ الأقطارِ  
إلاّ لنبأةِ فارسِ مغوارِ  
ألقتُ بساحته عصا التسيارِ  
مِسْحاً ليكبسَ حلةَ الإسفارِ  
سكبَ النديمُ سُلافةً من قارِ  
خيلٌ عرابٌ جُلننَ في مضمارِ  
تنقضُ رجماً في سماءِ غبارِ  
متدققٌ كتدققِ التيسارِ

١ في الإحاطة والأزهار : يتلأق الأنوار ؛ وأرى الأصل فيه ما أثبتته لأنه يتحدث عن خروج السلطان  
للصيد ، ورميه ثلاثة ثيران ، فكأن فلاة الصيد راعت سنة القرى بتقديمها الثيران له .  
٢ المستنفرات : الحيوانات التي استنفرت لكي تعدو الجياد ورامها ، ويمرّز السلطان لذة مطاردتها  
وصيدها .  
٣ عبل الشوى : كناية عن الثور ، والهاديات : المتقدّمات سبقاً .

أزعجتها شقراء راققة الحلى  
 أثبت فيه الريح ثم تركته  
 حامت عليه الذابلات كأنها  
 طففت أرانبه غداة أثرتها  
 هل ينفع الباع الطويل وقد غدت  
 من كل منحفر بلمحة بارق  
 وجوارح سبقت إليه طلابها  
 سود وبيض في الطراد تتابع  
 ترمي بها وهي الحنايا ضمراً  
 ظنت بأن ينجو لها، كلاً ولو  
 وبكل فتشاء الجناح إذا ارتمت  
 زجل الجناح مصفق كمن الردى  
 أجلى الطريد من الوحوش وإن رمى  
 وأرئنا الكسب الذي أعداده  
 ييض وصرخ خلت مطرح سرحها  
 من كل موشي الأديم مفوف  
 خلط البياض بصفرة في لونه  
 أو أشعل راق العيون كأنه  
 سرحت بمخضر الجوانب يانع  
 قد أرضعته الساريات لبانها  
 أخذت سعودك حذرهما فلحكمة  
 لما أرتك الشمس صفرة حاسد  
 نفتت عليك السحب نقت معوذ  
 فارفع لواء الفخر غير مدافع

فرمته منها بشعلة نار  
 خضب الجوانح بالدم الموار  
 طير أوت منه إلى أوكار  
 تبغي الفرار ولات حين فرار  
 يوم الطراد قصيرة الأعمار  
 فانت خطاه مدارك الأبصار  
 فكأنما طالبته بالثار  
 كالليل طارده بياض نهار  
 مثل السهام نزع عن أوتار  
 أغربته بأرانب الأقمار  
 فكأنها نجم السماء الساري  
 في مقلب منه وفي منقار  
 طيراً أتاك به على مقدار  
 ملأت جمالاً عين النظار  
 روضاً تفتح عن شقيق بهار  
 رقت بدائعه يد الأقدار  
 فرى اللجين يشوب ذوب نضار  
 غلس يخالط سدفة بنهار  
 تنساب فيه أرقام الأنهار  
 وحلن فيه أزرة النوار  
 أغرت جفون المزن باستعبار  
 لجينك المتألق الأنوار  
 من عينها المتوقع الإصرار  
 واسحب ذبول العسكر الجرار

واهناً بمقدمك السعيد مخلّلاً  
قد جئتُ داركَ محسناً ومؤملاً  
وإليها من روضِ فكري نفحةً  
ما شئتُ من عزٍّ ومن أنصارٍ  
متّعتُ بالحسنى وعقبى الدارِ  
شَفَّ الثناءُ بها على الأزهارِ

ومن شعره في غير المطولات قوله<sup>١</sup> :

لقد زادني وجداً وأغرى بي الجوى  
تشيرُ وراءَ الليلِ منهُ بَنانَةٌ  
تلوحُ سناناً حين لا تنفحُ الصبَا  
قطعتُ به ليلاً بطارحني الجوى  
إذا قلتُ لا يبدو أشالَ لسانهُ  
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى  
لك اللهُ يا مصباحَ أشبهتَ مهجتي

ومما ثبت له صدر رسالة :

أزورُ بقلبي معهدَ الأنسِ والهوى  
ومهما سألتُ البرقَ يهفو من الحمى  
فيا ليتَ شعري والأمانى تَعَلُّلُ  
وهل جبرتي الأولى كما قد عهدتهمُ  
وأتهبُ من أيدي النسيمِ رسائلها  
يبادرهُ دمعي مجيباً وسائلاً  
أبرعى لي الحى الكرامُ الوسائلها  
يُوالونَ بالإحسانِ مَرَّ، جاء سائلاً

ومن أبياته الغراميات :

قيادي قد تملكهُ الغرامُ  
ودمعي دونهُ صوبُ الغوادي  
ووجدي لا يُطاقُ ولا يُرامُ  
وشجوي فوق ما يشكو الحمامُ

١ يصف مصباحاً .

٢ الأزهار : وتبدو .



إذا ما الوجدُ لم يبرح فؤادي على الدنيا وساكنها السلامُ

وفي غرض يظهر من الأبيات :

ومشتمل بالحسنِ أحوى مُهَفِّفٍ  
فأبصرتُ أشباهَ الرياضِ محاسناً  
فقلتُ لجلاسي خذوا الحذرَ إنما  
ويا وجنةً قد جاورتُ سيفَ لحظةٍ  
تخيّلَ للعينينِ جرحاً وإنما  
قضى رجعُ طرفي من محاسنه الوطرُ  
وفي خدّه جرحٌ بدا منه لي أثرُ  
به وصَبُّ من أسهم الغنَجِ والحورِ  
ومن شأنها تدمي من اللحم بالبصرِ  
بدا كلفٌ منه على صفحة القمرِ

ومما يرجع إلى باب الفخر ، ولعمري لقد صدق :

الأئمة في الجود والجودُ شيمةٌ  
ذريني فلو أني أُخَلِّدُ بالغي  
جُبِلْتُ على إثارها يوم مولدي  
لكنتُ ضنيناً بالذي ملكتُ يدي

وقال :

لقد علمَ الله أني امرؤ  
فكم غمّضَ الدهرُ أجفانهُ  
وقيلَ رقيبك في غفلةٍ  
أجرُّ ذيلَ العفافِ القشيبِ  
وفازتُ قِداحي بوصل الحبيبِ  
فقلتُ أخافُ الإلهَ الرقيبِ

وفي مدح كتاب «الشفاء» [ وقد ] طلبه الفقيه أبو عبد الله ابن مرزوق عندما

شرع في شرحه :

ومسرى ركابٍ للصبأ قد وتّت به  
تسلُّ سيوفَ البرقِ أيدي حُداتها  
تعرّضنَ غرباً يبتغينَ مُعرّساً  
لتسقيَ أجداناً بها وضرائحاً  
نجائبُ سحْبٍ للترابِ نزعها  
فتنهلُّ خوفاً من سَطَاها دموعها  
فقلتُ لها : مراکشُ وربوعها  
عياضُ إلى يومِ المعادِ ضجيعها

وأجدرُ مَنْ تَبَكَّى عَلَيْهِ بِرَاعَةٍ  
فَكَمْ مِنْ يَدٍ فِي الدِّينِ قَدْ سَلَفَتْ لَهُ  
وَلَا مِثْلَ تَعْرِيفِ الشِّفَاءِ حَقَّقَهُ  
بِمِرْآةِ حَسَنِ قَدْ جَلَّتْهَا يَدُ النَّهْيِ  
نَجْمٌ أَهْتَدَاءٌ ، وَالْمَدَادُ يَجْنُهَا  
لَقَدْ حَزَنَتْ فَضْلًا يَا أَبَا الْفَضْلِ شَامِلًا  
وَاللَّهِ مَمَّنٌ قَدْ تَصَدَّقَى لِشَرْحِهِ  
فَكَمْ مَجْمَلٍ فَصَّلَتْ مِنْهُ وَحِكْمَةٍ  
مَحَاسِنُ وَالْإِحْسَانُ يَبْدُو خِلَافَهَا  
إِذَا مَا أَجَلَّتْ الْعَيْنُ فِيهَا تَخَالُهَا  
مَعَانِيهِ كَالْمَاءِ الزَّلَالِ لَذِي صَدَى  
رِيَاضٌ سَقَاها الْفِكْرُ صَوَّبَ ذَكَائِهِ  
تَفَجَّرَ عَنِ عَيْنِ الْيَقِينِ زِلَالُهَا  
أَلَا يَا ابْنَ جَارِ اللَّهِ يَا ابْنَ وَلِيِّهِ  
إِذَا مَا أُصُولُ الْمَرْءِ طَابَتْ أُرُومَةٌ  
بَقِيَتْ لِأَعْلَامِ الزَّمَانِ تُسَيِّلُهَا

بصفحة طرس ، والمدادُ نجيعها  
يُرَضِّي رَسولَ اللَّهِ عَنْهُ صَنِيعُهَا  
فَقَدْ بَانَ فِيهِ لِلْعَقُولِ جَمِيعُهَا  
فَأوصافُهُ يَلْتاحُ فِيهِ بَدِيعُهَا  
وَأَسْرارُ غَيْبٍ ، وَالرِيعُ تُذِيعُهَا  
فِي جَزِيكِ عَنِ نَصْحِ الْبَرَايا شَفِيعُهَا  
فَلَبَّاهُ مِنْ غُرِّ الْمَعَانِي مُطِيعُهَا  
إِذَا كَتَمَ الْإِدْمَاجُ مِنْهُ تُشِيعُهَا  
كَمَا أَفَرَّ عَنِ زَهْرِ الْبَطَاحِ رِيعُهَا  
نَجْمًا بِأَفَاقِ الطُّرُوسِ طَلُوعُهَا  
وَأَلْفَاظُهُ دَرٌّ يَرُوي نَصِيعُهَا  
فَأَخْصَبَ لِلرُّوَادِ مِنْهَا مَرِيعُهَا  
فَلذَّ لِأَرْبابِ الْخُلُوصِ شَرُوعُهَا  
لَأَنْتَ إِذَا عُدَّ الْكِرَامِ رَفِيعُهَا  
فَلَا عَجَبٌ أَنْ أَشْبَهْتَهَا فَرُوعُهَا  
هَدَى ، وَلِأَحْدَاثِ الْخَطُوبِ تَرُوعُهَا

مولده رابع عشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين في « الإحاطة » في ترجمة تلميذه أبي عبد الله ابن زمرك .

قلت : ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين - رحمهما الله تعالى - على هامش هذه الترجمة من « الإحاطة » كلاماً في حق ابن زمرك رأيت أن أذكره بجملة الآن ، وإن تقدم بعضه في هذا الكتاب :

فمن ذلك أنه كتب على حاشية أول الترجمة ما صورته : أتبعه الله تعالى خزيماً ، وعامله بما يستحقه ، فبهذا ترجمه والدي مولاه الذي رفع من قدره فيه ، ولم

يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شر من أحسننا إليه ؛ انتهى .  
 وكتب على قوله « نشأ عفاً طاهراً— إلى آخره » ما نصه : هذا الوغدُ ابن زمرك  
 من شياطين الكتاب ، ابن حداد بالييازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضرباً فمات  
 من ذلك ، وهو أحسن عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة وأخملهم شكلاً ،  
 استعمله أبي في الكتابة السلطانية ، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر ،  
 وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي رياه وأدبه واستخدمه ،  
 حسبما هو معروف ، وكفانا الله تعالى شر من أحسننا إليه وأساء إلينا ؛ انتهى .  
 وكتب على قول والده « فترقى إلى الكتابة— إلى آخره » ما صورته : على يد  
 سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ انتهى .

وكتب على قول « معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا — إلى آخره » ما نصه :  
 هذه التصيدة نظم له مولاي الوالد تغمده الله تعالى برحمته منها النسيب كله ،  
 وهكذا جرت عادته معه في الأمداح السلطانية حضرة الملك<sup>١</sup> ، والله المطلع على  
 ذلك ، قاله ابن المصنف علي بن الخطيب ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لولا تألتق بارق التذكار — إلى آخره » ما صورته : هذا  
 الرجس الشيطان كثيراً ما ينظم في هذا الوزن ، ويتبع حمارة هذه الرأء ، حتى  
 لا يتركها جملة ، إذ الرجل ابن حمّار مكارى حداد ، فالنفس تميل بالطبع ؛  
 انتهى .

وكتب على قوله « حيّاك يا دار الهوى من دار — إلى آخره » ما صورته :  
 انظر إلى كثرة تحريكه لحمارة هذه الرأء ، علقته لها ما حولها ؛ انتهى .  
 وكتب على قوله « وجوارح سبقت إليه طلابها — إلى آخره » ما صورته :  
 سرق طردية إبراهيم بن خفاجة ، فانظرها تجده سرق المعاني والألفاظ ، مع أن

١ ق : حضرت لذلك ، ولعلها : « حضرت ذلك » .

والذي نظم له أكثرها على حسب عادته معه ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .  
وكتب على قوله « يا مصباح » ما نصه : كان يجب صبيّاً اسمه مصباح ، وهو  
الآن مجنون العقل بتونس يحترف بالحياكة ؛ انتهى .

وكتب على قوله « الأثمي في الجود - إلى آخره » ما صورته : كذبت يا  
نجس ، من أين الفخر لك أو لبيتك ؟ لست والله من الجود في شيء ، نعم سُخنةُ  
عين الجود ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لقد علم الله أني امرؤ - إلى آخره » ما معناه : لا والله ،  
فأنت مشهور بكذا ، يا قرد ، فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا ؟ إلى  
أن قال : وأنحسهم بيتاً ؛ قاله مولاك الذي ربيت في نعمته ونعمة الله علي بن  
الخطيب بالقاهرة ؛ انتهى .

وقد نُسب إليه ما لا يليق ، فالله أعلم بحقيقة الأمر .  
وكتب غيره على قول ابن زمرك « أزور بقلبي - الأبيات المتقدمة » عند  
قوله « سائلاً » في موضعين : هما من السؤال ، فحصل على الإبطاء المذموم ؛  
انتهى .

قلت : أما ما ذكره ابن لسان الدين من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك  
والله أعلم كان في ابتداء أمره ، وإلا فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين  
وبعد موته بالبدايع التي لا تُنكر ، كما سنذكره ، وأما كونه سعى في قتل لسان  
الدين مع إحسانه إليه فقد جوزي من جنس عمله ، وقُتل بمرأى من أهله ومسمع ،  
وأزهقت معه روح ابنه ، حسبما نذكره ، وهذا قصاص الدنيا ، وعفو الله تعالى  
في الآخرة منتظر للجميع .

ولندكر ترجمة ابن زمرك من كلام ابن السلطان ابن الأحمر في مجلد ضخيم  
رأيتُه بالمغرب جمع فيه شعر ابن زمرك وموشحاته ، وعرف به في أوله ، إذ  
قال ما نصه : أما بعد ما يجب من حمد الله تعالى في كل حال ، وشكره على ما

أولى ويسر من صلاح الأحوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء وسيد الأرسال<sup>١</sup> ، والرضى عمّن له من صحبٍ وأنصار وآل ، فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس علاقة تؤديه إلى الاستحسان ، وتؤثر من اشتهر به بالملاحظة يلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان ، ولا خفاء أن أيام مولانا الجد المقدس الغني بالله — تولاّه الله تعالى برضوانه — كانت غرراً في وجوه الأيام ، ومواسم تجمع الطمّ والرّم من الرؤساء الأعلام ، الآخذين بأعنة الكلام ، السابقين في حلبة النار والنظام ، وأن الفقيه الرئيس المدرك ، الناظم النائر أبا عبد الله محمد بن يوسف ابن زمرك ، عفا الله تعالى عنه ، وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجد رحمه الله تعالى لكتابته ، وصرفه في الوجوه المتعددة من رسالته وحجابه ، وكان بذلك خليقاً ، لما جمع من أدوات الكمال علماً وتحقيقاً ، وإدراكاً ونبلاً وفقهاً وأصولاً وفروعاً وأدباً وتحصيلاً ، وبيناً وتفسيراً ونظماً وترسيلاً — لما كان قد أخذت الأيام سنناً صبحه ، وخابت وسائل نصحه ، وعادت بعدوانها بعد فوز قدحه ، وعثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أيّ ذخّر فقدوا ، ولا أيّ مطلق من تصرفاته الجميلة قيدوا ، مستبصرين بالجهل في دياجي غيهم ، معجيين بما ارتكبه من جياذ بغيهم جميعهم يلحظه بمقل دامية ، وألفاظ حامية ، يصاحبونه بأوجهٍ خلّت عن الوجاهة سيماها الحسد ، وضميرها السخبط بما قدره الواحد الصمد :

فخرّاً على الألاءِ لم يوسدْ كأنّ جبينه سيفٌ صقيلٌ<sup>٢</sup>

فيا لله من أشلاء هنالك ضائعة ، وأعلاق غير مصونة ، ووسائل مخفورة ، وأذمة قطعت أرحامها ، ولم يُرعَ ذمامها ، وعائت الأيدي الفاتكة حينئذٍ على بنيه ، وارتكبوها شعاء في أهله وذويه :

١ الأرسال : جمع رسول ، وهو غير مألوف .  
٢ البيت لابن عنمة الضبي في رثاء بسطام بن تقيس ( الحاسية رقم : ٣٥٥ من شرح المرزوقي ) ؛ والألاءة : الواحدة من شجر الألاء .

هل كان إلا حياً نحيباً العبادُ به  
 هل كان إلا قذئاً في عين ذي عورِ  
 إن قال قولاً ترى الأبصارَ خاشعةً  
 لما يخبرُ من وحيٍ ومن أثرِ  
 يالهفَ قلبي لو قد كنتُ حاضرةً  
 غداةَ جرّعهُ أدهى من الصبرِ  
 لما تركتُ له شلواً بمضيعةٍ  
 ولا تولي صريحِ النَّابِ والظفرِ  
 « وكان ما كان مما لست أذكره  
 فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ »

وإن سأل سائلٌ عن الخبر الذي ألعنا بذكره ، وضممتنا هذا البيت ذرواً<sup>١</sup> من فطیح أمره ، فذلك عندما تسبَّ صاحبُ الأمر إليه ما راب ، وتكّه وابنيه للجبين معفّرين بالتراب ، وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يديه يتوسل بآياته ، ويتشفع بعظيم بركاته ، فأخذته السيوفُ ، وتعاورته الختوفُ ، وأذهبه سلباً قتيلاً ، مُصيراً مصراع منزله كثيراً مهيباً ، وكنا على بعد من هذه الآفة التي أورثت القلوب شجناً طويلاً ، وذكّرتنا بعناية مولانا الجدد الغني بالله لجانبه أعظم ذكرى ، فأغرينا برثائه خلكاً وفكراً ، وارتملنا عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارةً مقنعة ، وكناية في السلوان مطمعة ، وأرضينا بالشفقة أوداهه ، وأرغمنا بتأيينه أعداءه ، ولما تبليج الصبح لذي عينين ، وتلقينا راية الفرج بالراحتين ، عطفتنا على أبنائه عواطفُ الشفقة ، وأطلقنا لهم ما عاثت الأيدي عليه صلةً لرحمٍ طالما أضعها من جهل الأذمة ، وأخضر عهود تخدّمه لمن سلف من الأئمة ، وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا ، وجعلنا ضمّ ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيد أعمالنا ، وكان تعلقٌ بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه ، مشتملة على ما راق وحسن من نثاره ونظامه ، فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادنا من رقاعه الحائلة المنتهية بأيدي النوائب ، الدائرة المستلبة بتعدي النواصب ، فخلص من الجملة قلائد عقيان ، وعقود در ومرجان ، ترتاح

١ ذرواً : طرفاً ؛ وفي ق : درآ .

النفوسُ النفيسةُ لإنشادها ، وتحضرُ الأبصارُ والأسماعُ<sup>١</sup> عند إيرادها ، إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا ، والإشارة بعظيم ملكنا ، فشرعنا في تقييد أوابدها الشاردة ، وإحياء رسومها البائدة ، كلفاً بالأدب لوضوح فضله ، وتأدية لما يجب من رعاية أهله . ولنبداً بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبه عليه ، ونظهر ما كنا نضمرة من الميل إليه ، في كل ما له أو عليه ، فنقول :

هو الفقيه الكاتب الفذ الأوحى ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريمي ، ويعرف بابن زمرك .

أصله من شرق الأندلس ، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة ، وبها ولد ، فنشأ ضيلاً كالشهاب يتوقد ، مختصر الجرم والأعين بإطالة فواضله تشهد ، ومكتب الفئة القرآنية يؤثره بالحناب الممهد ، فاشتغل أول نشأته بطلب العلم والنووب على القراءة ، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس ، ولم يبلغ حد وجوب المفترضات إلا وهو متحمل الرواية ، وملتمس لفوائد الدراية ، ومُصابيح كل يوم أعلام العلوم ، ومستمد بمصابيح الحدود العلمية والرسوم ، فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبي عبد الله ابن الفخاز الآية الكبرى في فنّ العربية ، وتردد الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف فأحسن الإصغاء ، وبذ النحاة البلغاء ، بما أوجب رثاءه<sup>٢</sup> عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التي أولها :

أغرى سراً الحى بالإطراق

واهتدى في طريق الخطبة ومناهج الصوفية بالخطيب العظيم أبي عبد الله ابن مرزوق الوافد على مولانا الجدد أبي الحجاج ، رضي الله تعالى عنه ، في عام ثلاثة

١ الأزهار : وتحسد الأبصار الأسماع ؛ ق : وتحصر .

٢ ق : أن رثاء .

وخمسين وسبعائة ، وإليه جنح ، وإياه قصد عند تغربه إلى المغرب في دولة  
السلطان أبي سالم ، فتوجه بالعمامة التي ارتجل بين يديه فيها :

تَوَجَّسْتَنِي بِعَمَامَةٍ تَوَجَّتَ تَاجَ الْكِرَامَةِ  
فَرَوْضُ حَمْدِكَ يُزْهِى مِنِّي بِسَجْعِ الْحَمَامَةِ

وأخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد أبي علي منصور الزواوي ، وبرع في الأدب  
أثناء الانقطاع وأول الطلب لأبي عبد الله ابن الخطيب ، ولكن لم يحمداً بينهما  
المال ، واقتدى في العلوم العقلية بالشريف أبي عبد الله التلمساني قدوة الزمان ،  
وحصلت له الإجازة والتحديث بقاضي الجماعة وشيخ الحملة أبي البركات ابن  
الحاج ، وبالخطيب البليغ أبي عبد الله اللوشي ، وبالخطيب الورع أبي عبد الله ابن  
بيش العبدري ، رضي الله تعالى عنه وعن جميعهم ، وبواجب محافظتنا على  
عهدهم ، إذ نحن وردنا بالإجازة التامة عذبَ ورددهم ، وصل سبينا بهم الكثير  
من شيوخنا مثل الإمام المعظم أبي محمد عبد الله بن جزي ، ومعلمنا الثقة المجتهد  
أبي عبد الله الشريشي ، والقاضي الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن علاق ،  
وغيرهم ، رحمة الله تعالى عليهم ، لذلك صار صدرأ في نوادي طلبة الأندلس  
وأفراد نجائها ، فما شاءه المحاضر يجده في خضله<sup>٢</sup> ، ويتلقاه من باهر فضله ،  
فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة ، وجواباً مطبقاً للمفصل<sup>٣</sup> ،  
وذهناً سابقاً لإيضاح المشكل ، مع انقياد الطبع ، وإرسال الدمعة في سبيل الخشوع  
والرقة ، ورشح الجبين عند تلقّي الموعدة ، وصون الوجه بجلباب الحياء ، ومقابلة  
الناظر إليه بالاحتشام والمبادرة للاستدعاء ، على طهارة وبذل وسع وكرم نفس ،  
لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه ، ولا أمتع منه بجاهه ، إلى مبالغة في الهسة

١ ق : بيش .

٢ الخصل : اللؤلؤ ؛ وفي ق : خضله .

٣ هذه رواية ق والأزهار ؛ وفي التجارية : شافياً للمعضل .



والمبرّة والإيثار بما منع ، وجنوح إلى حبّ الصالحين ، وذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية الولي أبي جعفر ابن الزيات ، وأخيه الفاضل الناسك شيخنا أبي مهديّ ، قدس الله تعالى مغناه ، وسواهما من أهل الاندلس والعدوة ، وحمله أشد الحمل على كل ملبس<sup>١</sup> كأبي زكريا البرغواطي وسواه . ومن تنديراته - زعموا - على أبي الحسن المحروق لميله عنه :

ولدُ الفقيرِ والرباطِ ولكنْ نفسُهُ للسلوكِ ذاتُ افتقارِ

وخطب الأدبَ يافعاً وكهلاً ، وحاز علمه إدراكاً ونهلاً ، ولما كانت الحادثة على مولانا الجدد - رحمه الله تعالى - واجتاز إلى المغرب كما تقرر في غير هذا ، كلف به وأنس إليه ، لحلاوة منطق ورفع استيحاء ومرأضة خلقت ، ثمّ كرّ في صحبة ركابه فعلمت منزلته ولطف محله .

وقفنا على رقعة من رقاعه وهو يبديء فيها ويعيد ، ويقول : خدمته سبعا وثلاثين سنة : ثلاثاً بالمغرب ، وباقيها بالاندلس ، أنشدته فيها ستاً وستين قصيدة في ستة وستين عيداً ، وكلّ ما في منازل السعيدة من القصر والرياض والشار<sup>٢</sup> والسيكة من نظم رائق ، ومدح فائق ، في القباب والطاقت والطرز وغير ذلك فهو لي ، وكنت أواكله وأواكل ابنه مولاي أبا الحجاج ، وهما كبيراً ملوك أهل الأرض ، وهنأته بكذا وكذا قصيدة ، وفوض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين ، وصلح النصارى عقده تسع مرات ، ألحست فوض إليّ ذلك ؟ قلنا : صدق في جميع ما ذكره ، والعقود بذلك شاهدة له . وخصه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره ، واستعمله بعد أعوام في السفارة بينه وبين ملوك عصره ، فحميد منابّه ، ونمت أحواله ورغيد جنابه ، وكان هنالك بعض تقولات تشين

١ ملبس : مخلط ؛ وفي الأزهار وق : متلبس .

٢ الدشار : القرية أو الكفر ، والجمع دشر ودشائر .

وجه اجتهاده ، وتومىء بما احتشبه من سوء مقاصده وما صرفه من قبيح أغراضه ،  
وهاجت الفتنة ، فكانت سفارته أعظم أسنابها .

وعند الأشدّ من عمّره عرضت لأفكاره تقلبات ، وأعدته عن قِداح  
السياسة آفاتٌ مختلفات ، وأشعرته حدة ذهنه أن يتخبط<sup>١</sup> في أشراك وقعات ،  
فقعده بجامع مالقة ثمّ بمسجد الحمراء ملقياً على الكرسي فنوناً جمّة ، وعلوماً لم  
يزل يطلقها عن أولياء التعظيم والتجلة ، فانحاز إلى مادة<sup>٢</sup> أمم بمالقة طما منهم  
البحر ، وترأى لأبصارهم وبصائرهم الفخر ، وكان التفسير أغلب عليه لفرط  
ذكائه ، وما كان قيده وحصله أيام قراءته وإقرائه ، فما شئت من بيان ، وإعجاز  
قرآن ، وآيات توحيد وإخلاص ، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص ، يوم الأخذ  
بالنواص ، ومراراً عدة سمع ما يليق به وليّ الأمر ، وبإشدة البلوى التي أذاقه  
مرّها ، وأمطاه إلى طيبة الهلاك ظهرها ، وبإقرب ما كان القوت ، والحسام  
الصّلت ، من متباعد هذه القُرب التي ألغيت<sup>٣</sup> .

قلنا : لقد جمع جواد القلم فأطلقنا<sup>٤</sup> ونحن نشير إلى هذا الرئيس ° وتبدل  
طباعه ، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاع ، وإحراز شيم أدت إلى علو مقداره ،  
واستقامة مداره ، قال عمر مولانا جدنا إلى النقاد ، ورمت رئيس كتابه هذا  
أسهم الحساد ، فظهر الخفي ، وسقط به الليل على سرحان ، وقد طالما جرب  
الوفيّ والصفوي . وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر بن حجّاب الدولة ،  
والاسترسال في الرد عليهم بالطبع والجبيلة ، مع الاستغراق في غمار الفتن أندلساً  
وغرباً ، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصباً ، أما الجراءة فانقضى سيوفها ،

١ الأزهار : أنه متخبط .

٢ ق : مائة .

٣ الأزهار : من تباعد . . . ألغيت .

٤ يعني أطلقنا له العنان .

٥ ق : الرانس ؛ حيثما وقعت .

وأما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نوع صنوفها ، وأما المجاهرة فوقف  
بميدان الاعتراض صفوفها ، وأما المجاملة فنكّر معروفها ، أداه هذا النبأ العظيم  
إلى سكنى المعتقل بقصبة المريّة ، وعلى الأثر كان الفرج قريباً ، وسطور المؤاخذه  
قد أوسعها العفو تضريراً ، ونالته هذه المحنة عند وفاة مولانا الجدد الغني بالله ،  
وكانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة ، لأسباب يطول شرحها  
أظهرها شراسة في لسانه ، واغترار بمكانه ، وتضريب بين خدام السلطان وأعوانه ،  
فكبا لليدين والضم ، إلى أن منّ الله تعالى بسراحه ، وأعادته إلى الحضرة في أول  
شهر رمضان المعظم من عام أربعة وتسعين وسبعمائة ، فكان ما كان من وفاة  
مولانا الوالد رحمه الله تعالى ، وقيام أختينا محمد مقامه بالأمر ، فاستمر الحال أياماً  
قليل ، وقدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام ، ثم أعاد المذكور إلى خطته  
وقد دَمِثَتْ بعض أخلاقه ، وخمدت شرسته وحلا بعض مذاقه ، فما كان إلاّ  
كلا وليت وإذا به قد ساء مشهداً وغيّباً ، وأوسع الضمائر شكاً وريباً ، وغلبت  
الإحزن عليه ، وغلت مراحلها لديه ، فصار يتقلب على جمر الغضا ، ويتبرّم  
بالقضا ، ويظهر النصح وفي طيه التشتي ، ويسم نفسه بالصلاح ، ويعلم  
بالخشوع ، ويشير بأنه الناصح الأمين ، ويتلو قوله تعالى ﴿ولكن لا تحبون  
الناصحين﴾ (الأعراف : ٧٩) ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوباً لم  
يقترفوها ، ونسب إليهم نسباً من التضييع لم يعرفوها ، وأنهم احتجوا الأموال ،  
وأساءوا الأعمال والأقوال ، فلم يظفر من ذلك بكبير طائل ، ولا حصل على  
تفاوت أعداده على حاصل ، هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية ،  
وعدم اضطلاع بالأمور الجبائية ، فمن نفس يروّع سربها ، ويكدر بالامتحان  
والامتهان شربها ، ومن ضارعة خاشعة لله تعالى سلّبت ، وطولبت بغير  
ما اكتسبت ، وتعدت الأيدي إلى أقوام جلت سعدوا بشقائه ، وامتنحنوا  
وهم المبرؤون من تزويره واعتدائه ، وسيسألون يوم لا يغني مال ولا بنون .

وصار يصرف أغراضه ، ويُظهر أحقادَه ، بين إفصاح بما كان الإعجامُ خيراً من إلقائه ، وإن عمر المسكين المستضعف لا حاجة في طول بقائه ، إلى مجاهرة عهد منه أيام شيبته نقيضها ، وانعكس في شاخته تصرُّحُها المنغص وتعريضها ، لا يريح نفسه من جهْد ، ولا يقف من اللجلجة عند حد ، وقد كان ثقل سمعه فسأت إجابته ، وطغت أخلاقه فسئم الناس وساطته ، وربما استحلف فلم يكن بين اللازمة واللازمة إلاّ الخنث عن قصد وغير قصد ، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وعَد ، وأن يقبض الله له ولهم قاتل عمد ، فسبحان القاهر فوق عباده ، الرحيم بهذا الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده ، فاستمرّ على ذلك إلى إحدى الليالي ، فهلك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه ، تلقّاه - زعموا - عند الدخول عليه ، وهو بالمصحف رافع يديه <sup>١</sup> ، فجدلته السيوف ، وتناولته الختوف ، فقضي عليه ، وعلى من وجد من خدامه وأبيه ، كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته ، ولم يتقوا الله فيه حتّى تُقَاتَه ، فكانت أنكى الفجائع ، وأفظع الوقائع ، وسأت القالة ، وعظم المصاب ، وكل شيء إلى أجل نافذ وكتاب . انتهى كلام ابن الأحمر في مقدمة كتابه <sup>٢</sup> .

وقد اطلعت منه على تصاريق أحوال ابن زمرك ، وقتله على الوجه الذي يُعلم منه أن ثار لسان الدين ابن الخطيب لديه لا يترك ، بل قتلته أفضع من قتلة لسان الدين ، لأن هذا قُتل بين عياله وأهله ، وقتل معه ابنه ومن وجد من خدمه ، ولسانُ الدين رحمه الله تعالى خُتق بمفرده ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وهو العفو الغفور .

وقد فهم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين وسبعمائة ، ولم أقف من أمره على غير ما تقدم .

١ ق : رافاً به .

٢ سى هذا الكتاب « البقية والمدرك من شعر ابن زمرك » .

ولا بأس أن نلم بشيء من نظمه البارِع مما كنت انتقيته بالمغرب من تأليف ابن الأحمر المذكور ، وأوردت كثيراً منه في « أزهار الرياض » .  
فمن ذلك قوله في ذكر غرناطة العلية ، وتهنئة سلطانه الغني بالله ببعض المواسم العيدية ، ووصف كرائم جواده ، وآثار ملكه وجهاده :

يا مَنْ يُحْنُ إلى نجدٍ ونادِها	غرناطةٌ قد ثَوَّتْ نجدٌ بوادِها
قفْ بالسبيكةِ وانظرْ ما بساحتها	عقيلةٌ والكثيبُ الفردُ جالِها
تقلَّدتْ بوشاحِ النهرِ وابتسمتْ	أزهارُها وهي حَلِيٌّ في تراقِها
وأعينُ الزرجسِ المطلولِ يانعةٌ	ترقرقُ الطلَّ دمعاً في مآقيها
وافترَّ نغمرُ أقاحٍ منْ أزهارها	مقبلاً خَدَّ وردٍ منْ نواحيها
كأتما الزهرُ في حافاتها سَحراً	دراهمٌ والنَّسيمُ اللَّدنُ يجيها
وانظرْ إلى الدَّوحِ والأنهارِ تكفها	مثل الندامى سواقِها سواقِها
كم حولها من بدورٍ تجتني زهراً	فتحسبُ الزهرَ قد قبَّلنَ أيديها
حسباؤها لؤلؤٌ قد شفَّ جوهرها	والنهرُ قد سالَ ذوباً من لآليها
نهرُ المجرَّةِ والزهرُ المطيفُ به	زهرُ النجومِ إذا ما شئت تشيها
يزيدُ حسناً على نهرِ المجرَّةِ قد	أغناهُ درَّ حَبابٍ عن دراريها
يدعى المنجمَ رائيهِ وناظره	مسمياتُ أبانتها أسامِها
إنَّ الحجازَ مغانيهِ بأندلسِ	ألفاظها طابقتُ منها معانيها
فتلكَ نجدٌ سقاها كلُّ منسجمِ	من الغمامِ يجيها فيحيها
وبارقٌ وعديبٌ كلُّ مبتسمِ	من الثغورِ يجليها مجليها
وإن أردتَ ترى وادي العقيقِ فردِ	دموعَ عشاقها حمراً جوارِها
وللسبيكةِ تاجٌ فوقَ مفرقها	تودُّ درُّ الدراري لو تحليها

١ حين عدد لسان الدين البساتين والمتزهات في غرناطة قال : « ومدرج نجد ومدراج السبيكة وجنة العريف » وتقع السبيكة إلى الجنوب الشرقي من الحمراء .

يا قوتة فوق ذاك التاج عليها  
 جواهر الشهب في أبي مجالها  
 رأت أزاهره زهراً يجليها  
 فشهبها في جمال لا تضاهيها  
 تهوي النجوم قصوراً عن معاليها  
 تلك المنارة قد رقت حواشيها  
 والشهب تستن سباً في مجاريها  
 وغمض الفجر من أجنانها  
 ما استوقفت ساجعات الطير يفرها  
 يصبى العقول بها حساً وسيبها  
 لآئناً وهي نور في تلايها  
 ترمي القلوب بها عمداً فتصميمها  
 يثني النفوس لها شوقاً تشنيتها  
 حتى شدا من قيان الطير شادها  
 ورق الحمام وغطاها مغنيتها  
 باحت بسر معانيها أغانيها  
 فرقة الطبع طبع منه يعديها  
 صُفراً عشيّاتها بيضاً لياليها  
 إذا اشتكت بغليل الجذب يرويها  
 بالجوذ فوق موات الأرض يجيها  
 عن السؤال وبالإحسان يغيثها

فإن حمراءها والله يكلؤها  
 إن الدور لتيجان مكلتها  
 لكنها حسدت تاج السبيكة إذ  
 بروجها لبروج الأفق محجلة  
 تلك القصور التي رقت مظاهرها  
 لله لله عينا من رأى سحرها  
 والصبح في الشرق قد لاحت بشائره  
 تهوي إلى الغرب لما غالها سحرها  
 وساجع العود في كف النديم إذا  
 يبدي أفانين سحر في ترنمه  
 يجسه ناعم الأطراف تحسبها  
 مقاتل بلحاظ قوس حاجبها  
 فباكر الروض والأغصان مائلة  
 لم يرقص الدوح بالأكام من طرب  
 وأسمعتها فنون السحر مبدعة  
 غرناطة آسن الرحمن ساكنها  
 أعدى نسيمهم لطفاً نفوسهم  
 فخلد الله أيام السرور بها  
 وروض المحل منها كل منبجس  
 يحكي الخليفة كفاً كلما وكفت  
 نفي العفاة وقد أمت مكارمه

١ هذه رواية ق والأزهار ؛ وفي التجارية : ما استوقفت الطير يديها ويقربها .

لها بنانٌ فلا غيثٌ يساجلها  
فإن تصبُّ سحبه بالماء حين همت  
يا أيها الغيثُ أنتَ الغوثُ في زمنٍ  
إنَّ الرعايا جزاك الله صالحاً  
إنَّ الخلائقَ في الأقطارِ أجمعِها  
فكلُّ مصلحةٍ للخلقِ تحكُمها  
إذا تيممتَ أرضاً وهي مجدبةٌ  
يا رحمةً بثتَ الرحى بأندلسٍ  
في فضلِ جودك قد عاشتُ مشيختها  
في طولِ عمركَ يرجو الله أملها  
عوائدُ الله قد عودتَ أفضلها  
سُلَّ السعودِ ووجلَّ البيضُ مغمدةً  
لله أيامك الغرُّ التي اطردتُ  
لله دولتكَ الغراء إنَّ لها  
هيئاتَ أنْ تبلغَ الأعداءَ مأربةً  
هذي سيوفكُ في الأجفانِ نائمةٌ  
سريرةٌ لك في الإخلاصِ قد عرفتُ  
لم يحجب الصبحُ شهبَ الأفقِ عن بصري  
يا ابنَ الملوكِ وأبناء الملوكِ إذا  
أبناء نصرٍ ملوكٌ عزَّ نصرهمُ  
همُ المصايحُ نور الله موقدها  
همُ النجومُ وأفقُ الهدي مطلعها

١ الأزهاري : لم تحتجب شهب الآفاق عن بصر .

همُ البدرُ ، كمالُ ما يفارقها  
قضتُ قواضبُها أنْ لا انقضاء لها  
وخلدت في صفاح الهندِ سيرتها  
وأورثتك جهاداً أنتَ ناصره  
كم موقفٍ ترهب الأعداءُ موقعه  
ثارت عجاجتهُ واليومُ محتجبُ  
وللأسِنَّةِ شُهْبٌ كلما غربتُ  
وللسيوفِ بروقٌ كلما لمعتُ  
أطلعتُ وجهاً تريك الشمسَ غرتهُ  
من أين للشمسِ نطقٌ كله حِكْمُ  
لكَ الجيادُ إذا تجرِي سوابقها  
إذا انبرتُ يومَ سبقٍ في أعنتها  
من أشهبٍ قد بدا صباحاً تراع لهُ  
إلا التي في لحامٍ منه قيدها  
أو أشقرٍ مرَّ عن أشقر البروقِ وقد  
أو أحمرٍ جمرهُ في الحربِ متقدُّ  
لونُ العقيقِ وقد سال العقيقُ دماً  
أو أدهمٍ ملءُ صدر الليلِ تنعيله  
إن حارت الشُهْبُ ليلاً في مُقلده  
أو أصفرٍ بالعشياتِ ارتدى مرحاً

همُ الشمسُ ، ظلامٌ لا يواربها  
وأمضتِ الحكمَ في الأعدا مواضبها  
وأسندتُ عن عواليها معاليها  
والأجرُ منك يرصّيهَا ويحظيها  
والخيلُ تردي ووقع السُمْرِ يردبها  
والنقعُ يؤثُرُ غيماً من دياجيبها  
في الدارينِ تجلّت من عواليها  
تزجي الدماءَ وريح النصرِ يُزجيهَا  
تباركَ الله ما شمسُ تُساميهَا  
يفيدها كلَّ حينٍ منك مبيدبها  
فللرياحِ جياذٌ ما تجاربهَا  
ترى البروقَ طلاحاً لا تباربها  
شُهْبُ السماءِ فإنَّ الصبحَ يخفيها  
فإنه سامها عزاً وتنويها  
أبقى لها شفقاً في الجوّ تنبئها  
يعلو لها شررٌ من بأسٍ مذكيها  
بعطفه من كماءٍ كَرَّ يدميها  
أهلةً فوق وجه الأرضِ يديها  
فصَبَّحُ غرتهِ بالنورِ يهديها  
وعرفهُ بتمادي الليلِ ينبيها<sup>٣</sup>

١ هكذا في ق ؛ وفي التجارية : مرعب ، ولا معنى له ؛ ق : تنسيها .  
٢ الأزهار : مثل .  
٣ ق : ينبيها .



مموهٌ بنصارٍ تاه من عجب  
 وربّ نهرٍ حسامٍ رِقَّ رائقُهُ  
 تجري الرؤوس حباباً فوق صفحته  
 وذابل من دمِ الكفارِ مشربُهُ  
 وكم هلالِ لقوسٍ كلما نبضتْ  
 أئمةُ الكفرِ ما يمتّ ساحتها  
 يا دولةَ النصرِ هل من مبلغٍ دولاً  
 أو مبلغٍ سالفَ الأنصارِ مألُكةً  
 أنّ الخلافةَ أعلى الله مظهرها  
 يا ابنَ الذين لهم في كلِّ مكرمةٍ  
 أنصارٌ خيرِ الورى ، مختارٌ هجرته  
 سمّتهمُ الملةُ السّمحاءُ تكرمةً  
 ففي حنينٍ وفي بدرٍ وفي أحدٍ  
 ولتسألِ السّيرَ المرفوعَ مُسندها  
 مآثرُ خلدَ الرحمنُ أثرها  
 ماذا يجيدُ بليغٌ أو يُنمّقهُ  
 له الجهادُ بهِ تسري الرياحُ إلى  
 تُحدى الركابِ إلى البيتِ العتيقِ بهِ  
 بشائرٌ تسمعُ الدنيا وساكنها  
 كفى خلافتكُ الغراءُ منقبةً  
 وقد أفادَ بنيهِ الدهرُ تجربةً  
 إذا رميتِ سهامَ العزمِ صائبةً  
 شكراً لمنْ عظمتْ منا مواهبهُ

فليسَ يعدمُ تنويهاً ولا تيهها  
 متى تردّهُ نفوسُ الكفرِ يردّيهها  
 وما جرى غيرَ أنّ البأسَ يجرّيهها  
 يُجني الفتوحَ وكفّ النصرِ تجنيها  
 ترى النجومَ رجوماً في مراميها  
 إلاّ وقد زلزلتْ قسراً صياصيها  
 مضينَ أنتكُ تحيها وتنسيها  
 والله بالخلدِ في الفردوسِ يجزيها  
 أبقتْ لنا شرفاً والله يقيها  
 مفاخرٌ ولسانُ الدهرِ يملّيهها  
 جيرانُ روضته ، أكرمُ بأهلها  
 أنصارها ، وبهمْ عزّتْ أواليها  
 تُلّفي مفاخرهمْ مشهورةً فيها  
 فعن مواقفهمْ تُروى مغازيها  
 ينصّها من كتابِ الله قاريها  
 من الكلامِ ووحىُ اللهِ تاليها  
 ممالكِ الأرضِ من شتى أفاصيها  
 فمكةٌ عمرتْ منه نواديها  
 إذا دعا باسمكُ الأعلى مناديها  
 أنّ الإلهَ يوالي منْ يواليها  
 أنّ السّعودَ تعادي منْ يعاديها  
 فما رميتْ ، بل التوفيقُ راميهها  
 وإنْ تُعدّ فليسَ العدُّ يحصيها

عما قريب ترى الأعياد مقلبة  
 وتبلغ الغاية القصوى بشاثرها  
 فاهناً بما شئت من صنع تُسرُّ به  
 مولاي خذها كما شئت بلاغتها  
 أرسلتها حينما الأرواحُ مرسله  
 جاءت تهنيك عيدَ الفطرِ معجبة  
 البشرُ في وجهها، واليمنُ في يدها  
 لو رصعَ البلرُ منها تاجَ مفرقه  
 فإن تكن بنت فكري وهو أوجدها  
 في روض جودك قد طوقني منثاً  
 ولو أعرتُ لسانَ الدهرِ بشكرها  
 بقيتَ للدينِ والدنيا إمامَ هدى  
 والسعدُ يجري لغاياتِ تؤملها

وقال رحمه الله تعالى شاكراً لنعم وصلته من المذكور في عاشوراء :

مولاي يا ابنَ السابقينِ إلى العلا  
 إن لو حظوا في المعلواتِ فإنهم  
 أو فوخروا في المكرماتِ فإنهم  
 أبناءُ أنصارِ النبيِّ وصحبه  
 والمؤثرينَ، وربُّنا أثنى بها  
 فاضتْ علينا من نذاكَ غمامٍ  
 من كفِّ شفافِ الضياءِ تخاله

١ يشير إلى الآية الكريمة في الأنصار «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» .

نِعَمٌ مَنْوَعَةٌ تَعَدَّدَ وَفَرَّهَا  
 فِي مَوْسِمٍ لِلدِّينِ قَدْ جَدَّدَتْهُ  
 أُضْعَافٌ مَا أَهْدَيْتَنَا مِنْ مِنَّةٍ  
 وَعَلَى الطَّرِيقِ بِشَائِرٍ مَحْمُودَةٍ  
 أُعْجِزَتْ عَنْهَا شُكْرِي الْمَوْفُورَا  
 وَأَقَمْتَ فِينَا عَيْدَهُ الْمَشْهُورَا  
 تُهْدِي إِلَيْكَ ثَوَابَهَا عَاشُورَا  
 أَلْفَاكَ جَذَلَانًا بِهَا مَسْرُورَا

وقال يصف زهر القرنفل الصعب الاجتاء بجبل الفتح ، وقد وقع له  
 السلطان الغني بالله المذكور بذلك ، فارتجل قطعاً منها :

أتوني بنوارٍ يروقُ نضارةً  
 وجاءوا به من شاهقٍ متمنِّعٍ  
 رعى الله مني عاشقاً متمنعاً  
 وإن هبَّ خفاقُ النسيمِ بنفحةٍ  
 كخدِّ الذي أهوى وطيبٌ تنفُّسهُ  
 تمنعُ ذاكَ الظبي في ظلِّ مكْنِسِه  
 بزهرِ حكي في الحسنِ خدِّ مؤنسهُ  
 حكَّتْ عَرَفَهُ طيباً قضي بتأنسهُ

ومنها :

رعى الله زهراً يتنمي لقرنفلٍ  
 ومنبتهُ في شاهقٍ متمنِّعٍ  
 أميل إذا الأغصانُ مالت بروضةٍ  
 وأهفو لخفاقِ النسيمِ إذا سرى  
 حكي عَرَفَ مَنْ أهوى وإشراقِ خدِّه  
 كما امتنعَ المحبوبُ في تيهِ صدِّه  
 أعانقُ منها القُضْبَ شوقاً لقدِّه  
 وأهوى أريجِ الطيبِ من عَرَفِ ندِّه

ومنها :

يقرُّ بعيني أن أرى الزهرَ يانعاً  
 وما أبصرتُ عيني كزهرِ قرنفلٍ  
 تمنعُ في أعلى الهضابِ لمجتنٍ  
 وفي جبلِ الفتحِ اجتنوهُ تفاؤلاً  
 وقد نازعَ المحبوبَ في الحسنِ وصفهُ  
 حكي خدِّ من يسبي الفؤادَ وعرفهُ  
 تمنعهُ مني إذا رمتُ إلفهُ  
 بفتحِ لبابِ الوصلِ بمنحِ عطفهُ  
 إذا ما ثنى نحو المتيِّمِ عطفهُ

قال ابن الأحمر في الكتاب المذكور فيما مر : ومن القصائد التي يود الصبح سناها ،  
والنسيم اللدن رقة معناها ، يهنيء مولانا الجلد رضي الله تعالى عنه عند وصول  
خالصة مقامه ، وكبير خدامه ، القائد خالد رحمه الله تعالى من تلمسان بالهدية ،  
وتجديد المقاصد الودية ، ووافق استئناف راحة من الذات العلية ، ومن بعض  
فروع دوحتها الزكية :

<p>أدريها ثلاثاً من لحاظك واحيس إذا ما نهاني الشيب عن أكوسِ الطلاب عذيري من لحظٍ ضعيفٍ وقد غدا وروضٍ شبابٍ ماسٍ غصنٍ قوامه وما زال وردُ الخلد وهو مضعفٌ وكم جال طرفُ الطرفِ في روضِ حسنه أما وليالي الوصل في روضة الصبا لئن نسبتُ تلك العهودِ أحبي وحاشا لنفسي بعدما افترتُ قودها وألبسها ثوبَ الوقارِ خليفةً وجددتُ للفتحِ المينِ مواسماً وأورثتُ العلباء كلَّ خليفة فيا زاجرَ الأظعانِ وهي ضوامرٌ إذا جنت من دارِ الغني بربه فإن شئت من بحرِ السماحةِ فاغترف</p>	<p>فقد غالَ منها السكرُ أبناءَ مجلسِ تديرُ عليّ الحمرَ منها بأكوسِ بحكمٍ متاً في جسومِ وأنفُسِ وفتحٍ فيه اللحظُ أزهارَ فرجسِ يعبرُ أفاحَ الثغرِ طيبَ تنفُسِ يقيدُهُ فيه العذارُ بسندسِ ومألفِ أحبابي وعهدِ تأنسي فقلبي عهدُ العامريةِ ما نمي من الشيبِ عن صبحٍ به متفَسِ به لبسِ الإسلامِ أشرفَ ملبسِ أقامَ بها الإيمانُ أفراحَ معرسِ نمسهُ إلى الأنصارِ كلُّ مقدسِ بغيرِ الفلا والوحشِ لم تأنسِ مناخِ العُلا والعزِّ فاعقيلِ وعرسِ وإن شئت من نورِ الهدايةِ فاقبسِ</p>
--	---

١ ق : استباق .

٢ ق : دوحتنا .

أمولايَ إنَّ السعدَ منكَ لآيةٌ ١  
 إذا شئتَ أن ترميَ القصيَّ من المني  
 فترميَ بسهمٍ من سعودكَ صائبٍ  
 أهنيكَ بالإبلالِ ممَّنْ شفاؤه  
 ودعني أريدُ بيمالكَ فهي غمامةٌ  
 أقبلُ منها راحةٌ إثرَ راحةٍ  
 ومن نَسَبَ الفتحَ المينَ ولادةً  
 فيا أيها المولى الذي بكماله  
 لآمنتَ موسى من عوادي سميه  
 بعثتَ بيمونَ الثقيبةَ في اسمه  
 فجماعكَ بالمالِ العريضِ هديةً  
 وشفعها بالصافناتِ كأنها  
 تنصُّ من الإشرافِ جيدَ غزاةٍ  
 لك الخبيرُ موسى مثلُ موسى، كلاهما  
 فلا زلتَ في ظلِّ النعيمِ وكلُّ مَنْ  
 عليكَ سلامٌ مثلُ حمِّدِكَ عاطرٌ

وقال في مولد عام سبعة وستين وسبعمائة وألم في أخبارها بوصف المشورِ الأسنى،  
 الرفيع المبنى :

زار الخيالُ بأيمنِ الزوراءِ  
 وسرى مع النسماتِ يسحبُ ذبلهُ  
 فجلا سناهُ غياهبَ الظلماءِ  
 فأنتَ تمُّ بعثيرِ وكِبَاءِ  
 إلا زيارتهُ مع الإغصاءِ  
 هذا وما شيءُ ألدُّ من المني

١ الأزهار : أمولاي والى السعد منك ولاية .

والسقم ما نُحشى من الرقباء  
 وتجاذبت أيدي التَّسِيمِ ردائي  
 السرُّ عندي ميتُ الأحياء  
 لسوى الأحيبةِ أو أموتَ بدائي  
 أرضى بسقمي في الهوى وعنائي  
 أذكي ، ولا ضرمٌ سوى أحشائي  
 لسرى التواسمِ من رُبى تيماء  
 أغريته بتنقَسِ الصَّعْداءِ  
 أذكي بقلبي جمرةَ البرحاءِ  
 لي عندكم يا ساكني البطحاءِ  
 ويفوزُ قِدْحِي منكم بلقاءِ  
 تفديهِ نفسي من قريبِ نائي  
 والركبُ قد أوفى على الزَّوراءِ  
 فعلقْتُ بينَ تِسْمٍ وبكاءِ  
 حتى استهلَّتْ أدمعي بدماءِ  
 «قدك اتتدُ أسرفت في الغلواءِ»<sup>٢</sup>  
 أجلو دجاءُ بأوجهِ الندماءِ  
 وحثتُ فيه أكؤسَ السراءِ  
 لا أنثي لمقادةِ النصحاءِ  
 برواحِلِ الإصباحِ والإساءِ

بئسنا خيالينِ التحفنا بالضنى  
 حتى أفاقَ الصبحُ من غمَّراته  
 يا سائلي عن سرِّ من أحبتهُ  
 تالله لا أشكو الصبابةَ والهوى  
 يا دينَ قلبي لستُ أبرحُ عانياً  
 أبكي وما غيرُ النجيعِ مدامعُ  
 أهفو إذا تهفو البروقُ ، وأنثي  
 بالله يا نفسَ الحمى رفقا بمن  
 عجباً له يندى على كبدي وقد  
 يا ساكني البطحاءِ أي إبانةِ  
 أترى النوى يوماً تحبُّ قداحها  
 في حيكَمِ قمرٍ فؤادي أفتهُ  
 لم تُنسي الأيامُ يومَ وداعه  
 أبكي ويسمُ والمحاسنُ تجتلي  
 يا نظرةً جاذبتُها أيدي النوى  
 من لي بئانيةِ تنادي بالأسى  
 ولربَّ ليلٍ بالوصالِ قطعتهُ  
 أنسيتُ فيه القلبَ عادةَ حلمه  
 وجريتُ في طلقِ التصابي جامعاً  
 أطوي شبابي للمشيبِ مراحلاً

١ الأزهار : جادت بها .  
 ٢ صدر بيت لأبي تمام ؛ وتماه : « كم تملون وأنتم سجراني » ورواية الديوان : أربيت في الغلواء .

يا ليت شعري هل أرى أطوي إلى  
فتطيب في تلك الربوع مدانحي  
حيث النبوة نورها متألّق  
حيث الرسالة في ثنية قدسها  
حيث الضريح ضريح أكرم مرسل  
المصطفى والمرضى والمجتبي  
خير البرية مجتباها ذخرها  
تاج الرسالة ختمها وقوامها  
لولاه للأفلاك ما لاحت بها  
ذو المعجزات الغرّ والآي الألى  
وكفالك ردت الشمس بعد مغيبها  
والبدر شق له وكم من آية  
وبليلة الميلاد كم من رحمة  
قد بشر الرسل الكرام ببعثه  
أكرم بها بشرى على قدم سرت  
أمسى بها الإسلام يشرق نوره  
هو آية الله التي أنوارها  
والشمس لا تخفى مزية فضلها  
يا مصطفى والكون لم تعلق به  
يا مظهر الحق الجلي ومطلع ال  
يا ملجأ الخلق المشفع فيهم  
يا آسي المرضى ومنتجع الرضى

قبر الرسول صحائف البيداء  
ويطول في ذلك المقام ثوائي  
كالشمس تزهى في سنأ وسنأ  
رفعت لهدي الخلق خير لواء  
فخر الوجود وشافع الشفعاء  
والمُنْتَقَى من عنصر العلياء  
ظلّ الإله الوارف الأفياء  
وعمادها السامي على النظراء  
شهب تنير دياجى الظلماء  
أكبرن عن عدّ وعن إحصاء  
وكفالك ما قد جاء في الإسراء  
كأنامل جاءت بنج الماء  
نشر الإله بها ومن نعماء  
وتقدّم الكهان بالأنباء  
في الكون كالأرواح في الأعضاء  
والكفر أصبح فاحم الأرجاء  
تجلو ظلام الشك أي جلاء  
إلا على ذي المقلة العمياء  
من بعد أيدي الخلق والإنشاء  
نور السنن الساطع الأضواء  
يا رحمة الأموات والأحياء  
ومواسي الأيتام والضعفاء

داء الذنوب وفي يديك دوائي  
 حاشا وكلا أن يجيب رجائي  
 خلصت إليك محبتي وندائي  
 تعد الأمان أن يتاح لقسائي  
 فخرُ الملوك السادة الخلفاء  
 يوم الطعان وفارج الغماء  
 تجري صباه بزعرع ورُحاء  
 كالنهر وسط الروضة الغناء  
 لإشراقه ، والزهر في لآلاء  
 فلق الصباح وواكف الأنواء  
 والسابقون بحلبنة العلياء  
 حاطوا ذمار الملة السمحاء  
 يستمطرون صحائب النعماء  
 فالرعب رائدهم إلى الأعداء  
 والنصر معقود بكل لواء  
 تسمو مراقبها على الجوزاء  
 يجزيك عنها الله خير جزاء  
 لا تهدي فيه القطا للماء  
 تهدي نجوم الأفق فضل ضياء  
 واسحب ذبول الغزة القعساء  
 كهف ليوم مشورة وعطاء

أشكو إليك وأنت خير مؤمل  
 لاني مددت يدي إليك تضرعاً  
 إن كنت لم أخلص إليك فإنما  
 وبسعد مولاي الإمام محمد  
 ظلُّ الإله على البلاد وأهلها  
 غوث العباد وليتُ مُشْتَجِر القنا  
 كالدَّهْر في سَطَوَاتِه وسماحه  
 رقت سجاياه وراقت مجتلى  
 كالزهر في إبراقه ، والبدر في  
 يا ابن الألى إجمالهم وجمالهم  
 أنصار دين الله حزب رسوله  
 يا ابن الخلائف من بني نضر ومن  
 من كل من تقف الملوك ببابه  
 قوم إذا قادوا الجيوش إلى الوغى  
 والعز مجلوب بكل كتية  
 يا وارثاً عنها مناقبها التي  
 يا فخر أندلس وعصمة أهلها  
 كم خضت طوع صلاحها من مهمه  
 تهدي بها حادي السرى بعزائم  
 فارفع لواء الفخر غير مدافع  
 واهناً يبتك السعيد فإنه



لله منه هالة قد أصبحت  
 تنأبها طيرُ الرجاء فتجنني  
 لله منه قبة مرفوعة  
 راقت بدائع وشيها فكأنها  
 عظمت ميلاد النبي محمد  
 أحييت ليلك ساهراً فأفدتنا  
 يا أيها الملكُ الهمامُ المجتبي  
 من لي بأن أحصي مناقبك التي  
 واليك مني روضة مطولة  
 فافصح لها أكتاف صفحك إنها  
 حرّم العفاة ومصرع الأعداء  
 ثمّ المني من دوحه الآلاء  
 دون السماء نفوت لحظّ الرائي  
 وشي الربيع بمسقط الأنداء  
 وشفعتنه بالليلّة الغراء  
 قوت القلوب بذلك الإحياء  
 فاتت عليك مدارك العقلاء  
 ضاقت بين مذاهب الفصحاء  
 أرجت أزهرها بطيب ثناء  
 بكر أنت تمشي على استحياء

قال ابن الأحمر : ومن إغذاريات ابن زمرك المحكيمة نسفاً ورحمناً ،  
 المشاهية في كل فن حسن تحلية غريبة ووصفاً - حسبما اقتضته ملاحظة النسبة  
 الرفيعة مولانا رحمة الله تعالى عليه واحتفاله المناسب لعز ملكه من تعميم الخلق  
 بالحقلي في دعواهم ، واستدعاء أشراف الأمم من أهل المغرب وسواهم ، تقنناً  
 في مكارم متعددة أيامها عن أصالة المجد معربة ، وإغراء لهمم الملك بما لتتيم  
 الأنس من أوضاع مغرية ، ومباهاة بعرض الجيوش والكتائب للعدو الكافر ،  
 وتكاثراً من محاليلك دولته بالعدّد الوافر ، ممّا ألبم اللسن الذكي عياً ، وغادر  
 الإغثار الننونني منسياً ، كلفاً الله سبحانه أيّوته للولوية عنّا وعن آبائنا ، وتلقى  
 بالقبول للكفيل بتجديد الرضوان ما يصل له من خالص دعائنا ، إله متعم جواد -  
 قوله في الصنيع المخصص من ذلك بمولانا الوالد قدّس الله تعالى روحه ، وذلك  
 سنة أربع وستين وصحمانه :

١ وري هنا بكتابي « قوت القلوب » و « إحياء علوم الدين » .

٢ ق : منها ؛ يعني القصيدة .

معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا

القصيدة ، وقد تقدمت بتمامها فراجعها .

ثم قال : ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المخصوص بعيننا السيدين الأميرين سعد ونصر ، رحمة الله تعالى عليهما ، وأجاد في وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع :

اللحمة من بارق متيسم  
وللمحة تهفو بيانات اللوى  
هي عادة عذرية من يوم أن  
قد كنت أعذل ذا الهوى من قبل أن  
كم زفرة بين الجوانح ما ارتقت  
إن كان واشي الدمع قد كتم الهوى  
ولقد أجد هوي رسم دارس  
وذكرت عهداً في حماه قد انقضى  
ولربما أشجى فؤادي عنده  
لا أجذب الله الطلول فطالما  
يا زاجر الأظعان يحفزها السرى  
لترى دموع العاشقين برسمها  
دمن عهدت بها الشبية والهوى  
وكتيبة للشوق قد جهزتها  
ورفعت فيها القلب بنداً خافقاً  
فأنا الذي شاب الحماسة بالهوى  
فطعننت من قد القوام بأسمر

أرسلته دمعاً تضرج بالدم  
يهفو فؤادك عن جوانح منغم  
خلق الهوى تعناد كل متيسم  
أدري الهوى ، واليوم أعذل لومي  
حدّر الرقيب ومدمع لم يسجم  
هيهات واشي السقم لما يكتم  
قد كاد يخفى عن خفي توهم  
فأطلت فيه ترددي وتلومي  
ورقاء تنفت شجوها برتم  
أشجى الفصيح بها بكاء الأعجم  
قف بي عليها وقفة المتلوم  
حمرأ كحاشية الرداء المعلم  
سقياً لها ولعهدا المتقدم  
أغزو بها السلوان غزو مصمم  
وأريت للعشاق فضل تهمني  
لكن من أهواه ضايق مقدمي  
ورميت من غنج اللحاظ بأسهم

يا قاتلَ الله الجفون فإنها  
ظلمت قتيلَ الحبِّ ثمَّ تبيّنتُ  
يا ظييةً ستّحتْ بأكتافِ الحمي  
ما ضرّاً إذ أرسلتِ نظرةَ فاتكِ  
فرايتِ جسماً قد أصيبَ فؤاده  
ولقد خشيتُ بأنْ يقاد بجرّحه  
كم خضتُ دونك من غمارِ مفازةِ  
والنجمُ يسري من دجاه بأدهمِ  
والبدرُ في صفحِ السماء كأنّه  
والزهرُ زهرٌ والسماءُ حديقةُ  
والليلُ مُربدٌ الجوانحِ قد بَندا  
فكأتما فلقِ الصباحِ وقد بدا  
ملكٌ أفاضَ على البسيطةِ عدله  
هو منتهى آمالِ كلِّ موفقٍ  
لاحتُ مناقبه كواكبَ أسعدٍ  
ولقد تراءى بأسهُ وسماحهُ  
مثلِ الغمامِ وقد تضاحك برفقه  
أنسى سماحةَ حاتمٍ ، وكذلك في  
سيرِ تسيرِ النيراتُ بهديها  
فالبدرُ دونك في علاّ وإنارةِ  
ولك القبابُ الحمرُ تُرفعُ للندى  
يدكى الكباءُ بها كأنّ دخانهُ  
ولك العوالي السمرُ تُشرعُ للعدى

مهما رمتُ لم تخطِ شاكلةَ الرمي  
للسقمِ فيها فترةُ المنظّمِ  
سُقي الحمي صوبَ الغمامِ المسجمِ  
أن لو عطفتِ بنظرةِ المترحمِ  
من مقلتيكِ وأنتِ لم تتأثمي  
فوهبتِ لحظك ما أحلكِ من دمي  
لا تهتدي فيها الليوثُ ليجمِ  
رحبِ المقلدِ بالثريّا ملجمِ  
مرآةُ هندِ وسطِ لُجّ ترتمي  
فتقتُ كمامَ جنحها عن أنجمِ  
فيه الصباحُ كغرةِ في أدهمِ  
مرأى ابنِ نصرٍ لاح للمتوسمِ  
فالشاةُ لا تخشى اعتداء الضيغمِ  
هو موردُ الصادي وكتزُّ المعدِمِ  
فراّت ملامحَ نوره عينُ العمي  
فأنى الجلالُ من الجمالِ بتوأمِ  
فأفادَ بينَ تجهّمِ وتبسمِ  
يومِ اللقاءِ ريعةَ بنِ مكدمِ  
وتعيرُ عرفَ الروضِ طيبَ تنسمِ  
والبحرُ دونك في ندى وتكرّمِ  
فترى العمائمِ تحتها كالأنجمِ  
قطعُ السحابِ بجوها المتغيّمِ  
فتخرُّ صرعى للبيدينِ وللقمِ

ولك الأباذي البيضُ قد طوقتها  
 شيمٌ يفرُّ الحاسدونَ بفضلها  
 ورث الساحةَ عن أبيه وجده  
 نقلوا المعالي كابراً عن كابرٍ  
 وتستجوا رتبَ العلاءِ بحمها  
 يا آل نصر أنتمُ سرجُ الهدى  
 الفاعونَ لكلِّ صعبٍ مُضغَلٍ  
 والباسمونَ إذا الكُماةُ عوابسُ  
 أبناء أنصارِ النبيِّ وحزبه  
 سلَّ عنهمُ أحداً وبدراً تلقهم  
 وبفتح مكة كم لم في يومه  
 أقمتُ بالحرمِ الأمينِ ومكة  
 لولا مآثرهم وفضلُ علامهم  
 ماذا عسى أنبي وقد أثنتُ على  
 يا وارثاً عنها مآثرها التي  
 يا فخر أندلسٍ لقد مُدَّتْ إلى  
 أما سعودك في الوغى فتكفَلتْ  
 وافيتَ هذا الثغرَ وهو على شفا  
 ورعبتهُ بسيامةٍ دارتُ على  
 كم ليلةٍ قد بتَّ فيها ساهراً  
 يا مظهرَ الألفاظِ وهي خبيَّة  
 لله دولتكِ السني آثارها  
 ما بعد يومك في المواسم بعدما

صيدَ الملوكِ ذوي التلادِ الأقدم  
 والصبحُ ليس ضيلؤهُ بمكتم  
 فالأكرمُ ابن الأكرم ابن الأكرم  
 كالرمح مطرِد الكعوبِ مقوم  
 ما بين جد في الخلافةِ وابنم  
 في كلِّ خطبٍ قد تجمهمَ مظلم  
 والشارجون لكلِّ خطبٍ مبهم  
 والمقتمون على السوادِ الأعظم  
 وذوي السوابقِ والجرارِ الأعصم  
 أهل الغناء بها وأهل المغنم  
 بلواه خير الخلق من مُتقدِّم  
 والركنِ والبيتِ العتيقِ وزمزم  
 ما كان يُعزى الفضلُ للمتقدم  
 عليائهم أي الكتابِ المحكم  
 قد شيدتُ للفخرِ أشرفَ معلم  
 عليكِ كَفُّ اللاتذِ المستعصم  
 بسلامةِ الإسلامِ فاخلدِ واسلم  
 فشفتِ مُحضِلَ دائه المستحکم  
 محتطه دورَ السوارِ بمعصم  
 تلهي الأمانَ إلى العيونِ النوم  
 ومُهيبَ ريحِ النصرِ للمتشم  
 سير الركابِ لمنجدٍ أو مُتهم  
 أتبعَت عيدَ الفطرِ أكرمَ موسم

وافتك أشراف البلاد ليومه  
 صرفوا إليك ركايبهم وتيمموا  
 وتبوأوا منه بدار كرامة  
 ودت نجوم الأفق لو مثلت به  
 والروض مختال بحلجة سندس  
 ورياحه نمت بنشر لطيمة  
 وأريتنا فيه عجائب جمّة  
 أرسلت سرعان الجياد<sup>٢</sup> كأنها  
 من كل منحفر بحظفة بارق  
 طرف يشك الطرف في استنباته  
 ومسافر في الجو تحسب أنه  
 رام استراق السمع وهو ممنع  
 رجمته من شهب النصال حواصب<sup>٤</sup>  
 ومدارة الأفلاك أعجز كنهها  
 يمشي الرجال بجوفها وجميعهم  
 ومنوع الحركات قد ركب الهوا  
 فإذا هوى من جوه ثم استوى  
 من كل ندب للعلا متمم  
 من بابك المتاب خير ميمم  
 فالكل بين مقرب ومنعم  
 لتفوز فيه برتبة المستخدم  
 من كل موشي الرقوم منهم  
 وأقاحه بسمت بنغر ملثم<sup>١</sup>  
 لم تجر في خلد ولم تتوهم  
 أسراب طير في التنوفة<sup>٣</sup> حوم  
 قد كاد يسبق لمحة المتوهم  
 فكأنه ظن بصدر مرجم  
 يرقى إلى أوج السماء بسلم  
 فأصيب من قضب العصي<sup>٥</sup> بأسهم  
 لولا تعرضه لها لم يرجم  
 إبداع كل مهندس ومهندم  
 عن مستوى قدميه لم يتقدم  
 يمشي على خط به متوهم  
 أبصرت طيراً حول صورة آدم

- ١ في أصول أزهار الرياض وفي التجارية : مسلم ؛ وصححه محققو الأزهار : « ملثم » وأثبتنا ما  
 في ق ، لكونه أقرب إلى الصواب .  
 ٢ سرعان الخيل : أوائلها .  
 ٣ التنوفة : المغارة .  
 ٤ ق : قواصب ، ولها وجه ، لأنه يتحدث عن الجواد ، فالقواصب السيوف ، وهي ترجمه أي  
 تعرض له .  
 ٥ الأزهار : حل .

يمشي على فنِ الرشاء كأنه  
 واليك من صونِ العقولِ عقيلةٌ  
 ترجو قبولك وهو أكبر منحة  
 طاردتُ فيها وصفَ كلِّ غريبةٍ  
 ودعوتُ أربابَ البيانِ أريهمُ  
 ما ذاكَ إلاّ بعضُ أنعمك التي  
 فيه مُساورُ ذابسلٍ أو أرقم  
 وقفتُ ببابك وقفةَ المسترحم  
 فاستمَحَ به خُلدَتَ من متكرّم  
 فنظمتُ شارده الذي لم يُنظّم  
 « كم غادر الشعراءُ من متردم »<sup>١</sup>  
 قد علمتُنا كيفَ شكر المنعم

ثمّ قال : وأنشد من ذلك في الصنيع المخصوص بعننا الأمير أبي عبد الله  
 — رحمة الله تعالى عليه — وأطنب في وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة  
 آثار مولانا رضي الله تعالى عنه :

سل الأفقَ بالزهر الكواكبِ حاليا  
 وحملتُ معتلّ النسيمِ أمانةً  
 فيا من رأى الأرواح وهي ضعيفةٌ  
 وساسوسُ كم جدتَ وجد بي الهوى  
 ومن يطع الألاحظ في شرعة الهوى  
 عدلتُ بقلبي عن ولاية حكمه  
 وما الحبُّ إلاّ نظرةٌ تبعثُ الهوى  
 فيا عجباً للعينِ تمشي طليقة  
 ألا في سبيلِ الله نفسٌ نفيسةٌ  
 ويا ربَّ عهدٍ للشبابِ قضيتُهُ  
 خلوتُ بمن أهواه من غير رِقبةٍ  
 فإني قد أودعتهُ شرحَ حاليا  
 قطعتُ بها عمرَ الزمانِ أمانيا  
 أحملها ما يستخفُّ الرواسيا  
 فعُدَّ به القلبُ المقلَّبُ هازيا  
 فلا بدَّ أن يعصي نصيحاً ولاحيّاً  
 غداة ارتضى من جائرٍ اللحظِ واليا  
 وتُعقبُ ما يعيي الطبيبَ المداويا  
 ويصبحُ من جرائها القلبُ عانيا  
 يرخصُ منها الحبُّ ما كان غاليا  
 وأحسنتُ من دينِ الوصالِ التقاضيا  
 ولكن عفائي لم أكن عنه خاليا

١ غير قول عنتره المفتوح بـ « هل » ؛ وعجز البيت : « أم هل عرفت الدار بعد توهم » وهو مطلع  
 مملقته .

أجدُّ وصلاً بالياً فيه بالياً  
 به الجوّ وضاح الأُسرة صاحياً  
 من البرق مصقول الصفيح يمانياً  
 ملأتُ بدرّ الدمع منها ردائياً  
 ولا والهوى العذريّ ما كنت ناسياً  
 يبرق الحمى من لوعة الحب ما بيا  
 وباتت عيون الشهب نحوي روانياً  
 بمورد ثغرٍ بات بالدرّ حالياً  
 وقبّلتُ في ماء النعيم الأفاحياناً  
 ويا حرّاً أنفاسي أذبت فؤادياً  
 هصرتُ بغصن البان فيها المجانياً  
 فأصبح فيها نرجسُ اللحظِ ذاوياً  
 فما للقدود المائلات وما ليا  
 أعاد على ربيّ الظباء الجوازيان  
 وقضيتها أنساً : سقيت لياليا  
 ونحن نديرُ الوصل قدّسنت<sup>٣</sup> وادياً  
 رمين بقلبي في الغرام المرامياً  
 لما كنتُ من فتك اللواحظ ناجياً  
 عليه مع الإحسان لآلت بانياً  
 ورفعتُها بالمدح إذ جاء تالياً

ويوم بمستنّ الظباء شهدتهُ  
 ولم أصح من خمير اللحاظ وقد غدا  
 وجردتُ من غمد الغمامة صارماً  
 تبسم فاستبكي جفوني غمرة<sup>١</sup>  
 وأذكرني ثغراً ظمئت لورده  
 وراح خفوق القلب مثلي كأنما  
 وليلة بات البدرُ فيها مضاجعي  
 كرعتهُ بها بين العذيب وبارق  
 رشفتُ به شهد الرضاب سلاقةً  
 فيا برّد ذلك الثغر روّيت غلتي  
 وروضة حسن للشباب نصيرة  
 وبت أسقي<sup>٢</sup> وردة الخلد أدمعي  
 ومالت بقلبي مائلات قدودها  
 جزى الله ذلك العهد عوداً فطالما  
 وقل ليالٍ في الشباب نعمتها  
 ويا وادياً رفّت عليّ ظلاله  
 رمّنتي عيون السرب فيه وإنما  
 فلولا اعتصامي بالأمير محمد  
 فقل للذي بيني على الحسن شعرة  
 فكم من شكاة في الهوى قد رفأتها

١ الأزهار : عبرة .

٢ الأزهار : وقد بت أسقي .

٣ الأزهار : فدبت .

وكم ليلة في مدحه قد سهرتها  
 ولاح عمودُ الصبحِ مثلَ انتسابه  
 إمامٌ أفاد المكرماتِ زمانه  
 وجاوز قَدَرَ البَدْرِ نوراً ورفعةً  
 هو الشمسُ بثت في البسيطة نفعها  
 هو البحرُ بالإحسانِ يزخرُ موجهُ  
 هو الغيثُ مهما<sup>١</sup> يمسك الغيثُ سحبه  
 شمائلُ لو أنَّ الرياضَ بحسنها  
 فيا ابن الملوك الصيِّدِ من آل خزرجِ  
 ألسنَ الذي ترجو العفاةُ نواله  
 ألسنَ الذي نخشى البغاةُ صياله  
 وهديكُ مهما ضلت الشهبُ قصدها  
 وعزمكُ أمضى من حسامك في الوغى  
 فكم قادحٍ في الدينِ يكفر ربهُ  
 وما راعه إلاَّ حسامٌ وعزمةُ  
 فلولاك يا شمس الخلافةِ لم بينُ  
 ولولاك لم ترفعُ سماءَ عجاجةِ  
 ولولاك لم تنهلُ غصونُ من القنا  
 فأثمر فيها النصلُ نصراً مؤزراً  
 ومهما غدا سقَّاحُ سيفك عارياً

أباهي بدرُ النظمِ فيه الدراريا  
 رفعتُ عليه للمديحِ المبانيا  
 وشادَ له فوق النجومِ العاليا  
 ولم يرضَ إلاَّ بالكمالِ مواليا  
 وأنوارها أهدت<sup>١</sup> قريباً وقاصيا  
 ولكنه عذبٌ لمن جاء عافيا  
 يُروُّ بسُحبِ الجودِ من كان صاديا  
 لما صار فيها زهرها الغضُّ ذاويا  
 وذا نسبٌ كالصبحِ عزٌّ مُساميا  
 فتُخجلُ جدواه السحابُ العواديا  
 فتوجلُ<sup>٢</sup> عليه الصعابُ العواديا  
 تولتهُ في جنحِ الدجنةِ هاديا  
 وإن كان مصقولِ الغرارينِ ماضيا  
 قدحتَ له زندَ الحفيظةِ وارييا  
 بضبانِ في ليلِ الخطوبِ اللواجيا  
 سبيلُ جهادِ كان من قبلُ خافيا  
 تلوحُ بها بيضُ النصولِ دراريا  
 وكانت إلى وِردِ الدماءِ صواديا  
 وأجنى قطافِ الفتحِ غضاً ودانيا  
 يغادرُ وجهَ الأرضِ بالدمِ كاسيا

١ الأزهار : أبدت .

٢ ق : يسي ، والتصحيح عن الأزهار .

٣ الأزهار : فتزل ، وكلتا النظمتين غير موضحتين المعنى المقصود ، وسقط البيت من ق .



على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا  
 بجيش أعاد الصبح أظلم داجيا  
 وقد بلغت فيه النفوس التراقيا  
 وبات به التوحيد يعلو مناديا  
 ومنبره بالذكر أصبح حاليما  
 ظفرنا بها عن همة هي ما هيا  
 يباهي بها الأملاك أخرى لياليا  
 تخط على صفح الزمان الأماليا  
 يفوق على حكم السعود المبانيا  
 تجدد به نفس الحليم الأمانيا  
 ولم تك في أفق السماء جواريا  
 إلى خدمة ترضيك منها الجواريا  
 به القصر آفاق السماء مباحيا  
 من الوشي تسمى السابري اليمانيا  
 على عمد بالنور باتت حواليا  
 تظل عمود الصبح إذ بات<sup>٢</sup> باديا  
 فطارت بها الأمثال تجري سواريا  
 فيجلو من الظلماء ما كان داجيا  
 على عظم الأجرام منها لآيا  
 إذا ما انبرى وقد التسيم مياريا  
 أرتنا دروعاً أكسبتنا الأياديا

قضى الله من فوق السموات أنه  
 فكم معقل للكفر صبحت أهله  
 رقيت إليه والسيوف مشيحة  
 ففتحت مرقاه المنع عنوة  
 وناقوسه بالقصر أسمى معطلا  
 عجائب لم تخظر بيال وإتما  
 فمناك استفاد الدهر كل عجية  
 وعنك بروي الناس كل غريبة  
 والله مبناك الجميل فإتسه  
 فكم فيه للأبصار من متنزه  
 وتهور النجوم الزهر لو ثبتت به  
 ولو مثلت في سابقه لسابقت  
 به البهو قد حاز البهاء وقد غدا  
 وكم حلة جلته بجليها  
 وكم من قسي في ذراه ترفعت  
 فتحسبها الأفلاك دارت قسيها  
 سوارى قد جاءت بكل غريبة  
 به المرمر المجلو قد شفت نوره  
 إذا ما أضاءت بالشعاع تحالها  
 به البحر دقاع العباب تحالها  
 إذا ما جلت أيدي الصبا من صفحه

١ الأزهار : ساحه .

٢ الأزهار : لاح .

تراجع الحان القيان الأغانيا  
 تحلّي بمرفض الحمان النواحيا  
 غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا  
 فلم أدر أيا منهما كان جاريا  
 تصيبُ بها المرمى وبوركت راميا  
 كما يُرقص المولود من كان لاهيا  
 ولم ترض في الإحسان إلا تغاليا  
 وقامت لكي تهدي إلى الدهر ساقيا  
 فرامت بأن تجري إليه السواقيا  
 فرادى ويتلو بعضهم ماثيا  
 وشبت فشبت حبها في فواديا  
 تجيلُ به أيدي النسيم مداريا  
 فقلدت التوار منه التراقيا  
 بيت لها النمام بالطيب واشيا  
 أجاز بها التقدين منها كما هيا  
 دراهم نور ظل عنها مكافيا  
 دنائير شمس تترك الروض حاليا  
 تجسُّ به أيدي القيان الملاهيا  
 بأصواتها تملّي عليها الأغانيا

وراقصة في البحر طوع عنانها  
 إذا ما علت في الجوّ ثم تحدرت  
 بذوّب بلجين سال بين جواهر  
 تشابه جار للعيون بجامد  
 فإن شئت تشبها له عن حقيقة  
 فقل أرقصت منها البحيرة متنها  
 أرتنا طباع الجود وهي وليدة  
 سقت نغزهرالروض عذب برودها  
 كأن قد رأت نهر المجرة ناضيا  
 وقامت بنات الدوح فيه موثلا  
 رواضع في حجر الغرام ترعرعت  
 بها كل ملتف الغدائر مسبل  
 وأشرف جيد الغصن فيها معطلا  
 إذا ما تحلت در زهر غروسه  
 مصارفة التقدين فيها بمثلها  
 فإن ملأت كف النسيم بمثلها  
 فيملاً حجر الروض حول غصونها  
 تغرد في أفنانها الطير كلما  
 تراجعها سجعاً فتحسب أنها

١ الأزهار : الغوانيا ؛ ق : المانيا .

٢ الأزهار : نبتها .

٣ الأزهار : الزهر .

٤ الأزهار : أجاز بها قاضي الجمال التقاضيا .

٥ الأزهار : مع الفصحى .

فلم ندرِ روضاً منه أنعمَ نضرةً  
 ولم نرَ قصرأ منه أعلى مظاهراً  
 معاني من نفس الكمال انتقيتها  
 وفاتحت مبناه بعيد شرعته  
 ولما دعوت الناس نحو صنيعة  
 وأموه من أقصى البلاد تقرباً  
 وأذكرت يوم العرضِ جوداً ومنعةً  
 جزيت به كلاً على حالِ سعيه  
 وأطلعت من جزل الوقودِ هوادجاً  
 وحينَ غدا يذكي ببابك للقري  
 وطاحة في الجو غير مطالة  
 تمدُّ لها الجوزاء كفَّ مُسارعاً  
 ولا عجب أن فاتت الشهب بالعلا  
 فبين يدي مثواك قامت لخدمة  
 وشاهدُ ذا أني ببابك واقفٌ  
 وقد أرضعت ندي الغمام قبلها  
 فلما أبيت عن قرارة أصلها  
 وعدت لقاء السحبِ عيداً وموسماً  
 فأضحكت البرق الطروبَ خلاها  
 رأت نفسها طالت فظنت بأنها  
 وأعطرَ أرجاء ، وأحلى جانبا  
 وأرفع آفاقاً ، وأفسح ناديا  
 وزينت منها بالجمال المغانيا  
 تبثُّ به في الخاقين التهانيا  
 أجابوا لهم من جانب الغورداعيا  
 وما زال منك السعد يدني الأقصيا  
 بموقفٍ عرضٍ كنت فيه المجازيا  
 فما غرست بمانه أصبح جانبا  
 تذكّر يوم النفر من كان ساهبا  
 فلا غرو أن أجريت فيه المذاكيا  
 يردُّ مداها الطرف أحسر عانيا  
 ويدنو لها بدرُ السماء مُناجيا  
 وأن جاوزت منها المدى المتناها  
 ومن خدَم الأعلى استفاد المعاليا  
 وقد حسدت زهرُ النجوم مكانيا  
 بحجرِ رياضٍ كنَّ فيه نواشيا  
 أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا  
 لذلك اغتدت بالزمرِ تلهي الغواديا  
 وبنات لأكواسِ الدراري مُعاطيا  
 نفوت على رغم اللحاق المراميا

فخفت إليها الذابلات<sup>١</sup> كأنها  
حكّت شبيهاً<sup>٢</sup> للنحل والنحل حوله  
فمن مثبت منها الرميّة مدرك  
وحصن منيع في ذراها قد ارتقى  
كأن بروق الجوّ غارت وقد أرت  
فأنشأت برجاً صاعداً متنزلاً  
تطورّ حالات أتي في ضروبها  
فحجل برجليها وشاح بخصرها  
وما هو إلاّ طيرٌ سعدٍ بذروة  
أمولاي يا فخر الملوك ومن به  
بتوك على حكم السعادة خمسة  
تبيت لهم كف الثريا معيدة  
أسام عليها للسعادة ميسم  
جعلت أبا الحجاج فاتح طرسهم  
وحسبك سعد ثم نصر يلبهم  
أقمت به من فطرة الدين سنة  
وجاءوا به ملء العيون وسامة  
فيا عاذراً ما كان أجراً مثله  
وجاءتك من مصر التحايا كرائمًا

طيورًا إلى وكرٍ أطلنّ نهاويا  
عصي إلى مئواه تهوي عواليا  
ومن طائش في الجوّ حلق وانيا  
فأبعد في الجوّ الفضاء المراقيا  
بروج قصور شدتهن سواميا  
يكون رسولاً بينهن مداريا  
بأنواع حلي تستفز الغوانيا  
وتاج إلى ما حل منها الأعاليا  
غدا زاجراً من أشهب الصبح بازيا  
سيلغ دين الله ما كان راجيا  
وذا عدد للعين ما زال واقيا  
ويصبح معتل النواسم راقيا  
تري العز فيها مستكنًا وباديا  
وقد عرفت منك الفتوح التواليا  
محمد الأرضي ، فلا زلت راضيا  
وجددت من رسم الهداية عافيا  
يقبل وجه الأرض أزهر باهيا  
فمثلك لا يدمي الأسود الضواريا  
فما فتت أيدي التجار الغواليا

١ ق : الزائلات .

٢ ق : شبيهاً .

٣ سقط البيت من ق .

٤ يريد النبي يقوم بالحقان .

ووافتك من أرض الحجاز تيمة<sup>١</sup>  
 وناداك بالتمويل<sup>٢</sup> سلطان طيبة  
 وقام وقد وافى ضريح محمد  
 سريرتك الرحى جزاك بسعيها  
 فوالله لولا سنة<sup>٣</sup> نبوت<sup>٤</sup>  
 وعذر من الإعداء قرر حكمه  
 لراعت بها للحرب أهوال<sup>٣</sup> موقف  
 لك الحمد فيه من صنع تعدد  
 تشدد له الجوزاء عقد نطقها  
 وهنيت بالأمداح فيه وقد غدا  
 ودونك من بحر البيان جواهرأ  
 وطاردت فيها وصف كل غريبة  
 فإوارث الأنصار لا عن كلاله  
 بأمداحه جاء الكتاب مفصلاً  
 لقد عرف الإسلام مما أفدته  
 عليك سلام الله فاسلم مخلصاً

ثم قال : ومن ذلك في الصنيع المختص بالأمرء الجلة : أحنينا المعز لدولتنا أبي  
 الحسن ، وأحنينا أبي العباس ، وابن عمنا أبي عبد الله ، وصل الله تعالى سعودهم .  
 ولقد أبدع في تشييده وتأسيسه ، وبسط يد الحسن من براعته وتحميسه<sup>٤</sup> ، وذلك

١ ق والأزهار : بالتهويل ؛ والتمويل : قوله « يا مولاي » .

٢ الأزهار : في الجزء .

٣ ق : للجزء .

٤ الأزهار : من براعة تحميسه .

١ عوداً مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبته لما عادت إلى ملكه :

أرقتُ لبرقٍ مثلِ جنبي ساهرا      ينظّمُ من قطرِ الغمامِ جواهرها  
فيسمُّ ثغرُ الروضِ عنه أزاهرا      وصبحِ حكي وجهِ الخليفةِ باهرا  
نجسّمَ من نورِ الهدى وتجمدا

شفتاني معتلٌ التسميم إذا انبري      وأسند عن دمي الحديث الذي جرى  
وقد فتقّ الأرجاء مسكاً وعبراً      كأنّ الفني بالله في الروض قد سرى  
فهبت به الأرواحُ عاطرة الردا

عذيري من قلب إلى الحسنِ قد صبا      تهبّجه الذكرى ويصبو إلى الصبا  
ويُجري جوادَ الهوى في ملعبِ الصبا      ولولا ابنُ نصرٍ ما أفاق وأعتبا  
رأى وجهه صبحَ الهدايةِ فاهتدى

إليك أميرَ المسلمين شكايّةً      جنى الحسنُ فيها للقلوبِ جنابةً  
وأعظم فيها بالعمون نكايّةً      وأطلع في ليلٍ من الشعرِ آيةً  
حياً جميلاً بالصباح قد ارتدى

بهديك تُهذي النيراتُ وتهدي      وأنواها جدوى يمينك تجتدي  
وعدلك للأملاكِ أوضحُ مرشدٍ      بآثاره في مشكلِ الأمرِ تقتدي  
فما بال سلطانِ الجمالِ قد اعتدى

نحكّمَ منا في نفوسٍ ضعيفةٍ      وسلّ سيوفاً من جفونِ نحيفةٍ  
ألم يتدرّ أنا في ظلالِ خليفةٍ      ودولةِ أمنٍ لا تُراعُ مُنيفةٍ  
بها قدّ رسا دينُ الهوى وتمهدا

١ الأزهار : وذلك عام .

٢ الأزهار : فأضحك .

خَلُّوا بَدْمِ الْمُشْتَاكِ لِحَظًّا أَرَاقَهُ      وَبِرْقًا بِأَعْلَامِ الثَّنِيَةِ شَاقَهُ  
وَإِنْ كَلَّفُوهُ فَوْقَ مَا قَدِ أَطَاقَهُ      يَبِثُّ حَدِيثًا مَا أَلَدَّ مَسَاقَهُ  
خَلِيفَتَنَا الْمَوْلَى الْإِمَامَ مُحَمَّدًا

تَقَلَّدَ حَكْمَ الْعَدْلِ دِينًا وَمَذْهَبًا      وَجَوَّرَ اللَّيَالِي قَدَ أَزَاحَ وَأَذْهَبَا  
فِيَا عَجَبًا لِلشُّوقِ أَذْكَى وَأَلْهَبَا      وَسَلَّ صَبَاحًا صَارِمَ الْبَرْقِ مَذْهَبَا  
وَقَدِ بَاتَ فِي جَفْنِ الْعَمَامَةِ مَغْمَدًا

يَذَكِّرُنِي ثَغْرًا لِأَسْمَاءِ أَشْتَبَا      إِذَا ابْتَسَمَتْ تَجَلُّو مِنْ اللَّيْلِ غَيْهَبَا  
كَعْزَمِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا احْتَبَى      وَأَجْرَى بِهِ طِرْفًا مِنَ الصَّبْحِ أَشْهَبَا  
وَأَصْدَرَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَأُورِدَا

فَسِبْحَانَ مَنْ أَجْرَى الرِّيَّاحَ بِنَصْرِهِ      وَعَطَّرَ أَنْفَاسَ الرِّيَاضِ بِشُكْرِهِ  
فَبَرَدِ الصَّبَا يَطْوِي عَلَى طَيْبِ نَشْرِهِ      وَمَهْمَا تَجَلَّى وَجْهَهُ وَسَطَّ قَصْرِهِ  
تَرَى هَالَةً بَدْرُ السَّمَاءِ بِهَا بَدَا

إِمَامٌ أَفَادَ الْمَعْلُوتِ زَمَانَهُ      فَمَا لَحِقَتْ زُهْرُ النُّجُومِ مَكَانَهُ  
وَمَدَّ عَلَى شَرْقٍ وَغَرْبٍ أَمَانَهُ      وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ بَنَانَهُ  
تُغْرَقُ مُسْتَجِدِّهِ فِي أَبْحَرِ التُّلْدَى

هُوَ الْبَحْرُ مَدَّ الْعَارِضَ الْمُتَهَلِّلَا      هُوَ الْبَدْرُ لَكِنْ لَا يَزَالُ مَكْمَلَا  
هُوَ الدَّهْرُ لَا يَنْخَسِي الْخَطُوبَ وَلَا وَلَا      هُوَ الْعَلَمُ الْخَفَاقُ فِي هَضْبَةِ الْعَلَا  
هُوَ الصَّارِمُ الْمَشْهُورُ فِي نَصْرَةِ الْهُدَى

أَمَّا وَالَّذِي أَعْطَى الرَّجُودَ وَجُودَهُ      وَأَوْسَعَ مِنْ فَوْقِ الْبَسِيطَةِ جُودَهُ  
لَقَدْ أَصْحَبَ النَّصْرَ الْعَزِيزَ بِنُودَهُ      وَمَدَّ بِأَمْلَاكِ السَّمَاءِ جُنُودَهُ  
وَأَنْجَزَ لِلْإِسْلَامِ بِالنَّصْرِ مَوْعِدَا

أمولاي قد أنجحت رأياً ورايةً ولم تُبقِ في سبقِ المكارمِ غايَةً  
فتهدى سجايا كابنِ رشدٍ نهايةً وإن كان هذا السعدُ منك بدايةً  
سبقتي على مرِّ الزمانِ مخلداً

سعودك تُغني عن قراعِ الكتائبِ وجودك يُزري بالغمامِ السواكبِ  
وإن زاحمتها شهبها بالمناكبِ ووجهك بدرُ المنتدى والمواكبِ  
وقد فسحت في الفخرِ أبناؤك المدى

بنوكَ كأمثالِ الأناملِ عِدَّةٌ أَعِدَّتْ لِمَا يُخْشَى مِنَ الدَّهْرِ عِدَّةٌ  
وزيدَ بهمُ بُرْدُ الخِلافةِ جِدَّةٌ أَطَالَ لَهِمْ فِي ظِلِّ مُلْكِكَ مِدَّةٌ  
إلهُ يطيلُ العِمرَ مِنْكَ مَوْبِداً

بدورٍ بأوصافِ الكمالِ اسْتَقَلَّتْ غِمامٌ بِفِيضِ النِّوَالِ اسْتَهَلَّتْ  
سِوْفٌ عَلَى الأَعْدَاءِ بِالنَّصْرِ سُلَّتْ نِجْمٌ بِأَفَاقِ العِلاءِ تَجَلَّتْ  
ولاحتُ كما شاءتُ سِوْدُكَ أَسْعُدَا

وإنَّ أبا الحِجاجِ سِيفِكَ مَنْتَضَى وَبَدْرُ بَافَاقِ الجِمالِ تَعَرَّضَا  
بنوركِ يا شِمْسَ الخِلافةِ قَدْ أَضَا وَرَاقَتْ عَلَى أَعْطافِهِ حُلَّلُ الرِّضَى  
فَحَلَّ مَحَلًّا مِنْ عِلاكِ مَمْهَدَا

مِليكٌ لَهُ تَعْنُو المِلوِكُ جِلالَةً يَجْرُرُ أَذْيالَ الفِخارِ مِطالَةً  
وَتَفَرِّقُ أَسدُ الغابِ مِنْهُ بِسالَةٍ وَتَرْضاهُ أَنْصارُ الرِّسولِ سِلالَةً  
فَأَبناؤُهُ طابوا فِروعاً وَمَحْتِداً

أَزاهِرُ فِي رِوَضِ الخِلافةِ أَيْتَعَتْ زِواهِرُ فِي أَفْقى العِلاءِ تَطَلَّعَتْ



جواهرُ أُغيتْ في الجمالِ وأبدعتْ    وعن قيمةِ الأغلاقِ قدراً ترفعتْ  
يسرُّ بها الإسلامُ غيباً ومشهداً

بعهدِ وليِّ العهدِ كرمِ عهدهُ    وأنجزَ في تخليدِ ملككِ وعدهُ  
تنظّمَ منهم تحتَ شملكِ عقدهُ    وأورثهم فخراً أبوهُ وجدّهُ  
فأعلى علياً حينَ أحمدَ أحمداً

تحوطُ بهم ملكاً عزيزاً وملةً    وتلحظُ عينُ السعدِ منهم أهلةً  
ستبدو على أفقِ العلاِ مستقلةً    وسُجّباً بفياضِ العلاِ مستهلةً  
تفجرُ بحراً للساحةِ مزيداً

ونجلكِ نصرٌ يقتضي نجلَ رسمه    أميرٌ يزينُ العقلَ راجحُ حلمه  
أتاكِ بنجلٍ يُستضاءُ بنجمه    لحبِّ رسولِ اللهِ سمّاهُ باسمه  
وباسمكِ في هذي الموافقةِ اقتدى

أقمتَ بإعذارِ الإمارةِ سنةً    وطوقتَ من حليِ بفخركِ منةً  
وأسكنتها في ظلِّ بركِ جنةً    وألحفتها برُدِّ امتنانكِ جنةً  
وعمرتَ منها بالتلاوةِ مسجداً

فلهِ عينا منَ رآهم تطلّعوا    غصوناً بروضِ الجودِ منك ترعرعوا  
وفي دوحَةِ العلياءِ منك تفرّعوا    ملوكٌ يجلبابِ الحياءِ تقنّعوا  
أضياءُ بهم من أفقِ قصرِكِ متدى

وقد أشعروا الصبرَ الجميلَ نفوسهم    وأضفوا بهِ فوق الحليِّ لبوسهم  
وقد زينوا بالبشرِ فيه شمسهم    وعاطوا كؤوس الأُنسِ فيه جليسهم  
وأبدوا على هَوْلِ المقامِ تجلداً

١ الأزمار : وقد أفرغوا .

شائلٌ فيهم من أيهم وجدّهم تفصل آي الفخر فيها بحمدهم  
وتنسبها الأنصارُ قديماً لسعلمهم تضيء بها نوراً مصابيحُ سعدهم  
ولم لا ومن صحب الرسول توقّدا

فوالله لولا سنةٌ قد أقمتها وسيرةٌ هدي للنبي علمتها  
وأحكامٌ عدلٌ للجند رسمتها بلحلت بها الأبطالُ تقصدُ سمتها  
وتتركُ أوصالَ الوشيجِ مقصداً

ويا عاذراً أبدى لنا الشرعُ عذره طرقت حمى قد عظم الله قدره  
وأجريت طياً بحسدٍ الطيبُ نشره لقد جنت ما تستعظم الصيدُ أمره  
وتفديه إن يقبل خليفتها فدا

رعى الله منها دعوةً مستجابةً أفادت نفوسَ المخلصينَ إنابةً  
ولم تُلّف من دونِ القبولِ حجابةً وعاذرها لم يبدِ عذراً مهابةً  
فأوجبَ عن نقصٍ كمالاً تزيّداً

فنقصُ كمالِ المالِ وفرُّ نصابه وما السيفُ إلا بعد مشقِّ ذبابه  
وما الزهرُ إلا بعد شقِّ إهابه بقطعِ يراعِ الخطِّ حسنُ كتابه  
وبالنقصِ يزدادُ الذبالُ توقّداً

ولما قضوا من سنةِ الشرعِ واجبا ولم نلقَ من دونِ الخلافةِ حاجبا  
أفصنا نهني منك جدلانَ ولها أفاصَ علينا أنعماً ومواها  
تعودُ بذلَ الجودِ فيما تعودا

هنيئاً هنيئاً قد بلغت مؤملاً وأطلعت نوراً يبهزُ المتأملأ

وأحرزت أجرَ المنعمين مكملًا تبارك من أعطى جزيلًا وأجملاً  
وبلغَ فيك الدينَ والملكَ مقصدًا .

ألا في سبيلِ العزِّ والفخرِ موسمٌ يظلُّ بهِ فغرُّ المسرةِ ييسمُ  
وعرَّفُ الرضى من جوهٍ ينتسمُ وأرزاقُ أربابِ السعادةِ تقسمُ  
ففي وصفه ذهنٌ الذكيُّ تبدًا

وجلَّتَ في هذا الصنيعِ مصانعا تمي بدورُ الهمِّ منها مطالعا  
وأبديتَ فيها للجمالِ بدائعا وأجريتَ للإحسانِ فيها مشارعا  
يودُّ بها نهرُ المسجرةِ موردا

وأجريتَ فيها الخيلَ وهي سوابقُ وإن طلَّبتَ في الروغِ فهي لواحقُ  
نجومٌ وآفاقُ الطرادِ مشارقُ يفوتُ التماحَ الطرفَ منها بوارقُ  
إذا ما تجاري الشهبَ تستبقُ المدى

وتطلُّ في ليلِ القتامِ كواكبا وقد وردتْ نهرَ النهارِ مشاربا  
تقودُ إلى الأعداءِ منها كواكبا فترسمُ من فوقِ الترابِ محاربا  
تحوِّرُ رؤوسُ الرومِ فيهنَّ سجدا

سوابحُ بالنصرِ العزيزِ سوانحُ وهنَّ لأبوابِ الفتوحِ فوانحُ  
تقودُ إليك النصرَ والله مانحُ فما زلتْ بابَ الخيرِ والله فانحُ  
وما تمَّ شيءٌ قد عدا بعد ما بدا

رياحُ لها مثنى البروقِ أعتةٌ ظباءُ فإن جنَّ الظلامُ فجنته  
تقيها من البدرِ المتممِ جنةٌ وتشرعُ من زهرِ النجومِ أسنةٌ  
فتصدفُ شهبَ الرجمِ في أئغرِ العدا

فأشهبُ من نسلِ الوجيهِ إذا انتمى جرى فشأى شهب الكواكب في السما  
وخلّفَ منها في المقلّدِ أنجما تردّى جمالاً بالصباحِ وربما  
يقول له الإصباح : نفسي لك الفدا

وأحمرُ قد أذكى به البأسُ جمرةً وقد سلّبَ الياقوتَ والوردَ حمرةً  
أدار به ساقٍ من الحربِ حمرةً وأبدى جباباً فوقها الحسنُ غرةً  
يزينُ بها خدّاً أسيلاً مورداً

وأشقرُ مهما شعشع الركنُ برقهُ أعار جوادَ البرقِ في الأفقِ سبقةُ  
بدا شفقا قد جعل الحسنُ أفقهُ ألم ترَ أن الله أبدعَ خلقه  
فسال على أعطافه الحسنُ عسجداً

وأصفرُ قد ودَّ الأصيلُ جمالهُ وقد قدَّ من بُردِ العشيّ جلالهُ  
إذا أسرجوا جِنحَ الظلامِ ذبالهُ فغرتهُ شمسٌ تضيءُ مجالهُ  
وفي ذيله ذيلُ الظلامِ قد ارتدى

وأدهمُ في مسحِ الدجى متجردُ يجيشُ بها بحرٌ من الليلِ مزيدُ  
وغرتهُ نجمٌ به تتوقدُ له البدرُ سرجٌ والنجومُ مقلدُ  
وفي فلقِ الصبحِ المبينِ تقيداً

وأبيضُ كالقرطاسِ لاحَ صباحهُ على الحسنِ مغداهُ وفيه مراحهُ  
وللظبياتِ الأنساتِ مراحهُ تراهُ كنشوانِ أمالتهُ راحهُ  
وتحسهُ وسطَ الجمالِ معربداً

١ ق : نجم .  
٢ ق : وأشهب .

وذاهبةً في الجوّ ملء عسانها وقد لفعتها السحبُ بُرْدَ عنانها  
يفوت ارتدادَ الطّرفِ لمحُ عيانها وختمتِ الجوزاءُ سبّطَ بنانها  
وصاغت لها حلّي النجومِ مقبداً

أراها عمودُ الصّبحِ علوّ المصاعدِ وأوهمها قربَ المدى المتباعدِ  
ففاتتهُ سبّاقاً في مجالِ الرواعدِ وأتخفتِ الكفّ الخضيبَ بساعدِ  
فطوقتِ الزّهْرَ النجومَ بها يدا

وقد قذفتها للعصيّ حواصبُ قد انتشرت في الجوّ منها ذوائبُ  
تزاور منها في الفضاء حبابُ فبينهما من قبل ذلكَ مناسِبُ  
لأنهما في الروضِ قبل تولّدا

بناتٌ لأمّ قد حيينَ لروحها دعاها الهوى من بعد كتمٍ لبوحها  
فأقلامُها تهوي لخطّ بلوحها فبالأمس كانت بعضُ أغصانِ دوحها  
فعادتْ إليها اليومَ من بعدُ عوداً

ويا ربّ حصنٍ في ذراها قد اعتمى أنارتِ بروجُ الأفقِ في مظهرِ العلا  
بروجَ قصورٍ شدّتها متطولا فأنشأتَ برجاً صاعداً متنزلاً  
يكونُ رسولاً بينها متردداً

وهل هي إلاّ هالةٌ حولَ بدرها يصوغُ لها حلياً يليقُ بنحرها  
تطوّر أنواعاً تشيدُ بفخرها فحجلُ برجليها وشاحُ بنصرها  
وتاجُ بأعلى رأسها قد تنضداً

١ شبيه بقوله في القصيدة السابقة :

فحجل برجليها وشاح بنصرها وتاج إلى ما حل منها الأعاليا

أرادَ استراقَ السمعِ وهو ممنوعٌ فقامَ بأذيالِ الدجى يتلفعُ  
وأصغى لأخبارِ السما يتسمعُ فأتبعهُ منها ذوابلُ شرعُ  
لتقدفه بالرغبِ مثنى وموحداً

وما هو إلا قائمٌ مدّ كفتهُ لیسألَ من ربّ السموات لطفهُ  
لمولّى تولاهُ وأحكمَ رصفهُ وكلفَ أربابَ البلاغةِ وصفهُ  
وأكرمَ منه اللسانَ المتهجداً

ملاقي ركبٍ من وفودِ النواسمِ مقبلٌ نغزٍ للبروقِ البواسمِ  
مختمٌ كفّ بالنجومِ العوامِ مبلغٌ قصدٍ من حضورِ المواسمِ  
تجددهُ مهما صنعٌ تجدداً

ومضطربٌ في الجوّ أثبتَ قامهُ تقدمَ يمشي في الهواءِ كرامةُ  
تطلعَ في غصنِ الرشاءِ كمامهُ ونحسهُ تحتَ الغمامِ غمامهُ  
يسيلُ على أعطافها عرقُ الندى

هوى واستوى في حالةٍ وتقلّبا كخاطفِ برقٍ قد تآلقَ خلّبا  
ونحسهُ قد دار في الأفقِ كوكبا ومهما مشى واستوقفَ العقلَ معجبا  
تقلّبُ فيه العينُ لحظاً مردداً

لقد رام يرقى للسماءِ بسلمِ فيمشي على خطّ به متوهمِ  
أجبلٌ في الذي يديه فكرٌ توسمِ ترى طائراً قد حلّ صورةَ آدمي  
وجنّاً بمهواةِ القضاء تمرّداً

ومتسبٍ للخالِ سمّوه ملجما له حِكَماتٌ حكماها فاه أجمما  
تخالّفَ جنساً والداه إذا انمى كما جنسهُ أيضاً تخالّفَ عنهما  
عجبتُ له إذ لم يلدُ وتولّداً

ثلاثتها في الذكرِ جاءت مينةً من الاله سماها لنا الله زينةً  
وأُنزلَ فيها آيةً مستينةً وأودعَ فيها للجَهولِ سَكينةً  
والآءهُ فيها على الخلقِ بدداً

كسوه من الرشيِّ اليمانيِّ هودجا بمدّ على ما فوقه الظلَّ سَجَسجا  
وكم صورةً تجلّى به تبهرُ الحجى وجزل وقودِ ناره تُصدعُ الدجى  
وقلب حُودٍ غاظ مذكيه موقداً

وماسي إلا مظهرٌ لجهاده أرتنا بها الأفراحُ فضلَ اجتهاده  
ملاعِبها هزّت قلدودَ صعاده وأذكرت الأبطالَ يومَ طراده  
فما ارتبت فيه اليومَ صدقتهُ غداً

الأجددَ الرحمنُ صنماً حضرتهُ ودوَحَ الأمانى في ذراهُ هصرتهُ  
بقصرٍ طويلٍ الوصفِ فيه اختصرتهُ يقيدُ طرفَ الطرفِ مهما نظرتهُ  
«ومن وجد الإحسانَ قيداً تقيداً»<sup>١</sup>

دعوتَ لهُ الأشرافَ من كلِّ بلدةٍ فجماعوا بآمالٍ لهم مستجدةٍ  
وخصّوا بالطفافِ لديه معدةً أبادِ بفياضِ الندى مستمدةً  
فكلّهمُ من فضلهِ قد تزودا

وجاءتكَ من آلِ النبيِّ عصابةً لها في مرامي المكرماتِ إصابةً  
أحيتكَ حياً ليسَ فيه استرابةٌ ولبتَ دواعي الفوزِ منها إجابةً  
وناداهمُ التخصيصُ فابتدروا النداء

أجازوا إليك البحرَ والبحرُ يزخرُ لبحرٍ سماحٍ مدّةُ ليسَ يمزورُ

١ حيز بيت المتنبي ، صدره «وقيدت نفسي في ذراك عجة» .

فرواهمُ من عذبِ جودكِ كوثرُ وواليتَ من نعماكِ ما ليس يحصرُ  
وعظمتهمُ ترجو النبيَّ محمداً

عليه صلاةُ اللهِ ثمَّ سلامُهُ بهِ طابَ من هذا النظامِ اختتامُهُ  
وجاءَ بحمدِ اللهِ حلواً كلامُهُ يعزُّ على أهلِ البيانِ مرامُهُ  
وتعسي له زهُرُ الكواكبِ حسداً

أبثُّ بهِ حاديِ الركابِ مشرقاً حديثَ جهادِ النفوسِ مشوقاً  
رमितُ بهِ منَ بالعراقِ مرفوقاً وأرسلتُ منه بالبديعِ مطوقاً  
حماماً على دوحِ الثناءِ مغرداً

ركضتُ بهِ خيلَ البيانِ إلى مدى فأحرزتُ خصلَ السبقِ في حلبةِ الهدى  
ونظمتُ منَ نظمِ الدراري مقلداً وطوقتُ جيدَ الفخرِ عقداً منضداً  
وقمتُ بهِ بينَ السماطينِ منشداً

نسقتُ منَ الإحسانِ فيه فرائداً وأرسلتُ في روضِ المحاسنِ رائداً  
وقلدتُ عطفَ الملكِ منه قلائداً تَعَوَّدتُ فيه للقبولِ عوائداً  
فلا زلتَ للفعلِ الجميلِ<sup>٢</sup> معوداً

ولا زلتَ للصنعِ الجميلِ مجدداً ولا زلتَ للفخرِ العظيمِ مخلداً  
وعمرتُ عمراً لا يزالُ مجدداً وعمرتُ بالأبناءِ أوحداً أوحداً  
وقرتُ بهمُ عينكِ ما سائقُ حداً

وقال في عيد :

بشرى كما وضعَ الزمانُ وأجملُ يَغشَى سناها كلُّ منْ يتهللُ

١ ق : المدى .

٢ الأزهار : للفضل الجزيل .



أبدى لها وجهُ النهارِ طلاقَةً  
ومنابرُ الإسلامِ يا ملكَ الوري<sup>١</sup>  
تجلو لنا الأكوانُ منكَ محاسناً  
فالشمسُ تأخذُ من جبينك نورها  
والروضُ ينفخُ من ثنائك طيبه  
والبرقُ سيفٌ من سيوفك متضي  
يا أيها الملكُ الذي أوصافه  
«اللهُ أعطاك التي لا فوقها»<sup>٢</sup>  
وجهٌ كما حسرَ الصباحُ نقابه  
تلقاهُ في يومِ السماحةِ والوغي  
كفُّ أبتُ أن لا تكفَّ عن الندى  
وشمائلُ كالروضِ باكره الحيا  
خلقُ ابنِ نصرٍ في الجمالِ كخلقه  
نورٌ على نورٍ بأبهى منظرٍ  
فاقَ الملوكَ بسيفه وبسبيهِ<sup>٣</sup>  
وإذا تطاولَ للعميدِ عميدهم  
يا آيةَ الله التي أنوارها  
قلٌ للذي التبتُّ معالمُ رشده  
قد ناصحَ الإسلامَ خيرُ خليفة  
فلقد ظهرت من الكمالِ بمستوى

١ هذه رواية الأزهار ؛ وفي ق : بالملك العلي .

٢ من رجز وتماحه :

وقد أراد المشركون عوقها عنك ويأبى الله إلا سوقها

٣ ق : بسبقه وبسيفه . ؛ ق : شمل .

وعنايةُ الله اشتملت رداءها  
فالجودُ إلا من يديك مقترٌ  
والعمرُ إلا تحت ظلك ضائعٌ  
حيثُ الجهادُ قد اعتلت رايتهُ  
حيثُ القبابُ الحمرُ تُرفعُ للقري  
يا حجةَ الله التي برهانها  
قلٌ للذي ناواك يرقبُ يومهُ  
والله جلّ جلالهُ إن أمهلت  
يا ناصرَ الإسلامِ وهو فريسةُ  
يا فخرَ أندلسٍ وعظمةَ أهلها  
لا يهملُ الله الذين رعيتهمُ  
لا يبعدُ النصرُ العزيزُ فإنتهُ  
لولا نَدَاكَ لها لما نفع الندى  
لولاكَ كان الدينُ يُغْمَطُ حقهُ  
لكن جنيتَ الفتحَ من شجرِ القنا  
ولقبيلُ ما استفتحتَ كلَّ ممنعٍ  
ومنى نزلتَ بمعقلٍ متأشبٍ  
وإذا غزوتَ فإنَّ سعدكَ ضامنُ  
فمن السعودِ أمامَ جيشكَ موكبُ

وعلقتَ منها عروةٌ لا تُفصلُ  
والغيثُ إلا من نَدَاكَ مبخلُ  
والعيشُ إلا في جنابك ممحلُ  
حيثُ المغانمُ للعفاةِ تنقلُ  
قد عامٌ في أرجائهنَّ المنذلُ  
عزَّ الحقُّ به وذلُّ البطلِ  
فوراهِ ملكٌ يقولُ ويفعلُ  
أحكامهُ مستدرجاً لا تهملُ  
أسدُ القلا<sup>٢</sup> من حولها تسلكُ  
لكَ فيهمُ النعمى التي لا تُجهلُ  
فلأنتَ أكفى والعنايةُ أكفلُ  
أوى إليك وأنتَ نعم الموثلُ  
ولجفَّ من وردِ الصنائعِ منهلُ  
ولكانَ دينُ النصرِ فيه يُمطلُ  
وجى الفتحِ لمن عدكَ مؤملاً  
من دونهِ بابُ المطامعِ مُقفلُ  
فالعُصمُ من شَعَقاته تُستزلُ  
أن لا تخيبَ وأنَّ قصدكَ يكملُ  
ومن الملائكِ دونَ جنديكَ جحفلُ

١ الأزهار : قام .

٢ ق : يرفع .

٣ الأزهار : العدا . ق : العلى .

٤ الأزهار : مغلل .

وكتيبة أردفتها بكيبة  
 من كل منحفز كلمعة بارق  
 أوفى بهاد كالظلم وخلفه  
 حي إذا ملك الكمي عناته  
 حملت أسود كريمة يوم الوغى  
 لبسوا الدروع غدائراً مصقولة  
 من كل معتدل القوام مثقف  
 أذكيت فيه شعلة من نصله  
 ولرب لماع الصقال مشهر  
 رقت مضاربه وراق فرنده  
 فإذا الحروب تسعت أجزالها  
 وإذا دجا ليل القتام رأته  
 فاعجب لها من جنوة لا تنظفي  
 هي سنة أحييتها وفريضة  
 فإذا الملوك تفاخرت بحدودها  
 يا ابن الذين جملهم ونواهم  
 يا ابن الإمام ابن الإمام  
 أبائك الأنصار تلك شعارهم  
 فهم الألى نصروا الهدى بعزائم  
 ماذا يجتر شاعر في مدحهم  
 مولاي لا أحصي مآثرك الي

والخيل تمرح في الحديد وترفل  
 بالبدر يسرج والأهلة يُنعل  
 كفل كما ماج الكتيب الأهيل  
 يهوي كما يهوي بجو أجدل  
 ما غابها إلا الوشيح الذبيل  
 والسمر قضب فوقها تهدل  
 لكنه دون الضريبة يعسل  
 يهدى بها إن ضل عنه المقتل  
 ماض ، ولكن فعله مستقبل  
 فالحسن فيه مجمل ومفصل  
 ينساب في يمتاك منها جدول  
 وكأنه فيه ذبال مشعل  
 في أبحر زخرت وهن الأعمال  
 أديتها قرباتها تتقبّل  
 فلأنت أحفى بالجهاد وأحفل  
 شمس الضحى والعارض المتهلل  
 م ابن الإمام ، وقدرها لا يُجهل  
 فلحيثهم آوى النبي المرسل  
 مصقولة وبصائر لا تحذل  
 وبفضلهم أنى الكتاب المنزل  
 بحديثها تضي المطي الدئل

١ الأزهار : محدودها .

٢ الأزهار : تضي .

وإذا الحقائقُ ليس يدركُ كنهها  
 فأليكَ من سؤالِ غرّةِ وجهه  
 عذراءِ راقِ العيدِ رونقُ حسنها  
 رضعتُ لبانَ العلمِ في حِجرِ النهي  
 سلكَ البيانُ بها سبيلَ إجادةِ  
 جاءتْ تهيّ العيدِ أيمَنَ قادمِ  
 وطوى الشهورَ مراحلاً معدودةً  
 وأتى وقد شَفَّ النحولُ هلاله  
 عقدتُ بمرقبهِ العيونُ مسرّةً  
 فاسلمُ لألفِ مثله في غبطةِ  
 فإذا بقيتْ لنا فكلُّ سعادةِ  
 سيانٍ فيها مكرٌ ومقتلٌ  
 أهداكها يومٌ أغرُّ مُحجَّلٌ  
 فغدا بنظمِ حليتها يتجمَّلُ  
 فوفتُ لها منه ضروعٌ حُفَلُ  
 لولا صفاتكَ كان عنها يعدلُ  
 وافى بشهرِ صيامهِ يتوسَّلُ  
 كيما يُرى بفيناءِ جودك ينزلُ  
 ولشوقهِ للقاءِ وجهك ينخلُ  
 فمكبرٌ لطلوعهِ ومُهَلَّلُ  
 ظلّ المنى من فوقهِ يتهدَّلُ  
 في الدينِ والدنيا بها تتكفَّلُ

وقال ابن الأحمر : ومن جياذ أناشيده المتميزة بالسبقية ، وبارقات تهانيه في  
 المواسم العتيقية ، قولهُ بهنثه - رضوان الله تعالى عليه - بطلوع مولانا الوالد  
 قدّس الله تعالى روحه<sup>١</sup> :

طلعَ الهلالُ وأفقهُ متهللُ  
 أوفى على وجهِ الصباحِ بغرّةِ  
 شمسُ الخلافةِ قد أمدّتْ نوره  
 لله منه هلالُ سعدٍ طالعُ  
 وألحتْ يا شمسَ الهدايةِ كوكباً  
 والتاجُ تاجُ البدرِ في أفقِ العلا  
 فمكبرٌ لطلوعهِ ومُهَلَّلُ  
 فغدا الصباحُ بنوره<sup>٢</sup> يتجمَّلُ  
 وبسعدِها يرجو التمامَ ويكملُ  
 لضيائهِ تعشو البدورُ الكُمَّلُ  
 يُعشي سناه كلَّ مَنْ يتأملُ  
 ما زالَ بالزُّهرِ النجومِ بكلَّلُ

١ لتشابه التصديتين تشابه كثير من الأبيات .

٢ الأزهار : بنورها .

ولئن حوى كل الجمال فإنه  
أطلعت يا بدرَ السماحِ هلاله  
يبدو بهالاتِ السروجِ وإنه  
قلدتَ عطفَ الملكِ منه صارماً  
حليتهُ بجلى الكمالِ وجوهرِ الـ  
يفزو أمامك والسعودُ أمامه  
من مبلغِ الأنصارِ منه بشاره  
أحيا جهادهمُ وجددَ فخرهم  
فيه إلى الأجرِ الجزيلِ توصلوا  
من مبلغِ الأذواءِ من يمنٍ وهم  
أن الخلافةَ في بنهمِ أطلعت  
من مبلغِ قحطانِ آسادِ الشرى  
أن الخلافةَ وهو شبلُ ليونهم  
يحيى بني الأنصارِ أن إمامهم<sup>١</sup>  
يحيى البنودَ فإنها ستظله  
يحيى الجيادَ الصافياتِ فإنها  
يحيى المداكي والعوالي والظبي  
يحيى المعالي والمفاخرَ أنه  
سبقتُ مقدمةُ الفتحِ قدمته  
وبدتُ نجومُ السعدِ قبلَ طلوعه

١ الأزهار : مليكهم .

٢ ق : يتوسل .

٣ الأزهار : لا تأفل .

والنصرُ يملي والبشائرُ تنقل  
 فالسعدُ يمضي ما تقولُ ويفعل  
 يُنسِكُ ماضيه الذي يستقبل  
 أنَّ المقاصدَ من طلابك تكمل  
 ودعاهمُ داعي المنون فجدُّوا  
 فيهمُ سيفوكَ بعدها فاستمثلوا  
 نسفتهمُ ريحُ الجِلادِ فزلزلوا  
 أذكتهمُ نارُ الوغى فتنسَّلوا<sup>١</sup>  
 يتحرَّكونَ إلى قيامِ تصهل  
 واليومَ لم تلبسهُ إلاَّ الأرجل  
 فتَّحاً بهِ دينُ الهدى يتأثَّل  
 فالدينُ والدنيا بهِ تتجمَّل  
 والوفدُ وفدُ اللهِ فيه يتزل  
 من كلِّ ما حدَّبَ إليه تنسل  
 ظمأً شديدٌ والمطافُ المنهل  
 والقلبُ يخفقُ والمدامعُ تهمل  
 يبضُ الصوارمِ والرماحُ العُسل  
 بشبَّاتِه أهلُ الوغى تتمثل  
 واستبشروا بحديثها وتهلِّوا  
 بسماعه واهترَّ ذاكَ المحفل  
 إنَّ الحجيجَ بنصرِ ملكك يحفل

وروتُ أحاديثَ الفتوحِ غرائباً  
 ألقَتْ إليك بهِ السعودُ زمامها  
 فالفتحُ بينَ معجَلٍ ومؤجَلٍ  
 أو ليسَ في شأنِ المشيرِ دلالةٌ  
 ناداهمُ داعي الضلالِ فأقبلوا  
 عصواُ الرسولَ إيايَّةً وتحكمتُ  
 كانوا جبالاتٍ قد علَّتْ هضباتها  
 كانوا بحاراً من حديدٍ زاخِرٍ  
 ركبَتْ أرجلها الأدهمَ كلما  
 كان الحديدُ لباسهم وشعارهم  
 «الله أعطاك التي لا فوقها»  
 جدَّتْ للأنصارِ حلِّيَ جهادها  
 من يتحفُ البيتَ العتيقَ وزمزمأ  
 متسابقينَ إلى مشابةِ رحمةِ  
 هيماً كأفواجِ القطا قد ساقها  
 من كلِّ مرفوعِ الأكفِ ضراعةٌ  
 حتى إذا روتِ الحديثَ مسلسلاً  
 من فتحك الأسنى عن الجيش الذي  
 أهدتهمُ السراءُ نصرةً دينهم  
 وتناقلوا عنكَ الحديثَ مسرةً  
 ودعواُ بنصرك وهو أعظمُ مفخرأ

١ ق : ثاني .

٢ ق : فنتهم ... الضلال .

٣ ق : فقبلوا .

فاهناً بملكك واعتمد شكراً به  
 شرفت منه باسم والدك الرضى  
 أبديت من حسن الصنيع عجائباً  
 خفقت به أعلامك الحمر التي  
 هدرت طبول العز تحت ظلها  
 ودعوت أشراف البلاد وكلتهم  
 وردوا وروود المهيم أجهدها الظما  
 وأثرت فيه للطراد فوارساً  
 من كل وضاح الجبين كأنه  
 يرد الطراد على أغر محجل  
 قد عودوا قنص الكماة كأنما  
 يستعبون هودجاً موشية  
 قد صورت منها غرائب جمّة  
 وتضمنت جزل الوقود حموها  
 والعاديات إذا تلت فرسانها  
 لله خيلك ؛ إنها لسوابح  
 من كل برق بالثريا ملجّم  
 أوفى بهاد كالظليم وخلفه  
 هنّ البوارق غير أن جيادها  
 من أشهب كالصبح يعلو سرجه  
 أو أدهم كالليل قلده شهبه

لطف الإله وصنعه تتحوّل  
 يجبا به منه الكريم المفضل  
 تُروى على مر الزمان وتُنقل  
 بخفوقها النصر العزيز موكل  
 عنوان فتح إثرها يستعجل  
 يثني الجميل وصنع جودك أجمل  
 فصفا لهم من ورد كفك متهل  
 مثل الشمس وجوههم تتهلل  
 نجم وجنح النقع ليل مسبل  
 في سرجه بطل أغر محجل  
 عقبانها بنقض منها أجدال  
 من كل بدع فوق ما يتخيّل  
 تنسي عقول الناظرين وتذهل  
 والنصر في التحقيق ما هي تحمل  
 آي القتال صفوفها ترتل  
 بحر القتام وموجه متهيل  
 بالبدر يسرج والأهلة ينعل  
 كفل كما ماج الكئيب الأهيل  
 عن سبق خيلك يا مؤيد تنكل  
 صبح به نجم الضلالة يأفل  
 خاض الصباح فأثبتته الأرجل

أو أشقرٍ سالَ النَّضارُ بعطفه  
 أو أحمرٍ كالجمرِ أضمرَ بأسه  
 كالخمرِ أترعَ كأسها لندامها  
 أو أصفرٍ لبسَ العشيَّ ملاءةً  
 أجملتَ في هذا الصنيعِ عوائداً  
 أنشأتَ فيها من نذاكِ غمائمًا  
 فجرتَ من كفيك عشرةَ أبحرٍ  
 من قاسِ كَفَكِ بالغمامِ فإنه  
 تسخو الغمامُ ووجهها متجهمٌ  
 والسَّحْبُ تسمعُ بالمياهِ وجوده  
 من قاسِ بالشمسِ المنيرةِ وجهه  
 من أين للشمسِ المنيرةِ منطقٌ  
 من أين للشمسِ المنيرةِ راحةٌ  
 من قاسِ بالبدرِ المنيرِ كماله  
 من أينَ للبدرِ المنيرِ شمائلٌ  
 من أينَ للبدرِ المنيرِ مناقبٌ  
 يا مَنْ إذا نفحتْ نواصمُ حمدهِ  
 يا من إذا لمحتْ محاسنُ وجهه  
 يا مَنْ إذا تليتْ مفاخرُ قومه  
 كفلِ الخلافةِ منكِ يا ملكَ العلا  
 مأمونها وأمينها ورشيدها  
 وكساهُ صِبْغَةَ بهجةٍ لا تنصل  
 بالركضِ في يومِ الحفيظةِ يشعل  
 وبها حِبابَةُ غرةٍ تَتَسَيَّلُ  
 وبذيله لليلِ ذيلٌ مُسَبَّلُ  
 الجودُ فيها مجملٌ ومفصلٌ  
 بالفضلِ تنشأُ والسَّماحةُ تهمل  
 تزجي سحابِ الجودِ وهي الأمل  
 جهلِ القياسِ ومثلها لا يجهل  
 والوجهُ منه مع الندى يتهلل  
 ذهبٌ به أهلُ الغنى تتمول  
 ألفتُهُ في حكمه لا يعدل  
 بيانهِ درُّ الكلامِ يُفَصِّلُ  
 تسخو إذا بخلَ الزمانُ المحلِ  
 فالبدرُ يتقصُّ والحليفةُ يكمل  
 تسري برياتها الصِّبا والشمائلُ  
 بجهادها تُنضِي المطيُّ الدُّنائلُ  
 فالمسكُ يعقبُ طيبهُ والندلُ  
 تعشو العيونُ ويبهرُ المتأملُ  
 أيُّ الكتابِ بذكرها تنتزلُ  
 واللهُ جلَّ جلالهُ لكِ أكفلُ  
 منصورها مهديها المتوكِّلُ



حَسْبُ الخِلافة أن تكون وليَّها  
 حَسْبُ الزمان بأن تكون إمامه  
 حَسْبُ الملوك بأن تكون عميدها  
 حَسْبُ المعالي أن تكون إمامها  
 يا حجةَ الله التي برهانها  
 أنتَ الإمامُ ابن الإمام ابن الإمام  
 علِّمتَ حتى لم تدع من جاهلٍ  
 وعنايةُ الله اشتملت رداءها  
 ومناها<sup>١</sup> :

أخذت قلوبَ الكافرينَ مهابةً  
 حسبوا البروقَ صوارماً مسلولةً  
 وترى النجومَ مناصلاً مرهوبةً  
 يا ابنَ الألى إجماهم وجماهم  
 مولاي لا أحصي ما تركَ التي  
 أصبحتُ في ظل امتداحك ساجماً  
 طوقتهُ طوقَ الحمامِ أنعماً  
 فأليك من صون العقولِ عقيلةً  
 عذراء راق الصنعُ رونقَ حسنها  
 خيرتها بين المنى فوجدتها

فعقولهم من خوفها لا تعقلُ  
 أرواحهم من بأسها تتسللُ  
 فيفرُّ منها الخائفُ المتصلُ  
 شمسُ الضحى والعارضُ المتهللُ  
 يجهادها يتوصلُ المتوسلُ  
 ظلُّ<sup>٢</sup> المنى من فوقه يتهدلُ  
 فغدا بشركك في المحافظِ يهدلُ  
 أهداكها صنعُ أغرِّ محجلُ  
 فغدا بنظمِ حليتها يتكللُ  
 أقصى مناهها أمها تُقبَلُ

١ قال في أزهار الرياض (٢ : ١٢١) بعد هذا البيت : اتصل بهذا البيت جملة من القصيدة المترجمة في العيديات التي أولها « بشرى كما وضع الصباح وأجمل » وحذفناها من هذه اقتصاراً للتكرار .  
 ٢ الأزهار : ظل .

لا زلت شمساً في سماء خلافةٍ وهلاكِ الأسمى يتمُّ ويكمل

قال : ومن رقيق منازعه في بعض نُزّه مولانا رضوان الله عليه بالقصر السلطاني من شنيل قوله :

نفسى الفداء لشادن مهما خَطَرُ  
فضح الغزاة والأقاحة والقنا  
عجبا لليل ذوائب من شعره  
عجبا لعقد الثغر منه منظماً  
ما رمت أن أجني الأفاح بثغره  
لم أنسه ليل ارتقاب هلاله  
بتنا نراقبه بأول ليلة  
طالعه في روضة كخلاله  
وكلاهما يبدي محاسن جمّة  
والكأس تطلع شمسها في خده  
نورية كجبينه ، وكلاهما  
هي نسخة<sup>٣</sup> للشيخ فيها نسبة  
أفرغت في جسم الزجاجة روحها  
لا تسقى غير الروض فضلة كأسها  
ما هب خفاق النسيم مع السحر  
ناجى القلوب الخافقات كمثلته<sup>٤</sup>

فالقلب من سهم الجفون على خطر  
مهما تشئى أو تبسم أو نظر  
والوجه يسفر عن صباح قد سفر  
والعقد من دمعي عليه قد انتثر  
إلا وقد سلّ السيوف من الحور  
والقلب من شك الظهور على غرر  
فإذا به قد لاح في نصف الشهر  
والطيب من هذي وتلك قد اشتهر  
ملء التنسم<sup>٢</sup> والمسامع والبصر  
فتكاد تُعشي بالأشعة والنظر  
يجلو ظلام الليل بالوجه الأغر  
ما إن يزالا يرعشان من الكبر  
فرايت روح الأنس منها قد بهر  
فالفصن في ذيل الأزاهر قد عثر  
إلا وقد شاق النفوس وقد سحر  
ووشى بما تخفي الكمام من الزهر

١ الأزهار : والوجه منه عن .

٢ الأزهار : المشام .

٣ كذا في ق ؛ وفي الأزهار : شيمة ، وكلتا اللفظتين قاصرة الدلالة .

٤ ق : لئله ، والمعنى : أن القلوب خافقات كمثل خفق النسيم المذكور في البيت السابق .

ما أسند الزهريُّ عنه عن مطرٍ  
 رُسِلُ النسيمِ وصدَّق الخُبْرُ الخُبْرُ  
 والروضُ مُنك على الجمالِ قد اقتصرُ  
 منه دروعاً تحتَ أعلامِ الشجرِ  
 عن كلِّ من يهوى العذارِ قد اعتذرُ<sup>١</sup>  
 يغنيك صوبُ الجودِ منه عن المطرِ  
 واجعل بها لونَ المُضاعفِ عن خضرِ  
 وانثرُ من الزهرِ الدراهمَ والدررِ  
 في مدحه قد أنزلتْ آيُ السورِ  
 في مطلعِ الهدى المقدَّسِ قد ظهرُ  
 مهما عفا ، ذو عفةٍ مهما قدرُ  
 والله ما أيامُهُ إلا غرُ  
 لم يُبقِ من رسمِ الضلالِ ولم يذرُ  
 وكلاهما في الخافقينِ قد اشتهرُ  
 وطلعتَ وحدك<sup>٢</sup> في مظاهرها قمرُ  
 في طيه للخلقِ أعيادٌ كبرُ  
 ويرفُ والنصرُ العزيزُ له ثمرُ  
 قد فضضتْ منها المحاسنُ في السحرِ  
 نقدَ الحسابِ وأعجزتْ منها القدرُ  
 مصقولةٌ فلطالما حملوا الصدرُ  
 فيهمُ على حزبِ الضلالِ قد انتصرُ

وروى عن الضحاك عن زهر الرُّبِّي  
 وتحمَّلتُ عنه حديثَ صحيحه  
 يا قصرَ شنيلٍ وربُّعكَ أهلُ  
 لله بحركٍ والصبأ قد سرَّدتُ  
 والآس حفاً عذاره من حوله  
 قبلُ بثغرِ الزهرِ كفاً خليفةِ  
 وافرشُ خلودِ الوردِ تحتَ نعاله  
 وانظمُ غناء الطيرِ فيهِ مدائحاً  
 المنتقى من جوهرِ الشرفِ الذي  
 والمجنبي من عنصرِ النورِ الذي  
 ذو سطورةٍ مهما كفى ، ذو رحمةٍ  
 كم سائلٍ للدهرِ أقسمَ قائلاً :  
 مولاي سعدك كالمهندِ في الوغى  
 مولاي وجهك والصبحُ تشابها  
 إن الملوكِ كواكبُ أخفيتهما  
 في كلِّ يومٍ من زمانك موسمُ  
 فاستقبلِ الأيامَ يندى روضها  
 قد ذهبتْ منها العشايا ضعفَ ما  
 يا ابنَ الذينِ إذا تُعدَّ خلاهم  
 إن أوردوا هيمَ السيوفِ غدائراً  
 سائلُ بيدٍ عنهم بدرُ الهدى

١ ق : اقتدر .

٢ الأزهار : وجهك .

واسأل موافقهم بكل مشهر  
 تجد الثناء بياسهم ويجودهم  
 فبمثل هديك فلتن شمس الضحى  
 ماذا أقول وكل وصف معجز  
 تلك المناقب كالثواقب في العلا  
 إن غاب عبدك عن حماك فإنه  
 فاذكره إن الذكر منك سعادة  
 ورضاك عنه غاية ما بعدها  
 فاشكر صنيع الله فيك فإنه  
 وعليك من روح الإله نعمة

ثم قال : ومن أغراضه الوقتية - استرسالاً مع الطبع البديهي في الشكر عن  
 ضروب من التحف التي يقتضيها التحقّي السلطاني بأولياء خدمته - نبد متعددة  
 فيما يظهر فيها ، فمنها قوله :

يا خير من ملك الملوك بجوده  
 والله ما عرف الزمان وأهله  
 وافيت أهلي بالرياض عشية  
 فوجدته قد طله صوب الندى  
 وسفائن مشحونة ألقى بها  
 رطب من الطلع النضيد كأنها  
 من كل ما كان النبي يحبها  
 وبدائع التحف التي قد أطلعت  
 وبفضله قد أشبه الأملاك  
 أمناً ويمنناً دائماً لولاكا  
 في روض جاهك تحت ظل ذراكا  
 بسحائب تنهل من يمناكا  
 بحر السماح يجيش من نعماكا  
 قد نظمت من حسنها أسلاكا  
 وأحبها الأنصار من أولاكا  
 مثل البدر أنارت الأحلاكا

١ الأزهار : رضاكا .

نُظِفَ من النورِ المينِ تجسّمتْ  
 يحلو على الأفواهِ طيبٌ مذاقها  
 طافتْ بها النشأُ الصغارُ كأنها  
 نجواهُمُ مهما سمعتْ كلامهمُ  
 بلّغتْ في الأبناءِ عبدك سؤلَهُ  
 يتدارسونَ من الدعاءِ صحائفاً  
 فبقيتْ شمساً في سماءِ خلافةِ  
 حتى حسبنا أنهنَّ هُداكا  
 لولا التجسدُ خلتهنَّ ثناكا  
 سِرْبُ القطا لما وردنَ نداكا  
 ونداؤهمُ : مولاي ، أو مولاكا  
 لا زلتَ تبلغُ في بنيك مُناكا  
 كيما يطيلَ الله في بقياكا  
 وهمُ البدورُ أمدهُنَّ سناكا

ومنها وقد أهداه نعمة الله أطباقاً من حبِّ الملوك<sup>٢</sup> :

كتبَ الإلهُ على العبادِ محبةً  
 وأنا الذي شرفتهُ من بينهمُ  
 ما زلتَ تُتحفهُ بكلِّ ذخيرةٍ  
 وإلى الملوكِ قد اعتزى من عزه  
 لك كان فرضُ كتابها موقوتا  
 حتى جعلتَ له المحبةَ قوتا  
 حتى لقد أنحفتهُ الياقوتا  
 فغدا لهُ ياقوتها ممقوتا

ومنها في مثل ذلك :

يا خيرَ مَنْ ملكَ الملوكُ  
 فكأنما ياقوتها  
 إنَّ الملوكَ إذا لجوا  
 وكذا العفاةُ إذا شكوا  
 فاللهُ يقبلُ مَنْ دعا  
 لا زلتَ تطلعُ غرةً  
 أهديتني حبَّ الملوكِ  
 نظمتُ لنا نظمَ السلوكِ  
 فغياثهمُ أنْ أمْلوكِ  
 فغناهمُ أنْ يسألوكِ  
 لملاكَ من أهلِ السلوكِ  
 كالشمسِ في وقتِ الدلوكِ

١ - الأزهار : سناكا .

٢ - ما يعرف في مصر باسم « حب العزيز » .

ومنها ، وقد أهداه صيداً مما صاده أولاده :

يا خيرَ مَنْ ورثَ السَّمَّاحَ عن الأُمِّيِّ  
في كلِّ يومٍ مِنْكَ تحفةٌ منعمٍ  
قد أذكرتُ دارَ النعيمِ عبيدَهُ  
تهدي مَوالي<sup>١</sup> الذينَ تفرَّعوا  
لجلالكَ الأعلى قنيصاً أتعبوا  
فتخصَّني منهُ بأوْفَرِ قسمةٍ  
للهِ مَنْ مَوَلَّى كَرِيمٍ بالذي  
تدعو نبيَّ إلى الغيِّ برَبِّهِ  
وعليكَ من قدسِ الإلهِ تحيةٌ  
نصروا الأُمِّيِّ وتبوَّأوا إيماناً  
والى الجميلِ وأجزَلَ الإحساناً  
وتضمنتُ من فضلِهِ رضواناً  
عن دَوْحِ فخركَ في العلا أغصاناً  
في صيدِهِ الأرواحَ والأبداناً  
فَسَحَّتْ لِعبدِكَ في الرضى ميداناً  
تهدي الموالى يُتحفُ العبداناً  
يا رَبِّنا أغنِ الذي أغنانا  
تهديكَ منهُ الرُّوحَ والريحاناً

ومنها ، وقد أهداه أصنافاً من الفواكه :

يا مَنْ له الوجهُ الجميلُ إذا بدا  
والمنتقى من جوهري الفخرِ الذي  
ما أبصرتُ عيناى مثلَ هديَّةٍ  
فيها من التفاحِ كلُّ عجيبةٍ  
تهدي لنا نهدَ الحبيبِ وخدَّةً  
وبها من الأترجِ شمسٌ أطلعتُ  
ويحفُّها ورقٌ يروقُ كأنَّهُ  
لون<sup>٢</sup> العشبةِ ذهبتُ صفحاتها  
فاقتُ محاسنَهُ البدورَ كمالاتها  
فاقَ الخلائفَ عزةً وجمالاً<sup>٣</sup>  
أبدتُ لنا صنعَ الإلهِ تعالى  
تذكي برياًها صَباً وشمالاً  
وتري من الوردِ الجنيِّ مثلاً  
من كلِّ شطرٍ للعيونِ هلالاً  
ورِقُّ النَّضارِ وقدُ أجادِ نبالاً  
رَقَّتْ وراقتُ بهجَّةً وجمالاً

١ الأزهار : مواليك .

٢ الأزهار : وجلالا .

٣ ق : لولا .

وبها من النّقلِ الشهيّ مذكّرٌ  
للهِ منها خُضرةٌ من خُضرةٍ  
أذكرني العهدَ القديمَ ومعهداً  
فأردتُ تجديدَ العهودِ وإنّما  
فأردتُ من ذكراك كأسَ مدامةٍ  
فقيتَ شمساً في سماءِ خلافةٍ  
عهداً تولّى لیتسهُ يتوالى  
تغني العفاةَ وتُحسبُ الآمالا  
كانتُ شمسُ الراحِ فيه تلالا  
كتبَ المشيبُ على عذارِي لا لا  
وشربتُ من حبي لها جربالاً  
لا يستطيعُ لها الزمانُ زوالاً

ومنها يوم عاشوراء :

يا أيها المولى الذي بركاتهُ  
لكَ راحةٌ ترجي الغمامَ بأملِ  
واليومَ موسمُ قربةٍ وعبادةٍ  
راعى فيه سُنّةَ نبويّةٍ  
لا زلتَ عامكَ كلّهُ في غبطةٍ  
رفعتُ لواءَ اللندی منشورا  
فجرتَ منها بالنوالِ بحورا  
وغداً ، ظفرتَ بأجره ، عاشورا  
تروي الثقاتُ حديثهُ المشهورا  
لُقيتَ منها نَصرةٌ وسرورا

ومنها في بعض قطعة :

والبتّ ما أوليتَ يا بحرَ الندى  
فإذا بهزّ لها اللسانُ حسامهُ  
علّمتَ فرسانَ الكلامِ نظامها  
والبحرُ تمتازُ السحابُ ماءه  
ووحقٌ جودك ما رأيتُ كهذه  
فصفاتُ فخرك قد قضتُ بنفاذه  
كتعلّمِ التلميذِ من أستاذه  
فتجودهُ من غيظها برّذاده

ومنها ، وقد أهدها باكوراً :

يا وارثَ الأنصارِ وهيَ مزيّةٌ  
أهديتني الباكورَ وهيَ بشارةٌ  
بفخارها أني الكتابُ المتزلُّ  
ببواكيرِ الفتحِ الذي يُستقبلُ

وولادة هلال تيم طالع  
هو أول الأنوار في أفق الهدى<sup>١</sup>  
مولاي صدق الفال قد جربته<sup>٢</sup>  
وجه الزمان بوجهه يتهلل  
وترى الأهلة بعده تسترسل  
من لفظ عبدك، والعواقب أجمل

ومنها في جفنة :

طعامك من دار النعيم بعثته<sup>١</sup>  
بهضبة نعمى قد سمونا لأوجها<sup>٢</sup>  
وقوراء قد درنا بهالة بدرها  
وقد حملت فوق الرؤوس لأنها  
فما شئت من طعم زكي مهنتي  
فلو أنها قد قدمت لخليفة  
وكم لك من نعمى علي عميمة  
فلا زلت يا مولى الملوك مبلغاً  
فشرفته من حيث أدري ولا أدري  
فصدنا بأعلاها الشهي من الطير  
كما دارت الزهر النجوم على البدر  
هدية مولى حل في مفرق الفخر  
وما شئت من عرف ذكي ومن نشر  
لأعظمها قدراً وبالغ في الشكر  
يقول لأدناها الجميل من الذكر  
أمانى ترجوها إلى سالف الدهر

ومنها شكراً عن كتاب :

مولاي يوم الجمعة  
فانعم صباحاً واغتم  
وابشر بصنع عاجل  
وانظر الفتح الذي  
وبيضه وسمره  
واللطف مرجو فرد  
سعوده مجتمعته  
أوقاته المجتمعته  
أعلامه مرتفعته  
يأتيك بالنصر معه  
إلى العداة مشرعه  
بفضل ربي مشرعه

١ ق : الندى .

٢ ق : لأجلها .



برقعة مرفعة	فاتحتني شرفتي
أزهارها منوعه	بل روضة مطورة
بصوب جود مترعة	حديقة قد جدتها
وآية مستبدعه <sup>١</sup>	وراية منشورة
في طيها مستودعه	كم حكيم لطيفة
من الجمال مبدعه	عقيلة صورتها
بفضل كاس مترعة	سقتني من فضلها
على علاك مجمعه	قدم وأملك الوري

ومنها شكراً على خلعة :

حفت نجوم السعد هالة قصره	يا بدر تم في سماء خلافة
قد قصرت عنه مدارك شكره	ألست عبدك من ثيابك ملبساً
فلقد أشاد بجاهه وبيره	ورضاك عنه خير ما ألسته
أهديني ما لا أقوم بحصره	ألستني ، أركبني ، شرفتي
يزري على شمس الزمان وبدره	نظري لوجهك وهو أجمل نير
وأنا المنعم في الحضور بيشره	أعلى وأعظم منة لا سيما
وحلاك <sup>٢</sup> للإسلام مفخر دهره	لازلت مولى للملوك مؤملاً

ومنها ، وقد خلع - رضوان الله تعالى عليه - على رسول من أرساله :

تفيض غمام الجود وهي الأنامل	أبحر سماح مد عشرة أبحر
بروض محل الأرض ، والعالم ماحل	بكفك غيث للبلاد وأهلها

١ سقط البيت والذي يليه من ق .

٢ الأزهار : وعلاك .

لكَ الخَيْرُ إنْ أَصْبَحْتَ بِحَرِّ سَمَاحَةٍ      يعمُ نَدَاهُ فَالمَوَاهِبُ سَاحِلُ  
خَلَعْتَ عَلَي هَذَا الرِّسُولِ مَلَابِسًا      بِهَا تَتَسَوَّى فِي عِلَاكَ المَآئِلُ  
وَبَلَغْتَهُ آمَالَهُ كَيْفَ شَاءَهَا      فَبُلِّغْتِ يَا مَوْلَايَ مَا أَنْتِ آمَلُ

ومنها وقد مرض بعضُ أبنائه رحمة الله تعالى على الجميع ، قوله سائلاً عن حاله :

أَسْأَلُ بِدَرِّ التَّمِّ كَيْفَ هَلَالُهُ      وَأَدْعُو لَهُ الرَّحْمَنَ جَلَّ جَلَالُهُ  
وَأَسْأَلُهُ تَعْجِيلَ رَاحَتِهِ الَّتِي      وَسَيَلْتُنَا فِيهَا النَّبِيَّ وَآلَهُ  
سَتَبْلُغُ فِيهِ مَا تُؤْمَلُ مِنْ مَنِي      وَيَرْضِيكَ يَا بَدْرَ الكَمَالِ كَمَالُهُ

وفي مثله :

أَقُولُ لِبَدْرِ التَّمِّ كَيْفَ هَلَالِكَ      نَعِمْتَ صَبَاحًا بِالسُّعُودِ<sup>١</sup> وَآلِكَ  
وَبُلِّغْتَ فِي النُّجْلِ الكَرِيمِ<sup>٢</sup> سَعَادَةً      تَقَرُّ بِهَا عَيْنًا وَيَنعَمُ بِآلِكَ  
وَخُصِّصْتَ بِالبُشْرَى مِنَ اللَّهِ رَبَّنَا      كَمَا عَمَّ أَقْطَارَ البِلَادِ نَوَالِكَ

ومن التورية باسم قائد ولاة على جماعة من الجند :

يَا أَيُّهَا المَوْلَى الَّذِي أَيَّامُهُ      تَهْمِي بِسُحْبِ الجُودِ مِنَ الآئِهِ  
أَبْشِرْ بِجَيْشِكَ بِالسَّعَادَةِ كَلِمَا      يَفْزَوُ وَنَصْرُ اللَّهِ تَحْتَ لَوَائِهِ

وأنشده في ملبس اتخذته :

أَمَوْلَايَ يَا ابْنَ السَّابِقِينَ إِلَى العِلا      وَمَنْ نَصَرُوا الدِّينَ الحَنِيفِيَّ أَوْلَا  
غَنِيْتَ بِنُورِ اللَّهِ عَنِ كُلِّ زِينَةٍ      وَأَلْبَسْتَ مِنْ رِضْوَانِهِ أَشْرَفَ الحَلِي  
وَقَارَكَ زَادَ المَلِكِ عِزًّا وَهَيْبَةً      وَسَوَّغَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْهَلَا

١ الأزهار : بالسرور .

٢ الأزهار : السعيد .

ويا شمس هدي في سماء خلافة  
تبارك من أبدك في كل مظهر  
فيخجل منك الشمس شمس هداية  
إذا أنت ألبست الزمان وآله  
وطوقت أجياد الملوك أيدياً  
فما شئت فالبس فالشاهد قائل :  
ألا كل من صلى وضحي ومن دعا  
وجودك شرط في حصول قبوله

وقال برسم ما يرسم على ثوب في بعض هدايا مولانا رحمه الله تعالى للسلطان أبي العباس :

أهدي أبا العباس  
ثوب السماء لأنه  
فلق الصباح بوجهه  
يكسو إماماً لم يزل  
فيا له من مرتد  
أذباله من حمده  
وبطرزه مدح زري  
إن كنت في لون السما  
فلأنت يا بدر العلا  
أنا منشد « ما في وقو

ملك الندى والباس  
بدر بدا للناس  
عوذته بالناس  
بحلى المحامد كاسي  
ثوب التقى لباس  
مسكية الأنفاس  
بالملاح في القرطاس  
بنسبة وقياس  
شرفتي بلباس  
فك ساعة من باس

١ الأزهار : متنفلا .  
٢ صدر بيت لأبي تمام ، وعجزه « تقضي ذمام الأربع الأدراس » .

لترى رياضاً<sup>١</sup> أطلعت  
أوراقها توريقها  
ومن المديح مدامتي  
فالله يمتع لابسني  
زهرأ على أجناس  
بقضيبها الميأس  
ومن المحابر كاسني  
بالبشر والإيناس

وقال في مثل ذلك :

إنَّ الإمامَ محمداً  
لباسه ثوباً ، وقد  
وعمامة الشفق<sup>٢</sup> التي  
يا حسنها إذ أرسلت  
وكان وشي رقومها  
ويطرزه لون السما  
لله منه نير  
مستنصر ، أعلى له  
أهدى الخليفة أحمداً  
لبس المحامد وارتدى  
من فوقها شمس الهدى  
من كفه غيث الندى  
بالبرق طرر عسجدا  
ء ووجهه قمر يدا  
حل المنازل أسعداً  
فوق المنازل أسعداً

ثم قال وأنشده وهو على جواد أدهم :

تجلى لنا المولى الإمام محمد  
فأبصرت صباحاً فوق ليل وقد حكى  
على أدهم قد راق حسن أدبهم  
مقلد ذلك الطرف بعض نجومه

وكتب له مع هدية زهر :

أمولاي تقبلي ليمناك شاقني  
ولما رأيت الدهر ما طلكتي بها  
ولا ينكر الظمان شوقاً إلى البحر  
وشوقني من حيث أدري ولا أدري

١ ق : رياضاً .

٢ الأزهار : التقوى .

بعثتُ لكَ الزَّهْرَ الجَنِيَّ لعلَّهُ  
يقبلُها عني نغورٌ من الزهرِ  
وكتب إليه أيضاً متشوقاً :

كُتِبْتُ ودمعي بللَ الركبَ قطرهُ  
حينئذٍ لمولِّي أتلفَ المالَ جودهُ  
وما عشتُ بعدَ البينِ إلاَّ لأنتي  
وأنشده أيضاً وهو بحال تألم :

كأنِّي بلطفِ الله قد عمَّ خَلْقَهُ  
وقاضي القضاء الحتمَ سجَّلَ ختمه<sup>١</sup>  
وعافى إمامَ المسلمينَ وقد شفى  
وخطَّ على رسمِ الشفاء له « اكنفى »  
وله في مثل ذلك :

لكَ الخَيْرُ يا مولايَ أشرُّ بعصمةِ  
وعافيةِ في صحَّةٍ مستجدَّةٍ  
ووجهُ التهاني مُشرقٌ متهلِّلٌ  
وقد ظهرتُ للبرء منكَ علامةُ  
وفي مثل ذلك :

يا إماماً قد تخدنا  
خطُّ يَمناكَ ينادي  
ه من الدهرِ مَلادًا  
صحَّ هذا صحَّ هذا

وقال مهتأ بالشفاء :

١ الأزهار : حكمة .

٢ الأزهار : المظني .

الحمدُ لله بَلَّغْنَا المُنَى  
وفزرت بالأجرِ وكبنتِ العدا  
لما رأيناكَ ، وزالَ العنا  
منَّ علينا من ظهورِ السنا

وقال أيضاً في نحوه :

نعم قَرَّتِ العيانَ وانشرحَ الصدرُ  
سرينا بليلِ التيه يكذبُ فجره  
وقد لاح من وجه الإمامِ لنا البدرُ  
فلما تجلَى فجره صدقَ الفجرُ  
أغرَّتِ المُحيَا بالحياءِ مُقنَّعٌ  
إمامُ الهدى قد خصَّه بخلافةِ  
زهاه الكلامُ الحرُّ والنسبُ الحرُّ  
إلهٌ له في خلقه النهيُّ والأمرُ

وقال في مثله ، وقد ركب رحمه الله تعالى لمعاهد حضرته :

هنيئاً هنيئاً لا نقادَ لعدِّه  
فقد لاح بدرُ التم في أفقِ العُلا  
وبشري لدينِ الله إنجازُ وعده  
وحلَّ كما يرضى منازلَ سعده  
وطاف أميرُ المسلمين محمدُ  
بحضرتِه العَلِيَا مبلغَ قصده  
ولاحتْ بها الأنوارُ من بشرِ وجهه  
وأبصرتِ الأبصارُ شمسَ هدايةِ  
وألوحَتِ الأعلامُ فيها بنصره  
ستهدي له الأيامُ كلَّ مسرةِ  
فَسَلَّ حِسامَ السعدِ واضرب به العدا<sup>١</sup>  
ويحيي به الرحمنُ آثارَ جدِّه  
وخَلَّ حِسامَ الهندِ في كثرِ غمده  
فسيفك سيفُ الله مهما سلكته<sup>٢</sup>  
يقيمُ حدودَ الله قائمُ حده

١ الأزهار : إمام .

٢ الأزهار : المنير .

٣ الأزهار : واضرب بحده .

٤ الأزهار : في كن .

وقال ، وقد عاد رحمه الله تعالى من بعض متوجهاته الجهادية لجبل الشوار :

على الطائر الميمون والطارح السَّعدِ      قدمت مع الصنَّع الجميلِ على وعدِ  
وقد عدت من جبلِ الشوارِ لتجتلي      عقائلَ للفتحِ المئينِ بلا عدِّ

وقال مما رسم في طيقان<sup>١</sup> الأبواب بالمباني السعيدة التي ابتناها رحمه الله

تعالى :

أنا تاجُ كهلالِ      أنا كرسيُّ جمالِ  
يَنجَلِي الإبريقُ فيه      كعروسِ ذي اختيالِ  
جودُ مولانا ابنِ نصرِ      قد حباي بالكمالِ

وفي مثله :

من رأى التاجَ الرفيعا      قد حوى الشكرَ البديعا  
تحسدُ الأفلاكُ منه      قوسَه السهلَ المنيعا  
دمتُ ربعاً للتهاني      أنظمُ الشملَ الجميعا

وفيه :

للغني باللهِ قصرُ      للتهاني بصطفيةِ  
فيه محرابُ صلاةِ      يقفُ الإبريقُ فيه  
تالياً سورةَ حُسْنِ<sup>٢</sup>      والمعالي تفتيةِ

وفيه :

أي قوسِ ذي جمالِ<sup>٣</sup>      سهمهُ سهمُ السعادةِ

١ ق : طبقات .

٢ الأزهار : حبي .

٣ الأزهار : كمال .

مَلِكُ الْإِبْرِيْقِ فِيهِ عَوْدَ الْإِحْسَانِ عَادَةً  
ذُو صَلَاةٍ مِنْ صِلَاتٍ كُلَّهَا دَابًّا مُعَادَةً

وقال في المعنى مما كتب به لعننا الأمير « سعد » رحمة الله تعالى عليه :

انظر لأفقي جمالٍ به الأباريقُ تَصَعَّدُ  
حُسْنٌ بَدِيعٌ حَبَاهُ به الأميرُ المَجْدُ  
فخرُ الإمارةِ سعدٌ به الخليفةُ يَسْعَدُ  
وكيفَ لا وأبوه فخرُ الملوكِ محمدُ  
عليه حلِّيُّ رضاهُ في كلِّ يومٍ يُجَدِّدُ

وقال فيه أيضاً :

رفعتُ قوسَ سَمَائِي يُزْهِى بِتَاجِ الْهَلَالِ  
قَدُّ قَلْدَتِهِ نَقُوشِي دُرَّ الدَّرَارِي الْعَوَالِي  
تَرَى الْإِبْرِيْقَ فِيهِ تَهْدِيكَ عَذْبَ الزَّلَالِ  
قَدْ زَانَ قَصْرِي سَعْدٌ بِسَعْدِهِ الْمُتَوَالِي  
قَدَامَ يَعْمُرُ رَبَّعِي فِي كَلِّ مَوْلَى الْمَوَالِي

وفي الغرض :

مَا تَرَى فِي الرِّيَاضِ أَشْبَاهِي يَسْحَرُ الْعَقْلَ حَسَنِي الزَّاهِي  
زَانَ رُوْضِي أَمِيرِهِ سَعْدٌ وَهُوَ نَجْلُ الْغَنِيِّ بِاللَّهِ  
دَامَ مِنْهُ بِمَرْتَقَى عَزِّي أَمْرٌ بِالسَّعُودِ أَوْ نَاهِي

وقال في غرض الشكر عن مغطى<sup>٢</sup> صنهاجي أهدها إياه :

١ ق : الأمين .

٢ يستدل من القطعة أن المنطى نوع من الصناديق .



تَطَابَقَ مِنْهَا أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا  
 وَمَا قَدْ سَمَا مِنْ فَوْقِ ذَلِكَ غَطَاؤُهَا  
 وَحَسْبُكَ فَخْرًا بَانَ مِنْهُ اعْتِلَاؤُهَا  
 صِنُوفٌ مِنَ النِّعْمَاءِ مِنْهَا وَطَاؤُهَا  
 عَلَى نِعَمٍ عِنْدَ الْإِلَهِ كَفَاؤُهَا  
 تُقْصِرُ عَمَّا قَدْ حَوَى خَلْقَاؤُهَا  
 عَلَى اللَّهِ فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ جَزَاؤُهَا

لَمَنْ قَبَّةٌ حَمْرَاءُ مُدَّةً نُضَارُهَا  
 وَمَا أَرْضُهَا إِلَّا خَزَائِنُ رَحْمَةٍ  
 وَقَدْ شَبَّهَ الرَّحْمَنُ خَلْقَتَنَا بِهِ  
 وَمَعْرُوشَةَ الْأَرْجَاءِ مَفْرُوشَةً بِهَا  
 تَرَى الطَّيْرَ فِي أَجْوَاهِهَا قَدْ تَصَفَّفَتْ  
 وَنَسَبَتْهَا صَنْهَاجَةً غَيْرَ أَنَّهَا  
 حَبَّتِي بِهَا دُونَ الْعَبِيدِ خِلَافَةً  
 وَفِي مِثْلِهِ :

قَدْ شَادَهَا كَرَمُ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ  
 وَيَجُودُ مَوْلَايَ الْإِمَامِ مَهْدٍ  
 عَنْ ثُوبِ مَوْشِي الرِّيشِ مَجْرَدٍ  
 فَلشَكَرَ هَذَا الْعَبْدِ سَجْعُ مَغْرَدٍ  
 قَدْ عَاهَدْتَهُ بِدَوْحِهَا الْمَتَعُودِ  
 دَانَتْ لَهُ أَمْلَاكُهَا بِتَعْبُدِ  
 لَا زَلَّتْ خَيْرَ مَعْرُودٍ وَمَعُودٍ  
 فِيهَا لِقَارٍ بِالنَّوَالِ مُجَوِّدٍ

مَا لِلْعَوَالِمِ جَمَعَتْ فِي قَبَّةٍ  
 فِي صَفْحِ صِرْحٍ بِالزَّرْجَاجِ مَمُوءَةٍ  
 مَا إِنْ رَأَيْتَ وَلَا سَمِعْتَ كَطَائِرًا  
 إِنْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الطَّيُورُ تَغَرَّدَتْ  
 صَفَّتْ عَلَيْهَا لِلْفَوَاكِهِ كُلُّ مَا  
 لَوْ أَبْصَرْتَ صَنْهَاجَةً أَوْضَاعَهُ  
 عَوْدَتِي الصَّنْعَ الْجَمِيلَ تَفْضُلًا  
 وَبِسُورَةِ الْأَنْعَامِ كَمَ مِنْ آيَةٍ  
 وَقَالَ تَذْيِيلًا لِبَيْتِي ابْنَ الْمُعْتَرِ ٢ :

شِبْهَةَ خَدَيْبِهَا بِغَيْرِ رَقِيبٍ  
 وَشَمْسِينَ مِنْ خَمْرِ وَخَدٍّ حَيْبٍ

سَقْتَنِي فِي لَيْلٍ شَبَّيْهِ بِشَعْرِهَا  
 « فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلِينَ لِلشَّعْرِ ٣ وَاللَّجِي ٤ »

١ الأزهار : بطائر .

٢ انظر أشعار أولاد الخلفاء : ١٧٩ .

٣ الصولي : فبت لذا الليلين بالشمر .

٤ الصولي : وفجرين من راح ووجه .

إلى أن بدا الصبحُ المبينُ كأنهُ  
شمالهُ مهما أدبرتُ كؤوسها  
مُحيًا ابن نصرٍ لم يُشَنِّ بغروب  
قلائدُ أسماعٍ وأنسُ قلوب

وقال مذيلاً على بيت ابن وكيع<sup>١</sup> :

« هي في أوجه الندامي عقيقُ  
« هي في أوجه الندامي عقيقُ  
كأبن نصر تراهُ في الحرب ليثاً  
كأبن نصر تراهُ في الحرب ليثاً  
ذكره قد نسي قُدودَ الندامي  
ذكره قد نسي قُدودَ الندامي  
وأعادَ الحياةَ في الأرواح<sup>٢</sup>  
وأعادَ الحياةَ في الأرواح<sup>٢</sup>

وقال ممّا يرسم للغني بالله :

للغني بالله مُلكُ  
بُرْده بالعزُّ مُدْهَبُ  
دام في رفعةٍ شانٍ  
ما جلا الإصباحُ غَيْهَبُ

وقال أيضاً :

يا ابن نصر لك مُلكُ  
ليس تعدوه الفتوحُ  
دمت رُوحاً للمعالي  
ما سرى في الجسم رُوحُ

ومن مقطوعاته :

وإبنُ نصر له محباً كصبحٍ  
إن تجلّى جلالنا<sup>٣</sup> كلَّ كَرْبِ  
ذو حسامٍ كأنهُ لمعُ برقٍ  
في بنانٍ كأنها غيثُ سَحْبِ

ومن أخرى :

وكانَ النجومَ في غَسَقِ اللدِ  
لم جُمانُ يلوحُ في آبنوسِ

١ لم يرد في ديوانه المجموع .

٢ الأزهار : الأشباح ؛ وهي بمعنى الأجسام .

٣ الأزهار : جلا دجى .

وكانَ الصِّباحَ في الأفقِ بجلى  
وكانَ الرِّياضَ تَهدي ثناءً  
بجلى النجومِ مثلَ العروسِ  
للغنى بالله فوقَ الطروسِ

وقال من قصيدة أولها :

أضياءَ هَدْيٍ أم ضياءَ نهارِ  
قَسَمًا بهديك في الضياءِ ، وإنه  
وشذا المحامدِ أم شذا الأزهارِ  
شمسٌ تمدُّ الشهبَ بالأنوارِ

ومنها :

كم من لطائفَ للهدى أوضحتها  
كم من جرائمَ قد غفرتَ عظيمها  
نخيتَ لطاقفها<sup>١</sup> على الأفكارِ  
مُستترلاً من رحمةِ الغفارِ  
علمتَ ملوكَ الأرضِ أنك فخرها  
فتسابقتَ لرضاكَ في مضمارِ

ومنها بصف الجيش :

سالتَ به تحتَ العجاجِ سفينة  
أرستَ بجودي الجودِ في يومِ الندى  
لقت بريحَ العز<sup>٢</sup> من أنصارِ  
وجرتَ بيومِ الحربِ في تيارِ

ومنها :

ألقى بأيدي الرِّيحِ فَضَّلَ عِناهُ  
فيكادُ يسبقُ لمحةَ الأَبصارِ

ومنها :

فهي العِرابُ متى أنبرتَ يومَ الوغى<sup>٤</sup>  
قد أعربتَ عن لطفِ صنْعِ الباري

١ بين هذا البيت وسابقه في أزهار الرياض : ومنها بعد كثير .

٢ الأزهار : مداركها .

٣ الأزهار : العزم .

٤ الأزهار : متى أنبرت في الوغى ؛ ق : أنبرت يوم .

ومنها :

إن خاض في ليلِ العجاجِ رأيتَهُ  
يجلُو دُجْنَتَهُ بوجهِ نهارِ

ومنها :

كم فيهمُ من قارِ ضيفِ طارقِ  
وضحتُ شواهدُ فضلِهِ للقارِ

ومنها :

يا أيها الملكُ الذي أيامُهُ  
قد زاركَ العيدُ السعيدُ مبشراً  
لما ازدَهتَهُ عواطفُ ألطفَتها  
فأنتى يؤمُّم منك هدياً صالحاً  
وأناكَ يسحبُ ذيلَ سحْبِ أغدقتُ  
جادتِ بجاري الدمعِ من قَطْرِ الندى  
فأعادَ وجهَ الأرضِ طلقاً مشرقاً  
لما دعاكَ إلى القيامِ بسنةٍ  
فأفضتَ فينا من نذاك مواهباً  
فاهناً بعيدِ عادِ يشتملُ الرضى

ومنها :

لا عُدْرَ لي إن كنتُ فيه مقصراً  
فإذا نظمتُ من المناقبِ درّها  
فلذاك أنظمتُ قلائدَ لؤلؤ  
سدّتْ صفاتك أوجهَ الأعدارِ  
شرقتني منها بنظْمِ دراري  
لألاؤها قد شَفَّ بالأنوارِ

١ الأزهار : بحر العجاج .

وأشدد على لحده المقدس رحمه الله تعالى ١ :

ضريح أمير المسلمين محمد  
وحببتك<sup>٢</sup> من روح الإله تحية<sup>٣</sup>  
وشقت جيوب الزهر فيك كرائم<sup>٤</sup>  
وصابت من الرحمى عليك غمام<sup>٥</sup>  
وزارتك من حور الجنان أوانس<sup>٦</sup>  
وجاءتك بالبشرى ملائكة الرضى  
وصافح منك الروض أطيّب تربة  
رضى الله والصفح الجميل وعبوه<sup>٧</sup>  
ويا صدفاً قد فاز من جوهر العلا  
أعندك أن العلم والحلم والحجى  
وهل أنت إلا هالة القمر الذي  
ويا عجباً من ذلك الترب كيف لا  
لقد ضاقت الأكوان وهى رحية<sup>٨</sup>  
قدمت على الرحمن أكرم مقدم  
أقام بك المولى الإمام محمد  
فجاء كما ترضى وترضى به العلا  
ومد ظلال العدل في كل وجهة  
وقام بمفروض الجهاد عن الورى  
قضى بعدما قضى الخلافة حقها

بخضك ربي بالسلام الردد  
مع الملا الأعلى تروح وتغتدي  
يرف بها الريحان عن خضل ندي  
تروى ثرى هذا الضريح المنجد  
نواعم في كل النعيم المخلد  
كما جاء في الذكر الحكيم المجدد  
وعاهد منك المزن أكرم معهد  
يؤالى على ذلك الصفيح المنضد  
بكل<sup>٩</sup> نفيس بالنفاسة مفرد  
وزهر الحلى قد أدرجت طي ملحد  
بنور هدها الشهب تهدي وتهدي  
يفيض ببحر السماحة مزبد  
بما حزت من فخر عظيم وسودد  
وزودت من رحماه خير مزودد  
مؤمل فوز بالشفيع محمد  
وأنجز للأمال أكرم موعد  
وكف أكف البغي من كل معتد  
وعود دين الله خير موعود  
وعامل وجه الله في كل مقصد

١ انظر أزهار الرياض ٢ : ١٥٢ .

٢ الأزهار : وحيك .

٣ الأزهار : حاز ... لكل .

وفتح بالسيف الممالك عنوة  
 وكسر تمثال الصليب وأخرست  
 وطهر محرّاباً وجدّد منبراً  
 ودانت له الأملاك شرقاً ومغرباً  
 وطبق معمور البسيطة ذكره  
 وسافر عن دار الفناء ليجتلي  
 وقام بأمر الله حقّ قيامه  
 لئن سار للرحمن خير مودع  
 فقد خلّف المولى الخليفة يوسفاً  
 سبيلك في سبل المكارم يقتضي  
 محمد جليّ الخطب من بعد يوسف  
 ولو وجد الناس الفداء مسوغاً  
 ستبكيك أرض كنت غيث بلادها  
 وتبكي عليك السحب ملء جفونها  
 وتلبس فيك النيرات ظلامها  
 وما هي إلا أعين قد تسهدت  
 فلا زلت في ظلّ النعيم مخلّداً  
 وأوردك الرحمن حوض نبيه  
 عليك سلام مثل حمدك عاطر  
 وصلى على المختار من آل هاشم

وقال يستعطف الوالد السلطان أبا الحجاج :

بما قد حزت من كرمِ الحلالِ      بما أدركتَ من رُتبِ الحلالِ  
 بما حوَّلتَ من دينِ ودنيا      بما قد حزتَ من شرفِ الجمالِ  
 بما أوليتَ من صنعِ جميلِ      يطابقُ لفظه معنى الكمالِ  
 تغمدني<sup>٢</sup> بفضلك ، واغفرها      ذنوباً في الفعّالِ وفي المقالِ

وقال أيضاً<sup>٣</sup> :

أَتَعَطَّشُ أَوْلَادِي وَأَنْتَ غَمَامَةٌ      تَعْمُ<sup>٤</sup> جَمِيعَ الْخَلْقِ بِالنَّفْعِ وَالسَّقِيَا  
 وَتَظْلِمُ أَوْقَاتِي وَوَجْهَكَ نِيرٌ      تَفِيضُ بِهِ الْأَنْوَارَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا  
 وَجَدُّكَ قَدْ سَمَّاكَ رَبُّكَ بِاسْمِهِ      وَأُورَثَكَ الرَّحْمَنُ رُتْبَةَ الْعُلِيَا  
 وَقَدْ كَانَ أَعْطَانِي الَّذِي أَنَا سَائِلٌ      وَسَوَّغَنِي مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلَا ثُنْيَا  
 وَشِعْرِي فِي غُرِّ الْمَصَانِعِ خَالِدٌ      يَحْيِيهِ عَنِي فِي الْمَمَاتِ وَفِي الْمَحْيَا  
 وَمَا زِلْتُ أَهْدِي الْمَدْحَ مَسْكَامُفْتَقًا      فَتَحْمِلُهُ الْأَرْوَاحُ عَاطِرَةَ الرِّيَا  
 وَقَدْ أَكْثَرَ الْعَبْدُ التَّشْكِيَّ وَإِنِّه      وَحَقُّكَ يَا فَخْرَ الْمُلُوكِ قَدْ اسْتَحْيَا  
 وَمَا الْجُودُ إِلَّا مَيْتٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ      إِذَا نَفَخْتُ يَمْنَاكَ فِي رُوحِهِ يَحْيَا  
 فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ لِلدِّينِ مُحَمَّدٍ      فَيَدْعُوَ لِمَوْلَانَا الْخَلِيفَةَ بِالْبُقْيَا

وقال أيضاً فيه وقد نزل بالولجة من مرج الحضرة :

مَنْزِلُ الْيُمْنِ وَالرَّضَى وَالسُّعُودِ      أَنْجَزَتْ فِيهِ صَادِقَاتُ الْوَعُودِ  
 كُلُّ يَوْمٍ نَزَاهَةٌ إِنْ تَقَضَّتْ      أَنْشَدَتْهَا السُّعُودُ : بِاللَّهِ عُودِي  
 جَمْعُ الْمُسْتَعِينِ وَصَفَ كَمَالِ      بَيْنَ بَأْسِ عَمِّ الْمُلُوكِ وَجُودِ

١ الأزهار : المعالي .

٢ ق : تغمدها .

٣ الأزهار : ومن ذلك أيضاً يخاطب أخانا السلطان أبا عبد الله رحمة الله تعالى عليه متوسلاً بقديم  
 ذمامه ، والخدم المتعددة من نظامه .

فاهنَ في غبطةٍ وعزةٍ مُلكٍ أنتَ واللهُ فخرُ هذا الوجودِ  
وقال أيضاً مشيراً لتوليته العلامة :

لكِ غرَّةٌ ودَّ الصِّباحُ جمالها      ومحاسنُ تهوى البُورُ كمالها  
وشمائلُ تحكي الرياضُ خلاها      وأناملُ ترجوا الأنامُ خلاها  
للمستعينِ خلافةُ نصريَّةٌ      عرفتُ ملوكُ العالمين جلالها<sup>٢</sup>  
وأنا الذي قد نالَ منك معالياً      تهدي النجومُ الزاهرات منالها  
تهديه ما قد نلته من بعضها      فالفخرُ كلُّ الفخرِ فيمن نالها  
في كلِّ يومٍ منك منَّةٌ منعمٍ      لو طاولتُ سمكُ السماء ما طالها  
بلَغْتَ آمالَ العبيدِ فبلَّغْتَ      فيك العبيدُ من البقا آمالها

وقال أيضاً وكتبها إليه مع خمسة أقلام :

أيا مالكا لم يبْدُ للعينِ حُسْنُهُ      سوى ملكٍ قد حلَّ من عالمِ القدسِ  
لكِ الخيرِ خذها كالأناملِ خمسةٌ      تُعوذُ مرآكُ المكمَلِ بالحمسِ  
فمن أبصرتِ عيناكِ مرآه فليقلْ      أعوذُ بربِّ الناسِ أو آيةِ الكرسي

ثم قال ابن الأحمر : وقال يخاطب مولانا الوالد رحمة الله تعالى عليه وقد مرَّ  
معه بفحص رية ، والتلج قد عمَّ أنديته ، وبسط أرديته ، في وجهة توجهها  
مولانا الجد تغمده الله تعالى إلى مالقة :

يا مَنْ به رُتِبُ الإمارةُ تعلى      ومعالمُ الفخرِ المشيدة تبتني

١ ق : ترجى .

٢ الأزهار : جمالها .

٣ الأزهار : سمك الملا .

٤ الأزهار : المعالي .



ازجره بهذا الثلج فالألم إنه  
 بسط البياض كرامةً لقدومه  
 فالأرضُ جوهرةٌ تلوحُ لمجتلٍ  
 والدوحُ مزهرةٌ تفوحُ لمجنبي  
 سبحانَ من أعطى الوجودَ وجوده  
 ليدلَّ منه على الجوادِ المحسنِ  
 وبدائعُ الأكوانِ في إتقانها  
 أثرٌ يشيرُ إلى البديعِ المتقنِ

ثم قال : ومن أوليات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد الله ابن الخطيب  
 مادحاً قوله :

أما وانصداعِ النورِ من مَطْلَعِ الفجرِ

إلى آخره ، وقد تقدمت .

ثم قال : وقال يراجع الكاتب أبا زكريا ابن أبي دلالة<sup>١</sup> :

على الطائرِ الميمونِ والطاقِ السعدِ  
 وأحييتَ يا يحيى بها نفسَ مغرمٍ  
 نسيتُ وما أنسى وفائي وخطي  
 وما الطلُّ في ثغري من الزهرِ باسمِ  
 فأصدقتها من بحرِ فكري جواهرأ  
 وكنْتُ أطيلُ القولَ إلا ضرورةً  
 أتني معَ الصنعِ الجميلِ على وَعْدِ  
 يجيلُ جياذَ الدمعِ في ملعبِ السهدِ  
 وأقفر ربيعُ القلبِ إلا من الوجدِ  
 بأزكى وأصفى من ثنائي ومن ودي  
 تنظّم من درِّ الدراري في عقدِ  
 دعني إلى الإيجازِ في سورةِ الحمدِ

وأنشد السلطان أبا العباس المرسى في غراب<sup>٢</sup> من إنشائه :

إنسانَ عينِ الدهرِ جفّنتك قد غدا  
 إذا ما هتفا فوقَ الرؤوسِ شراعهُ  
 يحفّك منه طائرُ اليُمنِ والسعدِ  
 أراك جناحاً مُدّاً للجزرِ والمدِّ

١ أزهار الرياض ٢ : ١٧٥ .

٢ الغراب : نوع من السفن .

وأنشد فيه أيضاً :

لك الخيرُ شأنُ الجفنِ يحرسُ عينَهُ      وهذا بعينِ الله يحرسُ دائماً  
تبيتُ لهُ خمسُ الثريّا معيذةً      تقلدهُ زهُرُ النجومِ تئاماً  
فيا جفنُ لا تنفكُ في الحفظِ دائماً      وإن كنتَ في لُجٍّ من البحرِ عائماً

انتهى ما لخصته من كلام ابن الأحمر في حق ابن زمرك ، وذلك جملة من نظمه .

[ موشحات ابن زمرك ]

وقد رأيت أن أعزز ذلك ببعض موشحات ابن زمرك المذكور<sup>١</sup> مما انتقيته من كلام ابن الأحمر :

فمنها قوله متشوقاً إلى غرناطة ويمدح الغني بالله :

بالله يا قامةَ القضيبيِّ      ومجلىَّ الشمسِ والقمرِ  
من ملكِ الحسنِ في القلوبِ      وأيدَ اللحظِ بالحورِ  
من لم يكنُ طبعه رقيقاً      لم يدري ما لذةُ الصبَا  
فربَّ حرٍّ غداً رقيقاً      تملكه نفحةُ الصبَا  
نشوانٍ لم يشربِ الرحيقاً      لكنْ إلى الحسنِ قد صبَا  
فعدبَ القلبَ بالوجيبِ      ونعمَ العينَ بالنظرِ  
وبات والدمعُ في صيبِ      يقدحُ من قلبه الشرُّ

١ في الأزهار : وقد عن لي أن أذكر جملة من موشحات لغرايتها ، ولأن جل ما وقفت عليه منها ينخرط في سلك المعرب ، إذ أكثره من مجلح البسيط .

عجبتُ من قلبي المعنى  
لو كان للصبِّ ما تمنى  
وبُلبلُ الدَّوحِ إن تغنى  
يَهْفُو إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ  
لَطَارَ شَوْقًا إِلَى البَطَاحِ  
أَسْهَرَ لَيْلِي إِلَى الصَّبَاحِ

عساكَ إن زرتَ يا طيبي  
أن تجعلَ النومَ من نصيبي  
كَمْ شَادِنٍ قَادٍ لِي الخِتَوفَا  
يَسْأَلُ مِنْ لَحْظِهِ سِيوفَا  
خَلِقْتُ مِنْ عَادَتِي أَلْوَفَا  
بِمَرِيعِ القَلْبِ قَدْ سَكَنَ  
فَالقَلْبُ بِالرُّوعِ مَا سَكَنَ  
أَحْنُ لِسَالِفِ والسَكَنُ

غرناطةٌ منزلُ الحبيبِ  
تَبْهَرُ بِالمَنْظَرِ العَجِيبِ  
عروسَةٌ تاجُهَا السِّيكَهْ  
لم تَرَضَ مِنْ عَزَّهَا شَرِيكَهْ  
أَيْدِهَا اللهُ مِنْ مَلِيكَهْ

بدولةِ المرتجى المهيَّبِ  
تختالُ مِنْ بُرْدِهَا القَشِيبِ  
الملكِ الطاهِرِ الأغرِ  
فِي حُلَّةِ النورِ والزَّهَرِ

كرسيُّها جنةٌ العريفِ  
وجوهرُ الطلِّ عن شَنُوفِ  
والأنسُ فيها على صنُوفِ  
مَرَاتِهَا صَفْحَةُ الغَدِيرِ  
تَحْكُمُهَا صَنَعَةُ القَدِيرِ  
فَمِنْ هَدِيلِ وَمِنْ هَدِيرِ

كم خرق الزهرُ من جيوبِ      وكلل القُضْبَ بالدررِ  
 فالقُصْنُ كالكَاعبِ اللعوبِ      والطيْرُ تشدو بلا وترِ  
 ولائمُ النصرِ في احتفالِ      وفرحُ دينِ الهوى اُ جديدِ  
 سلطانها مُعْمِلُ العوالي      محمد الظافرُ السعيدِ  
 ومجملُ البدرِ في الكمالِ      سلطانها المجتبي الفريدِ  
 أصفَحُ مَوَلَى عن الذنوبِ      أكرمُ عافٍ إذا قدرِ  
 وشمسُ هَدْيٍ بلا منيبِ      وبحرُ جودٍ بلا حَسَرِ  
 مولاي يا عاقدَ البِنودِ      تظلل الأوجهُ الصباخِ  
 أوحشتَ يا نخبَةَ الوجودِ      غرناطَةٌ هالَةٌ السَمَاحِ  
 سافرتَ باليَمْنِ والسعودِ      وعدتَ بالفتحِ والنجاحِ  
 يا ملُهم القلبِ للغيوبِ      ومُطعمِ النصرِ والظفرِ  
 أسمعك الله عن قريبِ :      « على السلامَةِ من السفرِ »

وقال أيضاً<sup>٢</sup> من الموشحات الرائقة<sup>٣</sup> ، في مثل أغراض هذه السابقة ، وأشار  
 إلى محاسن من وصف النشار :

نَسِيمُ غرناطَةِ عليلِ      لكنَّهُ يبرىء العليلِ  
 وروضها زهرهٌ بليلِ      ورشفه ينقعُ الغليلِ  
 سقى بنجدِ رَبِّي المصلتى      مبكراً روضهُ الغمامِ  
 فعجفتهُ كلما استهلاً      تبسمَ الزهرُ في الكِمامِ  
 والروضُ بالحسنِ قد تحلّى      وجردَ النهرُ عن حِمامِ

٢ ق : ثم ذكر .  
 ٤ الأزهار : تجل .

١ الأزهار : الهدى .  
 ٣ الأزهار : الفاتقة .

ودوحها ظلهُ ظليلُ  
 والبرقُ والجوُّ مستظيلُ  
 عقيلةٌ تاجها السِّيكةُ  
 كأنها فوقهُ مليكةُ  
 تطيعُ من عسجدِ سبيكةُ  
 أبدعك الخالقُ الجميلُ  
 قلبي إلى حُسنه يميلُ  
 وزاد للحسنِ فيك حسنا  
 جدّد للفخر فيك معنى  
 تدعى دشاراً وفيك معنى  
 فالنصرُ والسعد لا يزولُ  
 سعدٌ وأنصاره قبيلُ  
 أبدى به حكمةَ القديرِ  
 ودرعَ الزهرِ بالقدِيرِ  
 فمن هديلٍ ومن هديرِ  
 كبت على روضها القبولُ  
 فلم يزلَ بيئتها يجولُ  
 للزهرِ في عطفها رُقومُ  
 وللندى بيئها رسومُ  
 وكلُّ وادٍ بها يسيمُ  
 يحسنُ في ربهِ المقيبلُ  
 يلعبُ بالصارمِ الصقيبلُ  
 تطلُّ بالمرقبِ المنيفُ  
 كرسيُّها جنَّةُ العريفُ  
 شموسُها كلِّما تطيفُ  
 يا منظرأ كلِّه جميلُ  
 وقبلنا قد صبا جميلُ  
 محمدُ الحمدِ والسَّماحُ  
 في طالعِ اليُمنِ والنجاحُ  
 يخصك الفألُ بافتتاحُ  
 لأنَّه ثابتُ أصيلُ  
 آباؤه عِرةُ الرسولُ  
 وتوجُّ الروضِ بالقبابِ  
 وزينَ النهرِ بالحبابِ  
 ما أولعَ الحسنُ بالشبابِ  
 وطرفها بالسرى كليلُ  
 حتى تبدتْ له حُجولُ  
 تلوحُ للعينِ كالنجومِ  
 عقدُ الندى فوقهُ نظيمُ  
 ولم يزلْ حولها يحومُ

وشين ألف لمستيل  
وعين واد به تسيل  
من فوق خد له أسيل

كم من ظلال به ترف  
ومن زجاج به يشف  
تضفو له فوقها سُور  
ما بين نور وبين نور  
تديرها بينها البدور  
ومن شمس بها تُصف

مزاجها العذب سلسيل  
وكيف والشيب لي عدول  
يا هل إلى رشفها سليل  
وصبغه صفرة الأصيل

يا سرحة في الحمى ظليله  
روضك الله من خميله  
كم نلت في ظلك المني  
يُجني بها أطيب الجني  
وبرقها صادق المخيله  
ما زال بالغيث محسنا

أنجز لي وعدك القبول  
« يا سرحة الحمى يا مطول »  
فلم أقل مثل من يقول :  
شرح الذي بيننا يطول »

ومن ذلك ما كتب به إلى الغني بالله :

أبلغ لغرناطة سلامي  
فلو رعى طيفها ذمامي  
وصيف لها عهدي السليم  
ما بت في ليلة السليم

كم بت فيها على اقتراح  
أدير فيها كؤوس راح  
أعل من خمرة الرضاب  
قد زانها الثغر بالحباب  
نشان في روضة الشباب  
أختال كالمهر في الجراح

أضاحكُ الزهرَ في الكِمامِ - مباحياً روضهُ الـوسيمُ  
وأفضحُ الغصنَ في القوامِ - إن هبَّ من جوها نسيمُ

بيننا أنا والشبابُ ضافٍ - وظلُّهُ فوقنا مديدُ  
وموردُ الأنسِ فيه صافٍ - وبرده رائقُ جديدُ  
إذ لاح في الفؤادِ غير خافٍ - صبحٌ به نبه الوليدُ

أيقظَ مَنْ كان ذا منامٍ - لما انجلى ليلهُ البهيمُ  
وأرسلَ الدمعَ كالغمامِ - في كلِّ وادٍ به أهيمُ

يا جيرةً عهدهم كريمُ - وفعلهم كلُّهُ جميلُ  
لا تعدلوا الصبَّ إذ يهيمُ - فقبله قد صبا جميلُ  
القربُ من ربِّكم نعيمُ - وبُعدكم خطبهُ جليلُ

كم من رياضٍ به وسامٍ - ينزهى بها الرائضُ المسيمُ  
غديرها أزرق الحمامِ - ونبتها كلُّهُ جميمُ<sup>٢</sup>

أعندكم أنني بفاسٍ - أكابدُ الشوقَ والحنينُ  
أذكرُ أهلي بها وناسي - واليومُ في الطولِ كالسنينُ  
اللهُ حسبي فكم أقاسي - من وحشةِ الصحبِ والبنينُ

مطارحاً ساجعَ الحمامِ - شوقاً إلى الإلفِ والحميمُ  
والدمعُ قد لجَّ في انسجامِ - وقد وهى عقدهُ التنظيمُ

١ الأزهار : الرائد .

٢ ق : جسيم .

يا ساكني جنة العريفِ	أُسكنتُمُ جنَّةَ الخلودِ
كم تمَّ من منظرٍ شريفِ	قد حُفَّ باليمن والسعودِ
ورُبَّ طودٍ به منيفِ	أدواحهُ الحضُرُ كالبنودِ
والنهرُ قد سلَّ كالحسامِ	لراحةِ الشَّرْبِ مستديمِ
والزهرُ قد راق بابتسامِ	مُقبلاً راحةَ التَّدِيمِ
بلغ عييد المقامِ صحي	لا زلتمُ الدهرَ في هنا
لِقائِكُمُ بغيَّةُ المحبِّ	وقربُكُمُ غايةُ المني
فعندكُمُ قد تركتُ قلبي	فجددَ اللهُ عهدنا
وداركَ الشملَ بانتظامِ	مِن مُرتجى فضلِهِ العَمِيمِ
في ظلِّ سلطاننا الإمامِ	الظاهرِ الظاهرِ الحَلِيمِ <sup>٢</sup>
مؤمنُ العلوتينِ مما	يخافُ من سطوةِ العدا
وفارجُ الكربِ إن الما	ومذَّهَبُ الخطبِ والرَدَى
قد راقَ حسناً وفاقَ حلما	وما عدا غيرَ ما بدا
مولايَ يا نخبَةَ الأنامِ	وحائزَ الفخرِ في القديمِ
كَم أرقبُ البدرَ في التمامِ	شوقاً إلى وجهكَ الكريمِ

منها موشحة عارض بها موشحة ابن سهل التي أولها « ليل الهوى يقظان »

وهي :

نواسمُ البُستانِ	تنثرُ سلكَ الزَّهرِ
والطلُّ في الأغصانِ	ينظمهُ بالجوهرِ

١ ق : من يرتجي .

٢ ق : الحميم .



أضاء منها المشرقُ	وراحةُ <sup>١</sup> الإصباحِ
فلا تزال تخفقُ	تنشرُها الأرواحُ
لها عيونٌ ترمقُ	والزهرُ زهرٌ فاحٌ
يبصرن ما لم يبصُرِ	فأيقظُ الندمانُ
قد عرضتَ للمُشتري	جواهرُ الشهبانِ <sup>٢</sup>
يا أيُّ هذا البارِقُ	قدحتَ لي زندا
إذ الشبابُ رائقُ	أذُكرتني عهدا
ولا الفؤادُ الخافِقُ	فالشوقُ لا يهدا
والقلبُ رهنُ الفِكْرِ	وكيف بالسُّلوانِ
تُحجبُ وجهَ القمرِ	وسُحُبُ الهجرانِ
ندبرها بينَ البلورِ	لولا شمسُ الكاسِ
منا على ربيعِ الصلورِ	وعرجِ الإناسِ
يفري برباتِ الخلورِ	لكن لها وسواسُ
بصبحِ وجهِ مفر	كَمُ واله هيمانُ
من تحتِ ليلِ مفر	ضياؤه قد بانُ
كم فيك من مرأى جميل	يا مطلعَ الأنوارِ
ما ضرَّ لو تشفى الغليل	ونزهةَ الأبصارِ
وعرفُها يُبري الغليل	يا روضةَ الأزهارِ

١ الأزهار : وراية .

٢ ق : الشبان .

قضيئك القينان	يسقى بدمع همير
فلا عج الأشجان	فيض الدموع يميري <sup>١</sup>
هل في الهوى ناصر	أو هل يجار الهائم
لو كان لي زائر	طيف الخيال الحائم
ما بت بالساهر	ودمع عيني ساجم
والحب ذو عدوان	يجهد في ظلم البري
وصارم الأجران	مؤتد بالخور
رحمك في صب	أذكرته عهد الصبا
بواعث الحب	قادت إليه الوصبا
لم تهف بالقلب	ريح الصبا إلا صبا <sup>٢</sup>
بليلة الأردن	قد ضمخت بالعنبر
يشير غصن البان	منها بفضل المتر
طيبها حمد	فخر الملوك المجتبى
من يرجع الطود	من حلمه إذا احتبى
قد جرد السعد	منه حساماً مذهباً
فالبأس والإحسان	والفوئ للمستنصر
تحمله الركبان	تجئة للمنبر
عصابة الكتاب	حق لها الفوز العظيم
تختال في أثواب	ألسها الطول الجسيم
فحسها الإطناب	في الحمد والشكر العميم

٢. ق : هيا .

١ ق والأزهار : يميري ؛ وامرئى افتعل من مرى بمعنى استدر .

خَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ  
 يَا مُورِدَ الظَّمَانِ  
 لَأَزِلْتُ سَامِي المَظْهَرِ  
 وَرَأْسَ مَالِ المَعْسَرِ  
 خُذْهَا عَلَى دَعْوَى  
 جَاءَتْ كَمَا نَهَى  
 تَزْرِي عَلَى الرُّوضِ الوَسِيمِ  
 أَرْقَ مِنْ لَدُنِ النِّسِيمِ  
 قَدْ طَارَحَتْ شَكْوَى  
 « لَيْلُ الهَوَى يَقْظَانُ »  
 « وَالصَّبْرُ لِي خَوَّانُ »  
 مِنْ قَالٍ فِي اللَّيْلِ البَهِيمِ  
 وَالحَبُّ تَرِبُ السَّهْرِ  
 وَالنَّوْمُ مِنْ عَيْنِي بَرِي

وله في الصبوحيات :

رِيحَانَةُ الفَجْرِ قَدْ أَطَلَّتْ  
 وَرَايَةُ الصَّبْحِ قَدْ أَطَلَّتْ  
 خَضْرَاءُ بِالزَّهْرِ تَزْهَرُ  
 فِي مَرْقَبِ الشَّرْقِ تُنْشَرُ  
 فَالشُّهُبُ مِنْ غَارَةِ الصَّبَاحِ  
 وَأَدْهُمُ اللَّيْلِ فِي جَمَاحِ  
 تُرْعَدُ خَوْفًا وَتُخْفِقُ  
 أَعْنَةَ البَرَقِ يُطْلِقُ  
 وَالأَفْقُ فِي مُلْتَقَى الرِّيحِ  
 وَالسَّحْبُ بِالجَوْهَرِ اسْتَهَلَّتْ  
 صَفَاحَهُ المَذْهَبَاتُ حَلَّتْ  
 بِطَيْبِهِ الزَّهْرُ يَشْهَدُ  
 فِي حَلِيَةِ النُّورِ يَغْمَدُ  
 وَرَبٌّ قَالٍ بِهِ وَقِيلَ  
 فَالْسُّنُّ الوُرْقِ قَدْ أَمَلَتْ  
 وَنَسْمَةُ الصَّبْحِ قَدْ تَجَلَّتْ  
 مَدَائِحًا عَنْهُ تُشْكِرُ  
 فِي سَدَسِ الرُّوضِ تَعْتَرُ

١. الأزهار : زاهي .

والكاس<sup>١</sup> في راحة النديم  
 أقبست<sup>٢</sup> النار في القديم  
 والنهر<sup>٣</sup> في ملعب النسيم  
 فلبت<sup>٤</sup> الحلي<sup>١</sup> قد تحلّت  
 وبهجة الكون قد تجلّت  
 يذكري<sup>١</sup> في وجنة الحبيب  
 وشارب<sup>٢</sup> الشارب<sup>٣</sup> العجيب  
 يدير<sup>٤</sup> من ثغره الشنيب  
 حلّت لأهل الهوى وجلّت  
 كم<sup>١</sup> من نفوس بها تسلّت  
 يا غصن<sup>٢</sup> بان<sup>٣</sup> يميل<sup>٤</sup> زهنوا  
 لو كنت<sup>١</sup> تصغي<sup>٢</sup> لرفع<sup>٣</sup> شكوى  
 ومن<sup>٤</sup> لثلي<sup>١</sup> بيت<sup>٢</sup> نجوى  
 عزائم<sup>٣</sup> الصبر<sup>٤</sup> فيك حلّت  
 قد<sup>١</sup> أكثرت<sup>٢</sup> منك ما استقلت  
 كم<sup>٣</sup> ليلة<sup>٤</sup> بثها<sup>١</sup> وبتا  
 أسامر<sup>٢</sup> النجم<sup>٣</sup> فيك حتى  
 أرقب<sup>٤</sup> بدر<sup>١</sup> الدجى ، وأنا

١ ق : الشمس .

٢ الأزهار : القصب .

٣ ق : يزر .

٤ الأزهار : أجفانه .

نَفْسِي وَكَيْتَ مَا تَوَلَّتْ  
لَوْ سُمَّتْهَا الْهَجْرَ مَا تَوَلَّتْ  
دَعَا عَلَى الشُّوقِ تَصْبِرُ  
وَلَمْ تَكُنْ عَنْكَ تَنْفِرُ

عَلِمَهَا الصَّبْرَ فِي الْحُرُوبِ  
مَعْتَرِ الصَّيْدِ لِلْجَنُوبِ  
سَلْطَانُنَا عَاقِدُ الْبُنُودِ  
أَعَزُّ مِنْ حُفٍّ بِالْجُنُودِ  
نُصِرْتَ بِالرَّعْبِ فِي الْقُلُوبِ  
وَالْبَيْضَ لَمْ تَبْرَحِ الْعُمُودِ

عِنَايَةُ اللَّهِ فِيهِ حَلَّتْ  
وَالْحَلْقُ فِي عَصْرِهِ تَمَلَّتْ  
بِسَعْدِهِ الدِّينُ يُنْصَرُ  
غَنَائِمًا لَيْسَ تُحْصَرُ

مَوْلَايَ يَا نَكْتَةَ الزَّمَانِ  
جَلَلْتَ بِالْيَمِينِ وَالْأَمَانِ  
دَارَ بِمَا تَرْتَضِي الْفَلَكَ  
كُلَّ مَلِكٍ وَمَا مَلِكُ  
لَمْ يَدْرِ وَصْفِي وَلَا عِيَانِي  
أَمَلِكُ أَنْتَ أُمَّ مَلِكُ

جَنُودِكَ الْغُلْبُ حَيْثُ حَلَّتْ  
وَعَادَةُ اللَّهِ فِيكَ دَلَّتْ  
بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ تُخْفَرُ  
أَنْتَ بِالْكَفْرِ تُظْفَرُ

يَا آيَةَ اللَّهِ فِي الْكَمَالِ  
قَدِمْتَ بِالْعَزِّ وَالْجَلَالِ  
وَمُخْجَلِ الْبَدْرِ فِي التَّمَامِ  
وَالدَّهْرِ فِي ثَغْرِهِ ابْتِسَامِ  
يَخْتَالُ فِي حُلَّةِ الْجَمَالِ  
وَالْبَدْرِ قَدْ عَادَ فِي اخْتِتَامِ

رِيحَانَةُ الْفَجْرِ قَدْ أَظَلَّتْ  
وَرَايَةُ الصَّبْحِ قَدْ أَظَلَّتْ  
خَضْرَاءَ بِالزَّهْرِ تَزْهَرُ  
فِي مَرْقَبِ الشَّرْقِ تَنْشَرُ

وقال ساعه الله تعالى :

قَدْ طَلَعَتْ رَايَةُ الصَّبَاحِ  
فَبَاكِرِ الرُّوْضِ بِاصْطَبَاحِ  
وَأَذْنَ اللَّيْلِ بِالرَّحِيلِ  
وَاشْرَبْ عَلَى زَهْرِهِ الْبَلِيلِ

فَالوُرُقُ هَبَّتْ مِنَ السُّبَاتِ  
تَسْجَعُ مَفْتَنَةَ اللِّغَاتِ  
وَالغصن بعد الذهب ياتي  
لأكؤس الطلل يشرب

وأدمع السُّحْبُ فِي انْسِيَاكِ  
وَالجَوَّ مُسْتَبْشِرُ النُّوَاكِ  
فِي كُلِّ رَوْضٍ لَهَا سَبِيلُ  
يَلْعَبُ بِالصَّارِمِ الصَّقِيلِ

قَمِ فَاعْتَمِ بِهَجَةِ النُّفُوسِ  
وَشَفَعِ الصَّبِيحَ بِالشَّمُوسِ  
مَا بَيْنَ نَوْرٍ وَبَيْنَ نَوْرٍ  
تَدِيرُهَا بَيْتَنَا الْبَدُورُ  
وَنَبَّهُ الشَّرْبَ لِلْكَوُوسِ  
تَمْزِجُ مِنْ رِيْقَةِ الثُّغُورِ

مَا أَجْمَلَ الرَّاحَ فَوْقَ رَاحِ  
تَعَادِرُ الصَّدْرَ ذَا انْشِرَاحِ  
صَفْرَاءُ كَالشَّمْسِ فِي الْأَصِيلِ  
لِلْأَنْسِ فِي طَيْهِ مَقِيلِ

وَلَا تَدْرُ خِمْرَةَ الْجَفُونِ  
وَلتَخْشَ مِنْ أَسْهَمِ الْعِيُونِ  
فَسَكْرُهَا فِي الْهُوَى جُنُونِ  
عَرَضَتْ مِنْهَا إِلَى الْفِتُونِ  
فَإِنْتَهَا رَائِدُ الْمُنُونِ  
وَكُلُّ خَطْبٍ لَهَا يَهُونِ

أَهْمِ بِالْغَسَادَةِ الرَّدَاحِ  
لَوْ بَتُّ مِنْهَا عَلَى اقْتِرَاحِ  
وَالجِسْمُ مِنْ حَبِّهَا عَلِيلُ  
نَقَعَتْ مِنْ رِيْقِهَا الْغَلِيلُ

أَوْاعِدُ الطَّيْفِ لِلتَّمَامِ  
أَسْهَرُ فِي لَيْلَةِ التَّمَامِ  
وَمَنْ لَعِبَنِي بِالْمَنَامِ  
عَلَيْهِ مِنْ ثَغْرِكَ ابْتِسَامِ  
وَأَنْتِ يَا بَدْرُ فِي التَّمَامِ  
وَأَلْمُ الزَّهْرِ فِي الْكِمَامِ

سَفَرْتَ عَنْ مَبِيسِمِ الْأَقَاكِ  
قَلِّ لِي يَا رَبَّةَ الْوَشَاكِ  
وَرِيْقُكَ الْعَذْبُ سَلْسِيلُ  
هَلْ لِي إِلَى الْوَصْلِ مِنْ سَبِيلِ

يا كعبة الحسن زدت حسنا  
وغصن بان إذا تثنى  
ألا انعطاف على المعنى  
أصبحت تزهو على الملاح  
ووجهك الشمس في اتضاح  
ما الزهر إلا بنظم در  
للملك الظاهر الأغر  
محمد الحمد وابن نصر  
مُساجل السُحب في السماح  
ومخجل البدر في اللباح  
يا مشرب الحب في القلوب  
نصرت بالرعب في الحروب  
قد لحت من عالم الغيوب  
مراكش نهبه افتتاح  
بشراك بالفتح والنجاح  
واللهوى حولك المطاف  
لو حان من زهرك القطاف  
فالفصن يزهي بالانعطاف  
بذلك المنظر الجميل  
لو أنها لم تكن تميل  
تحسد في حسنه العقود  
أكرم من حُف بالسعود  
وباسط العدل في الوجود  
بالغيث من رِفده الجليل  
بغرّة ما لها مثل  
وواهب الصفح للصفاح  
والرعب أجدى من السلاح  
لم تعدم الفوز والفلاح  
والصنع في فتحها جليل  
والشكر من ذلك القليل

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

في كؤوس الثغر من ذاك اللعس  
وتغشى الروض مسكي النفس  
وكسا الأدواح وشياً مذهباً  
يبهر الشمساً

عسجدٌ قد حلَّ من فوق الرُّبى  
 فاتخذ للهو فيه مركبا  
 يبهجُ النفسا  
 تلحق الأنسا  
 منبرُ الغُصنِ عليه قد جلسْ  
 حللَ السندسِ خُضراً قد لبسْ  
 ساجعُ الأدواخِ  
 عطْفُهُ المرتاخِ  
 قُمْ تَرى هذا الأصيلَ شاجبا  
 ولأذيالِ الغُصونِ ساحبا  
 حُسْنُهُ قد راق  
 في حلى الأوراقِ  
 ونديمٍ قالَ لي مخاطبياً  
 قولَ ذي إشفاقِ  
 عادةُ الشمسِ بغربِ تُختلَسْ  
 إنْ أَرانا الجوىَ وجهاً قد عبَسْ  
 هاتِ شمسِ الراحِ  
 أوقِدِ المِصباحِ  
 ووجوهُ الشَّرْبِ تغي عن شمسِ  
 بلحاظِ أسكرتنا عن كؤوسِ  
 كلما تُجلى  
 خمرها أحلى  
 مظهراتٌ من خفايا في النفوسِ  
 سُوراً تُتلى  
 ما زمانُ الأُنسِ إلا مختلَسْ  
 وعيونُ الشَّهبِ تذكي عن حرمِ  
 فاغتمْ يا صاحِ  
 تخمُّمِ النَّصاحِ  
 ما تَرى ثغرَ الوميضِ باسمِ  
 وثناءِ الروضِ هبَّ باسمِ  
 يُظهِرُ البِشرا  
 عاطراً نشرا  
 بثَّ من أزهاره دراهما  
 قائلاً : بشرى  
 ركب المولى مع الظهرِ الفرسِ  
 بجنودِ الله دأباً يحترسِ  
 وشفيْ وارتاخِ  
 إن غدا أو راحِ



وجب الشكرُ عَلَيْنَا والهنأ  
 فزمانُ السعدِ وضأحُ السنأ  
 أثمرتْ فِيهِ العوالي بالئى  
 بععضُنأ بععضأ  
 يجتني الإسلامُ منها ما اغترسُ  
 فِي ضميرِ النفعِ منها قد هجسُ  
 يا إماماً بالحسامِ المنتضى  
 ثفركَ الوضأحُ مهما أومضا  
 وديونُ السعدِ منهُ تفتضى  
 نصَرَ الحقأ  
 أخجلَ البرقا  
 توسعُ الحقأ  
 لكَ وجهٌ من صباحِ مقتبسُ  
 وجميلُ الصفعِ منهُ ملتمسُ  
 هاكها تمزج لطفأ بالنسيمُ  
 قد أنتَ بالبرِّ والصنعِ الحسيمُ  
 أخجلت من قال فِي الصبحِ الوسيمُ  
 تشكر الربأ  
 مفرماً صبأ  
 يا مديرَ الرأحِ  
 «وتعمرى الفجرُ عن ثوبِ الغلسِ»  
 «غرد الطير فنبه من نفسِ»  
 «وانجلى الإصبأحُ»

وقال أيضاً ساعه الله تعالى :

قد أنعمَ اللهُ بالشفاءِ واستكملت راحةُ الإمامِ  
 فلتنطقِ الطيرُ بالهنأءِ وليضحكِ الزهرُ فِي الكيمأ  
 وجُوده بهجةُ الوجودِ وبرؤه راحةُ النفوسِ

١ تفسين من شعر ابن وكيع .

قد لاح في مرقب السعود  
 فالدوحُ يومي إلى البنودِ  
 والزهرُ في هروضة السماء  
 والصبحُ مستشرفُ اللواءِ  
 محاسنُ الكونِ قد تجلّتْ  
 عرائسُ بالبهاءِ تحلّتْ  
 وألسنُ الورقِ قد أملتْ  
 تستوقفُ الخلقَ بالغناءِ  
 تطنبُ لله في الثناءِ  
 كمّ من ثغورٍ لها ثغورُ  
 ومن خدورٍ بها بدورُ  
 تقول إذ حفها السرورُ  
 قد أنعم الله بالبقاءِ  
 قد صادف النجحَ في الدواءِ  
 يهنك مولاي بل يهنّي  
 فالغرب والشرق منك يُعني  
 والله لولاك ما تهنّا  
 يا موردَ الأنفسِ الظماءِ  
 وقرّةَ العينِ بالبهاءِ  
 واستبشرت أوجهُ الشمسِ  
 أكمامه غطّت الرؤوسِ  
 كالزهرِ قد راقَ بابتسام  
 والبدرُ مستقبلُ التمامِ  
 جمالها العقلَ يبهر  
 والطلُّ في الحليّ جوهر  
 مدائحاً عنه تشكر  
 كأنها تحسنُ الكلامِ  
 تقول سلّمت يا سلام  
 تسمُ إذ جاءها البشيرُ  
 يشيرُ منها له المشيرُ  
 تبارك المنعمُ القديرُ  
 في ظلّ مولّي به اعتصامُ  
 فالداءُ عنا له انفصامُ  
 بيرثك الدينُ والهوى  
 بمذهبِ الخطبِ والردى  
 ما فيه من سطوة الردى  
 قد كان يشغها الأوامُ  
 ردّدت للأعين التمامُ

١ الأزهار : إلى السجود ... حطت .

لو أبذلُ الروحَ في البشارةُ  
فأنتِ يا نفسُ مستعاره  
لم أدرِ إذ سطرَ العِبارَه  
لا زلتَ مولايَ في هناء  
ودمتَ للملكِ في اعتلاء  
يذلتُ بعضَ النبي ملكُ  
مولايَ بالفضلِ جمَلِكُ  
أمَلِكُ هوَ أم ملكُ  
مُبَلِّغُ القصدِ والمِرامُ  
تسحبُ أذيالَه الغمامُ

وقال في مألقة :

عليك يا ربةُ السلامُ  
مدحَلٌ في قصرِكِ الإمامُ  
والدوحُ في روضِكِ الأنيقُ  
والغصنُ في نهره غريقُ  
والجو من وجهك الشريقُ  
وأعينُ الزهر لا تنامُ  
تنفثُ من تحتها الغمامُ  
عروسةٌ أنتِ يا عقيلهُ  
مدت لك الكفَّ مستقبيلهُ  
والبحرُ مرآتكِ الصقبيلهُ  
والخليُّ زهرٌ له انتظامُ  
قد راق من ثغره ابتسامُ  
ولا عدا ربتكِ المطرُ  
قربكِ السؤلُ والوطرُ  
للشكرِ قد حطتِ الرؤوسُ  
وفي حُلاه كما عروسُ  
تحسده أوجهُ الشموسُ  
تستعذبُ السهدَ والسهرُ  
ترقيقَ من أعينِ الزهرِ  
تُجَلِّي على مَظْهَرِ الكمالِ  
تمسحُ أعطافكِ الشمالِ  
تشفُّ عن ذلكِ الجمالِ  
يكللُ القُضْبَ بالدررُ  
والوردُ في خدَّها خضرُ

١ ورد بده في الأزهار :

كم فيك للمغرم المشوق  
والنوح . . . . .  
والجو من وجهك  
من منظر يبهج النفوس  
(البيت) . . . . .  
.....

من له وصلها مباح	إن قيل من بعلمها المقدى
مخلد الفخر بالصفاح	أقول أسنى الملوك رفا
تناؤه عاطر الرياح	محمد الحمد حين يهدى
والخبر يفي عن الخبر	تخبر عن طيبه الكمام
والنصر آياته الكبر	فالسعد والرعب والحسام
وطلعة تُخجل الصباح	ذو غرة تسحر البلورا
تظلل الأوجه الصباح	كم راية سامها ظهورا
أظفر بالفوز والتجاج	وكم جهاد جلاه نورا
أعز من صال وانخر	الظاهر الظاهر الممام
جرى به سابق القدر	لسيفه في العدا احتكام
لو تطلب البحر تلحق	يا مرسل الخير في الفوار
سوابق الشهب تسبق	لك الجوارى إذا تجاري
فالكفر منهن يفرق	تستن في لجة البحار
بسيفك اعتر وانصر	فالدين وليقصر الكلام
هم نصروا سيد البشر	كذاك أسلافك الكرام

وقال من غير هذا البحر في المحدث<sup>١</sup> بمالقة :

قد نُظِمَ الشملُ أتمَّ<sup>٢</sup> انتظامُ  
واغنم الأجابَ قربَ الحبيبِ  
واستضحك الروضُ نُفُورَ الغمامِ<sup>٣</sup>  
عن ميسم الزهر البرودِ الشنيبِ

١ المحدث : اسم بناء بمالقة .

٢ الأزهار : الكمام .

وعممَ النورُ رؤوسَ الرُّبى  
 وصافحَ القُضْبَ نسيمُ الصِّبَا  
 وعاودَ النهرَ زمانُ الصِّبَا  
 وأطلعَ القصرُ بُرودَ التَّمَامِ  
 خدودها قامت مقامَ الغمامِ  
 أصبحتِ ياريتُ هجلى النفوسِ  
 والبشرُ يسري في جميعِ الشموسِ  
 والدوحُ للشكرِ تحطُّ الرؤوسِ  
 وراجعَ النهرُ غناءَ الحمامِ  
 بمنبرِ الغصنِ الرشيقِ القوامِ  
 يا حبيداً مبنكِ فخرَ القصورِ  
 ما مثله في سالفاتِ العصورِ  
 كم فيه من مرأى بهيجِ ونورِ  
 خليفةُ الله ونعمَ الإمامِ  
 يهنيك شملٌ قد غدا في التثامِ  
 وجللَ النورُ صدورَ البطاحِ  
 فالزهرُ يرنو عن عيونِ وقاحِ  
 فقلدَ الزهرُ<sup>١</sup> مكانَ الوشاحِ  
 في طالعِ الفتحِ القريبِ الغريبِ  
 فلا اشتكى<sup>٢</sup> من بعدها بالمغيبِ  
 جمالك العينُ بها يبهز  
 ورايةُ الأنسِ بها تُشهر  
 وأنجمُ الزهرِ بها تزهر  
 وقد شدتْ تسجعُ تسجعُ الخطيبِ  
 لما اثنى يهفو بقدرِ رطيبِ  
 برُوجهُ طالتْ بروجَ السما  
 ولا الذي شادَ ابنُ ماءِ السما  
 في مرتقى الجوى بهِ قدَ سما  
 أتخفك الدهرَ بصنعِ عجيبِ  
 ممهداً في ظلِّ عيشِ خصيبِ  
 ونفحةُ الندِّ بهِ تعبقُ  
 وجوهَ من نورهمِ بشرقُ  
 بلابلُ عن وجدتهِ تنطقُ  
 نواسمُ الوادي بمسكِ نفوحِ  
 وبهجةُ السكّانِ فيه تلوحِ  
 وروضهُ بالسرى منه يبوخِ

١ الأزهار : النهر .  
 ٢ الأزهار : لا أشتكى .

لو أن من يفهم عنها الكلام  
ونهره قد سل منه الحسام

فأجمل الأيام عصر الشباب  
يا درة القصر وشمس القباب  
بشرك الرب بحسن المآب

ولا يزال القصر قصر السلام  
يتلو عليك الدهر في كل عام :

وقال من المخلع في الشفاء :

في طالع اليمن والسعود  
فأشرق النور في الوجود  
قد كملت راحة الإمام  
وابتسم الزهر في الكمام

قد طلعت راية النجاح  
وقال حي على الفلاح  
فالدهر يأتي بالافتراح  
وانهزم البؤس والعنا  
مؤذن القوم بالمنى  
مستقبلاً أوجه الهنا

تحقق منشورة البرود  
والأنس مستجمع الوفود  
والسعد يقدم من أمام  
واللطف مستعذب الحمام

وأكوس الطل مترعات  
والطير مفتنة اللغات  
بأعمل السوسن الندي  
بالسندس الغض مرتدي  
تشلو بأصوات معبدي  
والفصن يذهب ثم يأتي

١ الأزهار : الفوز .

والدوحُ يومي إلى السجودِ      وشكراً لذي الأُنعمِ الجسمِ  
والريحُ خفّاقةُ البُودِ      تباكرُ الروضَ بالغمامِ

مظاهرُ للجمالِ تُجلى      قد هزّ أعطافها السرورُ  
وباهرُ الحسنِ قد تجلّى      ما بين نورٍ وبين نورُ  
قد هنأت بالشفاء مولى      بعصره تفخرُ العصورُ

ما بين بأسٍ وبين جودِ      قد مهّد الأمنَ للأنامِ  
فالدينُ ذو أعينِ رُقودِ      وكان لا يطعمُ المنامِ

والكاسُ في راحة السقاةِ      تروحُ طوراً وتغتدي  
يهديكها رائقُ السّماتِ      ما بين برقٍ وفرقدي  
والشمسُ تذهبُ للبياتِ      قد لبستُ ثوبَ عسجدِ

والزهرةُ في البائعِ المَجُودِ      يقابلُ الشّرْبَ بابتسامِ  
والروضُ من حلية الغمودِ      قد جرّدَ النهرَ عن حسامِ

مولايَ يا أشرف الملوكِ      وعصمة الخلقِ أجمعينِ  
أهديكَ من جوهرِ السلوكِ      يقذفهُ بحركِ المعينِ  
جعلتُ تنظيمهُ سلوكي      وأنت لي المنجدُ المعينِ

تحيّة الواحدِ المجيدِ      ورحمة الله والسّلامِ  
عليك من راحمٍ ودودِ      يا نخجلُ البدرِ في التمامِ

وقال من الرمل المجزوء :

وجهُ هذا اليومِ باسمِ      وشذا الأزهاري ناسمِ

هاتها صاحِ كؤوسا	جالباتِ للسرورِ
وارتقبُ منها شموسا	طالعاتِ في حُبُورِ
ما ترى الروضِ عروسا	في حُلَى نَوْرٍ ونُورِ
وأنتِ رسلُ النواسمِ	تجتلي هذي النواسمِ
قد أهلتِ بالبشائرِ	أضحكتِ ثغرَ الأزاهرِ
سنحتِ في يُمْنِ طائرِ	ونُظْمِنَ كالجواهرِ
فانشروها في العشائرِ	إنَّ هذا الصنعَ باهرِ
وأشيعوا في العوالمِ	الغني باللهِ سلمِ
أي نورٍ يتوقدُ	أي بدرٍ يتللا
أي فخرٍ يتخلدُ	أي غيثٍ يتسوالى
إنما المولى محمدُ	رحمةُ الله تعالى
كفهُ بجرُ المقاسمِ	وبها حجُ المباسمِ
خيرُ أملاكِ الزمانِ	من بني سَعْدِ ونصرِ
ما ترى أنَّ الشواني	في صعيدِ البرِّ تجري
قد أطارتها التهاني	دونَ بحريِّ وبحرِ
مُدُّ رأتِ بحرَ النعائمِ	كلها جارٍ وعائمِ
فهنيئاً بالشفاءِ	يا أميرَ المسلمينا
ولنا حقُُّ الهناءِ	وجميعُ العالمينا
إنَّ جهرنا بالدعاءِ	ينطقُ الدهرُ أمينا
دمتِ محروسَ المكارمِ	بظبي البيضِ الصوارمِ



وقال يهني السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان ، وقد وجه إليه الغني بالله أمه  
وعياله عند تملكه المغرب من قبيله :

قد نُظِمَ الشَّمْلُ أتمَّ انتظامُ  
وأضحك الروضُ ثغورَ الغمامِ  
وعاودَ الغصنُ زمانَ الصِّبا  
وعتمَ النورُ رؤوسَ الرُّبى  
وأطربَ الغصنَ نسيمُ الصِّبا  
واستقبلَ البدرُ ليالي التمامِ  
وراجعَ الأطيارَ سجعُ الحمامِ  
نواسمُ الوادي بمسكٍ تفوحُ  
وبهجةُ السكانِ فيه تلوحُ  
وعرفهُ بالطيبِ منه يفوحُ  
والنهرُ قد سلَّ كثلِ الحسامِ  
وثغرها قد راق منه ابتسامُ  
كواكبُ أبراجهن الحدورُ  
جواهرُ أصدافهن القصورُ  
يا حبذا والله ركبُ السرورُ  
ابتهجَ الكونُ بموسى الإمامِ  
وعادهُ يخدمُ مثلَ الغلامِ

١ ق : الكؤوس .

أكرم به والله وفده الكريم  
مرضاتها تحظي بدار النعيم  
بشر بالنصر وفتح جسيم  
مولى سفا « الحرة » في مقدمه  
وتوجب التوفيق لمن منعمه  
وخيره أجمع في مقدمه

لقاؤها البرور مسك الختام  
وقصرك الميمون قصر السلام  
بشرك الله بصنع عجيب  
خطاً يحفظ من سميع مجيب

مولاي يهنيك وحق الهنا  
قد غزت بالقخر ونيل المنى  
وقرت العين وزال العنا  
قد نظم الشمل كنظم السعود  
وأنجز السعد جميع الوعود  
وكلما مر صنيع يعود

فلا يزل ملكك حليف الدوام  
بتلو عليك الدهر بعد السلام  
يَحُوز في التخليد أوفى نصيب  
﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾

وقال رحمه الله تعالى في وصف غرناطة والطرند وغيرهما :

لله ما أجمل روض الشباب  
في عهده أدت كأس الرضاب  
من قبل أن يفتح زهر المشيب  
حبابها الدر بثر الحبيب

من كل من ينجل بدر التمام  
ويفضح الغصن بلين القوام  
وإذا تبدى وجهه للعيون  
ويذهل العقل بسحر الجفون

أبصرت منه إذ يحط التقاب  
إذا تجلت بعد طول ارتقاب  
شمساً ولكن ما لها من مغيب  
صرفت عنها اللحظ خوف الرقيب

١ ق : ثناء ؛ وفي الأزهار : مولاتنا .

مَنْ عَازِرِي مِنْهُ فَوَادًا صَبَا  
يَطِيرُ إِنْ هَبَّ نَسِيمُ الصَّبَا  
مَا أَوْلَعَ الصَّبَّ بَعْدَ الصَّبَا  
وَهَلْ عَلَى مَنْ قَدْ صَبَا مِنْ جُنَاحِ

فَقَلْبِهِ مِنْ شَوْقِهِ فِي التَّهَابِ  
وَالْجَفْنُ مِنْهُ سَحْبُهُ فِي انْسِكَابِ  
قَدْ أَحْرَقَ الْأَكْبَادَ مِنْهُ الْوَجِيبُ  
قَدْ رَوَّضَ الْخَدَّ بِدَمْعِ سَكِيبِ

غَرْنَاطَةُ رَبِيعِ الْهَوَى وَالْمُنَى  
وَطَيْبِهَا بِالْوَصْلِ لَوْ أَمَكْنَا  
لَمْ أَقْطِعِ اللَّيْلَ بِطُولِ السَّهْرِ  
يَمِينِ ذِي الْعُودَةِ بَعْدَ السَّفَرِ

وَيَحْمَدُ النَّاسُ نَجَاحَ الْإِيَابِ  
وَيَكْتُبُ الْقَالَ عَلَى كُلِّ بَابٍ :  
بِكُلِّ صَنَعٍ مُسْتَجِدَّةٍ غَرِيبِ  
﴿ نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾

مَا لَذَّةَ الْأَمْلاكَ إِلَّا الْقَنْصُ  
كَمْ شَارِدٍ جَرَّعَ فِيهِ الْغُصَصُ  
لَأَنَّهُ الْقَالَ بِصَيْدِ الْعَدَا  
وَأُورِدَ الْمَحْرُوبُ وَرَدَّ الرَّدَى  
وَكَمْ بَذَا الْقَحْصِ لَنَا مِنْ حَصَصِ  
قَدْ جُمِعَ الْبَأْسُ بِهَا وَالنَّدَى

ومنها بعد أبيات من الوزن والروي :

مَوْلَايَ مَوْلَايَ ، وَأَنْتَ الَّذِي  
وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنَ الْعُودِ  
جَدَّدْتَ لِلْأَمْلاكَ عَهْدَ الْجَلَالِ  
لَمَّا رَأَتْ مِنْكَ بَدِيعَ الْجَمَالِ  
وَالرُّوْضُ فِي نَعْمَتِهِ يَغْتَنِي  
بَطِيبِ مَا قَدْ حُزَّتْهُ مِنْ خِلَالِ

بَشْرَاكَ بِشْرَاكَ بِحَسَنِ الْمَأْبِ  
وَدَمَتَ مَحْرُوسَ الْعُلَا وَالْجَنَابِ  
تَسْتَضْحِكُ الرُّوْضَ بِثَغْرِ شَنْيَبِ  
بِعَصْمَةِ اللَّهِ السَّمِيعِ الْمَجِيبِ

انتهى ما انتقىته من كلام ابن زمرك من كتاب ابن الأحمر ، رحمه الله

تعالى . وقد عرفت منه ما تسنى للغني بالله ابن الأحمر من الفتوحات والسعود  
ونفاذ الأمر على ملوك المغرب ، فهو الأحق بقول لسان الدين ابن الخطيب رحمه  
الله تعالى :

ملكٌ إذا عاينتُ منهُ جَبِينَهُ فارقتهُ والنورُ فوق جِيبِي  
وإذا لثمتُ يمينه وخرجتُ من أبوابه لثمتَ الملوكُ يمينِي

وكان الغني بالله المذكور معتقداً في الصالحين ، حتى إنه كتب وهو بفاس  
مخلوعاً إلى ضريح ولي الله سيدي أبي العباس السبتي بمراكش ، ومن إنشاء وزيره  
لسان الدين علي لسانه :

يا وليَّ الإله أنت مطاعٌ

الآيات والنثر بعدها ، وقد ذكرتهما في الباب الخامس فراجعهُ<sup>١</sup> ، وكان  
ذلك بفضل الله تعالى عنوان رجوعه إلى ملكه ، وتَظَم تلك الأماكن في سِلْكِهِ ،  
حتى حصلَ له من السعد ما لم يحصل لغيره حسبما يُعلم ذلك من كلام لسان الدين  
وابن زَمْرَك وغيرهما .

[ ترجمة الولي السبتي ]

والسبتي المذكور : هو سيدي أبو العباس أحمد بن جعفر السبتي  
الخرزجي<sup>٢</sup> ، الولي الصالح العالم العارف بالله القطب ذو الكرامات الشهيرة ،  
والمناقب الكثيرة ، والأحوال الباهرة ، والفضائل الظاهرة ، والأخلاق الطاهرة ،

١ انظر أيضاً أزهار الرياض ١ : ٢٧٣ .

٢ راجع ترجمة الولي السبتي في أنس الفقير : ٧ - ٩ وتمطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس  
لابن الموقت ( ط . فاس ١٩١٨ ) ونيل الابتهاج ٣١ - ٣٧ وعن هذا الأخير ينقل المقرئ ؛  
وراجع الاعلام للعباس بن إبراهيم ١ : ٢٣٩ - ٢٣٨ .

نزىل مراكش ، وبها توفي سنة إحدى وستمائة ، وولادته بسبته عام أربعة وعشرين وخمسائة ، ودفن خارج مراكش ، وقبره مشهور مقصود بإجابة الدعاء ، وقد زرته مراراً كثيرة ، فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف ، وهو تريق مجرب .

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : كان سيدي أبو العباس السبتي - رضي الله تعالى عنه - مقصوداً في حياته ، مستغاثاً به في الأزمات ، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ، ومبني أمره على انفعال العالم عن الجود<sup>١</sup> ، وكونه حكمة في تأثير الوجود ، له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة ؛ ولما توفي ظهر هذا الأثر على تربته ، وثبت بلحده ، وانسحب على مكانه عادة حياته ، ووقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى ، وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى ، وانتقطع الأماكن القصوى<sup>٢</sup> ، تحملهم أجنحة نياتهم فتهدوي إليه بمقاصدهم من كل فج عميق ، فيجدون الثمرة المعروفة والكرامة المشهورة .

وقال ابن الزيات<sup>٣</sup> : كان أبو العباس قد أعطي بسطةً في اللسان ، وقدرةً على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفحمه ، ولا يسأله إلا أجابه ، كأن القرآن والحجج على طرف لسانه حاضرة ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسحر العامة والخاصة ببيانه ، يأتيه المنكرون للإنكار فما ينصرفون إلا مسلمين منقادين ، وشأنه كله عجيب ، وهو من عجائب الزمان . وحدثني مشايخنا أنهم سمعوه يقول : أنا

١ في الأصل : الوجود ، والتصويب عن التنكيي ؛ وأورد العباس بن إبراهيم أن ابن رشد أرسل أبا القاسم الخزرجي ليعرف منبأ أبي العباس بمراكش ، فلما نقل الخزرجي خبره إلى ابن رشد قال له : « هذا رجل مذهبه أن الوجود يفعل بالجود » وهو مذهب فلان من قدماء الفلاسفة .

٢ نيل الابتهاج : المكان الأقصى .

٣ تنقل المصادر ترجمة السبتي عن التشوف ، ولكن ابن الزيات صرح بأنه يفرد ترجمة السبتي إذ لا يكفي في ذكره الاختصار ، وجعل ترجمته في آخر كتابه ، إلا أنها لم تطبع مع سائر الكتاب ، وقد نقل العباس بن إبراهيم ما ذكره ابن الزيات في تلك الترجمة .

القطب . وحدثني أبو الحسن الصنهاجي من خواص خدامه قال : خرجت معه مرةً لصهريج غابة الرمان يوم عرفة ، فجلسنا هناك وصلينا ، فقال لي : إنما سمي هذا اليوم يوم عرفة لانتشار الرحمة فيه لمن تعرّف إليه بالطاعات ، وقد فاتنا عرفة ، فتعال نمثل بهذا المكان ونعمل كما يعملون ، لعلّ الله تعالى يتغمدنا برحمته معهم ، فعمل<sup>١</sup> مكاناً دائراً بالعين الكعبة ، ومحل عنصر الماء الحِجْر ، وموضعاً آخر مقام إبراهيم ، فطاف بالعين أسبوعاً وأنا أطوف بطوافه ، وكبر على العنصر في كل طواف ، وصلى في مثل<sup>٢</sup> المقام ركعتين تامتين ، وأطال في سجود الثانية ، ثم استند إلى الشجرة ثم قال لي : يا علي ، اذكر كل حاجة لك من حوائج دنياك تُقضى ، فإن الله تعالى وعد في هذا اليوم من تعرّف له أن يقضي حوائجه ، فقلت له : ما أريد إلاّ التوفيق ، فقال لي : ما خرجت معك من باب المدينة حتى وفقت ، فسألته عن حاله من بدايته إلى نهايته ، وبم تفعل له الأشياء ويستجاب له الدعاء ؟ ولم صار يأمر بالصدقة والإيثار مَنْ شكاً إليه حالاً أو تعذّر عليه مطلب في هذه الدار ؟ فقال لي : ما أمر الناس إلا بما ينتفعون به ، وإني لما قرأت القرآن وقعدت بين يدي الشيخ أبي عبد الله الفخار تلميذ القاضي عياض ونظرت في كتب الأحكام وبلغت من السن عشرين سنة وجدت قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ فتدبرته وقلت : أنا مطلوب به ، فلم أزل أبحث عنها<sup>٣</sup> إلى أن وقفت على أنها نزلت حين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وأتهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم حكم المؤاخاة ، فأمرهم بالمُشاطرة ، ففهمت أن العدل المأمور به في الآية هو المشاطرة ، ثم نظرت إلى حديث « تفرّق أمتي على ثلاثين فرقة - الحديث » وأنه صلى الله عليه وسلم

١ ق : نعمد ؛ نيل الابتهاج : فجعل .

٢ في الأصل : قبل .

٣ نيل الابتهاج : فبحث عن الآية .

قاله صبيحة اليوم الذي آخى فيه بين المهاجرين والأنصار ، وذكر له الأنصار أنهم شاطروا المهاجرين ، فقال لهم ذلك بأثره <sup>١</sup> ، فعلمت أن الذي هو عليه وأصحابه المشاطرة والإيثار ، فعقدت مع الله تعالى نية أن لا يأتيني شيء إلا شاطرت فيه الفقراء ، فعلمت <sup>٢</sup> عليه عشرين سنة ، فأتمر لي الحكم بالخاطر <sup>٣</sup> ، فلا أحكم على خاطري بشيء إلا صدق ، فلما أكملت أربعين سنة راجعت تدبر الآية فوجدت الشطر هو العدل ، والإحسان ما زاد عليه ، فعقدت مع الله تعالى نية لا يأتيني قليل ولا كثير إلا أمسكت ثلثه وصرفت الثلثين لله تعالى ، فعلمت عليه عشرين سنة ، فأتمر لي الحكم في الخلق بالولاية والعزل فأولي من شئت ، وأعزل من شئت ، ثم نظرت بعد ذلك في أول ما فرضه الله تعالى على عباده في مقام الإحسان ، فوجدت شكر النعمة ، بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم ، ووجدت أصناف من تصرف إليهم الصدقات <sup>٤</sup> الواجبة [سبعة] وسبعة أصناف أخر صرّفها فيها للإحسان والزيادة ، وذلك أن لنفسك عليك حقاً ، وللزوجة حقاً ، وللرحم حقاً ، وللتييم حقاً ، وللضعيف حقاً ، وذكر صنفين آخرين ، فانتقلت لهذه الدرجة ، وعقدت مع الله تعالى عقداً أن كل ما يأتيني أمسك سبعة حق النفس وحق الزوجة وأصرف الخمسة أسباع لمستحقيها ، فأقمت عليه أربعة عشر عاماً ، فأتمر لي الحكم في السماء ، فمتى قلت « يارب » قال لي : لبيك ، ثم قال لي : إنها نهايتي بتمام عمري ، وهو أن تنقضي لي ستة أعوام تكملة العشرين عاماً .

قال الصنهاجي : فأرخت ذلك اليوم ، فلما مات وحضرت جنازته تذكرت التاريخ المكتوب ، وحققت العدد ، فنقصت من ستة أعوام ثلاثة أيام خاصة ،

١ نيل الابتهاج : ذكر ذلك الحديث اثره .

٢ نيل الابتهاج : فبقيت .

٣ نيل الابتهاج : حكم الخاطر .

٤ نيل الابتهاج : أضاف من يعطى الصدقة .

فيحتمل أن تكون من الشهور الناقصة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .  
وقال أبو بكر ابن مساعد : جاء بعض السلاطين إلى أبي العباس وهو راكب ،  
وقال له : إلى متى تحيرنا ولا تصرح لنا عن الطريق ؟ فقال له : هو الإحسان ،  
فقال له : بين لي ، فقال له : كل ما أردت أن يفعله الله تعالى معك فافعله  
مع عبده .

وقال له أبو الحسن الخباز<sup>١</sup> : أما ترى ما فيه الناس من القحط والغلاء ؟  
فقال : إنما حُبس المطر لبخلهم ، فلو تصدقوا لمطرُوا ، فقل لأصحابك  
الفلاحين : تصدقوا بمثل ما أنفقتم تمطرُوا ، فقال له : لا يصدقني أحد ، ولكن  
مررتني في خاصة نفسي ، فقال له : تصدق بمثل ما أنفقت ، فقال له : إن الله  
تعالى لا يُعاملُ بالدينين ، ولكن أستسلف ، فاحتمل وتصدق بها كما أمره ،  
قال : فخرجت إلى البحيرة التي عمرتها والشمس شديدة الحر ، فأيست من المطر ،  
ورأيت جميع ما غرست مشرفاً على الهلاك ، فأقمت ساعة فإذا سحابة أمطرت  
البحيرة حتى رويت ، وظننت أن الدنيا كلها مطرت ، فخرجت فإذا المطر لم  
يتجاوزها ، انتهى .

والحكايات عنه في مثل هذا كثيرة .

وقال ابن الخطيب القسطيني في رحلته<sup>٢</sup> : حضرت عند الحاج الصالح  
الورع الزاهد أبي العباس أحمد بن عاشر بمدينة سلا ، وقد سأله أحد الفقراء  
عن كرامة الأولياء ، فقال له : لا تنقطع بالموت الكرامة ، انظر إلى السبتي ،  
يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش ، وما ظهر  
عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات ، سمعت يهودياً بمراكش  
يلهج ببركته وينادي باسمه في أمر أصابه لا مع المسلمين ، فسألته عن سببه ،

١ نيل الابتهاج : الجنان .

٢ يعني أنس الفقير ، كما تقدم ، انظره ص : ٨ .



فأخبر أنه وجد بركته في غير موطن ، فسألته عما بدا له في وقت <sup>١</sup> ، فقال لي :  
 وحتى ما أنزل على موسى بن عمران ما أذكر لك إلا ما اتفق لي ، سرّيتُ ليلة  
 مع قافلة في مفازة ، فمرّجتُ دابتي ، فما شككت في قتلي وسلب مالي ، فجلست  
 وبكيت ، وبينني وبين الناس بعد ، وقلت : يا سيدي أبا العباس ، خاطرك ،  
 قال لي : والله ما أتممت الكلام إلا وأهل القافلة أصابهم سبب وقفوا به ، وضربت  
 دابتي ، وخف عرجها ، ثم زال ، واتصلت بالناس ، فقلت له : لم لم تُسلم ؟  
 فقال : حتى يريد الله تعالى ، وعجبت من كون ذلك من يهودي ، وهذه شهادة من  
 عدوّ في الدين . ولقد وقفت على قبره مرات ، وسألت الله تعالى في أشياء يَسِرُّ  
 لي فيها سؤلي : منها أن أكون ممّن يشتغل بالعلم ويوصّفُ به ، وأن ييسر عليّ  
 فهم كتب عينتها ، فيسر الله تعالى عليّ ذلك في أقرب مدّة . وكان السبتي آية  
 في أحواله ، ما أدرك صحبته إلا الخواص من الناس ، وكان أصل مذهبه الخوض  
 على الصدقة ، وكان أمره عجبا في إجابة الدعاء بتزول المطر ، واختصاصه بمكان  
 دون آخر ، وقال لأصحابه : أنا القطب ، وكان تفقه على أبي عبد الله الفخار ،  
 ووقفت على قبره ، وله بركات وأنوار . وكان السبتي آية في المناظرة ، وأوذِي  
 باللسان كثيرا جدا فصّح وتجاوز .

ورأى <sup>٢</sup> عبد الرحمن بن يوسف الحسيني النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ،  
 فقال له : يا رسول الله ، ما تقول في السبتي ؟ قال : وكنت سييء الاعتقاد فيه ،  
 فقال لي بعد أن تبسّم : هو من السبّاق ، قال : فقلت بين لي يا رسول الله ،  
 فقال : هو ممّن يمر على الصراط كالبرق ، قال : فخرجت بعد الصبح ،  
 فلقيني أبو العباس ، فقال لي : ما رأيت وما سمعت ؟ والله لا تركتك <sup>٣</sup> حتى

١ أنس الفقير : عما رأى له في أقرب وقت .

٢ ما زال النقل مستمرًا عن أنس الفقير .

٣ ق : لا أتركك .

تعرفني ، فعرفته ، فصاح : كلمة الصفا من المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ انتهى ببعض اختصار .

وقال ابن الزيات : وحدثني أبو العباس الصنهاجي وغيره أن رجلاً يُعرف بابن الشكاز<sup>١</sup> ، وكان غنياً فدار عليه الزمان وافتقر ، حدث أنه وصل لأبي العباس السبتي وعليه ثوب خلق<sup>٢</sup> تظهر منه عورته ، فشكا إليه حالته ، فأخذ ييده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت ، فجاء إلى مطهرة هناك ، قال : فدخل أبو العباس المطهرة وتجرّد من أثوابه وناداني ، وقال لي : خذ هذه الثياب ، فأخذتها ، وكان بعد العصر ، فأردت أن أرى ما يكون من أمره ، فصعدت إلى حائط هناك إلى قرب المغرب ، فإذا بفتى خرج من الباب على دابة معه رزمة ثياب ، فلما رأيته نزلت إليه ، فقال لي : أين الفقيه أبو العباس ؟ قلت : ها هو في الساقية عريان ، فقال لي : أمسك الدابة ، فسمعت الفقيه يقول له : أين تلك الثياب ؟ فأخذها منه وخرج ، فلما رأيته قال لي : وما لك هنا ؟ قلت : يا سيدي خفت عليك ، فلم أقدر على الانصراف وأتركك ، فقال لي : أفترى الذي فعلت ما فعلت له يتركني ؟ ثم سألت الفتى عن سبب وصوله إليه ، فذكر له أن إحدى الكرائم أمرته أن يحمل إليه تلك الثياب ، وقالت له : لا تدفعها إلا للفقيه ، ولا يلبسها إلا هو ، وهذه قصة صحيحة مشهورة .

وقال ابن الخطيب : وروضته بباب تاغزوت أحد أبواب مراکش غير حافلة البناء ، ربما يتبرع متبرع باحتفالها فلا تساعد الأقدار ، وزرتها ، وربما شاهدت في داخلها أشياء من أهل التعفف والتصوّف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط رحمت الله تعالى عليها لكثرة زائريها ، فيقتحم<sup>٢</sup> ذو الحاجة بابها خالماً نعله مستحضراً نيته ويقعد بإزاء القبر ويخاطبه بحاجته ، ويعين بين يدي النجوى صدقة

١ نيل الابتهاج : السكان ؛ ق : السكالك ، والتصويب عن الأعلام .

٢ ق : فيقحم ؛ نيل الابتهاج : فيلج .

على قبره ، ويدسها في أواني في القبر معدة لذلك ، ومن عجز عن التقدين تصدق بالطعام ونحوه ، فإذا خف الزائرون آخر النهار عمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك في تلك الأواني وفرقه على المحاويج الحاقين بالروضة ، ويحصون كل عشية ، ويعمهم الرزق المودع فيها ، وإن قصر عنهم كملوه في غده .

قال ابن الخطيب لسان الدين : وترافع خدام الروضة لقاضي البلد ، وتخاصموا في أمر ذلك الرزق المودع هناك ، فسألهم القاضي عن خراجها اليوم ، فقالوا : يحصل في هذه الأيام في اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهباً عيناً ، وربما وصل في بعض الأيام لألف دينار فما فوقها ، فروضة هذا الولي ديوان الله تعالى في المغرب لا يحصى دَخَلُه ولا تحصر جبايته ، فالتبر يسيل ، واللجين يفيض ، وذو الحاجة كالطير تغدو خِماصاً وترجع بطاناً ؛ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قال : وأنا ممن جرب المنقول عن القبر ، فاطردَ القياس ، وتريفت الشبهة ، وتعرفت من بدء زيارته ما تحققت من بركته ، وشهد على برهان دعوته ؛ انتهى . وقال الشيخ أبو الحجاج يوسف التادلي في كتابه «التشوف إلى رجال التصوف»<sup>١</sup> : كان أبو العباس جميل الصورة ، أبيض اللون ، حسن الثياب ، فصيح اللسان ، مقتدراً على الكلام ، حليماً صبوراً ، يُحسِن إلى من يؤذيه ، ويحلم على من يسفه عليه ، رحيماً عطوفاً محسناً إلى اليتامى والأرامل ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الطرق والسوق ، ويحض على الصدقة ، ويذكر في فضلها آيات وأحاديث ، ويأخذها ويفرقها على المساكين ، ويرد أصول الشرع إلى الصدقة ، ويفسرها بها ، ويقول : معنى قول المصلي «الله أكبر» أي : من أن نضن عليه بشيء ، فمن رأى شيئاً من متاع الدنيا في نفسه أكبر فلم يُحرّم ولا كَبّر ، ومعنى رفع اليدين للتكبير : تخلّيت من كل شيء لا قليلاً ولا كثيراً ،

١ انظر الأعلام ١ : ٢٤١ .

وهكذا يتكلم بنحو هذا في جميع العبادات ، ويقول : سِرُّ الصوم أن تجوع ، فإذا جعت تذكرت الجائع ، وما يقاسيه من نار الجوع ، فتصدق عليه ، فمن صام ولم يعطف على الجائع فكأنه لم يصم ، إلى غير ذلك من كلامه في مثل هذا . وكان إذا أتاه امرؤ يأمره بالصدقة ، ويقول له : تصدق ، ويتفق لك ما تريده ، وأخباره في ذلك كثيرة عجيبة .

قال التادلي : وحدثني ولدهُ الفقيهُ أبو عبد الله عن أبيه أنه قال : كان ابتداء أمري وأنا صغير أني سمعت كلام الناس في التوكل ، ففكرت في حقيقته<sup>١</sup> فرأيت أنه لا يصح إلا بترك شيء ، ولم يكن عندي منه [ بد ] ، فتركت الأسباب ، واطَّرحت العلائق ، ولم تتعلَّق نفسي بمخلوق ، فخرجت سائحاً متوكِّلاً ، وسرت نهاري كله ، فأجهدتني الجوع والتعب ، وقد نشأت في رفاهية [ من العيش ]<sup>٢</sup> ، وما مشيت قط على قدمي ، فبلغت قرية فيها مسجد ، فتوضأت ودخلت المسجد فصليت المغرب ثم العشاء ، وخرج الناس ، فقممت لأصلي ، فلم أقدر من شدة الجوع والتألم بالمشي ، فصليت ركعتين ، وجلست أقرأ القرآن إلى أن مضى جزء من الليل ، فإذا قارع يقرع الباب بعُنف ، فاستجاب له صاحب الدار ، فقال له : هل رأيت بقرتي ؟ فقال : لا ، فقال : إنها ضلت وقد أكثر عجلتها من الحنين فطلبتها فلم نجدها في القرية ، فقال أحدهم : لعلها [ دخلت ] في المسجد وقت العتمة ، ففتحوا باب المسجد ودخلوا فوجدوني ، فقال صاحب البقرة : ما أظنك أكلت الليلة شيئاً ، فذهب وجاءني بكسرة خبز وقدر لبن ، ثم ذهب ليأتيني بالماء فوجد بقرته في داخل الدار ، فخرج لخيرانه وقال لهم : ما زالت البقرة من الدار ، وما كان خروجي إلا لهذا الفتى الجائع في المسجد ، ثم رغبتني أن أمشي معه لمتزله ، فأبيت .

١ ق : دقيقه ، والتصويب عن الاعلام .

٢ سقطت من ق .

وكان في أول أمره يسكن في الفندق<sup>١</sup> ويعلم الحساب والنحو ويأخذ الأجرة على ذلك ، وينفقها على طلبة العلم الغرباء ، ويمشي في الأسواق ، ويدكر الناس ، ويضربهم على ترك الصلاة ، ويأتي بالطعام على رأسه .

وبات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالمذاكرة ، فإذا بالحرس قد قرعوا باب الفندق فقام إليهم القيم بخدمته ، فقالوا له : ما تعلمون أن من رفع صوته بالليل يُقتل ؟ ثم قعد اثنان من الحرس على باب الفندق ليحملونا إذا طلع الفجر للوالي<sup>٢</sup> ، فجاء القيم فأخبرنا فأدركنا خوف عظيم ، وأيقننا بالهلاك ، فأخذ أبو العباس في الضحك ولا يبالي ، ثم خلا بنفسه عند السحر ساعة ثم قال لنا : لا خوف عليكم ، قد استوهبتكم من الله تعالى ، وهذان الحرسيان الواقفان غداً يُقتلان إن شاء الله تعالى ، فقيل له : الجزاء عندك على الأفعال من الخير والشر ، وهما لم يفعلوا ما يوجب قتلهما ، بل جزاؤهما يروعان كما روعانا ، فقال : العلماء ورثة الأنبياء ، وترويعكم عظيم لا يقابله منهم إلا القتل ، فما زلنا نعارضه في ذلك حتى قال : عقوبتهما أن يضرب كل واحد منهما مائة سوط ، ثم اجتاز عبد الله الحرّاز صاحب الوقت بالجامع الأعظم ، فوجد حانوته<sup>٣</sup> مفتوحاً ، ورأى الحرسيين على قرب ، فلم يشكّ أنهما حلاّه<sup>٤</sup> ، فحملاً إلى رحبة القصر قبل طلوع الفجر ، فقال لنا أبو العباس : احضروا على ضربهما كما أَرادوا قتلكم ، فتبعناهما ، وحضرنا حتى ضُرب كل واحد مائة سوط .

وكراماته ومناقبه كثيرة لا تحصى .

وكان يقول<sup>٥</sup> : أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان ، وأصل الشرّ فيهما

البخل ، قال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى ﴾ ( الليل : هـ ) وقال عن إبليس ﴿ ثُمَّ

١ زاد التادلي في الأصل : الفندق الذي بأجدير ، المعروف بفندق مقبل .

٢ الاعلام : لقتل .

٣ ق : تابوته .

٤ حلاه : وفي الاعلام : فتحاها .

٥ انظر الاعلام : ٢٥٨ .

لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴿ (الأعراف: ١٧) وقال ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴿ (التوبة: ٧٥) وقال ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿ (الحشر: ٩) وقال ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿ (القلم: ١٧) وقال ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿ (آل عمران: ١٣٣) وقال ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجوهَكُمْ ﴿ (البقرة: ١٧٧) وقال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - الْآيَةَ ﴿ (الأحزاب: ٧٢) فهذه الأمانة هي الرزق ، فأعطت السموات ما فيها من الماء وهو المطر ، والأرض ما فيها من الماء النازل من الجبال ، والجبال ما فيها كذلك ، وأنبتت الأرض وأبت إمساكها ، فحزن الإنسان جميعها عنده ومنع المساكين إنته كان ظلوماً جهولاً ، وفي الحديث « هم الأقلون ورب الكعبة ، إلا من قال هكذا وهكذا - الحديث » ولما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه دعا عليهم موسى بالبخل ، فقال ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ - إِلَى قَوْلِهِ : دَعْوَتُكُمَا ﴿ (يونس: ٨٨، ٨٩) وكان رضي الله عنه في آخر عمره كثيراً ما يقرأ هذه الآية ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى - إِلَى قَوْلِهِ : سَوْفَ يَرَى ﴿ (النجم: ٢٣) وكان يقول : من قال إن الله تعالى لا يجازي على الصدقات فقد وافق اليهود في الفرية على الله تعالى لأنهم قالوا ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴿ (المائدة: ٦٤) أي لا يجازي على الصدقات ، قال الله تعالى ﴿ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ - إِلَى آخِرِهِ ﴿ أي يجازي على العطاء كيف شاء . وكان يقول في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ - الْآيَةَ ﴿ (التوبة: ٣٤) إنما كُوِّيت هذه المواضع لأن الغني يُعرض عن المسكين بوجهه ، ثمَّ يجنبه ، ثمَّ بظهره ، فعوقبت هذه المواضع بالكفي بالنار لإعراضه عن الفقير ، ومنازعه رحمه الله تعالى في أمثال هذا كثيرة ؛ انتهى مخلصاً .

وحدث أبو إسحاق لإبراهيم بن أبي يعمر<sup>١</sup> أنه دخل صحبة الشيخ سيدي أبي العباس السبتي إلى الأمير السيد أبي سعيد عثمان يعود ، فقال له : ادعُ الله

١ أورده في الأعلام : ٣١٠ نقلا عن النسخ .

تعالى لي أيها الشيخ ، فقال له : ارجع إلى الله تعالى حق الرجوع بحيث تتحقق  
أنه المُمرض والمعافي ، واخرج عن بعض ما عندك من فضول الدنيا لأبناء الجنس ،  
لتكون ممن وُتي شح نفسه ، فحينئذ يحصل لك ما ترجوه من الدعاء ، ثم التفت  
إلى الحاضرين وقال : في المرض فوائد لا ينبغي أن تُجهل : الأولى معرفة قدر  
العافية ، الثانية تمحيص بعض الذنوب ، الثالثة توقع الثواب ، الرابعة تنقية  
الجسم من فضول الأخلاط ، الخامسة كثرة ذكر الله تعالى والتضرع إليه ، السادسة  
حدوث الرقة والشفقة ، السابعة - وهي العظمى - الصدقة والخروج عن رذيلة  
البخل ؛ انتهى . وحدث الكاتب أبو القاسم ابن رضوان عن أبي بكر ابن منظور  
عن بعض أعيان مراکش أنه توفي وأوصى ابناً له كان من أهل البطالة أن يعمد  
إلى ألف دينار من متخلفه ، فیدفعها للشيخ سيدي أبي العباس السبتي ، ففعل ،  
وقال للشيخ : إن أبي توفي وأوصاني أن أدفع إليك هذه الألف دينار تضعها حيث  
شئت ، فقال له الشيخ : قد قبلتها وصرفتها إليك ، فقال له : يا سيدي ، وما  
تأمرني أن أفعل بها ؟ قال : خذها ، قال : فانصرفت من عنده وسؤت ظناً  
بقوله ، ثم قلت : وأنا أنفق مثل ذلك على عادي في الوجه الذي يلذ لي ، فلأفعلن  
بها ما أفعل بغيرها ، فأخذتها في محفظة ، وخرجت ألتمس الزنى ، فإذا امرأة  
على دابة و غلام يقودها ، فأشرت إلى الغلام ، فقال لي : نعم ، واتبعني إلى  
بستان لي ، فترلت المرأة ، فأدخلتها إلى قبة كانت في البستان ، وأخذ الغلام  
الداية وصار ناحية ، وقال : أغلق الباب ، ففعلت ، ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة  
تبكي بكاء شديداً حتى طال بكاؤها ، وبكيت لبكائها ، فقلت لها : ما شأنك ؟  
فقلت : افعل ما دعوتني لأجله ، ودع عنك هذا ، ونحسبها يزيد ، فقلت لها :  
إن المعنى الذي دعوتك لأجله لا يصلح مع البكاء ، بل مع الأيس وانسراح الصدر  
وزوال الانقباض ورفع الحجل ، فقلت : نترك البكاء ونرجع للأيس على ما  
تحب ويوفى غرضك ، فقلت : لا ، حتى أعلم سبب بكائك ، وألححت عليها ،  
فقلت : أتعرف حاجب الملك الذي سجنه ؟ قلت : نعم ، قالت : فأنا ابنته ،

ولم يبق له أحد غيري ، وقد سجنه الملك وأخذ أمواله ، فما زلت أبيع ما ترك أبي وأنفقه عليه ، حتى لم يبق بيدي شيء ، فلما أعبتني الحيلة فيما أنفقه ألبأت نفسي ووقفت هذا الموقف وأنا بكر ما رأى لي أحد وجهاً قط ، فرميت لها بالألف دينار وقلت لها : والله لا قربت منك على هذا الوجه أبداً ، فأنفقي الدنانير على والدك إلى أن تنفد ، وابعثي لي غلامك أعلمه بمنزلي ، ولازمي دارك ، واستمري على صيانتك وإلا فضحتك ، وتريني والله لا أزال أبيع أملاكه وأنفقتها على والدك حتى أموت أو يفنى كل ما أملكه ، ثم خرجت ألتمس الغلام وإذا بجماعة يطلبون البنت ، وقالوا : إن الملك رضي عن والدها ، ورد عليه ضياعه وأملاكه ، ووصله بعشرة آلاف دينار ، وقعد يلتمس بنته فلم توجد ، فسقط في يد الغلام الذي كان مع الدابة ، وظن أن الأمر على ما جرى بيني وبين البنت ، فبادرته وقلت له : لا عليك ، فتجاهل في خبرها حتى ينصرفوا ، ودخلت إلى البنت وقلت لها : إن الملك قد رضي عن والدك ، ورد عليه ماله ووصله ، فسيري إلى دارك ، فركبت دابتها وانصرفت ، فدخلت على والدها فقال لها : أين كنت ؟ وما الذي أخرجك عن دارك ؟ وهمم بها ، فقالت له : أخرجني كل من في الدار ، ففعل ، فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره ، ورمت إليه بالألف دينار ، وقالت له : هذا الذي أعطاني لأنفق عليك ، فقال أبوها : هذا والله هو الكبريت الأحمر ، والله لو كان أبوه كفافاً ما أنفت أن أزوجه منه ، فوجه العبد الذي كان معها إلى الشاب ، وقال له : إن سيدي يدعوك ، قال : فخضت أن يوضع عنده الأمر على غير وجهه ، ثم أقدمت إقدام من علم براءة نفسه ، فدخلت عليه ، فقام إليّ وعانقني ، وقد عرف لي مقامي ، وقال : أما الآن وأنت من أعيان الناس فقد قررت بك عيني ، وقال : والله لو كان أبوك كفافاً ما أنفت لبنتي أن أزوجه منها ، فما قام من المجلس حتى وجهه إلى

١ ق : وقد عرفني .



العدول وأشهد على نفسه بأنه زوج ابنته فلانة من هذا الشاب ، ونقدّها عنه الشطر الأول من العشرة آلاف دينار التي وصله بها الملك وأجلّ لها عنه الشطر الثاني ، وأهدى لها من الحلّى كذا وكذا ، ومن الثياب كذا وكذا ، حتى أتى على أكثر أملاكه حتى أنفقها على ذلك ، فحصل من إشارة الشيخ السبتي - رضي الله عنه - في تلك الألف دينار على أضعاف مضاعفة من الأموال ، وظفر بينت حاجب الملك ؛ انتهى .

رجع إلى ابن زمرك رحمه الله تعالى :

قال الشاطبي في « الإشارات والإفادات » ما صورته :  
 إفادة : أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك إثر إيبابه إلى وطنه من رحلة العُدوة في علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً : الفقه في اللغة ، وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه « قرم » و « عام » إذا اشتبهى ، لكن لا يستعمل « قرم » إلا مع اللحم ، ولا يستعمل « عام » إلا مع اللبن ، فتقول : عمّت إلى اللبن ، وكذلك قولهم : أصفر فاقع ، وأحمر قان ، ولا يقال بالعكس ، وهذا كثير . والثانية تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتدال ، فلا يُستدل بالحوشي من اللغات ، ولا المتبدل في ألسن العامة . والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه ؛ إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه ، والإتيان بما يحصله سريعاً وبمكثه في الذهن ، وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتعرض السامع على الاستماع ، وأخبرني أن كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمّون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها .

وذكر من شرح بدعية الحلّي من المغاربة وهو الشيخ النحوي عبيد الثعالبي في شواهد حسن الختام أن منه ختام قصيدة للكاتب البارع أبي عبد الله المعروف

بابن زمرك الأندلسي مدح بها ملك المغرب عبد العزيز حين قدم عليه رسولا من صاحب الأندلس ، وهو قوله :

ولو أنشدت بين العذيب وبارق لقال رواةُ الغرب يا حبذا الشرقُ  
ولم يظهر لي كل الظهور دلالة لي على حسن الختام ، ولا بد ، فإله سبحانه أعلم .  
وقد أطلنا في ترجمة ابن زمرك فلنختم نظامه بموشحة له زهرية مولدية  
تضمنت مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهي هذه <sup>١</sup> :

لو ترجعُ الأيامُ بعدَ الذهابِ	لم تقدحِ الأيامُ <sup>٢</sup> ذكرى حبيبٍ <sup>٣</sup>
وكلُّ من نام بليل الشبابِ	يوقظه الدهرُ بصبحِ المشيبِ
يا راكبَ العجزِ ألا نهضةٌ	قد ضيقتُ الدهرُ عليك المجالُ
لا تحسبن أن الصبا روضةٌ	تنامُ فيها تحت فيءِ الظلالِ
فالعيشُ نومٌ والردي يقظةٌ	والمرء ما بينهما كالخيالِ <sup>٤</sup>
والعمرُ قد مرَّ كمرِّ السحابِ	والمُلتقى باللهِ عمّا قريبِ
وأنت مخدوعٌ بلمعِ السرابِ	تحسبه ماءً ولا تستريبُ
والله ما الكونُ بما قد حوى	إلا ظلالٌ توهمُ الغافلا
وعادةُ الظلِّ إذا ما استوى	تبصره مُنتقلاً زائلا
إنّا إلى الله عبيدُ الهوى	لم نعرفِ الحقَّ ولا الباطلا
فكلُّ من يرجو سوى الله خابُ	وإنما الفوزُ لعبدٍ منيبِ
يستقبل الرجعى بصدقِ المتابِ	ويرقبُ اللهَ الشهيدَ القريبِ

١ أوردها في أزهار الرياض ٢ : ٢٠٥ .

٢ الأزهار : الأشواق .

٣ ق : ذكر الحبيب .

٤ من قول أبي الحسن التهامي :

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

يا حسرتا مرَّ الصَّبَا وانقضى  
واخجلتا والرحلُ قد قُوَّضَا  
وليتني لو كنتُ فيما مضى  
قد حان من ركب التصابي إيابُ

يا أكمه القلبِ بغيْنِ الحجابِ  
« هل يحملُ الزاد لدار الكريمِ »<sup>١</sup>  
فجاهه ذخرُ الفقيرِ العديمِ  
والله سمّاه الرؤوفَ الرحيمِ

عسى شفيعُ الناسِ يومَ الحسابِ  
يلحقني منه قَبُولُ مجابِ

يا مصطفىَ والخلقُ رهنُ العدمِ  
مزيةٌ أعطيتها في القِدمِ  
مولدك المرقومُ لَمَّا نجمِ

ناديتُ لو يُسمع لي بالحوابِ  
أطلعتُ للهدى بغيرِ احتجابِ

وأقبلُ الشيبُ يقصُّ الأثر  
وما بقي في الخبر غير الخبر  
أدخِرُ الزادَ لطولِ السفرِ  
ورائدُ الرشِدِ أطالَ المتغيبِ  
كَمْ ذا أناديك فلا تستجيبِ  
والمصطفى الهادي شفيعُ مطاعِ  
وحبه زادي ونعمَ المتاعِ  
فجاره المكفولُ ما إن يُضاعِ

وملجأ الخلقِ لرفعِ الكروبِ  
يشفعُ لي في موبقاتِ الذنوبِ

والكونُ لم يفتق كمامَ الوجودِ  
بها على كلِّ نبيٍّ تسودُ  
أنجز للأمةِ وعدَّ السعدِ

شهرَ ربيعٍ يا ربيعَ القلوبِ  
شمساً ولكن ما لها من غروبِ

٢ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى ، الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا<sup>٢</sup> ، وشرحه عليها من أبداع الشروح ، وقد نقل عن لسان الدين

١ من قول الشاعر :

هلا احتجبت الزاد قلت اكفني هل يحمل الزاد لدار الكريم

٢ يعني أرجوزة ابن سينا في الطب ، وأولها بعد التحميدات :

الطب حفظ صحة براء مرض من سبب في بدن منذ عرض

( انظر قنواتي : مؤلفات ابن سينا : ١٧٢ وما بعدها ) .

كثيراً ، واعتمد عليه في أمور الطب ، وقد طال عهدي به الآن ، وهو من الكتب المشهورة بالمغرب ، ولم أره بهذه الديار الشرقية .

٣ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : الأديب الكاتب العالم العلامة القاضي أبو بكر ابن جُزَيِّ الكَلْبِي ، وأبوه الشيخ أبو القاسم ابن جزري شيخ لسان الدين ، وبيت بني جزري بيت كبير مشهور بالمغرب والأندلس ، وقد عرفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلامتين الناظمين الناثرين الكاتب أبي عبد الله محمد والقاضي أبي بكر المذكور ، فليراجع في الباب الثالث<sup>١</sup> .

ورأيت بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - جميع توأيفه مع أنه مقاربه في السن ، ولكن الإنصاف في ذلك الزمان غير معلوم ، وقد عرف به لسان الدين في « الإحاطة » والذي فهمت من عبارته في الإحاطة أنه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها غالباً إلا على تلامذته ، وربما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه ، رحمه الله تعالى ، وأتقن تاريخ أهل المغرب والأندلس ، رحم الله تعالى الجميع .

٤ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عبد الله الشريشي ، وهو الذي تولى أولاً نقل « الإحاطة » من مبيضتها ، كما سبقت الإشارة إليه في كلام حفيد السلطان ابن الأحمر ، وأحكم النسخة ، فكانت في مجلدات ستة ، وكان لسان الدين ألقى إليه بالمبيضات اعتماداً منه عليه ، وثقة به ، لاشتغال لسان الدين بأمر المملكة .

٥ - ومن تلامذة لسان الدين : القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي .

١ انظر ترجمته في ما تقدم ٥ : ٥١٧ .

قال في « الإحاطة » : صاحبنا الفقيه الخطيب ، كاتب الإنشاء بالباب السلطاني أبو محمد ، نسيج وحده في أصالة البيت وعفاف النشأة ، مقصود المنزل ، نبيه الصهر ، معم مخول في الأصالة ، بارع الخط ، جيد القريحة ، سيال المداد ، نشيط البنان ، جكّد على العمل ، خطيب ناظم نائر ، قرأ بغرناطة ، وولي الخطابة بالمسجد الأعظم والقضاء ستين ببلده في حداثة السن ، ثم انتقل إلى غرناطة فجاءت به الكتابة السلطانية داخضة بالحق ، آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة يبطل كفاية ، فاستقل رئيساً في غرض إعانتني وانتشالي من هفوة الكلفة على جلال الضعف وإلمام المرض . ثم كشفت الخبرة منه عند الحادثة على الدولة ، وإزعاجها من الأندلس عن سؤارة لا تُؤارى ، وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا يتمارى ، فسبحان من علّم النفس فجورها وتقواها ، إذ لصق بالدائل الفاسق<sup>١</sup> فكان آلة انتقامه ، وجارحة صيده ، وأجولة كيده ، فسفك الدماء ، وهتك الأستار ، ومزق الأسباب ، وبدل الأرض غير الأرض ، وهو يزقه في أذنه زقوم النصيحة ، وينحله لقب الهداية ، ويبلغ في شدّة أزره إلى الغاية ، عنوان عقل الفتى اختياره ، يجري في سبيل دعوته طوالاً ، أخرق يسيء السمع فيسيء الإجابة ، بدويّاً قحاً جمهورياً ذاهلاً عن عواقب الدنيا والآخرة ، طرفاً في سوء العهد وقلّة الوفاء ، مردوداً في الحافرة ، منسلخاً من آية السعادة ، تشهد عليه بالجهل يده<sup>٢</sup> ، ويقيم عليه الحجج شره<sup>٢</sup> ، وتبوئه هفوات الندم جهالته ، ثم أسلم المحروم مصطنعه أحوج ما كان إليه ، وتبرأ منه ، ولحقته بعده مطالبة مالية لقي لأجلها ضغطاً ، وهو الآن بحال خزري ، واحتجاب تبعات ، واستدعت شيئاً من نظمه ونثره حال التصنيف ليترجم به ، فكتب إليّ ما نصّه :

يا سيّداً فاقَ في مجدٍ وفي شرفٍ وفاتَ سبّقاً بفضلِ الذاتِ والسلفِ

١ يعني السلطان النصري الذي هرب منه لسان الدين إلى المغرب .

٢ ق : شره .

وفاضلاً عن سبيل الذم منحرفاً  
 وتُحفةَ الزمنِ الآتي بهِ فلقد  
 ومَعْدِنَا لِنَقِيسَ الدرَّ فهوَ لما  
 وبَحَرَ عِلْمٍ جَمِيعُ النَّاسِ مَعْرِفُ  
 وسابقاً بذَّ أهلَ العَصْرِ قاطِبَةً  
 من ذَا يَخَالِفُ في نارِ عِلْمٍ  
 ما أنتِ إِلَّا وَحِيدُ العَصْرِ في شَيْمِ  
 لِه من مُنْتَمٍ للمَجْدِ مَتَسِبِ  
 لله من حَسْبِ عِدِّ ومن كَرَمِ  
 إليه أَيَا من بهِ تَبَاىَ الوِزَارَةُ إِذِ  
 يا صَاحِبَ القَلَمِ الأَعْلَى الَّذِي جُمِعَتِ  
 يا من يَقْصِرُ وَصْفِي في عِلاهِ ومن  
 شَرَّفَنِي عِنْدَمَا اسْتَدْعَيْتَ من نَظْمِي  
 وربما راقَ ثَغْرُ في تَبَسُّمِهِ  
 أَجِلٌ قَدْرُكَ أَن تَرْضَى لِمَتَجَعِ  
 هَذَا ، وَلَوْ أَنِّي فِيمَا أَتَيْتُ بِهِ  
 لَكُنْتُ أَفْضَى إِلَى التَّقْصِيرِ من خَجَلِ  
 فَحَسْبِي العَجْزُ عَمَّا قَدْ أَشْرَتْ بِهِ  
 لَكِنْ أَجِبْتُ إِلَى المَطْلُوبِ مُمَثِّلاً  
 فَاظْطَرُّ إِلَيْهَا بَعِينِ الصَّفْحِ عَن زَلِّ  
 بَقِيَتَ لِلدَّهْرِ تَطْوِيهِ وَتَنْشُرِهِ

ثم ذكر نثراً ، وأن مولده بوادي آتش آخر عام تسعة وسبعمائة ، وتولى  
 الخطابة والإمامة بها عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة ، ثم ولي القضاء بها وبأعمالها عام

ثلاثة وأربعين وسبعمائة ، ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام ستة وخمسين  
وسبعمائة ، ومن شعره قوله :

ألا أيها الليلُ البطيئُ الكواكبِ  
وحتى متى أرعى النجومَ مراقباً  
أحدثُ نفسي أن أرى الركبَ سائراً  
فلا فُزْتُ من نيل الأمانِ بطائلِ  
فكم حدثتني النفسُ أن أبلغ المني  
وما قصرتُ بي عن زيارةِ قبره  
ولا حُبُّ أوطانِ نبتِ بي ربوعها  
ولكنْ ذنوبُ أقتلني فيها أنا  
إليك رسولَ الله شوقي مجدداً  
فأعملتُ في تلك الأباطحِ والرُبى  
وقضيتُ من لثم البقيعِ لباني  
ورويتُ من ماء بززم غلتي  
حبيبي شفيعي منتهى غايي التي  
محمدُ المختارُ والحاشرُ الذي  
رؤوفٌ رحيمٌ خصنا الله باسمه  
رسولٌ كريمٌ رقعَ اللهُ قدره  
وشرفه أصلاً وفرعاً ومحتداً  
سراجُ الهدى ذو الجاهِ والمجدِ والعلا  
هو المصطفى المختارُ من آلِ هاشمِ

متى ينجلي صبحٌ بليلِ المآربِ  
فمن طالع منها على إثر غاربِ  
وذنبي يُقْصيني بأقصى المغربِ  
ولا قمتُ في حق الحبيبِ بواجبِ  
وكم عكّلتني بالأمانِ الكواذبِ  
معاهدُ أنس من وصالِ الكواعبِ  
ولا ذكرُ خلٍ حلَّ فيها وصاحبِ  
من الوجدِ قد ضاقتُ عليّ مذهبِ  
فيا ليتني يممتُ صدرَ الركائبِ  
سُرّاي مجدداً بين تلك الساسبِ  
وجبتُ الفلا ما بين ماشٍ وراكبِ  
فله ما أشبههُ يوماً لشاربِ  
أرجي ومن يرجوه ليس بخائبِ  
بأحمدَ حاز المجدَ من كلِّ جانبِ  
وأعظمُ بماحٍ في الثناءِ وعاقبِ  
وأعلى لهُ قدراً رفيعَ الجوابِ  
يزاحمُ آفاقَ السما بالكواكبِ  
وخيرُ الورى الهادي الكريمِ المناسِبِ  
وذو الحسبِ العِدُّ الرفيعِ المناصبِ

١ كأنه نسخ فيه قول ابن خفاجة (ديوانه : ٢١٧) :  
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً - فمن طالع أخرى الليالي وغارب

هو الأمدُ الأقصى هو الملجأ الذي  
إمامُ النبيين الكرام ، وإتتهُ  
بشيرٌ نذيرٌ مُفضِّلٌ مُتَطوِّلٌ  
شريفٌ منيفٌ باهرُ الفضلِ كاملٌ  
عظيمُ المزايا ما لهُ مِنُ مُماثلِ  
ملاذٌ منيعٌ ملجأُ عاصمٌ لمن  
جليلٌ جميلٌ الخلقِ والخلقِ ما لهُ  
وناهيك من فرعِ نَمَتتهِ أصوله  
أولي الحسبِ العدُّ الرفيعِ جنابُه  
لهُ معجزاتٌ ما لها من مُعارضِ  
تحدّى بهن الخلقَ شرقاً ومغرباً  
فدونكها كالأنجمِ الشهبِ عدةٌ  
وإحصاؤها مهما تتبعتَ مُعوزٌ  
لقد شرفَ الله الوجودَ بِمُرسلِ  
وشرفَ شهراً فيه مولده الذي  
فشهرُ ربيعٍ في الشهورِ مقدّمٌ  
فلهِ منه ليلةٌ قد تَلَأَتْ  
ليهن أميرَ المُسلمين بها المنى  
على حين أحيها بذكرِ حبيبهِ  
وَأَتَفَ شملاً للمُحِبين فيهمُ

ينالُ بهِ مرغوبتهُ كلُّ راغِبِ  
لكالبدرِ فيهم بين تلك الموابِ  
سراجٌ منيرٌ بدتْ نور الكواكبِ  
نفيسُ المعالي والحلى والمتاقبِ  
كريمُ السجايا ما لهُ من مناسبِ  
يلوذُ به من بين آتِ وذهبِ  
نظيرٌ ، ووصفُ الله حجةَ غالبِ  
إلى خيرِ مجدٍ من لؤي بن غالبِ  
بدور الدياجي أو صدور الكتابِ  
وآياتُ صدقٍ ما لها من مغالبِ  
وما ذاك عمن حاد عنها بغائبِ  
ونور سناً لا يخنفي للمراقبِ  
وهل بعد نورِ الشمسِ نورٌ لطالبِ  
لهُ في مقامِ الرُّسلِ أعلى المراتبِ  
جلا نورهُ الأسنى دياجي الغياهِبِ  
فلا غرو أن الفخرَ ضربةُ لازِبِ  
بنور شهابِ بينِ الأفقِ شهابِ  
وأن نال من مولاة أسنى الرغائبِ  
وذكرِ الكرام الطاهرين الأطايِبِ  
فسار على نهجٍ من الرشدِ لاحِبِ



فسوف يُجازَى عن كريمٍ صنيعةُ  
وسوف يُرِيه الله في نصر دينه  
فيحمي حمى الإسلام عمّن يرُومه  
ويعتزُّ دينُ الله شرقاً ومغرباً  
إلهيَ ما لي بعد رحماك مطلبٌ  
سوى زورةِ القبرِ الشريفِ وإنه  
عليه سلام الله ما لاح كوكبٌ  
وما رافق الأظفانَ حادي الركائبِ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وليس لهذا الرجل انتحال لغير الشعر  
والكتابة وغير هذا الشعر قران ، فقلَّ أن ينتهي هذا الشعر في الضعة والاسترذال  
إلى ما دون هذا النمط ، فهو بغير ثان شعراً وشكلاً وبلداً ، لطف الله تعالى بنا  
وبه ؛ انتهى باختصار .

٦ - ومن تلامذة لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الكاتبُ أحمد بن  
سليمان بن فركون<sup>١</sup> ، ومن نظمه على لسان من<sup>٢</sup> يرمى بالداء العضال في فرَج<sup>٢</sup>  
عبدِ ابن زمرِّك الوزير بعد ابن الخطيب :

قالوا كلفتَ بهِ غلاماً حالِكاً فأجبتهمُ في فيه ما يرضي المهجُ  
مهما جنت بحسنه وبجبهِ علفتُ فوقِي منه حرزاً من سبِّج

١ ترجم له في الإحاطة ١ : ٢٢٨ وأثنى عليه بأنه شعلة من شعل الذكاء والإدراك ومجموع خلال حميدة  
وأه طالب نبيل مدرِّك نجيب بذِ أقرانه . . . ثم عاد فترجم له في الكتيبة الكامنة : ٣٠٥ وأثنى عليه  
بالدم الشديد : « جررو محقور وفي جلدة كلب عقور . . . وفيه يقال عند ذكره : كفاك الله  
شر من أحسنت إليه » وما ذلك إلا لأن ابن فركون كان من الزمرة التي تثيرت على لسان الدين .  
٢ قال لسان الدين في الكتيبة الكامنة في ترجمة ابن زمرِّك : « وبينه وبين معاصره مداخلات في غلام  
له غريب ( لعلها : غريب ) جعله مرهق غزل ونسيب . . . وجمعت الأقوال في هذا الميدان ،  
فجمعت بين الندس والمهدان ، والقاصي والدان . . . إلخ » .

ورأيت بخط الوادي آشي ما صورته : وجدت بخط لسان الدين ، وخاتمة  
أعلام البيان المجيد ، ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب رحمه الله تعالى في  
طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون ، المختص به ، المتأدب بما انفرد  
به من انتساخ تواليف ابن الخطيب ما نصّه : يسقط هذا الساقط من الديوان ؛  
انتهى .

ولعلّ لسان الدين إنّما أمر بإسقاطه من الإحاطة لما يُتّهم به من معنى بيته  
السابقين ، ويحتمل أن يكون لغير ذلك<sup>١</sup> ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

١ قلت هذا الترجيح من المقري يؤكد أنه لم يطلع على الكتيبة الكامنة ، ولا عرف سبب التغير في نفس  
لسان الدين على أحد تلامذته .

## الباب الثامن

### في ذكر أولاده

الرافلين في حُكْل الجلالة ، المقضين أوصافه الجميدة وخصاله ، الوارثين العلم والعمل والرياسة والمجد عن غير كلاله ، ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا ، المشتملة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلا تُشْنِيَا ، المتقدمة من أنواع الضلالة ، وما يقع في ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية ، التي لها على حسن الختام أظهر دلاله

اعلم - وفقني الله تعالى وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يعتبر بالدهر في معضاته - أن أولاد لسان الدين ثلاثة : عبد الله ، ومحمد ، وعلي ، وكلهم حَدَّثَ عن أبيه وعن ابن الجياب .

أما محمد فقد نال حظه من التصوّف ، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوّف ، ولم يحضرني الآن نص من أنبائه أكتبه لعدم وجود الكتب التي هي مظان ذلك ، إذ قد تركتها بالمغرب .

وقد سبق فيما مر<sup>١</sup> من كلام ابن خلدون أن أولاد لسان الدين كانوا من نُدَمَاء السلطان وأهل خلوته ، وأن علياً كان خالصة السلطان ، رحم الله تعالى الجميع .

وأما عبد الله فقد كتب بالعدوتين ، للملوك الحضرتين ، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدير الدولة ، وأكثر الناس بها كالمخوَّص

١ فيما مر : سقطت من ق .

حونه ، ولا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه ، وقد ألمَّ ببعض التعريف بمبدأ أحواله أبوه لسان الدين في كتاب « الإحاطة في تاريخ غرناطة » فقال في حقه ما ملخصه<sup>١</sup> : عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن الخطيب التلمساني ، حسن الشكل ، جيد الفهم ، يُخطي منه رمادُ السكون جمرَةً حركة ، منقبض عن الناس قليل البشاشة ، حسن الخط ، وسَطَ النظم ، كتب عن الأمراء بالمغرب ، وأنشدتهم واقتضى صكوكهم بالإقطاعات<sup>٢</sup> والإحسان ، واختال في خيلهم ، ثم لما كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه معزز الخطة بالقيادة ، قرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني ، والخطيب أبي سعيد فرج بن لب التغلبي ، واستظهر بعض المبادئ في العربية ، واستجيز<sup>٣</sup> له من أدركه ميلادُهُ من أهل المشرق والمغرب . وشعره مترفع عن الوسط إلى الإجابة ، يكلِّله عذر الحدائث ، فمنه قوله في مولد أربعة وستين وسبعمائة :

بحقّ الهوى يا حُدَاةَ الحمولِ	قضوها قليلاً بتلك الطلولِ
معاهدُ مرّت عليها السحابُ	يرقِ خفوقٍ ودمعِ همولِ
أحنُّ إليها حينَ العِشارِ	وأبكي عليها بشجرِ طويلِ
فيا سعدُ عرّج عليها الركابُ	ففيها لقلبي شفاء الغليلِ
سقاها من المزن صوبُ الغمامِ	وحيا بعرفِ النسيمِ العليلِ
ولا زالَ فيها يجرُّ الذبولُ	فيحيي النفوسَ بجرِّ الذبولِ
لئن حلّتْ يا ربِّعُ عن عهدنا	فعهدُ الهوى ليس بالمستحيلِ
ومما شجاني وميضُ خفوقٍ	كقلبي غداة النوى والرحيلِ
وميضُ إذا سلّه المزنُ وهنا	بضيء سنّاه كمضبٍ صقيلِ

١ انظر الإحاطة ، الورقة : ٢٣٧ .

٢ الإحاطة : بالاقطاع .

٣ الإحاطة : وأجاز .

أطار الفؤادَ فؤادَ المشوقِ  
فتُ أطاولُ لَيْلَ التمامِ  
ودمعِ يساجلُ دمعَ الغمامِ  
فيا ليت شعري وهل من سبيلِ  
وهلْ يسمعُ الدهرُ بعدَ العنادِ  
وهلْ راجعُ عهدنا بالحمى  
فيا حُسنَ مأوى عزاءِ جميلِ  
وفي ذمّةِ الله ركبٌ سرّوا  
نشاوى بكأسينِ كأسِ الهوى  
يؤمّونَ بالعيسِ أمّ القرى  
ديارُ بها الوحيُ وحيُّ السما  
بها أشرقَ الدينُ كالشمسِ نوراً  
فيا حاديَ العيسِ يطوي الفلا  
سفائنَ آلِ طواها السرى  
نشدتك بالبانِ بانِ الحمى  
إذا ما حلتَ لدى طيبةِ  
وقبراً ثوى فيه خيرُ الورى  
فأبلغُ نحيبَ صبِّ مشوقِ  
وقلْ يا رسولَ الهدى والشفيعِ  
عليك الصلاةُ وطيبُ السلامِ  
نبيّ كريمٍ رؤوفٍ رحيمٍ  
إمامُ الهدى المجتبي المصطفى

وأغرى السهادَ بطرفِ كليلِ  
بوجدِ جديدِ وصبرِ مُحيلِ  
وشجوةِ الحمائمِ عندَ الهدبيلِ  
على الوجدِ يوماً بصبرِ جميلِ  
بجبرِ الكسيرِ وعزِّ الذليلِ  
على رغمِ دهرٍ ظلومِ جهولِ  
ويا طيبَ مأوى بظلِّ ظليلِ  
يحدّونَ والليلُ مرُخى السدولِ  
وكأسٍ من الأمنِ مثلِ الشمولِ  
وقبرِ النبيِّ الشفيعِ الرسولِ  
تنزّلَ ، أكرمَ بهِ من نزولِ  
وآن من الشركِ وقتُ الأفولِ  
بوخذِ القلاصِ ونصِّ الذمّيلِ  
وشقِّ الحزُونِ وقطعِ السهولِ  
وبالموردِ العذبِ والسلسيلِ  
وجثتَ محلَّ الرضى والقبولِ  
وبشرى الكليمِ وفخرِ الخليلِ  
عدتَه عوادي الزمانِ الخدولِ  
إذا ضاقَ صدرُ أبٍ عن سليلِ  
يحييكِ عندَ الضحى والأصيلِ  
بنصِّ الكتابِ وحكمِ العقولِ  
بأزكى شهيدِ وأهدى دليلِ

به أظهرَ الله دينَ الهدى  
 وقامَ بأعباءِ دينِ الإلهِ  
 فأكرمَ بَلِيَّةَ ميلاده  
 لكِ اللهُ مِنْ لَيْلَةٍ فَضَّلَهَا  
 وأبَدَ بالنصرِ مولَى أقام  
 أعادَ بها الليلَ مثلَ النهارِ  
 وأبَدَى الرضى نحوها والقَبُولِ  
 سميَ النبيَ الكريمِ الرسولِ  
 محمدُ المُرْتَجَى المستجارُ  
 من النفرِ الغُرِّ أسدِ الكفاحِ  
 تراهم لدى السلمِ أطوادَ حِلْمِ  
 مِيدِ العداةِ ، ومحبي العفاةِ  
 فبأسٌ حكي النارَ عندَ احتدامِ  
 فيُصَلِّي عداه لدى الحربِ ناراً  
 إذا فُلَّتِ البيضُ يومَ الوغى  
 ملكٌ كَفِيلٌ لَمَنْ يَرْتَجِيهِ  
 وفرعٌ كريمٌ حميدٌ الخلالِ  
 فدامَ لنا ما سرى في الرياضِ  
 وحنٌ مشوقٌ لأرضِ الحجازِ  
 وعلمٌ كيفِ سواءِ السبيلِ  
 أتمَّ القيامَ بفعلٍ وقيلِ  
 على كلِّ وقتٍ وعصرٍ وجيلِ  
 يجرُّ على النجمِ فضلَ الذبولِ  
 مواسمها فعلَ برٍّ وِصُولِ  
 بوجهِ كريمٍ وفعلٍ جميلِ  
 وأكرمَ بهِ مِنْ حَفِيٍّ كَفِيلِ  
 وسيفِ الإلهِ العليِّ الجليلِ  
 مِيدُ العدا ومَنيلُ الجزيلِ  
 وأهلِ السماحِ عَشِيَّ التزولِ  
 ويومَ الكريمةِ آسادَ غيَلِ  
 ومأوى الغريبِ ومُدني الدخيلِ  
 وجودٌ حكي السُّحْبَ عندَ الهمولِ  
 ويروي نداءَ زمانِ المَحُولِ  
 فَلَسْتُ ترى عزمه ذا فُلُولِ  
 بكلِّ مَرَامٍ بَعِيدِ وسولِ  
 نماءِ إلى المجدِ طيبِ الأصولِ  
 نسيمُ الصَّبَا ومهبُ القَبُولِ  
 إذا لاحَ لِمَاضٍ بَرَقَ كَلِيلِ

وقال يمدح السلطان أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نصر من مدينة فاس<sup>1</sup>:

لمن طللٌ بالرقمتين مُحِيلُ  
 عَفَّتْ دَمْتِيهِ شَمَالٌ وَقَبُولُ

<sup>1</sup> أورد بعضها في نسخة الإحاطة المشار إليها .

يلوحُ كباقي الوشمِ غيرَهُ البلي  
فيا سعدُ مهلاً بالركابِ لعلنا  
قفِ العيسَ ننظرُ نظرةً تُذهبُ الأسي  
وعرجُ على الوادي المقدسِ بالحمى  
فيا حبذا تلكِ الديارُ وحبذا  
دعوتُ لها سقي الحمى بعدما سرى  
وأرسلتُ دمعي للغمامِ مساجلاً  
فأصبح ذلكَ الرُبْعُ من بعدِ محلّه  
لئن حالَ رسمُ الدارِ عما عهدته  
ومما شجاني بعدما سكنِ الهوى  
توسدُنَ فرعَ البانِ ، والنجمُ مائل  
فيا صاحبي دعُ عنكَ لومي فإنه  
تقول : اصطباراً عن معاهدك الألى  
فله عينا من رأني وللأسي  
يطاولُ ليلَ التَمِّ مني مُسهِّدُ  
فيا ليتَ شعري هل يعودنَ ما مضى  
وهل راجعُ عهد الحمى سقي الحمى  
وأيامُ أنسٍ كم نعمنا بقربها  
حلفتُ بربِّ الراقصاتِ إلى منى  
لجودُ أميرِ المسلمين محمدٍ  
ملكُ - أتاهُ اللهُ في الملكِ عزيمةً  
هو الملكُ المنصورُ والبطلُ الذي

وجادتُ عليه السُّحبُ وهي همولُ  
نسائلُ ربّعاً فالمحبُّ سؤولُ  
ويشفي بها بينَ الضلوعِ غليلُ  
فطابَ لديهِ مرَبْعٌ ومقبيلُ  
حديثُ بها للعاشقين طويلُ  
ومبضٌ وعرفُ للنسيمِ عليلُ  
فسالَ على الخدين منه مسيلُ  
رياضاً بها الغصنُ المروحُ يميلُ  
فعهدُ الهوى في القلبِ ليسَ يحولُ  
بُكاءُ حماماتٍ لهنَّ هديلُ  
وقد آن من جيشِ الظلامِ رحيلُ  
كلامُ على سمعِ المحبِّ ثقيلُ  
وهيهاتَ صبري ما إليه سبيلُ  
غداةً استقلتُ بالخليطِ حمولُ  
وقد بانَ عني منزلُ وخليلُ  
وهل يسمحنَ الدهرُ وهو بخيلُ  
وظلَّ بعينِ الدمعِ فيه ظليلُ  
وقد غابَ عنا حاسدُ وعدولُ  
لهنَّ إلى البيتِ العتيقِ ذميلُ  
بكلِّ مرامٍ في الزمانِ كفيلُ  
يروعُ الأعادي بأسها ويهولُ  
يهونُ عليه الخطبُ وهو جليلُ

إذا فُلَّتِ البِيضُ الرِّقَاقُ وَجَدْتَهُ  
 يَقْصَرُ بَاعُ المَدْحِ دُونَ صِفَاتِهِ  
 مِنَ النُّفْرِ البِيضِ الوَجُوهَ لَدَى الوَعْيِ  
 هُمُ مَا هُمُ وَالْحَرْبُ قَدْ شَبَّ نَارَهَا  
 إِذَا سَلُّوا يَوْمَ النَّدَى فَنَوَاهِمُ  
 بِهِمْ عَزَّ دِينُ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا  
 هُمُ السَّادَةُ الْأَنْصَارُ وَالْعَرَبُ الْأَلَى  
 لَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ وَالرَّسُولُ أَمِيرُهُمْ  
 فَأَصْبَحَ أَصْحَابُ القَلْبِ كَأَنَّهُمْ  
 وَقَدْ أَمِنَ الْإِسْلَامُ كَيْدَ عَدُوِّهِ  
 وَعَدُوا رَوَاحًا لِلْمَدِينَةِ وَالرَّضَى  
 فَمَنْ ذَا يَجَارِي أَوْ يَدَانِي عَصَابَةً  
 لَكُمْ يَا بَنِي نَصْرِ مِنَ المَجْدِ هَضْبَةً  
 يَا سَيِّدَ الْأَمْلَاقِ وَالوَاحِدِ الَّذِي  
 لَقَدْ قَرَعَ الْأَعْدَاءَ مِنْكَ مُؤَيَّدًا  
 فَلَمْ يَدْرِكُوا مَا أَمَلُوا غَيْرَ سَاعَةٍ  
 تَعَاوَيْنَ فِي بَابِ البِنُودِ بِسِحْرَةٍ  
 أَيْسَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتُوا بِغِيظِهِمْ  
 فَأَضْحَوْا حَدِيثًا فِي الْبِلَادِ وَيَوْمَهُمْ  
 بِسَعْدِ إِمَامٍ يُنْزِلُ العِصْمَ سَعْدُهُ  
 وَفِرْعَ كَمَالٍ فِي الْخِلَافَةِ ثَابِتٍ  
 حَكِي وَجْهَهُ شَمْسَ النَّهَارِ إِذَا بَدَأَ  
 أَعَادَ لَنَا بِالْعَدْلِ أَيْامَهُ الَّتِي

أخوا عزماتِ مسا بينَ فلولُ  
 ويرجعُ عنها الفكرُ وهو كليلُ  
 لهم غررٌ وضّاحةٌ وحجولُ  
 وللخيلِ في جنحِ العجاجِ صهيلُ  
 تفيضُ شأيبٌ لهُ وسيولُ  
 وأصبحَ دينُ الكفرِ وهو ذليلُ  
 حَمَى الدِّينَ حَيٌّ مِنْهُمْ وَقَبِيلُ  
 تصولُ بهِ أرماعهم وتطولُ  
 كتيبٌ لوطءُ المرفهاتِ مهيلُ  
 وغودر ربيعُ الكفرِ وهو مُحِيلُ  
 لهم منه فوزٌ عاجلٌ وقبولُ  
 جزاؤهمُ عندَ الإلهِ جزيلُ  
 تزولُ الرواسي وهي ليس تزولُ  
 إذا عُدَّ فخرٌ ليسَ عنهُ عدولُ  
 له الذعرُ نصرٌ والحسامُ دليلُ  
 كذلك متاعُ الأَحْسَرينَ قليلُ  
 كلابٌ عليهم بعدَ ذاكَ عويلُ  
 فويلُ لهم من مكرهم وأليلُ  
 وساءَ صباحٌ عندهم وأصيلُ  
 ويروي نداءَ الزمانِ محولُ  
 نمتُهُ إلى المجدِ الزكيِّ أصولُ  
 وربّاه عَرَفَ الرُوضِ وهو بليلى  
 عهدنا ، فدارتُ للسُرورِ شمولُ



فدام لنا ما هبَّ عَرَفَ من الصَّبَا  
وَحَنَّ مَشُوقٌ لِلْحِجَازِ إِذَا بَدَتْ  
وَأَشْرَقَ نَجْمٌ مِثْلَ قَلْبِي خَافِقِ  
وَلَا زَالَتِ الْأَقْدَارُ تَجْرِي بِأَمْرِهِ  
وأومض برقٌ في الظلام كليلٌ  
لعيْنِهِ مِنْهُ شَامَةٌ وَطَفِيلٌ  
وَحَانَ لَهُ عِنْدَ الْغُرُوبِ أَفْوَلٌ  
وَصَنَعُ إِلَهِي الْعَرْشِ فِيهِ جَمِيلٌ

وقال في إغذار ابن السلطان رحمه الله تعالى ورضي عنه :

أثِيرَهَا عَزْمَةً تُنْضِي الرِّكَابَا  
لَعْلَ الْوَجْدِ تَطْفَأُ مِنْهُ نَارٌ  
أَمَا بَعْدَ الْأَلَى تَرْجُو قُلُوبٌ  
فِي أَخْوَى كُفًّا عَنِّي عِتَابِي  
تَذَكَّرْتُ الْعَقِيقَ فَسَالِ دَمْعِي  
أَقُولُ لِنَسْمَةٍ مَرَّتْ صَبَاحًا  
أَلَا يَا هَذِهِ كَوْنِي رَسُولِي  
نَشَدْتِكِ بَلَّغِي صَاحِبِي سَلَامِي  
يَلُومُنِي الْعَوَازِلُ فِي اشْتِيَاقِي  
وَكَمْ بَيْنَ الْأَبَاطِحِ مِنْ مَهَابَةٍ  
رَمْتِي ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ تُزْرِي  
إِذَا مَا الشَّهْبُ لِلْغَرَبِ اسْتَمَالَتْ  
أَوْجَهُ إِنْ رَقَدَتْ إِلَيْكَ طَيْفِي  
فَقُلْتُ : لَقَدْ بَجَلْتِ عَلَيَّ مَشُوقِ  
وَكَيْفَ لَهُ بِنُومٍ بَعْدَ وَجْدِي  
وإن دَمِيَتْ لَهَا الْعَيْنُ انْكَسَابَا  
أَبَتْ إِلَّا زَفِيرًا وَالتَّهَابَا  
تَسَارَعُ نَحْوَ أَرْضِهِمْ انْقِلَابَا  
فَلَسْتُ بِسَامِعٍ أَبَدًا عِتَابَا  
عَقِيقًا مِنْ تَذَكَّرِهِ مَذَابَا  
يَعْطُرُ عَرَفُهَا الْفَقْرَ الْيَابَا  
وَكَوْنِي إِنْ رَجَعْتَ لِي الْجَوَابَا  
إِذَا جِئْتَ الْمَعَاهِدَ وَالْقَبَابَا  
إِذَا مَا الْقَلْبُ مِنْ وَجْدِي تَصَابِي  
تَرُوعُ بِلِحْظِهَا الْأَسَدَ الْغَضَابَا  
وَلَمْ تَحْذَرِ بِفَتْكِهَا الْعِقَابَا  
وَقَوْدُ اللَّيْلِ بِالْإِصْبَاحِ شَابَا  
كَلِمَعُ الْبَرْقِ يَحْتَرِقُ السَّحَابَا  
أَبِي إِلَّا غَرَامًا ۱ وَاكْتَابَا  
يَذِيبُ لَيْسُهُ الصَّمَّ الصَّلَابَا

سينصره من الأنصارِ مَلِكٌ  
كريمٌ الذاتِ من ملائِكِرامِ  
تواضعَ رَحْمَةٍ وَعَلا مَعْلَمًا  
فليسَ يُصَدِّقُ عن جدواه راجِ  
لَهُ عَظْفٌ على الراجي جميلٌ  
وعدلٌ<sup>١</sup> أَمِنَ الأَرْجاءَ حَتَّى  
أَمولايَ الذي أَحيا المَعالي  
مَدَدَتَ على البلادِ جناحَ عدلِ  
وتابَ الدهرُ مِمَّا قد جَنَاهُ  
وسكَنَ عِزُّ دولتكِ الدواهي  
ويَا اللهُ إِعْذارُ سَعِيدِ  
عَجِبْتُ لِمُقَدِّمِ والروحِ يَهْفُو  
ومن شِبْلِ أَطاعَ أَخا سلاحِ  
وهل عِذْرٌ لِعاذرِ لَيْثِ غابِ  
فلولا سُنَّةُ حِكْمَتِ وَهْدِي  
لحامتِ عَصْبَةُ الأَنْصارِ عَنْهُ  
من الصَّيْدِ الذينَ لَهُم نَفوسُ  
تَنيرُ اللَّيْلَ أَوْجُهُهُم إِذا ما  
دَعَوْتَ بِهِ الأَنامَ لِيومِ حَشْرِ  
رَأوا من زَخرفِ الدنْيا مَقامًا  
وأبْتَهَمَ فَمَا عَاطَوْا حَديثًا

إذا ناداه مظلومٌ أجابا  
لقد طابت سجاياهم وطابا  
وسهلَ منه للناسِ الحجابا  
وليس يَسُدُّ عن عاقبه بابا  
يَقُلُّ من الردى ظُفْرًا ونابا  
تري الغزلانَ لا تخشى الذئبابا  
وقد بليت وألحفت الترابا  
وكفَّ الجورَ تستلبُ استلابا  
فجدتَ لَهُ بعفوكَ حينَ تابا  
فكانت رَحْمَةً دَفَعَتْ عذابا  
دَعوتِ السعدِ فيه فاستجابا  
بأفئدةِ الكُماةِ وما استرابا  
وحكَمه اصطباراً واحتسابا  
أظنَّ فؤاده والعقلَ غابا  
أصبتَ وقد سلكتَ به الصوابا  
بأسيافٍ تقدُّ بها الرقابا  
لغيرِ الفخرِ لا تصلُ الطَّلابا  
أرادوا السيرَ أو حثَّوا الركابا  
ولمَ تَذخرُ لَهُم إلا الثوابا  
يذكُرُ بالحنانِ لَمَنَ أنابا  
ولا عرفوا السؤالَ ولا الجوابا

ولو مكثوا بهِ دهرًا طويلًا  
 وطاردت الصُّورَ بكلِّ ضارٍ  
 ضربت بهِ على الآذانِ منها  
 ومعصوب الجبينِ بتاجِ روقٍ  
 تعرف أنَّ تحت الأرضِ ثوراً  
 وكنت بهِ هضيمَ الكشحِ أجي  
 تباعدَ مجمعُ الشدقينِ منه  
 فأثبته كوخِي الطرفِ حتى  
 وصاح بهِ الصُّورِ وقد رآه  
 « ففضَّ الطرفَ إنك من نمرِ  
 وأرسلت الجيادَ إلى استباقِ  
 فمن وَرَدِ أقبَّ ومن كُتبتِ  
 وساقية العمامِ إذا أطلتِ  
 تحومُ بها العصيُّ قرَّاشَ ليلِ  
 تحفُّ بها خيولُ القومِ مناً  
 عجائبُ أبدعتُ عليكِ فيها  
 محمد لا عدمت الدهرَ حمداً  
 وزكيتُ نفسكَ الرحمنُ لما  
 تداركت البلادَ ومن عليها  
 لقد أوليتنا بيضَ الأيادي  
 روتُ عنك العوالي في المعالي  
 سفتحُ من بلادِ الشركِ أرضاً

لما ذكروا الطعامَ ولا الشرابا  
 كما أتبتَ عفرتيأ شهابا  
 فلم تسطعُ حراكاً واضطرابا  
 يروعُ خُواره الأسدَ الغضابا  
 فرام بأن يشقَّ لهُ الترابا  
 حديدَ الثابِ تحسبها حرابا  
 وسالَ الموتُ بينهما لعابا  
 توثقُ منه جازره غلابا  
 حيسَ الكلبِ قد مُنِعَ الإيابا  
 فلا كعباً بلغت ولا كلابا<sup>١</sup>  
 كأنَّ بوارقاً شقتُ سبحابا  
 وأشهبَ يلهبُ الأرضَ التهابا  
 إلى الأدواحِ تنسابُ انسيابا  
 ترومُ بسمعه منه اقترابا  
 فترسلُ نحوها الجردَ العرابا  
 ومثلك يبدعُ الأمرَ العجابا  
 فقد أحسنتَ في الملكِ المنابا  
 رآكَ ملكتَ للمجدِ النصابا  
 فأمنتَ الثنائفَ والشعابا  
 لقد طوقتنا المنَ الرغابا  
 حديثَ الفخرِ حقاً لا انتسابا  
 قد اعتقلتُ عقائلها اغتصابا

١ بيت لجرير بن الحنظلي .

وتُعْمَلُ فِي الْعِدَا بِيضَ الْمَوَاضِي  
فَمَا كَأْسٌ مِنَ الصَّهْبَاءِ صَرْفٌ  
وَطَافَ بِهَا مِنَ الرَّهْبَانِ بَدْرٌ  
تَجِدُ الْأَنْسَ عَوْدًا بَعْدَ بَدءِ  
بِأَعْدَبَ مِنْ ثَنَائِكَ حِينَ يَطْوِي  
أُمُولَايَ اسْتَمَعَهَا بِنْتَ فِكْرٍ  
وِغَاصَ عَلَى فَرَائِدِهَا الْغَوَالِي  
وَهَنَّاكَ الْإِلَهَ بِكُلِّ نَعْمَى  
وَدَمَتَ لِعِزَّةِ الْإِسْلَامِ رِكْنًا  
وَقَالَ ، وَقَدْ أَنْشَدَهَا السُّلْطَانُ لَيْلَةَ الْمِيلَادِ عَامَ خَمْسَةِ وَسِتِينَ وَسَبْعِمِائَةَ :  
نَقَسُ الصَّبَا أَهْدَى إِلَيَّ نَسِيمَا  
يَا هَلْ يَبْلُغُنِي السُّرَى خَيْرَ الْوَرَى  
وَأَسَابِقُ الرِّكْبَانَ فَوْقَ نَجْمِيَّةِ  
وَأَحْطَ رَحْلِي فِي كَرِيمِ جَوَارِهِ  
حَتَّى إِذَا بَلَّغُوا الَّذِي قَدْ أَمَلُوا  
وَتَرَاخَمُوا فِي التَّرْبِ يَسْتَلْمُونَهُ  
قَبْلْتُ ذَلِكَ التَّرْبَ مِنْ شَوْقِي إِلَى  
وَبَكَيْتُ مِنْ دَمْعِ الْمَآئِي زَمْزَمًا  
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا هَبَّتْ صَبَا  
لِلَّهِ مَوْلَدُهُ الَّذِي أَنْوَارُهُ  
شَرَعَتْ مِنَ التَّأْيِيدِ سَيْفَ هِدَايَةِ  
كَسَرَ الْأَكَاسِرَ بِالْعِرَاءِ وَلَمْ يَدْعُ

إِلَى أَنْ يُنْكَرَ السَّيْفُ الْقُرَابَا  
تَعِيدُ الشَّيْخَ مِنْ طَرْبِ شِبَابَا  
يَهْتِكُ مِنْ دَجَى اللَّيْلِ الْحِجَابَا  
وَرَبَعُ الْهَمِّ تَرَكَهُ خَرَابَا  
بِهِ الرِّكْبُ الْأَبَاطِحَ وَالْمُضَابَا  
تَخَيَّرَهَا فَأَبْرَزَهَا لُبَابَا  
وَشَقَّ عَلَى نَفَائِسِهَا الْعَبَابَا  
تَقَوُّدُ لَكَ الْأَمَانِي الصَّعَابَا  
إِلَى أَنْ يَشْمَلَ الشَّيْبَ الْغَرَابَا  
قَدْ رَامَ مَمْتَعًا وَرَامَ عَظِيمَا  
فَأَرَى مَعَاهِدَ الْهَوَى وَرَسُومَا  
تَفْرِي مِنَ الْبِيدِ الْعِرَاضِ أَدِيمَا  
أَرْجُو نَعِيمًا فِي الْجَنَانِ مُقِيمَا  
وَرَأُوا مَقَامًا بِالرَّضَى مُوسُومَا  
أَرَأَيْتَ فِي الْوَرْدِ الظُّمَاءَ الْهَيْمَمَا  
مَنْ حَلَّهُ وَأَقَمْتُ فِيهِ لَزِيمَا  
وَتَرَكْتُ جِسْمِي كَالْحَطِيمِ حَطِيمَا  
تَهْدِي مِنَ الطَّيْبِ الزُّكِّيِّ شَمِيمَا  
صَدَعَتْ ظِلَامًا لِلضَّلَالِ بَيْمَمَا  
أُرْدَتُ ظُبَاهُ فَارِسًا وَالرُّومَا  
أَنْ رَدَّ قَيْصَرَ قَاصِرًا مَهْزُومَا

لله منها ليسةٌ أضحى بها  
 أبدأ أميرُ المسلمين أعدّها  
 ملكٌ أقام الله منه خلقة  
 يحيي ذمارَ المسلمين من الردى  
 بمحمدٍ قد عادَ دينُ محمد  
 أحيأ به الله الخلافةَ بعدما  
 من آل سعدِ الخزرجِ بنِ عبادة  
 تلقاه في يوم الكربةِ والوغى  
 وتخالُ كفيه إذا شحَّ الحيا  
 تأبى خلالَ العدلِ والشيمِ العلا  
 كهفُ العبادِ وفخرها وثناؤه  
 لزالَ يلقي العيشَ طلقاً والعلا  
 ما اهتر غصنٌ في الحديقةِ ناعمٌ

شملُ الهدى لأولي الهدى منظوما  
 بدعاً من القصرِ الكريمِ جسيما  
 مولى رؤوفاً بالعبادِ رحيماً  
 ويبیحُ ربعاً للعداِ وحریماً  
 غضَّ الرياضِ وكان قبلُ هشيماً  
 كانت بأطباقِ الترابِ ريماً  
 طابوا فروعاً في العلاِ وأروما  
 والحيلُ عابسةٌ أغرَّ وسيماً  
 ألقاً بعاميةِ الغيوثِ غيوماً  
 من أن يترى في دهره مظلوما  
 ترك المديحِ على الطروسِ رقيماً  
 مرقتى وصرفَ الحادثاتِ خديماً  
 لما أحسنَ من الشمالِ شميماً

مولده بفرنطة ، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعائة؛

انتهى .

[ أشعار لسان الدين ]

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ولده عبد الله المذكور ما في  
 « النفاضة » من قوله : أنشدت ابني عبد الله وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني  
 حيث جرابته ووظيفته ، وانجر حديث ما فقد بفرنطة في شجون الكلام :

يا بُنيَّ عبدَ الإلهِ احتساباً  
 عن أنثاٍ ومترلٍ وعقارِ

١ ق : القصد .

كَيْفَ يَأْسَى عَلَى خَسَارَةِ جِزْءٍ      مَنْ يَرَى الْكُلَّ فِي سَبِيلِ الْخَسَارِ  
 هَدَفٌ لَا تَتَى سَهَامُ اللَّيَالِي      عَنْ سَبَاقِ تَجَاهِهِ وَبِدَارِ  
 وَاحِدٌ طَائِشٌ وَسَهْمٌ مُصِيبٌ      لَيْسَ يَنْجِي مِنْهَا اشْتِمَالُ حَذَارِ  
 غَيْرُ ذِي الدَّارِ صَرَفُ الْهَمِّ فِيهَا      فَمِنَاخُ الرَّحِيلِ لَيْسَ بَدَارِ

انتهى . وقال أيضاً رحمه الله تعالى : مما أنشدته ولدي عبد الله ، وأمرته  
 بحفظه والتأدب به والهجج بحكمته :

إِذَا ذَهَبَتْ يَمِينُكَ لَا تُضْبِعْ      يَسَارَكَ فِي الْبُكَاءِ وَلَا الْمَصِيهَ  
 وَيُسْرَاكَ اغْتَنِمْ فَالْقَوْسُ تُرْمِي      وَمَا تُدْرِي أَرْشَقَتْهَا قَرِيبَهُ  
 وَمَا بَغْرِيْبَةُ نَوْبُ اللَّيَالِي      وَلَكِنَّ النِّجَاةَ هِيَ الْغَرِيْبَةُ

قال : ومن المنظوم في قريب من هذا قولي :

أَيَا أَهْلَ هَذَا الْقَطْرِ سَاعِدِ الْقَطْرِ      دَهَيْتُ فَدَلُونِي لِمَنْ يُرْفَعُ الْأَمْرُ  
 تَشَاغَلْتُ بِالدُّنْيَا وَنَمْتُ مَفْرَطًا      وَفِي شُغْلِي أَوْ نَوْمِي سُرِقَ الْعَمْرُ

وقال رحمه الله تعالى : ومما قلته وقد انصرف عني الولدُ عبد الله إلى مدينة  
 فاس لإقامة رسمه من الخدمة ، وأشجاني انصرافه لوقوع قرحة على قرح ، والله  
 المستعان :

بَانَ يَوْمَ الْخَمِيْسِ قَرَّةٌ عَيْنِي      حَسْبِيَ اللَّهُ أَيُّ مَوْقِفٍ بَيْنِ  
 لَوْ جِئْتِي مَوْقِفُ النَّوَى حِينَ حَيًّا      حَانَ يَوْمَ الْوَدَاعِ وَاللَّهِ حَيِّي  
 ضَايَقْتَنِي صُرُوفُ هَذِي اللَّيَالِي      وَأَطَالَتْ هَمِّي وَأَلَوْتُ بَدْيِي  
 وَطَنٌ نَازِحٌ وَشَمْلٌ شَتِيْتُ      كَيْفَ يَبْقَى مُعَدَّبٌ بَعْدَ ذَبْنِ  
 يَا إِلَهِي أَدْرِكْ بِلَطْفِكَ ضَعْفِي      إِنَّ مَا أَشْتَكِيهِ لَيْسَ بِهِيْنِ

وقال رحمه الله تعالى : أنشدت يوماً ولدي عبد الله وقد رأيت منه نشاطاً

ومرّحاً انتقل مي إليه بعد السن :

سَرَقَ الدهرُ شباي من يدي وفؤادي مُشعراً بالكمَدِ  
جملةُ الأمرِ إذا أبصرتهُ باعَ ما أفقدني من ولدي

وقد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين رحمه الله تعالى .

[ علي وتعليقاته على الإحاطة ]

وأما علي بن لسان الدين رحمه الله تعالى فهو شاعر البيت بعد أبيه النبيه ،  
وكان مُصاحباً للسلطان أحمد المريني المستنصر بالله ابن السلطان أبي سالم ابن  
السلطان أبي الحسن المريني ، رحمهم الله تعالى .

وحكى بعضهم أنه حضر معه في بستان ، سَحَّ فيه ماء المذاكرة المتَّان ،  
وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار ، وأزعم النهار لما قدم الليل على الفرار ،  
فقال المستنصر لما لان جانبه ، وسالت بين سرحات البستان جداوله ومدانيه :

يا فاسُ إنِّي وأيمُ اللهُ ذو شغفٍ في كلِّ ربيعٍ لهم مغناهُ يسيني  
وقد أنستُ بقربٍ منك يا أملي ونظرةٌ فيكمُ بالأنسِ تحييني

فأجابه أبو الحسن علي بن الخطيب ، بقوله المصيب :

لا أوحشَ اللهُ ربيعاً أنتَ زائرُه يا بهجةَ الملكِ والدنيا معَ الدينِ  
يا أحمدَ الحمدِ ، أبقاكُ الإلهَ لنا فخرَ الملوكِ وسلطانَ السلاطينِ

وقد رحل رحمه الله تعالى إلى مصر ، ولم يحضرني الآن من أحواله بعد دخوله  
مصر ما أعول عليه ، وقد كان وقف بالقاهرة على نسخة « الإحاطة » التي وجهها  
أبوه إلى مصر ووقفها بخانقاه سعيد السعداء كما أشرنا إليه فيما مرّ ، فكتب  
بالخواشي كتابات مفيدة ، وقد ذكرنا بعضها فيما أسلفناه من هذا الكتاب ،

فليراجع : إما تكميل لما أغفله أبوه ، وإما إخبار عما شاهده هو ، أو رواية له عن  
المرجم به ، أو جواب عن أبيه فيما انتقد عليه .

[ نماذج في تطبيقاته من ترجمة ابن جابر ]

ولنذكر شيئاً منها غير ما تقدم بعد إيراد نص « الإحاطة » فنقول :  
قال في « الإحاطة » في حرف الميم في ترجمة شمس الدين الهواري الضرير  
شارح ألفية ابن مالك وصاحب البديعة الشهيرة بالأعمى والبصير ، ما صورته :  
محمد بن أحمد بن علي الهواري ، يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن جابر ،  
من أهل المرية .

حاله - رجل كفيف البصر ، مدل على الشعر ، عظيم الكفاية والمنة على  
زمانته ، رحل إلى المشرق ، وتظاهر بـرجل من أصحابنا يُعرف بأبي جعفر الإلييري ،  
صار اروحين في جسد ، ووقع الشعر منهما بين لَحْيَيْ أسد ، وشمر للعلم  
وطلبه ، فكان وظيفة الكفيف النظم ، ووظيفة البصير الكتّاب ، وانقطع الآن  
خبرهما ؛ انتهى .

فكتب المذكور على أول الترجمة ما صورته : نعم الرجل ورفيقه أبو جعفر  
أحسن الله تعالى إليهما ، فلقد أحسنا الصحبة ، في الغربة ، وانفردا بالتزاهة  
والفضل وعلو الهمة ، إلا أن المصنف قصر فيهما بعض قصور ، ومنهما يُطلب  
الإغضاء والصفح ، فالرجل مات ، وذكرُ الأموات بالخير مشروع ، وهما  
والله الشرف الباهر بقطرهما علماً وعملاً ، أمتع الله تعالى بهما ، قاله ولدُ  
المؤلف علي بن الخطيب بالقاهرة ؛ انتهى .

١ قد ترجم المقرئ لابن جابر الضرير ورفيقه أبي جعفر الإلييري (المجلد ٢ : ٦٦٤ - ٦٨٧)  
وما هو يعود إلى الإسهاب في ذكر الرجلين في هذا الجزء .



وكتب على قول أبيه « وانقطع الآن خبرهما » ما نصّه : هما الآن بالبيرة من حلب ، تحت إناعام ولطف ، تحت إليهما الرواحل ، وتضرب إليهما آباط النّجب .

رجع لتكميل ترجمة الشمس ابن جابر من « الإحاطة » :

قال لسان الدين بعد ما مضى ما نصّه ، وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه : محسوب من طلبتها الجليّة ، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهلة ، رحل إلى المشرق وقد أصيب ببصره ، واستهان في جنب الاستفادة بمشقة سفره ، على بيان عذره ، ووضوح ضره .

شعره - وشعره كثير ، فمنه قوله :

سلوا حُسْنَ ذاك الخالِ في صفحة الخدِّ متى رَقَمُوا بالمسكِ في ناعم الوردِ  
وقولوا لذاك الثغرِ في ذلك اللَّمَى متى كان شأنُ الدرِّ يوجدُ في الشهدِ  
ومن هزَّ غصنَ القدِّ منها لفتني وأودعَهُ رمائتيَ ذلك النهدي  
ومن متعَّ القُضْبَ اللدّانَ بوصفها إلى أن أعرنَ الحسنَ من ذلك القدِ  
فناةٌ تفتُّ القلبَ مني بمقلةٍ لها رقةُ الغزلانِ في سطوةِ الأسدِ  
تمنيتُ أن تهدي إليَّ نهودها فقالت رأيتَ البدرَ يهداه أو يهدي  
فقلتُ ألرّمّانِ بُدٌّ من الجنى فناهتُ وقالت : باللواحظِ لا الأيدي  
فقلتُ أليس القلبُ عندكِ حاصلًا فقالت قلوبُ الناسِ كلّهمُ عندي  
فقلتُ اجعليني من عبيدك في الهوى فقالت كفاني كم لحسني من عبدِ  
إذا شئتَ أن أرضاكِ عبداً فمتَّ جوى ولا تشنكي واصبري على ألمِ الصدِّ  
ألم ترَ أنَّ النحلَ يُحمَلُ ضرّها لأجل الذي تجنيه من خالصِ الشهدِ  
كذلك بذلُ النفسِ سهلٌ لذي الشهي لما يكسبُ الإنسانُ من شرفِ الحمدِ  
ألست ترى كفَّ ابنِ جانةٍ طالما أضاع كريمُ المالِ في طلبِ المجدِ

وكتب ابن المؤلف على هذه القصيدة ما صورته : عارضة قوية ، ونزعة  
خفاجية ، وكيف لا والشيخ أبو عبد الله صدر صدور الأندلس علماً ونظماً  
ونحواً ، زاده الله تعالى من فضله ؛ انتهى .

رجع إلى الترجمة - قال لسان الدين : وقال ، يعني ابن جابر :

عَرَّجْ عَلَى بَانَ الْعُدَيْبِ وَنَادِي	وَأَنْشُدْ فَدَيْتِكَ أَيْنَ حَلِّ فَوَادِي
وَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الْمَنَازِلِ بِالْحَمَى	فَأَشْرَحْ هُنَالِكَ لَوْعَتِي وَسَهَادِي
إِيهَ فَدَيْتِكَ يَا نُسَيْمَةَ خَبْرِي	كَيْفَ الْأَجْبَةُ وَالْحَمَى وَالْوَادِي
يَا سَعْدُ ، قَدْ بَانَ الْعُدَيْبُ وَبَانَهُ	فَانزِلْ فَدَيْتِكَ قَدْ بَدَأَ إِسْعَادِي
خَذْ فِي الْبِشَارَةِ مُهْجَتِي يَوْمًا إِذَا	بَانَ الْعُدَيْبُ وَنُورُ حَسَنِ سَعَادِي
قَدْ صَحَّ عَيْدِي يَوْمَ أَبْصِرُ حَسَنَهَا	وَكَذَا الْهَلَالُ عَلَامَةُ الْأَعْيَادِ

ومما نقلته من جزء قيده لي صاحبنا الفقيه الأستاذ أبو علي الزواوي ممّا  
ادعاهُ لنفسه :

عَلِيٌّ لِكُلِّ ذِي كَرَمٍ ذِمَامٌ	وَلِي بِمَدَارِكِ الْمَجْدِ اهْتِمَامٌ
وَأَحْسَنُ مَا لَدَيَّ لِقَاءَ حُرِّ	وَصَحْبَةُ مَعْشَرِ الْمَجْدِ هَامَا
وَإِنِّي حِينَ أَنْسَبُ مِنْ أَنَاسٍ	عَلَى قَمَمِ النُّجُومِ لَهُمْ مَقَامٌ
يَمِيلُ بِهِمْ إِلَى الْمَجْدِ ارْتِيَاخٌ	كَمَا مَالَتْ بِشَارِبِهَا الْمُدَامُ
هُمْ لَبَسُوا أَدِيمَ اللَّيْلِ بُرْدًا	لِيُسْفِرَ عَنْ أَدِيمِهِمُ الظَّلَامُ
هُمْ جَعَلُوا مَتُونَ الْعَيْسِ أَرْضًا	فَمَذَّ عَزَمُوا الرَّحِيلَ فَقَدْ أَقَامُوا
فَمَنْ كُلُّ الْبِلَادِ لَنَا ارْتِمَالٌ	وَفِي كُلِّ الْبِلَادِ لَنَا مَقَامٌ
وَحَوْلَ مَوَارِدِ الْعِلْيَاءِ مَنَّا	لَنَا مَعَ كُلِّ ذِي شَرَفٍ زَحَامٌ
تَصِيبُ سَهَامُنَا غَرَضَ الْمَعَالِي	إِذَا ضَلَّتْ عَنِ الْغَرَضِ السَّهَامُ
وَلَيْسَ لَنَا مِنَ الْمَجْدِ اقْتِنَاعٌ	وَلَوْ أَنَّ النُّجُومَ لَنَا خِيَامٌ

ثم سرد لسان الدين القصيدة بتمامها ، وذكر بعد ما سبق اثنين وستين بيتاً ، ولم نثبتها لطولها ، ثم قال بعدها : نجزت وما كادت ، ثم قال بعدها أيضاً : وقد وطأ لإمطاء قروحها ، وأعيا لإكثار سروحها ، ثم قال بعده : والله ولي النجاة بفضلته ؛ انتهى .

وكتب ابنه علي أول القصيدة وهو : « علي لكل ذي كرم ذمام » ما نصه : نزعة معرّية ، قاله ابن المؤلف رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

وكتب الشيخ ابن مرزوق على قوله « نجزت إلى آخره » ما صورته : ما أنصف المصنف هذا الفاضل في ترجمته ، وقدره شهير ، ومكانه من الفضيلة كبير ، وعلمه غزير ، ولعلّه لم يطلع إلا على ما أودعه .

وكتب إثره ابن لسان الدين ما صورته : نعم يا سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق لم ينصف المترجم به المؤلف ، ولولا أنهما بالحياة ما صدر منكم التنبية ، ولو حصلنا تحت الصفيح لم تعلموا فيهما قلماً ، هكذا شأن الدنيا بقلّة الوفاء شنشنة معروفة ، والحقد على الأموات شأن المغاربة ، قاله علي ابن المصنف رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

### [ استطراد بأشعار ابن جابر ]

ولا خفاء أن لسان الدين لم يستوف حقوق الشمس ابن جابر الهواري المذكور مع أن له محاسن جمة . ومن محاسنه رحمه الله تعالى :

هناؤكم يا أهل طيبة قد حقاً      فبالقرب من خير الورى حزتمُ السبقا  
فلا يتحرك ساكنٌ منكمُ إلى      سواها وإن جار الزمانُ وإن شقا  
فكم ملك رام الوصول لمثل ما      وصلتم فلم يقدر ولو ملك الخلقا  
فبشراكمُ نلتم عناية ربكمُ      فها أنتمُ في بحر نعمته غرقى

تروونَ رسولَ الله في كلِّ ساعةٍ  
متى جثمٌ لا يغلُق الباب دونكم  
فيسمعُ شكواكمُ ويكشفُ ضرركم  
بطيبةِ مَثواكم ، وأكرمُ مرسل  
فكم نعمة الله فيها عليكمُ  
أمنتم من الدجالِ فيها فحوها  
كذلك من الطاعون أنتم بما من  
فلا تنظروا إلا لوجه حبيبكم  
حياةً وموتاً تحت رحماه أنتم  
فيا راحلاً عنها لندنيا يريدُها  
أُتخرجُ عن حِرزِ النبيِّ وحوزه  
لئن سرت تبغي من كريمِ إعانةٍ  
هو الرزقُ مقسومٌ فليس بزائلٍ  
فكم قاعدٍ قد وسعَ اللهُ رزقهُ  
فعمشٌ في حمى خيرِ الأنامِ ومث به  
إذا قمتَ فيما بين قبرٍ ومنبرٍ  
لقد أسعدَ الرحمنُ جارَ محمد

ومن محاسنه رحمه الله تعالى المقصورة الفريدة ، وهي قوله ١ :

بادرَ قلبي للهوى وما ارتأى      لما رأى من حسنها ما قد رأى  
فقربَ الوجدَ لقلبي حبها      وكان قلبي قبلَ هذا قد نأى

١ واضح أن هذه المقصورة من « المشرات » على حروف المعجم وقد فصلنا بين أجزائها لتتضح للقارئ صورتها .

يا أيها العاذلُ في حبي لها  
لو أبصر العاذلُ منها لمحةً  
سرحتُ طرفي طالباً شأو العُلا  
إنِّي لأرعاها على تتبعها  
من منصفني من شادن لم أرجه  
وإن قبضتُ النفس عن سلوانه  
لأقطعنَّ البيدَ أفري حاذها  
حتى أزورَ ربةَ الخلدِ وقد  
أقصرُ فلي سمعٌ عن العذل بائٍ<sup>١</sup>  
ما فضَّ بابَ عدله ولا فأي<sup>٢</sup>  
وتابعاً في حبيها ما قد شأى<sup>٣</sup>  
عهدي ، ومثلي من وفي إذا وأئ<sup>٤</sup>  
لحاجة من وصله إلا زأى<sup>٥</sup>  
مدَّ أديمَ هجره لي وسأى<sup>٦</sup>  
بضامرٍ يفري الحصى إذا جأى<sup>٧</sup>  
زاد الكرى عني الوشاةَ وذأى<sup>٨</sup>

\* \* \*

يا ربَّ ليلٍ قد تعاطينا به  
في روضةٍ تعانقتُ أغصانها  
نادمتُ فيها من بني الحسن رشاً  
حلوا رخيماً الدلَّ في أعظافه  
أيامَ كان العيشُ غضاً حسنه  
أيَّ زمانٍ ومحلٍّ للمنى  
يا مربِّعاً ما بين نجدٍ والحمى  
حديث أنسٍ مثلَ أزهار الرُّبى  
إذ واصلتُ ما بينها ريحُ الصبا  
يصبو له من لم يكن قطُّ صبا  
لينٌ وفي الحاظه بيضُ الظبي  
عذبَ الجنى ريانَ من ماء الصبا  
ما ضاق مغناه بنا ولا نبا  
ويا زماناً قد حباني ما حبا

- ١ بائٍ يبأى : فخر ؛ وفي ق : فلي قلب . . . نأى .
- ٢ فأى : شق وخرج .
- ٣ شأى : قد تعني « بعد » أو « أعجب وأطرب » .
- ٤ وأئ : وعد ؛ وفي ق : ومثلي من فأى . . . إلغ .
- ٥ زأى : تكبر ، عن ابن الأعرابي .
- ٦ سأى الثوب والأديم : مده حتى انشق .
- ٧ الحاذ : طريقة المتن وهو موضع اللبد من الفرس ؛ وجأى : قذف .
- ٨ ذأى : ساق سوقاً شديداً وطرد .

اللهُ يرعاهُ زماناً لم يحلُ<sup>١</sup>  
 فأبي مَفْتَنِي أَهْلَ بِمَتِهِ<sup>٢</sup>  
 هل تُرْجِعُ الأيَّامُ عَيْشاً باللوى  
 عن بذلٍ ما نأمله ولا أباي  
 لمقصدٍ حَلَّتْ لَنَا فِيهِ الحُبَا<sup>٣</sup>  
 فراقه كان اللُّهُيْمَ الأُرْبَى<sup>٤</sup>

تالله لا أعبا بعيش قد مضى  
 مذ علقتُ كَفِيَّ بالهادي الذي  
 كالبحر لا يغيضُ يوماً وِرْدُهُ<sup>٥</sup>  
 متصلُ البرِّ لمن قد أَمَّهُ<sup>٦</sup>  
 ولا ينجي نفسه في ضيقة  
 إنَّ رسولَ الله مصباحُ هُدَى<sup>٧</sup>  
 كفَّ بني الجور بعدلٍ واضحٍ  
 كم ذي هوى قد راضه بهديه  
 قد خالط الحلمُ سجايا طبعه  
 أقسمتُ لا زلتُ أوالي مَدْحُهُ<sup>٨</sup>  
 ولا زمانٍ قد تعدى وعنا  
 ساد الوري طفلاً وكهلاً وفتى  
 لواردٍ إذا أصافَ أو شتا  
 لا يكره العودَةَ ممَّنْ قد أتى  
 أيَّ نهارٍ سرَّ هذا ومي  
 يُهْدِي به من في دجى الليل متاً<sup>٩</sup>  
 كما تكفُّ اليدُ كَفّاً من فتى  
 فانقاد كالعبد إذا العبد قتا<sup>١٠</sup>  
 كمثل ما قد خالط الثوبُ الستا<sup>١١</sup>  
 ما اشتدَّ بالناس زمانٌ ورتا<sup>١٢</sup>

لولا اشتياقي لديسارٍ كَرُمْتِ  
 ومدحُ مَنْ أَرَجُو بِأمداحي لهُ  
 لم أجعلِ الشعرَ لِنفسي خَلَّةً<sup>١٣</sup>  
 لبعدها يَرْتِي لَنَا مِنْ قَدْرَتِي  
 إِصْلَاحَ ما قَد عاثَ مِنِّي وَعَثَا<sup>١٤</sup>  
 ولم يحشُ فِكْرِي به ولا غَثَا<sup>١٥</sup>

- ١ ق : أمله .  
 ٢ اللهم : الداهية ؛ الأربى : الشديدة .  
 ٣ متان في الأرض مثل مطا ، أي مشى .  
 ٤ قتا العبد : خدم ، أو أحسن الخدمة .  
 ٥ سى الثوب يستيه بمعنى سدها يسديه .  
 ٦ رتا - من الأضداد : شد وأرعى .  
 ٧ غثا : كثر غثاؤه .

فما أرى الأيام تبدي منصفاً  
يا ضيعة الأبواب في دهرٍ غدا  
يا ويل أمّ ليس تزجي ضيمها  
هل مارستُ إلا أخوا عزم إذا  
تسيلُ من جهدِ السرى أعطافهُ  
له اعتصامٌ بالرسولِ المجتبي  
من ليس للدينا محلٌّ عنده

\* \* \*

أنا الفتى لا يَطِينِي طَمَعٌ  
لكن إذا اضطر زمانٌ جائرٌ  
لا أسأل التذللَ ولو أتني به  
حسبي بنو عبد مناف بهم  
أولئك القومُ الألى من أمهم  
يلقاك منهم كلُّ وجهٍ مشرقٍ  
إنتي مذُ أملتهم لم يشني  
إن أنا قد نكّرتني دهرٌ عدا  
يطوي العدا ذكرى ومجدي ناشري  
أنا الذي أعملتُ للمجدِ السرى

\* \* \*

- ١ الخئبى : جمع خئب ، وهو روث الثور .  
٢ الخفا : التراب المعضو أو المحثي .  
٣ جثا : جلس على ركبتيه للخصومة أي لمواجهة الخطب ، فهو مستوفر .  
٤ اللثى : شيء ينضجه ساق الشجرة أبيض خائر .  
٥ يريد بملء الكفين .

كم سرتُ في البيداء لا يُقلقني  
 أرسلها غرَّ الذرا تسري بنا  
 يطيحُ مفتوت الحصى من دونها  
 فكم بذلتُ الجهد في كسبِ العلا  
 أرغمُ أعدايَ بحزمٍ نافذٍ  
 أذودُ عن عرضي وأحمي حسي  
 أقسمُ بالبيتِ ومنَ طاف به  
 وكلُّ من أعملَ لله الخطا  
 ومعشرُ ثَجَّوا وعَجَّوا فلهم  
 لا زلتُ أزجِّها لإدراكِ العلا

يا عجباً من حاسد لي قد زها  
 كأنتي لم أعرف العزَّ ولا  
 وإنما الدهرُ له تُقلَّب  
 إن الذي لا يشي عن جوده  
 خيرُ الوري طراً من الله به  
 شرفه الله وحلَّى جيسده  
 زينته تواضعٌ على علا  
 فكم حمى بهديه وكم وقى

١ طحا : ذهب بعيداً .

٢ الوجى : الصوت .

٣ يقال اغنى من الشيء أي تبرأ منه وتخرج .

٤ موتخى : متجرى .

٥ نخا : زهي ، وقال الأصمعي ، يقال : نخى وانتخى ولا يقال نخا .



خَلَّصَ من أسر الخطايا جاهه      فما على قلب امرىء منها طخا<sup>١</sup>  
خَفَّفَ عَنَّا ثَقْلَ ما نَحْمَلُهُ      فلم نَبَيْتُ من ثقله نَشْكَو السَّخَا<sup>٢</sup>

\* \* \*

إن تحسب الرُّسُلَ سماءَ قد بَدَتْ      فَإِنَّهُ في أَفْقِها نَجْمٌ هَدَى  
وإن يكن كلُّ كَرِيمٍ قد مَضَى      طَلاَّ فَقَدْ أَضْحَى لَنَا غَيْثٌ جَدَا  
وإن يكونوا أَجْمَافاً في فَلَكَ      فَإِنَّهُ مِن بَيْنِهِم بَدْرٌ بَدَا  
واسِطَةُ السَّلْكِ إِذا ما نُظْمُوا      واملجأ القوم إِذا الخَطْبُ عَدَا  
كالبحر بل كالبدْرِ جوداً وَسَنَا      فحَبْدًا من اجْتَدَى أو اقْتَدَى  
أَحْسَنَ أَخلاقاً من الروض إِذا      ما اِخْتَالَ في بُرْدِ الصِّبَا أو ارتدى  
وساقَطَ القَطْرُ عَلَيْهِ دَمَعَهُ      فابْتَلَّ بِرُدِّ الزَّهْرِ مِنْهُ وَاِنتَدَى  
تَفْدِيهِ نَفْسِي من شَفِيعِ اللُّورَى      وَقَلَّتِ النَفْسُ لَهُ مِنِّي فِدَا  
هو الَّذي أَنعشنا من بعد ما      قد يَبِسَ الغَصْنُ وَأَذْوَاهُ الصِّدَى  
وكنْتُ في ليلِ الهوى ذا حيرةٍ      فجاء بِالْحَقِّ وَأُنْجَى وَهَدَى

\* \* \*

فكم كسا من ثوبِ نَعْمَى قد ضفا      وكم هَدَى بعلمه وكم غَدَا  
من اقْتَدَى بغيره فَإِنَّهُ      لم يَتَّبِعْ سُبُلَ الهدى ولا حِذا  
هل هي إِلاَّ سَنَّةُ الحَقِّ الَّتِي      أَرشَدَ مَنْ لاذ بها أو اِحتَدَى  
كفُّ اللسانِ وانبساط الكفِّ بِالِ      خَيْرِ وَطِيبِ الذِّكْرِ هَمٌّ قَدَّ شِذا<sup>٣</sup>

١ الطخا : قطع السحاب .

٢ السخا : ظلع يصيب البعير حين يشب بالحمل الثقيل .

٣ شذا : آذى ، أي أن هذه الواجبات تفتق من يريد الاحتفاظ بها ، وفي التجارية : عرف قد شذا ،

ويكون شذا بمعنى تطيب .

أحسنُ ما نالَ الفقي من كرمٍ  
والصمتُ عمّا لا يفيدُ قوله  
لا شيءٌ كالصمتِ وقاراً للفقي  
من عيبه يشغله عن غيره  
ومن يعب عيباً ومن يحسنُ إذن  
ومن تكن دنياه أقصى همته

\* \* \*

لا تنفقِ العمرَ سوى في حبٍّ من  
يهديك من رشدٍ ومجدٍ واضحٍ  
أجاد هدياً وأفاد نائلاً  
تري بني الحاجاتِ نحو بابهِ  
لهم إلى رؤيته تشوقٌ  
ذا يبتغي علماً وهذا نائلاً  
كانتهم إذا رأوا غرته  
وجهٌ لديه يُحمدُ السيرُ، كذا  
هدا إذا ما أخلفَ الناسُ وفي  
إذا شددتِ الكفَّ في أمرٍ به

هو الذي في سننِ الحقِّ جرى  
روضين من علمٍ وذكر قد سرى  
وجاد حتى عممَ الجودَ الورى  
قد أعملوا العيسَ بحزنٍ في البرى  
تشوقُ الساري إلى نارِ القيرى  
وخائبٌ من قصده ليس يرى  
وقد حجيج عابنوا أمَّ القرى  
عند الصباحِ يحمدُ القومُ السرى  
نائى المدى في مجده سامي الذرا  
فليس بالواني ولا الواهي العرى

\* \* \*

أنهضني بهديه إلى التقى بعد قصور العزم والباع الوزى<sup>٣</sup>

١ خذا : لان واسترخى .

٢ ق : الساري ؛ وقوله « عند الصباح . . . » مثل .

٣ الوزى : القصير .

هو الشفيحُ المجترى بجاهه  
 مذرته لم أشكُ من شحط النوى  
 وما وجدتُ غربةً ولم يجدُ  
 متصلُ البشرِ غضوبٌ للهدى  
 أصبح من أيامه في مأمنٍ  
 تحذتهُ كهفاً فبتُ آمناً  
 أدبنا بسنةٍ أفلحَ منْ  
 يجزي أخا الحسنى على إحسانه  
 لستُ أجازي الشرَّ بالشرِّ ، ولا  
 لم ترَ عينُ كرسولِ الله ذا

إذا ملماتُ الأمور قلقلتُ  
 بخلقه فليقتدِ المرءُ فما  
 كنُ حذراً وإن رأيتَ تمرةً  
 لا تباسنُ إن تناءى أملٌ  
 وإن بدا صبحُ المشيبِ فاطرحُ  
 ولا تظنَّ الشيبَ يرجى طبهُ  
 إذا الفى قوسَ واعتدَّ العصا  
 فاذكرُ زمانَ الشيبِ في حالِ الصبا

ألفيته كأنه طودٌ رسا  
 أكرمها من مقتدى ومؤتسى  
 فمثلها توقدُ جمرةَ الأسى  
 وكلما عثا زمانٌ قد عسا  
 ما كان إذ ليلُ الشباب قد غسا<sup>١</sup>  
 بزورِ صبيغٍ أو مُدامٍ يُحتسى  
 لقوسه عن وترِ أعيا الأسا  
 عسى يلينُ للتقى قلبٌ قسا

١ رزا : إذا قبل البر ، وأرزي إلى : لجا .  
 ٢ حزا : عرف وجرب ، والحازي : الكامن .  
 ٣ غسا الليل يفسو : أظلم .

ما أقبح اللهو على المرء إذا ما اشتعل الرأسُ مشياً واكتسى

• • •

لا تحسبِ الراحةَ راحاً قَرَفَفاً  
إذا أداروها وقد جنَّ الدجى  
قد حُجِبَتْ في دنِّها دهرأ إلى  
لم يبقَ من جوهرها إلاَّ سنا  
كانتها والكأسُ قد حَفَّتْ بها  
يدبرها مختلفُ الحسنِ إذا  
يحكي القطا والظبي والغصنِ إذا  
ولانما الراحةُ زُهدُ المرءِ في  
والمجدُ إيقادك نيرانِ القرى  
والجود أن تعطي قباءً للندى

• • •

خاب امرؤٌ لم يرَ أرضاً حلَّها  
أرسله الله هدىً ورحمةً  
وخلَّصَ الأنفُسَ من أسرِ الهوى  
ذو رافةٍ تلقاه يومَ العَرْضِ قد  
صَلَّى عليك الله يا من جَاهُهُ  
يا مَنْ جرى من كَفِّهِ الماءُ ومن  
بكِ اعتصامي يومَ يدنو من دنا

من اصطفى ربَّ السماء وانصى  
أوصى ووالى الخير فينا ووصى  
في يومِ هولٍ فاز فيه مَنْ فَصَى<sup>١</sup>  
مالَ بنا عن الجحيمِ ومَصَى<sup>٢</sup>  
يومَ الحسابِ ملجأً لمن عَصَى  
حَنَّ له الجذعُ وسَبَّحَ الحصى  
من رَحمةِ الله ويَقْصَى من قَصَا

١ فصى الشيء من الشيء : فصله ، ولعله يعني هنا : ميز الخير من الشر .

٢ مصى : لم أجد له معنى ملائماً للسياق هنا .

هل غير إحسانك يرجو مذنبٌ  
يا مَنْ سما في يوم بدرٍ بدرهُ  
أحصاهمُ ربُّ السماء عدداً  
طالب به خوفُ الخطايا وانتصى  
عزاً ليشقى كلُّ من شقَّ العصا  
وإنهم أدنى الفريقين حصى

\* \* \*

يا مجتبي من خير قومٍ حسباً  
يا من تدانى قاب قوسين ومن  
ومن أتى والناسُ من ظلمهمُ  
فكان كالصبحٍ جلا جنحِ الدجى  
رُضيتَ للإرسالِ إذ آدمُ يب  
اختارك الله رسولاً هادياً  
يا أحلمَ الناسِ على من قد جنى  
يا مُصغراً الألفِ إذا ما جاد أو  
يا ناصحاً أحكم تشييدِ الهدى  
يا مُضنياً للناسِ ظلِّ رحمةٍ

فيما أئى من زمن وما مضى  
قيل له سلَّ تُعْطَ قد نلتَ المضى  
في ظلمةٍ ليس لها من مرتضى  
فأذهبَ الإظلامَ عنا وانتضى  
نَ الماء والطينِ فكنتَ المرتضى  
أكرمُ بما اختار لنا وما ارتضى  
وأعدلَ الخلقِ إذا ما قد قضى  
جرّداً في الهيجاء سيفاً أو نضاً  
عزماً فلماً ينتقضُ ولا انقضى  
بات العدا منها على جمر الغضا

\* \* \*

ادفع الشرَّ بحسنى فإذا  
وانفٍ لنفسٍ كرهتُ أعمالها  
إن يدرك الهوى الفتى في بيته  
وإنَّ خيراً من صديقٍ سيءٍ  
ولا ترُمُّ ما لا تطيقُ نيلهُ  
وبتُ من الدنيا مباتِ خائفٍ  
وخلَّها عنك ولا تعبأ بما

به أخو صدقٍ وإن كان سطا  
كمن يريك قدرها حث الخطا  
ليس كمن سعى إليه وخطا  
أن يصحب الإنسان في البيد القطا  
فخجلةُ الخيبةِ شرُّ مُمنطى  
فلليالي عدواتٍ وسطا  
تبواً المكثراً منها وعطا

١٠ عطا : تناول .

وجنب الحرص - تعش - ذا عزة  
 ولا تجد للنفس حظاً واطرح  
 لا تطرين صاحباً بغير ما  
 أفلح من إن شده الحرص نطا<sup>١</sup>  
 من امتطى الكبر فبئس ما امتطى  
 فيه فإطراء الفتى كسر المطا<sup>٢</sup>

• • •

لا يحسن المدح سوى لمن يرى  
 خير عباد الله ذو العز الذي  
 كم آمن ببابه وقبل أن  
 أصبح من حرمة في حرم  
 في منزل سيان فيه ربه  
 إن رسول الله غيث وكف  
 إذا أعد للمؤمن القرى  
 لما علمت جودة الجزل وما  
 يمته فوق طير ضامر  
 ليس يمس الأرض من سرعته  
 مادحه بمدحه قد احتطى  
 لظله بأوي الشريف والشطى<sup>٣</sup>  
 بلقاه لاقى ما عجا وما عطا<sup>٤</sup>  
 يرفل في ظل هبات وحظا  
 وضيفه فيما اقتنى وما حظا<sup>٥</sup>  
 إذا هيب الصيف داج والتطى  
 لم يدخر عن ضيفه ولا حظا<sup>٦</sup>  
 هناك من علم وحلم وبظا<sup>٧</sup>  
 منتظم الأعضاء مكموم الشظا  
 كأنما يجشى بها مس اللطى

• • •

يا موسع الألف بصاع شبعاً  
 وأخصب الضرع بلمس كفه  
 ومن مشى الدوح إليه وسعى  
 وبادر المزن له لما دعا

١ نطا : بعد أو امتد .

٢ المطا : الظهر .

٣ الشطى من الناس : الموالي والأتباع .

٤ يقال لقي الإنسان ما عجاه وما عطاء وما أورمه : إذا لقي شدة وبلاء .

٥ كأنه يعني : أصاب حظاً .

٦ حظا : فاضل بين .

٧ البظا : اكتناز اللحم ، ويريد هنا وفرة العلم .

وسلّم الظبي عليه كرمًا  
 واستشهد الضبّ فحيًا معلنًا  
 إليك أعملت المطايا في الفلا  
 مسوغًا جاهك عليّ في غد  
 أزكى صلاة وسلام أبدًا  
 وسبّح الرعدُ بحمد من سقى  
 فاشتملت بالنور كلّ فدغد  
 وباكر البيداء غيثٌ مُسبِلٌ  
 وكلم الميت فقام ورعى  
 بصدقه ومثبًا لما ادعى  
 تنساب ما بين أراك ولعا  
 أكون ممن قد أجاد ورعا  
 عليك ما ارتاح الظليم وارتمى  
 صوب الحيا فقال للأرض لعا  
 لم يك للسارح فيه مرتعى  
 فأخلف النبات الهشيم ورعى

• • •

ودقّ سحابٌ تحسبُ البرقَ به  
 واخضرتِ الدوحُ ومدتْ قُضْبُها  
 وساقطتْ لها السحابُ حملها  
 ترى خريزَ الماء في قضيبه  
 فسكنَ القيطُ لهيبَ حصره  
 غيثٌ حمى الرمضاء عنا مثلما  
 ناهٍ عن الفحشاء داعٍ للهدى  
 أسنةٌ قد أشرعت يوم وغى  
 فيبينها حُسن الثمام وصفا<sup>٢</sup>  
 إذ خوّف الرعدُ تساقطَ الفغا<sup>٣</sup>  
 كأنه مَيّتُ ذودٌ قد رغا  
 وفرّ لما أن رأى الماء طغى  
 حمى رسولُ الله جورَ من بغى  
 لم ينتطقُ بباطلٍ ولا لعا

• • •

هذا إذا استكفيت في أمر به  
 تهبو به ریحُ العلا إلى الندى  
 محيي الهدى والعدلِ في زمانه  
 أجداك فيما تنتحيه وكفى  
 كأنه ناعمُ غصنٍ قد هفا  
 من بعد ما ألفاهما على شفا

١ ق : مرعاً .

٢ الصفا : الميل .

٣ الفغا : البسر الفاسد المغبر ، أو ما يخرج من الطعام فيرمى به .

أظهره بعدله فما اختفى  
 وإن يقل يصدق وإن يعد ونفى  
 وإن تسيء يحسن وإن تجن عفا  
 روض نما، طب أفاد وشفى  
 أو مجذب أو مشتك خطباً جفا  
 أضحى به الحق علينا قد ضفا  
 به لنا ورد المعالي قد صفا

أخفى الهدى قوم فأضحى وهو قد  
 إن يقض يعدل أو متى يسأل يهب  
 وإن يجذب يجزل وإن جاد يعد  
 بحرطما، بدر سما، غضب حمى  
 لمجتد أو مقتد أو معتد  
 ما لي لا أضحى له المدح وقد  
 أسس خلقت الجود فينا فاغتندي

\* \* \*

الجود يعلي المرء والبخل لقد  
 والعز ما أحسنه لكنته  
 والجهل للإنسان عيب قادح  
 والعلم في حال الغنى والفقير لا  
 ولا ألوم المال فإلما لحمى  
 قد جبيل الناس على حب الغنى  
 وما لذي الفقير لديهم رتبة  
 إن الغنى طب لعلاآت الفتى  
 والحزم أحرى ما به المرء اقتدى  
 من لم بيت مع الليالي حازماً

يحط عن رتبته من ارتقى  
 إن كان هذا مع علم وتقى  
 ولو حوى مالا ككثبان نقا  
 يزال يرتقى بك كل مرتقى  
 من جاهل يلقاك شراً ملتقى  
 فربته فيهم مهاب متقى  
 ولو أفاد وأجاد واتقى  
 والفقير داء لا تداويه الرقى  
 في أمره وما به النفس وقى  
 لغدرها غادره فيها لطفى

\* \* \*

أمضيت طرفي كي يرى طرفي ما أخبرته من طيب مجد قد زكا

ق : أو مجتز .



فَصَدَّقَ الحَاكِمِي مَا أَبْصَرْتَهُ  
 فَسَهَّلْتُ رَوَيْتُهُ جَهْدَ السَّرِيِّ  
 عَجِبْتُ لِلْأَيَّامِ مَنْ عَزَّ بِهَا  
 فَكَمْ لَهَا مِنْ كَرَّةٍ عَلَى فِتْنِي  
 تَجْتَنِبُ الْأَسْدُ سَطَاهُ فِي الْوَعْيِ  
 وَكَمْ صَرِيحٌ غَادَرْتُ لَيْسَ لَهُ  
 عَدَتْ عَلَى نَفْسِ عَدِيٍّ وَسَقَتْ  
 وَاسْتَلَبْتُ مُلْكَ بَنِي سَاسَانَ لَمْ  
 وَفَاقَ مَا عَايَنْتَهُ مَا قَدْ حَكَمِي  
 وَأَشْكَتِ الْأَيَّامُ مَنْ كَانَ شَكَا  
 ذَلًّا ، وَمَنْ يَضْحَكُ بِهَا يَوْمًا بِكِي  
 جَلَدٌ إِذَا مَا لَهَبُ الْحَرْبِ ذَكََا  
 فَذَلٌّ حَتَّى صَارَ قَصْوَاهُ بُكََا  
 مِنْ مَلْجَأِ يَوْمًا وَلَا مِنْ مَشْتَكِي  
 مِنْهَا ابْنُ حُجْرٍ كَأْسَ سَمٍّ كَالذِّكََا  
 تَرَكَ لَهُ عَلَى اللَّيَالِي مَرْتَكِي ٢

لَمْ يَأْمَنْ الْمَأْمُونُ مِنْ صَوْلَتِهَا  
 وَأَتْبَعَتْ جَعْفَرَ الْفَضْلَ وَكَمْ  
 وَغَالَتْ الزَّبَاءُ فِي مَنَعَتِهَا  
 وَأَنْفَذَتْ فِي آلِ بَكْرِ حَكْمَهَا  
 وَكَمْ سَبَبَتْ مِنْ سَبِيلِ مِنْ نِعْمَةٍ  
 وَأَهْلَكَتْ عَادًا وَأَفْنَتْ جَرَهْمَا  
 فَرْعُونَ مَوْسَى أَوْلَجَتْ فِي لِحَةٍ  
 وَأَظْفَرَتْ بَابِنَ زِيَادٍ مِثْلَمَا  
 وَسَيْفٌ اسْتَلَّتْهُ مِنْ غَمْدَانِهِ  
 وَلَا ابْنَ هَنْدٍ مِنْ عَوَادِيهَا خَلَا  
 بَاتِ الْطَلَا ٣ يَسْقِيهِمَا صِرْفَ الْطَلَا  
 فَأَظْفَرْتُ عَمْرًا بِهَا فَمَا أَلَا ٤  
 وَجَرَعَتْ مَهْلَهْلًا كَأْسَ الْبَلِي  
 فَمَزُقُوا فِي كُلِّ قَفْرٍ وَقَلَا  
 وَزَوَّدَتْ مِنْهَا تَيْمًا بِالصَّلَا ٥  
 فَمَاتَ قَهْرًا بَعْدَ عَزٍّ وَعُلَا  
 أَفْنَتْ يَزِيدَ حَسْرَةً لَمَّا اعْتَلَى  
 مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ خَضَعَتْ لَهُ الطَّلَى ٦

١ الذكا : الجمرة الملتهية .

٢ المرتكى : المولى .

٣ الطلا : الغلام ، شبهه بولد الطيبة .

٤ ألا يالو : قصر .

٥ الصلى : الوقود ، يشير إلى ما فعله أحد المناذرة ببني تميم حين حرقهم .

٦ الطلى : الرقاب .

ثم أعادته<sup>١</sup> فحزَّ الجيـشُ عن حوزته حزَّ النبات المختل<sup>١</sup>

\* \* \*

هي الليالي ليس يرعى صرفها  
ولا رسول الله فينا لم يزل  
لله ما أكرمه من سيد<sup>٢</sup>  
سليم صدر ذو وفا لم يحش  
أوسعنا فضلاً فما خاب امرؤ  
يا من غدا للخلق كهفاً وحمى  
إننا أتينا من ديار دونها  
وإنتي من قبج ما أسلفته<sup>٣</sup>  
فلا تخيبي ممتاً لك من  
إنتك من قوم بهم يشفى العنا

لا خاملاً فيها ولا من قد سما  
كهف حمى<sup>٢</sup>، فهو لنا نعم الحمى  
ينمى من المجد لأعلى متمى  
في صدره غش أمرى ولا غمى<sup>٤</sup>  
أوى إلى ذاك الجناح وانمى  
فأكرم المثوى وآوى وحمى  
موحشة يبداء أو بحر طما  
ذو كبد رُضت ودمع قد همى  
شفاة تُرجى وفضل قد نما  
ويُدركُ الشاؤم البعيد المرتمى

\* \* \*

أعرض عن الجاهل مهما قد أسا  
ولا تلم ذا سفته فإنه  
وإن رأيت من كريم عثرة<sup>٤</sup>  
وإن ترعك من زمان فرقة<sup>٤</sup>  
لم أشكر البعد على خير حمى  
يا مترلاً ما بين نجد والحمى

وحسبه من جهله ما قد حوى  
إن لنته لم يتشد ولا ارعوى  
فقل لعا ولا تعب بما احتوى  
فاصبر لها فالصبر أشفى للجوى  
قد صدتني عن أنسه شحط النوى  
ويا دياراً بين كئبان اللوى

١ المختل : المقطوع .

٢ ق : حياً .

٣ ق : من سند .

٤ غمى : غطى .

هل لي إلى تلك المعالي عودة\*  
لا تعجبوا من لَعِبِ الدهر بنا  
فأيّ إنسان على حالٍ سوا  
إن عشتُ لاقيتُهُمُ وإن أمتُ  
فإنّما الدنيا فناء وتوى  
إنّ رسولَ اللهِ مُدّ أُمَّلته  
فالدهرُ قدّ أضمر نصحي ونوى

إي والذي ما زال يسري جاهداً  
فقدّم الغسلَ وصلّى ونضاً  
حتى أتى ميقاته وما وني  
ثمّ نوى ملكياً ثمّ مضى  
أثوابه مستغفراً ممّا جنى  
ثمّ أتى بابَ بني شيبَةَ قد  
حتى رأى ذاتَ السناء والسنى  
ثمّ مضى مرتحلاً نحو منى  
ثمّ مضى مرتحلاً وطاف وسعى  
حتى إذا ما نفر القومُ اثني  
ثمّ رمى ثمّ أفاض وانبرى  
مُعتمراً قد نالَ غاياتِ المنى  
ثمّ مضى مرتحلاً فيمن مضى  
ميمماً طيبة لا يشكو العنا  
شاد به الدينَ القويمَ وابني  
فلَمْ يكن ممن إذا حجّ جفا  
بل يمتّ القبرَ وزارَ واعثنى

خلقُ علّي لم يحوها إلا امرؤ  
فإن يقلّ: من حازها؟ قل: الذي  
نهاه عن نبدِ العُلا رعيّ النُهي  
معتصمُ الراجين إن خطبُ دنا  
لهُ تسامى كلُّ مجدٍ وانتهى  
المرشدُ الناصحُ لله فما  
وكهفهم إن راع أمرٌ ودهى  
من جدّ في إدراك ما رام يجدُ  
قصر في نصر الهدى ولا لها  
فلا يقصر بك خوفُ خيبةٍ  
لم يصب منّ قد توانى وسها  
من خيّل الخيبة في البدء وهي  
واكتسب الحمد بما تبديه من  
فتح اللها بمستدامات اللها

واحرص على المجد ودينك اطرح  
والمرء من ان فاته لم يكتب  
من لازم الكبر على الناس اغتدى  
فأمرها أمرٌ زهيدٌ المشتى  
وان ينل لم يفتخر ولا ازدهى  
متضع القدر ولو نال السها

أنى تخيب اليوم آمالي ولي  
يدني الفتى إلى مدى آماله  
ان أهزل القوم زمان معور  
وان أمات الجذب كل محصب  
أرسل سحب هديه جارية  
أوقع في الأنفس من ماء لدى  
لم تعني من فعل جميل كفه  
ما لي لا أبلغ أقصى غاية  
لكل شخص غاية يبلغها  
تعيأ يد السائل من معرفه  
من كفه أكرم من صوب الحيا  
ولو غدا من دونها الأرض البيا  
أنعشهم حتى يرى لهم حيا  
بدا لنيران القرى منه حيا  
بالحق حتى حيا الدر حيا  
ظالم إذا ما اشتد بالشمس الحيا  
ولا له في المكرمات معنيا  
في مدح من بالغ جوداً واغتيا  
وما له في العلوات مغتيا  
ولم يقصر كرمأ ولا اعتيا

والآن قد أكملت في مدحه  
ضممتها من كل فن درراً  
حليتها جيداً معاليه وما  
مقصورة يقصر عنها من خلا  
نظماً فأضحت من نفيسات الحل  
أملح حلتي المدح في جيد العلأ

١ الأرض البيا : التي بعد ماؤها واشتد السير فيها .

٢ الحيا : الحصب .

٣ لعله شبيه بقولهم : حاييت النار أي أحييتها .

٤ الحيا : المطر .

٥ مغتيا : موضع غاية أو نهاية .

جعلتها مني وداعاً فاعتجبُ لنظمتها الحلو الجنى كيف حلا

مَنْ قارب الرحلة عن ذاك الحمى أرسلتها من خاطر خامره وكيف لا آسى على بعدي عن أنصار دين الله والهادي الذي فالقلبُ بينَ مشرقٍ ومغربٍ إذا ذكرتُ الغربَ حنَّتُ مُهَجِّي وإن ذكرتُ حُبَّ من في مشرقٍ إن يصفُ من وجهٍ لشخصٍ موردٍ فإن ترحلتُ فقلبي عندكم كيف أجاد النظم يوماً أو درى وَجَدْتُ جلا عن مقلتي طيب الكرى قوم جرى من جودهم ما قد جرى لولا وضحُّ هَدْيِهِ ضلَّ الورى مُقَسِّمُ اللوعة مجذوبُ العرى وبَلَّ دمي من جوى الشوق الثرى أبطأ بي حبُّهمُ عن السرى كدر من أخرى فلا صقرو يرى لم يرتحل عن بابكم ولا سرى

ولا تزال رُسُلُ شوقي أبدا ولن تمرَّ ساعةٌ إلا هفا فليس عندي للنجاة مخلصٌ بكم ملاذي وحماكم ملجئي وما ذخرننا عُدَّةً سواكم لا أوحشَ اللهُ دياراً أنتم ولا نأت داركم ولا خلا ترى على مجدكم الجزل الندى بذكركم مُفصِّحُ نظمي وشدا إن لم يكن منكم نوال أو جداء ليس سوى ذاك السماع المجتدى مثلُكمُ مَنْ يُرْتجى ويمتدى فيها ولا أزرى بمرعاها الصدى ربمكم ما راح يومٌ واغتندى

ومن محاسنه أيضاً البديعية المشهورة ، وهي المعروفة ببديعية العميان ، ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي صلى الله عليه وسلم لكفى ، وهي من غرر القصائد ، وكثير من الناس ينسبها للقاضي

الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض ، وكنت أنا في أوّل الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة ، حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر ، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر ، وهي :

في كلّ فاتحة للقولٍ معتبره      حتى الثناء على المبعوث بالبقره  
في آل عمران قديماً شاع مبعثه      رجالهم والنساء استوضحوا خبره  
من مدّ للناس من نعماه مائدة      عمّت فليست على الأنعام مقتصره  
أعرافُ نِعْمَاهُ ما حلّ الرجاء بها      إلاّ وأنفالُ ذلك الجود مبتدره  
به توسّل إذ نادى بتوبته      في البحر يونسُ والظلماء معتكره  
هود ويوسف كم خوف به أمنا      ولن يروّع صوتُ الرعد من ذكره  
مضمون دعوة إبراهيم كان ، وفي      بيت الإله وفي الحجر التمس أثره  
ذو أمة كدويّ النحل ذكرهم      في كلّ قطر ، فسبحان الذي فطره  
بكهف رحماه قد لاذ الورى ، وبه      بشرى ابن مريم في الإنجيل مشتهره  
سماه طه ، وحضّ الأنبياء على      حجّ المكان الذي من أجله عمّره  
قد أفلح الناس بالنور الذي غمروا      من نور فرقانه لما جلا غرّره  
أكابرُ الشعراء اللّسن قد عجزوا      كالنمل إذ سمعت آذانهم سورّه  
وحسبه قصص للعنكبوت أتى      إذ حاك نسجاً بباب الغار قد ستره  
في الروم قد شاع قديماً أمره وبه      لقمان وفق للدرّ الذي نثره  
كم سجدة في طلي الأحزاب قد سجدت      سيوفه فأراهم ربّه عبره  
سبّاهم فاطر السبع العُلا كرمأ      لمن يباسين بين الرّسل قد شهره  
في الحرب قد صفّت الأملاك تنصره      فصاد جمع الأعادي هازماً زمّره  
لغافر الذنب في تفصيله سورّ      قد فصّلت لمعانٍ غير مختصره  
شوراه أن تهجر الدنيا فزخرها      مثل الدخان فيعشي عين من نظره

عزّت شريعته البيضاء حين أتى  
فجاء بعد القتال الفتح متصلاً  
بقاف والذاريات الله أقسم في  
في الطور أبصر موسى نجم سؤدده  
أسرى فنال من الرحمن واقعة  
أراه أشياء لا يقوى الحديد لها  
في الحشر يوم امتحان الخلق يقبل في  
كف يسبح لله الحصة بها  
قد أبصرت عنده الدنيا تغابنها  
تحريمه الحب للدنيا ، ورغبته  
في نون قد حقت الأمداح فيه بما  
بجاهه سال نوح في سفينه  
وقالت الجن جاء الحق فاتبعوا  
مدثرأ شافعاً يوم القيامة هل  
في المرسلات من الكتب انجلى نبأ  
ألفاه النازعات الضيم في زمن  
إذ كورت شمس ذاك اليوم وانفطرت  
وللسماء انشقاق والبروج خلت  
فسبح اسم الذي في الخلق شقعه  
كالفجر في البلد المحروس عثرته  
والليل مثل الضحى إذ لاح فيه ألم  
ولو دعا التين والزيتون لا ابتدرا

أحفاف بدر وجند الله قد نصره  
وأصبحت حجرات الدين منتصره  
أن الذي قاله حق كما ذكره  
والأفق قد شق لإجلالاً له قمره  
في القرب ثبت فيه ربه بصره  
وفي مجادلة الكفار قد نصره  
صف من الرسل كل تابع أثره  
فاقبل إذا جاءك الحق الذي قدره  
نالت طلاقاً ولم يصرف لها نظره  
عن زهرة الملك حقاً عندما نظره  
أنى به الله إذ أبدى لنا سيره  
سفن النجاة وموج البحر قد غمره  
مزملاً تابعاً للحق لن يذره  
أتى نبي له هذا العلاء ذخره  
عن بعثه سائر الأخبار قد سطره  
يوم به عيس العاصي لما ذعره  
سماؤه ودعت ويل به الفجره  
من طارق النشوب والأفلاك منتثره  
وهل أذاك حديث الحوض إذ نهره  
والشمس من نوره الوضاح مستره  
نشرح لك القول في أخباره العطره  
إليه في الحين واقرأ تستين خبره

في ليلة القدر كم قد حلّ من شرف  
 كم زلزلت بالجياد العاديات له  
 له تكاثر آيات قد اشتهرت  
 ألمّ ترّ الشمس تصديقاً له حبست  
 أريت أنّ إله العرش كرمه  
 والكافرون إذا جاء الوري طردوا  
 إخلاص أمداحه شغلي ، فكم فلق  
 أزكى صلاتي على الهادي وعقرته  
 صديقهم عمر الفاروق أحزمهم  
 سعد سعيد عبيد طلحة وأبو  
 وحمة ثمّ عباس وأهلهما  
 أولئك الناس آل المصطفى وكفى  
 وفي خديجة والزهراء وما ولدت  
 عن كل أزواجه أرضى ، وأوثر من  
 أقسمت لا زلت أهدبهم شذا مدّحي

في الفخر لم يكن الإنسان قد قدره  
 أرض بقارعة التخريف مُنتشره  
 في كل عصر فويل للذي كفره  
 على قرّيش ، وجاء الروح إذ أمره  
 بكوثر مرسل في حوضه نهره  
 عن حوضه فلقد تبّت يدا الكفرة  
 للصبح أسمعت فيه الناس مفتخره  
 وصحبه ، وخصوصاً منهم عشره  
 عثمان ثمّ علي مهلك الكفرة  
 عبيدة وابن عوف عاشر العشرة  
 وجعفر وعقيل سادة خيرة  
 وصحبه المقتلون السادة البره  
 أزكى مديحي سأهدي دائماً دره  
 أضحت براءتها في الذكر منتشره  
 كالروض ينثر من أكمامه زهره

[ معارضات للقصيد ابن جابر في تضمين السور ]

انتهت القصيدة ، وقد عارض منحاهم جماعة فما شقّوا لها غباراً ، ومن  
 معارضاتها قول بعضهم :

بسم الإله افتاح الحمد والبقرة  
 على نبيّ له الرحمن ممتدح  
 كذا بمالدة الأنعام فضله  
 أنفاله نزلت أيضاً براءة من

مُصلياً بصلاة لمّ تزل عطره  
 في آل عمران أيضاً والنسا ذكره  
 ووصفه ألمّ في الأعراف قد نشره  
 يحبه وهو مشغول بما أمره



به نجا يونس من حوته ونجا  
 أقسم برعد إبراهيم أن له  
 سبحان جاعله كهفاً لآت  
 طه به الأنبياء للحم قد وفدوا  
 آيات فرقان ذلت لها الشعرا  
 والعنكبوت على غار له نسجت  
 لقمان حكيمه من بعض حكيمه  
 كم في سابعه لقلب قد فطرت  
 قد صفت الأنبياء والرسل قاطبة  
 إن صاد قلبي الهوى تنزيل منقده  
 كم خلعة فصلت للطامعين له  
 لم تلههم زينته الدنيا وزخرفها  
 إذا جثا الخلق والأحقاف قد شرفت  
 محمد خص بالفتح المبين وقد  
 قاف الوفاق وذر الطور نجم هدى  
 رحمن واقعة كل الحديد بها  
 من يمتحن صفتنا في يوم جمتنا  
 مطهر من نفاق ليس بينهم  
 وحرموها وفي ملك لها زهدوا  
 إن تسألوني عن نوح نبي هدى  
 مؤملاً اسمه مدثر، وله  
 للمرسلات نبأ في يوم نازعة

هود ويوسف من سجن به عبره  
 في حجر نحل ترى الآيات مشتهره  
 ومريم زوجة في جنة نصره  
 والمؤمنون على النور اقتضوا أثره  
 وسورة النمل قد قصت لنا سيره  
 والروم ولت برعب منه منكمه  
 فاسجد لرب على الأحزاب قد نصره  
 فلكذ يباسين تنجوا يا أبا البره  
 خلف النبي بأمر الله مؤتمره  
 وغافر الذنب كم ذنب له خضره  
 وأمرهم بينهم شورى بلا نكره  
 كانوا يروها كدخان له قتره  
 فذاك يوم على الكفار قد نصره  
 أنه في الحجرات الوحي بالخيره  
 وشق رب السما للمصطفى قمه  
 كم من مجادلة في الحشر محتدته  
 فليس يلقى به غش ولا كدره  
 تغابن طلقوا دنياهم القنره  
 كزهده صاحب نون حقق خبره  
 والمصطفى سامع الجن الذي جهره  
 يوم القيامة للإنسان ما ضميره  
 عبوس تكوير شمس فيه منظره

مطفف الكليل قد بانَتْ خسارته  
 كم طارقٍ سبَّح الأعلى بغاشيةٍ  
 والليلُ قُمه ولا ترك صلاةً ضحى  
 بسورةِ التين اقرأ أنها نزلت  
 ولم يكن مثل خير الرُّسل أحمدنا  
 بعادياتٍ لها قرع بهامته  
 من كان في عصره همّآزة أبدأ  
 ويلٌ للمانع ماعون تراه غدا  
 الكافرون إذا جا نصرُ خالقنا  
 أخلص لربّ فلق الناس تنجُ إذا  
 وصل ربُّ على الهادي وعِترته

وممن سلك هذا المنهج الشيخ القلقشندي إذ قال :

عوذت حبي برب الناس والفلق  
 إخلاص وجدي له والعذر يقلقني  
 يهدي لأمته والنصر يعضده  
 هذا له كوثر والدين شرعته  
 ألم ترَ الماء قد سحّت أصابعه  
 في كلِّ عصر ترى آياته كثرت  
 وعند قارعة فهو الشفيع لنا  
 وزلزلت من غرامي كلُّ جارحة  
 يا عالي القدير رفقا مسّني ضرر

المصطفى المجتبي المدوح بالخلق  
 تبّت يدا عاذل قدّ جاء بالملق  
 والكافرون وعذّالي على نسق  
 والمصطفى من قريش دينّ وتقي  
 ويلٌ لكلّ جهول بالنبي وشقي  
 أضحي تكاثرها في سائر الأفق  
 والعاديات من الأجفان في طلق  
 وكلُّ بينة تحكي لكم علق  
 فالله قد خلق الإنسان من علق

والشرح عنه<sup>١</sup> طويلٌ غير مختلقٍ  
 كالشمس في بَلَدٍ والفجر في أفقٍ  
 أنت الشفيح إلى الأعلى وخير تقي  
 مثل البروج أتى في أحسن الطرقِ  
 ويلٌ من الصد، والأجفانُ في أرقِ  
 والشمس قد كورت في القلب ذي الحرقِ  
 وقد أتى نساءً من دمه الغدقِ  
 إلى القيامة من دمعي ومن حرقي  
 وبالزَّمَلِ إن أَلَمْتُ بالعَرَقِ  
 هذا ونوحٌ به أنبى من الغرقِ  
 حقاً، وفي حاقّة كثر لمخترقِ  
 والمثلُك خيِّره حتى رأى ولقي  
 وبالطلاقِ من الدنيا لمنطلقِ  
 إذ المنافق في خسر وفي نفقِ  
 في الصف عند امتحاني أنج من زلقي  
 عسى تزيلُ حديد النار من عنقي  
 فاشفع إلى ربك الرحمن من رمقي  
 إلا لعلك من نار الحميم تقي  
 ودُرٌ دمعي غدا بالذاريات سقي  
 وليس في حجرات الدمع من رمقِ  
 أحفاف جائية في الغيظ والحنقِ  
 سُورايَ تركه في أنف محترقِ

ولو دعا التين والزيتون جاء له  
 يبدو كشمس الضحى والليل طرته  
 إنني بغاشية لولاك يا أملي  
 كم طارق منك بالإحسان يطرفني  
 وفي انشفاقِ فؤادي عبرة ، وبه  
 والانفطار به مما يكابده  
 والصبُّ في عبسٍ والنازعات به  
 ومرسلات دم الإنسان جارية  
 وبالمدتُّر إنني ماسك أبدأ  
 فالجنُّ والإنس في خير ببعثته  
 وفي المعارج معراج الرسول علا  
 والله مرسله في نون بشره  
 وجاء بالحلِّ والتحریم أمته  
 وفي التغابن تُجار به ربجوا  
 يا صاحب الجمعة الغراء يا أملي  
 وأنت في الحشر عوني في مجادلي  
 وعند واقعة إن كان لي رمق  
 لم أرع يا قمري للتجم في سهر  
 قلبي الكليم غدا للطور مرتقياً  
 وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم  
 إننا فتحنا قتالاً للعدول ففي  
 دخان زخرف ما العُدال فيه هبا

وعزّ مَنْ فَصَّلَتْ فِي مَدْحِهِ سِوَرِ  
فَغَاغِرِ الذَّنْبِ كَمْ أَهْدَى بِهِ زُمْرًا  
وَلَيْسَ غَيْرِكَ فِي الصَّافَاتِ أَقْصَدُهُ  
يَا فَاظْرَأْ قَدْ سَبَا الْأَحْزَابَ طَلْعَتُهُ  
لَقَمَانٍ يَشْهَدُ أَنَّ الرُّومَ تَعْرِفُهُ  
هَذَا وَلِي قِصَصٍ بِالنَّمْلِ قَدْ كَتَبْتُ  
تَبَارَكَ اللَّهُ مِنَ النُّورِ كَلِّلُهُ  
يَا أَيُّهَا الْأَنْبِيَاءُ طَهَّ خَتَامِكُمْ  
لَا ذُوًّا يَكْهَفُ لَكُمْ سُبْحَانَ خَالِقِهِ  
فَالرُّكْنَ وَالْحَجَرَ حَقًّا قَدْ أَضَاءَ لَهُ  
وَاللَّهُ رَبِّي بِرُجْبِ الرَّعْدِ يَنْصُرُهُ  
فِيوَسْفٍ مَعَ هُودٍ وَالْحَلِيلِ إِذَا  
لَتَوَيْتِي أَرْجِي الْأَنْفَالَ مِنْهُ غَدًّا  
أَعْرَافِ أَنْعَامٍ لِإِنْعَامٍ لَهُ اشْتَهَرَتْ  
كُلَّ النَّسَاءِ تَلْدُ مِثْلَ الرَّسُولِ إِذَا  
أَعْطَيْتِ خَاتِمَةَ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ  
فَأَنْتَ فَاتِحَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتِمَتُهُمْ  
وَالْقَلْقَشَنْدِي حَبُّ قَالَ سِيرَتُهُ  
فَأَقْبَلِ هَدِيَّةَ عَبْدٍ أَنْتَ مَالِكُهُ  
صَلِّ عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا طَلَعَتْ

وهذه القصيدة وإن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهي مما يُتبرك به ،  
والأعمال بالنيات .  
ووقفت على أخرى من هذا النمط هي بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى

قصيدة ابن جابر ، وهي :

بحمد إله العرش أستفتح القولا  
وفي آل عمران أنى ذكر أحمد  
بأعراف رحماه بأنفال جوده  
له يونس نادى وهود ويوسف  
ودعوة إبراهيم كان محمد  
له أمة كالنحل قد صح فضلهم  
علا فضله والناس في كهف نيله  
وطه له فضل على الخلق كلهم  
ولولاه ما حُجَّ المقامُ وكعبةُ  
ومن نوره الوهاج كل منور  
ترى الشعرا كالنمل حول محمد  
علا ديننا روما ولقمان عالم  
والاحزاب يسيهم بحكمة فاطم  
وصاد جميع الكافرين بزمره  
وشوراه في الدنيا بها كل زلفة  
لقد رأوا الدخان حول بيوتهم  
محمدنا لم يخلق الله مثله  
وقد أنزل الجبار قافاً بذكره  
بطور سما والنجم ما ضوء احمد  
به الله رحمنٌ وفي وقعة ترى

وفي آية الكرسي "أستمنح الطولا  
نساوهم بالقد قد أنصوا القولا  
شرفنا وفضلنا وتبنا إلى المولى  
وذاكره في الرعد لا يسمع الهولا  
وفي الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا  
فصبحان من أسرى بأحمدنا ليلا  
ومريم في الأخرى يكون لها بعلا  
ولكن جميع الأنبياء علا فضلا  
فأطلع من قد طاف فيها ومن حلا  
وفرقانه قد أحمده الكفر والبطلا  
إذا قصص في الضكوت لهم تتلى  
بأن السيوف أسجدت كل من ضلا  
وياسين قد صفت له الملائ الأعل  
له غافر في الحرب قد فصلت فصلا  
وقد زخرف الكفار في دينهم جهلا  
بجائية الأحقاف قد قتلوا قتلا  
وفي الحجرات فضله أبدأ يتلى  
كما نذر الكفار ريح بها تبلى  
كما قمر بل نور خير الورى أجلى  
حديداً به الكفار يجلبهم جدلا

وقد سمع الغفار دعوة أحمد  
صففنا بجمع للأعادي فمنهم  
يرى غبته في الخير منهم مطلق  
لأحمد ملك لا يوازيه سيد  
بحق لقد سالت أباطح مكة  
صحيح بأن الجن جاءت لأحمد  
للدثر فضل القيامة واضح  
وعم يجدواه فلا من منازع  
لقد كورت شمس بها انفطر السما  
ولكن بروج الجوّ ترهوا بأحمد  
وغاشية كالفجر حلت ببلدة  
وفاق الضحى حقاً جبين محمد  
فأقسم بالتين الذي عم نفعه  
ألم يكن الكفار قد ضل سعيهم  
وقارعة جلت وألهام الهوى  
ألم تر أن الله فضل أحمداً  
أريت بأن الكوثر العذب خصه  
لقد نصر الرحمن ربي محمداً  
فيا أحد إنني بفضلك عائد

ولم أقف على غير هذه الأبيات من هذه القصيدة ، وقد سقط منها كما رأيت  
سورة الناس ، فقلت مكملًا على نمطه :

ويا مالكا للناس إني لا أئذ بعفوك فاغفر عمد عبدك والجهلا

ويا رب عاملنا بما أنت أهله من الجود والرحمى وإن لم نكن أهلاً  
وصلّ على مسك الختام محمد أتمّ صلاة تملأ الحزن والسهلا

[ خطبة لعياض يورّي فيها بأسماء السور ]

وتذكرت بهذا الموضوع خطبة القاضي أبي الفضل عياض التي ضمّنها سور  
القرآن على المهبج الماضي آنفاً ، وهي : الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه ،  
وبين في سورة البقرة أحكامه ، ومد في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليم إنعامه ،  
وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس وألر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف  
الصدّيق في دار الكرامة ، وسبّح الرعد بحمده ، وجعل الناز برداً وسلاماً على  
إبراهيم ، ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجأ  
إلاّ إليه ولا يُظلمون قلامه ، وجعل في حروف كهيعص سرّاً مكنوناً قدم بسببه  
طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ليظهر لإجلاله وإعظامه ، وأوضح الأمر  
حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلاًّ وصغاراً لعظمته ،  
وظهرت قصص العنكبوت فأمن به الروم ، وأيقنوا أنه كلام الحي القيوم ،  
نزل به الروح الأمين على زين منّ وافى القيامة ، وأفصح لقمان الحكمة بالأمر  
بالسجود لرب الأحراب فسبا فاطر السموات أهل الطاغوت ، وأكسبهم ذلاًّ  
وخزياً وحسرة وندامة ، وأمدّ ياسين صلى الله عليه وسلّم بتأييد الصافات  
فصاذا الزمر يوم بدره وأوقع بهم ما أوقع صناديدهم في القلب مكدوس ومكثوب  
حين شالت بهم النعامّة ، وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدرين رضي الله  
عنهم ما تقدم وما تأخر حين فصلت كلمات الله فذل من حقت عليه كلمة  
العذاب وأيس من السلامة ، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف  
الآخرة عن دخان الدنيا فجنّوا أمام الأحقاف لقتال أعداء محمد صلى الله عليه  
وسلّم يمينه وشماله وخلفه وأمامه ، فأعطوا الفتح وبوتوا حجرات الجنان وحين

تلوا ﴿قاف﴾ والقرآن المجيد ﴿﴾ وتدبروا جواب قسم الذاريات والطور لاح لهم نجم  
 الحقيقة وانشق لهم قمر اليقين فنافروا السامة ، ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت  
 الواقعة واعترف بالضعف لهم الحديد وهزم المجادلون وأخرجوا من ديارهم  
 لأول الحشر يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين حين نافروا السلامة .  
 أحمده حمدان من امتحته صفوف الجموع في نفق الثغابن فطلق الحرمات حين  
 اعتبر الملك وعامه ، وقد سمع صريف القلم وكأنه بالحاقة والمعارج يمينه وشماله  
 وخلفه وأمامه ، ونوح نوح الجن فترمل وتلثر فرقا من يوم القيامة ، وأنس  
 بمرسلات النبل فترع العيوس من تحت كور الصامة ، وظهر له بالانفطار  
 التطفيف فانشقت بروج الطارق بتسبيح الملك الأهل وغشيتة الشهامة ، فرب  
 الفجر والبلد والشمس والليل والضحى لقد انشرفت صدور المتقين ، حين  
 تلوا سورة التين ، وعلق الإيمان بقلوبهم فكل على قدر مقامه يمين ، ولم يكونوا  
 بمنفكين دهرهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه ، إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات  
 ليطفثوا نور القارعة ، ولم يلهمم التكائر حين تلوا سورة العصر والمهزة وتمثلوا  
 بأصحاب الفيل فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ،  
 أرايتهم كيف جعلوا على رؤوسهم من الكور عمامة ، فالكوثر مكتوب لهم  
 والكافرون خذلوا وهم نصرنا وعدل بهم عن لب الطامة ، وبسورة الإخلاص قروا  
 وسعدوا وبرب الفلق والناس استعاذوا فأعينوا من كل حزن وهم غمّ وندامة ،  
 وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله  
 شهادة نال بها منازل الكرامة ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غردت  
 في الأيك حمامة ؛ انتهت .

وممن نسبها للقاضي عياض الشيخ أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي العباس  
 أحمد بن أبي جمعة الوهْراني ، وفي نفسي من نسبتها له شيء لأن نفس القاضي  
 في البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم .  
 وكنت رأيت بتلمسان المحروسة بخط عمي ومفيدي ولي الله تعالى العارف



المعروف بشيخ الشيوخ الإمام المقي الخطيب سيدي سعيد بن أحمد المقي -  
صَبَّ اللهُ عليه سجال الرضوان - خطبة من هذا النمط نصّها :

[ خطبة على مثلها لأبي جعفر الطنجالي ]

الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفى من آل عمران  
رجالاً ونساءً وفضلهم تفضيلاً ، ومدّ مائدة أنعامه ورزقه ليعرف أعراف أنفال  
كرمه وحقه على أهل التوبة وجعل ليونس في بطن الحوت سيلاً ، ونجّى هوداً  
من كربته وحزنه ، كما خلّص يوسف من سجنه وجبّه ، وسبّح الرعد بحمده  
ويمنه ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً  
نوع باختلاف ألوانه ، وأوحى إليه بنفسي لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفاً قد  
شيد بنيانه ، وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلاً ، وفضل طه على جميع  
الأنبياء فأتى بالحج والكتاب المكنون ، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون ،  
إذ جعل نور الفرقان دليلاً ، وصدّق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي عجزت  
الشعراء عن صدق نفته ، وشهدت النمل بصدق بعثه ، وبين قصص الأنبياء في  
مدة مكثه ، ونسج العنكبوت عليه في الغار ستراً مسدولاً ، وملئت قلوب الروم  
رعباً من هيئته ، وتعلم لقمان الحكمة من حكيمته ، وهدى أهل السجدة للإيمان  
بدعوته ، وهزم الأحزاب وسباهم وأخذهم أخذاً ويلاً ، فلقبه فاطر السموات  
والأرض بياسين كما نفذ حكمه في الصافات ، وبين صاد صدقه بإظهار المعجزات ،  
وفرق زمر المشركين وصبر على أقوالهم وهجرهم هجراً جميلاً ، ففقر له غافر  
الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم  
شورى بينهم وزخرف منار الإسلام وخفي دخان الشرك وخرت المشركون  
جاثية كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتلون سيلاً ، وأذل الذين كفروا بشدة القتال  
وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز ، وحجر الحجرات الحرير ، وبقاف القدرة

قُتِلَ الْحَرَّاصُونَ تَقْتِيلاً ، كَلَّمَ مُوسَى عَلَى جَبَلِ الطُّورِ ، فَارْتَقَى نُجْمَ مُحَمَّدٍ صَلَّى  
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَرَبَتْ بِطَاعَتِهِ مِبَادِي السَّرُورِ ، وَأَوْقَعَ الرَّحْمَنُ وَاقِعَةَ الصَّبْحِ  
 عَلَى بَسَاطِ النُّورِ ، فَتَعَجَّبَ الْحَدِيدُ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَكَثُرَتْ الْمَجَادِلَةُ فِي أُمَّتِهِ ، إِلَى أَنْ  
 أُعِيدَ فِي الْحَشْرِ بِأَحْسَنِ مَقِيلًا ، اِمْتَحَنَهُ فِي صَفِّ الْأَنْبِيَاءِ وَصَلَّى بِهِمْ إِمَامًا ،  
 وَفِي تِلْكَ الْجُمُعَةِ مَلَكَتْ قُلُوبَ الْمُنَافِقِينَ مِنَ النَّغَابِينَ خَسِرًا وَإِرْغَامًا ، فَطُلِقَ وَحَرَّمَ  
 تَبَارَكَ الَّذِي أَعْطَاهُ الْمُلْكَ وَعَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ وَرَتَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، وَعَنْ عِلْمِ الْحَاقَّةِ كَمْ  
 سَأَلَ سَائِلٌ فَسَالَ الْإِيمَانَ ، وَدَعَا بِهِ نُوحٌ فَنَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الطُّوفَانِ ، وَأَنْتَ إِلَيْهِ  
 طَائِفَةٌ الْجَنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ،  
 فَكَمْ مِنْ مَدَثْرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيقَةً عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا أُرْسِلَ مَرَسَلَاتِ الدَّمْعِ فَعَمَّ  
 يَتَسَاءَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَمَا تَقْبَلُ مِنْ نَازِعَاتِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا عَبَسَ عَلَيْهِمْ  
 مَالِكٌ وَتَوَلَّاهُمْ بِالْعَذَابِ ، وَكَوَّرَتِ الشَّمْسُ وَانْفَطَرَتِ السَّمَاءُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ  
 كَثِيبًا مَهِيلًا ، فَوَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ، وَطُوِيَتْ ذَاتُ الْبُرُوجِ  
 وَطَرَقَ طَارِقُ الصُّورِ بِالنَّفْخِ لِلْقِيَامِ ، وَعَزَّ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى لِفَاشِيَةِ الْفَجْرِ فَيَوْمَئِذٍ  
 لَا بِلَدٍّ وَلَا شَمْسٍ وَلَا لَيْلٍ طَوِيلًا ، فَطُوبَى لِلْمُصَلِّينَ الضَّيْحَى عِنْدَ انْشِرَاحِ  
 صُدُورِهِمْ إِذَا عَايَنُوا التِّينَ وَالزَّيْتُونَ وَأَشْجَارَ الْجَنَّةِ فَسَجَدُوا بِاقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ  
 الَّذِي خَلَقَ هَذَا النَّعِيمَ الْأَكْبَرَ لِأَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ مَا أَحْيَوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَتَبَتَّلُوا  
 تَبْتِيلًا ، وَلَمْ يَكُنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ الزَّلْزَلَةِ مِنْ صَدِيقٍ وَلَا  
 حَمِيمٍ ، وَتَسَوَّفَهُمْ كَالْعَادِيَاتِ إِلَى سِوَاءِ الْحَجِيمِ ، وَزَلْزَلَتْ بِهِمْ قَارِعَةُ الْعِقَابِ وَقِيلَ  
 لَهُمْ : أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، هَذَا عَصْرُ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ وَحُشِرَ الْمُهْمَزَةُ وَأَصْحَابُ  
 الْفِيلِ إِلَى النَّارِ فَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا ، وَقَالَتْ قَرِيشٌ : مَا أَمْنَمَ مِنْ هَوْلِ  
 الْمُحْشَرِ ، أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ كَيْفَ طُرِدَ عَنِ الْكُوْتِرِ ، وَسِيقَ الْكَافِرُونَ  
 إِلَى النَّارِ وَجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ إِذْ لَا يَجِدُ إِلَى سُورَةِ  
 الْإِخْلَاصِ سَبِيلًا ، فَنَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَنَعُوذُ بِرَبِّ  
 النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي فَسَقَ ، وَنَتُوبِ

إليه ، وتوكل عليه ، وكفى بالله وكيلاً ، انتهى .  
وهي من إنشاء الفقيه الجليل الشريف الكامل أبي المجد عبد المنعم ابن  
الشيخ الفقيه العدل أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي  
رحمه الله تعالى ونفعنا به وبسلفه الطاهر .

[ عود إلى نظم ابن جابر ]

ومن نظم ابن جابر المذكور قوله :

جعلوا لأبناء الرسول علامةً      إنَّ العلامةَ شأنٌ مَنْ لم يُشهرِ  
نورُ النبوةِ في كريمٍ وجوههم      يعني الشريفَ عن الطراز الأخضرِ

وفي هذا المعنى يقول شمس الدين<sup>٢</sup> الدمشقي :

أطرافُ تيجانٍ أتت من سندسٍ      خضِرَ بأعلامٍ على الأشرافِ  
والأشرفُ السلطانُ خصَّهمُ بها      شرفاً لثرفهم من الأطرافِ

والأشرف المذكور هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون

الصالح الألفي ، رحمهم الله تعالى .

وقال الرحالة ابن بطوطة في رحلته عند ذكر سلطان ماردين ابن الملك الصالح

ابن الملك المنصور ما نصه<sup>٣</sup> : وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض الشام والعراق

١ ق : وينسله .

٢ ق : شمس الدين الحزین .

٣ رحلة ابن بطوطة : ٢٣٨ ، وقال ابن بطوطة في الملك المنصور وواله الملك الصالح : كان كريماً  
شهير الصيت ولي الملك بها ( أي بماردين ) نحو خمسين سنة وأدرك أيام قازان ملك التتر وصاهر  
السلطان خدابنده بابنته ديار خاتون .

ومصر أكرم منه ، يقصده الشعراء والفقراء فيجزل عطاياهم جرياً على سنن أبيه ،  
قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الكفيف مادحاً فأعطاه  
عشرين ألف درهم ؛ انتهى .

ومن شعر ابن جابر رحمه الله تعالى :

وفي الخيامِ وَمَنْ لي بالخيامِ رَشاً      لا أحسبُ البدرَ في حُسْنِ يقاومهُ  
مثلُ الغزاةِ إن تاهتْ وإن طلعتْ      فكيف يصرفُ عنه الصبُّ لائمهُ

وقوله رحمه الله تعالى :

في القلبِ من حبِّكم بدرٌ أقام بهِ      فالطرفُ يبصرُ نوراً حين يبصرهُ  
تَشابهُ العقدُ حسناً فوق لَبتهِ      والثغرُ نظماً إذا ما لاحَ جوهرهُ

وقوله :

ردفٌ أقام لنا بها فنَّ الهوى      وإذا أتت لتقومَ قالَ لها اقعدي  
أبصرتها ما بينَ ذاكَ وبينَ ذا      فوقعتُ منها في المقيمِ المقعدِ

وقوله :

سامحَ بالوصلِ على بخلِهِ      وقال لي أنت بوصلي حقيقُ  
فقلتُ ما رأيتُ في نزهِةِ      ما بينَ كاساتِ وروضِ أنيقِ  
فقال يعني خده واللمى :      هذا هو الروضُ وهذا الرحيقِ  
فبتُ مِن دمعِي ومن خدهِ      ما بينَ نعمانِ وبينَ العقيقِ  
وإذ تذللتُ على حبهِ      قال : أما تخشى ؛ أما تستفيقُ ؟  
قدي وخدي خفهُما يا فتى      هذا هو الرمحُ وهذا شقيقِ

وقوله :

وَقَفَّتْ لِلوداعِ زَيْنَبُ لَمَّا رَحَلَ الركبُ والمِدامُ تُسْكَبُ  
مَسَحَتْ بالبِنانِ دَمْعِي ، وَحَلَوُ سَكْبُ دَمْعِي على أَصابعِ زَيْنَبُ

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمه الله تعالى :

ومن قصيدة موشحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه ومخدومه الوزير لسان الدين ابن الخطيب قبل أن يظلم الجوّ بينه وبينه ، جواباً عن رسالة خاطب بها لسان الدين ابن الخطيب أولاده صدر نظم له لم يحضرني ذلك الآن قوله :

مالي بحملِ الهوى يَدانِ مِنْ بَعْدِ ما أَعوَزَ التَّدانِي  
أَصبَحْتُ أَشكوهِ مِنْ زَمانِ ما بَتُّ مِنْه على أَمانِ  
ما بالُ عَيْنِكَ تَسْجَمانِ والدمعُ يَرَفِضُ كالأحمانِ  
ناداكِ والإلفُ عنكِ وانِ والبعدُ مِنْ بَعْدِهِ كِوانِي  
ياشقةِ النفسِ مِنْ هِوانِ لِحَجِّ في أَبحرِ الهِوانِ  
لَمْ يثنِهَ عَنِ هِواكَ ثانِ يا بَغِيَةَ القلبِ قَدُّ كِفانِي

وقال بعض الحفاظ في ترجمة أبي الحسن علي بن لسان الدين بعد أن ذكر روايته عن أبيه وابن الجياب وابن مرزوق : إنه أخذ عن جماعة غيرهم ، كالشريف القاضي الفقيه أبي علي الحسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسيني السبتي نزيل تلمسان ، والفقيه الإمام العلامة قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبي عبد الله محمد المقرئ التلمساني القرشي ، والشريف العالم أبي القاسم محمد ابن الفقيه العالم المعلم لكتاب الله تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وليس إدريس المذكور هنا بملك المغرب وجد الأدارسة .

قال : وروى أيضاً عن القاضي ابن شبرين الإشبيلي ثم السبئي نزيل غرناطة ،  
والقاضي أبي البركات البلفيقي ، والكاتب صاحب القلم الأعلى أبي جعفر ابن صفوان  
القيسي المالكي ، وابن خاتمة ، والفقير الحاج أبي القاسم محمد ابن الفقيه الصالح  
العالم أبي عمرو يحيى ابن الفقيه الصالح أبي القاسم محمد الغساني الرحبي نزيل  
فاس ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم من الأئمة الأعلام ، نجوم الإسلام ؛ انتهى .

### [ خطبة للكفعمي في تضمين أسماء السور ]

وقد وقفت للكفعمي رحمه الله تعالى في شرح بديعته على خطبة وقصيدة من  
هذا النمط . قال رحمه الله تعالى ما نصه :

ولنختم الخاتمة بخطبة وجيزة ، في فيها عزيزة ، وجعلناها في مدح سيد البرية ،  
وتورياتها في السور القرآنية ، فكن لسورها قارباً ، ولمعارجها راقياً ، وعلماً  
وانهل من شرابها السكري ، وفكه نفسك بتسجيها النميري ، وهي هذه :

الحمد لله الذي شرف النبي العربي بالسيح المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنام ،  
وفضل آل عمران على الرجال والنساء بما وهب لهم من مائدة الأنام ، ومنحهم  
بأعراف الأنفال وكتب لهم براءة من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا  
شريك له الذي نجى يونس وهوداً ويوسف من قومهم برعد الانتقام ، وغذى  
إبراهيم في الحجر بلعاب النحل ذات الإسراء فضاهى كهف مريم عليها السلام ،  
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء وحج المؤمنين ونور فرقان  
الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضلته تخبر ، ولقصص العنكبوت الروم تذكر ،  
ولقمان في سجده يشكر ، والأحزاب كأياذي سبا تُقهر ، وفاطر يس لصافاته  
ينصر ، وصاد مقله زمره تنظر الأعلام ، قال حم بقتال فتحه في حجرات قافه  
قد ظهرت ، وذاريات طوره ونجمه وقمره قد عظرت ، وبالرحمن واقعة حديده  
يوم المجادلة قد نصرت ، وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حسرت ،

وصفّ جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحرير  
ومقام الملك والقلم فناهيك به من مقام ، وفي الحاققة أعلى الله له المعارج على نوح  
المتطهر ، وخصته من بين الإنس والجن بيا آيتها الزمّل ويا آيتها المدثر ، وشقّعه  
في القيامة إذا دموع الإنسان مرسلات كالماء المتفجر ، ووجهه عند نيل النازعات  
وقد عبس الوجه كالهلال المنثور ، ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين  
وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر ، وقد حرست لمولده السماء بالطارق  
الأعلى وتمت غاشية العذاب إلى الفجر على المردة اللثام ، فهو البلد الأمين وشمس  
الليل والضحي المخصوص بانسراح الصدر ، والمفضل بالتين والزيتون المستخرج  
من أشاج العلق الطاهر العلي القدر ، شجاع البرية يوم الزلزال إذ عاديات القارعة  
تدوس أهل التكاثر ومشركي العصر ، أهلك الله به الهمة وأصحاب القبيل  
إذ مكروا بقريش ولم يتواصوا بالحقّ ولم يتواصوا بالصبر ، المخصوص بالدين  
الحنيفي والكوثر السلسال والمؤيد على أهل الجحد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى  
آله وأصحابه ما تبّت يدا معاديه ، ونعم بالتوحيد مواليه ، وما أفصح فلق الصبح  
بين الناس وامتد الظلام .

### [ قصيدة على مثاها للكفعمي ]

ولنشفع هذه الخطبة بقصيدة على سور القرآن ، في مدح سيد ولد عدنان ،  
يحسن هنا أن ننضي عن فرائد نفاثتها لطلابها ، ما أغدّف من خمُرّها وستورها ،  
ونُجَلّي عن خرائد عرائسها لخطابها ، ما أسدّف من غررّها في خدورها ،  
فانظر إلى سور آياتها وصور تورياتها ، ثم ادعُهن يأتينك سعيًا ، فحفظاً لها  
ووعياً ، وهي هذه :

يا مَنْ له السبعُ المثاني تنزلُ وخواتم البقره عليه تنزلُ  
في آل عمران النساء لم تلدُ كنظيره الأجساد ذلك تفعل

مولى له الأنعام والأعراف والا  
 بعلاه توبة يونس قبلت كذا  
 وكذلك إبراهيم في حجر له  
 يا كهفَ مريمَ أنت طهَ الأنبيا  
 يا نورُ يا فرقانُ يا مَنْ مدحه  
 والنملُ في قَصَصِ الحديثِ به دعت  
 والروم تتلو اسمه ولكم به  
 وبِعِزْمَةِ الأحزابِ جمعهم سبأ  
 يس سمّاه الإلهُ بذكره  
 يا لَيْثِي صَادٍ شربت بكأسه  
 كم مؤمنٍ قد فَصَلَتْ أعلامه  
 ودخان جاثية على أحقادها  
 حجراتُ قاف ذارياتُ سمائه  
 ودنا له القصرُ المنيرُ وشقّه ال  
 زَغَفُ الحديدِ بحربه أصواتها  
 وله لدى الحشرِ العظيمِ شفاعَةٌ  
 عن صَفِّ جمعته المنافقُ نائياً  
 يا مَنْ به شَرِعَ الطلاقُ ومن له ال  
 يا من به ذو التون لاذ بيئته  
 يا من سألَ نوحٌ بظاهرِ اسمه  
 مدَّثِرٌ يومَ القيامةِ شافعٌ  
 يا مَنْ نزولُ المرسلاتِ بيعته

أنفال والحِكم التي لا تُجهل  
 هود ويوسف رعدهم يتجلجل  
 والنحل في الإسرا عليه تعولُ  
 والحج ثم المؤمنون الأفضل  
 نطقت به الشعراء وهو المرسل  
 وعليه نسجُ العنكبوت يهدلُ  
 لقمان حقاً في المضاجع يسألُ  
 وبه الملائكةُ الكرامُ تفضل  
 وكواكبُ بسعوده لا تأفل  
 وعليه في زُمَرٍ وردت فأنهَل  
 من زخرفٍ بجدّاه يا من يعقل  
 بقتاله أظنى وضع أدخل  
 في طورها نجمٌ منيرٌ يكمل  
 رحمنٌ واقعةٌ له لا تُجهل  
 رعدٌ مجادلةٌ لقومٍ أبسوا  
 في أمّة بالإمتحان تسربلوا  
 يومَ التغابن من حديد ينعل  
 تحريمٌ والملكُ العظيمُ الأكل  
 لما أصيب بحاقة لا تعدل  
 يا من أنتهُ الجنُّ يا مزَمَلُ  
 ومخلَصُ الإنسانِ وهو الموثل  
 يا أيّها النّبأ العظيمُ الأكل



هذا ، وقد عبس الجبين وأذهلوا  
والإنفطار من السماء يجعل  
في الإنشقاق إذ البروجُ تبدل  
لولادةِ الأعلى بهِ يفضل  
كالفجر إذ أنواره تنهلل  
والشعر ضاهى الليل بل هو أيل  
الأنشراحُ ، وقلبه لا يفغل  
فاقرأ ولا يرتاب فيه ، واسألوا  
وعداه بالزلال منه تزلزلوا  
وبقوله الهاكم ما تجهل  
ويل لأهل القيل منه وقتلوا  
يُسقى غداً من كوثر يتسلسل  
مسد إذا التوحيد عنه تعدل  
والناس منه مكبر ومهلل  
والكفعمي بمدحه يتجمل  
ما زال طير الضليل يعندل

والنازعات نزعن نفسَ عدوة  
وهو الشفيح إذا المنيرة كورت  
ولدى ذوي التطيف ويلُ والسما  
والله قد حرس السماء بطارق  
وأزال غاشية العذاب ونوره  
بلدٌ أمين ثم شمس أشرفت  
شمس الضحى من وجهه ولصدره  
يا من أتى في التين حقاً ذكره  
يا من ليالي القدر بيته له  
بالعاديات أزال قارعة العدا  
ولقد أتى من قبل عصر نبينا  
هو صاحب الإيلاف والدين الذي  
والكافرون لنصره في جيدهم  
يا خاتماً فلتق الصباح كوجهه<sup>١</sup>  
أبياتها ميقات موسى عدة<sup>٢</sup>  
صلتي عليه الله مع أصحابه<sup>٣</sup>

### [ ترجمة الكفعمي ]

والكفعمي هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر  
عيما<sup>٣</sup> قرية من قرى أعمال صفد ، كما تقول في النسبة إلى بني عبد الدار :

١ ق : بوجه .

٢ ق : ثم صحابه .

٣ في ق والتجارية : عتبا ، والكفعمي نسبة إلى كفر عيما إحدى قرى جبل عامل ، كما ذكره صاحب =

عبدري ، وإلى حصن كيفا : حصكفي ، وشرحه لبديعته سماه نُور حَدَاقَةِ  
البديع ونُورُ حَديقَةِ الرِّبيعِ «<sup>١</sup> وما رأيت مثله في سعة الحفظ والجمع .

ومن نظمه في أسماء الكتب :

يا طريقَ النجاةِ بحرَ فلاحٍ أنتَ دفعُ المومِ والأحزانِ  
أنتَ أنسُ التوحيدِ عِدَّةُ داعٍ ثم روحُ الإحياِ وفلكُ المعانيِ  
نهجُ حيِّ ونثرُ درِّ نبيسه ورياضُ الآدابِ ذكرى البيانِ  
فاتقُ رائعَ مسرةٍ راضٍ منتهى السؤلِ جامعُ للأمانِ  
نزهةٌ عِدَّةُ ظرائفُ لطفٍ روضةٌ مبهجُ جنانِ الجنانِ  
زاهرٌ كاملٌ شهابٌ وكترُ مجتني من ذخيرةِ الإخوانِ  
فصاحُ الألفاظِ فيه تلقى وشنورُ العقودِ والمرجانِ  
وهو قوتُ القلوبِ نهجُ جنانِ وكنوزُ النجاحِ والبرهانِ

فناسب بين أسماء الكتب ، وقصدُه غيرُ ذلك ، وأكثر هذه الكتب التي  
ورى بها غير موجودة بأيدي الناس ، بل ولا معروفة لديهم ، وهذا دليلٌ على  
سعة اطلاعه .

ومن بدائع الكفعمي المذكور رسالة كتبَ بها إلى قاضي القضاة العالم العلامة  
أبي العباس ابن الفرفور<sup>٢</sup> في شأن أستاذ دار قاضي القضاة المذكور الأمير علاء

= روضات الجنات ( ٧ ) نقلا عن بهاء الدين العاملي ، والنسبة الشائعة إليها كقعيماوي . والمترجم به  
إمامي المنع ، وله كتب وأشعار وتصانيف منها : كتاب جنة الأمان الواقية المشتهر باسم المصباح  
وكتاب البلد الأمين والدرع الحصين وكتاب نهاية الأرب في أشغال العرب وغيرها ، وقد توفي سنة  
٩٠٥ .

١ ذكره حاجي خليفة ( ١٩٨٢ ) وأوله : الحمد لله الذي شيد بنيان صرح البيان .  
٢ هو شهاب الدين أحمد بن محمود بن عبد الله بن محمود الشهير بابن الفرفور الدمشقي الشافعي ( ٨٥٢ -  
٩١١ ) ولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق ثم جمع له بينه وبين قضاء مصر سنة ٩١٠ فأتاب عنه  
بدمشق ولده ولي الدين ( الكواكب السائرة ١ : ١٤١ ) .

الدين ، ويخرج من أثنائها قصيدة منها : يقبل الأرض وينهي (سلام) عبد لكم  
(محب) وعلى المقة مكب (لو بدا) للناظرين (عشر) معشار (شوقه)  
وغرامه (لطبتق) ذلك (ما بين) آفاق (السموات) السبع (والأرض) لشدة  
هيامه (تراه) حقاً (لكم) حافياً (بالأمن) والسرور (والسعد) والحبور  
(داعياً) لا جرم (وهذا) الثناء المتوالي و (الدعا) للمقام العالي (لا شك)  
من لازم القرض) ملكه الله تعالى أزيمة البسط والقبض ، (وأنجلك) ربي من  
المعاطب (في) دينك و (دنياك) وأنقذك (من) شر (كل) صغير (شدة)  
وكبيرها ، (وأرضاك) ، وجعلك أميناً (في) الأرض ، إلى (يوم القيامة)  
والنشور (والمرض ، كما أنت) أمن (لي) من المخاوف و (عون) في كل  
شدة (وغوث) وملجأ (وعدة) وأنجحت آمالي (ووفرت) بإخداذك (لي)  
مالي) وأحسن قرضي (ووفرت) بإجلالك (لي عيرضي ، وينهي) المملوك  
(إلى) سيده (قاضي القضاة) وكافي الكفاة (بأن) المتولي الأمين (ذا) الفخر  
المبين (علي ابن) المرحوم (فخر الدين) قوله (في أمركم) العالي (مرضي)  
وفعله مقضي (ومدحكم) عليه (فرض) واجب (قراه) أبدأ (لسانه) ويذكر  
المناب (وحبكم) له واختياركم (إياه) دالٌّ بأنه أمين حليم (شاهده) حقاً  
(يقضي) يجعله على خزائن الأرض إته حفيظ عليم (حديث) مدح (سواكم)  
ليس من مدائحه ، و (لا يمر) أبدأ (بقلبه) وجوارحه (وإن مر) في خاطره  
(لا يخلو) قطعاً (وحكمكم) عليه شرعاً ، ومرسومكم (بمضي) وأمركم يقضي  
(بتيه) سروراً (به) رؤساء أهل الشام ، ومن في (القبليات) من الأنام ،  
(عزة) وعلوآ (لخدمته) الشريفة (إياك) ولأته (يا قاضي) قضاة الدين  
و (الأرض) لا يريد سواك ، (فإن يك) الخادم المذكور (في) بعض (أفعاله)  
غافلاً (أو) في (مقاله) غير كامل و (عصاكم) في بعض الأمر (فمعي)  
العفو) والستر (عن ذنبه) لا جرم (تغضي) ، وهو بتوبته إليه يقضي ،

و (سلام) الله (عليكم) ورحمته لديكم (كلّما) نطق ناطق أو (ذراً) في  
المشارك (شارق) وما دارت الأفلاك ، (وسبحت) بلغاتها (الأملك ، في)  
فسيح (الطول و) رحب (العرض) ، دوماً ما بين السماء والأرض .  
وهذه أبيات القصيدة المتولدة من هذه الرسالة :

سلام محب لو بدا عشرُ شوقه      لطبّق ما بين السموات والأرضِ  
تراه لكم بالأمن والسعد داعياً      وهذا الدعا لا شك من لازم الفرض  
وأنجاك في دنياك من كل شدة      وأرضاك في يوم القيامة والعرض  
كما أنت لي عون و غوث وعدة      ووفرت لي مالي ووفرت لي عِرْضي

هذا ، ويصح أن يقرأ « عوناً » بالنصب على الحالّية ، وهو الذي رأيته  
بخطه ، أعني الكفعمي ، ثم قال :

وينهي إلى قاضي القضاة بأنّ ذا      عليّ بن فخر الدين في أمركم مرّضي  
ومدحكُمُ فرض قراه لسانه      وحبكم إيساه شاهده يقضي  
حديث سواكم لا يمر بقلبه      وإن مرّ لا يحلو وحبكم يمضي  
يتيه به أهلُ القبيبات عزة      لخدمته إياك يا قاضي الأرض  
فإن يكُ في أفعاله أو مقالهِ      عصاكم فعين العفو عن ذنبه تغضي  
سلام عليكم كلّما ذرّ شارق      وسبّحت الأملك في الطول والعرض

قلت : وهذه طريقة بدیعة ، وقد تبارى فيها البلغاء ، فبعضهم يعمد إلى  
أحاديث أو آيات وينسج على منواله مثلها ، ويفرقها في أبياته أو سجعاته ، ويكتبها  
بلون مخالف للأصل ، وقد ذكرت في روضة الورد من « أزهار الرياض » من  
كلام ابن عاصم ما لا مزيد وراءه ، فليراجعه من أراد ، وذكرت في غيره  
أيضاً نبذة .

رجع إلى نظم ابن جابر - فمن ذلك قوله :

ناديتُ مَنْ أَسْرِي بهِ      بحياة من أَسْرِي بهِ  
سلُّ مدعاً تجري بهِ      بلكواه في تجريه

وقوله :

أيتها العاذلُ في حبي لهُ      خلُّ نفسي في جواها تحترقُ  
ما الذي ضركَ منهُ بعدما      صار قلبي في هواه تحت رِقِّ

وله :

بَرْدُ الصبَاحِ على بَرْدِ الصَّبَا سَحَرًا      ما زالَ يذُكرني أوقاتِ نَعْمَانِ  
لهفي لَمِيشٍ قَضِينَا في معاهدِهَا      ما بينَ حُسْنٍ من الدنيا وإِحْسَانِ

وله رحمه الله تعالى من حسناته المقبولة المضاعفة أيضاً :

جعلتُ ملاكَ العَيْنِ والقلبِ في الهوى      بناطقةَ القُرْطَيْنِ صامتةَ القَلْبِ  
تصحَّفُ لي أَلْطَافُهَا لِينًا قَدَّهَا      وتقلبهُ كَيْمَا تصيدَ بهِ قَلْبِي

قال بعض علماء المشرق : أجاد والله هذا العالم المغربي المقال ، وأراد أن لفظ لين إذا قلب صار « نيلًا » ، وإذا صحف صار « تبلاً » ، وهذا زيادة على ما فيه من التحريف ؛ انتهى .

[ من شعر أبي جعفر رقيق ابن جابر ]

وقريب منه لرقيق المذكور قوله :

يفترُّ عن بَرْدٍ يثير بَرْدِهِ      حرَّ الغرامِ ولا سبيلَ لرشفه  
أخذ الرشا من حسنه طَرَفًا لَذَا      نَسَبَ الوري ملح الجمالِ لطرفه

وله :

تجرُّ فرعيها على إثرها      رافلةً في حُللِ الحسنِ  
فقطُّعُ البدرِ لنا في الدجى      وتُرسلُ البدرَ على الغصنِ

وله :

قد نعمنا بجزعِ نَعْمَانَ لَكِنْ      عَقْنَا البعدُ ، والعقوقُ قبيحُ  
قُلْ لَأَهْلِ الخيامِ أُمَّا فَوادِي      فجريحُ لَكِنْ ودي صحیحُ

وقوله :

مُقَدَّماتُ الرقيبِ كيف غَدَتْ      عند لقاء الحبيبِ مُتَّصِلَةٌ  
نَمَعْنَا الجَمْعَ والخُلُوَّ مَعاً      وإنما ذاك حُكْمُ مُنْفَصِلَةٍ

وله يمدح سيد الخلق وخاتم المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين :

رحمةً أرسلهُ اللهُ لَنَا      وشفيعاً قد غدا فينا غدا  
وَهَبَ المالَ لمن مالَ لَهُ      وفدى من ذنبه مَنْ وفدا  
ليس يحصي فضلهُ إلا الذي      هو أحصى كلَّ شيءٍ عددا

وله :

حَسَنَ النيةِ ما اسطعتَ ولا      تَتَّبِعُ في الناسِ أسبابَ الهوى  
إنما الأعمالُ بالنياتِ ، مَنْ      ينو شيئاً فله ما قد نوى

وله :

قالتُ وقد حاولتُ نيلَ وصالها      مِنْ غيرِ شيءٍ لا تجوزُ المسألةُ  
باللهِ قُلْ لي أين محوكُ يا فتي      أرايتَ موصولاً يبيءُ بلا صلةُ

وهذا معنى قد تلاعب الشعراء بكُرتِه ، وقضيةُ ابن عنين في ذلك مع  
المعظم دالةٌ على توقُّد فكرته ، وما ذاك إلاّ أنه مرض فكتب إلى الملك المعظم :

انظرْ إليَّ بعينِ مولَى لم يزلْ يُولي الندى وتلافَ قبلَ تلامي  
أنا كالذي ، أحتاجُ ما يحتاجُه فاعمِّ دعائي والثناء الوافي

فعاده المعظم وأعطاه ألفاً ، وقيل : ثلاثمائة ، وقال له : هذه الصلة ، وأنا  
العائد .

قال بعض المغاربة في هذا : قد تطف ابن عنين في الصلة والعائد ، وأجاد  
وسبق المعظم إلى فهم مقصوده مطابقة الحوار فأتى بما يُستغرب عن سيويه  
ونظرائه ، فلذلك جعل الشرف ابن عنين ديوانه مملوءاً بمدحه وأطرابه ، ونقلته  
من حظي وفيه بعض تغيير بيتين .

[ عود إلى شعر ابن جابر ]

وقال ابن جابر المذكور :

يا دارَ ليلي لا صمّتْكِ يدُ البلي وسقاك درّ القيث كلُّ سحابِ  
أصبو إلى تلك الربوع ، وكيف لا أصبو وهنّ منازلُ الأحبابِ

وقال من قصيدة :

وأطلبُ تشويقَ الأنامِ بحسنه فاذكرُ من أسمائه كلَّ طيبِ

ومنها :

وإني لم أمدحُه إلا تشوقاً وإن كان مشهوراً بشرقٍ ومغربِ

وقال :

أمر الشباب [ ..... ]  
أسر الهوى مهج الأنام لها  
فَهففا فقالت : دَمَعَتِي أَغْلِي  
إذ سلَّ من أعطافها أسلا

وقال :

ظعنوا [ والقُدود ] منهم رماح  
جاد دَمَعِي لهم وقد حاد صبري  
طعنوا في الحشا بها فأصابوا  
حين سارت بالظاعنين الرِّكابُ

وقال :

شاه وجهُ الرقيبِ إذ شاء وصلي  
زارني بالنهارِ في الليلِ لكنْ  
قمرِي ، والأَنامُ عَنَّا نيامُ  
ليلُ فرعٍ بحارُ فيه الظلامُ

وقال :

يا أيها الجائرُ في حكمه  
قدك من أعدلِ شيءٍ برى  
إني فيما قد جرى حائرُ  
وأنت في أهلِ الهوى جائرُ

وقال :

قد زعم العاذلُ لي أنه  
ما هو هادي لي ولكنّه  
يُهدي لي الرُّشدَ بما يصنعُ  
هاذِ فسمعي قال لا تسمعوا

وقال :

شفي فؤادي من شقا هجره  
وزارني بحكي غزالِ النقا  
وبيتٍ من لقياهُ في عيدِ  
في الحسنِ لولا الحلبيُّ في الجيدِ

وقال :



سلبَ القلبَ غزالٌ قدُهُ      قدُ حكيّ البانَ لنا والسَّلَمَا  
ساحرُ العينِ إذا أبصره      كاتبٌ ألقى لديه القَلَمَا

وقال :

يكفي الأنامَ بسيفه وبسييه      عقَدَ المكارهَ والمكارمَ دائما

وقال :

تحلّت بما يحكي محاسن ثغرها      وحلّت عقودَ الصبرِ مني عقودُها  
ثقيلةُ أردافٍ فصعبُ قيامُها      بما حملتُ منها وسهلُ قعودُها

وقال :

أبى حُسْنُها إلاّ افتتانَ قلوبنا      فكَمَ قد أباد الحسنُ فيها من الناسِ  
وقالت تحمّلُ طولَ هجري إن تُردُّ      وصالَ ذواتِ الحسنِ قلتُ على راسي

وقال :

أرى أناساً ، من أراد الرضى      منهم رجا ما ليس بالممكنِ  
سيانٍ أن يعطوا وأن يمنعوا      قد ضاعَ فيهم كرمُ المحسنِ

وقال :

يا جيرةَ الحيِّ حيّاً الله وإديكم      فكَمَ سرورٍ به للقلبِ قد عرّضا  
فلن أنالَ حياةً أستلذتُ بها      إذا أنا لم أنلُ من وصلكم غرضاً

وقال :

شبَّ حرَّ الفؤادِ ماءً رضابِ      منهُ قد حارَ فيه ماءُ الغمامِ  
زان بالحليّ جيدةُ قلتُ : ماذا؟      قال : شيءٌ نظمتهُ منُ كلامي

وقال :

صادَ قَلْبِي وَصَدَّ عَنِي صَدُودَا  
فَرَأَيْتُ الصَّبَاحَ فِي اللَّيْلِ يَبْدُو  
وَإِنِّي يَسْحَبُ النُّوَابِ سَوْدَا  
وَشَهِدْتُ الرَّشَا بِصَيْدِ الْأَسْوَدَا

وقال :

إِنِّي سَمِيتُ مِنَ الزَّمَانِ لَطُولِ مَا  
وَمِنَ النُّوَادِرِ فِي زَمَانِكَ أَنْ تَرَى  
قَدْ صَدَّ عَنِ حُسْنِ الْوَفَاءِ رِجَالَهُ  
خِيَلًا حَمَدَتْ وَدَادَهُ وَخِيَلَهُ

وقال :

إِنْ قَابَلَ الْغَصْنَ بِأَعْطَافِهِ  
فَقُلْتُ قَدْ اسْتَبَعَدَ كُلُّ الْوَرَى  
فَقُلْتُ أَنْ تُبْصَرَ مِنْ فَرَقِ  
فَقَالَ ذَلِكَ الْبَعْضُ مِنْ حَقِّي

وقال :

صَحَّ أَنْ الصَّبَاحَ مِنْ وَجَنَتِيهَا  
قَاتَلَ اللَّهُ عَاذِلِي قَلْبِي يَوْمًا  
وَعَصُونَ الرِّيَاضِ مِنْ مَعْطَفِيهَا  
لَيْسَ يَسْعَى بِالْعَدْلِ فِيهِ إِلَيْهَا

وقال :

شَدُّوا مَحَامِلَهُمْ يَوْمَ الرِّحَالِ وَقَدْ  
هَزُّوا الْغَصُونَ عَلَى الْكُثْبَانِ حِينَ مَضَوْا  
مَحَارِسُومَ اصْطَبَارِي فَقَدْ مَنْ رَحَلَا  
وَأَسْبَلُوا فَوْقَ أَقْمَارِ الدَّجَى كِلَلَا

وقال :

خَدَّ تَرَى الْوَرْدَ بَعْضًا مِنْ مَحَاسِنِهِ  
لِصَارِمِ اللَّحْظِ قَدْ أَرَخِي حَمَائِلَ مَنِ  
تَبَارَكَ اللَّهُ مَا أَبَى شِمَائِلَهُ  
عِذَارِهِ فَحَمَى عَنَّا خَمَائِلَهُ

وقال :

قام حادي الركاب ليلاً فغنى  
فاستقام السرى وثار العسرام  
قيل نام الأنام فاهجع قليلاً  
قلت دون الحبيب لست أنام

وقال :

ترامى بنا في البید شوق إلى الحمى  
فلمّا رأينا ربّع من سكن الحشا  
ترى عنده الأجفان منهلة الدمع  
نزلنا فقبلنا ثرى ذلك الربيع

وقال :

يراوذي الواشي على حب غيرها  
موقرة الأرداف ، مهضومة الحشا  
وإن محالاً أن يرى مثل حسنها  
يريك النضات الطي فاطر جفنها

وقال :

سلت علينا سيوفاً من لواظها  
أضحت لسفك دم العشاق هادرة  
ومن لنا من سيوف اللحظ من واتي  
فما ترى دية في قتل عشاق

وقال :

في خدّها شبهة للخال أو شية  
وشئي من الحسن لم يمتج لصنع يد  
بما حوى الحسن من الطاف أسرار  
تبارك الله هذي صنعة الباري

وقال :

بين الجوانح لو علمت من الجوى  
فدع المدامع في مدى جريانها  
نار عليها سكب عيني يهنع  
فالدمع بعد فراقهم لا يمتع

وقال :

قالوا بدارين قد قالوا ، وقد وردوا  
ماء العقيق ، وبالزوراء قد باتوا

بانوا عن العينِ لكن بالقلوبِ ثورا وفي الهجاءِ عن الأجابِ آفاتُ  
وقال :

مليحةُ الخدِّ به شامةُ كالوردِ قد نُقِطَ بالغاليةِ  
قلتُ لها : ما اسمك؟ قولي لنا قالت : فما تعرفني غاليه  
وقال :

جاريةُ جاريةُ في مدَى شابها من أملحِ الخلقِ  
ما بينَ فرقى الصبحِ لما بدا ووجهها للناسِ من فرقِ  
وقال :

لصبه منه امتدادُ النوى فلا يلامُ الدمعُ في صبّه  
في قدّه لينُ فهلاًّ قضى بقلبه منه إلى قلبه  
يريدُ بالقلبِ الأولِ التحويلَ والنقلَ : أي فهلاًّ قضى بتقل اللين الذي في  
قدّه إلى قلبه .

وقال :

يا لابسَ اللامِ والأسيافِ عاريةُ قد انعطفتَ على الأعطافِ واللامِ  
ويا ضجيجَ رماحِ الخطِّ يرسلها في كلِّ هامٍ لها باللحظِ في الهامِ  
الهامِ الأولِ : جمع هامة ، والثاني اسم فاعل من همى يهمي .  
قال رقيقه : لو قال « من الهام » لكان أليق بالمعنى وأطف .

وقال :

من مالٍ يبغى كسبَ مالٍ له من حريمه إن جاء أو حله

فلا تثقُ يوماً بهِ واحترزُ  
وقال يتشوق إلى وطنه بالمرية :

للهِ عيشٌ بالمريّةِ قد ذهبَ  
وهبتْ لنا تلكَ الليالي مدةً  
وقال :

أنّ من شوقه فئار الضّرَامُ  
لا تسَلُ ما جرى من الدمعِ لما  
وقال :

صلاةُ إلهِ العالمين على الذي  
يجودُ على الراجي وإن كان مذنباً  
وقال :

قدْ سبَا قلبي غزالٌ فاتنٌ  
أنا لا أعتبُ فيما قدْ جرى  
وقال :

صبرتُ لهُ فتماذى بهِ  
وأنكر بيري ويا طالما  
وقال :

وليلٍ نظمنا بهِ شملنا  
وفرقنا الدهرُ من بعدِ ذا  
كما انتظم البيتُ بالقافيةِ  
فلستُ من اليومِ ألقى فيهِ

أي فئة ، ولا يكمل التجنيس فيه إلا بتسهيل الهمزة كما قال رفيقه ، ولما أنشده  
قال :

ومن هذا النوع قول بعض الأندلسيين :

وقائل قال ألا صِفَ لنا بستاننا هذا ونارنجنا  
قلت لهم بستانكم جنةٌ ومن جنى النارنج ناراً جنى

وقال ابن جابر المذكور :

قل بحق الهوى سمحت بوصل  
رمت نيل الوصال منها فقالت  
ربة القلب أم نهاك الرقيب  
لك وصل غداً فقلت : قريب

وقال :

زَيْنَ الخدِّ منه صدغٌ كنونٍ  
قلت هذي محاسنُ ابنِ هلالٍ  
قد بدا تحته غدارٌ كلامٍ  
فانثني وهو ضاحكٌ من كلامي

وقال :

لها حُسنٌ لها عن كل شيء  
على وجنتها نعمانٌ يبدو  
به قلبي ، فما أنا أستفيقُ  
لنا وشفاهاها هنَّ العقيقُ

وقال :

تمرُّ في ذكركم ، والله ، أحياني  
لا يعذب العيش لي بعد العذيب ولا  
ولو سرى طيفكم ليلاً لأحياني  
نعيمٌ مثل ليالينا بنعمانٍ

وقال :

مدارةٌ هذا الخلقِ أوليك بينهم  
صفاتٌ هي الأعمارُ والنظمُ داراتُ

وشاراتُ حمدِ المرءِ أن لا تُرى له  
على الناسِ ممّا لازمَ الحلمِ داراتُ  
وقال :

أرى كدأً سعيي إلى خاملٍ ، ولو  
وما الخيرُ يوماً من لتيمٍ بممكنٍ  
وقال :

أرى حَيْدِي عن كلِّ طارىءِ نعمةٍ  
فمن أخذَ المعروفَ من غيرِ أهله  
وقال :

شبا لحظها الماضي وحسنُ شبابها  
كئيبُ النقا من ردفها ، وقضيئُ  
وقال :

حلَّ عَقْدَ الصبرِ مني عَقْدُها  
تحسبُ الدرَّ على لَبَّتْها  
وقال :

شعراً كالليلِ يَبْدو نَحْتَه  
نَقَلَ السواكُ عن ميسمه  
وقال :

مَنْ سَنَّ تلكَ اللحاظَ فاتَبَعَتْ  
تقتلُ عشاقها بلا سببٍ  
من سنَّةِ الحبِّ كلَّ متبِعٍ  
وذاك في الحبِّ غيرُ مبتدِعٍ

وقال :

وما شجُوْ صالٍ لوعةَ الهجرِ قد قضى  
كشجوِ محبٍ لم يذقْ لذةَ الرضى  
زمانَ وصالٍ لم تُكدَّرْ مشاربه  
ولا باتَ والغيدُ الحسانُ تلاعبه

وقال :

سَرَتْ في رحالِ العيسِ منه أهلةٌ  
بعيشك قلْ لي هل دروا كيف علّتي  
فأيسرُ حالٍ أن أزودها قلّتي  
وفيضَ دموعي بعد مُنصرَفِ الركبِ

وقال :

مَنْ جنى باللحاظِ زهراً المعاني  
هو قدّم نالَ كلَّ ما يتمنى  
من جنابِ الحمى إذا الناسُ ناموا  
وسَعَتْ في مُرادِهِ الأيامُ

وقال :

لطائفُ حسنها برُبوعِ قلّتي  
تريك تكاسلاً في اللحظِ منها  
لطائفُ الجأئني للغرامِ  
لتحسبه تنبّهً من مَتامِ

وقال :

إذا زُرْتَ حياً بالعقيقِ فحيهمُ  
حرامُ فراقِ العيسِ حتى تُحلّتي  
وذكرهمُ عهدي وحقّ ودادي  
بواديهِ من تلك الوجوهِ بوادي

وقال :

مِنْ فرطٍ ما في الطرفِ من فتنهٍ  
قالَتْ نَسيتَ العهدَ قلتُ اكفني  
قدّم غلبَ الحبُّ على الناسِ  
عني فما عبدكِ بالناسي

وقال :



بينَ نعمانٍ وسَلْعٍ مَلاَ      ليسَ مِنهُمُ لِمَحبَّةِ أَلَمِ  
كَلَفِي مِنهُمُ بِبَدْرِ حَلِّ فِي      فَتَلَكِ العِلياءِ فَاعْرِفِ مَنْ هُمُ

وقال :

أراقبها وحينَ أرى سبيلاً      أقاربها فتنفّرُ كالغزالِ  
وقالت أنتَ مرتقبٌ لماذا      فقلتُ لها : ارتقابي للهِلالِ

وله من قصيدة مطوّلة في فضائل الصحابة العشرة وأهل البيت ، فمما يختص منها بأبي بكر رضي الله تعالى عنه قوله :

فمنهُمُ أبو بكر خليفَتُهُ الذي      له الفضلُ والتقديمُ في كلِّ مشهدِ  
وصديقُ هادي الخلق والمؤثرُ الذي      لإتفاهه للمالِ في الله قَدَ هُدي  
وصهرُ رسولِ الله ، وابنتُهُ التي      يبرئها نصُّ الكتابِ المُجدِّ  
وصاحبه في الغارِ إذ قال لا تخفُ      فثالثنا ذو العرشِ أوثقُ منجدِ  
وسدَّ على المختارِ مَخرجَ حَيَّةِ      هناكَ برجلٍ منه فازتُ بأسعدِ  
وفيه وفي خيرِ الأنامِ تسامعوا      بمكَّةَ صوتَ الهاتفِ المتقصدِ<sup>١</sup>  
« جزى الله ربَّ الناسِ خيرَ جزائه      رفيقينِ حلاًّ خيمي أمَّ معبدِ »<sup>٢</sup>  
وعتقُ بلالٍ حسبهِ ، فهو سيّدُ      تأثَّلَ في الإسلامِ ، إعتاقُ سيّدِ

١ يقال إن أهل مكة سمعوا بعد هجرة الرسول ومعه أبو بكر هاتفاً يقول : جزى الله ... إلخ البيت التالي ؛ وقد مر الرسول وصاحبه بخيمي أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف الخزاعية فقالا عندها ، ويقال إنها ذبحت لهما شاة وطبختها (انظر إمتاع الأسماع : ٣ ؛ وعيون الأثر ١ : ١٨٨ - ١٨٩) .

٢ رواية البيت في عيون الأثر ( ١ : ١٨٨ ) :

جزى الله خيراً وإجزاء يكفه رفيقين قالا خيمي أم معبد

وقد وردت الرواية المثبتة في النسخ مع وضع « قالا » موضع « حلا » في ص : ١٨٩ من الكتاب المذكور .

وقال رسولُ الله إنَّ أُمَّنَّكُمْ  
فصدَّق إذ كذبتُم ، وأطاع إذ  
ولو أنتي من أمتي كنت آخذاً  
لكان أبو بكر ، ولكن أخوة  
فلما أراد الله قبضَ نبيّه  
تقدم في نيلِ الخلافةِ بعُده  
وقد فارقتُ يومَ السقيفةِ فرقةً  
وقام عليٌّ بعُد ذلك مبيعاً  
وأظهرَ عذراً في تأنيهِ صادقاً  
فأب بحمدٍ منهم غيرَ قاصرٍ  
وما أشبه الصديقَ في الفضلِ مشبهٌ

عليٌّ أبو بكر وأوفى بموعده  
عصيمٌ ، ووافاني موافاةً مُسعدٍ  
خليلاً تولّى خلتي وتودُدِي  
في الاسلام مهما تنقصِ الناسُ تزددِ  
وصار إلى دار النعيم المخلدِ  
بإجماعهم لا بالحسام المهندِ  
فلما رأته الحقّ لم تزددِ  
فأنى ثناء المخلص المتوددِ  
وباع طوعاً لا لفقدان مسندِ  
ومن يتبع الإنصافَ والحقَّ يُحمدِ  
ولا أحصيت أوصافهُ بتعددِ

ومما يختص بعمر رضي الله تعالى عنه قوله من هذه القصيدة :

ويتبعه في فضله عُمُرُ الذي  
وما كلُّ مَنْ رام السعادةَ نالها  
هو المرءُ لم يتركْ له الحقُّ صاحباً  
ولا سلك الشيطانُ فجاً قد اغتدى  
ومِنْ ظلّه قد كان ينفِرُ هيبَةً

رمى عن قسيّ الصديق قوسَ مُسددٍ  
ولكنّه مَنْ يُسعدِ الله يُسعدِ  
ولا قعد الشيطانُ منه بمقعدِ  
له سالكاً من خوفه المتريّدِ  
له حيثما أضحي يروحُ ويغتدي<sup>٣</sup>

١ يشير إلى الحديث: « ما من أحد أعظم عندي يداً من أبي بكر واساني بنفسه وماله » رواه الطبراني ، وفيه أرطاة أبو حاتم وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٩ : ٤٦) .  
٢ هو تعبير عن الحديث : « لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر ولكن إياه ومودة إلى يوم القيامة » رواه الطبراني ، وفيه نهشل بن سعيد وهو متروك (المصدر السابق ٩ : ٤٥) .  
٣ في الأحاديث : « إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه » (مجمع الزوائد ٩ : ٧٠) وهناك أحاديث أخرى في خوف الشيطان منه . وفي صحيح مسلم (٢ : ٢٣٤) : والذي نفسي بيده ما لتعيبك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك .

وقد جاء عنهم : ما برحنا أعزةً  
ومن قولهم : إسلامه كان غرة  
وإمرته كانت على الناس رحمة  
ومن فضله رعي النبي بغيرة  
وقد قيل للفاروق : هذا ، ومن به  
فأقبل يبكي قائلاً كيف غيرتي  
ورؤيا رسول الله للقدح الذي  
وناوله الفاروق من بعد ما ارتبوا  
فأولهُ العلم الذي منه ناله  
فصارت له غرباً فأروى بها الورى  
ورؤياه أيضاً في قميص يجره  
فأول خير الخلق طول قميصه  
وتفريقه ما بين حق وباطل  
وسمي بالفاروق من أجل هذه  
وحسبك أن الله وافق رأيه  
كذا في أذان والحجاب وجعلهم

بإسلامه فانكف من كان يعتدي  
وهجرته فتحاً شجاً كل ملحد  
فأبوا إلى فتح وعز مُمهد  
له فأنشئ عن قصره المشيد  
فأنبأه عن ذا النعيم المؤبد  
عليك ، ولولا أنت ما كنت أهدي  
تناول من در به غاية الصدي  
إلى أن غدا من ظفره الري بيتدي<sup>٢</sup>  
وأول رؤيا الدلو حُسن التأيد  
فكان افتتاح الأرض فتح مُمهد  
وللناس قُمص بعضها يبلغ الشدي  
بما حاز في إيمانه من تأيد<sup>٣</sup>  
يوم سقى الكفار أظفَع مورد  
وما زال في نص الهدى ذا تجلد  
لدى يوم بدر إذ رأى قتل من فدي  
مصلى مقاماً للخليل بمسجد<sup>٤</sup>

- ١ يشير إلى الحديث : « دخلت الجنة فرأيت فيها داراً أو قصرأ فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب ، فأردت أن أدخل فذكرت غيرتك ؛ فبكى عمر وقال : أي رسول الله ، أو عليك يفا ؟ » (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٣ وورد فيه الحديث بصورة أخرى وانظر مجمع الزوائد ٩ : ٧٤ ) .
- ٢ عن ابن عمر عن النبي (ص) أنه قال : بينا أنا نائم إذ رأيت قدساً أتيت به فيه لبن فشربت حتى لأرى الري يجري في أطافيري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .
- ٣ عن أبي سعيد عن النبي (ص) قال : بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي ومنها ما هو أسفل من ذلك ، وعرض علي عمر وعليه قميص يجره . فقال من حوله : ما أولت يا نبي الله ذلك ؟ قال : الدين . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .
- ٤ عن عمر أنه قال : وافقت ربي في ثلاث : مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر ( وانظر =

شديدٌ على أهل الهوى رحمةٌ لمن  
وممّا رَوَوْا إن كان في أمةٍ فني  
وما أبغض الفاروقَ إلا مُفارقٌ  
لدين الهدى ذو مذهبٍ لم يسدّد

وممّا يختصُّ بعثمان رضي الله تعالى عنه قوله :

وحسبي عثمانُ بن عفان أنه  
إمامٌ صبورٌ للأذى وهو قادرٌ  
هو الجامعُ القرآنَ والقانتُ الذي  
ويقطعُ بالصوم النهارَ ويتشي  
وقال رسولُ الله في بشر رومةٍ  
لَهُ الجنةُ العليا بذلك فاشترى  
فقال رسولُ الله إذ جاءه بما  
هنيئاً لعثمان بن عفان فعلهُ  
وقولُ ألا أبدي حياء لمن له  
وبلغ بشرى الهاشميِّ بأته  
ولكن على بلوى ، وقال سأرتضي

عليه اعتمادي وهو سؤلي ومقصدي  
حليمٌ عن الجاني جميلُ التعود  
إذا جنَّ ليلٌ ليس بأوي لمرفد  
مدى ليله في خشيةٍ وتهجد  
أما مشترٍ يبغي بها الأجرَ في غد  
وتجهيزُ جيشِ العسرة اذكر وعدد  
قد احتاج من مالٍ وظهْرٍ وأعبُد  
وما ضرّه ما بعدُ مع هذه اليد  
قد استحييتِ الأملاكُ أشرفُ محتد  
من الجنة العليا بأكرمٍ مقعد  
وأصبرُ صبرِ الطائع المتجلد

= تفصيل ذلك في الرياض النضرة ١ : ٢٦١ وما بعدها وانظر صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤ .

١ في صحيح مسلم ( ٢ : ٢٣٤ ) قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم ؛ قال ابن وهب في تفسيره محدثون : ملهون . وانظر الرياض النضرة ١ : ٢٦٠ .

٢ من فضائل عثمان أنه جهز جيش العسرة بتسمائة وخمسين بعمراً وأتم الألف بخمسين فرساً (وقيل أكثر من ذلك) وقال فيه الرسول « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » - وهو حديث حسن غريب - وأنه اشترى بشر رومة بعشرين ألف درهم (انظر الرياض النضرة ٢ : ١٢٠ - ١٢٢) .  
٣ يشير إلى الحديث الذي ينص على أن الرسول (ص) كان مضطجعا في بيته كاشفاً عن فخذه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر ثم عمر وهو على تلك الحال، فلما استأذن عثمان جلس وسوى ثيابه، فلما سئل في ذلك قال: « ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟ » (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤-٢٣٥).

فأظهر يوم الدار صبر أولي النهى  
ولم يرض ، صوناً للدماء ، بحريمهم  
فمات شهيداً صابراً فهو خير من  
على بنتي المختار أرخى ستوره  
ولم يدع ذا النورين إلا لأته  
وإن لعثمان بن عفان رتبة

ومما يختص بعلي رضي الله تعالى عنه قوله :

وإن علياً كان سيف رسول  
وصهر النبي المجتبي وابن عمه  
وزوجه رب السما من سمائه  
بخير نساء الجنة الغرّ سؤدداً  
فباتا وحلي الزهد خير حلاهما  
فآثرت الجنات من خلل ومن  
وما ضر من قد بات والصف لبسه  
وقال رسول الله إنني مدينة  
ومن كنت مولاه علي وليه  
وإنك مني خالياً من نبوة  
وقال غداً أعط اللواء محبياً  
فباتوا وكل يشتهي أن يناها  
فنادى علياً ثم أبرأ عينه  
فأعطاه إياها وقال له ادعهم

وصاحبه السامي المجد مشيد  
أبو الحسين المحتوي كُلى سؤدد  
وناهيك تزويجاً من العرش قد بُدي  
وحسبك هذا سؤدداً لمسود  
وقد آثرا بالزاد من جاء يجتدي  
حلي لها رعيماً لذلك التزهد  
وفي السندس الغالي غداً سوف يفتدي  
من العلم وهو الباب ، والباب فاقصد  
ومولاك فاصدق حب مولاك ترشد  
كهرون من موسى وحسبك فاحمداً  
إلي وللرحمن بالنصر مرتدي  
إلى أن بدا وجه الصباح المجود  
بتفت كأن لم يمس قبل بأرمد  
ومهما أبوا فأنهد إليهم تؤيد

١ أشار في هذا البيت وما سبقه إلى أحاديث في فضائل علي منها : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » و « من كنت مولاه فعلي مولاه » ومنها « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » .

فجدل منهم من جنى عندما دعا  
وقاتل طول اليوم والباب ترسه  
فأعجزهن الباب من بعد عشرة  
وكان من الصبيان أول سابق  
وجاء رسول الله مرتضياً له  
فمسح عنه التراب إذ مس جلده  
وقال له قول التلطف « قم أبا  
وفي ابنه قال المصطفى ذان سيدا  
وأرسله عنه الرسول مبلغاً  
وقال هل التبليغ عني ينبغي  
وقد قال عبد الله للسائل الذي  
وأما علي فالتفت أين بيته  
بأميرين من حرّ وبرد فلم يجد  
وما زال صوماً منياً لربه  
قتنوعاً من الدنيا بما نال ، معرضاً  
لقد طلق الدنيا ثلاثاً ، وكلّما  
وأقربهم للحق فيها وكلّهم

إلى الحرب دعوى الفاتك المتمرد  
يجرّ به للقوم في كل مرصدا  
فما الظن في هذا القوي المؤيد  
إلى الدين لثم يسبق بطائع مرشد  
وكان عن الزهراء بالمشرد  
وقد قام منه ألفاً للتفرد  
تراب « كلام المخلص المتودد  
شبابكم في دار عز وسؤدد  
وخص بهذا الأمر تخصيص مفرد  
لمن ليس من بيتي فبالقوم فاقصد  
أتى سائلاً عنهم سؤال مندّد  
وبيت رسول الله فاعرفه وأشهد  
أذى بردها أو حرها المتوقد  
على الحق قواماً كثير التعبد  
عن المال ، مهما جاءه المال يزهد  
رأها وقد جاءت يقول لها ابعدني  
أولو الحق لكن كان أقرب مهتد

ومنها في ذكر السبطين رضي الله تعالى عنهما :

- ١ قص في هذه الأبيات إعطاء الراية لعلي يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه »  
ثم سأل عن علي فقيل : إنه يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه ، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرئ  
حتى كأن لم يكن به وجع ؛ وفي الهجوم على الحصن طرح ترسه وتناول باباً عند الحصن فترس به  
نفسه . . . إلخ . (الرياض النضرة ١ : ٢٤٢ - ٢٤٧) .  
٢ في سبب تلقيب علي بأبي تراب انظر صحيح مسلم ٢ : ٢٣٨ .

وبالحسنين السيدين توسلي  
هما قرتا عين الرسول وسيدا  
وقال : هما ريحاناي ، أحب من  
هما اقتسما شبه الرسول تعادلا  
فمن صدره شبه الحسين أجله  
وللحسن السامي مزايا كقوله  
سيصلح رب العالمين به الوري  
وإن تطلبوا ابناً للنبي فلن تروا  
بدا سيداً ظهر الرسول قد ارتقى  
فقالوا له طال السجود فقال لا  
وكان الحسين الصارم الحازم الذي  
شبهه رسول الله في البأس والندی  
لمصرعه تبكي العيون وحقها  
فبعداً وسحقاً لليزيد وشمره

ومنها في ذكر حمزة رضي الله تعالى عنه :

ومن مثل لث الله حمزة ذي الندى  
فكم حزاً أعناق العدا بسيفه  
فقال رسول الله : هذا أمرته  
وقال أبو جهل : أصبت محمداً

مبيد العدا مأوى الغريب المطرد  
وذب عن المختار كل مشدد  
ولي أسد ضار لدى كل مشهد  
بما ساءه فاهتر هزة سيد

١ إشارة إلى الحديث : إن ابني هذا سيد وليصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين . (مجمع الزوائد ٩ : ١٧٨) .  
٢ انظر الخبر عن الحسن كيف جاء وهو طفل فصعد على ظهر النبي وهو ساجد . (المصدر السابق ص : ١٧٥) .

وأهوى له بالقوس ما بين قومه ، وقال له : إني على دينه فإن فذلّ أبو جهل وأبدى تطفأً فعاد وقد نال السعادة واهتدى وفي يوم بدرٍ حثّ عند سؤالهم لمن كان لإعلامٍ بريشٍ نعامٍ فذاك الذي والله قد فعلت بنا وفي أحدٍ نال الشهادة بعدما ففاز وأضحى سيد الشهداء في وصلى رسولُ الله سبعين مرةً وقال : مصابٌ لن نصابَ بمثله وأسمعهم لكن حمزة ما له نوائحهُ . . . . . وزاد إلى فضل العمومة أنه وما زال ذا عرضٍ مصونٍ عن الأذى كريمٌ متى ما أوقد النار للقري

وقال : وأخرى بالحسام المهند أطقتَ فعرّجَ عن طريقيّ واردة ومن ينصر الحقّ المبين يؤيداً وأضحى لدين الله أكرم مسعد لما شهدوا من بأسه المتوقد بشردنا مثل النعام المشرّد أفاعيله في الحرب ما لم نعود أذاق سباعاً للردى شرّ مورد ملائكة الرحمن يسعى ويغتدي عليه إلى ثنتين عند التعدّد وإن كان لي يومٌ سأجزى بأزيد وبشر بالنار النوائح ما عدي . . . . . وقلن يا عين اسعدي<sup>٢</sup> أخوه رضاعاً هكذا المجد فاشهد ومال مهانٍ في العطايا مبدد « تجد خير نار عندها خير موقد »<sup>٣</sup>

ومنها في ذكر العباس رضي الله تعالى عنه :

- ١ يتحدث عن إسلام حمزة بعد أن سمع أن أبا جهل أساء إلى النبي فجاء إلى أبي جهل بفناء الكمية ، وجمع يديه بالقوس وضر به بها فيقال إن أبا جهل قال له : « ما كنت يا أبا عمارة فاحشاً » وعلى أثر هذه الحادثة أعلن إسلامه . (مجمع الزوائد ٩ : ٢٦٧) .
- ٢ تتحدث كتيب السيرة بإسهاب عن استشهاد حمزة يوم أحد على يد وحشي ، وحزن النبي عليه ، وصلاته عليه كلما صل على شهيد من أمته ، وقوله « لكن حمزة لا بواكي له . . . » وقوله « لن أصاب بمثلك أبداً » .
- ٣ شطر بيت للحطيئة (ديوانه : ٥١) وصدوره : متى تأته تمشوا إلى ضوء ناره .



وقد بلغَ العباسُ في المجدِ رتبةً  
ألا إنه فضلَ السقايةِ قدَّ حوى  
وكان طويلَ الباعِ في الباسِ والندى  
ويومَ حنينٍ ليس يُنسى ثباته  
وقال رسولُ الله فيه عليٌّ ما  
ألا إنَّ عمَّ المرءِ صنو أبيه كي  
وبشَّره أنَّ الخلافةَ في الورى  
بشيبته استسقوا إذ المحلُّ شاملٌ

تقولُ لبدرِ التَّم : قصَّرتَ فابعدِ  
فكان لوفدِ الله أكرمَ موردِ  
كريمًا متى يسترفدِ القومُ يرفدِ  
ودعوته مستنجداً كلَّ منجدِ  
عليه وأيضاً مثله في التزيدِ  
يزيدهم في برِّه المتأيدِ  
لأولاده من سيدٍ ومسودِ  
فجاءهمُ غيثٌ سقى كلَّ فدفدِ

انتهى ما وقفت عليه من هذه القصيدة الفريدة ، وليس بيدي الآن ديوان  
شعره حتى أكتبها بكاملها فإنها مناسبةٌ لهذا الباب الذي جعلناه ختماً للكتاب  
كما لا يخفى .

ومن مقطعات ابن جابر :

شغفتُ بها حيناً من الدهر لم يكنْ  
وما أصلُ هذا كَلِّه غيرُ نظرةٍ  
سوى سكبِ دمي في محبتها كسبي  
إلى مُقلَّةٍ منها. أضعتُ لها قلبي

وقال :

قدَّ بانَ عذري في مליحٍ لهُ  
إتني على الهجرِ مطيعٌ لهُ  
لحظاً رشاً يلحظُ من ذُعرِ  
ممثلٌ في السرِّ والجهرِ

وقال :

هذا الرشا يقنصُ ليثَ الشرى  
لو عارضَ العاذلَ يوماً له  
بنظرةٍ منهُ فلا مَخْلَصُ  
لكانَ من أولِ ما يقنصُ

وقال :

ظبيةٌ في ثغرها لَعَسٌ يُجْتَنِي من رشفه عَسَلٌ  
سَلَكَ التيهُ بمقلتها مسلِكاً قد زانه كسلٌ

وقال :

رَقَمَ الخالُ خَدَّها فرأينا قَمَرَ الأفقِ فيهِ نقطةٌ ليلِ  
قلتُ: أين الكئيبُ والغصنُ؟ قالتُ: كلُّ ما قد ذكرتهُ تحتَ ذيلي

وقال :

إن خفتَ من فتكِ المهتدِ والقنا فإذا رَتَّتْ وإذا مشتُ لا تقربِ  
في قلبِ بُرقعها محاسنُ أنزلتِ قَمَرَ السماءِ لنا بقلبِ العقربِ

وقال :

رأى عذولي حُسْنها بعدما حَقَّقَ كوني للهوى جانحا  
فقال إن كنتَ محباً لها فقد حمدنا رأيك الناجحا

وقال :

ذكرَ اللهُ بالمريّةِ عيشاً لستُ عن ذكره الجميلِ أحولُ  
طالَ عهدي بها وما دمتُ حيّاً لا يزيدُ الرجاءُ بل قد يطولُ

وقال :

مَرَّتْ ليالٍ بالمريّةِ طالما قَضَيْتُ من ليلٍ بهنٍ مآربا  
لم أسألُ عن تلكِ الديارِ وإنما جعلَ الفضاءُ لكلِّ نفسٍ غالبا

وقال :

لا تَعْقُني عن العقيقِ فَإني  
وعلى تُرْبِهِ وَقفتُ دموعي  
بين أكنافه تركتُ فؤادي  
ولسُكَّانهِ وهبتُ ودادي

وقال :

عرف المنزل الذي دار فيه  
فشجاه قلبُ التلاقي فراقاً  
زمنُ الأُنسِ والشبابِ النضيرِ  
وانثنى عنهُ ذا فؤادٍ كبيرِ

وقال :

جمالُ هذا الغزالِ سحرٌ  
هلالُ خَدَيْهِ لم يُغَيِّبْ  
غزالُ أنسٍ يصيدُ أسداً  
دلاله دلٌّ كلُّ شوقٍ  
كماله لا يخافُ نقصاً  
نباله قد رمت فؤادي  
حلالٌ وصلي له حرامٌ  
زلالُ ذاك الحمى حياتي  
قتاله لا يطاقُ لكنْ  
يا حبّذا ذلك الجمالُ  
عني وإن غُيِّبَ الهلالُ  
فاعجبْ لما يصنعُ الغزالُ  
عليّ إذ زانهُ الدلالُ  
دام لهُ الحسنُ والكمالُ  
يا حبّذا تلکم النبالُ  
وحكم قتلي له حلالُ  
وأين لي ذلك الزلالُ  
يعجبني ذلك القتالُ

وقال :

بين تلك الخيامِ أكرم حيّ  
قد أقاموا بين العقيقِ وسلعِ  
طَرَبتُ للندى عليهم خيامُ  
فحياةُ النفوسِ حيثُ أقاموا

وقال :

إذا جئتَ نجداً كرم الله عهدَه  
فسلم على أهل المنازلِ من نجدِ

لئن حال بُعدُ الدارِ بيني وبينهم      فإنتي لأرعاهمُ على ذلك البعدِ

وقال :

خَجَلتْ عندما نظرتُ إليها      وانثنتُ وهني بين تيهٍ ومنعِ  
إنما ورَدُ خدِّها زرعُ طرفي      حين مروا فكيف أحرَمُ زرعِي

وقال :

لكَ نفسي إذا بدت لكَ نجدُ      فلقد سرَّني الزَّمانُ بنجدِ  
فلتلكَ الخيامِ عندي عهدُ      وأبى الله أن أضيِّعَ عهدي

وقال :

سلَّ عن القومِ إن بدت لكَ سَلْعُ      فقَوادي عندَ الذين بسَلْعِ  
لي على تلکمُ المعاهدِ دمعُ      كادَ يُغني بها عن اللثِّ دمعِي

وقال :

صفحوا عنَّ محبهم وأقالوا      من عثارِ النوى ومَنّوا بوصلِ  
لستُ أستوجبُ الوصالَ ولكن      أهلُ تلكَ الخيامِ أكرمُ أهلِ

وقال :

مال الزمانُ بهمُ عنِّي وقدَّ بعدوا      لم يلهني عنهمُ أهلٌ ولا مالُ  
إنِّي لأخشى وما الأيامُ طوعُ يدي      أنِّي أموتُ ولي في القلبِ آمالُ

وقال :

بينَ وادي النقا وبانِ المِصَلّي      ملأُ البسوا الوجودَ جَمالاً  
إن يكن قد نوى لي الدهرُ قرباً      منهمُ فهو قد كفاني نوالاً

وقال :

زرتُ الديارَ عن الأُحبةِ سائلاً      ورجعتُ إذلالاً بدمعِ سائلِ  
ونزلتُ في ظلِّ الأراكَةِ قائلاً      والرَّبعُ أخرمسُ عن جوابِ القائلِ

وقال :

لا أوحشَ اللهَ المنازلَ منهمُ      منهمُ غدتُ تلكَ الديارُ حساناً  
فاشكرُ لدهركَ أن أراكَ بجاجرٍ      بانَ الحمى وأراكهُ قد باناً

وقال :

لكَ يا واديَ العقيقِ عَلينا      كلُّ ما شئتُ من ذمامٍ وثيقِ  
فمنَ السبرِ أنتي أنتي أتبري      منَ عقوقِ لمتزلٍ بالعقيقِ

وقال :

يا أهلَ ذي سَلمٍ بشرى لستلمِ      ذاكَ الثرى مُقَدِّمِ في السيرِ لم ينمِ -  
يؤمُّ داراً بها خيرُ الورى حسباً      الخاتمُ الرسلِ من عَرَبٍ ومن عجمِ -

ولفتصر من كلام ابن جابر في هذا الموضع على هذا المقدار ، وإنما أطنبت فيه لما تقدم من الاعتراض على لسان الدين في عدم توفيته بحق المذكور وحق رفيقه ، مع أنه أطال فيمن دونهما من أهل عصره ، وأيضاً فإن كليهما غريب عندنا بالمغرب ، لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهرا كل الاشتهار ، وكان خيرهما في الشرق أشهر .

[ من شعر رفيق ابن جابر ]

وأما رفيقه شارح بديعته فقد ذكرنا في غير هذا الموضع بعض حاله وكلامه ، وكنتزِدُ هنا ما تيسر ، فنقول : من نظمه :

لَمَّا عَدَا فِي النَّاسِ عَقْرَبٌ صُدَّعَهَا  
وَالصَّبِيحُ تَحْتَ خَمَارِهَا مُتَسْتَرٌ  
كَفَّتْ أَذَاهُ مِنَ الْوَرَى بِالْبَرَقِ  
عَنَّا مَنَى شَاءَتْ تَقُولُ لَهُ أَطْلَعِ

وقال :

تَجَنَّتْ فَجَنَّ فِي الْهَوَى كُلُّ عَاقِلٍ  
وَمَا وَعَدَتْ إِلَّا عَدَّتْ فِي مِطَالِهَا  
رَأَاهَا وَأَحْوَالُ الْمَحَبِّ جُنُونُ  
كَذَلِكَ وَعَدُّ الْغَايَاتِ يَكُونُ

وقال :

لَا تَجِدُوا فِي الْهَوَى عَلَى كَلْفٍ  
لَهْفَانُ مَا يَشْتَكِي إِلَى أَحَدٍ  
نَظِيرُهُ فِي الْغَرَامِ لَنْ تَجِدُوا  
ظَمَانُ غَيْرَ الدَّمُوعِ لَا يَرُدُّ

وقال :

رَبِّ لَيْلٍ قَطَعْتُهُ بِالْجَزِيرِ  
قَصَرَ الْأَنْسُ مَا تَطَاوَلَ مِنْهُ  
فَتَذَكَّرْتُ أَهْلَنَا بِالْجَزِيرِ  
وَكَذَا أَرْمَنُ السَّرُورِ بِسِيرِهِ

قال : والجزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المسمى بالعاصي ،  
والثانية جزيرة الأندلس .

وله أيضاً :

وَمَا لِي وَالتَّزِينَ يَوْمَ عِيدٍ وَجيدُ صِبَابِي بِالدَّمْعِ حَالِي  
وَقَدْ أَرْسَلْتُ أَشْهَبَهَا بِرِيداً وَبَعْدَ كَمِيَّتِهَا يَنْبِي بِحَالِي

والمراد بالأشهب الدمع الذي لا يشوبه شيء ؛ وبالكميّة الدمع المشوب  
بالدم ، قال رحمه الله في شرح البديعية وقد ذكر العقيق بعد كلام ما نصّه :  
قلت : وكان هذا الوادي المبارك زمن عثمان رضي الله تعالى عنه ذا قصور محتفّة ،  
وحداتٍ ملتصقة ، وبنيان مشيد ، ونخل طلعه نضيد ، وجنات تؤتي أكلها كلّ حين ،

وسواقٍ تجري بهِ بماءٍ معين ، ثم لعبت بهِ أيدي السنين ، وغيرت معاله  
 فصار عبرةً للناظرين ، فلم يبق من معاهده إلا آثارٌ تشهد بحسنه ، ونضرة نعيم  
 تدلُّ على ما سلف من نضارة غصنه ؛ وقد خرجنا إلى هذا الوادي أيام مجاورتنا  
 بالمدينة الشريفة ، وهو يتدفق بمائه ، ويعارضُ بجوهرِ حبابه أنجم سمانه ، وقد  
 سألتُ شعباه ، وفاض عُبابه ، والناسُ تفرقوا في جهاته ، وافترشوا غصنَ نباته ،  
 والشَّيخُ قد توشَّحَ بالندى ، والأنسُ قد راح به وغدا ، والأصيلُ مذهبُ الرداء ،  
 والبيداءُ مخضرةُ الأنداء ، وبجافته آثارُ قصور ، ليس لها في الحسنِ قصور ، قد  
 بليتٌ وحسنها جديد ، وخربت وربَّعها بالأنسِ مشيد ؛ انتهى .

ومن بديع نظمه قوله :

مهلاً فما شيم الوفا منقادةً لمنِ ابتنى من نيلها أوطارا  
 رتبُ المعالي لا تنالُ بجيلةٍ يوماً ولو جهد القتي أو طارا

وقوله رحمه الله تعالى :

على وادي العقيق سكبتُ دمعي بلا عينٍ فيبدو كالعقيق  
 فكم غصنٍ وريقٍ منه يُحكى قوامَ رشا شهيةٍ فمِ وريقِ

وقال :

سألتك بالله يا من غدا يصرفُ بالقلبِ أفعاله  
 تداركُ محباً بدرياقِ وصلِ فإنَّ بعادك أفعى له

وقال :

لا تأمننه على القلو بِ فمنه أصلُ غرامها  
 فلحاظه هنَّ التي رمتِ الوري بسهامها

ومن فوائده رحمه الله تعالى في شرح البديعية ما نصه : ومن غريب ما في

« لَدَى » أن أبا علي حكى في تذكرته عن المفضل أنها أتت بمعنى « هل » وأنشد :

لدى من شبابٍ يشتري بمشيب      وكيف شبابُ المرء بعدَ ذهابٍ ؟<sup>١</sup>

رجع - وقال رحمه الله تعالى يتشوق إلى حمراء غرناطة :

ذابت على الحمراء حمراً مدامعي      والقلبُ فيما بين ذلك ذائبُ  
طال المدى بي عنهم ولربما      قد عاد من بعد الإطالة غائبُ

وقال :

ما هبَّ من نحو السبيكةِ بارقُ<sup>٢</sup>      إلا غدا شوقي لقلبي شايكا  
والله ما اخترتُ الفراقَ لربها      لكن قضاء الله أوجب ذلكا

وقال :

منازلُ سلمى إن خلتُ فلطالما      بها عمرتُ في القلبِ مني منازلُ  
رسائلُ شوقي كلَّ يومٍ تزورها      وما ضيَّعتُ عند الكرامِ الرسائلُ<sup>٣</sup>

وقال :

بِجَوْرِ الوداعِ لنا موقفُ      أذاب الفؤادَ لأجلِ الوداعِ  
فَمَا أَنسى غداةَ النوى      وحادي الركائبِ للبينِ داعي

قال : وجور الوداع موضع بظاهر غرناطة ، عادة من سافر أن يودع هناك .

وقال :

ناولته وردةً فاحمرَّ من خجلٍ      وقال : وجهي يُغني عن الزهرِ

١ ق : ذهب .

٢ ق : الرسائل .



الحدُّ وردٌ ، وعيني نرجسٌ ، وعلى خدِّي عذارٌ كريمانِ على نهر  
وقال رحمه الله تعالى في التشريع :

يا راحلاً يبغني زيارة طيبة نلتَ المُنَى بزيارةِ الأخيارِ  
حيّ العقيق إذا وصلت وصف لنا وادي ميني بأطيابِ الأخبارِ  
وإذا وقفت لدى المعرفِ داعياً زالَ العنا وظفرت بالأوطارِ

وقال :

يا أولاً في المرسلين وآخرأ الله خصكَ بالكمالِ ليرضيكُ  
من قبلِ آدم قد جعلتَ نيته قدماً فقدّمك الإلهُ ليعطيكُ  
أوحى إليك لكي تكون حبيبهُ ويتمَّ نعمتهُ عليك ويهديكُ

وقال :

صبرتني في هوكَ اليوم مشتهراً لا قيسُ ليلى ولا غبّيلانُ في الأوّلِ  
زعمتَ أنّ غرامي فيك مكتسبٌ لا والذي خلقَ الإنسانَ من عَجَلِ

وقال :

لا تُعادِ الناسَ في أوطانهم قلّما يُرعى غريبُ الوطنِ  
وإذا ما شئتَ عيشاً بيّنهم «خالقِ الناسَ بخلقِ حسنٍ»

وقال :

نسختي اليوم في المحبةِ أصلٌ فعليتها اعتمادُ كلِّ عميدِ  
نقلُوا مرسلَ المدامعِ منها وصحيحَ الهوى بغيرِ مزيدِ  
قد رواها قبلي جميلٌ وقيسٌ حينَ هاما بكلِّ لحظٍ وجيدِ

ومن فوائده : أنه لما أنشد في « طراز الحلة » قول سعد الدين محمد بن عربي في ابن مالك :

إنَّ الإمامَ جمالَ الدينَ فضَّلَه

« إلى آخره » قال ما ملخصه : ولما أورده الصفدي في « فض الختام » قال : هذا في غاية الحسن لو كان الكتاب المذكور يسمى « الفوائد » وإنما هو « تسهيل الفوائد » فذكر المضاف إليه دون المضاف ، وهي تورية ناقصة ، قلت : ابن مالك له كتابان : أحدهما « الفوائد » صنعه أولاً ثم صنع « تسهيل الفوائد » بعده ، وكأنه سهَّلَ فيه كتابَ الفوائد ، وكنت وقفت على هذا الكتاب المسمّى بالفوائد ببلدنا غرناطة ، فلماً وصلنا إلى هذه البلاد بحثنا عنه فلم نجده ، وتمادى الأمر على ذلك إلى سنة ٧٦٠ ، فوجدناه في حلب ، وهو الآن عندنا ، وهو عزيزُ الوجود ، ولذلك خفيَ على القاضي صلاح الدين ؛ انتهى وبعضه بالمعنى .  
وقال أبو جعفر أحمد المترجم به : كتبت إلى صاحبنا الشيخ بدر الدين خليل الناسخ :

مَدَدْتَ النوى وَقَصَرْتَ اللَّقا  
أترضى بهذا وَأَنْتَ الخليل  
وتترك أحمدَ ذا وحشةٍ  
لديكَ وَأَنْتَ لَهُ ابنٌ جليل

وقال :

قد كان لي أنسٌ بطيب حديثكم  
والآن صار حديثكم برسول  
ولقد مددتُ من النوى مقصوره  
إنَّ الخليلَ يراه غيرَ جميل

وله رحمه الله تعالى :

ما للنوى مُدَّتْ وَأَنْتَ خليلنا  
ولقبيلُ قد قصرت برغم الكاشح  
أتبعَتَ في ذا مذهباً لا يُرْتَضَى  
أبدأً وليس الرأيُ فيه بصالح

وله :

ولما رأى الحسادُ منك التَّفاتَةَ إلى جانبِ اللّهِ الذي كان مرفوضاً  
أضافوا إلى عَنِّيكَ كلَّ نقيصةٍ حقيقَةٍ لدينا بالإضافة مفضوضاً

وله :

حُسْنُكَ ما بينَ الوريِّ شائعٌ قد عُرِفَ الآنَ بلامِ الطلرِ  
فجاءَ مِنْهُ مبتدأٌ للهوى خبَرُهُ الآسُ معَ الجلتارِ  
ولنقتصر على هذا المقدار إلى هنا .

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم الله تعالى :

وقد قلنا أن علي بن لسان الدين كان نديمَ السلطانِ وخاصَّتَه ، كما ذكرنا  
في مخاطبته لابن مرزوق في الباب الخامس قوله : فالسلطانُ يراعاه الله تعالى يوجب  
ما فوق مزيةَ التَّعظيمِ ، والولدُ هداهم الله تعالى قد أخذوا بحظِّ قلٍّ أن يتألوه  
بغير هذا الإقليمِ ، والخاصَّةُ والعامَّةُ تعامل بحسبِ ما بَلَغَتْه من نصيحِ سليمٍ  
وترك لما بالأيدي وتسليمِ ، وتدبير عاد على عدوها بالعذابِ الأليمِ ، إلا مَنْ  
أبدى السلامةَ وهو من إيَّطانِ الحسدِ بحالِ السليمِ ؛ انتهى .  
ولقد صدقَ رحمه الله تعالى فيما ذكره من النصيحِ وغيره .

ومن نصائحه رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان السلطانِ ، ونصّه : « من  
عبد الله أمير المسلمين محمد وصلَّ الله تعالى سعده ، وبلغه من فضله العميم  
قصدَه ، إلى أوليائنا المخصوصين منّا ومن سَلَفنا بذيّامِ الجوارِ القريبِ ،  
والمساكنة التي لا يتطرقُ إلى حقها الذي بني استرايةُ المستريبِ ، المعتمدين إذا  
عدَّتِ الرعايا ، وذكرت المزايا ، بمزيدِ الاعتناء والتقريبِ ، من الأشياخ  
الجلَّةِ الشرفاء والعلماء ، والصُدُورِ الفقهاء ، والعلولِ الأذكيا ، والأعيانِ

الوزراء ، والحُماة المدافعين عن الأرجاء ، والأمناء الثقات الأتقياء ، والكافة الذين نصل إليهم عوائد الاعتناء ، ونسير فيهم بإعانة الله تعالى على السبيل السواء ، من أهلِ حضرتنا غرناطة المحروسة بفضل الله تعالى وربّصها ، شَرَحَ الله تعالى لقبول الحكمة والموعظة الحسنة صُدُورهم ، وكَنَفَ بنتائج الاستقامة سرورهم ، وأصلح بعنايته أمورهم ، واستعمل فيما يرضيهم أميرهم وأمورهم : سلام كريم عليكم أجمعين ورحمة الله تعالى وبركاته .

« أمّا بعد حمد الله الذي إذا رضي عن قوم جعل لهم التقوى لباساً ، والذكرى لبناء المتاب أساساً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي هدانا إلى الفوز العظيم ابتغاء لرحمته والتماساً ، والرضى عن آله الذين اختارهم له ناساً ، وجعلهم مصابيح من بعده اقتداءً واقتباساً ، فلانّا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى إعزازكم وحرس أحوازكم ؛ وجعل للعمل الصالح اهتزازكم ؛ وبقبول النصائح امتيازكم - من مستقرنا بمحروسة الحمراء ، حماها الله سبحانه ، ولا متعرف بفضل الله تعالى إلا هداية تظهر على الأقوال والأعمال ، وعناية تحف من اليمين والشمال ، وتوكل على الله يتكفل لنا ببلوغ الآمال ، وأنتم أولياؤنا الذين لا ندّخر عنهم نصحاً ، ولا نُهمل في تدبيرهم ما يثمر نُجْحاً ، وبحسب هذا الاعتقاد لا نغفل عن نصيحة ترشدكم إذا غفلتم ، وموعظة نقصها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله واختلقتم ، وذبح عنكم تارة بسلم نَعْقِدُها ، ومطاوله نُسَدِّدُها ، وتارة بسيوف في سبيل الله تعالى نحُدِّدُها ، وعمارة للشهادة نرددها ، ونفوس بوعد الله نَعِدُّها ، ونرضى بالسهر لتنام أجفانكم ، وبالكدّ لتتدبّع صبيانكم وولدانكم ، وباقتحام المخاوف ليتصل أمانكم ، ولو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد لجعلنا ، أو أمكننا أن لا تفضلكم رعيةً بصلاح دينٍ أو دنياً لفعلنا ، هذا شغلُ زماننا منذ عرفناه ، ومَرْمَى همتنا مهما استهدفناه ، وقد استرعانا الله تعالى جماعتكم ، وملائنا طاعتكم ، وحرّم علينا إضاعتكم ،

والراعي إذا لم يقصد بسائمته المراعي الطيبة ، ويتتبع مساقط الغمام الصيبة ، ويوردها الماء النмир ، ويتبع لها النماء والثمار ، ويصلح خللها ، ويداوٍ عللها ، قلَّ عَدَدُهَا ، وهدمت غلَّتْهَا وولدها ، فندم على ما ضيعه في أمْسِهِ ، وجنى عليها وعلى نَفْسِهِ .

« وألفيناكم في أيامنا هذه الميامنِ عليكم قد غمرتكم آلاء الله تعالى ونعمه ، وملأت أيديكم مواهبهُ وقِسْمَهُ ، وشغل عدوكم بفتنة قومه فنتمم للعافية فوق مهاد ، وبَعَدَ عهدكم بما تقدم من جهدٍ وجهاد ، ونمصةٍ وسُهاد ، فأشفقنا أن يجركم توالي الرخاء إلى البَطَر ، أو تحملكُم العافيةُ على الغفلة عن الله تعالى وهي أخطرُ الخطر ، أو تجهلوا مواقعَ فضله تعالى وكرمه ، أو تستعينوا على معصيته بنعمه ، فمن عرف الله تعالى في الرخاء وجدته في الشدَّة ، ومن استعد في المهل وجد منفعة العِدَّة ، والعاقلُ من لا يغيرُ في الحرب أو السلم بطول المدة ، فالدهر مُبلي الجِدَّة ، ومستوعب العِدَّة ، والمسلمون إخوانكم اليوم قد شغلوا بأنفسهم عن جبركم ، وسلموا لله في نصركم ، ونشبت الأيدي ولا حول ولا قوَّة إلا بالله بشغركُم ، وأهمتهم فتن تركت رسومَ الجهاد خالية خاوية ، ورياض الكتائب الخضراء ذابلة ذابطة ، فإن لم تشمروا لما بين أيديكم في هذه البرهة فماذا تنتظرون ؟ وإذا لم تستنصروا بالله مولاكم فبمن تستنصرون ؟ وإذا لم تستعدوا في المهل فمتى تستعدون ؟ لقد خسر من رضي في الدنيا والآخرة بالدون ، فلا تأمنوا مكر الله ﴿ فلا يأمنُ مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون ﴾ (الأعراف : ٩٩) .

« ومن المنقول عن الملل ، والمشهور في الأواخر والأول ، أن المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم ، وأظلم ما بينهم وبين ربهم ، وانقطعت عنهم الرحمات ، ووقعت فيهم المثالات والنقمة ، وشحَّت السماء ، وغبض الماء ، واستولت الأعداء ، وانتشر الداء ، وجقَّت الضروع ، وأخلفت الرضوع .

« فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة ، والذكرى التي توظف من السنّة ، ونفرع آذانكم بقوارع الألسنة ، فأفزعوا الشيطان بوَعْيِها ، وتقربوا إلى الله تعالى برَعْيِها ، الصلاة الصلاة فلا تهملوها ، ووظائفها المعروفة فكمّلوها ، فهي الركنُ الوثيق ، والعلم المائل على جادة الطريق ، والخاصة التي يتميز بها هذا الفريق ، وبادروا صفوفها المائلة ، وأتبعوا فريضتها النافلة ، وأشرعوا إلى تاركها أسنة الإنكار ، واغتموا بها نواشيء الليل وبوادي الأسحار ، والزكاة أختها المنسوبة ، ولدتها المكتوبة المحسوبة ، فمن منّعها فقد بخل على مولاه ، باليسير ممّا أولاه ، وما أحقّه بذهاب هبة الوهاب وأولاه ؛ فاشترّوا من الله تعالى كرائم أموالكم بالصدقات ، وأنفقوا في سبيله يربحكم أضعاف النفقات ، وواسوا سؤالكم كلّما نُصبت الموائد ، وأعيدت للترفه العوائد ، وارعوا حق الحوار ، وخذوا على أيدي الدعرة والفجّار ، وأخرجوا الشنآن من الصدور ، واجعلوا صِلّة الأرحام من عزّم الأمور ، وصونوا عن الاغتيال أفواهكم ، ولا تعودوا السفاهة شفاهكم ، وأقرضوا القرض الحسن إلهكم ، وعلموا القرآن صبيانكم ، فهو أسُّ المبنى ، وازرعوه في تراب تراثهم فعسى أن يُجتنى ، ولا تركوا النصيحة لمن استنصح ، وردوا السلام على مَنْ بتحية الإسلام أفصح ، وجاهدوا أهواءكم فهي أولى ما جاهدتم ، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، وثابروا على حلق العلم والتعلّم ، وحضوا بمراقي التكلّم ، وتعلّموا من دينكم ما لا يسعكم عند الله تعالى جهله ، ويتبين أنّكم أهلّه ، فمن القبيح أن يقوم أحدكم على وقاية بُره وشعبيره ، ورعاية شاتيه وبعبيره ، ولا يقوم على شيء يخلص به قاعدة اعتقاده ، ويُعده منجاة ليوم معاده ، والله عزّ وجل يقول ولقوله يرحل المتجعون ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون : ١١٥) .

« واثقفوا من الحوادث الشنيعة ، والبدع التي نفت في عصّد الشريعة ، فقد شنّ علينا الملبسة بأهل التصوف المغار ، ونال حملتها بل جملتها بإغماضهم

الصغار ، وتؤول المعاد والجنة والنار ، وإذا لم يَغُرَّ الرجل على دينه ودين أبيه  
فعلى مَنْ يَغَارُ ، فالأنبياء الكرام وورثتهم العلماء ، هم أئمةُ الاقتداء ،  
والكواكبُ التي عَيَّنَهَا الحقُّ للاهتداء ، فاحذروا معاطبَ هذا الداء ، ودسائس  
هذه الأعداء .

« وأهم ما صرفتم إليه الوجوه ، واستدفعتم به المكروه ، العملُ بأمره جل  
وعلا في الآية المتلوّة- ، والحكمة السافرة المجلوّة ، من ارتباط الخيل وإعداد  
القوّة ، فمن كان ذا سعة في رزقه ، فليقسّم الله بما استطاع من حقه ، وليتخذ  
فرساً يعمر محلته بصهيله ، ويقتنه من أجل الله وفي سبيله ، فكم يتحملُ من  
عيالٍ يلتمسُ مرضاتهنّ باتخاذِ الزينة ، والتنافس في ترف المدينة ، ومؤونة  
الارتباط أقل ، وعلى الهمة والدين أدل ، إلى ما فيه من حماية الحوزة ، وإظهار  
العِزة ، ومن لم يحسن الرمي فليتدرب ، وباتخاذ السلاح إلى الله فليقترب ، وقبل  
الرمي ترأس السهام ، وعلى العباد الاجتهاد وعلى الله التمام .

« والسكّة الجارية في حوادث نواديكم ، وأثمان العروض التي بأيديكم ،  
مَنْ تحيّف حروفها ، ونكّر معروفها ، أو سامح في قبول زيف ، أو مبخوس  
حيف ، فقد اتّبع هواه ، وخان نفسه وسواه ، قال الله عزّ وجل ﴿ أوفُوا الكَيْلَ  
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَلَا تَبْخَسُوا  
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الشراء : ١٨١) ولتعلموا أن  
نبيكم صلوات الله عليه إنّما بعثه الله مجاهداً وبالحق قاضياً ، وعن الهفوات  
حليماً متغاضياً ، فتمسكوا بحبله ، ولا تعدلوا عن سبيله ، يروكم الله تعالى  
من سجّله ، ويُرَاعِيكُمْ من أجله ، مُرَاعَاةَ الرجل لِنَجْلِهِ ، فهو الذي يقول  
﴿ وما كانَ اللهُ ليعذّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وما كانَ اللهُ مُعذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾  
(الأنفال : ٢٢) وإن كان في وطنكم اليوم سعة ، وقد ألحفكم أمن من الله تعالى  
ودعة ، فاحسبوا أنكم في بلد محصور ، وبين لحبي أسدٍ هصُور ، اكتنفكم

بِحَرْ يُعْبُ عُبَابَهُ ، وَدَارَ بِكُمْ سُورٌ يَبْدُ عِدْوَكُمْ بِأَبِهِ ، وَلَا يَدْرِي مَتَى يَتَهَيَّ  
السَّلْمُ ، وَيَنْشَعِبُ الْكَلْتُمُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بِنَاءَ مَرَصُوصًا ، وَتَسْتَشْعَرُوا الصَّبْرَ  
عَمُومًا وَخُصُوصًا ، أَصْبَحَ الْجَنَاحُ مَقْصُوصًا ، وَالرَّأْيُ قَدْ سَلَبَتْهُ الْحَيْرَةُ ، وَالْمَالُ  
وَالْحَرِيمُ قَدْ سَلَبَتْ فِيهِ الضَّنَانَةُ وَالغَيْرَةُ ، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ تَهَبُّ رِيحُ الْحَمِيَّةِ ، وَنُصْرَةُ  
النَّفُوسِ عَلَى الْخَيَالَاتِ الْوَهْمِيَّةِ ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَاللَّهُ مُتِمُّ  
نُورِهِ عَلَى رِغْمِ الْجَاهِلِينَ وَكَرِهَةِ الْكَافِرِينَ ﴿ وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ  
فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

« وَاعْتَقِدُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلِ الظُّهُورَ مَقْرُونًا بِعَدَدِ كَثِيرٍ ، وَلَوْ مِثْلَ جِرَادٍ  
مَزْرَعَةٍ أَثَارَهَا مَثِيرٍ ، بَلْ بِإِخْلَاصٍ لَا يَبْقِي لغيرِ اللَّهِ افْتِقَارًا ، وَنَفُوسٍ تَوْسِعُ مَا  
سِوَى الْحَقِّ اقْتِدَارًا ، وَوَعْدٍ يَصْدُقُ ، وَبَصَائِرَ أَبْصَارِهَا إِلَى مَثَابَةِ الْجَزَاءِ تَحْدَقُ ،  
وَهَذَا الدِّينَ ظَهَرَ مَعَ الْعُرْبَةِ ، وَشَطَفَ التُّرْبَةَ ، فَلَمْ تَرَعُهُ الْأَكَاسِرَةُ وَفِيوَلَهَا ،  
وَالْقِيَاصِرَةَ وَخَبُيُولَهَا ، دِينَ حَنِيفٍ ، وَعِلْمَ مُنِيفٍ ، مِنْ وَجْهِهِ شَطْرَ  
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ تَوَلَّى ، وَآيَاتٍ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ تَتَلَّى ، وَزَكَاتٍ مِنَ الصَّمِيمِ تَنْتَقِي ،  
وَمَعَارِجَ تَرْتَقِي ، وَحِجَّ وَجِهَادٍ ، وَمَوَاسِمَ وَأَعْيَادٍ ، لَيْسَ إِلَّا تَكْبِيرُ شَهِيرٍ ، وَأَذَانَ  
جَهِيرٍ ، وَقُوَّةٌ تَعْدُ ، وَثُغُورٌ تَسُدُّ ، وَفِيءٌ يَقْسَمُ ، وَفَخْرٌ يَرْسُمُ ، وَنُصِيحَةٌ تَهْدِي ،  
وَأَمَانَةٌ تُوَدِّي ، وَصِدْقَةٌ تَخْفِي وَتَبْدِي ، وَصُدُورٌ تَشْرَحُ وَتَشْفِي ، وَخُلُقٌ عَلَى خُلُقِ الْقُرْآنِ  
تَحْدِي وَتَقْفِي ، قُبُضَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَذَا الْعَقْدُ قَدْ سُجِّلَ ،  
وَالْوَعْدُ بِهِ قَدْ عُجِّلَ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ  
نِعْمَتِي ، وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) وَلَا يَنْقَطِعُ لِهَذَا الْفَرْعِ عَادَةٌ  
وَصَلِيهِ ، مَا دَامَ شَبِيهًا بِأَصْلِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ حَلَبٌ لَكُمْ زَبَدْتَهُ الْمَخْوُضَةُ ،  
وَخِلَاصَتَهُ الْمَخْوُضَةُ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ وَتَعَلَّمُنْ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾  
(ص : ٨٨) .

« وَحَضَرَتْكُمْ الْيَوْمَ قَاعِدَةُ الدِّينِ ، وَغَابَ الْمَجَاهِدِينَ ، وَقَدْ اخْتَرَعْتَ بِنَايَا أَيْمَانِنَا  
هَذِهِ وَأَيَّامِنَا وَاللِّدْنَ الْمَقْدَسَ الْآثَارَ الْكِبَارَ ، وَالْحَسَنَاتِ الَّتِي تَنَوَّلْتَ بِهَا الْأَخْبَارَ ،



وأغفلت إلى زمنكم الحسنة المذخورة ، والمنقبة المبرورة ، وهي بيمارستان يقيم منكم المرضى المطرحين ، والضعفاء المغترين منهم والمعرضين في كل حين ، فأنتم تطؤونهم بالأقدام ، على مرّ الأيام ، ينظرون إليكم بالعيون الكليّة ، ويعربون عن الأحوال الذليلة ، وضرورتهم غير خافية ، وما أنتم بأولى منهم بالعافية ، والمجانين تكثّر منهم الوقائع ، وتنفش منهم إمانة العهد الذائع ، عار تحظره الشرائع ، وفي مثله تُسدّد الذرائع .

« وقد فضلتم أهل مصر وبغداد ، بالرباط الدائم والجهاد ، فلا أقل من المساواة في معنى ، والمنافسة في مَبْتَى ، يذهب عنكم لؤم الحوار ، ويزيل عن وجوهكم سيمات العار ، ويدل على همتكم ، وفضل شيمتكم ، أهل الأقطار ، وكم نفقة هانت على الرجل في مشروع ، وحرص اعتراه على ممنوع ، فأسرعوا فالنظر في هذا المهم خير مشروع ، ولولا اهتمامنا بمرتزة ديوانكم ، وإعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم ، لسبقناكم إلى هذه الزلّفة ، وقمنا في هذا العمل الصالح بتحمّل الكلفة ، ومع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنة بينائه ، وأسهمناكم في فريضة أجره وثنائه ، فنحن إن شاء الله تعالى نعيّن له الأوقاف التي تجري عنها المرفقة ، وتتصل عليه بها الصدقة ، تأصيلاً لفخركم ، وإطابة في البلاد لذكركم ، فليشاور أحدكم هيمته ودينه ، ويستخدم يساره في طاعة القصد الكريم ويمينه ، ونسأل الله تعالى أن يوفق كلاً لهذا القصد ويعينه ، ومن وراء هذه النصائح عزم ينهيا إلى غايتها ، ويجبر الكافة على اتباع رأيها ورأيها ، فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول ، وتلقوا داعي الله تعالى فيها بالقبول ، والدنيا مزرعة الآخرة ، وكم معتبر للنفوس الساخرة ، بالعظام الناخرة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (فاطر: هـ) وأنتم اليوم أحقّ الناس بقبول الموعدة نفوساً زكية ، وفهُوماً لا قاصرة ولا بطيّة ، وموطن جهاد ، ومستسقى غمام

من رحمة الله تعالى وعياده ، وبقايا السلف بالأرض التي فتحوا فيها هذا الوطن ،  
وألقوا فيها العطن ، فإلى أين يذهب حسن الظن بأديانكم ، وصحة إيمانكم ،  
وتساوي أسراركم وإعلانكم ؟

« اللهم إنا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحملة ، وبلغناهم نصيحتك  
المكلمة ، ووعدناهم مع الامتثال رحمتك المؤلمة ، فيسّرنا وإياهم لليسرى ،  
وعرفنا لطافتك التي خفي فيها المسرى ، ولا تجعلنا ممن صمّ عن النداء ،  
وأصبح شماتة الأعداء ، فما ذلّ من استنصر بجنابك ، ولا ضلّ من استبصر  
بسنتك وكتابك ، ولا انقطع منّ توصل بأسبابك ، والله سبحانه يصلّ لكم  
عوائد الصنع الجميل ، ويحملكم وإيانا من التوفيق على أوضح سبيل ، ويصل  
سعدكم ، ويحرسُ مجدكم ، والسلام الكريمُ يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته .  
انتهى .

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان السلطان بعد كلام :

« الله في الهمم فقد خمدت ریحها ، والله الله في العقائد فقد خفيت  
مصاييحها ، والله الله في الرجولية فقد فلّ حدّها ، والله الله في الغيرة فقد  
تعرّ جدّها ، والله الله في الدين فقد طمع الكفر في تحويله ، والله الله في الحریم  
فقد مدّ إلى استرقاقه يد تأميلة ، والله الله في الملة التي يريد إطفاء ستاها ، وقد  
كل فضلها وتناهى ، والله الله في الحریم ، والله الله في الدين الكريم ، والله الله  
في القرآن ، والله الله في الجيران ، والله الله في الطارف والتالد ، والله الله في الوطن  
الذي توارثه الولد عن الوالد ، اليوم تستأسد النفوس المهينة ، اليوم يستنصر  
الصبر والسكينة ، اليوم ترعى هذه المساجد الكرام الذّمم ، اليوم يسلك سبيل  
العزم والحزم والشدة والشّمم<sup>١</sup> ، اليوم يرجع إلى الله المصرون ، اليوم يفیق من  
نوم الغفلة المغترون ، قبل أن يتفاقم الهول ، ويحق القول ، ويُسد الباب ، ويحيق

١ اليوم . . . والشّم : سقطت من ق .

العذاب ، ويسترق الكفر الرقاب ، فالنساء تقي بأنفسهن أولادهن الصغار ،  
والطيور ترفرف لتحمي الأوكار ، إذا أحست العيث<sup>١</sup> بأفراخها والإضرار ،  
تمر الأيام عليكم مرّ السحاب ، وذهابُ الليالي لكم ذهاب ، فلا خبر يفضي  
إلى العين ، ولا حديث في الله تعالى يُسمع بين اثنين ، ولا كد إلا لزينة يُحلتى  
بها نحرٌ وجيد ، ولا سعي إلا لمتاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد ، وبالأمس  
نُدبْتُم إلى التماس رُحْمَى مسخَّرِ السحاب ، واستقالة كاشف العذاب ، وسؤال  
مرسل الديمة ، وعجبي البشر والبهيمة ، وقد أمسكت عليكم رحمة السماء ،  
وأغبرت جوانبكم المخضرة احتياجاً إلى بلالة الماء ﴿ وفي السماء رزقكم وما  
توعدون ﴾ (الذاريات : ٢٢) وإليها الأكف تمدون ، وأبوابها بالدعاء تقصدون ،  
فلم يُصْحِرْ منكم عدد معتبر ، ولا ظهر للإنابة ولا الصدقة خبر ، وتثوقل عن  
إعادة الرغبة إلى الولي الحميد ، والغني الذي ﴿ إنَّ يَسْأَلُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ  
جَدِيدٍ ﴾ (إبراهيم : ١٩) وإيم الله لو كان هوأ لارتقت الساعات ، وضافت  
المسعات ، وتزاحمت على أنديته الجماعات .

« أتعزأ على الله وهو القوي العزيز ؟ أتليسا على الله وهو الذي يميز الخبيث  
من الطيب والشبه من الإبريز ؟ أمعاندة والنواصي في يديه ؟ أغروراً بالأمل  
والرجوع بعدُ إليه ؟ مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من ينزل الرزق ويفيده ؟ مَنْ  
يُرجعُ إليه في الملمات ؟ مَنْ يُرجى في الشدائد والأزمات ؟ من يوجد في المحيا  
والممات ؟ أفي الله شك يخلج القلوب ؟ أثمَّ غير الله يدفع المكروه ويسر  
المطلوب ؟ تفضلون على اللجل إليه<sup>٢</sup> عوائد الفضل ، ونزه الجهل ، وطائفة منكم  
قد برزت إلى استسقاء رحمته تمد إليه الأيدي والرقاب ، وتستكشف بالخضوع  
لعظمته العقاب ، وتستعجل إلى مواعيد إجابته الارتقاب ، وكأنتكم عن كرمه

١ ق : العياث .

٢ ق : الحالة .

قد استغنيتم ، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم .  
« أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله عليه من التبليغ باليسير ، والاستعداد للرحيل إلى دار الحق والمسير ، ومداومة الجوع ، وهجر الهجوع ، والعمل على الإياب إلى الله تعالى والرجوع : دخلت فاطمة رضي الله تعالى عنها ويدها كسرة شعير فقال : ما هذا يا فاطمة ؟ فقالت : يا رسول الله خبزت قرصة وأحببت أن تأكل منها ، فقال : يا فاطمة أما إنته أول طعام دخل جوف أهلك منذ ثلاث . وكان صلى الله عليه وسلم يستغفر في اليوم سبعين مرة يلتمس رحماه ، ويقوم وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حتى ورمت قدماه ، وكان شأنه الجهاد ، ودأبه الجِد والاجتهاد ، ومواقف صبره تعرفها الربى والرواد ، ومقامات رفقته تحوم على مراتبها الزهاد ، فإذا لم تقنّدوا به فبمن تقنّدون ؟ وإذا لم تهتدوا به فبمن تهتدون ؟ وإذا لم ترغبوا في الانتصاف بصفاته غضباً لله تعالى وجهاداً ، وتقللاً من العرَض الأذنى وسهاداً ، فقيم ترغبون ؟

« فابتروا حبال الآمال فكل آت قريب ، واعتبروا بمثلات من تقدّم من أهل البلاد والقواعد فذهولكم عنها غريب ، وتفكروا في منابرها التي يعلو عليها واعظ وخطيب ، ومطيل ومطيب ، ومساجدها المتعددة الصفوف والجماعة ، المعمورة بأنواع الطاعة ، وكيف أخذ الله تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم ، وعاقب الجمهور بما أغضوا عنه عيونهم ، وساءت بالغفلة عن الله تعالى عقبى جميعهم ، وذهبت النجمات بعاصيهم ومن داهن في أمره من مطيعهم ، وأصبحت مساجدهم مناصب للصليان ، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان ، هذا والناس ناس والزمان زمان .

« فما هذه الغفلة عنم إليه الرجعى وإليه المصير ؟ وإلى متى التساهل في حقوقه

وهو السميع البصير ؟ وحتى متى مد الأمل في الزمن القصير ؟ وإلى متى نسيان اللجج إلى الولي النصير ؟ قد تداعت الصلبان مجلبة عليكم ، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم ، أفيخذلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم ؟ وألسنة الآيات تنادىكم ، لم تمتح سطورها ، ولا احتجب نورها ، وأنتم بقايا من فتحها من عدد قليل ، وصابر فيها كل خطب جليل ، فوالله لو تمحض الإيمان ، ورضي الرحمن ، ما ظهر التلث في هذه الجزيرة على التوحيد ، ولا عدم الإسلام فيها عادة التأيد ، لكن شمل الداء ، وصم النداء ، وعميت الأبصار فكيف الاهتداء ؟ والباب مفتوح ، والفضل ممنوح ، فتعالوا نستغفر الله جميعاً فهو الغفور الرحيم ، ونستقل مقيل العثار فهو الرؤوف الحليم ، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم ، سُدت الأبواب ، وضعفت الأسباب ، وانقطعت الآمال إلا منك يا فتاح يا وهّاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم ﴾ (محمد : ٧) ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران : ١٣٩) ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) أعدوا الخيل واربطوها ، وروضوا النفوس على الشهادة وغبطوها ، فمن خاف الموت رضي بالدنية ، ولا بد على كل حال من الميتة ، والحياة مع الذل ليست من شيم النفوس السنية ، واقتنوا السلاح والعدة ، وتعرفوا إلى الله تعالى في الرخاء يعرفكم في الشدة ، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم ، واستميتوا من دون أبنائكم ، وكونوا كالبناء المرصوص لحمات هذا العدو النازل بفنائكم ، وحوطوا بالتعويل على الله تعالى وحده بلادكم ، واشتروا من الله جل جلاله أولادكم . ذكروا أن امرأة

١ ق : مجابة ؛ التجارية : متراكمة .

احتمل السبع ولدها وشكت إلى بعض الصالحين ، فأشار عليها بالصدقة ،  
فصدقت برغيف ، فأطلق السبع ولدها ، وسمعت النداء : يا هذه لقمه بلقمه ،  
وإنما استودعناه لحافظون .

« واهجروا الشهوات ، واستدركوا البقية من بعد الفوات ، وأفضلوا المساكينكم  
من الأقوات ، واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات ، وخذوا نفوسكم بالصبر  
على الأزمات ، والمواساة في المهمات ، وأيقظوا جفونكم من السّنات ، واعلموا  
أنكم رضعاء ندي كلمة التوحيد ، وجيران البلد الغريب والدين الوحيد ، وحزب  
التمحيص ، ونفخ المَرَام العويص ، فتفقدوا معاملاتكم مع الله تعالى ، ومهما  
رأيتم الصدق غالباً ، والقلب للمولى الكريم مراقباً ، وشهاب اليقين ثاقباً ، فثقوا  
بعناية الله التي لا يغلبكم معها غالب ، ولا ينالكم لأجلها عدو مطالب ، فإنكم  
في السر الكثيف ، وكنف الخبير اللطيف ، ومهما رأيتم الخواطر متبددة ،  
والظنون في الله مترددة ، والجهاث التي تخاف وترجى متعددة ، والغفلة عن  
الله ملامسها متجددة ، وعادة دواعي الخذلان دائمة ، وأسواق الشهوات قائمة ،  
فاعلموا أن الله تعالى منفذ فيكم وعده ووعيده في الأمم الغافلين ، وأنكم قد  
ظلمتم أنفسكم ولا عدوان إلا على الظالمين ، والتوبة ترد الشارد<sup>٢</sup> إلى الله تعالى  
والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وهو القائل ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات  
ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ (هود : ١١٤) .

« وما أقرب صلاح الأحوال مع الله تعالى إذا صحّت العزائم ، وتوالت على  
حزب الشيطان الهزائم ، وخملت الدنيا الغربية في العيون ، وصدقت فيها عند الله  
الظنون ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تفرّثكم الحياة الدنيا ولا  
يفرّثكم بالله الغرور ﴾ (فاطر : هـ) وثوبوا سراعاً إلى طهارة الثوب ، وإزالة

١ ق : وعظة .

٢ ق : السارح .

الشُّوب ، واقصدوا أبواب غافر الذنب وقابل التوب ، واعلموا أن سوء الأدب مع الله تعالى يفتح أبواب الشدائد ، ويسد طرق العوائد ، فلا تطلوا بالتوبة أزمانكم ، ولا تأمنوا مكر الله فتغنشوا إيمانكم ، ولا تعلقوا متابكم بالضرائر ، فهو علام السرائر ، وإنما علينا أن ننضحكم وإن كنا أولى بالنصيحة ، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة ، الصادرة - علم الله تعالى - عن صدق القريحة ، وإن شاركناكم في الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار ، وإنما لكم لدينا نفس مبدولة في جهاد الكفار ، وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التي لا ترضى بالفرار ، واجتهاد فيما يعود بالحسن وعقبى الدار ، والاختيار لله ولي الاختيار ، ومصرف الأقدار ، وها نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العدو ونفدي بنفوسنا البلاد والعباد ، والحريم المستضعف والأولاد ، ونصلى من دونهم نار الجلال ، ونستوهب منكم الدعاء لمن وعد بإجابته ، فإنه يقبل من صرف إليه وجه إجابته ، اللهم كن لنا في هذا الاهتمام نصيراً ، وعلى أعدائك ظهيراً ، ومن انتقام عبدة الأوثان كفيلاً ، اللهم قو من ضعفت حيلته فأنت القوي المعين ، وانصر من لا نصير له إلا أنت فيناك نعبد وإياك نستعين ، اللهم ثبت أقدامنا وانصرنا عند تزلزل الأقدام ، ولا تسلمنا عند لقاء عدو الإسلام ، فقد ألقينا إليك يد الاستسلام ، اللهم دافع بملأكتك المسومين ، اللهم اجعلنا على تيقظ وتذكر من ﴿ قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ (آل عمران: ١٧٢) .

وقد وردت علينا المخاطبات من إخواننا المسلمين الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهادهم ، وشكرنا في ذات الله تعالى جهادهم ، بني مرين أولي الامتعاض لله تعالى والحمية ، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية ، بعزمهم على الامتعاض لحق الجوار ، والمصارحة التي تليق بالأخرار ، والنفرة

لانهتك ذِمار نبيهم المختار ، وحركة سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار ، ومدافعة  
أحزاب الشيطان وأهل النار ، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم  
الآثار ، والسعي الضمين للجزء والأجر والفخار ، والسلام الكريم يخصكم أيها  
الأولياء ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

ومما كتبه ابنُ لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان سلطانه الغني بالله تعالى  
والنظر إليهم بعين الشفقة ما صورته :

« هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق الله تعالى شارحاً للصدور ، مصلحاً  
بإعانة الله تعالى للأُمور ، مُلحفاً العدل<sup>١</sup> والإحسان الخاصة والجمهور ، يعلم  
من يسمعه أو يقف عليه ، ومن يقرؤه ويتدبر<sup>٢</sup> ما لديه ، ما عاهدنا الله تعالى  
عليه من تأمين النفوس وحقن الدماء ، والسير في التجاني عنها على السنن السواء ،  
ورفع التناوب عن البعيد منها والقريب ، والمساواة<sup>٣</sup> في العفو والغفران بين  
البريء منها والمريب ، وحمل من ينظر بعين العداوة في باطن الأمر محمّل  
الحبيب ، وترك ما يتوجه بأمر المطالبات ، ورفض التبعات ، مما لا يعارض  
حكماً شرعياً ، ولا يناقض سنناً في الدين مرعياً ، فمن كان رهن تبعه أو طريد  
تُهْمَه ، أو منبوذاً في الطاعة برية توجب أن نريق دمه<sup>٤</sup> ، فقد سحبتنا عليه  
ظلال الأمان وألحفناه أثواب العفو والغفران ، ووعدناه من نفسنا مواعد الرفق  
والإحسان ، حكماً عاماً ، وعفواً تاماً ، فاشياً في جميع الطبقات ، منسحباً على  
الأصناف المختلفة ، عاملنا في ذلك من يتقبل الأعمال ، ولا يضيع السؤال ،  
واستغفرنا عن نفسنا وعن أخطأ علينا من رعبتنا ممن يدرأ الشرع غلظته ،

١ ق : ملحفاً جناح الله للعدل .

٢ ق : ويبيي .

٣ ق : والمساواة منها .

٤ ق : منبوذاً .

٥ توجب . . . دمه : سقطت من ق .



وَيَقْبَلُ الْحَقَّ فَيَأْتَهُ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (النساء : ١١٠) لما رأينا من وجوب اتفاق الأهواء والضمائر ، وخلص القلوب والسرائر ، في هذا الوطن الذي أحاط به العدو والبحر ، ومسه بتقدم الفتنة الضر ، وصلة لما أجراه الله تعالى على أيدينا ، وهياه بنا في نادينا ، فلم يخف ما سكن بنا من نار الفتنة ، ورفع من بأس وإحنة ، وكشف من ظلمة ، وسدك من نعمة ، وأصفى من مورد عافية ، وأولى من عصمة كافية ، بعدما تخربت الثغور ، وفسدت الأمور ، واهتضم الدين ، واشتد على العباد ككذب الكافرين المعتدين ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ (يوسف : ٣٨) فله الحمد دائماً ، والشكر واجباً ، ومن الله نسأل أن يتم نعمته علينا كما أتمها على أبويننا من قبل إن ربك حكيم عليم .

« ونحن قد شرعنا في تعيين من ينوب عنا من أهل العلم والعدالة ، والدين والحلالة ، للتطوف في البلاد الأندلسية ، ومباشرة الأمور بالبلاد النصرية ، ينهون إلينا ما يستطلعونه ، ويبلغون من المصالح ما يعرفونه ، ويقيدون ما تحتاج إليه الثغور ، وتستوجه المصلحة الجهادية من الأمور ، ونحن نستعين بفضلاء رعيتنا وخيارهم ، والمراقبين الله تعالى منهم في إيرادهم وإصدارهم ، على إنهاء ما يخفى عنا من ظلامه تقع ، أو حادث يبتدع ، ومن اتخذت بجواره خمر فاشية ، أو نشأت في جهته للمنكر ناشية ، فنحن نقلده العهد ، ونطوقه القلادة ، ووراء تنبيهنا على ما خفي من الشكر لمن أهداه ، وإحماد سعي من أبلغه وأداه ، ما نرجو ثواب الله تعالى عليه ، والتقرب به إليه ، فمن أهدى لنا شيئاً من ذلك فهو شريك في أجره ، ومقاسم في مثوبته يوم ربح تجره ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » انتهى .

[ وصية لسان الدين لابنائه ]

وإذ أجرنا طرف القلم ملء عنانه فيما لسان الدين رحمه الله تعالى من

النصائح والمواعظ والوصايا ، وما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا ، كلٌّ دون شأوه ، وقصر عن أمده مديدُ خطّوه ، وقد تقدم في هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة ، فلتراجع في محالها المتكاثرة ، وقد آن أن نسرّد في هذا المحل الوصية التي أوصى لسانُ الدين رحمه الله تعالى بها أولاده ، وهي وصية جامعة نافعة ، يحصل بها انتعاش ، لاشتمالها على ما لا بد منه في المعاد والمعاش ، ونصّها<sup>١</sup> :

الحمد لله الذي لا يروعه الحِمام المرقوب ، إذا شيم نجمة المنقوب ، ولا يبغته الأجل المكتوب ، ولا يفجؤه الفراق المعتوب ، ملثم الهدى الذي تظمن به القلوب ، وموضح السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب ، لا سيما للولي المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضرَ يعقوب ﴾ (البقرة : ١٣٢) ﴿ ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوب ﴾ (البقرة : ١٣٢) والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زرت على نوره جيوبُ الغيوب ، وأشرف من خلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تفتححه العيون ولا تصممه العيوب ، والرضى عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب ، والأمل المسلوب ، والافتداء الموصل للمرغوب ، والعز والأمن من اللغوب .

وبعد ، فإنني لما علاني المشيب بقمته ، وقادني الكبر في رمته<sup>٢</sup> ، وادكرت الشباب بعد أمته<sup>٣</sup> ، أسفت لما أضعت ، وندمت بعد الفطام على ما رضعت ، وتأكدت وجوب نصحي لمن لزمني رعيتُه ، وتعلقت بعيني<sup>٤</sup> سعيتُه ، وأمّلت أن

١ قارن نص هذه الوصية بما ورد في أزهار الرياض ١ : ٣٢٠ .

٢ ق : برمه ، والتصويب عن الأزهار .

٣ ق : بهمه .

٤ الأزهار : بسمي .

تعدى إلى ثمرة<sup>١</sup> استقامته وأنا رهين قَوَات ، وفي برزخ أموات ، ويأمن العثور  
 في الطريق التي اقتضت عثاري ، إن سلك - وعسى أن لا يكون ذلك - على  
 آثاري ، فقلت أحاطب الثلاثة الولد ، وثمرات الخلد ، بعد الضراعة إلى الله تعالى  
 في توفيقهم ، وإيضاح طريقهم ، وجمع تفريقهم ، وأن يمن عليّ منهم بحسن  
 الخلف ، والتلافي من قبل التلف ، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف ،  
 فهو ولي ذلك ، والهادي إلى خير المسالك :

اعلموا هذاكم الله تعالى الذي بأنواره تهدي الضلّال ، وبرضاه تُرفع  
 الأغلال ، وبالتماس قربه يحصل الكمال ، إذا ذهب المال ، وأخلفت الآمال ،  
 وتبرأت من يمينها الشمال - أني مُودعكم وإن سألني الردي ، ومفارقكم وإن  
 طال المدى ، وما عدا ممّا بدا ، فكيف وأدوات السفر تجمع ، ومناذي الرحيل  
 يسمع ، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر ، وعجالة مقتصر ، ورتيمة<sup>٢</sup>  
 تُعقد في خنصر ، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر ، تتكفل لكم بحسن العواقب  
 من بعدي ، وتوضح لكم من الشفقة والحنو قصدي ، حسبما تضمن وعد الله  
 من قبل وعدي ، فهي أربكم الذي لا يتغير وقفه ، ولا ينالكم المكروه ما رفاً  
 عليكم سقفه ، وكأني بشبابكم قد شاخ ، وبراحلكم قد أناخ ، وبتناشطكم قد  
 كسل ، واستبدل الصاب من العسل ، ونصول الشيب تروع بأسل ، لا بل  
 السام<sup>٣</sup> من كل حذب قد تسل ، والمعاد للحد ولا تسل ، فبالأمس كنتم فراخ  
 حجر ، واليوم أبناء<sup>٤</sup> عسكر مجر ، وغداً شيوخ مضبعة وهجر ، والقبور  
 فاعرة ، والنفوس عن المألوفات صاعرة ، والدنيا بأهلها ساخرة ، والأولى تعقبها

- ١ الأزهار : ثمرات .  
 ٢ الرتيمة : الخيط الذي يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة .  
 ٣ السام - بتخفيف الميم - : الموت .  
 ٤ الأزهار : آباء .

الآخرة ، والحازم من لم يُتَعَطَّ به في أمر ، وقال : بيدي لا بيد عمرو ،  
فاقتنوها من وصية ، ومرّام في النصح قصية ، وخصّوا بها أولادكم إذا عقلوا ،  
ليجدوا زادها إذا انتقلوا ، وحسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملاً ، ولكن  
ليلوهم أيهم أحسن عملاً ، ولا رضي الدنيا مثزلاً ، ولا لطف بمن أصبح عن  
فئة الخير منزلاً .

ولتلقنوا تلقيناً ، وتعلموا علماً يقيناً ، أنكم لن تجدوا بعد أن أفرد بذني ،  
ويفرش التراب جنبي ، ويسح انسكابي ، وتهول عن المصلّي ركابي ، أحرص  
مني على سعادة إليكم تُجَلِّب ، أو غاية كمال بسبيكم تُرْتَاد وتُطَلِّب ،  
حتى لا يكون في الدين والدنيا أَوْزَفَ منكم ظلاً ، ولا أشرف محلاً ، ولا أغبط  
نهلاً وعلاً ، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصبخوا إلى قولي الآذان ،  
وتستلمحوا صُبْحَ نصحي فقد بان ، وسأعيد عليكم وصية لقمان : أعوذ بالله  
من الشيطان الرجيم ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ  
بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ، يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَنْهَ  
عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ،  
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إِنَّ  
أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان : ١٣ - ١٩) وأعيد وصية خليل الله  
وإسراييله ، حكم ما تضمنه حكم تنزيله ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ  
فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) والدين الذي ارتضاه واصطفاه ،  
وأكله ووفّاه ، وقرره مصطفاه ، من قبل أن يتوفّاه ، إذا أعمل فيه انتقاد ، فهو  
عمل واعتقاد ، وكلاهما مقرر ، ومستمد من عقل أو نقل محرر ، والعقل متقدم ،  
وبناؤه مع رفض أخيه متهدم ، فالله واحد أحد ، فردٌ صمد ، ليس له والد ولا ولد ،

١ قوله قالتها الزباء حين انتحرت وأبت أن تستسلم لعمرو بن عدي .

تنزه عن الزمان والمكان ، وسبق وجوده وجود الأكوان ، خالق الخلق وما يعملون ، الذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون ، الحي العليم المدبّر القدير ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١) أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس<sup>١</sup> إلى النجاة من الشقاء ، وتوجه الحجة في مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ، ثم ختم ديوانهم بنبي ملتقنا المرعية الحمل<sup>٢</sup> ، الشاهدة على الملل ، فتلخصت الطاعة ، وتعيّنت<sup>٣</sup> الإمرة المطاعة ، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة ، ثم إن الله تعالى قبضه إذ كان بشراً ، وترك دينه يضم من الأمة نشرأ ، فمن تبعه لحق به ، ومن تركه تورط<sup>٤</sup> عنه في منتشبهه ، وكانت نجاته على قدر سببه ، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدي : كتاب الله ، وسنتي ، فعضوا عليهما بالنواجذ »<sup>٥</sup>.

فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد ، ومشفق شفقة والد ، واستشعروا حبه الذي توفرت دواعيه ، وعوّا مرآشد هديه فيا فوز واعيه ، وصلّوا السبب بسببه ، وآمنوا بكل ما جاء به جملاً<sup>٦</sup> أو مفصلاً<sup>٦</sup> على حسبه ، وأوجبوا التجارة لصحبه الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وفضلوا منهم أولي الفضل الشهير ، وتبرأوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داع ، ولا تع التشاجر بينهم أذن<sup>٧</sup> واع ، فهو عنوان

١ الأزهار : المباد .

٢ الأزهار : المرعية للهمل .

٣ الأزهار : وتبينت .

٤ ق والتجارية : نوط .

٥ هو من حديث الرياض بن سارية السلمي الصحابي عن الرسول ؛ وعضوا عليهما بالنواجذ أي تمسكوا بهما كما يتمسك العاص بجميع أضراره ، وروي الحديث « فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين عضوا عليها بالنواجذ » (أسد الغابة ٣ : ٣٩٩) .

٦ أو مفصلاً : سقطت من ق والأزهار .

السداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة ، وأتمتها الجيلة ، فهم صقالة نصولهم ، وفروع ناشئة من أصولهم ، وورثتهم وورثة رسولهم .

واعلموا أنني قطعت في البحث زماني ، وجعلت النظر شاني ، منذ برآني الله تعالى وأنشاني ، مع نبل يعترف به الشاني ، وإدراك يسلمه العقل الإنساني ، فلم أجد خابط ورق ، ولا مصيب عرق ، ولا نازع حطام ، ولا متكلف فطام ، ولا مقتحم بحر طام ، إلا وغايته التي يقصدها قد فضلتها<sup>١</sup> الشريعة وسبقتها ، وفرعت نيتها وارقتها ، فعليكم بالترام جادتها السابلة ، ومصاحبة رقتها الكاملة<sup>٢</sup> ، والاهتداء بأقمارها غير الآفة ، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) وقد علت شرائعه ، وراع الشكوك رائعه ، فلا تستر لكم الدنيا عن الدين ، وابدلوا دونه النفوس فعل المهتدين ، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الأبد ، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدنيا أحسن ما ورث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلغت فأنت خير الشاهدين .

فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعي شوه الوجوه ونضج الخلود ، واستعينوا برضى الله من سخظه ، وارباباً بنفوسكم عن غمظه ، وارفعوا آمالكم عن القنوع بفرور قد خدع أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل اتلافكم ، واقنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسوا على ما فات وتعلمر ، فإنما هي دجنة ينسخها الصباح ، وصفقة يتعاقبها<sup>٣</sup> الخسار والرباح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها ، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها .

١ الأزهار و ق : فضلتها ؛ ونضلتها : سبقتها وبذتها في الرمي .

٢ الأزهار : الكافلة .

٣ الأزهار : يتعقبها .

واعلموا أن الإحلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤه عمل ، وكل ما سوى  
 الراعي همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت <sup>١</sup> أمل ، وتمسكوا بكتاب  
 الله تعالى حفظاً وتلاوة ، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في  
 آياته ومعانيه ، وامثلوا أوامره ونواهيه ، ولا تتألولوه ولا تغلوا فيه ، وأشربوا  
 قلوبكم حب من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر  
 الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التي بيني عليها الإسلام حتى لا ينخرم .  
 الله في الصلاة ذريعة التجارة ، وخاصة الملة ، وحاقنة الدم ، وغنى المستأجر  
 المستخدم ، وأم العبادة ، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة ، والناحية عن  
 الفحشاء والمنكر وإن <sup>٢</sup> عرض الشيطان عرضهما ، ووطأ للنفس الأمارة سماءهما  
 وأرضهما ، والوسيلة إلى بل الجوانح ببرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى مريض  
 الفكر ، وضامنة <sup>٣</sup> حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسألة من الفجار ، والواسمة  
 بسمة السلامة ، والشاهدة للبعد <sup>٤</sup> برفع الملامة ، وغاسول الطبع إذا شانه طبع ،  
 والخير الذي كل ما سواه له تبع <sup>٥</sup> ، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة ،  
 فالخير عادة ، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية ، وتؤثروا على العلية الدنية <sup>٦</sup> ،  
 فإن أوقاتها <sup>٧</sup> المعينة بالانقلاط تنبئ <sup>٨</sup> ، والفلك بها من أجلكم لا يحبس ، وإذا  
 قورنت <sup>٩</sup> بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يغيره الغدو ولا الأصيل ،

١ الميت : سقطت من الأزهار .

٢ الأزهار : مها .

٣ الأزهار : وضابطة .

٤ الأزهار : للعقد .

٥ الأزهار : كل خير له تبع .

٦ وتؤثروا . . . الدنية : سقطت من ق وأصل الأزهار .

٧ ق : فأوقاتها .

٨ تنبئ : تسرع .

٩ الأزهار : قرنت .

والوظائف بعد أدائها لا تفوت ، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت ، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتوها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ، فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمراعاة استحققت<sup>١</sup> الكمال ، ولا شكر مع الإهمال ، ولا ربح مع إضاعة رأس المال<sup>٢</sup> ، وذلك أخرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل ، وشرط لمشروطها محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ، والحجول والغرر فأطيلوها ، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف برئاسه . واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقل ، وكان في درج الرجولية ذا انتقال ، واستقاض صدأه بصقال ، وإن تراخى فهقر الباع ، وسرقتة الطباع ، وكان لما سواها أضيع فشمّل الضياع .

والزكاة أختها الحبيبة ، ولدتها القربة ، مفتاح السماحة بالعرض الزائل ، وشكران المستول على الضد من درجة السائل ، وحق الله تعالى في مال من أغناه ، لمن أجهده في المعاش وعنتاه ، من غير استحقاق ملاً يده وأخلى يد أخيه ، ولا علة إلا القدر الذي يخفيه ، وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه . فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها ، في اختيار عرضها ونتاجها ، واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل ، وخالفوا الشيطان كلما عدل ، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرون أين تسلكون ، فوهب وأقدر ، وأورد بفضله وأصدر ، ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل ،

١ الأزهار : استحق .

٢ زاد في الأزهار : وثابروا عليها في الجماعات ، وبيوت الطاعات ، فهو أرفع للام ، وأظهر شرائع الإسلام وأبر بإقامة . . . إلخ .



فابتغوا إليه الوسيلة بماله ، واغتنموا رضاه ببعض نواله .  
وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زُلْفَى ، المحووضة لمن يعلم السر  
وأخفى ، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام ببر القيام ، والاجتهاد ،  
وإيثار التهجد<sup>١</sup> على المهاد ، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية ، ولواحقه  
الشرعية ، فبذلك تحسن الوجوه ، وتحصل من الرقة على ما ترجوه ، وتذهب  
قسوة الطباع ، ويمتدّ في ميدان الوسائل الباع .  
والحج - مع الاستطاعة - الركن الواجب ، والفرص على العين لا يحجبه  
الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما قرّض عن ربه  
وسنّه ، وقال ليس لهُ جزاء عند الله إلاّ الجنة .  
ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوّة عليه ، وغنى  
لديه ، فكونوا ممّن يسمع نفيده ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه .  
هذه عمد الإسلام وفروضه ، ونقود مهرة وعروضه ، فحافظوا عليها تعيشوا  
مبرورين ، وعلى من يناويكم ظاهرين ، وتلقوا الله لا مُبَدّلين ولا مُغَيّرين ،  
ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .  
واعلموا أن بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلي محاسنها من بعد  
الانتقاب ، فعليكم بالعلم النافع ، دليلاً بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا  
الباب ، والموصل إلى اللّباب ، والله عزّ وجلّ يقول ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ  
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٩)  
والعلم وسيلة النفوس الشريفة ، إلى المطالب المنيفة ، وشرطه الحشية لله تعالى  
والخيفة ، وخاصة الملاء الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تُتلى ، والسييل في  
الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى التجلّة عادة ، والدخر الذي قليله ينفع ،

وكثيره يشفع<sup>١</sup> ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزه الدهر إذا مال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله ، وقليل وإن جم ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ، فالتمسوه لبنيكم ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ، واحملوهم على جمعه ودرّسِهِ ، واجعلوا طباعهم ثرّى<sup>٢</sup> لغرسه ، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه ، وسهر يهجر له الجفن كراه ، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تُعزل ، وتُحلّوهم مثابة رفعة لا يُحطّ<sup>٣</sup> فارعاها ولا يُستزل ، واختاروا من العلوم التي ينفقها الوقت ، ما لا يناله في غيره المقت .

وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنابها المرّبعة ، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها ، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها ، فإنّما هي آلات لغير ، وأسباب إلى خيّر منها وخير ، فمن كان قابلاً لازدياد ، وألقى فهمه ذا انقياد ، فليخص تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحة من سقيمه ، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة ، المهدي كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة ، والتدرّب في طرق النظر وتصحيح الأدلّة ، وهذه هي الغاية القصوى في الملة ، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى ، وتقاعد عن التي هي أسمى ، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وليأكم والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً ركيكاً ، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ، وتطوير الاحتقار ، وسمة الصغار ، وخمول الأقدار ، والحسّف من بعد الإبدار ، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال ، وأوفق<sup>٣</sup> من قطع العمر في الجدال ، هذا ابن رشد قاضي المصر

١ الأزهار : والذخر الذي قليله يشفع وينفع وكثيره يعمل ويرفع .

٢ ق : ندى .

٣ ق : وأشفق .

ومُفتيه ، وملتمس الرشد ومُوليه<sup>١</sup> ، عادت عليه بالسخطة الشنيعة ، وهو  
إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورط في ازدحامها ، ولا تخلطوا  
سامكم بحامها ، إلا ما كان من حساب ومساحة ، وما يعود بجدوى فلاحه ،  
وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمحمجور ، وضرم<sup>٢</sup>  
مسجور ، وممقوت مهجور .

وأمرُوا بالمعروف أمرأ رقيقاً ، وانها عن المنكر نهياً حريماً بالاعتدال حقيقاً ،  
واغبطوا من كان من سِنَةِ الغفلة مُفياً ، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنه<sup>٣</sup> حتى لا  
تسلكوا منه طريقاً .

وأطيعوا أمر من ولاه<sup>٤</sup> الله تعالى من أموركم أمرأ ، ولا تقربوا من الفتنة  
جمرأ ، ولا تُدْخِلُوا في الخلاف زيداً ولا عمرأ .

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء السنة البنين ،  
وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومن أكثر من شيء عُرِف به . وإياكم والكذب  
فهو العورة التي لا تُؤَارَى ، والسوأة التي لا يُرتاب في عارها ولا يُتَمَارَى ،  
وأقلُّ عقوبات الكذاب ، بين يدي ما أعد الله له من العذاب ، أن لا يقبل منه  
صدقه إذا صدق ، ولا يعول عليه إن كان بالحق نَطَقَ .

وعليكم بالأمانة فالحيانة لُوم ، وفي وجه الديانة كُلوْم ، ومن الشريعة التي  
لا يعذر بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظوا على الحشمة والصيانة ، ولا  
تجزوا من أقرضكم دينَ الحيانة ، ولا توجدوا للغدر قبُولاً ، ولا تقروا عليه طبعاً  
مجبولاً ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (الإسراء : ٣٤) ولا تستأثروا  
بكثر ولا خزن ، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حزن ، ولا  
تبخسوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن ، والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو  
بالإشارة أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان في

١ الأزهار : وموتيه .

فُسحة ممتدة ، وسبل الله تعالى غير مُنْسدة ، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه ،  
ويغمس في الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سَنَتاً قويمًا ،  
وجلى من الجهل والضلال ليلًا بهيمًا ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ  
جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء :  
٩٣) واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه ، وامتد في سبيل  
السعادة بابه ، لو لم تلتق نور الله الذي لم يهد شعاعه ، فالخلال لم تضق عن الشهوات  
أنواعه ، ولا عدم إقناعه ، ومن غلبت عليه غرائر جهله ، فلينظر هل يجب أن  
يُزنى بأهله ، والله قد أعدَّ للزاني عذاباً ويلاً ، وقال ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ  
كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (النساء : ٢٢) .

والخمر أم الكبائر ، ومفتاح الجرائم والجرائر ، واللهم لم يجعله الله في الحياة  
شرطاً ، والمحرم قد أغنى عنه بالخلال الذي سوَّغ وأعطى ، وقد تركها في الجاهلية  
أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد ، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد ،  
والله تعالى قد جعلها رجساً محرماً على العباد ، وقرنتها بالأنصاب والأزلام في  
مباينة السداد .

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهي الدين ، والله تعالى يقول ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ  
الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٢٧٨) وقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمِجْرَبٍ  
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (البقرة : ٢٧٩) في الكتاب المبين ، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق  
بيعه ، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه ، والتمسوا الحلال يسعى فيه  
أحدكم على قدمه ، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه ، ولا تلجأوا إلى المتشابه  
إلا عند عدمه ، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع ، والمحافظ عليه  
مغبوط ، وإياكم والظلم فالظلم ممقوت بكل لسان ، مجاهر الله تعالى بصريح  
العصيان ، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان . والنميمة فساد  
وشتات ، لا يبقى عليه متات ، وفي الحديث « لا يدخل الجنة قتاتٌ »<sup>١</sup> .

١ القتات : النمام الذي ينقل الحديث أو الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون (النهاية ٣ : ٢٢٧) .

واطرحوا الحسد فما ساد حسود ، وإياكم والغيبة فباب الخير معها مسدود ،  
 والبخل فما رؤي البخيل وهو مودود . وإياكم وما يُعتذر منه فمواقع الخزي  
 لا تستقال عثراتها ، ومظنات الفضائح لا تؤمن غمراتها ، وتفقدوا أنفسكم  
 مع الساعات ، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات ، ورقوا على ذوي الزمانات  
 والعاهات ، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات . وعولوا عليه وحده  
 في الشدائد ، واذكروا المساكين إذا نصَّبَ الموائد ، وتقربوا إليه باليسير من  
 ماله ، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعِياله ، وارعوا  
 حقوق الجار ، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار ، وتعاهدوا أولي الأرحام ،  
 والشائج البادية الالتحام ، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر ، وتفسد  
 السرّ والجهر ، والرُّشا فإنها تحط الأقدار ، وتستدعي المذلة والصغار ، ولا  
 تساعوا في لعبة قمر ، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر . وصونوا المواعيد من  
 الإخلاف ، والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف ، وحقوق الله تعالى من  
 الإزراء والاعتساف ، ولا تلهجوا بالآمال العجاف ، ولا تكلفوا بالكهانة  
 والإرجاف . واجعلوا العمر بين معاش ومعاد ، وخصوصية وابتعاد . واعلموا أن  
 الله سبحانه بالميرصاد ، وأن الخلق زرع وحصاد ، وأقلوا بغير الحالة الباقية  
 الهموم ، واحذروا القواطع عن السعادة كما تُحذر السموم . واعلموا أن الخير أو  
 الشر في الدنيا محال أن يدوم ، وقابلوا بالصبر أذية المؤذين ، ولا تقارضوا مقالات  
 الظالمين ، فالله لمن بُغِيَ عليه خير الناصرين ، ولا تستعظموا حوادث الأيام  
 كلما نزلت ، ولا تضحجوا للأمراض إذا أعضلت ، فكل منقرض حقير ،  
 وكل مُنقّص وإن طال قصير ، وانتظروا الفرج ، وانتشقوا من جناب الله تعالى  
 الأرج ، وأوسعوا بالرجاء الجوانح ، [ واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى  
 لعبد إليه جانح ]<sup>١</sup> ، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والجاؤوا إليه في البأساء والضراء ،

١ واجنحوا . . . جانح : سقطت من ق وأصل الأزهار .

وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ، ويعذب الوارد ، وأسهموا منها للمساكين وفضلوا عليهم ، وعينوا الحظوظ منها لديهم ، فمن الآثار « يا عائشة ، أحسني جوار نعم الله ، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم » . ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها ، وتلفكم الجهالة بسكرها ، وتتوهموا أن سعيكم جلبها ، وجدكم حلتبها ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين ، والله الله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تذهبوا بذهابه زينكم ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تواخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومراعاة في علانية وسر ، وللإنسان مزية لا تُجهل ، وحق لا يُهمل . وأظهروا التعاضد والتناصر ، وصلوا التعاهد والتراور ، تُرغِمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة ، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة ، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان ، وطاعة النساء شرٌّ ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقرّوه .

والله الله لا تنسوا مقارضة سَجَلِي ، وبروا أهل مودتي من أجلي ، ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلبي المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للمدلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام التوب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ، ومن بلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، وليحذر معاداة الرجال ، ومزلات الإدلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ، وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، وليصن الديانة ، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة ، ويسر من رضى

١ زاد في التجارية : فإنه دأب النر ، والمبارة ساقطة من ق والأزهار .

الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير نقصان ، والزعازع تسلم اللدن اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الحظوظ<sup>١</sup> وغلاباً ، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار ، داع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليها إكراهاً وإيثاراً ، فليتلق<sup>٢</sup> وظائفها بسعة صدره ، ويبدل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فتنة وعحة ، وأسر وإحنة ، وهي بين إخطاء سعادة ، وإخلال عبادة ، وتوقع عزل ، وإدالة بإزاء بيع جد من الدنيا بهزل ، ومزلة قدام ، واستتباع ندام ، ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ، جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه .

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها ، وتجارتي التي لربحكم أدرتها ، فتلقوها بالقبول لتصحها ، والاهتداء بضوء صبحها ، وبقدر ما أمضيت من فروعها ، واستغشيت من دروعها ، اقتنيت من المناقب الفاخرة ، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة ، وبقدر ما أضعم لآلئها النفيسة القيسم ، استكثرت من بواعث الندم . ومهما ستمت إطالتها ، واستغزرت مقالتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذللك الحساب ، وضابط هذا الباب ، كان الله خليفتي عليكم في كل حال ، فالدنيا مناخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ، فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ، جعلها الله من وراء خطة النجاة<sup>٣</sup> ، ونفق بضائعتها المزجاة ، بلطائفه المرتجاة ، والسلام عليكم من حبيبكم المودع ، والله سبحانه بلامه حيث شاء من شمل متصلع ، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ، ورحمة الله وبركاته .

انتهت الوصية القريدة في حسنها ، القريية في فنها ، المبلغة نفوس الناظرين

١ التجارية : الخطوب .

٢ ق والتجارية : جعل . . . خطة النجاة .

فيها فوق ظنتها ، ولأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضي القضاة العلامة سيدي الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التأليف العديدة كـ « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب » - وهو في ست مجلدات [ ولولم يكن له غيره ] لكان كافياً ، وله مصنفات كثيرة غيره أكثرها في مذهب مالك ، ولم يؤلف في المذهب مثلها - [ كثيراً ما يدخل منها في خطبه ]<sup>١</sup> .

[ وصية لابن الجنان على لسان ابن هود ]

رجع إلى ما كنا فيه :

أقول : لم تزل عادة الأكابر من العلماء والملوك الوصية لأولادهم وعمالهم باقتفاء النهج الذي يرون فيه السلوك ، وقد وقفت للفقيه الكاتب أبي عبد الله محمد ابن الجنان المرسي الأندلسي رحمه الله تعالى على وصية ضمن رسالة كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه اشتملت على ما لا بد منه ، فرأيت أن أذكرها هنا تمييزاً للفائدة ، ونصها بعد الصدر :

من مجاهد الدين ، وسيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود ، أيده الله تعالى بنصره ، وأمدّه بتمكينه ، وأعانه على ما ينويه من إحياء معالم دينه ، إلى صِنُونَا المبارك ، وقسيمنا وأخينا المخصوص بتبجيلنا وتكريمنا ، وحُسامنا المنتضى المرتضى لإمضاء عزمنا وتصميمنا ، الأمير الأعلى ، الموقر الأسمى ، الميمون النقيية المحمود السجية ، الأحب النية ، الأعز علينا ، المتمم بمساعيه الصالحة كل ما نَوَيْنَا ، أدام الله تعالى تظفيره وإسعاده ، وأمضى في الحق قَوَاضِيه وصيعاده ، ووالى معونته وإنجاده ، وتولى توفيقه

١ قد سقط ما بين معقفين من ق والتجارية ، وزدناه حسب المعنى من أزهار الرياض .



وإرشاده ، سلام طيب كريم زاكٍ يخلصكم ورحمة الله تعالى وبركاته .  
 أما بعد — فالحمد لله الذي أوضح للحق سبيلاً ، ومد ظل رحمته على الخلق  
 ظليلاً ، وجعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلاً ، ونزل الأحكام على قدر  
 المصالح تنزيلاً ، ونصب معالم الهدى علماً لمن اقتدى ودليلاً ، وأهم إلى ما  
 يرضاه عملاً ومعتقداً وقيلاً ، وصلواته الطيبة ، وبركاته الصيبة ، على سيد  
 العالمين ، وخاتم النبيين ، محمد رسوله الذي فضله بخلته واصطفاه تفضيلاً ، وبعثه  
 بالحنيفية السمحة فينبأ تفصيلاً ، ورتبها كما أمره ربه بإباحة وتدباً  
 وتحريماً وتحليلاً ، حتى ثبتت سنة الله ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ  
 تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر : ٤٣) وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم  
 به عليه الصلاة والسلام نصاً وتأييلاً ، وأبقوا من سيرتهم الفاضلة ، وأحكامهم  
 العادلة ، أساساً للمتقين جليلاً ، ومآثر للمقتضين تسبّح الأفهام والأقلام في  
 بحارها سبّحاً طويلاً ، وأمضوا عزائمهم تنسخ بالحق باطلاً وبالهدى تضليلاً ،  
 ورضوان الله تعالى يتوالى على خليفته ، وحامل أمانته إلى خليفته ، الذي كمل  
 الله تعالى له موجبات الإمامة تكميلاً ، وأناله من هدي النبوة أفضل ما كان  
 للهداة منيلاً ، سيدنا ومولانا الإمام المنتصر بالله تعالى أبي جعفر المنصور أمير  
 المؤمنين المتبوء من ساحة الشرف والجلالة محلاً شريفاً جليلاً ، والمنتخب من  
 بحبوحة بيت الرسالة الذي وجد الوحي عنده معرّساً ومقبلاً ، والدعاء له من  
 لدن العزيز القوي بنصر يأتي لإمداده بمدد الملائكة قبلاً ، وفتح يؤتي الإيمان من  
 الظهور بغية وتأميلاً — .

فإنّا كبتناه إليكم كتب الله تعالى لكم عزماً لا يزال عَضْبُهُ صقيلاً ، وعزاً  
 يروق بإظهار الحق غرةً وتحجيلاً ، ورأياً لقداح السداد والنجاح مُجيباً ، وسعداً  
 يوصل إلى الإسعاد برضاه توصيلاً ، من حضرتنا بمرسية حرسها الله تعالى ، ونحن  
 نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو على فضله الذي أناله جسيماً جزيلاً ، ونثوكل  
 عليه ، توكل من يلجأ في كل أحواله إليه ، وكفى بالله وكيلاً ، ونستعينه على أمور

المسلمين التي حملنا منها أمانة كبيرة وعيبتنا ثقيلًا ، ونقف بالضراعة بين يديه ، طلبًا لما يخلصنا لديه ، عساه أن يجعل لرغبتنا قبُولًا وتوسيلًا ، ونعوذ به من كل عمل لا يكون حاصله إلا مآلًا وويلًا ، وعرضًا من الدنيا قريبًا ومتاعًا قليلًا .

إنّا - والله المرشدُ - لنعلم أن هذا الأمر الذي قلدنا الله تعالى منه ما قلده ، وأسنده إلينا من أمور خلقه فيما أسنده ، قد ألزمننا من حقوقه الواجبة ، وفروضه الراتبية ، ما لا يستطيع إلا بمعونته أداؤه ، ولا يستتب إلا بتوفيق الله تعالى انتهائه وابتدائه ، فهو المشكور عز وجهه على نعمته ، والمستعان على ما يلدني من رضاه ويقرب من رحمته ، وأن كل امرئ بشأنه مشغول ، وعن خوِيصة نفسه مسؤول ، ونحن بما استرعانا الله تعالى مشغولون ، وعن الكبير والصغير مسؤولون ، وعلينا النصيحة لله في عباده وبلاده ، والنظر لهم بمتهى جدّ المجتهد واجتهاده ، ولا قوة إلا بالله عليه توكلنا ، وبه إليه توصلنا ، فعيننا تسهر لتنام للرعية عيونهم ، ونحركنا يتصل ليحصل لهم سكونهم ، وأملنا أن لا نقر فيهم بحول الله تعالى ظلمًا ولا هضمًا ، ولا نخرم لهم في إقامة حقوق الله ما استطعنا نظامًا ، وأنتى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته ، من يعرف أن الله جل جلاله لا يجوز ظلم ظالم في بريته ، ولعل الله الذي حملنا ما حملنا ، واستعملنا بمشيئته فيما استعملنا ، أن يهب لنا توفيقه ، ويسلك بنا إلى هداه طريقه .

ألا وإن منّ ولّيناه أمرًا من أمور المسلمين فهو مطلوب به ، وموقوف عليه عند ربه ، فلينظر امرؤ في جزئية ما نيظ به وكنيته ، وليراقب فيما لديه علم خفيته وجليته ، ألا وكلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته ، فمن حفظ الله حفظه الله في نفسه وآله ، وقضى له بالسعادة في حاله ومآله ، وأنتجاء يوم عرضه وسؤاله ، والتلق عيال الله فأحبهم إليه أحبهم لعياله . العدل العدل فيه قامت السموات والأرض ، وبإقامته أقيمت السنّة والفرص ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (المائدة : ٨) وأقوى ما تشد به أركان الدين وتقوى ، أمّا إن الحق في أن لا تتعدى

أساليب الشرع وقوانينه ، وأن لا يتجاوز في قضية من القضايا إفصاحه وتبيينه ، وأن يجازى بحكمه المسيئون والمحسنون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .  
 وإنا قد عثرنا لبعض قواد الجهات وحكامها على أمور أنكرنا معرفاتها ، واستقبلنا مستوصفاتنا ، وبرئنا إلى الله تعالى من متغيراتها ومخرفاتها ، وعلمنا أن منهم أقواماً لا يتورعون عن الأموال والدماء ، ولا يحذرون فيما يأتون ويتذرون جبار الأرض والسماء ، فأزلنا بحمد الله ذلك ونحوه ، وعجلنا ابتغاء رضاه محقه ومحسوه ، وانبعثنا لنظر جديد ، واستئناف لإصلاح أحوال وتسديد ، وتقليظ في المحرمات وتشديد ، واستقبلنا ما يوسع الأمور ربطاً وضبطاً ، ويفيض على الأمة بعون الله تعالى عدلاً وقسطاً ، وتعين علينا فيما رأيناه إنفاذ الخطاب إلى كل من استكفيناها بالبلاد ، ووليناها النظر عنا في مصالح العباد ، بما يكون إن شاء الله تعالى الاعتماد على فصوله ، والاستناد إلى محموله ، والاجتهاد بحسب فروعه وأصوله :

فأول ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله في كل حال ، ومراقبة أوامره ونواهيه عند كل انتحاء وانتحال ، والوقوف عند حدود الله التي حلها ، وأرصدها بليزاء موجباته وعدما ، فإنه لا يتمداها إلا من رام تعقبي رسمها وطمنسه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (الطلاق : ١) والمحافظة على ما به تحفظ الشريعة ، والملاحظة لما يضم الرعايا من حوزة أولي الحيطة المنبئة ، والمثابرة على ما تكف به أكف الاعتداء ، والمبادرة إلى الاهتمام بالسلف الصالح والاعتداء ، والطريقة المثل ، وآيات الله التي تُثلى ، وهداياته التي لأبصار البصائر تجلى ، وحقن الجناح ، والأخذ بالرفق والإنجاح ، وتوخي الحق الذي هو أوضح انبلاجاً من فلق الإصباح ، والحلم والأناة ، والمذاهب المستحسنات ، والأمور البيئات .

والله الله في الدماء فإنها أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها ، ولا سبيل لاستحلالها إلا بعد ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل المسلم

لأخيه ، وقد قال مالك الأمر والخلق ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام: ١٥١) فثبتوا فيها فأمرها جليل ، وتحريمها لا يدخله تحليل ، وإياكم أن تجعلوا فيها لأحد من ولاة الجهاد حكماً أو نظراً ، أو تَكَلِّبُوا إليهم منها مستكراً أو مستتراً ، فإنه إذا استبدَّ بالقضاء فيها كل والٍ ذهب هدرًا ، واستباحها الجاهل والجائر أشراً وبطراً ، وربما كان فيهم من في طباعه سبعية فيقتل بها الناس قتلاً ذريعاً ، ويتسهل بذلك من جورهِ صعباً ويرتكب بجهله شنيعاً ، ويذهل عن قول الله تعالى ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة : ٣٢) فأنى تحمل المسامحة في هذا الشأن ، أو يحكم به كل إنسان في نفوس أهل الإيمان ؟ معاذ الله أن يكون هذا ونحن نعرفه ، أو ينصرف إليه نظرنا فلا نزله ولا نصرفه ، فسدُّوا هذا الباب سدًّا ، وصدوا عنه من أمه صدًّا ، وكفوا كل ما كان من الأيدي للدماء ممتدًّا ، ومنَّ وجب عليه القتل شرعاً وتعين ، وانضح موجب القصاص فيه وتبين ، فليس لكم إلا القاعدة الكبرى ، تُتَحَرَّى فيها الأحكام عليه بمحضر القاضي والشهود كما يجب أن يتحرَّى ، بعد أن يتثبت في نازلته لديكم ويستجلى ويُسْتَبْرَأ ، فلا تحمل القضية إلا على بصيرة ، وحقيقة مستنيرة ، فقد يلوح في اليوم ما خفي بالأمس ، ويتعذر بعد الإقادة إعادة النفس .

وملاكُ الأمر في انتقاء من يتصرف ، وتولية من لا يضيع ولا يتحيف ، فتخبروا للأنظار والجهات ، من تُرْتَضَى سيرته من الولاية ، ولا تستعملوا أهل الفظاظة والجهالة ، والمصرين على الراحة والبطالة ، فإنهم إذا استرعوا أضاعوا ، وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا ، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا ، وميلوا باختياركم إلى المتسمين بالصلاح ، المرسمين في ديوان الكفاة النصاح ،

١ شرعاً : سقطت من ق .

وأطيلوا مع ذلك التقير عنهم والتقيب ، ولا تغفلوا عن التعهد بالبحث البعيد منهم والقريب ، ومن عثرتم له على منكر من استباحة دم أو مال ، وإضاعة للحقوق وإهمال ، فخذلوا على يده ، وجازوه بفساد مقصده ، وأنزلوه بالمنزل الأقصى ، وعاملوه معاملة من أوصي بتقوى الله فما استوصى .

واصرفوا نظركم إلى القضاة فإن مدار الشريعة إنمّا هو على ما يستند إليهم ، ويقصر من الأحكام عليهم ، فإذا كانوا من أهل العلم والديانة ، وذوي التزاهة والصيانة ، أمسكهم الورع بزمامه ، وبلغ العهد بهم غاية تمامه ، وإذا كانوا بضدّ هذا قبلوا الرشوة ، وأوطأوا العشوة ، وأطالوا النشوة ، وأحلّوا من الدماء والفروج محرّمها ، وطمسوا من السنّة بالميل والميل معلّمها ، وحكموا بالهواة والهوى ، وطووا من الحق ما انتشر ونشروا من الباطل ما انطوى ، فانقوهم فهم أولى بالانتقاء ، وشرّ جاسرهم وجاهلهم أحق بالانتقاء ، ولا تقدموهم ولا غيرهم بالشفاعات والوسائل ، ولكن قدموهم بتورعهم في القضايا وعلمهم بالمسائل .

وممّا نوّكده عليهم فيه أمر الشهود ؛ فإن شهادة الزور هي الداء العضال ، والظلمة التي يتستر بها الظلمة والضلال ، والحجة الداخضة التي بها يحلّل الحرام ويحرم الحلال ، وقد كثر في هذا الزمان أهل الشهادة الفاسدة ، ونفقت بهم سوق الأباطيل الكاسدة ، فتقدموا إلى القضاة وفقهم الله تعالى أن لا يقبلوا إلاّ مشهوراً بزكاء وعدل ، موفوراً حظّه من رجاحة وعقل ، ومن كان مغموراً عليه في أحواله ، منبوزاً بالاسترابة في شهادته وأقواله ، فلتردّ شهادته على أدراجها ، وليبطل ما يكون من حججها . وأكدوا عليهم عند تعارض العقود في الترجيح ، والنظر في التعديل والتجريح ، لتجري أمور المسلمين على مستوى الحقّ المستين ، وتبدو المعدّلة مشرقة الغرّة مؤتلفة الجبين .

وممّا نامركم به أن تبعثوا عن العمال ، ولا تولّوا منهم إلا الحسن الطريقة المرضي الأعمال ، ومن لم يكن منهم جارياً على القوانين المرعية ، ناصحاً لبيت المال

رفيقاً بالرعية ، وكان في أمانته حائداً عن الجادة السوية ، قائلاً كما قال قبله ابن التتية<sup>١</sup> ، فليَعَوِّضْ منه غيره ، وليُرْفَعْ عن الجائنين ضيره ، فإنه ما كانت الحياة قط في شيء إلا أهلكته ، ولا وضعت في إنسان طبيعة سوء إلا ملكته .  
 وإنما هو مال الله تعالى الذي يرزق منه الحماة ، وبه تُسد الثغور المهمات ، فينبغي أن يختار له محتاط في اقتضائه وقبضه ، حافظ لدينه ومروءته في كلّه وبعضه ، فخذوا في انتقاء هذه الأصناف المسمين ، واطلبوا بهذه الأوصاف المصرفين والمولين ، واجمعوا من الاجتهاد الحميد والقصد والاعتماد الأثر والعين ، وأنصفوا منهم إن تظلم من أحدهم متظلم ، واشفوا شكوى كل متشك وألم كل متألم ، واعلموا أن حرمة الأموال بجرمة الدماء لاحقة ، وأن إحدى القضيتين للأخرى مساوية ولاحقة ، ومن أكبر ما ورد في ذلك وأعظمه ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » .

وليكن الناس في الحق سواء لا محاباة ولا مفاضلة ، ولا مجاوزة في تغليب قوي على ضعيف ولا محاولة ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وإن دلائل الشرع بمراد الله سبحانه وتعالى لشاهدة ، ولا يؤخذن أحد بجريرة أحد ، ولا يبغني ولد على والد ولا والد على ولد ، فكتاب الله تعالى أولى بالاتباع وأحرى ، لقول الله عز وجل ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الأنعام : ١٦٤)<sup>٢</sup> اللهم إلا من آوى محدثاً فإنه مأخوذ بما أجرم ، وملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فارفعوا — أعاننا الله تعالى وإياكم — للعدل بكل علم مناراً ، واتخذوا الرفق بالإمامة شعاراً ، فقد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرفق لا يكون

١ يسمى عبد الله بن التتية بن ثعلبة الأزدي ، قال ابن حجر في الإصابة ( ٤ : ١٢٣ ) : مذكور في حديث أبي حميد الساعدي في الصحيحين أن النبي ( ص ) بعث رجلاً على الصلقات يدعى ابن التتية وذكره الفيروزابادي في تحفة الأبيه ( ص : ١٠٧ ) باسم عمر بن التتية وقيل الأتبية الأول قول ابن دريد والثاني قول ابن الكلبي .

٢ وردت الآية أيضاً في سورة الإسراء : ١٥ وفاطر : ١٨ والزمر : ٧ .

في شيء إلا زانه ، ولا يُترع من شيء إلا شانه » وقد نصّ الكتاب والسنة على مواضع اللين والاشتداد ، ونبها على منازع المقاربة والشداد ، فلا غضب لأمر إلا بما غضب له الله عز وجل ، ولا رضّى به إلا إذا استقر فيه رضى الله تعالى وحل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الذي يجلد فوق ما أمر الله تعالى به يقول له الله عز وجل : عبدي ، لم جلدت فوق ما أمرتك به ؟ فيقول : رب غضبت لغضبك ، فيقول : أكان ينبغي لغضبك أن يكون أشد من غضبي ؟ ثم يؤتى بالمقصر فيقول : عبدي ، لم قصرت عما أمرتك به ؟ فيقول : رب رحمته ، فيقول : أكان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي ؟ » قال : فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لم يحفظه الراوي ، إلا أنه قال : صيروهما إلى النار ، أعاذنا الله تعالى منها بفضلها ورحمتها ! فليوقف بالقضايا حيث وقف بها الشرع ، ويحفظ الأصل من هذه الوصايا والفرع ، واحتاطوا في الرعية فإنه رأس المال ، والأمانة التي لا ينبغي أن يكون فيها شيء من الإهمال ، ومع توفيقكم لما سطرناه ، في هذا الكتاب وشرحناه ، من أبواب الخير المسعد في المآب والمآل ، فاستوفوا ضروب الصالحات واستقصوها ، واعملوا أعمال البر وخصوها ، واذكروا آلاء الله وقصوها ، ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) واشتدوا في تغيير المنكرات كلها ، واحسموا أدواءها من أصلها ، ورغبوا الناس في الطاعات واندبواهم إليها ، ووضحوا لهم أعمالهم وحرّضوهم عليها ، وانتهوا في كل سعي ناجح ، ورأي راجح ، إلى أفضل ما ينتهي إليه المتصحون ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

وخلنا بعمارة مساجد الله التي هي بيوت الأتقياء ، وحلّ مناجاة ذي العظمة والكبرياء ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .

ومرّوهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى فإن تعليمه للصغار يطفىء غضب

الرَّبِّ ، ونعم الشفيع يوم القيامة ، والمتوسل فيما يتوج القاريء وأباه تاج الكرامة ، وأرشدوا للخير ما استطعتم ، واتبعوا سبيله فهو أشرف ما اتبعتم ، والله ولي التوفيق والإرشاد ، والملجئ بالهداية إلى طريق الفوز والسداد .

وهذه أوامرنا إليكم امثلنا أمر الله تعالى فامثلوها ، وأحضروها في خواطركم مع كل لحظة ومثلوها ، وإنّا لما يكون منكم فيها لمستمعون ، ولآثاركم فيما يوفيهام لتطلعون ، وقد خرجنا لكم عن عهدة لزمنا في التذكير ، ونهجننا لكم منها التقديم والتأخير ، والله تعالى يعلم أنّنا إنّما قصدنا ما نرجو الخلاص به يوم الحساب ، وأردنا رضاه فيما أوردناه من هذا الحظر والإيجاب ، لنعى حقه سبحانه فيمن استرعانا ، ونسعى في صلاح الأمة عسى الله تعالى أن ينجح فيه مسعانا .

اللهم عبّدك بضرع إليك ، ويخضع بين يديك ، في أن تلهمه إلى ما يحمل قصداً ومعتمداً ، وتهب له من لدنك رحمة وتيسر له من أمره رشداً ، اللهم منك المعونة على ما وليت ، ولك الشكر على ما أوليت ، فالمهدي من هديت ، والخير كله فيما قضيت . اللهم من أعاننا على مرضاتك فكن له معيناً ، وأورده من توفيقك عذباً معيناً ، إنك الولي النصير ، العلي الكبير .

وإذا وصلكم كتابنا هذا فقصوه على الناس مفصلاً ومجملاً ، وأظهروا مضمونه لهم قولاً وعملاً ، واسلكوا بهم من مراشده سنناً مستجملاً ، إن شاء الله تعالى ، والله سبحانه يديم علاكم ، ويصل إعادتكم في كل مَحْمَدٍ وإبداكم ، ويجزل حظوظكم من السعادة وأنصباكم ، بمنه وكرمه لا ربّ سواه . والسلام الأكرم الأزكى بخصمكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكتب في الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وستمائة ؛

انتهى .



[ ترجمة ابن الجنان ]

وهذا ابن الجنان له الباع المديد في النظم والنثر ، ومن شعره رحمه الله تعالى في مرضه الذي توفي فيه ، وهو آخر كلامه :

جهل الطبيبُ شكائِي ، وشكائِي أنَّ الطيبَ هو الذي هو ممرضي  
فإن ارتضى برئي تداركَ فضلَه وإن ارتضى سقمي رضيتُ بمارضي  
ما لي اعتراضٌ في الذي يقضي به لكنَّ لرحمته جعلتُ تعرُّضي  
ومن نظمه رحمه الله تعالى ملغزاً في بطيخة :

وحُبلى بأبناء لها قد تمخضوا بأحشائها من بعد ما ولدوها  
كسوها غداة الطلق بُرداً معصفاً على يفتقٍ أزارها عقدوها  
ولما رأوها قد تكاملَ حُسنها وأبدرَ منها طالعٌ حسدُها  
فقدوا قميصَ البدرِ بالبرقِ واجتلوا أهلتها من بعد ما فقدوها  
ولو أنصفوا ما أنصفوا بدر تمها ولا أعدموا الحسنة إذ وجدوها

وقال أيضاً ملغزاً في الميل ، وهو المِرْوَد :

مسترخص السوم غال عال له أيُّ حظوه  
ما جاوز الشبر قدراً لكنَّه ألفُ خطوه

وهذا استخدام ما به باس ، لأنه اكتسى من الحسن خير لباس ، وكم لهذا

١ كتب حيشما ورد في ق والتجارية « ابن الجنان » - بالياء - وهو خطأ ؛ فقد ذكره ابن عبد الملك في مواضع من الذيل والتكملة ( ٤ : ١٠٨ و ٥ : ٣٢٧ . . . ) بالنون ؛ ونسخة الجزء الخامس من الذيل والتكملة مضبوطة مصححة . وكذلك ثبت اسمه في المصادر التي ترجمت له ( انظر الإحاطة ٢ : ٢٥٦ - ٢٦٤ وعنوان الدراية : ٢١٣ ) . وله في الذيل والتكملة ( ٥ : ٣٢٧ ) رسالة إلى أبي عبد الله ابن عابد ، وفي ( ٤ : ١٠٨ ) تمزية في أستاذه سهل بن مالك ، والجزء الذي ترجم له فيه ابن عبد الملك لا يزال مفقوداً ، وعنه ينقل لسان الدين .

الكاتب من محاسن ، ماؤها غير آسن .

وقد عرف لسان الدين في الإحاطة بابن الجحنان ، وأطال في ترجمته ، ونشير إلى بعض ذلك باختصار .

وهو محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري من أهل مرسية ، أبو عبد الله ابن الجحنان .

كان محدثاً راوية ضابطاً ، كاتباً بليغاً شاعراً بارعاً ، رائق الخط ، ديناً فاضلاً ، خيراً ذكياً ، استكتبه بعض أمراء الأندلس فكان يتبرم من ذلك ويقلق منه ، ثم خلصه الله تعالى منه ، وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القماءة ، حتى يظن رائيه الذي استدبره أنه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها ، متناسب الحلقة ، لطيف الشمائل وقوراً ، خرج من بلده حين تمكن العدو من قبضته سنة ٦٤٠ ، فاستقر بأريولة إلى أن دعاه إلى سبته الرئيس أبو علي ابن خلاص<sup>٢</sup> ، فوفد عليه ، فأجل وفادته ، وأجزل إفادته ، وحظي عنده حظوة تامّة ، ثم توجه إلى إفريقية ، فاستقر ببجاية ، وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته ، وروى ببلده وغيره عن أبي بكر ابن خطاب وأبي الحسن سهل بن مالك وابن قطرال وأبي الربيع ابن سالم وأبي عيسى ابن أبي السداد وأبي علي الشلوين وغيرهم ، وكان له في الزهد ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بدائع ، ونظم في المواعظ للمذكورين كثيراً ؛ انتهى مختصراً ، وإلا فترجمته في الإحاطة متسعة ، رحمه الله تعالى .

ولما كتب له أبو المطرف ابن عميرة برسائله الشهيرة التي أولها « تحييك الأقلام تحية كسرى ، وتقف دون مداك حسرى » وهي طويلة ، أجابه بما

١ الإحاطة : ويضيق .

٢ هو الحسن بن خلاص تولى سبته سنة ٦٣٧ ثم ثار فيها في زمن السعيد أبي الحسن ابن المعتض بالله من خلفاء الموحدين سنة ٦٤١ وبايع للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب تونس . وكانت وفاته سنة ٦٤٦ ( ابن عذاري ٣ : ٣٥٩ ط . تطوان ) .

نصّه : « ما هذه التحية الكسروية؟ وما هذا الرأي وهذه الروية ؟ أتتكيت من الأعلام ؟ أو تبيكت من الأعلام ؟ أو كلا الأمرين توجه القصد إليه ، وهو الحق مصداقاً لما بين يديه ؟ وإلاّ فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه <sup>١</sup> ، ويتراعى للغاية البعيدة بنفسه ، فمتى لانت أنابيه للعاجم ، ودانت أعاريه للأعاجم ؟ واعجباً لقد استنوق الجمل ، واختلف القول والعمل ، لأمرٍ ما جدّ ع أنفه قصير <sup>٢</sup> ، وارتد على عقبه الأعمى أبو بصير ، أمس أستسقي من سحابه فلا يسقيني ، وأستسقي بأسمائه فلا يشقيني ، واليوم يُحلتني محلّ أنوشروان ، ويشكو مني شكوى الزيدية من بني مروان <sup>٣</sup> ، ويزعم أنني أبطلت سحره ببئر ذروان <sup>٤</sup> ، ويخفي في نفسه ما الله مبديه <sup>٥</sup> ، ويستعجدي بالأثر <sup>٦</sup> ما عند مستعجديه ، فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة ، والشريعة المبتدعة ؟ أيعظن أن معماه لا ينفك ، وأنه لا ينجلي هذا الشك ؟ هل ذلك منه إلا إمحاض التيه ، وإمحاض تفتيه ، ونشوة من خمر الهزل ، ونخوة من ذي ولاية آمنٍ من العزل ؟ تالله لولا محله من القسم ، وفضله في تعليم النسم ، لأسمعته ما ينقطع به صلّقه ، وأودعته ما ينصدع به صدّقه ، وأشرت بطرف المشرفي وحده ، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجده ، ولكن هو القلم الأوّل ، فقلوه على أحسن الوجوه يتأوّل ، ومعلود في تهديه ، كل ما لسانه يهذي به ، وما أنساني إلا الشيطان أياديه أن أذكرها <sup>٧</sup> ، وإتما أقول :

١ أي عن الملق .

٢ هذا مثل يرد في قصة الزبلاء وجذيمة .

٣ الزيدية : أتباع زيد بن علي ، وقد قتله الأمويون في زمن هشام بن عبد الملك .

٤ بئر ذروان : بناحية المدينة ، وفي حديث هشام بن عروة أن لبيد بن الأعصم سحر الرسول ونحبا السحر في تلك البئر .

٥ إشارة إلى الآية : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس » .

٦ ق : بالأسد ؛ التجارية : بالأشر .

٧ من الآية : « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » .

## ليت النجحة كانت لي فأشكرها<sup>١</sup>

ولا عتب إلاّ على الحياء ، المبرحة بالبرحاء ، فهي التي أقامت قيامتي في الأندية ، وقامت عليّ قيام المتعدية ، يتظلم وهو عين الظلم ، ويُلين القول ونحته سم الأراقيم ، ولعمر اليراعة وما رضعت ، والبراعة وما صنعت ، ما خامرني هواها<sup>٢</sup> ، ولا كلفت بها دون سواها ، ولقد عرّضت نفسها عليّ مراراً ، فأعرضت عنها ازوراراً ، ودفعتها عني بكل وجه ، تارة بلفظٍ وأخرى بنجّه<sup>٣</sup> ، وخفتُ منها السامة ، وقلت : انكحي أسامة ، فرضيت مني بأبي جهم<sup>٤</sup> وسوء ملكته ، وابن أبي سفيان وصعلكته<sup>٥</sup> ، وكانت أسرع من أم خارجة للخطبة ، وأسمح من سجاح<sup>٦</sup> في استنجاح تلك الخطبة .

« ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع في عشرتها ، واستنقال الاجتماع من عترتها ، وأرى من الغبن والسفاه ، أخذها وترك بنات الأفواه والشفاه<sup>٧</sup> ، إذ هي أيسر مؤونة ، وأكثر معونة ، فغلطني فيها أن كانت بمزل تتوارى صوتاً عن الشمس ، ومن نسوة خفريات لا ينطقن إلا بالهمس ، ووجدتها أطوع من البنان للكف ، والعنان للكف<sup>٨</sup> ، والمعنى للاسم ، والمعنى للرسم ، والظل للشخص ، والمستدل للنص ، فما عرفت منها إلاّ خيراً أرضاه ، وحسبتها من الحافظات

- ١ من شعر كثير عزة ؛ وتماه : مكان يا جميل حبيت يا رجل .
- ٢ الضمير عائذ إلى « الحياء » ولعله يعني قصيدة أو رسالة بنيت على تكرير الحياء في كل كلمة .
- ٣ النجحة : الرد القبيح .
- ٤ في ق والتجارية : أبو جهل ، وهو خطأ ، انظر التعليق التالي .
- ٥ يشير إلى قصة فاطمة بنت قيس أخت الضحاك حين خطبها معاوية وأبو جهم : أما معاوية فوصف بأنه صلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فإنه لا يضع عصاه عن عاتقه (أي يضرب النساء) ، وتزوجت فاطمة بعد ذلك أسامة بن زيد .
- ٦ قصة زواج سجاح من مسيلة مشهورة ؛ وقد ضرب بها المثل في الإسحاق .
- ٧ بنات الأفواه والشفاه من الحروف مثل الباء والميم . . . إلخ .
- ٨ الكف : الكبح والمنع .

للغيب بما حفظ الله ، فعجبت لها الآن كيف زلت نعلها ، ونشرت فنشرت ما استكتمها بعلمها ، واضطربت في رأيها اضطراب المختار بن أبي عبيد<sup>١</sup> ، وضربت في الأرض تسعى علي<sup>٢</sup> بكل مكر وكيد ، وزعمت أن الجيم خدعها ، وألان أخذعها ، وأخبرها أن سيلغ بخبرها الخابور<sup>٣</sup> ، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور<sup>٤</sup> .

« فقد جاءت إفكاً وزوراً ، وكثرت من أمرها متزوراً ، وكانت كالقوس أرنت<sup>٥</sup> وقد أصمت القنيص ، والمرأودة قالت ﴿ مَا جَزَاءُ ﴾ وهي التي قدت القميص<sup>٤</sup> ، وربما يظن بها الصدق وظن الغيب ترجيم ، ويقال : لقد خفضت الحاء بالجوار لهذا الجيم ، وتنصر لها التي خيمت بين الرجسة والريحانة ، وختمت السورة باسم جعلت ثانياه أكرم نبي على الله سبحانه ، فإن امتعضت لهذه التكلمة ، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة الكلمة ، فأنا ألوذ بعلمها ، وأعوذ بفضلها ، وأسألها أن تقضي قضاء مثلها ، وتعمل بمقتضى ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ (النساء : ٢٥) .

« على أن هذه التي قد أبدت مئنها ، ونسيت الفضل بيني وبينها ، إن قال الحكمان : منها كان الشوز ، عادت حرورية<sup>٥</sup> العجوز ، وقالت : التحكيم في دين الله تعالى لا يجوز ، فعند ذلك يحصص الحق ، ويعلم من الأولى بالحكم والأحق ، ويصيبها ما أصاب أروى ، من دعوة سعدية حين الدعوى ، ويا ويحها أرادت أن تجني علي<sup>٦</sup> فجنت لي ، وأناخت لي مركب السعادة وما ابتغت إلا ختلي ، فأتى شرها بالخير ، وجاء النفع من طريق ذلك الضير ، أتراها علمت

١ المختار بن أبي عبيد الثقفي النائر للمطالبة بدم الحسين؛ حوالي ٦٥ هـ . لم يكن ثابت الرأي بخاص النية .

٢ أي سيلغ خبرها إلى مكان ناء ، والخابور من روافد الفرات .

٣ يعني سابور ذا الأكتاف ويقال إنه تنكر ودخل بلاد الروم فوقع في يد قيصر .

٤ إشارة إلى قصة امرأة العزيز « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » وعندما انفصح الأمر قالت

« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً . . . الآية » .

٥ أي ترفض التحكيم وتقول : لا حكم إلا لله .

بما يثيره اعوجاجها ، وينجلي عنه عجاجها ، فقد أفادت عظيم الفوائد ، ونظيم الفرائد ، ونفس الفخر ، ونفيس الدر ، وهي لا تشكر أن كانت من الأسباب ، ولا تذكر إلا يوم الملاحاة والسباب .

« وإنّما يستوجب الشكر جسيماً ، والثناء الذي يتضوع نسيماً ، الذي شرف إذ أهدى أشرف السحاعات ، وعرف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في الحاءات ، فإنه وإن ألمّ بالفكاهة ، بما أملّ من البداهة ، وسمّى باسم السابق السكّيت ، وكان من أمر مداعبته كيت وكيت ، وتلاعب في الصفات تلاعب الصفاح والصبّ بالباة ، والصبّ بالعاشق ذي اللبّانة ، فقد أغرب بفنونه ، وأغرى القلوب بفنونه ، ونفت بخفية الأطراف ، وعبث من الكلام المشقّق بالأطراف ، وعلم كيف يمحض البيان ، ويخلص العقيان ، فمن الحق شكره على أياديه البيض ، وإن أخذ لفظه من معناه في طرف التقيض .

« تالله أيها الإمام الأكبر ، والغمام المستمطر ، والحبر الذي يشفى سائله ، والبحر الذي لا يرى ساحله ، ما أنا المراد بهذا المسلك ، ومن أين حصل ذلك النور لهذا الحلّك ، وصح أن يقاس بين الحداد والملك ؟ إنّه لتواضع الأعزّة ، وما يكون عند الكرام من الهزّة ، وتخريض الشيخ للتلميذ ، وترخيص في إجازة الوضوء بالنيذ ، لو حضر الذي قُضي له بجانب الغربي أمرّ البلاغة ، وارتضى ما له في هذه الصناعة ، من حسن السبك لخليها والصبّاعة ، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافي الحسان ، واتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان ، لأذعن كما أذعنت ، وظن عن محل الإجابة كما ظعنت ، وأنتى يضاهى الفرات بالنغبة ، ويباهى بالفلوس من أوتي من الكنوز ما إنّ مفامحه لتنوء بالعصبة ، وأي حظ للكلالة بالنشب ، وقد اتصل للورثة عمود النسب ، هيهات والله المطلب ، وشتان الدر والمخشب ، وقد سيم الغلب ، ورجع إلى قياده السلب .

« وإن كنا ممن تقدّم لشدة الظلم إلى المنهل ، كن أقدم إلى عين تبوك بعد النهي للعلل والنهل ، فقد ظهرت بعد ذلك المعجزة عياناً ، وملاً ما هنالك جناناً ،

وما تعرضنا بإساءة الأدب واللوم ، ولكن علمنا أن آخر الشَّرْبِ ساقى القوم ،  
 وإن أسهبنا فما نلنا رتبة ذلك الإيجاز ، وإن أعرقنا فهوانا في الحجاز ، فلكم  
 قصيرات الحجال ، ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال ، وإكثارنا في قلة ،  
 وجارنا من الفقر في فقر وذلة ، ومنّ لنا بواحدة يشرق ضياؤها ، ويخفي  
 النجوم خجلها منها وحيّاؤها ؟ إن لم تطل فلأنها للفروع كالأصل ، وفي الجموع  
 ككيلة الوصل ، فلو سطع نورها الزاهر ، ونورها الذي تطيب منه الأنوار  
 الأزاهر ، لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال ، ووجدت نقحات ريتاها في  
 أعطاف الجنوب والشمال ، وأسرعت نحوها النفوس لإسراع الحجيج يوم النَّفَرِ ،  
 وسار خبرها وسرى فصار حديث المقيمين والسّفَرِ ، وما ضرّ تلك الساحرة  
 في تجليها ، الساحرة بتجنيها ، أن كانت بمتزلة ربيبتها بل ربيبتها ، هذه التي  
 سبقتني لما سقتني بسيّئتها<sup>١</sup> ، ووجدت ريحها لما فصّلت من مصر غيرها ، وحين  
 وصلت لم يدلني على ساربيها إلا عبيرها ، وكم رامت أن تستر عني بليل خبرها  
 في هذه المغاني<sup>٢</sup> ، فأغراني بهاؤها<sup>٣</sup> وكل مغرم مغرى ببياض صبح الألفاظ  
 والمعاني ، وهل كان ينفعها ، تلفحها بمرطها وتلفعها ؟ إذ نادتها المودة ، قد  
 عرفناك يا سَوْدَةَ ، فأقبلت على شم نشرها وعرفها ، ولثّم سطرها وحرفها ،  
 وقربت الثناء الحافل ، وقرأتها فزينت بها المحافل ، ورمت أمر الجواب ، فعزني  
 في الخطاب ، لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بعجزى واشية ، وإليكم مني  
 على استحياء ماشية ، وإن رقّ وجهها فما رقت لها حاشية ، فمنا بقبولها على  
 عللها ، وانقعوا بماء سماحتكم حرّاً غلّكها ، فإنها وافدة من استقر قلبه عندكم  
 وثوى ، وأقر بأنه يلقط في هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من النوى ، بقيم  
 سيدي للفضل والإغضاء ، ودمتم غرة في جبين السمحة البيضاء ، واقتضيت السعادة

١ السيّة : اللبن قبل زول الدرة .

٢ ق : أن يستر عني الليل خبرها في هذه المعاني .

٣ ق : بها .

المتصلة مدة الاقتضاء ، ييمن الله سبحانه » انتهى .

ومن نثر ابن الجنان رحمه الله تعالى في شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم :  
« لمحمد خير الأنام ، ولتينة التمام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، خيرة المفاخر ،  
يتضاءل لعظمتها المفاخر ، والمعالي ، يتصاغر لغزتها المعالي ، والمكارم ، يعجز  
عن مساجلتها المكارم ، والمناقب ، لا تضاهي سناها النجوم الثواقب ، والمحامد ، لا  
يبلغ مداها الحامد ، والمماجد ، لا يتعاطى رتبهن المماجد ، والمناسب ، سمت  
بجلائهن المناصب ، والعناصر ، طيبها الشرف المتناصر ، والفضائل ، تفجرت  
في أرجائهن الفواضل ، والشمائل ، تأرججت بعرفهن الجنائب والشمائل ، فلا  
مُجاري لسيد البشر ، الآتي بالندارات والبُشر ، فيما حباه الله تعالى به وخصه ،  
وقصه علينا من خلقه العظيم ونصه ، عند رسم مدائحه يوجد المعول ، وفي الثناء  
عليه يُستقصرُ الكلام الطول ، هو الآخر في ديوان الرسالة والأول ، وله  
في الفضيلة ، وقبول الوسيلة ، النص الذي لا يؤول ، نوره صدع الظلم ، وظهوره  
رفع لدين الله تعالى العلكم ، بدأه الوحي وهو بحراء ، وأسر إليه سر تقدم الإسراء ،  
حتى إذا نصب له المعراج ، وتوقد في منارة السماء ذاك السراج ، ناجى الحبيب  
حبيبه ، وجلا عن وجه الجلاء جلايبه ، فتلقى ما تلقى ، لما علا وترقى ، ثم صدر  
عن حضرة القدس ، وجين هدايته ببهر سنا الشمس ، فشق لمعجزاته القمر ،  
ونهى بأمر ربه وأمر ، وأزال الجهالة ، وأزاح الضلالة ، وكسر منصوب الأوثان ،  
ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان ، وبنى الملة على قواعدها  
الخمس ، وأحيا دين إبراهيم وكان رُفاناً بالرمس ، فرفلت الحنيفية البيضاء في  
بردة الجدة ، وبيضت بيضاء غرتها أوجه الأيام المسودة ، وانتشرت الرحمة  
بنيها ، ومطرت الرحمة من سحب حبيها ، وافتنت الآيات الباقيات البيئات في  
مساقتها واتساقها ، وإشراقها في آفاقها واثلاقها .

« وشهد الحجر والشجر ، والماء من بين البنان يتفجر ، والظبية والضب ،  
والجذع المشتاق الصب ، والشاة والبعر ، والليث إذا هداً أو سمع منه الزئير ،



والحي والحمد ، والقصّة والزاد ، بأن محمداً رسول الملك الحق ، والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق ، وصاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض المورود ، والقول المسموع ، والذكر المرفوع ، والصدر المشروح ، والفخر الباهر الواضح ، والأنوار المتناقلة ، والآثار المتداولة ، والنبوة التي عهدُها تقادم ، من قبل خلق آدم ، والمزية المعروف قدرها الجليل ، المقبول فيها ما دعا به الخليل ، والرتبة التي استشرف إليها الكليم ، حتى قال له ﴿ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٤) ربُّه الكريم ، والبشارة التي كان بها يصيح حين يسبح ، روح الله تعالى وكلمته عيسى المسيح ، والشفاعة التي يرجوها الرسل والأمم ، ويقرّع بها الباب المرتج المبهم ، فما لبينا المختار ، من علو المقدار ، واصطفاء الجبار ، والاختصاص بالأثرة ، والاستخلاص للحضرة ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً .

« وحسب هذا الوجود من الفضل الرباني والوجود الذي لم يزل عظيماً ، أن بعث الله تعالى فيه رسولاً رؤوفاً بالمؤمنين رحيماً ، عزيزاً على ربِّه الكريم كريماً ، بسرّه سجدت الملائكة لآدم تعظيماً ، وبذكره ينظم سلك المادح لحضرتة العلية تنظيماً ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلّم تسليمياً ، صلاة تتصل ما دار كأس محبته على أحبته . فكان مزاجه تسنيمياً ، وسلاماً يتزل دار دارين فيرسل بيضائعها إلى روضة الرضى نسيماً » .

ومن خطبه المرتجلة قوله سامحه الله تعالى :

« الحمد لله الذي حمده من نعمائه ، وشكره على آلائه من آلائه ، أحمده حمداً عارف بحق سنائه ، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه ، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والاستغناء به في كل آتائه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحد بعظمته وكبريائه ، المتقدس عما يقوله الملحدون في أسمائه . وأصلي على سيد ولد آدم ونخبة أنبيائه ، محمد المفضل على العالمين باجتماعه

واصطفائه ، المتقى من صميم الصميم وصریح الصریح بجملته<sup>١</sup> آباءه ، المرتضى الأمانة والمكانة بإبلاغ أمر الله وأدائه ، أرسله الله للناس كافة عموماً لا يتخصص باستثنائه ، وفضّله بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين ونظرائه ، ورقاه إلى الدرجات العلا وأنماه إلى سِدْرَةِ المنتهى ليلة إسرائه ، وحباه بالخصائص التي لا يضاهاى بها بهاء كماله وكمال بهائه ، وردّاه رداء العصمة فكانت عناية الله تكفنه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه<sup>٢</sup> ، ووفاه من حظوظ البأس والندى ما شهد بمزيتته على الليث والغيث في إباته وانهمائه ، صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الهدى ونجوم سمائه ، صلاة تتصل ما سمح البدر بائتلاق أنواره والقطر باندفاق أنوائه ، وسلّم تسليماً .

ومن نثره رحمه الله تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلّم ، وهي :

«السلام العميم الكريم ، والرحمة التي لا تبرح ولا تريم ، والبركة التي أولها الصلاة وآخرها التسليم ، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة ، المؤيدة بالعصمة والأيد والقوة ، ومثابة البر والتقوى فهي لقلوب الطيبين صفاً ومرّوة ، مقام سيد العالمين طرّاً ، وهاديبهم عبداً وحرّاً ، ومنقذهم من أشراك الهلاك وقد طالما ألقوا العيش ضنكاً والدهر مرّاً ، ومقر الأنوار المحمدية ، والبركات السرمدية ، أمتع الله تعالى الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها ، وكلاءة ظلّاتها العلية وأقيائها ، وأقر عين عبدها بلثم ثراها ، والانخراط في سلك من يراها .

«السلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا أبا القاسم ، سلام من يمدّ إليك يد الغريق ، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق ، ويتقطع أسفاً ويتنفس صعداً كلما ازدلف إليك فريق ، وعمرت نحوك طريق ،

١ ق : مجد .

٢ ورداه . . . ورائه : سقطت من ق .

ولا يفر صلاة عليك له لسان ولا يحف ريق .

« كُتِبَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ رَحَلَ الْمَجْدُونَ وَأَقَمْتَ ، وَاسْتَقَامَ الْمَسْتَعْمِدُونَ وَمَا اسْتَقَمْتَ ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ لُثْمِ ثِرَاكِ النَّبَوِيِّ ، وَلِمَحِ سِنَاكِ الْمَحْمَدِيِّ ، مَفَاوِزَ لَا يَفُوزُ بِقَطْعِهَا إِلَّا مَنْ طَهَرَ دَنْسَ ثَوْبِهِ ، بَمَاءِ تَوْبِهِ ، وَسِرِّ وَصَمِّ عَيْبِهِ ، بظَهْرِ غَيْبِهِ ، فَكَلَّمَا رُمْتَ الْمَتَابَ رُدِدْتَ ، وَكَلَّمَا يَمَّتْ الْبَابُ صُدِدَتْ ، وَقَدْ أَمَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى بِالْمَجِيءِ إِلَيْكَ ، وَالْوَفَادَةِ عَلَيْكَ ، وَمَنْ لِي بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالْآثَامَ تُنْشِي وَتُبْعِدُ ، وَالْأَيَّامَ لَا تُدْنِي وَلَا تُسْعِدُ ، وَبَيْنَ جَنِي أَشْوَاقٍ لَا يَزَالُ يَهْرَفِي مِنْهَا الْمُقِيمِ الْمُقْعِدِ ، وَلِئِنْ كُنْتُ مَمَّنْ خَلَفْتَهُ عَيْبُهُ ، وَأَوْبَقْتَهُ ذَنْبُهُ ، وَلَمْ يَرْضَ لِلْوَفَادَةِ وَهُوَ مَدْنَسٌ ، عَلَى ذَلِكَ الْمَقَامِ وَهُوَ الْمَطْهَرُ الْمُقَدَّسُ ، فَعِنْدِي مِنْ صِلَقِ مَحَبَّتِكَ ، وَحُبِّ صَحْبَتِكَ ، وَالْإِعْتِلَاقِ بِذِمَّتِكَ ، مَا يُقَدِّمُنِي وَإِنْ كُنْتُ مَبْطِئًا ، وَيَقْرِبُنِي وَإِنْ كُنْتُ غَاطِئًا .

« فَاسْتَفْعَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي زِيَارَتِكَ فَهِيَ أَفْضَلُ الْمَنَى ، وَتَوَسَّلَ لِي إِلَى مَوْلَى بَيْنَ فَضِيلَتِكَ ، وَتَقَبَّلَ وَسِيلَتِكَ ، فِي النِّقْلَةِ مِنْ هُنَاكَ إِلَى هُنَا ، وَاقْبَلْنِي وَإِنْ كُنْتُ زَانِفًا ، وَأَقْبَلْ عَلَيَّ وَإِنْ أَصْبَحْتُ إِلَى الْإِثْمِ مَتَعَجَانِفًا ، فَأَنْتَ عِمَادُ أُمَّتِكَ جَمِيعًا وَأَشْتَاتًا ، وَشَفِيعُهُمْ أَحْيَاءُ وَأَمْوَاتًا . وَمَنْ نَأَتْ بِهِ الدَّارَ ، وَقَعَدْتَ بِعِزِّهِ الْأَقْدَارَ ، ثُمَّ زَارَ خَطُّهُ وَلَفْظُهُ ، فَقَدْ عَظُمَ نَصِيبُهُ مِنَ الْخَيْرِ وَحَظُّهُ ، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ سَابِقًا فَعَسَى أَنْ أَكُونَ مُصَلِّيًّا ، وَإِنْ لَمْ أُعَدِّ مُقْبِلًا فَلَعَلِّي أُعَدُّ مُؤَلِيًا ، وَوَحَقُّكَ وَهُوَ الْحَقُّ الْأَكِيدُ ، وَالْقَسَمُ الَّذِي يَبْلُغُ بِهِ الْمُقْسِمُ مَا يَرِيدُ ، مَا وَخَدَّتْ إِلَيْكَ رِكَابَ ، إِلَّا وَلِلْقَلْبِ إِثْرُهَا التَّهَابُ ، وَلِلدَّمْعِ بَعْدَهَا سَحٌّ وَانْسِكَابُ ، وَيَا لَيْتَنِي مَمَّنْ يَزُورُكَ مَعَهَا وَلَوْ عَلَى الْوَجْتَيْنِ ، وَيَحْيِيكَ بَيْنَ رِكَبِهَا وَلَوْ عَلَى الْمُقْلَتَيْنِ ، وَمَا الْغَنَى دُونَكَ إِلَّا بؤْسٌ وَإِقْلَالٌ ، وَلَا الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَتْ إِلَّا سَجُونَ وَأَغْلَالٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُنُّ عَلَى كِتَابِي بِالْوَصُولِ وَالْقَبُولِ ، وَعَلَى بِلْحَاقِي بِبِرْكَتِكَ وَلَوْ بَعْدَ طَوْلِ .

« ثُمَّ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبِرَكَاتِهِ عَلَيْكَ يَا سَيِّدَ الْخَلْقِ ، وَأَقْرَبِهِمْ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَمَوْلَاهُ يَأْخِرَازَ قَصَبِ السَّبْتِ ، وَمَنْ طَهَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِثْوَاهَ وَقَدَّسَهُ ، وَبَنَاهُ عَلَى

التقوى والرضوان وأسسه ، وآتاه من كل فضل نبوي أعلاه وأسناه وأنفسته ،  
وعلى ضجيعيك السابقين لمهاجرين وأنصارك ، الفائزين بصحبتك العلية وجوارك ،  
وعلى أهل بيتك المطهرين أوائل وأواخر ، الشهرين مناقب ومفاخر ، وصحابتك  
الذين عزروك ووقروك ، وآووك ونصروك ، وقدموك على الأنفس والأموال  
والأهل وآثروك ، وأقرئك سلاماً تنال بركته مَنْ مَضَى مِنْ أُمَّتِكَ وَغَيْرِ ،  
ويخص بفضل الله تعالى وجاهك من كتب وَسَطَّرَ ، إن شاء الله تعالى .

« كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى ، اللائد بحرمك الأيمن الأوفى ،  
المتأخر جسماً المتقدم نطقاً ، فلان ، والسلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك  
وسلم تسليمًا كثيرًا ورحمة الله تعالى وبركاته » .

وله من خطبة طويلة : « ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الصفوة المجتبي ،  
الكريم أمّاً طاهرة وأباً ، المختار من الطيبين مباركاً طيباً ، المصطفى نبياً إذ كان  
آدم بين الماء والطين مُتَقَلِّبًا ، المتقدم بمقام تأخر عنه مقام الملائكة المقربين ،  
انتخبه الله وانتجبه ، وأظهره على غيبٍ عن غيره حَجَبِيَّةٍ ، وشرفه في الملا  
الأعلى وأعلى رُتَبِهِ ، وخطَّ اسمه على العرش سَطْرًا وكتبه ، فهو وسيلة النبيين ،  
والمرشح أولًا لإمامة المرسلين ، بعثه ربّه لحَمِّ الرسالة ، ونعته بنعت الشرف  
والجلالة ، وأيده بالحجة البالغة والدلالة ، وجعله نوراً صادعاً لظلام الضلالة ،  
وأثنى في ذكره الحكيم ، على خُلُقِهِ العظيم ، فما عسى أن يبلغ بعدُ ثناء المُثَنِّين ،  
بفضله التصريح وإليه الإشارة ، وبه سبقت من إبراهيم الدعوة ومن عيسى  
البشارة ، وعليه رافت من صفة الرؤوف الرحيم الحلية والشارة ، وهو المخير  
بين الملُك والعبودية فاختر العبودية بعد الاستخارة والاستشارة ، فبتواضعه  
حل بمكان عند ذي العرش مكين أسرى به ربه إليه ، ووفد أكرم وفادة عليه ،  
وأدناه قاب قوسين لديه ، ووضع إمامة الرسالة العظمى في يديه ، وقال له  
﴿ اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (الحجر : ٩٤) فصعد بأمر الله

صَدْعًا ، وَأُوتِيَ مِنَ الْمَثَانِي سَبْعًا ، وَمِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ آيَاتًا وَإِنْ كَانَ أُوتِيَ  
مُوسَى تَسْمًا .

«فما مشيُ الشجرِ إليه يجرُ عروقهُ إلا كرجوعِ العصاحية تسمى ، وما تفجرُ  
الحجرُ بالماء بأعجب من بنانه نبعت بالعذب الفرات نبعًا ، فارتوى منه خمسمائة  
وقد كان يكفي آفأ فكيف المثين ، وكم لهُ عليه الصلاة والسلام من معجزة  
تبهر ، وآية هي من أختها أكبر ، رجعت لهُ الشمس وانشقَّ القمر ، وكلمته  
الضب وأخبر به الذئب وسلّم عليه الشجر والحجر ، وكان للجذع عند فراقه  
إعلانًا بوجوده واشتياقه أنة وحين ، أعطي من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر ،  
وكانت له في الغار آيات بيّنات خفي بها على القوم الأثر ، وارتح لمولده إيوان  
كسرى وخمدت نار فارس وكان ضرهما يتسعر ، وأتته أخبار السماء فما عمي  
في الأرض الخبر ، فحدث عن الغيوب وما هو على الغيب بضنين ، وجعل له  
القرآن معجزة تُتلى ، يَبْلَى الزمانُ وهي لا تَبْلَى ، وتعلو كلماتها على الكلم  
ولا تُعلَى ، وتجلّي آياتها في عين آيات الشمس حين تُجلى ، فيتوارى منها  
بالحجاب حاجب وجبين ، بهر إعجاز التنزيل العلي ، وظهر به صدق النبي  
العربي ، فكم نادى لسان عزّه في الندى ، بأهل البديهة من الفصحاء والرويّ :  
قل فأتوا بسورة من مثله فلم يكونوا لها مستطيعين .

«لقد خص نبينا عليه السلام بالآيات الكبر ، والدلالات الواضحة الغرر ،  
والمقامات السامية المظهر ، والكرامات المخلّدة للمفخر ، فهو سيد الملاّ النبوي  
والمعشر ، وحامل لواء الحمد في المحشر ، وصاحب المقام المحمود والكوثر ،  
والشفيع المشفّع يوم يقوم الناس لرب العالمين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ،  
وذريته المباركين ، وصحابته الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، صلاةُ  
موصولة تتردد إلى يوم الدين ، وتصعد إلى السموات العلا فتكون كتابًا في  
عليّين ، وسلّم تسليمًا .

ومن ثره في خطبة قوله : «أيها الناس ، رحمكم الله تعالى ، أصبحوا

أَسْمَاعِكُمْ لِمَوَاعِظِ الْإَيَّامِ ، وَاعْتَبَرُوا بِأَحَادِيثِهَا اعْتَبَارَ أُولِي النُّهْيِ وَالْأَحْلَامِ ،  
 وَأُخْضِرُوا لِقَهْمِ مَوَادِّهَا أَوْعَى الْقُلُوبِ وَأَصَحَّ الْأَفْهَامِ ، وَانظُرُوا آثَارَهَا بِأَعْيُنِ  
 الْمُسْتَيْقِظِينَ وَلَا تَنْظُرُوا بِأَعْيُنِ النَّوَّامِ ، وَلَا تَخْدَعْنَكُمْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا بِتَهَاوِيلِ  
 الْإِبَاطِيلِ وَأَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ ، وَلَا تَنْسِينَكُمْ خُدْعُهَا الْمَوْهَةَ وَخِيَالَاتِهَا الْمِثْلَةَ  
 مَا خَلَا مِنْ مَقَالَتِهَا فِي الْأَنَامِ ، فَهِيَ دَارُ انْتِيَابِ النَّوَائِبِ ، وَمَصَابِ الْمَصَائِبِ ،  
 وَحُدُوثِ الْحَوَادِثِ وَالْإِنَّمَاءِ الْآلَامِ ؛ دَارٌ صَفْوَهَا أَكْدَارٌ ، وَسَلْمَهَا حَرْبٌ تَدَارٌ ،  
 وَأَمْنُهَا خَوْفٌ وَحَذَارٌ ، وَنَظْمُهَا تَفْرُقٌ وَانْتِشَارٌ ، وَاتِّصَالُهَا انْقِطَاعٌ وَانْصِرَامٌ ،  
 وَوُجُودُهَا فَنَاءٌ وَانْعِدَامٌ ، وَبِنَاؤُهَا تَضَعُّضٌ وَانْهَادٌ ، يَنَادِي كُلُّ يَوْمٍ بِنَادِيهَا  
 مَنَادِي الْحِمَامِ ، فَلَا قَرَارَ بِهَذِهِ الْغَرَارَةِ<sup>١</sup> وَلَا مَقَامَ ، وَلَا بَقَاءَ لِسَاكِنِيهَا وَلَا دَوَامَ .  
 « فَبَسَّتِ الدَّارَ دَارًا لَا تَدَارِي ، وَلَا تُقِيلُ لِعَائِرِهَا عِثَارًا ، وَلَا تَقْبَلُ لِمُعْتَدِرِ  
 اعْتِدَارًا ، وَلَا تَقِي مِنْ جُورِهَا حَلِيفًا وَلَا جَارًا ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ عَهْدٍ وَلَا ذِمَامٍ ،  
 كَمْ فَتَكَتْ بِقَوْمٍ غَافِلِينَ عَنْهَا نِيَامَ ، كَمْ نَازَلَتْ بِنَوَازِلِهَا مِنْ قِيَابِ وَخِيَامِ ، كَمْ  
 بَدَلَتْ مِنْ سَلَامَةِ بَدَاءٍ وَمِنْ صِحَّةِ بَسْقَامٍ ، كَمْ رَمَتْ أَغْرَاضَ الْقُلُوبِ بِمُضْمِيَّاتِ<sup>٢</sup>  
 السَّهَامِ ، كَمْ جَرَدَتْ فِي الْبَرَايَا لِلْمَنَائِيَا مِنْ حُسَامٍ ، كَمْ بَدَدَتْ بِأَكْفِ النَّائِبَاتِ  
 النَّاهِبَاتِ مِنْ عَطَايَا جِسَامِ ، كَمْ أَبَادَتْ طَوَارِقَ حَوَادِثِهَا مِنْ شَيْخٍ وَكَهْلٍ وَغَلَامٍ .  
 لَا تَبْقَى عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا تَرْتِي لُوَالِدٍ وَلَا وَلَدٍ ، وَلَا تَخْلُدُ سُرُورًا فِي خَلْدٍ ، وَلَا  
 يَمْتَدُّ فِيهَا لَأَمَلٍ أَمَدٌ ، بَيْنَمَا يُقَالُ قَدْ وَجَدَ ، إِذْ قِيلَ قَدْ فَقَدَ . بُعْدًا لَهَا قَدْ طُبِعَتْ  
 عَلَى نَكْدٍ وَكَمَدٍ ، فَالْفَرْحُ فِيهَا تَرَحٌّ ، وَالْحَبْرَةُ عِبْرَةٌ ، وَالضُّحْكُ وَالِابْتِسَامُ ،  
 بِكَاؤٍ وَأَدْمَعِ سِجَامٍ . تَفْرُقُ الْأَحْبَةَ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ ، وَتَسْكُنُ الْوَحْشَةَ مُؤَنَسٍ  
 رِبَاعِهِمْ ، وَتَبِيحُ بِالْحِمَامِ حَمَى الْأَعْزَةِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى امْتِنَاعِهِمْ ، وَتَسْتَحْثُّ رِكَابَهُ  
 الْخَلَائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِمْ ، إِلَى مَصِيرِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَارْتِجَاعِهِمْ ،

١ ق : القرارة .

٢ ق : بمزاياها بمضميات .

فيسرون طوع الزمام ، ويلقون مقادة التذلل والاستسلام ، حتى يلجأوا بالرغام ،  
 ويتزلوا بطون الرجام ، ويحلّوا الوهد بعد المقام السام ، فلا ناج من خطبها العظيم  
 ولا سليم ، يتساوى في حكم المنية الأغر والبهيم ، والأعز والمضيم .  
 «ولو أنه ينجو من ذلك مجد صميم ، وجدّ كريم ، وحظ عظيم ، ومضاء  
 وعزيم ، ومزية وتقديم ، وحديث في الفضل وقديم ، وشرف لسمك السموات  
 مُسام ، وعلّي على ساق العرش المجيد ذو ارتسام ، لنجا حبيب الملك العلام ،  
 وسيد السادات الأعلام ، وصفوة الصفوة الكرام ، وخاتم الأنبياء ولبنة التمام ،  
 وصباح الهدى ومصباح الظلام ، والأبيض المُستَسقى به غيثُ الغمام ، ثمال  
 الأرامل وعصمة الأيتام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، لكن مع قدره الجليل  
 وفضله الجلي ، أقدم الموت على جانبه العلي ، وتقدم ملك الموت لقبض روحه  
 القدسي وتغيب في الثرى جمال ذلك الوجه البهي ، وتفيض ماء السماء والندى ، لملك  
 السماحة النبوية والندى ، وأصيب المسلمون وأعظم بها مصيبة بنيهم العربي ،  
 الهاشمي القرشي ، فيا له وللإسلام ، من مصاب أسلمنا للحزن أيّ إسلام ،  
 وأسأل مياه الدموع عن احتراق للضلوع واضطرام ، وأرانا أن الأسي في رزية  
 لخير البرية واجب وأن التأمي حرام .

«وهل يسوغ الصبر الجميل ، في فقيد بكنه الملائكة وجبريل ، وكثر له في  
 السموات السبع النحيب والعويل ؟ انقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتزير ،  
 وعظمت الرزية به أن يؤدي حقيقتها الوصف<sup>١</sup> والتمثيل ، غداة أقفر منه الرّبع  
 المُحيل ، وأوحش من أنسه السفح والنخيل ، وكان من تلك الروح الطاهرة  
 الوداع والرحيل ، وقامت البتّولُ تندب أباهها بقلب قريح وجفن دام ، وتنادت  
 الأمة مات الرسول ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والترام ، وحارت الألباب  
 والعقول فلا صبر هنالك لقد زلت عن الصبر الأقدام . ولما نُعمت إليه صلى الله عليه

١ الوصف : سقطت من ق .

وسلم نفسه ، وأن أن تأفل من تلك المطالع شمسه ، آذن أمته بالفراق وأعلمهم ،  
 وناشدهم في أخذ القصاص وكتهم ، مخافة أن يمضي إلى الملك الحق ، وعليه  
 تباعة لأحد من الخلق ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام ، من صفات جائرٍ للأمة  
 ظلام ، ولكنه تعريف من نبي الرحمة بما يجب وإعلام ، ثم استمر به صلوات  
 الله وسلامه عليه وتمادى ، وزاد به السقم المتتاب وتمادى ، حتى واره ملكه ،  
 وخلا منه ربه ومسجله ، فعمّ الحزن والاكتئاب ، وتوارى النور فأظلم  
 الجناب ، وعاد الأصحاب ، وكأنما دموعهم السحاب ، فقالت فاطمة وقد رابها  
 من دفن أبيها الكريم ما راب : أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم التراب ؟ فكان كلامها للقلوب المفجعة كلام ، وللعيون المفجرة  
 بالدموع انسفاح وانسجام .

« وفي مثل هذا الشهر شهر ربيع ، المشيد بذكر الأشجان المذيع ، كانت وفاة  
 هذا النبي الهادي الشفيع ، وانتقاله إلى الملا الأعلى والرفيق الرفيع ، حين ناداه ربه  
 إلى قربه ، فلبى بشوق قلبه تلبية المهطع المطيع ، وحنّ إلى حضرة القدس فانظم  
 حين حل بها ما كان من شمله الصديق ، وانتظر من صنع الرب جميل الصنيع ،  
 وإنجاز وعد الشفيع في الجميع ، إذ أعطي لواء الحمد وقام محمود المقام ، ووقف  
 على الحوض ينادي : هلموا إليّ أروكم من العطش والأوام .

« اللهم اسقنا من حوضه المورود ، وشرقنا بلوائه المعقود ، وشفعه فينا في  
 اليوم المشهود ، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللحد ، اللهم اجعله لنا  
 تعزية من كل مفقود ، وأوجد لنا من بركاته أشرف موجود ، وجازه عنا بما  
 أنت أهله من فضل وإحسان وجود ، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابه الرُكّع  
 السجود ، واجعلنا معهم في الجنة دار الخلود ودار السلام . واخصصهم عنا  
 بأكرم نحية وأفضل سلام ، وصلّ عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أيّ  
 استلام ، وتتنظم له كرامات إحسانك أيّ انتظام .

« فصلوات الله عليه ، وأطيب تحياته ورحمته تتوالى لديه ، وأجزل بركاته ،



ما تجدد في ربيع ذكر وفاته ، وتمهد كهف القبول لطالبي فضله وعفاته ، وتعزى به كل مصاب في مصيباته ، وترجى شفاعته كل محب فيه متبع هداياته ، وتوفرت للمصلين عليه والمسلمين على جنباته ، حظوظ من برّ الله تعالى وأقسام ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦) اللهم صلّ عليه من نبي لم يزل بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، اللهم صلّ عليه من نبي أوجبت حبه وعظّمته تعظيماً ، اللهم صلّ عليه من نبي صليت عليه تجلّة وتكريماً ، وأمرتنا بالصلاة عليه لإرشاداً وتعليماً ، فلنا بأمرك اقتداء واثمام ، وبحمدك على ما هديتنا افتتاح واختتام ، وكلامك يا ربنا أشرف الكلام ، ولوجّهك وحده البقاء والدوام ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٧) ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٥) « انتهى .

وترجمة ابن الجنان واسعة جداً ، وكلامه في النبويات نظماً ونثراً جليل ، رحمه الله تعالى .

وقال لسان الدين في « الإحاطة » بعد أن عرف به وأورد له الرسالة ما صورته : ومحاسنه عديدة ، وآماده بعيدة ، ثم قال : إنه انتقل إلى بجاية فتوفي بها في عشر الخميس وستمائة ؛ انتهى .

وقال صاحب « عنوان الدراية » في حق ابن الجنان المذكور ما ملخصه :  
 الفقيه الخطيب ، الكاتب البارع الأديب ، أبو عبد الله ابن الجنان ، من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان ، وجودة الخط وحسن الضبط ، وهو في الكتابة من نظراء الفاضل أبي المطرف ابن عميرة المخزومي ، وكثيراً ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء ، ولا يصل إليه إلا القليل من البلغاء ، ونثره ونظمه

كلته حسن ، ونظمه غزير ، وأدبه كثير ، ومن ذلك قصيدته الدالية التي مطلعها :

يا حاديَ الركبِ قفْ بالله يا حادي وارحمْ صبايةَ ذي نأيٍ وإبعادِ

وله أيضاً :

تركُ التزاهةَ عندنا أدى إلى وصفِ التزاهة  
ما ذاكَ إلا أنها تدعو الوقورَ إلى الفكاهة  
وإذا امرؤُ نبذَ الوقا رَفقد تلبسَ بالسفاهة

### [ مخمسات من المدائح النبوية ]

ومن بديع نظم ابن الجنان رحمه الله تعالى هذا التخميس في مدح سيد  
الوجود ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم<sup>١</sup> :

اللهُ زاد محمداً تكريماً  
وحبَّاهُ فضلاً من لدنه عظيماً  
واختصَّهُ في المرسلين كريماً

ذا رافةٍ بالمؤمنين رحيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

جلّت معاني الهاشميِّ المرسلِ  
وتجلّت الأنوارُ منهُ لمجتلي  
وسمّا بهِ قدرُ الفخارِ المعتلي

فاحتلّ في أفقِ السّماءِ مُقيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

١ وشرف وكرم : سقطت من ق .

حاز المحامدَ والمادحَ أحمدُ  
وزكت مناسبة وطاب المحتدُ  
وتأثَّلتُ علياؤه والسؤددُ

مجداً صميماً حادثاً وقديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

شمسُ الهداية ، بدرها المتأخُّ  
قطبُ الجلالة ، نورها الوضاحُ  
غيثُ السماحة للندي يرتاحُ

يروى بكوثره الظماء الهيما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

تاجُ النبوة ، خاتمُ الأنبياء  
صفوُ الصريح ، خلاصةُ العلياء  
نجلُ الذبيح ، سلالةُ العلماء

بُشرى المسيح ، دعاء إبراهيم صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فخرُ لآدم قد تقادم عصره  
من قبل أن يدري ويجرى ذكره  
سرُّ طوّاهُ الطينُ فهمَ نشره

معنى السجودِ لآدمِ تفهيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لله فضلُ المصطفى المختارِ  
ما إن له في المكرمات مُجاري  
ولا مبارٍ باختصاص الباري

بالحقِّ قدّم مجدهُ تقدّياً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أوصافُ سيّدنا النبيِّ الهادي  
ما نالها أحدٌ من الأجدادِ  
فالرُّسل في هدي وفي إرشادِ

قد سلّموا لبيّننا تسليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

آياته بهرت سننا وسناء  
وأفادت القمرين منه ضياء  
وعلت بأعلام الظهور لواء

فهدى به الله الصراط قويمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ذنت النجومُ الزُّهُرُ يومَ ولادته  
ورأت حلّمةً آيةً لسيادته  
وتحدّثت سعدٌ بذكرِ سعادته

فتّضاءلوا نعمَ اليّتمِ يتيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لمّا ترعرع جاءهُ المَلَكُانِ  
بالطستِ فيها حكمةُ الرحمنِ  
فاستخرجا القلبَ العظيمَ الشانِ

منهُ وطهرتُم عادَ سليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

كرمتُ مناشي أحمدَ خيرِ الوري  
وجرى له القلمُ العليُّ بما جرى  
ما كان ذلكمُ حديثاً يُفترى

لكنهُ الحقُّ الجليُّ رسوماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ما زالَ برهانُ النبيِّ يُلوحُ  
يغدو به الإعجازُ ثمَّ يروحُ  
حتى أناهُ بعدَ ذاكَ الروحُ

يوحى لهُ وحي الإلهِ حكيمًا صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

شهدتُ له بمزية التفضيلِ  
سُورٌ وآياتٌ من التنزيلِ  
وصلاةُ خالقه أدلُّ دليلِ

فأفهمهُ واسمع قولهُ تعظيما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

إنَّ الرسولَ المعتلي المقدارِ  
لمؤيدٌ من ربِّه القهارِ  
بالمعجزاتِ جلّت عمى الأبصارِ

وشفت من آدواء الضلال سقيما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

كم شاهدٍ لمحمدٍ بنبوتهُ  
في أيدٍ تأييدِ الإلهِ وقوتهُ  
فبذاك أعلى الله دعوةَ حجتهُ

فمضت حساما صارما وعزيمًا صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

البدْرُ شقَّ لهُ ليُظهرَ صدقهُ  
والشمسُ قد وقفت تعظمُ حقّهُ  
والمزنُ أرسلَ إذ توصلَ ودقهُ

فاخضرَّ ما قد كان قبلُ هشيمًا صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

والماء بينَ بَنَانِهِ قَدْ سَالَ  
عَذْباً مَعِيناً سَائِغاً سَلْسَلَا  
كَتْدَاهُ يَمْنَحُ رَفْدَهُ مِنْ سَالَ

وَيُنِيلُ رَاجِيَهُ النَّوَالِ جَسِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

بِرَكَاتِهِ أُرْبِتْ عَلَى التَّعْدَادِ  
كَمْ أَطْعَمْتَ مِنْ حَاضِرِينَ وَبَادِي  
مِنْ قِصْعَةٍ أَوْ حَثِيَةٍ مِنْ زَادِ

رِزْقاً كَرِيماً لِلجِيُوشِ عَمِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

سَجَدَ البَعِيرُ لَهُ سَجُودَ تَذَلُّلِ  
وَشَكَكَ إِلَيْهِ بِمِرْقَةٍ وَتَمَلُّلِ  
وَالشَّاةُ قَالَ ذِرَاعَهَا : لَا تَأْكُلِ

مَنْتِي فَإِنِّي قَدْ مَلَكْتُ سَمُومَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

وَالفِصْنُ جَاءَ إِلَيْهِ يَمْشِي مُسْرِعَا  
وَالصَّخْرُ أَفْصَحَ بِالتَّحِيَّةِ مَسْمَعَا  
وَالظُّبْيَةُ العَجْمَاءُ فِيهَا شُفْعَا

وَالضَّبُّ كَلَّمَ أَحْمَدَا تَكْلِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

وَالجَذْعُ حَنَّ لَهُ حَنِينَ الوَالِهِ  
يَبْدِي الَّذِي يَخْفِيهِ مِنْ بِلْبَالِهِ  
أَفْلَا يَحْنُ مَتِيماً بِجَمَالِهِ

يَشْتَاقُ وَجْهاً لِلنَّبِيِّ وَسِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

ما بالنا نسلو وحبٌ حيينا  
يقضي بيثٌ غرامنا ونجينا  
لو صبح في الإخلاص عقد قلوبنا

لم ننسَ عهداً للرسولِ كربما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أين الدموع نُفِضُهَا هتانا  
أين الضلوعُ نُقِضُهَا أشجانا  
حتى نقيمَ على الأسي برهانا

لتممِ إرشادنا تَتَمِّمِا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أو ليس هادينا إلى سُبُلِ الهدى  
أو ليس منقذنا من أشراكِ الردى  
أو ليس أكرمَ من تعمّمَ وارتدى

أو لمْ يَكُنْ أركي البريّةِ خيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ذاك الشفيعُ مقامه محمودُ  
ولو اوزه بيدِ العلا معقودُ  
فإذا توافقتَ للحسابِ وفودُ

قالوا : تقدّمْ بالأنامِ زعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فيقومُ بالبابِ العليِّ ويسجدُ  
ويقولُ : يا مولاي آنَ الموعدُ  
فيجابُ : قلْ يُسْمَعُ إليك محمدُ

وثريركَ منا نضرةٌ ونعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أعظمُ بعزِّ محمدٍ وبجَاهِهِ  
أكرمُ به متوسلاً لإلهِهِ  
شربتُ كرامُ الرُّسلِ فضلَ مياهِهِ

فعدتُ تعظُّمُ حقَّه تعظيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا سامعي أخباره ومفاخرِهِ  
ومُطالعي آثاره ومآثرِهِ  
ومؤملي وافي الثوابِ ووافرِهِ

إن شتّمُ فوزاً بذاك عظيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

قلت : وكثيراً ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس ،  
وأضيف إليها قبلها أخرى لبعض أهل المغرب الذين لهم في منازل الأمداح  
النبوية مَقِيلٌ وتَعْرِيسٌ ، وهي قصيدة ميلادية كأنّما لم ينظمها مؤلفها إلاّ مقدّمة  
لهذه القصيدة الفريدة ، وهي :

اسمعُ حديثاً قد تضمّن شرحُهُ روضاً من الإيناس أبتغ دوحُهُ  
فيه الشفاء لمن تكاثر برّحُهُ وافي ربيعٌ قد تعطرَ نفحُهُ  
أذكي من المسكِ الفتيق نسيماً

شهرٌ حوى بوجود أحمد أسعداً بالمصطفى بين الشهور تفرّداً  
يا ما أجلّ سنا علاه وأمجداً لولادة المختار أحمد قد غداً  
يزهو به فخراً تراه عظيماً

يا مَنْ بأدمعٍ مُقلّتيه يَغْتَندي كم ذا تنادي حسرةً : مَنْ مُنقذي  
وتقول للزفراءِ : هل من منفذٍ بُشري بشهرٍ فيه مولده الذي  
سرّ الزمان علوه تعظيماً

١ ق : يز .



يا ليلة رُفعت بأحمد حُجُبُها لَمَّا دنا بعد التباعِدِ قريبا  
وتطلعت للسعدِ فينا شُهَبُها ضياءت لها شرقُ البلادِ وغربها  
وتأنتقت أرجاؤها تنعيما

أسدى إليك الدهر حُسْنُ صنيعه وحبّاك من غضبِ الجنى ببيدعه  
وافى هلال محمدٍ بريعه فاعتزّ أمر الله عند طلوعه  
وغدا به دين الإلهِ قويا

نظم الزمانُ بجيدِ عمرِكِ درّةً فاشكرُ ماثره وواصلِ برّةً  
وافاك بالسرِّ المصونِ فسرّه واعرف لهذا الشهرِ حقاً قدره  
فلقد غدا بين الشهورِ كريما

يا صاحِ جاءت بالأمايِ أسعدُ وأطلّ بالبشرى الكريمةَ مولدُ  
هذا ربيعٍ فيه أنجز موعدُ شهرٍ كريمٍ جاء فيه محمدُ  
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ثم قلت أنا عند نخمِ درّسِ « الشفا » ، موطناً لقصيدة ابن الجنان المذكور  
ولعذب براعتها مرتشفا ، ما نصه والأعمال بالنيات :

انشقّ أزاهر عن فنونِ رياضِ للعلمِ واكرع من عذابِ حياضِ  
واسقِ الرياضِ بذكره الفياضِ واحفظُ كلاماً للإمامِ عياضِ  
قد تمّت أقسامه تنعيما

للهِ روضٌ منه أبنع دوحه يجنى به من الكريمِ ومنحه  
فهو الشفاء لمن تكاثر برحه مسك الختام به تعطر نفعه  
فشذاه في الأرجاء صار شميما

فاضت علينا من هداه عوارفُ زهرٌ وأنوارٌ وظلٌّ وارفُ  
ونمارقٌ مصفوفةٌ ومطارفُ يا حُسْنُ ما أبداه فذُّ عارفُ  
دُرّاً بأسلاكِ الحديثِ نظيما

لمْ لا وبالمملكِ الشقيعِ تشرفا خيرُ البريةِ ركنُ أربابِ الصفا  
من أسعدِ الراجي وقصداً أسعفا طهَ النبيّ الهاشميّ المصطفى  
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

وقد رأيت بعد وصولي إلى هذا الموضع من هذا الكتاب أن أذكر قصيدة  
ابن الجنان المذكور في روي تلك القصيدة غير مخمسة مستقلة بنفسها ، وهي قوله  
رحمه تعالى :

صلّوا على خيرِ البريةِ خيما صلّوا على من شرفتُ بوجوده  
أرجاء مكةَ زمزماً وحطيميا صلّوا على أعلى قريشٍ منزلاً  
بذراه خيّمَتِ العُلا نخيما صلّوا على نور تجلّى صبحه  
فجلا ظلاماً للضلالِ بيما صلّوا على هادٍ أرانا هديه  
نهجاً من الدينِ الحنيفِ قويماً صلّوا على هذا النبيّ فإنه  
من لم يزلْ بالمؤمنينِ رحيماً صلّوا على الزاكي الكريمِ محمدِ  
ما مثله في المرسلينِ كريماً ذلكَ الذي حاز المكارمَ فاغتندتُ  
قد نُظمتُ في سلكه تنظيمياً من كان أشجعَ من أسامةَ في الوغي  
ولدى الندى يحكي الحيا تجسيماً طلقُ المحيا ذو حياءِ زانهُ  
وسطَ النديّ وزاده تعظيماً حكمتُ له بالفضلِ كلُّ حكيمةِ  
بدرَ الدُجى لقسيمه تقسيماً وبدت شواهد صدقه قد قسّمتُ  
وجهاً وسيماً للنبيّ وسيماً والشمسُ قد وقفت له لماً رأتهُ  
حتى الجمادُ أجابه تكليماً كم آيةٍ نطقتُ تصدّقُ أحمداً

والجدعُ حنَّ حنينَ صبِّ مغرمٍ  
 جلَّتْ مناقبُ خاتمِ الرُّسلِ الذي  
 وسمت به فوق السماء مراتبُ  
 فلهُ لواءُ الحمدِ غيرَ مدافعٍ  
 نرجوه في يومِ الحسابِ ، وإنّما  
 ما إنْ لَنَا إِلَّا وَسِيلَةُ حَبِّهِ  
 ولخير ما أهدي امرؤُ لنبيِّه  
 يا أيُّها الراجون منهُ شفاعَةٌ  
 أضحي للوعاتِ الفِراقِ غريماً  
 بالنورِ ختمَ والهدى نخيماً  
 بمقامِ صدقِ عزِّ فيه مقيماً  
 وله الشفاعةُ إذ يكون كليماً  
 نرجو لموقفهِ العظيمِ عظيماً  
 ونحيمةً تذكرو شَدّاً وشميماً  
 أَرَجُ الصلاةَ مع السلامِ جسيماً  
 صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وهذه قصيدة بديعة مخمسة من كلام الشيخ الأستاذ أبي العلاء إدريس بن موسى القرطبي<sup>١</sup> في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقف عليها أبو عبد الله ابن الجنان المذكور وقرظها بما سنذكره بعدها قريباً ، وهي :

أهلاً بكم يا أهل هذا النادي  
 أهدوا الصلاة إلى النبي الهادي  
 يندى نسيماً  
 مذكراً تسنيماً  
 أهلَ اعتقادِ الوعدِ والميعادِ  
 وصلُّوا السلامَ له مع الآبادِ

هو أولُ الشفعاء يومَ المحشرِ  
 بهت الحضورُ لهولِ ذلك المحضِرِ  
 قدْ هيَّمتْ  
 ألبابهم تهييماً  
 وسواه بينَ تقدُّمٍ وتأخُّرٍ  
 والكلُّ في الخطبِ العميمِ الأكبرِ

ذلك المقامُ الأشهرُ المحمودُ  
 فيه الشفاعةُ ذخرها موجودُ  
 فضل الكليمِ بهِ وإبراهيمِ  
 هو للنبيِّ محمدٍ موعودُ  
 درك المراد وحوضهُ المورودُ

<sup>١</sup> هو إدريس بن محمد بن محمد بن موسى الأنصاري القرطبي ، مال إلى العربية والآداب وأقرأ ذلك بقرطبة إلى أن تملكها الروم فخرج إلى سبتة وأقرأ هناك ؛ وكانت له مشاركة في النظم والنثر مع غلبة الانقباض عليه والصلاح ؛ توفي آخر سنة ٦٤٧ ( التكملة : ١٩٧ ) .

عيسى وموسى والخليل مروّعٌ من هولٍ مطلعٍ هنالك يَفْطَعُ  
فيقال أحمدٌ قلّ فإنك تَسْمَعُ فيقومُ بحمدِ ربّه فيشْفَعُ  
فضلاً من الرب العظيم عظيماً

يا أمةَ المختارِ أنتم أمةٌ والهولُ قد عمّ البسيطة يمه  
والأنبياء سواه كلُّهم مهتمّ تخلصُ مهجته وليس يهتمّه  
من كان في الدنيا عليه كريماً

صلى الإله على الذي صلى عليه عشرًا بواحدة يزكّيها لديه  
وأراه في الدارين قرّةَ ناظريةً يا قاصدين إلى وصولكم إليه  
راجين من أرحم القبول نسيماً

لولا وصيّةُ صاحبِ التنزيل أن لا يقالَ له غلّوا القيل  
قولُ الغلاةِ لصاحبِ الإنجيل لغلّوتُ في التعظيم والتبجيل  
عظمُ المكانةِ يوجبُ التعظيمًا

طوبى لقلبٍ قد تلالا إذ صفاً بالسرّ منه قد ثبت إذ هفا  
خُطّت به آياتُ حبِّ المصطفى فغداً لصاحبه بذلك مصحفاً  
يهدي إلى نهجِ النجاة قويمًا

فاقتُ علا ذكره إذ راقته حلى ملاً النبوّة أهم حين اعلى  
في ليلةِ الإسراءِ أعلى معلى كتب الإله له التقدم في العلا  
وعليّهم التفرّيض والتسليماً

وكذاك يسلم في الشفاعة كلّهم وعملهم عند الإله محامهم  
ظلّ النبيّ محمدٍ هو ظلهم يمشون تحت لوائه فيدلهم  
يندى عليهم بهجةً ونعيمًا

أوصافه من كل حسن أبهجُ العرفُ ينفحُ والسنا يتبلجُ  
فتأرج الأرجاء منهُ وتبهجُ فاقَ الزواهرَ نورها يتوهجُ  
والزهرُ نفّاحُ والنسيمُ وسيمًا

طلّقَ المحيّا منهلًا للنائلِ أنحى على الدنيا بزهدٍ كاملِ  
هو مثلُ الدنيا بظلِّ زائلِ لم تُرضيه حالُ النعيمِ الحائلِ  
ما حاول الترفيهَ والتنعيمًا

ما ورث المختارُ مالَ مؤملِ إلا جواهرَ في الكتابِ المتزلِ  
أشهى لقلبِ الناظرِ المتأملِ وأقرَّ إعجاباً لعينِ المجتليِ  
من كلِّ قيمةٍ مقتضٍ تقويمًا

وفقتَ يا مَنْ لم يخالف نصّهُ حزت الكمالِ وليس تخشى نقصهُ  
نهج الهدى قولُ النبي اقتصهُ بالوحي شرفه الإلهُ وخصهُ  
شرفاً على شرفِ السناء صميما

سبحان موحٍ لا يحدُّ له الكلامُ من قال ذات كلامِ خلاق الأنامِ  
خلّقُ فذلك آثمُ كلِّ الأنامِ ذاك الذي في الدين ليس له ذمامِ  
إلا ذمامٌ لا يزال ذميما

ضلَّ الذي يبغي الهدى ممّا سواه وهو ي به في كل مهواة هواءه  
من فارق الفاروق قد تبّت يداه حيران لم يهْد السبيلَ إلى هداه  
لا يعرف التحليل والتحرّما

بالمدح مجد المصطفى بتمته من حلّي أوصاف له نظمته  
لم أبلغ العشارَ إذ أحكمته بعضاً نسيتُ وبعضه أهمتته  
قلّدهُ جيد الزمان نظيما

لو فزت بالإحسان من حسانٍ .. وسجت أذيالي على سحبانٍ  
أو أيدتني لسن كل زمانٍ .. من كل ذي زعم عظيم الشأنِ  
ما كنت بالمعشار منه زعيماً

إدريسُ حفتك الحقوقُ خفوا .. هلاً خفت إلى الرسول خفوا  
وقريت بالزعم المموم ضيوا .. وشلوت أن هال الزمان صروفا  
مهلاً كفاك معلمي التعليماً

ثقةً بفضل الواحد القهار .. ملك الملوك مصرف الأعصار  
جعل النبي مكرم الآثار .. وأمدّه بالنصر والأنصار  
وأمّ نعمته له تميماً

هل أجلون بصري بكحل سناه .. يا سعد من كحلت به عيناه  
ظفرت يده ، وساعدته مناه .. لله ذاك الأفق ما أسناه  
كرم المحل فيقتضي التكريماً

ونصّ تقرّظ ابن الجنان على هذه القصيدة هو قوله :

ما زال كل حليف لله أضحي ولياً  
وللعلوم خليلاً .. وعن سواها خلياً  
يصوغ عقبان مدح للهاشمي حلياً  
ويوجب الحق فيه إجابته الأوليـاً  
ويقتفي في رضاه نهجاً جليلاً جلياً  
والكل أحظاهُ حظُّه .. فالفوز يُلْفَى ملياً  
لكن إدريس منهم حاز المكان العلياً

ولا يخفك أنه الترم في هذه القطعة ما لا يلزم من اللام قبل الياء ، رحمه

الله تعالى .

ولا بأس أن نورد هنا ما حضر من التخميسات الموافقة لتخميس ابن الجنان المذكور السابق أولاً في البحر والروي والمنحى الذي لا يضل قاصده ، وكيف لا وهو مدح<sup>١</sup> الجنب الرفيع العظيم النبوي .  
فمن ذلك قول أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي ، فإن بعضاً ذكر أنها من قوله لما أظهر الإسلام ، وهي لا تقتضي رفع الريبة فيه والاتهام<sup>٢</sup> :

جعل المهيمن<sup>١</sup> حباً أحمد شيمة<sup>٢</sup>  
وأتى به في المرسلين كريمة<sup>٣</sup>  
فغدا هواه على القلوب تيمة<sup>٤</sup>

وغدا هداه هديهم تميماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أبدى جبين<sup>١</sup> أيه شاهد نوره  
متجّت به الكهّان<sup>٢</sup> قبل ظهوره  
كالطير غرد<sup>٣</sup> معرباً بصفيره

عن وجه إصباح<sup>١</sup> بطل<sup>٢</sup> نسيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أنس<sup>١</sup> الرسالة بعد شدة نفرة  
متنجى البرية وهي في يد غمرة  
محبي النبوة والهدى عن فرة

فكأنما كفل<sup>١</sup> الرشد يتيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

١ ملح : سقطت من ق .

٢ لم أجد هذه الخمسة منسوبة لابن سهل الإسرائيلي إلا في النسخ ، ولم ترد في ديوانه ( ط . صادر

١٩٦٧ ) .

اللهُ أَوْضَحَ فَضْلَهُ فَتَوَضَّحَا  
وَاللَّهُ يَبِينُ حَبَّهُ فِي (وَالضَّحَى)  
وَالْجَذْعُ حَنَّ لَهُ هَوَى فَرَنْحَا

والمساء فاض بكفه نسيمًا صلوا عليه وسلموا تسليما

ربا الرواية عن علاه زكية  
نجواه ربانية ملكية  
أوصافه علوية فلكية

فإنخال شعري عندها تنجيما صلوا عليه وسلموا تسليما

احتث في السبع الطباق برآقه  
والأرض ولجمة تخاف فراقه  
سبحان من أدنى سرآه فساقه

شخصاً على ملك الملوك كريماً صلوا عليه وسلموا تسليما

فاشم ريحان القلوب الطيبا  
ودنا فاسمع يا محمد مرجبا  
إنني جعلتك جار عرشي الأقربا

إن كنت قبلك قد جعلت كليما صلوا عليه وسلموا تسليما

يا ليلة يجري الزمان فتسبق  
الحجب فيها والأرائج تفتق  
ما كان مسك الليل قبلك يعقب

١ ق : تفخيما ، وما أثبتته أنسب .



بُشْرَى مُحَمَّدٍ اسْتَفَادَ نَسِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

حَتَّى إِذَا اقْتَعَدَ الْبَرَقَ لِيَتَزَلَّ  
نَادَتْهُ أَسْرَارُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا  
يَا رَاحِلًا وَدَعَّعْتَهُ لَا عَن قَلْبِي

مَا كَانَ عَهْدُكَ بِالْغُيُوبِ ذَمِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

صَعَدَ النُّجُودَ وَسَارَ فِي الْأَغْوَارِ  
سَمَكَ السَّمَاءَ طَوْرًا وَبَطْنَ الْغَارِ  
مُتَقَسِّمًا فِي طَاعَةِ الْجَبَّارِ

مَا أَشْرَفَ الْمُتَقَسِّمَ وَالتَّقْسِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

الشَّافِعُ الْمُتَوَسِّلُ الْمُتَقَبَّلُ  
الْقَانِتُ الْمَدْتَّرُ الْمَزْمَلُ  
وَافِي وَظَهَرَ الْأَرْضِ دَاجٍ مِمَّحَلُ

فَجَلَا الْبَهِيمَ بِهِ وَأَرَوَى الْهَيْمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

دَفَعَتْ كِرَامَتَهُ الزُّنُوجَ عَنِ الْحَرَمِ  
وَدَعَاهُ جَبْرِيلُ الْمُتَزَّهُ فِي الْحَرَمِ  
وَعَزَّتْ لَهُ آيَاتُ نُونٍ وَالْقَلَمِ

خُلِقًا بِهِ شَهِيدَ الْإِلَهِ عَظِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

طَاوٍ يُفِيضُ الزَّادَ فِي أَصْحَابِهِ  
غَيْثٌ وَلَكِنْ كَانَ يُسْتَضْحَى بِهِ  
طَابَتْ ضَمَائِرُ قَلْبِهِ وَتَرَاهِ

منهُ بَسْرًا لَمْ يَكُنْ مَكْتُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يا شوقي الحامي الى ذاك الحمي  
فمتى أفضيه غراماً مغرماً  
ومتى أعانقه صعيداً مكرماً

بِضَمِيرِ كُلِّ مُوحَّدٍ مَلْثُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ومن ذلك قول بعض الوعاظ ، وأظنه من أهل المشرق :

جلَّ الذي بعثَ الرسولَ رحيمًا  
ليردَّ عَنَّا في المَعَادِ جحيمًا  
وبِهِ نُرَجِّي جَنَّةً ونعيماً

أضحى على الباري الكريم كريماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ما ضلَّ عن وحي الإله وما غوى  
حاشا رسول الله ينطق عن هوى  
الصادقُ الثقةُ الأمينُ بما روى

قَدْ نَالَ مِنْ رَبِّ السَّمَاءِ عِلْمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

وإني لهُ الروحُ الأمينُ مبشراً  
نادى به يا خيرَ مَنْ وطىء الثرى  
أجيبِ المهيمَنَ يا محمدُ كي ترى

ملكاً كريماً في السماء عظيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

فأجابه المختارُ حينَ دعا بهِ

ربُّ السموات العُلا لخطابه  
ركبَ البراقَ وقد أتى لجنابه

أسمى لهُ الروحُ الأمينُ نديماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

فمتى أرى الحادي يبشّرُ باللقا  
ويضمّه بانُ المحصبِ والنقا  
وأرى ضريحَ المصطفى قد أشرقاً

مولي حليماً لئنْ يزالَ رحيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

وأقولُ للزوّارِ قد نلتُ المنى  
يهنيكمُ طيبُ المسرةِ والهنا  
فاستبشروا من بعد فقيرٍ بالغي

فالله زادكمُ بهِ تكريماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

ثمّ الرضى عنّ آله الكرماءِ  
وكذاك عنّ أصحابه الخلفاءِ  
فهواهمُ ديني وعقد ولائي

قوماً تراهمُ في المعادِ نجوماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

ومنها قول بعض فضلاء المقاربة رحمه الله تعالى :

يا أمةَ الهادي المباركِ أحمدِ  
يهنيكمُ نيلُ الأمانِ في غدِ  
بمحمدٍ فزتمُ ومنّ كحمدِ

إن شتمتُمُ أن تدركوا التميماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

صلّوا على البدر المنير الزاهر  
صلّوا على المسك الفتيق العاطر  
صلّوا على الغصن البهي الناضر

وتنعموا بصلاتكم تنعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على منّ بالنبوة زبنا  
صلّوا على من بالكمال تمكنا  
بمحمد فزنا بإدراك المنى

فضلاّ منحنا حادثا وقديما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير اللائح  
صلّوا على الهادي الحبيب الناصح  
صلّوا على المسك الفتيق الفائح

لرشدٍ فهمّ واهدى تفهيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على منّ مجدهُ قد أسسا  
والماء بين بنانه قد بُجسا  
وأنت إليه سرّحةٌ حتى اكتسى

بفروعها إذ خيمتُ تخيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من كان يبصرُ من قفا  
وعليه سلّمتِ الجنادلُ والصفا  
والذئبُ قال صدقت أنت المصطفى

وشكا إليه بازلٌ قد ضيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ شَفَى بِالرِّبْقِ  
عَيْنَ الضَّرِيرِ وَلَدَغَةَ الصَّدِيقِ  
وَأَعَادَ طَعْمَ الْمَاءِ مِثْلَ رَحِيقِ

إِذَا مَجَّ فِيهِ الْعَنْبَرُ الْمُخْتَوِمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْمَلَائِكِ جَيْشَا  
وَوَدَّتْ تَظَلُّهُ الْعَمَامُ إِذَا مَشَى  
حُرِّسَتْ سَمَاءُ اللَّهِ لَمَّا أَنْ نَشَا

لِيَكُونَ سِرُّ حَبِيبِهِ مَكْتُومَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَيْهِ كُلَّ حِينٍ تَرْجَحُوا  
وَبِهَيْبِهِ مَهْمَا اهْتَدَيْتُمْ تَفْلَحُوا  
وَالْأَجْرُ يَشْمَلُكُمْ فَجِدُّوا تَنْجَحُوا

وَإِذَا أُرِدْتُمْ أَنْ يَكُونَ عَظِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا بِجَمْعِكُمْ عَلَى شَمْسِ الْهُدَى  
صَلُّوا عَلَى بَدْرِ يَزِينُ الْمَشْهَدَا  
صَلُّوا عَلَيْهِ بِهِ الرَّشَادُ تَهْتَدَا

وَالذِّكْرُ يَبَيِّنُ فَضْلَهُ تَفْخِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا بِإِخْلَاصٍ عَلَى خَيْرِ الْبَشَرِ  
صَلُّوا عَلَى مَنْ فَاقَ حَسَنًا وَاشْتَهَرَ  
وَنَمَتْ فِضَائِلُهُ وَشُقَّ لَهُ الْقَمَرُ

وَلَكُمْ دَلِيلٌ فِي عِلَاهِ أَقِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَيَّ مَنْ قَد رَأَى الرَّحْمَانَ  
بِالْقَلْبِ أَوْ بِالْعَيْنِ مِنْهُ عَيَانًا  
عَنْ قَابِ أَوْ أُذُنِي مَقَامِ كَانَا

فَخَذِ الْفَوَائِدَ كَيْ تَفَادَ عُلُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَيْهِ كَلُّكُمْ لَا تَسْأَمُوا  
وَتَبَرَكُوا بِصَلَاتِهِ وَتَنَعَّمُوا  
فَعَلَيْهِ صَلَّى الْأَنْبِيَاءُ وَسَلِّمُوا

شَرَفًا لَهُمْ إِذْ أَمَّهُمْ تَقْدِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يَا حَاضِرِينَ بَلِّغْتُمْ كُلَّ الْمَنَى  
عَنْ جَمْعِكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ذَهَبَ الْعِنَا  
وَالْيَكْمُ وَاللَّهِ قَدْ وَجَبَ الْهِنَا

بِمُحَمَّدٍ كَرَّمْتُمْ تَكْرِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

قُولُوا بِرَغَمِ مَعَانِدِينَ وَحُسْدِ  
كَيْ تَرَعَّمُوا أَنْفًا لِكُلِّ مَفْنَدِ  
صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

أَبْدَأْ وَزَادَ لِقُدْرِهِ تَعْظِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يَا رَبُّ يَا ذَا الْمَنِّ وَالْإِحْسَانِ  
جُدْ بِالرَّضَى وَالْعَفْوِ وَالْغَفْرَانِ  
لِلْوَالِدِينَ وَمَنْشَدِ الْأَوْزَانِ

وَالسَّامِعِينَ أَنْهَلَهُمْ تَعْنِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صلى عليه الله ما اجتمع الملا  
صلى عليه الله ما قطع الفلا  
صلى عليه الله ما انتجع الكلا

أبدأ وما رعت السّوامُ هَشِيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ومن ذلك قولُ الإمام العالم الشهير الأديب مالك بن المرحل المالقي ثم السبتي ،  
وهي من غرر القصائد ، وفيها لزوم ما لا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم  
بجعلها بدأ وروياً على اصطلاح المغرب :

ألف : أجلُ الأنبياء نبيء  
بضيائه شمس النهار تضيء  
وبه يؤملُ محسن ومسيء

فضلاً من الله العظيم عظيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

باء : بدا في أفقِ مكّة كوكبا  
ثمّ اعتلى فجلا سناه الغيها  
حتى أنار الدهرُ منه وأخصبا

إذ كان فيضُ الخيرِ منه عميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

تاء : تبيّن الهدى لما أتى  
فنفى الشريكَ عن القديم وأثبتا  
أحديةً من حاد عنها قد عتا

وتلا كلاماً للكريم كريما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ثاء : ثوى في الأرض منه حديثُ

في كلِّ أفقٍ طيبُهُ مبعوثُ  
داعٍ بأنواعِ الهدى مبعوثُ

يتلُّو نجومًا أو يهزُّ نجومًا صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليما

جيم : جلا بسراجِه الوهاجِ  
ما جنَّ من ليلِ الظلامِ الداجي  
وسقى القلوبِ بمائه الثجَّاجِ

فأصارها بعدَ الغيومِ غميما صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليما

حاء : حمى دينِ الهدى بصفائحِ  
وسما يشمُّ كالجبالِ أراجيحِ  
من كلِّ أزهرٍ هاشميٍّ واضحِ

لولا نداهُ غدا النباتِ هشيما صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليما

خاء : خبَّتْ نيرانِ جهلِ شامخِ  
آياتِ علمٍ للرسالةِ راسخِ  
مِنْ مُثبِتِ ماحٍ ومنسِ ناسخِ

قد خصص بالذکر الحکیم حکيما صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليما

دال : دعا فأجاب كلُّ سعيدِ  
وأتى بوعدٍ صادقٍ ووعيدِ  
حتى أقرَّ الناسُ بالتوحيدِ

ونجِّبوا الإشراكِ والتجسيما صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليما



ذال : ذبابُ حسامه مشحوذُ  
للتاكسين ، وعهدهم منبوذُ  
أما السعيدُ فبالنبيِّ يلودُ

فيدال من ذلِّ الشقاء نعيما صلوا عليه وسلموا تسليما

راء : رويانا عن ذوي الأخبار  
أنّ الندى والبأس مع إيثار  
بعض صفات المصطفى المختار

كمّ قد تقدم بالأنام زعيما صلوا عليه وسلموا تسليما

زاي : زعيمٌ بالترال عزيزُ  
وبليغٌ معنى في المقالِ وجيزُ  
فلقوله من فعله تعزيزُ

ولربما عادَ الكلامَ كلُّوما صلوا عليه وسلموا تسليما

طاء : طويلُ السيفِ متسعُ الخُطا  
رحبُ الذراعِ ومن يمد لهم سطا  
يردي العدا وإذا ارتدى متخبطا

يعري عذابا إذ ألام أليما صلوا عليه وسلموا تسليما

ظاء : ظهير للعباد حفيظُ  
حظٌ لدى ربِّ العبادِ حفيظُ  
حقٌّ لهُ التابينُ والتقريظُ

مبتأ وحيأ ظاعنا ومقيما صلوا عليه وسلموا تسليما

كاف : كريمُ الغنصرين مبارَكُ  
متفردٌ بالجاه ليس يشاركُ  
فهو الذي بمقامه يتداركُ

والهولُ يغدو مُقعداً ومقيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لام : لهُ عقد اللواء الأُحفلُ  
ولهُ الشفاعةُ في غد إذ تسألُ  
وإذا دعا فدعاؤه متقبَّلُ

حق الرحيم بأن يرى مرحوما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ميم : ملائكة الإله تسلّم  
فوجاً عليه إذ بدأ وتعظّم  
ويعرُّ جبريلُ بها يتقدّم

فيضعف التعظيم والتكريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

نون : نبيُّ جاءنا ببيان  
ويعجزاتٍ أبرزت لعيان  
وبحسبه أن جاء بالقرآن

يشفي قلوباً تشتكي وجسوما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صاد : صفيُّ للإله وخلصُ  
ومقرَّبٌ ومُفضَّلٌ ومُخصَّصُ  
ذهبُ سيبك وزنه لا ينقصُ

قد طاب خيماً في الوري وأروما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ضاد : ضميرٌ نصحه ممحوضٌ  
ضافي القراءة بالعلومِ يفيضُ  
إن غاض ماء البحر ليس يغيضُ

لَمَّا اسْتَمَرَ زَلَالُهُ تَسْنِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

عين : عزيزٌ ذكره مرفوعٌ  
في الأنبياء وقوله مسموعٌ  
مشروح صدر حبه مشروعٌ

من لا يدينُ بذاك كان ذميما صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

غين : غزا من زاغ عنه ومن طغى  
وغدا يشبُّ لمن طغى نار الوغى  
حتى أقامت من عصي بعد الصفا

وَتَقَوَّمَ النَّارُ الْعَصَا تَقْوِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

فاء : فواتحُ سورة الأعرافِ  
وبراءة والرعدِ والأحقافِ  
أحظتهُ بالأقسامِ والأوصافِ

فَمَتَى تَوْفِي حَقَّهُ مَنظُومًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

قاف : قوافي النظمِ عنه تضيقُ  
أيطيقه الإنسانُ ليس يطيقُ  
فالخلقُ في التقصيرِ عنه خلقُ

وَلَوْ أَنَّهُمْ مَلَأُوا الْفُضَاءَ رَقُومًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

سين : سلام كالنَّفيس تنفَّسا  
وقد اجتنى ورداً وصافحَ نرجسا  
أهدى إليه في الصباح وفي المساء

بقصائدٍ كادت تكون نسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

شين : شمائله الكريمة تعطشُ  
من كان من سكر المحبة يرعشُ  
لكن أضع العمرَ فيما يوحشُ

فقدت ندامته عليه ندبما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

هاء : هو الهادي الذي اقتدح النهى  
فتفكرت في ملك من رفع السها  
وقضى بحمدٍ للأمور ومنتهى

فأفادها النظر السديد عموما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

واو : وهي ركن التجلد، بل هوى  
لمّا ثوى في التراب من بعد التوى  
فحوى الضريح الرحب نجماً ما غوى

أجرى من الدمع السجوم سجوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لام : لأجلك فاض دمعي جلولا  
فاخضراً آس أساك إذ يبس الكلا  
يا خير من كل المكارم والعلا

وحمى الحمى ورمى فأعمى الروما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يَاء : يَجِيهِ وَيَسْقِيهِ الْحَيَا  
رَبُّ الْعِبَادِ مَجَازِيًا وَمَوْفِيَا  
وَمُشْرَفًا وَمُسَلِّمًا وَمُصَلِّيَا

يَا مُسْلِمِينَ وَرَثْتُمُ التَّسْلِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد بن محمد بن العباس المغربي حسبما نقلته من المجلد الخامس والعشرين من كتاب « انتهى السؤل في مدح الرسول »<sup>١</sup> للحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عنزة المغربي الأنصاري رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا بقصده ، وهي أيضاً مرتبة على حروف المعجم ما عدا الابتداء وبيوت الانتهاء ، غير أن ترتيب حروف المعجم في آخر الأشرطة ولم يلتزم صاحبها الابتداء كما فعل مالك بن المرحل ، رحمه الله تعالى :

الله زَادَ المصطفى تعظيماً  
وقضى لَهُ التفضيلَ والتقدима  
وأنا لَهُ شرفاً لديه جسيماً

فَهُوَ التَّمَمُ فَخْرُهُ تَمِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوْا عَلَى مَنْ خُصَّ بِالْأَنْبَاءِ  
وَأَبُوهُ مَا بَيْنَ الرِّىِ وَالْمَاءِ  
ثُمَّ اسْتَمَرَ النُّورَ فِي الْآبَاءِ

فَتَوَارَثُوهُ كَرِيمَا وَكَرِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

١ قد ذكرت في المقدمة نقلاً عن رحلة العياشي قول هذا الرحالة إن المقرئ لم يطلع على كتاب « انتهى السؤل » وهذا هو المؤلف يذكر اطلاعه على الجزء الخامس والعشرين منه ؛ وبما أن الكتاب كثير الأجزاء فكلام العياشي يظل يعني أن المقرئ لم ير الجزء الذي ذكر فيه مدح النمل النبوية .

صَلُّوا عَلَى بَدْرِ بَدَا مِنْ يَثْرِبِ  
فَأَضَاءَ بِالْأَنْوَارِ أَقْصَى الْمَغْرِبِ  
وَجَلَا عَنِ الدُّنْيَا دِيَاجِي الْغَيْهَبِ

فَبَدَا لَنَا نَهْجَ الرِّشَادِ قَوِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالشَّرَائِعِ قَدْ أَتَى  
وَأَبَادَ أَحْزَابَ الطَّغَاةِ وَشَتَّتَا  
وَأَبَانَ أَسْبَابَ النِّجَاةِ وَوَقَّتَا

لِلْأُمَّةِ التَّحْلِيْلَ وَالتَّحْرِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْغَيْبِ يَحْدُثُ  
وَبِرُوعِهِ الرُّوحَ الْمُقَدَّسَ يَنْفُثُ  
مُحِبُّوْنَا وَشَفِيعَنَا إِذْ نُبْعَثُ

فِي يَوْمِ لَا يَدْرِي الْحَمِيمُ حَمِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى صَبْحِ الْهَدْيِ الْمَتَّبِعِ  
صَلُّوا عَلَى بَحْرِ النَّدَى الْمَتَمَوِّجِ  
صَلُّوا عَلَى رَوْضِ الْجَمَالِ الْمُبْهَجِ

كَيْمًا تَنَالُوا الْفَوْزَ وَالتَّنْعِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى غَيْثِ الْأَنَامِ السَّافِحِ  
صَلُّوا عَلَى الْمَسْكِ الذَّكِيِّ النَّافِعِ  
أَزْرَتْ رَوَائِحَهُ بِكُلِّ رَوَائِحِ

فَالْأَرْضَ طَبَّقَهَا شَذَاهُ نَسِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ عَهْدُهُ لَا يُفْسَخُ  
صَلُّوا عَلَى مَنْ شَرَعُهُ لَا يُنْسَخُ  
صَلُّوا عَلَى مَنْ حِزْبُهُ لَا يُمَسَخُ

نَبِيًّا يُفْهَمُ فَضْلُهُ تَفْهِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ فَخْرُهُ لَا يَنْفَدُ  
صَلُّوا عَلَى مَنْ فَضْلُهُ لَا يَجْحَدُ  
أَنْتِي وَكُتِبَ الرَّسُلُ طُرًّا تَشْهَدُ

تَنْبِيَّ الْيَهُودِ بِفَضْلِهِ وَالرُّومِ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدَحْتُمِي عِنَّا الْأَذَى  
وَمِنَ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالَةِ أَنْقَذَا  
صَلُّوا عَلَى مَنْ ذَكَرَهُ نَعْمَ الْغَدَا

وَبِمَدْحِهِ نُرْوِي الْقُلُوبَ الْهَيْمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا بِإِخْلَاصٍ عَلَى خَيْرِ الْبَشَرِ  
مَنْ قَبْلَ نَشْأَتِهِ الْمُبَارَكَةِ اشْتَهَرَ  
كَمْ كَاهِنٍ عَنْهُ أَبَانَ وَكَمْ خَبَرَ

وَلَكُمْ دَلِيلٌ فِي عِلَاقِهِ أَقِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ جَلَّ مَوْلَدُهُ وَعَزَّ  
ضَاءَتِ قُصُورِ الشَّامِ لَمَّا أَنْ بَرَزَ  
وَتَدَانَتْ الشُّهُبُ الثَّوَابِقُ كَالْحَرَزِّ

أَوْ كَاللَّاتِي نُنْظِمُ تَنْظِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَيَّ مِنْ يَوْمِ مَوْلَدِهِ سَطَا  
بِجَمِيعِ آلِهَةِ الضَّلَالَةِ وَالْخَطَا  
وَهُوَ لَهُ عَرْشُ الْعَيْنِ وَأَسْقَطَا

وَالْفَرَسِ هَدَمَ صَرْحَهُمْ تَهْدِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَيَّ مِنْ لَيْسَ فِطْرًا غَالِظًا  
لَأَخِيهِ فِي الْإِرْضَاعِ كَانَ مَحَاطِظًا  
فَاعْجَبْ لَذَلِكَ كَيْفَ كَانَ مَلَا حِظًا

لِلْعَدْلِ فِينَا مَرَضِعًا وَفَطِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَيَّ مَنْ شَاؤَهُ لَا يَدْرِكُ  
صَلُّوا عَلَيَّ مَنْ شَاؤَهُ لَا يَشْرِكُ  
مُوسَى وَعِيسَى وَالْحَلِيلُ تَبْرَكُوا

بَلِيْقَاتِهِ وَعَنْوَا لَهُ تَسْلِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَيَّ مَنْ خَلَّفَهُ صَلَّى الرَّسُلُ  
شَرَفَ عَلَيَّ تَمَكِّينَ عِزَّتِهِ يَدُلُ  
فَإِذَنْ فَقُلْ هُوَ سَيِّدٌ لَهُمْ وَدَلُ

لَا تَخْشَ تَوْبِيخًا وَلَا تَحْشِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَيَّ مِنْ قَدِ سَرَى نَحْوِ السَّمَاءِ  
لَيْلًا وَعَادَ وَمَا بَرَحْنَا نَوْمًا  
بِالرُّوحِ وَالْجَسْمِ الْمَطْهَرِ قَدْ سَمَا

قُلُّهُ وَرَاغِمٌ مِنْ أَبِي تَرْغِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا



صلوا على مَنْ قد رأى الرحمانا  
بالقلبِ أو بالعين منه عيانا  
من قاب أو أدنى مكان كانا

فخذ الفوائد واحذر التجسّيبا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلوا على مَنْ بالمحبة خُصّصا  
والقلبُ منه شقّ حتى خُلّصا  
من حظ إبليس اللعين ومحصا

وأعيد ما إن يشتكي تليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من بالسيادة قد حضي  
وانشقّ إكراماً له البدر المضي  
ولكم دليل كالصباح الأبيض

فاسمع وكن بالمعجزات عليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ كَلَّمته ذراعُ  
وبفضله كَفَّت المئين الصاعُ  
والجدعُ حنّ له وما الأجداعُ

بأرقّ منا أنفساً وفهُوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلوا على من مدحه لا يفرغُ  
ماذا عسى مُدّاحه أن يبلغوا  
فإلّها يُثني عليه ويبلغُ

فاقرأ تجده حكماً تحكيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صَلُّوا عَلَى مَنْ كَانَ يَبْصُرُ بِالْقَفَا  
وَعَلَيْهِ سَلَّمَتِ الْجَنَادِلُ وَالصَّفَا  
وَالذُّبُّ قَالَ صَدَقْتَ أَنْتَ الْمُصْطَفَى

وَشَكَا إِلَيْهِ بَازِلٌ قَدْ ضَمِيَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ شَفَى بِالرِّيْقِ  
عَيْنَ الضَّرِيرِ وَلَدَعَا الصَّدِيقِ  
وَأَعَادَ طَعْمَ الْمَاءِ مِثْلَ رَحِيقِ

إِذْ مَجَّ فِيهِ الْعَنْبَرُ الْمُخْتَمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ مَجَّدَهُ قَدْ أَسَا  
وَالْمَاءَ بَيْنَ بَنَانِهِ قَدْ بَجَسَا  
وَأَتَتْ إِلَيْهِ سَرْحَةٌ حَتَّى أَكْتَسَى

بِفُرُوعِهَا إِذْ خِيَمَتْ تَخِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْمَلَائِكِ جَيْشَا  
وَعَدَّتْ تَظَلَّلَهُ الْعِغَامُ إِذَا مَشَى  
حَرَسَتْ سَمَاءَ اللَّهِ لَمَّا أَنْ نَشَا

لِيَكُونَ سِرًّا حَبِيْبُهُ مَكْتُومَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ حَبَّاهُ إِلَهُهُ  
بِالْكُوْثْرِ الْمَرْوِيِّ لَنَا أَمْوَاهُهُ  
فِي يَوْمِ حَشْرِ الْخَلْقِ يَظْهَرُ جَاهُهُ

إِذْ يَقْدُمُ الرَّسُلَ الْكِرَامَ زَعِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صلوا على من خُصَّ بالحوض الرّوى  
وكذاك خصَّص بالمقام وباللوا  
نوحاً وآدم والكليم قد احتوى

وابن البتول حوى وإبراهيمَا صلّوا عليه وسلّموا تسليمَا

• صلى عليه الله ما قُطِعَ الفلَا  
صلى عليه الله ما اجتمعَ المَلَا  
صلى عليه الله ما انتُجِعَ الكَلَا

أبدأ ، وما رعت السوام هشيمَا صلّوا عليه وسلّموا تسليمَا

صلى عليه الله ما هطل الحيا  
صلى عليه الله ما التمع الضيا  
فلقد شفى الدنيا من الداء العيا

ولقد حمى عنّا لظى وجحيمَا صلّوا عليه وسلّموا تسليمَا<sup>١</sup>

\* \* \*

لله سيدنا النبي الأكل  
لله برقُ جبينه المتهلل  
لله جودُ يمينه المتهطل

أحيا وأغنى بالنوالِ عديما صلّوا عليه وسلّموا تسليمَا

١ قد انتهت المدحة النبوية بحسب الترتيب المهجائي ولا أدري هل هذه البقية منها أو من قصيدة جديدة .

لله منه ذاته وحقيقته  
لله منه خلقه وخليقته  
لله منه شرعه وطريقته

فلقد جلت بشموسها التغيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا أمة الهادي النبي المصطفى  
بالله لو كنّا نعامل بالوفا  
متنا عليه حسرة وتلهفا

حتى نؤدي حقّه المحتوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ما كان أولانا بطول نجينا  
ما كان أوجبنا بفرط وجينا  
أفستطيع الصبر عن محبوبنا

ما الصبر عن لقياه إلا لوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لم لا تُفيضُ على اللوام دموعنا  
لم لا نقضُ من الغرام ضلوعنا  
لم لا نخلي أهلنا وربوعنا

حتى نغاي من ذرّاه رسوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أو لم يكن يحنو علينا مشفقا  
أو لم يكن متعظفا مترفقا  
أو لم يعالجنا بأنواع الرقى

حي اغتدى منا العليلُ سليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

من مثله ما إن يضرُّ وينفع  
من مثله يدْرأ العذاب ويدفع  
مَنْ مثله لنوي الكبائر يشفع

مَنْ مثلهُ بالمؤمنين رحيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا ويح نفسي كم أرى ذا صبوة  
ومسامعي عن واعظي في نبوة  
فعسى الرسول يُقيلني من كبوة

فلكم رجاء عائرٌ فأقيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا رب بالهادي الرفيع المحتد  
اغفر لعبدك أحمد بن محمد  
فلقد توسل إذ رجاك بسيد

ما ردّ معتلق به محروما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ناشدتكم يا سامعي هذا الثنا  
قولوا متى أسمعتموه تديتُنا  
اغفر لقائله المقصر ما جنى

بمدح خير الورى المعصوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

قلت : وإني لأسأل الله تعالى بلسانٍ لم أعص به وهو لسان هذا المادح ،  
إذ قال « يا رب بالهادي » فإني أحمد بن محمد بكّعه الله أمله من غفرانه بمنّه  
وكرمه آمين .

رجع - ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب الأديب أبي العباس أحمد بن القاسم

الإشيلي الشهير بابن القصير ، وطريقه هذه مخالفة للطريق المتقدمة من بعض  
الوجوه ، رحم الله تعالى الجميع :

اللهُ أكرمُ أحمداً تكريماً  
فَغَدَا رسولاً للعبادِ كريماً  
فاشكرْ غفوراً للذنوبِ رحيماً

أرضى النبي بقوله تعليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لله منه هدى نبيّ مرتضى  
بالبعث منه لنا قضي لطف القضا  
ملأت فضائله المَهَارِقِ والفضا

ودجا الوجودُ فعند مبعثه أضاً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

عجبت لنا منه ملائكة السما  
أن كان بالإسراء ليلاً قد سما  
ورقى البراق به وجبريل لما

قد سره سرّاً وجهراً سلماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أعظّم به من مرسل قد بشرنا  
بوجوده البشر السعيد ويسترا  
لليسر فهو أجل مبعوث يُرى

بهده أمته زهت بين الورى صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

من جاء بالقرآن معجزة له  
أعيا الورى من بعده أو قبله  
الله كرمه وفضل فضله

وأجلّ منه فرعته وأصله صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

من سبّحت صمّ الحصى في كفه  
والبدر شقق نصفه عن نصفه  
ليرى به إعجاز من لم يُصفه

حزنا بمعجز ذكره أو وصفه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يكفيه أن يتلى اسمه ويكرّر  
مع إسم خالقه إذا ما يُذكر  
هذا الذي بمقاله لا يفجر

أبدأ ولا لخلافه يتصور صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

العبد أسرف يا نبي الله  
في الذنب ساه عن تقاه لاهي  
فاشفع له من مذنب أوّاه

يرجو كريماً منك جمّ الجاه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أنأى الزمان وصوله أو سوله  
فاستصحب الأبيات منه رسوله  
فأنيل بفضلك للمراد حصوله

حسي ثناً وازنت منه فصوله صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ابن القصير أطال فيك نظامه  
ليرى لذاك مسلماً إسلامه  
وترى مطاوع أمره وكلامه

لا زال يُقرِّكَ الإلهُ سلامه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وما أحسن قولَ جمال الدين بن جلال الدين الجوزي رحمه الله تعالى :

فَصَلَ النَّبِيِّنَ الرَّسُولَ مُحَمَّدَ شرفاً يزيد ، وزادهم تعظيماً  
درِّ يَتِيمٍ في الفخار ، وإنّما خيرُ اللّآلِي ما يكون يتيماً  
سادَ النَّبِيِّنَ الكرامِ وكلّهم صلّوا عليه وسلّموا تسليماً  
والله قدّ صلى عليه كرامة صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

[مسدسات في مدح الرسول]

ومن ذلك هذا التسديس البديع الذي هو من نظم الإمام العارف بالله تعالى علاء الدين محمد بن عفيف الدين الايجي الحسني الصفوي الزيني - رحمه الله تعالى - مما رتبته على حروف المعجم والترم الحرف أول الأشرطة الأربعة وآخرها :

اللهُ أحمدُ أحمداً إذ يبرأ أوْضَى وضيءُ نوره يتلألأ  
أنواره كلّ العوالم تملأ أكوانه لولاه لم تكُ تنشأ  
إن كنتمُ انقدتم له تسليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

بدرٌ بدأ من نوره يتطلبُ بحرُ بحورُ الجود منه تركبُ  
برٌ وبرهان جلا يتقلّبُ بالمصطفى ممّن صفا أتقربُ  
بادر بما يجدي لكم تنعيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

تالله مثلُ محمد لا يثبت تم الكمال المنتهى ونبوّة  
تاج العُلا بالمصطفى يثبت تاهت عقول للذي هو ينعت  
تحف الصلاة به عليه أديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً



ثِقَ بِالَّذِي يَوْمًا يَقُومُ وَيُبْعَثُ      ثَبَتَ الشَّفَاعَةَ لِلوَرَى يَتَحَدَّثُ  
 ثَبَتَ لَزَامَ الْبَابِ فِيهِ مَقِيمًا      ثَبَتَ لَزَامَ الْبَابِ فِيهِ مَقِيمًا  
 جَاءَ النَّبِيُّ عَوَالِمًا يَتَبَلَّجُ      جَاءَ النَّبِيُّ عَوَالِمًا يَتَبَلَّجُ  
 جَاءَهُ يَنْجِي مَن لَطَى تَتَوَهَّجُ      جَاءَهُ يَنْجِي مَن لَطَى تَتَوَهَّجُ  
 جَاوَرَ نَبِيَّ اللَّهِ نَلْتَنَ نَعِيمًا      جَاوَرَ نَبِيَّ اللَّهِ نَلْتَنَ نَعِيمًا  
 حَقًّا هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ الْأَوْضَحُ      حَقًّا هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ الْأَوْضَحُ  
 حَسَنَاتُهُ حَسَنَاتُهُ تَسْتَرْجِعُ      حَسَنَاتُهُ حَسَنَاتُهُ تَسْتَرْجِعُ  
 حَوْتَ الْعُلُومِ لِدَاتِهِ تَكْرِيمًا      حَوْتَ الْعُلُومِ لِدَاتِهِ تَكْرِيمًا  
 خَيْرُ الْبِرَايَا دِينُهُ هُوَ نَاسِخٌ      خَيْرُ الْبِرَايَا دِينُهُ هُوَ نَاسِخٌ  
 خَرَّ الَّذِي عَنَ دِينِهِ هُوَ بَاذِخٌ      خَرَّ الَّذِي عَنَ دِينِهِ هُوَ بَاذِخٌ  
 خُذْ بَاتِّبَاعٍ - فَعَالِهِ تَرْسِيمًا      خُذْ بَاتِّبَاعٍ - فَعَالِهِ تَرْسِيمًا  
 دَلَّ الْأَنَامَ عَلَى الْإِلَهِ مُحَمَّدٌ      دَلَّ الْأَنَامَ عَلَى الْإِلَهِ مُحَمَّدٌ  
 دَارٌ لَهُ مَأْوَى الْمُحَامِدِ تَحْمَدٌ      دَارٌ لَهُ مَأْوَى الْمُحَامِدِ تَحْمَدٌ  
 دَاوَمَ عَلَى بَابٍ لَهُ تَخْيِيمًا      دَاوَمَ عَلَى بَابٍ لَهُ تَخْيِيمًا  
 ذَكَرُ الْحَبِيبِ أَحَقُّ مَا يَتَأَخَذُ      ذَكَرُ الْحَبِيبِ أَحَقُّ مَا يَتَأَخَذُ  
 ذَاكَ الشَّفِيعُ لَمَنْ بِهِ يَتَعَوَّذُ      ذَاكَ الشَّفِيعُ لَمَنْ بِهِ يَتَعَوَّذُ  
 ذَلُّوا لَهُ وَلِبَابِهِ تَغْنِيمًا      ذَلُّوا لَهُ وَلِبَابِهِ تَغْنِيمًا

١ ق : الحقيق .

٢ ق : حسناته .

٣ البازخ : المتعاص .

رب النبي محمد هو يذكر	رتب الحبيب كتابه متذكر
رائي محيا أحمد هو ينظر	روح القلوب ولاؤه هو ينصر
روح بذكراه المريح ندما	صلوا عليه وسلموا تسليما
زين البرايا بالوجود معزز	زان العوالم حسنه يتفوز
زن فضله عن كلهم يتميز	زد ذكره عن زلة يتحرز
زلفي أنه بالمنى تميما	صلوا عليه وسلموا تسليما
سبق الأنام بفضله هو أنفس	ساد الجميع بسؤدد يرأس
سبحان من أسرى به يتأنس	سر الحبيب بسرّه يتقدس
سمع الكلام من الإله كليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
شمس الهدى بدر الدجى يتبشش	شرف الحبيب من الوجوه يفتش
شكراً لمولانا عليه وأبهش	شوقى إليه وافراً أتعطش
شغل للبك بالحبيب أديما	صلوا عليه وسلموا تسليما
صفة الكلام لذاته هو أخلص	صفة الكتاب كماله يتلخص
صفة القلوب بحبه تتخلص	صفه صبا صبّ وأتى يخلص
صل بالصلاة جنابه تكليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
ضفت الفيوض من الحبيب تفيض	ضعفي إليه آملاً يتعوض <sup>٢</sup>
ضري وضيري كله يتقوض	ضل الذي في بابه لا ينهض
ضمن الحبيب لذاكره زعيما	صلوا عليه وسلموا تسليما

١ ق : لسانك .

٢ ق : يتفوض .

طوبى لمن بجيبه يتنشط	طوبى لمن بجيبه يتنشط
طال اشتياقي طيبة أتبسط	طال اشتياقي طيبة أتبسط
صلوا عليه وسلموا تسليما	طوبى بمدحته يطيب نسима
ظلمات شرك قد جلت تتدلظ <sup>٢</sup>	ظل الهدى بهداه قد يتحفظ <sup>١</sup>
ظهري ظهيري حبه أتحفظ <sup>٣</sup>	ظلي لظل وداده يتحفظ
صلوا عليه وسلموا تسليما	ظني به يغدو العقاب عديما
عز علاه للذي هو يتبع	علت المعالي بالتبى وترفع
عرش العظيم قد ارتقى يرفع	عمت عطاياه لكل ينفع
صلوا عليه وسلموا تسليما	عرج الإله به إله عليما
غيث الندى هو في البرايا سائغ	غوث الورى ذا المصطفى هوسائغ
غزر الحيا شمس وبدر بازغ	غمر الندى أقصى النهاية بالغ
صلوا عليه وسلموا تسليما	غنا نما بالمؤمنين رحима
فرد وحيد في العوالم أشرف	فخر وذخر بالمفاخر يشرف
فاز الفقير بلطفه يتلطف	فتح الوجود وكل كون مردف
صلوا عليه وسلموا تسليما	فاح النسيم من الحبيب جسيما
قسمت وجوه الحسن منه فيسبق	قسم الإله بعمره فيفوق
قمن بذكراه الدعاء معلق	قمر وشمس نوره متألق
صلوا عليه وسلموا تسليما	قطب للدائرة الوجود كريما

١ ق : يتيقظ .

٢ تتدلظ : تسرع في مرورها .

٣ ق : أتحفظ .

كتب الإلهُ ثناءهُ ما يدرك  
كلُّ الكمالِ لهُ بهِ يستدرك  
كيف كفى درَّ الثناءِ يتيما  
كتبَ اسمَهُ قُربَ اسمِهِ يتبرك  
كُنهُ الكَمالاتِ التي لا تدرك  
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

لمعات نورِ محمدِ هي تخجل  
لذاتِ ذكرِ محمدِ هي أكل  
لذخِذِ يجدُ منك تُلفَ حكيما  
للشمسِ والبدرِ المنيرِ فتخمل  
للنوي الحوائجِ لا تُذ متكفل  
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

من مثلهُ في العالمينِ معظم  
مَنْ للإلهِ لَدَى اللقائِ يكلم  
مَنْ الإلهِ لديهِ صارَ عميما  
من مثلهُ في العالمينِ مكرم  
مَنْحاً حَبَاهُ مِنْهُ قد يتعلم  
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

نور لهُ في آدمِ يتبين  
نأيِ العوالمِ إذ أتى متعين  
نعماءِ جمت<sup>١</sup> إذ نعم كريمة  
نقلًا إلى آبائِهِ يتعين  
نارِ المجوسِ تخمدتِ تنهون  
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

وجهِ بهِ كلُّ الوجوهِ إليه هو  
ووجاهه وجهُ المرامِ فوجهوا  
وجهُهُ إلينا نظرةً تكريما  
وجهُ الوجاهِ بكله يتوجهوا<sup>٢</sup>  
وجهُ إليك نبيِّنا فتوجهوا  
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

هو مصطفى عندَ الإلهِ الأوجه  
ها إنهُ وجهي لهذا أوجه  
هامَ الفؤادُ بحبِّهِ تتيما  
هادٍ لَنَا وبوجهِهِ من أوجه  
هيه هتيثًا وجههُ بالأوجه  
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

١ ق : جلّت .

٢ ق : بوجهه قد أوجهوا .

لا مثل للمختار أعلى من علا  
لاذ الصفي به يتوب فأقبلا  
لازم حبا للحبيب ندبما  
لاقيه ناج قد نجا كل البلى  
لاقي النبي محمد أن يقبلا  
صلوا عليه وسلموا تسليما

يا أكرم الخلق الذي هو ملجئي  
يده يمد إليك مرنجيا وفي  
عنا لذكرك يبتدي نختيا  
يأتي محمد العفيفي الذي  
يقن بصفوته الصفي ويكتفي  
صلوا عليه وسلموا تسليما

وله أيضا رضي الله تعالى عنه قصيدة أخرى على طريقة هذه ، وقد نظمها  
بعدها نفع الله تعالى بنيته ، وبلغه غاية قصده وأمنيته ، وهي هذه :

أحسن بطلعة أحمد هي أضوا  
أزين به لما أتى بتلا  
الله قدمه بها تقدبما  
أعلن بلمعته العوالم تملأ  
أبين آيات له فتنبأ  
صلوا عليه وسلموا تسليما

بدأ الإله بنوره فيعقب  
فيه لذي الحاجات إذ يتطلب  
بل هو إلى الأرب انتفع تعميما  
بدء الذي بالمصطفى يتقلب  
بدء بذكراه به يستوهب  
صلوا عليه وسلموا تسليما

تلت العلامات التي هي تثبت  
تمت له الآيات فيك تبكت  
توقيع حاجات صفوا تسليما  
تب العدا تبا وعنه تثبت  
توراة موسى ناطقا هي تنعت  
صلوا عليه وسلموا تسليما

ثبت الكمال له ومنه يورث  
ثبت بذكري المصطفى يتحنث  
ثبت بذكر قد تراه قديما  
ثبت الوري لو لم تكن لا تحث  
ثبت الذي يجنا به يتشبث  
صلوا عليه وسلموا تسليما

جاء العوالم نورهُ يتلجج	جاد العوالم بحره يتموج
جاز السّموات العُلا يتعرج	جاب الجميع بسامه يتفرج
جار لهُ جارى لهُ تنعما	صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
حار العقول لمدحه إذ يمدح	حيا الحياء بريّه يستروح
حي لهُ فضل بهِ يسترجح	حي لهُ حامى حمى فترّوح
حي الحمى الحامى تصير سليما	صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
خلق لهُ كلُّ بهِ يتشمخ	خلق لهُ بالنقص لا يتلطخ
خلق لهُ أحسن بهِ هو أبذخ	خلق يحق لهُ الثناء الأرسخ
خلق لهُ إلهيٌ بذاك تمجما	صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
دار الحبيب أحقُّ ما يتعمد	دارت بها كل السعادة تسعد
دانت أهاليها بما هو يرشد	دارٌ بحسنى طيبة لا تبعد
داركٌ سكوناً بالسكون مقيما	صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
ذكر الحبيب محمد هو يتقد	ذكر لما ينسي رسولاً يتفد
ذكر الإله ثناؤه ويلدذ	ذكراهُ تنفعُ سامعاً يتلذذ
ذيل النبي خذ اعتصم تعظيما	صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
ربّ الورى سُبْحانهُ هو أكبر	ربّ النبيّ محمد فيكبر
ربّ الرؤوف حبيبه فيدبر	ربّي اصطفاهُ من الورى فأكبر
ربّ ارتجاء للمنى تدويما	صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

زاد الإلهُ عُرُوجه فيبرُز  
زاد لأخرى حبه يتحرز  
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

زانَ العوالم إذ أتاها يبرز  
زادت معاليه عروجاً ينشز  
زعمَ الشفاعة ذاكره زعيماً

سارَ السّموات العُلا يستأنس  
سامي ذراهُ للمُحبّ تؤنس  
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

سادَ الجميع إذا أتى هو أنفس  
سألَ الإلهَ وزاد ما يتنافس  
سارعُ إلى ذاك الذرا تخيماً

شرق لأشرق شرقه يفرش  
شوقاً إليه قد إليه أجهدش  
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

شرف لأمتِه به يتفايش  
شرقاً وغرباً فيه عقل يدهش  
شكراً على النعمى تزيد نعيماً

صفة عن الشيء الذي يتنقص  
صفة شريعته النقائص تخلص  
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صفة له ذات له هو أخلص  
صفة له حارت عقول تفحص  
صفة له وبربه لتسدّيماً

ضاع الذي عن ذكره هو يعرض  
ضاف بذكره المُنَى يتعرّض  
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ضاعَ المديح لأحمد يترّوض  
ضاف حباه كفه ليفضفض  
ضاعف له الأمال صلّه مديماً

طابت مدائحه فطاب المغيبط  
طام له بحر الألى يتنشط  
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

طالَ العوالم إذ أتى هو يقسط  
طالت به النعمى وطاب المنشط  
طالب مطالب كلّها تميماً

ظهر لأمتِه ظهير ملحظ  
ظلّ له ظلوا به يتحفظوا  
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ظهر النبي وربّ [أحمد يلحظ]  
ظهِروا على الأمم افتخار ملحظ  
ظلت الظلال إذا ذكرت ندبماً

عدّ المحاسن للنبي يستتبع	عدّ له آياته تتنوع
عدّاه مولاة إليه فيطلع	عد لذكراه غداة يشفع
عدّ باب منّ بالمؤمنين رحيمًا	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
غزرت له الآيات هنّ نوابغ	غزر الحيا عزّ الورى هو سائغ
غمر الرّدا بحر الندى يترفع	غمر البلاد بذكراه يستفرغ
غمر بذكراه الفؤاد وسيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
فاض الجمال وفاض منه يوسف	فاز المحبّ بذكراه لا يوسف
فاضت عليه فيوضه يتزلف	فاشّ له الآيات لا يتكلّف
فاد له كلّ بهم تقدّما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
قمر بدا من أفقه هو فاتق	قمرّ يجاب بذكراه ويعلق
فمقام كلّ الأنبياء وسائق	فمقام جود عمّ كلّاً يرفق
قم بابه مستنجحاً ومقيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
كلّاً به فتح الوجود ويدرك	كلّ الكمالات احتوى لا يشرك
كلّ اللسان عن البيان ويمسك	كلّية الذي يجناه يتمسك
كلّ مرتجأك إليه ثق تكريما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
لمحمد هو مصطفى ومؤمل	لمحمد بن محمد ما يأمل
لمحت عليه بروقه يتحمّل	لمعان نور وداده يستكمل
لم لأصيب من الحبيب شميما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
من مثل ذلك المصطفى يتعظم	من كلّ وجه للكمال ليعظم
منّ علينا من إله أعظم	منه العروج إليه وهو يعظم
من كان للربّ العظيم كليما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما



نور الإله حيبه يتمكن نادى الإله حيبه يتمكن  
نال نوالاً شرحه لا يمكن ناد له طوبى لمن يتمكن  
نادى الحبيب بذكره تكليما صلوا عليه وسلموا تسليما

والله مثل محمد لا يشبه وجه الوجود بذاته وبه له  
وجلوا وجاد من النجاة مقيما صلوا عليه وسلموا تسليما

هو أكمل من كل وجه أوجه هو ذا الحبيب القلب منه أوجه  
[ ... ] فأولى طيبه وأوجه هول من الأرض المكثر أوجه  
هانا بنار الشوق صرت سقيما صلوا عليه وسلموا تسليما

لا ريب لا مثل له والله لا لاحت له الآيات عرشاً قد علا  
لاقى ارتقاء ربه فتوصلا لاج به نال المنى إلى الألا  
لازم لباب جنابه تقسيما صلوا عليه وسلموا تسليما

يا أكرماً كل إليه يلتجى يأتي محمدك العفيفي الذي  
يقنا توسل بالصفي ويحتدي يده إليك [ يمد ] فقراً ترتجى  
يمن افتتاح باسمه تختيما صلوا عليه وسلموا تسليما

قلت : وإنما أثبت هاتين القصيدتين في جملة ما سردته ، وإن كان فيهما  
من التكلف ما لا يخفى لأوجه ، أحدها : أن صاحبهما من الصالحين يسلم له  
ويتبرك بكلامه ، ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام للملامه ،  
الثاني : أنهما مدح للنبي صلى الله عليه وسلم وعليه من الله أزكى صلواته وأتم  
سلامه ، الثالث : أن المراد جمع ما وقفت عليه في البحر والروى والمعنى ،

١ لفظة التكلف هنا قاصرة ، إذ هذا النمط من السداسيات خارج على طبيعة اللفظة ودلالات اللفظ .

لأن بعضاً من العلماء ذكر لي أنه لم يطلع في ذلك إلا على قصيدة ابن الجنان ،  
فأحييت أن أتعرض لتعريفه بهذا العدد وإعلامه ، على أن القصد الأعظم ما هو إلا  
التلذذ بذكر أمداح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، خصوصاً المقتبس فيها قوله  
تعالى ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

وقد كنت نويت أن أولف في ذلك بالخصوص كتاباً أسميته « روضة  
التعليم في ذكر الصلاة والتسليم على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعانية والتكليم »  
والله تعالى المسؤول في التيسير ، فلتزد عليه يسير .

ومن ذلك هذا التسديس الذي وجدته في كتاب « درر الدرر »<sup>١</sup> للشيخ  
الإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد<sup>٢</sup> بن أحمد بن أبي  
بكر العطار الجزائري من جزائر بني مزغنة ، وهي المشهورة الآن بالجزائر :

أنوار أحمد حُسْنُهَا يتلألاً      المصطفى بجلى الكمال يَحْتَلَأُ  
الشمس نخجل وهو منها أضواً      النور منه مُقَسَّمٌ ومجزأ  
قد زان ذاك النور إبراهيماً      صلُّوا عليه وَسَلِّمُوا تسليماً

صلوا على المسك الفتيق الأطيبِ      صلوا على الورد المعين الأعذبِ  
صلُّوا على نور ثوى في يثربِ      صلوا عليه بمشرق ومغربِ  
ما زال في الرسل الكرام كريماً      صلُّوا عليه وَسَلِّمُوا تسليماً

صلوا على زهر الكمال النابت      صلوا على طود البهاء الثابت  
صلوا على من فاق نعت الناعت      خير الورى من ناطق أو صامت  
وأعزهم نفساً وأطهر خيماً      صلُّوا عليه وَسَلِّمُوا تسليماً

١ سيورده باسم « نظم الدرر » بمد قليل .

٢ بن عبد . . . محمد : سقطت من ق .

صلّوا على من عهدته لا يُنكث	صلوا على طيب يفوح ويمكث
عنه المعارف والحقائق تورث	صلوا على من بالهدى يتحدث
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	أضحى يعلمنا الهدى تعليما
صلّوا على من عرفه يتأرجح	صلّوا على من نوره يتبلج
صلّوا على من جاز مجدداً يبهج	للحضرة العلياء ليلاً يعرج
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	وبها على العرش المجيد مقيما
صلّوا على صبح الرشاد الواضح	صلّوا على البدر المنير اللأضح
صلوا على الهادي النبي الناصح	صلوا على المسك الذكي الفائح
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	الرشد فهّم والهدى تفهّما
صلّوا على من عهدته لا يُفسخ	صلّوا على من شرعه لا يُنسخ
عليّاه عليا الكمال تؤرخ	صلوا على من بالثناء يضمخ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	نال المفاخر والكمال قديما
صلوا على خير الأنام الأوحّد	صلوا على الهادي لأعذب مورد
بمحمد فزنا ، ومن كمحمد	صلّوا على بدر التمام الأسعد
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	الله عظم قدره تعظيما
صلّوا عليه فللسعادة يجذ	صلّوا على من بالنبوة ينفذ
أبصارنا طرأ بأحمد لوذ	صلّوا على من حبه لا يُنبذ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	في موقف يُنسي الحميم حميما
صلوا على الروض البهي الناضر	صلّوا على البدر المنير الزاهر
صلوا على المسك الفتيق العاطر	صلّوا على بحر العلوم الزاخر
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	وتنعموا بصلاتكم تنعيما

صلوا على نور يلوغ ويبرز بمحمد حلل الكمال تُطرز قد نُظمت لكمالهِ تنظيما	صلوا على نور يلوغ ويبرز بمحمد حلل الكمال تُطرز قد نُظمت لكمالهِ تنظيما
صلوا على وَرْدٍ بِمَسْكِ يَخْطُ ولهُ يواقيتُ السَّاءِ تَقْطُ صلوا عليهِ وسلّموا تسليما	صلوا على مَنْ بالبهاءِ يَخْطُ للمصطفى بَسْطُ الكرامةِ تُبْطُ وبنوره أضحى الزمانِ وسيما
صلوا على من بالنبوةِ يلحظ <sup>١</sup> لعصاته نار الجحيم تغبظ صلوا عليهِ وسلّموا تسليما	صلوا على من بالمهابةِ يلحظ صلوا على من بالهدايةِ يلفظ ورضاه هبَّ لنا وطاب نسима
صلوا على من باسمه يتبرك صلوا على من للهدى يتحرك صلوا عليهِ وسلّموا تسليما	صلوا على من قدره لا يُدرَك صلوا على من حبه لا يُترك وبه تحلى ظاعناً ومقيما
صلوا على الروض البهيّ الأجل المصطفى الأرقى لأنزه محفل صلوا عليهِ وسلّموا تسليما	صلوا على البدرِ المنيرِ الأكمل صلوا على الهادي النبيّ الأحفل فيه تقدّم وحدهُ تقدّما
صلوا على عَرَفٍ ذكيّ ناسم <sup>٢</sup> من جوده نلنا بخيرٍ مقاسم <sup>٢</sup> صلوا عليهِ وسلّموا تسليما	صلوا على زهرٍ أنيقٍ باسم <sup>٢</sup> صلوا عليهِ فهو بدرٌ مواسم <sup>٢</sup> أنوارهُ قد تمّت تميمًا

١ ق : يحفظ .

٢ ق : صلوا على من للمقاسم قاسم .

صلّوا على مَنْ بالنّبوة زينا  
 صلّوا على هادٍ أبانَ وبينا  
 للخلقِ أرسلَ رحمةً ورحيما  
 صلّوا على من بالكمال يخصص  
 صلّوا عليه على الدوام وأخلصوا  
 شمل الورى طراً وطاب عميما  
 صلّوا على صبح تبليج بالرضى  
 صلّوا على مَنْ بالنجاة تعرّضا  
 وعلا وخيم ضوءه تخيما  
 صلّوا على البدر المنير الساطع  
 صلّوا على الصبح المنير اللامع  
 ووقاه في وهج الهجير مغيما  
 صلّوا على النور الأعم السابع  
 صلّوا على المسك الذكيّ البالغ  
 للواردين به غدا تميما  
 صلّوا على من بالتقرب يوصف  
 صلّوا على من بالعلأ يتشرف  
 المجد فحَمَ ذكره تفخيما  
 صلّوا على مسك يطيب لناشِق  
 إشراقه بمغاربٍ ومشارِق  
 بادٍ تنمّ حسنهُ تنسيما

١ ق : الطالع .

صلوا عليه فهو روض الأُنفسِ	صلوا على الدرِّ النفيسِ الأُنفسِ
ومنى الجليسِ ونزهةِ المتأنسِ	صلوا عليه فهو زين المجلسِ
صلوا عليه وسلّموا تسليماً	راق النفوسِ شذاً وطاب شميماً
صلوا على النور الذي قد أدهشا	صلوا على المختار أفضل من مشى
ورد لظمانٍ إليه تعطشا	بمحمد عرّفُ القرنفلُ قد فشا
صلوا عليه وسلّموا تسليماً	يُبري الضنى أبداً ويروي الهيما
بدر التمام وروضة المتزه	صلوا على الهادي النبيّ الأَنْزه
أبداً بلّم ثراه فخر الأوجه	في فضله كلّ الشهادة تنتهي
صلوا عليه وسلّموا تسليماً	في حبه أضحى الغرام غريماً
فعلا وفاض على البسيطة واحتوى	صلوا على نور بطيية قد ثوى
صلوا عليه فهو يُنجي من هوى	صلوا عليه فليس ينطق عن هوى
صلوا عليه وسلّموا تسليماً	في موقفٍ بذرُ السليم سليماً
صلوا على صبح مبين يجتلى	صلوا على نور تلاًلاً واعتلى
صلوا على درّ تزان به الخلى	صلوا على مسك يخالط مندلاً
صلوا عليه وسلّموا تسليماً	وبه المعالي خيمت تخيماً
وسمًا وحازَ مفاخرًا ومعاليا	صلوا على منّ نالَ مجداً عالياً
وبمدحه الرحمنُ زين حاليا	صلوا على نور تبدى حاليا
صلوا عليه وسلّموا تسليماً	وإذا سما المخدمون زان خديماً

وقد توارد في بعض هذا التسديس مع بعض بيوت التصيدة السابقة التي أولها :

١ ق : ختمت تخيماً .

## يا أمة الهادي المبارك أحمد

حسبما يعرفه المتأمل ، والذي في ظني أن صاحب « يا أمة الهادي » متأخر عن ابن العطار فهو الذي أخذ منه ، والله سبحانه أعلم .  
وتوارد أيضاً في عدة أبيات مع تخميس الكاتب أبي العباس ابن جمال الدين المتقدم ذكره وأوله :

الله زادَ محمداً تعظيماً

وهما على منوال واحد ، غير أن ذلك تخميس وهذا تسديس ، وابن جمال الدين أقدم من ابن العطار تاريخاً ، فيحتمل أن يكون أمّ بكلام ابن جمال الدين ، أو ذاك من توارد الخاطر .

ورأيت في هذا الكتاب تسديساً آخر لم يرتبه على حروف المعجم ، وجعل روي الشطرين الأخيرين حرف اللام ، فأحببت ذكره هنا زيادة في التبرك بمدح المصطفى عليه أجلّ الصلاة والسلام ، وهو :

نورُ النبي المصطفى المختارِ	أربت محاسنه على الأنوارِ
مراه يُخجل بهجة الأقمار	نورٌ يُنجي من عذاب النار
قد زان ذاك النور إسماعيلاً	صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً
صلّوا على البدر المنير المشرقِ	صلّوا عليه بمغرب وبمشرقِ
صلّوا على غصن الكمال المورقِ	بالمصطفى المختار برق الأبرقِ
يهدي غراماً للنفوس دخيلاً	صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً
صلوا على من قد تنامى فخره	صلّوا على من قد تعاطم قدره
صلّوا على من قد تآرج نشره	صلّوا على من قد تناسق دره
عقد السناء لمجده إكليلاً	صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً

صلّوا على البدر المعين السلسل  
صلّوا على نور الهدى المسترسل  
صلّوا عليه بكرةً وأصيلا

صلّوا على من فاق عرّف العنبر  
كم زان ذكر المصطفى من منبر  
صلّوا عليه بكرةً وأصيلا

صلّوا على من فاق كل مبشر  
صلّوا على بدر يرى في المحشر  
صلّوا عليه بكرةً وأصيلا

صلّوا عليه بيمشرق وبمغرب  
بالفكر يشرب ويح من لم يشرب  
صلّوا عليه بكرةً وأصيلا

صلّوا على من في النجاة يفكر  
صلّوا على من بالهداية يشكر  
صلّوا عليه بكرةً وأصيلا

صلّوا على من في الكمال تقسّمَا  
صلّوا على طيب سرى وتنسّمَا  
صلّوا عليه بكرةً وأصيلا

صلّوا عليه سرى وفاح وما انبرى  
ليس الجمال مطرزاً ومجبرا  
صلّوا عليه بكرةً وأصيلا

صلّوا على خير الأنام المرسل  
صلّوا على أسمى سنا المتوسل  
ظلّ علينا لا يزال ظليلا

صلّوا على النور الأتمّ الأكبر  
صلّوا عليه فهو أصدق مخبر  
وأراح من داء الضلال عليلا

صلّوا على النور الأتمّ الأنور  
صلّوا عليه هديتم من معشر  
حاز الجمال فلا يزال جميلا

صلّوا على النور البهي المغرب  
صلّوا على الورد الشهيّ المشرب  
منه ، وينفع بالورود غليلا

صلّوا على من فخره لا ينكر  
صلّوا على من بالنبوة يُذكر  
شكراً على مرّ الزمان حفيلا

صلّوا على من بالسيادة قد سما  
صلّوا على صبح بدا متبسما  
وغدا وراح معطراً ولبليلا

صلّوا على مسك يخالط عنبرا  
صلّوا عليه حوى الكمال الأكبر  
وبذاك قد خصّ الجليل جليلا



صلّوا على من بالنبوة تُوجّا صلّوا على صبح بدا وتبلجا  
 صلّوا عليه لقد أضاء وأبهجا وعا برونق نوره ظلّم الدجى  
 نور يعود الطرف منه كليلًا صلّوا عليه بكرةً وأصيلا  
 صلّوا على نورٍ تبلّج لائحا صلّوا على نورٍ تبرّج واضحًا  
 صلّوا على مسكٍ تارّج فائحا وبطيهه ملاً الوجود روائحا  
 وبجته يستوجبُ التبجيلا صلّوا عليه بكرةً وأصيلا  
 صلّوا على من نوره ملاً الفضا صلّوا على من خصّ حقاً بالرضى  
 لنجاتنا خيرُ الأنام تعرّضا وهدى إلى نيل الرشاد سبيلا  
 صلّوا على بدرٍ يدوم كماله صلّوا على من قد تعاضم حاله  
 ودنا إلى ورد الرضى ترّحاله وإلى الورود به أجدّ رحيلًا  
 صلّوا عليه بكرةً وأصيلا صلّوا بأجمعكم على شمس الهدى  
 صلّوا على بدر يزين المشهدا صلّوا عليه فمن رآه تشهدا  
 صلّوا عليه بكرةً وأصيلا أرضى التزليل ويبيّن التزويلا  
 فسمّا به غورُ الحجاز ونجدُهُ صلّوا على من قد تأثّل مجدُهُ  
 بالمصطفى المختار يعذب ورْدُهُ ما زهره لولاه أو ما ورْدُهُ  
 صلّوا عليه بكرةً وأصيلا في تربه ما أعذب التقيلا  
 صلّوا على محبوبنا مطلوبنا صلّوا على محبوبنا مطلوبنا  
 صلّوا على عطر جيوننا صلّوا على مطلوبنا محبوبنا  
 صلّوا عليه بكرةً وأصيلا لا نرتضي عن حبه تبديلا

١ ق : تأمل .

صلّوا على خير الأنام الأطهر      صلّوا على النور الأتم الأزهر  
 صلّوا على الصبح المنير الأشهر      صلّوا عليه بانصال الأشهر  
 الله فضّلنا به تفضيلاً      صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً  
 صلّوا على من قد تنهى في العلا      صلّوا على من كان أكل أجلاً  
 صلّوا على درّة تزان به الحلى      المجدُّ ألبسه الكمال مكملاً  
 والله كملّ مجدهُ تسكيلاً      صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً

وأظن أنني رأيت بعض هذه القصيدة في كتاب العروسي المغربي ، وهو

متأخر .

#### [ قصائد ومقطعات في مدح الرسول ]

ومن قصائد هذا الكتاب قصيدة صرح فيها بابن المغربي ، وهي :

أهدت لنا طيبَ الروائح يثربُ      فهبوبُها عندَ التنسم يطربُ  
 رقت فرقاً من الصباية والأسى      قلب بنيران البعاد يعذبُ  
 شوقاً إلى أسنى نبيّ حبهُ      يحلو على مرّ الزمان ويعذبُ  
 المصطفى أعلى البرية منصباً      قد جل في العلياء ذاك المنصبُ  
 فزّنا به بين الأنام بديمة      أبدأ علينا بالأمانى تسكبُ  
 حاز السيادةَ والكمالَ محمدٌ      فإليه أشتاتُ المحامدِ تُنسبُ  
 محبوبُنا ونبيُّنا وشفيعنا      يُدني إلى وِرد الرضى ويقربُ  
 بضياؤه الملتاح أشرق مشرقٌ      وبنوره الوضاح أغرب مغربُ  
 وبه وردنا الأمنَ عذباً صافياً      وبه ترقى في المعالي يشجبُ

١ ق : من نبي أنور .

٢ ق : صلوا عليه فيما أتم وأجلاً .

صبح الهدى أنواره بنينا  
 إن طابت الأنفاس من زهر الربى  
 صيرت أمداح النبي المصطفى  
 فعلي من أمداح أحمد خلعة  
 وبمدحه شمس الرضى طلعت على  
 أتري يبشرني البشير بقربه  
 ويقال لي بشراك قد نلت المنى  
 هذا مقرر الوحي هذا المصطفى  
 رد ورد طيبة واشف من أم النوى  
 كم ذا التواني عن زيارة مورد  
 منّا السلام على النبي محمد  
 صباحاً تروق الناظرين وتعجب  
 ريتاه أذكى في النفوس وأطيب  
 لي مذهباً يا حبتك المذهب  
 موشية لها طراز مذهب  
 أفقي تضيء ونورها لا يقرب  
 وأبث أشواق الفؤاد وأندب  
 يا مغربي إلى متى تتغرب  
 هذا الذي أنواره لا تحجب  
 قلباً على جمر الأسي يتقلب  
 عذب المقام به ولذ المشرب  
 ما أسفرت شمس وأشرق كوكب

وقد سمي هذا الكتاب بـ « نظم الدرر في مدح سيد البشر » و « الورد العذب المعين في مولد سيد الخلق أجمعين » وليس هو بابن العطار المشرقي الذي كان معاصراً لابن حجة الحموي ، فإن ذلك متأخر عن هذا ، وهذا مغربي وذاك مشرقي ، فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان ، سوى اشتراكهما في الشهرة بابن العطار .

ووجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته : ممّا أنشأه الشيخ الفقيه القاضي العدل الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن أبي بكر بن يوسف العطار ، رواية العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد ابن الأمين الأقشيري ، قرأت هذا الكتاب وقصائده على حروف المعجم وقصيدتين غيرها على ناظمها القاضي المذكور قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة

١ يعني بابن العطار المشرقي ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الدينيري ، وله في المدائح النبوية « عنوان السادة » ( الدرر الكامنة ١ : ٢٨٧ ) .

بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر من أقصى إفريقية - حُرِسَتْ - في دُولٍ  
متفرقة ، وآخرها يوم الثلاثاء ليلة بقيت من ذي القعدة أو آخر عام سبعة وسبعمائة ،  
ونصُّ ما كُتِبَ على نص قراءتي عليه : صحيحٌ ذلك ، وكتبه محمد بن عبد الله  
ابن محمد بن محمد بن العطار ، والحمد لله رب العالمين ؛ انتهى .

ورأيت أثر ما تقدم بخط الأقسهري ما صورته : سمع من لفظي جميع  
« نظم الدرر في نسب سيد البشر » لجامعه ، القاضي المذكور أعلاه القاضي  
شمسُ الدين محمد ابن المرحوم عبد المنعم الشيبني وولدهُ أبو محمد عبد الدائم  
وابنُ أخيه أبو محمد عبد الباقي بن تاج الدين بن حفصُ بن أبي بكر البوري  
وغيرهم ، نحو سماعي قراءة مني على مؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن  
عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر العطار سنة سبع وسبعمائة ، قالهُ راسمه  
الأقسهري ؛ انتهى .

ومن قصائد هذا الكتاب قوله :

أبدأ تشوقكُ أو تروكك يثربُ  
هي جنةٌ في النفس يعذبُ ذكرها  
المسك معترفٌ بأنَّ نسيما  
والعنبر الورديُّ دان لطيبها  
جيشُ الصبابة شنَّ غارات الأسي  
والشوقُ يثينا إليها كلما  
حتى التسيمُ إذا سرى من ربعا  
حيًا فأحيا المستهامَ بطيبه  
يا حبذا في رُبَع طيبةٍ وقفةُ  
فإلى متى يقصيك عنها المغربُ  
والقربُ منها والتداني أعذبُ  
أسمى وأسرى في النفوسِ وأطيبُ  
منهُ التعطر والتأرج يطلبُ  
من بعدها فالصبرُ منها ينهبُ  
وقف الحمام على الأراكة يخطبُ  
يثني من الروض الغصونَ ويُطربُ  
فنفوسنا بهوبه تتطيبُ  
بين الركائب والمدامع تُسكبُ

١ ق : أبي حفص .

حتى يرقّ للوعتي وصباتي  
شوقاً لمن زان الوجود ، وجهه  
ساد الأنام المصطفى بكماله  
بالنور زان حلّى علا آياته  
الشمسُ يغربُ نورها وضياؤها  
الله أرسله إلينا رحمةً  
بمحمدٍ فزنا بإدراك المنى  
خير الورى محبوبنا ونبينا  
روضُ النفوس محمدٌ ونعيمها  
شرفٌ تقادم قبل آدمَ عهدهُ  
منا عليه مدى الزمانِ تحية

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

طلعت ، وقارنها البهاء ، بدورُ  
من نورٍ أحمدٍ يستمدُّ ضياؤها  
ويزيدُ ذلكَ النورَ حسناً فائقاً  
محبوبنا أسمى البرية منصباً  
فزنا بخير العالمين محمدٍ  
لاحتَ لنا أنواره فرماننا  
بالمصطفى المختار قابلنا الرضى  
الله فضلهُ على كلِّ الورى  
القربُ خصّصهُ وعظّم قدره  
خيرُ النبيين الكرام نبينا

أبدأ على قطبِ السعود تدورُ  
وبهاؤها ، يا حيداك النور  
يومَ القيامةِ والأنامُ حضور  
يومَ النشور لواؤه منشور  
وجرى بوفق مرادنا المقدور  
نورٌ ، وأنسٌ دائمٌ وسرور  
بين الأنام فسعينا مشكور  
فهو الحبيب ، وفضله مشهور  
فما يبهجة نوره ناحور  
بالنور في العرش اسمه مسطور

يا صاحبي نداء صبّ مفرم  
عوجا علي بوقفة وبمطفة  
إن لم أزر بالجسم قبر المصطفى  
نيران قلبي بالبعاد توقدت  
فمن الفراق الحتم نيران لها  
فمتى أفوز بوقفة في طيبة  
ويقال لي إنزل بأكرم منزل  
إن جاد دهري بالوصول لطيبة  
هي جنة من حلها نال المتى  
حتى النسيم إذا سرى من نحوها

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

أما النسيم فقد حيّاك عاطره  
خاطر بروحك في نيل الوصال فكم  
زهر الربى باسم تندي كئامه  
ما حل روض المتى الغض الجنى دنف  
والنهر أبرز للبدر الأتم حلى  
والغصن تلعب أنفاس الرياح به  
والليل قد رقمت بالشهب حلته  
والنور مخض جنى فوق الندى درر  
وملبس الروض قد زانت خضرته  
والصبح سل على جيش الظلام طبى

وبازق المنحى أحياك ماطره  
من نازح نال طيب الوصل خاطره  
رق النسيم بها إذ راق ناظره  
فاستضحكت فيه من عجب أزاهره  
والبدر طرز ماء النهر زاهره  
والطل قد نثرت منه جواهره  
والبرق ييسم في الظلماء ساهره  
وعقدها زين الأغصان دائره  
والليل بالفجر قد شابت غدائره  
وعندما سلها ولت عساكره

١ ق : الوصول .

والمسكُ إن فُضَّ لا تُخفي سرائره  
 فتربها أبداً مسك يخامره  
 سمّت وراقت بمن فاقت مفاخره  
 حازَ المكارمَ واعتزت عشائره  
 يزيدُ حسناً على الأعمار باهره  
 أربت على الرمل أضعافاً ماثره  
 نظماً فقد زان عقدَ الرُّسل آخِرُهُ  
 بحرٌ من العلمِ عذبٌ فاض زاخره  
 إلى مقامٍ حبيب أنت زائره  
 رامَ الدنوّ فأقصتهُ جرائره  
 غربٌ فما غائبٌ من أنت ذاكره  
 إلى محلِّ رسولِ الله عامره

للزهر سرٌّ وعرفُ الروض فاضحه  
 هل زار طيبة ذاك العرفُ حين سرى  
 طابت بطيبِ رسولِ الله فهي بهِ  
 بهِ معدٌّ تسامى للعلا ، وبهِ  
 أسنى النبيين قدراً نوره أبداً  
 وأفضلُ الخلقِ من عُرْبٍ ومن عجم  
 إن كان للرُّسل عقدٌ وهو آخِرهم  
 روضٌ من الحلمِ غضُّ راق منظره  
 إن جاد صاحِبِ بلياهُ الزمانُ فمِلْ  
 وصِفْ له حال صبِّ مغرمٍ دنفِ  
 واذكر هناك بعيدَ الدارِ غرْبتهِ  
 أهدي السلام بلا حدٍ ولا أمدِ

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

وإلا فجادته الدموعُ السواكبُ  
 وحلّتي محلاً حلّ فيه الجباببُ  
 فما عاب ذاك الأُنسَ بالجزعِ عائبُ  
 ويا أنسنا بالجزعِ هل أنت آيبُ  
 وقد شيت سودَ الشعورِ الشوايبُ  
 كما كان غصناً مورقاً وهو ذاهبُ  
 وأودى بهِ والدهرُ للأُنسِ سالبُ  
 وأي بخیلٍ للتفائسِ واهبُ  
 وقد عزَّ مطلوبٌ له أنا طالبُ  
 وإلا فما أنت الصديقُ المصاحبُ

أنزلتنا جادت ثراكَ السحابُ  
 ووشاكِ وسمي الغمامِ بدره  
 وحيّاً نسيمُ الريحِ بالجزعِ أنسا  
 فيا عهدنا بالخيْفِ هل أنت عائدُ  
 وهل راجعُ عصرِ الشبابِ الذي انقضى  
 وهيهات أن يقضى لنا برجوعه  
 وقد سلب الدهرُ المفرقُ أنسنا  
 فما وهبَ الإيناسِ إلا مغالطاً  
 أطلبُ أيامَ العقيقِ بعودةِ  
 فيا صاحبي كن مُسْعدي في صبابتي

تفيض إلى الوراد منها المشارب  
يرد حراً الشوق بالعتب عاتب  
لينهبه من وارد البين ناهب  
من الشوق ما قد طولته السباب  
وحنّت إلى ذاك الجناح الركائب  
وطابت بذلك الترب من الترائب  
وللقلب في تلك الرسوم مآرب  
له في مقام القرب تقضى المطالب  
ولا شرف إلا الذي حاز غالب  
وراقق بنجر الرسل تلك المناصب  
تمزق من ليل الضلال غياهب  
له في ترقيه من الحجب حاجب  
وأدناه في حال الخطاب المخاطب  
فمنها تضيئ النيرات الثواقب  
وبدر الدجى لما بدا والكواكب  
وإن غبت ما قلبي وحقك غائب  
نداء غريب غربته المغارب  
فما أنا من نيل السعادة خائب  
وجاهاً وتمكيناً تنال المواهب  
إلى فوزنا داعٍ وساعٍ وخاطب  
عليه ، بذاك الذكر تسم المراتب  
فذلك في شرع المحبة واجب

إذا ما بدا برق الحجاز فأدمعي  
أعاتب أيام العباد ، وقلما  
وأجل بالصبر الجميل ، وإنه  
ولما بدت أعلام طيبة قصرت  
وقفنا وسلمنا وفاضت دموعنا  
نزلنا وقبلنا من الشوق تربها  
فللعين من تلك المعاهد نزهة  
حوت سيد الرسل الذي جل قدره  
به غالب حاز المفاخر سالفاً  
بهادي الوري طراً مناصبه سمّت  
محمد الهادي بإشراق نوره  
ترقى إلى السبع الطباقي وما بدا  
وخاطبه في حضرة القدس ربّه  
نبي بدت أنواره وتلاّلات  
لقد أشرقت شمس النهار بنوره  
أعلل قلبي بالوصول لقبه  
وإنتي أناديه وإن كنت نازحاً  
إذا كنت لي يا سيد الرسل شافعاً  
بمدحك يا من جل قدراً وحظوة  
فيا معشر الأحياب إن نيينا  
ألا فاذكروه كل حين وسلموا  
وقوموا على أقدامكم عند ذكره



ومنها قوله رحمه الله تعالى :

شمس الهدى وضحت بأشرف مرسل  
من وجه عبد الله كان ظهورها  
خلعت على الآفاق أشرف ملبس  
فالنيران المشرقان كلاهما  
فالشمس لما أن بدت أنواره  
والبدر قابله بحسن كامل  
وليلة الإسراء أجمل منظر  
فضلت على الأيام من شرف لما  
وبدا بها نور النبي المصطفى  
إذ جاءه الروح الأمين مسلماً  
فسرى إلى أسنى محل وارتقى  
رفعت له حجب الجلال بأسرها  
حتى انتهى الروح الأمين لحده  
ناداه لما أن ترقى وحده :  
ارقا إلى الأفق المبين مشاهداً  
واسعد بزورة من تعاضم ملكه  
فسما فشاهد حضرة القدس التي  
وبدا الكمال له ونودي مقبلاً :  
أنت المراد لسرنا ولوحينا  
والبس بحضرة قدسنا خلع الرضى  
ولك الوسيلة يا محمد عندنا  
فاحكم بما يوحى إليك من الهدى

ودحت دجى ليل الضلال المسبل  
للخلق طراً في ربيع الأول  
وبدت فأى دجنة لم تنجل  
للمصطفى اعترفا بعجز مجمل  
أومت إليه بالسلام الأحفل  
فأنشق للبدر الأتم الأكمل  
بجمال إسراء الحبيب الأجل  
حازته من شرف النبي الأفضل  
وبدت لنا نار الكليم المصطفى  
ومبشراً بورود أعذب منهل  
والجفن منه بنومه لم يكحل  
فرأى جلالاً لم يكن بممثل  
وبحث يذهل عقل من لم يذهل  
لك يا محمد ذا التقرب ليس لي  
واترك حظوظك بالحضيض الأسفل  
واصعد إلى عرش الحبيب الأول  
سبحاتها تغشى حجى التامل  
أهلاً وسهلاً بالحبيب المقبل  
أقبل إلينا يا محمد تقبل  
مننا وجرّ الذيل منها وارفل  
وبها نجيب وسيلة المتوسل  
وانزل بأنوار الكتاب المترل

فيه شفاء للصدر فبرؤها  
 يا نفس هل تشفيك زورة طيبة  
 ولتى زمانك في التصابي والمنى  
 يا قلب ، روعات الجوى هل تنقضي  
 وأزور قبر الهاشمي محمد  
 لاني وإن بخل الزمان بقربه  
 أسقي الثرى تسكابها ، فمعينها  
 لهفي على بعد المزار متى أرى  
 ومتى أبشر بالمنى ، ويقال لي :  
 وتب تلقائي نواسم طيبة  
 فلقد بليت بلوعة وبدمعة  
 خيلت قربك برة داء صباي  
 شوقاً إلى خير الأنام بأسرهم  
 فيه أنا متوسل في مقصدي  
 ويجاهد عند الأنام مآربي  
 وبه الأمانى قد حللن بساحي  
 بشراك نفسي فالأمانى أعجلت  
 بمدىحه أضحى الزمان مسالمي  
 فيه إلهي قد رجوتك راغباً  
 وإليك ربتي رغبتى وتوسلي

بمفصل منه وغير مفصل  
 فرسومها برة لكل مقبل  
 فدعي التصابي والأمانى وارحلي  
 غني ؟ ولوعات الجوى هل تنجلي ؟  
 قبل الرحيل وقبل عدل العذل  
 فبلوعي وبدمعتي لم أبخل  
 يهي ، ونار صباي ما تأتلي  
 يقضي الزمان بقرب ذاك المترل ؟  
 هذا مقرر الوحي دونك فانزل ؟  
 لاني أجود بها إليك وحق لي  
 وهوبك الأزكى شفاء المبتي  
 ضمن البعاد به فطال تحيلى  
 سؤلي وأسنى مقصدي ومؤملي  
 أسنى التوسل بالرسول المرسل  
 ووسائلى تفضى وإن لم أسأل  
 وحوادث الحدثان صرن بمغزل  
 نحوي تبشرني بخير معجل  
 تندى أسرة وجهه المتهلل  
 دون الأنام فباب جودك موثلي  
 وعلبك في كل الأمور نوكتلي

وثبت في آخر هذا الكتاب ما صورته : قال محمد بن عبد الله بن محمد بن  
 محمد بن أبي بكر بن يوسف بن العطار نفعه الله تعالى بالعلم : كان الفراغ من  
 إكمال هذا الفصل وإتمامه ، حسب نثره ونظامه ، ضحوة يوم الجمعة الثاني من

شعبان المكرم سنة ست وتسعين وستمائة ، ما عدا أربع قصائد اشتمل عليها ،  
فإنها تقدمت على إنشائه ، أودعتها فيه ، والله سبحانه المستعان ، وذلك بمدينة  
الجزائر - جزائر بني مزغنة - من أقصى إفريقية من أرض متيجة ، صانها الله  
تعالى ؛ انتهى .

ونبت في آخره بخط بعض الأكابر ما نصه : تأليف الفقيه العالم الأديب  
البارع أبي عبد الله محمد بن العطار الجزائري ؛ انتهى .

وهو كتاب نفيس جمع فيه بين حسن النظم والنثر ، فالله تعالى يجازي صاحبه  
أفضل الجزاء ، بمنه وكرمه .

ولا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة  
على ما ذكر هنا فنقول : قال العارف بالله تعالى ابن العريف في كتاب « مطالع  
الأنوار ومنايع الأسرار » :

وَحَقِّكَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَلْبِي  
جرت أمواهُ حبك في فؤادي  
فصرتُ أرى الأمور بعينِ حقِّ  
إذ شغف الفؤادُ به وداداً  
يهيمُ بذكره ويحنُّ شوقاً  
يخامرُه ارتياحٌ منه حتى  
وما هو حقٌّ فضلٍ قد رآه  
فسوف ينال في الدنيا سروراً  
ويعطى ما تمنى من أمانٍ  
يجبك قربة نحو الإلهِ  
فهامَ القلبُ في طيب المياهِ  
وكنت أرى الأمور بعينِ ساهي  
فهل ينهأهُ عن ذكره ناهي ؟  
حينَ المستهام إلى الملاهي  
يقول أولو الجهالة : ذاك لاهي  
فصارَ يجدُّ في طلب الملاهي  
وفي الدارِ الأخيرة كلَّ جاه  
كما قد حبَّ محبوبَ الإلهِ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

يا عاذلي في طلابي  
سأعملُ العيسَ شوقاً  
دعني من العذلِ دعني  
بالعزمِ دونَ التأنِّي

إلى ضريح رسول	مصدق حسن ظني
أشدو على كل فج	حين الحمام يغني
يا أظهر الخلق إنني	بدلتني عبد قين
فاعتق اليوم رقي	وانظر بعطفك مني
فأنت أنت ملاذي	إنيك إنيك أعني
إن غبت عن عين جسми	ما غبت عن عين ذهني
لولاك كنا أناساً	أشراً من كل جن
فإذ بعثت رسولا	فخير فضل ومن
لله خالص شكري	عساه يصفح عني
فلآتني عبد سوه	قلبت ظهر المجن

وقال في خاتمة ذلك الكتاب ١ :

صلّى الإله على النبي الهادي	ما لاذت الأرواح بالأجساد
صلّى عليه الله ما اسود الدجى	فكسا محيا الأفق برّد حداد
صلّى عليه الله ما انبلج السنا	فأبيض وجه الأرض بعد سواد
صلّى عليه الله ما همع الحيا	فسقى البلاد برائح أو غادي
صلّى عليه الله ما هفت الصبا	وشدا على فني الأراكة شادي
صلّى عليه الله ما ألف الكرى	جفن فخامره للذيد رقاد
صلّى على المختار أحمد ربّه	ما استمسكت نار بطي زناد
صلّى على خير الأنام محمد	من خصه بالنور والإرشاد
صلّى الإله على رسول حاشر	حشر الأنام لديه في الميعاد
صلّى الإله على رسول عاقب	في الدهر وهو بفضله كالهادي

١ ق : وقوله رحمه الله تعالى . . . الباب .

صلى الإله على رسولٍ خاتمٍ  
 صلى الإله على المقفَى ما اقتضى  
 صلى على ماحي الضلالِ إلهُ  
 صلى الإله على رسولٍ فاتحٍ  
 صلى الإله على نبيِّ راحمٍ  
 صلى الإله على نبيِّ طالعٍ  
 صلى الإله على نبيِّ طالعٍ  
 صلى عليه الله فهو نبيُّهُ  
 صلى عليه الله فهو رسولهُ  
 صلى عليه الله فهو خليلهُ  
 صلى عليه الله فهو صفيُّهُ  
 صلى عليه الله فهو وليُّهُ  
 صلى عليه الله فهو المصطفى  
 صلى عليه الله فهو المجتبي  
 صلى عليه الله فهو المتقى  
 صلى عليه مَنْ براه مطهراً  
 صلى عليه من براه بفضله  
 صلى عليه مَنْ أراه جلالهُ  
 صلى عليه من أحلَّ فؤاده  
 صلى عليه مَنْ غَداهُ بنعمةٍ  
 صلى عليه مَنْ كساه عوارفاً

ختمَ النبوةَ بالكتابِ الهادي  
 بشرُ نبوتهُ بغيرِ عنادٍ  
 ما غردتْ طيرٌ على الأعوادِ  
 فتحَ الظلامِ بنورهِ الوقادِ  
 بالملَّةِ الغراءِ ، بعدِ فسادِ  
 رحمَ الإلهُ بهِ من الإبعادِ  
 بملاحمِ قَصَمَتِ فؤادِ العادي  
 ناداهُ بالإرشادِ خيرُ منادِ  
 أعطاهُ رايةَ عزيمةٍ ورشادِ  
 أسدى إليه منه كلَّ سدادِ  
 صفى سريرتهِ من الأحقادِ  
 والاهُ في الإصدارِ والإيرادِ  
 من كلِّ حضارِ العبادِ وبادي  
 يُجني إليه الخيرُ دونَ نفاقِ  
 نورُ الزمانِ وواحدُ الآحادِ  
 واختاره طوداً من الأطوادِ  
 وأعادهُ حياً لغيرِ معادِ  
 وأنالهُ من ذاكِ كلِّ مرادِ  
 في ظلِّ عرشِ ثابتِ الأوتادِ  
 فتضاعفتْ كتضاعفِ الأعدادِ  
 واختصهُ منهُ بغيرِ أيادِ

وقال الشيخ أبو عبد الله ابن عمران مادحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم

مرتباً على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب ، كما تقدم :

ألف : أيا خيرَ البريةِ هذي	مِدْحِي ، وما أنا في مقالي هاذي
باء : بها أظهرتُ صدقَ محبي	وبذلكَ الجاهِ الكريمِ ليأذي
تاء : اتخذتُ وسيلةً ما حكتهُ	وجعلتهُ يومَ المعادِ عيأذي
ثاء : ثنائي ليس يحرصُ فضلكَ الـ	زاهي ولا يحويه باستحواذِ
جيم : جلالكَ جلُّ طورُ فخاره	عن شبهِ مثلٍ أو لحاقِ مُحاذي
حاء : حيثُ بمعجزاتِ ذكرها	يولي ذوي الإيمانِ كلُّ لئاذِ
خاء : خصصتُ بها بفضلِ عنايةِ	منها لجأتَ إلى أجلِّ ملاذِ
دال : دحضتُ بحقها مستقرباً	إبطالَ زورِ مشعوذِ ملاذِ
ذال : ذراعِ الشاةِ أفصحَ خبراً	عمّا يحاذرُ ضره بنفاذِ
راء : رميتُ عصائباً قد ألّبوا	فعمّوا ولما يُنصروا بلواذِ
زاي : زعيمِ بالوجهةِ أنتَ إذْ	كلُّ بجاهكَ عاذ كلُّ عيأذِ
طاء : طلابهم لديكَ شفاعَةٌ	فيها بذتَ الجمعِ أيّ بذاذِ
ظاء : ظمأؤهم بموضكِ سوّغوا	رياً كأنّ به مذاقةَ ماذي
كاف : كفلتُ بما تلته (والضحى)	لجماعةِ الجارينِ باستنفاذِ
لام : لدعوتكِ المجابةِ أسبلتِ	ثرواتُ هتانِ الحيا بهماذِ
ميم : متعينِ يدكِ إذْ غلبَ الظُّما	أروى الورى من توأمِ وفذاذِ
نون : نجاركَ أصلُهُ متخيرٌ	من بطنِ ذاتِ علاٍ وأطهرَ حاذي
صاد : صعدتُ ذرا الموقفِ زلفه	تركَ السعودِ مقطعَ الأفلأذِ
ضاد : ضويتُ إلى جلالِ كافلِ	لكَ بالرضى درَّ الجلالةِ غاذِ
عين : علا ذكر افتخاركِ وارتنقى	عن غمزِ مغتابِ وزورِ البأذي
غين : غمامِ قد علاكَ مظلاً	يمشي بمشيكِ دائماً ويحاذي

فاء : فصاحتك البليغة أعجزت  
 قاف : قواعد صرح كسرى زلزلت  
 سين : سبقت بكل فضل يغندي  
 شين : شأوت مفاخر أكل الوري  
 هاء : هتفت على تنائي شُفّي  
 واو : ولو أني استطعت لسابقتُ  
 لا : لا أكيف قدر شوق باعث  
 ياء : يميناً لو قدرتُ إذن لما  
 دامت عليك صلاة ربك ما همت  
 للقوم من قربي ومن شدّاذ  
 لولادة أو هت قوى ابن قباذ  
 جفنُ المعالي منه ليس بقاذ  
 وتركتهم غرقى بلجة آذي  
 بعلاك هذي ، ما نحتك هذي  
 قلبي خطأ قدمي بالإغذاذ  
 لغزائي مستنهض شحاذ  
 أخرتُ سعي مبادر حدحاذ  
 ديم بوبل هسطل ورذاذ

رجع إلى الكاتب أبي عبد الله ابن الجنان الأندلسي :

قال - تقبل الله تعالى منه - يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

يا مَنْ تقدّس عن أن  
 ومنّ تعالى جلالاً  
 ومنّ قبولُ ثنائي  
 صلى على مَنْ تبدّى  
 ومنّ علا الفخر لما  
 حمدٌ خيرُ هادٍ  
 حمدٌ خيرُ داعٍ  
 حمدٌ خيرُ مُبدٍ  
 أكرمُ به من نبي  
 أعزّز به من رسول  
 وخصّه الله منه  
 يحيطُ وصفٌ بذاته  
 عن مُشبه في صفاته  
 إليه أسنى هباته  
 نور الهدى من سماته  
 نعى إلى معلواته  
 بحلمه وأناته  
 بالصدق من كلماته  
 لنا سنا معجزاته  
 همت سما مكرماته  
 سمّت علا درجاته  
 بالفضل من تكرماته

لما جباه بأوفى صلاته في صلته

وقال :

يا ربّ بلّغْ سلامي لأحمدِ ذي الشفاعةِ  
لخاتمِ الرُّسلِ أعني إمامَ تلكِ الجماعةِ  
لأبهرِ الخلقِ مجداً بحكي الصباحِ نِصاعه  
لمنْ صفاتُ علاهُ تُعجزُ أهلَ البراعه  
لسيّدِ لسناهِ يزهي السنا واليراعه  
لمرشدِ يهداهُ قد فاز عبدٌ أطاعه  
شمسُ النبوةِ مُعطى شمسِ السماءِ شعاعه  
وناظمِ الحسنِ نظماً قد ضمّ منه شعاعه  
وسرُّ سرّك يا مَنْ أرى العيونَ اطلّاعه  
ومنْ جبا بذكاءِ خِلالهُ وطباعه  
ومدّ في كلِّ فضلٍ لصفوةِ الرُّسلِ باعه  
فزدهُ يا ربّ فخراً وزدْ محبّيه طاعه

وقال أيضاً غيره :

لقد رفع الإله عن البرايا  
أتى والناسُ في الآفاقِ نهباً  
فأتقدهم ، ولولاهُ لكانوا  
نبيّ لا يغلُّ عليه إلاّ  
كأعمارِ اليهودِ أو النصارى  
فبعضٌ للتجاهلِ والتعامي  
زعانفُ لا يهلكُ لها رُواءُ  
بيعتِ محمدٍ مِحَنَ الصروفِ  
لسُمرِ الخطِّ أو بيضِ السيوفِ  
لقى بين الضلالةِ والحتوفِ  
سخيْفُ العقلِ ذوراي مؤوفِ  
أو الفلكيِّ أو كالفيلسوفِ  
وبعضٌ للتحيّرِ والوقوفِ  
فإنّ الجهلَ مائحةُ الظروفِ



إذا جرى بمختلٍ ضعيفٍ فإنَّ صحاحنا فوقَ الألفِ  
 فبرهانُ النبوةِ مستفيضٌ ندلُّ بهِ على رغمِ الأنوفِ  
 شفوفُ الرُّسلِ متضحٌ ولكن لأحمدِ الشفوفُ على الشفوفِ  
 حروفُ الخطِّ أصلٌ للمعاني وللألفِ التقدُّمُ للحروفِ

وما أحسن قول القائل رحمه الله تعالى :

لولا النبيُّ محمدُ هلكَ الورى في سوءِ حاله  
 أعلى الورى قدراً وأكبرَ رهمهم وأظهرهم دلالة  
 ختمَ الإله بهِ النبوةَ واختصَّه دونَ البريةِ  
 بدرُ الرسالةِ والصحابةِ حولِ ذلك البدرِ هاله  
 قدفَ الحصى في أعينِ الكفارِ فاعتنقوا الجداله  
 وتلذذوا ثوبَ الكآبةِ بعد إظهار الجزاله  
 فأصغى إلى أنبائه تعلمُ بأنَّ المنتهى له  
 وإذا ابتغيتَ وسيلةً وملحتَ وملحتَ آله  
 فاقطعْ بأنك آمنٌ ومولحتَ وملحتَ آله  
 يومَ القيامةِ لا محاله

وقال أبو القاسم سعد بن محمد رحمه الله تعالى :

أطلقُ لسانك بالصلاة على النبيِّ الأبطحيِّ الهاشميِّ محمدِ  
 واجعلْ شطركَ ذلك تنجُ بهِ غداً إنَّ النجاةَ بذكرِ يومٍ للغدِ

ولأبي اليمن ابن عساكر رحمه الله تعالى :

يا ربِّ صلِّ على النبي وآله  
واخصص ختم سلامنا بجانبه  
واحرس شريعته وأوضح سبلها  
وأدمِّ كرامته وأعلِّ مناره  
وارفع له الدرجات في رُتب العلا  
وأقمه بين يديك زلفى موقف  
وأنلِّ شفاعته وأورد حوضه  
يشتاقه ويعوقه علق به  
فيه إليه غلّة ما تشفي  
وله عليه في الأصائل والضحي  
وبه إلى تقبيل موطىء نعليه

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

ألا إن الصلاة على الرسول  
فصل عليه ؛ إن الله صلى  
وصل عليه قد صلت عليه  
ألا إن الصلاة عليه نور  
وتثقل ميزان خفيف  
إذا صليت صلى الله عشرين  
وتحظى بالشفاعة يوم تضحى  
فأكثر أو أقل فانت تجزى  
فصل عليه تجز جزء ضعف  
وأولى الناس أكثرهم صلاة

صلواتنا ما دامت الأيام  
كالمسك يعبق فُض عنه ختام  
تبدو بها للسالك الأعلام  
وأنيله أعلى ما لديك يرام  
فهو الذي للمرشدين إمام  
للحمد ما لسواه فيه مقام  
من لو أتاه [...] منه أوام  
لزمانه وزمانه وسقام  
إلا ببقياه ، وعزّ مرام  
تهدى إليه تحية وسلام  
وجد له بين الضلوع أوام

شفاء للقلوب من الغليل  
عليه ولا تكونن بالبخيل  
ملائكة السماء يجبرئيل  
لدى الظلمات في اليوم المهول  
وتخفيف من الوزر الثقيل  
بواحدة عليك على الرسول  
وما لك من مقبل أو منيل  
بذلك من كثير أو قليل  
وتجز مضاعف الأجر الجزيل  
عليه به وأحرى بالقبول

وأنجاهم من الأهوال عبد  
 فكن لهجاً بذكره حفيماً  
 وصل صلاة مشتاق إليه  
 وصل مدى الزمان على رسول  
 وصل على حبيب فاق فضلاً  
 فصلّى الله أفضل من يصلّي  
 وآتاه الوسيلة مستجيباً  
 وأزلفه وشفّعه ليأوي  
 وأطد شرعه وحمى حماه  
 وشرفه ولم يبرح شريفاً  
 وزاد محبه شرفاً وفخراً  
 وزاد علاه منه بطول عمر  
 وأوردنا عليه الحوض وفداً  
 بها لهجٌ بدّل قال وقيل  
 بليقاه ومنصبه الخليل  
 وداو بذكره سقم العليل  
 كريم مصطفى برّ وصول  
 مدى شأو الكليم مع الخليل  
 عليه في الصباح مع الأصيل  
 وبلغه نهاية كلّ سؤل  
 إليه الناس في ظلّ ظليل  
 وأبده بواضحة الدليل  
 فيجمع جملة المجد الأثيل  
 بتفضيل وتحويل جزيل  
 قصي من مواهب طويل  
 لروى بالروى من سلسيل

وله رحمه الله تعالى :

آدم الصلاة على النبي المصطفى  
 وتول إقبالاً عليها كلما  
 فالفخر أجمعه له فتلقه  
 تخلص بذاك من الجحيم وناها  
 هتف المؤذن مشعراً بشعارها  
 من نوبة الأسحار فوق منارها

فهذه عدة قصائد في مدحه صلى الله عليه وسلم ، أرجو من الله سبحانه أن  
 تكون مكفرة لما ارتكبهت على وجه الفخر والشهرة من الهزل واللغو ، فإن ذلك والله  
 قول لا فعل له ، وإنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر

١ كذا بالتسكين ، وفي هذه القصائد تسامح أحياناً في اللغة والإعراب لم نشر إليه .

وغير واحد ممن ألف في الأدب وجمعه .  
 ولا بأس أن نعزها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة ، وحق لمن توسل  
 بسيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن لا تضيع وسائله ، وكيف وهو صاحب  
 المقام المحمود والشفاعة والسيادة ، فمنها قول ابن الجنان المذكور آنفاً رحمه الله  
 تعالى :

إلى أحمد المختار نُهدي تحيةً      تفواح روض الحزنِ بلله المزنُ  
 إذا نافحت مغناه زاد تأرجاً      وإن لثمت يمناه قابله اليمنُ  
 أسيرٌ أشواقى رسولاً بعرفها      لتسعدنا منه العوارفُ والمن  
 وأرجو لديه الفضل فهو منيله      وما خاب لي فيه الرجاء ولا الظن  
 عليه اعتمادى حين لا لي حيلةً      إليه استنادى حين بنو بي الركن  
 به وثقت نفسي الضعيفة بعدما      أضر بها من ضعف قوتها الوهن  
 إليه صلاتي قد بعثتُ مشفعاً      سلاماً به الإحسان ينساق والحسن

وقوله رحمه الله تعالى :

أذهبُ يومٌ لم أكفر ذنوبهُ      بذكرٍ شفيعٍ في الذنوبِ مشفعٍ  
 ولم أفضِ في حق الصلاة فريضةً      على ذي مقام في الحساب مرفعٍ  
 أرجي لديه النفع في صدق حبه      ومن يرجع المختار لا شك ينفع  
 وأهدي إلى مثواه مني تحيةً      إذا قصدت باب الرضى لم تدفع

وقوله رحمه الله تعالى :

يا أرحم الخلق يوم الحشر والندمِ      أرحم عبيدك يا ذا الطول والنعمِ  
 لاني توسلتُ بالمختار ملجأنا      الطاهر المجتبي من خيرة الأممِ  
 إليك من سيئاتي إنها عظمت      يا واحداً لم يزل فرداً ولم يتم  
 عليه منه صلاة كلما طلعت      شمسٌ وما خط في الأوراق بالقلمِ

فهو الشفيعُ الذي أرجو النجاةَ به من الجحيمِ إذ الكفارُ كالحَمَمِ -  
وقوله أيضاً رحمه الله تعالى :

بجيبِ القلوبِ معتمدِ الخلا  
قد تشفَعْتُ من ذنوبي إلى ذي ال  
فاشفعْ اشفعْ يا خاتمِ الرُّسلِ يومَ ال  
لظُلومِ لنفسه قد تناهى  
فإذا ما تذكرَ الذنوبَ فاضتْ  
لا تخيَّبُ رجاءه إنَّهُ مِن  
وعليكِ الصلاةُ بدءاً وعوداً  
قِ أبي القاسمِ النبيِّ الشفيعِ  
هزةِ الواحدِ العليِّ السميعِ  
محشرِ والمشهدِ العظيمِ الفطيعِ  
في الخطايا وكلِّ فعلٍ شنيعِ  
مقلتاهُ واغرورقتُ بالدموعِ  
ربِّه خائفٌ كثيرُ الخشوعِ  
ما أضاءتْ ذكاءً عندَ الطلوعِ

وقوله أيضاً عفا الله تعالى عنه :

يا ربَّ إنَّ شفيعي من ذنوبي في  
محمدَ خاتمِ الرُّسلِ المبلغِ لا  
عليه مني صلاةٌ كلما سجع ال  
وبعد ذلك أعدادُ الجبالِ ورمه  
كذلك أيضاً سلامي طيبٌ عطرٌ  
للهِ وهو كئيبٌ خائفٌ وجيلٌ  
يومِ القيامةِ خيرِ الخلقِ والنسمِ  
لدينِ الحنيفي والإسلامِ للأممِ  
حمامٌ فوقِ غصونِ البانِ والسلمِ  
ل الأرضِ والطيرِ والحيتانِ والنعمِ  
عليه ما قام عبدٌ في دجى الظلمِ  
من الذنوبِ حزينٌ القلبِ ذو ألمِ

وقول الشيخ الإمام أبي زيد الغازي رحمه الله تعالى :

كملتُ بنعتِ محمدٍ خيرِ الورى  
واختصَّ دونَ الأنبياءِ بدعوةٍ  
فاضتْ على الثَّقَلينِ منه أشعةٌ  
فالإنسُ تعلمُ أنَّه مقصودها  
غُرَّرَ القصائدِ كلِّها وحجوها  
وسعِ العبادَ عمومها وشموها  
طلعتْ وما عقبَ الطلوعَ أفوها  
والجنُّ توقنُ أنَّه مأموها

كَمْ آيَةٌ بِالسَّبْقِ كَانَ نَزْوُهَا  
لِمُحَمَّدٍ لَزِمَ الْعِبَادَ قَبُولُهَا  
هَذَا النَّبِيُّ الْهَاشِمِيُّ رَسُولُهَا

كَمْ آيَةٌ بِالصِّدْقِ كَانَ ظَهْوُهَا  
وَكَفَاكَ هَذَا الْوَحْيُ فَهُوَ شَهَادَةٌ  
جَمَعَ إِلَهُ الْمُكْرَمَاتِ لِأُمَّةٍ

وقوله رحمه الله تعالى :

سُدَّ فَاَلْبَاطِلَ عَنَّا أَجْمَعِينَ  
عِنْدَمَا أَكْمَلَ سَنَةَ الْأَرْبَعِينَ  
عَجَزَتْ عَنْهُ دَوَاعِي الْمُدْعِينَ  
وَهُوَ بِاللَّهِ تَعَالَى مُسْتَعِينٌ  
سَائِرَ الْخَلْقِ إِلَيْهَا مُهْطَعِينَ  
أَنْفُسَ الْقَائِلِ وَالْمُسْتَمْعِينَ  
فَهُوَ مَجَاجٌ مِنَ الْعَذَابِ الْمَعِينِ  
فَهُوَ مِنْ شِيعَةِ إِبْلِيسَ الْعَلِينِ

أَيُّ نَوْرِ كَشَفَ اللَّهُ بِهِ  
نَحْمَ اللَّهِ بِهِ أَنْوَارَهُ  
وَأَنَا بِدَلِيلِ بَيْنِ  
فَهُوَ لِلنَّاسِ جَمِيعاً مُرْشِدٌ  
تَرَكْتُ دَعْوَتَهُ وَهُوَ الرِّضَى  
فَأَعِدُّ أَنْبَاءَهُ فَهُوَ مُنَى  
وَالَّذِي يَهْدِي إِلَى شَرَعَتِهِ  
وَالَّذِي يَرْغَبُ عَنْ سُنَّتِهِ

وقوله وهو كما قبله لزومي :

تَدُلُّ عَلَى التَّمَكِينِ وَالشَّرَفِ الْأَسْرَى  
بِنُورِ سَمَاءٍ يَنْقُلُوهُ عَنِ الْإِسْرَى  
فَلَا قَيْصَرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَلَا كَسْرَى  
تَظَلُّ بِهِ الْأَوْهَامَ ظَالِعَةً حَسْرَى  
وَمَنْ لَمْ يَقُلْ هَذَا تَقَوْلَهُ قَسْرَى  
حَقِيقاً وَلَمْ يَعْبُرْ سَفِيناً وَلَا جِسْرَى  
يَمَحَلُّهَا مِنْ لَا يُبَيِّنُ لَيْسَرَى  
وَبُورِكُ فِي السَّارِي وَبُورِكُ فِي الْمَسْرَى  
فَدُونُكَ تَجْمِيلًا وَلَا تَطْلُبُ الْفَسْرَى

أَصْخُ فَلْخَيْرِ الْعَالَمِينَ مَنَاقِبِ  
أَتَى وَالْوَرَى أَسْرَى فَكَانَ غِيَابَهُمْ  
وَعَقَى رِسُومَ الْكَافِرِينَ وَأَهْلَهَا  
تَقَدَّمَ كُلَّ الْعَالَمِينَ إِلَى مَدَى  
وَخُصَّ بِتَشْرِيفٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ  
تَرْقَى إِلَى السَّعِ الطَّبَاقِ تَرْقِيًا  
وَبِالْجِسْمِ أَسْرَى اللَّهُ وَهُوَ دَلَالَةٌ  
فَسَبْحَانَ مَنْ أَسْرَى إِلَيْهِ بَعْدَهُ  
وَكَمَ عَجَبٌ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ بِهِ

وقوله رحمه الله تعالى :

هاك عن هذا النبي المصطفى  
سبحت صم الحصى في كفته  
وإذا أبدى نبي عبدة  
أي نطق قد روى إعجازه  
حجج الرسل التي قد سلفت  
فاعتقد صحتها واعمل بها  
ممكنت العقل لا يحددها  
غير أهل الطبع والابتدعه

وقوله رحمه الله تعالى :

إذا أمّلت من مولاك قرباً  
وصل عليه أول كل قول  
فإن محمداً أهل البرايا  
لواء الحمد في يمين يديه  
فحدث عن دلائله فصيها  
ولست بناقل للعشر منها  
فقل للسامعين قفوا فهذا  
براهين البسيطة ليس تحصى

وقوله رحمه الله تعالى :

أما يمين محمد  
كلتاها إن صوح ال  
وإذا أضر بنا السقا  
ويساره فهما سماء  
مرعى لنا طعم وماء  
م وغيره فهما شفاء

فاعجب لكف في الوري  
 فاقطع بأنَّ محمدًا  
 فإذا أصحَّتْ لآيةٍ  
 هذا الصباحُ الهاشمي  
 فالأرضُ قد فتحتْ بمب  
 سبقَ القضاءَ بسبقه  
 فيها عن المزن اكتفاء  
 في الخلق ليس له كفاء  
 فالنورُ فيها والضياء  
 بيُّ بدا فليس به خفاء  
 عنه وفتحت السماء  
 واللهُ يفعلُ ما يشاء

وقوله رحمه الله تعالى :

بركاتُ رسل الله غير خفيةٍ  
 هذا النبيُّ الهاشميُّ هو الذي  
 كم آيةٍ لمحمدٍ كم حجةٍ  
 دعواته مسموعةٌ مرفوعةٌ  
 لا شيءٌ أعجب من دليلٍ واضحٍ  
 أمسك بجبل محمد خير الوري  
 وإذا عجبتَ لغايةٍ في رفعةٍ  
 ومحمدٌ خيرُ البريةِ أبركُ  
 هُدَي الأنامُ به وبان المسلك  
 عزَّ الوليُّ بها وذلَّ المشرك  
 والحس ليس يصح فيه تشكك  
 يحيا به بعضٌ وبعضٌ يهلك  
 تظفر بقصدك أيها المستمسك  
 فمحلُّ أحمدَ غاية لا تدرك

وقوله رحمه الله تعالى :

قَبَّحَ الإله الملمحين  
 والمعجزاتُ تواترتُ  
 والله أعلى كعبه  
 كثر الطعامُ مع الشرا  
 وتكثفتُه عنايةً  
 نادى البريةَ فالقلو  
 فإنهم جحدوا الضروره  
 عن أحمدٍ في كلِّ صوره  
 في خلقه وأتمَّ نوره  
 ب يكفه عند الضروره  
 من ربه أعلتُ أموره  
 ب إلى إجابته مَصوره



وحى الشريعة بالدلي  
قل للمشكك حين يي  
بني وبينكم الكتا  
لِ فدعُ معاندها وزورة  
دي في تشكبه قصوره  
بُ فدونكم فأتوا بسوره

وقال رحمه الله تعالى :

إذا بهرت للهاشمي - دلالة  
فكم مرة أتى الغنى كف سائل  
له تحت أستار الغيوب شهادة  
يحدثُ عما كان أو هو كائن  
إذا الصديق لم يعوزك في غلواته  
وحسبك في الأنباء بالغيب أنه  
فكم حجج في طيها ودلائل  
وكم مرة أعطى المني فكر سائل  
معدلة لم تُبق قولاً لقائل  
فقس آخراً من صدقه بالأوائل  
فلا شك في تصديقه بالأصائل  
ستسمعها بالثقل من قول قائل

وقوله رحمه الله تعالى :

يا ذا المعنى بهذا الذكر تسمعه  
هذا النبي ، ومن آيات أثرته  
قد انقضت معجزات الغيب وافية  
وهاك نوعاً من الإعجاز منتزهاً  
لا نعدم النقل عن آثار سيدنا  
تنقل الأنف في النوار ينشقهُ  
إن القلوب إذا اعتلت خواطرها  
في المدح تأثره في سيد الناس  
في الطيب والطول لا تجري بمقياس  
صحيحة باستفاضات وإحساس  
عن نقد منتقد أو صفع قرطاس  
فإنما نحن فيها بين أعراس  
من ياسمين إلى ورد إلى آس  
فذكر أحمد فيها المبرىء الآسي

وقوله رحمه الله تعالى :

تأدب إذا ذكر المصطفى  
فإن التأدب عند السماع  
بصمت اللسان وخص البصر  
يفهم في النطق أو في النظر

وردُّ أحاديثها إنها  
 وصلٌ عليه مدى ذكره  
 ولا تستربُّ في براهينه  
 فكم آيةٌ ظهرت للنبي  
 ومن شكَّ في نور برهانه  
 فكبرٌ على عقله أربعاً  
 دليلٌ على صدق خير البشر  
 فذلك أفضل ما يدخر  
 فتسلك مسلك قوم آخر  
 وكم أثر عنده قد ظهر  
 على أن برهانه قد بهر  
 وقل فوق طورك هذا الخبر

وقوله رحمه الله تعالى :

اعمل بآثار النبي  
 واقبل نصيحتها فقيه  
 واشدد يمينك بالشر  
 خير البرية أحمد  
 ذو قوة عند الإل  
 زان النبيون الوري  
 هاد إلى طرق النجا  
 والهج بمدح الهاشم  
 ولئن فعلت فلن تفو  
 ي فإنها النور المبين  
 ها العز والشرف المكين  
 عة إنها السبب المتين  
 والحق يصحبه اليقين  
 م مقرب منه مكين  
 ومحمد لهم مزين  
 ة مؤيد فيها أمين  
 ي فإنه الحصن الحصين  
 تك بعد ذا دنيا ودين

وهذا تسديس جعلته للكتاب مسك الختام :

وللتاس أعمالٌ فخير وضده  
 وما يحسن الأعمال غير الخوام  
 وإلا فالأمداح النبوية بحر لا ساحل له ، وفيها النثر والنظام ، زاده الله شرفاً  
 وحباه أفضل الصلاة وأزكى السلام .  
 وهذه القصيدة من نظم الفقيه الأجل أبي الحجاج يوسف بن موسى  
 المتشاقري الأندلسي - نفعه الله تعالى بنيته ، وبلغه غاية أمنيته - وترتيبها على

حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الروي فإنه على حرف الميم ،  
وكذا آخر الشطر الذي قبله فإنه ميم أيضاً ، وهذا نصه بحروفه ما عدا حرف  
الواو فإنه لم أجده وكملمته على منواله :

حلّ في طيبة رسول كريم	فعلية الصلاة والتسليم
صفوة الخلق خاتم الأنبياء	مرشد الناس للطريق السواء
والعماد الملاذ في الأواء	وشفيح العصاة يوم الجزاء
يوم يبدو لديه جاه عظيم	فعله الصلاة والتسليم
أذهب الغي نوره والغياب	فأضاءت مشارق ومغارب
وغدا الحق غالباً للأكاذب	وبدت منه للأنام عجائب
صدق أقواله بها معلوم	فعلية الصلاة والتسليم
لبراهين صدقه معجزات	حيثما حلّ حلت البركات
وسمت أربع به وجهات	فه قد تعرفت عرفات
وبه تاه زمزم والحطيم	فعلية الصلاة والتسليم
لم يزل هادياً صدوق الحديث	ووفياً بالعهد غير نكوث
ومجيباً لدعوة المستغيث	وكرماً نداء فوق الغيوث
ويداه بالجود جود سجوم	فعلية الصلاة والتسليم
بهج الحق أوضح الابتهاج	سيد نوره أضاء الدياجي
خصه الله ليلة المعراج	باصطفاهاء ورفعة ونتاج
وبتكليمه له التكريم	فعله الصلاة والتسليم

مصطفى مجتبي كريم صفوح	للتبين جباهه ممنوح
فلاكرامه أجبر الذبيح	ونجما آدم وغلص نوح
وكذاك الخليل إبراهيم	فعلبه الصلاة والتسليم
كل دين بدينه منوخ	فسوى ما قضى به مفسوخ
لهداه بكل قلب رسوخ	فالورى مادح له ومصبخ
كلهم في هوى النبي يميم	فعلبه الصلاة والتسليم
بمشه كان رحمة للعباد	دلثم بالهدى طريق الرشاد
وقضى كل باطل وعناد	ودعا للإله دعوة هادي
فإذا الحق واضح مستقيم	فعلبه الصلاة والتسليم
أمة بالشكاة ظني أخيد	مستجيراً بجماهه يستيد
وبه كانت الوحوش تلوذ	وله خاطب الذراع الخيد
لا تدقني فإني مسموم	فعلبه الصلاة والتسليم
أشبع الجيش والطعام يسير	ودعا نخلة فجامت نسير
وهسى من يديه عذب نمير	وله البدر شق وهو منير
معجزات تحار فيها النهوم	فعلبه الصلاة والتسليم
حجب النور في السموات جازا	فاحتوى الفضل والعلاء وحازا
فيه في غد نال المفازا	وكفى أمة الرسول اعترازا
أن تمى يكون منها كليم	فعلبه الصلاة والتسليم

لأما الحكمُ منه عدلٌ وقسطٌ      لم يجرُ في القضاء والحكم قطُّ  
جبه في بلوغِ قصدي شرطٌ      وبأمداحه ذنوبي تحطُّ  
ويزولُ العنا وتجلي الهمومُ      فعليه الصلاة والتسليمُ  
قد حمى ديننا برعيٍ ولحظٍ      ونفى روعنا بأمنٍ وحفظٍ  
وحباناً بما لدى الربِّ يحظي      هادياً راحماً لنا غيرَ فظٍّ  
مثل ما نصَّه الكتابُ الكريمُ      فعليه الصلاة والتسليمُ  
نور برهانه جلا كلَّ شركٍ      وهدهُ أجار من كلِّ هلكٍ  
أخيرُ العالمين من غيرِ شكٍّ      فلكم رامةُ العداة بشكٍّ  
وهو في كلِّ حالةٍ معصومُ      فعليه الصلاة والتسليمُ  
ما نخيرُ الأنامَ منهم عديلُ      لأنه مجتبي نبي رسولٍ  
ما عسى مادح الشفيح يقولُ      وبأمداحه أتي التنزيلُ  
وثناهُ خلاله مرسومُ      فعليه الصلاة والتسليمُ  
نحن لولا أتباعه لشقيننا      نورُ برهانه أرانا يقينا  
وغدا ما نخاف منه يقينا      وكؤوساً بجوضه قد سقينا  
من رحيقِ مزاجه مغمومُ      فعليه الصلاة والتسليمُ  
أحمد عند ربه ذو اختصاصٍ      جاهه كاملٌ بغيرِ انتقاصٍ  
عدة للمسيء يوم القصاصِ      وشفيحٌ لكلِّ جانٍ وعاصي  
يوم يحفو الحميمَ فيه الحميمُ      فعليه الصلاة والتسليمُ

بيديه حوائجُ الكلِّ تُقضى  
وينادي الحبيب أنتَ المرضى  
فتحكّم يمضى لك التحكيمُ  
فاق بالمولد السعيد ربيع  
من هو الذخر والعماد المنيع  
ورؤوف بالمؤمنين رحيمُ  
أفصح الناس في حديثٍ وأبلغُ  
طيب الحل قد أباح وسوغُ  
فإحسانه علينا عميمُ  
كان بالحقِّ والهدى معروفا  
شرف الله قدره تشريفا  
مجده في العلاء مجدٌ صميمُ  
وجههُ بالبها أضاء وأشرقُ  
مسَّ في كفه قضيباً فأورقُ  
ثمَّ قد عادَ وهو بدرٌ سليمُ  
جاءه الوحي أنت خير الناسِ  
وخذ العفو للأنام وواسِ  
ويجازي الذي أجاز وأمضى  
سوف نعطيك ما تحب وترضى  
فعليه الصلاة والتسليمُ  
إن فيه بدا الجلال الرفيع  
فملاذ للمذنين شفيع  
فعليه الصلاة والتسليمُ  
بيّن الوحي للأنام وبلغُ  
ولكم نعمة من الله سوغُ  
فعليه الصلاة والتسليمُ  
أجود الناس بالندى موصوفا  
هادياً مرشداً رسولاً شريفاً  
فعليه الصلاة والتسليمُ  
مجده في صميمه الأصل أعرقُ<sup>١</sup>  
باصبع قد أشار للبدرِ فانشقُ  
فعليه الصلاة والتسليمُ  
بلغ الأمر لا تخف من باسِ  
واحمهم من مكاييد الوسواسِ

١ هذا البيت واثنان بعده سقطت من ق .

فعليك البلاغ والتعليمُ  
 كان في الله أثبت الناس جاشا  
 فعليه الصلاة والتسليمُ  
 ليس من غيره يخاف ويخشى  
 فبكف من الحصى قتل جيشا  
 فعليه الصلاة والتسليمُ  
 فنجا المصطفى وخاب الظلومُ  
 قد سما قدره بغير تناهي  
 فعليه الصلاة والتسليمُ  
 وعلا جاهه على كل جاه  
 أمر بالتقى عن الشر ناهي  
 فعليه الصلاة والتسليمُ  
 من يطعمه ينل ثواب الإله  
 وله عنده النعيم المقيمُ  
 عمدة الخلق للمفاخر حاوي  
 بمجاه يلوذ كل وياوي  
 مبلغ المعثي الذي هو ناوي  
 كيف يحصي ثناء أحمد راوي  
 فعليه الصلاة والتسليمُ  
 وعليه أنى الكتاب الحكيمُ  
 ونذى كفته من الشهد أحلى  
 مدحه في الكتاب ما زال يتلى  
 فعليه الصلاة والتسليمُ  
 فله الفخرُ والثناء العظيمُ  
 في جميع الورى بقدر عليّ  
 فهدى الخلق للصرط السويّ  
 فعليه الصلاة والتسليمُ  
 وصراط الهدى سويّ قويمُ

[ خاتمة الكتاب ]

قال مؤلف هذا الكتاب العبد الفقير أحمد بن محمد المقرئ المالكي ، وفقه الله  
 تعالى إلى حسن المتاب ، وحباه الدخول في زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى

الإصر والعتاب : هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل ، من هذا المقصد الجليل ، الذي يكون إلى ما وراءه من الطَّرَف الأدبية خير دليل ، ووضعتة والقلب حليف شجن وغربة ، والفكر أليف حزن وكربة ، وأنا أسأل الله تعالى الذي لا يرجي سواه ، أن يجعل بناءه ثابتاً بحسن النية حيث البناء الذي فيه حظ النفس واه ، وأن يكون ما جلبته فيه من الهزل بالحد المذكور فيه مكفراً ، وأن ينفع به من وجهه إليه وجهته ، فلإني قد جمعت فيه ما يندر جمعه في غيره وكل الصيد في جوف الفرا .

يا مَنْ عليه اتكالي ومن إليه متابي  
جُدْ لي بعفوك عني إذا أخذتُ كتابي

واعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر ، ولمن يعاني الإنشاء والنثر من البيان السحر ، وفيه من حكايات الأولياء والعلماء ، ما نظمت في لبة السطور منه السلوك . وفيه من الوعظ والاعتبار ، ما لم ينكره المتصف عند الاختبار ، وكفاه أنه لم يُر مثله في فنه فيما علمت ، ولا أقوله تركية له ، ويعلم الله تعالى أنني تبرأت من هذا العارض ومنه سلمت ، ولو لم يجر من الشرف إلا ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة ، ذات الظلال الوريفة ، لكان كافياً شافياً ، وها أنا أجعل آخره تيسياً للتيسب ، قول ابن حبيب :

يا خيرَ مبعوثٍ له طلعةٌ نورُ الهدى منها أقرّ العيونُ  
جئتُ إلى ناديك أرجو القري من غيث كفيك المغيث الهتونُ  
كن لي شفيعاً فارتكابُ الهوى أوقعني بين الشجَا والشجونُ  
صلّى عليك الله سبحانه ما هزّت الريحُ قُدودَ الغصونُ

وقول النواجي :

لقد أفرطتُ في حسنِ ابتداء  
ورمتُ تخلّصي يومَ الزحامِ  
فبالمختارِ أرجو عفوَ ربّي ليرشدني إلى حسنِ الختامِ



وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المُسفر صباحها عن السابع والعشرين  
لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف ، بالقاهرة المحروسة ، والحمد لله وكفى ، وسلام  
على عباده الذين اصطفى ، وألحقت فيه كثيراً في السنة بعدها ، فيكون جميعه  
آخر الحجة تامة سنة تسع وثلاثين وألف ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى  
آله وصحبه وسلم ، دائماً أبداً إلى يوم الدين ، آمين .

وجاء في ختام النسخة « ق » :

قال محرره هذه النسخة المباركة العبد الفقير ، الضيف الحقير ، الراجي من الله سبحانه العفو والفران ،  
أحمد بن محمد الحموي الطيار ، غفر الله ذنوبه ، وسو في الدارين عيوبه ، كان الفراغ من كتابته  
عشية يوم الأربعاء المسفر صباحها عن الرابع والعشرين أو الثالث والعشرين لذي القعدة الحرام من  
شهور سنة ثلاثين ومائة وألف ، حامداً لله مصلياً ومسلماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم طالباً  
لمؤلفه المغفرة ورحمة الله تعالى ورضي عنه وعن جميع العلماء العاملين وعن الأربعة الأئمة المجتهدين  
وعن مقلبيهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعنا وعن الديننا ومشايخنا ، ومن علمنا ومن هدانا ومن أسدى  
إلينا معروفات ، وعن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، من أهل  
السنّة والجماعات ، إنه فقور رحيم ، شكور حلیم ، . . . وقد تمت هذه النسخة الميمونة المباركة  
المصونة بعون الله وإرادته القادرة ومشيئته الصادرة برسم اقتضار السادة الأشراف . . . مولانا وسيدنا  
السيد محمد عاصم أفندي ابن المرحوم السيد عبد المظي أفندي الشهر صبه بلقلاسي . . . وذلك بمزلي  
العامر الكائن بمحلة القيمرية عن دمشق الشام ( ثم قصيدة قلها الناخذ في تقريظ الكتاب مؤرخاً :  
قل تم عرف الطبيب أنجز به وعدي . . . : ١١٣٠ ) .

انتهى المجلد السابع وبه تم الكتاب

وبليه المجلد الثامن في القهارس العامة



## محتويات المجلد السابع

### الباب الخامس

#### (تمة)

٩٦-٥	موشحات لسان الدين
٥	[فصل في تاريخ الموشحات والأزجال عن ابن خلدون]
١٧	[ترجمة ابن باجة من القلائد]
٢٤	[ثناء الفتح على ابن باجة في مصدر آخر]
٢٦	[ترجمة محمد بن أحمد بن الخداد الوادي آشي]
٢٧	[رجع إلى أخبار ابن باجة]
٢٩	[ترجمة الفتح بن خاقان عن الإحاطة]
٣٣	[ترجمة الفتح بن خاقان عن المغرب]
٣٦	[رسائل للفتح بن خاقان]
٦٠-٣٨	[نماذج من تراجم المطمح]
٣٨	١ - أبو بكر الزبيدي
٤٠	٢ - عز الدولة ابن صمادح
٤٣	٣ - رفيع الدولة ابن صمادح
٤٥	٤ - أبو الوليد ابن حزم
٤٦	٥ - أبو بكر الفسائي
٤٦	٦ - أبو عامر ابن عقال
٤٨	٧ - أبو مروان الطيبي
٤٩	٨ - أبو عمر أحمد بن عبد ربه
٥٣	٩ - أبو القاسم المنشي

٥٥	١٠ - أبو الحسن البرقي
٥٧	١١ - أبو الحسن علي بن جودي
٦٠	نص خطبة «المطبخ»
٦١	عود إلى الموشحات
٦١	[موشحة ابن سهل ومعارضان لها]
٦٥	رجع إلى موشحات ابن الخطيب
٦٩	[موشحة لأبي الفضل ابن محمد المقاد]
٧٠	[موشحة لبعض المراكشيين]
٧٢	[موشحة للسلطان المنصور الذهبي]
٧٢	[موشحة أخرى للمنصور الذهبي]
٧٤	[من مقطعات المنصور]
٨٢	رجع إلى التوشيح
٨٢	[موشحة لبعضهم في ملح المقرئ]
٨٦	وجع إلى موشحات لسان الدين
٨٦	[موشحة لابن فيانة]
٨٨	[موشحة للبلطي]
٨٨	[موشحة لغربي عارضها البلطي]
٨٩	[موشحات للشهاب الغزالي]
٩٤	[موشحة للسوسلي]
٩٥	[موشحة لابن بقي]

### الباب السادس

٩٧ - ١٤٤	في مصنفاته ومؤلفاته
٩٧	سرد أسماء مؤلفات لسان الدين في الإحاطة
٩٩	ما تأخر تاريخه عن الإحاطة
١٠٢	معلومات عن كتاب الإحاطة

١٠٨	[ ترجمة ابن الحاج النبري ]
١٢١	[ قصائد في مدح تلمسان وفاس ]
١٢١	قصيدة لمحمد بن يوسف النبري في مدح تلمسان
١٢٣	« لابن آجروم في مدح فاس »
١٢٥	« للنبري في مدح تلمسان »
١٢٥	« للنبري في مدح تلمسان أيضاً »
١٢٨	« للمزدغي في مدح فاس »
١٢٩	« للسان الدين في مدح تلمسان »
١٣٩	« للتلامي في مدح تلمسان »
١٤١	« لابن خميس في مدح تلمسان »
١٤٣	[ تعريف بتلمسان ]
١٤٦	[ ترجمة أبي ملين ]

### الباب السابع

١٤٥ - ٢٨٨ في ذكر بعض تلامذته

١٤٥	١ - أبو عبد الله ابن زمرك - ترجمته عن الإحاطة
١٦٠	[ تعليقات ابن لسان الدين على الترجمة ]
١٦٣	[ ترجمة ابن زمرك من كتاب البقية والمبرك لابن الأحمر ]
١٧١	[ شيء من نظمه منقول من الكتاب المذكور ]
٢٤٠	[ موشحات ابن زمرك ]
٢٦٦	[ ترجمة الولي أبي العباس السبي ]
٢٧٩	رجع إل ابن زمرك
٢٨١	٢ - ابن المهنا الطيب العالم
٢٨٢	٣ - أبو بكر ابن جزى
٢٨٢	٤ - أبو عبد الله الشريشي
٢٨٢	٥ - أبو محمد عطية بن يحيى المحاربي

## الباب الثامن

٢٨٩ - ٥١٩

في ذكر أولاده

٢٩٠	ترجمة عبد الله بن لسان الدين نقلاً عن الإحاطة .
٢٩٩	أشعار لسان الدين في مخاطبة ابنه عبد الله .
٣٠١	علي بن لسان الدين وتعليقاته على الإحاطة .
٣٠٢	[ نماذج من تعليقاته في ترجمة ابن جابر ] .
٣٠٣	[ رجوع لتكميل ترجمة ابن جابر عن الإحاطة ] .
٣٠٥	[ استطراد بأشعار ابن جابر ] .
٣٢٣	[ قصيدته في التورية بسور القرآن ] .
٣٢٦	[ معارضات لقصيدته في السور ] .
٣٣٣	[ خطبة منسوبة لنياض يوري فيها بأسماء السور ] .
٣٣٥	[ خطبة على مثالها للطنجالي ] .
٣٣٧	[ عود إلى نظم ابن جابر ] .
٣٣٩	رجوع إلى أولاد لسان الدين .
٣٤٠	[ خطبة للكفعمي في تفسين أسماء السور ] .
٣٤١	[ قصيدة مشابهة للكفعمي ] .
٣٤٣	[ ترجمة الكفعمي ] .
٣٤٧	[ رجوع إلى نظم ابن جابر ] .
٣٤٧	[ من شعر رفيق ابن جابر ] .
٣٤٩	[ عود إلى شعر ابن جابر ] .
٣٧١	[ من شعر رفيق ابن جابر ] .
٣٧٧	رجوع إلى أولاد لسان الدين - رسائل لعلي
٣٩١	وصية لسان الدين لأولاده .

٤٠٦	.	.	.	.	[وصية لابن الجنان على لسان ابن هود]
٤١٥	.	.	.	.	[ترجمة ابن الجنان]
٤٣٢	.	.	.	.	[مخمسات من المدائح النبوية لابن الجنان وغيره]
٤٥٩	.	.	.	.	[مدائح أخرى منقولة من منتهى السؤل]
٤٧٠	.	.	.	.	[مسلمات في مدح الرسول]
٤٨٨	.	.	.	.	[قصائد ومقطعات في مدح الرسول أيضاً]
٥١٢	.	.	.	.	[مسدسة المنتشاقري هي مسك الختام]
٥١٧	.	.	.	.	خاتمة الكتاب

